

فتح القدیر

لِلْجَامِعِ بَيْنَ فَنَى الرِّوَايَةِ وَالْإِدْرَايَةِ مِنْ

عِلْمِ النَّفْسِ

تَأَلَّفَتْ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ الشَّوْكَانِي

“وَفَاتَهُ بِبَغْدَادَ ١٢٥٠ هـ”

اعْتَنَى بِهِ وَرَاجَعَ أَهْلَهُ

يُوسُفُ الْعُوشُ

دَارُ الْمَعْرِفَةِ

بِكُرْتِ لُبْنَانِ

فَتْحُ الْفِتْرِ

لِلْجَامِعِ بْنِ فَنِيٍّ الرَّوَايَةِ وَالْدِّرَايَةِ مِنْ

عِلْمِ النَّفْسِ

تَأَلَّفَ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ الشَّوْكَانِي

”وَفَاتَهُ بِصَفَاءَ ١٢٥٠ هـ“

اعْتَنَى بِهِ وَرَاجَعَ أَصْرَهُ

يُوسُفُ الْغُوشُ

دارُ المَعْرِفَةِ

بِزُورَت - لُبْنَان

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright® All rights reserved
Exclusive rights by **Dar Al-Marefah**
Beirut - Lebanon

ISBN 9953 - 420 - 75 - 0

الطبعة الرابعة
1428 هـ \ 2007 م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٢٤٣٢٢-٨٢٤٣٠١
فاكس: ٨٢٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

فَتْحُ الْفَتْحِ

لِلْبَاحِثِينَ فِي رِوَايَةِ الدَّلِيلِ مِنَ

عِلْمِ النَّفْسِ

ترجمة الإمام الشوكاني

اسمه ولقبه:

هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني، الإمام العلامة الرباني، والسهيل الطالع من القطر اليماني، إمام الأئمة ومفتي الأمة، بحر العلوم وشمس الفهوم، سند المجتهدين الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، نادرة الدهر، شيخ الإسلام، قوة الأنام، علامة الزمان، ترجمان الحديث والقرآن، علم الزهاد، أوجد العباد، قاصع المبتدعين، آخر المجتهدين، رأس الموحدين، تاج المتبعين، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها، قاضي قضاة أهل السنة والجماعة، شيخ الرواية والسماعة، عالي الإسناد، السابق في ميدان الاجتهاد، على الأكابر الأمجاد، المطلع على حقائق الشريعة ومواردها، العارف بغوامضها ومقاصدها.

مولده ونسبه:

ولد حسبما وجد بخطه في وسط نهار الاثنين الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة 1173 هجرية في بلدة هجرة شوكان. وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة 1250 هـ.

قال صاحب الترجمة في كتابه «البدر الطالع» عند ذكر نسب والده: وعرف (أي والده) في صنعاء بالشوكاني، نسبة إلى شوكان، وهي قرية من قرى السحامية إحدى قبائل خولان، بينها وبين صنعاء بون مسافة يوم، وهو أحد المواضع التي يطلق عليها شوكان. قال في القاموس: وشوكان موضع بالبحرين وحصن باليمن، وبلدة بين سرخس وأبيورد: منه عتيق بن محمد بن عنبس وأخوه أبو العلاء عنبس بن محمد الشوكاني هـ ونسبة صاحب الترجمة إلى شوكان ليست حقيقية، لأن وطنه وطن سلفه وقرابته بمكان عدني شوكان، بينه وبينها جبل كبير مستطيل، يقال له هجرة شوكان، فمن هذه الحيثية كان انتساب أهله إلى شوكان، والله أعلم.

نشأته وطلبه العلم:

نشأ رحمه الله تعالى بصنعاء، وتربى في حجر أبيه على العفاف والطهارة، وأخذ في طلب العلم وسماع العلماء الأعلام، وفرغ نفسه للطلب وجد واجتهاد، فقرأ القرآن على جماعة من المعلمين، وختمه على الفقيه حسن بن عبد الله الهليل، وجوّده على جماعة من مشايخ القرآن (بصنعاء). ثم حفظ الأزهار للإمام مهدي في الفقه، ومختصر الفرائض للعصيفري، والملحة للحريري، والكافية والشافعية لابن

الحاجب، والتهذيب للعلامة التفتازاني، والتلخيص في علوم البلاغة للقزويني، والغاية لابن الإمام، وبعض مختصر المنتهى لابن الحاجب في أصول الفقه، ومنظومة الجزري في القراءات، ومنظومة الجزار في العروض، وأدب البحث والمناظرة للإمام العضد، ورسالة الوضع له أيضاً. وكان حفظه لبعض هذه المختصرات قبل شروعه في الطلب، وبعضها بعد ذلك، وقبل شروعه في الطلب كان كثير الاشتغال بمطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب من أيام كونه في المكتب، فطالع كتباً عدة ومجاميع كثيرة، ثم شرع في الطلب والسماع والتلقي من أفواه الرجال، إلى أن صار إماماً يشار إليه، ورأساً يرحل إليه، ولم يزل مكباً على العلم قراءة وتدریساً، إلى أن فارقه أجله ولقي ربه، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

مشايخه الذين أخذ عنهم العلم سماعاً وقراءة:

قرأ رحمه الله على والده شرح الأزهار، وشرح الناظري لمختصر العصيفري، وقرأ شرح الأزهار أيضاً على السيد العلامة عبد الرحمن بن قاسم المدائني، والعلامة أحمد بن عامر الحدادني، والعلامة أحمد بن محمد الحرازي وبه انتفع في الفقه وعليه تخرّج، وطالت ملازمته له نحو ثلاث عشرة سنة، وكرّر عليه قراءة شرح الأزهار وحواشيه. وقرأ عليه بيان ابن مظفر، وشرح الناظري وحواشيه. وفي أيام قراءته في الفروع شرع في قراءة النحو، فقرأ الملحة وشرحها على السيد العلامة إسماعيل بن الحسن بن أحمد بن الحسن ابن الإمام القاسم بن محمد، وقواعد الإعراب وشرحها للأزهري والحواشي جميعاً على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، وشرح السيد المفتي على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني والعلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، وأكملته من أوّله إلى آخره على كل واحد منهما. وقرأ شرح الخبيصي على الكافية وحواشيه على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي من أوّله إلى آخره. وكذلك قرأه من أوّله إلى آخره على شيخه العلامة القاسم بن يحيى الخولاني. وقرأ شرح الجامي على الكافية مع ما يحتاج إليه من حواشيه على السيد العلامة عبد الله بن الحسين بن علي ابن الإمام المتوكل على الله إسماعيل من أوّله إلى آخره، وقرأ شرح الرضي على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني وبقي منه بقية يسيرة. وقرأ شرح الشافية للطف الله الغياث جميعاً على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني. وقرأ شرح إيساغوجي للفاضل زكريا على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي جميعاً، وشرح التهذيب للشيرازي ولليزدي على

البحث وحواشيه على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، والخالدي في الفرائض والضرب والوصايا والمساحة، وطريقة ابن الهائم في المناسخة على السيد العارف يحيى بن محمد الحوثي، وبعض صحاح الجوهرى وبعض القاموس على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد مع مؤلفه الذي سماه فلك القاموس. هذا ما أمكن سرده من مسموعات صاحب الترجمة ومقروءاته وله غير ذلك من المسموعات.

بعض تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم:

أخذ عنه العلم ابنه العلامة علي بن محمد الشوكاني وكان صالحاً عالماً مبرزاً في جميع العلوم وكان نادرة زمانه على صغر سنه، والعلامة المتحلي بفرائض البيان والمعاني حسين بن محسن السبعي الأنصاري اليماني، والعلامة الأديب محمد بن حسن الشجني النماري، والعلامة الشيخ عبد الحق بن فضل الهندي، والشريف الإمام محمد بن ناصر الحازمي وغير هؤلاء، وكلهم جهابذة محققون ونبلاء مدققون، أولو أقدام خارقة فضائل فائقة، ولبعضهم تأليف رحم الله الجميع.

مذهبه وعقيدته:

تفقه على مذهب الإمام زيد وبرع فيه، وآلف وافتي حتى صار قنوة فيه، وطلب الحديث وفاق فيه أهل زمانه حتى خلع ربة التقليد وتحلى بمنصب الاجتهاد، فألف كتاب «السليل الجرار المتدفق على حقائق الأزهار» وقد تكلم فيه على عيون من المسائل وصحيح ما هو مقيد بالدلائل، وزيف ما لم يكن عليه ليل، فقام عليه أهل عصره وغالبهم من المقلدة الجامدين على التعصب في الأصول والفروع، ولم تزل المجادلة والمصالوة بينه وبينهم دائرة، ولم يزالوا ينتنون عليه في المباحث من غير حجة، فجعل كلامه في شرح الأزهار الذي هو في فقه آل البيت المختار موجهاً إليهم في التنفير عن التقليد المذموم، وإيقاظهم إلى النظر في الليل، لأنه كان يرى تحريم التقليد، وقد ألف في ذلك رسالة سماها «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد».

وعندما ألف هذه الرسالة تحامل عليه جماعة من علماء الوقت، وأرسل إليه أهل جهته سهام اللوم والمقت؛ وثار من أجل ذلك فتنة في صنعاء اليمن بين من هو مقلد، ومن هو مقتد بالليل، توهماً من المقلدين أنه ما أراد إلا هدم مذهب آل البيت.

قال بعض من ترجمه: وحاشاه من التعصب على من أوجب الله محبتهم، وجعل أجر نبينا ﷺ في تبليغ الرسالة موثقتهم، لأن له الولاء التام لهم، وقد نشر محاسنهم في مؤلفه در السحابة، بما لا يخالف بعده ريبة لمرتاب، على أن كلامه مع الجميع من أهل المذاهب سواء بسواء، لأن المأخذ واحد، والرد واحد والخطب يسير، والخلاف في المسائل العلمية الظنية سهل، وعقيدته عقيدة مذهب السلف من حمل صفات البارئ تعالى، الواردة في القرآن الحكيم والسنة

شيخه العلامة القاسم بن يحيى الخولاني من أولهما إلى آخرهما، وشرح الشمسية للقطب وحاشيته للمشيرف على شيخه العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، واقتصر على البعض من ذلك، وشرح التلخيص المختصر للسعد وحاشيته للطف الله الغياث على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني جميعاً، ما عدا بعض المقدمة فعلى العلامة علي بن هادي عره، والشرح المطول للسعد التفتازاني أيضاً وحاشيته للجلبي والمشيرف؛ أما المطول فجميعه وكذلك حاشية الجلبي، وأما حاشية الشريف فما تدعو إليه الحاجة، وقرأ الكافل وشرحه لابن لقمان على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهي جميعاً، وشرح الغاية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني وحاشيته لسيلان، وشرح العصد على المختصر وحاشيته للسعد، وما تدعو إليه الحاجة من سائر الحواشي، وكمل ذلك على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وشرح جمع الجوامع للمحلى وحاشيته لابن أبي شريف على شيخه السيد الإمام عبد القادر بن أحمد، وكذلك شرح القلائد للنجدي، وشرح المواقف العضدية للمشيرف، واقتصر على البعض من ذلك، وقرأ شرح الجزرية على العلامة هادي بن حسين القارني، وقرأ جميع شفاء الأمير الحسين على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهي، وسمع أوائله على العلامة عبد الرحمن بن حسن الأكوخ، وقرأ في البحر الزخار وحاشيته وتخريجه وضوء النهار على شرح الأزهار على الشيخ السيد العلامة عبد القادر بن أحمد ولم يكمل، وقرأ الكشف وحاشيته للسعد، وبعد انقطاعها حاشيته للسراج مع مراجعة غير ذلك من الحواشي على شيخه العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وتم ذلك إلا فوتاً يسيراً في آخر الثلث الأوسط، وسمع البخاري من أوله إلى آخره على السيد العلامة علي بن إبراهيم بن أحمد بن عامر، وسمع صحيح مسلم جميعه، وسنن الترمذي جميعاً، وبعض موطأ مالك، وبعض شفاء القاضي عياض على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، وكذلك سمع منه بعض جامع الأصول وبعض سنن النسائي، وبعض سنن ابن ماجه وسمع جميع سنن أبي داود وتخريجها للمنزري وبعض المعالم للخطابي، وبعض شرح ابن رسلان على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وكذلك بعض المنتقى لابن تيمية على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، وكذلك سمع شرح بلوغ المرام على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي وفاته بعض من أوله. وكذلك سمع على العلامة عبد القادر بن أحمد بعض فتح الباري، وعلى الحسن بن إسماعيل بعض شرح مسلم للنووي، وبعض شرح العمدة على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، والتتقيع في علوم الحديث على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، والنخبة وشرحها على العلامة القاسم بن يحيى، وبعض ألفية الزين العراقي وشرحها له على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، وجميع منظومة الجزار وجميع شرحها له في العروض على شيخنا المذكور، وشرح آداب

والتشكيك على التفكير، وإرشاد الغيبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي، ورسالة رفع الجناح عن نافي المباح هل هو مأمور به أم لا، والقول المقبول في ردّ خبر المجبول من غير صحابة الرسول، وجواب السائل عن قول الله تعالى: ﴿وَالْقَمَر قُتِرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: 39]، وأمنية المتشوق إلى معرفة حكم علم المنطق، وإرشاد المستفيد إلى دفع كلام ابن دقيق العيد في الإطلاق والتقييد، ورسالة ويل الغمامة في قوله تعالى: ﴿وَجَاعَلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 55]، ورسالة في قول المحدثين رجال إسناده ثقات، ورسالة البحث الملم المتعلق بقوله تعالى: ﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: 148]، والبحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر، ورسالة الدواء العاجل لدفع العدو الصائل، ورسالة عجيبة في رفع المظالم والمآثم، والبر النصيد في إخلاص كلمة التوحيد، ورسالة في وجوب توحيد الله عز وجل، ورسالة المقالة الفاخرة في اتفاق الشرائع على إثبات الدار الآخرة، ونزهة الأحداق في علم الاشتقاق، ورفع الريبة فيما يجوز وما لا يجوز من الغيبة، وتحرير الدلائل على مقدار ما يجوز بين الإمام والمؤتم من الارتفاع والانخفاض والبعد والحائل، وكشف الاستار عن حكم الشفعة بالجوار، والوشي المرقوم في تحريم التحلي بالذهب للرجال على العموم، وكشف الأستار في إبطال القول بقاء النار، ورسالة في الإرشاد إلى مذهب السلف سماها: التحف في الإرشاد إلى مذهب السلف: جواب سؤال ورد عليه من علماء مكة المشرفة في إجراء الصفات الإلهية على ظاهرها من غير تأويل، ورسالة الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقال أهل الإلحاد، ورسالة على حديث: «النيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»، ورسالة إشراق النيرين في بيان الحكم إذا تخلف عن الوعد أحد الخصمين، ورسالة في حكم التسعير، ورسالة نثر الجواهر في شرح حديث أبي نر، ورسالة منحة المنان في لجرة القاضي والسجان، ورسالة في مسائل العول، ورسالة تنبيه الأمثال على جواز الاستعانة من خالص المال يعني: طلب ولاية الجور من الأغنياء ظلماً من المال يسمونه معونة، وقطر الولي في معرفة الولي، والتوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والنجال والمسيح، ورسالة في حكم الاتصال بالسلاطين، ورسالة جيد النقد في عبارة الكشف والسعد، ورسالة بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد، والروض الواسع في الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع، ورسالة فتح الخلاق في جواب مسائل عبد الرزاق مشتملة على جواب مائة وخمسين سؤالاً في علم المنطق، إلى غير ذلك من التصانيف التي لم يتسع المقام لبسطها وذكرها. وأما الأبحاث التي اشتملت عليها فتأواه المسماة بالفتح الرباني فكثيرة جداً، وإنه أعلم.

النبوية الصحيحة على ظاهره من غير تأويل ولا تحريف، وقد ألف رسالة في ذلك سماها [التحف بمذهب السلف].

ذكر مؤلفاته:

له مؤلفات مفيدة في فنون عديدة: منها، كتاب نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار في الحديث الشريف، وأنب الطلب ومنتهى الأرب، وتحفة الذكركين شرح عدة الحصن الحصين، وإرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوءات: ردّاً على الخبيث موسى بن ميمون الأندلسي اليهودي في ظاهر المستند والزنيق في باطن المعتقد، والطود المنيف في الانتصاف للسعد من الشريف: في المسألة المشهورة التي تنازعا فيها بين يدي تيمورلنك، وشفاء العلل في حكم الزيادة في الثمن لمجرد الأجل، وشرح الصدور في تحريم رفع القبور، وطيب النشر في المسائل العشر: جواب عن سؤال القاضي العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلي، ورسالة أجاب بها الشريف إبراهيم بن أحمد بن إسحاق، ومنها الصوارم الهندية المسلوقة على الرياض الندية: لإبطال قول من أوجب غسل الفرجين قبل الوضوء وجعله من أركانه كما هو مذهب الزيدية، ورسالة في اختلاف العلماء في تقدير مدة النفاس، ورسالة في الرد على القائل بوجوب التحية، والقول الصائق في حكم الإمام الفاسق، ورسالة في حدّ السفر الذي يجب معه قصر الصلاة، وله تشنيف السمع بإبطال أدلة الجمع يعني: جمع الصلاتين في الحضر ردّاً على القائلين بجوازه من الزيدية، والرسالة المكملة في أدلة البسمة، وإطلاع أرباب الكمال على ما في رسالة الجلال في الهلال من الاختلال، ورسالة في حكم الطلاق البدعي هل يقع أم لا، ورسالة في أن الطلاق لا يتبع الطلاق، ورسالة في حكم رضاع الكبير هل يقتضي التحريم أم لا، ورسالة تنبيه نوي الحجا على حكم بيع الرجا، ورسالة القول المحرر في حكم لبس المعصفر وسائر أنواع الأحمر، وعقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد، ورسالة في إبطال دعوى الإجماع على تحريم السماع، ورسالة زهر النسرين في حديث المعمرين، وإتحاف المهرة في الكلام على حديث: «لا عدوى ولا طيرة»، وعقود الجمان في بيان حدود البلدان، وأخرى سماها إرشاد الأعيان إلى تصحيح ما في عقود الجمان ردّاً على السيد العلامة حسين بن يحيى الديلمي، ورسالة حل الإشكال في إيجاب اليهود على النقاط الأزيال، وأخرى ردّاً على مناقضها السيد العلامة عبد الله بن عيسى بن محمد الكوكباني، التي سماها: إرسال المقال على إزالة حل الإشكال، فردّ شيخ الإسلام المترجم له على تعقبه بتفويق النبال إلى إرشاد المقال، ورسالة البغية في مسألة الرؤية يعني: رؤية الله في الآخرة بين فيها مذهب أهل السنة، وزيف مقال أهل البدعة،

مراجعته

عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي المالكي، نزيل منية ابن خصيب من الديار المصرية، عمل التفسير الكبير، وتعب عليه، وحشاه بكل فريدة، وألف كتاب: الأسنى في الأسماء الحسنى، وكتاب التذكرة في أمور الآخرة، وغير ذلك. وكان من أوعية العلم، ثم قال: وسمع من ابن نواح، وابن الحميري وأبي العباس بن المزني وعدة، روى عنه بالإجازة ولده شهاب الدين أبو العباس بالمنية، ثم قال: ومات سنة ثيف وسبعين وستمائة في أوائل سنة إحدى بالمنية انتهى.

وقال في تاريخ الإسلام: العلامة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن بكير بن فرج: الإمام القرطبي إمام متقن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه، ووفور فضله. ثم نكر موته.

وقال بعده: وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان، وله الأسنى في شرح الأسماء الحسنى، والتذكرة، وأنها تدل على إمامته ونكاته وكثرة اطلاعه انتهى.

وقال الكتبي في تاريخه: كان شيخاً فاضلاً، وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه، ووفور علمه، منها تفسير القرآن مليح إلى الغاية في ستة عشر مجلداً انتهى.

(أ) النحاس: هو أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس أبو جعفر من أهل مصر، رحل إلى بغداد فأخذ عن المبرد، والأخفش علي بن سليمان، ونفطويه، والزجاج، وغيرهم، ثم عاد إلى مصر فأقام بها إلى أن مات في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

(ب) ابن عطية: هو عبد الله بن عطية بن حبيب أبو محمد المقرئ المفسر، مات سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، قيل أنه كان يحفظ خمسين ألف بيت من الشعر للإستشهاد بها على معاني القرآن وغيره، وكان ثقة.

(ج) ابن عطية أيضاً: هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي، عالم بالتفسير، والأحكام، والحديث، والفقه، والنحو، والأدب، واللغة، حسن التقيد، له نظم ونثر. ولي قضاء «المرية» من بلاد المغرب سنة تسع وعشرين وخمسمائة. ألف كتابه الوجيز في التفسير، فأحسن فيه، وأبدع، وطار لحسن نيته كل مطار، كذا قال في الإحاطة من مؤلفات المغاربة، ومولده سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة ست وأربعين وخمسمائة في بلاد المغرب.

(د) القرطبي: قال الذهبي في النبلاء في ترجمته ما لفظه: القرطبي الإمام العلامة المفسر صاحب التصانيف أبو

كِتَابُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

ولما كان هذا العلم بهذه المنزلة الشامخة الأركان، العالية
البنيان، المرتفعة المكان، رغبت إلى النخول من أبوابه،
ونشطت إلى القعود في محرابه، والكون من أحزابه، ووطنت
النفس على سلوك طريقة، هي بالقبول عند الفحول حقيقة،
وهي أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها
فأقول:

يروى المفتقر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى محمد بن محمد بن يحيى زبارة الحسني اليميني غفر الله له، وللمؤمنين. للقاضي الحافظ الشهير محمد بن علي بن محمد الشوكاني الصنعاني، المتوفى سنة 1250 هجرية، عن المولى الجبهذ الكبير سيف الإسلام أحمد بن قاسم بن عبد الله حميد الدين أبقاءه الله تعالى، عن السيد الحافظ عبد الكريم بن عبد الله أبي طالب الحسن اليميني، المتوفى سنة 1309، عن القاضي الحافظ أحمد بن محمد بن علي الشوكاني، المتوفى سنة 1281، عن أبيه المؤلف. قال رحمه الله تعالى:

الحمد لله الذي جعل كتابه المبين كافلاً ببيان الأحكام،
شاملاً لما شرعه لعباده من الحلال والحرام، مرجعاً للأعلام
عند تفاوت الأفهام، وتباين الأقدام، وتخالف الكلام، قاطعاً
للخصام شافياً للسقام مرهماً للأروام. فهو العروة الوثقى
التي من تمسك بها فاز بדרך الحق القويم، والجادة الواضحة
التي من سلكها فقد هدى إلى الصراط المستقيم. فإني عبارة
تبلغ أننى ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم، وإني لفظ
يقوم ببعض ما يليق به من التكريم والتفخيم. كلا والله إن
بلاغات البلغاء المصاقق، وفصاحات الفصحاء البواقع، وإن
طالت ذيولها، وسالت سيولها، واستتت بميادينها خيولها،
تتقاصر عن الوفاء بأوصافه، وتتصاغر عن التثني بآنى
أطرافه، فيعود جيدها عنه عاطلاً، وصفات ضوء الشمس
تذهب باطلاً، فهو كلام لا تحيط به العقول علماً، ولا
تدرك كنهه الطباع البشرية فهماً، فلاعتراف بالعجز عن
القيام بما يستحقه من الأوصاف العظام أولى بالمقام، وأوفق
بما تقتضيه الحال من الإجلال والإعظام. والصلاة والسلام
على من نزل إليه الروح الأمين، بكلام ربّ العالمين، محمد
سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله المطهرين، وصحبه
المكرمين.

وبعد: فإن أشرف العلوم على الإطلاق، وأولها بالتفضيل على الاستحقاق، وأرفعها قدراً بالاتفاق، هو: علم التفسير لكلام القويِّ القدير، إذا كان على الوجه المعتبر في الورد والصدر، غير مشوب بشيء من التفسير بالرأي الذي هو من أعظم الخطر، وهذه الأشرافية لهذا العلم غنية عن البرهان، قريبة إلى الأفهام والأذهان، يعرفها من يعرف الفرق بين كلام الخلق والحق، ويدري بها من يميز بين كلام البشر، وكلام خالق القوي والقدر، فمن فهم هذا استغنى عن التطويل، ومن لم يفهمه، فليس بمتأهل للتحصيل، ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث يقول فيما أخرجه عنه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:

واعلم أن الأحاديث في فضائل القرآن كثيرة جداً، ولا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به في الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته. قال القرطبي: ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما قرأ، ويعمل بما يتلو؛ فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلو، ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً. وينبغي له أن يعرف المكي من المدني، ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما نذبهم إليه في آخر الإسلام، وما فرض في أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن.

وقال أيضاً: قال علماؤنا: وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين، فمن ذلك أن علي بن أبي طالب نكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل: جعلت فداك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَيْكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: 85]. وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل الله. وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيمن نزلت وما يعني بها. وقال الشعبي: رحل مسروق في تفسير آية إلى البصرة، ف قيل له إن الذي يفسرها رحل إلى الشام، فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها. وقال عكرمة في قوله عز وجل ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: 100] طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجته. قال ابن عبد البر: هو ضميرة بن حبيب. وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ ما يمنعني إلا مهابته، فسألته فقال: هي حفصة وعائشة. وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتدخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب. ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب. ونكر ابن أبي الحواري أن فضيل بن عياض قال لقوم قصصوه ليأخذوا عنه العلم: لو طلبتم كتاب الله لوجئتم فيه شفاء لما تريبون، فقالوا: قد تعلمنا القرآن، فقال: إن في تعلمكم القرآن شغلاً لأعماركم وأعمار أولادكم، فقالوا: كيف يا أبا علي؟ قال: لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ومحكمه ومتشابهه وناسخه من منسوخه، فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة. وللسلف رحمهم الله من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر.

الجمع بين الأمرين، وعدم الاختصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذي وطنت نفسي عليه، والمسلك الذي عزمت على سلوكه إن شاء الله مع تعرضي للترجيح بين التفسير المتعارضة مهما أمكن ولتوضيح لي وجهه، وأخذني من بيان المعنى العربي والإعرابي والبياني بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين أو تابعيهم، أو الأئمة المعترين. وقد أنكر ما في إسناده ضعف، إما لكونه في المقام ما يقويه، أو لموافقته للمعنى العربي، وقد أنكر الحديث معزواً إلى روايه من غير بيان حال الإسناد؛ لأنني أجده في الأصول التي نقلت عنها كذلك، كما يقع في تفسير ابن جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسيوطي، وغيرهم، ويبعد كل البعد أن يعلموا في الحديث ضعفاً، ولا يبينونه، ولا ينبغي أن يقال فيما أطلقوه: إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظن؛ لأنهم لو كشفوا عنه، فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك، كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة، أو الحسن، فمن وجد الأصول التي يروون عنها، ويعزون ما في تفاسيرهم إليها، فلينظر في أسانيدهم موقفاً إن شاء الله.

واعلم أن تفسير السيوطي المسمى: «بالدر المنثور» قد اشتمل على غالب ما في تفاسير السلف من التفسير المرفوعة إلى النبي ﷺ، وتفسير الصحابة ومن بعدهم، وما فاتة إلا القليل النادر. وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير، مع اختصار لما تكرر لفظاً، واتحد معنى بقولي، ومثله أو نحوه، وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها وجبتها في غيره من تفاسير علماء الرواية، أو من الفوائد التي لاحت لي من تصحيح، أو تحسين، أو تضعيف، أو تعقب، أو جمع، أو ترجيح.

فهذا التفسير وإن كبر حجمه، فقد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، واشتمل على ما في كتب التفسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فوائده وقواعد شوارده، فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا، فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة، انظر تفاسير المعتمدين على الرواية، ثم أرجع إلى تفاسير المعتمدين على الرواية، ثم انظر في هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذي عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو: لبّ الباب، وعجب العجائب، ونخيرة الطلاب، ونهاية مارب الالباب، وقد سميت:

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير

مستمداً من الله سبحانه بلوغ الغاية، والوصول بعد هذه البداية إلى النهاية، راجياً منه جل جلاله أن يديم به الانتفاع، ويجعله من النخائر التي ليس لها انقطاع.

تفسير سورة الفاتحة

وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال لا أم القرآن: هي أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم. وأخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي هريرة أيضاً، عن رسول الله ﷺ قال: «هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي: السبع المثاني». وأخرج نحوه ابن مردويه في تفسيره، والدارقطني من حديثه، وقال: كلهم ثقات. وروى البيهقي عن علي، وابن عباس، وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿سبعاً من المثاني﴾ [الحجر: 87] بالفاتحة.

ومن جملة أسمائها، كما حكاه في الكشاف سورة الكنز، والواقية، وسورة الحمد، وسورة الصلاة. وقد أخرج الثعلبي أن سفيان بن عيينة كان يسمي فاتحة الكتاب: الواقية. وأخرج الثعلبي أيضاً عن عبد الله بن يحيى بن أبي كثير أنه سأل سائل عن قراءة الفاتحة خلف الإمام، فقال: عن الكافية تسأل؟ قال السائل: وما الكافية؟ قال: الفاتحة، أما علمت أنها تكفي عن سواها، ولا يكفي سواها عنها. وأخرج أيضاً عن الشعبي أن رجلاً اشتكى إليه وجع الخاصرة فقال: عليك بأساس القرآن، قال: وما أساس القرآن؟ قال: فاتحة الكتاب. وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني فيما من به علي فاتحة الكتاب، وقال هي من كنوز عرشي» وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده، عن علي نحوه مرفوعاً. وقد ذكر القرطبي في تفسيره للفاتحة اثني عشر اسماً، وهي سبع آيات بلا خلاف، كما حكاه ابن كثير في تفسيره. وقال القرطبي: أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات إلا ما روي عن حسين الجعفي أنها ست، وهو شاذ. وإلا ما روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل إيك نعبد آية، فهي عنده ثمان، وهو شاذ انتهى. وإنما اختلفوا في البسملة، كما سيأتي إن شاء الله. وقد أخرج عبد بن حميد، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن الأنباري في المصاحف، عن محمد بن سيرين: أن أبي بن كعب، وعثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة الكتاب، والمعوذتين، ولم يكتب ابن مسعود شيئاً منهن. وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال: كان عبد الله بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف، وقال: لو كتبها لكتبت في أول كل شيء.

وقد ورد في فضل هذه السورة لحديث، منها ما أخرجه البخاري، وأحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث أبي سعيد بن المولى: أن رسول الله ﷺ قال له: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد»، قال: فأخذ يدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد، قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن؟ قال: «نعم - الحمد لله رب العالمين - هي: السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته». وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، من حديث أبي بن كعب: أن النبي ﷺ قال له: «أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلاً؟» ثم أخبره أنها الفاتحة. وأخرجه النسائي، وأخرج أحمد في المسند من حديث عبد الله بن جابر: أن

معنى الفاتحة في الأصل: أول ما من شأنه أن يفتح به، ثم أطلقت على أول كل شيء كالكلام، والتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية، فسميت هذه السورة «فاتحة الكتاب» لكونه افتتح بها، إذ هي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف، وأول ما يتلوه التالي من الكتاب العزيز، وإن لم تكن أول ما نزل من القرآن. وقد اشتهرت هذه السورة للشفقة بهذا الاسم في أيام النبوة. قيل هي مكية، وقيل مدنية.

وقد أخرج الواحدي في أسباب النزول، والثعلبي في تفسيره عن علي رضي الله عنه قال: نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة، والثعلبي والواحدي من حديث عمرو بن شرحبيل: أن رسول الله ﷺ لما شكا إلى خبيجة ما يجده عند أوائل الوحي، فذهبت به إلى ورقة، فأخبره فقال له: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد يا محمد يا محمد، فانطلق هارباً في الأرض»، فقال: لا تفعل، إذا أتاك، فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم اثنتي، فأخبرني؛ فلما خلا ناداه: يا محمد قل: «بسم الله الرحمن الرحيم، حتى بلغ: ولا الضالين» الحديث. وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن رجل من بني سلمة قال: لما أسلمت فتيان بني سلمة، وأسلم ولد عمرو بن الجموح قالت امرأة عمرو له: هل لك أن تسمع من أبيك ما روي عنه؟ فسأله، فقرأ عليه: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، وكان ذلك قبل الهجرة، وأخرج أبو بكر بن الأنباري في المصاحف، عن عبادة قال: فاتحة الكتاب نزلت بمكة. فهذا جملة ما استدل به من قال: إنها نزلت بمكة.

واستدل من قال: إنها نزلت بالمدينة بما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، وأبو سعيد بن الأعرابي في معجمه، والطبراني في الأوسط من طريق مجاهد، عن أبي هريرة: «رن إيليس حين أنزلت فاتحة الكتاب»، وإنزلت بالمدينة.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو نعيم في الحلية، وغيرهم من طرق عن مجاهد قال: نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة، وقيل: إنها نزلت مرتين مرة بمكة، ومرة بالمدينة جمعاً بين هذه الروايات.

وتسمى «أم الكتاب» قال البخاري في أول التفسير: وسميت أم الكتاب؛ لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة. وأخرج ابن الضريس في فضائل القرآن عن أيوب، عن محمد بن سيرين، كان يكره أن يقول: أم الكتاب ويقول: قال الله تعالى: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ [الرعد: 39] ولكن يقول: فاتحة الكتاب. ويقال لها: الفاتحة؛ لأنها يفتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام. قال ابن كثير في تفسيره: وصح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تنثنى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة.

رسول الله ﷺ قال له: «ألا أخبرك بأخير سورة في القرآن؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختتمها»، وفي إسناده ابن عقيل، وقد احتج به كبار الأئمة، وبقية رجاله ثقات. وعبد الله بن جابر هذا هو: العبدى، كما قال ابن الجوزي، وقيل: الأنصاري البياضي كما قال ابن عساكر. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد: «أن النبي ﷺ قال لما أخبروه بأن رجلاً رقى سليماً بفاتحة الكتاب: «وما كان يدرى أنها رقية» الحديث. وأخرج مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه من حديث ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته». وأخرج مسلم، والنسائي، والترمذي وصححه من حديث أبي هريرة: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن، فهي: خداج، ثلاثاً، غير تامة». وأخرج البزار في مسنده بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد» فقد أمنت من كل شيء إلا الموت»، وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن أبي زيد، وكان له صحبة قال: كنت مع النبي ﷺ في بعض فجاج المدينة، فسمع رجلاً يتهجّد، ويقرأ بأم القرآن، فقام النبي ﷺ، فاستمع حتى ختمها، ثم قال: «ما في القرآن مثلاً». وأخرج سعيد بن منصور في سننه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم». وأخرج أبو الشيخ نحوه من حديثه، وحديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرج الدارمي، والبيهقي في شعب الإيمان بسند رجاله ثقات عن عبد الملك بن عمير قال: قال رسول الله ﷺ: «في فاتحة الكتاب: شفاء من كل داء». وأخرج أحمد، وأبو داود والنسائي، وابن السني في عمل اليوم والليلة، وابن جرير، والحاكم وصححه عن خارجة بن الصلت التميمي عن عمه: أنه أتى رسول الله ﷺ، ثم أقبل راجعاً من عنده، فمر على قوم، وعندهم رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله: أمنتك ما تدأوي به هذا؟ فإن صاحبكم قد جاء بخير، قال: فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام في كل يوم مرتين غداة وعشية، أجمع بزاقي، ثم أتفل، فبرأ، فاعطاني مائة شاة، فأتيت النبي ﷺ، فذكرت ذلك له فقال: «كل، فمن أكل برقية باطل، فقد أكلت برقية حق». وأخرج الفريابي في تفسيره عن ابن عباس قال: «فاتحة الكتاب ثلث القرآن». وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ أم القرآن وقل هو الله أحد» فكانما قرأ ثلث القرآن». وأخرج عبد بن حميد في مسنده بسند ضعيف، عن ابن عباس يرفعه إلى النبي ﷺ: «فاتحة الكتاب تعدل بثلاثي القرآن». وأخرج

الحاكم وصححه، وأبو زر الهروي في فضائله، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: كان النبي ﷺ في مسير له، فنزل فمشى رجل من أصحابه إلى جنبه، فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «ألا أخبرك بأفضل القرآن، فتلا عليه الحمد لله رب العالمين». وأخرج أبو نعيم، والديلمي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «فاتحة الكتاب تجزي ما لا يجزي شيء من القرآن، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان، وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات». وأخرج أبو عبيد في فضائله، عن الحسن مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ فاتحة الكتاب فكانما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اختلف أهل العلم هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كتبت في أولها، أو هي بعض آية من أول كل سورة، أو هي كذلك في الفاتحة فقط دون غيرها، أو أنها ليست بآية في الجميع وإنما كتبت للفصل؛ والأقوال وأصلها مبسطة في موضع الكلام على ذلك. وقد اتفقوا على أنها بعض آية في سورة النمل. وقد جزم قراء مكة والكوفة بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة. وخالفهم قراء المدينة والبصرة، والشام، فلم يجعلوها آية لا من الفاتحة ولا من غيرها من السور، قالوا: وإنما كتبت للفصل والتبرك، وقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه: بسم الله الرحمن الرحيم. وأخرجه الحاكم في المستدرک، وأخرج ابن خزيمة في صحيحه عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وغيرها آية، وفي إسناده عمرو بن هارون البلخي، وفيه ضعف، وروى نحوه الدارقطني مرفوعاً عن أبي هريرة.

وكما وقع الخلاف في إثباتها وقع الخلاف في الجهر بها في الصلاة. وقد أخرج النسائي في سننه، وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحهما، والحاكم في المستدرک عن أبي هريرة: «أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ»، وصححه الدارقطني، والخطيب، والبيهقي، وغيرهم. وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم، قال الترمذي: وليس إسناده بذلك. وقد أخرجه الحاكم في المستدرک عن ابن عباس بلفظ: «كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم»، ثم قال: صحيح. وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم بمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم. وأخرج أحمد في المسند، وأبو داود في السنن، وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم في مستدرکه عن أم سلمة أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن

الرحيم* مالك يوم الدين» وقال الدارقطني: إسناده صحيح.

واحتج من قال بأنه لا يجر بالبسملة في الصلاة بما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين». وفي الصحيحين عن أنس قال: «صليت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين». ولمسلم «لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة، ولا في آخرها». وأخرج أهل السنن نحوه عن عبد الله بن مغفل. وإلى هذا ذهب الخلفاء الأربعة، وجماعة من الصحابة. وأحاديث الترك، وإن كانت أصح، ولكن الإثبات أرجح مع كونه خارجاً من مخرج صحيح، فالأخذ به أولى، ولا سيما مع إمكان تأويل الترك، وهذا يقتضي الإثبات الذاتي، أعني كونها قرآناً؛ والوصفي أعني الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتتح بها من السور في الصلاة. ولتنقيح البحث والكلام على أطرافه استدلالاً، ورداً، وتعبقراً، ونبغاً، ورواية، ودراسة موضع غير هذا. ومتعلق الباء محذوف، وهو: أقرأ أو أتلى لأنه المناسب لما جعلت البسملة مبدأ له، فمن قدره متقدماً كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل، ومن قدره متأخراً كان غرضه الدلالة بتأخيرها على الاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم والإشارة إلى أن البداية به أهم لكون التبرك حصل به، وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخراً في مثل هذا المقام، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق: 1] لأن ذلك المقام مقام القراءة، فكان الأمر بها أهم، وأما الخلاف بين أئمة النحو في كون المقدر اسماً أو فعلاً فلا يتعلق بذلك كثير فائدة، والباء للاستعانة أو للمصاحبة، ورجح الثاني الزمخشري. واسم أصله سمو حذفت لامه، ولما كان من الأسماء التي بنوا أوائلها على السكون زالوا في أولها الهمزة إذا نطقوا به لئلا يقع الابتداء بالسكان، وهو: اللفظ الدال على المسمى؛ ومن زعم أن الاسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة، وسيبويه، والباقلاني، وابن فورك، وحكاه الرازي عن الحشوية والكرامية والأشعرية، فقد غلط غلطاً بيناً، وجاء بما لا يعقل، مع عدم ورود ما يوجب المخالفة للعقل لا من الكتاب، ولا من السنة، ولا من لغة العرب، بل العلم الضروري حاصل بأن الاسم الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة غير المسمى الذي هو مدلوله، والبحث مبسوط في علم الكلام. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»، وقال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180] وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: 110]. والله علم لذات الواجب الوجود لم يطلق على غيره، وأصله إله حذفت الهمزة وعوضت عنها أداة التعريف، فلزمت. وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود

بحق كالنجم والصق، فهو قبل الحذف من الأعلام الغالبة، ويعدّه من الأعلام المختصة. والرحمن الرحيم: اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم. وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا، ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا. وقد تقرر أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى. وقال ابن الأنباري، والزجاج: إن الرحمن عبراني والرحيم عربي وخالفهما غيرهما. والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل في غير الله عز وجل. وأما قول بني حنيفة في مسيلة رحمن اليمامة، فقال في الكشف: إنه باب من تعنتهم في كفرهم. قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43] وقد ورد في فضلها أحاديث. منها ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه وابن خزيمة في كتاب البسملة والبيهقي عن ابن عباس قال: استرق الشيطان من الناس أعظم آية من القرآن: بسم الله الرحمن الرحيم. وأخرج نحوه أبو عبيد، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عنه أيضاً. وأخرج الدارقطني بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «كان جبريل إذا جاءني بالوحي أول ما يلقي عليّ بسم الله الرحمن الرحيم». وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره، والحاكم في المستدرک، وصححه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس: أن عثمان بن عفان سأل النبي ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: «هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين، ويباضها من القرب». وأخرج ابن جرير وابن عدي في الكامل، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساکر في تاريخ دمشق، والثعلبي بسند ضعيف جداً عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب لتعلمه، فقال له المعلم: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال له عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناه، والميم مملكته، والله إله الآلهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة» وفي إسناده إسماعيل بن يحيى، وهو كذاب. وقد أورد هذا الحديث ابن الجوزي في الموضوعات. وأخرج ابن مردويه والثعلبي عن جابر قال: لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم إلى المشرق، وسكنت الريح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بأذنائها، ورجمت الشياطين من السماء، وحلف الله بعزته وجلاله أن لا تسمى على شيء إلا بارك فيه. وأخرج أبو نعيم، والديلمي عن عائشة قالت: لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم ضجت الجبال حتى سمع أهل مكة نوبها فقالوا: سحر محمد الجبال، فبعث الله دحاناً حتى أظلم على أهل مكة، فقال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم موثقاً سبحت معه الجبال إلا أنه لا يسمع ذلك منها». وأخرج

الدليمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله له بكل حرف أربعة آلاف حسنة، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة، ورفع له أربعة آلاف درجة». وأخرج الخطيب في الجامع عن أبي جعفر محمد بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب». وهذه الأحاديث ينبغي البحث عن لسانها والكلام عليها بما يتبين بعد البحث إن شاء الله. وقد شرعت التسمية في مواطن كثيرة قد بينها الشارع منها عند الوضوء وعند الذبيحة، وعند الأكل، وعند الجماع وغير ذلك.

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ① الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ③ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ④ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑤ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑥

الحمد لله الحمد: هو الثناء باللسان على الجميل وبقيد الاختيار، فارق المدح، فإنه يكون على الجميل وإن لم يكن الممدوح مختاراً، كمدح الرجل على جماله، وقوته، وشجاعته. وقال صاحب الكشاف: إنها أخوان، والحمد أخص من الشكر مورداً، وأعم منه متعلقاً، فمورد الحمد اللسان فقط، ومتعلقه النعمة وغيرها. ومورد الشكر اللسان والجنان والأركان، ومتعلقه النعمة. وقيل إن مورد الحمد كمورد الشكر، لأن كل ثناء باللسان لا يكون من صميم القلب مع موافقة الجوارح ليس بحمد بل سخرية واستهزاء. ولجيب بأن اعتبار موافقة القلب والجوارح في الحمد لا يستلزم أن يكون مورداً له بل شرطاً - وفرق بين الشرط والشرط، وتعريفه لاستغراق أفراد الحمد، وإنها مختصة بالرَّبِّ سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به، لأن المنعم هو الله عز وجل، أو على أن حمده هو للفرد الكامل، فيكون الحصر ادعائياً. ورجح صاحب الكشاف أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق، والصواب ما نكرناه. وقد جاء في الحديث: «اللهم لك الحمد كله» وهو مرتفع بالابتداء وخبره الظرف وهو الله. وأصله النصب على المصدرية بإضمار فعله كسائر المصادر التي تنصبها العرب، فعدل عنه إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام، والثبات المستفاد من الجمل الاسمية بون الحنوث، والتجديد اللذين تفيدهما الجمل الفعلية، واللام الداخلة على الاسم الشريف هي لام الاختصاص. قال ابن جرير: الحمد ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكانه قال: قولوا الحمد لله؛ ثم رجح اتحاد الحمد والشكر مستدلاً على ذلك بما حاصله: أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر. قال ابن كثير: وفيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو: الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعبية. والشكر لا يكون إلا على المتعبية، ويكون بالجنان، واللسان، والأركان، انتهى. ولا يخفى أن المرجع في مثل هذا إلى معنى الحمد في لغة العرب لا إلى ما قاله

جماعة من العلماء المتأخرين، فإن ذلك لا يرد على ابن جرير، ولا تقوم به الحجة؛ هذا إذا لم يثبت للحمد حقيقة شرعية، فإن ثبتت وجب تقديمها. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال عمر: قد علمنا سبحانه الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد؟ فقال علي: كلمة رضىها لنفسه. وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد الحمد لله قال: شكرني عبدي. وروى هو، وابن جرير، عن ابن عباس أيضاً أنه قال: الحمد لله هو: الشكر لله، والاستحذاء له، والإقرار له بنعمه، وهديته، وابتدائه، وغير ذلك. وروى ابن جرير عن الحكم بن عمير، وكانت له صحبة قال: قال النبي ﷺ: «إذا قلت الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله فزادك»⁽¹⁾. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، والحكيم الترمذي في نوارى الأصول، والخطابي في الغريب، والبيهقي في الألب، والدليمي في مسند الفريوس عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لا يحمده». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال: «الصلاة شكر والصيام، وكل خير تفعله شكر، وأفضل الشكر الحمد». وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن النوفس بن سميان قال: سرقت ناقة رسول الله ﷺ فقال: «لئن ردها الله علي لأشكرن ربّي، فرجعت، فلما رآها قال: «الحمد لله»، فانتظروا هل يحدث رسول الله ﷺ صوماً أو صلاة، فظنوا أنه نسي فقالوا: يا رسول الله قد كنت قلت: لئن ردها الله علي لأشكرن ربّي، قال: «ألم أقل الحمد لله؟».

وقد ورد في فضل الحمد أحاديث. منها ما أخرجه أحمد، والنسائي، والحاكم وصححه، والبخاري في الألب المفرد عن الأسود بن سريع قال: قلت: يا رسول الله ألا انشدك محامد حممت بها ربّي تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد». وأخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وأخرج ابن ماجه والبيهقي بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ». وأخرج الحكيم الترمذي في نوارى الأصول، والقرطبي في تفسيره عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لو أن الدنيا كلها بحافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله، لكان الحمد أفضل من ذلك»، قال القرطبي: معناه: لكن إلهامه الحمد أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا، لأن ثواب الحمد لا يفنى، ونعيم الدنيا لا يبقى. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من

(1) وذلك لقوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لازيننكم﴾ سورة إبراهيم، الآية: 7.

لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل. حكى هذه الأقوال القرطبي في تفسيره، وذكر أئمتها، وقال: إن القول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق وموجود. دليله قوله تعالى: ﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ قال رب السموات والأرض وما بينهما [الشعراء: 23، 24] وهو: مأخوذ من العلم، والعلامة لأنه يدل على موجهه، كذا قال الزجاج: وقال: العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة، انتهى. وعلى هذا يكون جمعه على هذه الصيغة المختصة بالعقلاء تغليظاً للعقلاء على غيرهم. وقال في الكشف: ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى العلم. وقد أخرج ما تقدم من قول ابن عباس عنه الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد. وأخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبيرة. وأخرج ابن جبيرة، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾ قال: إله الخلق كله: السموات كلهن ومن فيهن. والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم.

﴿الرحمن الرحيم﴾ قد تقدم تفسيرهما. قال القرطبي: وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم، لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه. فيكون أعون على طاعته وأمنع، كما قال تعالى: ﴿نبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم﴾ وأن عذابي هو العذاب الأليم [الحجر: 49، 50] وقال: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ [غافر: 3]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قطن من جنته أحد». انتهى. وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال: ما وصف من خلقه، وفي قوله: ﴿الرحمن الرحيم﴾، قال: مدح نفسه.

ثم نكر بقية الفاتحة ﴿ملك يوم الدين﴾ قرئ: ملك، وملك، وملك يسكن اللام، وملك بصيغة الفعل. وقد اختلف العلماء أيهما أبلغ: الملك، أو مالك؟ فقيل إن ملك أعم وأبلغ من مالك، إذ كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً، ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك، قاله أبو عبيد، والمبرّد، ورجحه الزمخشري. وقيل مالك أبلغ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم، فالمالك أبلغ تصرفاً وأعظم. وقال أبو حاتم: إن مالكا أبلغ في مدح الخالق من ملك، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك، لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك، وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكاً. واختار هذا القاضي أبو بكر بن العربي. والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر؛ فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما

عبد ينعم عليه بنعمة إلا كان الحمد أفضل منها. وأخرج عبد الرزاق في المصنف نحوه عن الحسن مرفوعاً. وأخرج مسلم والنسائي، وأحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان» الحديث. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن مردويه عن رجل من بني سليم أن رسول الله ﷺ قال: «سبحان الله نصف الميزان، والحمد لله تملأ الميزان، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والطهور نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر». وأخرج الحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التسبيح نصف الميزان، والحمد لله تملؤه، ولا إله إلا الله ليس لها لون الله حجاب حتى تخلص إليه». وأخرج البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «التاني من الله، والعجلة من الشيطان، وما شيء أكثر معاذير من الله، وما شيء أحب إلى الله من الحمد». وأخرج ابن شاهين في السنة والنيلمي عن أبان بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «التوحيد ثمن الجنة، والحمد ثمن كل نعمة، ويتقاسمون الجنة بأعمالهم». وأخرج أهل السنن وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله، فهو أقطع». وأخرج ابن ماجه في سننه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أن عبداً من عباد الله قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فلم يدر الملكان كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا ربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها. قال الله وهو أعلم بما قال عبده: ماذا قال عبدي؟ قالوا يا رب إنه قال: لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتباهما كما قال عبدي حتى يلقاني، ولجزية بهاء. وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

﴿رب العالمين﴾ قال في الصحاح: الرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة. وقد قالوه في الجاهلية للملك. وقال في الكشف: الرب: المالك. ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. ثم نكر نحو كلام الصحاح. قال القرطبي في تفسيره: والرب: السيد، ومنه قوله تعالى: ﴿انكرنى عند ربك﴾ [يوسف: 42] وفي الحديث: «أن تلد الأمة ربها»، والرب: المصلح، والمببر، والجابر، والقائم قال: والرب المعبود. ومنه قول الشاعر:

أرب يبسول الثعلبان برأسه لقد هان من بالث عليه الثعلاب و ﴿العالمين﴾: جمع العالم، وهو: كل موجود سوى الله تعالى، قاله قتادة. وقيل أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل. وقال ابن عباس: العالمون الجن، والإنس، وقال الفراء، وأبو عبيد: العالم عبارة عن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس، والجن، والملائكة، والشياطين. ولا يقال للبهائم عالم،

الواحد استقصاراً لنفسه، واستصغاراً لها، مجيء بالنون لقصد التواضع لا لتعظيم النفس، وقدمت العبادة على الإستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب، وإطلاق الإستعانة لقصد التعظيم. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله إياك نعبد: يعني إياك نوحّد ونخاف يا ربنا لا غيرك، وإياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها. وحكى ابن كثير عن قتادة أنه قال في إياك نعبد وإياك نستعين: يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أمركم. وفي صحيح مسلم من حديث المعلى بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال: حمّنتي عبدي، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال: أثّنتي عليّ عبدي، فإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال مجندي عبدي، فإذا قال: ﴿إياك نعبد، وإياك نستعين﴾ قال: هذا بيني، وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». وأخرج أبو القاسم البغوي والباوردي معاً في معرفة الصحابة، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فلقني العدو فسمعتة يقول: «يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين»، قال: فلقد رأيت الرجال تصرع فتضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ قرأه الجمهور بالصاد، وقرأ السراط بالسين، والزراط بالزاي؛ والهداية قد يتعذر فعلها بنفسه كما هنا، وكقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البعد: 10] وقد يتعدى بـإلى كقوله: ﴿اجتبهه وهداه إلى صراط مستقيم﴾ [النحل: 121] ﴿فأهدهم إلى صراط الجحيم﴾ [الصفاء: 23] ﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: 52] وقد يتعدى باللام كقوله ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ [الأعراف: 43] ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: 9] قال الزمخشري: أصله أن يتعدى باللام أو بـإلى. انتهى. وهي الإرشاد، أو التوفيق، أو الإلهام، أو الدلالة. وفرّق كثير من المتأخرين بين معنى المتعدي بنفسه، وغير المتعدي، فقالوا: معنى الأوّل الدلالة، والثاني الإيصال. وطلب الهداية من المهتدي معناه طلب الزيادة كقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ [محمد: 17]، ﴿والذين جاهلوا فينا لنهينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: 69] والصراط: الطريق، قال ابن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وهو كذلك في لغة جميع العرب. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فتصف المستقيم باستقامته، والمعوجّ باعوجاجه. وقد أخرج الحاكم

هو مالك له بالبيع، والهبّة، والعق، ونحوها، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك، وحياطته، ورعاية مصالح الرعية، فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور. والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله. ويوم الدين: يوم الجزاء من الرب سبحانه لعباده كما قال: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ ثم ما أدراك ما يوم الدين* يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﷻ [الانفطار: 17 - 19] وهذه الإضافة إلى الظرف على طريق الاتساع كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، ويوم الدين وإن كان متأخراً فقد يضاف اسم الفاعل وما في معناه إلى المستقبل كقولك: هذا ضارب زيداً غداً. وقد أخرج الترمذي عن أمّ سلمة أن النبي ﷺ كان يقرأ ملك بغير ألف. وأخرج نحوه ابن الأنباري عن أنس، وأخرج أحمد والترمذي عن أنس أيضاً: أن النبي ﷺ، وإباً بكر، وعمر، وعثمان كانوا يقرؤون مالك بالالف. وأخرج نحوه سعيد بن منصور عن ابن عمر مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً وكيع في تفسيره وعبد بن حميد، وأبو داود عن الزهري يرفعه مرسلأ. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في تفسيره وعبد ابن حميد، وأبو داود عن ابن المسيب مرفوعاً مرسلأ. وقد روي هذا من طرق كثيرة، فهو أرجح من الأول. وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ مالك يوم الدين، وكذا رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه عن ابن مسعود، وناس من الصحابة أنهم فسروا يوم الدين بيوم الحساب. وكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة قال: يوم الدين يوم يدين الله العباد بأعمالهم.

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قراءة السبعة، وغيرهم بتشديد الياء، وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر؛ وقرأ الفضل والرقاشي بفتح الهمزة؛ وقرأ أبو السوار الغنوي «هياك» في الموضعين وهي لغة مشهورة. والضمير المنفصل هو «إياه»، وما يلحقه من الكاف، والهاء، والياء هي: حروف لبيان الخطاب، والغيبة، والتكلم، ولا محل لها من الإعراب كما ذهب إليه الجمهور، وتقديمه على الفعل لقصد الاختصاص، وقيل للاهتمام، والصواب أنه لهما، ولا تزاحم بين المقتضيات. والمعنى: نخصك بالعبادة، ونخصك بالاستعانة، لا نعبد غيرك، ولا نستعينه، والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلّل. قال ابن كثير: وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وعدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الالتفات، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظاً له كما تقرر في علم المعاني. والمجيء بالنون في الفعلين لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد، وقيل إن المقام لما كان عظيماً لم يستقل به

المستقيم انتهى.

﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ انتصب صراط على أنه بدل من الأول، وفائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير، ويجوز أن يكون عطف بيان، وفائدته الإيضاح، والذين أنعم الله عليهم هم المنكورون في سورة النساء حيث قال: ﴿ومن يطع الله والرسول، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾. ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليمًا [النساء: 69، 70] وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام، وغير المغضوب عليهم بدل من الذين أنعمت عليهم على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا غضب الله والضلal، أو صفة له على معنى أنهم جمعوا بين النعمتين: نعمة الإيمان والسلامة من ذلك، وصح جعله صفة للمعرفة مع كون «غير» لاتتعرف بالإضافة إلى المعارف لما فيها من الإبهام، لأنها هنا غير مبهمة لاشتغال المغيرة بين الجنسين. والغضب في اللغة قال القرطبي: الشدة، ورجل غضوب أي: شديد الخلق، والغضوب: الحية العقوبة، فهو صفة ذاته، أو نفس العقوبة، ومنه الحديث: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب»، فهو صفة فعله. قال في الكشف: هو: إرادة الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده، والفرق بين عليهم الأولى، وعليهم الثانية، أن الأولى في محل نصب على المفعولية، والثانية في محل رفع على النيابة عن الفاعل. «ولا» في قوله: ولا الضالين تأكيد للنفي المفهوم من غير، والضلal في لسان العرب قال القرطبي: هو: الذهاب عن سنن القصد، وطريق الحق، ومنه: ضل اللبن في الماء، أي: غاب، ومنه: «إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» [السجدة: 10] أي: غبنا بالموت، وصرنا تراباً. وأخرج وكيع، وأبو عبيد، وسعيد ابن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان يقرأ: (صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم، وغير الضالين) وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد أن عبد الله بن الزبير قرأ كذلك. وأخرج الأنباري، عن الحسن أنه كان يقرأ «عليهم» بكسر الهاء والميم، وإثبات الياء. وأخرج ابن الأنباري عن الأعرج، أنه كان يقرأ: «عليهم» بضم الهاء والميم، وإلحاق الواو. وأخرج أيضاً عن ابن كثير، أنه كان يقرأ: «عليهم» بكسر الهاء، وضم الميم مع إلحاق الواو. وأخرج أيضاً عن أبي إسحاق، أنه قرأ: «عليهم» بضم الهاء، والميم من غير إلحاق واو. وأخرج ابن داود عن عكرمة، والأسود أنهما كانا يقرآن كقراءة عمر السابقة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ يقول: طريق من أنعمت عليهم من الملائكة، والنبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين الذين أطاعوك وعبدوك. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: أنهم المؤمنون. وأخرج عبد بن حميد عن الربيع

وصححه وتعبه الذهبي عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿أهدنا الصراط المستقيم﴾ بالصاد». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه عن ابن عباس: «أنه قرأ الصراط بالسين». وأخرج ابن الأنباري عن ابن كثير: أنه كان يقرأ السراط بالسين. وأخرج أيضاً عن حمزة: أنه كان يقرأ الزراط بالزاي. قال الفراء: وهي لغة لعذرة وكلب وبني القين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: ﴿أهدنا الصراط المستقيم﴾ يقول: ألهمنا دينك الحق». وأخرج ابن جرير عنه، وابن المنذر نحوه. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله أنه قال: «هو دين الإسلام، وهو أوسع مما بين السماء والأرض». وأخرج نحوه ابن جرير عن ابن عباس. وأخرج نحوه أيضاً عن ابن مسعود، وناس من الصحابة. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن النّوّاس بن سميان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط دأع يقول: يا أيها الناس انخلوا الصراط جميعاً، ولا تفرّقوا، ودأع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الدأعي على رأس الصراط: كتاب الله، والدأعي من فوق: وأعظ الله تعالى في قلب كل مسلم». قال ابن كثير بعد إخراجها: وهو إسناد حسن صحيح. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو بكر الأنباري، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود أنه قال: «هو كتاب الله». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن عساکر، عن أبي العالية قال: هو رسول الله ﷺ وصاحبه من بعده. وأخرج الحاكم، وصححه عن أبي العالية، عن ابن عباس مثله. وروى القرطبي، عن الفضيل بن عياض، أنه قال: للصراط المستقيم طريق الحج، قال: وهذا خاص، والعموم أولى. انتهى. وجميع ما روي في تفسير هذه الآية ما عدا هذا المروي عن الفضيل يصنق بعضه على بعض، فإن من اتبع الإسلام أو القرآن أو النبي، فقد اتبع الحق. وقد ذكر ابن جرير نحو هذا فقال: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي معنياً به، وفقنا للإثبات على ما ارتضيته، ووقفت له من أنعمت عليه من عبانك من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم، لأن من وفق إليه ممن أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط

بنصيبك من سخط الله، فقال لا استطيعه، فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان.

[قائدة في مشروعية التامين بعد قراءة الفاتحة] اعلم أن السنة الصحيحة الصريحة الثابتة تواتراً قد دلت على ذلك، فمن ذلك ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن وائل بن حجر قال: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾، فقال: آمين مد بها صوته، ولأبي داود: «رفع بها صوته»، وقد حسنه الترمذي. وأخرجه أيضاً النسائي، وابن أبي شيبه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وفي لفظ من حيث أنه ﷺ قال: رب اغفر لي آمين، أخرجه الطبراني، والبيهقي. وفي لفظ أنه قال: «آمين ثلاث مرات» أخرجه الطبراني. وأخرج وكيع، وابن أبي شيبه، عن أبي ميسرة قال لما قرأ جبريل رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب فبلغ، ﴿ولا الضالين﴾ قال: «قل آمين، فقال آمين». وأخرج ابن ماجه عن علي قال: «سمعت رسول الله ﷺ إذا قال ﴿ولا الضالين﴾ قال: «آمين». وأخرج مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ يعني الإمام ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقولوا آمين يحبك الله». وأخرج البخاري ومسلم، وأهل السنن، وأحمد، وابن أبي شيبه، وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»، وأخرج أحمد، وابن ماجه، والبيهقي بسند قال السيوطي: صحيح عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ما حسنتكم اليهود على شيء ما حسنتكم على السلام، والتامين». وأخرج ابن عدي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اليهود قوم حسد، حسنوكم على ثلاثة: إفشاء السلام، وإقامة الصف، وآمين». وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث معاذ مثله. وأخرج ابن ماجه بسند ضعيف عن ابن عباس قال: «ما حسنتكم اليهود على شيء ما حسنتكم على آمين، فكثروا من قول آمين، ووجه ضعفه أن في إسناده طلحة بن عمرو، وهو: ضعيف. وأخرج الديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ فاتحة الكتاب ثم قال آمين لم يبق ملك في السماء مقرب إلا استغفر له». وأخرج أبو داود عن بلال، أنه قال: «يا رسول الله لا تسبقني بآمين»، ومعنى آمين: استجب. قال القرطبي في تفسيره: معنى آمين عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب لنا، وضع موضع الدعاء. وقال في الصحاح: معنى آمين: كذلك فليكن. وأخرج جويرير في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس قال: قلت يا رسول الله: ما معنى آمين؟ قال: «رب افعل». وأخرج الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس مثله. وأخرج وكيع، وابن أبي شيبه في المصنف عن هلال بن يساف، ومجاهد قال: آمين اسم من أسماء الله. وأخرج ابن أبي شيبه عن حكيم بن جبير مثله. وقال الترمذي: معناه: لا تخيب رجاءنا. وفيه لغتان، المد على وزن

ابن أنس في قوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ قال: النبيون: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ قال اليهود: ﴿ولا الضالين﴾ قال النصارى. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله. وأخرج أيضاً عن سعيد بن جبيرة مثله. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد في مسنده، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبغوي، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن عبد الله بن شقيق قال: أخبرني من سمع رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى على فرس له، وسأله رجل من بني القين، فقال: من المغضوب عليهم يا رسول الله؟ قال: «اليهود»، قال: فمن الضالون؟ قال: «النجاري». وأخرجه ابن مروي عن عبد الله بن شقيق، عن أبي نر قال: سألت رسول الله ﷺ، فذكره. وأخرجه وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن عبد الله بن شقيق قال: كان رسول الله ﷺ يحاصر أهل وادي القرى، فقال له رجل... إلى آخره، ولم يذكر فيه: أخبرني من سمع النبي كالأول، وأخرجه البيهقي في الشعب عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بني القين، عن ابن عم له أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ... فذكره. وأخرجه سفیان بن عيينة، في تفسيره، وسعيد بن منصور، عن إسماعيل بن أبي خالد أن النبي ﷺ قال: «المغضوب عليهم: اليهود، والضالون: النصارى». وأخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين النصارى». وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم وصححه، والطبراني عن الشريد قال: مر بي رسول الله ﷺ، وأنا جالس هكذا، وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري، ولتكت على الية يدي فقال: «أتعد قعدة المغضوب عليهم؟» قال ابن كثير بعد ذكره لحديث عدي بن حاتم: وقد روي حديث عدي هذا من طرق، وله الفاظ كثيرة يطول ذكرها. انتهى. والمصير إلى هذا التفسير النبوي متعين، وهو: الذي أطبق عليه أئمة التفسير من السلف. قال ابن أبي حاتم: لا أعلم خلافاً بين المفسرين في تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى. ويشهد لهذا التفسير النبوي آيات من القرآن، قال الله تعالى في خطابه لبني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فيأثروا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ [البقرة: 90]. وقال في المائدة: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾ [المائدة: 60] وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل: أنه لما خرج هو، وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف قال اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، فقال: أنا من غضب الله أقر، وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ

عن أبي هريرة مرفوعاً. وأخرج مسلم، والترمذي، وأحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة». وأخرج أبو عبيد عن أنس نحوه مرفوعاً، وأخرج ابن عدي في الكامل، وابن عساكر في تاريخه عن أبي الدرداء مرفوعاً نحوه، وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن عبد الله بن مغفل مرفوعاً نحوه، وأخرج النسائي، والطبراني، والبيهقي عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه، وسنده ضعيف وأخرجه الدارمي، والبيهقي، والحاكم، وصححه من حديثه بنحوه. وأخرج أبو يعلى، وابن حبان، والطبراني والبيهقي عن سهل بن الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة، من قراها في بيته نهراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام، ومن قراها في بيته ليلاً لم يدخله الشيطان ثلاث ليال». وأخرج أحمد، ومحمد بن نصر، والطبراني بسند صحيح، عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن ونروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ من تحت العرش فوصلت بها». وأخرج البيهقي في معجم الصحابة، وابن عساكر في تاريخه عن ربيعة الجرسى قال: سئل رسول الله ﷺ أي القرآن أفضل؟ قال: «السورة التي يذكر فيها البقرة قيل فأي البقرة أفضل؟ قال: «آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة نزلت من تحت العرش». وأخرج أبو عبيد، وأحمد، والبخاري في صحيحه تعليقاً، ومسلم، والنسائي عن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس فسكت فسكنت، فأنصرف إلى ابنه يحيى، وكان قريباً منها، فاشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء، فإذا هو يمثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث رسول الله ﷺ بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أتدري ما ذاك؟» قال: لا يا رسول الله ﷺ، قال: «تلك الملائكة نبت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت تنظر إليها الناس لا تتوارى منهم، ولهذا الحديث الفاظ. وأخرج الترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً، فاستقروا كل رجل منهم - يعني: ما معه من القرآن - «فأتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟» قال: معي كذا وكذا، وسورة البقرة، قال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: «نعم، قال: «أذهب، فانت أميرهم». وأخرج البيهقي في الدلائل، عن عثمان بن أبي العاص قال: استعملني رسول الله ﷺ، وأنا أصغر القوم الذين وفدوا عليه من ثقيف، وذلك أنني كنت قرأت سورة البقرة، وأخرج البيهقي في الشعب بسند صحيح عن الصلصال بن الديهمس أن رسول الله ﷺ قال: «اقرأوا سورة البقرة في بيوتكم، ولا تجعلوا قبوراً، قال: «ومن قرأ سورة البقرة في

فاعيل كياسين. والقصر على وزن يمين، قال الشاعر في المد:

يارب لا تسلبني حبها أبداً ويرحم الله عبداً قال آمينا وقال آخر:

أمين أمين لا أرضى بواحدة حتى أبلغها الفين آمينا قال الجوهري: وتشديد الميم خطأ. وروي عن الحسن، وجعفر الصادق، والحسين بن فضل التشديد، من أم إذا قصد: أي نحن قاصدون نحوه، حكى ذلك القرطبي. قال الجوهري: وهو مبني على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين، وتقول منه: أمن فلان تأمينا. وقد اختلف أهل العلم في الجهر بها، وفي أن الإمام يقولها أم لا؟ وذلك مبني في مواطنه.

تفسير سورة البقرة

قال القرطبي في تفسير سورة البقرة: مدنية نزلت في مدد شئى. وقيل: هي أول سورة نزلت بالمدينة إلا قوله تعالى: ﴿وأتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ [البقرة: 281] فإنها آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمعنى، وآيات الربا أيضاً من أواخر ما نزل من القرآن. انتهى. وأخرج أبو الضريس في فضائله، وأبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ، وابن مروي، والبيهقي في دلائل النبوة من طرق عن ابن عباس قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وأخرج ابن مروي عن عبد الله بن الزبير مثله، وأخرج أبو داود في الناسخ والمنسوخ عن عكرمة قال: أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة.

وقد ورد في فضلها أحاديث منها ما أخرجه مسلم، والترمذي، وأحمد، والبخاري في تاريخه، ومحمد بن نصر عن النّوّاس بن سمعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقمهم سورة البقرة، وآل عمران» قال: وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال: «كانهما غمامتان، أو كأنهما غيابتان، أو كأنهما ظلّتان سوداوان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والدارمي، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»، ثم سكت ساعة، ثم قال: «تعلموا سورة البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان تظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيابتان، أو فرقان من طير صواف»، قال ابن كثير: وإسناده حسن على شرط مسلم، وأخرج نحوه أبو عبيد، وأحمد، ومحمد بن زنجويه، ومسلم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، والبيهقي من حديث أبي أمامة مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً الطبراني، وأبو نر الهروي بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً البزار في سننه بسند صحيح

والبيهقي عن عائشة قالت: كنت أقوم مع رسول الله ﷺ في الليل فيقرأ بالبقرة، وآل عمران، والنساء. وأخرج أبو داود، والترمذي في الشمائل، والنسائي، والبيهقي عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام، فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف «الحديث».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المر

﴿الم﴾ قال القرطبي في تفسيره: اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور، فقال الشعبي، وسفيان الثوري، وجماعة من المحدثين: هي سرّ الله في القرآن، والله في كل كتاب من كتبه سرّ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا نحِبُ أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها، وتمدّ كما جاءت، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب، قال: ونكر أبو الليث السمرقندي عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر، وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله عزّ وجل، قال جمع من العلماء كثير: بل نحِبُ أن نتكلم فيها، ونلتزم الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها. واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة، فروي عن ابن عباس، وعليّ أيضاً أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم إلا أنا لا نعرف تأليفه منها. وقال قطرب، والفراء، وغيرهما: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها؛ ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم. قال قطرب: كان ينغفرون عند استماع القرآن، فلما نزل الم، والمصّ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف؛ ليثبت في أسماعهم وأذانهم، ويقدم الحجة عليهم. وقال قوم: روي أن المشركين لما عرضوا عن القرآن بمكة ﴿وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ [فصلت: 26] فانزلها استغربوها، فيفتحون أسماعهم، فيسمعون القرآن بعده، فتجب عليهم الحجة. وقال جماعة: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها، وحذفت بقيتها، كقول ابن عباس، وغيره: الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد. وذهب إلى هذا الزجاج، فقال: أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى. وقد تكلم العرب بالحروف المقطعة كقوله: فقلت لها قفى، فقالت قاف

أي وقفت. وفي الحديث: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» قال شقيق: هو أن يقول في اقتل اق كما قال ﷺ: «كفى بالسيف شاة أي شافياً، وفي نسخة شاهداً». وقال زيد ابن أسلم: هي أسماء للسور. وقال الكلبي: هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه.

ومن أنق ما أبرزه المتكلمون في معاني هذه الحروف ما نكره الزمخشري في الكشف، فإنه قال: وأعلم أنك إذا تأملت

ليلة تَوَجَّ بتاج في الجنة». وأخرج أبو عبيد، عن عباد بن عباد، عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن يزيد: أن أشياخ أهل المدينة حدثوا عن رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر إلى ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح، قال: «فلعله قرأ سورة البقرة» قال: فسئل ثابت، فقال: قرأت سورة البقرة. قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد، إلا أن فيه إبهاماً، ثم هو مرسل.

وقد روى ثمة الحديث في فضائلها أحاديث كثيرة، وآثراً عن الصحابة واسعة، ومن فضائلها ما هو خاص بآية الكرسي، وما هو خاص بخواتم هذه السورة، وقد سبق بعض ذلك، وما هو في فضلها، وفضل آل عمران، وقد سبق أيضاً بعض من ذلك، وما هو في فضل السبع الطوال، كما أخرج أبو عبيد عن وثالة بن الأسقع، عن النبي ﷺ قال: «أعطيت السبع مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل، وفي إسناده سعيد بن بشير، وفيه لين، وقد رواه بسند آخر عن سعيد بن أبي هلال. وأخرج أيضاً عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «من أخذ السبع فهو خير». وقد رواه عنها أحمد في المسند باللفظ أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول القرآن فهو خير». وأخرج أبو عبيد عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ [الحجر: 87] قال: هي: السبع الطوال البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وبذلك قال مجاهد، ومكحول، وعطية بن قيس، وأبو محمد القارئ شذاذ بن عبد الله، ويحيى بن الحارث النمازي.

وقد ورد ما يدل على كراهة أن يقول القائل سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله. فأخرج ابن الضريس، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا السورة التي تذكر فيها البقرة، والسورة التي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله» قال ابن كثير: هذا حديث غريب لا يصح رفعه، وفي إسناده يحيى بن ميمون الخواص، وهو ضعيف الرواية لا يحتج به، وأخرج البيهقي في الشعب بسند صحيح عن ابن عمر قال: «لا تقولوا سورة البقرة، ولكن قولوا السورة التي تذكر فيها البقرة». وقد روي عن جماعة من الصحابة خلاف هذا. فثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. وأخرج ابن شعبة، وأحمد، ومسلم، وأهل السنن، والحاكم وصححه عن حنيفة قال: صليت مع رسول الله ﷺ ليلة من رمضان، فافتتح البقرة، فقلت: يصلي بها في ركعة، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها مترسلاً، الحديث. وأخرج أحمد، وابن الضريس،

الرَّبِّ سبحانه الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه، والهداية به. وهب أن هذه صناعة عجيبة، ونكتة غريبة، فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيداً أنه كلام بليغ أو فصيح، وذلك لأن هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى يتصف بهذين الوصفين، وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم، ولا مدخل لذلك فيما نذكر. وأيضاً لو فرض أنها كلمات متركة بتقدير شيء قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك، لأنها تسمية غير مفهومة للسامع إلا بأن يأتي من يريد بيانها بمثل ما يأتي به من أراد بيان الألفاظ والتسميات، وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة في ورد ولا صدر بل من عكسهما، وضد رسمهما، وإذا عرفت هذا، فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أَرَادَهُ الله عز وجل، فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرهما به راجعاً إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معبوداً عنده من الرطانة، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على أحرف، أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدم ما يدل عليه، ويفيد معناه، بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره. ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم، وأين هذه الفواتح الواقعة في أوائل السور من هذا؟ وإذا تقرر لك أنه لا يمكن الاستفادة ما أدعوه من لغة العرب، وعلومها لم يبق حينئذ إلا أحد أمرين: الأول التفسير بمحض الرأي الذي ورد النهائي عنه، والوعيد عليه، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه، والصد عنه، والتكذب عن طريقه، وهم اتقى الله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه ملعبة لهم يتلاعبون به، ويضعون حماقات انظارهم، وخزعبلات افكارهم عليه. الثاني التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع، وهذا هو المهيغ الواضع، والسبيل القويم، بل الجادة التي ما سواها مريبوم، والطريقة العامرة التي ما عداها معدوم، فمن وجد شيئاً من هذا، فغير ملوم أن يقول بملء فيه، ويتكلم بما وصل إليه علمه، ومن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل لا أدري، أو الله أعلم بمراحه، فقد ثبت النهائي عن طلب فهم المتشابه، ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظاً عربية، وتراكيب مفهومة، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغ، فكيف بما نحن بصده؟ فإنه ينبغي أن يقال فيه إنه متشابه المتشابه على فرض أن لفهم إليه سبيلاً، ولكلام العرب فيه مداخل، فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير. وانظر كيف فهم اليهود عند سماع آل فانهم لما لم يجدها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز إلى ما يصطلحون عليه من العدد الذي يجعلونه لها، كما أخرج ابن إسحاق، والبخاري في تاريخه، وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله قال: مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة

ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتھا نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء: وهي الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر، وجدتھا مشتملة على انصاف اجناس الحروف. بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفھا الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء، ومن المجهورة نصفھا الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون، ومن الشديدة نصفھا الألف، والكاف، والطاء، والقاف، ومن الرخوة نصفھا اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون، ومن المطبقة نصفھا الصاد، والطاء، ومن المستعلية نصفھا القاف، والصاد، والطاء، ومن المنخفضة نصفھا الألف واللام والميم، والراء، والكاف، والهاء، والتاء، والعين، والسين، والحاء، والنون، ومن حروف القلقة نصفھا القاف، والطاء. ثم إذا استقرت الكلم، وتراكيبها رأيت الحروف التي ألقى الله نكرها من هذه الاجناس المعدودة مكنوزة بالمنكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكان الله عز اسمه عند العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم، وإلزام الحجة إياهم، وما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم، أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين، وهي فواتح سورة البقرة، وآل عمران، والروم، والعنكبوت، ولقمان، والسجدة، والاعراف، والرعد، ويونس، وإبراهيم، وهود، ويوسف، والحجر. انتهى. وأقول: هذا التثقيب لا يأتي بفائدة يعتد بها، وبيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة، والتبكيت كما قال، فهذا متيسر بأن يقال لهم: هذا القرآن هو من الحروف التي تتكلمون بها ليس هو من حروف مغايرة لها، فيكون هذا تبكيتاً وإلزاماً يفهمه كل سامع منهم من نون إلغاز، وتعمية وتفريق لهذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح، هو أيضاً مما لا يفهمه أحد من السامعين، ولا يتعقل شيئاً منه فضلاً عن أن يكون تبكيتاً له وإلزاماً للحجة أياً كان، فإن ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه، ولم يفهم السامع هذا، ولا نكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لهم بالقرآن أنه بلغ فهمه إلى بعض هذا فضلاً عن كله. ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها، وذلك النصف مشتمل على انصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف هو أمر لا يتعلق به فائدة لجاهلي ولا إسلامي، ولا مقر ولا منكر، ولا مسلم ولا معارض، ولا يصح أن يكون مقصداً من مقاصد

شبهة، والبرزاز بسند ضعيف عن عوف بن مالك الأشجعي نحوه مرفوعاً. فإن قلت: هل روي عن الصحابة شيء من ذلك بإسناد متصل بقائله أم ليس إلا ما تقدم من حكاية القرطبي عن ابن عباس وعلي؟ قلت: قد روى ابن جرير، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن ابن مسعود أنه قال: ﴿الْم﴾ حرف اشتقت من حروف اسم الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿الْم﴾، ﴿وَحَم﴾، و﴿ن﴾ قال: اسم مقطوع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في كتاب الأسماء عن ابن عباس أيضاً في قوله: ﴿الْم﴾، و﴿الْمَقَص﴾، و﴿الر﴾، و﴿كَيْفَقَص﴾، و﴿طه﴾، و﴿طس﴾، و﴿طس﴾، و﴿يس﴾، و﴿ص﴾، و﴿حَم﴾، و﴿ق﴾، و﴿ن﴾ قال: هو قسم أقسمه الله، وهو من أسماء الله. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله ﴿الْم﴾ قال: هي اسم الله الأعظم. وأخرج عبد بن حميد، عن الربيع بن أنس في قوله ﴿الْم﴾ قال: ألف مفتاح اسمه الله، ولام مفتاح اسمه لطيف، وميم مفتاح اسمه مجيد. وقد روي نحو هذه التفسيرات عن جماعة من التابعين منهم عكرمة والشعبي والسدي، وقتادة، ومجاهد، والحسن. فإن قلت: هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة قال في تفسير شيء من هذه الفواتح قولاً صح إسناده إليه؟ قلت: لا لما قدمنا، إلا أن يعلم أنه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول الله ﷺ. فإن قلت: هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولا منخل للغة العرب، فلم لا يكون له حكم الرفق؟ قلت: تنزيل هذا منزلة المرفوع، وإن قال به طائفة من أهل الأصول وغيرهم، فليس مما ينشرح له صدور المنصفين، ولا سيما إذا كان في مثل هذا المقام، وهو التفسير لكلام الله سبحانه، فإنه دخول في أعظم الخطر بما لا برهان عليه صحيح إلا مجرد قولهم إنه يبعد من الصحابي كل البعد أن يقول بمحض رأيه فيما لا مجال فيه للاجتهاد، وليس مجرد هذا الاستبعاد مسوغاً للوقوع في خطر الوعيد الشديد. على أنه يمكن أن يذهب بعض الصحابة إلى تفسير بعض المتشابه، كما نجده كثيراً في تفاسيرهم المنقولة عنهم، ويجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه، ثم ها هنا مانع آخر، وهو أن المروي عن الصحابة في هذا مختلف متناقض، فإن عملنا بما قاله أحدهم نون الآخر كان تحكماً لا وجه له، وإن عملنا بالجميع كان عملاً بما هو مختلف متناقض، ولا يجوز. ثم ها هنا مانع غير هذا المانع، وهو أنه لو كان شيء لما قالوه مأخوذاً عن النبي ﷺ لاتفقوا عليه ثم لو كان عندهم شيء عن النبي ﷺ في هذا لما تركوا حكايته عنه ورفعه إليه، لا سيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه، ولا منخل لها. والذي أراه لنفسي ولكل من أحب السلامة، واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عز وجل لا تبلغها عقولنا ولا تهتدى إليها أفهامنا، وإذا انتهت إلى السلامة في

سورة البقرة ﴿لَمْ يَكُنِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾ فأتى لُخَاةَ حَيٍّ بَنِ أَخْطَبٍ فِي رِجَالٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ: تَعْلَمُونَ، وَاشْ لَقَدْ سَمِعْتُ مُحَمَّدًا يَقُولُ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿لَمْ يَكُنِ الْكِتَابُ﴾، فَقَالَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ؟ فَقَالَ نَعَمْ، فَمَشَى حَيٍّ فِي أَوَّلِ الْكَتَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَلَمْ تَنْكَرْ أَنَّكَ تَتْلُو، فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ ﴿لَمْ يَكُنِ الْكِتَابُ﴾ قَالَ: «بَلَى»، قَالُوا: لَجَأُكَ يَهْدَا جَبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالُوا: لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ قَبْلَكَ الْأَنْبِيَاءَ مَا نَعْلَمُهُ بَيْنَ نَبِيِّهِمْ مَا مَدَّةَ مُلْكِهِ، وَمَا أَجَلَ أُمَّتِهِ غَيْرِكَ، فَقَالَ حَيٌّ ابْنُ أَخْطَبٍ وَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ كَانَ مَعَهُ: الْأَلْفَ وَاحِدًا، وَالْأَلْفَ ثَلَاثِينَ، وَالْمِائِمَ أَرْبَعِينَ، فَهَذَا إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً، أَقْتَدِخُلُونَ فِي بَيْنِ نَبِيِّيْهِ إِنَّمَا مَدَّةُ مُلْكِهِ، وَأَجَلَ أُمَّتِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً؟ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: ﴿الْفَصْحَى﴾، قَالَ: هَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ: الْأَلْفَ وَاحِدَةً، وَالْأَلْفَ ثَلَاثِينَ، وَالْمِائِمَ أَرْبَعِينَ، وَالصَّادُ تِسْعُونَ، فَهَذَا إِحْدَى وَسِتُونَ وَمِائَةً سَنَةً، هَلْ مَعَ هَذَا يَا مُحَمَّدُ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: ﴿الْأَرْبُ﴾، قَالَ: هَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ: الْأَلْفَ وَاحِدَةً، وَالْأَلْفَ ثَلَاثِينَ، وَالرَّاءُ مِائَتَانِ، هَذِهِ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ سَنَةً وَمِائَتَانِ، فَبَلَغَ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ: ﴿الْمِائِمُ﴾، قَالَ: فَهَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ: الْأَلْفَ وَاحِدَةً، وَالْأَلْفَ ثَلَاثِينَ، وَالْمِائِمَ أَرْبَعِينَ، وَالرَّاءُ مِائَتَانِ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً وَمِائَتَانِ، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ لَيْسَ عَلَيْنَا أَمْرٌ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى مَا نَنْدِرِي قَلِيلًا أَعْطَيْتِ أَمْ كَثِيرًا، ثُمَّ قَامُوا، فَقَالَ أَبُو يَاسِرٍ لِأَخِيهِ حَيٍّ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَحْبَارِ: مَا يَدْرِيكُمْ لَعَلَّ قَدْ جَمَعَ هَذَا لِمُحَمَّدٍ كُلَّهُ إِحْدَى وَسَبْعُونَ وَاحِدًا وَسِتُونَ وَمِائَةً وَاحِدًا وَثَلَاثُونَ وَمِائَتَانِ وَاحِدًا وَسَبْعُونَ وَمِائَتَانِ، فَهَذَا سَبْعُمِائَةٍ وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، فَقَالُوا: لَقَدْ تَشَابَهَ عَلَيْنَا أَمْرُهُ، فَيُزْعَمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7] فَانْظُرْ مَا بَلَغَتْ إِلَيْهِ أَقْهَامُهُمْ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الْمُخْتَصِّ بِهِمْ مِنْ عِنْدِ الْحُرُوفِ مَعَ كَوْنِهِ لَيْسَ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ فِي شَيْءٍ، وَتَأْمَلْ أَيَّ مَوْضِعٍ أَحَقُّ بِالْبَيَانِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَلَاعِينَ قَدْ جَعَلُوا مَا فَهَمُوهُ عِنْدَ سَمَاعِ ﴿لَمْ يَكُنِ الْكِتَابُ﴾ مِنَ ذَلِكَ الْعَدَدِ مُوجِبًا لِلتَّشْبِيهِ عَنِ الْإِجَابَةِ لَهُ، وَالْدُخُولِ فِي شَرِيعَتِهِ، فَلَوْ كَانَ لِذَلِكَ مَعْنَى يَعْقِلُ، وَمُدُلُّوهُ يَفْهَمُ، لَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا ظَنُّوه بِأَدْنَى بَدْءٍ حَتَّى لَا يَتَأَثَّرَ عَنْهُ مَا جَاقُوا بِهِ مِنَ التَّشْكِيكِ عَلَى مَنْ مَعَهُمْ.

فإن قلت: هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شيء يصلح للمتمسك به؟ قلت: لا أعلم أن رسول الله ﷺ تكلم في شيء من معانيها، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها، فأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي وصححه، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الْم﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» وله طرق عن ابن مسعود. وأخرج ابن أبي

هديان: هدى دلالة، وهو الذي يقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7] وقال: ﴿وَأَنْتَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52] فأنشئت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرد سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56] فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5] وقوله: ﴿وَلَكِنْ إِنْ يَهْدِي مِنْ شَاءَ﴾ [القصص: 56] انتهى. والمتقين من ثبتت لهم التقوى. قال ابن فارس: وأصلها في اللغة قلة الكلام. وقال في الكشف: المتقي في اللغة: اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى، والوقاية: الصيانة، ومنه: فرس واق، وهذه الدابة تقي من وجارها: إذا أصابها ضلع من غلظ الأرض ورقة الحافر، فهو يقي حافره أن يصيبه أنى شيء يؤلمه. وهو في الشريعة: الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك. انتهى. وأخرج ابن جرير، والحاكم، وصححه عن ابن مسعود أن الكتاب: القرآن، لا ريب فيه: لا شك فيه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «لا ريب فيه» قال: لا شك فيه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء قال: الريب الشك. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله، وكذا ابن جرير عن مجاهد. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: نور للمتقين، وهم المؤمنون. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ويرجون رحمته في التصديق مما جاء منه، وأخرج ابن أبي حاتم، عن معاذ بن جبل أنه قيل له: من المتقين؟ فقال: قوم اتقوا الشرك، وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن أبي هريرة: أن رجلاً قال له: ما التقوى؟ قال: هل وجدت طريقاً ذا شك؟ قال نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رايت الشوك عقلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى. وأخرج أحمد في الزهد، عن أبي الدرداء قال: تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من منقال نرة حين يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً يكون حجاباً بينه وبين الحرام. وقد روي نحو ما قاله أبو الدرداء، عن جماعة من التابعين. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عطية السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس» فالمصير إلى ما أقاده هذا الحديث واجب، ويكون هذا معنى شرعياً للمتقي لخص من المعنى الذي قدمنا عن صاحب الكشف زاعماً أنه المعنى الشرعي.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

مدالك، فلا تجاوزه، وسيأتي لنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ [آل عمران: 7] كلام طويل الذيل، وتحقيق قبله صحيحات الألفاظ وسليمان العقول.

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾

الإشارة بقوله ذلك إلى الكتاب المذكور بعده. قال ابن عباس: ﴿ذلك الكتاب﴾ هذا الكتاب، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، ومقاتل، وزيد بن أسلم، وابن جريج، وحكاه البخاري عن أبي عبيدة. والعرب قد تستعمل الإشارة إلى البعيد الغائب مكان الإشارة إلى القريب الحاضر، كما قال خفاف:

أقول له والرمح ياطر منته تامل خفافاً أنني أنا نلكا أي: أنا هذا، ومنه قوله تعالى: ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾ [السجدة: 6] ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم﴾ [الأنعام: 83] ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك﴾ [البقرة: 252] ﴿فلنكم حكم الله يحكم بينكم﴾ [المتحنة: 10] وقيل: إن الإشارة إلى غائب، واختلف في ذلك الغائب، فقيل: هو الكتاب الذي كتب على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل، والرزق ﴿لا ريب فيه﴾ أي: لا مبدل له، وقيل: ذلك الكتاب الذي كتبه الله على نفسه في الأزل أن رحمته سبقت غضبه، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه، فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب غضبي». وفي رواية «سبقت». وقيل: الإشارة إلى ما قد نزل بمكة، وقيل: إلى ما في التوراة والإنجيل، وقيل: إشارة إلى قوله قبله ﴿الْقُرْآنُ﴾، ورجحه الزمخشري، وقد وقع الاختلاف في ذلك إلى تمام عشرة أقوال حسبما حكاها القرطبي، وأرجحها ما صدرناه، واسم الإشارة مبتدأ، والكتاب صفته، والخبر لا ريب فيه، ومن جواز الابتداء بـ ﴿الْقُرْآنُ﴾ جعل ذلك مبتدأ ثانياً، وخبره الكتاب، أو هو صفته، والخبر لا ريب فيه، والجملة خبر المبتدأ. ويجوز أن يكون المبتدأ مقدرًا، وخبره ﴿الْقُرْآنُ﴾، وما بعده. والريب مصدر، وهو: قلق النفس واضطرابها، وقيل: إن الريب: الشك. قال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافاً. وقد يستعمل الريب في التهمة والحاجة، حكى ذلك القرطبي. ومعنى هذا النفي العام أن الكتاب ليس بمظنة للريب لوضوح دلالاته وضوحاً يقوم مقام البرهان المقتضى لكونه لا ينبغي الارتياح فيه بوجه من الوجوه، والوقف على ﴿فيه﴾ هو المشهور. وقد روي عن نافع، وعاصم الوقف على ﴿لا ريب﴾، قال في الكشف: ولا بد للواقف من أن ينوي خبراً، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: 50] وقول العرب: لا بأس، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز، والتقدير: لا ريب فيه فيه هدى. والهدى مصدر. قال الزمخشري: وهو: الدلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلال في مقابلته انتهى. ومحل رفع على الابتداء وخبره الظرف المذكور قبله على ما سبق. قال القرطبي: الهدى

نصركم، فيا ليتني قد لقيت إخواني» وأخرج نحوه ابن عساکر في الأربعين السبعية من حديث أنس، وفي إسناده أبو هبة، وهو كتاب، وزاد فيه: «ثم قرأ النبي ﷺ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة» [البقرة: 3] الآية. وأخرج أحمد، والدارمي، والبارودي وابن قانع معاً في معجم الصحابة، والبخاري في تاريخه، والطبراني، والحاكم عن أبي جمعة الأنصاري قال: قلت: يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً؟ أمنا بك، واتبعتك، قال: «ما يمنعكم من ذلك، ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم يأتون من بعكم يأتيهم كتاب الله بين لوحين فيؤمنون به، ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجراً». وأخرج أحمد، وابن أبي شيبة، والحاكم، عن أبي عبد الرحمن الجهني قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع راكبان، فقال رسول الله ﷺ: «كنديان أو منجحيان» حتى أتيا، فإذا رجلان من منجج، فدنا أحدهما ليبيعه، فلما أخذ بيده قال: يا رسول الله أرايت من جاءك فأمن بك واتبعتك وصنعتك فماذا له؟ قال: «طوبى له» فمسح على زنده، وانصرف، ثم جاء الآخر حتى أخذ بيده ليبيعه فقال: يا رسول الله أرايت من آمن بك، وصنعتك، واتبعتك، ولم يرك؟ قال: «طوبى له ثم طوبى له»، ثم مسح على زنده، وانصرف. وأخرج الطيالسي، وأحمد، والبخاري في تاريخه، والطبراني، والحاكم عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن رأيي وأمن بي، وطوبى لمن آمن بي، ولم يرني سبع مرات». وأخرج أحمد، وابن حبان، عن أبي سعيد: أن رجلاً قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك، وأمن بك؟ قال: «طوبى لمن رأيي وأمن بي، وطوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني» وأخرج الطيالسي، وعبد بن حميد، عن ابن عمر نحوه. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، والطبراني من حديث أنس نحو حديث أبي أمامة الباهلي المتقدم. وأخرج سفيان بن عيينة، وسعيد بن منصور، وأحمد بن منيع في مسنده، وابن أبي حاتم، وابن الضبائي، والحاكم وصححه عن ابن مسعود، أنه قال: والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيث، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ [البقرة: 1-5] وللتابعين أقوال، والراجح ما تقدم من أن الإيمان الشرعي يصلح على جميع ما نكر هنا، قال ابن جرير: والأولى أن تكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً، واعتقاداً، وعملاً. قال: وتدل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله، وكتبه، ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل. وقال ابن كثير: إن الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً، وقولاً، وعملاً، وهكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو عبيد، وغير واحد إجماعاً أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص. وقد ورد فيه آيات كثيرة. انتهى.

وَيُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْتَرُونَ ﴿١٠٠﴾

هو معطوف على «يؤمنون» والإقامة في الأصل: الدوام

هو وصف للمؤمنين كاشف. والإيمان في اللغة: التصديق، وفي الشرع ما سيأتي. والغيب في كلام العرب: كل ما غاب عنك. قال القرطبي: واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا، فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية هو الله سبحانه، وضعفه ابن العربي. وقال آخرون: القضاء والقدر. وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون: الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهتدي إليه العقول من أشراف الساعة، وعذاب القبر، والحشر والنشر، والصراف، والميزان، والجنة والنار. قال ابن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها، قال: وهذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبريل حين قال للنبي ﷺ: «فأخبرني عن الإيمان؟» قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صلت. انتهى. وهذا الحديث هو ثابت في الصحيح بلفظ: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره». وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده، وأبو نعيم، كلاهما في معرفة الصحابة عن تويلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر، أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيليا، فصلينا سجدتين، ثم جاءنا من يخبرنا بأن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت، فتحوّل الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلون البيت الحرام، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب». وأخرج البزار، وأبو يعلى، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ فقال: انبئوني بأفضل أهل الإيمان إيماناً؟ فقالوا: يا رسول الله الملائكة، قال: «هم كذلك، ويحق لهم، وما يمنعههم، وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها» قالوا: يا رسول الله الأنبياء أكرمهم الله برسالته والنبوة، قال: «هم كذلك، ويحق لهم، وما يمنعههم، وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها» قالوا: يا رسول الله الشهداء الذين استشهدوا مع الأنبياء، قال: «هم كذلك، وما يمنعههم، وقد أكرمهم الله بالشهادة» قالوا: فمن يا رسول الله؟ قال: أقول في أصناف الرجال يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، ويصدقوني ولم يروني، يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيماناً» وفي إسناده محمد بن أبي حميد، وفيه ضعف. وأخرج الحسن بن عرفة في حزه المشهور، والبيهقي في الدلائل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: فذكر نحو الحديث الأول، وفي إسناده المغيرة بن قيس البصري، وهو منكر الحديث. وأخرج نحوه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً، والإسماعيلي عن أبي هريرة مرفوعاً أيضاً، والبزار عن أنس مرفوعاً. وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ليتني قد لقيت إخواني» قالوا: يا رسول الله لسنّا إخوانك؟ قال: «بلى، ولكن قوم يجيئون من بعكم يؤمنون بي إيمانكم ويصدقوني تصديقكم وينصرونني

نزلت. وقد رجح هذا ابن جرير، ونقله السدي في تفسيره عن ابن عباس، وابن مسعود، وأنس من الصحابة، واستشهد له ابن جرير بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: 119] ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين* أولئك يؤتون أجرهم مرتين* [القصص: 52 - 54] الآية. والآية الأولى نزلت في مؤمني العرب. وقيل: الآيتان جميعاً في المؤمنين على العموم. وعلى هذا، فهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى صفة للمؤمنين بعد صفة، ويجوز أن تكون مرفوعة على الاستثناء، ويجوز أن تكون معطوفة على المتقين، فيكون التقدير: هدى للمتقين، وللمؤمنين يؤمنون بما أنزل إليك. والمراد بما أنزل إلى النبي ﷺ هو القرآن. وما أنزل من قبله: هو الكتب السالفة.

والإيقان: إيقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه، قاله في الكشاف. والمراد أنهم يوقنون بالبعث، والنشور، وسائر أمور الآخرة من دون شك. والآخرة تأنيث الآخر الذي هو نقيض الأول، وهي صفة الدار كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: 83] وفي تقديم الظرف مع بناء الفعل على الضمير المذكور إشعار بالحصر، وأن ما عدا هذا الأمر الذي هو أساس الإيمان ورأسه ليس بمستأهل للإيقان به والقطع بوقوعه. وإنما عبر بالماضي مع أنه لم ينزل إذ ذاك إلا البعض لا الكل تغليبا للموجود على ما لم يوجد، أو تنبيهاً على تحقق الوقوع كأنه بمنزلة النازل قبل نزوله. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: يصقونك بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جأؤهم به من ربهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إيماناً بالبعث، والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان أي: لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك ويكفرون بما جاء من ربك. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة نحوه.

والحق أن هذه الآية في المؤمنين كالتي قبلها، وليس مجرد ذكر الإيمان بما أنزل إلى النبي ﷺ، وما أنزل إلى من قبله بمقتضى لجعل ذلك وصفاً لمؤمني أهل الكتاب، ولم يأت ما يوجب المخالفة لهذا ولا في النظم القرآني ما يقتضي ذلك. وقد ثبت الثناء على من جمع بين الأمرين من المؤمنين في غير آية. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: 136] وكقوله: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: 46]، وقوله: ﴿أَمِنْ الرُّسُولِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرَقُوا بَيْنَ أَحَدٍ

والثبات. يقال قام الشيء: أي دام وثبت. وليس من القيام على الرجل، وإنما هو من قولك قام الحق. أي: ظهر وثبت. قال الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

وقال آخر:

وإذا يقال أقيموا لم تبرحوا حتى تقيم الخيل سوق طعان وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها. والصلاة أصلها في اللغة: الدعاء من صلى يصلي إذا دعا. وقد نكر هذا الجوهري وغيره. وقال قوم: هي مأخوذة من الصلاة، وهو عرق في وسط الظهر، ويفترق عند العجب. ومنه أخذ المصلي في سبق الخيل، لأنه يأتي في الحلبة، ورأسه عند صلوى السابق، فاشتقت منه الصلاة لأنها ثانية للإيمان فشبهت بالمصلي من الخيل، وإما لأن الرامح يثني صلوليه، والصلا مغزى الذنب من الفرس، والاثنان صلوان، والمصلي تالي السابق؛ لأن رأسه عند صلوه. نكر هذا القرطبي في تفسيره. وقد نكر المعنى الثاني في الكشاف، هذا المعنى اللغوي. وإما المعنى الشرعي، فهو هذه الصلاة التي هي ذات الأركان والانتكار. وقد اختلف أهل العلم هل هي مبقاة على أصلها اللغوي، أو موضوعة وضعاً شرعياً ابتدائياً. فقيل: بالأول، وإنما جاء الشرع بزيادات هي الشروط والفروض الثابتة فيها. وقال قوم بالثاني. والرزق عند الجمهور ما صلح للانتفاع به حالاً كان أو حراماً خلافاً للمعتزلة، فقالوا: إن الحرام ليس برزق، وللمبحث في هذه المسألة موضع غير هذا. والإنفاق: إخراج المال من اليد، وفي المجيء بمن التبعية هاهنا نكتة سرية هي الإرشاد إلى ترك الإسراف. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن إسحاق، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالصَّلَاةِ﴾ قال: الصلوات الخمس ﴿وَمَا رُزِقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة: أن إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها ﴿وَمَا رُزِقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ﴾ قال: أنفقوا في فرائض الله التي افترض عليهم في طاعته وسبيله. وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَا رُزِقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ﴾ قال: هي نفقة الرجل على أهله. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: كانت النفقات قربات يتقربون بها إلى الله عز وجل على قدر مسورهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصلوات في سورة براءة من الناسخات المبينات. واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة، والنفقات، وهو الحق من غير فرق بين النفقة على الأقارب وغيرهم، وصدقة الفرض، والنفل، وعدم التصريح بنوع من الأنواع التي يصدق عليها مسمى الإنفاق يشعر أتم إشعار بالتعميم.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْآخِرَةُ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤٧﴾

وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب، فإنهم جمعوا بين الإيمان بما أنزل الله على محمد ﷺ، وما أنزله على من قبله، وفيهم

منهم ﴿النساء: 152﴾.

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

هذا كلام مستأنف استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: كيف حال هؤلاء الجامعين بين التقوى والإيمان بالغيب، والإتيان بالفرائض، والإيمان بما أنزل على رسول الله ﷺ وعلى من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقيل: ﴿أولئك على هدى﴾ ويمكن أن يكون هذا خبراً عن الذين يؤمنون بالغيب الخ، فيكون متصلاً بما قبله. قال في الكشف: ومعنى الاستعلاء في قوله ﴿على هدى﴾ مثل لتمكنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق، وعلى الباطل. وقد صرحوا بذلك في قوله: جعل الغواية مركباً، وامتنى الجهل، واقتعد غارب الهوى. انتهى. وقد أطال المحققون الكلام على هذا بما لا يتسع له المقام، واشتهر الخلاف في ذلك بين المحقق السعد والمحقق الشريف. واختلف من بعدهم في ترجيح الراجح من القولين، وقد جمعت في ذلك رسالة سميتها [الطود المنيف في ترجيح ما قاله السعد على ما قاله الشريف] فليرجع إليها من أراد أن يتضح له المقام، ويجمع بين أطراف الكلام على التمام. قال ابن جرير: إن معنى ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ على نور من ربهم، وبرهان واستقامة، وسداد بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم، و﴿المفلحون﴾ أي: المنجحون المندركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم، وإيمانهم بالله، وكتبه، ورسله. هذا معنى كلامه. والفلاح أصله في اللغة: الشقّ والقطع، قاله أبو عبيد: ويقال للذي شقت شفته أفلح، ومنه سمي الأكار فلاحاً؛ لأنه شقّ الأرض بالحرث، فكان المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه. قال القرطبي: وقد يستعمل في الفوز والبقاء، وهو أصله أيضاً في اللغة، فمعنى ﴿أولئك هم المفلحون﴾ الفائزون بالجنة، والباقيون. وقال في الكشف: المفلح الفائز بالبغيّة، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر، ولم تستغلّق عليه. انتهى. وقد استعمل الفلاح في السحور، ومنه الحديث للذي أخرجه أبو داود: «حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله ﷺ». قلت: وما الفلاح؟ قال: السحور. فكان معنى الحديث: إن السحور به بقاء الصوم، فلهذا سمي فلاحاً. وفي تكرير اسم الإشارة دلالة على أنّ كلاً من الهدى، والفلاح مستقلّ بتمييزهم به عن غيرهم، بحيث لو انفرد أحدهما لكفى تمييزاً على حياله. وفائدة ضمير الفصل للدلالة على اختصاص المسند إليه بالمسند نون غيره. وقد روى السدي عن أبي مالك، وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة أن الذين يؤمنون بالغيب: هم المؤمنون من العرب، الذين يؤمنون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ، وما أنزل إلى من قبله، هم، والمؤمنون من أهل الكتاب، ثم جمع الفريقين فقال: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ وقد قمنا الإشارة إلى هذا، وإلى ما هو أرجح منه كما هو منقول عن

مجاهد، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة. وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: قيل يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ فنكاد أن نيلس أو كما قال: فقال: «ألا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ﴿التم﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» إلى قوله: ﴿المفلحون﴾ [البقرة: 1 - 5] هؤلاء أهل الجنة، قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء، ثم قال: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم﴾ [البقرة: 6] إلى قوله: ﴿عظيم﴾ هؤلاء أهل النار، قالوا: السنا هم يا رسول الله؟ قال: «لجل».

وقد ورد في فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث: منها ما أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والحاكم والبيهقي، عن أبي بن كعب قال: كنت عند النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا نبي الله إن لي أخاً وبه وجع فقال: «وما وجعه؟» قال: به لعم، قال: «فأنتني به»، فوضعه بين يديه، فعوّذه النبي بفاتحة الكتاب، وأربع آيات ومن أول سورة البقرة، وهاتين الآيتين ﴿واللهم إله واحد﴾ [البقرة: 163] وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ [آل عمران: 18]، وآية من الأعراف: ﴿إن ربكم الله﴾ [الأعراف: 54]، وآخر سورة المؤمنین ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ [المؤمنون: 114]، وآية من سورة الجن ﴿وانه تعالى جد ربنا﴾ [الجن: 3]، وعشر آيات من أول الصفات، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وقل هو الله أحد، والمعوذتين، فقام الرجل كأنه لم يشك قطه. وأخرج نحوه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عبد الرحمن بن أبي يعلى عن رجل عن أبي مثله. وأخرج الدارمي، وابن الضريس، عن ابن مسعود قال: من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة، وآية الكرسي، وأيتين بعد آية الكرسي، وثلاثاً من آخر سورة البقرة لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان، ولا شيء يكره في أهله، ولا ماله، ولا تقرأ على مجنون إلا أفاق. وأخرج الدارمي، وابن المنذر، والطبراني عنه قال: «من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح: أربع من أولها، وآية الكرسي، وأيتان بعدها، وثلاث خواتمها أولها ﴿الله ما في السموات﴾ [البقرة: 284]. وأخرج سعيد بن منصور، والدارمي، والبيهقي عن المغيرة بن سبيع، وكان من أصحاب عبد الله بن مسعود بنحوه. وأخرج الطبراني، والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات أحدكم، فلا تحبسوه، وأسرعوا به إلى قبره، وليقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة، وعند رجله بخاتمة سورة البقرة، وقد ورد في ذلك غير هذا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٣﴾
خَمَّ اللَّهُ عَلٰى قُلُوبِهِمْ وَعَلٰى سَمْعِهِمْ وَعَلٰى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٤﴾

نكر سبحانه فريق الشر بعد الفراغ من نكر فريق الخير

أهل السنة على المعتزلة، وحاولوا دفع هذه الحجة بمثل ما نكره صاحب الكشف، والكلام على مثل هذا متقرر في موطنه.

وقد اختلف في قوله تعالى ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ هل هو داخل في حكم الختم، فيكون معطوفاً على القلوب، أو في حكم التغشية، فقيل: إن الوقف على قوله ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ تام، وما بعده كلام مستقل، فيكون الطبع على القلوب والاسماع، والغشاوة على الأبصار كما قاله جماعة، وقد قرئ ﴿غشاوة﴾ بالنصب. قال ابن جرير: يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويحتمل أن يكون نصبها على الإتيان على محل: وعلى سمعهم، كقوله تعالى ﴿وَحُودِرَ عَيْنٍ﴾ [الواقعة: 22] وقول الشاعر:

علفتها تبنياً وماء بارداً

وإنما وحد السمع مع جمع القلوب والأبصار، لأنه مصدر يقع على القليل، والكثير، والعذاب: هو ما يؤلم، وهو مأخوذ من الحبس والمنع، يقال في اللغة: أعذبه عن كذا: حبسه ومنعه، ومنه عنوبة الماء؛ لأنها حبست في الإناء حتى صفت. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أيضاً في تفسير الآية: أنهم قد كفروا بما عندهم من نكره، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً، وقد كفروا بما عندهم من علمك ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب، وهم الذين نكروهم الله في هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَلَغُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفَرًا﴾ [إبراهيم: 28] قال: فهم الذين قتلوا يوم بدر، ولم يخل القادة في الإسلام إلا رجلان: أبو سفيان، والحكم بن العاص. وأخرج ابن المنذر عن السدي في قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ قال: أوعظتهم أم لم تعظهم. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في هذه الآية قال: أطاعوا الشيطان، فاستحوذ عليهم، فحتم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى، ولا يسمعون، ولا يفقهون، ولا يعقلون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: الختم على قلوبهم، وعلى سمعهم، والغشاوة على أبصارهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، فلا يعقلون، ولا يسمعون، وجعل على أبصارهم: يعني أعينهم غشاوة، فهم لا يبصرون. وروى ذلك السدي، عن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن جرير، عن ابن

قاطعاً لهذا الكلام عن الكلام الأول، معنوياً له بما يفيد أن شأن جنس الكفرة عدم إجداء الإنذار لهم، وأنه لا يترتب عليهم ما هو المطلوب منهم من الإيمان، وأن وجود ذلك كعدمه. وسواء اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصائر، والهمزة وأم مجزئتان لمعنى الاستواء غير مراد بهما ما هو أصلهما من الاستفهام، وصح الابتداء بالفعل، والإخبار عنه بقوله: سواء، هجراً لجانب اللفظ إلى جانب المعنى، كأنه قال: الإنذار وعدمه سواء، كقولهم: تسمع بالمعدي خير من أن تراه أي: سماعك، وأصل للكفر في اللغة: الستر والتغطية، قال الشاعر:

في ليلة كفر النجوم غمامها

أي: سترها، ومنه سمي الكافر كافراً؛ لأنه يغطي بكفره ما يجب أن يكون عليه من الإيمان. والإنذار: الإبلان والإعلام.

قال القرطبي: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقيل: هي عامة، ومعناها الخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب، وسبق في علم الله أنه يموت على كفره. أراد الله تعالى أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله نون أن يعين أحداً. وقال ابن عباس، والكلبي: نزلت في رؤساء اليهود حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، ونظرائهما. وقال الربيع بن أنس: نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب، والأول أصح، فإن من عين أحداً فإنما مثل بمن كشف الغيب بموته على الكفر. انتهى. وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هم لا يؤمنون، وهي جملة مستأنفة؛ لأنها جواب سؤال مقدر كأنه قيل: هؤلاء الذين استوى حالهم مع الإنذار وعدمه ماذا يكون منهم؟ فقيل: لا يؤمنون أي: هم لا يؤمنون. وقال في الكشف: إنها جملة مؤكدة للجملة الأولى، أو خبر لأن، والجملة قبلها اعتراض. انتهى. والأولى ما نكرناه، لأن المقصود الإخبار عن عدم الاعتقاد بإنذارهم، وأنه لا يجدي شيئاً بل بمنزلة العدم، فهذه الجملة هي التي وقعت خبراً لأن، وما بعدها من عدم الإيمان متسبب عنها لا أنه المقصود. وقد قال بمثل قول الزمخشري القرطبي. وقال ابن كيسان: إن خبر «إن» سواء، وما بعده يقوم مقام الصلة. وقال محمد بن يزيد المبرّد: سواء رفع بالابتداء، وخبره «أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ»، والجملة خبر إن. والختم: مصدر ختمت الشيء، ومعناه: التغطية على الشيء، والاستيثاق منه حتى لا يخله شيء، ومنه ختم الكتاب، والباب، وما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غيره. والغشاوة: الغطاء، ومنه غاشية السرج، والمراد بالختم والغشاوة هنا هما المعنويان لا الحسيان أي: لما كانت قلوبهم غير واعية لما وصل إليها، والاسماع غير مؤنية لما يطرّقها من الآيات البينات إلى العقل على وجه مفهوم، والأبصار غير مهنية للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، جعلت بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختماً حسياً، والمستوثق منها استيثاقاً حقيقياً، والمغطاة بغطاء مدرك استعارة أو تمثيلاً، وإسناد الختم إلى الله قد احتج به

علة، أو نفاق، أو تقصير في أمر، قاله ابن فارس. وقيل: هو الألم، فيكون على هذا مستعاراً للفساد الذي في عقائدهم إما شكاً ونفاقاً، أو جحداً وتكذيباً، وتقديم الخبر للإشعار بأن المرض مختص بها مبالغة في تعلق هذا الداء بتلك القلوب لما كانوا عليه من شدة الحسد، وفرط العدواة. والمراد بقوله ﴿فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا﴾ الإخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله ﷺ من النعم، ويتكرر له من منن الله الدنيوية والدينية. ويحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك، وترانف الحسرة، وفرط النفاق. والاليم المؤلم أي: الموجه، وماء في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْتُبُونَ﴾ مصدرية أي: بتكذيبهم، وهو: قولهم ﴿أَمَّا بَالِ اللَّهِ الْيَوْمَ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8] والقراء مجمعون على فتح الراء من قوله مرض، إلا ما رواه الأصمعي عن أبي عمرو أنه: قرأ بإسكان الراء، وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي ﴿يَكْتُبُونَ﴾ بالتخفيف، والباقون بالتشديد. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: شك ﴿فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: شكاً. وأخرج عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: النفاق ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: نكال موجه ﴿بِمَا كَانُوا يَكْتُبُونَ﴾ قال: يبطلون ويحرفون. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود مثل ما قاله ابن عباس أولاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كل شيء في القرآن أليم، فهو الموجه. وأخرج أيضاً عن أبي العالية مثله. وأخرج ابن جرير، عن الضحاک مثله أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: ريبة وشك في أمر الله ﴿فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا﴾ ريبة وشكاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما كانوا يكتبون. قال: إياكم والكتب، فإنه باب النفاق. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد قال: هذا مرض في الدين وليس مرضاً في الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذي دخل في الإسلام. وروي عن عكرمة وطاوس أن المرض: الرياء.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا عَنْ مِلْحَرُونَ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

(إذا) في موضع نصب على الظرف، والعامل فيه قالوا المذكور بعده. وفيه معنى الشرط. والفساد ضد الإصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها. فسد الشيء يفسد فساداً، وفسوداً، فهو فاسد وفسيد. والمراد في الآية: لا تفسدوا في الأرض بالنفاق، وموالة الكفرة، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن، فإنكم إذا فعلتم ذلك فسد ما في الأرض بهلاك الأبدان، وخراب الديار، وبطلان الزرائع، كما هو مشاهد عند ثوران الفتن والتنازع. و﴿إنما﴾ من أدوات القصر، كما هو مبين في علم المعاني. والإصلاح ضد الفساد. لما نهاهم الله عن الفساد الذي هو دأبهم أجابوا بهذه الدعوى العريضة، ونقلوا أنفسهم من الاتصاف بما هي عليه حقيقة، وهو الفساد، إلى الاتصاف بما هو ضد ذلك، وهو

الصلاح، ولم يقفوا عند هذا الكذب البحت، والزور المحض حتى جعلوا صفة الإصلاح مخصصة بهم خالصة لهم، فرد الله عليهم ذلك أبلغ رد لما يفيد حرف التنبيه من تحقق ما بعده، ولما في ﴿إِنْ﴾ من التأكيد، وما في تعريف الخبر مع توسيط ضمير الفصل من الحصر المبالغ فيه بالجمع بين أمرين من الأمور المفيدة له، وردهم إلى صفة الفساد التي هم متصفون بها في الحقيقة رداً مؤكداً مبالغاً فيه بزيادة على ما تضمنته دعواهم الكاذبة من مجرد الحصر المستفاد من إنما. وأما نفي الشعور عنهم، فيحتمل أنهم لما كانوا يظهرُونَ الإصلاح مع علمهم أنهم على الفساد الخالص، ظنوا أن ذلك ينفي عن النبي ﷺ، وينكتم عنه بطلان ما أضمره، ولم يشعروا بأنه عالم به، وأن الخبر يأتي بذلك من السماء، فكان نفي الشعور عنهم من هذه الحيثية لا من جهة أنهم لا يشعرون بأنهم على الفساد، ويحتمل أن فسادهم كان عندهم صلاحاً لما استقر في عقولهم من محبة الكفر، وعدواة الإسلام. وقد أخرج ابن جرير، عن ابن مسعود أنه قال: الفساد هنا هو: الكفر والعمل بالمعصية. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال: إذا ركبوا معصية، فقبل لهم: لا تفعلوا كذا قالوا إنما نحن على الهدى. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن سلمان أنه قرأ هذه الآية فقال: لم يجيئ أهل هذه الآية بعد. قال ابن جرير: يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، لا أنه عني أنه لم يمس ممن تلك صفته أحد. انتهى. ويحتمل أن سلمان يرى أن هذه الآية ليست في المنافقين، بل يحملها على مثل أهل الفتن التي يدين أهلها بوضع السيف في المسلمين، كالخوارج، وسائر من يعتقد في فساده أنه صلاح لما يطرأ عليه من الشبه الباطلة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَايَتُوا كَمَا ءَاتَىٰ نَارًا قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَاتَىٰ أَشْهُهُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ أَشْهُهُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾

أي: وإذا قيل للمنافقين آمنا كما آمن أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار، أجابوا بأحق جواب، وأبعده عن الحق والصواب، فنسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاء، واستخفافاً، فتسببوا بذلك إلى تسجيل الله عليهم بالسفه بابلغ عبارة، وأكد قول. وحصر السفاهة وهي: رقة الحلو، وفساد البصائر، وسخافة العقول فيهم مع كونهم لا يعلمون أنهم كذلك إما حقيقة، أو مجازاً، تنزيلاً لإصرارهم على السفه منزلة عدم العلم بكونهم عليه، وأنهم متصفون به؛ ولما نكر الله هنا السفه ناسبه نفي العلم عنهم؛ لأنه لا يتساقفه إلا جاهل، والكاف في موضع نصب؛ لأنها نعت لمصدر محذوف أي: إيماناً كليمان الناس. وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا

أمن الناس؟ أي: صدقوا كما صدق أصحاب محمد أنه نبي ورسول، وأن ما أنزل عليه حق، ﴿قَالُوا لَنُؤْمِنَ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعنون أصحاب محمد ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ يقول: الجهال ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لا يعقلون. وروي عن ابن عسكرك في تاريخه بسند واه أنه قال: آمنوا كما آمن الناس أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ قال: يعنون أصحاب النبي ﷺ. وأخرج عن الربيع، وابن زيد، مثله. وروى الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس أنها نزلت في شأن اليهود أي: إذا قيل لهم: يعني اليهود ﴿آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿قَالُوا لَنُؤْمِنَ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ سَيِّدِيهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا كُنَّا مَسْتَزِيمِينَ ﴿١٥﴾ اللَّهُ يَسْتَبْرَأُ بِرَبِّهِ وَيَعْلَمُ فِي طَائِفَتِهِمْ يَمَهُونَ ﴿١٦﴾ ﴿لَقَالُوا﴾ أصله لقيوا، نقلت الضمة إلى اللقاف، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين. ومعنى لقيتيه ولاقيته: استقبلته قريباً. وقرأ محمد بن السميع اليماني، وأبو حنيفة (لاقوا)، وأصله لاقبوا تحركت الياء، وانفتح ما قبلها، فانقلبت لقافاً، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. وخلوت بفلان وإليه: إذا انفردت به. وإنما عدي بالي، وهو يتعدى بالياء فيقال: خلوت به لا خلوت إليه، لتضمنه معنى ذهبوا وانصرفوا. والشياطين جمع شيطان على التكسير. وقد اختلف كلام سيبويه في نون الشيطان، فجعلها في موضع من كتابه أصلية، وفي آخر زائدة، فعلى الأول هو من شطن أي: بعد عن الحق، وعلى الثاني من شط أي: بعد، أو شاط أي: بطل، وشاط أي: احترق، وإنشاط: إذا هلك قال:

وقد يشيط على أرماحنا البطل

أي: يهلك.

وقال آخر:

وأبيض ذي تاج أشاطت رملحنا لمعترك بين الفوارس اقتما
أي: أهلك. وحكي سيبويه أن العرب تقول: تشيطان فلان: إذا فعل أفعال الشياطين. ولو كان من شاط لقالوا: تشيط، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

أبما شاطن عصاه عكا هورماه في السجن والأغلال
وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ معناه مصاحبوكم في دينكم، وموافقوكم عليه. والهزؤ: السخرية واللعب. قال الرازي:

قد هزئت مني أم طيسله قالت أراه معبداً لا مال له
قال في الكشف: وأصل الباب الخفة من الهزء، وهو: القتل السريع، وهزأ يهزأ: مات على المكان. عن بعض العرب: مشيت، فلغيت، فظننت لأهزأً على مكاني، ونأقته تهزأ به أي: تسرع، وتخف. انتهى. وقيل أصله الانتقام، قال الشاعر:

قد استهزؤوا منهم بلقي مذج سراتهم وسط الصحاصح جثم
فأفاد قولهم ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أنهم ثابتون على الكفر، وأفاد قولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ ردهم للإسلام ورفعهم للحق، وكأنه جواب سؤال مقتر ناشئ من قولهم: إنا معكم

أي: إذا كنتم معنا فما بالكم إذا لقيتم المسلمين وافقتموهم؟ فقالوا: إنما نحن مستهزؤون بهم في تلك الموافقة، ولم تكن بواطننا موافقة لهم، ولا ماثلة إليهم، فردَّ الله ذلك عليهم بقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: ينزل بهم الهوان والحقارة، وينتقم منهم، ويستخف بهم انتصافاً منهم لعباده المؤمنين، وإنما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاء مع كونه عقوبة ومكافأة مشكلة. وقد كانت العرب إذا وضعت لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء نكرته يمثل ذلك اللفظ، وإن كان مخالفاً له في معناه. وورد ذلك في القرآن كثيراً، ومنه ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40] ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194] والجزاء لا يكون سيئة. والقصاص لا يكون اعتداء؛ لأنه حق، ومنه ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 54] ﴿وَأَنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ واكيد كيداً [الطارق: 15، 16] ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142] ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116]. وهو في السنة كثير كقوله ﷺ: «إن الله لا يمل حتى تملوا» وإنما قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ لأنه يفيد التجرد وقتاً بعد وقت، وهو: أشدَّ عليهم، وأنكأ لقلوبهم، وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الإسمية، لما هو محسوس من أن العقوبة الحادثة وقتاً بعد وقت، والمتجدة حيناً بعد حين، أشدَّ على من وقعت عليه من العذاب الدائم المستمر لأنه يالفه، ويوطن نفسه عليه. والمد: الزيادة. قال يونس بن حبيب: يقال مد في الشر، ومد في الخير، ومنه ﴿وَأَمْدَنَّاكُمْ بَأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: 6] ﴿وَأَمْدَنَّاكُمْ بِفَاكِهِةٍ وَلِحْمٍ﴾ [الطور: 22]. وقال الاخفش: مدت له إذا تركته، وأمديته: إذا أعطيته. وقال الفراء، والحياني: مدت فيما كانت زيانته من مثله، يقال: مدَّ النهر، ومنه ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: 27] وأمديت فيما كانت زيانته من غيره، ومنه: ﴿يَمْدَنُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [آل عمران: 125] والطغيان مجاوزة الحد، والغلو في الكفر، ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ [الحاقة: 11] أي: تجاوز المقدار الذي قدرته الخزان. وقوله في فرعون: ﴿إِنَّا طَغَى﴾ [طه: 24] أي: أسرف في الدعوى حيث قال: ﴿إِنَّا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]. والعمة، والعامه: الحائر المتروك، وذهبت إليه لعمهي: إذا لم يدر أين ذهب، والعمة في القلب كالعمى في العين. قال في الكشف: العمة مثل العمى، إلا أن العمى في البصر والرأي، والعمة في الرأي خاصة. انتهى. والمراد: أن الله سبحانه يطيل لهم المدة ويمهلهم كما قال: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]. قال ابن جرير ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ في ضلالهم، وكفرهم الذين قد غمرهم يتردون حيارى ضللاً ينجون إلى المخرج منه سبيلاً، لأن الله قد طبع على قلوبهم، وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاهم، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً. وقد أخرج الواحدي

عادة العرب في قولهم: ربح بيعك، وخسرت صفقتك، وهو من الإسناد المجازي، وهو إسناد الفعل إلى ملابس للفاعل، كما هو مقرر في علم المعاني. والمراد: ربحوا، وخسروا. والاهتداء قد سبق تحقيقه أي: وما كنا مهتدين في شرائهم والضلالة، وقيل: في سابق علم الله. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «اشترؤا للضلالة بالهدى» أي: الكفر بالإيمان. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: آمنوا ثم كفروا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: استحبوا الضلالة على الهدى، قد والله رأيتهم يخرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَوْا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ دَبَّ اللَّهُ بِضُورِهِمْ وَرَضَاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَصِيرُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يَكُونُ عَنْ يَمِينِهِمْ لَا يَرُجِعُونَ ﴿١٨﴾

«مثلهم» مرتفع بالابتداء، وخبره إما الكاف في قوله «كمثل» لأنها اسم أي: مثل مثل كما في قول الأعشى: انتهبون ولن تنهى لوى شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل وقول امرئ القيس:

ورحنا بكابن الماء يجنب وسطنا تصوب فيه العين طورا وترتقي
أراد مثل الطعن ويمثل ابن الماء، ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً أي: مثلهم مستنير كمثل، فالكاف على هذا حرف. والمثل: الشبه، والمثلان: المتشابهان «والذي» موضوع موضع الذين أي: كمثل الذين استوقدوا، وذلك موجود في كلام العرب كقول الشاعر:

ولن الذي حانت بفلج لساؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
ومنه «وخضتم كالذي خاضوا» [التوبة: 69] ومنه «والذي جاء بالصدق وصنق به أولئك هم المتقون» [الزمر: 33]. ووقود النار: سطوعها وارتفاع لهبها، «واستوقد» بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب، فالسین والتاء زائدتان، قاله الأخفش. ومنه قول الشاعر:

وداع دعا يامن يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب
أي: يجبه، والإضاءة فرط الإنارة، وفعلها يكون لازماً ومتعياً. «وما حوله» قيل ما زائدة، وقيل هي موصولة في محل نصب على أنها مفعول أضاءت، وحوله منصوب على الظرفية، و«ذهب» من الذهاب، وهو زوال الشيء. و«تركهم» أي: أبقاهم «في ظلمات» جمع ظلمة. وقرأ الأعمش بإسكان اللام على الأصل. وقرأ أشهب العقيلي بفتح اللام، وهي عدم النور. و«صم» وما بعده خبر مبتدأ محذوف أي: هم. وقرأ ابن مسعود «صماً بكماً عمياً» بالنصب على الذم، ويجوز أن ينتصب بقوله تركهم. والصمم: الانسداد، يقال قناة صماء: إذا لم تكن مجوفة. وصممت القارورة: إذا سدتها، وفلان أصم: إذا انسدت خروقه

والتعليبي بسند واه، لأن فيه محمد بن مروان، وهو متروك، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه، وذكر قصة وقعت لهم مع أبي بكر، وعمر، وعلي رضي الله عنهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبي ﷺ، أو بعضهم قالوا: إنا على دينكم «وإذا خلوا إلى شياطينهم» وهم إخوانهم قالوا: «إنا معكم» على مثل ما أنتم عليه «إنما نحن مستهزؤون» بأصحاب محمد «الله يستهزئ بهم» قال: يسخر بهم للنعمة منهم «ويمدهم في طغيانهم» قال: في كفرهم «يعمهمون» قال: يتركون. وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه بمعناه، وأطول منه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه بنحو الأول، وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود في قوله: «وإذا خلوا إلى شياطينهم» قال: رؤسائهم في الكفر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك قال: «وإذا خلوا» أي: مضوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحو ما قاله ابن مسعود، وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود في قوله: «ويمدهم» قال: يملئ لهم «في طغيانهم يعمهمون» قال: في كفرهم يتمنون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحو ما قاله ابن مسعود في تفسير «يعمهمون». وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد «يمدهم» يزيدهم «في طغيانهم يعمهمون» قال: يلعبون ويتربصون في الضلالة. وأخرج أحمد في المسند، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال: «نعم».

أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَوْفَوْا الضَّلَالَةَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قال سيبويه: صحت الواو في «اشترؤا» فرقاً بينها، وبين الواو الأصلية في نحو «والو استقاموا» [الجن: 16]. وقال الزجاج: حركت بالضم كما يفعل في نحن. وقرأ يحيى بن يعمر بكسر الواو على أصل النقاء الساكنين. وقرأ أبو السماك العدوي بفتحها لخفة الفتحة. وأجاز الكسائي همز الواو. والشراء هنا مستعار للاستبدال أي: استبدلوا الضلالة بالهدى كقوله تعالى: «فاستحبوا العمى على الهدى» [فصلت: 17] فاما أن يكون معنى الشراء المعاوضة، كما هو أصله حقيقة فلا، لأن المناققين لم يكونوا مؤمنين، فيبيعوا إيمانهم، والعرب قد تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء. قال أبو ذؤيب:

فإن تزعميني كنت أجهل فيكم فإني شريت اللحم ببعك بالجهل
وأصل الضلالة: الحيرة، والجور عن القصد، وفقد الاهتداء، وتطلق على النسيان، ومنه قوله تعالى: «قال فعلتها إذا وأنا من الضالين» [الشعراء: 20]، وعلى الهلاك كقوله: «وقالوا إذا ضللنا في الأرض» [السجدة: 10] وأصل الريح الفضل. والتجارة: صناعة التاجر، وأسند الريح إليها على

والخير من الشرِّ، فبينما هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشرِّ، فهم صم بكم هم الخرس، فهم لا يرجعون إلى الإسلام. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمِثْلَ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: ضربه الله مثلاً للمنافق، وقوله ﴿ذهب الله بنورهم﴾ قال: أما النور، فهو إيمانهم الذي يتكلمون به، وأما الظلمة، فهو ضلالهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد نحوه. وأخرجنا أيضاً عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة، والحسن والسدي، والربيع بن أنس نحو ما تقدم.

أَوْ كَمِثْلِ مَن أَلْتَمَأَ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ رَّيْقٌ يَجْمَلُونَ أَمِيعَةً فِي ذَاكِهِمْ
بَيْنَ الْفَرَقَيْنِ حَذَرُ الْوَرَى وَاللَّهُ يُحِيطُ بِالْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ يَكَاذِبُونَ يُطَفِّئُونَ
أَنْبَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ
بَسْمُومَهُمْ وَأَنْبَارَهُمْ إِنْكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

عطف هذا المثل على المثل الأول بحرف الشك لقصد التخيير بين المثلين أي: مثلوهم بهذا، أو هذا، وهي وإن كانت في الأصل للشك، فقد توسع فيها حتى صارت لمجرد التساوي من غير شك - وقيل: إنها بمعنى الواو، قاله الفراء، وغيره، وأنشد:

وقد زعمت ليلى باني فلاجر لنفسي تقاهوا أو عليها فجورها
وقال آخر:

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر
والمراد بالصيب: المطر، واشتقاقه من صاب يصوب: إذا نزل. قال علقمة:

فلا تعلني بيني وبين معمر سقتك روايا الموت حيث تصوب
وأصله صيوب، اجتمعت الواو والواو، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء وأدغمت، كما فعلوا في ميت، وسيد. والسماء في الأصل: كل ما علاك فأنطك. ومنه قيل لسقف البيت سماء. والسماء أيضاً: المطر، سمي بها لنزوله منها، وفائدة نكر نزوله من السماء مع كونه لا يكون إلا منها أنه لا يختص نزوله بجانب منها لكون جانب، وإطلاق السماء على المطر واقع كثيراً في كلام العرب، فمنه قول حسان:

ليار من بني الحسحاس فقر تعفيها النوامس والسماء
وقال آخر:

إذا نزل السماء بارض قوم

والظلمات قد تقدم تفسيرها، وإنما جمعها إشارة إلى أنه انضم إلى ظلمة الليل ظلمة الغيم، والرعد: اسم لصوت الملك الذي يزجر السحاب. وقد أخرج الترمذي من حديث ابن عباس قال: سألت اليهود النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ قال: «ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر». قالت: صدقت، الحديث بطوله، وفي إسناده مقال. قال القرطبي: وعلى هذا التفسير أكثر العلماء، وقيل: هو: اضطراب أجرام

مسامعه. والأيكم: الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس. وقيل: الأخرس والأيكم واحد. والعسمى: ذهاب البصر. والمراد بقوله: ﴿فهم لا يرجعون﴾ أي: إلى الحق، وجواب لما في قوله: ﴿فلما أضاعت﴾، قيل هو: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ وقيل: محنوف تقديره: طفئت فبقوا حائرين. وعلى الثاني فيكون قوله: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ كلاماً مستأنفاً، أو بدلاً من المقدر.

ضرب الله هذا المثل للمنافقين لبيان أن ما يظهرهونه من الإيمان مع ما يبطنونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام الإسلام، كمثّل المستوقد الذي أضاعت ناره، ثم طفئت، فإنه يعود إلى الظلمة، ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة، فكان بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده. وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل؛ لأن الباطل كذلك تسطع نوابه لهب ناره لحظة، ثم تخفت. ومنه قولهم: للباطل صولة، ثم يضمحل، وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنًا عظيمًا في إبراز خفيات المعاني، ورفع أستار محجبات الدقائق ولهذا استكثر الله من ذلك في كتابه العزيز، وكان رسول الله ﷺ يكثر من ذلك في مخاطباته ومواظبه. قال ابن جرير: إن هؤلاء المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ [البقرة: 8]. وقال ابن كثير: إن الصواب أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلبوه، وطبع على قلوبهم كما يفيداه قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ [المنافقون: 3]. قال ابن جرير: وصحَّ ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال «رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت» [الأحزاب: 19] أي: كنور أن عيني الذي يغشى عليه من الموت، وقال تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ [الجمعة: 5] اهـ. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام، فينكحهم المسلمون، ويوارثونهم، ويقاسمونهم الفتي، فلما ماتوا سلبهم الله العزَّ كما سلب صاحب النار ضوءه «وتركهم في ظلمات لا يبصرون» يقول: في عذاب «صم بكم عمي» فهم لا يسمعون الهدى، ولا يبصرونه، ولا يعقلونه. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا﴾ قالوا: إن ناساً دخلوا في الإسلام عند مقدم النبي ﷺ المدينة ثم نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقد نارا فأضاعت ما حوله من قذى وأذى، فأبصره حتى عرف ما يتقي، فبينما هو كذلك إذا طفئت ناره فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى. فكنكك المنافق كان في ظلمة الشرك، فأسلم فعرف الحلال من الحرام،

الله ﷻ إلى المشركين، فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد شديد وصواعق وبرق، فجعلنا كلما أصابهما الصواعق يجعلان أصابعهما في آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهم، وإذا لمع البرق مشياً في ضوئه وإذا لم يلمع لم يبصرا قاما مكانهما لا يمشيان فجعلنا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فأتاني محمداً فنضع أيدينا في يده، فأصبحا فأتياه فأسلما، ووضعوا أيديهما في يده وحسن إسلامهما فضرب الله شان هذين المنافقين الخارجين مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة، وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم فرقاً من كلام النبي ﷺ أن ينزل فيهم شيء، أو ينكروا بشيء فيقتلوا، كما كان ذلك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما، وإذا أضاء لهم مشوا فيه أي: فإذا كثرت أموالهم وأولادهم، وأصابوا غنيمة، وفتحاً مشوا فيه، وقالوا: إن دين محمد ﷺ حينئذ صديق، واستقاموا عليه، كما كان ذاك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهم البرق، وإذا أظلم عليهم قلموا، فكانوا إذا هلكت أموالهم وأولادهم، وأصابهم البلاء قالوا: هذا من أجل دين محمد ﷺ، وارتدوا كفراً كما قام المنافقان حين أظلم البرق عليهما. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: ﴿أو كصيب﴾ قال: هو، المطر، وهو مثل للمنافق في ضوئه يتكلم بما معه من كتاب الله مرآة الناس، فإذا خلا وحده عمل بغيره، فهو في ظلمة ما أقام على ذلك، وأما الظلمات: فالضلالات. وأما البرق: فالإيمان، وهم أهل الكتاب، وإذا أظلم عليهم: فهو رجل يأخذ بطرف الحق لا يستطيع أن يجاوزه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أيضاً نحو ما سلف. وقد روي تفسيره بنحو ذلك عن جماعة من التابعين.

واعلم أن المنافقين أصناف، فمنهم من يظهر الإسلام، ويبطن الكفر، ومنهم من قال فيه النبي ﷺ كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما: ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حثت كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» وورد بلفظ أربع، وزاد: «وإذا خاصم فجر». وورد بلفظ «وإذا عاهد غدر». وقد ذكر ابن جرير ومن تبعه من المفسرين أن هذين المثلين لصنف واحد من المنافقين.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَعْوَن ﴿١٠١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرْشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْسَمُوا لَهُ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٢﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر المؤمنين، والكافرين، والمنافقين أقبل عليهم بالخطاب التفاتاً للنكتة السابقة في الفاتحة. ويا حرف نداء، والمنادى أي: وهو اسم مفرد مبني على الضم، وها حرف تنبيه مقحم بين المنادى وصفته. قال سيبويه: كأنك كررت «يا» مرتين، وصار الاسم بينهما كما قالوا: هاهوذا. وقد تقم الكلام في تفسير الناس، والعبادة، وإنما خص نعمة الخلق، وامتن بها عليهم؛ لأن جميع النعم مترتبة

السحاب عند نزول المطر منها، وإلى هذا ذهب جمع من المفسرين تبعاً للفلاسفة، وجهلة المتكلمين، وقيل: غير ذلك، والبرق: مخراق حديد بيد الملك الذي يسوق السحاب، وإليه ذهب كثير من الصحابة وجمهور علماء الشريعة للحديث السابق. وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة: إن البرق ما ينقذ من اصطكاك أجرام السحاب المتركمة من الأبخرة المتصعدة المشتعلة على جزء ناري يتلهب عند الاصطكاك. وقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها، كأن قائلها قال: فكيف حالهم عند ذلك الرعد؟ فقيل: يجعلون أصابعهم في آذانهم. وإطلاق الأصبع على بعضها مجاز مشهور، والعلاقة الجزئية والكلية؛ لأن الذي يجعل في الآن إنما هو: رأس الأصبع لا كلها. والصواعق، ويقال الصواعق: هي قطعة نار تنفصل من مخراق الملك الذي يزجر السحاب عند غضبه، وشدة ضربه لها، ويدل على ذلك ما في حديث ابن عباس الذي ذكرنا بعضه قريباً وبه قال كثير من علماء الشريعة. ومنهم من قال: إنها نار تخرج من فم الملك. وقال الخليل: هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحياناً قطعة نار تحرق ما أتت عليه. وقال أبو زيد: الصاعقة: نار تسقط من السماء في رعد شديد. وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة ومن قال بقولهم: إنها نار لطيفة تنقذ من السحاب إذا اصطكت أجرامها. وسيأتي في سورة الرعد إن شاء الله في تفسير الرعد، والبرق، والصواعق ماله مزيد فائدة، وإيضاح. ونصب ﴿حذر للموت﴾ على أنه مفعول لأجله. وقال الفراء: منصوب على التمييز، والموت: ضد الحياة. والإحاطة: الأخذ من جميع الجهات حتى لا تفوت المحاط به بوجه من الوجوه. وقوله: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل: فكيف حالهم مع ذلك البرق؟ يكاد: يقارب. والخطف: الأخذ بسرعة، ومنه سمي الطير خطافاً لسرعته. وقرأ مجاهد ﴿يخطف﴾ بكسر الطاء، والفتح أفصح. وقوله: ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ كلام مستأنف كأنه قيل: كيف تصنعون في تارتي خفوق البرق وسكونه، وهو تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشئته على أهل الصيب ﴿ولو شاء الله لذهب بسبعهم وأبصارهم﴾ بالزيادة في الرعد والبرق ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ وهذا من جملة مقبوراته سبحانه. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ﴿أو كصيب﴾ هو: المطر ضرب مثله في القرآن ﴿فيه ظلمات﴾ يقول: ابتلاء ﴿ورعد وبرق﴾ تخويف ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ يقول: كلما أصاب المنافقون من الإسلام عزاً اطمأنوا، فإن أصاب الإسلام نكية قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ [الحج: 11] الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قالوا: كان رجلاً من المنافقين من أهل المدينة هرباً من رسول

واحد. انتهى. وحذف مفعول تعلمون للدلالة على عدم اختصاص ما هم عليه من العلم بنوع واحد من الأنواع الموجبة للتوحيد. وقد أخرج البزار، والحاكم، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: ما كان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو أنزل بالمدينة، وما كان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو أنزل بمكة. وروى نحو ذلك عن ابن أبي شيبه وعبد بن حميد، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه. وروى نحوه أبو عبيد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر من قول علقمة. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن مروي، وابن المنذر عن الضحاك مثله. وكذا أخرج أبو عبيد عن ميمون بن مهران. وأخرج نحوه أيضاً ابن أبي شيبه، وابن مروي عن عروة، وعكرمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال: هي للفريقين جميعاً من الكفار والمؤمنين. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني: كي. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عون بن عبد الله بن عتبة قال: لعل من الله واجب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا﴾ [البقرة: 22] أي: تمشون عليها وهي: المهاد والقرار ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ [البقرة: 22] قال: كهيئة القبة وهي سقف الأرض. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن أنه سئل: المطر من السماء أم من السحاب قال: من السماء. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن كعب قال: السحاب غريال المطر، ولولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض والبذر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن خالد بن معدان قال: المطر ماء يخرج من تحت العرش، فينزل من سماء إلى سماء حتى يجتمع في سماء الدنيا، فيجتمع في موضع يقال: له الأبرم، فتجيء السحاب السود، فتدخله، فتشربه مثل شرب الإسفنج، فيسوقها الله حيث يشاء. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة قال: ينزل الماء من السماء السابعة، فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن خالد بن يزيد قال: المطر منه من السماء، ومنه ما يستقيه الغيم من البحر، فيعذبه الرعد والبرق. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المطر عن ابن عباس قال: إذا جاء القطر من السماء فتحت له الأصداف، فكان لؤلؤاً. وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي الدنيا في كتاب المطر، وأبو الشيخ في العظمة عن المطلب بن حنطب أن النبي ﷺ قال: «ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء». وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: ما نزل مطر من السماء إلا ومعه البذر، أما لو أنكم بسطتم نطعاً لرايتموه. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: المطر. مزاجه من الجنة، فإذا كثر المزاج عظمت البركة وإن قلَّ المطر، وإذا قلَّ المزاج قلت البركة وإن كثر المطر. وأخرج أبو الشيخ عن

عليها، وهي أصلها الذي لا يوجد شيء منها بدونها وأيضاً، فالكفار مقرّون بأن الله هو الخالق ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87] فامتن عليهم بما يعترفون به، ولا ينكرونه. وفي أصل معنى الخلق، وجهان: أحدهما التقدير، يقال: خلقت الأديم للسقاء: إذا قدرته قبل القطع. قال زهير:

ولأنت تغري ما خلقت وبعـ خـ القوم يخلق ثم لا يفري
الثاني: الإنشاء، والإبداع، ولعل أصلها: الترجي، والطمع، والتوقع، والإشفاق، وذلك مستحيل على الله سبحانه، ولكنه لما كانت المخاطبة منه سبحانه للبشر كان بمنزلة قوله لهم: افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع، وبهذا قال جماعة من أئمة العربية منهم سيبويه. وقيل: إن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى لام كي. والمعنى هنا: لتتقوا، وكذلك ما وقع هذا الموقع، ومنه قول الشاعر:

وقلتم لنا كفوا الحرب لعلنا نكفـ وثقتم لناكل موثق
فلما كفنا الحرب كانت عهولكم كشبه سراب في الملا متالق
أي: كفوا عن الحرب لنكف، ولو كانت لعل للشك لم يوثقوا لهم كل موثق، وبهذا قال جماعة منهم قطرب. وقيل إنها بمعنى التعرض للشيء كأنه قال: متعرضين للتقوى. وجعل هنا بمعنى صير لتعنيته إلى المفعولين، ومنه قول الشاعر:

وقد جعلت أرى الإثنين أربعة والأربع اثنين لما هدني الكبير
و﴿فَرَأَشًا﴾ أي: وطأ يستقرون عليها. لما قُتِمَ نعمة خلقهم أتبعه بنعمة خلق الأرض فراشاً لهم، لما كانت الأرض التي هي مسكنهم، ومحل استقرارهم من أعظم ما تدعو إليه حاجتهم، ثم أتبع ذلك بنعمة جعل السماء كالقبة المضروبة عليهم، والسقف للبيت الذي يسكنونه كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32]. وأصل البناء: وضع لبنة على أخرى، ثم امتنَّ عليهم بإنزال الماء من السماء. وأصل ماء موه، قلبت الواو لتحركها وانفتاح ما قبلها ألفاً فصار ماء، فاجتمع حرفان خفيفان، فقلبت الهاء همزة. والثمرات جمع ثمرة. والمعنى: أخرجنا لكم الوائناً من الثمرات، وأنواعاً من النبات ليكون ذلك متاعاً لكم إلى حين. والأنداد جمع ند، وهو المثل والنظير. وقوله: ﴿وَوَلَّيْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، والخطاب للكفار والمنافقين. فإن قيل: كيف وصفهم بالعلم، وقد نعتهم بخلاف ذلك حيث قال: ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: 13] ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 12]. ﴿وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16]. ﴿صَمَّ بَكَ عَمًى﴾ [البقرة: 18]. فيقال: إن المراد أن جهلهم، وعدم شعورهم لا يتناول هذا أي: كونهم يعلمون أنه المنعم دون غيره من الأنداد، فإنهم كانوا يعلمون هذا، ولا ينكرونه كما حكاها الله عنهم في غير آية. وقد يقال: المراد، وأنتم تعلمون، وحدانيته بالقوة والامكان لو تدبرتم ونظرتم. وفيه دليل على وجوب استعمال الحجج، وترك التقليد. قال ابن فورك: المراد: وتجعلون لله أنداداً بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله

الشرط، وهو: أمر معناه التعجيز. لما احتج عليهم بما ثبت للوحدانية، ويبطل الشرك عقبه بما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ وما يرفع الشبهة في كون القرآن معجزة، فتحداهم بأن يأتوا بسورة من سورة. والسورة: الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص، سميت بذلك، لأنها مشتملة على كلماتها كاشتغال سور البلد عليها. و«من» في قوله ﴿من مثله﴾ زائدة لقوله فاتوا بسورة مثله. والضمير في مثله عائذ على القرآن عند جمهور أهل العلم. وقيل: عائذ على التوراة والإنجيل، لأن المعنى: فاتوا بسورة من كتاب مثله؛ فإنها تصق ما فيه. وقيل: يعود على النبي ﷺ، والمعنى من بشر مثل محمد أي: لا يكتب، ولا يقرأ. والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو المعاون، والمراد هنا: الأكلة. ومعنى ﴿دون﴾: أننى مكان من الشيء، واتسع فيه حتى استعمل في تخطي الشيء إلى شيء آخر، ومنه ما في هذه الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ [آل عمران: 28] وله معانٍ أخرى، منها التقصير عن الغاية، والحقارة، يقال هذا الشيء دون أي: حقير، ومنه:

إذا ما علا المرء رام العلا ويقنع بالذنون من كان دونا والقرب يقال: هذا دون ذاك أي: أقرب منه، ويكون إغراء، تقول: دونك زيدا: أي خذه من أننى مكان ﴿من دون الله﴾ متعلق بادعوا أي: ادعوا الذين يشهدون لكم من دون الله إن كنتم صانقين فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة، وهذا تعجيز لهم، وبيان لانقطاعهم. والصق خلاف الكذب، وهو مطابقة الخبر للواقع، أو للاعتقاد أولهما على الخلاف المعروف في علم المعاني ﴿فإن لم تفعلوا﴾ يعني فيما مضى ﴿ولن تفعلوا﴾ أي: تطيقوا ذلك، فيما ياتي وتبين لكم عجزكم عن المعارضة ﴿فاتقوا النار﴾ بالإيمان بالله، وكتبه، ورسله، والقيام بفرائضه، واجتناب مناهيه، وعبر عن الإتيان بالفعل، لأن الإتيان فعل من الأفعال لقصد الاختصار، وجملة لن تفعلوا لا محل لها من الإعراب، لأنها اعتراضية، ولن للنفي المؤكد لما دخلت عليه، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها؛ لأنها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة في أيام النبوة، وفيما بعدها، وإلى الآن. والوقود بالفتح: الحطب، وبالضم: التوقد أي: المصدر، وقد جاء فيه الفتح. والمراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها؛ لأنهم قرونا أنفسهم بها في الدنيا، فجعلت وقوداً للنار معهم. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: 98] أي: حطب جهنم. وقيل: المراد بها حجارة الكبريت، وفي هذا من التهويل مالا يقدر قدره من كون هذه النار تتقد بالناس والحجارة، فأوقنت بنفس ما يراد إحراقه بها، والمراد بقوله: ﴿أعدت﴾ جعلت عدة لعذابهم، وهيئت لذلك. وقد كرر الله سبحانه تحدي الكفار بهذا في مواضع في القرآن، منها هذا، ومنها قوله تعالى في سورة القصص: ﴿قل فاتوا بكتاب من عند

الحسن قال: ما من عام بأمر من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، وينزل مع المطر كذا وكذا من الملائكة يكتبون حيث يقع ذلك المطر، ومن يزرعه، ومن يخرج منه مع كل قطرة. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ أي: لا تشركوا به غيره من الأنداد التي لا تضر، ولا تنفع ﴿ولن تعلمون﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿أندادا﴾ قال: أشباها. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود ﴿أندادا﴾ قال شركاء. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في الألب المفرد، والنسائي، وابن ماجه، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: جعلتني لله ندا ما شاء الله وحده. وأخرج ابن سعد عن قتيلة بنت صيفى قالت: جاء خبر من الأبحار إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، قال: «وكيف؟» قال: يقول أحكم لا والكعبة فقال النبي ﷺ: «من حلف، فليحلف برب الكعبة». فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله ندا، قال: «وكيف ذلك؟» قال: يقول أحكم ما شاء الله وشئت، فقال النبي ﷺ: «فمن قال منكم ما شاء الله قال ثم شئت». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي عن حنيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان» وأخرج أحمد، وابن ماجه، والبيهقي، وابن مردويه عن طفيل بن سخبرة: أنه رأى فيما يرى النائم كأنه من برهط من اليهود فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيزاً ابن الله، فقالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله، وشاء محمد. ثم من برهط من النصارى فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله، وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبح أخبر النبي ﷺ، فخطب، فقال: «إن طفيلاً رأى رؤيا، وإنكم تقولون كلمة كان يمعني الحياة منكم، فلا تقولوها، ولكن قولوا ما شاء الله وحده لا شريك له» وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفا سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كلبه هذا لاتانا للصوص، ولولا القط في الدار لآتى اللصوص، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان، هذا كله شرك. وأخرج البخاري، ومسلم عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي: الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً، وهو خلقك» الحديث.

وَلَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِنَارِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

﴿في ريب﴾ أي: شك مما نزلنا على عبدنا أي: القرآن أنزله على محمد ﷺ. والعبد مأخوذ من التعبد، وهو التذلل. والتنزيل: التدريج والتنجيم. وقوله: ﴿فاتوا﴾ الفاء جواب

الآية ﴿وقودها للناس والحجارة﴾ قال: «أرقد عليها ألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى أبيضت، وألف عام حتى أسويت، فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها». وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج أحمد، ومالك، والبخاري، ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ قال: «فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها». وأخرج الترمذي وحسنه عن أبي سعيد مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن ماجه، والحاكم وصححه عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج مالك في الموطأ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: أترونها حمراء مثل ناركم هذه التي توقنون، إنها لأشد سواداً من القار. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَعَدَّتْ للكافرين﴾ قال أي: لمن كان مثل ما أنتم عليه من الكفر.

وَيَبَّرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْدَادٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩﴾

لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين ليجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد كما هي عادته سبحانه في كتابه العزيز، لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته، وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه. والتبشير: الإخبار بما يظهر أثره على البشرة، وهي الجلدة الظاهرة، من البشر، والسرور. قال القرطبي: أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال: من بشرني من عبيدي، فهو حر، فبشره واحد من عبيده فأكثر فإن أولهم يكون حرّاً دون الثاني، واختلفوا إذا قال: من أخبرني من عبيدي بكذا، فهو حر، فقال أصحاب الشافعي: يعم لأن كل واحد منهم مخبر، وقال علمائنا: لا، لأن المكلف إنما قصد خبراً يكون بشارته، وذلك مختص بالأول. انتهى. والحق أنه إن أراد ملول الخبر عتقوا جميعاً، وإن أراد الخبر المقيد بكونه بشارته عتق الأول، فالخلاف لغظي. والمأمور بالتبشير قيل: هو: النبي ﷺ، وقيل: هو كل أحد كما في قوله ﷺ: «بشر المشائين» وهذه الجملة وإن كانت مصدرة بالإنشاء، فلا يقدح ذلك في عطفها على جملة وصف عقاب العصاة، من دون نظر إلى ما اشتمل عليه الوصفان من الأفراد المتخالفة خيراً وإنشاء. وقيل: إن قوله: ﴿وَيُوشِرُ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: 24]، وليس هذا بجيد. و﴿الصلاحات﴾ الأعمال المستقيمة. والمراد هنا: الأعمال المطلوبة منهم المفترضة عليهم، وفيه رد على من يقول إن الإيمان بمجرده يكفي، فالجنة تنال بالإيمان، والعمل الصالح، والجنات: البساتين، وإنما سميت جنات؛ لأنها تجرّ من فيها أي: تستر به شجرها، وهو اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على

الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صائقين﴾ [القصاص: 49] وقال في سورة سبحان: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء: 88] وقال في سورة هود: ﴿ألم يقولون افترأه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صائقين﴾ [هود: 13] في سورة يونس: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. ألم يقولون افترأه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صائقين﴾ [يونس: 37، 38].

وقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الإعجاز في القرآن هو كونه في الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر، أو كان العجز عن المعارضة للمصرفة من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه، والحق الأول، والكلام في هذا مبسوط في موطنه. وقد أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ قال: هذا قول الله لمن شك من الكفار فيما جاء به محمد ﷺ، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ قال: في شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ قال: من مثل القرآن حقاً وصدقاً لا باطل فيه، ولا كذب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ قال: مثل القرآن ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ قال: ناس يشهدون لكم إذا أتيتم بها أنها مثله. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ قال: أعوانكم على ما أنتم عليه ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فقد بين لكم الحق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ يقول: لن تقدروا على ذلك، ولن تطيقوه. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد: أنه كان يقرأ كل شيء في القرآن وقودها برفع الواو الأولى، إلا التي في السماء ذات البروج ﴿النار ذات الوقود﴾ [البروج: 5] بنصب الواو. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إن الحجارة التي نكرها الله في القرآن في قوله: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ [البقرة: 24] حجارة من كبريت خلقها الله عنده كيف شاء. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير أيضاً عن عمرو بن ميمون مثله أيضاً. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه

عبد ابن حميد، عن عكرمة قال: قولهم ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ معناه: هذا مثل الذي كان بالأمس. وأخرج ابن جرير عن يحيى بن أبي كثير، نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ في اللون مختلفاً في الطعم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في قوله: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ قال: خيار كله يشبه بعضه بعضاً لا رذل فيه، ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف ترنلون بعضه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مروي، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قال: من الحيض، والغائط، والبزاق، والنخامة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: من القدر، والأذى. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: لا يحضن، ولا يحدثن، ولا يتنخمن. وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين وقد ثبت عن النبي ﷺ في صفات أهل الجنة في الصحيحين، وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة أن أهل الجنة لا يمسحون، ولا يتمخضون، ولا يتغوطون. وثبت أيضاً عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة في الصحيحين، وغيرهما من صفات نساء أهل الجنة ما لا يتسع المقام لبسطه، فليُنظر في نواوين الإسلام، وغيرهما. وأخرج ابن جرير، وابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: خالون أبداً، يخبرهم أن الثواب بالخير، والشّر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني لا يموتون. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «يُخَلُّ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُومُ مَوْزَنٌ بَيْنَهُمْ، يَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ، كُلُّ هُوَ خَالِدٌ فِيهِمَا هُوَ فِيهِ». وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة نحوه. وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه من حديث معاذ نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مروي، وأبو نعيم من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ قِيلَ لِأَهْلِ النَّارِ إِنَّكُمْ مَلَائِكَةٌ فِي النَّارِ عَدَدَ كُلِّ حِصَاةٍ فِي الدُّنْيَا لَفَرَحُوا بِهَا، وَلَوْ قِيلَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ إِنَّكُمْ مَلَائِكَةٌ عَدَدَ كُلِّ حِصَاةٍ لَحَزَنُوا، وَلَكِنْ جَعَلَ لَهُمُ الْآيَةُ».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَوُصِّهَ فَمَا قَوْحَهُ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْمَلُونَ أَنَّهُ الْآخِرُ مِنْ دِينِهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (١٧) الَّذِينَ يَنْفَعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٨﴾

أنزل الله هذه الآية رداً على الكفار لما أنكروا ما ضربه سبحانه من الأمثال كقوله: ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17] وقوله: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 19] فقالوا الله أجبل وأعلا من أن يضرب الأمثال. وقال

جنت كثيرة. والأنهار جمع نهر، وهو: المجرى الواسع فوق الجبول وبون البحر، والمراد: الماء الذي يجري فيها، وأسند الجري إليها مجازاً، والجاري حقيقة هو الماء كما في قوله تعالى ﴿وَإِسْالَ الْقَرِيَةِ﴾ [يوسف: 82] أي: أهلها، وكما قال الشاعر:

ونبئت أن النار بعنك أوقدت واستب بعنك يا كليب المجلس والضمير في قوله ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ عائذ إلى الجنات لاشتغالها على الأشجار أي: من تحت أشجارها. وقوله: ﴿كَلِمًا رَزَقُوا﴾ وصف آخر للجنات، أو هو جملة مستأنفة كان سائلاً قال: كيف ثمارها. و﴿مَنْ ثَمَرَةٌ﴾ في معنى من أي ثمرة، أي: نوع من أنواع الثمرات. والمراد بقوله ﴿هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أنه شبيهه، ونظيره، لا أنه هو، لأن ذات الحاضر لا تكون عين ذات الغائب لاختلافهما، وذلك أن اللون يشبه اللون، وإن كان الحجم، والطعم، والرائحة، والماوية متخالفة. والضمير في به عائذ إلى الرزق، وقيل: المراد أنهم أتوا بما يرزقونه في الجنة متشابهاً، فما يأتيهم في أول النهار يشابه الذي يأتيهم في آخره، فيقولون هذا الذي رزقنا من قبل، فإذا أكلوا وجنوا له طعاماً غير طعم الأول. و﴿مُتَشَابِهًا﴾ منصوب على الحال. والمراد بتطهير الأزواج أنه لا يصيبهن ما يصيب النساء من قذر الحيض، والنفاس، وساثر الأناس التي لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا. والخلود: البقاء الدائم الذي لا ينقطع، وقد يستعمل مجازاً فيما يطول، والمراد هنا الأول. وقد أخرج ابن ماجه، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، والبزار، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والبيهقي، وابن مروي، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا هَلْ مَشْمَرٌ لِلْجَنَّةِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ رَبِّ الْكَعْبَةِ نَوْرٌ يَتَلَالَا، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مُشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَرِدٌ، وَثَمَرَةٌ نُضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ، وَحُلٌّ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارِ سَلِيمَةٍ، وَفَلَكَهْ خَضْرَاءُ» الحديث. والأحاديث في وصف الجنة كثيرة جداً ثابتة في الصحيحين وغيرهما. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نَهَارُ الْجَنَّةِ تَفْجَرُ مِنْ تَحْتِ جِبَالٍ مَسْكٍ». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو حاتم، وأبو الشيخ، وابن حبان، والبيهقي في البعث وصححه عن ابن مسعود نحوه، موقوفاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك في قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قال: يعني المساكن تجري أسفلها أنهارها. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿كَلِمًا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقًا﴾ قال: أتوا بالثمرة في الجنة، فنظروا إليها ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَاتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ في اللون والمراى، وليس يشبه الطعم. وأخرج عبد بن حميد، عن علي بن زيد، وقتادة نحوه. وأخرج مسدد في مسنده، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء. وأخرج

الرازي: إنه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزاً أورد ما هنا شبهة أوردتها الكفار قديماً في ذلك، ولجأب عنها، وتقدير الشبهة أنه جاء في القرآن ذكر النحل، والعنكبوت، والنمل، وهذه الأشياء لا يلقى نكرها بكلام الفصحاء، فاشتتمل القرآن عليها يقدح في فصاحته فضلاً عن كونه معجزاً. وأجاب الله عنها بأن صغر هذه الأشياء لا تتقدح في الفصاحة إذا كان نكرها مشتقاً على حكمة بالغة. انتهى. ولا يخفك أن تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه، وإرجاع الإنكار إلى مجرد الفصاحة لا مستند له، ولا دليل عليه، وقد تقدمه إلى شيء من هذا صاحب الكشف، والظاهر ما نكرناه أولاً لكون هذه الآية جاءت بعقب المثليين اللذين هما منكران قبلها، ولا يستلزم استنكارهم لضرب الأمثال بالأشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قاصحاً في الفصاحة والإعجاز. والحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم؛ كذا في الكشف، وتبعه الرازي في مفاتيح الغيب. وقال القرطبي: أصل الاستحياء: الانتقباض عن الشيء، والامتناع منه خوفاً من موافقة القبيح، وهذا محال على الله. انتهى. وقد اختلفوا في تأويل ما في هذه الآية من نكر الحياء فقيل: ساغ ذلك لكونه واقعاً في الكلام المحكي عن الكفار، وقيل: هو من باب المشكلة كما تقدم، وقيل هو جار على سبيل التمثيل. قال في الكشف: مثل تركه تخيب العبد، وأنه لا يرد يديه صغراً من عطائه لكرمه بترك من يترك رذ المحتاج إليه حياءً منه. انتهى. وقد قرأ ابن محيصن، وابن كثير في رواية عنه «يستحي» بياء واحدة، وهي لغة تميم، وبكر بن وائل، نقلت فيها حركة الباء الأولى إلى الحاء، فسكنت، ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت، فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين. وضرب المثل: اعتماده وصنعه. و«ما» في قوله: «ما بعوضة» إبهامية أي: موجبة لإبهام ما دخلت عليه حتى يصير أعم مما كان عليه، وأكثر شيوعاً في أقراده، وهي في موضع نصب على البذل من قوله: «مثلاً» و«بعوضة» نعت لها لإبهامها، قاله الفراء، والزجاج، وثلعب، وقيل: إنها زائدة، وبعوضة بدل من مثل. ونصب بعوضة في هذين الوجهين ظاهر، وقيل: إنها منصوبة بنزع الخافض، والتقدير: أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة، فحذف لفظ بين. وقد روي هذا عن الكسائي، وقيل: إن يضرب بمعنى يجعل، فتكون بعوضة المفعول الثاني. وقرأ الضحاك، وإبراهيم بن أبي عبلة وروية بن العجاج «بعوضة» بالرفع، وهي لغة تميم. قال أبو الفتح: وجه ذلك أن «ما» اسم بمنزلة الذي، وبعوضة رفع على إضمار المبتدأ، ويحتمل أن تكون «ما» استفهامية كأنه قال تعالى: «ما بعوضة فما فوقها» حتى لا يضرب المثل به، بل يدان لمثل بما هو أقل من ذلك بكثير، والبعوضة فعولة من بعض: إذا قطع، يقال: بعض وبضع بمعنى، والبعض: البق، الواحدة بعوضة، سميت بذلك لصغرها، قاله الجوهري وغيره. وقوله: «فما فوقها» قال الكسائي وأبو عبيدة وغيرهما: فما فوقها والله أعلم ما دونها:

أي أنها فوقها في الصغر كجناحها. قال الكسائي، وهذا كقولك في الكلام أترأه قصيراً، فيقول القائل: أو فوق ذلك أي: أقصر مما ترى. ويمكن أن يراء، فما زاد عليها في الكبر. وقد قال بذلك جماعة. قوله: «فما اللذين آمنوا» أما حرف فيه معنى الشرط، وقدره سيبويه بهما يكن من شيء، فكذا. وبكر صاحب الكشف أن فائدته في الكلام أنه يعطيه فضل توكيد، وجعل تقدير سيبويه دليلاً على ذلك. والضمير في «لأنه» راجع إلى المثل. و«الحق» الثابت، وهو المقابل للباطل، والحق، واحد الحقوق، والمراد هنا الأول. وقد اختلف النحاة في (ماذا) فقيل: هي بمنزلة اسم واحد بمعنى: أي شيء أراد الله، فتكون في موضع نصب باراد. قال ابن كيسان: وهو: الجيد. وقيل: «ما» اسم تام في موضع رفع بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وهو: خبر المبتدأ مع صلته، وجوابه يكون على الأول منصوباً وعلى الثاني مرفوعاً. والإرادة نقيض الكراهة، وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز إطلاق هذا اللفظ على الله سبحانه، و«مثلاً» قال ثعلب: منصوب على القطع، والتقدير: أراد مثلاً. وقال ابن كيسان: هو: منصوب على التمييز الذي وقع موقع الحال، وهذا أقوى من الأول. وقوله: «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً» هو: كالتفسير للجملتين السابقتين المصترتين بآما، فهو خبر من الله سبحانه. وقيل: هو: حكاية لقول الكافرين كأنهم قالوا: ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة، وإلى هدى؟ وليس هذا بصحيح، فإن الكافرين لا يقرؤون بأن في القرآن شيئاً من الهداية، ولا يعترفون على أنفسهم بشيء من الضلالة. قال القرطبي: ولا خلاف أن قوله: «وما يضل به إلا الفاسقين» من كلام الله سبحانه. وقد أطال المتكلمون الخصام في تفسير الضلال المذكور هنا، وفي نسبته إلى الله سبحانه. وقد نفع البحث الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب في هذا الموضوع تنقيحاً نفيساً، وجوده وطوله، وأوضح فروعه، وأصوله، فليرجع إليه فإنه مفيد جداً. وأما صاحب الكشف، فقد اعتمد ما هنا على عصاه التي يتوكأ عليها في تفسيره، فجعل إسناد الإضلال إلى الله سبحانه يكونه سبباً، فهو من الإسناد المجازي إلى ملابس للفاعل الحقيقي، وحكى القرطبي عن أهل الحق من المفسرين أن المراد بقوله: «يضل» يخذل. والفسق: الخروج عن الشيء، يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت عن قشرها. والفأرة من جحرها نكر معنى هذا الفراء. وقد استشهد أبو بكر بن الأنباري في كتاب الزاهر له على معنى الفسق بقول رؤية بن العجاج:

يهوين في نجد وغوراً غائراً فواسقاً عن قصد هاجرائ
قد زعم ابن الأعرابي أنه لم يسمع قط في كلام الجاهلية، ولا في شعرهم فاسق، وهذا مردود عليه، فقد حكى ذلك عن العرب، وأنه من كلامهم جماعة من أئمة اللغة كابن فارس، والجوهري، وابن الأنباري، وغيرهم. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «خمس فواسق» الحديث. وقال في

مسعود، وناس من الصحابة قال: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين قوله: ﴿مَثَلُ كَمِثْلٍ نَارًا﴾ [البقرة: 17] وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 19] قال المنافقون: الله أعلا وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ الآية. وأخرج الواحدي في تفسيره عن ابن عباس قال: إن الله نكر لكهة المشركين، فقال: ﴿وَلَنْ يَسْلِبَهُمُ الذَّنْبَ شَيْئًا﴾ [الحج: 73] ونكر كيد الأكلة، فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: رأيت حيث نكر الله الذناب، والعنكبوت، فيما أنزل من القرآن على محمد أي شيء كان يصنع بهذا؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحو قول ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبُ مَثَلٍ﴾ [الحج: 73] قال المشركون: ما هذا من الأمثال، فيضرب؟ فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالقة في قوله تعالى: ﴿فَمَا لِلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال: يؤمن به المؤمن، ويعلمون أنه الحق من ربهم، ويهديهم الله به، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ يعني المنافقين ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ يعني المؤمنين ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال: هم المنافقون. وفي قوله: ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قال: هو ما عهد إليهم في القرآن، فآفَرُوا به، ثم كفروا، فنقضوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ يقول: يعرفه الكافرون، فيكفرون به. وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: فسقوا، فاضلهم الله بفسقهم. وأخرج البخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعد بن أبي وقاص قال: الحورية هم: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان يسميهم الفاسقين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة قال: ما نعلم الله أوعد في ذنب ما أوعد في نقض هذا الميثاق، فمن أعطى عهد الله، وميثاقه من ثمرة قلبه، فليوف به الله. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في أحاديث ثابتة في الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة النهي عن نقض العهد، والوعيد الشديد عليه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَيُوقِطِعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قال: الرحم والقرابة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يعملون فيها بالمعصية. وأخرج ابن المنذر عن مقاتل في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يقول: هم أهل النار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كل شيء نسبته الله إلى غير أهل الإسلام مثل خاسر، ومسرف، وظالم، ومجرم، وفاسق، فإنما يعني به الكفر، وما نسبته إلى الإسلام، فإنما يعني به الذم.

الكشاف: الفسق الخروج عن القصد، ثم ذكر عجز بيت رؤية المنكور، ثم قال: والفسق في الشريعة: الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة. انتهى. وقال القرطبي: والفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان. انتهى. وهذا هو: أنسب بالمعنى اللغوي، ولا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض. قال الرازي في تفسيره: واختلف أهل القبلة هل هو مؤمن، أو كافر؟ فعند أصحابنا أنه مؤمن، وعند الخوارج أنه كافر، وعند المعتزلة لا مؤمن، ولا كافر، واحتج المخالف بقوله تعالى: ﴿يُبْسِ الْأَسْمَ الْفَسْقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: 11] وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67] وقوله: ﴿حَبِيبُ إِلَيْكَ الْإِيمَانُ وَزِينَةُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكَ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ﴾ [الحجرات: 7] وهذه المسألة طويلة منكرة في علم الكلام. انتهى. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ﴾ في محل نصب وصفاً للفساقين. والنقض: إفساد ما أبرم من بناء، أو حبل، أو عهد، والنقضة: ما نقض من حبل الشمر. والعهد: قيل: هو: الذي أخذ الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره، وقيل: هو: وصية الله إلى خلقه، وأمره بإيأهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه بإيأهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على اللسان رسله، ونقضهم ذلك: ترك العمل به، وقيل: بل نصب الأدلة على وحدانيته بالسموات، والأرض، وسائر مخلوقاته، ونقضه: ترك النظر فيه، وقيل: هو ما عهده إلى الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس. والميثاق: العهد المؤكد باليمين مفعال من الوثاقة وهي الشدة في العقد، والربط، والجمع الموثيق، والميثاق، وأنشد ابن الأعرابي:

حمى لا يحل الدهر إلا بلاننا ولا نسال الأتوام عهد الميثاق واستعمال النقض في إبطال العهد على سبيل الاستعارة، والقطع معروف، والمصدر في الرحم القطيعة، وقطعت الحبل قطعاً، وقطعت النهر قطعاً، وما في قوله: ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ في موضع نصب بيقطعون، و ﴿أَنْ يُوصَلَ﴾ في محل نصب بأمر. ويحتمل أن يكون بدلاً من ما، أو من الهاء في به. واختلفوا ما هو: الشيء الذي أمر الله بوصله، فقيل: الأرحام، وقيل: أمر أن يوصل القول بالعمل، وقيل: أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه، فقطعوه بتصديق بعضهم، وتكذيب البعض الآخر، وقيل: المراد به حفظ شرائعه، وحلوه التي أمر في كتبه المنزلة، وعلى اللسان رسله بالمحافظة عليها، فهي عامة، وبه قال الجمهور، وهو: الحق. والمراد بالفساد في الأرض الأفعال، والأقوال المخالفة لما أمر الله به، كعبادة غيره، والإضرار بعباده، وتغيير ما أمر بحفظه، وبالجمل، فكل ما خالف الصلاح شرعاً أو عقلاً، فهو فساد. والخسران: النقصان، والخاسر، هو: الذي نقص نفسه من الفلاح، والفوز، وهؤلاء لما استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل كان عملهم فساداً لما نقصوا أنفسهم من الفلاح، والربح. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَتُونَا فَتُحَكَّمُ ثُمَّ يُبَيِّنُ لَكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُ لَكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ رُجْعُونَ ﴿٧٨﴾

كيف مبنية على الفتح لخفته، وهي في موضع نصب بتكفرون، ويسأل بها عن الحال، وهذا الاستفهام هو للإنكار عليهم، والتعجيب من حالهم، وهي متضمنة لهمزة الاستفهام، والواو في ﴿وَكُنْتُمْ﴾ للحال، وقد مقترنة كما قال الزجاج والفراء، وإنما صح جعل هذا الماضي حالا لأن الحال ليس هو مجرد قوله ﴿كُنْتُمْ أَمواتاً﴾ بل هو وما بعده إلى قوله ﴿تَرْجِعُونَ﴾ كما جزم به صاحب الكشف كأنه قال: كيف تكفرون؟ وقصتكم هذه أي: وأنتم عالمون بهذه القصة، وبأولها، وآخرها. والأموات جمع ميت، واختلف المفسرون في ترتيب هاتين الموتيتين، والحياتين - فقيل: إن المراد ﴿كُنْتُمْ أَمواتاً﴾ قبل أن تخلقوا أي: معدومين، لأنه يجوز إطلاق اسم الموت على المعلوم لاجتماعهما في عدم الاحساس ﴿فأحياكم﴾ أي: خلقكم ﴿ثُمَّ يَميتكم﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يَحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة. وقد ذهب إلى هذا جماعة من الصحابة، فمن بعدهم. قال ابن عطية: وهذا القول هو: المراد بالآية، وهو الذي لا محيد للكفار عنه، وإذا أذعن نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين، ثم أحياء في الدنيا، ثم أَمواتاً فيها لزمهم الإقرار بالحياة الأخرى. قال غيره: والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا. وقيل: إن المراد كنتم أَمواتاً في ظهر آدم ثم أخرجكم من ظهره كالنمر، ثم يَميتكم موت الدنيا، ثم يبعثكم. وقيل: ﴿كُنْتُمْ أَمواتاً﴾ أي: نطفاً في أصلاب الرجال ﴿فأحياكم﴾ حياة الدنيا. ﴿ثُمَّ يَميتكم﴾ بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يَحْيِيكُمْ﴾ في القبور ﴿ثُمَّ يَميتكم﴾ في القبر ﴿ثُمَّ يَحْيِيكُمْ﴾ الحياة التي ليس بعدها موت. قال القرطبي: فعلى هذا التأويل هي: ثلاث موتات، وثلاث إحياءات، وكونهم موتى في ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره، والشهادة عليهم غير كونهم نطفاً في أصلاب الرجال، فعلى هذا يجيء أربع موتات وأربع إحياءات. وقد قيل: إن الله أوجدهم قبل خلق آدم كالبهائم، وأماتهم، فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات، وموتة سائسة للعصاة من أمة محمد ﷺ كما ورد في الحديث: «ولكن ناس أصابتهم النار بنوحيهم، فأماتهم الله إماتة، حتى إذا كانوا قحماً أنن في الشفاعة فجيء بهم، إلى أن قال: فينبئون نبات الحبة في حميل السيل» وهو في الصحيح من حديث أبي سعيد. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ أي: إلى الله سبحانه، فيجازيكم بأعمالكم. وقد قرأ يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، ومجاهد، وسلام، ويعقوب بفتح حرف المضارعة، وقرأ الجماعة بضمه. قال في الكشف: عطف الأول بالفاء، وما بعده بثم، لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت، فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك مترخ عن الموت إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً، وإن أريد به إحياء القبر، فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضاً مترخ عن النشور.

انتهى. ولا يخفاه أنه إن أراد بقوله إن الإحياء الأول قد تعقب الموت أنه وقع على ما هو متصف بالموت، فالموت الآخر وقع على ما هو متصف بالحياة، وإن أراد أنه وقع الإحياء الأول عند أول اتصاله بالموت بخلاف الثاني، فغير مسلم، فإنه وقع عند آخر أوقات موته كما وقع الثاني عند آخر أوقات حياته، فتأمل هذا. وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمواتاً﴾ الآية، قال: لم تكونوا شيئاً، فخلقكم ﴿ثُمَّ يَميتكم﴾ ثم يَحْيِيكُمْ يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: يَميتكم، ثم يَحْيِيكُمْ في القبر، ثم يَميتكم. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالقة في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمواتاً﴾ قال: حين لم تكونوا شيئاً، ثم أماتهم، ثم أحياءهم يوم القيامة، ثم يرجعون إليه بعد الحياة. وأخرج ابن جرير، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خلقهم من ظهر آدم، فأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم، ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياءهم يوم القيامة. والصحيح الأول.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قال ابن كيسان: ﴿خلق لكم﴾ أي: من أجلكم، وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل، ولا فرق بين الحيوانات، وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر، وفي التأكيد بقوله ﴿جميعاً﴾ أقوى دلالة على هذا. وقد استدلت بهذه الآية على تحريم أكل الطين، لأنه تعالى خلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض. وقال الرازي في تفسيره: إن لقاتل أن يقول: إن في جملة الأرض ما يطلق عليه أنه في الأرض، فيكون جامعاً للوصفين، ولا شك أن المعان داخله في ذلك، وكذلك عروق الأرض، وما يجري مجرى البعوض لها؛ ولأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما عداه. انتهى. وقد ذكر صاحب الكشف ما هو أوضح من هذا فقال: فإن قلت: هل لقول من زعم أن المعنى: خلق لكم الأرض، وما فيها وجه صحة؟ قلت: إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء، ويراد الجهات العلوية جاز ذلك، فإن الغبراء، وما فيها واقعة في الجهات السفلية. انتهى. وأما التراب، فقد ورد في السنة تحريمه، وهو أيضاً ضار، فليس مما ينتفع به أكلاً، ولكنه ينتفع به في منافع أخرى، وليس المراد منفعة خاصة كمنفعة الأكل، بل كل ما يصدق عليه أنه ينتفع به بوجه من الوجوه، وجميعاً منصوب على الحال. والاستواء في اللغة: الاعتدال، والاستقامة، قاله في الكشف، ويطلق على الارتفاع، والعلو على الشيء، قال تعالى: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾ [المؤمنون: 28] وقال: ﴿لنستوي على ظهوره﴾ [الزخرف: 13] وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية. وقد قيل: إن هذه الآية من

و﴿بحمك﴾ في موضع الحال أي: حامدين لك، وقد تقدم معنى الحمد. والتقديس: التطهير، أي: ونظرك عما لا يليق بك مما نسب إليك الملحدون، وافتراه الجاحدون. ونكر في الكشف أن معنى التسبيح، والتقديس واحد، وهو: تبعيد الله من السوء، وأنها من سبى في الأرض، والماء، وقس في الأرض إذا ذهب فيها، وأبعد. وفي القاموس، وغيره من كتب اللغة ما يرشد إلى ما نكرناه، والتأسيس خير من التأكيد خصوصاً في كلام الله سبحانه: ولما كان سؤالهم واقعاً على صفة تستلزم إثبات شيء من العلم لأنفسهم. أجاب الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وفي هذا الإجمال ما يغني عن التفصيل؛ لأن من علم ما لا يعلم المخاطب له كان حقيقاً بأن يسلم له ما يصدر عنه، وعلى من لا يعلم أن يعترف لمن يعلم بأن أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم، وتقضي المصلحة الراجحة، والحكمة البالغة. ولم ينكر متعلق قوله: ﴿تعلمون﴾ ليفيد التعميم، ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب، ويعترف بالعجز، ويقر بالقصور. وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: إن الله أخرج آدم من الجنة قبل أن يخلقه، ثم قرأ: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً نحوه وزاد. وقد كان فيها قبل أن يخلق بالفي عام الجن بنو الجن، فافسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فلما أقسوا في الأرض بعث الله عليهم جنوداً من الملائكة، فضربوهم حتى أحرقوهم بجزائر البحور، فلما قال الله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ كما فعل أولئك الجن، فقال الله: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر ومثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس أطول منه. وأخرج ابن جرير، وابن عساكر، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قال: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: للجن، وإنما سماوا الجن؛ لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع ملكه خازناً، فوقع في صدره كبر، وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي، فاطلع الله على ذلك منه، فقال للملائكة: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ قالوا: ربنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً قالوا ربنا: ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء...﴾ قال إني أعلم ما لا تعلمون. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في الآية قال: قد علمت الملائكة وعلم الله أنه لا شيء أكره عند الله من سفك الدماء، والفساد في الأرض. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس قال: إياكم، والراي، فإن الله ردّ الراي على الملائكة وذلك أن الله قال ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ قالت الملائكة: ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها﴾ قال: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾. وأخرج ابن جرير،

بل هو متعلق بما هو أعم منها.
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾

﴿إذا﴾ من الظروف الموضوعية للتوقيت، وهي للمستقبل، وإذا للماضي، وقد توضع إحداها موضع الأخرى. وقال المبرد: هي مع المستقبل للمضي، ومع الماضي للاستقبال. وقال أبو عبيدة: إنها هنا زائدة. وحكاها الزجاج وابن النحاس وقالوا: هي ظرف زمان ليست مما يزداد، وهي هنا في موضع نصب بتقدير انكر، أو بقالوا، وقيل: هو متعلق بخلق لكم، وليس بظاهر، والملائكة جمع ملك بوزن فعل، قاله ابن كيسان، وقيل، جمع ملاك بوزن مفعول قاله أبو عبيدة، من لك: إذا أرسل، والألوكة: الرسالة. قال لبيد:

وغلأم أرسلته أمه بالوك فبئلنا ما سال
وقال عدي بن زيد:

أبلغ النعمان عني مالكا أنه قد طال حبسي وانتظار
ويقال الكني أي: أرسلني. وقال النضر بن شميل: لا اشتقاق لملك عند العرب، والهاء في الملائكة تأكيد لتانيث الجمع، ومثله الصلامة، والصلادم: الخيل الشداد واحداً صلدم - وقيل: هي للمبالغة كعلامة، ونسابة و﴿جاعل﴾ هنا من جعل المتعدي إلى مفعولين. وذكر المطرزي أنه بمعنى خالق، وذلك يقتضي أنه متعدٍ إلى مفعول واحد، والأرض هنا: هي هذه الغبراء، ولا يختص ذلك بمكان دون مكان - وقيل إنها مكة. والخليفة هنا معناه الخالف لمن كان قبله من الملائكة، ويجوز أن يكون بمعنى المخلوف، أي: يخلفه غيره؛ قيل هو آدم؛ وقيل كل من له خلافة في الأرض، ويقوي الأوّل قوله خليفة دون خلائف، واستغنى بآدم عن نكر من بعده قيل: خاطب الله الملائكة بهذا الخطاب لا للمشورة، ولكن لاستخراج ما عندهم، وقيل خاطبهم بذلك لأجل أن يصدر منهم تلك السؤال، فيجابون بذلك الجواب، وقيل لأجل تعليم عباده مشروعية المشاورة لهم. وأما قولهم ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها﴾ فظاهره أنهم استنكروا استخلاف بني آدم في الأرض لكونهم مظنة للإفساد في الأرض، وإنما قالوا هذه المقالة قبل أن يتقدم لهم معرفة ببني آدم، بل قبل وجود آدم فضلاً عن نريته، لعلم قد علموه من الله سبحانه بوجه من الوجوه؛ لأنهم لا يعلمون الغيب؛ قال بهذا جماعة من المفسرين. وقال بعض المفسرين: إن في الكلام حذفاً، والتقدير: إني جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا وكذا، فقالوا: ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها﴾ وقوله: ﴿يفسد﴾ قائم مقام المفعول الثاني. والفساد: ضدّ الصلاح، وسفك الدم: صبه، قاله ابن فارس، والجوهري: ولا يستعمل السفك إلا في الدم، وواحد الدماء دم، وأصله نَمَى حذف لاه، وجملة ﴿ونحن نُسبِّح بحمك﴾ حالية. والتسبيح في كلام العرب: التنزيه، والتبديد من السوء على وجه التعظيم. قال الأعشى:

أقول لما جاعني فخره سبحان من علقمة الفاخر

وابن أبي حاتم، وابن عسكرو، عن أبي سابط: أن النبي ﷺ قال: «نحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت فهي أول من طاف به، وهي الأرض التي قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال ابن كثير: وهذا مرسل في سنده ضعف، وفيه مدرج، وهو: أن المراد بالأرض مكة، والظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك. انتهى. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: التسبيح، والتقديس المذكور في الآية هو: الصلاة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ لَبَّى الْمَلَائِكَةَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا تَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ قَالَ: فَرَأَوْهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ، فَطَافُوا بِالْعَرْشِ سِتِّ سَنِينَ يَقُولُونَ: لَبِّكَ لَبِّكَ اعْتَذَارًا إِلَيْكَ، لَبِّكَ لَبِّكَ نَسْتَغْفِرُكَ، وَنُتُوبُ إِلَيْكَ» وثبت في الصحيح من حديث أبي نر أن النبي ﷺ قال: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ مَا أَصْلَفَاهُ لِمَلَائِكَتِهِ سُبْحَانَ رَبِّي، وَبِحَمْدِهِ». وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿وَنُقَنِّسُ لَكَ﴾ قال: نصلي لك. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: التقديس: التطهير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَنُقَنِّسُ لَكَ﴾ قال: نعظمك ونكبرك. وأخرجنا عن أبي صالح قال: نعظمك ونمجك. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: علم من إبليس المعصية، وخلقها لها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في تفسيرها قال: كان في علم الله أنه سيكون من الخليقة أنبياء، ورسول، وقوم صالحون، وساكنون الجنة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمر: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ آدَمَ لَمَّا أَهْبَطَهُ اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: أَيُّ رَبٍّ تَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟ الْآيَةُ، قَالُوا: رَبَّنَا نَحْنُ أَطْوَعُ لَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: هَلُمُّوا مُلَكِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يَهْبِطَا إِلَى الْأَرْضِ فَنَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلَانِ؟ فَقَالُوا: رَبَّنَا هَارُوتَ وَمَارُوتَ، قَالَ: فَاهْبِطَا إِلَى الْأَرْضِ، فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر وذكر القصة. وقد ثبت في كتب الحديث المعتمدة أحاديث من طريق جماعة من الصحابة في صفة خلقه سبحانه آدم وهي موجودة فلا تطول بذكرها.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ الْأَنْبِيَاءُ بِأَسْمَائِهِمْ وَلَكُنَّا أُنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَتْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُدُونَ وَمَا تُكْتُمُونَ ﴿٤﴾

(آدم) أصله آدم بهزتين إلا أنهم لينوا الثانية، وإذا حركت قلبت واوًا، كما قالوا في الجمع أوادم، قاله الأخفش.

واختلف في اشتقاقه، فقيل: من أديم الأرض، وهو وجهها، وقيل: من الأدمة، وهي: السمرة. قال في الكشف: وما آدم إلا اسم عجمي، وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر، وعازر، وعابر، وشالغ، وفالغ، وأشبه ذلك، و﴿الْأَسْمَاءُ﴾ هي العبارات والمراد: أسماء المسميات، قال بذلك أكثر بذلك العلماء، وهو المعنى الحقيقي للاسم. والتأكيد بقوله: ﴿كُلُّهَا﴾ يفيد أنه علمه جميع الأسماء، ولم يخرج عن هذا شيء منها كائنًا ما كان. وقال ابن جرير: إنها أسماء الملائكة، وأسماء نرية آدم، ثم رجع هذا، وهو: غير راجح. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أسماء النرية. وقال الربيع بن خيثم: أسماء الملائكة. واختلف أهل العلم هل عرض على الملائكة المسميات، أو الأسماء، والظاهر الأول؛ لأن عرض نفس الأسماء غير واضح. وعرض الشيء إظهاره، ومنه عرض الشيء للبيع. وإنما ذكر ضمير المعروضين تغليبًا للعقلاء على غيرهم. وقرأ ابن مسعود: «عرضهن» وقرأ أبي: «عرضها» وإنما رجع ضمير عرضهم إلى مسميات مع عدم تقدم ذكرها؛ لأنه قد تقدم ما يدل عليها، وهو: أسماؤها. قال ابن عطية: والذي يظهر أن الله علم آدم الأسماء، وعرض عليه مع تلك الأجناس أشخاصًا، ثم عرض تلك على الملائكة، وسألهم عن أسماء مسمياتها التي قد تعلمها آدم، فقال لهم آدم: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا. قال الماوردي: فكان الأصح توجه العرض إلى المسمين. ثم في زمن عرضهم قولان: أحدهما: أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثاني: أنه صورهم لقلوب الملائكة، ثم عرضهم. وأما أمره سبحانه للملائكة بقوله: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فهذا منه تعالى لقصد التثبيت لهم مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك. والمراد ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض فأنبئوني، كذا قال المبرد، وقال أبو عبيد، وابن جرير: إن بعض المفسرين قال: معنى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إذ كنتم، قالوا: وهذا خطأ. ومعنى ﴿أَنْبِئُونِي﴾: أخبروني. فلما قال لهم ذلك اعترفوا بالعجز، والقصور ﴿فَقَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ وسبحان: منصوب على المصدرية عند الخليل، وسيبويه، وقال الكسائي: هو: منصوب على أنه منادى مضاف، وهذا ضعيف جدًا. والعليم: للمبالغة، والدلالة على كثرة المعلومات. والحكيم صيغة مبالغة في إثبات الحكمة له. ثم أمر الله سبحانه آدم أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة فعجزوا واعترفوا بالقصور، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ الآية. قال فيما تقدم: ﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال هنا: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تنرجًا من المجل إلى ما هو مبين بعض بيان، وبمبسط بعض بسط. وفي اختصاصه بعلم غيب السموات، والأرض ردًا لما يتكلفه كثير من العباد من الإطلاع على شيء من علم الغيب كالمنجمين، والكهان، وأهل الرمل، والسحر، والشعوذة. والمراد بما يبينون، وما يكتمون: ما يظهرون، ويسرون كما

وغيثته وضع الوجه على الأرض. قال ابن فارس: سجد إذا تطامن، وكل ما سجد، فقد ذل، والإسجاد: إدامة النظر. وقال أبو عمر: وسجد إذا طأطأ رأسه، وفي هذه الآية فضيلة لأدم عليه السلام عظيمة حيث أسجد الله له ملائكته. وقيل: إن السجود كان لله، ولم يكن لأدم، وإنما كانوا مستقبلين له عند السجود، ولا ملجئ لهذا، فإن السجود للبشر قد يكون جائزاً في بعض الشرائع بحسب ما تقتضيه المصالح. وقد دلت هذه الآية على أن السجود لأدم، وكذلك الآية الأخرى أعني قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29] وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ آدَمَ فِي الْعَرْشِ وَخَرَّوْا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: 100] فلا يستلزم تحريمه لغیر الله في شريعة نبينا محمد ﷺ أن يكون كذلك في سائر الشرائع. ومعنى السجود هنا: هو وضع الجبهة على الأرض، وإليه ذهب الجمهور. وقال قوم: هو: مجرد التذلّل، والانقياد. وقد وقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لأدم قبل تعليمه الأسماء أم بعده؟ وقد أطل البحث في ذلك البقاع في تفسيره. وظاهر السياق أنه وقع التعليم، وتعبقه الأمر بالسجود وتعبقه إسكانه الجنة، ثم إخراجها منها، وإسكانه الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناء متصل؛ لأنه كان من الملائكة على ما قاله الجمهور. وقال شهر بن حوشب وبعض الأصوليين: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ الذين كانوا في الأرض. فيكون الاستثناء على هذا منقطعاً. واستدلوا على هذا بقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] ويقول تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: 50] والجنّ غير الملائكة، وأجاب الأولون بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس عن جملة الملائكة، لما سبق في علم الله من شقائه عدلاً منه ﴿لَا يَسْتَلِّ عَمَّا يُفَعِّلُ﴾ [الأنبياء: 23] وليس في خلقه من نار، ولا تركيب الشهوة فيه حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة وأيضاً على تسليم ذلك لا يمتنع أن يكون الاستثناء متصلاً تغليباً للملائكة الذين هم ألوف مؤلفة على إبليس الذي هو فرد واحد بين أظهرهم. ومعنى ﴿إِبْلِيسَ﴾: امتنع من فعل ما أمر به، والاستكبار: الاستعظام للنفس، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ: «أن الكبر بطل الحق، وغمط الناس» وفي رواية «غمص» بالصاد المهملة ﴿وَوَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: من جنسهم. قيل إن: «كان» هنا بمعنى صار. وقال ابن فورك: إنه خطأ ترده الأصول. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانت السجدة لأدم، والطاعة لله. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: سجدوا كرامة من الله لكرم بها آدم. وأخرج ابن عسكرو عن إبراهيم المزني قال: إن الله جعل آدم كالكلبة وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، عن ابن عباس قال: كان إبليس اسمه عزازيل، وكان من أشرف الملائكة من نوي الأجنحة الأربعة، ثم ألبس بعد. وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: إنما سمي إبليس، لأن الله ألبسه من الخير كله أي: أيسه منه. وأخرج

يفيده معنى ذلك عند العرب، ومن فسره بشيء خاص فلا يقبل منه ذلك إلا بلبيل. وقد أخرج الفريابي، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: إنما سمي آدم، لأنه خلق من أديم الأرض. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبيرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم الصخرة، والقدر، وكل شيء. وأخرج ابن جرير، عنه نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عنه في تفسير الآية قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والدواب، فقبل هذا الجمل، هذا الحمار، هذا الفرس. وأخرج الحاكم في تاريخه، وابن عسكرو، والديلمي عن عطية بن بشر مرفوعاً في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علم الله آدم في تلك الأسماء ألف حرفاً من الحرف، وقال له: قل لا أولئك، ولزيتك إن لم تصبروا عن الدنيا، فاطلبوها بهذه الحرف، ولا تطلبوها بالدين، فإن الدين لي وحدي خالصاً، ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويل له. وأخرج الديلمي عن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلت لي أمي في الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها» وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في تفسير الآية قال: أسماء نزيته لجمعين ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ قال: أخذهم من ظهره. وأخرج عن الربيع بن أنس قال: أسماء الملائكة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ يعني عرض أسماء جميع الأشياء التي علمها آدم من أصناف الخلق. ﴿فَقَالَ أَتَبْذُلُونِي﴾ يقول: أخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صائقين ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لم أجعل في الأرض خليفة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لله من أن يكون يعلم الغيب أحد غيره تبناً إليك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ تبرؤوا منهم من علم الغيب ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْنَا﴾ كما علمت آدم. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال: عرض أصحاب الأسماء على الملائكة. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال: العليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمه. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْذُلُونَ﴾ قال: قولهم: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مِنْ يُفْسِدُ فِيهَا... وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 30 - 33] يعني: ما أسر إبليس في نفسه من الكبر. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: ﴿وَمَا تُبْذُلُونَ﴾ ما تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية.

وَرَدَّ قُلْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾

﴿إِنَّ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: واذكر إذ قلنا. وقال أبو عبيدة: إذ زائدة، وهو ضعيف. وقد تقدم الكلام في الملائكة، وأدم. السجود معناه في كلام العرب: التذلّل والخضوع.

وقربت أقرب قرابة مثل كتبت أكتب كتابة: إذا سرت إلى الماء، وبينك وبينه ليلة، والاسم القرب قال الأصمعي: قلت لأعرابي ما القرب؟ قال: سير الليل لورود الغد، والنهي عن القرب فيه سد للزريعة، وقطع للوسيلة، ولهذا جاء به عوضاً عن الأكل، ولا يخفى أن النهي عن القرب لا يستلزم النهي عن الأكل، لأنه قد ياكل من ثمر الشجرة من هو بعيد عنها إذا حمل إليه، فالأولى أن يقال: المنع من الأكل مستفاد من المقام. وللشجر: ما كان له ساق من نبات الأرض، وواحدة شجرة، وقرئ بكسر الشين، وبالياء المثناة من تحت مكان الجيم. وقرأ ابن محيصن: «هذي» بالياء بدل الهاء وهو: الأصل. واختلف أهل العلم في تفسير هذه الشجرة، فقيل: هي: الكرم وقيل السنبل، وقيل التين، وقيل الحنطة، وسيأتي ما روي عن الصحابة، فمن بعدهم في تعيينها. وقوله: ﴿فَتَكُونُ﴾ معطوف على ﴿تَقْرَبُ﴾ في الكشف، أو نصب في جواب النهي وهو: الأظهر. والظلم أصله: وضع الشيء في غير موضعه، والأرض المظلومة: التي لم تحفر قط، ثم حفرت، ورجل ظليم: شديد الظلم. والمراد هنا ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بالمعصية، وكلام أهل العلم في عصمة الأنبياء، واختلاف مذاهبهم في تلك منون في مواطنه، وقد أطال البحث في ذلك الرازي في تفسيره في هذا الموضع، فليرجع إليه، فإنه مفيد. وأزلهما من الزلة، وهي الخطيئة أي: استزلهما، وأوقعهما فيها، وقرأ حمزة: «فأزالهما» بإثبات الألف من الإزالة، وهي التنحية أي: نحاها - وقال: الباقر بن بحرف الألف. قال ابن كيسان: هو: من الزوال، أي: صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية. قال القرطبي: وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى؛ يقال منه: أزلته فزل و﴿عنها﴾ متعلق بقوله أزلهما على تضمينه معنى أصدر، أي: أصدر الشيطان زلتها عنها أي بسببها، يعني الشجرة. وقيل: الضمير للجنة، وعلى هذا، فالفعل مضمن معنى أبعدهما أي: أبعدهما عن الجنة. وقوله: ﴿فَاخْرَجَهُمَا﴾ تأكيد لمضمون الجملة الأولى أي: أزلهما إن كان معناه زال عن المكان، وإن لم يكن معناه كذلك، فهو تأسيس، لأن الإخراج فيه زيادة على مجرد الصرف، والإبعاد، ونحوهما: لأن الصرف عن الشجرة، والإبعاد عنها قد يكون مع البقاء في الجنة بخلاف الإخراج لهما عما كانا فيه من النعيم، والكرامة، أو من الجنة، وإنما نسب ذلك إلى الشيطان؛ لأنه الذي تولى إغواء آدم حتى أكل من الشجرة. وقد اختلف أهل العلم في الكيفية التي فعلها الشيطان في إزالتهما، فقيل: إنه كان ذلك بمشاهدة منه لهما، وإليه ذهب الجمهور واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَامَسَهُمَا إِني لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21] والمقاسمة ظاهرها المشاهدة، وقيل: لم يصدر منه إلا مجرد الوسوسة، وقيل: غير ذلك مما سيأتي في المروي عن السلف. وقوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾ خطاب لآدم وحواء، وخوطبا بما يخاطب به الجمع؛ لأن الاثنين أقل الجمع عند البعض من أئمة العربية،

ابن إسحاق، وابن جرير، وابن الأنباري، عنه قال: كان إبليس قبل أن يرتكب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهداً، وأكثرهم علماً، فنلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمون جنا. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في الشعب عنه قال: كان إبليس من خزان الجنة، وكان يدبر أمر سماء الدنيا. وأخرج محمد بن نصر عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمر آدم بالسجود، فسجد، فقال: لك الجنة، ولمن سجد من ولدك، وأمر إبليس بالسجود، فأبى أن يسجد، فقال: لك النار، ولمن أبى من ولدك أن يسجد». وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال: جعله الله كافراً لا يستطيع أن يؤمن. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: ابتداء الله خلق إبليس على الكفر، والضلالة، وعمل بعمل الملائكة فصوره إلى ما ابتدئ إليه خلقه من الكفر، قال الله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢١﴾ فَتَلَوْنِ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَاقَبَ عَلَيْهِمَا هُوَ الْقَرْبُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٤﴾

﴿اسكن﴾ أي: اتخذ الجنة مسكناً وهو: محل السكن، وأما ما قاله بعض المفسرين من أن في قوله: «اسكن» تنبيهاً على الخروج، لأن السكنى لا تكون ملكاً، وأخذ ذلك من قول جماعة من العلماء أن من أسكن رجلاً منزلاً له، فإنه لا يملكه بذلك، وإن له أن يخرج منه، فهو: معنى عرفي، والواجب الأخذ بالمعنى العربي إذا لم تثبت في اللفظ حقيقة شرعية. و﴿أنتم﴾ تأكيد للضمير المستكن في الفعل ليصح العطف عليه كما تقرّر في علم النحو أنه لا يجوز العطف على الضمير المرفوع المستكن إلا بعد تأكيده بمنفصل. وقد يجيء العطف نادراً بغير تأكيد كقول الشاعر:

قلت إذ أقبلت وزهر تهادى كنماج الملائع تسفن رملا
وقوله: ﴿وَوُجِّدْكَ﴾ أي: حواء، وهذه هي اللغة الفصيحة زوج بغير هاء، وقد جاء بها قليلاً كما في صحيح مسلم من حديث أنس: «أن النبي ﷺ كان مع إحدى نسائه، فمر به رجل، فدعاه وقال: يا فلان هذه زوجتي فلانة» الحديث، ومنه قول الشاعر:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستميلها
و﴿ورغدا﴾ بفتح المعجمة، وقرأ النخعي، وابن وثاب بسكونها، والرغد: العيش الهنيء الذي لا عناء فيه، وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف. و﴿حيث﴾ مبنية على الضم، وفيها لغات كثيرة مذكورة في كتب العربية. والقرب: اللؤ. قال في الصحاح: قرب الشيء بالضم يقرب قريباً أي: بنا، وقربته بالكسر أقربه قرباناً أي: بنوت منه،

﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ [طه: 121]. وأما قوله: ﴿قلنا اهبطوا﴾ بعد قوله: ﴿قلنا اهبطوا﴾، فكرهه للتوكيد، والتغليظ. وقيل إنه لما تعلق به حكم غير الحكم الأوّل كرره، ولا تراحم بين مقتضيات. فقد يكون التكرير للأمرين معاً. وجواب الشرط في قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ هو الشرط الثاني مع جوابه قاله سيبويه. وقال الكسائي: إن جواب الشرط الأوّل، والثاني قوله: ﴿فلا خوف﴾ واختلفوا في معنى الهدى المذكور، فقيل: هو كتاب الله، وقيل التوفيق للهداية. والخوف هو: الذعر، ولا يكون إلا في المستقبل. وقرأ: الزهري والحسن وعيسى بن عمار، وابن أبي إسحاق، ويعقوب: ﴿فلا خوف﴾ بفتح الفاء، والحرّض ضد السرور. قال اليزيدي: حرّنه لغة قريش، وأحرّنه لغة تميم. وقد قرئ بهما. وصحبة أهل النار لها بمعنى الاقتران، والملازمة. وقد تقدّم نكر تفسير الخلود. وقد أخرج أبو الشيخ، وابن مرويّه، عن أبي نر قال: «قلت يا رسول الله أرايت آدم نبياً كان؟ قال: نعم كان نبياً رسولاً كلمه الله قال له: «يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة» وأخرج ابن أبي شيبة، والطبراني، عن أبي نر قال: «قلت: يا رسول الله من أوّل الأنبياء؟ قال: آدم قلت: نبي؟ قال: نعم. قلت: ثم من؟ قال: نوح وبينهما عشرة آباء». وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، والبيهقي في الشعب نحوه من حديث أبي نر مرفوعاً وزاد «كم كان المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيراً». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي، عن أبي أمامة الباهلي، أن رجلاً قال: «يا رسول الله أنبيى كان آدم؟ قال: نعم، قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون قال: كم بين نوح، وبين إبراهيم؟ قال: عشرة قرون، قال: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، قال: يا رسول الله كم كانت الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيراً». وأخرج أحمد، وابن المنذر، والطبراني، وابن مرويّه من حديث أبي أمامة نحوه، وصرح بأن السائل أبو نر. وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن مرويّه، والبيهقي عنه قال: «ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى اهبط من الجنة». وأخرج الفريابي، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا. وقد روي تقدير اللبث في الجنة عن سعيد بن جبير بمثل ما تقدّم، عن ابن عباس كما رواه أحمد في الزهد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي، وابن عساكر، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة قالوا: لما سكن آدم الجنة كان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه. وأخرج البخاري، ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة

وقيل إنه خطاب لهما، ولذريتتهما؛ لأنهما لما كانا أصل هذا النوع الإنساني جعلاً بمنزلته، وبديل على ذلك قوله: ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ فإن هذه الجملة الواقعة حالاً مبيناً للهيئة الثابتة للمأمورين بالهبوط تفيد ذلك. والعدو خلاف الصديق، وهو من عدا إذا ظلم، ويقال: نثب عدوان: أي يعو على الناس، والعدوان: الظلم الصراح وقيل: إنه مأخوذ من المجاوزة، يقال عداه: إذا جاوزه، والمعنيان متقاربان، فإن من ظلم، فقد تجاوز. وإنما أخبر عن قوله: ﴿بعضكم﴾ بقوله: ﴿عدو﴾ مع كونه مفرداً؛ لأن لفظ بعض، وإن كان معناه محتملاً للتعدد، فهو مفرد فروعياً جانب اللفظ، وأخبر عنه بالمفرد، وقد يراعى المعنى، فيخبر عنه بالتعدد. وقد يجاب بأن ﴿عدو﴾ وإن كان مفرداً، فقد يقع موقع المتعدد كقوله تعالى: ﴿وهم لكم عدو﴾ [الكهف: 50] وقوله: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو﴾ [المنافقون: 4] قال ابن فارس العدو اسم جامع للواحد، والاثنين، والثلاثة. والمراد بالمستقر: موضع الاستقرار، ومنه أصحاب الجنة يومئذ خير مستقر. [الفرقان: 24] وقد يكون بمعنى الاستقرار، ومنه ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ [القيامة: 12] فالآية محتملة للمعنيين، ومثلها قوله: ﴿جعل لكم الأرض قراراً﴾ [غافر: 64] والمتاع: ما يستمتع به من المأكول، والمشروب، والملبوس، ونحوها. واختلف المفسرون في قوله: ﴿إلى حين﴾ فقيل إلى الموت، وقيل إلى قيام الساعة. وأصل معنى الحين في اللغة: الوقت البعيد، ومنه ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ [الإنسان: 1] والحين الساعة، ومنه ﴿أر تقول حين ترى العذاب﴾ [الزمر: 58] والقطعة من الدهر، ومنه ﴿فإنهم في غمرتهم حتى حين﴾ [المؤمنون: 54] أي: حتى تفنى آجالهم، ويطلق على السنة، وقيل على ستة أشهر، ومنه ﴿تؤتى أكلها كل حين﴾ [إبراهيم: 25] ويطلق على المساء، والصباح، ومنه ﴿حين تمسون وحين تصبحون﴾ [الروم: 17] وقال الفراء: الحين حينان: حين لا يوقف على حده، ثم نكر الحين الآخر، واختلافه بحسب اختلاف المقامات كما نكرنا. وقال ابن العربي: الحين المجهول لا يتعلق به حكم، والحين المعلوم سنة. ومعنى تلقى آدم للكلمات: أخذه لها، وقبوله لما فيها، وعمله بها، وقيل فهمه لها، وفطنته لما تضمنته. وأصل معنى التلقي الاستقبال أي: استقبال الكلمات الموحاة إليه، ومن قرأ بنصب «آدم» جعل معناه استقبلته الكلمات. وقيل إن معنى تلقي تلقن، ولا وجه له في العربية. واختلف السلف في تعيين هذه الكلمات وسيأتي. والتوبة: الرجوع يقال تاب العبد: إذا رجع إلى طاعة مولاه، وعبد تواب: كثير الرجوع فمعنى تاب عليه: رجع عليه بالرحمة فقبل توبته، أو وفقه للتوبة. واقتصر على ذكر التوبة على آدم دون حواء مع اشتراكهما في الذنب؛ لأن الكلام من أوّل القصة معه، فاستمر على ذلك، واستغنى بالتوبة عليه عن نكر التوبة عليها لكونها تابعة له، كما استغنى بنسبة الذنب إليه عن نسبته إليها في قوله:

واين المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس. قال: قال الله لأدم: ما حملك على أن أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: يا رب زينته لي حواء، قال: فإني عاقبتها بأن لا تحمل إلا كرهاً، ولا تضع إلا كرهاً، وألميتها في كل شهر مرتين. وأخرج البخاري، والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها». وقد ثبتت أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة في الصحيحين، وغيرهما في محاجة آدم، وموسى، وحج آدم موسى بقوله: «أتؤمنني على أمر قتره الله علي قبل أن أخلق؟ وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو» قال: آدم، وحواء، وإبليس، والحية «ولكم في الأرض مستقر» قال: القبور «ومتاع إلى حين» قال: الحياة. وروى نحو ذلك عن مجاهد، وأبي صالح، وقتادة كما أخرجه عن الأول، والثاني أبو الشيخ، وعن الثالث عبد بن حميد. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن مسعود في قوله: «ولكم في الأرض مستقر» قال: القبور «ومتاع إلى حين» قال: إلى يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: «هبط آدم بالصفاء، وحواء بالمرودة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: «أول ما هبط الله آدم إلى أرض الهند» وفي لفظ «بهجنى أرض الهند». وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه هبط إلى أرض بين مكة والطائف. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي عنه قال: قال علي بن أبي طالب: أطيب ريح الأرض الهند، هبط بها آدم، فعلق شجرها من ريح الجنة. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: «هبط آدم بالهند، وحواء بجدة، فجاء في طلبها حتى أتى جمعاً، فأنزلت إليه حواء، فلنكح سميت المنزلفة، واجتمعوا بجمع. وأخرج الطبراني، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل آدم عليه السلام بالهند، فاستوحش، فنزل جبريل، فنادى بالأذان، فلما سمع نكر محمد قال له: ومن محمد هذا؟ قال: هذا آخر، ولكم من الأنبياء». وقد روي عن جماعة من الصحابة أن آدم هبط إلى أرض الهند، منهم جابر أخرجه ابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن عساکر، ومنهم ابن عمر أخرجه الطبراني. وأخرج ابن عساکر، عن علي قال: قال النبي ﷺ: «إن الله لما خلق الدنيا لم يخلق فيها ذهباً، ولا فضة، فلما هبط آدم، وحواء أنزل معهما ذهباً، وفضة، فسلكه يتابع في الأرض منفعة لأولادها من بعدهما وجعل ذلك صدق لحواء فلا ينبغي لأحد أن يتزوج إلا بصدق». وأخرج ابن عساکر بسند ضعيف، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هبط آدم، وحواء عريانين جميعاً عليهم ورق الجنة قعد بيكي، ويقول لها: يا حواء قد أذاني الحر، فجاءه جبريل بقطن، وأمرها أن تغزل، وعلمها، وأمر آدم بالحياكة، وعلمه». وأخرج الديلمي في مسند الفردوس

خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء من الضلع رأسه، فإن ذهبت تقميه كسرته، وإن تركته تركته، وفيه عوج» وروى أبو الشيخ، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: إنما سميت حواء لأنها أم كل حي. وأخرج ابن عدي، وابن عساکر، عن النخعي قال: لما خلق الله آدم، وخلق له زوجه بعث إليه ملكاً، وأمره بالجماع ففعل، فلما فرغ قالت له حواء: يا آدم هذا طيب زينا منه. وأخرج ابن جرير، وابن عساکر، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قال: الرغد الهنيء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الرغد سعة المعيشة. وأخرج عنه في قوله: «وكل منها رغداً حيث شئتم» قال: لا حساب عليكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساکر من طرق، عن ابن عباس قال: الشجرة التي نهى الله عنها آدم السنبل وفي لفظ: البر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي: الكرم. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود مثله. وأخرج أبو الشيخ، عنه قال: هي: اللوز. وأخرج ابن جرير، عن بعض الصحابة قال: هي: التينة. وروى مثله أبو الشيخ عن مجاهد، وابن أبي حاتم عن قتادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه قال: هي: البر. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي مالك قال: هي: النخلة. وأخرج أبو الشيخ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: هي: الأترج. وأخرج أحمد في الزهد، عن شعيب الجبائي قال: هي تشبه البر، وتسمى الدعة، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «فأزلهما» قال: فأغواهما. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عاصم بن بهلثة قال: «فأزلهما» فنحاهما. وأخرج أبو داود في المصاحف، عن الأعمش قال: قراءتنا في البقرة مكان فأزلهما فوسوس. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا: أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة، فمنعته الخزنة، فأتى الحية، وهي: دابة لها أربع قوائم، كانها البعير، وهي: كاحسن الدواب، فكلما أن تدخله في فمها حتى تدخل به إلى آدم، فأنخلته في فمها، فمرت الحية على الخزنة فدخلت، ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر، فكلمه من فمها فلم يبال بكلامه، فخرج إليه فقال: يا آدم «هل أهلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» [طه: 120] وحلف لهما بالله «إني لكم لمن الناصحين» [الأعراف: 21] فأبى آدم أن يأكل منها، فتقدمت حواء، فأكلت، ثم قالت: يا آدم كل، فإني قد أكلت، فلم يضرني، فلما أكلا «بیت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» [الأعراف: 22]. وقد أخرج قصة الحية، ودخول إبليس معها عبد الرزاق، وابن جرير، عن ابن عباس. وأخرج ابن سعد، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «إن آدم كان رجلاً طويلاً كأنه نخلة سحق طوله ستون ذراعاً كثير شعر الرأس، فلما ركب الخطيئة بدت له عورته» الحديث. وأخرج ابن منيع،

هم يحزنون﴾ يعني لا يحزنون للموت.

[illegible]

اعلم أن كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سياحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاؤوا بتكلفات، وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أقربوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره، ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقاً على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عز وجل إليه، وكل عاقل فضلاً عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها، بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالاً، وتحليل أمر كان حراماً، وإثبات أمر لشخص، أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع المسلمين، وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضى، وتارة مع من حضر، وحيناً في عبادة، وحيناً في معاملة، ووقتاً في ترغيب، ووقتاً في ترهيب، وأونة في بشارة، وأونة في نذارة، وطوراً في أمر دنيا، وطوراً في أمر آخرة، ومرة في تكاليف آتية، ومرة في أقاليص ماضية، وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف، ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الائتلاف، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف باختلافها، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب، والنون، والماء، والنار، والملاح، والحاداي، وهل هذا إلا من فتح أبواب الشك، وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض، أو كان مرضه مجرد الجهل، والقصور، فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع أي القرآن، ويفردون ذلك بالتصنيف، تقرّر عنده أن هذا أمر لا بد منه، وأنه لا يكون القرآن بليغاً معجزاً إلا إذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة، وتبين الأمر الموجب للارتباط، فإن وجد الاختلاف بين الآيات، فرجع إلى ما قاله المتكلمون في ذلك، فوجده تكلفاً محضاً، وتعسفاً بيناً انقرح في قلبه ما كان عنه في عافية، وسلامة، هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتباً على هذا الترتيب الكائن في المصحف؛ فكيف، وكل من له أدنى علم بالكتاب، وأيسر حظ من معرفته يعلم علماً يقيناً أنه لم يكن كذلك، ومن شك في هذا، وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم رجع إلى كلام

عن أنس مرفوعاً: «أول من حاك آدم عليه السلام». وقد روي عن جماعة من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم حكايات في صفة هبوط آدم من الجنة، وما أهبط معه، وما صنع عند وصوله إلى الأرض، ولا حاجة لنا ببسط جميع ذلك. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾ قال: أي رب ألم تخلقني بييدك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تنفخ فيّ من روحك؟ بلى قال: بلى، قال: أي رب ألم تسبق إليّ رحمتك قبل غضبك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: أي رب أرايت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن عسكّر بسند ضعيف، عن عائشة عن النبي ﷺ قال «لما أهبط الله آدم إلى الأرض قام وجهه الكعبة فصلى ركعتين» الحديث. وقد روي نحوه بإسناد لا بأس به أخرجه الأزرق في تاريخ مكة، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الدعوات، وابن عسكّر من حديث بريدة مرفوعاً. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾ قال: قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]. وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جرير عنه مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾ مثله: وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن مجاهد مثله. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن، والضحاك مثله. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قيل له: ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علم شأن الحج، فهي الكلمات. وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن زيد في قوله: ﴿فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾ قال: لا إله إلا أنت سبحانك ويحمدك عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك، ويحمدك رب عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك، ويحمدك رب عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فتب عليّ إنك أنت التوّاب الرحيم. وأخرج نحوه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عسكّر، عن أنس. وأخرج نحوه هنا، وفي الزهد عن سعيد بن جببر. وأخرج نحوه ابن عسكّر من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس. وأخرج نحوه الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف عن علي مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى﴾ قال الهادي: الأنبياء، والرسل، والبيان. وأخرج ابن التبراري، في المصاحف عن أبي الطفيل قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدًى﴾ بتثنية الياء، وفتحها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني في الآخرة ﴿وَلَا

قيل إن له اسمين؛ وقيل إسرائيل لقب له، وهو اسم عجمي غير منصرف، وفيه سبع لغات: إسرائيل بزنة إبراهيم، وإسرائيل بمدة مهموزة مختلصة رواها ابن شنبوذ، عن ورش، وإسرائيل بمدة بعد الياء من غير همز وهي: قراءة الأعمش، وعيسى بن عمر، وقرأ الحسن من غير همز، ولا مد، وإسرائيل بهمزة مكسورة. وإسرائيل بهمزة مفتوحة، وتميم يقولون إسرائيل. والذكر هو ضد الإنصات وجعله بعض أهل اللغة مشتركاً بين نكر القلب، واللسان. وقال الكسائي: ما كان بالقلب، فهو مضموم الذال. وما كان باللسان، فهو مكسور الذال. قال ابن الأنباري: والمعنى في الآية: انكروا شكر نعمتي، فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة، وهي اسم جنس، ومن جملتها أنه جعل منهم أنبياء، وأنزل عليهم الكتب، والمن، والسلوى، وأخرج لهم الماء من الحجر، ونجاهم من آل فرعون، وغير ذلك. والعهد قد تقدم تفسيره. واختلف أهل العلم في العهد المذكور في هذه الآية ما هو؟ فقيل هو: المذكور في قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: 63] وقيل هو: ما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ [المائدة: 12] وقيل: هو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: 187]. وقال الزجاج: هو ما أخذ عليهم في التوراة من اتباع محمد ﷺ، وقيل: هو أداء الفرائض، ولا مانع من حمله على جميع ذلك. ومعنى قوله: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ أي: بما ضمنت لكم من الجزاء، والرهب، والرهبة: الخوف، ويتضمن الأمر به معنى التهديد، وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص كما تقدم في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5] وإذا كان التقديم على طريقة الإضمار، والتفسير مثل زياداً ضربته ﴿وإِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كان أوكد في إفادة الاختصاص، ولهذا قال صاحب الكشف: وهو أوكد في إفادة الاختصاص من إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وسقطت الياء من قوله: ﴿فَارْهَبُونُ﴾ لأنها رأس آية ﴿وَمُصَدِّقاً﴾ حال من «ها» في قوله: ﴿مَا أَنْزَلْتُ﴾ أو من ضميرها المقدر بعد الفعل أي: أنزلته. وقوله: ﴿أَوَّلُ كَافِرٍ بِهِ﴾ إنما جاء به مفرداً، ولم يقل كافرين حتى يطابق ما قبله؛ لأنه وصف لموصوف محذوف مفرد اللفظ، متعدد المعنى نحو فريق، أو فوج. وقال الأخفش، والفراء: إنه محمول على معنى الفعل؛ لأن المعنى أول من كفر. وقد يكون من باب قولهم: هو أظفر الفتيان، وأجمله كما حكى ذلك سيبويه، فيكون هذا المفرد قائماً مقام الجمع، وإنما قال: أول مع أنه قد تقدمهم إلى الكفر به كفار قريش؛ لأن المراد أول كافر به من أهل الكتاب؛ لأنهم العارفون بما يجب للأنبياء، وما يلزم من التصديق، والضمير في به عائد إلى النبي ﷺ أي: لا تكونوا أول كافر بهذا النبي مع كونكم قد وجدتموه مكتوباً عنكم في التوراة، والإنجيل، ميسراً به في الكتب المنزلة عليكم، وقد حكى الرازي في تفسيره في هذا الموضع ما وقف عليه من البشارات برسول الله ﷺ في الكتب السالفة، وقيل: إنه عائد إلى القرآن المدلول عليه بقوله:

أهل العلم العارفين بأسباب النزول، المطلعين على حوادث النبوة، فإنه ينثج صدره، ويذول عنه الريب، بالنظر في سورة من السور المتوسطة، فضلاً عن المطولة؛ لأنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت في حوادث مختلفة، وأوقات متباينة لا مطابقة بين أسبابها، وما نزل فيها في الترتيب، بل يكفي المقصر أن يعلم أن أول ما نزل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] وبعده ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: 1] ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾ [المزمل: 1] وينظر أين موضع هذه الآيات، والسور في ترتيب المصحف؛ وإذا كان الأمر هكذا، فأي معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعاً أنه قد تقدم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متلخراً، وتأخر ما أنزله الله متقدماً، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة، وما أقل نفع مثل هذا، وأنذر ثمرة، وأحقر فائتة، بل هو عند من يفهم ما يقول، وما يقال له من تضيق الأوقات، وإنفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله، ولا على من يقف عليه من الناس، وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه، ورسائله وإنشائه، أو إلى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التي تكون تارة منجاً، وأخرى هجاء، وحيناً نسيباً، وحيناً رثاء، وغير ذلك من الأنواع المتخالفة، فعمد هذا المتصدي إلى ذلك المجموع، فناسب بين فقره، ومقاطعه، ثم تكلف تكلفاً آخر، فناسب بين الخطبة التي خطبها في الجهاد، والخطبة التي خطبها في الحج، والخطبة التي خطبها في النكاح، ونحو ذلك؛ وناسب بين الإنشاء الكائن في العزاء والإنشاء الكائن في الهناء، وما يشابه ذلك، لعد هذا المتصدي لمثل هذا مصاباً في عقله، متلاعباً بأوقاته، عابثاً بعمره الذي هو رأس ماله، وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة، وهو ركوب الأحموق في كلام البشر، فكيف تراه يكون في كلام الله سبحانه الذي أعجزت بلاغته بلبغا العرب، وأبكت فصاحته فصحاء عدنان، وقحطان، وقد علم كل مقصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربي، وأنزله بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وجرى به مجاريهم في الخطاب. وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتي بفنون متخالفة، وطرائق متباينة فضلاً عن المقامين، فضلاً عن المقامات، فضلاً عن جميع ما قاله ما دام حياً، وكذلك شاعرهم. ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي تعثر في ساحاتها كثير من المحققين، وإنما ذكرنا هذا البحث في هذا الموضع؛ لأن الكلام هنا قد انتقل مع بني إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم عليه السلام، فإذا قال متكلف: كيف ناسب هذا ما قبله؟ قلنا: لا كيف:

فدع عنك نهياً صريحاً في حجراته وهات حيناً ما حديث الرواحل قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعناه عبد الله؛ لأن إسر في لغتهم هو: العبد، وإيل هو الله،

﴿بما أنزلت﴾ وقيل: عائد إلى التوراة المدلول عليها بقوله: ﴿لما معكم﴾ وقوله: ﴿ولا تشتروا بآياتي﴾ أي: بأوامري ونوامي ﴿ثمنًا قليلًا﴾ أي: عيشًا نزرًا، ورئاسة لا خطر لها. جعل ما اعتاضوه ثمنًا، وأوقع الاشتراء عليه وإن كان الثمن هو المشتري به، لأن الاشتراء هنا مستعار للاستبدال: أي لا تستبدلوا بآياتي ثمنًا قليلًا، وكثيراً ما يقع مثل هذا في كلامهم، وقد قمنا الكلام عليه في تفسير قوله تعالى: ﴿اشترُوا الضلالة بالهدى﴾ [البقرة: 16]، ومن إطلاق اسم الثمن على نيل عرض من أعراض الدنيا قول الشاعر:

إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها فما أصبت بترك الحج من ثمن
وهذه الآية، وإن كانت خطاباً لبني إسرائيل، ونهياً لهم فهي متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب، أو بلحنه، فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به، أو إثبات باطل نهى الله عنه، أو امتنع من تعليم ما علمه الله، وكتب البيان أخذ الله عليه ميثاقه به، فقد اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا، وقوله: ﴿ولياي فائقون﴾ الكلام فيه كالكلام في قوله تعالى: ﴿ولياي فارهبون﴾ وقد تقدم قريباً. واللبس: الخلط، يقال لبست عليه الأمر ألبسه: إذا خلطت حقه بباطله، وواضحه بمشكله، قال الله تعالى: ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ [الأنعام: 9] قالت الخنساء:

نرى المجلس يقول الحق تحسبه رشداً وهيها فانظر ما به التبا
صدق مقالته واحذر عداوته والبس عليه أموراً مثل ما لبسا
وقال العجاج:

لما لبست الحق بالتجني عتبني فاستبدلني زيدا مني
ومنه قول عنتره:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبت نفضت لها يدي
وقيل: هو مأخوذ من التغطية: أي لا تغطوا الحق بالباطل، ومنه قول الجعدي:

إذا ما الضجيع ثنى جيدها ثننت عليه وكانت لباسا
وقول الأختل:

وقد لبست لهذا الأمر أعصره حتى تجلل رأسي الشيب فاشتعل
والأول أولى. والباطل في كلام العرب: الزائل، ومنه قول ليبي:

الا كل شيء ما خلا الله باطل

ويطل الشيء يبطل بطلاً أو بطلاناً، وباطله غيره، ويقال ذهب دمه بطلاً: أي هدرًا، والباطل: الشيطان، وسمي الشجاع بطلاً؛ لأنه يبطل شجاعة صاحبه، والمراد به هنا خلاف الحق. والباء في قوله: بالباطل يحتمل أن تكون صلة، وأن تكون للاستعانة نكر معناه في الكشف، ورجح الرازي في تفسيره الثاني. وقوله: ﴿وتكتموا﴾ يجوز أن يكون داخلًا تحت حكم النهي، أو منصوباً بإضمار أن، وعلى الأول يكون كل واحد من اللبس، والكتم منهياً عنه، وعلى الثاني يكون المنهي عنه هو: الجمع بين الأمرين، ومن هذا يلوح رجحان دخوله تحت حكم النهي، وأن كل واحد منهما لا يجوز فعله على انفراده، والمراد النهي عن كتم حجج الله التي أوجب

عليهم تبليغها، وأخذ عليهم بيانها، ومن فسر اللبس أو الكتمان بشيء معين، ومعنى خاص، فلم يصب أن أراد أن ذلك هو: المراد بون غيره، لا إن أراد أنه مما يصدق عليه. وقوله: ﴿وانتم تعلمون﴾ جملة حالية، وفيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل، وذلك أغلظ للذنب، وأوجب للعقوبة، وهذا التقييد لا يفيد جواز اللبس، والكتمان مع الجهل؛ لأن الجاهل يجب عليه أن لا يقدم على شيء حتى يعلم بحكمه خصوصاً في أمور الدين، فإن التكلم فيها، والتصدي للإصدار، والإيراد في أبوابها إنما أنشأ الله به لمن كان رأساً في العلم فرداً في الفهم، وما للجهال، والدخول فيما ليس من شأنهم، والعود في غير مقامهم. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿يا بني إسرائيل﴾ قال للأخبار من اليهود: ﴿انكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي بلائي عنكم، وعند آبائكم لما كان نجاهم به من فرعون، وقومهم ﴿وأوفوا بعهدي﴾ الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم ﴿أوف بعهدكم﴾ أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديق، واتباعه بوضع ما كان عليكم من الإصر، والأغلال ﴿ولياي فارهبون﴾ أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النعمات ﴿وآمنوا﴾ بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به، وعنكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم ﴿وتكتموا الحق وانتم تعلمون﴾ أي: لا تكتموا ما عنكم من المعرفة برسولي، وبما جاءكم به وأنتم تجدونه عنكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿أوفوا بعهدي﴾ يقول: ما أمرتكم به من طاعتي، ونهيكم عنه من معصيتي في النبي ﷺ، وغيره ﴿أوف بعهدكم﴾ يقول: أرض عنكم، وأسلخكم الجنة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود مثله. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿أوفوا بعهدي﴾ قال: هو: الميثاق الذي أخذه عليهم في سورة المائدة ﴿لقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ [المائدة: 12] الآية. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: أوفوا لي بما افترضت عليكم أوف لكم بما وعدتكم. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿ياي فارهبون﴾ قال: فاحشون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جريج، عن مجاهد في قوله: ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ قال القرآن: ﴿مصديقاً لما معكم﴾ قال التوراة والإنجيل. وأخرج ابن جريج، عن ابن جرير في قوله: ﴿أول كافر به﴾ قال: بالقرآن. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في الآية قال: يقول يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت على محمد مصديقاً لما معكم؛ لأنهم يجنبونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أي: أول من كفر بمحمد ﴿ولا تشتروا بآياتي﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجراً، قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يابن آدم علم مجاناً كما علمت مجاناً. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: لا تأخذ على ما

سنة مؤكدة مرغّب فيها، وليس بواجب، وهو الحق للأحاديث الصحيحة الثابتة عن جماعة من الصحابة، من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة، أو بسبع وعشرين درجة. وثبت في الصحيح عنه ﷺ الذي يصلي مع الإمام أفضل من الذي يصلي وحده، ثم ينام. والبحث طويل النيل، كثير النقول، والهمزة في قوله: «تأمرون الناس بالبر» للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر فإنه فعل حسن مندوب إليه، بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله: «وتنسون أنفسكم» مع التطهر بتزكية النفس، والقيام في مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهاماً للناس وتليسياً عليهم كما قال أبو العتاهية:

وصفت التقى حتى كأنك نوتقي وريح الخطايا من ثيابك يسطع
والبر: الطاعة، والعمل الصالح، والبر: سعة الخير، والمعروف، والبر: الصق، والبر: ولد الثعلب، والبر: سوق الغنم، ومن إطلاقه على الطاعة قول الشاعر:

لا هم ربّ أن يكونوا نونكا يبرك الناس ويفجرونكا
أي: يطيعونك، ويعصونك، والنسيان بكسر النون هو: هنا بمعنى الترك أي: وتتركون أنفسكم، وفي الأصل خلاف الذكر، والحفظ أي: زوال الصورة التي كانت محفوظة عن المدركة، والحافظة. والنفس: الروح، ومنه قوله تعالى: «الله يتوفى الأنفس حين موتها» [الزمر: 42] يريد الأرواح. وقال أبو خراش: نجا سالم، والنفس منه بشقه والنفس أيضاً الدم.

ومنه قولهم: سالت نفسه، قال الشاعر:

تسيل على حدّ السيف نفوسنا وليس على غير النبطات تسيل
والنفس الجسد، ومنه:

نبئت أن بني سحيم أسخلوا أبياتهم تأمور نفس المنذر
والتأمور البدن. وقوله: «وانتم تتلون الكتاب» جملة حالية مشتملة على أعظم تقريع، وأشدّ توبيخ، وأبلغ تبيك أي: كيف تتركون البر الذي تأمرون الناس به، وأنتم من أهل العلم العارفين بقيق هذا الفعل، وشدة الوعيد عليه، كما ترونه في الكتاب الذي تتلونه، والآيات التي تقرؤونها من التوراة. والتلاوة: القراءة، وهي المراد هنا، وأصلها الاتباع؛ يقال تلوته: إذا تبعته؛ وسمي القارئ تالياً، والقراءة تلاوة؛ لأنه يتبع بعض الكلام ببعض على النسق الذي هو عليه. وقوله: «أفلا تعقلون» استفهام للإنكار عليهم، والتقريع لهم، وهو أشدّ من الأول، وأشدّ، وأشدّ ما قرّع الله في هذا الموضع من يامر بالخير، ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم، فاستنكر عليهم أولاً أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم في تلك الأمر الذي قاموا به في المجمع، ونادوا به في المجالس إيهاماً للناس بأنهم مبلغون عن الله ما تحملوه من حجه، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم، واثمنهم عليه، وهم ترك الناس لذلك، وأبعدهم من نفعه، وأزهدهم فيه، ثم ربط

علمت أجراً، إنما أجر العلماء، والحكماء، والحملاء على الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: «ولا تلبسوا بالحق بالباطل» قال: لا تخلطوا الصق بالكتب «وتكتنموا بالحق» قال: لا تكتنموا الحق، وأنتم قد علمتم أن محمداً رسول الله. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: «ولا تلبسوا» الآية، قال: لا تلبسوا اليهودية، والنصرانية بالإسلام «وتكتنموا بالحق» قال: كنتموا محمداً وهم يعلمون أنه رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل. وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: الحق التوراة، والباطل الذي كتبوه بأيديهم.

وَأَمْسُوا أَلْسِنَةً أَوْ أَفْأُ الْزَكَاةَ وَأَرْكُوعًا مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠١﴾ وَاسْتَعِذُوا بِالْأَسْبَرِ وَالْحَلَوَةِ وَنَهْا لَكِبَرَةٍ إِلَّا عَلَى الْخَمِيرِينَ ﴿١٠٢﴾ الَّذِينَ يَتْلُونَ آيَاتِهِمْ مَلْفُورًا رِيَمًا وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ رَجُوعُونَ ﴿١٠٣﴾

قد تقدم الكلام في تفسير إقامة الصلاة، واشتقاقها، والمراد هنا الصلاة المعهودة، وهي: صلاة المسلمين على أن التعريف للعهد، ويجوز أن تكون للبدن، ومثلها الزكاة والإيتاء: الإعطاء يقال آتيته: أي أعطيته. والزكاة مأخوذة من الزكاء، وهو: النماء، زكا الشيء: إذا نما، وزاد، ورجل زكي أي: زائد الخير، وسمي إخراج جزء من المال زكاة أي: زيادة مع أنه نقص منه؛ لأنها تكثر بركته بذلك، أو تكثر أجر صاحبه، وقيل الزكاة مأخوذة من التدهير، كما يقال: زكا فلان أي: طهر.

والظاهر أن الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، ونحوها قد نقلها الشرع إلى معان شرعية (سي: المرادة بما هو مذكور في الكتاب، والسنة منها. وقد تكلم أهل العلم على ذلك بما لا يتسع المقام لبسطه. وقد اختلف أهل العلم في المراد بالزكاة هنا، فقيل المراد المفروضة لاقتنائها بالصلاة، وقيل صدقة الفطر، والظاهر أن المراد ما هو أعم من ذلك. والركوع في اللغة: الانحناء، وكل منح ركع، قال لبيد:

أخبر أخبار القرون التي مضت أنبكاذي كلما قمت راكع
وقيل: الانحناء يعم الركوع، والسجود، ويستعار الركوع أيضاً للانحناء في المنزلة، قال الشاعر:

لا تهين الفقير عليك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه
وإنما خص الركوع بالذكر هنا؛ لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم؛ وقيل لكونه كان ثقيلاً على أهل الجاهلية وقيل إنه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة. والركوع الشرعي: هو: أن ينحني الرجل ويمد ظهره، وعنقه، ويفتح أصابع يديه، ويقبض على ركبتيه، ثم يطمئن ركعاً ذكراً بالذكر المشروع. وقوله: «مع الراكعين» فيه الإرشاد إلى شهود الجماعة، والخروج إلى المساجد. وقد ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة الثابتة في الصحيحين، وغيره ١ - . معروف. وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم عر خلاف بينهم في كون ذلك عيناً أو كفاية، وذهب الجمهور إلى أنه

إليها» [الجمعة: 11] فأرجع الضمير هنا إلى الفضة والتجارة لما كانت الفضة أعم نفعاً، وأكثر، وجوداً، والتجارة هي الحاملة على الانقضاء، والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول أن الصبر هناك جعل داخلاً تحت الصلاة، وهنا لم يكن داخلاً، وإن كان مراداً، وقيل إن المراد الصبر، والصلاة، ولكن أرجع الضمير إلى أحدهما استغناء به عن الآخر، ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ [المؤمنون: 50] أي: ابن مريم آية وأمه آية. ومنه قول الشاعر:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها الغريب
وقال آخر:

لكل همٍّ من الهموم سعة والصبح والمساء لافلاح معه
وقيل: رجع الضمير إليهما بعد تأويلهما بالعبادة، وقيل: رجع إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿واستعِينُوا﴾ وهو الاستعانة، وقيل: رجع إلى جميع الأمور التي نهى عنها بنو إسرائيل. والكبيرة التي يكبر أمرها، ويتعاطى شأنها على حاملها لما يجده عند تحملها، والقيام بها من المشقة، ومنه ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ [الشورى: 13]. والخاشع: هو المتواضع، والخشوع: التواضع. قال في الكشف: والخشوع: الإخبات والتطامن، ومنه الخشعة للرملة المتطامنة، وأما الخضوع: فاللين والانقياد، ومنه خضعت بقولها: إذا لينته. انتهى. وقال الزجاج: الخاشع الذي يرى أثر الذل، والخشوع عليه كخشوع الدار بعد الأقوى، ومكان خاشع: لا يهتدى إليه، وخشعت الأصوات أي: سكنت، وخشع بصره: إذا غشه، والخشعة: قطعة من الأرض رخوة. وقال سفيان الثوري: سألت الأعمش عن الخشوع فقال: يا ثوري أنت تريد أن تكون إماماً للناس، ولا تعرف الخشوع؟ ليس الخشوع باكل الخشن، ولبس الخشن، وتطاطى الرأس، لكن الخشوع أن ترى الشريف، والذني في الحق سواء، وتخضع له في كل فرض افترض عليك. انتهى. وما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهيته: إنه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون، وتواضع، واستئني سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم في الصلاة، وملازمتهم لوظائف الخشوع الذي هو روح الصلاة، وإتعايبهم لأنفسهم إتعاباً عظيماً في الأسباب الموجبة للحضور، والخضوع؛ لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر، وتوفر الجزاء، والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب، تسهل عليهم تلك المتاعب، ويتنزل لهم ما يرتكبونه من المصاعب، بل يصير ذلك لذة لهم خالصة، وراحة عندهم محضة، ولأمر ما هان على قوم ما يلاقونه من حرّ السيف عند تصادم الصفوف، وكانت الأمنية عندهم طعم العنية حتى قال قائلهم:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصري
والظن هنا عند الجمهور بمعنى اليقين، ومنه قوله تعالى: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابي﴾ [الحاقة: 20]، وقوله:

هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم، وكاشفة لعوارهم، وماتكة لاستارهم، وهي: أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة، والخصلة الفظيعة على علم منهم، ومعرفة بالكتاب الذي أنزل عليهم، وملازمة لتلاوته، وهم في ذلك كما قال المعري:

وإنما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد لأحب التلاوات
ثم انتقل معهم من تقرير إلى تقرير، ومن توبيخ إلى توبيخ فقال: إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم، وحملة الحجة، وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلاً بينكم وبين ذلك ذائداً لكم عنه زاجراً لكم منه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجب العلم. والعقل في أصل اللغة: المنع، ومنه عقال البعير؛ لأنه يمنعه عن الحركة، ومنه العقل في الدية؛ لأنه يمنع ولي المقتول عن قتل الجاني. والعقل نقض الجهل، ويصح تفسير ما في الآية هنا بما هو، أصل معنى العقل عند أهل اللغة أي: أفلا تمنعون أنفسكم من مواجهة هذه الحال المزرية ويصح أن يكون معنى الآية: أفلا تنظرون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم. وقوله: ﴿واستعِينُوا بالصبر﴾ الصبر في اللغة: الحبس، وصبرت نفسي على الشيء: حبستها. ومنه قول عنترة:

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع
والمراد هنا: استعِينُوا بحبس أنفسكم عن الشهوات، وقصرها على الطاعات على نفع ما يرد عليكم من المكروهات، وقيل الصبر هنا هو: خاص بالصبر على تكليف الصلاة. واستدل هذا القائل بقوله تعالى: ﴿وامرأهك بالصلاة واصطبر عليها﴾ [طه: 132]، وليس في هذا الصبر الخاص بهذه الآية ما ينفي ما تفيدته الآلف، واللام الداخلة على الصبر من الشمول كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ما تصلى عليه الصلاة الشرعية من غير فرق بين فريضة، ونافلة. واختلف المفسرون في رجوع الضمير في قوله: ﴿وإنها لكبيرة﴾ فقيل: إنه راجع إلى الصلاة، وإن كان المتقدم هو: الصبر، والصلاة، فقد يجوز إرجاع الضمير إلى أحد الأمرين المتقدم ذكرهما. كما قال تعالى: ﴿هو الله ورسوله﴾ [التوبة: 62] إذا كان أحدهما داخلاً تحت الآخر بوجه من الوجوه، ومنه قول الشاعر:

إن شرخ الشباب والشعر الاسود ما لم يعاض كان جنونا
ولم يقل ما لم يعاضا بل جعل الضمير راجعاً إلى الشباب؛ لأن الشعر الأسود داخل فيه، وقيل: إنه عائد إلى الصلاة من نون اعتبار دخول الصبر تحتها؛ لأن الصبر هو عليها، كما قيل سابقاً، وقيل: إن الضمير راجع إلى الصلاة وإن كان الصبر مراداً معها، لكن لما كانت أكد، وأعم تكليفاً، وأكثر ثواباً كانت الكناية بالضمير عنها، ومنه قوله: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ [التوبة: 34] كذا قيل، وقيل إن الضمير راجع إلى الأشياء المكنوزة، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا رآوا تجارة أو لهواً انفضوا

﴿وَوَلَدْنَا لَهُمْ مَوَاقِعَهُمْ﴾ [الكهف: 53] ومنه قول دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بالفني مدبج سراتهم بالفارسي المسود
وقيل: إن الظن في الآية على بابيه، ويضمّر في الكلام
بذنوبهم، فكانهم توقّعا لقاء منبئين، نكره المهوي
والماوردي، والأوّل أولى. وأصل الظن: الشك مع الميل إلى
أحد الطرفين، وقد يقع موقع اليقين في مواضع، منها هذه
الآية. ومعنى قوله: ﴿مَلَاقُوا رَبَّهُمْ﴾ ملاقوا جزئته، والمفاعلة
هنا ليست على بابها، ولا أرى في حمله على أصل معناه
من دون تقدير المضاف بأساً. وفي هذا مع ما بعده من
قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرار بالبعث، وما وعد الله به
في اليوم الآخر. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في
قوله: ﴿وَارْكَعُوا﴾ قال: صلوا. وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً
عن مقاتل في قوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قال: أمرهم
أن يركعوا مع أمة محمد يقول: كونوا منهم ومعهم. وأخرج
عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى: ﴿اتَّامِرُونَ لِلنَّاسِ
بِالْبَرِّ﴾ الآية، قال: أولئك أهل الكتاب كانوا يأمرون الناس
بالبرّ، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، ولا ينتفعون بما
فيه. وأخرج الثعلبي والواحدي عن ابن عباس قال: نزلت هذه
الآية في يهود أهل المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره،
ولذي قرابته، ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين: اثبت
على الدين الذي أنت عليه، وما يارك به هذا الرجل، يعنون
محمداً ﷺ، فإن أمره حق، وكانوا يأمرون الناس بذلك، ولا
يفعلونه. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿اتَّامِرُونَ لِلنَّاسِ
بِالْبَرِّ﴾ قال: بالخول في دين محمد. وأخرج ابن إسحاق،
وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: تنهون الناس
عن الكفر بما عندكم من النبوة، والعهد من التوراة، وأنتم
تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسلِي؛ وأخرج
عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، والبيهقي، عن أبي
الرداء في الآية قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت
الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه، فيكون لها أشدّ مقتاً.
وأخرج أحمد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، وابن حبان،
وابن مريويه، والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت
ليلة أسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار،
كلما قرضت رجعت، فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء
خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبرّ، وينسون أنفسهم،
وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون». وثبت في الصحيحين من
حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتتلق به أقتابه،
فيثور بها كما يثور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار،
فيقولون: يا فلان ما لك ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا
بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: «كنت آمركم
بالمعروف، ولا آتية، وإنهاكم عن المنكر، وآتية» وفي الباب
أحاديث منها عن جابر مرفوعاً عند الخطيب، وابن النجار،

وعن الوليد بن عقبة مرفوعاً عند الطبراني، والخطيب بسند
ضعيف، وعند عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عنه
موقوفاً، ومعناها جميعاً: أنه يطلع قوم من أهل الجنة على
قوم من أهل النار، فيقولون لهم: بما نلظم النار، وإنما نلظنا
الجنة بتعليمكم؟ قالوا: إنا كنا نأمركم، ولا نفعل. وأخرج
الطبراني، والخطيب في الاقتضاء، والأصبهاني في الترغيب
بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:
«مثل العالم الذي يعلم الناس الخير، ولا يعمل به كمثل
السراج يضيء للناس، ويحرق نفسه». وأخرج ابن أبي شيبة،
وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عنه نحوه. وأخرج
الطبراني، والخطيب في الاقتضاء عن أبي برزة مرفوعاً
نحوه. وأخرج ابن قانع في معجمه، والخطيب في الاقتضاء
عن سليك مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة،
وأحمد في الزهد عن أبي الرداءة قال: «ويل للذي لا يعلم
مرة، ولو شاء الله لعلمه، وويل للذي يعلم، ولا يعمل سبع
مرات». وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الله بن مسعود مثله،
وما أحسن ما أخرجه ابن مريويه، والبيهقي في شعب
الإيمان، وابن عساكر عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال: يا
ابن عباس إني أريد أن أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر،
قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: فإن لم تخش أن تفتضح
بثلاثة أحرف في كتاب الله، فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله
عز وجل: ﴿اتَّامِرُونَ لِلنَّاسِ بِالْبَرِّ وَتَنسُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:
44] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني، قال:
قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كبر مقتاً عند الله أن
تقولوا ما لا تفعلون، [الصف: 2] أحكمت هذه الآية؟ قال:
لا، قال: فالحرف الثالث، قال: قول العبد الصالح شعيب ﴿مَا
أُرِيدُ أَنْ لُخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: 88] أحكمت هذه
الآية؟ قال: لا، قال: فأبدأ بنفسك. وأخرج عبد بن حميد عن
قتادة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال:
إنهما معونتان من الله، فاستعينوا بهما. وقد أخرج ابن أبي
الدنيا في كتاب الصبر، وأبو الشيخ في الثواب، والديلمي في
مسند الفريديس عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «الصبر
ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن
المعصية». وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الصبر،
والترغيب فيه، والجزاء للصابرين، ولم ننكرها هنا، لأنها
ليست بخاصة بهذه الآية، بل هي واردة في مطلق الصبر،
وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ما هنا منها شطراً
صالحاً، وفي الكتاب العزيز من الشئ على ذلك، والترغيب فيه
الكثير الطيب. وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن جرير عن
حنيفة قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»
وأخرج أحمد، والنسائي، وابن حبان، عن صهيب، عن النبي
ﷺ قال: «كانوا: يعني الأنبياء، يفزعون إذا فزعوا إلى
الصلاة». وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساكر، عن أبي
الرداءة مرفوعاً نحو حديث حنيفة. وأخرج سعيد بن
منصور، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان،

في كل زمان، فليس في اللفظ ما يفيد هذا، ولا في اشتقاقه ما يدل عليه؛ وأما من جعل العالم أهل العصر، فغاياته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لا على أهل كل عصر، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا ﷺ، ولا على ما بعده من العصور، ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلْ فَيْكُمُ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 20] وعند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [النحان: 32] وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33] فإن قيل: إن التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم. قلت: لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزماً لكونهم أفضل من أمة محمد ﷺ، لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] فإن هذه الآية، ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ أمر معناه الوعيد، وقد تقدم معنى التقوى. والمراد باليوم يوم القيامة أي: عذابه. وقوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ في محل نصب صفة ليوم، والعائد محذوف. قال البصريون في هذا وأمثاله تقديره فيه. وقال الكسائي هذا خطأ، بل التقدير لا تجزيه. لأن حذف الظرف لا يجوز، ويجوز حذف الضمير وحده. وقد روي عن سيبويه، والأخفش، والزجاج جواز الأمرين. ومعنى: لا تجزي لا تكفي، وتقضي، يقال: جزأني هذا الأمر يجزي أي: قضى، واجتزأت بالشيء اجتزيت أي: اكتفيت، ومنه قول الشاعر:

فإن السخر في الأتراء عار وإن الحري يجزي بالكراع والمراد أن هذا اليوم لا تقضي نفس عن نفس شيئاً، ولا تكفي عنها، ومعنى التذكير التحقير أي: شيئاً يسيراً حقيراً، وهو منصوب على المفعولية، أو على أنه صفة مصدر محذوف أي: جزاء حقيراً، والشفاعة مأخوذة من الشفع، وهو الائتناف، تقول استشفعته أي: سألته أن يشفع لي، أي: يضمّ جامه إلى جاهك عند المشفوع إليه ليصل النفع إلى المشفوع له، وسميت الشفاعة شفاعة؛ لأنك تضم ملك شريك إلى ملكك. وقد قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، «تقبل» بالمشناة الفوقية، لأن الشفاعة مؤنثة، وقرأ الباقر بالباء التحتية؛ لأنها بمعنى الشفيع. قال الأخفش: الأحسن التذكير. وضمير منها يرجع إلى النفس المذكورة ثانياً أي: إن جاءت بشفاعة شفيع، ويجوز أن يرجع إلى النفس المذكورة أولاً أي: إذا شفعت لم يقبل منها. والعدل يفتح العين: الفداء، ويكسرهما: المثل. يقال: عدل، وعدل للذي ماثل في الوزن والقدر. وحكى ابن جرير أن في العرب من يكسر العين في معنى الفدية. والنصر: العون، والأنصار: الأعوان، وانتصر الرجل: انتقم، والضمير أي: هم يرجع إلى النفوس المملولة عليها بالذكورة في سياق النفي، والنفس تذكر وتؤنث. وقوله: ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ متعلق بقوله ﴿وَأَنْكُرُوا﴾ والنجاة: النجوة من الأرض، وهي ما ارتفع منها، ثم سمي كل فائز ناجياً. وآل

عن ابن عباس أنه كان في مسير له، فنعى إليه ابن له، فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع فقال: فعلنا كما أمرنا الله فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. وقد روى عنه نحو ذلك سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي لما نعى إليه أخوه قثم. وقد روى نحو ذلك عن جماعة من الصحابة، والتابعين، وأخرج ابن جرير، عن الضحاك في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قال: لثقلية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ قال: المؤمنين حقاً. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ قال: الخائفين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كل ظن في القرآن، فهو يقين، ولا يتم هذا في مثل قوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: 28] وقوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12] ولعله يريد الظن المتعلق بأمور الآخرة كما رواه ابن جرير عن قتادة قال: ما كان من ظن الآخرة، فهو علم. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ قال: يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة.

يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَكْثَرُ يُحْيِي آلَئِيْ أَهْلَهُ عَالِمًا وَإِيْ فَضْلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرَوْنَ ﴿٧٢﴾ وَإِذْ يُخَيِّلُكُمْ بَيْنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَمْشُونَ فِي سَوَاءِ الْأَعْيَابِ يُدْخِلُونَ أُنثَاءَكُمْ وَيَسْتَعْمِلُونَ بَنَاتَكُمْ فِي ذُلِّكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَرَّبْنَا بِلَسَانِكُمْ فَاتْرَقَتْ آلُ فِرْعَوْنَ وَأُتَتْ بَنَاتُهُنَّ ﴿٧٤﴾

قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ قد تقدم تفسيره، وإنما كرر ذلك سبحانه توكيداً للحجة عليهم، وتحذيراً لهم من ترك اتباع محمد ﷺ، ثم قرنه بالوعيد، وهو قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرَوْنَ﴾ [النجم: 28] وإذ يُخَيِّلُكُمْ بَيْنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَمْشُونَ فِي سَوَاءِ الْأَعْيَابِ يُدْخِلُونَ أُنثَاءَكُمْ وَيَسْتَعْمِلُونَ بَنَاتَكُمْ فِي ذُلِّكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَرَّبْنَا بِلَسَانِكُمْ فَاتْرَقَتْ آلُ فِرْعَوْنَ وَأُتَتْ بَنَاتُهُنَّ ﴿٧٤﴾

قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ قد تقدم تفسيره، وإنما كرر ذلك سبحانه توكيداً للحجة عليهم، وتحذيراً لهم من ترك اتباع محمد ﷺ، ثم قرنه بالوعيد، وهو قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرَوْنَ﴾ [النجم: 28] وإذ يُخَيِّلُكُمْ بَيْنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَمْشُونَ فِي سَوَاءِ الْأَعْيَابِ يُدْخِلُونَ أُنثَاءَكُمْ وَيَسْتَعْمِلُونَ بَنَاتَكُمْ فِي ذُلِّكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَرَّبْنَا بِلَسَانِكُمْ فَاتْرَقَتْ آلُ فِرْعَوْنَ وَأُتَتْ بَنَاتُهُنَّ ﴿٧٤﴾

قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ قد تقدم تفسيره، وإنما كرر ذلك سبحانه توكيداً للحجة عليهم، وتحذيراً لهم من ترك اتباع محمد ﷺ، ثم قرنه بالوعيد، وهو قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرَوْنَ﴾ [النجم: 28] وإذ يُخَيِّلُكُمْ بَيْنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَمْشُونَ فِي سَوَاءِ الْأَعْيَابِ يُدْخِلُونَ أُنثَاءَكُمْ وَيَسْتَعْمِلُونَ بَنَاتَكُمْ فِي ذُلِّكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَرَّبْنَا بِلَسَانِكُمْ فَاتْرَقَتْ آلُ فِرْعَوْنَ وَأُتَتْ بَنَاتُهُنَّ ﴿٧٤﴾

الشرّ بلوته أبلوه بلاء، وفي الخير أبليه إبلاء وبلاء، قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلى
قال: فجمع بين اللغتين؛ لأنه أراد، فأنعم عليهما خير
النعم التي يختير بها عباده. وقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ متعلق بما
تقدم من قوله: ﴿أَنْكُرُوا﴾ وفرقنا: فلقنا، وأصل الفرق
الفصل، ومنه فرق الشعر، وقرأ الزهري: «فرّقنا» بالتشديد،
والباء في قوله: ﴿بِكُمْ﴾ قيل هي بمعنى اللام أي: لكم، وقيل
هي الباء السببية أي: فرقناه بسببكم، وقيل إن الجار
والمجرور في محل الحال أي: فرقناه متلبساً بكم، والمراد
ها هنا أن فرق البحر كان بهم أي: بسبب دخولهم فيه. أي:
لما صاروا بين المائين صار الفرق بهم. وأصل البحر في
اللغة: الاتساع، أطلق على البحر الذي هو مقابل البرّ لما فيه
من الاتساع بالنسبة إلى النهر، والخليج، ويطلق على الماء
المالح، ومنه إبحر الماء: إذا ملح، قال نصيب:

وقد عاد ماء الأرض بحرّاً فزادني إلى مرضي أن أبحر المشرب العذب
وقوله: ﴿فَأَنْجِيَانَكُمْ﴾ أي: أخرجناكم منه. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾
فرعون في قوله: ﴿فَرَقْنَا﴾ وفي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في محل نصب
على الحال أي: حال كونكم ناظرين إليهم بآبصاركم، وقيل
معناه: وأنتم تنظرون. أي: ينظر بعضهم إلى البعض الآخر
من السالكين في البحر، وقيل نظروا إلى أنفسهم ينجون
وإلى آل فرعون يفرقون. والمراد بآل فرعون هنا: هو وقومه،
وتباعه. وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عمر بن
الخطاب أنه كان إذا تلا: ﴿أَنْكُرُوا نِعْمَتِي﴾ التي أنعمت
عليكم قال: مضى القوم، وإنما يعني به أنتم، وأخرج ابن
جرير عن سفيان بن عيينة قال في قوله: ﴿أَنْكُرُوا نِعْمَتِي﴾
هي أيادي الله، وإيامه. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال:
نعمة الله التي أنعم بها على بني إسرائيل، فيما سمى، وفيما
سوى ذلك، فجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المنّ، والسلوى،
وأنجاهم من عبودية آل فرعون. وأخرج عبد الرزاق،
وعبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى
الْعَالَمِينَ﴾ قال: فضلوا على العالم الذي كانوا فيه، ولكل
زمان عالم. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. وأخرج
ابن أبي حاتم، وابن جرير عن أبي العالية في قوله:
﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك،
والرسل، والكتب على من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان
عالمًا. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿لَا
تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ قال: لا يغني نفس مؤمنة
عن نفس كافرة من المنفعة شيئاً. وأخرج ابن جرير، عن
عمرو بن قيس الملائي، عن رجل من بني أمية من أهل
الشام أحسن الثناء عليه قال: «قيل يا رسول الله ما العدل؟
قال: العدل الفدية». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن
عباس نحوه. قال ابن أبي حاتم وروى عن أبي مالك،
والحسن، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو
ذلك، وأخرج عبد الرزاق عن علي في تفسير الصرّف،

فرعون: قومه، وأصل آل أهل بدليل تصغيره على أهمل،
وقيل غير ذلك، وهو يضاف إلى نوري الخطر. وقال الأخفش:
إنما يقال في الرئيس الأعظم نحو آل محمد. ولا يضاف إلى
البلدان، فلا يقال من آل المدينة. وقال الأخفش: قد سمعناه
في البلدان قالوا آل المدينة. واختلفوا هل يضاف إلى
المضمر أم لا. فمنعه قوم وسوّغ آخرون، وهو الحق، ومنه
قول عبد المطلب:

وانصر على آل الصليب بوعايبه اليوم لك
وفرعون: قيل هو اسم ذلك الملك بعينه، وقيل إنه اسم
لكل ملك من ملوك العمالة كما يسمى من ملك الفرس
كسرى، ومن ملك الروم قيصر، ومن ملك الحبشة النجاشي.
واسم فرعون موسى المنكور هنا: قابوس في قول أهل
الكتاب. وقال وهب: اسمه الوليد بن مصعب بن الريان. قال
المسعودي: لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية. وقال
الجوهري: إن كل عات يقال له فرعون، وقد تفرعن وهو ذو
فرعة أي: دهاء ومكر. وقال في الكشف: تفرعن فلان: إذا
عتا وتجبر. ومعنى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يولونكم، قاله أبو
عبدة، وقيل ينيقونكم، ويلزمونكم إياه، وأصل السوم الدول،
ومنه سائمة الغنم لمدولمتها الرعي؛ ويقال سامه خطة
خسف: إذا أولاه إياها. وقال في الكشف: أصله من سام
السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى يبيعونكم سوء العذاب،
ويريدونكم عليه. انتهى. ﴿وَسُوءَ الْعَذَابِ﴾: أشدّه، وهو
صفة مصدر محذوف: أي يسومونكم سوءاً سوء العذاب،
ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً، وهذه الجملة في محل رفع
على أنها خبر لمبتدأ مقدر، ويجوز أن يكون في محل نصب
على الحال أي: سائمين لكم. وقوله: ﴿يَلْبِثُونَ﴾ وما بعده
بدل من قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ وقال الفراء: إنه تفسير لما
قبله، وقرأه الجماعة بالتشديد، وقرأ ابن محيصن بالتخفيف.
والذبج في الأصل: الشقّ، وهو فري أوداج المذبوح، والمراد
بقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يتركونهن أحياء
ليستخدموهن، ويمتهنوهن وإنما أمر بذبج الأبناء، واستحياء
البنات، لأن الكهنة أخبروه بأنه يولد مولود يكون هلاكه على
يده، وعبر عن البنات باسم النساء؛ لأنه جنس يصق على
البنات. وقالت طائفة: أنه أمر بذبج الرجال، واستنلوا بقوله:
﴿نِسَاءَكُمْ﴾ والأول أصح بشهادة السبب، ولا يخفى ما في
قتل الأبناء، واستحياء البنات للخدمة، ونحوها من إنزال الذل
بهم، وإلصاق الإمانة الشديدة بجمعهم لما في ذلك من
العار. والإشارة بقوله: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إلى جملة الأمر. والبلاء
يطلق تارة على الخير، وتارة على الشرّ، فإن أريد به هنا
الشرّ كانت الإشارة بقوله: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إلى ما حلّ
بهم من النعمة بالذبج، ونحوه، وإن أريد به الخير كانت
الإشارة إلى النعمة التي أنعم الله عليهم بالإنقاذ، وما هو
منكور قبله من تفضيلهم على العالمين. وقد اختلف السلف
ومن بعدهم في مرجع الإشارة، فرجع الجمهور الأوّل،
ورجع الآخرون الآخر. قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في

والعدل قال: التطوع والفريضة. قال ابن كثير: وهذا القول غريب ههنا، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالت الكهنة لفرعون إنه يولد في هذا العام مولود يذهب بملكه، فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل، وعلى كل مائة عشرة، وعلى كل عشر رجلاً، فقال: انظروا كل امرأة حامل في المدينة، فإذا وضعت حملها، فإن كان نكراً فأنبحوه، وإن كان أنثى، فخلوا عنها، وذلك قوله: ﴿يَنْبَحُونَ لِبَنَائِهِمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْأَنْفَالِ﴾ قال: إن فرعون ملكهم أربع مائة سنة. فقالت له الكهنة: إنه سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فبعث في أهل مصر نساء قوابل، فإذا ولدت امرأة غلاماً أتى به فرعون فقتله، ويستحيي الجواري. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يقول: نعمة. وأخرج وكيع عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ فقال: إي والله لفرق البحر بينهم حتى صار طريقاً يسيأ يمشون فيه، فأنجاهم الله، وأغرق آل فرعون عدوهم. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال: ما هذا اليوم؟ قالوا: هذا يوم صالح نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، فقال رسول الله ﷺ: نحن أحق بموسى منكم، فصامه، وأمر بصومه». وقد أخرج الطبراني، وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جببر أن هرقل كتب إلى معاوية يسأله عن أمور، منها عن البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة، فكتب معاوية إلى ابن عباس، فأجابه عن تلك الأمور وقال: وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار: فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل، ولعله سيأتي إن شاء الله تعالى زيادة على ما هنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63].

والعدل قال: التطوع والفريضة. قال ابن كثير: وهذا القول غريب ههنا، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالت الكهنة لفرعون إنه يولد في هذا العام مولود يذهب بملكه، فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل، وعلى كل مائة عشرة، وعلى كل عشر رجلاً، فقال: انظروا كل امرأة حامل في المدينة، فإذا وضعت حملها، فإن كان نكراً فأنبحوه، وإن كان أنثى، فخلوا عنها، وذلك قوله: ﴿يَنْبَحُونَ لِبَنَائِهِمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْأَنْفَالِ﴾ قال: إن فرعون ملكهم أربع مائة سنة. فقالت له الكهنة: إنه سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فبعث في أهل مصر نساء قوابل، فإذا ولدت امرأة غلاماً أتى به فرعون فقتله، ويستحيي الجواري. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يقول: نعمة. وأخرج وكيع عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ فقال: إي والله لفرق البحر بينهم حتى صار طريقاً يسيأ يمشون فيه، فأنجاهم الله، وأغرق آل فرعون عدوهم. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال: ما هذا اليوم؟ قالوا: هذا يوم صالح نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، فقال رسول الله ﷺ: نحن أحق بموسى منكم، فصامه، وأمر بصومه». وقد أخرج الطبراني، وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جببر أن هرقل كتب إلى معاوية يسأله عن أمور، منها عن البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة، فكتب معاوية إلى ابن عباس، فأجابه عن تلك الأمور وقال: وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار: فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل، ولعله سيأتي إن شاء الله تعالى زيادة على ما هنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63].

وَأَذِ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَاهُ الْيَمِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّهُمْ عَلَيْهِمْ
 ﴿١٦٦﴾ ثُمَّ عَرَضْنَا عَنْكَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعْنَتَكَ تَشْكُرُونَ ﴿١٦٧﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى
 الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعْنَتَكَ تَهْتَدُونَ ﴿١٦٨﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُ
 تَلَمَّسْتُ أَنفُسَكُمْ يَأْتِيَاكُمْ الْيَمِينَ فَيَقُولُ إِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّكُمْ تَلَمَّسْتُمْ
 سَبَّ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٩﴾

قرأ أبو عمرو «وعدنا» بغير ألف، ورجحه أبو عبيدة، وأنكر «واعدنا» قال: لأن المواعدة إنما تكون من البشر، فاما من الله فإنما هو: التفرد بالوعد على هذا، وجدنا القرآن كقوله: ﴿وَعِدْكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ [إبراهيم: 22] وقوله: ﴿وَإِذْ يَعْبُدُكُمْ رَبُّكُمْ وَإِذْ يُلْهِئُكُمْ فِي الْأَنْفَالِ﴾ [7] ومثله، قال أبو حاتم ومكي: وإنما قالوا هكذا نظرا إلى أصل المفاعلة لأنها تفيد الاشتراك في أصل الفعل، وتكون من كل واحد من

حييت من طلل تقام عهده أقوى وأقرب بعد أم الهيثم وقيل إن الواو صلة، والمعنى: آتينا موسى الكتاب الفرقان، والواو قد تزداد في النعوت كقول الشاعر:

إلى الملك القدم وابن الهمام وليث الكتبية في المزبحم
 وقيل المعنى: أن ذلك المنزل جامع بين كونه كتاباً وفارقاً بين الحق، والباطل، وهو كقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

واباه، وابنه لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله إلى موسى: مرهم، فليرفعوا أيديهم، وقد غفر لمن قتل، وتيب على من بقي. وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة، وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير عن الزهري نحوه مما سبق. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿إِلَى بَارئِكُمْ﴾ قال: خالقكم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَكُوفُونَ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ بَدَأْتُمْ مِثْ بَدِئِ مَوْجِكُمْ لَمَسَتْكُمُ الْفِتْنَةُ تَكْفُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَطَلَّكَمُ عَلَى السَّمَاءِ وَأَرْزَلْنَا عَنْكُمْ آلَنَ وَالسَّارِقَ كُلُّوْا مِنْ لَيْلَتِنَا مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا كُنْتُمْ لَكُمْ كَاوًا أَنْفُسُهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ هذه الجملة معطوفة على التي قبلها، وظاهر السياق أن القائِلين هذه المقالة هم: قوم موسى، وقيل هم السبعون الذين اختارهم، وذلك أنهم لما سمعوا كلام الله قالوا له بعد ذلك هذه المقالة، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم دعا موسى ربه، فأحياهم كما قال تعالى هنا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ وسيأتي ذلك في الأعراف إن شاء الله. والجهرة: المعاينة، وأصلها الظهور، ومنه الجهر بالقراءة، والمجاهرة بالمعاصي، ورأيت الأمر جهرة وجهاً: أي غير مستتر بشيء، وهي مصدر واقع موقع الحال. وقراء ابن عباس: «جهرة» بفتح الهاء، وهي لغتان مثل زهرة، وزهرة، ويحتمل أن يكون على هذه القراءة جمع جامر. والصاعقة قد تقدم تفسيرها، وقراء عمر، وعثمان وعلي: «الصعقة» وهي قراءة ابن محيصن، والمراد بأخذ الصاعقة إصابتها إياهم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال، والمراد من هذا النظر الكائن منهم أنهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم الواقعة عليهم لا آخرها الذي ماتوا عنده، وقيل المراد بالصاعقة الموت، واستدل عليه بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ ولا موجب للمصير إلى هذا التفسير، لأن المصعوق قد يموت كما في هذه الآية، وقد يغشى عليه، ثم يفيق كما في قوله تعالى: ﴿وَحَزَّ مَوْسَى صَعْقاً فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ [الأعراف: 143] ومما يوجب بعد ذلك قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فإنها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه الجملة كبير معنى، بل قد يقال إنه لا يصح أن ينظروا الموت النازل بهم إلا أن يكون المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت. والمراد بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ﴾ الإحياء لهم لوقوعه بعد الموت، وأصل البعث الإثارة للشيء من محله، يقال: بعثت الناقة أي: أثرتها، ومنه قول امرئ القيس:

وإخوان صلق قد بعثت بسحرة فقاموا جميعاً بين غاك ونشوان
وقول عنترة:

وصحابة شم الأنوف بعثتهم ليلاً وقد مال الكرى بطلاها
ولمّا عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم؛ لأنهم طلبوا ما لم يأت
الله به من رؤيته في الدنيا. وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية في الدنيا، والآخرة، وذهب من عداهم إلى

تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء ﴿[الأنعام: 154] وقيل الفرقان: الفرق بينهم، وبين قوم فرعون، أنجى هؤلاء، وأغرق هؤلاء. وقال ابن زيد: الفرقان: انفراق البحر، وقيل الفرقان: الفرج من الكرب، وقيل: إنه الحجة، والبيان بالآيات التي أعطاه الله من العصا، واليد، وغيرهما، وهذا أولى، وأرجح، ويكون العطف على باباه، كأنه قال: آتينا موسى التوراة والآيات التي أرسلناه بها معجزة له. قوله: ﴿يَا قَوْمُ﴾ القوم يطلق تارة على الرجال نون النساء، ومنه قول زهير: وما أبري وسوف إخال أبري أقوم آل حصن لم نساء ومنه قوله تعالى تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: 11]، ثم قال: ﴿وَلَا نَسَاءٌ مِنْ نَسَاءٍ﴾ [الحجرات: 11]، ومنه ﴿وَلَوْلَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [الأعراف: 30، النحل: 54، العنكبوت: 28] أراد الرجال، وقد يطلق على الجميع كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح: 1] والمراد هنا بالقوم عبدة العجل. والبارئ الخالق، وقيل إن البارئ هو: المبدع المحدث، والخالق هو: المقدر الناقل من حال إلى حال، وفي ذكر البارئ هنا إشارة إلى عظيم جرمهم أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم، وقد عبستم معه غيره. والفاء في قوله: «فتوبوا» للسببية أي: لتسبب التوبة عن الظلم، وفي قوله: ﴿فَأَقْتُلُوا﴾ للتعقيب أي: اجعلوا القتل متعقِباً للتوبة. قال القرطبي: وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده، قيل قاموا صفين، وقتل بعضهم بعضاً، وقيل: وقف الذين عبدوا العجل، وبخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلواهم. وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قيل في الكلام حذف أي: فقتلتهم أنفسكم، فتاب عليكم أي: على الباقيين منكم. وقيل هو: جواب شرط محذوف، كأنه قال: فإن فعلتم، فقد تاب عليكم. وأما ما قاله صاحب الكشف من أنه يجوز أن يكون خطاباً من الله لهم على طريقة الالتفات، فيكون التقدير: ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارتكم، فهو بعيد جداً كما لا يخفى. وقد أخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿أَرِيعِينَ لَيْلَةً﴾ قال: ذا القعدة، وعشر من ذي الحجة. وقد أخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ قال: من بعد ما اتخذتم العجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ قال: الكتاب هو: الفرقان، فرق بين الحق والباطل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: الفرقان جماع اسم التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن. وأخرج ابن جرير عنه قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم، واختبأ الذين عكفوا على العجل، فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. وأخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: قالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضهم بعضاً، فأخذوا السكاكين، فجعل الرجل يقتل أخاه،

بعد موتكم﴾ قال: فبعتوا من بعد الموت ليستوفوا أجالهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿ثم بعناكم﴾ نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ قال: غمام أبرد من هذا، وأطيب، وهو: الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، وهو الذي جاء فيه الملائكة يوم بدر، وكان معهم في التيه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ كان هذا الغمام في البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس، وأطعمهم المنّ، والسُلوى حين برزوا إلى البرية، فكان المنّ يسقط عليهم في محلّتهم سقوط الثلج أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإن تعدى ذلك فسد ما يبقى عنده، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعه أخذ ما يكفيه ليوم سادسه، ويوم سابعه فيبقى عنده، لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر المعيشة، ولا لطلبه شيء، وهذا كله في البرية. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: المنّ شيء أنزل الله عليهم مثل الطل، والسُلوى طير أكبر من العصفور. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: المنّ صمغة، والسُلوى طائر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي قال: قالوا يا موسى كيف لنا بما هنا أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ، فكان يسقط على الشجرة للترنجيبين. وأخرجوا عن وهب أنه سئل ما المنّ؟ قال: خبز الرقاق مثل اللّزة، أو مثل النقي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال: المنّ شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء، ثم يشربونه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المنّ ينزل عليهم بالليل على الأشجار، فيغنون إليه، فيكلون منه ما شاؤوا، والسُلوى طائر يشبه السمانى كانوا ياكلون منه ما شاؤوا. وأخرج ابن جرير عنه نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، ونس من الصحابة في السُلوى مثله. وقد روي نحو ذلك عن جماعة من التابعين، ومن بعدهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما ظلمونا﴾ قال نحن أعز من أن نظلم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ قال: يضرّون.

وَإِذْنَا أَتَيْنَا مَذْيَ الْقَهْمَةِ فَكَلُوا مِنْهَا سِتْرًا وَمِنْ رِزْقِ رَبِّكَ وَإِذْنَا أَتَيْنَاكَ
سُجُودًا وَقُلُوا جَاءَنَا نَفَرًا كَرُحْمَةٍ وَأَنْتَ الْمُسْتَجِيبُ ﴿٦٦﴾ فَبَدَّلَ
الَّذِينَ طَغَوْا قَوْلًا بَئِشًا لِلَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَلْسِنَةٍ أُنْقِصُوا مِنْهَا
الْقَوْلُ بِمَا كَانُوا يَقْسِمُونَ ﴿٦٧﴾

قال جمهور المفسرين: القرية هي بيت المقدس، وقيل إنها أريحاء قرية من قرى بيت المقدس، وقيل من قرى الشام. وقوله: «كلوا» أمر بإباحة، و«رغد» كثيراً واسعاً، وهو نعت لمصدر محنوف أي: أكلاً رغداً، ويجوز أن يكون

جوازها في الدنيا، والآخرة، ووقوعها في الآخرة. وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة، وهي قطعية الدلالة لا ينبغي لمتصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتزر بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب، وسياتيك إن شاء الله بيان ما تمسكوا به من الألة القرآنية، وكلها خارج عن محل النزاع بعيد من موضع الحجة، وليس هذا موضع المقال في هذه المسألة قوله: ﴿ووظلنا عليكم الغمام﴾ أي: فعلناء كالظلة. والغمام جمع غمامة كسحاب، وسحاب، قاله الأخفش. قال الفراء ويجوز غمام. وقد نكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر، والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين. والمن: قيل هو: الترنجيبين. قال النحاس: هو بتشديد الراء، وإسكان النون، ويقال: الطرنجبين بالطاء، وعلى هذا أكثر المفسرين، وهو: طل ينزل من السماء على شجر، أو حجر، ويحلو، وينعقد عسلاً، ويجف جفاف الصمغ، نكر معناه في القاموس، وقيل إن المن العسل، وقيل شراب حلو، وقيل خبز الرقاق، وقيل إنه مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب، ولا زرع، ومنه ما ثبت في صحيح البخاري، ومسلم من حديث أبي سعيد بن زيد عن النبي ﷺ: «أن الكماء من المن الذي أنزل على موسى». وقد ثبت مثله من حديث أبي هريرة عند أحمد، والترمذي، ومن حديث جابر، وأبي سعيد، وابن عباس عند النسائي. والسلوى: قيل هو: السمانى، كحبارى طائر يذبونه، فيأكلونه. قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهنلي فقال: وقاسمهما بالله جهداً لانتما الذ من السلوى إذا ما أشورها ظن أن السلوى العسل. قال القرطبي: ما ادعاه من الإجماع لا يصح. وقد قال المؤرج أحد علماء اللغة، والتفسير: إنه العسل. واستدل بببيت الهنلي، وذكر أنه كذلك لغة كنانة، وأنشد:

لوشربت السلوى ما سلوت ما بي غنا عنك وإن غنيت
وقال الجوهري: والسلوى العسل. قال الأخفش: السلوى
لا واحد له من لفظه مثل الخير والشر. وهو يشبه أن يكون
واحدة سلوى. وقال الخليل: واحدة سلواة، وأنشد:
وإني لتعروني لئكراك سلوة كما انتقض السلواة من سلكه القطر
وقال الكسائي: السلوى واحدة، وجمعه سلاوى. وقوله:
(كلوا) أي: قلنا لهم كلوا، وفي الكلام حذف، والتقدير: قلنا
كلوا فقصوا، ولم يقابلوا النعم بالشكر، فظلموا أنفسهم، وما
ظلمونا، فحذف هذا لدلالة ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾
عليه، وتقدير النفس هنا يفيد الاختصاص. وقد أخرج ابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله:
﴿حتى نرى الله جهرة﴾ قال: علانية. وأخرج ابن جرير،
وابن أبي حاتم عن أنس قال: هم: السبعون الذين اختارهم
موسى ﴿فاختكم للصاقة﴾ قال: ماتوا ﴿ثم بعثناكم من

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نَفَسُ الموت ذا الغنى والفقير
فكرر الموت في البيت ثلاثاً تهويلاً لأمره، وتعظيماً
لشأنه. وقوله: ﴿رَجَزًا﴾ بكسر الراء في قراءة الجميع إلا
ابن محيصن، فإنه قرأ بضم الراء. والرجز: العذاب، والفسق
قد تقدم تفسيره. وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن
أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ادخلوا هذه القرية﴾ قال:
بيت المقدس. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: هي أريحاء
قرية من بيت المقدس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن
عباس في قوله: ﴿ادخلوا الباب﴾ قال: باب ضيق ﴿سجداً﴾
قال: ركعاً. وقوله: ﴿حطة﴾ قال: مغفرة، فدخلوا من قبل
أستاهم، وقالوا: حنطة استهزاء، قال: فذلك قوله تعالى:
﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وأخرج ابن
جرير عن ابن عباس قال: الباب هو أحد أبواب بيت المقدس،
وهو يدعى باب حطة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، وأبو
الشيخ عن ابن مسعود قال: قيل لهم: ﴿ادخلوا الباب
سجداً﴾ فدخلوا مقنعي رؤوسهم، وقالوا: حنطة حبة حمراء
فيها شعيرة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي
حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ قال:
طائئرو رؤوسكم ﴿وقولوا حطة﴾ قال: قولوا لا إله إلا الله.
وأخرج البيهقي في الأسماء، والصفات عن ابن عباس في
قوله: ﴿وقولوا حطة﴾ قال: لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي
حاتم عنه قال: كان الباب قبل القبلة. وأخرج البخاري،
ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:
«قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطة فبدلوا،
فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا حبة في شعرة».
وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس، وأبي هريرة
قالا: قال رسول الله ﷺ: «دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا
فيه سجداً يزحفون على أستاههم، وهم يقولون حنطة في
شعيرة»، والأول أرجح لكونه في الصحيحين. وقد أخرجه
معهما من أخرج هذا الحديث الآخر: أعني ابن جرير، وابن
المنذر. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علي قال: إنما مثلنا في
هذه الأمة كسفينة نوح، وكباب حطة في بني إسرائيل.
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كل
شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب. وأخرج مسلم،
 وغيره من حديث أسامة بن زيد، وسعد بن مالك،
وخزيمة بن ثابت قالوا: قال رسول الله ﷺ: «وإن هذا
الطاعون رجز، وبقيّة عذاب عنب به أناس من قبلكم، فإذا كان
بارض، وأنتم بها، فلا تخرجوا منها، وإذا بلغكم أنه بارض،
فلا تدخلوها».

﴿وَإِذْ أَسْتَشْرَىٰ مُوسَىٰ لِقَارِيهِ قُلْتُ أَنَارِبَ بِعَمَالِكَ الْخَصْرُ
فَأَنبَجَرْتُ مِنْهُ أَثَنًا عَقَرًا عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَنَافِعَهُمْ كَلُمُوا
وَأَشْرُوا بِرَبِّكَ أَلَّا تَعْلَمُوا﴾ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَسْمُونُ

في موضع الحال، وقد تقدم تفسيره. والباب الذي أمروا
بندخله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة،
وقيل: هو باب القبة التي كان يصلي إليها موسى، ويبنو
إسرائيل. والسجود قد تقدم تفسيره وقيل: هو هنا الانحناء،
وقيل: التواضع والخضوع، واستدلوا على ذلك: بأنه لو كان
المراد السجود الحقيقي الذي هو وضع الجبهة على الأرض
لامتنع الدخول المأمور به؛ لأنه لا يمكن الدخول حال
السجود الحقيقي. وقال في الكشف: إنهم أمروا بالسجود
عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله، وتواضعاً. واعترضه أبو
حيان في النهر المادّ فقال: لم يؤمروا بالسجود، بل هو: قيد
في وقوع المأمور به، وهو: الدخول، والأحوال نسب تقييدية،
والأوامر نسب إنشائية. انتهى. ويجاب عنه بأن الأمر بالمقيد
أمر بالمقيد، فمن قال أخرج مسرعاً، فهو أمر بالخروج على
هذه الهيئة، فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان
مخالفاً للأمر. ولا ينافي هذا كون الأحوال نسباً تقييدية، فإن
اتصافها بكونها قيوداً مأموراً بها هو شيء زائد على مجرد
التقييد. وقوله: ﴿حطة﴾ بالرفع في قراءة الجمهور على
إضمار مبتدأ، قال الأخفش: وقرئت: «حطة» نصباً على معنى
احطط عنا ذنوبنا حطة، وقيل معناها الاستغفار ومنه قول
الشاعر:

فاز بالحطة التي أمر الله بها نذوب عبده مغفورا
وقال ابن فارس في المجل: ﴿حطة﴾ كلمة أمروا بها،
ولو قالوها لحطت أوزارهم. قال الرازي في تفسيره: أمرهم
بأن يقولوا ما يدل على التوبة، وذلك لأن التوبة صفة القلب،
فلا يطلع الغير عليها، وإذا اشتهر، وأخذ بالذنوب، ثم تاب بعده
لزمه أن يحكي توبته لمن شاهد منه الذنب؛ لأن التوبة لا تتم
إلا به. انتهى، وكون التوبة لا تتم إلا بذلك لا دليل عليه، بل
مجرد عقد القلب عليها يكفي سواء أطلع الناس على ذنبه أم
لا، وربما كان التكتّم بالتوبة على وجه لا يطلع عليها إلا الله
عز وجل أحب إلى الله، وأقرب إلى مغفرته. وأما رفع ما عند
الناس من اعتقادهم بقاءه على المعصية، فذلك باب آخر.
وقوله: ﴿يغفر لكم﴾ قرأ نافع بالياء التحتية المضمومة،
وقراه ابن عامر بالتاء الفوقية المضمومة، وقراه الباقون
بالنون، وهي: أولى. والخطايا جمع خطيئة بالهمز، وقد تكلم
علماء العربية في ذلك بما هو معروف في كتب الصرف.
وقوله: ﴿وسنزيد المحسنين﴾ أي: نزيدهم إحساناً على
إحسانهم المتقدم، وهو: اسم فاعل من أحسن، وقد ثبت في
الصحيح: «أن رسول الله ﷺ سئل عن الإحسان فقال: أن
تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وقوله:
﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم﴾ قيل إنهم
قالوا حنطة، وقيل غير ذلك. والصواب أنهم قالوا: حبة في
شعرة كما سيأتي مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وقوله: ﴿فانزلنا
على الذين ظلموا﴾ هو من وضع الظاهر موضع المضممر
لنكتة كما تقرر في علم البيان، وهي هنا: تعظيم الأمر عليهم
وتقبيح فعلهم، ومنه قول عدي بن زيد:

لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَجِبْرٍ قَادِمٌ لَّنَا رَبَّنَا خُذْ الْأَرْضَ مِنَّا قَبْلَ هَٰذَا
وَقَسِّمْهَا وَفُؤُهَا وَعَدِّيْهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي
هُوَ خَيْرٌ أَمْ طَعَامٌ مِّصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَصَرْفَتْ عَنْهُمْ الْأَرْضَ
وَالْأَسْكَنَ وَمِمَّا هُوَ بِصَبْرٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ إِنَّهُمْ كَاثِرُونَ بِكَذِبَتِ الْفُؤِ
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٥٦﴾

الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء، وحبس المطر. ومعناه في اللغة: طلب السقيا، وفي الشرع ما ثبت عن النبي ﷺ في صفة من الصلاة، والدعاء، والحجر يحتمل أن يكون حجراً معيناً، فتكون اللام للعهد، ويحتمل أن لا يكون معيناً، فتكون للجنس، وهو أظهر في المعجزة، وأقوى للحجة. وقوله: ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ الفاء مترتبة على محنوف تقديره: فضرِب، فأنفجرت، والانفجار: الانشقاق، وانفجر الماء انفجاراً تفتح، والفجرة: موضع تفتح الماء. قال ابن عطية: ولا خلاف أنه كان حجراً مربيعاً يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضرب به موسى سالت العيون، وإذا استغفوا عن الماء جفت، والمشرب: موضع للشرب، وقيل هو: المشروب نفسه. وفيه دليل على أنه يشرب من كل عين قوم منهم لا يشاركونهم غيرهم. قيل كان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها إلى غيرها، والأسباط نزية الاثني عشر من أولاد يعقوب. وقوله: ﴿كَلُوا﴾ أي: قلنا لهم كلوا المَنَ، والسلوى، واشربوا الماء المتفجر من الحجر. وعثا يعني عيثاً، وعثا يعثو عثوا، وعثا يعيث عيثاً، لغات: بمعنى أفسد. وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة. قال في القاموس: عثي كرمي، وسعى ورضي، عثياً، وعثياً، وعثياناً، وعثا يعثو عثوا: أفسد. وقال في الكشف: العثي أشد الفساد. فقليل لهم: لا تمانوا في الفساد في حال فسادكم؛ لأنهم كانوا متمائنين فيه. انتهى. قوله: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ تضجر منهم بما صاروا فيه من النعمة، والرزق الطيب، والعيش المستند، ونزوع إلى ما افوه قبل ذلك من خشونة العيش:

إِنَّ الشَّقِيَّ بِالشَّقَاءِ مَوْلَعٌ لَا يَمْلِكُ الرَّدْلَ إِذَا اتَى وَيَحْتَمِلُ أَنْ لَا يَكُونَ هَذَا مِنْهُمْ تَشَوُّقاً إِلَى مَا كَانُوا فِيهِ، وَنَظَرًا لِمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعَيْشَةِ الرَّافِقَةِ، بَلْ هُوَ بَابٌ مِنْ تَعَنُّتِهِمْ، وَشُعْبَةٌ مِنْ شَعْبٍ تَعَجَّرْفُهُمْ كَمَا هُوَ دَابِّهِمْ، وَهَجِيرَاهُمْ فِي غَالِبٍ مَا قَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ كِرَاثٍ، وَأَبْصَالٍ، وَأَعْدَاسٍ، فَنَزَعُوا إِلَى عَكْرِهِمْ، أَي: أَصْلَهُمْ عَكَرَ السَّوءِ، وَاشْتَاقَتْ طِبَاعُهُمْ إِلَى مَا جَرَتْ عَلَيْهِ عَادَتُهُمْ فَقَالُوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ والمراد بالطعام الواحد هو: المَنَ والسلوى، وهما، وإن كانا طعامين لكن لما كانا ياكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاماً واحداً. وقيل لتكرهما في كل يوم، وعدم وجود غيرهما معهما، ولا تبيلة بهما. ومن في قوله: ﴿هَمَّا تَنْتَبِهُ﴾ تخرج. قال الأخفش: زائدة، وخالفه سيبويه لكونها لا تزداد في الكلام الموجب. قال النحاس: وإنما دعا الأخفش إلى هذا؛ لأنه لم يجد مفعولاً ليخرج، فأراد أن يجعل ما

مفعولاً، والأولى أن يكون المفعول محنوفاً دل عليه سياق الكلام، أي: تخرج لنا مكلولاً. وقوله: ﴿مَنْ يَقْلِبْهَا﴾ بدل من ما بلعانة الحرف، والبقل: كل نبات ليس له ساق، والشجر: ما له ساق. قال في الكشف: البقل ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به أطياب البقول التي ياكلها الناس كالنعناع، والكرفس، والكراث، ونسباهها. انتهى. والقضاء بكسر القاف، وفتحها. والأولى قراءة الجمهور. والثانية قراءة يحيى بن وثاب، وطلحة بن مصرف، وهو معروف. والفوم: قيل هو: الثوم، وقد قرأه ابن مسعود بالثاء. وروي نحو ذلك عن ابن عباس، وقيل: الفوم الحنطة، وإليه ذهب أكثر المفسرين، كما قال القرطبي. وقد رجح هذا ابن النحاس. وقال الجوهري: الفوم الحنطة، ومن قال بهذا الزجاج، والأخفش، وأنشد:

قد كنت أحسبني كاغنى واحد ترك المدينة عن زراعة فوم
وقال بالقول الأوّل الكسائي، والنضر بن شميل، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة فيها الغرابيس والفومات والبصل
أي الثوم، وقال حسان:

وانتم أناس لئام الأصول طعامكم الفوم والحوقل
يعني الثوم، والبصل، وقيل الفوم: السنبلة، وقيل: الحمص، وقيل: الفوم كل حب يخبز. والعدس، والبصل معروفان. والاستبدال: وضع الشيء موضع الآخر ﴿وَأَنبِي﴾ قال الزجاج: إنه مأخوذ من الدنو أي: القرب. والمراد: اتضعون هذه الأشياء التي هي بون موضع المَنَ، والسلوى اللذين هما خير منها من جهة الاستلذاذ، والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه، والحلّ الذي لا تطرقه الشبهة، وعدم الكلفة بالسعي له، والتعب في تحصيله، وقوله: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ أي: أنزلوا، وقد تقدّم معنى الهبوط، وظاهر هذا أن الله أنزلهم بمخول مصر، وقيل إن الأمر للتعجيز؛ لأنهم كانوا في التيه، فهو مثل قوله تعالى: ﴿يَكُونُوا حِجَارَةً أَوْ حِيدًا﴾ [الإسراء: 50]، وصرف مصر هنا مع اجتماع العلمية، والتأنيث؛ لأنه ثلاثي ساكن الوسط، وهو: يجوز صرفه مع حصول السببين، وبه قال الأخفش والكسائي. وقال الخليل، وسيبويه: إن ذلك لا يجوز، وقال: إنه لا علمية هنا؛ لأنه أراد مصرّاً من الأمصار، ولم يرد المدينة المعروفة، وهو خلاف الظاهر. وقرأ الحسن، وأبان بن تغلب، وطلحة بن مصرف بترك التثوين، وهو كذلك في مصحف أبي، وابن مسعود. ومعنى ضرب النذلة، والمسكنة إلزامهم بذلك، والقضاء به عليهم قضاء مستمراً لا يفارقهم، ولا ينفصل عنهم، مع دلالة على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها، ومنه قول الفرزدق يهجو جريراً:

ضربت عليك العنكبوت بوزنها وقضى عليك به الكتاب المنزل
وهو ضرب من الهجاء بليغ، كما أنه إذا استعمل في المديح كان في منزلة رفيعة، ومنه قول الشاعر:

إن المروءة والشجاعة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قال: الخبز، وفي لفظ: البر، وفي لفظ: الحنطة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: القوم الثوم. وأخرج ابن جرير، عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن ابن مسعود: أنه قرأ: «وثومها» وروى ابن أبي الدنيا، عن ابن عباس أنه قال: قرأتني قراءة زيد، وأنا أخذ ببضعة عشر حرفاً من قراءة ابن مسعود هذا أحدها: «من بقلها وقثائها وثومها». وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿الَّذِي هُوَ أُنْثَى﴾ قال: أردا. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿وَاهْبِطُوا مِصْرًا﴾ قال مصراً من الأمصار. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية: أنه مصر فرعون. وأخرج نحوه ابن أبي داود، وابن الأنباري عن الأعمش. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ النَّالَةُ﴾ قال: هم: أصحاب الجزية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة، والحسن قال: ضربت عليهم النلة، والمسكنة أي: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية قال: المسكنة الفاقة. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك في قوله: ﴿وَبَاؤُوا بْغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قال: استحقوا الغضب من الله. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿وَبَاؤُوا﴾ قال: انقلبوا. وأخرج أبو داود الطيالسي، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاث مئة نبي، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ مِنَ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ لَا هَادِيَ لَهُمْ
فَمَنْ يَزْنِ يَزْنِ فَإِنْ عَادَ يَزْنِ فَمَا يَصْعَقُ اللَّهُ فَمَا يَصْعَقُ اللَّهُ فَمَا يَصْعَقُ اللَّهُ

قيل: إن المراد بالذين آمنوا المنافقون، بدلالة جعلهم مقترنين باليهود، والنصارى، والصابغين أي: آمنوا في الظاهر. والأولى أن يقال: إن المراد الذين صدقوا النبي ﷺ، وصاروا من جملة أتباعه، وكأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الإسلامية، وحال من قبلها من سائر الملل يرجع إلى شيء واحد، وهو: أن من آمن منهم بالله، واليوم الآخر، وعمل صالحاً استحق ما ذكره الله من الأجر، ومن فاته ذلك فاته الخير كله، والأجر دقه وجله. والمراد بالإيمان هاهنا هو: ما بينه رسول الله ﷺ من قوله لما سأله جبريل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره، وشره» ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ، ولا بالقرآن، فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً ولم يبق يهودياً، ولا نصرانياً، ولا مجوسياً. وقوله: ﴿هَادُوا﴾ معناه صاروا يهوداً، قيل هو: نسبة لهم إلى يهودا بن يعقوب بالذال المعجمة، فقلبتا العرب دالاً مهملة، وقيل معنى هادوا: تابوا لتوبتهم عن عبادة العجل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَانَا لِلْإِيمَانِ﴾ [الأعراف: 156] أي تبنا، وقيل إن معناه السكون، والموادعة. وقال في الكشف: إن معناه دخل في اليهودية،

وهذا الخبر الذي أخبرنا الله به هو: معلوم في جميع الأزمنة، فإن اليهود أقامهم الله أزل الفرق، وأشدهم مسكنة، وأكثرهم تصاغراً، لم ينتظم لهم جمع، ولا خفقت على رؤوسهم راية، ولا ثبتت لهم ولاية، بل ما زالوا عبيد العصى في كل زمن، وطروقة كل فحل في كل عصر، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بلغ في الكثرة أي مبلغ، فهو متظاهر بالفقر متردّ بأتواب المسكنة لينفخ عن نفسه أطماع الطامعين في ماله، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية، أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجرؤ على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه. ومعنى ﴿بَاؤُوا﴾ رجعوا، يقال باء بكذا، أي: رجع به، وباء إلى المباءة، أي: رجع إلى المنزل، والباء: الرجوع، ويقال: هم في هذا الأمر بواء، أي: سواء يرجعون فيه إلى معنى واحد، وباء فلان بفلان: إذا كان حقيقة بأن يقبل به لمساواته له، ومنه قول الشاعر:

ألا تنتهي عنا ملوك وتنتقي محاربنا لا يبوا الدم بالدم
والمراد في الآية أنهم رجعوا بغضب من الله، أو صاروا أحقاء بغضبه، وقد تقدم تفسير الغضب. والإشارة بقوله ﴿نَالُكُمْ﴾ إلى ما تقدم من حديث النلة، وما بعده بسبب كفرهم بالله، وقتلهم لأنبيائه بغير حق يحق عليهم اتباعه، والعمل به، ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال: إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق في حال من الأحوال لمكان العصمة، بل المراد نعي هذا الأمر عليهم، وتعظيمه، وأنه ظلم يحد في نفس الأمر. ويمكن أن يقال: أنه ليس بحق في اعتقادهم الباطل، لأن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لم يعارضوهم في مال ولا جاه، بل أرشدوهم إلى مصالح الدين، والدنيا كما كان من شعيا، وزكريا، ويحيى، فإنهم قتلوهم، وهم يعلمون، ويعتقدون أنهم ظالمون. وتكرير الإشارة لقصد التأكيد، وتعظيم الأمر عليهم، وتهويله، ومجموع ما بعد الإشارة الأولى، والإشارة الثانية هو السبب لضرب النلة، وما بعده، وقيل: يجوز أن تكون الإشارة الثانية إلى الكفر، والقتل، فيكون ما بعدها سبباً للسبب وهو بعيد جداً. والاعتدال تجاوز الحد في كل شيء.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَمْسُقُ﴾ قال: نارا في التيه، ضرب لهم موسى الحجر، فصار فيها اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، ومجاهد، وابن أبي حاتم عن جويرير نحو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: لا تسعوا في الأرض فساداً. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: يعني لا تمشوا بالمعاصي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: لا تسيروا في الأرض مفسدين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿لَنْ نَقْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ قال: المَن، والسلولى واستبدلوا به البقل، وما حكى معه. وأخرج عبد بن

حاتم، عن مجاهد قال: الصابئون فرقة بين اليهود، والنصارى، والمجوس، ليس لهم دين. وأخرج عبد الرزاق، عنه قال: قال ابن عباس، فذكر نحوه. وقد روي في تفسير الصابئين غير هذا.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِثَوَرٍ وَإِذْ كُنَّا مَعَكُمْ وَتَقَوُّوا ۖ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ ذَلِكَ قَوْلًا فَأَضَلَّ اللَّهُ عَيْنَكُمْ وَرَحِمْتُمْ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ ۝ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَّهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ هو في محل نصب بعامل مقدر هو: انكروا كما تقدم غير مرة. وقد تقدم تفسير الميثاق، والمراد أنه أخذ سبحانه عليهم الميثاق بأن يعملوا بما شرعه لهم في التوراة، وبما هو أعم من ذلك، أو أخص. والطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وأنزل عليه التوراة فيه، وقيل هو: اسم لكل جبل بالسرانية. وقد ذكر كثير من المفسرين أن موسى لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالآلواح قال لهم: اسم خذوها، والتزموها، فقالوا: لا إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك، فصعقوا، ثم أحبوا، فقال لهم: خذوها، والتزموها، فقالوا: لا، فأمر الله الملائكة، فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأتوا ببحر من خلفهم، ونار من قبل وجوههم، وقيل لهم خذوها، وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها، وإلا سقط عليكم الجبل، فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق. قال ابن جرير عن بعض العلماء: لو أخذوها أول مرة، لم يكن عليهم ميثاق. قال ابن عطية: والذي لا يصح سواه أن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم الإيمان، لا أنهم آمنوا كرهاً، وقلوبهم غير مطمئنة. انتهى. وهذا تكلف ساقط حمله عليه المحافظة على ما قد ارتسم لديه من قواعد مذهبية قد سكن قلبه إليها كغيره، وكل عاقل يعلم أنه لا سبب من أسباب الإكراه أقوى من هذا، أو أشد منه. ونحن نقول: أكرههم الله على الإيمان، فأمنوا مكرهين، ورفع عنهم العذاب بهذا الإيمان. وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عن من تكلم بكلمة الإسلام، والسيف مصلت قد هزّه حامله على رأسه. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لمن قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتدراً عن قتله بأنه قالها تقيّة، ولم تكن عن قصد صحيح: «أنت فتشت عن قلبه، وقال: لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس» وقوله: ﴿خُذُوا﴾ أي: وقلنا لكم خذوا: ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ والقوة: الجِدُّ والاجتهاد. والمراد بذكر ما فيه أن يكون محفوظاً عندهم ليعملوا به. قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أصل التولي الإبرار عن الشيء، والإعراض بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور، والآليات، والمعتقدات اتساعاً، ومجازاً، والمراد هنا: إعراضهم عن الميثاق المأخوذ عليهم، وقوله: ﴿مِمَّا بَعَدَ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد البرهان لهم، والترهيب بأشد ما يكون،

والنصارى قال سيبويه: مفردة نصران، ونصرانة كننمان، وندمانة، وأنشد شاهداً على ذلك قول الشاعر:
تراه إذا زار العشما متخففاً ويضحى لديه وهو نصران شامس
وقال الآخر:

فكلتاهما خرت وأسجد رأسيها كما سجدت نصرانة لم تحنف
قال: ولكن لا يستعمل إلا بياء النسب فيقال: رجل نصراني، وامرأة نصرانية. وقال الخليل: واحد النصارى نصري، وقال الجوهري: ونصران قرية بالشام تنسب إليها النصارى، ويقال ناصرة، وعلى هذا، قالية للنسب. وقال في الكشف: إن البياء للمبالغة كالتي في لحمري، سموا بذلك؛ لأنهم نصرروا المسيح. والصابين جمع صابي، وقيل: صاب. وقد اختلف فيه القراء، فهمزوه جميعاً إلا نافعاً، فمن همزه جعله من صيات النجوم، إذا طلعت، وصيات ثنية الغلام: إذا خرجت. ومن لم يهمزه جعله من صيا يصبو: إذا مال، والصابئ في اللغة: من خرج، ومال من دين إلى دين، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صاب، وسموا هذه الفرقة صابية؛ لأنها خرجت من دين اليهود، والنصارى، وعبدوا الملائكة. وقوله: ﴿مِمَّنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ في موضع نصب بدلاً من الذين آمنوا، وما بعده، وقد تقدم معنى الإيمان، ويكون خبر. إن قوله: ﴿فَقُلْهُمْ لِحَرَمِهِمْ﴾ ويجوز أن يكون قوله: ﴿مِمَّنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ في محل رفع على أنه مبتدأ خبره قوله: ﴿فَقُلْهُمْ لِحَرَمِهِمْ﴾ وهما جميعاً خبر إن، والعائد مقدر في الجملة الأولى أي: من آمن منهم، وبخلت الفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط. وقد تقدم تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38] وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سلمان قال: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فنكرت من صلاتهم، وعيبتهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية. وأخرج الواحدي عن مجاهد نحو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في نكر السبب بنحو ما سبق، وحكى قصة طويلة. وأخرج أبو داود في الناسخ، والمنسوخ، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ قال: فأنزل الله بعد هذا ﴿مِمَّنْ يَبْتَغِ الْإِسْلَامَ دِينًا، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن علي قال: إنما سميت اليهود؛ لأنهم قالوا ﴿إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 156]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: نحن أعلم من أين سميت اليهود باليهودية من كلمة موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ ولم تسمت النصارى بالنصرانية؟ من كلمة عيسى عليه السلام: ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [الصف: 14]. وأخرج أبو الشيخ نحوه عنه. وأخرج ابن جرير عن قتادة: إنما تسموا نصارى بقرية يقال لها ناصرة. وأخرج ابن سعد في طبقاته، وابن جرير، عن ابن عباس قال: إنما سميت النصارى؛ لأن قرية عيسى كانت تسمى ناصرة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي

﴿وَأَنْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ قال: اقْرؤوا ما في التوراة، واعملوا به. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال: لعلكم تتزعمون عما أنتم عليه. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أي: عرفتكم. ﴿وَاعْتَدُوا﴾ يقول: اجتروا في السبت بصيد السلمك، فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، ولم يعيش مسيخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يكل، ولم يشرب، ولم ينسل. وأخرج ابن المنذر عنه قال: القردة، والخنازير من نسل النين مسخوا، وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: انقطع ذلك النسل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو: مثل ضربه الله لهم كقوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: 5] وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في الآية قال: أحلت لهم الحيتان، وحُرمت عليهم يوم السبت ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، فكان فيهم ثلاثة أصناف، ونكر نحو ما قُسمناه عن المفسرين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: صار شباب القوم قردة، والمشيخة صاروا خنازير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿خَاسِثِينَ﴾ قال: لئيلين. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿خَاسِثِينَ﴾ قال: صاغرين. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من القرى ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من القرى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ يعني الحيتان ﴿نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ من الذنوب التي عملوا قبل، وبعد. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ قال: جعلنا تلك العقوبة، وهي المسخة ﴿نَكَالًا﴾ عقوبة ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ يقول: ليحذر من بعدهم عقوبتي ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ يقول: للذين كانوا معهم ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ قال: تنكرة، وعبرة للمؤمنين.

وَرَدَّ قَالَتْ مَوْتِي لِقَوْمِي إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَن تَنْحَبُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَشِدُّكَ هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَنْعِلْ لَكَ رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِشٌ وَلَا يَكُرُّ عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَنْعِلْ لَكَ رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا أَنْعِلْ لَكَ رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا شَاءَ اللَّهُ لَأَمْهَدُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْقَرْيَ تَسْلَمُ لَا شِبَهَ فِيهَا قَالُوا أَتَقْنَنُ جَسَدًا وَلَوْ أَنَّ قَدْ بَخَرْنَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٠﴾

قيل: إن قصة نبح البقرة المذكورة هنا مقدم في التلاوة، ومؤخر في المعنى على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: 72] ويجوز أن يكون قوله: قتلتم مقدماً في النزول، ويكون الأمر بالنبح مؤخراً، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، فكان الله أمرهم بنبح البقرة حتى نبحوها، ثم وقع ما وقع من أمر القتل، فأمروا أن يضربوه ببعضها هذا على فرض أن الواو تقتضي الترتيب، وقد تقرر

وأعظم ما تجوز به العقول، وتقدره الأفهام، وهو: رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة عليهم. وقوله: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بأن تدارككم بلطفه، ورحمته حتى أظهركم التوبة لخسرتكم. والفخسل: الزيادة. قال ابن فارس في المجمع: الفضل: تزيادة، والخير، والإفضال: الإحسان. انتهى. والخسران: النقصان، وقد تقدم تفسيره. والسبت في أصل اللغة: القطع؛ لأن الأشياء تمت فيه، وانقطع العمل؛ وقيل: هو: مأخوذ من السبوت، وهو الراحة، والدعة. وقال في الكشف: السبت مصدر سببت اليهود: إذا عظمت يوم السبت. انتهى. وقد ذكر جماعة من المفسرين أن اليهود اختلفت قريقتين: ففرقة اعتدت في السبت أي: جاوزت ما أمرها الله به من العمل فيه فصالحوا السمك الذي نهاهم الله عن صيده فيه: والفرقة الأخرى انقسمت إلى فرقتين: ففرقة جاهرت بالنهي، واعتزلت، وفرقة لم توافق المعتدين، ولا صالحوا معهم لكنهم جالسوهم، ولم يجاهروهم بالنهي، ولا اعتزلوا عنهم، فمسخهم الله جميعاً، ولم تنج إلا الفرقة الأولى فقط، وهذه من جملة المحن التي امتحن الله بها هؤلاء الذين بالغوا في العجرفة، وعاندوا أنبياءهم، وما زالوا في كل موطن يظهرهم من حماقتهم، وسخف عقولهم، وتعننتهم نوعاً من أنواع التعسف، وشعبة من شعب التكلف، فإن الحيتان كانت في يوم السبت كما وصف الله سبحانه بقوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كُنُكٌ نَّبْلُهُمْ﴾ [الأعراف: 163] فاحتالوا لصيدها، وحفروا الحفائر، وشقروا الجداول، فكانت الحيتان تنخلها يوم السبت، فيصيدها يوم الأحد، فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة. والخاسي: المبعد، يقال: خسأته، فخسأ، وخسيء، وانخسأ: أبعدته، فبعد. ومنه قوله تعالى: ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَلْسًا﴾ [الملك: 4] أي: مبعداً. وقوله: ﴿اخْسِئُوا فِيهَا﴾ [المؤمنون: 108] أي: تباعدوا تباعد سخط، ويكون الخاسي بمعنى الصاغر. والمراد هنا: كونوا بين المصير إلى أشكال القردة مع كونهم مطرودين صاغرين، قردة خبر الكون. وخاسئين خبر آخر، وقيل إنه صفة لقردة، والأول أظهر. واختلف في مرجع الضمير في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ وفي قوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ فقيل العقوبة، وقيل الأمة، وقيل البقرة، وقيل القردة، وقيل الحيتان، والأول أظهر. والنكال: الزجر والعقاب، والنكل: القيد؛ لأنه يمنع صاحبه، ويقال للجام الدابة نكل؛ لأنه يمنعه، والموعظة مأخوذة من الاعتاط، والانزجار، والوعظ: التخويف. وقال الخليل: الوعظ التنكير بالخير. وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الطور الجبل الذي أنزلت عليه التوراة، وكان بنو إسرائيل أسفل منه. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: الطور ما أتيت من الجبال، وما لم يثبت، فليس بطور. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ قال: أي جِدْ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله:

في علم العربية أنها لمجرد الجمع من بون ترتيب، ولا معية، وسيأتي في قصة القتل تمام الكلام، والبقرة اسم للأنثى، ويقال للذكر ثور، وقيل إنها تطلق عليهما، وأصله من البقر، وهو: الشق؛ لأنها تشق الأرض بالحرث، قال الأزهري: البقر اسم جنس، وجمعه باقر. وقد قرأ عكرمة ويحيى بن يعمر «إن البقر تشابه علينا» وقوله: «هزوا» الهز هنا: اللعب والسخرية، وقد تقدم تفسيره. وإنما يفعل ذلك أهل الجهل؛ لأنه نوع من العبث الذي لا يفعله العقلاء، ولهذا أجابهم موسى بالاستعانة بالله سبحانه من الجهل. وقوله: «قالوا ادع لنا ربك» هذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم الله به، ولو تركوا التعنت، والأسئلة المتكلفة لأجزأهم نبج بقرة من عرض البقر، ولكنهم شددوا فشد الله عليهم كما سيأتي بيانه. والفارض: المسنة، ومعناه في اللغة الواسع. قال في الكشف: وكأنها سميت فارضاً؛ لأنها فرضت سنّها أي: قطعها وبلغت آخرها. انتهى. ويقال للشيء القديم: فارض، ومنه قول الرازي:

يارب ذي ضغن علي فارض له قروك قرو الحائض
أي قديم، وقيل الفارض: التي قد ولدت بطوناً كثيرة فيتسع جوفها. والبكر: الصغيرة التي لم تحمل، وتطلق في إناث البهائم وبني آدم على ما لم يفتح له الفحل، وتطلق أيضاً على الأول من الأولاد، ومنه قول الرازي:

يا بكر بكرين ويا صلب الكبد أصبحت مني كذراع من عضد
والعوان: المتوسطة بين سني الفارض، وهي التي قد ولدت بطناً، أو بطنين؛ ويقال: هي التي قد ولدت مرة بعد مرة، والإشارة بقوله: «بين ذلك» إلى الفارض، والبكر، وهما: وإن كانتا مؤنثتين، فقد أشير إليهما بما هو للمذكر على تأويل المذكر، كأنه قال: بين ذلك المذكر، وجاز دخول بين المقتضية لشئيتين؛ لأن المذكر متعد. وقوله: «فافعلوا» تجييد للأمر، وتأكيد له، وزجر لهم عن التعنت، فلم ينفعهم ذلك، ولا نجح فيهم، بل رجعوا إلى طبيعتهم، وعادوا إلى مكروهم واستمروا على عانتهم المألوفة، فقالوا: «فادع لنا ربك». واللون: واحد الألوان، وجمهور المفسرين على أنها كانت جميعها صفراء. قال بعضهم: حتى قرنها، وظلفها. وقال الحسن، وسعيد بن جبير: إنها كانت صفراء القرن، والظلف فقط، وهو: خلاف الظاهر. والمراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة. وروي عن الحسن أن صفراء معناه سوداء، وهذا من بدع التفسير، ومنكراتها، وليت شعري كيف يصدق على اللون الأسود الذي هو: اقبح الألوان أنه يسر الناظرين، وكيف يصح وصفه بالفقوع الذي يعلم كل من يعرف لغة العرب أنه لا يجزي على الأسود بوجه من الوجوه، فإنهم يقولون في وصف الأسود: حالك، وحلكوك، ودجوجي، وغربيب. قال الكسائي: يقال فقع لونها يفقع فقوعاً إذا خلصت صفرتها. وقال في الكشف: الفقوع أشد ما يكون من الصفرة، وأنصعه. ومعنى «تسر الناظرين»:

تنخل عليهم السرور إذا نظروا إليها إعجاباً بها، واستحساناً للونها. قال وهب: كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، ثم لم ينزعوا عن غوايتهم، ولا أروعوا من سفهمهم، وجهلهم، بل عادوا إلى تعنتهم فقال: «ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا» أي: أن جنس البقر يتشابه عليهم لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة، ووعدوا من أنفسهم بالاهتداء إلى ما نلهم عليه، والامتثال لما أمروا به. والنل: التي لم ينلها العمل أي: هي غير مثقلة بالعمل، ولا رخصة به. وقوله: «تثير» في موضع رفع على الصفة لبقرة أي: هي بقرة لا نل مثير، وكذلك قوله: «ولا تسقي الحرث» في محل رفع، لأنه وصف لها: أي ليست من النواضح التي يسنى عليها لسقي الزروع، وحرف النفي الآخر تأكيد للأول أي: هي بقرة غير مثقلة بالحرث، ولا بالنضج، ولهذا قال الحسن: كانت البقرة، وحشية. وقال قوم: إن قوله: «تثير» فعل مستأنف. والمعنى: إيجاب الحرث لها، والنضج بها. والأول أرجح؛ لأنها لو كانت مثيرة ساقية، لكانت مثقلة رخصة، وقد نفى الله ذلك عنها. وقوله: «مسلمة» مرتفع على أنه من أوصاف البقرة، ويجوز أن يكون مرتفعاً على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: هي مسلمة. والجملة في محل رفع على أنها صفة، والمسلمة: هي التي لا عيب فيها، وقيل مسلمة من العمل، وهو: ضعيف؛ لأن الله سبحانه قد نفى ذلك عنها، والتأسيس خير من التأكيد، والإفادة أولى من الإعادة. والشية أصلها، وشية حنفت الواو كما حنفت من يشي، وأصله يوشي، ونظيره الزنة، والعدة، والصلة، وهي مأخوذة من وشي الثوب: إذا نسج على لونين مختلفين، وثور موشى في وجهه، وقوامه سواد. والمراد أن هذه البقرة خالصة الصفرة ليس في جسمها لمعة من لون آخر: فلما سمعوا هذه الأوصاف التي لا يبقى بعدها ريب، ولا يخالج سامعها شك، ولا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه، أقصروا من غوايتهم، وانتبهوا من رقنتهم، وعرفوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضيق عليهم «قالوا الآن جئت بالحق» أي: أوضحت لنا الوصف، وبينت لنا الحقيقة التي يجب الوقوف عندها، فحصلوا تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات «فنبحوها» وامتثلوا الأمر الذي كان يسرا، ففسروه، وكان واسعاً، فضيقوه «وما كانوا يفعلون» ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط، والتعنت، وعدم المباراة، فكان ذلك مظنة للاستبعاد، ومحلاً للمجى بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم، وقيل إنهم ما كانوا يفعلون لعدم، وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف، وقيل لارتفاع ثمنها، وقيل لخوف انكشاف أمر المقتول، والأول أرجح. وقد استدل جماعة من المفسرين، والأصوليين بهذه الآية على جواز النسخ قبل إمكان الفعل.

وليس ذلك عندي بصحيح لوجهين: الأول: أن هذه الأوصاف المزيدة بسبب تكرار السؤال هي من باب التقييد

أيضاً في قوله: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ قال: شبيدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر في قوله: ﴿صَفْرَاءُ﴾ قال: صفراء الظلف ﴿فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ قال: صافي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة قال: ﴿فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ أي: صاف ﴿تَسْرُ النَّاظِرِينَ﴾ أي: تعجب. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في قوله: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ قال: سوداء شبيدة السواد. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿لَا تُلْوُلُ﴾ أي: لم يبلها العمل ﴿تَثِيرُ الْأَرْضِ﴾ يعني ليست بثلول، فتثير الأرض ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ يقول: ولا تعمل في الحرث ﴿مُسْلِمَةً﴾ قال: من العيوب. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد. وقال: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ لا بياض فيها، ولا سواد. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس ﴿مُسْلِمَةً﴾ لا عوار فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ﴾ قالوا: الآن بينت لنا: ﴿فَنَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وأخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها.

وَأَذِّنْ لِلْعَذَابِ نَسْأَ فَاذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ عَزَّجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٦﴾ نَقَلْنَا أَسْرَبُوا بِمَعْصِيَةِ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَابِ رُوِيَ عَنْهُ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَابِ لَنَا يَنْفَعُ رَبُّهُ الْأَتَّهَرُ وَإِنْ يَنْفَعُ لَكَ يَشْفُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءً وَإِنْ يَنْفَعُ لَكَ يَشْفُقُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَنَّا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

قد تقدم ما نكرناه في قصة نبج البقرة، فيكون تقدير الكلام ﴿وَإِذَا قَتَلْتُمْ نَفْساً فَاذَرْتُمْ فِيهَا﴾ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴿فَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَنْبَحُوا بِبَقْرَةٍ﴾ [البقرة: 67] إلى آخر القصة، وبعدها: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ الآية. وقال الرازي في تفسيره: اعلم أن وقوع القتل لا بد أن يكون متقدماً لأمره تعالى بالذبح، فاما الإخبار عن وقوع ذلك القتل، وعن أنه لا بد أن يضرب القاتل ببعض تلك البقرة، فلا يجب أن يكون متقدماً على الإخبار عن قصة البقرة، فقول من يقول هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى خطأ، لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأولى في الوجود، فاما التقدم في الذكر، فغير واجب، لأنه تارة يقدم نكر السبب على نكر الحكم، وأخرى على العكس من ذلك، فكانهم لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم الله بنبج البقرة، فلما نبجوها قال: ﴿وَإِذَا قَتَلْتُمْ نَفْساً مِنْ قَبْلِ﴾ ونسب القتل إليهم بكون القاتل منهم، وأصل أذارتهم تدارتهم: ثم ادغمت التاء في الدال، ولما كان الابتداء بالمدمغ الساكن لا يجوز زادوا ألف الوصل، ومعنى أذارتهم: اختلفتم وتنازعتم؛ لأن المتنازعين يذرا بعضهم بعضاً، أي: يدفعه، ومعنى ﴿مُخْرِجٌ﴾ مظهر أي: ما كنتم بينكم من أمر القتل، فاش مظهره لعباده، ومبينه لهم، وهذه الجملة معترضة بين أجزاء

للمأمور به لا من باب النسخ، وبين البابين بون بعيد كما هو مقرر في علم الأصول. الثاني: أنا لو سلمنا أن هذا من باب النسخ لا من باب التقيد لم يكن فيه دليل على ما قالوه، فإنه قد كان يمكنهم بعد الأمر الأول أن يعمدوا إلى بقرة من عرض البقر فينبحوها، ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة بين الوصف بالعوان، والصفراء، ولا دليل يدل على أن هذه المحاورة بينهم، وبين موسى عليه السلام واقعة في لحظة واحدة، بل الظاهر أن هذه الأسئلة المتعنة كانوا يتواطؤون عليها، ويديرون الرأي بينهم في أمرها، ثم يوردونها، وأقل الأحوال الاحتمال القادح في الاستدلال.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن عبيدة السلماني قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى بعض، فقال نو الرأي منهم: علام يقتل بعضهم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؟ فاتوا موسى، فنكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَنْبَحُوا بِبَقْرَةٍ﴾ الآية، قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أنى بقرة، ولكنهم شددوا، فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بنبجها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً، فأخذوها بملء جلدتها ذهباً، فنبحوها فضرى به بعضهما، فقام فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه، ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، ولم يورث قاتل بعده. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب: «من عاش بعد الموت» عن ابن عباس أن القاتل وجد بين قريتين، وأن البقرة كانت لرجل كان يبر أباه، فاشتروها بوزنها ذهباً. وأخرج ابن جرير، عنه نحوه من ذلك، ولم ينكر ما تقدم في البقرة. وقد روي في هذا قصص مختلفة لا يتعلق بها كثير فائدة. وأخرج البزار، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ أَخَذُوا أُنْثَى بَقْرَةٍ لِأَجْزَائِهِمْ، أَوْ لِأَجْزَائِ عَنْهُمْ» وأخرج ابن أبي حاتم وابن مريويه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ مَا أَعْطَاوْا أَبَدًا، وَلَوْ أَنَّهُمْ اعْتَرَضُوا بِبَقْرَةٍ مِنَ الْبَقَرِ، فَنَبَحُوهَا لِأَجْزَائِ عَنْهُمْ، وَلَكِنْهُمْ شَدُّوا، فَشَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» وأخرج نحوه الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، عن عكرمة يبلغ به النبي ﷺ. وأخرجه ابن جرير، عن ابن جريج يرفعه. وأخرجه ابن جرير، عن قتادة يرفعه أيضاً، وهذه الثلاثة مرسله. وأخرج نحوه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال: «لِفَارُضِ الْهَرَمَةِ، وَالْبَكْرِ الصَّغِيرَةِ، وَالْعَوَانِ النِّصْفِ». وأخرج نحوه عن مجاهد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال: بين الصغيرة، والكبيرة، وهي أقوى ما يكون، وأحسنه. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه

الكلام أي: فأذارتهم فيها فقلنا. واختلف في تعيين البعض الذي أمروا بأن يضربوا القتل به، ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم، ويكفي أن نقول: أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها، فأَيُّ بعض ضربوا به، فقد فعلوا ما أمروا به، وما زاد على هذا، فهو من فضول العلم إذا لم يرد به برهان. قوله: ﴿كَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ في الكلام حنف، والتقدير: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ فاحياه الله ﴿كَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي: إحياء كمثل هذا الإحياء. ﴿وَيُورِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: علاماته، ودلائله الدالة على كمال قدرته، وهذا يحتمل أن يكون خطاباً لمن حضر القصة، ويحتمل أن يكون خطاباً للموجودين عند نزول القرآن. والقسوة: الصلابة، والبيس، وهي: عبارة عن خلوها من الإنابة، والإنعان آليات الله مع وجود ما يقتضى خلاف هذه القسوة من إحياء القتل، وتكلمه، وتعيينه لقاتله، والإشارة بقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم من الآيات الموجبة للين القلوب ورفقتها. قيل «أو» في قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ بمعنى الواو كما في قوله تعالى: ﴿أَتَمَّا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: 24] وقيل: هي بمعنى بل، وعلى أن «أو» على أصلها، أو بمعنى الواو، فالعطف على قوله: ﴿كَالْحَجَارَةِ﴾ أي: هذه القلوب هي كالْحَجَارَةِ، أو هي أشد قسوة منها، فشبها بآي الأمرين شئتم، فإنكم مصيبون في هذا التشبيه. وقد أجاب الرازي في تفسيره عن وقوع «أو» ههنا مع كونها للترديد أي: لا يليق لعلام الغيوب بشمانية أوجه، وإنما توصل إلى أقبل التفضيل بأشد مع كونه يصح أن يقال، وأقسى من الحجارة، لكونه أبين، وأدل على فرط القسوة، كما قاله في الكشف. وقرأ الأعمش «أو أشد» بنصب الدال، وكأنه عطفه على الحجارة، فيكون أشد مجروراً بالفتحة. وقوله: ﴿وَأَنْ مِنْ الْحَجَارَةِ﴾ إلى آخره، قال في الكشف إنه بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة، وتقرير لقوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾. انتهى. وفيه أن مجيء البيان بالواو غير معروف، ولا مألوف، والأولى جعل ما بعد الواو تنبيهاً أو حالاً. التفجر: التفتح، وقد سبق تفسيره. وأصل ﴿يَشَقُّقُ﴾ يتشقق أدغمت التاء في الشين، وقد قرأ الأعمش «يتشقق» على الأصل. وقرأ ابن مصرف ينشقق بالنون، والشق واحد الشقوق. وهو: يكون بالطول، أو بالعرض، بخلاف الانفجار، فهو الانفتاح من موضع واحد مع اتساع الخرق. والمراد: أن الماء يخرج من الحجارة من مواضع الانفجار، والانشقاق، ومن الحجارة ما يهبط أي: ينحط من المكان الذي هو فيه إلى أسفل منه من خشية الله التي تدخله، وتحل به، وقيل: إن الهبوط مجاز عن الخشوع منها، والتواضع الكائن فيها انقياداً لله عز وجل، فهو مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21] وقد حكى ابن جرير، عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار، وكما قال الشاعر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع
ونكر الجاحظ أن الضمير في قوله: ﴿وَأَنْ مِنْهَا﴾ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة، وهو فاسد، فإن الغرض من سياق هذا الكلام هو التصريح بأن قلوب هؤلاء بلغت في القسوة، وفرط اليبس الموجبين لعدم قبول الحق، والتأثر للمواعظ إلى مكان لم تبلغ إليه الحجارة، التي هي أشد الأجسام صلابة، وأعظمها صلادة، فإنها ترجع إلى نوع من اللين، وهي تفجرها بالماء، وتشققها عنه، وقبولها لما توجهه خشية الله من الخشوع، والانقياد بخلاف تلك القلوب. وفي قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من التهديد، وتشديد الوعيد ما لا يخفى، فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه مطلعاً عليه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَنْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَأَذَارْتُمْ فِيهَا﴾ قال: اختلفتم فيها ﴿وَأَنْ مَخْرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: ما تغيبون. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن المسيب بن رافع قال: «ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَأَنْ مَخْرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾». وأخرج أحمد، والحاكم وصححه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة صماء لا باب لها، ولا قوة خرج عمله إلى الناس كائناً ما كان» وأخرج البيهقي من حديث عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له سريرة صالحة، أو سيئة أظهر الله عليها منها رداء، يعرف به» ورواه البيهقي أيضاً بنحوه من قول عثمان قال: والموقوف أصح. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي عن أنس مرفوعاً حديثاً طويلاً في هذا المعنى، ومعناه: أن الله يلبس كل عامل عمله حتى يتحدث به الناس، ويزيدون، ولو عمله في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد، وفي إسناده ضعف. وأخرج ابن عدي من حديث أنس أيضاً مرفوعاً: «إن الله مرد كل امرئ رداء عمله». ولجماعة من الصحابة، والتابعين كلمات تفيد هذا المعنى. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ قال: ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة أنهم ضربوه بفخذها. وأخرج مثله ابن جرير، عن عكرمة. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: ضرب بالبطنة التي بين الكتفين. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ في العظمة، عن وهب بن منبه قصة طويلة في نكر البقرة، وصاحبها لا حاجة إلى التطويل بنكرها، وقد استوفاهما في الدر المنثور. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ قال: من بعد ما أراه الله من إحياء الموتى، ومن بعد ما أراه الله من أمر القتل: ﴿فَهِيَ كَالْحَجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ ثم عذر الله الحجارة، ولم يعذر

الحاكمين، ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيثيين، والمحاجة: إبراز الحجة، أي: لا تخبروهم بما حكم الله به عليكم من العذاب، فيكون ذلك حجة لهم عليكم، فيقولون: نحن أكرم على الله منكم، وأحق بالخير منه. والحجة، الكلام المستقيم، وحاججت فلاناً، فحججته أي غلبته بالحجة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فيه الضرر عليكم من هذا التحذير الواقع منكم لهم. ثم وبخهم الله سبحانه ﴿وَإِذْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من جميع أنواع الأسرار، وأنواع الإعلان، ومن ذلك إصرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ثم قال الله لنبيه، ومن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم ﴿اقتطعمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ وليس قوله يسمعون التوراة كلهم قد سمعها، ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم، فآخذتهم الصاعقة فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿اقتطعمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية. قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما سمعوه، ووعوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿اقتطعمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية، قال: الذين يحرفونه، والذين يكتبونه هم العلماء منهم، والذين نبؤا كتاب الله وراء ظهورهم هؤلاء كلهم يهود. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿يسمعون كلام الله﴾ قال: هي التوراة حرفوها. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أي: بصاحبكم رسول الله ﷺ، ولكنه إليكم خاصة ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ قالوا لا تحدثوا العرب بهذا، فقد كنتم تستفتون به عليهم، وكان منهم ﴿يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي: تقررون بأنه نبي وقد علمتم أنه قد أخذ عليكم الميثاق باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كان ينتظر، ونجد في كتابنا إجماعه، ولا تقرؤا به. وأخرج ابن جرير، عنه أن هذه الآية في المنافقين من اليهود وقوله: ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني بما أكرمكم به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: نزلت هذه الآية في ناس من اليهود آمنوا، ثم نافقوا، وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به، فقال بعضهم لبعض: اتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب لتقولوا نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم. وقد أخرج ابن جرير، عن ابن زيد أن سبب نزول الآية: أن النبي ﷺ قال: «لا يدخلن علينا قسبة المدينة إلا مؤمن، فكان اليهود يظهرون الإيمان، فيدخلون ويرجعون إلى قومهم بالأخبار، وكان المؤمنون يقولون لهم: أليس قد قال الله في التوراة كذا وكذا؟ فيقولون: نعم، فإذا رجعوا إلى قومهم: ﴿قَالُوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ الآية». وروى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أن سبب نزول الآية: «أن النبي ﷺ

شقي بني آدم فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ إلى آخر الآية. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال أي: من الحجارة لألین من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «إن الحجر ليقع على الأرض ولو اجتمع عليه فئام من الناس ما استطاعوه، وأنه ليهبط من خشية الله».

﴿اَنْتَطَعُوْنَ اَنْ يُؤْمِنُوْا لَكُمْ وَفَدَّ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُوْنَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُوْنَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوْهُ وَهُمْ يَكْتُمُوْنَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَإِذْ لَقُوا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا قَالُوْا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ اِلَى بَعْضٍ قَالُوْا اُنْعِمُوْا عَلَيْنَا فَمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِوَسْعِهِمْ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾ ﴿٧٦﴾ اَوْ لَا يَعْلَمُوْنَ اَنَّ اللَّهَ يَنْتَظِمُ مَا يُخْرُجُ وَمَا يُخْلِقُ﴾ ﴿٧٧﴾

قوله: ﴿اقتطعمعون﴾ هذا الاستفهام فيه معنى الإنكار، كأنه أيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود. والخطاب لأصحاب النبي ﷺ أوله ولهم. و ﴿يؤمنوا لكم﴾ أي: لأجلكم، أو على تضمين آمن معنى استجاب أي: اتطعمعون أن يستجيبوا لكم. والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه. و ﴿كلام الله﴾ أي: التوراة، وقيل إنهم سمعوا خطاب الله لموسى حين كلمه، وعلى هذا، فيكون الفريق هم: السبعون الذين اختارهم موسى، وقرأ الأعمش: «كلم الله». والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة، فجعلوا حلاله حراماً، أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله ﷺ، وإسقاط الحدود عن أشرافهم، أو سمعوا كلام الله لموسى، فزادوا فيه، ونقصوا، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر، وإنكار على من طمع في إيمانهم، وحالهم هذه الحال أي: ولهم سلف حرفوا كلام الله، وغيروا شرائعه، وهم مقتدون بهم متبعون سبيلهم. ومعنى قوله: ﴿من بعد ما عقلوه﴾ أي: من بعد ما فهموه بعقولهم مع كونهم يعلمون أن ذلك الذي، فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم الله به من بليغ شرائعه كما هي، فهم وقعوا في المعصية عالمين بها، وذلك أشد لعقوبتهم، وابن لضلالتهم. ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني أن المنافقين إذا لقوا الذين آمنوا: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: إذا خلا الذين لم ينافقوا بالمنافقين قالوا لهم عاتين عليهم: ﴿اتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ أي: حكم عليكم من العذاب، وذلك أن ناساً من اليهود أسلموا، ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذب به أبائهم، وقيل: إن المراد ما فتح الله عليهم في التوراة من صفة محمد، وقد تقدم معنى خلا. والفتح عند العرب: القضاء، والحكم، والفتاح: القاضي بلغة اليمن، والفتح: النصر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يستفتحون على الذين كفروا﴾ [البقرة: 89] وقوله: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ [الأنفال: 19] ومن الأول: ﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾ [سبا: 26] أي: ﴿خير الحاكمين﴾ [الأعراف: 89] أي

قوم كانوا أهل كتاب، فرفع كتابهم لذنوب ارتكبوها، وقيل: هم: المجوس، وقيل غير ذلك، والراجح الأول. ومعنى ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ أنه لا علم لهم به إلا ما هم عليه من الأمانى التي يتمنونها، ويعلمون بها أنفسهم. والأمانى جمع أمنية، وهي ما يتمناه الإنسان لنفسه، فهو لا علم لهم بالكتاب الذي هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون، ولا يقرؤون المكتوب، والاستثناء منقطع أي: لكن الأمانى ثابتة لهم من كونهم مغفوراً لهم بما يدعونه لأنفسهم من الأعمال الصالحة، أو بما لهم من السلف الصالح في اعتقادهم؛ وقيل الأمانى الأكاذيب كما سيأتي عن ابن عباس. ومنه قول عثمان بن عفان: ما تمنيت منذ أسلمت أي: ما كذبت، حكاه عنه القرطبي في تفسيره، وقيل الأمانى: التلاوة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: 52] أي: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر، ومنه قول كعب بن مالك:

تمنى كتاب الله أول ليلة وأخره لاقى حمام المقادر
وقال آخر:

تمنى كتاب الله لأخر ليلة تمنى داود الزبور على رسل
وقيل الأمانى: التقدير. قال الجوهري: يقال مني له أي: قدر، ومنه قول الشاعر:

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم حتى تلاقي ما يمني لك الماني
أي: يقدر لك المقدر. قال في الكشف: والاشتقاق من منى إذا قدر: لأن المتمنى يقدر في نفسه، ويجوز ما يتمناه، وكذلك المخلوق، والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا. انتهى. «ولأن» في قوله: ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ نافية. أي: ما هم. والظن هو: التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم كذا في القاموس، أي: ما هم إلا يتربدون بغير جزم، ولا يقين، وقيل: الظن هنا بمعنى الكذب، وقيل هو: مجرد الحس. لما ذكر الله سبحانه أهل العلم منهم بأنهم غير عاملين بل يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون، نكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلمون على الأمانى، ويعتمدون على الظن الذي لا يقفون من تقليدهم على غيره، ولا يظفرون بسواه. والويل: الهلاك. وقال الفراء: الأصل في الويل وي أي: حزن كما تقول وي لفلان أي: حزن له، فوصلته العرب باللام، قال الخليل: ولم نسمع على بنائه إلا ويح، ويس، وويه، ويك، ويوب، وكله متقارب في المعنى، وقد فرق بينها قوم، وهي: مصادر لم ينطق العرب بأفعالها، وجاز الابتداء به، وإن كان نكرة؛ لأن فيه معنى الدعاء. والكتابة معروفة، والمراد: أنهم يكتبون الكتاب المحرف، ولا يبينون، ولا ينكرونه على فاعله. وقوله: ﴿بليديهم﴾ تأكيد؛ لأن الكتابة لا تكون إلا باليد، فهو مثل قوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38] وقوله: ﴿يقولون بأفواههم﴾ [آل عمران: 167] وقال ابن السراج: هو: كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم. وفيه أنه قد دل على أنه من تلقائهم

قام لقوم قريظة تحت حصونهم فقال: يا إخوان القردة، والخنازير، ويا عبدة الطاغوت، فقالوا: من أخبر هذا الأمر محمداً؟ ما خرج هذا الأمر إلا منكم: ﴿اتحذثونهم بما فتح الله عليكم﴾ أي: بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم. وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة أن السبب في نزول الآية: «أن امرأة من اليهود أصابت فاحشة، فجاؤا إلى النبي ﷺ يبتغون منه الحكم رجاء الرخصة، فدعا رسول الله ﷺ عالمهم، وهو ابن صوريا فقال له: لحكم، قال: فحبوه، والتجبية: يحملونه على حمار ويجعلون وجهه إلى نذب الحمار، فقال رسول الله ﷺ: أبحكم الله حكمت؟ قال: لا، ولكن نسائنا كن حسانا، فأسرع فيهن رجالنا، فغيرنا الحكم، وفيه نزل: ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ الآية، وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، فصانعهم بذلك ليرضوا عنهم: ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ نهى بعضهم بعضاً أن يحدثوا بما فتح الله عليهم، وبين لهم في كتابه من أمر محمد ﷺ، ونعته، ونبوته، وقالوا: إنكم إذا فعلتم ذلك احتجوا بذلك عليكم عند ربكم ﴿افلا تعقلون﴾* أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون؟ قال: ما يعلنون من أمرهم، وكلامهم؛ إذا لقوا الذين آمنوا، وما يسرون إذا خلا بعضهم إلى بعض من كفرهم بمحمد ﷺ، وتكذيبهم به، وهم يجيئون مكتوباً عندهم. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ يعني من كفرهم بمحمد ﷺ، ولكنهم، وما يعلنون حين قالوا للمؤمنين: آمنا، وقد قال بمثل هذا جماعة من السلف.

وَمَنْهُمْ أَتَيْنُ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٥١﴾
قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ نَسْأًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ ﴿٥٢﴾
وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَقْدُودَةً قُلْ أَتُخَذُّ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ قُلْ نَقُولُ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ بَلْ مِنْ كَسْبٍ سَكِينَةٍ وَأَحْطَتْ بِهِ حَاطَّتُهُمْ قَالُوا لَيْتَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا سَجْدُونَ إِلَّا لََّ اللَّهِ وَآلِ إِبْرَءِيلَ إِحْسَاسًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٥٦﴾

قوله: ﴿ومنهم﴾ أي: من اليهود. والأمانى منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل، ولانتهى من أهاتها لم تتعلم الكتابة، ولا تحسن القراءة للمكتوب، ومنه حديث «إننا أمة أمية لا نكتب، ولا نحسب» وقال أبو عبيدة: إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب، فكانه قال: ومنهم أهل الكتاب، وقيل: هم نصارى العرب، وقيل: هم

قوله: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ فإسناد الكتابة إليهم يفيد ذلك. والاشتراء: الاستبدال، وقد تقدّم الكلام عليه، ووصفه بالقلّة لكونه فانيلاً لا ثواب فيه، أو لكونه حراماً لا تحلّ به البركة، فهؤلاء الكتبة لم يكتفوا بالتحريف، ولا بالكتابة لذلك المخزف حتى نابوا في المحافل بأبائه من عند الله، لينالوا بهذه المعاصي المتكررة هذا الغرض النذير، والعوض الحقير. وقوله: ﴿مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ قيل: من الرشا ونحوها، وقيل: من المعاصي، وكرر الويل تغليظاً عليهم، وتعتيلاً لقلّهم، ومتكافؤاً لاستارهم ﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَن تَمْسَنَا النَّارُ﴾ الآية. وقد اختلف في سبب نزول الآية كما سيأتي بيانه. والمراد بقوله: ﴿قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ الإنكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة أي: لم يتقدّم لكم مع الله عهداً بهذا، ولا أسلفتم من الأعمال الصالحة ما يصليق هذه الدعوى حتى يتعين الوفاء بذلك، وعدم إخلاف العهد أي: إن اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا، فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون. قال في الكشف: و«أم» إما أن تكون معاملة بمعنى أيّ الأمرين كلتن على سبيل التقرير؛ لأن العلم واقع بكون أحدهما، ويجوز أن تكون منقطعة. انتهى، وهذا توبيخ لهم شديد. قال الرازي في تفسيره: العهد في هذا الموضع يجري مجرى الوعد، وإنما سمي خبره سبحانه عهداً؛ لأن خبره أوكّد من العهود المؤكدة. وقوله: ﴿بَلَى﴾ إثبات بعد النفي أي: بلى تمسك لا على الوجه الذي نكرتم من كونه أياماً معدودة. والسيئة المراد بها الجنس هنا، ومثله قوله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40] ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًى يَجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 123] ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود في النار، بل لا بد أن تكون سيئة محيطية به، قيل هي الشرك، وقيل الكبيرة. وتفسيرها بالشرك أولى لما ثبت في السنة تواتراً من خروج عصاة الموحدين من النار، ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود، وإن كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد قرأ نافع «خطيئة» بالجمع، وقرأ الباقر بالإفراد، وقد تقدم تفسير الخلود.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ قال لا يدرون ما فيه: ﴿وَأَن هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ قال: وهم يحسبون نبوتك بالظن. وأخرج ابن جرير عنه قال: الأميون قوم لم يصبقوا رسولا أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال هذا من عند الله. وقد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله. وأخرج ابن جرير، عن النخعي قال: منهم من لا يحسن أن يكتب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ قال: الأحاديث. وأخرج ابن جرير عنه أنها الكذب. وكذا روى مثله عبد بن حميد، عن مجاهد، وزاد ﴿وَأَن هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ قال: إلا يكتبون. وأخرج النسائي، وابن المنذر، عن ابن عباس في

قوله: ﴿قَوْلِيلٌ لِلنَّارِ﴾ قال: نزلت في أهل الكتاب. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه وصححه، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» وأخرج ابن جرير من حديث عثمان مرفوعاً قال: «الويل جبل في النار» وأخرج البزار، وابن مردويه، من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً أنه حجر في النار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿قَوْلِيلٌ لِلنَّارِ﴾ يكتبون الكتاب. قال: هم أحبار اليهود، وجدوا صفة النبي ﷺ مكتوبة في التوراة أكحل أعين ربعة جعد الشعر حسن الوجه، فلما وجدوه في التوراة محوه حسداً، وبغياً، فأتاهم نفر من قريش فقالوا: تجنون في التوراة نبياً أمياً؟ فقالوا: نعم نجده طويلاً أزرق سبط الشعر، فأنكرت قريش وقالوا: ليس هذا منا. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿ثُمَّ نَمُنَّا قَلِيلًا﴾ قال: عرضاً من عرض الدنيا ﴿قَوْلِيلٌ لَهُمْ﴾ قال: فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب ﴿وَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: مما ياكلون به الناس السفلة، وغيرهم. وقد ذكر صاحب الدر المنثور آثاراً عن جماعة من السلف أنهم كرهوا بيع المصاحف مستلدين بهذه الآية، ولادلالة فيها على ذلك، ثم ذكر آثاراً عن جماعة منهم أنهم جوّزوا ذلك، ولم يكرهوه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والواحدي، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما تعذب بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً في النار، وإنما هي: سبعة أيام معدودة، ثم ينقطع العذاب، فانزل الله في ذلك: ﴿وَقَالُوا لَن تَمْسَنَا النَّارُ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: وجد أهل الكتاب مسيرة ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين، فقالوا: لن تعذب أهل النار إلا قدر أربعين، فإذا كان يوم القيامة أجموا في النار، فساروا فيها حتى انتهوا إلى سقر، وفيها شجرة الزقوم إلى آخر يوم من الأيام المعدودة، فقال لهم خزنة النار: يا أعداء الله زعمتم أنكم لن تعذبوا في النار إلا أياماً معدودة، فقد انقضى العدد وبقي الأبد، فيؤخّتون في الصعود يرهقون على وجوههم. وأخرج ابن جرير، عنه أن اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة مدة عبادة العجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: اجتمعت يهود يوماً، فخاصموا النبي ﷺ فقالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات أربعين يوماً، ثم يخلفنا فيها ناس، وأشاروا إلى النبي ﷺ، وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ يورده يديه على رأسه: «كنتم بل أنتم خالدون مخلدون فيها لا تخلفكم فيها إن شاء الله أبداً، ففيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَقَالُوا لَن تَمْسَنَا النَّارُ﴾» وأخرج ابن جرير، عن زيد بن أسلم مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد، والبخاري، والدارمي، والنسائي، من حديث أبي هريرة: «أن النبي ﷺ سأل اليهود في خير: من

ويدل عليه أيضاً ما عطف عليه من قوله: «وقولوا - وأقيموا - وأتوا» وقال قطرب، والمبرد: إن قوله: «لا تعبدون» جملة حالية أي: أخذنا ميثاقهم موحدين، أو غير معاندين. قال القرطبي: وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير، وحمزة، والكسائي «يعبدون» بالياء التحتية. وقال الفراء، والزجاج، وجماعة: إن معناه أخذنا ميثاقكم بأن لا تعبدوا إلا الله، وبأن تحسنوا بالوالدين، وبأن لا تسفكوا الدماء؛ ثم حذف أن، فارتفع الفعل لزوالها. قال المبرد: هذا خطأ؛ لأن كل ما أضمر في العربية، فهو يعمل عمله مظهراً. وقال القرطبي: ليس بخطأ بل هما وجهان صحيحان، وعليهما أنشد:

ألا إلهذا للزاجري لحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
بالنصب لقوله لحضر، وبالرفع، والإحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتنثال أمرهما، وسائر ما أوجبه الله على الولد لوالديه من الحقوق. والقربى: مصدر كالرجعى، والعقبى، هم القرابة، والإحسان بهم صلتهم، والقيام بما يحتاجون إليه بحسب الطاقة، وبقدر ما تبلغ إليه القدرة. واليتامى جمع يتيم، واليتيم في بني آدم من فقد أبوه. وفي سائر الحيوانات من فقدت أمه. وأصله الانفراد - يقال: صبي يتيم أي: منفرد من أبيه، والمسكين جمع مسكين، وهو: من أسكنته الحاجة ونزلته، وهو أشد فقراً من الفقير عند أكثر أهل اللغة، وكثير من أهل الفقه. وروي عن الشافعي أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين. وقد نكر أهل العلم لهذا البحث أدلة مستوفاة في مواطنها. ومعنى قوله: «وقولوا للناس حسنى» أي: قولوا لهم قولاً حسناً، فهو صفة مصدر محذوف، وهو: مصدر كبشرى، وقرأ حمزة، والكسائي: «حسناً» بفتح الحاء، والسين. وكذلك قرأ زيد بن ثابت، وابن مسعود. قال الأخفش هما بمعنى واحد، مثل البخل، والبخل، والرشد، والرشد، وحكى الأخفش أيضاً: «حسنى» بغير تنوين على فعلى. قال النحاس: وهذا لا يجوز في العربية، لا يقال من هذا شيء إلا بالالف، واللام نحو الفضلى، والكبرى، والحسنى، وهذا قول سيبويه. وقرأ عيسى بن عمر: «حسناً» بضمّتين: والظاهر أن هذا القول الذي أمرهم الله به لا يختص بنوع معين، بل كل ما صدق عليه أنه حسن شرعاً كان من جملة ما يصدق عليه هذا الأمر. وقد قيل إن ذلك هو: كلمة التوحيد، وقيل الصنق، وقيل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقيل غير ذلك. وقوله: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» قد تقدم تفسيره، وهو: خطاب لبني إسرائيل، فالمراد الصلاة التي كانوا يصلونها، والزكاة التي كانوا يخرجونها. قال ابن عطية: وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها، فتنزل النار على ما يقبل، ولا ينزل على ما لا يقبل. وقوله: «ثم توليتم» قيل الخطاب للحاضرين منهم في عصر النبي ﷺ؛ لأنهم مثل سلفهم في ذلك، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب. وقوله: «إلا قليلاً» منصوب على الاستثناء، ومنهم عبد الله بن سلام، وأصحابه. وقوله: «وأنتم معرضون» في موضع النصب

أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسثوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: «قل اتخذتم عند الله عهداً» أي: موثقاً من الله بذلك أنه كما تقولون. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس أنه فسر العهد هنا بأنهم قالوا: لا إله إلا الله، لم يشركوا به، ولم يكفروا، وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: «ثم تقولون على الله ما لا تعلمون» قال: قال القوم: الكذب والباطل، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «بلى من كسب سيئة» قال: الشرك. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وعكرمة، وقاتدة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة في قوله: «وأحاطت به خطيئته» قال: لحاط به شركه، وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: «بلى من كسب سيئة» أي: من عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم حتى يحيط كفره بماله من حسنة «فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» وللذين آمنوا وعملوا الصالحات أي: من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: «ولاحطت به خطيئته» قال: هي الكبيرة الموجبة لاهلها النار. وأخرج وكيع، وابن جرير، عن الحسن أنه قال: كل ما وعد الله عليه النار، فهو للخطيئة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن الربيع بن خيثم قال: هو الذي يموت على خطيئته قبل أن يتوب، وأخرج مثله ابن جرير عن الأعمش.

وَأَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨١﴾
وَأَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْكُنُونَ دِمَائَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ ثُمَّ أَفَرَضْتُمْ أَنْتُمْ تَهْجُدُونَ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَيَكْرِهُنَّ أَنْ تَقُولَ لَهُمْ قَوْلًا مَّا يَكُونُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ مُّكَذِّبُونَ ﴿٨٣﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ يَأْتُوكُمْ أَسْرَىٰ فَرِيقًا مِّنْكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ مَا كَفَرْتُمْ بِهِ قُلْ بَعْضُ مَا تَصِفُونَ أَلَا خَيْرٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبِمَا الْيَمِينَةُ كُذِّبُوا إِلَهُ أَشَدُّ عَذَابًا وَمَا اللَّهُ بِتَقْوِيلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ أَشْفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ السَّكَابُ وَلَا هُمْ يَصْذَرُونَ ﴿٨٥﴾

قد تقدم تفسير الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل. وقال مكي: إن الميثاق الذي أخذه الله عليهم هنا هو: ما أخذه الله عليهم في حياتهم على السن أنبيائهم، وهو قوله: «لا تعبدون إلا الله» وعبادة الله إثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه. قال سيبويه: إن قوله: «لا تعبدون إلا الله» هو: جواب قسم، والمعنى، استحلقتهم، والله لا تعبدون إلا الله، وقيل هو: إخبار في معنى الأمر، ويدل عليه قراءة أبي، وابن مسعود: «لا تعبدوا» على النهي،

الجمهور، والأسير مشتق من السير، وهو: القيد الذي يشدُّ به المحمل، فسمي أسيراً؛ لأنه يشدُّ وثاقه، والعرب تقول: قد أسرقته أي: شدّه، ثم سمي كل أسير أسيراً، وإن لم يؤخذ. وقوله: ﴿تَفَادُوهُمْ﴾ جواب الشرط، وهي: قراءة حمزة، ونافع، والكسائي، وقرأ الباقون: «تفدوهم». والفداء: هو: ما يوجد من الأسير ليفك به أسره، يقال فداه، وفاداه: إذا أعطاه فداءه. قال الشاعر:

قفى فادى أسيرك إن قومي وقومك ما أرى لهم اجتماعاً
وقوله: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكَ إِخْرَاجُهُمْ﴾ الضمير للشان وقيل مبهم تفسره الجملة التي بعده، وزعم الفراء أن هذا الضمير عماد، واعترض عليه بأن العماد لا يكون في أول الكلام. ﴿وَإِخْرَاجُهُمْ﴾ مرتفع بقوله: ﴿مُحَرَّمٌ﴾ ساد مسدّ الخبر، وقيل: بل مرتفع بالابتداء، ومحرّم خبره. قال المفسرون: كان الله سبحانه قد أخذ على بني إسرائيل أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أسراهم؛ فاعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فوبخهم الله على ذلك. يقوله: ﴿أَفَقَوْمٌ مُنُونٌ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾. والخزي: الهوان. قال الجوهري: والخزي بالكسر يخزي خزيًا: إذا ذل، وهان، وقد وقع هذا الجزاء الذي وعد الله به الملاحين اليهود موفراً، فصاروا في خزي عظيم بما ألصق بهم من الذل، والمهانة بالقتل، والأسر، وضرب الجزية، والجلاء، وإنما ردهم الله يوم القيامة إلى أشدّ العذاب؛ لأنهم جاؤوا بنذب شديد، ومعصية فظيمة. وقد قرأ الجمهور يرون بالياء التحتية. وقرأ الحسن بالفوقية على الخطاب. وقد تقدّم تفسير قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وكذلك تفسير ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ وقوله: ﴿فَلَا يَخَفُ﴾ إخبار من الله سبحانه بأن اليهود لا يزالون في عذاب موفر لازم لهم بالجزية، والصغار، والذلة، والمهانة، فلا يخفف عنهم ذلك أبداً ما داموا، ولا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم، ولا يثبت لهم نصر في أنفسهم على عوهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ أَخْرَجْنَا مِنْهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال يؤنبهم أي ميثاقكم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنً﴾ قال: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وروى البيهقي في الشعب عن علي في قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنً﴾ قال: يعني الناس كلهم، ومثله روى عبد بن حميد، وابن جرير، عن عطاء. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ قال أي: تركتم ذلك كله. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: معناه أعرضتم عن طاعتي إلا قليلاً منكم، وهم: الذين اخترتهم لطاعتي. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالبة في قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ مَاءَكُمْ﴾ لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ بَيَارِكُمْ﴾ لا يخرج بعضكم بعضاً من الديار ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا الميثاق ﴿وَإِنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ وإنتم شهود. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم

على الحال، والإعراض، والتولي بمعنى واحد، وقيل: التولي بالجسم، والإعراض بالقلب. وقوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ الكلام فيه كالكلام في لا تعبدون، وقد سبق. وقرأ طلحة بن مصرف، وشعيب بن أبي حمزة بضم الفاء، وهي لغة. وقرأ أبو نهيك بضم الياء، وتشديد الفاء، وفتح السين، والسفك: الصب، وقد تقدّم، والمراد أنه لا يفعل ذلك بعضهم ببعض. والدار: المنزل الذي فيه إبنية المقام، بخلاف منزل الارتحال. وقال الخليل: كل موضع حله قوم، فهو دار لهم، وإن لم يكن فيه إبنية؛ وقيل سميت داراً لدورها على سكانها، كما يسمى الحائط حائطاً لإحاطته على ما يحويه. وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ من الإقرار: أي حصل منكم الاعتراف بهذا الميثاق المأخوذ عليكم في حال شهادتكم على أنفسكم بذلك، قيل الشهادة هنا بالقلوب، وقيل: هي بمعنى الحضور أي: إنكم الآن تشهدون على أسلافكم بذلك، وكان الله سبحانه قد أخذ في التوراة على بني إسرائيل أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا ينفية، ولا يسترقه. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أي: إنتم هؤلاء المشاهدون الحاضرون تخالفون ما أخذ الله عليكم في التوراة، فتقتلون أنفسكم إلى آخر الآية؛ وقيل إن هؤلاء منصوب بإضمار أعني، ويمكن أن يقال منصوب بالذم، أو الاختصاص أي: إنتم، أو أخص. وقال القتيبي: إن التقدير: يا هؤلاء قال النحاس: هذا خطأ على قول سيبويه لا يجوز. وقال الزجاج هؤلاء بمعنى الذين أي: ثم إنتم الذين تقتلون. وقيل هؤلاء مبتدأ، وإنتم خبر مقدم، وقرأ الزهري: «تقتلون» مشدداً، فمن جعل قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ، وخبراً جعل قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بياناً؛ لأن معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أنهم على حالة كحالة أسلافهم من نقض الميثاق. ومن جعل هؤلاء منادى، أو منصوباً بما نكرنا جعل الخبر تقتلون، وما بعده. وقوله: ﴿تَتَظَاهَرُونَ﴾ بالتشديد، وأصله تتظاهرون أدغمت التاء في الظاء لقربها منها في المخرج، وهي: قراءة أهل مكة. وقرأ أهل الكوفة: «تظاهرون» مخففاً بحذف التاء الثانية، لدلالة الأولى عليها. وأصل المظاهرة المعاونة، مشتقة من الظهر؛ لأن بعضهم يقوي بعضاً، فيكون له كالظهر، ومنه قول الشاعر:

تظاهرت من كل أوب ووجهة على واحد لا زلت من قرن واحد
ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرَ عَلَى رَبِّهِ ظَهيراً﴾ [الفرقان: 55] وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: 4]. وأسارى حال. قال أبو عبيد، وكان أبو عمرو يقول: ما صار في أيديهم، فهو أسارى، وما جاء مستأسراً، فهو الأسرى. ولا يعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو. وإنما هذا كما تقول سكارى، وسكرى. وقد قرأ حمزة: «أسرى». وقرأ الباقون: «أسارى»، والأسرى جمع أسير كالقتلى جمع قتيل، والجرحى جمع جريح. قال أبو حاتم: ولا يجوز أسارى. وقال الزجاج: يقال أسارى كما يقال سكارى. وقال ابن فارس: يقال في جمع أسير أسرى، وأسارى. انتهى. فالعجب من أبي حاتم حيث ينكر ما ثبت في التنزيل. وقرأ به

عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أن هذا حق من ميثاقي عليكم ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: أهل الشرك حتى تسفكوا دماءهم معهم ﴿وَتَخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ قال: تخرجونهم من ديارهم معهم ﴿تَتَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ فكانوا إذا كان بين الأوس، والخزرج حرب خرجت معهم بنو قينقاع مع الخزرج، والنضير، وقريظة مع الأوس، وظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يسافكوا دماءهم، فلذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة ﴿وَإِنْ يَأْتَوْكُمْ سَارَى تَغَاوَاهُمْ﴾ وقد عرفتم أن ذلك عليكم في دينكم ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ في كتابكم لإخراجهم ﴿افْتَوِمْنُوا بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ اتفادونهم مؤمنين بذلك، وتخرجونهم كفرةً بذلك. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لَوْلَاكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ قال: استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ يَدَيْهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبُيُوتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا عَلَّمْنَا بِكُلِّ لُغَةٍ كُتُبَهُمْ لَعَسَا يُفَرِّقُونَ ﴿١٧٨﴾

الكتاب: التوراة، والتفقي: الإتيان، والإرداف، مأخوذة من القفا، وهو مؤخر العنق، تقول: استفقيته: إذا جئت من خلفه، ومنه سميت قافية الشعر؛ لأنها تتلو سائر الكلام. والمراد أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلاً جعلهم تابعين له، وهم أنبياء بني إسرائيل المبعوثون من بعده. و ﴿الْبُيُوتَ﴾ الأدلة التي نكرها الله في آل عمران، والمائدة. والتأييد: التقوية. وقرأ مجاهد، وابن محيصن: ﴿أَيَّدْنَاهُ﴾ بالمد، وهما لغتان. وروح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة أي: الروح المقدسة. والقدس: الطهارة، والمقدس: المطهر، وقيل هو: جبريل أيد الله به عيسى، ومنه قول حسان:

وجبريل أمين الله فينا - وروح القدس ليس به خفاء
قال النحاس: وسمي جبريل روحاً، وأضيف إلى القدس؛ لأنه كان بتكوين الله له من غير ولادة، وقيل القدس، هو الله عز وجل، وروجه جبريل، وقيل المراد بروح القدس: الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى، وقيل المراد به الإنجيل، وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه، أيده الله به لما فيه من القوة. وقوله: ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: بما لا يوافقها، ويلائمها، وأصل الهوى: الميل إلى الشيء. قال الجوهري: وسمي الهوى هوى؛ لأنه يهوى بصاحبه إلى النار. وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمة التوبيخ فقال: ﴿افْكُلُوا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ منكم ﴿بِمَا لَا﴾ يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته احتقاراً للرسول، واستبعاداً للرسالة، والفاء في قوله: ﴿افْكُلُوا﴾ للعطف على مقدر أي: آتيناكم يا بني إسرائيل من الأنبياء ما آتيناكم افْكُلُوا جَاءَكُمْ رسول. وفريقاً منصوب بالفعل الذي بعده، والفاء للتفصيل، ومن

الفريق المكذبين عيسى، ومحمد، ومن الفريق المقتولين يحيى، وزكريا. والغلف جمع أغلف، المراد به هنا: الذي عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام إليه، ومنه غلفت السيف أي: جعلت له غلافاً. قال في الكشاف: هو: مستعار من الأغلف الذي لم يختن كقوله: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَنِ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: 5] وقيل إن الغلف جمع غلاف مثل حمار وحمر أي: قلوبنا أوعية للعلم، فما بالها لا تفهم عنك، وقد وعينا علماً كثيراً، فرد الله عليهم ما قالوه فقال: ﴿يَبْلُ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ وأصل اللعن في كلام العرب الطرد، والإبعاد، ومنه قول الشماخ:

ذعرت به القطا ونفيت عنه - مقام الذئب كالرجل اللعين
أي: كالرجل المطرود. والمعنى: أبعدهم الله من رحمته، و ﴿قُلُوبُنَا﴾ نعت لمصدر محذوف أي: إيماننا قليلاً ﴿بِمَا يُؤْمِنُونَ﴾ و«ما» زائدة، وصف إيمانهم بالقلة؛ لأنهم الذين قص الله علينا من عنايدهم، وعجرفتهم، وشدة لجاجهم، وبعدهم عن إجابة الرسل ما قصه، ومن جملة ذلك أنهم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض. وقال معمر: المعنى لا يؤمنون إلا قليلاً مما في أيديهم، ويكفرون بأكثره، وعلى هذا يكون قليلاً منصوباً بنزع الخافض. وقال الواقدى معناه لا يؤمنون قليلاً، ولا كثيراً. قال الكسائي: تقول العرب مررنا بأرض قل ما تنبت الكراث، والبصل أي: لا تنبت شيئاً.

وقد أخرج ابن عساکر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني به التوراة جملة، واحدة مفصلة محكمة ﴿وَوَقَفْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يعني رسولا يدعى أشمويل بن بابل، ورسولا يدعى منشابيل، ورسولا يدعى شعيا، ورسولا يدعى حزقيال، ورسولا يدعى أرمياء، وهو الخضر، ورسولا يدعى داود، وهو أبو سليمان، ورسولا يدعى المسيح عيسى ابن مريم، فهؤلاء الرسل ابتهتهم الله، وانتخبهم من الأمة بعد موسى، فآخذنا عليهم ميثاقاً غليظاً أن يؤدوا إلى أمتهم صفة محمد ﷺ، وصفة أمته. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبُيُوتَ﴾ قال: هي الآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير، وإبراء الأسقام. والخبر بكثير من الغيوب، وما ورد عليهم من التوراة، والإنجيل الذي أحدث الله إليه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قال: قوّيناه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: روح من القدس الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: القدس: الله تعالى. وأخرج عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج عن ابن عباس قال: القدس الطهر: وأخرج عن السدي قال: القدس البركة. وأخرج عن إسماعيل بن أبي خالد أن روح القدس جبريل. وأخرج عن ابن مسعود مثله وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن جابر عن النبي ﷺ قال: روح القدس جبريل. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «اللهم أيد حسان بروح القدس» وأخرج

يخالفه. والاستفتاح الاستنصار أي: كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المنعوت في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة، وقيل: الاستفتاح هنا بمعنى الفتح أي: يخبرونهم بأنه سيبعث، ويعرفونهم بذلك، وجواب «لما» في قوله: «ولما جاءهم كتاب» قيل هو: قوله: «فلما جاءهم ما عرفوا» وما بعده، وقيل هو: محنوف أي: كذبوا، أو نحوه، كذا قال الأخفش، والزجاج. وقال المبرد: إن جواب «لما الأولى هو قوله: «كفروا» وأعيدت «لما» الثانية لطول الكلام، واللام في الكافرين للجنس. ويجوز أن تكون للعهد، ويكون هذا من وضع الظاهر موضع المضمرة، والأول أظهر، و«ما» في قوله: «بئسما» موصولة، أو موصوفة أي: بئس الشيء، أو شيئاً «اشتروا به أنفسهم» قاله سيبويه. وقال الأخفش: «ما» في موضع نصب على التمييز كقولك: بئس رجلاً زيد. وقال الفراء: بئسما بجملة شيء واحد ركب كجداً. وقال الكسائي: «ما»، «اشتروا» بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه، والتقدير: بئس اشتراؤهم أن يكفروا. وقوله: «أن يكفروا» في موضع رفع على الابتداء عند سيبويه، وخبره ما قبله. وقال الفراء، والكسائي: إن شئت كان في موضع خفض بدلاً من الهاء في به أي: اشتروا أنفسهم بأن يكفروا. وقال في الكشف: إن «ما» نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس، بمعنى شيئاً اشتروا به أنفسهم، والمخصوص بالذم أن يكفروا، واشتروا بمعنى باعوا. وقوله: «بغياً» أي: حسداً. قال الأصمعي: البغي مأخوذ من قولهم قد بغى الجرح: إذا فسد، وقيل: أصله الطلب، ولذلك سميت الزانية بغياً. وهو علة لقوله: «اشتروا» وقوله: «أن ينزل» علة لقوله: «بغياً» أي: لأن ينزل. والمعنى: أنهم باعوا أنفسهم بهذا الثمن البخس حسداً، ومناقسة «أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده» وقرأ ابن كثير، وابن عمرو، ويعقوب، وابن محيصن: «أن ينزل» بالتخفيف. «فبأثوا» أي: رجعوا، وصاروا إحقاء «بغضب على غضب» وقد تقدم معنى بأثوا، ومعنى الغضب، قيل الغضب، الأول لعبابتهما العجل، والثاني لكفرهم بمحمد، وقيل: كفرهم بعبسى، ثم كفرهم بمحمد، وقيل: كفرهم بمحمد، ثم البغي عليه، وقيل غير ذلك. والمهين مأخوذ من الهوان، قيل وهو: ما اقتضى الخلود في النار. وقوله: «بما أنزل الله» هو: القرآن، وقيل: كل كتاب أي: صلحوا بالقرآن، أو صلحوا بما أنزل الله من الكتب «قالوا نؤمن» أي: نصق «بما أنزل علينا» أي: التوراة. وقوله: «ويكفرون بما وراء» قال الفراء: بما سواه. وقال أبو عبيدة: بما بعده. قال الجوهري: وراء بمعنى خلف، وقد يكون بمعنى قدام، وهي من الأضداد. ومنه قوله تعالى: «وكان وراءهم ملك» [الكهف: 79] أي: قدامهم، وهذه الجملة أعني، ويكفرون في محل النصب على الحال أي: قالوا نؤمن بما أنزل علينا حال كونهم كافرين بما وراء مع كون هذا الذي هو وراء ما يؤمنون به هو الحق. وقوله:

ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: «فريقاً» قال: طائفة. وأخرج عن ابن عباس قال: إنما سمي القلب لتقلبه. وأخرج الطبراني في الأوسط عنه أنه كان يقرأ: «قلوبنا غلف» مثقلة أي: كيف نتعلم، وقلوبنا غلف للحكمة أي: أوعية للحكمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «وقالوا قلوبنا غلف» ملوثة علماً لا تحتاج إلى علم محمد، ولا غيره، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «قلوبنا غلف» قال: في غطاء. ودوى ابن إسحاق، وابن جرير عنه أنه قال: في كنة. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: هي القلوب المطبوع عليها. وأخرج وكيع عن عكرمة، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: هي التي لا تفقه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن جرير عن حنيفة قال: القلوب أربعة: قلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب مصفح، فذلك قلب المنافق، وقلب أجرد فيه مثل السراج، فذلك قلب المؤمن، وقلب فيه إيمان، ونفاق، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدّها ماء طيب، ومثل المنافق كمثل قرحة يمدّها القيح، والدم. وأخرج أحمد بسند جيد، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهى، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد، فقلب المؤمن سراجاً فيه نوره، وأما القلب الأغلف، فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس، فقلب المنافق غرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح، فقلب فيه إيمان، ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح، فأما المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه». وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان الفارسي مثله سواء موقوفاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: «فقليل ما يؤمنون» قال: لا يؤمن منهم إلا قليل.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَأُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ عَلَى الَّذِينَ قَبْلَهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَّا نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بئسما أن ينزل الله من فضله. عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَا يَشَاءُ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٨٩﴾ وَإِذْ يَقُولُ لَهُمْ ءِمْشُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ كَالْعِشْرَةِ ﴿٩١﴾

«ولما جاءهم» يعني اليهود «كتاب» يعني القرآن، و«مصنق» وصف له، وهو في مصحف أبي منصور، ونصبه على الحال، وإن كان صاحبها نكرة، فقد تخصصت بوصفها بقوله: «من عند الله» وتصديقه لما معهم من التوراة، والإنجيل أنه يخبرهم بما فيهما، ويصدقهما، ولا

﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة، وهذه أحوال متداخلة أعني قوله: ﴿ويكفرون﴾ وقوله: ﴿وهو الحق﴾ وقوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ ثم اعترض الله سبحانه عليهم لما قالوا نؤمن بما أنزل علينا بهذه الجملة المتشتملة على الاستفهام المفيد للتوبيخ أي: إن كنتم تؤمنون بما أنزل عليكم، فكيف تقتلون الأنبياء، وقد نهيتهم عن قتلهم، فيما أنزل عليكم؟ وهذا الخطاب، وإن كان مع الحاضرين من اليهود، فالمراد به أسلافهم، ولكنهم لما كانوا يرضون بأفعال سلفهم كانوا مثلهم. واللام في قوله: ﴿ولقد﴾ جواب لقسم مقدر. والبيئات يجوز أن يراد بها التوراة، أو التسع الآيات المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ [الإسراء: 101] ويجوز أن يراد الجميع، ثم عبثتم العجل بعد النظر في تلك البيئات حال كونكم ظالمين بهذه العبادة الصادرة منكم عناداً بعد قيلم الحجة عليكم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق﴾ قال: هو القرآن ﴿مصدق﴾ لما معهم من التوراة، والإنجيل. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري قال: حدثني أشياخ منا قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا؛ لأن معنا يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب وثن، وكانوا إذا بلغهم منا ما يكرهون قالوا: إن نبياً ليبعث الآن قد اظلم زمانه نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث رسول الله ﷺ اتبعناه، وكفروا به، ففينا، والله، وفيهم أنزل الله: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة قالوا: كانت العرب تمر باليهود، فيؤثنونهم، وكانوا يجنون محمداً في التوراة، فيسألون الله أن يبعثه نبياً، فيقاتلون معه العرب، فلما جاء محمد كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل. وقد روي نحو هذا، عن ابن عباس من غير وجه بالفاظ مختلفة، ومعانيها متقاربة. وروي عن غيره من السلف نحو ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ قال: هم اليهود كفروا بما أنزل الله، وبمحمد ﷺ بغياً، وحسداً للعرب ﴿فبأؤوا بغضب على غضب﴾ قال: غضب الله عليهم مرتين بكفرهم بالإنجيل، وبعبسى، وبكفرهم بالقرآن، وبمحمد. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿بغياً أن ينزل الله﴾ أي: أن الله جعله من غيرهم ﴿فبأؤوا بغضب﴾ بكفرهم بهذا النبي ﴿على غضب﴾ كان عليهم بما صنعوه من التوراة. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة نحوه. وأخرج أيضاً عن مجاهد معناه. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ قال: بما بعده. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: بما وراءه أي القرآن. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ رَرَمْنَا قَوْلَكُمْ أَطُورُ حَذُوا مَا أَتَيْتَكُمْ

يَقُولُوا وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَصَدَّقْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ أَلَيْجَلْ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بئسما يأمركم به يستنذركم إن كنتم مؤمنين ﴿٩٩﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِكَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٠﴾ وَإِنْ يَتَمَنَّوْا أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٠١﴾ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَجْرَهُمُ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ مِنَ الدَّارِ الْأُولَى أَشْرَكَوا بِرَبِّهِمْ أَذْهَبَتْ لَهُمْ سَمَتُ مَا هُوَ بِمُرْءِيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يَمَسُّهُمُ اللَّهُ بِصِيْرٍ بِمَا يَسْمُكُونَ ﴿١٠٢﴾

قد تقدم تفسير أخذ الميثاق، ورفع الطور. والأمر بالسمع معناه الطاعة، والقبول، وليس المراد مجرد الإدراك بحاسة السمع، ومنه قولهم: «سمع الله لمن حمده» أي: قبل وأجاب، ومنه قول الشاعر:

دعوت الله حتى خفت أن لا يكون الله يسمع ما أقول
أي يقبل، وقولهم في الجواب «سمعنا» هو: على بابه، وفي معناه أي: سمعنا قولك بحاسة السمع، وعصيناك أي: لا نقبل ما تأمرنا به، ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم: «سمعنا» ما هو معهود من تلاعبهم، واستعمالهم المغالطة في مخاطبة أنبيائهم، وذلك بأن يحملوا قوله تعالى: ﴿اسمعوا﴾ على معناه الحقيقي أي: السمع بالحاسة. ثم أجابوا بقولهم: «سمعنا» أي: أتركنا ذلك باسماعنا عملاً بموجب ما تأمر به، ولكنهم لما كانوا يعلمون أن هذا غير مراد الله عز وجل بل مراده بالأمر بالسمع الأمر بالطاعة، والقبول لم يقتصروا على هذه المغالطة بل ضموا إلى ذلك ما هو الجواب عندهم فقالوا: ﴿وعصينا﴾، وفي قوله: ﴿وأشربوا﴾ تشبيه بليغ أي: جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشربه، ومثله قول زهير:

فصحوت عنها بعد حب داخل والحب يشربه فؤادك دائماً
وإنما عبر عن حب العجل بالشرب نون الأكل؛ لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها، والطعام يجاوزها، ولا يتغلغل فيها، والباء في قوله: ﴿بكفروهم﴾ سببية أي: كان ذلك بسبب كفرهم عقوبة لهم، وخذلانا. وقوله: ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ أي: إيمانكم الذي زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم، وتكفرون بما وراءه، فإن هذا الصنع، وهو قولكم: «سمعنا وعصينا» في جواب ما أمرتم به في كتابكم، وأخذ عليكم الميثاق به مناد عليكم بأبلغ نداء بخلاق ما زعمتم، وكذلك ما وقع منكم من عبادة العجل، ونزول حبه من قلوبكم منزلة الشراب هو من أعظم ما يدل على أنكم كاذبون في قولكم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ [البقرة: 91] لا صائقون، فإن زعمتم أن كتابكم الذي آمنتم به أمركم بهذا، فبئسما يأمركم به إيمانكم بكتابكم، وفي هذا من التهكم بهم ما لا يخفى. وقوله: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة﴾ هو رد عليهم لما ادعوا أنهم يدخلون الجنة، ولا يشاركون في نخولها غيرهم، وإلزام لهم بما يتبين به أنهم كاذبون في تلك الدعوى، وأنها صادرة منهم لا عن برهان،

فيه خروج من الكلام في اليهود إلى غيرهم من مشركي العرب لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكليف، ولا ضرر في استطراد نكر حرص المشركين بعد نكر حرص اليهود. وقال الرازي: إن الثاني أرجح ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعواهم، وفي إظهار كذبهم في قولهم إن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا. انتهى. ويجاب عنه بأن هذا الذي جعله مرجحاً قد أفاده قوله تعالى: ﴿وَلَتَجْنِبَنَّهُمْ لِحِرْصِ النَّاسِ﴾ ولا يستلزم استثناء الكلام في المشركين أن لا يكونوا من جملة الناس، وخص الألف بالذكر؛ لأن العرب كانت تذكر ذلك عند إرادة المبالغة. وأصل سنة سنهة، وقيل سنة. واختلف في الضمير في قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَرْحُوحِهِ﴾ فقيل هو: راجع إلى أحدهم، والتقدير: وما أحدهم بمَرْحُوحِهِ من العذاب أن يعمر، وعلى هذا يكون قوله: ﴿أَنْ يَعْمَرَ﴾ فاعلاً لَمَْرْحُوحِهِ، وقيل هو: لما دل عليه يعمر من مصدره أي: وما التعمير بمَرْحُوحِهِ، ويكون قوله: ﴿أَنْ يَعْمَرَ﴾ بدلاً منه. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: هو عماد، وقيل هو: ضمير الشأن، وقيل: «ما» هي الحجازية، والضمير اسمها، وما بعده خبرها، والأول أرجح، وكذلك الثاني، والثالث ضعيف جداً؛ لأن العماد لا يكون إلا بين شيئين، ولهذا يسمونه ضمير الفصل، والرابع فيه أن ضمير الشأن يفسر بجملة سالمة عن حرف جر كما حكاه ابن عطية عن النحاة. والزحزحة: التنحية، يقال زحزحته، فزحزح: أي نحيت فتتحى، وتباعه، ومنه قول ذي الرمة:

يا قابض الروح عن جسم عصى زمناً
وفاقر الذنب زحزحني عن النار
والبصير: العالم بالشيء الخبير به، ومنه قولهم: فلان بصير بكذا: أي خبير به، ومنه قول الشاعر:

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأهواء النساء طبيب
وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ قال: أُشْرِبُوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم. وأخرج ابن جرير، عن أبي العلية، أن اليهود لما قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 111] الآية، نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [البقرة: 177] الآية. وأخرج ابن جرير، عن قتادة: وأخرج البيهقي، في الدلائل عن ابن عباس، أن قوله: ﴿خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ يعني المؤمنين: ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ﴾ فقال لهم رسول الله: «إن كنتم في مقاتلكم صائقين، فقولوا: اللهم أمتنا، فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه، فمات مكناه». وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ﴾ أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكتب، فأبوا ذلك، ولو تمنوه يوم قال ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو نعيم عنه قال: «لو تمنى اليهود الموت لماتوا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه نحوه. وأخرج البخاري، وغيره من حديثه مرفوعاً: «لو أن اليهود تمنوا لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار». وأخرج ابن أبي حاتم،

و﴿خالصة﴾ منصوب على الحال، ويكون خبر كان هو عند الله، أو يكون خبر كان هو خالصة، ومعنى الخلوص أنه لا يشاركهم فيها غيرهم إذا كانت اللام في قوله: ﴿مَنْ دُونِ النَّاسِ﴾ للجنس، أو لا يشاركهم فيها المسلمون إن كانت اللام للعهد. وهذا أرجح لقولهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 111] وإنما أمرهم بتمني الموت؛ لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة، ولما كان ذلك منهم مجرد دعوى أحجموا، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا﴾ و«ما» في قوله: ﴿بِمَا قُتِمَتْ لَيْبِهِمْ﴾ موصولة، والعائد محذوف أي: بما قُتِمَتْ من الذنوب التي يكون فاعلها غير آمن من العذاب بل غير طامع في دخول الجنة، فضلاً عن كونه قاطعاً بها فضلاً عن كونها خالصة له مختصة به، وقيل: إن الله سبحانه صرفهم عن التمني ليجعل ذلك آية لنبيه ﷺ والمراد بالتمني هنا هو: التلطف بما يدل عليه، لا مجرد خطوره بالقلب، وميل النفس إليه، فإن ذلك لا يرد في مقام المحاجة، ومواطن الخصومة، ومواقف التحدي، وفي تركهم للتمني، أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله ﷺ، فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف، والتجروء على الله، وعلى أنبيائه بالدعوى الباطلة في غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل، فلم يتركوا عانتهم هنا إلا لما قد تقرر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمني نزل بهم الموت، إما لأمر قد علموه، أو للصرفة من الله عز وجل. وقد يقال: ثبت النهي عن النبي ﷺ عن تمني الموت، فكيف أمره الله أن يأمهم بما هو منهى عنه في شريعته. ويجاب بأن المراد هنا إلزامهم الحجة، وإقامة البرهان على بطلان دعواهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم، وتسجيل عليهم بأنهم كذلك. واللام في قوله: ﴿وَلَتَجْنِبَنَّهُمْ﴾ جواب قسم محذوف، وتنكير حياة للتنكير أي: أنهم أحرص الناس على أحقر حياة، وأقل لبث في الدنيا، فكيف بحياة كثيرة، ولبت متطاولة؟ وقال في الكشف: إنه أراد بالتنكير حياة مخصوصة، وهي: الحياة المتطاولة، وتبعه في ذلك الرازي في تفسيره. وقوله: ﴿وَمَنْ الْذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قيل: هو: كلام مستأنف، والتقدير: ومن الذين أشركوا ناس ﴿يُؤَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ وقيل: إنه معطوف على الناس أي: أحرص الناس، وأحرص من الذين أشركوا، وعلى هذا يكون قوله: ﴿يُؤَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ راجعاً إلى اليهود بياناً لزيادة حرصهم على الحياة، ووجه ذكر الذين أشركوا بعد نكر الناس مع كونهم داخلين فيهم الدلالة على مزيد حرص المشركين من العرب، ومن شابههم من غيرهم. فمن كان أحرص منهم، وهم: اليهود كان بالغاً في الحرص إلى غاية لا يقادر قدرها. وإنما بلغوا في الحرص إلى هذا الحد الفاضل على حرص المشركين؛ لأنهم يعلمون بما يحل بهم من العذاب في الآخرة، بخلاف المشركين من العرب، ونحوهم، فإنهم لا يقرنون بذلك، وكان حرصهم على الحياة دون حرص اليهود. والأول، وإن كان

والحاكم وصححه عنه في قوله: ﴿وَلِتَجْنِبْنَهُمْ لِحِرْصِ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ﴾ قال اليهود: ﴿وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: وذلك أن المشركين لا يرجون بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ماله من الخزي بما ضيع ما عنده من العلم: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحِّجُهُ﴾ قال: بمنحيه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم عنه في قوله: ﴿يَبُودُ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرُ لَفِ سَنَةٍ﴾ قال: هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم «ذه هز ارسال» يعني عش ألف سنة.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِبْرِيلَ وَمُكْرِمَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

هذه الآية قد أجمع المفسرون على أنها نزلت في اليهود. قال ابن جرير الطبري: وأجمع أهل التأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً على اليهود إذ زعموا أن جبريل عود لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا ما كان سبب قولهم ذلك؟ فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل منازرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ من أمر نبوته، ثم نكر روايات في ذلك ستأتي آخر البحث إن شاء الله. والضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾ يحتمل، وجهين: الأول أن يكون لله، ويكون الضمير في قوله: ﴿نَزَّلَهُ﴾ لجبريل أي: فإن الله سبحانه نزل جبريل على قلبك، وفيه ضعف كما يفيد قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. الثاني أنه لجبريل، والضمير في «نزله» للقرآن أي: فإن جبريل نزل القرآن على قلبك، وخص القلب بالذكر؛ لأنه موضع العقل، والعلم. وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: يعلمه وإرادته، وتيسيره، وتسهيله، و﴿مَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هو: التوراة كما سلف، أو جميع الكتب المنزلة، وفي هذا دليل على شرف جبريل، وارتفاع منزلته، وأنه لا وجه لمعاداة اليهود له حيث كان منه ما نكر من تنزيل الكتاب على قلبك، أو من تنزيل الله له على قلبك، وهذا هو وجه الربط بين الشرط، والجواب، أي: من كان معادياً لجبريل منهم، فلا وجه لمعاداته له، فإنه لم يصدر منه إلا ما يوجب المحبة بون العداوة، أو من كان معادياً له، فإن سبب معاداته أنه وقع منه ما يكرهونه من التنزيل، وليس ذلك بنبذ له، وإن نزوه، فإن هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم، وعدوان، لأن هذا الكتاب الذي نزل به هو مصدق لكتابهم، وهدى، وبشرى للمؤمنين، ثم أتبع سبحانه هذا الكلام بجملة مشتملة على شرط، وجزاء يتضمن الذم لمن عادى جبريل بذلك السبب، والوعيد الشديد له فقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ والعداوة من العبد هي: صدور المعاصي منه لله، والبغض لأوليائه، والعداوة من الله للعبد هي: تعذيبه بذنبيه، وعدم التجاوز عنه، والمغفرة له، وإنما خص جبريل، وميكائيل بالذكر بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما، والدلالة على فضلهما، وأنهما، وإن كانا من الملائكة، فقد صارا باعتبار ما

لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي كما ذكره صاحب الكشف، وقرره علماء البيان. وفي جبريل عشر لغات ذكرها ابن جرير الطبري، وغيره، وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك. وفي ميكائيل ست لغات، وهما اسمان عجميان، والعرب إذا نطقت بالعجمي تساهلت فيه. وحكى الزمخشري عن ابن جني أنه قال: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه. وقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمرة أي: فإن الله عود لهم لقصد الدلالة على أن هذه العداوة موجبة لكفر من وقعت منه. وقد أخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: «حضرت عصابة من اليهود النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسالك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: سلوني عما شئتم، فسألوه، ولجأهم، ثم قالوا: فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك، أو نفارقك، فقال: وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه؛ قالوا: فعندها نفارقك لو كان وليك سواه من الملائكة لا تبعناك، وصدقناك، قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: هذا عودنا، فعند ذلك أنزل الله الآية. وأخرج نحو ذلك ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الشعبي عن عمر بن الخطاب في قصة جرت له معهم، وإسنادها صحيح، ولكن الشعبي لم يذكر عمر، وقد رواها عكرمة، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى، عن عمر. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وغيرهم، عن أنس قال: «سمع عبد الله ابن سلام بمقدم النبي ﷺ وهو في أرض يخترق، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولد إلى أبيه، أو إلى أمه؟ فقال: أخبرني بهن جبريل أتفا، فقال: جبريل؟ قال: نعم، قال: ذاك عود اليهود من الملائكة، فقرا هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ قال: أما أول أشراط الساعة، فنار تخرج من المشرق، فتحشر الناس إلى المغرب، وأما أول ما يكل أهل الجنة، فزيادة كبد حوت، وأما ما ينزع الولد إلى أبيه، أو أمه، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها؛ قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله» وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يقول: فإن جبريل نزل القرآن بأمر الله يشدد به فؤادك، ويربط به على قلبك: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يقول لما قبله من الكتب التي أنزلها، والآيات، والرسائل التي بعثهم الله. وقد نكر السيوطي في هذا الموضع من تفسيره: «الدر المنثور» أحاديث كثيرة وأردت في جبريل، وميكائيل، وليست مما يتعلق بالتفسير حتى نذكرها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَاتِيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذُوا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

نبيذ كتاب الله وراء ظهورهم كانوا بمنزلة من لا يعلم. قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ معطوف على قوله: «نبذوا» أي: نبذوا كتاب الله، واتبعوا ما تلتوا الشياطين من السحر، ونحوه. قال الطبري: اتبعوا بمعنى فعلوا. ومعنى: «تلتوا» تتقولوه، وتقروؤه و﴿على ملك سليمان﴾ على عهد ملك سليمان، قاله الزجاج، وقيل: المعنى في ملك سليمان: يعني في قصصه، وصفاته، وأخباره. قال الفراء: تصلح «على»، وفي «في» هذا الموضع، والأول أظهر. وقد كانوا يظنون أن هذا هو: علم سليمان، وأنه يستجيزه، ويقول به، فرد الله ذلك عليهم، وقال: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ ولم يتقدم أن أحدا نسب سليمان إلى الكفر، ولكن لما نسبته اليهود إلى السحر صاروا بمنزلة من نسبته إلى الكفر؛ لأن السحر يوجب ذلك، ولهذا أثبت الله سبحانه كفر الشياطين فقال: ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ أي: بتعليمهم. وقوله: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ في محل نصب على الحال، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر بعد خبر. وقرأ ابن عامر، والكوفيون سوى عاصم: «ولكن الشياطين» بتخفيف لكن، ورفع الشياطين، والباقيون بالتشديد، والنصب. والسحر هو: ما يفعله الساحر من الحيل، والتخيلات التي تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب، فيظنه ماء، وما يظنه راكب السفينة، أو الدابة من أن الجبال تسير، وهو مشتق من سحرت الصبي إذا خدعته، وقيل أصله الخفاء، فإن الساحر يفعله خفية، وقيل: أصله الصرف؛ لأن السحر مصروف عن جهته، وقيل: أصله الاستمالة؛ لأن من سحرك، فقد استمالك. وقال الجوهري: السحر الأخذ، وكل ما لطف مأخذه، وبق، فهو سحر. وقد سحره، يسحره سحراً، والساحر: العالم، وسحره أيضاً بمعنى خدعه. وقد اختلف هل له حقيقة أم لا؟ فذهبت المعتزلة، وأبو حنيفة إلى أنه خداع لا أصل له، ولا حقيقة. وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة. وقد صح أن النبي ﷺ سحر، سحره لبيد بن الأعصم اليهودي حتى كان يخيّل إليه أنه يأتي الشيء ولم يكن قد أتاه، ثم شفاه الله سبحانه، والكلام في ذلك يطول. وقوله: ﴿وما أنزل على الملكين﴾ أي: ويعلمون الناس ما أنزل على الملكين، فهو معطوف على السحر، وقيل هو: معطوف على قوله: «ما تلتوا الشياطين» أي: واتبعوا ما أنزل على الملكين. وقيل: إن «ما» في قوله: ﴿وما أنزل على الملكين﴾ نافية، والواو عاطفة على قوله: ﴿وما كفر سليمان﴾ وفي الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت، وماروت، قهاروت، وماروت بدل من الشياطين في قوله: ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ ذكر هذا ابن جرير، وقال: فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: واتبعوا ما تلتوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين، ولكن الشياطين كفروا

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشَرٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ أَوْثَرُ الْكَذِبِ كَتَبَ اللَّهُ رِزْقَهُمْ ظُهُورَهُمْ لَأَنَّهَمْ لَا يَلْمُزُونَ وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ الْسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَذُوتَ وَمُزُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا عَجْزٌ وَنَشْءٌ فَلَا تَكْفُرُ فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْتَرُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَائِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْلَمُونَ مَا يُصَرُّهُمْ وَلَا يُنْفَعُ لَهُمْ وَكَفَدَ عَلَيْهِمْ أَلْفَ شَرْتِهِ تَأَمَّلْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَلْقِ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾

الضمير في قوله: ﴿إليك﴾ للنبي ﷺ أي: أنزلنا إليك علامات واضحات دالة على نبوتك. وقوله: ﴿إلا الفاسقون﴾ قد تقدم تفسيره، والظاهر أن المراد جنس الفاسقين، ويحتمل أن يراد اليهود؛ لأن الكلام معهم، والواو في قوله: ﴿واولئك﴾ للعطف دخلت عليها همزة الاستفهام كما تدخل على الفاء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿افهم الجاهلية يبعون﴾ [المائدة: 50] «أفانت تسمع الصم» [يونس: 42، الزخرف: 40] «أفتتخذونه وزيتته» [الكهف: 50] ثم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إنهم إذا ما وقع﴾ [يونس: 51] وهذا قول سيبويه. وقال الأخفش: الواو زائدة. وقال الكسائي: إنها أو حركت الواو تسهلاً. قال ابن عطية: وهذا كله متكلف، والصحيح قول سيبويه، والمعطوف عليه محذوف، والتقدير: اكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا. قوله: ﴿نبيذ فريق﴾ قال ابن جرير: أصل النبيذ الطرح، والإلقاء، ومنه سمي اللقيط منبؤداً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر، والزبيب إذا طرحا في الماء، قال أبو الأسود:

نظرت إلى عنوانه فنبيذته كنبذك نعلأ خلقت من نعالكا
وقال آخر:

إن الذين أمرتهم أن يعملوا نبذوا كتابك واستحل المحرم
وقوله: ﴿وراء ظهورهم﴾ أي: خلف ظهورهم، وهو: مثل يضرب لمن يستخف بالشيء، فلا يعمل به تقول العرب: اجعل هذا خلف ظهرك، ودير أذنك، وتحت قدمك: أي اتركه، وأعرض عنه، ومنه ما أنشده الفراء:

تيمم بن زيد لا تكون حاجتي يظهر فلا يعي علي جوابها
وقوله: ﴿كتاب الله﴾ أي: التوراة؛ لأنهم لما كفروا بالنبي ﷺ، وبما أنزل عليه بعد أن أخذ الله عليهم في التوراة الإيمان به، وتصديقه، واتباعه، وبين لهم صفته، كان ذلك منهم نبذاً للتوراة، ونقضاً لها، ورفضاً لما فيها، ويجوز أن يراد بالكتاب هنا القرآن أي: لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب الله الذي جاء به هذا الرسول، وهذا أظهر من الوجه الأول. وقوله: ﴿كانهم لا يعلمون﴾ تشبيه لهم بمن لا يعلم شيئاً مع كونهم يعلمون علماً يقيناً من التوراة بما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبي، ولكنهم لما لم يعملوا بالعلم بل عملوا عمل من لا يعلم من

يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل؛ لأن سحرة اليهود فيما نكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم تلك رجالان أحدهما هاروت، والآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم. انتهى. وقال القرطبي في تفسيره بعد أن حكى معنى هذا الكلام، ورجح أن هاروت وماروت يدل من الشياطين ما لفظه: هذا أولى ما حملت عليه الآية، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى سواءه، فالسحر من استخراج الشياطين للطائفة جوهرهم، وبقة أفعالهم، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء، وخاصة في حال طمئنهن، قال الله: ﴿ومن شر التفات في العقد﴾ [العلق: 4] ثم قال: إن قيل كيف يكون اثنان بدلاً من جمع، والبديل إنما يكون على حد المبدل؟ ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين قد يطلق عليهما الجمع، أو أنهما خصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس، والضحاك، والحسن: «الملكين» بكسر اللام، ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده، وظهور تكلفه تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر إلى أرضه فتنة لعباده على السن ملائكته. وعندي أنه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر، فإن الله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت، ولهذا يقول الملكان: ﴿إنما نحن فتنة﴾ قال ابن جرير: وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، وبابل قيل: هي العراق، وقيل نهاوند، وقيل نصيبين، وقيل المغرب. وماروت وسمان أعجميان لا ينصرفان. وقوله: ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقول﴾ قال الزجاج: تعليم إنذار من السحر لا تعليم دعاء إليه، قال: وهو الذي عليه أكثر أهل اللغة، والنظر، ومعناه: أنهما يعلمان على النهي، فيقولان لهم: لا تفعلوا كذا، و«من» في قوله: «من أحد» زائدة للتوكيد، وقد قيل إن قوله: «يعلمان» من الإعلام لا من التعليم، وقد جاء في كلام العرب تعلم بمعنى أعلم كما حكاه ابن الأنباري، وابن الأعرابي، وهو كثير من أشعارهم كقول كعب بن مالك:

تعلم رسول الله أنك متركى وإن وعيداً منك كالأخذ باليد وقال القطامي:

تعلم أن بعد الغي رشداً وإن لئلك الغي انقشاعا وقوله: ﴿إنما نحن فتنة﴾ هو: على ظاهره أي: إنما نحن ابتلاء، واختبار من الله لعباده، وقيل إنه استهزاء منهما؛ لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله، وفي قولهما: ﴿فلا تكفر﴾ أبلغ إنذار، وأعظم تحذير أي: أن هذا نذير يكون من فعله كافراً، فلا تكفر، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد، وغير المعتقد، وبين من

تعلمه ليكون ساحراً، ومن تعلمه ليقدر على نفعه. وقوله: ﴿فيتعلمون﴾ فيه ضمير يرجع إلى قوله: «من أحد» قال سيبويه: التقدير، فهم يتعلمون، قال: ومثله «كن فيكون» [البقرة: 117] وقيل هو: معطوف على موضع ما يعلمان؛ لأنه وإن كان منفياً، فهو يتضمن الإيجاب. وقال الفراء: هي مربة على قوله: «يعلمون الناس السحر» أي: يعلمون الناس، فيتعلمون، وقوله: ﴿وما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ في إسناده التفريق إلى السحرة، وجعل السحر سبباً لذلك دليل على أن للسحر تأثيراً في القلوب بالحب، والبغض، والجمع، والفرقة، والقرب، والبعد. وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة؛ لأن الله نكر ذلك في معرض النعم للسحر، وبين ما هو الغاية في تعليمه، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لنكره. وقالت طائفة أخرى: إن ذلك خرج مخرج الأغلب، وأن الساحر يقدر على غير تلك المنصوص عليه، وقيل ليس للسحر تأثير في نفسه أصلاً لقوله تعالى: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ والحق أنه لا تنافي بين قوله: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ وبين قوله: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ فإن المستفاد من جميع ذلك أن للسحر تأثيراً في نفسه، ولكنه لا يؤثر ضرراً إلا فيمن أن الله بتأثيره فيه. وقد أجمع أهل العلم على أن له تأثيراً في نفسه، وحقيقة ثابتة، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة، وأبو حنيفة كما تقدم، وقوله: ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ فيه تصريح بأن السحر لا يعود على صاحبه بفائدة، ولا يجلب إليه منفعة بل هو: ضرر محض، وخسران بحت، واللام في قوله: ﴿ولقد﴾ جواب قسم محذوف، وفي قوله: ﴿لمن اشتراه﴾ للتأكيد و«من» موصولة، وهي في محل رفع على الابتداء، والخبر قوله: ﴿ماله في الآخرة من خلاق﴾ وقال الفراء إنها شرطية للمجازاة. وقال الزجاج: ليس هذا بموضع شرط، ورجح أنها موصولة كما نكرنا. والمراد بالشراء هنا: الاستبدال أي من استبدل ما تتلوا الشياطين على كتاب الله والخلق؛ للتصيب عند أهل اللغة، كذا قال الزجاج. والمراد بقوله: ﴿ما شروا به أنفسهم﴾ أي: باعوها. وقد أثبت لهم العلم في قوله: ﴿ولقد علموا﴾ ونفاه عنهم في قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ واختلفوا في توجيه ذلك، فقال قطرب، والأخفش: إن المراد بقوله: ﴿ولقد علموا﴾ الشياطين، والمراد بقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ الإنس. وقال الزجاج: إن الأول للملكين، وإن كان بصيغة الجمع، فهو مثل قولهم: الزيدان قاموا. والثاني المراد به علماء اليهود، وإنما قال: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ لأنهم تركوا العمل بعلمهم. وقوله: ﴿ولو أنهم آمنوا﴾ أي بالنبي ﷺ، وما جاء به من القرآن، ﴿واتقوا﴾ ما وقعوا فيه من السحر، والكفر، واللام، في قوله: ﴿لمتوبة﴾ جواب لو، والمتوبة: الثواب. وقال الأخفش: إن الجواب محذوف، والتقدير، ولو أنهم آمنوا، واتقوا لأثبوا،

فحذف لدلالة قوله: «لمثوبة» عليه وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ هو: إما للدلالة على أنه لا علم لهم، أو لتنزيل علمهم مع عدم العمل منزلة العدم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: «قال ابن صوريا للنبي ﷺ يا محمد ما جئتنا بشيء يعرف، وما أنزل الله عليك من آية بينة، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيْنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ، ونكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد: والله ما عهد إلينا في محمد، ولا أخذ علينا شيئاً، فأنزل الله: ﴿وَأَوْكَلِمَا عَاهِدُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عنه في قوله: ﴿آيَاتٍ بَيْنَاتٍ﴾ يقول: فأنزل الله عليه، وتخبرهم به غداة، وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لم تقرأ الكتاب، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه، ففي ذلك عبرة لهم، وحجة عليهم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿فَنَبِّئْهُمْ﴾ نقضه. وأخرج أيضاً عن السدي في قوله ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ قال: قال: لما جاءهم محمد عارضوه بالتوراة، واتفقت التوراة، والقرآن، فنبيذوا التوراة، وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، كأنهم لا يعلمون بما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ، وتصديقه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فإذا سمع أحدهم بكلمة حق كذب معها ألف كذبة، فأشربتها قلوب الناس، واتخذوها نواوين، فأطلع الله على ذلك سليمان بن داود، فأخذها، فنفقها تحت الكرسي، فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق، فقال: ألا أنلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه الممنع؟ قالوا: نعم، فأخرجوه فإذا هو: سحر، فتناستختها الأمم، وأنزل الله عن سليمان، فيما قالوا من السحر، فقال: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سَلِيمٍ﴾ الآية. وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، عنه قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان، ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً، وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها، فأكفروه جهال الناس، وسبوه، ووقف علماءهم، فلم يزل جهالهم يسبون حتى أنزل الله على محمد: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ الآية، وأخرج ابن جرير، عنه قال: كان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء، أو يأتي شيئاً من شأنه أعطى الجرادة، وهي: امرأته خاتمه، فلما أراد الله أن يبتلي سليمان بالذي ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه، فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي، فأخذته فلبسه، فلما لبسه دانت له الشياطين، والجن، والإنس، فجاء سليمان، فقال: هاتي خاتمي، فقالت: كذبت لست سليمان، فعرف أنه بلاء ابتلي به، فانطلقت الشياطين، فكتبت في تلك

الأيام كتباً فيها سحر، وكفر، ثم بنفوها تحت كرسي سليمان، ثم أخرجوها، فقرؤوها على الناس، وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب، فبرئ الناس من سليمان، وأكفروه حتى بعث الله محمداً، وأنزل عليه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾. وأخرج ابن جرير، عنه في قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا﴾ قال: ما تتبع. وأخرج أيضاً عن عطاء في قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا﴾ قال: نراه ما تحدث. وأخرج أيضاً عن ابن جرير في قوله: ﴿عَلَىٰ مَلِكٍ سَلِيمٍ﴾ يقول: في ملك سليمان. وأخرج أيضاً عن السدي في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ قال: هذا سحر آخر خاصمه به، فإن كلام الملائكة، فيما بينهم إذا علمته الإنس، فصنع، وعمل به كان سحراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ قال: لم ينزل الله السحر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي قال: هما ملكان من ملائكة السماء. وأخرج نحوه ابن مروي عن وجه آخر عنه مرفوعاً. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعني جبريل وميكائيل: ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾. يعلمان الناس السحر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن، بن أبزي أنه كان يقرؤها وما أنزل على الملكين داود وسليمان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاک قال: هما علجان من أهل بابل. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من حديث، ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أشرفت الملائكة على الدنيا، فرأت بني آدم يعصون، فقالت يا رب ما أجهل هؤلاء، ما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك، فقال الله: لو كنتم في محلاتهم لعصيتوني، قالوا: كيف يكون هذا، ونحن نسبح بحمك، ونقدس لك؟ قال: فاختاروا منكم ملكين، فاختاروا هاروت وماروت، ثم أهبطا إلى الأرض، وركبت، فيهما شهوات بني آدم، ومثلت لهما امرأة، فما عصما حتى واقعا المعصية، فقال الله: اختارا عذاب الدنيا، أو عذاب الآخرة، فنظر أحدهما لصاحبه قال ما تقول؟ قال: أقول إن عذاب الدنيا ينقطع، وإن عذاب الآخرة لا ينقطع، فاختارا عذاب الدنيا، فهما اللذان نكر الله في كتابه: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الآية. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر، أنه كان يقول: أطلعت الحمراء بعد، فإذا رأها قال: لا مرحباً، ثم قال: إن ملكين من الملائكة هاروت وماروت سالا الله أن يهبطهما إلى الأرض، فاهبطا إلى الأرض فكانا يقضيان بين الناس، فإذا أمسيا تكلمتا بكلمات، فعرجا بها إلى السماء، فقيض لهما امرأة من أحسن النساء، والقيت عليهما الشهوة، فجعلتا يؤخرانهما، والقيت في أنفسهما، فلم يزالا يفعلان حتى وعدتهما ميعاداً، فأتتهما للميعاد فقالت: علماني الكلمة التي تعرجان بها، فعلماهما الكلمة فتكلمتا بها فعرجتا إلى السماء، فمسخت فجعلتا كما ترون، فلما أمسيا تكلمتا بالكلمة، فلم يعرجا، فبعث إليهما: إن شئتما فعذاب الآخرة، وإن شئتما، فعذاب الدنيا إلى أن تقوم الساعة على أن تلقيا الله، فإن شاء عذبكما، وإن شاء

بالسمع، ولم يصح. انتهى. وأقول هذا مجرد استبعاد. وقد ورد الكتاب العزيز في هذا الموضع بما تراه، ولا وجه لإخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات، وما نكره من أن الأصول تنفع تلك، فعلى فرض، وجود هذه الأصول، فهي مخصصة بما وقع في هذه القصة، ولا وجه لمنع التخصيص، وقد كان إبليس يملك المنزل العظيمة، وصار أشد البرية، واكثر العالمين. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَةٌ﴾ قال: بلاء. وأخرج البزار بإسناد صحيح، والحاكم وصححه عن ابن مسعود، قال: «من أتى كاهناً، أو ساحراً، وصنّفه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد». وأخرج البزار عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من تطير، أو تطير له، أو تكهن، أو سحر، أو سحر له، ومن عقد عقدة، ومن أتى كاهناً، فصنّفه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد» وأخرج عبد الرزاق، عن صفوان بن سليم، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم شيئاً من السحر قليلاً، أو كثيراً كان آخر عهده من الله». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ قال: قوام. وأخرج ابن حاتم، عنه قال: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ من نصيب، وكذا روى ابن جرير، عن مجاهد. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن الحسن: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ قال: ليس له دين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ﴾ قال: باعوا. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٍ﴾ قال: ثواب.

يَأْتِيهَا الذُّبَابُ مَاتُوا لَا تَقُولُوا زَيْحًا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا
وَالْكَافِرِينَ عَذَابُ آيَةٍ ﴿١٤﴾ مَا يَوْءُ الذُّبَابِ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرٍّ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾

قوله: ﴿وَارْعَانَا﴾ أي: راقبنا، واحفظنا، وصيغة المفاعلة تدل على أن معنى ﴿وَارْعَانَا﴾ ارعنا، ونرعبك، واحفظنا، ونحفظك، وراقبنا، ونرتقبك، ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك أي: فرغه لكلامنا، وجه النهي عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سباً، قيل: إنه في لغتهم بمعنى اسمع لا سمعت، وقيل غير ذلك، فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبي ﷺ راعنا طلباً منه أن يراعيهم من المراعاة اغتتموا الفرصة، وكانوا يقولون للنبي ﷺ كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربي، مبطلين أنهم يقصدون السب الذي هو: معنى هذا اللفظ في لغتهم وفي ذلك الليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسب، والنقص، وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشتم سداً للذريعة، ودفعاً للوسيلة، وقطعاً لمادة المفسدة، والتطرق إليه، ثم أمرهم الله بأن يخاطبوا النبي ﷺ بما لا يحتمل النقص، ولا يصلح للتعريض، فقال: ﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ أي: أقبل علينا، وانظر إلينا، فهو من باب الحذف، والإيصال، كما قال الشاعر:

ظاهرات الجمال والحسن ينظر ن كما ينظر الأراك الظباء

رحمكما، فنظر أحدهما إلي صاحبه، فقال: بل نختار عذاب الدنيا ألف ضعف، فهما يعنiban إلى يوم القيامة. وقد رويت هذه القصة عن ابن عمر بالفاظ، وفي بعضها أنه يروي ذلك ابن عمر عن كعب الأحبار، كما أخرجه عبد الرزاق، وابن شعبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب من طريق الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم، وما يأتون من الذنوب، فقليل لو كنتم مكانهم لاتيتم مثل ما يأتون، فاخترأوا منكم اثنين، فاخترأوا هاروت وماروت، فقال لهما: إني أرسل إلى بني آدم رسلاً، فليس ببني، وبينكم رسول، انزلا لا تشركا بي شيئاً، ولا تزنيا، ولا تشربا الخمر، قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أمبطا فيه حتى استعملنا جميع ما نهيا عنه. قال ابن كثير: وهذا أصح، يعني من الإنسانين اللذين نكرهما قبله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب، قال: إن هذه الزهرة تسميها العرب الزهرة، والعجم أناهيد، ونكر نحو الرواية السابقة عن ابن عمر، عند الحاكم. قال ابن كثير: وهذا الإسناد رجاله ثقات، وهو غريب جداً. وقد أخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه عن ابن عباس، قال: كانت الزهرة امرأة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عنه: أن المرأة التي فتن بها الملكان مسخت، فهي هذه الكوكبة الحمراء: يعني الزهرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عنه، فذكر قصة طويلة، وفيها التصريح بأن الملكين شربا الخمر، وزنيا بالمرأة، وقتلاها. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وابن عباس هذه القصة، وقالوا: إنها أنزلت إليهما الزهرة في صورة امرأة، وأنهما وقعا في الخطيئة. وقد روى في هذا الباب قصص طويلة وروايات مختلفة استوفاهما السيوطي في الدر المنثور، ونكر ابن كثير في تفسيره بعضها، ثم قال: وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد، والسدي، والحسن البصري، وقتادة، وأبي العالية، والزهرى، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين، والمتأخرين. وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل بالإسناد إلى الصائق المصدق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط، ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال. انتهى. وقال القرطبي بعد سياق بعض ذلك: قلنا هذا كله ضعيف، وبعيد عن ابن عمر، وغيره لا يصح منه شيء، فإنه قول تنفعه الأصول في الملائكة الذين هم: أمناه الله على وحيه، وسفرأوه إلى رسله لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ثم نكر ما معناه: أن العقل يجوز وقوع ذلك منهم، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرى إلا

أي: إلى الأراك، وقيل: معناه انتظرنا، وتأنّ بنا، ومنه قول الشاعر:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى لم جنب
وقرأ الأعمش ﴿انظرنا﴾ بقطع الهمزة وكسر الظاء بمعنى
أخرنا، وأهلنا حتى نفهم عنك، ومنه قول الشاعر:

أباهند فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقيناً
وقرأ الحسن: ﴿راعنا﴾ بالتثنية، وقال: الراعن من القول
السخري منه انتهى. وأمرهم بعد هذا النهي والأمر بأمر
آخر، وهو قوله: ﴿واسمعوا﴾ أي: اسمعوا ما أمرتم به
ونهيتم عنه، ومعناه: اطيعوا الله في ترك خطاب النبي ﷺ

بذلك اللفظ، وخاطبوه ما أمرتم به، ويحتمل أن يكون معناه:
اسمعوا ما يخاطبكم به الرسول من الشرع حتى يحصل لكم
المطلوب بدون طلب للمراعاة، ثم تواعد اليهود بقوله:

﴿وللكافرين عذاب اليم﴾ ويحتمل أن يكون وعيداً شاملاً
لجنس الكفرة. قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في
ذلك: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ: ﴿راعنا﴾

لأنها كلمة كرهها الله أن يقولوها لنبيه ﷺ نظير الذي نكر
عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا
الحبلة، ولا تقولوا عبدي، ولكن قولوا فتاي» وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿ما يؤذ النيين كفروا من أهل الكتاب﴾ الآية فيه
بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين حيث لا يؤذون إنزال
الخير عليهم من الله سبحانه، ثم ردّ الله سبحانه ذلك عليهم،

فقال: ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾ الآية. وقوله: ﴿أن
ينزل﴾ في محل نصب على المفعولية، و«من» في قوله:

﴿من خير﴾ زائدة، قاله النحاس، وفي الكشف أن «من» في
قوله: ﴿من أهل الكتاب﴾ بيانية، وفي قوله: ﴿من خير﴾

مزيدة لاستغراق الخير، وفي قوله: ﴿من ربكم﴾ لا ابتداء
الغاية، وقد قيل بأن الخير الوحي، وقيل غير ذلك، والظاهر

أنهم لا يؤذون أن ينزل على المسلمين أي خير كان، فهو لا
يختص بنوع معين كما يفيد وقوع هذه النكرة في سياق
النفي، وتأكيد العموم بدخول «من» المزيدة عليها، وإن كان

بعض أنواع الخير أعظم من بعض، فذلك لا يوجب
التخصيص. والرحمة قيل هي: القرآن، وقيل النبوة، وقيل
جنس الرحمة من غير تعيين كما يفيد ذلك الإضافة إلى

ضميره تعالى: ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي: صاحب
الفضل العظيم، فكيف لا تولون أن يختص برحمته من يشاء
من عباده.

وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه، وأحمد في الزهد،
وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب
عن ابن مسعود: أن رجلاً أتاه، فقال: أعهد إليّ، فقال: إذا

سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فاعوها سمعك،
فإنه خير يأمر به، أو شرّ ينهي عنه. وأخرج أبو نعيم في
الدلائل، عن ابن عباس قال: ﴿راعنا﴾ بلسان اليهود: السبّ

ويضحكون، فيما بينهم، فأنزل الله الآية. وأخرج أبو نعيم في
الدلائل، عنه أنه قال المؤمنون بعد هذه الآية: من سمعتموه

يقولها، فاضربوا عنقه، فانتهدت اليهود بعد ذلك. وأخرج ابن
جرير، وابن المنذر، عن السدي قال: كان رجلان من اليهود:

مالك بن الصيف، ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبي ﷺ قالا له،
وهما يكلمانه: راعنا سمعك، واسمع غير مسمع، فظنّ

المسلمون أن هذا شيء كان أهل الكتاب يعظمون به
أنبياءهم، فقالوا للنبي ﷺ: فأنزل الله الآية. وأخرج ابن

المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صخر قال: كان رسول الله
ﷺ إذا أئبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين، فقالوا:

ارعنا سمعك، فاعظم الله رسوله أن يقال له ذلك، وأمرهم أن
يقولوا: ﴿انظرنا﴾ ليعززوا رسول الله ﷺ، ويوقروه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم، عن قتادة: أن
اليهود كانت تقول ذلك استهزاء، فكره الله للمؤمنين أن يقولوا
كقولهم، وأخرج ابن حاتم، عن مجاهد قال: الرحمة القرآن

والإسلام.

﴿مَا تَنَسَّخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ يُلْهِكَ اللَّهُ عَنْكَ مَا تَتَكَبَّرُ فِيهِ﴾

لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٧﴾

النسخ في كلام العرب على وجهين: أحدهما النقل كنقل
كتاب من آخر، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً، أعني

من اللوح المحفوظ، فلا مدخل لهذا المعنى في هذه الآية،
ومنه: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [الجنات: 29] أي

نأمر بنسخه. الوجه الثاني الإبطال، والإزالة، وهو المقصود
هنا. وهذا الوجه الثاني ينقسم إلى قسمين عند أهل اللغة:

أحدهما إبطال الشيء، وزواله، وإقامة آخر مقامه، ومنه
نسخت الشمس الظل إذا أذهبت، وحلت محله، وهو: معنى

قوله: ﴿ما ننسخ من آية﴾ وفي صحيح مسلم: «لم تكن
نبوة قط إلا تناسخت» أي: تحولت من حال إلى حال. والثاني

إزالة الشيء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم: نسخت الريح
الأثر، ومن هذا المعنى ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾

[الحج: 52] أي: يزيله. وروي عن أبي عبيد أن هذا قد كان
يقع في زمن رسول الله ﷺ، فكانت تنزل عليه السورة،

فترفع، فلا تتلى، ولا تكتب. ومنه ما روي عن أبي، وعائشة
أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول. قال

ابن فارس: النسخ نسخ الكتاب، والنسخ أن تزيل أمراً كان
من قبل يعمل به، ثم تنسخه بحادث غيره، كالأية تنزل بأمر،

ثم تنسخ بأخرى، وكل شيء خلف شيئاً، فقد انتسخه: يقال
نسخت الشمس الظل، والشيب الشباب، وتناسخ الورثة أن

يموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم، وكذا تناسخ
الآزمنة والقرون. وقال ابن جرير: ﴿ما ننسخ﴾ ما ننقل من

حكم آية إلى غيره، فننبله، ونغيره، وذلك أن تحول الحلال
حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً،

ولا يكون ذلك إلا في الأمر، والنهي، والحظر، والإطلاق،
والمنع، والإباحة، فاما الأخبار، فلا يكون فيها ناسخ، ولا

﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ يفيد أن النسخ من مقبورات، وأن إنكاره إنكار للقدرة الإلهية، وهكذا قوله: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي: له التصرف في السموات، والأرض بالإيجاد، والاختراع، وتفوذ الأمر في جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباد، وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبدهم بها، وشرعها لهم. وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال، والأزمنة، والأشخاص، وهذا صنع من لا ولي لهم غيره، ولا نصير سواه، فعليهم أن يتلقوه بالقبول، والامتثال، والتعظيم، والإجلال.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن عدي، وابن عساکر، عن ابن عباس، قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل، وينساه بالنهار، فأنزل الله: ﴿وما ننسخ من آية لو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ وفي إسناده الحجاج الجزري ينظر فيه. وأخرج الطبراني، عن ابن عمر، قال: «قرأ رجلان من الأنصار سورة أقرأهما رسول الله ﷺ وكنا يقرآن بها، فقاما يقرآن ذات ليلة يصليان، فلم يقدرا منها على حرف، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ، فقال: إنها مما نسخ، أو نسي، فلهوا عنها» وفي إسناده سليمان بن أرقم، وهو: ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما ننسخ من آية أو ننسها﴾ يقول: ما نبذل من آية، أو نتركها لا نبيلها: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ يقول: خير لكم في المنفعة، وأرفق بكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أنه قال: «ننساها» نؤخرها. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود في قوله: ﴿وما ننسخ من آية﴾ قال: نثبت خطها، ونبدل حكمها: «أو ننساها» قال: نؤخرها. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿نأت بخير منه أو مثلها﴾ يقول فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهي. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، وأبو ذر الهروي في فضائله، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: «أن رجلاً كانت معه سورة، فقام من الليل: فقام بها، فلم يقدر عليها، وقام آخر يقرأ بها، فلم يقدر عليها، وقام آخر، فلم يقدر عليها، فأصبحوا، فاتوا رسول الله ﷺ فاجتمعوا عنده، فأخبروه، فقال: إنها نسخت البارحة» وقد روي نحوه عنه من وجه آخر. وقد ثبت في البخاري، وغيره عن أنس أن الله أنزل في الذين قتلوا في بئر معونة: «أن بلغوا قوماً أن قد لقينا ربنا فرضي عنا، وأرضنا» ثم نسخ، وهكذا ثبت في مسلم، وغيره عن أبي موسى قال: كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول، والشدة ببراءة، فأنسيتها، غير أنني حفظت منها: «لو كان لابن آدم واديان من مال لا تبغى واديا ثالثاً، ولا يملأ جوفه إلا التراب»، وكنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات، أولها: ﴿سبح لله ما في السموات﴾ [الحديد: 1] فأنسيناها، غير أنني حفظت منها: «يا أيها الذين

منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة أخرى، فذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله إلى غيره، وسواء نسخ حكمها، أو خطها، إذ هي في كلتي حالتها منسوخة. انتهى. وقد جعل علماء الأصول مباحث النسخ من جملة مقاصد تلك الفن، فلا نطول بنكره، بل نحيل من أراد الاستشفاء عليه. وقد اتفق أهل الإسلام على ثبوته سلفاً، وخلفاً، ولم يخالف في ذلك أحد إلا من لا يعتد بخلافه، ولا يؤبه لقوله. وقد اشتهر عن اليهود، أقامهم الله، إنكاره، وهم محجوجون بما في التوراة أن الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة: «إني قد جعلت كل دابة مأكلاً لك، ولزيتك، وأطلقت لك لكم كنبات العشب ما خلا الدم، فلا تاكلوه، ثم قد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوان، وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج الأخ من الأخت، وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام، وعلى غيره. وثبت فيها أن إبراهيم عليه السلام أمر بنبيح ابنه، ثم قال الله له: لا تنبحه، وبنو موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم، ونحو هذا كثير في التوراة الموجودة بأيديهم. وقوله: ﴿أو ننسها﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير بفتح النون، والسين، والهمز، وبه قرأ عمر، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد وأبي بن كعب، وعبيد بن عمير، والنخعي، وابن محيصن ومعنى هذه القراءة نؤخرها عن النسخ من قولهم: نسأت هذا الأمر إذا أخرته. قال ابن فارس: ويقولون نسأ الله في أجلك، وأنسأ الله أجلك. وقد انتسأ القوم إذا تأخروا، وتباعوا، ونسأتهم أنا أخرتهم؛ وقيل معناه نؤخر نسخ لفظها: أي نتركه في أم الكتاب، فلا يكون. وقيل نذهبها عنكم حتى لا تقرأ، ولا تذكر. وقرأ الباقر «ننساها» بضم النون من النسيان الذي بمعنى الترك أي: نتركها، فلا نبيلها، ولا ننسخها، ومنه قوله تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ [التوبة: 67] أي تركوا عبادته، فتركهم في العذاب. واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وحكى الأزهري أن معناه نامر بتركها يقال أنسيته الشيء: أي أمرته بتركه، ونسيته تركته، ومنه قول الشاعر:

إن علي عقيب أقضيها لست بناسيها ولا منسيها
أي: ولا أمر بتركها. وقال الزجاج: إن القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك، لا يقال أنسى بمعنى ترك. قال: وما روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أو ننسها﴾ قال: نتركها لا نبيلها، والذي عليه أكثر أهل اللغة، والنظر أن معنى: ﴿أو ننسها﴾ نبح لكم تركها من نسي إذا ترك، ثم تعدي، ومعنى: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ نأت بما هو: أنفع للناس منها في العاجل والآجل، أو في أحدهما، أو بما هو مماثل لها من غير زيادة، ومرجع ذلك إلى إعمال النظر في المنسوخ والناسخ، فقد يكون الناسخ أخف، فيكون أنفع لهم في العاجل، وقد يكون أثقل، وثوابه أكثر، فيكون أنفع لهم في الآجل، وقد يستويان، فتحصل المماثلة. وقوله:

أمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألوا عنها يوم القيامة، وقد روي مثل هذا من طريق جماعة من الصحابة، ومنه آية الرجم كما رواه عبد الرزاق، وأحمد، وابن حبان، عن عمر.

أَمْ يُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ بَدَلٍ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٥٥﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَكًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ يَعْبَثُ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْخَبَرُ فَاغْتَوَا وَاصْبَحُوا عَنْ بَآئِنٍ أَلَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٦﴾ وَأَتَيْتُمُ الْمُكُوفَةَ وَآتَاوُا الزَّكَاةَ وَمَا تَعْلَمُونَ لَأَتْسِكِرَ مِنْ حَيْثُ يَخْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرٌ ﴿٥٧﴾

﴿أَمْ﴾ هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل أي: بل تريدون، وفي هذا توبيخ، وتقريع، والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ سئل، في موضع نصب نعت لمصدر محذوف أي: سؤالاً مثل ما سئل موسى من قبل حيث سأله أن يريهم الله جهرة، وسألوا محمداً ﷺ أن يأتي بالله، والملائكة قبيلاً. وقوله: ﴿سَوَاءٌ﴾ هو الوسط من كل شيء قاله أبو عبيدة، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفافات: 55] ومنه قول حسان يرثي النبي ﷺ:

يا وحي أصحاب النبي ودهط بعد المغيب في سواء الملحد وقال الفراء: السواء القصد أي: ذهب عن قصد الطريق، وسمته أي: طريق طاعة الله. وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فيه إخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنهم، وردهم عن الإسلام، والتشكيك عليهم في دينهم. وقوله: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ في محل نصب على أنه مفعول للفعل المذكور. وقوله: ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله «وَدَّ» أي: ودوا ذلك من عند أنفسهم، ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿حَسَدًا﴾ أي: حسداً ناشئاً من عند أنفسهم، وهو: علة لقوله: «وَدَّ». والعفو: ترك المؤاخذه بالذنوب. والصفح: إزالة أثره من النفس، صفحت عن فلان: إذا عرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحاً: إذا عرضت عنه، وفيه الترغيب في ذلك، والإرشاد إليه، وقد نسخ ذلك بالامر بالقتال، قاله أبو عبيدة. وقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ هو غاية ما أمر الله سبحانه به من العفو والصفح أي: افعلوا ذلك إلى أن يأتي إليكم الأمر من الله سبحانه في شأنهم بما يختاره ويشاؤه، وما قد قضى به في سابق علمه، وهو: قتل من قتل منهم، وإجلاء من أجلى، وضرب الجزية على من ضربت عليه، وإسلام من أسلم. وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا لِلصَّلَاةِ﴾ حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة، من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. وتقدير الخير الذي يثابون عليه حتى يمكن الله لهم، وينصرهم على المخالفين لهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، أنه قال: قال رافع بن حريملة، وهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد اتننا بكتاب ينزل علينا من السماء

نقرؤه، أو فجر لنا أنهاراً نتبعك، ونصليك، فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ - إلى قوله - سواء السبيل، وكان حيي بن أخطب من أشد اليهود حسداً للعرب إذ خصهم الله برسوله، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: سألت العرب محمداً ﷺ أن يأتينهم بالله فيروه جهرة، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: قال رجل: لو كانت كفاراتنا كفارات بني إسرائيل، فقال النبي ﷺ: «ما أعطاكم الله خير، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على باب، وكفارتها، فإن كفرها كانت له خزايا في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزايا في الآخرة. وقد أعطاكم الله خيراً من ذلك قال: «مَنْ يَمَلِكُ سَوْءٌ أَوْ يَظْلُمُ نَفْسَهُ» [النساء: 110] الآية، والصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن، فأنزل الله: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: سألت قریش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فقال: نعم، وهو: لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم، فأبوا ورجعوا، فأنزل الله: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرِيَهُمُ اللَّهُ جَهْرَةً. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ يَتَبَدَّلُ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ قَالَ: يَتَبَدَّلُ الشَّدَّةُ بِالرَّخَاءِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ دَاوُدَ، وَابْنِ الْمُنْذِرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ الْيَهُودُ، وَالْمَشْرُكُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يُؤْنُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَصْحَابَهُ أَشَدَّ الْأَذَى، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ، وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فِي الصَّحِيحِينَ، وَغَيْرِهِمَا عَنْ أَسْمَاءِ بِنِ زَيْدٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمَشْرُكِينَ، وَأَهْلَ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: 186] وَقَالَ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ الْآيَةَ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَأَوَّلُ فِي الْعَفْوِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ حَتَّى أَتَى اللَّهُ فِيهِمْ بِقَتْلِ، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ مِنْ قَتْلٍ مِنْ صَنَائِدِ قُرَيْشٍ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ قَالَ: مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ: ﴿مَنْ يَعْبَثُ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنَ جَرِيرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، نَحْوَهُ وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنَ مَرْبُوءٍ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمَشْرُكِينَ﴾ [الأنعام: 106] وَنَحْوُ هَذَا فِي الْعَفْوِ عَنِ الْمَشْرُكِينَ قَالَ: نَسَخَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا

﴿قله﴾ معطوف على: «من أسلم» وإن كانت من شرطية، فقله: «فه» هو: الجزء، ومجموع الشرط، والجزء رد على أهل الكتاب، وإبطال لتلك الدعوى. وقوله: «وقالت اليهود وما بعده فيه أن كل طائفة تنفي الخبر عن الأخرى، ويتضمن ذلك إثباته لنفسها تحجراً لرحمة الله سبحانه. قال في الكشف: إن الشيء هو: الذي يصح ويعتد به، وهذه مبالغة عظيمة؛ لأن المحال، والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء، وإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه، فقد بولغ في ترك الاعتدال به إلى ما ليس بعده، وهكذا قولهم أقل من لا شيء. وقوله: «وهم يتلون الكتاب» أي التوراة، والإنجيل، والجملة الحالية، وقيل المراد جنس الكتاب، وفي هذا أعظم توبيخ، وأشدّ تفرع؛ لأن الوقوع في الدعاوى الباطلة، والتكلم بما ليس عليه برهان هو: وإن كان قبيحاً على الإطلاق لكنه من أهل العلم، والدراسة لكتب الله أشدّ قبحاً، وأقلع جرماً، وأعظم نكباً. وقوله: «كنك قال الذين لا يعلمون» المراد بهم كفار العرب الذين لا كتاب لهم قالوا: مثل مقالة اليهود اقتداء بهم؛ لأنهم جهلة لا يقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون أنه من أهل العلم، وقيل المراد بهم طائفة من اليهود، والنصارى، وهم الذين لا علم عندهم، ثم أخبرنا سبحانه بأنه المتولي لفصل هذه الخصومة التي وقع فيها الخلاف عند الرجوع إليه، فيعذب من يستحق التعذيب، وينجي من يستحق النجاة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: «وقالوا لن يدخل الجنة» الآية، قال: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً: «تلك أمانيتهم» قال: أمانيتهمونها على الله بغير حق: «قل هاتوا برهانكم» قال: حجتكم: «إن كنتم صائقين» بما تقولونه أنه كما تقولون: «بلى من أسلم وجهه لله» يقول: أخلص لله. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: «قل هاتوا برهانكم» قال: حجتكم، وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «بلى من أسلم وجهه» قال: أخلص دينه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، اتهم أحبار اليهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حريمة: ما أنتم على شيء وكفر بعبسى والإنجيل، فقال له رجل من أهل نجران: ما أنتم على شيء، وجدد نبوة موسى، وكفر بالتوراة، قال: فأنزل الله في ذلك: «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء» وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب» أي: كل يتلو في كتابه تصديق من كفر به. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: هم: أمم كانت قبل اليهود والنصارى. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: هم العرب قالوا ليس محمد على شيء.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ تَنَعَ سَتَجِدَ اللَّهُ أَنْ يَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَوَّى فِي حَرَابِهِ

يؤمنون بالله﴾ [التوبة: 29] الآية، وقوله: «أقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» [التوبة: 5]. وأخرج ابن جرير، عن السدي نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «وما تقدموا لأنفسكم من خير» يعني من الأعمال من الخير في الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: «تجدوه عند الله» قال: تجدوا ثوابه.

وَقَالُوا إِن يَدْخُلِ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾ بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥١﴾

قوله: «هوداً» قال الفراء: يجوز أن يكون هوداً بمعنى يهودياً، وأن يكون جمع هائد. وقال الأخفش: إن الضمير المفرد في كان هو باعتبار لفظ من، والجمع في قوله: «هوداً» باعتبار معنى من، قيل: في هذا الكلام حذف، وأصله: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. هكذا قال كثير من المفسرين، وسبقهم إلى ذلك بعض السلف. وظاهر النظم القرآني أن طائفتي اليهود، والنصارى وقع منهم هذا القول، وأنهم يختصون بذلك نون غيرهم؛ وجه القول بأن في الكلام حذفاً ما هو معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى، وتنفي عنها أنها على شيء من الدين فضلاً عن دخول الجنة كما في هذا الموضع، فإنه قد حكى الله عن اليهود أنها قالت: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء، والأمانيتهم قد تقدم تفسيرها، والإشارة بقوله تلك إلى ما تقدم لهم من الأمانيت التي أخرجها أنه لا يدخل الجنة غيرهم، وقيل إن الإشارة إلى هذه الأمانية الآخرة، والتقدير أمثال تلك الأمانية أمانيتهم على حذف المضاف ليطلق أمانيتهم، قوله: «هاتوا» أصله هاتوا حذف الضمة لتثقلها، ثم حذفت الياء للقاء الساكنين، ويقال للمفرد المنكر: هات، وللمؤنث هاتي، وهو: صوت بمعنى: أحضر. والبرهان: الدليل الذي يحصل عنده اليقين. قال ابن جرير: طلب الدليل هنا يقتضي إثبات النظر، ويرد على من ينفيه. وقوله: «إن كنتم صائقين» أي: في تلك الأمانيت المجردة، والدعاوى الباطلة، ثم رد عليهم، فقال: «بلى من أسلم» وهو: إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة أي: ليس كما يقولون بل يدخلها من أسلم وجهه لله. ومعنى أسلم: استسلم، وقيل: أخلص. وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، ولأنه موضع الحواس الظاهرة، وفيه يظهر العز والذل، وقيل: إن العرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء، وأن المعنى هنا الوجه، وغيره؛ وقيل المراد بالوجه هنا: المقصد أي: من أخلص مقصده وقوله: «وهو محسن» في محل نصب على الحال، والضمير في قوله: «وجهه» «وله» باعتبار لفظ من، وفي قوله: «عليهم» باعتبار معناها. وقوله: «من» إن كانت الموصولة، فهي فاعل لفعل محذوف أي: بلى يدخلها من أسلم. وقوله:

قال: «وسع كل شيء علماً» [طه: 98]، وقال الفراء: الواسع الجوار الذي يسع عطاؤه كل شيء.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، أن قريشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: «ومن أظلم ممن منع مساجد الله». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هم النصارى، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: هم الروم كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس. وفي قوله: «أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين» قال: فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه، وقد أخيف بأداء الجزية، فهو يؤذيها. وفي قوله: «لهم في الدنيا خزي» قال: أما خزيهم في الدنيا، فإنه إذا قام المهدي، وفتحت القسطنطينية قتلهم، فذلك الخزي. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة أنهم الروم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن كعب: أنهم النصارى لما أظهروا على بيت المقدس حرقوه. وأخرج ابن جرير، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: هم المشركون حين صدوا رسول الله ﷺ عن البيت يوم الحديبية. وأخرج ابن أبي شيبة، عن أبي صالح قال: ليس للمشركين أن يدخلوا المسجد إلا خائفين. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن قتادة في قوله: «لهم في الدنيا خزي» قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس، قال: أول ما نسخ من القرآن، فيما نكر لنا، والله أعلم شأن القبلة، قال الله تعالى: «ووه المشرق والمغرب» الآية، فاستقبل رسول الله ﷺ، فصلى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى البيت العتيق، ونسخها فقال: «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام» [البقرة: 149]، وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن ابن عمر قال: كان النبي ﷺ يصلي على راحلته تطوعاً أينما توجهت به، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية: «أينما تولوا فثم وجه الله» وقال: في هذا أنزلت هذه الآية. وأخرج نحوه عنه ابن جرير، والدارقطني، والحاكم وصححه: وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر، عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلي على راحلته قبل المشرق، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل، واستقبل القبلة، وصلى. وروي نحوه من حديث انس مرفوعاً أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وضعفه، وابن ماجه، وابن جرير، وغيرهم عن عامر بن ربيعه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء مظلمة، فنزلنا منزلاً، فجعل الرجل يأخذ الأحجار، فيعمل مسجداً، فيصلي فيه، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة، فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة، فأنزل الله: «ووه المشرق والمغرب» الآية،

أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴿١٥٠﴾

هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه، وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم أي: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، واسم الاستفهام في محل رفع على الابتداء، وأظلم خبره. وقوله: «أن يذكر فيها اسمه» قيل: هو بدل من مساجد، وقيل: إنه مفعول له بتقدير كراهية أن يذكر، وقيل: إن التقدير من أن يذكر، ثم حذف حرف الجر لطول الكلام؛ وقيل: إنه مفعول ثان لقوله: «منع» والمراد بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله منع من يأتي إليها للصلاة، والتلاوة، والذكر، وتعليمه. والمراد بالسعي في خرابها: هو السعي في هدمها، ورفع بنيانها، ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وضعت لها، فيكون أعم من قوله: «أن يذكر فيها اسمه» فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التي بنيت لها المساجد كتعلم العلم وتعليمه، والقعود للاعتكاف، وانتظار الصلاة، ويجوز أن يراد ما هو أعم من الأمرين من باب عموم المجاز كما قيل في قوله تعالى: «إنما يعمر مساجد الله» [التوبة: 18]. وقوله: «ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين» أي: ما كان ينبغي لهم دخولها إلا حال خوفهم، وفيه إرشاد للعباد من الله عز وجل أنه ينبغي لهم أن ينعوا مساجد الله من أهل الكفر من غير فرق بين مسجد ومسجد، وبين كافر وكافر، كما يفيد عموم اللفظ، ولا ينافيه خصوص السبب، وأن يجعلوهم بحالة إذا أرادوا الدخول كانوا على وجل وخوف من أن يظن لهم أحد من المسلمين، فينزلون بهم ما يوجب الإهانة، والإذلال، وليس فيه الإنان لنا بتمكنهم من ذلك حال خوفهم، بل هو كناية عن المنع لهم منا عن دخول مساجدنا، والخزي: قيل هو ضرب الجزية عليهم، وإذلالهم، وقيل غير ذلك، وقد تقدم تفسيره. والمشرق: موضع الشروق. والمغرب: موضع الغروب أي: هما ملك الله، وما بينهما من الجهات، والمخلوقات، فيشمل الأرض كلها. وقوله: «فأينما تولوا» أي: أي جهة تستقبلونها، فهناك وجه الله أي: المكان الذي يرتضي لكم استقباله، وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التي أمرنا بالتوجه إليها بقوله سبحانه: «فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره» [البقرة: 144] قال في الكشف: والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أي: في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة في كل مكان لا تختص أماكنها في مسجد دون مسجد، ولا في مكان دون مكان انتهى. وهذا التخصيص لا وجه له، فإن اللفظ أوسع منه. وإن كان المقصود به بيان السبب، فلا بأس. وقوله: «إن الله واسع عليم» فيه إرشاد إلى سعة رحمته. وأنه يوسع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم، وقيل واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شيء كما

بين معان، يقال: قضى بمعنى خلق، ومنه: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [فصلت: 12] وبمعنى أعلم، ومنه: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: 4] وبمعنى أمر، ومنه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] وبمعنى الزم، ومنه: قضى عليه القاضي، وبمعنى أوفاه، ومنه: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: 29] وبمعنى أراد، ومنه: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: 68]، والأمر واحد الأمور. وقد ورد في القرآن على أربعة عشر معنى: الأول النين، ومنه: ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 48] الثاني بمعنى القول، ومنه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [المؤمنون: 27] الثالث العذاب، ﴿لَمَّا قَضَى الْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: 22] الرابع عيسى، ومنه: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ [غافر: 68] أي: أوجد عيسى عليه السلام. الخامس القتل، ومنه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [غافر: 78] السادس فتح مكة، ومنه: ﴿فَقَتَرِصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: 24]، السابع قتل بني قريظة، وإجلاء النضير، ومنه: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: 109]، الثامن القيامة، ومنه: ﴿يَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: 1] التاسع القضاء، ومنه: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: 3]، العاشر الوحي، ومنه: ﴿يُنَزِّلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: 12] الحادي عشر أمر الخلاق، ومنه: ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 53] الثاني عشر النصر، ومنه: ﴿وَهَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [البقرة: 154]، الثالث عشر الذنب، ومنه: ﴿فَذَاتُكَ وَبِالْأَمْرِ﴾ [الطلاق: 9] الرابع عشر الشأن، ومنه: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: 97] هكذا أورد هذه المعاني بأطول من هذا بعض المفسرين، وليس تحت تلك كثير فائدة، وإطلاقه على الأمور المختلفة لصديق اسم الأمر عليها. وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117] الظاهر في هذا المعنى الحقيقي، وأنه يقول سبحانه هذا اللفظ، وليس في ذلك مانع، ولا جاء ما يوجب تأويله، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَيْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40] وقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50] ومنه قول الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فإِنَّمَا يقول له كن قوله فيكون
وقد قيل إن ذلك مجاز، وأنه لا قول، وإنما هو: قضاء يقضيه، فعبر عنه بالقول، ومنه قول الشاعر، وهو عمر بن حمزة الدوسي:

فأصبحت مثل النسر طار فراخه إذا رام تطياراً يقال له قع
وقال آخر:

قالت جناحاه لساقيه الحقاً ونجيا الحكم كما أن يمزقا
والمراد بقوله: ﴿وقال النين لا يعلمون﴾ اليهود، وقيل النصراني، ورَجَّحَ ابن جرير: لأنهم المنكوبون في الآية؛ وقيل مشركو العرب، و ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض أي: فلا ﴿يَكْلَمُنَا اللَّهُ﴾ بنبوة محمد، فنعلم أنه نبي ﴿أَوْ تَأْتِينَا﴾

فقال: مضت صلاتكم. وأخرج الدارقطني، وابن مربيوه، والبيهقي عن جابر مرفوعاً نحوه، إلا أنه ذكر أنهم خطوا خطأ. وأخرج نحوه ابن مربيوه بسند ضعيف، عن ابن عباس مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً سعيد بن منصور، وابن المنذر عن عطاء يرفعه، وهو مرسل. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿فَنُفِثَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ قال: قبله الله أينما توجهت شرقاً، أو غرباً. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبله». وأخرج ابن أبي شيبة، والدارقطني، والبيهقي، عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي عن عمر نحوه.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لِهْ قَائِلُونَ ﴿١٧٠﴾ بَيِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا نَزَّ فَأَنَّا نَقُولُ لَمْ يَكُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٧٢﴾

قوله: ﴿وقالوا﴾ هم اليهود والنصارى، وقيل اليهود: أي قالوا: ﴿عزير ابن الله﴾ [التوبة: 30] وقيل النصارى أي: ﴿قالوا المسيح ابن الله﴾ [التوبة: 30] وقيل: هم كفار العرب أي: قالوا الملائكة بنات الله. وقوله: ﴿سبحانه﴾ قد تقدم تفسيره، والمراد هنا تبرؤ الله تعالى عما نسبوه إليه من اتخاذ الولد. وقوله: ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ رد على القائلين: بأنه اتخذ ولداً: أي بل هو مالك لما في السموات، والأرض، وهؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه، والولد من جنسهم لا من جنسه، ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد. والقائنت: المطيع الخاضع أي: كل من في السموات، والأرض مطيعون له خاضعون لعظمته خاشعون لجلاله، والقنوت في أصل اللغة أصله القيام. قال الزجاج: فالخلق قانتون أي: قائمون بالعبودية إما إقراراً، وإما أن يكونوا على خلاف ذلك، فائر الصنعة بين عليهم، وقيل: أصله الطاعة، ومنه: ﴿والقانتين والقانتات﴾ [الأحزاب: 35] وقيل: السكون، ومنه قوله: ﴿وقوموا له قانتين﴾ [البقرة: 238] ولهذا قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت ﴿وقوموا له قانتين﴾ فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام، وقيل القنوت: الصلاة، ومنه قول الشاعر:

قانتاً الله يتلو كتبته وعلى عمد من الناس اعتزل
والأولى أن القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة، قيل هي: ثلاثة عشر معنى، وهي: مبنية. وقد نظمها بعض أهل العلم، كما أوضحت ذلك في شرحي علم المنتقى. ويدير فعيل للمبالغة، وهو خبر مبتدأ محذوف أي: هو ببيع سمواته، وأرضه، أبدع الشيء: أنشأه لا عن مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع. وقوله: ﴿وإذا قضى أمراً﴾ أي: أحكمه، واتقته. قال الأزهري: قضى في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء، وتامه، قيل: هو مشترك

أو الخبر قوله: ﴿أولئك﴾ مع ما بعده.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري ما فعل أبواي» فنزل: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسال عن أصحاب الجحيم﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله. قال السيوطي: هذا مرسل ضعيف الإسناد. ثم رواه من طريق ابن جرير، عن داود بن أبي عاصم مرفوعاً، وقال: هو معضل الإسناد ضعيف لا تقوم به، ولا بالذي قبله حجة. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: ﴿الجحيم﴾ ما عظم من النار. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس قال: إن يهود المدينة، ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبليتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم، وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم. فانزل الله: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ قال: هم اليهود والنصارى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ قال: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يحرفونه عن مواضعه. وأخرجوا عنه أيضاً قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرؤوا: ﴿والقمر إذا تلاها﴾ يقول اتباعها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عمر بن الخطاب، قال في قوله: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ إذا مرّ بذكر الجنة، وإذا مرّ بذكر النار تعوداً بالله من النار. وأخرج الخطيب في كتاب الرواة بسند فيه مجاهيل، عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، وكذا قال القرطبي في تفسيره: أن في إسناده مجاهيل، قال: لكن معناه صحيح، وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير من طرق، عن ابن مسعود في تفسيره هذه الآية مثل ما سبق عن ابن عباس في قوله: (يحلون حلاله) إلى آخره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم قال: يتكلمون به كما أنزل، ولا يكتُمونه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في هذه الآية قال: هم أصحاب محمد، ثم حكى نحو ذلك عن عمر بن الخطاب. وأخرج وكيع، وابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ قال: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

يَبَيِّنُ إِسْرَءِيلَ أَكْثَرُوا يُصَلُّونَ الَّذِي آمَنَتْ عَدَّتْ وَإِلَّا فَصَلَّاتُكَ عَلَى الْمَلَكِينَ
وَأَقْرَبُوا يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا
شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُعْصَرُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُرْهَانَ رَبِّكَ بَيِّنَاتٍ لَكُمْ هُنَّ قَالُوهُ
جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١١١﴾ وَإِذْ
جَعَلْنَا آيَاتِنَا سَنَاءً لِلنَّاسِ وَإِنَّا وَاعِدُوا مِنْ مَقَارِ إِبْرَاهِيمَ مَعْلٌ

قوله: ﴿يا بني إسرائيل﴾ إلى قوله - ولا هم ينصرون﴾ قد سبق مثل هذا في صدر السورة، وتقدم تفسيره، ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبي الأمي،

نكر معناه ابن كثير في تفسيره. وقال البقاعي في تفسيره: إنه لما طال المدى في استقصاء تنكيرهم بالنعم، ثم في بيان عوارهم، وهتك أستارهم، وختم ذلك بالترهيب لتضييع أيمانهم بأعمالهم، وأحوالهم، وأقوالهم، أعاد ما صدر به قصتهم من التنكير بالنعم، والتحذير من حلول النقم يوم تجمع الأمم، ويوم فيه الندم لمن زلت به القدم، ليعلم أن ذلك، فنلكة القصة، والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة. انتهى. وأقول: ليس هذا بشيء، فإنه لو كان سبب التكرار ما نكره من طول المدى، وأنه أعاد ما صدر به قصتهم لذلك لكان الأولى بالتكرار، والأحق بإعادة الذكر هو قوله سبحانه: ﴿يا بني إسرائيل انكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ [البقرة: 40] فإن هذه الآية مع كونها أول الكلام معهم، والخطاب لهم في هذه السورة هي أيضاً أولى بأن تعاد، وتكرر لما فيها من الأمر بذكر النعم، والوفاء بالعهود، والرهبة لله سبحانه، وبهذا تعرف صحة ما قدمناه لك عند أن شرع الله سبحانه في خطاب بني إسرائيل من هذه السورة، فراجع، ثم حكى البقاعي بعد كلامه السابق عن الحوالي أنه قال: كثره تعالى إظهاراً لمقصد التثام آخر الخطاب بأوله، وليتخذ هذا الإفصاح، والتعليل أصلاً لما يمكن بأن يرد من نحوه في سائر القرآن حتى كان الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمه يجب أن يلحظ القلب بذاته تلك الغاية، فيتلوها ليكون في تلاوته جامعاً لطرفي الثناء، وفي تقيمه جامعاً لمعاني طرفي المعنى. انتهى. وأقول: لو كان هذا هو سبب التكرار لكان الأولى به ما عرفناك. وأما قوله: وليتخذ ذلك أصلاً لما يرد من التكرار في سائر القرآن فمعلوم أن حصول هذا الأمر في الأذهان وتقديره في الأفهام لا يختص بتكرير آية معينة يكون افتتاح هذا المقصد بها، فلم تتم حينئذ النكتة في تكرير هاتين الآيتين بخصوصهما، والله الحكمة البالغة التي لا تبلغها الأفهام ولا تدرکہا العقول، فليس في تكليف هذه المناسبات المتعسفة إلا ما عرفناك به هناك فتذكر قوله: ﴿وإذ ابتلى﴾ الابتلاء: الامتحان والاختبار أي: ابتلاه بما أمره به، و﴿إبراهيم﴾ معناه في السريانية أب رحيم، كذا قال الماوردي، قال ابن عطية: ومعناه في العربية ذلك. قال السهيلي: وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني، والعربي. وقد أورد صاحب الكشف هنا سؤالاً في رجوع الضمير إلى إبراهيم مع كون رتبته التأخير، وإجاب عنه بأنه قد تقدم لفظاً، فرجع إليه، والأمر في هذا أوضح من أن يشتغل بذكره، أو ترد في مثله الأسئلة، أو يسود وجه القرطاس بليضه. قوله: ﴿بكلمات﴾ قد اختلف العلماء في تعيينها، فقيل: هي شرائع الإسلام، وقيل نبح ابنه، وقيل أداء الرسالة، وقيل: هي خصال الفطرة، وقيل: هي قوله ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ وقيل: بالطهارة كما سيأتي بيانه. قال الزجاج: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن هذا كله مما ابتلي به إبراهيم. انتهى. وظاهر النظم القرآني أن الكلمات

تخلف. وقد علمنا أنه قد نال عهده من الإمامة، وغيرها كثيراً من الظالمين. قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ هو: الكعبة غلب عليه كما غلب النجم على الثريا، و ﴿مُثَابَةً﴾ مصدر من ثاب يثوب مثاباً، ومثابة، أي: مرجعاً يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه، ومنه قول ورقة بن نوفل في الكعبة: مثاب لأقفاء القبائل كلها تخب إليها يعملات النوازل وقرأ الأعمش «مثابات» وقيل: المثابة من الثواب أي: يثابون هنالك. وقال مجاهد: المراد أنهم لا يقضون منه أوطارهم، قال الشاعر:

جعل البيت مثابات لهم ليس منه الدهر يقضون الوطر
قال الاخفش: ودخلت الهاء لكثرة من يثوب إليه، فهي كعلامة، ونسابة. وقال غيره: هي للتأنيث، وليست للمبالغة. وقوله: ﴿وَأَمَّا﴾ هو اسم مكان أي: موضع امن. وقد استدل بذلك جماعة من أهل العلم على أنه لا يقام الحد على من لجأ إليه، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: 97] وقيل: إن ذلك منسوخ. وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرأ نافع، وابن عامر بفتح الخاء على أنه فعل ماض أي: جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً، واتخذوه مصلى. وقرأ الباقون على صيغة الأمر عطفاً على أنكروا المنكور أول الآيات، أو على أنكروا المقتر عاملاً في قوله: ﴿وَإِذْ﴾ ويجوز أن يكون على تقدير القول، أي: وقلنا: اتخذوا. والمقام في اللغة: موضع القيام، قال النحاس هو من قام يقوم، يكون مصدرأً واسماً للموضع، ومقام من أقام، وليس من هذا قول الشاعر:

وفيه مقامات حسان وجوها وأندية ينتابها القول والفعل
لأن معناه أهل مقامات. واختلف في تعيين المقام على أقوال أصحها أنه الحجر الذي يعرفه الناس، ويصلون عنده ركعتي الطواف، وقيل: المقام الحج كله، روي ذلك عن عطاء، ومجاهد، وقيل: عرفة، والمزلفة، روي عن عطاء أيضاً، وقال الشعبي: الحرم كله مقام إبراهيم. وروي عن مجاهد:

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ﴾ قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس؛ وخمس في الجسد. في الرأس قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، وتنف الإبط، وغسل مكان الغائط، والبول بالماء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عنه نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مروي، وابن عساكر عنه قال: ما ابتلي أحد بهذا الدين، فقام به كله إلا إبراهيم. وقرأ هذه الآية فقيل له: ما الكلمات؟ قال: سهام الإسلام ثلاثون سهماً: عشرة في براءة ﴿التائبون العابدون﴾ [التوبة: 112] إلى آخر الآية، وعشرة في أول سورة قد أفلح وسال سائل ﴿والذين يصنعون بيوم الدين﴾ [المعارج: 26] الآيات، وعشرة في

هي قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ وما بعده، ويكون ذلك بياناً للكلمات، وسيأتي عن بعض السلف ما يوافق ذلك، وعن آخرين ما يخالفه. وعلى هذا، فيكون قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ مستأنفاً كأنه ماذا قال له. وقال ابن جرير ما حاصله إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث، أو إجماع، ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له، ثم قال: فلو قال قائل إن الذي قاله مجاهد، وأبو صالح، والربيع بن أنس أولى بالصواب: يعني أن الكلمات هي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَعَهْدًا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: 125] وما بعده، ورجح ابن كثير أنها تشمل جميع ما ذكر، وسيأتي التصريح بما هو الحق بعد إيراد ما ورد عن السلف الصالح، وقوله: ﴿فَاتَمَّهْنُ﴾ أي قام بهن أتم قيام، وامتلأ اكمل امتثال. والإمام هو: ما يؤتم به، ومنه قيل: للطريق إمام، وللبناء إمام، لأنه يؤتم بذلك أي: يهتدي به السالك، والإمام لما كان هو القدوة للناس لكونهم ياتمون به، ويهتدون بهديه أطلق عليه هذا اللفظ. وقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يحتمل أن يكون ذلك دعاء من إبراهيم، أي: واجعل من ذريتي أئمة، ويحتمل أن يكون هذا من إبراهيم بقصد الاستفهام، وإن لم يكن بصيغته أي: ومن ذريتي ماذا يكون يا رب؟ فأخبره أن فيهم عصاة، وظلمة، وأنهم لا يصلحون لذلك، ولا يقومون به، ولا ينالهم عهد الله سبحانه. والذرية مأخوذة من الذر؛ لأن الله أخرج الخلق من ظهر آدم حين أشهدهم على أنفسهم كالذر، وقيل: مأخوذة من ذرأ الله الخلق ينزروهم إذا خلقهم. وفي الكتاب العزيز: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحَ﴾ [الكهف: 45] قال في الصحاح: ذرت الريح السحاب، وغيره تذروه، وتذريه ذرواً، وذريراً أي: نسفته، وقال الخليل: إنما سماوا ذرية؛ لأن الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر. واختلف في المراد بالعهد، فقيل: الإمامة، وقيل النبوة، وقيل: عهد الله أمره، وقيل: الأمان من عذاب الآخرة، ورجحه الزجاج، والأول أظهر كما يفيد السياق. وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل، والعمل بالشرع كما ورد؛ لأنه إذا زاع عن ذلك كان ظالماً. ويمكن أن ينظر إلى ما يصق عليه اسم العهد، وما تفيدته الإضافة من العموم، فيشمل جميع ذلك اعتباراً بعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب، ولا إلى السياق، فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم في كل من تعلق بالأمور الدينية. وقد اختار ابن جرير أن هذه الآية، وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل أنه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه. انتهى. ولا يخفak أنه لا جدوى لكلامه هذا. فالأولى أن يقال: إن هذا الخبر في معنى الأمر لعباده أن لا يولوا أمور الشرع ظالماً، وإنما قلنا: إنه في معنى الأمر؛ لأن أخباره تعالى لا يجوز أن

في ذلك على الله سبحانه، وأما روي عن ابن عباس، ونحوه من الصحابة، ومن بعدهم في تعيينها، فهو أولاً أقوال صحابة لا تقوم بها الحجة فضلاً عن أقوال من بعدهم، وعلى تقدير أنه لا مجال للاجتهاد في ذلك، وأن له حكم الرفع، فقد اختلفوا في التعيين اختلافاً يمتنع معه العمل ببعض ما روى عنهم بون البعض الآخر بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما قلنا عن ابن عباس، فكيف يجوز العمل بذلك، وبهذا تعرف ضعف قول من قال: إنه يصار إلى العموم، ويقال تلك الكلمات هي: جميع ما ذكر هنا، فإن هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف، والمتناقض، وما لا تقوم به الحجة. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس، **«قال إني جاعلك للناس إماماً»** يقتدى ببنيك، وهديك، وستنتك **«قال ومن ذريتي»** إماماً لخير ذريتي: **«قال لا ينال عهدي الظالمين»** أن يقتدى ببنيهم، وهديهم، وستنتهم. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم، عنه قال: قال الله لإبراهيم: **«إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي»** فأبى أن يفعل، ثم قال: **«لا ينال عهدي الظالمين»**. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: هذا عند الله يوم القيامة لا ينال عهده ظالماً، فأما في الدنيا، فقد نالوا عهده فوارثوا به المسلمين، وغاؤهم، وناكحهم، فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده، وكرامته على أوليائه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في تفسير الآية أنه قال: لا أجعل إماماً ظالماً يقتدى به، وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: يخبره أنه إن كان في ذريته ظالم لا ينال عهده، ولا ينبغي له أن يوليه شيئاً من أمره. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عنه أنه قال: ليس لظالم عليك عهد في معصية الله. وقد أخرج وكيع، وابن مردويه من حديث علي عن النبي ﷺ في قوله: **«لا ينال عهدي الظالمين»** قال: لا طاعة إلا في المعروف، وإسناده عند ابن مردويه هكذا: قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد، حدثنا أحمد بن عبد الله بن سعد الأسدي، حدثنا سليم بن سعيد الدامغاني، حدثنا وكيع عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي عن النبي ﷺ، فنكره. وأخرج عبد بن حميد، من حديث عمران بن حصين، سمعت النبي ﷺ يقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، أنه قال في تفسير الآية: ليس للظالم عهد، وإن عاهنته فانقضه. قال ابن كثير: وروي عن مجاهد، وعطاء، ومقاتل، وابن حبان نحو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **«مثابة للناس وأمناً»** قال: يثوبون إليه، ثم يرجعون. وأخرج ابن جرير، عنه أنه قال: لا يقضون منه وطراً يأتونه، ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعوبون إليه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله:

الأحزاب **«إن المسلمين»** [الأحزاب: 35] إلى آخر الآية، **«فاتمهن»** كهن فكتب له براءة قال تعالى: **«وإبراهيم الذي وفى»** [النجم: 37]. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم عنه قال: منهن مناسك الحج. وأخرج ابن جرير عنه قال: الكلمات: **«إني جاعلك للناس إماماً»** وإذ يرفع إبراهيم القواعد والآيات في شأن المناسك، والمقام الذي جعل لإبراهيم، والرزق الذي رزق ساكنو البيت، وبعث محمد في ذريتهما. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: **«وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات»** قال: ابتلى بالآيات التي بعدها. وأخرج أيضاً، عن الشعبي مثله. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم، فاتمهن: فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجته نمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلاقتهم، وصبره على قذفهم إياه في النار: ليحرقوه في الله، والهجرة بعد ذلك من وطنه، وبلاده حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة، والصبر عليها، وما ابتلى به من ذبح ولده، فلما مضى على ذلك كله: **«قال الله له: أسلم قال أسلمت لرب العالمين»** [البقرة: 131]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن قال: ابتلاه بالكوكب، فرضي عنه، وابتلاه بالقمر، فرضي عنه، وابتلاه بالشمس، فرضي عنه، وابتلاه بالهجرة، فرضي عنه، وابتلاه بالختان، فرضي عنه، وابتلاه بآبائه، فرضي عنه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: **«فاتمهن»** قال: فاداهن. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: قال رسول الله ﷺ: «من فطرة إبراهيم السواك» قلت: وهذا على تقدير أن إسناذه إلى عطاء صحيح، فهو مرسل لا تقوم به الحجة، ولا يحل الاعتماد على مثله في تفسيره كلام الله سبحانه، وهكذا لا يحل الاعتماد على مثل ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: من فطرة إبراهيم غسل الذكر، والبراجم، ومثل ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عنه قال: ست من فطرة إبراهيم: قص الشارب، والسواك، والفرق، وقص الأظفار، والاستنجاء، وحلق العانة، قال: ثلاثة في الرأس - وثلاثة في الجسد. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في الصحيح، وغيره من طريق جماعة من الصحابة مشروعية تلك العشر لهذه الأمة، ولم يصح عن النبي ﷺ أنها الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم. وأحسن ما روي عنه ما أخرجه الترمذي، وحسنه عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يقص، أو يأخذ من شاربه. قال: وكان خليل الرحمن إبراهيم يفعله. ولا يخفك أن فعل الخليل له لا يستلزم أنه من الكلمات التي ابتلى بها، وإذا لم يصح شيء عن رسول الله ﷺ، ولا جاءنا من طريق تقوم بها الحجة تعيين تلك الكلمات لم يبق لنا إلا أن نقول: إنها ما نكره الله سبحانه في كتابه بقوله: **«قال إني جاعلك»** إلى آخر الآيات، ويكون ذلك بياناً للكلمات، أو السكوت، وإحالة للعلم

﴿وَأَمَّا﴾ قال: أمناً للناس. وأخرج البخاري، وغيره من حديث أنس، عن عمر بن الخطاب قال: وافقت ربي في ثلاث ووافقتني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. قلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البئر، والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله ﷺ نسأوه في الغيرة، فقلت لهن: ﴿عَسَى رَبِّهَ أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ [التحریم: 5] فنزلت كذلك، وأخرجه مسلم، وغيره مختصراً من حديث ابن عمر عنه. وأخرج مسلم، وغيره من حديث جابر: «أن النبي ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم، فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾» وفي مقام إبراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة مستوفاة في الأمهات، وغيرها، والأحاديث الصحيحة تدل على أن مقام إبراهيم هو: الحجر الذي كان إبراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار، أتاه إسماعيل به ليقوم فوقه، كما في البخاري من حديث ابن عباس، وهو: الذي كان ملصقاً بجدار الكعبة، وأول من نقله عمر بن الخطاب كما أخرجه عبد الرزاق، والبيهقي، بإسناد صحيح، وابن أبي حاتم، وابن مروييه من طرق مختلفة، وأخرج ابن أبي حاتم من حديث جابر في وصف حج النبي ﷺ، قال: لما طاف النبي ﷺ قال له عمر: هذا مقام إبراهيم؟ قال: نعم. وأخرج نحوه ابن مروييه.

وَعَهْدَنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتَ إِبْرَاهِيمَ وَالْمَكِينِ وَالْمُكَنَّعِ الْأَشْجَرِ ﴿١٢٧﴾ وَإِلَى إِبْرَاهِيمَ رَبِّ نَحْنُ هَذَا بَدَأَ إِبْرَاهِيمَ وَأَزْنَتْ أَمَلُهُ مِنَ الشَّرِّ مِنْ مَّامْنٍ مِنْهُمْ وَاللَّهُ وَالَّذِي الْأَقْبَرُ قَالَ وَمَنْ كَرَّ فَأَتَيْتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ أَسْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَفِي السَّعِيرِ ﴿١٢٨﴾ وَإِلَى إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدُ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٩﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَبَّ عَيْنًا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٠﴾

قوله: ﴿عَهْدَنَا﴾ معناه هنا: امرنا، أو أوجبنا. وقوله: ﴿أَنْ طَهَّرَا﴾ في موضع نصب بنزع الخافض أي: بأن طهرا قاله الكوفيون، وقال سيبويه: هو: بتقدير أي: للمفسرة أي: أن طهرا، فلا موضع لها من الإعراب، والمراد بالتطهير قيل: من الأوثان، وقيل: من الآفات، والريب، وقيل: من الكفار؛ وقيل: من النجاسات، وطواف الجنب، والحائض، وكل خبيث. والظاهر أنه لا يختص بنوع من هذه الأنواع، وإن كل ما يصلق عليه مسمى التطهير، فهو يتناولها إما تنولاً شمولياً، أو بديلاً، والإضافة في قوله: ﴿بَيْتِي﴾ للتشريف، والتكريم، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، وأهل المدينة، وهشام، وحفص «بَيْتِي» بفتح الياء، وقرأ الآخرون بإسكانها. والطائف: الذي يطوف به، وقيل: الغريب الطارئ على مكة. والعاكف: المقيم، وأصل العكوف في اللغة: للزوم، والإقبال على الشيء، وقيل: هو: المجاور نون المقيم من أهلها.

والمراد بقوله: ﴿الرَّكْعَ السَّجُودَ﴾ المصلون، وخص هذين الركنين بالنكر؛ لأنهما أشرف أركان الصلاة. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ستأتي الأحاديث الدالة على أن إبراهيم هو الذي حرّم مكة، والأحاديث الدالة على أن الله حرّمها يوم خلق السموات، والأرض، والجمع بين هذه الأحاديث في هذا البحث. وقوله: ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ أي: مكة، والمراد الدعاء لأهله من نزيته وغيرهم كقوله: ﴿عَيْشَةً رَاضِيَةً﴾ [الحاقة: 21، القارة: 7] أي: راض صاحبها. وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بدل من قول أهله أي: أَرَزَقَ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِهِ نُونٍ مِنْ كَفَرٍ. وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ الظاهر أن هذا من كلام الله سبحانه رداً على إبراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين نون غيرهم أي: وأَرَزَقَ مَنْ كَفَرَ، فامتعه بالرزق قليلاً، ثم أضطره إلى عذاب النار، ويحتمل أن يكون كلاماً مستقلاً بياناً لحال من كفر، ويكون في حكم الإخبار عن حال الكافرين بهذه الجملة الشرطية أي: مَنْ كَفَرَ، فَإِنِّي أَمْتَعُهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِمَا يَحْتَاجُهُ مِنَ الرِّزْقِ: ﴿ثُمَّ اضْطَرَّهُ﴾ بعد هذا التمتع «إِلَى عَذَابِ النَّارِ» فأخبر سبحانه أنه لا ينال الكفرة من الخير إلا تمتيعهم في هذه الدنيا، وليس لهم بعد ذلك إلا ما هو شرّ محض، وهو: عذاب النار؛ وأما على قراءة من قرأ: ﴿فَأَمْتَعَهُ﴾ بصيغة الأمر، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ اضْطَرَّهُ﴾ بصيغة الأمر، فهي مبنية على أن ذلك من جملة كلام إبراهيم، وأنه لما فرغ من الدعاء للمؤمنين دعا للكافرين بالإمتاع قليلاً، ثم دعا عليهم بأن يضطروهم إلى عذاب النار. ومعنى: ﴿اضْطَرَّهُ﴾ ألزمه حتى صيره مضطراً لذلك لا يجد عنه مخلصاً، ولا منه متحولاً. قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ هو: حكاية لحال ماضية استحضاراً لصورتها العجيبة، والقواعد: الأساس، قاله أبو عبيدة والفراء. وقال الكسائي: هي الجدر. والمراد برفعها رفع ما هو مبني فوقها لا رفعها في نفسها، فإنها لم ترتفع، لكنها لما كانت متصلة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعة بارتفاعه، كما يقال: ارتفع البناء، ولا يقال: ارتفع أعالي البناء، ولا أسافله. قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ في محل الحال بتقدير القول أي: قائلين ربنا. وقرأ أبي، وابن مسعود: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ، ويقولان: ربنا تقبل منا». وقوله: ﴿وَلَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ أي: لجعلنا ثابتين عليه، أو زدنا منه. قيل: المراد بالإسلام هنا مجموع الإيمان، والأعمال. وقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ أي: ولجعل من ذريتنا، و«من» للتبعية، أو للتبيين. وقال ابن جرير: إنه أراد بالذرية العرب خاصة، وكذا قال السهيلي. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن دعوته ظهرت في العرب وغيرهم من الذين آمنوا به. والامة: الجماعة في هذا الموضع، وقد تطلق على الواحد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: 120] وتطلق على البين ومنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 23] وتطلق على الزمان، ومنه: ﴿وَأَنكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]. وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ هي من الرؤية البصرية. وقرأ عمر بن عبد العزيز، وقناة، وابن

كثير، وابن محيصن، وغيرهم: «أرنا» بسكون الراء، ومنه قول الشاعر:

أرنا إداولة عبد الله يملؤها من ماء زمزم إن القوم قد ظلموا
والمناسك جمع نسك، وأصله في اللغة: الغسل، يقال: نسك ثوبه: إذا غسله. وهو في الشرع اسم للعبادة، والمراد هنا مناسك الحج، وقيل: مواضع الذبح، وقيل جميع المتعبدات. وقوله: ﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا﴾ قيل: المراد بطلبهما للتوبة التثبيت؛ لأنهما معصومان لا ذنب لهما، وقيل: المراد تب على الظلمة منا.

وقد أخرج ابن جرير، عن عطاء قال: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أمرناه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِن طَهَرْنَا بَيْتِي﴾ قال: من الأوثان. وأخرج أيضاً عن مجاهد، وسعيد بن جببر مثله، وزاوا الريب، وقول الزور، والرجس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: إذا كان قائماً، فهو من الطائفين، وإذا كان جالساً، فهو من العاكفين، وإذا كان مصلياً، فهو من الركع السجود. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن الذين ينامون في المسجد فقال: هم العاكفون. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يصاد صيدها، ولا يقطع عضاهها» كما أخرجه أحمد، ومسلم، والنسائي، وغيرهم من حديث جابر. وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طريق جماعة من الصحابة، منهم رافع بن خديج عند مسلم، وغيره، ومنهم أبو قتادة عند أحمد، ومنهم أنس عند الشيخين، ومنهم أبو هريرة عند مسلم، ومنهم علي بن أبي طالب عند الطبراني في الأوسط، ومنهم أسامة بن زيد عند أحمد، والبخاري، ومنهم عائشة عند البخاري. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وهي حرام إلى يوم القيامة» أخرجه البخاري تعليقاً، وابن ماجه من حديث صفية بنت شيبة. وأخرجه الشيخان، وغيرهما من حديث ابن عباس. وأخرجه الشيخان، وأهل السنن من حديث أبي هريرة، وفي الباب أحاديث غير ما ذكرنا، ولا تعارض بين هذه الأحاديث، فإن إبراهيم عليه السلام لما بلغ الناس أن الله حرمها، وإنها لم تزل حراماً آمناً نسب إليه أنه حرمها: أي أظهر للناس حكم الله فيها، وإلى هذا الجمع ذهب ابن عطية، وابن كثير. وقال ابن جرير: إنها كانت حراماً، ولم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأل إبراهيم، فحرمها، وتعبدوا بذلك. انتهى. وكلا الجمعين حسن. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن محمد بن مسلم الطائفي قال: بلغني أنه لما دعا إبراهيم للحرم فقال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ نقل الله الطائفة من فلسطين. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، والأزرقي، عن الزهري. وأخرج نحوه أيضاً الأزرقي عن بعض ولد نافع بن جببر بن مطعم. وقد أخرج الأزرقي نحوها مرفوعاً من طريق محمد بن

المنكدر. وأخرج أيضاً عن محمد بن كعب القرظي قال: دعا إبراهيم للمؤمنين، وترك الكفار، ولم يدع لهم بشيء، قال الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَاَمْتَعْنَاهُ﴾ الآية. وأخرج نحوه سفيان بن عيينة، عن مجاهد. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ﴾ قال: كأن إبراهيم احتجها على المؤمنين بون الناس، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أيضاً فأنار أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أخلق خلقاً لا أرزقهم أمتعهم قليلاً، ثم اضطربهم إلى عذاب النار، ثم قرأ ابن عباس: ﴿كَلَّا نَمْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ [الإسراء: 20] الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: قال أبي بن كعب في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أن هذا من قول الرب. وقال ابن عباس: هذا من قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر، فامتعه قليلاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: القواعد أساس البيت. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وغيرهم عن سعيد بن جببر، قصة مطولة، وأخبرها في بناء البيت، قال: فعند ذلك رفع إبراهيم القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني، وإسماعيل يناله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ قال: القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك. وقد أكثر المفسرون في تفسير هذه الآية من نقل أقوال السلف في كيفية بناء البيت، ومن أي أحجار الأرض بني، وفي أي زمان عرف، ومن حجه؟ وما ورد فيه من الآلة الدالة على فضله، أو فضل بعضه كالحجر الأسود. وفي الدر المنثور من ذلك ما لم يكن في غيره، فليرجع إليه، وفي تفسير ابن كثير بعض من ذلك، ولما لم يكن ما نكره متعلقاً بالتفسير لم نذكره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ قال: كانا مسلمين، ولكن سألناه الثبات. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الكريم، قال: مخلصين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وَمَنْ ذَرِينَا﴾ قال: يعنيان العرب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: قال إبراهيم رب أرنا مناسكنا، فأتاه جبريل فأتى به البيت فقال: أرفع القواعد، فرفع القواعد، وأتم البنين، ثم أخذ بيده، فاخرجه، فانطلق به نحو منى، فلما كان عند العقبة، فإذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبير وارمه، فكبر وارماه، فذهب إبليس حتى أتى الجمرة الوسطى ففعل به إبراهيم كما فعل في الأولى، ثم كنك في الجمرة الثالثة، ثم أخذ جبريل بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال: هذا المشعر الحرام، ثم ذهب حتى أتى به عرفات، قال: وقد عرفت ما أريتك؟ قالها ثلاثاً، قال: نعم، قال: فأنزل في الناس بالحج، قال: وكيف أؤذن؟ قال: قل يا أيها الناس أجيئوا ربكم ثلاث مرات، فأجاب العباد:

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِإِسْحَاقَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ
عِندِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَاطُكَ الْإِزْهَجَ وَاسْتَعْمِلْ وَاسْتَقْ إِلَهَا
وَجِدَا وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا
كَسَبْتُمْ وَلَا تَحْشُرُونَنَا كَالْوَالِدَيْنِ يُسَلِّمُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى
فَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ الْإِزْهَجِ حَقِيقًا وَمَا كَانَ مِنَ الشَّرْكَائِ ﴿١٣٩﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ
مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ الْإِزْهَجِ وَاسْتَعْمِلْ وَاسْتَقْ وَالْأَسَاطِ وَمَا
أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ الْكِتَابُ مِنْ رِزْقِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
نَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤٠﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ آمَنُوا وَلَوْلَا

الضمير في قوله: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ راجع إلى الأمة المسلمة المذكورة سابقاً. وقرأ أبي: ﴿وَابْعَثْ فِي آخِرِهِمْ﴾ ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى النرية. وقد أجاب الله لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث في نريته ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ وهو محمد ﷺ. وقد أخبر عن نفسه بأنه دعوة إبراهيم كما سيأتي تخريج ذلك إن شاء الله، ومراده هذه الدعوة. والرسول هو: المرسل. قال ابن الأنباري: يشبه أن يكون أصله ناقة مرسال، ورسلة إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق. ويقال جاء القوم أرسالاً أي: بعضهم في أثر بعض، والمراد بالكتاب: القرآن. والمراد بالحكمة: المعرفة بالدين، والفقه في التأويل، والفهم للشريعة. وقوله: ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يطهرهم من الشرك، وسائر المعاصي. وقيل إن المراد بالآيات ظاهر الألفاظ، والكتاب معانيها، والحكمة الحكم، وهو: مراد الله بالخطاب، والعزیز الذي لا يعجزه شيء قاله ابن كيسان. وقال الكسائي ﴿العزیز﴾ الغالب: ﴿وَمَنْ يَرْغِبُ﴾ في موضع رفع على الابتداء، والاستفهام للإنكار. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ في موضع الخبر، وقيل هو: بدل من فاعل يرغب، والتقدير: وما يرغب عن ملة إبراهيم أحد إلا من سفه نفسه. قال الزجاج: سفه بمعنى جهل، أي: جهل أمر نفسه، فلم يفكر فيها. وقال أبو عبيدة: المعنى أهلك نفسه. وحكى ثعلب، والمبرد أن سفه بكسر الفاء يتعدى كسفه بفتح الفاء مشددة. قال الأخفش: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: فعل بها من السفه ما صار به سفيهاً، وقيل: إن نفسه منتصب بنزع الخافض، وقيل: هو: تمييز، وهذا ضعيضان جداً، وأما سفه بضم الفاء فلا يتعدى قاله المبرد، وثعلب. والاصطفاء: الاختيار، أي: اخترناه في الدنيا، وجعلناه في الآخرة من الصالحين، فكيف يرغب عن ملته راغب. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ﴾ يحتمل أن يكون متعلقاً بقوله:

نسبه، والمراد: أنكم لا تنتفعون بحسناتهم، ولا تؤاخذون بسيئاتهم، ولا تسألون عن أعمالهم كما لا يسألون عن أعمالكم، ومثله: ﴿ولا تزد وزراً أخرى﴾ [الأنعام: 164] ﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: 39]. ولما أدعت اليهود، والنصارى أن الهداية بيدها، والخير مقصور عليها رد الله ذلك عليهم بقوله: ﴿بئس ملة إبراهيم﴾ أي: قل يا محمد هذه المقالة، ونصب ملة بفعل مقدر، أي: نتبع، وقيل: التقدير: نكون ملة إبراهيم، أي: أهل ملته، وقيل: بل نهتدي بملة إبراهيم، فلما حنف حرف الجر صار منصوباً، وقرأ الأعرج، وابن أبي عبيدة: «ملة» بالرفع، أي: بل الهدى ملة إبراهيم. والحنيف: المائل عن الانبياء الباطلة إلى دين الحق، وهو في أصل اللغة: الذي تميل قمناه كل واحدة إلى أختها. قال الزجاج، وهو منصوب على الحال: أي نتبع ملة إبراهيم حال كونه حنيفاً. وقال علي بن سليمان: هو منصوب بتقدير أعني، والحال خطأ كما لا يجوز جاءني غلام هند مسرعة. وقال في الكشف: هو حال من المضاف إليه كقولك: رأيت وجه هند قائماً، وقال قوم: الحنف الاستقامة، فسمي ديناً إبراهيم حنيفاً لاستقامته، وسمي معوج الرجلين أحنف تفاؤلاً بالاستقامة، كما قيل للديع سليم، وللمملكة مفاضة. وقد استدل من قال بأن الحنيف في اللغة المائل لا المستقيم بقول الشاعر:

إذا حول الظل العشي رأيت حنيفاً ومن قرن الضحى ينتصر
أي: إن الحرياء تستقبل القبلة بالعشي، وتستقبل المشرق بالغداة، وهي قبله النصارى، ومنه قول الشاعر:

والله لولا حنف في رجله ما كان في رجالكم من مثله
وقوله: ﴿وما كان من المشركين﴾ فيه تعريض باليهود لقولهم: ﴿عزيز ابن الله﴾ [التوبة: 30] وبالنصارى لقولهم: ﴿المسيح ابن الله﴾ [التوبة: 30] أي: أن إبراهيم ما كان على هذه الحالة التي أنتم عليها من الشرك بالله، فكيف تدعون عليه أنه كان على اليهودية، أو النصرانية. وقوله: ﴿قولوا آمناً بالله﴾ خطاب للمسلمين، وأمر لهم بأن يقولوا هذه المقالة، وقيل: إنه خطاب للكفار بأن يقولوا ذلك حتى يكونوا على الحق، والأول أظهر. والأسباط: أولاد يعقوب، وهم اثنا عشر ولداً، ولكل واحد منهم من الأولاد جماعة، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في العرب، وسموا الأسباط من السبط، وهو: التابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل: أصله من السبط بالتحريك، وهو الشجر، أي: هم في الكثرة بمنزلة الشجر، وقيل: الأسباط حفدة يعقوب، أي: أولاد أولاده لا أولاده؛ لأن الكثرة إنما كانت فيهم نون أولاد يعقوب في نفسه، فهم أفراد لا أسباط. وقوله: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ قال الفراء: معناه لا نؤمن ببعضهم، ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود، والنصارى. قال في الكشف: وأحد في معنى الجماعة، ولذلك صح دخول بين عليه. وقوله: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ هذا الخطاب للمسلمين أيضاً، أي: فإن آمن أهل الكتاب، وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع

فإنما هم في شقاقٍ سببهم الله وهو السبب الكبير ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَمْ عَيْدُونَ﴾ ﴿قُلْ أَمَّا جُؤَنَّا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ عَيْدُونَ﴾ ﴿أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ إِبراهيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنَأْتُمُ أَغْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ كَثَرِ شَهَادَةٍ عِنْدَ مَنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قوله: ﴿إنا كنتم شهداء﴾ أم هذه قيل: هي: المنقطعة، وقيل: هي: المتصلة، وفي الهزمة الإنكار المفيد للتقريع، والتوبيخ، والخطاب لليهود، والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم، وإلى بنيه أنهم على اليهودية، والنصرانية، فرد الله ذلك عليهم، وقال لهم: أشهدتم يعقوب، وعلمتم بما أوصى به بنيه، فتدعون ذلك عن علم، أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون. والشهداء جمع شاهد، ولم ينصرف؛ لأن فيه ألف التانيث التي لتانيث الجماعة، والعامل في «إذ» الأولى معنى الشهادة، وإن الثانية بدل من الأولى، والمراد بحضور الموت حضور مقدماته، وإنما جاء بما نون من في قوله: ﴿ما تعبدون﴾ لأن المعبودات من دون الله غالبها جمادات كالآلوان، والنار، والشمس، والكواكب. ومعنى: ﴿من بعدي﴾ أي من بعد موتي. وقوله: ﴿إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ عطف بيان لقوله: ﴿آبائكم﴾ وإسماعيل، وإن كان عملاً ليعقوب؛ لأن العرب تسمي العم أباً، وقوله: ﴿إلهكم﴾ بدل من إلهك، وإن كان نكرة، فذلك جائز، ولا سيما بعد تخصيصه بالصفة التي هي قوله: ﴿واحدكم﴾ فإنه قد حصل المطلوب من الإبدال بهذه الصفة. وقيل: إن إلهاً منصوب على الاختصاص، وقيل: إنه حال. قال ابن عطية: وهو قول حسن؛ لأن الغرض الإثبات حال الوجدانية. وقرأ الحسن، ويحيى بن يعمر، وأبو رجاء العطاردي: «واله أبوك» فقيل: أراد إبراهيم وحده. ويكون قوله: ﴿وإسماعيل﴾ عطفًا على أبوك، وكذلك «إسحاق» وإن كان هو أباه حقيقة، وإبراهيم جدّه، ولكن لإبراهيم مزيد خصوصية، وقيل: إن قوله: «أبوك» جمع كما روي عن سيبويه أن أبين جمع سلامة، ومثله أبون، ومنه قول الشاعر: فلما تبين أصواتنا بكين وقد بنينا بالآبينا وقوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ جملة حالية أي: نعبد له حال إسلامنا له، وجوز الزمخشري أن تكون اعتراضية على ما يذهب إليه من جواز وقوع الجمل الاعتراضية آخر الكلام. والإرشاد بقوله: ﴿قل﴾ إلى إبراهيم، وبنيه، ويعقوب، وبنيه، و«أمة» بدل منه، وخبره «قد خلت» أو أمة خبره، وقد خلت نعت لأمة، وقوله: ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ بيان لحال تلك الأمة، وحال المخاطبين بأن لكل من الفريقين كسبه، لا ينفعه كسب غيره، ولا يناله منه شيء، ولا يضره نذب غيره، وفيه الرد على من يتكل على عمل سلفه، ويرجو نفسه بالأمانى الباطلة، ومنه ما ورد في الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع

وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: لنا أعمال، ولكم أعمال، فليست بأولى بالله منا، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41]. وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مَخْلُصُونَ﴾ أي: نحن أهل الإخلاص للعبادة بونكم، وهو: المعيار الذي يكون به التفاضل، والخصلة التي يكون صاحبها أولى بالله سبحانه من غيره، فكيف تدعون لأنفسكم ما نحن أولى به منكم، وأحق؟ وفيه توبيخ لهم، وقطع لما جازوا به من المجادلة، والمناظرة. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ قرا حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص: «تقولون» بالتاء الفوقية، وعلى هذه القراءة تكون أم هانئ معاملة للهمزة في قوله: ﴿اتَّحَاجُونَنَا﴾ أي: اتحاجوننا في الله أم تقولون إن هؤلاء الأنبياء على بينكم، وعلى قراءة الياء التحتية تكون أم منقطعة، أي: بل يقولون. وقوله: ﴿قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ فيه تقييد، وتوبيخ، أي: إن الله أخبرنا بأنهم لم يكونوا هوداً، ولا نصارى، وأنتم تدعون أنهم كانوا هوداً أو نصارى، فهل أنتم أعلم أم الله سبحانه. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام، أي: لا أحد أظلم: «ممن كتم شهادة عنده من الله» يحتمل أن يريد بذلك الذم لأهل الكتاب بأنهم يعلمون أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً، ولا نصارى، بل كانوا على الملة الإسلامية، فظلموا أنفسهم بكتهم لهذه الشهادة بل بأدعائهم لما هو مخالف لها، وهو أشد في الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم الذي لا أحد أظلم منه، ويحتمل أن المراد أن المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم، ويكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب، وقيل: المراد هنا ما كتموه من صفة محمد ﷺ. وفي قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد شديد، وتهديد ليس عليه مزيد، وإعلام بأن الله سبحانه لا يترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح، والذنب الفظيع، وكرر قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ إلى آخر الآية لتضمنها معنى التهديد، والتخويف الذي هو المقصود في هذا المقام.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعني أهل الكتاب. وأخرج أيضاً عن الحسن في قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ قال: يقول: لم يشهد اليهود، ولا النصارى، ولا أحد من الناس يعقوب إذ أخذ على بنيه الميثاق إذ حضره الموت أن لا تعبدوا إلا الله، فآقروا بذلك، وشهد عليهم أن قد آقروا بعبادتهم أنهم مسلمون. وأخرج عن ابن عباس أنه كان يقول: الجذأ، ويتلو الآية. وأخرج أيضاً عن ابن عباس عن محمد بن كعب. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور للنبي ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فأتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فانزل الله فيهم: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿حَنِيفاً﴾ قال: متبعاً.

كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، فقد اعتدوا، وعلى هذا، فمثل زائدة كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] وقول الشاعر:

فصبروا مثل كحصف مأكول

وقيل: إن المماثلة وقعت بين الإيمانيين، أي: فإن آمنوا بمثل إيمانكم. وقال في الكشف: إنه من باب التبكيت: لأن دين الحق واحد لا مثل له، وهو: دين الإسلام، قال أي: فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة، والسداد، فقد اعتدوا، وقيل: إن الباء زائدة مؤكدة، وقيل: إنها للاستعانة. والشقاق أصله من الشق، وهو: الجانب، كأن كل واحد من الفريقين في جانب غير الجانب الذي فيه الآخر، وقيل: إنه مأخوذ من فعل ما يشق، ويصعب، فكل واحد من الفريقين يحرص على فعل ما يشق على صاحبه، ويصح حمل الآية على كل واحد من المعنيين، وكذلك قول الشاعر:

والأفاعِلْموا إنا وإنتم بَغَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقٍ
وقوله الآخر:

إلى كم تقبل العلماء قسراً وتنفخ بالشقاق وبالنفاق
وقوله: ﴿فَسِيكَفِيهِمُ اللَّهُ﴾ وعد من الله تعالى لنبيه أنه سيكفيه من عانده، وخالفه من المتولين، وقد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقريظة، والنضير وبني قينقاع. وقوله: ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال الأخفش، وغيره أي: دين الله، قال: وهي: منتصبة على البذل من ملة. وقال الكسائي: هي: منصوبة على تقدير اتبعوا، أو على الإغراء، أي: الزموا، ورجح الزجاج الانتصاب على البذل من ملة، كما قاله الفراء. وقال في الكشف: إنها مصدر مؤكد منتصب عن قوله: ﴿أَمَّا يَا اللَّهِ﴾ كما انتصب ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ عما تقدمه، وهي فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، والمعنى تطهير الله، لأن الإيمان تطهير النفوس. انتهى. وبه قال سيبويه أي: كونه مصدراً مؤكداً. وقد ذكر المفسرون أن أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمونه المعمودية، ويجعلون ذلك تطهيراً لهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصراناً حقاً، فرد الله عليهم بقوله: ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي: الإسلام، وسماه صبغة استعارة، ومنه قول بعض شعراء همدان:

وكل أناس لهم صبغة وصبغة همدان خير الصبغ
صبغنا على ذاك أولادنا فأكرم بصبغتنا في الصبغ
وقيل: إن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام بدلاً من معمودية النصارى، نكرو الماوردي. وقال الجوهري: صبغة الله دينه، وهو: يؤيد ما تقدم عن الفراء؛ وقيل: الصبغة الختان. وقوله: ﴿قُلْ اتَّحَاجُونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أي: اتجادلوننا في الله، أي: في دينه، والقرب منه، والحظوة عنده، وذلك كقولهم ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18] وقرأ ابن محيصن: «اتحاجونا» بالإدغام لاجتماع المثليين. وقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: نشترك نحن، وأنتم في ربوبيته لنا وعبوديتنا له، فكيف تدعون أنكم أولى به منا وتحاجوننا في ذلك.

حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿اتَّحَاجُونَنَا﴾ قال: اتَّحَاصِمُونَنَا. وأخرج ابن جرير، عنه قال: اتَّجَالِدُونَنَا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ﴾ الآية قال: أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام، وهم يعلمون أنه دين الله، واتخذوا اليهودية، والنصرانية، وكتموا محمداً، وهم يعلمون أنه رسول الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن جرير، عن قتادة، والربيع في قوله: ﴿تِلْكَ أُمَةٌ قَدْ خَلَّتْ﴾ قال: يعني إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنَّا نَدْعُو إِلَى سَبْحَةِ اللَّهِ فَعَلَّمْنَا لَمْ يَخْلُ مِنْهُ لَكُم مَّا وَكَلَّمُوا عَنْ رَبِّهِمْ إِنْ كُنَّا نَدْعُو إِلَى سَبْحَةِ اللَّهِ فَعَلَّمْنَا لَمْ يَخْلُ مِنْهُ لَكُم مَّا وَكَلَّمُوا عَنْ رَبِّهِمْ إِنْ كُنَّا نَدْعُو إِلَى سَبْحَةِ اللَّهِ فَعَلَّمْنَا لَمْ يَخْلُ مِنْهُ لَكُم مَّا وَكَلَّمُوا عَنْ رَبِّهِمْ﴾

قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه ﷺ وللمؤمنين بأن السفهاء من اليهود، والمنافقين سيقولون هذه المقالة عند أن تتحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة. وقيل إن: ﴿سَيَقُولُ﴾ بمعنى قال، وإنما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته، واستمرار عليه، وقيل: الإخبار بهذا الخبر كان قبل التحول إلى الكعبة، وأن فائدة ذلك أن الإخبار بالمكروه إذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهويناً لصدمته، وتخفيفاً لروعه، وكسراً لسورته. والسفهاء جمع سفیه، وهو: الكذاب البهات المعتمد خلاف ما يعلم، كذا قال بعض أهل اللغة. وقال في الكشف: هم خفاف الأحلام، ومثله في القاموس. وقد تقدّم في تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130] ما ينبغي الرجوع إليه، ومعنى: ﴿مَا وَكَلَّمُوا﴾ ما صرفهم ﴿عَنْ قِبَلَتِهِمْ لَتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ وهي بيت المقدس. فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فله أن يامر بالتوجه إلى أي جهة شاء. وفي قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إشعار بأن تحويل القبلة إلى الكعبة من الهداية للنبي ﷺ، ولأهل ملته إلى الصراط المستقيم وقوله: ﴿وَكُنَّا جَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: مثل ذلك جعل جعلناكم أمّة وسطاً. والوسط الخيار، أو العدل، والآية محتملة للأمرين، ومما يحتملها قول زهير:

هم وسط ترضى الأنام بحكمهم
إنما نزلت إحدى الليالي بمعظم
ومثله قول الآخر:

لنتم أوسط حي علموا
بصغير الأمر أو إحدى الكبر
وقد ثبت عن النبي ﷺ تفسير الوسط هنا بالعدل كما سيأتي، فوجب الرجوع إلى ذلك، ومنه قول الرازي:
لا تذهبن في الأمور مفترطاً
لا تسألن إن سالت شططاً
وكن من الناس جميعاً وسطاً

وأخرج أيضاً، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ قال: حاجاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب قال: الحنيف المستقيم. وأخرج أيضاً، عن خصيف قال: الحنيف المخلص. وأخرج أيضاً عن أبي قلابة قال: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم. وأخرج أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة». وأخرج أحمد أيضاً، والبخاري في الألب المفرد، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: «قيل يا رسول الله: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة». وأخرج الحاكم في تاريخه، وابن عساکر، من حديث أسعد بن عبد الله بن مالك الخزاعي مرفوعاً مثله. وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما الآية التي في البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ كلها وفي الآخرة ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ، وَاشْهَدْ بِنَا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 52]. وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله، الآية». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: الأسباط بنو يعقوب كانوا اثني عشر رجلاً كل واحد منهم ولد أمة من الناس. وروى نحوه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي، وحكاه ابن كثير في تفسيره عن أبي العالية، والربيع، وقتادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: لا تقولوا: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، فإن الله لا مثل له، ولكن قولوا: فإن آمنوا بالذي آمنتم به، وأخرج ابن أبي داود، في المصاحف، والخطيب في تاريخه عن أبي جمرة قال: كان ابن عباس يقرأ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ قال فراق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال: دين الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: فطرة الله التي فطر الناس عليها. وأخرج ابن مريويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى هل يصيب ربك؟ فقال: اتقوا الله، فناداه ربه: يا موسى سالوك هل يصيب ربك فقل نعم أنا أصبغ الألوان الأحمر، والأبيض، والأسود، والألوان كلها في صبغتي» وأنزل الله على نبيه: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾. وأخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن عباس موقوفاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: إن اليهود تصبغ أبناءها يهوداً، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، وإن صبغة الله الإسلام، ولا صبغة أحسن من صبغة الإسلام، ولا أظهر، وهو دين الله الذي بعث به نوحاً، ومن كان بعده من الأنبياء. وأخرج ابن النجار في تاريخ بغداد عن ابن عباس في قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال: البياض. وأخرج ابن أبي

أي: أنها لا تخف، ولا تسهل إلا على الذين هدى الله. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ﴾ قال القرطبي: اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات، وهو يصلي إلى بيت المقدس، ثم قال: فسمى الصلاة إيماناً لاجتماعها على نية، وقول، وعمل، وقيل: المراد ثبات المؤمنين على الإيمان عند تحويل القبلة، وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم. والأول يتعين القول به، والمصير إليه لما سيأتي من تفسيره ﷺ للآية بذلك. والرووف كثير الرافة، وهي أشد من الرحمة. قال أبو عمرو ابن العلاء: الرافة أكبر من الرحمة، والمعنى متقارب. وقرأ أبو جعفر بن يزيد بن القعقاع: «لرؤف» بغير همز، وهي لغة بني أسد، ومنه قول الوليد بن عتبة:

وشر الغالبين فلا تكنه يقاتل عمه الرؤف الرحيم
وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن البراء أن النبي ﷺ كان أول ما نزل المدينة نزل على أخواله من الأنصار، وأنه صلى إلى بيت المقدس ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأن أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد، وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل الكعبة، فداروا كما هم قبل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولي وجهه قبل البيت أنكروا ذلك، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال، وقتلوا، فلم ندر ما يقول فيهم، فانزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وله طرق آخر، والفاظ متقاربة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس، قال: إن أول ما نسخ في القرآن القبلة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود في ناسخه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يصلي بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه، وبعد ما تحول إلى المدينة ستة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة. وفي الباب أحاديث كثيرة بمضمون ما تقدم، وكذلك وردت أحاديث في الوقت الذي نزل فيه استقبال القبلة، وفي كيفية استدارة المصلين لما بلغهم ذلك، وقد كانوا في الصلاة، فلا تطول بذكرها. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والنسائي، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والإسماعيلي في صحيحه، والحاكم وصححه عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَكُنْكَ جَعَلْنَاكَ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلاً. وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس مثله. وأخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فنلك قوله: ﴿وَكُنْكَ جَعَلْنَاكَ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: والوسط العدل، فتدعون،

ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً، أي: هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في عيسى، ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم، ويقال: فلان أوسط قومه وواسطتهم، أي: خيارهم. وقوله: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: يوم القيامة تشهدون للأنبياء على أممهم أنهم قد بلغوهم ما أمرهم الله بتبليغه إليهم، ويكون الرسول شهيداً على أمة بانهم قد فعلوا ما أمر بتبليغه إليهم، ومثله قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41]، قيل إن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يعني لكم أي: يشهد لهم بالإيمان، وقيل معناه: يشهد عليكم بالتبليغ لكم. قال في الكشف: لما كان الشهيد كالرقيب، والمهيم على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: 9] ﴿وَكُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 117]. انتهى. وقالت طائفة: معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت، وقيل: المراد لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا، فيما لا يصح إلا بشهادة العدل، وسيأتي من المرفوع ما يبين معنى الآية إن شاء الله؛ وإنما أخر لفظ «على» في شهادة الأمة على الناس، وقدمها في شهادة الرسول عليهم، لأن الغرض كما قال صاحب الكشف في الأول: إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ قيل المراد بهذه القبلة: هي بيت المقدس أي: ما جعلناها إلا لنعلم المتبع، والمنقلب، ويؤيد هذا قوله: ﴿وَكُنْتَ عَلَيْهَا﴾ إذا كان نزول هذه الآية بعد صرف القبلة إلى الكعبة، وقيل: المراد الكعبة أي: ما جعلنا القبلة التي أنت عليها الآن بعد أن كانت إلى بيت المقدس إلا لذلك الغرض، ويكون ﴿وَكُنْتَ﴾ بمعنى الحال، وقيل: المراد بذلك القبلة التي كان عليها قبل استقبال بيت المقدس، فإنه كان يستقبل في مكة الكعبة، ثم لما هاجر توجه إلى بيت المقدس تألفاً لليهود، ثم صرف إلى الكعبة. وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ قيل: المراد بالعلم هنا الرؤية، وقيل: المراد إلا لتعلموا أننا نعلم بأن المنافقين كانوا في شك، وقيل: ليعلم النبي؛ وقيل: المراد لنعلم تلك موجوداً حاصلاً، وهكذا ما ورد معللاً بعلم الله سبحانه لا بد أن يؤول يمثل هذا كقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: 140]. وقوله: ﴿وَأَنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: ما كانت إلا كبيرة، كما قاله الفراء في أن، وإن: انهما بمعنى ما وإلا. وقال البصريون: هي الثقيلة خفت، والضمير في كانت راجع إلى ما يدل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ من التحويلة، أو التولية، أو الجعلة، أو الردة، نكر معنى ذلك الاخفش، ولا مانع من أن يرجع الضمير إلى القبلة المذكورة أي: وإن كانت القبلة المتصفة بانك كنت عليها لكبيرة إلا على الذين هداهم الله للإيمان، فانشرحت صدورهم لتصديقك، وقبلت ما جئت به عقولهم، وهذا الاستثناء مفرغ، لأن ما قبله في قوة النفي

جَعَلَهُ مِنْ أَوْلِيَّائِكَ إِذَا لَوْنُ الظُّلُمِ لَيْكَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ أَلْيَسَ
يَعْرِفُونَ كَمَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ وَلَدٌ قَرِيبًا يَنْهَمُ لَيْكُنُونَ الْحَقَّ وَمَنْ يَمْلِكُ ﴿١٧﴾
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك﴾ قال القرطبي في تفسيره: قال العلماء: هذه الآية مقننة في النزول على قوله: ﴿سيقول السفهاء﴾ [البقرة: 142]، ومعنى: ﴿قد﴾ تكثير الرؤية، كما قاله صاحب الكشف، ومعنى: ﴿تقلب وجهك﴾ تحول وجهك إلى السماء، قاله قطرب. وقال الزجاج: تقلب عينيك في النظر إلى السماء، والمعنى متقارب. وقوله: ﴿فلنولينك﴾ هو إما من الولاية أي: فلنعطيك ذلك، أو من التولي أي: فلنجعلك متولياً إلى جبهتها، وهذا أولى لقوله: ﴿قول وجهك شطر للمسجد الحرام﴾. والمراد بالشرط هنا: الناحية والجهة، وهو منتصب على الظرفية ومنه قول الشاعر:

أقول لأم زنباع أقيمى صبور العيس شطر بني تميم
ومنه أيضاً قول الآخر:
ألا من مبلغ عمراً رسولاً وما تغني الرسالة شطر عمرو
وقد يراد بالشرط النصف، ومنه «الوضوء شطر الإيمان»، ومنه قول عنترة:

إني امرؤ من خير عيس منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصل
قال ذلك: لأن أباه من سادات عيس، وأمه أمة، ويريد معنى البعض مطلقاً. ولا خلاف أن المراد بشطر المسجد هنا الكعبة. وقد حكى القرطبي الإجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعايين، وعلى أن غير المعايين يستقبل الناحية، ويستدل على ذلك بما يمكنه الاستدلال به، والضمير في قوله: ﴿أنه للحق﴾ راجع إلى ما يدل عليه الكلام من التحول إلى جهة الكعبة، وعلم أهل الكتاب بذلك إما لكونه قد بلغهم عن أنبيائهم، أو وجبوا في كتب الله المنزلة عليهم أن هذا النبي يستقبل الكعبة، أو لكونهم قد علموا من كتبهم، أو أنبيائهم أن النسخ سيكون في هذه الشريعة، فيكون ذلك موجباً عليهم الدخول في الإسلام، ومتابعة النبي ﷺ. وقوله: ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ قد تقدم معناه. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي يعملون بالمشناة الفوقية على مخاطبة أهل الكتاب، أو أمة محمد ﷺ، وقرأ الباقر بالبائية التحتية. وقوله: ﴿ولئن أتيت﴾ هذه اللام هي موطئة للقسم، والتقدير: والله لئن أتيت. وقوله: ﴿وما تبعوا﴾ جواب القسم المقتر قال الأخفش والفراء: أوجب لئن بجواب ولو لأن المعنى: ولو أتيت، ومثله قوله تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريثاً فرأوه مصفراً لظلوا﴾ [الروم: 51] أي: ولو أرسلنا، وإنما قال هكذا: لأن لئن هي ضد لو، وذلك أن الأولى تطلب في جوابها المضى، والوقوع، ولئن تطلب في جوابها الاستقبال. وقال سيبويه: إن معنى لئن يخالف معنى لو، فلا تدخل إحداهما على الأخرى، فالمعنى: ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لا يتبعون قبلك. قال سيبويه: ومعنى: ﴿ولئن أرسلنا ريثاً فرأوه مصفراً﴾ ليظللن. انتهى. وفي هذه الآية مبالغة عظيمة، وهي متضمنة

فتشهودون له بالبلاغ، وأشهد عليكم. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي سعيد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلاق، ما من الناس أحد إلا ود أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه». وأخرج ابن جرير، عن أبي سعيد في قوله: ﴿وكنك﴾ جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ بأن الرسل قد بلغوا: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ بما عملتم، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أنس قال: مرؤا بجنزة فأتني عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: «وجبت وجبت وجبت، ومرؤا بجنزة فأتني عليها شراً، فقال النبي ﷺ: «وجبت وجبت وجبت، فسأله عمر فقال: من أئنتم عليه خيراً، وجبت له الجنة، ومن أئنتم عليه شراً، وجبت له النار، أئنتم شهداء الله في الأرض، أئنتم شهداء الله في الأرض، أئنتم شهداء الله في الأرض، زاد الحكيم الترمذي، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وكنك﴾ جعلناكم أمة وسطاً﴾ الآية، وفي الباب أحاديث منها عن جابر مرفوعاً عند ابن المنذر، والحاكم وصححه، ومنها عن عمر مرفوعاً عند ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، ومنها عن أبي زهير الثقفي مرفوعاً عند أحمد، وابن ماجه، والطبراني، والدارقطني في الإفراء، والحكم في المستدرک، والبيهقي في السنن، ومنها عن أبي هريرة مرفوعاً عند ابن جرير، وابن أبي حاتم، ومنها عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً عند ابن أبي شيبة، وابن جرير، والطبراني. وأخرج ابن جرير عن عطاء في قوله تعالى: ﴿وما جعلنا للقبلة التي كنت عليها﴾ قال: يعني بيت المقدس ﴿إلا لنعلم﴾ قال نبتليهم لنعلم من يسلم لأمره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا لنعلم﴾ قال: لنميز أهل اليقين من أهل الشك ﴿وإن كانت لكبيرة﴾ يعني تحويلها على أهل الشرك، والريب. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: بلغني أن ناساً ممن أسلم رجعوا، فقالوا مرة ها هنا، ومرة ها هنا. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والطبراني، والحكم وصححه عن ابن عباس، قال: لما وجه رسول الله ﷺ إلى القبلة، قالوا: يا رسول الله، فكيف بالذين ماتوا، وهم يصلون إلى بيت المقدس، فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾. وقد تقدم حديث البراء، وفي الباب أحاديث كثيرة، وأثار عن السلف.

قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنَرْفَعَنَّ يَدَكَ إِلَيْهِ رَمْنَهُ قَوْلَ
وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَبَيِّنْ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَمُؤَمِّكُمْ شَطْرُ وَلَدِ
الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِتَقِلَّ عَنَّا يَمْلُونَ
﴿١٩﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ بِكَلِمَةٍ مَادَّةٍ مَا تَمُوتُوا فَكُنْكَ وَمَا أَنْتَ بِتَنْجِي
يُنْجِيهِمْ وَمَا يَنْصُرُهُمْ يَنْجِيهِ قَوْلَهُ بَعْضٌ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْلَهُمْ وَمَا يَنْصُرُهُمْ

عليه إثم، وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة، نسال الله اللطف، والسلامة، والهداية وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ قيل: الضمير لمحمد ﷺ أي: يعرفون نبوته. روي ذلك عن مجاهد، وقتادة، وطائفة من أهل العلم، وقيل: يعرفون تحويل القبلية عن بيت المقدس إلى الكعبة بالطريق التي قُتِمْنَا نذكرها، وبه قال جماعة من المفسرين، ورجح صاحب الكشاف الأول. وعندي أن الراجح الآخر كما يدل عليه السياق الذي سيق له هذه الآيات. وقوله: ﴿يُكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ هو عند أهل القول الأول نبوة محمد ﷺ، وعند أهل القول الثاني استقبال الكعبة. وقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يكون المراد به الحق الأول، ويحتمل أن يراد به جنس الحق على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره قوله: «من ربك» أي الحق، هو الذي من ربك لا من غيره. وقرأ علي بن أبي طالب الحق بالنصب على أنه بدل من الأول، أو منصوب على الإغراء أي: ألزم الحق. وقوله: ﴿فَإِذَا تَكُونُ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ، والامتراء: الشك، نهى الله سبحانه عن الشك في كونه الحق من ربه، أو في كون كتمانهم الحق مع علمهم، وعلى الأول هو: تعريض للامة أي لا يكن أحد من أمتة من الممترين، لأنه ﷺ لا يشك في كون ذلك هو: الحق من الله سبحانه.

وقد أخرج ابن ماجه عن البراء قال: صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقليب وجهه في السماء، وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة، فصعد جبريل، فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره، وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ﴾. وأخرجه الطبراني من حديث معاذ مختصراً لكنه قال: سبعة عشر شهراً. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو في قوله تعالى: ﴿فَلَنُؤَلِّيكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ قال: قبله إبراهيم نحو الميزاب. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن البراء في قوله: ﴿قَوْلُ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: قبله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي حاتم، وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، والبيهقي عن ابن عباس قال: ﴿شَطْرُهُ﴾ نحوه. وأخرج البيهقي، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي العالية قال: ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ تلقاء، وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: البيت كله قبله، وقبله البيت الباب. وأخرج البيهقي في سننه عنه، مرفوعاً قال:

للتسليّة لرسول الله ﷺ، وترويح خاطره، لأن هؤلاء لا تؤثر فيهم كل آية، ولا يرجعون إلى الحق، وإن جاءهم بكل برهان فضلاً عن برهان واحد، وذلك أنهم لم يتركوا اتباع الحق للليل عندهم، أو لشبهة طرأت عليهم، حتى يوازنوا بين ما عندهم، وما جاء به الرسول الله ﷺ، ويقنعوا عن غوايتهم عند وضوح الحق، بل كان تركهم للحق تمرداً، وعناداً مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء، ومن كان هكذا، فهو لا ينتفع بالبرهان أبداً. وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ هذا الإخبار ممكن أن يكون بمعنى النهي من الله سبحانه لنبيه ﷺ أي: لا تتبع يا محمد قبلتهم، ويمكن أن يكون على ظاهره دفعا لأطماع أهل الكتاب، وقطعا لما يرجونه من رجوعه ﷺ إلى القبلة التي كان عليها. وقوله: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فيه إخبار بأن اليهود، والنصارى مع حرصهم على مبايعة الرسول ﷺ لما عندهم مختلفون في دينهم حتى في هذا الحكم الخاص الذي قصه الله سبحانه على رسوله، فإن بعضهم لا يتابع الآخر في استقبال قبلته. قال في الكشاف: وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس. انتهى. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لَتَبِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إلى آخر الآية، فيه من التهديد العظيم، والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود، وترجف منه الأفئدة، وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء، والملة الشريفة من رسول الله ﷺ الذي هو سيد ولد آدم يوجب عليه أن يكون وحاشاه من الظالمين، فما ظنك بغيره من أمته، وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام، وارتفاع مناره عن أن يميلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب، ولم تبق إلا دسيسة شيطانية، ووسيلة طاغوتية، وهي ميل بعض من تحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة، لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم، أو الجاه لديهم إن كان لهم في الناس دولة، أو كانوا من ذوي الصولة، وهذا الميل ليس بنون تلك الميل، بل اتباع أهوية المبتدعة تشبه اتباع أهوية أهل الكتاب، كما يشبه الماء الماء، والبيضة البيضة، والتمرة التمرة، وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل، فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام، ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين، ويتبعون أحسنه، وهم على العكس من ذلك، والضد لما هنالك، فلا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة، ويففعونه من شناعة إلى شناعة، حتى يسلكوه من الدين، ويخرجوه منه، وهو يظن أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي هو عليه هو الصراط المستقيم، هذا إن كان في عداد المقصرين، ومن جملة الجاهلين، وإن كان من أهل العلم، والفهم المميزين بين الحق، والباطل كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم، وختم على قلبه، وصار نعمة على عباد الله، ومصيبة صلبها الله على المقصرين، لأنهم يعتقدون أنه في علمه، وفهمه لا يميل إلا إلى حق، ولا يتبع إلا الصواب، فيضلون بضلاله، فيكون

وحكى الطبري أن قوماً قرؤوا: «ولكل وجهة» بالإضافة، ونسب هذه القراءة أبو عمرو الداني إلى ابن عباس. قال في الكشاف: والمعنى: وكل وجهة الله موليا، فزيت اللام لتقدم المفعول كقولك لزيد ضربت، ولزيد أبوه ضاربه. انتهى. وقرأ ابن عباس، وابن عامر: «مولاه» على ما لم يسم فاعله. قال الزجاج: والضمير على هذه القراءة لواحد، أي: ولكل واحد من الناس قبلة الواحد مولاه، أي: مصروف إليها. وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: إلى الخيرات على الحذف، والإيصال، أي: بانروا إلى ما أكرمكم الله من استقبال البيت الحرام كما يفيد السياق، وإن كان ظاهره الأمر بالاستباق إلى كل ما يصق عليه أنه خير كما يفيد العموم المستفاد من تعريف الخيرات، والمراد من الاستباق إلى الاستقبال: الاستباق إلى الصلاة في أول وقتها، ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَات بِكُمْ اللَّهُ﴾ أي: في أي جهة من الجهات المختلفة تكونوا يات بكم الله للجزاء يوم القيامة، أو يجمعكم جميعاً، ويجعل صلاتكم في الجهات المختلفة كأنها إلى جهة واحدة، وقوله: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ كَرَّرَ سبحانه هذا لتأكيد الأمر باستقبال الكعبة، وللاهتمام به، لأن موقع التحويل كان معتنى به في نفوسهم، وقيل: وجه التكرير أن النسخ من مظان الفتنة، ومواطن الشبهة، فإذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا، وانفع ما يختلج في صدورهم، وقيل إنه كَرَّرَ هذا الحكم لتعدد علته، فإنه سبحانه نكر للتحويل ثلاث علل: الأولى ابتغاء مرضاته، والثانية جري العادة الإلهية أن يولى كل أهل ملة، وصاحب دعوة جهة يستقل بها، والثالثة دفع حجج المخالفين، فقرن بكل علة معلولها، وقيل: أراد بالأول: ول وجهك شطر الكعبة إذا صليت تلقاءها، ثم قال: وحيثما كنتم معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة، وغيرها، فولوا وجوهكم شطره، ثم قال: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يعني وجوب الاستقبال في الأسفار، فكان هذا أمر بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواطن من نواحي الأرض. وقوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ قيل معناه: لئلا يكون لليهود عليكم حجة إلا للمعانين منهم القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه فعلى هذا المراد بالذين ظلموا: المعانين من أهل الكتاب، وقيل: هم مشركو العرب، وحجتهم قولهم: راجعت قبلتنا، وقيل معناه: لئلا يكون للناس عليكم حجة لئلا يقولوا لكم قد أمرتم باستقبال الكعبة، ولستم ترونها. وقال أبو عبيدة: إن إلا هنا بمعنى الواو، أي: والذين ظلموا، فهو استثناء بمعنى الواو، ومنه قول الشاعر:

ما بالمدينة دار غير واحدة دار الخليفة إلا دار مروانا
كانه قال: إلا دار الخليفة ودار مروان، وأبطل الزجاج هذا القول، وقال: إنه استثناء منقطع أي: لكن الذين ظلموا منهم، فإنهم يحتجون، ومعناه إلا من ظلم بالاحتجاج، فيما قد وضع له كما تقول مالك علي حجة إلا أن تظلمني أي: مالك علي حجة البتة، ولكنك تظلمني، وسمي ظلمه حجة: لأن

البيت قبلة لاهل المسجد، والمسجد قبلة لاهل الحرم، والحرم قبلة لاهل الأرض في مشارقها، ومغاربها من أمتي، وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: ﴿وَأَنَّ لِلنَّاسِ أَوْتُوا لِكِتَابِ﴾ قال: أنزل ذلك في اليهود. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ قال: يعني بذلك القبلة. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير عن أبي العالية نحوه. وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْهُمْ بَغْيٌ أَقْبَلُ مِنْ بَعْضِ﴾ يقول: ما لليهود بتابعي قبلة النصراني، ولا النصراني بتابعي قبلة اليهود. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِالْجَاهِلِيَّةِ﴾ قال: يعرفون رسول الله في كتابهم: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عنه في قوله: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي: يعرفون أن البيت الحرام هو: القبلة. وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: يكتُمون محمداً، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل. وأخرج أبو داود، في ناسخه، وابن جرير، عن أبي العالية قال: قال الله لنبيه ﷺ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يقول: لا تكونن في شك يا محمد أن الكعبة هي قبلتك، وكانت قبلة الأنبياء من قبلك.

وَلِكُلِّ يَتَهُ هُوَ مَوْلَاهُ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِنَّ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَنِيحًا إِنَّ اللَّهَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٠﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَيْهِ لِلْعَالَمِينَ أَمْرٌ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَصْنَعُونَ ﴿١٦١﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا مَنْ يَكُنْ لِلنَّاسِ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنُوا فِيكُمْ وَلَكُمْ تَعْدَتُ ﴿١٦٢﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا بِمَنْ تَوَلَّوْا يَنْصَحُكُمْ إِلَهُكُمْ إِلَيْنَا وَرَبُّكُمْ وَالَّذِينَ أَلَكْنَكُنَّ وَالْكَفَّةَ وَيَنْصَحُكُمْ مَا تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٣﴾ فَادْعُوهُمْ إِلَى الذِّكْرِ وَأَنْصَرُوا إِلَى

قوله: ﴿وَلِكُلِّ﴾ بحذف المضاف إليه لدلالة التثنية عليه أي: لكل أهل دين وجهة، والوجهة فعلة من المواجهة، وفي معناها الجهة، والوجه، والمراد القبلة، أي: أنهم لا يتبعون قبلتك، وأنت لا تتبع قبلتهم ﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةً﴾ إما بحق، وإما بباطل، والضمير في قوله: ﴿هُوَ مَوْلَاهُ﴾ راجع إلى لفظ كل. والهاء في قوله: ﴿مَوْلَاهُ﴾ هي: المفعول الأول، والمفعول الثاني محذوف أي: موليا وجهه. والمعنى: أن لكل صاحب ملة قبلة صاحب القبلة موليا وجهه، أو لكل منكم يا أمة محمد قبلة يصلي إليها من شرق، أو غرب، أو جنوب، أو شمال إذا كان الخطاب للمسلمين، ويحتمل أن يكون الضمير لله سبحانه، وإن لم يجر له نكر، إذ هو معلوم أن الله فاعل ذلك، والمعنى: أن لكل صاحب ملة قبلة الله موليا إياه.

المحتج بها سماه حجة، وإن كانت داحضة. وقال قطرب: يجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا، فالذين يدل من الكاف، والميم في عليكم. ورجح ابن جرير الطبري أن الاستثناء متصل، وقال: نفى الله أن يكون لأحد حجة على النبي ﷺ، وأصحابه في استقبالهم الكعبة، والمعنى: لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا ما ولاهم، وقالوا: إن محمداً تحير في دينه، وما توجه إلى قبلتنا إلا أنا أهدى منه. وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن، أو من يهودي، أو منافق. قال: والحجة بمعنى المحاجة التي هي المخاصمة، والمجالبة، وسماها تعالى حجة، وحكم بفسادها حيث كانت من ظالم. ورجح ابن عطية أن الاستثناء منقطع، كما قال الزجاج. قال القرطبي: وهذا على أن يكون المراد بالناس اليهود، ثم استثنى كفار العرب كانه قال: لكن الذين ظلموا في قولهم رجع محمد إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا كله. وقوله: ﴿فلا تخشوهم﴾ يريد الناس أي: لا تخافوا مطاعنهم، فإنها داحضة باطلة لا تضرركم. وقوله: ﴿وَلَا تَمْنَعُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ معطوف على: ﴿لئلا يكون﴾ أي: ولأن أتَمَّ قاله الأخفش، وقيل: هو مقطوع عما قبله في موضع رفع بالابتداء، والخبر مضمَر، والتقدير: وَلَا تَمْنَعُكُمْ عَلَيْهِمْ عَزَفْتُمْ قِبَلْتِي قَالَ الزَّجَاجُ، وقيل: معطوف على علة مقترنة كانه قيل: واخشوني لافقكم، وَلَا تَمْنَعُكُمْ عَلَيْهِمْ. وإتمام النعمة الهداية إلى القبلة، وقيل: دخول الجنة. وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ الكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف. والمعنى: وَلَا تَمْنَعُكُمْ عَلَيْهِمْ إتماماً مثل ما أَرْسَلْنَا قَالَهُ الْفَرَاءُ، ورجحه ابن عطية. وقيل: الكاف في موضع نصب على الحال، والمعنى: وَلَا تَمْنَعُكُمْ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ، والتشبيه واقع على أن النعمة في القبلة كالنعمة في الرسالة. وقيل: معنى الكلام على التقديم والتأخير، أي: فأنكروني كما أَرْسَلْنَا قَالَهُ الزَّجَاجُ. وقوله: ﴿فَأَنْكُرُونِي أَنْكُرَكُمْ﴾ أمر وجوابه، وفيه معنى المجازاة. قال سعيد بن جببر: ومعنى: الآية أنكروني بالطاعة أنكركم بالثواب، والمغفرة حكاها عنه القرطبي في تفسيره، وأخرجه عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وقد روي نحوه مرفوعاً كما سيأتي. وقوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ قال الفراء: شكر لك وشكرت لك. والشكر: معرفة الإحسان، والتحدث به، وأصله في اللغة: الطهور. وقد تقدّم الكلام فيه. وقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ نهي، ولذلك حذف نون الجماعة، وهذه الموجودة في الفعل هي: نون المتكلم، وحذفت الياء، لأنها رأس آية، وإثباتها حسن في غير القرآن. والكفر هنا: ستر النعمة لا التكذيب، وقد تقدّم الكلام فيه.

قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يقول: لا تغلبن على قبلكم. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ قال: الأعمال الصالحة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يقول: فسارعوا في الخيرات: ﴿إِنَّمَا تَكُونُونَ يَاتُ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ قال: يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، من طريق السدي، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة قال: لما صرف النبي ﷺ نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة: تحير على محمد دينه، فتوجه بقبلته إليكم، وعلم أنكم أهدى منه سبيلاً، ويوشك أن يخل في دينكم، فأنزل الله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ قال: يعني بذلك أهل الكتاب حين صرف نبي الله إلى الكعبة قالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه، وبين قومه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: حجتهم قولهم قد أحببنا قبلتنا، وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة، ومجاهد في قوله: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ قال: الذين ظلموا منهم مشركو قريش أنهم سيحتجون بذلك عليكم، واحتجوا على نبي الله بانصرافه إلى البيت الحرام، وقالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، فأنزل الله في ذلك كله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾ يقول: كما فعلت فأنكروني. وأخرج أبو الشيخ، والديلمي من طريق جويبر، عن الضحاک، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَأَنْكُرُونِي أَنْكُرَكُمْ﴾ يقول: أنكروني يا معشر العباد بطاعتي أنكركم بمغفرتي. وأخرج الديلمي، وابن عساكر مثله مرفوعاً من حديث أبي هند الداري وزاد: فمن أنكرني، وهو مطيع، فحق علي أن أنكره بمغفرتي، ومن أنكرني، وهو لي عاص، فحق علي أن أنكره بمقت. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس: يقول الله: أنكرني لكم خير من أنكركم لي. وقد ورد في فضل ذكر الله على الإطلاق، وفضل الشكر أحاديث كثيرة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَمْوَاتٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَتَبْلُوَنَّهُمْ نَارًا وَلَتُجِيعُنَّ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْمَرْثِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَكُونُ مِنْهُ نَجْمٌ كَالْكَوْكَبِ ﴿١٥٥﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ ﴿١٥٦﴾

لما فرغ سبحانه من إرشاد عباده إلى ذكره، وشكره، عقب ذلك بإرشادهم إلى الاستعانة بالصبر، والصلاة، فإن

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ مِنْهُ مَوْلِيَةٌ﴾ قال: يعني بذلك أهل الأديان، يقول: لكل قبلة يرضونها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال في تفسير هذه الآية: صلوا نحو بيت المقدس مرة، ونحو الكعبة مرة أخرى. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن

عبد الرحمن بن عوف قال: غشي على عبد الرحمن بن عوف في وجهه غشية ظنوا أنه قد فاضت نفسه فيها، حتى قاموا من عنده، وجللوه ثوباً، وخرجت أم كلثوم بنت عقبة امرأته إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر، والصلاة، فلبثوا ساعة، وهو في غشيته، ثم أفاق. وأخرج ابن منده في المعرفة، عن ابن عباس قال: قتل تميم بن الحمام ببدر، وفيه وفي غيره نزلت: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعة الله في قتال المشركين. وقد رويت أحاديث أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تاكل من ثمار الجنة. فمنها: عن كعب بن مالك مرفوعاً عند أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه. وروي أن أرواح الشهداء تكون على صور طيور بيض، كما أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير عنه بلغنا، فنكر ذلك. وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً بنحوه، وروى أنها على صور طيور خضر، كما أخرجه ابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي العلية. وأخرجه ابن أبي شيبة في البعث، والنشور عن كعب. وأخرجه هناد ابن السري عن هذيل. وأخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف عن عبد الله بن كعب بن مالك مرفوعاً، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عطاء في قوله: ﴿وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ يَشْيَءَ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ قال: هم أصحاب محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ﴾ الآية، قال: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأمرهم بالصبر، وبشرهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ وأخبر: أن المؤمن إذا سلم لأمر الله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب الله له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، وتخفيف سبيل الهدى. وقال رسول الله ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتيه، وأحسن عقابه، وجعل له خلفاً صالحاً يرزاه». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن رجاء بن حيوة في قوله: ﴿وَنُقْصَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه إلا تمر. وأخرج الطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «أعطيت أمتي شيئاً لم يعطه أحد من الأمم أن يقولوا عند المصيبة: إنا لله، وإنا إليه راجعون» وقد ورد في فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة.

﴿إِنَّ أَلَمًا وَأَلَمًا وَمِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَاجَّ أَلْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوُّكَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

(اصل) «الصفاء» في اللغة: الحجر الأملس، وهو هنا علم لجبل من جبال مكة معروف، وكذلك «المروة» علم لجبل بمكة معروف، وأصلها في اللغة: واحدة المروى، وهي الحجارة التي فيها لين. وقيل: التي فيها صلابة، وقيل: تعم

من جمع بين نكر الله، وشكره، واستعان بالصبر، والصلاة على ثانية ما أمر الله به، ودفع ما يرد عليه من المحن، فقد هدى إلى الصواب، ووفق إلى الخير، وإن هذه المعية التي أوضحها الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما يتوب من الخطوب، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإن كانت كالجبال. وأموات، وأحياء مرتفعان على أنهما خبران لمحدوفين، أي: لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هم أموات بل هم أحياء، ولكن لا تشعرون بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم، لأنكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الأمر بحسب ما يبلغ إليهم علمكم الذي هو بالنسبة إلى علم الله كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر، وليسوا كذلك في الواقع بل هم أحياء في البرزخ. وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة وبلت عليه الآيات القرآنية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [آل عمران: 169]. والبلاء أصله المحنة، ومعنى نبلوكم: نمتحنكم لنختبركم هل تصبرون على القضاء أم لا؟ وتذكير شيءٍ للتعليل أي: بشيء قليل من هذه الأمور. وقرأ الضحاك بأشياء. والمراد بالخوف: ما يحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من عدو، أو غيره. وبالجوع: المجاعة التي تحصل عند الجذب، والقطع. وينقص الأموال: ما يحدث فيها بسبب الجوائح، وما أوجب الله فيها من الزكاة، ونحوها. وينقص الأنفس: الموت، والقتل في الجهاد. وينقص الثمرات: ما يصيبها من الآفات، وهو من عطف الخاص على العام لشمول الأموال للثمرات وغيرها، وقيل: المراد بنقص الثمرات: موت الأولاد. وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أمر لرسول الله ﷺ، أو لكل من يقدر على التبشير. وقد تقدم معنى البشارة. والصبر أصله الحبس، ووصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبة: لأن ذلك تسليم ورضا. والمصيبة واحدة المصائب: وهي النكبة التي يتأذى بها الإنسان، وإن صغرت. وقوله: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إليه راجعون﴾ فيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين، وعصمة للممتحنين، فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله، والاعتراف بالبعث، والنشور. ومعنى الصلوات هنا: المغفرة، والثناء الحسن قاله الزجاج. وعلى هذا، فنذكر الرحمة لقصد التأكيد. وقال في الكشف: الصلاة الرحمة، والتعطف، فوضعت موضع الرافة، وجمع بينها، وبين الرحمة كقوله: رافة ورحمة «رؤوف رحيم» والمعنى: عليهم رافة بعد رافة، ورحمة بعد رحمة. انتهى. وقيل المراد بالرحمة: كشف الكربة، وقضاء الحاجة. و«المهتدون» قد تقدم معناه، وإنما وصفوا هنا بذلك لكونهم فعلوا ما فيه الوصول إلى طريق الصواب من الاسترجاع، والتسليم.

وأخرج الحاكم، والبيهقي في الدلائل، عن إبراهيم بن

عن أبي العالية في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: خالدون في جهنم في اللعنة. وقال في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يقول: لا ينظرون، فيعتمدون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ قال: لا يؤخرون. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والدارمي، وأبو داود، والترمذي وصححه، وابن ماجه، عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَالْهَـكَمُ إِلَهُ وَلَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّمَا إِلَهُ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» [آل عمران: 1 - 2]. وأخرج الديلمي، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «ليس شيء أشدَّ على مرءة الجن من هؤلاء الآيات التي في سورة البقرة: ﴿وَالْهَـكَمُ إِلَهُ وَلَحْدٌ الْآيَتِينَ﴾».

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاتِّخَالِفِ الْأَنْبِلِ وَالْهَامِ وَالْمَلَكِ الَّتِي
تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْجَا بِهِ
الْأَرْضَ بَرْدًا مَوْتًا وَبَيْنَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَمْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ
السَّعِيرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَكُنْ لَكُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ ﴿١٥٠﴾

لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله: ﴿وَالْهَكَمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: 163] عقب ذلك بالليل الدالّ عليه، وهو هذه الأمور التي هي من أعظم صنعة الصانع الحكيم، مع علم كل عاقل بأنه لا يتوفاً من أحد من الأكلة التي أثبتتها الكفار أن يأتي بشيء منها، أو يقتدر عليه، أو على بعضه، وهي خلق السموات، وخلق الأرض، وتعاقب الليل والنهار، وجرى الفلك في البحر، وإنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض به، وبثّ الدوابّ منها بسببه، وتصريف الرياح، فإن من أمعن نظره، وأعمل فكره في واحد منها انبهر له، وضاق ذهنه عن تصوّر حقيقته. وتحتّم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه، وإنما جمع السموات؛ لأنها أجناس مختلفة، كل سماء من جنس غير جنس الأخرى، ووجد الأرض؛ لأنها كلها من جنس واحد، وهو التراب. والمراد باختلاف الليل، والنهار تعاقبهما بإقبال أحدهما، وإبصار الآخر، وإضاءة أحدهما، وإظلام الآخر. والنهار: ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وقال النضر بن شميل: أوّل النهار طلوع الشمس، ولا يعدّ ما قبل ذلك من النهار. وكذا قال ثعلب، واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت:

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورّد
وكذا قال الزجاج. وقسم ابن الأنباري الزمان إلى ثلاثة
أقسام: قسماً جعله ليلاً محضاً، وهو من غروب الشمس إلى
طلوع الفجر. وقسماً جعله نهاراً محضاً، وهو من طلوع
الشمس إلى غروبها. وقسماً جعله مشتركاً بين النهار والليل،
وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لبقايا ظلمة
الليل، ومبادئ ضوء النهار. هذا باعتبار مصطلح أهل اللغة.
وأما في الشرع، فالكلام في ذلك معروف. والفلك: السفن،
وإفراده، وجمعه بلفظ واحد، وهو هذا، وينكر، ويؤنث. قال
الله تعالى: ﴿فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: 119] ﴿وَالْفَلَكَ

لا على الأمر به. قال ابن العربي: إن لعن العاصي المعين لا يجوز باتفاق، لما روي: «أن النبي ﷺ أتى بشارب خمر سراً، فقال بعض من حضر: لعنه الله ما أكثر ما يشربه، فقال النبي ﷺ: لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك» والحديث في الصحيحين. وقوله: «والناس لجمعين» قيل: هذا يوم القيامة، وأما في الدنيا ففي الناس المسلم، والكافر، ومن يعلم بالعاصي، ومعصيته ومن لا يعلم، فلا يتأتى اللعن له من جميع الناس، وقيل في الدنيا، والمراد أنه يلعنه غالب الناس، أو كل من علم بمعصيته منهم. وقوله: «خالسين فيها» أي: في النار، وقيل: في اللعنة، والإنظار: الإمهال، وقيل: معنى لا ينظرون: لا ينظر الله إليهم، فهو من النظر، وقيل: هو من الانتظار أي: لا ينتظرون ليعتدوا، وقد تقدم تفسير: «الرحمن الرحيم». وقوله: «واللهكم إله واحد» فيه الإرشاد إلى التوحيد، وقطع علائق الشرك، والإشارة إلى أن أول ما يجب بيانه، ويحرم كتمانته هو أمر التوحيد.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: سال معاذ بن جبل أخو بني سلمة، وسعد بن معاذ أخو بني الأشهل، وخارجة بن زيد أخو بني الحارث بن الخزرج نفراً من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة، فكتومهم إياه، وأبوا أن يخبروهم، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَاكَ الْكِتَابَ﴾. وقد روي عن جماعة من السلف أن الآية نزلت في أهل الكتاب لكتُمهم نبوة نبيينا ﷺ. وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن البراء بن عازب قال: كنا في جنازة مع النبي ﷺ. فقال: إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه، فتسمعه كل دابة غير الثقلين، فتلعنه كل دابة سمعت صوته، فتلك قول الله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ يعني نواب الأرض. وأخرج عبد بن حميد، عن عطاء قال: الجن، والإنس، وكل دابة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن مجاهد قال: إذا أحببت البهائم دعت على فجار بني آدم. وأخرج عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان قال في تفسير الآية: إن نواب الأرض، والعقارب، والخنافس يقولون: إنما منعنا القطر بذنوبهم، فيلعنونه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عكرمة نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي جعفر قال: يلعنهم كل شيء حتى الخنفساء. وقد وردت أحاديث كثيرة في اللعنة عن كتم العلم، والوعيد لفاعله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ قال: أصلحوا ما بينهم، وبين الله. وبينوا الذي جاءهم من الله، ولم يكتُموه، ولم يجهلوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر في قوله: ﴿تُؤْتِبُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أتجاوز عنهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: إن الكافر يوقف يوم القيامة، فيلعنه الله، ثم تلعه الملائكة، ثم يلعه الناس أجمعون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: يعنى بالناس أجمعين المؤمنين. وأخرج ابن جرير،

في هذا يطول.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ قال: مباهاة، ومضاررة للحق بالانداد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ قال: من الكفار لألهتهم. وأخرج ابن جرير، عن أبي زيد في هذه الآية قال: هؤلاء المشركون اندادهم آلهم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من حبيبهم لألهتهم. وأخرج ابن جرير، عن السدي في الآية قال: الانداد من الرجال يطيعونهم كما يطيعون الله إذا أمرهم أطاعوه، وعصوا الله. وأخرج عبد بن حميد، عن عكرمة نحو ما قال ابن زيد. وأخرج ابن جرير، عن الزبيري في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ للذين ظلموا ﴿قَالَ: وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد الذين ظلموا أنفسهم، فاتخذوا من دوني أنداداً يحبونهم كحبكم إياي حين يعاينون عذابي يوم القيامة الذي أعدت لهم، لعلمت أن القوة كلها لي دون الانداد، والآلهة لا تغني عنهم هنالك شيئاً، ولا تنفع عنهم عذاباً أحلت بهم، وأيقنتهم أنني شديد عذابي لمن كفر بي، وأدعى معي إلهاً غيري. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ قال: هم الجبابرة، والقادة، والرؤوس في الشرك. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ قال: هم: الشياطين تبرؤوا من الإنسان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَقَطَّعْتَ بِهِمُ الْأَسْبَابَ﴾ قال: المودة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي: المنازل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه قال: هي: الأرحام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم في الحلية، عن مجاهد قال: هي الأوصال التي كانت بينهم في الدنيا، والمودة. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي صالح قال: هي الأعمال. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الربيع قال: هي المنازل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ قال: رجعة إلى الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿حَسْرَاتٍ﴾ قال: صارت أعمالهم الخبيثة حسرة عليهم يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ قال: أولئك أهلها الذين هم أهلها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ثابت بن معبد قال: ما زال أهل النار ياملون الخروج منها حتى نزلت ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُونُوا فِي الْآرِضِ حَتْلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٠﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَةِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَإِذْ قَالَ لَهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَمَرُ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ نَسِخَ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ سَاطَةً إِنَّ أَوَّلَ كَاذِبٍ تَابِعُواهُمْ لَا يَرْجِعُونَ شَيْئًا وَلَا يُنصَرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْآرَةِ يَتَّقُونَ مَا لَا يَنْصَرُونَ وَلَا دَعَا وَبَدَا صُومُ

بالجيدة؛ لأنه يقدَّر: ولو يرى الذين ظلموا العذاب، فكأنه يجعله مشكوكاً فيه. وقد أوجبه الله تعالى، ولكن التقدير، وهو الأحسن: ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله، ويرى بمعنى يعلم. أي: لو يعلمون حقيقة قوة الله، وشدة عذابه. قال: وجواب لو محذوف، أي: لتبينوا ضرر اتخاذهم الآلهة، كما حذف في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ إذ وقفوا على النار ﴿[الأنعام: 27]﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ إذ وقفوا على ربهم ﴿[الأنعام: 30]﴾ ومن قرأ بالفوقية، فالتقدير: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب، وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعاً. وقد كان النبي ﷺ علم ذلك، ولكن خطب بهذا الخطاب، والمراد به أمته، وقيل: ﴿أَنَّ﴾ في موضع نصب مفعول لأجله، أي: لأن القوة لله، كما قال الشاعر:

واغفر عوراء الكريم أخاره
وأعرض عن شتم اللثيم تركما
أي: لأخاره؛ والمعنى: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب: لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال؛ ودخلت (إذ) وهي لما مضى في إثبات هذه المستقبلات تقريباً للامر، وتصحيحاً لوقوعه. وقرأ ابن عامر: ﴿إِذْ يَرُونَ﴾ بضم الياء، والياقون بفتحها. وقرأ الحسن، ويعقوب، وأبو جعفر: ﴿إِنِ الْقُوَّةُ﴾ وإن الله بكسر الهمزة فيهما على الاستثنا، وعلى تقدير القول. قوله: ﴿إِذْ تَبَرَأَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ يَرُونَ العذاب﴾ ومعناه: أن السادة، والرؤساء تبرؤوا ممن اتبعهم على الكفر. وقوله: ﴿وَرَأَوْا العذاب﴾ في محل نصب على الحال: يعني التابعين، والمتبوعين، قيل: عند المعالجة في الدنيا، وقيل: عند العرض، والمساءلة في الآخرة. ويمكن أن يقال فيهما جميعاً إذ لا مانع من ذلك. قوله: ﴿وَتَقَطَّعْتَ بِهِمُ الْأَسْبَابَ﴾ هي: جمع سبب، وأصله في اللغة: الحبل الذي يشد به الشيء، ويجذب به، ثم جعل كل ما جر شيئاً سبباً، والمراد بها: الوصل التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من الرحم، وغيره، وقيل: هي الأعمال. والكثرة: الرجعة، والعودة إلى حال قد كانت، ولو هنا في معنى التمني كأنه قيل: ليت لنا كربة، ولهذا وقعت الغاء في الجواب. والمعنى: أن الاتباع قالوا: لو ردنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحاً، ونتبرأ منهم كما تبرؤوا منا. والكاف في قوله: ﴿كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا﴾ في محل نصب على النعت لمصدر محذوف، وقيل: في محل نصب على الحال، ولا أراه صحيحاً. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ﴾ في موضع رفع. أي: الأمر كذلك، أي: كما أراهم الله العذاب يريهم أعمالهم، وهذه الرؤية إن كانت البصرية فقوله: ﴿حَسْرَاتٍ﴾ منتصب على الحال، وإن كانت القلبية، فهو المفعول الثالث، والمعنى: أن أعمالهم الفاسدة يريهم الله إياها، فتكون عليهم حسرات، أو يريهم الأعمال الصالحة التي أوجيها عليهم، فتركوها، فيكون ذلك حسرة عليهم. وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ فيه دليل على خلود الكفار في النار، وظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص، وجعله الزمخشري للتحوية لغرض له يرجع إلى المذهب، والبحث

بِكُمْ عَمَىٰ نَهْمٌ لَا يَمُوتُونَ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قيل: إنها نزلت في ثقيف، وخزاعة، وبني ملبج فيما حرموه على أنفسهم من الانعام. حكاه القرطبي في تفسيره، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقوله: ﴿حَلَالًا﴾ مفعول، أو حال، وسمي الحلال حلالاً لانهلال عقدة الحظر عنه. والطيب هنا هو المستند كما قاله الشافعي، وغيره. وقال مالك، وغيره: هو الحلال، فيكون تأكيداً لقوله: ﴿حَلَالًا﴾. ومن في قوله: ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ للتبعض للقطع بأن في الأرض ما هو حرام ﴿وخطوات﴾ جمع خطوة بالفتح، والضم، وهي: بالفتح للمرة، وبالضم لما بين القدمين. وقرأ القراء خطوات بفتح الخاء، وقرأ أبو سماء بفتح الخاء، والطاء، وقرأ علي، وقتادة، والأعرج، وعمرو بن ميمون، والأعمش: «خطوات» بضم الخاء، والطاء، والهزم على الواو. قال الأخفش: وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطية من الخطأ لا من الخطو. قال الجوهري: والخطوة بالفتح: المرة الواحدة، والجمع خطوات، وخطا، انتهى. والمعنى على قراءة الجمهور: لا تقفوا أثر الشيطان، وعمله، وكل ما لم يرد به الشرع، فهو منسوب إلى الشيطان، وقيل: هي التنوير، والمعاصي، والأول التعميم، وعدم التخصيص بفرد، أو نوع. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: 15] وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 26] وقوله: ﴿يَا سَوْءَ سَمِي السَّوَاءِ سَوْءٌ﴾ لأنه يسوء صاحبه بسوء عاقبته، وهو مصير ساءه يسوءه سوءاً، ومساءة إذا أحرزته. ﴿وَالْفَحْشَاءُ﴾ أصله سوء المنظر، ومنه قول الشاعر:

وجيد كجيد الرئم ليس بفالحش

ثم استعمل فيما يقبح من المعاني، وقيل السوء: والقبیح، والفحشاء: التجاوز للحد في القبح، وقيل السوء: ما لا حد فيه، والفحشاء: ما فيه الحد، وقيل الفحشاء: الزنا، وقيل: إن كل ما نهى عنه الشريعة، فهو من الفحشاء. وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال ابن جرير الطبري: يريد ما حرموه من البحيرة، والسائبة، ونحوهما مما جعلوه شرعاً، وقيل: هو قولهم هذا حلال، وهذا حرام بغير علم. والظاهر أنه يصبق على كل ما قيل في الشرع بغير علم. وفي هذه الآية دليل على أن كل ما لم يرد فيه نص، أو ظاهر من الأعيان الموجودة في الأرض، فاصله الحل حتى يرد دليل يقتضي تحريمه، وأوضح دلالة على ذلك من هذه الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 29] والضمير في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ راجع إلى الناس؛ لأن الكفار منهم، وهم المقصودون هنا، وقيل: كفار العرب خاصة، و﴿الْفِينَا﴾ معناه: وجدنا، والالف في قوله: ﴿أَوَّلُو﴾ كان أبأؤهم للاستفهام، وفتحت الواو؛ لأنها واو العطف. وفي هذه الآية من الذم للمقلدين، والنداء بجهلهم الفلحش، واعتقادهم الفاسد ما لا يقادر قدره، ومثل هذه الآية قوله

تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: 104] الآية، وفي ذلك دليل على قبح التقليد، والمنع منه، والبحث في ذلك يطول. وقد أقرته بمؤلف مستقل سميت [القول المفيد: في حكم التقليد] واستوفيت الكلام فيه في [أب الطلب] ومنتهى الأرب. وقوله: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلَ الَّذِي يَنْعَقُ﴾ فيه تشبيه واعظ الكافرين، وداعيتهم، وهو: محمد ﷺ بالراعي الذي ينقع بالغنم، أو الإبل، فلا يسمع إلا دعاء، ونداء، ولا يفهم ما يقول، هذا فسر الزجاج، والفراء، وسيبويه، وبه قال جماعة من السلف، قال سيبويه: لم يشبهوا بالناثق، إنما شبهوا بالمنعوق به، والمعنى: مثلك يا محمد، ومثل الذين كفروا، كمثل الناق، والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم، فحذف دلالة المعنى عليه. وقال قطرب: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم ما لا يفهم: يعني الاصنام، كمثل الراعي إذا نثق بغنمه، وهو لا يري أين هي. وبه قال ابن جرير الطبري. وقال ابن زيد: المعنى: مثل الذين كفروا في دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائغ في جوف الليل، فيجيبه الصدى، فهو يصيح بما لا يسمع، ويجيبه ما لا حقيقة فيه. والنعيق: زجر الغنم، والصياح بها، يقال نثق الراعي بغنمه ينثق نعيقاً، ونعاقاً، ونعقانا أي: صاح بها وزجرها، والعرب تضرب المثل براعي الغنم في الجهل، ويقولون: أجهل من راعي ضأن. وقوله: ﴿صَمٌّ﴾ وما بعده لخبار لمبتدل محنوف أي: هم صم بكم عمي. وقد تقدم تفسير ذلك.

وقد أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس قال: «تليت هذه الآية عند النبي ﷺ يعني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله ادع أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: يا سعد أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقنف اللقمة الحرام في جوفه، فما يتقبل منه أربعين يوماً، وأما عبد نبت لحمه من السحت، والربا، فالنار أولى به، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ قال: عمله. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أنه قال: «ما خالف القرآن، فهو من خطوات الشيطان» وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أنه قال: خطاه. وأخرج أيضاً، عن عكرمة قال: هي نزغات الشيطان. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جببر، قال: هي تزيين الشيطان. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: كل معصية لله، فهي من خطوات الشيطان. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: ما كان من يمين، أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود أنه أتى بضرع، وملح، فجعل ياكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم، فقال: لا أريد، فقال:

يجعل «ما» في «إنما» موصولة منفصلة في الخط، والميتة وما بعدها خبر الموصول، وقراءة الجميع بالنصب. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع الميتة بتشديد الياء، وقد نكر أهل اللغة أنه يجوز في ميت التخفيف، والتشديد. والميتة ما فارقها الروح من غير نكاة. وقد خصص هذا العموم بمثل حديث: «أحل لنا ميتتان ودمان» أخرجه أحمد، وابن ماجه، والدارقطني، والحاكم، وابن مروي، عن ابن عمر مرفوعاً، ومثل حديث جابر في العنبر الثابت في الصحيحين مع قوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ [المائدة: 96] فالمراد بالميتة هنا ميتة البر لا ميتة البحر. وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز أكل جميع حيوانات البحر حيها، وميتها. وقال بعض أهل العلم: إنه يحرم من حيوانات البحر ما يحرم شبهه في البر، وتوقف ابن حبيب في خنزير الماء. وقال ابن القاسم: وأنا أتقيه، ولا أراه حراماً. قوله: ﴿والدم﴾ قد اتفق العلماء على أن الدم حرام، وفي الآية الأخرى: ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ [الأنعام: 145] فيحمل المطلق على المقيد؛ لأن ما خلط باللحم غير محرم، قال القرطبي: بالإجماع. وقد روت عائشة أنها كانت تطبخ اللحم، فتعلو الصفرة على البرمة من الدم، فياكل ذلك النبي ﷺ، ولا ينكره. قوله: ﴿ولحم الخنزير﴾ ظاهر هذه الآية، والآية الأخرى أعني قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير﴾ [الأنعام: 145] أن المحرم إنما هو: اللحم فقط. وقد أجمعت الأمة على تحريم شحمه كما حكاه القرطبي في تفسيره وقد نكر جماعة من أهل العلم أن اللحم يدخل تحته الشحم. وحكى القرطبي الإجماع أيضاً على أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر، فإنه تجوز الخرازة به. قوله: ﴿وما أهل به لغير الله﴾ الإهلال: رفع الصوت، يقال أهل بكذا أي: رفع صوته. قال الشاعر يصف فلاة:

تهلّ بالفرد ركبائها كما يهلّ الركاب المعتمر
وقال النابغة:

أوردة صدفية غواصها بهج متى يرها يهلّ ويسجد
ومنه إهلال الصبي، واستهلاله: وهو: صياحه عند ولادته. والمراد هنا: ما نكر عليه اسم غير الله كالكالات والعزى، إذا كان الذابح، وثنيّاً، والنار إذا كان الذابح مجوسياً. ولا خلاف في تحريم هذا، وأمثاله، ومثله ما يقع من المعتقدين للأموات من النبح على قبورهم، فإنه مما أهل به لغير الله، ولا فرق بينه، وبين النبح للوثن. قوله: ﴿فمن اضطر﴾ قرئ بضم النون للاتباع، وبكسرهما على الأصل في التقاء الساكنين، وفيه إضمار: أي: فمن اضطر إلى شيء من هذه المحرمات. وقرأ ابن محيصن بإدغام الضاد في الطاء. وقرأ أبو السماك بكسر الطاء. والمراد من صيره الجوع، والعدم إلى الاضطرار إلى الميتة. قوله: ﴿غير باع﴾ نصب على الحال. قيل المراد بالباغي: من ياكل فوق حاجته، والعادي: من ياكل هذه المحرمات، وهو يجد عنها منوحة، وقيل: غير باع على

أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت على نفسي أن أكل ضرعاً، فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطعم، وكفر عن يمينك. وأخرج عبد بن حميد، عن عثمان بن غياث، قال: سألت جابر بن زيد، عن رجل نذر أن يجعل في أنفه حلقة من ذهب، فقال: هي من خطوات الشيطان، ولا يزال عاصياً لله، فليكفر عن يمينه. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن أنه جعل يمين من حلف أن يحجّ حبوا من خطوات الشيطان. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن أبي مجلز قال: هي: النذور في المعاصي. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿إنما يأمركم بالسوء﴾ قال: المعصية ﴿والفحشاء﴾ قال: الزنا. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، وحذرهم عذاب الله، ونقمته، فقال له رافع بن خارجة، ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم، وخيراً منا، فأنزل الله في ذلك: ﴿وإذا قيل لهم لتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ وأخرج ابن جرير، عن الربيع، وقتادة في قوله: ﴿الفينا﴾ قالوا: وجدنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ومثل الذين كفروا﴾ الآية، قال: كمثل البقر، والحمار، والشاة إن قلت لبعضهم كلاماً لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير، أو نهيته عن شرٍّ، أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك، وروي نحو ذلك عن مجاهد أخرجه عبد بن حميد، وعن عكرمة، أخرجه وكيع. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج قال: قال لي عطاء في هذه الآية: هم: اليهود الذين أنزل الله فيهم: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿فما أصبرهم على النار﴾ [البقرة: 174 - 175].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ مَلَيْكَتِكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّكُمْ سَتَرْضَوْنَ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٥﴾

قوله: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ هذا تأكيد للأمر الأول: أعني قوله: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ [البقرة: 168] وإنما خص المؤمنين هنا لكونهم أفضل أنواع الناس، وقيل: والمراد بالاكل الانتفاع، وقيل: المراد به الاكل المعتاد، وهو الظاهر. قوله: ﴿واشكروا لله﴾ قد تقدم أنه يقال شكره، وشكر له يتعدى بنفسه، وبالحرف. وقوله: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي: تخصصونه بالعبادة كما يفيد تقدم المفعول. قوله: ﴿إنما حرم عليكم الميتة﴾ قرأ أبو جعفر: ﴿حرم﴾ على البناء للمفعول و﴿إنما﴾ كلمة موضوعة للحصر تثبت ما تناوله الخطاب، وتنفى ما عداها. وقد حصرها هنا التحريم في الأمور المذكورة بعدها. قوله: ﴿الميتة﴾ قرأ ابن أبي عبيدة بالرفع، ووجه ذلك أنه

المسلمين، وعاد عليهم، فيدخل في الباغي، والعادي قطاع الطريق، والخارج على السلطان، وقاطع الرحم، ونحوهم، وقيل: المراد غير باغ على مضطر آخر، ولا عاد سد الجوعة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال: من الحلال. وأخرج ابن سعد، عن عمر بن عبد العزيز، أن المراد بما في الآية: طيب الكسب لا طيب الطعام، وأخرج ابن جرير، عن الضحاك: أنها حلال الرزق. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172] ثم نكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فإني يستجاب له.

وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَهْلٌ﴾ قال: نبح. وأخرج ابن جرير، عنه قال: ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ﴾ للطواغيت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: ما نبح لغير الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية: قال: ما نكر عليه اسم غير الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ يقول: من أكل شيئاً من هذه، وهو مضطر، فلا حرج، ومن أكله، وهو غير مضطر، فقد بغى، واعتدى. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ قال: في الميتة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ قال: في الأكل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: غير باغ على المسلمين، ولا معتد عليهم. فمن خرج يقطع الرحم، أو يقطع السبيل، أو يفسد في الأرض، أو مفارقاً للجماعة، والأئمة، أو خرج في معصية الله، فاضطر إلى الميتة لم تحل له. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، قال: العادي الذي يقطع الطريق، وقوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ يعني في أكله ﴿إِنْ أَنَا غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن أكل من الحرام رحيم به إذ حل له الحرام في الاضطرار. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ غير باغ في أكله، ولا عاد يتعدى الحلال إلى الحرام، وهو يجد عنه بلفة، ومنذوحة.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْرُونَ بِهِ فَمَا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا تُرَابًا وَلَا يَكْلَهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَاطَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْغَيْرِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ سَرَّكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَهِيمٍ ﴿٧٨﴾

وقد أخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: ﴿إِنْ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ قال: نزلت في يهود. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: كتموا اسم محمد ﷺ، وأخذوا عليه طمعاً قليلاً. وأخرج ابن جرير، أيضاً عن أبي العالية نحوه.

وقد أخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: ﴿إِنْ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ قال: نزلت في يهود. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: كتموا اسم محمد ﷺ، وأخذوا عليه طمعاً قليلاً. وأخرج ابن جرير، أيضاً عن أبي العالية نحوه.

وقوله: ﴿إِنْ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ قيل: المراد بهذه الآية علماء اليهود؛ لأنهم كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد

وقد أخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: ﴿إِنْ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ قال: نزلت في يهود. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: كتموا اسم محمد ﷺ، وأخذوا عليه طمعاً قليلاً. وأخرج ابن جرير، أيضاً عن أبي العالية نحوه.

حبَّ الله عزَّ وجلَّ لا لغرض آخر، وهو مثل قوله: ﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾ [الإنسان: 8] ومثله قول زهير:

لن الكريم على علاته هرم

وقدّم نوي القريبى لكون دفع المال إليهم صدقة، وصلة إذا كانوا فقراء، وهكذا اليتامى الفقراء أولى بالصدقة من الفقراء الذين ليسوا بيتامى، لعدم قدرتهم على الكسب. وللمسكين: الساكن إلى ما في أيدي الناس لكونه لا يجد شيئاً. ﴿وابن للسبيل﴾ المسافرين المنقطع، وجعل ابناً للسبيل لملازمته له. وقوله: ﴿وفي الرقاب﴾ أي: في معاونة الأرقاء الذين كاتبهم المالكون لهم، وقيل: المراد شراء الرقاب، واعتاقها، وقيل: المراد فك الأسارى، وقوله: ﴿وأتى الزكاة﴾ فيه دليل على أن الإيتاء المتقدم هو صدقة التطوع، لا صدقة الفريضة. وقوله: ﴿والموفون﴾ قيل: هو: معطوف على «من آمن»، كأنه قيل: ولكن البرّ المؤمنون، والموفون، قاله الفراء، والافخش، وقيل: هو مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف، وقيل: هو: خبر لمبتدأ محذوف. أي: هم الموفون، وقيل: إنه معطوف على الضمير في آمن، وأنكره أبو علي، وقال: ليس المعنى عليه. وقوله: ﴿والصابرين﴾ منصوب على المدح كقوله تعالى: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ [النساء: 162] ومنه ما أنشده أبو عبيدة:

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معركة والطيبين معاهد الأزر
وقال الكسائي: هو: معطوف على نوي القريبى كأنه قال: وأتى الصابرين. وقال النحاس: إنه خطأ. قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله: ﴿والموفين والصابرين﴾. قال النحاس: يكونان على هذه القراءة منسوقين على نوي القريبى، أو على المدح. وقرأ يعقوب، والأعمش: ﴿والموفون والصابرون﴾ بالرفع فيهما. ﴿والبأساء﴾ الشدة، والفقر. ﴿والضراء﴾ المرضى، والزمانة ﴿وحين لباس﴾ قيل: المراد وقت الحرب، والبأساء، والضراء اسمان بنيا على فعلاء، ولا فعل لهما؛ لأنهما اسمان، وليسا بنعت. وقوله: ﴿صدقوا﴾ وصفهم بالصدق، والتقوى في أمورهم، والوفاء بها، وأنهم كانوا جانيين، وقيل: المراد صدقوهم القتال، والأول أولى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم وصححه عن أبي نر، أنه قال رسول الله ﷺ عن الإيمان، فتلا ﴿ليس البرّ أن تولوا وجوهكم﴾ حتى فرغ منها، ثم سأله أيضاً، فتلاها، ثم سأله، فتلاها. قال: وإذا عملت بحسنة أحبها قلبك، وإذا عملت بسيسة أبغضها قلبك. وأخرج عبد بن حميد، وابن مروي، عن القاسم بن عبد الرحمن، قال: جاء رجل إلى أبي نر فقال: ما الإيمان؟ فتلا عليه هذه الآية، ثم نكر له نحو الحديث السابق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في هذه الآية قال: يقول ليس البرّ أن تصلوا، ولا تعملوا، هذا حين تحوّل من مكة إلى المدينة، وأنزلت للفرائض. وأخرج عنه ابن جرير، أنه قال: هذه الآية نزلت بالمدينة، يقول: ليس البرّ أن تصلوا، ولكن البرّ ما ثبت في

وأخرج الثعلبي، عن ابن عباس بسندين ضعيفين أنها نزلت في اليهود. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العلية في قوله: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ قال: اختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة ﴿فما أصبرهم على النار﴾ قال: ما أجرامهم على عمل النار، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿فما أصبرهم على النار﴾ قال: ما أعلمهم بأعمال أهل النار. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر في قوله: ﴿فما أصبرهم على النار﴾ قال: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن يقول ما أجرامهم على النار. وأخرج ابن جرير، عن قتادة ونحوه. وأخرج ابن جرير أيضاً عن السدي في الآية قال: هذا على وجه الاستفهام يقول: ما الذي أصبرهم على النار؟ وقوله: ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾ قال: هم: اليهود والنصارى ﴿لفي شقاق بعيد﴾ قال: في عداوة بعيدة.

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ بَلِ الشَّرِيفُ وَالْمُتَّقِينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الشَّرَفِ وَالْبَتْنَى وَالسَّكِينِ وَأَيْنَ السَّبِيلِ وَالسَّابِقِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ يَهْدِيهِمْ إِذَا عَاهَلُوا وَالَّذِينَ فِي الْأَسَاءِ وَالضَّرَّةِ وَبَيْنَ الْأَيْمِ أُولَئِكَ الَّذِينَ سَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

قوله: ﴿ليس البرّ﴾ قرأ حمزة، وحفص بالنصب على أنه خبر ليس، والاسم: ﴿أن تولوا﴾ وقرأ الباقون بالرفع على أنه الاسم قيل: إن هذه الآية نزلت للردّ على اليهود، والنصارى، لما أكثروا الكلام في شأن القبلة عند تحويل رسول الله ﷺ إلى الكعبة، وقيل: إن سبب نزولها أنه قال رسول الله سائل، وسيأتي ذلك آخر البحث إن شاء الله. وقوله: ﴿قبل المشرق والمغرب﴾ قيل: أشار سبحانه بذكر المشرق إلى قبلة النصارى؛ لأنهم يستقبلون مطلع الشمس، وأشار بذكر المغرب إلى قبلة اليهود؛ لأنهم يستقبلون بيت المقدس، وهو: في جهة الغرب منهم إذ ذاك. وقوله: ﴿ولكن البرّ﴾ هو: اسم جامع للخير، وخبره محذوف تقديره: برّ من آمن. قاله الفراء، وقطرب، والزجاج، وقيل إن التقدير: ولكن ذو البر من آمن، ووجه هذا التقدير: الفرار عن الإخبار باسم العين عن اسم المعنى، ويجوز أن يكون البرّ بمعنى البار، وهو يطلق المصدر على اسم الفاعل كثيراً، ومنه في التنزيل: ﴿إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ [الملك: 30] أي: غائراً، وهذا اختيار أبي عبيدة، والمراد بالكتاب هنا الجنس، أو القرآن، والضمير في قوله: ﴿على حبه﴾ راجع إلى المال، وقيل: راجع إلى الإيتاء المدلول عليه بقوله: ﴿وأتى المال﴾ وقيل: إنه راجع إلى الله سبحانه، أي: على حبّ الله، والمعنى على الأول: أنه أعطى المال، وهو يحبه، ويشح به، ومنه قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: 92] والمعنى على الثاني: أنه يحب إيتاء المال، وتطيب به نفسه، والمعنى على الثالث: أنه أعطى من تضمنته الآية في

عاهدوا يعني فيما بينهم، وبين الناس. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في الآية قال: «لباساء» الفقر «والضراء» السقم «وحين لباس» حين القتال. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «أولئك الذين صدقوا» قال: فعلوا ما نكر الله في هذه الآية، وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: «أولئك الذين صدقوا» قال: تكلموا بكلام الإيمان. فكانت حقيقة العمل صدقوا لله. قال: وكان الحسن يقول هذا كلام الإيمان، وحقيقته العمل، فإن لم يكن مع القول عمل، فلا شيء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ لَكُمْ بِأَنفُسِكُمْ بِالْعَدْلِ وَالْأَنفُسُ بِأَلْفِ مَنْ عَنِ لَمْ مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَخْتِمْ بَيْنَ رِيكُمُ رَحْمَةً مِمَّنْ أَعَدَّكَ بِدَلِيلِ فَلَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حُكْمٌ يَأْتِيهِ الْأَلْبَابُ لَكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

قوله: «كتب» معناه فرض، وأثبت، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغنائيات جزّ الذبول
وهذا إخبار من الله سبحانه لعباده بأنه شرع لهم ذلك، وقيل إن: «كتب» هنا إشارة إلى ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ. و«القصاص» أصله قص الأثر، أي: اتباعه، ومنه القاص؛ لأنه يتتبع الآثار، وقصّ الشعر اتباع أثره، فكان القاتل يسلك طريقاً من القتل، يقصّ أثره فيها، ومنه قوله تعالى: «فارتدّا على آثارهما قصصاً» [الكهف: 64] وقيل: إن القصاص مأخوذ من القص، وهو: القطع، يقال قصصت ما بينهما، أي: قطعته. وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن الحر لا يقتل بالعبد، وهم: الجمهور. وذهب أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، وابن أبي ليلى، وداود إلى أنه يقتل به. قال القرطبي: وروي ذلك عن علي، وابن مسعود، وبه قال سعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، وقاتادة، والحكم بن عتيبة، واستدلوا بقوله تعالى: «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس» [المائدة: 45] وأجاب الأولون عن هذا الاستدلال بأن قوله تعالى: «الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد» مفسر لقوله تعالى: «النفس بالنفس» وقالوا أيضاً: إن قوله: «وكتبنا عليهم فيها» يفيد أن ذلك حكاية عما شرعه الله لبني إسرائيل في التوراة. ومن جملة ما استدل به الآخرون قوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» ويجب عنه بأنه مجمل، والآية مبينة، ولكنه يقال إن قوله تعالى: «الحرّ بالحرّ، والعبد بالعبد» إنما أفاد بمنطوقه أن الحرّ يقتل بالحرّ، والعبد يقتل بالعبد، وليس فيه ما يدل على أن الحرّ لا يقتل بالعبد إلا باعتبار المفهوم، فمن أخذ بمثل هذا المفهوم لزمه اللول به هنا، ومن لم يأخذ بمثل هذا المفهوم لم يلزمه القول به هنا، والبحث في هذا محرر في علم الأصول. وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن المسلم يقتل بالكافر، وهم:

القلب من طاعة الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: نكر لنا أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن البرّ، فأنزل الله: «ليس البرّ» الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة قال: كانت اليهود تصلي قبل المغرب، والنصارى قبل المشرق، فنزلت: «ليس للبرّ» الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية مثله. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: «وأتى المال على حبه» قال: يعطي، وهو صحيح شحيح يامل العيش، ويخاف الفقر. وأخرج عنه مرفوعاً مثله، وأخرج البيهقي في الشعب عن المطلب: «أنه قيل: يا رسول ما أتى المال على حبه، فكلنا نحبه. قال رسول ﷺ: تؤتية حين تؤتية، ونفسك تحنك بطول العمر، والفقر». وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «وأتى المال على حبه» يعني على حب المال. وأخرج عنه أيضاً في قوله: «ذوي القربى» يعني قرابته. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة» أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي في سننه من حديث سلمان بن عامر الضبي. وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود: «أنها سألت رسول الله ﷺ هل تجزي عنها من الصدقة النفقة على زوجها، وأيتام في حجرها؟ فقال: لك أجران: أجر الصدقة، وأجر القرابة» وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح». وأخرج أحمد، والدارمي، والطبراني من حديث حكيم بن حزام عن النبي ﷺ نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال: هو الذي يمزّ بك، وهو مسافر، وأخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: «والسائلين» قال: السائل الذي يسالك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «وفي الرقاب» قال: يعني فك الرقاب. وأخرج أيضاً عنه في قوله: «واقام الصلاة» يعني وأتم الصلاة المكتوبة. «وأتى الزكاة» يعني الزكاة المفروضة وأخرج الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، والدارقطني، وابن مردويه عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول الله ﷺ: «في المال حق سوى الزكاة، ثم قرأ: «ليس البرّ أن تولوا وجوهكم» الآية». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: «والموفون بعهدهم» قال: فمن أعطى عهد الله، ثم نقضه، فالله ينتقم منه، ومن أعطى نمة النبي ﷺ، ثم غدر بها، فالنبي ﷺ خصمه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «والموفون بعهدهم إذا

ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة. وقال عمر بن عبد العزيز: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى. قوله: ﴿ولكم في القصص حياة﴾ أي: لكم في هذا الحكم الذي شرعه الله لكم حياة؛ لأن الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصاً إذا قتل آخر كفّ عن القتل، وانزجر عن التسرع إليه، والوقوع فيه، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية. وهذا نوع من البلاغة بليغ، وجنس من الفصاحة رفيع، فإنه جعل القصص الذي هو موت حياة باعتبار ما يؤول إليه من ارتداد الناس عن قتل بعضهم بعضاً، إبقاء على أنفسهم، واستدامة لحياتهم، وجعل هذا الخطاب موجهاً إلى أولي الأبواب؛ لأنهم هم الذين ينظرون في العواقب، ويتحامون ما فيه الضرر الآجل، وأما من كان مصاباً بالحقوق، والطيش، والخفة، فإنه لا ينظر عند سورة غضبه، وغليان مراحل طيشه إلى عاقبة، ولا يفكر في أمر مستقبل، كما قال بعض فتاكهم:

سأغسل عني العار بالسيف جالباً عليّ قضاء الله ما كان جالباً
ثم علل سبحانه هذا الحكم الذي شرعه لعباده بقوله:
﴿لعلكم تتقون﴾ أي: تتحامون القتل بالمحافظة على
القصص، فيكون ذلك سبباً للتقوى، وقرأ أبو الجوزاء:
﴿ولكم في القصص حياة﴾ قيل: أراد بالقصص القرآن: أي
لكم في كتاب الله الذي شرع فيه القصص حياة، أي: نجاة،
وقيل: أراد حياة القلوب، وقيل: هو مصدر بمعنى القصص،
والكل ضعيف، والقراءة به منكردة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: إن
حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل،
فكان بينهم قتل، وجراحات حتى قتلوا العبيد، والنساء، ولم
ياخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين
يتناول على الآخر في العدة، والأموال، فحلفوا أن لا يرضوا
حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، وبالمراة منا الرجل منهم،
فنزلت هذه الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن
الشعبي نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي
حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كانوا لا
يقتلون الرجل بالمراة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل، والمراة
بالمراة، فأنزل الله: ﴿النفوس بالنفوس﴾، فجعل الأحرار في
القصص سواء فيما بينهم في العمد رجالهم، ونساءهم في
النفوس، وفيما دون النفوس، وجعل العبيد مستورين في العمد
في النفوس، وفيما دون النفوس رجالهم، ونساءهم. وأخرج ابن
جرير، وابن مردويه، عن أبي مالك قال: كان بين حيين من
الانصار قتال كان لأحدهما على الآخر الطول، فكانهم طلبوا
الفضل، فجاء النبي ﷺ ليصلح بينهم، فنزلت هذه الآية:
﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ قال ابن
عباس: فسختها: ﴿النفوس بالنفوس﴾، وأخرج عبد بن حميد،
وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن
عباس: ﴿فمن عفي له﴾ قال: هو: العمد رضي أهله بالعفو.
﴿فاتباع بالمعروف﴾ أمر به الطالب ﴿وإداء إليه
بإحسان﴾ من القابل، قال: يؤدي المطلوب بإحسان. ﴿ذلك

الكوفيون، والثوري، لأن الحر يتناول الكافر كما يتناول
المسلم، وكذا العبد، والأنثى يتناولان الكافر كما يتناولان
المسلم. واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿إن النفس بالنفس﴾
لأن النفس تصدق على النفس الكافرة كما تصدق على
النفس المسلمة. وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل للمسلم
بالكافر، واستدلوا بما ورد من السنة عن النبي ﷺ أنه لا
يقتل مسلم بكافر، وهو مبين لما يرد في الآيتين، والبحث
في هذا يطول. واستدل بهذه الآية القائلون بأن الذكر لا يقتل
بالأنثى، وقرروا الدلالة على ذلك بمثل ما سبق إلا إذا سلم
أولياء المرأة الزيادة على ديته من نية الرجل. وبه قال مالك،
والشافعي، وأحمد، وإسحاق، والثوري، وأبو ثور. وذهب
الجمهور إلى أنه يقتل الرجل بالمراة، ولا زيادة، وهو الحق.
وقد بسطنا البحث في شرح المنتقى، فليرجع إليه. قوله:
﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ «من» هنا عبارة عن
القاتل. والمراد بالأخ المقتول، أو الولي، والشيء: عبارة عن
الدم، والمعنى: أن القاتل، أو الجاني إذا عفي له من جهة
المجني عليه، أو الولي دم أصله منه على أن ياخذ منه شيئاً
من الدية، أو الأرش، فليتبع المجني عليه الولي من عليه الدم
فيما ياخذه منه من ذلك اتباعاً بالمعروف، وليؤد الجاني ما
لزمه من الدية، أو الأرش إلى المجني عليه، أو إلى الولي إداء
بإحسان، وقيل إن: «من» عبارة عن الولي، والأخ يرد به
القاتل، والشيء: الدية، والمعنى أن الولي إذا جنح إلى العفو
عن القصص إلى مقابل الدية، فإن القاتل مخير بين أن
يعطيها، أو يسلم نفسه للقصص كما روي عن مالك أنه
يثبت الخيار للقاتل في ذلك، وذهب من عده إلى أنه لا يخير،
بل إذا رضى الأولياء بالدية، فلا خيار للقاتل بل يلزمه
تسليمها، وقيل معنى: «عفى» بذل. أي: من بذل له شيء من
الدية، فليقبل، وليتبع بالمعروف، وقيل إن المراد بذلك: أن من
فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من الديات، فيكون
عفي بمعنى فضل، وعلى جميع التقادير، فتتكرر شيء
للتقليل، فيتناول العفو عن الشيء اليسير من الدية، والعفو
الصادر عن فرد من أفراد الورثة. وقوله: ﴿فاتباع﴾ مرتفع
بفعل محذوف، أي: فليكن منه اتباع، أو على أنه خبر مبتدأ
محذوف، أي: فالأمر اتباع، وكذا قوله: ﴿وإداء إليه
بإحسان﴾ وقوله: ﴿ذلك تخفيف﴾ إشارة إلى العفو، والدية
أي: أن الله شرع لهذه الأمة العفو من غير عوض، أو يعوض،
ولم يضيق عليهم كما ضيق على اليهود، فإنه أوجب عليهم
القصص، ولا عفو، وكما ضيق على النصارى، فإنه أوجب
عليهم العفو ولا دية. قوله: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أي:
بعد التخفيف، نحو أن ياخذ الدية، ثم يقتل القاتل، أو يعفو،
ثم يستنص. وقد اختلف أهل العلم فيمن قتل القاتل بعد أخذ
الدية. فقال جماعة منهم مالك، والشافعي: إنه كمن قتل ابتداء،
إن شاء الولي قتله، وإن شاء عفا عنه. وقال قتادة، وعكرمة،
والسدي، وغيرهم: عذابه أن يقتل البتة، ولا يمكن الحاكم
الولي من العفو. وقال الحسن: عذابه أن يرد الدية فقط،

عليه أئمة العربية، وشرط سبحانه ما كتبه من الوصية بأن يترك الموصي خيراً. واختلف في جواب هذا الشرط ما هو؟ فروي عن الأخفش، وجهان: أحدهما أن التقدير: إن ترك خيراً، فالوصية، ثم حذفت الفاء كما قال الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلاًن
والثاني: أن جوابه مقتر قبله، أي: كتب الوصية للوالدين، والأقربين إن ترك خيراً. واختلف أهل العلم في مقدار الخير، فقيل ما زاد على سبعمائة دينار، وقيل: ألف دينار، وقيل: ما زاد على خمسمائة دينار. والوصية في الأصل: عبارة عن الأمر بالشيء، والعهد به في الحياة، وبعد الموت، وهي هنا: عبارة عن الأمر بالشيء لبعد الموت. وقد اتفق أهل العلم على وجوب الوصية على من عليه دين، أو عنده وبيعة، أو نحوها. وأما من لم يكن كذلك، فذهب أكثرهم إلى أنها غير واجبة عليه سواء كان فقيراً، أو غنياً، وقالت طائفة: إنها واجبة، ولم يبين الله سبحانه ها هنا القدر الذي كتب الوصية به للوالدين، والأقربين، فقيل: الخمس، وقيل: الربع، وقيل: الثلث، وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ فذهب جماعة إلى أنها محكمة، قالوا: وهي، وإن كانت عامة فمعناها الخصوص. والمراد بها من الوالدين من لا يرث. كالأبوين الكافرين، ومن هو في الرق، ومن الأقربين من عدا الورثة منهم. قال ابن المنذر: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين الذين لا يرثان، والأقرباء الذين لا يرثون جائزة. وقال كثير من أهل العلم: إنها منسوخة بآية المواريث مع قوله ﷺ: «لا وصية لوارث»، وهو حديث صححه بعض أهل الحديث، وروى من غير وجه. وقال بعض أهل العلم: إنه نسخ الوجوب، ونفى النسخ، وروى عن الشعبي، والنخعي، ومالك، قوله: «بالمعروف»، أي: العدل لا وكس فيه، ولا شطط. وقد أذن الله للميت بالثلث ثوب ما زاد عليه. وقوله: «حقاً»، مصدر معناه الثبوت، والوجوب. قوله: «فمن يتركه» هذا الضمير عائد إلى الإيصاء المفهوم من الوصية، وكذلك الضمير في قوله: «سمعه»، والتبديل: التغيير، والضمير في قوله: «فإنما إثم» راجع إلى التبديل المفهوم من قوله: «بتركه» وهذا وعيد لمن غير الوصية المطابقة للحق التي لا جنف فيها، ولا مضارة، وأنه يبوؤ بالإثم، وليس على الموصي من ذلك شيء، فقد تخلص مما كان عليه بالوصية به. قال القرطبي: ولا خلاف أنه إذا أوصى بما لا يجوز، مثل أن يوصي بخمر، أو خنزير، أو شيء من المعاصي أنه يجوز تبديله، ولا يجوز إمضاؤه كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث. قاله أبو عمر. انتهى. والجنف: المجاوزة، من جنف يجنف: إذا جاوز، قاله النحاس، وقيل: الجنف: الميل، ومنه قول الأعشى:

تجانف عن حجر اليمامة يا فتى وما قصت من أهلها لسوائكا
قال في الصحاح: الجنف الميل، وكذا في الكشاف. وقال لبيد:

تخفيف من ربكم ورحمة، مما كان على بني إسرائيل. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، عنه من وجه آخر. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن الدية فيهم، فقال الله لهذه الأمة: «كتب عليكم القصاص في القتلى» إلى قوله: «فمن عفي له من أخيه شيء»، فالعفو أن تقبل الدية في العمد «فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان» ذلك تخفيف من ربكم ورحمة. مما كتب على من كان قبلكم «فمن اعتدى بعد ذلك» قيل: بعد قبول الدية «فله عذاب اليم» وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: كان أهل التوراة إنما هو القصاص، أو العفو ليس بينهما أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو العفو أمروا به، وجعل الله لهذه الأمة القتل، والعفو، والدية إن شأوا أحلها لهم، ولم تكن لامة قبلهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن أبي شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «من أصيب بقتل، أو خيل، فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية. فإن أراد الرابعة، فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك، فله نار جهنم خالداً فيها أبداً». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة أنه إذا قتل بعد أخذ الدية، فله عذاب عظيم، قال: فعلية القتل لا تقبل منه الدية. قال: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية»، وأخرج سمويه في فوائده، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ، فنكر مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عكرمة أنه قال: يقتل. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: «ولكم في القصاص حياة» قال: جعل الله في القصاص حياة، ونكالا، وعظة إذا نكره الظالم المعتدي كف عن القتل. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في قوله: «لعلكم تتقون» قال: لعلكم تتقي أن تقتله، فتقتل به. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: «يا أولى الألباب» قال: من كان له لب ينكر القصاص، فيحجزه خوف القصاص عن القتل «لعلكم تتقون» قال: لكي تتقوا الدماء مخافة القصاص.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا هَضَمَرْتُمْ أَحَدَكُمُ الْمَوْتَ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ مِمَّنْ بَدَلَهُمْ بَدَلًا مِمَّا سَمِعُوا بِإِثْمِهِمْ عَلَى الَّذِينَ يُؤْذُوهُمْ إِنْ اللَّهُ يَتِمَّ لَكُمْ عَلَيْهِ ﴿١٠٧﴾ مِمَّنْ خَافَ مِنْ مُؤْمِرٍ جَنَفًا أَوْ إِثْقًا فَأَسْلَحَ بِهِمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِذْ أَتَى عَقْرًا رَجَسَ ﴿١٠٨﴾

قد تقدم معنى: «كتب» قريباً، وحضور الموت: حضور أسبابه، وظهور علاماته، ومنه قول عنترة:

وإن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بناتها بالهندوانى
وقال جرير:

أنا الموت الذي حثت عنه فليس لهارب مني نجاة
وإنما لم يؤث الفعل المسند إلى الوصية، وهو: «كتب» لوجود الفاصل بينهما، وقيل: لأنها بمعنى الإيصاء، وقد روي جواز إسناد ما لا تأنث فيه إلى المؤنث مع عدم الفصل. وقد حكى سيبويه: قام امرأة، وهو خلاف ما أطبق

قوله: ﴿جَنَفًا﴾ يعني: إثمًا ﴿فأصلح بينهم﴾ قال: إذا أخطأ الميت في وصيته، أو حاف فيها، فليس على الأولياء حرج أن يربوا خطاه إلى الصواب. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه؛ لكنه فسر الجنف بالميل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ قال: خطأ، أو عمداً. وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في سننه عنه قال: الجنف في الوصية، والإضرار فيها من الكبائر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَفَقُّونَ ﴿١٨٦﴾ أَيُّهَا مَعْدُونُوا مَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرُ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

قد تقدّم معنى: ﴿كتب﴾ ولا خلاف بين المسلمين أجمعين أن صوم رمضان فريضة افترضها الله سبحانه على هذه الأمة. والصيام أصله في اللغة: الإمساك، وترك التنقل من حال إلى حال، ويقال: للصمت صوم؛ لأنه إمساك، عن الكلام، ومنه: ﴿إني نذرت للرحمن صوما﴾ [مريم: 26] أي: إمساكاً عن الكلام، ومنه قول النابغة:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وخيل تملك للجماء
أي: خيل ممسكة عن الجري، والحركة. وهو في الشرع: الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وقوله: ﴿كما كتب﴾ أي: صوماً كما كتب على أن الكاف في موضع نصب على النعت، أو كتب عليكم الصيام مشبهاً ما كتب على أنه في محل نصب على الحال. وقال بعض النحاة: إن الكاف في موضع رفع نعتاً للصيام، وهو ضعيف؛ لأن الصيام معرّف باللام، والضمير المستتر في قوله: ﴿كما كتب﴾ راجع إلى ما. واختلف المفسرون في وجه التشبيه ما هو، فقيل: هو قدر الصوم، ووقته، فإن الله كتب على اليهود، والنصارى صوم رمضان، فغيروا، وقيل: هو الوجوب، فإن الله أوجب على الأمم الصيام، وقيل: هو الصفة. أي: ترك الأكل، والشرب، ونحوهما في وقت، فعلى الأول معناه: أن الله كتب على هذه الأمة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم، وعلى الثاني: أن الله أوجب على هذه الأمة الصيام كما أوجب على الذين من قبلهم، وعلى الثالث: أن الله سبحانه أوجب على هذه الأمة الإمساك عن المفطرات كما أوجب على الذين من قبلهم. وقوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ بالمحافظة عليها، وقيل: تتقون المعاصي بسبب هذه العبادة؛ لأنها تكسر الشهوة، وتضعف نواحي المعاصي، كما ورد في الحديث أنه جُئْتُ، وأنه وجاء. وقوله: ﴿أياماً﴾ منتصب على أنه مفعول ثانٍ لقوله: ﴿كتب﴾ قاله الفراء: وقيل إنه منتصب على أنه ظرف، أي: كتب عليكم الصيام في أيام. وقوله: ﴿معدونات﴾ أي: معينات بعدد معلوم، ويحتمل أن يكون في هذا الجمع لكونه من جموع القلة

إني امرؤ منعت أرومة عامر ضيمي وقد جفنت علي خصومي وقوله: ﴿فأصلح بينهم﴾ أي: أصلح ما وقع بين الورثة من الشقاق، والاضطراب بسبب الوصية بإبطال ما فيه ضرار، ومخالفة لما شرعه الله، وإثبات ما هو حق كالوصية في قرينة لغير وارث، والضمير في قوله: ﴿بينهم﴾ راجع إلى الورثة، وإن لم يتقدم لهم نكر؛ لأنه قد عرف أنهم المرادون من السياق، وقيل راجع إلى الموصي لهم، وهم الأبوان والقرابة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إن ترك خيراً﴾ قال: مالا. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد نحوه، وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في سننه عن عروة، أن علي ابن أبي طالب دخل على مولى لهم في الموت، وله سبع مئة درهم، أو ستمائة درهم فقال: ألا أوصي؟ قال: لا؟ إنما قال الله: ﴿إن ترك خيراً﴾ وليس لك كثير مال فدع مالك لورثتك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي، عن عائشة، أن رجلاً قال لها: أريد أن أوصي قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: قال الله: ﴿إن ترك خيراً﴾ وإن هذا شيء يسير، فاتركه لعيالك، فهو أفضل. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والبيهقي عن ابن عباس قال: إذا ترك الميت سبع مئة درهم، فلا يوصي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن الزهري. قال: جعل الله الوصية حقاً مما قل منه، ومما كثر، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ، ونكر حديثاً، وفيه: «انظر قرابتك الذين يحتاجون، ولا يرثون، فأوص لهم من مالك بالمعروف» وأخرج أيضاً، عن طاوس قال: من أوصى لقوم، وسماهم، وترك نوي قرابته. محتاجين انتزعت منهم، وردت على قرابته، وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في النسخ، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن محمد بن بشير، عن ابن عباس قال: نسخت هذه الآية. وأخرج عنه من وجه آخر أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أن هذه الآية نسخها قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ [النساء: 7] الآية. وأخرج عنه من وجه آخر ابن جرير، وابن أبي حاتم أنها منسوخة بآية الميراث. وأخرج عنه أبو داود في سننه، والبيهقي مثله. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: في الآية نسخ من يرث، ولم ينسخ الأقربون الذين لا يرثون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عمر أنه قال: هذه الآية نسختها آية الميراث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فمن بخله﴾ الآية، قال: وقد وقع أجر الموصي على الله، وبرئ من إثمه، وقال في

إشارة إلى تقليل الأيام. وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ قيل: للمريض حالتان: إن كان لا يطيق الصوم كان الإفطار عزيمة، وإن كان يطيقه مع تضرر، ومشقة كان رخصة، وبهذا قال الجمهور وقوله: ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ اختلف أهل العلم في السفر المبيح للإفطار، فقليل مسافة قصر الصلاة، والخلاف في قدرها معروف، وبه قال الجمهور، وقال غيرهم بمقايير لا دليل عليها. والحق أن ما صدق عليه مسمى السفر، فهو الذي يباح عنده الفطر، وهكذا ما صدق عليه مسمى المرض، فهو الذي يباح عنده الفطر. وقد وقع الإجماع على الفطر في سفر الطاعة. واختلفوا في الأسفار المباحة، والحق أن الرخصة ثابتة فيه، وكذا اختلفوا في سفر المعصية. وقوله: ﴿فَعِدَّةٌ﴾ أي: فعليه عِدَّةٌ، أو فالحكم عِدَّةٌ، أو فالواجب عِدَّةٌ، والعِدَّةُ فَعْلَةٌ من العدد، وهو بمعنى: المعدود. وقوله: ﴿مَنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ قال سيبويه: ولم ينصرف؛ لأنه معدول به عن آخر؛ لأن سبيل هذا الباب أن يأتي بالالف واللام، وقال الكسائي: هو معدول به عن آخر، وقيل: إنه جمع أخرى، وليس في الآية ما يدل على وجوب التتابع في القضاء. قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ﴾ قراءة الجمهور بكسر الطاء، وسكون الياء، وأصله يطوقونه نقلت الكسرة إلى الطاء، وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. وقرأ حميد على الأصل من غير إعلال. وقرأ ابن عباس بفتح الطاء مخففة، وتشديد الواو أي: يكلفونه. وروى ابن الأنباري، عن ابن عباس: يطيقونه بفتح الياء، وتشديد الطاء، والياء مفتوحتين بمعنى: يطيقونه. وروى عن عائشة، وابن عباس، وعمرو بن دينار، وطاوس أنهم قرؤوا «يطيقونه» بفتح الياء، وتشديد الطاء مفتوحة. وقرأ أهل المدينة، والشام: ﴿فَنِيَّةٌ طَعَامٌ﴾ مضافاً. وقرؤوا أيضاً: ﴿مَسَاكِينَ﴾ وقرأ ابن عباس: ﴿طَعَامٌ مَسْكِينٍ﴾ وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي. وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية، هل هي: محكمة، أو منسوخة، فقيل: إنها منسوخة، وإنما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام؛ لأنه شقٌ عليهم، فكان من أطعم كل يوم مسكيناً ترك الصوم، وهو يطيقه، ثم نسخ ذلك، وهذا قول الجمهور. وروى عن بعض أهل العلم، أنها لم تنسخ، وإنما رخصة للشيوخ، والعجائز خاصة إذا كانوا لا يطيقون الصيام إلا بمشقة، وهذا يناسب قراءة التشديد، أي: يكلفونه كما مر. والناسخ لهذه الآية عند الجمهور قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185]. وقد اختلفوا في مقدار الغدية، فقيل: كل يوم صاع من غير البر، ونصف صاع منه، وقيل: مذ فقط. وقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ قال ابن شهاب: معناه: من أراد الإطعام مع الصوم. وقال مجاهد معناه: من زاد في الإطعام على المذ؛ وقيل: من أطعم مع المسكين مسكيناً آخر. وقرأ عيسى بن عمرو، ويحيى بن وثاب، وحزمة، والكسائي: «يطوِّع» مشدداً مع جزم الفعل على معنى يتطوَّع، وقرأ الباقر بتخفيف

الطاء على أنه فعل ماض. وقوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ معناه: أن الصيام خير لهم من الإفطار مع الغدية، وكان هذا قبل النسخ، وقيل معناه: وأن تصوموا في السفر، والمرض غير الشاق.

وقد أخرج أحمد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن معاذ بن جبل قال: أحلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحبل الصيام ثلاثة أحوال، فنكر أحوال الصلاة، ثم قال: وأما أحوال الصيام، فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله سبحانه فرض عليه الصيام، وأنزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فَنِيَّةٌ طَعَامٌ مَسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكيناً، فلجزأ ذلك عنه، ثم إن الله أنزل الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185] فأنبت الله صيامه على الصحيح المقيم، ورخص فيه للمريض، والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، ثم نكر تمام الحديث. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: يعني بذلك أهل الكتاب. وأخرج البخاري في تاريخه، والطبراني، عن دغفل بن حنظلة، عن النبي ﷺ قال: «كان على النصارى صوم شهر رمضان، فمرض ملكهم، فقالوا: لئن شفاه الله لنزدين عشرة، ثم كان آخر، فاكل لحماً، فأوجع فوه، فقال: لئن شفاه الله ليزيدن سبعة، ثم كان عليهم ملك آخر، فقال: ما ندع من هذه الثلاثة الأيام شيئاً أن نتمها، ونجعل صومنا في الربيع، ففعل، فصارت خمسين يوماً، وأخرج ابن جرير، عن السدي، في قوله: ﴿لِعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال: تتقون من الطعام، والشراب، والنساء مثل ما اتقوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحو ما سبق، عن معاذ. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم». وأخرج البخاري، ومسلم عن عائشة قالت: كان عاشوراء صياماً، فلما أنزل رمضان كان من شاء صام، ومن شاء أقر. وأخرج عبد بن حميد أن ابن عباس قال: إن قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ﴾ قد نسخت. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه نحو ذلك، وزاد أن الناسخ لها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ الآية. وأخرج نحو ذلك عنه أبو داود في ناسخه. وأخرج نحوه عنه أيضاً سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وغيرهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث سلمة بن الأكوع قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فَنِيَّةٌ طَعَامٌ مَسْكِينٍ﴾ كان من شاء صام، ومن شاء أن يفطر ويفتي فعل، حتى نزلت هذه الآية بعدها فنسختها: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾. وأخرج البخاري، عن

النحاس، وقال: إنه منصوب على الإغراء. وقال الأخفش: إنه نصب على الظرف، ومنع الصرف للالف، والنون الزائدتين. قوله: ﴿انزل فيه القرآن﴾ قيل: أنزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، ثم كان جبريل ينزل به نجماً نجماً. وقيل: أنزل فيه أوله، وقيل: أنزل في شأنه القرآن، وهذه الآية أعم من قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: 1]. وقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ [الدخان: 3] يعني: ليلة القدر. والقرآن اسم لكلام الله تعالى، وهو بمعنى المقروء كالمشروب سمي شرباً، والمكتوب سمي كتاباً، وقيل: هو مصدر قرأ يقرأ، ومنه قول الشاعر:

ضحوا بلشط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرأنا
أي: قراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿وقرآن الفجر﴾ [الإسراء: 78] أي: قراءة الفجر. وقوله: ﴿هدى للناس﴾ منتصب على الحال أي: هادياً لهم. وقوله: ﴿وبينات من الهدى﴾ من عطف الخاص على العام إظهاراً لشرف المعطوف بإفراده بالذكر؛ لأن القرآن يشمل محكمه، ومتشابهه، والبيانات تختص بالحكم منه. والفرقان: ما فرق بين الحق، والباطل، أي: فصل. قوله: ﴿من شهد منكم الشهر﴾ أي: حضر، ولم يكن في سفر بل كان مقيماً، والشهر منتصب على أنه ظرف، ولا يصح أن يكون مفعولاً به. قال جماعة من السلف، والخلف: إن من أدركه شهر رمضان مقيماً غير مسافر لزمه صيامه، سافر بعد ذلك، أو أقام استدلالاً بهذه الآية. وقال الجمهور: إنه إذا سافر أظفر، لأن معنى الآية: إن حضر الشهر من أوله إلى آخره لا إذا حضر بعضه، وسافر، فإنه لا يتحتم عليه إلا صوم ما حضره، وهذا هو الحق، وعليه يلت الأئمة الصحيحة من السنة. وقد كان يخرج ﷺ في رمضان، فيفطر. وقوله: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ قد تقدم تفسيره. وقوله: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فيه أن هذا مقصد من مقاصد الرب سبحانه، ومراد من مراداته في جميع أمور الدين، ومثله قوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: 78] وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه كان يرشد إلى التيسير، وينهي عن التعسير كقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» وهو في الصحيح. واليسر السهل الذي لا عسر فيه. وقوله: ﴿ولتكملا العدة﴾ الظاهر أنه معطوف على قوله: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ أي: يريد بكم اليسر، ويريد إكمالكم للعدة، وتكبيركم، وقيل: إنه متعلق بمحذوف تقديره: رخص لكم هذه الرخصة لتكملا العدة، وشرع لكم الصوم لمن شهد الشهر لتكملا العدة. وقد ذهب إلى الأول البصريون قالوا: والتقدير: يريد لأن تكملوا العدة، ومثله قول كثير بن صخر:

أريد لأنسى نكراهي فكانما تمثلي لي ليلاً بكل سبيل
وذهب الكوفيون إلى الثاني، وقيل: الواو مقحمة، وقيل: إن هذه اللام لام الأمر، والواو لعطف الجملة التي بعدها على الجملة التي قبلها. وقال في الكشاف: إن قوله: ﴿لتكملا

ابن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد، فنكر نحوه. وأخرج ابن جرير، عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ قال: الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم، فيفطر، ويطعم مكان كل يوم مسكيناً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والدارقطني، والبيهقي، أن أنس بن مالك ضعف عن الصوم عاماً قبل موته، فصنع جفنة من ثريد ودعا ثلاثين مسكيناً، فأطعمهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والدارقطني وصححه، عن ابن عباس أنه قال لام ولد له حامل، أو مرضعة: أنت بمنزلة الذين لا يطيقون الصيام، عليك الطعام لا قضاء عليك. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والدارقطني، عن ابن عمر أن إحدى بناته أرسلت تسال، عن صوم رمضان، وهي حامل، قال: تفطر، وتطعم كل يوم مسكيناً، وقد روي نحو هذا، عن جماعة من التابعين. وأخرج عبد بن حميد، عن عكرمة في قوله: ﴿فمن تطوع خيراً﴾ قال: أطعم مسكينين. وأخرج عبد بن حميد، عن طاوس في قوله: ﴿فمن تطوع خيراً﴾ قال: إطعام مساكين. وأخرج ابن جرير، عن ابن شهاب في قوله: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ أي: أن الصوم خير لكم من الفدية. وقد ورد في فضل الصوم أحاديث كثيرة جداً.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن مَّسَّ مِنْكُمْ أَشْهَرُ فَلْيَضْحَكُوا وَفَمَن كَانَ مِنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا آلِدَئِكُمْ وَلِتُذَكِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَكِنَّكُمْ تَتَكْبَرُونَ ﴿١٨٥﴾

﴿رمضان﴾ مأخوذ من مرض الصائم يمرض: إذا احترق جوفه من شدة العطش، والرمضاء ممدود: شدة الحر، ومنه الحديث الثابت في الصحيح: «صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال» أي: أحرقت الرمضاء أجوافها. قال الجوهري: وشهر رمضان يجمع على رمضان، وأرمضاء - يقال: إنهم لما نقلوا أسماء الشهور، عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام الحر، فسمي بذلك، وقيل: إنما سمي رمضان؛ لأنه يمرض الذنوب، أي: يحرقها بالأعمال الصالحة. وقال الماوردي: إن اسمه في الجاهلية ناقت، وأنشد المفضل:

وفي ناقت أجلت لدى حومة الوغا وولت على الأوبار فرسان خنوعا
ولما سموه بذلك؛ لأنه كان ينتقم لشئته عليهم، وشهر مرتفع في قراءة الجماعة على أنه مبتدأ خبره: ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: المفروض عليكم صومه شهر رمضان، ويجوز أن يكون بدلاً من الصيام المذكور في قوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام﴾ [البقرة: 183]. وقرأ مجاهد، وشهر بن حوشب بنصب الشهر، ورواه هارون الأعور، عن أبي عمرو، وهو منتصب بتقدير الزموا، أو صوموا. قال الكسائي، والفراء: إنه منصوب بتقدير فعل «كتب عليكم الصيام وأن تصوموا» وأنكر ذلك

عن ابن عباس قال: نزل القرآن جملة لأربعة وعشرين من رمضان، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزله على رسول الله ﷺ ترتيلاً. وأخرج ابن جرير، عنه أنه قال: «ليلة القدر هي الليلة المباركة، وهي في رمضان أنزل القرآن جملة واحدة من الذكر إلى البيت المعمور». وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿هَدَى النَّاسَ﴾ قال: يهتدون به ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى﴾ قال: فيه الحلال، والحرام، والحدود. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ لَكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ قال: هو إلهاله بالدار. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عليّ قال: من أدرك رمضان، وهو مقيم، ثم سافر، فقد لزمه الصوم؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، عن ابن عمر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ قال: اليسر الإفطار في السفر، والعسر: الصوم في السفر. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ قال: عدة ما أفطر المريض في السفر. وقد الضحك: أنه قال: عدة ما أفطر المريض في السفر. وقد

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم، فأكملوا العدة ثلاثين يوماً». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: حق على الصائمين إذا نظروا إلى شهر شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم؛ لأن الله يقول: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، عن ابن مسعود أنه كان يكبر: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي في سننه عن ابن عباس، أنه كان يكبر: الله أكبر كبيراً، الله أكبر كبيراً، الله أكبر، والله الحمد ولجل، الله أكبر على ما هداك.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ۖ يَقُولُ: «فَإِنِّي قَرِيبٌ» ۖ وَيَحْتَمِلُ أَن السُّؤَالَ عَنِ الْقُرْبِ، وَالبعد كما يدل عليه قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ويحتمل أن السؤال عن إجابة الدعاء كما يدل على ذلك قوله: ﴿لَجِيبُ دَعْوَةِ الدَّاعِ﴾ ويحتمل أن السؤال عما هو أعم من ذلك، وهذا هو الظاهر مع قطع النظر عن السبب الذي سيأتي بيانه. وقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ قيل: بالإجابة، وقيل: بالعلم، وقيل: بالإنعام، وقيل: في الكشف؛ إنه تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه، وسرعة إنجازه حاجة من سأله بمن قرب مكانه، فإذا دعي أسرع تلبية. ومعنى الإجابة هو: معنى ما في قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60] وقيل: معناه: أقبل عبادة من عيمني بالدعاء لما ثبت عنه ﷺ من أن الدعاء هو: العبادة، كما أخرجه أبو داود، وغيره من حديث النعمان بن بشير، والظاهر أن الإجابة هنا هي باقية على معناها اللغوي، وكون الدعاء من

العدة: علة للأمر بمراعاة العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا﴾ علة ما علم من كيفية القضاء، والخروج عن عهدة الفطر ﴿وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخيص، والتيسير، والمراد بالتكبير هنا: هو قول القائل: الله أكبر. قال الجمهور ومعناه: الحض على التكبير في آخر رمضان. وقد وقع الخلاف في وقته، فروي عن بعض السلف أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر، وقيل: إذا رأوا هلال شوال كبروا إلى انقضاء الخطبة، وقيل: إلى خروج الإمام، وقيل: هو التكبير يوم الفطر. قال مالك: هو من حين يخرج من داره إلى أن يخرج الإمام، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: يكبر في الأضحية، ولا يكبر في الفطر. وقوله: ﴿وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قد تقدم تفسيره.

وقد أخرج أبو حاتم، وأبو الشيخ، وابن عدي، والبيهقي في سننه، عن أبي هريرة مرفوعاً، وموقوفاً: «لا تقولوا رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا شهر رمضان». وقد ثبت، عن النبي ﷺ أنه قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». وثبت عنه أنه قال: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». وثبت عنه أنه قال: «شهرنا عيد لا ينقصان: رمضان، وذو الحجة» وقال: إذا نخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وهذا كله في الصحيح. وثبت، عنه في أحاديث كثيرة غير هذه أنه كان يقول: رمضان بدون ذكر الشهر. وأخرج ابن مردويه: والأصبهاني في الترغيب: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي رمضان؛ لأن رمضان يرمض الذنوب» وأخرج أيضاً، عن عائشة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن عساکر في تاريخه عن ابن عمر نحوه. وقد ورد في فضل رمضان أحاديث كثيرة، وأخرج أحمد، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزل الزبور لثمانية عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان». وأخرج أبو يعلى، وابن مردويه عن جابر مثله، لكنه قال: «وأنزل الزبور لاثني عشر» وزاد: «وأنزل التوراة لست خلون من رمضان، وأنزل الإنجيل لثمانية عشرة خلت من رمضان» وأخرج محمد بن نصر عن عائشة نحو قول جابر، إلا أنها لم تذكر نزول القرآن. وأخرج ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء، والصفات عن مقسم قال: سأل عطية بن الأسود ابن عباس فقال: إنه قد وقع في قلبي الشك في قول الله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾. وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1] وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مِيقَاتٍ﴾ [الدخان: 3] فقال ابن عباس إنه أنزل في ليلة القدر، وفي رمضان، وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلاً في الشهور، والأيام. وأخرج محمد بن نصر، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي، والضياء في المختارة،

عَنْكُمْ قَالَتْ يَبْرُؤُونَ وَيَتَوَارَعُونَ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكَلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ
الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَيْنَا النِّبْيَةَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا
يُبَيِّرُونَ وَأَشْرَعُ عَيْنُكَ فِي التَّسْجِيدِ نَاكِ حُدُودِ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿إِحْلَ لَكُمْ﴾ فيه دلالة على أن هذا الذي أحله الله
كان حراماً عليهم، وهكذا كان كما يفيد السبب لنزول الآية،
وسياقها. والرفث: كناية عن الجماع. قال الزجاج: الرفث كلمة
جامعة لكل ما يريد الرجل من امراته، وكذا قال الأزهري،
ومنه قول الشاعر:

ويرين من أنس الحديث زانياً وبهت عن رث الرجال نفار
وقيل الرفث: أصله قول الفحش، رفث وأرفث: إذا تكلم
بالقبیح، وليس هو المراد هنا، وعدي الرفث بلى لتضمينه
معنى الإمضاء، وجعل النساء لباساً للرجال، والرجال لباساً
لهنّ لامتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج
الذي يكون بين الثوب، ولا يسه. قال أبو عبيدة، وغيره: يقال
للمرأة: لباس، وفراش، وإزار. وقيل: إنما جعل كل واحد منهما
لباساً للآخر، لأنه يستتره عند الجماع، عن أعين الناس.
وقوله: ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخونونها بالمباشرة في
ليالي الصوم، يقال: خان، واختان بمعنى، وهما من الخيانة.
قال الفقيهي: أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء، فلا
يؤدي الأمانة فيه. انتهى. وإنما سماهم خائنين لأنفسهم؛ لأن
ضرب ذلك عائد عليهم، وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل
معنيين: أحدهما قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم، والآخر
التخفيف عنهم بالرخصة، والإياحة كقوله: ﴿علم أن لن
تحصوه فتأب عليكم﴾ [المزمل: 20] يعني: تخفف عنكم،
وكقوله: ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من
الله﴾ [النساء: 92] يعني تخفيفاً، وهكذا قوله: ﴿وعف
عنكم﴾ يحتمل العفو من الذنب، ويحتمل التوسعة،
والتسهيل. وقوله: ﴿وَابْتَغُوا﴾ قيل: هو الولد، أي: ابتغوا
بمباشرة نساكنكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح،
وهو حصول النسل، وقيل: المراد ابتغوا القرآن بما أبيح لكم
فيه قاله الزجاج وغيره، وقيل: ابتغوا الرخصة، والتوسعة،
وقيل: ابتغوا ما كتب لكم من الإماء، والزوجات، وقيل: غير
ذلك مما لا يفيد النظم القرآني، ولا دل عليه دليل آخر، وقرأ
الحسن البصري: «واتبعوا» بالعين المهملة من الإتياع،
وقوله: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ
الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هو: تشبيه بليغ، والمراد هنا بالخيط
الأبيض: هو: المعترض في الأفق، لا الذي هو كذنب
السرطان، فإنه الفجر الكذاب الذي لا يحل شيئاً، ولا يحرمه.
والمراد بالخيط الأسود: سواد الليل، والتبين: أن يمتاز
أحدهما عن الآخر، وذلك لا يكون إلا عند دخول وقت الفجر.
وقوله: ﴿ثُمَّ لَمَّا وَصَّيْنَا إِلَى اللَّيْلِ﴾ فيه التصريح بأن
للصوم غاية هي الليل، فعند إقبال الليل من المشرق، وإقبال
النهار من المغرب يفطر الصائم، ويحل له الأكل، والشرب

العبادة لا يستلزم أن الإجابة هي: القبول للدعاء، أي: جعله
عبادة مقبلة، فالإجابة أمر آخر غير قبول هذه العبادة.
والمراد أنه سبحانه يجيب بما شاء، وكيف شاء، فقد يحصل
المطلوب قريباً، وقد يحصل بعيداً، وقد يدفع عن الداعي من
البلاء ما لا يعلمه بسبب دعائه، وهذا مقيد بعدم اعتداء
الداعي في دعائه، كما في قوله سبحانه ﴿ادعوا ربكم تضرعاً
وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ [الأعراف: 55] ومن الاعتداء
أن يطلب ما لا يستحقه، ولا يصلح له، كمن يطلب منزلة في
الجنة مساوية لمنزلة الأنبياء، أو فوقها. وقوله:
﴿فليستجيبوا لي﴾ أي: كما أحببتهم إذا دعوني، فليستجيبوا
لي فيما دعوتهم إليه من الإيمان، والطاعات، وقيل معناه:
أنهم يطلبون إجابة الله سبحانه لدعائهم باستجابتهم له أي:
القيام بما أمرهم به، والتارك لما نهاهم عنه. والرشد خلاف
الغى، رشد يرشد رشداً. ورشداً. قال الهروي: الرشيد،
والرشد، والرشاد: الهدى، والاستقامة. قال: ومنه هذه الآية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن
مردويه من طريق الصلت بن حكيم عن رجل من الأنصار
عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا
رسول الله اقريب ربنا، فنناجيه أم بعيد، فنناجيه؟ فسكت
النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن
جرير، عن الحسن قال: سأل أصحاب النبي ﷺ أين ربنا؟
فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن مردويه، عن أنس أنه سأل
أعرابي النبي ﷺ أين ربنا؟ فنزلت. وأخرج ابن عساکر في
تاريخه عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «ولا تعجزوا عن
الدعاء، فإن الله أنزل علي ﴿ادعوني أستجب لكم﴾» [غافر:
60] فقال رجل: يا رسول الله ربنا يسمع الدعاء أم كيف ذلك؟
فأنزل الله هذه الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم، عن عطاء أنه بلغه لما نزلت
﴿ادعوني أستجب لكم﴾ قالوا: لو تعلم أي: ساعة ندعو،
فنزلت. وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد أن النبي
ﷺ قال: «ما من مسلم يدع الله بدعوة ليس فيها إثم، ولا
قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن
يعجل له دعوته، وإما أن ينخر له في الآخرة، وإما أن
يصرف عنه من السوء مثله». وثبت في الصحيح أيضاً من
حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحکم
ما لم يعجل، يقول دعوت، فلم يستجب لي». وأخرج ابن أبي
حاتم، عن أنس في قوله: ﴿فليستجيبوا لي﴾ قال: ليدعوني:
﴿وَلِيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: أنهم إذا دعوني استجبت لهم. وأخرج
ابن جرير، عن مجاهد قال: ﴿فليستجيبوا لي﴾ أي:
فليطيعوني. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،
عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ يَرْشُدُونَ﴾ قال:
يهتدون.

أَيْلَ لَكُمْ لَيْلَةُ الْاَيَّامِ اَرَأَيْتُمْ اِنْ يَسْأَلَكُمْ مَنْ يَاسُ لَكُمْ وَاتَمَّ يَاسُ
لَهُنَّ عِلْمُ اللَّهِ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْتَدُونَ اَنْتُمْ كُنْتُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقَا

وغيرهما. وقول: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ قيل: المراد: بالمباشرة هنا الجماع، وقيل: تشمل التقبيل، واللمس إذا كانا لشهوة لا إذا كانا لغير شهوة، فهما جائزان كما قاله عطاء، والشافعي، وابن المنذر، وغيرهم، وعلى هذا يحتمل ما حكاه ابن عبد البر من الإجماع على أن المعتكف لا يباشر، ولا يقبل، فتكون هذه الحكاية للإجماع مقيدة بأن يكونا لشهوة، والاعتكاف في اللغة: الملازمة، يقال عكف على الشيء: إذا لازمه، ومنه قول الشاعر:

وظل بنات الليل حولي عكفا عكوف البواكي حولهن صريع

ولما كان المعتكف يلزم المسجد قيل له عكف في المسجد، ومعتكف فيه؛ لأنه يجلس نفسه لهذه العبادة في المسجد، والاعتكاف في الشرع: ملازمة طاعة مخصوصة على شرط مخصوص. وقد وقع الإجماع على أنه ليس بواجب، وعلى أنه لا يكون إلا في مسجد، وللاعتكاف أحكام مستوفاة في كتب الفقه، وشروح الحديث. وقوله: ﴿بِتِلْكَ حُدُودِ اللَّهِ﴾ أي: هذه الأحكام حدود الله. وأصل الحد المنع، ومنه سمي البواب، والسجان حداً، وسميت الأوامر، والنواهي حدود الله؛ لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج عنها ما هو منها، ومن ذلك سميت الحدود حدوداً؛ لأنها تمنع أصحابها من العود. ومعنى النهي عن قربانها النهي عن تعديها بالمخالفة لها، وقيل: إن حدود الله هي محارمه فقط، ومنها المباشرة من المعتكف، والإفطار في رمضان لغير عذر، وغير ذلك مما سبق النهي عنه، ومعنى النهي عن قربانها على هذا واضح. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أي: كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم العلامات الهادية إلى الحق، وقد أخرج البخاري، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم عن البراء بن عازب قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر لم ياكل ليلته، ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس ابن صرمة الأنصاري كان صائماً، فكان يومه ذلك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق، فأطلب لك، فغلبته عينه، فنام، وجاءت امرأته، فلما رآته نائماً قالت: خيبة لك أمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ الْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً. وأخرج البخاري أيضاً من حديثه قال: لما نزل صوم شهر رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، فكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونُ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية. وقد روي في بيان سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة نحو ما قاله البراء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الناس أول ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم من الطعام، ثم قال: وإن عمر بن الخطاب أتى امرأته، ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله أعتمر إلى الله، وإليك من نفسي، ونكر ما وقع منه، فنزل قوله تعالى: ﴿لِحُلِّ

لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: إن المسلمين كانوا في شهر رمضان، إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء، والطعام والشراب إلى مثلها من القابلة، ثم إن ناساً من المسلمين أصابوا النساء، والطعام في رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق، عن ابن عباس قال: الرث الجماع، وأخرج ابن المنذر، عن ابن عمر مثله. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: اللخل، والتغشي، والإقضاء، والمباشرة، والرث، واللمس، واللمس هذا الجماع، غير أن الله حيي كريم يكره بما شاء عما شاء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس، في قوله: ﴿هَنْ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ قال: هَنْ سَكَنَ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ سَكَنَ لَهُنَّ. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: تظلمون أنفسكم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالَّذِينَ بَاشَرُوهُمْ﴾ قال: انكحوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: الولد. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وقتادة والضحاك مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: ليلة القدر. وأخرج البخاري في تاريخه، عن أنس مثله. وأخرج عبد الرزاق، عن قتادة قال: ﴿وَابْتَغُوا﴾ الرخصة التي كتب الله لكم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن سهل بن سعد قال: أنزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل: ﴿مَنْ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض، والخيط الأسود، فلا يزال ياكل، ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله: ﴿مَنْ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنه يعني الليل والنهار. وفي الصحيحين، وغيرهما عن عدي بن حاتم، أنه جعل تحت وساده خيطين أبيض وأسود، وجعل ينظر إليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود، فغدا على رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: إن وسادك إذا لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل. وفي رواية في البخاري، وغيره، إنه قال له: إنك لعريض القفا. وفي رواية عند ابن جرير، وابن أبي حاتم: أنه ضحك منه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاك قال: كانوا يجامعون، وهم معتكفون حتى نزلت: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، عن الربيع نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: «إذا جامع المعتكف بطل اعتكافه ويستأنف». وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله:

سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن مجاهد قال: معناها لا تخاصم، وأنت تعلم أنك ظالم. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير أن امرأ القيس بن عابس، وعبدان بن أشوع الحضرمي اختصما في أرض، وأراد امرؤ القيس أن يحلف، فنزلت:

﴿وَلَا تَاكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ الآية.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَقْرَأُوا اللَّهَ لَكُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قوله: ﴿يسألونك﴾ سيأتي بيان من هم السائلون له، والأهله جمع هلال، وجمعها باعتبار هلال كل شهر، أو كل ليلة، تنزيلاً لاختلاف الاوقات منزلة اختلاف النوات، والهلال: اسم لما يبصر في أول الشهر، وفي آخره. قال الأصمعي: هو هلال حتى يستتير، وقيل هو: هلال حتى ينير بضوئه السماء، وذلك ليلة السابع. وإنما قيل له: هلال؛ لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه عند رؤيته، ومنه استهل الصبي: إذا صاح، واستهل وجهه، وتهلل إذا ظهر فيه السرور. قوله: ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ فيه بيان وجه الحكمة في زيادة الهلال، ونقصانه، وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التي يوقت الناس عباداتهم، ومعاملاتهم بها كالصوم، والفطر، والحج، ومدة الحمل، والعدة، والإجازات، والإيمان، وغير ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿لتعلموا عند السنين والحساب﴾ [يونس: 5] والمواقيت جمع الميقات، وهو الوقت، وقراءة الجمهور: «والحج» بفتح الحاء. وقرأ ابن أبي إسحاق بكسرها في جميع القرآن. قال سيبويه: الحج بالفتح كالرد والشدة، وبالكسر كالذكر مصدران بمعنى، وقيل: بالفتح مصدر، وبالكسر الاسم. وإنما أقرد سبحانه الحج بالذكر؛ لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت، ولا يجوز فيه النسيء، عن وقته، ولعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه، أو أخطأ وقتها، أو وقت بعضها. وقد جعل بعض علماء المعاني هذا الجواب، أعني قوله: ﴿قل هي مواقيت﴾ من الأسلوب الحكيم، وهو: تلقي المخاطب بغير ما يترقب، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجراء الأهله باعتبار زيادتها، ونقصانها، فاجيبوا بالحكمة التي كانت تلك الزيادة، والنقصان لأجلها لكون ذلك أولى بأن يقصد السائل، ولحق بأن يتطلع لعلمه. قوله: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ وجه اتصال هذا بالسؤال عن الأهله، والجواب بأنها مواقيت للناس، والحج أن الانصار كانوا إذا حجوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم إذا رجع أحدهم إلى بيته بعد إحرامه قبل تمام حجه؛ لأنهم يعتقدون أن المحرم لا يجوز أن يحول بينه، وبين السماء حائل، وكانوا يتسمنون ظهور بيوتهم. وقال أبو عبيدة: إن هذا من ضرب المثل، والمعنى: ليس البر أن تسألوا الجهال، ولكن البر التقوى، وأسألوا العلماء كما تقول: أتيت هذا الأمر من باب، وقيل: هو مثل في جماع النساء، وأنهم أمروا بإتيانهم في

﴿تلك حدود الله﴾ قال: يعني طاعة الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: ﴿حدود الله﴾ معصية الله؛ يعني المباشرة في الاعتكاف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل أنها الجماع. وأخرج أيضاً عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كذلك﴾ يعني هكذا يبين الله.

﴿وَلَا تَاكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْمَكَاةِ إِنَّا كُنَّا قَرِيبًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأَخْرِ وَأَشْرَ تَعْلَمُونَ﴾

هذا يعم جميع الأمة، وجميع الأموال، لا يخرج عن ذلك إلا ما ورد لبيل الشرع بأنه يجوز أخذه، فإنه مأخوذ بالحق لا بالباطل، وماكول بالحل لا بالإثم، وإن كان صاحبه كارهاً كقضاء الدين إذا امتنع منه من هو عليه، وتسليم ما أوجبه الله من الزكاة ونحوها، ونفقة من أوجب الشرع نفقته. والحاصل: أن ما لم يبيع الشرع أخذه من مالكة، فهو مأكول بالباطل، وإن طابت به نفس مالكة: كمهر البغي، وحلوان الكاهن، وثمن الخمر. والباطل في اللغة: الذاهب الزائل. وقوله: ﴿وتذللوا﴾ مجزوم عطفاً على تاكلوا، فهو من جملة المنهي عنه، يقال: أدلى الرجل بحجته، أو بالأمر الذي يرجو النجاح به تشبيهاً بالذي يرسل النمل في البئر، يقال: أدلى لونه: أرسلها، والمعنى أنكم لا تجمعوا بين أكل الأموال بالباطل، وبين الإدلاء بها إلى الحكام بالحجج الباطلة، وفي هذه الآية دليل أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام، ولا يحرم الحلال من غير فرق بين الأموال، والفرج، فمن حكم له القاضي بشيء مستنداً في حكمه إلى شهادة زور أو يمين، فجور، فلا يحل له أكله، فإن ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وهكذا إذا أقرض الحاكم، فحكم له بغير الحق، فإنه من أكل أموال الناس بالباطل. ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام، ولا يحرم الحلال. وقد روي عن أبي حنيفة ما يخالف ذلك، وهو مرئود لكتاب الله تعالى، ولسنة رسول الله ﷺ، كما في حديث أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فاقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيء، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار» وهو في الصحيحين، وغيرهما. وقوله: ﴿قريباً﴾ أي: قطعة، أو جزء، أو طائفة، فعبر بالفريق عن ذلك، وأصل الفريق: القطعة من الغنم تشذ عن معظمها. وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير، لتاكلوا أموال فريق من الناس بالإثم، وسمي الظلم، والعدوان إثمًا باعتبار تعلقه بفعله. وقوله: ﴿وانتم تعلمون﴾ أي: حال كونكم عالمين أن ذلك باطل ليس من الحق في شيء، وهذا أشد لعقابهم، وأعظم لجرمهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَاكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ الآية، قال: هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه دين، فيجحد المال، ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه. وروى

القبل لا في الدبر، وقيل: غير ذلك. والبيوت جمع بيت، وقرئ بضم الباء، وكسرهما. وقد تقدم تفسير التقوى، والفلاح، وسبق أيضاً أن التقدير في مثل قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ تَقَى﴾ ولكن البرّ من اتقى.

وقد أخرج ابن عساكر بسند ضعيف، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ قال: نزلت في معاذ بن جبل، وشعلبة بن عثمة. وهما رجلان من الأنصار قالوا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو، ويطلع بقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم، ويستوي، ثم لا يزال ينقص، وينق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ في حل بينهم، ولصومهم ولفطرهم، وعند نسائهم، والشروط التي إلى أجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: سألوا النبي ﷺ عن الأهلة لم جعلت؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ الْآيَةَ، فَجَعَلَهَا لَصُومِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِإِفْطَارِهِمْ، وَلِمَنَاسِكَهِمْ، وَحُجَّتِهِمْ، وَعِدَّتِ نِسَائِهِمْ، وَمَحَلِّ دِينِهِمْ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ، وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ. وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ قُتَيْبَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جَعَلَ اللَّهُ الْأَهْلَةَ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ، فَصُومُوا لِرُؤْيَيْتِهَا، وَأَفْطَرُوا لِرُؤْيَيْتِهَا، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ، فَعَمُوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا». وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ عَدِي، وَالدَّارِقُطْنِيُّ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ، عَنْ طَلْقِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَنَزَلَ نَحْوُ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ قُتَيْبَةَ، وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، وَغَيْرُهُ، عَنْ الْبَرَاءِ قَالَ: كَانُوا إِذَا أَحْرَمُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَتَوْا الْبُيُوتَ مِنْ ظَهْرِهَا فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِالْأَهْلِ﴾. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَتْ قَرِيشٌ تَدْعِي الْحَمْسَ، وَكَانُوا يَدْخُلُونَ مِنَ الْأَبْوَابِ فِي الْإِحْرَامِ، وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ، وَسَائِرُ الْعَرَبِ لَا يَدْخُلُونَ مِنْ بَابٍ فِي الْإِحْرَامِ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَسْتَانٍ إِذْ خَرَجَ مِنْ بَابِهِ، وَخَرَجَ مَعَهُ قُتَيْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ قُتَيْبَةَ بْنَ عَامِرٍ رَجُلٌ فَاجِرٌ، وَإِنَّهُ خَرَجَ مَعَكَ مِنَ الْبَابِ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُكَ فَعَلْتَهُ فَفَعَلْتُ كَمَا فَعَلْتَ، فَقَالَ: إِنِّي رَجُلٌ أَحْمَسِي، قَالَ: فَإِنَّ دِينِي دِينُكَ، فَنَزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ. وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْمَعْنَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ.

وَقَتِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتَنُونَكُم بِمَا لَا تَدْرُسُونَ إِلَّا اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَأَقْلَمُوا حَيْثُ يَفْتَنُوكُمْ وَأَخْرَجُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرْتُمْ وَأَلْفَنَةً أَشَدَّ مِنْ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوكُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ لِلْمَكْرِ حَتَّى يُغْتَابُكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْلَمُوا كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٤﴾ فَإِنْ أَنتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٥﴾ وَتَقْبَلُوكُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَتَكُونَ الَّذِينَ يَلَهُ فَإِنْ أَنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

لا خلاف بين أهل العلم أن القتال كان ممنوعاً قبل

الهجرة لقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: 13] وقوله: ﴿وَأَمْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: 10] وقوله: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 22] وقوله: ﴿أَنْفَعُ بِاللَّهِ هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: 96، فصلت: 34] ونحو ذلك مما نزل بمكة، فلما هاجر إلى المدينة أمره الله سبحانه بالقتال، ونزلت هذه الآية، وقيل: إن أول ما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا﴾ [الحج: 39] فلما نزلت الآية كان ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عن كف عنه حتى نزل قوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5] وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: 36]. وقال جماعة من السلف: إن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يَفْتَنُونَكُم﴾ من عدا النساء، والصبيان، والرهبان، ونحوهم، وجعلوا هذه الآية محكمة غير منسوخة، والمراد بالاعتداء عند أهل القول الأول: هو مقاتلة من يقاتل من الطواف الكفري. والمراد به على القول الثاني: مجاوزة قتل من يستحق القتل إلى قتل من لا يستحقه ممن تقدم ذكره. قوله: ﴿حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ﴾ يقال: ثقف يثقف ثقفاً، ورجل ثقيف: إذا كان محكماً لما يتناوله من الأمور. قال في الكشاف: والثقف وجود على وجه الأخذ، والغلبة، ومنه رجل ثقف: سريع الأخذ لأقرانه. انتهى. ومنه قول حسان:

فَلَمَّا يَثْقِفْنَ بَنِي لُؤَيٍّ جَنِيْمَةً إِنْ قَتَلْتَهُمْ دَوَاهٍ
قوله: ﴿وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: مكة. قال ابن جرير: الخطاب للمهاجرين، والضمير لكفار قريش. انتهى. وقد امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه، فأخرج من مكة من لم يسلم عند أن فتحها الله عليه. قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: الفتنة التي أرادوا أن يفتنوكم، وهي: رجوعكم إلى الكفر أشد من القتل، وقيل المراد بالفتنة: المحنة التي تنزل بالإنسان في نفسه، أو أهله، أو ماله، أو عرضه، وقيل: إن المراد بالفتنة الشرك الذي عليه المشركون، لأنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم، فأخبرهم الله أن الشرك الذي هم عليه أشد مما يستعظمونه، وقيل: المراد فتنتهم إياكم بصلكم عن المسجد الحرام أشد من قتلهم إياهم في الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم. والظاهر أن المراد: الفتنة في الدين بأي سبب كان، وعلى أي صورة اتفقت، فإنها أشد من القتل. قوله: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية، اختلف أهل العلم في ذلك، فذهب طائفة إلى أنها محكمة، وأنه لا يجوز القتال في الحرم إلا بعد أن يتعدى بالقتال فيه، فإنه يجوز دفعه بالمقاتلة له، وهذا هو الحق. وقالت طائفة: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5] ويجاب عن هذا الاستدلال بأن الجمع ممكن ببناء العلم على الخاص، فيقتل المشرك حيث وجد إلا بالحرم، ومما يؤيد ذلك قوله ﷺ: «إِنهَا لَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَإِنَّمَا أَحَلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَهُوَ فِي الصَّحِيحِ. وَقَدْ احتج القائلون بالنسخ بقتله ﷺ لابن خطل، وهو متعلق بأسار الكعبة، ويجاب عنه بأنه وقع في تلك الساعة التي أحل الله لرسوله ﷺ. قوله: ﴿فَإِنْ أَنتَهَوْا﴾ أي:

لظالمين» قال: هم من أبى يقول لا إله إلا الله. وأخرج عبد ابن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالْأَشْهُرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ مَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَانْزَعُوا آلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

قوله: «الشهر الحرام بالحرم بالشهر الحرام» أي: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام، وهتكوا حرمة قاتلتهم في الشهر الحرام مكافأة لهم، ومجازاة على فعلهم. «والحرمان» جمع حرمة، كالظلمات جمع ظلمة، وإنما جمع الحرمان؛ لأنه أراد الشهر الحرام، والبلد الحرام، وحرمة الإحرام، والحرمة ما منع الشرع من انتهاكه. والقصاص: المساواة، والمعنى: إن كل حرمة يجري فيها القصاص، فمن هتك حرمة عليكم، فلكم أن تهتكوا حرمة عليه قصاصاً، قيل وهذا كان في أول الإسلام، ثم نسخ بالقتال، وقيل: إنه ثابت بين أمة محمد ﷺ لم ينسخ، ويجوز لمن تعدي عليه في مال، أو بدن أن يتعدى بمثل ما تعدي عليه، وبهذا قال الشافعي، وغيره. وقال آخرون: إن أمور القصاص مقصورة على الحكام، وهكذا الأموال لقوله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» أخرجه الدارقطني، وغيره، وبه قال أبو حنيفة، وجمهور المالكية، وعطاء الخراساني، والقول الأول أرجح، وبه قال ابن المنذر، واختاره ابن العربي، والقرطبي، وحكاه الداودي عن مالك، ويؤيده إنّه ﷺ لامرأة أبي سفيان أن تأخذ من ماله ما يكفيها، ولدها، وهو في الصحيح، ولا اصرح، وأوضح من قوله تعالى: في هذه الآية «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» وهذه الجملة في حكم التأكيد للجملة الأولى، أعني قوله: «والحرمان قصاص» وإنما سمي المكافاة اعتداء مشكلة كما تقدم.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما سار رسول الله ﷺ معتمرأ في سنة ست من الهجرة، وحبس المشركون، عن الدخول، والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة، وهو شهر حرام قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم نزلت في ذلك هذه الآية: «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمان قصاص». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه أيضاً. وأخرج أيضاً عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج نحوه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: «فمن اعتدى عليكم» الآية، وقوله «وجزاء سيئة» [يونس: 27] الآية، وقوله: «ولمن انتصر بعد ظلمه» [الشورى: 41] الآية، وقوله: «وإن عاقبتم» [النحل: 126] الآية قال: هذا ونحوه نزل بمكة، والمسلمون يومئذ قليل ليس لهم سلطان يقهر المشركين، فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم، والأذى، فأمر الله المسلمين من يتجاذى منهم أن يتجاذى بمثل ما أوتي إليه، أو يصبروا، ويعفوا،

عن قتالكم، وبخلوا في الإسلام. قوله: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية هي أن لا تكون فتنة، وأن يكون الدين لله، وهو الدخول في الإسلام، والخروج عن سائر الأديان المخالفة له، فمن دخل في الإسلام، وأقطع عن الشرك لم يحل قتاله، قيل: المراد بالفتنة هنا الشرك، والظاهر أنها الفتنة في الدين على عمومها كما سلف. قوله: «فلا عدوان إلا على الظالمين» أي: لا تعتدوا إلا على من ظلم، وهو من لم ينته عن الفتنة، ولم يدخل في الإسلام، وإنما سمي جزاء الظالمين عدواناً مشكلة كقوله تعالى: «وجزاء سيئة سيئة مثله» [الشورى: 40]. وقوله: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه» [البقرة: 194].

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية قوله تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله» الآية أنها أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد في هذه الآية قال: إن أصحاب محمد أمروا بقتال الكفار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «ولا تعتدوا» يقول: لا تقتلوا النساء، والصبيان، والشيخ الكبير، ولا من لقي السلم، وكف يده، فإن فعلتم، فقد اعتنيتم. وأخرج ابن أبي شيبه، عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: إن هذه الآية في النساء، والزنية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: «والفتنة أشد من القتل» يقول: الشرك أشد من القتل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في الآية قال: ارتداد المؤمن إلى الوثن أشد عليه من أن يقتل محقاً. وأخرج ابن أبي شيبه، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، عن قتادة في قوله: «ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه» قال: حتى يبيدوا بالقتال، ثم نسخ بعد ذلك فقال: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة». وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه عن قتادة أن قوله: «ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام» وقوله: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير» [البقرة: 217] فكان كذلك حتى نسخ هاتين الآيتين جميعاً في براءة قوله: «فاقتلوا المشركين حيث وجنتهم» [التوبة: 5] «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» [التوبة: 36] وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: «فإن انتهوا» قال: فإن تابوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل من طرق، عن ابن عباس في قوله: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» يقول: شرك بالله: «ويكون الدين» ويخلص التوحيد لله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في الآية، قال: الشرك. وقوله: «فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» قال: لا تقتلوا إلا من قاتلكم. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: «ويكون الدين» يقول: حتى لا تعبدوا إلا الله. وأخرج أيضاً، عن عكرمة في قوله: «فلا عدوان إلا على

عكرمة قال: أحسنوا الظن بالله.

وَأَيُّوهُمُ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِلُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرْبُوعًا أَوْ بَرَاءً أَدَّى مِنْ تَرْبُوعِهِ فَيَذَرُ مِنْ مِيزَابٍ أَوْ مَكْدَنٍ أَوْ شَاةٍ فَإِذَا أَمْنْتُمْ مِنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعْيٍ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكُمْ عَشْرَةَ كَأَمَلِهِ ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاكِمِي الْأَسْجِدِ الْمَكْرُمَةِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٩﴾

قوله: ﴿واتقوا الحج﴾ اختلف العلماء في المعنى المراد بإتمام الحج، والعمرة لله، فقيل: أداؤهما، والإتيان بهما من دون أن يشوبهما شيء مما هو محظور، ولا يخل بشروط، ولا فرض لقوله تعالى: ﴿فأتتموهن﴾ [البقرة: 124] وقوله: ﴿ثم أتوا الصيام إلى الليل﴾ [البقرة: 187]. وقال سفيان الثوري: إتمامهما أن تخرج لهما لا لغيرهما، وقيل: إتمامهما أن تفرد كل واحد منهما من غير تمتع، ولا قران، وبه قال ابن حبيب. وقال مقاتل: إتمامهما أن يستحلوا فيهما ما لا ينبغي لهما، وقيل: إتمامهما أن يحرم لهما من توبة أهله، وقيل: أن ينفق في سفرهما الحلال الطيب، وسيأتي بيان سبب نزول الآية، وما هو مروى عن السلف في معنى إتمامهما. وقد استدلل بهن في الآية على وجوب العمرة؛ لأن الأمر بإتمامهما أمر بها، وبذلك قال علي، وابن عمر، وابن عباس، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، والشعبي، وسعيد بن جبير، ومسروق، وعبد الله بن شداد، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو عبيد، وابن الجهم من المالكية. وقال مالك، والنخعي، وأصحاب الرأي كما حكاه ابن المنذر عنهم: أنها سنة. وحكي عن أبي حنيفة أنه يقول بالوجوب. ومن القائلين بأنها سنة ابن مسعود، وجابر بن عبد الله. ومن جملة ما استدلل به الأولون ما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هدي فليهل بحج وعمرة». وثبت عنه أيضاً في الصحيح أنه قال: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة». وأخرج الدارقطني، والحاكم من حديث زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بأيهما بدأت». واستدل الآخرون بما أخرجه الشافعي في الآية، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن أبي صالح الحنفي قال: قال رسول الله ﷺ: «الحج جهاد، والعمرة تطوع». وأخرج ابن ماجه عن طلحة بن عبيد الله مرفوعاً مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه عن جابر: «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن العمرة أواجبة هي؟ قال: لا، وإن تعتمروا خير لكم» وأجابوا عن الآية، وعن الأحاديث المصروفة بأنها فريضة يحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها، وهي بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف، وهذا، وإن كان فيه بعد، لكنه يجب المصير إليه جمعاً بين الأدلة، ولا سيما بعد تصريحه ﷺ بما تقدم في حديث جابر من عدم الوجوب، وعلى هذا يحمل ما ورد مما فيه دلالة على وجوبها، كما أخرجه الشافعي في الام أن في الكتاب الذي

كتبه النبي ﷺ لعمر بن حزم: «إن العمرة هي الحج الأصغر». وكحديث ابن عمر عند البيهقي في الشعب قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أوصني، فقال: تعبد الله، ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج وتعمّر، وتسمع وتطيع، وعليك بالعلانية، وإليك بالسرى» وهكذا ينبغي حمل ما ورد من الأحاديث التي قرن فيها بين الحج والعمرة في أنهما من أفضل الأعمال، وأنهما كفارة لما بينهما، وأنهما يهدمان ما كان قبلهما ونحو ذلك. قوله: ﴿فإن أحصرتم﴾ الحصر: الحبس. قال أبو عبيدة، والكسائي، والخليل: إنه يقال أحصر بالمرض، وحصر بالعدو. وفي المجلد لابن فارس العكس يقال: أحصر بالعدو، وحصر بالمرض. ورجح الأول ابن العربي، وقال: هو رأي أكثر أهل اللغة. وقال الزجاج: أنه كذلك عند جميع أهل اللغة. وقال الفراء: هما بمعنى واحد في المرض، والعدو. ووافقه على ذلك أبو عمرو الشيباني فقال: حصرني الشيء، وأحصرني، أي: حبسني. وبسبب هذا الاختلاف بين أهل اللغة اختلف أئمة الفقه في معنى الآية، فقالت الحنفية: المحصر من يصير ممنوعاً من مكة بعد الإحرام بمرض، أو عدو، أو غيره. وقالت الشافعية، وأهل المدينة المراد بالآية حصر العدو. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن المحصر بغير محل حيث أحصر، وينحر هديه إن كان ثم هدي، ويحلق رأسه، كما فعل النبي ﷺ هو، وأصحابه في الحديبية. وقوله: ﴿فما استيسر من الهدي﴾ «ما» في موضع رفع على الابتداء، أو الخبر، أي: فالواجب، أو فعليكم، ويحتمل أن يكون في موضع نصب، أي: فأنحروا، أو فاهدوا ما استيسر، أي: ما تيسر، يقال: يسر الأمر، واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب، والهدْيُ، والهدْيُ لغتان، وهما جمع هدية، وهي ما يهدى إلى البيت من بنته، أو غيرها. قال الفراء: أهل الحجاز وبني أسد يخفون الهدى، وتميم، وسفلى قيس يثقلون. قال الشاعر:

حلفت بربّ كعبة والمصلّى وأعناق الهدى مقلدات
قال: وواحد الهدى هدية، ويقال في جمع الهدى أهد. واختلف أهل العلم في المراد بقوله: ﴿فما استيسر﴾ فذهب الجمهور إلى أنه شاة. وقال ابن عمر، وعائشة، وابن الزبير: جمل، أو بقرة. وقال الحسن: أعلا الهدى بنته، وأوسطه بقرة، وأبناء شاة، وقوله: ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ هو خطاب لجميع الأمة من غير فرق بين محصر، وغير محصر، وإليه ذهب جمع من أهل العلم، وذهبت طائفة إلى أنه خطاب للمحصرين خاصة، أي: لا تحلوا من الإحرام حتى تعلموا أن الهدى الذي بعثتموه إلى الحرم قد بلغ محله، وهو الموضع الذي يحل فيه ذبحه. واختلفوا في تعيينه، فقال مالك، والشافعي: هو موضع الحصر اقتداء برسول الله ﷺ حيث أحصر في عام الحديبية. وقال أبو حنيفة: هو: الحرم لقوله تعالى: ﴿ثم محله﴾ إلى البيت العتيق [الحج: 33] وأجيب عن ذلك بأن

من الهدى ﴿قوله﴾: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الآية، أي: فمن لم يجد الهدى، إما لعدم المال، أو لعدم الحيوان، صام ثلاثة أيام في الحج. أي: في أيام الحج، وهي من عند شروعه في الإحرام إلى يوم النحر، وقيل: يصوم قبل يوم التروية يوماً، ويوم التروية، ويوم عرفة، وقيل: ما بين أن يحرم بالحج إلى يوم عرفة، وقيل: يصومهن من أول عشر ذي الحجة، وقيل: ما دام بمكة، وقيل: إنه يجوز أن يصوم الثلاث قبل أن يحرم. وقد جوز بعض أهل العلم صيام أيام التشريق لمن لم يجد الهدى، ومنعه آخرون. قوله: ﴿وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قرأه الجمهور بخفض سبعة، وقرأ زيد بن علي، وابن أبي عتبة بالنصب على أنه معمول بفعل مقتر، أي: وصوموا سبعة، وقيل: على أنه معطوف على ثلاثة؛ لأنها وإن كانت مجرورة لفظاً، فهي في محل نصب كأنه قيل: فصيام ثلاثة. والمراد بالرجوع هنا: الرجوع إلى الأوطان. قال أحمد، وإسحاق: يجزيه الصوم في الطريق، ولا يتضيق عليه الوجوب إلا إذا وصل وطنه، وبه قال الشافعي، وقتادة، والربيع، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وغيرهم. وقال مالك: إذا رجع من منى، فلا بأس أن يصوم، والأول أرجح. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر أنه قال ﷺ: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ، فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ فبين ﷺ أن الرجوع المذكور في الآية هو: الرجوع إلى الأهل. وثبت أيضاً في الصحيح من حديث ابن عباس بلفظ: «وسبعة إذا رجعتكم إلى أمصاركم» وإنما قال سبحانه: ﴿ثَلَاثَ عَشْرَةَ كَامِلَةً﴾ مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة، والسبعة عشرة، لنفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الأيام في الحج، والسبعة إذا رجع. قاله الزجاج. وقال المبرد: نكر ذلك ليدل على انقضاء العدة لثلاث يتوهم متوهم أنه قد بقي منه شيء بعد نكر السبعة، وقيل هو: تأكيد كما تقول كتبت بيدي. وقد كانت العرب تأتي بمثل هذه الفعلة فيما نون هذا العدة، كقول الشاعر:

ثلاث واثنتان فهن خمس وساسة تميل إلى سهامي
وكذا قول الآخر:

ثلاث بالسعداد وذاك حسبي وست حين يدركني العشاء
فنلك تسعة في اليوم ري وشرب المرء فوق السري داء
وقوله: ﴿كَامِلَةً﴾ تأكيد آخر بعد الفذلة لزيادة التوصية بصيامها، وأن لا ينقص من عددها، وقوله: ﴿ثَلَاثَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الإشارة بقوله: ﴿ثَلَاثَ﴾. قيل: هي راجعة إلى التمتع، فتلد على أنه لا متعة لحاضري المسجد الحرام كما يقوله أبو حنيفة، وأصحابه، قالوا: ومن تمتع منهم كان عليه دم، وهو دم جنابة لا يأكل منه، وقيل: إنها راجعة إلى الحكم، وهو وجوب الهدى، والصيام، فلا يجب ذلك على من كان من حاضري المسجد الحرام، كما يقوله الشافعي، ومن وافقه. والمراد بمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام: من لم يكن ساكناً في الحرم، أو من لم يكن ساكناً في المواقيت، فما نونها على الخلاف

المخاطب به هو الأمن الذي يمكنه الوصول إلى البيت. وأجاب الحنفية عن نحره ﷺ في الحديبية بأن طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة هو من الحرم، ورد بأن المكان الذي وقع فيه النحر ليس هو من الحرم. قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ الآية، المراد بالمرض هنا ما يصنق عليه مسمى المرض لغف. والمراد بالأذى من الرأس: ما فيه من قمل، أو جراح، ونحو ذلك، ومعنى الآية: أن من كان مريضاً، أو به أذى من رأسه، فحلق فعليه فدية. وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام، والصنقة، والنسك، فثبت في الصحيح: «أن رسول الله رأى كعب بن عجرة، وهو محرم، وقمله يتساقط على وجهه، فقال: أيؤذيك هوام رأسك؟ قال: نعم، فأمره أن يحلق، ويطعم ستة مساكين، أو يهدي شاة، أو يصوم ثلاثة أيام». وقد ذكر ابن عبد البر أنه لا خلاف بين العلماء أن النسك هنا هو: شاة. وحكي عن الجمهور أن الصوم المذكور في الآية ثلاثة أيام، والإطعام لسته مساكين. وروي عن الحسن، وعكرمة، ونافع أنهم قالوا: الصوم في فدية الأذى عشرة أيام، والإطعام عشرة مساكين. والحديث الصحيح المتقدم يرد عليهم، ويبطل قولهم. وقد ذهب مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابهم، ودادوا إلى أن الإطعام في ذلك مدان بعد النبي ﷺ أي: لكل مسكين، وقال الثوري نصف صاع من بر، أو صاع من غيره. وروي ذلك عن أبي حنيفة. قال ابن المنذر: وهذا غلط؛ لأن في بعض أخبار كعب أن النبي ﷺ قال له: تصدق بثلاثة أصوع من تمر على ستة مساكين. واختلفت الرواية عن أحمد بن حنبل، فروي عنه مثل قول مالك، والشافعي، وروي عنه أنه إن أطعم برّاً، فمد لكل مسكين، وإن أطعم تمرّاً، فنصف صاع. واختلفوا في مكان هذه الفدية، فقال عطاء: ما كان من دم، بمكة، وما كان من طعام، أو صيام، فحيث شاء. وبه قال أصحاب الرأي. وقال طاوس، والشافعي: الإطعام، والدم لا يكونان إلا بمكة، والصوم حيث شاء. وقال مالك، ومجاهد: حيث شاء في الجميع، وهو: الحق لعدم الدليل على تعيين المكان. قوله: ﴿فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: برأتكم من المرض، وقيل: من خوفكم من العدو على الخلاف السابق، ولكن الأمن من العدو أظهر من استعمال أمنتكم في ذهاب المرض، فيكون مقوياً لقول من قال إن قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ المراد به: الإحصار من العدو، كما أن قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ يقوِّي قول من قال بذلك لإفراد عذر المرض بالذكر. وقد وقع الخلاف هل المخاطب بهذا هم المحصورون خاصة لم جميع الأمة على حسب ما سلف، والمراد بالتمتع المذكور في الآية: أن يحرم الرجل بعمره، ثم يقيم حالاً بمكة إلى أن يحرم بالحج، فقد استباح بذلك ما لا يحل للمحرم استباحته، وهو معنى: تمتع واستمتع. ولا خلاف بين أهل العلم في جواز التمتع، بل هو عندي أفضل أنواع الحج كما حررته في شرحي على المنتقى. وقد تقدّم الخلاف في معنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ

في تلك بين الأئمة. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما فرضه عليكم في هذه الأحكام، وقيل: هو أمر بالتقوى على العموم، وتحذير من شدة عقاب الله سبحانه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الدلائل، وابن عبد البر في التمهيد، عن يعلى بن أمية قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة، وعليه جبة، وعليه أثر خلوق، فقال: كيف تأمرني يا رسول الله أن أصنع في عمرتي؟ فأنزل الله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْعَمْرَةَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: أين السائل عن العمرة؟ فقال: ها أنذا، قال: اخلع الجبة، واغسل عنك أثر الخلوق، ثم ما كنت صانعاً في حجك، فاصنعه في عمرتك». وقد أخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديثه، ولكن فيهما أنه نزل عليه ﷺ الوحي بعد السؤال، ولم يذكر ما هو الذي أنزل عليه. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علي في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْعَمْرَةَ﴾ قال: أن تحرم من نويرة أمك. وأخرج ابن عدي، والبيهقي مثله من حديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: من تأمهما أن يفرد كل واحد منهما عن الآخر، وإن يعتمر في غير أشهر الحج. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمره العقبة، وزار البيت، فقد حل، وتمام العمرة إذا طاف بالبيت، وبالصفا، والمروة، فقد حل. وقد ورد في فضل الحج، والعمره أحاديث كثيرة ليس هذا موطن لنكرها. ولخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ يقول: من أحرم بحج، أو عمره، ثم حبس عن البيت بمرض يجده، أو عتو يحبس، فعليه نبح ما استيسر من الهدى شاة فما فوقها، وإن كانت حجة الإسلام، فعليه قضاؤها، وإن كانت بعد حجة الفريضة، فلا قضاء عليه، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ يقول: الرجل إذا أهل بالحج، فأحصر بعث بما استيسر من الهدى، فإن كان عجل قبل أن يبلغ الهدى محله، فحلق رأسه، أو مس طيباً، أو تدأوى بدواء، كان عليه فدية من صيام، أو صدقة، أو نسك، فالصيام ثلاثة أيام، والصدقة ثلاثة أصع على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع، والنسك شاة ﴿فَإِذَا أَمَنْتُمْ﴾ يقول: فإذا برئ، فمضى من وجهه ذلك إلى البيت أحل من حجته بعمره، وكان عليه الحج من قابل، فإن هو رجع، ولم يتم من وجهه ذلك إلى البيت كان عليه حجة، وعمره، فإن هو رجع متمتعاً في أشهر الحج كان عليه ما استيسر من الهدى شاة، فإن هو لم يجد، فصيام ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع. قال إبراهيم: فنكرت هذا الحديث لسعيد بن جبيرة فقال: هكذا قال ابن عباس في هذا الحديث كله. وأخرج مالك، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن علي في قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: شاة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي

شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس مثله. وأخرج الشافعي في الأم، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: بقرة، أو جزور؛ قيل: أو ما يكفيه شاة؟ قال: لا. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن ابن عباس قال في تفسير: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ ما يجد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: إن كان موسراً، فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق القاسم، عن عائشة، وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدى إلا من الإبل، والبقر. وكان ابن عباس يقول: ما استيسر من الهدى شاة. وأخرج الشافعي في الأم، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لا حصر إلا حصر العلو، فأما من أصابه مرض، أو وجع، أو ضلال، فليس عليه شيء، إنما قال الله: ﴿فَإِذَا أَمَنْتُمْ﴾ فلا يكون الأمن إلا من الخوف، وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عمر قال: لا إحصار إلا من عتو. وأخرج أيضاً، عن الزهري نحوه. وأخرج أيضاً، عن عطاء قال: لا إحصار إلا من مرض، أو عتو، أو أمر حادث. وأخرج أيضاً، عن عروة قال: كل شيء حبس المحرم، فهو إحصار. وأخرج البخاري، عن المسود أن رسول الله ﷺ نحر قبل أن يحلق، وأمر أصحابه بذلك. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ الآية. وأخرج الترمذي، وابن جرير، عن كعب بن عجرة قال: لقي نزلت، وإياي عني بها ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ يعني من اشتد مرضه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر عنه. قال: يعني بالمرض أن يكون برأسه أذى، أو قروح، أو به أذى من رأسه، قال: الأذى: هو القمل. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: النسك المذكور في الآية شاة. وروي أيضاً، عن علي مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ يقول: من أحرم بالعمره في أشهر الحج. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أن ابن الزبير كان يقول: إنما المتعة لمن أحصر، وليست لمن خلى سبيله. وقال ابن عباس: هي لمن أحصر، ومن خلى سبيله. وأخرج ابن جرير، عن علي في قوله: ﴿فَإِذَا أَمَنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ قال: فإن أخر العمره حتى يجمعها مع الحج، فعليه الهدى. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ قال: قبل

بالحج قبلها أحل بعمره، ولا يجزيه عن إحرام الحج، كمن نخل في صلاة قبل وقتها، فإنها لا تجزيه. وقال أحمد، وأبو حنيفة: إنه مكروه فقط. وروي نحوه عن مالك، والمشهور عنه جواز الإحرام بالحج في جميع السنة من غير كراهة. وروي مثله عن أبي حنيفة. وعلى هذا القول ينبغي أن ينظر في فائدة توقيت الحج بالأشهر المذكورة في الآية. وقد قيل: إن النص عليها لزيادة فضلها. وقد روي القول بجواز الإحرام في جميع السنة عن إسحاق بن راهويه، وإبراهيم النخعي، والثوري، والليث بن سعد، واحتج لهم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189] فجعل الأهلة كلها مواقيت للحج، ولم يخص الثلاثة الأشهر، ويجاب بأن هذه الآية عامة، وتلك خاصة، والخاص مقدم على العام. ومن جملة ما احتجوا به القياس للحج على العمرة، فكما يجوز الإحرام للعمرة في جميع السنة، كذلك يجوز للحج، ولا يخفى أن هذا القياس مصادم للنص القرآني، فهو باطل، فالحق ما ذهب إليه الأولون إن كانت الأشهر المذكورة في قوله: ﴿الحج أشهر﴾ مختصة بالثلاثة المذكورة بنص، أو إجماع، فإن لم يكن كذلك، فالأشهر جمع شهر، وهو من جموع القلة يتردد ما بين الثلاثة إلى العشرة، والثلاثة هي المتيقنة، فيجب الوقوف عندها، ومعنى قوله: ﴿معلومات﴾ أن الحج في السنة مرة واحدة في أشهر معلومات من شهورها ليس كالعمرة، أو المراد معلومات ببيان النبي ﷺ، أو معلومات عند المخاطبين لا يجوز التقدم عليها، ولا التأخر عنها، قوله: ﴿فمن فرض فيهنّ للحج﴾ أصل الفرض في اللغة: الحرّ والقطع، ومنه فرضة القوس، والنهر، والجبل، وفرضية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحرّ للقوس، وقيل معنى فرض: إبان، وهو أيضاً يرجع إلى القطع؛ لأن من قطع شيئاً فقد إبان عن غيره. والمعنى في الآية: فمن ألزم نفسه فيهنّ الحج بالشروع فيه بالنية قصداً باطناً، وبالإحرام فعلاً ظاهراً، وبالتلبية نطقاً مسموعاً. وقال أبو حنيفة: إن إلزامه نفسه يكون بالتلبية، أو بتقليد الهدي، وسوقه، وقال الشافعي: تكفي النية في الإحرام بالحج. والرفث قال ابن عباس، وابن جبير، والسدي، وقتادة، والحسن، وعكرمة، والزهري، ومجاهد، ومالك: هو الجماع. وقال ابن عمر، وطاوس، وعطاء، وغيرهم: الرفث: الإفحاش بالكلام. قال أبو عبيدة: الرفث: اللغاء من الكلام، وأنشد:

وربّ أسراب حجيح كظم عن اللغا ورفث التكلم
يقال رفث يرفث بكسر الفاء، وضمها. والفسوق: الخروج عن حدود الشرع؛ وقيل: هو الذبح للأصنام، وقيل: التنازع بالالقباب؛ وقيل: السباب. والظاهر أنه لا يختص بمعصية معينة، وإنما خصصه من خصصه بما نكر باعتباره أنه قد أطلق، على ذلك الفرد اسم الفسوق، كما قال سبحانه في الذبح للأصنام ﴿أو فسقاً أهلّ لغير الله به﴾ [الأنعام: 145]. قال في التنازع: ﴿بئس الاسم الفسوق﴾ [الحجرات: 11].

التروية يوم، ويوم التروية، ويوم عرفة، فإن فاتته صامهنّ أيام التشريق. وأخرج هؤلاء إلا ابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عمر مثله إلا أنه قال: وإذا فاته صام أيام منى، فإنهنّ من الحج. وأخرج ابن جرير، والدارقطني، والبيهقي، عن ابن عمر نحوه مرفوعاً. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علقمة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: الصيام للمتمتع ما بين إحرامه إلى يوم عرفة. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: إذا لم يجد المتمتع بالعمرة هدياً، فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، وإن كان يوم عرفة الثالث، فقد تمّ صومه، وسبعة إذا رجع إلى أهله. وأخرج الدارقطني عن عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لم يكن معه هدي، فليصم ثلاثة أيام قبل يوم النحر، ومن لم يكن صام تلك الثلاثة الأيام، فليصم أيام التشريق». وأخرج أيضاً عن عبد الله بن حذافة: «أن رسول الله ﷺ أمره في رطه أن يطوفوا في منى في حجة الوداع، فينابوا: إن هذه أيام أكل، وشرب، وذكر الله، فلا نصوم فيهنّ إلا صوماً في هدي». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن عطاء في قوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قال: ست قريات: عرفة، وعرة، والرجيع والنخلتان، ومز الظهران، وضجتان، وقال مجاهد: هم أهل الحرم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس. قال:

هم أهل الحرم. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عمر مثله.
الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ رَزَقَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفْتَ وَلَا سُوءَ
وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَمَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَمَسَّكَ اللَّهُ وَكَسَّرُوا فَارَكَ
خَيْرَ آرَافٍ أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا بِأَوَّلِي الْأَنْبِيَاءِ ﷺ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا
اللَّهَ عِنْدَ الْمَشَارِقِ وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ
بَيْتِهِ لَيْنَ الْمَسَاكِينِ ﷻ

قوله: ﴿الحج أشهر﴾ فيه حذف، والتقدير: وقت الحج أشهر، أي: وقت عمل الحج، وقيل التقدير: الحج في أشهر، وفيه أنه يلزم النصب مع حذف حرف الجر لا الرفع. قال الفراء: الأشهر رفع؛ لأن معناه وقت الحج أشهر معلومات، وقيل التقدير: الحج حج أشهر معلومات. وقد اختلف في الأشهر المعلومات، فقال ابن مسعود، وابن عمر، وعطاء، والربيع، ومجاهد، والزهري: هي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة كله، وبه قال مالك. وقال ابن عباس، والسدي، والشعبي، والنخعي: هي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد، وغيرهم. وقد روي أيضاً عن مالك. ويظهر فائدة الخلاف في ما وقع من أعمال الحج بعد يوم النحر، فمن قال إن ذا الحجة كله من الوقت لم يلزمه دم التأخير، ومن قال ليس إلا العشر منه قال يلزم دم التأخير. وقد استدلل بهذه الآية من قال إنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهر الحج، وهو عطاء، وطاوس، ومجاهد، والأوزاعي، والشافعي، وأبو ثور قالوا: فمن أحرم

الزبير قال: الإهلال. وأخرج عنه ابن المنذر، والدارقطني، والبيهقي قال: فرض الحج الإحرام. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الفرض الإهلال. وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين. وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج من أجل قول الله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن خزيمة، والحاكم وصححه، والبيهقي عنه نحوه. وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي شيبة، وابن مردويه، والبيهقي عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج». وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فلا رفث، ولا فسوق، ولا جدال في الحج﴾. قال: الرفث: التعريض للنساء بالجماع، والفسوق: المعاصي كلها، والجدال: جدال الرجل صاحبه. وأخرج ابن مردويه، والأصبهاني في الترهيب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «فلا رفث: لا جماع، ولا فسوق: المعاصي والكذب». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد ابن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه من طرق عن ابن عباس في الآية قال: الرفث الجماع، والفسوق: المعاصي، والجدال: المراء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال: الرفث: غشيان النساء، والفسوق: السباب، والجدال: المراء. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي عنه نحوه. وروي نحو ما تقدم عن جماعة من التابعين بعبارة مختلفة، وأخرج عبد بن حميد، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزوّجون، ويقولون: نحن متزوّجون، ثم يقدمون، فيسألون الناس، فأنزل الله: ﴿وتزوّبوا فإن خير الزاد للتقوى﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: كان ناس يخرجون من أهلهم ليست معهم أزودة يقولون: نحج بيت الله، ولا يطعمنا؟ فنزلت الآية. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عمر قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها، واستأنفوا زادا آخر، فأنزل الله: ﴿وتزوّبوا فإن خير الزاد للتقوى﴾. فنهوا عن ذلك، وأمروا أن يتزوّبوا الكعك، والقيق، والسويق. وأخرج الطبراني عن ابن الزبير قال: كان الناس يتوكل بعضهم على بعض في الزاد، فأمرهم الله، أن يتزوّبوا. وقد روي عن جماعة من التابعين مثل ما تقدم عن الصحابة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير عن ابن عباس قال: كانوا يتقون البيوع، والتجارة في الموسم، والحج، ويقولن أيام نكر الله، فنزلت: ﴿ليس عليكم جناح﴾ الآية. وقد أخرج نحوه عنه البخاري، وغيره. وأخرج عبد بن حميد، وعبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن جرير،

وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي، عن أبي أمامة التميمي قال: قلت لابن عمر: إنا أناس نكري، فهل لنا من حج؟ قال: ليس تطوفون بالبيت، وبين الصفا والمروة، وتأتون المعرف، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قلت: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الذي سألتني عنه، فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فدعا النبي ﷺ، فقرأ عليه الآية، وقال: أنتم حجاج. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ في مواسم الحج. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن الزبير أنه قرأها كما قرأها ابن عباس. وأخرج ابن أبي داود في المصاحف: أن ابن مسعود قرأها كذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: إنما سمي عرفات؛ لأن جبريل كان يقول لإبراهيم عليه السلام حين رأى المناسك عرفت. وأخرج مثله ابن أبي حاتم، عن ابن عمر. وأخرج مثله عبد الرزاق، وابن جرير، عن علي. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر أنه سئل، عن المشعر الحرام، فسكت، حتى إذا هبطت أيدي الرواحل بالمزلفة قال: هذا المشعر الحرام. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أنه قال: المشعر الحرام: المزلفة كلها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عنه قال: هو: الجبل، وما حوله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس مثله، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه قال: ما بين الجبلين الذي بجمع مشعر. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن الزبير في قوله: ﴿وانكروه كما هداكم﴾ قال: ليس هذا بعام، هذا لأهل البلد كانوا يفيضون من جمع، ويفيض سائر الناس من عرفات، فأبى الله لهم ذلك، فأنزل: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ [البقرة: 199] وأخرج عبد بن حميد، عن سفيان في قوله: ﴿وان كنتم من قبله﴾ قال: من قبل القرآن. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وان كنتم من قبله لمن الضالين﴾ قال لمن الجاهلين.

ثُمَّ أَيْسُرُوا مِنْ حَيْثُ أَكْأَسَ الْكَأَسُ وَأَسْتَسْرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْهَادَكُمْ فَالْأَخْذُ مِنْ حَلَقٍ مِّنَ الْكَأَسِ مَنْ يَكُولْ رَيْثًا فَإِنَّا فِي الْأَخْذِ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمَنْ يَكُولْ رَيْثًا فَإِنَّا فِي الْأَخْذِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آدَبَ الْكَاذِبَ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَكَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّتَدَوْنَ فِيهَا يَوْمَئِذٍ تَكُنْ لَهُمْ صُفُوفٌ فَاصَّةٌ أَفَمِنْ دُونِهَا تُنْتَصَرُونَ فَكَلا إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ قَاتِلُونَ فَاقْتُلُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَى اللَّهِ مُعْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ قِيلَ: الْخُطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ لِلْحَمْسِ مِنْ

بين اللازم، والمتعدي. وقوله: ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الثاني ﴿لهم نصيب من﴾ جنس ﴿ما كسبوا﴾ من الأعمال أي: من ثوابها، ومن جملة أعمالهم الدعاء، فما أعطاهم الله بسببه من الخير، فهو مما كسبوا، وقيل: إن معنى قوله: ﴿مما كسبوا﴾ التعليل. أي: من أجل ما كسبوا، وهو بعيد، قيل إن قوله: ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريقين جميعاً، أي: للأولين نصيب من الدنيا، ولا نصيب لهم في الآخرة، وللآخرين نصيب مما كسبوا في الدنيا، وفي الآخرة. وسريع من سرع يسرع كعظم يعظم سرعاً، وسرعة، والحساب مصدر كالمحاسبة، وأصله العند، يقال: حسب يحسب حساباً، وحساباً، وحسباناً، وحسباً. والمراد هنا المحسوب، سمي حساباً تسمية للمفعول بالمصدر، والمعنى: أن حسابه لعباده في يوم القيامة سريع مجيئه، فبادروا ذلك بأعمال الخير، أو أنه وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عندهم، وأنه لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسبهم في حالة واحدة كما قال تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ [لقمان: 28]، وقوله: ﴿في أيام معدودات﴾ قال القرطبي: لا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي: أيام منى، وهي أيام التشريق، وهي أيام رمي الجمار. وقال الثعلبي: قال إبراهيم: الأيام المعدودات أيام العشر، والأيام المعلومات أيام النحر. وكذا روي عن مكي، والمهدي. قال القرطبي: ولا يصح لما نكرناه من الإجماع على ما نقله أبو عمر بن عبد البر، وغيره وروى الطحاوي عن أبي يوسف أن الأيام المعلومات أيام النحر، قال: لقوله تعالى: ﴿ويذكروا الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ [الحج: 28] وحكى الكرخي عن محمد بن الحسن أن الأيام المعلومات أيام النحر الثلاثة: يوم الأضحي، ويومان بعده، قال الكيا الطبري: فعلى قول أبي يوسف، ومحمد لا فرق بين المعلومات، والمعدودات، لأن المعدودات المذكورة في القرآن أيام التشريق بلا خلاف. وروي عن مالك أن الأيام المعلومات، والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام، يوم النحر، وثلاثة أيام بعده، فيوم النحر معلوم غير معدود، واليومان بعده معلومان معدودان، واليوم الرابع معدود لا معلوم، وهو مروي عن ابن عمر. وقال ابن زيد: الأيام المعلومات: عشر ذي الحجة، وأيام التشريق. والمخاطب بهذا الخطاب المتكور في الآية، أعني قوله تعالى: ﴿وانكروا الله في أيام معدودات﴾ هو الحاج، وغيره كما ذهب إليه الجمهور، وقيل: هو خاص بالحاج. وقد اختلف أهل العلم في وقته، فقيل: من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق، وقيل: من غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر النحر، وبه قال أبو حنيفة، وقيل: من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وبه قال مالك، والشافعي، وقوله: ﴿فمن تعجل﴾ الآية، اليومان هما يوم ثاني النحر، ويوم ثالث. وقال ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والنخعي: من

قريش، لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات. بل كانوا يقفون بالمزلفة، وهي من الحرم، فأمرؤا بذلك، وعلى هذا تكون، ثم لعطف جملة على جملة لا للترتيب. وقيل: الخطاب لجميع الأمة، والمراد بالناس إبراهيم، أي: ثم أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم، فيحتمل أن يكون أمراً لهم بالإفاضة من عرفة. ويحتمل أن يكون إفاضة أخرى، وهي التي من المزلفة، وعلى هذا تكون، ثم على بابها أي: للترتيب، وقد رجح هذا الاحتمال الأخير ابن جرير الطبري، وإنما أمرؤا بالاستغفار؛ لأنهم في مساقط الرحمة، ومواطن القبول، ومظنات الإجابة، وقيل: إن المعنى استغفروا للذي كان مخالفاً لسنة إبراهيم، وهو: وقوفكم بالمزلفة بون عرفة، والمراد بالمناسك: أعمال الحج، ومنه قوله: ﴿خذوا عني مناسككم﴾ أي: فإذا فرغتم من أعمال الحج، فانكروا الله، وقيل المراد: بالمناسك الثبائح، وإنما قال سبحانه: ﴿كنكركم﴾ لأن العرب كانوا إذا فرغوا من حجهم يقفون عند الجمرة، فيذكرون مفلخر آبائهم، ومناقب أسلافهم، فأمرهم الله بذكره مكان ذلك النكر، ويجعلونه نكراً مثل نكرهم لأبائهم، أو أشد من نكرهم لأبائهم. قال الزجاج: إن قوله: ﴿أو أشد﴾ في موضع خفض عطف على نكرهم، والمعنى، أو كأشد نكراً، ويجوز أن يكون في موضع نصب: أي انكروه أشد نكراً. وقال في الكشف: إنه عطف على ما أضيف إليه النكر في قوله: ﴿كنكركم﴾ كما تقول كنكر قريش آباهم، أو قوم أشد منهم نكراً. وقوله: ﴿فمن الناس من يقول﴾ الآية، لما أرشد سبحانه عباده إلى نكره، وكان الدعاء نوعاً من أنواع النكر جعل من يدعو متقسماً إلى قسمين: أحدهما يطلب حظ الدنيا، ولا يلتفت إلى حظ الآخرة، والقسم الآخر يطلب الأمرين جميعاً، ومفعول الفعل، أعني قوله: ﴿فمن﴾ محذوف أي: ما تريد، أو ما تطلب، والواو في قوله: ﴿وما له﴾ أو الحال، والجملة بعدها حالية. والخلاق: النصيب، أي: وما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب؛ لأن همه مقصور على الدنيا لا يريد غيرها، ولا يطلب سواها. وفي هذا الخبر معنى النهي عن الاقتصاد على طلب الدنيا، والذم لمن جعلها غاية رغبته، ومعظم مقصوده. وقد اختلف في تفسير الحسنتين المذكورتين في الآية، فقيل: هما ما يطلبه الصالحون في الدنيا من العاقبة، وما لا بدّ منه من الرزق، وما يطلبونه في الآخرة من نعيم الجنة والرضا؛ وقيل المراد بحسنة الدنيا: الزوجة الحسنة، وحسنة الآخرة: الحور العين، وقيل حسنة الدنيا: العلم والعبادة، وقيل غير ذلك. قال القرطبي: والذي عليه أكثر أهل العلم أن للمراد بالحسنتين: نعيم الدنيا والآخرة. قال: وهذا هو الصحيح، فإن اللفظ يقتضي هذا كله، فإن حسنة نكرة في سياق الدعاء، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البذل، وحسنة الآخرة: الجنة بإجماع. انتهى. قوله: ﴿وقنا﴾ أصله أوقنا حنفت الواو، كما حنفت في يقي؛ لأنها بين ياء، وكسرة مثل يعد، هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: حنفت فرقاً

عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا ينكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ويجئ بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون ﴿وَرَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فأنزل الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وأخرج الطبراني، عن عبد الله بن الزبير قال: كان الناس في الجاهلية إذا وقفوا عند المشعر الحرام دعوا، فقال أحدهم: اللهم ارزقني إبلاً، وقال الآخر: اللهم ارزقني غنماً، فأنزل الله الآية. وأخرج ابن جرير، عن أنس أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراً، فيدعون: اللهم اسقنا المطر، وأعطينا على عدونا الظفر، وربنا صالحين إلى صالحين، فنزلت الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ قال: مما عملوا من الخير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قال: سريع الإحصاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، عن علي قال: الأيام المعدودات ثلاثة أيام: يوم الأضحى، ويومان بعده، أتبع في أيها شئت، وأفضلها أولها. وأخرج الفريابي، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، عن ابن عمر أنها أيام التشريق الثلاثة. وفي لفظ: هذه الأيام الثلاثة بعد يوم النحر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والضياء في المختارة، عن ابن عباس قال: الأيام المعلومات أيام العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق. وأخرج الطبراني، عن ابن الزبير قال في قوله: ﴿وَأَنكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قال: هنّ أيام التشريق، ينكر فيهنّ بتسبيح، وتهليل، وتكبير، وتحميد، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الأيام المعدودات أربعة أيام: يوم النحر، والثلاثة أيام بعده. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر أنه كان يكبر تلك الأيام بمنى، ويقول التكبير واجب، ويتأول هذه الآية: ﴿وَأَنكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أنه كان يكبر يوم النحر، ويتلو هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿وَأَنكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قال: التكبير أيام التشريق، يقول في بذر كل صلاة: الله أكبر الله أكبر الله أكبر. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عمر أنه كان يكبر ثلاثاً ثلاثاً وراء الصلوات ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وأخرج المروزي عن الزهري قال: كان رسول الله ﷺ يكبر أيام التشريق كلها. وأخرج مالك، عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن عمر بن الخطاب خرج الغد من يوم النحر بمنى حين ارتفع النهار شيئاً، فكبر، وكبر الناس بتكبيره، ثم خرج الثانية في يومه ذلك بعد ارتفاع النهار، فكبر، وكبر الناس بتكبيره حتى بلغ تكبيرهم البيت، ثم خرج الثالثة من يومه ذلك حين زافت الشمس، فكبر، وكبر الناس بتكبيره. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ كان

رمى في اليوم الثاني من الأيام المعدودات، فلا حرج، ومن تأخر إلى الثالث، فلا حرج، فمعنى الآية كل ذلك مباح، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماماً، وتأكيداً؛ لأن من العرب من كان يذمّ التعجل، ومنهم من كان يذمّ التأخر، فنزلت الآية رافعة للجناح في كل ذلك. وقال علي، وابن مسعود: معنى الآية: من تعجل، فقد غفر له، ومن تأخر، فقد غفر له والآية قد دلت على أن التعجل، والتأخر مباحان. وقوله: ﴿لَمَنْ لَتَقَى﴾ معناه أن التخخير، ورفع الإثم ثابت لمن اتقى؛ لأن صاحب التقوى يتحرّز، عن كل ما يريبه، فكان أحقّ بتخصيصه بهذا الحكم. قال الأخفش: التقدير ذلك لمن اتقى، وقيل: لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصي، وقيل: لمن اتقى قتل الصيد؛ وقيل معناه: السلامة لمن اتقى، وقيل: هو متعلق بالذكر أي: الذكر لمن اتقى.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن عائشة قالت: «كانت قريش، ومن دان بدينها يقفون بالمزلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكانت سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات، ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾. وأخرجنا أيضاً، عنها موثقاً، نحوه. وقد ورد في هذا المعنى روايات، عن الصحابة، والتابعين. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: إذا كان يوم عرفة هبط الله إلى سماء الدنيا في الملائكة، فيقول لهم: عبادي آمنوا بوعدي، وصنّفوا برسلي ما جزأهم؟ فيقال أن تغفر لهم، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد وردت أحاديث كثيرة في المغفرة لأهل عرفة، ونزول الرحمة عليهم، وإجابة دعائهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ﴾ قال: حجكم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ﴾ قال: إهراق الدماء ﴿فَإَنكُرُوا اللَّهَ كَنُكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ قال: تفاخر العرب بينها بفعال آبائها يوم النحر حين يفرغون، فأمروا بذكر الله مكان ذلك. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: كان المشركون يجلسون في الحج، فينكرون أيام آبائهم، وما يعنون من أنسابهم يومهم أجمع، فأنزل الله على رسوله: ﴿فَإَنكُرُوا اللَّهَ كَنُكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ إِشْدَ نَكَرًا﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عن عبد الله بن الزبير نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبيرة، وعكرمة نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَنُكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ يقول: كما ينكر الابناء الآباء. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أيضاً أنه قيل له في قوله: ﴿كَنُكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ إن الرجل ليأتي عليه اليوم، وما ينكر أباه، فقال: إنه ليس بذلك، ولكن يقول: تغضب لله إذا عصي أشد من غضبك إذا نكر والدك بسوء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله

وقرأ أبي، وابن مسعود: «ويستشهد الله على ما في قلبه». وقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بالقول، أو بـ «يعجبك»، فعلى الأول القول صادر في الحياة، وعلى الثاني الإعجاب صادر فيها. والألف: الشديد الخصومة، يقال: رجل ألد، وامرأة لداء، ولديته ألد: إذا جالته، فغلته، ومنه قول الشاعر:

ولذي جنف علي كائنا نغلي عداوة صدره في مرجل
والخصام مصدر خاصم. قاله الخليل، وقيل: جمع خصم، قاله الزجاج ككلب، وكلاب، وصعب، وصعاب، وضخم، وضخام. والمعنى: أنه أشد المخاصمين خصومة، لكثرة جداله، وقوة مراجعته، وإضافة الألف إلى الخصام بمعنى في. أي: ألد في الخصام، أو جعل الخصام ألد على المبالغة. وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أي: أوبر، وذهب عنك يا محمد، وقيل: إنه بمعنى ضل، وغضب، وقيل: إنه بمعنى الولاية، أي: إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاية السوء من الفساد في الأرض. والسعي المذكور يحتمل أن يكون المراد به السعي بالقدمين إلى ما هو فساد في الأرض، كقطع الطريق، وحرب المسلمين، ويحتمل أن يكون المراد به العمل في الفساد، وإن لم يكن فيه سعي بالقدمين، كالتبشير على المسلمين بما يضرهم، وأعمال الحيل عليهم، وكل عمل يعمل الإنسان بجوارحه، أو حواسه يقال له سعي، وهذا هو الظاهر من هذه الآية. وقوله: ﴿وَيَهْلِك﴾ عطف على قوله: ﴿يُفْسَدُ﴾ وفي قراءة أبي: «وليهلك». وقراء قتادة بالرفع. وروي عن ابن كثير: ﴿وَيَهْلِك﴾ بفتح الياء وضم الكاف، ورفع الحرت، والنسل، وهي قراءة الحسن، وابن محيصن. والمراد بالحرث: الذرع والنسل: الأولاد، وقيل الحرث: النساء. قال الزجاج: وذلك، لأن النفاق يؤدي إلى تفريق الكلمة، ووقوع القتال، وفيه هلاك الخلق، وقيل معناه: أن الظلم يفسد في الأرض، فيمسخ الله المطر، فيهلك الحرث، والنسل. وأصل الحرث في اللغة: الشق، ومنه المحراث لما يشق به الأرض، والحرث: كسب المال، وجمعه. وأصل النسل في اللغة: الخروج، والسقوط، ومنه نسل الشعر، ومنه أيضاً ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: 51] ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حُذُبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: 96]، ويقال لما خرج من كل انثنى نسل لخروجه منها. وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين، وما فيه فساد الدنيا. والعزة: القوة والغلبة، من عزه يعزه: إذا غلبه، ومنه ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: 23] وقيل: العزة هنا: الحمية، ومنه قول الشاعر:

أخذته عزة من جهله فتولى مغضباً فعل الضجر
وقيل العزة هنا: المنعة وشدة النفس. ومعنى: ﴿لَا تَخْذَلْهُ الْعِزَّةُ بِإِثْمِ﴾ حملته العزة على الإثم، من قولك أخذته بكذا: إذا حملته عليه، وألزمته إياه، وقيل: أخذته العزة بما يؤثمه أي: ارتكب الكفر للعزة، ومنه ﴿يَلِ اللّٰهُنَّ كُفْرًا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: 2] وقيل: الباء في قوله: ﴿بِإِثْمِ﴾ بمعنى اللام، أي: أخذته العزة، والحمية عن قبول الوعظ للإثم الذي

يرمي الجمار، ويكبر مع كل حصاة. وقد روي نحو ذلك من حديث عائشة عند الحاكم وصححه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ قال: في تعجيله: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ قال: في تأخيره. وأخرج ابن جرير، عن ابن عمر قال: النفر في يومين لمن اتقى. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه قال: من غابت له الشمس في اليوم الذي قال الله فيه: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وهو بمنى، فلا ينفر حتى يرمى الجمار من الغد، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمَنْ اتَّقَى﴾ قال: لمن اتقى الصيد، وهو محرم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأهل السنن، والحاكم وصححه، عن عبد الرحمن بن يعمر الليلي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا رسول الله كيف الحج؟ قال: الحج عرفات، فمن أدرك ليلة جمع قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك أيام منى ثلاثة أيام: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ قال: مغفوراً له: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ قال مغفوراً له. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لَمَنْ اتَّقَى﴾ قال: لمن اتقى في حجه. قال قتادة، ونكر لنا أن ابن مسعود كان يقول: من اتقى في حجه غفر له ما تقدم من ذنبه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ قال: ذهب إثمك كله إن اتقى فيما بقي من عمره.

وَمَنْ أَلَّاسِ مَنْ يُحِبُّكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ. وَهُوَ أَلَدُّ الْجَهَنَّمَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُنْفِذَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْمُرْتَكِبُ وَاللَّسْلُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقَ ﴿١٠١﴾ كَرَّارًا يَكُلُ لَهُ أَثَرُ اللَّهِ أَغْلَتَهُ أَوْرَثَهُ بِالْإِثْمِ تَحَسَّبُ بِهِمْ وَبِئْسَ الْيَمَادُ ﴿١٠٢﴾ وَمِنَ الْبَاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْكَاتٍ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْكَافِرِ ﴿١٠٣﴾

لما نكر سبحانه طائفتي المسلمين بقوله: ﴿فَمَنْ لِلنَّاسِ مِنْ يَقُولِ﴾ عقب ذلك بذكر طائفة المنافقين، وهم الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر. وسبب النزول الأخنس بن شريق كما يأتي بيانه. قال ابن عطية: ما ثبت قط أن الأخنس أسلم، وقيل إنها نزلت في قوم من المنافقين، وقيل: إنها نزلت في كل من أضمر كفرًا، أو نفاقًا، أو كذبًا، وأظهر بلسانه خلافه. ومعنى قوله: ﴿يُعْجِبُكَ﴾ واضح. ومعنى قوله: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أنه يحلف على ذلك فيقول: يشهد الله على ما في قلبي من محبتك، أو من الإسلام، أو يقول: الله يعلم أنني أقول حقًا، وأني صادق في قلبي لك. وقرأ ابن محيصن: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ﴾ بفتح حرف المضارعة، ورفع الاسم الشريف على أنه فاعل، والمعنى: ويعلم الله منه خلاف ما قال، ومثله قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1] وقراءة الجماعة أبلغ في الذم. وقرأ ابن عباس: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾

واللواب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أيضاً أنه سئل، عن قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يلي في الأرض، فيعمل فيها بالعدوان، والظلم، فيحبس الله بذلك القطر من السماء، فتهلك بحبس القطر الحرث، والنسل، والله لا يحب الفساد. ثم قرأ مجاهد: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: 41] الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿وَيَهْلِكُ الْحَرثُ وَالنَّسْلُ﴾ قال: الحرث الزرع، والنسل: نسل كل دابة. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود قال: «إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لأخيه: اتق الله، فيقول عليك بنفسك أنت تأمرني». وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في الشعب، عن سفيان قال: قال رجل لمالك بن مغول: اتق الله، فسقط، فوضع خده على الأرض تواضعاً لله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْبَيْتُ لِلْمَهَادِ﴾ قال: بيت المنزل. وأخرج ابن مسعود عن مجاهد قال: بيت ما شهدوا لأنفسهم. وأخرج ابن مريويه، عن صهيب قال: لما أريدت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا، ولا مال لك، وتخرج أنت، ومالك، والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرايتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي، فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ وسلم فقال: ربح البيع صهيب مرتين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساکر، عن سعيد بن المسيب، نحوه. وأخرج الطبراني، والحاكم، والبيهقي في الدلائل، عن صهيب، نحوه. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه، عن أنس قال: نزلت في خروج صهيب إلى النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: هم المهاجرون والانصار.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الْكَافِرِينَ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَإِنْ رَكَعْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٨﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْسَّمَاءِ وَكَلِيبَةٌ وَفُتِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

لما نكر الله سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، أمرهم بعد ذلك بالكون على ملة واحدة. وإنما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الإيمان؛ لأن أهل الكتاب مؤمنون بنبِيِّهم، وكتابهم، والمنافق مؤمن بلسانه، وإن كان غير مؤمن بقلبه. والسلم بفتح السين، وكسرهما قال الكسائي: ومعناها واحد، وكذا عند البصريين، وهما جميعاً يقعان للإسلام، والمسالمة. وقال أبو عمرو بن العلاء: إنه بالفتح للمسالمة، وبالكسر للإسلام. وأنكر المبرد هذه التفرقة. وقال الجوهري: السلم بفتح السين: الصلح، وتكسر، وينكر ويؤنث، وأصله من

في قلبه، وهو: النفاق، وقيل: الباء بمعنى مع. أي: أخذته العزة مع الإثم. وقوله: ﴿فَحَسْبِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافية معاقبة، وجزاء، كما تقول للرجل: كفك ما حل بك، وأنت تستعظم عليه ما حل به. والمهاد جمع المهد، وهو الموضع المهيأ للنوم، ومنه مهد الصبي، وسميت جهنم مهاداً؛ لأنها مستقر الكفار، وقيل المعنى: أنها بدل لهم من المهاد كقولهم ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21] وقول الشاعر:

تحية بينهم ضرب وجيع

ويشري بمعنى يبيع، أي: يبيع نفسه في مرضاة الله كالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومثله قوله تعالى: ﴿وَشَرُّهُ بَثْمَنٌ بِخَسٍ﴾ [يوسف: 20] وأصله الاستبدال ومنه قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: 111]، ومنه قول الشاعر: وشريت برداً ليتني من بعد برد كنت هامة ومنه قول الآخر:

يعطي بها ثمناً فيمنعها ويقول صاحبه ألا تشري والمرضاة: الرضا، تقول: رضي يرضى، رضا ومرضاة. ووجه نكر الرافة هنا أنه أوجب عليهم ما أوجبه ليجازيهم، ويثيبهم عليه، فكان ذلك رافة بهم، ولطفاً لهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لما أصيبت السرية التي فيها عاصم، ومروث قال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهلهم، ولا هم أتوا رسالة صاحبهم؟ فأنزل الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما يظهر من الإسلام بلسانه: ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أنه مخالف لما يقوله بلسانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامُ﴾ أي: نو جدال إذا كلمك وراجعك: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ خرج من عنك: ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ والله لا يحب الفساد: أي: لا يحب عمله، ولا يرضى به: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ الذين يشرون أنفسهم من الله بالجهاد في سبيله، والقيام بحقه، حتى هلكوا على ذلك يعني: هذه السرية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكَ﴾ الآية، قال: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة أقبل إلى النبي ﷺ المدينة، وقال جئت أريد الإسلام، ويعلم الله أنني لصديق، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، فنلك قوله: ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾. ثم خرج من عند النبي ﷺ، فمَرَّ بِزَرْعٍ لِقَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِمْرٍ، فَأَحْرَقَ الزَّرْعَ، وَعَقَرَ الْحِمْرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامُ﴾ قال هو: شديد الخصومة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ قال عمل في الأرض: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ﴾ قال نبات الأرض: ﴿وَالنَّسْلَ﴾ نسل كل شيء من الحيوان، الناس،

عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحقيقه؛ فكانه قد كان، أو جملة مستأنفة جيء بها للدلالة على أن مضمونها واقع لا محالة، أي: وفرغ من الأمر الذي هو إهلاكهم. وقرأ معاذ بن جبل: «وقضاء الأمر» بالمصدر عطفاً على الملائكة. وقرأ يحيى بن يعمر: «وقضى الأمور» بالجمع. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: «ترجع الأمور» على بناء الفعل للفاعل، وقرأ الباقر بن علي البناء للمفعول.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ قال: يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة، والشرائع التي أنزلت فيهم، يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد، ولا تدعوا منها شيئاً، وحسبكم الإيمان بالتوراة، وما فيها. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة: أن هذه الآية نزلت في ثعلبة، وعبد الله بن سلام، وابن يامين، وأسد، وأسيد ابني كعب، وسعيد بن عمرو وقيس بن زيد كلهم من يهود قالوا: يا رسول الله يوم السبت يوم كنا نعظمه فعدنا فلنسبت فيه، وإن التوراة كتاب الله، فلنقم بها الليل، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: السلم الطاعة لله، وكافة يقول: جميعاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: السلم: الإسلام، والزلل: ترك الإسلام. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ قال: فإن ظللتم من بعد ما جاءكم محمد ﷺ. وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين، والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصاً أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن عمر في هذه الآية قال: يهبط حين يهبط، وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب، منها النور، والظلمة، والماء، فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تخلع له القلوب. وأخرج أبو يعلى، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في هذه الآية قال: يأتي الله يوم القيامة في ظلل من السحاب قد قطعت طاقات. وأخرج ابن جرير، والديلمي عنه أن النبي ﷺ قال: «إن من الغمام طاقات يأتي الله فيها محفوفات بالملائكة، وذلك قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ قال: طاقات، والملائكة حوله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وتأتيهم الملائكة عند الموت. وأخرج عن عكرمة في قوله: ﴿وَقَضَى الْأَمْرَ﴾ يقول: قامت الساعة.

سَلِّ بِحَقِّ إِسْرَائِيلَ كَمَا أَتَيْتَهُمْ مِنْ آيَاتِهِ يَتَذَكَّرُ وَمَنْ يَذَكَّرْهُ يَخْشَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٦﴾ زَيْنَ اللَّيْلِ كَفَرُوا الْغَوْهُ أَلْبَانًا وَسَخَّرُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَأُولَئِكَ أَنْفَرُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

الاستسلام، والانقياد. ورجح الطبري أنه هنا بمعنى الإسلام، ومنه قول الشاعر الكندي:

دعوت عشريني للسلم لما رأيتهم تولوا مبشرين
أي: إلى الإسلام. وقرأ الأعمش: «السلم» بفتح السين، واللام. وقد حكى البصريون في سلم، وسلم، وسلم أنها بمعنى واحد: «وكافة» حال من السلم، أو من ضمير المؤمنين، فمعناه على الأول: لا يخرج منكم أحد، وعلى الثاني: لا يخرج من أنواع السلم شيء بل ادخلوا فيها جميعاً. أي: في خصال الإسلام، وهو مشتق من قولهم كففت، أي: منعت، أي: لا يمنع منكم أحد من الدخول في الإسلام، والكف: المنع، والمراد به هنا: الجميع ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ أي: جميعاً. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: لا تسلكوا الطريق التي يدعوكم إليه الشيطان، وقد تقدم الكلام على خطوات. قوله: ﴿زَلَلْتُمْ﴾ أي: تنحيتكم عن طريق الاستقامة، وأصل الزلل في القديم، ثم استعمل في الاعتقادات، والآراء، وغير ذلك، يقال زل يزل زلاً، وزلاً، وزلواً، أي: نحضت قدمه. وقرئ: ﴿زَلَلْتُمْ﴾ بكسر اللام، وهما لغتان، والمعنى: فإن ضللتم، وعزجتم عن الحق: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الحجج الواضحة، والبراهين الصحيحة، أن الدخول في الإسلام هو: الحق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعجزه الانتقام منكم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا ينتقم إلا بحق. قوله ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون، يقال: نظرت، وانتظرت به بمعنى، والمراد هل ينتظر التاركون للدخول في السلم، والظلل جمع ظلة، وهي ما يظلك، وقرأ قتادة، ويزيد بن القعقاع: «في ظلال» وقرأ يزيد أيضاً ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالجر عطفاً على الغمام، أو على ظلل. قال الأخفش: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالخفض بمعنى: وفي الملائكة قال: ورفع أجود. وقال الزجاج: التقدير في ظلل من الغمام، ومن الملائكة. والمعنى: هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم من الحساب، والعذاب في ظلل من الغمام، والملائكة. قال الأخفش: وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعاً إلى الجزاء، فسمي الجزاء إتياناً كما سمي التخويف، والتعذيب في قصة ثمود إتياناً، فقال ﴿فَأَتَى اللَّهَ بَنِيانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: 26] وقال في قصة النضير ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: 2] وإنما احتمل الإتيان هذا؛ لأن أصله عند أهل اللغة القصد إلى الشيء، فمعنى الآية: هل ينظرون إلا أن يظهر الله فعلاً من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى محاربتهم وقيل إن المعنى: يأتيهم أمر الله، وحكمه، وقيل: إن قوله: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ بمعنى بظلل، وقيل: المعنى: يأتيهم ببأسه في ظلل. والغمام: السحاب الرقيق الأبيض، سمي بذلك؛ لأنه يغم. أي: يستر. ووجه إتيان العذاب في الغمام على تقدير أن ذلك هو المراد ما في مجيء الخوف من محل الأمن من الفظاعة، وعظم الموقع؛ لأن الغمام مظنة الرحمة لا مظنة العذاب. وقوله: ﴿وَقَضَى الْأَمْرَ﴾ عطف على يأتيهم داخل في حيز الانتظار، وإنما

حَسَابٍ ﴿١٠٠﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ الْكَاسِيں فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

المأمور بالسؤال لبني إسرائيل هو النبي ﷺ، ويجوز أن يكون هو كل فرد من السائلين، وهو سؤال تقرير وتوبيخ. و﴿حكم﴾ في محل نصب بالفعل المذكور بعدها على أنها مفعول يأتي، ويجوز أن ينتصب بفعل مقترن دل عليه المذكور. أي: كم أتينا آياتناهم، وقد متاخراً؛ لأن لها صدر الكلام، وهي إما استفهامية للتقرير، أو خبرية للتكثير. و﴿ومن آية﴾ في موضع نصب على التمييز، وهي البراهين التي جاء بها أنبياءهم في أمر محمد ﷺ، وقيل: المراد بذلك الآيات التي جاء بها موسى، وهي التسع. والمراد بالنعمة هنا: ما جاءهم من الآيات. وقال ابن جرير الطبري: النعمة هنا الإسلام، والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على عبد من عباده كائناً من كان، فوقع منه التبديل لها، وعدم القيام بشكرها، ولا ينافي ذلك كون السياق في بني إسرائيل، أو كونهم السبب في النزول لما تقرّر من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفي قوله: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ من التهيب، والتخويف ما لا يقادر قدره. قوله: ﴿زين﴾ مبني للمجهول، والمزين: هو الشيطان، أو النفس المجبولة على حبّ العاجلة. والمراد بالذين كفروا: رؤساء قريش، أو كل كافر. وقرأ مجاهد، وحמיד بن قيس: «زين» على البناء للمعلوم. قال النحاس: وهي قراءة شاذة؛ لأنه لم يتقدم للفاعل ذكر. وقرأ ابن أبي عبيدة: «زينت» وإنما خص الذين كفروا بالذكر مع كون الدنيا مزية للمسلم، والكافر كما وصف سبحانه بأنه جعل ما على الأرض زينة لها ليلو الخلق أيهم أحسن عملاً؛ لأن الكافر افتتن بهذا للترزين، وأعرض عن الآخرة، والمسلم لم يفتتن به، بل أقبل على الآخرة. قوله: ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال. أي: والحال أن أولئك الكفار يسخرون من الذين آمنوا لكونهم فقراء لا حظّ لهم من الدنيا كحظ رؤساء الكفر، وإساطين الضلال، وذلك؛ لأن عرض الدنيا عندهم هو الأمر الذي يكون من ناله سعيداً رابحاً، ومن حرمة شقياً خاسراً. وقد كان غالب المؤمنين إذ ذاك فقراء لاشتغالهم بالعبادة، وأمر الآخرة، وعدم التفاتهم إلى الدنيا وزينتها. وحكى الأخفش أنه يقال: سخرت منه، وسخرت به، وضحكت منه، وضحكت به، وهزأت منه، وهزأت به، والاسم السخرية، والسخري. ولما وقع من الكفار ما وقع من السخرية بالمؤمنين ردّ الله عليهم بقوله: ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ والمراد بالفوقية هنا: العلوّ في الدرجة؛ لأنهم في الجنة، والكفار في النار، ويحتمل أن يراد بالفوق المكان؛ لأن الجنة في السماء، والنار في

أسفل سافلين، أو أن المؤمنين هم الغالبون في الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الإسلام، وسقوط الكفر، وقتل أهله، وأسره، وتشريدهم، وضرب الجزية عليهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه في يوم القيامة. قوله: ﴿وإنه يرزق من يشاء بغير حساب﴾ يحتمل أن يكون فيه إشارة إلى أن الله سبحانه سيرزق المستضعفين من المؤمنين، ويوسع عليهم، ويجعل ما يعطيهم من الرزق بغير حساب. أي: بغير تقدير، ويحتمل أن المعنى: أن الله يوسع على بعض عباده في الرزق، كما وسع على أولئك الرؤساء من الكفار استدراجاً لهم، وليس في التوسعة دليل على أن من وسع عليه، فقد رضي عنه، ويحتمل أن يراد بغير حساب من المرزوقين كما قال سبحانه: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق: 3]. قوله: ﴿كان للناس أمة واحدة﴾ أي: كانوا على دين واحد فاختلّفوا: ﴿فبعث الله النبيين﴾ ويدل على هذا المحذوف: أعني: قوله، فاختلّفوا قراءة ابن مسعود، فإنه قرأ ﴿كان للناس أمة واحدة فاختلّفوا فبعث الله النبيين﴾. واختلف في الناس المذكورين في هذه الآية من هم؟ فقيل: هم بنو آدم حين أخرجهم الله نساءً من ظهر آدم وقيل: آدم وحده، وسمي ناساً؛ لأنه أصل النسل، وقيل: آدم وحواء، وقيل: المراد: القرون الأولى التي كانت بين آدم ونوح، وقيل: المراد: نوح ومن في سفينته، وقيل: معنى: الآية كان الناس أمة واحدة كلهم كفار فبعث الله النبيين؛ وقيل: المراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم كانوا أمة واحدة في خلّوهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا أن الله منّ عليهم بإرسال الرسل، والأمة مأخوذة من قولهم أمت الشيء، أي: قصته، أي: مقصدهم واحد غير مختلف. قوله: ﴿فبعث الله النبيين﴾ قيل: جعلتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر. وقوله: ﴿مبشرين ومنذرين﴾ بالنصب على الحال. قوله: ﴿وانزل معهم الكتاب﴾ أي: الجنس. وقال ابن جرير الطبري: إن الألف واللام للعهد والمراد التوراة. وقوله: ﴿ليحكم﴾ مسند إلى الكتاب في قول الجمهور، وهو: مجاز مثل قوله تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ [الجاثية: 29] وقيل: إن المعنى ليحكم كل نبي بكتابه، وقيل: ليحكم الله، والضمير في قوله: ﴿فيه﴾ الأولى راجع إلى ما في قوله: ﴿فما اختلفوا فيه﴾ والضمير في قوله: ﴿وما اختلف فيه﴾ يحتمل أن يعود إلى الكتاب، ويحتمل أن يعود إلى المنزل عليه وهو محمد ﷺ، قاله الزجاج؛ ويحتمل أن يعود إلى الحق. وقوله: ﴿إلا الذين أوتوه﴾ أي: أوتوا الكتاب، أو أوتوا الحق، أو أوتوا النبي، أي: أعطوا علمه. وقوله: ﴿بغياً بينهم﴾ منتصب على أنه مفعول به أي، لم يختلفوا إلا لبغى: أي: الحسد والحرص على الدنيا، وفي هذا تنبيه على السفه في فعلهم، والقبيح الذي وقعوا فيه؛ لأنهم جعلوا نزول الكتاب سبباً في شدة الخلاف. وقوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من

«كان الناس أمة واحدة فاختلوا فبعث الله النبيين» وإن الله إنما بعث الرسل، وأنزل الكتب بعد الاختلاف، وما اختلف الذين أوتوه: يعني بني إسرائيل أوتوا الكتاب، والعلم بغياً بينهم، يقول: بغياً على الدنيا، وطلب ملكها، وزخرفها أيهم يكون له الملك، والمهابة في الناس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: «كان الناس أمة واحدة» قال: كفاراً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة في قوله: «فهدى الله الذين آمنوا» قال: قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، وأول الناس نخلاً يبدأ بهم، أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، فهدانا لليهود، وبعد غد للنصارى، وهو في الصحيح بنون ذكر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم في قوله: «فهدى الله للذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق» قال: اختلفوا في يوم الجمعة، فأخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة، واختلفوا في القبلة، فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، وهدى أمة محمد للقبلة، واختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع، ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم النهار، ومنهم من يصوم من بعد الطلع، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في إبراهيم، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك؛ واختلفوا في عيسى، فكذب به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْلَىٰ السَّجَّةُ وَلَمَّْا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الْآيِينَ خَلَا مِنْ قَبْلِكُمْ مَثَلُ الْإِسَاءِ وَالْعُرْثَةِ زُرُّوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ أَفْوَاهٍ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾

«أم» هنا منقطعة بمعنى بل. وحكى بعض اللغويين أنها قد تجيء بمثابة همزة الاستفهام مبتدأ بها الكلام، فعلى هذا معنى الاستفهام هنا التقرير، والإنكار. أي: أحسبتم دخولكم الجنة واقعاً، ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم، فتصبروا كما صبروا، نكر الله سبحانه هذه التسلية بعد أن نكر اختلاف الأمم على أنبيائهم، تثبيتاً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم، ومثل هذه الآية قوله تعالى: «لَمَّ حَسِبْتُمْ أَنْ تُخَلَّوْا بِالْجَنَّةِ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ» [آل عمران: 142] وقوله تعالى: «لَمَّ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» [العنكبوت: 1 - 2] وقوله: «مَسْتَهْمٌ» بيان لقوله: «مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا». و«الْإِسَاءِ والضراء» قد تقدم تفسيرهما، والزلزلة: شدة التحريك يكون في الأشخاص وفي الأحوال، يقال: زلزل الله الأرض زلزلة، وزلزالاً بالكسر،

الحق» أي: فهدى الله أمة محمد ﷺ إلى الحق، وذلك بما بينه لهم في القرآن من اختلاف من كان قبلهم وقيل: معناه: فهدى الله أمة محمد للتصديق، بجميع الكتب بخلاف من قبلهم، فإن بعضهم كذب كتاب بعض؛ وقيل: إن الله هداهم إلى الحق من القبلة، وقيل: هداهم ليوم الجمعة، وقيل: هداهم لاعتقاد الحق في عيسى بعد أن كُتِبَتْ اليهود، وجعلته النصارى رباً، وقيل: المراد بالحق: الإسلام. وقال الغراء: إن في الآية قلباً، وتقديره: فهدى الله الذين آمنوا بالحق لما اختلفوا فيه. واختاره ابن جرير، وضعفه ابن عطية. وقوله: «وبأنه». قال الزجاج: معناه بعلمه. قال النحاس: وهذا غلط، والمعنى بآمره.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: «يسل بني إسرائيل» قال: هم اليهود «كم أتيناها» من آية بيّنة» ما نكر الله في القرآن، وما لم ينكر: «ومن يبذل نعمة الله» قال: يكفرها؛ وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: آتاهم الله آيات بينات: عصى موسى، ويده، وأقطعهم البحر، وأغرق عدوهم، وهم ينظرون، وظلل من الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى. «ومن يبذل نعمة الله» يقول من يكفر بنعمة الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: «زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ النَّبِيَا» قال: الكفار يبتغون الدنيا، ويطلبونها «ويسخرون من الذين آمنوا» في طلبهم الآخرة. قال ابن جريج: لا أحسبه إلا عن عكرمة. قال: قالوا: لو كان محمد نبياً لاتبعه ساداتنا، وأشرافنا، والله ما اتبعه إلا أهل الحاجة مثل ابن مسعود، وأصحابه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: «ويسخرون من الذين آمنوا» يقولون: ما هؤلاء على شيء استهزاء، وسخرياً «والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة» هنا كم التفاضل. وأخرج عبد الرزاق، عن قتادة قال: فوقهم في الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: سألت ابن عباس، عن هذه الآية «والله يرزق من يشاء بغير حساب» قال: تفسيرها ليس على الله رقيب، ولا من يحاسبه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد ابن جبيرة قال: لا يحاسب الرب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو يعلى، والطبراني بسند صحيح، عن ابن عباس قال: كان الناس أمة واحدة قال: على الإسلام كلهم. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عنه قال: كان بين آدم، ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلوا، فبعث الله النبيين. قال: وكذلك في قراءة عبد الله «كان الناس أمة واحدة فاختلوا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب قال: كانوا أمة واحدة حيث عرضوا على آدم، ففطرمهم الله على الإسلام، واقرؤا له بالعبودية، وكانوا أمة واحدة مسلمين، ثم اختلفوا من بعد آدم. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد «كان الناس أمة واحدة» قال: آدم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي أنه كان يقرؤا:

تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد؛ لأن الشيء لا يعتد به إلا إذا وضع في موضعه، وصادف مصرفه، وقيل: إنه قد تضمن قوله: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ بيان ما ينفقونه، وهو كل خير، وقيل: إنهم إنما سألوا عن وجوه البر التي ينفقون فيها، وهو خلاف الظاهر. وقد تقدم الكلام في الأقربين، واليتامى، والمسكين، وابن السبيل. وقوله: ﴿كُتِبَ﴾ أي: فرض، وقد تقدم بيان معناه، بين سبحانه أن هذا أي: فرض القتال عليهم من جملة ما امتحنوا به. والمراد بالقتال: قتال الكفار. والكره بالضم: المشقة، وبالفتح: ما أكرهت عليه، ويجوز الضم في معنى الفتح، فيكونان لغتين، يقال: كرهت الشيء كرهاً وكرهاً، وكراهة وكراهية، وأكرهته عليه إكراهاً، وإنما كان الجهاد كرهاً: لأن فيه إخراج المال، ومفارقة الأهل، والوطن، والتعرض لذهاب النفس، وفي التعبير بالمصدر، وهو قوله: ﴿كُره﴾ مبالغة، ويحتمل أن يكون بمعنى المكروه كما في قولهم الدرهم ضرب الأمير. وقوله: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً﴾ قيل: عسى هنا بمعنى قد، وروي ذلك عن الأصم. وقال أبو عبيدة: عسى من الله إيجاب، والمعنى: عسى أن تكرهوا الجهاد لما فيه من المشقة، وهو خير لكم، فربما تغلبون، وتظفرون، وتغنمون، وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً، وعسى أن تحبوا الدعة، وترك القتال، وهو شر لكم، فربما يتقوى عليكم العدو، فيغلبكم، ويقصدكم إلى عقر داركم، فيحل بكم أشد مما تخافونه من الجهاد الذي كرهتم مع ما يفوتكم في ذلك من الفوائد العاجلة، والأجلة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه صلاحكم، وفلاحكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ قال: يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة، وهي: النفقة ينفقها الرجل على أهله، والصدقة يتصدق بها، فنسختها الزكاة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جرير قال: سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ الآية، فنلك النفقة في التطوع، والزكاة سواء ذلك كله. وأخرج ابن المنذر، أن عمرو بن الجموح سأل رسول الله ﷺ: ماذا تنفق من أموالنا، وأين نضعها؟ فنزلت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ قال: إن الله أمر النبي ﷺ، والمؤمنين بمكة بالتحديد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يكفوا أيديهم، عن القتال، فلما هاجر إلى المدينة نزلت سائر الفرائض، وأن لهم في القتال، فنزلت: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ يعني فرض عليكم، وأن لهم بعد ما نهام عنهُ ﴿وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ﴾ يعني: القتال، وهو مشقة عليكم ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً﴾ يعني: الجهاد قتال المشركين، وهو خير لكم، ويجعل الله عاقبته، فتحاً، وغنمة، وشهادة ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً﴾ يعني: القعود عن الجهاد ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ فيجعل الله عاقبته شراً، فلا تصيبوا ظفراً، ولا غنمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج قال: قلت: لعطاء ما يقول في

فتزلزلت إذا تحركت، واضطربت، فمعنى زلزلوا: خوفوا وأزعجوا إزعاجاً شديداً. وقال الزجاج: أصل الزلزلة: نقل الشيء من مكانه، فإذا قلت: زلزلته فمعناه كدرت زلله من مكانه. وقوله: ﴿حَتَّى يَقُولَ﴾ أي: استمر ذلك إلى غاية هي: قول الرسول، ومن معه: ﴿مَتَى نَصَرَ اللَّهُ﴾ والرسول هنا قيل: هو محمد ﷺ؛ وقيل: هو شعيب؛ وقيل هو كل رسول بعث إلى أمته. وقرأ مجاهد، والأعرج، ونافع، وابن محيصن بالرفع في قوله: ﴿حَتَّى يَقُولَ﴾ وقرأ غيرهم بالنصب فالرفع على أنه حكاية لحال ماضية، والنصب بإضمار أن على أنه غاية لما قبله. وقرأ الأعمش: ﴿وَزَلْزَلُوا وَيَقُولُ الرَّسُولُ﴾ بالواو بدل حتى، ومعنى ذلك أن الرسول ومن معه بلغ بهم الضجر إلى أن قالوا هذه المقالة المقتضية لطلب النصر، واستبطاء حصوله واستطالة تأخره، فبشرهم الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ وقالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله، ويقول الرسول ﷺ: ألا إن نصر الله قريب، ولا ملجئ لهذا التكلف؛ لأن قول الرسول، ومن معه: ﴿مَتَى نَصَرَ اللَّهُ﴾ ليس فيه إلا استعجال النصر من الله سبحانه، وليس فيه ما زعموه من الشك، والارتياب حتى يحتاج إلى ذلك التأويل المتعسف.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة أن هذه الآية نزلت في يوم الأحزاب، أصاب النبي ﷺ يومئذ، وأصحابه بلاء، وحصر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأبيائه، وصفوته لتطيب أنفسهم، فقال ﴿مُسْتَهْمٌ لِبَاسَاءٍ وَالضَّرَاءِ﴾ فالباساء: الفتن، والضراء: السقم، وزلزلوا بالفتن، وأذى الناس إياهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ قال: أصابهم هذا يوم الأحزاب حتى قال قائلهم: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ [الأحزاب: 12] ولعله يعني بقوله: حتى قال قائلهم: يعني: قائل المنافقين كما يفيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللِّظُنُونِ﴾ هناك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً [الأحزاب: 10 - 12].

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ مَّا لِي وَلِلْأَقْرَبِينَ
وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَنَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ وَنَسَى أَنْ يُجِيبُوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ

السائلون هنا: هم المؤمنون سألوا عن الشيء الذي ينفقونه ما هو؟ فأجيبوا ببيان المصروف الذي يصرفونه فيه

سبيل الله، والكفر به، والصد عن المسجد الحرام، وإخراج أهل الحرم منه: ﴿أكبر عند الله﴾ أي: أعظم إثماً، وأشدّ ذنباً من القتال في الشهر الحرام كذا قال المبرّد، وغيره، والضمير في قوله: ﴿وكفر به﴾ يعود إلى الله، وقيل: يعود إلى الحج. وقال الفراء: إن قوله: ﴿وصد﴾ عطف على كبير، والمسجد عطف على الضمير في قوله: ﴿وكفر به﴾ فيكون الكلام منتصباً متصلاً غير منفصل. قال ابن عطية: وذلك خطأ: لأن المعنى يسوق إلى أن قوله: ﴿وكفر به﴾ أي: باء عطف أيضاً على كبير، ويجيء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر بالله، وهذا بين فساده. ومعنى الآية على القول الأول الذي ذهب إليه الجمهور: أنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن الكفر بالله، ومن الصد عن المسجد الحرام، ومن إخراج أهل الحرم منه أكبر جرماً عند الله. والسبب يشهد لهذا المعنى، ويفيد أنه المراد كما سيأتي بيانه، فإن السؤال منهم المذكور في هذه الآية هو سؤال إنكار لما وقع من السرية التي بعثها النبي ﷺ، والمراد بالفتنة هنا الكفر. أي: كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التي بعثها النبي ﷺ. وقيل: المراد بالفتنة: الإخراج لأهل الحرم منه، وقيل: المراد بالفتنة هنا: فتنتهم عن دينهم حتى يهلكوا. أي: فتنة المستضعفين من المؤمنين، أو نفس الفتنة التي للكفار عليها. وهذا أرجح من الوجهين الأولين، لأن الكفر، والإخراج قد سبق نكرهما، وأنهما مع الصد أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام. وقوله: ﴿ولا يزالون﴾ ابتداء كلام يتضمن الإخبار من الله عز وجل للمؤمنين بأن هؤلاء الكفار لا يزالون مستمرين على قتلكم، وعداوتكم حتى يربوكم عن الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك، وتهايم لهم منكم، والتقييد بهذا الشرط مشعر باستبعاد تمكنهم من ذلك، وقدرتهم عليه، ثم حذر الله سبحانه المؤمنين من الاغترار بالكفار، والدخول فيما يربونه من ردهم عن دينهم الذي هو الغاية لما يربونه من المقاتلة للمؤمنين، فقال: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ إلى آخر الآية والردة: الرجوع عن الإسلام إلى الكفر، والتقيد بقوله: ﴿فيمت وهو كافر﴾ يفيد أن عمل من ارتد إنما يبطل إذا مات على الكفر. وحبط: معناه بطل، وفسد، ومنه الحبط، وهو: فساد يلحق المواشي في بطونها من كثرة أكلها للكلأ، فتنفخ أجوافها، وربما تموت من ذلك، وفي هذه الآية تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الإسلام. ومعنى قوله: ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أنه لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا، فلا يأخذ شيئاً مما يستحقه المسلمون، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئاً من ثواب الآخرة الذي يوجبه الإسلام، ويستحقه أهله. وقد اختلف أهل العلم في الردة هل تحبط العمل بمجرد ما لا تحبط إلا بالموت على الكفر، والواجب حمل ما أطلقته الآيات في غير هذا الموضع على ما في هذه الآية

قوله: ﴿كتب عليكم القتال﴾ أوجب الغزو على الناس من أجلها؟ قال: لا، كتب على أولئك حينئذ. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن شهاب في الآية قال: الجهاد مكتوب على كل أحد غزاً أو قعداً، فالقاعد إن استعین به أعان، وإن استغث به أغاث، وإن استنفر نفر، وإن استغنى عنه قعد، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿وهو كره لكم﴾ قال: نسختها هذه الآية: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ [البقرة: 285]. وأخرجه ابن جرير موصولاً، عن عكرمة، عن ابن عباس. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق علي قال: عسى من الله واجب. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي نحوه أيضاً. وقد ورد في فضل الجهاد، ووجوبه أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لسطها.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْكُفَرِ قَالَ يَدْعُو قَوْلًا يَدْعُو كَيْدًا وَمَدْعًا سَبِيلَ اللَّهِ وَكَفَرًا بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْأَكْبَرُ الَّذِي فِيهِ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَاذِبٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨٥﴾ إِنَّ الْآيَةَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨٦﴾

قوله: ﴿قتال فيه﴾ هو بدل اشتغال، قاله سيبويه. وجهه أن السؤال عن الشهر لم يكن إلا باعتبار ما وقع فيه من القتال. قال الزجاج: المعنى يسألك عن القتال في الشهر الحرام، وأنشد سيبويه قول الشاعر:

فما كان قيس هللكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهلما فقلوه: هللكه بدل اشتغال من قيس، وقال الفراء: هو مخفوض يعني قوله: ﴿قتال فيه﴾ على نية عن وقال أبو عبيدة: هو: مخفوض على الجوار. قال النحاس: لا يجوز أن يعرب الشيء على الجوار في كتاب الله، ولا في شيء من الكلام، وإنما وقع في شيء شاذ، وهو قولهم: هذا جحر ضب خرب. وتابع النحاس ابن عطية في تخطئة أبي عبيدة. قال النحاس: ولا يجوز إضمار عن، والقول فيه أنه بدل. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة: يسألك عن الشهر الحرام، وعن قتال فيه. وقرأ الأعرج: ﴿قتال فيه﴾ بالرفع. قال النحاس: وهو غامض في العربية، والمعنى: يسألك عن الشهر الحرام جائز قتال فيه. وقوله: ﴿قتال فيه كبير﴾ مبتدا وخبر، أي: القتال فيه أمر كبير مستنكر، والشهر الحرام: المراد به الجنس. وقد كانت العرب لا تسفك فيه دماً، ولا تغير على علو، والأشهر الحرم هي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، ثلاثة سرد وواحد فرد. وقوله: ﴿وصد﴾ عن سبيل الله﴾ مبتدا. وقوله: ﴿وكفر به﴾ معطوف على صد. وقوله: ﴿والمسجد الحرام﴾ عطف على سبيل الله. وقوله: ﴿وإخراج أهله منه﴾ معطوف أيضاً على صد. وقوله: ﴿أكبر عند الله﴾ خبر صد، وما عطف عليه، أي: الصد عن

الثوري: أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذا شيء منسوخ، ولا يأس بالقتال في الشهر الحرام. وأخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عمر: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ قال: الشرك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾ قال: كفار قريش، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ قال: هؤلاء خيار هذه الأمة جعلهم الله أهل رجاء، إنه من رجا طلب، ومن خاف هرب. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آثَرُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ رَسَلْتُكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَنُورُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠١﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِسْتِخَارِ قُلْ إِصْلَاحٌ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَافِلٌ عَنْهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْرِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ غَوَّيْرٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٢﴾

السائلون في قوله: ﴿يسألونك عن الخمر﴾ هم المؤمنون كما سيأتي بيانه عند ذكر سبب نزول الآية، والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه خمار المرأة، وكل شيء غطي شيئاً، فقد خمره، ومنه: «خمروا أنيتكم» وسمي خمراً لأنه يخمر العقل، أي: يغطيه ويستتره، ومن ذلك الشجر الملتف يقال له الخمر بفتح الميم، لأنه يغطي ما تحته ويستتره، يقال منه أخمرت الأرض: كثر خمرها. قال الشاعر:

ألا يا زيد والضحاك سيراً فقد جاوزتما خمر الطريق
أي: جاوزتما الوهد، وقيل: إنما سميت الخمر خمراً: لأنها تركت حتى أدركت، كما يقال: قد أخمرت العجين، أي: بلغ إدراكه، وخمر الراي أي: ترك حتى تبين فيه الوجه، وقيل: إنما سميت الخمر خمراً: لأنها تخالط العقل من المخامرة، وهي: المخالطة. وهذه المعاني الثلاثة متقاربة موجودة في الخمر: لأنها تركت حتى أدركت، ثم خالطت العقل، فخمرت أي: سترته. والخمر: ماء العنب الذي غلا، واشتد، وقذف بالزبد، وما خامر العقل من غيره، فهو في حكمه كما ذهب إليه الجمهور. وقال أبو حنيفة، والثوري، وابن أبي ليلى، وابن عكرمة، وجماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيره من غير خمر العنب، فهو حلال أي: ما نون المسكر فيه. وذهب أبو حنيفة إلى حل ما ذهب ثلثاه بالطبخ، والخلاف في ذلك مشهور. وقد أطلت الكلام على الخمر في شرحي للمنتقى، فليرجع إليه. والميسر مأخوذ من اليسر، وهو وجوب الشيء لصاحبه، يقال: يسر لي كذا: إذا وجب، فهو يسر يسراً، وميسراً، والياسر اللاعب بالقداح. وقد يسر يسراً. قال الشاعر:

فأعنهم وأيسر كما يسروا به وإنما هم نزلوا بضنك فانزل
وقال الأزهري: الميسر: الجزر التي كانوا يتقمارون عليه، سمي ميسراً: لأنه يجزأ أجزاء، فكانه موضع التجزئة،

من التقييد. وقد تقدم الكلام في معنى الخلود. قوله: ﴿وهاجروا﴾ الهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع، وترك الأول لإيثار الثاني، والهجر ضد الوصل، والتهاجر: التقاطع والمراد بها هنا: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام. والمجاهدة: استخراج الجهد، جهد، مجاهدة، وجهاداً، والجهد والتجاهد: بذل الوسع. وقوله: ﴿ويرجون﴾ معناه يطمعون، وإنما قال: يرجون بعد تلك الأوصاف المانحة التي وصفهم بها، لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة، ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ. والرجاء الأمل، يقال: رجوت فلاناً أرجو رجاء، ورجاوة، وقد يكون الرجاء بمعنى الخوف كما في قوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ [نوح: 13] أي: لا تخافون عظمة الله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في سننه بسند صحيح، عن جندب بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح، أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب لينطلق بكى شوقاً، وصباية إلى النبي ﷺ، فجلس، فبعث مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا، وكذا، وقال: لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك، فلما قرأ الكتاب استرجع وقال: سمعاً، وطاعة لله، وارسوله، فخيرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلاً، ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب، أو جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ الآية، فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وزراً، فليس لهم أجر، فأنزل الله: ﴿إن للذين آمنوا والذين هاجروا﴾ إلى آخر الآية. وأخرج البزار عن ابن عباس أن سبب نزول الآية، هو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: إن المشركين صدوا رسول الله ﷺ، وروثه عن المسجد الحرام في شهر حرام، ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل، فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال في شهر حرام. فقال الله: ﴿قل قتال فيه كبير﴾ وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، من القتال فيه، وإن محمداً ﷺ بعث سرية، فلقوا عمرو بن الحضرمي، وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب، وإن أصحاب محمد كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى، وكانت أول رجب ولم يشعروا، فقتله رجل منهم، وأخذوا ما كان معه، وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك، فنزلت الآية. وأخرج ابن إسحاق عنه: أن سبب نزول الآية مصاب عمرو بن الحضرمي. وقد ورد من طرق كثيرة في تعيين السبب مثل ما تقدم. وأخرج ابن أبي داود عن عطاء بن ميسرة قال: أحل القتال في الشهر الحرام في براءة في قوله: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ وقاتلوا المشركين كافة﴾ [التوبة: 36]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان

وكل شيء جزأته، فقد يسرته، والياسر: الجازر، قال: وهذا الأصل في الياسر، ثم يقال للضاربين بالقِداح، والمتقارمين على الجزور: ياسرون، لأنهم جازرون، إذ كانوا سبياً لذلك. وقال في الصحاح: ويسر القوم الجزور: إذا اجتزروها، واقتسموا أعضاءها، ثم قال: ويقال يسر القوم: إذا قامروا، ورجل ميسر وياسر بمعنى، والجمع أيسار، قال النابغة:

إنني أتمم أيساري وأمنحهم مشي الأيادي وكسا الحفنة الأما والمراد بالميسر في الآية: قمار العرب بالأزلام. قال جماعة من السلف من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم: كل شيء فيه قمار من نرد، أو شطرنج، أو غيرهما، فهو الميسر، حتى لعب الصبيان بالجزور، والكعب إلا ما أبيح من الزهران في الخيل، والقرعة في إفران الحقوق. وقال مالك: للميسر ميسران: ميسر اللهو، وميسر القمار، فمن ميسر للهو: الترد، والشطرنج، والملاهي كلها، وميسر القمار: ما يتخاطر الناس عليه، وكل ما قورم به، فهو ميسر، وسيأتي البحث مطوًلاً في هذا في سورة المائدة عند قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: 90]. قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ يعني الخمر، والميسر، فإثم الخمر، أي: إثم تعاطيها ينشأ من فساد عقل مستعملها، فيصدر عنه ما يصدر عن فساد العقل من المخاصمة، والمشاتمة، وقول الفحش، والزور، وتعطيل الصلوات، وسائر ما يجب عليه. وأما إثم الميسر، أي: إثم تعاطيه، فما ينشأ عن ذلك من الفقر، وذهاب المال في غير طائل، والعنوة، وإيحاش الصدور. وأما منافع الخمر فربح التجارة فيها، وقيل: ما يصدر عنها من الطرب، والنشاط، وقوة القلب، وثبات الجنان، وإصلاح المعدة، وقوة الباءة، وقد أشار شعراء العرب إلى شيء من ذلك قال:

وإذا شربت فإنني ربّ الخورنق والسدير
وإذا صحت فإنني ربّ الشويهة والبعير

وقال آخر:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسدا ما يهنهننا اللقاء

وقال من أشار إلى ما فيها من المفاسد، والمصالح:

رأيت الخمر صالحة وفيها خصال تفسد الرجل الحلما
فلا والله أشربها صحيحاً ولا أشفي بها أبداً سقيماً

ولا أعطي بها ثمناً حياتي ولا أدعولها أبداً نديماً

ومنافع الميسر: مصير الشيء إلى الإنسان بغير تعب، ولا كد، وما يحصل من السرور، والأريحية عند أن يصير له منها سهم صالح. وسهام الميسر أحد عشر، منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الحظوظ. الأول: الفذ بفتح الفاء بعدها معجمة، وفيه علامة واحدة، وله نصيب، وعليه نصيب. الثاني: التوأم بفتح التاء المثناة الفوقية، وسكون الواو وفتح الهمزة، وفيه علامتان، وله وعليه نصيبان. الثالث: الرقيب، وفيه ثلاث علامات، وله وعليه ثلاثة أنصباء. الرابع: الحلس بمهملتين، الأولى مكسورة، واللام ساكنة، وفيه أربع علامات، وله وعليه أربعة أنصباء. الخامس: النافر بالنون، والفاء والمهمل، ويقال: النافس بالسین المهمل مكان الزاء، وفيه

خمس علامات، وله وعليه خمسة أنصباء. السادس: المسبل بضم الميم، وسكون المهمل، وفتح الباء الموحدة، وفيه ست علامات، وله وعليه ستة أنصباء. السابع: المعلى بضم الميم، وفتح المهمل، وتشديد اللام المفتوحة، وفيه سبع علامات، وله وعليه سبعة أنصباء، وهو أكثر السهام حظاً، وأعلامها قدرأ، فجملة ذلك ثمانية وعشرون فرداً. والجزور تجعل ثمانية وعشرين جزءاً، هكذا قال الأصمعي، وبقي من السهام أربعة أغفلاً، لا فروض لها، وهي: المنح بفتح الميم، وكسر النون وسكون الياء التحتية، وبعدها مهمل، والسفبح بفتح المهمل، وكسر الفاء، وسكون الياء التحتية ببعدها مهمل، والوغد بفتح الواو وسكون المعجمة ببعدها مهمل، والضعف بالمعجمة ببعدها مهمل، ثم فاء، وإنما أدخلوا هذه الأربعة التي لا فروض لها بين نوات الفروض لتكثر السهام على الذي يجيلها، ويضرب بها، فلا يجد إلى الميل مع أحد سبيلاً. وقد كان المجيل للسهم يلتحف بثوب، ويحثوا على ركبتيه، ويخرج رأسه من الثوب، ثم يدخل يده في الرابية بكسر المهمل، وبعدها باء موحدة، وبعد الألف باء موحدة أيضاً، وهي الخريطة التي يجعل فيها السهام، فيخرج منها باسم كل رجل سهماً، فمن خرج له سهم له فرض أخذ فرضه، ومن خرج له سهم لا فرض له لم يأخذ شيئاً، وغرم قيمة الجنور، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء. وقد قال ابن عطية: إن الأصمعي أخطأ في قوله: إن الجزور تقسم على ثمانية وعشرين جزءاً، وقال: إنما تقسم على عشرة أجزاء. قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أخبر سبحانه بأن الخمر، والميسر، وإن كان فيهما نفع، فالإثم الذي يلحق متعاطييهما أكثر من هذا النفع؛ لأنه لا خير يساوي فساد العقل الحاصل بالخمر، فإنه ينشأ عنه من الشرور ما لا يأتي عليه الحصر، وكذلك لا خير في الميسر يساوي ما فيها من المخاطرة بالمال، والتعرض للفقر، واستجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء، وهتك الحرم.

وقرأ حمزة، والكسائي: «كثير» بالمثلثة. وقرأ الباقون بالياء الموحدة. وقرأ أبي: «وإثمه» أقرب من نفعهما. قوله: ﴿قُلْ لِّلْعَافِ﴾ قرأه الجمهور بالنصب. وقرأ أبو عمرو وحده بالرفع. واختلف فيه عن ابن كثير، وبالرفع قرأه الحسن، وقتادة قال النحاس: إن جعلت ذا بمعنى الذي كان الاختيار الرفع على معنى الذي ينفقون هو: العفو، وإن جعلت ما ذا شيئاً واحداً كان الاختيار النصب على معنى: قل ينفقون العفو، والعفو: ما سهل، وتيسر، ولم يشق على القلب، والمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم، ولم تجهدوا فيه أنفسكم، وقيل: هو ما فضل عن نفقة العيال. وقال جمهور العلماء: هو نفقات التطوع، وقيل: إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة، وقيل: هي محكمة، وفي المال حق سوى الزكاة. قوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: في أمر النفقة. وقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ متعلق بقوله: ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تتفكرون في أمرهما، فتحبسون من

عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: 91] قال عمر: انتهينا انتهينا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس قال: كنا نشرب الخمر، فانزلت: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ الآية، فقلنا نشرب منها ما ينفعنا، فنزلت في المائدة: ﴿إنما الخمر والميسر﴾ [المائدة: 90] الآية فقالوا: اللهم انتهينا. وأخرج أبو عبيد، والبخاري في الأدب المفرد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: الميسر القمار. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس مثله قال: كان الرجل في الجاهلية يخاطر عن أهله، وماله، فإيهما قمر صاحبه ذهب بأمله، وماله. وقوله: ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ يعني: ما ينقص من الدين عند شربها: ﴿ومنافع للناس﴾ يقول: فيما يصيبون من لذتها، وفرحها إذا شربوا: ﴿وإنهما أكبر من نفعهما﴾ يقول: ما يذهب من الدين، فالإثم فيه أكبر مما يصيبون من لذتها، وفرحها إذا شربوها، فانزل الله بعد ذلك: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء: 43] الآية، فكلنا لا يشربونها عند الصلاة، فإذا صلوا العشاء، شربوها، ثم إن ناساً من المسلمين شربوها فقاتل بعضهم بعضاً، وتكلموا بما لم يرض الله من القول، فانزل الله: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب﴾ [المائدة: 90] الآية، فحرم الخمر، ونهى عنها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: منافعها قبل التحريم، وإنهما بعد ما حرمهما. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عنه أن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي ﷺ فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا، فما ننفق منها؟ فانزل الله: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى ما يجد ما يتصدق به، ولا ما ياكل حتى يتصدق عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: العفو هو ما لا يتبين في أموالكم، وكان هذا قبل أن تفرض الصدقة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال: ﴿العفو﴾ ما يفضل عن أهلك وفي لفظ قال: الفضل عن العيال. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿قل للعفو﴾ قال: لم تفرض فيه فريضة معلومة ثم قال: ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف﴾ [الأعراف: 199] ثم نزلت في الفرائض بعد ذلك مسماة. وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وأبداً بمن تعمل». وثبت نحوه في الصحيح مرفوعاً من حديث حكيم بن حزام. وفي الباب أحاديث كثيرة، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ قال: يعني في زوال الدنيا، وفنائها، وإقبال الآخرة، وبقائها.

أموالكم ما تصلحون به معاش دنياكم، وتتفكرون الباقي في الوجوه المقرّبة إلى الآخرة، وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير أي: كذلك يبين الله لكم الآيات في الدنيا، والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا، وزوالها، في الآخرة، وبقائها، فترغبون عن العاجلة إلى الآجلة، وقيل: يجوز أن يكون إشارة إلى قومه: ﴿وإنهما أكبر من نفعهما﴾ أي: لتفكروا في أمر الدنيا، والآخرة، وليس هذا بجديد. قوله: ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ هذه الآية نزلت بعد نزول قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ [الأنعام: 152، الإسراء: 34] وقوله: ﴿إن الذين ياكلون أموال اليتامى﴾ [النساء: 10] وقد كان ضاق على الأولياء الأمر كما سيأتي بيانه إن شاء الله، فنزلت هذه الآية. والمراد بالإصلاح هنا: مخالطتهم على وجه الإصلاح لأموالهم، فإن ذلك أصلح من مجانبتهم. وفي ذلك دليل على جواز التصرف في أموال اليتامى من الأولياء، والأوصياء بالبيع، والمضاربة، والإجارة، ونحو ذلك. قوله: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ اختلف في تفسير المخالطة لهم، فقال أبو عبيدة، مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال، ويشقّ على كافله أن يفرد طعامه عنه، ولا يجد بداً من خلطه بعياله، فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحري، فيجعله مع نفقة أهله، وهذا قد تقع فيه الزيادة، والنقصان، فدلّت هذه الآية على الرخصة، وهي: ناسخة لما قبلها، وقيل: المراد بالمخالطة: المعاشرة لليتامى، وقيل: المراد بها: المصاهرة لهم. والأولى عدم قصر المخالطة على نوع خاص بل تشمل كل مخالطة كما يستفاد من الجملة الشرطية. وقوله: ﴿فإخوانكم﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي: فهم إخوانكم في الدين. وفي قوله: ﴿وإنه يعلم المفسد من المصلح﴾ تحذير للأولياء، أي: لا يخفى على الله من ذلك شيء، فهو يجازي كل أحد بعمله من أصلح، فلنفسه، ومن أفسد فعلي نفسه. وقوله: ﴿لأعنتكم﴾ أي: ولو شاء لجعل ذلك شاقاً عليكم، ومتعباً لكم، وأوقعكم فيما فيه الحرج، والمشقة، وقيل العنت هنا: معناه الهلاك. قاله أبو عبيدة، وأصل العنت المشقة. وقال ابن الأنباري: أصل العنت التشديد، ثم نقل إلى معنى الهلاك. وقوله: ﴿عزيز﴾ أي: لا يمتنع عليه شيء، لأنه غالب لا يغالب ﴿حكيم﴾ يتصرف في ملكه بما تقتضيه مشيئته، وحكمته، وليس لكم أن تختاروا لأنفسكم.

وقد أخرج أحمد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والضياء في المختارة، عن عمر أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فإنها تذهب بالمال، والعقل، فنزلت: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ يعني هذه الآية، فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت التي في سورة النساء: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء: 43] فكان ينادي رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر، فقرئت

جبير، والحسن، وطاوس، وعكرمة، والشعبي، والضحاك كما حكاه النحاس، والقرطبي. وقد حكاه ابن المنذر عن المنكوريين، وزاد عمر بن الخطاب وقال: لا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرّم ذلك. وقال بعض أهل العلم: إن لفظ المشرك لا يتناول أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمَشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرِ رِيبِكُمْ﴾ [البقرة: 105]. وقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَشْرِكِينَ﴾ [البينة: 1] وعلى فرض أن لفظ المشركين يعمّ، فهذا العموم مخصوص بأية المائدة كما قدمنا. قوله: ﴿وَالْأَمَةُ مُؤْمِنَةٌ﴾ أي: ولرقيقة مؤمنة، وقيل: المراد بالامة: الحرة؛ لأن الناس كلهم عبيد الله، وإماؤه، والأول أولى لما سيأتي؛ لأنه الظاهر من اللفظ؛ ولأنه أبليغ، فإن تفضيل الأمة الرقيقة المؤمنة على الحرة المشركة يستفاد منه تفضيل الحرة المؤمنة على الحرة المشركة بالأولى. وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي: ولو أعجبتكم المشركة من جهة كونها ذات جمال، أو مال، أو شرف، وهذه الجملة حالية. قوله: ﴿وَلَا تَتَنَكَّحُوا الْمَشْرِكِينَ﴾ أي: لا تزوجوهم بالمؤمنات ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ قال القرطبي: واجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه لما في ذلك من الفضاضة على الإسلام، واجمع القراء على ضم التاء من تنكحوا. وقوله: ﴿وَلِعَبْدٍ﴾ الكلام فيه كالكلام في قوله: ﴿وَالْأَمَةُ﴾ والترجيح كالترجيح. قوله: ﴿أَوَّلُكُمْ﴾ إشارة إلى المشركين، والمشركات ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: إلى الأعمال الموجبة للنار، فكان في مصاهرتهم، ومعاشرتهم، ومصاحبتهم من الخطر العظيم ما لا يجوز للمؤمنين أن يتعرضوا له، وينخلوا فيه ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾ أي: إلى الأعمال للموجة للجنة، وقيل: المراد: أن أولياء الله هم: المؤمنون يدعون إلى الجنة. وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بأمره، قاله الزجاج، وقيل: بتيسيره، وتوفيقه، قاله صاحب الكشف.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن مقاتل بن حيان قال: نزلت هذه الآية في أبي مرثد الغنوي استأثنى النبي ﷺ في عناق أن يتزوجها، وكانت ذات حظ من جمال، وهي مشركة، وأبو مرثد يومئذ مسلم، فقال: يا رسول الله إنها تعجبني، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَنَكَّحُوا الْمَشْرَكَاتِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَتَنَكَّحُوا الْمَشْرَكَاتِ﴾ قال: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب، فقال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: 5]. وقد روي هذا المعنى عنه من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَلَا تَتَنَكَّحُوا الْمَشْرَكَاتِ﴾ يعني أهل الأوثان. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي عن مجاهد نحوه، وكذلك أخرج عبد الرزاق، وعبد ابن حميد، عن قتادة نحوه أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، عن النخعي نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر أنه كره نكاح نساء أهل الكتاب، وتأول: ﴿وَلَا

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْثُودٍ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي سَنَنِهِ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 34] ﴿وَالَّذِينَ يَكْلَلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ [النساء: 10] الْآيَةَ، انْطَلَقَ مِنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ يَعْزِلُ طَعَامَهُ عَنْ طَعَامِهِ، وَشَرَابَهُ عَنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يَفْصَلُ لَهُ الشَّيْءَ مِنْ طَعَامِهِ، فَيَحْبِسُ لَهُ حَتَّى يَكْلَهُ، أَوْ يَفْسُدَ فَيُرْسِي بِهِ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَتَكَرَّرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ الْآيَةَ. فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ، وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِمْ. وَقَدْ رَوَى نَحْوَ ذَلِكَ، عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ تَخَالَطُوهُمْ﴾ قَالَ: الْمَخَالَطَةُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْ لَبَنِكَ، وَتَشْرَبَ مِنْ لَبَنِهِ، وَيَكُلَ مِنْ قِصْعَتِكَ، وَتَكُلَ مِنْ قِصْعَتِهِ، وَيَأْكُلَ مِنْ ثَمَرَتِكَ، وَتَأْكُلَ مِنْ ثَمَرَتِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمَفْسَدَ مِنَ الْمَصْلَحِ﴾ قَالَ: يَعْلَمُ مِنْ يَتَعَمَّدُ كُلَّ مَالِ الْيَتِيمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّجُ مِنْهُ، وَلَا يَأْخُذُ بِإِصْلَاحِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ يَقُولُ: لَوْ شَاءَ مَا أَحَلَّ لَكُمْ مَا أَعْنَتَكُمْ مِمَّا لَا تَتَعَمَّدُونَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ يَقُولُ: لَأُخْرِجُكُمْ، وَضِيقُ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّهُ وَسِعَ، وَيَسَّرَ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ قَالَ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَ مَا أَصِيبَتْ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى مَوْقِئًا.

وَلَا تَتَنَكَّحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَا أَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ حَتَّى يَنْتَهَكَهُنَّ وَأَعْبَجَتْكُمْ وَلَا تَتَنَكَّحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَمَّا دُعِيَ هَؤُلَاءُ إِلَى الْيَتِيمِ وَأَعْبَجَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيَرْبِّي أَيْتَانِيَهُ لِلْأُنْسِ لِمَلَكُمُ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾

قوله: ﴿وَلَا تَتَنَكَّحُوا﴾ قرأه الجمهور بفتح التاء، وقرئ في الشواذ بضمها؛ قيل: والمعنى: كان المتزوج لها إنكحها من نفسها. وفي هذه الآية النهي عن نكاح المشركات، فقيل: المراد بالمشركات: الوثنيات، وقيل: إنها تعم الكتابيات؛ لأن أهل الكتاب مشركون، وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصراني المسيحية ابن الله [التوبة: 30]، وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية، فقالت طائفة: إن الله حرم نكاح المشركات فيها، والكتابيات من الجملة، ثم جاءت آية المائدة، فخصصت الكتابيات من هذا العموم. وهذا محكي عن ابن عباس، ومالك، وسفيان بن سعيد، وعبد الرحمن بن عمر، والأوزاعي. وذهبت طائفة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة، وأنه يحرم نكاح الكتابيات، والمشركات، وهذا أحد قولي الشافعي، وبه قال جماعة من أهل العلم. ويجب عن قولهم أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة بأن سورة البقرة من أول ما نزل، وسورة المائدة من آخر ما نزل. والقول الأول هو الأرجح. وقد قال به مع من تقدم عثمان بن عفان، وطلحة، وجابر، وحذيفة، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن

تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَ». وأخرج البخاري عنه قال: حَرَّمَ اللَّهُ نِكَاحَ الْمُشْرِكَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَا أَعْرِفُ شَيْئاً مِنَ الْإِشْرَاقِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَقُولَ الْمَرْأَةُ رَبِّهَا عَيْسَى، أَوْ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ. وأخرج الواحدي، وابن عسكرك من طريق السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاللَّامَةُ مَوْمَنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن رواحة، وكانت له أمة سوداء، وأنه غضب عليها فلطمها، ثم إنه فرغ فأتى النبي ﷺ، فأخبره خبرها، فقال النبي ﷺ له: ما هي يا عبد الله؟ قال: تصوم، وتصلّي، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: يا عبد الله هذه مؤمنة، فقال عبد الله: فوالذي بعثك بالحق، لا اعتقنها، ولا تزوجنها، ففعل، فطمع عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمة، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، وينكحهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله فيهم: ﴿وَاللَّامَةُ مَوْمَنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ﴾ وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان في قوله: ﴿وَاللَّامَةُ مَوْمَنَةٌ﴾ قال: بلغنا أنها كانت أمة لحنيقة سوداء، فاعتقها وتزوجها حنيفة. وأخرج ابن جرير، عن أبي جعفر محمد بن علي قال: النكاح يولي في كتاب الله، ثم قرأ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾.

وَسَأَلُوكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَبِحَيْضِ الظَّاهِرِ ﴿١٠٠﴾ يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَوَّاكُمْ حَتَّى يَسْمَأَ وَفَقَدُوا لَكُمْ وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُلَاقُونَ وَبَيِّنَ الْتَوْبَتِ ﴿١٠١﴾

قوله: ﴿المحيض﴾ هو: الحيض، وهو مصدر، يقال: حاضت المرأة حيضاً، ومحيضاً، فهي حائض، وحائضة، كذا قال الفراء، وأنشد:

كحائضة تزني بها غير طاهرة

ونساء حيض، وحواض، والحيضة بالكسر: المرة الواحدة وقيل: الاسم، وقيل: المحيض عبارة عن الزمان، والمكان، وهو مجاز فيهما، وقال ابن جرير الطبري: المحيض اسم الحيض، ومثله قول رؤبة:

إليك أشكوشدة المعيش

أي العيش، وأصل هذه الكلمة من السيلان، والانفجار يقال: حاض السيل، وفاض، وحاضت الشجرة، أي: سالت رطوبتها، ومنه الحيض، أي: الحوض؛ لأن الماء يحوض إليه. أي: يسيل. وقوله: ﴿قل هو أذى﴾ أي: قل هو شيء يتأذى به. أي: برائحته، والأذى كناية عن القذر، ويطلق على القول المكروه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَفَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: 264]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَدَعَ أَنَاكُمْ﴾ [الأحزاب: 48] وقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: فاجتنبوهن في زمان الحيض إن حمل المحيض على المصدر، أو في محل الحيض إن حمل على الاسم. والمعاد

من هذا الاعتزال: ترك المجامعة لا ترك المجالسة، أو الملامسة، فإن ذلك جائز، بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج، أو بما دون الإزار على خلاف في ذلك، وأما ما يروى عن ابن عباس، وعبيدة السلماني: أنه يجب على الرجل أن يعتزل فراش زوجته إذا حاضت، فليس ذلك بشيء، ولا خلاف بين أهل العلم في تحريم وطء الحائض، وهو معلوم من ضرورة الدين. قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص عنه بسكون الطاء، وضم الهاء، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية أبي بكر: يطهرن، بتشديد الطاء، وفتحها، وفتح الهاء، وتشديدها. وفي مصحف أبي، وابن مسعود: «ويطهرن» والطره انقطاع الحيض، والتطهر: الاغتسال. وبسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم، فذهب الجمهور إلى أن الحائض لا يحل وطؤها لزوجه حتى تطهر بالماء. وقال محمد بن كعب القرظي، ويحيى بن بكير: إذا طهرت الحائض، وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجه، وإن لم تغتسل. وقال مجاهد، وعكرمة: إن انقطاع الدم يحلها لزوجه، ولكن تتوضأ. وقال أبو حنيفة، وأبو يوسف، ومحمد: إن انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل، وإن كان انقطاعه قبل العشر لم يجز حتى تغتسل، أو يدخل عليها، وقت الصلاة. وقد رجح ابن جرير الطبري قراءة التشديد. والأولى أن يقال: إن الله سبحانه جعل للحل غایتين كما تقتضيه القراءتان: إحداها انقطاع الدم، والأخرى التطهر منه، والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى، فيجب المصير إليها. وقد دل أن الغاية الأخرى هي المعبرة. قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ فإن ذلك يفيد أن المعبر التطهر، لا مجرد انقطاع الدم. وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداها على زيادة بالعمل بتلك الزيادة، كذلك يجب الجمع بين القراءتين. قوله: ﴿فَاقْتَبِرْنَ﴾ من حيث أمركم الله أي: فجامعوهن، وكني عنه بالإتيان، والمراد: أنهم يجامعونهن في المأوى الذي أباحه الله، وهو: القبل قيل: ﴿وهن حيث﴾ بمعنى في حيث، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: 9] أي: في يوم الجمعة، وقوله: ﴿مَآذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: 4] أي: في الأرض، وقيل: إن المعنى من الوجه الذي أن الله لكم فيه، أي: من غير صوم، وإحرام، واعتكاف، وقيل: إن المعنى من قبل الطهر، لا من قبل الحيض، وقيل: من قبل الحلال، لا من قبل الزنا. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ﴾ ويحب للمتطهرين قيل: المراد: التوابين من الذنوب، والمتطهرون من الجنابة، والأحداث، وقيل: التوابين من إتيان النساء في أبنارهن، وقيل: من إتيانهن في الحيض، والأول أظهر. قوله: ﴿نَسْأُوكُمْ حَرْثَ لَكُمْ فَاقْتَابِرْتُكُمْ فَنِي شَتْمُكُمْ﴾ لفظ الحَرْث يفيد أن الإبله لم تقع إلا في الفرج الذي هو القبل خاصة، إذ هو مزدرع النرية، كما أن الحَرْث مزدرع النبات. فقد شبه

واليزار، عن جابر قال: إن اليهود قالوا: من أتى المرأة في دبرها كان ولده أحول فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك، وعن إتيان الحائض، فنزلت. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال الأذني: الدم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاعْتَرَلُوا للنساء﴾ يقول: اعتزلوا نكاح فزوجهن. وفي قوله: ﴿وَلَا تَقْرِبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ قال: من الدم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد قال: حتى ينقطع الدم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا طَهَّرْنَ﴾ قال: بالماء. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، وعطاء: أنهما قالا: إذا رأت الطهر، فلا بأس أن تستطيب بالماء ويأتيها قبل أن تغتسل. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاتَّوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قال: يعني: أن يأتيها طاهراً غير حائض. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاتَّوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قال: من حيث أمركم أن تعتزلوهن. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عكرمة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن ابن عباس قال: من حيث نهاكم أن تأتوهن وهن حيض: يعني من قبل الفرج. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن الحنفية قال: ﴿فاتتوهن من حيث أمركم الله﴾ من قبل التزويج. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله: ﴿يُحِبُّ التَّوَابِينَ﴾ قال: من الذنوب ﴿ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قال: بالماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأعمش قال: التوبة من الذنوب، والتطهير من الشرك. وأخرج البخاري، وأهل السنن، وغيرهم عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿تَسْأَلُكُمْ حَرْثَ لَكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ إن شاء محتبة، وإن شاء غير محتبة، غير أن ذلك في صمام واحد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد ابن حميد، وابن جرير، عن مرة الهمداني نحوه. وقد روي هذا عن جماعة من السلف، وصرحوا أنه السبب، ومن الراويين لذلك عبد الله بن عمر، عند ابن عساکر، وأم سلمة، عند عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب. وأخرجه أيضاً، عنها ابن أبي شيبة، وأحمد، والدارمي، وعبد ابن حميد، والترمذي، وحسنه: «أنها سألت رسول الله ﷺ بعض نساء الأنصار عن التحية، فتلا عليها الآية، وقال: صمماً واحداً والصمام: السبيل، وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، والنسائي، والضياء في المختارة، وغيرهم، عن ابن عباس قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت قال: وما أهلكك؟ قال: حولت رحلي الليلة، فلم يرد عليه شيئاً، فأوحى الله إلى رسوله هذه الآية: ﴿تَسْأَلُكُمْ حَرْثَ لَكُمْ﴾ يقول: أقبل، وأدبر، وأتق الدبر،

ما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بما يلقي في الأرض من البذور التي منها النبات بجامع أن كل واحد منهما مادة لما يحصل منه، وهذه الجملة بيان للجملة الأولى، أعني قوله: ﴿فاتتوهن من حيث أمركم الله﴾. وقوله: ﴿أننى شئتم﴾ أي: من أي جهة شئتم من خلف، وقدام، وباركة، ومستلقية، ومضطجعة، إذا كان في موضع الحرت، وأنشد ثعلب:

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات فعلينا الزرع فيها وعلى الله النبات وإنما عبر سبحانه بقوله: ﴿أننى﴾ لكونها أعم في اللغة من كيف، وأين، ومتى. وأما سيبويه، ففسرها ها هنا بكيف، وقد ذهب السلف، والخلف من الصحابة، والتابعين، والأئمة إلى ما ذكرناه من تفسير الآية، وإن إتيان الزوجة في دبرها حرام، وروي عن سعيد بن المسيب، وناقم، وابن عمر، ومحمد بن كعب القرظي، وعبد الملك بن الماجشون أنه يجوز ذلك، حكاه عنهم القرطبي في تفسيره قال: وحكي ذلك عن مالك في كتاب له يسمى: «كتاب السر» وحذاق أصحاب مالك، ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر، ووقع هذا القول في العتبية. ونكر ابن العربي أن ابن شعبان أسند جواز ذلك إلى زمرة كبيرة من الصحابة، والتابعين، وإلى مالك من روايات كثيرة في كتاب: «جماع النسوان وأحكام القرآن»، وقال الطحاوي: روى أصبغ ابن الفرج، عن عبد الرحمن بن القاسم قال: ما أدركت أحداً أقتدي به في ديني شك في أنه حلال: يعني وطء المرأة في دبرها ثم قرأ: ﴿تَسْأَلُكُمْ حَرْثَ لَكُمْ﴾ ثم قال: فأني شيء أبين من هذا. وقد روى الحاكم، والدارقطني، والخطيب البغدادي، عن مالك من طرق ما يقتضي إباحتها ذلك. وفي أسانيدنا ضعف. وقد روى الطحاوي عن محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم، أنه سمع الشافعي يقول: ما صح عن النبي ﷺ في تحليله، ولا تحريمه شيء، والقياس أنه حلال. وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب. قال ابن الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا الله هو لقد كذب ابن عبد الحكم على الشافعي في ذلك، فإن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه. قوله: ﴿وَقَدِمُوا لِنَفْسِكُمْ﴾ أي: خيراً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 110] وقيل: ابتغاء الولد، وقيل: التزويج بالعفاف، وقيل: غير ذلك. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيه تحذير عن الوقوع في شيء من المحرمات. وفي قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا لَكُمْ مَلَأَقُوه﴾ مبالغة في التحذير. وفي قوله: ﴿وَيُشِرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تأنيس لمن يفعل الخير ويجتنب الشر.

وقد أخرج مسلم، وأهل السنن، وغيرهم، عن أنس: «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت، ولم يأكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُوكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: «جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شيء إلا النكاح»، وأخرج النسائي،

والحيضة. وأخرج أحمد، عن ابن عباس مرفوعاً: أن هذه الآية نزلت في أناس من الأنصار أتوا النبي ﷺ، فسألوهم فقال: انتهوا على كل حال إذا كان في الفرج. وأخرج الدارمي، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عنه قال ابن عمر: والله يغفر له أوهم، إنما كان هذا الحي من الأنصار، وهم أهل وثن مع هذا الحي من اليهود، وهم أهل الكتاب كانوا يرون لهم، فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتنون بكثير من فعلهم، فكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بفعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً، ويتلذذون منهن مقبلات، ومديبرات، ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار. فذهب يفعل بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك، وإلا فاجتنبني، فسرى أمرهما، فبلغ رسول الله ﷺ، فأنزل الله الآية: ﴿نَسَآؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ يقول: مقبلات، ومديبرات بعد أن يكون في الفرج، وإن كان من قبل بربها في قبلها زاد الطبراني: قال ابن عباس، قال ابن عمر: في بربها، فأوهم، والله يغفر له، وإنما كان هذا الحديث على هذا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والدارمي، والبيهقي، عن ابن مسعود: أنه قال: محاش النساء عليكم حرام. وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق خزيمة بن ثابت: «أن سائلاً سأل رسول الله ﷺ عن إتيان النساء في أربابهن، فقال: حلال، أو لا بأس، فلما ولى دعاه فقال: كيف قلت؟ أمن بربها في قبلها، فنعم، أم من بربها في بربها فلا، إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في أربابهن». وأخرج ابن عدي، والدارقطني، عن جابر بن عبد الله نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان عن ابن عباس: قال قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة في الدبر». وأخرج أحمد، والبيهقي في سننه، عن ابن عمرو: أن النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في بربها هي اللوطية الصغرى». وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأته في بربها». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والنسائي، والبيهقي عنه قال: إتيان الرجال، والنساء في أربابهن كفر. وقد رواه ابن عدي، عن أبي هريرة مرفوعاً قال ابن كثير: والموقوف أصح. وقد ورد النهي عن ذلك من طرق منها عند البزار عن عمر مرفوعاً، وعند النسائي عنه موقوفاً، وهو أصح. وعند ابن عدي في الكامل، عن ابن مسعود مرفوعاً، وعند ابن عدي أيضاً، عن عقبة بن عامر مرفوعاً، وعند أحمد عن طلق بن يزيد، أو يزيد بن طلق مرفوعاً، وعند ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، عن علي بن طلق مرفوعاً، وقد ثبت نحو ذلك عن جماعة من

الصحابه، والتابعين مرفوعاً، وموقوفاً، وأخرج البخاري، وغيره عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿نَسَآؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ فقال ابن عمر: أتدري فيم أنزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في إتيان النساء في أربابهن. وأخرج البخاري عن ابن عمر أنه قال: ﴿فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ قال: في الدبر. وقد روي هذا عن ابن عمر من طرق كثيرة، وفي رواية عند الدارقطني أنه قال له نافع: من بربها في قبلها؟ فقال: لا إلا في بربها. وأخرج ابن راهويه، وأبو يعلى، وابن جرير، والطحاوي، وابن مريويه بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري، أن رجلاً أصاب امرأته في بربها، فأنكر الناس عليه ذلك، فنزلت الآية. وأخرج البيهقي في سننه عن محمد بن علي قال: كنت عند محمد بن كعب القرظي، فجاءه رجل، فقال: ما تقول في إتيان المرأة في بربها؟ فقال: هذا شيخ من قريش، فسله، يعني عبد الله بن علي بن السائب، فقال: قدر، ولو كان حلالاً. وقد روي القول بحل ذلك، عن محمد بن المنكدر، عند ابن جرير، وعن ابن أبي مليكة، عند ابن جرير أيضاً، وعن مالك بن أنس عند ابن جرير، والخطيب، وغيرهما، وعن الشافعي عند الطحاوي، والحاكم والخطيب. وقد قدمنا مثل هذا، وليس في أقوال هؤلاء حجة البتة: ولا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم، فإنهم لم يأتوا ببليل يدل على الجواز، فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية، فقد أخطأ في فهمه. وقد فسرها لنا رسول الله ﷺ، وأكابر أصحابه بخلاف ما قاله هذا المخطئ في فهمه كائناً من كان، ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية: أن رجلاً أتى امرأته في بربها، فليس في هذا ما يدل على أن الآية أحلت ذلك، ومن زعم ذلك، فقد أخطأ، بل الذي تدل عليه الآية أن ذلك حرام، فكأن ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازلة في تحليله، فإن الآيات النازلة على أسباب تأتي تارة بتحليل هذا، وتارة بتحريمه. وقد روي عن ابن عباس: أنه فسر هذه الآية بغير ما تقدم، فقال: معناها إن شئتم، فاعزلوا ولن شئتم، فلا تعزلوا. روى ذلك عنه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والضياء في المختارة. وروي نحو ذلك عن ابن عمر. أخرجه ابن أبي شيبة، وعن سعيد بن المسيب، أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير.

وَلَا تَحْمِلُوا اللَّهَ عَرْشَهُ لِأَنْتُمْ كُمْ أَنْ تَرَوْا وَيَتَرَوْا وَيُصْلِحُوا بَيْنَ
النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَنَاءِ فِي آيَاتِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ
بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿٢٠١﴾

العرضة: النصب، قاله الجوهري. يقال: جعلت فلاناً عرضة لكذا، أي: نصبة. وقيل: العرضة من الشدة، والقوة، ومنه قولهم للمرأة عرضة للزواج: إذا صلحت له، وقويت عليه، ولفلان عرضة، أي: قوة، ومنه قول كعب بن زهير: من كل نضالخة البقرى إذا عرقت عرضتها طامس الأعلام مجهول ومثله قول أوس بن حجر: وأيام مثل العجل يوماً عرضتها لرحلي وفيها هزة وتقائف

ويطلق العرضة على الهمّة، ومنه قول الشاعر:

هم الانصرار عرضتها للقاء

أي: همّتها، ويقال: فلان عرضة للناس لا يزالون يقعون فيه، فعلى المعنى الذي ذكره الجوهري: أن العرضة النصب كالقبضة، والغرفة يكون ذلك اسماً لما تعرضه نون الشيء، أي تجعله حاجزاً له، ومانعاً منه. أي: لا تجعلوا الله حاجزاً، ومانعاً لما حلفتم عليه، وذلك؛ لأن الرجل كان يحلف على بعض الخير من صلة رحم، أو إحسان إلى الغير، أو إصلاح بين الناس بأن لا يفعل ذلك، ثم يمتنع من فعله معللاً لذلك الامتناع بأنه قد حلف أن لا يفعله، وهذا المعنى: هو الذي ذكره الجمهور في تفسير الآية، ينهاهم الله أن يجعلوه عرضة لأيمانهم، أي: حاجزاً لما حلفوا عليه، ومانعاً منه، وسمي المحلوف عليه مماناً لتلبسه باليمين، وعلى هذا يكون قوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ عطف بيان لأيمانكم، أي: لا تجعلوا الله مانعاً لأيمان التي هي بركم، وتقواكم، وإصلاحكم بين الناس، ويتعلق قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُكُمْ﴾ بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا﴾ أي: لا تجعلوا الله لأيمانكم مانعاً، وحاجزاً، ويجوز أن يتعلق بعرضة. أي: لا تجعلوه شيئاً معترضاً بينكم، وبين البرّ، وما بعده، وعلى المعنى الثاني، وهو أن العرضة: الشدة، والقوة يكون معنى الآية: لا تجعلوا اليمين بالله قوة لأنفسكم، وعدة في الامتناع من الخير، ولا يصح تفسير الآية على المعنى الثالث، وهو: تفسير العرضة بالهمّة، ولما على المعنى الرابع، وهو من قولهم: فلان لا يزال عرضة للناس، أي: يقعون فيه، فيكون معنى الآية عليه: ولا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم، فتبتذلونه بكثرة الحلف به، ومنه ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: 89] وقد ذم الله المكثرين للحلف فقال: ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حِلَافٍ مِثْنًا﴾ [القلم: 10] وقد كانت العرب تتماح بقلّة الأيمان حتى قال قائلهم:

قليل الأيّايا حافظ ليمينه وإن ندرت منه الآية برّت
وعلى هذا، فيكون قوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ علة للنهي أي: لا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم إرادة أن تبروا، وتتقوا، وتصلحوا؛ لأن من يكثر الحلف بالله يجترئ على الحنث، ويفجر في يمينه. وقد قيل في تفسير الآية أقوال هي راجعة إلى هذه الوجوه التي ذكرناها، فمن ذلك قول الزجاج معنى الآية: أن يكون الرجل إذا طلب منه الفعل الذي فيه خير اعتلّ بالله: فقال علي يمين، وهو لم يحلف، وقيل معناها: لا تحلفوا بالله كائنين إذا أرتبتم البرّ، والتقوى، والإصلاح، وقيل: معناها: إذا حلفتم على أن لا تصلوا أرحامكم، ولا تتصدقوا، ولا تصلحوا، وعلى أشباه ذلك من أبواب البر، فكفروا عن اليمين، وقد قيل إن قوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ مبتدأ خبره محذوف أي: البرّ، والتقوى، والإصلاح أولى. قاله الزجاج وقيل: إنه منصوب أي: لا تمنعكم اليمين بالله البرّ، والتقوى، والإصلاح وروي ذلك عن الزجاج أيضاً، وقيل: معناها: أن لا تبروا، فحنف لا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [النساء: 176] أي: لا تضلوا. قاله ابن جرير الطبري، وقيل: هو في موضع

جرّ على قول الخليل، والكسائي، والتقدير في ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ وقوله: ﴿سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوال العباد: ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصدر منهم. واللغو: مصدر لغا يلغو لغواً، ولغى يلغي لغياً: إذا أتى بما لا يحتاج إليه في الكلام، أو بما لا خير فيه، وهو الساقط الذي لا يعتد به، فاللغو من اليمين: هو الساقط الذي لا يعتد به، ومنه اللغو في الدنيا، وهو الساقط الذي لا يعتد به من أولاد الإبل، قال جرير:

ويذهب بينها المري لغوا كما الغيت في البية الحوار
وقال آخر:

ورب أسراب حبيج كظم عن اللغا ورفث التكلم
أي: لا يتكلمن بالساقط، والرفث، ومعنى الآية: لا يعاقبكم الله بالساقط من أيمانكم، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم أي: اقترفته بالقصد إليه: وهي اليمين المعقودة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ﴾ [المائدة: 89] ومثله قول الشاعر:

ولست بمأخوذ بلغو يقوله إذا لم تعدد عاقدات العزائم
وقد اختلف أهل العلم في تفسير اللغو، فذهب ابن عباس، وعائشة، وجمهور العلماء أيضاً: أنه قول الرجل لا والله، وبلى والله في حديثه، وكلامه غير معتقد لليمين، ولا مرید لها. قال المروزي: هذا معنى لغو اليمين الذي اتفق عليه عامة العلماء. وقال أبو هريرة، وجماعة من السلف: هو أن يحلف الرجل على الشيء لا يظن إلا أنه إياه فإذا ليس هو ما ظنه، وإلى هذا ذهب الحنفية، والزيديّة، وبه قال مالك في الموطأ. وروي عن ابن عباس: أنه قال: لغو اليمين أن تحلف، وأنت غضبان، وبه قال طائفة، ومكحول. وروي عن مالك، وقيل: إن اللغو هو يمين المعصية، قاله سعيد بن المسيّب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبد الله بن الزبير، وأخوه عروة كالذي يقسم ليشرب الخمر، أو ليقطعن الرحم، وقيل: لغو اليمين: هو دعاء الرجل على نفسه، كأن يقول: أعمى الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي، هو مشرك، قاله زيد بن أسلم. وقال مجاهد: لغو اليمين أن يتبايع الرجلان، فيقول أحدهما: والله لا أبيعك بكذا، ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا. وقال الضحاك: لغو اليمين هي المكفرة. أي: إذا كفرت سقطت، وصارت لغواً. والراجح القول الأول لمطابقتها للمعنى اللغوي، ولدلالة الآية عليه كما سيأتي. وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: حيث لم يؤاخذكم بما تقولونه بالسنتكم من دون عمد، وقصد. وأخذكم بما تعمته قلوبكم، وتكلمت به ألسنتكم، وتلك هي اليمين المعقودة المقصودة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ يقول: لا تجعلني عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك، وأصنع الخير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه: هو أن يحلف الرجل أن لا يكلم قريبته أو لا يتصدق، ويكون بين رجلين مغاضبة، فيحلف لا يصلح بينهما، ويقول قد حلفت، قال: يكفر عن

غضبان. وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة قال: لغو اليمين حلف الإنسان على الشيء يظن أنه الذي حلف عليه، فإذا هو غير ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي عن عائشة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنها أن يحلف الرجل على تحريم ما أحل الله له. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر قال: هو الرجل يحلف على المعصية، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن النخعي: هو أن يحلف الرجل على الشيء ثم ينسى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يعني إذ تجاوز عن اليمين التي حلف عليها ﴿حَلِيمٌ﴾ إذ لم يجعل فيها الكفارة.

لِّلَّذِينَ يُؤَلِّونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ رِبًّا أُنْزِلَ آيَاتُ الْفُورِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿يُؤَلِّونَ﴾ أي: يحلفون: والمصدر إيلاء، والياء، والوة، وقرأ ابن عباس: «الذين ألوا» يقال: ألى يؤالي إيلاً، ويأتي بالياء انتلاء، أي: حلف، ومنه: ﴿وَلَا يَأْتِلُ الْفُضْلُ مِنْكُمْ﴾ [النور: 22] ومنه:

قليل الإيلاء حافظ ليمينه

البيت. وقد اختلف أهل العلم في الإيلاء، فقال الجمهور: إن الإيلاء هو أن يحلف أن لا يأتى أمراته أكثر من أربعة أشهر، فإن حلف على أربعة أشهر، فما دونها لم يكن مولياً، وكانت عندهم يميناً محضاً، وبهذا قال مالك، والشافعي، وأحمد، وأبو ثور. وقال الثوري، والكوفيون: الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعداً، وهو قول عطاء. وروي عن ابن عباس: أنه لا يكون مولياً حتى يحلف أن لا يمسها أبداً. وقالت طائفة: إذا حلف أن لا يقرب امراته يوماً، أو أقل، أو أكثر ثم لم يأتى أربعة أشهر بانت منه بالإيلاء. وبه قال ابن مسعود، والنخعي، وابن أبي ليلى، والحكم، وحماد بن أبي سليمان، وقتادة، وإسحاق. قال ابن المنذر: وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم. قوله: ﴿مَنْ نَسَاهُمْ﴾ يشمل الحرائر، والإماء إذا كنَّ زوجات، وكذلك ينخل تحت قوله: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلِّونَ﴾ العبد إذا حلف من زوجته، وبه قال الشافعي، وأحمد، وأبو ثور قالوا: وإيلاؤه كالحر. وقال مالك، والزهري، وعطاء، وأبو حنيفة، وإسحاق: إن أجله شهران. وقال الشعبي: إيلاء الأمة نصف إيلاء الحرة. والتربص: التأنى والتأخر، قال الشاعر:

تربص بهاريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها
وقت الله سبحانه بهذه المدة نفعاً للضرار عن الزوجة.
وقد كان أهل الجاهلية يؤلون السنة، والسنتين، وأكثر من ذلك يقصون بذلك ضرار النساء. وقد قيل: إن الأربعة الأشهر هي التي لا تطيق المرأة الصبر عن زوجها زيادة عليها. قوله: ﴿فَإِنْ فَأَوْوَا﴾ أي: رجعوا ومنه ﴿حتى تفيء إلى أمر الله﴾ [الحجرات: 9] أي: ترجع، ومنه قيل: للظل بعد الزوال فيء؛ لأنه رجع عن جانب المشرق إلى جانب المغرب، يقال: فاء فيء فيئة، وفيوءاً، وإنه لسريع الفئة، أي: الرجعة،

يمينه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: جاء رجل إلى عائشة، فقال: إني نذرت إن كلمت فلاناً، فإن كل مملوك لي عتيق، وكل مال لي ستر للبيت، فقالت: لا تجعل مملوكك عتقاً، ولا تجعل مالك ستراً للبيت، فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ فكفر عن يمينك، وقد ورد أن هذه الآية نزلت في أبي بكر في شأن مسطح. رواه ابن جرير، عن ابن جريج، والقصة مشهورة، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة في الصحيحين، وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه». وثبت أيضاً في الصحيحين، وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «والله إن شاء الله لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير، وكفرت عن يميني». وأخرج ابن ماجه، وابن جرير عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين قطيعة رحم، أو معصية، فبزه أن يحث فيها، ويرجع عن يمينه». وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر، ولا يمين، فيما لا يملك ابن آدم، ولا في معصية الله، ولا في قطيعة رحم». وأخرج أبو داود، والحاكم، وصححه عن عمر مرفوعاً مثله. وأخرج النسائي، وابن ماجه، عن مالك الجشمي قال: قلت: يا رسول الله يأتيني ابن عمي، فأحلف أن لا أعطيه، ولا أصله، فقال: كفر عن يمينك. وأخرج مالك في الموطأ، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وغيرهم عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية ﴿لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ في قول الرجل لا والله، وبلى والله، وكلا والله. وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي من طريق عطاء بن أبي رباح: أنه سئل عن اللغو في اليمين، فقال: قالت عائشة إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل في بيته كلاً والله، وبلى والله». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن عائشة: أنها قالت في تفسيره الآية: إن اللغو هو القوم يتدارون في الأمر يقول هذا: لا والله، ويقول هذا: كلا والله، يتدارون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عائشة أنها قالت: هو اللغو في المزاح والهزل، وهو قول الرجل لا والله، وبلى والله، فذلك لا كفارة فيه، وإنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله، ثم لا يفعله. وأخرج ابن جرير، عن الحسن: قال: «مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون، ومع النبي ﷺ رجل من أصحابه، فرمى رجل من القوم، فقال: أصبت والله، وأخطأت والله، فقال الذي مع النبي ﷺ: حنث الرجل يا رسول الله، فقال: كلا، إيمان الرماة لغو لا كفارة فيها، ولا عقوبة. وقد روى أبو الشيخ عن عائشة، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو أن اللغو لا والله، وبلى والله. أخوجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه قال: لغو اليمين أن تحلف، وأنت

ومنه قول الشاعر:

ففات ولم تقض الذي أقبلت له ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا
قال ابن المنذر: وأجمع كل من يحفظ عنه العلم على أن
الفی الجماع لمن لا عذر له، فإن كان عذر مرض، أو سجن
فهي امراته، فإذا زال العذر فابى الوطء فرّق بينهما إن كانت
المدة قد انقضت، قاله مالك؛ وقالت طائفة إذا أشهد على
فيئته بقلبه في حال العذر أجزأه. وبه قال الحسن، وعكرمة،
والنخعي، والأوزاعي، وأحمد بن حنبل. وقد أوجب الجمهور
على المولى إذا فاء بجماع امراته الكفارة. وقال الحسن،
والنخعي: لا كفارة عليه. قوله: ﴿وإن عزموا للطلاق﴾ العزم:
العقد على الشيء، ويقال: عزم يعزم عزمًا، وعزيمة، وعزمانًا،
واعترم اعترامًا، فمعنى عزموا الطلاق: عقدوا عليه قلوبهم.
والطلاق من طلقت المرأة تطلق كنصر ينصر طلاقًا، فهي
طالق، وطالقة أيضًا، ويجوز طلقت بضم اللام، مثل عظم
يعظم، وإنكره الأخفش. والطلاق حلّ عقد النكاح، وفي ذلك
دليل على أنها لا تطلق بمضي أربعة أشهر كما قال مالك: ما
لم يقع إنشاء تطليق بعد المدة، وأيضًا، فإنه قال: ﴿سميع﴾،
وسميع يقتضي مسموعًا بعد المضي. وقال أبو حنيفة:
﴿سميع﴾ لإيلائه ﴿عليم﴾ بعزمه الذي دل عليه مضي
أربعة أشهر. وأعلم أن أهل كل مذهب قد فسروا هذه الآية
بما يطابق مذهبهم، وتكلفوا بما لم يدل عليه اللفظ، ولا دليل
آخر، ومعناها ظاهر واضح، وهو أن الله جعل الأجل لمن
يولي: أي يحلف من امراته أربعة أشهر. ثم قال مخبراً لعباده
بحكم هذا المولى بعد هذه المدة: ﴿فإن فاقوا﴾ رجعوا إلى
بقاء الزوجية، واستدامة النكاح ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ أي:
لا يؤاخذهم بتلك اليمين بل يغفر لهم، ويرحمهم ﴿وإن
عزموا للطلاق﴾ أي: وقع العزم منهم عليه، والقصد له
﴿فإن الله سميع﴾ لذلك منهم ﴿عليم﴾ به، فهذا معنى الآية
الذي لا شك فيه، ولا شبهة، فمن حلف أن لا يطأ امراته، ولم
يقيد بمدة، أو قيد بزيادة على أربعة أشهر كان علينا إمهاله
أربعة أشهر، فإذا مضت، فهو بالخيار إما رجوع إلى نكاح
امراته، وكانت زوجته بعد مضي المدة كما كانت زوجته
قبلها، أو طلقها، وكان له حكم المطلق لامراته ابتداءً، وأما إذا
وقت بدون أربعة أشهر، فإن أراد أن يبرّ في يمينه اعتزل
امراته التي حلف منها حتى تنقضي المدة كما فعل رسول
الله ﷺ حين ألى من نسائه شهرًا، فإنه اعتزلهن حتى
مضى الشهر، وإن أراد أن يطأ امراته قبل مضي تلك المدة
التي هي بون أربعة أشهر حنث في يمينه، ولزمته الكفارة،
وكان ممثلاً لما صح عنه ﷺ من قوله: «من حلف على
شيء، فرأى غيره خيراً منه فليات الذي هو خير منه، وليكفر
عن يمينه».

وقد أخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن
المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: الإيلاء أن
يحلف أنه لا يجامعها أبداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عنه في قوله: ﴿الذين

يؤلون من نسائهم﴾ قال: هو الرجل يحلف لامراته باه لا
ينكحها، فتتربص أربعة أشهر، فإن هو نكحها كفر عن يمينه،
فإن مضت أربعة أشهر قبل أن ينكحها خيره السلطان إما أن
يفي، وإما أن يعزم، فيطلق كما قال الله سبحانه. وأخرج
سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والطبراني، والبيهقي عنه
قال: كان إيلاء الجاهلية السنة، والسنتين، وأكثر من ذلك،
فوقت الله لهم أربعة أشهر، فإن كان إيلاؤه أقل من أربعة
أشهر، فليس بإيلاء. وأخرج عبد بن حميد، عن علي قال:
الإيلاء إيلاء: إن إيلاء في الغضب، وإيلاء في الرضا، فاما
الإيلاء في الغضب: فإذا مضت أربعة أشهر، فقد بان منه،
وأما ما كان في الرضا فلا يؤاخذ به. وأخرج ابن جرير، عن
ابن عباس قال: لا إيلاء إلا بغضب. وأخرج أبو عبيد في
فضائله، وابن المنذر عن أبي بن كعب أنه قرأ: «فإن فاقوا»
فيهن فإن الله غفور رحيم». وأخرج عبد بن حميد، عن علي
قال: الفی: الجماع. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن
حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في
سننه من طرق، عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن المنذر، عن
ابن مسعود مثله. وأخرج ابن المنذر عن علي قال: الفی
الرضا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود مثله. وأخرج
عبد بن حميد عن الحسن، قال: الفی الجماع، فإن كان له عذر أجزأه
أن يفی بلسانه. أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود قال:
إذا حال بينه، وبينها مرض، أو سفر، أو حبس، أو شيء
يعذر به، فإشهاده فيء. وللشافعي في الفی أقوال مختلفة،
فينبغي الرجوع إلى معنى الفی لغة، وقد بيناه. وأخرج ابن
جرير، عن عمر بن الخطاب: أنه قال في الإيلاء: إذا مضت
أربعة أشهر لا شيء عليه حتى يوقف، فيطلق، أو يمسك.
وأخرج الشافعي، وابن جرير، والبيهقي، عن عثمان بن عفان
نحوه. وأخرج مالك، والشافعي، وعبد بن حميد، وابن جرير،
والبيهقي عن علي نحوه. وأخرج البخاري، وعبد بن حميد،
عن ابن عمر نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، والبيهقي، عن
عائشة نحوه. وأخرج ابن جرير، والدارقطني، والبيهقي من
طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: سألت اثني عشر
رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن الرجل يولي من امراته،
فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة الأشهر،
فتوقف، فإن فاء، وإلا طلق. وأخرج البيهقي، عن ثابت بن
عبيدة مولى زيد بن ثابت، عن اثني عشر رجلاً من الصحابة
نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم،
والبيهقي عن عمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وابن
مسعود، وابن عمر، وابن عباس قالوا: الإيلاء تطليقة بائنة إذا
مرت أربعة أشهر، قبل أن يفی، فهي أمك بنفسها،
وللصحابة، والتابعين في هذا أقوال مختلفة متناقضة،
والمتميعين الرجوع إلى ما في الآية الكريمة، وهو ما عرفناك،
فأشدد عليه يديك. وأخرج عبد الرزاق عن عمر قال: إيلاء
العبد شهران. وأخرج مالك عن ابن شهاب قال: إيلاء العبد

نحو إيلاء الحر.

وَلَنْ عَزِمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُمْ وَلَهُنَّ أَمْوَالٌ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٧﴾

قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ يدخل تحت عمومها المطلقة قبل الدخول، ثم خصص بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَوثُنَهَا﴾ [الأحزاب: 49] فوجب بناء العام على الخاص، وخرجت من هذا العموم المطلقة قبل الدخول، وكذلك خرجت الحامل بقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 4] وكذلك خرجت الآية بقوله تعالى: ﴿فَعَنْتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: 4] والتربص: الانتظار، قيل: هو خبر في معنى الأمر، أي: ليتربصن قصد بإخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه، وزاده تأكيد وقوعه خبراً للمبتدأ. قال ابن العربي: وهذا باطل، وإنما هو: خبر عن حكم الشرع، فإن وجبت مطلقة لا تربص، فليس ذلك من الشرع، ولا يلزم من ذلك، وقوع خبر الله سبحانه على خلاف مخبره. والقروء جمع قرء. وروي عن نافع أنه قرأ: «قرو» بتشديد الواو. وقراه الجمهور بالهمز. وقرأ الحسن بفتح القاف، وسكون الراء، والتثوين. قال الأصمعي: لو اُحد قرء بضم القاف. وقال أبو زيد بالفتح: وكلاهما قال أقرت المرأة: حاضت، وأقرت: ظهرت. وقال الأخفش: أقرت المرأة: إذا صارت صاحبة حيض، فإذا حاضت قلت قرأت بلا ألف. وقال أبو عمرو بن العلاء من العرب من يسمي الحيض قرءاً، ومنهم من يسمي الطهر قرءاً، ومنهم من يجمعهما جميعاً، فيسمى الحيض مع الطهر قرءاً، وينبغي أن يعلم أن القرء في الأصل: الوقت؛ يقال: هبت الرياح لقرئها، ولقارئها، أي: لوقتها، ومنه قول الشاعر:

كرمت العقر عقربني شليل إذا هبت لقارئها الرياح
فيقال للحيض: قرء، وللطهر قرء؛ لأن كل واحد منهما له وقت معلوم. وقد أطلقته العرب تارة على الأطهار، وتارة على الحيض، فمن إطلاقه على الأطهار قول الأعشى:

أني كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزم عزائكا
مورثة مالا وفي الحي رفة لما ضاع فيها من قروء نساكا
أي أطهارهن، ومن إطلاقه على الحيض قول الشاعر:

يارب ذي حنق علي قارض له قروء كقروء الحائض
يعني أنه طعنه، فكان له دم كدم الحائض. وقال قوم: هو مأخوذ من قري الماء في الحوض، وهو جمعه، ومنه القرآن لاجتماع المعاني فيه. قال عمرو بن كلثوم:

نراعي عيطل أنما بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا
أي: لم تجمع في بطنها. والحاصل أن القروء في لغة العرب مشترك بين الحيض، والطهر، ولأجل هذا الاشتراك، اختلف أهل العلم في تعيين ما هو المراد بالقروء المذكورة في الآية، فقال أهل الكوفة: هي الحيض، وهو قول عمر،

وعلي، وابن مسعود، وأبي موسى، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعكرمة، والسدي، وأحمد بن حنبل. وقال أهل الحجاز هي: الأطهار، وهو قول عائشة، وابن عمر، وزيد بن ثابت، والزهري، وأبان بن عثمان، والشافعي، وأعلم أنه قد وقع الاتفاق بينهم على أن القرء الوقت، فصار معنى الآية عند الجميع، والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة أوقات، فهي على هذا مفسرة في العدد مجملة في المعبود، فوجب طلب البيان للمعبود من غيرها، فأهل القول الأول استدلوا على أن المراد في هذه الآية الحيض بقوله ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك» ويقول ﷺ: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان» وبأن المقصود من العدة استبراء الرحم، وهو يحصل بالحيض لا بالطهر. واستدل أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: 1] ولا خلاف أنه يؤمر بالطلاق، وقت الطهر. ولقوله ﷺ: «مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، فذلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء» وذلك؛ لأن زمن الطهر هو الذي تطلق فيه النساء. قال أبو بكر بن عبد الرحمن: ما أركنا أحداً من فقهاءنا إلا يقول: بأن الأقراء هي: الأطهار، فإذا طلق الرجل في طهر لم يطأ فيه اعتدت بما بقي منه، ولو ساعة، ولو لحظة، ثم استقبلت طهراً ثانياً بعد حيضة، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة خرجت من العدة. انتهى. وعندي أن لا حجة في بعض ما احتج به أهل القولين جميعاً. أما قول الأولين أن النبي ﷺ قال: «دعي الصلاة أيام أقرائك» فغاية ما في هذا أن النبي ﷺ أطلق الأقراء على الحيض، ولا نزاع في جواز ذلك كما هو شأن اللفظ المشترك، فإنه يطلق تارة على هذا، وتارة على هذا، وإنما النزاع في الأقراء المذكورة في هذه الآية، وأما قوله ﷺ: «في الأمة: وعدتها حيضتان» فهو حديث أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارقطني، والحاكم وصححه، من حديث عائشة مرفوعاً. وأخرجه ابن ماجه، والبيهقي من حديث ابن عمر مرفوعاً أيضاً، ودلالته على ما قاله الأولون قوية. وأما قولهم: إن المقصود من العدة استبراء الرحم، وهو يحصل بالحيض لا بالطهر، فيجواب عنه: بأنه إنما يتم لو لم يكن في هذه العدة شيء من الحيض على فرض تفسير الأقراء بالأطهار، وليس كذلك بل هي مشتملة على الحيض، كما هي مشتملة على الأطهار، وأما استدلال أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: 1] فيجواب عنه: بأن التنازع في اللام في قوله: «لعنهن» يصير ذلك محتملاً، ولا تقوم الحجة بمحتمل. وأما استدلالهم بقوله ﷺ: «مره فليراجعها» الحديث، فهو في الصحيح، ودلالته قوية على ما ذهبوا إليه، ويمكن أن يقال: إنها تنقضي العدة بثلاثة أطهار، أو بثلاث حيض، ولا مانع من ذلك، فقد جوز جمع من أهل العلم حمل المشترك على معنیه، وبذلك يجمع بين الأدلة، ويرتفع الخلاف، وينتفع النزاع. وقد استشكل الزمخشري تمييز الثلاثة بقوله: قروء، وهي جمع كثرة دون أقراء التي

يكن من فضيلة الرجال على النساء إلا كونهن خلقن من الرجال لما ثبت أن حواء خلقت من ضلع آدم.

وقد أخرج أبو داود، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت: طلقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله حين طلقت العدة للطلاق، فقال: ﴿والمطلقات يتربصن﴾ الآية. وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ ثم قال: ﴿واللاني يشن من المحيض من نساكن إن ارتبتم فعنتهن ثلاثة أشهر﴾ [الطلاق: 4] فنسخ، وقال: ﴿ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ [الأحزاب: 49]. وأخرج مالك، والشافعي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والبيهقي من طرق، عن عائشة أنها قالت: الأقراء: الأطهار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عمر، وزيد بن ثابت مثله. وأخرج المنكروون، عن عمرو بن دينار، قال الأقراء: الحيض عن أصحاب محمد ﷺ. وأخرج البيهقي، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثلاثة قروء﴾ قال: ثلاث حيض. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ قال: كانت المرأة تكتن حملها حتى تجعله لرجل آخر، فنهاهن الله عن ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر في الآية قال: الحمل، والحيض، وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وبعولتهن أحق بردهن﴾ يقول: إذا طلق الرجل امرأته تطليقة، أو تطليقتين، وهي حامل، فهو أحق برجعتهما ما لم تضع حملها، وهو قوله: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، عن مجاهد في قوله: ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾ قال: في العدة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله، وزاد ما لم يطلقها ثلاثاً. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك في قوله: ﴿ولهن مثل الذي عليهن﴾ قال: إذا أظعن الله، وأظعن أزواجهن، فعليه أن يحسن صحبتها، ويكف عنها أذاه، وينفق عليها من سعته، وقد أخرج أهل السنن عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن لكم على نساكنكم حقاً، ولنساكنكم عليكم حقاً، أما حقكم على نساكنكم أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأتين في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن، وطعامهن، وصحهن الترمذي. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي عن معاوية بن حيدة القشيري: «أنه سال النبي ﷺ ما حق المرأة على الزوج؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت،

هي من جموع القلة. وأجاب بأنهم يتسعون في ذلك، فيستعملون كل واحد من الجمع مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية. قوله: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ قيل: المراد به: الحيض، وقيل: الحمل، وقيل: كلاهما، ووجه النهي عن الكتمان ما فيه في بعض الأحوال من الإضرار بالزوج، وإذهاب حقه، فإذا قالت المرأة: حضت، وهي لم تحض ذهبت بحقه من الارتجاع، وإذا قالت: لم تحض، وهي قد حاضت الزمت من النفقة ما لم يلزمه، فاضرت به، وكذلك الحمل ربما تكتمه التقطع حقه من الارتجاع، وربما تدعيه لتوجب عليه النفقة، ونحو ذلك من المقاصد المستلزمة للإضرار بالزوج. وقد اختلفت الأقوال في المدة التي تصنق فيها المرأة إذا ادعت انقضاء عنتها. وقوله: ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فيه، وعيد شديد للكاتمات، وبيان أن من كتمت ذلك منهن لم تستحق اسم الإيمان. والبعولة جمع بعل، وهو الزوج، سمي بعلًا لعلوه على الزوجة؛ لأنهم يطلقونه على الرب، ومنه قوله: تعالى: ﴿أتدعون بعلًا﴾ [الصفافات: 125] أي: رباً، ويقال: بعول، وبعولة، كما يقال في جمع الذكر نكور، ونكورة، وهذه التاء لتأنيث الجمع، وهو شاذ لا يقاس عليه بل يعتبر فيه السماع، والبعولة أيضاً تكون مصدراً من بعل الرجل يبعول، مثل منع يمنع، أي: صار بعلًا. وقوله: ﴿أحق بردهن﴾ أي: برجعتهن، وذلك يختص بمن كان يجوز للزوج مراجعتها، فيكون في حكم التخصيص لعموم قوله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن﴾ لأنه يعم المثلثات، وغيرهن. وقوله: ﴿في ذلك﴾ يعني في مدة التربص، فإن انقضت مدة التربص، فهي أحق بنفسها، ولا تحل له إلا بنكاح مستأنف بولي، وشهود، ومهر جنيد، ولا خلاف في ذلك، والرجعة تكون باللفظ، وتكون بالوطء، ولا يلزم المراجع شيء من أحكام النكاح بلا خلاف. وقوله: ﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾ أي: بالمراجعة أي: إصلاح حاله معها، وحالها معه، فإن قصد الإضرار بها، فهي محرمة لقوله تعالى: ﴿ولا تمسكوهن ضاراً لتعتدوا﴾ [البقرة: 231] قيل: وإذا قصد بالرجعة الضرر، فهي صحيحة، وإن ارتكب بذلك محرماً، وظلم نفسه، وعلى هذا، فيكون الشرط المذكور في الآية الحث للأزواج على قصد الإصلاح، والزجر لهم عن قصد الضرر، وليس المراد به جعل قصد الإصلاح شرطاً لصحة الرجعة. قوله: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي: لهن من حقوق الزوجية على الرجال بمثل ما للرجال عليهن، فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس أنهم يفعلونه لنسائهم، وهي: كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء أنهم يفعلونه؛ لأزواجهن من طاعة، وتزين، وتحب، ونحو ذلك. قوله: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ أي: منزلة ليست لهن، وهو قيامه عليها في الإنفاق، وكونه من أهل الجهاد، والعقل، والقوة، وله من الميراث أكثر مما لها، وكونه يجب عليها امتثال أمره، والوقوف عند رضاه، ولو لم

هذا يكون إسناد الأخذ إليهم لكونهم الأمرين بذلك. والأول أولى لقوله: ﴿مِمَّا أَتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فإن إسناده إلى غير الأزواج بعيد جداً، لأن إيتاء الأزواج لم يكن عن أمرهم، وقيل: إن الثاني أولى لثلاث يتشوش النظم. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي: لا يجوز لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ﴿أَنْ لَا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: عدم إقامة حدود الله التي حدّها للزوجين، وأوجب عليهما الوفاء بها من حسن العشرة والطاعة، فإن خافا ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي: لا جناح على الرجل في الأخذ، وعلى المرأة في الإعطاء بأن تقتدي نفسها من ذلك النكاح ببذل شيء من المال يرضى به الزوج، فيطلقها لأجله، وهذا هو الخلع، وقد ذهب الجمهور إلى جواز ذلك للزوج، وأنه يحلّ له الأخذ مع ذلك الخوف، وهو الذي صرح به القرآن. وحكى ابن المنذر، عن بعض أهل العلم أنه لا يحلّ له ما أخذ، ولا يجبر على رده، وهذا في غاية السقوط. وقرا حمزة: «إلا أن يخافا» على البناء للمجهول، والفاعل محذوف، وهو الأئمة، والحكام، واختاره أبو عبيد قال لقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فجعل الخوف لغير الزوجين. وقد احتج بذلك من جعل الخلع إلى السلطان، وهو سعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين. وقد ضعف النحاس اختيار أبي عبيد المذكور. وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: إذا خاف الأئمة، والحكام، أو المتوسطون بين الزوجين، وإن لم يكونوا أئمة، وحكاماً عدم إقامة حدود الله من الزوجين، وهي ما أوجبها عليهما كما سلف. وقد حكى عن بكر بن عبد الله المدني: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج، وآتيتن إحداهن قنطاراً، فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاً، وإنما مبيناً﴾ [النساء: 20] وهو قول خارج عن الإجماع، ولا تنافي بين الاثنين. وقد اختلف أهل العلم إذا طلب الزوج من المرأة زيادة على ما نفعه إليها من المهر، وما يتبعه، ورضيت بذلك المرأة هل يجوز أم لا؟ وظاهر القرآن الجواز لعدم تقييده بمقدار معين، وبهذا قال مالك، والشافعي، وأبو ثور، وروي مثل ذلك عن جماعة من الصحابة، والتابعين، وقال طائوس، وعطاء، والأوزاعي، وأحمد، وإسحاق: إنه لا يجوز، وسيأتي ما ورد في ذلك عن النبي ﷺ. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: أحكام النكاح، والفراق المذكورة هي: حدود الله التي أمرت بامتثالها، فلا تعتوها بالمخالفة لها، فستحقوا ما نكره الله من التسجيل على فاعل ذلك بأنه ظالم. قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي: الطلقة الثالثة التي نكرها سبحانه بقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحَ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: فإن وقع منه ذلك، فقد حرمت عليه بالتثليث ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ أي: حتى تتزوج بزواج آخر. وقد أخذ بظاهر الآية سعيد بن المسيب، ومن وافقه قالوا: يكفي مجرد العقد؛ لأنه المراد بقوله: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ وذهب الجمهور من السلف، والخلف إلى أنه لا بدّ مع العقد من الوطء لما ثبت عن النبي

وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تهجر إلا في البيت». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَاللرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ قال: فضل ما فضله الله به عليها من الجهاد، وفضل ميراثه على ميراثها، وكل ما فضل به عليها. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي مالك في الآية قال: يطلقها، وليس لها من الأمر شيء. وأخرج عن زيد بن أسلم قال: الإمارة.

الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ فَإِيسَافٌ بِمَرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٠﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا حِلَّ لَكُمْ بِهَا مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

المراد بالطلاق المذكور: هو: الرجعي بليل ما تقدم في الآية الأولى، أي: الطلاق الذي تثبت فيه الرجعة للأزواج هو مرتان أي: الطلقة الأولى، والثانية، إذ لا رجعة بعد الثالثة، وإنما قال سبحانه: ﴿مَرَّتَانٍ﴾ ولم يقل طلقتان إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الطلاق مرة بعد مرة، لا طلقتان دفعة واحدة، كذا قال جماعة من المفسرين، ولما لم يكن بعد الطلقة الثانية إلا أحد أمرين، إما إيقاع الثالثة التي بها تبين الزوجة، أو الإمساك لها، واستدامة نكاحها، وعدم إيقاع الثالثة عليها قال سبحانه: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: فإمسك بعد الرجعة لمن طلقها زوجها طلقتين بمعروف، أي: بما هو معروف عند الناس من حسن العشرة ﴿أَوْ تَسْرِيحَ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: بإيقاع طلقة ثالثة عليها من دون ضرار لها، وقيل: المراد: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: برجعة بعد الطلقة الثانية ﴿أَوْ تَسْرِيحَ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: بترك الرجعة بعد الثانية حتى تنقضي عنتها. والأول أظهر. وقوله: ﴿الطَّلَاقُ﴾ مبتدأ بتقدير مضاف أي: عند الطلاق الذي تثبت فيه الرجعة مرتان. وقد اختلف أهل العلم في إرسال الثلاث دفعة واحدة هل يقع ثلاثاً، أو واحدة فقط، فذهب إلى الأول الجمهور، وذهب إلى الثاني من عداهم، وهو الحق. وقد قررته في مؤلفاتي تقريراً بالغا، وأقرته برسالة مستقلة. قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا أَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾ الخطاب للأزواج. أي: لا يحلّ للأزواج أن يأخذوا مما دفعوه إلى نسايتهم من المهر شيئاً على وجه المضارة لهن، وتنكير «شيئاً» للتحقير، أي: شيئاً نزرأ فضلاً عن الكثير، وخص ما دفعوه إليهنّ بعدم حلّ الأخذ منه مع كونه لا يحلّ للأزواج أن يأخذوا شيئاً من أموالهنّ التي يملكنها من غير المهر لكون ذلك، هو الذي تتعلق به نفس الزوج، وتتطلع لأخذه دون ما عداه مما هو في ملكها، على أنه إذا كان أخذ ما دفعه إليها لا يحلّ له كان ما عداه ممنوعاً منه بالأولى، وقيل: الخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ للأئمة، والحكام ليطبق قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فإن الخطاب فيه للأئمة، والحكام، وعلى

مرتان ﴿ قالوا: وهو الميقات الذي تكون فيه الرجعة، فإذا طلق واحدة، أو اثنتين، فيما أن يمسه، ويراجع بمعروف، وإما أن يسكت عنها حتى تنقضي عتبتها، فتكون أحق بنفسها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية نحوه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الرجل ياكل من مال امرأته الذي نحلها، وغيره لا يرى أن عليه جناحاً، فأنزل الله: ﴿ولا يحل لكم أن تلتخوها مما آتيتموهن شيئاً﴾ فلم يصح لهم بعد هذه الآية أخذ شيء من أموالهن إلا بحقها، ثم قال: ﴿إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ وقال: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ [النساء: 4]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ قال: إلا أن يكون النشوز، وسوء الخلق من قبلها، فتدعوك إلى أن تفتدي منك، فلا جناح عليك فيما أفتتت به. وأخرج مالك، والشافعي وأحمد، وأبو داود والنسائي، والبيهقي من طريق عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن حبيبة بنت سهل الأنصاري: «أنها كانت تحب ثابت بن قيس، وأن رسول الله خرج إلى الصبح، فوجدها عند بابها في الغلس، فقال: من هذه؟ قالت: أنا حبيبة بنت سهل، فقال: ما شأنك؟ قالت: لا أنا، ولا بانت، فلما جاء ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ: هذه حبيبة بنت سهل، فنكرت ما شاء الله أن تذكر، فقالت حبيبة: يا رسول الله كل ما أعطاني عنده، فقال رسول الله ﷺ: «خذ منها، فأخذ منها، وجلست في أهلها». وأخرج ابن جرير، عن ابن جرير قال: نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس، وفي حبيبة، وكانت اشكته إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «تردين عليه حقيقته؟ قالت: نعم، فدعاه، فنكر ذلك له، فقال: ويطيبي لي ذلك، قال: نعم، قال ثابت: قد فعلت، فنزلت: ﴿ولا يحل لكم أن تلتخوها﴾ الآية، وأخرج عبد الرزاق، وأبو داود، وابن جرير، والبيهقي من طريق عمرة، عن عائشة نحوه. وأخرج البخاري، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي، عن ابن عباس: أن جميلة بنت عبد الله بن سلول، امرأة ثابت بن قيس بن شماس: «أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق، ولا بين، ولكن لا أطيقه بغضاً، وأكره الكفر في الإسلام، قال: أتريدين عليه حقيقته؟ قالت: نعم، قال: اقبلي الحديقة، وطلقها تطليقة». ولفظ ابن ماجه: «فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها حقيقته، ولا يزداده». وأخرج البيهقي من طريق عطاء قال: «أتت امرأة النبي ﷺ، وقالت: إني أبغض زوجي، وأحب فراقه، قال: أتريدين عليه حقيقته التي أصدقك؟ قالت: نعم، وزيادة، فقال النبي ﷺ: أما الزيادة من مالك فلا». وأخرج البيهقي، عن أبي الزبير: أن ثابت بن قيس، فنكر القصة، وفيه: «أما الزيادة فلا» وأخرج ابن مردويه بإسناد جيد عن ابن عباس، وفيه «أنه أمر النبي ﷺ ثابتاً أن يأخذ

من اعتبار ذلك، وهو زيادة يتعين قبولها، ولعله لم يبلغ سعيد بن المسيب، ومن تابعه، وفي الآية دليل على أنه لا بد من أن يكون ذلك نكاحاً شرعياً مقصوداً لذاته لا نكاحاً غير مقصود لذاته، بل حيلة للتحليل، ونذرية إلى ردها إلى الزوج الأول، فإن ذلك حرام للأئلة الواردة في نمه، ونم فاعله، وأنه التيس المستعار الذي لعنه الشارع، ولعن من اتخذه لذلك. قوله: ﴿فإن طلقها﴾ أي: الزوج الثاني: ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي: الزوج الأول والمرأة ﴿أن يترجعا﴾ أي: يرجع كل واحد منهما لصاحبه. قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن الحر إذا طلق زوجته ثلاثاً، ثم انقضت عتبتها، ونكحت زوجاً، وبخل بها، ثم فارقها، وانقضت عتبتها، ثم نكحها الزوج الأول أنها تكون عنده على ثلاث تطليقات. قوله: ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ أي: حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر. وأما إذا لم يحصل ظن ذلك بأن يعلمها، أو أحدهما عدم الإقامة لحدود الله، أو ترداً، أو أحدهما، ولم يحصل لهما الظن، فلا يجوز البخل في هذا النكاح؛ لأنه مظنة للمعصية لله، والوقوع فيما حرّمه على الزوجين. وقوله: ﴿وتلك حدود الله﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة، كما سلف، وخص الذين يعلمون مع عموم الدعوة للعالم، وغيره، ووجوب التبليغ لكل فرد؛ لأنهم المنتفعون بالبيان المذكور.

وقد أخرج مالك، والشافعي، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: كان الرجل إذا طلق امرأته، ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عتبتها كان ذلك له، وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا ما دنا وقت انقضاء عتبتها ارتجعها، ثم طلقها، ثم قال: والله لا أويك إلي ولا تحليل أبداً، فأنزل الله: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ فاستقبل الناس الطلاق جديداً من يومئذ من كان منهم طلق، ومن لم يطلق. وأخرج نحوه الترمذي، وابن مردويه، والحاكم وصححه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. وأخرج البخاري عنها: أنها أتت امرأة، فسألته عن شيء من الطلاق، قالت: فنكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿الطلاق مرتان﴾. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي رزين الاسدي قال: قال رجل: «يا رسول الله أرأيت قول الله الطلاق مرتان؟ فإن الثالثة؟ قال: التسريح بإحسان الثالثة» وأخرج نحوه ابن مردويه، والبيهقي عن ابن ابن عباس مرفوعاً. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد أنه قال: قال الله للثالثة: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ وأخرج ابن أبي حاتم، عن يزيد بن أبي حبيب قال: التسريح في كتاب الله الطلاق. وأخرج البيهقي، من طريق السدي، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: ﴿الطلاق

تتخذوا آيات الله هزواً، فالزمه رسول الله ﷺ الطلاق. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن مرفوعاً نحو حديث عبادة. وأخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، وهزلن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة».

وَإِذَا كَلِمَتُكَ أَوَّلَ الْوَسْأَةِ قُلْتَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَمْضُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا رَاضُوا بِبَيْنِهِمْ بِالْمَرْوِيِّ ذَلِكَ يُعْطَى بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

الخطاب في هذه الآية بقوله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمْ﴾ وبقوله: ﴿فَلَا تَعْضَلُوهُنَّ﴾ إما أن يكون للأزواج، ويكون معنى العضل منهم أن يمنعوهن من أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عتقهن لحماية الجاهلية، كما يقع كثيراً من الخلفاء، والسلاطين غيرة على من كنَّ تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم؛ لأنهم لما نالوه من رياسة الدنيا، وما صاروا فيه من النخوة، والكبرياء، يتخيلون أنهم قد خرجوا من جنس بني آدم إلا من عصمه الله منهم بالورع، والتواضع؛ وإما أن يكون الخطاب للأولياء، ويكون معنى إسناد الطلاق إليهم أنهم سبب له لكونهم المزوجين للنساء المطلقات من الأزواج المطلقين لهن. وبلوغ الأجل المذكور هنا المراد به: المعنى الحقيقي. أي: نهايته لا كما سبق في الآية الأولى. والعضل: الحبس. وحكى الخليل نجاجة معضلة قد احتبس بيضها، وقيل: العضل: التضييق والمنع، وهو راجع إلى معنى الحبس، يقال أُرئت أمراً، فعضلته عنه أي: منعتني، وضيق عليّ، وأعضل الأمر: إذا ضاقت عليك فيه الحيل. وقال الأزهري: أصل العضل من قولهم عضلت الناقة: إذا نشب ولدها، فلم يسهل خروجها، وعضلت النجاجة: نشب بيضها، وكل مشكل عند العرب معضل، ومنه قول الشافعي رحمه الله:

إذا المعضلات تصسين لي كشفت خفاء لها بالنظر
ويقال أعضل الأمر: إذا اشتد، وداء عضال. أي: شديد عسير البرء أعياء الأطباء، وعضل فلان أيمه، أي: منعها يعضلها بالضم، والكسر لغتان. وقوله: ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ أي: من أن ينكح، فمحله الجر عند الخليل، والنصب عند سيبويه، والقراء، وقيل: هو بدل اشتمال من الضمير المنصوب في قوله: ﴿فَلَا تَعْضَلُوهُنَّ﴾. وقوله: ﴿وَأَزْوَاجَهُنَّ﴾ إن أريد به المطلوق لهن، فهو مجاز باعتبار ما كان، وإن أريد به من يرين أن يتزوجنه، فهو مجاز باعتبار ما سيكون. وقوله: ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ إشارة إلى ما فصل من الأحكام، وإنما أقرد مع كون المنكوح قبله جمعاً حملاً على معنى الجمع بتأويله بالفريق، ونحوه. وقوله: ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ محمول على لفظ الجمع، خالف سبحانه ما بين الإشارتين افتتناناً. وقوله: ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ أي: أنسى وأنفع: ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ من الانساق، والله يعلم ما لكم فيه الصلاح ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ لا تعلمون ذلك.

وقد أخرج البخاري، وأهل السنن، وغيرهم عن معقل بن

الإمساك بمعروف من غير قصد لضرار، أو التسريع بإحسان أي: تركها حتى تنقضي عتقها من غير مراجعة ضرار، ولا تمسكوهن ضرراً، كما كانت تفعل الجاهلية من طلاق المرأة حتى يقرب انقضاء عتقها، ثم مراجعتها لا عن حاجة، ولا لمحبة، ولكن لقصد تطويل العدة، وتوسيع مدة الانتظار ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ لقصد الاعتداء منكم عليهن، والظلم لهن ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ فقد ظلم نفسه، لأنه عرضها لعقاب الله وسخطه. قال الزجاج: يعني عرض نفسه للعذاب، لأن إتيان ما نهى الله عنه تعرض لعذاب الله ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ آيات الله هزواً أي: لا تأخذوا أحكام الله على طريقة الهزئ، فإنها جد كلها، فمن هزل فيها فقد لزمته - نهاهم سبحانه أن يفعلوا كما كانت الجاهلية تفعل، فإنه كان يطلق الرجل منهم، أو يعتق، أو يتزوج، ويقول: كنت لأعبأ. قال القرطبي، ولا خلاف بين العلماء أن من طلق هزلاً أن الطلاق يلزمه. قوله: ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ نعمت الله عليكم أي: النعمة التي صرتم فيها بالإسلام، وشرائعه بعد أن كنتم في جاهلية جهلاء، وظلمات بعضها فوق بعض، والكتاب: هو القرآن. والحكمة قال المفسرون: هي السنة التي سننها لهم رسول الله ﷺ ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ أي: يخوفكم بما أنزل عليكم، وأقرد الكتاب، والحكمة بالذكر مع نفيها في النعمة دخولاً أولياً، تنبيهاً على خطرهما، وعظم شأنهما.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الرجل يطلق امرأته، ثم يراجعها قبل انقضاء عتقها، ثم يطلقها، فيفعل بها ذلك يضارها، ويعطلها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الآية. وأخرج نحوه مالك، وابن جرير، وابن المنذر، عن ثور بن يزيد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، عن الحسن في قوله: ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ ضارراً لتعتقوا قال: هو الرجل يطلق امرأته، فإذا أرادت أن تنقضي عتقها أشهد على رجعتها، يريد أن يطول عليها. وأخرج ابن ماجه، وابن جرير، والبيهقي، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوام يلعبون بحدود الله يقول: قد طلقته، قد راجعتك، قد طلقته، قد راجعتك، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة في قبل عتقها. وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عبادة بن الصامت قال: كان الرجل على عهد رسول الله ﷺ يقول للرجل: زوجتك ابنتي، ثم يقول: كنت لأعبأ، ويقول: قد اعتقت، ويقول: كنت لأعبأ، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ آيات الله هزواً فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لأعبأ، أو غير لأعبأ، فهن جائزات عليه: الطلاق، والنكاح، والعتاق» وأخرج ابن مروي، عن أبي الدرداء قال: كان الرجل يطلق، ثم يقول: لعبت، ويعتق، ثم يقول: لعبت، فأنزل الله: ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ آيات الله هزواً فقال رسول الله ﷺ: «من طلق، أو اعتق، فقال لعبت، فليس قوله بشيء، يقع عليه، فيلزمه». وأخرج ابن مروي أيضاً، عن ابن عباس قال: طلق رجل امرأته، وهو يلعب لا يريد الطلاق، فأنزل الله: ﴿وَأَنْ يَنْكِحَنَّ﴾

للولدين. والفصال: الفطام عن الرضاع. أي: التفريق بين الصبي، والثدي، ومنه سمي الفصيل؛ لأنه مفصول عن أمه. وقوله: ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا﴾ أي: صادراً عن تراض من الأبوين إذا كان الفصال قبل الحولين: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك الفصال. سبحانه لما بين أن مدة الرضاع حولين كاملين قيد ذلك بقوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ وظاهره أن الأب وحده إذا أراد أن يفصل الصبي قبل الحولين كان ذلك جائزاً له، وهنا اعتبر سبحانه تراضي الأبوين وتشاورهما فلا بد من الجمع بين الأمرين بأن يقال: إن الإرادة المنكورة في قوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ لا بد أن تكون منهما، أو يقال: إن تلك الإرادة إذا لم يكن الأبوان للصبي حينئذ كان الموجود أحدهما، أو كانت المرخصة للصبي ظئراً غير أمه. والتشاور: استخراج الرأي يقال: شرت العسل: استخرجته، وشرت الدابة: أجزيتها لاستخراج جريها، فلا بد لأحد الأبوين إذا أراد فصال الرضيع أن يراضي الآخر، ويشاوره حتى يحصل الاتفاق بينهما على ذلك. قوله: ﴿وَأَنْ أَرَيْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ قال الزجاج: التقدير أن تسترضعوا لولادكم غير الولدة. وعن سيبويه أنه حذف اللام؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، والمفعول الأول محذوف، والمعنى: أن تسترضعوا المراضع لولادكم ﴿إِذَا سَلِمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ﴾ بالمد أي: أعطيت، وهي: قراءة الجماعة إلا ابن كثير، فإنه قرأ بالقصر. أي: فعلتم، ومنه قول زهير:

وما كان من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل والمعنى: أنه لا بأس عليكم أن تسترضعوا لولادكم غير أمهاتهم إذا سلمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما قد أرضعن لكم إلى وقت إرادة الاسترضاع، قاله سفيان الثوري، ومجاهد. وقال قتادة، والزهرى: إن معنى الآية: إذا سلمتم ما آتيت من إرادة الاسترضاع أي: سلم كل واحد من الأبوين ورضي، وكان ذلك عن اتفاق منهما، وقصد خير وإرادة معروف من الأمر، وعلي هذا، فيكون قوله: ﴿سَلِمْتُمْ﴾ عاماً للرجال، والنساء تغليباً، وعلى القول الأول الخطاب للرجال فقط، وقيل: المعنى: إذا سلمتم لمن أريتم استرضاعها أجرها، فيكون المعنى: إذا سلمتم ما أريتم إيتاءه. أي: إعطاءه إلى المراضعات بالمعروف. أي: بما يتعارفه الناس من أجر المراضعات من نون ماطلة لهن، أو حظ بعض ما هو لهن من ذلك، فإن عدم توفير أجرهن يبعثهن على التساهل بأمر الصبي، والتفريط في شأنه.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود في نسخته، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن مجاهد في قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قال: المطلقات ﴿حَوْلِينَ﴾ قال: سنتين ﴿لَا تَضَارَّ وَالِدَةُ بَوْلِدَهَا﴾ يقول: لا تأبى أن ترضعه ضراراً لتشق على أبيه ﴿وَلَا مَوْلُودَ لَهُ بَوْلِدَهُ﴾ يقول: ولا يضارَّ الوالد بولده، فيمنع أمه أن ترضعه ليحزنها بذلك ﴿وَعَلَى

لَيْلَى عَلَى خِلافَ بَيْنِهِمْ، هَلْ يَكُونُ الْوَجُوبُ عَلَى مَنْ يَأْخُذُ نَصِيْبًا مِنَ الْمِيرَاثِ، أَوْ عَلَى الْمَنْكُورِ فَقَطْ، أَوْ عَلَى كُلِّ ذِي رَحْمٍ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ، وَارْتِثًا مِنْهُ، وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِالْوَارِثِ: وَارِثُ الْأَبِ تَجِبُ عَلَيْهِ نَفَقَةُ الْمَرْضُوعَةِ، وَكَسَوْتَهَا بِالْمَعْرُوفِ، قَالَه الضَّحَّاكُ. وَقَالَ مَالِكٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَثَلِ مَا قَالَه الضَّحَّاكُ، وَلَكِنَّه قَالَ: إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ، وَإِنَّمَا لَا تَلْزِمُ الرَّجُلَ نَفَقَةُ أَخٍ، وَلَا ذِي قَرَابَةٍ، وَلَا ذِي رَحْمٍ مِنْهُ، وَشَرْطُهُ الضَّحَّاكُ بَأَنْ لَا يَكُونَ لِلصَّبِيِّ مَالٌ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ أَخَذَتْ أَجْرَهُ رِضَاعَهُ مِنْ مَالِهِ. وَقِيلَ: الْمَرَادُ: بِالْوَارِثِ الْمَنْكُورُ فِي الْآيَةِ هُوَ: الصَّبِيُّ نَفْسُهُ. أَي: عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِ إِرْضَاعُ نَفْسِهِ إِذَا مَاتَ أَبُوهُ، وَوَرِثَ مِنْ مَالِهِ، قَالَه قَبِيصَةُ بْنُ ذُؤَيْبٍ، وَيَشِيرُ بْنُ نَصْرِ قَاضِي عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ. وَرَوَى عَنِ الشَّافِعِيِّ، وَقِيلَ: هُوَ الْبَاقِي مِنْ وَالِدِي الْمَوْلُودِ بَعْدَ مَوْتِ الْآخَرِ مِنْهُمَا، فَإِذَا مَاتَ الْأَبُ كَانَ عَلَى الْأُمِّ كِفَايَةُ الطِّفْلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ، قَالَه سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَقِيلَ: إِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أَي: وَارِثُ الْمَرْضُوعَةِ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْنَعَ بِالْمَوْلُودِ كَمَا كَانَتْ الْأُمُّ تَصْنَعُهُ بِهِ مِنَ الرِّضَاعِ، وَالْخِدْمَةِ، وَالتَّرْبِيَةِ. وَقِيلَ: إِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أَنَّهُ يَحْرَمُ عَلَيْهِ الْإِضْرَارُ بِالْأَمِّ كَمَا يَحْرَمُ عَلَى الْأَبِ، وَبِهِ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالُوا: وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ، فَمَنْ ادَّعَى أَنَّهُ يَرْجِعُ فِيهِ الْعُطْفُ إِلَى جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ، فَعَلِيهِ الدَّلِيلُ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَهُوَ الصَّحِيحُ، إِذْ لَوْ أَرَادَ الْجَمِيعُ الَّذِي هُوَ: الرِّضَاعُ، وَالْإِنْفَاقُ، وَعَدَمُ الضَّرَرِ يُقَالُ: وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ هَؤُلَاءِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى الْمَنْعِ مِنَ الْمَضَارَّةِ، وَعَلَى ذَلِكَ تَأَوَّلَهُ كَافَّةً الْمَفْسِّرِينَ فِيمَا حَكَى الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ، وَقَالَ مَالِكٌ، وَجَمِيعُ أَصْحَابِهِ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالزَّهْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: مِثْلُ ذَلِكَ أَنْ لَا تَضَارَّ. وَأَمَّا الرِّزْقُ، وَالْكُسُوفَةُ، فَلَا يَجِبُ شَيْءٌ مِنْهُ. وَحَكَى ابْنُ الْقَاسِمِ، عَنْ مَالِكٍ، مِثْلَ مَا قَدَّمْنَا عَنْهُ، فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَدَعَايَ النِّسْخِ. وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ ضَعْفُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ هَذِهِ الطَّائِفَةُ، فَإِنْ مَا خَصَّصُوا بِهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ مِنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى. أَي: عَدَمُ الْإِضْرَارِ بِالْمَرْضُوعَةِ قَدْ أَقَادَهُ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَضَارَّ وَالِدَةُ بَوْلِدَهَا﴾ لَصِقَ ذَلِكَ عَلَى كُلِّ مَضَارَّةٍ تَرِدُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَوْلُودِ لَهُ، أَوْ غَيْرِهِ. وَأَمَّا قَوْلُ الْقُرْطُبِيِّ: لَوْ أَرَادَ الْجَمِيعُ لَقَالَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ، فَلَا يَخْفَى مَا فِيهِ مِنَ الضَّعْفِ الْبَيِّنِ، فَإِنْ أَسْمَ الْإِشَارَةِ يَصْلَحُ لِلْمُعْتَدِّ كَمَا يَصْلَحُ لِلْوَالِدِ بِتَأْوِيلِ الْمَنْكُورِ، أَوْ نَحْوِهِ. وَأَمَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ مِنْ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْوَارِثِ: وَارِثُ الصَّبِيِّ، فَيُقَالُ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَارِثًا حَقِيقَةً مَعَ وَجُودِ الصَّبِيِّ حَيًّا، بَلْ هُوَ وَارِثٌ مُجَازًا بِاعْتِبَارِ مَا يُؤَوَّلُ إِلَيْهِ. وَأَمَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْقَوْلِ الثَّانِي، فَهُوَ وَإِنْ كَانَ فِيهِ حَمْلُ الْوَارِثِ عَلَى مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيِّ، لَكِنْ فِي إِجَابِ النَّفَقَةِ عَلَيْهِ مَعَ غِنَى الصَّبِيِّ مَا فِيهِ، وَلِهَذَا قَيَّدَهُ الْقَائِلُ بِهِ بِأَنْ يَكُونَ الصَّبِيُّ فَقِيرًا، وَوَجْهُ الْاِخْتِلَافِ فِي تَفْسِيرِ الْوَارِثِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ الْوَالِدَاتِ، وَالْمَوْلُودِ لَهُ وَالْوَلَدِ، فَاحْتَمَلُ أَنْ يُضَافَ الْوَارِثُ إِلَى كُلِّ مِنْهُم. قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فَصَالًا﴾ الضَّمِيرُ

وَعَسَىٰ أَفْأَذًا يَلْتَمِسُ أَلْجَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا قَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٢٢﴾

لما نكر سبحانه عدة الطلاق، واتصل بنكرها ذكر الإرضاع عقب ذلك بنكر عدة الوفاة، لثلاث يتوهم أن عدة الوفاة مثل عدة الطلاق. قال الزجاج: ومعنى الآية، والرجال الذين يتوفون منكم، ويذرون أزواجاً، أي: ولهم زوجات، فالزوجات يتربصن. وقال أبو علي الفارسي: تقديره، والذين يتوفون منكم، ويذرون أزواجاً، يتربصن بعدهم؛ وهو: كقولك السمن منوان بدرهم. أي: منه. وحكى المهبدي عن سيبويه أن المعنى: وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون، وقيل: التقدير: وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن، نكره صاحب الكشاف، وفيه أن قوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ لا يلائم ذلك التقدير، لأن الظاهر من النكرة المعادة المغايرة. وقال بعض النحاة من الكوفيين: إن الخبر عن الذين متروك، والقصد الإخبار عن أزواجهن بأنهن يتربصن. ووجه الحكمة في جعل العدة للوفاة هذا المقدار أن الجنين النكر يتحرك في الغالب لثلاثة أشهر، والأنثى لأربعة، فزاد الله سبحانه على ذلك عشرة؛ لأن الجنين ربما يضعف عن الحركة، فتتأخر حركته قليلاً، ولا تتأخر عن هذا الأجل. وظاهر هذه الآية العموم، وأن كل من مات عنها زوجها تكون عنتها هذه العدة، ولكنه قد خصص هذا العموم قوله تعالى: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 4] وإلى هذا ذهب الجمهور. وروي عن بعض الصحابة، وجماعة من أهل العلم أن الحامل تعتد بأخر الأجلين جمعاً بين العام، والخاص، وإعمالاً لهما، والحق ما قاله الجمهور. والجمع بين العام، والخاص على هذه الصفة لا يناسب قوانين اللغة، ولا قواعد الشرع، ولا معنى لإخراج الخاص من بين أفراد العام إلا بيان أن حكمه مغاير لحكم العام، ومخالف له. وقد صرح عنه عليه السلام أنه أذن لسبعة الأسلمية أن تتزوج بعد الوضع، والتربص الثاني، والتصبر عن النكاح. وظاهر الآية عدم الفرق بين الصغيرة، والكبيرة، والحرّة، والأمة، وذات الحيض، والأيسة، وأن عدتهن جميعاً للوفاة أربعة أشهر وعشر، وقيل: إن عدة الأمة نصف عدة الحرية شهران وخمسة أيام. قال ابن العربي إجماعاً إلا ما يحكى عن الأصم، فإنه سوى بين الحرية، والأمة، وقال الباجي: ولا نعلم في ذلك خلافاً إلا ما يروى عن ابن سيرين أنه قال: عنتها عدة الحرّة، وليس بالثابت عنه، ووجه ما ذهب إليه الأصم، وابن سيرين ما في هذه الآية من العموم، ووجه ما ذهب إليه من عداها قياس عدة الوفاة على الحد، فإنه ينصف للأمة بقوله سبحانه: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُخْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: 25]. وقد تقدم حديث: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان، وهو: صالح للاحتجاج به، وليس المراد منه: إلا جعل طلاقها على النصف من طلاق الحرية، وعدتها على النصف من عدتها، ولكنه لما لم يمكن أن يقال: طلاقها تطليقة ونصف، وعدتها حيضة ونصف، لكون ذلك لا يعقل كانت عدتها، وطلاقها ذلك

للوارث. قال: يعني الولي من كان ﴿مثل ذلك﴾ قال: النفقة بالمعروف، وكفالته، ورضاعه إن لم يكن للمولود مال، وإن لا تضار أمه ﴿فإن أراداً فصلاً عن تراض منهما وتشاور﴾ قال: غير مسيتين في ظلم أنفسهما، ولا إلى صبيهما، فلا جناح عليهما ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ قال: خيفة الضيعة على الصبي ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف﴾ قال: حساب ما أرضع به الصبي. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في تفسير هذه الآية أنه قال: المراد بقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ هي في الرجل يطلق امرأته، وله منها ولد. وقال في قوله: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ﴾ قال: ما أعطيتكم الظئر من فضل على أجراها. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قال: إنها المرأة تطلق، أو يموت عنها زوجها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في التي تضع لستة أشهر أنها ترضع حولين كاملين، وإذا وضعت لسبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهراً لتمام ثلاثين شهراً، وإذا وضعت لستة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهراً، ثم تلا: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15] وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: على قدر الميسرة، وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿لَا تَضَارَّ وَالِدَةُ بَوْلُودِهَا وَلَا مَوْلُودُهَا بَوْلُودِهَا﴾ ليس لها أن تلقي ولدها عليه، ولا يجد من يرضعه، وليس له أن يضارها، فينتزع منها ولدها، وهي تحب أن ترضعه ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ قال: هو ولي الميت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء، وإبراهيم، والشعبي في قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ قال: هو وارث الصبي ينفق عليه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة نحوه، وزاد: إذا كان المولود لا مال له مثل الذي على والده من أجر الرضاع. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن ابن سيرين نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن قبيصة بن نؤيب في قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ قال: هو الصبي. وأخرج وكيع عن عبد الله بن مغفل نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ قال: لا يضار. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك: ﴿فإن أراداً فصلاً﴾ قال: القطام. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد. قال: للتشاور فيما دون الحولين ليس لها أن تفضمه إلا أن يرضى، وليس له أن يفضمه إلا أن ترضى. وأخرجوا أيضاً عن عطاء في قوله تعالى: ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ قال: أمه أو غيرها ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم﴾ قال: إذا سلمت لها أجراها ﴿ما آتيتكم﴾ ما أعطيتكم.

وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِحُكْمٍ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا بِرِضَا وَأَنْفُسِهِنَّ أَرْزَأَ أَشْهَرِ

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي العالية قال: ضمت هذه الأيام العشر إلى الأربعة أشهر، لأن في العشر ينقح فيه الروح. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ يقول: إذا انقضت عدتها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب في قوله: ﴿فلا جناح عليكم﴾ يعني أولياءها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس أنه كره للمتوفي عنها زوجها الطيب، والزينة، وأخرج مالك، وعبد الرزاق، وأهل السنن وصححه الترمذي، والحاكم عن القريفة بنت مالك بن سنان، وهي أخت أبي سعيد الخدري أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسال أن ترجع إلى أهلها في بني خندة، وأن زوجها خرج في طلب أعبد لها أبقوا حتى إذا تطرف القوم لحقهم، فقتلوه، قالت: فسالت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي، فإن زوجي لم يتركني في منزل يملكه، ولا نفقة، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة، أو في المسجد، فدعاني، أو امرئي، فدعيت، فقال: كيف قلت؟ قالت: فريدت إليه القصة التي تكرت له من شأن زوجي، فقال: امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله. قالت: فاعتدت فيه أربعة أشهر وعشراً. قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي، فسلاني عن ذلك، فأخبرته، فاتبته وقضى به.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنَرْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّهُ أَتَاكُمْ سَنَدُورُهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ يَرَأَى لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَمْرِمُوا عَهْدَ الزَّكَاةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَتْلُمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَأَعَدُّوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿٢٦﴾

الجناح: الإثم، أي: لا إثم عليكم، والتعريض ضد التصريح، وهو: من عرض الشيء. أي: جانبه، كأنه يحوم به حول الشيء، ولا يظهره، وقيل: هو من قولك: عرضت الرجل. أي: أهيت له. ومنه أن ركباً من المسلمين عرضوا رسول الله ﷺ، وأبا بكر ثياباً بيضاً أي: أهوا لهما، فالمعرض بالكلام يوصل إلى صاحبه كلاماً يفهم معناه. وقال في الكشف: الفرق بين الكناية، والتعريض، أن الكناية: أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له. والتعريض: أن يذكر شيئاً يدل به على شيء لم يذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتكم لأسلم عليكم، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا:

وحسبك بالتسليم مني تقاضياً

وكانه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح: لأنه يلوح منه ما يريده. انتهى. والخطبة بالكسر: ما يفعله الطالب من الطلب، والاستلطاف بالقول، والفعل، يقال: خطبها يخطبها خطبة، وخطباً. وأما الخطبة بضم الخاء، فهي الكلام الذي يقوم به الرجل خاطباً. وقوله: ﴿اكتنم﴾ معناه سترتم، وأضمرتم من التزويج بعد انقضاء العدة. والإكنان:

القدر المذكور في الحديث جبراً للكسر، ولكن ها هنا أمر يمنع من هذا القياس الذي عمل به الجمهور، وهو أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً هو ما قنعنا من معرفة خلوها من الحمل، ولا يعرف إلا بتلك العدة، ولا فرق بين الحرة، والأمة في مثل ذلك، بخلاف كون عدتها في غير الوفاة حيضتين، فإن ذلك يعرف به خلو الرحم، ويؤيد عدم الفرق ما سيأتي في عدة أم الولد. واختلف أهل العلم في عدة أم الولد لموت سيدها. فقال سعيد بن المسيب، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين، والزهرري، وعمر بن عبد العزيز، والأوزاعي، وإسحاق، وابن راهويه، وأحمد بن حنبل في رواية عنه: أنها تعتد بأربعة أشهر وعشر لحديث عمرو بن العاص قال: لا تلبسوا علينا سنة نبينا ﷺ. «عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر». أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وضعفه أحمد، وأبو عبيد، وقال الدارقطني: الصواب أنه موقوف. وقال طابوس، وقتادة: عدتها شهران وخمس ليلال. وقال أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، والحسن بن صالح: تعتد بثلاث حيض، وهو: قول علي، وابن مسعود، وعطاء، وإبراهيم النخعي. وقال مالك، والشافعي، وأحمد في المشهور عنه: عدتها حيضة، وغير الحائض شهر، وبه يقول ابن عمر، والشعبي، ومكحول، والليث، وأبو عبيد، وأبو ثور، والجمهور. قوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ المراد بالبلوغ هنا: انقضاء العدة. ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾ من التزين، والتعرض للخطاب «بالمعروف» الذي لا يخالف شريعاً، ولا عادة مستحسنة. وقد استدلل بذلك على وجوب الإحداد على المعتدة عدة الوفاة. وقد ثبت ذلك في الصحيحين، وغيرهما من غير وجه أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله، واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» وكذلك ثبت عنه ﷺ في الصحيحين، وغيرهما النبي عن الكحل لمن هي في عدة الوفاة، والإحداد: ترك الزينة من الطيب، وليس الثياب الجيدة، والحلي، وغير ذلك، ولا خلاف في وجوب ذلك في عدة الوفاة، ولا خلاف في عدم وجوبه في عدة الرجعية، واختلفوا في عدة البائنة على قولين، ومحل ذلك كتب الفروع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿والذين يتوفون منكم﴾ قال: كان الرجل إذا مات، وترك امرأته اعتدت سنة في بيته يتفق عليها من ماله. ثم أنزل الله: ﴿والذين يتوفون منكم﴾ الآية. فهذه عدة المتوفي عنها إلا أن تكون حاملاً، فعنتها أن تضع ما في بطنها. وقال في ميراثها: ﴿ولهن الربع مما تركتم﴾ [النساء: 12] فبين ميراث المرأة، وترك الوصية، والنفقة ﴿فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم﴾ يقول: إذا طلقت المرأة، أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها، فلا جناح عليها أن تتزين، وتتصنع، وتعرض للتزويج، فذلك المعروف.

تنقضي العدة، والكتاب هنا هو: الحد، والقدر الذي رسم من المدة، سماه كتاباً لكونه محدوداً، ومفروضاً كقوله تعالى: ﴿إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: 103] وهذا الحكم أعني تحريم عقد النكاح في العدة مجمع عليه.

وقد أخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ قال: التعريض أن تقول: إني أريد التزويج، وإني لأحب المرأة من أمرها، وأمرها، وإن من شأني النساء، ولوددت أن الله يسر لي امرأة صالحة. وأخرج ابن جرير عنه أنه يقول لها: إن رأيت أن لا تسبقيني بنفسك، ولوددت أن الله قد هيا بيني وبينك، ونحو هذا من الكلام. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: يقول: إني فيك لراغب، ولوددت أني تزوجتك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ﴾ قال: أسررتم. وأخرج عبد الرزاق عن الضحاك مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ قال: بالخطيئة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن مجاهد قال: نكحه إياها في نفسه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ قال: يقول: لها إني عاشق، وعامد بيني أن لا تتزوجي غيري ونحو هذا ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو قوله: إن رأيت أن لا تسبقيني بنفسك. وأخرج ابن جرير عنه في السر أنه الزنا، كان الرجل يدخل من أجل الزنا، وهو يعرض بالنكاح، وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال: يقول: إنك لجميلة، وإنك إلي خير، وإن النساء من حاجتي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ قال: لا تنكحوا ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ لَجْلَهُ﴾ قال: حتى تنقضي العدة.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَيَتَعَزَّوْنَ عَلَى الْوِصِيِّ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالتَّعْرِيفِ حَقًّا عَلَى الْحَرِيِّينَ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَيْتُمْ مَا وَصَّيْتُمْ إِلَّا أَنْ يَقُولَنَّ أَنْ يَقُولَنَّ أَلَّا يَكُونَ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَقُولَنَّ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوِ الْفَصْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٧﴾

المراد بالجناح هنا: التبعة من المهر، ونحوه، فرفعه رفع لذلك. أي: لا تبعة عليكم بالمهر، ونحوه إن طلقتم النساء على الصفة المنكورة، وهما في قوله: ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ هي مصدريه ظرفية بتقدير المضاف. أي: مدة عدم مسيسكم. ونقل أبو البقاء أنها شرطية من باب اعتراض الشرط على الشرط ليكون الثاني قيداً للأول كما في قولك:

التستر والإخفاء: يقال: أكننته، وكننته بمعنى واحد. ومنه بيض مكنون، ودر مكنون. ومنه أيضاً أكنَّ البيت صاحبه. أي: ستره. وقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: علم الله أنكم لا تصبرون عن النطق لهنَّ برغبتكم فيهنَّ، فرخص لكم في التعريض دون التصريح. وقال في الكشف: إن فيه طرفاً من التوبيخ كقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 187]. وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ معناه: على سرٍّ، فحذف الحرف؛ لأن الفعل لا يتعدى إلى المفعولين. وقد اختلف العلماء في معنى السر، فقيل: معناه نكاحاً. أي: لا يقل الرجل لهذه المعتدة تزوجيني بل يعرض تعريضاً. وقد ذهب إلى أن معنى الآية هذا جمهور العلماء، وقيل: السرُّ: الزنا، أي: لا يكن منكم مواعدة على الزنا في العدة، ثم التزويج بعدها. قاله جابر بن زيد، وأبو مجلز، والحسن، وقتادة، والضحاك، والنخعي، واختاره ابن جرير الطبري، ومنه قول الحطيئة:

ويحرم سرَّ جارتهم عليهم ويكلل جارهم أنف القصاص
وقيل: السرُّ: الجماع، أي: لا تصفوا أنفسكم لهنَّ بكثرة الجماع ترغيباً لهنَّ في النكاح، وإلى هذا ذهب الشافعي في معنى الآية، ومنه قول امرئ القيس:

الأزمت بسباسة اليوم أنني كبرت وإن لا يحسن السر أمثالي
ومثله قول الأعشى:

فلن تطلبوا سرها للغنى ولن تسلموها لأزهادها
أراد: تطلبون نكاحها لكثرة مالها، ولن تسلموها لقلَّة مالها، والاستدراك بقوله: ﴿لَكِنْ﴾ من مقدر محذوف دلَّ عليه ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: فأنكروهنَّ ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾. قال ابن عطية: أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو رفق من نكر جماع، أو تحريض عليه لا يجوز. وقال أيضاً: أجمعت الأمة على كراهة المواعدة في العدة للمرأة في نفسها، وللأب في ابنته البكر، وللسيد في أمته. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قيل: هو استثناء منقطع بمعنى لكن، والقول المعروف: هو ما أبيح من التعريض. ومنع صاحب الكشف أن يكون منقطعاً، وقال: هو مستثنى من قوله: ﴿لَا تَوَاعِدُوهُنَّ﴾ أي: لا تواعدهنَّ مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكورة، فجعله على هذا استثناء مفرغاً، ووجه منع كونه منقطعاً أنه يؤدي إلى جعل التعريض موعوداً، وليس كذلك؛ لأن التعريض طريق المواعدة، لا أنه الموعود في نفسه. قوله: ﴿وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ قد تقدَّم الكلام في معنى العزم، يقال: عزم الشيء، وعزم عليه، والمعنى هنا: لا تعزموا على عقدة النكاح، ثم حذف على. قال سيبويه: والحذف في هذه الآية لا يقاس عليه. وقال النحاس: يجوز أن يكون المعنى، ولا تعقوا عقدة النكاح؛ لأن معنى تعزموا، وتعقوا واحد، وقيل: إن العزم على الفعل يتقوّمه، فيكون في هذا النهي مبالغة؛ لأنه إذا نهى عن المتقدم على الشيء، كان النهي عن ذلك الشيء بالأولى. قوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ لَجْلَهُ﴾ يريد حتى

في أحد قلوبه، وأحمد وإسحاق، ولكنهم اختلفوا هل هي واجبة في غير المطلقة قبل البناء، والفرض أم مندوبة فقط، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 241] وبقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِبْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسْرَحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 28] والآية الأولى عامة لكل مطلقة، والثانية في أزواج النبي ﷺ، وقد كُنَّ مفروضاً لهنَّ مخلولاً بهنَّ. وقال سعيد بن المسيب: إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَنُونَهَا فَمَعَهُنَّ﴾ [الأحزاب: 49] قال: هذه الآية التي في الأحزاب نسخت التي في البقرة. وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المتعة مختصة بالمطلقة قبل البناء، والتسمية؛ لأن المخلول بها تستحق جميع المسمى، أو مهر المثل، وغير المخلولة التي قد فرض لها زوجها فريضة أي: سمي لها مهراً، وطلقتها قبل الدخول تستحق نصف المسمى، ومن القائلين بهذا ابن عمر، ومجاهد. وقد وقع الإجماع على أن المطلقة قبل الدخول، والفرض لا تستحق إلا المتعة إذا كانت حرة. وأما إذا كانت أمة، فذهب الجمهور إلى أن لها المتعة، وقال الأوزاعي، والثوري: لا متعة لها؛ لأنها تكون لسيدها، وهو لا يستحق مالاً في مقابل تآذي مملوكته؛ لأن الله سبحانه إنما شرع المتعة للمطلقة قبل الدخول، والفرض، لكونها تتآذى بالطلاق قبل ذلك. وقد اختلفوا في المتعة المشروعة هل هي مقدرة بقدر أم لا؟ فقال مالك، والشافعي في الجنب: لا حد لها معروف بل ما يقع عليه اسم المتعة. وقال أبو حنيفة: إنه إذا تنازع الزوجان في قدر المتعة وجب لها نصف مهر مثلها، ولا ينقص من خمسة دراهم؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم. وللشافعي فيها أقوال سيأتي ذكرها إن شاء الله. وقوله: ﴿عَلَى الْمَوْسَعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ يدل على أن الاعتبار في ذلك بحال الزوج، فالمتعة من الغني فوق المتعة من الفقير. وقرأ الجمهور على الموسع بسكون الواو، وكسر السين، وهو الذي اتسعت حاله. وقرأ أبو حنيفة بفتح الواو، وتشديد السين، وفتحها. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر قدره بسكون الدال فيها. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص بفتح الدال فيهما. قال الأخفش، وغيره: هما لغتان فصيحتان، وهكذا يقرأ في قوله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: 17]. وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91] والمقتر المقل، ومتاعاً مصدر مؤكد لقوله: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ والمعروف ما عرف في الشرع، والعادة الموافقة له. وقوله: ﴿حَقًّا﴾ وصف لقوله: ﴿مَتَاعًا﴾ أو مصدر لفعل محذوف. أي: حق ذلك حقاً، يقال: حققت عليه القضاء، وأحققت. أي: أوجبت. قوله: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ الآية، فيه دليل على أن المتعة لا تجب

إن تآذني إن تحسن إليّ أكرمك. أي: إن تآذني محسناً إليّ، والمعنى: إن طلقتموهن غير ماسين لهن. وقيل: إنها موصولة. أي: إن طلقتم النساء اللاتي لم تمسوهن، وهكذا اختلفوا في قوله: ﴿وَإِنْ تَفَرَّضُوا﴾ فقيل: أو بمعنى إلا. أي: إلا أن تفرضوا، وقيل: بمعنى حتى. أي: حتى تفرضوا، وقيل: بمعنى الواو. أي: وتفرضوا. ولست أرى لهذا التطويل وجهاً، ومعنى الآية أوضح من أن يلتبس، فإن الله سبحانه رفع الجناح عن المطلقات ما لم يقع أحد الأمرين. أي: مدة انتفاء ذلك الأحد، ولا ينتفي الأحد المبهم إلا بانتفاء الأمرين معاً، فإن وجد المسيس، وجب المسمى، أو مهر المثل، وإن وجد الفرض وجب نصفه مع عدم المسيس، وكل واحد منها جناح. أي: المسمى، أو نصفه، أو مهر المثل. وأعلم أن المطلقات أربع: مطلقة مدخول بها مفروض لها، وهي التي تقدم ذكرها قبل هذه الآية، وفيها نهي الأزواج عن أن يأخذوا مما آتوهن شيئاً، وإن عتتهن ثلاثة قروء. ومطلقة غير مفروض لها، ولا مدخول بها، وهي المذكورة هنا، فلا مهر لها، بل المتعة، وبين في سورة الأحزاب أن غير المدخول بها إذا طلقت، فلا عدة عليها. ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها، وهي المذكورة بقوله سبحانه هنا: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ، فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: 24] والمراد بقوله: ﴿فَمَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ ما لم تجامعهن؛ وقرأ ابن مسعود: «من قبل أن تجامعهن» أخرجه عنه ابن جرير، وقرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «ما لم تمسوهن»، وقرأه حمزة، والكسائي: «تماسوهن» من المفاعلة، والمراد بالفريضة هنا تسمية المهر. قوله: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن شيئاً يكون متاعاً لهن، وظاهر الأمر الوجوب، وبه قال علي، وابن عمر، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وأبو قلاب، والزهري، وقتادة، والضحاك، ومن أئمة الوجوب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَنُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَرَاحُهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 49] وقال مالك، وأبو عبيد، والقاضي شريح، وغيرهم: إن المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لا واجبة لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ولو كانت واجبة لاطلقها على الخلق أجمعين، ويجاب عنه بأن ذلك لا ينافي الوجوب بل هو تأكيد له، كما في قوله في الآية الأخرى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 241] أي: أن الوفاء بذلك، والقيام به شأن أهل التقوى، وكل مسلم يجب عليه أن يتقي الله سبحانه، وقد وقع الخلاف أيضاً هل المتعة مشروعة لغیر هذه المطلقة قبل المسيس، والفرض أم ليست بمشروعة إلا لها فقط؟ فقيل إنها مشروعة لكل مطلقة، وإليه ذهب ابن عباس، وابن عمر، وعطاء، وجابر بن زيد، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، والحسن البصري، والشافعي

لهذه المطلقة لوقوعها في مقابلة المطلقة قبل البناء، والفرض التي تستحق المتعة. وقوله: ﴿فَنُصَفْ مَا فَارَضْتُمْ﴾ أي: فالواجب عليكم نصف ما سميت لهنّ من المهر، وهذا مجمع عليه. وقرأ الجمهور: ﴿فَنُصَفْ﴾ بالرفع. وقرأ من عدا الجمهور بالنصب. أي: فانفعوا نصف ما فرضتم، وقرئ أيضاً بضم النون، وكسرهما، وهما لغتان. وقد وقع الاتفاق أيضاً على أن المرأة التي لم يدخل بها زوجها، ومات، وقد فرض لها مهراً تستحقه كاملاً بالموت، ولها الميراث، وعليها العدة. واختلفوا في الخلوة هل تقوم مقام الدخول، وتستحق المرأة بها كمال المهر، كما تستحقه بالدخول أم لا؟ فذهب إلى الأول مالك، والشافعي في القديم، والكوفيون، والخلفاء الراشدون، وجمهور أهل العلم، وتجب عندهم أيضاً العدة. وقال الشافعي في الجديد: لا يجب إلا نصف المهر، وهو ظاهر الآية لما تقدم من أن المسيس هو الجماع، ولا تجب عنده العدة، وإليه ذهب جماعة من السلف قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي: المطلقات، ومعناه: يتركن، ويصفحن، ووزنه يفعلن، وهو استثناء مفرغ من أعمّ العام، وقيل: منقطع، ومعناه: يتركن النصف الذي يجب لهنّ على الأزواج. ولم تسقط النون مع إن: لأن جمع المؤنث في المضارع على حالة واحدة في الرفع، والنصب، والجزم لكون النون ضميراً، وليست بعلامة إعراب كما في المنكر في قوله: الرجال يعفون، وهذا عليه جمهور المفسرين. وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ يعني: الرجال، وهو ضعيف لفظاً. ومعنى قوله: ﴿أَوْ يَعْفُو الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ معطوف على محل قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ لأن الأول مبني، وهذا معرب؛ قيل: هو الزوج، وبه قال جبير بن مطعم، وسعيد بن المسيب، وشريح، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وعكرمة، ونافع، وابن سيرين، والضحاك، ومحمد بن كعب القرظي، وجابر بن زيد، وأبو مجلز، والربيع بن أنس، وإياس بن معاوية، ومكحول، ومقاتل بن حيان، وهو الجديد من قولي الشافعي، وبه قال أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، وابن شبرمة، والأوزاعي، ورجحه ابن جرير. وفي هذا القول قوة وضعف، أما قوته، فلكون الذي بيده عقدة النكاح حقيقة هو الزوج؛ لأنه هو الذي إليه رفعه بالطلاق، وأما ضعفه فلكون العفو منه غير معقول، وما قالوا به من أن المراد بعفوه أن يعطيها المهر كاملاً غير ظاهر. لأن العفو لا يطلق على الزيادة. وقيل: المراد بقوله: ﴿أَوْ يَعْفُو الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ هو: الولي، وبه قال النخعي، وعلقمة، والحسن، وطاوس، وعطاء، وأبو الزناد، وزيد بن أسلم، وربيعه، والزهرري، والأسود بن يزيد، والشعبي، وقتادة، ومالك، والشافعي في قوله القديم، وفيه قوة، وضعف؛ أما قوته فلكون معنى العفو فيه معقولاً، وأما ضعفه، فلكون عقدة النكاح بيد الزوج لا بيده، ومما يزيد هذا القول ضعفاً أنه ليس للولي أن يعفو عن الزوج مما لا يملكه. وقد حكى القرطبي الإجماع على أن الولي لا يملك شيئاً من

مالها، والمهر مالها. فالراجح ما قاله الأولون لوجهين: الأول أن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح حقيقة. الثاني أن عفوه بكمال المهر هو صائر عن المالك مطلق التصرف بخلاف الولي، وتسمية الزيادة عفواً، وإن كان خلاف الظاهر، لكن لما كان الغالب أنهم يسوقون المهر كاملاً عند العقد كان العفو معقولاً، لأنه تركه لها، ولم يسترجع النصف منه، ولا يحتاج في هذا إلى أن يقال، إنه من باب المشكلة كما في الكشف، لأنه عفو حقيقي أي: ترك لما يستحق المطالبة به، إلا أن يقال، إنه مشكلة، أو يطيب في توفية المهر قبل أن يسوقه الزوج. قوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ قيل: هو خطاب للرجال، والنساء تغليبا؛ وقرأ الجمهور بالتاء الفوقية، وقرأ أبو نهيك، والشعبي بالياء التحتية، فيكون الخطاب مع الرجال. وفي هذا دليل على ما رجحناه من أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج؛ لأن عفو الولي عن شيء لا يملكه ليس هو أقرب إلى التقوى، بل أقرب إلى الظلم، والجور. قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ الجمهور بضم الواو، وقرأ يحيى بن يعمر بكسرهما، وقرأ علي، ومجاهد، وأبو حنيفة، وابن أبي عبيدة: «ولا تناسوا» والمعنى: أن الزوجين لا ينسيان التفضل من كل واحد منهما على الآخر، ومن جملة ذلك أن تتفضل المرأة بالعفو عن النصف، ويتفضل الرجل عليها بكمال المهر، وهو إرشاد للرجال، والنساء من الأزواج إلى ترك التقصي على بعضهم بعضاً، والمسامحة فيما يستغرق أحدهما على الآخر للوصلة التي قد وقعت سهماً من إفشاء البعض إلى البعض، وهي وصلة لا يشبهها، وصلة، فمن رعاية حقها، ومعرفتها حق معرفتها الحرص منها على التسامح. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه من ترغيب المحسن، وترهيب غيره ما لا يخفى.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ قال: المس: النكاح، والفريضة: الصداق ﴿مَتَّعُوهُنَّ﴾ قال: هو على الرجل يتزوج المرأة، ولم يسم لها صداقاً، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها. فأمره الله أن يمتعها على قدر عسره، ويسره، فإن كان موسراً متعها بخادم، وإن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب، أو نحو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أنه قال: متعة الطلاق: أعلاها الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن ابن عمر قال: إنني ما يكون من المتعة ثلاثون درهماً. وروى القرطبي في تفسيره عن الحسن بن علي أنه متع بعشرين ألفاً، ورقاق من عسل. وعن شريح أنه متع بخمسمائة درهم. وأخرج الدارقطني عن الحسن بن علي أنه متع بعشرة آلاف. وأخرج عبد الرزاق، عن ابن سيرين أنه كان يمتع بالخادم، والنفقة، أو بالكسوة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ قال المس: الجماع، فلها نصف صداقها،

خَفَّتُمْ رِيَالًا أَوْ زِكَاةً فَإِنَّهُ أَمْتٌ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٤٣﴾

المحافظة على الشيء: المداومة، والمواظبة عليه، والوسطى: تانين الأوسط، وأوسط الشيء، ووسطه: خياره. ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُنْكَ لَجَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، ومنه قول بعض العرب يمدح النبي ﷺ:

يا أوسط الناس طراً في مفاخرهم وأكرم الناس أميرة وأبا
 ووسط فلان القوم يسطهم، أي: صار في وسطهم. وأقرد
 الصلاة الوسطى بالترك بعد دخولها في عموم الصلوات
 تشريفاً لها. وقرأ أبو جعفر: ﴿والصلاة الوسطى﴾ بالنصب
 على الإغراء، وكذلك قرأ الحلواني؛ وقرأ قالون عن نافع
 الوصطي بالصاد لمجاورة الطاء، وهما لغتان: كالسراط،
 والصراط. وقد اختلف أهل العلم في تعيينها على ثمانية
 عشر قولاً أوردتها في شرحي للمنتقى، ونكرت ما تمسكت
 به كل طائفة، وأرجح الأقوال، وأصحها ما ذهب إليه الجمهور
 من أنها العصر. لما ثبت عند البخاري، ومسلم، وأهل السنن،
 وغيرهم من حديث علي قال: كنا نراها الفجر حتى سمعت
 رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة
 الوسطى صلاة العصر، ملا الله قبورهم وأجوافهم ناراً».
 وأخرج مسلم، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم من حديث ابن
 مسعود مرفوعاً مثله. وأخرجه أيضاً ابن جرير، وابن المنذر،
 والطبراني من حديث ابن عباس مرفوعاً. وأخرجه البزار
 بإسناد صحيح من حديث جابر مرفوعاً، وأخرجه أيضاً
 البزار بإسناد صحيح من حديث حنيفة مرفوعاً. وأخرجه
 الطبراني بإسناد ضعيف من حديث أم سلمة مرفوعاً. وورد
 في تعيين أنها العصر من غير ذكر يوم الأحزاب أحاديث
 مرفوعة إلى النبي ﷺ: منها عن ابن عمر، عند ابن منده،
 ومنها عن سمرة عند أحمد، وابن جرير، والطبراني، ومنها
 عنه أيضاً عند ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد،
 والترمذي وصححه ابن جرير، والطبراني، والبيهقي، وعن
 أبي هريرة، عند ابن جرير، والبيهقي، والطحاوي. وأخرجه
 عنه أيضاً ابن سعيد، والبزار، وابن جرير، والطبراني، وعن
 ابن عباس، عند البزار بإسناد صحيح، وعن أبي مالك
 الأشعري، عند ابن جرير، والطبراني، فهذه أحاديث مرفوعة
 إلى النبي ﷺ مصرحة بأنها العصر. وقد روي، عن
 الصحابة في تعيين أنها العصر آثار كثيرة، وفي الثابت عن
 النبي ﷺ ما لا يحتاج معه إلى غيره. وأما ما روي عن
 علي، وابن عباس أنهما قالاً: إنها صلاة الصبح كما أخرجه
 مالك في الموطأ عنهما، وأخرجه ابن جرير، عن ابن عباس،
 وكذلك أخرجه، عنه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن
 حميد، وابن المنذر، وكذلك أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم،
 عن ابن عمر، وكذلك أخرجه ابن جرير، عن جابر، وكذلك
 أخرجه ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة، وكل ذلك من أقوالهم،
 وليس فيها شيء من المرفوع إلى النبي ﷺ، ولا تقوم بمثل
 ذلك حجة لا سيما إذا عارض ما قد ثبت عنه ﷺ ثبوتاً

وليس لها أكثر من ذلك إلا أن يعفون. وهي المرأة الشيب،
 والبكر يزوجه غير أبيها، فجعل الله العفو لهن إن شئن
 عفون بتركهن، وإن شئن أخذن نصف الصداق ﴿أو يعفو
 للذي بيده عقدة النكاح﴾ وهو أبو الجارية البكر جعل
 العفو إليه ليس لها معه أمر إذا طلقت ما كانت في حجره.
 وأخرج الشافعي، وسعيد بن منصور، والبيهقي عن ابن
 عباس قال في الرجل يتزوج المرأة، فيخلو بها ولا يمسه،
 ثم يطلقها: ليس لها إلا نصف الصداق؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِنْ
 طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية. وأخرج البيهقي عن ابن مسعود قال: لها
 نصف الصداق، وإن جلس بين رجلها. وأخرج ابن جرير،
 وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والبيهقي بسند
 حسن، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «الذي بيده عقدة
 النكاح الزوج». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن
 جرير، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والبيهقي، عن علي مثله
 من قوله. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي شيبة، وابن جرير،
 وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن أبي
 حاتم، والبيهقي عنه قال: هو أبوها، وأخوها، ومن لا تنكح إلا
 بإئنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في
 قوله: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ قال: في هذا، أو غيره.
 وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود،
 والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم،
 وصححه البيهقي أن قوماً أتوا ابن مسعود، فقالوا: إن رجلاً
 تزوج منا امرأة، ولم يفرض لها صداقاً، ولم يجمعها إليه
 حتى مات، فقال: أرى أن أجعل لها صداقاً كصداق نساءها، لا
 وكس، ولا شطط، ولها الميراث، وعليها العدة أربعة أشهر
 وعشر، فسمع بذلك ناس من أشجع منهم: مغفل بن سنان،
 فقالوا: نشهد أنك قضيت مثل الذي قضى به رسول الله ﷺ
 في امرأة منا يقال لها: يروع بنت واشق. وأخرج سعيد بن
 منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي عن علي أنه قال في
 المتوفى عنها زوجها، ولم يفرض لها صداقاً: لها الميراث،
 وعليها العدة، ولا صداق لها. وقال: لا يقبل قول أعرابي من
 أشجع على كتاب الله. وأخرج الشافعي، والبيهقي، عن ابن
 عباس قال في المرأة التي يموت عنها زوجها، وقد فرض لها
 صداقاً: لها الصداق، والميراث. وأخرج مالك، والشافعي، وابن
 أبي شيبة، والبيهقي، عن عمر بن الخطاب أنه قضى في
 المرأة يتزوجها الرجل: أنه إذا أرخت الستور، فقد وجب
 الصداق. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي، عن عمر، وعلي
 قال: إذا أرخت ستراً، وأغلق باباً، فلها الصداق كاملاً، وعليها
 العدة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي،
 عن زرار بن أوفى قال: قضى الخلفاء الراشدون أنه من
 أغلق باباً، أو أرخت ستراً، فقد وجب الصداق، والعدة، وأخرج
 مالك، والبيهقي عن زيد بن ثابت نحوه. وأخرج البيهقي، عن
 محمد بن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «من كشف امرأة،
 فنظر إلى عورتها، فقد وجب الصداق».

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَأَمَّا الْبُيُوتُ فَانْصَبُوا ﴿١٤٤﴾

يمكن أن يدعى فيه التواتر، وإذا لم تقم الحجة بأقوال الصحابة لم تقم بأقوال من بعدهم من التابعين، وتابعهم بالاولى، وهكذا لا تقوم الحجة بما أخرجه ابن أبي حاتم بإسناد حسن، عن ابن عباس أنه قال: صلاة الوسطى المغرب، وهكذا لا اعتبار بما ورد من قول جماعة من الصحابة: أنها الظهر، أو غيرها من الصلوات، ولكن المحتاج إلى إمعان نظر، وفكر ما ورد مرفوعاً إلى النبي ﷺ مما فيه دلالة على أنها الظهر، كما أخرجه ابن جرير، عن زيد بن ثابت مرفوعاً: «إن الصلاة الوسطى صلاة الظهر». ولا يصح رفعه بل المروي، عن زيد بن ثابت ذلك من قوله، واستدل على ذلك بأن النبي ﷺ كان يصلي بالهجرة، وكانت أثقل الصلاة على أصحابه، وأين يقع هذا الاستدلال من تلك الأحاديث الصحيحة الثابتة، عن النبي ﷺ، وهكذا الاعتبار بما روي، عن ابن عمر من قوله: إنها الظهر. وكذلك ما روي، عن عائشة، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم، فلا حجة في قول أحد مع قول رسول الله ﷺ. وأما ما رواه عبد الرزاق، وابن جرير، وغيرهما أن حفصة قالت لأبي رافع مولاها، وقد أمرته أن يكتب لها مصحفاً: إذا أتيت على هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فتعال حتى أُمليها عليك، فلما بلغ ذلك أمرته أن يكتب: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في سننه، وزادوا: وقالت أشهد أنني سمعتها من رسول الله ﷺ. وأخرج مالك، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي يونس مولى عائشة أنها أمرته أن يكتب لها مصحفاً، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فأنتني ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾. قال: فلما بلغت أنتنتها، فأملت علي: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾. قالت عائشة: سمعتها من رسول الله ﷺ. وأخرج وكيع، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن أم سلمة أنها أمرت من يكتب لها مصحفاً، وقالت له، كما قالت حفصة، وعائشة. فغاية ما في هذه الروايات، عن أمهات المؤمنين الثلاث رضي الله عنهن أنهن يروين هذا الحرف هكذا عن رسول الله ﷺ، وليس فيه ما يدل على تعيين الصلاة الوسطى أنها الظهر، أو غيرها، بل غاية ما يدل عليه عطف صلاة العصر على صلاة الوسطى أنها غيرها؛ لأن المعطوف غير المعطوف عليه، وهذا الاستدلال لا يعارض ما ثبت عنه ﷺ ثبوتاً لا ينفع أنها العصر كما قدمنا بيانه. فالحاصل أن هذه القراءة التي نقلتها أمهات المؤمنين الثلاث بإثبات قوله: «وصلاة العصر» معارضة بما أخرجه ابن جرير، عن عروة قال: كان في مصحف عائشة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وهي صلاة العصر. وأخرج وكيع، عن حميدة قالت: قرأت في مصحف عائشة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾. وأخرج ابن أبي داود،

عن قبيصة بن نؤيب مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وأبو عبيد، عن زياد بن أبي مريم أن عائشة أمرت بمصحف لها أن يكتب، وقالت: إذا بلغت ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ فلا تكتبوها حتى تؤننوني، فلما أخبروها أنهم قد بلغوا قالت: اكتبوها صلاة الوسطى صلاة العصر. وأخرج ابن جرير، والطحاوي، والبيهقي، عن عمرو بن رافع: قال كان مكتوباً في مصحف حفصة ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وهي صلاة العصر. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن المنذر عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ صلاة العصر. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، والطحاوي، عن ابن عباس: أنه كان يقرأها: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ صلاة العصر. وأخرج المحاملي عن السائب بن يزيد أنه تلاها كذلك، فهذه الروايات تعارض تلك الروايات باعتبار التلاوة، ونقل القراءة، ويبقى ما صرح عن النبي ﷺ من التعيين صافياً، عن شوب كبر المعارضة. على أنه قد ورد ما يدل على نسخ تلك القراءة التي نقلتها حفصة، وعائشة، وأم سلمة. فأخرج عبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، والبيهقي، عن البراء بن عازب، قال: نزلت: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فقرأناها على عهد رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله، فأنزل: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾. فقيل له: هي إنن: صلاة العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله، والله أعلم. وأخرج البيهقي، عنه من وجه آخر، نحوه. وإذا تقرر لك هذا، وعرفت ما سقناه تبين لك أنه لم يرد ما يعارض أن الصلاة الوسطى صلاة العصر. وأما حجج بقية الأقوال، فليس فيها شيء مما ينبغي الاشتغال به؛ لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ في ذلك شيء، وبعض القائلين عول على أمر لا يعول عليه، فقال: إنها صلاة كذا؛ لأنها وسطى بالنسبة إلى أن قبلها كذا من الصلوات، وبعدها كذا من الصلوات، وهذا الرأي المحض، والتخمين البحت لا ينبغي أن تستند إليه الأحكام الشرعية على فرض عدم وجود ما يعارضه، عن النبي ﷺ، فكيف مع وجود ما هو في أعلا درجات الصحة، والقوة، والثبوت، عن رسول الله ﷺ؟ وبالله العجب من قوم لم يكتفوا بتقصيرهم في علم السنة، وإعراضهم عن خير العلوم، وأنفعها، حتى كلفوا أنفسهم التكلم على أحكام الله، والتحري على تفسير كتاب الله بغير علم، ولا هدى، فجاءوا بما يضحك منه تارة، ويبكى منه أخرى. قوله: ﴿وَقَوْمُوا لَه قَانَتَيْنِ﴾ القنوت قيل: هو الطاعة. أي: قوموا لله في صلاتكم طائعين، قاله جابر بن زيد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، والشافعي. وقيل: هو الخشوع، قاله ابن عمر، ومجاهد. ومنه قول الشاعر: قَانَتَا لَه يَدْعُورِيَه - وعلى عمد من الناس اعتزل وقيل: هو الدعاء، وبه قال ابن عباس. وفي الحديث أن

عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَوْمُوا لَهِ قَانَتَيْنِ﴾ قال: مصلين. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: كل أهل دين يقومون فيها عاصين، قوموا أنتم مطيعين، وأخرج ابن أبي شيبة، عن الضحاك مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿وَقَوْمُوا لَهِ قَانَتَيْنِ﴾ قال: من القنوت الركوع، والخشوع، وطول الركوع: يعني طول القيام، وغض البصر، وخفض الجناح، والرهبة لله. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الصلاة لشغلاً وفي صحيح مسلم، وغيره أن النبي ﷺ قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن». وقد اختلفت الأحاديث في القنوت المصطلح عليه، هل هو قبل الركوع، أو بعده، وهل هو في جميع الصلوات، أو بعضها، وهل هو مختص بالنوازل أم لا؟ والراجح اختصاصه بالنوازل، وقد أوضحنا ذلك في شرحنا للمنتقى، فليرجع إليه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ قال: يصلي الراكب على دابته، والراجل على رجليه ﴿فَانْكَرُوا اللَّهَ كَمَا عَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: كما علمكم أن يصلي الراكب على دابته، والراجل على رجليه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن جابر بن عبد الله، قال: إذا كانت المسابقة، فليوم برأسه حيث كان وجهه، فنلك قوله: ﴿فَرَجَلًا أَوْ رُكْبَانًا﴾. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ قال: ركعة ركعة. وأخرج وكيع، وابن جرير، عن مجاهد: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ قال: خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَكَ مِنْكُمْ وَدَرَدًا مُّوَدَّةً لَّيْزَجَّهُمْ مِّنَّا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِشْرَاحٍ فَإِنَّ حَرْجَ فَلَ جَنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَتَكَ فِي أَشْهُرٍ مِنْ مَّزُورٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٢﴾

هذا عود إلى بقية الأحكام المفصلة فيما سلف. وقد اختلف السلف، ومن تبعهم من المفسرين في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ فذهب الجمهور إلى أنها منسوخة بالأربعة الأشهر والعشر كما تقدم، وأن الوصية المذكورة فيها منسوخة بما فرض الله لهن من الميراث. وحكى ابن جرير، عن مجاهد أن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها، وأن العدة أربعة أشهر وعشر، ثم جعل الله لهن وصية منه سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة، فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت. وقد حكى ابن عطية، والقاضي عياض أن الإجماع منعقد على أن الحول منسوخ، وأن عدتها أربعة أشهر وعشر. وقد أخرج عن مجاهد، ما أخرجه ابن

رسول الله ﷺ قننت شهراً يدعو على رعل، ونكون. وقال قوم: إن القنوت طول القيام، وقيل معناه: ساكتين قاله السدي، ويدل عليه حديث زيد بن أرقم في الصحيحين، وغيرهما قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقَوْمُوا لَهِ قَانَتَيْنِ﴾ فأمرنا بالسكوت، وقيل: أصل القنوت في اللغة الدوام على الشيء، فكل معنى يناسب الدوام يصح إطلاق القنوت عليه. وقد نكر أهل العلم أن القنوت ثلاثة عشر معنى، وقد نكرنا ذلك في شرح المنتقى، والمتعين هاهنا حمل القنوت على السكوت للحديث المنكور. قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ الخوف هو: الفزع، والرجال جمع رجل، أو راجل، من قولهم: رجل الإنسان يرجل راجلاً: إذا عدم المركوب، ومشى على قدميه، فهو رجل، وراجل. يقول أهل الحجاز: مشى فلان إلى بيت الله حافياً رجلاً. حكاه ابن جرير الطبري، وغيره. لما نكر الله سبحانه الأمر بالمحافظة على الصلوات، نكر حالة الخوف أنهم يضيعون فيها ما يمكنهم، ويبدل تحت طوقهم من المحافظة على الصلاة بفعلها حال الترجل، وحال الركوب، وأبان لهم أن هذه العبادة لازمة في كل الأحوال بحسب الإمكان. وقد اختلف أهل العلم في حد الخوف المبيح لذلك، والبحث مستوفى في كتب الفروع. قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي: إذا زال خوفكم، فارجعوا إلى ما أمرت به من إتمام الصلاة مستقبلين القبلة قائمين بجميع شروطها، وأركانها، وهو قوله: ﴿فَانْكَرُوا اللَّهَ كَمَا عَلِمْتُمْ﴾ وقيل: معنى الآية: خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة، وهو خلاف معنى الآية. وقوله: ﴿كَمَا عَلِمْتُمْ﴾ أي: مثل ما علمكم من الشرائع: ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ والكاف صفة لمصدر محذوف أي: نكرأ كأننا كتعليمه إياكم، أو مثل تعليمه إياكم.

وقد أخرج ابن جرير، عن سعيد بن المسيب قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا، وشبك بين أصابعه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر: أنه سئل عن الصلاة الوسطى؟ فقال: هي فيهن، فحافظوا عليهن. وأخرج عبد بن حميد، عن زيد بن ثابت: أنه سأل رجل عن الصلاة الوسطى، فقال: حافظ على الصلوات وتركها. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن الربيع بن خيثم: أن سائلاً سأل عن الصلاة الوسطى، قال: حافظ عليهن، فإنك إن فعلت أصبتها، إنما هي واحدة منهن. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن سيرين قال: سئل شريح عن الصلاة الوسطى، فقال: حافظوا عليها تصبيوها. وقد قدمنا ما روي عن النبي ﷺ، وعن أصحابه رضي الله عنهم في تعيينها. وأخرج الطبراني، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمُوا لَهِ قَانَتَيْنِ﴾ مثل ما قدمنا، عن زيد بن أرقم. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن محمد بن كعب، نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة نحوه. وأخرج

والنسائي عن عكرمة قال: نسختها: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ [البقرة: 234]. وأخرج ابن الأنباري في المصاحف، عن زيد بن أسلم نحوه. وأخرج أيضاً، عن قتادة نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ قال: النكاح الحلال الطيب. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، قال: لما نزل قوله: ﴿متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ [البقرة: 236] قال رجل: إن أحسنت، فعلت، وإن لم أرد ذلك لم أفعل، فأنزل الله: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب، قال: نسخت هذه الآية بقوله: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ [البقرة: 237]. وأخرج أيضاً عن عتاب بن خصيف في قوله: ﴿وللمطلقات متاع﴾ قال: كان ذلك قبل الفرائض. وأخرج مالك، وعبد الرزاق، والشافعي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عمر قال: لكل مطلقة متعة إلا التي طلقها، ولم تدخل بها، وقد فرض لها، كفى بالنصف متاعاً. وأخرج ابن المنذر، عن علي بن أبي طالب قال: لكل مؤمنة طلقت حرة، أو أمة متعة، وقرأ: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾. وأخرج البيهقي، عن جابر بن عبد الله، قال «لما طلق حفص بن المغيرة امرأته فاطمة أتت النبي ﷺ، فقال لزوجها: متعها، قال: لا أجد ما أمتعها، قال: فإنه لا بد من المتاع، متعها، ولو نصف صاع من تمر». وأخرج عبد بن حميد، عن أبي العالية في الآية، قال: لكل مطلقة متعة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 209] وَيَتَوَلَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيَسْتَوْفِي لَهُ أَضْمَانًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245]

الاستفهام هنا للتقدير، والرؤية المذكورة هي رؤية القلب لا رؤية البصر. والمعنى، عند سبويه: تنبه إلى أمر الذين خرجوا، ولا تحتاج هذه الرؤية إلى مفعولين كذا قيل. وحاصله أن الرؤية هنا التي بمعنى الإدراك مضممة معنى التنبيه، ويجوز أن تكون مضممة معنى الانتهاء، أي: ألم ينته علمك إليهم، أم معنى الوصول. أي: ألم يصل علمك إليهم، ويجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية. أي: ألم تنتظر إلى الذين خرجوا، جعل الله سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان من الشيوخ، والشهرة يحمل كل أحد على الإقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد، أو المبصرة لكل مبصر؛ لأن أهل الكتاب قد أخبروا بها ودونوها، وأشهرها أمرها، والخطاب هنا لكل من يصلح له. والكلام جار مجرى المثل في مقام التعجيب أنعاء لظهوره، وجلائه بحيث

جرير عنه البخاري في صحيحه. وقوله: ﴿وصية﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، والكسائي بالرفع على أن ذلك مبتدأ لخبر محذوف يقدر مقدماً. أي: عليهم وصية. وقيل: إن الخبر قوله: ﴿لأزواجهم﴾ وقيل: إنه خبر مبتدأ محذوف. أي: وصية الذين يتوفون وصية، أو حكم الذين يتوفون وصية. وقرأ أبو عمرو، وحمره، وابن عامر بالنصب على تقدير فعل محذوف. أي: فليوصوا وصية، أو أوصى الله وصية، أو كتب الله عليهم وصية. وقوله: ﴿متاعاً﴾ منصوب بوصية، أو بفعل محذوف. أي: متعوهن متاعاً، أو جعل الله لهن ذلك متاعاً، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال. والمتاع هنا: نفقة السنة. وقوله: ﴿غير إخراج﴾ صفة لقوله: ﴿متاعاً﴾ وقال الاخفش: إنه مصدر كأنه قال: لا إخراجاً. وقيل: إنه حال. أي: متعوهن غير مخرجات، وقيل: منصوب بنزع الخافض. أي: من غير إخراج، والمعنى: أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل نزول الموت بهم لأزواجهم أن يمتعن بعدهم حولاً كاملاً بالنفقة، والسكنى من تركتهم، ولا يخرجن من مسكنهن. وقوله: ﴿فإن خرجن﴾ يعني: باختيارهن قبل الحول ﴿فلا جناح عليكم﴾ أي: لا حرج على الولي، والحاكم، وغيرهما ﴿فيما فعلن في أنفسهن﴾ من التعرض للخطاب، والتزين لهم. وقوله: ﴿من معروف﴾ أي: بما هو معروف في الشرع غير منكر. وفيه دليل على أن النساء كنّ مخيرات في سكنى الحول، وليس ذلك بحتم عليهن؛ وقيل: المعنى: لا جناح عليكم في قطع النفقة عنهن، وهو ضعيف؛ لأن متعلق الجناح هو منكر في الآية بقوله: ﴿فيما فعلن﴾ وقوله: ﴿وللمطلقات متاع﴾ قد اختلف المفسرون في هذه الآية، فقيل: هي المتعة، وأنها واجبة لكل مطلقة، وقيل: إن هذه الآية خاصة بالثيبات اللواتي قد جومعن؛ لأنه قد تقدم قبل هذه الآية نكر المتعة اللواتي لم يدخل بهن الأزواج. وقد قدمنا الكلام على هذه المتعة، والخلاف في كونها خاصة بمن طلقت قبل البناء، والفرض، أو عامة للمطلقات، وقيل: إن هذه الآية شاملة للمتعة الواجبة، وهي متعة المطلقة قبل البناء، والفرض، وغير الواجبة، وهي: متعة سائر المطلقات، فإنها مستحبة فقط، وقيل: المراد بالمتعة هنا النفقة.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن ابن الزبير، قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها، أو لم تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية، قال: كان للمتوفى عنها زوجها نفقتها، وسكنائها في الدار سنة، فنسختها آية الموارث، فجعل لهن الربع، والنثن مما ترك الزوج. وأخرج ابن جرير، نحوه عن عطاء. وأخرج نحوه أبو داود، والنسائي، عن ابن عباس من وجه آخر. وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، عن جابر بن عبد الله، قال: ليس للمتوفى عنها زوجها نفقة حسبها الميراث. وأخرج أبو داود في ناسخه،

ورفع الفاء، وقرأ ابن عامر، ويعقوب: «فيضعفه» بإسقاط الألف مع تشديد العين، ونصب الفاء. وقرأ ابن كثير، وأبو جعفر بالتشديد، ورفع الفاء. فمن نصب، فعلى أن جواب الاستفهام، ومن رفع، فعلى تقدير مبتدأ. أي: هو يضاعفه. وقد اختلف في تقدير هذا التضعيف على أقوال. وقيل: لا يعلمه إلا الله وحده. وقوله: «والله يقبض ويبسط» هذا علم في كل شيء، فهو القابض الباسط، والقبض: التقدير، والبسط: التوسيع، وفيه وعيد بأن من بخل من البسط يوشك أن يبذل بالقبض، ولهذا قال: «والله ترجعون» أي: هو يجازيكم بما قدمتم عند الرجوع إليه، وإذا انفقتم مما وسع به عليكم أحسن إليكم، وإن بخلتم عاقبكم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم عن ابن عباس في قوله: «إلى الذين خرجوا من ديارهم» قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، وقالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا، وكذا قال لهم الله: موتوا، فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم حتى يعبدوه، فأحياهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه: أن القرية التي خرجوا منها داود بن داود. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم هذه القصة مطولة، عن أبي مالك، وفيها أنهم بضعة وثلاثون ألفاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن عبد العزيز: أن ديارهم هي أترعات. وأخرج أيضاً، عن أبي صالح قال: كانوا تسعة آلاف. وأخرج جماعة من محدثي المفسرين هذه القصة على أنحاء، ولا يأتي الاستكثار من طرقها بفائدة. وقد ورد في الصحيحين، وغيرهما، عن النبي ﷺ النبي عن الفرار من الطاعون، وعن دخول الأرض التي هو بها من حديث عبد الرحمن بن عوف. وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود، قال: «لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله إن الله ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني ياك يا رسول الله، فنأوله يده، قال: فلاني قد أقرضت ربي حائطي، وله فيه ستمائة نخلة». وقد أخرج هذه القصة عبد الرزاق، وابن جرير من طريق زيد بن أسلم، زاد الطبراني، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، وابن مربي، عن أبي هريرة، وابن إسحاق، وابن المنذر، عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: «أضعافاً كثيرة» قال: هذا التضعيف لا يعلم أحد ما هو. وأخرج أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي عثمان النهدي قال: بلغني عن أبي هريرة، حديث أنه قال: «إن الله ليكتب لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة، فحججت ذلك العام، ولم أكن أريد أن أحج إلا لائقاء في هذا الحديث، فقلت أبا هريرة، فقلت له، فقال: ليس هذا، قلت: ولم يحفظ هذا الحديث الذي حدثك إنما، قلت: «إن الله ليعطي العبد المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة» ثم قال أبو

يستوي في إدراكه الشاهد، والغائب. وقوله: «وهم الوف» في محل نصب على الحال من ضمير خرجوا، والوف من جموع الكثرة، فدل على أنها الوف كثيرة. وقوله: «حذر الموت» مفعول له. وقوله: «فقال لهم الله موتوا» هو أمر تكوين عبارة عن تعلق إرادته بموتهم نفعاً، أو تمثيل لإماتته سبحانه إياهم ميتة نفس واحدة كأنهم أمروا، فأمطوا. قوله: «ثم أحياهم» هو معطوف على مقدر يقتضيه المقام أي: قال الله لهم موتوا، فماتوا ثم أحياهم، أو على قال لما كان عبارة، عن الإماتة، وقوله: «إن الله لنؤ فضل على الناس» التنكير في قوله فضل للتعظيم. أي: لنؤ فضل عظيم على الناس جميعاً، أما هؤلاء الذين خرجوا، فلكونه أحياهم، ليعتبروا، وأما المخاطبون، فلكونه قد أرشدهم إلى الاعتبار، والاستبصار بقصة هؤلاء، وقوله: «وقاتلوا في سبيل الله» هو معطوف على مقدر، كأنه قيل: اشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم، وقاتلوا، هذا إذا كان الخطاب بقوله: «وقاتلوا» راجعاً إلى المخاطبين بقوله: «إلى الذين خرجوا» كما قال جمهور المفسرين، وعلى هذا يكون إيراد هذه القصة لتشجيع المسلمين على الجهاد، وقيل: إن الخطاب للذين أحيوا من بني إسرائيل، فيكون عطفاً على قوله: «موتوا» وفي الكلام محذوف تقديره: وقال لهم قاتلوا. وقال ابن جرير: لا وجه لقول من قال: إن الأمر بالقتال للذين أحيوا. وقوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله» لما أمر سبحانه بالقتال، والجهاد أمر بالإففاق في ذلك، ومنه: استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء، وهذا خبره، «وَالَّذِي» وصلته وصف له، أو بدل منه، وإقراض الله مثل لتقديم العمل الصالح الذي يستحق به فاعله الثواب، وأصل القرض اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء، يقال: أقرض فلان فلاناً، أي: أعطاه ما يتجازاه، قال الشاعر:

وإذا جوريت قرضاً فاجزه

وقال الزجاج: القرض في اللغة: البلاء الحسن، والبلاء السيء.

قال أمية:

كل امرئ سوف يجزي قرضه حسناً أو سيئاً وميناً مثل ما دانا وقال آخر:

فجأزي القروض بأمثالها فبالخير خيراً وبالشر شراً

وقال الكسائي القرض: ما أسلفت من عمل صالح، أو سيء، وأصل الكلمة القطع، ومنه المقرض، واستدعاء القرض في الآية إنما هو: تأنيس، وتقريب للناس بما يفهمونه. والله هو الغني الحميد. شبه عطاء المؤمن ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس، والأموال في أخذ الجنة بالبيع، والشراء. وقوله: «حسناً» أي: طيبة به نفسه من دون من، ولا أذى. وقوله: «فيضاعفه» قرأ عاصم، وغيره بالألف، ونصب الفاء. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمة، والكسائي بإثبات الألف،

عنهم أذى العطش بعض الارتفاع، وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال، وفيه أن الغرفة تكف سورة العطش عند الصابرين على شطف العيش الدافعين أنفسهم عن الرفاهية. فالمراد بقوله: «فمن شرب منه» أي: كرع، ولم يقتصر على الغرفة، «ومن» ابتدائية. ومعنى قوله: «فليس مني» أي: ليس من أصحابي من قولهم: فلان من فلان، كأنه بعضه لاختلاطهما، وطول صحبتهما، وهذا مهيع في كلام العرب معروف، ومنه قول الشاعر:

إذا حاولت في أسد فجوراً فإني لست منك ولست مني
وقوله: «ومن لم يطعمه» يقال: طعمت الشيء أي: ذقته، وأطعمته الماء أي: أنقته، وفيه دليل على أن الماء يقال له طعم، والاعتراف: الأخذ من الشيء باليد، أو بآلة، والغرف مثل الاعتراف، والغرفة المرة الواحدة. وقد قرئ بفتح الغين، وضمها، فالفتح للمرة، والضم اسم للشيء المغترف، وقيل: بالفتح الغرفة بالكف الواحدة، وبالضم الغرفة بالكفين، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد، ومنه قول الشاعر:

لا يبلغون إلى ماء بأنبياء إلا اغترافاً من الغدران بالراح
قوله: «إلا قليلاً» سيأتي بيان عدهم، وقرئ «إلا قليل» ولا وجه له إلا ما قيل من أنه من هجر اللفظ إلى جانب المعنى أي: لم يعطه إلا قليل، وهو تعسف. قوله: «فلما جاوزه» أي: جاوز النهر طالت: «والذين آمنوا معه» وهم القليل الذين أطاعوه، ولكنهم اختلفوا في قوة اليقين، فيعضهم قال: «لا طاقة لنا» وقال النين يظنون: أي: يتيقنون «أنهم ملقوا الله» والفتة: الجماعة، والقطعة منهم من فأت رأسه بالسيف أي: قطعت. وقوله «يرزوا» أي: صاروا في البراز، وهو المتسع من الأرض. وجالوت أمير العمالقة. قلوا أي: جميع من معه من المؤمنين، والإفراغ يفيد معنى الكثرة. وقوله: «وثبت أقدامنا» هذا عبارة عن القوة، وعدم الفشل، يقال: ثبت قدم فلان على كذا إذا استقر له، ولم يزل عنه، وثبت قدمه في الحرب إذا كان الغلب له، والنصر معه. قوله: «ولنصرنا على القوم الكافرين» هم جالوت، وجنوده. ووضع الظاهر موضع المضمهر إظهاراً لما هو العلة الموجبة للنصر عليهم، وهي كفرهم، ونكر النصر بعد سؤال تثبيت الأقدام، لكن الثاني هو غاية الأول. قوله: «فهزمهم بإذن الله» الهزم: الكسر؛ ومنه سقاء منهزم أي: انثنى بعضه على بعض مع الجفاف، ومنه ما قيل في زمزم إنها هزمة جبريل أي: هزمها برجله، فخرج الماء، والهزم: ما يكسر من يابس الحطب، وتقدير الكلام: فأنزل الله عليهم النصر «فهزمهم بإذن الله» أي: بأمره وإرادته. قوله: «وقتل داود جالوت» هو: داود بن إيشا بكسر الهمزة، ثم تحية ساكنة بعدها معجمة، ويقال: داود بن زكريا بن بشوى من سبط يهوذا بن يعقوب جمع الله له بين النبوة، والملك بعد أن كان راعياً، وكان أصغر إخوته، اختاره طالوت لمقاتلة جالوت، فقتله. والمراد بالحكمة هنا: النبوة. وقيل: هي تعليمه صنعة الدروع، ومنطق الطير، وقيل هي: إعطاؤه

نياتهم، وفتور عزائمهم. واختلف في عدد القليل الذين استثناهم الله سبحانه، وهم الذين اكتفوا بالغرفة. وقوله «وقال لهم نبيهم» شروع في تفصيل ما جرى بينهم وبين نبيهم من الأقوال والأفعال. وطالت: اسم أعجمي، وكان سقاء، وقيل: دباغ، وقيل: مكارية، ولم يكن من سبط النبوة، وهم بنو لاوي، ولا من سبط الملك، وهم بنو يهوذا، فلذلك: «قالوا أتى يكون له الملك علينا» أي: كيف ذلك، ولم يكن من بيت الملك، ولا هو ممن أوتي سعة من المال حتى نتبعه لشرفه، أو لماله، وهذه الجملة أعني قوله: «ونحن أحق» حالية وكذلك الجملة المعطوفة عليها. وقوله: «اصطفاه عليكم» أي: اختاره، واختيار الله هو الحجة القاطعة. ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء: بأن الله زاده بسطة في العلم، الذي هو ملاك الإنسان، ورأس الفضائل، وأعظم وجوه الترجيح، وزاده بسطة في الجسم الذي يظهر به الأثر في الحروب، ونحوها، فكان قوياً في يده، وبينه، وذلك هو المعتمد، لا شرف النسب. فإن فضائل النفس مقدمة عليه «والله يؤتي ملكه من يشاء» فالملك ملكه، والعبيد عبيده، فما لكم والاعتراض على شيء ليس هو لكم، ولا أمره إليكم. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله: «والله يؤتي ملكه من يشاء» من قول نبينا محمد ﷺ، وقيل: هو من قول نبيهم، وهو الظاهر. وقوله: «واسع» أي: واسع الفضل، يوسع على من يشاء من عباد «عليهم» بمن يستحق الملك، ويصلح له. والتابوت، فعلوت من التوب، وهو الرجوع؛ لأنهم يرجعون إليه أي: علامة ملكه إتيان التابوت الذي أخذ منهم. أي: رجوعه إليكم، وهو صندوق التوراة. والسكينة فعيلة مأخوذة من السكون، والوقار، والطمأنينة أي: فيه سبب سكون قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت. قال ابن عطية: الصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء، وأكأهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به، وتتقوى. وقد اختلف في السكينة على أقوال سيأتي بيان بعضها، وكذلك اختلف في البقية، فقيل: هي عصا موسى، ورضاض الألواح، وقيل: غير ذلك. قيل: والمراد بآل موسى، وهارون هما أنفسهما. أي: مما ترك هارون، وموسى، ولفظ آل مقحمة، لتفخيم شأنهما، وقيل المراد: الأنبياء من بني يعقوب؛ لأنهما من نرية يعقوب، فسائر قرابته ومن تناسل منه آل لهما. وفصل معناه: خرج بهم، فصلت الشيء، فأنفصل أي: قطعت، فأنقطع، وأصله متعدد، يقال فصل نفسه، ثم استعمل استعمال اللازم كأنفصل، وقيل: إن فصل يستعمل لازماً، ومتعدياً، يقال: فصل عن البلد فصلاً، وفصل نفسه فصلاً. والابتلاء: الاختبار. والنهر: قيل: هو بين الأردن، وفلسطين، وقرأه الجمهور بنهر بفتح الهاء. وقرأ حميد، ومجاهد، والأعرج بسكون الهاء. والمراد بهذا الابتلاء اختبار طاعتهم، فمن أطاع في ذلك الماء أطاع فيما عداه، ومن عصى في هذا، وغلبته نفسه، فهو بالعصيان في سائر الشدائد أخرى، ورخص لهم في الغرفة ليرتفع

السلسلة التي كانوا يتحاكمون إليها. قوله: ﴿وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾ قيل: إن المضارع هنا موضوع موضع الماضي، وفاعل هذا الفعل هو الله تعالى، وقيل: داود، وظاهر هذا التركيب أن الله سبحانه علمه مما قضت به مشيئته، وتعلقت به إرادته، وقد قيل: إن من ذلك ما قلّمنا من تعليمه صنعة الدروع، وما بعده، قوله: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ قرأه الجماعة: «ولولا دفع الله» وقرأ نافع: «دفاع» وهما مصدران لدفع، كذا قال سيبويه. وقال أبو حاتم: دافع، ودفع واحد مثل: طرقت نعلي، وطارقته. واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور، وأنكر قراءة نافع، قال: لأن الله عز وجل لا يغالبه أحد، قال مكي: يومه أبو عبيدة أن هذا من باب المفاعلة، وليس به، وعلى القراءتين، فالمصدر مضاف إلى الفاعل أي: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ وبعضهم بدل من الناس، وهم الذين يباشرُونَ أسباب الشرِّ، والفساد ببعض آخر منهم، وهم الذين يكفونهم عن ذلك ويرتّبونهم عنه ﴿فَلَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ لتغلب أهل الفساد عليها، وإحداثهم للشرور التي تهلك الحرث، والنسل، وتتكبر فضل للتعظيم. وآيات الله هي: ما اشتملت عليه هذه القصة من الأمور المذكورة، والمراد ﴿بِالْحَقِّ﴾ هنا: الخبر الصحيح الذي لا ريب فيه عند أهل الكتاب، والمطلعين على أخبار العالم. وقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إخبار من الله سبحانه بأنه من جملة رسل الله سبحانه تقوية لقلبه، وتثبيتاً لجنانته، وتشييداً لأمره.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا تَرَى إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: هذا حين رفعت النبوة، واستخرج أهل الإيمان، وكانت الجبابرة قد أخرجتهم من ديارهم، وأبنائهم ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ﴾ وذلك حين اتّاهم التابوت، قال: وكان من إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط خلافة، فلا تكون الخلافة إلا في سبط الخلافة، ولا تكون النبوة إلا في سبط النبوة؛ ﴿فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا﴾ قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه؟ وليس من أحد السبطين لا من سبط النبوة، ولا من سبط الخلافة ﴿قَالَ إِنْ أَنْتُمْ صَافَوْهُ فَلَا تَكُونُوا مِنْهُ﴾ قالوا: لا، فبطلوا سبط النبوة، ولا من سبط الخلافة حتى قال لهم: ﴿إِنْ آيَةٌ مَلَكَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ﴾ وكان موسى حين ألقى الألواح تكسرت، ورفع منها وجمع ما بقي، فجعله في التابوت، وكانت العمالة قد سببت ذلك التابوت، والعمالة فرقة من عاد كانوا بأريحاء، فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت، فلما رأوا ذلك قالوا: نعم، فسلموا له، وملكوه، وكانت الأنبياء إذا حضروا قتالاً قَدَّمُوا التَّابُوتَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، ويقولون: إن آم نزل بذلك التابوت، وبالركن، وبعضاً موسى من الجنة. ويلغني أن التابوت، وعصا موسى في بحيرة طبرية، وأنهما يخرجان قبل يوم القيامة. وقد ورد هذا المعنى مختصراً، ومطولاً عن

وأقول: هذه التفاسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقماهم الله، فجاءوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين رضي الله عنهم، والتشكيك عليهم، وانظر إلى جعلهم لها تارة حيواناً، وتارة جماداً، وتارة شيئاً لا يعقل، كقول مجاهد: كهية الريح لها وجه كوجه الهر، وجنلحان، وننّب مثل نذب الهر. وهكذا كل منقول عن بني إسرائيل يتناقض، ويشتمل على ما لا يعقل في الغالب، ولا يصح أن يكون مثل هذه التفاسير المتناقضة مروياً عن النبي ﷺ، ولا رأياً رآه قائله، فهم أجلّ قدرأ من التفسير بالرأي، وبما لا مجال للاجتهاد فيه. إذا تقرر لك هذا عرفت أن الواجب الرجوع في مثل ذلك إلى معنى السكينة لغة، وهو معروف، ولا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة، فقد جعل الله عنها سعة، ولو ثبت لنا في السكينة تفسير، عن النبي ﷺ لوجب علينا المصير إليه، والقول به، ولكنه لم يثبت من وجه صحيح بل ثبت أنها تنزلت عن

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا تَرَى إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: هذا حين رفعت النبوة، واستخرج أهل الإيمان، وكانت الجبابرة قد أخرجتهم من ديارهم، وأبنائهم ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ﴾ وذلك حين اتّاهم التابوت، قال: وكان من إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط خلافة، فلا تكون الخلافة إلا في سبط الخلافة، ولا تكون النبوة إلا في سبط النبوة؛ ﴿فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا﴾ قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه؟ وليس من أحد السبطين لا من سبط النبوة، ولا من سبط الخلافة حتى قال لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ صَافَوْهُ فَلَا تَكُونُوا مِنْهُ﴾ قالوا: لا، فبطلوا سبط النبوة، ولا من سبط الخلافة حتى قال لهم: ﴿إِنْ آيَةٌ مَلَكَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ﴾ وكان موسى حين ألقى الألواح تكسرت، ورفع منها وجمع ما بقي، فجعله في التابوت، وكانت العمالة قد سببت ذلك التابوت، والعمالة فرقة من عاد كانوا بأريحاء، فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت، فلما رأوا ذلك قالوا: نعم، فسلموا له، وملكوه، وكانت الأنبياء إذا حضروا قتالاً قَدَّمُوا التَّابُوتَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، ويقولون: إن آم نزل بذلك التابوت، وبالركن، وبعضاً موسى من الجنة. ويلغني أن التابوت، وعصا موسى في بحيرة طبرية، وأنهما يخرجان قبل يوم القيامة. وقد ورد هذا المعنى مختصراً، ومطولاً عن

ثلاثين ألفاً. وقد ذكر المفسرون أقتصاص كثيرة من هذا الجنس، والله أعلم. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ لِلنَّاسِ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ قال: يدفع الله بمن يصلي عن لا يصلي، ومن يحج عن لا يحج، ومن يزكي عن لا يزكي. وأخرج ابن عدي، وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لينفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء» ثم قرأ ابن عمر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ لِلنَّاسِ﴾ الآية وفي إسناده يحيى بن سعيد العطار الحمصي، وهو ضعيف جداً.

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْ كَلِمِ اللَّهِ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَكُمُ الَّذِينَ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۖ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَيَهْتَمُّ مِنْ أَمَانٍ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَكُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَعْمَلُ مَا يُرِيدُ ۚ ﴾

قوله: ﴿هَٰذَا لِلرَّسُلِ﴾ قيل: هو إشارة إلى جميع الرسل، فتكون الآلف واللام للاستغراق، وقيل: هو إشارة إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة، وقيل: إلى الأنبياء الذين بلغ علمهم إلى النبي ﷺ. والمراد بتفضيل بعضهم على بعض: أن الله سبحانه جعل لبعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر، فكان الأكثر مزايا فاضلاً، والآخر مقضولاً. وكما دلت هذه الآية على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض كذلك دلت الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55]. وقد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين هذه الآية، وبين ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «لا تفضلوني على الأنبياء» وفي لفظ آخر «لا تفضلوا بين الأنبياء» وفي لفظ «لا تخيروا بين الأنبياء» فقال قوم: إن هذا القول منه ﷺ كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل، وقيل: إنه قال ﷺ ذلك على سبيل التواضع كما قال: «لا يقل أحدكم أنا خير من يونس بن متى» تواضعاً مع علمه أنه أفضل الأنبياء كما يدل عليه قوله: «أنا سيد ولد آدم»؛ وقيل: إنما نهى عن ذلك قطعاً للجدال، والخصام في الأنبياء، فيكون مخصوصاً بمثل ذلك لا إذا كان صدور ذلك مأموراً، وقيل: إن النهي إنما هو من جهة النبوة فقط؛ لأنها خصلة واحدة لا تفاضل فيها، ولا نهى عن التفاضل بزيادة الخصوصيات، والكرامات، وقيل: إن المراد النهي عن التفضيل لمجرد الأهواء، والعصبية. وفي جميع هذه الأقوال ضعف. وعندي أنه لا تعارض بين القرآن، والسنة، فإن القرآن دلّ على أن الله فضل بعض أنبيائه على بعض، وذلك لا يستلزم أنه يجوز لنا أن نفضل بعضهم على بعض، فإن المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله لا تخفى عليه منها خافية، وليست بمعلومة عند البشر، فقد يجهل اتباع نبي من الأنبياء بعض مزاياه، وخصوصياته

بعض الصحابة عند تلاوته للقرآن، كما في صحيح مسلم، عن البراء قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وعنده فرس مربوط، فتغشته سحابة، فجعلت تنور، وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها: فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فنكر ذلك له، فقال: تلك السكينة نزلت للقرآن. وليس في هذا إلا أن هذه التي سماها رسول الله ﷺ سكينة سحابة دارت على ذلك القارئ، فإله أعلم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى﴾ قال: عصاه، ورضاض الألواح. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي صالح قال: كان في التابوت عصى موسى، وعصى هارون، وثياب موسى، وثياب هارون، ولوحان من التوراة، والمَنْ وكلمة الفرج: «لا إله إلا الله الحليم الكريم وسبحان الله رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال: أقبلت به الملائكة تحمله حتى وضعته في بيت طالوت، فأصبح في داره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ قال: علامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿إِنْ الله مَبْتَلِكُمْ بِنَهْرٍ﴾ يقول: بالعطش، فلما انتهى إلى النهر، وهو نهر الأردن كرع فيه عامة الناس، فشرّبوا منه، فلم يزد من شرب منه إلا عطشاً، وأجزأ من اغترف غرفة بيده، وانقطع الظمأ عنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قال: القليل ثلاث مئة وبضعة عشر عدة أهل بدر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن البراء قال: كنا أصحاب محمد نتحدث أن أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاث مئة. وقد أخرج ابن جرير عن قتادة قال: نكر لنا أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقي جالوت». وأخرج ابن عساکر من طريق جويبر، عن الضحاک عن ابن عباس قال: كانوا ثلاث مئة ألف وثلاثة آلاف وثلاث مئة وثلاثة عشر، فشرّبوا منه كلهم إلا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً عدة أصحاب النبي ﷺ يوم بدر، فردّهم طالوت، ومضى ثلاث مئة وثلاثة عشر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ قال: الذين يستيقنون. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان طالوت أميراً على الجيش، فبعث أبو داود مع داود بشيء إلى إخوته، فقال داود لطالوت: ماذا لي، وأقبل جالوت فقال: لك ثلث ملكي، وانكحك ابنتي، فأخذ مخلّة، فجعل فيها ثلاث مرات، ثم سمى إبراهيم، وإسحاق ويعقوب، ثم أخذ يده، فقال: بسم الله إلهي، وإله آبائي إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فخرج على إبراهيم، فجعله في مرحمته، فرمى بها جالوت، فخرق ثلاثة وثلاثين بيضة عن رأسه، وقتلت ما وراءه

شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا، فمفعول المشيئة محذوف على القاعدة ﴿ولكن اختلفوا﴾ استثناء من الجملة الشرطية أي: ولكن الاقتتال ناشئ عن اختلافهم اختلافاً عظيماً حتى صاروا ملأاً مختلفة ﴿منهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله﴾ عدم قتالهم بعد هذا الاختلاف ﴿ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ لا راد لحكمه، ولا مبدل لقضائه، فهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ففضلنا بعضهم على بعض﴾ قال: اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكلم موسى تكليماً، وجعل عيسى كمثلاً آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن، فيكون، وهو عبد الله، وكلمته وروحه، وأتى داود زبوراً، وأتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه، وما تأخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن مجاهد في قوله: ﴿منهم من كلم الله﴾ قال: كلم الله موسى، وأرسل محمداً ﷺ إلى الناس كافة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عامر الشعبي في قوله: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة ﴿ولو شاء الله ما أقتتل للذين من بعدهم﴾ يقول: من بعد موسى، وعيسى. وأخرج ابن عساکر، عن ابن عباس قال: كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية إذ أقبل علي، فقال النبي ﷺ لمعاوية: «أحب علياً؟ قال: نعم قال: إنها ستكون بينكم فتنة هنية، قال معاوية: فما بعد ذلك يا رسول الله؟ قال: عفر الله ورضوانه، قال: رضينا بقضاء الله، فعند ذلك نزلت هذه الآية: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ قال السيوطي: وسنده واه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مَا رَفَعْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالَّذِينَ هُمْ أَطْلُقُونَ ﴿١٦٥﴾

ظاهر الأمر في قوله: ﴿اتَّقُوا﴾ الوجوب، وقد حملة جماعة على صدقة الفرض لذلك، ولما في آخر الآية من الوعيد الشديد، وقيل: إن هذه الآية تجمع زكاة الفرض، والتطوع. قال ابن عطية: وهذا صحيح، ولكن ما تقدم من الآيات في نكر القتال، وأن الله ينفذ بالمؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه أن هذا الذنب إنما هو في سبيل الله. قال القرطبي: وعلى هذا التأويل يكون إنفاق المال مرة واجباً، ومرة ندباً بحسب تعيين الجهاد، وعدم تعيينه. قوله: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ أي: انفقوا ما لمتم قاذرين ﴿من قبل أن يأتي﴾ ما لا يمكنكم الإنفاق فيه، وهو: ﴿يوم لا بيع فيه﴾ أي: لا يتبايع الناس فيه. والخلة: خالص المؤدة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين. أخبر سبحانه أنه لا خلة في يوم القيامة نافعة، ولا شفاعة مؤثرة إلا لمن أذن الله له. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، بنصب لا بيع ولا خلة، ولا شفاعة، من غير تنوين. وقرأ الباقر برفعها منونة، وهما لغتان مشهورتان للعرب، ووجهان معروفان عند النحاة، فمن الأوّل قول حسان:

فضلاً عن مزاياء غيره، والتفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلاً، وهذا مفضولاً، لا قبل العلم ببعضها، أو باكثيرها، أو باقلها، فإن ذلك تفضيل بالجهل، وإقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له، وهو ممنوع منه، فلو فرضنا أنه لم يرد إلا القرآن في الإخبار لنا بأن الله فضل بعض أنبيائه على بعض لم يكن فيه دليل على أنه يجوز للبشر أن يفضلوا بين الأنبياء، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك؟ وإذا عرفت هذا علمت أنه لا تعارض بين القرآن، والسنة بوجه من الوجوه، فالقرآن فيه الإخبار من الله بأنه فضل بعض أنبيائه على بعض، والسنة فيها النهي لعباده أن يفضلوا بين أنبيائه، فمن تعرض للجمع بينهما زاعماً أنهما متعارضان، فقد غلط غلطاً بيناً. قوله: ﴿منهم من كلم الله﴾ وهو موسى، ونبينا سلام الله عليهما. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال في آدم: «إنه نبيّ مكرم». وقد ثبت ما يفيد ذلك في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر. قوله: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ هذا البعض يحتمل أن يراد به من عظمت منزلته عند الله سبحانه من الأنبياء، ويحتمل أن يراد به نبينا ﷺ لكثرة مزياءه المقتضية للتفضيل، ويحتمل أن يراد به إدريس؛ لأن الله سبحانه أخبرنا بأنه رفعه مكاناً علياً، وقيل: إنهم أولوا العزم، وقيل: إبراهيم، ولا يخفى أن الله سبحانه أبهم هذا البعض المرفوع، فلا يجوز لنا التعرض للبيان له إلا ببرهان من الله سبحانه، أو من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ولم يرد ما يرشد إلى ذلك، فالتعرض لبيان هو من تفسير القرآن الكريم بمحض الرأي، وقد عرفت ما فيه من الوعيد الشديد مع كون ذلك نريعة إلى التفضيل بين الأنبياء، وقد نهينا عنه، وقد جزم كثير من أئمة التفسير أنه نبينا ﷺ، وأطالوا في ذلك، واستدلوا بما خصه الله به من المعجزات، ومزاياء الكمال، وخصال الفضل، وهم بهذا الجزم بليل لا يدل على المطلوب قد وقعوا في خطرين، وارتكبوا نهيين، وهما: تفسير القرآن بالرأي، والبدول في نرائع التفضيل بين الأنبياء، وإن لم يكن ذلك تفضيلاً صريحاً، فهو نريعة إليه بلا شك، ولا شبهة؛ لأن من جزم بأن هذا البعض المرفوع درجات هو النبي الفلاني، انتقل من ذلك إلى التفضيل المنهي عنه، وقد أغنى الله نبينا المصطفى ﷺ عن ذلك بما لا يحتاج معه إلى غيره من الفضائل، والفواضل، فلياك أن تتقرب إليه ﷺ بالدخول في أبواب نهاك عن دخولها، فتعصيه، وتسيء، وأنت تظن أنك مطيع محسن. قوله: ﴿وأتينا عيسى ابن مريم البيئات﴾ أي: الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة من إحياء الأموات، وإبراء المرضى، وغير ذلك. قوله: ﴿واينبأ بروح القدس﴾ هو: جبريل، وقد تقدم الكلام على هذا. قوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل للذين من بعدهم﴾ أي: من بعد الرسل، وقيل: من بعد موسى، وعيسى، ومحمد، لأن الثاني منكور صريحاً، والأول، والثالث وقعت الإشارة إليهما بقوله: ﴿منهم من كلم الله﴾ أي: لو

تفسيره: إن السنة ما تتقدم النوم، فإذا كانت عبارة عن مقبلة للنوم، فإذا قيل: لا تأخذ سنة بل على أنه لا يأخذ نوم بطريق الأولى، فكان نكر النوم تكراراً، قلنا: تقدير الآية لا تأخذ سنة فضلاً عن أن يأخذ نوم، والله أعلم بمراده. انتهى. وأقول: إن هذه الأولوية التي نكرها غير مسلمة، فإن النوم قد يرد ابتداء من دون ما نكر من النعاس. وإذا ورد على القلب، والعين دفعة واحدة، فإنه يقال له نوم، ولا يقال له سنة، فلا يستلزم نفي السنة نفي النوم. وقد ورد عن العرب نفياً كليهما، ومنه قول زهير:

ولا سنة طوال الدهر تأخذ ولا ينام وما في امره فند
فلم يكتف بنفي السنة، وأيضاً، فإن الإنسان يقدر على أن يدفع عن نفسه السنة، ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه النوم، فقد يأخذ النوم، ولا تأخذ السنة، فلو وقع الاختصار في النظم القرآني على نفي السنة لم يفد ذلك نفي النوم، وهكذا لو وقع الاختصار على نفي النوم لم يفد نفي السنة، فكم من ذي سنة غير نائم؛ وكثر حرف النفي للتنصيص على شمول النفي لكل واحد منهما. قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ في هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أن أحداً من عباده يقدر على أن ينفع أحداً منهم بشفاعته، أو غيرها، والتقريع، والتوبيخ له ما لا مزيد عليه، وفيه من الدفع في صدور عباد القبور، والصد في وجوههم، والفت في أعضادهم ما لا يقدر قدره، ولا يبلغ مداه، والذي يستفاد منه فوق ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28] وقوله تعالى: ﴿وَكُمْ مِنْ مَلَائِكَةٍ لَا تُدْرِكُهُمْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [النجم: 26] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبأ: 38] بدرجات كثيرة. وقد بينت الأحاديث الصحيحة الثابتة في دواوين الإسلام صفة الشفاعات، ولمن هي، ومن يقوم بها. قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الضميران لما في السموات، والأرض بتغليب العقلاء على غيرهم، وما بين أيديهم، وما خلفهم عبارة، عن المتقدم عليهم، والمتأخر عنهم، أو عن الدنيا، والآخرة، وما فيهما. قوله: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ قد تقدم معنى الإحاطة، والعلم هنا بمعنى: المعلوم أي: لا يحيطون بشيء من معلوماته. قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ الكرسي الظاهر أنه الجسم الذي وربت الآثار بصفته كما سيأتي بيان ذلك. وقد نفي وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطأوا في ذلك خطأ بيناً، وغلطوا غلطاً فاحشاً. وقال بعض السلف: إن الكرسي هنا عبارة عن العلم. قالوا: ومنه قيل للعلماء: الكرسي، ومنه الكراسة التي يجمع فيها العلم، ومنه قول الشاعر:

تحف ببهم بيض الوجوه وعصبه كراسي بالأخبار حين تنوب
ورجح هذا القول ابن جرير الطبري، وقيل كرسية: قدرته التي يمسك بها السموات والأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسياً: أي ما يعمده، وقيل: إن الكرسي هو العرش،

الأطعمان الأفرسان عادية ألا يحشؤكم حول التنانير
ومن الثاني قول الراعي:

وما صرمتك حتى قلت معلنة لاناقة لي في هذا ولا جمل
ويجوز في غير القرآن التغاير برفع البعض، ونصب البعض، كما هو مقرر في علم الإعراب. قوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فيه دليل على أن كل كافر ظالم لنفسه، ومن جملة من ينخل تحت هذا العموم مانع الزكاة منعاً يوجب كفره لوقوع ذلك في سياق الأمر بالإتفاق.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال: من الزكاة، والتطوع. وأخرج ابن المنذر، عن سفيان قال: يقال نسخت الزكاة كل صدقة في القرآن، ونسخ شهر رمضان كل صوم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: قد علم الله أن ناساً يتخاللون في الدنيا، ويشفع بعضهم لبعض، فاما يوم القيامة فلا خلة إلا خلة المتقين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن عطاء قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو، وهذه الجملة خبر المبتدأ. والحي: الباقي، وقيل: الذي لا يزول، ولا يحول، وقيل: المصروف للأموال، والمقدر للأشياء. قال الطبري عن قوم إنه يقال: حي كما وصف نفسه، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه، وهو خبر ثان، أو مبتدأ خبره محذوف. والقيوم: القائم على كل نفس بما كسبت، وقيل: القائم بذاته المقيم لغیره، وقيل: القائم بتدبير الخلق، وحفظه، وقيل: هو الذي لا ينام، وقيل: الذي لا يبدل له. وأصل قیوم: قیوم جمع اجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداهما بالسكون، فادغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء. وقرأ ابن مسعود، وعلقمة، والنخعي، والأعمش: «الحي القيام» بالالف، وروي ذلك عن عمر، ولا خلاف بين أهل اللغة أن القیوم أعرف عند العرب، وأصح بناء، وأثبت علة. والسنة: النعاس في قول الجمهور، والنعاس: ما يتقدم النوم من الفتور، وانطباع العينين، فإذا صار في القلب صار نوماً. وفرق المفصل بين السنة، والنعاس، والنوم فقال: السنة من الرأس، والنعاس في العين، والنوم في القلب. انتهى. والذي ينبغي التحويل عليه في الفرق بين السنة والنوم، أن السنة لا يفقد معها العقل، بخلاف النوم، فإنه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة حتى يفقد معه العقل، بل وجميع الإدراكات بسائر المشاعر، والمراد: أنه لا يعتريه سبحانه شيء منهما، وقدم السنة على النوم، لكونها تتقدمه في الوجود. قال الرازي في

قوله: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾. وأخرج الدارقطني في الصفات، والخطيب في تاريخه عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: كرسية موضع قدمه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل». وأخرجه الحاكم وصححه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري مثله موقوفاً. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لو أن السموات السبع، والأرضين السبع بسطن، ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كنَّ في سعته: يعني الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي ذر الغفاري: أنه سأل رسول الله ﷺ، عن الكرسي، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما السموات السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة». وأخرج عبد بن حميد، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وأبو الشيخ، والطبراني، والضياء المقدسي في المختارة عن عمر قال: «أتت امرأة إلى النبي ﷺ، وقالت: ادع الله أن يخليني الجنة، فعظم الرب سبحانه وقال: إن كرسية وسع السموات والأرض، وإن له أطيافاً كأطياف الرجل الجديد من ثقله» وفي إسناده عبد الله بن خليفة، وليس بالمشهور. وفي سماعه من عمر نظر، ومنهم من يرويه، عن عمر موقوفاً. وأخرج ابن مردويه، عن أبي هريرة مرفوعاً: أنه موضع القدمين. وفي إسناده الحكم بن ظهير الفزاري الكوفي وهو متروك. وقد ورد عن جماعة من السلف من الصحابة، وغيرهم، في وصف الكرسي آثار لا حاجة في بسطها. وقد روى أبو داود في كتاب السنة من سننه من حديث جبير بن مطعم حديثاً في صفته، وكذلك أورد ابن مردويه عن بريدة، وجابر، وغيرهما. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ قال: لا يثقل عليه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ﴾ قال: ولا يكثره. وأخرج ابن جرير عنه قال: العظيم الذي قد كمل في عظمته.

واعلم أنه قد ورد في فضل هذه الآية أحاديث. فأخرج أحمد، ومسلم، واللفظ له عن أبي بن كعب: «أن النبي ﷺ سألني أي آية من كتاب الله أعظم؟ قال: آية الكرسي، قال: ليهنك العلم أبا المنذر». وأخرج النسائي، وأبو يعلى، وابن حبان، وأبو الشيخ في العظمة، والطبراني، والحاكم وصححه، عن أبي بن كعب: أنه كان له جرن فيه تمر، فكان يتعامده، فوجده ينقص، فحرصه ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبه الغلام المحتلم، قال: فسلمت فرد السلام، فقلت: ما أنت، جنني أم إنسي؟ قال: جنني، قلت: ناولني ينك، فناولني، فإذا يده يد كلب، وشعره شعر كلب، فقلت: هكذا خلق الجن؟ قال: لقد علمت الجن أن ما فيهم من هو أشد مني، قلت: ما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك رجل تحب الصلوة، فأجبنا أن نصيب من طعامك، فقال له أبي: فما الذي يجبرنا منكم؟

وقيل: هو تصوير لعظمته، ولا حقيقة له، وقيل: هو عبارة عن الملك. والحق القول الأول، ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي إلا مجرد خيالات تسببت، عن جهالات وضلالات، والمراد بكونه وسع السموات والأرض: أنها صارت فيه، وأنه وسعها، ولم يضق عنها لكونه بسيطاً واسعاً. وقوله: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ معناه لا يثقله ثقله أدنى شيء، بمعنى أثقلني، وتحملت منه مشقة. وقال الزجاج: يجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿يُؤُودُهُ﴾ الله سبحانه، ويجوز أن يكون للكرسي؛ لأنه من أمر الله ﴿وَالْعَلِيِّ﴾ يراد به علو القدرة، والمنزلة. وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: هو العلي عن خلقه بارتفاع مكانه، عن أماكن خلقه. قال ابن عطية: وهذه أقوال جهلة مجسمين، وكان الواجب أن لا تحكى. انتهى. والخلاف في إثبات الجهة معروف في السلف، والخلف، والنزاع فيه كائن بينهم، والأدلة من الكتاب، والسنة معروفة، ولكن الناشئ على مذهب يرى غيره خارجاً عن الشرع، ولا ينظر في أئله، ولا يلتفت إليها، والكتاب، والسنة هما المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل، ويتبين به الصحيح من الفاسد ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: 71] ولا شك أن هذا اللفظ يطلق على الظاهر الغالب كما في قوله: ﴿إِنْ فَرَعُونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: 4] وقال الشاعر:

فلما علونا واستويينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

والعظيم بمعنى عظم شأنه، وخطره. قال في الكشف: إن الجملة الأولى بيان لقيامه بتبدير الخلق، وكونه مهيمناً عليه غير ساه عنه. والثانية بيان لكونه مالكا لما يديره. والجملة الثالثة بيان لكبرياء شأنه. والجملة الرابعة بيان لإحاطته بأحوال الخلق، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة، وغير المرتضى. والجملة الخامسة بيان لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله، وعظم قدره.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿الْحَيِّ﴾ أي: حي لا يموت ﴿وَالْقَيُّومِ﴾ القائم الذي لا بديل له. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن مجاهد في قوله: ﴿الْقَيُّومِ﴾ قال: القائم على كل شيء. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: القيوم الذي لا زوال له. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ قال: السنة: النعاس، والنوم هو: النوم. وأخرجوا إلا البيهقي عن السدي قال: السنة ريب النوم الذي تأخذه في الوجه، فينعس الإنسان. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: ما مضى من الدنيا: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما قُتِمُوا من أعمالهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما أضاعوا من أعمالهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه، ألا ترى إلى

كَرُّوا أَوْلِيَاءَهُمْ أَتَلَكُمُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ الْكَلْبَةِ إِلَى الْكَلْبَةِ أَتَأْتِيهِمُ الْمَوْتُ أَفَلَا يَذَكَّرُونَ ﴿١٦٦﴾

قد اختلف أهل العلم في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ على أقوال: الأول أنها منسوخة؛ لأن رسول الله ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام، وقتلهم، ولم يرض منهم إلا بالإسلام، والناسخ لها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: 73] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَرِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعِلْمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 123] وقال: «ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون» [الفتح: 16]، وقد ذهب إلى هذا كثير من المفسرين. القول الثاني: أنها ليست بمنسوخة، وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أتوا الجزية، بل الذين يكرهون هم أهل الأوثان، فلا يقبل منهم إلا الإسلام، أو السيف، وإلى هذا ذهب الشعبي، والحسن، وقتادة، والضحاك. القول الثالث: أن هذه الآية في الانصار خاصة، وسيأتي بيان ما ورد في ذلك. القول الرابع: أن معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف إنه مكروه، فلا إكراه في الدين - القول الخامس: أنها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا على الإسلام. وقال ابن كثير في تفسيره أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلالة، وبراهينه لا تحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته نخل فيه على بيته، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه، وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكروهاً مقسوراً، وهذا يصلح أن يكون قولاً ساساً. وقال في الكشف في تفسيره هذه الآية أي: لم يجر الله أمر الإيمان على الإجبار، والقسر، ولكن على التمكن، والاختيار، ونحوه قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَكُنَّا مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ﴾ [يونس: 99] أي: لو شاء لقسرهم على الإيمان، ولكن لم يفعل، وبني الأمر على الاختيار، وهذا يصلح أن يكون قولاً سابعاً. والذي ينبغي اعتماده، ويتعين الوقوف عنده: أنها في السبب الذي نزلت لأجله محكمة غير منسوخة، وهو أن المرأة من الانصار تكون مقلاة لا يكاد يعيش لها ولد، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوذه، فلما أجليت يهود بني نضير كان فيهم من أبناء الانصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فنزلت، أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مريويه، والبيهقي في السنن، والضياء في المختارة عن ابن عباس. وقد وردت هذه القصة من وجوه، حاصلها ما ذكره ابن عباس مع زيادات تتضمن أن الانصار قالوا: إنما جعلناهم على دينهم أي: دين اليهود، ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا، وأن الله جاء بالإسلام، فلنكرههم، فلما نزلت خير الأبناء رسول الله ﷺ، ولم يكرههم على الإسلام. وهذا يقتضي أن أهل الكتاب لا يكرهون

قال: هذه الآية، آية الكرسي التي في سورة البقرة «من قالها حين يمسي أجير منا حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح أجير منا حتى يمسي»، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: صدق الخبيث. وأخرج البخاري في تاريخه، والطبراني، وأبو نعيم في المعرفة بسند رجاله ثقات عن ابن الأسقع البكري: «أن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجر، فسأله إنسان أي آية في القرآن أعظم؟ فقال النبي ﷺ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ حتى انقضت الآية». وأخرج أحمد من حديث أبي نر مرفوعاً نحوه. وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه، عن انس مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج الدارمي، عن أنفع بن عبد الله الكلاعي نحوه. وأخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني أت، فجعل يحثو، وذكر قصة، وفي آخرها أنه قال له: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فأقرأ آية الكرسي، فلنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فأخبر أبو هريرة بذلك رسول الله ﷺ، فقال: أما إنه صدقك، وهو كنوب، تعلم من تخاطب يا أبا هريرة؟ قال: لا، قال: ذلك شيطان كذاب. وأخرج نحو ذلك أحمد عن أبي أيوب. وأخرج الطبراني، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي عن معاذ بن جبل مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مريويه، عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أعظم آية في كتاب الله ﷻ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وأخرج نحوه أحمد، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي نر مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً أحمد، والطبراني من حديث أبي أمامة مرفوعاً. وأخرج سعيد بن منصور، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة أي القرآن لا تقرا في بيت فيه شيطان إلا خرج منه، آية الكرسي». قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وأخرج الحاكم من حديث زائدة مرفوعاً «لكل شيء سنم، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة أي القرآن، آية الكرسي»، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير. وقد تكلم فيه شعبة، وضعفه، وكذا وضعفه أحمد، ويحيى بن معين، وغير واحد، وتركه ابن مهدي، وكذبه السعدي. وأخرج أبو داود، والترمذي وصححه من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إن فيهما اسم الله الأعظم. وقد وردت أحاديث في فضلها غير هذه، وورد أيضاً في فضل قراءتها دبر الصلوات، وفي غير ذلك، وورد أيضاً في فضلها مع مشاركة غيرها لها لحديث، وورد عن السلف في ذلك شيء كثير.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْثُرِ الظُّلُمَاتِ يَأْتِكُمُ الرَّعْدُ فَكَيْفَ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا تُفْنِمُهَا وَاللَّهُ يَكْفِي عِلْمَهُ ﴿١٦٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ

فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى ظلمات الكفر التي وقعوا فيها بسبب ذلك الإخراج.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن سعيد بن جبير نحو ما تقدم، عن ابن عباس من نكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وزاد أن النبي ﷺ خير الأبناء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الشعبي نحوه أيضاً، وقال: فلحق بهم أي: ببني النضير من لم يسلم، وبقي من أسلم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: كان ناس من الأنصار مسترضعين في بني قريظة، فثبتوا على دينهم، فلما جاء الإسلام أراد أهلوه أن يكرهوهم على الإسلام، فنزلت. وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا استكرههما، فإنهما قد آبيا إلا النصرانية؟ فنزلت. وأخرج عبد بن حميد، عن عبد الله بن عبيدة نحوه. وكذلك أخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير عن قتادة قال: كانت العرب ليس لها دين، فأكرهوا على الدين بالسيف. قال: ولا تكرهوا اليهود، ولا النصراني، والمجوس إذا أعطوا الجزية. وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن نحوه. وأخرج البخاري عن أسلم: سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: أسلمي تسلمي- فابت، فقال: اللهم اشهد، ثم تلا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وروى عنه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أنه قال لزنبق الرومي غلامه: لو أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين فأبى، فقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سليمان بن موسى في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قال: نسختها ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ [التوبة: 73]. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب قال: الطاغوت الكاهن، وأخرج ابن جرير عن حاتم عن عكرمة قال: الطاغوت الكاهن، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالبة قال: الطاغوت الساحر. وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس قال: الطاغوت ما يعبد من دون الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العروة الوثقى لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك: أنها القرآن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد: أنها الإيمان. وعن سفيان: أنها كلمة الإخلاص. وقد ثبت في الصحيحين تفسير العروة الوثقى في غير هذه الآية بالإسلام مرفوعاً في تعبيره ﷺ لرؤيا عبد الله بن سلام. وأخرج ابن عساكر عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:

الإسلام إذا اختاروا البقاء على دينهم، وآثروا الجزية. وأما أهل الحرب، فالآية وإن كانت تعميم؛ لأن النكرة في سياق النفي، وتعريف الدين يفيدان ذلك، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن قد خص هذا العموم بما ورد من آيات في إكراه أهل الحرب من الكفار على الإسلام. قوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ الرشد هنا الإيمان، والغى الكفر أي: قد تميز أحدهما من الآخر. وهذا استئناف يتضمن التعليل لما قبله. والطاغوت فعلوت من طغى يطغي، ويطغى: إذا جاوز الحد. قال سيبويه: هو اسم مذكر مفرد أي: اسم جنس يشمل القليل، والكثير، وقال أبو علي الفارسي: إنه مصدر كرهبوت، وجبروت يوصف به الواحد، والجمع، وقلبت لاه إلى موضع العين، وعينه إلى موضع اللام كجذب، وجذب: ثم تقلب الواو ألفاً لتحركها، وتحرك ما قبلها، فقيل: طاغوت، واختار هذا القول النحاس، وقيل: أصل الطاغوت في اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدي معناه من غير اشتقاق، كما قيل: لأكى من اللؤلؤ. وقال المبرد: هو جمع. قال ابن عطية: وذلك مربوط. قال الجوهري: والطاغوت: الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال، وقد يكون واحداً. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْحَكُمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: 60] وقد يكون جمعاً. قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾ والجمع الطواغيت أي: فمن يكفر بالشيطان، أو الأصنام، أو أهل الكهانة، وروؤس الضلالة، أو بالجميع ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ عز وجل بعد ما تميز له الرشد من الغي، فقد فاز، وتمسك بالحبل الوثيق أي: المحكم. والوثقى فعلى من الوثاقة، وجمعها وفق مثل الفضلى، والفضل. وقد اختلف المفسرون في تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على أن ذلك من باب التشبيه، والتمثيل لما هو معلوم بالليل لما هو مدرك بالحاسة، فقيل: المراد بالعروة الإيمان، وقيل: الإسلام، وقيل: لا إله إلا الله، ولا مانع من الحمل على الجميع. والانفصام: الانكسار من غير بينونة. قال الجوهري: فصم الشيء كسره من غير أن يبين. وأما القصم بالقاف، فهو الكسر مع البينونة، وفسر صاحب الكشاف الانفصام بالانقطاع. قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الولي فعيل بمعنى فاعل، وهو الناصر. وقوله: ﴿يُخْرِجُهُمُ﴾ تفسير للولاية، أو حال من الضمير في ولي، وهذا يدل على أن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذين أرادوا الإيمان؛ لأن من قد وقع منه الإيمان قد خرج من الظلمات إلى النور إلا أن يراد بالإخراج إخراجهم من الشبه التي تعرض للمؤمنين، فلا يحتاج إلى تقدير الإرادة، والمراد بالنور في قوله: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ما جاء به أنبياء الله من الدعوة إلى الدين، فإن ذلك نور للكفار أخرجهم أولياؤهم عنه إلى ظلمة الكفر أي: قرره أولياؤهم على ما هم عليه من الكفر بسبب صرفهم عن إجابة الداعي إلى الله من الأنبياء. وقيل: المراد بالذين كفروا هنا: الذين ثبت في علمه تعالى كفرهم يخرجهم أولياؤهم من الشياطين، وروؤس الضلال من النور الذي هو

المغرب، لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة، ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة، ومشاغبة. قوله: «فبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ» بهت الرجل، وبُهِتَ، وبُهِتَ: إذا انقطع، وسكت متحيراً. قال ابن جرير: وحكى عن بعض العرب في هذا المعنى بهت بفتح الباء، والهاء. قال ابن جني: قرأ أبو حيوة، فبُهِتَ بفتح الباء، وضم الهاء، وهي لغة في بهت بكسر الهاء؛ قال: وقرأ ابن السميع، فبُهِتَ بفتح الباء، والهاء على معنى، فبُهِتَ إبراهيم الذي كفر، فالذي في موضع نصب، قال: وقد يجوز أن يكون بهت بفتحهما لغة في بهت. وحكى أبو الحسن الأفش قراءة: «فبُهِتَ» بكسر الهاء، قال: والاکثر بالفتح في الهاء. قال ابن عطية: وقد تأول قوم في قراءة من قرأ، فبُهِتَ بفتحهما أنه بمعنى سب، وقذف، وأن النمرود، هو الذي سب حين انقطع، ولم يكن له حيلة. انتهى. وقال سبحانه: «فبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ» ولم يقل، فبُهِتَ الذي حاج، إشعاراً بأن تلك المحاجة كفر. وقوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» تنبيلاً مقرر لمضمون الجملة التي قبله.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب أن الذي حاج إبراهيم في ربه هو: نمرود بن كنعان. وأخرجه ابن جرير، عن مجاهد، وقتادة، والربيع، والسدي، وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن زيد بن أسلم: أن أول جبار كان في الأرض نمرود، وكان الناس يخرجون يمتارون من عنده الطعام، فخرج إبراهيم عليه السلام يمتار مع من يمتار، فإذا مر به ناس قال: من ربكم؟ قالوا: أنت، حتى مر به إبراهيم فقال: من ربك؟ قال: الذي يحيي ويميت، قال: أن أحيي وأميت، قال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فبُهِتَ الذي كفر، فردّه بغير طعام. فرجع إبراهيم إلى أهله، فمرّ على كئيب من رمل أصفر فقال: ألا أخذ من هذا فأتني به أهلي، فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم، فأخذ منه فأتني أهله، فوضع متاعه، ثم نام، فقامت امرأته إلى متاعه، ففتحتة فإذا هي بأجود طعام رآه أخذ، فصنعت له منه، فقربته إليه، وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام، فقال: من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذي جئت به، فعرف أن الله رزقه، فحمد الله. ثم بعث الله إلى الجبار ملكاً أن آمن وأتركك على ملكك. قال: فهل ربّ غيري؟ فجاءه الثانية، فقال له ذلك فأبى عليه، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه، فقال له الملك: فاجمع جموعك إلى ثلاثة أيام، فجمع الجبار جموعه، فأمر الله الملك، ففتح عليه باباً من البعوض، وطلعت الشمس، فلم يروها من كثرتها، فبعثها الله عليهم، فاكلت شحومهم، وشربت دماءهم، فلم يبق إلا العظام، والملك كما هو لا يصيبه من ذلك شيء، فبعث الله عليه بعوضة، فدخلت في منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه، ثم ضرب بهما رأسه، وكان جباراً أربعمئة سنة، فعذب الله أربعمئة سنة كملكه، ثم أماته الله، وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السماء، فأتى الله بنيانه من

«اقتنوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر، فإنهما حبل الله الممدود، فمن تمسك بهما، فقد تمسك بعروة الله الوثقى التي لا انفصام لها». وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس قال: إذا وحّد الله وآمن بالقدر فهي العروة الوثقى. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن معاذ أنه سئل عن قوله: «لَا انفصام لها» قال: لا انقطاع لها دون دخول الجنة. وأخرج ابن المنذر، والطبراني عن ابن عباس في قوله: «وَاللَّهُ وَلِيّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا» الآية، قال: هم قوم كانوا كفروا بعبسى فأمنوا بمحمد ﷺ «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّطَاغُوتُ» الآية، قال: هم قوم آمنوا بعبسى، فلما بعث محمد كفروا به. وأخرج ابن جرير عن الضحّاك قال: الظلمات الكفر. والنور: الإيمان. وأخرج أبو الشيخ عن السدي مثله.

أَلَمْ تَرَ لِيَ الْآزَى سَاحَإِ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىْ أَرِنِىْ يُصِيبُ قَالَ أَنَا أَنِىْ. وَأُيُتُّ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٢٥﴾

في هذه الآية استشهاد على ما تقدم ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت، وهمة الاستفهام لإنكار النفي، والتقرير المنفي أي: ألم ينته علمك، أو نظرك إلى هذا الذي صدرت منه هذه المحاجة. قال القراء: ألم تر بمعنى هل رأيت، أي: هل رأيت الذي حاج إبراهيم، وهو النمرود بن كوس بن كنعان بن سلم بن نوح، وقيل: إنه النمرود بن فالخ بن عامر بن شالغ بن أرفخشذ بن سام. وقوله: «وَأَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» أي: لأن آتاه الله، أو من أجل أن آتاه الله على معنى أن إيتاء الملك أبطره، وأورثه الكبر، والعقو، فحاج لذلك، أو على أنه وضع المحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر، كما يقال: عابيتني؛ لأنني أحسنت إليك، أو وقت أن آتاه الله الملك. وقوله: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ» هو ظرف لحاج، وقيل: بدل من قوله: «وَأَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» على الوجه الأخير، وهو بعيد. قوله: «رَبِّىْ الَّذِى يَحْيِى وَيُمِيتُ» بفتح ياء ربي، وقرئ بحذفها. وقوله: «إِنَّا أَحْيِى» قرأ جمهور القراء أنا أحيي بطرح الالف التي بعد النون من أنا في الوصل، وأثبتها نافع، وابن أبي أويس، كما في قول الشاعر:

أنا شيخ العشيرة فأعرفوني حميداً قد تذبذب السنما
أراد إبراهيم عليه السلام أن الله هو: الذي يخلق الحياة، والموت في الأجساد، وأراد الكافر أنه يقدر أن يعفو عن القتل، فيكون ذلك إحياء، وعلى أن يقتل، فيكون ذلك إماتة، فكان هذا جواباً أحق لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم، لأنه أراد غير ما أراده الكفار، فلو قال له: ربه الذي يخلق الحياة، والموت في الأجساد، فهل تقدر على ذلك؟ لبُهِتَ الذي كفر بادئ بدء، وفي أول وهلة، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيساً لخناقه، وإرسالاً لعنان المناظرة فقال: «وَأَن آتَاهُ اللَّهُ يَأْتِى بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِ بِهَا مِنَ

القواعد. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في الآية، قال: هو نمرود بن كنعان يزعمون أنه أول من ملك في الأرض أتى برجلين قتل أحدهما، وترك الآخر، فقال: «إننا أحيي وأميت». وأخرج أبو الشيخ، عن السدي: «والله لا يهدي للقوم الظالمين». قال: إلى الإيمان.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُغِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى مَلَأَمِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسْتَنْهَ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِلْمَلَائِكَةِ الْكُنُوسُ وَأَنْظُرْ إِلَى أَنْظَارٍ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨﴾

قوله: «أو كالذي» أو للعطف حملاً على المعنى، والتقدير: هل رأيت كالذي حاج، أو كالذي مر على قرية، قاله الكسائي، والفراء. وقال المبرد: إن المعنى: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه، ألم تر من هو كالذي مر على قرية، فحذف قوله من هو. وقد اختار جماعة أن الكاف زائدة، واختار آخرون أنها إسمية. والمشهور أن القرية هي بيت المقدس بعد تخريب بخنصر لها، وقيل: المراد بالقرية: أهلها. وقوله: «خاوية على عروشها» أي: ساقطة على عروشها، أي: سقط السقف، ثم سقطت الحيطان عليه، قاله السدي، واختاره ابن جرير، وقيل: معناه خالية من الناس، والبيوت قائمة، وأصل الخواء الخلو، يقال: خوت الدار وخويت تخوى خواء ممدود، وخوياً، وخوياً: أقفرت، والخواء أيضاً: الجوع لخلو البطن عن الغذاء. والظاهر القول الأول بدلالة قوله: «على عروشها» من خوى البيت إذا سقط، أو من خوت الأرض إذا تهدمت، وهذه الجملة حالية أي: من حال كونها كذلك. وقوله: «أنسى يحيي هذه الله» أي: متى يحيي، أو كيف يحيي، وهو استبعاد لإحيائها، وهي على تلك الحالة المشابهة لحالة الأموات المباشرة لحالة الأحياء، وتقدير المفعول لكون الاستبعاد ناشئاً من جهته لا من جهة الفاعل. فلما قال المار هذه المقالة مستبعداً لإحياء القرية المنكورة بالعمارة لها، والسكون فيها ضرب الله له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه «فأماته الله مائة عام ثم بعثه» وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال: كان هذا القول شكاً في قدرة الله على الإحياء، فلذلك ضرب له المثل في نفسه. قال ابن عطية: ليس يخل شك في قدرة الله سبحانه على إحياء قرية بجلب العمارة إليها، وإنما يتصور الشك إذا كان سؤاله عن إحياء موتاه. وقوله: «مائة عام» منصوب على الظرفية. والعام: السنة، أصله مصدر كالعوام سمي به هذا القدر من الزمان. وقوله: «بعثه» معناه أحياه. قوله: «قال كم لبثت» هو استئناف كأن سائلاً سأل ما ذا قال له بعد بعثه. واختلف في فاعل قال، فقيل: هو الله عز وجل، وقيل: ناداه بذلك ملك من السماء، قيل: هو جبريل، وقيل غيره، وقيل: إنه نبي من الأنبياء، قيل: رجل من المؤمنين من قومه

شاهده عند أن أماته الله، وعمر إلى عند بعثه. والأول أولى لقوله فيما بعد «وانظر إلى العظام كيف ننشزها» وقرأ ابن عامر، وأهل الكوفة إلا عاصماً «كم لبثت» بإدغام التاء في التاء لتقاربهما في المخرج. وقرأ غيرهم بالإظهار، وهو أحسن لبعد مخرج التاء من مخرج اللام. و«كم» في موضع نصب على الظرفية، وإنما قال: «يوماً أو بعض يوم» بناء على ما عنده، وفي ظنه، فلا يكون كاذباً، ومثله قول أصحاب الكهف: «قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم» [الكهف: 19] ومثله قوله ﷺ في قصة ذي اليمين: «لم تقصر ولم انس» وهذا مما يؤيد قول من قال: إن الصديق ما طابق الاعتقاد، والكذب ما خالفه. وقوله: «قال بل لبثت مائة عام» هو: استئناف أيضاً كما سلف، أي: ما لبثت يوماً، أو بعض يوم بل لبثت مائة عام. وقوله: «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه» أمره سبحانه أن ينظر إلى هذا الأثر العظيم من آثار القدرة، وهو عدم تغير طعامه، وشرابه مع طول تلك المدة. وقرأ ابن مسعود: «وهذا طعامك وشرابك لم يتسنه» وقرأ طلحة بن مصرف «وانظر لطعامك وشرابك لمائة سنة»، وروي عن طلحة أيضاً أنه قرأ: «لم يسن» بإدغام التاء في السين، وحذف الهاء. وقرأ الجمهور بإثبات الهاء في الوصل، والتسنه مأخوذ من السنة أي: لم تغيره السنون، وأصلها سنه، أو سنة من سنهت النخلة، وتسنت: إذا أتت عليها السنون، ونخلة سنا أي: تحمل سنة، ولا تحمل أخرى، وأسنت عند بني فلان: أقمت عندهم، وأصله يتسنا سقطت الألف للجزم، والهاء للسكت، وقيل: هو من أسن الماء: إذا تغير، وكان يجب على هذا أن يقال: يتاسن من قوله: «لحمًا مسنون» [الحجر: 26، 28] قاله أبو عمرو الشيباني. وقال الزجاج: ليس كذلك؛ لأن قوله «مسنون» ليس معناه متغير، وإنما معناه مصبوب على سنه الأرض. وقوله: «وانظر إلى حمارك» اختلف المفسرون في معناه، فذهب الأكثر إلى أن معناه انظر إليه كيف تفرقت أجزاؤه، ونخرت عظامه، ثم أحياه الله، وعاد كما كان. وقال الضحاک، وهب بن منبه: انظر إلى حمارك قائماً في مربوط لم يصبه شيء بعد أن مضت عليه مائة عام، ويؤيد القول الأول قوله تعالى: «وانظر إلى العظام كيف ننشزها» ويؤيد القول الثاني مناسبتة لقوله: «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه» وإنما نكر سبحانه عدم تغير طعامه، وشرابه بعد إخباره أنه لبث مائة عام، مع أن عدم تغير ذلك الطعام، والشراب لا يصلح أن يكون دليلاً على تلك المدة الطويلة، بل على ما قاله من لبث يوماً، أو بعض يوم لزيادة استعظام ذلك الذي أماته الله تلك المدة، فإنه إذا رأى طعامه، وشرابه لم يتغير مع كونه قد ظل أن لم يلبث إلا يوماً، أو بعض يوم زانت الحيرة، وقويت عليه الشبهة، فإذا نظر إلى حماره عظاماً نخرة تقرّر لديه أن ذلك صنع من تأتي قدرته بما لا تحيط به العقول، فإن الطعام، والشراب سريع التغير. وقد بقي هذه المدة الطويلة غير متغير، والحمار يعيش المدة الطويلة. وقد

ابن أبي حاتم، عن رجل من أهل الشام أنه حزّ قيل. وروى ابن كثير، عن مجاهد أنه رجل من بني إسرائيل. والمشهور القول الأول، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ قال: خراب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة قال: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ليس فيها أحد. وأخرج أيضاً عن الضحاك قال: ﴿على عروشها﴾ سقوفها. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: ساقطة على سقوفها. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: ﴿لبثت يوماً﴾ ثم التفت فرأى الشمس، فقال: ﴿أو بعض يوم﴾. وأخرج عنه أيضاً قال: كان طعامه الذي معه سلة من تين، وشرابه زق من عصير. وأخرج أيضاً عن مجاهد نحوه. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لم يتسنه﴾ قال: لم يتغير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير قال: ﴿لم يتسنه﴾ لم ينتن. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ مثل ما تقدّم عن الأعمش، وكذلك أخرج مثله أيضاً عن عكرمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿كيف ننشزها﴾ قال: نخرجها. وأخرج ابن جرير، عن زيد بن ثابت قال: نحياها.

وَلَا قَالَ إِزِيدُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْثَقُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَنُحْذِرُ أَرْبَعَةً مِنَ الْكُفْرِ فَمَرَرْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلْنَا عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿وَأَن﴾ ظرف منصوب بفعل محذوف أي: أنكر وقت قول إبراهيم، وإنما كان الأمر بالإنكار موجهاً إلى الوقت دون ما وقع فيه مع كونه المقصود لقصد المبالغة؛ لأن طلب وقت الشيء يستلزم طلبه بالأولى، وهكذا يقال في سائر المواضع الواردة في الكتاب العزيز بمثل هذا الظرف. وقوله: ﴿رب﴾ أثره على غيره لما فيه من الاستعطاف الموجب لقبول ما يرد بعده من الدعاء. وقوله: ﴿أرني﴾ قال الأخفش: لم يرد رؤية القلب، وإنما أراد رؤية العين، وكذا قال غيره، ولا يصح أن يراد الرؤية القلبية هنا؛ لأن مقصود إبراهيم أن يشاهد الإحياء لتحصل له الطمأنينة، والهزمة الداخلة على الفعل لقصد تعنيته إلى المفعول الثاني، وهو الجملة: أعني قوله: ﴿كيف تحيي الموتى﴾ وكيف: في محل نصب على التشبيه بالظرف، أو بالحال، والعامل فيها الفعل الذي بعدها. وقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ عطف على مقدر أي: ألم تعلم، ولم تؤمن بأنني قادر على الإحياء حتى تسألني إráته: ﴿قال بلى﴾ علمت، وأمنت بأنك قادر على ذلك، ولكن سألت ليطمئن قلبي باجتماع دليل العيان إلى دلائل الإيمان. وقد ذهب الجمهور إلى أن إبراهيم لم يكن شاكاً في إحياء الموتى قط، وإنما طلب المعينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت عنه، ولهذا قال النبي ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة». وحكى ابن جرير، عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك؛ لأنه شك في قدرة الله. واستدلوا بما صح عنه

صار كذلك ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [المؤمنون: 14]. قوله: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ قال الفراء: إنه أدخل الواو في قوله: ﴿ولنجعلك﴾ دلالة على أنها شرط لفعل بعدها؛ معناه: ولنجعلك آية للناس، ودلالة على البعث بعد الموت جعلنا ذلك. وإن شئت جعلت الواو مقحمة زائدة. قال الأعمش: موضع كونه آية هو أنه جاء شباباً على حاله يوم مات، فوجد الأبناء، والحفدة شيوخاً. قوله: وإنظر إلى العظام كيف ننشزها، قرأ الكوفيون، وابن عامر بالزاي، والباقيون بالراء. وروى أبان عن عاصم: «ننشزها» بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وضم الشين، والراء. وقد أخرج الحليم وصححه، عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿كيف ننشزها﴾ بالزاي، فمعنى القراءة بالزاي نرفعها، ومعنى النشز: وهو المرتفع من الأرض، أي: يرفع بعضها إلى بعض. وأما معنى القراءة بالراء المهمل، فواضحة من أنشر الله الموتى أي: أحياهم، وقوله: ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ أي: نستترها به كما نستتر الجسد باللباس، فاستعار اللباس لذلك، كما استعاره النابغة للإسلام، فقال:

الحمد لله إذ لم يتأني لجلي حتى اكتسيت من الإسلام سريلاً
قوله: ﴿فلما تبين له﴾ أي: ما تقدّم نكره من الآيات التي أراه الله سبحانه، وأمره بالنظر إليها، والتفكر فيها: ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ لا يستعصي عليه شيء من الأشياء. قال ابن جرير: المعنى في قوله: ﴿فلما تبين له﴾ أي: لما اتضح له عياناً ما كان مستنكراً في قدرة الله عنده قبل عيانه. ﴿قال أعلم﴾ وقال أبو علي الفارسي معناه: أعلم أن هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قال أعلم﴾ على لفظ الأمر خطباً لنفسه على طريق التجريد.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحكم وصححه عن علي في قوله: ﴿أو كالذي مر على قرية﴾ قال: خرج عزير نبي الله من مدينته، وهو شاب، فمر على قرية خربة، وهي خاوية على عروشها، فقال: ﴿أني يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ فأول ما خلق الله عيانه، فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى بعض، ثم كسيت لحماً، ثم نفخ فيه الروح، فقيل له: ﴿كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام﴾ فأتى مدينته. وقد ترك جأراً له إسكافاً شاباً، فجاء، وهو شيخ كبير. وقد ورد عن جماعة من السلف أن الذي أماته الله عزير، منهم ابن عباس عند ابن جرير، وابن عساكر، ومنهم عبد الله بن سلام عند الخطيب، وابن عساكر، ومنهم عكرمة، وقاتدة، وسليمان، وبريدة، والضحاك، والسدي عند ابن جرير، وورد عن جماعة آخرين أن الذي أماته الله هو نبي اسمه إرمياء، فمنهم عبد الله بن عبيد بن عمير، عند عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ومنهم: وهب بن منبه، عند عبد الرزاق، وابن جرير، وأبي الشيخ. وأخرج ابن إسحاق عنه أيضاً أنه الخضسر. وأخرج

وإنما هي ألف إيجاب، وتقرير، كما قال جرير:

الستم خير من ركب المطايا وأنشد العالمين بطون راح
والواو وار الحال، و«تؤمن»: معناه إيماناً مطلقاً نخل فيه
فضل إحياء الموتى، والطمأنينة: اعتدال، وسكون. وقال ابن
جرير: معنى: «ليطمئن قلبي» ليوقن. قوله: «فخذ أربعة
من الطير» الفاء جواب شرط محذوف أي: إن أردت ذلك
فخذ، والطير: اسم جمع لطائر كركب لراكب، أو جمع، أو
مصدر، وخص الطير بذلك، قيل: لأنه أقرب أنواع الحيوان
إلى الإنسان، وقيل: إن الطير همته الطيران في السماء،
والخليل كانت همته العلو، وقيل: غير ذلك من الأسباب
الموجبة لتخصيص الطير. وكل هذه لا تثمن، ولا تغني من
جوع، وليس إلا خواطر أقيام، وبوار أذهان لا ينبغي أن
تجعل وجوها لكلام الله، وعللاً لما يرد في كلامه، وهكذا
قيل: ما وجه تخصيص هذا العدد، فإن الطمأنينة تحصل
بإحياء واحد؟ فقيل: إن الخليل إنما سال واحداً على عدد
العنوبة، فأعطى أربعاً على قدر الربوبية، وقيل: إن الطيور
الأربعة إشارة إلى الأركان الأربعة التي منها تتركب أركان
الحيوان، ونحو ذلك من الهذيان. قوله: «فصبرهن إليك»
قرئ بضم الصاد، وكسرها أي: اضممهن إليك، وأملهن،
 واجمعهن، يقال: رجل أصور: إذا كان ماثلاً العنق، ويقال:
صار الشيء يصوره: أماله. قال الشاعر:

الله يعلم أنا في تلفتنا يوم الفراق إلى جيراننا صور
وقيل: معناه قطعهن، يقال: صار الشيء يصوره أي:
قطعه، ومنه قول توبة بن الحمير:

فأنت لي الأسباب حتى بلغتها بنهض وقد كان اجتماعي يصورها
أي: يقطعها، وعلى هذا يكون قوله: «إليك» متعلقاً بقوله:
«خذ». وقوله: «ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً»
فيه الأمر بالتجزئة؛ لأن جعل كل جزء على جبل تستلزم
تقديم التجزئة. قال الزجاج: المعنى، ثم اجعل على كل جبل
من كل واحد منهن جزءاً، والجزء النصيب. وقوله:
«ياتينك» في محل جزم على أنه جواب الأمر، ولكنه بني
لأجل نون الجمع المؤنث. وقوله: «سعيًا» المراد به:
الإسراع في الطيران، أو المشي.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن
عباس قال: إن إبراهيم مرَّ برجل ميت زعموا أنه حبشي على
ساحل البحر، فرأى نواب البحر تخرج، فتأكل منه، وسباع
الأرض تأتية، فتأكل منه، والطير يقع عليه، فيأكل منه، فقال
إبراهيم عند ذلك: ربِّ، هذه نواب البحر تأكل من هذا،
وسباع الأرض، والطير، ثم تميت هذه فتبلى، ثم تحييها،
فأرني كيف تحيي الموتى: «قال أولم تؤمن» يا إبراهيم
أنني أحيي الموتى؟ «قال بلى» يا ربِّ «ولكن ليطمئن
قلبي» يقول: لأرى من آياتك، وأعلم أنك قد أجبتني، فقال
الله: خذ أربعاً من الطير، واصنع ما صنع، والطير الذي أخذ:
وز، ورا، ونيك، وطاوس، واحد نصفين مختلفين: ثم أتى
أربعة أجبل، فجعل على كل جبل نصفين مختلفين، وهو

﴿في الصحيحين، وغيرهما من قوله: «نحن أحق بالشك
من إبراهيم» وبما روي عن ابن عباس أنه قال: «ما في
القرآن عندي أية أرجى منها». أخرجه عنه عبد الرزاق،
وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه،
ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له. قال ابن عطية: وهو
عندي مرود، يعني: قول هذه الطائفة، ثم قال: وأما قول
النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» فمعناه: أنه لو
كان شاكاً لكننا نحن أحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم أخرى
أن لا يشك. فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم. وأما
قول ابن عباس: هي أرجى أية، فمن حيث أن فيها الإدلال
على الله، وسؤال الإحياء في الدنيا، وليست مظنة ذلك.
ويجوز أن نقول هي أرجى أية لقوله: «أولم تؤمن» أي: أن
الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقير، وبحث، قال: فالشك
يبعد على من ثبت قنمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة
النبوة، والخلة؟ والأنبياء معصومون من الكبائر، ومن
الصغائر التي فيها رذيلة إجماعاً، وإذا تأملت سؤاله عليه
السلام، وسائر الالفاظ للأية لم تعط شكاً، وذلك أن
الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود
متقرر الوجود عند السائل، والمسؤول نحو قولك: كيف علم
زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا، ومتى قلت: كيف ثوبك؟
وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله. وقد تكون
كيف خبراً، عن شيء شأنه أن يستفهم، عنه بكيف نحو
قولك: كيف شئت فنك، ونحو قول البخاري: كيف كان بدء
الوحي؟ وهي في هذه الآية استفهام، عن هيئة الإحياء،
والإحياء متقرر، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود
شيء قد يعبرون، عن إنكاره بالاستفهام، عن حالة لذلك
الشيء يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك أن الشيء في
نفسه لا يصح، مثال ذلك أن يقول مدح: أنا أرفع هذا الجبل،
فيقول المكذب له: أرني كيف ترفعه. فهذه طريقة مجاز في
العبارة، ومعناها تسليم جدل، كأنه يقول: افرض أنك ترفعه.
فلما كان في عبارة الخليل هذا الاشتراك المجازي خلس الله
له ذلك، وحمله على أن بين له الحقيقة، فقال له: «أولم
تؤمن قال بلى» فأكمل الأمر، وتخلص من كل شيء، ثم
علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة. قال القرطبي: هذا ما
ذكره ابن عطية، وهو بالغ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات
الله عليهم مثل هذا الشك، فإنه كفر، والأنبياء متفقون على
الإيمان بالبعث. وقد أخبر الله سبحانه أن أنبياءه، وأوليائه
ليس للشيطان عليهم سبيل: فقال: «إن عبادي ليس لك
عليهم سلطان» [الإسراء: 65]. وقال اللعين: «إلا عبادك
منهم المخلصين» [الحجر: 40] وإذا لم يكن له عليهم
سلطنة، فكيف يشكهم، وإنما سال أن يشاهد كيفية جمع
أجزاء الموتى بعد تفريقها، واتصال الأعصاب، والجلود بعد
تمزيقها، فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين،
فقال: «أرني كيف» طلب مشاهدة الكيفية. قال الماوردي:
وليست الألف في قوله: «أولم تؤمن» ألف الاستفهام،

قوله: ﴿ثم لجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ ثم تنحى ورؤوسها تحت قدميه، فدعا باسم الله الأعظم، فرجع كل نصف إلى نصفه، وكل ريش إلى طائره، ثم أقبل تطير بغير رؤوس إلى قدميه تريد رؤوسها بأعناقها، فرفع قدميه، فوضع كل طائر منها عنقه في رأسه، فعانت كما كانت. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج أيضاً، عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج أنها كانت جيفة حمار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ يقول: أعلم أنك تجيبني إذا دعوتك، وتعطيني إذا سألتك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ قال: الغرنوق، والطاوس، والديك، والحمامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال الأربعة من الطير: الديك، والطاوس، والغراب، والحمام. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس: ﴿قصصهن﴾ قال: قطعهن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي بالنبطية: شققهن. وأخرج عنه أنه قال: ﴿قصصهن﴾ أوثقهن، وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: وضعهن على سبعة أجبل، وأخذ الرؤوس بيده، فجعل ينظر إلى القطرة تلقي القطرة، والريشة تلقي الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رؤوس، فجئن إلى رؤوسهن، فخلن فيها.

مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتْتَ سَعَةً سَابُلٍ فِي كُلِّ سَبُلَةٍ مِائَةٌ حَبًّا وَاللَّهُ يَعْلَمُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُبْغُونَ مَا آتَوْهُم مِّنْهُ وَلَا أَدَّى لَهُم أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٦﴾ قَوْلَ مَرْوُوفٍ وَمَعْقِرَةُ حَبْرٍ مِّنْ صَدَقَةٍ يَّبْعَثُهَا أَدَّى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَبْغُلُوا صَدَقَتَكُمْ بَالَيْنِ وَالْأَدَّى كَالَّذِي يُبْغِي مَالَهُ رَبُّكَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى حَتْوٍ مِّنْهُ فَكَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ أَنْفُسَهُمْ مَرَضَاتٍ اللَّهُ وَتَلْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ حَبَّةٍ يَرْبُوَ أَصَابُهَا وَابِلٌ فَتَأْتَتْ أَكْطَاهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنَّ لَمْ يُصْبَأْ وَابِلٌ فَقُلْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٩﴾

قوله: ﴿كمثل حبة﴾ لا يصح جعل هذا خبراً عن قوله: ﴿مثل الذين ينفقون﴾ لاختلافهما، فلا بد من تقدير محنوف إما في الأول أي: مثل نفقة الذين ينفقون، أو في الثاني أي: كمثل زارع حبة، والمراد بالسبع السنابل: هي التي تخرج في ساق واحد يتشعب منه سبع شعب في كل شعبة سنبل، والحبة اسم لكل ما يزرعه ابن آدم، ومنه قول المتلمس:

قوله: ﴿في السنبل منه هذا العدد. وقال القرطبي: إن سنبل الدخن يجيء في السنبل منه أكثر من هذا العدد بضعفين، وأكثر على ما شاهدنا. قال ابن عطية: وقد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبة، وأما في سائر الحبوب، فأكثر، ولكن المثال، وقع بهذا القدر. وقال الطبري: إن قوله: ﴿في كل سنبل مائة حبة﴾ معناه إن وجد ذلك، وإلا فعلى أن يفرضه. قوله: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ يحتمل أن يكون المراد: يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، أو يضاعف هذا العدد، فيزيد عليه أضاعفه لمن يشاء، وهذا هو الراجح لما سيأتي. وقد ورد القرآن بأن الحسنه بعشر أمثالها، واقتضت هذه الآية بأن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمئة ضعف، فيبني العام على الخاص، وهذا بناء على أن سبيل الله هو الجهاد فقط، وأما إذا كان المراد به: وجوه الخير، فيخص هذا التضعيف إلى سبعمئة بثواب النفقات، وتكون العشرة الأمثال فيما عدا ذلك. قوله: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان كيفية الإنفاق الذي تقدم، أي: هو إنفاق الذين ينفقون، ثم لا يتبعون ما اتفقوا من، ولا أذى. والمن هو: نكر النعمة على معنى التعديد لها، والتقريع بها، وقيل: المن: التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطي فيؤذيه، والمن من الكبار، كما ثبت في صحيح مسلم، وغيره أنه أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب عظيم. والأذى: السب، والتطاول، والتشكي. قال في الكشف: ومعنى: «ثم» إظهار التفاوت بين الإنفاق، وترك المن، والأذى، وإن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من النحول فيه بقوله ﴿ثم استقاموا﴾ [قصت: 30]. انتهى. وقدم المن على الأذى لكثرة وقوعه، ووسط كلمة ﴿ولا﴾ للدلالة على شمول النفي. وقوله: ﴿عند ربهم﴾ فيه تأكيد، وتشريف. وقوله: ﴿ولا خوف عليهم﴾ ظاهره نفي الخوف عنهم في الدارين لما تفيدته النكرة الواقعة في سياق النفي من الشمول، وكذلك ﴿ولا هم يحزنون﴾ يفيد دوام انتفاء الحزن عنهم. قوله: ﴿قول معروف ومغفرة﴾ قيل: الخبر محنوف أي: أولى، وأمثلة، ذكره النحاس. قال: ويجوز أن يكون خبراً، عن مبتدأ محنوف أي: الذي أمرتم به قول معروف. وقوله: ﴿ومغفرة﴾ مبتدأ أيضاً، وخبره قوله: ﴿خير من صدقة﴾ وقيل: إن قوله: ﴿خير﴾ خبر عن قوله: ﴿قول معروف﴾ وعن قوله: ﴿ومغفرة﴾. وجاز الابتداء بالنكرتين: لأن الأولى تخصصت بالوصف، والثانية بالعطف، والمعنى: أن القول المعروف من المسؤول للسائل، وهو التانيس، والترجية بما عند الله، والرد الجميل خير من الصدقة التي يتبعها أذى. وقد ثبت في صحيح مسلم عنه **عنه**: «الكلمة الطيبة صدقة»، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وما أحسن ما قاله ابن دريد:

لا تدخلنك ضجرة من سائل فلخير دهرك أن ترى مسؤولاً لا تجبهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك أن ترى مأمولاً والمراد بالمغفرة: الستر للخلعة، وسوء حالة المحتاج،

قوله: ﴿ثم لجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ ثم تنحى ورؤوسها تحت قدميه، فدعا باسم الله الأعظم، فرجع كل نصف إلى نصفه، وكل ريش إلى طائره، ثم أقبل تطير بغير رؤوس إلى قدميه تريد رؤوسها بأعناقها، فرفع قدميه، فوضع كل طائر منها عنقه في رأسه، فعانت كما كانت. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج أيضاً، عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج أنها كانت جيفة حمار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ يقول: أعلم أنك تجيبني إذا دعوتك، وتعطيني إذا سألتك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ قال: الغرنوق، والطاوس، والديك، والحمامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال الأربعة من الطير: الديك، والطاوس، والغراب، والحمام. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس: ﴿قصصهن﴾ قال: قطعهن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي بالنبطية: شققهن. وأخرج عنه أنه قال: ﴿قصصهن﴾ أوثقهن، وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: وضعهن على سبعة أجبل، وأخذ الرؤوس بيده، فجعل ينظر إلى القطرة تلقي القطرة، والريشة تلقي الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رؤوس، فجئن إلى رؤوسهن، فخلن فيها.

قوله: ﴿كمثل حبة﴾ لا يصح جعل هذا خبراً عن قوله: ﴿مثل الذين ينفقون﴾ لاختلافهما، فلا بد من تقدير محنوف إما في الأول أي: مثل نفقة الذين ينفقون، أو في الثاني أي: كمثل زارع حبة، والمراد بالسبع السنابل: هي التي تخرج في ساق واحد يتشعب منه سبع شعب في كل شعبة سنبل، والحبة اسم لكل ما يزرعه ابن آدم، ومنه قول المتلمس:

أليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس قيل: المراد بالسنابل هنا سنابل الدخن، فهو الذي يكون

والعفو عن السائل إذا صدر منه من الإلحاح ما يكره صدر المسؤول، وقيل المراد: أن العفو من جهة السائل؛ لأنه إذا ردة رداً جميلاً عنده، وقيل: المراد: فعل يؤدي إلى المغفرة خير من صدقة أي: غفران الله خير من صدقتكم. وهذه الجملة مستأنفة مقررة لترك اتباع المَن، والأذى للصنعة. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ الإبطال للصنعات: إذهاب أثرها، وإفساد منفعتها أي: لا تبطلوها بالمن، والأذى، أو بأحدهما. قوله: ﴿كَالَّذِي﴾ أي: إبطالاً كإبطال الذي على أنه نعت لمصدر محذوف، ويجوز أن يكون حالاً أي: لا تبطلوا مشايهين للذي ينفق ماله رياء الناس، وانتصاب رياء على أنه علة لقوله: ﴿يَنْفِقُ﴾ أي: لأجل الرياء، أو حال أي ينفق مرائياً لا يقصد بذلك وجه الله، وثواب الآخرة، بل يفعل ذلك رياء للناس استجلاباً لثناهم عليه، ومجهم له، قيل: والمراد به: المنافق بليل قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. قوله: ﴿فَعَمَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ الصفوان: الحجر، الكبير، الأملس. وقال الأخفش: صفوان جمع صفوانة. وقال الكسائي: صفوان واحد، وجمعه صفى، وأصفى، وأنكره المبرد. وقال النحاس: يجوز أن يكون جمعاً، ويجوز أن يكون واحداً، وهو أولى لقوله: ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ فَاصْبَاهُ﴾ والوابل المطر الشديد، مثل الله سبحانه هذا المنفق بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضاً منبئة طيبة، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب، وبقي صلباً أي: أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه، فكل ذلك هذا المرائي، فإن نفقته لا تنفعه، كما لا ينفع المطر الواقع على الصفوان الذي عليه تراب. قوله: ﴿لَا يَقْدُرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا ينتفعون بما فعلوه رياء، ولا يجنون له ثواباً، والجملة مستأنفة، كأنه قيل: ماذا يكون حالهم حينئذ؟ فقيل: لا يقدرُونَ الخ، والضميران للموصول أي: كالذي باعتبار المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: 69] أي: الجنس، أو الجمع، أو الفريق. قوله: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل: إن قوله: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ مفعول له، وتثبیتاً معطوف عليه، وهو أيضاً مفعول له. أي: الإنفاق لأجل الابتغاء، والتثبیت كذا قال مكى في المشكل. قال ابن عطية: وهو مردود لا يصح في تثبیتاً أنه مفعول من أجله؛ لأن الإنفاق ليس من أجل التثبیت. قال: وابتغاء نصب على المصدر في موضع الحال، وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله، لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو تثبیتاً عليه، وابتغاء معناه طلب، ومرضات مصدر رضي يرضى، وتثبیتاً معناه: أنهم يتثبیتون من أنفسهم ببذل أموالهم على الإيمان، وسائر العبادات رياضة لها، وتدريباً، وتمريناً، أو يكون التثبیت بمعنى التصديق أي: تصديقاً للإسلام ناشئاً من جهة أنفسهم. وقد اختلف السلف في معنى هذا الحرف، فقال الحسن، ومجاهد: معناه أنهم يتثبیتون أن يضعوا

صدقاتهم، وقيل: معناه: تصديقاً، ويقيناً، روي ذلك عن ابن عباس، وقيل: معناه احتساباً من أنفسهم، قاله قتادة، وقيل: معناه: أن أنفسهم لها بصائر، فهي تثبیتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبیتاً. قاله الشعبي، والسدي، وابن زيد، وأبو صالح، وهذا أرجح مما قبله. يقال: ثبت فلاناً في هذا الأمر أثبتته تثبیتاً أي: صححت عزمه قوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ الجنة: البستان، وهي أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطيها، مأخوذة من لفظ الجن، والجنين لاستنارها. والربوة: المكان المرتفع ارتفاعاً يسيراً، وهي مثلثة الرأس، وبها قرى، وإنما خص الربوة، لأن نباتها يكون أحسن من غيره، مع كونه لا يصطلمه البرد في الغالب للمطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له، قال الطبري: وهي رياض الحزن التي تستكثر العرب من نكرها، واعترضه ابن عطية، فقال: إن رياض الحزن منسوبة إلى نجد؛ لأنها خير من رياض تهامة، ونبات نجد أعطر، ونسيمه أبرد وأرق، ونجد يقال لها: حزن، وليست هذه المذكورة هنا من ذلك، ولفظ الربوة مأخوذ من ربا يربو إذا زاد. وقال الخليل الربوة: أرض مرتفعة طيبة. والوابل: المطر الشديد، كما تقدم، يقال: وبلت السماء تبل، والأرض موبلة. قال الأخفش: ومنه قوله تعالى: ﴿أَخَذْنَا وَبِيلًا﴾ [الزمل: 16] أي: شديداً، وضرب وبيل، وعذاب وبيل ﴿فَأَتَتْ أَكْلَهَا﴾ بضم الهمزة: الثمر الذي يؤكل كقوله تعالى: ﴿تَوْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: 25] وإضافته إلى الجنة إضافة اختصاص، كسرج الفرس، وباب الدار قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمر، وأكلها بضم الهمزة، وسكون الكاف تخفيفاً. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمره، والكسائي بتحريك الكاف بالضم. وقوله: ﴿ضَعْفَيْنِ﴾ أي: مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل. فالمراد بالضعف: المثل، وقيل: أربعة أمثال، ونصبه على الحال من أكلها أي: مضاعفاً. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَصْبِهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ أي: فإن الطل يكفيها: وهو المطر الضعيف المستنق القطر. قال المبرد، وغيره: وتقديره، فطل يكفيها، وقال الزجاج: تقديره، فالذي يصيبها طل، والمراد: أن الطل ينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين. وقال قوم: الطل: الندى. وفي الصحاح: الطل: أضعف المطر، والجمع أطلال. قال الماوردي: وزرع الطل أضعف من زرع المطر. والمعنى: أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضع بحال، وإن كانت متفاوتة، ويجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة، وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير، والقليل، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها، فكذلك نفقتهم جلت، أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية زائدة في أجورهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. قرأ الزهري بالتاء التحتية. وقرأ الجمهور بالفوقية، وفي هذا ترغيب لهم في الإخلاص مع ترهيب من الرياء، ونحوه، فهو وعد، ووعيد.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿كَمَثَلِ

الخير، ولا حاجة إلى التلوين بذكرها، فهي معروفة في مواطنها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عمرو بن دينار قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «ما من صدقة أحب إلى الله من قول الحق، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿قُولُوا مَعْرُوفًا وَمَغْفِرَةً خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى﴾». وأخرج ابن المنذر، عن الضحك في قوله: ﴿قُولُوا مَعْرُوفًا﴾ قال: رد جميل، تقول: يرحمك الله، يرزقك الله، ولا تنهره، ولا تغلظ له القول. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «لا يدخل الجنة منان، وذلك في كتاب الله: ﴿لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأذى﴾». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿صِفْوَانٌ﴾ يقول: الحجر ﴿فتركه صلداً﴾ يقول: ليس عليه شيء. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: الوابل المطر. وأخرجنا عن قتادة قال: الوابل المطر الشديد، قال: وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يوم القيامة ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ يومئذ، كما ترك هذا المطر هذا الحجر ليس عليه شيء أنقى مما كان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿فتركه صلداً﴾ قال: يابساً جاثياً لا ينبت شيئاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع في قوله: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِبُقْعَةٍ مَرْضَاتٍ﴾ قال: هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الشعبي في قوله: ﴿وَتُثْبِتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ قال: تصديقاً، وبقيناً. وأخرج ابن جرير، عن أبي صالح نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير قال: يتثبتون أين يضعون أموالهم. وأخرجنا عن الحسن قال: كان الرجل إذا هم بصدقة تثبت، فإن كان لله أمضاه، وإن خالطه شيء من الرياء أمسك. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿تُثْبِتًا﴾ قال: النية، وأخرج الحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: الربوة: النشز من الأرض. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: الربوة: الأرض المستوية المرتفعة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: هي المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار. وأخرج ابن جرير عنه في قوله تعالى: ﴿فَطُلْ﴾ قال: الندي. أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الضحك قال: الطل الرذاذ من المطر: يعني: اللين منه. وأخرجنا عن قتادة قال: هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن يقول: ليس لخير خلف كما ليس لخير هذه الجنة خلف على أي حال كان، إن أصابها وابل، وإن أصابها ظل.

أَيُّوْهُ أَمَدُكُمْ أَنْ تَكُوْنَتْ لَهُمْ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجْوًى وَأَعْنَافٍ تَبْرِي مِنْ نَّحْوِهَا
الَّذِينَ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَمْ ذَرِيَّةٌ مُّثَمَّنَةً
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاقْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾

الود: الحب للشيء مع تمنية، والهمزة الداخلة على الفعل، لإنكار الوقوع، والجنة تطلق على الشجر الملتف، وعلى الأرض التي فيها الشجر. والأول أولى هنا لقوله: ﴿تَجْرِي

حبة أنبتت سبع سنابل﴾ عن الربيع قال: «كان من بايع النبي ﷺ على الهجرة، ورابط معه بالمدينة، ولم يذهب وجهاً، إلا بإذنه كانت له الحسنة بسبعمئة ضعف، ومن بايع على الإسلام كانت الحسنة له عشر أمثالها». وأخرج مسلم، وأحمد، والنسائي، والحاكم، والبيهقي، عن ابن مسعود: أن رجلاً تصدق بناق مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمئة ناقة كلها مخطومة». وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن خزيم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب له سبعمئة ضعف». وأخرجه البخاري في تاريخه من حديث أنس. وأخرجه أحمد من حديث أبي عبيدة وزاد: «ومن أنفق على نفسه، وأهله، أو عاد مريضاً، فالحسنة بعشر أمثالها». وأخرج نحوه النسائي في الصوم. وأخرج ابن ماجه، وابن أبي حاتم، من حديث عمران بن حصين، وعلي، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، وأبي أمامة، وعبد الله بن عمرو، وجابر، كلهم، يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «من أرسل بنفقة في سبيل الله، وأقام في بيته، فله بكل درهم يوم القيامة سبعمئة درهم، ومن غزا بنفسه في سبيل الله، وإنفق في وجهه ذلك، فله بكل درهم يوم القيامة سبعمئة ألف درهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يضاعف لمن يشاء﴾». وأخرجه أيضاً ابن ماجه، من حديث الحسن بن علي. وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله ﷻ إلا الصوم، فإنه لي، وأنا أجزي به، وأخرجه أيضاً مسلم. وأخرج الطبراني من حديث معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «طوبى لمن أكثر، في الجهاد في سبيل الله من ذكر الله، فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة، كل حسنة منها عشرة أضعاف» وقد تقدّم ذكر طرف من أحاديث التضعيف للحسنات عند قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ [البقرة: 245]. وقد وردت الأحاديث الصحيحة في أجر من جهز غازياً، وأخرج أبو داود، والحاكم وصححه، عن سهل بن معاذ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلاة، والصوم، والذكر تضاعف على النفقة في سبيل الله سبعمئة ضعف». وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في سننه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمئة ضعف». وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال في تفسير قوله تعالى: ﴿هُمْ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْأً وَلَا أذى﴾ أن أقواماً يبعثون الرجل منهم في سبيل الله، أو ينفق على الرجل، أو يعطيه النفقة، ثم يمن عليه ويؤذيه: يعني: أن هذا سبب النزول. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وقد وردت الأحاديث الصحيحة في النهي، عن المن، والأذى، وفي فضل الإنفاق في سبيل الله، وعلى الأقارب، وفي وجوه

يَكْفُرُ إِلَّا أُولَ الْأُكْبَرِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ أَوْ أَنْزَلْتُمْ مِنْ
كَلِمَةٍ إِلَّا اللَّهُ يَعْلَمُ ﴿١٢٧﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٢٨﴾ إِنْ تَبَدُّوا
الْعِدَّةَ يَنْزِعْنَا مِنْكُمْ وَإِنْ تُتُوبُوا وَتُؤْتُوا الْعُقُوتَ فَبِهِمْ حَقٌّ لَكُمْ
وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَبَائِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢٩﴾

قوله: ﴿ومن طيبات ما كسبتم﴾ أي: من جيد ما كسبتم، ومختاره، كذا قال الجمهور. وقال جماعة: إن معنى الطيبات هنا: الحلال، ولا مانع من اعتبار الأمرين جميعاً؛ لأن جيد الكسب، ومختاره إنما يطلق على الحلال عند أهل الشرع، ولأن أطلقه أهل اللغة على ما هو جيد في نفسه حلالاً كان، أو حراماً، فالحقيقة الشرعية مقدّمة على اللغوية. وقوله: ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ أي: ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض، وحذف لدلالة ما قبله عليه، وهي: النباتات، والمعادن، والركاز. قوله: ﴿ولا تميموا الخبيث﴾ أي: لا تقصصوا المال الرديء، وقراه الجمهور بفتح حرف المضارعة، وتخفيف الباء، وقرا ابن كثير بتشديدها. وقرا ابن مسعود: «ولا تامموا» وهي لغة. وقرا أبو مسلم بن خباب بضم الفوقية، وكسر الميم. وحكى أبو عمرو: أن ابن مسعود قرأ: «تتمموا» بهمزة بعد المضمومة، وفي الآية الأمر بإنفاق الطيب، والنهي عن إنفاق الخبيث. وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن الآية في الصدقة المفروضة، وذُهب آخرون إلى أنها تعم صفة الفرض، والتطوع، وهو: الظاهر، وسيأتي من الأدلة ما يؤيد هذا، وتقدير الظرف في قوله: ﴿ومنه تنفقون﴾ يفيد التخصيص أي: لا تخصوا الخبيث بالإنفاق، والجملة في محل نصب على الحال أي: لا تقصصوا المال الخبيث مخصصين الإنفاق به قاصرين له عليه. قوله: ﴿ولستم بأخشيئ﴾ أي: والحال أنكم لا تأخذونه في معاملاتكم في وقت من الأوقات هكذا بين معناه الجمهور، وقيل: معناه: ولستم بأخشيئ لو جعلتموه في السوق يباع. وقوله: ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾ هو من أغضض الرجل في أمر كذا: إذا تساهل ورضي ببعض حقه، وتجاوز، وغض بصره عنه، ومنه قول الشاعر:

إلى كم وكم أشياء منك تربييني أغضض عنها لست عنها بذى عمي

وقرا الزهري بفتح التاء، وكسر الميم مخففاً، وروي عنه أنه قرأ بضم التاء، وفتح الغين، وكسر الميم مشددة، وكذلك قرأ قتادة، والمعنى على القراءة الأولى من هاتين القراءتين: إلا أن تهضموا سوماً من البائع منكم، وعلى الثانية: إلا أن تأخذوا بنقصان. قال ابن عطية: وقراءة الجمهور تخرج على التجاوز، أو على تغميض العين، لأن أغضض بمنزلة غمض، وعلى أنها بمعنى حتى أي: حتى تاتوا غامضاً من التأويل، والخطر في أخذ ذلك. قوله: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ قد تقدم معنى الشيطان، واشتقاقه. ويعنكم معناه يخوكم الفقر أي: بالفقر لئلا تنفقوا، فهذه الآية متصلة بما قبلها. وقرئ: «الفقر» بضم الفاء، وهي لغة. قال الجوهري: والفقر لغة في الفقر، مثل الضعف، والضعف. والفحشاء

من تحتها الأنهار﴾ بإرجاع الضمير إلى الشجر من نون حاجة إلى مضاف محذوف، وأما على الوجه الثاني، فلا بد من تقديره، أي: من تحت أشجارها، وهكذا قوله: ﴿فاحتترقت﴾ لا يحتاج إلى تقدير مضاف على الوجه الأول، وأما على الثاني، فيحتاج إلى تقديره، أي: فاحتترقت أشجارها، وخص النخيل، والأعناب بالذكر مع قوله: ﴿وله فيها من كل الثمرات﴾ لكونهما إكرم الشجر، وهذه الجملة صفات للجنة، والواو في قوله: ﴿وأصابه الكبير﴾ قيل: عاطفة على قوله: ﴿تكون﴾ ماض على مستقبل، وقيل: على قوله: ﴿يؤت﴾ وقيل: إنه محمول على المعنى إذ تكون في معنى كانت، وقيل: إنها واو الحال أي: وقد أصابه الكبير، وهذا أرجح. وكبر السن هو: مظنة شدة الحاجة لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطي الأسباب. وقوله: ﴿وله ذرية ضعفاء﴾ حال من الضمير في أصابه أي: والحال أن له ذرية ضعفاء، فإن من جمع بين كبر السن، وضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة في غاية الشدة. والإعصار: الريح الشديدة التي تهب من الأرض إلى السماء كالعمود، وهي التي يقال لها: الزوبعة، قاله الزجاج. قال الجوهري: الزوبعة رئيس من رؤساء الجن، ومنه سمي الإعصار زوبعة، ويقال أم زوبعة. وهي ريح يثير الغبار، ويرتفع إلى السماء، كأنه عمود، وقيل: هي ريح تثير سحباً ذات رعد، وبرق. وقوله: ﴿فاحتترقت﴾ عطف على قوله: ﴿فأصابها﴾ وهذه الآية تمثيل من يعمل خيراً، ويضم إليه ما يحيطه، فيجده يوم القيامة عند شدة حاجته إليه لا يسمن، ولا يغني من جوع بحال من له هذه الجنة الموصوفة، وهو متصف بتلك الصفة.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: قال عمر يوماً لأصحاب النبي ﷺ، فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿إيؤد أحدكم أن تكون له جنة﴾؟ قالوا: الله أعلم، قال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل، ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل عني يعمل لطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل في المعاصي حتى أغرق عمله. وأخرج ابن جرير عن عمر قال: هذا مثل ضرب لإنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿إعصار فيه نار﴾ قال: ريح فيها سموم شديدة.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ كَسْبَتِهِ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمُّوا الْحَبِيبَ وَتَهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَائِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُقَرُّوا وَفِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَوِيٌّ حَكِيمٌ ﴿١٣٠﴾ الشَّيْطَانُ يَبْذُوكُمُ الْفَقْرَ رَبَّائِكُمْ بِاللَّعْنَةِ وَاللَّهُ يَبْذُوكُم مَقُورَةً إِنَّهُ وَكَفَلٌ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣١﴾ يُوْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا

أشياء، فهو بتأويل المذكور أي: فإن الله يعلم المذكور، وبه جزم ابن عطية، ووجهه القرطبي، ونكر معناه كثير من النحاة في مؤلفاتهم. قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: ما الظالمين أنفسهم بما وقعوا فيه من الإثم لمخالفة ما أمر الله به من الإنفاق في وجوه الخير من أنصار ينصرونهم يمنعونهم من عقاب الله بما ظلموا به أنفسهم، والأولى الحمل على العموم من غير تخصيص لما يفيد السياق أي: ما الظالمين بأي مظلمة كانت من أنصار. قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لِلصَّدَقَاتِ فَنَعْمَا هِيَ﴾ قرئ يفتح النون، وكسر العين، وبكسرهما، وبكسر النون، وسكون العين، وبكسر النون، وإخفاء حركة العين. وقد حكى النحويون في: «نعم» أربع لغات، وهي: هذه التي قرئ بها، وفي هذا نوع تفصيل لما أجمل في الشرطية المتقدمة، أي: إن تظهروا الصدقات، فنعم شيئاً إظهارها، وإن تخفوها، وتصيبوا بها مصارفها من الفقراء، فالإخفاء خير لكم. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صفة التطوع لا في صفة الفرض، فلا فضيلة للإخفاء فيها بل قد قيل: إن الإظهار فيها أفضل، وقالت طائفة: إن الإخفاء أفضل في الفرض، والتطوع. قوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، وقتادة، وابن إسحاق نكفر بالنون، والرفع. وقرأ ابن عامر، وعاصم في رواية حفص بالياء، والرفع. وقرأ الأعمش، ونافع، وحمرزة، والكسائي، بالنون، والجزم، وقرأ ابن عباس بالتاء الفوقية، وفتح الفاء، والجزم. وقرأ الحسين بن علي الجعفي بالنون، ونصب الراء. فمن قرأ بالرفع، فهو معطوف على محل الجملة الواقعة جواباً بعد الفاء، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف. ومن قرأ بالجزم، فهو معطوف على الفاء، وما بعدها. ومن قرأ بالنصب فعلى تقدير أن. قال سيبويه: والرفع هاهنا الوجه الجيد، وأجاز الجزم بتأويل، وإن تخفوها يكن الإخفاء خيراً لكم، ويكفر، ويمثل قول سيبويه قال الخليل. ومن في قوله: ﴿مَنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ للتبعية، أي: شيئاً من سيئاتكم. وحكى الطبري عن فرقة أنها زائدة، وذلك على رأي الأخفش. قال ابن عطية: وذلك منهم خطأ.

وقد أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ قال: من الذهب، والفضة ﴿وَمَا لَخَرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني من الحب، والتمر، وكل شيء عليه زكاة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن مجاهد في قوله: ﴿أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ قال: من التجارة: ﴿وَمَا لَخَرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ قال: من الثمار. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن البراء بن عازب في قوله: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تَنْفَقُونَ﴾ قال: نزلت فينا معشر

الخصلة الفحشاء، وهي المعاصي، والإنفاق فيها، والبخل عن الإنفاق في الطاعات. قال في الكشاف: والفاحش عند العرب البخل. انتهى. ومنه قول طرفة بن العبد:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد ولكن العرب، وإن أطلقت على البخل، فذلك لا يتنافى إطلاقهم له على غيره من المعاصي، وقد وقع كثيراً في كلامهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَقَرَّهُ مِنْهُ وَفَضْلَهُ﴾ الوعد في كلام العرب: إذا أطلق، فهو في الخير، وإذا قيد، فقد يقيد تارة بالخير، وتارة بالشر. ومنه قوله تعالى: ﴿النَّارُ وَعِدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: 72] ومنه أيضاً ما في هذه الآية من تقييد، وعد الشيطان بالفقر، وتقييد وعد الله سبحانه بالمغفرة، والفضل، والمغفرة: الستر على عباده في الدنيا، والآخرة لذنوبهم، وكفارتها، والفضل أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا، فيوسع لهم في أرزاقهم، وينعم عليهم في الآخرة بما هو أفضل، وأكثر، وأجل، وأجمل. قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ هي: العلم، وقيل: الفهم، وقيل: الإصابة في القول، ولا مانع من الحمل على الجميع شمولاً، أو بدلاً، وقيل: إنها النبوة، وقيل: العقل، وقيل: الخشية، وقيل: الورع، وأصل الحكمة ما يمنع من السفة، وهو كل قبيح. والمعنى: أن من أعطاه الله الحكمة، فقد أعطاه خيراً كثيراً. أي: عظيماً قدره، جليلاً خطره. وقرأ الزهري، ويعقوب: «ومن يؤتى الحكمة، على البناء للفاعل، وقرأ الجمهور على البناء للمفعول، والألواب: العقول، واحداً لب، وقد تقدم الكلام فيه. قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ ما شرطية، ويجوز أن تكون موصولة، والعائد محذوف أي: الذي أنفقتموه، وهذا بيان لحكم عام يشمل كل صدقة مقبولة، وغير مقبولة، وكل نذر مقبول، أو غير مقبول. وقوله: ﴿فَإِنْ اللَّهُ يَعْلَمُهُ﴾ فيه معنى الوعد لمن أنفق ونذر على الوجه المقبول، والوعيد لمن جاء بعكس ذلك. ووحد الضمير مع كون مرجعه شيئين، هما النفقة، والنذر: لأن التقدير: وما أنفقتم من نفقة، فإن الله يعلمها، أو نذرت من نذر، فإن الله يعلمه، ثم حذف أحدهما استغناء بالآخر، قاله النحاس، وقيل: إن ما كان العطف فيه بكلمة: «أو» كما في قولك: زيد، أو عمرو، فإنه يقال: أكرمته، ولا يقال: أكرمتهما، والأولى أن يقال إن العطف بأو يجوز فيه الأمران توحيد الضمير، كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً أَنْفَقُوا﴾ [البهاق: الجمعة: 11]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً﴾ [النساء: 112]، وتنبيهه كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: 135] ومن الأوّل في العطف بالواو قول امرئ القيس:

فتوضح فالقمره لم يعب رسمها لما نسجت من جنوب وشمال ومنه قول الشاعر:

نحن بما عصبنا واثت بما عنك راض والرائي مختلف ومنه «والذين يكتزون الذهب، والفضة، ولا ينفقونها» [التوبة: 34] وقيل: إنه إذا وحد الضمير بعد نكر شيئين، أو

قال: هي الإصابة في القول. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: هي الخشية لله. وأخرج أيضاً عن مطر الوراق مثله. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ قال: يحصيه. وقد ثبت عن النبي ﷺ في نذر الطاعة، والمعصية في الصحيح، وغيره ما هو معروف، كقوله ﷺ: «لأنذر في معصية الله» وقوله: «من نذر أن يطيع الله، فليطعه، ومن نذر أن يعصيه، فلا يعصه» وقوله: «لأنذر ما ابتغى به وجه الله» وثبت عنه في كفارة النذر ما هو معروف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَعَمَّاهُ﴾ الآية، قال: فجعل السر في التطوع يفضل علانيتهما سبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتهما أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً. وكذلك جميع الفرائض، والنوافل في الأشياء كلها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ﴾ الآية، قال: كان هذا يعمل قبل أن تنزل براءة، فلما نزلت براءة بفرائض الصدقات، وتفصيلها انتهت الصدقات إليها. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ﴾ الآية، قال: هذا منسوخ. وقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ للسنائل والمحروم [المعارج: 24] قال: منسوخ، نسخ كل صدقة في القرآن الآية التي في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: 60] وقد ورد في فضل صدقة السر أحاديث صحيحة مرفوعة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَبْذُرَ مَالَكَ يَهِدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُهْدِي اللَّهُ فَضْلَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَبْذُرَ مَالَكَ يَهِدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُهْدِي اللَّهُ فَضْلَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَبْذُرَ مَالَكَ يَهِدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُهْدِي اللَّهُ فَضْلَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَبْذُرَ مَالَكَ يَهِدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُهْدِي اللَّهُ فَضْلَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَبْذُرَ مَالَكَ يَهِدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُهْدِي اللَّهُ فَضْلَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَبْذُرَ مَالَكَ يَهِدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُهْدِي اللَّهُ فَضْلَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَبْذُرَ مَالَكَ يَهِدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُهْدِي اللَّهُ فَضْلَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَبْذُرَ مَالَكَ يَهِدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُهْدِي اللَّهُ فَضْلَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَبْذُرَ مَالَكَ يَهِدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُهْدِي اللَّهُ فَضْلَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَبْذُرَ مَالَكَ يَهِدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُهْدِي اللَّهُ فَضْلَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أي: ليس بواجب عليك أن تجعلهم مهتدين قائلين لما أمروا به ونهوا عنه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هداية توصله إلى المطلوب، وهذه الجملة معترضة، وفيها الالتفات، وسيأتي بيان السبب الذي نزلت لأجله، والمراد بقوله: ﴿مَنْ خَيْرٌ﴾ كل ما يصلى عليه اسم الخير كائناً ما كان، وهو متعلق بمحذوف، أي: أي شيء تنفقون كائناً من خير، ثم بين أن النفقة المعتد بها المقبولة إنما هي ما كان ابتغاء وجه الله سبحانه، أي: لا ابتغاء وجه الله. وقوله: ﴿يُؤْتِي السَّخَرَاءَ حُجْرَاتٍ فِي السُّبُحِ﴾ أي: أجره، وثوابه على الوجه الذي تقدم ذكره من التضعيف. قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أو بمحذوف أي: اجعلوا ذلك للفقراء، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: إنفاقكم للفقراء الذين

الانصار، كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته، وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين، فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه، فيسقط البسر، والتمر، فيكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص، والحشف، وبالقنو قد انكسر، فيعلقه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض، وحياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحنا بصالح ما عنده. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة قال: نكر لنا أن الرجل كان يكون له الحائطان، فينظر إلى أرضهما تماًراً، فيتصق به، ويخلط به الحشف، فنزلت الآية، فعاب الله ذلك عليهم، ونهاهم عنه. وأخرج عبد بن حميد، عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما أمر رسول الله ﷺ بصدقة الفطر، فجاء رجل بتمر رديء، فأمر النبي ﷺ الذي يخرص النخل أن لا يجيز. فأنزل الله تعالى الآية هذه. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي في سننه عن سهل بن حنيف قال: أمر رسول الله ﷺ بالصدقة، فجاء رجل بكباش من هذا السخل: يعني: الشيص فوضعه، فخرج رسول الله ﷺ، فقال: من جاء بهذا؟ وكان كل من جاء بشيء نسب إليه، فنزلت: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ الآية. ونهى رسول الله ﷺ عن لونين من التمر أن يوجد في الصدقة، الجعور ولون الحبيق. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يشترطون الطعام الرخيص، ويتصقون، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن عبيدة السلماني قال: سألت علي بن أبي طالب عن قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا﴾ الآية، فقال: نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى التمر، فيصرمه، فيعزل الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال: المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، محكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه وأمثاله. وأخرج ابن مريويه عنه: أنها القرآن يعني: تفسيره. وأخرج ابن المنذر عنه أنها النبوة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: إنها الفقه في القرآن. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ قال قراءة القرآن، والفكرة فيه. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية قال: هي الكتاب، والفهم به. وأخرج أيضاً عن النخعي نحوه، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: هي الكتاب يؤتي إصابته من يشاء. وأخرج عبد بن حميد عنه

نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن الحنفية، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: كان أناس من الأنصار لهم نسب، وقرباة من قريظة، والنضير، وكان يتقون أن لا يتصنقوا عليهم، ويريدونهم أن يسلموا، فنزلت: **﴿ليس عليك هدام﴾** الآية. وأخرج ابن المنذر، عن عمرو الهلالي قال: سئل النبي ﷺ أنتصق على فقراء أهل الكتاب؟ فأنزل الله: **﴿ليس عليك هدام﴾** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء الخراساني قال في قوله: **﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾** قال: إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله. وأخرج ابن المنذر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: **﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾** قال: هم أصحاب الصفة. وأخرج ابن سعد، عن محمد بن كعب القرظي، نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: هم مهاجرو قريش بالمدينة مع النبي ﷺ أمرو بالصدقة عليهم. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: **﴿الذين أحصروا في سبيل الله﴾** قال: حصروا أنفسهم في سبيل الله للغزو فلا يستطيعون تجارة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: هم قوم أصابتهم الجراحات في سبيل الله، فصاروا زمني، فجعل لهم في أموال المسلمين حقاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن رجاء بن حيوة في قوله: **﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾** قال: لا يستطيعون تجارة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: **﴿يحسبهم لجاهل أغنياء﴾** قال: دل الله المؤمنين عليهم، وجعل نفقاتهم لهم، وأمرهم أن يضعوا نفقاتهم فيهم، ورخص عنهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿تعرفهم بسيماهم﴾** قال: التخضع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع أن معناد تعرف في وجوههم الجهد من الحاجة. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد: **﴿تعرفهم بسيماهم﴾** قال: رثاء ثيابهم، وثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿ليس المسكين الذي ترده التمرة، والتمرتان، واللقمة، واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، وأقرؤوا إن شئتم: ﴿لا يسألون الناس إحافاً﴾**. وقد ورد في تحريم المسألة أحاديث كثيرة إلا لذي سلطان، أو في أمر لا يجد منه بداً. وأخرج ابن سعد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، والطبراني، وأبو الشيخ، عن يزيد بن عبد الله بن غريب المليكي، عن أبيه، عن جده عن النبي ﷺ قال: «أنزلت هذه الآية **﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار﴾** في أصحاب الخيل». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر، عن أبي أمامة الباهلي نحوه قال: فيمن لا يربطها خيلاء، ولا رياء، ولا سمعة. وأخرج ابن جرير، عن أبي النرداء نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن

أحصروا في سبيل الله بالغزو، أو الجهاد، وقيل: منعوا عن التكسب لما هم فيه من الضعف **﴿الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾** للتكسب بالتجارة، والزراعة، ونحو ذلك بسبب ضعفهم، قيل: هم فقراء الصفة، وقيل: كل من يتصف بالفقر، وما نكر معه. ثم نكر سبحانه من أحوال أولئك الفقراء ما يوجب الحنو عليهم، والشفقة بهم، وهو كونهم متعطفين عن المسألة، وإظهار المسكنة بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء. والتعفف تفعل، وهو بناء مبالغة من عف عن الشيء: إذا أمسك عنه، وتنزه عن طلبه، وفي: «يحسبهم لغتان: فتح السين، وكسرها. قال أبو علي الفارسي: والفتح أقيس؛ لأن العين من الماضي مكسورة، فبالباء أن تأتي في المضارع مفتوحة. فالقراءة بالكسر على هذا حسنة، وإن كانت شاذة. ومن» في قوله: «من التعفف» لابتداء الغاية، وقيل: لبيان الجنس. قوله: **﴿تعرفهم بسيماهم﴾** أي: برثاء ثيابهم، وضعف أبدانهم، وكل ما يشعر بالفقر، والحاجة. والخطاب إما لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح للمخاطبة، والسما مقصورة: العلامة، وقد تمد. والإحاف: الإلاح في المسألة، وهو مشتق من اللحاف، سمي بذلك لاشتغاله على وجوه الطلب في المسألة، كاشتغال اللحاف على التغطية. ومعنى قوله: **﴿لا يسألون الناس إحافاً﴾** أنهم لا يسألونهم البتة، لا سؤال إلحاح، ولا سؤال غير إلحاح. وبه قال الطبري، والزجاج، وإليه ذهب جمهور المفسرين، ووجه أن التعفف صفة ثابتة لهم لا تفارقهم، ومجرد السؤال ينافيها، وقيل: المراد أنهم إذا سألوا سألوا بتلطف، ولا يلحون في سؤالهم، وهذا وإن كان هو الظاهر من توجه النفي إلى القيد بون المقيد، لكن صفة التعفف ثنائية، وإيضاً كون الجاهل بهم يحسبهم أغنياء لا يكون إلا مع عدم السؤال البتة. وقوله: **﴿بالليل والنهار﴾** يفيد زيادة رغبتهم في الإنفاق، وشدة حرصهم عليه حتى أنهم لا يتركون ذلك ليلاً، ولا نهاراً، ويفعلونه سراً وجهراً عند أن تنزل بهم حاجة المحتاجين، ويظهر لديهم فاقة المفتاقين في جميع الأزمنة على جميع الأحوال. ويدخل الفاء في خبر الموصول أعني قوله: **﴿فلهم لجرحهم﴾** للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها، وقيل: هي للعطف، والخبر للموصول محذوف، أي: ومنهم الذين ينفقون.

وقد أخرج عبد بن حميد، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فنزلت هذه الآية: **﴿ليس عليك هدام﴾** إلى قوله: **﴿وأنتم لا تظلمون﴾** فرخص لهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء عنه قال إن النبي ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصنق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سالك من كل دين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن جبيرة،

به لا لتفهيم أن أصل الكلمة كذا مما لا يجري به النطق، فاعرف هذا، ولا تشتغل بما يعتبره كثير من أهل العلم في هذه النقوش، ويلزمون به أنفسهم، ويعيبون من خالفه، فإن ذلك من المشاححة في الأمور الاصطلاحية التي لا تلزم أحداً أن يتقيد بها، فعليك بأن ترسم هذه النقوش على ما يلفظ به اللفظ عند قراءتها، فإنه الأمر المطلوب من وضعها، والتواضع عليها، وليس الأمر المطلوب منها أن تكون دالة على ما هو أصل الكلمة التي يتلفظ بها المتلفظ مما لا يجري في لفظه الآن، فلا تغتر بما يروى عن سيبويه، ونحاة البصرة أن يكتب الربا بالواو؛ لأنه يقول في تثنيته: ربوان. وقال الكوفيون: يكتب بالياء، وتثنيته ربيان. قال الزجاج: ما رأيت خطأ أقبح من هذا، ولا أشنع، لا يكفيهم الخطأ في الخط حتى يخطئوا في التثنية، وهم يقرؤون: ﴿هُوَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِمِزْيُو فِي أُمُوالِ النَّاسِ فلا يَرْيُو﴾ [الروم: 39] وليس المراد بقوله هنا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله، بل هو عام لكل من يعمل بالربا، فيأخذه، ويعطيه، وإنما خص الأكل لزيادة التشنيع على فاعله، ولكونه هو الغرض الأهم، فإن أخذ الربا إنما أخذه للكل قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: يوم القيامة، كما يدل عليه قراءة ابن مسعود: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يوم القيامة. أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وبهذا، فسرهم جمهور المفسرين قائلوا: إنه يبعث كالمجنون عقوبة له، وتعتيلاً عند أهل المحشر، وقيل: إن المراد تشبيه من يحرص في تجارته، فيجمع ماله من الربا بقيام المجنون؛ لأن الحرص، والطمع، والرغبة في الجمع قد استقرت حتى صار شبيهاً في حركته بالمجنون، كما يقال لمن يسرع في مشيه، ويضطرب في حركته: أنه قد جنّ، ومنه قول الأعشى في ناقته:

وتصبح من غب السري وكانت أتم بها من طائف الجن أولق
فجعلها بسرعة مشيها، ونشاطها كالمجنون. قوله: ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: إلا قياماً كقيام الذي يتخبطه، والخبط: الضرب بغير استواء كخبط العشاء، وهو المصروع. والمسّ: الجنون، والامسّ: المجنون، وكذلك الأولق، وهو: متعلق بقوله: ﴿يَقُومُونَ﴾ أي: لا يقومون من المسّ الذي بهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ أو متعلق بيقوم، وفي الآية دليل على فساد قول من قال: إن الصرع لا يكون من جهة الجنّ، وزعم أنه من فعل الطبايع، وقال: إن الآية خارجة على ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الإنسان، وليس بصحيح، وإن الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مسّ. وقد استعاذ النبي ﷺ من أن يتخبطه الشيطان، كما أخرجه النسائي، وغيره. قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من حالهم، وعقوبتهم بسبب قولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي: أنهم جعلوا البيع، والربا شيئاً واحداً، وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلاً، والبيع فرعاً، أي: إنما البيع بلا

حنش الصنعاني أنه سمع ابن عباس يقول في هذه الآية: هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن عساکر من طريق عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه عن ابن عباس في هذه الآية: قال: نزلت في علي بن أبي طالب كانت له أربعة دراهم، فأنفق بالليل درهماً، وبالنهار درهماً، ودرهماً سراً، ودرهماً علانية. وعبد الوهاب ضعيف، ولكن قد رواه ابن مرويّه من وجه آخر، عن ابن عباس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في هذه الآية قال: هؤلاء قوم أنفقوا في سبيل الله الذي افترض عليهم في غير سرف، ولا إملاق، ولا تبخير، ولا فساد. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن المسيب قال: نزلت في عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان في نفقتهم في جيش العسرة.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّخِذْهَا مَسَافَةً وَأَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَمْسَحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرِي الْمَكَدَكَةَ وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَذَابٍ أَتَيْم ﴿٤٠﴾ إِذْ الرِّبَا مَأْمُورًا وَكَيُفُولًا الْمَكِيلَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا تَوَدَّ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤١﴾

الربا في اللغة: الزيادة مطلقاً، يقال: ربا الشيء يربو: إذا زاد، وفي الشرح: يطلق على شيئين، على ربا الفضل، وriba النسبية حسبما هو مفصل في كتب الفروع، وغالب ما كانت تفعله الجاهلية أنه إذا حلّ أجل الدين قال من هو له لمن هو عليه: أنتقضي أم تربي؟ فإذا لم يقض زاد مقداراً في المال الذي عليه، وأخر له الأجل إلى حين. وهذا حرام بالاتفاق، وقياس كتابة الربا بالياء للكسرة في أوله. وقد كتبه في المصحف بالواو. قال في الكشف: على لغة من يفخم⁽¹⁾ كما كتبت الصلاة، والزكاة، وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع. انتهى. قلت: وهذا مجرد اصطلاح لا يلزم المشي عليه، فإن هذه النقوش الكتابية أمور اصطلاحية لا يشاح في مثلها إلا فيما كان يدل به منها على الحرف الذي كان في أصل الكلمة، ونحوه، كما هو مقرر في مباحث الخط من علم الصرف، وعلى كل حال، فرسم للكلمة، وجعل نقشها الكتابي على ما يقتضيه اللفظ بها هو الأولى، فما كان في النطق ألفاً كالصلاة، والزكاة، ونحوهما كان الأولى في رسمه أن يكون كذلك، وكون أصل هذا الألف واواً، أو ياء لا يخفى على من يعرف علم الصرف، وهذه النقوش ليست إلا لفهم اللفظ الذي يدل بها عليه كيف هو: في نطق من ينطق

(1) والمراد بالتفخيم هنا الفتح، وضد الترقيق بالألف وهو الإمالة.

زيادة عند حلول الأجل، كالبيع بزيادة عند حلوله، فإن العرب كانت لا تعرف ربا إلا نلك، فردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أي: أن الله أحل البيع، وحرم نوعاً من أنواعه، وهو البيع المشتمل على الربا. والبيع مصدر باع يبيع، أي: نفع عوضاً، وأخذ معوضاً، والجملة بيانية لا محل لها من الإعراب، قوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: من بلغته موعظة من الله من المواعظ التي تشتمل عليها الأوامر، والنواهي، ومنها ما وقع هنا من النهي عن الربا ﴿فَانْتَهَى﴾ أي: فامتثل النهي الذي جاءه، وانزجر عن المنهي عنه، وهو معطوف، أي: قوله: ﴿فَانْتَهَى﴾ على قوله: ﴿جَاءَهُ﴾ وقوله: ﴿مَنْ رَبِّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿جَاءَهُ﴾ أو بمحذوف وقع صفة لموعظة، أي: كانته من ﴿مَنْ رَبِّهِ﴾ لأنه فعله ما سلفه، أي: ما تقم منه من الربا لا يؤاخذ به؛ لأنه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا، أو قبل أن تنزل آية تحريم الربا. وقوله: ﴿فَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ قيل: الضمير عائد إلى الربا، أي: وأمر الربا إلى الله في تحريمه على عباده، واستمرار ذلك التحريم، وقيل: الضمير عائد إلى ما سلف، أي: أمره إلى الله في العفو عنه، وإسقاط التبعة فيه، وقيل: الضمير يرجع إلى المرابي، أي: أمر من عامل بالربا إلى الله في تثبيته على الإنتهاء، أو الرجوع إلى العصية ﴿وَمَنْ عَادَهُ﴾ إلى أكل الربا، والمعاملة به ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والإشارة إلى من عاد، وجمع أصحاب باعتبار معنى من، وقيل: إن معنى من عاد: هو أن يعود إلى القول: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وأنه يكفر بذلك، فيستحق الخلود، وعلى التقدير الأول: يكون الخلود مستعاراً على معنى المبالغة، كما تقول العرب ملك خالد، أي: طويل البقاء، والمصير إلى هذا التأويل واجب للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار. قوله: ﴿يُمِيقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أي: يذهب بركته في الدنيا، وإن كان كثيراً، فلا يبقى بيد صاحبه، وقيل: يمحق بركته في الآخرة. قوله: ﴿وَيُرِيهِ الصَّنِيقَاتِ﴾ أي: يزيد في المال الذي أخرجت صدقته، وقيل: يبارك في ثواب الصنقة، ويضاعفه، ويزيد في أجر المتصدق، ولا مانع من حمل ذلك على الأمرين جميعاً. قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ ثَمِيمٍ﴾ أي: لا يرضى؛ لأن الحب مختص بالتوابين، وفيه تشديد، وتغليظ عظيم على من أربى حيث حكم عليه بالكفر، ووصفه بآثيم للمبالغة، وقيل: لإزالة الاشتراك، إذ قد يقع على الزرع، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ من صدرت منه خصلة توجب الكفر، ووجه التصاقه بالمقام أن الذين قالوا: إنما البيع مثل الربا كفار. وقد تقدم تفسير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى آخر الآية.

وقد أخرج أبو يعلى عن طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخِيطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال: يعرفون يوم القيامة بذلك لا يستطيعون القيام، إلا كما يقوم المتخبط المنخنت: ﴿نَلَّكَ بَانَهُم قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وكتبوا

على الله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ ومن عاد فاكل الربا: ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر من وجه آخر عنه أيضاً في قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ قال: نلك حين يبعث من قبره. وأخرج الأصبهاني في ترغيبه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي أكل الربا يوم القيامة مختبلاً يجر شفتيه، ثم قرأ: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس» وقد روت أحاديث كثيرة في تعظيم نيب الربا، منها من حديث عبد الله بن مسعود، عند الحاكم وصححه، والبيهقي عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم، ومن حديث أبي هريرة مرفوعاً، عند ابن ماجه، والبيهقي بلفظ: «سبعون باباً» وورد هذا المعنى مع اختلاف العدد عن عبد الله بن سلام، وكعب، وابن عباس، وأنس. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في الآية قال: يبعثون يوم القيامة، وبهم خبل من الشيطان، وهي في بعض القراءات: «لا يقومون يوم القيامة». يعني قراءة ابن مسعود المتقدم نكراها. وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا «خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فقراهن على الناس، ثم حرم التجارة في الخمر» وأخرج ابن جرير، وابن مروي، عن عمر بن الخطاب: أنه خطب، فقال: إن من آخر القرآن نزولاً آية الربا، وإنه قد مات رسول الله ﷺ، ولم يبينه لنا، فدعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم. وأخرج البخاري، وغيره، عن ابن عباس أنه قال: آخر آية أنزلها على رسوله آية الربا. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن عمر مثله. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في الربا الذي نهى الله، عنه قال: كان أهل الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين، فيقول: لك كذا وكذا، وتؤخر عني، فيؤخر عنه. وأخرج أيضاً، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر، نحوه أيضاً، وزاد في قوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال: يعني البيان الذي في القرآن في تحريم الربا، فانتهى عنه: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ يعني: فله ما كان أكل من الربا قبل التحريم: ﴿وَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يعني بعد التحريم، وبعد تركه إن شاء عصمه منه، وإن شاء لم يفعل ﴿وَمَنْ عَادَهُ﴾ يعني في الربا بعد التحريم، فاستحله بقولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ - فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿يعني لا يموتون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، من طريق ابن جريج، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُمِيقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ قال: ينقص الربا ﴿وَيُرِيهِ الصَّنِيقَاتِ﴾ قال: يزيد فيها، وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً «من تصلق بعذل ثمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيباً، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبها، كما يربي أحلكم فلوه حتى تكون مثل الجبل».

مصحف أبي بن كعب. وروى المعتمر، عن حجاج الوراق، قال في مصحف عثمان: ﴿وَأَنْ كَانَ ذَا عَسْرَةٍ﴾ قال النحاس، ومكي، والنقاش: وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا، وعلى من قرأ: «نو» فهي عامة في جميع من عليه دين، وإليه ذهب الجمهور. وقرأ الجماعة: ﴿فَنظَرَةٌ﴾ بكسر الظاء. وقرأ مجاهد، وأبو رجاء، والحسن بسكونها، وهي لغة تميم. وقرأ نافع، وحده: ﴿ميسرة﴾ بضم السين، والجمهور بفتحها، وهي اليسار. قوله: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بحذف إحدى التامين، وقرأ بتشديد الصاد، أي: وأن تصدقوا على معسري غرمانكم بالإبراء خير لكم، وفيه الترغيب لهم بأن يتصدقوا برؤوس أموالهم على من أعسر، وجعل ذلك خيراً من إنظاره، قاله السدي، وابن زيد، والضحاك. قال الطبري: وقال آخرون: معنى الآية: وأن تصدقوا على الغني، والفقير خير لكم. والصحيح الأول، وليس في الآية مدخل للغني. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جوابه محذوف، أي: إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتم به. قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ هو يوم القيامة، وتذكيره للتسهيل، وهو منصوب على أنه مفعول به لا ظرف. وقوله: ﴿تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وصف له. وقرأ أبو عمر، وبفتح التاء، وكسر الجيم، والباقر بن بشار، وفتح الجيم، وذهب قوم إلى أن هذا اليوم المذكور هو يوم الموت. وذهب الجمهور إلى أنه يوم القيامة، كما تقدم. وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ فيه مضاف محذوف تقديره إلى حكم الله ﴿فَمَنْ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس المكلفة ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما عملت من خير، أو شر، وجملة: ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ حالية، وجمع الضمير؛ لأنه أنسب بحال الجزاء، كما أن الأفراد أنسب بحال الكسب، وهذا الآية فيها الموعظة الحسنة لجميع الناس.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ قال: نزلت في العباس بن عبد المطلب، ورجل من بني المغيرة، كانا شريكين في الجاهلية يسلفان الربا إلى ناس من ثقيف، فجاء الإسلام، ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج، قال: كانت ثقيف قد صالحت النبي ﷺ على أن ما لهم من ربا على الناس، وما كان للناس عليهم من ربا، فهو موضوع، فلما كان الفتح استعمل عتاب بن أسيد على مكة، وكانت بنو عمرو بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة، وكان بنو المغيرة يربون لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام، ولهم عليهم مال كثير، فاتاهم بنو عمرو، يطلبون رباهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتاب بن أسيد، فكتب عتاب إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ فكتب بها رسول الله ﷺ إلى عتاب، وقال: إن رضوا، وإلا فأنهم بحرب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنَّمَا بِحَرْبٍ﴾ قال: من كان مقيماً

وأخرج البزار، وابن جرير، وابن حبان، والطبراني من حديث عائشة نحوه. وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، عن ابن عمر مرفوعاً نحوه أيضاً. وفي حديث عائشة، وابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ بعد أن ساق الحديث: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾. وأخرج الطبراني عن أبي بزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله حتى تكون مثل أحد» وهذه الأحاديث تبين معنى الآية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٧﴾ فَإِنْ لَّمْ تَقْعُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُجُورٌ أَمْ لَكُمْ لَا تَقْلُمُونَ وَلَا تَظْلُمُونَ ﴿٢٠٨﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٠٩﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢١٠﴾

قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: قوا أنفسكم من عقابه، واتركوا البقايا التي بقيت لكم من الربا، وظاهره أنه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضاً. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هو شرط مجازي على جهة المبالغة، وقيل: إن «إن» في هذه الآية بمعنى إذ. قال ابن عطية: وهو مرئود لا يعرف في اللغة، والظاهر أن المعنى: إن كنتم مؤمنين على الحقيقة، فإن ذلك يستلزم امتثال أوامر الله ونواهيه. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني ما أمرتم به من الاتقاء، وترك ما بقي من الربا ﴿فَإِنَّمَا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فاعلموا بها، من أنن بالشئ إذا علم به، قيل: هو من الإنن بالشئ، وهو الاستماع، لأنه من طرق العلم. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحزمة: «فإننوا» على معنى فاعلموا غيركم أنكم على حربهم. وقد نلت هذه على أن أكل الربا، والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك، وتذكير الحرب للتعظيم، وزادها تعظيماً نسبتها إلى اسم الله الأعظم، وإلى رسوله الذي هو: أشرف خليقته. قوله: ﴿فَإِنْ تَبْتُمْ﴾ أي من الربا ﴿فَلَكُمْ زُجُورٌ أَمْ لَكُمْ﴾ تآخونها ﴿لَا تَظْلُمُونَ﴾ غرمانكم بأخذ الزيادة ﴿لَا تَظْلُمُونَ﴾ أنتم من قبلهم بالمطل، والنقص، والجملة حالية، أو استئنافية. وفي هذا دليل على أن أموالهم مع عدم التوبة حلال لمن أخذها من الأئمة، ونحوهم ممن ينوب عنهم. قوله: ﴿وَأَنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ لما حكم سبحانه لأهل الربا برؤوس أموالهم عند الواجبين للمال حكم في ذوي العسرة بالنظرة إلى يسار، والعسرة: ضيق الحال من جهة عدم المال، ومنه جيش العسرة. والنظرة: التأخير، والميسرة مصدر بمعنى اليسر، وارتفع «نو» بكان التامة التي بمعنى وجد، وهذا قول سيبويه، وأبي علي الفارسي، وغيرهما. وأنشد سيبويه:

فدى لبني ذهل بن شيبان يا فتى إذا كان يوم نو كوكب أشهب
وفي مصحف أبي: «وَأَنْ كَانَ ذَا عَسْرَةٍ» على معنى: وإن كان المطلوب ذا عسرة. وقرأ الأعمش: «وَأَنْ كَانَ مَعْسَرًا». قال أبو عمرو الداني، عن أحمد بن موسى، وكذلك في

بيان حال الربا، أي: إذا دأب بعضكم بعضاً، وعامله بذلك، ونكر الدين بعد نكر ما يغني عنه من المداينة لقصد التأكيد مثل قوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38] وقيل: إنه نكر ليرجع إليه الضمير من قوله: ﴿فلا تكتبوه﴾ ولو قال: فلا تكتبوا الدين لم يكن فيه من الحسن ما في قوله: ﴿إذا تداينتم بدين﴾، والدين عبارة، عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقداً، والآخر في النمة نسيئة، فإن العين عند العرب ما كان حاضراً، والدين ما كان غائباً، قال الشاعر:

وعتينا بدرهمينا طلاءً وسواء معجلاً غير دين
وقال الآخر:

إذا ما ألقوا ناراً وحطباً فذاك الموت نقداً غير دين
وقد بين الله سبحانه هذا المعنى بقوله: ﴿إلى أجل مسمى﴾ وقد استدلل به على أن الأجل المجهول لا يجوز، وخصوصاً أجل السلم. وقد ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ: «من أسلف في تمر فليسلف في كيل معلوم إلى أجل معلوم، وقد قال بذلك الجمهور، واشترطوا توقيته بالأيام، أو الأشهر، أو السنين، قالوا: ولا يجوز إلى الحصاد، أو الدياس، أو رجوع القافلة، أو نحو ذلك، وجوزّه مالك. قوله: ﴿فلا تكتبوه﴾ أي: الدين بأجله؛ لأنه أدفع للنزاع، وأقطع للخلاف. قوله: ﴿وليكذب بينكم كاتب﴾ هو: بيان كيفية الكتابة المأمور بها، وظاهر الأمر الوجوب، وبه قال عطاء، والشعبي، وغيرهما، فأوجبوا على الكاتب أن يكتب إذا طلب منه ذلك، ولم يوجد كاتب سواء، وقيل: الأمر للندب، وقوله: ﴿بالعدل﴾ متعلق بمحذوف صفة لكاتب أي: كاتب كائن بالعدل، أي: يكتب بالسوية لا يزيد، ولا ينقص، ولا يميل إلى أحد الجانبين، وهو أمر للمتدائنين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة لا يكون في قلبه، ولا قلمه هودة لأحدهما على الآخر، بل يتحرى الحق بينهما، والمعملة فيهم. قوله: ﴿ولا ياب كاتب﴾ النكرة في سياق النفي مشعرة بالعموم، أي: لا يمتنع أحد من الكتاب أن يكتب كتاب التداين، كما علمه الله، أي: على الطريقة التي علمه الله من الكتابة، أو كما علمه الله بقوله: ﴿بالعدل﴾. قوله: ﴿وليمل الذي عليه الحق﴾ الإملال، والإملة لغتان: الأولى لغة أهل الحجاز، وبني أسد، والثانية لغة بني تميم، فهذه الآية جاءت على اللغة الأولى، وجاء على اللغة الثانية قوله تعالى: ﴿فهي تلي عليه بكرة وأصيل﴾ [الفرقان: 5] ﴿والذي عليه الحق﴾ هو من عليه الدين، أمره الله تعالى بالإملة، لأن الشهادة إنما تكون على إقراره بثبوت الدين في نمته، وأمره الله بالتقوى فيما يمليه على الكاتب، بالغ في ذلك بالجمع بين الاسم، والوصف في قوله: ﴿وليتق الله ربه﴾ ونهاه عن البخس، وهو النقص، وقيل: إنه نهي للكاتب. والأول أولى؛ لأن من عليه الحق هو الذي يتوقع منه النقص، ولو كان نهياً للكاتب لم يقتصر في نهيه على النقص؛ لأنه يتوقع منه الزيادة، كما يتوقع منه النقص. والسفيه هو: الذي لا رأي له في حسن التصرف، فلا يحسن الأخذ، ولا الإعطاء، شبه بالثوب السفيه، وهو

على الربا لا ينزع منه، فحق على إمام المسلمين أن يستتبه، فإن نزع، ولا ضرب عنقه. وأخرجوا أيضاً عنه في قوله: ﴿فانفوا بحرب﴾ قال: استيقنوا بحرب، وأخرج أهل السنن، وغيرهم عن عمرو بن الأحوص، أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فقال: «لا إن كل ربا في الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون، ولا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس» وأخرج ابن منده، عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية في ربعة بن عمرو، وأصحابه: ﴿وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كان ذو عسرة﴾ قال: نزلت في الربا. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن شريح، نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الضحاک في الآية، قال: وكذلك كل دين على مسلم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر، نحوه. وقد رويت أحاديث صحيحة في الصحيحين، وغيرهما في الترغيب لمن له دين على معسر أن ينظره. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي، عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت من القرآن على النبي ﷺ: ﴿ولتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ وأخرج ابن أبي شيبة، عن السدي، وعطية العوفي مثله. وأخرج ابن الأنباري، عن أبي صالح، وسعيد بن جبیر، مثله أيضاً وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنها آخر آية نزلت، وكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ إحدى وثمانون يوماً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر: أنه عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال، ثم مات.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوا وَلِيَكُنْ بَيْنَكُمْ كِتَابٌ بَالِغٌ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَّمَهُ الْقُرْآنَ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُجِلَّ هُوَ فَلْيُجِدْ رَيبَهُ بِالْكَسْرِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ يُجِدَ أَحَدُهُمَا قَدْ كَفَرَ فَلَاحِدُهُمَا الشَّاهِدُ وَلَا يَأْبَ الشَّاهِدُ إِذَا دُاعُوا وَلَا تَحْزَنُوا أَنْ تَكْتُبُوا سِيراً أَوْ كِبراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَ أَفْسَدُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَازِمَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَكُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَلُّوا فَإِنَّهُ مُسَوِّفٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ رِبَاكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَيْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَنْ بَعْضُكُمْ عَلَى الْآخَرِ وَالَّذِي أَسْنَدُوا لِيَسْتَوْفُوا إِلَيْنَا وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ مُسَوِّفٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١٨٢﴾

هذا شروع في بيان حال المداينة الواقعة بين الناس بعد

ومالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابه إلى أنه مندوب، وهذا الخلاف بين هؤلاء هو في وجوب الإشهاد على البيع. واستدل الموجبون بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ ولا فرق بين هذا الأمر، وبين قوله: ﴿وَأَسْتَشْهَدُوا﴾ فيلزم القائلين بوجوب الإشهاد في البيع أن يقولوا بوجوبه في المداينة. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ﴾ أي: الشاهدان ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٍ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: فليشهد رجل، وامرأتان، أو فرجل، وامرأتان يكفون. وقوله: ﴿لَمَنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لرجل، وامرأتان، أي: كائنتون ممن تَرْضَوْنَ حال كونهم من الشَّهَدَاءِ. والمراد ممن تَرْضَوْنَ دينهم، وعدالتهم، وفيه أن المرأتين في الشهادة برجل، وأنها لا تجوز شهادة النساء إلا مع الرجل لا وحدهن، إلا فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة. واختلفوا هل يجوز الحكم بشهادة امرأتين مع يمين المدعي كما جاز الحكم برجل مع يمين المدعي؟ فذهب مالك، والشافعي إلى أنه يجوز ذلك، لأن الله سبحانه قد جعل المرأتين كالرجل في هذه الآية. وذهب أبو حنيفة، وأصحابه إلى أنه لا يجوز ذلك، وهذا يرجع إلى الخلاف في الحكم بشاهد مع يمين المدعي، والحق أنه جائز لورود الليل عليه، وهو زيادة لم تخالف ما في الكتاب العزيز، فيتعين قبولها. وقد أوضحنا ذلك في شرحنا للمنتقى، وغيره من مؤلفاتنا، ومعلوم عند كل من يفهم أنه ليس في هذه الآية ما يرد به قضاء رسول الله ﷺ بالشاهد، واليمين، ولم يدفعوا هذا إلا بقاعدة مبنية على شفا جرف هار هي قولهم: إن الزيادة على النص نسخ، وهذه دعوى باطلة، بل الزيادة على النص شريعة ثابتة جاءت بها من جاءنا بالنص المتقدم عليها، وأيضاً كان يلزمهم أن لا يحكموا بتكول المطلوب، ولا بيمين الرد على الطالب. وقد حكموا بهما، والجواب الجواب. قوله: ﴿إِنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتَنَكَّرْ إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى﴾ قال أبو عبيد: معنى تَضَلَّ تنسى، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها، ونكر جزء. وقرا حمزة: ﴿إِنْ تَضَلَّ﴾ بكسر الهمزة. وقوله: ﴿فَتَنَكَّرْ﴾ جوابه على هذه القراءة، وعلى قراءة الجمهور هو منصوب بالعطف على تَضَلَّ، ومن رفعه فعلى الاستئناف. وقرا ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿فَتَنَكَّرْ﴾ بتخفيف الذال، والكاف، ومعناه: تزيدها نكراً. وقراءة الجماعة بالتحديد، أي: تنبيهاً إذا غفلت، ونسيت، وهذه الآية تعليل لاعتبار العبد في النساء، أي: فليشهد رجل، وتشهد امرأتان عوضاً، عن الرجل الآخر لأجل تنكير إحداهما للآخرى إذا ضلت، وعلى هذا، فيكون في الكلام حذف، وهو سؤال سائل عن وجه اعتبار امرأتين عوضاً عن الرجل الواحد، فقيل وجهه أن تَضَلَّ إحداهما، فتَنَكَّرَ إحداهما الآخرى، والعلة في الحقيقة هي: التنكير، ولكن الضلال لما كان سبباً له نزل منزلته، وأبهم الفاعل في تَضَلَّ، وتَنَكَّرَ، لأن كلا منهما يجوز عليه الوصفان؛ فالمعنى: إن ضلت هذه نكرتها هذه، وإن ضلت هذه نكرتها هذه لا على التعيين، أي: إن ضلت إحدى المرأتين نكرتها المرأة

الخفيف النسج، والعرب تطلق السفه على ضعف العقل تارة، وعلى ضعف البين أخرى، فمن الأول قول الشاعر:

نخاف أن تسفه أحلامنا ونجهل الدهرمع الجاهل

ومن الثاني قول ذي الرمة:

مشين كما امتزت رماح تسفهن أعاليها من الرياح النواسم

أي: استضعفها، واستلانها بحركتها، وبالجمله فالسفيه هو المبذر إما لجهله بالصرف، أو لتلاعبه بالمال عبثاً مع كونه لا يجهل الصواب. والضعيف هو: الشيخ الكبير، أو الصبي. قال أهل اللغة: الضعف بضم الضاد في البين، وبفتحها في الرأي. والذي لا يستطيع أن يمل هو الأخرس، أو العمي الذي لا يقدر على التعبير كما ينبغي، وقيل: إن الضعيف هو المذهول العقل الناقص الفطنة العاجز عن الإملاء، والذي لا يستطيع أن يمل هو: الصغير. قوله: ﴿فَلْيَمْلِكْ وَلِيهِ بِالْعَدْلِ﴾ الضمير عائد إلى الذي عليه الحق فيمل عن السفيه وليه المنصوب عنه بعد حجره، عن التصرف في ماله، ويمل عن الصبي، وصيه، أو وليه، وكذلك يمل عن العاجز، الذي لا يستطيع الإملاء لضعف وليه؛ لأنه في حكم الصبي، أو المنصوب عنه من الإمام، أو القاضي، ويمل عن الذي لا يستطيع، وكيله إذا كان صحيح العقل، وعرضت له آفة في لسانه، أو لم تعرض، ولكنه جاهل لا يقدر على التعبير، كما ينبغي. وقال الطبري: إن الضمير في قوله: ﴿وَلِيهِ﴾ يعود إلى الحق، وهو ضعيف جداً. قال القرطبي في تفسيره: وتصرف السفيه المحجور عليه نون وليه فاسد إجماعاً مفسوخ أبداً لا يوجب حكماً، ولا يؤثر شيئاً، فإن تصرف سفيه، ولا حجر عليه، ففيه خلاف. انتهى. قوله: ﴿وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ﴾ الاستشهاد: طلب الشهادة، وسماهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأول أي: باعتبار ما يؤول إليه أمرهما من الشهادة، و ﴿مَنْ رَجَالِكُمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَأَسْتَشْهَدُوا﴾ أو بمحذوف هو: صفة لشهيدين، أي: كائنين من رجالكم، أي: من المسلمين، فيخرج الكفار، ولا وجه لخروج العبيد من هذه الآية. فهم إذا كانوا مسلمين من رجال المسلمين، وبه قال شريح، وعثمان البتي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور. وقال أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وجمهور العلماء: لا تجوز شهادة العبد لما يلحقه من نقص البرق. وقال الشعبي، والنخعي: يصح في الشيء اليسير نون الكثير. واستدل الجمهور على عدم جواز شهادة العبد بأن الخطاب في هذه الآية مع الذين يتعاملون بالمداينة، والعبيد لا يملكون شيئاً تجري فيه المعاملة. ويجب عن هذا بأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأيضاً العبد تصح منه المداينة، وسائر المعاملات إذا أذن له مالكه بذلك. وقد اختلف الناس هل الإشهاد واجب، أو مندوب، فقال أبو موسى الأشعري، وابن عمر، والضحاك، وعطاء، وسعيد بن المسيب، وجابر بن زيد، ومجاهد، وداود بن علي الظاهري، وابنه: إنه واجب، ووجه ابن جرير الطبري، وذهب الشعبي، والحسن،

الأخرى، وإنما اعتبر فيهما هذا التذكير لما يلحقهما من ضعف النساء بخلاف الرجال. وقد يكون الوجه في الإيهام أن نكح يعني الضلال، والتذكير يقع بينهما متتوياً حتى ربما ضلت هذه عن وجه وضلت تلك عن وجه آخر، فنكرت كل واحدة منهما صاحبتهما. وقال سفيان بن عيينة: معنى قوله: ﴿فَتَذَكَّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ تصديرها نكراً، يعني: أن مجموع شهادة المرأتين مثل شهادة الرجل الواحد. وروي نحوه عن أبي عمرو بن العلاء، ولا شك أن هذا باطل لا يدل عليه شرع، ولا لغة، ولا عقل. قوله: ﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أي: لاداء الشهادة التي قد تحملوها من قبل، وقيل: إذا ما دعوا لتحمل الشهادة، وتسميتهم شهداء مجاز كما تقدم، وحملها الحسن على المعنيين. وظاهر هذا النهي أن الامتناع من أداء الشهادة حرام. قوله: ﴿وَلَا تَسَامُوا إِنْ تَكْتُبُوهُ﴾ معنى تساموا: تملوا. قال الأخفش: يقال: سئمت إسام سامة، وسئاماً، ومنه قول الشاعر:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبالك يسام أي: لا تملوا أن تكتبوه، أي: الدين الذي تدينتم به، وقيل: الحق، وقيل: الشاهد، وقيل: الكتاب، نهامهم الله سبحانه عن ذلك؛ لأنهم ربما ملوا من كثرة المداينة أن يكتبوا، ثم بالغ في ذلك، فقال: ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ أي: حال كون ذلك المكتوب صغيراً، أو كبيراً أي: لا تملوا في حال من الأحوال سواء كان الدين كثيراً، أو قليلاً، وقيل: إنه كنى بالسامة عن الكسل. والاول أولى. وقدم الصغير هنا على الكبير للاهتمام به لنفع ما عساه أن يقال: إن هذا مال صغير، أي: قليل لا احتياج إلى كتبه، والإشارة في قوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ إلى المكتوب المذكور في ضمير قوله: ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ ﴿وَأَقْسَطُ﴾ معناه أعدل، أي: أصح، وأحفظ ﴿وَأَقُومُوا لِلشَّهَادَةِ﴾ أي: أعون على إقامة الشهادة، وأثبت لها، وهو مبني من أقام، وكذلك أقسط مبني من فعله، أي: أقسط. وقد صرح سيبويه بأنه قياسي، أي: بني أفعال التفضيل. ومعنى قوله: ﴿وَأَوَّابُونَ﴾ أي: لا تترتابوا أقرب لنفي الربيب في معاملاتكم، أي: الشك، ولذلك أن الكتاب الذي يكتبونه يدفع ما يعرض لهم من الربيب كائناً ما كان. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أن في موضع نصب على الاستثناء قاله الأخفش، وكان تامة، أي: إلا أن تقع، أو توجد تجارة، والاستثناء منقطع، أي: لكن وقت تبائعكم، وتجارحكم حاضرة بحضور البديلين ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ تتعاطونها يداً بيد، فالإدارة: التعاطي، والتقاضى، فالمراد التبايع الناجز يداً بيد، فلا حرج عليكم إن تركتم كتابته. وقرئ ينصب تجارة على أن كان ناقصة، أي: إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة. قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ قيل: معناه: وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع المذكور هذا، وهو التجارة الحاضرة على أن الإشهاد فيها يكفي، وقيل: معناه: إذا تبايعتم أي تبايع كان حاضراً، أو كائناً، لأن ذلك أنفع لمادة الخلاف وأقطع لمنشأ الشجار. وقد تقدم قريباً نكر الخلاف في كون هذا الإشهاد واجباً، أو

منوباً. قوله: ﴿وَلَا يَضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل، أو للمفعول، فعلى الأول معناه: لا يضارر كاتب، ولا شهيد من طلب نكح منهما، إما بعدم الإجابة، أو بالتحريف، والتبديل، والزيادة، والنقصان في كتابته، ويدل على هذا قراءة عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن أبي إسحاق: «ولا يضارر» بكسر الراء الأولى، وعلى الثاني لا يضارر كاتب، ولا شهيد بأن يدعيا إلى نكح، وهما مشغولان بهمم لهما، ويضيق عليهما في الإجابة، ويؤنيا إن حصل منهما التراخي، أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيد، ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود: «ولا يضارر» بفتح الراء الأولى، وصيغة المفاعلة تدل على اعتبار الأمرين جميعاً. وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِهَا﴾ [البقرة: 233] ما إذا راجعته ذلك بصيرة إن شاء الله. قوله: ﴿وَأَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي: ما نهيتم عنه من المضارة ﴿فَإِنَّهُ﴾ أي: فعلكم هذا ﴿فَسَوْقَ بِكُمْ﴾ أي: خروج عن الطاعة إلى المعصية ملتبس بكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في فعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ ما تحتاجون إليه من العلم، وفيه الوعد لمن اتقاه أن يعلمه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29]. قوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ لما نكر سبحانه مشروعية الكتابة، والإشهاد لحفظ الأموال، ودفع الربيب، عقب ذلك بذكر حالة العذر، عن وجود الكاتب، ونص على حالة السفر، فإنها من جملة أحوال العذر، ويلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر، وجعل الرهان المقبوضة قائمة مقام الكتابة، أي: فإن كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ في سفركم ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ قال أهل العلم: الرهن في السفر ثابت بنص التنزيل، وفي الحضر بفعل رسول الله ﷺ، كما ثبت في الصحيحين: «أنه ﷺ رهن درعاً له من يهودي». وقرأ الجمهور: «كاتِبًا» أي: رجلاً يكتب لكم. وقرأ ابن عباس، وأبي وجاهد، والضحاك، وعكرمة، وأبو العالية: «كتاباً» قال ابن الأنباري: فسره مجاهد فقال: معناه فإن لم تجدوا مداداً: يعني في الأسفار. وقرأ أبو عمرو وابن كثير «فرهن» بضم الراء والهاء، وروي عنهما تخفيف الهاء جمع رهان، قاله الفراء، والزجاج، وابن جرير الطبري. وقرأ عاصم بن أبي النجود: «فرهن» بفتح الراء، وإسكان الهاء. وقراءة الجمهور: «رهان». قال الزجاج: يقال في الرهن: رهنت، وأرهنت، وكذا قال ابن الأعرابي، والأخفش. وقال أبو علي الفارسي: يقال أرهنت في المعاملات، وأما في القرض، والبيع، فرهنت، وقال ثعلب: الرواة كلهم في قول الشاعر:

فلما خشيت أظافيرهم نجوت وأرهنتهم مالاً كاً على أرهنتهم على أنه يجوز رهنته، وأرهنته إلا الأصمعي، فإنه رواه، وأرهنتهم على أنه عطف لفعل مستقبل على فعل ماض وشبهه بقوله قمت، وأصك وجهه. وقال ابن السكيت: أرهنت فيهما بمعنى أسلفت، والمرتهن الذي يأخذ الرهن، والشئ مرهون، ورهين،

قال: كانت الكتابة عزيمة، فنسخها ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾ قال: هو الجاهل. ﴿أو ضعيفاً﴾ قال: هو الأحمق. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك، والسدي، في قوله: ﴿سفيهاً﴾ قال: هو الصبي الصغير. وأخرج ابن جرير، من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس: ﴿فليملل وليه﴾ قال صاحب الدين. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الحسن قال: ولي اليتيم. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك قال ولي السفيه، أو الضعيف. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والبيهقي، عن مجاهد في قوله: ﴿ومن رجالكم﴾ قال: من الأحرار. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: ﴿ومن ترضون من الشهداء﴾ قال: عدول. وأخرج الشافعي، والبيهقي، عن مجاهد قال: عدلان حران مسلمان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿أن تضل إحداهما﴾ يقول: أن تنسى إحدى المراتين الشهادة ﴿فتنكر إحداهما الأخرى﴾ يعني تنكرها التي حبطت شهادتها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا ياب الشهداء﴾ قال: إذا كانت عندهم شهادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع قال: كان الرجل يطوف في القوم الكثير يدعوهم يشهدون، فلا يتبعه أحد منهم، فأنزل الله: ﴿ولا ياب الشهداء﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن عائشة في قوله: ﴿اقسط عند الله﴾ قالت: أعدل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ قال: يأتي الرجل الرجلين، فيدعوهما إلى الكتابة، والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة، فيقول: إنكما قد أمرتما أن تجيبا، فليس له أن يضارهما. وأخرج ابن جرير، عن طلوس: ﴿لا يضار كاتب﴾، فيكتب ما لم يمل عليه ﴿ولا شهيد﴾ فيشهد بما لم يستشهد. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك في قوله: ﴿وإن كنتم على سفر﴾ الآية، قال: من كان على سفر، فباع بيعاً إلى أجل، فلم يجد كاتباً، فربح له في الرهان المقبوضة، وليس له أن يجد كاتباً أن يرتهن. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: لا يكون الرهن إلا في السفر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، قال: لا يكون الرهن، إلا مقبوضاً. وأخرج البخاري في تاريخه، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن ماجه، وأبو نعيم، والبيهقي، عن أبي سعيد الخدري، أنه قرأ هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين﴾ حتى بلغ ﴿فإن آمن بعضكم ببعض﴾ قال: هذه نسخت ما قبلها. وأقول: رضي الله عن هذا الصحابي الجليل، ليس هذا من باب النسخ، فهذا مقيد بالائتمان، وما قبله ثابت محكم لم

وراهنت فلاناً على كذا مراهنه خاطرته. وقد ذهب الجمهور إلى اعتبار القبض، كما صرح به القرآن، وذهب مالك إلى أنه يصح الارتهان بالإيجاب، والقبول من دون قبض. قوله: ﴿فإن آمن بعضكم ببعض فليؤد الذي أوثمن أمانته﴾ أي: إن كان الذي عليه الحق أميناً، عند صاحب الحق لحسن ظنه به، وأمانته لديه، واستغنى بأمانته عن الارتهان ﴿فليؤد الذي أوثمن﴾ وهو: المبيوع ﴿أمانته﴾ أي: الدين الذي عليه، والأمانة مصدر سمي به الذي في النمة، وأضافها إلى الذي عليه الدين من حيث أن لها إليه نسبة، وقرئ: ﴿أيتمن﴾ بقلب الهمزة ياء، وقرئ بإدغام الياء في التاء، وهو خطأ؛ لأن المنقلة من الهمزة لا تدغم؛ لأنها في حكمها ﴿وليتق الله ربه﴾ في أن لا يكتم من الحق شيئاً. قوله: ﴿ولا تختموا الشهادة﴾ نهي للشهود أن يكتموا ما تحملوه من الشهادة، وهو في حكم التفسير لقوله: ﴿ولا يضار كاتب﴾ أي: لا يضار بكسر الراء الأولى على أحد التفسيرين المتقدمين. قوله: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ خص القلب بالذكر؛ لأن الكتم من أفعاله، ولكونه رئيس الأعضاء، وهو المضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد كله، وارتفاع القلب على أنه فاعل، أو مبتدأ، وآثم خبره على ما تقرر في علم النحو، ويجوز أن يكون قلبه بدلاً من آثم بدل البعض من الكل، ويجوز أن يكون أيضاً بدلاً من الضمير الذي في آثم الراجع إلى من، وقرئ: ﴿قلبه﴾ بالنصب كما في قوله: ﴿إلا من سفه نفسه﴾ [البقرة: 130].

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين﴾ قال: نزلت في السلم في كيل معلوم إلى أجل معلوم. وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وغيرهم عنه قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أجله، وقرأ هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية. قال: أمر بالشهادة عند المداينة لكيلا يدخل في ذلك جحود، ولا نسيان، فمن لم يشهد على ذلك، فقد عصى ﴿ولا ياب الشهداء﴾ يعني من احتيج إليه من المسلمين ليشهد على شهادة، أو كانت عنده شهادة، فلا يحل له أن يابى إذا ما دعي، ثم قال بعد هذا: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ والضرار أن يقول الرجل للرجل، وهو عنه غني: إن الله قد أمرك أن لا تأبى إذا دعيت، فيضار به بذلك، وهو مكتف بغیره، فنهاه الله عن ذلك. وقال: ﴿وإن تفعلوا فإنه سوف بكم﴾ يعني: معصية. قال: ومن الكبار كتمان الشهادة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿ولا ياب كاتب﴾ قال: واجب على الكاتب أن يكتب. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك

والباء، فالفاء عاطفة لما بعدها على المجزوم قبلها، وهو: جواب الشرط: أعني قوله: ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾. وقرأ ابن عباس، والأعرج، وأبو العالية، وعاصم الجحدري بنصب الراء، والباء في قوله: ﴿فَيَغْفِرُ﴾. ويعذب ﴿على إضمار أن عطفاً على المعنى. وقرأ طلحة بن مصرف يغفر بغير فاء على البدل، وبه قرأ الجعفي، وخلاَّد.

وقد أخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فاتوا رسول الله ﷺ، ثم جنوا على الركب، فقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة، والصيام، والجهاد، والصقة، وقد أنزل الله عليك هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا، كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا، وعصينا، بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 85] فلما اقتراها القوم، وثلت بها السننهم أنزل الله في أثرها: ﴿أَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: 285] الآية، فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾ [البقرة: 286] إلى آخرها. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس مرفوعاً نحوه، وزاد، فأنزل الله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286] قال: قد فعلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286] قال: قد فعلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: 286] قال: قد فعلت: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة: 286] الآية، قال: قد فعلت. وقد رويت هذه القصة، عن ابن عباس من طرق. وأخرج البخاري، والبيهقي عن مروان الأصغر، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أحسبه ابن عمر: ﴿إِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُ﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، عن علي نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، عن ابن مسعود، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن عائشة نحوه أيضاً.

وبمجموع ما تقدم يظهر لك ضعف ما أخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: نزلت في كتمان الشهادة، فإنها لو كانت كذلك لم يشتد الأمر على الصحابة. وعلى كل حال، فبعد هذه الأحاديث المصروفة بالنسخ، والناسخ لم يبق مجال لمخالفتها، ومما يؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين، والسنن الأربع من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ، أَوْ تَعْمَلْ بِهِ». وأخرج ابن جرير، عن عائشة قالت: كل عبد هم بسوء، ومعصية، وحديث نفسه به حاسبه الله في

ينسخ، وهو مع عدم الائتمان. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿أَنْتُمْ قُلُوبُكُمْ﴾ قال: فاجر قلبه. وأخرج ابن جرير، بإسناد صحيح، عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين. وأخرج أبو عبيد في فضائله، عن ابن شهاب قال: آخر القرآن عهداً بالعرش آية الرِّبَا، وآية الدين.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَمُوزُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٨٦﴾

قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قد تقدم تفسيره. قوله: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، ظاهره أن الله يحاسب العباد على ما أضمرته أنفسهم، أو أظهرته من الأمور التي يحاسب عليها، فيغفر لمن يشاء منهم ما يغفره منها، ويعذب من يشاء منهم بما أسر، أو أظهر منها، هذا معنى الآية على مقتضى اللغة العربية. وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية على أقوال: الأول: أنها، وإن كانت عامة، فهي: مخصوصة بكتمان الشهادة، وأن الكاتم للشهادة يحاسب على كتمه سواء أظهر للناس أنه كاتم للشهادة، أو لم يظهر. وقد روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والشعبي ومجاهد، وهو: مرئود بما في الآية من عموم اللفظ، ولا يصلح ما تقدم قبل هذه الآية من النهي عن كتم الشهادة أن تكون مختصة به. والقول الثاني: أن ما في الآية مختص بما يطرأ على النفوس من الأمور التي هي بين الشك، واليقين، قاله مجاهد، وهو أيضاً: تخصيص بلا مخصص. والقول الثالث: أنها محكمة عامة، ولكن العذاب على ما في النفس يختص بالكفار، والمنافقين. حكاه الطبري عن قوم، وهو أيضاً: تخصيص بلا مخصص، فإن قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ لا يختص ببعض معين إلا بدليل. والقول الرابع: أن هذه الآية منسوخة، قاله ابن مسعود، وعائشة، وأبو هريرة، والشعبي، وعطاء، ومحمد بن سيرين، ومحمد بن كعب، وموسى بن عبيدة، وهو مروى، عن ابن عباس، وجماعة من الصحابة، والتابعين، وهذا هو: الحق لما سيأتي من التصريح بنسخها، ولما ثبت عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ غَفَرَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا». قوله: ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ قدم الجار، والمجرور على الفاعل لإظهار العناية به، وقدم الإبداء على الإخفاء؛ لأن الأصل في الأمور التي يحاسب عليها هو الأعمال البانية، وأما تقويم الإخفاء في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ تَخْفَوُ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 29] فلكون العلم يتعلق بالأعمال الخافية، والبانية على السوية، وقدم المغفرة على التعذيب لكون رحمته سبقت غضبه، وجملة قوله: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ مستأنفة، أي: فهو يغفر، وهي متضمنة لتفصيل ما أجمل في قوله: ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ وهذا على قراءة ابن عامر، وعاصم. وأما على قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وحزمة، والكسائي بجزم الراء،

الدنيا يخاف، ويحزن ويشتد همه لا يناله من ذلك شيء، كما هم بالسوء، ولم يعمل منه بشيء. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، عنها نحوه، والأحاديث المتقدمة المصروفة بالنسخ تنفعه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: إن الله يقول يوم القيامة: إن كتابي لم يكتبوا من أفعالكم إلا ما ظهر منها، فاما ما أسررتكم في أنفسكم، فانا أحاسبكم به اليوم، فاعف لمن شئت، وأعذب من شئت، وهو مدفوع بما تقدم.

أَمَّا أَرْسُولُ يَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ. وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ. لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ رُسُلِهِ. وَكَانُوا سِيَمًا وَأَلَفَاتًا عَفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَازِكَ الْعَمِيرِ ﴿١٨٨﴾ لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَهُمْهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَغْطَيْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ. وَاعْفُ عَنَّا وَابْتَغِ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨٩﴾

قوله: ﴿يَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: بجميع ما أنزل الله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الرسول، وقوله: ﴿كُلٌّ﴾ أي: من الرسول والمؤمنين ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ. وقوله: ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ ثان. وقوله: ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ خبر المبتدأ الثاني، وهو: وخبره خبر المبتدأ الأول، وأقره الضمير في قوله: ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ مع رجوعه إلى كل المؤمنين، لما أن المراد ببيان إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع، كما اعتبر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنُوهٍ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: 87]. قال الزجاج لما ذكر الله سبحانه في هذه السورة فرض الصلاة، والزكاة، وبين أحكام الحج، وحكم الحيض، والطلاق، والإيلاء، وأقاصيص الأنبياء، وبين حكم الربا، نكر تعظيمه سبحانه بقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 284] ثم نكر تصديق نبيه ﷺ، ثم نكر تصديق المؤمنين بجميع ذلك، فقال ﴿آمَنَ بِالرَّسُولِ﴾ يَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴿أَيَّ صَنَعَ الرَّسُولُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي جَرَى نَكْرُهَا، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ صَنَعُوا بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَقِيلَ: سَبَبُ نَزُولِهَا الْآيَةُ الَّتِي قَبْلُهَا. وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ. قَوْلُهُ: ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أَي: مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِمْ عِبَادَةُ الْمَكْرُمِينَ الْمُتَوَسِّطِينَ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ فِي أَنْزَالِ كُتُبِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُتُبِهِ﴾ لِأَنَّهَا الْمَشْتَمِلَةُ عَلَى الشَّرَائِعِ الَّتِي تَعْبُدُ بِهَا عِبَادَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُسُلِهِ﴾ لِأَنَّهُمْ الْمُبَلِّغُونَ لِعِبَادِهِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ. وَقَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَعَاصِمٌ فِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَابْنُ عَامَرٍ، وَكُتِبَ بِالْجَمْعِ. وَقُرِئُوا فِي التَّحْرِيمِ، وَكِتَابِهِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ هُنَا، وَكِتَابِهِ، وَكَذَلِكَ قَرَأَ حَمْزَةً، وَالْكَسَاثِي، وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الْكِتَابُ أَكْثَرُ مِنَ الْكُتُبِ. وَبَيْنَهُ صَاحِبُ الْكَشَافِ، فَقَالَ: لِأَنَّهُ إِذَا أُريدَ بِالْوَحْدِ الْجِنْسِ، وَالْجِنْسِيَّةُ قَائِمَةٌ فِي وَحْدَانِ الْجِنْسِ كُلِّهِ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَأَمَّا الْجَمْعُ، فَلَا يَدْخُلُ تَحْتَهُ إِلَّا مَا فِيهِ الْجِنْسِيَّةُ مِنَ الْجَمْعِ. وَنَهِى. وَمَنْ أَرَادَ تَحْقِيقَ الْمَقَامِ، فَلْيَرْجِعْ إِلَى شَرْحِ التَّلْخِصِ

المطوّل عند قول صاحب التلخيص «واستغراق المفرد لشمّل». وقرأ الجمهور ورسله بضم السين. وقرأ أبو عمرو، بتخفيف السين. وقرأ الجمهور «لا نفرّق» بالنون. والمعنى: يقولون: لا نفرّق. وقرأ سعيد بن جبّير، ويحيى بن يعمر، وأبو زرعة، وابن عمر، وابن جرير، ويعقوب «لا يفرّق» بالياء التحتية. وقوله: ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾ ولم يقل بين أحاد، لأنّ الواحد يتناول الواحد، والجمع، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: 47] فوصفه بقوله: ﴿حَاجِزِينَ﴾ لكونه في معنى الجمع، وهذه الجملة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال، وأن تكون خبراً آخر لقوله: ﴿كُلٌّ﴾. وقوله: ﴿مِنْ رُسُلِهِ﴾ أظهر في محل الإضمار للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة في الحكم، أو الإشعار بعلّة عدم التفريق بينهم. وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ هو: معطوف على قوله: ﴿آمَنَ﴾ وهو: وإن كان للمفرد، وهذا للجماعة، فهو جائز نظراً إلى جانب المعنى، أي: أدركناه بأسامعنا، وفهمناه، وأطعنا ما فيه؛ وقيل: معنى سمعنا: أجبنا دعوتك. قوله: ﴿وَعَفْرَانِكَ﴾ مصدر منصوب بفعل مقتر، أي: اغفر غفرانك. قاله الزجاج، وغيره، وقدم السمع، والطاعة على طلب المغفرة لكون الوسيلة تتقدّم على المتوسّل إليه. قوله: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَهُمْهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: لا يسع بما فيه مشقة، وكلفة، والوسع: الطاقة، والوسع: ما يسع الإنسان، ولا يضيق عليه، وهذه جملة مستقلة جاءت عقب قوله سبحانه: ﴿وَأَنْ تَتَّبِعُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 284] الآية لكشف كربة المسلمين، وبفع المشقة عليهم في التكليف بما في الأنفس، وهي كقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]. قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فيه ترغيب، وترهيب، أي: لها ثواب ما كسبت من الخير، وعليها وزر ما اكتسبت من الشر، وتقدم لها، وعليها على الفعلين، ليفيد أن ذلك لها لا لغيرها، وعليها لا على غيرها، وهذا مبني على أن كسب للخير فقط، واكتسب للشر فقط، كما قاله صاحب الكشاف، وغيره، وقيل: كل واحد من الفعلين يصلق على الأمرين، وإنما كَرَّبَ الفعل، وخالف بين التصريفيّن تحسيناً للنظم، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُيْدًا﴾ [الطارق: 17]. قوله: ﴿وَرَبَّنَا لَا تُؤَلِّخْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَغْطَيْنَا﴾ أي: لا تؤلِّخنا بإثم ما يصدر منا من هذين الأمرين. وقد استشكل هذا الدعاء جماعة من المفسرين، وغيرهم قائلين إن الخطأ، والنسيان مغفوران غير مؤاخذ بهما، فما معنى الدعاء بذلك، فإنه من تحصيل الحاصل. ولجيب عن ذلك بأن المراد طلب المؤاخذة بما صدر عنهم من الأسباب المؤدية إلى النسيان، والخطأ من التفریط، وعدم المبالاة، لا من نفس النسيان، والخطأ، فإنه لا مؤاخذة بهما، كما يفيد ذلك قوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وسيائي مخرّجه» وقيل: إنه يجوز للإنسان أن يدعو بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدামته، وقيل: إنه وإن ثبت شرعاً أنه لا مؤاخذة بهما، فلا

مخرج التعليم كيف يدعون، وقيل: معناه: أنت سيناء، ونحن عبيدك ﴿فانصرونا على القوم الكافرين﴾ فإن من حق المولى أن ينصر عبيده، والمراد عامة الكفرة، وفيه إشارة إلى إعلاء كلمة الله في الجهاد في سبيله. وقد قدمنا في شرح الآية التي قبل هذه أعني قوله: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم﴾ [البقرة: 284] إلخ، أنه ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات: قد فعلت، فكان ذلك دليلاً على أنه سبحانه لم يؤاخذهم بشيء من الخطأ، والنسيان، ولا حمل، عليهم شيئاً من الإصر الذي حمله على من قبلهم، ولا حملهم ما لا طاقة لهم به، وعفا عنهم، وغفر لهم، ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين، والحمد لله رب العالمين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حبان ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ لا نكفر بما جاءت به الرسل، ولا نفرق بين أحد منهم، ولا نكذب به: ﴿وقالوا سمعنا﴾ للقرآن الذي جاء من الله ﴿واطعنا﴾، أقرؤا الله أن يطيعوه في أمره ونهيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿غفرناك ربنا﴾ قال: قد غفرت لكم ﴿والإيك للمصير﴾ قال: إليك المرجع، والمآب يوم يقوم الحساب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن حكيم بن جابر قال: لما نزلت: ﴿أمن الرسول﴾ الآية، قال جبريل للنبي ﷺ: إن الله قد أحسن الثناء عليك، وعلى أمتك، فسل تعطه، فقال: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ حتى ختم السورة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ قال: هم المؤمنون وسع الله عليهم أمر دينهم، فقال: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: 78]. وقال: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة: 185] وقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: 16] وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ قال: من العمل. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿إلا وسعها﴾ قال: إلا طاقتها. وأخرج ابن المنذر، عن الضحاک، نحوه. وقد أخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن حبان في صحيحه، والطبراني، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكروها عليه﴾ وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي نر مرفوعاً، والطبراني من حديث ثوبان، ومن حديث ابن عمر، ومن حديث عقبة بن عامر. وأخرجه البيهقي أيضاً من حديثه. وأخرجه ابن عدي في الكامل، وأبو نعيم من حديث أبي بكره. وأخرجه ابن أبي حاتم من حديث أم الدرداء. وأخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، من حديث الحسن مرسلاً. وأخرجه عبد بن حميد، من حديث الشعبي مرسلاً. وفي أسانيد هذه الأحاديث مقال، ولكنها يقو بعضها بعضاً، فلا تقصر عن رتبة الحسن لغيره. وقد تقدم حديث:

امتناع في المؤاخذة بهما عقلاً، وقيل: لأنهم كانوا على جانب عظيم من التقوى بحيث لا يصدر عنهم الذنب تعمدًا، وإنما يصدر عنهم خطأ، أو نسيانًا، فكانه وصفهم بالدعاء بذلك إيمانًا بنزاهة ساحتهم، عما يؤاخذون به، كانه قيل: إن كان النسيان، والخطأ مما يؤاخذ به، فما منهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ، والنسيان. قال القرطبي: وهذا لم يختلف فيه أن الإثم مرفوع، وإنما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام هل ذلك مرفوع، ولا يلزم منه شيء، أو يلزم أحكام ذلك كله؟ اختلف فيه، والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع، فقسم لا يسقط باتفاق كالغرامات، والديانات، والصلوات المفروضات، وقسم يسقط باتفاق كالقصاص، والتلق بكلمة الكفر، وقسم ثالث مختلف فيه كمن أكل ناسياً في رمضان، أو حنث ساهياً، وما كان مثله مما يقع خطأ، ونسياناً، ويعرف ذلك في الغرور. انتهى. قوله: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ عطف على الجملة التي قبله، وتكرير النداء للإيمان بمزيد التضرع، واللجأ إلى الله سبحانه. والإصر: العبء الثقيل الذي ياصر صاحبه، أي: يحبس مكانه لا يستقل به لثقله. والمراد به هنا: التكليف الشاق، والأمر الغليظ الصعب، وقيل الإصر: شدة العمل، وما غلظ على بني إسرائيل من قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة، ومنه قول النابغة:

يامانع الضيم أن تغشى سراتهم والحامل الإصر عنهم بعد ما غرقوا وقيل: الإصر: المسخ قرودة، وخنازير، وقيل: العهد، ومنه قوله تعالى: ﴿واخذتم على نكاح إصرى﴾ [آل عمران: 81] وهذا الخلاف يرجع إلى بيان ما هو الإصر الذي كان على من قبلنا، لا إلى معنى الإصر في لغة العرب، فإنه ما تقدم نكره بلا نزاع، والإصر: الحبل الذي تربط به الاحمال، ونحوها، يقال: أصر يُلَصِّرُ إصراً: حبس، والإصر بكسر الهمزة من ذلك. قال الجوهري: والموضع ماصر، والجمع مَاصِر، والعامة تقول معاصر. ومعنى الآية: أنهم طلبوا من الله سبحانه أن لا يحملهم من ثقل التكليف ما حمل الأمم قبلهم. وقوله: ﴿كما حملته﴾ صفة مصدر محذوف، أي: حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا، أو صفة لإصره، أي: إصراً مثل الإصر الذي حملته على من قبلنا. قوله: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ هو أيضاً عطف على ما قبله، وتكرير النداء للنكته المذكورة قبل هذا. والمعنى: لا تحملنا من الاعمال ما لا نطيق وقيل: هو عبارة عن إنزال العقوبات، كانه قال: لا تنزل علينا العقوبات بتفريطنا في المحافظة على تلك التكالييف الشاقة التي كلفت بها من قبلنا، وقيل المراد به: الشاق الذي لا يكاد يستطيع من التكالييف. قال في الكشف: وهذا تقرير لقوله: ﴿ولا تحمل علينا إصراً﴾. قوله: ﴿واعف عنا﴾ أي: عن ذنوبنا، يقال عفوت عن ذنبي: إذا تركته، ولم تعاقبه عليه ﴿واغفر لنا﴾ أي: استر على ذنوبنا، والغفر: الستر ﴿وارحمنا﴾ أي: تفضل برحمة منك علينا ﴿أنت مولانا﴾ أي: ولينا، وناصرنا، وخرج هذا

يشفيان، وهما مما يحبهما الله الآيتان من آخر البقرة». وأخرج الطبراني بسند جيد، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بالفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة لا يقرآن في دار ثلاث ليال، فيقربها شيطان» وأخرج ابن عدي، عن ابن مسعود الأنصاري: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل الله آيتين من كنوز الجنة، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بالفي سنة، من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأته عن قيام الليل». وأخرج ابن مروي، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة، أو آية الكرسي ضحك وقال: إنهما من كنز تحت العرش. وأخرج ابن مروي، عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش» وأخرج مسلم، والنسائي، واللفظ له، عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً، فرفع جبريل بصره فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ، فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته. فهذه ثلاثة عشر حديثاً في فضل هاتين الآيتين مرفوعة إلى النبي ﷺ. وقد روى في فضلها من غير المرفوع، عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي مسعود، وكعب الأحبار، والحسن، وأبي قلاب، وفي قول النبي ﷺ ما يغني عن غيره.

تفسير سورة آل عمران

هي: مدنية، قال القرطبي: بالإجماع، ومما يدل على ذلك أن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية نزل في وفد نجران، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة. وقد أخرج البيهقي في الدلائل من طرق، عن ابن عباس قال: نزلت سورة آل عمران بالمدينة. وقد تقدم في أوائل سورة البقرة ما هو مشترك بينها، وبين هذه السورة من الأحاديث الدالة على فضلها، وكذلك تقدم ما ورد في السبع الطوال. وأخرج الطبراني بسند ضعيف، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه، وملائكته حتى تغيب الشمس». وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في الشعب، عن عمر بن الخطاب قال: من قرأ البقرة، وآل عمران، والنساء كتب عند الله من الحكماء. وأخرج الترمذي، ومحمد بن نصر، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود: من قرأ آل عمران، فهو غني. وأخرج الدارمي، وعبد بن حميد، والبيهقي عنه قال: نعم كنز الصلوك آل عمران يقوم بها الرجل من آخر الليل. وأخرج سعيد بن منصور، عن أبي عطاء قال: اسم آل عمران في التوراة طيبة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عبد الملك بن عمير قال: قرأ رجل البقرة، وآل عمران، فقال كعب: قد قرأ السورتين إن

«إن الله قال قد فعلت» وهو في الصحيح وهو يشهد لهذه الأحاديث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِصْرًا﴾ قال: عهداً. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج مثله. وأخرج أيضاً عن عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ قال: لا تمسحنا قردة، وخنازير. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في الآية أن الإصر: الذنب الذي ليس فيه توبة، ولا كفارة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الفضيل في الآية قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا اتنب قيل له: توبتك أن تقتل نفسك، فيقتل نفسه، فوضعت الأصار عن هذه الأمة. وأخرج عبد بن حميد، عن عطاء قال: لما نزلت هذه الآيات: ﴿رَبِّمَا لَا تُوَلِّخُنَا﴾ إلخ، كلما قالها جبريل للنبي ﷺ قال النبي: آمين رب العالمين. وأخرج أبو عبيد، عن ميسرة أن جبريل لقن النبي ﷺ خاتمة البقرة آمين. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال: آمين. وأخرج أبو عبيد عن جبير بن نفير: أنه كان يقول: آمين آمين. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي نر قال: هي للنبي ﷺ خاصة. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك في هذه الآية قال: سألها نبي الله ربه، فاعطاه إياها، فكانت للنبي ﷺ خاصة. وقد ثبت عند الشيخين، وأهل السنن، وغيرهم، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه». وأخرج أبو عبيد، والدارمي، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي، عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بالفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال، فيقربها شيطان». وأخرج أحمد، والنسائي، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في الشعب بسند صحيح، عن حذيفة أن النبي ﷺ كان يقول: «أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي». وأخرج أحمد، والبيهقي، عن أبي نر مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو عبيد، وأحمد، ومحمد بن نصر، عن عقبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة: ﴿آمَنَ لِلرَّسُولِ﴾ إلى خاتمتهما، فإن الله اصطفى بها محمداً، وإسناده حسن. وأخرج مسلم، عن ابن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى سدره الممنهى، وأعطى ثلاثاً، أعطي الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً المفحومات. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن أبي نر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش، فتعلموهما، وعلموهما نساءكم، ولبناءكم، فإنهما صلاة، وقرآن، ودعاء». وأخرج الترمذي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنان هما قرآن، وهما

فيهما الاسم الذي إذا دعى به أجاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ اللَّهُ الْغَنِيُّ ① نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ② مِنْ قَبْلُ هَٰذَا نَتْلُوهُ عَلَيْكَ وَنَزَّلَ الْفُرْقَانَ ③ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ④ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ⑤ هُوَ الَّذِي يُسَوِّدُكُمْ فِي الْأَنْزَارِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑥

قرأ الحسن، وعمرو بن عبدة، وعاصم بن أبي النجود، وأبو جعفر الرواسي «الْمَ اللَّهُ» بقطع ألف الوصل على تقدير الوقف على «الْمَ» كما يقدرون الوقف على أسماء الأعداد نحو واحد اثنان ثلاثة أربعة مع وصلهم. قال الأخفش: ويجوز «الْمَ اللَّهُ» بكسر الهمزة لالتقاء الساكنين. قال الزجاج: هذا خطأ، ولا تقوله العرب لثقله. وقد ذكر سيبويه في الكتاب أن فواتح السور التي لم تكن موازنة لمفرد طريق التلظف بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف، سواء جعلت أسماء، أو مسرودة على نمط التعديد، وإن لزوماً التقاء الساكنين لما أنه مفتقر في باب الوقف، فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها، ثم يبدأ بما بعدها، كما فعله الحسن، ومن معه في قراءتهم المحكية سابقاً. وأما فتح الميم على القراءة المشهورة: فوجه ما روى عن سيبويه أن الميم فتحت لالتقاء الساكنين. وقال الكسائي: حروف التهجي إذا لقيتها ألف وصل، فحذفت الألف، وحركت الميم بحركة الألف، وكذا قال الغراء. وهذه الفواتح إن جعلت مسرودة على نمط التعديد، فلا محل لها من الإعراب، وإن جعلت أسماء للسورة، فمحلها إما الرفع على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة قبلها، أو النصب على تقدير أفعال يقتضيها للمقام كأنكر، أو اقراء، أو نحوها، وقد تقدم في أوائل سورة البقرة ما يغني عن الإعادة. وقوله: «إِلَهُ إِلَّا هُوَ» مبتدأ، وخبر، والجملة مستأنفة، أي: هو المستحق للعبودية. والحي القيوم: خبران آخران للاسم الشريف، أو خبران لمبتدأ محذوف، أي: هو الحي القيوم، وقيل: إنهما صفتان للمبتدأ الأول، أو بدلان منه، أو من الخير، وقد تقدم تفسير الحي والقيوم. وقرأ جماعة من الصحابة القيام عمر، وأبي بن كعب، وابن مسعود. وقوله: «نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ» أي: القرآن، وقدم الظرف على المفعول به للاعتناء بالمنزل عليه ﷺ، وهي: إما جملة مستأنفة، أو خبر آخر للمبتدأ الأول. وقوله: «بِالْحَقِّ» أي: بالصدق، وقيل: بالحجة الغالبة، وهو في محل نصب على الحال. وقوله: «مُصَدِّقًا» حال آخر من الكتاب مؤكدة؛ لأنه لا يكون إلا مصدقاً، فلا تكون الحال منتقلة أصلاً، وبهذا قال الجمهور، وجوز بعضهم الانتقال على معنى أنه مصدق لنفسه وبغيره. وقوله: «لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ» أي: من الكتب المنزلة، وهو متعلق بقوله: مصدقاً، واللام للتقوية. وقوله: «وَنَزَّلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ» هذه

الجملة في حكم البيان لقوله: لما بين يديه. وإنما قال هنا أنزل، وفيما تقدم نزل: لأن القرآن نزل منجماً، والكتابان نزلا دفعة واحدة، ولم ينكر في الكتابين من أنزلا عليه، ونكر فيما تقدم أن الكتاب نزل على رسول الله ﷺ؛ لأن القصد هنا ليس إلا إلى نكر الكتابين لا نكر من نزلا عليه. وقوله: «مِنْ قَبْلُ» أي: أنزل التوراة، والإنجيل من قبل تنزيل الكتاب. وقوله: «هُدًى لِلنَّاسِ» إما حال من الكتابين، أو علة للإنزال. والمراد بالناس: أهل الكتابين، أو ما هو أعم؛ لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع. قال ابن فورك: هدى للناس المتقين، كما قال في البقرة هدى للمتقين. قوله: «وَنَزَّلَ الْفُرْقَانَ» أي: الفارق بين الحق والباطل، وهو القرآن، وكرر ذكره تشريفاً له مع ما يشتمل عليه هذا الذكر الآخر من الوصف له بأنه يفرق بين الحق والباطل، ونكر للتنزيل أولاً، والإنزال ثانياً لكونه جامعاً بين الوصفين، فإنه أنزل إلى سماء الدنيا جملة، ثم نزل منها إلى النبي ﷺ مغزقاً منجماً على حسب الحوادث كما سبق. وقيل: أراد بالفارقان جميع الكتب المنزلة من الله تعالى على رسله، وقيل: أراد الزبور لشماله على المواعظ الحسنة، وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» أي: بما يصدق عليه أنه آية من الكتب المنزلة، وغيرها، أو بما في الكتب المنزلة المذكورة على وضع آيات الله موضع الضمير العائد إليها، وفيه بيان الأمر الذي استحقوا به الكفر «لَهُمْ» بسبب هذا الكفر «عَذَابٌ شَدِيدٌ» أي: عظيم «وَاللَّهُ عَزِيزٌ» لا يغالبه مغالب «هُوَ انْتِقَامٌ» عظيم، والنقمة السطوة، يقال انتقم منه: إذا عقبه بسبب ننب قد تقدم منه. وقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» هذه الجملة استئنافية لبيان سعة علمه، وإحاطته بالمعلومات، وعبر عن معلوماته بما في الأرض، والسماء مع كونها أوسع من ذلك، لقصور عبادته عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته، وسائر معلوماته، ومن جملة ما لا يخفى عليه إيمان من آمن من خلقه، وكفر من كفر. وقوله: «هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ» أصل اشتقاق الصورة من صاره إلى كذا أي: أماله إليه، فالصورة ماثلة إلى شبهه، وهيئة، وأصل الرحم من الرحمة؛ لأنه مما يتراحم به، وهذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان إحاطة علمه، وأن من جملة معلوماته ما لا يدخل تحت الوجود، وهو: تصوير عبادته في أرحام أمهاتهم من نطف آبائهم كيف يشاء من حسن، وقبيح، وأسود، وأبيض، وطويل، وقصير. وكيف معمول يشاء، والجملة حالية.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن جعفر بن محمد بن الزبير قال: «قدم على رسول الله ﷺ وقد نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب، وعبد المسيح، والسيد، وهو الأيهم، ثم نكروا القصة في الكلام الذي دار بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأن

الله أنزل في ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع، فنكر وفد نجران، ومخاصمتهم للنبي ﷺ في عيسى عليه السلام، وأن الله أنزل: ﴿وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال: لما قبله من كتاب، أو رسول. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه، وقال في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ هو القرآن فرق بين الحق والباطل، فاحل فيه حلاله، وحرم فيه حرامه، وشرع فيه شرائعه، وحد فيه حدوده، وفرض فيه فرائضه، وبين فيه بيانه، وأمر بطاعته، ونهى عن معصيته. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: الفصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى، وغيره. وفي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أي: إن الله ينتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها، ومعرفته بما جاء منه فيها. وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: قد علم ما يريون، وما يكيدون، وما يظاهرون بقولهم في عيسى إذ جعلوه رباً وإلهاً، وعندهم من علمه غير ذلك غرة بالله، وكفراً به. ﴿هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قد كان عيسى ممن صور في الأرحام لا ينفعون ذلك، ولا ينكرونها، كما صور غيره من بني آدم، فكيف يكون إلهاً، وقد كان بذلك المنزل. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود في قوله: ﴿يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال: نكورا، وإنشأ. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال: إذا وقعت النطفة في الأرحام طارت في الجسد أربعين يوماً، ثم تكون علقة أربعين يوماً، ثم تكون مضغة أربعين يوماً، فإذا بلغ أن يخلق بعث الله ملكاً يصورها، فيأتي الملك بتراب بين أصبعيه، فيخلط منه المضغة، ثم يعجنه بها، ثم يصور، كما يؤمر فيقول: أنكر أم أنثى، أشقي أم سعيد، وما رزقه، وما عمره، وما أثره، وما مصائبه؟ فيقول الله، ويكتب الملك، فإذا مات ذلك الجسد دفن حيث أخذ ذلك التراب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال: من نكر، وأنثى، وأحمر، وأسود، وتأم الخلق، وغير تام الخلق.

﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَكُونُ مِنْهُ آيَاتٌ الْفُتْنَةِ وَالنَّجَافَةِ تَأْوِيلُهُ وَمَا يَسْمَعْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالْزَيْغُوهُ فِي الْقُلُوبِ يَوْمَئِذٍ كَالَّذِي يَدُورُ عَلَى رَأْسِهِ وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوَّلُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٠﴾ رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْعَاهِدَ ﴿١٢﴾﴾

والأولى أن يقال: إن المحكم هو: الواضح المعنى الظاهر للدلالة، إما باعتبار نفسه، أو باعتبار غيره، والمتشابه ما لا يتضح معناه، أو لا تظهر دلالاته لا باعتبار نفسه، ولا باعتبار غيره. وإذا عرفت هذا عرفت أن هذا الاختلاف الذي قدمناه ليس كما ينبغي، وذلك لأن أهل كل قول عرّفوا المحكم ببعض صفاته، وعرّفوا المتشابه بما يقابلها. وبيان ذلك أن أهل القول الأول جعلوا المحكم ما وجد إلى علمه سبيل،

الكتاب هو: القرآن، فاللام للعهد، وقدم الظرف، وهو عليك

يوم يأتي تأويله ﴿[الأعراف: 53] أي: يوم يرون ما يوعدون من البعث، والنشور، والعذاب﴾ يقول الذين نسوه ﴿[الأعراف: 53] أي تركوه﴾ فقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴿[الأعراف: 53] أي: قد رأينا تأويل ما أنبأنا به الرسل. قوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ التأويل يكون بمعنى التفسير، كقولهم تأويل هذه الكلمة على كذا، أي: تفسيرها، ويكون بمعنى ما يتوَلَّى الأمر إليه، واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يتوَلَّى إليه، أي: صار، وأولته تأويلاً، أي: صيرته، وهذه الجملة حالية، أي: يتبعون المتشابه لا يتغافل تأويله، والحال أن ما يعلم تأويله إلا الله، وقد اختلف أهل العلم في قوله: ﴿والراسخون في العلم﴾ هل هو كلام مقطوع، عما قبله، أو معطوف على ما قبله؟ فتكون الواو للجمع، فالذي عليه الأكثر أنه مقطوع عما قبله، وأن الكلام تم عند قوله: ﴿إلا الله﴾ هذا قول ابن عمر، وابن عباس، وعائشة، وعروة بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز، وأبي الشعثاء، وأبي نهيك، وغيرهم، وهو مذهب الكسائي، والفراء، والأخفش، وأبي عبيد، وحكاه ابن جرير الطبري، عن مالك، واختاره، وحكاه الخطابي، عن ابن مسعود، وأبي بن كعب قال: وإنما روي عن مجاهد أنه نسق الراسخين على ما قبله، وزعم أنهم يعلمونه، قال: واحتج له بعض أهل اللغة، فقال: معناه: والراسخون في العلم يعلمونه قائلين ﴿أمنّا به﴾ وزعم أن موضع ﴿يقولون﴾ نصب على الحال، وعامة أهل اللغة ينكرونه، ويستبعدونه؛ لأن العرب لا تضرع الفعل، والمفعول معاً، ولا تنكر حالا إلا مع ظهور الفعل، فإذا لم يظهر فعل لم يكن حالاً، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال عبد الله راكباً، يعني أقبل عبد الله راكباً، وإنما يجوز ذلك مع نكر الفعل كقوله عبد الله يتكلم يصلح بين الناس، فكان يصلح حالاً كقول الشاعر: أنشدني أبو عمرو. قال: أنشدنا أبو العباس ثعلب: أرسلت فيها رجلاً لكالكا يقصر يمشي ويطول باركاً فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده. وأيضاً، فإنه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه شيئاً عن الخلق، وينسبه لنفسه، فيكون له في ذلك شريك، ألا ترى قوله عز وجل: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ [النمل: 65]، وقوله: ﴿كل شيء جليلها لوقتها إلا هو﴾ [الأعراف: 187]، وقوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: 88] فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه به لا يشركه فيه غيره، وكذلك قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ ولو كانت الواو في قوله: ﴿والراسخون﴾ للنسق لم يكن لقوله: ﴿كل من عند ربنا﴾ فائدة. انتهى. قال القرطبي: ما حكاه الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره. فقد روي عن ابن عباس: أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل، وأنهم داخلون في علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون أمنّا به. وقاله الربيع، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والقاسم بن محمد، وغيرهم، و﴿يقولون﴾ على هذا التأويل نصب على الحال من

والمتشابه ما لا سبيل إلى علمه، ولا شك أن مفهوم المحكم، والمتشابه أوسع دائرة مما نكروه، فإن مجرد الخفاء، أو عدم الظهور، أو الإحتمال، أو التردد يوجب التشابه؛ وأهل القول الثاني خصوا المحكم بما ليس فيه احتمال، والمتشابه بما فيه احتمال، ولا شك أن هذا بعض أوصاف المحكم، والمتشابه لا كلها، وهكذا أهل القول الثالث، فإنهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الأوصاف المعينة دون غيرها؛ وأهل القول الرابع خصوا كل واحد منهما ببعض الأوصاف التي ذكرها أهل القول الثالث، والأمر أوسع مما قالوه جميعاً، وأهل القول الخامس خصوا المحكم بوصف عدم التصريف، والتحريف، وجعلوا المتشابه مقابله، وأهملوا ما هو أهم من ذلك مما لا سبيل إلى علمه من دون تصريف، وتحريف كفواتح السور المقطعة، وأهل القول السادس خصوا المحكم بما يقوم بنفسه، والمتشابه بما لا يقوم بها، وأن هذا هو بعض أوصافهما، وصاحب القول السابع، وهو ابن خويز منداد عمد إلى صورة الوفاق، فجعلها محكماً، وإلى صورة الخلاف، والتعارض، فجعلها متشابهة، فأهمل ما هو أخص أوصاف كل واحد منهما من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى، أو غير مفهوم. قوله: ﴿هؤلاء هم الكتاب﴾ أي: أصله الذي يعتمد عليه، ويرد ما خالفه إليه، وهذه الجملة صفة لما قبلها. قوله: ﴿ولآخر متشابهات﴾ وصف لمحتوف مقدر، أي: وآيات آخر متشابهات، وهي جمع أخرى، وإنما لم ينصرف؛ لأنه عدل بها عن الآخر؛ لأن أصلها أن يكون كذلك. وقال أبو عبيد: لم ينصرف؛ لأن واحدها لا ينصرف في معرفة، ولا نكرة، وأنكر ذلك المبرّد. وقال الكسائي: لم تنصرف؛ لأنها صفة، وأنكره أيضاً المبرّد. وقال سيبويه: لا يجوز أن يكون آخر معنولة عن الألف، واللام؛ لأنها لو كانت معنولة عنها لكان معرفة، ألا ترى أن سحر معرفة في جميع الأقاويل لما كانت معنولة. قوله: ﴿فلما الذين في قلوبهم زيغ﴾ الرّيب: الميل؛ ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار؛ ويقال زاغ يزيغ زيغاً: إذا ترك القصد، ومنه قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: 5] وهذه الآية تعم كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق. وسبب النزول نصارى نجران، كما تقدّم، وسيأتي. قوله: ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي: يتعلقون بالمتشابه من الكتاب، فيشككون به على المؤمنين، ويجعلونه ليلاً على ما هم فيه من البدة المائلة عن الحق، كما تجده في كل طائفة من طوائف البدة، فإنهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعباً شديداً، ويوردون منه لتفنيق جهلهم ما ليس من الدلالة في شيء. قوله: ﴿لبتغاء للفتنة﴾ أي: طلباً منهم لفتنة الناس في دينهم، والتلبيس عليهم، وإفساد ذات بينهم ﴿ولبتغاء تأويله﴾ أي: طلباً لتأويله على الوجه الذي يريدونه، ويوافق مذاهبهم للفاسدة. قال الزجاج: معنى ابتغائهم تأويله: أنهم طلبوا تأويل بعثهم، وإحيائهم، فأعلم الله عز وجل أن تأويل ذلك، ووقته لا يعلمه إلا الله. قال: والدليل على ذلك قوله: ﴿هل ينظرون إلا تأويله

الراسخون كما قال:

الرياح يبكي شجرة - والبرق يلعب في الغمام
وهذا البيت يحتمل المعنيين، فيجوز أن يكون، والبرق مبتدأ، والخبر يلعب على التأويل الأول، فيكون مقطوعاً مما قبله، ويجوز أن يكون معطوفاً على الريح، ويلعب في موضع الحال على التأويل الثاني أي: لامعاً. انتهى. ولا يخفك أن ما قاله الخطابي في وجه امتناع كون قوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً من أن العرب لا تذكر حالاً إلا مع ظهور الفعل إلى آخر كلامه لا يتم إلا على فرض أنه لا فعل هنا، وليس الأمر كذلك، فالفعل منكر، وهو قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ ولكنه جاء الحال من المعطوف، وهو قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ بون المعطوف عليه، وهو قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وذلك جائز في اللغة العربية. وقد جاء مثله في الكتاب العزيز. ومنه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر: 8] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ [الحشر: 10] الآية، وكقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22] أي: وجاءت الملائكة صفا صفا، ولكن ما هنا مانع آخر من جعل ذلك حالاً، وهو أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمناً به ليس بصحيح، فإن الراسخين في العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه في كل حال من الأحوال لا في هذه الحالة الخاصة، فافتضى هذا أن جعل قوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً غير صحيح، فتعين المصير إلى الاستئناف والجزم بأن قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ خبره ﴿يَقُولُونَ﴾ ومن جملة ما استدلل به القائلون بالعطف أن الله سبحانه منحهم بالرسوخ في العلم، فكيف يمنحهم وهم لا يعلمون ذلك؟ ويجب عن هذا بأن تركهم لطلب علم ما لم يأتوا الله به، ولا جعل لخلقه إلى علمه سبيلاً هو من رسوخهم، لأنهم علموا أن ذلك مما استأثر الله بعلمه، وأن الذين يتبعونه هم الذين في قلوبهم زيغ، ونأهيك بهذا من رسوخ. وأصل الرسوخ في لغة العرب: الثبوت في الشيء، وكل ثابت راسخ، وأصله في الأجرام أن ترسخ الخيل، أو الشجر في الأرض، ومنه قول الشاعر:

لقد رسخت في الصلرمنى مودة لليلى أبت آياتها أن تغيرا
فهؤلاء ثبتوا في امتثال ما جاءهم عن الله من ترك اتباع المتشابه، وإرجاع علمه إلى الله سبحانه. ومن أهل العلم من توسط بين المقامين فقال التأويل يطلق ويراد به في القرآن شيئان: أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ [يوسف: 100]، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: 53] أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة: لأن حقائق الأمور، ولكنها لا يعلمه إلا الله عز وجل، ويكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ، و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى

الأخر وهو: التفسير، والبيان، والتعبير عن الشيء، كقوله: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [لقمان: 34] أي بتفسيره فالوقف على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ لأنهم يعلمون، ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا، فيكون ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً منهم، ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون تأويله، وأطنب في ذلك، وهكذا جماعة من محققي المفسرين رجحوا ذلك. قال القرطبي: قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وهو: الصحيح فإن تسميتهم راسخين تقضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع، لكن المتشابه يتنوع، فمنه ما لا يعلم البتة كأمم الروح، والساعة مما استأثر الله بعلمه، وهذا لا يتعاطى علمه أحد، فمن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه، فإنما أراد هذا النوع. وأما ما يمكن حمله على وجوه في اللغة، فيتأول، ويعلم تأويله المستقيم، ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم. انتهى.

واعلم أن هذا الاضطراب الواقع في مقالات أهل العلم أعظم أسباب اختلاف أقوالهم في تحقيق معنى المحكم، والمتشابه. وقد قدمنا لك ما هو الصواب في تحقيقهما، ونزيبك ما هنا إيضاحاً، وبياناً، فنقول: إن من جملة ما يصنق عليه تفسير المتشابه الذي قدمناه فواتح السور، فإنها غير متضحة المعنى، ولا ظاهرة الدلالة، لا بالنسبة إلى أنفسها؛ لأنه لا يدري من يعلم بلغة العرب، ويعرف عرف الشرع ما معنى ألم، ألمر، حم طس، طسم ونحوها؛ لأنه لا يجد بيانها في شيء من كلام العرب، ولا من كلام الشرع، فهي غير متضحة المعنى، لا باعتبارها نفسها، ولا باعتبار أمر آخر يفسرها، ويوضحها، ومثل ذلك الألفاظ المنقولة عن لغة العجم، والألفاظ الغريبة التي لا يوجد في لغة العرب، ولا في عرف الشرع ما يوضحها، وهكذا ما استأثر الله بعلمه كالروح، وما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34] إلى الآخر الآية، ونحو ذلك، وهكذا ما كانت دلالة غير ظاهرة لا باعتبار نفسه، ولا باعتبار غيره، كورود الشيء محتملاً لأمرين احتمالاً لا يرجح أحدهما على الآخر باعتبار ذلك الشيء في نفسه، وذلك كالألفاظ المشتركة مع عدم ورود ما يبين المراد من معنى ذلك المشترك من الأمور الخارجة، وكذلك ورود ليلين متعارضين تعارضاً كلياً بحيث لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر لا باعتبار نفسه، ولا باعتبار أمر آخر يرجحه. وأما ما كان واضح المعنى باعتبار نفسه بأن يكون معروفاً في لغة العرب، أو في عرف الشرع، أو باعتبار غيره، وذلك كالأمور المجملة التي ورد بيانها في موضع آخر من الكتاب العزيز، أو في السنة المطهرة، أو الأمور التي تعارضت دلالتها، ثم ورد ما يبين راجحها من مرجوحها في موضع آخر من الكتاب، أو السنة، أو سائر

﴿اليوم﴾ هو يوم القيامة أي: لحساب يوم، أو لجزء يوم على تقدير حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. قوله: ﴿لا ريب فيه﴾ أي: في وقوعه ووقوع ما فيه من الحساب، والجزاء، وقد تقدم تفسير الريب، وجملة قوله: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ للتعليل لمضمون ما قبلها، أي: أن الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه، وخلفه يخالف الألوهية، كما أنها تنافيه، وتباينه.

المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة عند أهل الإنصاف، فلا شك، ولا ريب أن هذه من المحكم لا من المتشابه، ومن زعم أنها من المتشابه، فقد اشتبه عليه الصواب، فاشدد يدك على هذا، فإنك تنجو به من مضايق، ومزالق وقعت للناس في هذا المقام حتى صارت كل طائفة تسمى ما دل لما ذهب إليه محكماً، وما دل على ما يذهب إليه من يخالفها متشابهاً: سيما أهل علم الكلام، ومن أنكر هذا، فعليه بمؤلفاتهم.

واعلم أنه قد ورد في الكتاب العزيز ما يدل على أنه جميعه محكم، ولكن لا بهذا المعنى الوارد في هذه الآية بل بمعنى آخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ [هود: 1] وقوله: ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ [يونس: 1] والمراد بالمحكم بهذا المعنى: أنه صحيح الالفاظ قوي المعاني فائق في البلاغة والفصاحة على كل كلام. وورد أيضاً ما يدل على أنه جميعه متشابه لكن لا بهذا المعنى الوارد في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها بل بمعنى آخر، ومنه قوله تعالى: ﴿كتاباً متشابهاً﴾ [الزمر: 23] والمراد بالمتشابه بهذا المعنى: أنه يشبه بعضه بعضاً في الصحة، والفصاحة، والحسن، والبلاغة. وقد نكر أهل العلم لورود المتشابه في القرآن فوالد: منها أنه يكون في الوصول إلى الحق مع وجودها فيه مزيد صعوبة، ومشقة، وذلك يوجب مزيد الثواب للمستخرجين للحق، وهم الأئمة المجتهدون، وقد نكر الزمخشري، والرازي، وغيرهما وجوهاً هذا أحسنها، وبقيتها لا تستحق الذكر ها هنا. قوله: ﴿كل من عند ربنا﴾ فيه ضمير مقدر عائد على مسمى المحكم، والمتشابه أي: كله، أو المحنوف غير ضمير، أي: كل واحد منهما، وهذا من تمام المقول المذكور قبله. وقوله: ﴿وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾ أي: العقول الخالصة: وهم الراسخون في العلم، الواقفون عند متشابهه، العالمون بمحكمه العاملون بما أرشدهم الله إليه في هذه الآية. وقوله: ﴿ربنا لا تزغ﴾ الخ من تمام ما يقوله الراسخون، أي: يقولون آمنا به كل من عند ربنا، ويقولون: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ قال ابن كيسان: سألو أبا يزيقوا، فتزيغ قلوبهم نحو قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: 5] كأنهم لما سمعوا قوله سبحانه: ﴿وما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ قالوا: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ باتباع المتشابه: ﴿بعد إذ هديتنا﴾ إلى الحق بما أننت لنا من العمل بالآيات المحكمات، والظرف، وهو قوله: ﴿بعد﴾ منتصب بقوله: لا تزغ. قوله: ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي: كائنة من عنك، ومن لابتداء الغاية ولئن بفتح اللام، وضم الدال، وسكون النون، وفيه لغات أخر هذه أفصحها، وهو ظرف مكان، وقد يضاف إلى الزمان، وتنكير رحمة للتعظيم أي: رحمة عظيمة واسعة وقوله: ﴿إنك أنت الوهاب﴾ تعليل للسؤال، أو لإعطاء المسؤول. وقوله: ﴿ربنا إنك جامع الناس﴾ أي: باعثهم ومحييهم بعد تفرقتهم

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: المحكمات ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، وما نؤمن به، ونعمل به، والمتشابهات منسوخه، ومقتمه، ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما نؤمن به، ولا نعمل به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، عن ابن عباس قال في قوله: ﴿منه آيات محكمات﴾ قال: الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات: ﴿قل تعالوا﴾ [الأنعام: 151] والآيتان بعدها. وفي رواية عنه أخرجها عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿آيات محكمات﴾ قال: من هنا ﴿قل تعالوا﴾ إلى ثلاث آيات، ومن هنا ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ [الإسراء: 23] إلى ثلاث آيات بعدها. وأقول: رحم الله ابن عباس ما أقل جنوى هذا الكلام المنقول عنه. فإن تعيين ثلاث آيات، أو عشر، أو مائة من جميع آيات القرآن، ووصفها بأنها محكمة ليس تحته من الفائدة شيء، فالمحكمات هي أكثر القرآن على جميع الأقوال حتى على قوله المنقول عنه قريباً من أن المحكمات ناسخه، وحلاله، الخ، فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الأنعام. وأخرج عبد بن حميد، عنه قال: المحكمات: الحلال والحرام، وللسلف أقوال كثيرة هي راجعة إلى ما قدمنا في أول هذا البحث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ﴿فاما الذين في قلوبهم زيغ﴾ يعني: أهل الشك، فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبسون، فلبس الله عليهم: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ قال: تأويله يوم القيامة لا يعلمه إلا الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود ﴿زيغ﴾ قال: شك. وفي الصحيحين، وغيرهما، عن عائشة قالت «تلا رسول الله ﷺ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿فاما الذين في قلوبهم زيغ﴾ إلى قوله: ﴿أولوا الأبواب﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ إذا رايتم الذين يجادلون فيه، فهم الذين عني، فاحذروهم. وفي لفظ «فإذا رايت الذين يتبعون ما تشابه منه، فالولئك الذي سماهم الله، فاحذروهم» هذا لفظ البخاري، ولفظ ابن جرير، وغيره «فإذا رايتم الذين يتبعون ما تشابه منه، والذين يجادلون فيه، فهم الذين عني الله، فلا تجالسوهم» وأخرج عبد بن حميد، وعبد الرزاق، وأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في سننه عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾

قال: هم الخوارج. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن على سبعة أحرف: زاجر، وأمر، وحلال وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا» وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود موقوفاً. وأخرج الطبراني، عن عمر بن أبي سلمة أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن مسعود، فنذكر نحوه، وأخرج البخاري في التاريخ عن علي مرفوعاً بإسناد ضعيف نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي داود في المصاحف، عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن جرير، وأبو يعلى، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، والمراء في القرآن كفر، ما عرفتم، فاعملوا به، وما جهلتم منه، فربوه إلى عالمه، وإسناده صحيح. وأخرج البيهقي في الشعب، عن أبي هريرة مرفوعاً، وفيه: «واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، عن طاريس قال: كان ابن عباس يقرأها: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون في العلم آمنا به﴾. وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن الأعمش قال في قراءة عبد الله: «إن حقيقة تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي الشعثاء، وأبي نهيك قال: إنكم تصلون هذه الآية، وهي مقطوعة: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ فأنتهى علمهم إلى قولهم الذي قالوا. وأخرج ابن جرير، عن عروة. قال: الراسخون في العلم لا يعلمون تأويله، ولكنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عمر بن عبد العزيز نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، عن أبي قال: كتاب الله ما استبان، فاعمل به، وما اشتبه عليك، فأمّن به، وكله إلى عالمه. وأخرج أيضاً، عن ابن مسعود قال: إن للقرآن مناراً، كمنار الطريق، فما عرفتم، فتمسكوا به، وما اشتبه عليكم، فزروه. وأخرج أيضاً، عن معاذ نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: تفسير القرآن على أربعة وجوه: تفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعذر الناس بجهالته من حلال، أو حرام، وتفسير تعرفه العرب بلغتها، وتفسير لا يعلم تأويله إلا الله، من ادعى علمه، فهو كاذب. وأخرج ابن جرير عنه قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه سوى الله، فهو كاذب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: أنا ممن يعلم تأويله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عطية العوفي عنه في قوله: ﴿يقولون آمنا به﴾ نؤمن بالمحكم، وندين به، ونؤمن

بالمتشابه، ولا ندين به، وهو من عند الله كله. وأخرج الدارمي في مسنده، ونصر المقدسي في الحجة، عن سليمان بن يسار: أن رجلاً يقال له ضبيع قدم المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن. فأرسل إليه عمر، وقد أعد له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله ضبيع، فقال: وأنا عبد الله عمر، فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين، فضربه حتى دمي رأسه، فقال: يا أمير المؤمنين حسبك قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي. وأخرج الدارمي أيضاً من وجه آخر، وفيه: أنه ضربه ثلاث مرات يتركه في كل مرة حتى يبرأ، ثم يضربه. وأخرج أصل القصة ابن عسكرك في تاريخه، عن أنس. وأخرج الدارمي، وابن عسكرك أن عمر كتب إلى أهل البصرة أن لا يجالسوا ضبيعاً، وقد أخرج هذه القصة جماعة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن أنس، وأبي أمامة، واثلة بن الأسقع، وأبي الدرداء: «أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم؟ فقال: من برّت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن عف بطنه، وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم» وأخرج ابن عسكرك من طريق عبد الله بن يزيد الأزدي عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو داود، والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجدال في القرآن كفر». وأخرج نصر المقدسي في الحجة، عن ابن عمر قال: «خرج رسول الله ﷺ، ومن وراء حجرته قوم يتجالبون بالقرآن، فخرج محمرة وجنتاه، كأنما يقطران دماً، فقال: يا قوم لا تجالبا بالقرآن، فإنما ضل من كان قبلكم بجدالهم، إن القرآن لم ينزل، ليكتب بعضه بعضاً، ولكن نزل ليصدق بعضه بعضاً، فما كان من محكمه، فاعملوا به، وما كان من متشابهه، فآمنوا به». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أم سلمة: «أن النبي ﷺ كان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، ثم قرأ: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ الآية». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وابن جرير، والطبراني، وابن مريويه عنها مرفوعاً نحوه بأطول منه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن مريويه، عن عائشة مرفوعاً نحوه. وقد ورد نحوه من طرق آخر. وأخرج ابن النجار في تاريخه في قوله: ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم﴾ الآية. عن جعفر بن محمد الخلدی قال: روي عن النبي ﷺ «أن من قرأ هذه الآية على شيء ضاع منه رده الله عليه، ويقول بعد قراءتها: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين مالي إنك على كل شيء قدير».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تُنْصِرُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ وَلَا شَيْئًا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۝ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا
بِرُسُلِهِمْ فَانْهَكُمُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ يَكُونُ الْأَوَّلُ ۝ قُلْ لِلَّهِ كُفْرُكُمْ
سَتُكْفَرُ ۝ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۝ وَبَشِّرِ الْيَهُودَ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي
يَسَعَى الْفَخَّارِ ۝ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ جَاهِلًا فَكُفِّرْ بَزَدْنَاهُمْ
مَنْشَرَهُمْ وَأَمَّا الْكُفْرُ وَاللَّهُ يَنْزِيهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ فِي ذَلِكَ لَأَسْرَةً

لَاؤِلُ الْأَمْسَرِ ﴿٣٦﴾

المراد بالذين كفروا جنس الكفرة، وقيل: وقد نجران، وقيل: قريظة، وقيل: النضير، وقيل: مشركو العرب. وقرا السلمي: «لن يغني» بالتحية، وقرا الحسن بكون الياء الآخرة تخفيفاً. قوله: ﴿مَنْ اللَّهُ شَيْئاً﴾ أي: من عذابه شيئاً من الإغناء، وقيل: إن كلمة من بمعنى عند، أي: لا تغني عند الله شيئاً قاله أبو عبيد، وقيل: هي بمعنى بدل. والمعنى بدل رحمة الله، وهو بعيد، قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُم وَقُودُ النَّارِ﴾ الوقود: اسم للحطب، وقد تقدم الكلام عليه في سورة البقرة، أي: هم حطب جهنم الذي تسعر به، وهم: مبتدأ، ووقود خبره، والجملة خبر أولئك، أو هم ضمير فصل، وعلى التقديرين، فالجملة مستأنفة مقررة لقوله: ﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ الآية. وقرا الحسن، ومجاهد، وطلحة بن مصرف ﴿وَوُقُودٌ﴾ بضم الواو، وهو مصدر، وكذلك الوقود بفتح الواو في قراءة الجمهور يحتمل أن يكون اسماً للحطب، كما تقدم، فلا يحتاج إلى تقدير، ويحتمل أن يكون مصدراً؛ لأنه من المصادر التي تأتي على وزن الفعل، فحتاج إلى تقدير، أي: هم أهل، وقود النار. قوله: ﴿كَذَّابٌ أَلْ فِرْعَوْنَ﴾ الدَّاب: الاجتهاد، يقال داب الرجل في عمله يداب دأباً، ويؤبأ: إذا جد، واجتهد، والدائبان الليل، والنهار، والداب: العادة، والشأن، ومنه قول امرئ القيس:

كذابك من لم الحويرث قبلها وجارتها لم الرباب بماسل والمراد هنا: كعادة آل فرعون، وشأنهم، وحالهم، واختلفوا في الكاف، فقيل: هي في موضع رفع تقديره دأبهم كذاب آل فرعون مع موسى. وقال الفراء: إن المعنى كفر العرب ككفر آل فرعون. قال النحاس: لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا، لأن كفروا داخله في الصلة، وقيل: هي متعلقة بأخذهم الله، أي: أخذهم أخذة، كما أخذ آل فرعون، وقيل: هي متعلقة بلن تغني، أي: لم تغن عنهم غناء، كما لم تغن عن آل فرعون، وقيل: إن العامل فعل مقرر من لفظ الوقود، ويكون التشبيه في نفس الإحراق. قالوا: ويؤيده قوله تعالى: ﴿اٰنْخَلَوْا۟ اَلْ فِرْعَوْنَ اَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46]. ﴿النَّارِ﴾ يعرضون عليها غنواً، وعشياً [غافر: 46]. والقول الأوّل هو الذي قاله جمهور المحققين، ومنهم الأزهري. قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة، أي: وكذاب الذين من قبلهم. قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ يحتمل أن يريد الآيات المتلوة، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية، ويصح إرادة الجميع. والجملة بيان، وتفسير لدأبهم، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من آل فرعون والذين من قبلهم على إضمار قد: أي دأب هؤلاء كذاب أولئك قد كذبوا الخ. وقوله ﴿بِئْسَ نَجِيبُهُمْ﴾ أي بسائر نوابه التي من جملتها تكنيبيهم. قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قيل: هم اليهود، وقيل: هم مشركو مكة، وسيأتي بيان سبب نزول الآية. وقوله: ﴿سْتَغْلِبُونَ﴾ قرئ بالفوقية، والتحتية، وكذلك

﴿تَحْشَرُونَ﴾. وقد صلق الله، وعده بقتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، وفتح خير، وضرب الجزية على سائر اليهود، وش الحمد. قوله: ﴿وَيُبْسِ الْمَهَادِ﴾ يحتمل أن يكون من تمام القول الذي أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقوله لهم، ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة تهويلًا، وتفظيعاً. قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: علامة عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم، وهذه الجملة جواب قسم محذوف، وهي: من تمام القول المأمور به لتقرير مضمون ما قبله، ولم يقل كانت: لأن التثنية غير حقيقي. وقال الفراء: إنه ذكر الفعل لأجل الفصل بينه، وبين الإسم بقوله: ﴿لَكُمْ﴾. والمراد بالفتنتين المسلمون والمشركون لما التقوا يوم بدر. قوله: ﴿فَتَّةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قراءة الجمهور برفع فتة. وقرا الحسن، ومجاهد، وفئة، وكافرة، بالخفض، فالرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف أي: إحداها فتة. وقوله: ﴿تَقَاتِلُ﴾ في محل رفع على الصفة، والجر على البدل من قوله: ﴿فَتَتَيْنِ﴾. وقوله: ﴿وَالْأُخْرَى﴾ أي: وفئة أخرى كافرة. وقرا ابن أبي عبيد بالنصب فيهما. قال ثعلب: هو على الحال، أي: التقتا مختلفتين، مؤمنة، وكافرة. وقال الزجاج: النصب بتقدير أعني، وسميت الجماعة من الناس فتة؛ لأنه يفاء إليها أي: يرجع في وقت الشدة. وقال الزجاج الفتة: الفرقة مأخوذ من فالت رأسه بالسيف: إذا قطعت، ولا خلاف أن المراد بالفتتين هما: المقتتلان في يوم بدر، وإنما وقع الخلاف في مخاطب بهذا الخطاب، فقيل: مخاطب بها المؤمنون، وقيل: اليهود. وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت نفوسهم، وتشجيعها، وفائدته إذا كان مع اليهود عكس الفائدة المقصودة بخاطب المسلمين. قوله: ﴿تَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ﴾ قال أبو علي الفارسي: الرؤية في هذه الآية رؤية العين، ولذلك تعنت إلى مفعول واحد، ويدل عليه قوله: ﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾ والمراد أنه يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين، أو مثلي عدد المسلمين، وهذا على قراءة الجمهور بالياء التحتية، وقرا نافع بالفوقية. وقوله: ﴿مِثْلِهِمْ﴾ منتصب على الحال. وقد ذهب الجمهور إلى أن فاعل ترون هم: المؤمنون، والمفعول هم: الكفار. والضمير في مثليهم يحتمل أن يكون للمشركين، أي: ترون أيها المسلمون المشركين مثلي ما هم عليه من العند، وفيه بعد أن يكثر الله المشركين في أعين المؤمنين، وقد أخبرنا أنه قللهم في أعين المؤمنين، فيكون المعنى ترون أيها المسلمون المشركين مثليكم في العند، وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، قلل الله المشركين في أعين المسلمين، فأراهم إياهم مثلي عدتهم لتقوى أنفسهم. وقد كانوا أعلموا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار، ويحتمل أن يكون الضمير في مثليهم للمسلمين، أي: ترون أيها المسلمون أنفسكم مثلي ما أنتم عليه من العدد لتقوى بذلك أنفسكم، وقد قال من ذهب إلى التفسير الأوّل: أعني أن فاعل الرؤية المشركون، وأنهم رأوا المسلمين مثلي عددهم أنه لا يناقض هذا ما في سورة الأنفال من قوله تعالى: ﴿وَيَقْلِلْكُمْ فِي

فِيهَا وَارْجُ مُنْكَرَةً وَفُتُورَتِ رَبِّكَ اللَّهُ يَسِيرًا بِالْأَسْبَابِ ﴿٦٧﴾
 الْوَيْتِ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِقُرْبَىٰ وَكَانَ كَلَامُكَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٦٨﴾
 الْفَتِيرِ وَالْمُتَكَبِّرِ وَالْمُتَكَبِّرِ وَالْمُتَكَبِّرِ وَالْمُتَكَبِّرِ وَالْمُتَكَبِّرِ وَالْمُتَكَبِّرِ

قوله: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ﴾ الخ: كلام مستأنف لبيان حقارة ما تستلذه الأنفس في هذه الدار، والمزين قيل: هو الله سبحانه، وبه قال عمر، كما حكاه عنه البخاري، وغيره، ويؤيد قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ﴾ [الكهف: 7]. وقيل: للمزين هو الشيطان، وبه قال الحسن، حكاه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه. وقرأ الضحاك: «زين» على البناء للمفعل. وقرأه الجمهور على البناء للمفعول. والمراد بالناس: الجنس. والشهوات جمع شهوة، وهي نزوع النفس إلى ما تريده. والمراد هنا: المشتبهات عبر عنها بالشهوات مبالغة في كونها مرغوباً فيها، أو تحقيراً لها لكونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطبائع البهيمية، ووجه تزيين الله سبحانه لها ابتلاء عباده، كما صرح به في الآية الأخرى. وقوله: ﴿مَنْ لِلنِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ في محل الحال أي: زين للناس حب الشهوات حال كونها من النساء، والبنين الخ. وبدأ بالنساء لكثرة تشوق النفوس إليهن، لأنهن حبايل الشيطان، وخص البنين بكون البنات لعدم الأطراد في محبتهم. والقناطر جمع قنطار، وهو اسم للكثير من المال. قال الزجاج: القنطار مأخوذ من عقد الشيء وإحكامه: تقول العرب قنطرت الشيء: إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة لإحكامها. وقد اختلف في تقديره على أقوال للسلف ستأتي إن شاء الله. واختلفوا في معنى القنطرة، فقال ابن جرير الطبري: معناها المضعفة، وقال القناطر: ثلاثة، والقنطرة تسعة. وقال الفراء: القناطر جمع القنطار، والقنطرة جمع الجمع، فتكون تسع قناطر، وقيل: القنطرة المضروبة، وقيل: الكلمة كما يقال بكرة مبردة، والوف مؤلفة، وبه قال مكي، وحكاه الهروي. وقال ابن كيسان: لا تكون القنطرة أقل من سبع قناطر. وقوله: ﴿مَنْ لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ بيان للقناطر، أو حال ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ قيل: هي المرعية في المروج، والمسارح، يقال سامت الدابة، والشاة: إذا سرحت، وقيل: هي المعدة للجهاد، وقيل: هي الحسان، وقيل: المعلمة من السومة، وهي العلامة أي: التي يجعل عليها علامة لتتميز عن غيرها. وقال ابن فارس في المجلد المسومة: المرسله، وعليها ركبائها. وقال ابن كيسان: للبلق، والآنعام هي: الإبل، والبقر، والغنم، فإذا قلت نعم، فهي الإبل خاصة قاله الفراء، وابن كيسان، ومنه قول حسان:

وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء
 والحرث: اسم لكل ما يحرق، وهو مصدر سمي به المحروث، يقول حرث الرجل حرثاً: إذا أثار الأرض، فيقع على الأرض، والزرع. قال ابن الأعرابي الحرث: التفتيش. قوله: ﴿تِلْكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تلك المنكور ما يتمتع به، ثم يذهب، ولا يبقى، وفيه تزهيد في الدنيا، وترغيب في الآخرة. والمآب: المرجع أب يتوب إياباً: إذا رجع، ومنه قول

أعينهم﴾ [الأنفال: 44] بل قللوا أولاً في أعينهم ليلاقوهم، ويجتروا عليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا. قوله: ﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾ أي: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يقوي من يشاء أن يقويه، ومن جملة ذلك تأييد أهل بدر بتلك الرؤية ﴿إِنْ فِي نَفْسِكَ﴾ أي: في رؤية القليل كثيراً ﴿لِالْعَبْرَةِ﴾ فعلة من العبور، كالجلسة من الجلوس. والمرد الاعتاض، والتذكير للتعظيم، أي: عبرة عظيمة، وموعظة جسيمة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿كُدَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قال: كصنيع آل فرعون. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه قال كفعل. وأخرج مثله أبو الشيخ، عن مجاهد. وأخرج ابن جرير، عن الربيع قال: كسنتهم. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع قال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً، قالوا يا محمد لا يفرنك من نفسك أن قتلت نفراً كانوا غماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلاً، فانزل الله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَى الْأَبْصَارِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عاصم بن عمر بن قتادة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة قال: قال فحاص اليهودي، وذكر نحوه. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ عبرة، وتفكر. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّيْثَيْنِ﴾ تفاتل في سبيل الله ﷻ أصحاب رسول الله ﷺ ببدر ﴿وَالْآخَرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ فئة قريش الكفار. وأخرج عبد الرزاق أن هذه الآية نزلت في أهل بدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ يقول: قد كان لكم في هؤلاء عبرة، ومتفكر أيدهم الله، ونصرهم على عدوهم يوم بدر كان المشركون تسعمائة وخمسين رجلاً، وكان أصحاب محمد ﷺ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود في الآية قال: هذا يوم بدر نظرنا إلى المشركين، فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم، فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: أنزلت في التخفيف يوم بدر على المؤمنين كانوا يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان المشركون مثلهم ستمائة وستة وعشرين، فايد الله المؤمنين.

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَ حَرْثِ الْغَنَابِ ﴿٦٩﴾ قُلْ أُولَئِكَ مُتَعَبَرٌ بِهِنَّ مِمَّنْ دَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

امريء القيس:

لقد طوّفت في الأنفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإيلاب
قوله: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بخير من نلّكم﴾ أي: هل أخبركم
بما هو خير لكم من تلك المستلذات، وإيهام الخير للتفخيم،
ثم بيّنه بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ وَعِنْدَ فِي
مَحَلٍ نَّصَبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ جَنَاتٍ، وَهِيَ مَبْدَأٌ، وَخَبَرُهَا لِلَّذِينَ
اتَّقَوْا، وَيَجُوزُ أَنْ تَتَعَلَّقَ اللَّامُ بخير. وجنات خبر مبتدأ مقدر،
أي: هو جنات، وخص المتقين؛ لأنهم المنتفعون بذلك. وقد
تقدّم تفسير قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وما بعده.
قوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أو
خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين، أو منصوب على المدح،
والصابرين، وما بعده نعت للموصول على تقدير كونه بدلاً،
أو منصوباً على المدح، وعلى تقدير كونه خبراً يكون
الصابرين، وما بعده منصوبة على المدح، وقد تقدّم تفسير
الصبر، والصدق، والقنوت. قوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ﴾ هم: السائلون للمغفرة بالأسحار، وقيل:
المصلون. والأسحار جمع سحر بفتح الحاء، وسكونها. قال
الزجاج: هو من حين يدير الليل إلى أن يطلع الفجر، وخص
الأسحار؛ لأنها من أوقات الإجابة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عمر بن
الخطاب، لما نزلت: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ قال: الآن
يا ربّ حين زينتها لنا، فنزلت: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ﴾. وأخرجه ابن
المنذر عنه بلفظ خير انتهى إلى قوله: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بخير﴾
فبكى، وقال: بعد ماذا بعد ماذا بعد ما زينتها. وأخرج أحمد،
وابن ماجه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:
«القنطار اثنا عشر ألف أوقية». رواه أحمد من حديث
عبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد، عن عاصم عن أبي
صالح عنه. ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن
عبد الصمد به. وقد رواه ابن جرير موقوفاً على أبي هريرة.
قال ابن كثير: وهذا أصح. وأخرج الحاكم وصححه، عن أنس
قال: سئل رسول الله ﷺ عن القناطر المقنطرة، فقال:
«القنطار ألف أوقية». ورواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه
مرفوعاً بلفظ ألف دينار. وأخرج ابن جرير، عن أبي بن كعب
قال: قال رسول الله ﷺ: «القنطار ألف أوقية، ومائتا أوقية».
وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم،
والبیهقي من قول معاذ بن جبل، وأخرجه ابن جرير من قول
ابن عمر، وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي من
قول أبي هريرة، وأخرجه ابن جرير، والبيهقي من قول ابن
عباس. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن
أبي سعيد الخدري، قال: القنطار ملء مسك جلد الثور ذهباً.
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر أنه قال:
القنطار سبعون ألفاً، وأخرجه عبد بن حميد، عن مجاهد.
وأخرج أيضاً عن سعيد بن المسيب قال القنطار ثمانون ألفاً.
وأخرج أيضاً، عن أبي صالح قال: القنطار مائة رطل.
وأخرجه أيضاً عن قتادة، وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي

جعفر قال: للقنطار خمسة عشر ألف مثقال، والمثقال أربعة
وعشرون قيراطاً، وأخرج ابن جرير، عن الضحاک قال: هو
العمال الكثير من الذهب، والفضة. وأخرجه أيضاً، عن الربيع.
وأخرج عن السدي: أن المقنطرة المضروبة. وأخرج ابن
جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس ﴿والخيل
للمسومة﴾ قال: الراعية. وأخرج ابن المنذر، عنه من طريق
مجاهد. وأخرج ابن جرير عنه قال: هي الراعية، والمطهمة
الحسان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال:
هي المطهمة الحسان. وأخرجها، عن عكرمة قال: تسويمها
حسنها. وأخرج ابن أبي حاتم، قال: ﴿والخيل المسومة﴾
الغزاة، والتحجيل، وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله
للسابرين قال: قوم صبروا على طاعة الله، وصبروا عن
محارمه، والصابقون قوم صلبت نياتهم، واستقامت قلوبهم،
والسنتهم، وصنفوا في السرّ، والعلانية، والقانتون هم:
المطيعون، والمستغفرون بالأسحار أهل الصلاة. وأخرج ابن
أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة
قال: هم الذين يشهون صلاة الصبح. وأخرج ابن جرير،
وابن مردويه، عن أنس قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستغفر
بالأسحار سبعين مرة. وأخرج ابن جرير، وأحمد في الزهد،
عن سعيد الجريري قال: بلغنا أن داود عليه السلام سأل
جبريل، فقال: يا جبريل أي الليل أفضل؟ قال: يا داود ما
أدري إلا أن العرش يهتز في السحر. وقد ثبت في
الصحيحين، وغيرهما، عن جماعة من الصحابة أن رسول
الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء
الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول هل من سائل،
فاعطيه، هل من داع، فاستجب له، هل من مستغفر، فأغفر
له؟».

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالَّتِيكَتَ وَأُولُو الْأَلْبَابِ قَائِمًا بِأَلْوَسِطِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١٨٠﴾ إِنَّ الْأَوَّلَ عِنْدَ اللَّهِ الْآخِرُ وَمَا أَشْكَلَ
الْأَوَّلَ أَوْثَرُ الْآخِرِ إِلَّا مِنْ بَدَأَ مَا جَاءَهُمْ أَوَّلًا بَدَأَ بِتَبَعِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ
يَكْفُرْ أَفْوَكَ أَنَّ تَرْجِعَ الْحِسَابِ ﴿١٨١﴾ فَإِنْ حَاجَّكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ
وَمَنْ أَتَّبَعُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَوَّلِينَ ءَاسَلْتُمْ إِنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ
أَفْتَدَوْا وَلَئِنْ تَوَلَّوْا فَمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِمُورِئِكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١٨٢﴾

قوله: ﴿شهد الله﴾ أي: بين وأعلم. قال الزجاج: الشاهد
هو الذي يعلم الشيء، وبيّنه، فقد لنا الله على وحدانيته بما
خلق وبيّن، وقال أبو عبيدة: شهد الله بمعنى قضى، أي: أعلم.
قال ابن عطية، وهذا مردود من جهات، وقيل: إنها شبيهت
دلالاته على وحدانيته بأفعاله، ووحيه بشهادة الشاهد في
كونها مبنية. وقوله أنه بفتح الهمزة. قال المبرد أي: بأنه ثم
حنفت الباء، كما في امرتك الخير أي: بالخير. وقرأ ابن
عباس: «إنه» بكسر الهمزة بتضمين شهد معنى قال. وقرأ
أبو المهلب: «شهداء لله» بالنصب على أنه حال من
الصابرين، وما بعده، أو على المدح: ﴿والملائكة﴾ عطف
على الاسم الشريف، وشهادتهم إقرارهم بأنه لا إله إلا الله.

وقوله: ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ معطوف أيضاً على ما قبله، وشهادتهم بمعنى الإيمان منهم، وما يقع من البيان للناس على أسنتهم، وعلى هذا لا بد من حمل الشهادة على معنى يشمل شهادة الله، وشهادة الملائكة، وأولي العلم. وقد اختلف في أولي العلم هؤلاء من هم؟ فقول: هم: الأنبياء؛ وقيل: المهاجرون، والأنصار؛ قاله ابن كيسان، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب، قاله مقاتل، وقيل: المؤمنون كلهم، قاله السدي، والكلبي، وهو الحق إذ لا وجه للتخصيص. وفي ذلك فضيلة لأهل العلم جليلة، ومنقبة نبيلة لقريهم باسمه، واسم ملائكته، والمراد بأولي العلم هنا علماء الكتاب، والسنة، وما يتوصل به إلى معرفتهما، إذ لا اعتداد بعلم لا مدخل له في العلم الذي اشتمل عليه الكتاب العزيز، والسنة المطهرة. وقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: العدل، أي: قائماً بالعدل في جميع أموره، أو مقيماً له، وانتصاب قائماً على الحال من الاسم الشريف. قال في الكشاف: إنها حال مؤكدة كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: 91] وجزان إفراده سبحانه بذلك دون ما هو معطوف عليه من الملائكة، وأولي العلم لعدم اللبس، وقيل: إنه منصوب على المدح، وقيل: إنه صفة لقوله: ﴿إِلَهُهُ﴾ أي: لا إله قائماً بالقسط، إلا هو، أو هو حال من قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ والعامل فيه معنى الجملة. وقال الفراء: هو منصوب على القطع؛ لأن أصله الألف، واللام، فلما قطعت نصب كقوله: ﴿هُوَ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: 52] ويدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود القائم بالقسط. وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تكرير لقصد التأكيد؛ وقيل: إن قوله: ﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدعوى، والآخرية كالحكم. وقال جعفر الصائغ الأولى وصف، وتوحيد، والثانية رسم، وتعليم. وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مرتفعان على النبيلة من الضمير، أو الوصفية لفاعل شهد لتقرير معنى الوحدانية. قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. قرأه الجمهور بكسر إن على أن الجملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى، وقرئ بفتح أن. قال الكسائي: انصبها جميعاً يعني قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ بمعنى شهد الله أنه كذا، وأن الدين عند الله الإسلام. قال ابن كيسان: إن الثانية بدل من الأولى. وقد ذهب الجمهور إلى أن الإسلام هنا بمعنى الإيمان، وإن كانا في الأصل متغايرين، كما في حديث جبريل الذي بيّن فيه النبي ﷺ معنى الإسلام، ومعنى الإيمان، وصدقه جبريل، وهو في الصحيحين، وغيرهما ولكنه قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر، وقد ورد ذلك في الكتاب والسنة. قوله: ﴿وَمَا لَخِيفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ فيه الإخبار بأن اختلاف اليهود، والنصارى كان لمجرد البغي بعد أن علموا بأنه يجب عليهم الدخول في دين الإسلام بما تضمنته كتبهم المنزلة إليهم. قال الأخفش: وفي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: ما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم. والمراد بهذا الخلاف الواقع بينهم هو

خلافهم في كون نبينا ﷺ نبياً أم لا؟ وقيل اختلافهم في نبوة عيسى، وقيل: اختلافهم في ذات بينهم حتى قالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء. قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بالآيات الدالة على أن الدين عند الله الإسلام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيجازيه، ويعاقبه على كفره بآياته، والإظهار في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ مع كونه مقام الإضمار للتهويل عليهم، والتهديد لهم. قوله: ﴿فَإِنَّ حَاجُوكَ﴾ أي: جائلوك بالشبه الباطلة، والأقوال المحرفة، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: أخلصت ذاتي لله، وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الإنسان، وأجمعها للحواس، وقيل: الوجه هنا بمعنى: القصد، وقوله: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَ﴾ عطف على فاعل أسلمت، وجزان للفصل، وأثبت نافع، وأبو عمرو، ويعقوب الياء في اتبعن على الأصل، وحذفها الآخرون اتباعاً لرسم المصحف، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع والمراد بالأميين هنا مشركو العرب. وقوله: ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾ استفهام تقريرى يتضمن الأمر، أي: أسلموا، كذا قاله ابن جرير، وغيره. وقال الزجاج: ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾ تهديد، والمعنى: أنه قد أتاكم من البراهمين ما يوجب الإسلام، فهل علمتم بموجب ذلك أم لا؟ تبكيتم لهم، وتصغروا لشأنهم في الإنصاف، وقبول الحق. وقوله: ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أي: ظفروا بالهداية التي هي الحظ الأكبر، وفازوا بخير الدنيا، والآخرة ﴿وَأَنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن قبول الحجة، ولم يعملوا بموجبها ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي: فإنما عليك أن تبلغهم ما أنزل إليك، ولست عليهم بمسيطر، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، والبلّاغ مصدر. وقوله: ﴿وَأَنْتَ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ فيه وعد ووعيد لتضمنه أنه عالم بجميع أحوالهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ قال: بالعدل. وأخرج أيضاً، عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ قال: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسوله، ودلّ عليه أوليائه لا يقبل غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: لم يبعث الله رسلاً إلا بالإسلام. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سعيد بن جبيرة قال: كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم لكل قبيلة من قبائل العرب صنم، أو صنمان، فأنزل الله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، فاصبحت الأصنام كلها قد خرت، سجدت للكمبة. وأخرج ابن السني في عمل اليوم، والليلة، وأبو منصور الشحامي في الأربعين، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَالْآيَتَيْنِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ﴾ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تَوْتِي الْمَلِكِ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزَعُ الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ

تَمَسَّكَ الْكَافِرُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً وَعَرَّجَ فِي يَوْمِهِ مَا كَانُوا يَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾
فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمِ رَبِّ رَيْبٍ فِيهِ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ظاهره عدم الفرق بين آية وآية
﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يعني: اليهود قتلوا الأنبياء
﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي:
بالعدل، وهم الذين يأمرُونَ بالمعروف، وينهون عن المنكر،
قال المبرد: كان ناس من بني إسرائيل جاءهم النبيون،
فدعوههم إلى الله، فقتلوههم، فقام أناس من بعدهم من
المؤمنين، فأمرهم بالإسلام، فقتلوههم. ففيهم نزلت الآية.
وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ خبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾
البح، وبخلته الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، وذهب
بعض أهل النحو إلى أن الخبر قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ
أَعْمَالُهُمْ﴾ وقالوا إن الفاء لا تدخل في خبر إن، وإن تضمن
اسمها معنى الشرط؛ لأنه قد نسخ بدخول إن عليه، ومنهم
سيبويه، والأخفش، وذهب غيرهما إلى أن ما يتضمنه المبتدأ
من معنى الشرط لا يتنسخ بدخول إن عليه، ومثل المكسورة
المفتوحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلِمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ
فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: 41]. وقوله: ﴿حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ﴾
قد تقدم تفسير الإحباط، ومعنى كونها حبطت في الدنيا،
والآخرة أنه لم يبق لحسناتهم أثر في الدنيا، حتى يعاملوا
فيها معاملة أهل الحسنات، بل عوملوا معاملة أهل السيئات،
فلعنوا وحل بهم الخزي، والصغار، ولهم في الآخرة عذاب
النار. قوله: ﴿إِنَّمَا تَرَى إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾
فيه تعجيب لرسول الله ﷺ، ولكل من تصح منه الرؤية من
حال هؤلاء، وهم أحبار اليهود. والكتاب: التوراة، وتنكير
النصيب للتعظيم، أي: نصيباً عظيماً، كما يفيد مقام المبالغة،
ومن قال: إن التنكير للتحقير، فلم يصب، فلم ينتفعوا بذلك،
وذلك بأنهم يدعون إلى كتاب الله الذي أوتوا نصيباً منه، وهو
التوراة: ﴿لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ والحال
أنهم معرضون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه مع علمهم به،
واعترافهم بوجوب الإجابة إليه، و﴿نَلَكَ﴾ إشارة إلى ما مر
من التولي، والإعراض بسبب ﴿أَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ
إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ وهي: مقدار عبادتهم العجل. وقد تقدم
تفسير ذلك: ﴿وَوَعَّرْهُمْ فِي بَيْنِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من
الأكاذيب التي من جملتها هذا القول. قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا
جُمِعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو: رد عليهم، وإبطال لما
غرم من الأكاذيب، أي: فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم
ليوم لا ريب فيه، وهو يوم الجزاء الذي لا يرتاب مرتاب في
وقوعه، فإنهم ينعون لا محالة، ويعجزون عن دفعه بالحيل،
والأكاذيب ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما
كسبت على حنف المضاف ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ بزيادة، ولا
نقص. والمراد كل الناس المملول عليهم بكل نفس. قال
الكسائي: اللام في قوله: ﴿لِيَوْمٍ﴾ بمعنى في، وقال
البصريون: المعنى لحساب يوم. وقال ابن جرير الطبري

وتعز من تشاء وتذل من تشاء إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾
[آل عمران: 26، 27] هن معلقات بالعرش ما بينهن، وبين
الله حجاب، يقلن يا رب تهبطنا إلى أرضك، وإلى من
يعصيك؟ قال الله: إني خلقت لا يقرؤكن أحد من عبادي دبر
كل صلاة إلا جعلت الجنة مأواه على ما كان منه، وإلا
أسكنته حظيرة القدس، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة كل
يوم سبعين نظرة، وإلا قضيت له كل يوم سبعين حاجة
أنهاها المغفرة، وإلا أعنته من كل عدو، ونصرتة منه.
وأخرج البيهقي في مسند الفريوس، عن أبي أيوب
الأنصاري مرفوعاً نحوه، وفيه: «لا يتلوكن عبد دبر كل
صلاة مكتوبة إلا غفرت له ما كان منه، وأسكنته جنة
الفريوس، ونظرت إليه كل يوم سبعين مرة، وقضيت له
سبعين حاجة أنهاها المغفرة». وأخرج أحمد، وابن أبي
حاتم، والطبراني، وابن السني، عن الزبير بن العوام قال:
«سمعت رسول الله ﷺ وهو يعرف بقرأ هذه الآية: ﴿شَهِدَ
اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا
بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فقال: وأنا على ذلك
من الشاميين» ولفظ الطبراني «وأنا أشهد أن لا إله إلا أنت
العزیز الحكيم». وأخرج ابن عدي، والطبراني في الأوسط،
والبيهقي في شعب الإيمان، وضعفه، والخطيب في تاريخه،
وابن النجار عن غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة،
فنزلت قريباً من الأعمش. فلما كان ليلة أريت أن أنحدر قلم،
فتهجد من الليل، فمر بهذه الآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ فقال: وأنا
أشهد بما شهد به الله، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي
وديعة عند الله، قالها مراراً، فقلت: لقد سمع فيها شيئاً،
فسألته فقال: حدثني أبو وائل عن عبد الله قال: قال رسول
الله ﷺ: «يجاء بصلاحبها يوم القيامة، فيقول الله: عبيدي عهد
إلي، وأنا أحق من وفي بالعهد أنخلوا عبيدي الجنة». وأخرج
ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿هُوَ مَا اخْتَلَفَ
لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ قال: بنو إسرائيل. وأخرج ابن جرير،
عن أبي العالية في قوله: ﴿بِغْيَا بَيْنَهُمْ﴾ يقول: بغيا على
الدنيا، وطلب ملكها، وسلطانها. فقتل بعضهم بعضاً على
الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس. وأخرج ابن أبي حاتم،
عن الحسن في قوله: ﴿فَإِنْ حَاجُوكَ﴾ قال: إن حاجك
اليهود، والنصارى. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج،
ونحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن
ابن عباس: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ قال: لليهود،
والنصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ قال: هم: الذين لا يكتبون.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي اللَّهِ وَمَا لَهُمْ مِنَ
شَيْءٍ ﴿٢٧﴾ أَوْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نُصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَتَوَكَّنُونَ إِلَى كَيْفِ
أَفْعَلُكُمْ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَمَنْ مُعْرِضٌ ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ وَأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ

المعنى لما يحدث في يوم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي عبيدة بن الجراح: «قلت يا رسول الله أي الناس أشدَّ عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً، أو رجلاً أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: يا أبا عبيدة قتل بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً أوّل النهار في ساعة واحدة، فقام مائة رجل وسبعون رجلاً من عباد بني إسرائيل، فأمرؤا من قتلهم بالمعروف، ونهوه عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين نكر الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: بعث عيسى يحيى بن زكريا في اثني عشر رجلاً من الحواريين يعلمون الناس، فكان ينهي عن نكاح بنت الأخ، وكان ملك له بنت أخ تعجبه، فأرادها، وجعل يقضي لها كل يوم حاجة، فقالت لها أمها: إذا سألك عن حاجة، فقولني حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا، فقال: سلي غير هذا، فقالت: لا أسألك غير هذا، فلما أبت أمر به، فذبح في طست، فبدرت قطرة من دمه، فلم تزل تغلي حتى بعث الله بختنصر، فذلت عجوز عليه، فالتقى في نفسه أن لا يزال يقتل حتى يسكن هذا الدم، فقتل في يوم واحد من ضرب واحد وسن واحد سبعين ألفاً فسكن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن معقل بن أبي مسكين في الآية قال: كان الوحي يأتي بني إسرائيل، فيذكرون قومهم، ولم يكن يأتيهم كتاب، فيقوم رجال ممن اتبعهم، وصدقهم، فيذكرون قومهم، فيقتلون فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس. وأخرج ابن جرير، عن قتادة، نحوه. وأخرج ابن عساکر، عن ابن عباس قال: الذين يأمرون بالقسط من الناس: ولاية العدل. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله، فقال له النعمان بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أتيت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم، وبيته، قال: فلن إبراهيم كان يهودياً قال لهما النبي ﷺ: فهلما إلى التوراة، فهي بيننا، وبينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله: ﴿وَالْمُتَرِّقِينَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَدْعُونَ إِلَى الْكِتَابِ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك في قوله: ﴿نَصِيبًا﴾ قال: خطأ ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال: التوراة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد في قوله: ﴿قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا﴾ الفار إلا أياماً معدودات قال: يعنون الأيام التي خلق الله فيها آدم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَوَعَزَّاهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ حين قالوا نحن أبناء الله، وأحباؤه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعني توفي كل نفس بر، أو فاجر ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ ما عملت من خير، أو شر ﴿وَهُمْ لَا

يظلمون﴾ يعني: من أعمالهم.

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٣٦﴾ قُلِ الْإِنْسَانُ فِي الْفِتْنَةِ وَوَلَّيْنَا الْفِتْنَةَ فِي الْإِنْسَانِ بِكَ وَنُخْرِجُ الْآلِيَّةَ وَنُخْرِجُ الْآلِيَّةَ مِنَ الْآلِيَّةِ وَنُزِّلُ مَنْ تَشَاءُ بِمَنْ تَشَاءُ ﴿٢٣٧﴾

قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾. قال الخليل، وسيبويه، وجميع البصريين: إن أصل اللهم يا الله، فلما استعملت الكلمة دون حرف اللام الذي هو «ياء» جعلوا ببله هذه الميم المشددة، فجاءوا بحرفين، وهما الميمان عوضاً من حرفين، وهما الياء والألف، والضمّة في الهاء هي: ضمة الاسم المنادي المفرد. وذهب الفراء، والكوفيون إلى أن الأصل في اللهم يا الله أمنا بخير. فحذف، وخلط الكلمتان؛ والضمّة التي في الهاء هي: الضمة التي كانت في أمنا لما حذف الهمزة انتقلت الحركة. قال النحاس: هذا عند البصريين من الخطأ العظيم، والقول في هذا ما قاله الخليل، وسيبويه، قال الكوفيون، وقد يدخل حرف النداء على اللهم، وأنشدوا في ذلك قول الرازي:

غفرت أو عذبت يا اللهما

وقول الآخر:

وما عليك أن تقول كلماً سبحت أو هللت يا اللهما

وقول الآخر:

إنسي إذا ما حدث السماً أقول يا اللهم يا اللهما قالوا: ولو كان الميم عوضاً من حرف النداء لما اجتمعتا. قال الزجاج: وهذا شاذ لا يعرف قائله. قال النضر بن شميل: من قال اللهم، فقد دعا الله بجميع أسمائه. قوله: ﴿مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ أي: مالك جنس الملك على الإطلاق، ومالك منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان، أي: يا مالك الملك، ولا يجوز عنده أن يكون، وصفاً لقوله: ﴿اللَّهُمَّ﴾ لأن الميم عنده تمنع الوصفية. وقال محمد بن يزيد المبرّد، وإبراهيم بن السري الزجاج: إنه صفة لاسم الله تعالى، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: 46]. قال أبو علي الفارسي: وهو مذهب المبرّد، وما قاله سيبويه أصوب، وأبين، وذلك لأنه اسم مفرد ضم إليه صوت، والأصوات لا توصف نحو غاق، وما أشبهه. قال الزجاج: والمعنى مالك العباد، وما ملكوا، وقيل: المعنى مالك الدنيا، والآخرة، وقيل: الملك هنا: النبوة، وقيل: الغلبة، وقيل: المال والعبيد، والظاهر شموله لما يصق عليه اسم الملك من غير تخصيص ﴿تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي: من تشاء إيتاءه إياه ﴿وَتُنَزِّلُ الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ نزع منه. والمراد بما يؤتيه من الملك، وينزعه هو نوع من أنواع تلك الملك العام. قوله: ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي: في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما، يقال عزّ: إذا غلب، ومنه: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: 23]. وقوله: ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي: في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما، يقال ذلّ: ينزل ذلاً: إذا غلب وقهر. وقوله: ﴿يُبْدِئُ الْخَيْرَ﴾ تقديم الخبر للتخصيص، أي: ببدء الخير لا ببدء غيرك، ونكر الخير دون

وابن ابي حاتم، عن ابن عباس: ﴿تخرج الحي من الميت﴾ قال: تخرج النطفة الميتة من الحي، ثم تخرج من النطفة بشراً حياً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة ﴿تخرج الحي من الميت﴾ قال: هي البیضة تخرج من الحي، وهي: ميتة، ثم يخرج منها الحي. وأخرج ابن جرير عنه قال: النخلة من الثواة، والثواة من النخلة، والحبة من السنبل، والسنبل من الحبة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي مالك مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن قال: المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. والمؤمن عبد حي الفؤاد، والكافر عبد ميت الفؤاد. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن سلمان الفارسي، نحوه. وأخرج ابن مريويه، عنه مرفوعاً نحوه، وأخرجه أيضاً عنه، أو عن ابن مسعود، مرفوعاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن عبيد الله بن عبد الله: «أن خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث نخلت على النبي ﷺ، فقال: من هذه؟ قيل: خالدة بنت الأسود، قال: سبحان الذي يخرج الحي من الميت، وكانت امرأة صالحة، وكان أبوها كافراً. وأخرج ابن سعد، عن عائشة مثله.

لَا يَتَّبِعُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَمْشِكْ ذَٰلِكَ
فَتَبَسَّ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ لَّا أَنْتَفَعُوا مِنْهُ تَبَتُّهُ وَيُذِرْكُمْ اللَّهُ تَنَسُّمًا وَمَا
إِلَهُ الْمَوْتِ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْلِمُونَ أَوْ يَشْعُرُوا بِمَلَكَةِ اللَّهِ يَوْمَ النَّفْثِ
الْمَنْكُومَةِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ
مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُضَاعًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ شَرٍّ قُوَّةً لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا
بَعِيدًا وَيُذِرْكُمْ اللَّهُ تَنَسُّمًا وَاللَّهُ زَوَّاهُ وَإِلْبَاهُ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿لَا تَتَّخِذْ﴾ فيه النهي للمؤمنين عن موالاة الكفار لسبب من الأسباب، ومثله قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْكُمْ يَكُونُكُمْ﴾ [آل عمران: 118] الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، وقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِأَشْهُ [المجادلة: 22] الآية، وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: 51]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المنححنة: 1] وقوله: ﴿مَنْ يَتَّخِذْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل الحال، أي: متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالاً، أو اشتراكاً، والإشارة بقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ إلى الاتحاد المللول عليه بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذْ﴾ ومعنى قوله: ﴿فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: من ولايته في شيء من الأشياء، بل هو منسلخ عنه بكل حال. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ على صيغة الخطاب بطريق الالتفات، أي: إلا أن تخافوا منهم أمراً يجب اتقاؤه، وهو: استثناء مفرغ من أعم الأحوال. وتقاة مصدر واقع موقع المفعول، وأصلها وقية على وزن فعلة قلبت الواو تاء، والياء ألفاً، وقرأ رجاء، وقتادة تنبيه. وفي ذلك دليل على جواز

الشَّرُّ: لَأَنَ الْخَيْرِ بِفَضْلِ مُحَضٍّ بِخِلَافِ الشَّرِّ، فَإِنَّهُ يَكُونُ جِزَاءً لِعَمَلٍ وَصَلَ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: لَأَنَ كُلِّ شَرٍّ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ مِنْ قَضَائِهِ سَبْحَانَهُ هُوَ: مُتَضَمِّنٌ لِلْخَيْرِ، فَأَنَاعَالَهُ كُلُّهَا خَيْرٌ، وَقِيلَ: إِنَّهُ حَذَفَ، كَمَا حَذَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: 81] وَأَصْلُهُ بَيْنَكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ، وَقِيلَ: خَصَّ الْخَيْرَ؛ لِأَنَ الْمَقَامَ مَقَامَ دَعَاءٍ، قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَعْلِيلٌ لِمَا سَبَقَ، وَتَحْقِيقٌ لَهُ، قَوْلُهُ: ﴿تَوَلَّجَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجَ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ أَي: تَخَلَّضَ مَا نَقَصَ مِنْ أَحَدِهِمَا فِي الْآخَرِ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى تَعَاقَبَ بَيْنَهُمَا، وَيَكُونُ زَوَالُ أَحَدِهِمَا، وَلَوْجًا فِي الْآخَرِ، قَوْلُهُ: ﴿وَتَخْرُجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَخْرُجُ الْمَيِّتُ مِنَ الْحَيِّ﴾ قِيلَ: الْمَرَادُ: إِخْرَاجُ الْحَيَّوَانِ، وَهُوَ حَيٍّ مِنَ النَّطْفَةِ، وَهِيَ مَيِّتَةٌ، وَإِخْرَاجُ النَّطْفَةِ، وَهِيَ مَيِّتَةٌ مِنَ الْحَيَّوَانِ، وَهُوَ حَيٍّ، وَقِيلَ الْمَرَادُ: إِخْرَاجُ الطَّائِرِ، وَهُوَ حَيٍّ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَهِيَ مَيِّتَةٌ، وَإِخْرَاجُ الْبَيْضَةِ، وَهِيَ مَيِّتَةٌ مِنَ السَّجَّاجَةِ، وَهِيَ حَيَّةٌ، وَقِيلَ الْمَرَادُ: إِخْرَاجُ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْكَافِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِ، قَوْلُهُ: ﴿بَغْيِيرٍ حِسَابٍ﴾ أَي: بِغَيْرِ تَضْيِيقٍ، وَلَا تَقْتِيرٍ، كَمَا تَقُولُ فُلَانٌ يَعْطِي بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالْبَاءُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ حَالًا.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: نكر لنا أن نبي الله ﷺ سال ربه أن يجعل ملك فارس، والروم في أمته، فنزلت الآية. وأخرج الطبراني، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: اسم الله الأعظم ﴿قُلْ لِلَّهِ مَالُ الْمُلْكِ﴾ إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وأخرج ابن أبي الدنيا، والطبراني، عن معاذ أنه شكا إلى النبي ﷺ ديناً عليه، فعلمه أن يتلو هذه الآية، ثم يقول: رحمن الدنيا، والآخرة، ورحيمهما، تطي من تشاء منهما، وتمنع من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك، اللهم اغنني من الفقر، واقض عني الدين. وأخرجه الطبراني في الصغير من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «ألا أعلمك دعاء تدعوه لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك» فذكره، وإسناده جيد، وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ [آل عمران: 18] بعض فضائل هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿نُؤْتِي الْمُلْكَ مِنْ نَشَاءٍ﴾ قال: النبوة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود في قوله: ﴿تُولَجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ﴾ الآية، قال: تأخذ الصيف من الشتاء، وتأخذ الشتاء من الصيف ﴿وتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ تخرج الرجل الحي من النطفة الميتة ﴿وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ تخرج النطفة الميتة من الرجل الحي. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿تُولَجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ﴾ قال: ما نقص من النهار تجعله في الليل، وما نقص من الليل تجعله في النهار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك، نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر،

الموالاة لهم مع الخوف منهم، ولكنها تكون ظاهراً لا باطناً. وخالف في ذلك قوم من السلف، فقالوا: لا تقيّة بعد أن أعز الله الإسلام. قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي ذاته المقدسة، وإطلاق ذلك عليه سبحانه جائز في المشكلة، كقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116] وفي غيرها. وذهب بعض المتأخرين، إلى منع ذلك إلا مشكلة. وقال الزجاج: معناه: ويحذركم الله إياه، ثم استغنوا عن ذلك بهذا، وصار المستعمل. قال: وأما قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ فمعناه تعلم ما عندي، وما في حقيقتي، ولا أعلم ما عنك، ولا ما في حقيقتك. وقال بعض أهل العلم: معناه: ويحذركم الله عقابه مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] فجعلت النفس في موضع الإضمار، وفي هذه الآية تهديد شديد، وتخويف عظيم لعباده أن يتعرضوا لعقابه بموالاة أعدائه. قوله: ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ الآية فيه أن كل ما يضره العبد، ويخفيه، أو يظهره، ويبيده، فهو معلوم لله سبحانه، لا يخفى عليه منه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مما هو أعم من الأمور التي يخفونها، أو يبدونها، فلا يخفى عليه ما هو أخص من ذلك. قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾ منصوب بقوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وقيل: بمحذوف، أي: انكروا، و﴿محضراً﴾ حال، وقوله: ﴿وَمَا عَمِلْتُمْ مِنْ سُوءٍ﴾ معطوف على ما الأولى أي: وتجد ما عملت من سوء محضراً تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً. فحذف محضراً لدلالة الأول عليه، وهذا إذا كان «تجد» من وجدان الضالة، وأما إذا كان من وجد بمعنى علم كان محضراً هو المفعول الثاني، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَمَا عَمِلْتُمْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ جملة مستأنفة، ويكون «ما» في ما عملت مبتدأ، ويؤدّ خبره. والآمد: الغاية، وجمعه آماد أي: تود لو أن بينها وبين ما عملت من السوء أمداً بعيداً، وقيل: إن قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾ منصوب بقوله: ﴿تَوَدُّ﴾ والضمير في قوله: ﴿وَبَيْنَهُ﴾ لليوم، وفيه بعد، وكرر قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ للتأكيد، وللإستحضار ليكون هذا التهديد العظيم على نكر منهم، وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ دليل على أن هذا التحذير الشديد مقترن بالرفقة منه سبحانه بعباده لطفاً بهم. وما أحسن ما يحكي عن بعض العرب أنه قيل له: إنك تموت، وتبعث، وترجع إلى الله فقال: اتهدونني بمن لم أر الخير قط إلا منه.

للكافرين﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طرق عنه قال: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، ويتخونهم، وليجة من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيظهرون لهم اللطف، ويخالفونهم في الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ فقد بريء الله منه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُ تُقَاةً﴾ قال: التقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به، وهو معصية الله، فيتكلم به مخافة الناس، وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن ذلك لا يضره، إنما التقية باللسان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عنه في الآية قال: التقية التكلم باللسان، والقلب مطمئن بالإيمان، ولا يبسط يده، فيقتل، ولا إلى إثم، فإنه لا عذر له. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العلية في الآية قال: التقية باللسان، وليس بالعمل، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ قال إلا أن يكون بينك وبينه قرابة، فتصله لذلك. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري، عن الحسن قال: التقية جائزة إلى يوم القيامة. وحكى البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: إنا نيش في وجوه أقوام، وقلوبنا تلعنهم، ويدل على جواز التقية، قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ، وَلَكِنْ مِنْ شَرَحٍ بِالْكَفْرِ صَدْرًا، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 106]. ومن القائلين بجواز التقية باللسان أبو الشعثاء، والضحاك، والربيع بن أنس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْا﴾ الآية قال: أخبرهم أنه يعلم ما أسروا، وما أعلنوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله محضراً، يقول موفراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في الآية قال: يسر أحكم أن لا يلقي عمله ذلك أبداً، يكون ذلك مناه. وأما في الدنيا، فقد كانت خطيئته يستلذهما. وأخرجنا أيضاً، عن السدي: ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾ قال: مكاناً بعيداً. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج أمداً قال: أجلاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال: من رافته بهم حذرهم نفسه.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

الحب، والمحبة ميل النفس إلى الشيء، يقال: أحبه، فهو محب، وحبه يحبه بالكسر، فهو محبوب. قال الجوهري: وهذا شاذ؛ لأنه لا يأتي في المضاعف يفعل بالكسر. قال ابن

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، وابن أبي الحقيق، وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر، وعبد الله بن جبيرة، وسعد بن خثمة، لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود، واحذروا مبايحتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فابى أولئك النفر، فانزل الله فيهم: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ

يحببكم الله ﴿١﴾ قال: على البر، والتقوى، والتواضع، ونزلة النفس. وأخرجه أيضاً الحكيم الترمذي، وأبو نعيم، والديلمي، وابن عساكر عنه. أخرج ابن عساكر، مثله عن عائشة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى من يبيب للنمل على الصفا في الليلة الظلماء، وأنها أن يحب على شيء من الجور، ويبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب، والبغض في الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَلْ إِبْرَاهِيمَ وَأَلْ عِمْرَانَ﴾ قال: هم المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ذَرِيَّةَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ قال: في النية، والعمل، والإخلاص، والتوحيد.

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّي إِنِّي تَرَتُّ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُرَرًّا فَتَبَلَّ مَوْءً إِنَّكَ أَنْتَ الْيَسِيرُ الْفَتِيرُ ﴿٢﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّي إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ إِلَّا لِي وَبِئْسَ مَا تَرْضَىٰ ﴿٣﴾ فَأَتَتْهَا مِنْكَ الْيَسِيرُ الْفَتِيرُ ﴿٤﴾ فَتَبَلَّهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَزَرُ أَنَّ لِلرَّبِّ هَذَا قَالَتْ مَرْءٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٥﴾

قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ قال أبو عمرو: «إذ» زائدة. وقال محمد بن يزيد: إنه متعلق بمحذوف تقديره أنكر إذ قالت. وقال الزجاج: هو متعلق بقوله: ﴿اصْطَفَى﴾ وقيل: متعلق بقوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وامرأة عمران اسمها حنة بالحاء المهملة، والنون، بنت فاقود بن قبيل أم مريم، فهي جدة عيسى. وعمران هو ابن ماثان جد عيسى. قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ تقديم الجار، والمجرور، لكمال العناية، وهذا النذر كان جائزاً في شريعتهم. ومعنى: ﴿لَكَ﴾ أي: لعبادتك. ومحذراً منصوب على الحال، أي: عتيقاً خالصاً لله خالصاً للمكنيسة. والمراد هنا: الحرية التي هي ضد العبودية. وقيل: المراد بالمحرر هنا الخالص لله سبحانه الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا. ورجح هذا بأنه لا خلاف أن عمران، وأمراته حران. قوله: ﴿فَقَبِلَ مِنِّي﴾ التقبل أخذ الشيء على وجه الرضا، أي: تقبل مني نذري بما في بطني. قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ التانيث باعتبار ما علم من المقام أن الذي في بطنها أنثى، أو لكونه أنثى في علم الله، أو بتأويل ما في بطنها بالنفس، أو النسمة، أو نحو ذلك. قوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ إنما قالت هذه المقالة؛ لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكر دون الأنثى، فكانها تحسرت، وتحزنت لما فاتها من ذلك الذي كانت ترجوه، وتقدره، وأنثى حال مؤكدة من الضمير، أو بدل منه. قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ قرأ أبو بكر، وابن عامر بضم التاء، فيكون من جملة كلامها، ويكون متصلاً بما قبله، وفيه معنى التسليم، والخضوع، والتذرية له أن يخفى عليه شيء. وقرأ

الدهان: في حب لغتان حب وأحب، وأصل حب في هذا اللب حب كطرق، وقد فسرت المحبة لله سبحانه بإرادة طاعته. قال الأزهرى: محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما، وإتباعه أمرهما، ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران. وقرأ أبو رجاء العطاردي: «فاتبعوني» بفتح الباء. وروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه أدغم الراء من يخفر في اللام. قال النحاس: لا يجيز الخليل، وسيبويه إدغام الراء في اللام، وأبو عمرو أجل من أن يغلط في هذا، ولعله كان يخفي الحركة، كما يفعل في أشياء كثيرة. قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ حنف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: في جميع الأوامر، والنواهي. قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يحتمل أن يكون من تمام مقول القول، فيكون مضارعاً حذف فيه إحدى التامين، أي: تتولوا، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى، فيكون ماضياً. وقوله: ﴿فَإِنْ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ نفي المحبة كناية عن البغض، والسخط. ووجه الإظهار في قوله: ﴿فَإِنْ اللَّهَ﴾ مع كون المقام مقام إضمار لقصد التعظيم، أو التعميم. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ الخ لما فرغ سبحانه من بيان أن الدين المرضي هو: الإسلام، وأن محمداً ﷺ، هو الرسول الذي لا يصح لأحد أن يحب الله إلا بإتباعه، وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو لمجرد البغي عليه، والحسد له، شرع في تقرير رسالة النبي ﷺ، وبين أنه من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة. والاصطفاء الاختيار. قال الزجاج: اختارهم بالنبوة على عالمي زمانهم، وقيل: إن الكلام على تقدير مضاف، أي: اصطفى دين آدم الخ، وقد تقدم الكلام على تفسير العالمين، وتخصيص آدم بالذكر؛ لأنه أبو البشر، وكذلك نوح، فإنه آدم الثاني، وأما آل إبراهيم، فلكون النبي ﷺ منهم مع كثرة الأنبياء منهم. وأما آل عمران فهم، وإن كانوا من آل إبراهيم، فلما كان عيسى عليه السلام منهم كان لتخصيصهم بالذكر وجه. وقيل المراد: بآل إبراهيم إبراهيم، نفسه، وبآل عمران عمران نفسه. قوله: ﴿ذَرِيَّةَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ نصب ذرية على البلية مما قبله قاله الزجاج، أو على الحالية قاله الأخفش، وقد تقدم تفسير الذرية، وبعضها من بعض في محل نصب على صفة الذرية، ومعناه متناصلة متشعبة، أو متناصرة متعاضدة في الدين.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن من طرق قال: قال أقوام على عهد رسول الله ﷺ: والله يا محمد إنا لنحب ربنا، فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ الآية. وأخرج الحكيم الترمذي عن يحيى بن كثير نحوه. وأخرج أيضاً ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: إن كان هذا من قولكم في عيسى حباً لله، وتعظيماً له: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴿١﴾ أي: ما مضى من كفركم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾

أيضاً: «وأنبتها، بإسكان التاء «وكفلها» بتشديد الفاء المكسورة، وإسكان اللام، ونصب «زكريا» مع المدّ. وقرأ حفص، وحمزة، والكسائي: «زكريا» بغير مد، ومده الباقون، وقال الفراء: أهل الحجاز يمدون زكريا، ويقصرونه. قال الأخفش: فيه لفات المد، والقصر، وزكري بتشديد الياء، وهو ممتنع على جميع التقادير للجمعة، والتعريف مع ألف التانيث. قوله: «كلمنا بخل عليها زكريا المحراب» قدّم الظرف للاهتمام به، وكلمة كل ظرف، والزمان محذوف، وما مصدرية، أو نكرة موصوفة، والعامل في ذلك قوله: «ووجد» أي: كل زمان بخله عليها، وجد عندها رزقاً، أي: نوعاً من أنواع الرزق. والمحراب في اللغة: أكرم موضع في المجلس قاله القرطبي، وهو: منصوب على التوسع، قيل: إن زكريا جعل لها محراباً: لا يرتقي إليه إلا بسلم، وكان يطلق عليها حتى كبرت، وكان إذا دخل عليها وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فقال: «يا مريم أني لك هذا» أي: من أين يجيء لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا «فألت هو من عند الله» فليس ذلك بعجيب، ولا مستنكر، وجملة قوله: «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» تعليلية لما قبلها، وهو من تمام كلامها، ومن قال إنه من كلام زكريا، فتكون الجملة مستأنفة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «إني نذرت لك ما في بطني محرراً» قال: كانت نذرت أن تجعله في الكنيسة يتعبد بها، وكانت ترجو أن يكون نكراً. وأخرج ابن المنذر عنه قال: نذرت أن تجعله محرراً للعبادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: «محرراً» قال: خالماً للبيعة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: محرراً خالصاً لا يخالطه شيء من أمر الدنيا، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد، فيستهلّ صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم، وابنها، ثم يقول أبو هريرة: أقرؤوا إن شئتم: «وإني أعيدّها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»» وللحديث الفاظ عن أبي هريرة هذا أحدها، وروى من حديث غيره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: كفّلها زكريا، فدخل عليها المحراب، فوجد عندها عنباً في مكث في غير حينه، فقال: أني لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، قال: إن الذي يرزقك العنب في غير حينه لقادر أن يرزقني من العاقر الكبير العقيم ولداً «هنالك دعا زكريا ربه» [آل عمران: 38]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: كانت مريم ابنة سيدهم، وإمامهم، فتشاح عليها لحبارهم، فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها، وكان زكريا زوج أختها، فكفلها، وكانت عنده، وحضنها. وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس: «وكفّلها

الجمهور وضعت، فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته، والتفخيم لشأنه، والتجليل لها حيث وقع منها التحسر، والتحنن، مع أن هذه الأنثى التي وضعتها سيجعلها الله، وابنها آية للعالمين، وعبرة للمعتبرين، ويختصها بما لم يختص به أحداً. وقرأ ابن عباس: «بما وضعت» بكسر التاء على أنه خطاب من الله سبحانه لها، أي: إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب، وما علم الله فيه من الأمور التي تتقاصر عنها الأفهام، وتتضافر عندها العقول. قوله: «وليس الذكر كالأنثى» أي: وليس الذكر الذي طلبت، كالأنثى التي وضعت، فإن غاية ما أراحت من كونه نكراً أن يكون نذراً خادماً للكنيسة، وأمر هذه الأنثى عظيم، وشأنها فخير. وهذه الجملة اعتراضية مبينة لما في الجملة الأولى من تعظيم الموضوع، ورفع شأنه، وعلوّ منزلته، واللام في الذكر، والأنثى للعهد، هذا على قراءة الجمهور، وعلى قراءة ابن عباس، وأما على قراءة أبي بكر، وابن عامر، فيكون قوله: «وليس الذكر كالأنثى» من جملة كلامها، ومن تمام تحسرها، وتحزنها، أي: ليس الذكر الذي أرتيت أن يكون خادماً، ويصلح للنذر كالأنثى التي لا تصلح لذلك، وكانها أعذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصت. قوله: «وإني سميتها مريم» عطف على «إني وضعتها أنثى» ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه، وأن يكون فعلها مطابقاً لمعنى اسمها، فإن معنى مريم خادم الرب بلغتهم، فهي، وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة، فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات. قوله: «وإني أعيدّها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» عطف على قوله: «إني سميتها مريم»، والرجيم المطرود، وأصله المرمى بالحجارة، طلبت الإعادة لها، ولولدها من الشيطان، وأعوانه. قوله: «فتقبلها ربها بقبول حسن» أي: رضي بها في النذر، وسلك بها مسلك السعداء. وقال قوم: معنى التقبل التكفل، والتربية، والقيام بشأنها، والقبول مصدر مؤكّد للفعل السابق، والباء زائدة، والأصل تقبلاً، وكذلك قوله: «وأنبتها نباتاً حسناً» وأصله إنباتاً، فحذف الحرف الزائد، وقيل: هو مصدر لفعل محذوف، أي: فنبتت نباتاً حسناً. والمعنى أنه سوّى خلقها من غير زيادة، ولا نقصان، قيل: إنها كانت تتبت في اليوم ما ينبت المولود في عام، وقيل: هو مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها، قوله: «وكفّلها زكريا» أي: ضمها إليه. وقال أبو عبيدة ضمن القيام بها. وقرأ الكوفيون: «وكفّلها» بالتشديد، أي: جعله الله كافلاً لها، وملتزماً بمصالحها، وفي معناه ما في مصحف أبي، وكفّلها، وقرأ الباقون بالتخفيف على إسناد الفعل إلى زكريا، ومعناه ما تقدّم من كونه ضمها إليه، وضمن القيام بها. وروى عمرو بن موسى، عن عبد الله بن كثير، وأبي عبد الله المزني، وكفّلها بكسر الفاء. قال الأخفش: لم أسمع كفل. وقرأ مجاهد: «فتقبلها» بإسكان اللام على المسألة، والطلب، ونصب ربها على أنه منادى مضاف. وقرأ

زكريا قال: جعلها معه في محرابه.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٧٠﴾ نَادَاهُ الْمَلَائِكَةُ هُوَ قَائِمٌ يَعْلَمُ فِي الْغُرَابِ أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَبْلٍ مُمْدُودٍ بِكَرِيمٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَمِيدًا وَيُنَبِّئُكَ مِنَ الْمَكِيلِينَ ﴿١٧١﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ يَتِمُّ مَا يَشَاءُ ﴿١٧٢﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ الَّذِي كُنْتَ تُنْكِرُ إِنَّكَ تَكُنْ مِنْ الْغَائِبِينَ ﴿١٧٣﴾ وَإِذْ رَمَى نَارًا وَادَّكَرَ بَيْنَكَ كَرِيمًا وَسَمِعَ الْإِنجِيلَ ﴿١٧٤﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَلَكَرِهُكِ وَمَحَطَّكِ عَلَيْ إِسْمَ الْمَكِينِ ﴿١٧٥﴾ يَتَرَمَّزُ عَنِّي لَرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٧٦﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ يُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمُوهُمْ أَفْهَمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَوِمُونَ ﴿١٧٧﴾

قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ ظرف يستعمل للزمان، والمكان، وأصله للمكان، وقيل: إنه للزمان خاصة، وهناك للمكان، وقيل: يجوز استعمال كل واحد منهما مكان الآخر، واللام للدلالة على البعد، والكاف للخطاب. والمعنى أنه دعا في ذلك المكان الذي هو قائم فيه عند مريم، أو في ذلك الزمان أن يهب الله له ذرية طيبة، والذي بعثه على ذلك ما رآه من ولادة حنة لمريم، وقد كانت عاقراً، فحصل له رجاء الولد، وإن كان كبيراً، وامراته عاقراً، أو بعثه على ذلك ما رآه من فلكهة الشتاء في الصيف، والصيف في الشتاء عند مريم؛ لأن من أوجد ذلك في غير وقته يقدّر على إيجاد الولد من العاقر، وعلى هذا يكون هذا الكلام قصة مستأنفة سبقت في غضون قصة مريم لما بينهما من الارتباط، والذرية النسل يكون للواحد، ويكون للجمع، ويدل على أنها هنا للواحد. قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ولم يقل أولياء، وتأنيت طيبة لكون لفظ الذرية مؤنثاً. قوله: ﴿فَنَادَاهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، «فناداه»، وبذلك قرأ ابن عباس وابن مسعود، وقرأ الباقر: «فنادته الملائكة»، قيل: المراد هنا جبريل، والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز في العربية، ومنه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: 173] وقيل: ناداه جميع الملائكة، وهو الظاهر من إسناد الفعل إلى الجمع والمعنى الحقيقي مقدّم، فلا يصار إلى المجاز إلا لقرينة. قوله: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ﴾ جملة حالية، و ﴿يُعَلِّمُ فِي الْمِحْرَابِ﴾ صفة لقوله: ﴿قَائِمٌ﴾ أو خبر ثان لقوله: ﴿وَهُوَ﴾. قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ﴾ قرئ بفتح آن، والتقدير بأن الله، وقرئ بكسرهما على تقدير القول. وقرأ أهل المدينة يَبْشُرُكَ بالتشديد. وقرأ حمزة بالتخفيف. وقرأ حميد بن قيس المكي بكسر الشين، وضم حرف المضارعة. قال الأخفش: هي ثلاث لغات بمعنى واحد، والقراءة الأولى هي التي وردت كثيراً في القرآن، ومنه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي﴾ [الزمر: 17] ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِمَغْفَرَةٍ﴾ [يس: 11] ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: 71] ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: 55] وهي قراءة الجمهور. والثانية لغة أهل تهامة، وبها قرأ أيضاً

عبد الله بن مسعود، والثالثة من أبشر يبشر بإشارة. ويحيى ممتنع إما لكونه أعجماً أو لكون فيه وزن الفعل، كيصر مع العلمية. قال القرطبي حاكياً عن النقاش: كان اسمه في الكتاب الأول حنا. انتهى. والذي رأيناه في مواضع من الإنجيل أنه يوحنا، قيل: سمي بذلك؛ لأن الله أحياه بالإيمان، والنبوة، وقيل: لأن الله أحياه به الناس بالهدى. والمراد هنا: التبشير بولادته، أي: يبشر بولادة يحيى. وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بعيسى عليه السلام، وسمي كلمة الله؛ لأنه كان بقوله سبحانه كن، وقيل: سمي كلمة الله؛ لأن الناس يهتدون به، كما يهتدون بكلام الله. وقال أبو عبيد: معنى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ بكتاب من الله، قال: والعرب تقول أنشدني كلمته، أي: قصيدته، كما روي أن الحويدرة نكر لحسان، فقال: لعن الله كلمته، يعني قصيدته. انتهى. ويحيى أول من آمن بعيسى، وصنق، وكان أكبر من عيسى بثلاث سنين، وقيل: بستة أشهر. والسيد: الذي يسود قومه، قال الزجاج: السيد الذي يفوق أقرانه في كل شيء من الخير. والحصور أصله من الحصر، وهو الحبس، يقال حصرني الشيء، وأحصرتني: إذا حسنتي، ومنه قول الشاعر:

وما هجر ليلى أن تكون تباعدت عليك ولا أن أحصرتك شغل
والحصور: الذي لا يأتي النساء، كأنه يحجم عنهن، كما يقال رجل حصور، وحصير: إذا حبس رفته، ولم يخرج، فيحيى عليه السلام كان حصوراً عن إتيان النساء، أي: محصوراً لا يأتين، كغيره من الرجال، إما لعدم القدرة على ذلك، أو لكونه يكف عنهن منعاً لنفسه عن الشهوة مع القدرة. وقد رجّح الثاني بأن المقام مقام مدح، وهو لا يكون إلا على أمر مكتسب يقدّر فاعله على خلافه، لا على ما كان من أصل الخلقة، وفي نفس الجبلة. وقوله: ﴿مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ أي: ناشئاً من الصالحين، لكونه من نسل الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين، كما في قوله: ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: 130]. قال الزجاج: الصالح الذي يؤدي شى ما افترض عليه، وإلى الناس حقوقهم. قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ظاهر هذا أن الخطاب منه لله سبحانه، وإن كان الخطاب الواصل إليه هو بواسطة الملائكة، وذلك لمزيد التضرع، والجذ في طلب الجواب، عن سؤاله، وقيل: إنه أراد بالرَّبِّ جبريل، أي: يا سيدي، قيل: وفي معنى هذا الاستفهام، وجهان: أحدهما أنه سأل هل يرزق هذا الولد من امراته العاقر، أو من غيرها؟ وقيل: معناه بآتي سبب استوجب هذا، وأنا، وامراتي على هذه الحال؟ والحاصل أنه استبعد حدوث الولد منهما مع كون العادة قاضية بأنه لا يحدث من مثلهما؛ لأنه كان يوم التبشير كبيراً، قيل: في تسعين سنة، وقيل: ابن عشرين ومائة سنة، وكانت امراته في ثمان وتسعين سنة، ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي: والحال ذلك، جعل الكبير، كالطالب له لكونه طليعة من طلائع الموت، فاستند الفعل إليه. والعاقر: التي لا تلد، أي: ذات عقر على النسب، ولو كان على الفعل

سابق من الأمور التي أخبره الله بها. والوحي في اللغة: الإعلام في خفاء، يقال وحي، وأوحى بمعنى. قال ابن فارس: الوحي الإشارة، والكتابة، والرسالة، وكل ما ألقته إلى غيرك حتى تعلمه. قوله: ﴿وَمَا كُنْتُ لِنَبِيِّهِمْ﴾ أي: تحضرهم يعني المتنازعين في تربية مريم، وإنما نفى حضوره عندهم مع كونه معلوماً، لأنهم أنكروا الوحي، فلو كان ذلك الإنكار صحيحاً لم يبق طريق للعلم به إلا المشاهدة، والحضور، وهم لا يدعون ذلك، فثبت كونه، وحيّاً مع تسليمهم أنه ليس ممن يقرأ التوراة، ولا ممن يلبس أهلها، والأقلام جمع قلم، من قلمه إذا قطعه، أي: أقلامهم التي يكتبون بها، وقيل: قداحهم. ﴿أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي: يحضنها، أي: يلقون أقلامهم، ليعلموا أيهم يكفلها، وذلك عند اختصاصهم في كفالتها، فقال زكريا: هو أحق بها لكون خالتها عنده، وهي أشيع أخت حنة أم مريم، وقال بنو إسرائيل: نحن أحق بها لكونها بنت عالمنا، فافترعوا، وجعلوا أقلامهم في الماء الجاري على أن من وقف قلمه، ولم يجر مع الماء، فهو صاحبها، فجرت أقلامهم، ووقف قلم زكريا، وقد استدلل بهذا من أثبت القرعة، والخلاف في ذلك معروف، وقد ثبتت أحاديث صحيحة في اعتبارها.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما رأى زكريا ذلك، يعني فأكهة الصيف في الشتاء، وفأكهة الشتاء في الصيف، عند مريم قال: إن الذي أتى بهذا مريم في غير زمانه قاهر أن يرزقني ولداً، فلذلك حين دعا ربه. وأخرج ابن عساکر، عن الحسن نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿ذُرِّيَّةٌ طَيِّبَةٌ﴾ يقول: مباركة. وأخرج ابن جرير، عن عبد الرحمن بن أبي حماد قال: في قراءة ابن مسعود: فناداه جبريل، وهو قائم يصلي في المحراب، وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي أنه قال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: جبريل. وأخرج ابن المنذر، عن السدي قال: المحراب المصلى. وقد أخرج الطبراني، والبيهقي، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «أتقوا هذه المذابيح» يعني: المحارب. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، عن موسى الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابيح كمذابيح النصارى» وقد رويت كراهة ذلك عن جماعة من الصحابة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: إنما سمي يحيى، لأن الله أحياه بالإيمان. وأخرجوا، عن ابن عباس قال: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قال: عيسى بن مريم هو الكلمة، وأخرج ابن جرير، من طريق ابن جريج، عنه قال، كان يحيى، وعيسى ابني الخالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطني، فلذلك تصليقه بعيسى سجوده في بطن أمه، وهو: أول من صدق بعيسى. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وَسَيِّدًا﴾ قال: حليماً تقياً. وأخرج عبد بن حميد، وابن

لقال عقيرة، أي: بها عقر يمنعها من الولد، وإنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيبة، ومشاهدته لتلك الآية الكبرى في مريم استعظماً لقدرة الله سبحانه لا لمحض الاستبعاد، وقيل: إنه قد مر بعد دعائه إلى وقت يشاء ربه أربعون سنة، وقيل: عشرون سنة، فكان الاستبعاد من هذه الحيثية. قوله: ﴿كَفَّلَكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، وهو: إيجاد الولد من الشيخ الكبير، والمرأة العاقر، والكاف في محل نصب نعتاً لمصدر محذوف، والإشارة إلى مصدر يفعل، أو الكاف في محل رفع على أنها خبر، أي: على هذا الشأن العجيب شأن الله، ويكون قوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ بياناً له، أو الكاف في محل نصب على الحال، أي: يفعل الله الفعل كائناً مثل ذلك. قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة أعرف بها صحة الحمل، فالتقى هذه النعمة بالشكر ﴿قَالَ آيَتُكَ أَنْ لَا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ أي: علامتك أن تحبس لسانك عن تكليم الناس ثلاثة أيام لا عن غيره من الإنكار، ووجه جعل الآية هذا لتخلص تلك الأيام لنكر الله سبحانه شكراً على ما أنعم به عليه، وقيل: بأن ذلك عقوبة من الله سبحانه له بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه، حكاه القرطبي عن أكثر المفسرين. والرمز في اللغة: الإيماء بالشفيتين، أو العينين، أو الحاجبين، أو اليدين، وأصله الحركة، وهو: استثناء منقطع، لكون الرمز من غير جنس الكلام، وقيل: هو متصل على معنى أن الكلام ما حصل به الأفهام من لفظ، أو إشارة، أو كتابة، وهو بعيد. والصواب الأول، وبه قال الأخفش، والكسائي. قوله: ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: سبحه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وهو: جمع عشية، وقيل: هو واحد، وهو: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، وقيل: من العصر إلى زهاب صدر الليل، وهو ضعيف جداً. ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وقيل: المراد بالتسبيح: الصلاة. قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ الظَّرْفُ مَتَّعِلٌ بِمَحْذُوفٍ، كَالظَّرْفِ الْأَوَّلِ﴾ إن الله اصطفاك اختارك ﴿وَوَطَّهَّرَكَ﴾ من الكفر، أو من الانسائ على عمومها ﴿وَاصْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: هذا الاصطفاء الآخر غير الاصطفاء الأول، فالأول هو: حيث تقبلها بقبول حسن، والآخر لولادة عيسى. والمراد بالعالمين هنا قيل: نساء عالم زمانها، وهو الحق، وقيل: نساء جميع العالم إلى يوم القيامة، واختاره الزجاج، وقيل: الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الأول، والمراد بهما جميعاً. واحد. قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي: أطيلي القيام في الصلاة، أو أنيمي وقد تقدم الكلام على معاني القنوت، وقدم السجود على الركوع، لكونه أفضل، أو لكون صلاتهم لا ترتيب فيها مع كون الواو لمجرد الجمع بلا ترتيب. وقوله: ﴿وَارْكَعِي﴾ مع الرَّاكِعِينَ ظاهره أن ركوعها يكون مع ركوعهم، فيدل على مشروعيتها صلاة الجماعة، وقيل: المعنى: أنها تفعل مثل فعلهم، وإن لم تصل معهم، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما

ريك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُ لِيهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ قال: إن مريم لما وضعت في المسجد اقترع عليها أهل المصلى، وهم يكتبون الوحي، فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها. قال الله لمحمد: ﴿وَمَا كُنْتُ لِيهِمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: القوا أقلامهم في الماء، فذهبت مع الجرية، وصعد قلم زكريا، فكفلها زكريا. وأخرج ابن جرير، عن الربيع نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وكذلك أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن جريج، أن الأقلام هي التي يكتبون بها التوراة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عطاء: أنها القحاح.

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَخْتَارُ لَكَ كَلِمَةً مِنْهُ أَسْمُهُ السَّيِّئُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْمُنْزَلِينَ ﴿١٥﴾ وَكَانَ آتِيسَ فِي الْهَيْدِ وَكَهَلًا مِنَ الْمَكِيلِينَ ﴿١٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧﴾ وَكَلَّمَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ وَالْجِبْرُوتَ وَالْإِنجِيلَ ﴿١٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُكُمْ بَنَاتٍ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ بَنَاتٍ كَمَا خَلَقْتُ الْمُنْثَرِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي وَأَمْرِي السَّوْفَ يَأْتِيَنَّكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَلْبَسُونَ فَإِنِّي يَوْمَئِذٍ لَأَعْلَمُ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَصَدَقْنَا لِمَا يَزَعُ يَدَ رَبِّكَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ لَكُمْ بَعْضُ آلَايِ حَرَمَ عَلَيْكُمْ وَجَعَلْتُ بَنَاتٍ رَبِّكُمْ فَإِنِّي يَوْمَئِذٍ لَأَعْلَمُ لَكُمْ ﴿٢٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاتَّقُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ بدل من قوله: «إِذْ قَالَتْ» المذكور قبله، وما بينهما اعتراض، وقيل: بدل من «إِذْ يَخْتَصِمُونَ» وقيل: منصوب بفعل مقدر، وقيل: بقوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ وقيل: بقوله: ﴿وَمَا كُنْتُ لِيهِمْ﴾.

والمسيح اختلف فيه مما إذا أخذ؟ فقيل: من المسيح، لأنه مسح الأرض، أي: ذهب فيها، فلم يستكن بكن، وقيل: إنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا بري، فسمي مسيحاً، فهو على هذين فعيل بمعنى فاعل، وقيل: لأنه كان يمسح بالدهن الذي كانت الأنبياء تمسح به، وقيل: لأنه كان ممسوح الأخصمين، وقيل: لأن الجمال مسحه، وقيل: لأنه مسح بالتطهير من الذنوب، وهو على هذه الأربعة الأقوال: فعيل بمعنى مفعول. وقال أبو الهيثم: المسيح ضد المسيح بالخاء المعجمة. وقال ابن الأعرابي: المسيح الصديق. وقال أبو عبيد: أصله بالعبرانية مشيحاً بالمعجمتين فعرب، كما عرب موسى بموسى. وأما الدجال، فسمي مسيحاً؛ لأنه ممسوح إحدى العينين، وقيل: لأنه يمسح الأرض أي: يطوف بلدانها إلا مكة، والمدينة وبيت المقدس. وقوله: ﴿عِيسَى﴾ عطف بيان، أو بدل، وهو اسم أعجمي، وقيل: هو عربي مشتق من عاسه يعوسه إذا ساسه. قال في الكشف: هو معرب من إيشوع انتهى. والذي رأيناه في الإنجيل في مواضع أن اسمه يشوع بدون همزة، وإنما قيل: ابن مريم مع كون الخطاب معها

جرير، عن مجاهد قال: السيد الكريم على الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن المسيب قال: السيد الفقيه العالم. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَيِّداً وَحَصُوراً﴾ قال: السيد الحلیم، والحصور الذي لا يأتي النساء. وأخرج أحمد في الزهد، عن سعيد بن جبیر في الحصور مثله. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الحصور الذي لا ينزل الماء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «كان نكره مثل هدية الثوب، وأخرجه ابن أبي شيبه، وأحمد في الزهد، من وجه آخر، عن ابن عمرو موقوفاً، وهو أقوى. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن شعيب الجبائي قال: اسم أم يحيى أشيع. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ قال: بالحمل به. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿آيَتِكَ لَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ قال: إنما عوقب بذلك، لأن الملائكة شافهته بذلك مشافهة، فبشرته بيحيى، فسأل الآية بعد كلام الملائكة إياه، فأخذ عليه بلسانه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ قال: الرمز بالشفقتين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر قال: الرمز الإشارة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ قال: العشي ميل الشمس إلى أن تغيب، والإبكار أول الفجر. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد». وأخرج الحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء العالمين خديجة، وفاطمة، ومريم، وآسية امرأة فرعون». وأخرج ابن مريويه، عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج نحوه، أحمد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم، من حديثه مرفوعاً، وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وأفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على الطعام» وفي المعنى أحاديث كثيرة، وكلها تفيد أن مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها، لا نساء جميع العالم. ويؤيده ما أخرجه ابن عساکر، عن مقاتل، عن الضحك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أربع نسوة سادات نساء عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وأفضلهن عالماً فاطمة». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال: أطيلي الركود يعني القيام. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبیر ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال: اخلصي. وأخرج عن قتادة قال: أطيعي

يطير بغير ريش، ويلد، كما يلد سائر الحيوانات مع كونه من الطير، ولا يبيض، كما يبيض سائر الطيور، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة، وهو: يضحك، كما يضحك الإنسان؛ وقيل: إن سؤالهم له كان على وجه التعنت، قيل: كان يطير ما دام الناس ينظرونه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليمتيز فعل الله من فعل غيره، وقوله: ﴿يَبْذُلُ اللَّهُ﴾ فيه دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى عليه السلام، قيل: كانت تسوية الطين، والنفخ من عيسى، والخلق من الله عز وجل. قوله: ﴿وَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ﴾ الأكمة: الذي يولد أعمى، كذا قال أبو عبيدة. وقال ابن فارس: الكمه العمي يولد به الإنسان، وقد يعرض، يقال كمه يكمه كمها: إذا عمي، وكهت عينه: إذا أعميتها؛ وقيل: الأكمة: الذي يبصر بالنهار، ولا يبصر بالليل، وقيل: هو الممسوح العين. والبرص معروف، وهو بياض يظهر في الجلد. وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ من أمراض عدة، كما اشتمل عليه الإنجيل، وإنما خص الله سبحانه هذين المرضين بالذكر؛ لأنهما لا يبرآن في الغالب بالمدواة، وكذلك إحياء الموتى قد اشتمل الإنجيل على قصص من ذلك. قوله: ﴿وَأَنْبِئَكُمْ بِمَا تَكُلُونَ﴾ أي: أخبركم بالذي تاكلونه، وبالذي تنخرونه. قوله: ﴿وَمَصْنَعًا﴾ عطف على قوله: ﴿وَرَسُولًا﴾ وقيل: المعنى وجنتكم مصنفاً. قوله: ﴿وَلَا حُلَّ﴾ أي: ولا حل لأن حل، أي: جنتكم بأية من ربكم، وجنتكم لأجل لكم بعض الذي حرم عليكم من الأطعمة في التوراة، كالشحوم، وكل ذي ظفر، وقيل: إنما أحل لهم ما حرمته عليهم الأحبار، ولم تحرمه التوراة. وقال أبو عبيدة: يجوز أن يكون بعض بمعنى كل، وأنشد:

ترك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها
قال القرطبي: وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة؛ لأن البعض، والجزء لا يكونان بمعنى الكل، ولأن عيسى لم يحل لهم جميع ما حرمته عليهم التوراة، فإنه لم يحلل القتل، ولا السرقة، ولا الفاحشة، وغير ذلك من المحرمات الثابتة في الإنجيل مع كونها ثابتة في التوراة، وهي: كثيرة يعرف ذلك من يعرف الكتابين، ولكنه قد يقع البعض موقع الكل مع القرينة، كقول الشاعر:

أبا منذر أفتيت فاستبق بعضنا حنايك بعض الشر أهون من بعض
أي: بعض الشر أهون من كله. قوله: ﴿بِأَيَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ وإنما كان ذلك آية، لأن من قبله من الرسل كانوا يقولون ذلك، فمجيئه بما جاءت به الرسل يكون علامة على نبوته. ويحتمل أن تكون هذه الآية هي: الآية المتقدمة، فتكون تكريراً لقوله: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَيَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾ الآية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ قال: عيسى هو: الكلمة من

تنبيهاً على أنه يولد من غير أب، فنسب إلى أمه. والوجه نو الوجاهة: وهي: القوة والمنعة، ووجاهته في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة، وعلو الدرجة، وهو: منتصب على الحال من كلمة، وإن كانت نكرة، فهي موصوفة، وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ الْمُقَرَّبِينَ﴾ في محل نصب على الحال. قال الأخفش: هو: معطوف على وجيها. والمهد: مضجع الصبي في رضاعه، ومهدت الأمر: هيأته، ووطأته. والكهل هو: من كان بين سن الشباب، والشيوخه، أي: يكلم الناس حال كونه رضيعاً في المهد، وحال كونه كهلاً بالوحي، والرسالة، قاله الزجاج. وقال الأخفش، والفراء: إن كهلاً معطوف على وجيها. قال الأخفش: ﴿وَمَنْ الصَّالِحِينَ﴾ عطف على وجيها، أي: هو من العباد الصالحين. قولها: ﴿إِنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون على طريقة الاستبعاد العادي ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ جملة حالية، أي: والحال أنه على حالة منافية للحالة المعتادة من كون له أب ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ هو: من كلام الله سبحانه. وأصل القضاء الأحكام، وقد تقدم، وهو هنا الإرادة، أي: إذا أراد أمراً من الأمور ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ من غير عمل ولا مزاولة، وهو تمثيل لكمال قدرته. قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ قيل هو معطوف على ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ أي: إن الله يبشرك وإن الله يعلمه، وقيل: على ﴿يَخْلُقُ﴾ أي: وكذلك يعلمه الله، أو كلام مبتدأ سيق تطييباً لقلوبها. والكتاب الكتابة. والحكمة العلم، وقيل: تهذيب الأخلاق، وانتصاب رسولاً على تقدير، ويجعله رسولاً، أو ويكلمهم رسولاً، أو وأرسلت رسولاً، وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وَجِيهًا﴾ فيكون حالاً؛ لأن فيه معنى النطق، أي: وناطقاً، قال الأخفش: وإن شئت جعلت الواو في قوله: ورسولاً مقحمة، والرسول حالاً. وقوله: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ معمول لرسول؛ لأن فيه معنى النطق كما مر، وقيل: أصله بآتي قد جئتكم، فحذف الجار، وقيل: منصوب بمضمر أي: تقول إنني قد جئتكم، وقيل: معطوف على الأحوال السابقة. وقوله: ﴿بِأَيَّةٍ﴾ في محل نصب على الحال، أي: متلبساً بعلامة كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وقوله: ﴿إِنِّي أَخْلُقُ﴾ أي: أصور، وأقدر ﴿لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ وهذه الجملة بدل من الجملة الأولى، وهي: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ أو بدل من آية، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي: أني، وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف. وقرأ الأعرج، وأبو جعفر، كهية الطير بالتشديد، والكاف في قوله: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ نعت مصدر محذوف، أي: أخلق لكم خلقاً، أو شيئاً مثل هيئة الطير. وقوله: ﴿فَنَنْفِخُ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الخلق، أو ذلك الشيء، فالضمير راجع إلى الكاف في قوله: كهية الطير، وقيل: الضمير راجع إلى الطير، أي: الواحد منه، وقيل: إلى الطين، وقرئ: فيكون طائراً، وطيراً، مثل تاجر وتجر، وقيل: إنه لم يخلق غير الخفاش لما فيه من عجائب الصنعة، فإن له ثدياً، وأسناناً، وأذنًا، ويحيض، ويطهر، وقيل: إنهم طلبوا خلق الخفاش لما فيه من العجائب المذكورة، ولكونه

وأخرج ابن جرير، عن وهب أن عيسى كان على شريعة موسى، وكان يسبت، ويستقبل بيت المقدس، وقال لبني إسرائيل: إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة إلا لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وأضع عنكم من الأصار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع في الآية: قال كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى، وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل، والثروب، فأحلها لهم على لسان عيسى، وحرم عليهم الشحوم، فأحل لهم فيما جاء به عيسى، وفي أشياء من السمك، وفي أشياء من الطير، وفي أشياء أخر حرمها عليهم، وشدّد عليهم فيها، فجاءهم عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال: ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها، وما أعطاه ربه.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ فَأَلْكَ الْهَارِيُّونَ عَنْ أَنْصَارِ اللَّهِ مَأْمَنًا وَاللَّهُ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ سُبُلِي سُبُلُكُمْ وَأَمَّا مَا أَرْسَلْتُكُمْ الْأَمْوَالَ فَاصْبِرُوا مَعَ الْبُيُوتِ﴾ ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْكَائِنِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَى إِنِّي تُوتِيتُكَ وَرَأَيْتُكَ إِنَّكَ وَمَطْلُوكَ مِنْ آلِ الْفِرْعَوْنَ كَرِهُوا وَإِبْرَاهِيمَ ابْنُ الْكَلْبِ كَرِهُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا الْوَيْتُ كَرِهُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ عَبْدًا بِأُزْرِ الْوَيْتِ وَالْأَخْرَجُوا وَمَا لَهُمْ مِنْ شُعِيرَةٍ﴾ ﴿وَأَمَّا الْوَيْتُ فَأَمَّا وَكَلُوا وَعَمِلُوا فَكَلَّحَتْ فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُبْطِلُ الْفَالِغِينَ﴾ ﴿ذَلِكَ نَقُوءُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي كَرِهُوا﴾

قوله: ﴿فلما أحسن﴾ أي: علم وجود: قاله الزجاج. وقال أبو عبيدة معنى أحسن: عرف، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة، والاحساس: العلم بالشيء. قال الله تعالى: ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ [مريم: 98]. والمراد بالاحساس هنا: الإدراك القوي الجاري مجرى المشاهدة، وبالكفر إصرارهم عليه، وقيل: سمع منهم كلمة الكفر. وقال الفراء: أرادوا قتله. وعلى هذا فمعنى الآية: فلما أدرك منهم عيسى إرادة قتله التي هي كفر قال من أنصاري إلى الله، الانصار جمع نصير. وقوله: ﴿إلى الله﴾ متعلق بمحنوف وقع حالاً، أي: متوجهاً إلى الله، أو ملتجئاً إليه، أو ذاهباً إليه، وقيل: إلى بمعنى مع كقوله تعالى: ﴿ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ [النساء: 2] وقيل: للمعنى: من أنصاري في السبيل إلى الله، وقيل: المعنى: من يضم نصرته إلى نصرة الله. والحواريون جمع حواري، وهو البياض عند أهل اللغة، حوّرت الثياب ببيضتها، والحواري من الطعام: ما حوّر: أي بيض، والحواري أيضاً الناصر، ومنه قوله ﷺ: «لكل نبي حواري، وحواري الزبير» وهو في البخاري، وغيره. وقد اختلف في سبب

الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: المهد: مضجع الصبي في رضاعه. وقد ثبت في الصحيح أنه لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي، فجاءته أمه فدعته فقال: أجيبها، أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تراه وجه المومسات، وكان جريج في صومعة، فتعرضت له امرأة، وكلمته، فأبى، فأتت راعياً، فأمكنته من نفسها، فولدت غلاماً، فقالت من جريج، فأتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه، وسبوه، فتوضأ، وصلى، ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا إلا من طين. وكانت امرأة من بني إسرائيل ترضع ابناً لها، فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها، وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمسه، ثم مر بأمّة تجرجر، ويلعب بها، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلاً، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبلية، وهذه الأمّة يقولون لها زينة، وتقول حسبي الله، ونعم الوكيل، ويقولون سرقت، وتقول حسبي الله. وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يتكلم في المهد إلا عيسى، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ قال: يكلمهم صغيراً، وكبيراً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الكهل هو من في سن الكهولة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: الكهل الحليم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ويعلمه الكتاب﴾ قال: الخط بالقلم. وأخرج ابن جرير، عن ابن جرير، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس قال: إنما خلق عيسى طئراً واحداً، وهو الخفاش. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طريق الضحاك، عن ابن عباس قال: الأكمة الذي يولد أعمى. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: الأكمة الأعمى الممسوح العينين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: الأكمة الذي يبصر بالذهار، ولا يبصر بالليل. وأخرجوا عن عكرمة قالوا: الأكمة الأعمش. وأخرج أحمد في الزهد، عن خالد الحذاء قال: كان عيسى ابن مريم إذا سرح رسله يحيون الموتى يقول لهم: قولوا كذا، فإذا وجدتم تشعيرية، وبمعة، فادعوا عند ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وأنبئكم بما تاكلون﴾ قال: بما أكلتم البارحة من طعام، وما خباتم منه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عمار بن ياسر قال: ﴿أنبئكم بما تاكلون﴾ من المائدة ﴿وما تدخرون﴾ منها، وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن ياكلوا، ولا يتخروا، فاكلوا، وأتخروا، وخانوا، ففعلوا قرده، وخنازير.

تسميتهم بذلك، فقليل لبياض ثيابهم، وقيل: لخلوص نياتهم، وقيل: لانهم خاصة الانبياء، وكانوا اثني عشر رجلاً، ومعنى انتصار الله: انتصار دينه ورسله. وقوله: ﴿أَمَّا بِاللهِ﴾ استئناف جار مجرى العلة لما قبله، فإن الإيمان يبعث على النصر. قوله: ﴿وَأَشْهَدُ بَأَنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: أشهد لنا يوم القيامة بآنا مخلصون لإيماننا بمقادون لما تريد منا. ومعنى: ﴿بِمَا أُنْزِلَتْ﴾ ما أنزله الله سبحانه في كتبه. والرسول عيسى، وحذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: اتبعناه في كل ما يأتي به، فاكثبنا مع الشاهدين لك بالوحدانية، ولرسولك بالرسالة. أو اكثبنا مع الانبياء الذين يشهدون لأمرهم، وقيل: مع أمة محمد ﷺ. قوله: ﴿وَمُكْرُوا﴾ أي: الذي أحس عيسى منهم الكفر، وهم: كفار بني إسرائيل. ومكر الله استدراجاً للعباد من حيث لا يعلمون. قاله الفراء، وغيره. وقال الزجاج: مكر الله مجازاتهم على مكروهم، فسمى الجزء باسم الابتداء، كقوله تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ [البقرة: 15] ﴿وهو خادعهم﴾ [النساء: 142] وأصل المكر في اللغة: الاغتيال، والخدع: حكاة ابن فارس، وعلى هذا، فلا يسند إلى الله سبحانه إلا على طريق المشاكلة، وقيل: مكر الله هنا إلقاء شبه عيسى على غيره، ورفع عيسى إليه ﴿والله خير الماكرين﴾ أي: أقوامهم مكراً، وانفذهم كيداً، وأقوامهم على إيصال الضرر بمن يريد إيصاله به من حيث لا يحتسب. قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى﴾ العامل في إذ: مكروا، أو قوله: ﴿خير الماكرين﴾ أو فعل مضمر تقديره وقع ذلك. وقال الفراء: إن في الكلام تقديمًا، وتأخيرًا تقديره إني رافعك، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالك من السماء. وقال أبو زيد: متوفيك قابضك. وقال في الكشاف: مستوفي أجلك، ومعناه: إني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومؤخر أجلك إلى أجل كتبتك لك، ومميتك حنف أنفك لا قتلاً بأيديهم. وإنما احتاج المفسرون إلى تأويل الوفاة بما نكر، لأن الصحيح أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة، كما رجحه كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير الطبري، ووجه ذلك أنه قد صحَّ في الأخبار عن النبي ﷺ نزوله، وقتله الدجال، وقيل: إن الله سبحانه توفاه ثلاث ساعات من نهار، ثم رفعه إلى السماء، وفيه ضعف، وقيل: المراد بالوفاة هنا النوم ومثله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام: 60] أي: ينيمكم، وبه قال كثيرون. قوله: ﴿وَمُطَهَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من حيث جوازهم برفعه إلى السماء وبعده عنهم. قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: الذين اتبعوا ما جئت به، وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا في الغلو فيه إلى ما بلغ من جعله إلهًا، ومنهم المسلمون، فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام ووصفوه بما يستحقه من تون غلو، فلم يفرطوا في وصفه، كما فرطت اليهود، ولا أفرطوا كما أفرطت النصارى. وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم. وقيل: المراد: بالآية أن النصارى الذين هم اتباع عيسى لا يزالون ظاهرين على

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ قال: كفروا وأرادوا قتله، فذلك حين استنصر قومه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: إنما سموا الحواريين لبياض ثيابهم كانوا صيادين. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك قال: الحواريون قصارون مَرَّ بهم عيسى فأمَّنوا به. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: الحواريون هم الذين تصلح لهم الخلافة. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس قال: هم أصفياء الانبياء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الضحاك مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: الحواري الوزير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان بن عيينة قال: الحواري الناصر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، والطبراني وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال: مع محمد، وأمهاتهم شهدوا له أنه قد بلغ، وشهدوا للرسول أنهم

تشبيهه عيسى بآدم في كونه مخلوقاً من غير أب كآدم، ولا يقدح في التشبيه اشتغال المشبه به على زيادة، وهو كونه لا أم له: كما أنه لا أب له، فذلك أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبيه، وإن كان المشبه به أشد غرابية من المشبه، وأعظم عجباً، وأغرب أسلوباً. وقوله: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ﴾ جملة مفسرة لما أبهم في المثل، أي: أن آدم لم يكن له أب، ولا أم، بل خلقه الله من تراب. وفي ذلك نفع لإنكار من أنكر خلق عيسى من غير أب مع اعترافه بأن آدم خلق من غير أب، وأم. وقوله: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: كن بشراً، فكان بشراً. وقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ حكاية حال ماضية، وقد تقدم تفسير هذا، وقوله: ﴿لَحَقَّ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الفراء: هو مرفوع بإضمار هو. وقال أبو عبيدة: هو استئناف كلام، وخبره قوله: ﴿مَنْ رَبِّكَ﴾ وقيل: هو فاعل فعل محذوف، أي: جاءك الحق من ربك. قوله: ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس، أي: لا يمكن أحد منكم ممترياً، أو للمرسول ﷺ، ويكون النهي له لزيادة التشبُّه؛ لأنه لا يكون منه شك في ذلك. قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَكُ فِيهِ﴾ هذا وإن كان عاماً، فالمراد به الخاص، وهم النصارى الذين وفوا إليه ﷺ من نجران، كما سيأتي بيانه، ويمكن أن يقال هو على عمومه، وإن كان السبب خاصاً، فيدل على جواز المبالغة منه ﷺ لكل من حاجه في عيسى عليه السلام، وأمه أسوته، وضمير فيه لعيسى، والمراد بمجيء العلم هنا مجيء سببه، وهو: الآيات البينات، والمجاجة، المخاصمة، والمجالة. وقوله: ﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلموا، وأقبلوا، وأصله الطلب لإقبال النوات، ويستعمل في الرأي إذا كان المخاطب حاضراً، كما تقول لمن هو حاضر عنك: تعال ننظر في هذا الأمر. قوله: ﴿وَنُدْعُ لِبَنَاتِنَا﴾ الخ اكتفى بذكر البنات عن البنات، إما لخلوهن في النساء، أو لكونهن الذين يحضرون مواقف الخصام دونهن، ومعنى الآية: ليدع كل منا ومنكم أبناءه، ونسائه، ونفسه إلى المبالغة. وفيه دليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء لكونه ﷺ أراد بالأبناء الحسنين، كما سيأتي. قوله: ﴿فَنَبْتَهِلُ﴾ أصل الابتهاال الاجتهاد في الدعاء باللعن، وغيره، يقال بهل الله، أي: لعنه، والبهل: اللعن. قال أبو عبيد، والكسائي: نبتهل نلتعن، ويطلق على الاجتهاد في الهلاك، ومنه قول لبيد: في كهول سادة من قومه نظر الدهر إليهم فانبتهل أي: فاجتهد في هلاكهم. قال في الكشف: ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. قوله: ﴿فَنَجْعَلُ لعنة الله على الكاذبين﴾ عطف على نبتهل مبين لمعناه. قوله: ﴿وَإِنْ هَذَا﴾ أي: الذي قصه الله على رسوله من نبأ عيسى ﷺ ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ القصص التتابع، يقال: فلان يقص أثر فلان أي: يتبعه، فاطلق على الكلام الذي يتبع، بعضه بعضاً، وضمير الفصل للحصر، وبخول اللام عليه لزيادة تأكيده ويجوز أن يكون مبتدأ وما بعده خبره، وزيادة من في قوله: ﴿مَنْ لَهُ﴾ لتأكيد العموم، وهو رد على من قال بالتثليث من النصارى.

قد بلغوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر من طريق الكلبي، عن أبي صالح عنه قال ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع أصحاب محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: إن بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلاً من الحواريين في بيت، فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتي، فيقتل، وله الجنة، فأخذه رجل منهم، وصعد بعيسى إلى السماء، فنلك قوله: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكُرَ اللَّهُ وَخَيْرَ الْمَاكِرِينَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يقول: مميتك. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن قال: متوفيك من الأرض. وأخرج الأخران عنه قال: وفاة المنام. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة قال: هذا من المقدم، والمؤخر أي: رافعه إلي، ومتوفيك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مطر الوراق قال: متوفيك من الدنيا، وليس بوفاة موت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن وهب قال: توفي الله عيسى ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه، وأخرج ابن عساکر، عنه قال: أماته ثلاثة أيام ثم بعثه، ورفع. وأخرج الحاكم، عنه قال: توفي الله عيسى سبع ساعات. وأخرج ابن سعد، وأحمد في الزهد، والحاكم، عن سعيد بن المسيب قال: رفع عيسى، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. وأخرج ابن عساکر، عن وهب مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمُطَهَّرٌ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: طهره من اليهود، والنصارى، والمجوس، ومن كفار قومه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرتهم، وملته، وسنته. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عساکر، عن النعمان بن بشير سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يباليون بمن خالفهم حتى يأتي أمر الله» قال النعمان: من قال إنني أقول على رسول الله ما لم يقل، فإن تصديق ذلك في كتاب الله، قال الله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ الآية. وأخرج ابن عساکر، عن معاوية مرفوعاً نحوه، ثم قرأ معاوية الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد قال: للنصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة، وليس بلد فيه أحد من النصارى، إلا وهم فوق اليهود في شرق، ولا غرب، هم البلدان كلها مستنون.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٨﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٨٩﴾ مَنْ حَاجَكَ فِيمَا بَيْنَنَا جَاءَكَ مِنْ أَوَّلِهِ قَدْ نَعَاؤُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ مَثَلَ لَكُمْ الْقَصَصِ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لَهْوَ الْحَكِيمِ ﴿٩١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُنْصِرِينَ ﴿٩٢﴾

والسواء: العدل. قال الفراء: يقال في المعنى العدل سوى، وسواء، فإذا فتحت السين مدلت، وإذا ضمنت، أو كسرت قصرت. قال زهير:

أرؤي خطة لا ضيم فيها يروي نبتها فيها السواء
وفي قراءة ابن مسعود: «إلى كلمة عدل بيننا، وبينكم»
فالمعنى: اقبلوا إلى ما دعيتم إليه، وهي: الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق، وقد فسرهما بقوله: «**إِنْ لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ**» وهو: في موضع خفض على البدل من كلمة، أو رفع على إضمار مبتدأ، أي: هي إن لا نعبد، ويجوز أن تكون أن مفسرة لا موضع للجملته التي بخلت عليها، وفي قوله: «**وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا**» تبيكت لمن اعتقد ربوبية المسيح، وعزير، وإشارة إلى أن هؤلاء من جنس الشر، وبعض منهم، وإزاء على من قلد الرجال في دين الله، فحلل ما حللوه له، وحرّم ما حرّموه عليه، فإن من فعل ذلك، فقد اتخذ من قلده ربا، ومنه «**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**» [التوبة: 84] وقد جَوَزَ الكسائي، والفراء الجزم في «**وَلَا تُشْرِكْ**» ولا يتخذ على الترويح. قوله: «**فَإِنْ تَوَلَّوْا**» أي: عرضوا عما دعوا إليه: «**فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**» أي: متقادون لأحكامه مرتضون به معترفون بما أنعم الله به علينا من هذا الدين القويم.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، والنسائي، عن ابن عباس قال: حدثني أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله ﷺ، فقرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، إلى قوله: «بأنا مسلمون»». وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن كتاب رسول الله ﷺ إلى الكفار «**تعالوا إلى كلمة**» الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جرير قال: بلغني أن رسول الله ﷺ دعا يهود المدينة إلى ما في هذه الآية، فأبوا عليه، فجاهدهم حتى أقروا بالجزية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: نكر لنا أن النبي ﷺ دعا يهود أهل المدينة إلى الكلمة السواء. وأخرج ابن جرير، عن الربيع نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة: «**إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ**» قال: عدل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جرير في قوله: «**وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا**» قال لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، ويقال: إن تلك الربوبية أن يطيع الناس ساداتهم، وقادتهم في غير عبادة، وإن لم يصلوا لهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: «**وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا**» قال: سجود بعضهم لبعض.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَ الْتَوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث حنيفة: أن العاقب، والسيد أتيا رسول الله ﷺ، فأراد أن يلاعنهما، فقال أحدهما لصاحبه: لا نلاعنه، فوالله لئن كان نبياً، فلاعنا لا نفلح أبداً نحن، ولا عقبنا من بعدنا، فقالوا له: نعطيك ما سالت، فابعت معنا رجلاً أميناً، فقال: قم يا أبا عبيدة، فلما قام قال: هذا أمين هذه الأمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس: أن رهطاً من أهل نجران قدموا على النبي ﷺ وكان فيهم السيد والعاقب، فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ قال: من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله، قالوا: فهل رأيت مثل عيسى، وأثبتت به، ثم خرجوا من عنده، فجاء جبريل، فقال: قل لهم إذا أتوك: «**إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ**» إلى آخر الآية. وقد رويت هذه القصة على وجوه، عن جماعة من التابعين. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ العاقب، والسيد، فدعاهما إلى الإسلام، فقالا: أسلمنا يا محمد، فقال: كذبتما إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام، قالا فهات. قال: حب الصليب، وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير. قال جابر: فدعاهما إلى الملاعة، فواعدها على الغد، فغدا رسول الله ﷺ، وأخذ بيد علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، ثم أرسل إليهما، فأبيا أن يجيباه، وأقرأ له، فقال: والذي بعثني بالحق لو فعلا، لامطر الوادي عليهما ناراً. قال جابر: فيهم نزلت: «**وَتَعَالُوا نَدْعُ لِبَنَائِنَا**» الآية. قال جابر: «**وَأَنْفُسُنَا وَأَنْفُسَكُمْ**» رسول الله ﷺ، وعلي، وأبناءنا الحسن، والحسين، ونساءنا فاطمة. ورواه أيضاً الحاكم، من وجه آخر عن جابر وصححه، وفيه أنهم قالوا للنبي ﷺ: هل لك أن نلاعنك؟ وأخرج مسلم، والترمذي، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي، عن سعد بن أبي وقاص: قال لما نزلت هذه الآية: «**قُلْ تَعَالُوا**» دعا رسول الله ﷺ علياً، وفاطمة، وحسناً، وحسيناً، فقال: اللهم هؤلاء أهلي. وأخرج ابن عساکر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه: «**تَعَالُوا نَدْعُ لِبَنَائِنَا**» الآية، قال: فجاء بابي بكر، وولده، ويعمر، وولده، وبعثمان، وولده، وبعلي، وولده. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق ابن جرير، عن ابن عباس: «**هُمْ نَبِيتُهُمْ**» نجتهد. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: هذا الإخلاص يشير بأصبعه التي تلي الإبهام، وهذا الدعاء، فرقع يديه حنو منكبيه، وهذا الابتال، فرقع يديه مداً.

قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَآرَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَسِيْدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تَشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا يَنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١﴾

قيل: الخطاب لأهل نجران بدليل ما تقدم قبل هذه الآية، وقيل: لليهود المدينة، وقيل: لليهود والنصارى جميعاً، وهو ظاهر النظم القرآني، ولا وجه لتخصيصه بالبعض، لأن هذه دعوة عامة لا تختص بأولئك الذين حاجوا رسول الله ﷺ.

المحمدية ﴿والذين آمنوا﴾ من أمة محمد ﷺ.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران، وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فنزل فيهم: ﴿يا أهل الكتاب لما تحاجون﴾ الآية. وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالقة: ﴿ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم﴾ يقول فيما شهدتم، ورايتهم، وعايينتم: ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ يقول فيما لم تشهدوا، ولم تروا، ولم تعايينوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في الآية قال: أما الذي لهم به علم، فما حرم عليهم وما أمروا به، وأما الذي ليس لهم به علم فشان إبراهيم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: يعذر من حاج بعلم، ولا يعذر من حاج بالجهل. وأخرج ابن جرير، عنه عن الشعبي، في قوله: ﴿ما كان إبراهيم﴾ قال: اكتبهم الله، وانقض حجتهم. وأخرج أيضاً عن الربيع مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان نحوه. وأخرج عبد بن حميد من طريق شهر بن حوشب حدثني ابن غنم أنه لما خرج أصحاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي، فنكر قصتهم معه، وما قالوه له لما قال له عمرو بن العاص إنهم يشتمون عيسى، وهي قصة مشهورة، ثم قال: فانزلت ذلك اليوم خصومتهم على رسول الله ﷺ، وهو بالمدينة: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إن لكل نبي ولاية من النبيين، وإن وليي منهم أبي خليل ربي، ثم قرأ: ﴿إن أولى الناس﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحكم بن مينا أن رسول الله ﷺ قال: ﴿يا معشر قريش إن أولى الناس بالنبي المتقون، فكونوا أنتم سبيل ذلك، فانظروا أن لا يلقاني الناس يحملون الأعمال، وتلقوني بالنديا تحملونها، فأصد عنكم بوجهي، ثم قرأ عليهم: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في الآية قال: كل مؤمن ولي إبراهيم ممن مضى، وممن بقي.

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُحِلُّ لَكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٤﴾ يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٦٥﴾ يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُونَهُ أَلْفًا بِأَلْفٍ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنتُمْ تَكْمُلُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَأْمُرُوا بِآلِيزَةَ أَوَّلَ عَلَى الْيَزِيدِ أَمَّا نَحْنُ وَجَهَ الْفَهَارِ وَكَفَرُوا بِأَعْيُنِهِمْ بِرَبِّهِمْ ﴿٦٧﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَنَحَّى دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ آلهَتَنَا هُدَى اللَّهِ أَن يَزُفَهُ أَحَدٌ يَزُلْ مَا أَوْفَيْتُمْ أَوْ يَمُاجِرُوا عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْقَلْبَ يَدُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦٩﴾

إِلَّا مَن يَمُودَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٠﴾ هَكَذَا هُوَ كَحَجَّتُمْ نِيْمًا لَكُمْ يَوْمَ عِلْمٍ فَلَمْ تُنَاجُوا نِيْمًا لِّسَ لَكُمْ يَوْمَ عِلْمٍ وَاللَّهُ يَسْمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ ﴿٧١﴾ مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَيْمًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٢﴾ إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَكِنَّهُمْ أَتَّبَعُوا وَهَكَذَا الْكُفْرُ وَالْزَيْغُ أَمَّا نَحْنُ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾

لما أدعت كل واحدة من طائفتي اليهود، والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم رد الله سبحانه ذلك عليهم، وأبان بأن الملة اليهودية، والملة النصرانية إنما كانتا من بعده. قال الزجاج: هذه الآية أبين حجة على اليهود، والنصارى أن التوراة، والإنجيل نزل من بعده، وليس فيهما اسم لواحد من الأديان، واسم الإسلام في كل كتاب. انتهى. وفيه نظر، فإن الإنجيل مشحون بالآيات من التوراة، ونكر شريعة موسى، والاحتجاج بها على اليهود، وكذلك الزبور فيه في مواضع نكر شريعة موسى، وفي أوائله التبشير بعيسى، ثم في التوراة نكر كثير من الشرائع المتقدمة، يعرف هذا كل من عرف هذه الكتب المنزلة. وقد اختلف في قدر المدة التي بين إبراهيم وموسى، والمدة التي بين موسى، وعيسى. قال القرطبي: يقال كان بين إبراهيم، وموسى ألف سنة، وبين موسى، وعيسى ألف سنة. وكذا في الكشف. قوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: تتفكرون في لحوض حجتكم، وبطلان قولكم. قوله: ﴿ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم﴾ الأصل في ما أنتم أنتم أبطلت الهمة الأولى ماء؛ لأنها اختها كذا قال أبو عمرو بن العلاء، والأخفش. قال النحاس: وهذا قول حسن. وقرأ قنبل: ﴿هانتم﴾ وقيل: الهاء للتنبيه نخلت على الجملة التي بعدها، أي: ها أنتم هؤلاء الرجال الحمقى حاجتكم، وفي هؤلاء لغتان المذ والقصر. والمراد بما لهم به علم هو ما كان في التوراة، وإن خالفوا مقتضاه، وجادلوا فيه بالباطل، والذي لا علم لهم به هو زعمهم أن إبراهيم كان على دينهم لجهلهم بالزمن الذي كان فيه. وفي الآية دليل على منع الجدال بالباطل، بل ورد الترغيب في ترك الجدال من المحق، كما في حديث: «من ترك المراء، ولو محقاً، فانا ضميمته على الله يبيت في ربح الجنة». وقد ورد تسويغ الجدال بالتي هي أحسن لقوله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل: 125] «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن» [العنكبوت: 46] ونحو ذلك، فينبغي أن يقصر جواره على المواطن التي تكون المصلحة في فعله أكثر من المفسدة، أو على المواطن التي المجادلة فيها بالمحاسبة لا بالمخاشنة. قوله: ﴿والله يعلم﴾ أي: كل شيء، فيدخل في ذلك ما حاججوا به. وقد تقدم تفسير الحنيف. قوله: ﴿إن أولى الناس﴾ أي: أحقهم به، وأخصهم للذين اتبعوا ملته، واقتنوا دينه ﴿وهذا النبي﴾ يعني محمداً ﷺ، أفرد بالذكر تعظيماً له، وتشريفاً، وأولويته ﷺ بإبراهيم كونه من نريته، ومن جهة موافقته لدينه في كثير من الشريعة

أحد مثل ما أوتيتم، بالمدة على الاستفهام تأكيداً للإنكار الذي قالوه أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه، فتكون على هذا أن، وما بعدها في محل رفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره تصدقون بذلك، ويجوز أن تكون في محل نصب على إضمار فعل تقديره تقرّون أن يؤتى، وقد قرأ: «أن يؤتى» بالمدة ابن كثير، وابن محيصن، وحמיד. وقال الخليل: أن في موضع خفض، والخافض محذوف. وقال ابن جريج: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع بينكم كراهية أن يؤتى؛ وقيل: المعنى: لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ إلا من تبع بينكم، لئلا يكون ذلك سبباً لإيمان غيرهم بمحمد ﷺ. وقال الفراء: يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله: ﴿إلا لمن تبع بينكم﴾ ثم قال الله لمحمد ﷺ: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي: إن البيان الحق بيان الله بين أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم على تقدير لا كقوله تعالى: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: 176] أي: لئلا تضلوا، «أو» في قوله: ﴿أو يحاجوكم﴾ بمعنى حتى، وكذلك قال الكسائي، وهي عند الأخفش عاطفة، كما تقدّم. وقيل: إن هدى الله بدل من الهدى، وأن يؤتى خبر إن على معنى قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. وقد قيل: إن هذه الآية أعظم أي: هذه السورة إشكالاً، وذلك صحيح. وقرأ الحسن يؤتى بكسر التاء الفوقية. وقرأ سعيد بن جبيرة إن يؤتى بكسر الهمزة على أنها النافية. وقوله: ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ قيل: هي النبوة، وقيل: أعم منها، وهو ردّ عليهم وبغ لما قالوه، وببروه.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سفيان قال: كل شيء في آل عمران من نكر أهل الكتاب، فهو في النصراني، ويبلغ هذا أن كثيراً من خطابات أهل الكتاب المذكورة في هذه السورة لا يصح حملها على النصراني البتة، ومن ذلك هذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها، فإن الطائفة التي وُتّ إضلال المسلمين، وكذلك الطائفة القائلة: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾ هي: من اليهود خاصة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ قال: تشهدون أن نعت نبي الله محمد في كتابكم، ثم تكفرون به، وتكفرونه، ولا تؤمنون به، وأنتم تجنون مکتوباً عنكم في التوراة، والإنجيل النبي الأمي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع مثله. وأخرج أيضاً، عن السدي نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مقاتل نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج: ﴿وأنتم تشهدون﴾ على أن الدين عند الله الإسلام ليس له دين غيره. وأخرج عن الربيع في قوله: ﴿لم تلبسون الحق بالباطل﴾ يقول: لم تخلطون اليهودية، والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره الإسلام: ﴿وتكتمون الحق﴾ يقول: تكتمون شأن محمد، وأنتم تجنون مکتوباً عنكم في التوراة، والإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله.

الطائفة من أهل الكتاب هم: يهود بني النضير، وقريظة، وبني قينقاع حين دعوا جماعة من المسلمين إلى دينهم، وسيأتي وقيل: هم جميع أهل الكتاب، فتكون من لبيان الجنس. وقوله: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ جملة حالية للدلالة على ثبوت قدم المؤمنين في الإيمان، فلا يعود وبأل من أراد فتنهم إلا عليه. والمراد بآيات الله ما في كتبكم من دلائل نبوة محمد ﷺ. ﴿وأنتم تشهدون﴾ ما في كتبكم من ذلك، أو تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء الذين تقرّون بنبوّتهم، أو المراد: كنتم كل الآيات عناداً، وأنتم تعلمون أنها حق. ولبس الحق بالباطل خلطه بما يتعمدونه من التحريف ﴿وأنتم تعلمون﴾ جملة حالية. قوله: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب﴾ هم رؤسائهم، وأشرافهم، قالوا للسفلة من قومهم هذه المقالة. ووجه النهار: أوّل، وسمي وجهاً؛ لأنه أحسنه قال:

وتضئ في وجه النهار منيرة كجمانة البحري سل نظامها وهو: منصوب على الظرف، أمرهم بذلك لإخال الشك على المؤمنين، لكنهم يعتقدون أن أهل الكتاب لديهم علم، فإذا كفروا بعد الإيمان وقع الريب لغيرهم، واعتراه الشك، وهم لا يعلمون أن الله قد ثبت قلوب المؤمنين، ومكّن أقدامهم، فلا تزلزلهم أراجيف أعداء الله، ولا تحركهم ريح المعاندين. وقوله: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع بينكم﴾ هذا من كلام اليهود بعضهم لبعض، أي: قال ذلك الرؤساء للسفلة لا تصدقوا تصديقاً صحيحاً إلا لمن تبع بينكم من أهل الملة التي أنتم عليها، وأما غيرهم ممن قد أسلم، فاظهروا لهم ذلك خداعاً ﴿وجه النهار وكفروا آخره﴾ ليفتنوا، ويكون قوله: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ على هذا متعلقاً بمحذوف، أي: فعلتم ذلك؛ لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم: يعني أن ما بكم من الحسد، والبغى أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم، والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم. وقوله: ﴿أو يحاجوكم﴾ معطوف على أن يؤتى، أي: لا تؤمنوا إيماناً صحيحاً، وتقروا بما في صدوركم إقراراً صادقاً لغير من تبع بينكم، فعلتم ذلك، وببرتموه أن المسلمين يحاجوكم يوم القيامة عند الله بالحق. وقوله: ﴿إن الهدى هدى الله﴾ جملة اعتراضية. وقال الأخفش: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع بينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، ولا تصدقوا أن يحاجوكم، فذهب إلى أنه معطوف، وقيل: المراد: لا تؤمنوا وجه النهار، وتكفروا آخره إلا لمن تبع بينكم، أي: لمن نخل في الإسلام، وكان من أهل دينكم قبل إسلامه؛ لأن إسلام من كان منهم هو: الذي قتلهم غيظاً وأمانتهم حسرة، وأسفاً، ويكون قوله: ﴿أن يؤتى﴾ على هذا متعلقاً بمحذوف كالأول، وقيل: إن قوله: ﴿أن يؤتى﴾ متعلق بقوله: ﴿لا تؤمنوا﴾ أي: لا تظهروا إيمانكم ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ أي: أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا لاتباع دينكم، وقيل: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع بينكم أن يؤتى

ثُمَّ قِيلَ أَنْتِلَاكَ لَا عَاقِبَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

هذا شروع في بيان خيانة اليهود في المال بعد بيان خيانتهم في الدين، والجار، والمجور في قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ في محل رفع على الابتداء على ما مر في قوله: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ [البقرة: 8] وقد تقدم تفسير القنطار. وقوله: ﴿تَامَنَهُ﴾ هذه قراءة الجمهور. وقرأ ابن وثاب، والأشهب العقيلي: «تيمينه» بكسر التاء الفوقية على لغة بكر، وتميم، ومثله قراءة من قرأ: «نستعين» بكسر النون. وقرأ نافع، والكسائي: ﴿يُؤَدُّهُ﴾ بكسر الهاء في الدرج. قال أبو عبيد: واتفق أبو عمرو، والأعشى، وحزمة، وعاصم في رواية أبي بكر على إسكان الهاء. قال النحاس: إسكان الهاء لا يجوز إلا في الشعر عند بعض النحويين، وبعضهم لا يجيزه البيت، ويرى أنه غلط من قرأ به، ويوهم أن الجزم يقع على الهاء، وأبو عمرو أجل من أن يجوز عليه شيء من هذا، والصحيح عنه أنه كان يكسر الهاء. وقال الفراء: مذهب بعض العرب يسكنون الهاء إذا تحرك ما قبلها، فيقولون ضربته ضرباً شديداً، كما يسكنون ميم أنتم، وقمتم، وأنشد:

لما رأى أن لادع ولا شبع مال إلى أرضاه حقف فاضطجع
وقرأ أبو المنذر سلام، والزهري: «يؤده» بضم الهاء بغير واو. وقرأ قتادة، وحزمة، ومجاهد: «يؤد هو» بواو في الإخراج، ومعنى الآية: أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذي يؤدى أمانته، وإن كانت كثيرة، وفيهم الخائن الذي لا يؤدي أمانته، وإن كانت حقيرة، ومن كان أميناً في الكثير، فهو في القليل أمين بالاولى، ومن كان خائناً في القليل، فهو في الكثير خائن بالاولى. وقوله: ﴿إِلَّا مَا دَمَتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ استثناء مفرغ، أي: لا يؤده إليك في حال من الأحوال إلا ما دمت عليه قائماً مطالباً له مضيقاً عليه متقاضياً لردّه، والإشارة بقوله ذلك إلى ترك الأداء المملول عليه بقوله: ﴿لَا يُؤَدُّهُ﴾. والأمينون هم العرب الذين ليسوا أهل كتاب، أي: ليس علينا في ظلمهم حرج لمخالفتهم لنا في ديننا، وأدعوا لعنهم الله أن ذلك في كتابهم، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بلى، أي: بلى عليهم سبيل لكتبهم، واستحلالهم أموال العرب، فقوله: ﴿بَلَى﴾ إثبات لما نفوه من السبيل. قال الزجاج: تمّ الكلام بقوله: ﴿بَلَى﴾ ثم قال: ﴿مَنْ أَوْفَى بَعْدَهُ وَاتَّقِ﴾ وهذه جملة مستأنفة، أي: من أوفى بعهده، واتقى، فليس من الكاذبين. أو فإن الله يحبه، والضمير في قوله: ﴿بِعَهْدِهِ﴾ راجع إلى من أو إلى الله تعالى، وعموم المتقين قائم مقام العائد إلى من، أي: فإن الله يحبه. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي: يستبدلون، كما تقدم تحقيقه غير مرة. وعهد الله هو ما عاهدوه عليه من الإيمان بالنبي ﷺ، والإيمان هي التي كانوا يحلفون أنهم يؤمنون به، وينصرونه، وسيأتي بيان سبب نزول الآية ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بهذه الصفة ﴿لَا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب ﴿وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ بشيء أصلاً،

وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن الصيف وعدي بن زيد، والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد، وأصحابه غداة، ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون، كما صنع، فيرجعون عن دينهم، فانزل الله فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة من طريق أبي ظبيان، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ﴾ الآية، قال: كانوا يكونون معهم أول النهار، ويجالسونه، ويكلمونهم، فإذا أمسوا، وحضرت الصلاة كفروا به، وتركوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ لَيْسَ لَكُمْ﴾ قال: هذا قول بعضهم لبعض. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله. وأخرج أيضاً عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ حسداً من يهود أن تكون النبوة في غيرهم، وإرادة أن يتابعوا على دينهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي مالك، وسعيد بن جبير: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ قال أمة محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال الله لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّ الْهَدَى هَدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يا أمة محمد: ﴿أَوْ يَحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يقول اليهود: فعل الله بنا كذا، وكذا من الكرامة حتى أنزل علينا المن، والسوى، فإن الذي أعطيتكم أفضل، فقولوا ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة: ﴿قُلْ إِنْ الْهَدَى هَدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يقول لما أنزل الله كتاباً مثل كتابكم، ويعث نبياً كتبكم حسنتموه على ذلك ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن جرير: ﴿قُلْ إِنْ الْهَدَى هَدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يقول: هذا الأمر الذي أنعم الله عليه ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يَحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قال: قال بعضهم لبعض لا تخبروهم بما بين الله لكم في كتابه ﴿لِيَحَاجُّوكُمْ﴾ قال: ليخاصموكم ﴿بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ فتكون لهم حجة عليكم: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ﴾ قال: الإسلام ﴿يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال القرآن، والإسلام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال: النبوة. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: رحمته الإسلام يختص بها من يشاء.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّا بِغَنَارِ يَوْزُوهُ إِلَيْكَ وَنَهْنُهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّا بِغَنَارِ لَا يَوْزُوهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمَّتْ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ عَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ

إلى ما دل عليه ﴿يَلُودُونَ﴾ وهو: المحرف الذي جاؤوا به. قوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ جملة حالية، وكذلك قوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: أنهم كاتبون مفترون.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرْقًا يَلُودُونَ السُّبُطِ﴾ قال: هم اليهود. كانوا يزيبون في الكتاب ما لم ينزل الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: يحرفونه.

مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤَيَّزَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْعَمَلُ وَالشُّبُوهُ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكُفَّةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَدَلًا أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٧﴾

أي: ما كان ينبغي، ولا يستقيم لبشر أن يقول هذه المقالة، وهو متصف بتلك الصفة. وفيه بيان من الله سبحانه لعباده أن النصارى افتروا على عيسى عليه السلام ما لم يصح عنه، ولا ينبغي أن يقوله. والحكم: الفهم والعلم. قوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا﴾ أي: ولكن يقول النبي كونوا ربانيين، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف، والنون للمبالغة، كما يقال لعظيم الحية لحياني، ولعظيم الجمة جماني، ولغليظ الرقبة رقباني، قيل: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، فكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الأمور. وقال المبرد: الربانيون أرباب العلم، واحدهم رباني، من قوله: ربه يريه، فهو ربان: إذا نيره، وأصلحه، والياء للنسب، فمعنى الرباني: العالم بين الرب القوي المتمسك بطاعة الله؛ وقيل العالم الحكيم. قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي بسبب كونكم عالمين، أي: كونوا ربانيين بهذا السبب، فإن حصول العلم للإنسان، والدراسة له يتسبب عنهما الربانية التي هي التعليم للعلم، وقوة التمسك بطاعة الله. وقرأ ابن عباس، وأهل الكوفة: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بالتشديد. وقرأ أبو عمرو، وأهل المدينة بالتخفيف، واختار القراءة الأولى أبو عبيد. قال: لأنها لجمع المعنيين. قال مكي: التشديد أبلغ؛ لأن العالم قد يكون عالماً غير معلم، فالتشديد يدل على العلم، والتعليم، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط. واختار القراءة الثانية أبو حاتم. قال أبو عمرو: وتصديقها تدرسون بالتخفيف نون التشديد. انتهى. والحاصل أن من قرأ بالتشديد لزمه أن يحمل الرباني على أمر زائد على العلم، والتعليم، وهو أن يكون مع ذلك مخلصاً، أو حكيماً، أو حليماً حتى تظهر السببية، ومن قرأ بالتخفيف جاز له أن يحمل الرباني على العالم الذي يعلم الناس، فيكون المعنى كونوا معلمين بسبب كونكم علماء، وبسبب كونكم تدرسون العلم. وفي هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل، وإن من أعظم العمل بالعلم تعليمه، والإخلاص لله سبحانه. قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾

كما يفيد حذف المتعلق من التعميم، أو لا يكلمهم بما يسرهم ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ نظر رحمة، بل يسخط عليهم، ويعذبهم بنوبهم، كما يفيد قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن عكرمة في قوله: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ﴾ قال: هذا من النصارى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِبَيْتَارٍ﴾ قال: هذا من اليهود ﴿إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ قال: إلا ما طلبته، واتبعته. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿ذَلِكَ بَأْنَهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ قال: قالت اليهود: ليس علينا فيما أصبنا من مال العرب سبيل. وأخرج ابن جرير، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿ذَلِكَ بَأْنَهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ قال النبي ﷺ: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا، وهو تحت قدمي هاتين، إلا الأمانة، فإنها مؤداة إلى البر، والفاجر». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن صعصعة أنه سأل ابن عباس فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة، والشاة، قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا في ذلك من بأس. قال: هذا، كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أتوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب نفوسهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَتَقَى﴾ يقول: اتقى الشرك: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يقول الذين يتقون الشرك. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله، وهو عليه غضبان. فقال الأشعث بن قيس: في والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فحججني، فقلت: إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: لك بيتة؟ قلت: لا، قال لليهودي: احلف، فقلت: يا رسول الله إنني يحلف، فيذهب مالي، فانزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية. وقد روى: أن سبب نزول الآية أن رجلاً كان يحلف بالسوق: لقد أعطى بسلعته ما لم يعط بها. أخرجه البخاري، وغيره. وروى أن سبب نزولها مخاصمة كانت بين الأشعث، وامرئ القيس، ورجل من حضرموت. أخرجه النسائي، وغيره.

وَإِنْ مِنْهُمْ لَفِرْقًا يَلُودُونَ الْكِتَابَ يَتَحَفَّضُونَ مِنَ الْحَكِيمِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

أي: طائفة من اليهود يلودون، أي: يحرفون، ويعملون به عن قصد، وأصل اللئ: الميل، يقول لوى برأسه: إذا أماله، وقريء: «يلودون» بالتشديد، و «يلود» بقلب الواو همزة، ثم تخفيفها بالحنف، والضمير في قوله: ﴿لِتَحْسِبُوهُمْ﴾ يعود

الكتاب، وقيل: في الكلام حذف. والمعنى: وإذا أخذ الله ميثاق النبيين؛ لتعلمن الناس لما جاءكم من كتاب، وحكمة، ولتأخذن على الناس أن يؤمنوا، ودل على هذا الحذف قوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ نَفْسِكُمْ إِصْرِي﴾ و «ما» في قوله: ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ بمعنى الذي. قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ فقال: «ما» بمعنى الذي. قال التحاسن: التقدير في قول الخليل الذي آتيتكموه، ثم حذفت الهاء لطول الاسم، واللام لام الابتداء، وبهذا قال الأخفش، وتكون ما في محل رفع على الابتداء، وخبرها من كتاب، وحكمة. وقوله: ﴿فَمَنْ جَاءَكُمْ﴾ وما بعده جملة معطوفة على الصلة، والعائد محذوف أي: مصنف به. وقال المبرد، والزجاج، والكسائي: «ما» شرطية نخلت عليها لام التحقيق، كما تدخل على إن، ولتؤمنن به، جواب القسم الذي هو أخذ الميثاق، إذ هو بمنزلة الاستحلاف، كما تقول: أخذت ميثاقي، لتفعلن كذا، وهو: سأد مسد الجزاء. وقال الكسائي: إن الجزاء قوله: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾. وقال في الكشف: إن اللام في قوله: ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ لام التوطئة، واللام في قوله: ﴿لَتَأْمُنُنَّ﴾ جواب القسم، وما يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط، ولتؤمنن سأد مسد جواب القسم، والشرط جميعاً، وأن تكون موصولة بمعنى للذي آتيتكموه لتؤمنن به. انتهى، وقرأ حمزة: ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ بكسر اللام وما بمعنى الذي، وهي متعلقة بأخذ. وقرأ أهل المدينة: «آتيناكم» على التعظيم. وقرأ الباقون: «آتيتكم» على التوحيد، وقيل: إن «ما» في قراءة من قرأ بكسر اللام مصدرية، ومعناه: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب، والحكمة، ثم لمجيء رسول مصنف لما معكم، واللام لام التعليل، أي: لأجل ذلك أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتؤمنن به. قوله: ﴿أَقْرَبْتُمْ﴾ هو من الإقرار. والإصر في اللغة: الثقل، سمي العهد إصرأ لما فيه من التشديد. والمعنى: وأخذتم على ذلك عهدي. قوله: ﴿فَقَالُوا اقْرَأْنَا﴾ جملة استئنافية، كأنه قيل: ماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل قالوا أقرئنا، وإنما لم يذكر أحدهم الإصر اكتفاء بذلك. قوله: ﴿فَقَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي: قال الله سبحانه فاشهدوا، أي: ليشهد بعضهم على بعض: ﴿وَلَمَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وأنا على إقراركم، وشهادة بعضكم على بعض من الشاهدين. قوله: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾ أي: أعرض عما نكر بعد ذلك الميثاق ﴿فَقَالُوا هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن الطاعة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر قال: قلت لابن عباس: إن أصحاب عبد الله يقرؤون: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ ونحن نقرأ ميثاق النبيين، فقال ابن عباس: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم. وأخرج عبد البرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طائوس في الآية، قال: ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أن يصدق بعضهم بعضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾

بالنصب عطفاً على «ثم يقول» «ولا» مزيدة لتأكيد النفي، أي: ليس له أن يأمر بعبادة نفسه، ولا يأمر باتخاذ الملائكة، والنبيين أرباباً بل ينتهي عنه، ويجوز عطفه على أن يؤتية، أي: ما كان لبشر أن يأمرهم بأن تتخذوا الملائكة، والنبيين أرباباً، وبالنصب قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف، والقطع من الكلام الأول، أي: ولا يأمرهم الله أن تتخذوا الملائكة، والنبيين أرباباً، ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود، ولن يأمرهم. والهمز في قوله: ﴿فَلَمَّا مَعَكُمْ﴾ لإنكار ما نفي عن البشر. وقوله: ﴿يَعْبُدُ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ استدل به من قال إن سبب نزول الآية استئذان من استأذن النبي ﷺ من المسلمين في أن يسجدوا له.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحزاب من اليهود، والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك، كما تعبد النصارى عيسى؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره ما بملك بعثني، ولا بملك أمرني، فأنزل الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآية». وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن قال: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله نسلم عليك، كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال: لا ولكن أكرموا نبيكم، وأعرفوا الحق لأهله، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ قال: فقهاء علماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: حكاه علماء حلماء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: علماء فقهاء. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود قال: حكاه علماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي رزين في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ قال: مذاكرة الفقه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا﴾ قال: ولا يأمرهم النبي.

وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ لَمْ يُنَبِّئُوا مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٦٦﴾ كَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٦٧﴾

قد اختلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ فقال سعيد بن جببر، وقتادة، وطائوس، والحسن، والسدي إنه أخذ الله ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضاً بالإيمان، ويأمر بعضهم بعضاً بذلك، فهذا معنى النصرة له، والإيمان به، وهو ظاهر الآية، فحاصله أن الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر، وينصره، وقال الكسائي: يجوز أن يكون معنى: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ بمعنى وإذا أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين، ويؤيده قراءة ابن مسعود: «وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أَوْتُوا

﴿أولئك﴾ إشارة إلى القوم المتصفين بتلك الصفات السابقة، وهو: مبتدأ خبره الجملة التي بعده. وقد تقدم تفسير اللعن. وقوله: ﴿ولا هم ينظرون﴾ معناه: يؤخرون ويمهلون. ثم استثنى التائبين: فقال: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾: أي: من بعد الارتداد ﴿وواصلحوا﴾ بالإسلام ما كان قد أفسدوه من دينهم بالردة. وفيه دليل على قبول توبة المرتد إذا رجع إلى الإسلام مخلصاً، ولا خلاف في ذلك فيما أحفظ. قوله: ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾. قال قتادة، وعطاء الخراساني، والحسن: نزلت في اليهود، والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنبعته، وصفته: ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بإقامتهم على كفرهم، وقيل: ازدادوا كفراً بالذنوب التي اكتسبوها، ورجحه ابن جرير الطبري، وجعلها في اليهود خاصة. وقد استشكل جماعة من المفسرين قوله تعالى: ﴿فلن تقبل توبتهم﴾ [التوبة: 7] مع كون التوبة مقبولة، كما في الآية الأولى، وكما في قوله تعالى: ﴿هو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ [الشورى: 25] وغير ذلك، فقيل: المعنى لن تقبل توبتهم بعد الموت. قال النحاس: وهذا قول حسن، كما قال تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ [النساء: 18] وبه قال الحسن، وقتادة، وعطاء، ومنه الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ»؛ وقيل: المعنى لمن تقبل توبتهم التي كانوا عليها قبل أن يكفروا؛ لأن الكفر أحبط، وقيل: لمن تقبل توبتهم إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر، والأولى أن يحمل عدم قبولهم التوبة في هذه الآية على من مات كافراً غير تائب، فكانه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة، وتكون الآية المنكورة بعد هذه الآية، وهي قوله: ﴿إن للذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ في حكم البيان لها. قوله: ﴿ملء الأرض ذهباً﴾ الملء بالكسر مقداراً ما يملأ الشيء، والملء بالفتح مصدر ملأت الشيء، وذهباً تمييز، قاله الفراء وغيره. وقال الكسائي نصب على إضمار من ذهب. كقوله: ﴿أو عدل ذلك صياماً﴾ [المائدة: 95] أي: من صيام، وقرأ الأعمش: «ذهب» بالرفع على أنه بدل من ملء، والواو في قوله: ﴿ولو افترى به﴾ قيل: هي مقحمة زائدة، والمعنى لو افتدى به، وقيل: فيه حمل على الغنى كانه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، وقيل: هو عطف على مقدر، أي: لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تصدق به في الدنيا، ولو افتدى به من العذاب أي: بمثله.

حميد، وابن جرير، عن السدي نحوه، وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، عن ابن عباس، نحوه أيضاً. وقد روى عن جماعة نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾. قال: هم أهل الكتاب من اليهود عرفوا محمداً، ثم كفروا به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن قال: هم أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، ونكر نحو ما تقدم عنه. وأخرج البزار، عن ابن عباس: أن قوماً أسلموا، ثم ارتدوا، ثم أسلموا، ثم ارتدوا، فأسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فنكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً﴾ قال السيوطي: هذا خطأ من البزار. وأخرج ابن جرير، عن الحسن في الآية قال: اليهود، والنصارى لن تقبل توبتهم عند الموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: هم اليهود كفروا بالإنجيل، وعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، والقرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في الآية قال: إنما نزلت في اليهود، والنصارى كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفراً بذنوب اتنبوها، ثم ذهبوا يتوبون من تلك الذنوب في كفرهم، ولو كانوا على الهدى قبلت توبتهم، ولكنهم على الضلالة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ قال: نموا على كفرهم. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ قال: ماتوا وهم كفار: ﴿لن تقبل توبتهم﴾ قال: إذا تاب عند موته لم تقبل توبته. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿لن تقبل توبتهم﴾ قال: تابوا من الذنوب، ولم يتوبوا من الأصل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿وماتوا وهم كفار﴾ قال: هو كل كافر. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن انس، عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكننت مفتنياً به، فيقول نعم، فيقال له: لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ الآية.

لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَ

عَلِيمٌ ﴿١١١﴾

هذا كلام مستأنف خطاب للمؤمنين عقب نكر ما لا ينفع الكفار. قوله: ﴿لن تنالوا البر﴾ يقال: نالني من فلان معروف ينالني، أي: وصل إلي، والنوال: العطاء من قولك: نولته تنويلاً أعطيته. والبر: العمل الصالح، وقال ابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعمرو بن ميمون، والسدي: هو الجنة، فمعنى الآية: لن تنالوا العمل الصالح، أو الجنة، أي: تصلوا إلى ذلك، وتبلغوا إليه حتى تنفقوا مما تحبون، أي: حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها، و ﴿من﴾ تبغيضية، ويؤيده قراءة ابن مسعود: «حتى تنفقوا بعض ما

وقد أخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتد، ولحق بالمشركين، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فنزلت: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾ فأرسل إليه قومه، فأسلم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه، وقال: هو الحارث بن سويد. وأخرج عبد بن

تحبون» وقيل: بيانية ﴿وما﴾ موصولة، أو موصوفة، والمراد النفقة في سبيل الخير من صدقة، أو غيرها من الطاعات، وقيل: المراد: الزكاة المفروضة. وقوله: ﴿ومن شيء﴾ بيان لقوله: ﴿ما تنفقوا﴾ أي: ما تنفقوا من أي شيء سواء كان طبيباً، أو خبيراً ﴿فإن الله به عليهم﴾ وما شرطية جازمة. وقوله: ﴿فإن الله به عليهم﴾ تعليل لجواب الشرط واقع موقعه.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أنس: «أن أبا طلحة لما نزلت هذه الآية أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة» الحديث. وقد روي بالفاظ. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري، عن ابن عمر قال: حضرتني هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر﴾ حتى تنفقوا مما تحبون» فنكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئاً أحب إلي من مرجانة جارية لي رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله، فلو أتني أعود في شيء جعلته لنيكحتها، فأنكحتها نافعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جولاء، فدعا بها عمر، فقال: إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البر﴾ حتى تنفقوا مما تحبون» فاعتقتها عمر، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم: إنها لما نزلت الآية جاء زيد بن حارثة بفرس له يقال لها: سبل، لم يكن له مال أحب إليه منها، فقال: هي صدقة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر﴾ قال: الجنة. وأخرج ابن جرير، عن عمرو بن ميمون، والسدي مثله. وأخرج ابن المنذر، عن مسروق مثله.

وقد أخرج الترمذي، وحسنه، عن ابن عباس: «أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: فأخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يسكن البدو، فاشتكى عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلاشيه إلا تحريم الإبل، والبهائم، فلذلك حرمها، قالوا صدقت، ونكر الحديث. وأخرجه أيضاً أحمد، والنسائي. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في الآية قال: العرق أجده عرق النساء، فكان يبيت له رُق يعنى صياح، فجعل الله عليه إن شفاه أن لا ياكل لحماً فيه عرق، فحرمته اليهود. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس من قوله ما أخرجه الترمذي سابقاً عنه مرفوعاً. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: الذي حرم إسرائيل على نفسه، زائنتا الكبد، والكليتان، والشحم إلا ما كان على الظهر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: قالت اليهود للنبي ﷺ نزلت التوراة بتحريم الذي حرم إسرائيل، فقال الله لمحمد ﷺ: ﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ وكذبوا ليس في التوراة.

وقد أخرج الترمذي، وحسنه، عن ابن عباس: «أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: فأخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يسكن البدو، فاشتكى عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلاشيه إلا تحريم الإبل، والبهائم، فلذلك حرمها، قالوا صدقت، ونكر الحديث. وأخرجه أيضاً أحمد، والنسائي. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في الآية قال: العرق أجده عرق النساء، فكان يبيت له رُق يعنى صياح، فجعل الله عليه إن شفاه أن لا ياكل لحماً فيه عرق، فحرمته اليهود. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس من قوله ما أخرجه الترمذي سابقاً عنه مرفوعاً. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: الذي حرم إسرائيل على نفسه، زائنتا الكبد، والكليتان، والشحم إلا ما كان على الظهر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: قالت اليهود للنبي ﷺ نزلت التوراة بتحريم الذي حرم إسرائيل، فقال الله لمحمد ﷺ: ﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ وكذبوا ليس في التوراة.

﴿كل الطعام﴾ أي: المطعوم، والحل مصدر يستوي فيه المفرد، والجمع، والمنكر، والمؤنث، وهو الحلال، وإسرائيل هو: يعقوب، كما تقدم تحقيقه. ومعنى الآية: أن كل المطعومات كانت حلالاً لبني يعقوب، لم يحرم عليهم شيء منها إلا ما حرم إسرائيل على نفسه. وسيأتي بيان ما هو الذي حرمه على نفسه، وهذا الاستثناء متصل من اسم كان. وقوله: ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ متعلق بقوله: ﴿كان حلالاً﴾ أي: أن كل المطعومات كانت حلالاً ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ أي: كان ما عدا المستثنى حلالاً لهم: ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ مشتملة على تحريم ما حرمه عليهم لظلمهم، وفيه رد على اليهود لما أنكروا ما قصه الله سبحانه على رسوله ﷺ من أن سبب ما حرمه الله عليهم هو ظلمهم، وبغيهم، كما في قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا

﴿كل الطعام﴾ كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه. من قبل أن تنزل التوراة قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ متعلق بقوله: ﴿كان حلالاً﴾ أي: أن كل المطعومات كانت حلالاً ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ أي: كان ما عدا المستثنى حلالاً لهم: ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ مشتملة على تحريم ما حرمه عليهم لظلمهم، وفيه رد على اليهود لما أنكروا ما قصه الله سبحانه على رسوله ﷺ من أن سبب ما حرمه الله عليهم هو ظلمهم، وبغيهم، كما في قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا

إِنَّ أَوَّلَ دِينٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي رِزَقَتْهُ مِمَّا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْغُلَامِ ۖ فَمَا كُنْتُمْ عَادِلِينَ ۖ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا

مَاتَتْ بَيْنَتْ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلَقَدْ عَلَّ النَّاسُ رُجُوعَ آبَتَيْ
مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٢١٧﴾

هذا شروع في بيان شيء آخر مما جاللت فيه اليهود بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إن بيت المقدس أفضل، وأعظم من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء، وفي الأرض المقدسة فرد الله ذلك عليهم بقوله: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية، فقوله: ﴿وُضِعَ﴾ صفة لبیت، وخبر إن قوله: ﴿لِلَّذِي بِيكَةِ﴾ فنية تعالى بكونه أول متعبد على أنه أفضل من غيره، وقد اختلف في الباني له في الابتداء، فقيل: الملائكة، وقيل: آدم، وقيل: إبراهيم، ويجمع بين ذلك بأول من بناه الملائكة، ثم جده آدم، ثم إبراهيم. وبكة علم للبلد الحرام، وكذا مكة، وهما لغتان، وقيل: إن بكة اسم لموضع البيت، ومكة اسم للبلد الحرام، وقيل: بكة للمسجد، ومكة للحرم كله؛ قيل: سميت بكة لازحام الناس في الطواف، يقال بك القوم: ارحموا، وقيل: البك: نق العنق، سميت بذلك؛ لأنها كانت تنق أعناق الجبابرة. وأما تسميتها بمكة، فقيل: سميت بذلك لقلة ما بها؛ وقيل: لأنها تمك المخ من العظم بما ينال ساكنها من المشقة، ومنه مككت العظم: إذا أخرجت ما فيه، ومك الفصيل ضرع أمه، وامتكه: إذا امتصه؛ وقيل: سميت بذلك؛ لأنها تمك من ظلم فيها، أي: تهلكه. قوله: ﴿مَبَارَكًا﴾ حال من الضمير في وضع، أو من متعلق الظرف؛ لأن التقدير للذي استقر ببكة مباركاً، والبركة: كثرة الخير الحاصل لمن يستقر فيه، أو يقصده، أي: الثواب المتضاعف. والآيات البينات الواضحات: منها الصفا، والمروة، ومنها أثر القدم في الصخرة الصماء، ومنها أن الغيث إذا كان بناحية الركن اليماني كان الخصب في اليمن، وإن كان بناحية الشامي كان الخصب بالشام، وإذا عم البيت كان الخصب في جميع البلدان، ومنها انحراف الطيور، عن أن تمر على هوائه في جميع الأزمان، ومنها هلاك من يقصده من الجبابرة، وغير ذلك. وقوله: ﴿مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بدل من آيات قاله محمد بن يزيد المبرد. وقال في الكشف: إنه عطف بيان. وقال الأخفش: إنه مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير منها مقام إبراهيم؛ وقيل: هو خبر مبتدأ محذوف أي: هي مقام إبراهيم، وقد استشكل صاحب الكشف بيان الآيات، وهي: جمع بالمقام، وهو: فرد، وأجاب بأن المقام جعل وحده بمنزلة آيات لقوة شأنه، أو بانه مشتمل على آيات، قال: ويجوز أن يراد فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من نخله؛ لأن الإثنين نوع من الجمع. قوله: ﴿وَمَنْ نَخْلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ جملة مستأنفة لبيان حكم من أحكام الحرم، وهو: أن من نخله كان آمناً، وبه استدلل من قال: إن من لجأ إلى الحرم، وقد وجب عليه حد من الحدود، فإنه لا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وهو قول أبي حنيفة، ومن تابعه، وخالفه الجمهور، فقالوا: تقام عليه الحدود في الحرم. وقد قال جماعة: إن الآية خبر في معنى الأمر، أي: ومن نخله، فأمّنوه كقوله: ﴿لَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ [البقرة: 197] أي: لا ترفثوا، ولا تفسقوا،

ولا تجادلوا. قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾ اللام في قوله: ﴿لِلَّذِي﴾ هي التي يقال لها لام الإيجاب، والإلزام، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً بحرف ﴿عَلَى﴾ فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب، كما إذا قال القائل لفلان علي كذا، فنكر الله سبحانه الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه، وتعظيماً لحرمته، وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصصه الليل كالصبي، والعبد. وقوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ في محل جر على أنه بدل بعض من الناس. وبه قال أكثر النحويين. وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بحج. والتقدير: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وقيل: إن من حرف شرط، والجزاء محذوف، أي: من استطاع إليه سبيلاً فعليه الحج. وقد اختلف أهل العلم في الاستطاعة ماذا هي؟ فقيل الزاد، والراحلة، وإليه ذهب جماعة من الصحابة، وحكاه الترمذي، عن أكثر أهل العلم، وهو: الحق. قال مالك: إن الرجل إذا وثق بقوته لزمه الحج، وإن لم يكن له زاد، وراحلة إذا كان يقدر على التكسب، وبه قال عبد الله بن الزبير، والشعبي، وعكرمة. وقال الضحاك: إن كان شاباً قوياً صحيحاً، وليس له مال فعلي أن يؤاجر نفسه حتى يقضي حجه، ومن جملة ما يدخل في الاستطاعة بخولاً أولياً أن تكون الطريق إلى الحج آمنة، بحيث يأمن الحاج على نفسه، وماله الذي لا يجد زاداً غيره، أما لو كانت غير آمنة، فلا استطاعة؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وهذا الخائف على نفسه، أو ماله لم يستطع إليه سبيلاً بلا شك، ولا شبهة. وقد اختلف أهل العلم إذا كان في الطريق من الظلمة من يأخذ بعض الأموال على وجه لا يجحف بزاد الحاج، فقال الشافعي: لا يعطى حبة، ويسقط عنه فرض الحج ووافقه جماعة، وخالفه آخرون. والظاهر أن من تمكن من الزاد، والراحلة، وكانت الطريق آمنة بحيث يتمكن من مرورها، ولو بمصانعة بعض الظلمة لنفع شيء من المال يتمكن منه الحاج، ولا ينقص من زاده، ولا يجحف به، فالحج غير ساقط عنه بل واجب عليه، لأنه قد استطاع السبيل بدفع شيء من المال، ولكنه يكون هذا المال المدفوع في الطريق من جملة ما تتوقف عليه الاستطاعة، فلو وجد الرجل زاداً، وراحلة، ولم يجد ما ينفعه لمن يأخذ المكس في الطريق لم يجب عليه الحج؛ لأنه لم يستطع إليه سبيلاً، وهذا لا بد منه، ولا يناقني تفسير الاستطاعة بالزاد، والراحلة، فإنه قد تعذر المرور في طريق الحج لمن وجد الزاد، والراحلة إلا بذلك القدر الذي يأخذه المكاسون، ولعل وجه قول الشافعي إنه سقط الحج أن أخذ هذا المكس منكراً، فلا يجب على الحاج أن يدخل في منكراً، وأنه بذلك غير مستطيع. ومن جملة ما يدخل في الاستطاعة أن يكون الحاج صحيح البدن على وجه يمكنه الركوب، فلو كان زمناً بحيث لا يقدر على المشي، ولا على الركوب فهذا، وإن وجد الزاد، والراحلة، فهو لم يستطع السبيل. قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

عبد بن حميد، وابن المنذر، والأزرقى، عن عمر بن الخطاب قال: لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاده البيت، ولكن لا يؤوى، ولا يطعم، ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه. وقد روي عنه هذا المعنى من طرق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه قال: لو وجدت قاتل أبي في الحرم لم أعرض له. وأخرج ابن جرير، عن ابن عمر قال: لو وجدت قاتل أبي في الحرم ما هجته. وأخرج الشيخان، وغيرهما، عن أبي شريح العوفي قال: قام النبي ﷺ الغد من يوم الفتح فقال: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله، واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله قد أنزل رسوله، ولم يأن لكم، وإنما أنزلني ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم، كحرمتها أمس». وأخرج الدارقطني، والحاكم وصححه، عن أنس: «أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فقيل: ما السبيل؟ قال: الزاد، والراحلة». وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر مرفوعاً: أنه قام رجل، فقال: ما السبيل؟ فقال: الزاد، والراحلة. وأخرج الدارقطني، والبيهقي في سننهما من طريق الحسن، عن أمه، عن عائشة قالت: «سئل رسول الله ﷺ ما السبيل إلى الحج؟ قال: الزاد، والراحلة». وأخرج الدارقطني في سننه، عن ابن مسعود مرفوعاً مثله. وأخرج الدارقطني، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده مرفوعاً مثله. وأخرج الدارقطني، عن جابر مرفوعاً مثله. وقد روى هذا الحديث من طرق أقل أحواله أن يكون حسناً لغيره، فلا يضره ما وقع من الكلام على بعض طرقه، كما هو معروف. وأخرج الدارقطني، عن علي مرفوعاً في الآية: «أنه سئل النبي ﷺ، فقال: تجد ظهر بعير». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: الزاد، والراحلة، وأخرج ابن عباس مثله. وأخرجه عنه مرفوعاً ابن ماجه، والطبراني، وابن مريويه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عنه قال: السبيل أن يصح بدن العبد، ويكون له ثمن زاد، وراحلة من غير أن يجحف به. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عنه قال: «سبيلًا» من وجد إليه سعة، ولم يحل بينه، وبينه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عبد الله بن الزبير قال: الاستطاعة القوة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن النخعي قال: إن المحرم للمرأة من السبيل الذي قال الله. وقد ثبت عنه ﷺ النهي للمرأة أن تسافر بغير ذي محرم. واختلفت الأحاديث في قدر المدة، ففي لفظ ثلاثة أيام، وفي لفظ يوم وليلة، وفي لفظ بريد.

قيل: إنه عبر بلفظ الكفر عن ترك الحج تأكيداً لوجوبه، وتشديداً على تاركه، وقيل: المعنى: ومن كفر بفرض الحج، ولم يره واجباً، وقيل: إن من ترك الحج، وهو قادر عليه، فهو كافر. وفي قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة، وخذلانه، وبعده من الله سبحانه ما يتعاضمه سامعه، ويرجف له قلبه، فإن الله سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم، ومصلحتهم، وهو تعالى شأنه، وتنقش سلطانه غني لا تعود إليه طاعات عباده بأسرها بنفع.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ الآية، قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أبي نر قال: «قلت يا رسول الله: أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر، قال: «خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة، وكان إذ كان عرشه على الماء زبدة بيضاء، وكانت الأرض تحته، كأنها حشفة فلحيت الأرض من تحته». وأخرج نحوه ابن المنذر، عن أبي هريرة. وأخرج ابن المنذر، والأزرقى، عن ابن جريج قال: بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس أعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة، فقال المسلمون: بل الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فنزلت: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ وليس ذلك في بيت المقدس: ﴿وَهُوَ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن عبد الله بن الزبير قال: إنما سميت بكة؛ لأن الناس يجيئون إليها من كل جانب حجاجاً. وروى سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي، عن مجاهد: إنما سميت بكة؛ لأن الناس يتباكون فيها، أي: يزحمون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حبان، في قوله: ﴿مَبَارَكًا﴾ قال: جعل فيه الخير، والبركة: ﴿وَهْدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: بالهدى قبلتهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ فمnen مقام إبراهيم، والمشعر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ قال: مقام إبراهيم: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ والله على الناس حج البيت. وأخرج الأزرقى، عن زيد بن أسلم نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ قال: كان هذا في الجاهلية، كان الرجل لو جر كل جريرة على نفسه، ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول، ولم يطلب، فأما في الإسلام، فإنه لا يمنع من حدود الله، من سرق فيه قطع، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد، ومن قتل فيه قتل. وأخرج

العرب، والنصارى، واليهود، والمجوس، والصابئين، فقال: إن الله فرض عليكم الحج، فحجوا البيت، فلم يقبله إلا المسلمون، وكفرت به خمس ملل، قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نستقبله، فانزل الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي في سننه، عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي داود نفيح قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾ الآية، فقال رجل من هذيل فقال: يا رسول الله من تركه كفر؟ فقال: من تركه لا يخاف عقوبته، ومن حج لا يرجو ثوابه، فهو ذاك». وأخرج ابن جرير، عن عطاء بن أبي رباح في الآية قال: من كفر بالبيت، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ في قول الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ قال: من كفر بالله، واليوم الآخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد مثله من قوله. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد أنه سئل عن ذلك، فقرا: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿سِبْطًا﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بهذه الآيات. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود في الآية قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ فلم يؤمن به: فهو الكافر.

قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٧﴾ قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّنْ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ أَنَّ اللَّهَ يُضِلُّ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا قُرَيْشًا مِنْ الَّذِينَ أُدْرُوا الْكِتَابُ يَرْدُّوكم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٧٩﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْفِلُ عَنْكُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ فَقَدْ هَدِيَ إِلَى سَبِيلٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٨٠﴾ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا اللَّهُ حَقَّ تَقَالِيدِهِ وَلَا تَكُونُوا لَكُمْ شُرَكَاءُ ﴿١٨١﴾ وَأَعَصُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ أَفْعَاءَ قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصَّبْتُمْ بِشَمِيرِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٨٢﴾

قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ خطاب لليهود، والنصارى، والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ للإنكار، والتوبيخ. وقوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ جملة حالية مؤكدة للتوبيخ، والإنكار، وهكذا المجيء بصيغة المبالغة في شهيد يفيد مزيد التشديد، والتوهيل، والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ يفيد ما أفاده الاستفهام الأول. وقرأ الحسن: ﴿تَصُدُّونَ﴾ من أصد، وهما لغتان: مثل صد اللحم، وأصد: إذا تغير، وأنتن، وسبيل الله دينه الذي ارتضاه لعباده، وهو دين الإسلام، والعوج: الميل، والزيج، يقال عوج بالكسر إذا كان في الدين، والقول، والعمل، وبالفتح في الأجسام كالجدار، ونحوه، روي ذلك عن أبي عبيدة، وغيره، ومحل قوله: ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ النصب على الحال. والمعنى: تطلبون لها اعوجاجاً، وميلاً عن القصد، والاستقامة بإيهامكم على الناس بأنها كذلك تنقيفاً لتحريفكم، وتقويماً لدعائركم الباطلة. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ جملة حالية، أي: كيف

وقد وردت أحاديث في تشديد الوعيد على من ملك زاداً، وراحلة، ولم يحج. فأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مرونه، والبيهقي في الشعب، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً، وراحلة تبلغه إلى بيت الله، ولم يحج بيت الله، فلا عليه بأن يموت يهودياً، أو نصرانياً» وذلك بأن الله يقول: ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. وفي إسناده هلال الخراساني أبو هاشم، قال البخاري: منكر الحديث. وقيل: مجهول. وقال ابن عدي: هذا الحديث ليس بمحفوظ وفي إسناده أيضاً الحارث الأعور، وفيه ضعف. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد في كتاب الإيمان، وأبو يعلى، والبيهقي، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات، ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس، أو سلطان جائر، أو حاجة ظاهرة، فليمت على أي حال شاء يهودياً، أو نصرانياً». وأخرج ابن أبي شيبة، عن عبد الرحمن بن سابط مرفوعاً مرسلاً مثله. وأخرج سعيد بن منصور. قال السيوطي بسند صحيح، عن عمر بن الخطاب قال: لقد هممت أن أبعث رجلاً إلى هذه الأمصار، فلينظروا كل من كان له جدة، ولم يحج، فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين. وأخرج الإسماعيلي عنه يقول: «من أطاق الحج، ولم يحج، فسواء عليه يهودياً مات، أو نصرانياً» قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده: وهذا إسناده صحيح. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، عنه نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر: «من مات، وهو موسر، ولم يحج جاء يوم القيامة، وبين عينيه مكتوب كافر». وأخرج سعيد بن منصور، عنه «من وجد إلى الحج سبيلاً سنة، ثم سنة، ثم سنة ثم مات، ولم يحج لم يصل عليه، ولا يبري مات يهودياً، أو نصرانياً». وأخرج سعيد بن منصور، عن عمر بن الخطاب قال: لو ترك الناس الحج لقاتلتهم عليه، كما نقاتلهم على الصلاة، والزكاة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ قال: من زعم أنه ليس بفرض عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في الآية قال: من كفر بالحج، فلم يرجحه برأ، ولا تركه مائماً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ [آل عمران: 85] قالت اليهود: فنحن مسلمون، فقال لهم النبي ﷺ: إن الله فرض على المسلمين حج البيت، فقالوا: لم يكتب علينا، وأبو أن يحجوا، قال الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عكرمة نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاک قال: «لما نزلت آية الحج ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾ الآية، جمع رسول الله ﷺ أهل الملل مشركي

وتطلبون ذلك بعملة الإسلام، والحال أنكم تشهدون أنها دين الله الذي لا يقبل غيره، كما عرفتم ذلك من كتبكم المنزل على أنبيائكم، قيل: إن في التوراة أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام، وأن فيه نعت محمد ﷺ؛ وقيل: المراد: ﴿وأنتم شهداء﴾ أي: عقلاء، وقيل: المعنى وأنتم شهداء بين أهل دينكم مقبولون عندهم، فكيف تاتون بالباطل الذي يخالف ما أنتم عليه بين أهل دينكم؟ ثم توعدهم سبحانه بقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ ثم خاطب سبحانه المؤمنين محذراً لهم عن طاعة اليهود، والنصارى مبيناً لهم أن تلك الطاعة تقضي إلى أن يردونهم بعد إيمانهم كافرين، وسياي بيان سبب نزول الآية، والاستفهام في قوله: ﴿وكيف تكفرون﴾ للإنكار، أي: من أين ياتيكم ذلك، ولبيكم ما يمنع منه ويقطع أثره، وهو: تلاوة آيات الله عليكم، وكون رسول الله ﷺ بين أظهركم؟ ومحل قوله: ﴿وأنتم﴾ وما بعده النصب على الحال. ثم أرشدهم إلى الاعتصام بالله ليحصل لهم بذلك الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو الإسلام، وفي وصف الصراط بالاستقامة رد على ما ادعوه من العوج. قال الزجاج: يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد ﷺ خاصة؛ لأن رسول الله ﷺ كان فيهم، وهم يشاهدونه، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة؛ لأن آثاره، وعلامته، والقرآن الذي أوتيها، فكان رسول الله ﷺ فينا، وإن لم نشاهده. انتهى. ومعنى الاعتصام بالله التمسك بدينه، وطاعته، وقيل: بالقرآن، يقال: اعتصم به، واستعصم، وتمسك، واستمسك: إذا امتنع به من غيره، وعصمه الطعام: منع الجوع منه. قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ أي: التقوى التي تحق له، وهي: أن لا يترك العبد شيئاً مما يلزمه فعله، ولا يفعل شيئاً مما يلزمه تركه، ويبذل في ذلك جهده، ومستطاعه. قال القرطبي: نكر المفسرون أنها لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله من يقوى على هذا؟ وشق عليهم ذلك، فأنزل الله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: 16] فنسخت هذه الآية. روي ذلك عن قتادة، والربيع، وابن زيد. قال مقاتل: وليس في آل عمران من المنسوخ شيء إلا هذا. وقيل: إن قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ مبين بقوله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ والمعنى: اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم. قال: وهذا أصوب؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع، والجمع ممكن، فهو أولى. قوله: ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أي: لا تكونن على حال سوى حال الإسلام، فالاستثناء مفرغ، ومحل الجملة: أعني: قوله: ﴿وأنتم مسلمون﴾ النصب على الحال، وقد تقدم في البقرة تفسير مثل هذه الآية. قوله: ﴿واعصوا بحبل الله جميعاً﴾ الحبل لفظ مشترك، وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وهو: إما تمثيل، أو استعارة. أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام، أو بالقرآن، ونهاهم عن التفرق الناشيء عن الاختلاف في الدين، ثم أمرهم بأن ينكروا نعمة الله عليهم،

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مر شاس بن قيس، وكان شيخاً قد عسى في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس، والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من الفتنة، وجماعتهم، وصلاحتهم ذات بينهم على الإسلام. بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملا بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً معه من يهود، فقال: اعد إليهم، فاجلس معهم، ثم نكروهم يوم بعث، وما كان قبله، وأنشددهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار، وكان يوم بعث يوماً اقتتل فيه الأوس، والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعا، وتفاخروا حتى تواب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قبيظي أحد بني حارثة من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم، والله ربنانها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، للسلاح السلاح موعنكم الظاهرة، والظاهرة الحرة، فخرجوا إليها، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين الله الله أبدوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً، فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم لهم، فآلقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفا الله عنهم كيد عدو الله شاس، وأنزل الله في شأن شاس بن قيس، وما صنع ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾ إلى قوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ وأنزل في أوس بن قبيظي، وجبار بن صخر، ومن كان معهما من

وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَرُوا وَقُرُوءًا وَخَلَقُوا مِنْ بَدَنٍ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٢﴾ يَوْمَ نَبِّضُ الْيَهُودَ وَنَسُودُ وَجُوهَهُمْ فَأَمَّا الَّذِينَ آسَدَتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرُهُمْ بَدَّ بِأَسْنِمِكُمْ قَدْ دَفَعُوا الْمَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٥٣﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آيَنُتْ وَجُوهُهُمْ فَبِمَا رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْوَحْيَ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٥٦﴾

قوله: ﴿وَلَتَكُنَّ﴾ قرأه الجمهور بإسكان اللام، وقرأ بكسر اللام على الأصل، ومن في قوله: ﴿هَمَّكُمْ﴾ للتبعيض، وقيل: لبيان الجنس. ورجح الأول بأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من فروض الكفايات يختص بأهل العلم الذين يعرفون كون ما يأمر به معروفاً، وينهون عنه منكراً. قال القرطبي: الأول أصح، فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عينهم الله سبحانه بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: 41] الآية. وقرأ ابن الزبير: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْتَعِينُونَ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ قال أبو بكر بن الأنباري: وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقليين، فالحق بالفاظ القرآن. وقد روى أن عثمان قرأها كذلك، ولكن لم يكتبها في مصحفه، فدل على أنها ليست بقرآن. وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجوبه ثابت بالكتاب، والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها. وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، إظهاراً لشرفهما، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه، كما قيل في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة، أي: يدعون، ويأمرون، وينهون لقصد التعميم، أي: كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك، والإشارة في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها ﴿هُمْ﴾ للمفْلُوحين، أي: المختصون بالفلاح، وتعريف المفْلُوحين للعهد، أو للحقيقة التي يعرفها كل أحد. قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ هم: اليهود والنصارى عند جمهور المفسرين، وقيل: هم المبتدعة من هذه الأمة، وقيل: الحرورية، والظاهر الأول. والبيانات الآيات الواضحة المبينة للحق للموجبة لعدم الاختلاف. قيل: وهذا النهي عن التفرق، والاختلاف يختص بالمسائل الأصولية، وأما المسائل الفرعية الاجتهادية، فالاختلاف فيها جائز، وما زال الصحابة، فمن بعدهم من التابعين، وتابعيهم مختلفين في أحكام الحوائث، وفيه نظر، فإنه ما زال في تلك العصور المنكر للاختلاف موجوباً وتخصيص بعض مسائل الدين بجواز الاختلاف فيها بون البعض الآخر ليس بصواب،

قومهما الذين صنعوا ما صنعوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا لِكِتَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقد رويت هذه القصة مختصرة، ومطولة من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿لَمْ تَصْنَعُوا مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: كانوا إذا سألهم أحد تجنون محمدًا قالوا: لا، قال: فصدا الناس عنه، وبغوا محمدًا عوجاً هلاكاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة: لم تصنعوا عن الإسلام، وعن نبي الله من آمن بالله، وأنتم شهداء فيما تقرؤون من كتاب الله أن محمدًا رسول الله، وأن الإسلام دين الله الذي لا يقبل غيره، ولا يجزي إلا به يجعلونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾ قال: يؤمن به. وأخرجوا عن أبي العالية قال: الاعتصام: الثقة بالله. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي، عن ابن مسعود في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ قال: أن يطاع، فلا يعصى، وينكر، فلا ينسى، ويشكر، فلا يكفر. وقد روى الحاكم وصححه، وابن مروي من وجه آخر عنه مرفوعاً بدون قوله: ويشكر، فلا يكفر. وأخرج ابن مروي، عن ابن عباس قال: حَقَّ تَقَاتِهِ أَنْ يَطَاعَ، فَلَا يَعْصَى، فَلَنْ تَسْتَطِيعُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16] وأخرج عبد بن حميد، عنه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، نحوه. وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ قال: لم تنتسخ، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط، ولو على أنفسهم، وآبائهم، وأبنائهم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، قال السيوطي بسند صحيح عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ قال: حبل الله القرآن. وقد وردت أحاديث أن كتاب الله هو حبل الله الممدود. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: واعتصموا بحبل الله بالإخلاص لله وحده. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: بطاعته. وأخرج أيضاً، عن قتادة قال: بعهدده، وأمره. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد قال: بالإسلام. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ أَعْدَاءُ﴾ قال: ما كان بين الأوس، والخزرج في شأن عائشة. وأخرج ابن إسحاق قال: كانت الحرب بين الأوس، والخزرج عشرين ومائة سنة، حتى قام الإسلام، فأطفا الله ذلك، وألف بينهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حَقَرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ يقول: كنتم على طرف النار، من مات منكم، وقع في النار، فبعث الله محمدًا ﷺ، واستنقذكم به من تلك الحفرة.

إلى الخير﴾ أي: الإسلام: ﴿ويأمرون بالمعروف﴾ بطاعة ربهم ﴿وينهون عن المنكر﴾ عن معصية ربهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاك في الآية قال: هم أصحاب محمد ﷺ خاصة، وهم: الرواة. انتهى. ولا أدري ما وجه هذا التخصيص، فالخطاب في هذه الآية، كالخطاب بسائر الأمور التي شرعها الله لعباده، وكلفهم بها. وأخرج أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». وأخرج أحمد، وأبو داود، والحاكم، عن معاوية، مرفوعاً نحوه، وزاد: «كلها في النار إلا واحدة»، وهي الجماعة. وأخرج الحاكم، عن عبد الله بن عمرو، مرفوعاً نحوه أيضاً، وزاد: «كلها في النار إلا ملة واحدة، فقيل له: ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم، وأصحابي». وأخرج ابن ماجه عن عوف بن مالك، مرفوعاً نحوه، وفيه: «فواحدة في الجنة وثلثان وسبعون في النار، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة، وأخرجه أحمد من حديث أنس، وفيه: «قيل يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: الجماعة». وقد وردت آيات، وأحاديث كثيرة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفي الأمر بالكون في الجماعة، والنهي عن الفرقة. وأخرج ابن أبي حاتم، والخطيب، عن ابن عباس في قوله: ﴿يوم تبيض وجوه﴾ قال: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدع والضلالة. وأخرجه الخطيب، والديلمي، عن ابن عمر مرفوعاً وأخرجه أيضاً مرفوعاً أبو نصر السجزي في الإبانة عن أبي سعيد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب في الآية قال: صاروا فرقتين يوم القيامة، يقال لمن أسود وجهه أكفرتم بعد إيمانكم؟ فهو الإيمان الذي كان في صلبكم أنتم حيث كنتم أمة واحدة، وأما الذين أبيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على إيمانهم، وأخلصوا له الذين فبيض الله وجوههم، وأخلصهم في رضوانه، وجنته، وقد روى غير ذلك.

كُتِبَ خَيْرَ أَمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْسِرُونَ وَالْمَعْرُوفَ وَنَهَوْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَكَوْنُوا أَهْلَ الْكِتَابِ لَكُمْ خَيْرٌ لَّهُمْ وَنَهَمُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَكْفَرَهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٤﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يَنْتَلِوْكُمْ يُولُوكُمُ الِذِّبَارَ ثُمَّ لَا يَضُرُّوكم ﴿١٠٥﴾ ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا لَا يَجِدُ مِنَ اللَّهِ وَجِيلاً مِنَ النَّاسِ وَيَأْمُرُ بِصَفٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ السَّيْئَةَ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِمَا كَانَتْ اللَّهُ رِيَقَتُ الْآلِيبَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكُمْ بِمَا عَمُوا وَكَانُوا يَسْتَدُونَ ﴿١٠٦﴾

قوله: ﴿كنتم خير أمة﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هذه الأمة في الفضل على غيرها من الأمم، وكان قيل: هي التامة، أي: وجدتم، وخلقتم خير أمة، ومثله ما أنشده سيويه:

وجيران لنا كانوا كرام

فالمسائل الشرعية المساوية الاقدام في انتسابها إلى الشرع. وقوله: ﴿يوم تبيض وجوه﴾ منتصب بفعل مضمر أي: انكر، وقيل: بما يدل عليه قوله: ﴿لهم عذاب عظيم﴾ فإن تقديره استقر لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه، أي: يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة، وجوه الكافرين مسودة. ويقال إن ذلك عند قراءة الكتاب إذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسناته، فاستبشر وابتيض وجهه، وإذا قرأ الكافر كتابه رأى سيئاته، فحزن وأسود وجهه، والتنكير في وجوه للكثير، أي: وجوه كثيرة. وقرأ يحيى بن وثاب تبيض، وتسود بكسر التاءين. وقرأ الزهري تبيضاً، وتسوداً. قوله: ﴿أكفرتم﴾ أي: فيقال لهم أكفرتم، والهمزة للتوبيخ، والتعجب من حالهم، وهذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال، وقدم بيان حال الكافرين لكون المقام مقام تحذير وترهيب، قيل: هم أهل الكتاب، وقيل: المرتدون، وقيل: المنافقون، وقيل: المبتدعون. قوله: ﴿ففي رحمة الله﴾ أي: في جنته ودار كرامته، عبر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لا يستقل بدخول صاحبه الجنة، بل لا بد من الرحمة، ومنه حديث: «لن يدخل أحد الجنة بعمله» وهو في الصحيح. وقوله: ﴿هم فيها خالدون﴾ جملة استثنائية جواب سؤال مقدر. وتلك إشارة إلى ما تقدم من تعذيب الكافرين، وتنعيم المؤمنين. وقوله: ﴿نقلوها عليكم بالحق﴾ جملة حالية، وبالحق متعلق بمحذوف، أي: متلبسة بالحق، وهو العدل. وقوله: ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ جملة تذييلية مقررة لمضمون ما قبلها، وفي توجه النفي إلى الإرادة الواقعة على النكرة دليل على أنه سبحانه لا يريد فرداً من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم. والمراد بما في السموات، وما في الأرض مخلوقاته سبحانه، أي: له ذلك يتصرف فيه كيف يشاء، وعلى ما يريد، وعبر بما تغليباً لغير العقلاء على العقلاء لكثرتهم، أو لتزليل العقلاء منزلة غيرهم. قال المهدوي: وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين، والكافرين، وأنه لا يريد ظلماً للعالمين، وصله بذكر اتساع قدرته، وغناه عن الظلم لكون ما في السموات، وما في الأرض في قبضته، وقيل: هو ابتداء كلام يتضمن البيان لعباده بأن جميع ما في السموات، وما في الأرض له حتى يسألوه، ويعبدوه، ولا يعبدوا غيره. وقوله: ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ أي: لا إلى غيره، لا شركة، ولا استقلالاً.

وقد أخرج ابن مردويه، عن أبي جعفر الباقر قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ولكن منكم أمة يدعوون إلى الخير﴾ قال: الخير اتباع القرآن وسنتي». وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: كل آية ذكرها الله في القرآن في الأمر بالمعروف، فهو الإسلام، والنهي عن المنكر، فهو عبادة الأوثان، والشيطان. انتهى. وهو تخصيص بغير مخصص، فليس في لغة العرب، ولا في عرف الشرع ما يدل على ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان قال: ﴿يدعون

في كل حال، وعلى كل تقدير في أي مكان وجدوا ﴿إلا بحبل من الله﴾ أي: إلا أن يعتصموا بحبل من الله، قاله الفراء أي: بركة الله، أو بكتابه ﴿وحبل من الناس﴾ أي: بركة من الناس، وهم المسلمون، وقيل المراد بالناس: النبي ﷺ ﴿وياؤوا﴾ أي: رجعوا ﴿بغضب من الله﴾ وقيل: احتملوا، وأصل معناه في اللغة للزوم، والاستحقاق، أي: لزمهم غضب من الله هم مستحقون له. ومعنى ضرب المسكنة: إحاطتها بهم من جميع الجوانب، وهكذا حال اليهود، فإنهم تحت الفقر المدقع، والمسكنة الشديدة إلا النار الشاذة منهم. والإشارة بقوله ذلك إلى ما تقدم من ضرب النلة، والمسكنة، والغضب، أي: وقع عليهم ذلك بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق، والإشارة بقوله: ذلك إلى الكفر، وقتل الأنبياء بسبب عصيانهم لله، واعتدائهم لحوده. ومعنى الآية: أن الله ضرب عليهم النلة، والمسكنة، والبواء بالغضب منه لكونهم كفروا بآياته، وقتلوا أنبياءه بسبب عصيانهم، واعتدائهم.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأحمد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في قوله: ﴿كنتم خير أمة﴾ قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في الآية قال: قال عمر بن الخطاب: لو شاء الله لقال انتم فكننا كلنا، ولكن قال كنتم في خاصة أصحاب محمد، ومن صنعهم مثل صنعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس، وفي لفظ عنه أنه قال يكون لأولنا، ولا يكون لآخرنا. وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: نكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية، ثم قال: يا أيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله منها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة في الآية قال: نزلت في ابن مسعود، وعمار بن ياسر، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل. وأخرج البخاري، وغيره، عن أبي هريرة في الآية قال: خير الناس للناس يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن معاوية بن حيدة: أنه سمع النبي ﷺ يقول في الآية: إنكم تسمون سبعين أمة أنتم خيرها، وأكرمها. وروى من حديث معاذ، وأبي سعيد نحوه. وقد روت أحاديث كثيرة في الصحيحين، وغيرهما أنه يدخل من هذه الأمة الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، ولا عذاب، وهذا من فوائد كونها خير الأمم. وأخرج ابن جرير عن الحسن: ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ قال: تسمعون منهم كذباً على الله يدعونكم إلى الضلالة. وأخرج أيضاً، عن ابن جريج قال: إشراكهم في عزيز، وعيسى، والصليب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، وقاتدة: ﴿ضربت عليهم النلة﴾ قالوا: يعطون الجزية عن يد

ومنه قوله تعالى ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ [مريم: 29] وقوله: ﴿وانكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ [الأعراف: 86]. وقال الأخفش: يريد أهل أمة: أي خير أهل دين، وأنشد:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبه وهل يائمن نومة وهوطائح
وقيل: معناه: كنتم في اللوح المحفوظ، وقيل: كنتم منذ أمنتكم. وفيه دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق، وأن هذه الخيرية مشتركة ما بين أول هذه الأمة، وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم، وإن كانت متفاضلة في ذات بينها. كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم. وقوله: ﴿أخرجت للناس﴾ أي: أظهرت لهم. وقوله: ﴿تأمرون بالمعروف﴾ الخ كلام مستأنف يتضمن بيان كونهم خير أمة مع ما يشتمل عليه من أنهم خير أمة ما أقاموا على ذلك، واتصفوا به، فإذا تركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر زال عنهم ذلك، ولهذا قال مجاهد: إنهم خير أمة على الشرائط المذكورة في الآية، وهذا يقتضي أن يكون تأمرون، وما بعده في محل نصب على الحال أي: كنتم خير أمة حال كونكم أمرين تاهين مؤمنين بالله، وبما يجب عليكم الإيمان به من كتابه، ورسوله، وما شرعه لعباده، فإنه لا يتم الإيمان بالله سبحانه إلا بالإيمان بهذه الأمور. وقوله: ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ أي: اليهود إيماناً كليمان المسلمين بالله، ورسله وكتبه: ﴿لكان خيراً لهم﴾ ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل قالوا: نؤمن ببعض الكتاب، ونكفر ببعض، ثم بين حال أهل الكتاب بقوله: ﴿منهم المؤمنون﴾ وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ منهم، فإنهم آمنوا بما أنزل عليه، وما أنزل من قبله: ﴿واكثرهم الفاسقون﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق المتمردون في باطلهم المكذبون لرسول الله ﷺ ولما جاء به، فيكون هذا التفصيل على هذا كلاماً مستأنفاً جواباً، عن سؤال مقدر، كأنه قيل: هل منهم من آمن فاستحق ما وعده الله. وقوله: ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ أي: لن يضروكم بنوع من أنواع الضرر إلا بنوع الأذى، وهو الكذب، والتحريف، والبهت، ولا يقدرن على الضرر الذي هو الضرر في الحقيقة بالحرب، والنهب، ونحوهما، فالاستثناء مفرغ، وهذا وعد من الله لرسوله، وللمؤمنين أن أهل الكتاب لا يغلبونهم، وأنهم منصورون عليهم، وقيل: الاستثناء منقطع. والمعنى: لن يضروكم البتة لكن يؤننكم، ثم بين سبحانه ما نفاه من الضرر بقوله: ﴿وإن يقاتلوك يولوكم الألبار﴾ أي: يهزمون ولا يقدرن على مقاومتكم فضلاً عن أن يضروكم. وقوله: ﴿ثم لا ينصرون﴾ عطف على الجملة الشرطية، أي: ثم لا يوجد لهم نصر، ولا يثبت لهم غلب في حال من الأحوال، بل شأنهم الخذلان ما داموا. وقد وجدنا ما وعدنا سبحانه حقاً، فإن اليهود لم تخفق لهم راية نصر، ولا اجتمع لهم جيش غلب بعد نزل هذه الآية، فهي من معجزات النبوة. وقوله: ﴿ضربت عليهم النلة﴾ قد تقدم في البقرة معنى هذا التركيب. والمعنى: صارت النلة محيطة بهم

وهم صاغرون. وروى ابن المنذر، عن الضحاک نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: **﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾** قال: بعهد من الله، وعهد من الناس.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً يَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُ اللَّهُ مَا يُفْعَلُ بِهِمْ وَهُمْ يَسْبُحُونَ﴾ **﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأُخِرُوا بِالْمَرْوَةِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ عَوَفَاءٌ وَأُولَئِكَ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾** وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَنْفَعُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** مَثَلٌ مَا يُلْفِظُونَ فِي هَذِهِ الْأَمْزَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا يَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا عَلَيْهِمْ فَهُمْ فِيهَا مَبْعُوثُونَ **﴿لَا يَسْأَلُ عَنْهُمْ شَيْءٌ﴾** وَمَا يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا حِسَابٌ

قوله: **﴿ليسوا سواء﴾** أي: أهل الكتاب غير مستويين بل مختلفين، والجملة مستأنفة سبقت لبيان التفاوت بين أهل الكتاب. وقوله: **﴿أمة قائمة﴾** هو استئناف أيضاً يتضمن بيان الجهة التي تفاوتوا فيها من كون بعضهم أمة قائمة إلى قوله: **﴿من الصالحين﴾** قال الأخفش: التقدير من أهل الكتاب ذو أمة، أي: ذو طريقة حسنة وأنشد:

وهل يائمن ذو أمة وهو طائع
وقيل في الكلام حذف، والتقدير: من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى لكفاء بالاولى، كقول أبي ذؤيب:

عصيت إليها القلب إني لأمرها طائع
أراد أرشد أم غي. قال الفراء: أمة رفع بسواء، والتقدير: ليس يستوى أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله، وأمة كافرة. قال النحاس: وهذا القول خطأ من جهات: أحدها أنه يرفع أمة بسواء، فلا يعود على اسم ليس شيء، ويرفع بما ليس جارياً على الفعل، ويضم ما لا يحتاج إليه؛ لأنه قد تقدم نكر الكافرة، فليس لإضمار هذا وجه. وقال أبو عبيدة: هذا مثل قولهم أكلوني البراغيث، وذهبوا أصحابك. قال النحاس: وهذا غلط؛ لأنه قد تقدم نكرهم، وأكلوني البراغيث لم يتقدم لهم نكر. انتهى.

وعندي أن ما قاله الفراء قوي قويم، وحاصله أن معنى الآية: لا يستوى أمة من أهل الكتاب شأنها كذا، وأمة أخرى شأنها كذا، وليس تقدير هذا المحذوف من باب تقدير ما لا حاجة إليه، كما قال النحاس، فإن تقدم نكر الكافرة لا يفيد مفاد تقدير نكرها هنا، وأما قوله: إنه لا يعود على اسم ليس شيء، فيرد أنه تقدير العائد شائع مشتهر عند أهل الفن، وأما قوله: ويرفع بما ليس جارياً على الفعل فغير مسلم. والقائمة: المستقيمة العادلة، من قولهم: اقمتم العود فقام أي: استقام. وقوله: **﴿يتلون﴾** في محل رفع على أنه صفة ثانية لأمة، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال **﴿وأناء الليل﴾** ساعاته، وهو: منصوب على الظرفية. وقوله: **﴿وهم يسجدون﴾** ظاهره أن التلاوة كائنة منهم في حال السجود،

ولا يصح ذلك إذا كان المراد بهذه الأمة الموصوفة في الآية: هم من قد أسلم من أهل الكتاب؛ لأنه قد صرح عن النبي ﷺ النهي عن قراءة القرآن في السجود، فلا بد من تأويل هذا الظاهر بأن المراد بقوله: **﴿وهم يسجدون﴾** وهم يصلون، كما قاله الفراء، والزجاج، وإنما عبر بالسجود عن مجموع الصلاة، لما فيه من الخضوع، والتذلل. وظاهر هذا أنهم يتلون آيات الله في صلاتهم من غير تخصيص لتلك الصلاة بصلاة معينة، وقيل: المراد بها: الصلاة بين العشاءين، وقيل: صلاة الليل مطلقاً. وقوله: **﴿يؤمنون بالله﴾** صفة أخرى لأمة أي: يؤمنون بالله وكتبه ورسله، ورأس ذلك الإيمان بما جاء به محمد ﷺ. وقوله: **﴿ويؤمنون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** صفتان أيضاً لأمة أي: أن هذا من شأنهم، وصفتهم. وظاهره يفيد أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على العموم؛ وقيل: المراد بالأمر بالمعروف هنا: أمرهم باتباع النبي ﷺ، وبالنهي عن المنكر نهيمهم عن مخالفتهم. وقوله: **﴿ويسارعون في الخيرات﴾** من جملة الصفات أيضاً: أي يبادرون بها غير متتافلين عن تأديتها لمعرفتهم بقدر ثوابها. وقوله: **﴿وألئك من الصالحين﴾** أي من جملتهم، وقيل: من بمعنى مع أي: مع الصالحين، وهم الصحابة رضي الله عنهم، والظاهر أن المراد: كل صالح، والإشارة بقوله: **﴿وألئك﴾** إلى الأمة الموصوفة بتلك الصفات. قوله: **﴿وما تفعلوا من خير﴾** أي: خير كان **﴿فلن تكفروه﴾** أي: لن تعدوا ثوابه، وعدها إلى المفعولين، وهو لا يتعدى إلا إلى واحد؛ لأنه ضمنه معنى الحرمان، كأنه قيل: فلن تحرموه، كما قاله صاحب الكشف. قرأ الأعمش، وابن وثاب، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف بالياء التحتية في الفعلين، وهي قراءة ابن عباس، واختارها أبو عبيد. وقرأ الباقر بالمشناة من فوق فيهما، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعاً. والمراد بالمتقين كل من ثبت له صفة التقوى، وقيل: المراد من تقدم ذكره، وهم الأمة الموصوفة بتلك الصفة، ووضع الظاهر موضع المضمهر مدحاً لهم ورفعاً من شأنهم. وقوله: **﴿إن الذين كفروا﴾** قيل: هم بنو قريظة، والنضير. قال مقاتل: لما نكر تعالى مؤمني أهل الكتاب نكر كفارهم في هذه الآية. والظاهر أن المراد بذلك: كل من كفر بما يجب الإيمان به. ومعنى: **﴿لن تنفعني﴾** لن تنفع، وخص الأولاد؛ لأنهم أحب القرابة، وأرجاهم لدفع ما ينوبه. وقوله: **﴿مثل ما ينفقون﴾** بيان لعدم إغناء أموالهم التي كانوا يعولون عليها، والصبر: البرد الشديد، أصله من الصبر الذي هو: للصوت، فهو: صوت الريح الشديد. وقال الزجاج: صوت لهب النار التي في تلك الريح. ومعنى الآية: مثل نفقة الكافرين في بطلانها، وذهابها، وعدم منفعتها، كمثّل زرع أصابه ريح ياردة، أو نار فأحرقت، أو أهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد أن كانوا على طمع من نفعه، وفائتته. وعلى هذا فلا بد من تقدير في جانب المشبه به، فيقال: كمثّل زرع أصابته ريح فيها صر، أو مثل إهلاك ما ينفقون، كمثّل إهلاك ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلما أنفسهم **﴿وما ظلمهم الله﴾** أي:

وهم صاغرون. وروى ابن المنذر، عن الضحاک نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: **﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾** قال: بعهد من الله، وعهد من الناس.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً يَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُ اللَّهُ مَا يُفْعَلُ بِهِمْ وَهُمْ يَسْبُحُونَ﴾ **﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأُخِرُوا بِالْمَرْوَةِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ عَوَفَاءٌ وَأُولَئِكَ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾** وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَنْفَعُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** مَثَلٌ مَا يُلْفِظُونَ فِي هَذِهِ الْأَمْزَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا يَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا عَلَيْهِمْ فَهُمْ فِيهَا مَبْعُوثُونَ **﴿لَا يَسْأَلُ عَنْهُمْ شَيْءٌ﴾** وَمَا يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا حِسَابٌ

قوله: **﴿ليسوا سواء﴾** أي: أهل الكتاب غير مستويين بل مختلفين، والجملة مستأنفة سبقت لبيان التفاوت بين أهل الكتاب. وقوله: **﴿أمة قائمة﴾** هو استئناف أيضاً يتضمن بيان الجهة التي تفاوتوا فيها من كون بعضهم أمة قائمة إلى قوله: **﴿من الصالحين﴾** قال الأخفش: التقدير من أهل الكتاب ذو أمة، أي: ذو طريقة حسنة وأنشد:

وهل يائمن ذو أمة وهو طائع
وقيل في الكلام حذف، والتقدير: من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى لكفاء بالاولى، كقول أبي ذؤيب:

عصيت إليها القلب إني لأمرها طائع
أراد أرشد أم غي. قال الفراء: أمة رفع بسواء، والتقدير: ليس يستوى أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله، وأمة كافرة. قال النحاس: وهذا القول خطأ من جهات: أحدها أنه يرفع أمة بسواء، فلا يعود على اسم ليس شيء، ويرفع بما ليس جارياً على الفعل، ويضم ما لا يحتاج إليه؛ لأنه قد تقدم نكر الكافرة، فليس لإضمار هذا وجه. وقال أبو عبيدة: هذا مثل قولهم أكلوني البراغيث، وذهبوا أصحابك. قال النحاس: وهذا غلط؛ لأنه قد تقدم نكرهم، وأكلوني البراغيث لم يتقدم لهم نكر. انتهى.

وعندي أن ما قاله الفراء قوي قويم، وحاصله أن معنى الآية: لا يستوى أمة من أهل الكتاب شأنها كذا، وأمة أخرى شأنها كذا، وليس تقدير هذا المحذوف من باب تقدير ما لا حاجة إليه، كما قال النحاس، فإن تقدم نكر الكافرة لا يفيد مفاد تقدير نكرها هنا، وأما قوله: إنه لا يعود على اسم ليس شيء، فيرد أنه تقدير العائد شائع مشتهر عند أهل الفن، وأما قوله: ويرفع بما ليس جارياً على الفعل فغير مسلم. والقائمة: المستقيمة العادلة، من قولهم: اقمتم العود فقام أي: استقام. وقوله: **﴿يتلون﴾** في محل رفع على أنه صفة ثانية لأمة، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال **﴿وأناء الليل﴾** ساعاته، وهو: منصوب على الظرفية. وقوله: **﴿وهم يسجدون﴾** ظاهره أن التلاوة كائنة منهم في حال السجود،

لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُقُولُونَ ﴿١٧٨﴾ هَكَأَنَّهُمْ أُولَئِكَ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لُفَّتُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا عَصَاكُمْ عَلَى كُنُفِكُمْ الْآيَاتِ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنًا يَتَّبِعُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧٩﴾ إِنْ تَسْتَكْبِرُوا تَسْأَلُونَ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ نَصَبُوا وَتَقْتُلُوا لَا يَفْرَحُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

البطانة مصدر يسمى به الواحد، والجمع، وبطانة الرجل: خاصته الذين يستبطنون أمره، وأصله البطن الذي هو: خلاف الظهر، ويطن فلان بفلان يبطن بطونا، وبطانة: إذا كان خاصاً به، ومنه قول الشاعر:

وهم خلصائي كلهم وبطانتي وهم عيبتني من نون كل قريب
قوله: ﴿مَنْ يُونَكُمْ﴾ أي: من سواكم قاله الفراء أي: من نون المسلمين، وهم الكفار، أي: بطانة كائنة من نونكم، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾. وقوله: ﴿لَا يَلُونَكُمْ﴾ خبالاً في محل نصب صفة لبطانة، يقال لا لوك جهداً أي: لا أقصر. قال امرؤ القيس:

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمرتك أطراف الخطوب ولا آل
والمراد: لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم، وإنما عذّي إلى مفعولين لكونه مضمناً معنى المنع أي: لا يمنعونكم خبالاً، والخبال، والخبل: الفساد في الأفعال، والأبدان، والعقول. قال أوس:

ابني لبني لستم بيد إلا يد مخبولة العضد
أي: فاسدة العضد. قوله: ﴿وَنُؤَا مَا عَنَّتْ﴾ ما مصدرية، أي: ونؤا عننتكم، والعنت المشقة، وشدة الضرر، والجملة مستأنفة مؤكدة للنهي. قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾ هي: شدة البغض، كالضراء لشدة الضر. والاقواء جمع فم. والمعنى: أنها قد ظهرت البغضاء في كلامهم؛ لأنهم لما خامرهم من شدة البغض، والحسد أظهرت السنتهم ما في صدورهم، فتركوا التقية، وصرحوا بالكذب، أما اليهود، فالامر في ذلك واضح. وأما المنافقون، فكان يظهر من فلتات السنتهم ما يكشف عن خبث طويتهم. وهذه الجملة مستأنفة لبيان حالهم ﴿وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ لأن فلتات اللسان أقل مما تجنه الصدور، بل تلك الفلتات بالنسبة إلى ما في الصدور قليلة جداً. ثم إنه سبحانه امتن عليهم ببيان الآيات الدالة على وجوب الإخلاص إن كانوا من أهل العقول المركبة لذلك البيان. قوله: ﴿هَإِذَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ﴾ جملة مصدرية بحرف التنبيه، أي: أنتم أولاء الخاطئون في موالاتهم، ثم بين خطاهم بتلك الموالات بهذه الجملة التنبؤية. فقال ﴿تَحْبُونَهُمْ وَلَا يَحْبُونَكُمْ﴾، وقيل: إن قوله: ﴿تَحْبُونَهُمْ﴾ خبر ثان لقوله أنتم، وقيل: إن أولاء موصول، وتحبونهم صلته أي: تحبونهم لما أظهروا لكم الإيمان، أو لما بينكم، وبينهم من القرابة: ﴿وَلَا يَحْبُونَكُمْ﴾ لما قد استحكم في صدورهم من الغيظ والحسد. قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: بجنس الكتاب جميعاً، ومحل الجملة النصب على الحال، أي: لا يحبونكم، والحال أنكم مؤمنون بكتب الله سبحانه التي من

المنفقين من الكافرين ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر المانع من قبول النفقة التي أنفقوها، وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص؛ لأن الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي في الدلائل، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وتعلبه بن سعيد، وأسيد بن سعيد، ومن أسلم من يهود معهم، فأمنوا، وصنقوا، ورغبوا في الإسلام، قالت أحبار يهود، وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد، وتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: ﴿هَإِذَا قَائِمَةٌ﴾ يقول: مهتية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه، ولم تتركه، كما تركه الآخرون، وضيعوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم قال: ﴿هَإِذَا قَائِمَةٌ﴾ عائلة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ قال: جوف الليل. وأخرج ابن جرير، عن الربيع قال: ساعات الليل. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ قال: لا يستوى أهل الكتاب، وأمة محمد: ﴿يَقْتُلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ قال: صلاة العتمة هم: يصلونها، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصلونها. وأخرج أحمد، والنسائي، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني. قال السيوطي بسند حسن، عن ابن مسعود قال: «آخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ليلة، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد ينكر الله هذه الساعة غيركم، ولفظ ابن جرير، والطبراني فقال: إنه لا يصلي هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب. قال: وإنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن منصور قال: بلغني أنها نزلت هذه الآية: ﴿يَقْتُلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ فيما بين المغرب، والعشاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة ﴿فَلَنْ تَكْفُرُوهُ﴾ قال: لن يضل عنكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن ﴿فَلَنْ تَكْفُرُوهُ﴾ قال: لن تظلموه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في الآية يقول: ﴿مِثْلُ مَا يَنْفِقُونَ﴾ أي: المشركون، ولا يتقبل منهم، كمثل هذا الزرع إذا زرعه القوم الظالمون، فإصابه ريح فيها صر، فأهلكته، فكذلك أنفقوا، فأهلكهم شركهم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿فِيهَا صَرْ﴾ قال: برد شديد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْمُرُكُمْ بِحَبَاكَ وَدَوَا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى مِنْ دُونِهِمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا

يسألون ﴿[الأنبياء: 23] وفي قوله: ﴿وإله غفور رحيم﴾ إشارة إلى أن رحمته سبقت غضبه، وتبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة، والرحمة على وجه المبالغة، وما أوقع هذا التذييل الجليل وأحبه إلى قلوب العارفين بأسرار التنزيل.

وقد أخرج ابن إسحاق، والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب، وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن يحيى بن حبان، والحسين بن عبد الرحمن بن أسعد بن معاذ قالوا: كان يوم أحد يوم بلاء، وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحق به المنافقين ممن كان يظهر الإسلام بلسانه، وهو مستخف بالكفر، ويوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته. وكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان في يومه ذلك، ومعاتبه من عاتب منهم، يقول الله لنبيه: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الآية قال: يوم أحد. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿تَبَوَّأُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: توطن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن الآفة في يوم الأحزاب. وقد ورد في كتب السير، والتاريخ كيفية الاختلاف في المشورة على النبي ﷺ في يوم أحد، فمن قائل نخرج إليهم، ومن قائل نبقى في المدينة، فخرج، وكان من جملة المشيرين عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، كان رأيه البقاء في المدينة، والمقاتلة فيها، ثم لما خولف في رأيه انخرل بمن معه من المنافقين، وهم قدر الثلث من القوم الذين خرج بهم النبي ﷺ. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن جابر قال: فبينا نزلت في بني حارثة، وبني سلمة: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وما يسرني أنها لم تنزل لقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيهِمَا﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ﴾ قال: ذلك يوم أحد. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: هم بنو حارثة، وبنو سلمة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ إلى ﴿ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ في قصة بدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَثَلَّةٌ﴾ يقول: وأنتم قليل، وهم يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الشعبي: أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يمد المشركين فشق ذلك عليهم، فانزل الله: ﴿إِنْ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمْنَكُمْ بِرَبِّكُمْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قال: فبلغت كرزاً، فلم يمد المشركين، ولم يمد المسلمين بالخمسة. وأخرج ابن جرير عن الشعبي لما كان يوم بدر بلغ رسول الله ﷺ، ثم نكر نحوه إلا أنه قال: ﴿وَيَا تُوكُم مِنْ قُورِهِمْ هَذَا﴾ يعني كرزاً، وأصحابه ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فبلغ كرزاً، وأصحابه الهزيمة، فلم يمدهم، ولم ينزل الخمسة، وأموا بعد ذلك

حال، والمجيء بـلن لتأكيد النفي، وأصل الفور: القصد إلى الشيء، والأخذ فيه بجد، وهو: من قولهم فارت القدر تفور فوراً، وفورناً. إذا غلت، والفور: الغليان، وفار غضبه: إذا جاش، وفعله من فوره أي: قبل أن يسكن، والفؤارة ما يفور من القدر، استعير للسرعة، أي: إن يأتوكم من ساعتهم هذه يمدكم ربكم بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر عن ذلك. قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بفتح الواو اسم مفعول، وهي: قراءة ابن عامر، وحمزة، والكسائي، ونافع أي: معلمين بعلامات. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بكسر الواو اسم فاعل، أي: معلمين أنفسهم بعلامات. ورجح ابن جرير هذه القراءة، والتسويم إظهار سيما الشيء. قال كثير من المفسرين: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: مرسلين خيلهم في الغارة، وقيل: إن الملائكة اعتمد بمعائم بيض، وقيل: حمر، وقيل: خضر، وقيل: صفر، فهذه هي العلامة التي علموا بها أنفسهم حكى ذلك عن الزجاج، وقيل: كانوا على خيل بلق، وقيل: غير ذلك. قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾ كلام مبتدأ غير داخل في مقول القول، والضمير في قوله: (جعله للإمداد المللول عليه بالفعل، أو للتسويم، أو للإنزال، ورجح الأوّل الزجاج، وصاحب الكشاف. وقوله: ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ استثناء مفرغ من أعم العام، والبشري اسم من البشارة، أي: إلا تبشروا بأنكم تنصرون، ولطمئن قلوبكم به، أي: بالإمداد، واللام لام كي، جعل الله ذلك الإمداد بشري بالنصر، وطمانية للقلب، وفي قصر الإمداد عليهما إشارة إلى عدم مباشرة الملائكة للقتال يومئذ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا من عند غيره، فلا تنفع كثرة المقاتلة، ووجود العدة. قوله: ﴿لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وقيل: متعلق بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وقيل: متعلق بقوله: ﴿يُمْدِدْكُمْ وَالطَّرَفُ الطائفة، والمعنى: نصركم الله ببدر ليقطع طائفة من الكفار، وهم: الذين قتلوا يوم بدر، أو وما النصر إلا من عند الله ليقطع تلك الطائفة، أو يمدكم ليقطع. ومعنى يكتبهم يحزنهم، والمكبوت المحزون. وقال بعض أهل اللغة: معناه يكيدهم، أي: يصيبهم بالحزن، والغيب في أكبادهم، وهو غير صحيح، فإن معنى كبى كبت أحزن، وأغاظ، وأذل، ومعنى كبى أصاب الكبى ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ أي: غير ظافرين بمطلبهم. قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ جملة اعتراضية بين المعطوف، والمعطوف عليه، أي: أن الله مالك أمرهم يصنع بهم ما يشاء من الإهلاك، أو الهزيمة، أو التوبة إن أسلموا، أو العذاب، فقله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطف على قوله، أو يكتبهم، وقال الفراء: إِنَّ أَوْ بمعنى إلا أن، بمعنى ليس لك من الأمر شيء إلا أن يتوب عليهم، فتفرج بذلك، أو يعذبهم فتشفي بهم. قوله: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلام مستأنف لبيان سعة ملكه ﴿يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يغفر له: ﴿وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يعذبه يفعل في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعِّلُ وَهُمْ

بإلف، فهم أربعة آلاف. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في الآية قال: أمّنوا بإلف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف، وذلك يوم بدر. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: ﴿يَبْلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ الآية، قال: هذا يوم أحد، فلم يصبروا، ولم يتقوا، فلم يمّنوا يوم أحد، ولو أمّنوا لم يهزموا يومئذ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَالِقَاتِ الْكُنُوزِ﴾ الآية، قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قال: معلمين، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سوداء، ويوم أحد عمائم حمراء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير: أن الزبير كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفراء. وأخرج ابن إسحاق، والطبراني عن ابن عباس قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمراء، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون عدداً، ومدداً لا يضربون. وفي بيان التسويم عن السلف اختلاف كثير لا يتعلق به كثير فائدة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال قطع الله يوم بدر طرفاً من الكفار، وقتل صناديدهم، ورؤوسهم، وقانتهم في الشر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ قال: هذا يوم بدر قطع الله طائفة منهم، وبقيت طائفة. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: نكر الله قتلَى المشركين بأحد، وكانوا ثمانية عشر رجلاً، فقال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم نكر الله الشهداء، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: 169]. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَوْ يَكْتَبُهُم﴾ قال: يحزنهم. وأخرج ابن جرير، عن قتادة، والربيع مثله. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أنس: أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في وجهه حتى سال الدم، فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فانزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية. وقد روى هذا المعنى في روايات كثيرة. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾». وأخرج البخاري،

ومسلم، وغيرهما أيضاً من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد، أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، يجره بذلك. وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: اللهم العن فلانا، وفلاناً لأحياء من أحياء العرب حتى أنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾. وفي لفظ: اللهم العن لحيان، ورعلا، وثكوان، وعصية عصت الله ورسوله، ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزل قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية.

[illegible]

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قيل: هو كلام مبتدأ للترهيب، والترغيب فيما نذكر؛ وقيل: هو اعتراض بين إثناء قصة أحد. وقوله: ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ ليس لتقيد النهي لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال، ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حل الأجل زادوا في المال مقدارا يتراضون عليه، ثم يزينون في أجل الثَّيْنِ، فكانوا يفعلون ذلك مرّة بعد مرّة حتى يأخضروا المرابي أضْعَافَ دينه الذي كان له في الابتداء؛ وأضْعَافًا حال، ومضاعفة نعت له، وفيه إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام، والمبالغة في هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ. قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فيه الإرشاد إلى تجنب ما يفعله الكفار في معاملاتهم. قال كثير من المفسرين: وفيه أنه يكفر من استحلّ الربا، وقيل: معناه: اتقوا الربا الذي ينزع منكم الإيمان، فتستوجبون النار، وإنما حَصَّ الربا في هذه الآية؛ لأنه الذي توعّد الله عليه بالحرب منه لفاعله. وقوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: في كل أمر، ونهي ﴿لِعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أي: راجين الرحمة من الله عز وجل. وقوله: ﴿وَسَارِعُوا﴾ عطف على اطيعوا، وقرأ نافع، وابن عامر ﴿سَارِعُوا﴾ بغير واو، وكذلك في مصاحف أهل المدينة، وأهل الشام، وقرأ الباقون بالواو. قال أبو علي: كلا الأمرين سائغ مستقيم، والمسارة: المباررة، وفي الآية حذف، أي: سارعوا إلى ما يوجب

فعلهم. وقد تقدّم تفسير الإصرار. والمراد به هنا: العزم على معاودة الذنب، وعدم الإقلاع عنه بالتوبة منه. وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، أي: لم يصروا على فعلهم عالمين بقبحه. قوله: ﴿أُولَئِكَ جِزَاؤُهُمْ﴾ الإشارة إلى المنكوريين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾. وقوله: ﴿جِزَاؤُهُمْ﴾ بدل اشتمال من اسم الإشارة. وقوله: ﴿مَغْفِرَةً﴾ خبر ﴿وَمَنْ رَبِّهِمْ﴾. وقوله: ﴿وَنَعَم لِّجْرِ الْعَامِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف، أي: أجرهم، أو تلك المنكور. وقد تقدّم تفسير الجنات، وكيفية جرى الأنهار من تحتها.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: كانوا يتبايعون إلى الأجل، فإذا جاء الأجل زالوا عليهم، وزالوا في الأجل، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَهُمْ مَظْلَمًا مَظْلَمَةً﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عطاء قال: كانت ثقيف تدين بني المغيرة في الجاهلية، ونكر نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن معاوية بن قرة قال: كان الناس يتأولون هذه الآية: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ اتقوا لا أعنيكم بذنوبكم في النار التي أعدتها للكافرين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عطاء بن أبي رباح قال: قال المسلمون: يا رسول الله أبنو إسرائيل كانوا أكرم على الله منا؟ كانوا إذا أنتب أحدهم ننبأ أصبح كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه لجدع أنفك لجدع أنفك ففعل كذا وكذا، فسكت النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَسَارِعُوا﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، عن أنس بن مالك في تفسير: ﴿وَسَارِعُوا﴾ قال: التكبير الأولى. وأخرج ابن جرير من طريق السدي عن ابن عباس في قوله: ﴿عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ مثل ما ذكرناه سابقاً عن الجمهور. وأخرج نحوه عنه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق كريب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْفَقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ يقول: في اليسر والعسر ﴿وَالْكَافِلِينَ الْغَيْظَ﴾ يقول: كاضمين على الغيظ. وقد وردت أحاديث كثيرة، في ثواب من كظم الغيظ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن النخعي في الآية: قال: الظلم من الفاحشة، والفاحشة من الظلم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والطبراني، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن مسعود قال: إن في كتاب الله لايتين ما أنتب عبد ننبأ، ففراهما، فاستغفر الله إلا غفر له ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ الآية، وقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ أو يظلم نفسه ﴿[النساء: 110]﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن ثابت البناني قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ الآية. وأخرج الحكيم الترمذي عن عطاء بن خالد قال: بلغني أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ولم

المغفرة من الطاعات. وقوله: ﴿عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: عرضها، كعرض السموات والأرض، ومثله الآية الأخرى ﴿عَرَضُهَا كَعَرَضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: 21] وقد اختلف في معنى ذلك، فذهب الجمهور إلى أنها تقرن السموات، والأرض بعضها إلى بعض، كما تبسط للثياب، ويوصل بعضها ببعض، فذلك عرض الجنة، ونبه بالعرض على الطول؛ لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، وقيل: إن هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة بون الحقيقة، وذلك أنها ما كانت الجنة من الاتساع، والانفساح في غاية قصوى، حسن التعبير عنها بعرض السموات، والأرض مبالغة؛ لأنهما أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده، ولم يقصد بذلك التحديد. والسر: اليسر، والضراء: العسر. وقد تقدّم تفسيرهما، وقيل للسر: الرخاء، والضراء: الشدة، وهو مثل الأول، وقيل: السر: في الحياة، والضراء بعد الموت. قوله: ﴿وَالْكَافِلِينَ الْغَيْظَ﴾ يقال: كظم غيظه أي: سكت عليه، ولم يظهره، ومنه كظمت السقاء أي: ملأته. والكظامة: ما يسد به مجرى الماء، وكظم البعير جرتة: إذا ردّها في جوفه، وهو عطف على الموصول الذي قبله. قوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: التاركين عقوبة من أذنّب إليهم، واستحق المؤاخظة، وذلك من أجل ضروب الخير. وظاهره العفو عن الناس سواء كانوا من المماليك أم لا. وقال الزجاج وغيره: المراد بهم المماليك. واللام في المحسنين يجوز أن تكون للجنس، فيدخل فيه كل محسن من هؤلاء، وغيرهم، ويجوز أن تكون للعهد، فيختص هؤلاء. والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السياق، فيدخل تحته كل من صدر منه مسمى الإحسان، أي: إحسان كان. قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ هذا مبتدأ، وخبره ﴿أُولَئِكَ﴾ وقيل: معطوف على المتقين. والأول أولى، وهؤلاء هم: صنف بون الصنف الأول ملحقين بهم، وهم التوابون، وسيأتي ذكر سبب نزولها، والفاحشة وصف لموصوف محذوف، أي: فعلة فاحشة، وهي تطلق على كل معصية. وقد كثر اختصاصها بالزنا. وقوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: باقتراف ذنب من الذنوب، وقيل: أو بمعنى الواو. والمراد ما ذكر، وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة؛ وقيل غير ذلك. قوله: ﴿نُكِرُوا اللَّهَ﴾ أي: بالنسبتهم، أو أخطروهم في قلوبهم، أو نكروا وعده، ووعيده ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: طلبوا المغفرة لها من الله سبحانه، وتفسيره بالتوبة خلاف معناه لغة، وفي الاستقهام بقوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ من الإنكار مع ما يتضمنه من الدلالة على أنه المختص بذلك سبحانه بون غيره، أي: لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله، وفيه ترغيب لطلب المغفرة منه سبحانه، وتنشيط للمؤمنين أن يقفوا في مواقف الخضوع، والتذلل، وهذه الجملة اعتراضية بين المعطوف، والمعطوف عليه. وقوله: ﴿وَلَمْ يَصْرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ عطف على فاستغفروا، أي: لم يقيموا على قبيح

بأبقي القصة. والمراد بالسنة: ما سنّه الله في الأمم من وقائعها، أي: قد خلت من قبل زمانكم وقائع سنّها الله في الأمم المكذبة، وأصل السنن جمع سنة: وهي الطريقة المستقيمة، ومنه قول الهنلي:

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها فإل راض سنة من يسيرها والسنة: الإمام المتبع المؤتم به، ومنه قول لبيد:

من معشر سنت لهم أبأهم ولكل قوم سنة وإمام

والسنة: الأمة، والسنن: الأمم، قاله المفضل الضبي. وقال الزجاج: المعنى في الآية أهل سنن، فحذف المضاف، والفاء في قوله: ﴿فسيروا﴾ سببية؛ وقيل: شرطية، أي: إن شككتم، فسيروا. والعاقبة: آخر الأمر، والمعنى: سيروا، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، فإنهم خالفوا رسلهم بالحرص على الدنيا، ثم انقضوا، فلم يبق من نبيهم التي أثروها أثر. هذا قول أكثر المفسرين. والمطلوب من هذا السير المأمور به هو: حصول المعرفة بذلك، فإن حصلت بدونه، فقد حصل المقصود، وإن كان لمشاهدة الآثار زيادة غير حاصلة لمن لم يشاهدها، والإشارة بقوله: ﴿هذا﴾ إلى قوله: ﴿قد خلت﴾ وقال الحسن إلى القرآن: ﴿بيان للناس﴾ أي: تبين لهم، وتعريف الناس للعهد، وهم المكذبون، أو للجنس، أي: للمكذبين، وغيرهم. وفيه حث على النظر في سوء عاقبة المكذبين، وما انتهى إليه أمرهم. قوله: ﴿وهدى وموعظة﴾ أي: هذا النظر مع كونه بياناً فيه هدى، وموعظة للمتقين من المؤمنين، فعطف الهدى، والموعظة على البيان يدل على التغاير، ولو باعتبار المتعلق، وبيانه أن اللام في الناس إن كانت للعهد، فالبيان للمكذبين، والهدى، والموعظة للمؤمنين، وإن كانت للجنس، فالبيان لجميع الناس مؤمنهم، وكافرهم، والهدى، والموعظة للمتقين وحدهم. قوله: ﴿ولا تهنؤا ولا تحزنؤا﴾ عزاهم، وسلاهم بما نالهم يوم أحد من القتل، والجراح، وحشهم على قتال عدوهم، ونهاهم عن العجز، والفشل، ثم بين لهم أنهم الأعلون على عدوهم بالنصر والظفر، وهي جملة حالية، أي: والحال أنكم الأعلون عليهم، وعلى غيرهم بعد هذه الواقعة. وقد صلق الله وعده، فإن النبي ﷺ بعد وقعة أحد ظفر بعوده في جميع وقعاته؛ وقيل: المعنى: وأنتم الأعلون عليهم بما أصبتم منهم في يوم بدر، فإنه أكثر مما أصابوا منكم اليوم. وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بقوله: ﴿ولا تهنؤا﴾ وما بعده، أو بقوله: ﴿وانتم الأعلون﴾ أي: إن كنتم مؤمنين، فلا تهنؤا، ولا تحزنؤا، أو إن كنتم مؤمنين، فانتهم الأعلون. والقرح بالضم، والفتح: الجرح، وهما لغتان فيه، قاله الكسائي، والاختفش. وقال الفراء: هو: بالفتح الجرح، وبالضم ألمه. وقرأ محمد بن السميع: ﴿قرح﴾ بفتح القاف، والراء على المصدر. والمعنى في الآية: إن نالوا منكم يوم أحد، فقد نلتهم منهم يوم بدر، فلا تهنؤا لما أصابكم في هذا اليوم، فإنهم لم يهنؤا لما أصابهم في ذلك اليوم، وأنتم أولى بالصبر منهم؛ وقيل: إن المراد بما أصاب المؤمنين والكافرين في هذا اليوم، فإن المسلمين

يصرؤا على ما فعلوا، صاح إبليس بجنوده، وحثا على رأسه التراب، ودعا بالويل، والثبور حتى جاءت جنوده من كل بر، وبحر، فقالوا: مالك يا سيدنا؟ قال: آية نزلت في كتاب الله لا يضرّ بعدها أحداً من بني آدم نذب، قالوا: وما هي؟ فآخبرهم، قالوا نفتح لهم باب الأهواء، فلا يتوبون، ولا يستغفرون، ولا يرون إلا أنهم على الحق، فرضى منهم بذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والحميدي، وعبد بن حميد، وأهل السنن الأربع، وحسنه النسائي، وابن حبان، والدارقطني في الأفراد، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن السنن، والبيهقي في الشعب، والضياء في المختارة عن أبي بكر الصديق سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل ينذب نذبا، ثم يقوم عند نكر ذنبه فيطهر، ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله من ذنبه ذلك إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿والسنيين إذا فعلوا فاحشة﴾ الآية. وأخرج البيهقي في الشعب، عن الحسن مرفوعاً نحوه، ولكنه قال: ثم خرج إلى براز من الأرض فصلى. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿ولم يصرؤا﴾ فيسكتون، ولا يستغفرون. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل: ﴿ونعم لجر العاملين﴾ قال: أجر العاملين بطاعة الله الجنة.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣١﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٢﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ يَسْكُمْ فَجٌّ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ كَرْحٌ مِّمَّنَّهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٤﴾ وَلِيَجْمَعَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ الْكُفْرَيْنَ ﴿١٣٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْوَيْلَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا كَانَ لَيْسَ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنَّا مُؤَيَّدِينَ وَمَنْ يَرِدِ ثَوَابِ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرِدِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٣٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَجْدٍ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونِ كَثِيرٌ مِمَّا وَضَعُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يَحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٠﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ فَكَانَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٢﴾

قوله: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ هذا رجوع إلى وصف

انس بن النضر عم أنس بن مالك. وقوله: ﴿من قبل أن تلقوه﴾ أي: القتال، أو الشهادة التي هي سبب الموت. وقرأ الأعمش: «من قبل أن تلاقوه» وقد ورد النهي عن تمني الموت، فلا بد من حمله هنا على الشهادة. قال القرطبي: وتمني الموت من المسلمين يرجع إلى تمني الشهادة المبينة على الثبات، والصبر على الجهاد لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر، ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة، فيسألون الصبر على الجهاد، وإن أدى إلى القتل. قوله: ﴿فقد رايتموه﴾ أي: القتال، أو ما هو سبب للموت، ومحل قوله: ﴿وانتم تنظرون﴾ انصب على الحال، وقيد الرؤية بالنظر مع اتحاد معانها للمبالغة، أي: قد رايتموه معنيين له حين قتل من قتل منكم. قال الأخفش: إن التكرير بمعنى التأكيد مثل قوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38] وقيل معناه: بصراء ليس في أعينكم علل، وقيل معناه: وانتم تنظرون إلى محمد ﷺ. وقوله: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾. سبب نزول هذه ما سيأتي من أن النبي ﷺ لما أصيب في يوم أحد صاح الشيطان قائلاً: قد قتل محمد، ففشل بعض المسلمين حتى قال قائل: قد أصيب محمد، فاعطوا بأيديكم، فإنما هم إخوانكم، وقال آخر: لو كان رسولاً ما قتل، فردّ الله عليهم ذلك، وأخبرهم بأنه رسول قد خلت من قبله الرسل، وسيخلو، كما خلوا، فجملة قوله: ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول. والقصر قصر أفراد، كأنهم استنبعوا ملاكاً، فأنبتوا له صفتين: الرسالة، وكونه لا يهلك، فردّ الله عليهم ذلك بأنه رسول لا يتجاوز ذلك إلى صفة عدم الهلاك، وقيل: هو: قصر قلب. وقرأ ابن عباس: «قد خلت من قبل رسل»، ثم أنكر الله عليهم بقوله: ﴿فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ أي: كيف ترتدون، وتتركون دينه إذا مات، أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو، ويتمسك اتباعهم بدينهم، وإن فقدوا يموت، أو قتل، وقيل الإنكار لجعلهم خلّو الرسل قبله سبباً لانقلابهم بموته، أو قتله، وإنما ذكر القتل مع علمه سبحانه أنه لا يقتل لكونه مجزاً عند المخاطبين. قوله: ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ أي: بإبباره عن القتال، أو بارتداده عن الإسلام ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ من الضرر، وإنما يضر نفسه ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ أي: الذين صبروا، وقتلوا، واستشهدوا؛ لأنهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام، ومن امتثل ما أمر به، فقد شكر النعمة التي أنعم الله بها عليه. قوله: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن الحثّ على الجهاد، والاعلام بأن الموت لا بدّ منه. ومعنى: ﴿بإذن الله﴾ بقضاء الله، وقدره، وقيل: إن هذه الجملة متضمنة للإنكار على من فشل بسبب ذلك الإرجاف بقتله ﷺ، فبين لهم أن الموت بالقتل، أو بغيره منوط بإذن الله، وإسناده إلى النفس مع كونها غير محتارة له للإيدان بأنه لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الله. وقوله: ﴿كتاباً﴾

انتصروا عليهم في الابتداء، فأصابوا منهم جماعة، ثم انتصر الكفار عليهم، فأصابوا منهم. والأول أولى؛ لأن ما أصابه المسلمون من الكفار في هذا اليوم لم يكن مثل ما أصابوه منهم فيه. وقوله: ﴿وتلك الأيام﴾ أي: الكائنة بين الأمم في حروبها، والآتية فيما بعد كالأيام الكائنة في زمن النبوة؛ تارة تغلب هذه الطائفة، وتارة تغلب الأخرى، كما وقع لكم أيها المسلمون في يوم بدر، وأحد، وهو معنى قوله: ﴿نداولها بين الناس﴾ فقوله: ﴿تلك﴾ مبتدأ، والأيام صفة، والخبر نداولها، وأصل المداولة: المعاورة، داولته بينهم: عاورته. والنولة: الكرة، ويجوز أن تكون الأيام خبراً، ونداولها حالاً، والأول أولى. وقوله: ﴿وليعلم الله﴾ معطوف على علة مقترنة كانه قال: نداولها بين الناس ليظهر أمركم وليعلم، أو يكون العلل محذوفاً، أي: ليعلم الله الذين اتقوا، فعلنا ذلك، وهو من باب التمثيل، أي: فعلنا فعل من يريد أن يعلم لأنه سبحانه لم يزل عالماً، أو ليعلم الله الذين آمنوا بصيرهم علماً يقع عليه الجزاء، كما علمه علماً أزلياً ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ أي: يكرمهم بالشهادة. والشهداء جمع شهيد، سمي بذلك لكونه مشهوداً له بالجنة، أو جمع شاهد لكونه كالشاهد للجنة، ومن للتبعيض، وهم شهداء أحد. وقوله: ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ جملة معترضة بين المعطوف، والمعطوف عليه لتقرير مضمون ما قبله. وقوله: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ من جملة العلل معطوف على ما قبله، والتحصيل: الاختبار، وقيل: التطهير على حذف مضاف، أي: ليمحص ذنوب الذين آمنوا، قاله الفراء، وقيل: يمحص يخلص، قاله الخليل، والزجاج، أي: ليخلص المؤمنين من ذنوبهم. وقوله: ﴿ويمحق للكافرين﴾ أي: يستأصلهم بالهلاك، وأصل التحقيق محو الآثار، والمحق نقصها. قوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ كلام مستأنف لبيان ما ذكر من التمييز، وأم هي المنقطعة، والهمزة للإنكار، أي: بل أحسبتم، والواو في قوله: ﴿ولما يعلم الله﴾ واو الحال. والجملة حالية، وفيه تمثيل كالأول، أو علم يقع عليه الجزاء. وقوله: ﴿وليعلم الصابرين﴾ منصوب بإضمار أن، كما قال الخليل، وغيره على أن الواو للجمع. وقال الزجاج: الواو بمعنى حتى، وقرأ الحسن، ويحيى بن يعمر: «ويعلم الصابرين» بالجزم عطفاً على ﴿ولما يعلم﴾ وقرئ بالرفع على القطع، وقيل: إن قوله: ﴿ولما يعلم﴾ كناية عن نفي المعلوم، وهو: الجهاد. والمعنى: لم حسبتم أن تدخلوا الجنة، والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد، والصبر، أي: الجمع بينهما، ومعنى ﴿لما﴾ معنى: «لم» عند الجمهور، وقرئ سبويهما بينهما، فجعل لم لنفي الماضي، ولما لنفي الماضي، والمتوقع. قوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ هو خطاب لمن كان يتمنى القتال، والشهادة في سبيل الله ممن لم يحضر يوم بدر، فإنهم كانوا يتمنون يوماً يكون فيه قتال، فلما كان يوم أحد انهزموا مع أنهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ بالخروج، ولم يصبر منهم إلا نفر يسير مثل

عطف على قاتل، أو قتل. والوهن: انكسار الجِدِّ بالخوف. وقرأ الحسن: «وهنا» بكسر الهاء، وضمها. قال أبو زيد: لغتان وهن الشيء «يهن» وهنا: ضعف، أي: ما وهنا لقتل نبيهم، أو لقتل من قتل منهم. «وما ضعفوا» أي: عن عدوهم «وما استكانوا» لما أصابهم في الجهاد. والاستكانة: الثلّة، والخضوع، وقرئ: «وما وهنا وما ضعفوا» بإسكان الهاء، والعين. وحكى الكسائي ضعفوا بفتح العين، وفي هذا توبيخ لمن انهزم يوم أحد، ونلّ، واستكان، وضعف بسبب ذلك الإرجاف الواقع من الشيطان، ولم يصنع، كما صنع أصحاب من خلا من قبلهم من الرسل. قوله: «وما كان قولهم: أي: قول أولئك الذين كانوا مع الأنبياء إلا هذا القول، وقولهم منصوب على أنه خبر كان. وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية عنهما برفع قولهم. وقوله: «إلا أن قالوا» استثناء مفرغ أي: ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون، أو قتل نبيهم: «إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا» قيل: هي الصفات. وقوله: «وإسرافنا في أمرنا» قيل: هي الكِبائر، والظاهر أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنباً من صغيرة، أو كبيرة، والإسراف ما فيه مجاوزة للحدّ، فهو من عطف الخاص على العام، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين مضمناً لأنفسهم «وثبتت أقدامنا» في مواطن القتال: «فأتاهم الله» بسبب ذلك «ثواب الدنيا» من النصر، والغنيمة، والعزة، ونحوها «وحسن ثواب الآخرة» من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن، وهو نعيم الجنة، جعلنا الله من أهلها.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: «قد خلت من قبلكم سنن» قال: تداول من الكفار، والمؤمنين في الخير، والشر. وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب المصاحف عن سعيد بن جبير قال: أوّل ما نزل من آل عمران، «هذا بيان للناس» ثم أنزل بقيتها يوم أحد. وأخرج ابن جرير، عن الحسن في قوله: «هذا بيان» يعني: القرآن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه، وأخرج ابن جرير، عن طريق العوفي، عن ابن عباس قال: أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا يعلون علينا» فأنزل الله: «ولا تهنوا ولا تحزنوا» الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج قال: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشعب يوم أحد، فسألوا ما فعل النبي ﷺ، وما فعل فلان، فنعى بعضهم لبعض، وتحسّوا أن النبي ﷺ قد قتل، فكانوا في همّ، وحزن، فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين، فوقهم على الجبل، وكانوا على أحد مجنبتَي المشركين، وهم أسفل من الشعب، فلما رأوا النبي ﷺ فرحوا، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا قوّة لنا إلا بك، وليس أحد يعبك بهذا البلد غير هؤلاء النفر، فلا تهلكهم» وثاب نفر من المشركين رماة فصعدوا، فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله، وعلا المسلمون

مصدر مؤكد لما قبله؛ لأن معناه كتب الله الموت كتاباً. والمؤجل: المؤقت الذي لا يتقدّم على أجله، ولا يتأخر. قوله: «ومن يرد» أي: بعمله «ثواب الدنيا» كالغنيمة، ونحوها، واللفظ يعمّ كل ما يسمى ثواب الدنيا، وإن كان السبب خاصاً «هنوته منها» أي: من ثوابها على حذف المضاف «ومن يرد» بعمله «ثواب الآخرة» وهو الجنة نؤته من ثوابها، ونضاعف له الحسنات أضعافاً كثيرة «وسنجزي الشاكرين» بامثال ما أمرناهم به كالقتال، ونهيناهم عنه كالفرار، وقبول الإرجاف. وقوله: «وكالين» قال الخليل، وسيبويه: هي، أي: دخلت عليها كاف التشبيه، وثبتت معها، فصارت بعد التركيب بمعنى كم، وصوّرت في المصحف نوّناً، لأنها كلمة نقلت عن أصلها، فغير لفظها لتغيير معناها، ثم كثر استعمالها، فتصرّفت فيها العرب بالقلب، والحنف، فصار فيها أربع لغات قرئ بها: أحدها كائن مثل كاعن، وبها قرأ ابن كثير، ومثله قول الشاعر:

وكائن بالأباطح من صديق تراه لو أصبت هو المصاحب
وقال آخر:

وكائن ربنا عنكم من ملجج بحيّ أمام الركب يردى مقنعا
وقال زهير:

وكائن ترى من معجب لك شخصه زيانته أو نقصه في التكلم
وكأين بالتشديد مثل كعين، وبه قرأ الباقون، وهو الأصل. والثالثة كآين مثل كعين مخففاً. والرابعة كيئن بياء بعدها همزة مكسورة، ووقف أبو عمرو بغير نون، فقال كأي: لأنه تنوين، ووقف الباقون بالنون. والمعنى كثير من الأنبياء قتل معه ربيون قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب قتل على البناء للمجهول، وهي قراءة ابن عباس، واختارها أبو حاتم، وفيه وجهان: أحدهما أن يكون في «قتل» ضمير يعود إلى النبي، وحينئذ يكون قوله: «معه ربيون» جملة حالية، كما يقال: قتل الأمير معه جيش، أي: ومعه جيش، والوجه الثاني أن يكون القتل، واقعاً على ربيون، فلا يكون في قتل ضمير، والمعنى: قتل بعض أصحابه، وهم الربيون. وقرأ الكوفيون، وابن عامر: «قاتل» وهي قراءة ابن مسعود، واختارها أبو عبيد، وقال: إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخل فيه، وإذا حمد من قتل لم يخل فيه من قاتل، ولم يقتل، فقاتل أعم، وأمدح، ويرجح هذه القراءة الأخرى. والوجه الثاني من القراءة الأولى قول الحسن: ما قتل نبي في حرب قط، وكذا قال سعيد بن جبير، والربيون بكسر الراء قراءة الجمهور، وقرأ عليّ بضمها، وابن عباس بفتحها، وواحد ربي بالفتح منسوب إلى الرب، والربى بضم الراء، وكسرهما منسوب إلى الرية بكسر الراء، وضمها، وهي الجماعة، ولهذا، فسرهم جماعة من السلف بالجماعات الكثيرة، وقيل: هم الاتباع؛ وقيل: هم العلماء. قال الخليل: الربى الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء، وهم الربانيون نسبوا إلى التاله، والعبادة، ومعرفة الربوبية. وقال الزجاج: الربيون بالضم الجماعات. قوله: «فما وهنوا»

قوله: ﴿رَبِّيُونَ﴾ قال: الوف. وأخرج سعيد بن منصور عن الضحاك قال: الربة الواحدة الف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿رَبِّيُونَ﴾ قال: جموع. وأخرج ابن جرير عنه قال: علماء كثير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ قال: تخشعوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَأَسْرَفْنَا فِي أُمُورِنَا﴾ قال: خطايانا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن طُوعُوا الدِّينَ كَفَرُوا بِرُؤُوسِهِمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنَقَّلُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٤﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٤٥﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرْعَبَ يَمًّا أَتَرْكُوا يَا أَيُّهَا مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّكَارُ وَبَقِيَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ إِذْ يُحْشِرُهُمْ بِأَذْيَدٍ حَتَّى إِذَا قِيلَ لَهُ وَكَذَّبْنَاهُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْنَاهُمْ مِنْ بَيْنِ مَا آتَيْنَاهُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَكْنَاهُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٧﴾ إِذْ تُصَوِّرُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالْمُؤْمِنُونَ يَدْعُونَ فِي أَخْرَجْتُمْ فَأَتَيْنَاهُمْ عَمَّا يَسَّرَ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٨﴾

لما أمر الله سبحانه بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر عن طاعة الكفار، وهم مشركو العرب؛ وقيل اليهود والنصارى؛ وقيل المنافقون في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى دين آبائكم. وقوله: ﴿يُرِيدُكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أي يخرجوكم من دين الإسلام إلى الكفر ﴿فَتَنَقَّلُوا خَاسِرِينَ﴾ أي ترجعوا مغبونين. وقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ إضراب عن مفهوم الجملة الأولى: أي إن تطيعوا الكافرين يخذلوكم ولا ينصروكم بل الله ناصركم لا غيره؛ وقريه: «بل الله» بالنصب على تقدير بل أطيعوا الله. قوله: ﴿سَنُلْقِي﴾ قرأ السخستانيان بالياء التحتية، وقرأ الباقر بالنون. وقرأ ابن عامر، والكسائي: ﴿الرَّعِبَ﴾ بضم العين. وقرأ الباقر بالسكون، وهما لغتان، يقال: رعبته رعباً، ورعباً، فهو مرعوب، ويجوز أن يكون مصدراً، والرعب بالضم: الاسم، وأصله الملع، يقال: سيل راعب، أي: يملأ الوادي، ورعبت الحوض: ملأته، فالمعنى: سنملأ قلوب الكافرين رعباً، أي: خوفاً، وفزعاً، والإلقاء يستعمل حقيقة في الأجسام، ومجازاً في غيرها، كهذه الآية، وذلك أن المشركين بعد وقعة أحد ندموا أن لا يكونوا استأصلوا المسلمين، وقالوا: بشما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم ارجعوا، فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب حتى رجعوا، عما هموا به: ﴿بِمَا شَرَكُوا بِاللَّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿سَنُلْقِي﴾ وما مصدرية، أي: بسبب إشراكهم ﴿وَمَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: ما لم ينزل الله بجعله شريكاً له حجة، وبيانه، وبرهانه، والنفي يتوجه إلى القيد، والمقيد، أي: لا حجة، ولا إنزال، والمعنى: أن الإشراك

الجبل، فذلك قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ قال: وأنتم الغالبون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ قال: جراح، وقتل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ قال: إن يقتل منكم يوم أحد، فقد قتل منهم يوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّكَ الْأَيَّامُ تَدُولُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ قال: كان يوم أحد بيوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن طريق ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّكَ الْأَيَّامُ﴾ الآية، قال: أدال المشركين على النبي ﷺ يوم أحد، وبلغني أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد بضعة وسبعين عدد الأسارى الذين أسروا يوم بدر من المشركين، وكان عدد الأسارى يوم بدر ثلاثة وسبعين رجلاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ قال: إن المسلمين كانوا يسألون ربهم: اللهم ربنا أرنا يوماً، كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبليك فيه خيراً، ونلتمس فيه الشهادة، فلقوا المشركين يوم أحد، فاتخذ منهم شهداء، وأخرجنا عنه في قوله: ﴿وَيُلِيْمُحْصِ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: يبتليهم ﴿وَيُلِيْمُحْصِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: ينقصهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن طريق العوفي عنه أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون: ليتنا نقتل، كما قتل أصحاب بدر، ونستشهد، أو ليت لنا يوماً كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، ونبلي فيه خيراً، ونلتمس الشهادة، والجنة، والحياة، والرزق، فاشهدهم الله أحداً، فلم يثبتوا إلا من شاء الله منهم. فقال الله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْوَيْتَ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن كليب قال: خطبنا عمر بن الخطاب فكان يقرأ على المنبر آل عمران ويقول إنها أحذية، ثم قال: تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، فصعدت الجبل فسمعت يهودياً يقول: قتل محمد، فقلت: لا أسمع أحداً يقول قتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون إليه، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: نادى مناد يوم أحد ألا إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول، فأنزل الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. وأخرج أيضاً عن مجاهد نحوه. وأخرج أيضاً عن علي في قوله: ﴿وَيُؤَسِّجُزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال: الثابتين على دينهم أباً بكر وأصحابه، فكان علي يقول: كان أبو بكر أمير الشاكرين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم عنه أنه كان يقول في حياة رسول الله ﷺ: إن الله يقول: ﴿أَقْرَبُ مَا مَاتَ أَوْ قَتَلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ والله لا نقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قتل عليه حتى أموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في

إلا أيها ذا السائلين أين أصعدت فإن لها من بطن يثرب موعداً
وقال الفراء: الإصعاد: الابتداء في السفر، والانحدار:
الرجوع منه، يقال: أصعدنا من بغداد إلى مكة، وإلى
خراسان، وأشبهاء ذلك: إذا خرجنا إليها، وأخذنا في السفر،
وانحدرونا: إذا رجعنا. وقال المفضل: صعد، وأصعد بمعنى
واحد. ومعنى: ﴿تَلَوْن﴾ تعرجون، وتقيمون، أي: لا يلتفت
بعضكم إلى بعض حرباً، فإن المعرج إلى الشيء يلوي إليه
عنقه أو عنق دابته: ﴿عَلَى لَحْدٍ﴾ أي: على أحد ممن معكم،
وقيل: على رسول الله ﷺ. وقرأ الحسن: ﴿تَلَوْن﴾ بواو
واحدة، وقرأ عاصم في رواية عنه بضم التاء، وهي لغة.
قوله: ﴿وَالرَّسُولَ يَدْعُوكُمْ فِي لَحْرَاكُمْ﴾ أي: في الطائفة
المتأخرة منكم، يقال جاء فلان في آخر الناس، وآخره الناس،
وأخرى الناس، وأخريات الناس. وكان دعاء النبي ﷺ: ﴿أي
عبد الله ارجعوا﴾. قوله: ﴿فَاتَابِكُمْ﴾ عطف على صرفكم، أي:
فجازاكم الله غمّاً حين صرفكم عنه بسبب غمّ أنقتموه
رسول الله ﷺ بعصيانكم، أو غمّاً موصولاً بغمّ بسبب ذلك
الإرجاف، والجرح، والقتل، وظفر المشركين، والغمّ في
الأصل: التغطية، غميت الشيء: غطيته، ويوم غمّ، وليلة غمة:
إذا كانا مظلّمين، ومنه غمّ الهلال، وقيل: الغمّ الأول: الهزيمة،
والثاني: إشراف أبي هريرة، وخلد بن الوليد عليهم في
الجبل. قوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ اللام متعلقة بقوله:
﴿فَاتَابِكُمْ﴾ أي: هذا الغمّ بعد الغمّ لكيلا تحزنوا على ما فات
من الغنمة، ولا ما أصابكم من الهزيمة، تمريناً لكم على
المصائب، وتدريباً لاحتمال الشدائد. وقال المفضل: معنى:
﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ لكي تحزنوا، ولا زائدة كقوله تعالى: ﴿ما
منعك أن لا تسجد﴾ [الأعراف: 12] أي: أن تسجد، وقوله:
﴿لَعَلَّآ يَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: 29] أي: ليعلم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن
ابن جريج في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ﴾ قال: لا تنتصحو اليهود، والنصارى على دينكم، ولا
تصنعوهم بشيء في دينكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن
السديّ يقول: إن تطيعوا أبا سفيان بن حرب يرئكم كفاراً.
وأخرج ابن جرير، عنه في قوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ
كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ نحو ما قدّمناه في سبب نزول الآية. وأخرج
البیهقي في الدلائل عن عروة في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ
وَعْدَهُ﴾ قال: كان الله وعدهم على الصبر، والتقوى أن يمدّم
بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين، وكان قد فعل، فلما
عصوا أمر رسول الله ﷺ، وتركوا مصافهم، وترك الرماة
عهد الرسول إليهم أن لا يبرحوا منازلهم، وأرأوا الدنيا رفع
عنهم مند الملائكة. وقصة أحد مستوفاة في السير،
والتواريخ، فلا حاجة إلى إطالة الشرح هنا. وأخرج ابن
جرير، وابن المنذر، عن عبد الرحمن بن عوف في قوله: ﴿إِذْ
تَحْسَبُونَهُمْ﴾ قال: الحسن: القتل. وأخرج عبد بن حميد، عن
ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه. قال:
الغسل: الجبن. وأخرج ابن المنذر عن البراء بن عازب في

بالله لم يثبت في شيء من الملل. والمثوى: المكان الذي يقام
فيه، يقال ثوي يثوي ثواء. قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾
نزلت لما قال بعض المسلمين من أين أصابنا هذا، وقد
وعدنا الله النصر، وذلك أنه كان الظفر لهم في الابتداء، حتى
قتلوا صاحب لواء المشركين، وتسعة نفر بعده؛ فلما اشتغلوا
بالغنمة، وترك الرماة مركزهم طلباً للغنمة كان ذلك سبب
الهزيمة. والحسن: الاستئصال بالقتل، قاله أبو عبيد. يقال
جراد محسوس: إذا قتله البرد، وسنة حسوس، أي: جبهة
تاكل كل شيء. قيل: وأصله من الحسن الذي هو الإبرك
بالحاسة، فمعنى حسه: أذهب حسه بالقتل، وتحسونهم:
تقتلونهم، وتستاصلونهم، قال الشاعر:
حسناهم بالسيف حسا فاصبحت بقيتهم قد شربوا وتبنوا
وقال جرير:

تحسهم السيوف كما تسامى حريق النار في الأجم الحصيد
﴿بِأَنَّهُ﴾ أي: بعلمه، أو بقضائه ﴿حَتَّى إِذَا قُشِلْتُمْ﴾ أي:
جبنتم وضعفتم، قيل: جواب حتى محذوف تقديره امتحنتم
وقال الفراء: جواب حتى قوله: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ﴾ والواو مقحمة
زائدة، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفاء: 103]
وقال أبو علي: يجوز أن يكون الجواب صرفكم عنهم، وقيل:
فيه تقييد وتأخير، أي: حتى إذا تنازعتم، وعصيتهم، فشلتهم،
وقيل: إن الجواب عصيتهم، والواو مقحمة. وقد جَوَّزَ الأخفش
مثله في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا
رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ﴾ [التوبة: 118]، وقيل: حتى بمعنى
إلى، وحينئذ لا جواب لها، والتنازع المنكور هو ما وقع من
الرماة حين قال بعضهم: نلحق الغنائم، وقال بعضهم: نثبت
في مكاننا، كما أمرنا رسول الله ﷺ. ومعنى قوله: ﴿مَنْ
بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ ما وقع لهم من النصر في
الابتداء في يوم أحد، كما تقدّم: ﴿مَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ النِّبَا﴾
يعني: الغنمة ﴿وَمَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: الأجر بالبقاء
في مراكزهم امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ ﴿لَمْ صَرْفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: رنكم الله عنهم بالانهزام بعد أن
استوليتهم عليهم ليمتحنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ لما علم من
ندمكم، فلم يستأصلكم بعد المعصية، والمخالفة، والخطاب
لجميع المنهزمين، وقيل: للرماة فقط. قوله: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ أو
متعلق بقوله: ﴿صَرْفَكُمْ﴾ أو بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أو
بقوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وقرأ الجمهور بضمّ التاء، وكسر العين،
وقرأ أبو رجاء العطاردي، وأبو عبد الرحمن السلمي،
والحسن، وقتادة بفتح للتاء، والعين. وقرأ ابن محيصة،
وقنبل: ﴿تَصْعَدُونَ﴾ بالتحية. قال أبو حاتم: أصعدت إذا
مضيت حيال وجهك، وصعدت إذا ارتقيت في جبل،
فالإصعاد: السير في مستوى الأرض، ويطون الأودية،
والصعود: الارتفاع على الجبال، والسطوح، والسلام،
والدرج، فيحتمل أن يكون صعودهم في الجبل بعد إصعادهم
في الوادي، فيصح المعنى على القراءتين. وقال القتيبي:
أصعد: إذا أبعد في الذهاب، وأمعن فيه، ومنه قول الشاعر:

قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا أُرَاكُم مَّا تَحِبُّونَ﴾ قال: الغنائم، وهزيمة القوم. وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ قال: يقول الله: قد عفوت عنكم أن لا أكون استأصلتكم. وأخرج أيضاً عن ابن جريج نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ قال: أضعوا في أحد فراراً، والرسول يدعوهم في أحرهم: ﴿إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ أَرْجِعُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ أَرْجِعُوا﴾. وأخرج ابن مريويه عن عبد الرحمن بن عوف: ﴿فَاتَّبَاحُكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ قال: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني: حين قيل: قتل محمد، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ قال: فرقة بعد الفرقة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمداً قد قتل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: الغم الأول: الجراح، والقتل، والغم الآخر: حين سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله.

ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكَ مِن بَدُوِّ الْمَنَافِقِينَ مَنَاسِكُ بَدُوِّكُمْ وَطَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ مَكَّةَ بَعْضُهُمْ يَتَّبِعُكَ وَالْآخَرُ عَلَىٰ الْكَيْدِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي يَدَيْكُمْ لَكُنْتُ أَلَدَّ كُنْتُ عَلَيْهِمْ أَقْتَلُ إِلَّا مَنَاجِيَهُمْ وَلَيَبْتَغِينَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَصِّنَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْمَعْنَانِ إِنَّمَا أَتَرَاهُمْ أَسْطِيقُونَ بِبَعْضٍ مَّا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: أمهتكم أي: أضعوا في أحد فراراً، والرسول يدعوهم في أحرهم: ﴿إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ أَرْجِعُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ أَرْجِعُوا﴾. وأخرج ابن مريويه عن عبد الرحمن بن عوف: ﴿فَاتَّبَاحُكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ قال: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني: حين قيل: قتل محمد، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ قال: فرقة بعد الفرقة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمداً قد قتل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: الغم الأول: الجراح، والقتل، والغم الآخر: حين سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله.

ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكَ مِن بَدُوِّ الْمَنَافِقِينَ مَنَاسِكُ بَدُوِّكُمْ وَطَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ مَكَّةَ بَعْضُهُمْ يَتَّبِعُكَ وَالْآخَرُ عَلَىٰ الْكَيْدِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي يَدَيْكُمْ لَكُنْتُ أَلَدَّ كُنْتُ عَلَيْهِمْ أَقْتَلُ إِلَّا مَنَاجِيَهُمْ وَلَيَبْتَغِينَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَصِّنَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْمَعْنَانِ إِنَّمَا أَتَرَاهُمْ أَسْطِيقُونَ بِبَعْضٍ مَّا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾

الامنة، والأمن سواء، وقيل: الامنة إنما تكون مع أسباب الخوف، والأمن مع عدمه، وهي منصوبة بأنزل. ونعاساً بدل منها، أو عطف بيان، أو مفعول له، وأما ما قيل: من أن أمانة حال من نعاساً مقدمة عليه، أو حال من المخاطبيين، أو مفعول له، فبعيد. وقرا ابن محيصن: «أمنه» بسكون الميم. قوله: ﴿يَغْشَىٰ﴾ قرئ بالتحية على أن الضمير للنعاس، وبالفوقية على أن الضمير لآمنة، والطائفة: تطلق على الواحد، والجماعة، والطائفة الأولى: هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلباً للأجر، والطائفة الأخرى هم: معتب بن قشير، وأصحابه، وكانوا خرجوا طمعاً في الغنيمة، وجعلوا يناشون على الحضور، ويقولون الأقاويل. ومعنى: ﴿أَهْمَتَهُمْ﴾ أنفسهم. حملتهم على الهمة، أهمني الأمر: ألتفتني، والواو في قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ للحال، وجاز الابتداء بالكرة لاعتمادها على واو الحال، وقيل: إن معنى ﴿أَهْمَتَهُمْ﴾ أنفسهم. صارت مهمهم لا هم لهم غيرها. ﴿يُظَنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال، أي: يظنون بالله غير الحق الذي يجب أن يظن به، وظن الجاهلية بدل منه. وهو: الظن المختص بملة الجاهلية، أو ظن أهل الجاهلية، وهو ظنهم أن أمر النبي ﷺ باطل، وأنه لا ينصر، ولا يتم ما دعا إليه من دين الحق. وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل من «يظنون»، أي:

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: أمهتكم أي: أضعوا في أحد فراراً، والرسول يدعوهم في أحرهم: ﴿إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ أَرْجِعُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ أَرْجِعُوا﴾. وأخرج ابن مريويه عن عبد الرحمن بن عوف: ﴿فَاتَّبَاحُكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ قال: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني: حين قيل: قتل محمد، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ قال: فرقة بعد الفرقة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمداً قد قتل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: الغم الأول: الجراح، والقتل، والغم الآخر: حين سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: أمهتكم أي: أضعوا في أحد فراراً، والرسول يدعوهم في أحرهم: ﴿إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ أَرْجِعُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ أَرْجِعُوا﴾. وأخرج ابن مريويه عن عبد الرحمن بن عوف: ﴿فَاتَّبَاحُكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ قال: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني: حين قيل: قتل محمد، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ قال: فرقة بعد الفرقة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمداً قد قتل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: الغم الأول: الجراح، والقتل، والغم الآخر: حين سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله.

الغلول، واجتنباه، ومن بآء بسخط من الله بسبب إقدامه على الغلول. ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت، فقال: ﴿هم درجات عند الله﴾ أي: متفاوتون في الدرجات، والمعنى: هم نورو درجات، أو لهم درجات، فدرجات من اتبع رضوان الله ليست كدرجات من بآء بسخط من الله، فإن الأولين في أرفع الدرجات. والآخرين في أسفلها. قوله: ﴿هلقد من الله على المؤمنين﴾ جواب قسم محذوف، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته. ومعنى: ﴿من أنفسهم﴾ أنه عربي مثلهم، وقيل: بشر مثلهم، ووجه المنة على الأول: أنهم يفقهون عنه، ويفهمون كلامه، ولا يحتاجون إلى ترجمان ومعناها على الثاني: أنهم يأنسون به بجامع البشرية، ولو كان ملكاً لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنسية، وقرئ: ﴿من أنفسهم﴾ بفتح الفاء، أي: من أشرفهم، لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل قریش، وقریش أفضل العرب، والعرب أفضل من غيرهم، ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له، وأقرب إلى تصديقه، ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني، فلا حاجة إلى هذا التخصيص، وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لا حاجة إلى التخصيص، لأن بني هاشم هم أنفس العرب، والعجم في شرف الأصل، وكرم النجار، ورفاعة المحدث. ويدل على الوجه الأول قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾ [الجمعة: 2] وقوله: ﴿وإنه لنكر لك ولقومك﴾ [الزخرف: 44]. قوله: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ هذه مئة ثانية، أي: يتلو عليهم القرآن بعد أن كانوا أهل جاهلية لا يعرفون شيئا من الشرائع ﴿ويذكهم﴾ أي: يطهر من نجاسة الكفر، وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى، وهما في محل نصب على الحال، أو صفة لرسول، وهكذا قوله: ﴿ويعلمهم الكتاب﴾، والمراد بالكتاب هنا: القرآن، والحكمة، السنة. وقد تقدم في البقرة تفسير ذلك: ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي: من قبل محمد، أو من قبل بعثته: ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي: واضح لا ريب فيه، واللام للفرق بين إن المخففة من الثقيلة، وبين النافية، فهي تدخل في خبر المخففة لا النافية، واسمها ضمير الشأن، أي: وإن الشأن، والحديث، وقيل: إنها النافية، واللام بمعنى إلا، أي: وما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين، وبه قال الكوفيون، والجملة على التقديرين في محل نصب على الحال.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض﴾ الآية، قال: هذا قول عبد الله بن أبي بن سلول، والمنافقين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿ليجعل الله تلك حسرة في قلوبهم﴾ قال: يحزنهم قولهم، ولا ينفعهم شيئا. وأخرجوا عن قتادة في قوله: ﴿فبما رحمة من

العلم والدين. قوله: ﴿فإذا عزم فتوكل على الله﴾ أي: إذا عزم عتب المشاورة على شيء، وأطمانت به نفسك، فتوكل على الله في فعل ذلك، أي: اعتمد عليه، وفوض إليه؛ وقيل: إن المعنى: فإذا عزم على أمر أن تمضي فيه، فتوكل على الله لا على المشاورة. والعزم في الأصل: قصد الإمضاء، أي: فإذا قصدت إمضاء أمر، فتوكل على الله. وقرأ جعفر الصادق، وجابر بن زيد: ﴿فإذا عزم﴾ بضم التاء بنسبة العزم إلى الله تعالى، أي: فإذا عزم لك على شيء، وأرشدك إليه، فتوكل على الله. وقوله: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ جملة مستأنفة لتأكيد التوكل، والحث عليه. والخذلان: ترك العون، أي: وإن يترك الله عونكم: ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ وهذا الاستفهام إنكاري. والضمير في قوله: ﴿من بعده﴾ راجع إلى الخذلان للملول عليه بقوله: ﴿وإن يخذلكم﴾ أو إلى الله، ومن علم أنه لا ناصر له إلا الله سبحانه، وأن من نصره الله لا غالب له، ومن خذله لا ناصر له، فوض أموره إليه، وتوكل عليه، ولم يشتغل بغيره، وتقديم الجار والمجرور على الفعل في قوله: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ لإفادة قصره عليه. قوله: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ أي: ما صح له ذلك لتناهي الغلول، والنبوة. قال أبو عبيد: الغلول من المغنم خاصة، ولا نراه من الخيانة، ولا من الحقد، ومما يبين ذلك أنه يقال: من الخيانة أغل يغفل، ومن الحقد غل يغفل بالكسر، ومن الغلول غل يغفل بالضم، يقال غل المغنم غلولا، أي: خان بأن يأخذ لنفسه شيئا يستره على أصحابه، فمعنى الآية على القراءة بالبناء للمفاعل: ما صح لنبي أن يخون شيئا من المغنم، فيأخذ لنفسه من غير اطلاع أصحابه. وفيه تنزيه الأنبياء عن الغلول. ومعناها على القراءة بالبناء للمفعول: ما صح لنبي أن يغله أحد من أصحابه أي: يخونه في الغنمية، وهو على هذه القراءة الأخرى نهى للناس عن الغلول في المغنم، وإنما خص خيانة الأنبياء مع كون خيانة غيرهم من الأئمة، والسلاطين، والأمراء حراما، لأن خيانة الأنبياء أشد نبأ، وأعظم وزرا ﴿ومن يغفل يات بما غل يوم القيامة﴾ أي: يات به حاملا له على ظهره، كما صح ذلك عن النبي ﷺ، فيفضحه بين الخلاق، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول، والتنفير منه بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد يطلع عليها أهل المحشر وهي: مجيئه يوم القيامة بما غله حاملا له قبل أن يحاسب عليه، ويعاقب عليه. قوله: ﴿ثم توفي كل نفس ما كسبت﴾ أي: تعطى جزاء ما كسبت وأقيا من خير وشر، وهذه الآية تعم كل من كسب خيرا، أو شرا، ويدخل تحتها الغال دخولا أوليا لكون السياق فيه. قوله: ﴿فمن اتبع رضوان الله كمن بآء بسخط من الله﴾ الاستفهام للإنكار، أي: ليس من اتبع رضوان الله في أوامره، ونواهيه، فعمل بأمره، واجتنب نهيه كمن بآء أي: رجع بسخط عظيم كائن من الله بسبب مخالفته لما أمر به، ونهى عنه. ويدخل تحت ذلك من اتبع رضوان الله بترك

حال، وقيل: إن المراد بقوله: ﴿هو من عند أنفسكم﴾ خروجهم من المدينة. ويردّه أن الوعد بالنصر إنما كان بعد ذلك؛ وقيل: هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل، و﴿يوم النقي الجمعان﴾ يوم أحد، أي: ما أصابكم يوم أحد من القتل، والجرح، والهزيمة ﴿فبإذن الله﴾ فبعلمه، وقيل: بقضائه، وقدره، وقيل: بتخليته بينكم، وبينهم، والفاء دخلت في جواب الموصول لكونه يشبه الشرط، كما قال سيبويه. وقوله: ﴿وليُعلم المؤمنين﴾ عطف على قوله: ﴿فبإذن الله﴾ عطف سبب على سبب. وقوله: ﴿وليُعلم الذين نافقوا﴾ عطف على ما قبله، قيل: أعاد الفعل لقصد تشريف المؤمنين عن أن يكون الفعل المسند إليهم، وإلى المنافقين، واحداً. والمراد بالعلم هنا: التمييز والإظهار؛ لأن علمه تعالى ثابت قبل ذلك، والمراد بالمنافقين هنا: عبد الله بن أبي وأصحابه. وقوله: ﴿وقيل لهم﴾ هو معطوف على قوله: ﴿نافقوا﴾ أي: ليعلم الله الذين نافقوا، والذين قيل: لهم، وقيل هو كلام مبتدأ أي: قيل لعبد الله بن أبي، وأصحابه ﴿تعالوا قتلوا في سبيل الله﴾ إن كنتم ممن يؤمن بالله، واليوم الآخر ﴿أو انفجروا﴾ عن أنفسكم إن كنتم لا تؤمنون بالله، واليوم الآخر، فأبوا جميع ذلك، وقالوا: لو نعلم أنه سيكون قتالاً لاتبعناكم، وقاتلنا معكم، ولكنه لا قتال هنالك؛ وقيل المعنى: لو كنا نقرر على القتال، ونحسنه لاتبعناكم، ولكننا لا نقرر على ذلك، ولا نحسنه. وعبر عن نفي القدر على القتال بنفي العلم به لكونها مستلزمة له، وفيه بعد لا ملجئ إليه، وقيل معناه: لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة، لعدم القدرة منا، ومنكم على نفع ما ورد من الجيش بالبروز إليهم، والخروج من المدينة، وهذا أيضاً فيه بعد نون بعد ما قبله، وقيل: معنى النفع هنا تكثير سواد المسلمين، وقيل: معناه رباطوا، والقائل للمنافقين هذه المقالة التي حكاها الله سبحانه: هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، والد جابر بن عبد الله. قوله: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ أي: هم في هذا اليوم الذي انخلوا فيه عن المؤمنين إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان عند من كان يظن أنهم مسلمون؛ لأنهم قد بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم إذ ذاك، وقيل المعنى: أنهم لأهل الكفر يومئذ أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان. قوله: ﴿يقولون باقواهم ما ليس في قلوبهم﴾ جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما تقدمها، أي: أنهم أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، ونكر الأقوال للتأكيد، مثل قوله: ﴿يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38]. قوله: ﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾ الخ، أي: هم الذين قالوا لإخوانهم على أنه خير مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون بدلاً من واو يكتمون، أو منصوباً على الدِّم، أو وصف للذين نافقوا. وقد تقدم معنى: ﴿قالوا لإخوانهم﴾ أي: قالوا لهم ذلك، والحال أن هؤلاء اللقائلين قد قعدوا عن القتال: ﴿ولو أطاعونا﴾ بترك الخروج

الله يقول: فبرحمة من الله: ﴿ولنت لهم﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿لأنفضوا من حولك﴾ قال: لانسرفوا عنك. وأخرج ابن عدّي، والبيهقي في الشعب، قال السيوطي بسند حسن عن ابن عباس: قال: لما نزلت: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال رسول الله ﷺ: ﴿لما إن الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن الله جعلها رحمة لأمّتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيأً. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس: ﴿وشاورهم في الأمر﴾. قال: أبو بكر وعمر. وأخرج ابن مريويه، عن عليّ قال: سئل رسول الله ﷺ عن العزم، فقال: مشاورة أهل الرأي، ثم اتباعهم. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فنزلت. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن عباس: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ قال: ما كان لنبي أن يتهمه أصحابه. وقد ورد في تحريم الغلول أحاديث كثيرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي عن ابن عباس: ﴿هم درجات عند الله﴾ يقول: بأعمالهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عائشة في قوله: ﴿ولقد من الله على المؤمنين﴾ الآية، قالت: هذه للعرب خاصة.

أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مِصْبِيَّةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِصْبِيَّةً قُلْتُمْ أَنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيٌّ ﴿١٦٠﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَبِسُلْطَانِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦١﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَنَالُوا قِتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذِقُوا قَالُوا لَوْ تَنَكَّمْ فَتَالَا لَكُنْتُمْ كُفْرًا ﴿١٦٢﴾ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَنفُسِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٣﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قَتَلُوا قُلٌ قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَكَلَتْ لَوْ أَنَّ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٦٤﴾

قوله: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة﴾ الالف للاستفهام بقصد التقرع، والواو للعطف. والمصيبة: الغلبة، والقتل الذي أصيبوا به يوم أحد: ﴿قد أصبتم مثلها﴾ يوم بدر، وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون، وقد كانوا قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين، فكان مجموع القتلى، والأسرى يوم بدر مثلي القتلى من المسلمين يوم أحد، والمعنى: أحيان أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم، وقتلتم من أين أصابنا هذا؟ وقد وعدنا بالنصر. وقوله: ﴿إني هذا﴾ أي: من أين أصابنا هذا الانهزام، والقتل، ونحن نقاتل في سبيل الله، ومعنا رسول الله ﷺ، وقد وعدنا الله بالنصر عليهم. وقوله: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب، أي: هذا الذي سألتهم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبي ﷺ من لزوم المكان الذي عينه لهم، وعدم مفارقتهم له على كل

من المدينة ما قتلوا، فردَّ الله ذلك عليهم بقوله: ﴿قُلْ فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ والدرء: الدفع، أي: لا ينفذ الحذر من القدر، فإن المقتول يقتل بأجله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أولما أصابتكم مصيبة﴾ الآية. يقول: إنكم قد أصبتم من المشركين يوم بدر مثلي ما أصابوا منكم يوم أحد، وقد بين هذا عكرمة. فأخرج ابن جرير عنه قال: قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين، وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في الآية قال: لما رأوا من قتل منهم يوم أحد قالوا من أين هذا؟ ما كان للكفار أن يقتلوا منا، فلما رأى الله ما قالوا من ذلك، قال الله: هم بالأسرى الذين أخذتم يوم بدر. فردَّهم الله بذلك، وعجل لهم عقوبة ذلك في الدنيا ليسلموا منها في الآخرة، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبي شيبة، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه، عن علي قال: جاء جبريل إلي النبي ﷺ، فقال: يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: إما أن يقدموا، فتضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء على أن تقبل منهم عندهم، فدعا رسول الله ﷺ الناس، فنذر ذلك لهم، فقالوا: يا رسول الله عشانرنا، وإخواننا لا بل نأخذ، فداءهم، فنقوى به على قتال عدونا، ويستشهد منا عندهم، فليس في ذلك ما نكره، فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً عدة أسارى أهل بدر. وهذا الحديث في سنن الترمذي، والنسائي هو من طريق أبي داود الحفري عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن سفیان بن سعيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة عن علي: قال الترمذي بعد إخرجه: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة. وروى أبو أسامة عن هشام نحوه. وروى عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن النبي ﷺ مرسلًا، وإسناد ابن جرير لهذا الحديث هكذا: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا إسماعيل بن عليه، عن ابن عون ح قال سنيد، وهو حسين، وحدثني حجاج، عن جرير، عن محمد، عن عبيدة، عن علي فنكره. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، حدثنا قراد بن نوح، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سماك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس، عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وفرَّ أصحاب محمد ﷺ عنه، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فانزل الله عز وجل: ﴿أولما أصابتكم مصيبة﴾ الآية. وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الرحمن بن غزوان، وهو قراد بن نوح به، ولكن باطول منه، ولكنه يشكل على حديث التخيير السابق ما نزل من المعاتبة منه سبحانه وتعالى لمن أخذ الفداء بقوله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ [الأنفال: 67] وما روى من

بكاؤه ﷺ، هو وأبو بكر ندماً على أخذ الفداء، ولو كان أخذ ذلك بعد التخيير لهم من الله سبحانه لم يعاتبهم عليه، ولا حصل ما حصل من النبي ﷺ، ومن معه من الندم، والحزن، ولا صوب النبي ﷺ رأي عمر رضي الله عنه، حيث أشار بقتل الأسرى، وقال ما معناه: لو نزلت عقوبة لم ينج منها إلا عمر، والجميع في كتب الحديث، والسير. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس: ﴿قلتم أنى هذا؟ ونحن مسلمون نقاتل غضباً لله، وهؤلاء مشركون. فقال: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ عقوبة لكم بمعصيتكم النبي ﷺ حين قال لا تتبعوهم. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿أو انفعوا﴾ قال: كثروا بأنفسكم، وإن لم تقاتلوا. وأخرج أيضاً، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي عون الأنصاري في قوله: ﴿أو انفعوا﴾ قال: رابطوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن شهاب وغيره قال: خرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد، والمدينة انخزل عنهم عبد الله بن أبي بلثث الناس، وقال: أطاعهم، وعصاني، والله ما ندري على ما تقتل أنفسنا ههنا؟ فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق، وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام من بني سلمة يقول: يا قوم أتكرهكم أن تخذلوا نبيكم، وقومكم عند ما حضرهم عنوهم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولا نرى أن يكون قتال. وأخرجه ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن شهاب الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحسين بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ، وغيرهم من علمائنا، فنكره، وزاد أنهم: لما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ قال: لو نعلم أنا واجدون معكم مكان قتال لاتبعناكم.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٥٤﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَانُوا يُبَشِّرُونَ الْإِيمَانَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٥٥﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَعُضِّلَ اللَّهُ لَا يَصِيبُ لَكُمُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَحْسَنُ مِنْهُمْ وَأَنْتُمْ أَكْبَرُ عِظِيمٌ ﴿١٥٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لَكُمْ أَتَأْتِيكُمْ فَتَقُولُونَ لَكُمْ فَأَخَذْتُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٥٨﴾ فَاتَّبَعُوا لِمَا دَعَاهُمْ رَبُّهُمُ إِلَى اللَّهِ وَفَضَّلُوا لَمْ يَسْأَلْهُمْ سُوءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَأَتَتْهُمْ رُسُلُهُمُ مِنَ اللَّهِ فَأَخَذُوا مِنْهُمْ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٠﴾

لما بين الله سبحانه أن ما جرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحاناً لتمييز المؤمن من المنافق، والكاظم من الصادق، بين ههنا أن من لم ينهزم، وقتل فله هذه الكرامة، والنعمة، وأن مثل هذا مما يتنافس فيه المتنافسون، لا مما يخاف،

ويعجزون، كما قالوا من حكى الله عنهم: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: 156] وقالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: 168] فهذه الجملة مستأنفة لبيان هذا المعنى، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد، وقرئ بإيلاء التحتية، أي: لا يحسبن حاسب.

وقد اختلف أهل العلم في الشهداء المذكورين في هذه الآية من هم؟ فقيل: في شهداء أحد، وقيل: في شهداء بدر، وقيل: في شهداء بئر معونة. وعلى فرض أنها نزلت في سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. ومعنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محقة، ثم اختلفوا، فمنهم من يقول: أنها ترد إليهم أرواحهم في قبورهم، فينتعمون. وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أي: يجدون ريحها، وليسوا فيها. وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى: أنهم في حكم الله مستحقون للثمن في الجنة، والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز. وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر، وأنهم في الجنة يرزقون، ويأكلون، ويتمتعون. وقوله: ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ هو: المفعول الأول. والحاسب هو النبي ﷺ، أو كل أحد، كما سبق، وقيل: يجوز أن يكون الموصول هو: فاعل الفعل، والمفعول الأول محذوف، أي: لا تحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً، وهذا تكلف لا حاجة إليه، ومعنى النظم القرآني في غاية الوضوح، والجلال. وقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: بل هم أحياء. وقرئ بالنصب على تقدير الفعل، أي: بل أحسبهم أحياء. وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إما خبر ثان، أو صفة لأحياء، أو في محل نصب على الحال، وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: عند كرامة ربهم. قال سيبويه: هذه عنية الكرامة لا عنية القرب. وقوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ يحتمل في إعرابه الوجوه التي نكرناها في قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ والمراد بالرزق هنا: هو الرزق المعروف في العادات على ما ذهب إليه الجمهور، كما سلف، وعند من عدا الجمهور المراد به: الثناء الجميل، ولا وجه يقتضي تحريف الكلمات العربية في كتاب الله تعالى، وحملها على مجازات بعيدة، لا لسبب يقتضي ذلك. وقوله: ﴿فَرَحِينَ﴾ حال من الضمير في يرزقون، وبما آتاهم الله من فضله متعلق به. وقرأ ابن السميع: ﴿فَارَحِينَ﴾ وهما لغتان كالفره والفاره، والحرز والحازن. والمراد: ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ ما ساقه الله إليهم من الكرامة بالشهادة، وما صاروا فيه من الحياة، وما يصل إليهم من رزق الله سبحانه. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ من إخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا إذ ذاك. فالمراد باللاحق هنا: أنهم لم يلحقوا بهم في القتل، والشهادة، بل سيلحقون بهم من بعد. وقيل المراد: لم يلحقوا بهم في الفضل، وإن كانوا أهل فضل في الجملة، والوار في: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ عاطفة على: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ أي: يرزقون، ويستبشرون، وقيل المراد: بإخوانهم هنا جميع المسلمين الشهداء، وغيرهم؛ لأنهم لما

عابنوا ثواب الله، وحصل لهم اليقين بحقية دين الإسلام استبشروا بذلك لجميع أهل الإسلام الذين هم أحياء لم يموتوا، وهذا أقوى، لأن معناه أوسع، وفائدته أكثر، واللفظ يحتمله بل هو الظاهر، وبه قال الزجاج، وابن فورك. وقوله: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدل من الذين، أي: يستبشرون بهذه الحالة الحاصلة لإخوانهم من أنه لا خوف عليهم، ولا حزن، وإن هي: للمخفة من الثقلية، واسمها ضمير الشأن المحذوف، وكرر قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لتأكيد الأول، ولبيان أن الاستبشار ليس لمجرد عدم الخوف، والحزن، بل به، وبنعمة الله، وفضله. والنعمة: ما ينعم الله به على عباده. والفضل: ما يتفضل به عليهم، وقيل النعمة: الثواب، والفضل الزائد، وقيل: النعمة الجنة، والفضل داخل في النعمة ذكر بعدها لتأكيدهما، وقيل: إن الاستبشار الأول متعلق بحال إخوانهم، والاستبشار الثاني بحال أنفسهم. قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَظْهِرُ لَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الكسائي بكسر الهمزة من أن، وقرأ الباقون بفتحها فعلى القراءة الأولى هو: مستأنف اعتراض. وفيه دلالة على أن الله لا يضيع أجر شيء من أعمال المؤمنين، ويؤيده قراءة ابن مسعود، والله لا يضيع أجر المؤمنين. وعلى القراءة الثانية الجملة عطف على فضل داخلة في جملة ما يستبشرون به. وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ صفة للمؤمنين، أو بدل منهم، أو من الذين لم يلحقوا بهم، أو هو مبتدأ خبره: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ بجملة، أو منصوب على المدح، وقد تقدم تفسير القرطبي. قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ المراد بالناس هنا: نعيم بن مسعود، كما سيأتي بيانه، وجاز إطلاق لفظ الناس عليه لكونه من جنسهم، وقيل المراد بالناس: ركب عبد القيس الذين مروا بابي سفيان، وقيل هم: المتأقنون. والمراد بقوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ أبو سفيان، وأصحابه، والضمير في قوله: ﴿فَرَادَهُمْ﴾ راجع إلى القول المللول عليه، يقال، أو إلى المقول، وهو: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ أو إلى القائل، والمعنى: أنهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك، ولا التفتوا إليه، بل أخلصوا لله، وأزادوا طمأنينة، ويقيناً. وفيه دليل على أن الإيمان يزيد، وينقص. قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ حسب مصدر حسب، أي: كفاه، وهو بمعنى الفاعل، أي: محسب بمعنى كافي، قال في الكشف: والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به التركة؛ لأن إضافته لكونه بمعنى اسم الفاعل غير حقيقية. انتهى. والوكيل هو من توكل إليه الأمور، أي: نعم الموكل إليه أمرنا، أو الكافي، أو الكافل، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: نعم الوكيل الله سبحانه. قوله: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ هو: معطوف على محذوف، أي: فخرجوا إليهم، فانقلبوا بنعمة هو: متعلق بمحذوف وقع حالا. والتنوين للتعظيم، أي: رجعوا متلبسين: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة، وهي السلامة من عدوهم، وعافية ﴿وَفُضِّلَ﴾ أي: أجر تفضل الله

به عليهم؛ وقيل ربح في التجارة، وقيل: النعمة خاصة بمنافع الدنيا، والفضل بمنافع الآخرة، وقد تقدم تفسيرهما قريباً بما يناسب ذلك المقام لكون الكلام فيه مع الشهداء الذين قد صاروا في الدار الآخرة، والكلام هنا مع الأحياء. قوله: ﴿لم يمسسهم سوء﴾ في محل نصب على الحال، أي: سالمين عن سوء لم يصيبهم قتل، ولا جرح، ولا ما يخافونه ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ في ما ياتون، ويترجون، ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ لا يقاير قدره، ولا يبلغ مداه، ومن تفضله عليهم تثبتتهم، وخروجهم للقاء عيهم، وإرشادهم إلى أن يقولوا هذه المقالة التي هي جالبة لكل خير، ودافعة لكل شر. قوله: ﴿إنما نلکم﴾ أي: المثبط لكم أيها المؤمنون ﴿الشيطان﴾ هو: خبر اسم الإشارة، ويجوز أن يكون الشيطان صفة لاسم الإشارة، والخبر قوله: ﴿يخوف أوليائه﴾ جملة مستأنفة، أو حالية، والظاهر أن المراد هنا: الشيطان نفسه باعتبار ما يصدر منه من الوسوسة المقتضية للتبسيط، وقيل المراد به: نعيم بن مسعود لما قال لهم تلك المقالة، وقيل: أبو سفيان لما صدر منه الوعيد لهم؛ والمعنى أن الشيطان يخوف المؤمنين أوليائه، وهم الكافرون، وقيل: إن قوله: ﴿أوليائه﴾ منصوب بنزع الحافض أي: يخوفكم بأوليائه، أو من أوليائه، قاله الفراء، والزجاج، وأبو علي الفارسي. ورده ابن الأنباري بأن التخويف قد يتعدى بنفسه إلى مفعولين، فلا ضرورة إلى إضمار حرف الجر. وعلى قول الفراء، ومن معه يكون مفعول يخوف محذوفاً، أي: يخوفكم. وعلى الأول يكون المفعول الأول محذوفاً، والثاني منكوراً، ويجوز أن يكون المراد: أن الشيطان يخوف أوليائه، وهم القاعدون من المنافقين، فلا حنف. قوله: ﴿فلا تخافوهم﴾ أي: أوليائه الذين يخوفكم بهم الشيطان، أو فلا تخافوا الناس المذكورين في قوله: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ نهاهم سبحانه عن أن يخافوهم، فيجبنوا على اللقاء، ويفشلوا عن الخروج، وأمرهم بأن يخافوه سبحانه، فقال: ﴿وخافون﴾ فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه لأنني الحقيق بالخوف مني، والمراقبة لأمري، ونهيي لكون الخير، والشر بيدي، وقيده بقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ لأن الإيمان يقتضي ذلك.

إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، وفي لفظ: «قالوا من يبلغ إخواننا أئنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله هؤلاء الآيات: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا﴾ الآية وما بعدها، وأخرج الترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن خزيمة، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن جابر بن عبد الله: أن أباه سأل الله سبحانه أن يبلغ من وراءه ما هو فيه، فنزلت هذه الآية، وهو من قتلى أحد. وقد روى من وجوه كثيرة أن سبب نزول الآية قتلى أحد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن أنس: أن سبب نزول هذه الآية قتلى بشر معونة، وعلى كل حال، فالآية باعتبار عموم لفظها يدخل تحتها كل شهيد، وقد ثبت في أحاديث كثيرة في الصحيح، وغيره أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر، وثبت في فضل الشهداء ما يطول تعداده، ويكثر إيراده مما هو معروف في كتب الحديث. وأخرج النسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، والطبراني بسند صحيح، عن ابن عباس قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أرفتم بثس ما صنعتم ارجعوا، فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فنذب المسلمين، فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد، أو بئر أبي عتبة، شك سفيان، فقال المشركون: يرجع من قابل، فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد غزوة، فأنزل الله سبحانه: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ الآية. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن عائشة في قوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ الآية، أنها قالت لعروة بن الزبير: يا بن أختي كان أبوك منهم: الزبير، وأبو بكر، لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد انصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، فقال: من يرجع في أثرهم؟ فانتدب منهم سبعون فيهم أبو بكر، والزبير. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: خرج رسول الله ﷺ بجمراء الأسد، وقد أجمع أبو سفيان بالرجعة إلى رسول الله ﷺ، وأصحابه، وقالوا: رجعنا قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقيتهم، فيلغ أن النبي ﷺ خرج في أصحابه يطلبهم، فثنى ذلك أبو سفيان، وأصحابه، ومركب من عبد القيس، فقال لهم أبو سفيان: بلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الرجعة على أصحابه؛ لنستأصلهم؛ فلما مرَّ الركب برسول الله ﷺ بجمراء الأسد أخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال رسول الله ﷺ، والمسلمون معه: حسبنا الله، ونعم الوكيل، فأنزل الله في ذلك: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ الآية. وأخرج موسى بن عقبة في مغازيه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن شهاب قال: إن رسول الله ﷺ استنفر المسلمين لموعد أبي سفيان بداراً. فاحتمل الشيطان أوليائه من الناس، فمشوا في الناس يخوفونهم، وقالوا: إنا قد أخبرنا أن قد جمعوا لكم من الناس مثل الليل يرجون أن يواقعوكم. والروايات في هذا

وقد أخرج الحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾ في حمزة، وأصحابه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد عن أبي الضحى أنها نزلت في قتلى أحد، وحمزة منهم. أخرج عبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتاكل من ثمارها، وتأتي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم، ومشربهم، وحسن مقيلمهم قالوا: يا ليت

مثل قول ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن: إنما كان ذلك تخويف الشيطان، ولا يخاف الشيطان إلا ولي الشيطان.

وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَكْثَرُ الْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧١﴾ وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّا نُمِيتُ لَهُمْ خَيْرَ لَأَشْفِيَهُمْ إِنَّمَا تُمِيتُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٢﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَإِنْ تُقْتُلُوا فَتَكُونُوا كَأَمْشٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾ وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوِّفُونَ مَا يَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ أَسْلَمُوا أَنَّهُمْ وَاللَّهُ بِمَا

﴿١٧٠﴾

قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ قرأ نافع بضم الباء، وكسر الزاي، وقرأ ابن محيصن بضم الباء، والزاي، وقرأ الباقون بفتح الباء، وضم الزاي، وهما لغتان، يقال: حزني الأمر، وحزنتني، والاولى اقصح. وقرأ طلحة: ﴿يُسْرِعُونَ﴾ قيل: هم قوم ارتبوا، فاغتم النبي ﷺ لذلك، فسلاه الله سبحانه، ونهاه عن الحزن، وعلل ذلك بأنهم لن يضرروا الله شيئاً، وإنما ضروا انفسهم بأن لا حظ لهم في الآخرة، ولهم عذاب عظيم، وقيل: هم كفار قريش، وقيل: هم المنافقون، وقيل: هو عام في جميع الكفار. قال القشيري، والحزن على كفر الكافر طاعة، ولكن النبي ﷺ كان يفرط في الحزن، فنهى عن ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: 8] ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ عَلَى أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6] وعدى السارعون بفي نون إلى للدلالة على أنهم مستقرون فيه مقيمون لملايسته، ومثله يسارعون في الخيرات. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ تحليل للنهي، والمعنى: أن كفرهم لا ينقص من ملك الله سبحانه شيئاً، وقيل المراد: لن يضرروا أوليائه، ويحتمل أن يراك لن يضرروا دينه الذي شرعه لعباده، وشيئاً منصوب على المصدرية أي: شيئاً من الضرر، وقيل: منصوب بنزع الخافض: أي بشيء. والخط: النصيب. قال أبو زيد: يقال رجل حظيظ إذا كان ذا حظ من الرزق، والمعنى أن الله يريد أن لا يجعل لهم نصيباً في الجنة، أو نصيباً من الثواب، وصيغة الاستقبال للدلالة على نول الإرادة، واستمرارها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بسبب مسارعهم في الكفر، فكان ضرر كفرهم عائداً عليهم جالباً لهم عدم الحظ في الآخرة، ومصيرهم في العذاب العظيم. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَكْثَرُ الْإِيمَانِ﴾ أي: استبدلوا الكفر بالإيمان، وقد تقدم تحقيق هذه الاستعارة: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ معناه كالاول، وهو للتأكيد لما تقدمه، وقيل: إن الاول خاص بالمنافقين، والثاني يعم جميع الكفار، والاول أولى. قوله:

الباب كثيرة قد اشتملت عليها كتب الحديث، والسير. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبير قال: القرح الجراحات. وأخرج ابن جرير، عن السدي أن أبا سفيان، وأصحابه لقوا أعرابياً، فجعلوا له جملاً على أن يخبر النبي ﷺ، وأصحابه أنهم قد جمعوا لهم، فآخبر النبي ﷺ بذلك، فقال هو، والصحابه: حسبنا الله، ونعم الوكيل، ثم رجعوا من حمراء الأسد، فأنزل الله فيهم، وفي الأعرابي: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ الآية. وأخرج ابن مردويه، عن أبي رافع أن هذا الأعرابي من خزاعة.

وقد ورد في فضل هذه الكلمة أعني: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أحاديث منها ما أخرجه ابن مردويه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وقعت في الأمر العظيم، فقولوا: حسبنا الله، ونعم الوكيل» قال ابن كثير بعد إخرجه: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرج أبو نعيم، عن شداد بن أوس قال: قال النبي ﷺ: «حسبي الله، ونعم الوكيل، أمان كل خائف». وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر، عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا اشتد غمه مسح يديه على رأسه، ولحيته، ثم تنفس الصعداء، وقال: حسبني الله، ونعم الوكيل». وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: حسبنا الله، ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، عن عوف بن مالك أنه حدثهم: «أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أبهر: حسبني الله، ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: ربوا علي الرجل، فقال: ما قلت؟ قال: قلت: حسبني الله، ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر، فقل: حسبني الله، ونعم الوكيل». وأخرج أحمد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته يسمع متى يؤمر، فينفخ؟ ثم أمر الصحابة أن يقولوا حسبنا الله، ونعم الوكيل على الله توكلناه وهو حديث جيد. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ وفضل: قال: النعمة أنهم سلموا، والفضل أن عيراً مرت، وكان في أيام الموسم، فاشتراها رسول الله ﷺ، فربح مالا، فقسمه بين أصحابه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في الآية قال: الفضل ما أصابوا من التجارة، والأجر. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: أما النعمة: فهي العافية، وأما الفضل: فالتجارة، والسوء: للقتل. أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سَوْءٌ﴾ قال: لم يؤذهم أحد: ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانُ اللَّهِ﴾ قال: أطاعوا الله، ورسوله. وأخرج ابن جرير، عن طريق العوفي عنه في قوله: ﴿إِنَّمَا تُلْكُمُ لِلشَّيْطَانِ يَخْوَفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ قال: يقول الشيطان يخوف بأوليائه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي مالك قال: يعظم أوليائه في أعينكم. وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة

في الأصلاب، والأرحام، أي: ما كان الله ليذر أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرق بينكم، وبينهم، وقيل: الخطاب للمؤمنين، أي: ما كان الله؛ ليترككم يا مشرك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم، وعلى هذا الوجه، والوجه الثاني يكون في الكلام التفات. وقرئ: «يُمَيِّزُ» بالتشديد للمخفف، من ماز الشيء يميزه مِيزاً إذا فرق بين شيئين، فإن كانت أشياء قيل: ميزه تمييزاً «وما كان الله ليطلعكم على الغيب» حتى تميزوا بين الطيب والخبيث، فإنه المستأثر بعلم الغيب لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول من رسله يجتبي، فيطلع على شيء من غيبه، فيميز بينكم، كما وقع من نبينا ﷺ من تعيين كثير من المنافقين، فإن ذلك كان بتعليم الله له، لا بكونه يعلم الغيب؛ وقيل المعنى: وما كان الله ليطلعكم على الغيب في من يستحق النبوة، حتى يكون الوحي باختياركم «ولكن الله يجتبي» أي: يختار «من رسله من يشاء». قوله: «فأمنوا بالله ورسوله» أي: أفعوا الإيمان المطلوب منكم، ودعوا الاشتغال بما ليس من شأنكم من التطلع لعلم الله سبحانه: «وإن تؤمنوا» بما نكر «وتتقوا فلكم» عوضاً عن ذلك: «أجر عظيم» لا يعرف قدره، ولا يبلغ كنهه. قوله: «ولا يحسن الذين يخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم» الموصول في محل رفع على أنه فاعل الفعل على قراءة من قرأ بالياء التحتية، والمفعول الأول محنوف، أي: لا يحسن الباخلون البخل خيراً لهم. قاله الخليل، وسيبويه، والفراء، قالوا: وإنما حذف لدلالة يخلون عليه، ومن ذلك قول الشاعر:

إذا نهى السفية جرى إليه وخالف والسفيه إلى خلاف
أي: جرى إلى السفه، فالسفيه دل على السفه. وأما على قراءة من قرأ بالفوقية، فالفعل مسند إلى النبي ﷺ، والمفعول الأول محنوف، أي: لا تحسن يا محمد بخل الذين يخلون خيراً لهم. قال الزجاج: هو: مثل «وأسأل القرية» [يوسف: 82] والضمير المذكور هو ضمير الفصل. قال المبرد: والسين في قوله: «سيطوقون ما بخلوا به» سين الوعيد، وهذه الجملة مبنية لمعنى قوله: «بل هو شر لهم» قيل: ومعنى التطويق هنا أنه يكون ما بخلوا به من المال طوقاً من نار في اعناقهم، وقيل معناه: أنه سيحملون عقاب ما بخلوا به، فهو من الطاقة، وليس من التطويق، وقيل المعنى: أنهم يلزمون أعمالهم، كما يلزم الطوق العنق، يقال: طوق فلان عمله طوق الحمامة أي: ألزم جزاء عمله، وقيل: إن ما لم تؤد زكاته من المال يمثل له شجاعاً أقرع حتى يطوق به في عنقه، كما ورد ذلك مرفوعاً إلى النبي ﷺ. قال القرطبي: والبخل في اللغة أن يمنع الإنسان الحق الواجب، فأما من منع ما لا يجب عليه، فليس ببخل. قوله: «وآية ميراث السموات والأرض» أي: له وحده لا لغيره، كما يفيد التقديم. والمعنى: أن له ما فيها مما يتوارثه أهلها، فما بالهم يخلون بذلك، ولا ينفقونهم، وهو الله سبحانه لا لهم،

«ولا يحسن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم» قرأ ابن عامر، وعاصم، وغيرهما: «يحسن» بالياء التحتية، وقرأ حمزة بالفوقية، والمعنى على الأولى: لا يحسن الكافرون إنما نملي لهم بطول العمر، ورغد العيش، أو بما أصابوا من الظفر يوم أحد «خير لأنفسهم» فليس الأمر كذلك بل إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً. ولهم عذاب مهين. وعلى القراءة الثانية: لا تحسن يا محمد أن الإملاء للذين كفروا بما نكر خير لأنفسهم، بل هو شر واقع عليهم، ونازل بهم، وهو أن الإملاء الذي نمليه لهم؛ ليزدادوا إثماً، فالموصول على القراءة الأولى فاعل الفعل، وإنما نملي، وما بعده ساد مسد مفعولي الحسبان عند سيبويه، أو ساد مسد أحدهما، والآخر محنوف عند الأخفش. وأما على القراءة الثانية، فقال الزجاج: إن الموصول هو: المفعول الأول، وإنما وما بعدها بدل من الموصول ساد مسد المفعولين، ولا يصح أن يكون أنما، وما بعده هو المفعول الثاني؛ لأن المفعول الثاني في هذا الباب هو: الأول في المعنى. وقال أبو علي الفارسي: لو صح هذا لكان خيراً بالنصب؛ لأنه يصير بدلاً من الذين كفروا، فكانه قال: لا تحسن إملاء الذين كفروا خيراً. وقال الكسائي، والفراء: إنه يقدر تكرير الفعل كأنه قال: ولا تحسن الذين كفروا، ولا تحسن إنما نملي لهم، فسدت مسد المفعولين. وقال في الكشف: فإن قلت كيف صح مجيء البديل، ولم يذكر إلا أحد المفعولين، ولا يجوز الاختصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟ قلت: صح ذلك من حيث أن التعويل على البديل، والمبدل منه في حكم المنحي، ألا تراك تقول جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك. انتهى. وقرأ يحيى بن وثاب: «إنما نملي» بكسر إن فيها، وهي قراءة ضعيفة باعتبار العربية. وقوله: «إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً» جملة مستأنفة مبنية لوجه الإملاء للكافرين. وقد احتج الجمهور بهذه الآية على بطلان ما تقوله المعتزلة؛ لأنه سبحانه أخبر بأنه يطيل أعمار الكفار، ويجعل عيشهم رغداً؛ ليزدادوا إثماً. قال أبو حاتم: وسمعت الأخفش يذكر كسر: «إنما نملي» الأولى، وفتح الثانية، ويحتج بذلك لأهل القدر؛ لأنه منهم، ويجعله على هذا التقدير: ولا يحسن الذين كفروا إنما نملي لهم؛ ليزدادوا إثماً إنما نملي لهم خير لأنفسهم. وقال في الكشف: إن ازدياد الإثم علة، وما كل علة بعرض ألا تراك تقول: قعدت عن الغزو للعجز، والفاقة، وخرجت من البلد لمخافة الشر، وليس شيء يعرض لك، وإنما هي علل، وأسباب. قوله: «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه» كلام مستأنف، والخطاب عند جمهور المفسرين للكفار، والمنافقين، أي: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر، والنفاق «حتى يميز للخبيث من الطيب» وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمنافقين، أي: ما كان الله؛ ليترككم على الحال التي أنتم عليه من الاختلاط حتى يميز بعضكم من بعض؛ وقيل: الخطاب للمشركين. والمراد بالمؤمنين من

قرضاً حسناً﴾ [البقرة: 245] قال قوم من اليهود: هذه المقالة تمويهاً على ضعفائهم، لا أنهم يعتقدون ذلك؛ لأنهم أهل الكتاب، بل أرادوا أنه تعالى إن صح ما طلبه منا من القرض على لسان محمد، فهو فقير ليشككوا على إخوانهم في دين الإسلام. وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ سنكتبه في صحف الملائكة، أو سنحفظه، أو سنجازيهم عليه. والمراد:

الوعيد لهم، وأن ذلك لا يفوت على الله، بل هو معد لهم ليوم الجزاء. وجملة سنكتب على هذا مستأنفة جواباً لسؤال مقدر، كانه قيل: ماذا صنع الله بهؤلاء الذين سمع منهم هذا القول الشنيع؟ فقال: قال لهم: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ وقرأ الأعمش، وحمزة: «سَيَكْتُبُ» بالمثناة التحتية مبني للمفعول. وقرأ برفع اللام من «قتلهم» ويقول بالياء المثناة تحت. قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْانْبِيَاءَ﴾ عطف على ما قالوا، أي: ونكتب قتلهم الانبياء، أي: قتل أسلافهم للأنبياء، وإنما نسب ذلك إليهم لكونهم رضوا به، جعل ذلك القول قريناً لقتل الانبياء تنبيهاً على أنه من العظم، والشناعة بمكان يعدل قتل الانبياء. قوله: ﴿وَنَقُولُ﴾ معطوف على ﴿سَنَكْتُبُ﴾ أي: ننتقم منهم بعد الكتابة بهذا القول الذي نقوله لهم في النار، أو عند الموت، أو عند الحساب. والحريق: اسم للنار الملتهبة وإطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة بليغة. وقرأ ابن مسعود: «ويقال ذوقوا» والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى العذاب المنكور قبله، وأشار إلى القريب بالصيغة التي يشار بها إلى البعيد للدلالة على بعد منزلته في الفظاعة، ونكر الأيدي لكونها المباشرة لغالب المعاصي. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ معطوف على ﴿مَا قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ﴾ وجهه أنه سبحانه عنهم بما أصابوا من الذنب، وجازاهم على فعلهم، فلم يكن ذلك ظلاماً، أو بمعنى: أنه مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء، وليس بظالم لمن عذبه بذنبه، وقيل: إن وجهه أن نفي الظلم مستلزم للعدل المقتضي لإثابة المحسن، ومعاقبة المسيء، ورد بأن ترك التعذيب مع وجود سببه، ليس بظلم عقلاً، ولا شرعاً، وقيل: إن جملة قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ في محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، أي: والأمر أن الله ليس بظلام للعبيد، والتعبير بذلك عن نفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم عند أهل السنة فضلاً عن كونه ظلاماً بالغاً لبيان تنزهه عن ذلك، ونفي ظلام المشعر بالكثرة، يفيد ثبوت أصل الظلم. ولجيب عن ذلك بأن الذي توعد بأن يفعله بهم لو كان ظلاماً لكان عظيماً، فنفاه على حدّ عظمه لو كان ثابتاً. قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ هو خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين قالوا، وقيل: نعت للعبيد، وقيل: منصوب على الذم، وقيل: هو في محل جر بدل من ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وهو ضعيف؛ لأن البذل هو المقصود بون المبدل منه، وليس الأمر كذلك هنا، والقائلون هؤلاء هم جماعة من اليهود، كما سيأتي، وهذا المقول، وهو أن الله عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بالقرآن هو من جملة دعاويهم الباطلة.

وإنما كان عندهم عارية مستردة، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: 40] وقوله: ﴿وَاتَّفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مَسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7] والميراث في الأصل: هو ما يخرج من ملك إلى آخر، ولم يكن مملوكاً لذلك الآخر قبل انتقاله إليه بالميراث، ومعلوم أن الله سبحانه هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ قال: هم المنافقون، وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود قال: ما من نفس برّة، ولا فاجرة إلا، والموت خير لها من الحياة إن كان براً، فقد قال الله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْإِبْرَارِ﴾ [آل عمران: 198] وإن كان فاجراً، فقد قال: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن أبي الرداءة نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن محمد بن كعب، نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي بزة أيضاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: قالوا إن كان محمد صادقاً، فليخبرنا بمن يؤمن به منا، ومن يكفر، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: يميز بينهم في الجهاد، والهجرة، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ قال: ولا يطلع على الغيب إلا رسول. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي﴾ قال: يختص. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مالك قال: يستخلص. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ قال: هم أهل الكتاب بخلوا أن يبينوه للناس. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال: هم يهود. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: بخلوا أن ينفقوها في سبيل الله لم يؤدوا زكاتها. وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً، فلم يؤد زكاته، مثل له شجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، فيأخذ بهزمته: يعني بشنقه، فيقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية» وقد ورد هذا المعنى في أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة يرفعونها.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ قَوَّيْرٌ وَفَحْشَاءٌ أَعْيَبَ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِرِيٍّ وَهُمْ يَكْفُرُونَ اللَّهُ عَذَابُ الْمُحَرِّقِينَ ﴿١٦٨﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٦٩﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُاؤُنَا لَا تُمْرُكُ رُسُلُ حَقٍّ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَأْتِيَنَّكُمْ وَإِلَازِي قُلْتُمْ قُلْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٠﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٧١﴾

قال أهل التفسير: لما أنزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله

المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا﴾ قال: هم اليهود. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق السوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [التوبة: 30] قال: يتصدق الرجل منا، فإذا تقبل منه أنزلت عليه النار من السماء، فأكثته. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا﴾ قال: كذبوا على الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قال: الحلال، والحرام ﴿وَالزُّبُرِ﴾ قال: كتب الأنبياء ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ قال: هو القرآن.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أجُورَكُمْ يَوْمَ الْيُكُوفِ فَمَنْ رُتِّعَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَارَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ تَتَلَوْنَهَا فِي أَنْوَالِكُمْ وَأَسْفِرُكُمْ وَأَتَشَمُّكُمْ مِنَ الَّذِينَ أُرْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَبِيرٌ وَلَنْ نَصْبِرُوا وَتَتَفَوَّاهُنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَّ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَكُوا بِهِ نَسْأَ قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْكُرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يُخْشَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

قوله: ﴿ذَائِقَةُ﴾ من التوق، ومنه قول أمية بن أبي الصلت: من لم يمت غبطة يمت هرما الموت كاس والمرء ذائقها وهذه الآية تتضمن الوعد، والوعيد للمصلق، والمكذب بعد إخباره، عن الباخلين القائلين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وابن أبي إسحاق: ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ بالتونين ونصب الموت. وقرأ الجمهور بالإضافة. قوله: ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ أجر المؤمن: الثواب، وأجر الكافر: العقاب أي: أن توفية الأجور، وتكميلها إنما تكون في ذلك اليوم، وما يقع من الأجور في الدنيا، أو في البرزخ، فإنما هو بعض الأجور، والرحمة: للكشاف، وقد سبق الكلام عليه، أي: فمن بعد عن النار يومئذ، ونحي، فقد فاز، أي: ظفر بما يريد، ونجا مما يخاف، وهذا هو الفوز الحقيقي الذي لا فوز يقاربه، فإن كل فوز، وإن كان بجميع المطالب نون الجنة ليس بشيء بالنسبة إليها اللهم لا فوز إلا فوز الآخرة، ولا عيش إلا عيشها، ولا نعيم إلا نعيمها، فاغفر لنوبنا، واستر عيوبنا، وأرض عنا رضا لا سخط بعده، واجمع لنا بين الرضا منك علينا، والجنة. والمتاع: ما يتمتع به الإنسان، ويتمتع به، ثم يزول، ولا يبقى كذا قال أكثر المفسرين. الغرور: الشيطان يغرر الناس بالأماني الباطلة، والمواعيد الكاذبة، شبه سبحانه الدنيا بالمتاع الذي يلبس به على من يريده، وله ظاهر محبوب، وباطن مكروه. قوله: ﴿تَتَلَوْنَهَا فِي أَنْوَالِكُمْ وَأَسْفِرُكُمْ﴾ هذا الخطاب للنبي ﷺ وأمته تسلياً لهم عما سيلقونهم من الكفرة، والفسقة: ليوطنوا أنفسهم على الثبات، والصبر على

وقد كان داب بني إسرائيل أنهم كانوا يقرّبون القرّبان، فيقوم النبي، فيدعو، فتنتل نار من السماء، فتحرّقه، ولم يتعبد الله بذلك كل أنبيائه، ولا جعله دليلاً على صدق دعوى النبوة، ولهذا ردّ الله عليهم، فقال: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ من القرّبان ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ كيجيى بن زكريا وشعيا، وسلتر من قتلوا من الأنبياء. والقرّبان: ما يتقرب به إلى الله من نسيسة، وصدقة، وعمل صالح، وهو فعلاّن من القرّبة؛ ثم سلى الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَإِنْ كَذِبُوكَ فَقَدْ كَذَبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤُوا﴾ بمثل ما جئت به من البيّنات. والزبر جمع زبور: وهو الكتاب، وقد تقدم تفسيره ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ الواضح الجلي المضى، يقال نار الشيء، وأنار، ونوره، واستناره بمعنى.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر بيت المدراس، فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم، وأخبارهم. فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص لتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله تجنونه مكتوباً عنكم في التوراة، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه، كما يتضرع إلينا، وإننا عنه لاغنياء، ولو كان غنياً عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهلكم عن الربا، ويعطينا، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عبو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد انظر ما صنع صاحبك بي، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت له مما قال، فضربت وجهه، فجدد فنحاص فقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ الآية، ونزل في أبي بكر، وما بلغه في ذلك من الغضب ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: 186] الآية. وقد أخرج هذه القصة ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة، وأخرجها ابن جرير، عن السدي بأخصر من ذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتت اليهود محمداً ﷺ حين أنزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ [البقرة: 245] فقالوا: يا محمد أفتقرير ربك يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة: أن القائل لهذه المقالة حي بن أخطب، وأنها نزلت فيه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن العلاء بن بدير أنه سئل عن قوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ الْآنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهم: لم يتركوا ذلك، قال: بمواليتهم من قتل الأنبياء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ قال: ما أنا بمعذب من لم يجترم. وأخرج ابن

فرحهم، والمفعول الثاني بمفازة من العذاب. وقوله: ﴿فَلا تحسبنهم﴾ تأكيد للفعل الأول على القراءتين، والمفازة: المنجاة، مفعلة من فاز يفوز إذا نجا، أي: ليسوا بفائزين، سمي موضع الخوف مفازة على جهة التفاضل قاله الأصمعي. وقيل: لأنها موضع تفويض، ومظنة هلاك، تقول العرب: فَوَّزَ الرجل إذا مات. قال ثعلب: حكيت لابن الأعرابي قول الأصمعي، فقال خطأ. قال لي أبو المكارم: إنما سميت مفازة؛ لأن من قطعها فاز. وقال ابن الأعرابي: بل لأنه مستسلم لما أصابه. وقيل المعنى: لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب؛ لأن الفوز التباعده عن المكروه. وقرأ مروان بن الحكم، والأعمش، وإبراهيم النخعي: «أتواء بالمد، أي: يفرحون بما أعطوا. وقرأ جمهور القراء السبعة، وغيرهم «أتواء» بالقصر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن حبان، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، أقرؤوا إن شئتم: ﴿فَمَنْ زَحَّزَحَ عَنِ النَّارِ وَأَخْلَجَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا لِلْحَيَاةِ لِلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُوجِ﴾». وأخرج ابن مريويه، عن سهل بن سعد مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الزهري في قوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: هو كعب بن الأشرف، وكان يحرض المشركين على رسول الله ﷺ، وأصحابه في شعره. وأخرج ابن المنذر، من طريق الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في الآية قال: يعني: اليهود والنصارى، فكان المسلمون يسمعون من اليهود قولهم: ﴿عزير ابن الله﴾ [يوسف: 82]، ومن النصارى قولهم: ﴿المسيح ابن الله﴾ [البقرة: 167] ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ قال: من القوة مما عزم الله عليه، وأمرهم به. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ قال: فنحاص، وأشيح، وأشباههما من الأخبار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ قال: كان الله أمرهم أن يتبعوا النبي الأمي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: في التوراة والإنجيل أن الإسلام بين الله الذي افترضه على عباده، وأن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل، فنبؤوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في الآية قال: هم اليهود: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن السدي مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: هذا ميثاق أخذ الله على أهل العلم، فمن علم علماً،

المكاره، والابتلاء: الامتحان، والاختبار، والمعنى: لتمتحنن، ولتختبرن في أموالكم بالمصائب، والإنفاقات الواجبة، وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال. والابتلاء في الأنفس بالموت، والأمراض، وفقد الأحباب، والقتل في سبيل الله. وهذه الجملة جواب قسم محذوف دلت عليه اللام الموطئة ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وهم: اليهود والنصارى. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وهم سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب: ﴿إِذْ كَثِيرًا﴾ من الطعن في دينكم، وأعراضكم، والإشارة بقوله: ﴿فَإِنْ تِلْكَ﴾ إلى الصبر، والتقوى المنلول عليهما بالفعلين. وعزم الأمور: معزوماتها، أي: مما يجب عليكم أن تعزموا عليه لكونه عزمة من عزمات الله التي أوجب عليهم القيام بها، يقال عزم الأمر، أي: شدّه، وأصلحه. قوله: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هذه الآية توبيخ لاهل الكتاب وهم: اليهود والنصارى، أو اليهود فقط على الخلاف في ذلك، والظاهر أن المراد بأهل الكتاب: كل من أتاه الله علم شيء من الكتاب، أي: كتاب كان، كما يفيد التعريف الجنسي في الكتاب. قال الحسن، وقاتدة: إن الآية عامة لكل عالم، وكذا قال محمد بن كعب، ويدل على ذلك قول أبي هريرة: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حثتكم بشيء، ثم تلا هذه الآية، والضمير في قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ راجع إلى الكتاب، وقيل: راجع إلى النبي ﷺ، وإن لم يتقدم له نكر؛ لأن الله أخذ على اليهود والنصارى أن يبينوا نبوته للناس، ولا يكتموها ﴿فَتُبَيِّنُوهُ﴾ وراء ظهورهم. وقرأ أبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر، وأهل المدينة: «لَيُبَيِّنُنَّهُ» بالياء التحتية، وقرأ الباقرن بالهمزة الفوقية. وقرأ ابن عباس: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ [التوبة: 30] ويشكل على هذه القراءة قوله: ﴿فَتُبَيِّنُوهُ﴾ فلا بد من أن يكون فاعله الناس. وفي قراءة ابن مسعود: «لَتُبَيِّنُونَهُ» والنبذ: الطرح، وقد تقدم في البقرة. وقوله: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مبالغة في النبذ، والطرح، وقد تقدم أيضاً معنى قوله: ﴿وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والضمير عائد إلى الكتاب الذي أمروا ببيانه، ونهوا عن كتمانها، وقوله: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: حقيراً يسيراً من حطام الدنيا، وأعراضها، قوله: ﴿فَيُبَيِّنُ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بش، ويشترون صفة، والمخصوص بالثم محذوف، أي: بش شيئاً يشترونه بذلك الثمن. قوله: ﴿فَلا تحسبنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ قرأ الكوفيون بالتاء الفوقية، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له. وقوله: ﴿بِمَا تَوَاوَا﴾ أي: بما فعلوا. وقد اختلف في سبب نزول الآية، كما سيأتي، والظاهر شمولها لكل من حصل منه ما تضمنته عملاً بعموم اللفظ، وهو المعتبر بكون خصوص السبب، فمن فرح بما فعل، وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل، فلا تحسبنه بمفازة من العذاب. وقرأ نافع، وابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو: «لا يحسبن» بالياء التحتية، أي: لا يحسبن الفارحون فرحهم منجياً لهم من العذاب، فالمفعول الأول محذوف، وهو

إلى الإيمان الذي لا تزلزله الشبهة، ولا تدفعه التشكيكات. قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقَعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الموصول نعت لأولي الألباب، وقيل: هو مفصول عنه خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب على المدح. والمراد بالذكر هنا: نكره سبحانه في هذه الأحوال من غير فرق بين حال الصلاة، وغيرها، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن النكر هنا عبارة عن الصلاة، أي: لا يضيعونها في حال من الأحوال، فيصلونها قِيَاماً مع عدم العذر، وقعوداً، وعلى جنوبهم مع العذر. قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَنْكُرُونَ﴾ وقيل: إنه معطوف على الحال، أعني: ﴿قِيَاماً وَقَعُوداً﴾ وقيل: إنه منقطع عن الأول، والمعنى: أنهم يتفكرون في بديع صنعهما، وإتفانهما مع عظم أجرامها، فإن هذا الفكر إذا كان صانقاً، أوصلهم إلى الإيمان بالله سبحانه. قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ هو على تقدير القول، أي: يقولون ما خلقت هذا عبثاً، ولهواً، بل خلقته دليلاً على حكمتك، وقدرتك. والباطل: الزائل الذاهب، ومنه قول لبيد:

الأكل شيء ما خلا الله باطلاً

وهو منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف، أي: خلقاً باطلاً، وقيل: منصوب بنزع الخافض، وقيل: هو مفعول ثان، وخلق بمعنى: جعل، أو منصوب على الحال، والإشارة بقوله: ﴿هَذَا﴾ إلى السموات والأرض، أو إلى الخلق على أنه بمعنى المخلوق. قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عما لا يليق بك من الأمور التي من جملتها أن يكون خلقك لهذه المخلوقات باطلاً. وقوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الغاء لترتيب هذا الدعاء على ما قبله. وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَحْتِ النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ تأكيد لما تقدم من استدعاء الرقاية من النار منه سبحانه، وبيان للمسبب الذي لأجله دعاه عباده بأن يقيهم عذاب النار، وهو أن من أدخله النار، فقد أخزاه، أي: أنه، وأهان. وقال المفضل: معنى أخزيته أهلكته، وأنشد:

أخزى الله بني الصليب غنيزة واللابسين ملابس الرهبان

وقيل: معناه: فضحته، وأبعتها، يقال: أخزاه الله: أبعدته ومقته، والاسم الخزي. قال ابن السكيت: خزي يخزي خزياً: إذا وقع في بلية. قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ المنادي عند أكثر المفسرين هو النبي ﷺ، وقيل: هو القرآن، وأوقع السماع على المنادي مع كون المسموع هو النداء؛ لأنه قد وصف المنادي بما يسمع، وهو قوله: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا﴾. وقال أبو علي الفارسي: إن «ينادي» هو المفعول الثاني ونكر ينادي مع أنه قد فهم من قوله: ﴿مُنَادِيًا﴾ قصد التأكيد، والتفخيم لشأن هذا المنادي به، واللام في قوله: ﴿لِلْإِيمَانِ﴾ بمعنى إلى، وقيل: إن ينادي يتعدى باللام، ويألي، يقال ينادي لكذا، وينادي إلى كذا، وقيل: اللام لليلة، أي: لأجل الإيمان. قوله: ﴿أَنْ آمَنُوا﴾ هي: إما تفسيرية، أو مصدرية، وأصلها بأن آمنوا، فحذف حرف الجر. قوله: ﴿فَأَمَّا﴾ أي: امتثلنا ما يأمر به هذا المنادي من

فليعلمه للناس، وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة. وأخرج ابن سعد عن الحسن قال: لولا الميثاق الذي أخذ الله على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما: أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ مما فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً، لنعذبن أجمعين، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية، إنما أنزلت في أهل الكتاب، ثم تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ لُوتُوا لِلْكِتَابِ﴾ الآية، قال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا، وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمداً بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه. وفي البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً من المنافقين كلنوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقدمهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت. وقد روى أنها نزلت في فحاح، وأشيع، وأشباههما. وروى أنها نزلت في اليهود. وأخرج مالك، وابن سعد، والطبراني، والبيهقي في الدلائل، عن محمد بن ثابت أن ثابت بن قيس قال: يا رسول الله لقد خشيت أن أكون قد هلكت قال: لم؟ قال: قد نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل، وأجيني أحب الحمد، ونهانا عن الخيلاء، وأجيني أحب الجمال، ونهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا رجل جهير الصوت، فقال: يا ثابت ألا ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟ فعاش حميداً، وقتل شهيداً يوم مسيطة الكذاب. وأخرج ابن المنذر، عن الضحاك في قوله: ﴿بِمُفَازَةٍ﴾ قال بمناجاة، وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد مثله.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقَعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ رَبَّنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَحْتِ النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَكَّلْنَا عَلَىٰ الْكَبَرِيِّ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا نَخْشَا يَوْمَ الْفِتْنَةِ إِنَّكَ لَا تَهْلِكُ الْإِمَادَ ﴿١٩٤﴾

قوله: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ هذه جملة مستأنفة لتقرير اختصاصه سبحانه بما ذكره فيها. والمراد ذات السموات، والأرض، وصفاتهما: ﴿وَلِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما، وكون كل واحد منهما يخلف الآخر، وكون زيادة أحدهما في نقصان الآخر، وتفاوتهما طولاً، وقصرًا، وحرًا، وبردًا وغير ذلك: ﴿آيَاتٍ﴾ أي: دلالات واضحة، وبراهين بيّنة تدل على الخالق سبحانه. وقد تقدم تفسير بعض ما هنا في سورة البقرة. والمراد بأولي الألباب: أهل العقول الصحيحة الخالصة، عن شوائب النقص، فإن مجرد التفكير فيما قصه الله في هذه الآية يكفي العاقل، ويوصله

قتادة في الآية قال: هذه حالاتك كلها يابن آدم، انكر الله، وانت قائم، فإن لم تستطع، فانكره جالساً، فإن لم تستطع جالساً، فانكره، وانت على جنبك، يسر من الله، وتخفيف.

وأقول هذا التقييد الذي ذكره بعدم الاستطاعة مع تعميم الذكر لا وجه له لا من الآية، ولا من غيرها، فإنه لم يرد في شيء من الكتاب، والسنة ما يدل على أنه لا يجوز الذكر من قعود إلا مع عدم استطاعة الذكر من قيام، ولا يجوز على جنب إلا مع عدم استطاعته من قعود، وإنما يصلح هذا التقييد لمن جعل المراد بالذكر هنا: الصلاة، كما سبق عن ابن مسعود. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه، عن عائشة مرفوعاً: ويل لمن قرأ هذه الآية، ولم يتفكر فيها. وأخرج ابن أبي الدنيا في التفكر عن سفيان رفعه «من قرأ آخر سورة آل عمران، فلم يتفكر فيها، ويله فعد أصابعه عشرة». قيل للوزاعي: ما غاية التفكر فيها؟ قال: يقرؤون، وهو يعقلهن. وقد روت أحاديث، وأثار عن السلف في استحباب التفكير مطلقاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أنس في قوله: ﴿مَنْ تَخَلَّ النَّارَ فَقَدْ خَزَيْتَهُ﴾ قال: من تخلد. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن المسيب في الآية قال: هذه خاصة بمن لا يخرج منها. وأخرج ابن جرير، والحاكم، عن عمرو بن دينار قال: قدم علينا جابر بن عبد الله في عمرة، فانتبهت إليه أنا، وعطاء فقلت: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ قال: أخبرني رسول الله ﷺ أنهم الكفار، قلت لجابر: فقلوه: ﴿إِنَّكَ مَنْ تَخَلَّ النَّارَ فَقَدْ خَزَيْتَهُ﴾ قال: وما أخزاه حين أحرقه بالنار، وإن دون ذلك خزيًا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿هَٰمَنَّا يَنَادِي لِلإِيمَانِ﴾ قال: هو محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي قال: هو القرآن، ليس كل أحد سمع النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رِسْلِكَ﴾ قال: يستنجزون موعد الله على رسله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَخْزَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: لا تفضحنا.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَيْ لَا أَسْجِعُ عَمَلٌ عَلَيْهِمْ مِنْكُمْ ذَكَرُوا أَنِّي بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتَلُوا لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَعَاتِهِمْ وَلَا ظُلْمَ لَهُمْ جَنَّتْ تَجَرَّتْ مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ التَّوَابِ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ الاستجابة بمعنى: الإجابة؛ وقيل: الإجابة عامة، والاستجابة خاصة بإعطاء المسؤول، وهذا الفعل يتعدى بنفسه، وبالإلام، يقال استجاب، واستجاب له، والغناء للعطف؛ وقيل: على مقتر أي: دعوا بهذه

الإيمان فآمننا، وتكرير النداء في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ لإظهار التضرع، والخضوع، قيل المراد: بالذنوب هنا الكبائر، وبالسبب الصغائر. والظاهر عدم اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين، والآخر بالآخر، بل يكون المعنى في الذنوب، والسبب واحد، والتكرير للمبالغة، والتأكيد، كما أن معنى الغفر، والكفر الستر. والأبرار جمع بار أو بر، وأصله من الاتساع، فكان البار متسع في طاعة الله، ومتسعة له رحمته، قيل: هم الأنبياء، ومعنى اللفظ أوسع من ذلك. قوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رِسْلِكَ﴾ هذا دعاء آخر والنكته في تكرير النداء ما تقدم، والموعود به على السن الرسل هو الثواب الذي وعد الله به أهل طاعته، ففي الكلام حذف، وهو لفظ الألسن، كقوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقُرْآنَ﴾ [آل عمران: 193] وقيل: المحذوف التصديق، أي: ما وعدتنا على تصديق رسلنا، وقيل: ما وعدتنا منزلاً على رسلنا، أو محمولاً على رسلنا، والأول أولى. وصدر هذا الدعاء منهم مع علمهم أن ما وعدهم الله به على السن رسله كائن لا محالة، إما لقصد التعجيل، أو للخضوع بالدعاء، لكونه مخ العباد، وفي قولهم: ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلَفُ الْمِيعَادَ﴾ دليل على أنهم لم يخافوا خلف الوعد، وأن الحامل لهم على الدعاء هو ما نكرنا.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود، فقالوا ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا عصاه، ويده بيضاء للناظرين، وآتوا النصراني، فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يبرئ الأكهم، والأبرص، ويحيي الموتى، فأتوا النبي ﷺ، فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، فدعا ربه، فنزلت: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال: بث عند خالتي ميمونة، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، ثم استيقظ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيديه، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتى ختم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والطبراني، والحاكم في الكنى، والبغوي في معجم الصحابة، عن صفوان بن المعطل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فنكر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، من طريق جوبير، عن الضحك، عن ابن مسعود في قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقَعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: إنما هذه في الصلاة إذا لم يستطع قائماً، فقاعداً، وإن لم يستطع قاعداً، فعلى جنبه. وقد ثبت في البخاري من حديث عمران بن حصين قال: «كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة، فقال: صل قائماً، فإن لم تستطع، فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». وثبت فيه عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ، عن صلاة الرجل، وهو قاعد، فقال: من صلى قائماً، فهو أفضل، ومن صلى قاعداً، فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائماً، فله نصف أجر القاعد». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن

﴿فاستجاب لهم ربهم﴾. وأخرج ابن مرنويه، عن أم سلمة قالت: آخر آية نزلت هذه الآية: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ إلى آخرها. وقد ورد في فضل الهجرة أحاديث كثيرة.

لَا يَرْفَعُ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَذَّبُوا فِي آلِ الْيَتَامَى مَعَ قَلِيلٍ ثُمَّ مَا وَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَكْسِرُ آلَهُمْ ۖ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ حَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِيكِ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَزْوَاجِ ۖ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعِبَادَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۖ يَأْتِيَهُمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا ۖ آمَنُوا أَصْبَرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

قوله: ﴿لا يرفعك﴾ خطاب للنبي ﷺ. والمراد: تثبيته على ما هو عليه، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ [النساء: 136] أو خطاب لكل أحد، وهذه الآية متضمنة لقبح حال الكفار بعد نكر حسن حال المؤمنين؛ والمعنى: لا يرفعك ما هم فيه من تقلبهم في البلاد بالأسفار للتجارة التي يتوسعون بها في معاشهم، فهو متاع قليل يتمتعون به في هذه الدار، ثم مصيرهم إلى جهنم، فقول: ﴿متاع﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو متاع قليل لا اعتداد به بالنسبة إلى ثواب الله سبحانه ﴿وماواهم﴾ أي: ما يآوون إليه. والتقلب في البلاد: الاضطراب في الأسفار إلى الأمكنة، ومثله قوله تعالى: ﴿فلا يرفعك تقلبهم في البلاد﴾ [غافر: 4] والمتاع ما يعجل الانتفاع به، وسماه قليلاً؛ لأنه فان وكل فان وإن كان كثيراً، فهو قليل. وقوله: ﴿ويكسر المهالك﴾ ما مهدوا لأنفسهم في جهنم بكفرهم، أو ما مهد الله لهم من النار، فالمخصوص بالذم محذوف، وهو هذا المقتر. قوله: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ هو استتراك مما تقدم؛ لأن معناه معنى النفي كأنه قال: ليس لهم في تقلبهم في البلاد كثير انتفاع ﴿لكن الذين اتقوا﴾ لهم الانتفاع الكثير، والخلد الدائم. وقرأ يزيد بن القعقاع لكن بتشديد النون. قوله: ﴿نزل﴾ مصدر مؤكد عند البصريين، كما تقدم في «ثواب»، وعند الكسائي والفراء مثل ما قال في ثواب، والنزل ما يهيا للنزيل، والجمع أنزال، قال الهروي: ﴿نزل﴾ من عند الله، أي: ثواباً من عند الله ﴿وما عند الله﴾ مما أعده لمن أطاعه ﴿خير للابرار﴾ مما يحصل للكفار من الربح في الأسفار فإنه متاع قليل عن قريب يزول. قوله: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ هذه الجملة سقت لبيان أن بعض أهل الكتاب لهم حظ من الدين، وليسوا كسائرهم في فضائحهم التي حكاها الله عنهم فيما سبق، وفيما سيأتي، فإن هذا البعض يجمعون بين الإيمان بالله، وبما أنزل الله على نبيينا محمد ﷺ، وما أنزله على أنبيائهم حال كونهم ﴿خاشعين لله لا يشترون﴾ أي: يستبدلون ﴿بآيات الله ثمنًا قليلاً﴾ بالتحريف، والتبديل، كما يفعله سائرهم، بل يحكون كتب الله سبحانه، كما هي، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى هذه الطائفة الصالحة من

الادعية، فاستجاب لهم، وقيل: على قوله: ﴿ويتفكرون﴾ وإنما نكر سبحانه الاستجابة، وما بعدها في جملة ما لهم من الأوصاف الحسنة؛ لأنها منه، إذ من أجيبت دعوته، فقد رفعت درجته. قوله: ﴿إني لا اضيع عمل عامل منكم﴾ أي باني، وقرأ عيسى بن عمرو بكسر الهمزة على تقدير القول، وقرأ أبي بثبوت الباء، وهي للسببية، أي: فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم. والمراد بالإضاعة: ترك الإثابة. قوله: ﴿من ذكر أو أنسى﴾ من بيانية ومؤكدة لما تقتضيه النكرة الواقعة في سياق النفي من العموم. قوله: ﴿بعضكم من بعض﴾ أي: رجالكم مثل نساكنكم في الطاعة، ونساؤكم مثل رجالكم فيها، والجملة معترضة لبيان كون كل منهما من الآخر باعتبار تشعبيهما من أصل واحد. قوله: ﴿فالنين هاجروا﴾ الآية، هذه الجملة تتضمن تفصيل ما أجمل في قوله: ﴿إني لا اضيع عمل عامل﴾ أي فالنين هاجروا من أوطانهم إلى رسول الله ﷺ وهاجروا من بيارهم في طاعة الله عز وجل وقاتلوا أعداء الله وقاتلوا في سبيل الله، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: «وقتلوا» على التكرير وقرأ الأعمش، وحزمة، والكسائي: «وقتلوا وقاتلوا» وهو مثل قول الشاعر:

تصابى وأمسى علاه الكبير

أي: قد علاه الكبير، وأصل الواو لمطلق الجمع بلا ترتيب، كما قال به الجمهور. ولما هنا: أنهم قاتلوا، وقتل بعضهم، كما قال امرؤ القيس:

فإن تقتلونا نقتلكم

وقرأ عمر بن عبد العزيز: «وقتلوا وقتلوا». ومعنى قوله: ﴿واوونوا في سبيلي﴾ أي: بسببه، والسبيل: الدين الحق. والمراد هنا: ما نالهم من الأنية من المشركين بسبب إيمانهم بالله، وعملهم بما شرعه الله لعباده. وقوله: ﴿لأكفر﴾ جواب قسم محذوف. وقوله: ﴿ثواباً من عند الله﴾ مصدر مؤكد عند البصريين، لأن معنى قوله: ﴿لأدخلنهم جنات﴾ لأثيبنهم ثواباً، أي: إثابة، أو تثويباً كأننا من عند الله. وقال الكسائي: إنه منتصب على الحال. وقال الفراء: على التفسير ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ أي: حسن الجزاء، وهو ما يرجع على العامل من جزاء عمله من ثاب يثوب: إذا رجع.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد الرزاق، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن أم سلمة قالت: يا رسول الله لا أسمع الله نكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله: ﴿فاستجاب لهم﴾ إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: «ما من عبد يقول يا رب يا رب ثلاث مرات إلا نظر الله إليه» فذكر للحسن، فقال: أما تقرأ القرآن؟ «ربنا إننا سمعنا منادياً» [آل عمران: 193] إلى قوله:

صلوا عليه، قالوا: يا رسول الله نصلي على عبد حبشي؟ فانزل الله ﴿وَأَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن جابر مرفوعاً أن المنافقين قالوا: انظروا إلى هذا يعني النبي ﷺ يصلي على علع نصراني، فنزلت. وأخرج الحاكم وصححه، عن عبد الله بن الزبير أنها نزلت في النجاشي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد، والذين اتبعوا محمداً ﷺ. وأخرج ابن المبارك، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ما قدمنا نكره. وأخرج ابن مريويه عنه عن أبي هريرة قال: أما إنه لم يكن في زمن النبي ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرن المساجد يصلون الصلوات في مواقيتها ثم يذكرون الله فيها. وقد ثبت في الصحيح وغيره من قول النبي ﷺ: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي قال: أصبروا على دينكم، وصابروا، الوعد الذي وعنتكم، ورباطوا عبدي، وعلوكم. وقد روي من تفاسير السلف غير هذا في سر الصبر على نوع من أنواع الطاعات، والمصابرة على نوع آخر، ولا تقوم بذلك حجة، فالواجب الرجوع إلى المنلول للغوي، وقد قدمناه. وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الرباط، وفيها التصريح بأنه الرباط في سبيل الله، وهو يرد ما قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن، فإن رسول الله ﷺ قد ندب إلى الرباط في سبيل الله، وهو الجهاد، فيحمل ما في الآية عليه، وقد ورد عنه ﷺ أنه سمي حراسة جيش المسلمين رباطاً، فأخرج الطبراني في الأوسط بسند جيد عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن أجر المرباط، فقال: من رباط ليلة حارساً من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى.

وقد ورد في فضل هذه العشر الآيات التي في آخر هذه السورة مرفوعاً إلى النبي ﷺ ما أخرجه ابن السني، وابن مريويه، وابن عساكر، عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة». وفي إسناده مظاهر بن أسلم، وهو ضعيف. وقد تقدم من حديث ابن عباس في الصحيحين أن النبي ﷺ قرأ هذه العشر الآيات لما استيقظ. وكذلك تقدم في غير الصحيحين من رواية صفوان بن المعطل عن النبي ﷺ. وأخرج الدارمي عن عثمان بن عفان قال: «من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة».

أهل الكتاب من حيث اتصافهم بهذه الصفات الحميدة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الذي وعد الله سبحانه به بقوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصص: 54] وتقديم الخبر يفيد اختصاص ذلك الأجر بهم. وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في محل نصب على الحال. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ الخ. هذه الآية العاشرة من قوله سبحانه: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ [البقرة: 164، آل عمران: 190] ختم بها هذه السورة لما اشتملت عليه من الوصايا التي جمعت خير الدنيا والآخرة، فحضر على الصبر على الطاعات، والشهوات، والصبر: الحبس، وقد تقدم تحقيق معناه. والمصابرة مصابرة الأعداء، قاله الجمهور أي: غالبهم في الصبر على الشدائد الحرب، وخص المصابرة بالذكر بعد أن نكر الصبر لكونها أشد منه، واشق. وقيل: المعنى: صابروا على الصلوات، وقيل صابروا الأنفس عن شهواتها، وقيل: صابروا الوعد الذي وعنتكم، ولا تياسوا، والقول الأول هو المعنى العربي، ومنه قول عنترة:

فلم أر حياً صابرواً مثل صبرنا ولا كافحوا مثل الذين نكافح
أي: صابرو العنوة في الحرب. قوله: ﴿وَرِبَاطُوا﴾ أي: اقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها، كما يربطها أعداؤكم وهذا قول جمهور المفسرين. وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: هذه الآية في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يرباط فيه، وسيأتي نكر من خرج عنه هذا، والرباط للغوي هو الأول، ولا ينافيه تسميته ﷺ، لغيره رباطاً، كما سيأتي. ويمكن إطلاق الرباط على المعنى الأول، وعلى انتظار الصلاة. قال الخليل: للرباط ملازمة الثغور، ومواظبة الصلاة، هكذا قال، وهو من أئمة اللغة. وحكى ابن فارس عن الشيباني أنه قال: يقال ماء مترابط دائم لا يبرح، وهو يقتضي تعدي الرباط إلى غير ارتباط الخيل في الثغور. قوله: ﴿وَلْتَقُوا اللَّهَ﴾ فلا تخالفوا ما شرعه لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي: تكونون من جملة الفائزين بكل مطلوب، وهم: المفلحون.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن عكرمة في قوله: ﴿لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تقلب ليلهم، ونهارهم وما يجري عليهم من النعم، قال عكرمة: قال ابن عباس، وبش المهاد، أي: بش المنزل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ قال ضربهم في البلاد. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في الأب المفرد، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر في قوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْإِبْرَارِ﴾ قال: إنما سماهم الله إبراراً؛ لأنهم برؤ الآباء، والإبناء، كما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حقاً. وأخرجه ابن مريويه، عنه مرفوعاً، والأول أصح قاله السيوطي. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد: ﴿خَيْرٌ لِلْإِبْرَارِ﴾ لمن يطيع الله. وأخرج النسائي، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن أنس قال: لما مات النجاشي قال ﷺ:

والبیهقي عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «من أخذ السبع، فهو حبر». وأخرج البیهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال والمئين كل سورة بلغت مائة فصاعداً»، والمئاني: كل سورة دون المئين، وفوق المفصل. وأخرج أبو يعلى، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن أنس قال: «وجد رسول الله ﷺ ذات ليلة شيئاً، فلما أصبح قيل: يا رسول الله إن أثر الوجود عليك لبين، قال: أما إنني على ما ترون بحمد الله قد قرأت السبع الطوال» وأخرج أحمد عن حنيفة قال: «قمت مع رسول الله ﷺ، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات» وأخرج عبد الرزاق عن بعض أهل النبي ﷺ: «أن النبي ﷺ قرأ بالسبع الطوال في ركعة واحدة» وأخرج الحاكم، عن ابن عباس أنه قال: «سلوني عن سورة النساء، فأبني قرأت القرآن، وأنا صغير» قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عنه قال: «من قرأ سورة النساء، فعلم ما يجب مما لا يجب علم الفرائض».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَتَرَى
 فِيهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَهَذِهِ أَلْفُ اللَّهِ الَّذِي سَأَلْتُمْ بِهِ. وَالْأَرْحَامُ إِنْ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ
 رَحِيمًا ﴿١﴾ وَآوُوا إِلَى اللَّهِ وَأَتُوا مِلَّةَ الْوَحِيدِ لَا تَتَّبِعُوا الْوَحْيَ بِالْحَيْثُ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى
 أَنْ تَكُونُوا فِي يَدَيْهِمْ أَكْثَرًا ۚ إِنَّ عَذَابَ اللَّهِ لَظَالِمٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ عَفَيْتُمْ أَلَّا تُغْلِبُوا فِي الْيَمِينِ فَانْكَبُوا عَلَى أَعْقَابِكُمْ
 لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَفُلْتُ وَرَبِّعَ فَإِنْ عَفَيْتُمْ أَلَّا تُغْلِبُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا تَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
 ذَلِكَ أَتَى أَلَّا تَعْلَمُوا ﴿٣﴾ وَآوُوا إِلَى اللَّهِ سَدِّقِينَ خَلَّةً فَإِنْ طَلَبَ لَكُمْ عَنْ قَوْمٍ
 مِنْهُ قَتْلُكُمْ فَبِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرًا ﴿٤﴾

المراد بالناس: الموجودون عند الخطاب من بني آدم، ويخل من سيوجد بلبيل خارجي، وهو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون، أو تغليب الموجودين على من لم يوجد، كما غلب الذكر على الإناث في قوله: ﴿لَتَقُوا رِيحَكُمْ﴾ لاختصاص ذلك بجمع المذكر. والمراد بالنفس الواحدة هنا: آدم. وقرأ ابن أبي عبيدة، واحد بغير هاء على مراعاة المعنى، فالتأنيث باعتبار اللفظ، والتذكير باعتبار المعنى. قوله: ﴿وَوَلَدَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قيل: هو مطوف على مقدر يدل عليه الكلام، أي: خلقكم من نفس واحدة خلقها أولاً، وخلق منها زوجها، وقيل: على خلقكم، فيكون الفعل الثاني داخلاً مع الأول في حيز الصلة. والمعنى: وخلق من تلك النفس التي هي عبارة عن آدم زوجها، وهي حواء. وقد تقدم في البقرة معنى التقوى، والرب، والزوج، والبه، والضمير في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ راجع إلى آدم وحواء المعبّر عنهما بالنفس، والزوج. وقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ وصف مؤكد لما تفيد صيغة الجمع لكونها من جموع الكثرة وقيل: هو نعت لمصدر محذوف، أي: بثاً كثيراً. وقوله: ﴿وَنِسَاءً﴾ أي: كثيرة، وترك التصريح به استغناء بالوصف الأول. قوله:

تفسير سورة النساء

هي مدينة كلها. قال القرطبي: إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة الحنفي، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58] على ما سيأتي إن شاء الله، قال النقاش: وقيل: نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وعلى ما تقدّم عن بعض أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ حيثما وقع، فإنه مكي يلزم أن يكون صدر هذه السورة مكية، وبه قال علقمة، وغيره. وقال النحاس: هذه الآية مكية. قال القرطبي: والصحيح الأوّل، فإن في صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ: يعني قد بني بها. ولا خلاف بين العلماء أن النبي ﷺ إنما بني بعائشة بالمدينة، ومن تبين أحكامها علم أنها مدينة لا شك فيها. قال: وأما من قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكي حيث وقع، فليس بصحيح، فإن البقرة مدينة، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في موضعين. وقد أخرج ابن الضريس في فضائله، والنحاس في ناسخه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة النساء بالمدينة، وفي إسناده العوفي، وهو ضعيف، وكذا أخرجه ابن مردويه، عن عبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت، وأخرجه ابن المنذر عن قتادة.

وقد ورد في فضل هذه السورة ما أخرجه الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40] الآية، و﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: 31] الآية، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48] الآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: 64] الآية. ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه، وقد اختلف في ذلك. وأخرجه عبد الرزاق، عن معمر عن رجل، عن ابن مسعود قال: خمس آيات من النساء هن أحب إلي من الدنيا جميعاً ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: 35] الآية ﴿وَأَنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعَفُهَا﴾ [النساء: 30] الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48] الآية ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: 110] الآية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَفِرْقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 152] الآية. ورواه ابن جرير. ثم روى من طريق صالح المري، عن قتادة، عن ابن عباس قال: ثمان آيات نزلت في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس، وغربت، ونكر ما نكره ابن مسعود، وزاد: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ﴾ [النساء: 26] الآية ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 27] الآية ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: 28] الآية. وأخرج أحمد، وابن الضريس، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه،

صلوها، أو والأرحام أهل أن توصل، وقيل: إن الرفع على الإغراء عند من يرفع به، ومنه قول الشاعر:

إن قوماً منهم عمير وأشباهه عمير ومنهم السفاح
لجسديرون باللقاء إذا قالا ل أخ النجدة السلاح السلاح
والأرحام: اسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره، لا خلاف في هذا بين أهل الشرع، ولا بين أهل اللغة. وقد خصص أبو حنيفة، وبعض الزيدية الرحم بالمحرم في منع الرجوع في الهبة مع موافقتهم على أن معناها أعم، ولا وجه لهذا التخصيص. قال القرطبي: اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة؛ وأن قطيعتها محرمة، انتهت. وقد روت بذلك الأحاديث الكثيرة الصحيحة، والرقيب: المراقب، وهي صيغة مبالغة، يقال رقيب أقرب رقيباً، وإذا انتظرت، قوله: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ خطاب للأولياء، والأوصياء.

والإيتاء: الإعطاء. واليتيم: من لا أب له. وقد خصصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم. وقد تقدم تفسير معناه في البقرة مستوفي، وأطلق اسم اليتيم عليهم عند إعطائهم أموالهم، مع أنهم لا يعطونها إلا بعد ارتفاع اسم اليتيم بالبلوغ مجازاً باعتبار ما كانوا عليه؛ ويجوز أن يراد باليتامى المعنى الحقيقي، وبالإيتاء ما يدفعه الأولياء، والأوصياء إليهم من النفقة، والكسوة لا نفعا جميعها، وهذه الآية مقيدة بالآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6] فلا يكون مجرد ارتفاع اليتيم بالبلوغ مسوغاً لنفع أموالهم إليهم حتى يؤنس منهم الرشد. قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا لِلخَبِيثِ بِالطَّيِّبِ﴾ نهى لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية في أموال اليتامى، فإنهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى، ويعوضونه بالردء من أموالهم، ولا يرون بذلك بأساً؛ وقيل المعنى: لا تاكلوا أموال اليتامى، وهي محرمة خبيثة، وتدعوا الطيب من أموالكم وقيل المراد: لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله. والأول أولى؛ فإن تبدل الشيء بالشيء في اللغة أخذه مكانه، وكذلك استبداله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 108] وقوله: ﴿اتَّسَتَبَدَّلُوا الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61] وأما التبديل، فقد يستعمل، كذلك كما في قوله: ﴿وَيُبَدِّلْنَاهُمْ بَجَنَّتِيهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبا: 16] وأخرى بالعكس، كما في قولك بكتك الحلقة بالخاتم: إذا أنبتتها، وجعلتها خاتماً، نص عليه الأزهري. قوله: ﴿وَلَا تَاكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المنهي عنه في هذه الآية هو الخلط، فيكون الفعل مضمناً معنى الضم، أي: لا تاكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، ثم نسخ هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَخْلَطُوهُمْ فَاخْوَانَكُمْ﴾ [البقرة: 220] وقيل: إن إلى بمعنى مع، كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 52] والأول أولى. والحوب: الإثم يقال حاب الرجل يحوب حوباً: إذا أثم، وأصله الزجر للإبل، فسمي الإثم حوباً؛ لأنه يزجر عنه. والحوبة: الحاجة. والحوب أيضاً:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ قرأ أهل الكوفة بحذف التاء الثانية، وأصله تتساءلون تخفيفاً لاجتماع المثلثين. وقرأ أهل المدينة، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بإدغام التاء في السين؛ والمعنى: يسأل بعضكم بعضاً بالله، والرحم، فإنهم كانوا يقرنون بينهما في السؤال، والمناشدة، فيقولون: أسألك بالله، والرحم، وأنشدك الله، والرحم، وقرأ النخعي، وقتادة، والأعمش، وحزمة: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالجر. وقرأ الباقر بالنصب.

وقد اختلف أئمة النحو في توجيه قراءة الجر، فاما البصريون، فقالوا: هي لحن لا تجوز القراءة بها. واما الكوفيون، فقالوا هي قراءة قبيحة. قال سيبويه في توجيه هذا القبح: إن المضممر المجزور بمنزلة التنوين، والتنوين لا يعطف عليه. وقال الزجاج، وجماعة: يقبح عطف الاسم الظاهر على المضممر في الخفض إلا بإعادة الخافض كقوله تعالى ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: 81] وجوز سيبويه ذلك في ضرورة الشعر، وأنشد:

فاليوم قُرِبتْ تهجونا وتمسحنا فاذهب فما بك والأيام من عجب
ومنه قول الآخر:

تعلق في مثل السوارى سيفونا وما بيننا والكعب بهون غائف
بعطف الكعب على الضمير في بينها، وحكى أبو علي الفارسي أن المبرد قال: لو صليت خلف إمام يقرأ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ بالجر، لأخذت نعلي، ومضيت. وقد رد الإمام أبو نصر القشيري ما قاله القادحون في قراء الجر، فقال: ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين، لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي ﷺ تواتراً، ولا يخفى عليك أن دعوى التواتر باطلة يعرف ذلك من يعرف الأسانيد التي رووها بها، ولكن ينبغي أن يحتج للجواز بمرود ذلك في أشعار العرب، كما تقدم، وكما في قول بعضهم:

وحسبك والضحك سيف مهند

وقول الآخر:

وقد رام أفاق السماء فلم يجد له مصعداً فيها ولا الأرض مقعداً
وقول الآخر:

ما إن بها والأمور من تلسف

وقول الآخر:

أكر على الكتيبة لست أدري لحتفي كان فيها لم سواها
فسواها في موضع جر عطفاً على الضمير في فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: 20]. وأما قراءة النصب، فمعناها واضح جلي؛ لأنه عطف الرحم على الاسم الشريف، أي: اتقوا الله واتقوا الأرحام فلا تقطعوها، فإنها مما أمر الله به أن يوصل؛ وقيل إنه عطف على محل الجار والمجرور في قوله ﴿بِهِ﴾ كقولك مررت بزيد وعمراً، أي: اتقوا الله الذي تتساءلون به، وتتساءلون بالأرحام. والأول أولى. وقرأ عبد الله بن يزيد، والأرحام بالرفع على الابتداء، والخبر مقدر، أي: والأرحام

تتصرف للعدل، والوصفية، كما هو مبين في علم النحو والأصل: انكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً.

وقد استدل بالآية على تحريم ما زاد على الأربع، وبينوا ذلك بأنه خطاب لجميع الأمة، وأن كل نكح له أن يختار ما أراد من هذا العدد، كما يقال للجماعة: اقتسموا هذا المال، وهو ألف درهم، أو هذا المال الذي في البكرة درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثاً، وأربعة أربعة. وهذا مسلم إذا كان المقسوم قد نكرت جملته، أو عين مكانه، أما لو كان مطلقاً، كما يقال: اقتسموا الدراهم، ويراد به ما كسبوه، فليس المعنى هكذا. والآية من الباب الآخر لا من الباب الأول. على أن من قال لقوم يقتسمون مالا معيناً كثيراً اقتسموه مثني وثلاث ورباع، فقسّموا بعضه بينهم برهمن برهمن، وبعضه ثلاثة ثلاثة، وبعضه أربعة أربعة كان هذا هو المعنى العربي، ومعلوم أنه إذا قال القائل جاءني القوم مثني، وهم مائة ألف، كان المعنى أنهم جاؤوه اثنين اثنين، وهكذا جاء في القوم ثلاث ورباع، والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد، كما في قوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين﴾ [التوبة: 5] ﴿اقيموا الصلاة﴾ ﴿آتوا الزكاة﴾ ونحوها، فقلوه: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثني وثلاث ورباع﴾ معناه لينكح كل فرد منكم ما طاب له من النساء اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، هذا ما تقتضيه لغة العرب. فالآية تدل على خلاف ما استدلوا بها عليه، ويؤيد هذا قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فإن خفتم أن لا تعملوا فواحدة﴾ فإنه وإن كان خطاباً للجميع، فهو بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد. فالأولى أن يستدل على تحريم الزيادة على الأربع بالسنّة لا بالقرآن.

وأما استدلال من استدل بالآية على جواز نكاح التسع باعتبار الواو الجامعة، فكأنه قال: انكحوا مجموع هذا العدد المذكور، فهذا جهل بالمعنى العربي، ولو قال: انكحوا اثنتين وثلاثاً وأربعاً كان هذا القول له وجه وأما مع المحض بصيغة العدل فلا، وإنما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون أو، لأن التخيير يشعر بأنه لا يجوز إلا أحد الأعداد المذكورة دون غيره، وذلك ليس بمراد من النظم القرآني. وقرأ النخعي، ويحيى بن وثاب ثلث وربع بغير ألف. قوله: ﴿فإن خفتم أن لا تعملوا فواحدة﴾ فانكحوا واحدة، كما يدل على ذلك قوله: ﴿فانكحوا ما طاب﴾ وقيل: التقدير فالزموا، أو فاختاروا واحدة. والأول أولى، والمعنى: فإن خفتم أن لا تعملوا بين الزوجات في القسم، ونحوه، فانكحوا واحدة، وفيه المنع من الزيادة على الواحدة لمن خاف ذلك. وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ. والخبر محذوف. قال الكسائي: أي فواحدة تقنع، وقيل التقدير: فواحدة فيها كفاية، ويجوز أن تكون واحدة على قراءة الرفع خبر مبتدأ محذوف، أي فالمقنع واحدة. قوله: ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ معطوف على واحدة، أي: فانكحوا واحدة، أو انكحوا ما ملكت أيمانكم من السراري، وإن كثّر

الوحشة، وفيه ثلاث لغات: ضم الحاء وهي قراءة الجمهور. وفتح الحاء، وهي قراءة الحسن، قال الأخفش: وهي لغة تميم. والثالثة الحاب. وقرأ أبي بن كعب حاباً على المصدر، كقال قالا. والتحوب التحزن، ومنه قول طفيل:

نفنقوا كما نقنا عداه يحجر من الغيظ في اكباننا والتحوب قوله: ﴿وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا﴾ وجه ارتباط الجزاء بالشرط أن الرجل كان يكفل اليتيمة لكونه ولياً لها ويريد أن يتزوجها، فلا يقسط لها في مهرها، أي: يعدل فيه، ويعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج، فنهاهم الله أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى ما هو لهن من الصداق، وأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهن من النساء سواهن، فهذا سبب نزول الآية كما سيأتي، فهو نهي يخص هذه الصورة. وقال جماعة من السلف: إن هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية، وفي أول الإسلام من أن للرجل أن يتزوج من الحرائر ما شاء، فقصروهم بهذه الآية على أربع، فيكون وجه ارتباط الجزاء بالشرط أنهم إذا خافوا أن لا يقسطوا في اليتامى، فكل ذلك يخافون أن لا يقسطوا في النساء، لأنهم كانوا يتخرجون في اليتامى، ولا يتخرجون في النساء، والخوف من الاضداد، فإن المخوف قد يكون معلوماً، وقد يكون مظنوناً، ولهذا اختلف الأئمة في معناه في الآية، فقال أبو عبيدة: ﴿خفتم﴾ بمعنى أيقنتم. وقال آخرون: ﴿خفتم﴾ بمعنى ظننتم. قال ابن عطية: وهو الذي اختاره الحذاق، وأنه على بابه من الظن لا من اليقين، والمعنى: من غلب على ظنه التقصير في العدل لليتيمة، فليتركها، وينكح غيرها. وقرأ النخعي وابن وثاب: ﴿تقسطوا﴾ بفتح ثاء من قسط: إذا جار، فتكون هذه القراءة على تقدير زيادة لا، كأنه قال: وإن خفتم أن تقسطوا. وحكى الزجاج أن أقسط يستعمل استعمال قسط، والمعروف عند أهل اللغة أن أقسط بمعنى عدل، وقسط بمعنى جار، و«ما» في قوله: ﴿ما طاب﴾ موصولة، وجاء بما مكان من لأنهما قد يتعاقبان، فيقع كل واحد منهما مكان الآخر كما في قوله: ﴿والسما﴾ وما بناها﴾ [الشمس: 2] ﴿فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على أربع﴾ [النور: 45]. وقال البصريون: إن «ما» تقع للنوع كما تقع لما لا يعقل، يقال ما عندك، فيقال ظريف، وكريم، فالمعنى: فانكحوا الطيب من النساء أي: الحلال، وما حرّمه الله، فليس بطيب، وقيل: إن «ما» هنا متبئة، أي: ما لمت مستحسنين للنكاح، وضعفه ابن عطية. وقال الفراء: إن «ما» هنا مصدرية. قال النحاس: وهذا بعيد جداً. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿فانكحوا من طاب﴾. وقد اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المذكور في الآية لا مفهوم له، وأنه يجوز لمن لم يخف أن يقسط في اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة، و«من» في قوله: ﴿من النساء﴾ إما بيانية، أو تبعيضية، لأن المراد غير اليتائم. قوله: ﴿مثني وثلاث ورباع﴾ في محل نصب على البدل من «ما» كما قاله أبو علي الفارسي، وقيل: على الحال، وهذه الالفاظ لا

ابن الأعرابي أن العرب تقول: عال الرجل إذا كثر عياله، وكفى بهذا.

وقد ورد عال لمعان غير السبعة التي ذكرها ابن العربي، منها عال: اشتد وتفاقم، حكاه الجوهري، وعال الرجل في الأرض: إذا ضرب فيها، حكاه الهروي، وعال: إذا أعجز، حكاه الأحمر، فهذه ثلاثة معان غير السبعة؛ والرابع عال كثر عياله، فجملة معاني عال أحد عشر معنى. قوله: ﴿وَأَتُوا للنساء صَدَقَاتَهُنَّ نَحْلَةً﴾ الخطاب للأزواج، وقيل: للأولياء. والصدقات بضم الدال جمع صدقة كشمرة، قال الأخفش: وبنو تميم يقولون صدقة، والجمع صدقات، وإن شئت فتحت، وإن شئت أسكنت. والنحلة بكسر النون وضمها لغتان، وأصلها العطاء نحلته فلاناً: أعطيته، وعلى هذا، فهي منصوبة على المصدرية؛ لأن الإيتاء بمعنى الإعطاء، وقيل: النحلة التدين فمعنى نحلة تديناً، قاله الزجاج، وعلى هذا، فهي منصوبة على المفعول له. وقال قتادة: النحلة الفريضة، وعلى هذا، فهي منصوبة على الحال، وقيل: النحلة طيبة النفس، قال أبو عبيد: ولا تكون النحلة إلا عن طيبة نفس. ومعنى الآية على كون الخطاب للأزواج: أعطوا النساء اللاتي نكحتموهن مهوراً التي لهن عليكم عطية، أو نيانة منكم، أو فريضة عليكم، أو طيبة من أنفسكم. ومعناها على كون الخطاب للأولياء: أعطوا النساء من قرباتكم التي قبضتم مهوراً من أزواجهن تلك المهور. وقد كان الولي يأخذ مهر قريبته في الجاهلية، ولا يعطيها شيئاً، حكى ذلك عن أبي صالح، والكلبي. والأول أولى، لأن الضمائر من أول السياق للأزواج. وفي الآية دليل على أن الصداق واجب على الأزواج للنساء، وهو مجمع عليه، كما قال القرطبي، قال: واجمع العلماء أنه لا حد لكثيره، واختلفوا في قليله. وقرأ قتادة: «صدقاتهن» بضم الصاد وسكون الدال. وقرأ النخعي، وابن وثاب بضمهما. وقرأ الجمهور بفتح الصاد وضم الدال. قوله: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ الضمير في منه راجع إلى الصداق الذي هو واحد الصدقات، أو إلى المذكور، وهو الصدقات، أو هو بمنزلة اسم الإشارة، كأنه قال من ذلك، ونفساً تمييز. وقال أصحاب سيبويه: منصوب بإضمار فعل لا تمييز، أي: أعني نفساً. والأول أولى، وبه قال الجمهور. والمعنى: فإن طبن، أي: النساء لكم أيها الأزواج، أو الأولياء عن شيء من المهر ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ وفي قوله: ﴿طَبِنَ﴾ دليل على أن المعتبر في تحليل ذلك منهن لهم إنما هو طيبة النفس لا مجرد ما يصدر منها من الألفاظ التي لا يتحقق معها طيبة النفس، فإذا ظهر منها ما يدل على عدم طيبة نفسها لم يحل للزوج، ولا للولي، وإن كانت قد تلفظت بالهبة، أو النذر، أو نحوهما. وما أقوى دلالة هذه الآية على عدم اعتبار مصدر من النساء من الألفاظ المفيدة للملك بمجرد انقضاء عقولهن، وضعف إرادهن، وسرعة انخداعهن، وانجذابهن إلى ما يراد منهن بأيسر ترغيب، أو ترهيب. وقوله: ﴿هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ منصوبان على

عددهن، كما يفيد الموصول. والمراد: نكاحهن بطريق الملك لا بطريق النكاح، وفيه دليل على أنه لا حق للمملوكات في القسم، كما يدل على ذلك جملة قسيماً للواحدة في الأمن من عدم العدل، وإسناد الملك إلى اليمين، لكونها المباشرة لقبض الأموال، وإقباضها، ولسائر الأمور التي تنسب إلى الشخص في الغالب، ومنه:

إذا ما راية نصبت لمجد تلقاها عرابية باليمين
قوله: ﴿ذلك أننى ألا تعولوا﴾ أي ذلك أقرب إلى ألا تعولوا، أي: تجوروا، من عال الرجل يعول: إذا مال وجار، ومنه قولهم عال السهم عن الهنف: مال عنه، وعال الميزان إذا مال، ومنه:

قالوا اتبعنا رسول الله وأطرحوا قول الرسول وعالوا في الموازين
ومنه قول أبي طالب:
بميزان صق لا يغل شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل
ومنه أيضاً:

فنحن ثلاث وثلاثون لقد عال الزمان على عيال
والمعنى: إن خفتم عدم العدل بين الزوجات، فهذه التي أمرتم بها أقرب إلى عدم الجور، ويقال عال الرجل يعيل: إذا افتقر، وصار عالة، ومنه قوله تعالى: ﴿وإن خفتم عيلة﴾ [التوبة: 28]، ومنه قول الشاعر:

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغني متى يعيل
وقال الشافعي: ﴿ألا تعولوا﴾ ألا تكثر عيالك. قال الثعلبي: وما قال هذا غيره، وإنما يقال أعال يعيل: إذا كثر عياله. وذكر ابن العربي أن عال تأتي لسبعة معان: الأول عال: مال. الثاني زاد. الثالث جار. الرابع افتقر الخامس أثقل. السادس قام بمؤونة العيال، ومنه قوله ﷺ: «وأيدي بمن تعول». السابع عال: غلب، ومنه عيل صبري، قال: ويقال أعال الرجل: كثر عياله. وأما عال بمعنى كثر عياله، فلا يضح، ويجاب عن إنكار الثعلبي لما قاله الشافعي، وكذلك إنكار ابن العربي لذلك، بأنه قد سبق الشافعي إلى القول به زيد بن أسلم وجابر بن زيد، وهما إمامان من أئمة المسلمين لا يفسران القرآن هما، والإمام الشافعي بما لا وجه له في العربية. وقد أخرج ذلك عنهما الدارقطني في سننه. وقد حكاه القرطبي عن الكسائي وأبي عمر الدوري، وابن الأعرابي، وقال أبو حاتم: كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا، ولعله لغة. وقال الثعلبي: قال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب: سألت أبا عمر الدوري عن هذا، وكان إماماً في اللغة غير مدافع، فقال: هي لغة حير، وأندس:

وإن الموت يأخذ كل حي بلا شك وإن أمشي وعالا
أي: وإن كثرت ماشيته وعياله. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أَن لا تعيلوا﴾ قال ابن عطية: وقدح الزجاج في تأويل عال من العيال بأن الله سبحانه قد أباح كثرة السراري، وفي ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقرب إلى أن لا يكثرُوا، وهذا قدح غير صحيح؛ لأن السراري إنما هي مال يتصرف في البليغ، وإنما العيال الحرائر نوات الحقوق الواجبة. وقد حكى

الله عز وجل: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قالت: يابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في مالها، ويعجبها مالها، وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقتها، فيعطيهما مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سننهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، وأن الناس قد استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: 127] قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وَتُرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: 127] رغبة أحكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال، والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله، وجمال من باقي النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال، والجمال. وأخرج البخاري، عن عائشة: أن رجلاً كانت له يتيمة، فنكحها، وكان لها عنق، فكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أحسبه قال: كانت شريكته في تلك العنق، وفي ماله. وقد روى هذا المعنى من طريق. وأخرج ابن جرير، من طريق العوفي، عن ابن عباس في الآية قال: كان الرجل يتزوج بمال اليتيم ما شاء الله تعالى، فنهى الله عن ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: قصر الرجال على أربع نسوة من أجل أموال اليتامى. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قال: كان الرجل يتزوج ما شاء، فقال: كما تخافون ألا تعملوا في اليتامى، فخافوا ألا تعملوا فيه، فقصروهم على الأربع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: كانوا في الجاهلية ينكحون عشرين من النساء الأيامى، وكانوا يعظمون شأن اليتيم، فتفقوا من بينهم شأن اليتامى، وتركوا ما كانوا ينكحون في الجاهلية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: كما خفتم ألا تعملوا في اليتامى، فخافوا ألا تعملوا في النساء إذا جمعتموهن عنكم. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق محمد بن أبي موسى الأشعري عنه قال: فإن خفتم الزنا، فأنكحوهن، يقول: كما خفتم في أموال اليتامى ألا تقسطوا فيها، فكنلك، فخافوا على أنفسهم ما لم تنكحوا، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي مالك: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ قال: ما حل لكم. وأخرج ابن جرير، عن الحسن، وسعيد بن جببر مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن عائشة نحوه. وأخرج الشافعي، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، والنحاس في ناسخه، والدارقطني، والبيهقي، عن ابن عمر: «أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم، وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن» وفي لفظ: «امسك

أنتهما صفتان لمصدر محنوف، أي: اكلا هنيئاً مريئاً، أو قائمان مقام المصدر، أو على الحال، يقال: هناء الطعام الشراب يهنيه ومراه، وأمراه من الهنيء، والمريء، والفعل هنأ، ومراه، أي: أتى من غير مشقة، ولا غيظ، وقيل: هو الطيب الذي لا تنغص فيه، وقيل: المحمود العاقبة الطيب الهضم، وقيل: مالا إثم فيه، والمقصود هنا أنه حلال لهم خالص عن الشوائب، وخص الأكل؛ لأنه معظم ما يرد بالمال وإن كان سائر الانتفاعات به جائزة كالإكل.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال: أمم ﴿وَوَخَّلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قال: حواء من قصيري أمم، أي: قصيري أضلاعه. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر قال: خلقت حواء من خلف آدم الأيسر، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: من ضلع الخلف، وهو من أسفل الأضلاع. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وَوَلَدْتُمُوهَا﴾ قال: تساءلون به. قال: تعاطون به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع قال: تعافدون وتعاهدون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: يقول أسالك بالله والرحم. وأخرج ابن جرير، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: اتقوا الله الذي تساءلون به، واتقوا الأرحام، وصلوها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ قال: حفيظاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر قال: إن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له، فلما بلغ اليتيم طلب ماله، فمنعه عمه، فخاصمه إلى النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني الأوصياء، يقول: أعطوا اليتامى أموالهم: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ يقول: لا تستبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تذروا أموالكم للحلال، وتاكلوا أموالهم الحرام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن مجاهد قال: لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتك الحلال الذي قدر لك: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قال: مع أموالكم تخلصونها، فتلكونها جميعاً ﴿إِنَّهُ كَانَ حَوِيًّا﴾ إنما. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في الآية قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا يورثون الصغار يأخذهم الأكبر، فنصيبه من الميراث طيب، وهذا الذي يأخذ خبيث. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة قال: مع أموالكم، وأخرج ابن جرير، عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية في أموال اليتامى كرهوا أن يخالطوهم، وجعل ولي اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: 220] قال: فخالطوهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما: أن عروة سأل عائشة عن قول

قال: ألا تمليلوا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: ألا تمليلوا، ثم قال: أما سمعت قول أبي طالب:

بميزان قسط لا يخيس شعيرة
روان صدق وزنه غير عائل
وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد: قال: ألا تمليلوا. وأخرج ابن أبي شيبة، عن أبي رزين، وأبي مالك، والضحاك مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم في الآية، قال: ذلك أدنى ألا يكتر من تعولوا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان بن عيينة قال: ألا تفقروا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوّج أيمّة أخذ صداقها نونها، فنهاهم الله عن ذلك، ونزلت: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتَهُنَّ نَحْلَةً﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿نَحْلَةً﴾ قال: يعني: بالنحلة المهر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عائشة: ﴿نَحْلَةً﴾ قالت: واجبة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جرير: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتَهُنَّ نَحْلَةً﴾ قال: فريضة مسماة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ﴾ قال: هي للأزواج. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾ قال: من الصداق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طريق علي، عن ابن عباس: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ يقول: إذا كان من غير ضرار، ولا خديعة، فهو هنيء مريء، كما قال الله.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ زِينَةً وَأَنْزَلْنَاهُمْ فِيهَا وَأَكْسَبْتُمْ وَلَهُمْ وَنُكِحُوا الْأَيَّامَ الَّتِي بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا كَانَ عَرِيًّا فَلْيَسْتَعِذَّ وَنَ كَانَ فَعِيرًا قَلِيلًا كَلِ الْمَكْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿١٠١﴾

هذا رجوع إلى بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى. وقد تقدّم الأمر برفع أموالهم إليهم في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا اليتامى أموالهم﴾ [النساء: 2] فبين سبحانه هاهنا أن السفهية، وغير البالغ لا يجوز دفع ماله إليه. وقد تقدّم في البقرة معنى السفهية لغة.

واختلف أهل العلم في هؤلاء السفهاء من هم؟ فقال سعيد بن جببر: هم اليتامى لا تؤتوهم أموالكم. قال النحاس، وهذا من أحسن ما قيل في الآية. وقال مالك: هم الأولاد الصغار لا تعطوهم أموالكم، فيفسدوها، وتبقوا بلا شيء. وقال مجاهد: هم النساء. قال النحاس، وغيره: وهذا القول لا يصح إنما تقول العرب سفاهة، أو سفهيات. واختلفوا في وجه إضافة الأموال إلى المخاطبين، وهي للسفهاء، فقيل: أضافها إليهم؛ لأنها بأيديهم، وهم الناظرون فيها، كقوله:

منهنّ أربعاً، وفارق سائرهنّ، هذا الحديث أخرجه هؤلاء المذكورين من طرق، عن إسماعيل بن عليه، وغندر، وزيد بن زريع، وسعيد بن أبي عروبة، وسفيان الثوري، وعيسى بن يونس، وعبد الرحمن بن محمد المحاربي، والفضل بن موسى، وغيرهم من الحفاظ عن معمر، عن الزهري، عن سالم عن أبيه، فنكره. وقد علل البخاري هذا الحديث، فحكي عنه الترمذي أنه قال: هذا حديث غير محفوظ. والصحيح ما روي عن شعب، وغيره، عن الزهري حدثت، عن محمد بن سويد الثقفي أن غيلان بن سلمة، فنكره، وأما حديث الزهري، عن أبيه: أن رجلاً من ثقيف طلق نساءه، فقال له عمر: لأرجمن قبرك، كما رجم قبر أبي رغال. وقد رواه معمر، عن الزهري مرسلًا، وهكذا رواه مالك عن الزهري مرسلًا. قال أبو زرعة: وهو أصح. ورواه عقيل، عن الزهري: بلغنا عن عثمان بن محمد بن أبي سويد قال: أبو حاتم: وهذا وهم، إنما هو الزهري، عن عثمان بن أبي سويد. وقد سامه أحمد برجال الصحيح، فقال: حدثنا إسماعيل، ومحمد بن جعفر قال: حدثنا معمر، عن الزهري قال أبو جعفر في حديثه: أخبرنا ابن شهاب، عن سالم عن أبيه أن غيلان، فنكره، وقد روى من غير طريق معمر، والزهري، فأخرجه البيهقي، عن أيوب، عن نافع، وسالم، عن ابن عمر: أن غيلان فنكره. وأخرج أبو داود وابن ماجه في سنتهما عن عمير الأسدي قال: أسلمت، وعندي ثمان نسوة، فنكرت للنبي ﷺ، فقال: اختر منهنّ أربعاً. قال ابن كثير: إن إسناده حسن. وأخرج الشافعي في مسنده، عن نوفل بن معاوية الديلي قال: أسلمت، وعندي خمس نسوة، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك أربعاً، وفارق الأخرى». وأخرج ابن ماجه، والنحاس في ناسخه، عن قيس بن الحارث الأسدي قال: «أسلمت وكان تحتي ثمان نسوة، فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: اختر منهنّ أربعاً، وخلّ سائرهنّ، ففعلت» وهذه شواهد للحديث الأول، كما قال البيهقي. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي في سننه عن الحكم قال: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن المملوك لا يجمع من النساء فوق اثنتين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية يقول: إن خفت ألا تعدل في أربع فثلاث، وإلا فثنتين، وإلا فواحدة، فإن خفت ألا تعدل في واحدة، فما ملكت يمينك. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله. وأخرج أيضاً، عن الضحاك: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ قال: في المجامعة، والحب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي: ﴿أَوْ مَا لَمَلَكْتَ لِيَمَانَكُمْ﴾ قال: السراري. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان في صحيحه، عن عائشة، عن النبي ﷺ: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ قال: ألا تجزوا. قال ابن أبي حاتم قال أبي: هذا حديث خطأ، والصحيح، عن عائشة موقوف. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طريق، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾

تحقيقه. وقد اختلفوا في معنى الاختبار، فقيل: هو أن يتأمل الوصي أخلاق يتيمة، ليعلم بنجابتها، وحسن تصرفه، فيدفع إليه ماله إذا بلغ النكاح، وأنس منه الرشد، وقيل: معنى الاختبار: أن يدفع إليه شيئاً من ماله، ويأمره بالتصرف فيه حتى يعلم حقيقة حاله، وقيل: معنى الاختبار: أن يرد النظر إليه في نفقة الدار ليعرف كيف تدبيره، وإن كانت جارية رد إليها ما يرد إلى ربة البيت من تدبير بيتها. والمراد ببلوغ النكاح بلوغ الحلم لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ [النور: 59] ومن علامات البلوغ الإنبات، وبلوغ خمس عشرة سنة. وقال مالك، وأبو حنيفة، وغيرهما: لا يحكم لمن لم يحتلم بالبلوغ إلا بعد مضي سبع عشرة سنة، وهذه العلامات تعم الذكر، والأنثى، وتختص الأنثى بالحبل، والحيض. قوله: ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ﴾ أي: أبصرتم، ورايتم، ومنه قوله: ﴿أَنْتُمْ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: 29]. قال الأزهرى: تقول العرب اذهب، فاستأنس هل ترى أحداً، معناه: تبصر، وقيل: هو هنا بمعنى: وجد وعلم، أي: فإن وجبت، وعلمتم منهم رشداً. وقراءة الجمهور: «رشد» بضم الراء وسكون الشين. وقرأ ابن مسعود، والسلمي، وعيسى اللقفي بفتح الراء، والشين، قيل: هما لغتان، وقيل: هو بالضم مصدر رشد، وبالفتح مصدر رشد.

واختلف أهل العلم في معنى الرشد هاهنا، فقيل: الصلاح في العقل، والدين، وقيل: في العقل خاصة. قال سعيد بن جبير، والشعبي: إنه لا يدفع إلى اليتيم ماله إذا لم يؤنس رشده، وإن كان شيئاً. قال الضحاك: وإن بلغ مائة سنة. وجمهور العلماء على أن الرشد لا يكون إلا بعد البلوغ، وعلى أنه إن لم يرشد بعد بلوغ الحلم لا يزول عنه الحجر. وقال أبو حنيفة، لا يحجر على الحر البالغ، وإن كان أفسق الناس، وأشدهم تبذيراً، وبه قال النخعي، وزفر، وظاهر النظم القرآني أنها لا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد بلوغ غاية هي: بلوغ النكاح مقيدة هذه الغاية بإنباس الرشد، فلا بد من مجموع الأمرين، فلا تدفع إلى اليتامى أموالهم قبل البلوغ، وإن كانوا معروفين بالرشد، ولا بعد البلوغ إلا بعد إنباس الرشد منهم. والمراد بالرشد: نوعه، وهو المتعلق بحسن التصرف في أمواله، وعدم التبذير بها، ووضعها في مواضعها. قوله: ﴿وَلَا تَاكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ الإسراف في اللغة: الإفراط، ومجازة الحد. وقال التضر بن شميل: السرف التبذير، والبدار المبادرة و﴿أَنْ يَكْبَرُوا﴾ في موضع نصب بقوله: ﴿بِدَارًا﴾ أي: لا تاكلوا أموال اليتامى أكل إسراف، وأكل مبادرة لكبرهم، أو لا تاكلوا لأجل السرف، ولأجل المبادرة أو لا تاكلوها مسرفين، ومباردين لكبرهم، ويقولون ننفق أموال اليتامى. فيما نشتهي قبل أن يبلغوا، فينتزعوها من أيدينا. قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بين سبحانه ما يحل لهم من أموال اليتامى، فأمر الغني بالاستعفاف وتوفير مال الصبي عليه، وعدم تناوله منه،

﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: 61]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 54] أي: ليسلم بعضكم على بعض، وليقتل بعضكم بعضاً، وقيل: أضافها إليهم؛ لأنها من جنس أموالهم، فإن الأموال جعلت مشتركة بين الخلق في الأصل، وقيل المراد: أموال المخاطبين حقيقة، وبه قال أبو موسى الأشعري، وابن عباس، والحسن، وقتادة. والمراد: النهي عن دفعها إلى من لا يحسن تدبيرها كالنساء، والصبيان، ومن هو ضعيف الإدراك لا يهتدي إلى وجوه النفع التي تصلح المال، ولا يتجنب، وجوه الضرر التي تهلكه، وتذهب به. قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ المفعول الأول محذوف، والتقدير التي جعلها الله لكم، و﴿قِيَمًا﴾ قراءة أهل المدينة، وأبي عامر، وقرأ غيرهم: «قيماً» وقرأ عبد الله بن عمر: «قوام» والقِيَام والقوام: ما بقيكم، يقال فلان قِيَام أهله، وقوام بيته، وهو الذي يقيم شأنه، أي: يصلحه، ولما انكسرت القاف في قوام أبولوا الواو ياء. قال الكسائي، والفراء: قِيَمًا وقواماً بمعنى قِيَمًا، وهو: منصوب على المصدر أي: لا تؤثروا السفهاء أموالكم التي تصلح بها أموركم، فتقومون بها قِيَمًا، وقال الأخفش: المعنى قائمة بأموركم، فذهب إلى أنها جمع. وقال البصريون: قِيَمًا جمع قيمة كقيمة وبيم، أي: جعلها الله قيمة للأشياء. وخطأ أبو علي الفارسي هذا القول، وقال: هي مصدر، كقيام وقوام. والمعنى: أنها صلاح للحال، وثبات له، فاما على قول من قال: إن المراد أموالهم على ما يقتضيه ظاهر الإضافة، فالمعنى واضح. وأما على قول من قال إنها أموال اليتامى، فالمعنى أنها من جنس ما تقوم به معاشيكم، ويصلح به حالكم من الأموال. وقرأ الحسن، والنخعي: «اللاتي جعل» قال الفراء: الأكثر في كلام العرب النساء اللواتي، والأموال التي، وكذلك غير الأموال، نكره النحاس. قوله: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أي: اجعلوا لهم فيها رزقاً، أو افرضوا لهم، وهذا فيمن تلزم نفقته، وكسوته من الزوجات، والأولاد، ونحوهم. وأما على قول من قال: إن الأموال هي أموال اليتامى، فالمعنى اتجروا فيها حتى تربحوا، وتنفقوهم من الأرباح، أو اجعلوا لهم من أموالهم رزقاً ينفقونه على أنفسهم، ويكتسبون به. وقد استدلل بهذه الآية على جواز الحجر على السفهاء، وبه قال الجمهور. وقال أبو حنيفة: لا يحجر على من بلغ عاقلاً، واستدل بها أيضاً على وجوب نفقة القرابة، والخلاف في ذلك معروف في مواطنه. قوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قيل: ادعوا لهم: بارك الله فيكم، وحاطكم، وصنع لكم، وقيل معناه: عدوهم وعداً حسناً قولوا لهم: إن رشتهم نفعنا إليكم أموالكم، ويقول الأب لابنه: مالي سيصير إليك، وأنت إن شاء الله صاحبه، ونحو ذلك. والظاهر من الآية ما يصنق عليه مسمى القول الجميل، ففيه إرشاد إلى حسن الخلق مع الأهل، والأولاد، أو مع الأيتام المكفولين. وقد قال النبي ﷺ فيما صح عنه: «خيركم خيركم أهله، وأنا خيركم أهلي». قوله: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى﴾ الابتلاء: الاختبار. وقد تقدّم

وسَوْغَ للفقير أن ياكل بالمعروف.

واختلف أهل العلم في الأكل بالمعروف ما هو؟ فقال قوم: هو القرض إذا احتاج إليه، ويقضي متى أيسر الله عليه، وبه قال عمر بن الخطاب، وابن عباس، وعبيدة السلماني، وابن جبير، والشعبي، ومجاهد، وأبو العالية، والأوزاعي، وقال النخعي، وعطاء، والحسن، وقتادة: لا قضاء على الفقير فيما ياكل بالمعروف، وبه قال جمهور الفقهاء. وهذا بالنظم القرآني الصق، فإن إباحة الأكل للفقير مشعرة بجواز ذلك له من غير قرض. والمراد بالمعروف: للمتعارف به بين الناس، فلا يترفع بأموال اليتامى، ويبالغ في التمتع بالملكول، والمشروب، والملبوس، ولا يدع نفسه عن سدّ الفاقة، وستر العورة. والخطاب في هذه الآية لأولياء الأيتام القائمين بما يصلحهم كالآب، والجدة، ووصيهما. وقال بعض أهل العلم: المراد بالآية: اليتيم إن كان غنياً، وسع عليه، وعفّ من ماله، وإن كان فقيراً كان الإنفاق عليه بقدر ما يحصل له، وهذا القول في غاية السقوط. قوله: ﴿فَإِنْ نَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا حصل مقتضى الدفع، فدفعتهم إليهم أموالهم، فأشهدوا عليهم أنهم قد قبضوها منكم لتتفع عنكم التهم، وتأمّنوا عاقبة الدعاوى الصادرة منهم، وقيل: إن الإشهاد المشروع هو ما أنفقه عليهم الأولياء قبل رشدهم، وقيل: هو على ردّ ما استقرضه إلى أموالهم، وظاهر النظم القرآني مشروعية الإشهاد على ما نفع إليهم من أموالهم، وهو يعمّ الإنفاق قبل الرشد، والنفع للجميع إليهم بعد الرشد: ﴿وَكُفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: حاسباً لأعمالكم شاهداً عليكم في كل شيء تعملونه، ومن جملة ذلك معاملتكم لليتامى في أموالهم، وفيه وعيد عظيم، والباء زائدة، أي: كفى الله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَتُوتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ يقول لا تعتمد إلى مالك، وما خولك الله، وجعله لك معيشة، فتعطيه امرأتك، أو بنتك، ثم تضطر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك، وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم في كسوتهم، ورزقهم، ومؤونتهم. قال: وقوله: ﴿قَوْلَاهُمْ﴾ يعني: قوامكم من معايشكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه من طريق العوفي في الآية يقول: لا تسلط السفهية من ولتك على مالك، وأمره أن يرزقه منه، ويكسوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: هم بنوك، والنساء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النساء السفهاء إلا التي أطاعت قيمها». وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: هم الخدم، وهم شياطين الإنس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن مسعود قال: هم النساء، والصبيان. وأخرج ابن جرير، عن حزمي: أن رجلاً عمد، فنفع ماله إلى امرأته، فوضعت في غير الحق، فقال الله: ﴿وَلَا تَتُوتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبير قال: هم اليتامى، والنساء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن

عكرمة قال: هو مال اليتيم، يكون عنك، يقول لا تؤتّه إياه، وأنفق عليه حتى يبلغ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ﴾ يقول: أنفقوا عليهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال: أمروا أن يقولوا لهم قولاً معروفاً في البرّ، والصلة. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال: عدة تعونهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى﴾ يعني: اختبروا اليتامى عند الحلم ﴿فَإِنْ أَنْسَمْتُمْ﴾ عرفتم ﴿مِنْهُمْ رَشْدًا﴾ في حالهم، والإصلاح في أموالهم: ﴿فَانْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ يعني تأكل مال اليتيم ببادرة قبل أن يبلغ، فتحول بينه، وبين ماله. وأخرج البخاري، وغيره، عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية في وليّ اليتيم: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ ومن كان فقيراً فلياكل بالمعروف. بقدر قيامه عليه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ قال بغناه: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: ياكل من ماله يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم، وأخرج ابن جرير عنه قال: هو القرض. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي، عن ابن عباس قال: إن كان فقيراً أخذ من فضل اللبن، وأخذ من فضل القوت، ولا يجارزه، وما يستر عورته من الثياب، فإن أيسر قضاءه، وإن أعسر، فهو في حل. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طرق عن عمر بن الخطاب قال: إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة، وليّ اليتيم، إن استغثت استعففت، وإن احتجت أخذت منه بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر: «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ، فقال: ليس لي مال، ولي يتييم فقال: كل من مال يتييمك غير مسرف، ولا مبذر، ولا متائل مالا، ومن غير أن تقي مالك بماله». وأخرج أبو داود، والنحاس كلاهما في الناسخ، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: نسختها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ

أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ [النساء: 10] الآية.

لِرِجَالٍ تَحِيبُ مِمَّا رَزَقَ الْوَلَدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ مِمَّا رَزَقَ الْوَلَدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نِصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿١٢﴾ وَلَا تَحْسَبِ الْيَتِيمَ لَوْ تَزَكَّىٰ مِنْ عُلَاقَتِهِ ذُرِّيَةً ضَمِنَ خَاوِفًا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْتَوْفُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَوِيًّا ﴿١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ كَيْتَمًا إِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِي بَطْنِهِمْ نَارًا وَهُمْ لَنَبَوِّئُكَ سِوَىٰ ﴿١٤﴾

لما نكر سبحانه حكم أموال اليتامى، وصله بأحكام الموارث، وكيفية قسمتها بين الورثة. وأقرّد سبحانه ذكر

والمعنى: وليخش الذين صفتهم، وحالهم أنهم لو شارقوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم، وكاسبهم، ثم أمرهم بتقوى الله، والقول السيد للمحتضرين، أو لأولادهم من بعدهم على ما سبق. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ استئناف يتضمن النهي عن ظلم الأيتام من الأولياء، والأوصياء، وانتصاب قوله: ﴿ظُلماً﴾ على المصدرية، أي: أكل ظلم، أو على الحالية، أي: ظالمين لهم. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾ أي: ما يكون سبباً للنار، تعبيراً بالمسبب عن السبب، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية. وقوله: ﴿وَيُصِصِلُونَ﴾ قراءة عاصم، وابن عامر بضم الياء على ما لم يسم فاعله. وقرأ أبو حنيفة بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام من التصلية بكثرة الفعل مرة بعد أخرى. وقرأ الباقون بفتح الياء من صلى النار يصلأها، والصلى هو: التسخن بقرب النار، أو مباشرتها، ومنه قول الحارث بن عباد:

لم أكن من جنايتها علم الله ۞ وإنني لحزها اليوم صالي
والسعين: الجمر المشتعل.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، ولا الصغار حتى يدركوا، فمات رجل من الأنصار يقال له: أوس بن ثابت، وترك ابنتين، وابناً صغيراً، فجاء ابنه عمه، وهما عصبته إلى رسول الله ﷺ، فأخذ ميراثه كله، فجاء امرأته إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية، فأرسل إليهما رسول الله ﷺ فقال: لا تحركا من الميراث شيئاً، فإنه قد أنزل على شيء احترت فيه إن للذكر والأنثى نصيباً، ثم نزل بعد ذلك: ﴿وَيُصِصِلُونَ﴾ [النساء: 127]، ثم نزل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: 11] فدعا بالميراث، فأعطى المرأة الثمن، وقسم ما بقي للذكر مثل حظ الأنثيين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في الآية قال: نزلت في أم كلثوم ابنة أم كحلّة، أو أم كحة، وثعلبية بن أوس، وسويد، وهم من الأنصار، كان أحدهم زوجها، والآخر عم ولدها، فقالت: يا رسول الله توفي زوجي، وتركني، وابنته، فلم نورث من ماله، فقال عم ولدها: يا رسول الله لا يركب فرساً، ولا ينكح عدواً ويكسب عليها، ولا يكتسب، فنزلت. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ قال: هي محكمة، وليست بمنسوخة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن خطاب بن عبد الله في هذه الآية قال: قضى بها أبو موسى. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في الآية قال: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، عن الحسن، والزهرري قالاً: هي محكمة ما طابت به أنفسهم. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال:

النساء بعد ذكر الرجال، ولم يقل للرجال، والنساء نصيب، للإيذان بأصالتها في هذا الحكم، ونفع ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء، وفي ذكر القرابة بيان لعل الميراث مع التعميم لما يصدق عليه مسمى القرابة من نوع تخصيص. وقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل من قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ بإعادة الجار، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى المبدل منه. وقوله: ﴿نَصِيباً﴾ منتصب على الحال، أو على المصدورية، أو على الاختصاص، وسيأتي ذكر السبب في نزول هذه الآية إن شاء الله، وقد أجمل الله سبحانه في هذه المواضع قدر النصيب المفروض، ثم أنزل قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: 11] فبين ميراث كل فرد. قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى﴾ المراد بالقرابة هنا: غير الوارثين، وكذا اليتامى، والمساكين، شرع الله سبحانه أنهم إذا حضروا قسمة التركة كان لهم منها رزق، فيرضخ لهم المتقاسمون شيئاً منها. وقد ذهب قوم إلى أن الآية محكمة، وأن الأمر للندب. وذهب آخرون إلى أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: 11] والأول أرجح، لأن المذكور في الآية للقرابة غير الوارثين ليس هو من جملة الميراث حتى يقال إنها منسوخة بآية الموارث، إلا أن يقولوا إن أولى القرابة المذكورين هنا هم الوارثون كان للنسخ وجه. وقالت طائفة: إن هذا الرضخ لغير الوارث من القرابة واجب بمقدار ما تطيب به أنفس الورثة، وهو معنى الأمر الحقيقي، فلا يصار إلى النذب إلا لقرينة، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى المال المقسوم المملول عليه بالقسمة، وقيل: راجع إلى ما ترك. والقول المعروف: هو القول الجميل الذي ليس فيه من بما صار إليهم من الرضخ ولا أذى. قوله: ﴿وَلِيُخْشِشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا هُمُ الْأَوْصِيَاءُ﴾ كما ذهب إليه طائفة من المفسرين، وفيه وعظ لهم بأن يفعلوا باليتامى الذين في حوزهم ما يحبون أن يفعل بأولادهم من بعدهم؛ وقالت طائفة: المراد جميع الناس أمروا باتقاء الله في الأيتام، وأولاد الناس، وإن لم يكونوا في حوزهم؛ وقال آخرون: إن المراد بهم: من يحضر الميت عند موته، أمروا بتقوى الله، وبأن يقولوا للمحتضر قولاً سديداً من إرشادهم إلى التخلص عن حقوق الله، وحقوق بني أم، وإلى الوصية بالقرب المقربة إلى الله سبحانه، وإلى ترك التبذير بماله، وإحرام ورثته، كما يخشون على ورثتهم من بعدهم لو تركوهم، فقراء عالة يتكففون الناس، وقال ابن عطية: الناس صنفان يصلح لأحدهما أن يقال له عند موته ما لا يصلح للآخر، وذلك أن الرجل إذا ترك ورثته مستقلين بأنفسهم أغنياء حسن أن ينذب إلى الوصية، ويحمل على أن يقدم لنفسه، وإذا ترك ورثته ضعفاء مفلسين حسن أن ينذب إلى الترك لهم، والاحتياط، فإن أجره في قصد ذلك كأجره في المساكين. قال القرطبي: وهذا التفصيل صحيح. قوله: ﴿لَوْ تَرَكَوْا﴾ صلة الموصول، والفاء في قوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٦﴾
وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا كَالْحَلِيلَةِ فِيهَا
وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِمٌّ ﴿٣٧﴾

هذا تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ [النساء: 7] الآية، وقد استدلل بذلك على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وهذه الآية ركن من أركان الدين، وعمدة من عمد الأحكام، وأم من أمهات الآيات لاشتمالها على ما يهم من علم الفرائض، وقد كان هذا العلم من أجل علوم الصحابة، وأكثر مناظراتهم فيه، وسيأتي بعد كمال تفسير ما اشتمل عليه كلام الله من الفرائض نكر بعض فضائل هذا العلم إن شاء الله. قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَانِكُمْ﴾ أي: في بيان ميراثهم. وقد اختلفوا هل يدخل أولاد الأولاد أم لا، فقالت الشافعية: إنهم يدخلون مجازاً لا حقيقة، وقالت الحنفية: إنه يتناولهم لفظ الأولاد حقيقة إذا لم يوجد أولاد الصلب، ولا خلاف أن بني البنين كالبنين في الميراث مع عدمهم، وإنما هذا الخلاف في دلالة لفظ الأولاد على أولادهم مع عدمهم، ويدخل في لفظ الأولاد من كان منهم كافراً، ويخرج بالسنة، وكذلك يدخل القاتل عمداً، ويخرج أيضاً بالسنة، والإجماع، ويدخل فيه الخنثى. قال القرطبي: وأجمع العلماء أنه يورث من حيث يبذل، فإن بال منهما، فمن حيث سبق، فإن خرج البول منهما من غير سبق أحدهما، فله نصف نصيب الذكر، ونصف نصيب الأنثى، وقيل: يعطى أقل النصيبين، وهو نصيب الأنثى، قاله يحيى بن آدم، وهو قول الشافعي. وهذه الآية ناسخة لما كان في صدر الإسلام من الموارثة بالحلف، والهجرة، والمعاقدة، وقد أجمع العلماء على أنه إذا كان مع الأولاد من له فرض مسمى أعطيه، وكان ما بقي من المال للذكر مثل حظ الأنثيين، للحديث الثابت في الصحيحين، وغيرهما بلفظ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض، فلاولى رجل نكرة، إلا إذا كان ساقطاً معهم، كالأخوة لام». وقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ جملة مستأنفة لبيان الوصية في الأولاد، فلا بد من تقدير ضمير يرجع إليهم: ويوصيكم الله في أولادكم للذكر منهم مثل حظ الأنثيين. والمراد: حال اجتماع الذكور، والإناث، وأما حال الانفراد، فللذكر جميع الميراث، وللأنثى النصف، وللاثنيتين، فصاعداً الثلثان. قوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: فإن كن الأولاد، والثانيتين باعتبار الخبر، أو البنات، أو المولودات نساء ليس معهن نكر فوق اثنتين، أي: زائدات على اثنتين على أن فوق صفة لنساء، أو يكون خبراً ثانياً لكان: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ الميت الملول عليه بقرينة المقام. وظاهر النظم القرآني أن الثلثين فريضة الثلاث من البنات، فصاعداً، ولم يسم للاثنيتين فريضة، ولهذا اختلف أهل العلم في فريضتهما، فذهب الجمهور إلى أن لهما إذا انفردتا عن البنين الثلثين، وذهب ابن عباس إلى أن فريضتهما النصف، لاحتج الجمهور بالقياس على الاختين،

يرضخ لهما فإن كان في ماله تقصير اعتذر إليهم، فهو قولاً معروفاً. وأخرج ابن المنذر، عن عائشة أنها لم تنسخ. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم: أن هذه الآية منسوخة بآية الميراث. وأخرج أبو داود في ناسخه، وعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب قال: هي منسوخة. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبيرة قال: إن كانوا كباراً يرضخوا، وإن كانوا صغاراً اعتذروا إليهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا﴾ قال: هذا في الرجل يحضر الرجل عند موته، فيسمعه يوصي وصية تضر بورثته، فأمر الله الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه، ويسدده للصواب، ولينظر لورثته، كما يحب أن يصنع لورثته إذا خشى عليهم الضيعة. وقد روى نحو هذا من طرق. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو يعلى، والطبراني، وابن حبان في صحيحه، وابن أبي حاتم، عن أبي بركة عن رسول الله ﷺ قال: «يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تاجع أقوامهم ناراً، فقيل: يا رسول الله من هم؟ قال: ألم تر أن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الخدري، قال: حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسرى به قال: «نظرت فإذا يقوم لهم مشافرون، كمشافري الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافريهم، ثم يجعل في أقوامهم صخراً من نار فيقف في في أحدهم حتى يخرج من أسافلهم، ولهم جوار، وصراخ، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾ وسيصلون سعيراً». وأخرج ابن جرير، عن زيد بن أسلم قال: هذه الآية لاهل الشرك حين كانوا لا يورثونهم، ويأكلون أموالهم.

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأُولَآئِ الَّذِينَ لَا وَجَرَ مِنْهُمْ الشُّدُّ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أُوَّاهٌ فَلِأَوَّاهٍ الثُّلُثُ إِنْ كَانَ لَهُ أُخْوَةٌ فَلِأَوَّاهٍ الشُّدُّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَ يَآ أَوْ دَيْنٌ أَمْأَاتُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْمًا فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٨﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ كُنَّ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَ يَآ أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَ يَآ أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَالنَّكَاهِ أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أُخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلٍّ وَجَرٌ مِنْهُمَا الشُّدُّ إِنْ كَانَ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَ يَآ أَوْ دَيْنٌ غَيْرَ مُضَآكَرٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣٩﴾ نَسَلَكُ حُدُودَ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ

«السدس» يسكون الدال، وكذلك قرأ الثلث، والرابع إلى العشر بالسكون، وهي لغة بني تميم، وربيعة، وقرأ الجمهور بالتحريك ضمًا، وهي لغة أهل الحجاز، وبني أسد في جميعها. والمراد بالأبوين: الأب والأم، والتثنية على لفظ الأب للتغليب.

وقد اختلف العلماء في الجد، هل هو بمنزلة الأب، فتسقط به الأخوة أم لا؟ فذهب أبو بكر الصديق إلى أنه بمنزلة الأب، ولم يخالفه أحد من الصحابة أيام خلافته، واختلفوا في ذلك بعد وفاته، فقال بقول أبي بكر ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعائشة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وعطاء، وطاوس، والحسن، وقتادة، وأبو حنيفة، وأبو ثور، وإسحاق، واحتجوا بمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ابْنُ آدَمَ﴾ [الأعراف: 26، 27، 31، 35]، وقوله ﷺ: «ارموا يا بني إسماعيل»، وذهب علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت، وابن مسعود إلى توريث الجد مع الإخوة لأبوين أو لأب، ولا ينقص معهم من الثلث، ولا ينقص مع نوي الفروض من السدس في قول زيد، ومالك، والأوزاعي، وأبي يوسف، ومحمد، والشافعي. وقيل: بشرك بين الجد، والإخوة إلى السدس، ولا ينقصه من السدس شيئاً مع نوي الفروض، وغيرهم، وهو: قول ابن أبي ليلى، وطائفة. وذهب الجمهور إلى أن الجد يسقط بني الإخوة، وروى الشعبي عن علي أنه أجرى بني الإخوة في القاسمة مجرى الإخوة. وأجمع العلماء على أن الجد لا يرث مع الأب شيئاً، وأجمع العلماء على أن للجدة السدس إذا لم يكن للميت أم، وأجمعوا على أنها ساقطة مع وجود الأم، وأجمعوا على أن الأب لا يسقط الجدة أم الأم.

واختلفوا في توريث الجدة، وابنها حي، فروى عن زيد بن ثابت، وعثمان، وعلي أنها لا ترث، وابنها حي، وبه قال مالك، والثوري، والأوزاعي، وأبو ثور، وأصحاب الرأي. وروي عن عمر وابن مسعود، وأبي موسى: أنها ترث معه وروي أيضاً، عن علي، وعثمان، وبه قال شريح، وجابر بن زيد، وعبيد الله بن الحسن، وشريك، وأحمد، وإسحاق وابن المنذر. قوله: ﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الولد يقع على الذكر، والأنثى، لكنه إذا كان الموجود الذكر من الأولاد، وحده أو مع الأنثى منهم، فليس للجد إلا السدس، وإن كان الموجود أنثى كان للجد السدس بالفرض، وهو عصبية فيما عدا السدس، وأولاد ابن الميت كأولاد الميت. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: ولا ولد ابن لما تقدم من الإجماع ﴿وَوُورْثَهُ أَبَوَاهُ﴾ منفردين، عن سائر الورثة، كما ذهب إليه الجمهور من أن الأم لا تأخذ ثلث التركة إلا إذا لم يكن للميت وارث غير الأبوين، أما لو كان معها أحد الزوجين، فليس للأم إلا ثلث الباقي بعد الموجود من الزوجين. وروي عن ابن عباس أن للأم ثلث الأصل مع أحد الزوجين، وهو يستلزم تفضيل الأم على الأب في مسئلة زوج، وأبوين مع الاتفاق على أن أفضل منها عند انفردهما عن أحد الزوجين. قوله: ﴿فَإِنْ

فَإِنْ أَشْرَكَ قَالَ فِي شَانِهِمَا: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ﴾ [النساء: 76] فالحقوا البنيتين بالأختين في استحقاقهما الثلثين، كما الحقوا الأخوات إذا زين على اثنتين بالبنات في الاشتراك في الثلثين، وقيل: في الآية ما يدل على أن للبنيتين الثلثين، وذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث كان للإبنتين إذا انفردتا الثلثان، هكذا احتج بهذه الحجة إسماعيل بن عياش، والمبرد. قال النحاس: وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط؛ لأن الاختلاف في البنيتين إذا انفردتا عن البنين، وأيضاً للمخالف أن يقول إذا ترك بنتين، وأبناً فللبنتين النصف، فهذا دليل على أن هذا فرضهما، ويمكن تأييد ما احتج به الجمهور بأن الله سبحانه لما فرض للبنات الواحدة إذا انفردت النصف بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ كان فرض البنيتين إذا انفردتا فوق فرض الواحدة، وأوجب القياس على الأختين الاقتصار للبنيتين على الثلثين. وقيل: إن فوق زائدة، والمعنى: وإن كنَّ نساء اثنتين، كقوله تعالى: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: 12] أي: الأعناق، ورد هذا النحاس، وابن عطية، فقالا: هو خطأ؛ لأن الظروف، وجميع الأسماء لا تجوز في كلام العرب أن تزداد لغير معنى. قال ابن عطية: ولأن قوله: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ هو الفصيح، وليست فوق زائدة، بل هي محكمة المعنى؛ لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ، كما قال تريد بن الصمة: اخفض عن الدماغ، وارفع عن العظم، فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال. انتهى. وأيضاً لو كان لفظ فوق زائداً، كما قالوا لقال، فلهما ثلثا ما ترك، ولم يقل، فلهن ثلثا ما ترك، وأوضح ما يحتج به للجمهور ما أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان، إلا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَاكُمْ﴾ الآية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي، فهو لك، أخرجه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال الترمذي: ولا يعرف إلا من حديثه. قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ قرأ نافع، وأهل المدينة: «واحدة» بالرفع على أن كان تامة بمعنى: فإن وجدت واحدة، أو حثت واحدة. وقرأ الباقر بالنصب قال النحاس: وهذه قراءة حسنة، أي: وإن كانت المتروكة، أو المولودة واحدة، قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ أي: لأبوي الميت، وهو: كناية عن غير مذكور، وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه ﴿وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ بدل من قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ بتكرير العامل للتأكيد، والتفصيل. وقرأ الحسن، ونعيم بن ميسرة:

كان له إخوة فلامه السدس إطلاق الإخوة يدل على أنه لا فرق بين الإخوة لأبوين أو لأحدهما.

وقد أجمع أهل العلم على أن الإثنين من الإخوة يقومون مقام الثلاثة، فصاعداً في حجب الأم إلى السدس إلا ما يروى، عن ابن عباس أنه جعل الاثنين كالواحد في عدم الحجب. وأجمعوا أيضاً على أن الأختين، فصاعداً كالأخوين في حجب الأم. قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينٍ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم: «يوصى» بفتح الصاد. وقرأ الباقر بكسرهما، واختار الكسر أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأنه جرى نكر الميت قبل هذا. قال الأخفش: وتصنيق ذلك قوله: ﴿يُوصِيْنَ وَتُوصَوْنَ﴾.

وإختلف في وجه تقديم الوصية على الدين مع كونه مقدماً عليها بالإجماع، فقيل: المقصود تقديم الأمرين على الميراث من غير قصد إلى الترتيب بينهما، وقيل: لما كانت الوصية أقل لزوماً من الدين قُضِمَتْ اهتماماً بها؛ وقيل: قُضِمَتْ لكثرة وقوعها، فصارت كالأمر اللازم لكل ميت، وقيل: قدمت لكونها حظ المساكين، والفقراء، وآخر الدين لكونه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان، وقيل: لما كانت الوصية ناشئة من جهة الميت قدمت، بخلاف الدين، فإنه ثابت مؤدي ذكر أو لم يذكر، وقيل: قُضِمَتْ لكونها تشبه الميراث في كونها مأخوذة من غير عوض، فربما يشق على الورثة إخراجها، بخلاف الدين، فإن نفوسهم مطمئنة بأدائه، وهذه الوصية مقيدة بقوله تعالى: ﴿غَيْرِ مَضَارٍ﴾ كما سيأتي إن شاء الله. قوله: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ قيل: خبر قوله: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ مقدر أي: هم المقسوم عليهم، وقيل: إن الخبر قوله: ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ وما بعده ﴿وَأَقْرَبُ﴾ خبر قوله: ﴿أَيُّهُمْ﴾ و ﴿نَفْعًا﴾ تمييز، أي: لا تدرُونَ أيُّهم أقرب لكم نفعه في الدعاء لكم، والصنقة عنكم، كما في الحديث الصحيح: «أو ولد صالح يدعو له». وقال ابن عباس، والحسن: قد يكون الابن أفضل، فيشفع في أبيه. وقال بعض المفسرين: إن الابن إذا كان أرفع درجة من أبيه في الآخرة سأل الله أن يرفع إليه أباه، وإذا كان الأب أرفع درجة من ابنه سأل الله أن يرفع ابنه إليه؛ وقيل المراد: النفع في الدنيا، والآخرة، قاله ابن زيد، وقيل: المعنى: إنكم لا تدرُونَ من أنفع لكم من آبائكم، وأبنائكم، أمن أوصى منهم، فعرضكم لشواب الآخرة بأمضاء، وصيته، فهو أقرب لكم نفعاً، أو من ترك الوصية، ووفر عليكم عرض الدنيا؟ وقرئ هذا صاحب الكشف، قال: لأن الجملة اعتراضية، ومن حق الاعتراض أن يؤكد ما اعترض بينه، ويناسبه قوله: ﴿قَرِئَةُ مِنْ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر المؤكد، إذ معنى: ﴿يُوصِيَكُمْ﴾ يفرض عليكم. وقال مكي، وغيره: هي حال مؤكدة، والعامل يوصيكم. والأول أولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بقسمة الموازيت ﴿حَكِيمًا﴾ حكم بقسمتها، وبينها لاهلها. وقال الزجاج: ﴿عَلِيمًا﴾ بالأشياء قبل خلقها ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يقدره ويمضيه منها. قوله: ﴿وَلَكُمْ نَصْفُ

ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهنَّ ولد﴾ الخطاب هنا للرجال. والمراد بالولد ولد الصلب، أو ولد الولد لما قدمنا من الإجماع ﴿فَإِنْ كَانَ لهنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾، وهذا مجمع عليه لم يختلف أهل العلم في أن للزوج مع عدم الولد النصف، ومع وجوده، وإن سفل الربع. وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ﴾ الخ الكلام فيه، كما تقدم. قوله: ﴿وَلَهُنَّ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ هذا النصيب مع الولد، والنصيب مع عدمه تنفرد به الواحدة من الزوجات، ويشترك فيه الأكثر من واحدة لا خلاف في ذلك، والكلام في الوصية، والدين، كما تقدم. قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً﴾ المراد بالرجل الميت، و ﴿يُورِثُ﴾ على البناء للمفعول من ورث لا من أورث، وهو خبر كان و ﴿كَلَالَةً﴾ حال من ضمير ﴿يُورِثُ﴾ أي: يورث حال كونه ذا كلاله، أو على أن الخبر كلاله، ويورث صفة لرجل، أي: إن كان رجل يورث ذا كلاله ليس له ولد، ولا والد، وقرئ ﴿يُورِثُ﴾ مخففاً، ومشدداً، فيكون كلاله مفعولاً، أو حالاً، والمفعول محنوف، أي: يورث، وأريد حال كونه ذا كلاله، أو يكون مفعولاً له، أي: لأجل الكلاله. والكلاله مصدر من تكلمه النسب، أي: أحاط به، وبه سمي الإكليل لإحاطته بالرأس. وهو الميت الذي لا ولد له، ولا والد، هذا قول أبي بكر الصديق، وعمر، وعلي، وجمهور أهل العلم، وبه قال صاحب كتاب العين وأبي منصور اللغوي، وابن عرفة، والفتيبي، وأبو عبيد، وابن الأنباري. وقد قيل: إنه إجماع. قال ابن كثير: وبه يقول أهل المدينة، والكوفة، والبصرة، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور الخلف، والسلف بل جميعهم. وقد حكى الإجماع غير واحد، وورد فيه حديث مرفوع، انتهى. وروى أبو حاتم، والأثرم، عن أبي عبيدة أنه قال: الكلاله كل من لم يرث أب، أو ابن، أو أخ، فهو عند العرب كلاله. قال أبو عمر بن عبد البر: نكر أبي عبيدة الأخ هنا مع الأب، والابن في شرط الكلاله غلط لا وجه له، ولم يذكره في شرط الكلاله غيره، وما يروى عن أبي بكر، وعمر من أن الكلاله من لا ولد له خاصة، فقد رجعا عنه. وقال ابن زيد: الكلاله: الحي، والميت جميعاً، وإنما سماوا القرابة كلاله؛ لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه، وليسوا منه، ولا هو منهم، بخلاف الابن، والأب، فهنما طرفان له، فإذا ذهب تكلله النسب، وقيل: إن الكلاله مأخوذة من الكلال، وهو الإعياء، فكانه يصير الميراث إلى الوارث عن بعد، وإعياء. وقال ابن الأعرابي: إن الكلاله بنو العم الأباعد. وبالجمله فمن قرأ: ﴿يُورِثُ كَلَالَةً﴾ بكسر الراء مشددة، وهو بعض الكوفيين، أو مخففة، وهو الحسن، وأيوب جعل الكلاله القرابة، ومن قرأ: ﴿يُورِثُ﴾ بفتح الراء، وهم الجمهور احتمل أن يكون الكلاله الميت، واحتمل أن يكون القرابة. وقد روي عن علي، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس، والشعبي أن الكلاله ما كان سوى الولد، والوالد من الورثة. قال الطبري: الصواب أن الكلاله هم الذين

عليه، أو يوصي بوصية لا مقصد له فيها إلا الإضرار بالورثة. أو يوصي لوارث مطلقاً، أو لغيره بزيادة على الثلث، ولم تجز الورثة، وهذا القيد أعني قوله: ﴿غير مضار﴾ راجع إلى الوصية، والدين المذكورين، فهو قيد لهما، فما صدر من الإقرارات بالدين، أو الوصايا المنهي عنها له، أو التي لا مقصد لصاحبها إلا المضارة لورثته، فهو باطل مردود لا ينفذ منه شيء، لا الثلث، ولا بونه. قاله القرطبي: وأجمع العلماء على أن الوصية للوارث لا تجوز. انتهى. وهذا القيد أعني عدم الضرر هو قيد لجميع ما تقدم من الوصية، والدين. قال أبو السعود في تفسيره: وتخصيص القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت في حقهم. قوله: ﴿وصية من الله﴾ نصب على المصدر، أي: يوصيكم بذلك وصية من الله كقوله: ﴿فريضة من الله﴾ قال ابن عطية: ويصح أن يعمل فيها مضار. والمعنى: أن يقع الضرر بها، أو بسببها، فأوقع عليها تجزاً، فتكون وصية على هذا مفعولاً بها: لأن الاسم الفاعل قد اعتمد على ذي الحال، أو لكونه منفياً معنًى، وقرأ الحسن: ﴿وصية من الله﴾ بالجر على إضافة لسم الفاعل إليها، كقوله يا سارق الليلة أهل الدار. وفي كون هذه الوصية من الله سبحانه ليل على أنه قد وصى عباده بهذه التفاصيل المذكورة الفرائض، وأن كل وصية من عباده تخالفها، فهي مسبوقه بوصية الله، وذلك كالوصايا المتضمنة: لتفضيل بعض الورثة على بعض، أو المشتملة على الضرر بوجه من الوجوه، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى الأحكام المتقدمة، وسماها حدوداً لكونها لا تجوز مجاوزتها، ولا يحل تعديها ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ في قسمة الموارث، وغيرها من الأحكام الشرعية، كما يفيد عموم اللفظ: ﴿ننخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وهكذا قوله: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ قرأ نافع، وابن عامر ﴿ننخله﴾ بالنون. وقرأ الباقون بإلقاء التحتية. قوله: ﴿وله عذاب مهين﴾ أي: وله بعد إدخاله النار عذاب لا يعرف كنهه.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن جابر قال: عانني رسول الله ﷺ، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت. وقد قمنا أن سبب النزول سؤال امرأة سعد بن الربيع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواري، ولا الضعفاء من الغلمان، لا يرث الرجل من ولده إلا من أطلق القتال. فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر، وترك امرأة يقال لها: أم كحة، وترك خمس جوار، فأخذ الورثة ماله، فشكت تلك أم كحة إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فإن كن نساء فوق لنتين﴾ ثم قال في أم كحة: ﴿ولهن الربع مما تركتم﴾. وأخرج سعيد بن منصور، والحاكم، والبيهقي، عن ابن مسعود قال: كان عمر بن الخطاب إذا سلك بنا طريقاً، فاتبعتنا، وجننا سهلاً، وأنه سئل عن امرأة، وأبوين، فقال: للمرأة الربع، وللام ثلث ما بقي، وما بقي،

يرثون الميت من عدا ولده، والدة، لصحة خبر جابر «فقلت: يا رسول الله إنما يرثني كلاله، أقاوصي بمالي كله؟ قال: لا». انتهى. وروي عن عطاء أنه قال: الكلاله المال. قال ابن العربي وهذا قول ضعيف لا وجه له. وقال صاحب الكشف: إن الكلاله تنطلق على ثلاثة: على من لم يخلف ولداً، ولا والدًا، وعلى من ليس بولد، ولا والد من المخلفين، وعلى القرابة من غير جهة الولد، والوالد. انتهى. قوله: ﴿أو امرأة﴾ معطوف على رجل مقيد بما قيد به، أي: أو امرأة تورث كلاله. قوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾ قرأ سعد بن أبي وقاص من أم. وسياتي نكر من أخرج ذلك عنه. قال القرطبي: أجمع العلماء أن الإخوة ما هنا هم الإخوة لأم قال: ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة للاب، والام، أو للاب ليس ميراثهم هكذا، فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين في قوله تعالى: ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ [النساء: 176] هم الإخوة لأبوين، أو لأب، وأقرب الضمير في قوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾ لأن المراد كل واحد منهما، كما جرت بذلك عادة العرب إذا ذكروا اسمين مستويين في الحكم، فإنهم قد يذكرون الضمير الراجع إليهما مفرداً، كما في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة﴾ [البقرة: 45] وقوله: ﴿يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ [التوبة: 34]. وقد ينكرونه مثني، كما في قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ [النساء: 135]. وقد قمنا في هذا كلاماً أطول من المذكور هنا. قوله: ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ الإشارة بقوله: «من ذلك» إلى قوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي: أكثر من الأخ المتفرد، أو الأخت المتفردة بواحد، وذلك بأن يكون الموجود اثنين فصاعداً، ذكرين، أو أنثيين، أو نكراً، وأنثى. وقد استدلل بذلك على أن الذكر، كالأنثى من الإخوة لأم؛ لأن الله شرك بينهم في الثلث، ولم ينكر فضل الذكر على الأنثى، كما ذكره في البنين، والإخوة لأبوين، أو لأب. قال القرطبي: وهذا إجماع. وبلت الآية على أن الإخوة لأم إذا استكمل بهم المسألة كانوا أقدم من الإخوة لأبوين، أو لأب، وذلك في المسألة المسماة بالحمارية، وهي إذا تركت الميتة زوجاً، وأماً، وأخوين لأم، وإخوة لأبوين، فإن للزوج النصف، وللام السدس، وللأخوين لأم الثلث، ولا شيء للإخوة لأبوين. ووجه ذلك أنه قد وجد الشرط الذي يرث عنده الإخوة من الأم، وهو كون الميت كلاله، ويؤيد هذا حديث: «الحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي، فلأولي رجل نكر، وهو في الصحيحين، وغيرهما، وقد قررنا دلالة الآية، والحديث على ذلك في الرسالة التي سميناهما: «المباحث الدرية في المسألة الحمارية». وفي هذه المسألة خلاف بين الصحابة، فمن بعدهم معروف. قوله: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ الكلام فيه، كما تقدم. قوله: ﴿غير مضار﴾ أي: يوصي حال كونه غير مضار لورثته بوجه من وجوه الضرر، كان يقر بشيء ليس

فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿تلك حدود الله﴾ إلى قوله: ﴿عذاب مهين﴾ وفي إسناده شهر بن حوشب، وفيه مقال معروف. وأخرج ابن ماجه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع ميراث وأرثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة». وأخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه ابن أبي شيبة، وسعيد بن منصور، عن سليمان بن موسى قال: قال رسول الله ﷺ، فذكر نحوه. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص: «أن النبي ﷺ أتاه يعوده في مرضه، فقال: إن لي مالا كثيراً وليس يرثني إلا ابنة لي أقتصق بالثلثين؟ فقال لا، قال فالشطر؟ قال لا، قال فالثلث؟ قال الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر، ورثتك أغنياء خير من أن تترهم عائلة يتكففون الناس». وأخرج ابن أبي شيبة، عن معاذ بن جبل قال: إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم زيادة في حسناتكم: يعني: الوصية. وفي الصحيحين، عن ابن عباس قال: وددت أن الناس غصوا من الثلث إلى الربع؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «الثلث كثير». وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عمر قال: نكر عند عمر الثلث في الوصية، فقال: الثلث وسط لا بخس، ولا شطط. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علي قال: لأن أوصي بالخمسة أحب إلي من أن أوصي بالربع؛ ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث، ومن أوصى بالثلث لم يترك.

[فائدة] ورد في الترغيب في تعلم الفرائض، وتعليمها ما أخرجه الحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض، وعلموه الناس، فإني امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض، وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لا يجدان من يقضي بها». وأخرجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض، وعلموه، فإنه نصف العلم، وإنه ينسى، وهو أول ما ينزع من أمتي». وقد روى عن عمر، وابن مسعود، وأنس آثار في الترغيب في الفرائض، وكذلك روي عن جماعة من التابعين، ومن بعدهم.

وَأَلَيْكَ الْفَلْحَةُ مِّنْ يَّسَارِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكْهُمْ فِي الْمَبُوتِ حَتَّى يَبَوِّغَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَمُوتَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٌ ۖ وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّاهُمْ مِنْكُمْ فَتَادَوْهُمْ قَاتِ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۖ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ عَلَى اللَّهِ لَلَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْقُوَّةَ يَحْتَلِكُوا يُؤْبِتُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يُلَازِمُونَ اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ وَلَيْسَتِ الْوَرِثَةُ لِلَّذِينَ يَمْلِكُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتِّئْتُ وَلَآ أَلِيزَنَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَذِبٌ أُولَٰئِكَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ

لما نكر سبحانه في هذه السورة الإحسان إلى النساء، وإيصال صدقاتهن إليهن، وميراثهن مع الرجال، نكر التغليب عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهم أنه يسوغ

فلألب. وأخرج عبد الرزاق، والبيهقي، عن زيد بن ثابت نحوه. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أنه نخل على عثمان، فقال: إن الأخوين لا يردان الأم عن الثلث. قال الله: ﴿فإن كان له إخوة﴾ والأخوان ليس بلسان قومك إخوة، فقال عثمان: لا أستطيع أن أرد ما كان قبلي، ومضى في الأمصار، وتوارث به الناس. وأخرج الحاكم والبيهقي في سننه، عن زيد بن ثابت: أنه قال: إن العرب تسمي الأخوين إخوة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن الجارود، والدارقطني، والبيهقي في سننه عن علي قال: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وأن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أبناؤكم وأبنائكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا﴾ يقول: أطوعكم الله من الآباء، والأبناء أرفعكم درجة عند الله يوم القيامة؛ لأن الله سبحانه شفع المؤمنين بعضهم في بعض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿أقرب لكم نفعا﴾ قال: في الدنيا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والدارمي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يقرأ: ﴿وله أخ أو أخت من أم﴾. وأخرج البيهقي، عن الشعبي قال: ما ورث أحد من أصحاب النبي ﷺ الإخوة من الأم مع الجد شيئاً قط، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب قال: قضى عمر أن ميراث الأخوة لأم بينهم للذكر مثل الأنثى، قال: ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علمه من رسول الله، ولهذه الآية التي قال الله: ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس قال: الإضرار في الوصية من الكبائر، ثم قرأ: ﴿غير مضار﴾. وقد رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه مرفوعاً. وفي إسناده عمر بن المغيرة أبو حفص المصيصي. قال أبو القاسم بن عساكر: ويعرف بمفتي المساكين، وروي عنه غير واحد من الأئمة، قال فيه أبو حاتم الرازي: هو شيخ. قال: وعلي بن المديني: هو مجهول لا أعرفه. قال ابن جرير: والصحيح الموقوف. انتهى. ورجال إسناده هذا الموقوف رجال الصحيح، فإن النسائي رواه في سننه، عن علي بن حجر، عن علي بن مسهر، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة عنه. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، واللفظ له، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى خاف في وصيته، فيختم له بشر عمله، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة،

ينبئ عنه قوله: ﴿توباً رحيماً﴾ بل إنما تقبل من البعض دون البعض، كما بينه النظم القرآني ها هنا، فقوله: ﴿إنما للتوبة﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿للمن يعملون السوء بجهالة﴾. وقوله: ﴿على الله﴾ متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار، أو متعلق بمحذوف وقع حالاً عند من يجوز تقديم الحال التي هي ظرف على عاملها المعنوي، وقيل: المعنى: إنما التوبة على فضل الله ورحمته بعباده، وقيل: المعنى: إنما التوبة واجبة على الله، وهذا على مذهب المعتزلة؛ لأنهم يوجبون على الله عز وجل واجبات من جعلتها قبول توبة التائبين، وقيل: على هنا بمعنى عند، وقيل: بمعنى من.

وقد اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون﴾ [النور: 31] وذهب الجمهور إلى أنها تصح من ننب نون ذنب خلافاً للمعتزلة، وقيل: إن قوله: ﴿على الله﴾ هو الخبر. وقوله: ﴿للمن يعملون﴾ متعلق بما تعلق به الخبر، أو بمحذوف وقع حالا. والسوء هنا: العمل السيئ. وقوله: ﴿بجهالة﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة، أو حالاً، أي: يعملونها متصفين بالجهالة، أو جاهلين. وقد حكى القرطبي، عن قتادة أنه قال: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل معصية، فهي بجهالة عمداً كانت، أو جهلاً، وحكى عن الضحاك، ومجاهد أن الجهالة هنا: العمد، وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة، ومنه قوله تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ [محمد: 36] وقال الزجاج: معناه بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية، وقيل معناه: أنهم لا يعلمون كنه العقوبة، نكره ابن فورك، وضعفه ابن عطية. قوله: ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ معناه قبل أن يحضرهم الموت، كما يدل عليه قوله: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ وبه قال أبو مجلز، والضحاك، وعكرمة، وغيرهم، والمراد قيل: المعاينة للملائكة، وغلبة المرء على نفسه، و «من» في قوله: ﴿من قريب﴾ للتبعض، أي: يتوبون بعض زمان قريب، وهو ما عدا وقت حضور الموت، وقيل معناه: قبل المرض، وهو ضعيف، بل باطل لما قلناه، ولما أخرجه أحمد، والترمذي، وحسنه، وابن ملج، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» وقيل معناه: يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار. قوله: ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ هو وعد منه سبحانه بأنه يتوب عليهم بعد بيانه أن التوبة لهم مقصورة عليهم. وقوله: ﴿وليس التوبة للمن يعملون السيئات﴾ تصريح بما فهم من حصر التوبة فيما سبق على من عمل السوء بجهالة، ثم تاب من قريب قوله: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ حتى حرف ابتداء، والجملة المنكورة بعدها غاية لما قبلها، وحضور الموت حضور علاماته، وبلوغ المريض إلى حالة السيق، ومصيره مغلوباً على نفسه مشغولاً بخروجها من بدنه، وهو وقت الغرغرة المنكورة في

لهن ترك التعفف ﴿واللاتي﴾ جمع التي بحسب المعنى دون اللفظ، وفيه لغات: اللاتي بإثبات التاء، والياء، واللات بحذف الياء، وإبقاء الكسرة؛ لتدل عليها، واللاتي بالهمزة، والياء، واللاء بكسر الهمزة، وحذف الياء، ويقال في جمع الجمع اللواتي، واللواتي، واللوات، واللواء. والفاحشة: الفعلة القبيحة، وهي مصدر كالعافية، والعاقبة، وقرأ ابن مسعود: ﴿بالفاحشة﴾. والمراد بها هنا: الزنا خاصة، وإتيانها فعلها، ومباشرتها. والمراد بقوله: ﴿من نسائكم﴾ المسلمات، وكذا ﴿منكم﴾ المراد به: المسلمون. قوله: ﴿فامسكوهن في البيوت﴾ كان هذا في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا﴾ [النور: 2] وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحبس المذكور، وكذلك الأذى باقيا مع الجلد؛ لأنه لا تعارض بينها بل الجمع ممكن. قوله: ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ هو ما في حديث عبادة الصحيح من قوله ﷺ: «خذا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، الحديث. قوله: ﴿واللذان يتآنيان منكم﴾ اللذان تثنية الذي، وكان القياس أن يقال اللذان كرحبان. قال سيبويه: حذفت الياء؛ ليفرق بين الأسماء الممكنة، وبين الأسماء المبهمة. وقال أبو علي: حذفت الياء تخفيفاً. وقرأ ابن كثير: ﴿اللذان﴾ بتشديد النون، وهي لغة قریش، وفيه لغة أخرى، وهي: ﴿اللذان﴾ بحذف النون. وقرأ الباقر بتخفيف النون، قال سيبويه: المعنى، وفيما يتلى عليكم اللذان يتآنيان أي: الفاحشة منكم، وبخلت الغاء في الجواب؛ لأن في الكلام معنى الشرط. والمراد باللذان هنا: الزاني، والزانية تغليبا، وقيل: الآية الأولى في النساء خاصة محصنات، وغير محصنات، والثانية في الرجال خاصة، وجاء بلفظ التثنية لبيان صنفَي الرجال من أحسن، ومن لم يحسن، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى، واختار هذا النحاس، ورواه عن ابن عباس، ورواه القرطبي، عن مجاهد، وغيره، واستحسنه. وقال السدي، وقاتدة، وغيرهما الآية الأولى في النساء المحصنات، ويدخل معهن الرجال المحصنون، والآية الثانية في الرجل، والمرأة البكرين، ورجحه الطبري، وضعفه النحاس وقال: تغليب المؤنث على المذكر بعيد. وقال ابن عطية: إن معنى هذا القول تام إلا أن لفظ الآية يقلق عنه، وقيل: كان الإمساك للمرأة الزانية نون الرجل، فخصت المرأة بالذكر في الإمساك، ثم جمعا في الإيذاء، قال قتادة: كانت المرأة تحبس ويؤنثان جميعاً. واختلف المفسرون في تفسير الأذى، فقيل التوبيخ، والتعيير، وقيل: السب، والجفاء من نون تعيير، وقيل: النيل باللسان، والضرب بالنعال، وقد ذهب قوم إلى أن الأذى منسوخ كالحبس، وقيل: ليس بمنسوخ كما تقدم في الحبس. قوله: ﴿فإن تابا﴾ أي: من الفاحشة ﴿وأصلحا﴾ العمل فيما بعد ﴿فأعرضوا عنهم﴾ أي: أتركوهما، وكفوا عنهما الأذى، وهذا كان قبل نزول الحدود على ما تقدم من الخلاف. قوله: ﴿إنما للتوبة على الله﴾ استئناف لبيان أن التوبة ليست بمقبولة على الإطلاق، كما

جدير، وابن أبي حاتم عنه قال: القريب ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي في الشعب، عن الضحاك قال: كل شيء قبل الموت، فهو قريب له التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملك الموت، فإذا تاب حين ينظر إلى ملك الموت، فليس له ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: القريب: ما لم يغفر. وقد وردت أحاديث كثيرة في قبول توبة العبد ما لم يغفر، نكروا ابن كثير في تفسيره، ومنها الحديث الذي قدمنا نكروه.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَتَّبِعُوا بِمَوْتِهَا مَا نَهَاكُمْ إِلَّا أَنْ يَقُولَ بَيْنَكُمْ بِمِيتَةٍ وَأَنْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كُفِّرْتُمْ فَمَنْ سَمِعَ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَبِمَعْلَمِ اللَّهِ يُرَى شَيْئًا كَثِيرًا ﴿١٧﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَسْتَدِلَّ رُوحَ مَكَاتٍ رُوحٍ وَأَنْتُمْ إِنْ عَدَلْتُمْ قَطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْئَتِهِ وَإِنَّمَا مِثْلُهَا ﴿١٨﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَيْنَكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَعْدَدَ مِنْكُمْ مِثْلًا غَلِيظًا ﴿١٩﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَحِشًا وَمَقَامًا سَكِينًا ﴿٢٠﴾

هذا متصل بما تقدم من ذكر الزوجات، والمقصود نفي الظلم عنهن، والخطاب للآلئاء، ومعنى الآية يتضح بمعرفة سبب نزولها، وهو ما أخرجه البخاري، وغيره، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بأمراته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شأوا زوجها، وإن شأوا لم يزوجها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت. وفي لفظ لأبي داود عنه في هذه الآية: كان الرجل يرث امرأة ذي قرابته، فيعضلها حتى يموت، أو ترد إليه صداقتها. وفي لفظ لابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دمية حبسها حتى تموت، فيرثها. وقد روى هذا السبب بالفاظ، فمعنى قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ أي: لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث، فتزعمون أنكم أحق بهن من غيركم، وتحبسونهن لأنفسكم ﴿وَلَا﴾ يحل لكم أن ﴿تعضلوهن﴾ عن أن يتزوجن غيركم لتأخذوا ميراثهن إذا متن، أو لينفعن إليكم صداقهن إذا أنتمن لهن بالنكاح. قال الزهري، وأبو مجلز: كان من عاداتهم إذا مات الرجل، وله زوجة ألقى ابنه من غيرها، أو أقرب عصبته ثوبه على المرأة، فيصير أحق بها من نفسها، ومن أولياها، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها من غيره، وأخذ صداقتها، ولم يعطها شيئاً، وإن شاء عضلها لتفتدي منه بما ورثت من الميت، أو تموت، فيرثها، فنزلت الآية. وقيل: الخطاب لازواج النساء إذا حبسوهن مع سوء العشرة طمعاً في إرثهن، أو يفتلن بعض مهورهن، واختاره ابن عطية. قال: ولبيل ذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولَ بَيْنَكُمْ بِمِيتَةٍ﴾ إذا أتت بفاحشة، فليس للولي حبسها حتى تذهب بمالها إجماعاً من الأمة، وإنما ذلك للزوج. قال الحسن: إذا زنت البكر، فإنها تجلد مائة، وتنفى،

الحديث السابق، وهي بلوغ روحه حلقومه، قاله الهروي. وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْآنَ﴾ أي: وقت حضور الموت. قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ معطوف على الموصول في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: ليست التوبة لأولئك، ولا للذين يموتون، وهم كفار مع أنه لا توبة لهم رأساً، وإنما نكروا مبالغة في بيان عدم قبول توبة من حضرهم الموت، وأن وجودها كعدمها.

وقد أخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذَاتِي يَأْتِيَنَّهَا الْفَاحِشَةُ﴾ قال: كانت المرأة إذا فجرت حبست في البيوت، فإن ماتت ماتت، وإن عاشت عاشت، حتى نزلت الآية في سورة النور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾ [النور: 2] فجعل الله لهن سبيلاً. فمن عمل شيئاً جلد، وأرسل، وقد روى هذا عنه من وجوه، وأخرج أبو داود في سننه عنه، والبيهقي في قوله: ﴿وَالَّذَاتِي يَأْتِيَنَّهَا الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿سَبِيلًا﴾ ثم جمعهما جميعاً، فقال: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهِمَا مِنْكُمْ فَأَنُؤْمَاهُمَا﴾ ثم نسخ ذلك بآية الجلد، وقد قال بالنسخ جماعة من التابعين، أخرجه أبو داود، والبيهقي، عن مجاهد، وأخرجه عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، وأخرجه البيهقي في سننه، عن الحسن، وأخرجه ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، وأخرجه ابن جرير عن السدي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهِمَا مِنْكُمْ﴾ قال: كان الرجل إذا زنا أؤدي بالتعجير، وضرب بالنعال، فأنزل الله بعد هذه الآية: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2] فإن كانا محصنين رجماً في سنة رسول الله ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهِمَا مِنْكُمْ﴾ قال: الرجلان الفاعلان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهِمَا مِنْكُمْ﴾ يعني البكرين. وأخرج ابن جرير، عن عطاء قال: الرجل، والمرأة، وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿إِنَّمَا لِلتَّوْبَةِ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية قال: هذه للمؤمنين وفي قوله: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال: هذه لأهل النفاق ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قال: هذه لأهل الشرك. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى به، فهو جهالة عمداً كان، أو غيره. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن أبي العالية: أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد، فهو جهالة. وأخرج ابن جرير من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية، قال: من عمل السوء، فهو جاهل من جهالته عمل السوء ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قال: في الحياة، والصحة، وأخرج ابن

للإنكار، والتقريع. والجملة مقررة للجملة الأولى المشتملة على النهي. وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَلْخُونَهُ﴾ إنكار بعد إنكار مشتمل على العلة التي تقتضي منع الأخذ، وهي: الإفضاء. قال الهروري: وهو إذا كانا في لحاف واحد، جامع، أو لم يجمع، وقال الفراء: الإفضاء، أن يخلو الرجل، والمرأة، وإن لم يجمعها. وقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: الإفضاء في هذه الآية: الجماع، وأصل الإفضاء في اللغة: المخالطة، يقال للشئ المختلط فضاء، ويقال القوم فوضى، وفضاء، أي: مختلطون لا أمير عليهم. قوله: ﴿وَلَوْ خَذَنُكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ معطوف على الجملة التي قبله، أي: والحال أن قد أقضى بعضكم إلى بعض، وقد أخذن منكم ميثاقاً غليظاً، وهو عقد النكاح، ومنه قوله ﷺ: «فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وقيل: هو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَكَ مَعَ مَعْزُورٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 229] وقيل: هو الأولاد. قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ نهى عما كانت عليه الجاهلية من نكاح نساء آبائهم إذا ماتوا، وهو شروع في بيان من يحرم نكاحه من النساء، ومن لا يحرم. ثم بين سبحانه وجه النهي عنه، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ هذه الصفات الثلاث تدل على أنه من أشد المحرمات، وأقبحها، وقد كانت الجاهلية تسميه نكاح المقت. قال ثعلب: سألت ابن الأعرابي، عن نكاح المقت، فقال: هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها، أو مات عنها، ويقال لهذا الضييم، وأصل المقت البغض، من مقته يمقته مقتاً، فهو ممقوت، ومقيت. قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ هو استثناء منقطع أي: لكن ما قد سلف فاجتنبوه، ودعوه، وقيل: إلا بمعنى بعد، أي: بعد ما سلف، وقيل: المعنى: ولا ما سلف، وقيل: هو استثناء متصل من قوله: ﴿مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ يفيد المبالغة في التحريم بإخراج الكلام مخرج التعلق بالمحال: يعني: إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف، فأنكحوا، فلا يحل لكم غيره. قوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ هي جارية مجرى بئس في الذم، والعمل، والمخصوص بالذم محنوف، أي: ساء سبيلاً سبيل ذلك النكاح، وقيل: إنها جارية مجرى سائر الأفعال، وفيها ضمير يعود إلى ما قبلها.

وقد أخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وقد كان لهم ذلك في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية في كبيشة بنت معمر بن معن بن عاصم من الأوس كانت عند أبي قيس بن الأسلت، فتوفي عنها، فجنح عليها ابنه، فجاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: لا أنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت، فأنكح، فنزلت هذه الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن عبد الرحمن بن البيلماني في قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ قال: نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر

وترد إلى زوجها ما أخذت منه. وقال أبو قلابة: إذا زنت امرأة الرجل، فلا بأس أن يضارها، ويشق عليها حتى تقتدى منه، وقال السدي: إذا فعلن ذلك، فخنوا مهورهن. وقال قوم: الفاحشة البذاءة باللسان، وسوء العشرة قولاً وفعلًا. وقال مالك، وجماعة من أهل العلم: للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ما تملك. هذا كله على أن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ للزوج، وقد عرفت مما قدمنا في سبب النزول أن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ لمن خطب بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ فيكون المعنى: ولا يحل لكم أن تمنعن من الزوج: ﴿لَتَذْهَبُوا بِبَعْضٍ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: ما آتاهن من ثروته: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ جاز لكم حبسهن عن الأزواج، ولا يخفى ما في هذا من التعسف مع عدم جواز حبس من أتت بفاحشة عن أن تتزوج، وتستعف من الزنا، وكما أن جعل قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ خطاباً للأولياء فيه هذا التعسف، كذلك جعل قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ خطاباً للأزواج فيه تعسف ظاهر مع مخالفته لسبب نزول الآية الذي نكرناه، والأولى أن يقال إن الخطاب في قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ للمسلمين، أي: لا يحل لكم معاشر المسلمين أن ترثوا النساء كرهًا، كما كانت تفعله الجاهلية، ولا يحل لكم معاشر المسلمين أن تعضلوا أزواجكم، أي: تحبسوهن عنكم مع عدم رغوبكم فيهن، بل لقصد أن تذهبوا ببعض ما آتيتوهن من المهر يفتدين به من الحبس، والبقاء تحتكم، وفي عقبتكم مع كراهتكم لهن: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ جاز لكم مخالعتهن ببعض ما آتيتوهن. قوله: ﴿مَبِينَةٍ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص، وحزمة، والكسائي بكسر الياء. وقرأ الباقون بفتحها. وقرأ ابن عباس: ﴿مَبِينَةٍ﴾ بكسر الباء، وسكون الياء من إبان الشيء، فهو مبين. قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما هو معروف في هذه الشريعة، وبين أهلها من حسن المعاشرة، وهو خطاب للأزواج، أو لما هو أعم، وذلك يختلف باختلاف الأزواج في الغنى، والفقر، والرفاعة، والوضاعة: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لسبب من الأسباب من غير ارتكاب فاحشة، ولا نشوز ﴿فَعَسَى﴾ أن يثول الأمر إلى ما تحبونه من ذهاب الكراهة، وتبيلها بالمحبة، فيكون في ذلك خير كثير من استدامة الصحبة، وحصول الأولاد، فيكون الجزاء على هذا محذوفاً مدلولاً عليه بعلته، أي: فإن كرهتموهن، فاصبروا: ﴿فَعَسَى﴾ أن تکرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً. قوله: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا﴾ قد تقدم بيانه في آل عمران، والمراد به هنا: المال الكثير، فلا تأخذوا منه شيئاً. قيل: هي محكمة، وقيل: هي منسوخة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 229] والأولى أن الكل محكم، والمراد هنا: غير المختلعة لا يحل لزوجها أن يأخذ مما آتاه شيئاً. قوله: ﴿تَلْخُونَهُنَّ بَهْتَانًا وَلِئْمًا مَبِينًا﴾ الاستفهام

أبناءكم ﴿[الأحزاب: 4] ومنه: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ [الأحزاب: 40] وأما زوجة الابن من الرضاع، فقد ذهب الجمهور إلى أنها تحرم على أبيه، وقد قيل: إنه إجماع مع أن الابن من الرضاع ليس من أولاد الصلب. ووجهه ما صح عن النبي ﷺ من قوله: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» ولا خلاف أن أولاد الأولاد، وإن سفلوا بمنزلة أولاد الصلب في تحريم نكاح نسائهم على آبائهم.

وقد اختلف أهل العلم في وطء الزنا هل يقتضي التحريم أم لا؟ فقال أكثر أهل العلم: إذا أصاب رجل امرأة بزنا لم يحرم عليه نكاحها بذلك، وكذلك لا تحرم عليه امرأته إذا زنا بأمها، أو بابنتها، وحسبه أن يقام عليه الحد، وكذلك يجوز له عندهم أن يتزوج بأم من زنى بها، وبابنتها. وقالت طائفة من أهل العلم: إن الزنا يقتضي التحريم. حكى ذلك عن عمران بن حصين، والشعبي، وعطاء، والحسن، وسفيان الثوري، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي، وحكى ذلك عن مالك، والصحيح عنه كقول الجمهور. احتج الجمهور بقوله تعالى: ﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ ويقولون: ﴿وحلائل أبنائكم﴾ والموطوءة بالزنا لا يصحق عليها أنها من نسائهم، ولا من حلائل أبنائهم.

وقد أخرج الدارقطني عن عائشة قالت: «سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامراة، فأراد أن يتزوجها، أو ابنتها، فقال: لا يحرم الحرام الحلال». واحتج المحرمون بما روي في قصة جريج الثابتة في الصحيح أنه قال: يا غلام من أبوك؟ فقال: فلان الراعي، فنسب الابن نفسه إلى أبيه من الزنا، وهذا احتجاج ساقط، واحتجوا أيضاً بقوله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل نظر إلى فرج امرأة، وابنتها، ولم يفصل بين الحلال، والحرام». ويجب عنه بأن هذا مطلق مقيد بما ورد من الأدلة الدالة على أن الحرام لا يحرم الحلال.

واختلفوا في اللواط هل يقتضي التحريم أم لا؟ فقال الثوري: إذا لاط بالصبي حرمت عليه أمه، وهو: قول أحمد بن حنبل قال: إذا تلوط بابن امرأته، أو أביها، أو أخيها حرمت عليه امرأته. وقال الأوزاعي: إذا لاط بغلام وولد للمفجور به بنت لم يجز للفاجر أن يتزوجها؛ لأنها بنت من قد نخل به. ولا يخفى ما في قول هؤلاء من الضعف، والسقوط النازل، عن قول القائلين بأن وطء الحرام يقتضي التحريم بدرجات لعدم صلاحية ما تمسك به أولئك من الشبه على ما زعمه هؤلاء من اقتضاء اللواط للتحريم. قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ﴾ أي: وحرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين، فهو في محل رفع عطفاً على المحرمات السابقة، وهو يشمل الجمع بينهما بالنكاح، والوطء بملك اليمين. وقيل: إن الآية خاصة بالجمع في النكاح لا في ملك اليمين، وأما في الوطء بالملك، فلا حق بالنكاح، وقد أجمعت الأمة على منع جمعها في عقد نكاح.

واختلفوا في الأختين بملك اليمين، فذهب كافة العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما في الوطء بالملك، وأجمعوا على

مسيبها، ومباشرتها، وقبل النظر إلى فرجها لشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع. انتهى. وهكذا حكى الإجماع القرطبي، فقال: وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها، أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له نكاح ابنتها. واختلفوا في النظر، فقال مالك: إذا نظر إلى شعرها، أو صدرها، أو شيء من محاسنها للذة حرمت عليه أمها، وابنتها. وقال الكوفيون: إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة لمس الشهوة، وكذا قال الثوري، ولم يذكر الشهوة. وقال ابن أبي ليلى: لا تحرم بالنظر حتى يلمس، وهو قول الشافعي. والذي ينبغي التوصل عليه في مثل هذا الخلاف هو: النظر في معنى الدخول شرعاً أو لغة، فإن كان خاصاً بالجماع، فلا وجه لإلحاق غيره به من لمس، أو نظر، أو غيرهما، وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصحق على ما حصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك. وأما الربيبة في ملك اليمين فقد روي عن عمر بن الخطاب أنه كره ذلك. وقال ابن عباس: أحلتها آية، وحرمتها آية، ولم أكن لأقلعه. وقال ابن عبد البر: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة، وابنتها من ملك اليمين؛ لأن الله حرم ذلك في النكاح قال: ﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرِبَائِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ وملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ما روي، عن عمر، وابن عباس، وليس على ذلك لحد من أئمة الفتوى، ولا من تبعهم. انتهى. قوله: ﴿وحلائل أبنائكم﴾ الحلائل: جمع حليلة، وهي الزوجة، سميت بذلك لأنها تحل مع الزوج حيث حل، فهي فعيلة بمعنى فاعلة. وذهب الزجاج، وقوم إلى أنها من لفظة الحلال، فهي حليلة بمعنى محللة. وقيل: لأن كل واحد منهما يحل إزار صاحبه. وقد أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء، وما عقد عليه الأبناء على الآباء سواء كان مع العقد وطء، أو لم يكن، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وقوله: ﴿وحلائل أبنائكم﴾.

واختلف الفقهاء في العقد إذا كان فاسداً هل يقتضي التحريم أم لا؟ كما هو مبين في كتب الفروع. قال ابن المنذر: أجمع كل من يحفظ عنه العلم من علماء الأمصار أن الرجل إذا وطئ امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه، وابنه، وعلى أجداده. وأجمع العلماء: على أن عقد الشراء على الجارية لا يحرمها على أبيه وابنه، فإذا اشترى جارية فلمس، أو قبل حرمت على أبيه، وابنه لا أعلمهم يختلفون فيه، فوجب تحريم ذلك تسليمهم لهم. ولما اختلفوا في تحريمها بالنظر دون للمس لم يجز ذلك لاختلافهم قال: ولا يصح عن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ خلاف ما قلناه. قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ وصف للأبناء، أي: نون من تبنيتم من أولاد غيركم، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية، ومنه قوله تعالى ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾ [الأحزاب: 37] ومنه قوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم

الخلاف المعروف في الأصول فتدبر هذا.

وقد اختلف أهل العلم إذا كان الرجل يطا مملوكته بالملك، ثم أراد أن يطا أختها بالملك، فقال علي، وابن عمر، والحسن البصري، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق: لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرم فرج الأخرى بإخراجها من ملكه ببيع، أو عتق، أو بأن يزوجه. قال ابن المنذر: وفيه قول ثان لقتادة، وهو أنه ينوي تحريم الأولى على نفسه، وأن لا يقربها، ثم يمسك عنهما حتى تستبرئ المحرمة، ثم يغشى الثانية. وفيه قول ثالث، وهو أنه لا يقرب واحدة منهما، هكذا قال الحكم، وحامد. وروى معنى ذلك عن النخعي. وقال مالك: إذا كان عنده أختان بملك فله أن يطا إيتهما شاء، والكف عن الأخرى موكل إلى أمانته، فإن أراد وطء الأخرى، فيلزمه أن يحرم على نفسه فرج الأولى بفعل يفعل من إخراج عن الملك، أو تزويج، أو بيع، أو عتق، أو كتابة، أو إعدام طويل، فإن كان يطا إحداهما، ثم وثب على الأخرى نون أن يحرم الأولى وقف عنهما، ولم يجز له قرب إحداهما حتى يحرم الأخرى، ولم يوكل ذلك إلى أمانته، لأنه متهم. قال القرطبي: وقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً يملك رجعتها أنه ليس له أن ينكح أختها حتى تنقضي عدة المطلقة. واختلفوا إذا طلقها طلاقاً لا يملك رجعتها، فقالت طائفة: ليس له أن ينكح أختها، ولا رابعة حتى تنقضي عدة التي طلق. روي ذلك عن علي، وزيد بن ثابت، ومجاهد، وعطاء، والنخعي، والثوري، وأحمد بن حنبل، وأصحاب الرأي. وقالت طائفة: له أن ينكح أختها، وينكح الرابعة لمن كان تحته أربع، وطلق واحدة منهن طلاقاً بائناً. روي ذلك عن سعيد بن المسيب، والحسن، والقاسم، وعروة بن الزبير، وابن أبي ليلى، والشافعي، وأبي ثور، وأبي عبيد. قال ابن المنذر: ولا أحسبه إلا قول مالك، وهو أيضاً إحدى الروايتين عن زيد بن ثابت، وعطاء. قوله: ﴿إلا ما قد سلف﴾ يحتمل أن يكون معناه معنى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ ويحتمل معنى آخر، وهو جواز ما سلف وأنه إذا جرى الجمع في الجاهلية كان النكاح صحيحاً، وإذا جرى في الإسلام خير بين الأختين. والصواب الاحتمال الأول. قوله: ﴿والمحصنات من النساء﴾ عطف على المحرمات المذكورات. وأصل التحصن التمتع، ومنه قوله تعالى: ﴿لتنكحنكم من بأسكم﴾ [الأنبياء: 80] أي: لتمتعنكم، ومنه الحصان بكسر الحاء للفرس؛ لأنه يمنع صاحبه من الهلاك. والحصان بفتح الحاء: المرأة العفيفة لمنعها نفسها، ومنه قول حسان:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل
والمصدر الحصانة بفتح الحاء. والمراد بالمحصنات هنا: نوات الأزواج. وقد ورد الإحصان في القرآن لمعان، هذا أحدها. والثاني يراد به الحرّة، ومنه قوله تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات﴾ [النساء: 25] وقوله: ﴿والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين

أنه يجوز الجمع بينهما في الملك فقط. وقد توقف بعض السلف في الجمع بين الأختين في الوطء بالملك، وسيأتي بيان ذلك. واختلفوا في جواز عقد النكاح على أخت الجارية التي توطأ بالملك. فقال الأوزاعي: إذا وطئ جارية له بملك اليمين لم يجز له أن يتزوج أختها. وقال الشافعي: ملك اليمين لا يمنع نكاح الأخت. وقد ذهبت الظاهرية إلى جواز الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما يجوز الجمع بينهما في الملك. قال ابن عبد البر بعد أن ذكر ما روي عن عثمان بن عفان من جواز الجمع بين الأختين في الوطء بالملك: وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس، ولكنهم اختلف عليهم، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز، ولا بالعراق، ولا ما وراءها من المشرق، ولا بالشام، ولا المغرب إلا من شذ، عن جماعتهم باتباع الظاهر، ونفي القياس. وقد ترك من تعمد ذلك، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما لا يحل ذلك في النكاح. وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ إلى آخر الآية، أن النكاح بملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكل ذلك يجب أن يكون قياساً ونظراً للجمع بين الأختين، وأمّهات النساء، والربائب، وكذا هو عند جمهورهم، وهي: الحجة المحجوج بها من خالفها، وشذ عنها، والله المحمود. انتهى.

وأقول: ها هنا إشكال، وهو أنه قد تقدّر أن النكاح يقال على العقد فقط، وعلى الوطء فقد، والخلاف في كون أحدهما حقيقة، والآخر مجازاً، أو كونهما حقيقتين معروف، فإن حملنا هذا التحريم المذكور في هذه الآية، وهي قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى آخرها، على أن المراد تحريم العقد عليهن لم يكن في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ﴾ دلالة على تحريم الجمع بين المملوكتين في الوطء بالملك، وما وقع من إجماع المسلمين على أن قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ إلى آخره، يستوي فيه الحرائر، والإماء، والعقد، والملك لا يستلزم أن يكون محل الخلاف، وهو الجمع بين الأختين في الوطء بملك اليمين مثل محل الإجماع، ومجرد القياس في مثل هذا الموطن لا تقوم به الحجة لما يرد عليه من النقوض، وإن حملنا التحريم المذكور في الآية على الوطء فقط لم يصح ذلك للإجماع على تحريم عقد النكاح على جميع المذكورات من أول الآية إلى آخرها، فلم يبق إلا حمل التحريم في الآية على تحريم عقد النكاح، فيحتاج القائل بتحريم الجمع بين الأختين في الوطء بالملك إلى دليل، ولا ينفعه أن ذلك قول الجمهور، فالحق لا يعرف بالرجال، فإن جاء به خالصاً عن شوب الكدر فيها ونعمت، وإلا كان الأصل الحل، ولا يصح حمل النكاح في الآية على معنييه جميعاً أعني العقد، والوطء؛ لأنه من باب الجمع بين الحقيقة، والمجاز، وهو ممنوع، أو من باب الجمع بين معنويي المشترك، وفيه

للمعلوم عطفاً على الفعل المقدر في قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وقيل على قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ ولا يقدح في ذلك اختلاف الفعلين، وفيه دلالة على أنه يحل لهم نكاح ما سوى المنكورات، وهذا عام مخصوص بما صرح عن النبي ﷺ من تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها. وقد أبعد من قال: إن تحريم الجمع بين المنكورات مأخوذ من الآية هذه؛ لأنه حرّم الجمع بين الأختين، فيكون ما في معناه في حكمه، وهو الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، وكذلك تحريم نكاح الأمة لمن يستطيع نكاح حرّة، كما سيأتي، فإنه يخصص هذا العموم. قوله: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ في محل نصب على العلة، أي: حرّم عليكم ما حرّم، وأحلّ لكم ما أحلّ لأجل أن تبتغوا بأموالكم النساء اللاتي أحلّهنّ الله لكم، ولا تبتغوا بها الحرام، فتذهب حال كونكم: ﴿مُحْصَنِينَ﴾ أي: متعفيين عن الزنا: ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ أي: غير زانين. والسفاح: الزنا، وهو مأخوذ من سفح الماء، أي: صبه، وسيلانه، فكانه سبحانه أمرهم بأن يطلبوا بأموالهم النساء على وجه النكاح، لا على وجه السفاح، وقيل: إن قوله: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ بدل من «ما» في قوله: ﴿مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي: وأحلّ لكم الابتغاء بأموالكم. والأوّل أولى، وأراد سبحانه بالأموال المنكورة ما ينفعوته في مهور الحرائر وأثمان الإماء. قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ لِجُورِهِنَّ﴾ «ما» موصولة فيها معنى الشرط، والفاء في قوله: ﴿فَآتُوهُنَّ﴾ لتضمن الموصول معنى الشرط، والعائد محذوف، أي: فآتوهنّ لجورهنّ عليه.

وقد اختلف أهل العلم في معنى الآية: فقال الحسن، ومجاهد، وغيرهما: المعنى فما انتفعتن، وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الشرعي ﴿فَآتُوهُنَّ لِجُورِهِنَّ﴾ أي: مهورهنّ. وقال الجمهور: إن المراد بهذه الآية: نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام، ويؤيد ذلك قراءة أبيّ بن كعب، وابن عباس، وسعيد بن جبيرة: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى لَئْلِ مَسْمِي فَآتُوهُنَّ لِجُورِهِنَّ﴾ ثم نهى عنها النبي ﷺ، كما صرح ذلك من حديث عليّ قال: نهى النبي ﷺ عن نكاح المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، وهو في الصحيحين وغيرهما، وفي صحيح مسلم من حديث سيرة بن معبد الجهني، عن النبي ﷺ: أنه قال يوم فتح مكة «يا أيها الناس إني كنت أننت لكم في الاستمتاع من النساء، والله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهنّ شيء، فليخلّ سبيلها، ولا تآخروا مما آتيتكموهنّ شيئاً». وفي لفظ لمسلم أن ذلك كان في حجة الوداع، فهذا هو الناسخ. وقال سعيد بن جبيرة: نسختها آيات الميراث إذ المتعة لا ميراث فيها. وقالت عائشة، والقاسم بن محمد: تحريمها، ونسخها في القرآن، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَاقِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: 29] وليست المنكوحة

أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ [المائدة: 5]. والثالث يرد به: العيافة ومنه قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسَافِحَاتٍ﴾ [النساء: 25]، ﴿مُحْصَنِينَ غَيْرُ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء: 24]، [المائدة: 5]. والرابع المسلمة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَحِصْنَ﴾.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية، أعني قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فقال ابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وأبو قلاب، ومكحول، والزهري: المراد بالمحصنات هنا: المسيبات ذوات الأزواج خاصة، أي: هنّ محرّمات عليكم إلا ما ملكت أيمانكم بالسبي من أرض الحرب، فإن تلك حلال، وإن كان لها زوج، وهو قول الشافعي، أي: أن السبأ يقطع العصمة، وبه قال ابن وهب، وابن عبد الحكم، ورواه عن مالك، وبه قال أبو حنيفة، وأصحابه، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور. واختلفوا في استبائها بماذا يكون؟ كما هو مدوّن في كتب الفروع. وقالت طائفة: المحصنات في هذه الآية العفائف، وبه قال أبو العالية، وعبيدة السلماني، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، ورواه عبيدة، عن عمر. ومعنى الآية عندهم: كل النساء حرام إلا ما ملكت أيمانكم، أي: تملكون عصمتهنّ بالنكاح، وتملكون الرقبة بالشراء. وحكى ابن جرير الطبري أن رجلاً قال لسعيد بن جبيرة: أما رأيت ابن عباس حين سئل عن هذه الآية، فلم يقل فيها شيئاً؟ فقال: كان ابن عباس لا يعلمها. وروى ابن جرير أيضاً عن مجاهد أنه قال: لو أعلم من يفسر لي هذه الآية لضربت إليه كباذ الإبل. انتهى. ومعنى الآية، والله أعلم واضح لا سترة به، أي: وحرّم عليكم المحصنات من النساء، أي: المزوجات أعم من أن يكنّ مسلمات، أو كافرات إلا ما ملكت أيمانكم منهنّ، أما بسبي، فإنها تحلّ، ولو كانت ذات زوج، أو بشراء، فإنها تحلّ، ولو كانت مزوّجة، وينفسخ النكاح الذي كان عليها بخروجها عن ملك سيدها الذي زوّجها، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية إن شاء الله، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد قرئ: «المحصنات» بفتح الصاد وكسرها، فالفتح على أن الأزواج أحصنوهنّ؛ والكسر على أنهنّ أحصنّ فروجهنّ عن غير أزواجهنّ، أو أحصنّ أزواجهنّ. قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ منصوب على المصدرية، أي: كتب الله ذلك عليكم كتاباً. وقال الزجاج، والكوفيون: إنه منصوب على الإغراء، أي: الزموا كتاب الله، أو عليكم كتاب الله، واعترضه أبو عليّ الفارسي بأن الإغراء لا يجوز فيه تقديم المنصوب، وهذا الاعتراض إنما يتوجه على قول من قال: إنه منصوب بعليكم المنكور في الآية، وروي عن عبيدة السلماني أنه قال: إن قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَنْعَى ثَلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ وهو بعيد، بل هو إشارة إلى التحريم المنكور في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآية. قوله: ﴿وَأَحْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص، وأحلّ على البناء للمجهول، وقرأ الباقر على البناء

نفسه العنت. والمراد هنا: الأمة المملوكة للغير، وأما أمة الإنسان نفسه، فقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز له أن يتزوجها، وهي تحت ملكه لتعارض الحقوق، واختلافها. والفتيات جمع فتاة، والعرب تقول للمملوك فتى، وللمملوكة فتاة. وفي الحديث الصحيح: «لا يقوأن أحكم عبدي، وأمتي، ولكن ليقل فتاتي، وفتاتي»، قوله: «وَأَهْلُكُمْ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ» فيه تسلية لمن ينكح الأمة إذا اجتمع فيه الشرطان المذكوران، أي: كلهم بنو آدم، وأكرمكم عند الله أتقاكم، فلا تستنكفوا من الزواج بالإماء عند الضرورة، فربما كان إيمان بعض الإماء أفضل من إيمان بعض الحرائر. والجملة اعتراضية. وقوله: «بعضكم من بعض» مبتدأ وخبر، ومعناه: أنهم متصلون في الأنساب؛ لأنهم جميعاً بنو آدم، أو متصلون في الدين؛ لأنهم جميعاً أهل ملة واحدة، وكتابهم واحد، ونبيهم واحد. والمراد بهذا: توطئة نفوس العرب؛ لأنهم يستهجنون أولاد الإماء، ويستصغرونهم، ويغضون منهم: «فَانْكَحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ» أي: بإذن المالكين لهن؛ لأن منافعهن لهن لا يجوز لغيرهم أن ينتفع بشيء منها إلا بإذن من هي له. وقوله: «وَأَتَوْهُنَّ لِجَوْرِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» أي: أتوا إليهن مهورهن بما هو بالمعروف في الشرع، وقد استدل بهذا من قال: إن الأمة أحق بمهرها من سيدها، وإليه ذهب مالك، وذهب الجمهور إلى أن المهر للسيد، وإنما أضافها إليهن؛ لأن التالية إليهن تأتية إلى سيدهن لكونهن ماله. وقوله: «مُحْصَنَاتٌ» أي: عفاف، وقرأ الكسائي محصنات بكسر الصاد في جميع القرآن إلا في قوله: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ» وقرأ الباقر بالفتح في جميع القرآن. وقوله: «غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ» أي: غير معلنات بالزنا، والاختدان: الاختلاء، والخدن، والخدين المخادن، أي: المصاحب، وقيل ذات الخدن: هي التي تزني سراً، فهو مقابل للمسافحة، وهي التي تجاهر بالزنا، وقيل: المسافحة، المبذولة، وذات الخدن، التي تزني بواحد. وكانت العرب تعيب الإعلان بالزنا، ولا تعيب اتخاذ الاختدان، ثم رفع الإسلام جميع ذلك، قال الله: «يُؤَلِّمُ تَقَرُّبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنَ» [الأنعام: 151]. وقوله: «فَإِذَا أَحْصَنَ» قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بفتح الهمزة. وقرأ الباقر بضمها، والمراد بالإحصان هنا: الإسلام. روي ذلك عن ابن مسعود، وابن عمر، وأنس، والأسود بن يزيد، وزد بن حبيش، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والسدي، وروي عن عمر بن الخطاب، بإسناد منقطع، وهو الذي نص عليه الشافعي، وبه قال الجمهور. وقال ابن عباس، وأبو الدرداء، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، وغيرهم: إنه التزويج. وروي عن الشافعي، فعلى القول الأول لا حد على الأمة الكافرة. وعلى القول الثاني لا حد على الأمة التي لم تتزوج. وقال القاسم وسالم: إحصانها: إسلامها، وعفافها. وقال ابن جرير: إن معنى القراءتين مختلف، فمن قرأ أحصن بضم الهمزة، فمعناه التزويج، ومن قرأ بفتح الهمزة، فمعناه

بالمتمعة من أزواجهم، ولا مما ملكت إيمانهم، فإن من شأن الزوجة أن ترث، وتورث، وليست المستمتع بها كذلك. وقد روي عن ابن عباس أنه قال بجواز المتمعة، وأنها باقية لم تنسخ. وروي عنه أنه رجع عن ذلك عند أن بلغه التنسخ. وقد قال بجوازها جماعة من الروافض، ولا اعتبار بأقوالهم. وقد اتعب نفسه بعض المتأخرين بتكثير الكلام على هذه المسألة، وتقوية ما قاله المجوزون لها، وليس هذا المقام مقام بيان بطلان كلامه.

وقد طولنا البحث، ودفعنا الشبه الباطلة التي تمسك بها المجوزون لها في شرحنا للمنتقى، فليرجع إليه. قوله: «فَرِيضَةٌ» منتصب على المصدرية المؤكدة، أو على الحال، أي: مفروضة. قوله: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ» أي: من زيادة، أو نقصان في المهر، فإن ذلك سائغ عند التراضي، هذا عند من قال بأن الآية في النكاح الشرعي، وأما عند الجمهور القائلين بأنها في المتمعة، فالمعنى التراضي في زيادة مدة المتمعة، أو نقصانها، أو في زيادة ما دفعه إليها إلى مقابل الاستمتاع بها، أو نقصانها. قوله: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» الطول: الغنى، والسعة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والسدي، وابن زيد، ومالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وجمهور أهل العلم. ومعنى الآية: فمن لم يستطع منكم غنى، وسعة في ماله يقدر بها على نكاح المحصنات المؤمنات، فليتك من فتياتكم المؤمنات، يقال طال يطول طولاً في الفضال، والقدرة، وفلان ذو طول، أي: ذو قدرة في ماله. والطول بالضم: ضد القصر. وقال قتادة، والنخعي، وعطاء، والثوري: إن الطول الصبر. ومعنى الآية عندهم أن من كان يهودي أمة حتى صار لنكاح لا يستطيع أن يتزوج غيرها، فإن له أن يتزوجها إذا لم يملك نفسه، وخاف أن يبغى بها، وإن كان يجد سعة في المال لنكاح حرة. وقال أبو حنيفة، وهو مروى عن مالك: إن الطول المرأة الحرة، فمن كان تحت حرة لم يحل له أن ينكح الأمة، ومن لم يكن تحت حرة جاز له أن يتزوج أمة، ولو كان غنياً، وبه قال أبو يوسف، واختاره ابن جرير، واحتج له. والقول الأول هو المطابق لمعنى الآية، ولا يخلو ما عده عن تكلف، فلا يجوز للرجل أن يتزوج بالأمة إلا إذا كان لا يقدر على أن يتزوج بالحرّة لعدم وجود ما يحتاج إليه في نكاحها من مهر، وغيره. وقد استدل بقوله: «مَنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» على أنه لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، وبه قال أهل الحجاز، وجوزّه أهل العراق، وبخلت الفاء في قوله: «فَمِمَّا مَلَكَتْ إِيْمَانُكُمْ» لتضمن المبتدأ معنى الشرط. وقوله: «مَنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» في محل نصب على الحال، فقد عرفت أنه لا يجوز للرجل الحرّ أن يتزوج بالمملوكة إلا بشرط عدم القدرة على الحرّة. والشرط الثاني ما سيذكره الله سبحانه آخر الآية من قوله: «لِئَلَّا يَكُنِ الْغَنَى الْعَنْتَ مِنْكُمْ» فلا يحل للفقير أن يتزوج بالمملوكة إلا إذا كان يخشى على

الإسلام. وقال قوم: إن الإحصان المذكور في الآية هو: التزويج، ولكن الحد واجب على الأمة المسلمة إذا زنت قبل أن تتزوج بالسنة، وبه قال الزهري. قال ابن عبد البر: ظاهر قول الله عز وجل يقتضي أنه لا حد على الأمة، وإن كانت مسلمة إلا بعد التزويج، ثم جاءت السنة بجلدها، وإن لم تحصن، وكان ذلك زيادة بيان. قال القرطبي: ظهر المسلم حمى لا يستباح إلا بيقين، ولا يقين مع الاختلاف لولا ما جاء في صحيح السنة من الجلد. قال ابن كثير في تفسيره: والأظهر، والله أعلم أن المراد بالإحصان هنا: التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه: ﴿ومن لم يستطع منكم طولا﴾ إلى قوله: ﴿فإذا أحصن فإن تتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ فالسياق كله في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله: ﴿فإذا أحصن﴾ أي: تزوجن، كما فسره به ابن عباس، ومن تبعه، قال: وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور؛ لأنهم يقولون إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة سواء كانت مسلمة، أو كافرة مزوجة، أو بكراً، مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة من الإماء. وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك، ثم نكر أن منهم من أجاب، وهم الجمهور بتقديم منطوق الأحاديث على هذا المفهوم، ومنهم من عمل على مفهوم الآية، وقال: إذا زنت، ولم تحصن، فلا حد عليها، وإنما تضرب تأنيباً. قال: وهو المحكي عن ابن عباس، وإليه ذهب طاوس، وسعيد بن جبير، وأبو عبيد، وداود الظاهري في رواية عنه، فهؤلاء قدموا مفهوم الآية على العموم، وأجابوا عن مثل حديث أبي هريرة، وزيد بن خالد في الصحيحين، وغيرهما «أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة: إذا زنت، ولم تحصن، قال: إن زنت، فاجلدوها، ثم إن زنت، فاجلدوها، ثم إن زنت، فاجلدوها، ثم بيعوها، ولو بضعفير» بأن المراد بالجلد هنا: التأنيب، وهو تعسف، وأيضاً قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحكم، فليجلدها الحد، ولا يثرَب عليها. ثم إن زنت، فليجلدها الحد» الحديث. ولمسلم من حديث علي قال: «يا أيها الناس أقيموا على أركانكم الحد من أحصن، ومن لم يحصن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت، فأمرني أن أجدها» الحديث. وأما ما أخرجه سعيد بن منصور، وابن خزيمة، والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ليس على الأمة حد حتى تحصن بزواج، فإذا أحصنت بزواج فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب» فقد قال ابن خزيمة، والبيهقي: إن رفعه خطأ، والصواب وقفه قوله: ﴿فإن تتين بفاحشة﴾ الفاحشة هنا الزنا: ﴿فعليهن نصف ما على المحصنات﴾ أي: الحرائر الأبكار؛ لأن الثب عليها الرجم، وهو لا يتبعض، وقيل المراد بالمحصنات هنا: المزوجات؛ لأن عليهن الجلد، والرجم، والرجم لا يتبعض، فصار عليهن نصف ما عليهن من الجلد. والمراد بالعذاب هنا: الجلد، وإنما نقص حد الإماء عن حد

الحرائر؛ لأنهن أضعف، وقيل: لأنهن لا يصلن إلى مرادهن، كما تصل الحرائر؛ وقيل: لأن العقوبة تجب على قدر النعمة، كما في قوله تعالى: ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ [الأحزاب: 30] ولم ينكر الله سبحانه في هذه الآية العبيد، وهم لاحقون بالإماء بطريق القياس، وكما يكون على الإماء، والعبيد نصف الحد في الزنا، كذلك يكون عليهم نصف الحد في القذف، والشرب، والإشارة بقوله: ﴿ذلك لمن خشى العنت منكم﴾ إلى نكاح الإماء. والعنت: الوقوع في الإثم، وأصله في اللغة انكسار العظم بعد الجبر، ثم استعير لكل مشقة: ﴿وإن تصبروا﴾ عن نكاح الإماء ﴿خير لكم﴾ من نكاحهن، أي: صبركم خير لكم؛ لأن نكاحهن يفضي إلى إرقاق الولد، والغص من النفس. قوله: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ اللام هنا هي لام كي التي تعاقب: «أن». قال الفراء: العرب تعاقب بين لام كي وأن، فتأتي باللام التي على معنى كي في موضع أن في أربت، وأمرت، فيقولون أربت أن تفعل، وأربت لتفعل، ومنه: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأقوامهم﴾ [الصف: 8] «وأمرت لأعدل بينكم﴾ [الشورى: 15] «وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ [الأنعام: 71] ومنه:

أريد لأنسى نكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل
وحكى الزجاج هذا القول وقال: لو كانت اللام بمعنى أن
لنخلت عليها لام أخرى، كما تقول: جئت كي تكرمني، ثم
تقول: جئت لكي تكرمني، وأنشد:

أربت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود
وقيل اللام زائدة لتأكيد معنى الاستقبال، أو لتأكيد إرادة
التبيين، ومفعول بيبين محذوف، أي: ليبين لكم ما خفي عليكم
من الخير، وقيل: مفعول يريد محذوف، أي: يريد الله هذا
ليبين لكم، وبه قال البصريون، وهو مروى، عن سيبويه،
وقيل: اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير إضمار، وهي
وما بعدها مفعول للفعل المتقدم، وهو مثل قول الفراء
السابق، وقال بعض البصريين: إن قوله: ﴿يريد﴾ مؤول
بالمصدر مرفوع بالابتداء مثل: تسمع بالمعيدي خير من أن
تراه، ومعنى الآية: يريد الله ليبين لكم مصالح دينكم، وما
يحل لكم، وما يحرم عليكم: ﴿ويهيئكم سُنَنَ الذين من
قبلكم﴾ أي: طرقهم، وهم الأنبياء، وأتباعهم لتقتنوا بهم:
﴿ويُتَوَبَّعُ عليكم﴾ أي: ويريد أن يتوب عليكم فتوبوا إليه،
وتلاقوا ما فرط منكم بالتوبة يغفر لكم ذنوبكم: ﴿ووالله يريد
أن يتوب عليكم﴾ هذا تأكيد لما قد فهم من قوله: ﴿ويُتَوَبَّعُ
عليكم﴾ المتقدم؛ وقيل: الأول معناه للإرشاد إلى الطاعات،
والثاني فعل أسبابها، وقيل: إن الثاني لبيان كمال منفعة
إرادته سبحانه، وكمال ضرر ما يريده الله يتبعون
الشهوات، وليس المراد به: مجرد إرادة التوبة حتى يكون من
باب التكرير للتأكيد، قيل: هذه الإرادة منه سبحانه في جميع
أحكام الشرع، وقيل: في نكاح الأمة فقط.

واختلف في تعيين المتبعين للشهوات، فقيل: هم الزناة،
وقيل: اليهود والنصارى، وقيل: اليهود خاصة، وقيل هم

في النكاح. وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال: ذلك في الحرائر، فأما المماليك، فلا بأس. وأخرج ابن المنذر عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج مالك، والشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن عثمان بن عفان: أن رجلاً سأل عن الأختين في ملك اليمين هل يجمع بينهما؟ قال: أحلتها آية، وحُرِّمَتْها آية، وما كنت لأضنع ذلك، فخرج من عنده، فلقي رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أراه علي بن أبي طالب، فسأله عن ذلك، فقال: لو كان لي من الأمر شيء، ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي عن علي: أنه سئل عن رجل له أمتان أختان، وطئ إحداهما، وأراد أن يطأ الأخرى، فقال: لا حتى يخرجها من ملكه، وقيل: فإن زوجها عبده؟ قال: لا حتى يخرجها من ملكه. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن مسعود: أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين الأمتين، فكرهه، فقيل: يقول الله: ﴿إِذَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فقال: ويعيرك أيضاً مما ملكت يمينك. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي، من طريق أبي صالح، عن علي بن أبي طالب قال في الأختين المملوكتين: أحلتها آية، وحُرِّمَتْها آية، ولا أمر، ولا أنهي، ولا لحل، ولا أحرم، ولا أفعل أنا، وأهل بيتي. وأخرج أحمد عن قيس قال: قلت لابن عباس: أيقع الرجل على المرأة، وابنتها مملوكتين له؟ فقال: أحلتها آية، وحُرِّمَتْها آية، ولم أكن لأفعله. وأخرج عبد الرزاق، والبيهقي عنه في الأختين من ملك اليمين: أحلتها آية، وحُرِّمَتْها آية. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبيهقي، عن ابن عمر قال: إذا كان للرجل جارتان أختان، فغشى إحداهما، فلا يقرب الأخرى حتى يخرج التي غشى من ملكه. وأخرج البيهقي، عن مقاتل بن سليمان قال: إنما قال الله في نساء الآباء: ﴿إِذَا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لأن العرب كانوا يتكهنون نساء الآباء، ثم حرم النسب والصهر، فلم يقل إلا ما قد سلف؛ لأن العرب كانت لا تنكح النسب، والصهر. وقال في الأختين: ﴿إِذَا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لأنهم كانوا يجمعون بينهما، فحرم جمعهما جميعاً إلا ما قد سلف قبل التحريم: ﴿إِنْ لَكَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ لما كان من جماع الأختين قبل التحريم. وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ بعث يوم حنين جيشاً إلى أوطاس، فلقوا عدواً، فقاتلوه، فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكان ناساً من أصحاب النبي ﷺ تخرجوا من غشيانهم من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يقول: إلا ما آفاه الله عليكم. وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن ذلك سبب نزول الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، عن سعيد بن جبيرة مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ

المجوس؛ لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون في نكاح الأخوات من الأب. والأول أولى. والميل: العدول عن طريق الاستواء. والمراد بالشبهوات هنا: ما حرمه الشرع دون ما أحله، ووصف الميل بالعظم بالنسبة إلى ميل من اقترب خطيئة نادراً. قوله: ﴿وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ بما مر من الترخيص لكم، أو بكل ما فيه تخفيف عليكم: ﴿وَوَخَّلِقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ عاجزاً غير قادر على ملك نفسه، ونفعها عن شهواتها، وفاء بحق التكليف، فهو محتاج من هذه الحيثية إلى التخفيف، فلماذا أراد الله سبحانه التخفيف عنه.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، ثم قرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخْتِ﴾ هذا من النسب، وباقي الآية من الصهر، والسابعة: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي، عن عمران بن حصين في قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ قال: هي مبهمه. وأخرج هؤلاء، عن ابن عباس قال: هي مبهمه إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها، أو ماتت لم تحل له أمها. وأخرج هؤلاء إلا البيهقي، عن علي في الرجل يتزوج المرأة، ثم يطلقها، أو ماتت قبل أن يدخل بها هل تحل له أمها؟ قال: هي بمنزلة الربيبه. وأخرج هؤلاء عن زيد بن ثابت أنه كان يقول: إذا ماتت عنده، فليأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، وإذا طلقها قبل أن يدخل بها، فلا بأس أن يتزوج أمها. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد قال في قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرِبَائِيكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أريد بهما الدخول جميعاً. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عبد الله بن الزبير قال: الربيبه والام سواء لا بأس بهما إذا لم يدخل بالمرأة. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، بسند صحيح، عن مالك بن أوس بن الحنثان قال: كانت عندي امرأة، فتوفيت، وقد ولنت لي فوجئت عليها، فلقيني علي بن أبي طالب، فقال: مالك؟ قلت: فوجئت المرأة، فقال علي: لها ابنة؟ قلت: نعم، وهي بالطائف، قال: كانت في حجرك؟ قلت: لا، قال: فأنكحها، قلت: فأين قول الله: ﴿وَرِبَائِيكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾؟ قال: إنها لم تكن في حجرك.

وقد قُدمنا قول من قال: إنه إسناد ثابت على شرط مسلم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: الدخول الجماع. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عطاء قال: كنا نتحدث أن محمداً ﷺ لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله: ﴿وَحُلَائِلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ ونزلت: ﴿وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: 40]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ﴾ قال يعني

ليحفظ متاعه، ويصلح شأنه. حتى نزلت هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ﴾ فنسخت الأولى، فحُرِّمَتْ المتعة، وتصدقها من القرآن: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: 6] وما سوى هذا الفرج، فهو حرام.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه: أن ابن عباس قرأ: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [النساء: 24] وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي بن كعب أنه قرأها كذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد، أن هذه الآية في نكاح المتعة، وكذلك أخرج ابن جرير، عن السدي، والأحاديث في تحليل المتعة، ثم تحريمها، وهل كان نسخها مرة، أو مرتين؟ منكرة في كتب الحديث. وقد أخرج ابن جرير في تهنيئه، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي، عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: ماذا صنعت ذهبت الركاب بفتيك، وقالت فيها الشعراء قال: وما قالوا؟ قلت: قالوا:

أقول للشيخ لما طال مجلسه يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس هل لك في رخصة الأعطاف أنسة تكون مثواك حتى مصدر الناس فقال: إنا لله، وإنا إليه راجعون، لا والله ما بهذا أفتيت، ولا هذا أريت، ولا أحلتها إلا للمضطر، وفي لفظ، ولا أحلت منها إلا ما أحل الله من الميتة، والدم، ولحم الخنزير. وأخرج ابن جرير، عن حزمي أن رجلاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن تترك أحدهم العسرة، فقال الله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِضَةِ﴾ وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ﴾ قال: الراضي أن يوفى لها صداقها، ثم يخيرها. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في الآية قال: إن وضعت لك منه شيئاً فهو سائغ، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ يقول: من لم يكن له سعة ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يقول الحرائر: ﴿فَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فُتَيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فليتك من إماء المؤمنين ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ﴾ يعني عفائف غير زواني في سرٍّ، ولا علانية ﴿وَلَا مَتَخَذَاتِ لُحْدَانٍ﴾ يعني أخلاء ﴿فَإِذَا أَحْصَنْ﴾ ثم إذا تزوجت حراً، ثم زنت ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ قال: من الجلد ﴿لَكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ هو: الزنا، فليس لأحد من الأحرار أن ينكح أمة إلا أن لا يقدر على حرة، وهو يخشى العنت ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ عن نكاح الإماء ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن مجاهد ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ يعني من لا يجد منكم غنى ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني: الحرائر، فليتك الأمة المؤمنة ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ عن نكاح الإماء ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وهو حلال. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عنه قال مما وسع الله به على هذه الأمة نكاح الأمة النصرانية،

من النساء قال: كل ذات زوج إتيانها زنا إلا ما سببت. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، والطبراني، عن علي، وابن مسعود في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال: على المشتركات إذا سبين حلت له. وقال ابن مسعود: المشتركات، والمسلمات. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: إذا بيعت الأمة، ولها زوج، فسيدها الحق ببضعها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال: نوات الأزواج. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن أنس بن مالك مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن مسعود مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ قال: العفيفة العاقلة من مسلمة، أو من أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عنه في الآية قال: لا يحل له أن يتزوج فوق الأربع، فما زاد، فهو عليه حرام، كامه، وأخته. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال: يقول انكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى، وثلاث، ورباع، ثم حرّم ما حرّم من النسب، والصهر، ثم قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فرجع إلى أول السورة، فقال: من حرام أيضاً، إلا لمن نكح بصدق، وسنة، وشهود. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، عن عبيدة قال: أحل الله لك أربعاً في أول السورة، وحرّم نكاح كل محصنة بعد الأربع إلا ما ملكك يمينك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «الإحصان إحصانان: إحصان نكاح، وإحصان عفاف» فمن قرأها، والمحصنات بكسر الصاد، فهن العفاف، ومن قرأها، والمحصنات بالفتح، فهن المتزوجات. قال ابن أبي حاتم: قال أبي هذا حديث منكر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاحِلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ قال: ما وراء هذا النسب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: ما دون الأربع. وأخرج ابن جرير، عن عطاء قال: ما وراء ذات القرابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَاحِلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ قال: ما ملكت أيمانكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبيدة السلماني نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿مُحْصَنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ قال غير زانيين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَأْتَوْنَهُنَّ لِحُورِهِنَّ﴾ يقول: إذا تزوج الرجل منكم المرأة، ثم نكحها مرة واحدة، فقد وجب صداقها كله، والاستمتاع هو: النكاح، وهو قوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَنِقَاتِهِنَّ﴾ [النساء: 4]. وأخرج الطبراني، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كانت المتعة في أول الإسلام، وكانوا يقرؤون هذه الآية: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [النساء: 24] الآية، فكان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة، فيتزوج بقدر ما يرى أنه يفرغ من حاجته؛

ولذلك سوف تؤتيتهم لجورهم وكان الله للذين عملوا من الذنوب «غفوراً رحيماً» [النساء: 152].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَعْضُكُمْ مِنْ تَرَاضٍ بَيْنَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٥٣﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا ظَلَمًا فَنُفِئْهُ عَنْ نَفْسِهِ نَارًا رُكَّانًا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٥٤﴾ إِنْ تَحْتَبِئُوا كِبَارًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرُونَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَحْنُ عَلَيْكُمْ مُدْخِلُونَ كَرِيمًا ﴿١٥٥﴾

الباطل: ما ليس بحق، ووجوه ذلك كثيرة، ومن الباطل البيوعات التي نهى عنها الشرع. والتجارة في اللغة عبارة عن المعارضة، وهذا الاستثناء منقطع، أي: لكن تجارة عن تراض منكم جائزة بينكم، أو لكن كون تجارة عن تراض منكم حلالاً لكم. وقوله: «عن تراض» صفة لتجارة، أي: كائنة عن تراض، وإنما نص الله سبحانه على التجارة دون سائر أنواع المعاضات لكونها أكثرها، وأغلبها، وتطلق التجارة على جزاء الأعمال من الله على وجه المجاز، ومنه قوله تعالى: «هل أنلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم» [الصفا: 10]. وقوله: «يرجون تجارة لن تبور» [فاطر: 29].

واختلف العلماء في التراضي، فقالت طائفة: تمامه وجوبه بافتراق الأبدان بعد عقد البيع، أو بأن يقول أحدهما لصاحبه: اختر كما في الحديث الصحيح: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»، أو يقول أحدهما لصاحبه: اختر. وإلى ذهب جماعة من الصحابة، والتابعين، وبه قال الشافعي، والثوري، والأوزاعي، والليث، وابن عيينة، وإسحاق وغيرهم. وقال مالك، وأبو حنيفة: تمام البيع هو أن يعقد البيع بالالسنة، فيرتفع بذلك الخيار، وأجابوا عن الحديث بما لا طائل تحته. وقد قرئ تجارة بالرفع على أن كان تامة، وتجارة بالنصب على أنها ناقصة. قوله: «ولا تقتلوا أنفسكم» أي: لا يقتل بعضكم أيها المسلمون بعضاً إلا بسبب أثبتة الشرع، أو لا تقتلوا أنفسكم باقتراف المعاصي أو المراد النهي عن أن يقتل الإنسان نفسه حقيقة. ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني. ومما يدل على ذلك احتجاج عمرو بن العاص بها حين لم يغتسل بالماء البارد حين أجنب في غزاة ذات السلاسل، فقرر النبي ﷺ احتجاجه، وهو في مسند أحمد، وسنن أبي داود وغيرهما. قوله: «ومن يفعل ذلك» أي: القتل خاصة، أو أكل أموال الناس ظلماً، والقتل عدواناً، وظلماً، وقيل: هو إشارة إلى كل ما نهى عنه في هذه السورة، وقال ابن جرير: إنه عائد على ما نهى عنه من آخر، وعيد، وهو قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كراهاً» [النساء: 19] لأن كل ما نهى عنه من أول السورة قرن به وعيد إلا من قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم» فإنه لا وعيد بعده إلا قوله: «ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً» وللعنوان: تجاوز الحد. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وقيل: إن معنى العدوان، والظلم واحد، وتكريره لقصد التأكيد، كما في قول الشاعر:

واليهودية، وإن كان موسراً. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي عنه قال: لا يصلح نكاح إماء أهل الكتاب؛ لأن الله يقول: «من فتياتكم للمؤمنات». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، عن الحسن: «أن رسول الله ﷺ نهى أن تنكح الأمة على الحرّة، والحرّة على الأمة، ومن وجد طولاً لحرّة، فلا ينكح أمة». وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي عن ابن عباس قال: لا يتزوج الحر من الإماء إلا واحدة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل في قوله: «والله أعلم بليمانكم بعضكم من بعض» يقول: أنتم إخوة بعضكم من بعض. وأخرج ابن المنذر، عن السدي: «فانكحوهن بإذن أهلهن» قال: بإذن مواليهن: «وتوهن لجورهن» قال: مهورهن. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: المسافحات للمعلنات بالزنا، والمتخذات لخدان: ذات الخليل الولحد. قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا، ويستحلون ما خفي، فأنزل الله: «ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن» [الأنعام: 151]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «فإذا لحصن» قال: إحصانها إسلامها. وقال علي: لجلوهن. قال ابن أبي حاتم، حديث منكر، وقال ابن كثير في إسناده ضعيف، ومبهم لم يسم، ومثله لا تقوم به حجة. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: حدّ العبد يفترى على الحرّ أربعون. وأخرج ابن جرير عنه قال: لعنت الزنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: «ويريد الذين يتبعون الشهوات» قال: هم اليهود، والنصارى. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس: «ويريد الذين يتبعون الشهوات» قال: الزنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: «يريد الله أن يخفف عنكم» يقول: في نكاح الأمة، وفي كل شيء فيه يسر. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد: «يريد الله أن يخفف عنكم» قال: رخص لكم في نكاح الإماء «وخلق الإنسان ضعيفاً» قال: لو لم يرخص له فيها. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: ثمانى آيات نزلت في سورة النساء من خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس، وغربت: أولهن: «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم» [النساء: 26]، والثانية: «والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً» [النساء: 27]، والثالثة: «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً» [النساء: 28]، والرابعة: «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ونكحكم ممحلاً كريماً» [النساء: 31]، والخامسة: «إن الله لا يظلم مثقال نرة» [النساء: 40] الآية، والسادسة: «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله» [النساء: 110] الآية، والسابعة: «إن الله لا يفرغ أن يشرك به» [النساء: 48، 116] الآية، والثامنة: «والذين آمنوا بأناهم ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم

والفسى قولها كذباً وميناً

وخرج بقيد العدوان والظلم ما كان من القتل بحق كالقصاص، وقتل المرتد، وسائر الحدود الشرعية، وكذلك قتل الخطأ. قوله: ﴿فسوف نصلي﴾ جواب الشرط، أي: نخله ناراً عظيمة: ﴿وكان ذلك﴾ أي: إصلاحه النار ﴿على الله يسيراً﴾ لأنه لا يعجزه شيء. وقرئ: «نصليه» بفتح النون، روي ذلك عن الأعمش، والنخعي، وهو: على هذه القراءة منقول من صلى، ومنه شاة مصلية. قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي: إن تجتنبوا كبائر الذنوب التي نهاكم الله عنها: ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي: نؤيبكم التي هي صفات، وحمل السيئات على الصفات هنا متعين لذكر الكبائر قبلها، وجعل اجتنابها شرطاً لتكفير السيئات.

وقد اختلف أهل الأصول في تحقيق معنى الكبائر، ثم في عدها، فاما في تحقيقها، فقيل: إن الذنوب كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها، كما يقال: الزنا صغيرة بالإضافة إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة بالإضافة إلى الزنا، وقد روي نحو هذا عن الإسفرائيني، والجويني، والقشيري، وغيرهم قالوا: والمراد بالكبائر التي يكون اجتنابها سبباً لتكفير السيئات هي: الشرك، واستلوا على ذلك بقراءة من قرأ: ﴿إن تجتنبوا كبير ما تنهون عنه﴾ وعلى قراءة الجمع، فالمراد أجناس الكفر، واستلوا على ما قاله بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: 48] قالوا: فهذه الآية مقيدة لقوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ وقال ابن عباس: الكبيرة كل نيب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وقال ابن مسعود: الكبائر ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى ثلاث وثلاثين آية. وقال سعيد بن جبير: كل نيب نسبته الله إلى النار فهو كبيرة. وقال جماعة من أهل الأصول: الكبائر كل نيب رتب الله عليه الحد، أو صرح بالوعيد فيه. وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره. وأما الاختلاف في عدها، فقيل: إنها سبع، وقيل: سبعون، وقيل: سبعمئة، وقيل: غير منحصرة، ولكن بعضها أكبر من بعض، وسيأتي ما ورد في ذلك إن شاء الله. قوله: ﴿وندخلكم مدخل﴾ أي: مكان نخول، وهو الجنة: ﴿كريم﴾ أي: حسناً مرضياً، وقد قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، والكوفيون ﴿مدخل﴾ بضم الميم. وقرأ أهل المدينة بفتح الميم، وكلاهما اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدراً.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، قال السيوطي بسند صحيح، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ قال: إنها محكمة ما نسخت، ولا تنسخ إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة، والحسن في الآية قال: كان الرجل يتحرج أن ياكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية، فنسخ ذلك الآية

التي في النور: ﴿ولا على أنفسكم أن تاكلوا من بيوتكم﴾ [النور: 61] الآية. وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما البيع عن تراض» وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي صالح، وعكرمة في قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ قالوا: نهامهم عن قتل بعضهم بعضاً. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن عطاء بن أبي رباح نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن السدي: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ قال: أهل دينكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً﴾ يعني: متعمداً اعتداء بغير حق: ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ يقول: كان عذابه على الله هيناً. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أرايت قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً﴾ في كل ذلك أم في قوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾؟ قال: بل في قوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾. وأخرج عبد بن حميد، عن أنس بن مالك قال: هان ما سألكم ربكم: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: كل ما نهى الله عنه، فهو كبيرة، وقد ذكرت الطرفة: يعني النظرة. وأخرج ابن جرير، عنه قال: كل شيء عصى الله فيه، فهو كبيرة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: كل ما وعد الله عليه النار كبيرة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الشعب عنه قال: الكبائر كل نيب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبير ما قدمنا عنه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس: أنه سئل عن الكبائر أسبع هي؟ قال: هي إلى السبعين أقرب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: أن رجلاً سأل كم الكبائر أسبع هي؟ قال: هي إلى سبعمئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وأخرج البيهقي في الشعب عنه: كل نيب أصر عليه العبد كبيرة، وليس بكبيرة ما تاب عنه العبد. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: للشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بكره قال: قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً، فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت». وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس «شك شعبة» واليمين الغموس». وأخرج البخاري، ومسلم،

وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، وَقَالُوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسبُّ أبا الرجل، فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه، فيسبُّ أمه». والأحاديث في تعداد الكِبَائِرِ، وتعيينها كثيرة جداً، فمن رام الوقوف على ما ورد في ذلك، فعليه بكتاب الزَّوْجَرِ في الكِبَائِرِ، فإنه قد جمع، فأرعى.

واعلم أنه لا بد من تقييد ما في هذه الآية من تكفير السيئات بمجرد اجتناب الكبائر بما أخرجه النسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن أبي هريرة، وأبي سعيد أن النبي ﷺ جلس على المنبر، ثم قال: «والذي نفسي بيده ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويؤدي الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة حتى إنها لتصفق، ثم تلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾». وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود قال: إن في سورة النساء خمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا، وما فيها، ولقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: 31] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48، 116] الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ [النساء: 64] الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: 110] الآية.

وَلَا تَسْتَوُوا مَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا
 اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَسَعُوا اللَّهُ يَنْفَعُ مَنِ ارْتَدَّ
 كَاتِبٌ يَكُلُ ثَوْبَهُ عَلَيْهِ ۖ وَلِلَّهِ جَمَلُنَا مَوَالِي وَمَا تَرَكَ
 الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ آمِنْتُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۖ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا
 فَكَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالَّذِينَ لَيْسَ
 قِنْدَهُمْ حِفْظٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي يَخْافُونَ تَخَوُّهُمْ يَنْظُرُهُمْ
 وَأَخْفَتُهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَمْوَالُهُمْ إِنَّمَا أَمْطَلَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهَا سَبِيلًا
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ

قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ التمني نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل، كالتلطف نوع منها يتعلق بالماضي، وفيه النهي عن أن يتعنّى الإنسان ما فضل الله به غيره من الناس عليه، فإن ذلك نوع من عدم الرضا بالقسمة التي قسمها الله بين عباده على مقتضى إرادته، وحكمته البالغة، وفيه أيضاً نوع من الحسد المنهى عنه إذا صاحبه إرادة زوال تلك النعمة عن الغير.

وقد اختلف العلماء في الغيبة هل تجوز أم لا؟ وهي أن

يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ بِهِ حَالٌ مِثْلَ حَالِ صَاحِبِهِ مِنْ دُونِ أَنْ
يَتَمَنَّى زَوَالَ ذَلِكَ الْحَالِ عَنْ صَاحِبِهِ، فَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى
جَوَازِ ذَلِكَ، وَاسْتَلَبُوا بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي
اِثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَأَتَاءَ
النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يَنْفَقُهُ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَأَتَاءَ
النَّهَارِ» وَقَدْ بَوَّبَ عَلَيْهِ الْبُخَارِيُّ: «بَابُ الْإِغْتَابِ فِي الْعِلْمِ،
وَالْحُكْمِ» وَعُمُومُ لَفْظِ الْآيَةِ يَقْتَضِي تَحْرِيمَ تَمَنِّي مَا وَقَعَ بِهِ
التَّفْضِيلُ سِوَاءَ كَانَ مُصْحَبًا بِمَا يَصِيرُ بِهِ مِنْ جِنْسِ
الْحَسَدِ أَمْ لَا، وَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ مِنْ جَوَازِ ذَلِكَ فِي أُمُورٍ
مُعِينَةٍ يَكُونُ مَخْصَصًا لِهَذَا الْعُمُومِ، وَسَيَأْتِي نَكْرَ سَبَبِ
نَزُولِ الْآيَةِ، وَلَكِنْ الْإِعْتِبَارُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ
السَّبَبِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الْخ. فِيهِ تَخْصِصٌ بَعْدَ
التَّعْمِيمِ، وَرُجُوعٌ إِلَى مَا يَتَضَمَّنُهُ سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ مِنْ أَنْ
أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَغْزُو الرِّجَالُ، وَلَا نَغْزِي، وَلَا
نُقَاتِلُ، فَنَسْتَشْهَدُ، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ، فَفُزِلَتْ. أَخْرَجَهُ
عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَالتِّرْمِذِيُّ،
وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ،
وَالْبَيْهَقِيُّ، وَقَدْ رَوَى نَحْوَ هَذَا السَّبَبِ مِنْ طَرِيقٍ بِالْفَافِ
مُخْتَلَفَةً. وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِكُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ
نَصِيبًا عَلَى حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ إِرَادَتُهُ، وَحُكْمَتُهُ، وَعَبَّرَ عَنْ
ذَلِكَ الْمَجْعُولِ لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْ فَرِيقِي النِّسَاءِ، وَالرِّجَالِ
بِالنَّصِيبِ، مِمَّا اكْتَسَبُوا عَلَى طَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ التَّبَعِيَّةِ شَبِيهَ
اِقْتِضَاءِ حَالِ كُلِّ فَرِيقٍ لِنَصِيبِهِ بِاِكْتِسَابِهِ إِيَّاهُ. قَالَ قَتَادَةُ:
لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا مِنَ الثَّوَابِ، وَالْعِقَابِ، وَلِلنِّسَاءِ
كَذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ: الْمِيرَاثُ وَالاِكْتِسَابُ
عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بِمَعْنَى مَا نَكْرَاهُ. قَوْلُهُ: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ
فَضْلِهِ﴾ عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ وَتَوَسِيطُ التَّعْلِيلِ
بِقَوْلِهِ: ﴿لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الْخ. بَيْنَ الْمَعْطُوفِ، وَالْمَعْطُوفِ
عَلَيْهِ لِتَقْرِيرِ مَا تَضَمَّنَهُ النَّهْيُ، وَهَذَا الْأَمْرُ يَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ
سُؤَالِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مِنْ فَضْلِهِ، كَمَا قَالَه جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ
الْعِلْمِ. قَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أَي: جَعَلْنَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ وَرَثَةً مَوَالِيَّ يَلُونِ
مِيرَاثَهُ، فَكُلُّ مَفْعُولٍ ثَانٍ قَدْ عَلِمَ عَلَى الْفِعْلِ: لِتَاكِيدِ الشُّمُولِ،
وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مُقَرَّرَةٌ لِمُضْمُونِ مَا قَبْلَهَا، أَي: لِيَتَّبِعَ كُلُّ أَحَدٍ
مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ، وَلَا يَتَمَنََّ مَا فَضَلَ اللَّهُ بِهِ غَيْرَهُ
عَلَيْهِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ بَعْدَهَا:
﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ﴾ وَقِيلَ: الْعَكْسُ، كَمَا رَوَى ذَلِكَ
ابْنُ جَرِيرٍ. وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ النَّاسِخَ لِقَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ
عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى - وَأَوَّلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضَهُمْ
أَوَّلَى بِبَعْضٍ - وَالْمَوَالِيَّ جَمْعُ مَوْلَى، وَهُوَ: يُطْلَقُ عَلَى
الْمَعْقُوقِ، وَالْمَعْقُوقِ، وَالنَّاصِرِ، وَابْنِ الْعَمِّ، وَالْجَارِ قِيلَ: وَالْمُرَادُ
هُنَا: الْعَصْبَةُ، أَي: وَلِكُلِّ جَعَلْنَا عَصْبَةً يَرِثُونِ مَا أَبْقَتْ
الْفَرَائِضُ. قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ﴾ الْمُرَادُ بِهِمْ:
مَوَالِيُّ الْمَوَالَاةِ: كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَعاقدُ الرَّجُلَ،
أَي: يَحَالِفُهُ فَيَسْتَحِقُّ مِنْ مِيرَاثِهِ نَصِيبًا، ثُمَّ ثَبِتَ فِي صَدْرِ

العصيان. وقد تقدّم بيان أصل معناه في اللغة. قال ابن فارس: يقال: نشزت المرأة: استعصت على بعلها، ونشز بعلها عليها: إذا ضربها وجفاها **﴿فَعَظُوهُنَّ﴾** أي: نكروهنّ بما أوجبه الله عليهن من الطاعة، وحسن العشرة، ورغبوهنّ، ورهبوهنّ، **﴿وَأَمْجِرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾** يقال: هجره، أي: تباعد منه. والمضاجع: جمع مضجع، وهو محل الاضطجاع، أي: تباعدوا عن مضاجعتهنّ، ولا تدخلوهنّ تحت ما تجعلونه عليكم حال الاضطجاع من الثياب، وقيل: هو أن يوليها ظهره عند الاضطجاع، وقيل: هو كناية عن ترك جماعها، وقيل: لا تبني معهن في البيت الذي يضطجع فيه **﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾** أي: ضرباً غير مبرح. وظاهر النظم القرآني أنه يجوز للزوج أن يفعل جميع هذه الأمور عند مخافة النشوز، وقيل: إنه لا يهجرها إلا بعد عدم تأثير الوعظ، فإن أثر الوعظ لم ينتقل إلى الهجر، وإن كفاه الهجر لم ينتقل إلى الضرب **﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾** كما يجب، وترك النشوز **﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾** أي: لا تتعرضوا لهنّ بشيء مما يكرهنّ لا بقول، ولا بفعل، وقيل: للمعنى: لا تكلفوهنّ الحبّ لكم، فإنه لا يدخل تحت اختيارهنّ **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾** إشارة إلى الأزواج بخفض الجناح، ولين الجانب، أي: وإن كنتم تقدرون عليهنّ، فانكروا قدرة الله عليكم، فإنها فوق كل قدرة، والله بالمرصاد لكم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾** يقول: لا يتمنى الرجل، فيقول: ليت أن لي مال فلان، وأمله، فنهى الله سبحانه عن ذلك، ولكن يسأل الله من فضله: **﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾** يعني مما ترك الوالدان، والأقربون للذكر مثل حظ الأنثيين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة: أن سبب نزول الآية أن النساء قلن: لو جعل أنصباؤنا في الميراث، كأنصباء الرجال؟ وقال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فضلنا عليهنّ في الميراث. وقد تقدم نكر سبب النزول. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾** قال: ليس بعرض الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة **﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾** قال: العبادة ليس من أمر الدنيا. وأخرج الترمذي، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «سألو الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل». قال الترمذي: كذا رواه حماد بن واقد، وليس بالحافظ، ورواه أبو نعيم، عن إسرائيل، عن حكيم بن جبيرة عن رجل، عن النبي ﷺ. وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح، وكذا رواه ابن جرير، وابن مروي، ورواه أيضاً ابن مروي عن حديث ابن عباس. وأخرج البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس **﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّ﴾** قال: ورثة **﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ﴾** قال: كان المهاجرون

الإسلام بهذه الآية، ثم نسخ بقوله: **﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾** [الأنفال: 75] وقراءة الجمهور: «عاقدت» وروي عن حمزة أنه قرأ: «عقدت» بتشديد القاف على التثنية، أي: والذين عقدت لهم أيمانكم الحلف، أو عقدت عهدهم أيمانكم، والتقدير على قراءة الجمهور: والذين عاقدنتهم أيمانكم، فأتوهم نصيبهم، أي: ما جعلتموه لهم بعقد الحلف. قوله: **﴿لِلرِّجَالِ قِوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾** هذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان العلة التي استحق بها الرجال الزيادة، كأنه قيل: كيف استحق الرجال ما استحقوا مما لم تشاركهم فيه النساء، فقال: **﴿لِلرِّجَالِ قِوَامُونَ﴾** الخ، والمراد: أنهم يقومون بالنزب عنهنّ، كما تقوم الحكام، والأمراء بالنزب عن الرعية، وهم أيضاً يقومون بما يحتجّن إليه من النفقة، والكسوة، والمسكن، وجاء بصيغة المبالغة في قوله: **﴿قِوَامُونَ﴾** ليدل على أصالتهم في هذا الأمر، والباء في قوله: **﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾** للسببية والضمير في قوله: **﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾** للرجال، والنساء، أي: إنما استحقوا هذه المزية: لتفضيل الله للرجال على النساء بما فضلهم به من كون فيهم الخلفاء، والسلطين، والحكام، والأمراء، والغزاة، وغير ذلك من الأمور. قوله: **﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾** أي: وبسبب ما أنفقوا من أموالهم، وما مصدريه، أو موصولة، وكذلك هي في قوله: **﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾** ومن تبعيضية، والمراد: ما أنفقوه في الإنفاق على النساء، وبما دفعوه في مهرهنّ من أموالهم، وكذلك ما ينفقونه في الجهاد، وما يلزمهم في العقل.

وقد استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على جواز فسخ النكاح إذا عجز الزوج عن نفقة زوجته، وكسوتها، وبه قال مالك، والشافعي، وغيرهما. قوله: **﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾** أي: من النساء **﴿قَانِتَاتُ﴾** أي: مطيعات لله قائمات بما يجب عليهنّ من حقوق الله، وحقوق أزواجهنّ **﴿حَافِظَاتُ لِّغَيْبِ﴾** أي: لما يجب حفظه عند غيبة أزواجهنّ عنهنّ من حفظ نفوسهنّ، وحفظ أموالهنّ، وما في قوله: **﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾** مصدريه، أي: بحفظ الله. والمعنى: أنهنّ حافظات لغيب أزواجهنّ بحفظ الله لهنّ، ومعونته، وتسيده، أو حافظات له بما استحفظهنّ من أداء الأمانة إلى أزواجهن على الوجه الذي أمر الله به، أو حافظات له بحفظ الله لهنّ بما أوصى به الأزواج في شأنهنّ من حسن العشرة، ويجوز أن تكون «ما» موصولة، والعائد محذوف. وقرأ أبو جعفر: **﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾** بنصب الاسم الشريف، والمعنى: بما حفظن الله أي: حفظن أمره، أو حفظن دينه، فحذف الضمير الرابع إليهنّ للعلم به، وما على هذه القراءة مصدريه، أو موصولة، كالقراءة الأولى، أي: بحفظهن الله، أو بالذي حفظن الله به. قوله: **﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾** هذا خطاب للأزواج، قيل: الخوف هنا على بابيه، وهو حالة تحدث في القلب عند حدوث أمر مكروه، أو عند ظنّ حدوثه، وقيل المراد: بالخوف هنا العلم. والنشوز:

لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري نون نوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر، والرفادة، والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ قال: عصابة ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ﴾ قال: كان الرجلان أيهما مات، ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: 6] يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا، وصية، فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وهو المعروف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: كان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل يقول: ترثني، وارثك، وكان الأحياء يتحالفون، فقال رسول الله ﷺ: «كل حلف كان في الجاهلية، أو عقد انكره الإسلام، فلا يزيده الإسلام إلا شدة، ولا عقد، ولا حلف في الإسلام، فنسختها هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: 75]. وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي، عنه في الآية قال: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب، فيرث أحدهما الآخر، فنسخ ذلك في الأنفال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن: أن رجلاً من الأنصار لطم امرأته، فجاءت تلتطم القصاص، فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص، فنزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: 114] فسكت رسول الله ﷺ، ونزل القرآن: ﴿لِلرِّجَالِ قُوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: أردنا أمراً وأراد الله غيره. وأخرج ابن مردويه، عن علي بن حنبل، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿لِلرِّجَالِ قُوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يعني أمراء عليهن أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله حافظة لملكه ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ فضله عليها بنفقته، وسعيه ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ قال: مطيعات ﴿حَافِظَاتُ لَلْغَيْبِ﴾ يعني: إذا كنَّ كذا، فأحسنوا إليهن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة ﴿حَافِظَاتُ لَلْغَيْبِ﴾ قال: حافظات للغيب بما استودعهن الله من حقه، وحافظات لغيب أزواجهن. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد قال: ﴿حَافِظَاتُ لَلْغَيْبِ﴾ للزواج. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: تحفظ على زوجها ماله، وفرجها حتى يرجع، كما أمرها الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ فَشُوْهُنَ﴾ قال: تلك المرأة تنشر، وتستخف بحق زوجها، ولا تطيع أمره، فأمره الله أن يعظها، ويذكرها بالله، ويعظم حقه عليها، فإن قبلت، وإلا هجرها في المضجع، ولا يكلمها من غير

وَأَنْ جَفَّتْ شَفَاةُ يَتِيمَتَا فَامْتَرَا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ. وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا
إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّي اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِذَا اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٣٢﴾
قد تقدم معنى الشقاق في البقرة، وأصله أن كل واحد منهم يأخذ شقاً غير شق صاحبه، أي: ناحية غير ناحيته، وأضيف الشقاق إلى الظرف لإجرائه مجرى المفعول به، كقوله تعالى: ﴿يَلْ مَكَرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: 32] وقوله: يا سارق الليلة أهل الدار

والخطاب للامراء والحكام، والضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ للزوجين؛ لأنه قد تقدم نكر ما يدل عليهما، وهو نكر الرجال والنساء ﴿فَابْعَثُوا﴾ إلى الزوجين ﴿حُكَمَا﴾ يحكم بينهما ممن يصلح لذلك عقلاً، وديناً، وإنصافاً، وإنما نص الله سبحانه على أن الحكمين يكونان من أهل الزوجين؛ لأنهما أقعد بمعرفة أحوالهما، وإذا لم يوجد من أهل الزوجين من يصلح للحكم بينهما كان الحكمان من غيرهم، وهذا إذا أشكل أمرهما، ولم يتبين من هو المسيء منهما؛ فأما إذا عرف المسيء، فإنه يؤخذ لصاحبه الحق منه، وعلى الحكمين أن يسعيا في إصلاح ذات البين جهدهما، فإن قدرا على ذلك عملاً عليه، ولن أعياهما إصلاح حالهما، ورأيا التفريق بينهما جاز لهما ذلك من نون أمر من الحاكم في البلد، ولا توكيل بالفرقة من الزوجين، وبه قال مالك، والأوزاعي، وإسحاق، وهو مروى، عن عثمان، وعلي، وابن عباس، والشعبي، والنخعي، والشافعي، وحكاه ابن كثير عن الجمهور، قالوا: لأن الله قال: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ وهذا نص من الله سبحانه أنهما قاضيان لا وكيلان، ولا شاهدان. وقال الكوفيون، وعطاء، وابن زيد، والحسن، وهو

الأخر، فليس حكمه بشيء حتى يجتمعا.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالَّذِينَ إِحْسَنًا وَبَذُوا
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ
وَالصَّاعِجِ وَالْجَبِّ وَأَيْنَ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

قد تقدم بيان معنى العباداة. وشيئاً إما مفعول به، أي: لا
تشركوا به شيئاً من الأشياء من غير فرق بين حيٍّ وميت،
وجماد وحيوان، وإما مصدر، أي: لا تشركوا به شيئاً من
الإشراك من غير فرق بين الشرك الأكبر، والأصغر،
والواضح، والخفي. وقوله: ﴿إِحْسَانًا﴾ مصدر لفعل محنوف،
أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً. وقرأ ابن أبي عتبة بالرفع، وقد
دل نكر الإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادة الله، والنهي
عن الإشراك به على عظم حقهما، ومثله: «هَؤُلَاءِ أَشْكُرُ لِي
وَلَوْلَايَكُمُ» [لقمان: 14] فأمر سبحانه بأن يشكروا معه. وقوله:
﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: صاحب القرابة، وهو من يصح إطلاق
اسم القرى عليه، وإن كان بعيداً. ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾
قد تقدم تفسيرهم، والمعنى وأحسنوا بذى القرى إلى آخر
ما هو مذكور في هذه الآية: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي:
القريب جواره، وقيل: هو من له مع الجوار في الدار قرب في
النسب ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ المجانب، وهو مقابل للجار ذي
القرى، والمراد من يصلق عليه مسمى الجوارم كونه دارة
بعيدة، وفي ذلك دليل على تعميم الجيران بالإحسان إليهم
سواء كانت الديار متقاربة، أو متباعدة، وعلى أن الجوار
حرمة مرعية مأمور بها. وفيه ردٌ من على يظن أن الجار
مختص بالملاصق دون من بينه، وبينه حائل، أو مختص
بالقريب دون البعيد، وقيل: إن المراد بالجار الجنب هنا: هو
الغريب، وقيل: هو الأجنبي الذي لا قرابة بينه، وبين المجاور
له. وقرأ الأعمش، والمفضل: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ بفتح الجيم،
وسكون النون، أي: ذي الجنب، وهو: الناحية، وأنشد
الأخفش:

الناس جنب، والأمير جنب

وقيل: المراد بالجار ذي القرى: المسلم، وبالجار الجنب:
اليهودي، والنصراني.

وقد اختلف أهل العلم في المقدار الذي يصلق عليه
مسمى الجوار، وثبت لصاحبه الحق، فروي عن الأوزاعي
والحسن أنه إلى حد أربعين داراً من كل ناحية، وروي عن
الزهري نحوه، وقيل: من سمع إقامة الصلاة، وقيل: إذا
جمعتما محلة، وقيل: من سمع النداء. والأولى أن يرجع في
معنى الجار إلى الشرع، فإن وجد فيه ما يقتضي بيانه، وأنه
يكون جاراً إلى حد كذا من الدور، أو من مسافة الأرض، كان
العمل عليه متعيناً، وإن لم يوجد رجع إلى معناه لغة أو
عرفاً. ولم يأت في الشرع ما يفيد أن الجار هو الذي بينه،
وبين جاره مقدار كذا، ولا ورد في لغة العرب أيضاً ما يفيد
ذلك، بل المراد بالجار في اللغة: المجاور، ويطلق على معان.

أحد قولي الشافعي: إن التفريق هو إلى الإمام، أو الحاكم في
البلد لا إليهما، ما لم يوكلفهما الزوجان، أو يامرهما الإمام،
والحاكم؛ لأنهما رسولان شاهدان، فليس إليهما التفريق،
ويرشد إلى هذا قوله: ﴿إِنْ يَرِيدَا﴾ أي: الحكمان
﴿إِصْلَاحًا﴾ بين الزوجين ﴿يُوفِقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ لاقتصاره
على نكر الإصلاح دون التفريق. ومعنى: ﴿إِنْ يَرِيدَا
إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي: يوقع الموافقة بين الزوجين
حتى يعودا إلى الألفة، وحسن العشرة. ومعنى الإرادة:
خلوص نيتهما لإصلاح الحال بين الزوجين، وقيل: إن
الضمير في قوله: ﴿يُوفِقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ للحكمين، كما في
قوله: ﴿إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ أي: يوفق بين الحكمين في
اتحاد كلمتهما، وحصول مقصودهما، وقيل: كلا الضميرين
للزوجين، أي: إن يريدَا إصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع
الله بينهما الألفة، والوفاق، وإذا اختلف الحكمان لم ينفذ
حكمهما، ولا يلزم قبول قولهما بلا خلاف.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
والبیهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ
شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ قال: هذا الرجل، والمرأة إذا تفسدت الذي
بينهما أمر الله أن تبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل،
ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان
الرجل هو المسيء حببوا امرأته عنه، وقسروه على النفقة،
وإن كانت المرأة هي المسيئة قسروها على زوجها، ومنعوها
النفقة، فإذا اجتمع رأيهما على أن يفرقا، أو يجمعا، فأمرهما
جائز، فإن رآيا أن يجمعا، فرضي أحد الزوجين، وكره الآخر
ذلك، ثم مات أحدهما فإن الذي رضي يبرئ الذي كره، ولا
يرث الكاره الراضي ﴿إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ قال: هما،
الحكمان ﴿يُوفِقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ وكذلك كل مصلح يوفقه
للحق، والصواب. وأخرج الشافعي في الأم، وعبد الرزاق في
المصنف، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن عبيدة
السلماني في هذه الآية قال: جاء رجل، وامرأة إلى علي،
ومعهما فئام من الناس، فأمرهم علي، فبعثوا حكماً من أهله،
وحكماً من أهلها، ثم قال للحكمين: تدریان ما عليكما؟ عليكما
إن رأيتما أن تجمعا أن تجمعا، وإن رأيتما أن تفرقا أن تفرقا،
قالت المرأة: رضيت بكتاب الله بما علي فيه ولي؛ وقال
الرجل: أما الفرقة، فلا، فقال: كذبت، والله حتى تقر مثل الذي
أقرت به. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، عن ابن عباس قال: بعثت أنا، ومعاوية حكمين،
فقبل لنا: إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تفرقا
فرقتما، والذي بعثهما عثمان. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن
حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي،
عن الحسن قال: إنما يبعث الحكمان ليصلحا، ويشهدا على
الظالم بظلمه، فأما الفرقة، فليست بأيديهما. وأخرج عبد بن
حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه. وأخرج
البيهقي، عن علي قال: إذا حكم أحد الحكمين، ولم يحكم

قال في القاموس. والجار المجاور، والذي لجرت من أن يظلم، والمجير، والمستجير، والشريك في التجارة، وزوج المرأة، وهي جارتها، وفرج المرأة، وما قرب من المنزل، والاست كالجارة، والقاسم، والحليف، والناصر. انتهى. قال القرطبي في تفسيره: وروي: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: إني نزلت محلة قوم، وإن أقربهم إليّ جواراً أشدهم لي أذى فبعث النبي ﷺ أبا بكر، وعمر، وعلياً يصيحبون على أبواب المساجد: إلا إن أربعين داراً جار، ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه». انتهى. ولو ثبت هذا لكان مغنياً عن غيره، ولكنه رواه، كما ترى من غير عزوله إلى أحد كتب الحديث المعروفة، وهو: وإن كان إماماً في علم الرواية، فلا تقوم الحجة بما يرويه بغير سند منكر، ولا نقل عن كتاب مشهور، ولا سيما، وهو ينكر الواهيات كثيراً، كما يفعل في تذكرته، وقد ورد في القرآن ما يدل على أن المساكنة في مدينة مجاورة، قال الله تعالى: «لئن لم ينته المنافقون» إلى قوله: «ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً» [الأحزاب: 60] فجعل اجتماعهم في المدينة جواراً. وأما الأعراف في مسمى الجوار، فهي تختلف باختلاف أهلها، ولا يصح حمل القرآن على أعراف متعارفة، وأصطلاحات متواضعة. قوله: «والصاحب بالجانب» قيل: هو الرفيق في السفر، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن أبي ليلى: هو الزوجة. وقال ابن جريج: هو الذي يصحبك، ويلزمك رجاء نفك. ولا يبعد أن تتناول الآية جميع ما في هذه الأقوال مع زيادة عليها وهو: كل من صدق عليه أنه صاحب بالجانب أي: بجانبك كمن يقف بجانبك في تحصیل علم، أو تعلم صناعة، أو مباشرة تجارة، أو نحو ذلك. قوله: «ولبن السبيل» قال مجاهد: هو الذي يجتاز بك ماراً، والسبيل الطريق، فنسب المسافر إليه لمروده عليه، ولزومه إياه، فالأولى تفسيره بمن هو على سفر، فإن على المقيم أن يحسن إليه، وقيل: هو المنقطع به، وقيل: هو الضيف. قوله: «وما ملكك إيمانكم» أي: وأحسنوا إلى ما ملكت إيمانكم إحساناً، وهم: العبيد والإماء، وقد أمر النبي ﷺ بأنهم يطعمون مما يطعم مالئكم، ويلبسون مما يلبس. والمختال ذو الخيلاء، وهو والكبر، والتية، أي: لا يجب من كان متكبراً تائهاً على الناس مفتخراً عليهم. والفخر: المدح للنفس، والتلاؤل، وتعديد المناقب، وخص هاتين الصفتين؛ لانهما يحملان صاحبهما على الانفة مما ندب الله إليه في هذه الآية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان من طرق، عن ابن عباس في قوله: «والجار ذي القربى» يعني: الذي بينك، وبينه قرابة «والجار الجنب» يعني: الذي ليس بينك، وبينه قرابة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن نوف البكالي قال: الجار ذي القربى: المسلم، والجار الجنب: اليهودي، والنصراني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: «والصاحب بالجانب» قال: الرفيق في السفر. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبیر، ومجاهد مثله. وأخرج الحكيم، والترمذي في نوازل الأصول، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: «والصاحب بالجانب» قال: هو جليستك في الحضر، ورفيقتك في السفر، وأمرتك التي تضاجعك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عليّ قال: هو المرأة. وأخرج هؤلاء، والطبراني عن ابن مسعود مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: «وما ملكك إيمانكم» قال: مما خولك الله، فأحسن صحبته: كل هذا أوصى الله به. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل نحوه، وقد ورد مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ في برّ الوالدين، وفي صلة القرابة، وفي الإحسان إلى اليتامى، وفي الإحسان إلى الجار، وفي القيام بما يحتاجه الممالك لحايت كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة لا حاجة بنا إلى بسطها هنا، وهكذا ورد في نم الكبر والاختيال والفخر ما هو معروف.

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَأَمْرُهُنَّ النَّاسُ بِالْبُخْلِ يَكُونُونَ مَا أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا أُنْثَىٰ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الْفَيْسِلُ لَمْ يَرْنَا سَكَاةً قَرِيبًا ﴿٧٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آتَاهُمُ اللَّهُ الْآخِرَ وَأَنْفَقُوا مِنْ دُونِهِمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٧٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُمُ وَمَقَالَ دَرُّوْ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٨٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٨١﴾ يَوْمَ يُؤْذَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَوُّوا أَرْسُولَ لَوْ كُنَّا مِنْ الْأَرْضِ وَلَا يَكُونُونَ اللَّهُ عَرِيبًا ﴿٨٢﴾

قوله: «الذين يبخلون» هم في محل نصب بدلاً من قوله: «من كان مختالاً» أو على الذم، أو في محل رفع على الابتداء، والخبر مقدر، أي: لهم كذا، وكذا من العذاب، ويجوز أن يكون مرفوعاً بدلاً من الضمير المستتر في قوله: «مختالاً فخوراً» ويجوز أن يكون منصوباً على تقدير أعنى، أو مرفوعاً على الخبر، والمبتدأ مقدر، أي: هم الذين يبخلون، والجملة في محل نصب على البدل. والبخل المنموم في الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله، وهؤلاء المذكورون في هذه الآية ضمو إلى ما وقعوا فيه من البخل الذي هو اشترى خصال الشر ما هو أقبح منه، وأدل على سقوط نفس فاعله، وبلوغه في الرذالة إلى غايتها، وهو أنهم مع بخلهم بأموالهم، وكنهم لما أنعم الله به عليهم من فضله «يامرون الناس بالبخل» كأنهم يجنون في صدورهم من جود غيرهم بماله حرجاً، ومضاضة، فلاكثر في عبادته من أمثالكم، هذه أموالكم قد بخلتم بها لكونكم تظنون انتقاصها بإخراج بعضها في مواضعه، فما بالكم بخلتم بأموال

شهداء؟ وهذا الاستفهام معناه: التوبيخ، والتقريع ﴿يَوْمَذُ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسْؤَى بِهِم الْأَرْضُ﴾ قرأ نافع، وابن عامر ﴿تَسْؤَى﴾ بفتح التاء، وتشديد السين، وقرأ حمزة، والكسائي بفتح التاء، وتخفيف السين، وقرأ الباقون بضم التاء، وتخفيف السين. والمعنى على القراءة الأولى والثانية: أن الأرض هي التي تسوى بهم، أي: أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض، فساخا فيها، وقيل الباء في قوله: ﴿بِهِمْ﴾ بمعنى على، أي: تسوى عليهم الأرض. وعلى القراءة الثالثة الفعل مبني للمفعول، أي: لو سوى الله بهم الأرض، فيجعلهم، والأرض سواء حتى لا يبعثوا. قوله: ﴿لَوْ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَيْثُ﴾ عطف على ﴿يَوْمَذُ﴾ أي: يومئذ يودّ الذين كفروا، ويومئذ لا يكتُمون الله حيثاً، ولا يقدرون على ذلك. قال الزجاج: قال بعضهم ﴿لَوْ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَيْثُ﴾ مستأنف؛ لأن ما عمله ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمانها. وقال بعضهم: هو معطوف. والمعنى: يوتون أن الأرض سويت بهم، وأنهم لم يكتُموا الله حيثاً؛ لأنه ظهر كذبهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان كردم بن يزيد حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحري بن عمرو، وحبي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحنون لهم، فيقولون: لا تنفقوا أموالكم، فإننا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون؟ فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَامُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾. وقد أخرج ابن أبي حاتم، عنه أنها نزلت في اليهود، وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، وأخرجه ابن جرير، عن سعيد بن جبير. وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ قال: رأس نملة حمراء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَنْ تَكُ حَسَنَةً﴾ وزن نرة زانت على سينثاته ﴿يُضَاعَفُهَا﴾ فاما المشرک، فيخفف به عنه العذاب، ولا يخرج من النار أبداً. وأخرج البخاري، وغيره، عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ، قلت يا رسول الله اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: نعم إنني أحب أن أسمع من غيري، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: حسبك الآن، فإذا عيناه ترفران». وأخرجه الحاكم، وصححه من حديث عمرو بن حريث. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَوْ لَا تَسْؤَى بِهِم الْأَرْضُ﴾ يعني: أن تسوى الأرض بالجيال، والأرض عليهم، وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية: يقول: وتوا لو

غيركم؟ مع أنه لا يلحقكم في ذلك ضرر، وهل هذا إلا غاية اللوم، ونهاية الحمق، والرقاعة، وقبح الطباع، وسوء الاختيار. وقد تقدم اختلاف القراءات في البخل. وقد قيل: إن المراد بهذه الآية: اليهود، فإنهم جمعوا بين الاختيال، والفخر، والبخل بالمال، وكنتم ما أنزل الله في التوراة، وقيل: المراد بها المنافقون، ولا يخفى أن اللفظ أوسع من ذلك، وأكثر شمولاً، وأعم فائدة. قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ عطف على قوله: ﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ﴾ وجه ذلك أن الأولين قد فرطوا بالبخل وبأمر الناس به وبكنتم ما أتاهم الله من فضله، وهؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم في غير مواضعها لمجرد الرياء، والسمة، كما يفعله من يريد أن يتسمع الناس بأنه كريم، ويتطاول على غيره بذلك، ويشمخ بأنفه عليه، مع ما ضم إلى هذا الإنفاق الذي يعود عليه بالضرر من عدم الإيمان بالله، وباليوم الآخر. قوله: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾ في الكلام إضمار، والتقدير، ولا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، فقريتهم الشيطان ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾ ففساء قريناً، والقريّن المقارن، وهو الصاحب، والخليل. والمعنى: من قبل من الشيطان في الدنيا، فقد قارنه فيها، أو فهو قرينه في النار، فساء الشيطان قريناً: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هذه الطوائف ﴿لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ ابتغاء لوجهه، وامتنالاً لامره، أي: وماذا يكون عليهم من ضرر لو فعلوا ذلك، قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ المِثْقَال مفعول من الثقل، كالمقدار من القدر، وهو منتصب على أنه نعت لمفعول محذوف، أي: لا يظلم شيئاً مثقال نرة. والنرة واحدة النر. وهي: النمل الصغار، وقيل: رأس النملة، وقيل: النرة الخربة، وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء الذي يظهر فيما يدخل من الشمس من كوة، أو غيرها نرة. والأول هو المعنى اللغوي الذي يجب حمل القرآن عليه. والمراد من الكلام: أن الله لا يظلم كثيراً، ولا قليلاً، أي: لا يبخسهم من ثواب أعمالهم، ولا يزيد في عقاب نذوبهم وزن نرة فضلاً عما فوقها. قوله: ﴿وَأَنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعَفُهَا﴾ قرأ أهل الحجاز: «حسنة» بالرفع. وقرأ من عداهم بالنصب، والمعنى على القراءة الأولى: إن توجد حسنة، على أن «كان» هي التامة لا الناقصة، وعلى القراءة الثانية: إن تك فعلته حسنة يضاعفها، وقيل: إن التقدير: إن تك مثقال النرة حسنة، وأنت ضمير المثقال لكونه مضافاً إلى المؤنث، والأول أولى. وقرأ الحسن: ﴿نُضَاعَفُهَا﴾ بالنون، وقرأ الباقون بالياء، وهي الأرجح لقوله: ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وقد تقدم الكلام في المضاعفة، والمراد: مضاعفة ثواب الحسنة قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ كيف منصوبة بفعل مضمر، كما هو رأي سيبويه، أو محلها رفع على الابتداء، كما هو رأي غيره، والإشارة بقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى الكفار، وقيل: إلى كفار قريش خاصة. والمعنى: فكيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء

انخرقت بهم الأرض، فساخوا فيها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ قال: بجوارحهم.

يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَوِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمْ تَمْسِكِ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَا يَنْصِبُونَ فَرَمَوْا طِينًا فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا عَنُورًا ﴿١٦﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جعل الخطاب خاصاً بالمؤمنين؛ لأنهم كانوا يقربون الصلاة حال السكر، وأما الكفار، فهم لا يقربونها سكارى، ولا غير سكارى. قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ قال أهل اللغة: إذا قيل: لا تقرب بفتح الراء معناه لا تتلبس بالفعل، وإذا كان بضم الراء كان معناه: لا تن من. والمراد هنا: النهي عن التلبس بالصلاة، وغشيانها. وبه قال جماعة من المفسرين، وإليه ذهب أبو حنيفة. وقال آخرون المراد: مواضع الصلاة، وبه قال الشافعي. وعلى هذا، فلا بد من تقدير مضاف، ويقوي هذا قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ وقالت طائفة: المراد: الصلاة ومواضعها معاً؛ لأنهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد إلا للصلاة، ولا يصلون إلا مجتمعين، فكانا متلازمين. قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ الجملة في محل نصب على الحال، وسكارى جمع سكران، مثل كسلى جمع كسلان. وقرأ النخعي: «سكرى» بفتح السين، وهو تكسير سكران. وقرأ الأعمش: «سكرى» كحبلى صفة مفردة. وقد ذهب العلماء كافة إلى أن المراد بالسكر هنا: سكر الخمر، إلا الضحاك، فإنه قال: المراد سكر النوم. وسيأتي بيان سبب نزول الآية، وبه يندفع ما يخالف الصواب من هذه الأقوال. قوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا غاية النهي عن قربان الصلاة في حال السكر، أي: حتى يزول عنكم أثر السكر، وتعلموا ما تقولونه، فإن السكران لا يعلم ما يقول، وقد تمسك بهذا من قال: إن طلاق السكران لا يقع؛ لأنه إذا لم يعلم ما يقوله انتفى القصد. وبه قال عثمان بن عفان، وابن عباس، وطاوس، وعطاء، والقاسم، وربيعه، وهو قول الليث بن سعد، وإسحاق، وأبي ثور، والمزني. واختاره الطحاوي، وقال: أجمع العلماء على أن طلاق المعتوه لا يجوز، والسكران معتوه كالמושوس. وأجازت طائفة، وقوع طلاقه، وهو محكي عن عمر بن الخطاب، ومعاوية، وجماعة من التابعين، وهو: قول أبي حنيفة، والثوري، والأوزاعي. واختلف قول الشافعي في ذلك. وقال مالك: يلزمه الطلاق، والقود في الجراح، والقتل، ولا يلزمه النكاح، والبيع. قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على محل الجملة الحالية، وهي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ والجنب لا يؤث، ولا يثنى، ولا يجمع؛ لأنه ملحق بالمصدر كالبعد، والقرب. قال الفراء: يقال جنب الرجل، وأجنب من الجنابة، وقيل: يجمع الجنب في لغة على أجنب، مثل عنق، وأعناق،

وطنب، وأطناب. وقوله: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ استثناء مفرغ، أي: لا تقربوها في حال من الأحوال إلا في حال عبور السبيل. والمراد به هنا: السفر، ويكون محل هذا الاستثناء المفرغ للنصب على الحال من ضمير لا تقربوا بعد تقييده بالحال الثانية، وهي قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ لا بالحال الأولى، وهي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فيصير المعنى: لا تقربوا الصلاة حال كونكم جنباً إلا حال السفر، فإنه يجوز لكم أن تصلوا بالتييم، وهذا قول علي، وابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والحكم، وغيرهم، قالوا: لا يصح لأحد أن يقرب الصلاة، وهو جنب إلا بعد الاغتسال إلا المسافر، فإنه يتييم؛ لأن الماء قد يعدم في السفر لا في الحضر، فإن الغالب أنه لا يعدم. وقال ابن مسعود، وعكرمة، والنخعي، وعمرو بن دينار، ومالك، والشافعي: عابر السبيل هو: المجتاز في المسجد، وهو مروى عن ابن عباس، فيكون معنى الآية على هذا لا تقربوا مواضع الصلاة، وهي: المساجد في حال الجنابة إلا أن تكونوا مجتازين فيها من جانب إلى جانب، وفي القول الأول قوة من جهة كون الصلاة فيه باقية على معناها الحقيقي، وضعف من جهة ما في حمل عابر السبيل على المسافر، وإن معناه: أنه يقرب للصلاة عند عدم الماء بالتييم، فإن هذا الحكم يكون في الحاضر إذا عدم الماء، كما يكون في المسافر، وفي القول الثاني قوة من جهة عدم التكلف في معنى قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ وضعف من جهة حمل الصلاة على مواضعها، وبالجملة، فالحال الأولى، أعني قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ تقوي بقاء الصلاة على معناها الحقيقي من دون تقدير مضاف، وكذلك ما سيأتي من سبب نزول الآية يقوي ذلك. وقوله: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ يقوي تقدير المضاف، أي: لا تقربوا مواضع الصلاة، ويمكن أن يقال: إن بعض قيود النهي أعني: لا تقربوا، وهو قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ يدل على أن المراد بالصلاة: معناها الحقيقي، وبعض قيود النهي وهو قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ يدل على أن المراد: مواضع الصلاة، ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه، ويكون ذلك بمنزلة نهيين مقيد كل واحد منهما بقيد، وهما لا تقربوا الصلاة التي هي ذات الإنكار، والأركان، وأنتم سكارى، ولا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنباً إلا حال عبوركم في المسجد من جانب إلى جانب، وغاية ما يقال في هذا أنه من الجمع بين الحقيقة، والمجاز، وهو جائز بتأويل مشهور. وقال ابن جرير بعد حكاية للقولين: والأولى قول من قال: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ إلا مجتازي طريق فيه، وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء، وهو جنب في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً، فكان معلوماً بذلك، أي: أن قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ حتى تغتسلوا، لو كان معنياً به المسافر لم يكن لإعادة نكره في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾

الاحاديث الصحيحة تدفعه، وتبطله، كحديث عمار، وعمران بن حصين، وأبي نر في تيمم الجنب. وقالت طائفة: هو الجماع كما في قوله: ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُمْ﴾ [الأحزاب: 49]، وقوله: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُمْ﴾ [البقرة: 237] وهو مروى عن علي، وأبي بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، والحسن، وعبيد بن عمير، وسعيد بن جبير، والشعبي، وقتادة، ومقاتل بن حبان، وأبي حنيفة. وقال مالك: الملامس بالجماع يتيمم، واللامس باليد يتيمم إذا التذّ، فإن لمستها بغير شهوة، فلا وضوء، وبه قال أحمد، وإسحاق. وقال الشافعي: إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى بدن المرأة سواء كان باليد، أو غيرها من أعضاء الجسد انتقضت به الطهارة، وإلا فلا. وحكاه القرطبي عن ابن مسعود، وابن عمر، والزهري، وربيعه. وقال الأوزاعي: إذا كان للمس باليد نقض الطهر، وإن كان بغير اليد لم ينقضه لقوله تعالى - فلمسوه بأيديهم - وقد احتجوا بحجج تزعم كل طائفة أن حجتها تدل على أن الملامسة المذكورة في الآية هي ما ذهب إليه، وليس الأمر كذلك. فقد اختلفت الصحابة، ومن بعدهم في معنى الملامسة المذكورة في الآية، وعلى فرض أنها ظاهرة في الجماع، فقد ثبتت القراءة المروية عن حمزة، والكسائي بلفظ: «أو لمستم» وهي محتملة بلا شك، ولا شبهة، ومع الاحتمال، فلا تقوم الحجة بالمحتمل. وهذا الحكم تعم به البلوى، ويثبت به التكليف العام، فلا يحل إثباته بمحتمل قد، وقد وقع النزاع في مفهومه. وإذا عرفت هذا، فقد ثبتت السنة الصحيحة بوجوب التيمم على من اجتنب، ولم يجد الماء، فكان الجنب داخلًا في الآية بهذا الليل، وعلى فرض عدم دخوله فالسنة تكفي في ذلك. وأما وجوب الوضوء، أو التيمم على من لمس المرأة بيده، أو بشيء من بدنه، فلا يصح القول به استدلالاً بهذه الآية لما عرفت من الاحتمال. وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ أتاه رجل، فقال: يا رسول الله ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها؟ وليس يأتي الرجل من أمراته شيئاً إلا قد أتاه منها غير أنه لم يجامعها فأنزل الله: ﴿اتِمُّ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّكَرِينَ﴾ [هود: 114]. أخرجه أحمد، والترمذي، والنسائي من حديث معاذ، قالوا: فأمره بالوضوء؛ لأنه لمس المرأة، ولم يجامعها، ولا يخفك أنه لا دالة بهذا الحديث على محل النزاع، فإن النبي ﷺ إنما أمره بالوضوء لياتي بالصلاة التي نكرها الله سبحانه في هذه الآية، إذ لا صلاة إلا بوضوء. وأيضاً فالحديث منقطع؛ لأنه من رواية ابن أبي ليلى عن معاذ، ولم يلقه، وإذا عرفت هذا، فالأصل البراءة عن هذا الحكم، فلا يثبت إلا ببليلى خالص عن الشوائب الموجبة لقصوره عن الحجة. وأيضاً قد ثبت عن عائشة من طرق أنها قالت: «كان النبي ﷺ يتوضأ، ثم يقبل، ثم يصلي، ولا يتوضأ». وقد روي هذا الحديث بالفاظ مختلفة، رواه أحمد، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وما قيل

مرضى أو على سفر، معنى مفهوم. وقد مضى نكر حكمه قبل ذلك، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها، وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا إلا عابري سبيل. قال: والعابر السبيل المجتاز مرأً، وقطعاً، يقال منه: عبرت هذا الطريق، فأنا أعبره عبراً، وعبراً، ومنه قيل: عبر فلان النهر إذا قطعه، وجاوزه، ومنه قيل للناقة القوية: هي عبر أسفار لقوتها على قطع الأسفار. قال ابن كثير: وهذا الذي نصره يعني ابن جرير هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية. انتهى. قوله: ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ غاية للنهي عن قربان الصلاة، أو مواضعها حال الجنابة. والمعنى: لا تقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا إلا حال عبورك للسبيل. قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ المرض عبارة عن خروج البدن عن حد الاعتدال، والاعتياذ إلى الاعوجاج، والشذوذ، وهو على ضربين كثير، ويسير. والمراد هنا: أن يخاف على نفسه التلف، أو الضرر باستعمال الماء، أو كان ضعيفاً في بدنه لا يقدر على الوصول إلى موضع الماء، وروي عن الحسن أنه يتطهر، وإن مات، وهذا باطل يدفعه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]. وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29] وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: 185] قوله: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ فيه جواز التيمم لمن صدق عليه اسم المسافر، والخلاف مبسوط في كتب الفقه، وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يشترط أن يكون سفر قصر، وقال قوم: لا بد من ذلك. وقد أجمع العلماء على جواز التيمم للمسافر. واختلفوا في الحاضر، فذهب مالك، وأصحابه، وأبو حنيفة، ومحمد إلى أنه يجوز في الحاضر، والسفر. وقال الشافعي: لا يجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم إلا أن يخاف التلف. قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ هو المكان المنخفض، والمجيء منه كناية عن الحدث، والجمع الغيطان، والأغواط، وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء الحاجة تستراً عن أعين الناس، ثم سمي الحدث الخارج من الإنسان غائطاً توسعاً، ويدخل في الغائط جميع الأحداث الناقضة للوضوء. قوله: ﴿أَوْ لَمْ تَمْسُكُمُ النِّسَاءَ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «لامستم» وقرأ حمزة، والكسائي: «لمستم» قيل المراد بها: بما في القراءتين الجماع، وقيل: المراد به: مطلق المباشرة، وقيل: إنه يجمع الأمرين جميعاً، وقال محمد بن يزيد المبرد: الأولى في اللغة أن يكون: «لامستم» بمعنى قبلتم، ونحوه، و«لمستم» بمعنى غشيتم.

واختلف العلماء في معنى ذلك على أقوال، فقالت فرقة: الملامسة هنا مختصة باليد دون الجماع، قالوا: والجنب لا سبيل له إلى التيمم بل يغتسل، أو يدع الصلاة حتى يجد الماء. وقد روي هذا عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود. قال ابن عبد البر: لم يقل بقولهما في هذه المسئلة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأي، وحملة الآثار. انتهى. وإيضاً

الضرب في الأرض مظنة لإعواز الماء في بعض البقاع دون بعض. قوله: ﴿فَتَيْمَمُوا﴾ التيمم لغة: القصد، يقال: تيممت الشيء: قصدته، وتيممت الصعيد: تعمدته، وتيممته بسهمي، ورمحي: قصدته دون من سواه، وأنشد الخليل:

يممته الرمح شزراً ثم قلت له هذي البسالة لأعب الزحاليق
وقال امرؤ القيس:

تيممتمها من أرعات وأهلها بيثرب أننى دارها نظر عالي
وقال:

تيممت العين التي عند ضارج يفى عليها الظل عرمضا ظامي
قال ابن السكيت: قوله: ﴿فَتَيْمَمُوا﴾ أي: أقصدوا، ثم كثر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب. وقال ابن الأنباري في قولهم قد تيمم الرجل: معناه قد مسح للتراب على وجهه، وهذا خلط منهما للمعنى اللغوي بالمعنى الشرعي، فإن العرب لا تعرف التيمم بمعنى مسح الوجه واليدين، وإنما هو معنى شرعي فقط، وظاهر الأمر الوجوب، وهو مجمع على ذلك. والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وتفاصيل التيمم، وصفاته مبينة في السنة المطهرة، ومقالات أهل العلم مؤونة في كتب الفقه، قوله: ﴿صَعِيداً﴾ الصعيد: وجه الأرض سواء كان عليه تراب، أو لم يكن، قاله الخليل، وابن الأعرابي، والزجاج. قال الزجاج: لا أعلم فيه خلافاً بين أهل اللغة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ [الكهف: 8] أي: أرضاً غليظة لا تثبت شيئاً، وقال تعالى: ﴿فَتَصْنَعِ صَعِيداً زَلَقاً﴾ [الكهف: 40] وقال: ذو الرمة:

كانه بالضحى يرمي الصعيد به ونابه في عظام الرأس خرطوم
وإنما سمي صعيداً؛ لأنه نهاية ما يصعد إليه من الأرض، وجمع الصعيد صعيدات.

وقد اختلف أهل العلم فيما يجزئ التيمم به، فقال مالك، وأبو حنيفة، والثوري، والطبري: إنه يجزئ بوجه الأرض كله تراباً كان، أو رملاً، أو حجارة، وحملوا قوله: ﴿طَبِيباً﴾ على الطاهر الذي ليس بنجس، وقال الشافعي، وأحمد، وأصحابهما: إنه لا يجزئ التيمم إلا بالتراب، فقط، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿صَعِيداً زَلَقاً﴾ [الكهف: 40] أي: تراباً أملس طيباً، وكذلك استدلوا بقوله: ﴿طَبِيباً﴾ قالوا: والطيب التراب الذي يثبت. وقد تنوزع في معنى الطيب، فقيل: الطاهر كما تقدم، وقيل: المنبت كما هنا، وقيل: الحلال. والمحتمل لا تقوم به حجة، ولو لم يوجد في الشيء الذي يتيمم به إلا ما في الكتاب العزيز، لكان الحق ما قاله الأولون، لكن ثبت في صحيح مسلم من حديث حنيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا الناس بثلاث: جعلت صفوفاً، كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء، وفي لفظ «وجعل ترابها لنا طهوراً» فهذا مبين لمعنى الصعيد المذكور في الآية، أو مخصص لعمومه، أو مقيد لإطلاقه، ويؤيد هذا ما حكاه ابن فارس عن كتاب الخليل: تيمم بالصعيد، أي: أخذ من غباره. انتهى، والحجر الصلد لا غبار له. قوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾

من أنه من رواية حبيب بن أبي ثابت، عن عروة، عن عائشة، ولم يسم من عروة، فقد رواه أحمد في مسنده من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، ورواه ابن جرير من حديث ليث، عن عطاء، عن عائشة، ورواه أحمد أيضاً، وأبو داود، والنسائي من حديث أبي روق الهمداني، عن إبراهيم التيمي، عن عائشة، ورواه أيضاً ابن جرير من حديث أم سلمة، ورواه أيضاً من حديث زينب السهمية. ولفظ حديث أم سلمة: «إن رسول الله ﷺ كان يقبلها، وهو صائم، ولا يفطر، ولا يحدث وضوءاً». ولفظ حديث زينب السهمية: «أن النبي ﷺ كان يقبل، ثم يصلي، ولا يتوضأ». ورواه أحمد، عن زينب السهمية، عن عائشة. قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ هذا القيد إن كان راجعاً إلى جميع ما تقدم مما هو مذكور بعد الشرط، وهو المرض، والسفر، والمجيء من الغائط، وملامسة النساء كان فيه دليل على أن المرض، والسفر بمجردهما لا يسوغان التيمم، بل لا بد مع وجود أحد السببين من عدم الماء، فلا يجوز للمريض أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء، ولا يجوز للمسافر أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء، ولكنه يشكل على هذا أن الصحيح، كالمرضى إذا لم يجد الماء تيمم، وكذلك المقيم، كالمسافر إذا لم يجد الماء تيمم، فلا بد من فائدة في التنصيص على المرض والسفر؛ فقل وجه التنصيص عليهما أن المرض مظنة للعجز عن الوصول إلى الماء، وكذلك المسافر عدم الماء في حقه غالب، وإن كان راجعاً إلى صورتين الأخيرتين: أعني قوله: ﴿أَوْ جَاءَ لِحَدِّ مَنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لِمَسْتَمِ لِلنِّسَاءِ﴾ كما قال بعض المفسرين كان فيه إشكال، وهو أن من صدق عليه اسم المريض، أو المسافر جاز له التيمم، وإن كان واجداً للماء قادراً على استعماله، وقد قيل: إنه رجع هذا القيد إلى الآخرين مع كونه معتبراً في الأولين لندرته وقوعه فيهما. وأنت خبير بأن هذا كلام ساقط، وتوجيه بارد. وقال مالك، ومن تابعه: نكر الله المرض، والسفر في شرط التيمم اعتباراً بالأغلب في من لم يجد الماء بخلاف الحاضر، فإن الغالب وجوده، فلذلك لم ينص الله سبحانه عليه. انتهى. والظاهر أن المرض بمجرد عدم مسوِّغ للتيمم، وإن كان الماء موجوداً إذا كان يتضرر باستعماله في الحال، أو في المال، ولا تعتبر خشية التلف، فالحق سبحانه يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: 185] ويقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، والنبي ﷺ يقول: «الدِّينُ يَسْرُ» ويقول: «يسروا ولا تعسروا» وقال: «قتلوه قتلهم الله» ويقول: «أمرت بالشرعية السمحة، فإذا قلنا: إن قيد عدم وجود الماء راجع إلى الجميع كان وجه التنصيص على المرض هو أنه يجوز له التيمم، والماء حاضر موجود إذا كان استعماله يضره، فيكون اعتبار ذلك القيد في حقه إذا كان استعماله لا يضره، فإن في مجرد المرض مع عدم الضرر باستعمال الماء ما يكون مظنة لعجزه عن الطلب، لأنه يلحقه بالمرض نوع ضعف. وأما وجه التنصيص على المسافر، فلا شك أن

وأيديكم ﴿ هذا المسح مطلق يتناول المسح بضرية، أو ضربتين، ويتناول المسح إلى المرفقين، أو إلى الرسغين، وقد بينته السنة بياناً شافياً، وقد جمعنا بين ما ورد في المسح بضرية، وبضربتين، وما ورد في المسح إلى الرسغ، وإلى المرفقين في شرحنا للمنتقى، وغيره من مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً غَفُوراً﴾ أي: عفا عنكم، وغفر لكم تقصيركم، ورحمكم بالتريخيص لكم، والتوسعة عليكم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والضياء في المختارة، عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فآخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني، فقرأت: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: 1 - 2] ونحن نعبد ما تعبّدون، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه: أن الذي صلى بهم عبد الرحمن. وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة في الآية قال: نزلت في أبي بكر، وعمر، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، صنع لهم علي طعاماً، وشراباً، فأكلوا، وشربوا، ثم صلى بهم المغرب، فقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى ختمها، فقال: ليس لي دين، وليس لكم دين، فنزلت. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في هذه الآية قال: نسختها: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: 90] الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك في الآية قال: لم يعن بها الخمر إنما عني بها سكر النوم. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ قال: النعاس. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن علي. قوله: ﴿وَلَا جُنْباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ قال: نزلت في المسافرين تصيبه الجنابة، فيتيمم ويصلي. وفي لفظ قال: لا يقرب الصلاة إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء، فيتيمم، ويصلي حتى يجد الماء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن ابن عباس في الآية يقول: لا تقربوا الصلاة، وأنتم جنب إذا، وجنبت الماء، فإن لم تجدوا الماء، فقد أحلت أن تمسحوا بالأرض. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد قال: لا يَمُرُّ الجنب، ولا الحائض في المسجد، إنما أنزلت: ﴿وَلَا جُنْباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ للمسافر يتييم، ثم يصلي. وأخرج الدارقطني، والطبراني، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مروي، والبيهقي في سننه، والضياء في المختارة عن الأسلم بن شريك قال: كنت أرحل ناقة رسول الله ﷺ، فأصابتني جنابة في ليلة باردة، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة، فكرهت أن أرحل ناقة، وأنا جنب، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد، فأموت، أو أمرض، فأمرت

رجلاً من الأنصار، فرحلها، ثم رصفت أحجاراً فأسخت بها ماء فاغتسلت، ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: يا أسلم، ما لي أرى راحلتك تغيرت؟ قلت: يا رسول الله لم أرحلها، رحلها رجل من الأنصار، قال: ولم؟ قلت: إني أصابتني جنابة، فخشيت القر على نفسي، فأمرت أن يرحلها، ورضفت أحجاراً، فأسخت بها ماء، فاغتسلت به، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا جُنْباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾. وأخرج ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والطبراني، والبيهقي من وجه آخر عن أسلم قال: «كنت أخدم النبي ﷺ وأرحل له، فقال لي ذات ليلة: يا أسلم قم، فأرحل لي، قلت: يا رسول الله أصابتني جنابة، فسكت عني ساعة حتى جاء جبريل بآية الصعيد، فقال: قم يا أسلم فتييم» الحديث. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: المساجد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي من طريق عطاء الخراساني عنه: ﴿وَلَا جُنْباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ قال: لا تدخلوا المسجد، وأنتم جنب إلا عابري سبيل، قال: تمر به مرأً، ولا تجلس. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، نحوه. وأخرج عبد الرزاق، والبيهقي في سننه عنه أنه كان يرخص للجنب أن يمر في المسجد، ولا يجلس فيه، ثم قرأ قوله: ﴿وَلَا جُنْباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾. وأخرج البيهقي، عن أنس نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، والبيهقي، عن جابر قال: كان أحدنا يمر في المسجد، وهو جنب مجتازاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار كان مريضاً، فلم يستطع أن يقوم، فيتوضأ، ولم يكن له خادم فينأوله، فأتى رسول الله ﷺ، فلنكر ذلك له، فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ قال: هو الرجل المجذور أو به الجراح، أو القرخ يجنب، فيخاف إن اغتسل أن يموت، فيتيمم. وأخرج ابن جرير، عن إبراهيم النخعي قال: نال أصحاب رسول الله ﷺ جراح ففشت فيهم، ثم ابتلوا بالجنابة، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي من طرق عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَوْ لَمْ تَمْسُحُوا﴾ قال: للمس ما دون الجماع، والقبلة منه، وفيه الوضوء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن ابن عمر أنه كان يتوضأ من قبل المرأة، ويقول هي: اللامس. وأخرج الدارقطني، والبيهقي، والحاكم عن عمر قال: إن القبلة من اللامس، فتوضأ منها. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن علي قال: اللامس هو الجماع، ولكن الله كنى عنه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد،

من يحرفون الكلم كقوله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: 164] أي: من له، ومنه قول ذي الرمة:

نظّلوا ومنهم دمعهم سابق له

أي: من دمعهم، وأنكره الميرد، والزجاج؛ لأن حذف الموصول، كحذف بعض الكلمة؛ وقيل إن قوله: ﴿من الذين هانوا﴾ بيان لقوله: ﴿الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾. والتحريف: الإمالة والإزالة، أي: يميلونه، ويزيلونه، عن مواضعه، ويجعلون مكانه غيره، أو المراد: أنهم يتأولونه على غير تأويله، ونمهم الله عز وجل بذلك، لأنهم يفعلونه عناداً وبغياً، وتأثيراً لغرض الدنيا. قوله: ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿واسمع غير مسمع﴾ أي: اسمع حال كونك غير مسمع. وهو يحتمل أن يكون دعاء على النبي ﷺ، والمعنى: اسمع لا سمعت، ويحتمل أن يكون المعنى: اسمع غير مسمع مكروهاً، أو اسمع غير مسمع جواباً. وقد تقدم الكلام في راعنا. ومعنى: ﴿لما بالستهم﴾ أنهم يلوونها على الحق، أي: يميلونها إلى ما في قلوبهم، وأصل اللي: الفتل، وهو منتصب على المصدر، ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله. قوله: ﴿وطعنا في الدين﴾ معطوف على لما، أي: يطعون في الدين بقولهم: لو كان نبياً لعلم أنا نسبه، فاطلع الله سبحانه نبيه ﷺ على ذلك: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا﴾ قولك: ﴿وواطعنا﴾ أمرك: ﴿واسمع﴾ ما نقول: ﴿وانظرنا﴾ أي: لو قالوا هذا مكان قولهم راعنا ﴿لكان خيراً لهم﴾ مما قاله: ﴿واقوم﴾ أي: أعدل، وأولى من قولهم الأول، وهو قولهم: ﴿سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا﴾ لما في هذا من المخالفة، وسوء الأدب، واحتمال الذم في راعنا: ﴿ولكن﴾ لم يسلكوا المسلك الحسن، وياتوا بما هو خير لهم، وأقوم، ولهذا: ﴿لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي: إلا إيماناً قليلاً، وهو الإيمان ببعض الكتب دون بعض، وبعض الرسل دون بعض. قوله: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب﴾ نكر سبحانه أولاً أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب، وهنا نكر أنهم أوتوا الكتاب. والمراد: أنهم أوتوا نصيباً منه؛ لأنهم لم يعملوا بجميع ما فيه، بل حرقوا وبكروا. وقوله: ﴿مصنفاً﴾ منتصب على الحال. والطمس: استئصال أثر الشيء، ومنه: ﴿وانا النجوم طمست﴾ [المرسلات: 8] يقال: طمس بكسر الميم وضماً لغتان في المستقبل، ويقال: طمس الأثر أي: محاه كله، ومنه: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ [يونس: 88] أي: أهلكها، ويقال: هو مطموس البصر، ومنه: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ [يس: 66] أي: أعيناهم.

واختلف العلماء في المعنى المراد بهذه الآية هل هو حقيقة؟ فيجعل الوجه كالحق، فيذهب بالانف، والفم، والحاجب، والعين، أو تلك عبارة عن الضلالة في قلوبهم، وسلبهم التوفيق؟ فذهب إلى الأول طائفة، وذهب إلى الآخر آخرون، وعلى الأول، فالمراد بقوله: ﴿ففردها على أنبارها﴾ نجعلها قفا، أي: نذهب بآثار الوجه، وتخطيطه

وابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن جبيرة قال: كنا في حجرة ابن عباس، ومعنا عطاء بن أبي رباح، ونفر من الموالي، وعبيد بن عمير، ونفر من العرب، فتذاكرنا للمساء، فقلت أنا وعطاء، والموالي: اللبس باليد، وقال عبيد بن عمير، والعرب: هو الجماع، فدخلت على ابن عباس، فآخبرته فقال: غلبت الموالي، وأصابته العرب، ثم قال: إن اللبس واللمس، والمباشرة إلى الجماع ما هو، ولكن الله يكتنى ما شاء بما شاء. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: إن أطيّب الصعيد أرض الحرث.

أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْكُرُونَ أَشْكُلَ لَّيْسَ لَهُمْ كَيْدٌ إِلَّا عُدَّتْ عَلَيْهِمْ ۚ وَهُم بِآيَاتِنَا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا مُّخَبِّرًا ﴿١٦٦﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَانْظُرْ لَكَآ خَيْرًا لَّهْم وَأَقْرَبُ وَلَكِن لَّمْ يَكْفُرُوا ۚ اللَّهُ يَكْتُمُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦٧﴾ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِسًا بِمَا تَزَكَّى مَعَهُمَا لَمَّا مَعَهُمْ يَنْ قِيلَ إِنَّ تَطَّوَسَ جُوهًا فَزَكَّى عَلَآ أَذْيَارَهَا أَوْ تَلَّهْتُمْ كَمَا لَمَّا أَصْحَبَ السَّبَّيَّ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعُولًا ﴿١٦٨﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَمُورُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَنْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿١٦٩﴾

قوله: ﴿الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ كلام مستأنف، والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المسلمين. والنصيب: الحظ، والمراد: اليهود أوتوا نصيباً من التوراة. وقوله: ﴿يشكرون﴾ جملة حالية، والمراد بالاشتراء: الاستبدال، وقد تقدم تحقيق معناه. والمعنى: أن اليهود استبدلوا الضلالة، وهي: البقاء على اليهودية بعد وضوح الحجة على صحة نبوة نبينا ﷺ. قوله: ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ عطف على قوله: ﴿يشكرون﴾ مشارك له في بيان سوء صنيعهم، وضعف اختيارهم، أي: لم يكتفوا بما جنوه على أنفسهم من استبدال الضلالة بالهدى، بل أراؤا مع ضلالهم أن يتوصلوا بكتهم، وجحدهم إلى أن تضلوا أنتم أيها المؤمنون السبيل المستقيم الذي هو سبيل الحق: ﴿والله أعلم باعدائكم﴾ أيها المؤمنون، وما يريدونه بكم من الإضلال، والجملة اعتراضية ﴿وكفى بالله ولياً﴾ لكم ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ ينصركم في مواطن الحرب، فاكفوا بولايته، ونصره، ولا تتولوا غيره، ولا تستنصروه، والباء في قوله: ﴿يا الله﴾ في الموضعين زائدة. قوله: ﴿من الذين هانوا﴾ قال الزجاج: إن جعلت متعلقة بما قبل، فلا يوقف على قوله: ﴿نصيراً﴾ وإن جعلت منقطعة، فيجوز الوقف على نصيراً، والتقدير: من الذين هانوا قوم يحرفون، ثم حذف، وهذا مذهب سيبويه، ومثله قول الشاعر:

لو قلت ما في قومها لم أئثم بفضلها في حسب وميسم قالوا: المعنى: لو قلت ما في قومها لحد بفضلها، ثم حذف. وقال الفراء: المحذوف لفظ من: أي من الذين هانوا

﴿وَلَسَمِعَ غَيْرَ مَسْمُوعٍ﴾ قال: غير مقبول ما تقول: ﴿لِيَا بِلِلسَنَتِهِمْ﴾ قال: خلافاً ليلون به السنتهم ﴿وَوَاسَمِعَ وَانْظَرْنَا﴾ قال: أقمنا لا تعجل علينا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَسَمِعَ غَيْرَ مَسْمُوعٍ﴾ قال: يقولون اسمع لا سمعت. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار اليهود: منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم: يا معشر اليهود اتقوا الله، وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتم به لحق. فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وأنزل الله فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آوَتُوا لِكِتَابِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهَهُ﴾ قال: طمسها أن تعمي ﴿فَقَرَدُهَا عَلَى أَنْبَارِهَا﴾ يقول: نجعل وجوههم من قبل أفتيتهم، فيمشون القهقري، ونجعل لأحدهم عينين في قفاه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهَهُ﴾ يقول: عن صراط الحق ﴿فَقَرَدُهَا عَلَى أَنْبَارِهَا﴾ قال: في الضلالة، وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إن لي ابن أخ لا ينتهي، عن الحرم، قال: وما بينه؟ قال: يصلي ويوحد الله، قال: استوهب منه بينه، فإن أبي فابتعه منه، فطلب الرجل منه ذلك، فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ، فآخبره، فقال: وجدته شحيحاً على بينه، فنزلت: ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ﴾ الآية. وأخرج ابن الضريس، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن عدي بسند صحيح، عن ابن عمر قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكباثر حتى سمعنا من نبينا ﷺ: ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ﴾، ويغفر ما بون ذلك لمن يشاء، وقال: إني أنخرت دعوتي، وشفاعتي لأهل الكباثر من أمتي، فامسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عمر قال: لما نزلت: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53] الآية قام رجل فقال: ولشرك يا نبي الله؟ فكره ذلك النبي ﷺ، فقال: ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، عن أبي مجلز أن سؤال هذا الرجل هو سبب نزول: ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ﴾. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال في هذه الآية: إن الله حرّم المغفرة على من مات، وهو كافر، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته، فلم يؤيسهم من المغفرة. وأخرج الترمذي، وحسنه عن علي قال: أحب آية إلى في القرآن ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ﴾ الآية.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ كَلَّمَ اللَّهُ بِرُوحٍ مِنْ رَبِّكَ وَمِنْ بَيْنَكَ وَلَا يَحْكُمُونَ قِتِيلًا
 ١٨ أَنْظُرْ كَيْفَ يَتَّبِعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى

حتى يصير على هيئة القفا، وقيل: إنه بعد الطمس يردها إلى موضع القفا، والقفا إلى مواضعها، وهذا هو الصق بالمعنى الذي يفيد قوله: ﴿فَقَرَدُهَا عَلَى أَنْبَارِهَا﴾ فإن قيل: كيف جاز أن يهتد بهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا، ولم يفعل ذلك بهم؟ فقيل: إنه لما آمن هؤلاء ومن اتبعهم رفع الوعيد عن الباقيين. وقال المبرد: الوعيد باقٍ منتظر وقال: لا بد من طمس في اليهود، ونسخ قبل يوم القيامة. قوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ الضمير عائد إلى أصحاب الوجوه، قيل المراد باللعن هنا: المسخ لأجل تشبيهه بلعن أصحاب السبت، وكان لعن أصحاب السبت مسخهم قردة، وخنازير، وقيل المراد: نفس اللعنة، وهم ملعونون بكل لسان. والمراد: وقوع أحد الأمرين: إما الطمس، أو اللعن. وقد وقع اللعن، ولكنه يقوّي الأوّل تشبيه هذا اللعن بلعن أهل السبت. قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: كائنًا موجوداً لا محالة، أو يراد بالأمر المأمور. والمعنى أنه متى أرادته كان، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] قوله: ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، ولا يختص بكفار أهل الحرب، لأن اليهود قالوا عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقالوا ثالث ثلاثة. ولا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته؛ وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين، فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء. قال ابن جرير: قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله عز وجل إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله عز وجل. وظاهره أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلاً منه، ورحمة، وإن لم يقع من ذلك المذنب توبة، وقيد ذلك المعتزلة بالتوبة. وقد تقدّم قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَاثَ مَا نَهَوْنَ عَنْه نَكْفَرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: 31] وهي تدل على أن الله سبحانه يغفر سيئات من اجتنب الكباثر، فيكون مجتنب الكباثر ممن قد شاء الله غفران سيئاته.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود، وإذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه، وقال: أرعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام، وعابه، فأنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍَ هُمْ فِي عِلِّيِّينَ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿يَحْزَنُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ يعني: يحرفون حدود الله في التوراة، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿يَحْزَنُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ قال: تبديل اليهود التوراة ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ قالوا: سمعنا ما تقول، ولا نطيعك

السحر، والطاغوت الشيطان. وروي عن ابن مسعود أن الجبت، والطاغوت هاهنا كعب بن الأشرف. وقال قتادة: الجبت: الشيطان، والطاغوت: الكاهن، وروي عن مالك أن الطاغوت: ما عبد من دون الله، والجبت: الشيطان، وقيل: هما كل معبود من دون الله، أو مطاع في معصية الله. وأصل الجبت للجبس، وهو: الذي لا سير فيه، فأبليت التاء من السين قاله قطرب، وقيل: الجبت: إبليس، والطاغوت: أولياؤه. قوله: «ويقولون للذين كفروا هؤلاء هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً» أي: يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدى من الذين آمنوا بمحمد سبيلاً أي: أقوم ديناً، وأرشد طريقاً. وقوله: «أولئك» إشارة إلى القائلين «الذين لعنهم الله» أي: طردهم، وأبعدهم من رحمته «ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً» ينفع عنه ما نزل به من عذاب الله، وسخطه. قوله: «أم لهم نصيب من الملك» أم منقطعة، والاستفهام للإنكار، يعني: ليس لهم نصيب من الملك «فإن لا يؤتون للناس نقيراً» والفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف أي: إن جعل لهم نصيب من الملك، فإن لا يعطون الناس نقيراً منه لشدة بخلهم، وقوة حسدهم؛ وقيل: المعنى: بل لهم نصيب من الملك على أن معنى أم الإضراب عن الأول، والاستئناف للثاني، وقيل: هي: عاطفة على محذوف، والتقدير: أهم أولى بالنبوة ممن أرسلته، أم لهم نصيب من الملك، فإن لا يؤتون الناس نقيراً» والنقير: النقرة في ظهر النواة، وقيل: ما نقر الرجل بأصبعه، كما ينقر الأرض. والنقير أيضاً: خشبة تنقر، وينبذ فيها. وقد نهى النبي ﷺ عن النقير، كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما، والنقير: الأصل، يقال: فلان كريم النقير أي: كريم الأصل. والمراد هنا: المعنى الأول، والمقصود به المبالغة في الحقارة، كالقطمير، والفتيل. وإن هنا ملغاة غير عاملة لدخول فاء العطف عليها، ولو نصب لجاز. قال سيبويه: إن في عوامل الأفعال بمنزلة أظن في عوامل الأسماء التي تلغى إذا لم يكن الكلام معتمداً عليها، فإن كانت في أول الكلام، وكان الذي بعدها مستقلاً نصبت. قوله: «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» أم منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر إلى توبيخهم بآخر أي: بل يحسدون الناس يعني: اليهود يحسدون النبي ﷺ فقط، أو يحسدونه هو، وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوة، والنصر، وقهر الأعداء. قوله: «فقد آتينا آل إبراهيم» هذا إلزام لليهود بما يعترفون به، ولا ينكروه أي: ليس ما آتينا محمداً، وأصحابه من فضلنا ببدع حتى يحسدوا اليهود على ذلك، فهم يعلمون بما آتينا آل إبراهيم، وهم أسلاف محمد ﷺ. وقد تقدم تفسير الكتاب، والحكمة، والملك العظيم، قيل: هو ملك سليمان، واختاره ابن جرير «فمنهم» أي: اليهود «من آمن به» أي: بالنبي ﷺ «ومنهم من صد عنه» أي: أعرض عنه، وقيل: الضمير في به راجع إلى ما نكر من حديث آل إبراهيم، وقيل: الضمير راجع إلى إبراهيم.

أَلَيْسَ أُولَئِكَ نَصِيبًا مِّنَ الْكَتَبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنَ جُدَّ لَهٗ نَصِيرًا ﴿١٩﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَالِ فَإِذَا لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٢٠﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ﴿٢١﴾ فَوَيْلٌ لَّهِم مِّنْ صَدِّعَةٍ وَكُنَّ بِحَبْمٍ شَعِيرًا ﴿٢٢﴾

قوله: «ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم» تعجيب من حالهم. وقد اتفق المفسرون على أن المراد: اليهود. واختلفوا في المعنى الذي زكوا به أنفسهم، فقال الحسن، وقاتدة: هو قولهم: «نحن أبناء الله وأحبناؤه» [المائدة: 18] وقولهم: «لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى» [البقرة: 111] وقال الضحاك: هو قولهم لا نؤوب لنا، ونحن كالأطفال، وقيل: قولهم: إن آباءهم يشفعون لهم، وقيل: ثناء بعضهم على بعض. ومعنى التزكية: التطهير، والتنزيه، فلا يبعد صدقها على جميع هذه التفاسير، وعلى غيرها، واللفظ يتناول كل من زكى نفسه بحق، أو بباطل من اليهود، وغيرهم، ويدخل في هذا التلقب بالالقب المتضمنة للتزكية، كمحيي الدين، وعز الدين، ونحوهما. قوله: «ويل الله يزكي من يشاء» أي: تلك إليه سبحانه، فهو العالم بمن يستحق التزكية من عباده، ومن لا يستحقها، فليدع العباد تزكية أنفسهم، ويفوضوا أمر ذلك إلى الله سبحانه، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوي فاسدة تحمل عليها محبة النفس، وطلب العلو، والترفع، والتفاخر، ومثل هذه الآية قوله تعالى: «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى» [النجم: 32]. قوله: «ولا تظلمون» أي: هؤلاء المزكون لأنفسهم «فتيلاً» وهو: الخيط الذي في نواة التمر، وقيل: القشرة التي حول النواة؛ وقيل: هو ما يخرج بين أصبعيك، أو كفك من الوسخ إذا فتلتهما، فهو: فتيل بمعنى مقتول، والمراد هنا: الكناية عن الشيء الحقير، ومثله: «ولا يظلمون نقيراً» [النساء: 124] وهو: النكتة التي في ظهر النواة. والمعنى: أن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم لأنفسهم بقدر هذا الذنب، ولا يظلمون بالزيادة على ما يستحقون، ويجوز أن يعود الضمير إلى «من يشاء» أي: لا يظلم هؤلاء الذين يزكيهم الله فتيلاً مما يستحقونه من الثواب، ثم عجب النبي ﷺ من تزكيتهم لأنفسهم، فقال: «انظر كيف يفترون على الله الكذب» في قولهم ذلك. والافتراء: الاختلاق، ومنه افترى فلان على فلان أي: رماه بما ليس فيه، وفريت الشيء: قطعته، وفي قوله: «وكفى به إثماً مبيناً» من تعظيم الذنب، وتهويله ما لا يخفى. قوله: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» هذا تعجيب من حالهم بعد التعجيب الأول، وهم: اليهود.

واختلف المفسرون في معنى الجبت: فقال ابن عباس، وابن جبير، وأبو العالية، الجبت: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوت: الكاهن، وروي عن عمر بن الخطاب أن الجبت:

والمعنى: فمن آل إبراهيم من آمن بإبراهيم، ومنهم من صد عنه، وقيل: الضمير يرجع إلى الكتاب، والأول أولى **﴿وَكُفَىٰ بِهِمْ سَعِيرًا﴾** أي: نارا مسعرة.

وقد أخرج ابن جرير، من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: إن اليهود قالوا: إن آبائنا قد توفوا، وهم لنا قرية عند الله، وسيشفعون لنا، ويزكوننا، فقال الله لمحمد **﴿إِنَّمَا تَرَىٰ إِلَيْنِ الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم، ويزعمون أنهم لا خطايا لهم، ولا نوب، وكذبوا، قال الله: **﴿إِنِّي لَا أَظْهَرُ ذَا نَنْبٍ بِآخِرٍ لَا نَنْبَ لَهُ﴾**، ثم أنزل الله: **﴿إِنَّمَا تَرَىٰ إِلَيْنِ الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾**. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن أن التزكية قولهم: **﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾** [المائدة: 18] وقالوا: **﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا، أَوْ نَصَارَى﴾** [البقرة: 111]. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنِيًّا﴾** قال: الفتيل: ما خرج من بين الأصبعين. وفي لفظ آخر عنه: هو أن تلك بين أصبعيك، فما خرج منهما، فهو ذلك. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عنه قال: النقيز: النقرة تكون في النواة التي نبتت منها النخلة. والفتيل: الذي يكون على شق النواة. والقطمير: القشر الذي يكون على النواة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: الفتيل الذي في الشق الذي في بطن النواة. وأخرج الطبراني، والبيهقي في الدلائل عنه قال: قدم حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف مكة على قريش، فخالفهم على قتال رسول الله **﴿ﷺ﴾** وقالوا لهم: أنتم أهل العلم القديم، وأهل الكتاب، فأخبرونا عنا، وعن محمد، قالوا: ما أنتم وما محمد؟ قالوا: ننحر الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونفك العناء، ونسقي الحجيح، ونصل الأرحام، قالوا: فما محمد؟ قالوا: صنبور أي: فرد ضعيف، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيح بنو غفار، فقالوا: لا بل أنتم خير منه، وأهدى سبيلا، فأنزل الله: **﴿إِنَّمَا تَرَىٰ إِلَيْنِ الَّذِينَ أَوْتُوا إِلَيْنِ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾** الآية. وأخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة مرسلاً. وقد روي عن ابن عباس، وعن عكرمة بلفظ آخر. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن السدي، عن أبي مالك. وأخرج نحوه أيضاً البيهقي في الدلائل، وابن عساکر في تاريخه، عن جابر بن عبد الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن عكرمة قال: الجب، والطاغوت صنمان. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عمر في تفسير الجب، والطاغوت ما قُتِمَا عَنْهُ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الجب: حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الجب: الأصنام، والطاغوت: الذي يكون بين يدي الأصنام يعبرون عنها

والكذب: ليضلوا الناس. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الجب: اسم الشيطان بالحشوية، والطاغوت: كهان العرب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿إِنَّمَا لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾** قال: فليس لهم نصيب، ولو كان لهم نصيب لم يؤتوا الناس نقيراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق، عن ابن عباس قال النقيز: النقطة التي في ظهر النواة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: قال أهل الكتاب: زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع، وله تسع نسوة، وليس له همة إلا النكاح، فأي ملك أفضل من هذا؟ فأنزل الله هذه الآية: **﴿إِنَّمَا يَحْسَدُونَ النَّاسَ﴾** إلى قوله: **﴿مُلْكًا عَظِيمًا﴾** يعني: ملك سليمان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: الناس في هذا الموضع النبي خاصة. وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: هم: هذا الحي من العرب.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَوْجٌ مَعَهُمْ وَتَدْخُلُهُمْ ظِلٌّ عَظِيمٌ

قوله: **﴿بِآيَاتِنَا﴾** الظاهر عدم تخصيص بعض الآيات بكون بعض، و **﴿سَوْفَ﴾** كلمة تذكر للتهديد قاله سيبويه. وينوب عنها السنين. وقد تقدّم معنى نصلي في أول السورة. والمراد: ندخلهم ناراً عظيمة. وقرأ حميد بن قيس **﴿نُصَلِّهِمْ﴾** بفتح النون. قوله: **﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودَهُمْ﴾** يقال: نضج الشيء نضجاً، ونضاجاً، ونضج اللحم وقلان نضج الراي، أي: محكمه. والمعنى: أنها كلما احترقت جلودهم بكلهم الله جلوداً غيرها أي: أعطاهم مكان كل جلد محترق جلداً آخر غير محترق، فإن ذلك أبلغ في العذاب للشخص، لأن إحساسه لعمل النار في الجلد الذي لم يحترق أبلغ من إحساسه لعملها في الجلد المحترق، وقيل: المراد بالجلود: السراويل التي نكروها في قوله: **﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾** [إبراهيم: 50] ولا موجب لترك المعنى الحقيقي ها هنا، وإن جاز إطلاق الجلود على السراويل مجازاً، كما في قول الشاعر:

كسا اللوم تيماً خضرة في جلودها فويل لتيم من سراويلها الخضرة

وقيل: المعنى: أعننا الجلد الأول جديداً، ويأبى ذلك معنى التبديل. قوله: **﴿لِيُدْخِلُوا الْعَذَابَ﴾** أي: ليحصل لهم الدوق الكامل بذلك التبديل، وقيل: معناه: ليؤم لهم العذاب، ولا ينقطع، ثم أتبع وصف حال الكفار بوصف حال المؤمنين. وقد تقدّم تفسير الجنات التي تجري من تحتها الأنهار. قوله: **﴿لَهُمْ فِيهَا زُجُوجٌ مَطَهَّرَةٌ﴾** أي: من الأناس التي تكون في نساء الدنيا، والظل الظليل الكثيف الذي لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر، والسموم، ونحو ذلك، وقيل: هو مجموع ظل الأشجار، والقصور، وقيل: الظل الظليل هو الدائم الذي لا يزول، واشتقاق الصفة من لفظ الموصوف للمبالغة، كما يقال: ليل الليل.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر في

قوله: ﴿كَلِمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ قال: إذا احترقت جلودهم، بَلَغَناهم جُلُوداً بيضاء أمثال القراطيس. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عنه بسند ضعيف قال: قرئ عند عمر: ﴿كَلِمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ الآية، فقال معاذ: عندي تفسيرها تَبَدَّلَ في ساعة مائة مرة، فقال عمر: هكذا سمعت من رسول الله ﷺ. وأخرج أبو نعيم في الحلية، وابن مريويه أن القاتل كعب، وأنه قال: تَبَدَّلَ في الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن مسعود أن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿ظِلًّا ظِلِيلًا﴾ قال: هو ظل العرش الذي لا يزول.

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ لَآتٍ وَتُؤَدُّوْنَ الْأَمْنَثَ إِلَىٰ أَعْمَلِهَا وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعْلَمُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع؛ لأن الظاهر أن الخطاب يشمل جميع الناس في جميع الأمانات، وقد روي عن علي، وزيد بن أسلم، وشهر بن حوشب أنها خطاب لولاة المسلمين، والأول أظهر، ورودها على سبب، كما سيأتي لا يتنافي ما فيها من العموم، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما تقرّر في الأصول، وتدخل الولاة في هذا الخطاب دخولاً أولياً، فيجب عليهم تأدية ما لديهم من الأمانات، وردّ الظلمات، وتحزّي العدل في أحكامهم، ويدخل غيرهم من الناس في الخطاب، فيجب عليهم ردّ ما لديهم من الأمانات، والتحري في الشهادات، والأخبار. وممن قال بعموم هذا الخطاب: البراء بن عازب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، واختاره جمهور المفسرين، ومنهم ابن جرير، وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها: الأبرار منهم والفجار، كما قال ابن المنذر. والأمانات جمع أمانة، وهي: مصدر بمعنى المفعول. قوله: ﴿وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي: وإن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. والعدل: هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله ﷺ، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله، ولا في سنة رسوله، فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدري ما هو العدل؛ لانه لا يعقل الحجة إذا جاءت فضلاً عن أن يحكم بها بين عباد الله. قوله: ﴿فَنِعْمَ﴾ ما موصوفة، أو موصولة، وقد قدّمنا البحث في مثل ذلك.

وقد أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما فتح مكة، وقبض مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة، فنزل جبريل عليه السلام بردّ المفتاح، فدعا النبي ﷺ عثمان بن طلحة، وردّه إليه، وقرأ هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن عساکر، عن ابن جريج: أن هذه الآية نزلت في

عثمان بن طلحة لما قبض منه ﷺ مفتاح الكعبة، فدعاه،
 وبقعه إليه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن
 المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبي شيبة، عن علي قال: حق
 على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدي الأمانة، فإذا
 فعل ذلك، فحق على الناس أن يسمعوا له، وأن يطيعوا، وأن
 يجيبوا إذا دعوا. وأخرج أبو داود، والترمذي، والحاكم،
 والبيهقي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أد الأمانة لمن
 أئتمنتك، ولا تخن من خالك، وقد ثبت في الصحيح أن من
 خان إذا أؤتمن، ففيه خصلة من خصال النفاق.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٦٦﴾

لما أمر سبحانه القضاة، والولاة إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالحق، أمر الناس بطاعتهم ما هنا، وطاعة الله عز وجل هي امتثال أوامره، ونواهيه، وطاعة رسوله ﷺ هي فيما أمر به، ونهى عنه. وأولي الأمر هم: الأئمة، والسلاطين، والقضاة، وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية، والمراد: طاعتهم فيما يأمرون به، وينهون عنه ما لم تكن معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ. وقال جابر بن عبد الله، ومجاهد: إن أولي الأمر، هم: أهل القرآن، والعلم، وبه قال مالك، والضحاك، وروى عن مجاهد أنهم أصحاب محمد ﷺ. وقال ابن كيسان: هم أهل العقل، والرأي، والراجح القول الأول. قوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ المنازعة المجانية، والنزع: الجذب، كان كل واحد ينتزع حجة الآخر، ويجنيها، والمراد: الاختلاف، والمجالبة، وظاهر قوله: ﴿في شيء﴾ يتناول أمور الدين، والدنيا، ولكنه لما قال: ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ تبين به أن الشيء المتنازع فيه يختص بأمور الدين دون أمور الدنيا، والرّد إلى الله: هو الرّد إلى كتابه العزيز، والرّد إلى الرسول: هو الرّد إلى سنته المطهرة بعد موته، وأما في حياته، فالرّد إليه سؤاله، هذا معنى الرّد إليهما، وقيل: معنى الرّد أن يقولوا: الله أعلم، وهو قول ساقط، وتفسير بارد، وليس الرّد في هذه الآية إلا الرّد المنكور في قوله تعالى: ﴿ولو رّوّه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [النساء: 83] قوله: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ فيه دليل على أن هذا الرّد متحتم على المتنازعين، وإنه شأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى الرّد المأمور به ﴿خير﴾ لكم ﴿وأحسن تأويل﴾ أي: مرجعاً، من الأول آل يؤول إلى كذا، أي: صار إليه؛ والمعنى: أن ذلك الرّد لكم، وأحسن مرجعاً ترجعون إليه. ويجوز أن يكون المعنى: أن الرّد لأحسن تأويلاً من تأويلكم الذي صرتم إليه عند التنازع.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس في قوله: ﴿اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾

بين الإيمان بما أنزل على رسول الله، وهو: القرآن، وما أنزل على من قبله من الأنبياء، فجاءوا بما ينقض عليهم هذه الدعوى، ويبتطلها من أصلها، ويوضح أنهم ليسوا على شيء من ذلك أصلاً، وهو إرانتهم التحاكم إلى الطاغوت، وقد أمروا فيما أنزل على رسول الله، وعلى من قبله أن يكفروا به، وسيأتي بيان سبب نزول الآية، وبه يتضح معناها. وقد تقدم تفسير الطاغوت، والاختلاف في معناها. قوله: ﴿وِيرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ معطوف على قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ والجملتان مسوقتان لبيان محل التعجب، كأنه قيل: ماذا يفعلون؟ فقيل: يريدون كذا، ويريد الشيطان كذا. وقوله: ﴿ضَلَالًا﴾ مصدر للفعل المذكور بحذف الزوائد كقوله: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتًا﴾ [نوح: 17] أو مصدر لفعل محذوف دل عليه الفعل المذكور، والتقدير: ويريد الشيطان أن يضلهم فيضلون ضلالاً. والصود: اسم للمصدر، وهو الصد عند الخليل، وعند الكوفيين أنهما مصدران، أي: يعرضون عنك إعراضاً. قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا صَابَقْتَهُمْ مَصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتَ لَيْبِهِمْ﴾ بيان لعاقبة أمرهم، وما صار إليهم حالهم، أي: كيف يكون حالهم ﴿إِذَا صَابَقْتَهُمْ مَصِيبَةٌ﴾ أي: وقت إصابتهم، فإنهم يعجزون عند ذلك، ولا يقدرون على الدفع. والمراد: ﴿بِمَا قَدَّمْتَ لَيْبِهِمْ﴾ ما فعلوه من المعاصي التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت ﴿بِمَا جَاؤُوكَ﴾ يعتذرون عن فعلهم، وهو عطف على ﴿صَابَقْتَهُمْ﴾ وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ حال، أي: جاؤوك حال كونهم حالفين ﴿إِنْ أَرَبْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: ما أربنا بتحكمننا إلى غيرك إلا الإحسان والإساءة، والتوفيق بين الخصمين لا المخالفة لك. وقال ابن كيسان: معناها: ما أربنا إلا عدلاً، وحقاً مثل قوله: ﴿وَلِيَحْلِفُوا﴾ إن أربنا إلا الحسنى [التوبة: 107] فكذبهم الله بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق، والعداوة للحق. قال الزجاج: معناها: قد علم الله أنهم منافقون ﴿فَاعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ أي: عن عقابهم، وقيل عن قبول اعتذارهم: ﴿وَعَظَّمَهُمْ﴾ أي: خوفهم من النفاق ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: في حق أنفسهم، وقيل: معناها: قل لهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: بالغا في وعظهم إلى المقصود مؤثراً فيهم، وذلك بأن توعدهم بسفك دمائهم وسبي نساءهم، وسلب أموالهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ مِنْكُمْ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ فيما أمر به، ونهى عنه ﴿وَإِنْ أَرَبْنَا إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ يعني: وقيل بتوقيفه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بترك طاعتك، والتحاكم إلى غيرك ﴿جَاؤُوكَ﴾ متوسلين إليك منتصلين عن جناباتهم، ومخالفتهم ﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ لذنوبهم، وتضرعوا إليك حتى قمت شفيعاً لهم، فاستغفرت لهم، وإنما قال: ﴿وَسْتَغْفِرُ لَهُمْ﴾ الرسول على طريقة الالتفات لقصد التفتيح لشان الرسول ﷺ ﴿لَوْ جِئْتُمْ إِلَّا بِرَحِيمَةٍ﴾ أي: كثير التوبة عليهم، والرحمة لهم. قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ قال ابن جرير: قوله: ﴿فَلَا﴾ رَدٌّ على ما تقدم ذكره، تقديره، فليس الأمر كما

قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي ﷺ في سرية، وقصته معروفة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عطاء في الآية قال: طاعة الله، والرسول اتباع الكتاب، والسنة ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ﴾ قال: أولى الفقه، والعلم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة، قال: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ هم: الأمراء، وفي لفظ هم: أمراء السرايا. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن جابر بن عبد الله في قوله: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال: أهل العلم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد بن نحوه. وأخرج ابن شيبة، وابن جرير، عن أبي العالية نحوه أيضاً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال: إلى كتاب الله، وسنة رسوله. ثم قرأ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ميمون بن مهران في الآية قال: الرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله ما دام حياً، فإذا قبض فإلى سنته. وأخرج ابن جرير، عن قتادة، والسدي مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿تِلْكَ خَيْرُ وَاحِشْنِ تَأْوِيلًا﴾ يقول: تلك أحسن ثواباً، وخير عاقبة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَاحِشْنِ تَأْوِيلًا﴾ قال: واحسن جزاء. وقد وردت أحاديث كثيرة في طاعة الأمراء ثابتة في الصحيحين، وغيرهما مقيدة بأن يكون ذلك في المعروف، وأنه لا طاعة في معصية الله.

أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يَرْغَبُونَ أَنَّهُمْ مَأْتُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ
قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُفِيضَ إِلَيْهِمْ وَيُرِيدُ
الشَّاكِلُونَ أَنْ يَعْطَاهُمْ حَسْبًا بَعِيدًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا مَا كَانَتْ
أَنْتُمْ وَالَّذِينَ اسْتُوفِيَ عَنْكُمْ صُدُودًا ﴿١٧﴾ فَكَيْفَ
إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ آيَاتِهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ بِخُلُوعٍ وَأَقْعٍ إِنْ
أَرَادُوا إِلَّا إِسْحَاقًا وَتَوْبَةً ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي
قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا
﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا لِيُعْلَمَ بِالْآيَاتِ أَنَّ اللَّهَ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءَهُمْ فَاسْتَفْقَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا
اللَّهَ نَائِبًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ
بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَسُبِّحُوا
سُبْحَانَ

قوله: ﴿الْم تر إلى الذين يزعمون﴾ فيه تعجيب لرسول الله ﷺ من حال هؤلاء الذين ادعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا

ثم لم يكتف بذلك، بل ضم إليه المصدر المؤكد، فقال: ﴿تسليماً﴾ فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم، ولا يجد الحرج في صدره بما قضى عليه ويسلم لحكم الله وشرعه، تسليماً لا يخالطه ردة، ولا تشوبه مخالفة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني بسند قال السيوطي: صحيح عن ابن عباس، قال: كان برزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله: ﴿الم تر إلى الذين يزعمون﴾ الآية، وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: كان الجلاس بن الصامت قبل توبته، ومعقب بن قشير، ورافع بن زيد، كانوا يذعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الكهان حكام الجاهلية، فنزلت الآية المنكورة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ قال: الطاغوت رجل من اليهود كان يقال له: كعب بن الأشرف، وكانوا إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول؛ ليحكم بينهم قالوا: بل نحاكمكم إلى كعب، فنزلت الآية. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن عبد الله بن الزبير: أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد ببراءة مع النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرّة، وكانا يسقيان به كلاهما للنخل. فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه، فقال رسول الله ﷺ: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري، وقال يا رسول الله أن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: اسق يا زبير، ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك، واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له، وللأنصاري، فلما أحفظ رسول الله ﷺ الأنصاري، استوعى للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، من طريق ابن لهيعة عن الأسود: أن سبب نزول الآية أنه اختصم إلى رسول الله ﷺ رجلان، فقضى بينهما، فقال المقضي عليه: ردنا إلى عمر، فردهما، فقتل عمر الذي قال ردنا، ونزلت الآية، فأمهر النبي ﷺ دم المقتول، وأخرجه الحكيمة الترمذي في نوابر الأصول عن مكحول، فنكر نحوه، وبين أن الذي قتله عمر كان منافقاً، وهما مرسلا، والقصة غريبة، وابن لهيعة فيه ضعف.

وَلَوْ أَنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ أَنْ أَتَوْا أُنْشِكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا مَا يُوعَدُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْئًا ﴿١١١﴾ وَإِذْ لَا تَهْتَفُتُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيْمًا ﴿١١٢﴾ وَلَهْدَيْتُمْهُمْ سِمًا مَّسْتَوِيْمًا ﴿١١٣﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، ثم استأنف القسم بقوله: ﴿ووبك لا يؤمنون﴾ وقيل: إنه قدم «لا» على القسم اهتماماً بالنفي، وإظهاراً لقوته، ثم كرره بعد القسم تأكيداً، وقيل: لا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد معنى النفي، والتقدير: فوبك لا يؤمنون، كما في قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة: 75] ﴿حتى يحكموك﴾ أي: يجعلوك حكماً بينهم في جميع أمورهم لا يحكمون أحداً غيرك، وقيل: معناه: يتحاكمون إليك، ولا ملجئ لذلك ﴿فيما شجر بينهم﴾ أي: اختلف بينهم، واختلط، ومنه الشجر لاختلاف أغصانه، ومنه قول طرفة:

وهم الحكم أرباب الهدى وسعاة الناس في الأمر للشجر أي: المختلف، ومنه: تشاجر الرماح، أي: اختلفا ﴿ثم لا يجنوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾ قيل: هو معطوف على مقتر ينساق إليه الكلام، أي: فتقضي بينهم، ثم لا يجنوا. والحرج: الضيق، وقيل: الشك، ومنه قيل للشجر الملتف: حرج وحرجة، وجمعها حراج، وقيل: الحرج: الإثم، أي: لا يجدون في أنفسهم إثماً بإنكارهم ما قضيت ﴿ويسلموا تسليماً﴾ أي: ينقلوا لامرك، وقضائك انقياداً لا يخالفونه في شيء. قال الزجاج: ﴿تسليماً﴾ مصدر مؤكد، أي: ويسلمون لحكمك تسليماً لا يدخلون على أنفسهم شكاً، ولا شبهة فيه. والظاهر أن هذا شامل لكل فرد في كل حكم، كما يؤيد ذلك قوله: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ فلا يختص بالمقصوبين بقوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ وهذا في حياته ﷺ، وأما بعد موته، فتحكيم الكتاب، والسنة، وتحكيم الحاكم بما فيها من الأئمة، والقضاة إذا كان لا يحكم بالرأي المجرد مع وجود الدليل في الكتاب، والسنة، لو في أحدهما، وكان يعقل ما يرد عليه من حجج الكتاب، والسنة، بأن يكون عالماً باللغة العربية، وما يتعلق بها من نحو، وتصريف، ومعاني، وبيان عارفاً بما يحتاج إليه من علم الأصول، بصيراً بالسنة المطهرة، مميزاً بين الصحيح، وما يلحق به، والضعيف، وما يلحق به، منصفاً غير متعصب لمذهب من المذاهب، ولا لنحلة من النحل، ورعاً لا يحيف، ولا يميل في حكمه، فمن كان هكذا، فهو قائم في مقام النبوة مترجم عنها حاكم بأحكامها. وفي هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود، وترجف له الأفئدة، فإنه أولاً أقسم سبحانه بنفسه مؤكداً لهذا القسم بحرف النفي بأنهم لا يؤمنون، فنفي عنهم الإيمان الذي هو رأس مال صالح عباد الله حتى تحصل لهم غاية هي تحكيم رسول الله ﷺ، ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال: ﴿ثم لا يجنوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾ فضم إلى التحكيم أمراً آخر، هو عدم وجود حرج أي: حرج في صدرهم، فلا يكون مجرد التحكيم، والإنعان كافياً حتى يكون من صميم القلب عن رضا، واطمئنان، وانثلاج قلب، وطيب نفس، ثم لم يكتف بهذا كله، بل ضم إليه قوله: ﴿ويسلموا﴾ أي: يذعنوا، ويتقنوا ظاهراً، وباطناً،

خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ الآية. وأخرج الطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس نحوه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا جِذْرَكُمْ فَإِنفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَيْعًا ﴿٦١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَوِّلَنَّ فَإِنْ أُصْبِحَ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ شَرِيحًا ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ أُصْبِحَ قَضَلٌ مِنْ اللَّهِ لَيُفَوِّكُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَيَبْنِيَنَّ مَوَدَّةً بَيْنَ بَنِيكُمْ كُنْتُ مِنْهُمْ فَأَفُوزُ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٦٣﴾ فَلْيَبْتَغِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يُعْذِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُ أَوْ يَغِيبُ سَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَعْمَالُهَا وَاجْمَلْنَا مِنْ لَدُنْكَ وَكَأَيُّمَلْنَا بِمَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الْكُفْرَةِ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٦٦﴾

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ هذا خطاب لخلص المؤمنين، وأمر لهم بجهاد الكفار، والخروج في سبيل الله، والحذر، والحذر لغتان: كالمثل، والمثل. قال الفراء: أكثر الكلام الحذر، والحذر مسموع أيضاً، يقال: خذ حذرك أي: احذر، وقيل: معنى الآية: الأمر لهم بأخذ السلاح حذراً؛ لأن به الحذر. قوله: ﴿فانفروا﴾ نفر ينفر بكسر الفاء نفيراً، ونفرت الدابة تنفر بضم الفاء نفوراً. والمعنى: انهضوا لقتال العدو. أو النفير اسم للقوم الذين ينفرون، وأصله من النفار، والنفور، وهو: الفرز، ومنه قوله تعالى: ﴿ولوا على أنبارهم نفوراً﴾ [الإسراء: 46] أي: نافرين، قوله: ﴿ثبات﴾ جمع ثبة، أي: جماعة، والمعنى: انفروا جماعات متفرقات. قوله: ﴿أو انفروا جميعاً﴾ أي: مجتمعين جيشاً واحداً. ومعنى الآية: الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين؛ ليكون ذلك أشد على عيولهم، وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده، أو نحو ذلك، وقيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ [التوبة: 41] وبقوله: ﴿إِنْ لَا تَنْفِرُوا يَعْذِبْكُمْ﴾ [التوبة: 39] والصحيح أن الآيتين جميعاً محكمتان: إحداهما في الوقت الذي يحتاج فيه إلى نفور الجميع، والأخرى عند الاكتفاء بنفور البعض دون البعض. قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَيِّطُنَّ﴾ التبيط، والإبطاء التأخر، والمراد: المنافقون كانوا يقعون عن الخروج، ويقعدون غيرهم. والمعنى: أن من دخلائكم، وجنسكم، ومن أظهر إيمانه لكم نفاقاً من يببط من المؤمنين، ويتبطهم، واللام في قوله: ﴿لمن﴾ لام توكيد، وفي قوله: ﴿لَيُبَيِّطُنَّ﴾ لام جواب القسم، و «من» في موضع نصب، وصلتها الجملة. وقرا مجاهد، والنخعي، والكلبي ﴿لَيُبَيِّطُنَّ﴾ بالتخفيف ﴿فإن أصابكم مصيبة﴾ من قتل، أو هزيمة، أو ذهاب مال. قال هذا المناق قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم حتى يصيبني ما أصابهم ﴿ولئن أصابكم فضل من﴾ غنيمة، أو فتح

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رِزْقًا ﴿٦٧﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٦٨﴾

﴿لو﴾ حرف امتناع، وإن مصدرية، أو تفسيرية؛ لأن ﴿كتبنا﴾ في معنى أمرنا. والمعنى: أن الله سبحانه لو كتب القتل، والخروج من الديار على هؤلاء الموجودين من اليهود ما فعله إلا القليل منهم، أو لو كتب ذلك على المسلمين ما فعله إلا القليل منهم، والضمير في قوله: ﴿فعلوه﴾ راجع إلى المكتوب الذي دل عليه كتبنا، أو إلى القتل، والخروج المنلول عليهما بالفعليين، وتوحيد الضمير في مثل هذا قد قمنا وجهه. قوله: ﴿إلا قليل﴾ قرأه الجمهور بالرفع على البذل. وقرأ عبد الله بن عامر، وعيسى بن عمر ﴿إلا قليلاً﴾ بالنصب على الاستثناء، وكذا هو في مصاحف أهل الشام، والرفع أجود عند النحاة. قوله: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ من اتباع الشرع، والانقياد لرسول الله ﷺ ﴿لكن﴾ ذلك «خيراً لهم» في الدنيا، والآخرة، ﴿ولشد تنبيهاً﴾ لأقدامهم على الحق، فلا يضطربون في أمر دينهم ﴿وإذن﴾ أي: وقت فعلهم لما يوعظون به ﴿لأنبيائهم من لنا لجرراً عظيماً ولهيناهم صراطاً مستقيماً﴾ لا عوج فيه؛ ليصلوا إلى الخير الذي يناله من امتثل ما أمر به، وانقاد لمن يدعوه إلى الحق. قوله: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ كلام مستأنف لبيان فضل طاعة الله والرسول، والإشارة بقوله: ﴿فأولئك﴾ إلى المطيعين، كما تفيد من ﴿مع الذين أنعم الله عليهم﴾ بدخول الجنة، والوصول إلى ما أعد الله لهم. والصليق المبالغ في الصديق، كما تفيد الصيغة، وقيل: هم فضلاء اتباع الأنبياء، والشهداء؛ من ثبت لهم الشهادة، والصالحين: أهل الأعمال الصالحة. والرفيق مأخوذ من الرفق، وهو: لين الجانب، والمراد به: المصاحب لارتفاقك بصحبته، ومنه الرفقة لارتفاق بعضهم ببعض، وهو منتصب على التمييز، أو الحال، كما قال الأخفش.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم﴾ هم: يهود، كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سفيان أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وقد روي من طرق أن جماعة من الصحابة قالوا: لما نزلت الآية لو فعل ربنا لفعلنا. أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن. وأخرجه ابن أبي حاتم، عن عامر بن عبد الله بن الزبير. وأخرجه أيضاً عن شريح بن عبيد. وأخرج الطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية، والضياء المقدسي في صفة الجنة، وحسنه عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإنني لأكون في البيت، فأنكرت، فما أصبر حتى آتي، فانظر إليك، وإذا نكرت موتي، وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإنني إذا دخلت الجنة

للمؤمنين، وتنشيط لهم بأن قتالهم لهذا المقصد لا لغيره **﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾** أي: سبيل الشيطان، أو الكهان، أو الأصنام، وتفسير الطاغوت هنا بالشيطان أولى لقوله: **﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾** أي: مكروه، ومكر من اتبعه من الكفار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿فانفروا ثبات﴾** قال: عصباً، يعني سرياً متفرقين **﴿أو انفروا جميعاً﴾** يعني كلكم. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عنه قال في سورة النساء: **﴿خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾** نسختها: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾** [التوبة: 122]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: **﴿ثبات﴾** أي: فرقاً قليلاً. وأخرج عن قتادة في قوله: **﴿أو انفروا جميعاً﴾** أي: إذا نفر نبي الله ﷺ، فليس لأحد أن يتخلف عنه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾** إلى قوله: **﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾** ما بين ذلك في المنافقين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان في الآية قال: هو فيما بلغنا عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة **﴿فليقاتل﴾** يعني: يقاتل المشركين **﴿في سبيل الله﴾** في طاعة الله **﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل﴾** يعني: يقتله العدو **﴿أو يغلب﴾** يعني: يغلب العدو من المشركين **﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾** يعني: جزاء وافر في الجنة، فجعل القتال، والمقتول من المسلمين في جهاد المشركين شريكين في الأجر. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: **﴿في سبيل الله والمستضعفين﴾** قال: وفي المستضعفين. وأخرج ابن جرير، عن الزهري قال: وسبيل المستضعفين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه من طريق العوفي قال: المستضعفون أناس مسلمون كانوا بمكة لا يستطيعون أن يخرجوا منها. وأخرج البخاري، عنه قال: «أنا وأمي من المستضعفين». وأخرج ابن جرير، عنه قال: القرية الظالم أهلها مكة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عائشة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: إذا رأيت الشيطان، فلا تخافوه، وأحملوا عليه **﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾**. قال مجاهد: كان الشيطان يتراءى لي في الصلاة، فكنت أنكر قول ابن عباس، فأحمل عليه، فيذهب عني.

أَن تَرَىٰ إِلَى الْآخِرِينَ فَإِنَّ مَكْرَهُمُ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَاسِ وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَمَا كَيْدُ عَلَيْهِمُ الْآلِئَالُ إِذَا فُتِنُوا بِهِمْ يَعْتَمِدُونَ النَّاسَ كَفَرِيَّةً أَلَّهُ أَوْ أَشَدَّ حَشِيَّةً وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا عَيْنًا أَلْفَاكًا لَّوَلَا نُفَرِّقَنَّ إِلَىٰ أَجْلِ رَبِّكَ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ الْأَعْرَابِ خَيْرَ لَّيْنٍ أَلْفَىٰ وَلَا تَطْلُبُونَ قَبِيلًا ﴿٧٠﴾ أَيْمَنَّا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي

﴿ليقولن﴾ هذا المنافق قول نادم حاسد **﴿يا ليتني كنت معهم فافوز فوزاً عظيماً﴾**. قوله: **﴿كان لم يكن بينكم وبينه مودة﴾** جملة معترضة بين الفعل الذي هو ليقولن وبين مفعوله، وهو: **﴿يا ليتني﴾** وقيل: إن في الكلام تقديماً، وتأخيراً، وقيل: المعنى: ليقولن كان لم تكن بينكم وبينه مودة أي: كان لم يعاقبكم على الجهاد، وقيل: هو في موضع نصب على الحال. وقرأ الحسن: **﴿ليقولن﴾** بضم اللام على معنى من. وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم **﴿كان لم تكن﴾** بالياء على اللفظ المودة. قوله: **﴿فافوز﴾** بالنصب على جواب التمني. وقرأ الحسن: **﴿فافوز﴾** بالرفع. قوله: **﴿فليقاتل في سبيل الله﴾** هذا أمر للمؤمنين، وقم الطرف على الفاعل للاهتمام به. و **﴿الذين يشرون﴾** معناه: يبيعون، وهم المؤمنون، والفاء في قوله: **﴿فليقاتل﴾** جواب الشرط مقترن أي: لم يقاتل هؤلاء المنكفرون سابقاً الموصوفون بأن منهم لمن ليبطئن، فليقاتل المخلصون البائلون أنفسهم البائعون للحياة الدنيا بالآخرة، ثم وعد المقاتلين في سبيل الله بأنه سيؤتيهم أجراً عظيماً لا يقدر قدره، وذلك أنه إذا قتل فاز بالشهادة التي هي أعلى درجات الأجور، وإن غلب، وظفر كان له أجر من قاتل في سبيل الله مع ما قد ناله من العلو في الدنيا، والغنيمة، وظاهر هذا يقتضي التسوية بين من قتل شهيداً، أو انقلب غانماً، وربما يقال: إن التسوية بينهما إنما هي في إيتاء الأجر العظيم، ولا يلزم أن يكون أجرهما مستوياً، فإن كون الشيء عظيماً هو من الأمور النسبية التي يكون بعضها عظيماً بالنسبة إلى ما هو دونه، وحقيراً بالنسبة إلى ما هو فوقه. قوله: **﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾** خطاب للمؤمنين المأمورين بالقتال على طريق الالتفات. قوله: **﴿والمستضعفين﴾** مجرور عطفاً على الاسم الشريف أي: ما لكم لا تقاتلون في سبيل الله، وسبيل المستضعفين حتى تخلصوهم من الأسر، وتريحوهم مما هم فيه من الجهد. ويجوز أن يكون منصوباً على الاختصاص، أي: وأخص المستضعفين، فإنهم من أعظم ما يصنق عليه سبيل الله، واختار الأوّل الزجاج، والأزهري. وقال محمد بن يزيد: اختار أن يكون المعنى، وفي المستضعفين، فيكون عطفاً على السبيل، والمراد بالمستضعفين هنا: من كان بمكة من المؤمنين تحت إزدال الكفار، وهم: الذين كان يدعو لهم النبي ﷺ، فيقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين»، كما في الصحيح. ولا يبعد أن يقال: إن لفظ الآية أوسع، والاعتبار بعموم اللفظ لولا تقييده بقوله: **﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾** فإنه يشعر باختصاص تلك بالمستضعفين الكائنين في مكة؛ لأنه قد أجمع المفسرون، على أن المراد بالقرية الظالم أهلها: مكة. وقوله: **﴿من الرجال والنساء والولدان﴾** بيان للمستضعفين. قوله: **﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾** هذا ترغيب

حكاه مكي عن مالك، وقال: ألا ترى إلى قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: 1] ﴿جعل في السماء بروجاً﴾ [الفرقان: 61] ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ [الحجر: 16] وقيل: إن المراد بالبروج المشيدة هنا: قصور من حديد، وقرا طلحة بن سليمان: ﴿يدرككم الموت﴾ بالرفع على تقدير اللقاء، كما في قوله:

وقال رائدهم أرسوا نزلوها

قوله: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾ هذا، وما بعده مختص بالمنافقين، أي: إن تصبهم نعمة نسبوها إلى الله تعالى، وإن تصبهم بلية، ونقمة نسبوها إلى رسول الله ﷺ، فرد الله ذلك عليهم بقوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ ليس، كما تزعمون، ثم نسبهم إلى الجهل، وعدم الفهم، فقال: ﴿فما هؤلاء للقوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ أي: ما بالهم هكذا. قوله: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ هذا الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس، أو لرسول الله ﷺ تعريضاً لامته، أي: ما أصابك من خصب، ورخاء، وصحة، وسلامة، فمن الله بفضل، ورحمته، وما أصابك من جهد، وبلاء، وشدة، فمن نفسك بذنب أتيت، فعوقبت عليه، وقيل: إن هذا من كلام الذين لا يفقهون حديثاً، أي: فيقولون ما أصابك من حسنة، فمن الله، وقيل: إن ألف الاستفهام مضمرة، أي: أفمن نفسك، ومثله قوله تعالى: ﴿وذلك نعمة تمنها علي﴾ [الشعراء: 22] والمعنى، أو تلك نعمة، ومثله قوله: ﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي﴾ [الأنعام: 77] أي: أهذا ربي، ومنه قول أبي خراش الهذلي:

رموني ولوايا خويلد لم ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم
أي: أهم هم، وهذا خلاف الظاهر، وقد ورد في الكتاب العزيز ما يفيد مفاد هذه الآية، كقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة، فيما كسبت أيديكم، ويعفو عن كثير﴾ [الشورى: 30]، وقوله: ﴿أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل: هو من عند أنفسكم﴾ [آل عمران: 165]. وقد يظن أن قوله: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ مناف لقوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ ولقوله: ﴿وما أصابكم يوم التحق الجمعان، فبإذن الله﴾ [آل عمران: 166]، وقوله: ﴿ونبيلوك بالشر، والخير فتنة﴾ [الأنبياء: 45] وقوله: ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً، فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال﴾ [الرعد: 11] وليس الأمر كذلك، فالجمع ممكن، كما هو مقرر في مواطنه. قوله: ﴿وارسلناك للناس رسولا﴾ فيه البيان لعموم رسالته ﷺ إلى الجميع، كما يفيد التأكيد بالمصدر، والعموم في الناس، ومثله قوله: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ [سبا: 28]، وقوله: ﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: 158] ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: 28] على ذلك. قوله: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ فيه أن طاعة الرسول طاعة الله، وفي هذا من النداء بشرف رسول الله ﷺ، وعلو شأنه، وارتفاع مرتبته ما لا يقادر قدره، ولا يبلغ مداه، ووجهه أن الرسول لا يأمر إلا بما أمر الله به، ولا

يرجع شئكم وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله قال هؤلاء الأقوي لا يكادون يفقهون حديثاً ما أصابك من حسن وإن الله وما أصابك من سيئة فإن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً وتولوا طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتسب ما يبيسون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً

قوله: ﴿الم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ الآية، قيل: هم جماعة من الصحابة أمروا بترك القتال في مكة بعد أن تسرعوا إليه. فلما كتب عليهم بالمدينة تثبطوا عن القتال من غير شك في الدين بل خوفاً من الموت، وقرعاً من هول القتل، وقيل: إنها نزلت في اليهود، وقيل: في المنافقين أسلموا قبل فرض القتال، فلما فرض كرهوه، وهذا أشبه بالسياق لقوله: ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا للقتال لولا أخرجتنا إلى أجل قريب﴾ وقوله: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾ الآية، ويبعد صدور مثل هذا من الصحابة. قوله: ﴿كخشية الله﴾ صفة مصدر محذوف، أي: خشية كخشية الله، أو حال، أي: تخشونهم مشبهين أهل خشية الله، والمصدر مضاف إلى المفعول، أي: كخشيتهم الله. وقوله: ﴿أو أشد خشية﴾ معطوف على خشية الله في محل جر، أو معطوف على الجار والمجرور جميعاً، فيكون في محل الحال كالمعطوف عليه، وأو للتوزيع على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله، وخشية بعضهم أشد منها. قوله: ﴿وقالوا﴾ عطف على ما يدل عليه قوله: ﴿إذا فريق منهم﴾ أي: فلما كتب عليهم القتال، فاجأ فريق منهم خشية الناس: ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا للقتال لولا أخرجتنا﴾ أي: هلا أخرجتنا، يريسون المهلة إلى وقت آخر قريب من الوقت الذي فرض عليهم فيه القتال، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ سريع الفناء لا يدوم لصاحبه، وثواب الآخرة خير لكم من المتاع قليل ﴿لمن اتقى﴾ منكم، ورغب في الثواب الدائم ﴿ولا تظلمون قتيلاً﴾ أي: شيئاً حقيراً يسيراً، وقد تقدم تفسير الفتيل قريباً، وإذا كنتم توفرون أجوركم، ولا تنقصون شيئاً منها، فكيف ترغبون عن ذلك، وتشتغلون بمتاع الدنيا مع قلتها، وانقطاعه. وقوله: ﴿أيضاً تكونوا يدرككم الموت﴾ كلام مبتدأ، وفيه حث لمن قعد عن القتال خشية الموت، وبيان لفساد ما خالطه من الجبن، وخامره من الخشية، فإن الموت إذا كان كائنًا لا محالة، فمن لم يمت بالسيف مل بغيره. والبروج جمع برج: وهو البناء المرتفع، والمشيدة: المرفعة من شاد القصر: إذا رفعه، وطلاده بالشيد، وهو الجص، وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه.

وقد اختلف في هذه البروج ما هي؟ فقيل: الحصون التي في الأرض، وقيل: هي القصور، قال الزجاج، والقتيبي: ومعنى مشيدة مطولة، وقيل: معناه مطلية بالشيد، وهو الجص، وقيل: المراد بالبروج: بروج في سماء الدنيا مبنية،

ينهي إلا عما نهى الله عنه: ﴿ومن تولي﴾ أي: أعرض ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي: حافظاً لأعمالهم، إنما عليك البلاغ، وقد نسخ هذا بآية السيف ﴿ويقولون طاعة﴾ بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، أي: أمرنا طاعة، أو شأنا طاعة. وقرأ الحسن، والجحدي، ونصر بن عاصم بالنصب على المصدر، أي: نطيع طاعة، وهذه في المنافقين في قول أكثر المفسرين، أي: يقولون إذا كانوا عندك طاعة ﴿وإذا برزوا من عندك﴾ أي: خرجوا من عندك. ﴿بيت طائفة منهم﴾ أي: زوّرت طائفة من هؤلاء القائلين غير الذي تقول لهم أنت، وتأمروهم به، أو غير الذي تقول لك هي من الطاعة لك، وقيل: معناه: غيروا، وبكّلوا، وحرقوا قولك فيما عهدت إليهم، والتبّيت: التبديل، ومنه قول الشاعر:

أتوني فلم أرض ما بيتوا وكانوا أتوني بأمر نكر
يقال بيت الرجل الأمر: إذا بره ليلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ [النساء: 108] ﴿وإنه يكتب ما يبيتون﴾ أي: يثبت في صحائف أعمالهم؛ ليجازيهم عليه. وقال الزجاج: المعنى ينزله عليك في الكتاب. قوله: ﴿فاعرض عنهم﴾ أي: دعهم، وشأنهم حتى يمكن الانتقام منهم، وقيل: معناه: لا تخبر بأسمائهم، وقيل: معناه: لا تعاقبهم. ثم أمره بالتوكل عليه، والثقة به في النصر على عدوه قيل: وهذا منسوخ بآية السيف.

وقد أخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف، وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ، فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة، ونحن مشركون، فلما أمنا صرنا أذلة؟ فقال: إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم، فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال، فكفوا، فأنزل الله: ﴿الم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في تفسير الآية نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: أنها نزلت في اليهود. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق﴾ الآية، قال: نهى الله هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿إلى أجل قريب﴾ قال: هو الموت. وأخرج نحوه، عن ابن جريج. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة ﴿في بروج مشيدة﴾ قال: في قصور محصنة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: هي قصور في السماء. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وإن تصيبهم حسنة﴾ يقول: نعمة ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ قال: مصيبة ﴿قل كل من عند الله﴾ قال: للنعم، والمصائب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿وإن تصيبهم حسنة﴾ قال:

هذه في السراء، والضراء، وفي قوله: ﴿وما أصابك من حسنة﴾ قال: هذه في الحسنات، والسيئات، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ يقول: الحسنة، والسيئة من عند الله، أما الحسنة، فأنعم بها عليك، وأما السيئة، فابتلاك بها، وفي قوله: ﴿وما أصابك من سيئة﴾ قال: ما أصابك يوم أحد أن شج وجهه، وكسرت رباعيته. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق العوفي عنه في قوله: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ قال: هذا يوم أحد يقول: ما كانت من نكبة، فبينك، وأنا قُترت ذلك. وأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد أن ابن عباس كان يقرأ: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كُتبتا عليك﴾ قال مجاهد: وكذلك قراءة أبي، وابن مسعود. وأخرج نحو قول مجاهد هذا ابن الأنباري في المصاحف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ويقولون طاعة﴾ قال: هم أناس كانوا يقولون عند رسول الله ﷺ آمنا بالله ورسوله، ليأمنوا على دمائهم، وأمواهم ﴿فإذا برزوا﴾ من عند رسول الله ﷺ ﴿بيت طائفة منهم﴾ يقول: خالفوا إلى غير ما قالوا عنده، فعابهم الله. وأخرج ابن جرير، عنه قال غير أولئك ما قاله النبي ﷺ. **أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴿١٥٨﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَكُنْتُمْ أَشْكُنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٩﴾

الهمزة في قوله: ﴿أفلا يتدبرون﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدر، أي: أيعرضون عن القرآن، فلا يتدبرونه يقال تدبرت الشيء: تفكرت في عاقبته، وتاملته، ثم استعمل في كل تامل، والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته، وبلت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد: 24] على وجوب التدبر للقرآن؛ ليعرف معناه. والمعنى: أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفاً غير مختلف، صحيح المعاني، قوي المياني، بالغا في البلاغة إلى أعلى درجاتها ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ أي: تفاوتاً، وتناقضاً، ولا يدخل في هذا اختلاف مقادير الآيات، والسور؛ لأن المراد اختلاف التناقض، والتفاوت، وعدم المطابقة للواقع، وهذا شأن كلام البشر لا سيما إذا طال، وتعرض قائله للإخبار بالغيب، فإنه لا يوجد منه صحيحاً مطابقاً للواقع إلا القليل النادر. قوله: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ يقال: أذاع الشيء، وأذاع به: إذا أفضاه، وأظهره، وهؤلاء هم جماعة من ضعفة المسلمين كانوا إذا سمعوا شيئاً من أمر المسلمين فيه أمن نحو ظفر المسلمين، وقتل عدوهم، أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين، وقتلهم أقشوه، وهم يظنون أنه لا شيء عليهم في ذلك. قوله: ﴿ولو رآه الرسول إلى الرسول وإلى أولي الأمر

مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّخْبِرًا ﴿٥٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّاتٍ فَجِوَابُكُمْ يُسْرًا أَوْ رُوحًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٥٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْزِيَكُمْ إِذَا يَمُوتُ الْوَلَدُ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَيًّا ﴿٥٧﴾

الفاء في قوله: ﴿فقاتل﴾ قيل: هي متعلقة بقوله: ﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ [النساء: 74] الخ، أي: من أجل هذا، فقاتل، وقيل: متعلقة بقوله: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ [النساء: 75] فقاتل، وقيل: هي جواب شرط محذوف يدل عليه السياق تقديره: إذا كان الأمر ما نكر من عدم طاعة المنافقين، فقاتل، أو إذا أفرقوك، وتركوك، فقاتل، قال الزجاج: أمر الله رسوله ﷺ بالجهاد، وإن قاتل وحده؛ لأنه قد ضمن له النصر. قال ابن عطية: هذا ظاهر اللفظ، إلا أنه لم يجيء في خبر قط أن القتال فرض عليه بون الأمة، فالمعنى والله أعلم: أنه خطاب له في اللفظ، وفي المعنى له، ولا مته، أي: أنت يا محمد، وكل واحد من أمتك يقال له: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ أي: لا تكلف غير نفسك، ولا تلزم فعل غيرك، وهو استثناء مقرر لما قبله؛ لأن اختصاص تكليفه بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده، وقرئ: ﴿لا تكلف﴾ بالجزم على النهي، وقرئ بالنون. قوله: ﴿وحرض المؤمنين﴾ أي: حضهم على القتال، والجهاد، يقال حرض فلاناً على كذا: إذا أمرته به، وحارص فلان على الأمر، وأكب عليه، وواظب عليه بمعنى واحد. قوله: ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ فيه إطماع للمؤمنين بكف بأس الذين كفروا عنهم، والإطماع من الله عز وجل واجب، فهو وعد منه سبحانه، ووعد كائن لا محالة ﴿والله أشد بأساً﴾ أي: أشد صولة، وأعظم سلطاناً ﴿وأشد تنكيلاً﴾ أي: عقوبة، يقال: نكلت بالرجل تنكيلاً من النكل، وهو: العذاب. والمنكل الشيء الذي ينكل بالإنسان ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ أصل الشفاعة، والشفعة، ونحوهما من الشفع وهو: الزوج، ومنه الشفيع؛ لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا، ومنه ناقة شفوع: إذا جمعت بين محبين في حلبة واحدة، وناقة شفيع: إذا اجتمع لها حمل، وولد يتبعها. والشفع: ضم واحد إلى واحد، والشفعة: ضم ملك الشريك إلى ملك، فالشفاعة: ضم غيرك إلى جاهك، ووسيلتك، فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع، واتصال منفعة إلى المشفوع له. والشفاعة الحسنة هي: في البر والطاعة. والشفاعة السيئة في المعاصي، فمن شفع في الخير؛ لينفع، فله نصيب منها، أي: من أجزائها، ومن شفع في الشر، كمن يسعى بالنميمة، والغيبة كان له كفل منها، أي: نصيب من وزرها. والكفل: اللوز والإثم، واشتقاقه من الكساء الذي يجعله الراكب على سنام البعير لئلا يسقط، يقال اكتفلت البعير: إذا أشرت على سنامه كساء، وربكت عليه؛ لأنه لم يستعمل الظهر كله بل استعمل نصيباً منه ويستعمل في النصيب من الخير والشر. ومن استعماله في الخير قوله تعالى: ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ [الحديد: 28] ﴿وكان الله على كل شيء مقبلاً﴾

منهم﴾ وهم أهل العلم، والعقول الراجحة الذين يرجعون إليهم في أمورهم أو هم الولاة عليهم ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي: يستخرجونه بتدبيرهم، وصحة عقولهم. والمعنى: أنهم لو تركوا الإذاعة للأخبار حتى يكون النبي ﷺ هو الذي ينيبها، أو يكون أولي الأمر منهم هم الذين يتولون ذلك؛ لأنهم يعلمون ما ينبغي أن يفشي، وما ينبغي أن يكتم. والاستنباط مأخوذ من استنبط الماء: إذا استخرجته. والنبط: الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر عند حفرها، وقيل: إن هؤلاء الضعفة كانوا يسمعون إرجافات المنافقين على المسلمين، فيذيعونها، فتحصل بذلك المفسدة. قوله: ﴿ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ أي: لولا ما تفضل الله به عليكم من إرسال رسوله، وإنزال كتابه لاتبعتم الشيطان، فبقيتم على كفركم إلا قليلاً منكم، أو إلا اتباعاً قليلاً منكم، وقيل: المعنى: إذا عاوا به إلا قليلاً منهم، فإنه لم يذع، ولم يفش، قاله الكسائي، والأخفش، والفراء، وأبو عبيدة، وأبو حاتم، وابن جرير، وقيل: المعنى لعلمه الذين يستنبطونه إلا قليلاً منهم، قاله الزجاج.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ يقول: إن قول الله لا يختلف، وهو حق ليس فيه باطل، وإن قول الناس يختلف. وأخرج عبد بن حميد، ومسلم، وابن أبي حاتم، من طريق ابن عباس، عن عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل النبي ﷺ نساءه بخلت المسجد، فوجدت الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقامت على باب المسجد، فنانيت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو رآه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ فكانت أنا استنبطت ذلك الأمر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في الآية، قال هذا في الإخبار إذا غزت سرية من المسلمين أخبر الناس عنها، فقالوا: أصاب المسلمون من عدوهم كذا وكذا، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا، فافشوه بينهم من غير أن يكون النبي ﷺ هو يخبرهم به. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك: ﴿وإذا جاءهم﴾ قال: هم أهل التفاق. وأخرج ابن جرير، عن أبي معاذ مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان﴾ قال: فانقطع الكلام. وقوله: ﴿إلا قليلاً﴾ فهو في أول الآية يخبر عن المنافقين: قال: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلا قليلاً﴾ يعني: بالقليل المؤمنين.

فَقَدْ نِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكَلَّفْ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْكُفَّيْنِ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفَ بِأَسْ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسْ وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٥٦﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ مِثْرُهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلُهَا

أي: جمعاً لا ريب فيه: ﴿ومن أصدق من الله حيثاً﴾ إنكار؛ لأن يكون أحد أصدق منه سبحانه. وقرأ حمزة، والكسائي، ومن «أزبق» بالزاي. وقرأ الباقون بالصاد، والصاد الأصل. وقد تبدل زاياً لقرب مخرجها منها.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي سنان في قوله: ﴿وحِزْضُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: عظمهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿من يشفع شفاعة حسنة﴾ الآية، قال: شفاعة الناس بعضهم لبعض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿يُكِنُّ لَهُ نُصِيبٌ مِنْهَا﴾ قال: حظ منها. وقوله: ﴿كُفِّلَ مِنْهَا﴾ قال: الكفل هو الإثم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: الكفل الحظ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِباً﴾ قال: حفيظاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عبد الله بن ربيعة: أنه سأل رجل، عن قول الله: ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِباً﴾ قال: يقبض كل إنسان بقدر عمله. وفي إسناده رجل مجهول. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿مُقْتِباً﴾ قال: شهيداً. وأخرج ابن جرير عنه ﴿مُقْتِباً﴾ قال: شهيداً حسبياً حفيظاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿مُقْتِباً﴾ قال: قانراً. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: المقبض القدير. وأخرج أيضاً، عن ابن زيد مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: المقبض الرزاق. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: من سلم عليك من خلق الله، فأرد عليه، وإن كان يهودياً، أو نصرانياً، أو مجوسياً، نكح بأن الله يقول: ﴿وَإِذَا حِيَّتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه قال السيوطي بسند حسن عن سلمان الفارسي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال: عليك ورحمة الله، ثم أتى آخر، فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، فقال: عليك ورحمة الله وباركاته، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليك ورحمة الله وباركاته، فقال له: عليك، فقال له الرجل: يا نبي الله، بابي أنت، وأمي أتك فلان وفلان، فسلمنا عليك، فريدت عليهما أكثر مما ريدت علي؟ فقال: إنك لم تدع لنا شيئاً، قال الله: ﴿وَإِذَا حِيَّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ فريدناها عليك. ولخرج البخاري في الأدب المفرد، عن أبي هريرة: «أن رجلاً مرَّ على رسول الله ﷺ، وهو في مجلس، فقال: سلام عليكم، فقال: عشر حسنات، فمرَّ رجل آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فقال: عشرون حسنة، فمرَّ رجل آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وباركاته، فقال: ثلاثون حسنة». وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر مرفوعاً نحوه. وأخرج

أي: مقتدراً، قاله الكسائي. وقال الفراء: المقبض الذي يعطي كل إنسان قوته، يقال: قته أقوته قوتاً، وأقته أقيته إقانة، فإنا قانت ومقبض، وحكى الكسائي أقات يقبض. وقال أبو عبيدة: المقبض الحافظ. قال النحاس: وقول أبي عبيدة أولى؛ لأنه مشتق من القوت، والقوت معناه: مقدار ما يحفظ الإنسان. وقال ابن فارس في المجمل: المقبض المقتدر، والمقبض: الحافظ والشاهد. وأما قول الشاعر:

إلي الفضل أم عليّ إذا حو سبت إني على الحساب مقبض
فقال ابن جرير الطبري إنه من غير هذا المعنى. قوله: ﴿وَإِذَا حِيَّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ التحية تفعله من حييت، والأصل تحية مثل ترضية، وتسمية؛ فادغموا الياء في الياء، وأصلها الدعاء بالحياة. والتحية: السلام، وهذا المعنى هو المراد هنا، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحِبَّ بِهِ اللَّهُ﴾ [المائدة: 8] وإلى هذا ذهب جماعة المفسرين، وروي عن مالك أن المراد بالتحية هنا: تسميت العاطس. وقال أصحاب أبي حنيفة، التحية هنا الهدية لقوله: ﴿أَوْ رُدُّوها﴾ ولا يمكن رد السلام بعينه، وهذا فاسد لا ينبغي الالتفات إليه. والمراد بقوله: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا﴾ أن يزيد في الجواب على ما قاله المبتدئ بالتحية، فإذا قال المبتدئ: السلام عليكم، قال المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا زاد المبتدئ لفظاً زاد المجيب على جملة ما جاء به المبتدئ لفظاً، أو ألفاظاً نحو: وبركاته، ومرضاته، وتحياته.

قال القرطبي: أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغّب فيها، وردّه فريضة لقوله: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ واختلّفوا إذا ردّ واحد من جماعة هل يجزئ أو لا؟ فذهب مالك، والشافعي إلى الإجزاء، وذهب الكوفيون إلى أنه لا يجزئ عن غيره، ويردّ عليهم حديث عليّ عن النبي ﷺ قال: «يجزئ عن الجماعة إذا مرّوا أن يسلم أحدهم، ويجزئ عن الجلوس أن يردّ أحدهم» أخرجه أبو داود، وفي إسناده سعيد بن خالد الخزاعي المنني، وليس به بأس، وقد ضعفه بعضهم. وقد حسن الحديث ابن عبد البر. ومعنى قوله: ﴿أَوْ رُدُّوها﴾ الاختصار على مثل اللفظ الذي جاء به المبتدئ، فإذا قال السلام عليكم، قال المجيب: وعليكم السلام. وقد ورد في السنة المطهرة في تعيين من يبتدئ بالسلام، ومن يستحق التحية، ومن لا يستحقها ما يغني عن البسط هاهنا قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ يحاسبكم على كل شيء؛ وقيل: معناه حفيظاً؛ وقيل: كافياً من قولهم أحسبني كذا أي: كفاني، ومثله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: 62، 64]. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر، واللام في قوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله ليجمعنكم الله بالحشر إلى يوم القيامة، أي: إلى حساب يوم القيامة؛ وقيل: إلى بمعنى في، وقيل: إنها زائدة. والمعنى: ليجمعنكم يوم القيامة، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يوم القيام من القبور ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في يوم القيامة، أو في الجمع،

البیهقي، عن سهل بن حنیف مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج أحمد، والدارمی، وأبو داود، والترمذی وحسنه، والنسائی، والبیهقي، عن عمران بن حصین مرفوعاً نحوه أيضاً، وزاد بعد كل مرة أن النبي ﷺ ردّ عليه، ثم قال: عشر إلى آخره. وأخرج أبو داود، والبیهقي عن معاذ بن أنس الجهني مرفوعاً نحوه. وزاد بعد قوله وبركاته: ومغفرته، فقال: أربعون، يعني حسنة.

﴿مَّا لَكُمْ فِي التَّائِبِينَ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿وَدَاوُدَ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكُتُبِ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً لَّكَ تَنْجِيذُوا مِنْهُمْ آيَاتِهِ حَتَّى يَهَابُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذَرُهُمْ وَأَقْبَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْجِدُوا مِنْهُمْ وَلَيْسَ وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَمِيلُونَ لَكُمْ قَوْمٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَيِّنَاتٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ مِنْهُمُ أَنْ يَقُولُوا هَٰؤُلَاءِ مِمَّنْ قَبَلَكُمْ أَوْ يَقُولُوا هَٰؤُلَاءِ مِمَّنْ قَبْلَكُمْ فَلَا تَعْلَمُونَ قَوْمَهُمْ وَكَوْنًا اللَّهُ لَسَّطَلَمُهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْنَاهُمْ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْكُمْ فَلَمْ يَسْأَلُواكُمْ وَالْقَوْمَ إِلَيْكُمْ أَلْتَمَّ مَا جَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿سَيَجِدُونَ الْعَٰرِفِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمُرُوكُمْ وَيَأْمُرُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ كُمْ يَتَرَاوَكُوا وَيُلْغُوا إِلَيْكُمْ أَلْسَنَهُمْ وَيَكُونُوا أَيْدِيَهُمْ حُذُودُهُمْ وَأَقْبَلُوهُمْ حَيْثُ تَوَقَّعْتُمُوهُمْ وَأَوَّلِيكُمْ جَمَلًا لَّكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾

الاستفهام في قوله: ﴿مالككم﴾ للإنكار، واسم الاستفهام مبتدأ، وما بعده خبره. والمعنى أي: شيء كائن لكم ﴿في المنافقين﴾ أي: في أمرهم وشأنهم حال كونكم ﴿ففتتين﴾ في ذلك. وحاصله الإنكار على المخاطبين أن يكون لهم شيء يوجب اختلافهم في شأن المنافقين. وقد اختلف النحويون في انتصاب فتتين، فقال الأخفش، والبصريون على الحال، كقولك: مالك قائماً. وقال الكوفيون انتصابه على أنه خبر لكان، وهي: مضمرة، والتقدير: فما لكم في المنافقين كنتم فتتين. وسبب نزول الآية ما سيأتي، وبه يتضح المعنى. وقوله: ﴿وإياهم أركسهم﴾ معناه ردهم إلى الكفر ﴿بما كسبوا﴾ وحكى الفراء، والنضر بن شميل، والكسائي أركسهم، وركسهم، أي: ردهم إلى الكفر، ونكسهم، فالركس والنكس: قلب الشيء على رأسه، أو ردّ أوله إلى آخره، والمنكوس المركوس، وفي قراءة عبد الله بن مسعود وأبي ﴿وإياهم ركسهم﴾ ومنه قول عبد الله بن رواحة:

أركسوا في نشة مظلمة كسواد الليل يتلوها فتن والباء في قوله: ﴿بما كسبوا﴾ سببية، أي: أركسهم بسبب كسبهم، وهو لحوقهم بدار الكفر، والاستفهام في قوله: ﴿أتريدون أن تهتدوا من أضل الله﴾ للتقريع والتوبيخ، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تنجح فيه هداية البشر ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾. [القصص: 56] قوله: ﴿ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: طريقاً إلى الهداية. قوله: ﴿ووتوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين، وإيضاح أنهم يؤمنون أن يكفر

المؤمنون، كما كفروا، ويتمنوا ذلك عناداً، وغلواً في الكفر، وتعماداً في الضلال، فالكاف في قوله: ﴿كما﴾ نعت مصدر محذوف، أي: كفرةً مثل كفرهم، أو حال، كما روي عن سيبويه. قوله: ﴿فتكونون سواء﴾ عطف على قوله: ﴿تكفرون﴾ داخل في حكمه، أي: وتوا كفركم ككفرهم، وتوا مساواتكم لهم. قوله: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ جواب شرط محذوف، أي: إذا كان حالهم ما نكر، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا، ويحقوا إيمانهم بالهجرة ﴿فإن تولوا﴾ عن تلك ﴿فخذوهم﴾ إذا قترتم عليهم ﴿واقتلوهم حيث وجبتوهم﴾ في الحل، والحرم ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً﴾ توالونه ﴿ولا نصيراً﴾ تستنصرون به. قوله: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ هو: مستثنى من قوله: ﴿فخذوهم واقتلوهم﴾ أي: إلا الذين يتصلون، ويصلون في قوم بينكم، وبينهم ميثاق بالجوار، والحلف، فلا تقتلوهم لما بينهم وبين من بينكم وبينهم عهد وميثاق، فإن العهد يشملهم، هذا أصح ما قيل في معنى الآية، وقيل الاتصال هنا: هو اتصال النسب. والمعنى: إلا الذين ينتسبون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق قاله أبو عبيدة، وقد أنكر ذلك أهل العلم عليه؛ لأن النسب لا يمنع من القتال بالإجماع، فقد كان بين المسلمين وبين المشركين أنساب، ولم يمنع ذلك من القتال. وقد اختلف في هؤلاء القوم الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ ميثاق، فقيل: هم قريش كان بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق ﴿والذين يصلون﴾ إلى قريش هم: بنو مدلج، وقيل: نزلت في هلال بن عويس، وسراقة بن جعشم، وخزيمة بن عامر بن عبد مناف كان بينهم، وبين النبي ﷺ عهد، وقيل: خزاعة، وقيل: بنو بكر بن زيد. قوله: ﴿أو جاءوكم حصرت صدورهم﴾ عطف على قوله: ﴿يصلون﴾ داخل في حكم الاستثناء، أي: إلا الذين يصلون، والذين جاءوكم، ويجوز أن يكون عطفاً على صفة قوم، أي: إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، والذين يصلون إلى قوم جاءوكم حصرت صدورهم، أي: ضاقت صدورهم، عن القتال، فامسكوا عنه، والحصر: الضيق، والانقباض. قال الفراء: وهو أي: حصرت صدورهم حال من المضمهر المرفوع في جاءوكم، كما تقول: جاء فلان ذهب عقله، أي: قد ذهب عقله. وقال الزجاج: هو خبر بعد خبر، أي: جاءوكم، ثم أخبر، فقال: ﴿حصرت صدورهم﴾ فعلى هذا يكون حصرت بدلا من جاءوكم، وقيل: حصرت في موضع خفض على النعت لقوم، وقيل التقدير: أو جاءوكم رجال، أو قوم حصرت صدورهم. وقرأ الحسن: ﴿أو جاءوكم حصرة صدورهم﴾ نصباً على الحال. وقرئ حصرات، وحاصرات، وقال محمد بن يزيد المبركة: حصرت صدورهم هو دعاء عليهم، كما تقول لعن الله الكافر، وضعفه بعض المفسرين، وقيل: أو بمعنى الواو. وقوله: ﴿إن يقتلوهم أو يقتلوا قومهم﴾ هو متعلق بقوله: ﴿حصرت صدورهم﴾ أي: حصرت صدورهم عن قتالكم، والقتال معكم

الاستفهام في قوله: ﴿مالككم﴾ للإنكار، واسم الاستفهام مبتدأ، وما بعده خبره. والمعنى أي: شيء كائن لكم ﴿في المنافقين﴾ أي: في أمرهم وشأنهم حال كونكم ﴿ففتتين﴾ في ذلك. وحاصله الإنكار على المخاطبين أن يكون لهم شيء يوجب اختلافهم في شأن المنافقين. وقد اختلف النحويون في انتصاب فتتين، فقال الأخفش، والبصريون على الحال، كقولك: مالك قائماً. وقال الكوفيون انتصابه على أنه خبر لكان، وهي: مضمرة، والتقدير: فما لكم في المنافقين كنتم فتتين. وسبب نزول الآية ما سيأتي، وبه يتضح المعنى. وقوله: ﴿وإياهم أركسهم﴾ معناه ردهم إلى الكفر ﴿بما كسبوا﴾ وحكى الفراء، والنضر بن شميل، والكسائي أركسهم، وركسهم، أي: ردهم إلى الكفر، ونكسهم، فالركس والنكس: قلب الشيء على رأسه، أو ردّ أوله إلى آخره، والمنكوس المركوس، وفي قراءة عبد الله بن مسعود وأبي ﴿وإياهم ركسهم﴾ ومنه قول عبد الله بن رواحة:

أركسوا في نشة مظلمة كسواد الليل يتلوها فتن والباء في قوله: ﴿بما كسبوا﴾ سببية، أي: أركسهم بسبب كسبهم، وهو لحوقهم بدار الكفر، والاستفهام في قوله: ﴿أتريدون أن تهتدوا من أضل الله﴾ للتقريع والتوبيخ، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تنجح فيه هداية البشر ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾. [القصص: 56] قوله: ﴿ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: طريقاً إلى الهداية. قوله: ﴿ووتوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين، وإيضاح أنهم يؤمنون أن يكفر

الآية، قال: نسختها براءة ﴿فإذا انسَلَخَ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجنتهم﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿حصرت صدورهم﴾ يقول: ضاقت صدورهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع ﴿والقوا إليكم السلم﴾ قال: الصلح. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿فإن اعتزلوكم﴾ الآية، قال: نسختها: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجنتهم﴾ [التوبة: 5] وأخرج ابن جرير، عن الحسن، وعكرمة في هذه الآية قال: نسختها براءة وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ستجدون آخرين﴾ الآية، قال: ناس من أهل مكة كانوا ياتون النبي ﷺ، فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قومهم، فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمَنوا هاهنا وهامنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا، ويصالحوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة أنهم ناس كانوا بتهامة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي أنها نزلت في نعيم ابن مسعود.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْكُةٌ لِّأَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَمْسَكَوْا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِّنْ نَّعْمٍ فَلَهُ بِهَا عِتْقٌ لِّرَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٥٣﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

قوله: ﴿وما كان لمؤمن﴾ هذا النفي هو بمعنى النهي المقضي للتحريم كقوله: ﴿وما كان لكم أن تؤثروا رسول الله﴾ [الأحزاب: 53] ولو كان هذا النفي على معناه لكان خيراً، وهو يستلزم صدقه، فلا يوجد مؤمن قتل مؤمناً قط؛ وقيل المعنى: ما كان له ذلك في عهد الله، وقيل: ما كان له ذلك فيما سلف، كما ليس له الآن ذلك بوجه، ثم استثنى منه استثناء منقطعاً فقال: إلا خطأ، أي: ما كان له أن يقتله البتة، لكن إن قتله خطأ فعليه كذا، هذا قول سيوييه، والزجاج، وقيل: هو استثناء متصل، والمعنى: وما ثبت، ولا وجد، ولا ساغ لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ إذ هو مغلوب حينئذ، وقيل: المعنى: ولا خطأ. قال النحاس: ولا يعرف ذلك في كلام العرب، ولا يصح في المعنى؛ لأن الخطأ لا يحظر؛ وقيل: إن المعنى: ما ينبغي أن يقتله لعله من اللعل إلا للخطأ وحده، فيكون قوله خطأ منتصباً بأنه مفعول له، ويجوز أن ينتصب على الحال، والتقدير: لا يقتله في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف، أي: إلا قتلاً خطأ، ووجه الخطأ كثيرة، ويضبطها عدم القصد، والخطأ الاسم من أخطأ خطأ إذا لم يتعمد. قوله:

لقومهم، فضاقت صدورهم عن قتال الطائفتين، وكرهوا ذلك ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم﴾ ابتلاء منه لكم، واختباراً، كما قال سبحانه: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ [محمد: 31] أو تحصيماً لكم، أو عقوبة بذنوبكم، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، واللام في قوله: ﴿فلقاتلوكم﴾ جواب لو على تكرير الجواب، أي: لو شاء الله لسلطهم، ولقاتلوكم، والفاء للتعقيب ﴿فإن اعتزلوكم﴾ ولم يتعرضوا لقتالكم ﴿والقوا إليكم السلم﴾ أي: استسلموا لكم، وانقلوا ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي: طريقاً، فلا يحل لكم قتلهم، ولا أسرهم، ولا نهب أموالهم، فهذا الاستسلام يمنع من ذلك، ويحرّمه ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ فيظهرون لكم الإسلام، ويظهرون لقومهم الكفر؛ ليأمنوا من كلا الطائفتين، وهم قوم من أهل تهامة طلبوا الأمان من رسول الله ﷺ؛ ليأمنوا عنده، وعند قومهم وقيل هي في قوم من أهل مكة، وقيل: في نعيم بن مسعود، فإنه كان يأمن المسلمين، والمشركون، وقيل: في قوم من المنافقين، وقيل: في أسد وغطفان ﴿كلما رتو إلى الفتنة﴾ أي: دعاهم قومهم إليها، وطلبوا منهم قتال المسلمين ﴿أركسوا فيها﴾ أي: قلبوا فيها، فرجعوا إلى قومهم، وقاتلوا المسلمين، ومعنى الارتكاس: الانتكاس ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ يعني: هؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم، ويأمنوا قومهم ﴿ويلقوا إليكم السلم﴾ أي: يستسلمون لكم، ويدخلون في عهدكم، وصلحكم، وينسلخون عن قومهم ﴿ويكفوا أيديهم﴾ عن قتالكم ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتهم﴾ أي: حيث وجنتهم وتمكنت منهم ﴿ولولئكم﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة واضحة تتسلطون بها عليهم، وتقهرونهم بها بسبب ما في قلوبهم من المرض، وما في صدورهم من الدغل، وارتكاسهم في الفتنة بأيسر عمل، وأقل سعي.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين، فرقة تقول نقتلهم، وفرقة تقول لا، فأنزل الله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ الآية كلها، فقال رسول الله ﷺ: إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث، كما تنفي النار خبث الفضة. هذا أصح ما روي في سبب نزول الآية، وقد رويت أسباب غير ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿والله أركسهم﴾ يقول: أوقعهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: ردهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ قال: نزلت في هلال بن عويمر، وسراقة بن مالك المملجي، وفي بني خزيمه بن عامر بن عبد مناف. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والبيهقي في سننه عنه في قوله: ﴿إلا الذين يصلون﴾

وغيرهما: هو القتل بحديدة كالسيف، والخنجر، وسنان الرمح، ونحو ذلك من المحدث، أو بما يعلم أن فيه الموت من ثقال الحجارة، ونحوها. وقال الجمهور: إنه كل قتل من قاتل قاصد للفعل بحديدة، أو بحجر، أو بعصى، أو بغير ذلك، وقيد بعض أهل العلم بأن يكون بما يقتل مثله في العادة. وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن القتل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: عمد، وشبه عمد، وخطأ. واستدلوا على ذلك بأدلة ليس هذا مقام بسطها. وذهب آخرون إلى أنه ينقسم إلى قسمين: عمد، وخطأ ولا ثالث لهما. واستدلوا بأنه ليس في القرآن إلا القسمين. ويجب أن يكون مقتصر القرآن على القسمين لا ينفي ثبوت قسم ثالث بالسنة، وقد ثبت ذلك في السنة. وقد جاءت هذه الآية بتغليظ عقوبة القاتل عمداً، فجمع الله له فيها بين كون جهنم جزءاً له، أي: يستحقها بسبب هذا الذنب، وبين كونه خالداً فيها، وبين غضب الله عليه، ولعنته له، وإعداده له عذاباً عظيماً. وليس وراء هذا التشديد تشديد، ولا مثل هذا الوعيد وعيد. وانتصاب خالداً على الحال. وقوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ معطوف على مقدر، يدل عليه السياق، أي: جعل جزاءه جهنم، أو حكم عليه، أو جازاه، وغضب عليه، وأعد له.

وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا توبة له؟ فروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: اختلف فيها علماء أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس، فسأته عنها، فقال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً﴾ وهي آخر ما نزل، وما نسختها شيء، وقد روى النسائي عنه نحو هذا. وروى النسائي، عن زيد بن ثابت نحوه، وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف أبو هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأبو سلمة، وعبيد بن عمير، والحسن، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، نقله ابن أبي حاتم، عنهم. وذهب الجمهور إلى أن التوبة منه مقبولة، واستدلوا بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: 25]. وقوله: ﴿وَيَغْفِرْ مَا بَيْنَ يَدَيْكَ لِمَنِ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]، قالوا أيضاً: والجمع ممكن بين آية النساء هذه، وآية الفرقان، فيكون معناهما: فجزاؤه جهنم إلا من تاب، لا سيما، وقد اتحد السبب، وهو: القتل، والموجب، وهو: التوعد بالعقاب. واستدلوا أيضاً بالحديث المذكور في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أنه رضي الله عنه قال: «قال بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ثم قال: فمن أصاب من ذلك شيئاً، فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه» وبحديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وغيره، في الذي قتل مائة نفس، وذهب جماعة منهم أبو حنيفة، وأصحابه، والشافعي إلى أن القاتل عمداً داخل تحت المشيئة تاب، أو لم يتب. وقد أوضحت في شرحي على المنتقى متمسك كل فريق.

والحق أن باب التوبة لم يغلق نون كل عاص، بل هو

﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أي: فعلية تحرير رقبة مؤمنة يعتقها كفارة عن قتل الخطأ، وعبر بالرقبة عن جميع الذات.

واختلف العلماء في تفسير الرقبة المؤمنة، فقيل: هي التي صلت، وعقلت الإيمان فلا تجزئ الصغيرة، وبه قال ابن عباس، والحسن، والشعبي، والنخعي، وقتادة، وغيرهم. وقال عطاء بن أبي رباح: إنها تجزئ الصغيرة المولودة بين مسلمين. وقال جماعة منهم مالك، والشافعي: يجزئ كل من حكم له بوجوب الصلاة عليه إن مات، ولا يجزئ في قول جمهور العلماء أعمى، ولا مقعد، ولا أشل، ويجزئ عند الأكثر الأعرج، والأعور. قال مالك: إلا أن يكون عرجاً شديداً. ولا يجزئ عند أكثرهم المجنون، وفي المقام تفاصيل طويلة منكرة في علم الفروع. قوله: ﴿وَبِئْسَ مَسْئَلَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ ما تعطى عوضاً عن دم المقتول إلى ورثته، والمسلمة: المدفوعة المؤداة، والأهل المراد بهم: الورثة، وأجناس البنية، وتفصيلها قد بينتها السنة المطهرة. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصْدُقُوا﴾ أي: إلا أن يتصدق أهل المقتول على القاتل بالدية، سمي العفو عنها صدقة ترغيباً فيه. وقرأ أبي: إلا يتصدقوا، وهذه الجملة المستثناة متعلقة بقوله: ﴿فَبِئْسَ مَسْئَلَةٌ﴾ أي: فعلية بية مسلمة إلا أن يقع العفو من الورثة عنها. قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ أي: فإن كان المقتول من قوم عدو لكم، وهم الكفار الحربيون، وهذه مسئلة المؤمن الذي يقتله المسلمون في بلاد الكفار الذين كان منهم، ثم أسلم، ولم يهاجر، وهم يظنون أنه لم يسلم، وأنه باق على دين قومه، فلا دية على قاتله بل عليه تحرير رقبة مؤمنة. واختلفوا في وجه سقوط الدية، فقيل: وجهه أن أولياء القتيل كفار لا حق لهم في الدية، وقيل: وجهه أن هذا الذي آمن، ولم يهاجر حرمة قليلة لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنفال: 72] وقال: بعض أهل العلم إن بيته واجبة لبيت المال. قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: مؤقت، أو مؤبد. وقرأ الحسن: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَبِئْسَ مَسْئَلَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أي: فعلى قاتله دية مؤداة إلى أهله من أهل الإسلام، وهم ورثته. ﴿وتحرير رقبة مؤمنة﴾ كما تقدم ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي: الرقبة، ولا اتسع ماله لشراؤها ﴿فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: فعليه صيام شهرين متتابعين، لم يفصل بين يومين من أيام صومهما إقطار في نهار، فلو أقطر استأنف، هذا قول الجمهور، وأما الإقطار لعذر شرعي كالحيض، ونحوه، فلا يوجب الاستئناف. واختلف في الإقطار لعرض المرض. قوله: ﴿تُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ منصوب على أنه مفعول له، أي: شرع ذلك لكم توبة، أي: قبولاً لتوبتكم، أو منصوب على المصدرية، أي: تاب عليكم توبة، وقيل: منصوب على الحال أي: حال كونه ذا توبة كائنة من الله. قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ لما بين سبحانه حكم القاتل خطأ بين حكم القاتل عمداً.

وقد اختلف العلماء في معنى العمد، فقال عطاء، والنخعي،

مفتوح لكل من قصده ورام الدخول منه، وإذا كان الشرك، وهو أعظم الذنوب، وأشدّها تمحوه التوبة إلى الله، ويقبل من صاحبه الخروج منه، والدخول في باب التوبة، فكيف بما دونه من المعاصي التي من جملتها القتل عمداً، لكن لا بدّ في توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل، وتسليم نفسه للقصاص إن كان واجباً، أو تسليم الدية إن لم يكن القصاص واجباً، وكان القاتل غنياً متمكناً من تسليمها، أو بعضها، وأما مجرد التوبة من القاتل عمداً، وعزمه على أن لا يعود إلى قتل أحد من دون اعتراف، ولا تسليم نفس، فنحن لا نقطع بقبولها، والله أرحم الراحمين، هو الذي يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ يقول: ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه من عهد الله الذي عهد إليه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ الآية، قال: إن عياش بن أبي ربيعة قتل رجلاً مؤمناً كان يعنّبه هو وأبو جهل، وهو أخوه لأمه في اتباع النبي ﷺ، وعياش يحسب أن ذلك الرجل كافر. وأوضح من هذا السياق ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: كان الحارث بن يزيد من بني عامر بن لؤي يعنّبه عياش بن أبي ربيعة مع أبي جهل، ثم خرج مهاجراً إلى النبي ﷺ، يعني: الحارث، فلقبه عياش بالحرّة فعلاه بالسيف، وهو يحسب أنه كافر، ثم جاء إلى النبي ﷺ، فأخبره، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ الآية، فقرأها النبي ﷺ، ثم قال له: قم فحرّر. وأخرجه ابن جرير، وابن المنذر، عن السديّ باطول من هذا. وقد روي من طرق غير هذه. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد قال: نزلت في رجل قتل أبو الدرداء كان في سرية، فعدّل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له، فوجد رجلاً من القوم في غنم فحمل عليه بالسيف، فقال لا إله إلا الله، فضربه. وأخرج ابن منده، وأبو نعيم نحو ذلك، ولكن فيه أن الذي قتل المتعبد بكلمة الشهادة هو: بكر بن حارثة الجهني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ قال: يعني بالمؤمنة من قد عقل الإيمان وصلى. وكل رقبة في القرآن لم تسم مؤمنة، فإنه يجوز المولود، فما فوقه ممن ليس به زمانة، وفي قوله: ﴿وَدِيَةَ مُسْلِمَةٍ إِلَى أَهْلِهَا إِنْ أَنْ يَصْدَقُوا﴾ قال: عليه الدية مسلمة إلا أن يتصدق بها عليه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: في حرف أبي «فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ لَا يَجْزِي فِيهَا صَبِيٌّ». وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والبيهقي، عن أبي هريرة: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ بجزية سوداء، فقال: يا رسول الله إن علي عتق رقبة مؤمنة، فقال لها: أين الله؟ فأشارت إلى السماء بأصبعها، فقال لها: فمن أنا؟ فأشارت إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء، أي: أنت رسول الله، فقال: اعتقها، فإنها

مؤمنة. وقد روي من طرق، وهو في صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي. وقد وردت أحاديث في تقدير الدية، وفي الفرق بين دية الخطأ، ودية شبه العمد، ودية المسلم، ودية الكافر، وهي معروفة، فلا حاجة لنا في نكرها في هذا الموضع. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَدِيَةَ مُسْلِمَةٍ إِلَى أَهْلِهَا﴾ قال: هذا المسلم الذي ورثته مسلمون: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ﴾ قال: هذا الرجل المسلم، وقومه مشركون، وليس بينهم وبين رسول الله ﷺ عقد ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ قال: هذا الرجل المسلم، وقومه مشركون، وبينهم وبين رسول الله ﷺ عقد، فيقتل، فيكون ميراثه للمسلمين، وتكون بيته لقومه؛ لأنهم يعقلون عنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ﴾ يقول: فإن كان في أهل الحرب، وهو مؤمن، فقتله خطأ، فعلى قاتله أن يكفر بتحرير رقبة مؤمنة، أو صيام شهرين متتابعين، ولا دية عليه، وفي قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ يقول: إذا كان كافراً في منكم، فقتل، فعلى قاتله الدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن طريق عطاء بن السائب عن أبي عياض قال: كان الرجل يجيء، فيسلم، ثم يأتي قومه، وهم مشركون، فيقيم فيهم، فتغزوهم جيوش النبي ﷺ، فيقتل الرجل، فيمن يقتل، فانزل الله هذه الآية: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ وليست له دية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه من طريق عطاء بن السائب عن أبي يحيى، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿تُوبَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني تجاوزاً من الله لهذه الأمة حيث جعل في قتل الخطأ الكفارة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة: أن رجلاً من الأنصار قتل أخاً مقيس بن صباب، فأعطاه النبي ﷺ الدية، فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه، وفيه نزلت الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر نحوه، وفيه أن مقيس بن صباب لحق بمكة بعد ذلك، وارتد عن الإسلام. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ بعد التي في سورة الفرقان بشأن سنين، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: 68] إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن زيد بن ثابت أن قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ نزلت بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بستة أشهر. وأخرج ابن المنذر عنه قال: نزلت هذه الآية التي في النساء بعد قوله: ﴿وَيُغْفَرُ مَا نَوْنُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 116] بأربعة أشهر، والآثار عن الصحابة في هذا كثيرة جداً،

والحق ما عرفناكم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرَّيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاصْبِرُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْخَعُونَ عُرْصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَوْلَ اللَّهِ مَكَائِدُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَكْمُلُونَ خَبِيرًا ﴿٦٧﴾

هذا متصل بنكر الجهاد، والقتال، والضرب: السير في الأرض، تقول العرب ضربت في الأرض: إذا سرت لتجارة، أو غزو، أو غيرهما، وتقول ضربت الأرض ببلون في: إذا قصدت قضاء حاجة الإنسان، ومنه قوله ﷺ: «لا يخرج رجلان يضربان الغائط، قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ من التبيين، وهو التأمل، وهي قراءة الجماعة إلا حمزة، فإنه قرأ: «فَتَبَيَّنُوا» من التثنية، واختار القراءة الأولى أبو عبيدة، وأبو حاتم قال: لأن من أمر بالتبيين، فقد أمر بالتثبت، وإنما خص السفر بالأمر بالتبيين، مع أن التبيين، والتثبت في أمر القتل، وأجبان حضراً، وسفراً بلا خلاف؛ لأن الحادثة التي هي سبب نزول الآية كانت في السفر، كما سيأتي. قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامُ﴾ وقرئ السلام، ومعناها واحد. واختار أبو عبيدة السلام، وخالف أهل النظر، فقالوا: السلم هنا أشبه؛ لأنه بمعنى الانقياد، والتسليم. والمراد هنا: لا تقولوا لمن آتى بيده إليكم، واستسلم لست مؤمناً، فالسلم، والسلام كلاهما بمعنى الاستسلام، وقيل: هما بمعنى: الإسلام، أي: لا تقولوا لمن آتى إليكم الإسلام، أي: كلمته، وهي الشهادة لست مؤمناً، وقيل: هما بمعنى التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام، أي: لا تقولوا لمن آتى إليكم التسليم، فقال السلام عليكم: لست مؤمناً. والمراد: نهى المسلمين عن أن يهملوا ما جاء به الكافر مما يستدل به على إسلامه، ويقولوا إنه إنما جاء بذلك تعوداً، وتقية. وقرأ أبو جعفر: «لست مؤمناً» من أمته: إذا أجرت، فهو مؤمن.

وقد استدلل بهذه الآية على أن من قتل كافراً بعد أن قال لا إله إلا الله قتل به؛ لأنه قد عصم بهذه الكلمة لمة، وماله، وأمله، وإنما سقط القتل عن وقع منه ذلك في زمن النبي ﷺ؛ لأنهم تأولوا، وظنوا أن من قاتها خوفاً من السلاح لا يكون مسلماً؛ ولا يصير بها لمة معصوماً؛ وأنه لا بد من أن يقول هذه الكلمة، وهو مطمئن غير خائف، وفي حكم التكلم بكلمة الإسلام إظهار الانقياد بأن يقول أنا مسلم، أو أنا على دينكم، لما عرفت من أن معنى الآية الاستسلام، والانقياد، وهو يحصل بكل ما يشعر بالإسلام من قول، أو فعل، ومن جملة ذلك كلمة الشهادة، وكلمة التسليم، فالقولان الآخران في معنى الآية داخلان تحت القول الأول. قوله: ﴿تَبْخَعُونَ عُرْصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: لا تقولوا تلك المقالة طالبيين الغنيمة، على أن يكون النهي راجعاً إلى القيد، والمقيد لا إلى القيد فقط، وسمي متاع الدنيا عرضاً؛ لأنه عارض زائل غير ثابت. قال أبو عبيدة: يقال جميع متاع الدنيا عرض بفتح الراء، وأما العرض

يسكون الراء، فهو ما سوى الدنانير، والدرهم، فكل عرض بالسكون عرض بالفتح، وليس كل عرض بالفتح عرضاً بالسكون. وفي كتاب العين: العرض ما نيل من الدنيا، ومنه قوله تعالى: ﴿تَرْيَبُونَ عُرْصَ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال: 67] وجمعه عروض. وفي المجلد لابن فارس: والعرض ما يعترض للإنسان من مرض ونحوه، وعرض الدنيا ما كان فيها من مال قل، أو أكثر، والعرض من الأثاث ما كان غير نقد. قوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ هو تعليل للنهي، أي: عند الله مما هو حلال لكم من نون ارتكاب محظور مغانم كثيرة تغتصونها، وتستغنون بها عن قتل من قد استسلم، وانقاد، واغتنام ماله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كنتم كفاراً، فحقت نماؤكم لما تكلمتم بكلمة الشهادة، أو كذلك كنتم من قبل، تخفون إيمانكم عن قومكم خوفاً على أنفسكم حتى من الله نون الله عليكم بإعزاز دينه، فظاهرتم الإيمان، وأعلنتم به، وكزّر الأمر بالتبيين للتأكيد عليهم لكونه واجباً لا فسحة فيه، ولا رخصة.

وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: لحق ناس من المسلمين رجلاً معه غنيمة له، فقال السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم، فقالوا ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعنوا إليه، فقتلوه، وأتوا بغنمه إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي، عن عبد الله بن أبي حرد الأسلمي قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحرث بن ربيعي، ومسلم بن جثامة بن قيس الليثي، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأصبط الأشجعي على قعود له معه متيع، ووطب من لبن، فلما مر بنا سلم علينا بتحية الإسلام، فأمسكنا عنه، وحمل عليه مسلم بن جثامة لشيء كان بينه وبينه، فقتله، وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قمنا على رسول الله ﷺ، وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية. وفي لفظ عند ابن إسحاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من حديث أبي حرد هذا أن النبي ﷺ قال لمسلم: أقتلته بعد ما قال أمنت بالله؟ فنزل القرآن. وأخرج ابن جرير، من حديث ابن عمر أن مسلماً جلس بين يدي النبي ﷺ؛ ليستقفر له، فقال: لا غفر الله لك، فقام، وهو يتلقى نعوة ببرديه، فما مضت به ساعة حتى مات، ودفنوه، فلفظته الأرض، فجاءوا إلى النبي ﷺ، فنكروا ذلك له، فقال:

المفهوم من نكر عدم الاستواء إجمالاً، والمراد هنا: غير أولى الضرر حلاً للمطلق على المقيد، وقال هنا: «درجة»، فيما بعد: «درجات»، فقال قوم: التفضيل بالدرجة، ثم بالدرجات، إنما هو مبالغة، وبيان، وتأكيد. وقال آخرون: فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر بدرجة واحدة، وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير أولى الضرر بدرجات، قاله ابن جريج، والسدي، وغيرهما، وقيل: إن معنى درجة علو، أي: أعلى نكرهم، ورفعهم بالثناء، والمدح، ودرجة منتصبة على التمييز، أو المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل، أي: فضل الله تفضيله، أو على نزاع الخافض، أو على الحالية من المجاهدين أي: نوي درجة. قوله: «وكلهم» مفعول أول لقوله: «وعد الله»، قدم عليه لإفادته القصر، أي: كل واحد من المجاهدين، والقاعدين، وعده الله الحسن، أي: المثوبة، وهي الجنة. قوله: «أجرهم» هو: منتصب على التمييز، وقيل: على المصدرية، لأن فضل بمعنى أجر، فالتقدير أجرهم أجرًا، وقيل: مفعول ثان لفضل لتضمنه معنى الإعطاء، وقيل: منصوب بنزع الخافض، وقيل: على الحال من درجات مقدم عليها، وأما انتصاب درجات، ومغفرة ورحمة: فهي بدل من أجرًا، وقيل: إن مغفرة، ورحمة ناصبهما أفعال مقدره، أي: غفر لهم مغفرة، ورحمهم رحمة.

وقد أخرج البخاري وأحمد، وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين، والمجاهدون في سبيل الله» فجاء ابن أم مكتوم، وهو يملأها علي، فقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذي: «غير أولى للضرر». وقد أخرج هذا المعنى عبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث البراء، وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو داود، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، من حديث خاتجة بن زيد بن ثابت عن أبيه. وأخرج الترمذي، وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: «لا يستوي للقاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر» عن بدر، والخارجون إلى بدر. وأخرجه عنه أيضاً عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر. وأخرج عبد بن حميد، والطبراني، والبيهقي عنه قال: نزلت في قوم كانت تشغلهم أمراض، وأوجاع، فأنزل الله عنهم من السماء. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن أنس بن مالك قال: نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم، ولقد رأيت في بعض مشاهد المسلمين معه اللواء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: «فضل الله المجاهدين بأمولهم وأنفسهم على القاعدين درجة» قال: على أهل الضرر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: «وكلوا وعد الله الحسن» قال: الجنة. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج قال: كان يقال

إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظمكم، ثم طرحوه في جبل، والقفوا عليه الحجارة، فنزلت: «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم الآية». وأخرج البزار، والدارقطني في الإفراد، والطبراني، والضياء في المختارة، عن ابن عباس أن سبب نزول الآية: أن المقداد بن الأسود قتل رجلاً بعد ما قال لا إله إلا الله. وفي سبب النزول روايات كثيرة، وهذا الذي نكرناه أحسنها. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «وكلكم كنتم من قبل» قال: تستخفون بإيمانكم، كما استخفى هذا الراعي بإيمانه، يعني: الذين قتلوه بعد أن لقي إليهم السلام وفي لفظ تكتمون إيمانكم من المشركين: «فمن الله عليكم» فظهر الإسلام، فاعلنتم إيمانكم: «فتبينوا» قال: وعيد من الله ثان. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: «وكلكم كنتم من قبل» قال: كنتم كفاراً حتى من الله عليكم بالإسلام، وهذا كله.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَكُلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا يَخَفُ اللَّهُ الْخَائِفِينَ وَكُلَّ اللَّهُ الْخَائِفِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾ رَزَقْنِي مِنْهُ وَمَمْرًا وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾

التفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر، ودرجات من جاهد في سبيل الله بماله، ونفسه، وإن كان معلوماً، لكن أراد سبحانه بهذا الإخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا، وتبكي القاعدين، ليبانوا. قوله: «غير أولى للضرر» قرأ أهل الكوفة، وأبو عمرو بالرفع على أنه وصف للقاعدين، كما قال الأخفش: لأنهم لا يقصد بهم قوم بأعيانهم، فصاروا كالنكرة، فجاز وصفهم بغير. وقرأ أبو حيوة بكسر الراء على أنه وصف للمؤمنين. وقرأ أهل الحرمين بفتح الراء على الاستثناء من القاعدين، أو من المؤمنين، أي: إلا أولى الضرر، فإنهم يستوون مع المجاهدين. ويجوز أن يكون منتصباً على الحال من القاعدين، أي: لا يستوي القاعدون الأصحاء في حال صحتهم، وجازت الحال منهم؛ لأن لفظهم لفظ المعرفة. قال العلماء: أهل الضرر هم أهل الأعذار؛ لأنها أضرت بهم حتى منعتهم عن الجهاد، وظاهر النظم القرآني أن صاحب العذر يعطي مثل أجر المجاهد، وقيل: يعطى أجره من غير تضعيف، فيفضله المجاهد بالتضعيف لأجل المباشرة. قال القرطبي: والأول أصح إن شاء الله للحديث الصحيح في ذلك: «إن بالمدينة رجلاً ما قطعتم، وانبأ، ولا سرتهم مسيراً إلا كانوا معكم أولئك قوم حبسهم العذر». قال: وفي هذا المعنى ما ورد في الخبر: «إذا مرض العبد قال الله تعالى: اكتبوا لعبدي ما كان يعمل في الصحة إلى أن يبرأ، أو اقتبضه إلي». قوله: «فضل الله المجاهدين بأمولهم وأنفسهم على القاعدين درجة» هذا بيان لما بين الفريقين من التفاؤل

والضمير. وقوله: ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾ متعلق بمحذوف، أي: كائنين منهم، والمراد بالمستضعفين من الرجال الزماني، ونحوهم، والولدان كعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام، وإنما ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم لقصد المبالغة في أمر الهجرة، وإيهام أنها تجب لو استطاعها غير المكلف، فكيف من كان مكلفاً، وقيل: أراد بالولدان المراهقين، والمماليك. قوله: ﴿لا يستطيعون حيلة﴾ صفة للمستضعفين، أو للرجال، والنساء، والولدان، أحوال من الضمير في المستضعفين، وقيل: الحيلة لفظ عام لأنواع أسباب التخلص، أي: لا يجنون حيلة، ولا طريقاً إلى ذلك، وقيل: السبيل: سبيل المدينة: ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر ﴿عسى الله أن يعفو عنهم﴾ وجيء بكلمة الإطعام، لتأكيد أمر الهجرة، حتى يظن أن تركها ممن لا تجب عليه يكون ذنباً يجب طلب العفو عنه. قوله: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾ هذه الجملة متضمنة للترغيب في الهجرة، والتنشيط إليها. وقوله: ﴿في سبيل الله﴾ فيه دليل على أن الهجرة لا بد أن تكون بقصد صحيح، ونية خالصة غير مشوبة بشيء من أمور الدنيا، ومنه الحديث الصحيح: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وقد اختلف في معنى قوله سبحانه: ﴿يجد في الأرض مراغماً﴾ فقال ابن عباس، وجماعة من التابعين، ومن بعدهم: المراغم المتحول، والمذهب. وقال مجاهد: المراغم المتحزح. وقال ابن زيد: المراغم المهاجر، وبه قال أبو عبيدة. قال النحاس: فهذه الأقوال متفقة المعاني، فالمرام: المذهب والمتحول، وهو الموضع الذي يراغم فيه، وهو مشتق من الرغام، وهو: التراب، ورغم أنف فلان، أي: لصق بالتراب، وراغمت فلاناً: هجرته، وعابيته، ولم أبال أن رغم أنفه، وقيل: إنما سمي مهاجراً، ومراغماً، لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه، وهجرهم، فسمي خروجه مراغماً، وسمي مسيره إلى النبي ﷺ هجرة. والحاصل في معنى الآية أن المهاجر يجد في الأرض مكاناً يسكن فيه على رغم أنف قومه الذين هاجروهم، أي: على نلهم، وهوانهم. قوله: ﴿وسعة﴾ أي: في البلاد، وقيل: في الرزق، ولا مانع من حمل السعة على ما هو أعم من ذلك. قوله: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ قرئ يدركه بالجزم على أنه معطوف على فعل الشرط، وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وبالنصب على إضمار أن. والمعنى أن من أدركه الموت قبل أن يصل إلى مطلوبه، وهو المكان الذي قصد الهجرة إليه، أو الأمر الذي قصد الهجرة له: ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ أي: ثبت ذلك عنده ثبوتاً لا يتخلف ﴿وكان الله غفوراً﴾ أي: كثير المغفرة ﴿رحيماً﴾ أي: كثير الرحمة. وقد استدل بهذه الآية على أن

الإسلام درجة، والهجرة درجة في الإسلام، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن محيريز في قوله: ﴿درجات﴾ قال: الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين عدو الفرس الجواد المضمهر سبعين سنة. وأخرج نحوه عبد الرزاق في المصنف، عن أبي مجلز. وأخرج البخاري، والبيهقي في الأسما، والصفات عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين، كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفرج أنهار الجنة».

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِمَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٠﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١١﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَوِّدًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣﴾

قوله: ﴿توفاهم﴾ يحتمل أن يكون فعلاً ماضياً، وحذفت منه علامة التانيث؛ لأن تانيث الملائكة غير حقيقي، ويحتمل أن يكون مستقبلاً، والأصل تتوفاهم، فحذفت إحدى التاءين. وحكى ابن فورك، عن الحسن أن المعنى تحشرهم إلى النار وقيل تقبض أرواحهم، وهو الظاهر. والمراد بالملائكة: ملائكة الموت لقوله تعالى: ﴿يقل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ [السجدة: 11]. وقوله: ﴿ظالمي أنفسهم﴾ حال، أي: في حال ظلمهم أنفسهم، وقول الملائكة: ﴿فيهم كنتم﴾ سؤال توبيخ، أي: في شيء كنتم من أمور دينكم؟ وقيل المعنى: أكنتم في أصحاب النبي ﷺ أم كنتم مشركين، وقيل: إن معنى السؤال التقرع لهم بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين. وقولهم: ﴿كنا مستضعفين في الأرض﴾ يعني: مكة، لأن سبب النزول من أسلم بها، ولم يهاجر، كما سيأتي، ثم أوقفتم الملائكة على دينهم، والزمتمهم الحجة، وقطعت معذرتهم، فقالوا: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ قيل: المراد بهذه الأرض: المدينة، والأولى العموم اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو الحق، فيراد بالأرض كل بقعة من بقاع الأرض تصلح بالهجرة إليها، ويراد بالأرض الأولى كل أرض ينبغي الهجرة منها. قوله: ﴿مأواهم جهنم﴾ هذه الجملة خبر لأولئك، والجملة خبر إن في قوله: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾ ويدخل الفاء لتضمن اسم إن معنى الشرط: ﴿وساءت﴾ أي: جهنم ﴿مصيراً﴾ أي: مكاناً يصيرون إليه. قوله: ﴿إلا المستضعفين﴾ هو استثناء من الضمير في مأواهم، وقيل: استثناء منقطع لعدم دخول المستضعفين في الموصول،

وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿مِرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ قال: المِراغِمُ المتحوِّلُ من أرض إلى أرض. والسعة: الرزق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿مِرَاغِمًا﴾ قال: متزحزحاً عما يكره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله: ﴿وَسَعَةً﴾ قال: ورخاء. وأخرج أيضاً عن مالك قال: سعة البلاد. وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني قال السيوطي بسند: رجاله ثقات عن ابن عباس قال: خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً، فقال لقومه احملوني، فأخرجوني من أرض الشرك إلى رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي ﷺ، فنزل الوحي: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من وجه آخر، عنه نحوه. وأخرج ابن سعد، وأحمد، والحاكم وصححه، عن عبد الله بن عتيك قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من خرج من بيته مهاجداً في سبيل الله، وابن المجاهدين في سبيل الله؟ فخر عن دابته، فمات، فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة، فمات فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه، فقد وقع أجره على الله، يعني: بحتف أنفه على فراشه، والله إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ، ومن قتل قعصاء، فقد استوجب الجنة». وأخرج أبو يعلى، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من خرج حاجاً، فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً، فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً في سبيل الله، فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة». قال ابن كثير: وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم ثمك وليأخروا أنفسهم فإذا سجدوا فليكبروا من ربكم ولأن طائفة أخرجه ليرأسوا فليصلوا ثمك وليأخروا جردهم وأصلحهم وذو الذين كفروا أو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيقولون عليكم بيعة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن نسأوا أسلحتكم وعدوا جذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴿١٠﴾

قوله: ﴿وإذا ضربتم﴾ قد تقدم تفسير الضرب في الأرض قريباً. قوله: ﴿فليس عليكم جناح﴾ فيه دليل على أن القصر ليس بواجب، وإليه ذهب الجمهور. وذهب الأقلون إلى أنه واجب، ومنهم عمر بن عبد العزيز، والكوفيون، والقاضي إسماعيل، وحمام بن أبي سليمان، وهو مروي عن مالك. واستدلوا بحديث عائشة الثابت في الصحيح: «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فزيت في الحضر، وأقرت في السفر» ولا يقدح في ذلك مخالفتها لما روت، فالعمل على الرواية الثابتة عن رسول الله ﷺ، ومثله حديث يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: «ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتن أن يفتنكم الذين كفروا» وقد أمن الناس، فقال لي عمر: عجبت مما عجب

الهجرة واجبة على كل من كان بدار الشرك، أو بدار يعمل فيها بمعاصي الله جهاراً إذا كان قادراً على الهجرة، ولم يكن من المستضعفين لما في هذه الآية الكريمة من العموم، وإن كان السبب خاصاً، كما تقدم. وظاهرها عدم الفرق بين مكان، ومكان، وزمان وزمان وقد ورد في الهجرة أحاديث، وورد ما يدل على أنه لا هجرة بعد الفتح. وقد أوضحنا ما هو الحق في شرحنا على المنتقى، فليرجع إليه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فاصيب بعضهم، وقتل البعض، فقال المسلمون: قد كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت بهم هذه الآية: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ تَوْفَاهُمْ لِمَلَائِكَةِ ظِلْمِي لِنَفْسِهِمْ﴾ قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، وأنه لا عذر لهم، فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10] إلى آخر الآية فكتب المسلمون إليهم بذلك، فحزنوا، وأيسوا من كل خير، فنزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنْ رِبْكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا ثُمَّ جَاءَهُمْ وَصَبَرُوا إِنْ رِبْكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحل: 110] فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً، فأخرجوا، فخرجوا، فادركهم المشركون، فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقتل من قتل. وقد أخرجه البخاري وغيره عنه مقتصراً على أوله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ تَوْفَاهُمْ لِمَلَائِكَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ قال: نزلت في قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحاتر بن ربيعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبي العاص بن منبه بن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف، قال: لما خرج المشركون من قريش، وأتباعهم لمنع أبي سفيان بن حرب، وعير قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه، وأن يطلبوا ما نيل منهم يوم نحلة، خرجوا معهم بشباب كارهين كانوا قد أسلموا، واجتمعوا ببدر على غير موعد، فقتلوا ببدر كفاراً، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء الذين سميناهم. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن إسحاق. وقد روي نحو هذا من طرق. وقد أخرج البخاري، وغيره، عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية: ﴿إِلَّا لِمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ فقال: كنت أنا، وأمي من المستضعفين أنا من الولدان، وأمي من النساء. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿إِلَّا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ قال: قوة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿إِلَّا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ قال: نهوضاً إلى المدينة: ﴿وَلَا يَهْتِنُونَ سَبِيلًا﴾ قال: طريقاً إلى المدينة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصنق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» أخرجه أحمد، ومسلم، وأهل السنن. وظاهر قوله: «فاقبلوا صدقته» أن القصر واجب. قوله: «إن خفتكم أن يفتنكم الذين كفروا» ظاهر هذا الشرط أن القصر لا يجوز في السفر إلا مع خوف الفتنة من الكافرين لا مع الأمن، ولكنه قد تقرر بالسنة أن النبي ﷺ قصر مع الأمن، كما عرفت، فالقصر مع الخوف ثابت بالكتاب، والقصر مع الأمن ثابت بالنسبة، ومفهوم الشرط لا يقوى على معارضة ما تواتر عنه ﷺ من القصر مع الأمن. وقد قيل: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب؛ لأن الغالب على المسلمين إذ ذاك القصر للخوف في الأسفار، ولهذا قال يعلى بن أمية لعمر ما قال، كما تقدم. وفي قراءة أبي: «أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا» بسقوط «إن خفتكم» والمعنى على هذه القراءة: كراهة أن يفتنكم الذين كفروا. وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية إنما هي مبيحة للقصر في السفر للختاف من العدو، فمن كان آمناً، فلا قصر له. وذهب آخرون إلى أن قوله: «إن خفتكم» ليس متصلاً بما قبله، وأن الكلام تم عند قوله: «من الصلاة» ثم افتتح، فقال: «إن خفتكم أن يفتنكم الذين كفروا» فاقم لهم يا محمد صلاة الخوف. وقوله: «إن للكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً» معترض، نكر معنى هذا الجرجاني، والمهدوي، وغيرهما. وردة القشيري، والقاضي أبو بكر بن العربي. وقد حكى القرطبي، عن ابن عباس معنى ما نكره الجرجاني ومن معه، ومما يرد هذا، ويدفعه الواو في قوله: «وإذا كنت فيهم» وقد تكلف بعض المفسرين، فقال: إن الواو زائدة، وإن الجواب للشرط المذكور، أعني قوله: «إن خفتكم» هو قوله: «فلتقم طائفة» وذهب قوم إلى أن نكر الخوف منسوخ بالسنة، وهي حديث عمر الذي قمنا نكره، وما ورد في معناه. قوله: «أن يفتنكم الذين كفروا» قال الفراء: أهل الحجاز يقولون، فتنت الرجل، وربيعه، وقيس، وأسد، وجميع أهل نجد يقولون افتنت الرجل، وفرق الخليل، وسيبويه بينهما، فقالا فتنته: جعلت فيه فتنة مثل كحلته، وافتنته: جعلته مفتناً، وزعم الأصمعي أنه لا يعرف افتنته والمراد بالفتنة: القتال، والتعرض بما يكره. قوله: «عدواً أي: أعداء. قوله: «وإذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة» هذا خطاب لرسول الله ﷺ. ولمن بعده من أهل الأمر حكمه، كما هو معروف في الأصول، ومثله قوله تعالى: «خذ من أموالهم صدقة» [التوبة: 103] ونحوه، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء، وشذ أبو يوسف، وإسماعيل بن علية، فقالا: لا تصلي صلاة الخوف بعد النبي ﷺ؛ لأن هذا الخطاب خاص برسول الله ﷺ، قالوا: ولا يلحق غيره به لماله ﷺ من المزية العظمى، وهذا مدفوع، فقد أمرنا الله باتباع رسوله، والتأسي به، وقد قال ﷺ «صلوا كما رأيتموني أصلي» والصحابة رضي الله عنهم أعرف بمعاني القرآن، وقد صلوا بعد موته في غير مرة، كما ذلك معروف. ومعنى:

«واقمت لهم الصلاة» أدبت الإقامة، كقوله: «وإذا قمتم إلى الصلاة فاعسلوا وجوهكم» [المائدة: 6]، وقوله: «وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله» [النحل: 98] قوله: «فلتقم طائفة منهم معك» يعني: بعد أن تجعلهم طائفتين، طائفة تقف بإزاء العدو، وطائفة تقوم منهم معك في الصلاة: «وليأخذوا أسلحتهم» أي: الطائفة التي تصلي معه، وقيل: الضمير راجع إلى الطائفة التي بإزاء العدو، والأول أظهر؛ لأن الطائفة القائمة بإزاء العدو لا بد أن تكون قائمة بأسلحتها، وإنما يحتاج إلى الأمر بذلك من كان في الصلاة؛ لأنه يظن أن ذلك ممنوع منه حال الصلاة، فأمره الله بأن يكون أخذاً لسلاحه، أي: غير واضح له. وليس المراد: الأخذ باليد، بل المراد: أن يكونوا حاملين لسلاحهم؛ ليتناولوه من قرب إذا احتاجوا إليه، وليكون ذلك أقطع لرجاء عدوهم من إمكان فرصته فيهم. وقد قال بإرجاع الضمير من قوله: «وليأخذوا أسلحتهم» إلى الطائفة القائمة بإزاء العدو. ابن عباس قال: لأن المصلية لا تحارب، وقال غيره: إن الضمير راجع إلى المصلية، وجوز الزجاج، والنحاس أن يكون ذلك أمراً للطائفتين جميعاً، لأنه أربب للعدو. وقد أوجب أخذ السلاح في هذه الصلاة أهل الظاهر حملاً للأمر على الوجوب. وذهب أبو حنيفة إلى أن المصلين لا يحملون السلاح، وأن ذلك يبطل الصلاة، وهو مدفوع بما في هذه الآية، وبما في الأحاديث الصحيحة. قوله: «فإذا سجدوا» أي: القائمون في الصلاة «فليكونوا» أي: الطائفة القائمة بإزاء العدو «من ورائكم» أي: من وراء المصلين. ويحتمل أن يكون المعنى: فإذا سجد المصلون معه، أي: أتوا الركعة تعبيراً بالسجود عن جميع الركعة، أو عن جميع الصلاة «فليكونوا من ورائكم» أي: فليصرفوا بعد الفراغ إلى مقابلة العدو للحراسة «ولتات طائفة أخرى» وهي: القائمة في مقابلة العدو التي لم تصل «فليصلوا معك» على الصفة التي كانت عليها الطائفة الأولى «وليأخذوا» أي: هذه الطائفة الأخرى «أحذروهم وأسلحتهم» زيادة التوصية للطائفة الأخرى بأخذ الحذر مع أخذ السلاح. قيل: وجهه أن هذه المرة مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي ﷺ في شغل شاغل، وأما في المرة الأولى، فربما يظنونهم قائمين للحرب، وقيل: لأن العدو لا يؤخر قصده عن هذا الوقت، لأنه آخر الصلاة، والسلاح: ما يدفع به المرء عن نفسه في الحرب، ولم يبين في الآية الكريمة كم تصلي كل طائفة من الطائفتين؟ وقد وردت صلاة الخوف في السنة المظهرة على أنحاء مختلفة، وصفات متعددة، وكلها صحيحة مجزئة من فعل واحدة منها، فقد فعل ما أمر به، ومن ذهب من العلماء إلى اختيار صفة نون غيرها، فقد أبعد عن الصواب، وقد أوضحنا هذا في شرحنا للمنتقى، وفي سائر مؤلفاتنا. قوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة» هذه الجملة متضمنة لليلة التي لاجلها أمرهم الله بالحذر، وأخذ السلاح،

هنا. وأخرج البخاري، وغيره، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى من مطر أو كنتم مرضى﴾ قال: نزلت في عبد الرحمن بن عوف كان جريحاً.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ رِيسًا وَقُعُودًا وَعَنْ جَنُوبِكُمْ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿٢٠٠﴾ وَلَا تَهْشَوْا فِي آيَتِهِ الْقُوَى إِنَّ تَكْوِينَ تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْتُمُونَ كَمَا تَأْتُمُونَ وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٠١﴾

﴿قَضَيْتُمْ﴾ بمعنى فرغتم من صلاة الخوف، وهو أحد معاني القضاء، ومثله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: 200] ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ﴾ فانتشروا في الأرض [الجمعة: 10]. قوله: ﴿فَانْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ أي: في جميع الأحوال حتى في حال القتال. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الذكر المأمور به، إنما هو أثر صلاة الخوف، أي: إذا فرغتم من الصلاة، فادْكُرُوا اللَّهَ في هذه الأحوال؛ وقيل: معنى قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ﴾ إذا صليتم، فصلوا قِيَامًا، وقُعُودًا، أو على جنوبكم حسبما يقتضيه الحال عند ملاحمة القتال، فهي مثل قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: 239]. قوله: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أي: أمنتُم، وسكنت قلوبكم، والطمانينة: سكون النفس من الخوف ﴿فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: فاتوا بالصلاة التي نخل وقتها على الصفة المشروعة من الإنكار، والأركان، ولا تفعلوا ما أمكن، فإن ذلك إنما هو في حال الخوف. وقيل: المعنى في الآية أنهم يقضون ما صلوه في حال المسايقة؛ لأنها حالة قلق، وانزعاج، وتقصير في الإنكار، والأركان، وهو مروى عن الشافعي، والأول أرجح. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ أي: محدوداً معيناً، يقال: وقته، فهو موقوت، ووقته، فهو موقت. والمعنى: إن الله افترض على عباده الصلوات، وكتبها عليهم في أوقاتها المحدودة لا يجوز لأحد أن يأتي بها في غير ذلك الوقت إلا لعذر شرعي من نوم، أو سهو، أو نحوهما. قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: لا تضعفوا في طلبهم، واطهروا القوة، والجلد. قوله: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ تعليل للنهي المنكسر قبله، أي: ليس ما تجبونه من ألم الجراح، ومزاولة القتال مختصاً بكم، بل هو أمر مشترك بينكم وبينهم، فليسوا بأولى منكم بالصبر على حر القتال، ومرارة الحرب، ومع ذلك فلكم عليهم مزية لا توجد فيهم، وهي: أنكم ترجون من الله من الأجر، وعظيم الجزاء ما لا يرجونه لكفرهم، وجحودهم، فأنتم أحق بالصبر منهم، وأولى بعدم الضعف منهم، فإن أنفسكم قوية؛ لأنها ترى الموت مغنماً، وهم يرونه مغراً. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: 140] وقيل: إن الرجاء هنا بمعنى الخوف؛ لأن من رجا شيئاً، فهو غير قاطع بحصوله، فلا يخلو من خوف ما يرجو. وقال الفراء، والزجاج: لا يطلق الرجاء بمعنى الخوف

أي: وتوا غفلتكم عن أخذ السلاح، وعن الحذر؛ ليصلوا إلى مقصودهم، وينالوا فرصتهم، فيشدون عليكم شدة واحدة، والامتنعة: ما يتمتع به في الحرب، ومنه الزاد، والراحلة. قوله: ﴿وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم﴾ رخص لهم سبحانه في وضع السلاح إذا نالهم أذى من المطر، وفي حال المرض؛ لأنه يصعب مع هذين الأمرين حمل السلاح، ثم أمرهم بأخذ الحذر لئلا يأتيهم العدو على غرة، وهم غافلون.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن أبي حنظلة قال: سألت ابن عمر، عن صلاة السفر، فقال: ركعتان قلت: فإين قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونحن آمنون؟ قال: سنة رسول الله ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والبيهقي، عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه سأل ابن عمر: أرايت قصر الصلاة في السفر؟ إننا لا نجد ما في كتاب الله، إنما نجد ذكر صلاة الخوف، فقال ابن عمر: يا بن أخي إن الله أرسل محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً، وإنما فعل، كما رأينا رسول الله ﷺ يفعل، وقصر الصلاة في السفر سنة سنّها رسول الله ﷺ. وفي الصحيحين، وغيرهما عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: صليت مع النبي ﷺ الظهر، والعصر بمضى أكثر ما كان الناس، وأمنه ركعتين. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، والنسائي، عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة، والمدينة، ونحن آمنون لا نخاف شيئاً ركعتين. وأخرج ابن جرير، عن عليّ قال: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إننا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جَنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي ﷺ، فصلّى الظهر، فقال المشركون: قد أمكنكم محمد، وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في أثرها، فأنزل الله بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ فنزلت صلاة الخوف. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والدارقطني، والحاكم وصححه، عن أبي عياش الزرقني قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة فصلّى بنا النبي ﷺ الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم، وأنفسهم، فنزل جبريل بهذه الآيات: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ ثم نكر صفة الصلاة التي صلوها مع النبي ﷺ. والأحاديث في صفة صلاة الخوف كثيرة، وهي مستوفاة في مواطنها، فلا نطول بنكرها ها

إلا مع النفي، كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13] أي: لا تخافون له عظمة. وقرأ عبد الرحمن الأعرج: ﴿أَنْ تَكُونُوا﴾ بفتح الهمزة، أي: لأن تكونوا. وقرأ منصور بن المعتمر تيلمون بكسر التاء ولا يجوز عند البصريين كسر التاء لثقله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَانْكُرُوا لِلَّهِ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ قال: بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود أنه بلغه أن قوماً ينكرون الله قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبهم، فقال: إنما هذه إذا لم يستطع الرجل أن يصلي قائماً صلى قاعداً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ قال: إذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة: ﴿فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: أتموها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ يعني: مفروضاً. وأخرج ابن جرير، عنه قال: الموقوت الواجب. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَا تَهْوُوا﴾ قال: ولا تضعفوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿تَالْمُؤْنِ﴾ قال: توجعون: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ قال: ترجون الخير.

وقد أخرج الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، وكان بشر رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا؛ فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث، فقال:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ الَّذِينَ عَمَّا أَرْكَتَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ ١٢٨ ﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ كَانَتْ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ١٢٩ ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَيْمًا﴾ ١٣٠ ﴿يَسْتَغْفِرُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَمْكُرُونَ عِيمًا﴾ ١٣١ هَتَأَتْهُ هَوَالَا جَدَلَتْهُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ١٣٢

قوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ إما بوحى، أو بما هو جار على سنن ما قد أوحى الله به، وليس المراد هنا: رؤية العين؛ لأن الحكم لا يرى، بل المراد بما عرفه الله به وأرشده إليه. قوله: ﴿وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ﴾ أي: لأجل الخائنين خصيماً، أي: مخاصماً عنهم مجادلاً للمحقين بسببهم. وفيه دليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق. قوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بالاستغفار. قال ابن جرير: إن المعنى: استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين: وسيأتي بيان السبب الذي نزلت لأجله الآية، وبه يتضح المراد. وقيل: المعنى: واستغفر الله للمذنبين من امتك، والمخاصمين بالباطل. قوله: ﴿وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم، والمجادلة مأخوذة من الجدل، وهو: الفتل، وقيل: مأخوذة من الجدالة، وهي: وجه الأرض؛ لأن كل واحد من

وقد أخرج الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، وكان بشر رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا؛ فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث، فقال:

أو كلما قال الرجال قصيدة أصموا فقالوا ابن الأبيرق قالها قال: وكانوا أهل بيت حاجة، وفاقة في الجاهلية، والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر، والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار، فقدمت ضافطة، أي: حمولة من الشام من الدرمك ابتاع الرجل منها، فخص بها نفسه، وأما العيال، فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام، فابتاع عمي رفاعه بن رافع جملاً من الدرمك، فجعله في مشربة، وفي المشربة سلاح له درعان، وسيفاهما، وما يصلحهما، فعدى عليه من تحت الليل، فنقبت المشربة، وأخذ الطعام، والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعه، فقال: يا ابن أخي تعلم أن قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا، فذهب بطعامنا، وسلاحنا، قال: فتحسسنا في الدار، وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا ناراً في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أبيرق قالوا، ونحن نسال في الدار: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلاً مثاله صلاح وإسلام، فلما سمع ذلك لبيد اختلط سيفه، ثم أتى بني أبيرق وقال: أنا أسرق؟ فو الله

المنذر، في تفسيره قال: حدثنا محمد بن إسماعيل: يعني: الصانع، حدثنا أحمد بن أبي شعيب الحراني، حدثنا محمد بن سلمة، فنكره بطوله. ورواه أبو الشيخ الأصبهاني في تفسيره، عن محمد بن العباس بن أيوب، والحسن بن يعقوب كلاهما، عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني، عن محمد بن سلمة به، ثم قال في آخره: قال محمد بن سلمة: سمع مني هذا الحديث يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن أبي إسرائيل. وقد رواه الحاكم في المستدرک عن أبي العباس الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق بمعناه ثم منه، ثم قال: هذا صحيح على شرط مسلم. وقد أخرجه ابن سعد، عن محمود بن لبيد قال: غدا بشير، فنكره مختصراً، وقد رويت هذه القصة مختصرة، ومطوّلة عن جماعة من التابعين.

وَمَنْ يَمَلِّ سَوْماً أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ نُدَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ بِحَدِّهِ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرَوْهَا رَبّاً فَقَدْ أَخْتَلَّ بِهِنَّ وَإِنَّمَا تُجْنِبُ ﴿١١٢﴾ وَلَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ كَلَامُكَ مِنْهُمْ أَمْ يُلْحِقُونَكَ وَمَا يُبْلِغُونَكَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرُوهَاكَ مِنْ غَوْرٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴿١١٣﴾

هذا من تمام القصة السابقة، والمراد بالسوء: القبيح الذي يسوء به: ﴿أو يظلم نفسه﴾ بفعل معصية من المعاصي، أو ذنب من الذنوب التي لا تتعدى إلى غيره: ﴿ثم يستغفر الله﴾ يطلب منه أن يغفر له ما قارفه من الذنب: ﴿يجد الله غفوراً﴾ للذنب: ﴿رحيماً﴾ به، وفيه ترغيب لمن وقع منه السرقة من بني أبيرق أن يتوب إلى الله، ويستغفره، وأنه غفور لمن يستغفره رحيم به. وقال الضحاك: إن هذه الآية نزلت في شأن وحشي قاتل حمزة، أشرك بالله، وقتل حمزة، ثم جاء إلى النبي ﷺ، وقال: هل لي من توبة؟ فنزلت. وعلى كل حال، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي لكل عيب من عباد الله أذن ذنباً، ثم استغفر الله سبحانه. قوله: ﴿ومن يكسب إثماً﴾ من الأثام بذنب يذنبه: ﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾ أي عاقبته عائدة عليه، والكسب ما يجز به الإنسان إلى نفسه نفعاً أو يدفع به ضرراً، ولهذا لا يسمى فعل الربّ كسباً، قاله القرطبي: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ قيل: هما بمعنى واحد كسر للتأكيد. وقال الطبري: إن الخطيئة تكون عن عمد، وعن غير عمد، والإثم لا يكون إلا عن عمد، وقيل: الخطيئة: الصغيرة، والإثم: الكبيرة. قوله: ﴿ثم يرم به بريئاً﴾ توحيد الضمير لكون العطف باو، أو لتغليب الإثم على الخطيئة، وقيل: إنه يرجع إلى الكسب. قوله: ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ لما كانت الذنوب لازمة لفاعلها كانت كالنقل الذي يحمل، ومثله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [العنكبوت: 13]، والبهتان مأخوذ

ليخالطنكم هذا السيف، أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فوالله ما أنت بصاحبها، فسالنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ، فنكرت ذلك له، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد، فنقبوا مشربة له، واخذوا سلاحه، وطعماه، فليرونا علينا سلاحنا، وأما الطعام، فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﷺ: سأنظر في ذلك، فلما سمع ذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أسير بن عروة، فكلّموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فاتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان، وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام، وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة، ولا ثبت، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ، فكلّمته، فقال: عمدت إلى أهل بيت نكر منهم إسلام، وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة، ولا ثبت، قال قتادة: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض مالي، ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فاتاني عمي رفاعة فقال لي: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ بني أبيرق ﴿واستغفر الله﴾ أي: مما قلت لقتادة: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً. ولا تجادل عن الذين يخفون أنفسهم﴾ إلى قوله: ﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: 110] أي: لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿ومن يكسب إثماً﴾ [النساء: 111] إلى قوله: ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ [النساء: 111] قولهم للبيد: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾ [النساء: 113] يعني: أسير بن عروة، فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح، فردّه إلى رفاعة؛ قال قتادة: فلما أتيت عمي بالسلاح، وكان شيخاً قد غشى في الجاهلية، أي: كبير، وكنت أرى إسلامه منخولاً، فلما أتيت بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد، فأنزل الله: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى﴾ [النساء: 115] إلى قوله: ﴿ضلالاً بعيداً﴾ [النساء: 115 - 116] فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بابيات من شعر، فأخذت رحله، فوضعت على رأسها، ثم خرجت، فرمت به في الأبطح، ثم قالت: أهديت لي شعر حسان ما كنت تأتيني بخير. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحراني. ورواه يونس بن بكير، وغير واحد، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلًا لم ينكر فيه، عن أبيه، عن جده. ورواه ابن أبي حاتم، عن هاشم بن القاسم الحراني، عن محمد بن سلمة به ببعضه. ورواه ابن

به الجماعة، كما يقال قوم عدل، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: 47] فعلى الأول يكون الاستثناء منقطعاً. أي: لكن من أمر بصدقة، أو متصلاً على تقدير إلا نجوى من أمر بصدقة، وعلى الثاني يكون الاستثناء متصلاً في موضع خفض على البذل من كثير، أي: لا خير في كثير إلا فيمن أمر بصدقة. وقد قال جماعة من المفسرين: إن النجوى كلام الجماعة المنفردة، أو الاثنين سواء كان نكلاً سرّاً، أو جهرّاً، وبه قال الزجاج. قوله: ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ الظاهر أنها صدقة التطوّع، وقيل: إنها صدقة الفرض. والمعروف صدقة التطوّع، والأول أولى. والمعروف لفظ عام يشمل جميع أنواع البرّ. وقال مقاتل: المعروف هنا القرض. والأول أولى، منه قول الخطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس ومنه الحديث: «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق»، وقيل: المعروف إغاثة الملهوف. والإصلاح بين الناس عام في الدماء، والأعراض، والأموال، وفي كل شيء يقع التداعي فيه. قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأمور المذكورة، جعل مجرد الأمر بها خيراً، ثم رغب في فعلها بقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ لأن فعلها أقرب إلى الله من مجرد الأمر بها، إذ خيرية الأمر بها إنما هي لكونه وسيلة إلى فعلها. قوله: ﴿لِيَتَغَاءَ مَرْضَاتُ اللَّهِ﴾ علة للفعل؛ لأن من فعلها لغير ذلك، فهو غير مستحق لهذا المدح، والجزاء، بل قد يكون غير ناج من الوزر، والأعمال بالنيات: ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ المشاققة: المعادة والمخالفة. وتبين الهدى ظهوره، بأن يعلم صحة الرسالة بالبراهين الدالة على ذلك، ثم يفعل المشاققة ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: غير طريقهم، وهو ما هم عليه من دين الإسلام والتمسك بأحكامه. ﴿قَوْلُهُ مَا تَوَلَّى﴾ أي: نجعله والياً لما توالاه من الضلال ﴿وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ﴾ قرأ عاصم وحزمة، وأبو عمرو: ﴿قَوْلُهُ وَنُصَلِّهِ﴾ بسكون الهاء في الموضعين. وقرأ الباقون بكسرهما، وهما لغتان، وقرئ ونصله بفتح النون من صلاه، وقد تقدّم بيان ذلك. وقد استدلت جماعة من أهل العلم بهذه الآية على حجية الإجماع لقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا حجة في ذلك عندي؛ لأن المراد بغير سبيل المؤمنين هنا: هو الخروج من دين الإسلام إلى غيره، كما يفيد اللفظ ويشهد به السبب، فلا تصدق على عالم من علماء هذه الملة الإسلامية اجتهد في بعض مسائل دين الإسلام، فأذاه اجتهداه إلى مخالفة من يعصره من المجتهدين، فإنه إنما رام السلوك في سبيل المؤمنين، وهو الدين القويم والملة الحنيفية، ولم يتبع غير سبيلهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا امرأً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو نكراً لله عزّ وجلّ». قال سفيان الثوري هذا في كتاب الله: ﴿لَا خَيْرَ فِي

من البهت: وهو الكذب على البريء بما ينبت له، ويتحير منه، يقال بهت بهتاً، وبهتاناً: إذا قال عليه ما لم يقل، ويقال بهت الرجل بالكسر: إذا دهش، وتحير، وبهت بالضم، ومنه: ﴿فَبِهَتِ الذِّكْرُ﴾ [البقرة: 258]، والإثم المبين: الواضح. قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، والمراد بهذا: الفضل، والرحمة لرسول الله أنه نبهه على الحق في قصة بني أبيرق. وقيل: المراد بهما: النبوة والعصمة ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من الجماعة الذين عضدوا بني أبيرق، كما تقدّم: ﴿أَنْ يَضْلُوكَ﴾ عن الحق: ﴿وَمَا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن وبال ذلك عائد عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأن الله سبحانه هو عاصمك من الناس؛ ولأنك عملت بالظاهر، ولا ضرر عليك في الحكم به قبل نزول الوحي، والجار والمجور في محل نصب على المصدرية، أي: وما يضرُّوكَ شيئاً من الضرر. قوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ قيل: هذا ابتداء كلام، وقيل: الواو للحال، أي: وما يضرُّوكَ من شيء حال إنزال الله عليك الكتاب، والحكمة، أو مع إنزال الله ذلك عليك. قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ معطوف على أنزل، أي: علمك بالوحي ما لم تكن تعلم من قبل: ﴿وَوَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة ونزول الوحي.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ﴾ الآية. قال: أخبر الله عباده بحلمه، وعفوه، وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنّب ذنباً صغيراً كان، أو كبيراً، ثم استغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض، والجبال. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن مسعود قال: من قرأ هاتين الآيتين من سورة النساء، ثم استغفر الله غفر له: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ﴾ ثم استغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك، فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول [النساء: 64] الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ قال: علمه الله بيان الدنيا، والآخرة بين حلاله، وحرامه ليحتج بذلك على خلقه. وأخرج أيضاً عن الضحاك قال: علمه الخير والشر، وقد ورد في قبول الاستغفار، وأنه يمحو الذنوب لحديث كثيرة مدونة في كتب السنة.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنَ آمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِسْلَاحٍ يَبْرِئُ النَّاسَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ اتَّبَعْنَا مَرْضَاتِ اللَّهِ وَسَوْفَ يُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً﴾ ﴿وَمَن يُكَافِرِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَرَجِعْ إِلَىٰ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿١٥٩﴾

النجوى: السرّ بين الاثنين، أو الجماعة، تقول ناجيت فلاناً مناجاةً، ونجاء، وهم ينتجون، ويتناجون، ونجوت فلاناً أنجوه نجوى، أي: ناجيته، فنجوى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه، أي: خلصته، وأقربته. والنجوة من الأرض المرتفع لانفراده بارتفاعه عما حوله، فالنجوى: المساواة مصدر، وقد تسمى

كثير من نجواهم ﴿الآية، وقوله: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أنن له الرحمن وقال صواباً﴾ [النبا: 38]، وقوله: ﴿العصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر: 1 - 3]، وقد روت أحاديث صحيحة في الصمت، والتحذير من أفات اللسان، والترغيب في حفظه، وفي الحث على الإصلاح بين الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان في قوله: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ تصدق، أو أقرض، أو أصلح بين الناس. وأخرج أبو نصر السجزي في الإبانة عن أنس قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: إن الله أنزل علي القرآن يا أعرابي: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ إلى قوله: ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ يا أعرابي الأجر العظيم الجنة: قال الأعرابي: الحمد لله الذي هدانا للإسلام. وأخرج الترمذي، والبيهقي في الأسماء، والصفات عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبداً، ويد الله على الجماعة، فمن شذ شذ في النار». وأخرجه الترمذي والبيهقي أيضاً عن ابن عباس مرفوعاً.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٧٧﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا نَعْبُدُكَ يَا اللَّهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٧٨﴾ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَقَالُوا لَا تَجِدُنَا مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٧٩﴾ وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا أَمْرَهُمْ فَلْيَخْشَ الْإِنْسَانُ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٨٠﴾ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَدَرٌ مِمَّا يَخْشَوْنَ خُشْرًا قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨١﴾ وَمَنْ يَدْعُ مِنْ دُونِهِمْ لِيَنْقِذَهُمْ مِنَ الْغَلْظِ وَالْجَبَرِ إِلَّا غُلُوبًا ﴿١٨٢﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنْ لَدُنْهِمْ حِسَابٌ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٨٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجْزِيهِمْ جَزَاءً جَدِيدًا مِمَّا أَوْفَعُوا فِي طَعْنِهِمْ وَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ حَقٍّ وَهُمْ لَا يَصُدِّقُونَ إِلَّا اللَّهَ قِيلًا ﴿١٨٤﴾

قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية، وتكريرها بلفظها للتأكيد، وقيل: كررت هنا لأجل قصة بني أبيرق، وقيل إنها نزلت هنا لسبب غير قصة بني أبيرق. وهو ما رواه الثعلبي، والقرطبي في تفسيريهما على الضحاك: أن شيخاً من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني شيخ منهم في الذنوب، والخطايا إلا أنني لم أشرك بالله شيئاً مذ عرفته، وأمنت به، ولم اتخذ من لونه، ولأياً، ولم أوقع المعاصي جراً على الله، ولا مكابرة له، وإنني لنادم، وتائب، ومستغفر، فما حالي عند الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآية ﴿ومن يشرك بالله فقد ضلّ﴾ عن الحق ﴿ضلالاً بعيداً﴾ لأن الشرك أعظم أنواع الضلال، وأبعدا من الصواب ﴿إن يدعون من دونه إلا إنا﴾ أي: ما يدعون من دونه إلا أصناماً لها أسماء مؤنثة كالكالات والعزى ومناة: وقيل المراد بالإناث: الموات التي لا روح لها كالخشبة، والحجر، وقيل المراد

بالإناث: الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله. وقرئ «وثنا» بضم الواو والثاء جمع وثن، روى هذه القراءة ابن الأنباري عن عائشة. وقرأ ابن عباس «إلا اثنا» جمع وثن أيضاً، وأصله وثن، فابنبت الواو همزة، وقرأ الحسن إلا اثنا بضم الهمزة والنون بعدها مثناة، جمع أنيث كغدير وغدر. وحكى الطبري أنه جمع إناث كثمار وثمر. وحكى هذه القراءة أبو عمرو الداني عن النبي ﷺ قال: وقرأ بها ابن عباس، والحسن، وأبو حيو. وعلى جميع هذه القراءات، فهذا الكلام خارج مخرج التوبيخ للمشركين، والإزراء عليهم، والتضعيف لعقولهم، لكونهم عبدوا من دون الله نوعاً ضعيفاً ﴿وإن يدعون إلا شيطناً مريداً﴾ أي: وما يدعون من دون الله إلا شيطناً مريداً، وهو إبليس لعنه الله، لأنهم إذا أطاعوه فيما سؤل لهم، فقد عبدوه. وقد تقدم اشتقاق لفظ الشيطان. والمريد: المتمرد العاتي، من مرد: إذا عتا. قال الأزهرى: المريد الخارج عن الطاعة. وقد مرد الرجل مروداً: إذا عتا، وخرج عن الطاعة، فهو مارد، ومريد، ومتمرد. وقال ابن عرفة: هو الذي ظهر شره، يقال شجرة مرداء: إذا تساقط ورقها وظهرت عيدانها، ومنه قيل للرجل أمرد أي: ظاهر مكان الشعر من عارضيه. قوله: ﴿لعنه الله﴾ أصل اللعن الطرد، والإبعاد. وقد تقدم وهو في العرف إبعاد مقتن بسخط. قوله: ﴿وقال لاتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ معطوف على قوله: ﴿لعنه الله﴾ والجملة صفة لشيطان، أي: شيطناً مريداً جامعاً بين لعنة الله له وبين هذا القول الشنيع. والنصيب المفروض: هو المقطوع المقدر، أي: لأجل قطعة مقترنة من عباد الله تحت غوايتي، وفي جانب إضلائي حتى أخرجهم من عبادة الله إلى الكفر به. وقوله: ﴿ولا ضلالتهم﴾ اللام جواب قسم محذوف. والإضلال: الصرف عن طريق الهداية إلى طريق الغواية، وهكذا اللام في قوله: ﴿ولا مانيهم ولا مانيهم﴾ والمراد بالاماني التي يمنيهم بها الشيطان: هي الاماني الباطلة الناشئة عن تسويله، ووسوسته. قوله: ﴿ولا مانيهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ أي: ولا مانيهم ببتكن آذان الأنعام أي: تقطيعها فليبتكنها بموجب أمري. والبتك: القطع، ومنه سيف باتك، يقال بتكه وبتكه مخففاً، ومشدداً، ومنه قول زهير:

طارت وفي كفه من ريشها بتك

أي: قطع. وقد فعل الكفار ذلك امتثالاً لأمر الشيطان، واتباعاً لرسمه، فشقوا آذان البحائر والسواحب، كما ذلك معروف. قوله: ﴿ولا مانيهم فليغيرن خلق الله﴾ أي: ولا مانيهم بتغيير خلق الله، فليغيرنه بموجب أمري لهم. واختلف العلماء في هذا التغيير ما هو؟ فقالت طائفة: هو الخصاء وفق الأعين، وقطع الأذان. وقال آخرون: إن المراد بهذا التغيير هو أن الله سبحانه خلق الشمس، والقمر، والأحجار، والنار، ونحوها من المخلوقات لما خلقها له، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة، وبه قال الزجاج؛ وقيل المراد بهذا التغيير: تغيير الفطرة التي فطر الله الناس

من دونه إلا إنثاء». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاک قال المشركون: إن الملائكة بنات الله، وإنما نعبدنهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: اتخذوهن أرباباً، وصوروهن صور الجوارى، فحلوا وقلدوا، وقالوا هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبدن: يعنون الملائكة. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان في قوله: ﴿وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكُمُ الْخَ﴾ قال: هذا إبليس يقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة. وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿فَلْيَبْتَكَنْ أَذَانُ الْإِنْعَامِ﴾ قال التبتك في البحيرة، والسائبة يبتكون أذانها لطواغيتهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أنس أنه كره الإخصاء، وقال فيه نزلت: ﴿وَلَا تَمْنَحْهُمْ فُلْيَغِيرَ خَلْقِ اللَّهِ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي، عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ عن خصاء البهائم، والخيل. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن صبر الروح، وإخصاء البهائم، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَمْنَحْهُمْ فُلْيَغِيرَ خَلْقِ اللَّهِ﴾ قال: دين الله. وأخرج ابن جرير، عن الضحاک مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سعيد بن جبيرة مثله أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: الوشم.

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمْلِكُ سَوْأَ يُجْزِيَهُ وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١١٧﴾ وَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ الْفَاسِقِينَ أَنْ يَمْلِكُوا كُفْرًا أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَبْطَلُونَ بِهَا ﴿١١٨﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١١٩﴾ وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِثْلُ مَا عَصَاكَ اللَّهُ لَبُكَرِي شَرًّا مُّجِيطًا ﴿١٢٠﴾

قرأ أبو جعفر بتخفيف الياء من أمانى في الموضعين، واسم ليس محذوف، أي: ليس دخول الجنة، أو الفضل، أو القرب من الله بأمانيك، ولا أمانى أهل الكتاب، كما يدل على ذلك سبب نزول الآية الآتي، وقيل: ضمير يعود إلى وعد الله، وهو بعيد، ومن أمانى أهل الكتاب قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 111] وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18] وقولهم: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]. قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سِوَا مَا يَجُزِي بِهِ﴾ قيل المراد بالسوء: للشرك، وظاهر الآية أعم من ذلك، فكل من عمل سوءاً، أي سوء كان فهو مجزي به من غيره فرق بين المسلم، والكافر. وفي هذه الجملة ما ترجف له القلوب من الوعيد الشديد، وقد كان لها في صدور المسلمين عند نزولها موقع عظيم كما ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة، قال: لما نزلت: ﴿مَنْ

عليها، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور حملاً شمولياً، أو بلياً.

وقد رخص طائفة من العلماء في خصاء البهائم إذا قصد بذلك زيادة الانتفاع به لسمن، أو غيره، وكره ذلك آخرون، وأما خصاء بني آدم فحرام، وقد كره قوم شراء الخصي. قال القرطبي: ولم يختلفوا أن خصاء بني آدم لا يحل، ولا يجوز وأنه مثله وتغيير لخلق الله، وكذلك قطع سائر أعضائهم في غير حد، ولا قود، قاله أبو عمر بن عبد البر، ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ باتباعه وامتنال ما يامر به من دون اتباع لما أمر الله به، ولا امتثال له ﴿فَقَدْ خَسِرَ خَسِرَاتًا مُّبِينًا﴾ أي: واضحاً ظاهراً ﴿يَعْدَهُمُ الْمَوَاعِيدُ الْبَاطِلَةَ﴾ ﴿وَيُؤْمِنُ بِهِمُ الْإِيمَانِي الْعَاطِلَةَ﴾ ﴿وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: وما يعدهم الشيطان بما يوقعه في خواطرهم من الوسوس الفارغة ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ يغرهم به ويظهر لهم فيه النفع، وهو ضرر محض، وانتصاب غروراً على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: وعداً غروراً، أو على أنه مفعول ثان، أو مصدر على غير لفظه. قال ابن عرفة: الغرور ما رأيت له ظاهراً تحبه، وله باطن مكروه، وهذه الجملة اعتراضية. قوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى أولياء الشيطان، وهذا مبتدأ، وخبره الجملة، وهي قوله: ﴿مَّا وَهَمُ جَهَنَّمَ﴾. قوله: ﴿مُحْيِصًا﴾ أي: معدلاً، من حاص يحيص؛ وقيل ملجأ، ومخلصاً؛ والمحيص اسم مكان، وقيل: مصدر. قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الخ، جعل هذا الوعد للذين آمنوا مقترناً بالوعيد المتقدم للكافرين. قوله: ﴿وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ قال في الكشف مصدران: الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره، ووجه أن الأول مؤكد لمضمون الجملة الاسمية، ومضمونها وعد، والثاني مؤكد لغيره، أي: حق ذلك حقاً. قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ هذه الجملة مؤكدة لما قبلها، والقيل مصدر قال كالقول، أي: لا أجد أصدق قولاً من الله عز وجل؛ وقيل: إن قيلاً اسم لا مصدر، وإنه منتصب على التمييز.

وقد أخرج الترمذي من حديث علي أنه قال: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ قال الترمذي: حسن غريب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي مالك في قوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَاءً﴾ قال: اللات والعزة، ومناة كلها مؤنثة. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والضياء في المختارة عن أبي بن كعب في الآية قال مع كل صنم جنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَاءً﴾ قال: موتى. وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن. وأخرج مثله أيضاً عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن قال: كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونها يسمونها أنثى بني فلان، فأنزل الله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ

يعمل سوءاً يَجْزُ به ﴿﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسدّوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة يَنْكَبُها، والشوكة يَشْلُكُها. قوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ﴾ قرأه الجماعة بالجزم عطفًا على الجزاء، وروى ابن بكار عن ابن عامر ﴿وَلَا يَجِدْ﴾ بالرفع استئنافاً، أي: ليس لمن يعمل السوء من نون الله ولياً يواليه ولا نصيراً ينصره ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: بعضها حال كونه ﴿مَنْ نَكَرَ أَوْ لَنَّى﴾ وحال كونه مؤمناً، والحال الأولى لبيان من يعمل، والحال الأخرى لإفادة اشتراط الإيمان في كل عمل صالح ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى العمل المتصف بالإيمان ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بضم حرف المضارعة على البناء للمجهول. وقرأ الباقون بفتحها على البناء للمعلوم ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ نَفْساً﴾ أي: لا ينقصون شيئاً حقيراً، وقد تقدّم تفسير النقيض: ﴿وَمَنْ لِحَسَنِ بَيْنَا مِنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ أي: أخلص نفسه له حال كونه محسناً، أي: عاملاً للحسنات ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: دينه حال كون المتبع ﴿حَنِيفاً﴾ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وهو الإسلام: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: جعله صفة له، وخصه بكراماته، قال ثعلب: إنما سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب، فلا تدع فيه خليلاً إلا ملأته، وأنشد قول بشار: قد تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلاً

وخليل فعيل بمعنى فاعل كالعليم بمعنى العالم؛ وقيل: هو بمعنى المفعول كالحيبيب بمعنى المحبوب. وقد كان إبراهيم عليه السلام محبوباً لله، ومحباً له، وقيل: الخليل من الاختصاص، فإله سبحانه اختص إبراهيم برسالته في ذلك الوقت واختاره لها، واختار هذا النحاس. وقال الزجاج: معنى الخليل الذي ليس في محبته خلل ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه إشارة إلى أنه سبحانه اتخذ إبراهيم خليلاً لطاعته لا لحاجته، ولأن التكرار به، والاعتضاد بمخالفته ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ يَكُلُ شَيْءٌ مُحِيطاً﴾ هذه الجملة مقررّة لمعنى الجملة التي قبلها، أي: أحاط علمه بكل شيء: ﴿لَا يَخَافُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49].

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: قالت العرب: لا نبعث، ولا نحاسب، وقالت اليهود، والنصارى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 11] وقالوا: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80] فانزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن مسروق قال: احتج المسلمون، وأهل الكتاب، فقال المسلمون: نحن أهدى منكم، وقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم، فنزلت ففلج عليهم المسلمون بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مَنْ نَكَرَ أَوْ لَنَّى﴾ وهو مؤمن ﴿الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

حاتم، عن مسروق قال: تفاخر النصارى، وأهل الإسلام، فقال هؤلاء نحن أفضل منكم، وقال هؤلاء نحن أفضل منكم، فنزلت وقد ورد معنى هذه الروايات من طرق كثيرة مختصرة، ومطوّلة. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن المنذر، عن أبي بكر الصديق أن النبي ﷺ قال له لما نزلت هذه الآية: أما أنت، وأصحابك يا أبا بكر، فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم نوب، وأما الآخرون، فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة، وأبي سعيد أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن حتى ألهم بهم إلا كفر الله به من سيئاته». وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أن ابن عمر لقيه، فسأله عن هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ قال: الفرائض. وأخرج الحاكم، وصححه عن جندب: أنه سمع النبي ﷺ يقول قبل أن يتوفى: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً». وأخرج الحاكم أيضاً وصححه، عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ؟

وَسَتَشْرَكَ فِي الرِّسَالَةِ لِيَّ اللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِيهِمْ وَمَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَمَنِي الرِّسَالَةِ الَّتِي لَا تَوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ تَكُونُنَّ مِنَ السَّخِيَّاتِ مِنَ الْوَلَدَانِ وَأَنْ تَقُولُوا لَيْسَ بِيَّ الْقَسِطِ وَمَا تَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴿٣١﴾

سبب نزول هذه الآية سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء، وأحكامهن في الميراث وغيره، فأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿اللَّهُ يَفْتِيكُمْ﴾ أي: يبين لكم حكم ما سألتكم عنه، وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء، وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها، فسألوا، ف قيل لهم: ﴿اللَّهُ يَفْتِيكُمْ﴾. قوله: ﴿وَمَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿اللَّهُ يَفْتِيكُمْ﴾ والمعنى: والقرآن الذي يتلى عليكم يفتيكم فيهن. والمتلو في الكتاب في معنى اليتامى قوله تعالى: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ [النساء: 3] ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَمَا يَتْلَى﴾ معطوفاً على الضمير في قوله: ﴿يَفْتِيكُمْ﴾ الرجوع إلى المبتدأ لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالمفعول والجار والمجرور، ويجوز أن يكون مبتدأ، وفي الكتاب خبره على أن المراد به: اللوح المحفوظ، وقد قيل في إعرابه غير ما ذكرنا، ولم نذكره لضعفه. وقوله: ﴿فِي يَتَامَى لِلنِّسَاءِ﴾ على الوجه الأول، والثاني صلة لقوله: ﴿يَتْلَى﴾ وعلى الوجه الثالث بدل من قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾. ﴿اللاتي لَا تَوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي: ما فرض لهن من الميراث وغيره ﴿وَتَرْغِبْنَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْكُمْ﴾ قوله: ﴿لَا تَوْتُونَهُنَّ﴾ عطف جملة مثبتة على جملة منفية. وقيل: حال من فاعل ﴿تَوْتُونَهُنَّ﴾. وقوله: ﴿أَنْ تَكُونُنَّ مِنَ السَّخِيَّاتِ﴾ يحتمل أن يكون التقدير في أن تَكُونُنَّ، أي:

امرأة مرفوعة بفعل مقتر يفسره ما بعده، أي: وإن خافت امرأة، وخافت بمعنى: توقعت ما تخاف من زوجها وقيل معناه: تيقنت وهو خطأ. قال الزجاج: المعنى: «وإن امرأة خافت من بعلها» دوام النشوز. قال النحاس: الفرق بين النشوز، والإعراض: أن النشوز التباعد، والإعراض أن لا يكلمها، ولا يأنس بها، وظاهر الآية أنها تجوز المصالحة عند مخافة أي نشوز، أو أي إعراض، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي سيأتي، وظاهرها أنه يجوز التصالح بأي نوع من أنواعه، إما بإسقاط التوبة، أو بعضها، أو بعض النفقة، أو بعض المهر. قوله: «أن يصلحا» هكذا قرأه الجمهور، وقرأ الكوفيون: «أن يصلحا» وقرأه الجمهور أولى؛ لأن قاعدة العرب أن الفعل إذا كان بين اثنين فصاعداً قيل: تصالح الرجلان، أو القوم، لا أصلح. وقوله: «وصلحا» منصوب على أنه اسم مصدر، أو على أنه مصدر محذوف الزوائد، أو منصوب بفعل محذوف، أي: فيصلح حالهما صلحاً، وقيل: هو منصوب على المفعولية. وقوله: «بينهما» ظرف للفعل، أو في محل نصب على الحال. قوله: «ووصلح خير» لفظ عام يقتضي أن الصلح الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق أو خير من الفرقة، أو من الخصومة، وهذه جملة اعتراضية. قوله: «ولحضرت الأنفس للشخ» إخبار منه سبحانه بأن الشخ في كل واحد منهما بل في كل الأنفس الإنسانية كائن، وأنه جعل كانه حاضر لها لا يغيب عنها بحال من الأحوال، وأن ذلك بحكم الجبلة، والطبيعة، فالرجل يشخ بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة، وحسن النفقة ونحوها، والمرأة تشخ على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج، فلا تترك له شيئاً منها. وشخ الأنفس: بخلها بما يلزمها، أو يحسن فعله بوجه من الوجوه، ومنه: «ومن يوق شخ نفسه فاولئك هم المفلحون» [الحشر: 9]. قوله: «وإن تحسنوا وتتقوا» أي: تحسنوا عشرة النساء، وتتقوا ما لا يجوز من النشوز والإعراض «فإن الله كان بما تعملون خبيراً» فيجازيكم يا معشر الأزواج بما تستحقونه. قوله: «ولن تستطيعوا أن تعملوا بين النساء» أخبر سبحانه بنفي استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذي لا ميل فيه البتة لما جبلت عليه الطباع البشرية من ميل النفس إلى هذه دون هذه، وزيادة هذه في المحبة، ونقصان هذه، وذلك بحكم الخلقة بحيث لا يملكون قلوبهم، ولا يستطيعون توقيف أنفسهم على التسوية، ولهذا كان يقول الصادق المصدق عليه السلام: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك» ولما كانوا لا يستطيعون ذلك، ولو حرصوا عليه، وبالغوا فيه نهامهم عز وجل عن أن يميلوا كل الميل؛ لأن ترك ذلك وتجنب الجور كل الجور في وسعهم وداخل تحت طاقتهم، فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحداهن إلى الأخرى كل الميل حتى يذروا الأخرى كالمعلقة التي ليست ذات زوج، ولا

ترغبون في أن تنكحوهن لجمالهن، ويحتمل أن يكون التقدير، وترغبون عن أن تنكحوهن لعدم جمالهن. قوله: «والمستضعفين من ولدان» معطوف على يتامى النساء، أي: وما يتلى عليكم في يتامى النساء، وفي المستضعفين من ولدان، وهو قوله تعالى: «يوصيكم الله في أولادكم» [النساء: 11] وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا من كان مستضعفاً من ولدان، كما سلف، وإنما يورثون الرجال القائمين بالقتال وسائر الأمور. قوله: «وإن تقوموا لليتامى بالقسط» معطوف على قوله: «وفي يتامى النساء» كالمستضعفين أي: وما يتلى عليكم في يتامى النساء، وفي المستضعفين، وفي أن تقوموا لليتامى بالقسط، أي: العدل، ويجوز أن يكون في محل نصب، أي: ويأمركم أن تقوموا «وما تفعلوا من خير» في حقوق المنكوبين: «فإن الله كان به عليماً» يجازيكم بحسب فعلكم من خير وشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: «ويستفتونك في النساء» الآية، قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون المولود حتى يكبر، ولا يورثون المرأة، فلما كان الإسلام قال: «ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن» وما يتلى عليكم في الكتاب» في أول السورة في الفرائض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا الصبيان شيئاً، كانوا يقولون لا يغزون، ولا يغنمون خيراً، ففرض الله لهن الميراث حقاً واجباً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن جبيرة نحوه بأطول منه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن إبراهيم في الآية قال: كانوا إذا كانت الجارية يتيمة نائمة لم يعطوها ميراثها، وحبسوها من التزويج حتى تموت، فيورثونها، فأنزل الله هذا. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن عائشة في قوله: «ويستفتونك في النساء» إلى قوله: «وترغبون أن تنكحوهن» قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها قد شركته في ماله حتى في العنق، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلاً، فتشركه في ماله بما شركته فيعضلها، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن المنذر من طريق ابن عون عن الحسن، وابن سيرين في هذه الآية قال لهما: ترغبون فيهن، وقال الآخر: ترغبون عنهن.

وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشخ وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ولن تستلبروا أن تدلوا بين أنفسكم ولا حرصتم فلا تبيلوا كل الليل فتدروا كالمكذبة وإن تبيلوا وتتقوا فإن الله كان عفواً رحيماً وإن ينكرآ يمين الله كلاً من سكرته وكان الله ورسماً حكيماً

اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك، وإسناده صحيح. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأهل السنن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة، ولحد شقيه ساقط». قال الترمذي: إنما أسنده همام، ورواه هشام الدستوائي عن قتادة قال: كان يقال، ولا يعرف هذا الحديث مرفوعاً إلا من حديث همام. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود في قوله: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء» قال: الجماع. وأخرج ابن أبي شيبة، عن الحسن قال: الحب.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَفَرٌ لَوَّمًا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٦٦﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ذَكِيًّا ﴿١٦٧﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَمِنَ اللَّهِ ثَوَابٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٦٨﴾

قوله: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» هذه الجملة مستأنفة لتقرير كمال سعته سبحانه، وشمول قدرته «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَمْرَانَهُمَا» فيما أنزلناه عليهم من الكتب، واللام في الكتاب للجنس «وَلِيَاكُمْ» عطف على الموصول «أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ» أي: أَمْرَانَهُمَا وَأَمْرَانَكُمْ بِالتَّقْوَى، وهو في موضع نصب بقوله: «وَصَّيْنَاكُمْ» أو منصوب بنزع الخافض. قال الأخفش أي: بَأَنْ اتَّقُوا اللَّهَ، ويجوز أن تكون أن مفسرة: لأن التوصية في معنى القول. قوله: «وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» معطوف على قوله: «أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ» أي: وَصَّيْنَاكُمْ، وإياكم بالتقوى، وقلنا لهم، ولكم أَنْ تَتَّقُوا، وفائدة هذا التكرير التأكيد ليتنبه العباد على سعة ملكه، وينظروا في ذلك، ويعلموا أنه غني عن خلقه «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ» أي: يفتنكم «وَيَأْتِ بِآخَرِينَ» أي: يقوم آخرين غيركم، وهو كقوله تعالى «وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ» [محمد: 38] «مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا» وهو من يطلب بعمله شيئاً من أمور الدنيا كالمجاهد يطلب الغنيمة نون الأجر «فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» فما باله يقتصر على أثنى الثوابين، وأحق الأجرين، وهما طلب بعمله ما عند الله سبحانه، وهو ثواب الدنيا، والآخرة، فيحزنها جميعاً، ويفوز بهما، وظاهر الآية العموم. وقال ابن جرير الطبري: إنها خاصة بالمشركون والمنافقين: «وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ» سمياً بصيراً يسمع ما يقولونه، ويصير ما يفعلونه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ غَنِيًّا» عن خلقه «حَمِيدًا» قال: مستحسناً إليهم. وأخرج أيضاً عن علي بن أبي طالب، وأخرج ابن

مطلقة تشبيهاً بالشيء الذي هو معلق غير مستقر على شيء، وفي قراءة أبي فتنوها كالمسجونة. قوله: «وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ» أي: ما أقصدتم من الأمور التي تركتم ما يجب عليكم فيها من عشرة النساء، والعدل بينهن «وَتَتَّقُوا اللَّهَ» كل الميل الذي نهيتكم عنه: «وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ» أي: لا يؤاخذكم بما فرط منكم. قوله: «وَأَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ» أي: لم يتصالحا بل فارق كل واحد منهما صاحبه: «يَتَّقُوا اللَّهَ» أي: يجعله مستغنياً عن الآخر بأن يهين للرجل امرأة توافقه، وتقرب بها عينه، وللمرأة رجلاً تغتبط بصحبته، ويرزقهما «مَنْ سَعَتَهُ» رزقاً يغنيهما به عن الحاجة: «وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ» واسعاً حكيماً واسع الفضل صادرة أفعاله على جهة الإحكام، والإتقان.

وقد أخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله لا تطلقني، واجعل يومي لعائشة، ففعل، ونزلت هذه الآية: «وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ» من بعلمها نشوزاً أو إعراضاً الآية، قال ابن عباس: فما اصطالحا عليه من شيء، فهو جائز. وأخرج أبو داود، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عائشة أن سبب نزول الآية هو قصة سودة المنكورة. وأخرج البخاري وغيره عنها في الآية قالت: الرجل تكون عند المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية. وأخرج الشافعي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي عن سعيد بن المسيب أن ابنة محمد بن سلمة كانت عند رافع بن خديج، ففكره منها امرأة، إما كبراً، أو غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقني وأقسم لي ما بدا لك، فاصطالحا، وجرت السنة بذلك ونزل القرآن: «وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ» خافت من بعلمها نشوزاً الآية. وأخرج أبو داود الطيالسي، وابن أبي شيبة، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن علي أنه سئل عن هذه الآية، فقال: هو رجل عنده امرأتان، فتكون إحداهما قد عجزت، أو تكون دمية، فيريد فراقها، فتصالحه على أن يكون عندها ليلة، وعند الأخرى ليلي، ولا يفارقها، فما طابت به نفسها، فلا بأس به، فإن رجعت سوى بينهما. وقد ورد عن جماعة من الصحابة نحو هذا، وثبت في الصحيحين من حديث عائشة قالت: «لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يوماً لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لها بيوم سودة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: «وَأَحْضَرْتُ أَنْفُسَ الشَّعْخِ» قال: هواه في الشيء يحرص عليه، وفي قوله: «وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ» أي: تعدلوا بين النساء قال: في الحب والجماع، وفي قوله: «فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَنُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ» قال: لا هي أئمة، ولا ذات زوج. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر عن عائشة قالت: «كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه، فيعدل، ثم يقول:

من اللّي، يقال لويث فلاناً حقه: إذا نفعته عنه. والمراد لي الشهادة ميلاً إلى المشهود عليه. وقرأ ابن عامر، والكوفيون⁽¹⁾ «وإن تلوا» من الولاية، أي: وإن تلوا الشهادة، وتركوا ما يجب عليكم من تأييدها على وجه الحق. وقد قيل: إن هذه القراءة تفيد معنيين: الولاية، والإعراض. والقراءة الأولى تفيد معنى واحداً وهو الإعراض: وزعم بعض النحويين أن القراءة الثانية غلط، ولحن؛ لأنه لا معنى للولاية هاهنا. قال النحاس وغيره: وليس يلزم هذا، ولكن يكون تلوا بمعنى تلوا، وذلك أن أصله تلوا، فاستغفلت الضمة على الواو بعدها أو أخرى، فالحقبت الحركة على اللام وحذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين. وذكر الزجاج نحوه. قوله: «أو تعرضوا» أي: عن تأييد الشهادة من الأصل «فإن الله كان بما تعملون خبيراً» أي: بما تعملون من اللّي، والإعراض، أو من كل عمل، وفي هذا وعيد شديد لمن لم يأت بالشهادة، كما تجب عليه، وقد روى أن هذه الآية تعم القاضي، والشهود، أما الشهود فظاهر، وأما القاضي فذلك بأن يعرض عن أحد الخصمين، أو يلوى عن الكلام معه؛ وقيل: هي خاصة بالشهود. قوله: «يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله» أي: اثبتوا على إيمانكم، وبنوا عليه، والخطاب هنا للمؤمنين جميعاً «والكتاب الذي أنزل على رسوله» هو القرآن، واللام للعهد «والكتاب الذي أنزل من قبل» هو كل كتاب، واللام للجنس. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر نزل، وأنزل بالضم. وقرأ الباقون بالفتح فيهما. وقيل إن الآية نزلت في المنافقين. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا في الظاهر اخلصوا لله. وقيل نزلت في المشركين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى آمنوا بالله، وهما ضعيفان. قوله: «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر» أي: بشيء من ذلك «فقد ضل» عن القصد «ضلالاً بعيداً» وذكر الرسول فيما سبق لنكر الكتاب الذي أنزل عليه، وذكر الرسل هنا لنكر الكتب جملة، فناسبه نكر الرسل جملة، وتقديم الملائكة على الرسل؛ لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين» الآية، قال، أمر الله المؤمنين أن يقولوا بالحق، ولو على أنفسهم، أو آبائهم، أو إبنائهم لا يحابون غنياً لغناه، ولا يرحمون مسكيناً لمسكنته، وفي قوله: «فلا تتبعوا الهوى» فتذروا الحق فتجوروا «وإن تلوا» يعني بالسنتكم بالشهادة «أو تعرضوا» عنها. وأخرج أحمد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عنه في معنى الآية قال: الرجلان

جرير، عن قتادة في قوله: «وكفى باسه وكيلاً» قال: حفيظاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: «إن يشا يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين» قال قابر والله ربنا على ذلك أن يهلك من خلقه ما شاء ويأتي بآخرين من بعدهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَرْكَىٰ بِمَا تَعْمَلُونَ الْمَوْتِ أَنْ تَمْدُلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تَرْضَوْا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا

قوله: «قوامين» صيغة مبالغة، أي: ليتكرر منكم القيام بالقسط، وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم، وهو الاقرار بما عليكم من الحقوق، وأما شهادته على والديه فإن يشهد عليهما بحق للغير، وكذلك الشهادة على الأقربين وذكر الأبوين لوجوب برهما، وكونهما أحب الخلق إليه، ثم نكر الأقربين؛ لأنهم مظنة المودة، والتعصب، فإذا شهدوا على هؤلاء بما عليهم، فالأجنبي من الناس أحرى أن يشهدوا عليه. وقد قيل: إن معنى الشهادة على النفس أن يشهد بحق على من يخشى لحوق ضرر منه على نفسه، وهو بعيد. وقوله: «شهادة الله» خبر بعد خبر لكان، أو حال، ولم ينصرف؛ لأن فيه ألف التانيث. وقال ابن عطية: الحال فيه ضعيفة في المعنى؛ لأنها تخصص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط. وقوله: «الله» أي: لمرضاته وثوابه. وقوله: «ولو على أنفسكم» متعلق بشهادة، هذا المعنى الظاهر من الآية؛ وقيل معنى: «شهادة الله» بالوحدانية، فيتعلق قوله: «ولو على أنفسكم» بقوامين، والأول أولى. قوله: «إن يكن غنياً أو فقيراً» اسم كان مقترن، أي: إن يكن المشهود عليه غنياً، فلا يراعي لأجل غناه استجلاباً لنفعه، أو استنفاعاً لضره فيترك الشهادة عليه، أو فقيراً، فلا يراعي لأجل فقره رحمة له، وإشفافاً عليه، فيترك الشهادة عليه، وإنما قال: «فأشاهدوا» ولم يقل به مع أن التخيير إنما يدل على الحصول لواحد؛ لأن المعنى: فأشاهدوا أولى بكل واحد منهما. وقال الاخفش: تكون أو بمعنى الواو؛ وقيل: إنه يجوز ذلك مع تقدّم ذكرهما كما في قوله: «وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السبس» [النساء: 12]. وقد تقدّم في مثل هذا ما هو أبسط مما هنا. وقرأ أبي: «فأشاهدوا أولى بهم». وقرأ ابن مسعود: «إن يكن غنياً أو فقيراً» على أن كان تامة: «فلا تتبعوا الهوى» نهامهم عن اتباع الهوى. وقوله: «أن تعملوا» في موضع نصب، وهو إما من العدل كانه قال: فلا تتبعوا الهوى كرامة أن تعملوا بين الناس، أو من العول كانه قال: فلا تتبعوا الهوى مخافة أن تعملوا عن الحق، أو كرامة أن تعملوا عن الحق. قوله: «وإن تلوا»

(1) صوابه (حمزة) اهـ مصحح القرآن.

ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ؛ وقيل: آمنوا بموسى، ثم كفروا به بعبادتهم العجل، ثم آمنوا به عند عوده إليهم، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ والمراد بالآية: أنهم ازدادوا كفراً، واستمروا على ذلك كما هو الظاهر من حالهم، وإلا فالكافر إذا آمن، وأخلص إيمانه، وأقلع عن الكفر، فقد هداه الله السبيل الموجب للمغفرة، والإسلام يجب ما قبله، ولكن لما كان هذا مستبعداً منهم جداً كان غفران نوبهم، وهدايتهم إلى سبيل الحق مستبعداً. قوله: ﴿يُبَشِّرُ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا لَّيْمًا﴾ إطلاق البشارة على ما هو شرّ خالص لهم تهكم بهم، وقد مرّ تحقيقه. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَاثِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ وصف للمنافقين، أو منصوب على الذمّ، أي: يجعلون الكفار أولياء لهم يوالونهم على كفرهم، ويمالئونهم على ضلالهم. وقوله: ﴿مِنْ بَنِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل نصب على الحال، أي: يوالون الكافرين متجاوزين ولاية المؤمنين ﴿يُؤْتِبِعُونَهُمْ الْعِزَّةَ﴾ هذا الاستفهام للتقريع، والتوبيخ، والجملة معترضة. قوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ هذه الجملة تعليل لما تقدّم من توبيخهم بابتغاء العزّة عند الكافرين، وجميع أنواع العزّة، وأفرادها مختص بالله سبحانه، وما كان منها مع غيره، فهو من فيضه، وتفضله كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8] والعزّة: الغلبة، يقال عزّه يعزّه عزّاً: إذا غلبه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق؛ لأن من أظهر الإيمان، فقد لزمه أن يمثل ما أنزله الله؛ وقيل إنه خطاب للمنافقين، فقط كما يفيد التشديد، والتوبيخ. وقرأ عاصم، ويعقوب: «نزل» بفتح النون والزاي وتشديدها، وفاعله ضمير راجع إلى اسم الله تعالى في قوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. وقرأ حميد بتخفيف الزاي مفتوحة مع فتح النون، وقرأ الباقون بضم النون مع كسر الزاي مشددة على البناء للمجهول. وقوله: ﴿إِنَّ إِذَا سَمِعْتُمُ آيَاتَ اللَّهِ﴾ في محل نصب على القراءة الأولى على أنه مفعول نزل. وفي محل رفع على القراءة الثانية على أنه فاعل، وفي محل رفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله على القراءة الثالثة. وإن هي المخففة من الثقيلة، والتقدير أنه إذا سمعتم آيات الله. والكتاب: هو القرآن. وقوله: ﴿يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا﴾ حالان، أي: إذا سمعتم الكفر، والاستهزاء بآيات الله، فأوقع السماع على الآيات. والمراد: سماع الكفر والاستهزاء. وقوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: أنزل عليكم في الكتاب أنكم عند هذا السماع للكفر، والاستهزاء بآيات الله لا تقعدوا معهم ما داموا كذلك حتى يخوضوا في حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بها. والذي أنزله الله عليهم في الكتاب هو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68] وقد كان جماعة من الداخلين في الإسلام يقعدون مع المشركين، واليهود حال سخريتهم بالقرآن، واستهزائهم به، فنهوا عن ذلك.

يجلسان عند القاضي، فيكون لي القاضي، وإعراضه لأحد الرجلين على الآخر. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانت البقرة أول سورة نزلت، ثم أرقبها سورة النساء، قال: فكان الرجل تكون عنده الشهادة قبل ابن عمه، أو نوري رحمه، فيلوى بها لسانه، أو يكتمها مما يرى من عسرته حتى يوسر، فيقضي حين يوسر، فنزلت: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿وَأَنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا﴾ يقول: تلوى لسانك بغير الحق، وهي للجلبة، فلا تقيم الشهادة على وجهها. والإعراض: الترك. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس «أن عبد الله بن سلام وأسدًا وأسيداً ابني كعب، وثعلبة بن قيس وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة ابن أخيه، ويامين بن يامين لتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك، وكتابك، وموسى، والتوراة، وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسول، فقال رسول الله ﷺ: بل آمنوا بالله ورسوله محمد، وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله، فقالوا: لا نفعل، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الآية. وينبغي النظر في صحة هذا، فالثعلبي رحمه الله ليس من رجال الرواية، ولا يفرق بين الصحيح، والموضوع. وأخرج ابن المنذر، عن الضحاك في هذه الآية قال: يعني بذلك: أهل الكتاب، كان الله قد أخذ ميثاقهم في التوراة والإنجيل، وأقروا على أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، فلما بعث الله رسوله دعاهم إلى أن يؤمنوا بمحمد، والقرآن، ونكرهم الذي أخذ عليهم من الميثاق، فعنهم من صدق النبي ﷺ واتبعه، ومنهم من كفر.

[illegible]

أخبر الله سبحانه عن هذه الطائفة التي آمنت، ثم كفرت ثم آمنت، ثم كفرت، ثم ازدادت كفراً بعد ذلك كله أنه لم يكن الله سبحانه؛ ليغفر لهمذنوبهم، ولا ليهديهم سبيلاً يتوصلون به إلى الحق، ويسلكونه إلى الخير؛ لأنه يبعد منهم كل البعد أن يخلصوا لله، ويؤمنوا إيماناً صحيحاً، فإن هذا الاضطراب منهم تارة يدعون أنهم مؤمنون، وتارة يمرقون من الإيمان ويرجعون إلى ما هو دأبهم، وشأنهم من الكفر المستمر، والجحود الدائم يدلُّ أبغض دلالة على أنهم متلاعبون بالدين ليست لهم نية صحيحة، ولا قصد خالص. قيل المراد بهؤلاء: اليهود فإنهم آمنوا بموسى، ثم كفروا بعزير، ثم آمنوا بعزير،

هايكم المسلمون وخذلناهم عنكم؟ والأول أولى، فإن معنى الاستحواذ: الغلب، يقال: استحاذ على كذا، أي: غلب عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ [الجملة: 19] ولا يصح أن يقال: ألم تغلبكم حتى هايكم المسلمون، ولكن المعنى: ألم تغلبكم يا معشر الكافرين، وتتمكن منكم فتركناكم، وأبقينا عليكم حتى حصل لكم هذا الظفر بالمسلمين: ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ بتخديلتهم وتبسيطهم عنكم حتى ضعفت قلوبهم عن النفع لكم وعجزوا عن الانتصاف منكم؛ والمراد أنهم يميلون مع من له الغلب، والظفر من الطائفتين، ويظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة، وهذا شأن المنافقين أبعدهم الله، وشأن من حذا حذوهم من أهل الإسلام من التظاهر لكل طائفة بأنه معها على الأخرى، والميل إلى من معه الحظ من الدنيا في مال أو جاه، فيلقاه بالتملق، والتودد، والخضوع، والنلة، ويلقى من لا حظ له من الدنيا بالشدة، والغلبة، وسوء الخلق، ويزدري به، ويكافحه بكل مكروه، فقبح الله أخلاق أهل النفاق، وأبعدها. قوله: ﴿فأشاه يحكم بينكم يوم القيامة﴾ بما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق، والبغض للحق، وأهله، ففي هذا اليوم تنكشف الحقائق، وتظهر الضمائر، وإن حقنوا في الدنيا نماءهم، وحفظوا أموالهم بالتكلم بكلمة الإسلام نفاقاً ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾، هذا في يوم القيامة إذا كان المراد بالسبيل: النصر والغلب، أو في الدنيا إن كان المراد به الحجة. قال ابن عطية. قال جميع أهل التأويل: إن المراد بذلك يوم القيامة. قال ابن العربي: وهذا ضعيف لعدم فائدة الخبر فيه، وسببه توهم من توهم أن آخر الكلام يرجع إلى أوله يعني قوله: ﴿فأشاه يحكم بينكم يوم القيامة﴾ وذلك يسقط فائتته، إذ يكون تكراراً هذا معنى كلامه؛ وقيل المعنى: إن الله لا يجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين يمحو به نولتهم، ويذهب آثارهم، ويستبيح بيضتهم كما يفيد الحديث الثابت في الصحيح «وأن لا أسلط عليهم عنوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من باقظارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً» وقيل إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل، ولا تاركين للنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم﴾ [الشورى: 30] قال ابن العربي: وهذا نفيس جداً؛ وقيل: إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً شرعاً، فإن وجد، فبخلاف الشرع. هذا خلاصة ما قاله أهل العلم في هذه الآية، وهي: صالحة للاحتجاج بها على كثير من المسائل.

وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب ليل على اجتنب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص، والاستهزاء للآلة الشرعية، كما يقع كثيراً من أسراء التقليد الذين استنبطوا آراء الرجال بالكتاب، والسنة، ولم يبق في أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا، وقال فلان من أتباعه بكذا، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية، أو بحديث نبوي سخروا منه، ولم يرفعوا إلى ما قاله راسماً، ولا بالوا به بالة، وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع، وخطب شنيع، وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع، بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيهم الفائل، واجتهاده الذي هو عن مناج الحق مائل، مقدماً على الله، وعلى كتابه، وعلى رسوله، فلنا لله، وإنا إليه راجعون، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها، والأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم برآء من فعلهم، فلأنهم قد صرحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم، كما أوضحنا ذلك في رسالتنا المسماة بـ[القول المفيد في حكم التقليد] وفي مؤلفنا المسمى بـ[أب الطلب، ومنتهى الأرب] اللهم انفعنا بما علمتنا، واجعلنا من المقتدين بالكتاب، والسنة وباعد بيننا وبين آراء الرجال المبنية على شفا جرف هار، يا مجيب السائلين.

قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ تحليل للنهي أي: إنكم إن فعلتم ذلك، ولم تنتهوا، فأنتم مثلهم في الكفر. قيل: وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر كما في قول القائل:

وكل قرين بالمقارن يقتدي

وهذه الآية محكمة عند جميع أهل العلم إلا ما يروى عن الكلبى فإنه قال: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ [الأنعام: 61] وهو مردود، فإن من التقوى لاجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله، ويستهنئون بها. قوله: ﴿إن الله جامع للمنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ هذا تحليل لكونهم مثلهم في الكفر، قيل: وهم القاعدون، والمقعود إليهم عند من جعل الخطاب موجهاً إلى المنافقين. قوله: ﴿الذين يتريصون بكم﴾ أي: ينتظرون بكم ما يتجدد، ويحدث لكم من خير، أو شر، والموصول في محل نصب على أنه صفة للمنافقين، أو بدل منهم فقط دون الكافرين لأن التريص المذكور هو من المنافقين دون الكافرين، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذم، ﴿فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾ هذه الجملة، والجملة التي بعدها حكاية لتريصهم، أي: إن حصل لكم فتح من الله بالنصر على من يخالفكم من الكفار ﴿قالوا﴾ لكم ﴿ألم نكن معكم﴾ في الاتصاف بظاهر الإسلام، والتزام أحكامه والمظاهرة، والتسويد، وتكثير العدد ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ من الغلب لكم، والظفر بكم ﴿قالوا﴾ للكافرين ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أي: ألم نقهركم، ونغلبكم وتتمكن منكم، ولكن أبقينا عليكم. وقيل المعنى: إنهم قالوا للكفار الذين ظفروا بالمسلمين ألم نستحوذ عليكم حتى

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا﴾ الآية، قال: هم اليهود والنصارى أمّنت اليهود بالتوراة، ثم كفرت، وأمّنت النصارى بالإنجيل، ثم كفرت. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عنه في الآية قال: هؤلاء اليهود آمنوا بالتوراة، ثم

قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين، وفصائحهم، وقد تقدم معنى الخدع في البقرة، ومخادعتهم لله هي أنهم يفعلون فعل المخادع من إظهار الإيمان، وإبطان الكفر، ومعنى كون الله خادعهم: أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه، وذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظاهر بالإسلام في الدنيا، فعصم به أموالهم، ودماءهم، وأخر عقوبتهم إلى الدار الآخرة، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل من النار. قال في الكشف: والخادع اسم فاعل من خادعته، فخدعته إذا غلبته، وكنت أخدع منه. والكسالى يضم الكاف جمع كسلان، وقرئ بفتحها، والمراد أنهم يصلون، وهم متكاسلون متثاقلون لا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً. والرياء إظهار الجميل ليراه الناس، لا لاتباع أمر الله، وقد تقدم بيانه، والمرأة المفاعلة. قوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوف على يراؤون، أي: لا يذكرونه سبحانه إلا نكراً قليلاً أو لا يصلون إلا صلاة قليلة، ووصف الذكر بالقلة لعدم الإخلاص، أو لكونه غير مقبول، أو لكونه قليلاً في نفسه؛ لأن الذي يفعل الطاعة لقصد الرياء، إنما يفعلها في المجمع، ولا يفعلها خالياً كالمخلص. قوله: ﴿مُتَنَبِّئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المنيب المتردد بين امرين، والذبوبة الاضطراب، يقال ذنبه فتنذب، ومنه قول النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتنذب
قال ابن جني: المنيب القلب الذي لا يثبت على حال، فهؤلاء المنافقون مترددون بين المؤمنين، والمشركين لا مخلصين الإيمان، ولا مصرحين بالكفر. قال في الكشف: وحقيقة المنيب الذي يذب عن كلا الجانبين، أي: يذاد، ويدفع، فلا يقر في جانب واحد، كما يقال: فلان يرمى به الرجوان، إلا أن الذبوبة فيها تكرير ليس في الذب؛ كان المعنى: كلما مال إلى جانب ذب عنه. انتهى. وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح الذالين، وقرأ ابن عباس بكسر الذال الثانية، وفي حرف أبي «متنذبين» وقرأ الحسن بفتح الميم والذالين، وانتصاب منذبين إما على الحال، أو على الذم، والإشارة بقوله بين ذلك إلى الإيمان، والكفر. قوله: ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ إلى الكافرين، ومحل الجملة: النصب على الحال، أو على البذل من منذبين، أو على التفسير له ﴿وَمَنْ يَضِللِ اللَّهُ﴾ أي: يخله، ويسلبه التوفيق ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً يوصله إلى الحق. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تجعلوهم خاصة لكم، وبطانة توالوهم من دون إخوانكم من المؤمنين، كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين: ﴿اتَّيِدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيكُمْ سُلْطَانًا مَبِينًا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: اتريدون أن تجعلوا الله عليكم حجة بينة يعذبكم بها بسبب ارتكابكم لما نهاكم عنه من موالاة الكافرين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قرأ الكوفيون الدرك

كفروا، ثم نكر النصارى، فقال: ﴿ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ يقول: آمنوا بالإنجيل، ثم كفروا، ﴿ثُمَّ آذَنُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال: هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين، ثم كفروا مرتين، ثم آذَنُوا كُفْرًا بعد ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ آذَنُوا كُفْرًا﴾ قال: تموا على كفرهم حتى ماتوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن أبي وائل قال: إن الرجل ليتكلم في المجلس بالكلمة من الكذب؛ ليضحك بها جلساءه، فيسخط الله عليهم جميعاً، فنكروا ذلك لإبراهيم النخعي، فقال: صنق أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله؟ ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: أنزل في سورة الأنعام ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68] ثم نزل التشديد في سورة النساء ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبيرة: أن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والكافرين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزؤوا بالقرآن في جهنم جميعاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد: ﴿السَّيِّئِينَ يَتْرِبُصُونَ بِكُمْ﴾ قال: هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ إن أصاب المسلمين من عدوهم غنيمة قال المنافقون ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ قد كنا ﴿مَعَكُمْ﴾ فاعطونا من الغنيمة مثل ما تأخذون ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكفار ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نبين لكم أنا على ما أنتم عليه، قد كنا نثبطهم عنكم. وأخرج ابن جرير عن السدي: ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ قال: نغلب عليكم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب، والحاكم وصححه عن علي أنه قيل له: أرايت هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وهم يقاتلوننا، فيظهرون ويقتلون، فقال: الله الله، ثم قال: ﴿فَإِنَّ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: في الآخرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي مالك نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن السدي: ﴿سَبِيلًا﴾ قال: حجة.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَالًا يَرَاهُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦٠﴾ مُتَنَبِّئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٦١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُ أَنْ تَمُوتُوا بِغَدَابَتِهِمْ فَلَا تَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ سُلْطَانًا مَبِينًا ﴿١٦٢﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٦٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاتَّعَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٤﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِمَذْبِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٦٥﴾

المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿مُنَافِقِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال: هم المنافقون: ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يقول: لا إلى أصحاب محمد ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ اليهود، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «إن مثل المنافق مثل الشاة الغائرة بين الغنمين تغير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة فلا تدري أيهما تتبع». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿اتَّيِدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عِلْمَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ قال: إن الله سلطان على خلقه ولكنه يقول عذراً مبيناً. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والفرابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، عن ابن عباس قال: «كل سلطان في القرآن، فهو حجة» والله سبحانه أعلم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: في توابيت من حديد مقلعة عليهم، وفي لفظ مبهم عليهم أي: مغلقة لا يهتدي لمكان فتحها. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن ابن مسعود نحوه أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿فَمَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ الآية، قال: إن الله لا يعذب شاكراً، ولا مؤمناً.

﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْكَفَرَ وَالْكُفْرَ وَلَا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ شَهِيدًا عَلِيمًا﴾
 ﴿إِنْ تَبَدُّوا حَيْرًا أَوْ نَفْثًا أَوْ غَفْوَ أَوْ تَمَوَّاعًا سَوَّاهُ اللَّهُ كَانَ عَوْنًا قَدِيرًا﴾
 نفى الحب كناية عن البغض، وقراءة الجمهور: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ على البناء للمجهول. وقرا زيد بن أسلم، وابن أبي إسحاق، والضحاك، وابن عباس، وابن جبير، وعطاء بن السائب ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ على البناء للمعلوم، وهو على القراءة الأولى استثناء متصل بتقدير مضاف محذوف، أي: إلا جهر من ظلم؛ وقيل: إنه على القراءة الأولى أيضاً منقطع، أي: لكن من ظلم، فله أن يقول ظلمي فلان.

واختلف أهل العلم في كيفية الجهر بالسوء الذي يجوز لمن ظلم، فقيل: هو أن يدعو على من ظلمه؛ وقيل: لا بأس أن يجهر بالسوء من القول على من ظلمه بأن يقول: فلان ظلمي، أو هو ظالم، أو نحو ذلك؛ وقيل معناه: إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول من كفر، أو نحوه، فهو مباح له، والآية على هذا في الإكراه، وكذا قال قطرب، قال: ويجوز أن يكون على البذل كأنه قال لا يحب الله إلا من ظلم، أي: لا يحب الظالم بل يحب المظلوم، والظاهر من الآية أنه يجوز لمن ظلم أن يتكلم بالكلام الذي هو من السوء في جانب من ظلمه، ويؤيده الحديث الثابت في الصحيح بلفظ: «لبي الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته»، وأما على القراءة الثانية، فالاستثناء منقطع، أي: إلا من ظلم في فعل، أو قول، فاجهروا له بالسوء من القول في معنى النهي عن فعله، والتوبيخ له. وقال قوم: معنى الكلام لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول، لكن من ظلم، فإنه يجهر بالسوء ظلاماً، وعدواناً، وهو ظالم في ذلك، وهذا شأن كثير من

يسكون الرءاء، وقرا غيرهم بتحريكها، قال أبو علي: هما لغتان والجمع أدراك؛ وقيل جمع المحرك أدراك مثل جمل، وأجمال، وجمع الساكن أدراك مثل فلس، وأفلس. قال النحاس: والتحريك أقصح. والدرك: الطبقة. والنار دركات سبع، فالمنافق في الدرك الأسفل منها، وهي: الهاوية، لفظ كفره، وكثرة غوائله، وأعلى الدركات جهنم، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقد تسمى جميعها باسم الطبقة العليا، أعاننا الله من عذابها: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخلصهم من ذلك الدرك والخطاب لكل من يصلح له، أو للنبي ﷺ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء من المنافقين، أي: إلا الذين تابوا عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أقسوا من أحوالهم ﴿وَأَخْلَصُوا بَيْنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: جعلوه خالصاً له غير مشوب بطاعة غيره. والاعتصام بالله: التمسك به والثوق بوعده، والإشارة بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إلى الذين تابوا، واتصفوا بالصفات السابقة. قوله: ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال القراء أي: من المؤمنين يعني الذين لم يصدر منهم نفاق أصلاً. قال القتيبي: حاد عن كلامهم غضباً عليهم، فقال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل هم المؤمنون. انتهى. والظاهر أن معنى مع معتبر هنا، أي: فأولئك مصاحبون للمؤمنين في أحكام الدنيا والآخرة. ثم بين ما أعد الله للمؤمنين الذين هؤلاء معهم، فقال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وحذفت الياء من يؤت في الخط، كما حذفت في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها، ومثله ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القدر: 6] و﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: 18] و﴿يَوْمَ ينادِ المُنَادِ﴾ [ق: 41] ونحوها فإن الحذف في الجميع لالتقاء الساكنين. قوله: ﴿فَمَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْنْتُمْ﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان أنه لا غرض له سبحانه في التعذيب إلا مجرد المجازاة للعصاة. والمعنى: أي منفعة له في عذابكم إن شكرتم، وأمَنْتُمْ، فإن ذلك لا يزيد في ملكه، كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي: يشكر عباده على طاعته، فيثيبهم عليها، ويتقبلها منهم. والشكر في اللغة: الظهور، يقال دابة شكور: إذا ظهر من سمنها فوق ما تعطى من العلف.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ الآية، قال: يلقي على مؤمن، ومنافق نور يمشون به يوم القيامة حتى إذا انتهوا إلى الصراط طغى نور المنافقين، ومضى المؤمنون بنورهم، فتلك خديعة الله إياهم. وأخرج ابن جرير عن السدي نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، وسعيد بن جبير نحوه أيضاً، ولا أدري من أين جاء لهم هذا التفسير، فإن مثله لا ينقل إلا عن النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في الآية قال: نزلت في عبد الله بن أبي، وأبي عامر بن النعمان. وقد ورد في الأحاديث الصحيحة وصف صلاة المنافق، وأنه يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام، فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً. وأخرج ابن جرير، وابن

بموسى، وكفروا بـعيسى ومحمد، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى، وكفروا بمحمد: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُتَّخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: يتخذوا بين الإيمان والكفر ديناً متوسطاً بينهما، فالإشارة بقوله: ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ إلى قوله نؤمن، ونكفر ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الكفر. وقوله: ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي: حق ذلك حقاً. أو هو صفة لمصدر الكافرين، أي: كفراً حقاً. وقوله: ﴿وَلَمْ يَفْزُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بأن يقولوا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، ودخول بين على أحد لكونه عاماً في المفرد مذكراً، ومؤنثاً، ومثانها، وجمعهما. وقد تقدم تحقيقه، والإشارة بقوله: ﴿أَوَلَيْكَ﴾ إلى الذين آمنوا بالله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في الآية، قال: ﴿لَوْلَاكَ﴾ إهداء الله اليهود، والنصارى أمّنت اليهود بالتوراة، وموسى، وكفروا بالإنجيل، وعيسى، وأمّنت النصارى بالإنجيل، وعيسى، وكفروا بالقرآن، ومحمد، اتخذوا لليهووية والنصرانية، وهما بدعتان ليستا من الله وتركوا الإسلام، وهو دين الله الذي بعث به رسله. وأخرج ابن جرير، عن السدي، وابن جريج نحوه.

يَسْتَكْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُخَلَّ عَلَيْهِمْ كِتَابُكَ مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَأَى اللَّهَ فَانْخُذْهُمْ فَظَلِمُوا عَلَيْهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْوَيْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْيُسُفُ فَقَعُوا عَنْ ذَلِكَ وَاتَّخَذَ مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٧٠﴾ وَرَفَعْنَا قَوْمَهُمُ الثَّوَرِ يَبْتَلِيهِمْ ﴿١٧١﴾ وَلَقَدْ لَمْ أَذْخُلُوا الْبَابَ مُبْتَدِئًا وَلَقَدْ لَمْ لَا تَقْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ يَشْفَا عَظِيمًا ﴿١٧٢﴾ فَمَا تَقْضِيهِمْ فَيَقْضِيهِمْ وَكَفَرِهِمْ بَكَتِ اللَّهُ وَقِيلَ لَهُمُ الْيُثْيَا بِمَنْ حَتَّى وَقِيلَ لَهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كِبْرَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٣﴾ إِلَّا قِيلَ لَهُمْ وَكَفَرِهِمْ وَقِيلَ لَهُمْ عَلَى مَرِيضَةٍ يَهْتَنُّ عَظِيمًا ﴿١٧٤﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّا نَمْلِكُ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قُلْتُمْ وَمَا صَلَوَةُ وَلَكِنْ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْيُونِ أَخْلَعُوا يَدَا لِي سَلَاكٍ مِنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ بِهِ مِنْ عِلْمِ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّالِمِينَ وَمَا قُلْتُمْ يَقِينًا ﴿١٧٥﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٧٦﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ نَبِيًّا ﴿١٧٧﴾

قوله: ﴿يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ هم اليهود سالوه ﷺ أن يبرقي إلى السماء، وهم يرونه، فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يُدْعِيهِ يدل على صدقه دفعة واحدة كما أتى موسى التوراة تعنتاً منهم، أي عدهم الله، فأخبره الله عز وجل بأنهم قد سألوا موسى سؤالاً أكبر من هذا السؤال، فقالوا: ﴿أَرَأَى اللَّهُ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً، وقد تقدّم معناه في البقرة، وجهرة نعت لمصدر محنوف، أي: رؤية جهرية، وقوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا﴾ جواب شرط مقترن، أي: إن استكبرت هذا السؤال منهم لك، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك. قوله: ﴿فَافْخِظْهُمْ﴾ الصاعقة، هي النار التي نزلت عليهم من السماء، فأما لفظهم، والباء في قوله: ﴿بِظْلَمِهِمْ﴾ للسببية، أي: بسبب ظلمهم في سؤالهم الباطل لامتناع الرؤية عياناً في هذه الحالة، وذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة، فقد جاءت بذلك

الظلمة، فإنهم مع ظلمهم يستطيّلون بالسنتهم على من ظلموه، وينالون من عرضه. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى إلا من ظلم، فقال سوء، فإنه ينبغي أن يأخذوا على يديه، ويكون استثناء ليس من الأول ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ هذا تحذير للظالم بأن الله يسمع ما يصدر منه ويعلم به، ثم بعد أن أباح للمظلوم أن يجهز بالسوء ننب إلى ما هو الأولى، والأفضل، فقال: ﴿إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا لَوْ تَخَفَوْهُ لَوْ تَعَفَوْا عَنْ سُوءٍ﴾ تصابون به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَنِيًّا﴾ عن عباده ﴿غَنِيًّا﴾ على الانتقام منهم بما كسبت أيديهم، فاقفوا به سبحانه، فإنه يغفو مع القدرة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ لُجْهَرًا بِالسَّوَاءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال: لا يحبُّ الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه رخص له أن يدعو على من ظلمه، وإن يصير فهو خير له. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في الآية قال: نزلت في رجل ضاف رجلاً بفلاة من الأرض، فلم يصفه، ثم نكر أنه لم يصفه لم يزد على ذلك. وأخرج ابن المنذر عن إسماعيل ﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ لُجْهَرًا بِالسَّوَاءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قال: كان الضحاک بن مزاحم يقول هذا على التقديم والتأخير، يقول الله: ما يفعل الله بعدابكم إن شكرتم، وأمنتُم إلا من ظلم، وكان يقرؤها كذلك، ثم قال: ﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ لُجْهَرًا بِالسَّوَاءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: على كل حال هكذا قال، وهو قريب من التحريف لمعنى الآية. وقد أخرج ابن أبي شيبة، والترمذي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا على من ظلمه، فقد انتصر». وروى نحوه أبو داود عنها من وجه آخر. وقد أخرج أبو داود من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «المتسابان ما قالاه، فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم».

إِنَّ الْآيَاتِ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَيُرِيدُونَ أَنْ يُقَرَّبُوا بِهِنَّ اللَّهُ
وَرُسُلُهُ. وَقَوْلُهُمْ تَقُومُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَدَّأُوا
بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا. وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا
مُهِمًّا ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَمْ يُقَرَّبُوا بِهِنَّ آخَرُ وَهُمْ أُولَئِكَ
سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٧﴾

لما فرغ من نكر المشركين، والمنافقين نكر الكفار من اهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل، والكتب المنزلة، والكفر بذلك كفر بالله، وينبغي حمل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ على أنه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعاً، فإن اهل الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله، لكنهم لما كفروا ببعضه كان ذلك كفر بالله وبجميع الرسل. ومعنى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ أَنْ يَفْرُقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أنهم كفروا بالرسل بسبب كفرهم ببعضهم وأمنوا بالله، فكان ذلك تفرقاً بين الله وبين رسله ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفَرُ بِبَعْضٍ﴾ هم اليهود آمنوا

والأحاديث المتواترة. ومن استدلل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة، فقد غلط غلطاً بيناً؛ ثم لم يكتفوا بهذا السؤال الباطل الذي نشأ منهم بسبب ظلمهم بعد ما رأوا المعجزات، بل ضموا إليه ما هو أقبح منه، وهو عبادة العجل. وفي الكلام حذف والتقدير: فأحييناهم فاتخذوا العجل. والبيئات: البراهين، والدلائل، والمعجزات من اليد، والعصا، وقلق البحر وغيرها **﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾** أي: عما كان منهم من التعتت، وعبادة العجل، **﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾** أي: حجة بينة وهي: الآيات التي جاء بها، وسميت سلطاناً؛ لأن من جاء بها قهر خصمه، ومن ذلك أمر الله سبحانه له بأن يأمركم بقتل أنفسهم توبة عن معصيتهم، فإنه من جملة السلطان الذي قهرهم به: **﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمَ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾** أي: بسبب ميثاقهم ليعطوه؛ لأنه روى أنهم امتنعوا من قبول شريعة موسى، فرفع الله عليهم الطور، فقبلوها، وقيل: إن المعنى بسبب نقضهم ميثاقهم الذي أخذ منهم، وهو العمل بما في التوراة، وقد تقدم رفع الجبل في البقرة، وكذلك تفسير لخواهم الباب سجداً: **﴿وَوَقَلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾** فاتخذوا ما أمرتم بتركه فيه من الحيتان، وقد تقدم تفسير ذلك، وقرئ: لا تعتدوا، وتعدوا بفتح العين، وتشديد الدال **﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾** مؤكداً، وهو العهد الذي أخذهم عليه في التوراة؛ وقيل: إنه عهد مؤكداً باليمين، فسمي غليظاً لذلك. قوله: **﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾** ما مزيدة للتوكيد، أو نكرة، ونقضهم بدل منها، والباء متعلقة بمحذوف، والتقدير: فبنقضهم ميثاقهم لعناهم. وقال الكسائي: هو متعلق بما قبله والمعنى: فأخذتهم الصاعقة بظلمهم إلى قوله: **﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾** قال: ففسر ظلمهم الذي أخذتهم الصاعقة بسببه بما بعده من نقضهم ميثاقهم، وقتلهم الأنبياء، وما بعده. وإنكر ذلك ابن جرير الطبري وغيره؛ لأن الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى، والذين قتلوا الأنبياء، ورموا مريم بالبهتان كانوا بعد موسى بزمان، فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتهم برمتهم بالبهتان. قال المهنوي وغيره: وهذا لا يلزم لأنه يجوز أن يخبر عنهم، والمراد آبائهم، وقال الزجاج: المعنى فبنقضهم ميثاقهم حرماً عليهم طيبات أحلت لهم؛ لأنه هذه القصة ممتدة إلى قوله: **﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَانُوا حَرِمْنَا﴾** [النساء: 160] ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبي ﷺ، وقيل المعنى: فبنقضهم ميثاقهم، وفعلهم كذا طبع الله على قلوبهم؛ وقيل المعنى: فبنقضهم لا يؤمنون إلا قليلاً، والفاء في قوله: **﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾** مقحمة. قوله: **﴿وَوَكَّفَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾** معطوف على ما قبله، وكذا قوله: **﴿وَوَقَلْنَاهُمْ﴾**، والمراد بآيات الله كتبهم التي حرّفوها، والمراد بالأنبياء الذين قتلوهم يحيى، وزكرياء. وغلف جمع أغلف، وهو المغطى بالغلاف، أي: قلوبنا في أعطية، فلا نفقه ما تقول؛ وقيل: إن غلف جمع غلاف، والمعنى: أن قلوبهم أوعية للعلم، فلا حاجة لهم إلى علم غير ما قد حوته قلوبهم،

وهو كقولهم: **﴿قلوبنا في أكنة﴾** [فصلت: 5] وغرضهم بهذا رد حجة الرسل. قوله: **﴿جِبِل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾** هذه الجملة اعتراضية، أي: ليس عدم قبولهم للحق بسبب كونها غلفاً بحسب مقصدهم الذي يريدونه، بل بحسب الطبع من الله عليها. والطبع: الختم، وقد تقدم إيضاح معناه في البقرة، وقوله: **﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** أي: هي مطبوع عليها من الله بسبب كفرهم، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، أو إلا قليلاً منهم كعبد الله بن سلام، ومن أسلم معه منهم، وقوله: **﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾** معطوف على قولهم، وإعادة الجار لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذا التكرير لإفادة أنهم كفروا كفراً بعد كفر؛ وقيل: إن المراد بهذا الكفر: كفرهم بالمسيح، فحذف لدلالة ما بعده عليه. قوله: **﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا﴾** هو رميها بيوسف النجار، وكان من الصالحين. والبهتان: الكذب المفرط الذي يتعجب منه. قوله: **﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾** معطوف على ما قبله، وهو من جملة جنائياتهم، ونزوبهم لأنهم كتبوا بأنهم قتلوه، وافتخروا بقتله، ونكروه بالرسالة استهزاء؛ لأنهم ينكرونها، ولا يعترفون بأنه نبي، وما ادّعوه من أنهم قتلوه قد اشتمل على بيان صفته، وإيضاح حقيقته الإنجيل، وما فيه هو من تحريف النصارى: أبعدهم الله، فقد كتبوا وصلى الله القاتل في كتابه العزيز: **﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾** والجملة حالية، أي: قالوا ذلك والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه **﴿وَلَكِنْ شَبِهَ لَهُمْ﴾** أي: لقي شبهه على غيره؛ وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه، وقتلوا الذين قتلوه، وهم شاكون فيه: **﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾** أي: في شأن عيسى، فقال بعضهم: قتلناه، وقال من عاين رفعه إلى السماء ما قتلناه، وقيل: إن الاختلاف بينهم، هو أن النسطورية من النصارى قالوا: صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لا هوته، وقالت الملكانية: وقع القتل، والصلب على المسيح بكماله ناسوته، ولاهوته، ولهم من جنس هذا الاختلاف كلام طويل لا أصل له، ولهذا قال الله: **﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾** أي: في تردد لا يخرج إلى حيز الصحة، ولا إلى حيز البطلان في اعتقادهم، بل هم مترددون مرتابون في شكهم يعمهون، وفي جهلهم يتحيرون، **﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾** من زائدة لتوكيد نفي العلم، والاستثناء منقطع، أي: لكنهم يتبعون الظن؛ وقيل: هو بدل بما قبله. والأول أولى. لا يقال إن اتباع الظن يناقض الشك الذي أخبر الله عنهم بأنهم فيه، لأن المراد هنا بالشك: التردد كما قدمنا، والظن نوع منه، وليس المراد به هنا: ترجح أحد الجانبين. قوله: **﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾** أي: قتلاً يقيناً على أنه صفة مصدر محذوف، أو متيقنين على أنه حال، وهذا على أن الضمير في قتلوه لعيسى، وقيل: إنه يعود إلى الظن، والمعنى: ما قتلوا ظنهم يقيناً كقولك قتلتها علماً إذا علمته علماً تاماً. قال أبو عبيدة: ولو كان المعنى: وما قتلوا عيسى يقيناً لقال، وما قتلوه فقط، وقيل المعنى:

ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يلقي عليه شبيهي، فيقتل مكاني، ويكون معي في رجعتي؟ فقام شاب من أحدتهم سناً، فقال له اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال أنا، فقال: أنت ذاك فالقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روضة في البيت إلى السماء؛ قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه، فقتلوه، ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، واقتروا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، فهؤلاء اليعقوبية؛ وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله، وهؤلاء المسلمون، فظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً، فأنزل الله عليه: ﴿فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الصف: 14] يعني: الطائفة التي أمنت في زمن عيسى: ﴿وَكُفِّرَتْ طَائِفَةٌ﴾ يعني التي كفرت في زمن عيسى ﴿فَالَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في زمن عيسى بإظهار محمد دينهم على بنين الكافرين. قال ابن كثير بعد أن ساقه بهذا اللفظ عن ابن أبي حاتم قال: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فنكره. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، وصلى ابن كثير، فهؤلاء كلهم من رجال الصحيح. وأخرجه النسائي، من حديث أبي كريب، عن أبي معاوية بنحوه. وقد رويت قصته عليه السلام من طرق بالفاظ مختلفة، وساقها عبد بن حميد، وابن جرير، عن وهب بن منبه على صفة قريبة مما في الإنجيل، وكذلك ساقها ابن المنذر عنه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ قال: لم يقتلوا ظنهم يقيناً. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن جوير، والسدي مثله أيضاً. وأخرج الفريابي وعبد بن حميد، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: خروج عيسى ابن مريم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طرق عنه في الآية قال: قبل موت عيسى. وأخرج عنه أيضاً قال: قبل موت اليهودي. وأخرج ابن جرير عنه قال: إنه سيرك أناس من أهل الكتاب عيسى حين يبعث سيؤمنون به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عنه قال: ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى؛ قيل لابن عباس أرايت إن خر من فوق بيت؟ قال يتكلم به في الهواء؛ فقيل أرايت إن ضرب عنق أحدهم؟ قال: يتلجلج بها لسانه. وقد روي نحو هذا عنه من طرق، وقال به جماعة من التابعين، وذهب كثير من التابعين فمن بعدهم إلى أن المراد: قبل موت عيسى، كما روي عن ابن عباس قبل هذا، وقيد كثير منهم بأنه يؤمن به من أدركه عند نزوله إلى الأرض. وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى حسبما، أوضحنا ذلك في مؤلف مستقل يتضمن ذكر ما ورد

وما قتلوا الذي شبه لهم؛ وقيل المعنى: بل رفعه الله إليه يقيناً، وهو خطأ؛ لأنه لا يعمل ما بعد بل فيما قبلها. وأجاز ابن الأنباري نصب يقيناً بفعل مضمر هو جواب قسم، ويكون ﴿بل رفعه الله إليه﴾ كلاماً مستأنفاً ولا وجه لهذه الأقوال، والضمائر قبل قتلوه، وبعده لعيسى، وذكر اليقين هنا لقصد التهكم بهم لإشعاره بعلمهم في الجملة. قوله: ﴿بل رفعه الله إليه﴾ رد عليهم، وإثبات لما هو الصحيح، وقد تقدم ذكر رفعه عليه السلام في آل عمران. قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، والمعنى: وما من أهل الكتاب أحد إلا والله ليؤمنن به قبل موته، والضمير في به راجع إلى عيسى، والضمير في موته راجع إلى ما دل عليه الكلام، وهو لفظ أحد المقدّر، أو الكتابي الملول عليه بأهل الكتاب، وفيه دليل على أنه لا يموت يهودي، أو نصراني إلا وقد آمن بالمسيح؛ وقيل: كلا الضميرين لعيسى، والمعنى: أنه لا يموت عيسى حتى يؤمن به كل كتابي في عصره؛ وقيل: الضمير الأوّل لله؛ وقيل: إلى محمد، وقد اختار كون الضميرين لعيسى ابن جرير، وقال به جماعة من السلف، وهو الظاهر، والمراد الإيمان به عند نزوله في آخر الزمان، كما وردت بذلك الأحاديث المتواترة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عِيسَى عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ شَهِيدًا﴾ يشهد على اليهود بالتكذيب له، وعلى النصارى بالغلو فيه حتى قالوا هو ابن الله.

وقد أخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاء بالآلواح من عند الله، فأتنا بالآلواح من عند الله حتى نصنعك، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمُ الْكِتَابُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى ﴿وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: إن اليهود والنصارى قالوا لمحمد ﷺ: إن نبيك على ما تدعوننا إليه حتى تأتيننا بكتاب من عند الله إلى فلان أنك رسول الله وإلى فلان أنك رسول الله، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمُ الْكِتَابُ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَاءَكُمْ إِذَا رَأَوْهُ، فَقَدْ رَأَوْهُ، وَإِنَّمَا قَالُوا جَهْرَةً أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَاءَكُمْ وَمُؤَخَّر. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَوَرَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورُ﴾ قال: جبل كانوا في أصله فرفعه الله، فجعله فوقهم كأنه ظلة، فقال: لتأخذن أمري، أو لأرمينكم به، فقالوا نأخذنه، فأمسكه الله عنهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا﴾ قال: رموها بالزنا. وأخرج سعيد بن منصور، والنسائي، وابن أبي حاتم، وإمام مروي، عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه، وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين، فخرج عليهم من عين في البيت، ورأسه يقطر

الطاعنين ولما يطعنوا أحداً والقائلون لمن دار نخليها
وانشد:

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك والطيبون معاهد الأزر
قال النحاس: وهذا أصح ما قيل في المقيمين. وقال
الكسائي، والخليل: هو معطوف على قوله: ﴿بما أنزل إليك﴾
قال الأخفش: وهذا بعيد لأن المعنى يكون هكذا: يؤمنون
بالمقيمين. ووجهه محمد بن يزيد المبرد بأن المقيمين هنا
هم الملائكة، فيكون المعنى: يؤمنون بما أنزل إليك، وبما
أنزل من قبلك، وبالملائكة، واختار هذا، وحكى أن النصب
على المدح بعيد؛ لأن المدح إنما يأتي بعد تمام الخبر، وخبر
الراسخون هو قوله: ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ وقيل:
إن المقيمين معطوف على الضمير في قوله: ﴿منهم﴾ وفيه
أنه عطف على مضمرب بنون إعادة الخافض. وحكى عن
عائشة أنها سئلت، عن المقيمين في هذه الآية، وعن قوله
تعالى: ﴿إن هذان لساخران﴾ [طه: 63] وعن قوله:
﴿والصابئون﴾ [المائدة: 69] في المائدة؟ فقالت: يا ابن أخي
الكتاب أخطئوا. أخرجه عنها أبو عبيد في فضائله،
وسعيد بن منصور، وابن أبي شعبة، وابن جرير، وابن
المنذر. وقال أبان بن عثمان كان الكاتب يملئ عليه، فيكتب،
فكتب: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون﴾ ثم
قال ما كتب؟ فقيل له كتب: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ فمن ثم
وقع هذا. أخرجه عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن
المنذر. قال القشيري: وهذا باطل؛ لأن الذين جمعوا الكتاب
كانوا قوة في اللغة، فلا يضمن بهم ذلك. ويجاب عن
القشيري بأنه قد روي عن عثمان بن عفان أنه لما فرغ من
المصحف وأتى به إليه قال: أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه
العرب بالسنها. أخرجه عنه ابن أبي داود من طرق. وقد
رجح قول سيبويه كثير من أئمة النحو والتفسير، ورجح
قول الخليل، والكسائي ابن جرير الطبري، والقفال، وعلى
قول سيبويه تكون الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر على
قول من قال: إن خبر الراسخون هو قوله: ﴿أولئك
سنؤتيهم﴾ أو بين المعطوف والمعطوف عليه إن جعلنا
الراسخون هو يؤمنون، وجعلنا قوله: ﴿والمؤتون الزكاة﴾
عطفاً على المؤمنون لا على قول سيبويه أن المؤتون الزكاة
مرفوع على الابتداء، أو على تقدير مبتدأ محذوف، أي: هم
المؤتون الزكاة. قوله: ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ هم
مؤمنو أهل الكتاب، وصفوا أولاً بالرسوخ في العلم، ثم
بالإيمان بكتب الله، وأنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة،
ويؤمنون بالله، واليوم الآخر؛ وقيل المراد بهم: المؤمنون من
المهاجرين، والأنصار، كما سلف، وأنهم جامعون بين هذه
الأوصاف، والإشارة بقوله: ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً
عظيماً﴾ إلى الراسخون، وما عطف عليه. قوله: ﴿إننا أوحينا
إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ هذا
متصل بقوله: ﴿يسالك أهل الكتاب﴾ والمعنى: أن أمر محمد

في المنتظر، والرجال، والمسيح.
﴿قُلْ مَنْ إِلَهٌ مِّنَ الدِّينِ قَادِرٌ حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ لَهُمْ إِيصَاتِهِمْ عَن
سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَنَّهُمْ تَوَلَّوْا بِالْبَطْلِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الدِّينِ لَهُمْ
وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُسْتَوْفُونَ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ
وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُسْتَوْفُونَ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا
﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللُّثِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِ وَأَوْحَيْنَا
إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ
يُوشَعَ وَهَارُونَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿وَرَسُولًا قَدْ نَخْلَصُهُمْ
عَلَيْكَ مِنْ قَبْلِ وَرَسُولًا لَمْ نَخْلَصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَخْلُصًا
﴿وَرَسُولًا ثُبُورًا وَمُؤْتِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ
وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا رَّحِيمًا﴾

الباء في قوله: ﴿فبظلم﴾ للسببية، والتذكير والتنوين
للتعظيم، أي: فبسبب ظلم عظيم حرّمنا عليهم طيبات أحلت
لهم، لا بسبب شيء آخر، كما زعموا أنها كانت محرّمة على
من قبلهم. وقال الزجاج: هذا بدل من قوله: ﴿بما نقضهم﴾
[النساء: 155، المائدة: 13]. والطيبات المذكورة هي ما نصّه
الله سبحانه: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾
[الأنعام: 146] الآية ﴿وبصّهم﴾ أنفسهم وغيرهم ﴿وعن
سبيل الله﴾ وهو اتباع محمد ﷺ وتحريفهم، وقتلهم
الأنبياء، وما صدر منهم من الذنوب المعروفة. وقوله:
﴿كثيراً﴾ مفعول للفعل المنكسر، أي: يصّهم ناساً كثيراً، أو
صفة مصدر محذوف، أي: صذاً كثيراً ﴿ولخّهم الربا وقد
نهوا عنه﴾ أي: معاملتهم فيما بينهم بالربا، وكلهم له، وهو
محرم عليهم ﴿وكلهم أموال الناس بالباطل﴾ كالرشوة
والسحت الذي كانوا يأخونه. قوله: ﴿لكن الراسخون في
العلم منهم﴾ استترك من قوله: ﴿واعتدنا للكافرين منهم
عذاباً أليماً﴾ أو ﴿من الذين هادوا﴾ وذلك أن اليهود انكروا
وقالوا: إن هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل، وأنت تحلها،
فنزل: ﴿لكن الراسخون﴾ والراسخ: هو المبالغ في علم
الكتاب الثابت فيه، والرسوخ: الثبوت. وقد تقدّم الكلام عليه
في آل عمران. والمراد عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار،
ونحوهما. والراسخون مبتدأ، ويؤمنون خبره، والمؤمنون
معطوف على الراسخون. والمراد بالمؤمنين: إما من آمن من
أهل الكتاب، أو من المهاجرين، والأنصار، أو من الجميع.
قوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ قرأ الحسن، وملك بن دينار،
وجماعة: ﴿والمقيمون الصلاة﴾ على العطف على ما قبله،
وكذا هو في مصحف ابن مسعود، واختلف في وجه نصبه
على قراءة الجمهور على أقوال: الأوّل قول سيبويه أنه نصب
على المدح، أي: وأعني المقيمين. قال سيبويه: هذا باب ما
ينتصب على التعظيم، ومن ذلك: ﴿والمقيمين الصلاة﴾
وانشد:

وكل قوم أطاعوا امر سيدهم إلا نميراً طاعت أمر غايرها

وقيل: ما لم يؤكد بالمصدر، فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام. قال النحاس: وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً. قوله: ﴿رسلًا مبشرين ومنذرين﴾ بدل من رسلًا الأول، أو منصوب بفعل مقدر، أي: وأرسلنا، أو على الحال بأن يكون رسلًا موطنًا لما بعده، أو على المدح، أي: مبشرين لأهل الطاعات، ومنذرين لأهل المعاصي. قوله: ﴿ثَلَاثًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بِعَدِّ الرَّسُولِ﴾ أي: معذرة يعتذرون بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَمَلْنَاكُمْ بَعْدَ مَقْدَارٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَمَلْنَاكُمْ﴾ [طه: 134] وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من العباد على الله حجة تنبيهاً على أن هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلاً منه ورحمة. ومعنى قوله: ﴿بَعْدَ الرَّسُولِ﴾ بعد إرسال الرسل ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغالبه مغالب ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله التي من جملتها إرسال الرسل.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد: ﴿وَبَصَّاهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ قال: انفسهم وغيرهم عن الحق. وأخرج ابن إسحاق في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن سلام، وأسيد بن شعبة، وشعلة بن شعبة حين فارقوا اليهود، وأسلموا. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل عنه أن بعض اليهود قال: يا محمد ما تعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فانزل الله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ الْآيَةَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نواند الأصول، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وابن عساكر، عن أبي نذر قال: «قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة مرفوعاً إلا أنه قال: والرسل ثلثمائة وخمسة عشر» وأخرج أبو يعلى، والحاكم بسند ضعيف، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى، ثم كنت أنا بعده». وأخرج الحاكم، عن أنس بسند ضعيف نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه؛ ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

لَكِنِ اللَّهُ يَهْدِي مِمَّا أَرَادَ إِلَيْكَ أَنْ تَرَكَهُ يَسْلُوهُ. وَاللَّيْلُ كَذَلِكَ يَهْدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعيدًا ﴿١٠٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُمْ وَلَا لِيَدِهِمْ طَرِيقًا ﴿١٠٣﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٠٤﴾ يَأْتِيكَ النَّاسُ قَدْ جَاءَكَمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا

كأمر من تقدمه من الأنبياء، فما بالكم تطالبون منه ما لم يطلبه أحد من المعاصرين للرسل، والوحي إعلام في خفاء، يقال: وحي إليه بالكلام وحياً، وأوحى يوحى إichاء، وخصّ نوحاً لكونه أول نبي شرعت على لسانه الشرائع، وقيل: غير ذلك، والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ نعت مصدر محذوف، أي: إichاء مثل إichائنا إلى نوح، أو حال، أي: أوحينا إليك هذا الإichاء حال كونه مشبهاً بإichائنا إلى نوح. قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ معطوف على ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم أولاد يعقوب كما تقدم ﴿وَعِيسَى وَيُوشَعَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ خص هؤلاء بالذكر بعد دخولهم في لفظ النبيين تشريفاً لهم كقوله: ﴿وَمَلَّاكُتِهِ وَرِسْلَهُ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: 98]، وقدم عيسى على أيوب، ومن بعده مع كونهم في زمان قبل زمانه، رداً على اليهود الذي كفروا به، وإيضاً فالواو ليست إلا لمطلق الجمع. قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ معطوف على أوحينا، والزبور: كتاب داود. قال القرطبي: وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم، ولا حلال، ولا حرام، وإنما هي حكم، ومواعظ. انتهى. قلت: هو مائة وخمسون زموراً. والمزمور: فصل يشتمل على كلام لداود يستغث بالله من خصومه، ويدعو الله عليهم، ويستنصره، وتارة يأتي بمواعظ، وكان يقول ذلك في الغالب في الكنيسة، ويستعمل مع تكلمه بذلك شيئاً من الآلات التي لها نغمات حسنة، كما هو مصرح بذلك في كثير من تلك المزمورات. والزبور: الكتابة. والزبور بمعنى المزمور، أي: المكتوب. كالرسول، والخطوب، والركوب. وقرأ حمزة: ﴿زُبُورًا﴾ بضم الزاي، جمع زبر كفلس، وفلوس. والزبر بمعنى المزمور، والأصل في الكلمة التوثيق يقال بثر مذبورة، أي: مطوية بالحجارة، والكتاب سمي زبوراً لقوة الوثيقة به. قوله: ﴿وَرَسَلْنَا﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ أي: وأرسلنا رسلاً ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ وقيل: هو منصوب بفعل دل عليه ﴿قَصَصْنَاهُمْ﴾ أي: وقصصنا رسلاً، ومثله ما أنشده سيبويه:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والنشب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا

أي: وأخشى الذئب. وقرأ أبي: ﴿رسل﴾ بالرفع على تقدير، ومنهم رسل. ومعنى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أنه قصصهم عليه من قبل هذه السورة، أو من قبل هذا اليوم. قيل: إنه لما قص الله في كتابه بعض أسماء أنبيائه، ولم يذكر أسماء بعض قالت اليهود: نكر محمد الأنبياء، ولم يذكر موسى، فنزل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وقراءة الجمهور برفع الاسم الشريف على أن الله هو الذي كلم موسى. وقرأ النخعي، ويحيى بن وثاب بنصب الاسم الشريف على أن موسى هو الذي كلم الله سبحانه ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد وفائدة التأكيد نفع توهم كون التكليم مجازاً، كما قال الفراء إن العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق،

لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٧٧﴾
يَكْمَلُ الْكِتَابَ لَا تَمْلُوا فِي رِيبِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ
فَنَامُوا بِآلِهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خِيراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ
سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ إِلَهٌ مَعَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكَيْلًا ﴿٧٨﴾

قوله: ﴿لكن الله يشهد﴾ الاسم الشريف مبتدأ، والفعل خبره، ومع تشديد النون هو منصوب على أنه اسم لكن والاستدراك من محذوف مقتر كأنهم قالوا: ما نشهد لك يا محمد بهذا، أي: الوحي، والنبوة، فنزل: ﴿لكن الله يشهد﴾. وقوله: ﴿وللملائكة يشهدون﴾ جملة معطوفة على الجملة الأولى، أو جملة حالية، وكذلك قوله: ﴿أنزله بعلمه﴾ جملة حالية، أي: متلبساً بعلمه الذي لا يعلمه غيره من كونك أهلاً لما اصطفاك الله له من النبوة، وأنزله عليك من القرآن ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ أي: كفى الله شاهداً والباء زائدة، وشهادة الله سبحانه هي: ما يصنعه من المعجزات الدالة على صحة النبوة، فإن وجود هذه المعجزات شهادة للنبي ﷺ بصلى ما أخبر به من هذا، وغيره ﴿إن الذين كفروا﴾ بكل ما يجب الإيمان به، أو بهذا الأمر الخاص، وهو ما في هذا المقام: ﴿ووصنوا عن سبيل الله﴾ وهو دين الإسلام بإنكارهم نبوة محمد ﷺ، ويقولهم ما نجد صفته في كتابنا، وإنما النبوة في ولد هرون ودأود، ويقولهم إن شرع موسى لا ينسخ ﴿قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق بما فعلوا، لأنهم مع كفرهم منعوا غيرهم عن الحق ﴿إن الذين كفروا﴾ بجحدهم ﴿وظلموا﴾ غيرهم بصددهم عن السبيل، أو ظلموا محمداً بكتمانهم نبوته، أو ظلموا أنفسهم بكفرهم، ويجوز الحمل على جميع هذه المعاني: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ إذا استمروا على كفرهم، وماتوا كافرين ﴿ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم﴾ لكونهم اقترفوا ما يوجب لهم ذلك بسوء اختيارهم، وفرط شقاوتهم، وجحوا الواضح، وعاندوا البين: ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي: يدخلهم جهنم خالدين فيها، وهي حال مقترنة. وقوله: ﴿أبداً﴾ منصوب على الظرفية، وهو لنفع احتمال. أن الخلود هنا يراد به: المكث الطويل ﴿وكان ذلك﴾ أي: تخليدهم في جهنم، أو ترك المغفرة لهم، والهداية مع الخلود في جهنم: ﴿على الله يسيراً﴾ لأنه سبحانه لا يصعب عليه شيء ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: 82] ﴿فأمنوا خيراً لكم﴾ اختلف أئمة النحو في انتصاب خيراً على ماذا؟ فقال سيبويه، والخليل بفعل مقدر، أي: واقصوا، أو اتوا خيراً لكم، وقال الفراء: هو نعت لمصدر محذوف، أي: فأمنوا إيماناً خيراً لكم، وذهب أبو عبيدة، والكسائي إلى أنه خبر لكن مقترنة، أي: فأمنوا يكن الإيمان خيراً لكم، وأقوى هذه الأقوال الثالث، ثم الأول، ثم الثاني على ضعف فيه: ﴿وإن تكفروا﴾ أي: وإن تستمروا على كفركم: ﴿فإن لله ما في السموات

والأرض﴾ من مخلوقاته، وأنتم من جملتهم، ومن كان خالقاً لكم، ولها فهو قادر على مجازاتكم بقبيح أفعالكم، ففي هذه الجملة، وعيد لهم مع إيضاح وجه البرهان، وإمطة السطر عن الدليل بما يوجب عليهم القبول، والإنعان. لأنهم يعترفون بأن الله خالقهم ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ [الزخرف: 87] قوله: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ الغلو: هو التجاوز في الحد، ومنه غلا السعر يغلو غلاء، وغلا الرجل في الأمر غلواً، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لدااتها. والمراد بالآية: النهي لهم عن الإفراط تارة والتفريط أخرى، فمن الإفراط غلواً النصارى في عيسى حتى جعلوه رباً، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة، وما أحسن قول الشاعر:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصاد كلا طرفي قصد الأمور نعيم
﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ وهو ما وصف به نفسه ووصفته به رسله، ولا تقولوا الباطل كقول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ المسيح مبتدأ، وعيسى بدل منه، وابن مريم صفة لعيسى، ورسول الله الخبر، ويجوز أن يكون عيسى ابن مريم عطف بيان، والجملة تعليل للنهي، وقد تقدم الكلام على المسيح في آل عمران. قوله: ﴿وكلمته﴾ عطف على رسول الله، و﴿القاما إلى مريم﴾ حال، أي: كونه بقوله كن، فكان بشراً من غير أب، وقيل: ﴿كلمته﴾ بشارة الله مريم، ورسالته إليها على لسان جبريل بقوله: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ [آل عمران: 45] وقيل: الكلمة هاهنا بمعنى: الآية، ومنه: ﴿وصدقت بكلمات ربها﴾ [التحريم: 12]، وقوله: ﴿ما فتنت كلمات الله﴾ [لقمان: 27]. قوله: ﴿وروح منه﴾ أي: أرسل جبريل فنفخ في درع مريم فحملت بإن الله، وهذه الإضافة للتفضيل، وإن كان جميع الأرواح من خلقه تعالى؛ وقيل قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً ويضاف إلى الله، فيقال هذا روح من الله، أي: من خلقه، كما يقال في النعمة إنها من الله وقيل: ﴿روح منه﴾ أي من خلقه كما قال تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية: 13] أي: من خلقه، وقيل: ﴿روح منه﴾ أي: رحمة منه، وقيل: ﴿روح منه﴾ أي: برهان منه، وكان عيسى برهاناً وحجة على قومه، وقوله: ﴿منه﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لروح، أي: كائنة منه وجعلت الروح منه سبحانه، وإن كانت بنفخ جبريل لكونه تعالى الأمر لجبريل بالنفخ: ﴿فأمنوا بالله ورسله﴾ أي: بانه سبحانه إله واحد لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وبأن رسله صانقون مبلغون عن الله ما أمرهم بتبليغه، ولا تكتبهم، ولا تغلوا فيهم، فتجعلوا بعضهم آله. قوله: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ ارتفاع ثلاثة على أنه خبر مبتدأ محذوف قال الزجاج: أي: لا تقولوا ألهتنا ثلاثة، وقال الفراء، وأبو عبيد: أي:

رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إني والله أعلم أنكم تعلمون اني رسول الله، قالوا ما نعلم ذلك. فانزل الله: ﴿لكن الله يشهد﴾ الآية». وأخرج عبد بن حميد، والحكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي موسى أن النجاشي قال لجعفر: ما يقول صاحبك في ابن مريم؟ قال: يقول فيه قول الله هو روح الله، وكلمته، أخرجه من البيت العذراء لم يقربها بشر، فتناول عودا من الأرض، فرفعه فقال: يا معشر القسيسين، والرهبان ما يزيد هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه. وأخرجه البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود بأطول من هذا. وأخرج البخاري عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله».

لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكِبْ فَسَيَحْضُرُهُ أَيْتُومٌ كَثِيرٌ ﴿١٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَخُودُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ رَئِيًّا وَلَا يَصِيرُ ﴿١٧٧﴾ بَأْسًا أَتَىٰ قَوْمَهُمْ مِنْ رَبِّكَ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كُتُبًا مُبِينًا ﴿١٧٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْلَمُوا بِرَبِّهِمْ فَسَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ مَرْكَاتٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٩﴾

أصل يستنكف نكف وباقي الحروف زائدة، يقال نكفت من الشيء، واستنكفت منه، وأنكفته أي: نزهته عما يستنكف منه. قال الزجاج: استنكف أي: أنف، مأخوذ من نكفت الذمعة: إذا نحيت بأصبعك عن خنك، وقيل: هو من النكف، وهو العيب، يقال: ما عليه في هذا الأمر نكف ولا وكف أي: عيب. ومعنى الأول: لن يأنف عن العبودية، ولن يتنزه عنها. ومعنى الثاني: لن يعيب العبودية، ولن ينقطع عنها: ﴿ولا للملائكة المقربون﴾ عطف على المسيح، أي: ولن يستنكف الملائكة المقربون عن أن يكونوا عباداً لله.

وقد استدلل بهذا القائلون بتفضيل الملائكة على الأنبياء، وقرر صاحب الكشف وجه الدلالة بما لا يسمن ولا يغني من جوع وأدعى أن النوق قاض بذلك، ونعم النوق العربي إذا خالطه محبة المذهب، وشابه شوائب الجمود كان هكذا، وكل من يفهم لغة العرب يعلم أن من قال لا يأنف من هذه المقالة إمام، ولا مأموم أو لا كبير، ولا صغير أو لا جليل، ولا حقير، ثم يدل هذا على أن المعطوف أعظم شأنًا من المعطوف عليه، وعلى كل حال، فما أردنا الاشتغال بهذه المسألة، وما أقل فائدتها، وما أبعدنا عن أن تكون مركزاً من المراكز الشرعية الدينية، وجسراً من الجسور: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر﴾ أي: يأنف تكبراً، ويعذ نفسه كبيراً عن العبادة ﴿فسيجشدهم﴾ أي: جميعاً المستنكف وغيره، فيجازي كلاً بعمله. وترك ذكر غير المستنكف هنا لدلالة أول الكلام عليه. ولكون الحشر لكلا الطائفتين ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾ من غير أن يفوتهم منها شيء: ﴿وأما الذين

لا تقولوا هم ثلاثة كقوله: ﴿سيقولون ثلاثة﴾ [الكهف: 22] وقال أبو علي الفارسي: لا تقولوا هو ثالث ثلاثة، فحنف المبتدأ، والمضاف، والنصارى مع تفرق مذاهبهم متفقون على التثليث، ويعنون بالثلاثة الأقانيم، فيجعلونه سبحانه جوهراً واحداً، وله ثلاثة أقانيم، ويعنون بالأقانيم أقنوم الوجود، وأقنوم الحياة، وأقنوم العلم، وربما يعيرون عن الأقانيم بالآب، والابن وروح القدس، فيعنون بالآب: الوجود، وبالروح: الحياة، وبالابن: المسيح. وقيل: المراد بالآلهة الثلاثة: الله سبحانه وتعالى، ومريم، والمسيح. وقد اختلط النصارى في هذا اختطاطاً طويلاً.

ووقفنا في الأناجيل الأربعة التي يطل عليها عندهم اسم الإنجيل على اختلاف كثير في عيسى: فتارة يوصف بأنه ابن الإنسان، وتارة يوصف بأنه ابن الله، وتارة يوصف بأنه ابن الرب، وهذا تناقض ظاهر، وتلاعب بالدين. والحق ما أخبرنا الله به في القرآن، وما خالفه في التوراة، أو الإنجيل، أو الزبور، فهو من تحريف المحرفين، وتلاعب المتلاعبين. ومن أعجب ما رأيناه أن الأناجيل الأربعة كل واحد منها منسوب إلى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام.

وحاصل ما فيها جميعاً أن كل واحد من هؤلاء الأربعة ذكر سيرة عيسى من عند أن بعثه الله إلى أن رفعه إليه، وذكر ما جرى له من المعجزات، والمراجعات لليهود ونحوهم، فاختلفت الفاظهم، واتفقت معانيها، وقد يزيد بعضهم على بعض بحسب ما يقتضيه الحفظ، والضبط، ونكر ما قاله عيسى، وما قيل له، وليس فيها من كلام الله سبحانه شيء، ولا أنزل على عيسى من عنده كتاباً، بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما في التوراة، ويذكر أنه لم يأت بما يخالفها، وهكذا الزبور، فإنه من أوله إلى آخره من كلام داود عليه السلام. وكلام الله أصدق، وكتابه أحق، وقد أخبرنا أن الإنجيل كتابه أنزله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، وأن الزبور كتابه آتاه⁽¹⁾ داود وأنزله عليه. قوله: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أي: انتهوا عن التثليث، وانتصاب «خيراً» هنا فيه الوجوه الثلاثة التي تقدمت في قوله: ﴿فأمنوا خيراً لكم﴾. ﴿إنما الله إله واحد﴾ لا شريك له صاحبة، ولا ولد: ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ أي: أسبحة تسبيحاً عن أن يكون له ولد: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ وما جعلتموه له شريكاً، أو ولداً هو من جملة ذلك، والمملوك المخلوق لا يكون شريكاً، ولا ولداً: ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ نكل الخلق أمورهم إليه، ولا يملكون لأنفسهم ضراً، ولا نفعاً.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: دخل جماعة من اليهود على

(1) من هذا تهم أن ما تقدم له محكي عن عقيدة غيره، اهـ

من كونه حالاً، والولد يطلق على الذكر، والأنثى، واقتصر على عدم الولد هنا مع أن عدم الولد معتبر في الكلالة تكالاً على ظهور ذلك، قيل: والمراد بالولد هنا: الابن، وهو أحد معني المشترك؛ لأن البنت لا تسقط الأخت. وقوله: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ عطف على قوله: «ليس له ولد». والمراد بالأخت هنا: هي الأخت لأبوين، أو لأب لا لأم، فإن فرضها للسبس، كما نكر سابقاً. وقد ذهب جمهور العلماء من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم إلى أن الأخوات لأبوين، أو لأب عصبه للبنت، وإن لم يكن معهم أخ. وذهب ابن عباس إلى أن الأخوات لا يعصبن البنات، وإليه ذهب داود الظاهري، وطائفة، وقالوا: إنه لا ميراث للأخت لأبوين، أو لأب مع البنت، واحتجوا بظاهر هذه الآية، فإنه جعل عدم الولد المتناول للذكر، والأنثى قيدا في ميراث الأخت، وهذا استدلال صحيح لو لم يرد في السنة ما يدل على ثبوت ميراث الأخت مع البنت، وهو ما ثبت في الصحيح أن معاذاً قضى على عهد رسول الله ﷺ في بنت، وأخت، فجعل للبنت النصف، وللأخت النصف. وثبت في الصحيح أيضاً: «أن النبي ﷺ قضى في بنت وبنت ابن. وأخت فجعل للبنت النصف ولبنت الابن السدس وللأخت الباقي» فكانت هذه السنة مقتضية لتفسير الولد بالابن دون البنت. قوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ أي: المرء يرثها، أي: يرث الأخت «إن لم يكن لها ولد» نكر إن كان المراد بـ «يرثها» لها: حيازتها لجميع ما تركته، وإن كان المراد: ثبوت ميراثها لها في الجملة أعم من أن يكون كلاً، أو بعضاً صح تفسير الولد بما يتناول الذكر، والأنثى، واقتصر سبحانه في هذه الآية على نفي الولد مع كون الأب يسقط الأخ، كما يسقطه الولد الذكر لأن المراد: بيان حقوق الأخ مع الولد فقط هنا. وأما سقوطه مع الأب، فقد تبين بالسنة، كما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «الحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل نكرو» والأب أولى من الأخ: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ أي: فإن كان من يرث بالأخوة اثنتين، والعطف على الشرطية السابقة، والتانيث، والتثنية، وكذلك الجمع في قوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً﴾ باعتبار الخبر: ﴿فَلَهُمَا الثَّلَاثَانُ مِمَّا تَرَكَ﴾ المرء إن لم يكن له ولد، كما سلف، وما فوق الاثنتين من الأخوات يكون لهنّ الثلثان بالأولى ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ أي: من يرث بالأخوة «إخوة رجالاً ونساء» أي: مختلطين نكراً وإنثاً ﴿فَلِلذَّكَرِ مِنْهُمْ مِثْلُ مَا لِلْأُنثَى﴾ تعصياً «يبين الله لكم أن تضلوا» أي: يبين لكم حكم الكلالة، وسائر الأحكام كراهة أن تضلوا، هكذا حكاه القرطبي عن البصريين. وقال الكسائي: المعنى لثلاثاً تضلوا، ووافقه الفراء وغيره من الكوفيين «والله بكل شيء عليم» من الأشياء التي هذه الأحكام المذكورة منها «عليهم» أي: كثير العلم.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن جابر بن عبد الله قال: «دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، ثم صبّ علي، فعقلت، فقلت إنه لا

استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً» بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يوالئهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بِرَهْمَانٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بما أنزله عليكم من كتبه وبمن أرسله إليكم من رسله، وما نصبه لهم من المعجزات. والبرهان: ما يبرهن به على المطلوب: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ وهو القرآن، وسماه نوراً لأنه يهتدى به من ظلمة الضلال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِآيِهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: بالله، وقيل: بالنور المذكور: ﴿فَسَيُخْلِصُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنْهُ﴾ يرحمهم بها ﴿وَفُضِّلَ﴾ يتفضل به عليهم ﴿وَيُوهِّبُهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى امتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه أو إليه سبحانه وتعالى باعتبار مصيرهم إلى جزائه وتفضله: ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: طريقاً يسلكونه إليه مستقيماً لا عوج فيه، وهو التمسك بدين الإسلام، وترك غيره من الأديان، قال أبو علي الفارسي: الهاء في قوله ﴿إِلَيْهِ﴾ راجعة إلى ما تقدم من اسم الله؛ وقيل: راجعة إلى القرآن؛ وقيل: إلى الفضل؛ وقيل: إلى الرحمة والفضل لأنهما بمعنى الثواب وانتصاب صراطاً على أنه مفعول ثان للمفعول المذكور؛ وقيل: على الحال.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «لن يستنكف المسيح» لن يستكبر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، والإسماعيلي في معجمه بسند ضعيف، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فَيُؤْهِبُهُمْ أَجُورَهُمْ وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: أجورهم يخلطهم الجنة، ويزيدهم من فضله الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا. وقد ساقه ابن كثير في تفسيره، فقال: وقد روى ابن مروي، من طريق بقية عن إسماعيل بن عبد الله الكندي عن الأعمش عن شقيق عن ابن مسعود، فذكره، وقال: هذا إسناد لا يثبت، وإذا روي عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة «قد جاءكم برهان» أي: بينة ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ قال: هذا القرآن. وأخرج أيضاً عن مجاهد قال: برهان حجة. وأخرج أيضاً عن ابن جريج في قوله: ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ قال: القرآن.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَرَأَيْتُمْ هَٰذَاكَ لَمَّا وَلَدَ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ يَكْفِي عَنْ عَالَمِهِ

قد تقدم الكلام في الكلالة في أول هذه السورة، وسببتي نكر المستفتي المقصود بقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾. قوله: ﴿إِنْ أَرَأَيْتُمْ هَٰذَاكَ﴾ أي: إن هلك امرؤ هلك، كما تقدم في قوله: ﴿وَإِنْ أَرَأَيْتُمْ خَافَتْ﴾ [النساء: 128]. وقوله: «ليس له ولد» إما صفة لامرؤ، أو حال، ولا وجه للمنع

نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلاً عاماً، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا، قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يقال أوفى ووفى لغتان وقد جمع بينهما الشاعر فقال:

أما ابن طوف فقد أوفى بدمته كما وفى بقلاص النجم حاديهما
والعقود: العهد، وأصل العقود الربوط، واحداً عقداً، يقال عقدت الحبل والعهد، فهو يستعمل في الأجسام والمعاني، وإذا استعمل في المعاني كما هنا أفاد أنه شديد الأحكام، قوي التوثيق؛ قيل المراد بالعقود هي التي عقدها الله على عباده والزمهم بها من الأحكام؛ وقيل هي العقود التي يعقدونها بينهم من عقود المعاملات والأولى شمول الآية للأمرين جميعاً، ولا وجه لتخصيص بعضها دون بعض، قال الزجاج: المعنى أوفوا بعقد الله عليكم وبعقدكم بعضكم على بعض انتهى. والعقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله، فإن خالفهما فهو رد لا يجب الوفاء به ولا يحل. قوله: ﴿لَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِيْمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ الخطاب للذين آمنوا. والبهيمة: اسم لكل ذي أربع، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعقلها، ومنه باب مبهم: أي مغلق، وليل مبهم، وبهية للشجاع الذي لا يدرى من أين يؤتى، وحلقة مبهم: لا يدرى أين طرفاها. والأنعام: اسم للإبل والبقر والغنم، سميت بذلك لما في مشيها من اللين؛ وقيل بهيمة الأنعام: وحشيتها كالظباء وبقر الوحش والحمر الوحشية وغير ذلك، حكاة ابن جرير الطبري عن قوم، وحكاة غيره عن السدي والربيع وقتادة والضحاك، قال ابن عطية: وهذا قول حسن، وذلك أن الأنعام هي الثمانية الأزواج، وما انضاف إليها من سائر الحيوانات يقال له أنعام مجموعة معها، وكان المفترس كالأسد، وكل ذي ناب خارج عن حد الأنعام، فبهيمة الأنعام هي الراعي من نوات الأربع؛ وقيل بهيمة الأنعام: ما لم تكن صيداً، لأن الصيد يسمى وحشاً لا بهيمة؛ وقيل بهيمة الأنعام: الأجنة التي تخرج عند الذبح من بطون الأنعام، فهي تؤكل من دون نكاة. وعلى القول الأول، أعني تخصيص الأنعام بالإبل والبقر والغنم، تكون الإضافة بيانية، ويلحق بها ما يحل مما هو خارج عنها بالقياس، بل وبالانصوص التي في الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً﴾ [الأنعام، الآية: 145] الآية، وقوله ﷺ، «يحرم كل ذي ناب من السبع ومخلب من الطير»، فإنه يدل بفهمه على أن ما عداه حلال، وكذلك سائر النصوص الخاصة بنوع، كما في كتب السنة المطهرة. قوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ استثناء من قوله: ﴿لَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِيْمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ أي إلا ملول ما يتلى عليكم فإنه ليس بحلال. والمتلوة: هو ما نص الله على تحريره، نحو قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ﴾

الدلائل، والبيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده، والبيهقي في معجمه، وابن مروي، والبيهقي في دلائل النبوة، عن أم عمرو بنت عيسى عن عمها نحوه أيضاً. وأخرج أبو عبيد، عن محمد بن كعب القرظي نحوه. وزاد أنها نزلت في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة. وهكذا أخرج ابن جرير، عن الربيع بن أنس بهذه الزيادة، وأخرج أبو عبيد، عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا: قال رسول الله ﷺ: «المائدة من آخر القرآن تنزيلاً، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها». وأخرج أبو داود والنحاس، كلاهما، في الناسخ عن أبي ميسرة، عمرو بن شرحبيل، قال: لم ينسخ من المائدة شيء. وكذا أخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، عنه. وكذا أخرجه عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي. وكذا أخرجه عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن المنذر عن الحسن البصري. وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه، وابن جرير وابن المنذر عن الشعبي قال: لم ينسخ من المائدة إلا هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقُلُودَ﴾ [المائدة: 2]. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: نسخ من هذه السورة آيتان، آية القلائد. وقوله: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: 42]. وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ في خطبته سورة المائدة والتوبة، وذكر النقاش عن أبي سلمة أنه قال: «لما رجع ﷺ من الحديبية قال: يا علي أشعرت أنها نزلت علي سورة المائدة؟ ونعمت الفائدة». قال ابن العربي هذا حديث موضوع لا يحل لمسلم اعتقاده، وقال ابن عطية هذا عندي لا يشبه كلام النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بِهِيْمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مِيتَةٍ وَالشَّهْرَ حَرَّمَ إِنَّ اللَّهَ يُحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقُلُودَ وَلَا آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ فَمَنْ زَيَّغَ وَرَضُوا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ سَفَهَانِ قَوْمٍ أَنْ مَدَّوْكُمْ عَنِ السَّجْدِ لَعَلَّكُمْ أَنْ تَمْتَدَّوْا وَعَادُوا عَلَى الْكِبَرِ وَالْقَوَى وَلَا تَمُوتُوا عَلَى الْإِيمَةِ وَالْمَدْرَةِ وَأَقْرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

هذه الآية التي افتتح الله بها هذه السورة إلى قوله: ﴿إِنْ اللَّهُ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ فيها من البلاغة ما تتقاصر عنده القوى البشرية مع شمولها لأحكام عدة: منها الوفاء بالعقود، ومنها تحليل بهيمة الأنعام، ومنها استثناء ما يستلبي مما لا يحل، ومنها تحريم الصيد على المحرم، ومنها إباحة الصيد لمن ليس بمحرم. وقد حكى النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم أعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال:

[المائدة: 3] الآية، ويلحق به ما صرحت السنة بتحريمه، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون المراد به إلا ما يتلى عليكم الآن، ويحتمل أن يكون المراد به في مستقبل الزمان، فيدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، ويحتمل الأمرين جميعاً. قوله: ﴿غير محلي الصيد﴾ استثناء من بهيمة الأنعام، قوله: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ استثناء آخر منه أيضاً، وقوله: ﴿غير محلي الصيد﴾ استثناء آخر منه أيضاً، فالاستثناء أن جميعاً من بهيمة الأنعام، والتقدير: أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم إلا الصيد وأنتم محرمون؛ وقيل الاستثناء الأول من بهيمة الأنعام، والاستثناء الثاني هو من الاستثناء الأول، وردّ بأن هذا يستلزم إباحة الصيد في حال الإحرام، لأنه مستثنى من المحظور فيكون مباحاً، وأجاز الفراء أن يكون ﴿إلا ما يتلى﴾ في موضع رفع على البذل، ولا يجيزه البصريون إلا في النكرة وما قاربها من الأجناس. قال: وانتصاب ﴿غير محلي الصيد﴾ على الحال من قوله: ﴿أوفوا بالعقود﴾، وكذا قال الأخفش، وقال غيرهما: حال من الكاف والميم في ﴿لكم﴾ والتقدير: أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلي الصيد: أي الاصطياد في البرّ وأكل صيده. ومعنى عدم إحلالهم له تقرير حرمة عملاً واعتقاداً وهم حرم: أي محرمون وجملة ﴿وأنتم حرم﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿محلي﴾، ومعنى هذا التقييد ظاهر عند من يخص بهيمة الأنعام بالحيوانات الوحشية البرية التي يحلّ أكلها كأنه قال: أحلّ لكم صيد البرّ إلا في حال الإحرام؛ وأما على قول من يجعل الإضافة بيانية فالمعنى: أحلت لكم بهيمة، هي الأنعام، حال تحريم الصيد عليكم ببخولكم في الإحرام لكونكم محتاجين إلى ذلك، فيكون المراد بهذا التقييد الامتنان عليهم بتحليل ما عدا ما هو محرّم عليهم في تلك الحال. والمراد بالحرم من هو محرّم بالحجّ أو العمرة أو بهما، وسمي محرماً لكونه يحرم عليه الصيد والطيب والنساء، وهكذا وجه تسمية الحرم محرماً، والإحرام إحراماً. وقرأ الحسن والنخعي ويحيى بن وثاب ﴿حرم﴾ بسكون الراء وهي لغة تميمية، يقولون في رسل رسل، وفي كتب كتب ونحو ذلك. قوله: ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ من الأحكام المخالفة لما كانت العرب تعتاده، فهو مالك الكل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه. قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ الشعائر: جمع شعيرة على وزن فعيلة. قال ابن فارس: ويقال للواحدة شعارة وهو أحسن، ومنه الإشعار للهدى. والمشارع: المعالم، واحداً مشعر، وهي المواضع التي قد أشعرت بالعلامات؛ قيل المراد بها هنا جميع مناسك الحج: وقيل الصفا والمروة، والهدي والبذل. والمعنى على هذين القولين: لا تحلوا هذه الأمور بأن يقع منكم الإخلال بشيء منها، أو بأن تحلوا بينها وبين من أراد فعلها. نكر سبحانه النهي عن أن يحلوا شعائر الله عقب نكره تحريم صيد المحرم؛ وقيل المراد بالشعائر هنا فرائض الله، ومنه ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾

[الحج: 32]؛ وقيل هي حرّات الله، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولا بما يدل عليه السياق. قوله: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ المراد به الجنس، فيدخل في ذلك جميع الأشهر الحرم وهي أربعة، نو القعدة، وذو الحجة ومحرّم، ورجب: أي لا تحلوا بالقتال فيها؛ وقيل المراد به هنا شهر الحج فقط. قوله: ﴿ولا الهدى﴾ هو ما يهدي إلى بيت الله من ناقة أو بقرة أو شاة، الواحدة هدية. نهاهم سبحانه عن أن يحلوا حرمة الهدى بأن يأخذوه على صاحبه أو يحلوا بينه وبين المكان الذي يهدي إليه، وعطف الهدى على الشعائر مع دخوله تحتها لقصد التنبيه على مزيد خصوصيته والتشديد في شأنه. قوله: ﴿ولا القلائد﴾ جمع قلادة، وهي ما يقلد به الهدى من نعل أو نحو. وإحلالها بأن تؤخذ غصباً، وفي النهي عن إحلال القلائد تأكيد للنهي عن إحلال الهدى؛ وقيل المراد بالقلائد المقلدات بها، ويكون عطفه على الهدى لزيادة التوصية بالهدى، والأول أولى؛ وقيل المراد بالقلائد ما كان الناس يتقلدونه أمانة لهم، فهو على حذف مضاف: أي ولأصحاب القلائد. قوله: ﴿ولا آمين البيت الحرام﴾ أي: قاصديه من قوله أمت كذا: أي قصده. وقرأ الأعمش ﴿ولا آمي البيت الحرام، بالإضافة. والمعنى: لا تمنعوا من قصد البيت الحرام الحجّ أو عمرة أو ليسكن فيه؛ وقيل إن سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا يحجون ويعتمرّون ويهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فنزل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ إلى آخر الآية، فيكون ذلك منسوخاً بقوله: ﴿أقتلوا المشركين حيث وجئتموهم﴾ [التوبة: 5]، وقوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة: 28]، وقوله: ﴿ولا يحجّ بعد العام مشركاً﴾، وقال قوم: الآية محكمة وهي في المسلمين. قوله: ﴿يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ جملة حالية من الضمير المستتر في ﴿آمين﴾ قال جمهور المفسرين: معناه يبتغون الفضل والأرباح في التجارة، ويبتغون مع ذلك رضوان الله، ويكون هذا الابتغاء للرضوان الله؛ وقيل كان منهم من يطلب التجارة، ومنهم من يبتغي بالحجّ رضوان الله، ويكون هذا الابتغاء للرضوان بحسب اعتقادهم، وفي ظنهم عند من جعل الآية في المشركين؛ وقيل المراد بالفضل هنا الثواب لا الأرباح في التجارة. قوله: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ هذا تصريح بما أقاده مفهوم ﴿وأنتم حرم﴾ بإباح لهم الصيد بعد أن حظره عليهم لزوال السبب الذي حرّم لأجله، وهو الإحرام. قوله: ﴿ولا يجزئكم شأن قوم﴾ قال ابن فارس: جرم وأجرم ولا جرم بمعنى قولك لا بدّ ولا محالة، وأصلها من جرم أي كسب، وقيل المعنى: لا يحملكم قاله الكسائي وثعلب، وهو يتعدى إلى مفعولين، يقال جرمني كذا على بغضك: أي حملني عليه ومنه قول الشاعر: ولقد طعنت أبا عبيدة طعنة جرمت فزاره بعدما أن يغضبوا أي حملتهم على الغضب. وقال أبو عبيدة والفراء: معنى

وهو داخل تحت هذا النهي لصديق هذين النوعين على كل ما يوجد فيه معناه، ثم أمر عباده بالتقوى وتوعد من خالف ما أمر به فتركه، أو خالف ما نهى عنه ففعله، بقوله: ﴿إِنْ أَشَاءَ اللَّهُ شَاءَ الْعَقَابُ﴾.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: ما أحل الله وما حرّم، وما فرض وما حد في القرآن كله لا تغدروا ولا تنكثوا. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال: هي عقود الجاهلية الحلف. وروى عنه ابن جرير أنه قال: نكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «أوفوا بعقد الجاهلية ولا تحدثوا عقداً في الإسلام». وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، عن الحسن في قوله: ﴿أَحْلَلْتُ لَكُمْ بَيْعَةَ الْأَنْعَامِ﴾ قال: الإبل والبقر والغنم. وأخرج ابن جرير عن ابن عمر في قوله: ﴿أَحْلَلْتُ لَكُمْ بَيْعَةَ الْأَنْعَامِ﴾ قال: ما في بطونها، قلت: إن خرج ميتاً أكله؟ قال نعم. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ قال: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به إلى آخر الآية، فهذا ما حرّم الله من بهيمة الأنعام. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: كان المشركون يحجون البيت الحرام ويهون الهدايا ويعظمون حرمة المشاعر وينحرون في حجهم، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فقال الله: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾. وفي قوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعني: لا تستحلوا قتلاً فيه ﴿وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ يعني: من توجه قبل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون جميعاً، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً حج البيت أو يعترضوا له من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعد هذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: 28] وفي قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا﴾ يعني: أنهم يرضون الله بحجهم، ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ﴾ يقول: لا يحملنكم ﴿شَنَّانَ قَوْمٍ﴾ يقول: عداوة قوم. ﴿وَتَعَانُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ قال: البر ما أمرت به، والتقوى ما نهيت عنه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: شعائر الله ما نهى الله عنه أن تصيبه وانت محرم، والهدي: ما لم يقلد، والقلائد مقلدات الهدي ﴿وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ يقول: من توجه حاجاً. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: مناسك الحج. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحنينية وأصحابه حين صدمهم المشركون عن البيت، وقد اشتدّ ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: نصّد هؤلاء كما صددنا أصحابنا، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ﴾ الآية. وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه عن وابصة أن النبي ﷺ قال له: «البرّ

﴿لَا يَجْرِمُكُمْ﴾ لا يكسبنكم بغض قوم أن تعتدوا الحق إلى الباطل، والعدل إلى الجور، والجريمة والجارم بمعنى الكاسب، ومنه قول الشاعر:

جريمة ناهض في رأس نيق يرى لعظام ما جمعت صليباً
معناه كاسب قوت. والصليب: اللوك، ومنه قول الآخر:

يا أيها المشتكى عكلاً وما جرت إلى القبائل من قتل وإيلاس
أي كسبت، والمعنى في الآية: لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم، أولاً يكسبنكم بغضهم اعتداءكم للحق إلى الباطل، ويقال جرم يجرم جرماً: إذا قطع. قال علي بن عيسى الرماني: وهو الأصل، فجرم بمعنى حمل على الشيء لقطعه من غيره، وجرم بمعنى كسب لانقطاعه إلى الكسب، ولا جرم بمعنى حق؛ لأن الحق يقطع عليه قال الخليل: معنى ﴿لَا جرم أن لهم النار﴾ [النحل: 62] لقد حق أن لهم النار. وقال الكسائي: جرم وأجرم لغتان بمعنى واحد: أي اكتسب. وقرأ ابن مسعود: ﴿لَا يَجْرِمُكُمْ﴾ بضم الياء، والمعنى: لا يكسبنكم، ولا يعرف البصريون أجرم، وإنما يقولون جرم لا غير. والشنآن: البغض. وقرئ بفتح النون وإسكانها، يقال شنيت الرجل أشنوه شناء ومشناة وشنأناً كل ذلك: إذا أبغضته، وشنآن هنا مضاف إلى المفعول: أي بغض قوم منكم لا بغض قوم لكم. قوله: ﴿إِنْ صَدُوكُمْ﴾ بفتح الهمزة مفعول لأجله. أي: لأن صدوكم. وقرأ أبو عمرو وابن كثير بكسر الهمزة على الشرطية، وهو اختيار أبي عبيد، وقرأ الأعمش: ﴿إِنْ يَصُدُوكُمْ﴾ والمعنى على قراءة الشرطية: لا يحملنكم بغضهم إن وقع منهم الصد لكم عن المسجد الحرام على الاعتداء عليهم. قال النحاس: وأما إن صدوكم بكسر إن، فالعلماء الجلة بالنحو والحديث والنظر، يمنعون القراءة بها لأشياء: منها أن الآية نزلت عام الفتح سنة ثمان، وكان المشركون صدوا المؤمنين عام الحنينية سنة ست، فالصد كان قبل الآية؛ وإذا قرئ بالكسر لم يجز أن يكون إلا بعده، كما تقول: لا تعط فلاناً شيئاً إن قاتلك، فهذا لا يكون إلا للمستقبل، وإن فتحت كان للماضي، وما أحسن هذا الكلام. وقد أنكر أبو حاتم وأبو عبيدة شنآن بسكون النون. لأن المصادر إنما تأتي في مثل هذا متحركة، وخالفهما غيرهما فقال: ليس هذا مصدرأ، ولكنه اسم على وزن كسلان وغضبان. ولما نهاهم عن الاعتداء أمرهم بالتعاون على البرّ والتقوى: أي ليعن بعضكم بعضاً على ذلك، وهو يشمل كل أمر يصنق عليه أنه من البرّ والتقوى كائناً ما كان؛ قيل إن البرّ والتقوى لفظان لمعنى واحد، وكرر للتأكيد. وقال ابن عطية: إن البرّ يتناول الواجب والمندوب، والتقوى تختص بالواجب، وقال الماوردي: إن في البرّ رضا الناس وفي التقوى رضا الله، فمن جمع بينهما فقد تمت سعائته ثم نهاهم سبحانه عن التعاون على الإثم والعدوان، فالإثم: كل فعل أو قول يوجب إثم فاعله أو قائله، والعدوان: التعدي على الناس بما فيه ظلم، فلا يبقى نوع من أنواع الموجبات للإثم، ولا نوع من أنواع الظلم للناس الذين من جملتهم النفس، إلا

أُتِرِكَ نَكَاتُهُ عَلَى مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ وَالثَّوْرِيِّ وَالشَّافِعِيِّ، وَخَالِفَهُمُ الشَّامِيُّونَ فِي ذَلِكَ. قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ فِي الْمَعْرَاضِ: كُلُّهُ خَرَقٌ أَوْ لَمْ يَخْرُقْ، فَقَدْ كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَفَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَمَكْحُولٌ لَا يَرَوْنَ بِهِ بَأْسًا. قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: هَكَذَا نَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَالْمَعْرُوفُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَا نَكَرَ مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَالَّذِي عَلَيْهِ الْعَمَلُ وَفِيهِ الْحُجَّةُ، حَدِيثُ عَبْدِ بْنِ حَتَّامٍ، وَفِيهِ: «مَا أَصَابَ بَعْضُهُ فَلَا تَكُلْ فَإِنَّهُ وَقِيذٌ»، أَنْتَهَى.

قلت: والحديث في الصحيحين وغيرهما عن عدي قال: «قلت يا رسول الله إني أرمي بالمعراض الفصيص، فأصيب فقال: إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصاب بعرضه، فإنما هو وقيد فلا تأكله». فقد اعتبر ﷺ الخرق وعدمه، فالحق: أنه لا يحل إلا ما خرق لا ما صم، فلا بد التنكية قبل الموت وإلا كان وقيداً. وأما البنائق المعروفة الآن: وهي بنائق الحديد التي تجعل فيها البارود والرصاص ويرمي بها، فلم يتكلم عليها أهل العلم لتأخر حدوثها، فإنها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا في المائة العاشرة من الهجرة، وقد سألني جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات ولم يتمكن الصائد من تنكيته حياً، والذي يظهر لي أنه حلال؛ لأنها تخرق وتدخل في الغالب من جانب منه وتخرج من الجانب الآخر، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح السابق: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله»، فاعتبر الخرق في تحليل الصيد. قوله: ﴿وَالْمُتْرِكَةُ﴾ هي التي تتردى من علو إلى أسفل فتموت، من غير فرق بين أن تتردى من جبل أو بئر أو مدفن أو غيرها، والتردى مأخوذ من الردى وهو الهلاك، وسواء تردت بنفسها أو ردها غيرها. قوله: ﴿وَالنُّطِيجَةُ﴾ هي فعلية بمعنى مفعولة، وهي التي تنطرحا أخرى فتموت من بون تنكية. وقال قوم أيضاً: فعلية بمعنى فاعلة، لأن الدابتين تتناطحان فتموتان، وقال: نطيحة ولم يقل تطيح مع أنه قياس فاعيل، لأن لزوم الحنف مختص بما كان من هذا الباب صفة لموصوف منكور فإن لم ينكر ثبتت التاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية. وقرأ أبو ميسرة «والمنطوحة». قوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ أي: ما افترسه نو ناب كالأسد والنمر والنثب والضبع ونحوها، والمراد هنا ما أكل منه السبع، لأن ما أكله السبع كله قد فنى، ومن العرب من يخص اسم السبع بالأسد، وكانت العرب إذا أكل السبع شاة، ثم خلصوها منه أكلوها، وإن ماتت ولم ينكوها. وقرأ الحسن وأبو حيوة «السبع» بسكون الباء، وهي لغة لأهل نجد، ومنه قول حسان في عتبة بن أبي لهب

من يرجع العام إلى أهله فما أكمل السبع بالراجع
وقرأ ابن مسعود «واكلة السبع». وقرأ ابن عباس: «واكيل
السبع». قوله: ﴿إِلَّا مَا نَكَيْتُمْ﴾ في محل نصب على
الاستثناء المتصل عند الجمهور، وهو راجع على ما أشرت
نكاته من المنكورات سابقاً، وفيه حياة، وقال المدنيون: وهو

ما اطمأنَّ إليه القلب واطمأنَّت إليه النفس، والإثم ما حاك في
القلب وتردَّد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك». وأخرج
ابن أبي شيبة وأحمد، والبخاري، في الألب، ومسلم
والترمذي والحاكم والبيهقي، عن النّوّاس بن سَمْعان قال:
سألت النبي ﷺ عن البرِّ والإثم، فقال: «البرُّ حسنُ الخلق،
والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس».
وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن حبان والطبراني، والحاكم
وصححه، والبيهقي عن أبي أمامة، أن رجلاً سأل النبي ﷺ
عن الإثم، فقال: «ما حاك في نفسك فدعه. قال فما الإيمان؟
قال: من ساعته سيئته، وسرَّته حسنته، فهو مؤمن».

حَرَمْتُ عَلَيْكُمُ النَّيْسَةَ وَالذَّمَّ وَلَسَمُ الْخِزِيرِ وَمَا أَوَّلَ لَيْلٍ أَلْفَ يَوْمٍ وَالْمُتَحَنِّنَةَ
وَالْمَوْفُودَةَ وَالْمَرْبُوبَةَ وَالنَّالِيَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ وَمَا دُجِعَ عَلَى
النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَى ذَٰلِكُمْ يَسْتَفْتِي الْيَوْمَ النَّاسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
بَيْنِكُمْ فَمَا تَعْلَمُونَ وَمَا تَشْهَرُونَ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ وَبَيْنَكُمْ عَلَيْكُمْ يَتَعَلَى
وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ وَمَا فَمَنْ أَضَلُّ فِي عَمَلِهِ عَمَّ مُتَجَانِبٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾

هذا شروع في المحرمات التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾. والميتة قد تقم نكرها في البقرة، وكذلك الدم ولحم الخنزير وما أكل به لغير الله، وما هنا من تحريم مطلق الدم مقيد بكونه مسفوحاً كما تقم حملاً للمطلق على المقيد، وقد ورد في السنة تخصيص الميتة بقوله ﷺ: «أحلّ لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال» أخرجه الشافعي، وأحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وفي إسناده يقال، ويقرّبه حديث: «هو الطهور ماؤه والحل ميتته»، وهو عند أحمد وأهل السنن، وغيرهم، وصححه جماعة منهم ابن خزيمة وابن حبان، وقد أطلنا الكلام عليه في شرحنا للممتقى. والإهلال رفع الصوت لغير الله، كأن يقول: بسم اللات والعزى ونحو ذلك، ولا حاجة بنا هنا إلى تكرير ما قد أسلفناه، ففيه ما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره ﴿وَالْمُنْخَنَقَةُ﴾ هي التي تموت بالخنق: وهو حبس النفس، سواء كان ذلك بفعلها كان تدخل رأسها في حبل أو بين عودين، أو بفعل آدمي أو غيره، وقد كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة، فإذا ماتت أكلوها. ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ هي التي تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تنكية، يقال وقذه يقذه وقذاً فهو وقيد، والوقذ شدة الضرب، وفلان وقيد: أي مشخّن ضرباً، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، فيضربون الانعام بالخشب لأهتهم حتى تموت ثم ياكلونها، ومنه قول الفرزقي:

شغارة تغذ الفصيل برجلها فطارة لقوائم الأظفار
قال ابن عبد البر: واختلف العلماء قديماً وحديثاً في
الصيد بالبندق والحجر والمعارض، ويعني بالبنق: قوس
البننقة، وبالمعارض: السهم الذي لا ريش له. أو العصا التي
رأسها محدد، قال: فمن ذهب إلى أنه وقيد لم يجزه إلا ما

المشهور من مذهب مالك، وهو أحد قولي الشافعي أنه: إذا بلغ السبع منها إلى ما لا حياة معه فإنها لا تؤكل. وحكاية في الموطأ عن زيد بن ثابت، وإليه ذهب إسماعيل القاضي، فيكون الاستثناء على هذا القول منقطعاً: أي حرمت عليكم هذه الأشياء، لكن ما نكيتم فهو الذي يحل ولا يحرم، والأول أولى. والنكاة في كلام العرب الذبح، قاله قطرب وغيره. وأصل النكاة في اللغة: التعمام: أي تمام استكمال القوة، والنكاء حدة القلب، والنكاء سرعة الفطنة، والنكوة ما تنكى منه النار، ومنه أنكيت الحرب والنار: أوقنتهما، ونكاه اسم الشمس والمراد هنا: إلا ما أتركتم نكاته على التعمام، والتنكية في الشرع: عبارة عن إتهار الدم، وفري الأوداج في المنبوج، والنحر في المنحور، والعقر في غير المقدور مقروناً بالقصد لله، ونكر اسمه عليه. وإما الآلة التي تقع بها النكاة، فذهب الجمهور إلى أن كل ما أنهر الدم. وفري الأوداج فهو آلة للنكاة ما خلا السن والعظم، وبهذا جاءت الأحاديث الصحيحة. قوله: ﴿وَمَا ذَبَحْ عَلَى النَّصَبِ﴾ قال ابن فارس: النصب حجر كان ينصب فيعبد ويصّب عليه دماء الذبائح، والنصائب حجارة تنصب حوالي شفير البئر، فتجعل عضائد. وقيل النصب: جمع واحده نصاب، كحمار وحمر. وقرأ طلحة بضم النون وسكون الصاد. وروى عن أبي عمرو بفتح النون وسكون الصاد. وقرأ الجحدري بفتح النون والصاد، جعله اسماً موحداً كالجبل والجمل، والجمع انصاب كالأجبال والإجمال، قال مجاهد: هي حجارة كانت حوالي مكة ينبحون عليها قال ابن جريج: كانت العرب تذبح بمكة وتضخ بالدم ما أقبل من البيت، ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبي ﷺ: نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال، فانزل الله ﴿وَمَا ذَبَحْ عَلَى النَّصَبِ﴾ والمعنى: والنية بذلك تعظيم النصب لا أن الذبح عليها غير جائز، ولهذا قيل إن ﴿على﴾ بمعنى اللام: أي لأجلها، قاله قطرب، وهو على هذا داخل فيما أهل به لغير الله، وخَصَّ بالذكر لتأكيد تحريمه، ولبلغ ما كانوا يظنونونه من أن ذلك لتشريف البيت وتعظيمه. قوله: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ معطوف على ما قبله: أي وحَرَّمَ عليكم الاستقسام بالأزلام، والأزلام، قِداح الميسر واحدها زلم، قال الشاعر:

بات يقاسيها غلام كلزم ليس براعي إيل ولا غنم
ولا بجزار على لحم وضم

وقال آخر:

فلئن جنيمة قتلت ساداتها فנסاؤها يضربن بالأزلام
والأزلام للعرب ثلاثة أنواع: أحدها مكتوب فيه أفعل، والآخر مكتوب فيه لا تفعل، والثالث مهمل لا شيء عليه، فيجعلها في خريطة معه، فإذا أراد فعل شيء، أدخل يده وهي متشابهة فأخرج واحداً منها، فإن خرج الأول: فعل ما عزم عليه، وإن خرج الثاني: تركه، وإن خرج الثالث: أعاد الضرب حتى يخرج واحد من الأولين. وإنما قيل لهذا الفعل

استقسام: لأنهم كانوا يستقسمون به الرزق، وما يريدون فعله، كما يقال استسقى: أي استدعى السقي، فالاستقسام: طلب القسم والتصيب. وجملة قِداح الميسر عشرة، وقد قَسَمْنَا بيانها، وكانوا يضربون بها في المقامرة، وقيل إن الأزلام كعاب فارس والروم التي يتقمارون بها، وقيل هي الشطرنج، وإنما حرّم الله الاستقسام بالأزلام؛ لأنه تعرّض لدعوى علم الغيب، وضرب من الكهانة. قوله: ﴿فَلَكُمْ فُسْقٌ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام، أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا. والفسق: الخروج عن الحدّ، وقد تقدّم بيان معناه، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن الفسق هو أشدّ الكفر، لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه: منزلة متوسطة بين الإيمان والكفر. قوله: ﴿الْيَوْمَ يَفْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ المراد: اليوم الذي نزلت فيه الآية، وهو يوم فتح مكة، لثمان بقين من رمضان، سنة تسع وقيل، سنة ثمان؛ وقيل المراد باليوم: الزمان الحاضر وما يتصل به، ولم يرد يوماً معيناً. ويش في لغتان ييس بيايين يأساً، وأيس يائيس يأساً وإياساً. قاله النضر بن شميل: أي حصل لهم اليأس من إبطال دينكم وأن يردوكم إلى دينهم كما كانوا يزعمون ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: لا تخافوا منهم أن يغلبوكم أو يبطّلوا دينكم ﴿وَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فإنا القادر على كل شيء إن نصرتمكم فلا غالب لكم، وإن خذلتكم لم يستطع غيري أن ينصركم. قوله: ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ جعلته كاملاً غير محتاج إلى إكمال؛ لظهوره على الأدیان كلها وغلبته لها، ولكمال أحكامه التي يحتاج المسلمون إليها من الحلال والحرام والمشتبه، ووفى ما تضمنه الكتاب والسنة من ذلك، ولا يخفى ما يستفاد من تقديم قوله: ﴿لَكُمْ﴾ قال الجمهور المراد بالإكمال هنا: نزل معظم الفرائض والتحليل والتحريم. قالوا: وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير كآية الربا وآية الكلاله ونحوهما. والمراد باليوم المذكور هنا هو يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر، هكذا ثبت في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب؛ وقيل: إنها نزلت في يوم الحج الأكبر. قوله: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بأكمل الدين المشتمل على الأحكام، وبفتح مكة وقهر الكفار، وإياسهم عن الظهور عليكم، كما وعدتكم بقولي: ﴿وَلَاتَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 150] قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: أخبرتكم برضاي به لكم، فإنه سبحانه لم يزل راضياً لامة نبيه ﷺ بالإسلام، فلا يكون لاختصاص الرضا بهذا اليوم كثير فائدة إن حملناه على ظاهره، ويحتمل أن يريد رضىيت لكم الإسلام الذي أنتم عليه اليوم ديناً باقياً إلى انقضاء أيام الدنيا. ودينا منتصب على التمييز، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً. قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ هذا متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض: أي من دعت الضرورة ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ أي: مجاعة إلى أكل الميتة وما بعدها من المحرمات. والخمص: ضمور البطن، ورجل خميص وخمضان، وامرأة

والمسلمون يدعون الله ﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾ يقول: حلالكم وحرامكم، فلم ينزل بعد هذا حلال ولا حرام ﴿واتممت عليكم نعمتي﴾ قال: منتي، فلم يحج معكم شرك، ﴿ورضيت﴾ يقول: اخترت ﴿لكم الإسلام بيناً﴾ فمكث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أحدًا وثمانين يوماً، ثم قبضه الله إليه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال: أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه فلا ينقص أبداً، وقد رضىه فلا يسخطه أبداً. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما، عن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر: إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية؟ قالوا: ﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾ قال عمر: والله إنني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة، في يوم الجمعة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فمن اضطر﴾ يعني: إلى ما حرم مما سمي في صدر هذه السورة ﴿في مخصصة﴾ يعني: في مجاعة ﴿غير متجانف لإثم﴾ يقول: غير متعمد لإثم.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ
مَكْلَينَ فَلْيُؤْكَلْهُنَّ مَعَ الْكَلْبِ مَا اسْتَغْنَى عَنْكُمْ وَالْأَكْرَبُ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ عَلَيْهِ
وَأَقْرَبُ أَهْلًا إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْكَسْبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَالٌ لَكُمْ وَلِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْسِنَاتِ مِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَصْرَهُنَّ مُحْصِينَ عَدَّ مُحْصِينَ
وَلَا مُجَدِّينَ أَضْدَانٍ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَأْكُلْ كَيْدًا فِي الْآخِرَةِ مِنَ
الْمُتَعَمِّدِينَ ﴿٢﴾

هذا شروع في بيان ما أحله الله لهم، بعد بيان ما حرمه الله عليهم، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية. قوله: ﴿مَاذَا أَحَلَّ لَكُمْ﴾ أي شيء أحلَّ لهم، أو ما الذي أحلَّ لهم من المطاعم إجمالاً. ومن المصيد؟ من طعام أهل الكتاب؟ ومن نسائهم؟ قوله: ﴿قُلْ لِحَلِّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾ هي ما يستلذه أكله ويستطيبه مما أحله الله لعباده؛ وقيل هي الحلال، وقد سبق الكلام في هذا؛ وقيل الطيبات: الذبائح لأنها طابت بالتزكية، وهو تخصيص للعام بغير مخصص، والسبب والسياق لا يصلحان لذلك. قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ هو: معطوف على الطيبات بتقدير مضاف لتصحيح المعنى: أي أحلَّ لكم الطيبات، وأحلَّ لكم صيد ما علمتم من الجوارح. وقرأ ابن عباس ومحمد بن الحنفية «علمتم» بضم العين وكسر اللام: أي علمتم من أمر الجوارح والصيد بها. قال القرطبي: وقد ذكر بعض من صنف في أحكام القرآن، أن الآية تدل على أن الإباحة تناولت ما علمنا من الجوارح، وهو يتضمن الكلب وسائر جوارح الطير، وذلك يوجب إباحة سائر وجوه الانتفاع، فدلَّ على جواز بيع الكلب والجوارح، والانتفاع بها بسائر وجوه المنافع، إلا ما خصه الدليل: وهو

خميسة وخمصانة، ومنه أخص القدم، ويستعمل كثيراً في
الجوع، قال الأعشى:

تَبَيَّنَ فِي الْمَشَاءِ مَلَأَى بِطَوْنِكُمْ وَجَارَاتِكُمْ غَرَى يَبْتَنَ خَمَائَصاً
 قوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ الجَنَفُ: الميل، والإِثْمُ: الحرام؛ أَي
 حال كَوْنِ الْمُضْطَرِّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مَائِلٍ لِإِثْمٍ، وَهُوَ بِمَعْنَى
 غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ، وَكُلُّ مَائِلٍ فَهُوَ مُتَجَانِفٌ وَجَنَفٌ. وَقَرَأَ
 النَّخْعِيُّ وَيَحْيَى بْنُ وَثَّابٍ وَالسَّلْمِيُّ: «مُتَجَنِّفٌ»، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بِهِ لَا يُؤَاخِذُهُ بِمَا أَلْجَأَتْهُ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ فِي
 الْجُرْعِ، مَعَ عَدَمِ مِيلِهِ بِكُلِّ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ إِلَى الْإِثْمِ، بَلَّغَ الْإِثْمَ
 بِأَغْيَا عَلَى غَيْرِهِ، أَوْ مُتَعَدِّياً لِمَا دَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ حَسْبِمَا
 تَقْتَضِيهِ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مروي، والحاكم وصححه، عن أبي أمامة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله، وأعرض عليهم شعائر الإسلام، فبينما نحن كذلك، إذ جاؤوا بقصعة دم واجتمعوا عليها ياكلونها، قالوا: هلم يا صدي فكل قلت: ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم، لما أنزل الله عليه، قالوا: وما ذاك؟ قال: فتلوت عليهم هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ قال: وما أهل للطواغيت به: ﴿وَالْمُنْخَفَقَةُ﴾ التي تخنق فتموت ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ قال: التي تضرب بالخشبة فتموت. ﴿وَالْمُتْرِبَةُ﴾ قال: التي تتردى من الجبل فتموت. ﴿وَالنَّطِيجَةُ﴾ قال: الشاة التي تنطح الشاة. ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ يقول: ما أخذ السبع، ﴿إِلَّا مَا كَتَبْتُمْ﴾ يقول: نبيحكم من ذلك، وبه روح فكلوه. ﴿وَمَا نَبِجَ عَلَى النَّصَبِ﴾ قال: النصب أنصاب كانوا يذبون ويهللون عليها: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: هي القداح كانوا يستقسمون بها في الأمور، ﴿وَالكُفْرُ﴾ يعني: من أكل ذلك كله فهو فسق. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الرداءة التي تتردى في البئر، والمتربة التي تتردى من الجبل. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: حصى بيض كانوا يضربون بها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في الآية قال: كانوا إذا أرادوا أمراً أو سفراً يعمدون إلى قداح ثلاثة، يكتبون على واحد منها: أمرني، وعلى الآخر: نهاني، ويتركون الثالث مخللاً بينهما ليس عليه شيء ثم يجيئونها، فإن خرج الذي عليه: أمرني مضوا لأمرهم، وإن خرج الذي عليه: نهاني كفوا، وإن خرج الذي ليس عليه شيء أعادوها. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿الْيَوْمَ يَثْسُ الْذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ قال: يشسوا أن يرجعوا إلى دينهم أبداً. وأخرج البيهقي عنه في الآية قال: يقول يثس أهل مكة أن يرجعوا إلى دينهم عبادة الأوثان أبداً. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ في اتباع محمد ﴿وَلِخَشُونِ﴾ في عبادة الأوثان وتكذيب محمد فلما كان واقفاً بعرفات، نزل عليه جبريل وهو راقع بيه،

أبي وقاص، وأبي هريرة وعبد الله بن عمر، وروى عن علي، وابن عباس والحسن البصري، والزهري وربيعة، ومالك، والشافعي في القديم، أنه يؤكل صيده، ويرد عليهم قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وقوله ﷺ لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم ونكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك، وهو في الصحيحين وغيرهما، وفي لفظ لهما: «فإن أكل فلا تاكل فإنني أخاف أن يكون أمسك على نفسه». وأما ما أخرجه أبو داود بإسناد جيد من حديث أبي ثعلبة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلت كلبك المعلم ونكرت اسم الله فكل وإن أكل منه». وقد أخرجه أيضاً بإسناد جيد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأخرجه أيضاً النسائي، فقد جمع بعض الشافعية بين هذه الأحاديث بأنه إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم؛ لحديث عدي بن حاتم، وإن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه الانتظار وجاع فاكل من الصيد لجوعه لا لكونه أمسكه على نفسه فإنه لا يؤثر ذلك ولا يحرم به الصيد، وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني، وحديث عمرو بن شعيب، وهذا جمع حسن. وقال آخرون: إنه إذا أكل الكلب منه حرم لحديث عدي، وإن أكل غيره لم يحرم للحديثين الآخرين؛ وقيل: يحمل حديث أبي ثعلبة على ما إذا أمسكه وخلاه، ثم عاد فاكل منه.

وقد سلك كثير من أهل العلم طريق الترجيح، ولم يسلكوا طريق الجمع لما فيها من البعد، قالوا: وحديث عدي بن حاتم أرجح لكونه في الصحيحين. وقد قررت هذا المسلك في شرحي للمنتقى بما يزيد الناظر فيه بصيرة. قوله: ﴿وَإِذَا أَمْسَكْتُمْ﴾ أي: سموا عليه عند إرساله، أو لما أمسكن عليكم: أي سموا عليه إذا أربتم نكاته. وقد ذهب الجمهور إلى وجوب التسمية عند إرسال الجارح، واستدلوا بهذه الآية، ويؤيده حديث عدي بن حاتم الثابت في الصحيحين، وغيرهما بلفظ: «إذا أرسلت كلبك فانكر اسم الله وإذا رميت بسهمك فانكر اسم الله». وقال بعض أهل العلم: إن المراد التسمية عند الأكل. قال القرطبي: وهو الأظهر، واستدلوا بالأحاديث التي فيها الإرشاد إلى التسمية وهذا خطأ، فإن النبي ﷺ قد وقت التسمية بإرسال الكلب وإرسال السهم، ومشروعية التسمية عند الأكل حكم آخر، ومسألة غير هذه المسألة، فلا وجه لحمل ما ورد في الكتاب والسنة هنا على ما ورد في التسمية عند الأكل، ولا ملجئ إلى ذلك، وفي لفظ في الصحيحين من حديث عدي: «إن أرسلت كلبك وسميت فأكذ فكل». وقد ذهب جماعة إلى أن التسمية شرط وذبح آخرون إلى أنها سنة فقط، وذبح جماعة إلى أنها شرط على الذكور لا النساء، وهذا أقوى الأقوال وأرجحها. قوله: ﴿وَقَاتِلُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ لِلْحِسَابِ﴾ أي: حسابه سبحانه سريع إتيانه وكل أت قريب. قوله: ﴿الْيَوْمَ لَكُمْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾ هذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى، وهي قوله: ﴿لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾ وقد تقدم بيان الطيبات. قوله:

الأكل من الجوارح: أي الكواشب من الكلاب وسباع الطير. قال: أجمعت الأمة على أن الكلب إذا لم يكن أسود، وعلمه مسلم، ولم ياكل من صيده الذي صاده وائر فيه بجرح أو تنبيب، وصاد به مسلم ونكر اسم الله عند إرساله، أن: صيده صحيح يؤكل بلا خلاف، فإن أخرج شرط من هذه الشروط دخل الخلاف، فإن كان الذي يصاد به غير كلب كالفهد وما أشبهه، وبالبازي والصقر ونحوهما من الطير، فجمهور الأمة على أن كل ما صاد بعد التعليم فهو جازح كاسب، يقال جرح فلان واجترح: إذا اكتسب، ومنه الجارحة لأنه يكتسب بها، ومنه اجترح السيئات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60]. وقوله: ﴿لَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الباقية: 21]. قوله: ﴿مَكْلَبِينَ﴾ حال، والمكلب: معلم الكلاب لكيفية الاصطياد، والأخص معلم الكلاب، وإن كان معلم سائر الجوارح مثله، لأن الاصطياد بالكلاب هو الغالب، ولم يكتف بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ مع أن التكليل هو التعليم، لقصد التأكيد لما لا بد منه من التعليم؛ وقيل: إن السبع يسمى كلباً فيدخل كل سبع يصاد به؛ وقيل: إن هذه الآية خاصة بالكلاب. وقد حكى ابن المنذر عن ابن عمر أنه قال: ما يصاد بالبزاة وغيرها من الطير، فما أركت نكاته فهو لك حلال، وإلا فلا تطعمه. قال ابن المنذر: وسئل أبو جعفر عن البازي هل يحل صيده؟ قال لا، إلا أن تدرك نكاته. وقال الضحاك والسدي: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مَكْلَبِينَ﴾ هي الكلاب خاصة، فإن كان الكلب الأسود بهيماً: فكره صيده الحسن وقتادة والنخعي. وقال أحمد: ما أعرف أحداً يخصص فيه إذا كان بهيماً، وبه قال ابن راهويه. فأما عامة أهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب معلم، واحتج من منع من صيد الكلب الأسود بقوله ﷺ: «الكلب الأسود شيطان». أخرجه مسلم وغيره، والحق أنه يحل صيد كل ما يدخل تحت عموم الجوارح من غير فرق بين الكلب وغيره، وبين الأسود من الكلاب وغيره وبين الطير وغيره، ويؤيد هذا أن سبب نزول الآية: سؤال عدي بن حاتم عن صيد البازي كما سيأتي. قوله: ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ الجملة في محل نصب على الحال: أي مما علمكم الله مما أركتموه بما خلقه فيكم من العقل الذي تهتدون به إلى تعليمها وتدريبها، حتى تصير قابلة لإمساك الصيد عند إرسالكم لها. قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ الفاء للتفريع، والجملة متفرعة على ما تقدم من تحليل صيد ما علموه من الجوارح، ومن في قوله: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ للتبعض، لأن بعض الصيد لا يؤكل كالجلد والعظم وما أكله الكلب ونحوه، وفيه دليل على أنه لا بد أن يمسكه على صاحبه، فإن أكل منه فإنما أمسكه على نفسه كما في الحديث الثابت في الصحيح. وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يحل أكل الصيد الذي يقصده الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال. وقال عطاء بن أبي رباح والأوزاعي: وهو مروى عن سلمان الفارسي، وسعد بن

للمسلمين أن يطعموا أهل الكتاب من نباتهم، وهذا من باب المكافأة والمجازاة، وإخبار المسلمين بأن ما يأخونه منهم من أعراض الطعام حلال لهم بطريق الدلالة الالتزامية. قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ اختلف في تفسير المحصنات هنا، فقليل العفاف، وقيل الحرائر. وقرأ الشعبي بكسر الصاد، وبه قرأ الكسائي. وقد تقدّم الكلام في هذا مستوفي في البقرة والنساء. والمحصنات مبتدأ، ومن المؤمنات وصف له والخبر محذوف أي حلّ لكم، وذكرهن هنا توطئة وتمهيداً لقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ والمراد بهنّ الحرائر دون الإماء، هكذا قال الجمهور، وحكى ابن جرير عن طائفة من السلف أن هذه الآية تعمّ كل كتابية حرة أو أمة؛ وقيل المراد بأهل الكتاب هنا الإسرائيليات، وبه قال الشافعي، وهو تخصيص بغير مخصص. وقال عبد الله بن عمر: لا تحلّ النصرانية، قال: ولا أعلم شركاً أكبر من أن تقول ربها عيسى، وقد قال الله ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ [البقرة: 221] الآية، ويجب عنه بأن هذه الآية مخصصة للكتابيات من عموم المشركات فينبى العام على الخاص. وقد استدل من حرّم نكاح الإماء الكتابيات بهذه الآية لأنه حملها على الحرائر، ويقول تعالى ﴿مَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فُتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: 25] وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم وخالفهم من قال: إن الآية تعم أو تخصّ العفاف كما تقدّم. والحاصل أنه ينحل تحت هذه الآية الحرة العفيفة من الكتابيات على جميع الأقوال، إلا على قول ابن عمر في النصرانية، ويدخل تحتها الحرة التي ليست بعفيفة والأمة العفيفة، على قول من يقول إنه يجوز استعمال المشرك في كلا معنييه، وأما من لم يجوز ذلك فإن حمل المحصنات هنا على الحرائر لم يقل بجواز نكاح الأمة عفيفة كانت أو غير عفيفة إلا لبليل آخر، ويقول بجواز نكاح الحرة العفيفة كانت أو غير عفيفة، وإن حمل المحصنات هنا على العفاف قال بجواز نكاح الحرة العفيفة والأمة العفيفة دون غير العفيفة منهما. قوله: ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي مهرهنّ، وجواب إذا محذوف: أي فهنّ حلال، أو هي ظرف لخبر المحصنات المقدر: أي حلّ لكم قوله: ﴿مُحْصَنِينَ﴾ منصوب على الحال: أي حال كونكم أعماء بالنكاح، وكذا قوله: ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ منصوب على الحال من الضمير في محصنين، أو صفة لمحصنين، والمعنى: غير مجاهرين بالزنا. قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَخْدَانًا﴾ معطوف على ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ أو على ﴿مُسَافِحِينَ﴾. ﴿وَلَا﴾ مزيدة للتأكيد، والخدن يقع على الذكر والأنثى: أي لم يتخذوا معشوقات، فقد شرط الله في الرجال العفة، وعدم المجاهرة بالزنا، وعدم اتخاذ أخدان، كما شرط في النساء أن يكنّ محصنات ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: بشرائع الإسلام، ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي: بطل، ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقرأ ابن السميع «فقد حبط» بفتح الباء اهـ.

﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾ الطعام: اسم لما يؤكل، ومنه الذبائح، وذهب أكثر أهل العلم إلى تخصيصه هنا بالذبائح. وفي هذه الآية دليل على أن جميع طعام أهل الكتب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين وإن كانوا لا يذكرون على نباتهم اسم الله، وتكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله: ﴿وَلَا تَكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 121]. وظاهر هذا أن ذبائح أهل الكتاب حلال، وإن نكر اليهودي على نبيحته اسم عزيز، ونكر النصراني على نبيحته اسم المسيح. وإليه ذهب أبو اللداء وعبادة بن الصامت، وابن عباس والزهري وربيعة، والشعبي ومكحول. وقال عليّ وعائشة وابن عمر: إذا سمعت الكتابي يسمى غير الله فلا تاكل، وهو قول طلوس والحسن، وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 121] ويدل عليه أيضاً قوله: ﴿وَمَا أَمَلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: 3] وقال مالك: إنه يكره ولا يحرم. فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب نكروا على نباتهم اسم غير الله، وأما مع عدم العلم فقد حكى الكيا الطبري وابن كثير الإجماع على حلها لهذه الآية، ولما ورد في السنة من أكله ﷺ من الشاة المصلية التي أهدتها إليه اليهودية، وهو في الصحيح، وكذلك الجراب الشحم الذي أخذه بعض الصحابة من خيبر، وعلم بذلك النبي ﷺ، وهو في الصحيح، أيضاً وغير ذلك. والمراد بأهل الكتاب هنا لليهود والنصارى. وأما المجوس، فذهب الجمهور إلى أنها لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نسأؤهم؛ لأنهم ليسوا بأهل كتاب على المشهور عند أهل العلم، وخالف في ذلك أبو ثور، وأنكر عليه الفقهاء ذلك حتى قال أحمد ابن حنبل: أبو ثور كاسمه، يعني في هذه المسئلة، وكأنه تمسك بما يروي عن النبي ﷺ مرسلاً أنه قال في المجوس: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»، ولم يثبت بهذا اللفظ، وعلى فرض أن له أصلاً، ففيه زيادة تدفع ما قال، وهي قوله غير أكل ذبائحهم، ولا ناكحي نسأؤهم. وقد رواه بهذه الزيادة جماعة ممن لا خبرة لهم بفنّ الحديث من المفسرين والفقهاء، ولم يثبت الأصل ولا الزيادة، بل الذي ثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، وأما بنو تغلب، فكان علي بن أبي طالب ينهى عن ذبائحهم لأنهم عرب، وكان يقول: إنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر، وهكذا سائر العرب المتنصرة، كتنوخ وجذام ولخم وعاملة، ومن أشبههم. قال ابن كثير: وهو قول غير واحد من السلف والخلف. وروي عن سعيد بن المسيب والحسن البصري، إنهما كانا لا يريان بأساً بذبحة نصارى بني تغلب. وقال القرطبي: وقال جمهور الأمة إن ذبيحة كل نصراني حلال، سواء كان من بني تغلب أو من غيرهم، وكذلك اليهود. قال: ولا خلاف بين العلماء أن ما لا يحتاج إلى نكاة كالطعام يجوز أكله. قوله: ﴿وَطَعَامَكُمْ حَلَّ لَكُمْ﴾ أي: وطعام المسلمين حلال لأهل الكتاب، وفيه دليل على أنه يجوز

يُؤْيُوكُمْ وَيُؤْيُوكُمْ وَنَهَى مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَنَهَى عَنْكُمْ أَنْ تَتَكَبَّرُوا ①

قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ إذا أردتم القيام تعبيراً بالمسبب عن السبب، كما في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: 98]. وقد اختلف أهل العلم في هذا الأمر عند إرادة القيام إلى الصلاة، فقالت طائفة: هو عام في كل قيام إليها، سواء كان القائم متطهراً أو محدثاً، فإنه ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ، وهو مروى عن علي وعكرمة. وقال ابن سيرين: كان الخلفاء يتوضئون لكل صلاة. وقالت طائفة أخرى: إن هذا الأمر خاص بالنبي ﷺ وهو ضعيف، فإن الخطاب للمؤمنين والأمر لهم. وقالت طائفة: الأمر للنسب طلباً للفضل. وقال آخرون: إن الوضوء لكل صلاة كان فرضاً عليهم بهذه الآية، ثم نسخ في فتح مكة. وقال جماعة: هذا الأمر خاص بمن كان محدثاً. وقال آخرون: المراد إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، فيعم الخطاب كل قائم من نوم. وقد أخرج مسلم، وأحمد وأهل السنن عن بريدة قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح، توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله، فقال: عمداً فعلته يا عمر، وهو مروى من طرق كثيرة بالفاظ متفقة في المعنى. وأخرج البخاري وأحمد، وأهل السنن، عن عمرو بن عامر الانصاري سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث، فنقرر بما نكر أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث، وبه قال جمهور أهل العلم وهو الحق. قوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الوجه في اللغة مأخوذ من المواجهة، وهو عضو مشتمل على أعضاء، وله طول وعرض، فحده في الطول: من مبتدئ سطح الجبهة إلى منتهى اللحيين، وفي العرض: من الأذن إلى الأذن، وقد ورد الليل بتخيل اللحية. واختلف العلماء في غسل ما استرسل، والكلام في ذلك مبسوط في موطنه. وقد اختلف أهل العلم أيضاً: هل يعتبر في الغسل البلك باليد أم يكفي إمرار الماء، والخلاف في ذلك معروف، والمرجع اللغة العربية، فإن ثبت فيها أن البلك داخل في مسمى الغسل، كان معتبراً، وإلا فلا. قال في شمس العلوم: غسل الشيء غسلاً: إذا أجري عليه الماء ولكنه انتهى. وأما المضمضة والإستنشاق، فإذا لم يكن لفظ الوجه يشمل باطن الفم والأنف، فقد ثبت غسلها بالسنة الصحيحة، والخلاف في الوجوب وعدمه معروف. وقد أوضحنا ما هو الحق في مؤلفاتنا. قوله: ﴿يُؤْيُوكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ إلى الغاية، وأما كون ما بعدها يدخل فيما قبلها فمحل خلاف. وقد ذهب سيبويه وجماعة إلى أن ما بعدها إن كان من نوع ما قبلها نخل وإلا فلا؛ وقيل إنها هنا بمعنى مع. وذهب قوم إلى أنها تفيد الغاية مطلقاً، وأما الدخول وعدمه فامر يدور مع الدليل. وقد ذهب الجمهور إلى أن المرافق تغسل، واستدلوا بما

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن أبي رافع: أن النبي ﷺ أمره بقتل الكلاب في الناس، فقالوا: يا رسول الله ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا حَلَّ لَهُمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه. وأخرج أيضاً عن محمد بن كعب القرظي نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير: أن عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين، سألا رسول الله ﷺ، فقالا يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فنزلت. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبي: أن عدي بن حاتم الطائي أتى رسول الله ﷺ فسأله، فنكر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ قال: هي الكلاب المعلمة، والبزاي والجوارح يعني: الكلاب والفهود والصقور وأشباهها. وأخرج ابن جرير عنه قال: آية المعلم أن يمسك صيده فلا ياكل منه حتى يأتي صاحبه. وأخرج عنه أيضاً قال: إذا اكل الكلب فلا تاكل، فإنما أمسك على نفسه. وأخرج عبد بن حميد عنه نحوه، وإذا اكل الصقر فلا تاكل، لأن الكلب تستطيع أن تضر به، والصقر لا تستطيع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عنه في قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ إِذَا تَمَرَّتْ﴾ قال: ثباتهم، وفي قوله: ﴿وَالْمُحَصَّنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: حل لكم ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ لِجَوْرِهِنَّ﴾ يعني: مهورهن ﴿مُحَصَّنَاتٌ﴾ يعني: تنكهنن بالمهر والبينة ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ غير متفاليين بالزنا ﴿وَلَا مَتَّخِذِي إِخْدَانٍ﴾ يعني: يسوئن بالزنا. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَالْمُحَصَّنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحَصَّنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال: أحل الله لنا محصنتين: محصنة مؤمنة، ومحصنة من أهل الكتاب. نسأؤنا عليهم حرام، ونسأؤهم لنا حلال. وأخرج ابن جرير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «فتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجن نساءنا». وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عمر بن الخطاب قال: المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة. وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: إنما أحلت نباث اليهود والنصارى من أجل أنهم آمنوا بالتوراة والإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَالْمُحَصَّنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال الحرائر. وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال: العفائف.

يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْغَبًا عَنْ سَرِّ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا

يجزئ مسحهما؛ لأن شأن المسح أن يصيب ما أصاب ويخطئ ما أخطأ، فلو كان مجزئاً لما قال «ويل للأعقاب من النار»، وقد ثبت عنه أنه قال بعد أن توضأ وغسل رجليه: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به. وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره: أن رجلاً توضأ فترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له: أرجع فأحسن وضوءك. وأما المسح على الخفين، فهو ثابت بالأحاديث المتواترة. وقوله: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الكلام فيه كاللّام في قوله: ﴿إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ﴾. وقد قيل: في وجه جمع المرفاق وتثنية الكعاب إنه لما كان في كل رجل كعبان ولم يكن في كل يد إلا مرفق واحد ثنيت الكعاب تنبيهاً، على أن لكل رجل كعبين، بخلاف المرفاق فإنها جمعت لأنه لما كان في كل يد مرفق واحد لم يتوهم وجود غيره، نكر معنى هذا ابن عطية. وقال الكواشي: ثنى الكعبين وجمع المرفاق لنفي توهم أن في كل وحدة أمن الرجلين كعبين، وإنما في كل واحدة كعب واحد، له طرفان من جانبي الرجل، بخلاف المرفق فهي أبعد عن الوهم انتهى.

وبقي من فرائض الوضوء النية والتسمية ولم يذكرها في هذه الآية، بل وردت بهما السنة؛ وقيل إن في هذه الآية ما يدل على النية، لأنه لما قال: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ كان تقدير الكلام: فاغسلوا وجوهكم لها، وذلك هو النية المعتبرة. وقوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَرُوا﴾ أي فاغتسلوا بالماء. وقد ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود إلى أن الجنب لا يتيمم البتة بل يدع الصلاة حتى يجد للماء استدلالاً بهذه الآية، وذهب الجمهور إلى وجوب التيمم للجنب مع عدم الماء، وهذه الآية هي للواجد، على أن التطهر هو أعم من الحاصل بالماء أو بما هو عوض عنه مع علمه، وهو التراب. وقد صح عن عمر وابن مسعود الرجوع إلى ما قاله الجمهور، للأحاديث الصحيحة الواردة في تيمم الجنب، مع عدم الماء. وقد تقدّم تفسير الجنب في النساء. وقوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء: 43] قد تقدّم تفسير هذا في سورة النساء مستوفي، وكذلك تقدّم الكلام على ملازمة النساء، وعلى التيمم وعلى الصعيد، ومن في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ لا ابتداء الغاية، وقيل للتبعيض. قيل وجه تكرير هذا هنا لاستيفاء الكلام في أنواع الطهارة: ﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما يريد بأمركم بالطهارة بالماء أو بالتراب التضييق عليكم في الدين، ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] ثم قال: ﴿وَلَكِنْ يَرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾ من الذنوب، وقيل: من الحدث الأصغر والكبير، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالترخيص لكم في التيمم عند عدم الماء، أو بما شرعه لكم من الشرائع التي عرّضكم بها للثواب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته عليكم، فتستحقون بالشكر ثواب الشاكرين.

وقد أخرج مالك والشافعي، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، عن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى

أخرجه الدارقطني والبيهقي من طريق القاسم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جده، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه، ولكن، للقاسم، هذا متروك، وجده ضعيف. قوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ قيل: الباء زائدة، والمعنى: امسحوا رؤوسكم، وذلك يقتضي تعميم المسح لجميع الرأس وقيل هي للتبعيض، وذلك يقتضي أنه يجزئ مسح بعضه. واستدل القائلون بالتعميم بقوله تعالى في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ﴾ ولا يجزئ مسح بعض الوجه اتفاقاً؛ وقيل إنها للإصاق: أي الصقوا أيديكم برؤوسكم، وعلى كل حال، فقد ورد في السنة المطهرة ما يفيد أنه يكفي مسح بعض الرأس، كما أوضحناه في مؤلفاتنا، فكان هذا دليلاً على المطلوب غير محتمل كاحتمال الآية على فرض أنها محتملة، ولا شك أن من أمر غيره بأن يمسح رأسه، كان ممتثلاً بفعل ما يصق عليه مسمى المسح، وليس في لغة العرب ما يقتضي أنه لا بد في مثل هذا الفعل من مسح جميع الرأس، وهكذا سائر الأفعال المتعبدية نحو اضرب زيداً أو اطعمه أو ارجمه، فإنه يوجد المعنى العربي بوقوع الضرب، أو الطعن، أو الرجم، على عضو من أعضائه، ولا يقول قائل من أهل اللغة أو من هو عالم بها إنه لا يكون ضارباً إلا بإيقاع الضرب على كل جزء من أجزاء زيد، وكذلك الطعن والرجم وسائر الأفعال، فاعرف هذا حتى يتبين لك ما هو الصواب من الأقوال في مسح الرأس. فإني قلت: يلزم مثل هذا في غسل الوجه واليدين والرجلين. قلت: ملتزم لولا البيان من السنة في الوجه، والتحديد بالغاية في اليدين والرجلين بخلاف الرأس، فإنه ورد في السنة مسح الكل ومسح البعض. قوله: ﴿وَأَرْجِلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قرأ نافع بنصب الأرجل، وهي قراءة الحسن البصري والأعمش، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة بالجر. وقراءة النصب، تدل على أنه يجب غسل الرجلين، لأنها معطوفة على الوجه، وإلى هنا ذهب جمهور العلماء. وقراءة الجر تدل على أنه يجوز الاختصار على مسح الرجلين لأنها معطوفة على الرأس وإليه ذهب ابن جرير الطبري، وهو مروى عن ابن عباس. قال ابن العربي: اتفقت الأمة على وجوب غسلها وما علمت من رد ذلك إلا الطبري من فقهاء المسلمين، والرافضة من غيرهم، وتعلق الطبري بقراءة الجر، قال القوطبي: قد روى عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلةً ومسحاً، قال: وكان عكرمة يمسح رجليه؛ وقال ليس في الرجلين غسل، إنما نزل فيهما المسح. وقال عامر الشعبي: نزل جبريل بالمسح. قال: وقال قتادة: افترض الله مسحين وغسلتين. قال: وذهب ابن جرير الطبري إلى أن فرضهما التخير بين الغسل والمسح وجعل للقراءتين كالروايتين، وقواه النحاس ولكنه قد ثبت في السنة المطهرة بالأحاديث الصحيحة من فعله ﷺ، وقوله غسل الرجلين فقط، وثبت عنه أنه قال: «ويل للأعقاب من النار»، وهو في الصحيحين وغيرهما فأفاد وجوب غسل الرجلين، وأنه لا

تفيد أنهم مأمورون بأن يقوموا بها أتم قيام ﴿الله﴾ أي: لأجله تعظيماً لأمره وطمعاً في ثوابه. والقسط: العدل. وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿يجرمكم﴾ مستوفى: أي لا يحملكم بغض قوم على ترك العدل، وكنتم الشهادة ﴿اعدلوا هو﴾ أي: العدل المنلول عليه بقوله: اعدلوا ﴿أقرب للتقوى﴾ التي أمرتم بها غير مرة: أي أقرب لأن تتقوا الله، أو لأن تتقوا النار. قوله ﴿لهم مغفرة ولجر عظيم﴾ هذه الجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني لقوله: ﴿وعدهم﴾ على معنى: وعدهم أن لهم مغفرة، أو وعدهم مغفرة فوقعت الجملة موقع المفرد فاغنت عنه، ومثله قول الشاعر:

وجننا للصالحين لهم جزاء وجنات وعيناً سلسبيلاً
قوله: ﴿أصحاب الجحيم﴾ أي: ملابسوها. قوله: ﴿إذ هم قوم﴾ ظرف لقوله: ﴿انكروا﴾ أو للنعمة، أو لمحنوف وقع حالاً منها ﴿أن يبسطوا﴾ أي: بأن يبسطوا. وقوله: ﴿فكف﴾ معطوف على قوله: ﴿هم﴾ وسيأتي بيان سبب نزول هذه الآية، وبه يتضح المعنى.

وقد أخرج ابن جرير، والطبراني في الكبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ يعني حين بعث الله النبي ﷺ، وأنزل عليه الكتاب قالوا آمناً بالنبى والكتاب، وأقرنا بما في التوراة، فنكرهم الله ميثاقه الذي أقرؤا به على أنفسهم، وأمرهم بالوفاء به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد قال: النعم الآلاء، وميثاقه الذي واثقهم به، قال الذي واثق به بني آدم، في ظهر آدم عليه السلام. وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير، في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ الآية. قال: نزلت في يهود خيبر، ذهب إليهم رسول الله ﷺ يستفتيهم في بية، فهموا أن يقتلوه، فذلك قوله: ﴿ولا يجرمكم شنان قوم على أن لا تعملوا﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ، نزل منزلاً فافترق الناس في العضاء يستظلون تحتها، فعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيفه فأخذه فسله، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله، قال الأعرابي: مرتين أو ثلاثاً من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: الله، فشم الأعرابي السيف، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم بصنيع الأعرابي وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه. قال معمر: وكان قتادة ينكر نحو هذا. ويذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا بالنبي ﷺ، فأرسلوا هذا الأعرابي، ويتأول: ﴿انكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ الآية. وأخرج الحاكم وصححه، عنه بنحوه، ويذكر أن اسم الرجل غورث بن الحارث، وأنه لما قال النبي ﷺ «الله» سقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ، قال: فشهد أن لا إله إلا الله. وأخرجه أيضاً ابن إسحاق وأبو نعيم في الدلائل

للصلاة. قال قمتم من المضاجع، يعني: النوم. وأخرج ابن جرير عن السدي مثله. وأخرج ابن جرير أيضاً عنه يقول: إذا قمتم وأنتم على غير طهر. وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن، في قوله: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ قال: نك الغسل اللدك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، عن أنس أنه قيل له: إن الحجاج خطبنا فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وأنه ليس شيء من ابن آدم أقرب إلى الخبث من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما. قال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله: ﴿وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم﴾ وكان أنس إذا مسح قدميه بلهما. وأخرج سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على غسل القدمين. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿من حرج﴾ قال: من ضيق. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ قال: تمام النعمة دخول الجنة، لم يتم نعمته على عبد لم يدخل الجنة.

وَأَنكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِنَعَهُ الْآزَى وَانفَكَم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَوْنَا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذَا نَسْرٍ ﴿١٧٢﴾ يَأْتِيهَا الْآزَى أَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِمَا شَهِدَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّ شَنَاَنٌ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٧٥﴾ يَأْتِيهَا الْآزَى أَمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ لَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٧٦﴾

﴿نعمة الله﴾ قيل: هي الإسلام. والميثاق: العهد؛ قيل المراد به هنا: ما أخذه على بني آدم كما قال ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ [الأعراف: 172] الآية. قال مجاهد وغيره: نحن وإن لم ننكره فقد أخبرنا الله به؛ وقيل هو خطاب لليهود، والعهد: ما أخذه عليهم في التوراة. وذهب جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم، إلى أنه العهد الذي أخذه النبي ﷺ ليلة العقبة عليهم، وهو السمع والطاعة في المنشط والمكروه، وأضافه تعالى إلى نفسه؛ لأنه عن أمره وإنه، كما قال ﴿إنما يبايعون الله﴾ [الفتح: 10]، وبيعة العقبة منكرة في كتب السير، وهذا متصل بقوله ﴿أوفوا بالعقود﴾ [المائدة: 1]. قوله ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ أي: وقت قولكم هذا القول، وهذا متعلق بواثقكم، أو بمحنوف وقع حالاً أي: كائننا هذا الوقت. و﴿ذات الصدور﴾: ما تخفيه الصدور؛ لكونها مختصة بها لا يعلمها أحد، ولهذا أطلق عليها ذات التي بمعنى صاحب، وإذا كان سبحانه عالماً بها، فكيف بما كان ظاهراً جلياً. قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين﴾ قد تقدم تفسيرها في النساء، وصيغة المبالغة في ﴿قوامين﴾

عنه. وأخرج أبو نعيم في الدلائل، عن ابن عباس: أن بني النضير هموا أن يطرحوا حجراً على النبي ﷺ ومن معه، فجاء جبريل فأخبره بما هموا، فقام ومن معه، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ فِي الْآيَةِ، وَرَوَى نَحْوَ هَذَا مِنْ طَرُقٍ عَنْ غَيْرِهِ، وَقِصَّةُ الْأَعْرَابِيِّ وَهُوَ غَوْرَثُ الْمَنْكُورِ ثَابِتَةٌ فِي الصَّحِيحِ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُعْطِيَنَّكُم مِّنْ فَضْلِيٍّ كَثِيرٍ لِّمَن تَعْمَلُونَ خَيْرًا مِّنْ تَعْمَلُونَ لَوْ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ قَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢٨﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ بَيِّنَتُهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَازِيهِمْ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٩﴾ وَمِمَّنْ أَلْفَنَّا قَالُوا إِنَّا نَعْبُدُكَ أَحَدًا وَبَيْنَهُمْ قَسَا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَاعْفَنَّا عَنْهُمْ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءُوكَ يُخَيِّلُونَكَ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ كلام مستأنف يتضمن نكر بعض ما صدر من بني إسرائيل من الخيانة. وقد تقدم بيان الميثاق الذي أخذه الله عليهم. واختلف المفسرون في كيفية بعث هؤلاء النقباء، بعد الإجماع منهم على أن النقيب كبير القوم العالم بأمورهم الذي ينقب عنها وعن مصالحهم فيها، والنقاب: الرجل العظيم الذي هو في الناس على هذه الطريقة، ويقال نقيب القوم لشاهدتهم وضمينهم. والنقيب: الطريق في الجبل هذا أصله، وسمي به نقيب القوم لأنه طريق إلى معرفة أمورهم. والنقيب: أعلى مكانا من العريف، فقليل المراد ببعث هؤلاء النقباء، أنهم بعثوا أمناء على الإطلاع على الجبارين، والنظر في قوتهم ومنعتهم ليختبروا حال من بها ويخبروا بذلك، فاطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة وظنوا أنهم لا قبل لهم بها، فتماعنوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بني إسرائيل، وأن يعلموا به موسى، فلما انصرفوا إلى بني إسرائيل خان منهم عشرة فأخبروا قرايباتهم، ففشا الخبر حتى بطل أمر الغزو، وقالوا ﴿أذهب أنت وربك فقاتلا﴾ [المائدة: 24] وقيل إن هؤلاء النقباء كفل كل واحد منهم على سبطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله، وهذا معنى بعثهم، وسيأتي ذكر بعض ما قاله جماعة من السلف في ذلك. قوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: قال ذلك لبني إسرائيل، وقيل للنقباء؛ والمعنى: إني معكم بالنصر والعون، واللام في قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ هي: الموطئة للقسم المحذوف، وجوابه: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ وهو ساء مسد جواب الشرط. والتعزيز: التعظيم والتوقير، وأنشد أبو عبيدة:

وكم من ماجد لهم كريم
ومن ليث يعززي الندي
أي يعظم ويوقر. ويطلق التعزيز على الضرب والردة، يقال

عزرت فلانا: إذا أثبتته ورببته عن القبيح، فقوله: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي: عظمتوهم على المعنى الأول، أو رببتم عنهم أعداءهم ومنعتوهم على الثاني. قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: انفقتم في وجه الخير، ﴿وَقَرْضًا﴾ مصدر محذوف الزوائد، كقوله تعالى: ﴿وَأَبْتَاهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 37] أو مفعول ثان لأقراضتم. والحسن: قيل هو ما طابت به النفس؛ وقيل ما ابتغى به وجه الله؛ وقيل الحلال. قوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد الميثاق أو بعد الشرط المنكور، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: أخطأ وسط الطريق. قوله: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ الباء سببية وما زائدة، أي: فبسبب نقضهم ميثاقهم: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي: طريئاهم وأبعناهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي: صلبة لا تعي خيرا ولا تغفله. وقرأ حمزة والكسائي «قسية» بتشديد الباء من غير ألف، وهي قراءة ابن مسعود والنخعي ويحيى بن وثاب، يقال درهم قسي مخفف السين مشدد الباء: أي زائف، نكر ذلك أبو عبيد. وقال الأصمعي وأبو عبيدة: درهم قسي كأنه معرب قاس. وقرأ الأعمش «قسية» بتخفيف الباء وقرأ الباقون: «قاسية» ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَازِيهِ﴾ الجملة مستأنفة لبيان حالهم أو حالية أي: يبدلون بغيره أو يتأولونه على غير تأويله. وقرأ السلمي والنخعي «الكلام». قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي: لا تزال يا محمد تقف على خائنة منهم، والخائنة: الخيانة؛ وقيل هو نعت لمحذوف، والتقدير فرقة خائنة، وقد تقع للمبالغة نحو علامة ونسابة إذا أردت المبالغة في وصفه بالخيانة؛ وقيل خائنة معصية. قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ استثناء من الضمير في منهم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ قيل: هذا منسوخ بآية السيف؛ وقيل: خاص بالمعامنين. قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ لخصنا ميثاقهم الجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿لَخَائِنَةٌ﴾ والتقديم للاهتمام، والتقدير: واخذنا من الذين قالوا إِنَّا نَصَارَى ميثاقهم، أي: في التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به. قال الأخفش: هو كقولك أخذت من زيد ثوبه ودرهمه، فرتبة الذين بعد أخذنا. وقال الكوفيون بخلافه؛ وقيل إن الضمير في قوله: ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ راجع إلى بني إسرائيل: أي أخذنا من النصارى مثل ميثاق المنكوريين قبلهم من بني إسرائيل، وقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ ولم يقل، ومن النصارى، للإيذان بأنهم كانوا في دعوى النصرانية وأنهم أنصار الله. قوله: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: نسوا من الميثاق المأخوذ عليهم نصيباً وأفرا عقب أخذه عليهم: ﴿فَإِغْوَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أي: الصقنا ذلك بهم، مأخوذ من الغراء: وهو ما يلصق الشيء بالشيء كالصمغ وشبهه يقال غرى بالشيء يغري غرأً بفتح الغين مقصوداً، وغراء بكسرهما مملوءاً أي أولع به حتى كأنه صار ملتصقاً به، ومثل الإغراء التحرش، وإغريت الكلب: أي أولعته بالصيد،

منهم ﴿ قال: هم يهود مثل الذي هموا به من النبي ﷺ يوم دخل عليهم حائطهم. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ قال: كذب وفجور، وفي قوله: ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ قال: لم يؤمر يومئذ بقتالهم، فأمره الله أن يعفو عنهم ويصفح، ثم نسخ ذلك في براءة فقال ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ [التوبة: 29] الآية. وأخرج أبو عبيد وابن جرير، وابن المنذر عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ قال: أغرى بعضهم ببعض بالخصومات والجدال في الدين.

يَتَأَخَّلُ الْكَتَبَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكَتَبِ وَيُفَسِّحُ عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥٦﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ بِرِضْوَانٍ مَبْجُوبٍ أَتَى عَلَى الْكَافِرِينَ النَّارُ وَالْأَعْيُنُ عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاقْبَلُوا الذِّكْرَ وَاسْمِعُوا بَنِيكُمْ قَوْلَ الْمُرْسَلِينَ وَاسْمِعُوا بَنِيكُمْ قَوْلَ الْمُرْسَلِينَ وَاسْمِعُوا بَنِيكُمْ قَوْلَ الْمُرْسَلِينَ

الألف واللام في الكتاب للجنس، والخطاب لليهود والنصارى ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ أي: محمد ﷺ حال كونه: ﴿يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ المنزل عليكم، وهو التوراة والإنجيل: كآية الرجم وقصة أصحاب السبت المسوخين قردة ﴿ويعفوا عن كثير﴾ مما تخفونه، فيترك بيانه لعدم اشتماله على ما يجب بيانه عليه من الأحكام الشرعية، فإن ما لم يكن كذلك لا فائدة تتعلق ببيانه إلا مجرد افتضاحكم؛ وقيل المعنى: إنه يعفو عن كثير فيتجاوز به ولا يخبركم به؛ وقيل: يعفو عن كثير منكم فلا يؤاخذهم بما يصدر منهم، والجملة في محل نصب عطفاً على الجملة الحالية: أعني قوله: ﴿يبين لكم﴾. قوله: ﴿قد جاءكم من الله نور﴾ جملة مستأنفة مشتملة على بيان أن محمداً ﷺ قد تضمنت بعثته فوائد غير ما تقدم من مجرد البيان. قال الزجاج: النور: محمد ﷺ، وقيل الإسلام. والكتاب المبين: القرآن، فإنه المبين، والضمير في قوله: ﴿يهدي به﴾ راجع إلى الكتاب أو إليه وإلى النور لكونهما كالشيء الواحد ﴿ومن اتبع رضوانه﴾ أي: ما رضى الله، و﴿سبيل السلام﴾: طرق السلامة من العذاب الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة؛ وقيل المراد بالسلام: الإسلام ﴿ويخرجهم من الظلمات﴾ الكفرية ﴿إلى النور﴾ الإسلامي، ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ إلى طريق يتوصلون بها إلى الحق، لا عوج فيها ولا مخافة.

وقد أخرج ابن جرير، عن قتادة، في قوله: ﴿رسولنا﴾ قال: هو محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير أيضاً عن عكرمة قال: إن نبي الله ﷺ أتاه اليهود يسألونه عن الرجم فقال: أيكم أعلم؟ فأشاروا إلى ابن صوريا، فنشده بالذي أنزل التوراة على موسى، والذي رفع الطور بالمواثيق التي أخذت عليهم حتى أخذوا أكل، فقال: إنه لما كثر فينا جلننا مائة جلدة

والمراد بقوله: ﴿بينهم﴾ اليهود والنصارى؛ لتقدم نكرهم جمعاً؛ وقيل: بين النصارى خاصة، لأنهم أقرب منكور، وذلك لأنهم افترقوا إلى اليعقوبية والنسطورية والملكانية، وكفر بعضهم بعضاً، وتظاهروا بالعداوة في ذات بينهم. قال النحاس: وما أحسن ما قيل في معنى: ﴿فاعف عنهم واصفح﴾: إن الله عز وجل أمر بعداوة الكفار وإبغاضهم، فكل فرقة مأمورة بعداوة صاحبها وإبغاضها قوله: ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ تهديد لهم: أي سيلقون جزاء نقض الميثاق.

وقد أخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ قال: أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره ﴿ويعتدنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي: كفيلاً كفلاً عليهم بالوفاء لله بما اتفقوا عليه من العهد فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿الذي أخذنا من بني إسرائيل ميثاقهم﴾ قال: من كل سبط من بني إسرائيل رجال أرسلهم موسى إلى الجبارين، فوجدهم يدخل في كم أحدهم اثنين منهم، ولا يحمل عنقود عندهم إلا خمسة أنفس منهم في خشبة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة، فرجع النقيب كلهم ينهى سبطه عن قتالهم، إلا يوشع بن نون، وكالب بن يافنة، فإنهما أمرا الأسباط بقتال الجبارين، ومجاهدتهم فعضوهم وأطاعوا الآخرين، فهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما، فتاهت بنو إسرائيل أربعين سنة، يصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا، في تيههم ذلك، فضرب موسى الحجر لكل سبط عينا حجراً لهم يحملونه معهم، فقال لهم موسى: اشربوا يا حمير، فنهاه الله عن سبهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿الذي أخذنا من بني إسرائيل ميثاقهم﴾ قال: أخذنا من بني إسرائيل ميثاقهم موسى لينظروا إلى المدينة، فجاءوا بحبة من فاكهتهم وقر رجل، فقال: اقتدروا قوة قوم وبأسهم، وهذه فاكهتهم، فعند ذلك فتنوا فقالوا لا نستطيع القتال ﴿فأذهب أنت وربك فقاتلا﴾ [المائدة: 24] وقد ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء الأسباط، وأسماؤهم منكورة في السفر الرابع من التوراة، وفيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وعزرتهموه﴾ قال: أعنتهموه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وعزرتهموه﴾ قال: نصرتهموه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿فيما نقضهم ميثاقهم﴾ قال: هو ميثاق أخذ الله على أهل التوراة فنقضوه. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ يعني حدود الله، يقولون إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه، وإن خالفكم فاحذروا، وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ونسوا حظاً مما تركوا به﴾ قال: نسوا الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة﴾

وحالفنا الرؤوس، فحكم عليهم بالرجم، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿ويعفوا عن كثير﴾ يقول: عن كثير من الذنوب. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: ﴿سبيل للسلام﴾ هي: سبيل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه وابتعث به رسله: وهو الإسلام.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣١﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَتَوَكَّلُ عَلَى سَيْكِهِ وَلَهُ يَكُونُ الْمُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣٢﴾

ضمير الفصل في قوله: ﴿هو للمسيح﴾ يفيد الحصر؛ قيل: وقد قال بذلك بعض طوائف النصارى؛ وقيل: لم يقل به أحد منهم، ولكن استلزم قولهم: ﴿إن الله هو للمسيح﴾ لا غيره، وقد تقدّم في آخر سورة النساء ما يكفي ويغني عن التكرار. قوله: ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، والملك، والملك: الضبط والحفظ والقدرة، من قولهم ملكت على فلان أمره: أي قدرت عليه: أي فمن يقدر أن يمنع إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً، وإذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك، فلا إله إلا الله، ولا ربّ غيره، ولا معبود بحق سواه، ولو كان المسيح إلهاً كما تزعم النصارى، لكان له من الأمر شيء، ولقدر على أن يدفع عن نفسه أقل حال، ولم يقدر على أن يدفع عن أمه الموت عند نزوله بها، وتخصيصها بالذكر مع دخولها في عموم من في الأرض، لكون الدفع منه عنها أولى وأحق من غيرها، فهو إذا لم يقدر على الدفع عنها، أعجز عن أن يدفع عن غيرها، ونكر من في الأرض للدلالة على شمول قدرته، وأنه إذا أراد شيئاً كان لا معارض له في أمره، ولا مشارك له في قضائه: ﴿هو ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي: ما بين النوعين من المخلوقات. قوله: ﴿يخلق ما يشاء﴾ جملة مستأنفة مسوقة؛ لبيان أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته، وأنه يقدر على كل شيء لا يستصعب عليه شيء. قوله: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وإحباؤه﴾ أثبت اليهود لأنفسها ما أثبتته لعزير، حيث قالوا ﴿عزير ابن الله﴾ [التوبة: 30] وأثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا ﴿المسيح ابن الله﴾ [التوبة: 30] وقيل هو على حذف مضاف: أي نحن أتباع أبناء الله، وهكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء الله بمجرد الدعوى الباطلة والاماني العاطلة، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يردّ عليهم، فقال: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ أي: إن كنتم كما تزعمون، فما باله يعذبكم بما تقتربونه من الذنوب بالقتل، والمسح، وبالنار في يوم القيامة

كما تعترفون بذلك، لقولكم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ [البقرة: 80] فإن الابن من جنس أبيه لا يصدر عنه ما يستحيل على الأب وأنتم تنبئون، والحبیب لا يعذب حبيبه وأنتم تعذبون، فهذا يدل على أنكم كاذبون في هذه الدعوى. وهذا البرهان هو المسمى عند الجليليين ببرهان الخلف. قوله: ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ عطف على مقدر يدل عليه الكلام: أي فلستم حينئذ كذلك، ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ أي: من جنس من خلقه الله تعالى يحاسبهم على الخير والشر، ويجازي كل عامل بعمله ﴿يعفّر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ والله ملك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ﴿والله للمصير﴾ أي: تصيرون إليه عند انتقالكم من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء وبحري بن عمرو وشاس بن عدي فكلّمهم وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله، وحذّره ثم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد ﴿نحن أبناء الله وإحباؤه﴾ كقول النصارى؛ فأنزل الله فيهم: ﴿وقالت اليهود والنصارى﴾ إلى آخر الآية. وأخرج أحمد في مسنده عن أنس قال: مرّ النبي ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول، ابني ابني، فسعت فأخّذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار؟ فقال النبي ﷺ: لا، والله لا يلقي حبيبه في النار. وإسناده في المسند هكذا: حدثنا، ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس فنكره. ومعنى الآية يشير إلى معنى هذا الحديث، ولهذا قال بعض مشايخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يردّ عليه، فثلا الصوفي هذه الآية، وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن أن النبي ﷺ قال: ﴿لا والله، لا يعذب الله حبيبه، ولكن قد يبتليه في الدنيا. وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: ﴿يعفّر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ يقول: يهدي منكم من يشاء في الدنيا فيغفر له، ويميت من يشاء منكم على كفره فيعذبه.

يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى. والرسول هو محمد ﷺ ﴿ويبين لكم﴾ حال. والمبين هو: ما شرعه الله لعباده وحفّ للمعلم به، لأن بعثة الرسل إنما هي بذلك. والفترة أصلها السكون، يقال فتر الشيء: سكن؛ وقيل: هي الانقطاع. قاله أبو علي الفارسي وغيره؛ ومنه فتر الماء: إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخونة؛ وفتر الرجل عن عمله: إذا انقطع عما كان عليه من الجدّ فيه، وامرأة فاترة الطرف: أي منقطعة عن حدة النظر. والمعنى: أنه انقطع الرسل قبل بعثه ﷺ مدة من الزمان. واختلف في قدر مدة

من الذين يخافهم بنو إسرائيل. وقرأ مجاهد وسعيد بن جببر «يخافون» بضم الياء: أي يخافهم غيرهم. قوله: «أنعم الله عليهما» في محل رفع على أنه صفة ثانية لرجلان، بالإيمان، واليقين بحصول ما وعدوا به من النصر والظفر: «انخلوا عليهم للباب» أي: باب بلد الجبارين، «فإذا نخلتموه فإنكم غاليون» قالوا هذه المقالة لبني إسرائيل. والظاهر: أنهما قد علما بذلك من خبر موسى، أو قالاه ثقة بوعد الله، أو كانا قد عرفا أن الجبارين قد ملئت قلوبهم خوفاً ورعباً. «قالوا» أي: بنو إسرائيل لموسى: «إنا لن نخلها لبداً ما داموا فيها» وكان هذا القول منهم فشلاً وجبناً، أو عناداً وجرأة على الله وعلى رسوله «فأذهب أنت وربك فقتلا» قالوا هذا جهلاً بالله عز وجل وبصفاته وكفراً بما يجب له، أو استهانة بالله ورسوله؛ وقيل: أرادوا بالذهاب الإرادة والقصد؛ وقيل أرادوا بالرّبّ هارون، وكان أكبر من موسى، وكان موسى يطيعه: «إنا ها هنا قاعدون» أي: لا نبرح ها هنا لا نتقدم معك ولا نتأخر عن هذا الموضع؛ وقيل أرادوا بذلك عدم التقدم لا عدم التأخر «قال» موسى «ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي» يحتمل أن يعطف وأخي على نفسي، وأن يعطف على الضمير في «إني» أي: إني لا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملك إلا نفسه، قال هذا تحسراً وتحزناً واستجلاً للنصر من الله عز وجل «فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين» أي: افصل بيننا: يعني نفسه وأخاه، وبين القوم الفاسقين، وميزنا عن جملتهم، ولا تلحقنا بهم في العقوبة؛ وقيل المعنى: فاقض بيننا وبينهم؛ وقيل إنما أراد في الآخرة، وقرأ عبيد بن عمير «فافرق» بكسر الراء «قال فإنها» أي: الأرض المقدسة «محرمة عليهم» أي على هؤلاء العصاة بسبب امتناعهم من قتال الجبارين «أربعين سنة» ظرف للتحريم أي: أنه محرم عليهم دخولها هذه المدة لا زيادة عليها، فلا يخالف هذا التحريم تقدم من قوله: «التي كتب الله لكم» فإنها مكتوبة لمن بقي منهم بعد هذه المدة؛ وقيل: إنه لم يدخلها أحد ممن قال «إنا لن نخلها» فيكون توقيت التحريم بهذه المدة باعتبار نزاريهم؛ وقيل: إن «أربعين سنة» ظرف لقوله «يتيهون في الأرض» أي: يتيهون هذا المقدار فيكون التحريم مطلقاً، والموقت: هو التيه، وهو في اللغة الحيرة، يقال منه تاه يتيه تيهاً أو توهاً إذا تحير، فالمعنى: يتحيرون في الأرض؛ قيل: إن هذه الأرض التي تاهوا فيها كانت صغيرة نحو ستة فراسخ كانوا يمشون حيث أصبحوا ويصبحون حيث أمسوا، وكنوا سيرة مستمرين على ذلك لا قرار لهم.

بسبب ذلك «خاسرين» لخير الدنيا والآخرة «قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين» قال الزجاج: الجبار من الأكيمين العاني، وهو الذي يجبر الناس على ما يريد، وأصله على هذا من الإجبار وهو الإكراه، فإنه يجبر غيره على ما يريده، يقال أجبره: إذا أكرهه؛ وقيل: هو مأخوذ من جبر العظم، فأصل الجبار على هذا المصلح لأمر نفسه، ثم استعمل في كل من جَرَّ إلى نفسه نفعاً بحق أو باطل، وقيل: إن جبر العظم راجع إلى معنى الإكراه. قال الفراء: لم أسمع فعلاً من أفعل إلا في حرفين، جبار من لجبر، وبرك من أنرك. والمراد هنا: أنهم قوم عظام الأجسام طوال متعاطمون؛ قيل هم قوم من بقية قوم عاد؛ وقيل هم من ولد عيص بن إسحاق؛ وقيل هم من الروم؛ ويقال إن منهم عوج بن عنق المشهور بالطول المفرط، وعنق هي بنت آدم، قيل كان طوله ثلاثة آلاف نراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين نراعاً وثلاث نراع. قال ابن كثير: وهذا شيء يستحيا من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون نراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص» ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، وأنه كان ولد زنية، وأنه امتنع من ركوب السفينة وإن الطوفان لم يصل إلى ركبته، وهذا كذب واقتراء، فإن الله نكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال: «رب لا تذّر على الأرض من الكافرين نياراً» [نوح: 26]، وقال تعالى: «فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين» [الشعراء: 119، 120] وقال تعالى: «لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم» [هود: 43]. وإذا كان ابن نوح للكافر غرق فكيف بقي عوج بن عنق وهو كافر ولد زنية؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع، ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر والله أعلم، انتهى كلامه.

قلت: لم يأت في أمر هذا الرجل ما يقتضي تطويل الكلام في شأنه، وما هذا بأول كنية اشتهرت في الناس، ولسنا بملزومين برفع الأكايب التي وضعها القصاص، ونفقت عند من لا يميز بين الصحيح والسقيم، فكم في بطون نفاثر التفاسير من أكايب وبلايا، وأقاصيص كلها حديث خرافة، وما أحق من لا تمييز عنده لفن الرواية ولا معرفة به أن يدع التعرّض لتفسير كتاب الله، ويضع هذه الحماقات والأضحوكات في المواضع المناسبة لها، من كتب القصاص. قوله: «فإن يخرجوا منها فإننا دلخون» هذا تصريح بما هو مفهوم من الجملة التي قبل هذه الجملة، لبيان أن امتناعهم من الدخول ليس إلا لهذا السبب. قوله: «قال رجلمان» هما: يوشع وكالب بن يوفنا أو ابن فانيا، وكانا من الاثنى عشر نقيباً كما مرّ بيان ذلك. وقوله: «من الذين يخافون» أي: يخافون من الله عز وجل؛ وقيل: من الجبارين أي: هذان الرجلان من جملة القوم الذين يخافون من الجبارين؛ وقيل من الذين يخافون ضعف بني إسرائيل وجبنهم، وقيل: إن الواء في «يخافون» لبني إسرائيل أي

واختلف أهل العلم هل كان معهم موسى وهارون أم لا؟ فقيل: لم يكونا معهم، لأن التيه عقوبة؛ وقيل: كانا معهم لكن سهل الله عليهما ذلك، كما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم. وقد قيل كيف يقع هذا لجماعة من العقلاء في مثل هذه الأرض اليسيرة، في هذه المدة الطويلة؟ قال أبو علي: يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التي هم عليها إذا ناموا إلى

أثأرهم فتتبعهم، فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كفه مع الفلكهة، حتى التقط الاثني عشر كلهم فجعلهم في كفه مع الفلكهة، وذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه فقال الملك: قد رأيتم شأنا وأمرنا اذهبوا فأخبروا صاحبكم، قال: فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم، فقال: اكنتموا عناه، فجعل الرجل يخبر أباه وصديقه ويقول: اكنتم عني، فأشيع ذلك في عسكرهم، ولم يكتم منهم إلا رجلان يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، وهما اللذان أنزل الله فيهما ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ وقد روي نحو هذا مما يتضمن للمبالغة في وصف هؤلاء وعظم أجسامهم، ولا فائدة في بسط ذلك فغالبه من أكايب القصاص، كما قلنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَافْرِقْ﴾ يقول: اقض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه يقول: أفصل بيننا وبينهم. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ قال: أبداً، وفي قوله: ﴿يَتَّبِعُهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: أربعين سنة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: تاهوا أربعين سنة، فهلك موسى وهارون في التيه، وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة تاهضهم يوشع بن نون، وهو الذي قام بالأمم بعد موسى، وهو الذي افتتحها، وهو الذي قيل له اليوم يوم الجمعة، فهموا بافتتاحها فبنت الشمس للغروب، فخشى أن نخلت ليلة السبت أن يسبقوا، فنادى الشمس إني مأمور وأنت مأمورة فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط، فقرَّبوه إلى النار فلم تات، فقال فيكم الغلول، فدعا رؤوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلاً، فبابعهم والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك فأخرجه، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ، فوضعه مع القربان فأتت النار فكلتها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خلق لهم في التيه ثياب لا تخلق ولا تدرن.

وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ تَبَاً أَبْيَضَ كَالْحَبِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنَقِّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧١﴾ لَئِنْ بَسَطَ إِلَهُ يَدَكَ لَنَقُتْلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّهُ أَكَاثِرُ عَذَابٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾ إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبَاؤُا إِلَيْنِي وَأَنْتُمْ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَطَرَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْقَاسِيَةِ ﴿٧٤﴾ بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوزَكُوعُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْكَرْبِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِينَ ﴿٧٥﴾

وجه اتصال هذا بما قبله التنبيه من الله على أن ظلم اليهود ونقضهم المواثيق والعهود هو كظم ابن آدم لأخيه، فإلهاء قديم، والشر أصيل.

وقد اختلف أهل العلم في ابني آدم المذكورين، هل هما لصلبه أم لا؟ فذهب الجمهور إلى الأول. وذهب الحسن والضحاك إلى الثاني، وقالوا: إنهما كانا من بني إسرائيل،

المكان الذي ابتوتوا منه، وقد يكون بغير ذلك من الأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارقة للعادة.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مِلُوكًا﴾ قال: ملكهم الخدم، وكانوا أوَّل من ملك الخدم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: كان الرجل من بني إسرائيل، إذا كانت له الزوجة والخدم والدار سمي ملكاً. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عنه في الآية قال: «الزوجة والخدم والبيت». وأخرج الفريابي، وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان، عنه أيضاً في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مِلُوكًا﴾ قال: المرأة والخدم «وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين» قال: الذين هم بين ظهرانهم يومئذ. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً». وأخرج ابن جرير، والزبير بن بكار في الموقفيات، عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له بيت وخادم فهو ملك». وأخرج أبو داود في مراسيله، عن زيد بن أسلم في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «زوجة ومسكن وخادم». وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سأله رجل: السنا من فقراء المهاجرين؟ قال: لك امرأة تاري إليها؟ قال نعم، قال: لك مسكن تسكنه؟ قال نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: إن لي خائماً، قال: فأنت من الملوك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مِلُوكًا﴾ قال: جعل لهم أزواجاً وخداماً وبيوتاً «وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين» قال: الممن والسلاوي، والحجر والغمام. وأخرج ابن جرير عن طريق مجاهد عن ابن عباس في الآية قال: الممن والسلاوي والحجر والغمام، وقد ثبت في الحديث الصحيح: «من أصبح منكم معافى في جسده أمناً في سربه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها». وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿اِخْلُوا الْأَرْضَ الْمُقْتَسَةَ﴾ قال: الطور وما حوله. وأخرج عنه أيضاً قال: هي أريحاء. وأخرج ابن عسلك عن معاذ بن جبل قال: هي ما بين العريش إلى الفرات. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة قال: هي الشام. وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: ﴿الَّتِي كُتِبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: التي أمركم الله بها. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال: أمر القوم بها كما أمرنا بالصلاة والزكاة والحج والعمرة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين، فسار بمن معه حتى نزل قريباً من المدينة وهي أريحاء، فبعث إليهم اثني عشر عيناً من كل سبط منهم عين، لياتوه بخير القوم، فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيماً من هيئتهم وجسمهم وعظمتهم، فدخلوا حائطاً لبعضهم فجاء صاحب الحائط: ليجتني الثمار من حائطه، فجعل يجتني الثمار فنظر إلى

هم فيه، ولكن إن خشيت أن يردعك شعاع السيف، فألق طرف رداك على وجهك كي يبرء بإثمك وإثمك». وفي معناه أحاديث عن جماعة من الصحابة سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وخباب بن الارت وأبي بكر وابن مسعود وأبي واقد، وأبي موسى. قوله: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار﴾ هذا تعليل لامتناعه من المقاتلة، بعد التعليل الأول وهو: ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾.

اختلف المفسرون في المعنى فقيل: أراد هابيل إني أريد أن تبوء بالإثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصاً على قتلك، وإثمك الذي تحملته بسبب قتلي؛ وقيل المراد بإثمي الذي يختص بي بسبب سيأتي، فيطرح عليك بسبب ظلمك لي وتبوء بإثمك في قتلي. وهذا يوافق معناه معنى ما ثبت في صحيح مسلم من قوله ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم، فيؤخذ من حسنات الظالم فتزداد في حسنات المظلوم حتى ينتصف، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فطرح عليه»، ومثله قوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [العنكبوت: 13] وقيل المعنى: إني أريد أن لا تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى: ﴿والقى في الأرض رواصي أن تميد بكم﴾ [النحل: 15] أي: أن لا تميد بكم. وقوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: 176] أي: لا تضلوا. وقال أكثر العلماء: إن المعنى: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي﴾ أي: بإثم قتلك لي: ﴿وإثمك﴾ الذي قد صار عليك بذنوبك من قبل قتلي. قال الثعلبي: هذا قول عامة المفسرين وقيل هو على وجه الإنكار أي: أو إني أريد على وجه الإنكار كقوله تعالى ﴿وتلك نعمة﴾ [الشعراء: 22] أي أو تلك نعمة. قاله القشيري، ووجهه بأن إرادة القتل معصية. وسئل أبو الحسن بن كيسان كيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه وإن يدخل النار؟ فقال: وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليه بالقتل، وهذا بعيد جداً، وكذلك الذي قبله. وأصل باء رجع إلى المباءة، وهي المنزل: ﴿وبأثروا بغضب من الله﴾ [آل عمران: 112] أي: رجعوا. قوله: ﴿فطوَّعت له نفسه قتل أخيه﴾ أي: سهلت نفسه عليه الأمر وشجعته وصوّرت له أن قتل أخيه طوع يده سهل عليه، يقال طوَّع الشيء: أي سهل واتقاد وطوَّعه فلان له: أي سهله. قال الهروي: طوَّعت وطاوَّعت واحد، يقال طاع له كذا: إذا أتاح طوعاً، وفي نكر تطويع نفسه له بعد ما تقدّم من قول قابيل ﴿لاقتلنك﴾ وقول هابيل ﴿لنقتلنك﴾ دليل على أن التطويع لم يكن قد حصل له عند تلك المواقلة. قوله ﴿فقتله﴾. قال ابن جرير ومجاهد وغيرهما: روي أنه جهل كيف يقتل أخاه فجاء إبليس بطائر أو حيوان غيره، فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقندي به قابيل ففعل؛ وقيل غير ذلك مما يحتاج إلى تصحيح الرواية. قوله: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سواة أخيه﴾. قيل: إنه لما قتل أخاه لم يدرك كيف يواريه؛ لكونه أوّل ميت مات من بني آدم، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر

فضرب بهما المثل في إبانة حسد اليهود، وكانت بينهما خصومة، فتقرّباً بقربائين ولم تكن القرباين إلا في بني إسرائيل. قال ابن عطية: وهذا وهم كيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم: واسمهما قابيل وهابيل، وكان قربان قابيل حزمة من سنبل، لأنه كان صاحب زرع واختارها من أراد زرعها، حتى إنه وجد فيها سنبله طيبة ففركها وكلها، وكان قربان هابيل كبشاً؛ لأنه كان صاحب غنم أخذها من أجود غنمه، فتقبل قربان هابيل، فرفع إلى الجنة فلم يزل يرفع فيها إلى أن فدى به الذبيح عليه السلام، كذا قال جماعة من السلف، ولم يتقبل قربان قابيل، فحسده وقال لاقتلنك. وقيل: سبب هذا القربان أن حواء كانت تلد في كل بطن نكراً وأنثى، إلا شيئاً عليه السلام فإنها ولدت مفرداً، وكان آدم عليه السلام يروّج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن الآخر. ولا تحل له أخته التي ولدت معه، فولدت مع قابيل أخت واسمها إقليما، ومع هابيل أخت ليست كذلك، واسمها ليودا فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل: أنا أحق باختي، فأمره آدم فلم ياتم وزجره فلم يزوج، فاتفقوا على القربان وأن يتزوجها من تقبل قربانه. قوله: ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر، ﴿واتل﴾ أي: تلاوة متلبسة بالحق، أو صفة لنبا أي: نبأ متلبساً بالحق، والمراد بأحدهما هابيل وبالأخر قابيل، و﴿قال لاقتلنك﴾ استئناف بياني، كأنه فماذا حال الذي لم يتقبل قربانه؟ وقوله: ﴿قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾ استئناف كالأول كأنه قيل: فماذا قال الذي تقبل قربانه؟ وإنما للحصر: أي إنما يتقبل الله القربان من المتقين لا من غيرهم، وكأنه يقول لأخيه: إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلي، فإن عدم تقبل قربانك بسبب عدم تقواك. قوله: ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني﴾ أي: لأن قصدت قتلي، واللام هي الموطئة، و﴿ما أنا بباسط﴾ جواب القسم: سأد مسدّ جواب الشرط، وهذا استسلام للقتل من هابيل، كما ورد في الحديث: «إذا كانت الفتنة فكن خير إبن آدم، وتلا النبي ﷺ هذه الآية» قال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ أن لا يسلم أحد سيفاً وإن لا يمتنع ممن يريد قتله، قال القرطبي: قال علماؤنا: وذلك مما يجوز ورود التعبد به، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعاً، وفي وجوب ذلك عليه خلاف. والأصح، وجوب ذلك لما فيه من النهي عن المنكر، وفي الحشوية قوم لا يجزّون للمصول عليه الدفع، واحتجوا بحديث أبي نر، وحمله العلماء على ترك القتال في الفتنة، وكف اليد عند الشبهة، على ما بيناه في كتاب التذكرة، انتهى كلام القرطبي. وحديث أبي نر المشار إليه هو عند مسلم، وأهل السنن إلا النسائي، وفيه «أن النبي ﷺ قال له: يا أبا نر أرايت إن قتل الناس بعضهم بعضاً كيف تصنع؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: اتعد في بيتك وأغلق عليك بابك، قال: فإن لم أترك، قال: فات من أثت منهم فكن فيهم، قال: فأخذ سلاحه؟ قال: إنن تشاركهم فيما

صاحبه، فحفر له ثم حثا عليه، فلما رآه ﴿قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سنّ القتل». وقد روي في صفة قتله لأخيه روايات الله أعلم بصحتها.

يَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ قَسَاوُ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِوُونَ ﴿١٧١﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُنَطَّقَ أَبْهَدُهُمْ وَأَرْبَعُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَاصْلَحُوا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

قوله: ﴿من أجل ذلك﴾ أي: من أجل ذلك القاتل وجريته وبسبب معصيته، وقال الزجاج: أي من جنائته قال: يقال أجل الرجل على أهله شرأً يأجل أجلًا إذا جنى مثل أخذ يأخذ أخذًا. وقرأ أبو جعفر «من أجل» بكسر النون وحذف الهمزة، وهي لغة. قال في شرح الدرر: قرأ أبو جعفر منفردًا: «من أجل ذلك» بكسر الهمزة مع نقل حركتها إلى النون قبلها؛ وقيل يجوز أن يكون قوله: ﴿من أجل ذلك﴾ متعلقًا بقوله: ﴿من اللّاهمين﴾، فيكون الوقف على قوله: ﴿من أجل ذلك﴾ هو الذي نلّك، والأولى ما قدّمنا، والمعنى: إن نبا ابني آدم هو الذي تسبب عنه الكتب المذكور على بني إسرائيل، وعلى هذا جمهور المفسرين. وخصّ بني إسرائيل بالذكر؛ لأن السياق في تعداد جنائياتهم، ولأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس، ووقع التغليب فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء، وقتلهم للأنبياء وتقديم الجار والمجرور على الفعل الذي هو متعلق به أعني كتبنا: يفيد القصر: أي من أجل نلّك لا من غيره، ومن لابتداء الغاية «أنه من قتل نفساً» واحدة من هذه النفوس «بغير نفس» أي: بغير نفس توجب القصاص، فيخرج عن هذا من قتل نفساً بنفس قصاصاً. قوله: ﴿أو فساد في الأرض﴾ قرأ الجمهور بالجرّ عطفاً على نفس. وقرأ الحسن بالنصب على تقدير فعل محذوف يدلّ عليه أول الكلام تقديره: أو أحدث فساداً في الأرض، وفي هذا ضعف. ومعنى قراءة الجمهور: أن من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً. وقد تقرر أن كل حكم مشروط يتحقق أحد شيئين، فنقيضه مشروط بانتفاء معاً، وكل حكم مشروط بتحققهما معاً، فنقيضه «مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شيء مشروط بنقيض شرطه.

وقد اختلف في هذا الفساد المذكور في هذه الآية ماذا هو؟ فقيل هو الشرك، وقيل قطع الطريق. وظاهر النظم القرآني أنه ما يصديق عليه أنه فساد في الأرض، فالشرك

له ثم حثا عليه، فلما رآه قابيل: ﴿قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فاواري سواة لخي﴾ فواراه، والضمير المستكن في «ليريه» للغراب؛ وقيل لله سبحانه، و«كيف» في محل نصب على الحال من ضمير: «فاواري» والجملة ثاني مفعولي يريه. والمراد بالسوء هنا ذاته كلها لكونها ميتة، و«قال» استئناف جواب سؤال مقدر من سوق الكلام، كأنه قيل: فماذا قال عند أن شاهد الغراب يفعل نلّك؟ و«يا ويلتي» كلمة تحسر وتحزن، والالف بدل من ياء المتكلم كأنه دعا ويلته بأن تحضر في نلّك الوقت، والويلة الهلكة، والكلام خارج مخرج التعجب منه من عدم اهتدائه لمواراة أخيه، كما اهتدى الغراب إلى نلّك «فاواري» بالنصب على أنه جواب الاستفهام، وقرئ بالسكون على تقدير فانا أوري «فأصبح من اللّاهمين» على قتله؛ وقيل: لم يكن ندمه ندم توبة بل ندم لفقده، لا على قتله؛ وقيل غير ذلك.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: «نهى أن تنكح المرأة أخاهما توأمها، وأن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة، وولد له أخرى قبيحة دميّة، فقال أخو الدميّة: انكحني أختك وأنكحك أختي، فقال: لا، أنا أحق بأختي، فقرباً قرباناً، فجاء صاحب الغنم بكيش أعين أقرن أبيض، وصاحب الحرث بصيرة من طعام فتقبل من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع». قال ابن كثير في تفسيره: إسناده جيد، وكذا قال السيوطي في الدر المنثور. وأخرج ابن جرير عنه قال: كان من شأن بني آدم أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه، وإنما كان القربان يقرّبه الرجل، فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالوا قرينا ثم نكرا ما قرباه. وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿لكن بسطت إلي يدي﴾ قال: كتب عليهم إذا أراد الرجل أن يقتل رجلاً تركه ولا يمتنع منه. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ يقول: إني أريد أن تكون عليك خطيئتك، وبمي، فتبوء بهما جميعاً. وأخرج ابن جرير عنه «بإثمي»: قال بقتلك إياي، «وإثمك»، قال: بما كان منك قبل نلّك. وأخرج عن قتادة والضحاك مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿فقطعت له نفسه قتل أخيه﴾ قال: شجعت على قتل أخيه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في الآية قال: زينت له نفسه. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿فقطعت له نفسه قتل أخيه﴾ فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فاتاه يوماً من الأيام وهو يرعى غنماً له وهو نائم، فرفع صخرة فشدها بها رأسه فمات، فتركه بالعراء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين فاقنتلا، فقتل أحدهما

نكر مما كتبه الله على بني إسرائيل: أي إن كثيراً منهم بعد ذلك الكتب ﴿في الأرض لمسرفون﴾ في القتل. قوله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ قد اختلف الناس في سبب نزول هذه الآية؛ فذهب الجمهور إلى أنها نزلت في العرنيين، وقال مالك والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي: لأنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع الطريق ويسعى في الأرض بالفساد. قال ابن المنذر: قول مالك صحيح. قال أبو ثور محتجاً بهذا القول: إن قوله في هذه الآية: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ يدل على أنها نزلت في غير أهل الشرك؛ لأنهم قد أجمعوا على أن أهل الشرك إذا وقعوا في أيدينا فأسلموا أن نماءهم تحرم، فدل ذلك على أن الآية نزلت في أهل الإسلام انتهت. وهكذا يدل على هذا قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر ما قد سلف﴾ [الأنفال: 38]، وقوله ﷺ: «الإسلام يهدم ما قبله» أخرجه مسلم وغيره، وحكى ابن جرير الطبري في تفسيره عن بعض أهل العلم أن هذه الآية: أعني آية المحاربة نسخت فعل النبي ﷺ في العرنيين، ووقف الأمر على هذه الحدود. وروى عن محمد بن سيرين أنه قال: كان هذا قبل أن تنزل الحدود: يعني فعله ﷺ بالعرنيين وبهذا قال جماعة من أهل العلم. وذهب جماعة آخرون إلى أن فعله ﷺ بالعرنيين منسوخ بنهي النبي ﷺ عن المثلة، والقائل بهذا مطالب ببيان تأخر النسخ، وسيأتي سياق الروايات الواردة في سبب النزول. والحق أن هذه الآية تعم المشرك وغيره لمن ارتكب ما تضمنته، ولا اعتبار بخصوص السبب، بل الاعتبار بعموم اللفظ. قال القرطبي في تفسيره: ولا خلاف بين أهل العلم في أن حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من أهل الإسلام، وإن كانت نزلت في المرتدين، أو اليهود انتهت. ومعنى قوله مترتب: أي ثابت؛ قيل المراد بمحاربة الله المذكورة في الآية: هي محاربة رسول الله ﷺ ومحاربة المسلمين في عصره، ومن بعد عصره بطريق العبارة بون الدلالة وبون القياس، لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول، فيحتاج في تعميم الخطاب لغيرهم إلى دليل آخر؛ وقيل إنها جعلت محاربة المسلمين محاربة لله ولرسوله إكباراً لحربهم وتعظيماً لأنيتهم، لأن الله سبحانه لا يحارب ولا يغالب. والأولى أن تفسر محاربة الله سبحانه: بمعاصيه ومخالفة شرائعه، ومحاربة الرسول تحمل على معناها الحقيقي، وحكم أمته حكمه وهم أسوته. والسعي في الأرض فساداً، يطلق على أنواع من الشر كما قدمنا قريباً. قال ابن كثير في تفسيره: قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب: إن قرض الدراهم والنانير من الإفساد في الأرض، وقد قال تعالى: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ [البقرة: 205]. انتهى.

إذا تقرر لك ما قررناه، من عموم الآية ومن معنى المحاربة والسعي في الأرض فساداً، فاعلم أن ذلك يصدر

فساد في الأرض، وقطع الطريق فساد في الأرض، وسفك الدماء وهتك الحرم ونهب الأموال فساد في الأرض، والبغي على عباد الله بغير حق فساد في الأرض، وهدم البنين وقطع الأشجار، وتغویر الأنهار فساد في الأرض، فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد في الأرض، وهكذا الفساد الذي سيأتي في قوله: ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ يصدق على هذه الأنواع، وسيأتي تمام الكلام على معنى الفساد قريباً. قوله: ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ اختلف المفسرون في تحقيق هذا التشبيه للقطع بأن عقاب من قتل الناس جميعاً أشد من عقاب من قتل واحداً منهم. فروى عن ابن عباس أنه قال: المعنى من بيان عقاب من قتل الناس جميعاً أشد من عقاب من قتل واحداً منهم. فروى عن ابن عباس أنه قال: المعنى من قتل نبياً أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياء بأن شد عضده ونصره فكأنما أحيى الناس جميعاً. أخرج هذا عنه ابن جرير. وروى عن مجاهد أنه قال: المعنى أن الذي يقتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءه جهنم، وغضب عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً، فلو قتل الناس جميعاً لم يزد على هذا قال: ومن سلم من قتل، فلم يقتل أحداً، فكأنما أحيى الناس جميعاً.

وقد أخرج نحو هذا عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وروى عن ابن عباس أيضاً أنه قال في تفسير هذه الآية. أوبق نفسه كما لو قتل الناس جميعاً، أخرجه عنه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وروى عن الحسن أنه قال: فكأنما قتل الناس جميعاً في الوزر، وكأنما أحيى الناس جميعاً في الأجر. وقال ابن زيد: المعنى أن من قتل نفساً فيلزمه من القود والقصاص ما يلزم من قتل الناس جميعاً ﴿ومن أحياءها﴾ أي: من عفا عمن وجب قتله، حكاه عنه القرطبي. وحكى عن الحسن أنه العفو بعد القدرة: يعني أحياءها. وروى عن مجاهد أن أحياءها: إنجاؤها من غرق أو حرق أو هدم أو هلكة، حكاه عنه ابن جرير وابن المنذر؛ وقيل المعنى: أن من قتل نفساً فالؤمنون كلهم خصماؤه، لأنه قد وتر الجميع ﴿ومن أحياءها فكأنما أحيى الناس جميعاً﴾ أي وجب على الكل شكره؛ وقيل المعنى: أن من استحل واحداً، فقد استحل الجميع؛ لأنه أنكر الشرع. وعلى كل حال، فالأحياء هنا عبارة عن الترك والإنقاذ من هلكة فهو مجاز، إذ المعنى الحقيقي مختص بالله عز وجل. والمراد بهذا التشبيه في جانب القتل تهويل أمر القتل، وتعظيم أمره في النفوس حتى ينزجر عنه أهل الجراءة والجسارة، وفي جانب الإحياء الترغيب إلى العفو عن الجناة واستنقاذ المتورطين في الهلكات. قوله: ﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾ جملة مستقلة مؤكدة باللام الموطئة للقسم متضمنة للإخبار بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد جاؤوا العباد بما شرعه الله لهم من الأحكام التي من جملتها أمر القتل، وثم في قوله: ﴿ثم إن كثيراً منهم﴾ للتراخي الترتبي والاستبعاد العقلي، والإشارة بقوله ﴿ذلك﴾ إلى ما

وحسنت، ثم قطعت رجله اليسرى وحسنت وخلي، لأن هذه الجنابة زالت على السرقة بالحراية؛ وإذا قتل قتل، وإذا أخذ المال وقتل، قتل وصلب. وروي عنه أنه قال: يصلب ثلاثة أيام. وقال أحمد: إن قتل قتل، وإن أخذ المال قطعت يده ورجله، كقول الشافعي، ولا أعلم لهذه التفاصيل دليلاً لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله، إلا ما رواه ابن جرير في تفسيره، وتفرد بروايته، فقال: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبي حبيب: أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك نفر العرنيين، وهم من بجيلة، قال أنس: فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام؛ قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبريل عن القضاء فيمن حارب، فقال: من سرق وأخاف الطريق، فاقطع يده لسرقته ورجله بإضافته، ومن قتل، فاقطعه؛ ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام، فاصلبه. وهذا مع ما فيه من النكارة الشديدة، لا يدري كيف صحته؟ قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكره لشيء من هذه التفاصيل الذي ذكرناها ما لفظه: ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره إن صح سنده ثم ذكره. قوله: ﴿وَيُصَلَّبُونَ فِي الْأَرْضِ فَساداً﴾ هو إما منتصب على المصدرية، أو على أنه مفعول له، أو على الحال بالتأويل: أي مفسدين. قوله: ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ ظاهره أنهم يصلبون أحياء حتى يموتوا، لأنه أحد الأنواع التي خير الله بينها. وقال قوم: الصلب إنما يكون بعد القتل، ولا يجوز أن يصلب قبل القتل فيحال بينه وبين الصلاة والأكل والشرب. ويجاب بأن هذه عقوبة شرعها الله سبحانه في كتابه لعباده. قوله: ﴿أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ﴾ ظاهرة قطع إحدى اليدين وإحدى الرجلين من خلاف سواء كانت المقطوعة من اليدين هي اليمنى أو اليسرى، وكذلك الرجلان، ولا يعتبر إلا أن يكون القطع من خلاف، إما اليمنى مع يسرى الرجلين، أو يسرى اليدين مع اليمنى الرجلين؛ وقيل: المراد بهذا قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى فقط. قوله: ﴿أَوْ يَنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقال السدي: هو أن يطلب بالخيال والرجل حتى يؤخذ فيقام عليه الحد، أو يخرج من دار الإسلام هرباً. وهو محكي عن ابن عباس، وأنس ومالك والحسن البصري، والسدي والضحاك وقتادة وسعيد بن جبيرة والربيع بن أنس، والزهرى، حكاه الرماني في كتابه عنهم. وحكى عن الشافعي أنهم يخرجون من بلد إلى بلد ويطلبون لتقام عليهم الحدود، وبه قال الليث بن سعد، وروي عن مالك أنه ينفي من البلد الذي أحدث فيه إلى غيره، ويحبس فيه كالزاني، ورجحه ابن جرير والقرطبي. وقال الكوفيون: نفهم سجنهم، فينفي من سعة الدنيا إلى ضيقها. والظاهر من الآية: أنه يطرد من الأرض التي وقع منه فيها ما وقع، من غير سجن ولا غيره. والنفي قد يقع بمعنى

على كل من وقع منه ذلك، سواء كان مسلماً أو كافراً، في مصر وغير مصر، في كل قليل وكثير، وجليل وحقير، وأن حكم الله في ذلك هو ما ورد في هذه الآية من القتل أو الصلب، أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف، أو النفي من الأرض، ولكن لا يكون هذا حكم من فعل أي ننب من الذنوب، بل من كان ننبه هو التعدي على إماء العباد وأموالهم فيما عدا ما قد ورد له حكم غير هذا الحكم في كتاب الله، أو سنة رسوله كالسرقة وما يجب فيه القصاص، لأننا نعلم أنه قد كان في زمنه ﷺ من تقع منه ذنوب ومعاص غير ذلك، ولا يجري عليه ﷺ هذا الحكم المنكور في هذه الآية، وبهذا تعرف ضعف ما روى عن مجاهد في تفسير المحاربة المنكورة في هذه الآية أنها الزنا والسرقة، ووجه ذلك أن هذين الذنوبين قد ورد في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ لهما حكم غير هذا الحكم.

وإذا عرفت ما هو الظاهر من معنى هذه الآية، على مقتضى لغة العرب التي أمرنا بأن نفسر كتاب الله وسنة رسوله بها، فليأكد أن تغتر بشيء من التفاصيل المروية، والمذاهب المحكية، إلا أن يأتيك الليل الموجب لتخصيص هذا العموم أو تقييد هذا المعنى المفهوم من لغة العرب، فانت وذاك اعمل به، وضعه في موضعه، وأما ما عداه:

فدع عنك نهباً صريحاً في حجراته وهات حديثاً ما حديث الرواحل على أننا سنذكر من هذه المذاهب ما تسمعه. أعلم أنه قد اختلف العلماء فيمن يستحق اسم المحاربة؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيب، ومجاهد وعطاء والحسن البصري، وإبراهيم النخعي والضحاك وأبو ثور: إن من شهر السلاح في قبة الإسلام، وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله. وبهذا قال مالك، وصرح بأن المحارب عنده من حمل على الناس في مصر أو في بركة، أو كابرهم على أنفسهم وأموالهم دون نائفة ولا نحل ولا عداوة. قال ابن المنذر: اختلف عن مالك في هذه المسألة، فأثبت المحاربة في المصر مرة، ونفى ذلك مرة. وروي عن ابن عباس غير ما تقدم، فقال في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا ما لا نفوا من الأرض. وروي عن أبي مجلز وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي، والحسن وقتادة والسدي، وعطاء، على اختلاف في الرواية عن بعضهم، وحكاه ابن كثير عن الجمهور. وقال أيضاً: وهكذا عن غير واحد من السلف والأئمة. وقال أبو حنيفة: إذا قتل قتل وإذا أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، وإذا أخذ المال وقتل فالسلطان مخير فيه: إن شاء قطع يديه ورجليه، وإن شاء لم يقطع وقتله وصلبه. وقال أبو يوسف: القتل يأتي على كل شيء، ونحوه قول الأوزاعي. وقال الشافعي: إذا أخذ المال قطعت يده اليمنى

خرج فقتل ولم يأخذ المال قتل، وإذا خرج وأخذ المال وقتل قتل وصلب، وإذا خرج فأخاف السبيل، ولم يأخذ المال ولم يقتل نفي. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: من شهر السلام في قبة الإسلام، وأفسد السبيل، فظهر عليه وقدر، فإمام المسلمين مخير فيه: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله، قال: ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ يهربوا ويخرجوا من دار الإسلام إلى دار الحرب. وأخرج ابن جرير عنه قال: نفيه أن يطلب. وأخرج أيضاً عن أنس نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التيمي من أهل البصرة قد أفسد في الأرض وحارب، فكلّم رجلاً من قريش أن يستأمنوا له علياً، فأبوا فأتى سعيد بن قيس الهمداني، فأتى علياً فقال: يا أمير المؤمنين ما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً؟ قال: ﴿إن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ ثم قال: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ فقال سعيد: وإن كان حارثة بن بدر، قال: وإن كان حارثة بن بدر، قال: هذا حارثة بن بدر، قد جاء تائباً فهو آمن، قال نعم، فجاه به إليه فباعه، وقبل ذلك منه وكتب له أماناً.

يَتَأَيَّمُ الْزَيْتُ، أَمْسُوا أَنْتُمْ اللَّهُ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ مَلَكُمْ تَفْلُحُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَشَلُّوا مَعَكُمْ لَيَقْتُلَنَّكُمْ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقِيلُ مِنْهُمْ وَلَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿١٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يُزْجِرُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُزْجِرِينَ وَمَنْ أَعَادَ عَذَابَ يَوْمِ ﴿١٧﴾

﴿ابْتَغُوا﴾ اطلبوا ﴿إليه﴾ لا إلى غيره، و﴿الوسيلة﴾ فعيلة من توسلت إليه، إذا تقربت إليه. قال عنتره: إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي وقال آخر:

إذا غفل الواشون عندنا لوصلنا وعاد التصابي بيننا والوسائل فالوسيلة: القرية التي ينبغي أن تطلب، وبه قال أبو وائل والحسن ومجاهد، وقتادة والسدي وابن زيد. وروى عن ابن عباس، وعطاء، وعبد الله بن كثير. قال ابن كثير في تفسيره: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة، لا خلاف بين المفسرين فيه. والوسيلة أيضاً درجة في الجنة مختصة برسول الله ﷺ. وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة». وفي صحيح مسلم، من حديث عبد الله بن عمرو، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا

الإهلاك، وليس هو مراداً هنا. قوله: ﴿ذلك لهم خزي في الدنيا﴾ الإشارة إلى ما سبق ذكره من الأحكام، والخزي: الذل والفضيحة. قوله: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ استثنى الله سبحانه التائبين قبل القدرة عليهم من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة، والظاهر عدم الفرق بين النداء والأموال، وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة، فلا يطلب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك، وعليه عمل الصحابة. وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط القصاص وسائر حقوق الأدميين بالتوبة قبل القدرة، والحق الأول. وأما التوبة بعد القدرة فلا تسقط بها العقوبة المذكورة في الآية، كما يدل عليه ذكر قيد: ﴿قبل أن تقدروا عليهم﴾ قال: القرطبي: وأجمع أهل العلم على أن السلطان وليّ من حارب، فإن قتل محارب أخاً امرئ وأتاه في حال المحاربة، فليس إلى طالب الدم من أمر المحاربة شيء، ولا يجوز عفو وليّ الدم.

وقد أخرج ابن جرير عن الضحّاك في قوله: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل﴾ يقول: من أجل ابن آدم الذي قتل أخاه ظملاً. وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه قيل له في هذه الآية يعني قوله: ﴿فكاننا قتل للناس جميعاً﴾ أهى لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله غيره. وأخرج أبو داود والنسائي عن ابن عباس في قوله: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ قال: نزلت في المشركين، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد في الأرض أو حارب الله ورسوله. وأخرج ابن جرير والطبراني في الكبير عنه في هذه الآية قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض، فخير الله نبيه فيهم: إن شاء قتل وإن شاء صلب، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأما النفي فهو الضرب في الأرض، فإن جاء تائباً فدخل في الإسلام قبل منه، ولم يؤخذ بما سلف. وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن هذه الآية نزلت في الحرورية. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس أن نفراً من عكل قدموا على رسول الله ﷺ، فأسلموا واجتروا المدينة، فأمرهم النبي ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من أبوالها والبنائها، فقتلوا راعيها واستاقوها: فبعث النبي ﷺ في طلبهم قافة، فأتى بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، ولم يحسمهم وتركهم حتى ماتوا، فأنزل الله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون﴾ الآية. وفي مسلم عن أنس أنه قال: إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاة. وأخرج الشافعي في الأم، وعبد الرزاق والفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في الآية قال: إذا خرج المحارب فأخذ المال ولم يقتل قطع من خلاف، وإذا

يعلم الرواية بأن عصاة الموحدين يخرجون من النار، فمن أنكر هذا فليس بأهل للمناظرة؛ لأنه أنكر ما هو من ضروريات الشريعة، اللهم غفر.

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكَلَّافَ مِنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ قَدْ تَابَ مِنْ بَيمِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

لما نكر سبحانه حكم من يأخذ المال جهاراً وهو المحارب، عقبه بذكر من يأخذ المال خفية، وهو السارق، وذكر السارقة مع السارق؛ لزيادة البيان لأن غالب القرآن الاقتصاد على الرجال في تشريع الأحكام. وقد اختلف أئمة النحو في خبر السارق والسارقة، هل هو مقدر أم هو فاقطعوا؟ فذهب إلى الأول سيبويه، وقال تقديره: فيما فرض عليكم أو فيما يتلى عليكم، السارق والسارقة: أي حكمهما. وذهب المبرد والزجاج إلى الثاني، وبخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، إذ المعنى: الذي سرق والتي سرقت، وقرئ: «والسارق والسارقة» بالنصب على تقدير أقطعوا، ورجح هذه القراءة سيبويه، قال: الوجه في كلام العرب النصب، كما تقول زيداً أضربه، ولكن العامة أبت إلا الرفع، يعنى عامة القراء، والسرقة بكسر الراء اسم الشيء المسروق، والمصدر من سرق يسرق سرقاً قاله الجوهري: وهو أخذ الشيء في خفية من الأعين، ومنه استرق السمع، وسارقه النظر. قوله: «فاقطعوا» القطع: معناه الإبادة والإزالة، وجمع الأيدي لكرامة الجمع بين تثنييتين، وقد بينت السنة المطهرة أن موضع القطع الرسغ. وقال قوم: يقطع من المرفق. وقال الخوارج: من المنكب. والسرقة لابد أن تكون ربع دينار فصاعداً، ولا بد أن تكون من حرز، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة. وقد ذهب إلى اعتبار الربع دينار الجمهور. وذهب قوم إلى التقدير بعشرة دراهم. وذهب الجمهور إلى اعتبار الحرز. وقال الحسن البصري إذا جمع الثياب في البيت قطع. وقد أطل الكلام في بحث السرقة أئمة الفقه، وشراح الحديث، بما لا يأتى التطويل به ها هنا بكثير فائدة. قوله: «جزاء بما كسبوا» مفعول له: أي فاقطعوا للجزاء، أو مصدر مؤكد لفعل محذوف: أي فجاوزهما جزء، والباء سببية، وما مصدرية: أي بسبب كسبهما، أو موصولة: أي جزء بالذي كسبوا من السرقة. وقوله: «نكالا» بدل من جزء؛ وقيل هو علة للجزاء؛ والجزاء علة للقطع، يقال نكلت به: إذا فعلت به ما يجب أن ينكل به عن ذلك الفعل. قوله: «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح» السياق يفيد أن المراد بالظلم هنا السرقة: أي فمن تاب من بعد سرقة، وأصلح أمره: «فإن الله يتوب عليه» ولكن اللفظ عام، فيشمل السارق وغيره من المذنبين، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد استدلل

تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة». وفي الباب أحاديث، وعطف «وليتغوا إليه الوسيلة» على «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله» يفيد أن الوسيلة غير التقوى؛ وقيل هي التقوى، لأنها ملاك الأمر، وكل الخير، فتكون الجملة الثانية على هذا مفسرة للجملة الأولى. والظاهر أن الوسيلة التي هي القربة تصدق على التقوى، وعلى غيرها من خصال الخير التي يتقرب العباد بها إلى ربهم «وجاهدوا في سبيله» من لم يقبل بينه «لعلكم تفلحون». قوله: «إن الذين كفروا» كلام مبتدأ مسوق لזجر الكفار، وترغيب المسلمين في امتثال أوامر الله سبحانه «ولو أن لهم ما في الأرض» من أموالها ومنافعها؛ وقيل المراد لكل واحد منهم ليكون أشد تهويلاً، وإن كان الظاهر من ضمير الجمع خلاف ذلك، و«جميعاً» تأكيد. وقوله «ومثله» عطف على ما في الأرض، و«معه» في محل نصب على الحال «ليفتنوا به»؛ ليجلوه فنية لأنفسهم، وأرد الضمير إما لكونه راجعاً إلى المنكر، أو لكونه بمنزلة اسم الإشارة: أي ليفتنوا بذلك، و«من عذاب يوم القيامة» متعلق بالفعل المنكر «وما تقبل منهم» ذلك، وهذا هو جواب لو. قوله: «يريدون أن يخرجوا من النار» هذا استئناف بياني، كأنه قيل: كيف حالهم فيما هم فيه من هذا العذاب الأليم؟ فقيل يريدون أن يخرجوا من النار. وقرئ: «أن يخرجوا» من أخرج، ويضعف هذه القراءة «وما هم بخارجين منها» ومحل هذه الجملة، أعني قوله: «وما هم بخارجين منها» النصب على الحال؛ وقيل إنها جملة اعتراضية.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «وليتغوا إليه الوسيلة» قال: الوسيلة القربة. وأخرج الحاكم وصححه، عن حنيفة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: «وليتغوا إليه الوسيلة» قال: تقرّبوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه. وأخرج مسلم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة» قال: يريد الفقير، فقلت لجابر يقول الله: «يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها» قال: اتل أول الآية «إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتنوا به» إلا أنهم الذين كفروا. وأخرج ابن جرير عن عكرمة: أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس: تزعم أن قوما يخرجون من النار، وقد قال الله تعالى: «وما هم بخارجين منها» فقال ابن عباس: ويحك، أقرأ ما فوقها هذه للكفار. قال الزمخشري في الكشف بعد ذكره لهذا: إنه مما لفته المجبرة، ويا لله العجب من رجل لا يفرق بين أصح الصحيح، وبين أكتب الكذب على رسول الله ﷺ، يتعرض للكلام على ما لا يعرفه ولا يدري ما هو قد تواترت الأحاديث تواتراً لا يخفى، على من له اننى إلمام

وحزن الرجل بالكسر، فهو حزن وحزين: وأحزنه غيره وحزنه. قال اليزيدي: حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم، وقد قرئ بهما. وفي الآية النهي له ﷺ عن التآثر لمسارة الكفرة في كفرهم تأثراً بليغاً، لأن الله سبحانه قد وعده في غير موطن بالنصر عليهم، والمسارة إلى الشيء: الوقوع فيه بسرعة. والمراد هنا، وقوعهم في الكفر بسرعة عند وجود فرصة، وأثر لفظ ﴿في﴾ على لفظ إلى للدلالة على استقرارهم فيه، ومن في قوله: ﴿ومن الذين قالوا﴾ ببيان، والجملة مبنية للمسارعين في الكفر، والباء في ﴿بإفواهم﴾ متعلقة بقالوا لا بأنما، وهؤلاء الذين قالوا آمنا بإفواهم، ولم تؤمن قلوبهم هم المنافقون. ﴿ومن الذين هادوا﴾ يعني اليهود، وهو معطوف على ﴿ومن الذين قالوا آمنا﴾ وهو تمام الكلام. والمعنى: أن المسارعين في الكفر طائفة المنافقين وطائفة اليهود. وقوله: ﴿سماعون للكذب﴾ خبر مبتدأ محذوف: أي هم سماعون للكذب، فهو راجع إلى الفريقين، أو إلى المسارعين، واللام في قوله: ﴿للكذب﴾ للتقوية أو لتضمين السماع معنى القبول؛ وقيل إن قوله: ﴿سماعون﴾ مبتدأ خبره ﴿ومن الذين هادوا﴾ أي: ومن الذين هادوا قوم ﴿سماعون للكذب﴾ أي: قابلون لكذب رؤوسائهم المحرّفين للتوراة. قوله: ﴿سماعون لقوم آخرين﴾ خبر ثان، واللام فيه كاللام في «للكذب»؛ وقيل اللام للتعليل في الموضعين، أي: سماعون لكلام رسول الله لأجل الكذب عليه، وسماعون لأجل قوم آخرين، وجهوهم عيوناً لهم لأجل أن يبلغوهم، ما سمعوا من رسول الله ﷺ. قوله: ﴿لم يأتوك﴾ صفة لقوم: أي لم يحضروا مجلسك وهم طائفة من اليهود، كانوا لا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ تكبراً وتمرداً؛ وقيل هم جماعة من المنافقين، كانوا يتجنبون مجلس رسول الله ﷺ قال الفراء: ويجوز سماعين كما قال «ملعونين أينما ثقفوا» [الأحزاب: 61]. قوله: ﴿يحرفون لكلم من بعد موضعه﴾ من جملة صفات القوم المذكورين: أي يميلونه عن موضعه التي وضعه الله فيها، ويتأولونه على غير تأويله. والمحرّفون هم اليهود؛ وقيل: إن هذه الجملة خبر مبتدأ محذوف؛ وقيل في محل نصب على الحال، من «لم يأتوك» وقيل: مستأنفة لا محل لها من الإعراب، لقصد تعدد معانيهم ومثالبهم. ومعنى: ﴿من بعد موضعه﴾ من بعد كونه موضوعاً في موضعه، أو من بعد وضعه في موضعه التي وضعه الله فيها، من حيث لفظه، أو من حيث معناه. قوله: ﴿يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه﴾ جملة حالية، من ضمير يحرفون، أو مستأنفة، أو صفة لقوم، أو خبر مبتدأ محذوف، والإشارة بقولهم ﴿هذا﴾ إلى الكلام المحرّف: أي إن أوتيتهم من جهة محمد هذا الكلام الذي حرّفناه، فخذوه واعملوا به، وإن لم تؤتوه بل جاءكم بغير، فاحذروا من قبوله والعمل به. قوله: ﴿ومن يرد الله فتنته﴾ أي: ضلّاته ﴿فلن تملك له من الله شيئاً﴾ أي: فلا تستطيع دفع نك عنه ولا تقدر على نفعه وهدايته،

بهذا عطاء، وجماعة، على أن القطع يسقط بالتوبة، وليس هذا الاستدلال بصحيح، لأن هذه الجملة الشرطية لا تفيد إلا مجرد قبول التوبة، وإن الله يتوب على من تاب، وليس فيها ما يفيد أنه لا قطع على التائب. وقد كان في زمن النبوة يأتي إلى النبي ﷺ من وجب عليه حدّ تأثراً عن الذنب الذي ارتكبه، طالباً لتطهيره بالحدّ، فيحدّه النبي ﷺ. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال للسارق بعد قطعه: «تب إلى الله، ثم قال تاب الله عليك». أخرجه الدارقطني من حديث أبي هريرة. وأخرج أحمد وغيره، أن هذه الآية نزلت في المرأة التي كانت تسرق المتاع، لما قلت للنبي ﷺ بعد قطعها، هل لي من توبة. وقد ورد في السنة ما يدل على أن الحدود إذا رفعت إلى الأئمة وجبت وامتنع إسقاطها. قوله: ﴿الم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ هذا الاستفهام للإنكار مع تقرير العلم، وهو كالعنوان لقوله: ﴿يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء﴾ أي: من كان له ملك السموات والأرض، فهو قادر على هذا التعذيب الموكول إلى المشيئة والمغفرة الموكولة إليها.

وقد خرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿جزاء بما كسبنا نكالاً من الله﴾ قال: لا ترثوا لهم فيه فإنه أمر الله الذي أمر به. قال: ونكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول: اشتدوا على الفساق، واجعلوهم يداً يداً رجلاً رجلاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿ومن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾ يقول: الحدّ كفارته. والأحاديث في قدر نصاب السرقة، وفي سائر ما يتعلق بتفاصيل هذا الحدّ منكرة في كتب الحديث، فلا نطيل بذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنًا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّوْنَ لِلْكَذِبِ سَكْمُونَ لِقَوْمٍ عَادِينَ لَكَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ مِنَ الْكُفْرِ مِن بَعْدِ مُوَاضِعِهِمْ يَقُولُونَ إِنَّا أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١١﴾ سَكَّوْنَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءَكَ فَاعْلَمْ بِهِمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَانَ يَصْرُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقَاسِطِينَ ﴿١١٢﴾ وَكَفَى بِحُكْمِكَ وَعِزِّكَ التَّوْبَةَ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالزَّبَنِيُّونَ وَالْأَنْجَارُ بِمَا اسْتَحَفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَخْشَوْا إِنَّا بِمَا يَصْنَعُونَ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٤﴾

قوله ﴿لا يحزنك﴾ قرأ نافع بضم الباء وكسر الزاي والباقيون بفتح الباء وضم الزاي، والحزن خلاف السرور،

وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وظاهرها العموم وينبخل فيها هؤلاء الذين سياق الكلام معهم دخولاً أولياً، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى من تقدم ذكرهم، من الذين قالوا آمنا بأقوالهم ومن الذين هادوا، وهو مبتدأ وخبره الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم: أي لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر والنفاق، كما طهر قلوب المؤمنين ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ بظهور نفاق المنافقين، وبضرب الجزية على الكافرين، وظهور تحريفهم وكتهم لما أنزل الله في التوراة. قوله: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ كَزْرُهُ تَأْكِيداً لِقَبْحِهِ، وليكون كالمقدمة لما بعده، وهو: أكلون للسحت، وهما من جملة أخبار تلك المبتدأ المقدّر سابقاً. والسحت، بضم السين وسكون الحاء: المال الحرام، وأصله الهلاك والشدة، من سحت: إذا هلك، ومنه ﴿فَيَسْحَتُكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: 61]، ومنه قول الفرزدق:

وعُضَّ زَمَانُ يَابَنِ مِرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنْ الْمَالِ إِلَّا مَسْحَتَ أَوْ مَحْلَقَ وَيُقَالُ لِلْحَالِقِ اسْحَتَ: أي استأصل، وسمي الحرام سحتاً لأنه يسحت الطاعات: أي يذهبها ويستأصلها، وقال الفراء: أصله كلب الجوع؛ وقيل هو الرشوة، والأول أولى، والرشوة تسخل في الحرام دخولاً أولياً. وقد فسر جماعة بنوع من أنواع الحرام، خاص كالهدية، لمن يقضى له حاجة، وحلوان الكاهن، والتعميم أولى بالصواب. قوله: ﴿فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فيه تخيير لرسول الله ﷺ وبين الحكم بينهما والإعراض عنهم.

وقد استدل به على أن حكام المسلمين مخيرون بين الأمرين. وقد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم والنمى إذا ترافعا إليهم. واختلفوا في أهل الذمة إذا ترافعوا فيما بينهم؛ فذهب قوم إلى التخيير، وذهب آخرون إلى الوجوب، وقالوا: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وبه قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة، والزهري وعمر بن عبد العزيز والسدي؛ وهو الصحيح من قول الشافعي، وحكاه القرطبي عن أكثر العلماء. قوله: ﴿وَأَنْ تَعْرِضَ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً﴾ أي: إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم، فلا سبيل لهم عليك، لأن الله حافظك وناصرك عليهم، وإن اخترت الحكم بينهم ﴿فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل الذي أمرك الله به وأنزله عليك. قوله: ﴿وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ فيه تعجيب له ﷺ من تحكيمهم إياه، مع كونهم لا يؤمنون به ولا بما جاء به، مع أن ما يحكمونه فيه هو موجود عندهم في التوراة كالرجم، ونحوه، وإنما يأتون إليه ﷺ ويحكمونه طمعاً منهم في أن يوافق تحريفهم، وما صنعه بالتوراة من التغيير. قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ عطف على يحكمونك ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد تحكيمهم لك، وجملة قوله: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ لتقرير مضمون ما قبلها. وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ استئناف يتضمن تعظيم التوراة، وتفخيم

شأنها وأن فيها الهدى والنور، وهو بيان الشرائع، والتبشير بمحمد ﷺ وإيجاب اتباعه. قوله: ﴿يَحْكَمْ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ هم أنبياء بني إسرائيل، والجملة إما مستأنفة أو حالية، و﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ صفة مانحة للنبیین، وفيه إرغام لليهود المعاصرين له ﷺ بأن أنبياءهم كانوا يبينون بين الإسلام الذي دان به محمد ﷺ؛ وقيل المراد بالنبیین محمد ﷺ، وعبر عنه بلفظ الجمع تعظيماً. قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ متعلق بيحكم. والمعنى: أنه يحكم بها النبیین للذين هادوا وعليهم. والربانيون العلماء الحكماء، وقد سبق تفسيره، والأخبار العلماء، مأخوذ من التحبير وهو التحسين فهم يحبرون العلم: أي يحسنونه. قال الجوهري: الحبر واحد أحبار اليهود بالفتح وبالكسر والكسر أفصح، وقال الفراء: هو بالكسر، وقال أبو عبيدة: هو بالفتح. قوله: ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ الباء للسببية واستحفظوا أمروا بالحفظ: أي أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل، والجار والمجرور متعلق بيحكم: أي يحكمون بها بسبب هذا الاستحفاظ، قوله: ﴿وَوَكُنَّا عَلَيْهِ شُهَدَاءُ﴾ أي على كتاب الله والشهداء الرقباء، فهم يحمونه عن التغيير والتبديل بهذه المراقبة، والخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ﴾ لرؤساء اليهود، وكذا في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً﴾ والاشتراء الاستبدال، وقد تقدم تحقيقه. قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لفظ ﴿مَنْ﴾ من صيغ العموم فيفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة، بل بكل من ولي الحكم؛ وقيل إنها مختصة بأهل الكتاب؛ وقيل بالكفار مطلقاً لأن المسلم لا يكفر بارتكاب الكبير؛ وقيل هو محمول على أن الحكم بغير ما أنزل الله، وقع استخفافاً، أو استحلالاً، أو جحداً، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناها، وكذلك ضمير الجماعة في قوله: ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ قال: هم اليهود ﴿مَنْ لِلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهُمْ وَلَمْ تَوْمَنْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هم المنافقون. وأخرج أحمد، وأبو داود وابن جرير، وابن المنذر والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال: إن الله أنزل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ - الظالمون - الفاسقون﴾ أنزلها الله في طائفتين من اليهود قهرت إحداهما الأخرى في الجاهلية حتى اصطلحوا على أن كل قتل قتلته العزيزة من النذيلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتل قتلته النذيلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فنلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يومئذ لم يظهر عليهم، فقتلت النذيلة من العزيزة، فأرسلت العزيزة إلى النذيلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق، فقالت النذيلة: وهل كان هذا في حين قط دينهما ولحد ونسبهما واحد، ولدهما واحد، ودية بعضهم نصف

أرفع يلك، فرفع يده فإذا آية الرجم، قالوا صدق، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن جابر بن عبد الله في قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَانُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ قال: يهود المدينة ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتَوْكَ﴾ قال: يهود فلك ﴿يَحْزَنُونَ لَكَ﴾ قال: يهود فلك يقولون ليهود المدينة ﴿إِنْ أَوْتَيْتُمْ هَذَا﴾ الجلد ﴿فَخَذَوْهُ وَإِنْ لَمْ تَوْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ الرجم. وأخرج أبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مريويه، عنه قال: زنى رجل من أهل فلك، فكتب أهل فلك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمداً، ونكر القصة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَالُوا لِمَسْحَتٍ﴾ قال: أخذوا الرشوة في الحكم وقضوا بالكذب. وأخرج عبد الرزاق، والفرغاني، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود قال: السحت الرشوة في الدين. قال سفيان: يعني في الحكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن مسعود أيضاً قال: من شفع لرجل لينفع عنه مظلمة أو يرد عليه حقاً فأهدى له هدية فقبلها، فذلك السحت فليل له: يا أبا عبد الرحمن إنا كنا نعد السحت الرشوة في الحكم، فقال ذلك الكفر ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقد روي نحو هذا عنه من طرق، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: رشوة الحكم حرام. وهي السحت الذي ذكر الله في كتابه. وأخرج عبد بن حميد عن زيد بن ثابت قال: السحت الرشوة. وأخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن السحت فقال: الرشاء فليل له في الحكم، قال: ذاك الكفر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عمر قال: بياض من السحت ياكلهما الناس: الرشاء في الحكم، ومهر الزانية. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في تحريم الرشوة ما هو معروف. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: آيتان نسختا من سورة المائدة: آية القلائد، وقوله: ﴿فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، فكان رسول الله ﷺ مخيراً: إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿وَإِنْ لَمْ يَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قال: فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا. وأخرج نحوه في الآية الأخيرة عنه أبو عبيدة وابن المنذر، وابن مريويه. وأخرج عبد الرزاق عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني وأبو الشيخ، وابن مريويه عن ابن عباس أن الآيات من المائدة التي قال فيها: ﴿فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الْمَقْسُطِينَ﴾ إنما نزلت في اللية من بني النضير وقريظة، وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم شرف يوبون اللية كاملة، وإن بني قريظة كانوا يوبون نصف اللية، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله

دبة بعض؟ إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم، فأما إذ قدم محمد ﷺ، فلا نعطيكم ذلك، فكانت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول الله ﷺ بينهما، ففكرت العزيزة فقالت: والله ما محمد يعطيكم منهم ضعف ما تعطيه منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً وقهراً لهم، فسدوا إلى رسول الله ﷺ من يخير لكم رأي، فإن أعطاكم ما تريدون حكمته، وإن لم يعطكم حذرتموه ولم تحكموه؛ فسدوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين يختبرون لهم رأي، فلما جاؤوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله بأمرهم، كله وما أراؤا، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ثم قال فيهم: والله أنزلت وإياهم عني. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد وعبد بن حميد، وأبو داود وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة، قال: أول مرجوم رجمه رسول الله ﷺ من اليهود زنى رجل منهم وامرأة، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبي، فإنه نبي بعث بالتخفيف، فإن اقتانا بفتيا نون الرجم قبلناهما واحتججنا بها عند الله وقلنا: فتيا نبي من أنبيائك، قال: فاتوا النبي ﷺ، وهو جالس في المسجد وأصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم ما ترى في رجل وامرأة منهم زنيا، فلم يكلمهم حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب فقال: أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحسن؟ قالوا: يحمم ونجبه ويجلد، والتجبية: أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أفتيتهما ويطاف بهما، وسكت شاب منهم، فلما رآه النبي ﷺ سكت الظ به النشدة فقال: اللهم إني نشدتك نجب فإننا نجد في التوراة الرجم، فقال النبي ﷺ: فما أول ما ارتخصتم أمر الله؟ قال: زنى رجل نو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخبر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أسرة من الناس فأراد رجمه، فحال قومه نونه، وقالوا: والله لا نرجم صاحبا حتى تجي بصاحبك فنرجمه، فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم، قال النبي ﷺ: فلإني أحكم بما في التوراة، فأمر بهما فرجما. قال الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ لِلَّذِينَ اسْلَمُوا﴾ فكان النبي ﷺ منهم. وأخرجه ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق أخرى عن أبي هريرة، وذكر فيه أن الشاب المذكور هو عبد الله بن سوريا. وأخرج نحو حديث أبي هريرة أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث البراء بن عازب. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث عبد الله بن عمر: أن لليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فنكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة؟ قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كتبتم إن فيها آية الرجم، فاتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام:

فانزل الله تلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية سواء. وأخرج نحوه عنه ابن أبي شيبه وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **«وَعندهم للتوراة فيها حكم الله»** يعني حدود الله فلاخبره الله بحكمه في التوراة، قال: **«وَوَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا»** إلى قوله: **«وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ»**. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ عن الحسن في قوله: **«يُحْكَمُ بِهَا لِلنَّبِيِّينَ الَّذِينَ اسْلَمُوا»** يعني النبي ﷺ **«لِلَّذِينَ هَانُوا»** يعني اليهود. وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال: الذين اسلموا النبي ومن قبله من الانبياء يحكمون بما فيها من الحق. وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: الربانيون والاحبار الفقهاء والعلماء. وأخرج عن مجاهد قال: الربانيون العلماء الفقهاء وهم فوق الاحبار. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: الربانيون العباد، والاحبار العلماء. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الربانيون للفقهاء العلماء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: الربانيون هم المؤمنون، والاحبار هم القراء. وأخرج ابن جرير، عن السدي **«فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ»** فتكتصروا ما انزلت **«وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا»** على أن تكتصروا ما انزلت. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد **«وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا»** قال: لا تاكلوا السحت على كتابي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **«وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»** قال: إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، وإنه ليس كفر ينقل من الملة بل نون كفره. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عطاء ابن أبي رباح في قوله: **«وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ - هُمُ الظَّالِمُونَ - هُمُ الْفَاسِقُونَ»** قال: كفر نون كفر وظلم نون ظلم، وفسق نون فسق. وأخرج سعيد بن منصور، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس قال: إنما أنزل الله **«وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ - و - الظَّالِمُونَ - و - الْفَاسِقُونَ»** في اليهود خاصة. وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن حنيفة، أن هذه الآيات تكررت عنده **«وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ - و - الظَّالِمُونَ - و - الْفَاسِقُونَ»** فقال رجل: إن هذا في بني إسرائيل، فقال حنيفة: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة كلاً، والله لتسلكن طريقهم قد الشراك. وأخرج ابن المنذر نحوه عن ابن عباس.

وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَتْنَا عَلَى مَائِدِهِمْ يَبِيسَ ابْنِ سَمَةَ مَصْدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَأَمَّا نَحْنُ فَأَرْسَلْنَا فِيهِ هَدًى وَنُورًا وَمَصْدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهَدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٥١﴾ وَلَمَّا أَهْلَ الْإِنجِيلَ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْقَاسِيُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ قِصَاصَ مَا كُنْتُمْ بِيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَنُخَبِّرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاعْزَوْهُمْ أَنْ يَغْتَبِثَ لَكُمْ مِنْ بَيْنِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا رَبُّهُمُ اللَّهُ أَنْ يَبْهِيَ بَيْنَهُمْ دُورَهُمْ وَإِنَّ أَكْبَرًا مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥٤﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٥﴾

قوله: **«وَوَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا»** معطوف على أنزلنا التوراة، ومعناها فرضنا، بين الله سبحانه في هذه الآية ما فرضه على بني إسرائيل: من القصاص في النفس، والعين، والأنف، والأذن، والسِّنَّ، والجروح. وقد استدلل أبو حنيفة وجماعة من أهل العلم بهذه الآية فقالوا: إنه يقتل المسلم بالذمى لأنه نفس. وقال الشافعي وجماعة من أهل العلم: إن هذه الآية خبر عن شرع من قبلنا وليس بشرع لنا. وقد قدمنا في البقرة في شرح قوله تعالى: **«وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا قِصَاصٌ»** في البقرة: [178] ما فيه كفاية.

وقد اختلف أهل العلم في شرع من قبلنا هل يلزمنا أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنه يلزمنا إذا لم ينسخ، وهو الحق. وقد نكر ابن الصباغ في الشامل إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه. قال ابن كثير في تفسيره: وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة لعموم هذه الآية الكريمة انتهى.

وقد أوضحنا ما هو الحق في هذا في شرحنا على المنتقى، وفي هذه الآية توبيخ لليهود وتقرير لكونهم يخالفون ما كتبه الله عليهم في التوراة كما حكاها هنا، ويفاضلون بين الانفس كما سبق بيانه، وقد كانوا يقيدون بني النضير من بني قريظة، ولا يقيدون بني قريظة من بني النضير. قوله: **«وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ»** قرأ نافع وعاصم والاعمش وحمة بالنصب في جميعها على العطف. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وأبو جعفر بالنصب أيضاً في الكل إلا في الجروح فيالرفع. وقرأ الكسائي، وأبو عبيد بالرفع في الجميع عطفاً على المحل؛ لأن النفس قبل دخول الحرف الناصب عليها كانت مرفوعة على الابتداء. وقال الزجاج: يكون عطفاً على المضمرة في النفس؛ لأن التقدير: إن

الأنف، فيكون حالا من عيسى مؤكداً للحال الأول ومقرراً له. والاولى أولى؛ لأن التأسيس خير من التأكيد. قوله: ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ عطف على مصدقاً داخل تحت حكمه منضمّاً إليه: أي مصدقاً وهادياً وواعظاً للمتقين. قوله: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ هذا أمر لأهل الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل الله فيه، فإنه قبل البعثة المحمدية حق، وأما بعدها فقد أمروا في غير موضع بأن يعملوا بما أنزل الله على محمد ﷺ في القرآن الناسخ لكل الكتب المنزلة. وقرأ الأعمش وحزمة بنصب الفعل من يحكم على أن اللام لام كي، وقرأ الباقر بن الجزم على أن اللام للأمر. فعلى القراءة الأولى، تكون اللام متعلقة بقوله: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهله بما أنزل الله فيه، وعلى القراءة الثانية: هو كلام مستأنف. قال مكي: والاختيار الجزم، لأن الجماعة عليه، ولأن ما بعده من الوعيد والتهديد يدل على أنه إلزام من الله لأهل الإنجيل. وقال النحاس: والصواب عندي أنهما قراءتان حسنتان؛ لأن الله سبحانه لم ينزل كتاباً إلا ليعمل بما فيه. قوله: ﴿وانزلنا إليك الكتاب﴾ خطاب لمحمد ﷺ، والكتاب القرآن والتعريف للعهد، و﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً: أي متلبساً بالحق؛ وقيل هو حال من فاعل أنزلنا؛ وقيل من ضمير النبي ﷺ و﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ حال من الكتاب، والتعريف في الكتاب أعني قوله: ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ للجنس: أي أنزلنا إليك يا محمد القرآن حال كونه متلبساً بالحق وحال كونه مصدقاً لما بين يديه من كتب الله المنزلة؛ لكونه مشتملاً على الدعوة إلى الله، والأمر بالخير، والنهي عن الشر، كما اشتمل عليه قوله: ﴿ومهيئنا عليه﴾ عطف على مصدقاً، والضمير في عليه عائذ إلى الكتاب الذي صدقه القرآن وهيمن عليه، والمهيمن الرقيب؛ وقيل الغالب المرتفع؛ وقيل الشاهد؛ وقيل الحافظ؛ وقيل المؤمن. قال المبرد: أصله مؤيمن أبذل من الهمزة هاء، كما قيل في أرقت المال هرفت، وبه قال الزجاج وأبو علي الفارسي. وقال الجوهري: هو من آمن غيره من الخوف، وأصله آمن بهمزتين فهو مؤمن بهمزتين قلبت الثانية ياء كراهة لاجتماعهما، فصار مؤيمن ثم صيرت الأولى هاء، كما قالوا هراق الماء وأراقه، يقال هيمن على الشيء يهيمن: إذا كان له حافظاً، فهو له مهيمن كذا عن أبي عبيد. وقرأ مجاهد وابن محيصن: «مهيئنا عليه» بفتح الميم، أي: هيمن عليه الله سبحانه. والمعنى على قراءة الجمهور: أن القرآن صار شاهداً بصحة الكتب المنزلة ومقرراً لما فيها مما لم ينسخ، وناسخاً لما خالفه منها، ورقياً عليها وحافظاً لما فيها من أصول الشرائع، وغالباً لها لكونه المرجع في المحكم منها والمنسوخ، ومؤتمناً عليها لكونه مشتملاً على ما هو معمول به منها وما هو متروك. قوله: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ أي: بما أنزله إليك في القرآن؛ لاشتماله على جميع ما شرعه الله لعباده في جميع الكتب السابقة عليه ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي: أهواء أهل الملل السابقة. وقوله:

النفس هي مأخوذة بالنفس، فالأسماء معطوفة على هي. قال ابن المنذر: ومن قرأ بالرفع جعل ذلك ابتداء كلام يتضمن بيان الحكم للمسلمين. والظاهر من النظم القرآني أن العين إذا فقتحت حتى لم يبق فيها محال للإدراك أنها تفقحت عين الجاني بها، والأنف إذا جدعت جميعها فإنها تجدد أنف الجاني بها، والأنف إذا قطعت جميعها فإنها تقطع أنف الجاني بها، وكذلك السن؛ فإما لو كانت الجنابة ذهبت ببعض إدراك العين، أو ببعض الأنف، أو ببعض الأذن، أو ببعض السن، فليس في هذه الآية ما يدل على ثبوت القصاص.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك إذا كان معلوم القدر يمكن الوقوف على حقيقته، وكلامهم ملون في كتب الفروع. والظاهر من قوله: ﴿والسنن بالسنن﴾ أنه لا فرق بين الثنايا والأنبياء والأضرار والرباعيات، وأنه يؤخذ بعضها ببعض؛ ولا فضل لبعضها على بعض. وإليه ذهب أكثر أهل العلم، كما قال ابن المنذر، وخالف في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن تبعه، وكلامهم ملون في مواطن، ولكنه ينبغي أن يكون المأخوذ في القصاص من الجاني هو المماثل للسنن المأخوذة من المجني عليه، فإن كانت ذاهبة فما يليها. قوله: ﴿والجروح قصاص﴾ أي نوات قصاص. وقد ذكر أهل العلم أنه لا قصاص في الجروح التي يخاف منها التلف، ولا فيما كان لا يعرف مقداره عمقاً أو طولاً أو عرضاً. وقد قنر أئمة الفقه أرش كل جراحة بمقايير معلومة، وليس هذا موضع بيان كلامهم، ولا موضع استيفاء بيان ما ورد له أرش مقنر. قوله: ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ أي: من تصدق من المستحقين للقصاص بالقصاص، بأن عفا عن الجاني فهو كفارة للمتصدق يكفر الله عنه بها نذوبه. وقيل إن المعنى: فهو كفارة للجراح فلا يؤخذ بجنايته في الآخرة، لأن العفو يقوم مقام أخذ الحق منه. والاولى أرجح، لأن الضمير يعود على هذا التفسير الآخر إلى غير مذكور. قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ ضمير الفصل مع اسم الإشارة، وتعريف الخبر يستفاد منها أن هذا الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية. قوله: ﴿واقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم﴾ هذا شروع في بيان حكم الإنجيل بعد بيان حكم التوراة: أي جعلنا عيسى ابن مريم يقفوا آثارهم: أي آثار النبيين الذين أسلموا من بني إسرائيل، يقال قفيت مثل عقبته: إذا اتبعته؛ ثم يقال قفيت به فلان وعقبته به فيتعدى إلى الثاني بإلياء، والمفعول الأول محذوف استغناء عنه بالظرف، وهو على آثارهم؛ لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، وانتصاب ﴿مصدقاً﴾ على الحال من عيسى ﴿وآتيناه الإنجيل﴾ عطف على قفينا، ومحل الجملة أعني: ﴿فيه هدى﴾ النصب على الحال من الإنجيل ﴿ونور﴾ عطف على هدى. وقوله: ﴿ومصدقاً﴾ معطوف على محل ﴿فيه هدى﴾ أي: أن الإنجيل أوتي به عيسى حال كونه مشتملاً على الهدى والنور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة؛ وقيل إن مصدقاً معطوف على مصدقاً

عن حكمك بما أنزل الله عليك ويتولون عنه ويبغون حكم الجاهلية، والاستفهام في ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ للإنكار أيضاً أي: لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين لا عند أهل الجهل والاهواء.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿كُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ في التوراة. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه، قال: كتب عليهم هذا في التوراة، وكانوا يقتلون الحرّ بالعبد، فيقولون كتب علينا أن النفس بالنفس. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر في قوله: ﴿فَمَنْ تَصَنَّقْ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصنق به. وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر ابن عبد الله ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: للمجرور. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن ماجه، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده فيتصنق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: مؤتمناً عليه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه قال: المهيمن الأمين، والقرآن أمين على كل كتاب قبله. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مريويه، عنه في قوله: ﴿شُرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ قال: سبيلاً وسنة. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس: اذهبوا بنا إلى محمد لعنا أن نفقته عن نبينا، فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإننا إن اتبعناك اتبعنا يهود، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فحاكمهم إليك، فتقاضى لنا عليهم ونؤمن بك ونصديقك، فأبى ذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ قال: يهود. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: هذا في قتل اليهود.

يَكْتَابُ الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ إِلَيْهِمْ صَرْفَ بَأْسِ اللَّهِ يَقُولُ يُقِيمُهُمْ وَيُحَرِّمُهُمْ
أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ
ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ إِنَّا رَزَقْنَاهُ اللَّهُ رِزْقًا وَكَثِيرًا
وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْآيَاتُ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رُكُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هِيَ الْغُلُوبَةُ ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا الظَّاهِرَ أَنَّهُ خُطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ حَقِيقَةً وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِمُ: الْمُنَافِقُونَ، وَوَصَفَهُمُ بِالْإِيمَانِ بِاعتبار ما كانوا يظهرونه. وقد كانوا يوالون اليهود والنصارى فنهوا عن ذلك. والأولى: أن يكون خطاباً لكل من يتصف بالإيمان أعم من أن يكون ظاهراً

﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ متعلق بلا تتبع على تضمينه معنى لا تعدل أو لا تنحرف ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ متبعاً لاهوائهم؛ وقيل متعلق بمحذوف: أي لا تتبع أهواءهم عادلاً أو منحرفاً عن الحق. وفيه النهي له ﷺ عن أن يتبع أهوية أهل الكتاب، ويعدل عن الحق الذي أنزله الله عليه، فإن كل ملة من الملل تهوي أن يكون الأمر على ما هم عليه، وما أدركوا عليه سلفهم، وإن كان باطلاً منسوخاً أو محرّفاً عن الحكم الذي أنزله الله على الأنبياء، كما وقع في الرجم ونحوه مما حرفوه من كتب الله. قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ الشريعة والشريعة في الأصل: الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى الماء، ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الدين. والمنهاج: الطريقة الواضحة البينة. وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الشريعة: ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر. ومعنى الآية: أنه جعل التوراة لاهلها، والإنجيل لاهله، والقرآن لاهله، وهذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن، وأما بعده فلا شريعة ولا منهاج إلا ما جاء به محمد ﷺ. قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بشريعة واحدة وكتاب واحد ورسول واحد ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ولكن لم يشأ ذلك الاتحاد، بل شاء الابتلاء لكم باختلاف الشرائع، فيكون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلقاً بمحذوف دل عليه سياق الكلام وهو ما نكرنا، ومعنى: ﴿فِيمَا آتَاكُمْ﴾ فيما أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات والرسول هل تعملون بذلك وتذعنون له، أو تتركونه وتخالفون ما اقتضته مشيئة الله وحكمته، وتميلون إلى الهوى وتشترون الضلالة بالهدى. وفيه دليل على أن اختلاف الشرائع هو لهذه العلة، أعني الابتلاء والامتحان، لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص. قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع فاستبقوا إلى فعل ما أمرتم بفعله وترك ما أمرتم بتركه. والاستباق: المسارعة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعَكُمْ جَمِيعًا﴾ لا إلى غيره وهذه الجملة كالعلة لما قبلها. قوله: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ عطف على الكتاب: أي أنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه. وقد استدل بهذا على نسخ التخيير المتقدم في قوله: ﴿أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ وقد تقدم تفسير ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قوله: ﴿وَاحْذَرُوا أَنْ يَفْتَخِرُوا عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: يضلوك عنه ويصرفوك بسبب أهوائهم التي يريدون منك أن تعمل عليها وتؤثرها ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أي إن أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل الله عليك، فذلك لما أراد الله من تعذيبهم ببعض ذنوبهم وهو ذنب التولي عنك، والإعراض عما جئت به ﴿وَأَنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ متمردون عن قبول الحق خارجون عن الإنصاف. قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر كما في نظائره. والمعنى: أيعرضون

يردّ عنك القدر المقبول وداثرات الدهر أن تدور
أي: دولات الدهر الدائرة من قوم إلى قوم. وقوله:
﴿ففعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ ردّ عليهم ونفع لما وقع لهم
من الخشية، وعسى في كلام الله وعد صادق لا يتخلف.
والفتح: ظهور النبي ﷺ على الكافرين، ومنه ما وقع من
قتل مقاتلة بني قريظة وسبي ذراريهم، وإجلاء بني النضير؛
وقيل هو فتح بلاد المشركين على المسلمين؛ وقيل فتح
مكة. والمراد بالأمر من عنده سبحانه: هو كل ما تنفع به
صولة اليهود ومن معهم وتنكسر به شوكتهم؛ وقيل: هو
إظهار أمر المنافقين وإخبار النبي ﷺ بما أسروا في
أنفسهم وأمره بقتلهم؛ وقيل: هو الجزية التي جعلها الله
عليهم؛ وقيل: الخصب والسعة للمسلمين، فيصبح المنافقون
﴿على ما أسروا في أنفسهم﴾ من النفاق الحامل لهم على
الموالة ﴿فناهمين﴾ على ذلك؛ لبطان الأسباب التي تخيلوها
وانكشاف خلافها. قوله: ﴿يقول الذين آمنوا﴾ قرأ أبو
عمرو، وابن أبي إسحاق، وأهل الكوفة بإثبات الواو، وقرأ
الباقون بحذفها، فعلى القراءة الأولى مع رفع، يقول: يكون
كلاماً مبتدأ، مسوقاً ليبيان ما وقع من هذه الطائفة، وعلى
قراءة النصب: يكون عطفاً على ﴿ففيصيحوا﴾ وقيل: على
﴿يأتيني﴾ والأولى أولى؛ لأن هذا القول إنما يصدر عن
المؤمنين عند ظهور ندماة الكافرين لا عند إتيان الفتح؛ وقيل
هو معطوف على الفتح كقول الشاعر:

لللبس عبادة وتقرّ عينني

وأما على قراءة حذف الواو: فالجملة مستأنفة جواب
سؤال مقتر، والإشارة بقوله: ﴿أهؤلاء﴾ إلى المنافقين: أي
يقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين:
﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾
بالمناصرة والمعاضدة في القتال، أو يقول بعض المؤمنين
لبعض مشيرين إلى المنافقين، وهذه الجملة مفسرة للقول.
وجهد الأيمان: أغلظها، وهو منصوب على المصدر أو على
الحال. أي: أقسموا بالله جاهدين. قوله: ﴿حبطت أعمالهم﴾
أي: بطلت وهو من تمام قول المؤمنين، أو جملة مستأنفة،
والقائل الله سبحانه. والأعمال هي التي عملوها في الموالة
أو كل عمل يعملونه. قوله: ﴿ها أيها الذين آمنوا من يرتد
منكم﴾ قرأ أهل المدينة والشام: يرتد بدالين بك الإدغام،
وهي لغة تميم، وقرأ غيرهم بالإدغام. وهذا شروع في بيان
أحكام المرتدين، بعد بيان أن موالة الكافرين من المسلم
كفر، وذلك نوع من أنواع الردّة. والمراد بالقوم الذين وعد الله
سبحانه بالإتيان بهم هم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه
وجيشه من الصحابة والتابعين، الذين قاتل بهم أهل الردّة،
ثم كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدين في جميع
الزمن، ثم وصف سبحانه هؤلاء القوم بهذه الأوصاف
العظيمة، المشتملة على غاية المدح ونهاية الثناء من كونهم
يحبون الله وهو يحبهم، ومن كونهم: ﴿آئلة على المؤمنين
أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون

وباطناً أو ظاهراً فقط، فيدخل المسلم والمنافق، ويؤيد هذا
قوله: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ والاعتبار بعموم
اللفظ، وسيأتي في بيان سبب نزول الآية ما يتضح به
المراد. والمراد من النهي عن اتخاذهم أولياء، أن يعاملوا
معاملة الأولياء في المصانقة والمعاشرة والمناصرة. وقوله:
﴿بعضهم أولياء بعض﴾ تعليل للنهي، والمعنى: أن بعض
اليهود أولياء البعض الآخر منهم، وبعض النصاري أولياء
البعض الآخر منهم، وليس المراد بالبعض إحدى طائفتي
اليهود والنصارى، وبالبعض الآخر الطائفة الأخرى للقطع
بانهم في غاية من العداوة والشقاق ﴿وقالت اليهود ليست
النصارى على شيء﴾ وقالت النصارى ليست اليهود على
شيء. [البقرة: 113] وقيل: المراد أن كل واحدة من
الطائفتين توالي الأخرى وتعاضدها، وتتناصرها على عداوة
النبي ﷺ وعداوة ما جاء به، وإن كانوا في ذات بينهم
متعادين متضائين. ووجه تعليل النهي بهذه الجملة أنها
تقتضي أن هذه الموالة هي شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم،
فلا تفعلوا ما هو من فعلهم فتكونوا مثلهم، ولهذا عقب هذه
الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فقال: ﴿ومن يتولهم
منكم فإنه منهم﴾ أي: فإنه من جملتهم وفي عدادهم وهو
وعيد شديد فإن المعصية الموجبة للكفر، هي التي قد بلغت
إلى غاية ليس وراءها غاية. وقوله: ﴿إن الله لا يهدي للضلال
الظالمين﴾ تعليل للجملة التي قبلها: أي أن وقوعهم في
الكفر هو بسبب عدم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما
يوجب الكفر كمن يوالى الكافرين. قوله: ﴿فترى الذين في
قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾ الفاء للسببية، والخطاب
إما للرسول ﷺ، أو لكل من يصلح له أي: ما ارتكبه من
الموالة ووقعوا فيه من الكفر هو بسبب ما في قلوبهم من
مرض النفاق. وقوله: ﴿يسارعون﴾ في محل نصب إما على
أنه المفعول الثاني إذا كانت الرؤية قلبية أو على أنه حال إذا
كانت بصرية، وجعل المسارعة في موالاتهم مسارعة فيهم
للمبالغة في بيان رغوبهم في ذلك، حتى كأنهم مستقرّون
فيهم داخلون في عدادهم. وقد قرئ فيرى بالتحية. واختلف
في فاعله ما هو؟ فقيل: هو الله عزّ وجلّ؛ وقيل: هو كل من
تصح منه الرؤيا؛ وقيل: هو الموصول ومفعوله: ﴿يسارعون
فيهم﴾ على حذف أن المصدرية: أي فيرى القوم الذين في
قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم، فلما حذفت ارتفع الفعل
كقوله:

الا إبهذا اللائمي أحضر الوغا

والمرض في القلوب: هو النفاق والشك في الدين. وقوله:
﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ جملة مشتملة على
تعليل المسارعة في الموالة: أي أن هذه الخشية هي الحاملة
لهم على المسارعة؛ وقيل إن الجملة حال من ضمير
يسارعون. والدائرة: ما تنور من مكاره الدهر: أي نخشى أن
تظفر الكفار بمحمد ﷺ، فتكون الدولة لهم وتبطل دولته
فيصيبنا منهم مكروه، ومنه قول الشاعر:

لومة لائم والائلة: جمع نليل لا نلول، والأعزة: جمع عزيز: أي يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين، ويجمعون بين المجاهدة في سبيل الله وعدم خوف الملامة في الدين، بل هم متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق، وحزب الشيطان من الإزراء بأهل الدين، وقلب محاسنهم مساوئ، ومنابقيهم مثالب، حسداً وبغضاً، وكراهة للحق وأهله، والإشارة بقوله: **﴿ذلك﴾** إلى ما تقدم من الصفات التي اختصهم الله بها. والفضل: اللطف والإحسان. قوله: **﴿إنما وليكم الله﴾** لما فرغ سبحانه من بيان من لا تحل موالاته، بين من هو الولي الذي تجب موالاته، ومحل **﴿الذين يقيمون الصلاة﴾** الرفع على أنه صفة للذين آمنوا، أو بدل منه، أو النصب على المدح. وقوله: **﴿وهم راعون﴾** جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله. والمراد بالركوع: الخضوع والخضوع: أي يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاشعون خاضعون لا يتكبرون؛ وقيل هو حال من فاعل الزكاة. والمراد بالركوع هو المعنى المذكور: أي يضعون الزكاة في مواضعها غير متكبرين على الفقراء، ولا مترفعين عليهم؛ وقيل المراد بالركوع على المعنى الثاني: ركوع الصلاة، ويضعه عدم جواز إخراج الزكاة في تلك الحال، ثم وعد سبحانه من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا بأنهم الغالبون لعدوهم، وهو من وضع الظاهر موضع المضمرة، ووضع حزب الله موضع ضمير الموالين له ورسوله وللمؤمنين. والحزب: الصنف من الناس، من قولهم حزبه كذا أي: نابه، فكان المتحزبين مجتمعين كاجتماع أهل النائية التي تنوب، وحزب الرجل: أصحابه، والحزب: الورد. وفي الحديث: «فمن فاتته حزيه من الليل، وتحزبوا: اجتمعوا. والأحزاب: الطوائف، وقد وقع، والله الحمد ما وعد الله به أوليائه وأولياء رسله، وأوليائه عباداه المؤمنين من الغلب لعدوهم، فإنهم غلبوا اليهود بالنسي والقتل والإجلاء وضرب الجزية، حتى صاروا لعنهم الله أذل الطوائف الكفرية وأقلها شوكة، وما زالوا تحت كل كل المؤمنين يطحنونهم كيف شاؤوا، ويمتهنونهم كما يريدون من بعد البعثة الشريفة المحمدية إلى هذه الغلبة.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حارب بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام بونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، وله من حلفهم مثل الذي كان لهم من عبد الله بن أبي بن سلول، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وقال: أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار ولايتهم. وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا**

اليهود والنصارى أولياء﴾ إلى قوله: **﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾**. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أسلم عبد الله بن أبي بن سلول، ثم قال: إن بيني وبين قريظة والنضير حلفاً، وإني أخاف الدوائر، فارتد كافرًا. وقال عبادة بن الصامت: أتبرأ إلى الله من حلف قريظة والنضير وأتولى الله ورسوله، فنزلت. وأخرج ابن مردويه أيضاً من طريق عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن أبيه، عن جده نحو ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة فنكر نحو ما تقدم، وأخرج ابن جرير، عن الزهري قال: لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود: آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر، فقال مالك بن الصيف: غرّم أن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال، أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم، لم يكن لكم يدان بقتالنا، فقال عبادة، نكر نحو ما تقدم عنه وعن عبد الله بن أبي. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في هذه الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** قال: إنها في الذبائح «من دخل في دين قوم فهو منهم». وأخرج عبد بن حميد عن حنيفة قال: «ليقت أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر، وتلا **﴿ومن يتولهم منهم فإنه منهم﴾**». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطية **﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾** كعبد الله بن أبي **﴿يسارعون فيهم﴾** في ولايتهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي في سننه، وابن عساكر، عن قتادة قال: أنزل الله هذه الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم﴾** وقد علم أنه سيرتد مرتين من الناس، فلما قبض الله نبيه ﷺ، ارتد عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد: أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل الجواثي من عبد القيس؛ وقال الذين ارتدوا: نصلي الصلاة ولا نركي، والله لا تغصب أموالنا، فكلّم أبا بكر في ذلك ليتجاوز عنهم، وقيل له: إنهم لو قد فقهوا أنوا الزكاة؛ فقال: والله لا أفترق بين شيء جمعه الله، ولو منعوني عقلاً مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه، فبعث الله عصائب مع أبي بكر، فقاتلوا حتى أقرؤا بالماعون، وهو الزكاة. قال قتادة: فكنا نتحدث أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وأصحابه، **﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾** إلى آخر الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الدلائل، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن جرير، عن شريح بن عبيد قال: لما أنزل الله **﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن بيته﴾** الآية، قال عمر: أنا وقومي يا رسول الله؟ قال: لا بل هذا وقومه، يعني أبا موسى الأشعري. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة في مسنده، وعبد بن حميد، والحكيم، والترمذي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، عن عياض الأشعري قال: لما نزلت

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حارب بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام بونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، وله من حلفهم مثل الذي كان لهم من عبد الله بن أبي بن سلول، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وقال: أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار ولايتهم. وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا**

﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا»، وأشار إلى أبي موسى الأشعري. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم في جمعه لحديث شعبة، والبيهقي وابن عساکر، عن أبي موسى الأشعري قال: تليت عند النبي ﷺ ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ الآية، فقال النبي ﷺ: قومك يا أبا موسى أهل اليمن. وأخرج ابن أبي حاتم في الكنى، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، وابن مردويه بسند حسن عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ الآية، فقال: «هؤلاء قوم من أهل اليمن، ثم كندة، ثم السكون، ثم تجيب». وأخرج البخاري في تاريخه وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال: هم قوم من أهل اليمن، ثم من كندة القاسية. وأخرج البخاري في تاريخه عن القاسم بن مخيمرة قال: أتيت ابن عمر فرحب بي، ثم تلا ﴿من يرد منكم عن بينة فسوف يأتني الله بقوم﴾ الآية، ثم ضرب على منكبي وقال: أحلف بالله إنهم لمنكم أهل اليمن ثلاثاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عطية بن سعد. قال في قوله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾ إنها نزلت في عبادة بن الصامت. وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن ابن عباس قال: تصدق علي بخاتم وهو راكم، فقال النبي ﷺ للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذاك الراكم، فأنزل الله فيه ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت في علي بن أبي طالب. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه، وابن عساکر، عن علي بن أبي طالب نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن عمار، نحوه أيضاً. وأخرج الطبراني في الأوسط بسند فيه مجاهد عن نحوه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ أَخَذُوا بِكُفْرٍ هَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافَرُ أَقْبَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَخَذُوا هَؤُلَاءِ مِنْكُمْ قَوْلًا لَا يَقُولُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ يَأْمُرُ الْكِتَابُ هَلْ تَقِفُونَ بِمَا لَا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَوْتٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَمْنِهِ اللَّهُ وَعَظِيبَ عَذَابٍ يَجْعَلُ فِيهِمُ الْفِرْدَوْسَ وَلِلْفَارِيزِ وَعَبْدُ الْقُلُوبِ أَوْلَيْكَ شَرٌّ مِمَّا وَكَّلْنَا عَنْ مَوَاهِبِ السَّبِيلِ ﴿٦١﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ قَوْلٌ مِمَّا يَقُولُ دَعَوْا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦٢﴾ وَذَكَرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُسْعَوْنَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكَلُوا مِنْ شَيْءٍ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾ وَلَا يَتَّبِعُهُمُ الْزُّبَيْرُ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ الْإِثْمُ وَأَكَلُوا شَيْءٌ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٤﴾

قوله: ﴿لَا تَتَخَذُوا لِلَّذِينَ اتَّخَذُوا بَيْنَكُمْ هِزْوًا﴾ هذا النهي عن موالاة المتخذين للذين هزواً ولعباً يعم كل من حصل منه ذلك من المشركين، وأهل الكتاب وأهل البدع المنتمين إلى الإسلام، والبيان بقوله: ﴿مَنْ لِيْزِينَ لَوْ تَوَاتَا﴾ إلى آخره لا ينافي دخول غيرهم تحت النهي إذا

ما نسقوا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا وقال الله سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البروج: 8] والمعنى في الآية: هل تعيبون أو تسخطون أو تنكرون أو تكرهون منا إلا إيماننا بالله وبكتبه المنزل، وقد علمتم بأننا على الحق ﴿وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ بترككم للإيمان، والخروج عن امتثال أوامر الله. وقوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على أن آمنا: أي ما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمرنكم وخروجكم عن الإيمان. وفيه أن المؤمنين لم يجمعوا بين الأمرين المذكورين، فإن الإيمان من جهتهم والتمرد والخروج من جهة الناقمين؛ وقيل هو على تقدير محذوف: أي واعتقانا أن أكثركم فاسقون؛ وقيل: إن قوله ﴿أَنْ آمَنَّا﴾ هو منصوب على أنه مفعول له، والمفعول محذوف، فيكون ﴿وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوفاً عليه عطف العلة على العلة، والتقدير: وما تنقمون منا إلا لأن آمنا، ولأن أكثركم فاسقون، وقيل: معطوف على علة محذوفة، أي لقلّة إنصافكم، ولأن أكثركم فاسقون؛ وقيل الواو في قوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ هي التي بمعنى مع: أي ما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون؛ وقيل: هو منصوب بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون: أي ولا

تنتقمون أن أكثركم فاسقون؛ وقيل: هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف: أي وفسقكم معلوم فتكون الجملة حالية، وقرئ بكسر إن من قوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فتكون جملة مستأنفة، قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ بين الله سبحانه لرسوله أن فيهم من العيب ما هو أولى بالعيب، وهو ما هم عليه من الكفر الموجب لللعن الله وغضبه ومسخه؛ والمعنى: هل أنبئكم بشر من نقمكم علينا أو بشر مما تريبون لنا من المكروه أو بشر من أهل الكتاب أو بشر من دينهم. وقوله: ﴿مُتَوَبِّعٌ﴾ أي جزاء ثابتاً، وهي مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر. ووضعت هنا موضع العقوبة على طريقة ﴿فَنَبِّئُهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21] وهي منصوبة على التمييز من بشر. وقوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف مع تقدير مضاف محذوف: أي هو لعن من لعنه الله أو هو دين من لعنه الله، ويجوز أن يكون في محل جر بدلاً من شر. وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير وهم اليهود، فإن الله مسخ أصحاب السبت قردة، وكفار مائدة عيسى منهم خنازير وقوله: ﴿وَعِيدٌ لِلطَّاغُوتِ﴾ قرأ حمزة بضم الباء من عيد وكسر التاء من ﴿الطَّاغُوتِ﴾ أي جعل منهم عيد الطاغوت بإضافة عيد إلى الطاغوت. والمعنى: وجعل منهم من يبالغ في عبادة الطاغوت، لأن فعل من صيغ المبالغة؛ كحذر وفطن للتبليغ في الحذر والفطنة. وقرأ الباقر بفتح الباء من ﴿عَبِيدٌ﴾ وفتح التاء من ﴿الطَّاغُوتِ﴾ على أنه فعل ماضٍ معطوف على فعل ماضٍ وهو غضب ولعن، كأنه قيل: ومن عبد الطاغوت، أو معطوف على القردة والخنازير: أي جعل منهم القردة والخنازير، وجعل منهم عبد الطاغوت حملاً على لفظ من. وقرأ أبي مسعود ﴿وَعَبِدُوا الطَّاغُوتَ﴾ حملاً على معناها. وقرأ ابن عباس ﴿وَعَبِيدٌ﴾ بضم العين والباء كأنه جمع عبد، كما يقال: سقف وسقف. ويجوز أن يكون جمع عبید، كزغيف وزغف، أو جمع عابد كباذل وبذل. وقرأ أبو واقد «وعباد» جمع عابد للمبالغة، كعامل وعمال. وقرأ البصريون وعباد جمع عابد أيضاً، كقائم وقيام، ويجوز أن يكون جمع عبد. وقرأ أبو جعفر الرقاشي وعبد الطاغوت على البناء للمفعول، والتقدير وعبد الطاغوت فيهم. وقرأ عون العقيلي، وابن بريده وعابد الطاغوت على التوحيد. وروي عن ابن مسعود وأبي أنهما قرأ ﴿وَعَبِيدَةُ الطَّاغُوتِ﴾ وقرأ عبيد بن عمير ﴿وَأَعْبَدِ الطَّاغُوتِ﴾ مثل كلب وأكلب. وقرئ ﴿وَعَبِيدِ الطَّاغُوتِ﴾ عطفاً على الموصول بناء على تقدير مضاف محذوف، وهي قراءة ضعيفة جداً، والطاغوت: الشيطان أو الكهنة أو غيرهما مما قد تقدم مستوفى. قوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ الإشارة إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة، وجعلت الشرارة للمكان، وهي لاهله للمبالغة، ويجوز أن يكون الإسناد مجازياً. قوله: ﴿وَإِضْلٌ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ﴾ معطوف على شر، أي هم أضل من غيرهم عن الطريق المستقيم، والتفضيل في

الموضعين للزيادة مطلقاً أو لكونهم أشدّ وأضلّ مما يشاركونهم في أصل الشرارة والضلال. قوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أي إذا جاءوكم أظهروا الإسلام. قوله: ﴿وَقَدْ نَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ جملتان حاليتان: أي جاءوكم حال كونهم قد نخلوا عندك متلبسين بالكفر، وخرجوا من عندك متلبسين به لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك، بل خرجوا كما نخلوا ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ عندك من الكفر، وفيه وعيد شديد، وهؤلاء هم المنافقون؛ وقيل: هم اليهود الذين قالوا: ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ﴾ [آل عمران: 72]. قوله: ﴿وَوَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ عائد إلى المنافقين، أو اليهود، أو إلى الطائفتين جميعاً ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ في محل نصب على الحال، على أن الرؤية بصرية أو هو مفعول ثانٍ لترى على أنها قلبية، والمسارة: المبادرة، والإثم: الكذب أو الشرك أو الحرام، والعنوان: الظلم المتعدي إلى الغير أو مجاوزة الحد في الذنوب، والسحت: الحرام، فعلى قول من فسر الإثم بالحرام يكون تكريره للمبالغة، والربانيون علماء النصارى، والأخبار: علماء اليهود؛ وقيل الكل من اليهود لأن هذه الآيات فيهم؛ ثم ويخ علماءهم في تركهم لنهيهم فقال: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا فيه زيادة على قوله: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن العمل لا يبلغ درجة الصنع حتى يترب فيه صاحبه، ولهذا تقول العرب: سيف صنيع إذا جود عامله عمله فالصنع هو العمل الجيد لا مطلق العمل، فوبخ سبحانه الخاصة، وهم العلماء التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بما هو أغلظ وأشدّ من توبيخ فاعل المعاصي، فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم ويفرجوا لها عن قلوبهم، فإنها قد جاءت بما فيه البيان الشافي لهم بأن كفهم عن المعاصي، مع ترك إنكارهم على أهلها لا يسمن ولا يغني من جوع، بل هم أشدّ حالاً وأعظم وبالاً من العصاة، فرحم الله عالماً قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو أعظم ما افترضه الله عليه وأوجب ما أوجب عليه النهوض به. اللهم اجعلنا من عبائك الصالحين الأمرين بالمعروف الناهمين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وأعنا على ذلك، وقوتنا عليه، ويسره لنا، وانصرنا على من تعدى حدودك، وظلم عبائك، إنه لا ناصر لنا سواه، ولا مستعان غيرك، يا مالك يوم الدين، إياك نعبد، وإياك نستعين.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت، وسويد بن الحارث، قد أظهر الإسلام وناقفاً، وكان رجال من المسلمين يوانونهما، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾. وأخرج

في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاک بن مزاحم نحوه، وقد وردت أحاديث كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا حاجة لنا في بسطها هنا.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيَهُمْ وَلَوْ مَا قَالُوا بِلَ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَئِنْ نَدِيتُ كِبِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفَيْنًا وَكَفَرًا وَالْحَقُّ بَيْنَهُمُ الْعَدَّةُ وَالْحَقُّ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَخِيمَةً وَلَذِكْرُكَ أَجْزَلُ الْيَعْلَىٰ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آتَوْهُمُ الْقُرْآنَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ الرِّبِّهِمْ لَا كُفُلًا مِنْ فَوْقِهِمْ وَنَحْنُ نَحْتِ أَرْبَابَهُمْ مِنْهُمْ أَمَّةٌ مُتَّفِقَةٌ وَكَيْفَ يَنْتَهِي سَهْمًا يَمْلِكُونَ ﴿٥١﴾

قوله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ﴾ اليد: عند العرب تطلق على الجارحة، ومنه قوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ يَدَكَ ضَغْنًا﴾ [ص: 44] وعلى النعمة، يقولون كم يد لي عند فلان؛ وعلى القدرة. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 73] أو على التأييد، ومنه قوله ﷺ: يد الله مع القاضي حين يقضي، وتطلق على معانٍ أخرى. وهذه الآية هي على طريق التمثيل كقوله تعالى: ﴿لَوْ جَعَلَ يَدُكَ مَقْلُوبَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29] والعرب تطلق غل اليد على البخل، وبسطها على الجود مجازاً، ولا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الانامل ومقبوض الكف، ومنه قول الشاعر:

كانت خراسان أرضاً لا يزيد بها وكل باب من الخيرات مفتوح
فاستبطلت بعده جعداً أنامله كأنما وجهه بالبخل منضوح
فمراد لليهود هنا عليهم لعائن الله أن الله بخيل، فأجاب سبحانه عليهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل، فيكون الجواب عليهم مطابقاً لما أراوه بقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ﴾ ويجوز أن يراد غل أيديهم حقيقة بالأسر في الدنيا أو بالعذاب في الآخرة، ويقوي المعنى الأول: أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس، فلا ترى يهودياً، وإن كان ماله في غاية الكثرة، إلا وهو من أبخل خلق الله، وإيضاً المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله. قوله: ﴿وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا﴾ معطوف على ما قبله والباء سببية: أي أبعدوا من رحمة الله بسبب قولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ﴾ ثم رد سبحانه بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي: بل هو في غاية ما يكون من الجود، وذكر اليمين مع كونهم لم ينكروا إلا اليد الواحدة مبالغة في الرد عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبة الجود إلى اليمين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة، وهذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقترنة يقتضيها المقام: أي كلا ليس الأمر كذلك: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وقيل المراد بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ نعمة الدنيا الظاهرة ونعمتها الباطنة؛ وقيل: نعمة المطر والنبات؛ وقيل: الثواب والعقاب. وحكى الأخفش عن ابن مسعود أنه قرأ «بل يدها بسيطان»: أي منطلقتان كيف يشاء. قوله: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه: أي

البيهقي في الدلائل من طريق الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا نَايَبْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ تَلَخْتُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾ قال: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى بالصلاة، فقام المسلمون إلى الصلاة، قالت اليهود والنصارى: قد قاموا لا قاموا، فإذا راوهم ركعوا وسجدوا استهزؤا بهم وضحكوا منهم. قال: وكان رجل من اليهود تاجراً، إذا سمع المنادي ينادي بالأذان قال: أحرق الله الكاتب؛ قال: فبينما هو كذلك، إذ دخلت جاريته بشعلة من نار، فطارت شرارة منها في البيت فأحرقته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي قال: كان رجل من النصارى ففكر نحو قصة الرجل اليهودي. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: أتى النبي ﷺ نفر من اليهود، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال: أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون؛ فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسْقُون﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقُرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ قال: مسخت من يهود. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي مالك أنه قيل له: كانت القردة والخنازير قبل أن يمسخوا؟ قال: نعم، وكانوا مما خلق من الأمم. وأخرج مسلم، وابن مريويه، عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير هما مما مسح الله، فقال: إن الله لم يهلك قوماً، أو قال: لم يمسح قوماً فيجعل لهم نسلًا ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ الآية، قال أناس من اليهود: كانوا يدخلون على النبي ﷺ فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاء به، وهم متمسكون بضاللتهم وبالكفر، فكانوا يدخلون بذلك ويخرجون به من عند رسول الله ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن السدي في الآية قال: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يهوداً، يقولون دخلوا كفراً وخرجوا كفراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿وَوَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ قال: هؤلاء اليهود ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ قال: يصنعون ويعملون واحد، قال هؤلاء حين لم ينتهوا، كما قال هؤلاء حين عملوا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرِّبَانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ قال: فهل لا ينهاهم الربانيون والأحبار، وهم الفقهاء والعلماء. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ﴿لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرِّبَانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ وأخرج ابن المبارك

إنفاقه على ما تقتضيه مشيئته، فإن شاء وسع، وإن شاء قتر، فهو الباسط القابض؛ فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة، لا لشيء آخر، فإن خزائن ملكه لا تنفد ومواد جوده لا تنتهي. قوله: **﴿وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾** إلخ، اللام هي لام القسم: أي ليزيدن كثيراً من اليهود والنصارى ما أنزل إليك من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة **﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾** أي: طغياناً إلى طغيانهم، وكفراً إلى كفرهم. قوله: **﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾** أي: بين اليهود **﴿وَالْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾** أو بين اليهود والنصارى. قوله: **﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَاها اللَّهُ﴾** أي: كلما جمعوا للحرب جمعاً وأعدوا له عدة شتت الله جمعهم، وذهب بريحهم، فلم يظفروا بطائل ولا عابوا بفائدة، بل لا يحصلون من ذلك إلا على الغلب لهم، وهكذا لا يزالون يهيجون الحروب ويجمعون عليها، ثم يبطل الله ذلك، والآية مشتملة على استعارة بليغة، وأسلوب بديع **﴿وَيُوسِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسادًا﴾** أي يجتهدون في فعل ما فيه فساد، ومن أعظمه ما يريونه من إبطال الإسلام وكيد أهله؛ وقيل المراد بالنار هنا الغضب: أي كلما أثاروا في أنفسهم غضباً أطفاه الله بما جعله من الرعب في صدورهم، والنلة والمسكنة المضروبين عليهم. قوله: **﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾** إن كانت اللام للجنس، فهم داخلون في تلك دخولاً أولياً، وإن كانت للعهد فوضع الظاهر موضع المضمّر لبيان شدة فسادهم، وكونهم لا ينفكون عنه. قوله: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾** أي: لو أن المتمسكين بالكتاب، وهم اليهود والنصارى، على أن التعريف للجنس **﴿آمَنُوا﴾** الإيمان الذي طلبه الله منهم، ومن أهمه الإيمان بما جاء به محمد ﷺ كما أمروا بذلك في كتب الله المنزلّة عليهم **﴿وَاتَّقَوْا﴾** المعاصي التي من أعظمها ما هم عليه من الشرك بالله، والجحود لما جاء به رسول الله **﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ﴾** سيئاتهم التي اقترفوها، وإن كانت كثيرة متنوعة؛ وقيل المعنى: لو سعتنا عليهم في أرزاقهم، **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾** أي: أقاموا ما فيها من الأحكام التي من جملتها الإيمان بما جاء به محمد ﷺ. قوله: **﴿وَمَا أَنزَلْ إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ﴾** من سائر كتب الله التي من جملتها القرآن، فإنها كلها وإن نزلت على غيرهم، فهي في حكم المنزلّة عليهم لكونهم متعبدین بما فيها؛ **﴿لَاكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾** نكر فوق وتحت للمبالغة في تيسر أسباب الرزق لهم وكثرتها، وتعدد أنواعها. قوله: **﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾** جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: هل جميعهم متصفون بالأوصاف السابقة، أو البعض منهم دون البعض، والمقتصدون منهم هم: المؤمنون كعبد الله بن سلام، ومن تبعه، وطائفة من النصارى **﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** وهم المصرون على الكفر المتمردون عن إجابة محمد ﷺ والإيمان بما جاء به.

النباش بن قيس: إن ربك بخيل لا يتفق، فأنزل الله: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾** الآية. وأخرج أبو الشيخ عنه أنها نزلت في فنحاص اليهودي. وأخرج مثله ابن جرير عن عكرمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾** أي بخيلة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنزَلْ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾** قال: حملهم حسد محمد والعرب على أن تركوا القرآن، وكفروا بمحمد وبينه، وهم يجنونه مكتوباً عندهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: **﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾** قال: حرب محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في الآية: كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرقّه الله، وأطفأ حدّهم ونارهم، وقطف في قلوبهم الرعب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾** قال: آمنوا بما أنزل على محمد، واتقوا ما حرّم الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾** قال: العمل بهما، وأما ما أنزل إليهم، فمحمد ﷺ، وما أنزل عليه، وأما: **﴿لَاكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** فارسلت عليهم مطراً، وأما: **﴿مَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾** يقول: أنبت لهم من الأرض من رزقي ما يغنيهم، **﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾** وهم مسلمة أهل الكتاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿لَاكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** يعني لأرسل عليهم السماء مدراراً **﴿وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾** قال: تخرج الأرض من بركتها. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الربيع بن أنس قال: الأمة المقتصدة: الذين لا هم فسقوا في الدين ولا هم غلوا. قال: والغلو الرغبة، والفسق التقصير عنه. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي **﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾** يقول: مؤمنة. وأخرج ابن مريويه قال: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن يونس الضبي، حدثنا عاصم بن علي، حدثنا أبو معشر عن يعقوب بن زيد بن طلحة، عن زيد بن أسلم، عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنذكر حديثاً، قال: ثم حدثهم النبي ﷺ قال: «تفرقت أمة موسى على اثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار؛ وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار، تعلوا أمتي على الفريقين جميعاً ملة واحدة في الجنة وثلثتان وسبعون منها في النار، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: الجماعة الجماعة» قال يعقوب بن زيد: كان علي بن أبي طالب إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ تلا فيه قرآنًا، قال: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ﴾** سيئاتهم إلى قوله: **﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾**

وقد أخرج ابن إسحاق، والطبراني في الكبير، وابن مريويه، عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له

ساء ما يعملون» وتلا أيضاً: «وممن خلقنا أمة يهودن بالحق وبه يعملون» [الأعراف: 181] يعني: أمة محمد ﷺ. قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكره لهذا الحديث ما لفظه: وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين، مروى من طرق عديدة قد ذكرناها في موضع آخر انتهى. قلت: أما زيادة كونها في النار إلا واحدة، فقد ضعفها جماعة من المحدثين، بل قال ابن حزم إنها: موضوعة.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَمُشِكُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

العموم الكائن في ما أنزل يفيد أنه يجب عليه ﷺ أن يبلغ جميع ما أنزل الله إليه، لا يكتف من شيئاً. وفيه دليل على أنه لم يسر إلى أحد مما يتعلق بما أنزله الله إليه شيئاً، ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من زعم أن محمداً ﷺ كتم شيئاً من الوحي فقد كذب. وفي صحيح البخاري من حديث أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عنكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكك الأسير، وإن لا يقتل مسلم بكافر ﴿فإن لم تفعل﴾ ما أمرت به من تبليغ الجميع، بل كتمت ولو بعضاً من ذلك ﴿فما بلغت رسالته﴾. قرأ أبو عمرو، وأهل الكوفة إلا شعبة «رسالته» على التوحيد. وقرأ أهل المدينة وأهل الشام «رسالته» على الجمع، قال النحاس: والجمع أبين لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحي شيئاً فشيئاً، ثم يبينه انتهى. وفيه نظر، فإن نفي التبليغ عن الرسالة الواحدة أبلغ من نفيه عن الرسالات، كما ذكره علماء البيان على خلاف في ذلك، وقد بلغ رسول الله ﷺ أمته ما نزل إليهم، وقال لهم في غير موطن: هل بلغت؟ فيشبهون له بالبيان، فجزاه الله عن أمته خيراً؛ ثم إن الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعاً لما يظن أنه حامل على كتم البيان، وهو خوف لحوق الضرر من الناس، وقد كان ذلك بحمد الله، فإنه بين لعباد الله ما نزل إليهم على وجه التمام، ثم حمل من أبي من الدخول في الدين على الدخول فيه طوعاً أو كرهاً، وقتل صنائيد الشرك وفرق جموعهم وبند شملهم، وكانت كلمة هي العليا، فأسلم كل من نازعه ممن لم يسبق فيه السيف العذل، حتى قال يوم الفتح لصنائيد قريش وكابريهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم فقال: اذهبوا فانتم الطلقاء، وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس، إن قام ببيان حجج الله، وإيضاح براهينه، وصرخ بين ظهرائي من ضاد الله وعانده ولم يمتثل لشعره كطوائف المبتدعة، وقد راينا من هذا في أنفسنا وسمعنا منه في غيرنا ما يزيد المؤمن إيماناً وصلابة في دين الله وشدة شكيمه في القيام بحجة الله، وكل ما يظنه متزلزلاً الأقدام، ومضطرباً القلوب،

من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم فهو خيالات مختلة وتروهمات باطلة، فإن كل محنة في الظاهر هي منحة في الحقيقة، لأنها لا تأتي إلا بخير في الأولى والأخرى ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق: 37]. قوله: ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ جملة متضمنة لتعليل ما سبق من العصمة: أي إن الله لا يجعل لهم سبيلاً إلى الإضرار بك، فلا تخف وبلغ ما أمرت بتبليغه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: لما نزلت: ﴿بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ قال: يا رب إنما أنا واحد كيف أصنع؟ يجتمع علي الناس، فنزلت: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، أن رسول الله ﷺ قال: إن الله بعثني برسالته فضقت بها ذرعاً وعرفت أن الناس مكذبين، فوعظني لأبلغن أو ليعذبنني، فأنزلت: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ يعني: إن كتمت آية مما أنزل إليك لم تبلغ رسالته. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾ على رسول الله ﷺ يوم غدير خم، في علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ إن علياً مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عنترة، قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يده رسول الله ﷺ للناس، فقال: ألم تعلم أن الله قال: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ والله ما وزنا رسول الله ﷺ سوداء في بضاء. وأخرج ابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل: أي آية أنزلت من السماء أشد عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم، فاجتمع مشركوا العرب وأفناء الناس في الموسم، فأنزل علي جبريل فقال: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾ الآية، قال: فقممت عند العقبة فناديت يا أيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالة ربي وله الجنة، أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم، فتلحقوا وتتجحوا ولكم الجنة، قال: فما بقي رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون بالتراب والحجارة ويبيزون في وجهي ويقولون: كذب صابئ، فعرض علي عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك، فقال النبي ﷺ: اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه. قال الأعمش: فبذلك يفتخر بنو العباس ويقولون فيهم نزلت: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: 56] هو النبي ﷺ أبا طالب، وشاء الله عباس بن عبد المطلب.

وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت: ﴿وَأُوْا هٖ عَصَمَكُم مِّنَ النَّاسِ﴾ فأخرج رأسه من القبة فقال: أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله. قال الحاكم في المستدرک: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرج الطبراني، وابن مردويه من حديث أبي سعيد. وقد روى في هذا المعنى أحاديث. وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني النضير نزل ذات الرقيع بأعلى نخل، فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجله، فقال الوارث من بني النضير: لا تقتل محمداً، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له أعطني سيفك فإذا أعطانيه قتلته به؛ فأتاه فقال: يا محمد أعطني سيفك أشمه، فأعطاه إياه، فرددت يده حتى سقط السيف من يده، فقال رسول الله ﷺ: حال الله بينك وبين ما تريد، فأنزل الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ الآية. قال ابن كثير: وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرج ابن حبان في صحيحه، وابن مردويه عن أبي هريرة نحو هذه القصة، ولم يسم الرجل. وأخرج ابن جرير من حديث محمد بن كعب القرظي نحوه، وفي الباب روايات، وقصة غوث بن الحارث ثابتة في الصحيح، وهي معروفة مشهورة.

وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ، وَالحَاكِمُ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَأَبُو نَعِيمٍ وَالبَيْهَقِيُّ كِلَاهُمَا فِي الدَّلَائِلِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْرُسُ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿وَأُوْا هٖ عَصَمَكُم مِّنَ النَّاسِ﴾ فَأَخْرَجَ رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ انصَرَفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ. قَالَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَخْرُجَاهُ. وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ. وَقَدْ رَوَى فِي هَذَا الْمَعْنَى أَحَادِيثَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَنِي النَّضِيرِ نَزَلَ ذَاتَ الرَّقِيعِ بِأَعْلَى نَخْلٍ، فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى رَأْسِ بَيْتٍ قَدْ دَلَّى رِجْلَهُ، فَقَالَ الْوَارِثُ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ: لَا تَقْتُلْ مُحَمَّدًا، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: كَيْفَ تَقْتُلُهُ؟ قَالَ: أَقُولُ لَهُ: أَعْطِنِي سَيْفَكَ فَإِذَا أَعْطَانِيهِ قَتَلْتُهُ بِهِ؛ فَاتَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي سَيْفَكَ أَشْمُهُ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَرَدَعَتْ يَدَهُ حَتَّى سَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: حَالُ اللَّهِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَا تَرِيدُ، فَانْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ الْآيَةَ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ حِبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ نَحْوَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَلَمْ يَسْمِ الرَّجُلَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ نَحْوَهُ، وَفِي الْبَابِ رَوَايَاتٌ، وَقِصَّةُ غَوْثِ بْنِ الْحَارِثِ ثَابِتَةٌ فِي الصَّحِيحِ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ.

قُلْ يَتَذَكَّرُ الْكِتَابَ لَسْمَ عَلَى مَنْ وَحَى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلِكُلِّ ذِكْرٍ كِتَابٌ مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ مُطَهَّرًا وَكَفَرُوا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّابِقُونَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٢﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمًا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ فِتْنَةً فَذَقُوا وَصُورًا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴿١٠٤﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَغْبِلُوا اللَّهَ رُبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مِّنْ دُونِهِ وَاللَّهُ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٠٥﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَعَالَى تَلَكُّنَا وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَعْمَلُونَ لَيَسِّنَنَّ اللَّهُ لَهُمُ الْيُسْرَىٰ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الْعَمَلُ ﴿١٠٦﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٧﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدْقَةٌ كَمَا يَكْلَأُونَ فِي الْأَرْحَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ بَيَّنَّتْ لَهُمُ الْآيَاتُ ثُمَّ أَنْظَرُ أَن يَرْجِعُوا ﴿١٠٨﴾

قوله: ﴿على شيء﴾ فيه تحقير وتقليل لما هم عليه أي لستم على شيء يعتد به حتى تقيموا التوراة والإنجيل أي تعملوا بما فيها من أوامر الله ونواهيه التي من جملتها

والأفاعلموا أنا وإنتم بغاة ما بقينا في شقاق أي: والأفاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك، ومثله قول ضابي البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب أي: فإني لغريب وقيار كذلك. وقال الكسائي والأخفش: إن الصابئون معطوف على المضمرة في هادوا. قال النحاس: سمعت الزجاج يقول وقد ذكر له قول الكسائي والأخفش: هذا خطأ من وجهين: أحدهما أن المضمرة المرفوعة لا يعطف عليه حتى يؤكد. وثانيهما أن المعطوف شريك المعطوف عليه، فيصير للمعنى: إن الصابئين قد نخلوا في اليهودية، وهذا محال. وقال الفراء: إنما جاز الرفع لأن إن ضعيفة فلا تؤثر إلا في الاسم دون الخبر، فعلى هذا هو عنده معطوف على محل اسم إن، أو على مجموع إن واسمها، وقيل إن خبر إن مقدر، والجملة الآتية خبر الصابئون والنصارى، كما في قول الشاعر:

نحن بما عنننا وإنتم بما عننك راض والرأي مختلف وقيل: إن إن هنا بمعنى نعم: فالصابئون مرتفع بالابتداء، ومثله قول قيس بن الرقيات:

بكر العوائل في الصبا ح يلعنني والومنه ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه

قال الأخفش: إنه بمعنى نعم والهاء للسكت. وقد تقدم الكلام على الصابئين والنصارى في البقرة، وقرئ الصابيون صريحة تخفيفاً للهمزة، وقرئ الصائون بدون ياء، وهو من صبا يصبو لأنهم صبروا إلى اتباع الهوى، وقرئ

وقرى: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ بالبناء للمفعول: أي أعماهم الله وأصمهم. قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض فضائح أهل الكتاب، والقائلون بهذه المقالة هم فرقة منهم: يقال لهم اليعقوبية؛ وقيل: هم الملكانية، قالوا: إن الله عز وجل حلّ في ذات عيسى، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: والحال أنه قد قال المسيح هذه المقالة، فكيف يدعون الإلهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثلهم؟ قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَزَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ الضمير للشأن، وهذا كلام مبتدأ يتضمن بيان أن الشرك يوجب تحريم دخول الجنة، وقيل: هو من قول عيسى ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينصرونهم فيدخلونهم الجنة أو يخلصونهم من النار. قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ﴾ وهذا كلام أيضاً مبتدأ لبيان بعض مخازيهم. والمراد بثالث ثلاثة واحد من ثلاثة، ولهذا يضاف إلى ما بعده، ولا يجوز فيه التثنية كما قال الزجاج وغيره، وإنما ينون وينصب ما بعده إذا كان ما بعده نونه بمرتبة نحو ثالث اثنين ورابع ثلاثة، والقائل بأنه سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة هم النصاري، والمراد بالثلاثة: الله سبحانه، وعيسى، ومريم كما يدل عليه قوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ﴾ [المائدة: 116] وهذا هو المراد بقولهم ثلاثة آقانيم: إقنيم الأب وإقنيم الابن، وإقنيم روح القدس، وقد تقدّم في سورة النساء كلام في هذا، ثم رد الله سبحانه عليهم هذه الدعوى الباطلة فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: ليس في الوجود إلا الله سبحانه، وهذه الجملة حالية، والمعنى: قالوا تلك المقالة، والحال أنه لا موجود إلا الله، ومن في قوله: ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ لتأكيد الاستغراق المستفاد من النفي: ﴿وَأَنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الكفر، ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾ جواب قسم محذوف ساد مسدّ جواب الشرط، ومن في ﴿مِنْهُمْ﴾ بيانية أو تبعية ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ الفاء للعطف على مقدر، والهمزة للإنكار. قوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: هو مقصور على الرسالة، لا يجاوزها كما زعمتم، وجملة: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ صفة لرسول: أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، وما وقع منه من المعجزات لا يوجب كونه إلهاً، فقد كان لمن قبله من الرسل مثلهما، فإن الله أحيا العصا في يد موسى، وخلق آدم من غير أب، فكيف جعلتم إحياء عيسى للموتى، ووجوده من غير أب يوجبان كونه إلهاً، فإن كان كما تزعمون إلهاً لذلك، فمن قبله من الرسل الذين جازوا بمثل ما جاء به آلهة، وأنتم لا تقولون بذلك. قوله: ﴿وَأَمَّا صَدِيقُهُ﴾ عطف على المسيح: أي وما أمه إلا صديقة: أي صانقة فيما تقوله أو مصدقة لما جاء به ولدها من الرسالة، وذلك لا يستلزم الإلهية لها، بل هي كسائر من يتصف بهذا الوصف من النساء. قوله: ﴿كَانَا

وَالصَّابِثِينَ﴾ عطفاً على اسم إن قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ مبتدأ وخبره ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمبتدأ وخبره خبر لأن، وبخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، والعائد إلى اسم إن محذوف: أي من آمن منهم، ويجوز أن يكون من آمن بدلاً من اسم إن وما عطف عليه، ويكون خبر إن ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين كما قلنا: أن من آمن من هذه الطوائف إيماناً خالصاً على الوجه المطلوب، وعمل عملاً صالحاً، فهو الذي لا خوف عليه ولا حزن، وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا جميع أهل الإسلام: المخلص والمنافق، فالمراد بمن آمن من اتصف بالإيمان الخالص واستمر عليه، ومن أحدث إيماناً خالصاً بعد نفاقه. قوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كلام مبتدأ؛ لبيان بعض أفعالهم الخبيثة. وقد تقدّم في البقرة بيان معنى الميثاق ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا﴾ ليعزّزهم بالشرائع وينذروهم ﴿كَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ جملة شرطية وقعت جواباً لسؤال ناس من الأخبار بإرسال الرسل كأنه قيل: ماذا فعلوا بالرسول؟ وجواب الشرط محذوف: أي عصوه. وقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ جملة مستأنفة أيضاً جواب عن سؤال ناس عن الجواب الأول كأنه قيل: كيف فعلوا بهم. فقيل فريقاً منهم كذبوه ولم يتعرضوا لهم بضرب، وفريقاً آخر منهم قتلوه، وإنما قال: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لمرعاة رؤوس الآي، فمن كذبه عيسى وأمثاله من الأنبياء، ومن قتلوه زكريا ويحيى. قوله: ﴿وَحَسِبُوا أَنْ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي حسب هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن لا يقع من الله عز وجل ابتلاء واختبار بالشدائد اعتزازاً بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18] قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي ﴿تَكُونَ﴾ بالرفع على أن أن هي المخففة من الثقيلة، وحسب بمعنى علم، لأن أن معناها التحقيق. وقرأ الباقون بالنصب على أن أن ناصبة للفعل، وحسب بمعنى الظن، قال النحاس: والرفع عند النحويين في حسب وأخواتها أجود، ومثله:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يشهد للهو أمثالي
قوله: ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ أي: عموا عن أبصار الهدى، وصموا عن استماع الحق، وهذه إشارة إلى ما وقع من بني إسرائيل في الابتداء من مخالفة أحكام التوراة، وقتل شعيا، ثم تاب الله عليهم حين تابوا، فكشف عنهم القحط ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ وهذا إشارة إلى ما وقع منهم بعد التوبة من قتل يحيى بن زكريا وقصدهم لقتل عيسى، وارتفاع ﴿كَثِيرٍ﴾ على البذل من الضمير في الفعلين. قال الاخفش: كما تقول رأيت قومك ثلاثتهم، وإن شئت كان على إضمار مبتدأ: أي العمى والصمّ كثير منهم، ويجوز أن يكون كثير مرتفعاً على الفاعلية على لغة من قال: لكلوني البراغيث، ومنه قول الشاعر:

ولكن نفاسي أبوه وأمه بحوران يعصرن السليط إقاربه

كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَزَاكَ إِلَّا مَا أَخَذْتُمْ أُزِيلَهُ
وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسَقُوا ﴿١٨٨﴾

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذا القول إلزاماً لهم وقطعاً لشبهتهم: أي اتعبدون من دون الله متجاوزين إياه ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً؟ بل هو عبد مأمور، وما جرى على يده من النفع، أو نفع من الضر، فهو بإقدار الله له وتمكينه منه، وأما هو فهو يعجز عن أن يملك لنفسه شيئاً من ذلك، فضلاً عن أن يملكه لغيره، ومن كان لا ينفع ولا يضر فكيف تتخونونه إلهاً وتعبدونه، وأي سبب يقتضي ذلك؟ والمراد هنا المسيح عليه السلام، وقدم سبحانه الضر على النفع لأن دفع المفسد أهم من جلب المصلح. ﴿والله هو السميع للعليم﴾ أي: كيف تعبدون ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً، والحال أن الله هو السميع للعليم، ومن كان كذلك فهو القادر على الضر والنفع لإحاطته بكل مسموع ومعلوم، ومن جملة ذلك مضاركم ومنافعكم. قوله: ﴿تغلوا في دينكم﴾ لما أبطل سبحانه جميع ما تعلقوا به من الشبه الباطلة، نهامهم عن الغلو في دينهم، وهو المجاوزة للحد كإثبات الإلهية ليعيسى، كما يقوله النصراني، أو حطه عن مرتبته العلية، كما يقوله اليهود فإن كل ذلك من الغلو المذموم وسلوك طريقة الإفراط أو التفريط، واختيارهما على طريق الصواب. ﴿وغير﴾ منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف: أي غلواً غير غلو الحق، وأما الغلو في الحق بإبلاغ كلية الجهد في البحث عنه، واستخراج حقائقه فليس بمذموم، وقيل إن النصب على الاستثناء متصل، وقيل: على المنقطع ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ وهم أسلاف أهل الكتاب من طائفتي اليهود والنصارى: أي قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ﴿واضلوا كثيراً﴾ من الناس ﴿واضلوا عن سواء السبيل﴾ أي: عن قصدهم طريق محمد ﷺ بعد البعثة، والمراد أن أسلافهم ضلوا من قبل البعثة واضلوا كثيراً من الناس إذ ذلك، وضلوا من بعد البعثة، واضلوا كثيراً من الناس إذ ذلك، وضلوا من بعد البعثة، إما بأنفسهم، أو جعل ضلال من أضلوه ضلالاً لهم؛ لكونهم سنوا لهم ذلك ونهجه لهم؛ وقيل المراد بالآول: كفرهم بما يقتضيه العقل، وبالثاني: كفرهم بما يقتضيه الشرع. قوله: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل﴾ أي: لعنهم الله سبحانه ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ أي: في الزبور والإنجيل على لسان داود وعيسى بما فعلوه من المعاصي، كاعتدائهم في السبت، وكفرهم بعيسى. قوله: ﴿ذلك بما عصوا﴾ جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، والإشارة بذلك إلى اللعن: أي ذلك اللعن بسبب المعصية والاعتداء لا بسبب آخر، ثم بين سبحانه المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾، فأسند الفعل إليهم لكونه فاعله من جملتهم وإن لم يفعلوه جميعاً. والمعنى: أنهم كانوا لا ينهاون العاصي عن معاودة معصية قد فعلها، أو تهياً لفعلها، ويحتمل أن

ياكلان الطعام﴾ استئناف يتضمن التقرير لما أشير إليه من أنهما كسائر أفراد البشر: أي من كان ياكل الطعام كسائر المخلوقين فليس برب، بل هو عبد مربوب ولدت النساء، فمتى يصلح لأن يكون رباً؟ وأما قولكم إنه كان ياكل الطعام بناسوته لا بلاموته، فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الإله بغير الإله واجتماع الناسوت واللاهوت، ولو جاز اختلاط القديم بالحادث لجاز أن يكون القديم حادثاً، ولو صح هذا في حق عيسى لصح في حق غيره من العباد ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ أي الدلالات، وفيه تعجيب من حال هؤلاء الذين يجعلون تلك الأوصاف مستلزماً للإلهية، ويغفلون عن كونها موجودة في من لا يقولون بأنه إله ﴿ثم انظر انى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق بعد هذا البيان؟ يقال افكه يافكه إذا صرفه، وكرر الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب، وجاء بثم لإظهار ما بين العجبيين من التفاوت.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: جاء نافع بن حارثة وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن حرمة فقالوا: يا محمد الست تزعم أنك على ملة إبراهيم وبنه، وتؤمن بما عنننا من التوراة وتشهد أنها من الله حق؟ فقال النبي ﷺ: بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق، وكفرتم منها بما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من أحداثكم، قالوا: فلما نؤخذ بما في أيدينا وإنما على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولا نتبعك، فأنزل الله فيهم: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ إلى قوله: ﴿القوم الكافرين﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن في قوله: ﴿وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ قال: بلاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ قال: النصراني يقولون إن الله ثالث ثلاثة وكذبوا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: تفرقت بنو إسرائيل ثلاث فرق في عيسى، فقالت فرقة هو الله، وقالت فرقة هو ابن الله، وقالت فرقة هو عبد الله وروحه، وهي المقتصدة وهي مسلمة أهل الكتاب.

قُلْ أَتَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ شَيْئًا وَلَا نَعْمَ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٨٩﴾ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن بَلَدٍ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١٩٠﴾ لَيْسَ الْإِسْلَامُ كَفَرًا مِّن بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٩١﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٩٢﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ قُلُوبُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْمَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٩٣﴾ وَلَوْ

يكون وصفهم بأنهم قد فعلوا المنكر باعتبار حالة النزول لا حالة ترك الإنكار، وبينان العصيان والاعتداء بترك التناهي عن المنكر؛ لأن من أخل بواجب النهي عن المنكر فقد عصى الله سبحانه وتعدى حدوده. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، وأجل الفرائض الشرعية، ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المصيبة، ومستحقاً لغضب الله وانتقامه كما وقع لأهل السبت، فإن الله سبحانه مسح من لم يشاركهم في الفعل، ولكن ترك الإنكار عليهم، كما مسح المعتدين فصاروا جميعاً قردة وخنازير ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَظَنًى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [آ: 37] ثم إن الله سبحانه قال مقبلاً لعلم التناهي عن المنكر ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: من تركهم لإنكار ما يجب عليهم إنكاره ﴿تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود مثل كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿يَتَوَلَّوْنَ الْفِتْنَةَ كُفْرًا﴾ أي: المشركين وليسوا على دينهم ﴿لَيْسَ مَا قَتَلْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: سولت وزينت، أو ما قَتَلْتُمُوهُمُ لأنفسهم؛ ليرثوا عليه يوم القيامة، والمخصوص بالذم هو ﴿إِنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: موجب سخط الله عليهم على حنف مضاف أو هو سخط الله عليهم على حنف المبتدأ؛ وقيل هو: أي أن سخط الله عليهم بدل من ما ﴿وَلَوْ كُنَّا يُؤْمِنُونَ بِآلِهِ﴾ أي: نبينهم ﴿وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِ﴾ من الكتاب ﴿وَمَا لَتَخُوهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿أَوَّلِيَاءَ﴾ لأن الله سبحانه، ورسوله المرسل إليهم، وكتابه المنزل عليهم قد نهوهم عن ذلك ﴿وَلَكِنْ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسْقُونَ﴾ أي: خارجون عن ولاية الله وعن الإيمان به ويرسلوه ويكتابه.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿لَا تَغْلُوا فِي يَدِئِكُمْ﴾ يقول: لا تبدعوا. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: كانوا مما غلوا فيه أن عوا لله صاحبة وولداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وَضُلُّوا عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ﴾ قال: يهود. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا نَخُلُ النَّقْصَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ لَهُ: يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَلَهُ وَشَرَبِيهِ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاسْقُون﴾ ثُمَّ قَالَ: كَلَّا، وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرَاءً. وَقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة، والاحاديث في هذا الباب كثيرة جداً فلا تطول بذكرها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾

يحرم عليه ولا يلزمه كفارة. وقال أبو حنيفة وأحمد ومن تابعهما: إن من حرم شيئاً صار محرماً عليه، وإذا تناولوه لزمته الكفارة، وهو خلاف ما في هذه الآية، وخلاف ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، ولعله يأتي في سورة التحريم ما هو أبسط من هذا إن شاء الله. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ تعليل لما قبله، وظاهره أن تحريم كل اعتداء: أي مجاوزة لما شرعه الله في كل أمر من الأمور ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ حال كونه ﴿حَلالاً طيباً﴾ أي: غير محرّم ولا مستقذر، أو أكلاً حلالاً طيباً، أو كلوا حلالاً طيباً مما رزقكم الله، ثم وصاهم الله سبحانه بالتقوى فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

وقد أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عدي في الكامل، والطبراني، وابن مريويه، عن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء، وأخذتني شهوة، وإني حرمت علي اللحم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وقد روي من وجه آخر مرسلًا، وروي موقوفًا على ابن عباس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عنه في الآية قال: نزلت في رهط من الصحابة قالوا: نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا، ونسبح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم، فنكر لهم ذلك فقالوا نعم، فقال النبي ﷺ: ولكني أصوم وأقصر وأصلي وأنام وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني. وقد ثبت نحو هذا في الصحيحين وغيرهما، من دون ذكر أن ذلك سبب نزل الآية، وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، في المراسيل، وابن جرير، عن أبي مالك أن هؤلاء الرهط هم عثمان بن مظعون وأصحابه، وفي الباب روايات كثيرة بهذا المعنى، وكثير منها مصرّح بأن ذلك سبب نزل الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن عبد الله بن ربيعة ضافه ضيف من أهله، وهو عند النبي ﷺ ثم رجع إلى أهله، فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظاراً له، فقال لامراته: حبست ضيفي من أجلي هو حرام علي، فقالت امراته: هو حرام علي فقال الضيف: هو حرام علي، فلما رأى ذلك وضع يده وقال: كلوا بسم الله، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «قد أصبت» فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وهذا أثر منقطع، ولكن في صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه ما هو شبيه بهذا. وأخرج ابن أبي حاتم عن مسروق قال: كنا عند عبد الله فجاء بضرع، فتنحى رجل، فقال له عبد الله: ابن، فقال: إني حرمت أن أكله، فقال عبد الله: ابن فاطم وكفر عن يمينك، وتلا هذه الآية. وأخرجه أيضاً الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ

﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ [القصص: 54]. وأخرج عبد بن حميد، والطبراني، وأبو الشيخ وابن مريويه، عن ابن عباس نحوه بدون ذكر العدد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: بعث النجاشي إلى رسول الله ﷺ اثني عشر رجلاً، سبعة قسيسين وخمسة رهباناً، ينظرون إليه ويسألونه فلما لقوه قرأ عليهم ما أنزل الله بكوا وأمنوا، فأنزل الله فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ الآية، والروايات في هذا الباب كثيرة، وهذا المقدر يكفي، فليس المراد إلا بيان سبب نزل الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿قَسِيسِينَ﴾ قال: هم علمائهم. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: القسيسون عبادهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال: أمة محمد ﷺ. يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾

الطيبات: هي المستلذات لما أحله الله لعباده، نهى الذين آمنوا عن أن يحرموا على أنفسهم شيئاً منهم، إما لظنهم أن في ذلك طاعة لله وتقرباً إليه، وأنه من الزهد في الدنيا لرفع النفس عن شهواتها، أو لقصد أن يحرموا على أنفسهم شيئاً مما أحله لهم كما يقع من كثير من العوام من قولهم: حرام علي، وحرمته على نفسي، ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل تحت هذا النهي القرآني. قال ابن جرير الطبري: لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمنكح، ولذلك رد النبي ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون.

فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده، وإن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب الله عباده إليه، وعمل به رسول الله ﷺ وسنة لأمته، واتباعه على منهجه الأئمة الراشدون، إذ كان خير الهدى هدي نبينا محمد ﷺ. فإذا كان ذلك كذلك، تبين خطأ من أثر لبس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله، وأثر أكل الخشن من الطعام، وترك اللحم، وغيره حذراً من عارض الحاجة إلى النساء. قال: فإن ظن ظان أن الفضل في غير الذي قلنا لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة، فقد ظن خطأ، وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها، ولا شيء، أضّر للجسم من المطاعم الربية، لأنها مفسدة لعقله، ومضعفة لأبواته التي جعلها الله سبباً إلى طاعته. قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: لا تعتدوا على الله بتحريم طيبات ما أحل الله لكم، أو لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله عليكم: أي تترخصوا فتحلوا حراماً كما نهيتم عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن من حرم على نفسه شيئاً مما أحله الله له فلا

وصاع مما عداه. وقد أخرج ابن ماجه، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: كفر رسول الله ﷺ بصاع من تمر وكفر الناس به، ومن لم يجد فنصف صاع من بر، وفي إسناده عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي وهو مجمع على ضعفه. وقال الدارقطني: متروك. قوله: ﴿أَوْ كَسَوْتَهُمْ﴾ عطف على إطعام. قرئ بضم الكاف وكسرها وهما لغتان مثل أسوة وإسوة. وقرأ سعيد بن جبير، ومحمد بن السميعف اليماني «أو كاسوتهم»: يعني كاسوة أهليكم، والكسوة في الرجال تصلق على ما يكسو البدن، ولو كان ثوباً واحداً، وهكذا في كسوة النساء؛ وقيل الكسوة للنساء برقع وخمار؛ وقيل المراد بالكسوة ما تجزئ به الصلاة. قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾ أي إعتاق مملوك، والتحرير: الإخراج من الرق، ويستعمل التحرير في فك الأسير وإعفاء المجهود بعمل عن عمله وترك إزال الضرر به، ومنه قول الفرزدق:

أبني غداة أنني حررتكم فوهبتكم لعطية بن جمال
أي حررتكم من الهجاء الذي كان سيضع منكم ويضر بأحسابكم.

ولاهل العلم أبحاث في الرقبة التي تجزئ في الكفارة، وظاهر هذه الآية أنها تجزئ كل رقبة على أي صفة كانت. وذهب جماعة منهم الشافعي إلى اشتراط الإيمان فيها، قياساً على كفارة القتل: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام، وقرئ «متتابعات» حكى ذلك عن ابن مسعود وأبي، فتكون هذه القراءة مقيدة لمطلق الصوم. وبه قال أبو حنيفة والثوري، وهو أحد قول الشافعي. وقال مالك، والشافعي في قوله الآخر: يجزئ التفريق ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ إِيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي تلك المذكور كفارة إيمانكم إذا حلفتُم وحنثتم، ثم أمرهم بحفظ الإيمان، وعدم المسارعة إليها أو إلى الحنث بها، والإشارة بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده، أي مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ﴾ وقد تكرر هذا في مواضع من الكتاب العزيز، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما أنعم به عليكم من بيان شرائعه وإيضاح أحكامه.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ في القوم الذين كانوا حرّموا على أنفسهم النساء واللحم قالوا: يا رسول الله كيف نصنع بإيماننا التي حلفنا عليها؟ فأنزل الله: ﴿لَا يُلَاحِظْكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي إِيْمَانِكُمْ﴾ وأخرج عبد بن حميد، عن سعيد بن جبير، في اللغو قال: هو الرجل يحلف على الحلال. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: هما الرجلان يتبايعان، يقول أحدهما: والله لا أبيع بكذا، ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن النخعي قال: اللغو أن يصل كلامه بالحلف: والله لتأكلنَّ والله لتشربنَّ ونحو هذا لا يريد به يميناً ولا يتعمد حلفاً، فهو لغو اليمين ليس عليه كفارة، وقد تقدّم الكلام في

مَكْفَرَتِهِ. إِطْعَامُ عَشْرَةِ سَكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْلُمُونَ أَهْلِيَكُمْ أَوْ كَسَوْتَهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ إِيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْطَلُوا إِيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ قد تقدم تفسير اللغو، والخلاف فيه، في سورة البقرة، و﴿فِي إِيْمَانِكُمْ﴾ صلة ﴿يُلَاحِظْكُمْ﴾، قيل و﴿فِي﴾ بمعنى من والإيمان جمع يمين. وفي الآية دليل على أن إيمان اللغو لا يؤخذ الله الحالف بها، ولا تجب فيها الكفارة. وقد ذهب الجمهور من الصحابة، ومن بعدهم، إلى أنها قول الرجل: لا والله وبلى والله في كلامه، غير معتقد لليمين، وبه فسر الصحابة الآية وهم أعرف بمعاني القرآن. قال الشافعي: وذلك عند اللجاج والغضب والعجلة. قوله: ﴿وَلَكِنْ يُلَاحِظْكُمْ بِمَا عَقَلْتُمْ الْإِيْمَانُ﴾ قرئ بتشديد «عقدتم» وبتخفيفه، وقرئ «عاقدتم». والعقد على ضربين: حسي، كعقد الحبل؛ وحكمي، كعقد البيع، واليمين، والعهد. قال الشاعر:

قوم إذا عَقَبُوا عَقْدًا لَجَّارَهُمْ شَدَا الْعِنَاجُ وَشَدَا فَوْقَهُ الْكُرْبَا
فاليمين المعقدة من عقد القلب ليفعلن أو لايفعلن في المستقبل: أي ولكن يؤاخذكم بإيمانكم المعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنثتم فيها. وأما اليمين الغموس: فهي يمين مكر وخديعة، وكذب قد باء الحالف بإثمها، وليست بمعقودة ولا كفارة فيها كما ذهب إليه الجمهور، وقال الشافعي: هي يمين معقودة لأنها مكتسبة بالقلب معقودة بخبر مقرونة باسم الله، والراجع الأول، وجميع الاحاديث الواردة في تكفير اليمين متوجهة إلى المعقودة ولا يدل شيء منها على الغموس، بل ما ورد في الغموس إلا الوعيد والترهيب، وإنها من الكبائر، بل من أكبر الكبائر، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَإِيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77] الآية. قوله: ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ الكفارة: هي مأخوذة من التكفير وهو التستير، وكذلك الكفر هو الستر، والكافر هو الساتر، لأنها تستر الذنب وتغطي، والضمير في كفارته راجع إلى «ما» في قوله: ﴿بِمَا عَقَلْتُمْ﴾. إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم المراد بالوسط هنا المتوسط بين طرفي الإسراف والتقتير، وليس المراد به الأعلى كما في غير هذا الموضع: أي أطعموهم من المتوسط مما تعتادون إطعام أهليكم منه، ولا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه، ولا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه، وظاهره أنه يجزئ إطعام عشرة حتى يشبعوا. وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: لا يجزئ إطعام العشرة غداء دون عشاء حتى يغديهم ويعشيهم. قال أبو عمر: هو قول أئمة الفتوى بالأمصار. وقال الحسن البصري وابن سيرين: يكفي أن يطعم عشرة مساكين كلة واحدة: خبزاً وسمناً، أو خبزاً ولحماً. وقال عمر بن الخطاب، وعائشة، ومجاهد، والشعبي، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وميمون بن مهران، وأبو مالك، والضحاك والحكم، ومكحول، وأبو قلابة، ومقاتل: يدفع إلى كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر. وروي ذلك عن علي. وقال أبو حنيفة نصف صاع بر

مُتَّبِعُونَ ﴿١٧١﴾ وَلَقَدْ جَاءَ أُولَئِكَ بِرَأْسِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا لَهُمْ وَلَهُمْ يَوْمَئِذٍ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٧٣﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب لجميع المؤمنين. وقد تقدم تفسير الميسر في سورة البقرة ﴿وَالْأَنْصَابُ﴾ هي: الأصنام المنصوبة للعبادة، ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾. قد تقدم تفسيرها في أوّل هذه السورة، والرجس يطلق على العذرة والأقنار، وهو خبث للخمر، وخبث المعطوف عليه محذوف. وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ لِلشَّيْطَانِ﴾ صفة لرجس: أي كائن من عمل الشيطان، بسبب تحسينه لذلك وتزيينه له وقيل: هو الذي كان عمل هذه الأمور بنفسه فافتدى به بنو آدم والضمير في ﴿فَلْيَجْتَنِبُوهُ﴾ راجع إلى الرجس أو إلى المذكور. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ علة لما قبله. قال في الكشف: أكد تحريم الخمر والميسر وجوهاً من التأكيد، منها: تصدير الجملة بإنما، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام ومنه قوله: ﴿شَارِبِ الخمر كعابد الوثن﴾، ومنها أنه جعلهما رجساً، كما قال: ﴿فَلْيَجْتَنِبُوا الرجس من الأوثان﴾ [الحج: 30]، ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشرّ البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب، ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبة ومحنة، ومنها أنه نكر ما ينتج منهما من الويل، وهو وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والقمر، وما يؤمّيان إليه من الصّدّ عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلوات انتهى.

وفي هذه الآية دليل على تحريم الخمر لما تضمنه الامر بالاجتناب من الوجوب وتحريم الصّد، ولما تقرّر في الشريعة من تحريم قربان الرّجس، فضلاً عن جعله شرباً يشرب. قال اهل العلم من المفسرين وغيرهم: كان تحريم الخمر بتدريج ونوازل كثيرة، لانهم كانوا قد افوا شربها وحبيبها الشيطان إلى قلوبهم، فأول ما نزل في أمرها «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها اثم كبير ومنافع للناس» [البقرة: 219] فترك عند ذلك بعض من المسلمين شربها، ولم يتركه آخرون، ثم نزل قوله تعالى: «لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى» [النساء: 43] فتركها البعض ايضاً، وقالوا لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، وشربها البعض في غير اوقات الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: «انما الخمر والميسر» فصارت حراماً عليهم، حتى كان يقول بعضهم ما حرّم الله شيئاً أشدّ من الخمر، وذلك لما فهموه من التشديد فيما تضمنته هذه الآية من الزواج، وفيما جاءت به الاحاديث الصحيحة من الوعيد لشاربيها، وانها من كبائر الذنوب.

وقد أجمع على ذلك المسلمون إجماعاً لا شك فيه ولا شبهة، وأجمعوا أيضاً على تحريم بيعها والانتفاع بها ما

البقرة. وأُخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وَلَوْ أَنَّ**
يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَبْتُمْ الْإِيمَانَ﴾ قال: بما تعمدتم. وأُخرج
عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأُخرج ابن
مرويه، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان يقيم كفارة
اليمين مذاً من حنطة، وفي إسنادِه النضر بن زُرارة بن
عبد الكريم الذهلي الكوفي. قال أبو حاتم مجهول، ونكره ابن
حبان في الثقات. وقد تقدّم حديث ابن عباس وتضعيفه.
وأُخرج ابن مرويه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: كنا نعطي
في كفارة اليمين بالمدّ الذي نقتات به، وأُخرج عبد الرزاق،
وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،
وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب قال: إني أحلف لا أعطى
أقواماً، ثم يببؤ لي فأعطيهم، فأطعم عشرة مساكين كل
مسكين صاعاً من شعير، أو صاعاً من تمر أو نصف صاع
من قمح، وأُخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن
حميد، وابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن علي بن
أبي طالب قال: في كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين لكل
مسكين نصف صاع من حنطة. وأُخرج عبد بن حميد، عن
ابن عباس مثله. وأُخرج عنه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة،
وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
وأبو الشيخ من طرق قال: في كفارة اليمين مدّ من حنطة
لكل مسكين. وأُخرج هؤلاء إلا ابن أبي حاتم عن زيد بن
ثابت مثله. وأُخرج هؤلاء أيضاً عن ابن عمر مثله. وأُخرج
ابن المنذر عن أبي هريرة مثله. وأُخرج عبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب
قال: تغنيهم وتعشيهم إن شئت خبزاً ولحماً، أو خبزاً وزيتاً،
أو خبزاً وسمناً، أو خبزاً وتمراً. وأُخرج عبد بن حميد، وابن
جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿مَنْ أَوْسَطَ**
مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: من عسرکم ويسرکم. وأُخرج
ابن ماجه عنه قال: الرجل يقوت أهله قوتاً فيه سعة، وكان
الرجل يقوت أهله قوتاً فيه شدة، فنزلت: **﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا**
تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾. وأُخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو
الشيخ، وابن مرويه عنه نحو ذلك. وأُخرج الطبراني وابن
مرويه، عن عائشة عن النبي ﷺ في قوله: **﴿أَوْ كَسَوْتَهُمْ﴾**
قال: عبادة لكل مسكين، قال ابن كثير: حديث غريب. وأُخرج
ابن مرويه عن حنيفة قال: قلت يا رسول الله **﴿أَوْ**
كَسَوْتَهُمْ﴾ ما هو؟ قال: عبادة عبادة. وأُخرج ابن جرير، وابن
أبي حاتم، عن ابن عباس قال: عبادة لكل مسكين أو شملة.
وأُخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: الكسوة ثوب أو
إزار. وأُخرج ابن جرير، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس
قال: في كفارة اليمين هو بالخيار في هؤلاء الثلاثة الأول
فالأول، فإن لم يجد من ذلك شيئاً فصيام ثلاثة أيام
متتابعات. وأُخرج ابن مرويه عنه نحوه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَتْرُ وَالْيَمِيرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَكْمَرُ وَجَسَدٌ مِنْ عَظْمِ
الْإِنْسَانِ فَاجْتَنِبُوا لَكُمْ تَقْلِيدُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا مَرْيَدُ الشَّيْطَانِ أَنْ يُوَفِّعَ بَيْنَكُمْ
الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْقَمَرِ وَالْيَمِيرِ وَصَدْرَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَنَحْيَ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ

والثالث: الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل، وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر قال: نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ [البقرة: 219] الآية، فقيل: حرمت الخمر، فقيل: يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله، فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآية: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء: 43]، فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم، ثم نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «حرمت الخمر»، وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، وذكر نحو حديث ابن عمر، فقال للناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على فراشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله: ﴿ليس على الذين آمنوا﴾ الآية، وقال النبي ﷺ: «لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن سعد بن أبي وقاص قال: في نزل تحريم الخمر، صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعا ناساً، فأثوه، فاكلوا وشربوا، حتى انتشوا من الخمر، وذلك قبل تحريم الخمر فتأخروا، فقالت الأنصار: الأنصار خير من المهاجرين، وقالت قريش: قريش خير، فأمر رجل بلحى جمل فضرب على أنفي، فأتيت النبي ﷺ فنكرت ذلك له، فنزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما للخمر والميسر﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: أنزل تحريم الخمر في قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته، فيقول صنع بي هذا أخي فلان وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع بي هذا حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ إلى قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان قتل يوم بدر، وفلان قتل يوم أحد، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ الآية. وقد رويت في سبب النزول روايات كثيرة موافقة لما قد ذكرناه. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: الميسر هو القمار كله. وأخرج ابن مروي، عن وهب بن كيسان قال: قلت لجابر متى حرمت الخمر؟ قال: بعد أحد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: نزل تحريم الخمر في سورة المائدة، بعد غزوة الأحزاب. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: كل القمار من الميسر حتى لعب

دامت خمرأ، وكما دلت هذه الآية على تحريم الخمر، دلت أيضاً على تحريم الميسر، والأنصاب، والأزلام. وقد أشارت هذه الآية إلى ما في الخمر والميسر من المفساد الدنيوية بقوله: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء﴾ ومن المفساد الدينية بقوله: ﴿ويصنكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾. قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فيه زجر بليغ يفيد الاستفهام الدال على التقرع والتوبيخ. ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما سمع هذا: انتهينا، ثم أكد الله سبحانه هذا التحريم بقوله: ﴿وطيعوا الله واطيعوا الرسول وحذروا﴾ أي مخالفتها أي مخالفة الله ورسوله، فإن هذا وإن كان أمراً مطلقاً فالمجيء به في هذا الموضع يفيد ما نكرناه من التأكيد، وهكذا ما أفاده بقوله: ﴿فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا لبلاغ المبين﴾ أي: إن أعرضتم عن الامتثال، فقد فعل الرسول ما هو الواجب عليه من البلاغ الذي فيه رشاكم وصلاحكم، ولم تضرؤا بالمخالفة إلا أنفسكم، وفي هذا من الزجر ما لا يقاير قدره ولا يبلغ مداه. قوله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ أي: من المطاعم التي يشتهونها، والطعم وإن كان استعماله في الأكل أكثر لكنه يجوز استعماله في الشرب، ومنه قوله تعالى: ﴿ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ [البقرة: 249] إباح الله سبحانه لهم في هذه الآية جميع ما طعموا كائناً ما كان مقيداً بقوله: ﴿إذا ما لتقوا﴾ أي: اتقوا ما هو محرم عليهم كالخمر وغيره من الكبائر، وجميع المعاصي ﴿وآمنوا﴾ بالله ﴿وعملوا الصالحات﴾ من الأعمال التي شرعها الله لهم: أي استمروا على عملها. قوله: ﴿ثم لتقوا﴾ عطف على اتقوا الأول: أي اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك مع كونه كان مباحاً فيما سبق ﴿وآمنوا﴾ بتحريمه ﴿ثم لتقوا﴾ ما حرم عليهم بعد التحريم المنكسر قبله مما كان مباحاً من قبل، ﴿واحسنوا﴾ أي: عملوا الأعمال الحسنة، هذا معنى الآية؛ وقيل: التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة؛ وقيل: إن التكرير باعتبار المراتب الثلاث، المبدأ، والوسط، والمنتهى؛ وقيل: إن التكرار باعتبار ما يتقيه الإنسان، فإنه ينبغي له أن يترك المحرمات توقياً من العذاب، والشبهات توقياً من الوقوع في الحرام، وبعض المباحات حفظاً للنفس عن الخسة؛ وقيل إنه لمجرد التأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾ [التكاثر: 3، 4]، هذه الوجوه كلها مع قطع النظر عن سبب نزول الآية إما مع النظر إلى سبب نزولها، وهو أنه لما نزل تحريم الخمر، قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر؟ فنزلت، فقد قيل: إن المعنى ﴿لتقوا﴾ الشرك ﴿وآمنوا﴾ بالله ورسوله ﴿ثم لتقوا﴾ الكبائر ﴿وآمنوا﴾ أي: ازدادوا إيماناً ﴿ثم لتقوا﴾ الصغائر ﴿واحسنوا﴾ أي: تنفلوا. قال ابن جرير الطبري: الاتقاء الأول: هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل، والاتقاء الثاني: الاتقاء بالثبات على التصديق،

والإزلام: قدام كانوا يستقسمون بها الأمور. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يفرز أو يجلس استقسم بها. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الإزلام قال: هي كعاب فارس التي يقيمون بها، وسهام العرب. وقد روت أحاديث كثيرة في نَم الخمر وشاربها، والوعيد الشديد عليه، وأن كل مسكر حرام، وهي مؤنة في كتب الحديث، فلا تطول المقام بذكرها، فلسنا بصدد ذلك، بل نحن بصدد ما هو متعلق بالتفسير.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِغَيْرِ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِجَالُكُمْ
يَلْعَنُ اللَّهُ مَن يَخْافُ بِالْقَلْبِ مَنِ اسْتَعَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥١﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّمَّا قَتَلَ
مِنَ النَّاسِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بَطْلٌ لِّلْكُفَّةِ أَوْ كَفْرَةٌ لِّمَا كُفِّرُوا سَكِينًا أَوْ
عَذَابٌ ذَلِكَ حِسَابُهُ لِكُلِّ أَمْرٍ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَمَن عَادَ يَتَتَبِعْهُ اللَّهُ إِنَّهُ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٥٢﴾ أَجَلَ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَكُلْمَاتُ مَنَاسِكُمْ لَكُمْ
وَالصَّيَادَةُ مِمَّا دُمِمَتْ عَلَيْهَا لَكُمْ أَن تَحْمِلُوا آلُكُمْ فِي الْوَلَدِ إِلَى اللَّهِ
تَحْشُرُونَ ﴿٥٣﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكُفَّةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَتَسَوَّى لِلنَّاسِ وَالْأَنْعَامِ
الْحَرَامَ وَالْمَدَنَى وَالْفِتْنَةُ ذَلِكَ الْفِتْنَةُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السُّكُوتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ اعْمَلُوا إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٥﴾ مَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا
تَكْتُمُونَ ﴿٥٦﴾

قوله: ﴿لَيْلِيُونَكُمْ﴾ أي ليختبرنكم، واللام جواب قسم محذوف، كان الصيد أحد معاش العرب فابتلاه الله بتحريمه مع الإحرام وفي الحرم، كما ابتلى بني إسرائيل أن لا يعتدوا في السبت، وكان نزول الآية في عام الحديبية، أحرم بعضهم وبعضهم لم يحرم، فكان إذا عرض صيد اختلفت فيه أحوالهم.

وقد اختلف العلماء في المخاطبين بهذه الآية، هل هم المحلون أو المحرمون؟ فذهب إلى الأول: مالك وإلى الثاني: ابن عباس، والراجح أن الخطاب للجميع، ولا وجه لقصره على البعض دون البعض، و«من» في ﴿مَنْ الصَّيْدُ﴾ للتبعيض وهو صيد البر، قاله ابن جرير الطبري وغيره، وقيل: إن «من» بيانية: أي شيء حقير من الصيد، وتذكير شيء للتحقير. قوله: ﴿تَنَالَهُ لِيَبْكُمْ وَرَمَاحُكُمْ﴾ قرأ ابن وثاب (يناله) بالياء التحتية، هذه الجملة تقتضي تعميم الصيد، وأنه لا فرق بين ما يؤخذ باليد، وهو ما لا يطبق للفرار كالصغار والبيض، وبين ما تناله الرماح: وهو ما يطبق للفرار وخصّ الأيدي بالذكر: لأنها أكثر ما يتصرف به الصائد في أخذ الصيد، وخص الرماح بالذكر: لأنها أعظم الآلات للصيد عند العرب. قوله: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ليمتيز عند الله من يخافه منكم بسبب عقابه الأخروي فإنه غائب عنكم غير حاضر، ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: بعد هذا البيان الذي امتحنكم الله به، لأن الاعتداء بعد العلم بالتحريم معاندة لله سبحانه

الصبيان بالجوز والكعب. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر، عن علي بن أبي طالب قال: النرد والشطرنج من الميسر. وأخرج عبد بن حميد عن علي قال: الشطرنج ميسر الأعاجم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن القاسم بن محمد، أنه سئل عن النرد أهى من الميسر؟ قال: كل من أهى عن نكر الله وعن الصلاة فهو ميسر. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، والبيهقي في الشعب، عنه أيضاً أنه قيل له: هذه النرد تكرمونها فما بال الشطرنج؟ قال: كل ما أهى عن نكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر. وأخرجوا أيضاً عن ابن الزبير قال: يا أهل مكة بلغني عن رجال يلعبون بلعبة يقال لها النردشير، والله يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وإني أحلف بالله لا أوتى بأحد يلعب بها إلا عاقبته في شعره وبشره، وأعطيت سلبه من أثنائي به. وأخرج ابن أبي الدنيا عن مالك بن أنس قال: للشطرنج من النرد، بلغنا عن ابن عباس أنه ولي مال يتيم فلحرقها. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن عبد الله بن عمير قال: سئل ابن عمر عن الشطرنج؟ فقال هي شر من النرد. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن عبد الملك بن عبيد قال: رأى رجل من أهل الشام أنه يغفر لكل مؤمن في كل يوم اثنتي عشرة مرة إلا أصحاب الشاة، يعني أصحاب الشطرنج. وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي جعفر أنه سئل عن الشطرنج، فقال تلك المجوسية فلا تلعبوا بها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنردشير فقد عصى الله ورسوله». وأخرج أحمد عن عبد الرحيم الخطمي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلي مثل الذي يتوضأ بالقبح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر قال: اللاعب بالنرد قماراً ككُل لحم الخنزير، واللّاعِب بها من غير قمار كالمدّهن بولك الخنزير. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن يحيى بن كثير قال: «مرّ رسول الله ﷺ بقوم يلعبون بالنرد فقال: قلوب لاهية وأيدي عليّة والسنة لاغية». وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: الميسر القمار. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، من طريق ليث عن عطاء وطاوس، ومجاهد قالوا: كل شيء فيه قمار، فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعب. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عن ابن سيرين قال: القمار من الميسر. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، عنه قال: ما كان من لعب فيه قمار، أو قيام أو صياح، أو شر، فهو من الميسر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن يزيد بن شريح، أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من الميسر: الصفيّر بالحمام، والقمار، والضرب بالكعب». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لأنصاب حجارة كانوا يذبحون لها،

وتجرئة عليه. قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ﴾ نهاهم عن قتل الصيد في حال الإحرام، وفي معناه ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾ [المائدة: 1] وهذا النهي شامل لكل أحد من نكور المسلمين وإناتهم، لأنه يقال رجل حرام وامرأة حرام والجمع حرم، وأحرم الرجل: دخل في الحرم. قوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً﴾ المتعمد: هو القاصد للشيء مع العلم بالإحرام، والمخطئ: هو الذي يقصد شيئاً فيصيب صيداً، والناسي: هو الذي يتعمد الصيد ولا ينكر إحرامه. وقد استدل ابن عباس، وأحمد في رواية، وداود عنه باقتصاره سبحانه على العمد بأنه لا كفارة على غيره، بل لا تجب إلا عليه وحده. وبه قال سعيد بن جببر، وطاوس، وأبو ثور. وقيل: إنها تلزم الكفارة المخطئ والناسي كما تلزم المتعمد، وجعلوا قيد التعمد خارجاً مخرج الغالب، روي عن عمر، والحسن، والنخعي، والزهري، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم، وروي عن ابن عباس. وقيل: إنه يجب التكفير على العمد الناسي لإحرامه، وبه قال مجاهد، قال: فإن كان ذاكراً لإحرامه فقد حل، ولا حج له، لارتكابه محظور إحرامه، فبطل عليه كما لو تكلم في الصلاة أو أحدث فيها. قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قُتِلَ مِنْ لَنْعَةٍ أَوْ فَعْلِهِ جَزَاءٌ مِّثَالٌ لِمَا قُتِلَ، وَمَنْ النِّعَمَ بَيَانَ لِلْجَزَاءِ الْمِمَالِ. قِيلَ: الْمَرَادُ الْمِمَالَةُ فِي الْقِيَمَةِ، وَقِيلَ: فِي الْخَلْقَةِ. وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى الْأَوَّلِ: أَبُو حَنِيفَةَ، وَذَهَبَ إِلَى الثَّانِي: مَالِكُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَالْجُمْهُورُ، وَهُوَ الْحَقُّ لِأَنَّ الْبَيَانَ لِلْمِمَالِ بِالنِّعَمِ يَفِيدُ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ يَفِيدُهُ هَدِيًّا بِالْغِ كَعَبَةِ. وَرَوَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ يَجُوزُ إِخْرَاجُ الْقِيَمَةِ وَلَوْ وَجَدَ الْمِثْلَ، وَأَنَّ الْمَحْرَمَ مُخِيرٌ. وَقَرَأَ: ﴿فَجَزَاءُ مِثْلُ مَا قُتِلَ﴾ وَقَرَأَ: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ﴾ عَلَى إِضَافَةِ جَزَاءٍ إِلَى مِثْلٍ، وَقَرَأَ بِنَصْبِهِمَا عَلَى تَقْدِيرِ فَلْيُخْرِجْ جَزَاءً مِثْلَ مَا قُتِلَ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ ﴿النِّعَمَ﴾ بِسُكُونِ الْعَيْنِ تَخْفِيفاً، ﴿يُحْكَمُ بِهِ﴾ أَيُّ بِالْجَزَاءِ أَوْ بِمِثْلٍ مَا قُتِلَ ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أَيُّ رَجُلَانِ مَعْرُوفَانِ بِالْعَدَالَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا حُكِمَا بِشَيْءٍ لَزِمَ، وَإِنْ اخْتَلَفَا رَجَعَ إِلَى غَيْرِهِمَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَانِي أَحَدَ الْحَكَمَيْنِ؛ وَقِيلَ يَجُوزُ، وَبِالْأَوَّلِ: قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ، وَبِالثَّانِي: قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ: وَظَاهَرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي حَكَمَيْنِ غَيْرَ الْجَانِي. قَوْلُهُ: ﴿هَدِيًّا بِالْغِ كَعَبَةِ﴾ نَصَبَ هَدِيًّا عَلَى الْحَالِ، أَوْ الْبَدَلِ مِنْ مِثْلٍ، وَبِالْغِ كَعَبَةِ صِفَةً لَهْدِيًّا، لِأَنَّ الْإِضَافَةَ غَيْرَ حَقِيقِيَّةٍ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمَا إِذَا حُكِمَا بِالْجَزَاءِ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ بِهِ مَا يَفْعَلُ بِالْهَدْيِ مِنَ الْإِرْسَالِ إِلَى مَكَّةَ وَالنَّحْرِ هُنَاكَ، وَالْإِشْعَارَ وَالتَّقْلِيدَ، وَلَمْ يَرِدْ الْكَعْبَةُ بِعَيْنِهَا، فَإِنَّ الْهَدْيَ لَا يَبْلُغُهَا، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْحَرَمَ، وَلَا خِلَافَ فِي هَذَا. قَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى مَحَلٍّ مِنَ النِّعَمِ: وَهُوَ الرِّفْعُ لِأَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مُحْذُوفٍ، وَ﴿طَعَامٌ مَسَاكِينٍ﴾ عَطْفٌ بَيَانٌ لِكَفَّارَةٍ أَوْ بَدَلٍ مِنْهُ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مُحْذُوفٍ ﴿أَوْ عَدْلٌ لَكُمْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى طَعَامٍ؛ وَقِيلَ هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى جَزَاءٍ، وَفِيهِ ضَعْفٌ، فَالْجَانِي مُخِيرٌ بَيْنَ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْمَذْكُورَةِ، وَعَدْلُ الشَّيْءِ مَا عَادِلُهُ مِنْ غَيْرِ جَنْسِهِ،

و﴿صِيَاماً﴾ منصوب على التمييز، وقد قرّر العلماء عدل كل صيد من الإطعام والصيام، وقد ذهب إلى أن الجاني يخير بين الأنواع المذكورة جمهور العلماء. وروى عن ابن عباس أنه لا يجزئ المحرم الإطعام والصوم إلا إذا لم يجد الهدي، والعدل بفتح العين وكسرها لغتان، وهما الميل قاله الكسائي. وقال الفراء: عدل الشيء بكسر العين مثله من جنسه، وبفتح العين مثله من غير جنسه، وبمثل قول الكسائي قال البصريون. قوله: ﴿لِيَذُوقَ وَيَلْأَمَهُ﴾ عليه لإيجاب الجزاء: أي أوجبنا ذلك عليه لِيَذُوقَ وَيَلْأَمَهُ، والنوق مستعار لإبرك المشقة، ومثله: ﴿نُقِ إِنْكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [السخان: 49] والويل: سوء العاقبة، والمرعى الويل: الذي يتأذى به بعد أكله، وطعام وييل: إذا كان ثقیلاً. قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾ يعني: في جاهليتك من قتلتك للصيد، وقيل عما سلف قبل نزول الكفارة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى ما نهيت عنه من قتل الصيد بعد هذا البيان، ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي فهو ينتقم الله منه. وقيل المعنى: إن الله ينتقم منه في الآخرة فيعذبه بنّبه، وقيل: ينتقم منه بالكفارة. قال شريح وسعيد بن جببر: يحكم عليه في أول مرة، فإذا عاد لم يحكم عليه بل يقال له: اذهب ينتقم الله منك، أي نذرك أعظم من أن يكفر. قوله: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾ الخطاب لكل مسلم أو للمحرمين خاصة، وصيد البحر ما يصاد فيه؛ والمراد بالبحر هنا كل ماء يوجد فيه صيد بحري وإن كان نهراً أو غييراً. قوله: ﴿وَوَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْسيَّارَةِ﴾ الطعام لكل ما يطعم، وقد تقدّم. وقد اختلف في المراد به هنا فقيل: هو ما قذف به البحر وطفأ عليه، وبه قال كثير من الصحابة والتابعين؛ وقيل طعامه ما ملح منه وبقي، وبه قال جماعة، وروي عن ابن عباس؛ وقيل طعامه ملح الذي يتعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات وغيره، وبه قال قوم؛ وقيل المراد به ما يطعم من الصيد: أي ما يحل أكله وهو السمك فقط، وبه قالت الحنفية. والمعنى: أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر، وأحل لكم المأكول منه وهو السمك، فيكون التخصيص بعد التعميم، وهو تكلف لا وجه له، ونصب «متاعاً» على أنه مصدر: أي تمتع به متاعاً، وقيل: مفعول له مختص بالطعام: أي أحل لكم طعام البحر متاعاً، وهو تكلف جاء به من قال بالقول الأخير، بل إذا كان مفعولاً له كان من الجميع: أي أحل لكم مصيد البحر وطعامه تمتعاً لكم: أي لمن كان مقيماً منكم يلكه طرياً ﴿وَلِلْسيَّارَةِ﴾ أي للمسافرين منكم يتزوّنون ويجعلونه قديداً، وقيل السيارة: هم الذين يركبونه خاصة. قوله: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرَمًا﴾ أي حرم عليكم ما يصاد في البر ما دُمْتُمْ محرمين، وظاهره تحريم صيده على المحرم ولو كان الصائد حلالاً، وإليه ذهب الجمهور إن كان الحلال صاده للمحرم لا إذا لم يصده لأجله، وهو القول الراجح، وبه يجمع بين الأحاديث؛ وقيل إنه يحل له مطلقاً، وإليه ذهب جماعة؛ وقيل يحرم عليه مطلقاً، وإليه ذهب آخرون، وقد بسطنا هذا

نحوه فعليه شاة تنبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل أياً ونحوه فعليه بقرة، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعاماً أو حمار وحش أو نحوه فعليه بدنة، فإن لم يجد أطعم ستين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً، والطعام مذّ يشبعهم. وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم، عن الحكم، أن عمر كتب أن يحكم عليه في الخطأ والعمد، وأخرجنا نحوه عن عطاء. وقد روي نحو هذا عن جماعات من السلف، من غير فرق بين العمد والخطأ والناسي، وروي عن آخرين اختصاص ذلك بالعمد.

وللسلف في تقدير الجزاء المماثل، وتقدير القيمة أقوال مبسطة في مواطنها. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال في بيضة النعام: «صيام يوم أو إطعام مسكين». وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن نكوان، عن النبي ﷺ مثله. وأخرج أيضاً عن عائشة، عنه ﷺ نحوه. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، من طريق أبي السهم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «في بيض النعام ثمنه». وقد استثنى النبي ﷺ من حيوانات الحرم الخمس، الفواسق، كما ورد ذلك في الأحاديث فإنه يجوز للمحرم أن يقتلها ولا شيء عليه. وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم﴾ ما لفظه ميتاً فهو طعامه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة موقوفاً مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي بكر الصديق نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة أن أبا بكر الصديق قال في قوله: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾ قال: صيد البحر ما تصطاده أيدينا، وطعامه مالاؤه البحر، وفي لفظ «طعامه كل ما فيه». وفي لفظ «طعامه ميتته». ويؤيد هذا ما في الصحيحين من حديث العنبرة التي ألقاها البحر فاكل الصحابة منها، وقرّره رسول الله ﷺ على ذلك، وحديث هو: «الطهور مأوه والحل ميتته». وحديث: «أحل لكم ميتتان وبمان». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾ قال: قياماً لدينهم ومعالم حجهم. وأخرج ابن جرير، عنه قال: قياماً أن يأمن من توجه إليها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب قال: جعل الله الكعبة لبيت الحرام والشهر الحرام قياماً للناس يأمنون به في الجاهلية الأولى، لا يخاف بعضهم من بعض حين يلقونهم عند البيت، أو في الحرم، أو في الشهر الحرام وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد﴾ قال: حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية، فكان الرجل لو جرّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يقرب، وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام، لم يعرض له ولم يقربه،

في شرحنا للمنتقى. قوله: ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ أي: اتقوا الله فيما نهاكم عنه الذي إليه تحشرون لا إلى غيره، وفيه تشديد ومبالغة في التحذير. وقرئ: ﴿وحزّم عليكم صيد البر﴾ بالبناء للفاعل وقرئ ﴿وما ممتكم﴾ بكسر الدال. قوله: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾ جعل هنا بمعنى خلق، وسميت الكعبة كعبة لأنها مربعة، والتكعيب الترتيب، وكثير بيوت العرب مدورة لا مربعة؛ وقيل سميت كعبة لنتوتها وبروزها، وكل بارز كعب مستديراً كان أو غير مستدير، ومنه كعب القدم، وكعب القنا، وكعب: ثدي المرأة، و﴿البيت الحرام﴾ عطف بيان، وقيل: مفعول ثان ولا وجه له، وسمي بيتاً لأن له سقفاً وجبراً وهي حقيقة البيت، وإن لم يكن به سكن، وسمى حراماً لتحريم الله سبحانه إياه. وقوله: ﴿قياماً للناس﴾ كذا قرأ الجمهور، وقرأ ابن عامر «قياماً» وهو منصوب على أنه المفعول الثاني إن كان جعل هو المتعدي إلى مفعولين، وإن كان بمعنى خلق كما تقدم، فهو منتصب على الحال، ومعنى كونه قياماً: أنه مدار لمعاشهم وبينهم أي: يقومون فيه بما يصلح دينهم وديارهم: يأمن فيه خائفهم، وينصر فيه ضعيفهم، ويربح فيه تجارهم، ويتعبد فيه متعبدهم. قوله: ﴿والشهر الحرام﴾ عطف على الكعبة، وهو ذو الحجة، وخصه من بين الأشهر الحرم؛ لكونه زمان تأدية الحج، وقيل: هو اسم جنس. والمراد به: الأشهر الحرم، ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، فإنهم كانوا لا يطلبون فيها نماً، ولا يقاتلون بها عدواً، ولا يهتكون فيها حرمة، فكانت من هذه الحيثية قياماً للناس ﴿والهدي والقلائد﴾ أي: وجعل الله الهدى والقلائد قياماً للناس. والمراد بالقلائد: نوات القلائد من الهدى، ولا مانع من أن يراد بالقلائد أنفسها، والإشارة بذلك إلى الجعل: أي ذلك الجعل ﴿لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ أي: لتعلموا أن الله يعلم تفاصيل أمر السموات والأرض، ويعلم مصالحكم الدينية والدنيوية فإنها من جملة ما فيهما، فكل ما شرعه لكم فهو جلب لمصالحكم، وبغ ما يضركم ﴿وأن الله بكل شيء عليم﴾ هذا تعميم بعد التخصيص، ثم أمرهم بأن يعلموا بأن الله لمن انتهك محارمه ولم يتب عن ذلك شديد العقاب، وأنه لمن تاب وأتاب غفور رحيم، ثم أخبرهم أن ما على رسوله إلا البلاغ لهم، فإن لم يمتثلوا ويطيعوا فما ضرّوا إلا أنفسهم، وما جنوا إلا عليها، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد فعل ما يجب عليه، وقام بما أمره الله به.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن قتله منكم متعمداً﴾ قال: إن قتله متعمداً أو ناسياً أو خطأ حكم عليه، فإن عاد متعمداً عجلت له العقوبة إلا أن يعفو الله عنه، وفي قوله: ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ قال: إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حكم عليه فيه، فإن قتل ظبياً أو

بعد انقطاع الوحي، بموت رسول الله ﷺ، فإنه لا إيجاب ولا تحريم يتسبب عن السؤال.

وقد ظنَّ بعض أهل التفسير، أن الشرطية الثانية فيها إباحة السؤال، مع وجود رسول الله ﷺ ونزول الوحي عليه، فقال: إن الشرطية الأولى أفتت عدم جواز السؤال، والثانية أفتت جوازه، فقال إن المعنى: وإن تسألوا عن غيرها مما مسّت إليه الحاجة تبدل لكم بجواب رسول الله ﷺ عنها، وجعل الضمير في ﴿عنها﴾ راجعاً إلى أشياء غير الأشياء المذكورة، وجعل ذلك كقوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ [المؤمنون: 12] وهو: آدم، ثم قال: ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ [المؤمنون: 13] أي: ابن آدم. قوله: ﴿عفا الله عنها﴾ أي: عما سلف من مسألتكم فلا تعوبوا إلى ذلك، وقيل للمعنى: إن تلك الأشياء التي سألتكم عنها هي مما عفا عنه، ولم يوجب عليكم، فكيف تتسببون بالسؤال لإيجاب ما هو عفو من الله غير لازم؟ وضمير ﴿عنها﴾ عائد إلى المسألة الأولى، وإلى أشياء على الثاني، على أن تكون جملة «عفا الله عنها» صفة ثالثة لأشياء، والأول أولى؛ لأن الثاني يستلزم أن يكون ذلك المسؤول عنه قد شرعه الله ثم عفا عنه، ويمكن أن يقال إن العفو بمعنى الترك: أي تركها الله ولم ينكرها بشيء فلا تبحثوا عنها، وهذا معنى صحيح لا يستلزم ذلك اللازم الباطل، ثم جاء سبحانه بصيغة المبالغة في كونه غفوراً حلماً ليبدل بذلك على أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة؛ لكثرة مغفرته وسعة حلمه. قوله: ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ الضمير: يرجع إلى المسألة المفهومة من ﴿لا تسألوا﴾ لكن ليست هذه المسألة بعينها، بل مثلها في كونها مما لا حاجة إليه، ولا توجهه للضرورة الدينية ثم لم يعملوا بها، بل أصبحوا بها كافرين: أي ساترين لها تاركين للعمل بها، وذلك كسؤال قوم صالح الناقة، وأصحاب عيسى المائدة، ولا بد من تقييد النهي في هذه الآية بما لا تدعو إليه حاجة كما قمنا، لأن الأمر الذي تدعو الحاجة إليه في أمور الدين والدنيا، قد أذن الله بالسؤال عنه فقال: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [النحل: 43] وقال ﷺ: «قاتلهم الله ألا سألوا فإنما شفاء العي السؤال». قوله: ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن الرد على أهل الجاهلية فيما ابتدعوه، وجعل ههنا بمعنى سمي كما قال: ﴿إننا جعلناه قرآناً عربياً﴾ [الزخرف: 3]. والبحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة كالنطيحة والذبيحة، وهي مأخوذة من البحر، وهو شق الأن، قال ابن سيده: البحيرة هي التي خلعت بلا راع؛ قيل: هي التي يجعل ردها للطواغيت، فلا يحتلبها أحد من الناس، وجعل: شق أنفها علامة لذلك. وقال الشافعي: كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إنثاءً بحت أنفها فحزمت؛ وقيل إن الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان الخامس نكراً، بحروا أنه فأكله الرجال والنساء، وإن كان الخامس أنثى، بحروا أنها وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها؛ وقيل: إذا نتجت الناقة

وكان الرجل لو لقي الهدى مقلداً وهو ياكل العصب من الجوع لم يعرض له ولم يقربه، وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر، فحمته ومنعته من الناس، وكان إذا نفر تقلد قلادة من الانخر أو من السم، فتمنعه من الناس حتى يأتي أهله حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية. ولخرج أبو الشيخ، عن زيد بن أسلم ﴿قياماً للناس﴾ قال أمنا.

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثَرُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ الْأَوَّلُ الْأَلَسْبَ لَكُمْ تَفْهِيمٌ ﴿١٥﴾ يَأْتِيهَا الْأَوَّلُ أَمْثَلُ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ سَمُومٌ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا جِئَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ يُبَدِّلُكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٦﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٧﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَئِنَّكَ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقُرْآنِ اللَّهِ الْكَذِبَ أَكْثَرُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَاءَلُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ رَأَى الرُّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٩﴾

قيل المراد بالخبِيث والطيب: الحرام والحلال، وقيل المؤمن والكافر، وقيل العاصي والمطيع، وقيل الرديء والجيد. والأولى أن الاعتبار بعموم اللفظ فيشمل هذه المذكورات وغيرها مما يتصف بوصف الخبث والطيب من الأشخاص والأعمال والأقوال، فالخبِيث لا يساوي الطيب بحال من الأحوال. قوله: ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ قيل الخطاب للنبي ﷺ، وقيل لكل مخاطب يصلح لخطابه بهذا. والمراد: نفى الاستواء في كل الأحوال، ولو في حال كون الخبيث معجباً للرائي للكثرة التي فيه، فإن هذه الكثرة مع الخبيث في حكم العدم، لأن خبث الشيء يبطل فائدته، ويمحق بركته، ويذهب بمنفعته، والواو إما للحال أو للعطف على مقتر: أي لا يستوي الخبيث والطيب، لو لم تعجبك كثرة الخبيث، ولو أعجبك كثرة الخبيث، كقولك أحسن إلى فلان، وإن أساء إليك: أي أحسن إليه إن لم يسئ إليك وإن أساء إليك، وجواب لو محذوف: أي ولو أعجبك كثرة الخبيث فلا يستويان. قوله: ﴿فيا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ أي: لا تسألوا عن أشياء لا حاجة لكم بالسؤال عنها، ولا هي مما يعينكم في أمر دينكم، فقله: ﴿إن تبد لكم تسؤكم﴾ في محل جر صفة لأشياء أي: لا تسألوا عن أشياء متصفة بهذه الصفة من كونها إذا بنت لكم: أي ظهرت وكلفتكم بها ساءتكم، نهامهم الله عن كثرة مسألتهم لرسول الله ﷺ، فإن السؤال عما لا يعني ولا تدعو إليه حاجة قد يكون سبباً لإيجابه على السائل وعلى غيره. قوله: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ هذه الجملة من جملة صفة أشياء، والمعنى: لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن، وذلك مع وجود رسول الله ﷺ بين أظهركم، ونزول الوحي عليه ﴿تبد لكم﴾ أي: تظهر لكم بما يجيب عليكم به النبي ﷺ، أو ينزل به الوحي، فيكون ذلك سبباً للتكاليف الشاقة وإيجاب ما لم يكن واجباً وتحريم ما لم يكن محرماً، بخلاف السؤال عنها

المؤمنون، وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن أنس قال: خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلاً قط، فقال رجل: من أبي؟ فقال فلان، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾. وأخرج البخاري وغيره نحوه من حديث ابن عباس، وقد بين هذا السائل في روايات أخر، أنه عبد الله بن حذافة، وأنه قال: من أبي؟ قال النبي ﷺ: «أبوك حذافة»، وأخرج ابن حبان، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «يا أيها الناس إن الله قد افترض عليكم الحجَّ، فقام رجل، فقال: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه، فأعادها ثلاث مرات، فقال: لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما قمت بها، نروني ما تركتكم فإنما هلك الذين قبلكم بكمرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»، وذلك أن هذه الآية: أعني ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ نزلت في ذلك، وقد أخرج عنه نحو هذا ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مروي. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مروي، عن أبي أمامة الباهلي نحوه. وأخرج ابن مروي، عن ابن عباس نحوه أيضاً. وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والحاكم، وابن مروي، عن علي نحوه، وكل هؤلاء صرحوا في أحاديثهم أن الآية نزلت في ذلك. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن سعد بن أبي وقاص، قال: كانوا يسألون عن الشيء وهو لهم حلال، فما زالوا يسألون حتى يحرم عليهم، وإذا حرم عليهم وقعوا فيه. وأخرج ابن المنذر عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فيحرم من أجل مسألته». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حدَّ حُدُوداً فلا تعتوها، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وترك أشياء في غير نسيان ولكن رحمة لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها». وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ قال: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع دُرَّها للطواغيت، ولا يحلبها أحد من الناس؛ والسائبة كانوا يسيبونها لأكْهَتهم لا يحمل عليها شيء؛ والوصيلة الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بئثي. وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداها بالأخرى، ليس بينهما نكر؛ والحامي فحل الإبل، يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: البحيرة الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان نكراً

خمسة أبطن من غير تقييد بالإناث شقوا إناثاً وحرموا ركوبها وبرَّها. والسائبة: الناقة تسبب، أو البعير يسبب نذر على الرجل إن سلمه الله من مرض أو بلغه منزلة، فلا يحبس عن رعي ولا ماء، ولا يركبه أحد قاله أبو عبيد. قال الشاعر:

وسائبة لله تنمي تشكراً إن الله عاقباً عامراً ومجاشعاً
وقيل: هي التي تسبب لله فلا قيد عليها ولا راعي لها، ومنه قول الشاعر:

عقرتم ناقة كانت لربي مسيبة فقوموا للعقاب
وقيل: هي التي تابعت بين عشر إناث ليس بينهما نكر، فعند ذلك لا يركب ظهرها، ولا يجزَّ وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف؛ وقيل: كانوا يسيبون العبد، فيذهب حيث يشاء لا يد عليه لأحد. والوصيلة: قيل: هي الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى؛ وقيل هي الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت نكراً فهو لأكْهَتهم، وإن ولدت نكراً وإنثى قالوا: وصلت أخاها فلم ينبحوه الذكر لأكْهَتهم؛ وقيل: كانوا إذا ولدت للشاة سبعة أبطن نظروا؛ فإن كان السابع نكراً نبَّح فكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تركت في الغنم، وإن كان نكراً وإنثى قالوا وصلت أخاها فلم ينبَّح لمكانها، وكان لحمها حراماً على النساء، إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء. والحام: الفحل الحامي ظهره عن أن يركب، وكانوا إذا ركب ولد الفحل قالوا حمى ظهره فلا يركب، قال الشاعر:

حماء أبو قابوس في عز ملكه كما قد حمى أولاد أولاده الفحل
وقيل: هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة، قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلاً ولا ماء، ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على الله وكنيا، لا لشرع شرعه الله لهم، ولا لعقل لهم عليه، وسبحان الله العظيم ما أرك عقول هؤلاء وأضعفها، يفعلون هذه الأفاعيل التي هي محض الرقاعة، ونفس الحمق ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ وهذه أفعال آبائهم وسننهم التي سنوها لهم، وصلى الله سبحانه حيث يقول: ﴿أولو كان أبائهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ أي: ولو كانوا جهلة ضالين، والواري للحال دخلت عليها همزة الاستفهام؛ وقيل للعطف على جملة مقترنة: أي أحسبهم ذلك ولو كان أبائهم. وقد تقدَّم الكلام على مثل هذه الآية في البقرة. وقد صارت هذه المقالة التي قائلتها الجاهلية نصب أعين المقلدة وعصاهم التي يتوكلون عليها إن دعاهم داعي الحق وصرخ لهم صارخ الكتاب والسنة فاحتجاجهم بمن قلوه ممن هو مثلهم في التعبد بشرع الله، مع مخالفة قوله لكتاب الله، أو لسنة رسوله، هو كقول هؤلاء، وليس الفرق إلا في مجرد العبارة اللفظية، لا في المعنى الذي عليه تدور الإفادة والاستفادة، اللهم غفر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية: قال الخبيث هم المشركون، والطيب هم

وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، والبغوي في معجمه، وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي أمية الشعثاني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: آية آية؟ قلت: قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ قال: «بل اتتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رايت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وبنيأ مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهنّ مثل القبض على الجمر، للعامل فيهنّ أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم». وفي لفظ: «قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين منكم». وأخرج أحمد وابن أبي حاتم، والطبراني وابن مردويه، عن عامر الأشعري أنه كان فيهم أعمى، فاحتبس على رسول الله ﷺ ثم أتاه فقال: ما حبسك؟ قال: يا رسول الله قرأت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: فقال له النبي ﷺ: أين ذهبت؟ إنما هي لا يضرّكم من ضلّ من الكفار إذا اهتديتم» وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ عن الحسن: أن ابن مسعود سأل رجل عن قوله: ﴿عليكم بأنفسكم﴾ فقال: يا أيها الناس إنه ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة، ولكنه قد أوشك أن يأتي زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا، أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد عنه في الآية قال: «مروا بالمعروف وانهاووا عن المنكر ما لم يكن من دون ذلك السوط والسيف، فإذا كان كذلك فعليكم أنفسكم»، وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عمر، أنه قال في هذه الآية: إنها لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن رجل قال: كنت في خلافة عمر بن الخطاب بالمدينة في حلقة فيهم أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا فيهم شيخ حسبت أنه قال أبي بن كعب، فقرأ ﴿عليكم أنفسكم﴾ فقال: إنما تأويلها في آخر الزمان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن أبي مازن قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة، فإذا قوم جلوس فقرا أحدهم: ﴿عليكم أنفسكم﴾ فقال أكثرهم: لم يجيء تأويل هذه الآية اليوم. وأخرج ابن جرير عن جبير بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب النبي ﷺ وإني لأصغر القوم، فتذكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت: اليس الله يقول: ﴿عليكم أنفسكم؟﴾ فأقبلوا عليّ بلسان واحد فقالوا: تنزع آية من القرآن لا نعرفها ولا ندري ما تأويلها؟ حتى تمنيت أني لم أكن تكلمت، ثم أقبلوا يتحشّون، فلما حضر قياهم قالوا: إنك غلام حدث السن، وإنك نزع آية لا ندري ما هي؟ وعسى أن تدرك ذلك

ونحوه فأكله الرجال دون النساء، وإن كانت أنثى جدعوا أذانها فقالوا هذه بحيرة؛ وأما السائبة فكانوا يسيبون من أنعامهم لأكلتهم لا يركبون لها ظهراً، ولا يجلبون لها لبناً، ولا يجزون لها وبراً، ولا يحملون عليها شيئاً؛ وأما الوصيلة فالشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع، فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كانت أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً أو أنثى في بطن استحيوهما وقالوا وصلته أخته فحرمته علينا، وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئاً، ولا يجزون له وبراً، ولا يمنعون من حمى ولا من حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه. وأخرج نحوه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق العوفي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

أي: الزموا أنفسكم أو احفظوها كما تقول عليك زيداً: أي الزمه، قرئ: ﴿لا يضرّكم﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر الذي يدلّ عليه اسم الفعل. وقرأ نافع وغيره بالرفع على أنه مستأنف، كقول الشاعر:

فقال رائداهم أرسوا نزلوها

أو على أن ضم الراء للاتباع، وقرئ: ﴿لا يضرّكم﴾ بكسر الضاد، وقرئ: «لا يضيركم» والمعنى: لا يضرّكم ضلال من ضلّ من الناس إذا اهتديتم للحق أنتم في أنفسكم، وليس في الآية ما يدلّ على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية فليس بمهتد. وقد قال الله سبحانه: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وقد دلت الآيات القرآنية، والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً مضيئاً متحتماً، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو لا يظن التأثير بحال من الأحوال، أو يخشى على نفسه أن يحل به ما يضرّه ضرراً يسوغ له معه الترك ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والدارقطني والضياء، في المختارة وغيرهم، عن قيس بن أبي حازم قال: قام أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس إنكم تقرّون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها على غير مواضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» وفي لفظ لابن جرير عنه: «والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليعمّنكم الله منه بعقاب». وأخرج الترمذي

تقدير محذوف: أي شهادة اثنين أو فاعل للشهادة على أن خبرها محذوف: أي فيما فرض عليكم شهادة بينكم اثنان على تقدير أن يشهد اثنان، نكر الوجهين أبو علي الفارسي. قوله: ﴿نُوا عدل منكم﴾ صفة للثانين وكذا منكم: أي كلثان منكم: أي من أقاربكم ﴿أو آخران﴾ معطوف على ﴿اثنان﴾، و﴿من غيركم﴾ صفة له: أي كلثان من الأجانب؛ وقيل: إن الضمير في ﴿منكم﴾ للمسلمين، وفي ﴿غيركم﴾ للكفار وهو الأنسب لسياق الآية، وبه قال أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس وغيرهما، فيكون في الآية دليل على جواز شهادة أهل النعمة على المسلمين، في السفر، في خصوص الوصايا كما يفيد النظم القرآني، ويشهد له السبب للنزول وسيأتي، فإذا لم يكن مع الموصي من يشهد على وصيته من المسلمين فليشهد رجلان من أهل الكفر، فإذا قلما وأتيا بالشهادة على وصيته حلوا بعد الصلاة اتهما ما كتبوا ولا بدلاء، وإن ما شهدا به حق، فيحكم حينئذ بشهاتهما ﴿فإن عثر﴾ بعد ذلك ﴿على أنهما﴾ كذا أو خاننا حلف رجلان من أولياء الموصي وغرم الشاهدان الكافران ما ظهر عليهما من خيانة أو نحوها، هذا معنى الآية عند من تقدم ذكره، وبه قال سعيد بن المسيب ويحيى بن يعمر، وسعيد بن جبير، وأبو مجلز، والنخعي وشريح، وعبيدة السلماني، وابن سيرين، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والثوري، وأبو عبيد، وأحمد بن حنبل. وذهب إلى الأول:

أعني تفسير ضمير ﴿منكم﴾ بالقرابة أو العشيرة، وتفسير ﴿من غيركم﴾ بالأجانب الزهري والحسن وعكرمة. وذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم من الفقهاء أن الآية منسوخة، واحتجوا بقوله: ﴿من ترضون من الشهداء﴾ وقوله: ﴿واشهدوا ذوي عدل منكم﴾ والكفار ليسوا بمرضيين ولا عدول، وخالفهم الجمهور فقالوا: الآية محكمة، وهو الحق لعدم وجود دليل صحيح يدل على النسخ. وأما قوله تعالى: ﴿من ترضون من الشهداء﴾ [البقرة: 282] وقوله: ﴿واشهدوا ذوي عدل منكم﴾ [الطلاق: 2] فهما عامان في الأشخاص والأزمان والأحوال، وهذه الآية خاصة بحالة الضرب في الأرض وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين، ولا تعارض بين عام وخاص. قوله: ﴿إن أنتم﴾ هو فاعل فعل محذوف يفسره ضربتم، أو مبتدأ وما بعده خبره، والأول: مذهب الجمهور من النحاة، والثاني: مذهب الأخفش والكوفيين، والضرب في الأرض هو السفر. وقوله: ﴿فما أصابكم مصيبة للموت﴾ معطوف على ما قبله وجوابه محذوف: أي إن ضربتم في الأرض فنزل بكم الموت، وأردتم الوصية، ولم تجلوا شهوداً عليها مسلمين، ثم ذهبوا إلى ورثتكم بوصيتكم وبما تركتم فارتبوا في أمرهما وأدعوا عليهما خيانه، فالحكم أن تحبسوهما، ويجوز أن يكون استثناءً لجواب سؤال مقدر، كأنهم قالوا: فكيف نصنع إن ارتبنا في الشهادة؟ فقال: تحبسوهما من بعد الصلاة إن ارتبتم في شهاتهما. وخص بعد الصلاة: أي صلاة العصر،

الزمان «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفesk لا يضرك من ضل إذا اهتديت» وأخرج ابن مروي، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ بنحو حديث أبي ثعلبة الخشني المتقدم، وفي آخره «كأجر خمسين رجلاً منكم» وأخرج ابن مروي، عن أبي سعيد الخدري قال: نكرت هذه الآية عند رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «لم يجيء تأويلها، لا يجيء تأويلها حتى يهبط عيسى ابن مريم عليه السلام»، والروايات في هذا الباب كثيرة، وفيما نكرناه كفاية، ففيه ما يرشد إلى ما قلناه من الجمع بين هذه الآية وبين الآيات والأحاديث الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ ائْتَيْنِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَائِنَ مِنْكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةَ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهَا مِنْ بَعْدِ الْفَلْسَفَةِ فَيَقْسِمَانِ بِآلِهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا تَشْرِي بِهِ، فَكَانُوا كَأَن قَالُوا وَلَا تَكْفُرْ شَهْدَةُ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَوْنِ الْأَيُّوِينَ ﴿١٦﴾ فَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَوْمَانِ مَقَامُهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَايَةُ فَيَقْسِمَانِ بِآلِهِ لَشَهْدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهْدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَوْنِ الْفُلَّالِينِ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِلَيْهِمْ فَأَتُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا اللَّهَ لَا يَهْدَى الْقَوْمُ الْفَاسِقِينَ ﴿١٨﴾

قال مكي: هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعراباً ومعنى وحكماً. قال ابن عطية: هذا كلام من لم يقع له النجاج في تفسيرها، وذلك بين من كتابه رحمه الله: يعني من كتاب مكي. قال القرطبي: ما ذكره مكي ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضاً. قال السعد في حاشيته علي الكشاف: واتفقوا على أنها أصعب ما في القرآن إعراباً ونظماً وحكماً. قوله: ﴿شهادة بينكم﴾ أضاف الشهادة إلى البين توسعاً لأنها جارية بينهم؛ وقيل أصله شهادة ما بينكم فحذفت «ما»، وأضيفت إلى الظرف كقوله تعالى: ﴿بيل مكر الليل والنهار﴾ [سبا: 33] ومنه قول الشاعر:

تصافح من لا قيت لي ذا عداوة صفايا وعني بين عينيك منزوي أراد ما بين عينيك، ومثله قول الآخر:

ويوماً شهنتاه سليماً وعامراً

أي: شهدنا فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ [الكهف: 78] قيل: والشهادة هنا بمعنى الوصية؛ وقيل بمعنى الحضور للوصية. وقال ابن جرير الطبري: هي هنا بمعنى اليمين، فيكون المعنى: يمين ما بينكم أن يحلف اثنان، واستدل على ما قلناه بأنه لا يعلم شحاً حكماً يجب فيه على الشاهد يمين. واختار هذا القول القفال، وضعف ذلك ابن عطية، واختار أن الشهادة هنا هي الشهادة التي تؤدي من الشهود. قوله: ﴿إذا حضر لحكم الموت﴾ ظرف للشهادة، والمراد إذا حضرت علاماته، لأن من مات لا يمكنه الإشهاد، وتقديم المفعول للاهتمام ولكمال تمكن الفاعل عند النفس. وقوله: ﴿حين الوصية﴾ ظرف لحضر أو للموت، أو بدل من الظرف الأول. وقوله: ﴿اثنان﴾ خبر شهادة على

قاله الأكثر؛ لكونه الوقت الذي يغضب الله على من حلف فيه فاجراً كما في الحديث الصحيح؛ وقيل؛ لكونه وقت اجتماع الناس وقعود الحكام للحكومة؛ وقيل صلاة الظهر؛ وقيل: أي صلاة كانت. قال أبو علي الفارسي: ﴿تحبسونهما﴾ صفة لأخران، واعترض بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾، والمراد بالحبس: توقيف الشاهدين في تلك الوقت لتحليفهما، وفيه دليل على جواز الحبس بالمعنى العام، وعلى جواز التغليظ على الحالف بالزمان والمكان ونحوهما. قوله: ﴿فيقسمان بالله﴾ معطوف على ﴿تحبسونهما﴾ أي: يقسم بالله الشاهدان على الوصية أو الوصيان.

وقد استدل بذلك ابن أبي ليلى على تحليل الشاهدين مطلقاً إذا حصلت الريبة في شهادتهما، وفيه نظر؛ لأن تحليل الشاهدين هنا إنما هو لوقوع الدعوى عليهما بالخيانة أو نحوها. قوله: ﴿إن ارتبتم﴾ جواب هذا الشرط محذوف دل عليه ما تقدم كما سبق. قوله: ﴿لا نشترى به ثمناً﴾ جواب القسم، والضمير في ﴿به﴾ راجع إلى الله تعالى. والمعنى: لا نبيع حلفنا من الله تعالى بهذا العرض النزر، فنحلف به كاذبين لأجل المال الذي ادّعيتموه علينا؛ وقيل يعود إلى القسم: أي لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من أعراض الدنيا؛ وقيل يعود إلى الشهادة، وإنما نكر الضمير لأنها بمعنى القول: أي لا نستبدل بشهادتنا ثمناً، قال الكوفيون: المعنى ذا ثمن، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وهذا مبني على أن العروض لا تسمى ثمناً، وعند الأكثر أنها تسمى ثمناً، كما تسمى مبيعاً. قوله: ﴿ولو كان ذا قربي﴾ أي: ولو كان المقسم له، أو المشهود له قريباً فإننا نؤثر الحق والصديق، ولا نؤثر العرض الدنيوي، ولا القرابة، وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه: أي ولو كان ذا قربي، لا نشترى به ثمناً. قوله: ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ معطوف على ﴿لا نشترى﴾ داخل معه في حكم القسم، وأضاف الشهادة إلى الله سبحانه لكونه الأمر بإقامتها والنهائي عن كتمانها. قوله: ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثماً﴾ عثر على كذا: اطلع عليه، يقال عثرت منه على خيانة: أي اطلعت وأعثرت غيري عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وكنكك أعثرنا عليهم﴾ [الكهف: 21] وأصل العثور الوقوع والسقوط على الشيء، ومنه قول الأعشى:

بذات لوث عصرناء إذ عثرت فالتعس أولى لها من أن أقول لها والمعنى: أنه إذا اطلع بعد التحليف على أن الشاهدين أو الوصيين استحقا إثماً: أي استوجبا إثماً إما بكنب في الشهادة أو اليمين، أو بظهور خيانة. قال أبو علي الفارسي: الإثم هنا اسم الشيء المأخوذ، لأن أخذه يآثم بأخذه، فسمى إثماً كما سمي ما يؤخذ بغير حق مظلمة. وقال سيبويه: المظلمة اسم ما أخذ منك فكنكك سمي هذا المأخوذ، باسم المصدر. قوله: ﴿فأخران يقومان مقامهما﴾ أي: فشاهدان آخران أو فحالان آخران يقومان مقام اللذين عثر على أنهما

استحقا إثماً فيشهدان أو يحلفان على ما هو الحق، وليس المراد أنهما يقومان مقامهما في أداء الشهادة التي شهدها المستحقان للإثم. قوله: ﴿من الذين استحق عليهم الأوليان﴾ استحق مبني للمفعول، في قراءة الجمهور: وقرأ علي وأبي وابن عباس وحفص على البناء للفاعل، و﴿الأوليان﴾ على القراءة الأولى مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي هما الأوليان، كأنه قيل: من هما؟ فقيل هما الأوليان؛ وقيل: هو بدل من الضمير في يقومان أو من آخران. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحزمة الأولين: جمع أول على أنه بدل من الذين، أو من الهاء والميم في عليهم. وقرأ الحسن «الأولان». والمعنى على بناء الفعل للمفعول: من الذين استحق عليهم الإثم: أي جنى عليهم، وهم أهل الميت وعشيرته فإنهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم، فالأوليان ثنية أولى. والمعنى على قراءة البناء للفاعل: من الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجروهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين لكونهما الأقربين إلى الميت فالأوليان فاعل استحق ومفعوله أن يجروهما للقيام بالشهادة؛ وقيل المفعول محذوف، والتقدير: من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها. قوله: ﴿فيقسمان بالله﴾ عطف على ﴿يقومان﴾: أي فيحلفان بالله لشهادتنا: أي يميننا، فالمراد بالشهادة هنا اليمين، كما في قوله تعالى: ﴿فشهدا أحدهم أربع شهادات بالله﴾ [النور: 6] أي: يحلفان لشهادتنا على أنهما كاذبان خائنات أحق من شهادتهما: أي من يمينهما على أنهما صائقان أمينان ﴿وما اعتدينا﴾ أي: تجاوزنا الحق في يميننا ﴿إننا إذا لمن الظالمين﴾ إن كنا حلفنا على باطل. قوله: ﴿ذلك أننى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أي: تلك البيان الذي قدمه الله سبحانه، في هذه القصة وعرفنا كيف يصنع من أراد الوصية في السفر؟ ولم يكن عنده أحد من أهله، وعشيرته، وعنده كفار أننى: أي أقرب إلى أن يؤدي الشهود المحتملون للشهادة على الوصية بالشهادة على وجهها، فلا يحرقوا ولا يبتلوا، ولا يخونوا وهذا كلام مبتدأ يتضمن نكر المنفعة والفائدة، في هذا الحكم الذي شرعه الله في هذا الموضع من كتابه؛ فالضمير في ﴿يأتوا﴾ عائد إلى شهود الوصية من الكفار؛ وقيل: إنه راجع إلى المسلمين المخاطبين بهذا الحكم. والمراد بتحذيرهم من الخيانة، وأمرهم بأن يشهدوا بالحق. قوله: ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي: ترد على الورثة فيحلفون على خلاف ما شهد به شهود الوصية فيفتضح حينئذ شهود الوصية، وهو معطوف على قوله: ﴿أن يأتوا﴾ فتكون الفائدة في شرع الله سبحانه لهذا الحكم هي أحد الأمرين: إما احتراز شهود الوصية عن الكذب والخيانة فيأتون بالشهادة على وجهها. أو يخافوا الافتضاح إذا رتت الأيمان على قرابة الميت فحلفوا بما يتضمن كذبهم أو خيانتهم فيكون ذلك سبباً لتأنيده شهادة شهود الوصية على وجهها من غير كذب

مخزناً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ بالله ما كتتماها ولا اطلعتما، ثم وجدا الجام بمكة فقبل: اشتريناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم، وأخذوا الجام، قال: وفيهم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ الآية، وفي إسناده محمد بن أبي القاسم الكوفي، قال الترمذي: قيل: إنه صالح الحديث، وقد روى ذلك أبو داود من طريقه. وقد روى جماعة من التابعين أن هذه القصة هي السبب في نزول الآية، ونكروها المفسرون في تفاسيرهم. وقال القرطبي: إنه أجمع أهل التفسير على أن هذه القصة هي سبب نزول الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ الآية قال: هذا لمن مات وعنده المسلمون أمره الله أن يشهد على وصيته عدلين مسلمين. ثم قال: ﴿وَإِنْ أَخْرَأَ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين، أمر الله بشهادة رجلين من غير المسلمين، فإن ارتيب بشهادتهما استحلحفاً بالله بعد الصلاة ما اشتريا بشهادتهما ثمناً قليلاً، فإن أطلع الأولياء على أن الكافرين كذباً في شهادتهما، وثم رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة، فذلك قوله: ﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يقول: إن أطلع على أن الكافرين كذباً ﴿فذلك أننى أنى﴾ يأتي الكفران ﴿بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد إيمان بعد إيمانهم﴾ فتترك شهادة الكافرين ويحكم بشهادة الأولياء، فليس على شهود المسلمين أقسام: إنما الاقسام إذا كانا كافرين. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذا رجل خرج مسافراً ومعه مال فادرکه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين نفع إليهما تركته، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين، فرجلين من أهل الكتاب، فإن أدى فسيبيل ما أدى، وإن جحد استحلحفاً بالله الذي لا إله إلا هو دبر صلاة، إن هذا الذي نفع إلي وما غيبت منه شيئاً، فإذا حلف برئ، فإذا أتى بعد ذلك صاحباً الكتاب فشهدا عليه، ثم ادعى القوم عليه من تسميتهم ما لهم جعلت إيمان الورثة مع شهادتهم ثم اقتطعوا حقه، فذلك الذي يقول الله: ﴿إِثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ أَخْرَأَ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين من أهل الكتاب. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: هذه الآية منسوخة. وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم في الآية قال: كان ذلك في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حرب، والناس كفار، إلا رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة، وكان الناس يتوارثون بالوصية، ثم نسخت الوصية وقرضت الفرائض وعمل المسلمون بها. وأخرج ابن جرير أيضاً عن الزهري قال:

ولا خيانة؛ وقيل: إن ﴿يَخَافُوا﴾ معطوف على مقتر بعد الجملة الأولى، والتقدير: ذلك أننى أن يأتوا بالشهادة على وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة بسبب الكذب والخيانة، أو يخافوا الافتضاح برد اليمين، فأني الخوفين وقع حصل المقصود ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته بأي ذنب، ومنه الكذب في اليمين أو الشهادة.

وحاصل ما تضمنه هذا المقام من الكتاب العزيز، أن من حضرته علامات الموت أشهد على وصيته عدلين من عنول المسلمين، فإن لم يجد شهوداً مسلمين، وكان في سفر، ووجد كفاراً جاز له أن يشهد رجلين منهم على وصيته، فإن ارتاب بهما ورثة الموصي حلفاً بالله على أنهما شهدا بالحق، وما كتما من الشهادة شيئاً ولا خلنا مما تركه الميت شيئاً، فإن تبين بعد ذلك خلاف، ما أقسما عليه من خلل في الشهادة أو ظهور شيء من تركه الميت زعماً أنه قد صار في ملكهما بوجه من الوجوه حلف رجلان من الورثة وعمل بذلك.

وقد أخرج الترمذي وضعفه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والنحاس في تاريخه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة من طريق أبي النضر، وهو الكلبي، عن بإذان مولى أم هانئ عن ابن عباس، عن تميم الداري في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ﴾ قال: بريء الناس منها غيري وغير عدي بن بدء، وكنا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتينا الشام لتجارتهم، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بنيل بن أبي مريم بتجارة، ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو عظم تجارته، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله؛ قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بدء، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجام فسالونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، أو ما دفع إلينا غيره؛ قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، وأتيت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثله، فأتوا به رسول الله ﷺ، فسالهم البيعة فلم يجبوا، فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف فانزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ تَرَدَّ إِيمَانٌ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا، فنزعت للخمسمائة درهم من عدي بن بدء. وفي إسناده أبو النضر، وهو محمد بن السائب الكلبي صاحب التفسير، قال الترمذي: تركه أهل العلم بالحديث. وأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بدء، فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم، فأوصى إليهما فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة

قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إذ بدل، من يوم يجمع، وهو تخصيص بعد التعميم وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه إفراطاً وتفريطاً؛ هذه تجعله إلهاً، وهذه تجعله كائناً، وقيل هو منصوب بتقدير انكر، قوله: ﴿وَإِذْ نَعَّمْتِي عَلَىكَ وَعَلَى النَّاسِ﴾ نكّره سبحانه نعمته عليه وعلى أمه، مع كونه ذاكراً لها عالماً بتفضل الله سبحانه بها؛ لقصد تعريف الأمم بما خصهما الله به من الكرامة وميزهما به من علو المقام، أو لتأكيد الحجة، وتبكيك الجاحد، بأن منزلتهما عند الله هذه المنزلة، وتوبيخ من اتخذهما إلهين، ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند الله سبحانه، وأنهما عبدان من جملة عباد الله منعم عليهما بنعم الله سبحانه، ليس لهما من الأمر شيء. قوله: ﴿إِذْ أَيْتَنَّاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ إذ ظرف للنعمة؛ لأنها بمعنى المصدر: أي انكر إنعامي عليك وقت تلييدي لك، أو حال من النعمة: أي كائنة ذلك الوقت ﴿أَيْتَنَّاكَ﴾ قوّيتك مأخوذ من الأيد، وهو القوّة، وفي روح القدس وجهان: أحدهما أنها الروح الطاهرة التي خصه الله بها، وقيل: إنه جبريل عليه السلام، وقيل إنه الكلام الذي يحيى به الأرواح. والقدس: الطهر، وإضافته إليه لكونه سببه، وجملة ﴿تَكَلَّمَ النَّاسُ﴾ مبنية لمعنى التأييد، وفي المهدى في محل نصب على الحال: أي تكلم الناس حال كونك صبيّاً وكهلاً لا يتفاوت كلامك في الحالتين مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتاً بيناً. وقوله: ﴿وَإِذْ عَلِمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ معطوف على ﴿إِذْ أَيْتَنَّاكَ﴾ أي: وانكر نعمتي عليك وقت تعليمي لك الكتاب أي: جنس الكتاب، أو المراد بالكتاب الخط، وعلى الأول يكون نكر التوراة والإنجيل من عطف الخاص على العام، وتخصيصهما بالذكر لمزيد اختصاصه بهما؛ أما التوراة فقد كان يحتج بها على اليهود في غالب ما يدور بينه وبينهم من الجدل كما هو مصرح بذلك في الإنجيل، وأما الإنجيل فلكونه نازلاً عليه من عند الله سبحانه، والمراد بالحكمة جنس الحكمة؛ وقيل هي الكلام المحكم ﴿وَإِذْ تَخَلَّقَ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: تصوّر تصويراً مثل صورة الطير ﴿بِإِنِّنِي﴾ لك بذلك وتيسيري له، ﴿فَتَنْفَخُ﴾ في الهيئة المصوّرة ﴿فَتَكُونُ﴾ هذه الهيئة ﴿طَائِراً﴾ متحركاً حياً كسائر الطيور ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِنِّنِي﴾ لك وتسهيّله عليك وتيسيره لك، وقد تقدّم تفسير هذا مطوّلاً في البقرة، فلا نعيده ﴿وَإِذْ تَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾ من قبورهم، فيكون ذلك آية لك عظيمة ﴿بِإِنِّنِي﴾، وتكرير بإنني في المواضع الأربعة؛ للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه. قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ معطوف على ﴿إِذْ تَخْرُجُ﴾ كففت معناه: دفعت وصرفت ﴿بِئَنِّي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ حين هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا سحر بين، لما عظم ذلك في صدرهم

مضت السنة أن لا تجوز شهادة كافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عبيدة في قوله: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قال: صلاة العصر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ قال: لا نأخذ به رشوة ﴿وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ وإن كان صاحبها بعيداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَى لَيْثِهِمَا لِسْتَحْقَ إِثْمًا﴾ أي: اطلع منهما على خيانة على أنهما كذباً أو كتماً. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، في قوله: ﴿الْأَوَّلِيَانِ﴾ قال: بالميت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿فَلَمْ أَنْتَ أَنْتَ أَنْ يَتَوَا بِالْشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ يقول: ذلك أحرى أن يصنقوا في شهادتهم ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِيْمَانُ بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ﴾ يقول: وأن يخافوا العتب. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِيْمَانُ بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ﴾ قال: فيبطل إيمانهم ويؤخذ إيمان هؤلاء.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَيْكَ إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَيْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ عَثَرْتَ مِنَ الْيَلِينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ نُفِخَ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ العامل في الظرف فعل مقدر: أي اسمعوا، أو انكروا، أو اأخذوا. وقال الزجاج: هو منصوب بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنكور في الآية الأولى؛ وقيل بدل من مفعول ﴿وَاتَّقُوا﴾ بدل اشتغال؛ وقيل ظرف لقول: ﴿لَا يَهْدِي﴾ [المائدة: 108] المنكور قبله؛ وقيل منصوب بفعل مقدر متأخر تقديره: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ يكون من الأحوال كذا وكذا. قوله: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي: أي إجابة أجابكم به أممكم الذين يعنكم الله إليهم؟ أو أي جواب أجابكم به؟ وعلى الوجهين تكون ما منصوبة بالفعل المنكور بعدها، وتوجيه السؤال إلى الرسل لقصد توبيخ قومهم، وجوابهم بقولهم ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ مع أنهم عالمون بما أجابوا به عليهم تفويض منهم، وإظهار للعجز، وعدم القدرة، ولا سيما مع علمهم بأن السؤال سؤال توبيخ فإن تفويض الجواب إلى الله أبلغ في حصول ذلك، وقيل المعنى: لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا؛ وقيل لا علم لنا بما اشتملت عليه بواطنهم. وقيل المعنى: لا علم لنا إلا علم ما أنت أعلم به منا؛ وقيل: إنهم ذهلوا عما أجاب به قومهم لهول المحشر.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر أي: انكر أو نحوه كما تقدم، قيل والخطاب لمحمد ﷺ. قرا الكسائي ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ﴾ بالفعولية، ونصب ربك، وبه قرا علي وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد. وقرا الباقرن بالتحية ورفع ربك. واستشكلت القراءة الثانية بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا: ﴿أَمْنَا وَاشْهَدْ بَأَنَّا مسلمون﴾ والسؤال عن استطاعته لذلك ينافي ما حكوه عن أنفسهم. وأجيب بأن هذا كان في أول معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله، ولهذا قال عيسى في الجواب عن هذا الاستفهام الصابر منهم، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تشكوا في قدرة الله؛ وقيل: إنهم ادَّعوا الإيمان والإسلام دعوى باطلة، ويردُّه أن الحواريين هم خلاصاء عيسى وانصاره، كما قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 52] وقيل: إن ذلك صدر ممن كان معهم، وقيل: إنهم لم يشكوا في استطاعة البارئ سبحانه، فإنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك، وإنما هو كقول الرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي مع علمه بأنه يستطيع ذلك ويقدر عليه؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك وهل يجيب إليه؟ وقيل: إنهم طلبوا الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: 260] الآية، ويدل على هذا قولهم من بعد ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ وأما على القراءة الأولى، فالمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك. قال الزجاج: المعنى هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله فهو من باب: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]. والمائدة: الخوان إذا كان عليه الطعام، من ماله: إذا أعطاه ورفده كأنها تعيد من تقدم إليه قاله قطرب وغيره؛ وقيل: هي فاعلة بمعنى مفعولة كـ ﴿عَيْشَةَ رَاضِيَةً﴾ [الحاقة: 21] قاله أبو عبيدة، فاجابهم عيسى عليه السلام بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي اتقوه من هذا السؤال، وأمثاله إن كنتم صائقين في إيمانكم، فإن شأن المؤمن ترك الاقتراح على ربه على هذه الصفة؛ وقيل: إنه أمرهم بالتقوى ليكون ذلك نريعة إلى حصول ما طلبوه. قوله: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ بينوا به الغرض من سؤالهم نزول المائدة، وكذا ما عطف عليه من قولهم: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمُ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والمعنى: تلمن قلوبنا بكمال قدرة الله، أو بأنك مرسل إلينا من عنده، أو بأن الله قد أجابنا إلى ما سألناه، ونعلم علماً يقيناً بأنك قد صدقتنا في نبوتك، ونكون عليها من الشاهدين عند من لم يحضرها من بني إسرائيل، أو من سائر الناس، أو من الشاهدين بالله بالوحدانية، أو من الشاهدين أي: الحاضرين دون السامعين. ولما رأى عيسى ما حكوه عن أنفسهم من الغرض بنزول المائدة قال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: كائنة أو نازلة من السماء، وأصل اللهم عند سيبويه واتباعه: يا الله، فجعلت الميم بدلاً من حرف النداء، وربنا نداء ثان، وليس بوصف، و﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً﴾ وصف لمائدة. وقرا الأعمش

وانبهروا منه لم يقدروا على جرده بالكلية، بل نسبوه إلى السحر. قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ هو معطوف على ما قبله، وقد تقدم تفسير ذلك. والوحي في كلام العرب معناه الإلهام: أي ألهم الحواريين وقنفت في قلوبهم؛ وقيل معناه: أمرتهم على السنة الرسل أن يؤمنوا بي بالتوحيد والإخلاص ويؤمنوا برسالة رسولي. قوله: ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قالوا؟ فقال: قالوا آمنا ﴿وَاشْهَدْ بَأَنَّا مسلمون﴾ أي: مخلصون للإيمان: أي واشهد يا رب، أو واشهد يا عيسى.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرِّسَالَ فَيَقُولُ مَاذَا لَجِيتُمْ﴾ فيفزعون فيقولون ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ فتردُّ إليهم أفنتهم فيعلمون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلاً آخر فشاهدوا على قومهم، وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: قالوا لا علم لنا فرقاً يذهل عقولهم، ثم يردُّ الله إليهم عقولهم، فيكونون هم الذين يسألون بقول الله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6]. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مريويه وابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَدْعَى بِالْأَنْبِيَاءِ وَأَمَمَهَا ثُمَّ يَدْعَى بِعِيسَى فَيَنْكُرُهُ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ فَيَقْرَأُ بِهَا، فيقول: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ انْكَرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى النَّاسِ﴾ الآية، ثم يقول: ﴿وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخَذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ [المائدة: 116] فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون، فيقولون نعم هو أمرنا بذلك، فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدي الشمقدار ألف عام حتى يوقع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهية الطير وإبراء الأسقام، والخبر بكثير من الغيوب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ يقول قنفت في قلوبهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْجِسُ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمُ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَلَمْ يَرْسِلْنَا أَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ إِذْ مَزَّلْنَا عَلَيْكُم مَنَّاتٍ فَهَمْ كَفُورٌ بَدَّ بِكُمْ لَوْنِ أَعْيُنِهِمْ فَجَاءَكَ اللَّهُ بِغَمٍّ مُنِ السَّمَاءِ ﴿١١٩﴾

معلم الخير، قلت لنا إن أجر العامل على من عمل له، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا، ولم تكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا ﴿فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة﴾ إلى قوله: ﴿أحداً من العالمين﴾ فاقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات، وسبعة أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فاكل منها آخر الناس كما اكل أولهم. وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً، وأمرُوا أن لا يخونوا ولا يبخروا لغد، فخافوا وأُخروا، ورفعوا لغد فمسحوا قردة وخنازير، وقد روي موقوفاً على عمار. قال الترمذي: والوقف أصح. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: المائدة سمكة وأرغفة. وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عنه قال: نزلت على عيسى ابن مريم، والحواريين، خوان عليه سمك وخبز، ياكلون منه أينما تولوا إذا شاءوا. وأخرج ابن جرير نحوه عنه من طريق عكرمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة، والمنافقون، وآل فرعون.

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ وَأَنَا قُلْتُ لِلنَّاسِ امْكُثُوا وَإِنِّي أَنزَلْتُ فِيكُمْ ذُرِّيًّا قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ أَقُولَ مَا لَا يُحِبُّ لِي يَحْيَىٰ إِنْ كُنْتَ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَلْمِزُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٥١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ شَهِيدًا مَا مَعْتُ فِيهِمْ لَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَهُمْ عَذَابٌ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَلَهُمْ فَلَكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ﴿٥٣﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٤﴾ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٥﴾

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ معطوف على ما قبله في محل نصب بعامله أو بعامل مقدر هنا: أي أنكر. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة. والنكتة توبيخ عباد المسيح وأمه من النصاري. وقال السدي وقطرب: إنه قال له هذا القول عند رفعه إلى السماء، لما قالت النصاري فيه ما قالت، والأول أولى: قيل ﴿وَإِذْ﴾ هنا بمعنى إذا كقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ فرغوا﴾ [سبا: 51] أي: إذا فرغوا، وقول أبي النجم:

ثم جزك الله عني إذ جرى جنات عدن في السموات العلى
أي: إذا جرى، وقول الأسود بن جعفر الأسدي:

في الآن إذ هازلتهم فإنما يقآن الالم يذهب الشيخ مذهباً
أي: إذا هازلتهم تعبيراً عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه. وقد قيل: في توجيه هذا الاستفهام منه تعالى إنه لقصد التوبيخ كما سبق؛ وقيل: لقصد تعريف المسيح بأن قومه غيروا بعده وأدعوا عليه ما

«يكون لنا عيداً» أي: يكون يوم نزولها لنا عيداً. وقد كان نزولها يوم الأحد، وهو يوم عيد لهم؛ والعيد واحد الأعياد، وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد؛ وقيل للفرق بينه وبين أعواد جمع عود، نكر معناه الجوهرى؛ وقيل أصله من عاد يعود: أي رجع، فهو عود بالواو، وتقلب ياء لانكسار ما قبلها، مثل الميزان والميقات والميعاد، فقيل ليوم الفطر والأضحي عيدان، لأنهما يعودان في كل سنة. وقال الخليل: العيد كل يوم جمع كأنهم عادوا إليه. قوله: ﴿لَاؤُلْنَا وَأَخْرْنَا﴾ بدل من الضمير في لنا بتكرير العامل: أي لمن في عصرنا ولمن يأتي بعننا من ذراريها وغيرهم. قوله: ﴿وَأَيَّةٌ مِنْكَ﴾ عطف على عيداً: أي دلالة وحجة واضحة على كمال قدرتك، وصحة إرسالك من أرسلته ﴿وَأَرْزَقْنَا﴾ أي أعطنا هذه المائدة المطلوبة، أو أرزقنا رزقاً نستعين به على عبادتك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ بل لا رازق في الحقيقة غيرك ولا معطى سواك، فأجاب الله سبحانه سؤال عيسى عليه السلام فقال: ﴿إِنِّي مَنَزَلُهَا﴾ أي: المائدة ﴿عليكم﴾.

وقد اختلف أهل العلم هل نزلت عليهم المائدة أم لا؟ فذهب الجمهور إلى الأول: وهو الحق؛ لقوله سبحانه ﴿إِنِّي مَنَزَلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ووعده الحق وهو لا يخلف الميعاد. وقال مجاهد: ما نزلت وإنما هو ضرب مثل ضربه الله لخلقها نهياً لهم عن مسألة الآيات لانبياؤه، وقال الحسن: وعدهم بالإجابة، فلما قال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنكُم﴾ استغفروا الله وقالوا لا نريدها. قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنكُم﴾ أي بعد تنزيلها: ﴿فَأَنِّي أَعَذِّبُ الْعَذَابُ﴾ أي: تعذيباً ﴿لَا أَعْنِيهِ﴾ صفة لعذاب، والضمير عائد إلى العذاب بمعنى التعذيب: أي لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: المراد عالمي زمانهم، وقيل جميع العالمين، وفي هذا من التهديد والترهيب ما لا يقاير قدره.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عائشة قالت: كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا: ﴿هل يستطيع ربك﴾ إنما قالوا: هل تستطيع أنت ربك أن تدعوه، ويؤيد هذا ما أخرجه الحاكم وصححه، والطبراني وابن مردويه، عن معاذ بن جبل أنه قال: أقراني رسول الله ﷺ هل يستطيع ربك بالتاء يعني الفوقية. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، أنه قرأها كذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: المائدة الخوان، وتطمئن: توقن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ يقول: نتخذ اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن، ومن بعننا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس: أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا ثلاثين يوماً ثم تسالوه فيعطيك ما سألتم؟ فإن أجر العامل على من عمل له، ففعلوا ثم قالوا: يا

وبه قال الزجاج، ولا يجيز البصريون ما قاله إلا إذا أضيف الظرف إلى فعل ماضٍ. وقرأ الأعمش: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ﴾ بتنوين يوم كما في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: 48] فكلاهما مقطوع عن الإضافة بالتنوين. وقد تقدم تفسير قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: رضي عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له، ورضوا عنه بما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال ولا تتصوره عقولهم، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم، وأعلى منازل الكرامة، والإشارة بذلك إلى نيل ما نالوه من دخول الجنة والخلود فيها أبدًا، ورضوان الله عنهم. والفوز: الظفر بالمطلوب على أتم الأحوال. قوله: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جاء سبحانه بهذه الخاتمة دفعا لما سبق من إثبات من أثبت إلهية عيسى وأمه، وأخبر بأن ملك السموات والأرض له نون عيسى وأمه وبن سائر مخلوقاته، وأنه القادر على كل شيء نون غيره؛ وقيل المعنى: أن له ملك السموات والأرض يعطي الجنات للمطيعين، جعلنا الله منهم.

وقد أخرج الترمذي. وصححه، والنسائي، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن أبي هريرة قال: تلقى عيسى حجة الله لقاءه في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ، فلقيه الله سبحانه: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ الْآيَةِ. وَأَخْرَجَ عَبْدَ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ قَتَادَةَ فِي الْآيَةِ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَقُولُ: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صُدُقَهُمْ﴾. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السَّيِّدِيِّ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تِلْكَ لَمَّا رَفَعَ عِيسَى إِلَيْهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى مَا قَالَتْ. وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ قَالَ: سَيِّدِي وَسَيِّدِكُمْ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ، عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّكَ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ﴾ قَالَ: الْحَفِيزُ. وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿كَأَنَّكَ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ فِيهِمْ﴾ قَالَ: مَا كُنْتُ فِيهِمْ. وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ يَقُولُ: عَيْبُكَ قَدْ اسْتَوْجَبُوا الْعَذَابَ بِمَقَالَتِهِمْ ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أَي: مَنْ تَرَكْتَ مِنْهُمْ وَمَدَّ فِي عَمْرِهِ حَتَّى أَهْبَطَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ لِقَتْلِ الدَّجَالِ، فَزَالُوا عَنْ مَقَالَتِهِمْ وَوَحْدُوكَ ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صُدُقَهُمْ﴾ يَقُولُ: هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الْمُوحِدِينَ تَوْحِيدَهُمْ.

لم يقله. وقوله: ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿اتَّخُونِي﴾ على أنه حال: أي متجاوزين الحد، ويجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لإلهين: أي كائنين من دُونِ اللَّهِ. قوله: ﴿سَبِّحْكَ﴾ تنزيه له سبحانه: أي أنزهك تنزيهاً ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ أَي: مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَّعِيَ لِنَفْسِي مَا لَيْسَ مِنْ حَقِّهَا، ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ رَدُّ تِلْكَ إِلَى عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ، فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ عَدَمُ الْقَوْلِ مِنْهُ. قَوْلُهُ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي حَكْمِ التَّلْعِيلِ لِمَا قَبْلَهَا: أَي تَعْلَمُ مَعْلُومِي وَلَا أَعْلَمُ مَعْلُومَكَ، وَهَذَا الْكَلَامُ مِنْ بَابِ الْمَشَاكَلَةِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ؛ وَقِيلَ الْمَعْنَى: تَعْلَمُ مَا فِي غَيْبِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي غَيْبِكَ؛ وَقِيلَ تَعْلَمُ مَا أَخْفَيْهِ وَلَا أَعْلَمُ مَا تَخْفِيهِ؛ وَقِيلَ: تَعْلَمُ مَا أُرِيدُ وَلَا أَعْلَمُ مَا تَرِيدُ. قَوْلُهُ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ هَذِهِ جُمْلَةٌ مُقَرَّرَةٌ لِمُضْمُونِ مَا تَقَدَّمَ: أَي مَا أَمَرْتَهُمْ إِلَّا بِمَا أَمَرْتَنِي: ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ هَذَا تَفْسِيرٌ لِمَعْنَى ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ أَي: مَا أَمَرْتَهُمْ، وَقِيلَ: عَطَفَ بَيَانٌ لِلْمُضْمَرِ فِي ﴿بِهِ﴾ وَقِيلَ بَدَلٌ مِنْهُ ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أَي: حَفِيزًا وَرَقِيبًا أَرعى أحوالهم وَأَمْنَعَهُمْ عَنِ مَخَالَفَةِ أَمْرِكَ ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أَي: مَدَّةَ دَوَامِي فِيهِمْ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ قِيلَ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ تَوَفَّاهُ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَهُ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّ الْأَخْبَارَ قَدْ تَطَاوَرَتْ بِأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ، وَأَنَّهُ بَاقٍ فِي السَّمَاءِ عَلَى الْحَيَاةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْزِلَ إِلَى الْأَرْضِ آخِرَ الزَّمَانِ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: فَلَمَّا رَفَعْتَنِي إِلَى السَّمَاءِ. قِيلَ الْوَفَاةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ سَبِّحَانَهُ جَاءَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: بِمَعْنَى الْمَوْتِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: 42] وَبِمَعْنَى النُّومِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: 60] أَي: يَنِيْمُكُمْ، وَبِمَعْنَى الرَّفْعِ، وَمِنْهُ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾. ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 55]. ﴿كَأَنَّكَ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ﴾ أَصْلُ الْمَرَاقَبَةِ: الْمَرَاعَاةُ، أَي: كُنْتُ الْحَافِظَ لَهُمْ وَالْعَالِمَ بِهِمْ وَالشَّاهِدَ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ تَصْنَعُ بِهِمْ مَا شِئْتَ وَتَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا تَرِيدُ، ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَي: الْقَادِرُ عَلَى تِلْكَ الْحَكِيمِ فِي أَعْمَالِهِ، قِيلَ: قَالَهُ عَلَى وَجْهِ الاسْتِعْطَافِ كَمَا يَسْتَعْطِفُ السَّيِّدُ لِعَبْدِهِ. وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عَصُوكَ؛ وَقِيلَ: قَالَهُ عَلَى وَجْهِ التَّسْلِيمِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَالْإِتْقَانِ لَهُ، وَلِهَذَا عُدِلَ عَنِ الْغُفُورِ الرَّحِيمِ إِلَى الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. قَوْلُهُ: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صُدُقَهُمْ﴾ أَي: صُنْعُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَقِيلَ: فِي الْآخِرَةِ، وَالْأَوَّلُ، أَوَّلَى. قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ مُحِيصَنٌ ﴿يَوْمٌ﴾ بِالنَّصْبِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ، فَوَجْهُ النَّصْبِ أَنَّهُ ظَرْفٌ لِلْقَوْلِ: أَي قَالَ اللَّهُ هَذَا الْقَوْلَ يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ، وَوَجْهُ الرَّفْعِ أَنَّهُ خَبَرٌ لِلْمَبْتَدَأِ هُوَ وَمَا أَضِيفَ إِلَيْهِ. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ نَصَبَ ﴿يَوْمٌ﴾ هَاهُنَا لِأَنَّهُ مُضَافٌ إِلَى الْجُمْلَةِ، وَأَنْشَدَ:

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت لما أصبح والشيب وزع

تفسير سورة الأنعام

قال الثعلبي: سورة الأنعام مكية، إلا ست آيات نزلت بالمدينة، وهي ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ [الأنعام: 91] إلى آخر ثلاث آيات [الأنعام: 91 - 93]، و﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ [الأنعام: 151] إلى آخر ثلاث آيات [الأنعام: 151 - 153]. قال ابن عطية: وهي الآيات المحكمات، يعني في هذه السورة. وقال القرطبي: هي مكية إلا آيتين هما ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ نزلت في مالك بن الصيف، وكعب بن الأشرف اليهوديين، وقوله تعالى ﴿وهو الذي أنشا جنات معروشات﴾ [الأنعام: 141] نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الأنعام بمكة. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، والطبراني، وابن مروي عنه: قال أنزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة وحولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح. وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة. وأخرج ابن مروي، عن أسماء قال: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ، وهو في مسير في زجل من الملائكة. وقد نظموا ما بين السماء والأرض. وأخرج الطبراني، وابن مروي، عن أسماء بنت يزيد نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مروي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد»، وهو من طريق إبراهيم بن نائلة شيخ الطبراني، عن إسماعيل بن عمرو، عن يوسف، بن عطية بن عون، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ، فذكره. وابن مروي، رواه عن الطبراني عن إسماعيل المذكور به. وأخرج الطبراني، وابن مروي، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتقديس، والأرض ترتج، ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم». وأخرج الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، والإسماعيلي في معجمه، عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال: لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق». وأخرج البيهقي وضعفه، والخطيب في تاريخه، عن علي بن أبي طالب قال: أنزل القرآن خمساً خمساً، ومن حفظه خمساً خمساً لم ينسه، إلا سورة الأنعام، فإنها نزلت جملة يشيعها من كل سماء سبعون ملكاً، حتى أتوها إلى النبي ﷺ، ما قرئت على عليل إلا شفاه الله. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي بن كعب، مرفوعاً نحو حديث ابن عمر. وأخرج النحاس في تاريخه، عن ابن عباس قال: سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة، فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة ﴿قل تعالوا أتل ما حرم﴾ إلى تمام

الآيات الثلاث [الآيات: 151 - 153]. وأخرج الديلمي بسند ضعيف عن أنس مرفوعاً «ينادي مناد: يا قارئ سورة الأنعام هلم إلى الجنة بحبك إياها وتلاوتها». وأخرج ابن المنذر، عن أبي جحيفة قال: نزلت سورة الأنعام جميعاً معها سبعون ألف ملك كلها مكية إلا ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ [الأنعام: 111] فإنها منية. وأخرج أبو عبيد في فضائله، والدارمي في مسنده، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب قال: الأنعام من نواجذ القرآن. وأخرج محمد بن نصر، عن ابن مسعود مثله. وأخرج السلفي بسند واه عن ابن عباس مرفوعاً «من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ [الأنعام: 3] نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم، ونزل إليه ملك من فوق سبع سموات ومعه مرزبة من حديد، فإن أوحى الشيطان في قلبه شيئاً من الشر ضربه ضربة حتى يكون بينه وبينه سبعون حجاباً، فإذا كان يوم القيامة، قال الله تعالى: أنا ربك وأنت عبيدي، امش في ظلي واشرب من الكوثر واغسل من السلسيل وادخل الجنة بغير حساب ولا عذاب». وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الفجر في جماعة وقعد في مصلاه وقرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام، وكل الله به سبعين ملكاً يسبحون الله ويستغفرون له إلى يوم القيامة». وفي فضائل هذه السورة روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة وغير مرفوعة. قال القرطبي: قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة؛ لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تصرف ذلك بوجه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين.

لَمَسَدٌ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِجَمَلٍ الثَّلَاثُ وَالْأَوَّلُ ثُمَّ الَّذِي كَفَرُوا بِهِمْ يَتَوَلَّوْنَ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَ رَبِّكُمْ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَلْمُ بِرَبِّكُمْ وَجَهَرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝﴾

بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد لله، للدلالة على أن الحمد كله له، ولإقامة الحجة على الذين هم بربهم يعبدون. وقد تقدم في سورة الفاتحة ما يغني عن الإعادة له هنا، ثم وصف نفسه بأنه الذي خلق السموات والأرض إخباراً عن قدرته الكاملة، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده، هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد، والخلق يكون بمعنى الاختراع، وبمعنى التقدير. وقد تقدم تحقيق ذلك، وجمع السموات لتعدد طباقها، وقدمها على الأرض لتقدمها في الوجود ﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾ [النازعات: 30]. قوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ معطوف على خلق، نكر سبحانه خلق الجواهر بقوله: ﴿خلق السموات والأرض﴾ ثم نكر خلق الأعراف بقوله: ﴿وجعل للظلمات والنور﴾ لأن الجواهر لا تستغني عن الأعراف.

وأوقات الألهة والبروج وما يشبه ذلك؛ والثاني أجل الموت. وقيل: الأول لمن مضى. والثاني لمن بقي ولمن يأتي. وقيل: إن الأول الأجل الذي هو محتوم؛ والثاني الزيادة في العمر لمن وصل رحمه، فإن كان برّاً تقيّاً وصلاً لرحمه زيد في عمره، وإن كان قاطعاً للرحم لم يزد له، ويرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ [فاطر: 11]. وقد صح عن رسول الله ﷺ أن صلة الرحم تزيد في العمر، وورد عنه أن دخول البلاد التي قد فشا بها الطاعون والوباء من أسباب الموت؛ وجاز الابتداء بالنعرة في قوله: ﴿ولجل مسمى عنده﴾ لأنها قد تخصصت بالصفة. قوله: ﴿ثم أنتم تموتون﴾ استبعاد لصنوع الشك منهم مع وجود المقتضى لعنده: أي كيف تشكون في البعث مع مشاهدتكم في أنفسكم من الابتداء والانتهاء ما يذهب بذلك وينفعه، من خلقكم من طين، وصيركم أحياء تعلمون وتعقلون، وخلق لكم هذه الحواس والأطراف، ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتاً، وعدمت إلى ما كنتم عليه من الجمادية، لا يعجزه أن يبعثكم ويعيد هذه الأجسام كما كانت، ويردّ إليها الأرواح التي فارقتها بقدرة ويبيع حكمته. قوله: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ قيل: إن في السموات وفي الأرض متعلق باسم الله باعتبار ما يدل عليه من كونه معبوداً ومتصرفاً ومالكاً: أي هو المعبود أو المالك أو المتصرف في السموات والأرض كما تقول: زيد الخليفة في الشرق والغرب: أي حاكم أو متصرف فيهما؛ وقيل المعنى: وهو الله يعلم سرّكم وجهركم في السموات وفي الأرض، فلا تخفى عليه خافية، فيكون العامل فيهما ما بعدهما. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل فيه. وقال ابن جرير: هو الله في السموات ويعلم سرّكم وجهركم في الأرض. والأول أولى، ويكون «يعلم سرّكم وجهركم» جملة مقرّرة لمعنى الجملة الأولى، لأن كونه سبحانه في السماء والأرض، يستلزم علمه بأسرار عباديه وجهركم، وعلمه بما يكسبونه من الخير والشر، وجلب النفع ودفع الضرر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن عليّ أن هذه الآية أعني: الحمد لله، إلى قوله: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعلنون﴾ نزلت في أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله لم يخلق الظلمة ولا الخنافس، ولا العقارب، ولا شيئاً قبيحاً، وإنما يخلق النور وكل شيء حسن، فانزلت فيهم هذه الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ قال: الكفر والإيمان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة قال: إن الذين بربهم يعلنون هم أهل الشرك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السديّ مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد،

واختلف أهل العلم في المعنى المراد بالظلمات والنور؛ فقال جمهور المفسرين: المراد بالظلمات سواد الليل، وبالنور ضياء النهار. وقال الحسن: الكفر والإيمان. قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر انتهى. والأولى أن يقال: إن الظلمات تشمل كل ما يطلق عليه اسم الظلمة، والنور يشمل كل ما يطلق عليه اسم النور، فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر ونور الإيمان. ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات﴾ [الأنعام: 122] وأفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه، وجمع للظلمات لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها. قال النحاس: جعل هنا بمعنى خلق؛ وإذا كانت بمعنى خلق له تعدد إلا إلى مفعول واحد، وقال القرطبي: جعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره. قال ابن عطية: وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق، فيكون الجمع معطوفاً على الجمع، والمفرد معطوفاً على المفرد، وتقدير الظلمات على النور لأنها الأصل، ولهذا كان للنهار مسلخاً من الليل. قوله: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعلنون﴾ معطوف على الحمد لله، أو على خلق السموات والأرض، ثم لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعلنون مع ما تبين من أن الله سبحانه حقيق بالحمد على خلقه السموات والأرض والظلمات والنور، فإن هذا يقتضي الإيمان به وصرف الثناء الحسن إليه، لا الكفر به واتخاذ شريك له، وتقديم المفعول للاهتمام، ورعاية الفواصل، وحذف المفعول لظهوره: أي يعلنون به ما لا يقدر على شيء مما يقدر عليه، وهذا نهاية الحمق وغاية الرقاعة حيث يكون منه سبحانه تلك النعم، ويكون من الكفرة الكفر. قوله: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ في معناه قولان: أحدهما، وهو الأشهر، وبه قال الجمهور أن المراد آدم عليه السلام، وأخرجه مخرج الخطاب للجميع، لأنهم ولده ونسله. الثاني، أن يكون المراد جميع البشر باعتبار أن النطفة التي خلقوا منها مخلوقة من الطين، نكر الله سبحانه خلق آدم وبنيه بعد خلق السموات والأرض إتياعاً للعالم الأصغر بالعالم الأكبر، والمطلوب بذكر هذه الأمور نفع كفر الكافرين بلبعث، وردّ لجهنم بما هو مشاهد لهم لا يمتزون فيه. قوله: ﴿ثم قضى أجلاً ولجل مسمى عنده﴾ جاء بكلمة «ثم» لما بين خلقهم وبين موتهم من التفاوت.

وقد اختلف السلف ومن بعدهم في تفسير الأجلين، فقيل: ﴿قضى أجلاً﴾ يعني الموت ﴿وأجل مسمى عنده﴾ يعني القيامة، وهو مروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، ومجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم، وعطية والسديّ وخصيف، ومقاتل وغيرهم، وقيل الأول: ما بين أن يخلق إلى أن يموت؛ والثاني: ما بين أن يموت إلى أن يبعث، وهو قريب من الأول. وقيل الأول مدة الدنيا؛ والثاني عمر الإنسان إلى حين موته. وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: الأول قبض الأرواح في النوم؛ والثاني قبض الروح عند الموت. وقيل: الأول ما يعرف من

أهلكنا من قبلهم من قرن ﴿كلام مبتدأ؛ لبيان ما تقممه، والهمزة للإنكار، و «كم» يحتمل أن تكون الاستفهامية وأن تكون الخبرية وهي معلقة لفعل الرؤية عن العمل فيما بعده، و «من قرن» تمييز، والقرن: يطلق على أهل كل عصر، سموا بذلك لإقترانهم: أي ألم يعرفوا بسماع الأخبار، ومعاينة الآثار، كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة في عصر بعد عصر؛ لتكذيبهم أنبياءهم. وقيل القرن مدة من الزمان. وهي ستون عاماً أو سبعون أو ثمانون أو مائة على اختلاف الأقوال، فيكون ما في الآية على تقدير مضاف محذوف: أي من أهل قرن. قوله: ﴿مَكْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمُكِّنْ لَكُمْ﴾ مَكْنٌ له في الأرض جعل له مكاناً فيها، ومكَّنه في الأرض: أثبت فيه، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: كيف ذلك؛ وقيل: إن هذه الجملة صفة لقرن، والأوّل أولى، و «ما» في «ما لم نمكن» نكرة موصوفة بما بعدها: أي مكناهم تمكيناً لم نمكنه لكم، والمعنى: أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم، ما لم نعطكم من الدنيا، وطول الأعمار وقوة الأبدان، وقد أهلكناهم جميعاً، فإهلاككم وانتم بونهم بالأولى. قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَافاً﴾ يريد المطر الكثير، عبّر عنه بالسما، لأنه ينزل من السماء، ومعناه قول الشاعر:

إذا نزل السماء بارض قوم

والمدرار صيغة مبالغة تدل على الكثرة كمنكار للمرأة التي كثرت ولانتها للذكور، وميناث للتي تلد الإناث، يقال بر اللبن يدر: إذا أقبل على الحالب بكثرة وانتصاب ﴿مدرافاً﴾ على الحال؛ وجريان الأنهار من تحتهم معناه: من تحت أشجارهم ومنازلهم: أي أن الله وسّع عليهم النعم بعد التمكين لهم في الأرض، فكفروها، فأهلكهم الله بنزولهم، ﴿وأنشأنا من بعدهم﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿قرناً آخرين﴾ فصاروا بدلاً من الهالكين، وفي هذا بيان لكمال قدرته سبحانه، وقوة سلطانه، وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء. قوله: ﴿وَوَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في هذه الجملة بيان شدة صلابتهم في الكفر، وأنهم لا يؤمنون ولو أنزل الله على رسوله كتاباً مكتوباً في قُرْطَاسٍ بمرأى منهم ومشاهدة، ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين: حاسة البصر، وحاسة اللمس ﴿لقال الذين كفروا﴾ منهم ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ ولم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا، وإذا كان هذا حالهم في المرثي المحسوس، فكيف فيما هو مجرد وحي إلى رسول الله ﷺ بواسطة ملك، لا يرونه، ولا يحسونه؟ والكتاب مصر بمعنى الكتابة، والقُرْطَاس: الصحيفة. قوله: ﴿وَوَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ هذه الجملة مشتملة على نوع آخر من أنواع جحدهم لنبوته ﷺ وكفرهم بها: أي قالوا هلا أنزل الله عليك ملكاً نراه، ويكلمنا؛ أنه نبي حتى نؤمن به ونتبعه؟ كقولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ [الفرقان: 7] ﴿وَوَلَوْ

وَأَبْنِ جَرِير، وَأَبْنِ الْمَنْزَر، وَأَبْنِ أَبِي حَاتِم، وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: ﴿يُعْلَلُونَ﴾ يَشْرِكُونَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِير، وَأَبْنِ أَبِي حَاتِم، عَنْ ابْنِ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يُعْلَلُونَ﴾ قَالَ: الْأَلْهَةُ الَّتِي عِبَدُوهَا عُلُلُوهَا بِاللَّهِ، وَلَيْسَ لِلَّهِ عُدْلٌ وَلَا نَدَى، وَلَيْسَ مَعَهُ آلِهَةٌ وَلَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلِداً. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِير، وَأَبْنِ الْمَنْزَر، وَأَبْنِ أَبِي حَاتِم، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يَعْنِي أَمَّ ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يَعْنِي أَجَلَ الْمَوْتِ ﴿وَوَجَّلَ مَسْمًى عِنْدَهُ﴾ أَجَلَ السَّاعَةِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَ اللَّهِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ جَرِير، وَأَبْنِ الْمَنْزَر، وَأَبْنِ أَبِي حَاتِم، وَأَبُو الشَّيْخِ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ قَالَ: أَجَلَ الدُّنْيَا، وَفِي لَفْظِ أَجَلَ مَوْتِهِ ﴿وَوَجَّلَ مَسْمًى عِنْدَهُ﴾ قَالَ: الْآخِرَةُ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِير، وَأَبْنِ أَبِي حَاتِم عَنْهُ ﴿قَضَىٰ أَجَلًا﴾ قَالَ: هُوَ الْيَوْمُ يَقْبِضُ فِيهِ الرُّوحَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ صَاحِبِهِ مِنَ الْيَقِظَةِ ﴿وَوَجَّلَ مَسْمًى عِنْدَهُ﴾ قَالَ: هُوَ أَجَلَ مَوْتِ الْإِنْسَانِ.

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا إِلَيْنَا كَذِبًا هَؤُلَاءِ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ آيَاتُنَا مَا كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ دِينَ قُرْآنٍ مَكَتُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُشْكِرْ لَكَ وَأَرْسَلْنَا السَّيْلَةَ عَلَيْهِمْ وَنَزَّلْنَا رِجْسًا مِنَ الْغَمْرِ يَنْزِلُ مِنْ تَحْتِهِمْ فَالْهَلَكُوتُ بِدُونِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُتِحَ الْأَرْضُ ثُمَّ لَا يُظْهَرُونَ ﴿٥﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَكِنَّا جَعَلْنَاهُ عَلَىٰ سَبِيلِ مَكٍّ وَلَقَدْ اسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَكَانَ بِالَّذِينَ سَخَّرْنَا مِنْهُمْ مَنَآكِبًا أَوْ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٧﴾

قوله: ﴿وما تأتيتهم﴾ الخ كلام مبتدأ؛ لبيان بعض أسباب كفرهم وتمردهم، وهو الإعراض عن آيات الله التي تأتيهم كمعجزات الأنبياء، وما يصدر عن قدرة الله الباهرة مما لا يشك من له عقل أنه فعل الله سبحانه، والإعراض: ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله و «من» في «من آية» مزيدة للاستغراق و «من» في «من آيات» تبعية؛ أي وما تأتيهم آية من الآيات التي هي بعض آيات ربهم، إلا كانوا عنها معرضين، والفاء في «فقد كذبوا» جواب شرط مقدر: أي إن كانوا معرضين عنها فقد كذبوا بما هم أعظم من ذلك، وهو الحق ﴿لما جاءهم﴾ قيل: المراد بالحق هنا القرآن، وقيل محمد ﷺ ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: أخبار الشيء الذي كانوا به يستهزئون وهو القرآن، أو محمد ﷺ، على أن ما عبارة عن ذلك تهويلاً للامر وتعظيماً له: أي سيعرفون أن هذا الشيء الذي استهزؤوا به ليس بموضع للاستهزاء، وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم، كما يقال: اصبر فسوف ياتيك الخبر عند إرادة الوعيد والتهديد، وفي لفظ الأنباء ما يرشد إلى ذلك، فإنه لا يطلق إلا على خبر عظيم. قوله: ﴿الم يروا كم

يقول: ما يأتيهم من شيء من كتاب الله إلا أعرضوا عنه، وفي قوله: ﴿فقد كتبوا بالحق لما جاءهم فسوف ياتيهم انباء ما كانوا به يستهزؤن﴾ يقول: سيأتيهم يوم القيامة انباء ما استهزؤوا به من كتاب الله عز وجل. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿من قرن﴾ قال: أمة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ يقول: أعطيناهم ما لم نعطكم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾ يقول يتبع بعضها بعضاً، وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن هارون التيمي في الآية قال: المطر في إبانة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ يقول: لو أنزلنا من السماء صحفاً فيها كتاب ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ لزداهم ذلك تكذيباً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ قال: فمسوه ونظروا إليه لم يصدقوا به. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن إسحاق قال: دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام، وكلمهم فأبلغ إليهم فيما بلغني، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كلفة، وعبد بن عبد يغوث، وأبي بن خلف بن وهب، والعاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك، فأنزل الله: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ قال: ملك في صورة رجل ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر﴾ لقامت الساعة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿لقضي الأمر﴾ يقول: لو أنزل الله ملكاً ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ قال: ولو أتاهم ملك في صورته ﴿لقضي الأمر﴾ لاملكناهم ﴿ثم لا ينظرون﴾ لا يؤخرون ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ يقول: لخلطنا عليهم ما يخلطون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ قال: في صورة رجل في خلق رجل. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ يقول: في صورة آدمي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ يقول: لو أنزلنا عليهم ما يلبسون، وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وما تاتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾

ملكاً لقضي الأمر﴾ أي: لو أنزلنا ملكاً على الصفة التي اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ويلقونهم ﴿لقضي الأمر﴾ أي: لاملكناهم إذ لو يؤمنوا عند نزوله، ورؤيتهم له؛ لأن مثل هذه الآية البينة، وهي نزول الملك على تلك الصفة إذا لم يقع الإيمان بعدها، فقد استحقوا الإهلاك والمعالجة بالعقوبة ﴿ثم لا ينظرون﴾ أي: لا يمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له؛ وقيل إن المعنى: إن الله سبحانه لو أنزل ملكاً مشاهداً لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء، بل تزهق أرواحهم عند ذلك، فيبطل ما أرسل الله له رسوله، وأنزل به كتبه من هذا التكليف الذي كلف به عباده ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ [الكهف: 7]. قوله: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ أي: لو جعلنا الرسول إلى النبي ملكاً يشاهدونه، ويخاطبونه، لجعلنا ذلك الملك رجلاً، لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته التي خلقه الله عليها إلا بعد أن يتجسم بالأجسام الكثيفة المشابهة لأجسام بني آدم؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه، فلو جعل الله سبحانه الرسول إلى البشر، أو الرسول إلى رسوله، ملكاً مشاهداً مخاطباً لنفروا منه ولم يأنسوا به، ولدخلهم الرعب وحصل معهم من الخوف ما يمنعه من كلامه ومشاهدته، هذا أقل حال فلا تتم المصلحة من الإرسال. وعند أن يجعله الله رجلاً: أي على صورة رجل من بني آدم، ليسكنوا إليه ويأنسوا به، سيقول الكافرون إنه ليس بملك وإنما هو بشر، ويعودون إلى مثل ما كانوا عليه. قوله: ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم؛ لأنهم إذا راوه في صورة إنسان قالوا هذا إنسان وليس بملك، فإن استدلل لهم بأنه ملك كذبوه قال الزجاج: المعنى للبسنا عليهم، أي على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفهم، وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق. فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم، فاعلم الله عز وجل أنه لو نزل ملكاً في صورة رجل، لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون. واللبس: الخلط، يقال لبست عليه الأمر البسه لبساً: أي خلطته، وأصله التستر بالثوب ونحوه. ثم قال سبحانه مؤنساً لنبيه ﷺ ومسلماً له ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ يقال: حاق الشيء يحيق حيقاً وحيوقاً وحيقناً نزل: أي فنزل ما كانوا به يستهزؤن، ولحاط بهم: وهو الحق حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به ﴿قل سيروا في الأرض﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سافروا في الأرض، وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبات، وكيف كانت عاقبتهم بعدما كانوا فيه من النعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم فيه، فهذه ديارهم خاربة وجنائهم مغبرة وأراضيهم مكفجرة، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة، فأنتم بهم لآحقون، وبعد هلاكهم هالكون.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وما تاتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾

شبهنا عليهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: شبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن إسحاق قال: مرَّ رسول الله ﷺ فيما بلغني بالوليد بن المغيرة، وأمّية بن خلف، وأبي جهل بن هشام فهمزوه واستهزؤوا به فغاضه ذلك، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾.

قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كُتِبَ عَلٰى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّهُمْ اِلٰى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ لَا رَيْبَ فِىْهِ الَّذِيْنَ خَسِرُوْا اَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿١١﴾ وَلَمْ يَمَسْكُنْ فِي الْاٰلِ وَالْاَنْهَارِ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴿١٢﴾ قُلْ اَمَرَ اللّٰهُ اَنْتَ وَرَبِّيْ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَهُوَ يُعِيْمُ وَلَا يُلْغَمُ قُلْ اِنِّيْۤ اَرٰتُ اَنۡ اَكُوْنَ اَوَّلَ مَنْ اُنۡسَا لَا تَكُوْنُ مِنَ الشّٰكِرِيْنَ ﴿١٣﴾ قُلْ اِنِّيْۤ اَنَاۡ اِنْ عَصَيْتُ رَبِّيْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ ﴿١٤﴾ مَن يَمُرَّوْهُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِعْهُ وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْثٰنِي ﴿١٥﴾ وَاِنۡ يَسۡتَكۡبِرُ اللّٰهُ بِشَرِّ مَا كَاٰفَ لَهُۥ اِلَّا مَوۡءٍ وَاِنۡ يَسۡتَكۡبِرۡ يَخۡبِرۡ فَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْۡءٍ قَدِيْرٌ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الْغَاۡثِرُ قُوَّةً عِبَادُوْهُ وَهُوَ الْحَكِيْمُ الْغَيُّرُ ﴿١٧﴾ قُلْ اَمۡرُ اللّٰهِ اَكۡثَرُ شِدَّةً مَّاۤ اِنَّ اللّٰهَ شَهِدَ بَيْنِيْ وَبَيْنَكُمْ وَاَوۡسَى اِلَآ هٰذَا الْقُرۡاٰنُ لَا يُلۡزِمُكُمۡ بِهٖ وَنَحۡنُ بَلَّغۡنَا اِلَيْكُمۡ لَقَدَرَهُۥ اَنۡ تَعۡلَمُوْا اَللّٰهُ اَعۡزٰى اَمۡرًا مَّا لَا اَشۡهَدُ قُلْ اِنَّمَا هُوَ اللّٰهُ وَحِيْدٌ وَاِنِّيْۤ اَرۡىٰ مِمَّا تَشۡرِكُوْنَ ﴿١٨﴾ الَّذِيْنَ مَاتَیۡتَهُمُ الْكِتٰبُ يَمُرُّوۡهُ كَمَا يَمُرُّوۡنَ اَبۡنَاۡهُمُ الَّذِيْنَ خَسِرُوْا اَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿١٩﴾ وَمَنۡ اَظۡلَمُ مِمَّنۡ اَفۡرَآءَ عَلٰى اللّٰهِ كَذِبًا اَوْ كَذَبَ بِاٰیٰتِهِۦۭ اِنَّہٗ لَا یُعۡلِمُ الْغٰلِبُوْنَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ هذا احتجاج عليهم وتبكيك لهم، والمعنى: قل لهم هذا القول فإن قالوا فقل لله، وإذا ثبت أن له ما في السموات والأرض إما باعترافهم، أو بقيام الحجة عليهم، فالله قادر على أن يعالجهم بالعقاب، ولكنه كتب على نفسه الرحمة: أي وعد بها فضلاً منه وتكرماً، وذكر النفس هنا عبارة عن تذكيد وعده، وارتفاع الوسائط بونه، وفي الكلام ترغيب للمتولين عنه إلى الإقبال إليه وتسكين خواطرهم بأنه رحيم بعباده لا يعالجهم بالعقوبة، وأنه يقبل منهم الإنابة والتوبة، ومن رحمته لهم إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ونصب الأئمة، قوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّهُمْ اِلٰى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ﴾ اللام جواب قسم محذوف. قال الفراء وغيره: يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿الرحمة﴾ ويكون ما بعدها مستأنفاً على جهة التبيين، فيكون المعنى ﴿لِيَجْمَعَنَّهُمْ﴾ ليمهلنكم وليؤخرن جمعكم. وقيل المعنى: ليجمعنكم في القبور إلى اليوم الذي أنكرتموه. وقيل: ﴿إِلَى﴾ بمعنى في: أي ليجمعنكم في يوم القيامة. وقيل يجوز أن يكون موضع ﴿لِيَجْمَعَنَّهُمْ﴾ للنصب على البذل من الرحمة، فتكون اللام بمعنى أن. والمعنى: كتب ربكم على نفسه الرحمة أن يجمعنكم كما قالوا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَاُوا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنُنَهُ﴾ [يوسف: 35] أي أن يسجنوه، وقيل إن جملة ﴿لِيَجْمَعَنَّهُمْ﴾ مسوقة للترهيب بعد الترغيب، وللوعيد بعد الوعد: أي إن

أهلنكم برحمته فهو مجازيكم بجمعكم في معاقبة من يستحق عقوبته من العصاة، والضمير في ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لليوم أو للجمع. قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. قال الزجاج: إن الموصول مرتفع على الابتداء وما بعده خبره كما تقول: الذي يكرمني فله درهم، فالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط. وقال الأخفش: إن شئت كان ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب على البذل من الكاف والميم في ﴿لِيَجْمَعَنَّهُمْ﴾ أي: ليجمعن المشركين الذين خسروا أنفسهم، وأنكره المبرد، وزعم أنه خطأ، لأنه لا يبدل من المخاطب ولا من المخاطب. لا يقال: مررت بك زيد ولا مررت بي زيد؛ وقيل: يجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ مجروراً على البذل من المكثبين الذين تقدم ذكرهم، أو على النعت لهم؛ وقيل: إنه منادى وحرف النداء مقدر. قوله: ﴿هُوَ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: الله، وخص السالكين بالذكر، لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة؛ وقيل المعنى: ما سكن فيها أو تحرك فلكتفى بأحد الضميرين عن الآخر، وهذا من جملة الاحتجاج على الكفرة. قوله: ﴿قُلْ أَغِيرَ اللَّهُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ﴾، ولما كان الإنكار لاتخاذ غير الله ولياً، لا لاتخاذ الولي مطلقاً، نخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل. والمراد بالولي هنا: المعبود أي: كيف اتخذ غير الله معبوداً؟ و ﴿فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ مجرور على أنه نعت لاسم الله، وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ، وأجاز الزجاج النصب على المدح، وأجاز أبو علي الفارسي نصبه بفعل مضمر، كأنه قيل أترك فاطر السموات والأرض. قوله: ﴿وَهُوَ يَطۡعَمُ وَلَا يَطۡعَمُ﴾ قرأ الجمهور بضم الياء وكسر العين في الأول، وضمها وفتح العين في الثاني: أي يرزق ولا يرزق، وقرأ سعيد بن جبير، ومجاهد، والأعمش بفتح الياء في الثاني وفتح العين، وقرئ بفتح الياء والعين في الأول، وضمها وكسر العين في الثاني على أن الضمير يعود إلى الولي المذكور، وخص الإطعام بون غيره من ضروب الإنعام؛ لأن الحاجة إليه أمس. قوله: ﴿قُلْ إِنِّيۤ أَمَرْتُ أَنْ اَكُوْنَ اَوَّلَ مَنْ اَسۡلَمَ﴾ أمره سبحانه بعد ما تقدم من اتخاذ غير الله ولياً أن يقول لهم: إنه مأمور بأن يكون أول من أسلم وجهه لله من قومه، وأخلص من أمته؛ وقيل معنى ﴿أسلم﴾ استسلم لأمر الله، ثم نهاه الله عز وجل أن يكون من المشركين. والمعنى: أمرت بأن أكون أول من أسلم ونهيت عن الشرك: أي يقول لهم هذا، ثم أمره أن يقول: ﴿إِنِّيۤ اخَافُ اِنْ عَصَيْتُ رَبِّيْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ﴾ أي: إن عصيته بعبادة غيره أو مخالفة أمره أو نهيه. والخوف: توقع المكروه؛ وقيل: هو هنا بمعنى العلم: أي إني أعلم إن عصيت ربي أن لي عذاباً عظيماً. قوله: ﴿مَنۡ يَصۡرِفُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدۡ رَحِمَهُ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل مكة، وابن عامر، على البناء للمفعول: أي من يصرف عنه العذاب، واختار هذه القراءة سيبويه. وقرأ الكوفيون على البناء للفاعل، وهو

[الأنعام: 150] وما في ﴿مما تشركون﴾ موصولة أو مصدرية: أي من الأصنام التي تجعلونها آلهة، أو من إشراككم بالله. قوله: ﴿الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ الكتاب للجنس فيشمل التوراة والإنجيل وغيرهما أي: يعرفون رسول الله ﷺ. قال به جماعة من السلف، وإلى ههنا ذهب الزجاج؛ وقيل إن الضمير يرجع إلى الكتاب: أي يعرفونه معرفة محقة، بحيث لا يلتبس عليهم منه شيء، و﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ بيان لتحقيق تلك المعرفة وكمالها وعدم وجود شك فيها، فإن معرفة الآباء للأبناء هي البالغة إلى غاية الإتيان إجمالاً وتفصيلاً. قوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ في محل رفع على الابتداء، وخبره ﴿فهم لا يؤمنون﴾ وبخول الفاء في الخبر، لتضمن المبتدأ معنى الشرط؛ وقيل: إن الموصول خبر مبتدأ محذوف؛ وقيل: هو نعت للموصول الأول. وعلى الوجهين الآخرين يكون ﴿فهم لا يؤمنون﴾ معطوفاً على جملة ﴿الذين آتيناكم الكتاب﴾. والمعنى على الوجه الأول: أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم وتمردهم لا يؤمنون بما جاء به رسول الله ﷺ. وعلى الوجهين الآخرين أن أولئك الذين آتاهم الله الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيه من البعد عن الحق، وعدم العمل بالمعرفة التي ثبتت لهم فهم لا يؤمنون. قوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي: اختلق على الله الكذب فقال: إن في التوراة أو الإنجيل ما لم يكن فيها ﴿أو كذب بآياته﴾ التي يلزمه الإيمان بها من المعجزة الواضحة البينة. فجمع بين كونه كاذباً على الله، ومكذباً بما أمره الله بالإيمان به، ومن كان هكذا فلا أحد من عباد الله أظلم منه، والضمير في ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ للشأن.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سلمان الفارسي قال: إننا نجد في التوراة أن الله خلق السموات والأرض، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، فبها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتبائنون، وبها يتزاوون وبها تحن الناقة، وبها تنتج البقرة، وبها تثير الشاة، وبها تتابع الطير، وبها تتابع الحيتان في البحر، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع. وقد أخرج مسلم، وأحمد، وغيرهما، عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة: منها رحمة يتراحم بها الخلق، وتسعة وتسعون ليوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»، وثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي». وقد روي من طرق أخرى بنحو هذا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿ولو ما سكن في الليل والنهار﴾ يقول

اختيار أبي حاتم، فيكون الضمير على هذه القراءة ش. ومعنى ﴿يومئذ﴾ يوم العذاب العظيم، ﴿فقد رحمه﴾ الله أي: نجاه وأنعم عليه وأدخله الجنة، والإشارة بذلك إلى الصرف أو إلى الرحمة: أي فذلك الصرف أو الرحمة ﴿الفوز المبين﴾ أي: الظاهر الواضح، وقرأ أبي ﴿من يصرف الله عنه﴾. قوله: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ أي: إن ينزل الله بك ضرراً من فقر أو مرض ﴿فلا تكشف له إلا هو﴾ أي: لا قادر على كشفه سواه ﴿وإن يمسسك بخير﴾ من رخاء أو عافية ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ ومن جملة تلك المس بالشر والخير. قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ القهر: الغلبة، والقاهر: الغالب، وأقهر الرجل: إذا صار مقهوراً ذليلاً، ومنه قول الشاعر:

تمنى حصين أن يسود خزاعة فامسى حصين قد أثل وأتھرا
ومعنى: ﴿فوق عباده﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر، والغلبة عليهم، لا فوقية المكان كما تقول: السلطان فوق رعيته: أي بالمنزلة والرفعة. وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد ﴿وهو الحكيم﴾ في أمره ﴿الخبير﴾ بأفعال عباده. قوله: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ أي مبتدأ، وأكبر خبره، وشهادة تمييز، والشيء يطلق على القديم والحادث، والمحال والممكن، والمعنى: أي شهيد أكبر شهادة، فوضع شيء موضع شهيد، وقيل: إن ﴿شيء﴾ هنا موضوع موضع اسم الله تعالى. والمعنى: الله أكبر شهادة: أي انفراد بالربوبية، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة، وأعظم فهو شهيد بيني وبينكم؛ وقيل: إن قوله: ﴿الله شهيد بيني وبينكم﴾ هو الجواب، لأنه إذا كان الشهيد بينه وبينهم كان أكبر شهادة له ﷺ؛ وقيل: إنه قد تم الجواب عند قوله: ﴿قل الله﴾ يعني الله أكبر شهادة، ثم ابتداء فقال: ﴿شاهد بيني وبينكم﴾ أي: شهيد بيني وبينكم، قوله: ﴿وإوحى إلي هذا القرآن لأنزلكم به ومن بلغ﴾ أي: أوحى الله إلي هذا القرآن الذي تلوته عليكم؛ لأجل أن أنزلكم به، وأنزله من بلغ إليه: أي كل من بلغ إليه من موجود ومعلوم سيوجد في الأزمنة المستقبلية، وفي هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد، كشمولها لمن قد كان موجوداً وقت النزول، ما لا يحتاج معه إلى تلك الخزعات المنكورة في علم أصول الفقه، وقرأ أبو نهيك ﴿وإوحى﴾ على البناء للمفاعل، وقرأ ابن عداة على البناء للمفعول. قوله: ﴿إنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع على قراءة من قرأ بهمزتين على الأصل أو بقلب الثانية، وأما من قرأ على الخبر فقد حقق عليهم شركهم، وإنما قال: ﴿آلهة أخرى﴾ لأن الآلهة جمع، والجمع يقع عليه التانيث، كذا قال الفراء، ومثله قوله تعالى: ﴿ووش الأسماء الحسنی﴾ [الأعراف: 180] وقال: ﴿فما بال القرون الأولى﴾ [طه: 51] ﴿قل لا تشهدوا علي﴾: فإنا لا أشهد معكم فحذف لدلالة الكلام عليه، وذلك لكون هذه الشهادة باطلة، ومثله: ﴿فإن شهنوا فلا تشهد معهم﴾

الصدق، فمعنى ﴿واشربوا﴾ ما كنا مشركين، نفي شركهم عند أنفسهم، وفي اعتقادهم، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ [النساء: 42]. قوله: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ هذا كلام مبتدأ؛ لبيان ما كان يصنعه بعض المشركين في الدنيا، والضمير عائد إلى الذين أشركوا: أي وبعض الذين أشركوا يستمع إليك حين تتلو القرآن ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي: فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم، والأكنة: الأغشية جمع كنان مثل الأسنة والسنان، كننت الشيء في كنهه: إذا جعلته فيه، وكننته أخفيته، وجملة: ﴿جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ مستأنفة للإخبار بمضمونها، أو في محل نصب على الحال: أي وقد جعلنا على قلوبهم أغشية كراهة أن يفقهوا القرآن، أو لئلا يفقهوه، والوقر: الصمم؛ يقال وقرت أذنه تقر وقرأ: أي صمت. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿وقرأ﴾ بكسر الواو: أي جعل في أذانهم ما سدها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير، وهو مقدار ما يطيق أن يحمله، وذكر الأكنة والوقر تمثيل؛ لفرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه، كان قلوبهم لا تعقل، وأسماعهم لا تدرك، ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ أي: لا يؤمنوا بشيء من الآيات التي يرونها من المعجزات، ونحوها؛ لعنادهم وتمردهم قوله: ﴿حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ حتى هنا هي الابتدائية التي تقع بعدها الجمل، وجملة يجادلونك في محل نصب على الحال، والمعنى: أنهم بلغوا من الكفر والعناد أنهم إذا جاؤوك مجادلين لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان، بل يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين؛ وقيل: حتى هي الجارة وما بعدها في محل جر، والمعنى: حتى وقت مجيئهم مجادلين يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين، وهذا غاية التكذيب ونهاية العناد. والأساطير قال الزجاج: واحداً أسطار. وقال الأخفش: أسطورة. وقال أبو عبيدة أسطارة. وقال النحاس: أسطور. وقال القشيري: أسطير. وقيل: هو جمع لا واحد له كعبانيد وإبائيل، والمعنى: ما سطره الأولون في الكتب من القصص والأحاديث. قال الجوهري: الأساطير الأباطيل والترهات. قوله: ﴿وهم ينفون عنه وينتنون عنه﴾ أي: ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن، أو بمحمد ﷺ ويبعدونهم عن أنفسهم عنه. وقيل: إنها نزلت في أبي طالب، فإنه كان ينهى الكفار عن آتية النبي ﷺ، ويبعد هو عن إجابته ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ أي: ما يهلكون بما يقع منهم من النهي والنأي، إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله وسخطه، والحال: أنهم ما يشعرون بهذا البلاء الذي جلبوه على أنفسهم قوله: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من تتأتى منه الرؤية، وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، كما ذكره علماء المعاني، و ﴿وقفوا﴾ معنا حبسوا، يقال وقفته وقفاً ووقف وقوفاً، وقيل: معنى ﴿وقفوا على النار﴾ أنخلوها، فتكون على

بمعنى في؛ وقيل هي بمعنى الباء: أي وقفوا بالنار أي بقرتها معانين لها، ومفعول ترى محذوف، وجواب لو محذوف، ليذهب السامع كل مذهب، والتقدير: لو تراه إذا وقفوا على النار؛ لرأيت منظرًا هائلًا وحالاً قظيماً ﴿وقالوا يا ليتنا نرد﴾ أي: إلى الدنيا ﴿ولا نكذب بآيات ربنا﴾ أي: التي جاءنا بها رسوله ﷺ، ﴿ونكون من المؤمنين﴾ بها العاملين بما فيها، والأفعال الثلاثة داخلة تحت التمني: أي تمنوا الرد، وإن لا يكذبوا، وإن يكونوا من المؤمنين، برفع الأفعال الثلاثة كما هي قراءة الكسائي وأهل المدينة، وشعبة، وابن كثير، وأبي عمرو. وقرأ حفص، وحمزة، بنصب نكذب ونكون بإضمار أن بعد الواو على جواب التمني، واختار سيبويه القطع في ﴿ولا نكذب﴾ فيكون غير داخل في التمني، والتقدير: ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب: أي لا نكذب ربنا أو لم نرد، قال: وهو مثل دعني ولا أعود: أي لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني. واستدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمني بقوله: ﴿وإنهم لكانبون﴾؛ لأن الكنب لا يكون في التمني. وقرأ ابن عامر ﴿ونكون﴾ بالنصب، وأدخل الفعلين الأولين في التمني، وقرأ أبي ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ابتداء﴾ وقرأ هو وابن مسعود ﴿يا ليتنا نرد فلا نكذب﴾ بالفاء والنصب، والفاء ينصب بها في جواب التمني كما ينصب بالواو كما قال الزجاج، وقال أكثر البصريين: لا يجوز الجواب إلا بالفاء. قوله: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ هذا إضراب عما يدل عليه التمني من الوعد بالإيمان والتصديق: أي لم يكن ذلك التمني منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد، بل هو لسبب آخر، وهو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون: أي يجحدون من الشرك، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم، فدخلوا إلى التمني والمواعيد الكائنة؛ وقيل: بدا لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر بشهادة جوارحهم عليهم؛ وقيل: بدا لهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة كما قال تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ [الزمر: 47] وقال المبرد: بدا لهم جزء كفرهم الذي كانوا يخفونه، وهو مثل القول الأول؛ وقيل: المعنى أنه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة، ﴿ولو ردوا﴾ إلى الدنيا حسبما تمنوا ﴿لعبادوا﴾ لفعل ما نهوا عنه من القبائح التي رأسها الشرك، كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند، ﴿وإنهم لكانبون﴾ أي: متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ولو شاهدوا ما شاهدوا؛ وقيل المعنى: وإنهم لكانبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والإيمان. وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ولو ردوا﴾ بكسر الراء؛ لأن الأصل ردوا فنقلت كسرة الدال إلى الراء، وجملة ﴿وإنهم لكانبون﴾ معترضة بين المعطوف وهو وقالوا، وبين المعطوف عليه وهو لعبادوا: أي لعبادوا إلى ما نهوا عنه ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ بعد الموت، وهذا من شدة

نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس في الآية قال: ينهون عنه الناس أن يؤمنوا به، ويتأولوا عنه: يتباعون. وأخرج ابن جرير، من طريق العوفي عن قال: لا يلقونه ولا يدعون أحداً يأتيه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن الحنفية، في الآية قال: كفار مكة كانوا يدفعون الناس عنه ولا يجيبونه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: ينهون عن القرآن، وعن النبي ﷺ، ويتأولوا عنه يتباعون عنه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن أبي هلال، في الآية قال: نزلت في عومة النبي ﷺ وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشد الناس عليه في السر. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿يُحِلُّ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: من أعمالهم ﴿وَلَوْ رَنُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ﴾ يقول: ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم التي كانوا فيها لعادوا إلى أعمالهم، أعمال السوء التي كانوا نهوا عنها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: أخبر الله سبحانه أنهم لو رنوا لم يقدروا على الهدى، فقال: ﴿وَلَوْ رَنُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ﴾ أي: لو رنوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حيل بينهم وبينه أوّل مرة، وهم في الدنيا.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَ مَا كُنَّا فَعَلْنَا وَمِمَّا يَحْمِلُونَ أَوَّلَانَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُهُمْ ﴿١٦١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبَؤٌ وَلَهُوَ الْكَدَّارُ الْآخِرُ حَتَّى لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفْكَالًا يَقُولُونَ ﴿١٦٢﴾ قَدْ تَلَمَّ إِنَّهُمْ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ يُقُولُونَ فَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ لَكَ وَلَكِنَّ الْفُلُوجِينَ يُبَادِلُ اللَّهُ يَحْدُرُونَ ﴿١٦٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَّوهُ عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُّوا حَتَّى أَنَّهُمْ صَبَّوْا وَلَا مَبْدِلَ يُكَلِّمُ اللَّهُ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٤﴾ وَإِنْ كَانَ كِبَارُكَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَغْنَتْ أَنْ يُنَبِّئُكَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْخَالِينَ ﴿١٦٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْغِيهِمْ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ رَجُعُونَ ﴿١٦٦﴾

قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ﴾ هم الذين تقدّم نكرهم. والمراد من تكذيبهم بقاء الله تكذيبهم بالبعث، وقيل تكذيبهم بالجزاء. والأول أولى، لأنهم الذين قالوا قريباً: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29] ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: القيامة، وسميت ساعة لسرعة الحساب فيها. ومعنى بغتة: فجأة، يقال بغتهم الأمر يبغيثهم بغتاً وبغتة. قال سيبويه: وهي مصدر في موضع الحال، قال: ولا يجوز أن يقاس عليه، فلا يقال: جاء فلان سرعة، و﴿حَتَّى﴾ غاية للتكذيب لا للخسران، فإنه لا

تمردهم وعنادهم، حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث. قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ قد تقدّم تفسيره في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: 27] أي: حبسوا على ما يكون من أمر ربهم فيهم؛ وقيل: على بمعنى عند، وجواب لو محذوف: أي لشاهدت أمراً عظيماً، والاستفهام في ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ للتقريع والتوبيخ: أي أليس هذا البعث الذي ينكرونه كائناً موجوداً، وهذا الجزاء الذي يجحدونه حاضراً. ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا بما أنكروا، ولكنوا اعترافهم بالقسم ﴿قَالَ قَتْلُوكَ الْعَذَابِ﴾ الذي تشاهدونه وهو عذاب النار ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم به أو بكل شيء مما أمرتم بالإيمان به في دار الدنيا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿هُمْ لَمْ تَكُنْ فَتَنَتُهُمْ﴾ قال: معذرتهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه ﴿هُمْ لَمْ تَكُنْ فَتَنَتُهُمْ﴾ قال: حجبتهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَابْنُ اللَّهِ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يعني: المنافقين والمشركين قالوا وهم في النار: هلم فلنكتب فلعلة أن ينفعنا، فقال الله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ فِي الْقِيَامَةِ﴾ ما كانوا يفترون. يكنون في الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه في قوله: ﴿وَابْنُ اللَّهِ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 42] قال بجوارحهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ قال: باعتذارهم الباطل ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال: ما كانوا يشركون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ قال: قريش، وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ قال: كالجبعة للنبيل. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال: يسمعون بآذانهم ولا يعون منه شيئاً، كمثل البهيمة التي لا تسمع النداء ولا تدري ما يقال لها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي قال: الغطاء أكن قلوبهم أن يفقهوه، والوقر الصمم، و﴿إِسْطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾ أساجيع الأولين. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: إساطير الأولين: أحاديث الأولين. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: أساطير الأولين: كذب الأولين وباطلهم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَتَأَوَّلُونَ عَنْهُ﴾ قال: نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يردوا رسول الله ﷺ، ويتباعوا عما جاء به. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن القاسم بن مخرمة نحوه. وأخرج ابن جرير عن عطاء

غاية له ﴿قالوا يا حسرتنا﴾ هذا جواب إذا جاءتهم أوقعوا النداء على الحسرة، وليست بمنادى في الحقيقة ليدل ذلك على كثرة تحسرههم. والمعنى: يا حسرتنا احضري، فهذا أوانك، كذا قال سيبيويه في هذا النداء وأمثاله، كقولهم يا للعجب ويا للرجل؛ وقيل: هو تنبيه للناس على عظم ما يحل بهم من الحسرة، كأنهم قالوا: يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة، والحسرة: الندم الشديد ﴿على ما فرطنا فيها﴾ أي: على تفريطنا في الساعة: أي في الاعتداد لها، والاحتفال بشأنها، والتصديق بها. ومعنى فرطنا ضيعنا، وأصله التقصم، يقال فرط فلان: أي تقصم وسبق إلى الماء، ومنه قوله ﷺ: وأنا فرطكم على الحوض، ومنه الفارط: أي المتقدم فكانهم أرادوا بقولهم: ﴿على ما فرطنا﴾ أي: على ما قدمنا من عجزنا عن التصديق بالساعة والاعتداد لها، وقال ابن جرير الطبري: إن الضمير في فرطنا فيها يرجع إلى الصفة، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر، والندب بالآخرة ﴿قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا﴾ في صفقتنا، وإن لم تذكر في الكلام، فهو دالٌ عليها؛ لأن الخسران لا يكون إلا في صفقة؛ وقيل الضمير راجع إلى الحياة: أي على ما فرطنا في حيلتنا. قوله: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ هذه الجملة حالية: أي يقولون تلك المقالة، والحال أنهم: ﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ أي: ننوبهم، جمع وزر: يقال: وزر يزر، فهو وزر وموزور، وأصله من الوزر. قال أبو عبيدة: يقال للرجال إذا بسط ثوبه، فجعل فيه المتاع: أحمل وزرك: أي ثقلك، ومنه الوزير، لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية. والمعنى: أنها لزمتهم الأثام فصاروا مثقلين بها، وجعلها محمولة على الظهور تمثيل ﴿الأساء ما يزرُونَ﴾ أي: بئس ما يحملون. قوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ أي: وما متاع الدنيا إلا لعب ولهو على تقدير حذف مضاف، أو ما الدنيا من حيث هي، إلا لعب ولهو. والقصد بالآية تكذيب الكفار في قولهم: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾، واللعب معروف، وكذلك اللهو، وكل ما يشغلك فقد الهاك؛ وقيل: أصله الصرف عن الشيء. ورد بان اللهو بمعنى الصرف لأمه ياء، يقال لهيت عنه، ولأم اللهو واو، يقال لهوت بكذا ﴿واللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا: أي هي خير الذين يتقون الشرك والمعاصي، أفلا تعقلون ذلك. قرأ ابن عامر ﴿والدار الآخرة﴾ بلام واحدة، وبالإضافة وقرأ الجمهور باللام التي للتعريف معها، وجعل الآخرة نعتاً لها والخبر خير، وقرئ تعقلون بالفوقية والتحتية. قوله: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ هذا اللام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما ناله من الغم والحزن بتكذيب الكفار له. وبخول قد للتكثير، فإنها قد تأتي لإفادته كما تأتي رب والضمير في ﴿إنه﴾ للشأن، وقرئ بفتح الياء من يحزنك وضمها. وقرئ ﴿يكنبونك﴾ مشدداً ومخففاً، واختار

أبو عبيد قراءة التخفيف. قال النحاس: وقد خولف أبو عبيد في هذا. ومعنى ﴿يكنبونك﴾ على التشديد: ينسبونك إلى الكذب ويرنون عليك ما قلت. ومعنى المخفف: أنهم لا يجنونك كذاباً، يقال أكنبته: وجبته كذاباً، وأبخلته: وجبته بخيلاً. وحكى الكسائي عن العرب: أكنبت الرجل: أخبرت أنه جاء بالكذب، وكُنِبْتِه: أخبرت أنه كاذب. وقال الزجاج: كُنِبْتِه إذا قلت له كُنِبْت، وأكنبته: إذا أردت أن ما أتى به كذب. والمعنى: أن تكذيبهم ليس يرجع إليك، فإنهم يعترفون لك بالصدق، ولكن تكذيبهم راجع إلى ما جئت به، ولهذا قال: ﴿ولكن الظالمين بأيات الله يجحدون﴾ ووضع الظاهر موضع المضمهر لزيادة التوبيخ لهم، والإزاء عليهم، ووصفهم بالظلم لبيان أن هذا الذي وقع منهم ظلٌ أبين. قوله: ﴿ولقد كُذِّبَ رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبُوا وأوؤوا حتى اتاهم نصرنا﴾ هذا من جملة التسلية لرسول الله ﷺ: أي أن هذا الذي وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأوّل ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك، فاقتد بهم ولا تحزن واصبر كما صبروا على ما كُذِّبُوا به، وأوؤوا، حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم فإننا لا نخلف الميعاد ﴿ولكل أجل كتاب﴾ [الرعد: 38] ﴿إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾ [غافر: 51] ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعباننا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جنننا لهم الغالبون﴾ [الصافات: 171 - 173] ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المائدة: 21] ﴿ولا تبدل لكلمات الله﴾ بل وعده كائن، وأنت منصور على المكذبين، ظاهر عليهم. وقد كان ذلك لله الحمد. ﴿ولقد جاءك من نبا المرسلين﴾ ما جاءك من تجزي قومهم عليهم في الابتداء، وتكذيبهم لهم، ثم نصرهم عليهم في الانتهاء، وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك كعاقبة المكذبين للرسول، فيرجعون إليك ويخلون في الدين الذي تدعوهم إليه طوعاً أو كرهاً. قوله: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم﴾، كان النبي ﷺ يكبر عليه إعراض قومهم، ويتعاضمه، ويحزن له، فبين له الله سبحانه أن هذا الذي وقع منهم من توليهم عن الإجابة له، والإعراض عما دعا إليه، هو كائن لا محالة لما سبق في علم الله عز وجل، وليس في استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يائس الله بذلك، ثم علق ذلك بما هو محال، فقال ﴿فإن استطعت أن تتبغي نفعاً في الأرض﴾ فتأتيهم بآية منه ﴿أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية﴾ منها فافعل، ولكنك لا تستطيع ذلك فدع الحزن - ﴿ولا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ [فاطر: 8] و﴿لست عليهم بمسيطر﴾ [الغاشية: 22] والنفق: السرب والمنفذ، ومنه النافقاء لجرير اليربوع، ومنه المنافق. وقد تقدم في البقرة ما يغني عن الإعادة. والسلم: الدرج الذي يرتقي عليه، وهو منكر لا يؤنث، وقال الفراء: إنه يؤنث. قال الزجاج: وهو مشتق من السلامة، لأنه يسلك به إلى موضع الأمن؛ وقيل: إن الخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فالمراد به أمته،

جريح مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات، عن ابن عباس قال: ﴿فإن استطعت أن تبتغي نقفاً في الأرض﴾ والنفق: السرب، فتذهب فيه فتأتيهم بأية، أو تجعل لهم سلماً في السماء فتصعد عليه ﴿فتأتيهم بأية﴾ أفضل مما أتياهم به، فافعل ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ يقول سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿نفقاً في الأرض﴾ قال: سرباً ﴿أو سلماً في السماء﴾ قال: يعني الدرج. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن في قوله: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ قال: المؤمنون ﴿والموتى﴾ قال: الكفار. وأخرج هؤلاء عن مجاهد مثله.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ دَاوَتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُنْثَاكُمْ مَا نَرَاكُمْ فِي الْكِتَابِ مِنْ قَوْمٍ ثُمَّ إِلَيْكُمْ يُحْشَرُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُمْ وَنَكَمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَكْفُرْ اللَّهُ يُعَذِّبْهُ وَمَنْ يُنِصِّلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صَرْحٍ مُسْتَوِيرٍ ﴿١٩﴾

هذا كان منهم تعنتاً ومكابرة، حيث لم يقتنوا بما قد أنزل الله على رسوله من الآيات البينات التي من جملتها القرآن، وقد علموا أنهم قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثله، ومرادهم بالآية هنا: هي التي تضطرهم إلى الإيمان كنزول الملائكة بمرأى منهم ومسمع، أو تنق الجبل كما وقع لبني إسرائيل، فأمره الله سبحانه أن يجيبهم بأن الله قادر على أن ينزل على رسوله أية تضطرهم إلى الإيمان، ولكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التكليف الذي هو الابتلاء والامتحان، وأيضاً لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولها بل سيعالجهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا. قال الزجاج: طلبوا أن يجمعهم على الهدى، يعني جمع إلقاء ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الله قادر على ذلك، وأنه تركه لحكمة بالغة لا تبليها عقولهم. قوله: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ الدابة من دب يدب فهو داب: إذا مشى مشياً فيه تقارب خطو. وقد تقدم بيان ذلك في البقرة ﴿ولا طائر﴾ معطوف على ﴿دابة﴾ مجرور في قراءة الجمهور. وقرأ الحسن وعبد الله بن أبي إسحاق ﴿ولا طائر﴾ بالرفع عطفاً على موضع من دابة على تقدير زيادة من، و﴿بجناحيه﴾ لرفع الإبهام؛ لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطائر كقولهم: طر في حاجتي: أي أسرع؛ وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ومع عم الاعتدال يميل، فاعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين؛ وقيل: نكر الجناحين للتأكيد كضرب بيده وأبصر بعينه ونحو ذلك. والجناح: أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء، وأصله الميل إلى ناحية من النواحي.

لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرد الكفرة وتصميمهم على كفرهم، ولا يشعرون أن الله سبحانه في تلك حكمة، لا تبليها العقول، ولا تتركها الأفهام، فإن الله سبحانه لو جاء لرسوله ﴿بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذي هو الابتلاء والامتحان معنى، ولهذا قال: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ جمع إلقاء وقسر، ولكنه لم يشأ ذلك، والله الحكمة البالغة ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ فإن شدة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأن الله بذلك هو صنيع أهل الجهل، ولست منهم، فدع الأمور مفوضة إلى عالم الغيب والشهادة، فهو أعلم بما فيه المصلحة، ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التي لو بدا لهم بعضها، لكن إيمانهم بها اضطراراً ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ أي: إنما يستجيب لك إلى ما تدعو إليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول وتوجبها الأفهام، هؤلاء ليسوا كذلك، بل هم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يعقلون لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة، وفي آذانهم من الوقر، ولهذا قال ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعاً لا يفهمون الصواب، ولا يعقلون الحق: أي أن هؤلاء لا يلجئهم الله إلى الإيمان وإن كان قادراً على ذلك، كما يقدر على بعث الموتى للحساب ﴿ثم إليه يرجعون﴾ إلى الجزاء فيجازي كلا بما يليق به كما تقتضيه حكمة البالغة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا﴾ قال: الحسرة الندامة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني وأبو الشيخ، وابن مريويه، والخطيب بسند صحيح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿يَا حَسْرَتُنَا﴾ قال: الحسرة أن يري أهل النار منازلهم من الجنة، فتلك الحسرة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ألا ساء ما يزرعون﴾ قال: ما يعملون. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿لعب ولهو﴾ قال: كل لعب: لهو. وأخرج القرطبي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والحاكم وصححه، والضياء في المختارة، عن علي بن أبي طالب، قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكتب بما جئت به، فانزل الله: ﴿فإنهم لا يكتبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي يزيد المنني، أن أبا جهل قال: والله إني لأعلم أنه صادق، ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف؟ وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مريويه، عن أبي ميسرة، نحو رواية علي بن أبي طالب. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ قال: يعلمون أنك رسول الله ويجحدون. وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾ قال: يعزّي نبيه ﷺ. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن

قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في ظلمات الكفر، والجهل والحيرة، لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم. والمعنى: كائنين في الظلمات التي تمنع من إحصار المبصرات، وضموا إلى الصمم، والبكم، عدم الانتفاع بالابصار لتراكم الظلمة عليهم، فكانت حواسهم كالمسلوبة التي لا ينتفع بها بحال، وقد تَقَمَّتْ في البقرة تحقيق المقام بما يغني عن الإعادة، ثم بين سبحانه أن الأمر بيده ما شاء يفعل، من شاء تعالى أن يضلّه أضله، ومن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم، لا يذهب به إلى غير الحق. ولا يمشي فيه إلا إلى صوب الاستقامة.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في قوله: ﴿إِلَّا أَمْرُ امْتَالِكُمْ﴾ قال: أصنافاً مصنفة تعرف بأسمائها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: قال: خلق أمثالك. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريح في الآية قال: الذرة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من اللواب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس ﴿مَا فَرَطْنَا فِي لِكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ما تركنا شيئاً إلا وقد كتبناه في أم الكتاب. وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يَحْشُرُونَ﴾ قال: موت البهائم حشرها، وفي لفظ قال: يعني بالحشر الموت. وأخرج عبد الرزاق، وأبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: «ما من دابة ولا طائر إلا سيحشر يوم القيامة، ثم يقتص لبعضها من بعض، حتى يقتص لبعضها من بعض، حتى يقتص للجلحاء من ذات القرن، ثم يقال لها كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: «يا ليتني كنت تراباً» [النبأ: 40] وإن شئتُمْ فاقروا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن أبي نر: قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال لي: «يا أبا نر أندري فيم انتطحتا؟ قلت: لا قال: لكن الله يلدي وسيقضي بينهما» قال أبو نر: ولقد تركنا رسول الله ﷺ، وما يقبل طائر جناحيه في السماء ولا نكرنا منه علماً. وأخرجه أيضاً أحمد، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لَتَوَلَّنَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءُ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءُ».

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ بَلْ يَأْتِي تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَاهْتَدَوْا بِإِلْسَانِهِ وَأَنْصَرُوا لِعَلَمِهِ فَبُغِضُوا ﴿١٧﴾ فَلَوْلَا إِجَادَتُهُمْ بِأَسَانٍ تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُعُوا بَوْ، فَخَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَنَةً إِذَا هُمْ

والمعنى: ما من دابة من اللواب التي تدب في أي مكان من أمكنة الأرض، ولا طائر يطير في أي ناحية من نواحيها ﴿إِلَّا أَمْرُ امْتَالِكُمْ﴾ أي: جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم، ورزقهم كما رزقكم داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شيء؛ وقيل: ﴿امْتَالِنَا﴾ في نكر الله والدلالة عليه؛ وقيل: ﴿امْتَالِنَا﴾ في كونهم محشورين، روى ذلك عن أبي هريرة. وقال سفيان بن عيينة أي: ما من صنف من اللواب والطير إلا في الناس شبه منه، فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشبه كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهر كالطائوس؛ وقيل: ﴿امْتَالِكُمْ﴾ في أن لها أسماء تعرف بها. وقال الزجاج ﴿امْتَالِكُمْ﴾ في الخلق والرزق، والموت، والبعث، والاقتصاص. والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائناً ما كان. قوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما أغفلنا عنه ولا ضيعنا فيه من شيء. والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، فإن الله أثبت فيه جميع الحوادث؛ وقيل إن المراد به القرآن: أي ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدين إما تفصيلاً أو إجمالاً، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، ومن جملة ما أجمله في الكتاب العزيز قوله: ﴿مَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] فأمر في هذه الآية باتباع ما سنه رسول الله ﷺ، فكل حكم سنه الرسول لأمره قد نكوه الله سبحانه في كتابه العزيز، بهذه الآية وينحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: 31] ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]، «ومن» في «من شيء» مزيدة للإستغراق. قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يَحْشُرُونَ﴾ يعني: الأمم المذكورة، وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم، وقد ذهب إلى هذا من العلماء، ومنهم أبو نر، وأبو هريرة، والحسن، وغيرهم. وذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها، وبه قال الضحاك. والأول: أرجح للآية، ولما صرح في السنة المطهرة من أنه يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، ولقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: 5]؛ وذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر: المذكور في الآية: حشر الكفار، وما تخلل كلام معترض. قالوا: وأما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص. واستلوا أيضاً بأن في هذا الحديث خارج الصحيح عن بعض الرواة زيادة، ولفظه حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء، وللحجر لم ركب على الحجر؟ والعود لم خدش العود؟ قالوا: والجمادات لا يعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها. قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صَمٌّ وَبِكُمٍّ﴾ أي: لا يسمعون بأسماعهم ولا ينطقون بالسنتهم، نزلهم منزلة من لا يسمع ولا ينطق، لعدم قبولهم لما ينبغي قبوله من الحجج الواضحة والدلائل الصحيحة. وقال أبو علي: يجوز أن يكون صممهم وبكمهم في الآخرة.

ثُمَّ يَرْجِعُونَ ﴿١٦﴾ نَفْعَ دَابِّ الْفَوْرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَكِنْ يَرْجِعُونَ إِلَى رَبِّكَ ﴿١٧﴾

قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ الكاف والميم عند البصريين للخطاب، ولا حظ لهما في الإعراب، وهو اختيار الزجاج. وقال الكسائي والفراء وغيرهما: إن الكاف والميم في محل نصب بوقوع الرؤية عليهما. والمعنى: أرايتم أنفسكم. قال في الكشف مرجحاً للمذهب الأول: إنه لا محل للضمير الثاني، يعني الكاف من الإعراب، لأنك تقول: أرايتك زيدا ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلاً لكنت كأنك تقول: أرايت نفسك زيدا ما شأنه، وهو خلف من القول انتهى. والمعنى: أخبروني ﴿إِنْ تَأْتِكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ كما أتى غيركم من الأمم ﴿أَوْ تَتَكَّمُ لِلَّسَاعَةِ﴾ أي: القيامة ﴿أَغْيِرِ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ هذا على طريقة التبكيت والتوبيخ: أي تدعون غير الله في هذه الحالة من الأصنام التي تعبثونها، أم تدعون الله سبحانه. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تأكيد لذلك التوبيخ: أي أغير الله من الأصنام تدعون إن كنتم صادقين أن أصنامكم تضر وتنفع، وإنها آلهة كما تزعمون. قوله: ﴿يَبْلُغُ إِلَهُكُمْ تَدْعُونَ﴾ معطوف على منفى مقدر أي: لا تدعون غيره، بل إياه تخصصون بالدعاء ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: فيكشف عنكم ما تدعونه إلى كشفه إن شاء أن يكشفه عنكم لا إذا لم يشأ ذلك. قوله: ﴿وَتَتَسَوَّنَ مَا تَشْرِكُونَ﴾ أي: وتنتسبون عند أن يأتاكم العذاب ما تشركون به تعالى: أي ما تجعلونه شريكاً له من الأصنام ونحوها فلا تدعونها، ولا ترجون كشف ما بكم منها، بل تعرضون عنها إعراض الناس. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: وتتركون ما تشركون. قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسلية النبي ﷺ: أي ولقد أرسلنا إلى أمم كائنة من قبلك رسلاً فكذبوهم ﴿فَاخْتَنَاهُمْ بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أي: البؤس والضَّرَّ وقيل: البأساء المصائب في الأموال، والضراء المصائب في الأبدان، وبه قال الأكثر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يدعون الله بضراعة، مأخوذ من الضراعة وهي الذل، يقال: ضرع فهو ضارع، ومنه قول الشاعر:

لبيك يزيد ضارع لخصومة ومختبم مما تطيح الطوائح
قوله: ﴿فَقُلُوا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي: فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا لكنهم لم يتضرعوا، وهذا عتاب لهم على ترك الدعاء في كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدة تمردهم وغلوهم في الكفر، ويجوز أن يكون المعنى أنهم تضرعوا عند أن نزل بهم العذاب، وذلك تضرع ضروري لم يصدر عن إخلاص، فهو غير نافع لصاحبه، والأول أولى، كما يدل عليه ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي صلبت وغلظت ﴿وَوُضِعَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أغواهم بالتصميم على الكفر والاستمرار على المعاصي، قوله: ﴿فَقُلُوا نَسُوا مَا نُكْرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا ما نكروا به، أو أعرضوا عما نكروا به، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به، إذ ليس هو من فعلهم، وبه قال ابن عباس، وابن جريج، وأبو علي الفارسي. والمعنى: أنهم لما تركوا الاعتناظ

بما نكروا به من البأساء والضراء وأعرضوا عن ذلك ﴿فَتَحْنُوا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لما نسوا ما نكروا به استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخير على أنواعه فرح بطر وأشر وأعجبوا بذلك وظنوا أنهم إنما أعطوه لكون كفرهم الذي هم عليه حقاً وصواباً ﴿لَخَنَّاهُمْ بِغْتَةٍ﴾ أي: فجأة وهم غير مترقبين لذلك والبغته: الأخذ على غرة من غير تقنئة أمانة، وهي مصدر في موضع الحال، لا يقاس عليها عند سيبويه. قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مَبْلُسُونَ﴾ المبلس: الحزين الأيس من الخير لشدة ما نزل به من سوء الحال، ومن ذلك اشتق اسم إبليس، يقال إبلس الرجل إذا سكت، وأبلس للناقة إذا لم ترع. قال العجاج:

صاح هل تعرف رسماً مكرساً قال نعم أعرفه وأبلساً
أي: تحير لهول ما رأى، والمعنى: فإذا هم محزونون متحيزون آيسون من الفرح. قوله: ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الدابر الآخر، يقال دبر القوم يدبرهم دبراً: إذا كان آخرهم في المجيء، والمعنى: أنه قطع آخرهم: أي استؤصلوا جميعاً حتى آخرهم. قال قطرب: يعني أنهم استؤصلوا واهلكوا. قال أمية بن أبي الصلت:

فاهلكوا بعذاب حص دابريهم فما استطاعوا له صرفاً ولا انتصروا
ومنه التعبير: لأنه أحكام عواقب الأمور. قوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على هلاكهم، وفيه تعليم للمؤمنين كيف يحملونه سبحانه عند نزول النعم التي من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، فإنهم أشد على عباد الله من كل شديد، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين، واقطع دابرهم، وأبليسهم بالعدل الشامل لهم.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿فَاخْتَنَاهُمْ بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ قال: خوف السلطان وغلاء السعر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقُلُوا نَسُوا مَا نُكْرُوا بِهِ﴾ قال: يعني تركوا ما نكروا به. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج: ﴿فَقُلُوا نَسُوا مَا نُكْرُوا بِهِ﴾ قال: ما دعاهم الله إليه ورسله، أبوه ورسوله عليهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿فَتَحْنُوا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: رخاء الدنيا ويسرها. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي، في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ قال: من الرزق ﴿لَخَنَّاهُمْ بِغْتَةٍ﴾ فإذا هم مبلسون. قال: مهلكون متغير حالهم ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقول: فقطع أصل الذين ظلموا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن محمد بن النضر الحارثي في قوله: ﴿لَخَنَّاهُمْ بِغْتَةٍ﴾ قال: أمهلوا عشرين سنة، ولا يخفي أن هذا مخالف لمعنى البغته

إليه، ﴿فلا خوف عليهم﴾ بوجه من الوجوه ﴿ولا هم يحزنون﴾ بحال من الأحوال، هذا حال من آمن وأصلح، وأما حال المكذبين فهو أنه يمسهم العذاب بسبب فسقهم: أي خروجهم عن التصديق والطاعة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿يصدفون﴾ قال: يعملون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: ﴿يصدفون﴾ قال: يعرضون، وقال في قوله: ﴿قل أريتكم إن تأتكم عذاب الله بفتة﴾ قال: فجأة أمين، أو جهرة، قال: وهم ينظرون. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: كل فسق في القرآن فمعناه الكذب.

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا سَعِيٌّ لَهُمْ يُتْلُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْغَدِيِّ يُرِيدُونَ رَبَّهُمْ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْرَأَهُمْ تُنْكِرُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ لِيَسْلَمَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّائِكِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَذَّبَكُمْ عَنْ نَفْسِهِمْ أَلَرَأَيْتُمْ أَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِ لَكُمْ عَلَيْهِمْ كَذَّبُوا عَنْكُمْ وَأَنذَرْتُمْ بِهِمْ وَكَلَّمْتُمْ بِهِمْ لِيُظْهِرَ مَا فِي آلَتِهِمْ لِيُجِيبُوا أَعْيُنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَلِيُنْذِرَ أُمَّمَاتَهُمْ لِيَكُونَ لَهُمْ عِلَافٌ وَفَصْلٌ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥٤﴾

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه، وتعننتهم بإنزال الآيات التي تضطربهم إلى الإيمان، أنه لم يكن عنده خزائن التي تشتمل على كل شيء من الأشياء والمراد خزائن قدرته التي تشتمل على كل شيء من الأشياء ويقول لهم: إنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم به ويعرفهم بما سيكون في مستقبل الدهر ﴿ولا أقول لكم إنني ملك﴾ حتى تكلفوني من الأفعال الخارقة للعادة ما لا يطيقه البشر، وليس في هذا ما يدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء. وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم، ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا نبيوية. بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ﴿إن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي: ما أتبع إلا ما يوحى الله إلي، وقد تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء عملاً بما يفيد القصر في هذه الآية، والمسألة مبنية في الأصول والآلة عليها معروفة. وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «أوتيت القرآن ومثله معه»، ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ هذا الاستفهام للإنكار، والمراد: أنه لا يستوي الضال والمهتدي، أو المسلم الكافر أو من اتبع ما أوحى إليه ومن لم يتبعه، والكلام تمثيل: ﴿أفلا تتفكرون﴾ في ذلك حتى تعرفوا عدم الاستواء بينهما، فإنه بين لا يلتبس على

لغة ومحتاج إلى نقل عن الشارح، وإلا فهو كلام لا طائل تحته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد قال: المبلس المجهود المكروب الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه، والمبلس أشد من المستكين، وفي قوله: ﴿فقطط دابر القوم الذين ظلموا﴾ قال: استوصلوا.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمَكَكُمْ وَأَصْرَكُمْ وَحَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدُونَ ﴿٥٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ مَنْ آمَنَ وَآمَنَّا وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُسَمُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٨﴾

هذا تكرير للتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم، ووجد السمع لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر، ولهذا جمعه، والختم: الطبع، وقد تقدم تحقيقه في البقرة، والمراد: أخذ المعاني القائمة بهذه الجوارح أو أخذ الجوارح نفسها، والاستفهام في «من إله غير الله ياتيكم به» للتوبيخ، «ومن» مبتدأ، وإله» خبره، و«غير الله» صفة للخبر، ووجد الضمير في «به» مع أن المرجع متعدد على معنى: فمن ياتيكم بذلك المأخوذ أو المنكور، وقيل: الضمير راجع إلى أحد هذه المنكورات وقيل إن الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أي ياتيكم بذلك المنكور، ثم أمر رسول الله ﷺ بالنظر في تصريف الآيات، وعدم قبولهم لها تعجباً له من ذلك، والتصريف المجيء بها على جهات مختلفة، تارة إنذار وتارة إغذار، وتارة ترغيب، وتارة ترهيب، وقوله: ﴿ثم هم يصدفون﴾ عطف على نصرف، ومعنى يصدفون: يعرضون، يقال: صدف عن الشيء: إذا عرض عنه صدفاً وصدفوا. قوله: ﴿قل أريتكم إن تأتكم عذاب الله﴾ أي: أخبروني عن ذلك، وقد تقدم تفسير البغته قريباً أنها المفاجأة. قال الكسائي: بغتهم يبيغتهم بغتاً وبغته: إذا أتاهم فجأة أي: من لون تقويم مقدمات تدل على العذاب، والجهرة أن يأتي العذاب بعد ظهور مقدمات تدل عليه؛ وقيل البغته: إتيان العذاب ليلاً والجهرة: إتيان العذاب نهاراً كما في قوله تعالى: ﴿بياتاً أو نهاراً﴾ [يونس: 50]. ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الاستفهام للتقرير: أي ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا القوم الظالمون. وقرئ «يهلك» على البناء للفاعل. قال الزجاج: معناه هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم؟ انتهى. قوله: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ كلام مبتدأ؛ لبيان الغرض من إرسال الرسل: أي مبشرين لمن أطاعهم بما أعد الله له من الأجزاء العظيمة، ومنذرين لمن عصاهم بما له عنده الله من العذاب الويليل؛ وقيل: مبشرين في الدنيا بسعة الرزق وفي الآخرة بالثواب، ومنذرين مخوفين بالعقاب، وهما حالان مقدرتان: أي ما نرسلهم إلا مقترنين تبشيرهم وإنذارهم ﴿فمن آمن وأصلح﴾ أي: آمن بما جاءت به الرسل ﴿وأصلح﴾ حال نفسه بفعل ما يدعوته

من له أننى عقل، وأقلّ تفكر. قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ الإنذار: الإعلام، والضمير في به راجع إلى ما يوحى؛ وقيل إلى الله؛ وقيل إلى اليوم الآخر. وخص الذين يخافون أن يحشروا، لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حلّ بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به وإنكاره له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك. قيل ومعنى يخافون: يعلمون ويتيقنون أنهم محشورون، فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين، وأهل الذمة، وبعض المشركين؛ وقيل: معنى الخوف على حقيقته، والمعنى: أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبي ﷺ ينكره، وإن لم يكن مصيباً به في الأصل، لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبي ﷺ، فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع. قوله: ﴿وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الجملة في محل نصب على الحال: أي أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولي لهم يوالِيهم ولا نصير يناصرهم، ولا شفيع يشفع لهم من دُون الله، وفيه ردّ على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم، وهم أهل الكتاب، أو أن أصنامهم تشفع لهم، وهم المشركون. قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الدعاء العبادة مطلقاً؛ وقيل: المحافظة على صلاة الجماعة؛ وقيل: الذكر وقراءة القرآن؛ وقيل: المراد الدعاء لله بجلب النفع وبغض الضرر. قيل: والمراد بذكر الغداة والعشيّ الدوام على ذلك والاستمرار؛ وقيل: هو على ظاهره، و﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ في محل نصب على الحال. والمعنى: أنهم مخلصون في عبادتهم لا يريدون بذلك إلا وجه الله تعالى: أي يتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره. قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ هذا كلام معترض بين النهي وجوابه متضمن لنفي الحامل على الطرد: أي حساب هؤلاء الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسهم ما عليك منه شيء، وحسابك على نفسك ما عليهم منه شيء فعلام تطردهم؟ هذا على فرض صحة وصف من وصفهم بقوله: ﴿مَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ﴾ إلا الذين هم أرائلنا [هود: 27] وطعن عنك في دينهم وحسبهم، فكيف وقد زكاهم الله عزّ وجلّ بالعبادة والإخلاص، وهذا هو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164] وقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: 39]. وقوله: ﴿إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ [الشعراء: 113]. قوله: ﴿فَتَطْرُدْهُمْ﴾ جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهو من تمام الاعتراض: أي إذا كان الأمر كذلك فاقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل، ومن في ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ للتبعض، والثانية للتوكيد. وكذا في ﴿مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، قوله: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب للنهي

أعني ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: فإن فعلت ذلك كنت من الظالمين، وحاشاه عن وقوع ذلك. وإنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره ﷺ من أهل الإسلام، كقوله تعالى: ﴿لَنْ أَشْرَكَ لِحُبُلُنْ عَمَلِكُ﴾ [الزمر: 65]. وقيل: إن ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ معطوف على «فقطردهم» على طريق التسبب، والأول أولى. قوله: ﴿وَكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ أي: مثل تلك الفتن العظيمة فتنا بعض الناس ببعض، والفتنة الاختبار: أي عاملناهم معاملة المختبرين، واللام في ﴿ليقولوا﴾ للعاقبة: أي ليقول البعض الأول مشيرين إلى البعض الثاني ﴿أهلؤلاء﴾ الذين ﴿من الله عليهم من بيننا﴾ أي: أكرمهم بإصابة الحق بوننا. قال للنحاس: وهذا من المشكل، لأنه يقال كيف فتنوا ليقولوا هذا القول وهو إن كان على طريقة الإنكار كفر، وأجاب بجوابين: الأول: أن ذلك واقع منهم على طريقة الاستفهام لا على سبيل الإنكار؛ والثاني: أنهم لما اختبروا بهذا كان عاقبته هذا القوم منهم كقوله: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصاص: 8]. قوله: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ هذا الاستفهام للتقرير. والمعنى: أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر، وهو أعلم بالشاكرين له، فما بالك تعترضون بالجهل وتكثرون الفضل. قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ هم الذين نهاه الله عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين، كما سيأتي بيانه: ﴿فقل سلام عليكم﴾ أمره الله بأن يقول لهم هذا القول تطبيقاً لخواطرم، وإكراماً لهم. والسلام، والسلامة: بمعنى واحد، فمعنى سلام عليكم: سلمكم الله. وقد كان النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام؛ وقيل: إن هذا السلام هو من جهة الله: أي أبلغهم منا السلام. قوله: ﴿وكتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أي: أوجب ذلك إيجاب فضل وإحسان؛ وقيل: كتب ذلك في اللوح المحفوظ. قيل: هذا من جملة ما أمره الله سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم تبشيراً بسعة مغفرة الله، وعظيم رحمته. قوله: ﴿إِنْ مِنْكُمْ سَوَاءٌ بِجَهَالَةٍ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، ونافع بفتح أن من أنه، وقرأ الباقر بكسرها. فعلى القراءة الأولى: تكون هذه الجملة بدلاً من الرحمة: أي كتب ربكم على نفسه أنه من عمل إلى آخره. وعلى القراءة الثانية: تكون هذه الجملة مفسرة للرحمة بطريق الاستئناف وموضع بجهالة النصب على الحال: أي عمله وهو جاهل. قيل: والمعنى أنه فعل فعل الجاهلين؛ لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة مع علمه بذلك أو ظنه، فقد فعل فعل أهل الجهل، والسفه، لا فعل أهل الحكمة، والتدبير؛ وقيل المعنى: أنه عمل ذلك وهو جاهل لما يتعلق به من المضرة، فتكون فائدة التقييد بالجهالة الإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدي إلى الضرر. قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد عمله ﴿وواصلح﴾ ما أقسده بالمعصية، فراجع الصواب وعمل الطاعة ﴿فإنه غفور رحيم﴾. قرأ ابن عامر،

بدهر. وأخرج مسلم والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم، عن سعد بن أبي وقاص قال: لقد نزلت هذه الآية في ستة: أنا وعبد الله بن مسعود، وبلال، ورجل من هذيل، ورجلان لست أسميهما، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾. وقد روي في بيان السبب روايات موافقة لما ذكرنا في المعنى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال: يعني الصلاة المكتوبة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: الصلاة المكتوبة الصبح والعصر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن إبراهيم النخعي في الآية قال: هم أهل النكر لا تطردهم عن النكر. قال سفيان: أي أهل الفقه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ يعني: أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء، فقال الأغنياء للفقراء ﴿أَهؤلاء مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعني: هؤلاء هدامهم الله، وإنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿أَهؤلاء الَّذِينَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: لو كان لهم كرامة على الله ما أصابهم هذا الجهد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ماها ن قال: أتى قوم النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا نؤبأ عظأما فما ردَّ عليهم شيئاً فانصرفوا، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ الآية، فدعاهم فقرأها عليهم. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، قال: أخبرت أن قوله: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ كانوا إذا دخلوا على النبي ﷺ يدهم بالسلام، فقال ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وإذا لقاهم فكذلك أيضاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَكذلك فَتَنَّا الْآيَاتِ﴾ قال: نبين الآيات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمَجْرَمِينَ﴾ قال: الذين يأمرؤك بطرد هؤلاء.

قُلْ إِنِّي نَبِيٌّ أَنْ أَعْبُدَ إِلَهِكَ مُتَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَوْلَاؤُكُمْ قَدْ خَلَقْتُكُمْ إِذَا مَا أَنَا مِنْ الْفَنَيْنِ ﴿٦١﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتَهُ يَوْمَ مَا عِندِيَ مَا قَسَمْتُمْ لَهُمْ إِنِ الْكُفْرُ إِلَّا بِقِيَاسِ الْحَقِّ وَمَوْ سَيَّرَ الْفَنَيْنِ ﴿٦٢﴾ قُلْ لَأَنْ عِندِيَ مَا قَسَمْتُمْ لَهُمْ لَقَوَى الْأَمْرِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُ الْأَعْيُنِ ﴿٦٣﴾ وَنَضِدُّ مَقَالَتِ النَّبِيِّ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَسَيَّرَ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا قَسَمْتُ مِنْ رَزَقٍ إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَمَرٌ وَلَا يَكُنِ إِلَّا فِي كِتَابِ تُبَيِّنِ ﴿٦٤﴾

قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ﴾ أمره الله سبحانه أن يعوذ إلى مخاطبة الكفار ويخبرهم بأنه نهى عن عبادة ما يدعون ويعيبنوه من دون الله أي: نهى الله عن ذلك وصرفه وزجره، ثم أمره سبحانه بأن يقول لهم: ﴿لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ﴾ أي: لا أسلك المسلك الذي سلكتموه في دينكم، من اتباع الأهواء

وعاصم، يفتح الهمزة من «فإنه»، وقرأ الباقون بالكسر. فعلى القراءة الأولى تكون أن وما بعدها خبر مبتدأ محذوف: أي فأمره أن الله غفور رحيم، وهذا اختيار سيبويه، واختار أبو حاتم أن الجملة في محل رفع على الابتداء، والخبر مضمّر، كأنه قيل: فله «أنه غفور رحيم» قال: لأن المبتدأ هو ما بعد الفاء. وأما على القراءة الثانية: فالجملة مستأنفة. قوله: «وكنذك تفصل الآيات» أي: مثل ذلك التفصيل نفصلها، والتفصيل التبيين، والمعنى: أن الله فصل لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، وبين لهم حكم كل طائفة. قوله: «ولتستبين سبيل المجرمين». قال الكوفيون: هو معطوف على مقدّر: أي وكنذك تفصل الآيات لنبيين لكم، ولتستبين قال للنحاس: وهذا الحذف لا يحتاج إليه. وقيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى: قرئ «لتستبين» بالفوقية والتحتية، فالخطاب على الفوقية للنبي ﷺ أي لتستبين يا محمد سبيل المجرمين، وسبيل منصوب على قراءة نافع. وأما على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص بالرفع، فالفعل مسند إلى سبيل وأما على التحتية فالفعل مسند إلى سبيل أيضاً، وهي قراءة حمزة والكسائي وشعبة بالرفع، وإذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَقُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ قال: الأعمى الكافر، الذي عمي عن حق الله وأمره ونعمه عليه، والبصير: العبد المؤمن، الذي أبصر بصرًا نافعاً فوحده الله وحده، وعمل بطاعة ربه، وانتفع بما آتاه الله. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، عن عبد الله بن مسعود: قال مرّ الملأ من قريش على النبي ﷺ، وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ﴿أَهْوَاءَ مَنْ أَتَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَانَا﴾ أئحْن نكون تبعاً لهؤلاء، أظردهم عنا، فلعلك إن طربتهم أن نتبعك، فأنزل الله فيهم القرآن ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَالِمِي الْبَاطِلِينَ﴾. وقد أخرج هذا السبب مطولاً ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة، وفيه: إن الذين جازوا إلى النبي ﷺ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وقرظة بن عبد، عمرو بن نوفل، والحارث بن عامر بن نوفل، ومطعم بن عدي بن الخيار بن نوفل في أشراف الكفار من عبد مناف. وأخرجه ابن أبي شيبة، وابن ماجه وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الدلائل، عن خباب قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فنكر نحو حديث عبد الله بن مسعود مطولاً. قال ابن كثير: هذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة

يقول لهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: ما تطلبون تعجيله بأن يكون إنزاله بكم مقدوراً لي وفي وسعي ﴿لَقَضَى الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لقضى الله الأمر بيننا بأن ينزله الله سبحانه بكم بسؤالي له وطلبي ذلك؛ أو المعنى: لو كان العذاب الذي تطلبونه وتستعجلون به عندي، وفي قبضتي لأنزلته بكم، وعند ذلك يقضي الأمر بيني وبينكم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وبلوقت الذي ينزل فيه عذابهم وبما تقتضيه مشيئته من تأخير استدرأجاً لهم وإعذاراً إليهم. قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ المفاتيح جمع مفتاح بالفتح: وهو المخزن: أي عنده مخازن الغيب، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة، أو جمع مفتاح بكسر الميم، وهو المفتاح، جعل للأمور الغيبية مفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن منها على طريق الاستعارة أيضاً، ويؤيد أنها جمع مفتاح بالكسر قراءة ابن السميع ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ فإن المفاتيح جمع مفتاح والمعنى: إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب، أو المفاتيح التي يتوصل بها إلى المخازن. وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى، وأنه لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها، ويندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجاً أولياً. وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم، ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة، والأنواع المخنولة، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة في قول الصائق المصدق ﷺ «من أتى كاهناً أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد»، قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ خصهما بالذكر؛ لأنهما من أعظم مخلوقات الله: أي يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علماً مفصلاً لا يخفى عليه منه شيء، أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي: من ورق الشجر وهو تخصيص فعد التعميم: أي يعلمها ويعلم زمان سقوطها ومكانه، وقيل: المراد بالورقة ما يكتب فيه الآجال والأرزاق، وحكى النقاش عن جعفر بن محمد، أن الورقة يراد بها هنا السقط من أولاد بني آدم، قال ابن عطية: وهذا قول جارٍ على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد، ولا ينبغي أن يلتفت إليه ﴿وَلَا حَبَّةٌ كَاثِنَةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ﴾ أي: في الأمكنة المظلمة، وقيل: في بطن الأرض ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابَسٌ﴾ بالخفض عطفاً على حبة: وهي معطوفة على ورقة. وقرأ ابن السميع، والحسن، وغيرهما بالرفع عطفاً على موضع من ورقة، وقد شمل وصف الرطوبة واليبوسة جميع الموجودات. قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من ﴿لَا يَعْلَمُهَا﴾ وقيل هو عبارة عن

والمشي على ما توجه المقاصد الفاسدة التي يتسبب عنها الوقوع في الضلال. قوله: ﴿وَقَدْ ضَلَلْتُ إِذْ أَتَى: أَتَبِعْتُ أَهْوَاءَكُمْ فِيمَا ظَلَبْتُمُوهُ مِنْ عِبَادَةِ مَعْبُودَاتِكُمْ، وَطَرَدَ مِنْ أَرَبْتُمْ طَرْدَهُ﴾ وما أنا من المهتدي﴾ إن فعلت ذلك، وهذه الجملة الإسمية معطوفة على الجملة التي قبلها، والمجيء بها اسمية عقب تلك الفعلية للدلالة على الدوام والثبات، وقرئ ﴿ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام وكسرهما وهما لغتان. قال أبو عمرو: ضللت بكسر اللام لغة تميم، وهي قراءة ابن وثاب وطلحة بن مصرف، والأولى هي الأصح والأفصح؛ لأنها لغة أهل الحجاز، وهي قراءة الجمهور. قال الجوهري: والضلال والضلالة ضد الرشاد، وقد ضللت أضل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ [سبأ: 50] قال فهذه: يعني المفتوحة لغة نجد وهي الفصيحة، وأهل العالية يقول: ضللت بالكسر أضل انتهى. قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ البينة: الحجة والبرهان: أي إني على برهان من ربي ويقين، لا على هوى وشك، أمره الله سبحانه بأن يبين لهم أن ما هو عليه من عبادة ربه هو عن حجة برهانية يقينية، لا كما هم عليه من اتباع الشبه الداحضة والشكوك الفاسدة التي لا مستند لها إلا مجرد الأهوية الباطلة. قوله: ﴿وَكَذَبْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالرب أو بالعذاب أو بالقرآن أو بالبين، والتذكير للضمير باعتبار المعنى. وهذه الجملة إما حالية بتقدير قد: أي والحال أن قد كذبتُم به، أو جملة مستأنفة مبينة لما هم عليه من التكذيب بما جاء به رسول الله ﷺ من الحجج الواضحة والبراهين البينة. قوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء، نحو قوله: ﴿وَأَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفاً﴾ [الإسراء: 92]، وقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: 32]، وقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: 29]، وقيل: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من الآيات التي تقترحونها علي. قوله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم في كل شيء إلا لله سبحانه، ومن جملة ذلك ما تستعجلون به من العذاب أو الآيات المقترحة. والمراد: الحكم الفاصل بين الحق والباطل. قوله: ﴿يَقْصُ الْحَقُّ﴾ قرأ نافع وابن كثير وعاصم ﴿يَقْصُ﴾ بالقاف والصاد المهملة، وقرأ الباقون ﴿يَقْضِي﴾ بالضاد المعجمة والياء، وكذا قرأ علي وأبو عبد الرحمن السلمي، وسعيد بن المسيب، وهو مكتوب في المصحف بغير ياء. فعلى القراءة الأولى، هو من القصص: أي يقص القصص الحق، أو من قص أثره: أي يتبع الحق فيما يحكم به. وعلى القراءة الثانية، هو من القضاء: أي يقضي القضاء بين عباده، والحق منتصب على المفعولية، أو على أنه صفة لمصدر محذوف: أي يقضي القضاء الحق، أو يقص القصص الحق ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي: بين الحق والباطل بما يقضي به بين عباده ويفصله لهم في كتابه، ثم أمره الله سبحانه أن

علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي عمران الجوني، في قوله ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ قال: على ثقة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة في قوله: ﴿لِقَاضِي الْأَمْرِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ قال: لقامت الساعة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ قال: يقول خزائن الغيب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ قال: من خمس ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34]. وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وبها ملك يكتب ما يسقط من ورقها. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن محمد بن جحادة، في قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ قال: ش تبارك وتعالى شجرة تحت العرش ليس مخلوق إلا له فيها ورقة فإذا سقطت ورقته خرجت روحه من جسده، فذلك قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وأخرج الخطيب في تاريخه بسند ضعيف، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من زرع على الأرض ولا ثمار على أشجار إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا رزق فلان بن فلان» فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ﴾ الآية. وقد رواه يزيد بن هارون، عن محمد ابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ فنكره. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ فقال: الرطب واليابس من كل شيء.

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْسُطُ فِيهِ لِقَاضِي أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٤٤﴾

قوله: ﴿يَتَوَفَّاكُم بالليل﴾ أي: ينيمكم فيقبض فيه نفوسكم التي بها تميزون وليس ذلك موتاً حقيقة، فهو مثل قوله: ﴿إِنَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42] والتوفي استيفاء الشيء، وتوفيت الشيء واستوفيته: إذا أخذته أجمع، قال الشاعر:

إِنْ بَنَى الْأَرَمَ لَيْسُوا مِنْ أَحَدٍ وَلَا تَوَفَّاهُمْ قَرِيشُ فِي الْعَدَدِ
قِيلَ: الرُّوحُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْبَدَنِ فِي الْمَنَامِ بَقِيَتْ فِيهِ

الحياة؛ وقيل: لا تخرج منه الروح بل الذهن فقط، والأولى أن هذا أمر لا يعرفه إلا الله سبحانه. قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار﴾ أي: كسبتم بجوارحكم من الخير والشر. قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في النهار يعني اليقظة؛ وقيل يبعثكم من القبور فيه: أي في شأن ذلك الذي قطعتم فيه أعماركم من النوم بالليل والكسب بالنهار؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: هو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه؛ وقيل ثم يبعثكم فيه: أي في المنام، ومعنى الآية: أن إمهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم، فإنه عالم بذلك ولكن ﴿لِقَاضِي أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: معين لكل فرد من أفراد العباد من حياة ورزق ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعكم بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ المراد: فوقية القدرة والرتبة كما يقال: السلطان فوق الرعية، وقد تقدّم بيانه في أوّل السورة. قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي: ملائكة جعلهم الله حافظين لكم، ومنه قوله: ﴿وَإِن عَلَيْكُمْ لحَافِظِينَ﴾ [الإنفطار: 10] والمعنى: أنه يرسل عليكم من يحفظكم من الأفات ويحفظ أعمالكم، والحفظة جمع حافظ، مثل كتبة جمع كاتب ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾ متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء، وتقديره على حفظة ليفيد العناية بشأنه وأنه أمر حقيق بذلك؛ وقيل هو متعلق بحفظة. قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ حتى يحتمل أن تكون هي الغائية: أي ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما أمروا بحفظه مما يتعلق بكم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ ويحتمل أن تكون الابتدائية، والمراد بمجيء الموت: مجيء علاماته. وقرأ حمزة «توفاه رسلنا» وقرأ الأعمش «توفاه» والرسول هم أعوان ملك الموت، ومعنى توفته: استوفت روحه: ﴿وَلَا يُفِرُّونَ﴾ أي: لا يقصرون ويضيعون، وأصله من التقدّم، وقال أبو عبيدة: لا يتوانون. وقرأ عبيد بن عمير «لا يفرون» بالتخفيف: أي لا يجاوزون الحد فيما أمروا به من الإكرام والإهانة. قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ معطوف على توفته، والضمير راجع إلى أحد؛ لأنه في معنى الكل مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة: أي رُدُّوا بعد الحشر إلى الله: أي إلى حكمه وجزائه ﴿مَوْلَاهُم﴾ مالكمهم الذي يلي أمورهم ﴿الْحَقُّ﴾ قرأ الجمهور بالجر صفة لاسم الله. وقرأ الحسن ﴿الْحَقُّ﴾ بالنصب على إضمار فعل: أي أعني أو أمدح، أو على المصدر ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لكونه لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الفكر والروية والتدبر.

وقد أخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه، فإذا أذن الله في قبض روحه قبضه ولا ردّها إليه، فذلك قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّاكُم بالليل﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة، في الآية قال: ما من ليلة إلا والله يقبض

﴿ثم أنتم تشركون﴾ بالله سبحانه بعد أن أحسن إليكم بالخلوص من الشدايد، وذهاب الكرب، شركاء لا ينفكونكم ولا يضرونكم، ولا يقدرّون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم، فكيف وضعت هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر؟ ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم: ﴿هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً﴾ أي: الذي قدر على إنجائكم من تلك الشدايد ونفع عنكم تلك الكرب قادر على أن يعينكم في شدة ومحنة وكرب يبعث عذابه عليكم من كل جانب. فالعذاب المبعوث من جهة فوق: ما ينزل من السماء من المطر والصواعق. والمبعوث من تحت الأرض: الخسف والزلازل والغرق، وقيل: ﴿من فوقكم﴾ يعني: الأمراء الظلمة ﴿ومن تحت أرجلكم﴾ يعني: السفلة وعبيد السوء. قوله: ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ قرأ الجمهور بفتح التحتية، من لبس الأمر: إذا خلطه، وقرأ أبو عبد الله الميني بضمها: أي يجعل ذلك لباساً لكم؛ قيل والأصل: أو يلبس عليكم أمركم، فحذف أحد المفعولين مع حرف الجر كما في قوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾ [المطففين: 3] والمعنى: يجعلكم مختلطي الأهواء مختلفي النحل متفرقي الآراء. وقيل: يجعلكم فرقاً يقاتل بعضهم بعضاً. والشيخ: الفرق، أي يخلطكم فرقاً. قوله: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ أي: يصيب بعضهم بشدة بعض من قتل وأسر ونهب ﴿ويذيق﴾ معطوف على ﴿يبعث﴾. وقرأ ﴿ويذيق﴾ بالنون ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ نبين لهم الحجج والدلائل من وجوه مختلفة ﴿لعلهم يفقهون﴾ الحقيقة فيعوبون إلى الحق الذي بيناه لهم ببيانات متنوعة.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ يقول: من كرب البر والبحر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، في تفسير الآية عن ابن عباس قال: يقول إذا أضل الرجل الطريق دعا الله ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ [يونس: 22]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال: يعني: من أمرائكم ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ يعني: سفلكم ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ يعني: بالشيع الأهواء المختلفة ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال: يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه من وجه آخر في تفسير الآية قال: ﴿عذاباً من فوقكم﴾ أئمة السوء ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: خدم السوء. وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً من وجه آخر قال: ﴿من فوقكم﴾ من قبل أمرائكم وأشرافكم ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: من قبل سفلكم وعبيدكم. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن أبي مالك ﴿عذاباً من فوقكم﴾ قال: القذف ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: الخسف. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد أيضاً

الأرواح كلها، فيسال كل نفس عما عمل صاحبها من النهار، ثم يدعو ملك الموت فيقول: اقْبِضْ روح هذا؛ وما من يوم إلا وملك الموت ينظر في كتاب حياة الإنسان، قاتل يقول ثلاثاً، وقاتل يقول خمساً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال: أما وفاته إياهم بالليل فمنامهم، وأما ﴿جرحتهم بالنهار﴾ فيقول: ما اكتسبتم بالنهار ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ قال: في النهار ﴿ليقضي لجل مسمى﴾ وهو الموت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿ويعلم ما جرحتهم﴾ قال: ما كسبتم من الإثم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ قال: هم المعقبات من الملائكة يحفظونه ويحفظون عمله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال: أعوان ملك الموت من الملائكة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿وهم لا يفرطون﴾ يقول: لا يضيعون.

قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ دَعْوَتُهُمْ نَعْرَةً وَخَفِيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا رَأْيَهُمْ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٣٦﴾ قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا يَنْ تَوْفِقُكُمْ أَوْ يَنْ تَحْتِ أَنْجِيَكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ إِنَّظِرْ كَيْفَ نَصَرُكَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٣٨﴾

قيل: المراد بظلمات البر والبحر: شدايدهما. قال النحاس: والعرب تقول يوم مظلم: إذا كان شديداً، فإذا عظمت تلك قالت: يوم نو كوكب: أي يحتاجون فيه لشدة ظلمته إلى كوكب، وأنشد سيبويه:

بني اسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان يوم نو كوكب أشنعاً والاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي من ينجيكم من شدايدهما العظيمة؟ قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿خفياً﴾ بكسر الخاء، وقرأ الباقر بضمها، وهما لغتان، وقرأ الأعمش ﴿وخفياً﴾ من الخوف، وجملة ﴿تدعوته﴾ في محل نصب على الحال: أي من ينجيكم من ذلك حال دعائكم له بدعاء تضرع وخفية أو متضرعين ومخفين. والمراد بالتضرع هنا: دعاء الجهر. قوله: ﴿لئن أنجيتنا﴾ كذا قرأ أهل المدينة وأهل الشام. وقرأ الكوفيون ﴿لئن أنجانا﴾ والجملة في محل نصب على تقدير القول: أي قائلين لئن أنجيتنا من هذه الشدة التي نزلت بنا وهي الظلمات المنكورة ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ لك على ما أنعمت به علينا من تخليصنا من هذه الشدايد. قوله: ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ قرأ الكوفيون وهشام ﴿ينجيكم﴾ بالتشديد، وقرأ الباقر بالتخفيف، وقرأ التشديد تفيد التكثر؛ وقيل: معناهما واحد، والضمير في ﴿منها﴾ راجع إلى الظلمات. والكرب: الغم يأخذ بالنفس، ومنه رجل مكروب. قال عنترة:

ومكروب كشفت الكرب عنه بطعنة فيوصل لما دعاني

أَفْعَلْنَا بَدَأَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ
أَمْرٌ حَسْبُ بِذَعْوَتِهِ إِلَى الْهُدَى أَفْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى وَالْهَدَى وَارْتِنَا
لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
عُشُورُ ﴿٧٧﴾ هُوَ الَّذِي عَلَنَ السَّكَنَاتِ وَالْأَرْضَ بِالسَّكَنِ وَالْحَقَّ يَوْمَ يَقُولُ
كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَعُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ
وَالْأَسْهَدُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٧٨﴾

قوله: ﴿وَكُذِّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ الضمير راجع إلى القرآن أو إلى العذاب. وقومه المكذبون: هم قريش، وقيل: كل معاند، وجملة: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ في محل نصب على الحال: أي كذبوا بالقرآن أو العذاب، والحال أنه حق. وقرأ ابن أبي عبلة ﴿وَكُذِّبَتْ﴾ بالتاء ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: لست بحفيظ على أعمالكم حتى أجازيكم عليها. قيل: وهذه الآية منسوخة بآية القتال؛ وقيل ليست بمنسوخة إذ لم يكن إيمانهم في وسعه. قوله: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: لكل شيء وقت يقع فيه. والنبأ: الشيء الذي ينبا عنه؛ وقيل المعنى: لكل عمل جزاء. قال الزجاج: يجوز أن يكون وعيداً لهم بما ينزل بهم في الدنيا. وقال الحسن: هذا وعيد من الله للكفار، لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك بحصوله ونزوله بهم، كما علموا يوم بدر بخصول ما كان النبي ﷺ يتوعدهم به. قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح له. والخوض: أصله في الماء ثم استعمل في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشببها بغمرات الماء، فاستعير من المحسوس للمعقول؛ وقيل: هو مأخوذ من الخلط، وكل شيء خضته فقد خلطته، ومنه خاض الماء بالعسل: خلطه. والمعنى: إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالتكذيب والرد والاستهزاء فدعهم، ولا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم حتى يخوضوا في حديث مغاير له، أمره الله سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التي يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوض في غير ذلك.

وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرّفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويرتّبون تلك إلى أهوائهم المضلة ويدعّمهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فاقُلّ الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير. وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزّهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر.

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق وبقع الباطل بما قدرنا عليه وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها، علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات، ولا سيما لمن كان غير راسخ

﴿من فوقكم﴾ قال: الصيحة والحجارة والريح ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: الرجفة والخسف، وهما عذاب أهل التكذيب ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال: عذاب أهل الإقرار. وأخرج البخاري وغيره، عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو اللّٰقادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال: هذا أهون أو أيسر». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم، من حديث طويل عن ثوبان، وفيه: «وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطيناهما، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها». وأخرج مسلم وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص: «أن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مرَّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلاً، ثم انصرف إلينا فقال: سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطينيهما، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها». وأخرج أحمد، والحاكم وصححه، من حديث جابر بن عتيك نحوه. وأخرج نحوه أيضاً ابن مروييه، من حديث أبي هريرة. وأخرج أيضاً ابن أبي شيبة وابن مروييه، من حديث حذيفة بن اليمان نحوه. وأخرج أحمد والنسائي، وابن مروييه، عن أنس نحوه أيضاً. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، وابن مروييه، عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿قل هو اللّٰقادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾ فقال النبي ﷺ: أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروييه، وأبو نعيم في الحلية والضياء في المختارة، عن أبي بن كعب في هذه الآية قال: هن أربع وكلهنَّ عذاب وكلهنَّ واقع لا محالة. فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة: فالبسوا شيعاً، وذاق بعضهم بأس بعض؛ وبقيت اثنتان واقعتان لا محالة: الخسف، والرجم. والأحاديث في هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية.

[illegible]

والضلالات المتقدم نكرها؛ وقيل: المراد بالدين هنا العيد: أي اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً، وجملة: «وَعَزَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» معطوفة على «اتخذوا» أي: غزتهم حتى أثروها على الآخرة وأنكروا البعث وقالوا: «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» [المؤمنون: 37]. قوله: «وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ» الضمير في «به» للقرآن أو للحساب. والإبسال: تسليم المرء نفسه للهلاك، ومنه أبسلت ولدي: أي رهنته في الدم، لأن عاقبة ذلك الهلاك. قال النابغة:

ونحن رهناً بالإفاقة عامراً بما كان في الدراء رهناً فإبسلأ
أي: فهلك، والدراء: كتيبة كانت لهم معروفة بهذا الاسم،
فالمعنى: وذكر به خشية أو مخافة أو كراهة أن تهلك نفس
بما كسبت: أي ترتب وتسلم للهلاك، وأصل الإبسال: المنع،
ومنه شجاع بإسأل: أي ممتنع من قرنه. قوله: «وَأَنْ تَعْدَلَ
كُلَّ عَدَلٍ لَا يُوْخِذُ مِنْهَا» العدل هنا: الفدية. والمعنى: وإن
بذلت تلك النفس التي سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها
للك العدل حتى تنجو به من الهلاك، وفاعل «يؤخذ»
ضمير يرجع إلى العدل، لأنه بمعنى المفدى به كما في قوله:
«وَلَا يُوْخِذُ مِنْهَا عَدْلٌ» [البقرة: 48] وقيل: فاعله منها، لأن
العدل هنا مصدر لا يستند إليه الفعل، وكل عدل منصوب
على المصدر: أي عدلاً كل عدل، والإشارة بقوله «وَأُولَئِكَ»
إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً، وخبره (الذين أبسلوا بما
كسبوا) أي هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً هم الذين
سلموا للهلاك بما كسبوا، و«لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ» جواب
سؤال مقدر كأنه قيل: كيف حال هؤلاء؟ فقيل لهم شراب من
حميم، وهو الماء الحار، ومثله قوله تعالى: «يُصَبِّ من فوق
رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ» [الحج: 19] وهو هنا شراب يشربونه
فيقطع أمعاءهم. قوله: «قُلْ لِّدَعْوَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا» أمره الله سبحانه بأن يقول لهم هذه
المقالة، والاستفهام للتوبيخ: أي كيف ندعوا من دون الله
أصناماً لا تنفعنا بوجه من وجوه النفع إن إربنا منها نفعاً
ولا نخشى ضرراً بوجه من الوجوه، ومن كان هكذا فلا
يستحق العبادة «وَنُرِذُّ عَلَى أَعْقَابِنَا» عطف على «ندعوا».
ولأعقاب، جمع عقب أي: كيف ندعوا من كان كذلك ونرجع
إلى الضلالة التي أخرجنا الله منها. قال أبو عبيدة: يقال لمن
رد عن حاجته ولم يظفر بها قد رد على عقبه. وقال المبرد:

تَعَقَّبَ بِالشَّرْبِ بَعْدَ الْخَيْرِ

وأصله من المعاقبة والعقوبة، وهما ما كان تالياً للشيء واجباً
أن يتبعه، ومنه «وَالْمَعَاقِبَةُ لِلْمُتَقِينَ» [القصص: 83]، ومنه
عقب الرجل، ومنه العقوبة، لأنها تالية للذنوب. قوله: «كَالَّذِي
اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ» هو يهوى إلى الشيء
أسرع إليه. وقال الزجاج: هو من هوى النفس، أي زين له
الشیطان هواه، و«استهوته الشياطين» هوت به، والكاف
في «كالذي» إما نعت مصدر محذوف: أي نرد على أعقابنا
رداً كالذي، أو في محل نصب على الحال من فاعل نرد: أي

القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من
كُنْباتهم وهنيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينتقح
في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدة
عمره ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل
الباطل وأنكر المنكر. قوله: «وَأَمَّا يَنْتَشِرُ الشَّيْطَانُ فَلَا
تَقْعُدُ بَعْدَ الذِّكْرِ» «إما» هذه هي الشرطية وتلزمها غالباً
نون التأكيد ولا تلزمها نادراً ومنه قول الشاعر:

إِذَا يَصْبُكُ عَنِّي مَنَازِلُهُ يَوْمًا فَقُلْ كَيْفَ يَسْتَعْلِي وَيَنْتَصِرُ
وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ «يَنْسِيكَ» بِتَشْدِيدِ السَّيْنِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ
الشَّاعِرِ:

وَقَدْ يَنْسِيكَ بَعْضُ الْحَاجَةِ الْكَسَلِ

والمعنى: إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد
الذكرى إذا ذكرت «مَعَ الْقَوْمِ لِلظَّالِمِينَ» أي الذين ظلموا
أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها. وقيل: وهذا
الخطاب وإن كان ظاهراً للنبي ﷺ فالمراد التعريض لأمته
لتنزهه عن أن ينسبه الشيطان؛ وقيل: لا وجه لهذا فالنسيان
جائز عليه كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ
أَنْسَى كَمَا تَنْسُونَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي» ونحو ذلك. قوله:
«وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» أي: ما
على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله
من حساب الكفار من شيء. وقيل المعنى: ما على الذين
يتقون ما يقع منهم من الخوض في آيات الله في مجالستهم
لهم من شيء: وعلى هذا التفسير ففي الآية الترخيص
للمتقين من المؤمنين في مجالسة الكفار إذا اضطروا إلى
ذلك كما سيأتي عند ذكر السبب: قيل: وهذا الترخيص كان
في أوّل الإسلام، وكان الوقت وقت تقية، ثم نزل قوله تعالى:
«وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا
وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ
غَيْرِهِ» [النساء: 140] فنسخ ذلك، قوله: «وَلَكِنْ ذِكْرِي
لَعَلَّهُمْ» ذكرى في موضع نصب على المصدر، أو رفع على
أنها مبتدأ، وخبرها محذوف: أي ولكن عليهم ذكرى. وقال
الكسائي: المعنى ولكن هذه ذكرى. والمعنى على الاستدراك
من النفي السابق: أي ولكن عليهم الذكرى للكافرين
بالموعظة والبيان لهم بأن ذلك لا يجوز. أما على التفسير
الأول، فلأن مجرد اتقاء مجالس هؤلاء الذين يخوضون في
آيات الله لا يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر. وأما على التفسير الثاني، فالترخيص في المجالسة لا
يسقط التذكير «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» الخوض في آيات الله إذا
وقعت منكم الذكرى لهم. وأما جعل الضمير للمتقين فيعيد
جداً. قوله: «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهمُ لَعِباً وَلَهْوَ» أي:
اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الذي كان يجب عليهم العمل
به والدخول فيه لعباً ولهواً، ولا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل
تعنت، وإن كنت مأموراً بإبلاغهم الحجة. وقيل: هذه الآية
منسوخة بآية القتال؛ وقيل المعنى: أنهم اتخذوا دينهم الذي
هم عليه لعباً ولهواً كما في فعلهم بالأنعام من تلك الجهالات

للصور خاصة: أي ويوم يقول للصور كن فيكون. قوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ رفع عالم على أنه صفة للذي خلق السموات والأرض، ويجوز أن يرتفع على إضمار مبتدأ: أي هو عالم الغيب والشهادة، وروي عن بعضهم أنه قرأ «ينفخ» بالبناء للفاعل، فيجوز على هذه القراءة أن يكون الفاعل ﴿عالم الغيب﴾ ويجوز أن يرتفع بفعل مقدر كما أنشد سيبويه:

ليبك يزيد ضارح لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح
أي يبكيه مختبط. وقرأ الحسن والأعمش ﴿عالم﴾ بالخفض على البذل من الهاء في ﴿له الملك﴾ ﴿وهو الحكيم﴾ في جميع ما يصدر عنه ﴿الخبير﴾ بكل شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وكنب به قومك﴾ يقول: كذب قريش بالقرآن ﴿وهو الحق﴾ وأما الوكيل فالحفيظ، وأما ﴿لكل نبا مستقر﴾ فكان نبا القوم استقر يوم بدر بما كان يعدهم من العذاب. وأخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وما آتانا عليكم يوكل﴾ قال: نسخ هذه الآية آية السيف ﴿فماقتلوا المشركين حيث وجبتهم﴾ [التوبة 5]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿لكل نبا مستقر﴾ يقول: حقيقة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿لكل نبا مستقر﴾ قال: حبست عقوبتها حتى عمل ننبها أرسلت عقوبتها. وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لكل نبا مستقر﴾ قال: فعل وحقيقة ما كان منه في الدنيا وما كان منه في الآخرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا رايت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم﴾ ونحو هذا في القرآن قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم أنما أهلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وإذا رايت الذين يخوضون في آياتنا﴾ قال: يستهزئون بها، نهى محمداً ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسى، فإذا نكر، فليقم ونلك قول الله: ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن سيرين أنه كان يرى أن هذه الآية نزلت في أهل الأهواء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم في الحلية، عن أبي جعفر قال: لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن محمد بن علي قال: إن أصحاب الأهواء من الذين يخوضون في آيات الله. وأخرج أبو الشيخ، عن مقاتل قال: كان المشركون بمكة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي ﷺ خاضوا واستهزؤوا، فقال المسلمون: لا تصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم، فأنزل الله

نرد حال كوننا مشبهين للذي استهوته الشياطين: أي ذهبت به مردة الجن بعد أن كان بين الإنسان. قرأ الجمهور «استهوته» وقرأ حمزة «استهواه» على تنكير الجمع. وقرأ ابن مسعود والحسن «استهواه الشيطان» وهو كذلك في قراءة أبي، و﴿حيران﴾ حال: أي حال كونه متحيراً تائهاً لا يدري كيف يصنع؟ والحيران هو الذي لا يهتدي لجهة، وقد حار يحار حيرة وحيرة: إذا تردد، وبه سمي الماء المستنقع الذي لا منفذ له حائراً. قوله: ﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى﴾ صفة لحيران أو حالية: أي له رفقة يدعونه إلى الهدى يقولون له اثنتا فلا يجيبهم ولا يهتدي بهديهم. قوله: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أمره الله سبحانه بأن يقول لهم: ﴿إن هدى الله﴾ أي بينه الذي ارتضاه لعباده ﴿هو الهدى﴾ وما عداه باطل: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ [آل عمران: 85]. ﴿وأمرنا﴾ معطوف على الجملة الإسمية: أي من جملة ما أمره الله بأن يقوله، واللام في ﴿لنسلم﴾ هي لام العلة، والمعلل هو الأمر: أي أمرنا لأجل نسلم لرب العالمين. وقال الفراء: المعنى أمرنا بأن نسلم لأن العرب تقول أمرتك لتذهب، وبأن تذهب بمعنى. وقال النحاس: سمعت ابن كيسان يقول هي لام الخفض. قوله: ﴿وأن اقيموا الصلاة واتقوه﴾ معطوف على ﴿لنسلم﴾ على معنى وأمرنا أن نسلم وأن اقيموا، ويجوز أن يكون عطفاً على يدعونه على المعنى: أي يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن اقيموا ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ فكيف تخالفون أمره ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض﴾ خلقاً ﴿بالحق﴾ أو حال كون الخلق بالحق فكيف تبعدون الأصنام المخلوقة. قوله: ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ أي: وانكر يوم يقول كن فيكون، أو واتقوا يوم يقول كن فيكون؛ وقيل: هو عطف على الهاء في ﴿واتقوه﴾ وقيل: إن «يوم» ظرف لمضمون جملة ﴿قوله للحق﴾ والمعنى وأمره المتعلق بالأشياء الحق: أي المشهد له بأنه حق، وقيل: قوله مبتدأ، والحق صفة له ﴿ويوم يقول كن فيكون﴾ خبره مقدماً عليه، والمعنى: قوله المتصف بالحق كائن يوم يقول كن فيكون؛ وقيل: إن قوله مرتفع ببيكون، والحق صفته: أي يوم يقول كن فيكون قوله للحق. وقرأ ابن عامر ﴿فنكون﴾ بالنون، وهو إشارة إلى سرعة الحساب. وقرأ الباقون بالياء التحتية وهو الصواب. قوله: ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ الظرف منصوب بما قبله: أي له الملك في هذا اليوم، وقيل: هو بدل من اليوم الأول، والصور: قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء، والثانية للإنشاء، وكذا قال الجوهري: إن الصور القرن، قال للرجز: لقد نطحناهم غداة الجمعين نطحاً شديداً لا كنعط الصورين والصور بضم الصاد ويكسرهما لغة، وحكى عن عمرو بن عبيد أنه قرأ «يوم ينفخ في الصور» بتحريك الواو، جمع صورة، والمراد: الخلق. قال أبو عبيدة: وهذا وإن كان محتملاً يرد بما في الكتاب والسنة. وقال الفراء: كن فيكون، يقال إنه

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَإِلَى الَّذِينَ أَنَاجِدُ آمَنَآءَ ۖ إِنَّكَ رَبِّي وَأَنَا مَخْلُوقُكَ ۚ﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى النَّصْرَ بَارِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ إِلَهُي بَعْدَ رَبِّي لِأَكُونُ مِنَ الْقَوَّامِينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ فَلَمَّا تَغَوَّرَ إِلَى بَرِيٍّ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَىٰ رَجْعَتِ رَجَعِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضَ حَيِّمًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَسَمِعَ قَوْمَهُ يَقُولُ أَفَلَا تَتَحَنَّنُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا وَلَا خَافَ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرِكُكُمْ وَلَا تُخَافُونَ أَنَاكُمْ أَشْرَكُكُمْ بِأَنَّهُمْ مَا لَمْ يَرْزُقُوا مِنْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُسْتَسْرُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ شَاءَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

قوله: ﴿لأبيه أزر﴾ قال الجوهري: أزر اسم أعجمي، وهو مشتق من أزر فلان فلانة إذا علونه، فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام. وقال ابن فارس: إنه مشتق من القوة. قال الجويني في النكت من التفسير له: ليس بين الناس اختلاف في أن اسم والد إبراهيم تاريخ، والذي في القرآن يدل على أن اسمه أزر. وقد تعقب في دعوى الاتفاق بما روى عن ابن إسحاق، والضحاك، والكلبي أنه كان له اسمان: أزر وتاريخ. وقال مقاتل: أزر لقب، وتاريخ اسم، وقال سليمان التيمي: إن أزر سب وعتب، ومعناه في كلامهم المعوج. وقال الضحاك معنى أزر: الشيخ الهيم بالفارسية. وقال الفراء: هي صفة نمل بلغتهم كأنه قال: يا مخطئ، وروى مثله عن الزجاج. وقال مجاهد: هو اسم صنم. وعلى هذا إطلاق اسم الصنم على أبيه: إما للتعبير له لكونه معبوده، أو على حذف مضاف: أي قال لأبيه عابد أزر، أو اتعبد أزر على حذف الفعل. وقرأ ابن عباس ﴿أزر﴾ بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة، وروى عنه أنه قرأ بهمزتين مفتوحتين، ومحل ﴿إذ قال﴾ النصب على تقدير وانكر إذ قال إبراهيم، ويكون هذا المقدر معطوفاً على ﴿وقل رب أنيس﴾ من بون الله وقيل: هو معطوف على ﴿ونكر به أن تبسل﴾ [الأنعام: 70] وأزر عطف بيان. قوله: ﴿اتخذ أصناماً آلهة﴾ الاستفهام للإنكار: أي اتجعلها آلهة لك تعبد بها ﴿إني أراك وقومك﴾ المتبعين لك في عبادة الأصنام ﴿في ضلال﴾ عن طريق الحق ﴿مبين﴾ واضح، ﴿وكنلك نرى إبراهيم﴾ أي: ومثل تلك الإراءة نرى إبراهيم، والجملة معترضة، و﴿ملكوت﴾ للسفوات والأرض ملكهما، وزيدت التاء والواو للمبالغة في الصفة. ومثله للرغوب والرهبوت مبالغة في الرغبة والرغبة. قيل: أراد بملكوت السموات والأرض ما فيها من الخلق؛ وقيل: كشف الله له عن ذلك حتى رأى إلى العرش وإلى

هذه الآية. وأخرج أبو الشيخ أيضاً عن السدي أنه قال: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف. وأخرج النحاس عن ابن عباس في قوله: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ قال: نسخت هذه الآية المكية بالآية المدنية، وهي قوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها﴾ [النساء: 140] الآية. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن مجاهد: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ إن قعدوا ولكن لا يقعدوا. وأخرج ابن أبي شيبة عن هشام بن عروة، عن عمر بن عبد العزيز، أنه أتى بقوم قعدوا على شراب معهم رجل صائم فضربه وقال: لا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهوا﴾ قال: هو مثل قوله: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ [الم نشر: 11] يعني أنه للتهديد، وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، عن قتادة، في هذه الآية قال: نسختها آية السيف، وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه في قوله: ﴿لعباً ولهوا﴾ قال: أكلاً وشرباً. وأخرج ابن جرير، والمنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إن تبسل﴾ قال: أن تقضض، وفي قوله: ﴿تبسلوا﴾ قال: فضحوا وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه في قوله: ﴿إن تبسل﴾ قال: تسلم، وفي قوله: ﴿تبسلوا﴾ بما كسبوا قال: أسلموا بجرائهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: ﴿قل اندعوا من دون الله﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للأكهة وللدعاة الذين يدعون إلى الله. وقوله: ﴿كأذي لستهوته للشياطين في الأرض﴾ يقول: أضلته، وهم الغيلا ن يدعونه باسمه، واسم أبيه، وجده، فيتبعها ويرى أنه في شيء فيصبح وقد ألقته فيهلك، وربما أكلته أو تلقى في مضلة، من الأرض، يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من بون الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: ﴿كأذي لستهوته الشياطين﴾ قال: هو الرجل لا يستجيب لهدي الله، وهو الرجل أطاع الشيطان وعمل في الأرض بالمعصية، وحاد عن الحق وضل عنه، و﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى﴾ ويزعمون أن الذي يأمرونه به هدى، يقول الله تلك لأوليائهم من الإنس يقول: ﴿إن للهدى هدى الله﴾ والضلالة ما تدعو إليه الجن. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث، عن عبد الله بن عمرو قال: «سئل النبي ﷺ عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه، والأحاديث الواردة في كيفية النفخ ثابتة في كتب الحديث لا حاجة لنا إلى إيرادها هنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ يعني: أن عالم الغيب والشهادة هو الذي ينفخ في الصور.

﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ أي: من الأشياء التي تجعلونها شركاء لله وتعبدها، وما موصولة أو منصوبة، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لا تنفع ولا تضر، مستدلاً على ذلك بأقوالها الذي هو دليل حدوثها ﴿إني وجهت وجهي﴾ أي: قصدت بعبادتي وتوحيدي الله عز وجل. ونكر الوجه لأنه العضو الذي يعرف به الشخص، أو لأنه يطلق على الشخص كله كما تقدم. وقد تقدم معنى ﴿قطر السموات والأرض حنيفاً﴾ مائلاً إلى الدين الحق. قوله: ﴿وحاجه قومه﴾ أي: وقعت منهم الحاجة له في التوحيد بما يدل على ما يدعونه من أن ما يشركون به ويعبدونه من الأصنام آلهة. فاجاب إبراهيم عليه السلام بما حكاه الله عنه أنه قال: ﴿أتحتاجوني في الله﴾ أي: في كونه لا شريك له ولا ند ولا ضد. وقرأ نافع بتخفيف نون أحتاجوني. وقرأ الباقون بتشديدها بإدغام نون الجمع في نون الوقاية، ونافع خفف فحذف إحدى النونين، وقد أجاز ذلك سيبويه. وحكى عن أبي عمرو بن العلاء أن قراءة نافع لحن، وجملة ﴿وقد هداني﴾ في محل نصب على الحال، أي هداني إلى توحيدهِ وأنتم تربيون أن أكون مثلكم في الضلالة والجهالة وعدم الهداية. قوله: ﴿ولا أضاف ما تشركون به﴾ قال: هذا لما خُوفوه من آلهتهم بأنّها ستغضب عليه وتصيبه بمكروه: أي إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضر ولا ينفع، والضمير في به يجوز رجوعه إلى الله وإلى معبوداتهم المنلول عليها بما في ﴿ما تشركون به﴾ إلا أن يشاء ربي شيئاً. أي: إلا وقت مشيئته ربي بأن يلحقني شيئاً من الضرر بذنبي عملته فالأمر إليه، وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التي لا تضر ولا تنفع. والمعنى: على نفي حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال، وإثبات الضرر والنفع لله سبحانه، وصورهما حسب مشيئته، ثم علل ذلك بقوله: ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ أي: إن علمه محيط بكل شيء، فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته، وإذا شاء إزلال شر بي كان، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ثم قال لهم مكملاً للحجة عليهم، ودافعاً لما خُوفوه به ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ أي: كيف أخاف ما لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق، والحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك بالله، وهو الضار النافع الخالق الرازق، أورد عليهم هذا الكلام الإلزامي الذي لا يجنون عنه مخلصاً ولا متحولاً، والاستفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم. و﴿ما﴾ في ﴿ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ مفعول أشركتم: أي ولا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التي لم ينزل بها عليكم سلطاناً شركاء لله، أو لمعنى أن الله سبحانه لم يأنز به جعلها شركاء له، ولا نزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها، فكيف عبدها واتخذوها آلهة، وجعلوها شركاء لله سبحانه؟ قوله: ﴿فأي الفريقين لحق بالأمن﴾ المراد: بالفريقين: فريق المؤمنين وفريق المشركين:

أسفل الأرضين؛ وقيل: رأى من ملكوت السموات والأرض ما قصه الله في هذه الآية؛ وقيل: المراد بملكوتهما الربوبية والإلهية: أي نريه ذلك ونوقفه لمعرفة بطريق الاستدلال التي سلكها؛ ومعنى ﴿نرى﴾ أريناه، حكاية حال ماضية. قوله: ﴿وليكون من الموقنين﴾ متعلق بمقتدّر: أي أريناه ذلك ﴿ليكون من الموقنين﴾ وقد كان أزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر، فأراد أن ينبههم على الخطأ؛ وقيل: إنه ولد في سرب، وجعل رزقه في أطراف أصابعه، فكان يمصها. وسبب جعله في السرب، أن النمرود رأى رؤيا أن ملكه يذهب على يد مولود فأمر بقتل كل مولود، والله أعلم. قوله: ﴿فلما جنّ عليه الليل﴾ أي: ستره بظلمته، ومنه الجنة والمجنّ والجن كله من الستر، قال الشاعر:

ولولا جنان الليل أترك ركضنا بذى الرمث والأرطي عياض بن ثابت
والغناء للعطف على ﴿قال إبراهيم:﴾ أي وانكر إذ قال، وإذ جنّ عليه الليل، فهو قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه، وجواب لما ﴿رأى كوكباً﴾ قيل: رآه من شق الصخرة الموضوعة على رأس السرب الذي كان فيه؛ وقيل رآه لما أخرجه أبوه من السرب وكان وقت غيبوبة الشمس، قيل: رأى المشتري وقيل الزهرة. قوله: ﴿هَذَا ربي﴾ جملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل فماذا قال عند رؤية الكوكب؟ وكان هذا منه عند قصور النظر؛ لأنه في زمن الطفولية؛ وقيل: أراد قيام الحجة على قومه كالحاكي لما هو عندهم وما يعتقدونه لأجل إلزامهم، وبالثاني قال الزجاج؛ وقيل: هو على حذف حرف الاستفهام: أي أهذا ربي، ومعناه إنكار أن يكون مثل هذا رباً، ومثله قوله تعالى: ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ [الأنبياء: 34] أي: أفهم الخالدون، ومثله قول الهنلي:

رقوني وقالوا يا خويلد لم ترع فقلت وأثكرت الوجوه هم هم
أي أهم هم، وقول الآخر:

لعمري ما أدري وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر أم بثمانيا
أي: أبسبع، وقيل المعنى: وأنتم تقولون هذا ربي فأضمر القول، وقيل المعنى على حذف مضاف: أي هذا دليل ربي ﴿فلما اقل﴾ أي: غرب ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿لا أحب الأقلين﴾ أي: الآلهة التي تغرب، فإن الغروب تغير من حال إلى حال، وهو دليل حدوث ﴿فلما رأى للقمر بازغاً﴾ أي: طالعا، يقال: بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع، والبرزغ: الشق كان يشق بنوره الظلمة ﴿فلما اقل قال لئن لم يهني ربي﴾ أي: لئن لم يثبتني على الهداية، ويوفقني للحجة ﴿لاكون من القوم الضالين﴾ الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم ويحرمونها حظها من الخير، ﴿فلما رأى الشمس بازغة﴾ بازغاً وبازغة منصوبان على الحال، لأن الرؤية بصرية، وإنما ﴿قال هذا ربي﴾ مع كون الشمس مؤنثة، لأن مراده هذا الطالع، قاله: الكسائي والأخفش - وقيل: هذا الضوء؛ وقيل: الشخص ﴿هذا أكبر﴾ أي: بما تقدّمه من الكوكب والقمر

أي إذا كان الأمر على ما تقدم من أن معبودي هو الله المتصف بتلك الصفات، ومعبودكم هي تلك المخلوقات، فكيف تخوفوني بها، وكيف أخافها؟ وهي بهذه المنزلة، ولا تخافون من إشراركم بالله سبحانه، وبعد هذا فأخبروني أي: الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بحقيقة الحال، وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة، ثم قال الله سبحانه قاضياً بينهم ومبيناً لهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: هم الأحق بالأمن من الذين أشركوا؛ وقيل: هو من تمام قول إبراهيم؛ وقيل: هو من قول قوم إبراهيم. ومعنى ﴿لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾: لم يخلطوه ظلم. والمراد بالظلم الشرك، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان، ﴿يَا بَنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]»، والعجب من صاحب الكشاف حيث يقول في تفسير هذه الآية: وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس، وهو لا يدري أن الصائق المصنوق قد فسرهما بهذا، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، والإشارة بقوله: ﴿أَوَلَيْكَ﴾ إلى الموصول المتصف بما سبق، و﴿لَهُمْ الْأَمْنُ﴾ جملة وقعت خبراً عن اسم الإشارة، هذا أوضح ما قيل مع احتمال غيره من الوجوه. ﴿وَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق ثابتون عليه، وغيرهم على ضلال وجهل، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ إلى ما تقدم من الحجج التي أوردها إبراهيم عليهم: أي تلك البراهين التي أوردها إبراهيم عليهم من قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾ - حججتنا آتيانها إبراهيم: أي: أعطيناه إياها وأرشدناه إليها، وجملة ﴿آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي: حجة على قومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ﴾ بالهداية والإرشاد إلى الحق وتلقين الحجة، أو بما هو أعم من ذلك ﴿إِنْ رِبِّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حكيم في كل ما يصدر عنه عليم بحال عباده، وأن منهم من يستحق الرفع ومنهم من لا يستحقه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرَقَ﴾ قال الأزرق الصم، وأبو إبراهيم اسمه يازر، وأمه اسمها مثلي، وأمراته اسمها سارة، وسريته أم إسماعيل اسمها هاجر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: أزرق لم يكن بابيه ولكنه اسم صنم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي قال: اسم أبيه تارخ واسم الصنم أزرق، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سليمان التيمي، أنه قرأ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرَقَ﴾ قال: بلغني أنها أعوج وإنها أشد كلمة قالها إبراهيم لأبيه. وأخرج ابن أبي حاتم،

وأبو الشيخ، عن ابن عباس أنه قال: إن والد إبراهيم لم يكن اسمه أزرق، وإنما اسمه تارخ، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات، عنه في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: الشمس والقمر والنجوم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه قال: في الآية كشف ما بين السموات حتى نظر إليهن على صخرة، والصخرة على حوت، وهو الحوت الذي منه طعم الناس، والحوت في سلسلة، والسلسلة في خاتم العزة، وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد في الآية: قال سلطانهما، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس، في قوله: ﴿وَحَاجَهُ قَوْمُهُ﴾ يقول: خاصموه، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿اتَّحَاجُونِي﴾ قال: اتخاصموني. وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي بكر الصديق أنه فسر ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ بالشرك. وكذلك أخرج أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب، وكذلك أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن حنيفة بن اليمان، وكذلك أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سلمان الفارسي، وكذلك أخرج أيضاً عن أبي بن كعب، وكذلك أخرج ابن المنذر، وابن مردويه، عن ابن عباس. وأخرج عنه من طريق أخرى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وأبو الشيخ مثله، وقد روي عن جماعة من التابعين مثل ذلك، ويغني عن الجميع ما قدمنا عن رسول الله ﷺ في تفسير الآية كما هو ثابت في الصحيحين وغيرهما. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ قال: خصمهم. وأخرج أبو الشيخ، عن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ﴾ قال: بالعلم. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك قال: إن للعلماء درجات كدرجات الشهداء.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ
وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ
وَكُلًّا مَّا كَانُوا مِن آلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِبْرَاهِيمَ كَانَ صِدِّيقًا
وَمِن آيَاتِنَا إِتْيَانُهُمُ الْبَيْتَ الْمَقْدِسَ فَإِذْ يَئْتِيهِمْ آيَاتُنَا
مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ
تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ لِلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ
إِذْ يَبْنِيانِ لَهُ التَّيْدَةَ وَإِبْرَاهِيمَ كَانَ صِدِّيقًا
وَمِن آيَاتِنَا إِتْيَانُهُمُ الْبَيْتَ الْمَقْدِسَ فَإِذْ يَئْتِيهِمْ آيَاتُنَا
مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ
تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ لِلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ
إِذْ يَبْنِيانِ لَهُ التَّيْدَةَ وَإِبْرَاهِيمَ كَانَ صِدِّيقًا
وَمِن آيَاتِنَا إِتْيَانُهُمُ الْبَيْتَ الْمَقْدِسَ فَإِذْ يَئْتِيهِمْ آيَاتُنَا
مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ
تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ معطوف على جملة ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ [الانعام: 83] عطف جملة فعلية على جملة اسمية، وقيل: معطوف على آتيانها والأول: أولى. والمعنى: ووهبنا له ذلك جزاء له على الاحتجاج في الدين وبذل النفس فيه، و﴿كُلًّا

بقوله: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب﴾ إلى الأنبياء المذكورين سابقاً: أي جنس الكتاب، ليصدق على كل ما أنزل على هؤلاء المذكورين: ﴿والحكم﴾ العلم ﴿والنبوة﴾ الرسالة أو ما هو أعم من ذلك ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ الضمير في بها للحكم والنبوة والكتاب، أو للنبوة فقط، والإشارة بهؤلاء إلى كفار قريش المعاندين لرسول الله ﷺ ﴿فقد وكلنا بها قوماً﴾ هذا جواب الشرط: أي الزمنا بالإيمان بها قوماً ﴿ليسوا بها بكافرين﴾ وهم المهاجرون والأنصار، أو الأنبياء المذكورون سابقاً، وهذا أولى لقوله فيما بعد: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فإن الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين والأنصار إذ لا يصح أن يؤمر النبي ﷺ بالاعتداء بهداهم، وتقديم بهداهم على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاعتداء، والاعتداء طلب موافقة الغير في فعله، وقيل المعنى: اصبر كما صبروا؛ وقيل اقتد بهم في التوحيد، وإن كانت جزئيات الشرائع مختلفة، وفيها دلالة على أنه ﷺ مأمور بالاعتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يرد عليه فيه نص. قوله: ﴿قل لا أسألكم عليه لجر﴾ أمره الله بأن يخبرهم بأنه لا يسألكم أجراً على القرآن، وإن يقول لهم ما ﴿هو﴾ إلا نكرى، يعني القرآن ﴿للعالمين﴾ أي: موعظة وتذكير للخلق كافة، الموجودين عند نزوله ومن سيوجد من بعد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب قال: الخال والد العم والد، نسب الله عيسى إلى أخواله فقال ﴿ومن نريته﴾ حتى بلغ إلى قوله: ﴿وذكرى يحيى وعيسى﴾. وأخرج أبو الشيخ، والحاكم، والبيهقي عن عبد الملك بن عمير قال: نخل يحيى بن يعمر على الحجاج فنكر الحسين، فقال الحجاج: لم يكن من نرية النبي، فقال يحيى: كذبت، فقال: لتأتيني على ما قلت ببينة فتلا ﴿ومن نريته﴾ إلى قوله: ﴿وعيسى﴾. فأخبر الله أن عيسى من نرية أمه بامه، فقال: صدقت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي حرب، بن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من نرية النبي، تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده، فنكر يحيى بن يعمر نحو ما تقدم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿ولجئناهم﴾ قال: أخلصناهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ قال: يريد هؤلاء الذين مدينهم وفعلنا بهم. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد قال: الحكم اللب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ يعني أهل مكة. يقول: إن يكفروا بالقرآن: ﴿فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ يعني: أهل المدينة والأنصار. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿فقد وكلنا بها قوماً﴾ قال: هم الأنبياء الثمانية عشر الذين قال الله فيهم ﴿فبهداهم

هدينا﴾ انتصاب كلاً على أنه مفعول لما بعده مقدم عليه للقصر: أي كل واحد منهما هدينا، وكذلك نوحاً منصوب بهدينا الثاني، أو بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿ومن نريته﴾ أي: من نرية إبراهيم، وقال القراء: من نرية نوح. واختاره ابن جرير الطبري، والقشيري، وابن عطية، واختار الأول الزجاج، واعترض عليه بأنه عد من هذه النرية يونس ولوطاً، وما كانا من نرية إبراهيم، فإن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم، وانتصب ﴿داود وسليمان﴾ يفعل مضمر أي وهدينا من نريته داود وسليمان، وكذلك ما بعدهما، وإنما عد الله سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التي عندها على إبراهيم، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء، ومعنى «من قبل» في قوله: ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾ أي: من قبل إبراهيم، والإشارة بقوله: ﴿وكنك﴾ إلى مصدر الفعل المتأخر أي: ومثل ذلك الجزء ﴿نجزي المحسنين﴾، ﴿وليس﴾ قال الضحاك: هو من ولد إسماعيل، وقال القتيبي: هو من سبط يوشع بن نون، وقرأ الأعرج والحسن، وقاتدة ﴿وليس﴾ بوصل الهمزة، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وعاصم «واليسع» مخففاً، وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بلامين، وكذا قرأ الكسائي، ورد القراءة الأولى، ولا وجه للرد فهو اسم أعجمي، والعجمة لا تؤخذ بالقياس، بل تؤدي على حسب السماع، ولا يمتنع أن يكون في الاسم لغتان للعجم، أو تغيره العرب تغييرين. قال المهنوي: من قرأ بلام واحدة فالاسم يسع والألف واللام مزيتان، كما في قول الشاعر:

رايت الوليد بن اليزيد مباركاً شبيداً بأعباء الخلافة كامله
ومن قرأ بلامين فالاسم ليسع، وقد تروهم قوم أن اليسع هو إلياس وهو وهم، فإن الله أفرد كل واحد منهما، وقال وهب: اليسع صاحب إلياس، وكنوا قبل يحيى وعيسى وذكرياً؛ وقيل: إلياس هو إدريس، وهذا غير صحيح لأن إدريس جد نوح وإلياس من نريته؛ وقيل: إلياس هو الخضر؛ وقيل: لا بل اليسع هو الخضر ﴿وكلاً فضلنا على العالمين﴾ أي: كل واحد فضلناه بالنبوة على عالمي زمانه، والجملة معترضة. قوله: ﴿ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم﴾ أي: هدينا، «ومن» للتبعيض أي هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴿ولجئناهم﴾ معطوف على فضلنا، والاجتباء: الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار، مشتق من جبيت الماء في الحوض جمعته، فالاجتباء ضم الذي تجتبه إلى خاصيتك. قال الكسائي: جبيت الماء في الحوض جبي مقصور، والجابية الحوض، قال الشاعر:

كجابية الشيخ العراقي فتهق

والإشارة بقوله: ﴿ذلك هدى الله﴾ إلى الهداية والتفضيل والاجتباء المفهومة من الأفعال السابقة ﴿يهدي به﴾ الله ﴿من يشاء من عباده﴾ وهم الذين وفقهم للخير، ولتباع الحق ﴿ولو أشركوا﴾ أي: هؤلاء المذكورون بعبادة غير الله ﴿لحبط عنهم﴾ من حسناتهم ﴿ما كانوا يعملون﴾ والحبوط البطلان. وقد تقدم تحقيقه في البقرة، والإشارة

واحداً كل واحد منفرد عن أهله وماله، وما كان يعبيده من دون الله، فلم ينتفع بشيء من ذلك ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: على الصفة التي كنتم عليها عند خروجكم من بطون أمهاتكم، والكاف نعت مصدر محذوف: أي جئتمونا مجيئاً مثل مجيئكم عند خلقنا لكم، أو حال من ضمير فرادى: أي مشابهين ابتداء خلقنا لكم ﴿وَوَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: أعطيناكم، والخول ما أعطاه الله للإنسان من متاع الدنيا: أي تركتم ذلك خلفكم لم تاتونا بشيء منه، ولا انتفعت به بوجه من الوجوه ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ لِلَّذِينَ عِبَدْتُمُوهُمْ وَقُلْتُمْ: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: 3] و ﴿زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ الله يستحقون منكم العبادة كما يستحقها. قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾. قرأ نافع والكسائي وحفص بنصب بينكم على الظرفية، وفاعل تقطع محذوف: أي تقطع الوصل بينكم أنتم وشركاؤكم، كما يدل عليه: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾. وقرأ الباقر بالرفع على إسناد التقطع إلى البين: أي وقع التقطع بينكم، ويجوز أن يكون معنى قراءة النصب معنى قراءة الرفع في إسناد الفعل إلى الظرف، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفاً. وقرأ ابن مسعود: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ﴾ على إسناد الفعل إلى ما: أي الذي بينكم ﴿وَوَضِلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الشركاء والشرك، وحيل بينكم وبينهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قال: هم الكفار لم يؤمنوا بقدرة الله، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير قد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء. قالت اليهود: يا محمد أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً، فأنزل الله ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء. قالها مشركو قريش. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي قال: قال فنحاص اليهودي ما أنزل الله على محمد من شيء فنزلت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة قال: نزلت في مالك بن الصيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر، قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف، فخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ وكان حبراً سميناً، فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء»، فقال له أصحابه: ويحك ولا على موسى؟ قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فنزلت. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَارِيضَ﴾ قال: اليهود، وقوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ

على الله في شيء من الأشياء﴾ ﴿أَوْ قَالَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أي: والحال أنه لم يوح إليه شيء، وقد صان الله أنبياءه عما تزعمون عليهم، وإنما هذا شأن الكذابين رؤوس الإضلال: كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وسجاح، قوله: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ معطوف على ﴿مَنْ افْتَرَىٰ﴾ أي: ومن أظلم ممن افترى أو ممن قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء، أو ممن قال سأنزل مثل ما أنزل الله، وهم القائلون: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: 31] وقيل: هو عبد الله بن أبي سرح، فإنه كان يكتب الوحي لرسول ﷺ، فأملى عليه رسول ﷺ: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ [المؤمنون: 14] فقال عبد الله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت» فشك عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلي كما أوحى إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال، ثم ارتد عن الإسلام، ولحق بالمشركين، ثم أسلم يوم الفتح كما هو معروف، قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ لِلظَّالِمِينَ فِي غَمْرَاتٍ لِّمَوْتٍ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والمراد كل ظالم، ويدخل فيه الجاحدين لما أنزل الله، والمذمومون للنبوات افتراء علي الله بخولاً أولياء، وجواب لو محذوف: أي لرايت أمراً عظيماً، والغمرات جمع غمرة: وهي الشدة، وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيتها، ومنه غمرة الماء، ثم استعملت في الشدائد، ومنه غمرة الحرب. قال الجوهر: والغمرة الشدة والجمع غمر: مثل نوبة ونوب، وجملة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بِأَسْطُورٍ أَيْدِيهِمْ﴾ في محل نصب: أي والحال أن الملائكة بأسطوا أيديهم، لقبض أرواح الكفار؛ وقيل للعذاب وفي أيديهم مطارق الحديد، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنْبَاسَهُمْ﴾ [الأنفال: 50]. قوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: قاتلين لهم أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التي وقعت فيها، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم، وسلموها إلينا لنقيضها ﴿الْيَوْمَ تَجُزُّونَ عَذَابَ الْهَوْنِ﴾ أي: اليوم الذي تقبض فيه أرواحكم، أو أرادوا باليوم الوقت الذي يعذبون فيه الذي مبدؤه عذاب القبر، والهون والهوان بمعنى: أي اليوم تجزون عذاب الهوان الذي تصيرون به في إهانة وذلة بعدما كنتم فيه من الكبر والتعظيم، والباء في ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ للسببية: أي بسبب قولكم هذا من إنكار إنزال الله كتبه على رسله والإشراك به ﴿وَوَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن التصديق لها والعمل بها، فكان ما جزيتم به من عذاب الهون: ﴿جُزَاءً وَفَاقاً﴾ [النبا: 26]. قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ﴾ قرأ أبو حيوة فرادى بالتونين، وهي لغة تميم، وقرأ الباقر بالفتح التانث للجمع فلم ينصرف. وحكى ثعلب «فراده» بلا تنوين مثل: ثلاث ورباع، وفرادى جمع فرد كسكارى جمع سكران، وكسالى جمع كسلان، والمعنى: جئتمونا منفردين واحداً

تعلموا انتم ولا آبؤكم قال: هذه للمسلمين. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ قال: هم اليهود آتاهم الله علماً فلم يقتدوا به، ولم يأخذوا به ولم يعملوا به، فذمهم الله في علمهم ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَآرِكًا﴾ قال: هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، عنه قال: ﴿مُصْنَقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب التي قد خلت قبله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَتَنْتَظِرُنَّ آَمَ الْقُرَى﴾ قال: مكة ومن حولها. قال: يعني ما حولها من القرى إلى المشرق والمغرب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي قال: إنما سميت أم القرى لأن أول بيت وضعت بها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَتَنْتَظِرُنَّ آَمَ الْقُرَى﴾ قال: هي مكة، قال: وبلغني أن الأرض لحيت من مكة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء بن دينار نحوه. وأخرج الحاكم في المستدرک، عن شرحبيل بن سعد قال: نزلت في عبد الله بن أبي سرح ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كِتَابًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ الآية، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة فرأى إلى عثمان أخيه من الرضاة، فغيبه عنده حتى اطمان أهل مكة، ثم استأمن له. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي خلف الأعمى: أنها نزلت في عبد الله بن أبي سرح، وكذلك روى ابن أبي حاتم عن السدي. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كِتَابًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ قال: نزلت في مسيلمة الكذاب ونحوه ممن دعا إلى مثل ما دعا إليه ﴿وَمَنْ قَالَ سَآئِزٌ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة لما نزلت: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عِرفًا، فَالْعَاصِفَاتُ عَصْفًا﴾ [المرسلات: 1، 2] قال: النضر وهو من بني عبد الدار: والطاحنات طحناً والعاجنات عجنًا قولاً كثيراً، فانزل الله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كِتَابًا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿غَمْرَاتُ الْمَوْتِ﴾ قال: سكرات الموت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ هذا عند الموت، والبسط: الضرب ﴿يُضْرَبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَنْبَآهُمُ﴾ [الأنفال: 50، محمد: 27] وأخرج أبو الشيخ عنه قال: في الآية هذا ملك الموت عليه السلام. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاک في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ قال: بالعذاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿عَذَابُ الْهُونِ﴾ قال: الهوان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة قال: قال النضر بن الحارث: سوف تشفع

لي اللات والعزى، فنزلت ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبیر، في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى﴾ الآية، قال: كيوم ولد يرد عليه كل شيء نقص منه يوم ولد. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَوَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ قال: ما حولناكم. قال: من المال والخدم ﴿وَوَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ قال: في الدنيا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قال: ما كان بينهم من الوصل. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قال: تواصلكم في الدنيا.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالْغُورِ﴾ مَجْرُجٌ أَمْرٌ مِنَ الْغَيْبِ وَمَجْرُجُ الْغَيْبِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَالِقُ الْغُورِ ﴿١٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَمَلُ الْإِيلِ سَكَا وَالْأَسَسِ وَالْأَمْرُ حَسْبًا ذَلِكَ تَنْبِيْهُ الْغُورِ الْغُورِ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ أَنْشُومَ لِهَيْتُكُمْ بِهَا فِي غُلَّتِ الْوَرْدِ وَالْبَرْقِ قَدْ فَصَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْفٍ قَدْ فَصَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْهَمُونَ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَبِيرًا يُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ يَنْبُتُ لَهَا مِنْهَا زَوْجَانِ وَجَعَلْنَا مِنْ أَصْنَبِ وَالزَّيْتُونِ وَالزَّيْتُونِ شَجَرًا وَمِنْ شَجَرِهَا أَشْجَارُهَا إِلَى شَرْعَةٍ إِذَا أَمَرَ وَتَوَوَّءَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ هذا شروع في تعداد عجائب صنعه تعالى، وذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه، والفاق الشق: أي هو سبحانه فالق الحب فيخرج منه النبات، وفالق النوى فيخرج منه النوى فيخرج منه الشجر؛ وقيل: معنى: ﴿فالق الحب والنوى﴾ الشق الذي فيها من أصل الخلق؛ وقيل معنى: ﴿فالق﴾ خالق، والنوى: جمع نواة يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر والمشمش والخوخ. قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ هذه الجملة خبر بعد خبر، فهي في محل رفع؛ وقيل: هي جملة مفسرة لما قبلها، لأن معناها معناه، والأول: أولى، فإن معنى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يخرج الحيوان من مثل النطفة والبيضة وهي ميتة. ومعنى: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ مخرج النطفة والبيضة وهي ميتة من الحي، وجملة: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوفة على ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ عطف جملة اسمية على جملة فعلية ولا ضمير في ذلك؛ وقيل: معطوفة على (فالق) على تقدير أن جملة: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ مفسرة لما قبلها، والأول: أولى، والإشارة: ﴿بِئْسَ لَكُمْ﴾ إلى صانع ذلك الصنع العجيب المذكور سابقاً ﴿وَاللَّهُ﴾ خبره. والمعنى: أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستجمع لكل كمال، والمفضل بكل إفضال، والمستحق لكل حمد وإجلال ﴿فَإِنِّي تَوْفُكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن الحق مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته. قوله: ﴿فالق الإصباح﴾ مرتفع على أنه من جملة

الذي انشاكم من نفس واحدة؟ أي: آم عليه السلام كما تقدم، وهذا نوع آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته ﴿فمستقرٌ ومستودعٌ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج والنخعي بكسر القاف، والباقون بفتحها، وهما مرفوعان على أنهما مبتدآن وخبرهما محذوف، والتقدير: فمنكم مستقرٌ أو فلكم مستقرٌ، التقدير الأول على القراءة الأولى، والثاني على الثانية: أي فمنكم مستقرٌ على ظهر الأرض، أو فلكم مستقرٌ على ظهرها، ومنكم مستودع في الرحم، أو في باطن الأرض، أو في الصلب؛ وقيل المستقر في الرحم، والمستودع في الأرض؛ وقيل المستقر في القبر، قال القرطبي: وأكثر أهل التفسير يقولون المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما كان في الصلب؛ وقيل المستقر من خلق، والمستودع من لم يخلق؛ وقيل الاستيداع إشارة إلى كونهم في القبور إلى المبعث.

ومما يدل على تفسير المستقر بالكون على الأرض قول الله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين﴾ [البقرة: 36]، وذكر سبحانه هاهنا ﴿يفقهون﴾ وفيما قبله ﴿يعلمون﴾؛ لأن في إنشاء الأنفس من نفس واحدة وجعل بعضها مستقرًا وبعضها مستودعًا من الغموض والدقة ما ليس في خلق النجوم للاهتمام، فناسبه ذكر الفقه لإشعاره بمزيد تنقيح وإسعاد فكر. قوله: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء﴾ هذا نوع آخر من عجائب مخلوقاته. والماء هو ماء المطر، وفي ﴿فأخرجنا به﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم إظهارًا للعناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه، والضمير في ﴿به﴾ عائد إلى الماء، و﴿نبات كل شيء﴾ يعني: كل صنف من أصناف النبات المختلفة؛ وقيل: المعنى رزق كل شيء، والتفسير الأول: أولى. ثم فصل هذا الإجمال فقال: ﴿فأخرجنا منه خضرًا﴾ قال الأخفش: أي أخضر. والخضر: رطب البقول، وهو ما يتشعب من الأغصان الخارجة من الحبة؛ وقيل: يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب ﴿نخرج منه حبا﴾ هذه الجملة صفة لخضرًا: أي نخرج من الأغصان الخضر حبا متراكبًا: أي مركبًا بعضها على بعض كما في السنابل ﴿ومن النخل﴾ خبر مقدم، و﴿من طلعها﴾ بدل منه، وعلى قراءة من قرأ يخرج منه حب يكون ارتفاع قنوان على أنه معطوف على حب، وأجاز الفراء في غير القرآن قنوانًا عطفاً على حباً، وتميم يقولون قنيان. وقرئ بضم القاف وفتحها باعتبار اختلاف اللغتين لغة قيس ولغة أهل الحجاز. والطلع: الكفري قبل أن ينشق عن الإغريض، والإغريض يسمى طلعاً أيضاً. والقنوان: جمع قنو، والفرق بين جمعه وتثنيته أن المثني مكسورة النون، والجمع على ما يقتضيه الأعراب، ومثله صنوان. والقنو: العنق. والمعنى: أن القنوان أصله من الطلع. والعنق: هو عنقود النخل، وقيل القنوان: الجمار. والدانية: القرية التي ينالها القائم والقاعد. قال الزجاج: المعنى منها دانية ومنها بعيدة فحذف، ومثله: ﴿سرايل تقيكم الحر﴾

أخبار «إن» في ﴿إن الله فائق الحب والنوى﴾ وقيل: هو نعت للاسم الشريف في ﴿نلكم الله﴾ وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر ﴿فائق الإصباح﴾ بفتح الهمزة، وقرأ الجمهور بكسرها، وهو على قراءة الفتح جمع صبح، وعلى قراءة الكسر مصدر أصبح، والصبح والإصباح: أوّل النهار، وكذا الإصباح، وقرأ النخعي ﴿فلق الإصباح﴾ بفعل وهمزة مكسورة. والمعنى في ﴿فائق الإصباح﴾ أنه شاق الضياء عن الظلام وكاشفه، أو يكون المعنى على حذف مضاف: أي فائق ظلمة الإصباح، وهي الغيبش، أو فائق عمود الفجر عن بياض النهار، لأنه يبدو مختلطاً بالظلمة ثم يصير أبيض خالصاً. وقرأ الحسن وعيسى بن عمر، وعاصم وحمزة، والكسائي ﴿وجعل الليل سكناً﴾ حملاً على معنى ﴿فائق﴾ عند حمزة والكسائي، وأما عند الحسن وعيسى فمفعلاً على فلق. وقرأ الجمهور، وجاعل عطفاً على فائق. وقرئ فائق وجاعل بنصبهما على المدح. وقرأ يعقوب ﴿وجاعل الليل ساكناً، والسكن: محل السكون، من سكن إليه: إذ اطمأن إليه، لأنه يسكن فيه الناس عن الحركة في معاشهم، ويستريحون من التعب والنصب. قوله: ﴿وللشمس والقمر حساباً﴾ بالنصب على إضمار فعل: أي وجعل الشمس والقمر، وبالرفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره الشمس والقمر مجعولان حساباً، وبالجر عطفاً على الليل على قراءة من قرأ وجاعل الليل، قال الأخفش: والحسبان جمع حساب مثل شهبان وشهاب. وقال يعقوب: حسابان مصدر حسبت الشيء أحسبه حسباً وحسباناً. والحساب: الاسم؛ وقيل الحسبان بالضم مصدر حسب بالفتح، والحسبان بالكسر مصدر حسب. والمعنى: جعلهما محل حساب تتعلق به مصالح العباد وسيرهما على تقدير لا يزيد ولا ينقص ليدل عباده بذلك على عظيم قدرته وبديع صنعه؛ وقيل الحسبان: الضياء، وفي لغة أن الحسبان: النار، ومنه قوله تعالى: ﴿ويرسل عليها حساباً من السماء﴾ [الكهف: 40] والإشارة بـ ﴿نلك تقدير العزيز للعليم﴾ إلى الجعل المدلول عليه بجاعل أو بجعل على القراءتين. والعزيز: القاهر الغالب. والعليم: كثير العلم، ومن جملة معلوماته تسييرهما على هذا التدبير المحكم. قوله: ﴿وهو الذي جعل لكم للنجوم لتتبهتوا بها﴾ أي: خلقها للاهتمام بها ﴿في ظلمات﴾ الليل عند المسير في ﴿البرز والبحر﴾ وإضافة الظلمات إلى البرز والبحر لكونها ملابسة لهما، أو المراد بالظلمات: اشتباه طرقهما التي لا يهتدى فيها إلا بالنجوم، وهذه إحدى منافع النجوم التي خلقها الله لها، ومنها ما ذكره الله في قوله: ﴿وحفظاً من كل شيطان مارد﴾ [الصفات: 7]. ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ [الملك: 5]، ومنها جعلها زينة للسماء، ومن زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على الله الفرية ﴿قد فصلنا الآيات﴾ التي بينها بياناً مفصلاً لتكون أبلغ في الاعتبار ﴿للقوم يعلمون﴾ بما في هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته. قوله: ﴿وهو

الناس الأحياء من النطف، والنطفة ميتة تخرج من الناس الأحياء، ومن الأنعام والنبات كذلك أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿فَأَنى تَوَفُّكُونَ﴾** أي: فكيف تكذبون. وأخرج أيضاً عن الحسن قال أنى تصرفون. وأخرج أيضاً عن ابن عباس في **﴿فَالِقَ الْإِصْبَاحِ﴾** قال: خلق الليل والنهار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: يعني بالإصباح ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في **﴿فَالِقَ الْإِصْبَاحِ﴾** قال: إضاءة الفجر. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: **﴿فَالِقَ الْإِصْبَاحِ﴾** قال: فالق الصبح. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: **﴿وَجَاعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾** قال: سكن فيه كل طير ودابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَاللَّشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حَسْبَانَا﴾** يعني عند الأيام والشهور والسنين، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾** قال: يضل الرجل وهو في الظلمة، والجور عن الطريق. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، والخطيب في كتاب النجوم، عن عمر بن الخطاب قال: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في بركم وبحركم، ثم امسكوا، فإنها والله ما خلقت إلا زينة للسماء ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن مردويه، والخطيب، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا».

وقد ورد في استحباب مراعاة الشمس والقمر لذكر الله سبحانه لا لغير ذلك أحاديث: منها عند الحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبّ عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر لذكر الله». وأخرج ابن شاهين والطبراني، والحاكم، والخطيب، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «فذكر نحوه». وأخرج أحمد في الزهد، والخطيب، عن أبي بردة نحوه. وأخرج الخطيب في كتاب النجوم، عن أبي هريرة نحو حديثه الأول مرفوعاً. وأخرج الحاكم في تاريخه، والبيهقي بسند ضعيف، عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: التاجر الأمين، والإمام المقتصد، وراعي الشمس بالنهار». وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن سلمان الفارسي قال: «سبعة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، فذكر منهم الرجل الذي يراعي الشمس لمواقيت الصلاة». فهذه الأحاديث مقيدة بكون المراعاة لذكر الله، والصلاة، لا لغير ذلك. وقد جعل الله انقضاء وقت صلاة الفجر طلوع الشمس. وأول صلاة الظهر زوالها، ووقت العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية. ووقت المغرب غروب

[النحل: 81] وخصّ الدانية بالذكر لأن الغرض من الآية بيان القدر والامتنان، وذلك فيما يقرب تناوله أكثر. قوله: **﴿وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾** قرأ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، والاعمش، وعاصم في قراءته الصحيحة عنه برفع جنات، وقرأ الباقر بالنصب. وآنكر القراءة الأولى أبو عبيدة، وأبو حاتم، حتى قال أبو حاتم هي محال، لأن الجنات لا تكون من النخل. قال النحاس: ليس تأويل الرفع على هذا، ولكنه رفع بالابتداء، والخبر محذوف: أي ولهم جنات كما قرأ جماعة من القراء **﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾** [الواقعة: 22] وقد أجاز مثل هذا سيبويه والكسائي والفراء، وأما على النصب فقيل: هو معطوف على **﴿نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ﴾** أي: وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب، أو النصب بفعل يقدّر متأخراً: أي وجنات من أعناب أخرجناها، وهكذا القول في انتصاب الزيتون والرمان: وقيل: هما منصوبان على الاختصاص لكونهما عزيزين، **﴿مُشْتَبِهًا﴾** منتصب على الحال: أي كل واحد منهما يشبه بعضه بعضاً في بعض أوصافه، ولا يشبه بعضه بعضاً في البعض الآخر؛ وقيل: إن أحدهما يشبه الآخر في الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن وباعتبار حجمه، ولا يشبه أحدهما الآخر في الطعم؛ وقيل خصّ الزيتون والرمان لقرب منابتهما من العرب كما في قول الله سبحانه: **﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾** [الغاشية: 17]، ثم أمرهم سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر، وإلى يئنه إذا أينع. والثمر في اللغة: جنى الشجر. واليئان: الناضج الذي قد أدرك وحن قطافه. قال ابن الأنباري: الينع جمع يانع، كركب وراكب. وقال الفراء: أينع احمر. قرأ حمزة والكسائي «ثمره بضم الثاء والميم، وقرأ الباقر بفتحها، إلا الاعمش فإنه قرأ ثمره بضم الثاء، وسكون الميم تخفيفاً. وقرأ محمد بن السميع، وابن محيصن، وابن أبي إسحاق «وينعه» بضم الياء التحتية. قال الفراء: هي لغة بعض أهل نجد. وقرأ الباقر بفتحها، والإشارة بقوله: **﴿إِنْ فِي لَكُمْ﴾** إلى ما تقدّم ذكره مجعلاً ومفصلاً **﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** بالله استدلالاً بما يشاهدونه من عجائب مخلوقاته التي قصها عليهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله تعالى **﴿إِنْ أَفَلِقَ الْحَبَّ وَالنَّوَى﴾** يقول: خلق الحب والنوى. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: يفلق الحب والنوى عن النبات. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: الشقان اللذان فيهما. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن أبي مالك نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه في قوله: **﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾** قال: النخلة من النواة والسنبلة من الحبة **﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾** قال: النواة من النخلة والحبة من السنبلة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد: **﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾** قال:

الشمس. وورد في صلاة العشاء: «أن النبي ﷺ كان يصلحها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر» وبها يعرف أوائل الشهور وأواسطها وأواخرها. فمن راعى الشمس والقمر بهذه الأمور فهو الذي أراده ﷺ، ومن راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد، وهكذا النجوم، ورد النهي عن النظر فيها كما أخرجه ابن مروي، والخطيب، عن علي قال: نهاني رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم. وأخرج ابن مروي، والمرهبي، والخطيب، عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم. وأخرج الخطيب، عن عائشة مرفوعاً مثله. وأخرج الطبراني، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نكر أصحابي فامسكوا، وإذا نكر القدر فامسكوا، وإذا نكرت النجوم فامسكوا». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن مروي، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء والتفكير والاعتبار. وما ورد في جواز النظر في النجوم فهو مقيد بالاهتداء والتفكير والاعتبار كما يدل عليه حديث ابن عمر السابق، وعليه يحمل ما روى عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه: أنه سأل رجلاً عن حساب النجوم، فجعل الرجل يتحرج أن يخبره، فقال عكرمة: سمعت ابن عباس يقول: علم عجز الناس عنه ووددت أني علمته. وقد أخرج أبو داود، والخطيب، عن سمرة بن جندب، أنه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أما بعد، فإن ناساً يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، وإنهم قد كذبوا، ولكنها آيات من آيات الله يعبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة». وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما في كسوف الشمس والقمر عن النبي ﷺ: «إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله بهما عباده». وأخرج ابن مروي، عن أبي أمامة مرفوعاً: «إن الله نصب آدم بين يديه، ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت نريته من صلبه حتى ملأوا الأرض» فهذا الحديث هو معنى ما في الآية، وهو الذي انشاكم من نفس واحدة». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله: «فمستقر ومستودع» قال: المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما استودع في أصلاب الرجال والدواب. وفي لفظ: المستقر ما في الرحم، وعلى ظهر الأرض ووطنها مما هو حي ومما قد مات. وفي لفظ المستقر ما كان في الأرض، والمستودع ما كان في الصلب. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن مسعود في الآية: قال مستقرها في الدنيا ومستودعها في الآخرة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود قال:

وَجَعَلُوا يَوْمَ شُرَكَاءَ الْإِنِّ رُفَقَاءَهُمْ وَخَرُّوا لَهُمْ يَبِينَ وَبَنِينَ يَتَّبِعُهُمْ سُبْحَتُهُمْ وَتَمَلُّوا عَنْهُمْ يَسُوتُونَ ﴿١٥﴾ بَوَيْحَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُمْ وَكَلٌّ وَكَرَّ تَكُنْ لَهُمْ صَاحِبَةٌ وَخَلَقْ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ كَمَا أَنَّهُ رَزَقَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَقْبَدُهُ رَمَوْا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَصَبَّحُوا ﴿١٧﴾ لَا تَذَرِكُهُ الْآبَتُونَ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبَتِينَ وَهُوَ الْغَلِيظُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

هذا الكلام يتضمن ذكر نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم. قال النحاس: الجن المفعول الأول، وشركاء المفعول الثاني كقوله تعالى: «وجعلكم ملوكاً» [المائدة: 20] «رجعلت له ما لا ممدوداً» [الم نشر: 12] وأجاز الفراء: أن يكون الجن بدلاً من شركاء ومفسراً له. وأجاز الكسائي رفع الجن بمعنى هم الجن، كأنه قيل: من هم؟ فقيل الجن، وبالرفع قرأ يزيد بن أبي قطيب، وأبو حيان، وقرأ بالجر على إضافة شركاء إلى الجن للبيان. والمعنى: أنهم جعلوا شركاء لله فعبدوهم كما عبده، وعظموهم كما عظموه. وقيل المراد بالجن هاهنا الملائكة لاجتماعهم: أي استتارهم، وهم الذين قالوا: للملائكة بنات الله، وقيل: نزلت في الزنادقة الذين قالوا: إن الله تعالى وإبليس أخوان، فالله خالق الناس والدواب، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب. وروي ذلك عن الكلبي، ويقرب من هذا قول المجوس، فإنهم قالوا: للعالم صانعان هما الرب سبحانه والشیطان. وهكذا القائلون: كل خير من النور، وكل شر من الظلمة، وهم المانوية. قوله: «وخلقهم» جملة حالية بتقدير قد: أي وقد علموا أن الله خلقهم، أو خلق ما جعلوه شريكاً لله. قوله: «وخزقوا له بنين وبنات» قرأ نافع بالتشديد على التكثير، لأن المشركين ادَّعوا أن الملائكة بنات الله، والنصارى ادَّعوا أن المسيح ابن الله، واليهود ادَّعوا أن عزيزاً ابن الله، فكثر ذلك

الشمس. وورد في صلاة العشاء: «أن النبي ﷺ كان يصلحها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر» وبها يعرف أوائل الشهور وأواسطها وأواخرها. فمن راعى الشمس والقمر بهذه الأمور فهو الذي أراده ﷺ، ومن راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد، وهكذا النجوم، ورد النهي عن النظر فيها كما أخرجه ابن مروي، والخطيب، عن علي قال: نهاني رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم. وأخرج ابن مروي، والمرهبي، والخطيب، عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم. وأخرج الخطيب، عن عائشة مرفوعاً مثله. وأخرج الطبراني، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نكر أصحابي فامسكوا، وإذا نكر القدر فامسكوا، وإذا نكرت النجوم فامسكوا». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن مروي، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء والتفكير والاعتبار. وما ورد في جواز النظر في النجوم فهو مقيد بالاهتداء والتفكير والاعتبار كما يدل عليه حديث ابن عمر السابق، وعليه يحمل ما روى عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه: أنه سأل رجلاً عن حساب النجوم، فجعل الرجل يتحرج أن يخبره، فقال عكرمة: سمعت ابن عباس يقول: علم عجز الناس عنه ووددت أني علمته. وقد أخرج أبو داود، والخطيب، عن سمرة بن جندب، أنه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أما بعد، فإن ناساً يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، وإنهم قد كذبوا، ولكنها آيات من آيات الله يعبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة». وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما في كسوف الشمس والقمر عن النبي ﷺ: «إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله بهما عباده». وأخرج ابن مروي، عن أبي أمامة مرفوعاً: «إن الله نصب آدم بين يديه، ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت نريته من صلبه حتى ملأوا الأرض» فهذا الحديث هو معنى ما في الآية، وهو الذي انشاكم من نفس واحدة». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله: «فمستقر ومستودع» قال: المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما استودع في أصلاب الرجال والدواب. وفي لفظ: المستقر ما في الرحم، وعلى ظهر الأرض ووطنها مما هو حي ومما قد مات. وفي لفظ المستقر ما كان في الأرض، والمستودع ما كان في الصلب. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن مسعود في الآية: قال مستقرها في الدنيا ومستودعها في الآخرة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود قال:

من كفرهم فشدّ الفعل لمطابقة المعنى. وقرأ الباقر بالتخفيف. وقرئ ﴿حرفوا﴾ من التحريف: أي زوّروا. قال أهل اللغة: معنى خرقوا اختلقوا وافتعلوا وكذبوا، يقال اختلق الإفك، واخترقه وخرقه، أو أصله من خرق الثوب: إذا شقه: أي اشتقوا له بنين وبنات. قوله: ﴿بغير علم﴾ متعلق بمحذوف هو حال: أي كائنين بغير علم، بل قالوا ذلك عن جهل خالص، ثم بعد حكاية هذا الضلال البين، والبهت القطيع من جعل الجن شركاء لله، وإثبات بنين وبنات له، نزه الله نفسه، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ وقد تقدّم الكلام في معنى سبحانه. ومعنى «تعالى»: تباعد وارتفع عن قولهم الباطل الذي وصفوه به. قوله: ﴿يبيع السموات والأرض﴾ أي: مبدعهما، فكيف يجوز أن يكون له ولد؟ وقد جاء البيوع بمعنى المبدع كالسميع بمعنى المسمع كثيراً، ومنه قول عمرو بن معدي كرب:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرّقني وأصحابي مجموع أي: المسمع، وقيل: هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل، والأصل ببيع سمواته وأرضه. وإجاز الكسائي خفضه على النعت لله. والظاهر أن رفعه على تقدير مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ وخبره ﴿أنى يكون له ولد؟﴾ وقيل: هو مرفوع على أنه فاعل «تعالى»، وقرئ بالنصب على المدح، والاستفهام في ﴿أنى يكون له ولد؟﴾ للإنكار والاستبعاد: أي من كان هذا وصفه، وهو أنه خالق السموات والأرض وما فيهما، كيف يكون له ولد؟ وهو من جملة مخلوقاته، وكيف يتخذ ما يخلقه ولداً، ثم بالغ في نفي الولد، فقال: ﴿ولم تكن له صاحبة﴾ أي: كيف يكون له ولد والحال أنه لم تكن له صاحبة، والصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد، وجملة: ﴿وخلق كل شيء﴾ لتقرير ما قبلها، لأن من كان خالقاً لكل شيء استحال منه أن يتخذ بعض مخلوقاته ولداً ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ لا تخفى عليه من مخلوقاته خافية، والإشارة بقوله ﴿لكم﴾ إلى الأوصاف السابقة، وهو في موضع رفع على الابتداء وما بعده خبره، وهو الاسم الشريف، ﴿وأيكم﴾ خبر ثان، و﴿إله إلا هو﴾ خبر ثالث، و﴿خالق كل شيء﴾ خبر رابع، ويجوز أن يكون ﴿الله ربكم﴾ بدلاً من اسم الإشارة، وكذلك ﴿إله إلا هو خالق كل شيء﴾ خبر المبتدأ، ويجوز ارتفاع خالق على إضمار مبتدأ، وإجاز الكسائي والفراء النصب فيه ﴿فاعبدوه﴾ أي: من كانت هذه صفاته، فهو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شيء. قوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ الأبصار: جمع بصر، وهو الحاسة، وإدراك الشيء عبارة عن الإحاطة به. قال الزجاج أي لا تبلغ كنه حقيقته، فالمنفي هو هذا الإدراك لا مجرد الرؤية. فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا شك فيه ولا شبهة، ولا يجهل إلا من يجهل السنة المطهرة جهلاً عظيماً، وأيضاً قد تقرّر في علم البيان، والميزان أن رفع الإيجاب الكلي سلب جزئي؛ فالمعنى لا تدركه بعض الأبصار وهي

أبصار الكفار، هذا على تسليم أن نفي الإدراك يستلزم نفي الرؤية، فالمراد به هذه الرؤية الخاصة، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب، والأول تخلفه الجزئية، والتقدير: لا تدركه كل الأبصار بل بعضها، وهي أبصار المؤمنين. والمصير إلى أحد الوجهين متعين لما عرّفناك من تواتر الرؤية في الآخرة، واعتضادها بقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ [القيامة: 22] الآية. قوله: ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ أي: يحيط بها ويبلغ كنهها لا تخفى عليه منها خافية، وخص الأبصار ليجانس ما قبله. وقال الزجاج: في هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار: أي لا يعرفون كيفية حقيقة البصر، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه انتهى. ﴿وهو اللطيف﴾ أي: الرفيق بعباده: يقال لطف فلان بفلان: أي رفق به، واللفظ في العمل: الرفق فيه. واللفظ من الله التوفيق والعصمة، والطفه بكذا: إذا أبهّ. والملاطفة: المبالغة. هكذا قال الجوهري وابن فارس، و﴿الخبير﴾ المختبر بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم﴾ قال: والله خلقهم ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾ قال: تخرّصوا. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله ﴿وخرقوا﴾ قال: جعلوا؛ وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال كذبوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والعقيلي، وابن عدي وأبو الشيخ، وابن مردويه بسند ضعيف، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ قال: لو أن الإنس والجن والملائكة والشياطين منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً. قال الذهبي: هذا حديث منكر انتهى. وفي إسنادة عطية العوفى وهو ضعيف. وأخرج الترمذي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه. قال عكرمة: فقلت له اليس الله يقول: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ قال: لا لم لك ذلك نوره إذا تجلّى بنوره لا يدركه شيء. وفي لفظ «إنما ذلك إذا تجلّى بكيفيته لم يرق له بصر». وأخرج ابن جرير عنه قال: لا يحيط بصر أحد بالله. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في كتاب الرؤية، عن الحسن في قوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ قال: في الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن إسماعيل بن علية مثله.

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ كَمْ أَنْبَأَ فَلْيَنْفَعِي. وَنَعَى فَلْيَبْهَأَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٦٦﴾ وَكَذَلِكَ نَمُوتُ الْآيَاتِ وَيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلَيَبْهَأُ لِقَوْمٍ يُكْفَرُونَ ﴿١٦٧﴾ أَلَيْسَ مَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الشِّرْكِينَ ﴿١٦٨﴾ زَلَّ سَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا

إلا أنه بلغ. وحكى عن المبرد أنه قرأ ﴿وليقولوا﴾ بإسكان اللام، فيكون فيه معنى التهديد: أي وليقولوا ما شأؤوا فإن الحق بين، وفي هذا اللفظ أصله درس يدرس دراسة، فهو من الدرس، وهو القراءة؛ وقيل من درسته: أي نلته بكثرة القراءة، وأصله درس الطعام: أي داسه. والدياس: الدراس بلغة أهل الشام؛ وقيل أصله من درست الثوب أدسه درسا: أي أخلقته، ودرست المرأة درسا: أي حاضت. ويقال: إن فرج المرأة يكنى أبا دراس وهو من الحيض، والدرس أيضا: الطريق الخفي. وحكى الأصمعي: بغير لم يدرس: أي لم يركب. وروى عن ابن عباس وأصحابه، وأبي، وابن مسعود، والاعمش، أنهم قرؤوا «درس» أي: درس محمد الآيات، وقرئ «درست» وبه قرأ زيد بن ثابت: أي الآيات على البناء للمفعول، و«دارست» أي دارست اليهود محمداً، واللام في «لنبيئته» لام كي: أي نصرفت الآيات لكي نبيئنه لقوم يعلمون، والضمير راجع إلى الآيات؛ لأنها في معنى القرآن، أو إلى القرآن، وإن لم يجر له نكر؛ لأنه معلوم من السياق أو إلى التبيين المثلل عليه بالفعل. قوله: ﴿اتبع ما أوحى إليك من ربك﴾ أمره الله باتباع ما أوحى إليه وأن لا يشغل خاطره بهم، بل يشتغل باتباع ما أمره الله، وجملة: ﴿لا إله إلا هو﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، لقصد تأكيد إيجاب الاتباع ﴿واعرض﴾ معطوف على ﴿اتبع﴾ أمره الله بالإعراض عن المشركين بعدما أمره باتباع ما أوحى إليه، وهذا قبل نزول آية السيف: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ أي: لو شاء الله عدم إشراكهم ما أشركوا، وفيه أن الشرك بمشيئة الله سبحانه، والكلام في تقرير هذا على الوجه الذي يتعارف به أهل علم الكلام والميزان معروف فلا نطيل بإيراده، ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ أي: رقيباً ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي: قيم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم، ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة. قوله: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ الموصول عبارة عن الالتهمة التي كانت تعبدها الكفار. والمعنى: لا تسب يا محمد آلهة هؤلاء الكفار التي يدعونها من دون الله، فيتسبب عن ذلك سبهم لله عدواناً وتجاوزاً عن الحق وجهلاً منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق والناهي عن الباطل إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم، ومخالفة حق، ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به، بل كان واجباً عليه، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله، المتصددين لبيانها للناس، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه، وتركوا غيره من المعروف، وإذا نهاهم عن منكر، فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات؛ عناداً للحق وبغضاً لاتباع المحققين، وجراءة على الله سبحانه سبحانه، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها

أنت عليهم بوكيل ﴿١٣٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِنَّ رَبِّهِمْ خَشِيعَةً فَيَتَّبِعُهُمْ يَسَافِرُونَ ﴿١٣٨﴾

البصائر جمع بصيرة، وهي في الأصل: نور القلب، والمراد بها هنا الحجة البينة والبرهان الواضح، وهذا الكلام وارد على لسان رسول الله ﷺ، ولهذا قال في آخره ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ ووصف البصائر بالمجبي تفخيماً لشأنها، وجعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه، كما يقال جاءت العافية، وانصرف المرض، وأقبلت السعد، وأدبرت النحوس ﴿فمن لبصر فلينبصر﴾ أي: فمن تعقل الحجة وعرفها وأدعن لها فنفذ لك لنفسه؛ لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار ﴿ومن عمي﴾ عن الحجة ولم يتعقلها ولا أذعن لها، فضرر ذلك على نفسه؛ لأنه يتعرض لغضب الله في الدنيا ويكون مصيره النار ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ برقيب أحصى عليكم أعمالكم، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي وهو الحفيظ عليكم. قال الزجاج: نزل هذا قبل فرض القتال ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان ﴿وكذلك نصرفت الآيات﴾ أي: مثل ذلك التصريف للبيع نصرفها في الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه. قوله: ﴿وليقولوا درست﴾ العطف على محذوف: أي نصرفت الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست، أو علة لفعل محذوف يقرر متأخراً: أي وليقولوا درست صرّفناها، وعلى هذا تكون اللام للعاقبة أو للصيرورة. والمعنى: ومثل ذلك التصريف نصرفت الآيات وليقولوا درست، فإنه لا احتفال بقولهم ولا اعتداد بهم، فيكون معناه الوعيد والتهديد لهم وعدم الاكتراث بقولهم. وقد أشار إلى مثل هذا الزجاج. وقال للنحاس: وفي المعنى قول آخر حسن، وهو أن يكون معنى «نصرفت الآيات» ناتي بها آية بعد آية ﴿ليقولوا درست﴾ علينا، فينكرون الأول بالأخر، فهذا حقيقته، والذي قاله أبو إسحاق: يعني الزجاج مجاز، وفي «درست» قراءات، قرأ أبو عمرو، وابن كثير «دارست» بآلف بين الدال والراء كفاعلت، وهي قراءة علي، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وأهل مكة. وقرأ ابن عامر «درست» بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف كخرجت، وهي قراءة الحسن. وقرأ الباقون «درست» كضربت، فعلى القراءة الأولى المعنى: دارست أهل الكتاب ودارسوك أي ذاكرتهم وذاكروك، ويدل على هذا ما وقع في الكتاب العزيز من إخبار الله عنهم بقوله: ﴿واعانه عليه قوم آخرون﴾ [الفرقان: 4] أي: أعان اليهود النبي ﷺ على القرآن، ومثله قولهم: «أساطير الأولين» اكتتبها فهي تملأ عليه بكرة وأصيلاً [الفرقان: 5]، وقولهم: «إنما يعلمه بشر» [النحل: 103]. والمعنى على القراءة الثانية: قدمت هذه الآيات وعفت وانقطعت، وهو كقولهم: «أساطير الأولين» [الأنعام: 25]، وفي ثمانية مواضع آخر من كتاب الله العزيز. والمعنى على القراءة الثالثة: مثل المعنى على القراءة الأولى. قال الأخفش: هي بمعنى دارست

قلت لشيبان ابن من لقائه اني بعد اليوم من سوائه
 أي: لعلي، وقول جدير:
 هل أنتم عائجون بنا لأن نرى العرصات أو أثر الخيام
 أي: لعلنا أهـ وقد وردت في كلام العرب كثيراً بمعنى
 لعل. وحكى الكسائي أنها كذلك في مصحف أبي بن كعب.
 وقال الكسائي أيضاً والفراء: إن «لا» زائدة، والمعنى: وما
 يشعركم أنها: أي الآيات، إذا جاءت يؤمنون، فزيدت كما
 زيدت في قوله تعالى: ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا
 يرجعون﴾ [الأنبياء: 95] وفي قوله: ﴿ما منعك أن لا
 تسجد﴾ [الأعراف: 12] وضعف الزجاء والنحاس وغيرهما
 زيادة لا وقالوا: هو غلط وخطأ، ونكر النحاس وغيره، أن في
 الكلام حذفاً والتقدير: أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون،
 ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع، قوله: ﴿ونقلب أفئدتهم
 وأبصارهم﴾ معطوف على ﴿لا يؤمنون﴾ قيل والمعنى:
 تقلب أفئدتهم وأبصارهم يوم القيامة على لهب النار، وحز
 الجمر ﴿كما لم يؤمنوا﴾ في الدنيا ﴿ونذرهم﴾ في الدنيا:
 أي نملهم ولا تعاقبهم فعلى هذا بعض الآية في الآخرة.
 وبعضها في الدنيا؛ وقيل المعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم
 في الدنيا: أي تحول بينهم وبين الإيمان لو جاءت تلك الآية
 كما حلنا بينهم وبين ما دعوتهم إليه أول مرة عند ظهور
 المعجزة؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: أنها إذا
 جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم
 ونذرهم في طغيانهم يعمهون: أي يتحيرون، والكاف في
 ﴿كما لم يؤمنوا﴾ نعت مصدر محذوف، وما مصدرية، و
 ﴿يعمهون﴾ في محل نصب على الحال، قوله: ﴿ولو أننا
 نزلنا إليهم الملائكة﴾ أي: لا يؤمنون ولو نزلنا إليهم
 الملائكة كما اقترحوه بقولهم: ﴿ولو أنزل عليه ملك﴾
 [الأنعام: 8] ﴿وكلهم الموتى﴾ الذين يعرفونهم بعد إحيائنا
 لهم، فقالوا لهم إن هذا النبي صادق مرسل من عند الله،
 فأمنوا به، لم يؤمنوا ﴿وحشرنا عليهم كل شيء﴾ مما
 سألوه من الآيات ﴿قبلاً﴾ أي: كلاً وضمناً بما جئناهم به
 من الآيات البينات. هذا على قراءة من قرأ قبلاً بضم القاف
 وهم الجمهور. وقرأ نافع، وابن عامر، قبلاً بكسرهما: أي
 مقابلة. وقال محمد بن يزيد المبرد: قبلاً بمعنى ناحية، كما
 تقول لي قبل فلان مال، فقبلاً نصب على الظرف، وعلى
 المعنى الأول ورد قوله تعالى: ﴿أو تأتي بالله والملائكة
 قبلاً﴾ [الإسراء: 92] أي: يضمنون كذا قال الفراء. وقال
 الأخفش: هو بمعنى قبيل قبيل: أي جماعة جماعة. وحكى
 أبو زيد، لقيت فلاناً قبلاً ومقابلة وقبلاً كله واحد، بمعنى
 المواجهة، فيكون على هذا الضم كالكسر وتستوي القراءة.تان.
 والحشر: الجمع ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾
 إيمانهم، فإن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والاستثناء
 مفرغ ﴿ولكن أكثرهم جهلون﴾ جهلاً يحول بينهم وبين
 درك الحق والوصول إلى الصواب. قوله: ﴿وكنك جعلنا
 لكل نبي﴾ هذا الكلام لتسليية رسول الله ﷺ ونفع ما

حصل معه من الحزن بعدم إيمانهم: أي مثل هذا الجعل
 ﴿جعلنا لكل نبي عدواً﴾ والمعنى: كما ابتليتك بهؤلاء فقد
 ابتلينا الأنبياء من قبلك يقوم من الكفار، فجعلنا لكل واحد
 منهم عدواً من كفار زمنهم، و ﴿شياطين الإنس والجن﴾
 بدل من عدواً؛ وقيل هو المفعول الثاني لجعلنا. وقرأ الأعمش
 الجن والإنس بتقديم الجن، والمراد بالشياطين المردة من
 الفريقين، والإضافة بيانية، أو من إضافة الصفة إلى
 الموصوف، والأصل الإنس والجن الشياطين، وجملة
 ﴿يوحى بعضهم إلى بعض﴾ في محل نصب على الحال:
 أي حال كونه يوسوس بعضهم لبعض؛ وقيل إن الجملة
 مستأنفة لبيان حال العدو، وسمي وحياً لأنه إنما يكون خفية
 بينهم، وجعل تمويههم زخرف القول لتزيينهم إياه،
 والمزخرف: المزين، وزخارف الماء طرائقه، و ﴿غروراً﴾
 منتصب على المصدر، لأن معنى يوحى بعضهم إلى بعض
 يغرونهم بذلك غروراً، ويجوز أن يكون في موضع الحال،
 ويجوز أن يكون مفعولاً له، والغرور: الباطل. قوله: ﴿ولو
 شاء ربك ما فعلوه﴾ الضمير يرجع إلى ما ذكر سابقاً من
 الأمور التي جرت من الكفار في زمنه وزمن الأنبياء قبله: أي
 لو شاء ربك عدم وقوع ما تقدم نكره ما فعلوه وأوقعوه؛
 وقيل: ما فعلوا الإيحاء المنلول عليه بالفعل ﴿فذرهم﴾ أي:
 اتركهم، وهذا الأمر للتهديد للكفار كقوله: ﴿ذرني ومن خلقت
 وحيداً﴾ [الم نشر: 11] ﴿وما يفترون﴾ إن كانت ما مصدرية
 فالتقدير: اتركهم واقتراءهم، وإن كانت موصولة فالتقدير:
 اتركهم والذي يفترونه. قوله: ﴿ولتصفي إليه أفئدة الذين
 لا يؤمنون بالآخرة﴾ اللام في لتصفي لام كي، فتكون علة
 كقوله: ﴿يوحى﴾ والتقدير: يوحى بعضهم إلى بعض
 ليغروهم ولتصفي؛ وقيل: هو متعلق بمحذوف يقدر متأخراً:
 أي لتصفي ﴿جعلنا لكل نبي عدواً﴾ وقيل: إن اللام للأمر
 وهو غلط، فإنها لو كانت لام الأمر جزمت الفعل، والإصغاء:
 الميل، يقال صغوت أصغو صغواً، وصغيت أصغى؛ ويقال
 صغيت بالكسر؛ ويقال أصغيت الإناء: إذا أملت له ليجتمع ما
 فيه، وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض؛ ويقال
 صغت النجوم: إذا مالت للغروب، وأصغت الناقة: إذا أمالت
 رأسها، ومنه قول ذي الرمة:
 تصفي إذا شدها بالكور جانحة حتى إذا ما استوى في غرزا وثبت
 والضمير في إليه لزخرف القول، أو لما ذكر سابقاً من
 زخرف القول وغيره: أي أوحى بعضهم إلى بعض زخرف
 القول ليغروهم ﴿ولتصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون
 بالآخرة﴾ من الكفار، ﴿وليرضوه﴾ لانفسهم بعد الإصغاء
 إليه ﴿وليقترفوا ما هم مقتربون﴾ من الآثام، والاقتراف:
 الاكتساب؛ يقال خرج ليقترف لأمله: أي ليكتسب لهم،
 وقارف فلان هذا الأمر: إذا واقعه، وقرفه: إذا رماه بالريبة،
 واقترف: كذب، وأصله اقتطاع قطعة من الشيء.
 وقد أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: نزلت
 ﴿واقسموا بالله جهد إيمانهم﴾ في قریش ﴿ما يشعركم﴾

وأبو الشيخ، عنه ﴿ولتصفي﴾ تزيغ ﴿وليقترفوا﴾ يكتسبوا.

أَفَتَعْتَبِرُ اللَّهُ ابْنَ عَمَّتَيْ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لَّا تُكُونُ مِن أَلْسِنَتِهِمْ ۖ وَنُمَتَّعْتَ كَيْفَ نَزَّلْنَا صَدَقَ وَعْدُ لَّا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَإِن تَطْلُعْ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ بِضُلُوكِ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَشَاءُ إِلَّا أَفْهَاتٌ وَإِنَّ هُم لَّا يَعْرِضُونَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَعْمَلُ عَن سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَرِينَ ۝

قوله: ﴿افغير الله﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على فعل مقدر، والكلام هو على إرادة القول، والتقدير: قل لهم يا محمد كيف أضلّ وابتغى غير الله حكماً؟ وغير مفعول لأبتغى مقدم عليه، وحكماً المفعول الثاني أو العكس. ويجوز أن ينتصب حكماً على الحال، والحكم أبلغ من الحاكم كما تقرر في مثل هذه الصفة المشتقة، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينكر عليهم ما طلبوه منه، من أن يجعل بينه وبينهم حكماً فيما اختلفوا فيه، وإن الله هو الحكم العدل بينه وبينهم، وجملة: ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ في محل نصب على الحال: أي كيف أطلب حكماً غير الله وهو الذي أنزل عليكم القرآن مفصلاً مبيناً واضحاً مستوفياً لكل قضية على التفصيل، ثم أخبر نبيه ﷺ بأن أهل الكتاب، وإن اظهروا الجحود والمكابرة، فإنهم يعلمون أن القرآن منزل من عند الله بما تلتمس عليه كتب الله المنزلة، كالتوراة والإنجيل، من أنه رسول الله وأنه خاتم الأنبياء، و﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً: أي متلبساً بالحق الذي لا شك فيه ولا شبهة، ثم نهاه الله عن أن يكون من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون بأن القرآن منزل من عند الله بالحق، أو نهاه عن مطلق الامتراء، ويكون ذلك تعريضاً لأمته عن أن يمتري أحد منهم، أو الخطاب لكل من يصلح له: أي فلا يكون أحد من الناس من الممترين ولا يقدح في ذلك كون الخطاب لرسول الله ﷺ، فإن خطابه خطاب لأمته. قوله: ﴿وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً﴾ قرأ أهل الكوفة كلمة بالتوحيد، وقرأ الباقر بالجمع، والمراد بالكلمات العبارات أو متعلقاتها من الوعد والوعيد. والمعنى: أن الله قد أتم وعده ووعيده، فظهر الحق وانطس الباطل؛ وقيل: المراد بالكلمة أو الكلمات القرآن، و﴿صدقاً وعدلاً﴾ منتصبان على التمييز أو الحال، أو على أنهما نعت مصدر محذوف: أي تمام صدق وعدل ﴿لا مبدل لكلماته﴾ لا خلف فيها ولا مغير لما حكم به، والجملة المنفية في محل نصب على الحال، أو مستأنفة ﴿وهو السميع﴾ لكل مسموع ﴿العليم﴾ بكل معلوم. قوله: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ أخبره الله سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من في الأرض أضلوه، لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين، وهم الطائفة التي لا تزال على الحق، ولا يضرها خلاف من يخالفها، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ؛ وقيل المراد بالأكثر: الكفار؛ وقيل

يا أيها المسلمون ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ وأخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، قال: كلم رسول الله ﷺ، قريشاً فقالوا: يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها الحجر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، وإن ثمود لهم ناقة، فاتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: أي شيء تحبون أن آتيكم به؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً، قال: فإن فعلت تصدقوني؟ قالوا: نعم، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون، فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل فقال له: إن شئت أصبح ذهباً، فإن لم يصسقوا عند ذلك لعنبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم، فقال: بل يتوب تائبهم، فأنزل الله: ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ إلى قوله: ﴿يجهلون﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ونقلب أفئدتهم وبصائرهم﴾ قال: لما جحد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء وربت عن كل أمر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه ﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً﴾ قال: معانية ﴿ما كانوا ليؤمنوا﴾ أي: أهل الشقاء ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي: أهل السعادة والذين سبق لهم في علمه أن يدخلوا في الإيمان. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً﴾ أي: فعابروا ذلك معانية. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد قال: أقواجاً قبلاً وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وكنلك جعلنا لكل نبي عدواً﴾ شياطين الإنس والجن؟ قال: إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، فيلتقي شيطان الإنس وشيطان الجن، فيقول هذا لهذا: أضله بكذا وأضله بكذا، فهو: ﴿يؤحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ وقال ابن عباس: الجن هم الجانّ وليسوا شياطين، والشياطين ولد إبليس وهم لا يموتون إلا مع إبليس والجن يموتون، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن مسعود قال: الكهنة هم شياطين الإنس. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يؤحي بعضهم إلى بعض﴾ قال: شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، فإن الله يقول: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ [الأنعام: 121]. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن قتادة، في الآية قال: من الإنس شياطين، ومن الجن شياطين، يوحى بعضهم إلى بعض. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، زخرف القول قال: يحسن بعضهم لبعض القول ليتبعوه في فتنهم. وقد أخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا نر تعوذ بالله من شرّ شياطين الجن والإنس، قال: يا نبي الله وهل للإنس شياطين؟ قال: نعم، ﴿شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾. وأخرج أحمد، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن أبي نر مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿ولتصفي﴾ لتميل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

عليه؛ وقيل: إنها نزلت في سبب خاص وسيأتي، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما نكر الذابح عليه اسم الله حل إن كان مما أباح الله أكله. وقال عطاء: في هذه الآية الأمر بذكر الله على الشراب والنبيج وكل مطعوم، والشروط في ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ للتهبيج والإلهاب؛ أي بلحاكمه من الأوامر والنواهي التي من جملتها الأمر بالأكل مما نكر اسم الله عليه، والاستفهام في ﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ للإنكار؛ أي ما المانع لكم من أكل ما سميت عليه بعد أن أذن الله لكم بذلك ﴿وَالْحَالُ أَنْ قَدْ فَصَلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بين لكم بياناً مفصلاً يدفع الشك، ويزيل الشبهة بقوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: 145] إلى آخر الآية، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: من جميع ما حرّمه عليكم، فإن الضرورة تحلل الحرام، وقد تقدّم تحقيقه في البقرة، قرأ نافع، ويعقوب ﴿وَقَدْ فَصَلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بفتح الفعلين على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير، بالضم فيها على البناء للمفعول. وقرأ عطية العوفي «فصل» بالتخفيف؛ أي أبان وأظهر. قوله: ﴿وَأَنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاهِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هم الكفار الذين كانوا يحرّمون البحيرة والسائبة ونحوهما، فإنهم بهذه الأفعال المبنية على الجهل، كانوا يضلون الناس، فيتبعونهم، ولا يعلمون أن ذلك جهل وضلالة، لا يرجع إلى شيء من العلم، ثم أمرهم الله أن يتركوا ظاهر الإثم وباطنه، والظاهر: ما كان يظهر كإفعال الجوارح، والباطن: ما كان لا يظهر كإفعال القلب؛ وقيل ما أعلنتم وما أسررتم؛ وقيل: الرّثا الظاهر، والزنا المكتوم، وأضاف الظاهر والباطن إلى الإثم لأنه يتسبب عنهما، ثم تورع الكاسبين للإثم بالجزاء بسبب إقترائهم على الله سبحانه.

وقد أخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ إنا ناكل مما قتلنا ولا ناكل مما قتل الله، فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْ اطْعَمْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة ﴿فَكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فإنه حلال ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ﴾ يعني القرآن ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ قال: مصدقين ﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني: الذبائح، ﴿وَقَدْ فَصَلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: ما حرّم عليكم من الميتة ﴿وَأَنْ كَثِيرًا﴾ يعني: من مشركي العرب ﴿لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاهِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني في أمر الذبائح. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي من الميتة، والدم، ولحم الخنزير. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وَأَنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاهِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال: هو الإثم؛ قال: هو نكاح الأمهات والبنات ﴿وَبِأَهْوَاهِهِمْ﴾ قال: هو

المراد بالأرض: مكة أي: أكثر أهل مكة، ثم علل ذلك سبحانه بقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون إلا الظن الذي لا أصل له، وهو ظنهم أن معبوداتهم تستحق العبادة وأنها أقربهم إلى الله ﴿وَأَنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: وما هم إلا يخرصون: أي يحسبون ويقدرّون، وأصل الخرص القطع، ومنه خرص النخل يخرص: إذا حرّزه لياخذ منه الزكاة، فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به، إذ لا يقين منه، وإذا كان هذا حال أكثر من في الأرض، فالعلم الحقيقي هو عند الله، فاتبع ما أمرك به، ودع عنك طاعة غيره، وهو العالم بمن يضلّ عن سبيله ومن يهتدي إليه. قال بعض أهل العلم: إن ﴿اعْلَمُ﴾ في الموضعين بمعنى يعلم، قال: ومنه قول حاتم الطائي:

فحلفت طي من نوننا حلفاً والله أعلم ما كنا لهم خولا
والوجه في هذا التأويل: أن أفعال التفضيل لا ينصب الاسم الظاهر، فتكون من منصوبة بالفعل الذي جعل أفعال التفضيل نائباً عنه؛ وقيل: إن أفعال التفضيل على بابها والنصب بفعل مقتر؛ وقيل: إنها منصوبة بأفعال التفضيل أي: إن ربك أعلم، أي الناس يضلّ عن سبيله؛ وقيل: في محل نصب بنزع الخافض: أي بمن يضلّ، قاله بعض البصريين؛ وقيل: في محل جرّ بإضافة أفعال التفضيل إليها.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿مُفْصَلًا﴾ قال: مبيناً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال: صدقاً فيما وعد، وعدلاً فيما حكم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو نصر السجزي في الإبانة، عن محمد بن كعب القرظي، في قوله: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قال: لا تبديل لشيء قاله في الدنيا والآخرة لقوله: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ﴾ [ق: 29]. وأخرج ابن مردويه، وابن النجار، عن أنس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَوُتِمَتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال: لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي اليمان عامر بن عبد الله قال: نزل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم فتح مكة، ومعه مخصرة، ولكل قوم صنم يعبدونه، فجعل يأتيها صنماً صنماً ويضعن في صدر الصنم بعضاً ثم يعقره، فكلما طعن صنماً أتبعه ضرباً بالقوس حتى يكسره ويطرحه خارجاً من المسجد، والنبي ﷺ يقول: ﴿وَوُتِمَتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

كُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٥﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَوَدَّ فَعَلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاهِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿١٤٦﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَظُهُرَهُ إِنَّ الْوَيْلَ لِلَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٤٧﴾

لما تقدم ذكر ما يصنعه الكفار في الانعام من تلك اللسن الجاهلية، أمر الله المسلمين بأن ياكلوا مما نكر اسم الله

أخرج ابن عدي «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرايت الرجل منا ينجح وينسى أن يسمى؟ فقال النبي ﷺ: اسم الله على كل مسلم» فهو حديث ضعيف، قد ضعفه البيهقي وغيره. قوله: «وإنه لفسق» الضمير يرجع إلى «ما» بتقدير مضاف: أي وإن أكل ما لم يذكر لفسق، ويجوز أن يرجع إلى مصدر تاكلوا: أي فإن الأكل لفسق. وقد تقدم تحقيق الفسق.

قد استدلل من حمل هذه الآية على ما نبح لغير الله بقوله: «وإنه لفسق» ووجه الاستدلال أن الترك لا يكون فسقاً، بل الفسق النبح لغير الله. ويجب عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه الله عليه غير ممتنع شرعاً. «وإن للشياطين ليوحون إلى أوليائهم» أي يوسوسون لهم بالوسوس المخالفة للحق المبينة للصواب قاصدين بذلك أن يجالكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم «وإن اعطموهم» فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه «إنكم لمشركون» مثلهم.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والطبراني وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، قال: قال المشركون، وفي لفظ: قال اليهود: لا تاكلوا مما قتل الله وتاكلوا مما قتلتم أنتم، فأنزل الله: «ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عنه قال لما نزلت: «ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً، فقالوا له: ما تبذع أنت ببذع يسكين فهو حلال، وما تبذع الله بشمشار من ذهب يعني الميتة فهو حرام، فنزلت: «وإن للشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجالبوكم» قال: الشياطين من فارس وأولياؤهم من قريش. وقد روى نحو ما تقدم في حديث ابن عباس الأول من غير طريق. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه أيضاً في قوله: «وإن للشياطين ليوحون إلى أوليائهم» قال: إبليس أوحى إلى مشركي قريش. وأخرج أبو داود، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عنه أيضاً في قوله: «ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق» ففسخ، واستثنى من ذلك فقال: «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم» [المائدة: 5]. وأخرج عبد بن حميد، عن عبد الله بن يزيد الخطمي قال: كلوا ذبائح المسلمين وأهل الكتاب مما ذكر اسم الله عليه. وروى ابن أبي حاتم عن مكحول نحو قول ابن عباس في النسخ.

أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ. فِي أَنْتَابِلِ كَمَنْ مَنَّكَ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَسْمُكُونَ ﴿٦٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرِمَهَا لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا وَأَنْفُسُهُمْ وَهُمْ يَشْمُرُونَ ﴿٦١﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا لَبِغْلًا غَبُورًا

الزنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: الظاهر منه «ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء» [النساء: 22] و «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم» [النساء: 23] الآية، والباطن: الزنا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: علانيته وسره.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَيْنَكُمْ وَلَئِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ فَلَإِيَّاكُمْ يُفْجَرُ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ فَلَإِيَّاكُمْ يُفْجَرُ ﴿٦٣﴾

نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، بعد أن أمر بالاكل مما نكر اسم الله عليه، وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك، فذهب ابن عمر، ونافع، ومولاه، والشعبي، وابن سيرين وهو رواية، عن مالك وعن أحمد بن حنبل، وبه قال أبو ثور، وداود الظاهري أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العائد والناسي لهذه الآية، ولقوله تعالى في آية الصيد: «فكلوا مما أمسكن عليكم وانكروا اسم الله عليه» [المائدة: 4] ويزيد هذا الاستدلال تأكيداً قوله سبحانه في هذه الآية: «وإنه لفسق».

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة، الأمر بالتسمية في الصيد وغيره. وذهب الشافعي وأصحابه، وهو رواية عن مالك، ورواية عن أحمد، أن التسمية مستحبة لا واجبة، وهو مروى عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، وحمل الشافعي الآية على من ذبح لغير الله، وهو تخصيص للآية بغير مخصص. وقد روى أبو داود في المرسل أن النبي ﷺ قال: «نبیحة المسلم حلال، نكر اسم الله أو لم يذكر». وليس في هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: «إن قوماً يأتوننا بلحمان لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سمو أنتم وكلوا» يفيد أن التسمية عند الأكل تجزئ مع التباس وقوعها عند الذبح. وذهب مالك، وأحمد في المشهور عنهما، وأبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، أن التسمية إن تركت نسياناً لم تضر، وإن تركت عمداً لم يحل أكل الذبيحة. وهو مروى عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء وطاوس، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، واستدلوا بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «المسلم إن نسي أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله» وهذا الحديث رفعه خطأ، وإنما هو من قول ابن عباس. وكذا أخرجه من قوله عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر: نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى: «وربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» [البقرة: 286] كما سبق تقريره، وبقوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» وأما حديث أبي هريرة الذي

سَيَصِيبُ الَّذِينَ اجْتَرَأُوا صَغَارَ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا كَانُوا يَسْكُرُونَ ﴿١١٠﴾

قوله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾. قرأ الجمهور بفتح الواو بعد همزة الاستفهام. وقرأ نافع، وابن أبي نعيم بإسكانها، قال النحاس: يجوز أن يكون محمولاً على المعنى: أي انظروا وتدبروا ﴿أَغْيِرَ اللَّهُ أَتَغْيِي حَكْمًا. أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: 114] والمراد بالميت هنا الكافر، أحياء الله بالإسلام؛ وقيل معناه: كان ميتاً حين كان نطفة فأحْيَيْنَاهُ بنفخ الروح فيه. والاول أولى، لأن السياق يشعر بذلك؛ لكونه في تنفير المسلمين عن اتباع المشركين، وكثيراً ما تستعار الحياة للهداية وللعلم، ومنه قول القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فاجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأ لم يحيي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور
والنور عبارة عن الهداية والإيمان، وقيل هو القرآن، وقيل الحكمة، وقيل هو النور المذكور في قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: 12] والضمير في به راجع إلى النور ﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي كمن صفته في الظلمات، ومثله مبتدأ والظلمات خبره، والجملة صفة لمن؛ وقيل مثل زائدة، والمعنى: كمن في الظلمات، كما تقول: أنا أكرم من مثلك: أي منك، ومثله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قُتِلَ مِنْ النِّعَمِ﴾ [المائدة: 95] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] وقيل المعنى: كمن مثله مثل من هو في الظلمات، و ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ في محل نصب على الحال: أي حال كونه ليس بخارج منها بحال من الأحوال. قوله: ﴿وَكُنْكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مَجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أي مثل ذلك الجعل جعلنا في كل قرية، والأكابر جمع أكبر، قيل: هم الرؤساء والعظماء، وخصهم بالذكر؛ لأنهم أقدر على الفساد، والمكر: الحيلة في مخالفة الاستقامة، وأصله الفتل، فالماكر يفتل عن الاستقامة: أي يصرف عنها ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِنَفْسِهِمْ﴾ أي وبال مكرهم عائد عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك لفرط جهلهم ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من الآيات، ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء، وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغربية وعجرفتهم العجيبة، ونظيره: ﴿يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مَنشُورَةً﴾ [المائدة: 52]. والمعنى: إذا جاءت الأكابر آية قالوا هذه المقالة، فأجاب الله عنهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ أي: إن الله أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولا ويكون موضعاً لها وأميناً عليها، وقد اختار أن يجعل الرسالة في محمد صفيه وحبيبه، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم، ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيَصِيبُ الَّذِينَ اجْتَرَأُوا صَغَارَ﴾ أي: ذل وهوان، وأصله من الصغر كأن الذل يصغر إلى المرء نفسه؛ وقيل الصغار هو الرضا بالذل، روى ذلك عن ابن السكيت.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ قال: كان كافراً

ضالاً فهديناه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ هو القرآن ﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾: للكفر والضلالة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة في الآية قال: نزلت في عمار بن ياسر؛ وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يعني: عمر بن الخطاب، ﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ يعني: أبا جهل بن هشام. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن زيد بن أسلم، في الآية قال: نزلت في عمر بن الخطاب، وأبي جهل بن هشام، كانا ميتين في ضلالتهما، فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزّه، وأقرّ أبا جهل في ضلّالته وموته، وذلك أن رسول الله ﷺ دعا فقال: «اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب». وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن عكرمة في قوله: ﴿وَكُنْكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مَجْرِمِيهَا﴾ قال: نزلت في المستهزئين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال ﴿أَكْبَارَ مَجْرِمِيهَا﴾ عظماءها. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ الآية قال: قالوا لمحمد حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق. لو كان هذا حقاً لكان فينا، من هو أحق أن يؤتى به محمد: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿سَيَصِيبُ الَّذِينَ اجْتَرَأُوا صَغَارَ﴾ قال: أشركوا ﴿صَغَارَ﴾ قال: هوان.

فَمَنْ يَرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ يَسِّرْ مَسَدْرَهُمْ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدْ أَنْ يُلْغِيَهُمْ بِجَمَلٍ مَسَدْرَهُمْ صَيِّقًا حَرِيًّا كَأَنَّا بِمَقْعَدِ فِي السَّعَةِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَلْفُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١١٢﴾ هُمْ ذَاكَ التَّكْوِينِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ رَبُّهُمْ يَمَّا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿١١٣﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَتَمَشَّرُ لَيْلِينَ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْنَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَمَلَنَا إِلَهِكَ أَمَلْتُ لَنَا قَالِ أَلَا تَأْتُرُ مَوْتَنَا مِنْكُمْ خَلِيدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

قوله: ﴿فَمَنْ يَرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ يَسِّرْ مَسَدْرَهُمْ لِلْإِسْلَامِ﴾ الشرح: الشق وأصله التوسعة، وشرحت الأمر بينته وأوضحته، والمعنى: من يرد الله هدايته للحق يوسع صدره حتى يقبله بصدر منشرح، ﴿وَمَنْ يَرِيدُ إِضْلَالَهُ﴾ يجعل صدره ضيقاً حرجاً، قرأ ابن كثير ﴿ضَيْقًا﴾ بالتخفيف مثل هين ولين. وقرأ الباقر بالتشديد وهما لغتان. وقرأ نافع ﴿حَرْجًا﴾ بالكسر، ومعناه الضيق، كرر المعنى تأكيداً، وحسن ذلك اختلاف اللفظ. وقرأ الباقر بالفتح، جمع حرجة، وهي شدة الضيق، والحرجة الغيظة، والجمع حرج وحرجات،

هو استمتاعهم بالجن؛ وقيل: استمتاع الإنس بالجن أنه كان إذا مرَّ الرجل بوادٍ في سفره وخاف على نفسه قال: أعوذ برَبِّ هذا الوادي من جميع ما أخطر، يعني: ربه من الجن، ومنه قوله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ [الجن: 6] وقيل: استمتاع الجن بالإنس أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة، واستمتاع الإنس بالجن: أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكانيب، ويقولون بذلك شيئاً من حظوظ الدنيا كالكهان **﴿وبلغنا لجننا الذي أجلت لنا﴾** أي: يوم القيامة اعترافاً منهم بالوصول إلى ما وعدهم الله به مما كانوا يكتنون به. ولما قالوا هذه المقالة أجاب الله عليهم ف**﴿قال النار مثواكم﴾** أي: موضع مقامكم. والمثوى المقام، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر. قوله: **﴿خالسين فيها إلا ما شاء الله﴾** المعنى: الذي تقتضيه لغة العرب في هذا التركيب أنهم يخلون في النار في كل الأوقات، إلا في الوقت الذي يشاء الله عدم بقائهم فيها. وقال الزجاج: إن الاستثناء يرجع إلى يوم القيامة، أي خالسين في النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم في الحساب، وهو تعسف، لأن الاستثناء هو من الخلود الدائم ولا يصدق على من لم يدخل النار، وقيل الاستثناء راجع إلى النار: أي إلا ما شاء الله من تعذيبهم بغيرها في بعض الأوقات كالزهرير؛ وقيل: الاستثناء لأهل الإيمان، وما بمعنى من: أي إلا من شاء الله إيمانه فإنه لا يدخل النار؛ وقيل المعنى: إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب. وكل هذه التأويلات متكلفة، والذي ألجأ إليها ما ورد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من خلود الكفار في النار أبداً، ولكن لا تعارض بين عام وخاص لا سيما بعد وروده في القرآن مكرراً كما سيأتي في سورة هود **﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾** إن ربك فعال لما يريد **﴿هود: 107﴾** ولعله يأتي هناك إن شاء الله زيادة تحقيق.

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق والفرغاني، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن أبي جعفر المداثني رجل من بني هاشم، وليس هو محمد بن علي قال: «سئل النبي ﷺ عن هذه الآية **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾** قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: نور يقذف فيه فينشرح صدره له وينفسح له، قالوا: فهل لذلك من أمانة يعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت». وأخرج عبد بن حميد، عن فضيل نحوه، وأخرج ابن أبي الدنيا، عن الحسن نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن طريق عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية فذكر نحوه. وأخرجه ابن مردويه عنه

ومنه فلان يتخرج: أي يضيق على نفسه. وقال الجوهري: مكان حرج وحرج: أي ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية، والحرج الإثم. وقال الزجاج: الحرج أضيق الضيق. وقال النحاس: حرج اسم الفاعل، وحرج مصدر وصف به كما يقال: رجل عدل. وقوله: **﴿كانما يصعد في السماء﴾** قرأ ابن كثير بالتخفيف من الصعود، شبه الكافر في ثقل الإيمان عليه، بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء. وقرأ النخعي «يصاعده» وأصله يتصاعد. وقرأ الباقون «يصعد» بالتشديد وأصله يتصعد، ومعناه: يتكلف ما لا يطيق مرة بعد مرة، كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء. وقيل: المعنى على جميع القراءات: كاد قلبه يصعد إلى السماء نبواً على الإسلام، وما في «كانما» هي الهيئة لدخول كان على الجمل الفعلية. قوله: **﴿ذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾** أي: مثل ذلك الجعل الذي هو جعل الصدر ضيقاً حرجاً يجعل الله الرجس. والرجس في اللغة: النتن، وقيل هو العذاب، وقيل: هو الشيطان يسلطه الله عليهم، وقيل: هو ما لا خير فيه؛ والمعنى الأول هو المشهور في لغة العرب، وهو مستعار لما يحل بهم من العقوبة وهو يصدق على جميع المعاني المذكورة. والإشارة بقوله: **﴿وهذا صراط ربك﴾** إلى ما عليه النبي ﷺ، ومن معه من المؤمنين أي: هذا طريق بين ربك لا أعوجاج فيه؛ وقيل الإشارة إلى ما تقدم مما يدل على التوفيق والخذلان أي: هذا هو عادة الله في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وانتصاب **﴿مستقيماً﴾** على الحال كقوله تعالى: ﴿وهو الحق مصباً﴾ [البقرة: 91]، **﴿وهذا بعلي شيخاً﴾** [هود: 72] **﴿وقد فصلنا الآيات﴾** أي: بينها وأوضحناها **﴿لقوم يذكرون﴾** ما فيها، ويفقهون معانيها **﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾** أي: لهؤلاء المتذكرين الجنة لأنها دار السلامة من كل مكروه، أو دار الرب السلام منخرة لهم عند ربهم، ويوصلهم إليها **﴿وهو وليهم﴾** أي: ناصرهم، والباء في **﴿بما كانوا يعملون﴾** للسببية أي: بسبب أعمالهم. قوله: **﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾** الظرف منصوب بمضمر يقدر متقدماً أي: وأذكر يوم نحشرهم أو **﴿ويوم نحشرهم﴾** نقول: **﴿يا معشر الجن﴾** والمراد حشر جميع الخلق في القيامة، والمعشر الجماعة: أي يوم الحشر نقول، يا جماعة الجن **﴿قد استكثرتم من الإنس﴾** أي: من الاستمتاع بهم، كقوله: **﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾** [الأنعام: 128] وقيل: استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم حتى صاروا في حكم الاتباع لكم، فحشرناهم معكم، ومثله قوله: استكثر الأمير من الجنود، والمراد التقريع والتوبيخ، وعلى الأول، فالمراد بالاستمتاع التلذذ من الجن بطاعة الإنس لهم ودخولهم فيما يريدون منهم **﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا لستممتع بعضنا ببعض﴾** أما استمتاع الجن بالإنس فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم، وأما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصي، فوقعوا فيها وتلذذوا بها. فلذلك

مرفوعاً من طريق أخرى. وأخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن النجار في تاريخه عن عبد الله بن المستورد، وكان من ولد جعفر بن أبي طالب قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فنذكر نحوه. وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً، والمتصل يقوي المرسل، فالمصير إلى هذا التفسير النبوي متعين. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، كذلك لا يقدر على أن يدخل الإيمان والتوحيد قلبه حتى يدخله الله في قلبه. وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه في الآية يقول: من أراد أن يضل يضيئ عليه حتى يجعل الإسلام عليه ضيقاً، والإسلام واسع وذلك حين يقول: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: 78] يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿دار السلام﴾ قال: الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن جابر بن زيد قال: السلام هو الله. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي قال: الله هو السلام، وداره الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ يقول: من ضاللتكم إياهم، يعني: أضللتهم منهم كثيراً، وفي قوله: ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ قال: إن هذه الآية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه لا ينزلهم جنة ولا ناراً.

وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦٦﴾ يَمَسَّرُ لَيْلَىٰ
وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يُمْسَوْنَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْبَغِي وَيُذِرْكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لَبِيئَهُ الْدِينِ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿١٦٧﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ
وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٦٨﴾ وَلَكِنِّي دَرَجْتُ مَتْنًا عَلَيْهِمْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ أي: مثل ما جعلنا بين الجن والإنس ما سلف ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ والمعنى: نجعل بعضهم يتولى البعض، فيكونون أولياء لبعضهم بعضاً، ثم يتبرأ بعضهم من البعض، فمعنى نولي على هذا: نجعله ولياً له. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: معناه تسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس. وروى عنه أيضاً أنه فسر هذه الآية بأن بالمعنى: تسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذله، فيكون في الآية على هذا تهديد للظلمة بأن من لم يمتنع من ظلمه منهم سلط الله عليه ظالماً آخر. وقال فضيل بن عياض: إذا رايت ظالماً ينتقم من ظالم، فقف وانظر متعجباً؛ وقيل معنى نولي: نكل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، والباء في ﴿بما كانوا يكسبون﴾ للسببية: أي بسبب كسبهم للذنوب ولينا بعضهم بعضاً. قوله: ﴿بما معشر للجن والإنس لم ياتكم رسل منكم﴾ أي: يوم نحشرهم نقول لهم ﴿الم ياتكم

الله يبعث في الدنيا إلى الجن رسلاً منهم، كما يبعث إلى الإنس رسلاً منهم؛ وقيل معنى منكم: أي ممن هو مجانس لكم في الخلق والتكليف، والقصد بالمخاطبة، فإن الجن والإنس محتون في ذلك، وإن كان الرسل من الإنس خاصة فهم من جنس الجن من تلك الحيثية؛ وقيل: إنه من باب تغليب الإنس على الجن كما يغلب الذكر على الأنثى؛ وقيل المراد بالرسل إلى الجن هاهنا هم النذر منهم، كما في قوله: ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ [الحقاف: 29]. قوله: ﴿يقصون عليكم آياتي﴾ صفة أخرى لرسل، وقد تقدم بيان معنى القص. قوله: ﴿قللوا شهيدنا على أنفسنا﴾ هذا إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم بإرسال رسله إليهم، والجملة جواب سؤال مقتر فهي مستأنفة، وجملة ﴿ووغرتهم الحياة للنيا﴾ في محل نصب على الحال، أو هي جملة معترضة ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين في الدنيا بالرسل المرسلين إليهم والآيات التي جاؤوا بها، وقد تقدم ما يفيد أن مثل هذه الآية المصروفة بإقرارهم بالكفر على أنفسهم، ومثل قولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: 23] محمول على أنهم يقرّون في بعض مواطن يوم القيامة، وينكرون في بعض آخر لطول ذلك اليوم، واضطراب القلوب فيه وطيشان العقول، وانغلاق الأفهام وتبدل الأذهان، والإشارة بقوله: ﴿ولذلك﴾ إلى شهادتهم على أنفسهم أو إلى إرسال الرسل إليهم. وأن في ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى﴾ هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف. والمعنى: ذلك أن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى، أو هي المصدرية، والباء في ﴿بظلم﴾ سببية: أي لم أكن أهلك القرى بسبب ظلم من يظلم منهم، والحال أن أهلها غافلون، لم يرسل الله إليهم رسلاً. والمعنى: أن الله أرسل الرسل إلى عباده؛ لأنه لا يهلك من عصاه بالكفر من القرى، والحال أنهم غافلون عن الإعذار والإنذار بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، بل إنما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم، وارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسلاً﴾ [الإسراء: 15]؛ وقيل المعنى: ما كان الله مهلك أهل القرى بظلم منه، فهو سبحانه يتعالى عن الظلم، بل إنما يهلكهم بعد أن يستحقوا ذلك وترتفع الغفلة عنهم بإرسال الأنبياء؛ وقيل المعنى: أن الله لا يهلك أهل القرى بسبب ظلم من يظلم منهم مع كون الآخرين غافلين عن ذلك، فهو مثل قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام: 164] ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي: لكل من الجن والإنس درجات متفاوتة مما عملوا، فنجازيهم بأعمالهم. كما قال في آية أخرى: ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ [الحقاف: 19]. وفيه دليل على أن المطيع من الجن في الجنة، والعاصي في النار ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ من أعمال الخير والشر، والغفلة ذهاب الشيء عنك لاشتغالك بغيره. قرأ ابن عامر ﴿تعملون﴾ بالفوقية،

وقرأ الباقر بالتحتية.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿وَكُنْكَ نُولِي بَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قال: يولي الله بعض الظالمين بعضاً في الدنيا يتبع بعضهم بعضاً في النار. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبد الرحمن بن زيد، في الآية مثل ما حكينا عنه قريباً. وأخرج أبو الشيخ، عن الأعمش في تفسير الآية قال: سمعته يقولون إذا فسد الزمان أمر عليهم شرارهم. وأخرج الحاكم في التاريخ، والبيهقي في الشعب، من طريق يحيى بن هاشم حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كما تكونون كذلك يؤمر عليكم» قال البيهقي: هذا منقطع ويحيى ضعيف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿رسل منكم﴾ قال: ليس في الجن رسل، وإنما الرسل في الإنس، والندارة في الجن، وقرأ: ﴿فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين﴾ [الأحقاف: 29]. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، أيضاً عن الضحاك قال: الجن يدخلون الجنة ويكلمون ويشربون. وأخرج أبو الشيخ في العظمة أيضاً، عن ليث بن أبي سليم قال: مسلمو الجن لا يدخلون الجنة ولا النار، وذلك أن الله أخرج أباهم من الجنة فلا يعيده ولا يعيد ولده. وأخرج أبو الشيخ في العظمة أيضاً، عن ابن عباس قال: الخلق أربعة فخلق في الجنة كلهم، وخلق في النار كلهم، وخلق في الجنة والنار، فأما الذين في الجنة كلهم، فأما الملائكة، وأما الذين في النار كلهم، فالشياطين، وأما الذين في الجنة والنار فالإنس والجن، لهم الثواب وعليهم العقاب.

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَدْلِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْتَ كَافٍ فِي دُيُوتِكُمْ ؕ هَٰكِيَةٌ ۖ إِنَّكُمْ تَرْجِعُونَ لَآئِي وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۖ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ لِيَأْتِيَنَّكُمْ عَمَلُكُم مِّنْ تَعْمَلُونَ مَن تَكُونُوا لَكُمْ عَقِيبُهُ أَلِيٌّ أَمْ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ۖ وَجَعَلُوا لِيَوْمَ ذَا مِصْرَ الْحَرْثَ وَالْأَنْصَارَ نَصِيبًا فَأَلَا هَٰذَا لِلَّذِينَ يُضْلِفُونَ لِكُلِّ أَشْرَكٍ أَفْسَاسًا كَذَاتِ يُسْتَكِيهِمْ كَذَاتِ يَصِيلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَذَاتِ لَهُمْ يَحِيلُ إِلَيْكُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۖ وَكَذَٰلِكَ نَذَرُ لِكُلِّ فِتْنَةٍ آئِسَةً ۖ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ لِرِيسُوٰهُمْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ ۝

قوله: ﴿وربك الغني﴾ أي: عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم، لا ينفعه إيمانهم ولا يضره كفرهم، ومع كونه غنياً عنهم، فهو ذو رحمة بهم لا يكون غناه عنهم مانعاً من رحمته لهم، وما أحسن هذا الكلام الرباني وأبلغه، وما أقوى الاقتتان بين الغنى والرحمة نفي هذا المقام، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هي غاية التفضل والتطول ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أيها العباد العصاة، فيستأصلكم بالعذاب المفضي إلى الهلاك ﴿ويستخلف من بعدكم﴾ إهلاككم ما يشاء

من خلقه ممن هو أطوع له وأسرع إلى امتثال أحكامه منكم ﴿كما أنشاكم من ذرية قوم آخرين﴾ الكاف نعت مصدر محذوف، وما مصدرية: أي ويستخلف استخلفاً مثل إنشاكم من ذرية قوم آخرين، قيل: هم أهل سفينة نوح، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك فلم يهلكهم، ولا استخلف غيرهم رحمة لهم ولطفاً بهم ﴿إن ما توعدون﴾ من البعث والمجازاة ﴿لآت﴾ لا محالة، فإن الله لا يخلف الميعاد ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي: بفائتين عن ما هو نازل بكم، وواقع عليكم: يقال أعجزني فلان: أي فائتي وغلبني. قوله: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ المكانة: الطريقة، أي اثبتوا على ما أنتم عليه، فإني غير مبال بكم ولا مكتوث بكفركم، إني ثابت على ما أنا عليه ﴿فسوف تعلمون﴾ من هو على الحق ومن هو على الباطل، وهذا وعيد شديد، فلا يرد ما يقال كيف يأمرهم بالثبات على الكفر؟ و﴿عاقبة الدار﴾ هي العاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها: أي من له النصر في دار الدنيا، ومن له وراثة الأرض، ومن له الدار الآخرة. وقال الزجاج: معنى مكانتكم: تمكنكم في الدنيا، أي اعملوا على تمكنكم من أمركم، وقيل: على ناحيتكم وقيل: على موضعكم. قرأ حمزة والكسائي من يكون بالتحية، وقرأ الباقر بالفوقية. والضمير في ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ للشان: أي لا يفلح من اتصف بصفة الظلم، وهو تعريض لهم بعدم فلاحهم لكنهم المتصفين بالظلم. قوله: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم وجهلهم، وتأثيرهم لألهتهم على الله سبحانه: أي جعلوا لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج ثوبهم نصيباً، وألهتهم نصيباً، من ذلك يصرفونه في سنتها والقائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما لألهتهم بانفائه في ذلك عوّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غني عن ذلك، والزعم الكذب: قرأ يحيى بن وثاب والسلمي والأعمش والكسائي ﴿بزعهم﴾ بضم الزاي، وقرأ الباقر بفتحها، وهما لغتان ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله﴾ أي: إلى المصارف التي شرع الله الصرف فيها كالصدقة وصلة الرحم، وقرئ الضيف ﴿وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾ أي: يجعلونه لألهتهم وينفقونه في مصالحها ﴿سواء ما يحكمون﴾ أي سواء الحكم حكمهم في إثارة آلهتهم على الله سبحانه، وقيل معنى الآية: إنهم كانوا إذا نبخوا ما جعلوه لله نكروا عليه اسم أضنامهم، وإذا نبخوا ما لأضنامهم لم ينكروا عليه اسم الله، فهذا معنى الوصول إلى الله، والوصول إلى شركائهم، وقد قدمنا الكلام في نرا: قوله: ﴿وكنك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم﴾ أي: ومثل ذلك التزيين الذي زين الشيطان لهم في قسمة أموالهم بين الله وبين شركائهم زين لهم قتل أولادهم. قال الفراء والزجاج: شركائهم هاهنا هم الذين كانوا يخدمون الأوثان، وقيل: هم القواة من الناس، وقيل هم الشياطين، وأشار بهذا إلى الواد، وهو دفن البنات مخافة

فعلوه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وإذا كان ذلك بمشيئة الله ﴿فذرهم وما يفترون﴾ فدعهم وافتراءهم فذلك لا يضر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبان بن عثمان قال: النظرية الأصل، والنزرة النسل. وأخرج أيضاً عن ابن عباس ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ قال: بسابقين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿على مكانتكم﴾ قال: على ناحيتكم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عنه أيضاً في قوله: ﴿وجعلوا لله﴾ الآية. قال: جعلوا لله من ثمارهم ومائهم نصيباً وللشيطان والأوثان نصيباً، فإن سقط من ثمره ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن سقط مما جعلوه للشياطين في نصيب الله، رذوه إلى نصيب الشيطان، وإن انفجر من سقي ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن انفجر من سقي ما جعلوه للشيطان في نصيب الله نرحوه، فهذا ما جعلوا لله من الحرث وسقي الماء، وأما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول الله: ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾ [المائدة: 103] الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: جعلوا لله مما نرا من الحرث جزءاً ولشركائهم جزءاً، فما ذهب به الريح مما سماوا لله إلى جزء أوثانهم تركوه وقالوا الله عن هذا غني، وما ذهب به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه. والأنعام التي سماوا لله: البحيرة والسائبة، وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وكنك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم﴾ قال: شياطينهم يأمرونهم أن يذبحوا أولادهم خوف العيلة.

وَقَالُوا هَذِهِ أَمْثَلُ الَّذِي كَانَ لَدُنْكَ وَلَئِنْ لَمْ تَنْهَ عَنْهُمُ يُرْسِلْ عَلَيْهِمْ جَنَّاتٍ مِّنْ ثَمَرَاتِهَا تُنْقِرُونَ أَصْوَادَهُمْ فِيهَا سَيَرَجٌ مِّنْ نَّارٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَفِي الْأُفُوقِ آتُونَ ﴿١٢٤﴾ وَكَانُوا مِمَّنْ لَا يَخْلُقُونَ أَفْئِدَةً تَأْخُذُ وَلَا قُلُوبًا يَعْقِلُونَ ﴿١٢٥﴾ وَلَئِنْ لَمْ يَنْهَ عَنْهُمُ اللَّهُ لَعَلَّ الْبَشَرُ لَكُلٍّ مِّنْ نَّارٍ يُوقَدُ فِيهَا عَنَابُهُمْ وَهُمْ فِيهَا جَذَابٌ ﴿١٢٦﴾ وَلَئِنْ لَمْ يَنْهَ عَنْهُمُ اللَّهُ لَعَلَّ الْبَشَرُ لَكُلٍّ مِّنْ نَّارٍ يُوقَدُ فِيهَا عَنَابُهُمْ وَهُمْ فِيهَا جَذَابٌ ﴿١٢٧﴾ وَلَئِنْ لَمْ يَنْهَ عَنْهُمُ اللَّهُ لَعَلَّ الْبَشَرُ لَكُلٍّ مِّنْ نَّارٍ يُوقَدُ فِيهَا عَنَابُهُمْ وَهُمْ فِيهَا جَذَابٌ ﴿١٢٨﴾ وَلَئِنْ لَمْ يَنْهَ عَنْهُمُ اللَّهُ لَعَلَّ الْبَشَرُ لَكُلٍّ مِّنْ نَّارٍ يُوقَدُ فِيهَا عَنَابُهُمْ وَهُمْ فِيهَا جَذَابٌ ﴿١٢٩﴾ وَلَئِنْ لَمْ يَنْهَ عَنْهُمُ اللَّهُ لَعَلَّ الْبَشَرُ لَكُلٍّ مِّنْ نَّارٍ يُوقَدُ فِيهَا عَنَابُهُمْ وَهُمْ فِيهَا جَذَابٌ ﴿١٣٠﴾

هذا بيان نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم. والحجر بكسر أوله وسكون ثانيه في قراءة الجمهور. وقرأ أبان بن عثمان «حجر» بضم الحاء والجيم، وقرأ الحسن وقتادة بفتح الحاء وإسكان الجيم، وقرأ ابن عباس وابن الزبير «حرج» بتقديم الراء على الجيم، وكذا هو في مصحف أبي، وهو من الحرج، يقال فلان يتحرج: أي يضيق على نفسه الدخول فيما يشبه عليه. والحجر على اختلاف القراءات فيه هو مصدر بمعنى اسم المفعول: أي محجور، وأصله المنع، فمعنى الآية: هذه أنعام وحرت ممنوعة، يعنون أنها

السبي والحاجة؛ وقيل كان الرجل يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرن أحدهم كما فعله عبد المطلب. قرأ الجمهور «زين» بالبناء للفاعل ونصب «قتل» على أنه مفعول زين، وجر أولاد بإضافة قتل إليه، ورفع «شركائهم» على أنه فاعل زين، وقرأ الحسن بضم الزاي ورفع قتل، وخفض أولاد، ورفع شركائهم على أن قتل هو نائب الفاعل، ورفع شركائهم بتقدير يجعل يرجعه: أي زينه شركائهم، ومثله قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارح لخصومة ومختبط ما تطيح الطوائح
أي يبكيه ضارح. وقرأ ابن عامر، وأهل الشام بضم الزاي، ورفع قتل، ونصب أولاد، وخفض شركائهم على أن قتل مضاف إلى شركائهم، ومعموله أولادهم؛ ففيه الفصل بين المصدر وما هو مضاف إليه بالمفعول، ومثله في الفصل بين المصدر وما أضيف إليه، قول الشاعر:

تمر على ما تستمر وقد شفت علائل عبد القيس منها صورها
بجر صورها، والتقدير: شفت عبد القيس علائل صورها. قال النحاس: إن هذه القراءة لا تجوز في كلام ولا في شعر، وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف في الشعر لاتساعهم في الظروف، وهو أي الفصل بالمفعول به في الشعر بعيد، فإجازته في القرآن أبعد. وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوي: إن قراءة ابن عامر هذه لا تجوز في العربية وهي زلة عالم، وإذا زل العالم لم يجز اتباعه، ورد قوله إلى الإجماع، وإنما أجازوا في الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف، كقول الشاعر:

كما خط الكتاب بكف يوماً يهودي يقارب أويزيل
وقول الآخر:

لله در اليوم من لا مها

وقال قوم ممن انتصر لهذه القراءة: إنها إذا ثبتت بالتواتر عن النبي ﷺ، فهي فصيحة لا قبيحة. قالوا: وقد ورد ذلك في كلام العرب، وفي مصحف عثمان رضي الله عنه «شركائهم» بالياء.

وأقول: دعوى التواتر باطلة بإجماع القراء المعبرين، كما بينا ذلك في رسالة مستقلة، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوي فقراءته رد عليه، ولا يصح الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل في النظم كما قدمنا، وكقول الشاعر:

فرججتها بمزجة زج القلوص أبي مزاده
فإن ضرورة الشعر لا يقاس عليها، وفي الآية قراءة رابعة وهي جر الأولاد والشركاء، ووجه ذلك أن الشركاء بدل من الأولاد؛ لكونهم شركاءهم في النسب والميراث. قوله: ﴿ليبروهم﴾ اللام لام كي: أي لكي يبروهم، من الإزداء وهو الإهلاك ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ معطوف على ما قبله: أي فعلوا ذلك التزيين لإهلاكهم ولخلط دينهم عليهم ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ أي: لو شاء الله عدم فعلهم ما

شبية، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثَ حَجْرٌ﴾ قال: ما جعلوا لله ولشركائهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة ﴿وَحَرِثَ حَجْرٌ﴾ قال: حرام. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: يقولون حرام أن يطعم الابن شيئاً ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ قال: البحيرة والسائبة والحامي ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ إذا نحرها. وأخرج ابن أبي شبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي وائل في قوله: ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قال: لم تكن يحج عليها وهي البحيرة. وأخرج ابن أبي شبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ الآية قال: اللبن. وأخرج هؤلاء إلا ابن جرير عن مجاهد في الآية قال: السائبة والبحيرة محرّم على أزواجنا قال: النساء ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفِهِمْ﴾ قال: قولهم الكذب في ذلك. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس في الآية قال: كانت الشاة إذا ولبت نكراً نبحوه، فكان للرجال دون النساء وإن كانت أنثى تركوها فلم تنبح، وإن كانت ميتة كانوا فيها شركاء. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فرق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾ وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عكرمة في الآية قال: نزلت فيمن كان يئد البنات من مضر وربيعة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في الآية قال: هذا صنع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبي والفاقة ويغزو كلبه ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ قال: جعلوه بحيرة وسائبة ووصيلة وحامياً تحكماً من الشيطان في أموالهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُ الْأَلْوَانِ وَالْأَمْثَانَ مُشَكَّبَةً وَغَيْرَ مُمْتَكِرٍ كَلَّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآمَنَ وَهُوَ جَاهِلٌ بِالْثَمَرِ إِذْ تَضَرَّعُوا إِلَيْهِ فَرَأَى إِلَهُهُ الْخُسُوفَ﴾ وَمِنَ الْأَمْثَلِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كَلَّا وَمَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦١﴾

هذا فيه تنكير لهم ببديع قدرة الله وعظيم صنعه ﴿أَنْشَأَ﴾ أي: خلق، والجنان: البساتين ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مرفوعات على الأعمدة ﴿وَوُغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ غير مرفوعات عليها؛ وقيل المعروشات: ما أنبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والزرع والبطيخ، وغير المعروشات: ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار؛ وقيل المعروشات: ما أثبتته الناس وعرشوه وغير المعروشات: ما نبت في البراري والجبال. قوله: ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾ معطوف على جنات، وخصهما بالذكر مع دخولهما في الجنات لما فيها من

لأصنامهم لا يطعمها إلا من يشاؤون بزعمهم، وهم خدام الأصنام. والقسم الثاني قولهم: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وهي البحيرة والسائبة والحام؛ وقيل: إن هذا القسم الثاني مما جعلوه لأكلتهم أيضاً. والقسم الثالث: ﴿أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ وهي: ما ذبحوا لأكلتهم فإنهم يذبحونها باسم أصنامهم لا باسم الله. وقيل: إن المراد لا يحجون عليها افتراء على الله: أي للافتراء عليه ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: بافتراءهم أو بالذي يفترونه، ويجوز أن يكون افتراء منتصباً على أنه مصدر: أي افتروا افتراء أو حال: أي مفترين، وانتصابه على العلة أظهر، ثم بين الله سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم، فقال ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ يعنون البحائر والسوائب من الأجنة ﴿خَالِصَةً لِّذُكُورِنَا﴾ أي: حلال لهم ﴿وَمَحْرُومٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ أي: على جنس الأزواج، وهن النساء فيدخل في ذلك البنات والأخوات ونحوهن؛ وقيل: هو اللبن جعلوه حلالاً للذكور، ومحرمًا على الإناث، والهاء في خالصة للمبالغة في الخلوص كعلامة ونسابة، قاله الكسائي والأخفش. وقال الفراء: تانيثها لتأنيث الأنعام. ورد بأن ما في بطون الأنعام غير الأنعام، وتعقب هذا الرد بأن ما في بطون الأنعام أنعام، وهي الأجنة، وما عبارة عنها، فيكون تانيث خالصة باعتبار معنى ما، وتنكير محرم باعتبار لفظها. وقرأ الأعمش «خالص» قال الكسائي: معنى خالص وخالصة واحد، إلا أن الهاء للمبالغة كما تقدم عنه. وقرأ قتادة «خالصة» بالنصب على الحال من الضمير في متعلق الظرف الذي هو صلة لما، وخبر المبتدأ محذوف كقولك: الذي في الدار قائماً زيد، هذا قول البصريين. وقال الفراء: إنه انتصب على القطع. وقرأ ابن عباس «خالصة» بإضافة خالص إلى الضمير على أنه بدل من ما. وقرأ سعيد بن جبير «خالصاً» ﴿وَأِنْ يَكُنْ مِيتَةً﴾ قرئ بالتحية والفقوية: أي وإن يكن الذي في بطون الأنعام ﴿مِيتَةً فَهَمْ فِيهِ﴾ أي: في الذي في البطون ﴿شُرَكَاءَ﴾ يأكل منه الذكور والإناث ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفِهِمْ﴾ أي: بوصفهم على أنه منتصب بنزع الخافض، والمعنى: سيجزيهم بوصفهم الكذب على الله؛ وقيل المعنى: سيجزيهم جزاء وصفهم. ثم بين الله سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا﴾ أي: بناتهم بالواد الذي كانوا يفعلونه سفهاً: أي لأجل السفه: وهو الطيش والخفة لا لحجة عقلية ولا شرعية، كائنًا ذلك منهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يهتدون به. قوله: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من الأنعام التي سموها بحائر وسوائب ﴿افْتَرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ أي: للافتراء عليه أو افتراء افتراء عليه ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن طريق الصواب بهذه الأفعال ﴿وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾ إلى الحق، ولا هم من أهل الاستعداد لذلك.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثَ حَجْرٌ﴾ قال: الحجر ما حرّموا من الوصيلة، وتحريم ما حرّموا. وأخرج ابن أبي

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ قال: المعروشات ما عرش الناس ﴿وَوَيْلٌ لِلنَّاسِ﴾ ما خرج في الجبال والبرية من الثمار. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة قال: معروشات بالعيان والقصب وغير معروشات قال: الضاحي. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ قال: الكرم خاصة. وأخرج ابن المنذر، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: ما سقط من السنبل. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والنحاس، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر في قوله: ﴿وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: كانوا يعطون من اعتز بهم شيئاً سوى الصدقة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن مجاهد في الآية قال: إذا حصلت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ميمون بن مهران ويزيد الأصم قال: كان أهل المدينة إذا صرموا التخل يجيئون بالعنق فيضونه في المسجد فيجيء السائل، فيضربه بالعصا فيسقط منه، فهو قوله: ﴿وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن حماد بن أبي سليمان، في الآية قال: كانوا يطعمون منه رطباً. وأخرج أحمد، وأبو داود في سننه، من حديث جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ أمر من كل حادي عشرة أوسق من التمر بقتل يعلق في المسجد للمساكين. وإسناده جيد. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، قال: ﴿وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ نسخها العشر، ونصف العشر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن المنذر عن السدي نحوه. وأخرج النحاس، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة نحوه. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن الضحاك نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن الشعبي قال: إن في المال حقاً سوى الزكاة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي العالية قال: ما كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة، ثم إنهم تباثروا وأسرفوا، فأنزل الله ﴿وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جرير قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جد نخلًا فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فاطعم حتى أمسى وليس له ثمرة، فأنزل الله ﴿وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله لم يكن إسرافاً، ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان إسرافاً، وللسلف في هذا

الفضيلة ﴿مُخْتَلَفًا أَكَلَهُ﴾ أي: حال كونه مختلفاً أكله في الطعام والجودة والرداءة. قال الزجاج: وهذه مسئلة مشكلة في النحو، يعني انتصاب مختلفاً على الحال؛ لأنه يقال قد أنشأها ولم يختلف أكلها، فالجواب أن الله سبحانه أنشأها مقدرًا فيها الاختلاف، وقد بين هذا سيبويه بقوله: مررت برجل معه صقر صائدًا به غداً؛ أي مقدرًا للصيد به غداً، كما تقول: لتدخلن الدار أكلين شاربين: أي مقدرين ذلك، وهذه هي الحال المقدرة المشهورة عند النحاة المنونة في كتب النحو. وقال ﴿مُخْتَلَفًا أَكَلَهُ﴾ ولم يقل أكلهما لكتفاء بإعادة الذكر على أحدهما كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: 11] أو الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أي أكل ذلك. قوله: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرِّمَانُ﴾ معطوف على جنات: أي وأنشأ الزيتون والرمان حال كونه متشابهاً وغير متشابه، وقد تقدم الكلام على تفسير هذا ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي: من ثمر كل واحد منهما، أو من ثمر ذلك ﴿إِذَا ثَمَرَ﴾ أي: إذا حصل فيه الثمر وإن لم يدرك ويبلغ حد الحصاد. قوله: ﴿وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

وقد اختلف أهل العلم هل هذه محكمة أو منسوخة أو محمولة على التنب، فذهب ابن عمر، وعطاء، ومجاهد وسعيد بن جبير، إلى أن الآية محكمة، وأنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطي من حضر من المساكين القبضة والضفت ونحوهما. وذهب ابن عباس، ومحمد ابن الحنفية، والحسن، والنخعي، وطاوس، وأبو الشعثاء، وقتادة، والضحاك وابن جريح، أن هذه الآية منسوخة بالزكاة. واختاره ابن جرير، ويؤيده أن هذه الآية مكية، وآية الزكاة مدنية في السنة الثانية بعد الهجرة، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف. وقالت طائفة من العلماء: إن الآية محمولة على التنب لا على الوجوب. قوله: ﴿وَلَا تَسْرِفُوا﴾ أي: في التصديق، وأصل الإسراف في اللغة: الخطأ، والإسراف في النفقة: التبذير؛ وقيل: هو خطاب للولاة يقول لهم لا تأخذوا فوق حقكم؛ وقيل المعنى: لا تأخذوا الشيء بغير حقه وتضعونه في غير مستحقه. قوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ معطوف على جنات: أي وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفَرْشًا، والحمولة ما يحمل عليها، وهو يختص بالإبل فهي فعولة بمعنى فاعلة؛ والفَرش: ما يتخذ من الوبر والصوف، والشعر، فَرشاً يفرشه الناس؛ وقيل: الحمولة الإبل، والفَرش: الغنم؛ وقيل الحمولة: كل ما حمل عليه من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير، والفَرش: الغنم، وهذا لا يتم إلا على فرض صحة إطلاق اسم الأنعام على جميع هذه المذكورات؛ وقيل الحمولة: ما تركب، والفَرش: ما يؤكل لحمه ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ من هذه الأشياء ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ كما فعل المشركون من تحريم ما لم يحرمه الله، وتحليل ما لم يحلله ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشيطان ﴿لَكُمْ عَوٌّ مُبِينٌ﴾ مظهر للعداوة ومكاشف بها.

صفة فسق: أي نبح على الأصنام، وسمي فسقاً لتروغله في باب الفسق - قيل: ويجوز أن يكون ﴿فسقاً﴾ مفعولاً له لاهل: أي اهل به لغير الله، فسقاً، على عطف اهل على يكون، وهو تكلف لا حاجة إليه ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾ قد تقدم تفسيره في سورة البقرة، فلا نعيده ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة، فلا يؤاخذ المضطر بما دعت إليه ضرورته.

وقد أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال: إن أهل الجاهلية كانوا يحرّمون أشياء ويحلّون أشياء، فنزلت ﴿قل لا إله إلا الله﴾ والآية. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تعزّروا، فبعث الله نبيه، وأنزل كتابه، وأحلّ حلاله وحرّم حرامه، فما حلّ فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، ثم تلا هذه الآية: ﴿قل لا إله إلا الله﴾ إلى آخرها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عنه أنه تلا هذه الآية فقال: ما خلا هذا حلال. وأخرج البخاري، وأبو داود، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن زيد: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، فقال قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفاري عندنا بالبصرة، عن رسول الله ﷺ، ولكن أبى ذلك البحر ابن عباس، وقرأ ﴿قل لا إله إلا الله﴾ والآية. وأقول: وإن أبى ذلك البحر، فقد صحَّ عن رسول الله ﷺ، والتمسك بقول صاحبنا في مقابلة قول النبي ﷺ، من سوء الاختيار، وعدم الإنصاف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ليس شيء من الدوابِّ حرام إلا ما حرّم الله في كتابه: ﴿قل لا إله إلا الله﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وأبو داود، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عمر: أنه سئل عن أكل القنفذ، فقرا: ﴿قل لا إله إلا الله﴾. وقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النبي ﷺ فقال: «خبينة من الخبائث»، فقال ابن عمر: إن كان النبي ﷺ قاله، فهو كما قال. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عائشة: أنها كانت إذا سئلت عن كل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير، تلت ﴿قل لا إله إلا الله﴾. وأخرج أحمد، والبخاري، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس: أن شاة لسودة بنت بنت زمة ماتت فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة: تعني الشاة، قال: فولوا أخذتم مسكها؟ قالت: يا رسول الله أناخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقرا رسول الله ﷺ ﴿قل لا إله إلا الله﴾. وأخرج أحمد، والبخاري، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس: أن شاة لسودة بنت بنت زمة ماتت فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة: تعني الشاة، قال: فولوا أخذتم مسكها؟ قالت: يا رسول الله أناخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقرا رسول الله ﷺ ﴿قل لا إله إلا الله﴾. وأخرج أحمد، والبخاري، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس: أن شاة لسودة بنت بنت زمة ماتت فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة: تعني الشاة، قال: فولوا أخذتم مسكها؟ قالت: يا رسول الله أناخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقرا رسول الله ﷺ ﴿قل لا إله إلا الله﴾. وأخرج أحمد، والبخاري، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس: أن شاة لسودة بنت بنت زمة ماتت فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة: تعني الشاة، قال: فولوا أخذتم مسكها؟ قالت: يا رسول الله أناخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقرا رسول الله ﷺ ﴿قل لا إله إلا الله﴾.

وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ قال: في شأن ما نهى الله عنه من البحيرة والسائبة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ليث بن أبي سليم قال: الجاموس والبختي من الأزواج الثمانية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طرق عن ابن عباس، في قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ قال: فهذه أربعة ﴿قُلْ لَكُنَّ حَرَمٌ أَمْ مِنَ الْإِنثِيِّينَ﴾ يقول: لم أحرم شيئاً من ذلك ﴿لَئِنْ أَشْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثِيِّينَ﴾ يعني: هل تشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم يحرمون بعضاً ويحلون بعضاً؟ ﴿نَبْئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول كلها حلال: يعني ما تقدم ذكره مما حرّمه أهل الجاهلية.

قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مَعْرُومًا عَلَى طَاعِمٍ يَبْتَغِيهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مُسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ نِسَاءً أَهْلٌ لِنَارٍ لَعْنَةُ اللَّهِ يَدُ مَنْ أَصْطَلَعَ غَيْرَ بَاطِلٍ وَلَا عِلْمَ فَلَوْلَا رَبِّكَ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أنه لا يجد في شيء مما أوحى إليه محرماً غير هذه المنكورات، فدل ذلك على انحصار المحرمات فيها لولا أنها مكية، وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرمات: المنخقة والموقوذة والمترية والنطيحة، وصح عن رسول الله ﷺ تحريم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وتحريم الحمر الأهلية والكلاب ونحو ذلك، وبالجمله فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات كما يدل عليه السياق وفيده الاستثناء، فيضم إليه كل ما ورد بعده في الكتاب أو السنة مما يدل على تحريم شيء من الحيوانات - وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شيء حرّمه الله من حيوان وغيره، فإنه يضم إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شيء من الأشياء. وقد روي عن ابن عباس، وابن عمر، وعائشة، أنه لا حرام إلا ما ذكره الله في هذه الآية، وروى ذلك عن مالك وهو قول ساقط، ومذهب في غاية الضعف؛ لاستلزامه لإهمال غيرها مما نزل بعدها من القرآن، وإهمال ما صح عن النبي ﷺ أنه قاله بعد نزول هذه الآية، بلا سبب يقتضي ذلك ولا موجب يوجب. قوله: ﴿محرماً﴾ صفة لموصوف محذوف: أي طعاماً محرماً ﴿على﴾ أي: ﴿طعام يطعمه﴾ من المطاعم، وفي ﴿يطعمه﴾ زيادة تأكيد وتقرير لما قبله ﴿إلا أن يكون ميتة﴾ أي: ذلك الشيء أو تلك الطعام أو العين أو الجثة أو النفس. وقرئ «يكون» بالتحية والفقوة، وقرئ «ميتة» بالرفع على أن يكون تامة. والدّم المسفوح: الجاري، وغير المسفوح معفو عنه، كالدم الذي يبقى في العروق بعد الذبح، ومنه الكبد والطحال، وهكذا ما يتلخّ به اللحم من الدم. وقد حكى القرطبي الإجماع على هذا. قوله: ﴿أو لحم خنزير﴾ ظاهر تخصيص اللحم أنه لا يحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم، والضمير في ﴿فإنه﴾ راجع إلى اللحم، أو إلى الخنزير. والرجس: النجس، وقد تقدّم تحقيقه. قوله: ﴿أو فسقا﴾ عطف على لحم خنزير، ﴿وأهل به لغير الله﴾

حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا فَإِنَّهُ غَيْرُ مَحْرُومٍ، وَلَا وَجْهَ لِهَذَا التَّكْلِيفِ، وَلَا مُوجِبَ لَهُ، لِأَنَّهُ يَكُونُ الْمَعْنَى إِنْ أَلَّهِ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ إِحْدَى هَذِهِ الْمَنْكُورَاتِ، وَالْمُرَادُ بِمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ: مَا لَصِقَ بِالْعَظَامِ مِنَ الشَّحُومِ فِي جَمِيعِ مَوَاضِعِ الْحَيَوَانِ، وَمِنَ الْإِلَاحَةِ فَإِنَّهَا لَاصِقَةٌ بِعَجَبِ الذَّنْبِ، وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ إِلَى التَّحْرِيمِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِحَرْمَتِهِ، أَيْ ذَلِكَ التَّحْرِيمُ جَزِينَاهُمْ بِهِ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ؛ وَقِيلَ: إِنْ الْإِشَارَةُ إِلَى الْجُزْءِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿جَزِينَاهُمْ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الْجُزْءُ جَزِينَاهُمْ، وَهُوَ تَحْرِيمُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فِي كُلِّ مَا نَخْبِرُ بِهِ، وَمِنْ جَمَلَةِ ذَلِكَ هَذَا الْخَبَرُ، وَهُوَ مُوجُودٌ عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ، وَنَصَحَا «حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَكُلَّ دَابَّةٍ لَيْسَتْ بِمَشْقُوقَةِ الْحَافِرِ، وَكُلَّ حَوْتَ لَيْسَ فِيهِ سَفَاسَفٌ» أَيْ بَيَاضٌ انْتَهَى. وَالضَّمِيرُ فِي «كَذَّبُوكُمْ» لِلْيَهُودِ: أَيْ فَإِنَّ كَذْبَكُمْ الْيَهُودَ فِيمَا وَصَفْتُمْ مِنْ تَحْرِيمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ ﴿فَقُلْ رِبِّكُمْ نُو رَحْمَةً وَسَعَةً﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ حَلَمَهُ عَنْكُمْ، وَعَدِمَ مُعَاجَلَتَهُ لَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ إِنْ أَمْلَكَكُمْ وَرَحِمَكُمْ ﴿وَلَا يَرِدُ بِأَسَاسِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ﴾ إِذَا أَنْزَلَهُ بِهِمْ اسْتَحَقُّوا الْمُعَاجَلَةَ بِالْعُقُوبَةِ وَقِيلَ الْمُرَادُ: لَا يَرِدُ بِأَسَاسِهِ فِي الْآخِرَةِ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَدْ عَاجَلَهُمْ بِعُقُوبَاتٍ مِنْهَا تَحْرِيمُ الطَّيِّبَاتِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا؛ وَقِيلَ الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَسَمُوا الْأَنْعَامَ إِلَى تِلْكَ الْأَقْسَامِ، وَحَلَّلُوا بَعْضَهَا وَحَرَّمُوا بَعْضَهَا؛ وَقِيلَ الْمُرَادُ: أَنَّهُ نُو رَحْمَةً لِلْمُطِيعِينَ ﴿وَلَا يَرِدُ بِأَسَاسِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ﴾ وَلَا مُلْجئٌ لِهَذَا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿كُلُّ ذِي ظُفَرٍ﴾ قال: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع، يعني ليس بمشقوق الأصابع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عنه: ﴿كُلُّ ذِي ظُفَرٍ﴾ قال: البعير والنعامة. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: هو كل شيء لم تنفرج قوائمته من البهائم، وما انفرج أكلته اليهود، قال: انفرجت قوائم الدجاج، والعصافير، فيهود تأكله، ولم ينفرج خف البعير ولا النعامة، ولا قائمة الوزينة، فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعامة ولا الوزينة، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته كذلك، ولا تأكل حمار الوحش. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ يعني: ما علق بالظهر من الشحم ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ هي المبعر: وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي صالح، في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ قال: الآية ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ قال: المبعر ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ قال: الشحم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ قال: المباعر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن الضحاک ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ قال: المرائض والمباعر. وأخرج ابن المنذر، وأبو

حرم من الميتة أكلها، وهو أيضاً في الصحيح. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَوْ نَمًا مَسْفُوحًا﴾ قال: مهراقاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أودجوا الدابة وأخذوا الدم فأكلوه، قال: هو دم مسفوح. وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي: أنه سئل عن لحم الفيل والأسد فتلا: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ الآية. والأحاديث الواردة بتحريم كل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير، والحمر الأهلية، ونحوها مستوفاة في كتب الحديث.

وَعَلَّ الْأَبْرَ مَا دُوا حَرَمًا كُلُّ ذِي ظُفَرٍ وَمِنَ الْغَنَمِ وَالنَّعَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ بِرَبِّكُمْ يَسْتَبِينَ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكُمْ فَقُلْ رَبِّكُمْ دُرُّ رَحْمَةٍ وَاسْمٌ وَلَا يَرُدُّ بِأَسَاسِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ ﴿١٦١﴾

قَدَّمَ: ﴿عَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ عَلَى الْفِعْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّحْرِيمَ مُخْتَصٌّ بِهِمْ لَا يَجَاوِزُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ. وَالَّذِينَ هَادُوا: الْيَهُودُ، نَكَرَ اللَّهُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ عَقِبَ نَكَرَ مَا حَرَّمَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ. وَالظُّفَرُ: وَاحِدُ الْأَظْفَارِ، وَيَجْمَعُ أَيْضاً عَلَى أَظْفَافٍ، وَزَادَ الْفَرَاءُ فِي جَمْعِ ظُفَرٍ: أَظْفَارٌ وَأَظْفَارَةٌ، وَذُو الظُّفَرِ: مَا لَهُ أَصْبَعٌ مِنْ دَابَّةٍ أَوْ طَائِرٍ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْحَافِرُ وَالْخَفُّ وَالْمَخْلَبُ، فَيَتَنَاوَلُ الْإِبِلَ وَالْبَقَرِ، وَالْغَنَمَ وَالنَّعَامَ، وَالْأَوْزَ وَالْبِطَّ، وَكُلُّ مَا لَهُ مَخْلَبٌ مِنَ الطَّيْرِ، وَتَسْمِيَةُ الْحَافِرِ وَالْخَفِّ ظُفَرًا مُجَازٌ. وَالْأَوَّلَى حَمَلُ الظُّفَرِ عَلَى مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اسْمُ الظُّفَرِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، لِأَنَّ هَذَا التَّعْمِيمَ يَأْبَاهُ مَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ﴾ فَإِنْ كَانَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ بَحِثٌ يَقَالُ عَلَى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ كَانَ نَكَرُهُمَا مِنْ بَعْدِ تَخْصِيصِهِمَا حَرَّمَ اللَّهُ تِلْكَ عَلَيْهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى مَا وَقَعُوا فِيهِ مِنَ الظُّلْمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبُظْلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: 160]. قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمًا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا﴾ لَا غَيْرَ هَذِهِ الْمَنْكُورَاتِ كُلِّهِمَا، وَالشَّحُومُ يَدْخُلُ فِيهَا الثَّرُوبُ وَشَحْمُ الْكَلْبَةِ؛ وَقِيلَ الثَّرُوبُ جَمْعُ ثَرِبٍ، وَهُوَ الشَّحْمُ الرَّقِيقُ الَّذِي يَكُونُ عَلَى الْكَرْشِ، ثُمَّ اسْتَثْنَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنَ الشَّحُومِ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا مِنَ الشَّحْمِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَحْرَمْهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَهَما في موضع نصب على الاستثناء ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ معطوف على ظهورهما أي: إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ حَمَلَتْ الْحَوَايَا، وَهِيَ الْمَبَاعِرُ الَّتِي يَجْتَمِعُ الْبَعَرُ فِيهَا، فَمَا حَمَلَتْهُ مِنَ الشَّحْمِ غَيْرَ حَرَامٍ عَلَيْهِمْ، وَوَاحِدُهَا حَاوِيَّةٌ، مِثْلُ ضَارِبَةٍ وَضَوَارِبٍ؛ وَقِيلَ: وَوَاحِدُهَا حَاوِيَاءٌ مِثْلُ قَاصِعَاءٍ وَقَوَاصِعٍ، وَقِيلَ حَوِيَّةٌ: كَسْفِيَّةٌ وَسَفَائِثٌ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْحَوَايَا مَا تَحَوَّى مِنَ الْبَطْنِ: أَيْ اسْتَدَارَ، وَهِيَ مَتَحَوِيَّةٌ: أَيْ مُسْتَدِيرَةٌ؛ وَقِيلَ الْحَوَايَا: خَزَائِنُ اللَّبَنِ، وَهِيَ تَتَصَلُّ بِالْمَبَاعِرِ؛ وَقِيلَ الْحَوَايَا: الْأَمْعَاءُ الَّتِي عَلَيْهَا الشَّحُومُ. قَوْلُهُ: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ معطوف على «مَا» فِي هَما حَمَلَتْ كَذَا قَالَ الْكَسَائِيُّ وَالْفَرَاءُ وَثَعْلَبُ؛ وَقِيلَ: إِنْ الْحَوَايَا وَمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ مُعْطُوفَةٌ عَلَى الشَّحُومِ، وَالْمَعْنَى:

ذَلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٧﴾

قوله: ﴿قل تعالىوا﴾ أي تقموا. قال ابن السجري: إن الأمور بالتقدم في أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً، ف قيل له تعالى: أي أرفع شخصك بالقيام وتقدم، واتسعا فيه حتى جعلوه للواقف والمأشي. وهكذا قال الزمخشري في الكشف: إنه من الخاص الذي صار عاماً، وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم كثروا واتسع فيه حتى عم. قوله: ﴿اتل ما حرم ربكم﴾ أتل جواب الأمر، وما موصولة في محل نصب به: أي أتل الذين حرمه ربكم عليكم. والمراد من تلاوة ما حرم الله تلاوة الآيات المشتملة عليه، ويجوز أن تكون ما مصدرية: أي أتل تحريم ربكم. والمعنى: ما اشتمل على التحريم؛ قيل ويجوز أن تكون ما استفهامية أي: أتل أي شيء حرم ربكم، على جعل التلاوة بمعنى القول، وهو ضعيف جداً، وعليكم أن تعلق باتل، فالمعنى: أتل عليكم الذي حرم ربكم، وإن تعلق بحرّم، فالمعنى أتل الذي حرم ربكم عليكم، وهذا أولى، لأن المقام مقام بيان ما هو محرّم عليكم لا مقام بيان ما هو محرّم مطلقاً؛ وقيل: إن عليكم للإغراء ولا تعلق لها بما قبلها. والمعنى عليكم أن لا تشركوا إلى آخره: أي الزموا ذلك كقوله تعالى: ﴿عليكم أنفسكم﴾ [المائدة: 105] وهو أضعف مما قبله، وأن في ﴿أن لا تشركوا﴾ مفسرة لفعل التلاوة، وقال النحاس: يجوز أن تكون في موضع نصب بدلاً من ما: أي أتل عليكم تحريم الإشراك؛ وقيل: يجوز أن يكون في محل رفع بتقدير مبتدأ: أي المتلو أن لا تشركوا، وشيئاً مفعول أو مصدر أي لا تشركوا به شيئاً من الأشياء، أو شيئاً من الإشراك. قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: أحسنوا بهما إحساناً، والإحسان إليهما البر بهما، وامتثال أمرهما ونهيهما. وقد تقدم الكلام على هذا. قوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ لما نكر حق الوالدين على الأولاد، نكر حق الأولاد على الوالدين، وهو أن لا يقتلوه من أجل إملاق، والإملاق الفقر، فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكر والإناث خشية الإملاق، وتفعله بالإناث خشية خشية العار، وحكى النقاش عن مؤرّج: أن الإملاق الجوع بلغة لخم، وذكر منذر بن سعيد البلوطي: أن الإملاق الإنفاق. يقال أملق ماله: بمعنى أنفقه. والمعنى الأول هو الذي أطبق عليه أئمة اللغة، وأئمة التفسير ما هنا. ﴿ولا تقرّبوا الفواحش﴾ أي: المعاصي، ومنه ﴿ولا تقرّبوا الزنا﴾ إنه كان فاحشة [الإسراء: 32] وما في ﴿ما ظهر﴾ بدل من الفواحش، وكذا ما بطن. والمراد بما ظهر: ما أعلن به منها، وما بطن: ما أسر. وقد تقدم ﴿ولا تقتلوا النفس﴾ اللام في النفس للجنس، و﴿التي حرم الله﴾ صفة للنفس: أي لا تقتلوا شيئاً من الأنفس التي حرمها الله ﴿إلا بالحق﴾ أي إلا بما يوجب الحق، والاستثناء مفرغ: أي لا تقتلوه في حال من الأحوال إلا في حال الحق، أو لا تقتلوهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، ومن الحق قتلها قصاصاً، وقتلها بسبب زنا

المحصن، وقتلها بسبب الرذّة، ونحو ذلك من الأسباب التي ورد الشرع بها، والإشارة بقوله: ﴿تلكم﴾ إلى ما تقدم مما تلاه عليهم، وهو مبتدأ ﴿ووصاكم به﴾ خبره: أي أمركم به، وأوجب عليكم ﴿ولا تقرّبوا مال اليتيم﴾ أي: لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه ﴿إلا به﴾ الخصلة ﴿التي هي أحسن﴾ من غيرها، وهي ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته، فيشمل كل وجه من الوجوه التي فيها نفع لليتيم وزيادة في ماله؛ وقيل: المراد بالتي هي أحسن التجارة ﴿حتى يبلغ أشده﴾ أي: إلى غاية هي أن يبلغ اليتيم أشده، فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله، كما قال تعالى: ﴿فإن أنستم منه رشداً فادفعوا إليه أموالهم﴾ [النساء: 6].

واختلف أهل العلم في الأشد؛ فقال أهل المدينة: بلوغه وإيناس رشده. وقال أبو حنيفة: خمس وعشرون سنة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو البلوغ. وقيل: إنه انتهاء الكهولة، ومنه قول سحيم الرباحي:

أخو الخمسين مجتمعت أشدي ويحدثني مداورة الشؤون والأولى في تحقيق بلوغ الأشد: أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد، وهو أن يكون في تصرفاته بماله سالماً مسلك العقلاء، لا مسلك أهل السفه والتبذير، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ [النساء: 6] فجعل بلوغ النكاح، وهو بلوغ سن التكليف مقيد بإيناس الرشد، ولعله قد سبق هنالك كلام في هذا، والأشد واحد لا جمع له، وقيل: واحده شد كفلس وأقلس وأصله من شد النهار: أي ارتفع. وقال سيدي: واحده شدة. قال الجوهري: وهو حسن في المعنى، لأنه يقال بلغ الكلام شدته، ولكن لا تجمع فعلة على أفعّل. قوله: ﴿وأوفوا للكيل والميزان بالقسط﴾ أي: بالعدل في الأخذ والإعطاء عند البيع والشراء ﴿ولا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: إلا طاقتها في كل تكليف من التكليف، ومنه التكليف بإيفاء الكيل والوزن، فلا يخاطب المتولي لهما بما لا يمكن الاحتراز عنه في الزيادة والنقصان ﴿وإذا قلتم فاعملوا﴾ أي: إذا قلتم يقول في خبر أو شهادة، أو جرح أو تعديل، فاعملوا فيه، وتحزوا الصواب، ولا تتعصبوا في ذلك لقريب ولا على بعيد، ولا تميلوا إلى صديق، ولا على عني، بل سوّوا بين الناس، فإن ذلك من العدل الذي أمر الله به، والضمير في ﴿ولو كان﴾ راجع إلى ما يفيد «وإذا قلتم» فإنه لا بد للقول من مقول فيه، أو مقول له: أي ولو كان المقول فيه، أو المقول له ﴿ذا قربي﴾ أي: صاحب قرابة لكم. وقيل إن المعنى: ولو كان الحق على مثل قرباتكم والأول أولى، ومثل هذه الآية قوله: ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ [النساء: 135]. قوله: ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ أي: أوفوا بكل عهد عهد الله إليكم، ومن جملة ما عهد الله إليكم، ما تلاه عليكم رسوله بأمره في هذا المقام، ويجوز أن يراد به كل عهد، ولو كان بين المخلوقين، لأن الله

إلَهك، لا تقتل، لا تزني، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بنت قريبك، ولا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئاً مما لقريبك، ففعل مراد كعب الأحبار هذا، وللإيهود بهذه الوصايا عناية عظيمة وقد كتبها أهل الزبور في آخر زبورهم. وأهل الإنجيل في أول إنجيلهم، وهي مكتوبة في لوحين، وقد تركنا منها ما يتعلق بالسبت. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: **«ولا تقتلوا أولادكم من إملاق»** قال: من خشية الفاقة، وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته مخافة الفاقة عليها والسبي **«ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن»** قال: سرّها وعلايتها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس **«ولا تقتلوا أولادكم من إملاق»** قال: خشية الفقر **«ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن»** قال: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السر، ويستقبحونه في العلانية، فحرم الله الزنا في السر والعلانية. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **«وإن هذا صراطي مستقيماً»** قال: أعلموا أن السبيل سبيل واحد، جماعه الهدى ومصيره الجنة، وإن إبليس اشترع سبلاً متفرقة، جماعه الضلالة ومصيرها النار. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن مسعود، قال: «خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط، وعن شماله، ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: **«وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا للسبل فتفرق بكم عن سبيله»**. وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن مردويه، من حديث جابر نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن مردويه، عن ابن مسعود أن رجلاً سأله: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمداً ﷺ، في إنائه وطرفه الجنة، وعن يمينه جواد وعن شماله جواد، وثم رجال يدعون من مَرٍّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: **«وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه»** الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **«ولا تتبعوا السبل»** قال: الضلالات.

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٠﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ قَائِمُهُ وَاتَّخَذْنَا لَكُمْ رَحْمَةً ﴿١٧١﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَنَنْزِيلُكَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا سَبَجَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٧٣﴾

هذا الكلام مسوق لتقرير التوصية التي وصى الله عباده

سبحانه لما أمر بالفناء به في كثير من الآيات القرآنية كان ذلك مسوغاً لإضافته إليه، والإشارة بقوله: **«لنلكم»** إلى ما تقدم ذكره **«وصاكم به»** أمركم به أمراً مؤكداً **«لعلكم تذكرون»** فتتعتظون بذلك. قوله: **«وإن هذا صراطي مستقيماً»** أن في موضع نصب: أي وأتلى أن هذا صراطي، قاله الفراء والكسائي. قال الفراء: ويجوز أن يكون خفضاً أي: وصاكم به، وبأن هذا. وقال الخليل وسيبويه: إن التقدير ولأن هذا صراطي مستقيماً، كما في قوله سبحانه: **«وإن المساجد لله»** [الجن: 18] وقرأ الأعمش وحمة والكسائي **«وإن هذا»** بكسر الهمزة على الاستئناف، والتقدير: الذي نكر في هذه الآيات صراطي. وقرأ ابن أبي إسحاق، ويعقوب **«وإن هذا صراطي»** بالتخفيف على تقدير ضمير الشأن. وقرأ الأعمش **«وهذا صراطي»** وفي مصحف عبد الله بن مسعود **«وهذا صراط ربكم»** وفي مصحف أبي **«وهذا صراط ربك»** والصراط: الطريق، وهو طريق دين الإسلام، ونصب مستقيماً على الحال، والمستقيم المستوي الذي لا اعوجاج فيه، ثم أمرهم باتباعه ونهاهم عن اتباع سائر السبل: أي الأديان المتباينة طرقها **«فتفرق بكم»** أي: تميل بكم **«عن سبيله»** أي: عن سبيل الله المستقيم الذي هو دين الإسلام. قال ابن عطية: وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وسائر أهل الملل، وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد، والإشارة بـ **«لنلكم»** إلى ما تقدم وهو مبتدأ وخبره **«وصاكم به»** أي: أكد عليكم الوصية به **«لعلكم تتقون»** ما نهاكم عنه.

وقد أخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عباد بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبأييني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا: **«قل تعالوا»** إلى ثلاث آيات، ثم قال: فمن وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منه شيئاً فأنكره الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن الضريس، وابن المنذر، عن كعب الأحبار قال: أول ما أنزل في التوراة عشر آيات، وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام **«قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم»** إلى آخرها. وأخرج أبو الشيخ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عدي بن الخيار قال: سمع كعب رجلاً يقرأ **«قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً»** فقال كعب: والذي نفس كعب بيده إنها لأول آية في التوراة: بسم الله الرحمن الرحيم **«قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم»** إلى آخر الآيات انتهى. قلت: هي الوصايا العشر التي في التوراة، وأولها أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك إله آخر غيري. ومنها: أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب

الكتاب، معطوف على ﴿تَقُولُوا﴾ أي: أو أن تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الطائفتين من قبلنا ﴿لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ إلى الحق الذي طلبه الله، فإن هذه المقالة والمعذرة منهم مندفة بإرسال محمد ﷺ إليهم، وإنزال القرآن عليه، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: كتاب أنزله الله على نبيكم، وهو منكم يا معشر العرب، فلا تعتذروا بالاعذار الباطلة وتعللوا أنفسكم بالعلل الساقطة، فقد أسفر للصبح لذي عينين ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ معطوف على ﴿بَيِّنَةً﴾ أي: جاءكم البينة الواضحة، والهدى الذي يهتدي به كل من له رغبة في الاهتداء، ورحمة من الله يدخل فيها كل من يطلبها ويريد حصولها، ولكنكم ظلمتم أنفسكم بالتكذيب بآيات الله، والصفوف عنها: أي الانصراف عنها. وصرف من أراد الإقبال إليها ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ التي هي رحمة وهدى للناس ﴿وَصَفَّ عَنْهَا﴾ فضل بانصرافه عنها، وأضل بصرف غيره عن الإقبال إليها ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: العذاب السيئ ﴿بِمَا كَانُوا يَصِفُونَ﴾ وقيل معنى صدف: أعرض، ويصدفون يعرضون، وهو مقارب لمعنى الصرف، وقد تقدم تحقيق معنى هذا اللفظ، والاستفهام في فمن أظلم للإنكار أي: إنكار أن يكون أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وصف عنها ما يفيد ذلك من التبكيت لهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال: على المؤمنين المحسنين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي صخر ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال: تماماً لما كان قد أحسن الله. وأخرج أيضاً عن ابن زيد قال: تماماً لنعمته عليهم وإحسانه إليهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ قال: هو القرآن الذي أنزل الله على محمد ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ يقول: فاتبعوا ما أحل الله فيه واتقوا ما حرم. وأخرج هؤلاء عن مجاهد في قوله: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: اليهود والنصارى، خاف أن تقوله قريش. وأخرج ابن المنذر، وابن حاتم، عن ابن عباس، قال: هم اليهود والنصارى، ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دُرُسْتِهِمْ﴾ قال: تلاوتهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ قال: هذا قول كفار العرب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول: قد جاءكم بيينة لسان عربي مبين حين لم يعرفوا دراسة الطائفتين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿صَفَّ عَنْهَا﴾ قال: أعرض عنها. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك، في قوله: ﴿يَصِفُونَ﴾ قال: يعرضون.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ قَوْمًا إِسْتِغَاثُهُمْ إِذْ تُنْفَخُ الصُّورُ أَوْ يَكُونُ الْأَوَّلُونَ

بها، وقد استشكل العطف بثم مع كون قصة موسى وإيتائه الكتاب قبل المعطوف عليه. وهو ما تقدم من قوله: ﴿ثُمَّ كُنَّا قَدِ اتَّيْنَا مُوسَى الْكَتَابَ قَبْلَ أَنْزَالِنَا الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ وقيل المعنى: قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم، ثم اتل إيتاء موسى الكتاب؛ وقيل: إن التوضيحية المعطوف عليها قديمة لم يزل كل نبي يوصي بها أمته؛ وقيل: إن ثم للتراخي في الإخبار كما تقول: بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت بالأمس أعجب. قوله: ﴿تَمَاماً﴾ مفعول لأجله أو مصدر، و ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قرئ بالرفع، وهي قراءة يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، فيكون رفع أحسن على تقدير مبتدأ: أي على الذي هو أحسن، ومنه ما حكى سيبويه عن الخليل أنه سمع: ما أنا بالذي قاتل لك شيئاً. وقرأ الباقون بالنصب على أنه فعل ماضٍ عند البصريين، وأجاز الفراء والكسائي أن يكون اسماً نعتاً للذي، وهذا محال عند البصريين لأنه نعت للاسم قبل أن يتم، والمعنى عندهم تماماً على من أحسن قبوله والقيام به كائناً من كان، ويؤيد هذا أن ابن مسعود قرأ: ﴿وَتَمَاماً عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وقال الحسن: كان فيهم محسن وغير محسن، فأنزل الله الكتاب تماماً على المحسنين؛ وقيل المعنى: أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علمه الله قبل نزول التوراة عليه؛ وقيل المعنى: تماماً على الذي أحسن به الله عز وجل إلى موسى من الرسالة وغيرها، وقيل: تماماً على إحسان موسى بطاعة الله عز وجل قاله الفراء. قوله: ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ معطوف على تماماً: أي ولأجل تفصيل كل شيء، وكذا ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ معطوفتان عليه أي: وللهدي والرحمة، والضمير في لعلهم راجع إلى بني إسرائيل، المنلول عليه بذكر موسى، والباء في ﴿بِلِقَاءِ﴾ متعلقة بيؤمنون. قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ﴾ الإشارة إلى القرآن، واسم الإشارة مبتدأ وخبره كتاب، وأنزلناه صفة لكتاب ومبارك صفة أخرى له، وتقدير صفة الإنزال لكون الإنكار متعلقاً بها، والمبارك كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدنيوية والدينية ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ فإنه لما كان من عند الله، وكان مشتملاً على البركة، كان أتباعه محتتماً عليكم ﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفته، والتكذيب بما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن قبلتموه ولم تخالفوه ﴿تَرْحَمُونَ﴾ برحمة الله سبحانه، وأن في ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع نصب، قال الكوفيون: لثلاث تقولوا. وقال البصريون: كرامة أن تقولوا. وقال الفراء والكسائي: المعنى فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة والإنجيل ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وهم اليهود والنصارى، ولم ينزل علينا كتاب ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دُرُسْتِهِمْ﴾ أي: عن تلاوة كتبهم بلغاتهم ﴿بِلِغَاتِهِمْ﴾ أي: لا ندرى ما فيها، ومرادهم إثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباع ما فيهما بعدم الدراية منهم، والغفلة عن معناهما. قوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ

لهم: انتظروا ما تريدون إتيانه إنا منتظرون له، وهذا تهديد شديد ووعيد عظيم، وهو يَقْرَى ما قيل في تفسير: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أنها الآيات التي اقترحوها من إتيان الملائكة وإتيان العذاب لهم من قبل الله كما تقدّم بيانه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال: عند الموت ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ قال: يوم القيامة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في تفسير الآية مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ قال: يوم القيامة في ظلل من الغمام. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، في مسنده، والترمذي وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قال: طلوع الشمس من مغربها، قال الترمذي غريب. ورواه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن أبي سعيد موقوفاً. وأخرجه الطبراني، وابن عدي، وابن مردويه من حيث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ونعيم بن حماد، والطبراني عن ابن مسعود موقوفاً. فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوي من وجه صحيح لا قاذح فيه، فهو واجب التقديم له، متحتم الأخذ به، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورأى الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها، ثم قرأ الآية». وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي نر مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ يقول: كسبت في تصديقها عملاً صالحاً، هؤلاء أهل القبلة وإن كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك خيراً فعملت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها، وإن عملت قبل الآية خيراً، ثم عملت بعد الآية خيراً قبل منها وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مقاتل، في قوله: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ قال: يعني: المسلم الذي لم يعمل في إيمانه خيراً وكان قبل الآية مقيماً على الكبائر. والآيات التي هي علامات القيامة، قد وردت الأحاديث المتكاثرة في بيانها وتعدادها، وهي مذكورة في كتب السنة. إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُمْ وَكَأُفُوا بِمَا آتَتْ رَبَّهُمْ فِي سَمَاءٍ أَرْمَرَهُمْ إِيَّاهُ فَسَخَّرْنَا لَهُمْ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُفْقَهُوا قَوْلَ اللَّهِ وَفَعَلَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَمَنْ يُشِمْ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فَفَاجَعَهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالْسَيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ إِلَّا وَثْقَاهُ وَهُوَ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٠٧﴾

قرأ حمزة والكسائي «فارقوا دينهم» وهي قراءة علي بن أبي طالب: أي تركوا دينهم وخرجوا عنه، وقرأ الباقون فَرَّقُوا بالتشديد إلا النخعي فإنه بالتخفيف. والمعنى: أنهم جعلوا دينهم متفرقاً فأخذوا ببعضه، وتركوا بعضه. قيل المراد بهم: اليهود والنصارى. وقد روي في معنى هذا: في اليهود قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ

أَي لَمَّا أَقْمَنَّا عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَأَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَى رَسُولِنَا الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَنْفَعِهِمْ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعُوا بِهِ عَنْ غَوَايِهِمْ، فَمَا بَقِيَ بَعْدَ هَذَا إِلَّا أَنَّهُمْ «يَنْظُرُونَ» أَي يَنْتَظِرُونَ «أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ» أَي: ملائكة الموت لقبض أرواحهم، وعند ذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ كَمَا اقترحوه بقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: 21] وقيل معناه: أو ياتي أمر ربك بإهلاكهم؛ وقيل المعنى: أو ياتي كل آيات ربك ببليل قوله: ﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ وقيل: هو من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وقد جاء في القرآن حذف المضاف كثيراً كقوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] وقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: 93] أي حب العجل؛ وقيل: إتيان الله مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه كقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [الفجر: 22]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قرأ ابن عمر وابن الزبير ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ بالفوقية، وقرأ الباقون بالتحنية، قال المبرد: التانيث على المجاورة لمؤنث لا على الأصل ومثله قول جرير:

لَمَّا أَتَى خَيْرَ الزَّبِيرِ تَوَاضَعْتَ سُرُورَ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالِ الْخُشَعِ
وَقَرَأَ ابْنُ سِيرِينَ، لَا تَنْفَعُ بِالْفُوقِيَّةِ. قال أبو حاتم: إن هذا غلط عن ابن سيرين. وقد قال الناس في هذا شيء دقيق من النحو نكره نطقه، وذلك أن الإيمان والنفس كل واحد منهما مشتمل على الآخر، فأثبت الإيمان إذ هو من النفس. قال النحاس، وفيه وجه آخر، وهو أن يؤنث الإيمان، لأنه مصدر كما ينكر المصدر المؤنث مثل ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: 275]. ومعنى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يوم ياتي الآيات التي اقترحوها، وهي التي تضطرهم إلى الإيمان ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ أو ما هو أعم من ذلك، فيدخل فيه ما ينتظرونه؛ وقيل: هي الآيات التي هي علامات القيامة المذكورة في الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ، فهي التي إذا جاءت لا ينفع نفساً إيمانها. قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ أَمْنَتْ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قبل إتيان بعض الآيات، فأما التي قد كانت آمنت من قبل مجيء بعض الآيات فإيمانها ينفعها، وجملة: ﴿لَمْ تَكُنْ أَمْنَتْ مِنْ قَبْلِ﴾ في محل نصب على أنها صفة نفساً. قوله: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ معطوف على ﴿أَمْنَتْ﴾ والمعنى: أنه لا ينفع نفساً إيمانها عند حضور الآيات متصفة بأنها لم تكن آمنت من قبل، أو آمنت من قبل ولكن لم تكسب في إيمانها خيراً، فحصل من هذا أنه لا ينفع إلا الجمع بين الإيمان من قبل مجيء بعض الآيات مع كسب الخير في الإيمان، فمن آمن من قبل فقط، ولم يكسب خيراً في إيمانه، أو كسب خيراً ولم يؤمن، فإن ذلك غير نافع، وهذا التركيب هو كقولك: لا أعطي رجلاً اليوم أتانني لم يأتني بالأمس أو لم يمدحني في إتيانه إلي بالأمس، فإن المستفاد من هذا أنه لا يستحق العطاء إلا رجل أتاه بالأمس ومدحه في إتيانه إليه بالأمس، ثم أمره الله سبحانه أن يقول

إذا تاب أو غلبت حسناته سيئاته، أو تغمد الله برحمته، وتفضل عليه بمغفرته، فلا مجازاة، وإالة الكتاب والسنة مصرحة بهذا تصريحاً لا يبقى بعده ريب لمرتاب **﴿وهم﴾** أي: من جاء بالحسنة ومن جاء بالسينة **﴿لا يظلمون﴾** بنقص ثواب حسنات المحسنين، ولا بزيادة عقوبات المسيئين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد ﷺ فتفرقوا، فلما بعث محمد أنزل عليه: **﴿إِنَّ الْإِنِّينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُم﴾** الآية. وأخرج النحاس، عنه في ناسخه **﴿إِنَّ الْإِنِّينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُم﴾** قال: اليهود والنصارى، تركوا الإسلام والدين الذي أمروا به **﴿وكانوا شيعاً﴾** فرقاً أحزاباً مختلفة **﴿لست منهم في شيء﴾** نزلت بمكة ثم نسخها **﴿قاتلوا المشركين﴾** [التوبة: 36]. وأخرج أبو الشيخ عنه **﴿وكانوا شيعاً﴾** قال: ملأ شتى. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة، في قوله: **﴿إِنَّ الْإِنِّينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُم﴾** الآية قال: هم في هذه الأمة. وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير، والطبراني، والشيرازي في الألقاب، وابن مردويه، عنه، عن النبي ﷺ في الآية قال: هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة، وفي إسناده عبد بن كثير، وهو متروك الحديث، ولم يرفعه غيره، ومن عاده وقوه على أبي هريرة. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي أمامة في الآية قال: هم الحرورية وقد رواه ابن أبي حاتم، والنحاس، وابن مردويه، عن أبي غالب عن أبي أمامة مرفوعاً ولا يصح رفعه. وأخرج الحكيم الترمذي، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن شاهين، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، وأبو نصر السجزي في الإبانة، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عمر، أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: **﴿يا عائش إِنَّ الْإِنِّينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُمْ وَكَانُوا شِعْياً﴾** هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة، يا عائشة إن لكل صاحب نيب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وهم مني برأء. قال ابن كثير: هو غريب ولا يصح رفعه. وأخرج عبد بن حميد، عن سعيد بن جبير، قال: لما نزلت **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾** قال رجل من المسلمين: يا رسول الله لا إله إلا الله حسنة؟ قال: نعم، أفضل الحسنات، وهذا مرسل ولا ندرى كيف إسناده إلى سعيد؟ وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم، في الحلية، عن ابن مسعود **﴿من جاء بالحسنة﴾** قال: لا إله إلا الله. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة، مثله أيضاً. وقد قلّمنا الإشارة إلى أنها قد ثبتت الأحاديث الصحيحة بمضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فلا تطيل بنكرها، ووردت أحاديث كثيرة في الزيادة على هذا المقدار، وفضل

البينة **﴿البينة: 4﴾**؛ وقيل المراد بهم: المشركون عبد بعضهم الصنم، وبعضهم الملائكة؛ وقيل الآية عامة في جميع الكفار، وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله، وهذا هو الصواب لأن اللفظ يفيد العموم، فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب، طوائف المشركين، وغيرهم ممن ابتدع من أهل الإسلام، ومعنى شيعاً فرقاً وأحزاباً، فتصدق على كل قوم كان أمرهم في الدين واحداً مجتمعاً، ثم اتبع كل جماعة منهم رأى كبير من كبارهم، يخالف الصواب ويبيان الحق **﴿لست منهم في شيء﴾** أي لست من تفرقهم، أو من السؤال عن سبب تفرقهم والبحث عن موجب تحزيبهم في شيء من الأشياء، فلا يلزمك من ذلك شيء، ولا تخاطب به، إنما عليك البلاغ، وهو مثل قوله ﷺ: **﴿من غشنا فليس منا﴾** أي نحن برأء منه، وموضع: **﴿في شيء﴾** نصب على الحال. قال الفراء: هو على حذف مضاف: أي لست من عقابهم في شيء، وإنما عليك الإنذار، ثم سلاة الله تعالى بقوله: **﴿إنما أمرهم إلى الله﴾** فهو مجاز لهم بما تقتضيه مشيئته والحصص، بإنما هو في حكم التعليل لما قبله والتأكيد له **﴿ثم﴾** هو يوم القيامة **﴿ينبئهم﴾** أي يخبرهم بما ينزله بهم من المجازاة **﴿بما كانوا يعملون﴾** من الأعمال التي تخالف ما شرعه الله لهم، وأوجبه عليهم، وهذه الآية من جملة ما هو منسوخ بأية السيف. قوله: **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾** لما توعد سبحانه المخالفين له بما توعد، بين عقب ذلك مقدار جزاء العالمين بما أمرهم به الممثلين لما شرعه لهم، بأن من جاء بحسنة واحدة من الحسنات فله من الجزاء عشر حسنات، والتقدير: فله عشر حسنات أمثالها، فاقترنت الصفة مقام الموصوف. قال أبو علي الفارسي: حسن التانيث في عشر أمثالها، لما كان الأمثال مضافاً إلى مؤنث، نحو ذهبت بعض أصابعه. وقرأ الحسن وسعيد بن جبير والأعمش **﴿فله عشر أمثالها﴾** برفعهما.

وقد ثبت هذا التضعيف في السنة بأحاديث كثيرة، وهذا التضعيف هو أقل ما يستحقه عامل الحسنة. وقد وردت الزيادة على هذا عموماً وخصوصاً، ففي القرآن كقوله: **﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾** [البقرة: 261]. وورد في بعض الحسنات، أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب، وورد في السنة المطهرة تضعيف الجزاء إلى ألف مؤلفة. وقد قدمنا تحقيق هذا في موضعين من هذا التفسير، فليرجع إليهما **﴿ومن جاء بالسينة﴾** من الأعمال السيئة **﴿فلا يجزي إلا مثلاً﴾** من نون زيادة عليها على قدرها في الخفة والعظم، فالمشرك يجازى على سيرة الشرك بخلوده في النار، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات، كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرحة بأن من عمل كذا فعليه كذا، وما لم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب، فعلينا أن نقول يجازيه الله بمثله، وإن لم نقف على حقيقة ما يجازى به، وهذا إن لم يتب، أما

والإشارة **﴿بذلك﴾** إلى ما أقاده **﴿الله رب العالمين لا شريك له﴾** من الإخلاص في الطاعة وجعلها لله وحده. قوله: **﴿وانا أول المسلمين﴾** أي: أول مسلمي أمته؛ وقيل: أول المسلمين أجمعين، لأنه وإن كان متأخراً في الرسالة، فهو أولهم في الخلق، ومنه قوله تعالى: **﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾** [الأحزاب: 7] الآية، والأول: أولى. قال ابن جرير الطبري: استدلل بهذه الآية الشافعي على مشروعية افتتاح الصلاة بهذا الذكر، فإن الله أمر به نبيه وأنزله في كتابه، ثم ذكر حديث علي، أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين» إلى قوله **﴿وانا أول المسلمين﴾** قلت هذا هو في صحيح مسلم مطولاً، وهو أحد التوجيهات الواردة، ولكنه مفيد بصلاة الليل كما في الروايات الصحيحة، وأصح التوجيهات الذي كان يلازمه النبي ﷺ ويرشد إليه هو «اللهم باعد بيني وبين خطاياي» إلى آخره، وقد أوضحنا هذا في شرحنا للمنتقى بما لا يحتاج إلى زيادة عليه هنا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل، في قوله: **﴿وان صلاتي﴾** قال: يعني: المفروضة **﴿ونسكي﴾** يعني: الحج. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبيرة **﴿ونسكي﴾** قال: نبيحتي. وأخرج أيضاً عن قتادة **﴿إن صلاتي ونسكي﴾** قال: حجي ونبيحتي. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿ونسكي﴾** قال: نبيحتي في الحج والعمرة. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: **﴿ونسكي﴾** قال: ضحيتي. وفي قوله: **﴿وانا أول المسلمين﴾** قال: من هذه الأمة. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة قومي فاشهدي أضحيتك، فإنه يغفر لك بأول قطرة تقطر من دمها كل ذنب عملته، وقولي **﴿إن صلاتي﴾** - إلى - **﴿وانا أول المسلمين﴾**، قلت يا رسول الله هذا لك ولاهل بيتك خاصة، فأهل تلك أنتم أم للمسلمين عامة؟ قال: لا بل للمسلمين عامة».

قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ لَكَ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنْفِكُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ يَسُبِّحُكُمُ فِي مَا أَنْتُمْ لَهَا رَاكِعُونَ إِنَّ رَبَّكُمْ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّكُمْ لَفُوقَ رِجِيمٍ ﴿١١٨﴾

الاستفهام في **﴿أغير الله ابني﴾** أي: ابني غيري، وهو جواب على المشركين لما دعوه إلى عبادة غير الله: أي كيف أبغي غير الله رباً مستقلاً وأترك عبادة الله، أو شريكاً له فأعبدهما معاً، والحال أنه رب كل شيء، والذي تدعونني إلى عبادته هو من جملة من هو مربوب له، مخلوق مثلي لا يقدر على نفع ولا ضرر، وفي هذا الكلام من التقرير والتوبيخ لهم

الله واسع، وعطاؤه جَمٌّ.

قُلْ إِنِّي مَدَنِيٌّ رَبِّي إِلَهٌ مَرِئٌ مُسْتَقِيمٌ دِينًا قِسَمًا بَيْنَ أَهْلِهَا حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٩﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْأَعْلَيْنِ ﴿١٢٠﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُبْرِتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢١﴾

لما بين سبحانه أن الكفار تفرقوا فرقاً وتحزبوا أحزاباً، أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: **﴿إنني هداني ربي﴾** أي: أرشدني بما أوحاه إلي **﴿إلى صراط مستقيم﴾** وهو ملة إبراهيم عليه السلام، و**﴿دينا﴾** منتصب على الحال كما قال قطرب، أو على أنه مفعول هداني كما قال الأخفش؛ وقيل: منتصب بفعل يدل عليه هداني؛ لأن معناه عرفني: أي عرفني ديناً؛ وقيل: إنه بدل من محل إلى صراط، لأن معناه هداني صراطاً مستقيماً كقوله تعالى: **﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾** [الفتح: 20] وقيل منصوب بإضمار فعل، كأنه قيل: اتبعوا ديناً. قوله **﴿قيماً﴾** قرأه الكوفيون، وابن عامر بكسر القاف، والتخفيف وفتح الياء. وقرأه الباقون بفتح القاف وكسر الياء المشددة، وهما لغتان؛ ومعناه الدين المستقيم الذي لا عوج فيه، وهو صفة لديننا، وصف به مع كونه مصدراً مبالغة، وانتصاب **﴿ملة إبراهيم﴾** على أنها عطف بيان لديننا، ويجوز نصبها بتقدير أعني، و**﴿حنيفاً﴾** منتصب على أنه حال من إبراهيم، قاله الزجاج. وقال علي بن سليمان: هو منصوب بإضمار أعني. والحنيف المائل إلى الحق، وقد تقدم تحقيقه **﴿وما كان من المشركين﴾** في محل نصب معطوف على حنيفاً، أو جملة معترضة مقرر لما قبلها. قوله: **﴿قل إن صلاتي﴾** أمره الله سبحانه أن يقول لهم بهذه المقالة، عقب أمره بأن يقول لهم بالمقالة السابقة؛ قيل: وجه ذلك أن ما تضمنه القول الأول إشارة إلى أصول الدين، وهذا إلى فروعه. والمراد بالصلاة: جنسها، فيدخل فيه جميع أنواعها؛ وقيل المراد بها هنا: صلاة الليل، وقيل صلاة العيد. والنسك: جمع نسكة، وهي الذبيحة كذا قال مجاهد والضحاك، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم: أي نبيحتي في الحج والعمرة. وقال الحسن: ديني. وقال الزجاج: عبادتي من قولهم: نسك فلان هو ناسك؛ إذا تعبد، وبه قال جماعة من أهل العلم **﴿ومحياتي ومماتي﴾** أي: ما أعمله في حياتي ومماتي من أعمال الخير، ومن أعمال الخير في الممات الوصية بالصدقات، وأنواع القربات؛ وقيل: نفس الحياة ونفس الموت **﴿لله﴾** قرأ الحسن نسكي بسكون السين. وقرأ الباقون بضمها. وقرأ أهل المدينة محيائي بسكون الياء. وقرأ الباقون بفتحها لثلاث يجتمع ساكنان قال النحاس: لم يجزه، أي السكون أحد من النحويين إلا يونس، وإنما أجازاه لأن المدة التي في الألف تقوم مقام الحركة. وقرأ ابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمرو، عاصم الجحدري، محيي، من غير ألف وهي لغة عليا مضر، ومنه قول الشاعر:

سبقوا هويً وأعنقوا لهوام فتنخرموا ولكل جنب مصرع **﴿الله رب العالمين﴾** أي: خالصاً له لا شريك له فيه،

قال: أهلك القرون الأولى، فاستخلفنا فيها بعدهم ﴿ورفع بعضهم فوق بعض درجات﴾ قال: في الرزق.

تفسير سورة الأعراف

هي مكية إلا ثمان آيات، وهي قوله: ﴿واسألهم عن القرية﴾ إلى قوله: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ [الأعراف: 163 - 171]. وقد أخرج ابن الضريس، والنحاس في ناسخه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، من طرق عن ابن عباس، قال: سورة الأعراف نزلت بمكة. وأخرج ابن مردويه، عن عبد الله بن الزبير، مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة: قال آية من الأعراف مدنية، وهي: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ [الأعراف: 163] إلى آخر الآية، وسأثرها مكية، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في المغرب يفرقها في الركعتين. وآياتها اثنتان وست آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَص ۝ كَذَّبَ أَتْلُؤَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئِنَّكَ لَمِّنْ ذُكِّرٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ أَتَمْنَوْنَ أَن نَّزِيلَ إِلَيْكُمْ يَنْ رَّيْكَ وَلَا تَمْنُوا مِن دُونِهِ أَتْلُؤَ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۝ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَلَنَسْأَلَنَّ الْآزِفَ أَرْسِلْ لَنَا بَشَرًا مِّثْلَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقْصُرَ عَنْهُمْ يَوْمَئِذٍ كَلًّا فَلْيَسْأَلُوا كَلًّا غَالِيَةً ۝

قوله: ﴿الْعَص﴾ قد تقدّم في فاتحة سورة البقرة ما يغني عن الإعادة، وهو إما مبتدأ وخبره كتاب: أي «المص» حروف ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أو هو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا «المص» أي المسمى به، وأما إذا كانت هذه الفواتح مسرودة على نمط التعديد فلا محل له، وكتاب خبر المبتدأ على الوجه الأول، أو خبر مبتدأ محذوف على الثاني: أي هو كتاب. قال الكسائي: أي هذا كتاب، وأنزل إليك صفة له ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ الحرج: الضيق: أي لا يكن في صدرك ضيق منه، من إبلاغه إلى الناس، مخافة أن يكتنّبوا، ويؤذوك، فإن الله حافظك، وناصرك، وقيل: المراد لا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾، وقال مجاهد وقتادة: الحرج هنا الشك، لأن الشاك ضيق الصدر: أي لا تشك في أنه منزل من عند الله، وعلى هذا يكون النهي له ﷺ، من باب التعريض، والمراد أمته: أي لا يشك أحد منهم في ذلك، والضمير في منه راجع إلى الكتاب، فعلى الوجه الأول: يكون على تقدير مضاف محذوف: أي من إبلاغه، وعلى الثاني: يكون التقدير من إنزاله، والضمير في ﴿لتنذر به﴾ راجع إلى الكتاب: أي لتنذر الناس بالكتاب الذي أنزلناه إليك، وهو متعلق بأنزل: أي أنزل إليك لإنذارك للناس به، أو متعلق بالنهي، لأن انتفاء الشك في كونه منزلاً من عند الله، أو انتفاء الخوف من قومه

ما لا يقادر قدره، وغير منصوب بالفعل الذي بعده، وربما تمييز أو مفعول ثان على جعل الفعل ناصباً لمفعولين. قوله: ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ أي: لا يؤخذ مما أتت من الذنب وارتكبت من المعصية سواها، فكل كسبها للشر عليها لا يتعدها إلى غيرها، وهو مثل قوله تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ [البقرة: 286] وقوله: ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ [طه: 15]. قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أصل الوزر الثقل، ومنه قوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ [الشرح: 2] وهو هنا الذنب ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ [الأنعام: 31] قال الأخفش، يقال وزر يوزر، ووزر يوزر وزراً، ويجوز إزراً، وفيه رد لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذه القريب بذنب قريبه، والواحد من القبيلة بذنب الآخر وقد قيل: إن المراد بهذه الآية في الآخرة، وكذلك التي قبلها لقوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [الأنفال: 25] ومثله قول زينب بنت جحش: «يا رسول الله أنهلك وفيها الصالحون؟ قال: نعم إذا كثرت الخبث»، والأولى حمل الآية على ظاهرها: أعني العموم، وما ورد من المؤاخذه بذنب الغير كاللية التي تحملها العاقلة ونحو ذلك، فيكون في حكم المخصص بهذا العموم، ويقر في موضعه ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهن وثقالاً مع أثقالهن﴾ [العنكبوت: 13] فإن المراد بالأثقال التي مع أثقالهن هي: أثقال الذين يضلونهم كما في الآية الأخرى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ [النحل: 25] ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يوم القيامة ﴿فحينئذ نكفكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ في الدنيا، وعند ذلك يظهر حق المحقين وباطل المبطلين. قوله: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ خلائف جمع خليفة: أي جعلكم خلفاء الأمم الماضية والقرون السالفة، قال الشماخ:

أصيبهم وتخطئني المنيا وأخلف في ربوع عن ربوع أو المراد أنه يخلف بعضهم بعضاً، أو أن هذا النوع الإنساني خلفاء الله في أرضه: ﴿ورفع بعضهم فوق بعض درجات﴾ في الخلق، والرزق، والقوة، والفضل، والعلم ودرجات منصوب بنزع الخافض: أي إلى درجات ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ أي: ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور، أو ليبتلّي بعضهم ببعض كقوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضهم لبعض فتنة﴾ [الفرقان: 20] ثم خوفهم فقال: ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ فإنه وإن كان في الآخرة فكل أت قريب كما قال: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ [النحل: 77] ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين، فقال:

﴿وإنه لغفور رحيم﴾ أي كثير الغفران والرحمة.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر﴾ قال: لا يؤخذ أحد بذنب غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾

يقويه على الانذار ويشجعه، لأن المتيقن يقم على بصيرة، ويباشر بقوة نفس. قوله: ﴿وَنُذَكِّرُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ النكرى التذكير. قال البصريون: النكرى في محل رفع على إضمار مبتدأ. وقال الكسائي: هي في محل رفع عطفًا على كتاب، ويجوز النصب على المصدر: أي وذكر به نكرى قاله البصريون. ويجوز الجر حملاً على موضع لتنذر أي للإنذار والنكرى، وتخصيص النكرى بالمؤمنين؛ لأنهم الذين ينجع فيهم ذلك، وفيه إشارة إلى تخصيص الإنذار بالكافرين. قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: الكتاب ومثله السنة لقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] ونحوها من الآيات، وهو أمر للنبي ﷺ ولأمته؛ وقيل: هو أمر للامة بعد أمره ﷺ بالتبليغ، وهو منزل إليهم بواسطة إنزاله إلى النبي ﷺ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ بُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ نهي للامة عن أن يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله، فالضمير على هذا في ﴿مَنْ بُونِهِ﴾ يرجع إلى رب، ويجوز أن يرجع إلى «ما» في ما أنزل إليكم: أي لا تتبعوا من دون كتاب الله أولياء تقلبونهم في دينكم، كما كان يفعل أهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يطلونه لهم ويحرمونه عليهم. قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ انتصاب قليلاً على أنه صفة لمصدر محذوف للفعل المتأخر: أي تذكر أقل، وما مزيدة للتوكيد أو هو منتصب على الحال من فاعل لا تتبعوا، وما مصدرية: أي لا تتبعوا من بونه أولياء قليلاً تذكرهم قرئ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف بحذف إحدى التاءين، وقرئ بالتشديد على الإدغام. قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ كم هي الخبرية المفيدة للتكثير، وهي في موضع رفع على الابتداء ﴿وَأَهْلَكْنَاهَا﴾ الخبر، ومن قرية تمييز، ويجوز أن تكون في محل نصب بإضمار فعل بعدها لا قبلها، لأن لها صدر الكلام، ولولا اشتغال أهلكناها بالضمير لجاز انتصاب كم به، والقرية موضع اجتماع الناس: أي كم من قرية من القرى الكبيرة أهلكناها نفسها بإهلاك أهلها، أو أهلكنا أهلها، والمراد أردنا إهلاكها. قوله: ﴿فَجَاءَهَا بِاسْنًا﴾ معطوف على أهلكنا بتقدير الإرادة كما مر؛ لأن ترتيب مجيء الباس على الإهلاك لا يصح إلا بهذا التقدير، إذ الإهلاك هو نفس مجيء الباس. وقال الفراء: إن الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير، والمعنى: أهلكناها وجاءها بأسنا، والواو لمطلق الجمع لا ترتيب فيها؛ وقيل: إن الإهلاك واقع لبعض أهل القرية؛ فيكون المعنى: وكَم من قرية أهلكنا بعض أهلها فجاءها بأسنا فاهلكنا الجميع؛ وقيل المعنى: وكَم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا؛ وقيل: أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب إليها فجاءها بأسنا، والبأس: هو العذاب، وحكى عن الفراء أنه إذا كان معنى الفعلين واحداً أو كالواحد قسمت أيهما شئت فيكون المعنى: وكَم من قرية جاءها بأسنا فاهلكناها، مثل دنا فقرب، وقرب فدنا ﴿بَيَّاتًا﴾ أي: ليلاً، لأنه بيات فيه، يقال بات ببيت ببيتاً وبياتاً، وهو مصدر واقع موقع

الحال: أي بائتين. قوله: ﴿وَإِذَا هُمْ قَائِلُونَ﴾ معطوف على بياتاً: أي بائتين أو قائلين، وجاءت الجملة الحالية بدون واو استغناءً لاجتماع الواوين واو العطف وواو الحال، هكذا قال الفراء. واعترضه الزجاج فقال: هذا خطأ بل لا يحتاج إلى الواو، تقول: جاءني زيد ركباً، أو هو ماش لأن في الجملة ضميراً قد عاد إلى الأول، واو في هذا الموضع للتفصيل لا للشك. والقيولة هي نوم نصف النهار. وقيل: هي مجرد الاستراحة في تلك الوقت لشدة الحر من دون نوم، وخص الوقتين لأنهما وقت السكون والدعة، فمجىء العذاب فيهما أشد وأقطع. قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِاسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الدعوى: الدعاء: أي فما كان دعائهم ربهم عند نزول العذاب، إلا اعتراضهم بالظلم على أنفسهم، ومثله ﴿وَأَخَّرَ دَعْوَاهُمْ﴾ [يونس: 10] أي أخر دعائهم؛ وقيل: الدعوى هنا بمعنى الأنعاء، والمعنى: ما كان ما يدعونه لبيئتهم ويتحلونه إلا اعتراضهم ببطلانه وفساده، واسم كان ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ وخبرها ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ ويجوز العكس: والمعنى: ما كان دعواهم إلا قولهم إنا كنا ظالمين. قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ هذا وعيد شديد، والسؤال للقوم الذين أرسل الله إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع والتوبيخ، واللام القسم: أي لنسألهم عما أجابوا به رسلهم عند دعوتهم، والفاء لترتيب الأحوال الآخوية على الأحوال النبوية ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الأنبياء الذين بعثهم الله: أي نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم ومن أطاع منهم ومن عصى؛ وقيل المعنى: فلنسأل الذين أرسل إليهم: يعني الأنبياء، ولنسأل المرسلين: يعني الملائكة، ولا يعارض هذا قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصاص: 78] لما قدّمنا غير مرة أن الآخرة مواطن، ففي موطن يسألون، وفي موطن لا يسألون، وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أثبت تارة ونفى أخرى، بالنسبة إلى يوم القيامة، فإنه محمول على تعدد المواقف مع طول تلك اليوم طويلاً عظيماً ﴿فَلَنَنْقُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ أي: على الرسل والمرسل إليهم، ما وقع بينهم عند الدعوة منهم لهم بعلم لا بجهل: أي عالمين بما يسرون وما يعلنون ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم في حال من الأحوال حتى يخفى علينا شيء مما وقع بينهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن النجار في تاريخه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الْمَصِّ﴾ قال: إنا الله أقصّل. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبيرة، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، أن هذا ونحوه من فواتح السور قسم أقسم الله به، وهي من أسماء الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿الْمَصِّ﴾ قال: هو المصوّر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿الْمَصِّ﴾ قال: الألف من الله والميم من الرحمن والصاد من

باب ضرب المثل، كما تقول هذا الكلام في وزن هذا. قال الزجاج: هذا سائغ من جهة اللسان، والأولى أن نتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان. قال القشيري: وقد أحسن الزجاج فيما قال، إذ لو حمل الصراط على الدين الحق، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة، ثم قال: وقد أجمعت الأمة في الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل، وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوصاً انتهى. والحق هو: القول الأول. وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه، بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية، وليس في ذلك حجة على أحد، فهذا إذا لم تقبله عقولهم، فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم، حتى جاءت البدع كالليل المظلم وقال كل ما شاء، وتركوا الشرع خلف ظهورهم وليتهم جاؤوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها، ويتحد قبولهم لها، بل كل فريق يدعى على العقل ما يطابق هواه، ويوافق ما يذهب إليه هو أو من هو تابع له، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم، يعرف هذا كل منصف، ومن أنكره فليصف فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصباح لعينيه.

وقد ورد ذكر الوزن والموازين في مواضع من القرآن كقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ [الأنبياء: 47]، وقوله: ﴿فلإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ [المؤمنون: 101]، وقوله: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾ [المؤمنون: 102، 103]، وقوله: ﴿إن الله لا يظلم مثقال نرة﴾ [النساء: 40]، وقوله: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية. وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾ [القارعة: 6 - 9]، والفاء في ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ للتفصيل. والموازين: جمع ميزان، وأصله موزان قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها، وثقل الموازين هذا يكون بثقل ما وضع فيها من صحائف الأعمال؛ وقيل: إن الموازين جمع موزون؛ أي فمن رجحت أعماله الموزونة، والأول: أولى. وظاهر جمع الموازين المضافة إلى العامل أن لكل واحد من العاملين موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله؛ وقيل: وهو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال: خرج فلان إلى مكة على البغال، والإشارة بقوله: ﴿فأولئك﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناه كما رجع إليه ضمير ﴿موازينه﴾ باعتبار لفظه هو مبتدا خبره ﴿وهم المفلحون﴾ والكلام في قوله: ﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ مثله، والباء في ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ سببية، وما مصدرية. ومعنى ﴿يظلمون﴾ يكذبون. قوله: ﴿ولقد مكناكم في

الصد. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاک، قال معناه: أنا الله الصادق، ولا يخفى عليك أن هذا كله قول بالطن، وتفسير بالحس، ولا حجة في شيء من ذلك، والحق ما قلنا في فاتحة سورة البقرة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿قلنا يكن في صدورك حرج منه﴾ قال: الشك، وقلنا لأعرابي: ما الحرج فيكم؟ قال: اللبس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاک، قال: ضيق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود: ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم، ثم قرأ ﴿فما كان دعواهم﴾ الآية. وأخرجه ابن جرير عنه مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس: ﴿فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين﴾ قال: نسال الناس عما لأجواب المرسلين، ونسال المرسلين عما بلغوا، فلنقصن عليهم بعلم، قال: بوضع الكتاب يوم القيامة فننكلم بما كانوا يعملون. وأخرج عبد بن حميد، عن فرقد، في الآية قال: أحدهما الأنبياء، وأحدهما الملائكة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: نسال الناس عن قول لا إله إلا الله، ونسال جبريل.

وَالْوِزْنَ يَوْدِي الْحَقِّ مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُم فِيهَا مَنَاصِبَ وَلَكِن لَّمَّا تَكَفَّرُوا بِاتِّحَادِ اللَّهِ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَوَازِينَكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٠﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِكَ بَنِي نَارٍ وَخَلَقْتَنِي مِن طِينٍ ﴿١١﴾ قَالَ فَاقْبَلْ مِنهَا فَتَكُونَ لَكَ آدَن تَكْبَرُ فِيهَا فَخَرَّجَ إِلَيْكَ مِنَ الْغَنِيِّ ﴿١٢﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ ﴿١٣﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْأُنْظَرِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ يَمَّا أَتَوْنِي أَقْدَمْتُكَ لَمْ يَرْكَبْكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَا يَنصُرُهُمْ فِي يَوْمٍ أَيُّهُمْ وَبَيْنَ ذَٰلِكُمْ وَمَنْ عَمِلَ أَلْمِمْ وَلَا يُجِدُ آخِرَهُمْ شَرِكِيكَ ﴿١٦﴾ قَالَ لَمَّا نَزَّحَ فِيهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا لَمْ يَمَكْ مِنْهُمْ لَأَنَّ اللَّهَ جَهَنَّمَ بَيْنَهُمْ أَجْمِينَ ﴿١٧﴾

قوله: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ الوزن مبتدا وخبره الحق: أي الوزن في هذا اليوم العدل الذي لا جور فيه، أو الخبر يومئذ، والحق وصف للمبتدا، أي الوزن العدل كائن في هذا اليوم؛ وقيل: إن الحق خبر مبتدا محذوف.

واختلف أهل العلم في كيفية هذا الوزن الكائن في هذا اليوم، فقيل المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزناً حقيقياً، وهذا هو الصحيح، وهو الذي قامت عليه الأدلة؛ وقيل: توزن نفس الأعمال، وإن كانت أعراضاً فإن الله يقلبها يوم القيامة أجساماً كما جاء في الخبر للصحيح: «إن البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف». وكذلك ثبت في الصحيح: أنه يأتي القرآن في صورة شاب شاحب اللون ونحو ذلك؛ وقيل: الميزان الكتاب الذي فيه أعمال الخلق؛ وقيل: الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء، ونكرهما من

الأرض» أي: جعلنا لكم فيها مكاناً وهيئنا لكم فيها أسباب المعاش. والمعاش جمع معيشة: أي ما يتعاش به من المطعوم والمشروب، وما تكون به الحياة، يقال عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشاً. قال الزجاج: المعيشة ما يتوصلون به إلى العيش، والمعيشة عند الأخفش وكثير من النحويين مفعلة. وقرأ الأعرج «معاش» بالهمز، وكذا روى خارجة بن مصعب، عن نافع. قال النحاس: والهمز لحن لا يجوز، لأن الواحدة معيشة والباء أصلية، كمينية ومدلين، وصحيفة وصحاف. قوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما تقدّم قريباً من قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَا تَنْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 3]. قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ هذا ذكر نعمة أخرى من نعم الله على عبده. والمعنى: خلقناكم نطفاً ثم صوّرناكم بعد ذلك، وقيل المعنى: خلقنا آدم من تراب، ثم صوّرناكم في ظهره؛ وقيل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني: آدم نكر بلفظ الجمع؛ لأنه أبو البشر، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ راجع إليه، ويدل عليه: ﴿ثُمَّ قَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فإن ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصوّر آدم عليه السلام. وقال الأخفش: إن ثم في ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بمعنى الواو؛ وقيل المعنى: خلقناكم من ظهر آدم ثم صوّرناكم حين أخذنا عليكم الميثاق. قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال؛ وقيل المعنى: ولقد خلقنا الأرواح أولاً، ثم صوّرنا الأشباح، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم: أي أمرناهم بذلك فامتثلوا الأمر، وفعلوا السجود بعد الأمر ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قيل: الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس؛ لأنه كان منفرداً بينهم، أو كما قيل: لأن من الملائكة جنساً يقال لهم الجن؛ وقيل: غير ذلك. وقد تقدّم تحقيقه في البقرة. قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ جملة مبيّنة لما فهم من معنى الاستثناء، ومن جعل الاستثناء منقطعاً قال معناه: لكن إبليس لم يكن من الساجدين، وجملة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال له الله؟ «لا» في ﴿أَنْ لَا تَسْجُدَ﴾ زائدة للتوكيد بدليل قوله تعالى في سورة ص، ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: 75]؛ وقيل إن منع بمعنى قال، والتقدير: من قال لك أن لا تسجد؛ وقيل منع بمعنى دعا: أي ما دعاك إلى أن لا تسجد؛ وقيل: في الكلام حنف، والتقدير: ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى أن لا تسجد ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي وقت أمرتك، وقد استدل به على أن الأمر للفور، والبحث مقرر في علم الأصول، والاستفهام في ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ للتقريع والتوبيخ، وإلا فهو سبحانه عالم بذلك، وجملة: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فما قال إبليس؟ وإنما قال في الجواب لنا خير منه، ولم يقل: منعني كذا؛ لأن في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ما يدل على المنع، وهو اعتقاده أنه أفضل منه. والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيدته هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله. ثم علل ما

أدعاه من الخيرية بقوله: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ اعتقاداً منه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين. وقد أخطأ عدو الله، فإن عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزاقته وسكونه، وطول بقائه، وهي حقيقة مضطربة سريعة النفاد، ومع هذا فهو موجود في الجنة دونها، وهي عذاب بونه. وهي محتاجة إليه لتتجيز فيه، وهو مسجد وطهور، ولولا سبق شقاوته، وصنق كلمة الله عليه، لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقبوة، فنحصرهم النوري أشرف من عنصره الناري، وجملة: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ﴾ استئنافية كالتي قبلها، والفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر: أي اهبط من السماء التي هي محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما أمرهم، إلى الأرض التي هي مقر من يعصي ويطيع، فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر، ويعصى أمر ربه مثلك، ولهذا قال ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾. ومن التفاسير الباطلة ما قيل إن معنى ﴿اهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: أخرج من صورتك النارية التي افتخرت بها صورة مظلمة مشوهة؛ وقيل المراد هبوطه من الجنة؛ وقيل من زمرة الملائكة، وجملة: ﴿فَاخْرُجْ﴾ لتأكيد الأمر بالهبوط، وجملة: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ تعليل للأمر: أي إنك من أهل الصغار، والهوان، على الله وعلى صالحي عبادته، وهكذا كل من تردى برداء الاستكبار، عوقب بلبس رداء الهوان والصغار. ومن ليس رداء التواضع اليسه الله رداء الترفع، وجملة: ﴿قَالَ أُنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾ استئنافية كما تقدّم في الجمل السابقة: أي أمهلني إلى يوم البعث، وكأنه طلب أن لا يموت، لأن يوم البعث لا موت بعده، والضمير في ﴿يَبْعَثُونَ﴾ لآدم وذريته، فأجابه الله بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي: الممهلين إلى ذلك اليوم، ثم تعاقب بما قضاه الله لك، وأنزله بك في دركات النار. قيل: الحكمة في إنظاره ابتلاء العباد، ليعرف من يطيعه ممن يعصيه، وجملة: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْنِي﴾ مستأنفة كالجمل السابقة، وأردت جواباً لسؤال مقدّر، والباء في ﴿فِيمَا﴾ للسببية، والفاء لترتيب الجملة على ما قبلها؛ وقيل: الباء للقسمة كقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: فباغوائك إياي ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، والإغواء: الإيقاع في الغي؛ وقيل: الباء بمعنى اللام، وقيل: بمعنى مع. والمعنى: فمع إغوائك إياي؛ وقيل: ﴿فَمَا﴾ في ﴿فِيمَا أُغْوِيْنِي﴾ للاستفهام. والمعنى: فبأي شيء أغويتني والأول: أولى. ومراده بهذا الإغواء الذي جعله سبباً لما سيفعله مع العباد هو ترك السجود منه، وأن ذلك كان بإغواء الله له، حتى لاختار الضلالة على الهدى؛ وقيل: أراد به اللعنة التي لعنه الله: أي فيما لعنتني فأهلكنتني، لأعبدن لهم ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59] أي: هلاكاً. وقال ابن الأعرابي: يقال: غوي الرجل يغوي غياً: إذا فسد عليه أمره أو فسد هو في نفسه، ومنه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121] أي فسد عيشه في الجنة ﴿لَأُعَدَّنَ لَهُمْ﴾ أي: لأجهنن

عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، فيقول: أتذكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أقلك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» وقد صححه أيضاً الترمذي، وإسناده أحمد حسن. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس، في قوله: «**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ**» قال: خلقوا في أصلاب الرجال، وصوّروا في أرحام النساء. وأخرج الفريابي عنه أنه قال: خلقوا في ظهر آدم، ثم صوّروا في الأرحام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً قال: أما خلقناكم فآدم، وأما ثم صوّرناكم فذريته. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة، في الآية قال: خلق إبليس من نار العزة. وقد ثبت في الصحيح من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خَلَقْتُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ نُّورٍ، وَخَلَقْتُ إِبْلِيسَ مِنْ نَّارٍ، وَخَلَقْتُ آدَمَ مِمَّا وَصَفَهُ لَكُمْ**». وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: أوّل من قاس إبليس في قوله: «**خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**» وإسناده صحيح إلى الحسن. وأخرج أبو نعيم في الحلية، والديلمي، عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «أوّل من قاس أمر الدين براه إبليس قال الله له اسجد لآدم، فقال: **إِنَّا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**» قال جعفر: فمن قاس أمر الدين براه، قرنه الله يوم القيامة بإبليس، لأنه اتبعه بالقياس، وينبغي أن ينظر في إسناد هذا الحديث، فما أظنه يصح رفعه وهو لا يشبه كلام النبوة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: «**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي**» أضللتني. وأخرج عبد بن حميد، عنه، في قوله: «**لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**» قال: طريق مكة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، «**ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ**» قال: أشككم في آخرتهم «**وَمِنْ خَلْفِهِمْ**» قال: أرغبهم في دنياهم «**وَعَنْ إِيْمَانِهِمْ**» أشبه عليهم أمر دينهم «**وَعَنْ شِمَائِلِهِمْ**» قال: أسأل لهم المعاصي وأحق عليهم الباطل «**وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**» قال: موحدين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه «**ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ**» يقول: من حيث يبصرون «**وَمِنْ خَلْفِهِمْ**» من حيث لا يبصرون «**وَعَنْ إِيْمَانِهِمْ**» من حيث لا يبصرون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عنه، أيضاً في الآية قال: لم يستطع أن

في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسبب تركي السجود لأبيهم. والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة، وانتصابه على الظرفية: أي في صراطك المستقيم كما حكى سيبويه ضرب زيد الظهر والبطن، واللام في «**لَأَقْعُدَنَّ**» لام القسم، والباء في «**بِمَا أَغْوَيْتَنِي**» متعلقة بفعل القسم المحذوف: أي فيما أغويتني أقسم لأقعدن. قوله: «**ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ إِيْمَانِهِمْ وَعَنْ شِمَائِلِهِمْ**» نكر الجهات الأربع؛ لأنها هي التي يأتي منها العدو عدوه، ولهذا ترك نكر جهة الفوق والتحت، وعدى الفعل إلى الجهتين الأوليين بمن، وإلى الآخرين بعن، لأن الغالب فيمن يأتي من قدام وخلف أن يكون متوجهاً إلى ما يأتيه بكيفية بدنه، والغالب فيمن يأتي من جهة اليمين والشمال أن يكون منحرفاً، فناسب في الأوليين التعدية بحرف الابتداء، وفي الآخرين التعدية بحرف المجاوزة، وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن يأتي حقيقة؛ وقيل المراد: «**مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ**» من دنياهم «**وَمِنْ خَلْفِهِمْ**» من آخرتهم «**وَعَنْ إِيْمَانِهِمْ**» من جهة حسناتهم «**عَنْ شِمَائِلِهِمْ**» من جهة سيئاتهم، واستحسنه النحاس. قوله: «**وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**» أي وعند أن أفعل ذلك لا تجد أكثرهم شاكرين لتأثير وسوستي فيهم وإغوائي لهم، وهذا قاله على الظن ومنه قوله تعالى: «**وَلَقَدْ صَنَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ**» [سبأ: 20]، وقيل: إنه سمع ذلك من الملائكة فقال، وعبر بالشكر عن الطاعة أو هو على حقيقته وأنهم لم يشكروا الله بسبب الإغواء، وجملة «**قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا**» استئناف، كالجملة التي قبلها: أي من السماء أو الجنة أو من بين الملائكة كما تقدّم «**مَذْمُومًا**» أي: مذموماً من ذمّه إذا زمه، يقال: ذامته وذمته بمعنى. وقرأ الأعمش «مذموماً». وقرأ الزهري «مذموماً» بغير همزة؛ وقيل المذموم: المنفي، والمذخور: المطرود. قوله: «**لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ**» قرأ الجمهور بفتح اللام على أنها لام القسم، وجوابه: «**لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ**» وقيل: اللام في «**لَمَنْ تَبِعَكَ**» للتوكيد، وفي «**لَا مَلَأَنَّ**» لام القسم. والأوّل: أولى، وجواب القسم سدّ سدّ جواب الشرط، لأن من شرطية، وفي هذا الجواب من التهديد ما لا يقادر قدره. وقرأ عاصم في رواية عنه «**لَمَنْ تَبِعَكَ**» بكسر اللام، وإنكره بعض النحويين. قال النحاس: وتقديره، والله أعلم، من أجل من اتبعك؛ كما يقال: أكرمت فلاناً لك؛ وقيل: هو علة لأخرج، وضمير «**مِنْكُمْ**» له ولمن اتبعه، وغلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة، والأصل منك ومنهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: «**وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**» قال: العدل «**فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**» قال: حسناته «**وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ**» قال: حسناته. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، توزن الأعمال. وقد ورد في كيفية الميزان والوزن والموزون أحاديث كثيرة. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مرويّه، والبيهقي، عن

تكونا ملكين ﴿أو تكونا من الخالسين﴾ في الجنة، أو من الذين لا يموتون. قال النحاس: فضل الله الملائكة على جميع الخلق في غير موضع في القرآن، فمنها هذا، ومنها: ﴿ولا أقول إنني ملك﴾ [هود: 31]، ومنها ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ [النساء: 172]. قال ابن فورك: لا حجة في هذه الآية، لأنه

يحتمل أن يريد ملكين في أن لا يكون لهما شهوة في الطعام. وقد اختلف الناس في هذه المسألة اختلافاً كثيراً، وأطالوا الكلام في غير طائل، وليست هذه المسألة مما كلفنا الله بعلمه، فالكلام فيها لا يعنيننا. وقرأ ابن عباس، ويحيى بن أبي كثير، والضحاك «ملكين» بكسر اللام، وإنكر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة وقال: لم يكن قبل آدم ملك فيصير ملكين. وقد احتج من قرأ بالكسر بقوله تعالى: ﴿هل أتاك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ [طه: 120]. قال أبو عبيد: هذه حجة بيّنة لقراءة الكسر، ولكنّ الناس على تركها فلهذا تركناها. قال النحاس: هي قراءة شاذة، وإنكر على أبي عبيد، هذا الكلام وجعله من الخطأ الفاحش. قال وهل يجوز أن يتوهم على آدم عليه السلام أن يصل إلى أكثر من ملك الجنة وهي غاية الطالبين، وإنما معنى ﴿وملك لا يبلى﴾ المقام في ملك الجنة والخلود فيه. قوله: ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ أي: حلف لهما فقال: أقسم قسماً أي: حلف، ومنه قول الشاعر:

وقاسمهما بالله جهداً لأنتما الذم السلوى ما إذا نشورها
وصيغة المفاعلة وإن كانت في الأصل تدلّ على المشاركة، فقد جاءت كثيراً لغير ذلك. وقد قُمنّا تحقيق هذا في المائدة، والمراد بها هنا المبالغة في صدور الأقسام لهما من إبليس؛ وقيل: إنهما أقسما له بالقبول، كما أقسم لهما على المناصحة، قوله: ﴿فقدلها بغرور﴾ التثنية والإدلاء: إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل، يقال أدلى دلو: أرسلها والمعنى: أنه أبطهما بذلك من الرتبة العالية إلى الأكل من الشجرة؛ وقيل معناه: أوقعهما في الهلاك؛ وقيل: خدعهما، وأنشد نبطويه:

إن الكريم إذا تشاء خدعته وترى اللئيم مجرباً لا يخدع
وقيل معنى: ﴿دلّهما﴾ للهما من الدالة، وهي الجرأة: أي جرأهما على المعصية، فخرجا من الجنة. قوله: ﴿فقلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما﴾ أي: لما طعامها ظهرت لهما عوراتهما، بسبب زوال ما كان ساتراً لهما، وهو تقلص النور الذي كان عليهما. وقد تقدّم في البقرة، قوله: ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ طفق يفعل كذا بمعنى: شرع يفعل كذا. وحكى الأخفش: طفق يطفق مثل ضرب يضرب أي: شرعا أو جعلاً يخصفان عليهما. قرأ الحسن «يخصفان» بكسر الخاء وتشديد الصاد، والأصل يخصفان، فأدغم وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء. وقرأ الزهري «يخصفان» من أخصف. وقرأ الجمهور «يخصفان» من خصف. والمعنى: أنهما أخذا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهم ليستراهما، من خصف

يقول من فوقهم. وفي لفظ علم أن الرحمة تنزل من فوقهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿مذؤوما﴾ قال: ملوماً، مدحوراً؛ قال مقيماً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿مذؤوما﴾ قال: منقياً ﴿مدحوراً﴾ قال: مطروداً.

وَهَكَذَا أَتَى وَرَوَّيَكَ الْجَنَّةَ لَكُلًّا مِنْ حَيْثُ يَنْشَأُ وَلَا تَرَى هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُ مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٧٠﴾ قَسَمَ لَهَا الشَّيْطَانُ يَسْبُو لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهَا مِنْ سَرِّهَا فَهَاكَ مَا فَتَكَا رَيْبًا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٧١﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيْكَمَا لَوْ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ مِنَ الْخَبِيرِ ﴿١٧٢﴾ فَذَلَّلَهُمَا بِهَوَاهُ يُفَوِّرُ فُلَّهُمَا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بِذُنِّ لَمَّا سَوَّاهُمَا وَلَقَدْ أَخَذَ مِنْ رِيقِ الْكَلْبِ وَأَكَاذَهُمَا رَجَمًا أَوْ أَتَاهُمَا عَنْ يَمِينِ الشَّجَرَةِ وَأَقَالَ لَكُمَا إِيَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ خَبِيرٌ ﴿١٧٣﴾ قَالَ رَبَّنَا طَعْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَقِفْ لَنَا وَرَحِمْنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧٤﴾ قَالَ أَفَطَعُوا بِضَعْرُكُمَا عَدُوًّا وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُسْتَفَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١٧٥﴾ قَالَ رَبَّنَا تَحَيَّوْنَا فِيهَا وَتَمُوتُونَ وَبَيْنَهَا غَمْرُونَ ﴿١٧٦﴾

قوله: ﴿ويا آدم﴾ هو على تقدير القول أي: وقلنا يا آدم. قال له هذا القول، بعد إخراج إبليس من الجنة، أو من السماء، أو من بين الملائكة كما تقدّم. وقد تقدّم معنى الإسكان، ومعنى: ﴿لا تقربا هذه الشجرة﴾ في البقرة. ومعنى: ﴿ومن حيث شئتما﴾ من أي نوع من أنواع الجنة شئتما أكله، ومثله ما تقدّم من قوله تعالى: ﴿وركلا منها رغداً حيث شئتما﴾ [البقرة: 35] وحذف النون من ﴿فتكونا﴾ لكونه معطوفاً على المجزوم، أو منصوباً على أنه جواب النهي. قوله: ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ الوسوسة: الصوت الخفي، والوسوسة: حديث النفس، يقال وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواساً بكسر الواو، والوسوسة بالفتح الاسم: مثل الزلزلة والزلال، ويقال لهمس الصائد والكلاب، وأصوات الحلي: وسواس. قال الأعشى:

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرف

والوسواس: اسم الشيطان. ومعنى وسوس له: وسوس إليه، أو فعل الوسوسة لأجله. قوله: ﴿ليدي لهما﴾ أي: ليظهر لهما، واللام للعاقبة، كما في قوله: ﴿ليكون لهم عرواً وحزنأ﴾ [القصاص: 8]؛ وقيل هي لام كي: أي فعل ذلك ليتعقبه الإيذاء، أو لكي يقع الإيذاء. قوله: ﴿ها ووري﴾ أي ما ستر وغطي ﴿عنهما من سواتهما﴾ سمي الفرج سوءة، لأن ظهوره يسوء صاحبه، أراد الشيطان أن يسوءهما بظهور ما كان مستوراً عنهما من عوراتهما، فإنهما كانا لا يريان عورة أنفسهما، ولا يراها أحدهما من الآخر، وإنما لم تقلب الواو في ﴿ووري﴾ همزة، لأن الثانية مدة؛ قيل: إنما بدت عورتها لهما لا لغيرهما، وكان عليهما نور يمنع من رؤيتها ﴿وقال﴾ أي: الشيطان لهما ﴿ها نهاكما ريكما عن﴾ أكل هذه الشجرة ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ أن في موضع نصب، وفي الكلام مضاف محذوف تقديره: ولا كراهة أن تكونا ملكين، هكذا قال البصريون. وقال الكوفيون: التقدير لئلا

أخرى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس بن مالك، قال: كان لباس آدم في الجنة البياض، فلما عصى قلع صفاً فصار الظفر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿ووطفقا يخصفان﴾ قال: يرقعان كهيفة الثوب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿وفنادهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة﴾ قال آدم: رب إنه حلف لي بك، ولم أكن أعلم أن أحداً من خلقك يحلف بك إلا صانقاً، وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية قال: هي الكلمات التي تلقى آدم من ربه. وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك مثله.

يَبْنَؤُا دَامَ قَدْ أَتَيْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُزِيلُ سُوءَ بَشَرِكُمْ وَيُنْشِئُ لِبَاسًا أَتَقْنُونَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ يَبْنَؤُا دَامَ لَا يَفْنَيْنَكُمْ أَلَيْسَ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَشَرِهِمَا إِنَّهُمْ بِرَبِّكُمْ هُمْ وَبَشَرُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ إِنَّا بَعَثْنَا فِيهِمَا رِجَالًا لِلْزَّيْنِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾

عبر سبحانه بالإنزال عن الخلق: أي خلقنا لكم لباساً يوارى سواكم التي أظهرها إبليس من أبويكم، والسوء العورة كما سلف، والكلام في قدرها وما يجب ستره منها مبين في كتب الفروع. قوله: ﴿وريشا﴾ قرأ الحسن وعاصم، من رواية المفضل الضبي، وأبو عمرو، من رواية الحسن بن علي الجعفي «وريشا» وقرأ الباقر «وريشا» والرياش جمع ريش: وهو اللباس. قال الفراء: ريش ورياش كما يقال لبس ولباس، وريش الطائر ما ستره الله به. وقيل المراد بالريش هنا: الخصب ورفاهية العيش. قال القرطبي: والذي عليه أكثر أهل اللغة: أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة. وحكى أبو حاتم عن أبي عبيدة: وهبت له دابة وريشها: أي وما عليها من اللباس. وقيل: المراد بالريش هنا لباس الزينة لذكره بعد قوله: ﴿قد أنزلنا عليكم لباساً﴾ وعطفه عليه. قوله: ﴿ولباس التقوى﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي بنصب لباس. وقرأ الباقر بالرفع: فالنصب على أنه معطوف على لباس الأول، والرفع على أنه مبتدأ، وجملة ﴿ذلك خير﴾ خبره، والمراد بلباس التقوى: لباس الورع، وانتقاء معاصي الله، وهو الورع نفسه والخشية من الله، فذلك خير لباس وأجمل زينة؛ وقيل: لباس التقوى الحياء؛ وقيل: العمل الصالح؛ وقيل: هو لباس الصوف والخشن من الثياب لما فيه من التواضع لله؛ وقيل: هو الدرع والمغفر الذي يلبسه من يجاهد في سبيل الله، والأول أولى. وهو يصدق على كل ما فيه تقوى لله فيندرج تحته جميع ما ذكر من الأقوال، ومثل هذه الاستعارة كثيرة الوقوع في كلام العرب، ومنه: إذ المرء لم يلبس ثياباً من التقى - تقلب عرياناً وإن كان كاسياً ومثله:

تغط بأثواب السخاء فإنني أرى كل عيب والسخاء غطاؤه والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى لباس التقوى: أي هو خير لباس، وقرأ الأعمش: ﴿ولباس التقوى خير﴾ والإشارة

النعل: إذا جعله طبقة فوق طبقة، ﴿وفنادهما ربهما﴾ قائلاً لهما: ﴿ألم أنهكما عن تلكما الشجرة﴾ التي نهيتكما عن أكلها، وهذا عتاب من الله لهما وتوبيخ، حيث لم يحذرا ما حذرهما منه ﴿وواقل لكما﴾ معطوف على «أنهكما» ﴿إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ أي: مظهر للعداوة قوله: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ جملة استئنافية مبنية على تقدير سؤال كأنه قيل فماذا قالوا؟ وهذا منهما اعتراف بالذنب، وإنهما ظلما أنفسهما مما وقع منهما من المخالفة، ثم قال: ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾، وجملة ﴿قالا﴾ استئنافية كالتي قبلها، والخطاب لأنهم وحواء وذريتهما، أو لهما ولإبليس، وجملة ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ في محل نصب على الحال ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي: موضع استقرار ﴿وولكم في الجنة دار﴾، تتمتعون به في الدنيا، وتنتفعون به من الطعام والمشراب ونحوهما ﴿إلى حين﴾ أي: إلى وقت، وهو وقت موتكم، وجملة ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ استئنافية كالتي قبلها: أي في الأرض تحبون، وفيها ياتيكم الموت، ومنها تخرجون إلى دار الآخرة، ومثله قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [طه: 55] وأعلم أنه قد سبق شرح هذه القصة مستوفى في البقرة فارجع إليه.

وقد أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساکر، عن وهب بن منبه في قوله: ﴿ليبيدي لهما ما وري عنهما من سواتهما﴾ قال: كان على كل واحد منهما نور لا يبصر كل واحد منهما سوء صاحبه، فلما أصابا الخطيئة نزح عنهما. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: اتاهما إبليس فقال: ما نهكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكون ملكين مثله، يعني: مثل الله عز وجل، فلم يصنفاه حتى نخل في جوف الحية فكلهما. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في الآية: ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ فإن أخطأكما أن تكونا ملكين لم يخطئكما أن تكونا خالدين فلا تموتان فيها أبداً ﴿وقاسمهما﴾ قال: حلف لهما ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب، في قوله: ﴿فدلاهما بغرور﴾ قال: مناهما بغرور. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي شيبة، عن عكرمة قال: لباس كل دابة منها، ولباس الإنسان الظفر، فأدرت آدم التوبة عند ظفره. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساکر، عن ابن عباس، قال: كان لباس آدم وحواء كالظفر، فلما أكلتا من الشجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر ﴿ووطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قال: ينزعان ورق التين، فيجعلان على سواتهما، وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالاً من الظفر، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال، فبقي في أطراف أصابعه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، نحوه من طريق

أُولَئِكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُعَذِّبُهُمْ مُّهِدُونَ ﴿٢٣﴾

الفاحشة: ما تبالغ في فحشه وقبحه من الذنوب. قال أكثر المفسرين: هي طواف المشركين بالبيت عراة. وقيل هي الشرك، والظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعاً، والمعنى: أنهم إذا فعلوا ذنباً قبيحاً متبالغاً في القبح، اعتذروا عن ذلك بعدئين: الأول: أنهم فعلوا ذلك اقتداءً بأبائهم لما وجبهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة؛ والثاني: أنهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه. وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد، لأن وجود آبائهم على القبح لا يسوغ لهم فعله، والأمر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء، بل أمرهم باتتباع الأنبياء والعمل بالكتب المنزلّة ونهاهم عن مخالفتهم، ومما نهاهم عنه فعل الفواحش، ولهذا ردّ الله سبحانه عليهم بأن أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾** فكيف تدعون ذلك عليه سبحانه، ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه، فقال: **﴿اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** وهو من تمام ما أمر النبي ﷺ بأن يقوله لهم، وفيه من التقرّيع والتوبيخ أمر عظيم، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحاً في كل شيء، فكيف إذا كان في التقرّير على الله؟ وإن في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، وأبلغ واعظ، للمقلدة الذين يتبعون آبائهم في المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء باهل الكفر لا باهل الحق، فإنهم القائلون: **﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾** [الزخرف: 23] والقائلون **﴿وَجِئْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا﴾** والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به، وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على اليهودية، والنصراني على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أباهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آبائهم في اليهودية، والنصرانية، أو البدعية، وأحسنوا الظنّ بهم، بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحق كما يجب، ويحثوا عن دين الله كما ينبغي، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص، فإنا من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك النذير المبالغ في التحذير، من أن تقول هذه المقالة وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشرّ بالخير، والصحيح بالسقيم، وفسد الرأي بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا نبياً واحداً أمرهم باتتباعه ونهى عن مخالفته فقال: **﴿مَا أَنَاكَمُ الرَّسُولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** [الحشر: 7] ولو كان محض رأي أئمة المذاهب واتتباعهم حجة على العباد، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعبدون بعدد أهل الرأي المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله به. وإن من أعجب الغفلة، وأعظم الذهول عن الحق، اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله، ووجود سنة رسوله، ووجود من يأخذونهما عنه، ووجود آلة الفهم لديهم، وملكة العقل عندهم. قوله: **﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾** القسط: العدل، وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل،

بقوله **﴿ثَلَاثٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾** إلى الإنزال المللّ عليه بأنزلنا: أي ذلك الإنزال من آيات الله الدالة على أن له خالقاً، ثم كرّر الله سبحانه النداء لبني آدم تحذيراً لهم من الشيطان، فقال: **﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾** أي: لا يوقعنكم في الفتنة، فالنهي وإن كان للشيطان، فهو في الحقيقة لبني آدم بأن لا يفتتنوا بفتنته ويتأثروا لذلك، والكاف في **﴿كَمَا أَخْرَجَ﴾** نعت مصدر محذوف: أي لا يفتتننكم فتنة مثل إخراج أبيكم من الجنة، وجملة: **﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾** في محل نصب على الحال، وقد تقدّم تفسيره، واللام في **﴿لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا﴾** لام كي: أي لكي يريهما، وقد تقدّم تفسيره أيضاً. قوله: **﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾** هذه الجملة تعليل لما قبلها، مع ما تتضمنه من المبالغة في تحذيرهم منه، لأن من كان بهذه المثابة يرى بني آدم من حيث لا يرونه، كان عظيم الكيد، وكان حقيقاً بأن يحترس منه أبلغ احتراس **﴿وقبيله﴾** أعوانه من الشياطين وجنوده.

وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة، وليس في الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنا لا نراه أبداً، فإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقاً، ثم أخبر الله سبحانه بأنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون من عباده وهم الكفار.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوَاتِكُمْ﴾** قال: كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة، وفي قوله: **﴿وَرِيثًا﴾** قال: المال. وأخرج ابن جرير، عن عروة بن الزبير، في قوله: **﴿لِبَاسًا يُوَارِي سَوَاتِكُمْ﴾** قال: الثياب. **﴿وَرِيثًا﴾** قال: المال. **﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾** قال: خشية الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن عليّ، في قوله: **﴿لِبَاسًا يُوَارِي سَوَاتِكُمْ﴾** قال: لباس العامة. **﴿وَرِيثًا﴾** قال: لباس الزينة. **﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾** قال: الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن طرق عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَرِيثًا﴾** قال: المال واللباس والعيش والنعيم، وفي قوله: **﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾** قال: الإيمان والعمل الصالح. **﴿ثَلَاثٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾** قال: الإيمان والعمل خير من الريش واللباس، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: **﴿وَرِيثًا﴾** يقول: المال. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾** قال: التقوى، وفي قوله: **﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾** قال: الجن والشياطين.

وَإِذَا قَالُوا فَتْنَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ لَا يُؤْمَرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٥﴾ قَرِيبًا هَذَا وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الْمَسْئَلَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الْقَبِيلِينَ

ذكر القدرية فقال: قاتلهم الله، ليس قد قال الله تعالى: ﴿كما بداركم تعوبون فريفاً هدى وفريفاً حق عليهم الضلالة﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، أيضاً في الآية: يقول كما خلقتكم أول مرة كذلك تعوبون.

﴿يَتَّبِعْ مَادَمَ عُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١١١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالْيَمِينُ مِنَ الزَّيْنِ قُلْ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَبَاطِنَهَا وَأَلْتَمِمْ وَأَلْتَمِمْ بِغَيْرِ الْحَيِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ، سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١٣﴾

هذا خطاب لجميع بني آدم، وإن كان وارداً على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والزينة ما يترتب به الناس من الملبوس، أمروا بالترتين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف. وقد استدلل بالآية على وجوب ستر العورة في الصلاة، وإليه ذهب جمهور أهل العلم، بل سترها واجب في كل حال من الأحوال، وإن كان الرجل خالياً كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، والكلام على العورة وما يجب ستره منها مفصل في كتب الفروع. قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب، ونهاهم عن الإسراف، فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب، وتاركه بالمرّة قاتل لنفسه، وهو من أهل النار، كما صح في الأحاديث الصحيحة، والمقلد منه على وجه يضعف به بدنه ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعي على نفسه، وعلى من يقول مخالفاً لما أمر الله به وأرشد إليه، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه، والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده واقع في النهي القرآني؛ وهكذا من حرم حلالاً أو حلل حراماً، فإنه يدخل في المسرفين ويخرج عن المقتصدین. ومن الإسراف الأكل لا لحاجة، وفي وقت شبع. قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الزينة: ما يترتب به الإنسان، من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة، كالمعانن التي لم يرد نهى عن التزين بها، والجواهر ونحوها؛ وقيل الملبوس خاصة، ولا وجه له، بل هو من جملة ما تشمله الآية، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرمه الله، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخل في الزينة، ولم يمنع منها مانع شرعي، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطاً بيئاً. وقد قدمنا في هذا ما يكفي، وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما، مما يأكله الناس، فإنه لا زهد في ترك الطيب منها، ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرم ذلك على نفسه، أو حرمه على غيره. وما أحسن ما قال ابن جرير الطبري: ولقد أخطأ من أثار لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان، مع وجود السبيل إليه من حله، ومن أكل البقول والعسل، واختاره على خبز البر، ومن ترك

لا كما زعموه من أن الله أمرهم بالفحشاء؛ وقيل القسط هنا هو: لا إله إلا الله، وفي الكلام حذف: أي قل أمر ربي بالقسط فأطيعوه. قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ معطوف على المحذوف المقدر: أي توجهوا إليه في صلاتكم إلى القبلة في أي مسجد كنتم، أو في كل وقت سجود، أو في كل مكان سجود، على أن المراد بالسجود: الصلاة ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: ادعوه أو اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء، أو العبادة له؛ وقيل: وحده ولا تشركوا به. قوله: ﴿كما بداركم تعوبون﴾ الكاف: نعت مصدر محذوف. وقال الزجاج: هو متعلق بما قبله. والمعنى: كما أنشأكم في ابتداء الخلق يعيدكم، فيكون المقصود الاحتجاج على منكري البعث، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؛ وقيل: كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعوبون إليه كذلك ليس معكم شيء، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقتكم أول مرة﴾ [الأنعام: 94] وقيل: كما بداركم من تراب تعوبون إلى التراب ﴿فريفاً هدى﴾ منتصب بفعل يفسره ما بعده؛ وقيل: منتصب على الحال من المضمر في تعوبون: أي تعوبون فريقتين: سعداء وأشقياء، ويقويه قراءة أبي «فريقتين فريفاً هدى»، والفريق الذي هداه الله هم: المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه، والفريق الذي حققت عليه الضلالة: هم الكفار. قوله: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعليل لقوله: ﴿وفريفاً حق عليهم الضلالة﴾ أي: ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله، ومع هذا فإنهم ﴿يحسبون أنهم مهتدون﴾، ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة، وهذا أشد في تمردهم وعنادهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، فنهوا عن ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في الآية قال: والله ما أكرم الله عبداً قط على معصيته، ولا رضيتها له ولا أمر بها، ولكن رضي لكم بطاعته، ونهاكم عن معصيته، وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: ﴿أمر ربي بالقسط﴾ قال: بالعدل ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال: إلى الكعبة حيث صليتم في كنيسة أو غيرها ﴿كما بداركم تعوبون﴾ قال: شقي وسعيد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿كما بداركم تعوبون﴾ الآية قال: إن الله بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً كما قال: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ [التغابن: 2] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً. وأخرج ابن جرير، عن جابر في الآية قال: يبعثون على ما كانوا عليه المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عنه أنه

جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عنه، في الآية قال: كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فامرهم الله بالزينة. والزينة: اللباس وما يوارى السوء، وما سوى ذلك من جيد البر والمتاع. وأخرج ابن عدي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا زينة الصلاة، قالوا: وما زينة الصلاة؟ قال: البسوا نعالكم فصلوا فيها». وأخرج العقيلي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أنس، عن النبي ﷺ في قول الله: «**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**» قال: صلوا في نعالكم. والأحاديث في مشروعية الصلاة في النعل كثيرة جداً، وأما كون ذلك هو تفسير الآية كما روي في هذين الحديثين فلا أدري كيف إسنادهما. وقد ورد النهي عن أن يصلي الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء، وهو في الصحيحين وغيرهما، من حديث أبي هريرة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس، قال: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: «**إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**» قال: في الطعام والشراب. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: كانت قريش تطوف بالبيت، وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله: «**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ**» فامرهم بالثياب أن يلبسوها. «**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» قال: ينتفعون بها في الدنيا لا يتبعهم فيها ما ثم يوم القيامة. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن الضحاك «**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**» قال: المشركون يشاركون المؤمنين في زهرة الدنيا، وهي خالصة يوم القيامة للمؤمنين دون المشركين. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس «**وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**» قال: الولد، واللحم، والسمن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها، وهو قول الله: «**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً**» [يونس: 59] وهذا هذا، فأنزل الله: «**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**» يعني: شارك المسلمون الكفار في الطيبات في الحياة الدنيا، فكلوا من طيبات طعامها، ولبسوا من جيد ثيابها ونكحوا من صالح نساها، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: ما ظهر منها العرية، وما بطن الزنا، وكانوا يطوفون بالبيت عراة. وأخرج ابن جرير،

أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة. وقد قدّمنا نقل مثل هذا عنه مطوّلاً. والطيبات المستلذات من الطعام؛ وقيل هو اسم عام لما طاب كسباً ومطعماً. قوله: «**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**» أي: أنها لهم بالأصالة، وإن شاركهم الكفار فيها ما داموا في الحياة «**وَالْخَالِصَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» أي: مختصة بهم يوم القيامة، لا يشاركهم فيها الكفار. وقرأ نافع «خالصة» بالرفع، وهي قراءة ابن عباس، على أنها خبر بعد خبر. وقرأ الباقر بن النصب على الحال. قال أبو علي الفارسي: ولا يجوز الوقف على الدنيا؛ لأن ما بعدها متعلق بقوله: «**لِلَّذِينَ آمَنُوا**» حال منه بتقدير: قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها لهم يوم القيامة، قوله: «**كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**» أي: مثل هذا التفصيل نفصل الآيات المشتملة على التحليل والتحريم. قوله: «**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ**» جمع فاحشة. وقد تقدّم تفسيرها «**مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**» أي: ما أعلن منها وما أسر، وقيل: هي خاصة بفواحش الزنا، ولا وجه لذلك؛ والإثم يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم؛ وقيل: هو الخمر خاصة؛ ومنه قول الشاعر:

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول ومثله قول الآخر:

يشرب الإثم بالصواع جهارا

وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الإثم خاصاً بالخمر. قال النحاس: فاما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك، وحقيقته أنه جميع المعاصي، كما قال الشاعر:

إنني وجبت الأمر أرشده تقوى الإله وشعره الإثم

قال الفراء: الإثم ما بون الحق والاستطالة على الناس انتهى. وليس في إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به، فهو أحد المعاصي التي يصدق عليها. قال في الصحاح: وقد يسمى الخمر إثماً، وأنشد:

شربت الإثم

البيت، وكذا أنشده الهروي قبله في غريبته. قوله: «**وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**» أي: الظلم المجاوز للحد، وأقرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنباً عظيماً كقوله: «**وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ**» [النحل: 90] «**وَأَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ**» أي: وأن تجعلوا لله شريكاً لم ينزل عليكم به حجة. والمراد להתكم بالمشركين، لأن الله لا ينزل برهاناً بأن يكون غيره شريكاً له: «**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**» بحقيقته وأن الله قاله، وهذا مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التي لم يأن بها.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، والنسائي، وغيرهم، عن ابن عباس، أن النساء كنّ يطفن عراة إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول:

اليوم يبسو بعضه أركله وما بدا منه فلا لحله فنزلت: «**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**». وأخرج ابن

لعل ضعفه الأولى والآخرة ﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل﴾ وقد ضللتكم كما ضللنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿عذاباً ضعفاً﴾ قال: مضاعفاً ﴿قال لكل ضعف﴾ قال: مضاعف، وفي قوله: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ قال: تخفيف من العذاب.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿١١﴾ هُمْ فِي جَهَنَّمَ مَبْنُوءٌ مِنْ قَوْفِهِمْ غَوَّاشٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكُنْ لَهُمْ فِي السَّمَاءِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ قرأ ابن عباس، وحمزة، والكسائي بفتح التحتية؛ لكون تانيث الجمع غير حقيقي فجاز تنكيره. وقرأ الباقون بالفوقية على التانيث. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، تفتح بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد، والمعنى: أنها لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا، وقد دل على هذا المعنى، وأنه المراد من الآية: ما جاء في الأحاديث الصحيحة، أن الملائكة إذا انتهوا بروح الكافر إلى السماء الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم أبواب السماء؛ وقيل لا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا؛ قاله مجاهد والنخعي؛ وقيل لأعمالهم: أي لا تقبل، بل ترد عليهم فيضرب بها في وجوههم؛ وقيل المعنى: أنها لا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلونها، لأن الجنة في السماء، فيكون على هذا القول العطف لجملة ﴿ولا يدخلون الجنة﴾ من عطف التفسير، ولا مانع من حمل الآية على ما يعم الأرواح والدعاء والأعمال، ولا ينافيه ورود ما ورد من أنها لا تفتح أبواب السماء لواحد من هذه، فإن ذلك لا يدل على فتحها لغيره، مما يدخل تحت عموم الآية. قوله: ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ أي: أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين، لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال، ولهذا علقه بالمستحيل، فقال: ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ وهو لا يلج أبداً، وخص الجمل بالذكر؛ لكونه يضرب به المثل في كبر الذات، وخص سم الخياط، وهو ثقب الإبرة بالذكر؛ لكونه غاية في الضيق. والجمل: الذكر من الإبل، والجمع جمال وأجمال وجمالات، وإنما يسمى جملًا إذا أربع. وقرأ ابن عباس «الجمل» بضم الجيم وفتح الميم مشددة، وهو حبل السفينة الذي يقال له القلس، وهو حبال مجموعة قاله ثعلب؛ وقيل الحبل الغليظ من القنب؛ وقيل الحبل الذي يصعد به في النخل. وقرأ سعيد بن جبير «الجمل» بضم الجيم وتخفيف الميم؛ وهو القلس أيضاً. وقرأ أبو السماك «الجمل» بضم الجيم وسكون الميم. وقرأ أيضاً بضمهما. وقرأ عبد الله بن مسعود «حتى يلج الجمل الأصغر في سم الخياط» وقرأ «في سم»

اللاحقين، أو المتبعون للتابعين ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ بل نحن سواء في الكفر بالله واستحقاق عذابه ﴿فنفوقوا﴾ عذاب النار، كما نقتله ﴿بما كنتم تكسبون﴾ من معاصي الله والكفر به.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والخطيب، وابن النجار، عن أبي الدرداء قال: تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله ﷺ، فقلنا من وصل رحمه أنسى في أجله فقال: إنه ليس بزائد في عمره، قال الله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة، فيدعون الله من بعده فيبلغه تلك، فذلك الذي ينسا في أجله. وفي لفظ: فيلحقه دعاؤه في قبره، فذلك زيادة العمر. وهذا الحديث ينبغي أن يكشف عن إسناده، ففيه نكارة، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في الصحيحين وغيرهما بخلافه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن أبي عروبة، قال: كان الحسن يقول: ما أحق هؤلاء القوم يقولون اللهم أطل عمره، والله يقول: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، من طريق الزهري، عن ابن المسيب قال: لما طعن عمر قال كعب: لو دعا الله لأخر في أجله، فقليل له: ليس قد قال الله: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فقال كعب: وقد قال الله: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ [فاطر: 11]. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لؤلؤك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ قال: ما قدر لهم من خير وشر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، في الآية قال: من الأعمال، من عمل خيراً جزى به، ومن عمل شراً جزى به. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: نصيبهم من الشقاوة والسعادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: ما سبق من الكتاب. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في الآية قال: رزقه وأجله وعمله. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي صالح، في الآية قال: من العذاب. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿قد خلت﴾ قال: قد مضت ﴿كلما دخلت أمة لعنت لختها﴾ قال: كلما دخلت أمة ملة لعنوا أصحابهم على ذلك، يلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والصابئون الصابئين، والمجوس المجوس، تلعن الآخرة الأولى ﴿حتى إذا أداركوا فيها جميعاً قالت لآخرهم﴾ الذين كانوا في آخر الزمان ﴿لأولاهم﴾ الذين شرعوا لهم تلك الدين ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتتهم عذاباً ضعفاً من النار قال

الفضل من الله [النساء: 70] وفيه: ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾ [النساء: 175].

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ يعني: لا يصعد إلى الله من عملهم شيء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: لا تفتح لهم لعمل ولا لدعاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً في الآية قال: لا تفتح لأرواحهم، وهي تفتح لأرواح المؤمنين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه أيضاً ﴿حتى يلج الجمل﴾ قال: ذو القوائم ﴿في سم الخياط﴾ قال: في خرت الإبرة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني في الكبير، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿حتى يلج الجمل﴾ قال: زوج الناقة. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، من طرق عن ابن عباس، أنه كان يقرأ الجمل بضم الجيم وتشديد الميم وقال: هو الحبل الغليظ أو هو من حبال السفن. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عمر، أنه سئل عن سم الخياط فقال: الجمل في ثقب الإبرة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس قال: المهاد الفراش، والغواش اللحف. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن علي بن أبي طالب، قال: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن مردويه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة يقول لو هدانا الله فيكون حسرة عليهم، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول لولا أن هدانا الله فهذا شكرهم». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد وعبد بن حميد، والدارمي، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي سعيد، وأبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿وئوبوا أن تكلم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ قال: نودوا أن صحوا فلا تسقموا، وانعموا فلا تبأسوا، وشبوا فلا تهرموا، واخلدوا فلا تموتوا.

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ يُخَرِّجُ مِنْ نَحْمِهِمُ الْأَثَرَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ لَنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ وَكَانَتْ أَعْصَابُ الْجَنَّةِ أَعْصَابُ النَّارِ أَنْ تَدَّ وَجَدًا مَّا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذْنُؤُنَّ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَمُمْ يَلْعَنُونَ ﴿٧٨﴾ وَبَيْنَهُمَا جَبَّارٌ وَعَلَى الْأَعْرَابِ رِيسَالٌ يَمْشُونَ كَلَّا يَسْمِعُهُمْ وَكَانُوا أَعْصَابُ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْعُوا وَمَنْ يَدْعُوهُمْ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَيْهَا أَعْصَابُ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٠﴾ وَكَانَتْ أَعْصَابُ الْأَعْرَابِ يَدًا يَدْعُوهُمْ يَسْمِعُهُمْ قَالُوا مَا أَفْنَى عَنْكُمْ جَمْعَكُمْ وَمَا كُنْتُمْ

بالحركات الثلاث، والسم: كل ثقب لطيف، ومنه ثقب الإبرة، والخياط ما يخاط به، يقال خياط ومخيط ﴿وكنلك نجزي للمجرمين﴾ أي مثل ذلك الجزاء القلطع نجزي المجرمين: أي جنس من أجرم وقد تقدّم تحقيقه. والمهاد: الفراش، والغواش جمع غاشية: أي نيران تغشاهم من فوقهم كالأغطية ﴿وكنلك نجزي الظالمين﴾ أي: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من اتصف بصفة الظلم. قوله: ﴿لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: لا تكلف العباد إلا بما يدخل تحت وسعهم ويقدرُونَ عليه، ولا تكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم، وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر، ومثله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه﴾ [الطلاق: 7] وقرأ الأعمش تكلف بالفوقية ورفع نفس، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الموصول، وخبره ﴿أصحاب الجنة﴾ والجملة خبر الموصول، وجملة ﴿وهم فيها خالون﴾ في محل نصب على الحال. قوله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة، أن ينزع الله ما في قلوبهم من الغل على بعضهم بعضاً، حتى تصفو قلوبهم ويود بعضهم بعضاً، فإن الغل لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا، لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة، لأن المتشاحنين لا طيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر. والغل: الحقد الكامن في الصدور؛ وقيل: نزع الغل في الجنة، أن لا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل المنازل ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ أي لهذا الجزاء العظيم، وهو الخلود في الجنة ونزع الغل من صدورهم، والهداية هذه لهذا هي الهداية لسببه من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا ﴿وما كنا لنهتدي﴾ قرأ ابن عامر بإسقاط الواو، وقرأ الباقون بإثباتها، وما كنا لنطيق أن نهتدي بهذا الأمر لولا هداية الله لنا، والجملة مستأنفة أو حالية، وجواب لولا محذوف يدل عليه ما قبله: أي لولا هداية الله لنا ما كنا لنهتدي. قوله: ﴿فلقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ اللام لام القسم، قالوا هذا لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجزاء العظيم، اغتباطاً بما صاروا فيه بسبب ما تقدّم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما أخبرهم به في الدنيا من أن جزاء الإيمان والعمل الصالح هو هذا الذي صاروا فيه. قوله: ﴿وئوبوا أن تكلم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي: وقع النداء لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقيل لهم تكلم الجنة أورثتموها: أي ورثتم منازلها بعملكم. قال في الكشف: بسبب أعمالكم لا بالفضل كما تقوله المبطله انتهى.

أقول: يا مسكين هذا قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه «سندوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمضني الله برحمته» والتصريح بسبب لا يستلزم نفي سبب آخر، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطله، وفي التنزيل: ﴿ذلك

تَنْتَكِرُونَ ﴿١٣٨﴾ أَهْلُوا الَّذِينَ أَدْبَسْتُمْ لَآبَاءَهُمْ اللَّهُ يَرْحَمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ حَزَنُونَ ﴿١٣٩﴾

مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به، بل لقصد تبيكتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم، ﴿وَأَنْ قَدْ وَجِئْنَا﴾ هو نفس النداء: أي إنا قد وصلنا إلى ما وعدنا الله به من النعيم، فهل وصلتم إلى ما وعدكم الله به من العذاب الأليم، والاستفهام هو للتقريع والتوبيخ، وحذف مفعول وعد الثاني لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم، بل لكل الناس كالبعث والحساب والعقاب؛ وقيل حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد: ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ أي: وجئنا ما وعدنا ربنا حقاً. وقرأ الأعمش والكسائي «نعم» بكسر العين. قال مكي: من قال نعم بكسر العين فكانه أراد أن يفرق بين نعم التي جواب وبين نعم التي هي اسم للبقر والغنم والإبل. والمؤذن: المنادي، أي: فنادي مناد بينهم: أي بين الفريقين؛ قيل: هو من الملائكة ﴿إِنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، والبزي، بتشديد أن وهو الأصل. وقرأ الباقر بالتخفيف على أنها المخففة من الثقيلة أو المفسرة. وقرأ الأعمش بكسر همزة إن على إضمار القول، وجملة: ﴿الَّذِينَ يَصْنُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفة للظالمين، ويجوز الرفع والنصب على إضمارهم، أو أعني. والصد: المنع: أي يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق ﴿وَيُبيغُونَهَا غُجَّاءً﴾ أي: يطلبون أعرجاجها: أي ينفرون الناس عنها ويقنحون في استقامتها، يقولهم إنها غير حق وإن الحق ما هم فيه، والعوج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم يكن منتصباً، وبالفصح ما كان في المنتصب كالرمح، وجملة: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال. قوله: ﴿وَيُؤَيِّنُهَا حِجَابٌ﴾ أي: بين الفريقين أو بين الجنة والنار. والحجاب هو السور المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بَسُورًا﴾ [الحديد: 13]. قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ الأعراف: جمع عرف، وهي شرفات السور المضروب بينهم، ومنه عرف الفرس وعرف الديك والأعراف في اللغة: المكان المرتفع، وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37].

وقد اختلف العلماء في أصحاب الأعراف من هم؟ فقليل هم الشهداء، ذكره القشيري وشرحبيل بن سعد؛ وقيل: هم فضلاء المؤمنين، فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس ذكره مجاهد؛ وقيل: هم قوم أنبياء ذكره الزجاج؛ وقيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان، وابن عباس والشعبي، والضحاك وسعيد بن جبير؛ وقيل هم العباس وحمزة وعلي وجعفر الطيار، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسوادها، حكى ذلك عن ابن عباس؛ وقيل: هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة، واختار

هذا القول النحاس؛ وقيل هم أولاد الزنا، روي ذلك عن ابن عباس؛ وقيل: هم ملائكة موكلون بهذا السور، يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار، ذكره أبو مجلز، وجملة: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ صفة لرجال: والسيما العلامة: أي يعرفون كلًّا من أهل الجنة والنار بعلاماتهم كبياض الوجوه وسوادها، أو مواضع الوضوء من المؤمنين، أو علامة يجعلها الله لكل فرق في ذلك الموقف، يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي: نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رأوهم ﴿إِنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نادوهم يقولهم سلام عليكم، تحية لهم وإكراماً وتشبيراً، أو أخبروهم بسلامتهم من العذاب. قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي: لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف، والحال أنهم يطمعون في دخولها؛ وقيل معنى: ﴿يَطْمَعُونَ﴾ يعلمون أنهم يدخلونها وذلك معروف عند أهل اللغة: أي طمع بمعنى علم. ذكره النحاس. وهذا القول أعني كونهم أهل الأعراف مروى عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود. وقال أبو مجلز: هم أهل الجنة: أي أن أهل الأعراف قالوا لهم سلام عليكم، حال كون أهل الجنة لم يدخلوها والحال أنهم يطمعون في دخولها. قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: إذا صُرِفَتْ أبصار أهل الأعراف لتلقاء أصحاب النار: أي جهة أصحاب، وأصل معنى ﴿تِلْقَاءَ﴾ جهة اللقاء، وهي جهة المقابلة، ولم يأت مصدر على تفعال بكسر أؤله غير مصدرين، أحدهما هذا، والآخر تبيان، وما عداهاما بالفتح ﴿قَالُوا﴾ أي: قال أهل الأعراف ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سألوا الله أن لا يجعلهم منهم ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من الكفار ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بعلاماتهم ﴿قَالُوا﴾ بدل من نادى ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الذي كنتم تجمعون للصّد عن سبيل الله، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. «ما» مصدرية أي: وما أغنى عنكم استكباركم ﴿أَهْلُوا الَّذِينَ أَدْبَسْتُمْ لَآبَاءَهُمْ﴾ لا ينالهم الله برحمة. هذا من كلام أصحاب الأعراف: أي قالوا للمسلمين ادخلوا الجنة، فقد انتفى عنكم الخوف والحزن بعد الدخول. وقرأ طلحة بن مصرف «الخلوة» بكسر الخاء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنْ قَدْ وَجِئْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾ قال: من النعيم والكرامة ﴿فَهَلْ وَجِئْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ قال: من الخزي والهوان والعذاب. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عمر: أن النبي ﷺ لما وقف على قليب بدر

والمعاصرين للنبي ﷺ، فالمراد بالكتاب: القرآن، والتفصيل للتبيين، و﴿على علم﴾ في محل نصب على الحال: أي عالمين حال كونه ﴿هدي﴾ للمؤمنين و﴿ورحمة﴾ لهم. قال

الكسائي والفراء: ويجوز «هدي ورحمة» بالخفض على النعت لكتاب. قوله: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ بالهمز من آل، وأهل المدينة يخفون الهمزة. والنظر الانتظار: أي هل ينتظرون إلا ما وعدوا به في الكتاب من العقاب الذي يثول الأمر إليه؛ وقيل: تأويله جزاؤه؛ وقيل عاقبته. والمعنى

متقارب. ويوم ظرف ليقول: أي يوم يأتي تأويله، وهو يوم القيامة ﴿يقول للذين نسوه من قبل﴾ أي تركوه من قبل أن يأتي تأويله ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ الذي أرسلهم الله به إلينا ﴿فهل لنا من شفعاء﴾ استفهام منهم؛ ومعناه التمني ﴿فیشفعوا لنا﴾ منصوب لكونه جواباً للاستفهام. قوله: ﴿أو نرد﴾ قال الفراء: المعنى أو هل نرد ﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ وقال الزجاج: نرد عطف على المعنى: أي هل يشفع لنا أحد أو نرد. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿أو نرد فنعمل﴾ بنصبهما، كقول امرئ القيس:

فلعلته لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعززا
وقرأ الحسن برفعهما، ومعنى الآية: هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب، أو هل نرد إلى الدنيا فنعمل صالحاً غير ما كنا نعمل من المعاصي ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ أي: لم ينتفعوا بها، فكانت أنفسهم بلاء عليهم ومحنة لهم، فكانهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله؛ وقيل خسروا النعيم وحظ الأنفس ﴿ووصل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي: افتراؤهم أو الذي كانوا يفترونه. والمعنى أنه بطل كذبهم الذي كانوا يقولونه في الدنيا، أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكاً لله فلم ينفعهم ولا حضر معهم. قوله:

﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ هذا نوع من بديع صنع الله، وجليل قدرته، وتفرد به بالإيجاد، الذي يوجب على العباد توحيده وعبادته. وأصل ستة سبعة أبدلت التاء من أحد السنين وأدغم فيها الدال، والدليل على هذا أنك تقول في التصغير سديسة، وفي الجمع أسداس، وتقول جاء فلان سادساً. واليوم من طلوع الشمس إلى غروبها، قيل: هذه الأيام من أيام الدنيا؛ وقيل: من أيام الآخرة، وهذه الأيام الست أولها الأحد وآخرها الجمعة، وهو سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والثبات في الأمور، أو خلقها في ستة أيام لكون لكل شيء عنده أجل، وفي آية أخرى ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ [ق: 38]. قوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾:

قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً، وأحقتها وأولاهها بالصواب مذهب السلف الصالح لثبته استوى سبحانه عليه بلا كيف بل على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه، والاستواء في لغة العرب هو العلو

والاستقرار. قال الجوهري: استوى على ظهر دابته: أي استقر، واستوى إلى السماء: أي صعد، واستوى: أي استولى وظفر، ومنه قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهبraq
واستوى الرجل: أي انتهى شبابه، واستوى: أي انتسق واعتدل. وحكى عن أبي عبيدة أن معنى ﴿استوى﴾ هنا: علا، ومثله قول الشاعر:

فلورد بهم ماء ثقيفاً بقترة وقد حلق النجم اليماني فاستوى
أي: علا وارتفع. والعرش. قال الجوهري: هو سرير الملك. ويطلق العرش على معان أخر منها عرش البيت: سقفة، وعرش البئر: طيها بالخشب، وعرش السماك: أربعة كواكب صفراء، ويطلق على الملك والسلطان والعرز ومنه قول زهير:

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها ونبيان إذ زلت بأقدامها النعل
وقول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحرث بن شهاب
وقول الآخر:

رأوا عرشي ثلثم جانباه فلما أن ثلثم أقرنوني
وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن، وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما، وهو المراد هنا. قوله: ﴿يغشي الليل النهار﴾ أي: يجعل الليل كالغشاء للنهار، فيغطي بظلمته ضياءه. وقرأ عاصم وحزمة والكسائي «يغشي» بالثشديد، وقرأ الباقر بالتخفيف وهما لغتان، يقال أغشى يغشي، وغشى يغشي، والتغشية في الأصل: لباس الشيء الشيء، ولم يذكر في هذه الآية يغشي الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله تعالى: ﴿سراويل تقيكم الحر﴾ [النحل: 81]. وقرأ حميد بن قيس «يغشي الليل النهار» على إسناد الفعل إلى الليل، ومحل هذه الجملة النصب على الحال، والتقدير: استوى على العرش مغشياً الليل النهار، وهكذا قوله: ﴿يطلبه حثيثاً﴾ حال من الليل: أي حال كون الليل طالباً للنهار طلباً حثيثاً لا يفتر عنه بحال، وحثيثاً صفة مصدر محذوف، أي يطلبه طلباً حثيثاً: أو حال من فاعل يطلب. والحث: الاستعجال والسرعة، يقال ولي حثيثاً: أي مسرعاً. قوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ قال الأخفش: معطوف على السموات، وقرأ ابن عامر برفعها كلها على الابتداء والخبر. والمعنى على الأول: وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات. وعلى الثاني: الإخبار عن هذه بالتسخير. قوله: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ إخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له، والخلق: المخلوق، والأمر: كلامه، وهو كن في قوله: ﴿إنما أمرنا شيء إذا أرادنا أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: 40]، أو المراد بالأمر ما يأمر به على التفصيل، أو التصرف في مخلوقاته، ولما ذكر سبحانه في هذه الآية خلق السموات والأرض في ذلك الأمد اليسير، ثم ذكر استواءه على عرشه وتسخير الشمس والقمر والنجوم، وأن له الخلق والأمر. قال:

﴿تبارك الله رب العالمين﴾ أي: كثرت بركته واتسعت، ومنه بورك الشيء وبورك فيه، كذا قال ابن عرفة. وقال الأزهري في **﴿تبارك﴾** معناه تعالى وتعاظم. وقد تقدم تفسير **﴿رب العالمين﴾** في الفاتحة مستكملاً.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة﴾** الآية قال: ينادي الرجل أخاه فيقول: يا أخي أغثنني، فإني قد احترقت، فأقض عليّ من الماء، فيقال أجبه، فيقول: إن الله حرّمهما على الكافرين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ في قوله: **﴿فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾** قال: من الطعام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في الآية قال: يستسقونهم ويستطعمونهم، وفي قوله: **﴿إن الله حرّمهما على الكافرين﴾** قال: طعام الجنة وشرابها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس، في قوله: **﴿فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا﴾** يقول: نتركهم في النار كما تركوا لقاء يومهم هذا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **﴿فاليوم ننسأهم﴾** قال: نؤخرهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾** قال: عاقبته. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: **﴿يوم يأتي تأويله﴾** جزأوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: **﴿يوم يأتي تأويله﴾** قال: يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿ما كانوا يفترون﴾** قال: ما كانوا يكذبون في الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾** قال: كل يوم مقداره ألف سنة. وأخرج ابن مردويه، عن أم سلمة، قال في قوله: **﴿استوى على العرش﴾** الكيف: غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود كفر. وأخرج اللالكائي عن مالك أن رجلاً سأله كيف استوى على العرش؟ فقال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء والخطيب في تاريخه، عن الحسن بن علي، قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية في كل ليلة أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم، ومن كل شيطان مريد، ومن كل سبع ضاري، ومن كل لص عادي: آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف **﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾** [الأعراف: 54 - 56] وعشراً من أول سورة الصافات، وثلاث آيات من الرحمن. أولها **﴿يا معشر الجن والإنس﴾** [الرحمن: 33 - 35]، وخاتمة الحشر. وأخرج أبو الشيخ بن عبيد بن أبي مرزوق قال: من قرأ عند نومه **﴿إن ربكم الله الذي خلق**

السموات والأرض﴾ الآية، بسط عليه ملك جناحه حتى يصبح، وعوفي من السرقة. وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن قيس صاحب عمر بن عبد العزيز قال: مرض رجل من أهل المدينة فجاءه زمرة من أصحابه يعولونه، فقرأ رجل منهم: **﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾** الآية كلها، وقد أصمت الرجل فتحرّك ثم استوى جالساً، ثم سجد يومه وليته حتى كان من الغد من الساعة التي سجد فيها، قال له أهله، الحمد لله الذي عافاك، قال: بعث إلى نفسي ملك يتوفأها، فلما قرأ صاحبكم الآية التي قرأ، سجد الملك وسجدت بسجوده، فهذا حين رفع رأسه، ثم مال فقضى. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السديّ، في قوله: **﴿يغشى الليل النهار﴾** قال: يغشى الليل النهار فيذهب بضوئه، ويطلبه سريعاً حتى يدركه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: يلبس الليل النهار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿حجثنا﴾** قال: سريعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان بن عيينة، في قوله: **﴿الا له الخلق والأمر﴾** قال: الخلق ما دون العرش، والأمر ما فوق ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي، عنه، قال: الخلق هو الخلق، والأمر هو الكلام.

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُنْتَبِذِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِمَدِّ أَيْدِيكُمْ وَأَعْزُوا خَوْفًا طَوِيلًا إِنَّ رَبَّكُمْ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ تَبْثِيرًا يَلْقَىٰ بِذِي رَحْمَةٍ حَتَّىٰ إِذَا أَثَلَتْ سَحَابًا يَقَالَا سُنْنُهُ لَيْسَ لَكُم مِّنَّا فَرْقٌ فَالْزَلْنَا بِهِ مَاءً فَأَنْجَيْنَاهُ مِنْ كَلِّ الشَّرِّ كَذَلِكَ نَجِّى الْمَوْتِ لَكُمْ تَذَكُّرٌ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا كَيْدًا كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

أمرهم الله سبحانه بالدعاء، وقيد ذلك بكون الداعي متضرعاً بدعائه مخفياً له، وانتصاب **﴿تضرعاً وخفية﴾** على الحال أي: متضرعين بالدعاء مخفين له، أو صفة مصدر محذوف أي: ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية. والتضرع من الضراعة، وهي الذلة والخشوع والاستكانة، والخفية: الإسرار به، فإن ذلك أقطع لعرق الرياء، وأحسم لباب ما يخالف الإخلاص، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إنه لا يحب للمعتنين﴾** أي: المجاوزين لما أمره الله به في الدعاء وفي كل شيء، فمن جاوز ما أمره الله به في شيء من الأشياء فقد اعتدى، والله لا يحب المعتنين، وتدخل المجاوزة في الدعاء في هذا العموم بخلاً أولياً. ومن الاعتداء في الدعاء: أن يسأل الداعي ما ليس له، كالخلود في الدنيا، أو إدراك ما هو محال في نفسه، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء في الآخرة، أو يرفع صوته بالدعاء صارخاً به. قوله: **﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾** نهاهم الله سبحانه عن الفساد في الأرض بوجه من الوجوه، قليلاً كان أو كثيراً، ومنه قتل الناس وتخريب منازلهم، وقطع أشجارهم، وتخوير أنهارهم. ومن الفساد في الأرض: الكفر بالله والوقوع في

من طيها فتصير كالمنفتحة. وقال أبو عبيدة: معناه متفرقة في وجوهها، على معنى ننشرها ها هنا وها هنا. وقرأ عاصم **﴿يُشْرَأُ﴾** بالياء الموحدة وإسكان الشين جمع بشير: أي الرياح تبشر بالمطر، ومثله قوله تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ مَبْشُرَاتِ﴾** [الروم: 46]. قوله: **﴿بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ﴾** أراد بالرحمة هنا المطر: أي قدام رحمته، والمعنى: أنه سبحانه يرسل الرياح ناشرات أو مبشرات بين يدي المطر. قوله: **﴿حَتَّى إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا﴾** أَثَلَّ فلان الشيء: حملة ورفع، والسحاب ينكز ويؤثث، والمعنى: حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالماء الذي صارت تحمله **﴿سُقْنَاهُ﴾** أي السحاب **﴿بَلْبَلْدٍ مِيتٍ﴾** أي: مجبب ليس فيه نبات، يقال سقته لبلد كذا، وإلى بلد كذا؛ وقيل اللام هنا لام العلة: أي لأجل بلد ميت، والبلد: هو الموضع العامر من الأرض **﴿فَانْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾** أي: بالبلد الذي سقناه لأجله أو بالسحاب أي: أنزلنا بالسحاب الماء الذي تحمله أو بالريح أي: فانزلنا بالريح المرسله بين يدي المطر الماء؛ وقيل إن الباء هنا بمعنى من: أي فانزلنا معه الماء **﴿فَفَخَّرَ جَنَّا بِهِ﴾** أي بالماء **﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾** أي: من جميع أنواعها. قوله: **﴿كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾** أي: مثل ذلك الإخراج، وهو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم **﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** أي: تتذكرون فتعلمون بعظيم قدرة الله وبديع صنعته، وإنه قادر على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات التي تشاهدونها. قوله: **﴿وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾** أي: التربة الطيبة يخرج نباتها بإذن الله وتيسيره إخراجاً حسناً تاماً وأفياً **﴿وَالَّذِي خَبَتْ﴾** لا يخرج إلا نكداً أي: والتربة الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكداً: أي لا خير فيه. وقرأ طلحة بن مصرف «نكداً» بسكون الكاف. وقرأ ابن القعقاع «نكداً» بفتح الكاف: أي ذا نكد. وقرأ الباقون «نكداً» بفتح النون وكسر الكاف. وقرأ **﴿يُخْرِجُ﴾** أي: يخرج به البلد؛ قيل: ومعنى الآية التشبيه، شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب، والبلد بالبلد الخبيث، نكره النحاس؛ وقيل هذا مثل للقلوب، فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب، والنائي عنه بالبلد الخبيث، قاله الحسن؛ وقيل: هو مثل لقلب المؤمن والمنافق قاله قتادة؛ وقيل هو مثل للطيب والخبيث من بني آدم، قاله مجاهد، **﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾** أي: مثل ذلك التصريف **﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾** الله ويعترفون بنعمته.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾** قال: السر **﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾** في الدعاء ولا في غيره. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: التضرع علانية والخفية سر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر، في قوله: **﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾** يعني: مستكيناً وخفية، يعني في خفض وسكون في حاجاتكم من أمر الدنيا والآخرة **﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾** يقول: لا تدعوا على المؤمن والمؤمنة بالشر: اللهم احزه والعنه ونحو ذلك فإن ذلك عبوان. وأخرج ابن

معاصيه، ومعنى **﴿بعد إصلاحها﴾**: بعد أن أصلحها الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتقرير الشرائع. قوله: **﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾** إعرابهما يحتمل الوجهين المتقدمين في **﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾** وفيه أنه يشرع للداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وجللاً طامعاً في إجابة الله لدعائه، فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء، ظفر بمطلوبه، والخوف: الانزعاج من المضار التي لا يؤمن من وقوعها، والطمع: توقع حصول الأمور المحبوبة. قوله: **﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين، بأي نوع من الأنواع كان إحسانهم. وفي هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم، فإن قرب هذه الرحمة التي يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عبادة الله.

وقد اختلف أئمة اللغة والإعراب في وجه تنكير خبر رحمة الله حيث قال قريب ولم يقل قريبة، فقال الزجاج: إن الرحمة مؤولة بالرحم، لكونها بمعنى العفوق والغفران، ورجح هذا التأويل النحاس. وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر بمعنى الترحم، وحق المصدر التنكير. وقال الأخفش سعيد: أراد بالرحمة هنا المطر، وتنكير بعض المؤنث جائز، وأنشد: فلامزنة وبقت وبقها ولا أرض أبقل أبقالها وقال أبو عبيدة: تنكير قريب على تنكير المكان: أي مكان قريب. قال علي بن سليمان الأخفش: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان قريب منصوباً كما تقول: إن زيدا قريباً منك. وقال الفراء: إن القريب إذا كان بمعنى المسافة، فينكر ويؤنث، وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم. وروي عن الفراء أنه قال: يقال في النسب قريبة فلان، وفي غير النسب يجوز التنكير والتأنيث فيقال: دارك عنا قريب، وفلانة منا قريب قال الله تعالى: **﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾** [الأحزاب: 63] ومنه قول امرئ القيس:

لك الويل أن أمسني ولا أم هاشم قريب ولا لبسباسة ابنة يشكرا وروي عن الزجاج أنه خطأ الفراء فيما قاله وقال: إن سبيل المذكر والمؤنث، أن يجريا على أفعالهما؛ وقيل: إنه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقي، جاز في خبرها التنكير، نكر معناه الجوهرى. قوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ تُنْشِرُ بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ﴾** عطف على قوله: **﴿يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾** يتضمن نكر نعمة من النعم التي أنعم بها على عباده، مع ما في ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته. ورياح جمع ريح، وأصل ريح روح، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو «نشرأ» بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب: أي ذات نشر. وقرأ الحسن وقاتدة، وابن عامر «نشرأ» بضم النون وإسكان الشين من نشر. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي «نشرأ» بفتح النون، وإسكان الشين على المصدر، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال، ومعنى هذه القراءات يرجع إلى النشر، الذي هو خلاف الطي فكان الريح مع سكونها كانت مطوية، ثم ترسل

جبرير، وابن أبي حاتم، عن أبي مجلز، في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ قال: لا تسالوا منازل الأنبياء. وأخرج ابن المبارك، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن قال: لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول ﴿ادْعُوا رَبَكُمْ تُسْرِعاً وَخَفِيَةً﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً فرضي قوله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نداءً خفياً﴾ [مريم: 3]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن صالح، في قوله: ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ قال: بعدما أصلحها الأنبياء وأصحابهم. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي سنان، في الآية قال: أحللت حلالي وحرمت حرامي، وحللت حدودي، فلا تفسدوها. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ قال: خوفاً منه، وطمعاً لما عنده ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المؤمنين، ومن لم يؤمن بالله فهو من المفسدين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ قال: إن الله يرسل الرياح، فيأتي بالسحاب من بين الخافقين طرف السماء والأرض، من حيث يلتقيان، فيخرجه من ثم، ثم ينشره فيبسطه في السماء كيف يشاء، ثم يفتح أبواب السماء، فيسيل الماء على السحاب، ثم يطر السحاب بعد ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿بَشِيراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قال: يستبشر بها الناس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قال: هو المطر، وفي قوله: ﴿كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾ قال: كذلك تخرجون، وكذلك النشور، كما يخرج الزرع بالماء. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾ قال: إذا أراد الله أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى يشق عنهم الأرض، ثم يرسل الأرواح فيهبو كل روح إلى جسده، فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر، لإحيائه الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الآية قال: هو مثل ضربه الله للمؤمن، يقول هو طيب وعمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب ﴿وَالَّذِي خَبِثَ﴾ ضرب مثلاً للكافر، كالبلد السيئة المالحة التي لا تخرج منها البركة، فالكافر هو الخبيث وعمله خبيث، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِذْ يَقُولُ فَقَالَ يَقُولُ أَغْدُرَا اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
إِنَّ أَنَا أَنَا عَلَيْكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٠﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي
صَلَاتِي تُبَيِّنُ ﴿١٠١﴾ قَالَ يَقُولُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾ أُنَبِّئُكُمْ رَسُولِي رَبِّي وَأَصْحَكُمُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ أَوْ عَجَبْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَىٰ نَجْوَىٰ نَجْوَىٰ
وَلَنَنْتَوُا وَلَنَكُفِّرَنَّ وَنَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْفَلَاحِ وَأَغْرَقْنَا
الَّذِينَ كَفَرُوا فَجَاءَنِيَّ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿١٠٤﴾

لما بيّن سبحانه كمال قدرته، وبديع صنعته في الآيات السابقة، ذكر هنا أفاصيل الأمم وما فيها من تحذير الكفار ووعيدهم، لتنبية هذه الأمة على الصواب، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة. واللام جواب قسم محذوف. وهو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم، وقد تقدّم ذكر نوح في آل عمران، فأغني عن الإعادة هنا، وما قيل من أن إدريس قبل نوح، فقال ابن العربي: إنه وهم. قال المازري: فإن صح ما ذكره المؤرخون كان محمداً على أن إدريس كان نبياً غير مرسل، وجملة: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ استئنافية جواب سؤال مقدر. قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هذه الجملة في حكم العلة، لقوله: ﴿اعْبُدُوا﴾ أي: اعبدوه لأنه لم يكن لكم إله غيره، حتى يستحق منكم أن يكون معبوداً. قرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، وابن كثير، وابن عامر برفع غيره على أنه نعت لإله على الموضع. وقرأ الكسائي بالخفض في جميع القرآن، على أنه نعت على اللفظ. وأجاز الفراء والكسائي النصب على الاستثناء: يعني ما لكم من إله إلا إياه. وقال أبو عمرو: ما أعرف الجز ولا النصب. ويريد أن بعض بني أسد ينصبون «غير» في جميع الأحوال، ومنه قول الشاعر:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطق حماة في غضون ذات أرقال
وجملة: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ جملة متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة: أي إن لم تعبوه فإني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة أو عذاب يوم الطوفان. قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ جملة استئنافية جواب سؤال مقدر، والملا أشراف القوم رؤسائهم؛ وقيل: هم الرجال، وقد تقدّم بيانه في البقرة، والضلال: العدول عن طريق الحق والذهاب عنه: أي إنا لنراك في دعائك إلى عبادة الله وحده في ضلال عن طريق الحق، وجملة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ استئنافية أيضاً، جواب سؤال مقدر ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ كما تزعمون ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أرسلني إليكم لسوق الخير إليكم، ودفعت الشر عنكم، نفي عن نفسه الضلالة، وأثبت لها ما هو أعلى منصباً وأشرف رفعة، وهو أنه رسول الله إليهم، وجملة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ في محل رفع على أنها صفة لرسول، أو هي مستأنفة مبينة لحال الرسول. والرسالات: ما أرسله الله به إليهم مما أوجاه إليه ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ عطف على ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ يقال: نصحت ونصحت له، وفي زيادة اللام دلالة على المبالغة في إحاطة النصح، قال الأصمعي: الناصح: الخالص من الغل، وكل شيء خلص فقد نصح، فمعنى أنصح هنا: أخلص النية لكم عن شوائب الفساد، والاسم النصيحة وجملة: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، مقررة لرسالته ومبينة لمزيد علمه، وأنه يختص بعلم الأشياء التي لا يعلمونها بإخبار الله له بذلك، قوله: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ فتحت الواو لكونها العاطفة، ودخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار عليهم، والمعطوف عليه مقدر: كانه قيل: استبعدتم

وعجبتكم، أو اكنبتم وعجبتكم، أو انكرتم وعجبتكم ﴿أَنْ جَاءَكُمْ نَكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: وحي وموعظة ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ أي: على لسان رجل منكم تعرفونه، ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه أو لا تعرفون لغته؛ وقيل على بمعنى مع: أي مع رجل منكم لأجل يذكركم به ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ ما يخالفه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ بسبب ما يفيد الإنذار لكم، والتقوى منكم من التعرض لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه عنكم ﴿فَكُذِّبُوا﴾ أي: فبعد ذلك كذبوه ولم يعملوا بما جاء به من الإنذار ﴿فَانْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين به المستقرين معه ﴿فِي الْفَلَكَ وَاغْرَقْنَا الَّذِينَ كَتَبُوا بِأَيْتَانَا﴾ واستمروا على ذلك، ولم يرجعوا إلى التوبة، وجملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ علة لقوله: ﴿وَاغْرَقْنَا﴾ أي: أغرقنا المكذبين لكونهم عمي القلوب لا تنجع فيهم الموعظة، ولا يفيدهم التنكير.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساکر، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «أول نبي أرسل نوح».

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو نعيم، وابن عساکر، عن يزيد الرقاشي قال: إنما سمي نوح عليه السلام نوحاً لطول ما نوح على نفسه. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك قال: الملا يعني الأشراف من قومه. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي ﴿أَنْ جَاءَكُمْ نَكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول: بيان من ربكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ قال: كفاراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ قال: عن الحق.

﴿وَالَّذِينَ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ قَالَ عَادُ لَنَامُ هُودًا قَالَ يَقُولُ أَتَدْعُو اللَّهَ مَا لَكَ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُفْلِتُكَ مِنَ الْكُذِّبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقُولُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنَّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِيِّينَ ﴿٦٧﴾ أَتُفْلِكُكُمْ وَتَسَلِّتُ رَبِّي وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ وَكَفَرْتَ مِنْ رَبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ يُنْذِرُكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي قَوْمٍ نُوْحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَذَكَّرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتْلُوْنَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَنَحْذَرَ مَا كَانَ يَمْعُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ رَفَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجِدَلُونِي وَتَأْتُمِرُونَ أَتَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَجَبْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم: أي واحداً من قبيلتهم أو صاحبهم، أو سماه أخا لكونه ابن آدم مثلهم، وعاد من هو ولد سلم بن نوح. قيل

هو عاد بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وهود هو ابن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، و﴿هُودًا﴾ عطف بيان ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾. قد تقدّم تفسير هذا قريباً، والاستفهام في ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ للإنكار. وقد تقدّم أيضاً تفسير الملا، والسفاهة الخفة والحمق، وقد تقدّم بيان ذلك في البقرة، نسبوه إلى الخفة والطيش ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا: ﴿إِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَانِبِينَ﴾ مؤكدين لظنهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة، ثم أجاب عليهم بنفي السفاهة عنه، واستدرك من ذلك بانه رسول رب العالمين، وقد تقدّم بيان معنى هذا قريباً، وكذلك سبق تفسير ﴿إِبْلَغَكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي﴾ وتقدّم معنى الناصح، والأمين المعروف بالامانة، وسبق أيضاً تفسير ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ نَكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ في قصة نوح التي قبل هذه القصة. قوله:

﴿وَأَنذَرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أنذرهم نعمة من نعم الله عليهم، وهي أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح أي: جعلهم سكان الأرض التي كانوا فيها، أو جعلهم ملوكاً، وإن منصوب بأنكر، وجعل النكر للوقت. والمراد ما كان فيه من الاستخلاف على الأرض لقصد المبالغة، لأن الشيء إذا كان وقته مستحقاً للذكر، فهو مستحق له بالأولى ﴿وَوَزَّائِكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي: طولاً في الخلق وعظم جسم، زيادة على ما كان عليه آبائهم في الأبدان. وقد ورد عن السلف حكايات عن عظم أجرام قوم عاد. قوله:

﴿فَانْكَرُوا آيَةَ اللَّهِ﴾ الآلاء جمع إلى ومن جملتها نعمة الاستخلاف في الأرض، والبسطة في الخلق وغير ذلك مما أنعم به عليهم، وكرر التنكير لزيادة التقرير، والآلاء النعم ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلَحُونَ﴾ إن تنكرتم ذلك، لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها، ومن شكر فقد أفلح. قوله: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَنَحْذَرَ مَا كَانَ يَمْعُدُ آبَاؤُنَا﴾ هذا استنكار منهم لدعائه إلى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله، وإنما كان هذا مستنكراً عندهم لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه ﴿وَنَذَرُ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: نترك الذي كانوا يعبدونه، وهذا داخل في جملة ما استنكروه. قوله: ﴿فَانْجَيْنَا بِمَا تَعْبُدُوا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا استعجال منهم للعذاب الذي كان هود يعدمهم به، لشدة تمردهم على الله، ونكوصهم عن طريق الحق، ويعدمهم عن اتباع الصواب، فأجابهم بقوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ جعل ما هو متوقع كالواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه، كما نكره أئمة المعاني والبيان، وقيل معنى وقع: وجب. والرجس: العذاب؛ وقيل: هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر، ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة، فقال:

﴿أَتَجِدَلُونِي فِي أَسْمَاءٍ﴾ يعني: أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها جعلها أسماء، لأن مسمياتها لا حقيقة لها، بل تسميتها بالأكله باطلة فكانها معدومة لم توجد بل الموجود

عَزِيزٌ قَدْ جَاءَكُمْ بِحُجَّةٍ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَسْهَوْا بِسُوءِ قِيَادِكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٧﴾
وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِكُمْ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَذَكَّرُونَ
مِن مَّوَلَاهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَسْمُوا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ
اسْتَضَاعُوا مِن مَّوْنِهِمْ أَمَلِكُوا لَنَا كَذِبُوا أَمْ كُنتُمْ لَنَا قَوْمًا فَذَكِّرُوا
بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٦٩﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنُكُمْ
بِهِ كَاذِبُونَ ﴿٧٠﴾ فَمَعَرُوا النَّاقَةَ وَعَصَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ
أَفْعَانَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾ فَأَخَذَهُمُ الرَّجْمُ فَاتَمَدَّوْا
فِي دَارِهِمْ جَنِينِينَ ﴿٧٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ رَسُولًا لَّيْسَ
بِشَيْءٍ لَّكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحْتَسِبُونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٣﴾

قوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ معطوف على ما تقدم أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم، وشمود قبيلة سموها باسم أبيهم، وهو ثمود بن عاد بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وصالح عطف بيان، وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشع بن عبيد بن حاذر بن ثمود، وامتناع ثمود من الصرف لأنه جعل اسماً للقبيلة. وقال أبو حاتم: لم ينصرف لأنه أعجمي. قال النحاس: وهو غلط لأنه من الثمد، وهو الماء القليل، وقد قرأ القراء ﴿إِن ثَمُوداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: 68] على أنه اسم للحَي، وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قد تقدم تفسيره في قصة نوح ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: معجزة ظاهرة، وهي إخراج الناقة من الحجر الصلد، وجملة ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ مشتملة على بيان البينة المذكورة وانتصاب آية على الحال، والعامل فيها معنى الإشارة، وفي إضافة الناقة إلى الله تشريف لها وتكريم. قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ أي: دعوها تأكل في أرض الله، فهي ناقة الله، والأرض أرضه فلا تمنعوها مما ليس لكم، ولا تملكونه، ﴿وَلَا تَسْهَوْا﴾ بشيء من السوء: أي لا تعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوءها. قوله: ﴿فَيَاخُذْكُمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ هو جواب النهي: أي إذا لم تتركوا مسها بشيء من السوء أخذكم عذاب اليم: أي شديد الألم. قوله: ﴿وَأَنذَرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي: استخلفكم في الأرض أو جعلكم ملوكاً فيها، كما تقدم في قصة هود ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعل لكم فيها مباءة، وهي المنزل الذي تسكنونه ﴿تَتَخَذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تتخذون من سهولة الأرض قصوراً، أو هذه الجملة مبيية لجملة: «وبوَّأكم في الأرض»، وسهول الأرض ترابها يتخذون منه اللبن والأجر، ونحو ذلك، فيبينون به القصور ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي: تتخذون في الجبال التي هي صخور بيوتاً تسكنون فيها، وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها، كهوفاً يسكنون فيها، لأن الأبنية

أسماءها فقط ﴿سَمِيتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أي: سميتم بها معبوداتكم من جهة أنفسكم أنتم وأبائكم، ولا حقيقة لذلك ﴿هُوَ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة تحتجون بها على ما تدعون لها من الدعوى الباطلة، ثم توعدهم بأشد وعيد فقال: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ أي: فانتظروا ما طلبتموه من العذاب، فإنني معكم من المنتظرين له، وهو واقع بكم لا محالة، ونازل عليكم بلا شك؛ ثم أخبر الله سبحانه أنه نجى هوداً ومن معه من المؤمنين به من العذاب النازل بمن كفر به ولم تقبل رسالته، وأنه قطع دابر القوم المكذبين: أي استأصلهم جميعاً. وقد تقدم تحقيق معناه، وجمله: ﴿هُوَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ معطوفة على كذبوا: أي استأصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكنيبين بآياتنا وعدم الإيمان.

وقد أخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ قال: ليس بأخيهم في الدين، ولكنه أخوهم في النسب؛ لأنه منهم فلذلك جعل لأخاهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن خيثم قال: كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل النر. وأخرج ابن عساكر عن وهب قال: كان الرجل من عاد ستين ذراعاً بذراعهم، وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة، وكان عين الرجل لتفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم. وأخرج عبيد بن حميد، عن قتادة قال: نكر لنا أنهم كانوا اثني عشر ذراعاً طولاً. وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، عن ابن عباس قال: كان الرجل منهم ثمانين باعاً، وكانت البرة فيهم ككلبة البقرة، والرمانة الواحدة يقعد في قشرها عشرة نفر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه ﴿وَوَزَانُكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةٌ﴾ قال شدة. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة، قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من الحجارة، لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه، وإن كان أحدهم لينخل قمه في الأرض فتدخل فيها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿آلَاءَ اللَّهِ﴾ قال: نعم الله، وفي قوله: ﴿رَجِسٌ﴾ قال: سخط. وأخرج ابن عساكر قال: لما أرسل الله الريح على عاد اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذ به الأنفس، وإنها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض، وتدمغه بالحجارة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ قال: استأصلناهم وأخرج البخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن عساكر، عن علي بن أبي طالب، قال: قبر هود بحضرموت في كتيب أحمر عند رأسه سدره. وأخرج ابن عساكر، عن عثمان بن أبي العاتكة، قال: قبله مسجد لمشق قبر هود. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة، قال: كان عمر هود أربعمائة سنة وأثنتين وسبعين سنة.

وَلِئَلَّ ثَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمُ اتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

فحسّر على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب، ثم أبان عن نفسه أنه لم يال جهداً في إبلاغهم الرسالة ومحض النصيح، لكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب، ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي الطفيل قال: قالت ثمود لصالح اثنتا بآية إن كنت من الصادقين، قال: أخرجوا، فخرجوا إلى هضبة من الأرض فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل، ثم إنها انفجرت فخرجت الناقة من وسطها، فقال لهم صالح: هذه ناقة الله لكم آية، فلما ملوها عقروها: **﴿فَقَالَ لِّلْمَلَأِ لَّئِن لَّسْتُمْ بِلَهُمْ عَلِيمِينَ﴾** [هود: 65]. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة: أن صالحاً قال لهم حين عقروا الناقة: تمتعوا ثلاثة أيام، ثم قال لهم: آية هلاككم أن تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وتصبح اليوم الثاني حمرة، ثم تصبح اليوم الثالث مسودة، فاصبحت كذلك؛ فلما كان اليوم الثالث أيقنوا بالهلاك فتكفؤوا وتحنطوا، ثم أخذتهم الصيحة فأهملتهم. وقال عاقر الناقة: لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين، فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون أترضين؟ فتقول نعم، والصبى حتى رضوا أجمعون، ففقرها. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر قام فخطب فقال: «يا أيها الناس لا تسالوا نبيكم عن الآيات. فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية فبعث الله لهم الناقة، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم ردها ويحتلبون من لبنها مثل الذي كانوا يأخذون من مائها يوم غيبها وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم ففقروها، فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام، وكان وعد من الله غير مكذوب، ثم جاءتهم الصيحة فاهلك الله من كان منهم تحت مشارق الأرض ومغاربها، إلا رجلاً كان في حرم الله فممنعه حرم الله من عذاب الله، فليل يا رسول الله من هو؟ فقال: أبو رغال؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه. قال ابن كثير: هذا الحديث على شرط مسلم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من حديث أبي الطفيل مرفوعاً مثله. وأخرج أحمد من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، وأصل الحديث في الصحيحين من غير وجه، وفي لفظ لأحمد من هذا الحديث قال: لما نزل رسول الله ﷺ على تبوك نزل بهم الحجر عن بيوت ثمود. وأخرج أحمد، وابن المنذر، نحوه مرفوعاً، من حديث أبي كبشة الأنماري، وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: **﴿وَلَا تَمْسُوهُمْ بِسُوءٍ﴾** قال: لا تعقروها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله:

والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم، وانتصاب بيوتاً على أنها حال مقرّة أو على أنها مفعول ثانٍ لتنتحون على تضمينه معنى تتخذون. قوله: **﴿فَانْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾** تقدّم تفسيره في القصة التي قبل هذه. قوله: **﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾** العثي والعثر لغتان، وقد تقدّم تحقيقه في البقرة بما يغني عن الإعادة **﴿قَالَ الْمَلَأُ لِّلَّذِينَ لَسْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾** أي: قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين الذين استضعفهم المستكبرون، و**﴿لَمَنَ آمَنَ مِنْهُمْ﴾** بدل من الذين استضعفوا، بإعادة حرف الجر بدل البعض من كل، لأن في المستضعفين من ليس بمؤمن، هذا على عود ضمير «منهم» إلى الذين استضعفوا، فإن عاد إلى قومه كان بدل كل من المستضعفين، ومقول القول: **﴿تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾** قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية. قوله: **﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾** أجابوهم بأنهم مؤمنون برسائله، مع كون سؤال المستكبرين لهم إنما هو عن العلم منهم هل تعلمون برسائله أم لا، مسارعة إلى إظهار ما لهم من الإيمان وتنبيهاً على أن كونه مرسلأ أمر واضح مكشوف، لا يحتاج إلى السؤال عنه، فأجابوا تمرداً وعناداً بقولهم: **﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾** وهذه الجملة المعنوية يقال مستأنفة لأنها جوابات عن سؤالات مقرّة كما سبق بيانه. قوله: **﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾** العقر: الجرح؛ وقيل: قطع عضو يؤثر في تلف النفس؛ يقال عقرت الفرس: إذا ضربت قوائمها بالسيف؛ وقيل أصل العقر: كسر عرقوب البعير ثم قيل للنحر عقر، لأن العقر سبب النحر في الغالب، وأسند العقر إلى الجميع مع كون العاقر واحداً منهم، لأنهم راضون بذلك موافقون عليه. وقد اختلف في عاقر الناقة ما كان اسمه، فليل قدر ابن سالف، وقيل غير ذلك **﴿وَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾** أي: استكبروا، يقال عتا يعتو عتواً: استكبر، وتعتي فلان: إذا لم يطع، والليل العاتي: الشديد الظلمة **﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعْبَأُنَا مِنَ الْعَذَابِ﴾** [إن كنت من المرسلين] هذا استعجال منهم للنفقة، وطلب منهم لنزول العذاب، وحلول البلية بهم **﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾** أي: الزلزلة، يقال رجف الشيء يرجف رجفاناً، وأصله حركة مع صوت، ومنه: **﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّجْجَةُ﴾** [النازعات: 6]؛ وقيل: كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم **﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾** أي: بلدتهم **﴿جَانِمِينَ﴾** لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر، وأصل الجثوم للارتب وشبهها؛ وقيل للناس والطير، والمراد أنهم أصبوا في نورهم ميتين لا حراك بهم **﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾** صالح عند اليأس من إجابتهم **﴿وَقَالَ﴾** لهم هذه المقالة **﴿لَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنُصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ لِلنَّاصِحِينَ﴾** ويحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية لحالهم الماضية، كما وقع من النبي ﷺ من التكلیم لأهل قلب بدر بعد موتهم، أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم، وكأنه كان مشاهداً لذلك،

تقعوا بكل طريق توعون الناس بالعذاب، قيل: كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب، فيتوعون من أراد المجيء إليه، ويقولون إنه كذاب فلا تذهب إليه، كما كانت قريش تقفله مع النبي ﷺ، قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي، وغيرهم؛ وقيل المراد: القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها، وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة، ويؤيده: ﴿وتصدقون عن سبيل الله من آمن به﴾ وقيل: المراد بالآية النهي عن قطع الطريق وأخذ السلب، وكان ذلك من فعلهم؛ وقيل: إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية في الطرق من أموال الناس فنهوا عن ذلك. والقول الأول: أقربها إلى الصواب مع أنه لا مانع من حمل النهي على جميع هذه الأقوال المذكورة. وجملة «توعون» في محل نصب على الحال، وكذلك ما عطف عليها: أي لا تقعوا بكل طريق موعدين لأهله صائنين عن سبيل الله باغين لها عوجاً، والمراد بالصد عن سبيل الله: صد الناس عن الطريق الذي قعدوا عليه، ومنعهم من الوصول إلى شعيب، فإن سلوك الناس في تلك السبيل للوصول إلى نبي الله هو سلوك سبيل الله، ومن آمن به ﴿مفعول تصون، والضمير في آمن به يرجع إلى الله، أو إلى سبيل الله، أو إلى كل صراط أو إلى شعيب، وتبغونها عوجاً﴾ أي: تطلبون سبيل الله أن تكون معوجة غير مستقيمة، وقد سبق الكلام على العوج. قال الزجاج: كسر العين في المعاني وفتحها في الاحرام ﴿وانكروا إذ كنتم﴾ أي: وقت كنتم ﴿قبيلاً﴾ عندكم ﴿فكركم﴾ بالنسل؛ وقيل: كنتم فقراء فأغناكم ﴿وانظروا كيف كان عاقبة للمفسدين﴾ من الأمم الماضية، فإن الله أملكهم وأنزل بهم من العقوبات ما ذهب بهم ومحا أثرهم ﴿وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به﴾ إليكم من الأحكام التي شرعها الله لكم ﴿وطائفة﴾ منكم ﴿لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم. وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر. وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين، ومثله قوله تعالى: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ [التوبة: 52] أو هو أمر للمؤمنين بالصبر على ما يحل بهم من آذى الكفار حتى ينصرهم الله عليهم ﴿وقال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أي: قال الأشراف المستكبرون ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك﴾ لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا ذلك بغياً وبطراً وأشرا إلى توعد نبيهم ومن آمن به بالإخراج من قريتهم، أو عوده هو ومن معه في ملتهم الكفرية: أي لا بد من أحد الأمرين: إما الإخراج، أو العود. قال الزجاج: يجوز أن يكون العود بمعنى الإبتداء، يقال عاد إلي من فلان مكروه: أي صار وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك فلا يرد ما يقال: كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه الله رسولاً؟ ويحتاج إلى الجواب بتقليب قومه المتبعين له عليه في الخطاب بالعود إلى ملتهم،

كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَمُوتُنَّ فِي بَلَدِكُمْ قَالَ أُولَئِكَ كَلِمَاتٌ مِنْهُ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي بِلَادِكُمْ بِعَدِّ جَنَّتِ اللَّهِ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَمُوتَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفَتَحَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿١٧﴾ وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا لِنُكَرِلَا لِحُيُوتٍ ﴿١٨﴾ فَلَعَنَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيَّةً ﴿١٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَهُمْ جِثَاً يُرَى الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ فَنُوحِيَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْغَائِبِينَ ﴿٢١﴾ فَنُوحِيَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْغَائِبِينَ ﴿٢٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَإَيُّكُمْ لَقَدْ أُفْتَرِيَ عَلَيْكُمْ رِسَالَتِي رَقِي وَصَحَّتْ لَكُمْ كَيْفَءَ أَمْسَى عَلَى قَوْمٍ كَفَرُوا ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿والى مدين لخاهم شعيباً﴾ معطوف على ما تقدم: أي وأرسلنا. ومدين: اسم قبيلة، وقيل: اسم بلد والاول أولى، وجبت القبيلة باسم أبيهم: وهو مدين بن إبراهيم كما يقال بكر وتميم. قوله: ﴿لخاهم شعيباً﴾ شعيب عطف بيان، وهو شعيب بن ميكائيل بن يشجب بن مدين بن إبراهيم، قاله عطاء وابن إسحاق وغيرهما. وقال الشرفي بن القطامي: إنه شعيب بن عيفاء بن ثوب بن مدين بن إبراهيم. وزعم ابن سمعان أنه شعيب بن حرّة بن يشجب بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وقال قتادة: هو شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم. قوله: ﴿قال ياقوم﴾ إلى قوله: ﴿بينة من ربكم﴾ قد سبق شرحه في قصة نوح. قوله: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ أمرهم بإيفاء الكيل والميزان لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن، وكانوا لا يوفونهما، وذكر الكيل الذي هو المصدر وعطف عليه الميزان الذي هو اسم للألة.

واختلف في توجيه ذلك، ف قيل المراد بالكيل: المكيال فتناسب عطف الميزان عليه؛ وقيل المراد بالميزان: الوزن فيناسب الكيل، والفاء في «فأوفوا» للعطف على اعبدا. قوله: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ البخس النقص، وهو يكون بالتعيب للسلعة أو التزهيد فيها، أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه، وكل ذلك من اكل أموال الناس بالباطل وظاهر قوله: ﴿أشياءهم﴾ أنهم كانوا يبخسون الناس في كل الأشياء، وقيل: كانوا مكاسين يمسكون كل ما دخل إلى أسواقهم، ومنه قول زهير:

أني كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
قوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ قد تقدم تفسيره قريباً، ويدخل تحته قليل الفساد وكثيره، وديقيقه وجليله، والإشارة بقوله: ﴿نلكم﴾ إلى العمل بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، والمراد بالخيرية هنا: الزيادة المطلقة، لأنه لا خير في عدم إيفاء الكيل والوزن، وفي بخس الناس، وفي الفساد في الأرض أصلاً. قوله: ﴿ولا تقعوا بكل صراط توعدون﴾ الصراط: الطريق أي: لا

لم يغنوا فيها» هذه الجملة مستأنفة مبينة لما حلَّ بهم من النعمة، والموصول مبتدأ، وكان لم يغنوا خبره: يقال غنيت بالمكان إذا أقمت به، وغنى القوم في دارهم أي طال مقامهم فيها، والمغني: المنزل، والجمع المغاني. قال حاتم الطائي:

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى وكلا سقانا بكاسيهما الدهر

فما زاننا بغياً على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بإحساننا الفقر

ومعنى الآية: الذين كذبوا شعبياً كان لم يقيموا في

دارهم، لأن الله سبحانه استأصلهم بالعباد، والموصول في

الذين كذبوا شعبياً مبتدأ خبره «كانوا هم الخاسرين»،

وهذه الجملة مستأنفة كالأولى متضمنة لبيان خسران القوم

المكذبين «فقتولى عنهم» أي: شعيب لما شاهد نزول

العذاب بهم «وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي»

التي أرسلني بها إليكم «ونصحت لكم» ببيان ما فيه

سلامة دينكم وبنيناكم «فكيف آسى» أي: أحنن «على قوم

كافرين» بالله مصرّين على كفرهم، متمرّين عن الإجابة، أو

الأسى شدة الحزن، آسى على ذلك فهو آس. قال شعيب هذه

المقالة تحسراً على عدم إيمان قومه، ثم سلا نفسه بأنه

كيف يقع منه الأسى على قوم ليس بأهل للحزن عليهم

لكفرهم بالله وعدم قبولهم لما جاء به رسوله.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن عساکر، عن عكرمة،

والسدي قالاً: ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعبياً: مرة إلى

مدین فأخذتهم الصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم

الله بعذاب يوم الظلة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس

«ولا تبخسوا الناس أشياءهم» قال: لا تظلموهم «ولا

تقعوا بكل صراط توعدون» قال: كانوا يوعدون من أتى

شعبياً وغشيه وأراد الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

وابن أبي حاتم، عن ابن عباس «ولا تقعوا بكل صراط

توعدون» قال: كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون من

أتى عليهم أن شعبياً كذاب، فلا يفتننكم عن دينكم. وأخرج

ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،

وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد «بكل صراط

توعدون» قال: بكل سبيل حق «وتبغونها عوجاً» قال:

تلتبسوا لها الزيف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو

الشيخ، عن السدي «ولا تقعوا بكل صراط توعدون»

قال: هو العاشر «وتصنون عن سبيل الله» قال: تصنون

عن الإسلام «وتبغونها عوجاً» قال: هلاكاً. وأخرج أبو

الشيخ، عن مجاهد، قال: هم العشار. وأخرج ابن جرير، عن

أبي العالية، عن أبي هريرة أو غيره: شك أبو العالية قال: أتى

النبي ﷺ ليلة أسرى به على خشبة على الطريق لا يمر بها

ثوب إلا شقته، ولا شيء إلا خرقتها، قال: ما هذا يا جبريل؟

قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقدعون على الطريق فيقطعونه

ثم تلا «ولا تقعوا بكل صراط توعدون». وأخرج ابن

وجملة «قال أو لو كنا كارهين» مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، والهمزة لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود، والواو للحال: أي أتعيذوننا في ملتكم في حال كراهتنا للعود إليهم، أو أتخرجوننا من قريتكم في حال كراهتنا للخروج منها، أو في حال كراهتنا للأميرين جميعاً، والمعنى:

إنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين ولا يصح لكم

ذلك، فإن المكره لا اختيار له ولا تعدّ موافقته مكرها موافقة

ولا عوده إلى ملتكم مكرهاً عوداً، وبهذا التقرير يندفع ما

استشكله كثير من المفسرين في هذا المقام حتى تسبب عن

ذلك تطويل نبول الكلام «قد افترينا على الله كذباً إن عينا

في ملتكم» التي هي الشرك «بعد إذ نجانا الله منها»

بالإيمان، فلا يكون منا عود إليهم أصلاً «وما يكون لنا»

أي: ما يصح لنا ولا يستقيم «أن نعود فيها» بحال من

الأحوال «إلا أن يشاء الله» أي: إلا حال مشيئته سبحانه،

فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. قال الزجاج: أي إلا

بمشيئة الله عز وجل، قال: وهذا قول أهل السنة، والمعنى:

أنه لا يكون منا العود إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك،

فلا استثناء منقطع، وقيل: إن الاستثناء هنا على جهة التسليم

له عز وجل كما في قوله: «وما توفيقي إلا بالله» [هود: 88]

وقيل: هو كقولهم لا أكلمك حتى يبيض الغراب، وحتى يلج

الجمل في سم الخياط، والغراب لا يبيض: والجمل لا يلج،

فهو من باب التعليق بالحال. «وسع ربنا كل شيء علماً»

أي: أحاط علمه بكل المعلومات، فلا يخرج عنه منها شيء،

وعلماً منصوب على التمييز، وقيل المغنى: «وما يكون لنا

أن نعود فيها» أي: القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا لهم

«إلا أن يشاء الله» عودنا إليهم «على الله توكلنا» أي:

عليه اعتمدنا في أن يثبتنا على الإيمان، ويحول بيننا وبين

الكفر وأهله، ويتم علينا نعمته، ويعصمنا من نقمته. قوله:

«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير

الفتاحين» الفتاحة الحكومة، أي احكم بيننا وبين قومنا

بالحق وأنت خير الحاكمين، دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم

ولا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقين على المبطلين:

كما أخبرنا به في غير موضع من كتابه فكانهم طلبوا نزول

العذاب بالكافرين، وحلول نعمة الله بهم «وقال للملأ الذين

كفروا من قومهم» معطوف على «وقال للملأ الذين

استكبروا» يحتمل أن يكون هؤلاء هم أولئك، ويحتمل أن

يكونوا غيرهم من طوائف الكفار الذين أرسل إليهم شعيب،

واللام في «لئن اتبعتم شعبياً» موطئة لجواب قسم محذوف:

أي لخلتم في دينه، وتركتم دينكم «إنكم إذا لخاسرون»

جواب القسم ساد مسدّ جواب الشرط، وخسرانهم: هلاكهم

أو ما يخسرونه بسبب إيفاء الكيل والوزن وترك التطفيف

الذي كانوا يعاملون الناس به «فأخنتهم الرجفة» أي:

الزلزلة؛ وقيل: الصيحة كما في قوله: «وأخذت الذين ظلموا

الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين» [هود: 94] قد تقدم

تفسيره في قصة صالح. قوله: «الذين كذبوا شعبياً كان

جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾** قال: ما ينبغي لنا أن نعود في شرككم بعد إذ نجانا الله **﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رِيقًا﴾** والله لا يشاء الشرك، ولكن يقول: إلا أن يكون الله قد علم شيئاً، فإنه قد وسع كل شيء علماً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات، وابن الأنباري في الوقف والابتداء، عن ابن عباس قال: ما ما كنت أدري ما قوله: **﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾** حتى سمعت ابنه ذي يزن تقول: تعال أفتحك، تعني أقاضيك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: **﴿رَبَّنَا افْتَحْ﴾** يقول: أقض. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، قال: الفتح القضاء لغة يمانية إذا قال أحدهم تعال أقاضيك القضاء قال: تعال أفتحك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿لَمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾** قال: لم يعيشوا فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿فَكَيْفَ آسَى﴾** قال: أحزن. وأخرج ابن عساکر، عن ابن عباس قال: في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما، قبر إسماعيل، وقبر شعيب، فقبر إسماعيل في الحجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود. وأخرج ابن عساکر عن وهب بن منبه أن شعيباً مات بمكة، ومن معه من المؤمنين، فقبرهم في غربي الكعبة بين دار الندوة وبين باب بني سهم. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، عن ابن إسحاق قال: نكر لي يعقوب بن أبي مسلمة «أن رسول الله ﷺ كان إذا نكر شعيباً قال: ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يريد به، فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم وعتروا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة».

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ رَبَّنَا السَّيِّئَةَ وَالْحَسَنَةَ فَخَذْنَاهُمْ بِئِنَّهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقَابِلُونَ ﴿٥٣﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سَهْجًا وَهُمْ يُلْمِزُونَ ﴿٥٤﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمُرُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٥﴾ أَوَلَمْ يَكُن لِّهِنَّ بَرُوزَاتُ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهِنَّ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥٦﴾

قوله: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ﴾** لما فصل الله سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم، وهم المنكورون سابقاً لأجل حال سائر الأمم المرسل إليها: أي وما أرسلنا في قرية من القرى من نبي من الأنبياء، وفي الكلام محذوف أي فكذب أهلها إلا أخذناهم، والاستثناء مفرغ: أي ما أرسلنا في حال من الأحوال إلا في حال أخذنا أهلها فمحل لأخذنا

النصب، والبأساء: البؤس والفقر، والضراء: الضر، وقد تقدم تحقيق معنى البأساء والضراء **﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾** أي: لكي يتضرعوا ويتذلّلوا، فيدعوا ما هم عليه من الاستكبار وتكذيب الأنبياء. قوله: **﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾** معطوف على أخذنا: أي ثم بعد الأخذ لأهل القرى بكنائهم **﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾** التي أصبناهم بها من البلاء والامتحان **﴿الْحَسَنَةِ﴾** أي: الخصلة الحسنة: فصاروا في خير وسعة وأمن **﴿حَتَّى عَفَوْا﴾** يقال عفا كثر، وعفا درس، فهو من أسماء الأضداد، والمراد هنا: أنهم كثروا في أنفسهم وفي أموالهم: أي أعطيناهم الحسنة مكان السيئة، حتى كثروا **﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾** أي: قالوا هذه المقالة عند أن صاروا في الحسنة بعد السيئة: أي أن هذا الذي مسنا من البأساء والضراء، ثم من الرخاء والخصب من بعد هو أمر وقع لأبائنا قبلنا مثله، فمسهم من البأساء والضراء ما مسنا ومن النعمة والخير ما نلنا، ومعناهم: أن هذه العادة الجارية في السلف والخلف، وأن نك ليس من الله سبحانه ابتلاء لهم واختبار لما عندهم، وفي هذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوّهم ما لا يخفى، ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ولم يمهلهم فقال: **﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾** أي: فجأة عقب أن قالوا هذه المقالة من دون تراخ ولا إهمال (و) الحال أنهم لا يشعرون **﴿بِذَلِكَ وَلَا يَتَرَقَّبُونَهُ، وَاللَّامُ فِي «الْقُرَى» لِلْعَهْدِ أَيْ: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى»** التي أرسلنا إليها رسلنا **﴿آمَنُوا﴾** بالرسول المرسلين إليهم **﴿وَاتَّقَوْا﴾** ما صمموا عليه من الكفر، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح **﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾** أي: يسرنا لهم خير السماء والأرض، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها؛ قيل المراد بخير السماء: المطر، وخير الأرض: النبات، والأولى حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك؛ ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس، والمراد: لو أن أهل القرى آمنوا، وفي أي بلاد سكنوا آمنوا واتقوا إلى آخر الآية **﴿وَلَكِن كَذَّبُوا﴾** بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا **﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾** بالعذاب **﴿بِئِنَّهُمْ﴾** سبب **﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** من الذنوب الموجبة لعذابهم، والاستفهام في **﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾** للتقريع والتوبيخ، وأهل القرى هم أهل القرى المذكورة قبله، والفاء للعطف، وهو مثل: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾** [المائدة: 50]؛ وقيل: المراد بالقرى مكة وما حولها، لتكذيبهم للنبي ﷺ، والحمل على العموم أولى. قوله: **﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا﴾** أي: وقت بيّنات، وهو الليل على أنه منصوب على الظرفية، ويجوز أن يكون مصدرًا: بمعنى تبيينًا، أو مصدرًا في موضع الحال: أي مبيتين، وجملة: **﴿وَهُمْ نَاقِمُونَ﴾** في محل نصب على الحال، والاستفهام في **﴿أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سَهْجًا﴾** كالاستفهام الذي قبله، والضحية ضحوة النهار، وهو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا اشترقت وارتفعت. قرأ ابن عامر والحريمان (أو آمن) بإسكان الواو وقرأ الباقون بفتحها، وجملة **﴿وَهُمْ**

أهل فريق أوسع الله عليهم حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَو لَمْ نَهْدِهِ﴾ قال: أو لم نبين. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ قال: المشركون.

تِلْكَ الْقُرَى نَفُصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾ وَمَا وَدَّعْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَدَّعْنَا أَكْثَرَهُمْ لَنُفَوِّقَنَّ ﴿٦٢﴾

قوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ أي: التي أهلكناها، وهي قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، المتقدم ذكرها. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نتلو عليك ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ أي: من أخبارها، وهذه تسليية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ونقص إما في محل نصب على أنه حال، و﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ مبتدأ وخبر، أو يكون في محل رفع على أنه الخبر، و﴿الْقُرَى﴾ صفة لتلك، ومن في ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ للتبعيض: أي نقص عليك بعض أنبائها، واللام في ﴿لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جواب القسم. والمعنى: أن من أخبرهم أنها جاءتهم رسل الله ببينات كما سبق بيانه في قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيء الرسل ﴿بِمَا كَذَّبُوا﴾ به ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ مجيئهم أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل في حال من الأحوال، ولا في وقت من الأوقات بما كذبوا به قبل مجيئهم، بل هم مستمرون على الكفر، متشبثون بأنبياء الطغيان دائماً، ولم ينجع فيهم مجيء الرسل ولا ظهر له أثر، بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله؛ وقيل المعنى: فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم بما كذبوا به لو أحييناهم كقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَانُوا﴾ [الأنعام: 28] وقيل سألوا المعجزات، فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها. والأول: أولى، ومعنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل: أنهم كانوا في الجاهلية يكتوبون بكل ما سمعوا به من إرسال الرسل، وإنزال الكتب. قوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الشديد يطبع الله على قلوب الكافرين، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تنكير ولا ترغيب ولا ترهيب. قوله: ﴿وَمَا وَدَّعْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقاً: أي ما وجئنا لأكثر أهل هذه القرى من عهد: أي عهد يحافظون عليه ويتمسكون به، بل نابهم نقض اليهود في كل حال؛ وقيل الضمير يرجع إلى الناس على العموم: أي ما وجئنا لأكثر الناس من عهد وقيل المراد بالعهد: هو المأخوذ عليهم في عالم النذر؛ وقيل الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى: أي الأكثر منهم لا عهد ولا وفاء، والقليل منهم قد يفي بعهده ويحافظ عليه، وإن في ﴿وَأَنْ وَدَّعْنَا أَكْثَرَهُمْ

يَلْعَبُونَ﴾ في محل نصب على الحال: أي يشتغلون بما لا يعود عليهم بفائدة، والاستفهام في ﴿إِقَامُنَا مَكْرَ اللَّهِ﴾ للتقريع والتوبيخ، وإنكار ما هم عليه من أمان مالا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم، وفي تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لانكار ما أنكره عليهم، ثم بين حال من آمن مكر الله، فقال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الذين أقرطوا في الخسران، ووقعوا في وعيده الشديد، وقيل: مكر الله هنا هو استدراجه بالنعمة والصحة. والأولى حمله على ما هو أعم من ذلك. قوله: ﴿أَو لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ قرئ «نهد» بالنون وبالتحتية فعلى القراءة بالنون يكون فاعل الفعل هو الله سبحانه ومفعول الفعل ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَانَاهُمْ بِثُنُوبِهِمْ﴾ أي: أن الشان هو هذا، وعلى القراءة بالتحتية يكون فاعل يهد هو ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَانَاهُمْ بِثُنُوبِهِمْ﴾ أي: أخذناهم بكفرهم وتكذيبهم، والهداية هنا بمعنى التبيين، ولهذا عدت باللام. قوله: ﴿وَنُطْبِعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ونحن نطبع على قلوبهم على الاستئفاف ولا يصح عطفه على أصبنا لأنهم ممن طبع الله على قلبه لعدم قبولهم للإيمان؛ وقيل: هو معطوف على فعل مقدر دل عليه الكلام، كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع؛ وقيل معطوف على يرثون قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ جواب لو: أي صاروا بسبب إصابتنا لهم بثنوبهم والطبع على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوه عليهم من أوامره الله إليهم من الوعد، والإعذار، والإنذار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ثُمَّ بَلَّغْنَاهُ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةِ﴾ قال: مكان الشدة الرخاء ﴿حَتَّى عَفَا﴾ قال: كثروا وكثرت أموالهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَتَّى عَفَا﴾ قال: جموا. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءَ وَالسَّرَافَ﴾ قال: قالوا قد أتى على آبائنا مثل هذا فلم يكن شيئاً ﴿فَلَاخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا﴾ قال: بما أنزل الله ﴿وَلَوْ تَقَوَّا﴾ قال: ما حرّمه الله ﴿فَلَفُتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: أعطتهم السماء بركاتها والأرض نباتها. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق معاذ بن رفاع، عن موسى الطائفي قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركات السماء وأخرجه من بركات الأرض». وأخرج البزار والطبراني، قال السيوطي بسند ضعيف عن عبد الله ابن أمّ حرام قال: صليت القبلتين مع رسول الله ﷺ وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركات السماء وسخر له بركات الأرض، ومن تتعب ما يسقط من السفرة غفر له». وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: كان

لفاسقين» هي المخففة من الثقلية، وضمير الشأن محذوف: أي أن الشأن وجدنا أكثرهم لفاسقين. أو هي النافية، واللام في «لفاسقين» بمعنى إلا: أي إلا فاسقين خارجين عن الطاعة خروجاً شديداً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي بن كعب، في قوله: «فما كانوا ليؤمنوا بما كنوا من قبل»، قال: كان في علم الله يوم أقرؤا له بالميثاق من يكتب به ممن يصدق به. وأخرج ابن أبي حاتم، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: «فما كانوا ليؤمنوا بما كنوا من قبل»، قال: مثل قوله: «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه» [الأنعام: 28]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، في قوله: «وما وجئنا لأكثرهم من عهد»، قال: الوفاء. وأخرج ابن أبي حاتم، في الآية قال: هو ذلك العهد يوم أخذ الميثاق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: «وإن وجئنا أكثرهم لفاسقين»، قال: ذلك أن الله إنما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به.

ثُمَّ بَشَّرْنَا بِآيِهِمْ فُتُوهُنَّ وَمَلَايَوهُ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْشُرُكُمْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْأَثَمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ مُوسَى يُعْرَضُونَ إِلَيَّ رَسُولٌ زَيْنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٧﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ نَدَّ حُنُوكُمْ بَيْنَكُمْ وَرَبِّكُمْ فَأَرْبِلَ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٦٨﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جئتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦٩﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٧٠﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلظُّلُومِ ﴿١٧١﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٢﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَتَكُمُوكَ ﴿١٧٣﴾ قَالُوا أَرَجَاءُ وَأَحَاءُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَبْرِينَ ﴿١٧٤﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَدِيرٍ عَلِيمٍ ﴿١٧٥﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَفَعَلُوا إِنَّ لَكَ لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٧٦﴾ قَالَ نَمَّ وَلَكُمْ لَمِنَ الْعَقَبِينَ ﴿١٧٧﴾ قَالُوا يَمْشُونَ مِمَّا آتَيْنَا بِهِ وَلِمَّا آتَيْنَا بِهِ نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٧٨﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٧٩﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٨٠﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٨١﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٨٢﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٨٣﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٨٥﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٨٦﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٨٧﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٨٨﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٨٩﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٩٠﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٩١﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٩٢﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٩٣﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٩٤﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٩٥﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٩٦﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٩٧﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٩٨﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿١٩٩﴾ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَكُنَّ عَجَبٌ ﴿٢٠٠﴾

قوله: «ثم بعثنا من بعدهم موسى»، أي: من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب: أي ثم أرسلنا موسى بعد إرسالنا لهؤلاء الرسل؛ وقيل: الضمير في «من بعدهم» راجع إلى الأمم السابقة: أي من بعد إهلاكهم «إلى فرعون وملائته» فرعون هو لقب لكل من يملك أرض مصر بعد العمالة، وملا فرعون: أشرف قومه؛ وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم، لأن من عداهم كالاتباع لهم. قوله: «فظلموا بها» أي: كفروا بها. وأطلق الظلم على الكفر، لكون كفرهم بالآيات التي جاء بها موسى كان كفراً متبلفاً

لوجود ما يوجب الإيمان من المعجزات العظيمة التي جاءهم بها، والمراد بالآيات هنا: هي الآيات التسع، أو معنى: «فظلموا بها» ظلموا الناس بسببها لما صدوهم عن الإيمان بها، أو ظلموا أنفسهم بسببها «فانظر كيف كان عقوبة المفسدين» أي: المكذبين بالآيات الكافرين بها وجعلهم مفسدين، لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد. قوله: «وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين» أخبره بأنه مرسل من الله إليه، وجعل ذلك عنواناً لكلامه معه، لأن من كان مرسلًا من جهة من هو رب العالمين أجمعين، فهو حقيق بالقبول لما جاء به، كما يقول من أرسله الملك في حاجة إلى رعيته: أنا رسول الملك إليكم، ثم يحكى ما أرسل به فإن في ذلك من تربية المهابة، وإدخال الروعة، ما لا يقادر قدره. قوله: «حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق» قرئ حقيق علي أن لا أقول: أي واجب علي، ولازم لي، أن لا أقول فيما أبلغكم عن الله إلا القول الحق، وقرئ «حقيق علي أن لا أقول» بدون ضمير في علي؛ قيل: في توجيهه أن على معنى الباء: أي حقيق بأن لا أقول، ويؤيده قراءة أبي والأعمش، فإنهما قرأ «حقيق بأن لا أقول»؛ وقيل: إن «حقيق» مضمن معنى حريص؛ وقيل: إنه لما كان لازماً للحق كان الحق لازماً له، فقول الحق حقيق عليه، وهو حقيق على قول الحق؛ وقيل إنه أغرق في وصف نفسه في ذلك المقام، حتى جعل نفسه حقيقة على قول الحق، كأنه وجب على الحق أن يكون موسى هو قائله، وقرأ عبد الله بن مسعود «حقيق أن لا أقول» بإسقاط على، ومعناها واضح، ثم قال بعد هذا «قد جئتكم ببينة من ربكم» أي: بما يتبين به صلتي، وإني رسول من رب العالمين. وقد طوى هنا ذكر ما دار بينهما من المحاوراة، كما في موضع آخر أنه قال فرعون «فمن ربكما يا موسى» [طه: 49] ثم قال بعد جواب موسى «وما رب العالمين» [الشعراء: 23] الآيات الحاكية لما دار بينهما. قوله: «فأرسل معي بني إسرائيل» أمره بأن يدع بني إسرائيل يذهبون معه، ويرجعون إلى أوطانهم، وهي الأرض المقدسة. وقد كانوا باقين لديه مستعبدين ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فلما قال ذلك «قال» له فرعون «إن كنت جئت بآية» من عند الله كما تزعم «فأئت بها» حتى نشاهدها، وننظر فيها «إن كنت من الصادقين» في هذه الدعوى التي جئت بها. قوله: «فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين» أي: وضعها على الأرض فانقلبت ثعباناً: أي حية عظيمة من ذكور الحيات، ومعنى «مبين» أن كونها حية في تلك الحال أمر ظاهر واضح لا لبس فيه «ونزع يده» أي: أخرجها وأظهرها من جيبه، أو من تحت إبطه، وفي التنزيل: «وأنزل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء» [النمل: 12]. قوله: «فإذا هي بيضاء للناظرين» أي: فإذا يده التي أخرجها بيضاء تتلألأ نوراً يظهر لكل مبصر «قال الملا» أي:

بنك تأنيباً معه، وثقة من أنفسهم بأنهم غالبون، وإن تأخروا، وأن في موضع نصب، قاله الكسائي والفراء: أي إما أن تغفل الإلقاء أو تفعله نحن. فأجابهم موسى بقوله: **«الْقَوَا»** اختار أن يكونوا المتقدمين عليه بالإلقاء ما يلقونه غير مبال بهم ولا هائب لما جاؤوا به. قال الفراء: في الكلام حذف. المعنى: قال لهم موسى إنكم لم تغلبوا ربكم ولن تبطلوا آياته؛ وقيل هو تهديد: أي ابتدئوا بالإلقاء فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح، والموجب لهذين التاويلين عند من قال بهما أنه لا يجوز على موسى أن يامرهم بالسحر **«فلما القوا»** أي: حباليهم وعصبيهم **«سحروا أعين الناس»** أي: قلبوها وغيروها عن صحة إدراكها بما جاؤوا به من التسموية، والتخييل الذي يفعله المشعرون وأهل الخفة **«واستربوهم»** أي: أسخروا الرهبة في قلوبهم إسخالاً شديداً **«وجاؤوا بسحر عظيم»** في أعين الناظرين لما جاؤوا به، وإن كان لا حقيقة له في الواقع. قوله: **«واوحيانا إلى موسى أن اللق عصاك»** أمره الله سبحانه عند أن جاء السحرة بما جاؤوا به من السحر أن يلقى عصاه **«فإذا هي»** أي: العصا **«يتلف ما يافكون»** قرأ حفص **«تلتلف»** بإسكان اللام، وتخفيف القاف من تلف يلف. وقرأ الباقر بفتح اللام، وتشديد القاف من تلفف يتلفف، يقال لفتت الشيء وتلففته: إذا أخذته أو بلغت. قال أبو حاتم: وبلغني في بعض القراءات تلقم بالميم والتشديد، قال الشاعر:

أنت عصا موسى التي لم تزل تلقم ما يافكه الساحر
«وما» في **«ما يافكون»** مصدرية أو موصولة: أي إفكهم أو ما يافكونه، سماه إفكاً، لأنه لا حقيقة له في الواقع، بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة **«فوقع الحق»** أي: ظهر وتبين لما جاء به موسى **«وبطل ما كانوا يعملون»** من سحرهم: أي تبين بطلانه **«فغلبوا»** أي: السحرة **«هنالك»** أي: في الموقف الذي أظهروا فيه سحرهم **«وانقلبوا»** من ذلك الموقف **«صاغرين»** أذلاء مهزورين **«والقي السحرة ساجدين»** أي: خروا ساجدين، كأنما أقامهم ملق على هيئة السجود، أو لم يتمالكوا مما رأوا فكانهم القوا أنفسهم، وجملة **«قالوا آمنا برب العالمين»** رب موسى وهارون. مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قالوا عند سجودهم أو في سجودهم؟ وإنما قالوا هذه المقالة وصرحوا بأنهم آمنوا برب العالمين، ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا: رب موسى وهارون لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرين بالهية أن السجود له.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **«ثم بعثنا موسى»** قال: إنما سمي موسى، لأنه ألقى بين ماء وشجر فالماء بالقبطية مو والشجر سي. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد: أن فرعون كان فارسياً من أهل إصطخر. وأخرج أيضاً عن ابن لهيعة: أنه كانت من أبناء مصر. وأخرج أيضاً وأبو الشيخ، عن محمد بن المنكدر قال: عاش فرعون ثلثمائة سنة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طلحة،

الأشراف **«من قوم فرعون»** لما شاهدوا انقلاب العصى حية، ومصير يده بيضاء من غير سوء **«إن هذا»** أي: موسى **«لساحر عليم»** أي: كثير العلم بالسحر ولا تنافي بين نسبة هذا القول إلى الملا هنا، وإلى فرعون في سورة الشعراء، فكلهم قد قالوه، فكان ذلك مصححاً لنسبته إليهم تارة وإلى أخرى، وجملة: **«يريد أن يخرجكم من أرضكم»** وصف لساحر، والأرض المنسوبة إليهم هي أرض مصر: وهذا من كلام الملا، وأما **«فماذا تأمرون»** فقيل: هو من كلام فرعون، قال للملا لما قالوا بما تقدم: أي بأي شيء تأمرونني؟ وقيل: هو من كلام الملا: أي قالوا لفرعون، فبأي شيء تأمرنا وخطبوه بما تخاطب به الجماعة تعظيماً له، كما يخاطب الرؤساء أتباعهم، وما في موضع نصب بالفعل الذي بعدها، ويجوز أن تكون ذا بمعنى الذي، كما ذكره النحاة في ماذا صنعت، ويكون هذا من كلام فرعون هو الأولى، بليل ما بعده وهو: **«قالوا أرحه ولخاه»** قال الملا جواباً لكلام فرعون، حيث استشارهم وطلب ما عندهم من الرأي: أرحه، أي: أخره وأخاه يقال أرحته وأرجيته: أخرته. قرأ عاصم والكسائي وحزمة وأهل المدينة «أرحه» بغير همز، وقرأ الباقر بالهمز وقرأ أهل الكوفة إلا الكسائي أرحه بسكون الهاء. قال الفراء: هي لغة للعرب يقفون على الهاء في الوصل، وأنكر ذلك البصريون؛ وقيل معنى أرحه: احبسه؛ وقيل هو من رجا يرجو: أي أطمعه ودعه يرجو، حكاه النحاس عن محمد بن يزيد المبرد **«وأرسل في المداثر حاشرين»** أي: أرسل جماعة حاشرين في المداثر التي فيها السحرة، وحاشرين مفعول أرسل؛ وقيل: هو منصوب على الحال، **«وبياتوك»** جواب الأمر: أي يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم **«بكل سحر عليم»** أي: بكل ماهر في السحر كثير العلم بصناعته. قرأ أهل الكوفة إلا عاصم «سحار» وقرأ من عداهم «ساحر». قوله: **«وجاء السحرة فرعون»** في الكلام طي: أي فبعث في المداثر حاشرين، وجاء السحرة فرعون. قوله: **«قالوا إن لنا لأجراً»** أي: فلما جاؤوا فرعون قالوا له إن لنا لأجراً، والجملة استئنافية جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: أي شيء قالوا له لما جاؤوه؟ والأجر الجائزة والجعل، ألزموا فرعون أن يجعل لهم جعلاً إن غلبوا موسى بسحرهم. قرأ نافع، وابن كثير «إن لنا» على الإخبار، وقرأ الباقر «أثن لنا» على الاستفهام، استفهما فرعون عن الجعل الذي سيجعله لهم على الغلبة، ومعنى الاستفهام التقرير. وأما على القراءة الأولى، فكانهم قاطعون بالجعل، وأنه لا بد لهم منه، فأجابهم فرعون بقوله: **«نعم وإنكم لمن المقربين»** أي: إن تلكم لأجراً وإنكم مع هذا الأجر المطلوب منكم لمن المقربين لدينا. قوله: **«قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين»** هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فما قالوا لموسى بعد أن قال لهم فرعون نعم وإنكم لمن المقربين. والمعنى: أنهم خيروا موسى بين أن يبتدئ بالإلقاء ما يلقى عليهم، أو يبتدئوه هم

وقيل: ثلاثين ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً، وقيل: ثمانين ألفاً، وقيل: ثلثمائة ألف، وقيل تسعمائة ألف. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿إِنْ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: عطاء. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَلَمَّا لَقُوا﴾ قال: القوا حبلاً غلاظاً وخشباً طويلاً، فأقبلت يخیل إليه من سحرهم أنها تسعى. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ قال: لقي موسى عصاه فأكلت كل حية لهم، فلما رأوا ذلك سجدوا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن مجاهد، في قوله: ﴿تَلَقَّفْ مَا يَأْفَكُونَ﴾ قال: ما يكتبون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن في قوله: ﴿تَلَقَّفْ مَا يَأْفَكُونَ﴾ قال: تسترط حبالهم وعصيتهم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قال: التقى موسى وأمير السحرة، فقال له موسى: أرايتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق؟ فقال الساحر: لأتؤمن بك ولأشهد أن لا يغلبه سحر، فرأى الله لثن غلبتني لأؤمنن بك ولأشهد أن لا يغلبه سحر، وفرعون ينظر إليهما وهو قول فرعون ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: 123]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأوزاعي قال: لما خر السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها.

قَالَ فِرْعَوْنُ أَنَّمْ بِهِ قِيلَ أَنَّهُ مَادَدَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا سَوَفَ تَمْلِكُونَ ﴿١٢١﴾ لَا أَظُنُّكُمْ أَدْرِيكُمْ وَأَدْرِيكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ ثُمَّ لَمَسْتُمْكُمْ بِجُحُودٍ ﴿١٢٢﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَٰهِنَا مَقْبُولُونَ ﴿١٢٣﴾ وَمَا نَعْبُدُ إِلَّا أَتَمَنَّا بِإِنِّي كُنَّا لَمَّا جَاءَنَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّنَا أَوْ عَلَيْنَا سَبَرٌ وَنُفُوسٌ مُّسْلِيَةٌ ﴿١٢٤﴾ وَقَالَ الْكَلْبُ بَيْنَ قَوْمٍ فِرْعَوْنُ أَتَدْرُسُونَ وَقَوْمُهُ يَلْبِسُونَ فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَهَلْ يَنْتَظِرُونَ قَالُوا سَقَطَ إِلَٰهَاتُكُمْ فَتَنَاسَىٰ بَيْنَهُمْ وَرَأَىٰ نُفُوسَهُمْ قَبِيرَةٌ ﴿١٢٥﴾ قَالُوا مَوْسَىٰ يَقُولُ مَوْسَىٰ سَمِعْنَا بِإِلَٰهِ الْأَرْضِ إِلَٰهٍ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَلِيَّةُ لِلشَّيْطَانِ ﴿١٢٦﴾ قَالُوا أَوْيَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَرَبُّنَا بِمَا جِئْنَا قَالُوا عَمَّنْ رَبُّكُمْ أَلَيْسَ إِلَٰهُكُمْ عَدُوٌّ لَّكُمْ يَسْتَنَفِلُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَمْلِكُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله: ﴿أمنتم به﴾ قرئ بحذف الهمزة على الإخبار وبإثباتها، أنكر على السحرة فرعون إيمانهم بموسى قبل أن ياتن لهم بذلك، ثم قال بعد الإنكار عليهم مبيناً لما هو الحامل لهم على ذلك في زعمه ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: حيلة احتلتموها أنتم وموسى عن مواطاة بينكم سابقة ﴿لِيُخْرِجُوا﴾ من مدينة مصر ﴿أهلها﴾ من القبط، وتستولوا عليها وتسكنوا فيها أنتم وبنو إسرائيل، ومعنى ﴿في المدينة﴾ أن هذه الحيلة والمواطاة كانت بينكم، وأنتم بالمدينة، مدينة مصر، قبل أن تبرزوا أنتم وموسى إلى هذه الصحراء، ثم هذمهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة صنعكم هذا، وسوء مغبته؛ ثم لم يكتف

أن فرعون كان قبطياً ولد زنا طوله سبعة أشبار. وأخرج أيضاً عن الحسن قال: كان علجاً من همدان. وأخرج أبو الشيخ، عن إبراهيم بن مقسم الهنلي، قال: مكث فرعون أربعمئة سنة لم يصدح له رأس. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فَالْقَىٰ عَصَاهُ﴾ قال: نكر لنا أن تلك العصا عصا آدم، أعطاها إياها ملك حين توجه إلى مدين، فكانت تضوي بالليل، ويضرب بها الأرض بالنهار، فتخرج له رزقه ويهش بها على غنمه ﴿فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مَّبِينٌ﴾ قال: حية تكاد تساوره. وأخرج ابن أبي حاتم، على ابن عباس، قال: لقد دخل موسى على فرعون وعليه زمرانقة من صوف ما تجاوز مرفقيه، فاستأذن على فرعون فقال: أدخلوه، فدخل فقال: إن إلهي أرسلني إليك، فقال للقوم حوله: ما علمت لكم من إله غيري، خذوه، قال إني قد جئتكم بآية، قال: فأنث بها إن كنت من الصادقين، فالقى عصاه، فصارت ثعباناً بين لحييه ما بين السقف إلى الأرض، وأدخل يده في جيبه، فأخرجها مثل البرق تلتعج الإبصار، فخرجوا على وجوههم، وأخذ موسى عصاه ثم خرج، ليس أحد من الناس إلا نفر منه، فلما أفاق وذهب عن فرعون البرق قال للملا حوله: ماذا تأمروني ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَخَاهُ﴾ ولا تأتنا به ولا يقربنا ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ وكانت السحرة يخشون من فرعون، فلما أرسل إليهم قالوا: قد لاحتاج إليكم إلهكم؟ قال: إن هذا فعل كذا وكذا، قالوا: إن هذا ساحر سحر ﴿إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ قال نعم وإنكم لمن المقربين. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: عصى موسى اسمها ماشا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق، عنه، في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مَّبِينٌ﴾ قال: الحية النكر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السديّ، في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مَّبِينٌ﴾ قال: الذكر من الحيات فاتحة فمها واضعة لحيها الأسفل في الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها دعر منها ووثب، فأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك، فصاح يا موسى خذها وأنا أو من بريك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى فصارت عصا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَرْجِهْ﴾ قال: أخره. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، قال: أحبسها وأخاه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس من طرق في قوله: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ قال: الشرط. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ﴾ قال: كانوا سبعين رجلاً أصبحوا سحرة، وأمساوا شهداء.

وقد اختلفت كلمة السلف في عددهم؛ فقيل: كانوا سبعين كما قال ابن عباس، وقيل كانوا اثني عشر، وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: سبعة عشر ألفاً، وقيل: تسعة عشر ألفاً،

بالنصب بأن مقترنة على أنه جواب الاستفهام، والواو نائبة عن الفاء أو عطفاً على «يفسدوا» أي: ليفسدوا، وليذكر لأنهم على الفساد في زعمهم، وهو يؤدي إلى ترك فرعون وآلهته.

وختلف المفسرون في معنى: «وآلهتك» لكون فرعون كان يدعي الربوبية كما في قوله: «ما علمت لكم من إله غيري» [القصص: 38]. وقوله: «أنا ربكم» [النازعات: 24] فقيل معنى وآلهتك: وطاعتك، وقيل معناه: وعبادتك، ويؤيده قراءة علي، وابن عباس، والضحاك «وآلهتك» وفي حرف أبي «أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك» وقيل: إنه كان يعبد بقرة، وقيل: كان يعبد النجوم. وقيل: كان له أصنام يعبدها قومه تقريباً إليه فنسبت إليه، ولهذا قال «أنا ربكم الأعلى» [النازعات: 24] قاله الزجاج، وقيل: كان يعبد الشمس. فقال فرعون مجيباً لهم، ومثباً لقلوبهم على الكفر «سنقتل أبناءهم». قرأ نافع وابن كثير «سنقتل» بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد: أي سنقتل الأبناء ونستحيي النساء: أي نتركهن في الحياة. ولم يقل سنقتل موسى، لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه «وإننا فوقهم قاهرون» أي: مستعلون عليهم بالقهر والغلبة، أو هم تحت قهرنا وبين أيدينا، ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه، وجملة «قال موسى لقومه» مستأنفة جواب سؤال مقدر. لما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة، ثم أخبرهم «أن الأرض» يعني: أرض مصر «لله يورثها من يشاء من عباده» أو جنس الأرض، وهو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه، وأن الله سيورثهم أرضهم ويبارهم. ثم بشرهم بأن العقاب للمتقين: أي العقاب المحمودة في الدنيا والآخرة للمتقين من عباده، وهم موسى ومن معه. وعاقبة كل شيء آخره. وقرئ «والعاقبة» بالنصب عطفاً على الأرض، وجملة «قالوا أوتينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا» مستأنفة جواب سؤال مقتر كالتي قبلها: أي أوتينا من قبل أن تأتينا رسولا، وذلك يقتل فرعون أبناءنا عند مولدك لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده «ومن بعد ما جئتنا» رسولا يقتل أبناءنا الآن؛ وقيل: المعنى أوتينا من قبل أن تأتينا باستعمالنا في الأعمال الشاقة بغير جعل «من بعد ما جئتنا» بما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا؛ وقيل: إن الأذى من قبل ومن بعد واحد، وهو قبض الجزية منهم، وجملة «قال عسى ربكم أن يهلك عوكم» مستأنفة كالتي قبلها، وعدام بإهلاك الله لعوهم، وهو فرعون وقومه. قوله: «ويستخلفكم في الأرض» هو تصريح بما رمز إليه سابقاً من أن الأرض لله. وقد حقق الله رجاءه وملكو مصر في زمان داود وسليمان، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون، وأهلك فرعون وقومه بالغرق وأنجاهم «ففيظفر كيف تعملون» من الأعمال بعد أن يمن عليكم بإهلاك عوكم «ويستخلفكم في الأرض» فيجازيكم

بهذا الوعيد المجمل بل فصله فقال: «لاقطعن لينيكم وأرجلكم من خلاف» أي: الرجل اليمنى واليد اليسرى، أو الرجل اليسرى واليد اليمنى، ثم لم يكتف عدو الله بهذا، بل جاوزه إلى غيره فقال: «ثم لأصلبنيكم» في جذوع النخل: أي أجعلكم عليها مصلوبين زيادة تنكيل بهم، وإفراطاً في تعذيبهم، وجملة «قالوا إنا إلى ربنا منقلبون» استئنافية جواب سؤال كما تقدم، ومعناه: إنك وإن فعلت بنا هذا الفعل، فتعذه يوم الجزاء سيجازيك الله بصنعك ويحسن إلينا بما أصابنا في ذاته، فتوعوهو بعذاب الله في الآخرة لما توعدهم بعذاب الدنيا. ويحتمل أن يكون المعنى: «إنا إلى ربنا منقلبون» بالموت: أي لا بد لنا من الموت، ولا يضرنا كونه بسبب منك. قوله: «وما ننقم منا» قرأ الحسن بفتح القاف. قال الأخفش: هي لغة، وقرأ الباقون بكسرها، يقال نقمتم الأمر أنكرته: أي لست تعيب علينا وتذكر منا «إلا أن أمانا بآيات ربنا لما جاءتنا» مع أن هذا هو الشرف العظيم والخير الكامل، ومثله لا يكون موضعاً للعب ومكاناً للإنكار، بل هو حقيق بالثناء الحسن والاستحسان البالغ، ثم تركوا خطابه وقطعوا الكلام معه والتفتوا إلى خطاب الجنب العلي مفضين الأمر إليه طالبين منه عز وجل أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر قائلين: «ربنا أفرغ علينا صبراً» الإفراغ: الصب: أي أصببه علينا حتى يفيض ويغمرنا، طلبوا أبلغ أنواع الصبر، استعداداً منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدو الله، وتوطئاً لأنفسهم على التصلب في الحق، وثبوت القدم على الإيمان، ثم قالوا: «وتوفنا مسلمين» أي: توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام غير محرّفين، ولا مبطلين، ولا مفتونين. ولقد كان ما هم عليه من السحر والمهارة في علمه مع كونه شرّاً محضاً سبباً للفوز بالسعادة، لأنهم علموا أن هذا الذي جاء به موسى خارج عن طوق البشر، وأنه من فعل الله سبحانه، فوصلوا بالشّر إلى الخير، ولم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من اتباع فرعون ما حصل منهم من الإذعان والاعتراف والإيمان، وإذا كانت المهارة في علم الشرّ قد تأتي بمثل هذه الفائدة، فما بالك بالمهارة في علم الخير، اللهم أنفعنا بما علمتنا، وثبت أقدامنا على الحق، وأفرغ علينا سجال الصبر وتوفنا مسلمين. قوله: «وقال للملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض» هذا الاستفهام منهم للإنكار عليه: أي أتتركه وقومه ليفسدوا في الأرض بإيقاع الفرقة وتشيت الشمل. والمراد بالأرض هنا: أرض مصر. قوله: «ويذكر وآلهتك» قرأ نعيم بن ميسرة «ويذكر» بالرفع على تقدير مبتدأ: أي وهو يذكرك، أو على العطف على «أتذر موسى» أي: أتذره ويذكرك، وقرأ الأشهب العقيلي «ويذكرك» بالجزم: إما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة، أو على ما قيل في «وإكن من الصالحين» [المنافقون: 10] في توجيه الجزم. وقرأ أنس بن مالك «ونذكرك» بالنون والرفع، ومعناه: أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سينرونه وآلهته. وقرأ الباقون «ويذكرك»

أرى مَرَّ السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال
بكسر النون من السنين. قال النحاس: وأنشد سيبويه هذا
البيت بفتح النون.

أقول: قد ورد ما لا احتمال فيه وهو قول الشاعر:

وماذا تزدري الأقسام مني وقد جاوزت حد الأربعين
وبعده:

لخو الخمسين مجتمع أشدي وتجذبني مداورة السنين
فإن الأبيات قبله وبعده مكسورة. وأول هذه الأبيات:

لنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
وحكى الفراء عن بني عامر أنهم يقولون: أقمت عنده
سنتيناً مصروفاً، قال: ويؤن تميم لا يصرفونه، ويقال أسنت
القوم: أي اجنبوا، ومنه قول ابن الزبيري:

ورجال مكة مسنتون عجاف

«ونقص من الثمرات» بسبب عدم نزول المطر، وكثرة
العامات «لعلهم ينكرون» فيتعطلون ويرجعون عن
غوايتهم. قوله: «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه» أي:
الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر، وصلاح الثمرات،
ورخاء الأسعار «قالوا لنا هذه» أي: أعطيناها باستحقاق،
وهي مختصة بنا «وإن تصيبهم سيئة» أي: خصلة سيئة
من الجذب والقحط، وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء
«يطيروا بموسى ومن معه» أي: يتشاموا بموسى ومن
معه من المؤمنين به، والأصل يطيروا أدغمت التاء في الطاء،
وقرأ طلحة «تطيروا» على أنه فعل ماضٍ، وقد كانت العرب
تطير بأشياء من الطيور والحيوانات، ثم استعمل بعد ذلك
في كل من تشاءم بشيء، ومثل هذا قوله تعالى: «وإن
تصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك» [النساء: 78] قيل:
وجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع، ووجه تنكير
السيئة ندرة وقوعها، قوله: «إلا إنما طائرهم عند الله» أي:
سبب خيرهم وشرهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط،
هو من عند الله، ليس بسبب موسى ومن معه، وكان هذا
الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه، ولهذا عبر
بالبطائر عن الخير والشر الذي يجري بقدر الله وحكمته
ومشيئته «ولكن أكثرهم لا يعلمون» بهذا، بل ينسبون
الخير والشر إلى غير الله جهلاً منهم. وقرأ الحسن «طيرهم»
قوله: «وقالوا مهما تاتنا به من آية لتسحرنا بها فما
نحن لك بمؤمنين» قال الخليل: أصل مهما «ما» الشرطية
زيدت عليه «ما» التي للتوكيد، كما تزداد في سائر الحروف
مثل: حيثما وأينما وكيفما ومتى ما، ولكنهم كرهوا اجتماع
المثلين فابدلوا ألف الأولى هاء. وقال الكسائي: أصله: أي
لكف ما تاتنا به من آية، وزيدت عليها «ما» الشرطية: وقيل:

وهي كلمة مفردة يجازي بها، ومحل مهما الرفع على
الابتداء، أو النصب بفعل يفسره ما بعدها، ومن آية لبيان
مهما، وسموها آية استهزاء بموسى كما يفيد ما بعده، وهو
«لتسحرنا بها» أي: لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعله
السحرة بسحرهم، والضمير في به عائد إلى مهما، والضمير

با عملتم فيه من خير وشر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في
قوله: «إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة» إذا التقيتما
لتظاهرا فتخرجاً منها أهلها «لاقطعن لينيك» الآية، قال:
فقتلهم وقطعهم كما قال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان أول من صلب
فرعون، وهو أول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف.
وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، في قوله: «من خلاف»
قال: يدأ من ها هنا، ورجلاً من ها هنا. وأخرج عبد بن
حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله:
«أوئينا من قبل أن تلتينا ومن بعد ما جفتنا» قال: من
قبل إرسال الله إياك ومن بعده. وأخرج عبد بن حميد، وابن
أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن وهب بن منبه، في الآية قال:
قالت بنو إسرائيل لموسى كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن
تأتينا، فلما جثت كلفنا اللبن مع اللبن أيضاً، فقال موسى: أي
ربِّ أهلك فرعون، حتى متى تبقيه؟ فأوحى الله إليهم إنهم لم
يعملوا الذنب الذي أهلكهم به. وأخرج عبد بن حميد، عن
قتادة، في الآية قال: حزا لعنوا الله حاز أنه يولد في العام
غلام يسلب ملكك، قال: فتتبع أولادهم في ذلك العام ببيع
الذكر منهم، ثم نبههم أيضاً بعد ما جاءهم موسى. وأخرج
ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: إن بنا أهل البيت يفتح
ويختم، ولا بد أن تقع دولة لبني هاشم فانظروا فيمن تكون
من بني هاشم؟ وفيهم نزلت: «عسى ريكم أن يهلك عدوكم
ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون» وينبغي أن
ينظر في صحة هذا عن ابن عباس، فالآية نازلة في بني
إسرائيل، لا في بني هاشم، واقعة في هذه القصة الحاكية
لما جرى بين موسى وفرعون.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَحْسٍ مِنَ الشَّرَرِ لَمَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ
﴿١٧﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَرُوا بِمُوسَى
وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا
مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَا عَنَّا لَكِ بُرْهَانٌ ﴿١٩﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الْفُلُوكَ وَالْجُرَادَ وَالْفُحَّالَ وَالْغَمَامَ وَالْذَّمَ آيَةً مُفَصَّلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا
مُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ بِكَ وَلَنُؤْتِيَنَّكَ مَمْلُوكًا بِنِي
إِسْرَائِيلَ ﴿٢١﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِذْ أَجَلِي لَهُمْ بَيَّنَّوْهُ إِذَا هُمْ
يَنْكُفُونَ ﴿٢٢﴾ فَانْقَمَسْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَةٍ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا غَافِلِينَ ﴿٢٣﴾

المراد بآل فرعون هنا قومه، والمراد بالسنين الجذب،
وهذا معروف عند أهل اللغة، يقولون أصابتهم سنة: أي
جذب سنة، وفي الحديث: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني
يوسف»، وأكثر العرب يعربون السنين إعراب جمع المنكر
السالم، ومن العرب من يعربه إعراب المفرد، ويجري
الحركات على النون، وأنشد الفراء:

فاجثوا النكث وبادروه **﴿فانتقمنا منهم﴾** أي: أردنا الانتقام منهم لما نكثوا بسبب ما تقدم لهم من الذنوب المتعددة **﴿فاغرقناهم في اليم﴾** أي: في البحر، قيل: هو الذي لا يدرك قعره، وقيل هو لجته وأوسطه، وجملة **﴿بأنهم كذبوا بآياتنا﴾** تحليل للإغراق **﴿وكانوا عنها غافلين﴾** معطوف على كذبوا: أي كانوا غافلين عن النعمة المندلول عليها بانتقمنا، أو عن الآيات التي لم يؤمنوا بها، بل كذبوا بها، وكانوا في تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها، والثاني: أولى لأن الجملتين تحليل للإغراق.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود **﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾** قال: السنين الجوع. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: السنين الجوائح **﴿ونقص من الثمرات﴾** دون ذلك. وأخرج الحكيم الترمذي في نوارد الأصول، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شيء لهم، وزهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر، واجتمعوا إلى فرعون، فقالوا: إن كنت كما تزعم فائتنا في نيل مصر بماء، قال: غوة يصبحكم الماء، فلما خرجوا من عنده قال: أي شيء صنعت إن لم أقرر على أن أجري في نيل مصر ماء غدوة كذبوني؟ فلما كان جوف الليل قام فاغتسل، ولبس مدرعة صوف، ثم خرج حافياً حتى أتى نيل مصر فقال: اللهم إني أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملاه ماء، فما علم إلا بجزر الماء يقبل، فخرج وأقبل النيل يزخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾** قال: العافية والرخاء **﴿قالوا لنا هذه﴾** نحن أحق بها **﴿وإن تصبهم سيئة﴾** قال: بلاء وعقوبة **﴿يطيئروا بموسى﴾** قال: يتشاءموا به. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: **﴿إنا طائرهم عند الله﴾** قال: الأمر من قبل الله، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطوفان الموت» قال ابن كثير: هو حديث غريب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: الطوفان الغرق. وأخرج هؤلاء عن مجاهد قال: الطوفان الموت على كل حال. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: الطوفان: مطروا دائماً بالليل والنهار ثمانية أيام، والقمل: الجراد الذي له أجنحة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: الطوفان أمر من أمر ربك، ثم قرأ: **﴿طاف عليها طائف من ربك﴾** [القلم: 19]. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: الطوفان الماء، والطاعون والجراد. قال ياكل مسامير أرتجهم: يعني أبوابهم وثيابهم، والقمل: الدبابة

في بها عائد إلى آية؛ وقيل: إنها جميعاً عائدان إلى مهما، وتذكير الأول باعتبار اللفظ، وتأنيت الثاني باعتبار المعنى **﴿فما نحن لك بمؤمنين﴾** جواب الشرط: أي فما نحن لك بمصنفين: أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشيء مما يجيء به من الآيات التي هي في زعمهم من السحر، فعند ذلك نزلت بهم العقوبة من الله عز وجل الميمنة بقوله: **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾** وهو المطر الشديد. قال الأخفش: واحده طوفانة، وقيل: هو مصدر كالرجحان والنقصان فلا واحد له، وقيل الطوفان: الموت. وقال النحاس: الطوفان في اللغة ما كان مهلكاً من موت أو سيل: أي ما يطيف بهم فيهلكهم **﴿والجراد﴾** هو الحيوان المعروف، أرسله الله لاكل زروعهم فاكلها **﴿والقمل﴾** قيل: هي الدبابة؛ والدبابة الجراد قبل أن تطير، وقيل: هي السوس، وقيل: البراغيث، وقيل: دواب سود صغار، وقيل: ضرب من القردان، وقيل: الجعلان. قال النحاس: يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم. وقرأ الحسن «القمل» بفتح القاف وإسكان الميم. وقرأ الباقون بضم القاف وفتح الميم مشددة. وقد فسر عطاء الخراساني «القمل» بالقمل **﴿والضفادع﴾** جمع ضفدع، وهو الحيوان المعروف الذي يكون في الماء **﴿والدم﴾** روي أنه سال النيل عليهم دمًا، وقيل: هو الرعاف. قوله: **﴿آيات مفصلات﴾** أي: مبینات، قال الزجاج: هو منصوب على الحال. والمعنى: أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات بينات ظاهرات **﴿فاستكبروا﴾** أي: ترفعوا عن الإيمان بالله **﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾** لا يهتدون إلى حق، ولا ينزعون عن باطل. قوله: **﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾** أي: العذاب بهذه الأمور التي أرسلها الله عليهم، وقرئ بضم الراء وهما لغتان؛ وقيل: كان هذا الرجز طاعوناً مات به من القبط في يوم واحد سبعون ألفاً **﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾** أي: بما استودعك من العلم، أو بما اختصك به من النبوة؛ أو بما عهد إليك أن تدعو به فيجيبك، والباء متعلقة بادع على معنى: اسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله، أو ادع لنا متوسلاً إليه بعنده عندك؛ وقيل: إن الباء للقسمة، وجوابه لنؤمنن: أي أقسمنا بعهد الله عندك **﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك﴾** على أن جواب الشرط ساد مسد جواب القسم؛ وعلى أن الباء ليست للقسمة، تكون اللام في **﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾** جواب قسم محذوف، و **﴿لنؤمنن﴾** جواب الشرط ساد مسد جواب القسم **﴿ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾** معطوف على لنؤمنن، وقد كانوا حابسين لبني إسرائيل عندهم، يمتنونهم في الأعمال، فوعده بإرسالهم معه **﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾** أي: رفعنا عنهم العذاب عند أن رجعوا إلى موسى وسألوه بما سألوه، لكن لا رفعاً مطلقاً، بل رفعاً مقيداً بغاية هي الأجل المضروب لإهلاكهم بالغرق، وجواب لما **﴿إذا هم يكتنون﴾** أي: ينقضون ما وعده على أنفسهم، وإذا هي الفجائية: أي

باركنا فيها» صفة للمشارك والمغرب؛ وقيل: صفة الأرض، والمباركة فيها إخراج الزرع والثمار منها على أتم ما يكون، وأنفع ما ينفق. قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَى﴾ أي: مضت واستمرت على التمام، والكلمة هي: «ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» [القصص: 5]، وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر بالأعداء والاستيلاء على أملاكهم، والحسنى: صفة للكلمة، وهي تانيث الأحسن، وتام هذه الكلمة ﴿على بني إسرائيل﴾ بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون وقومه. قوله: ﴿وَوَيْدْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فرعون وقومه﴾ التمييز بالإهلاك: أي أهلكنا بالخراب ما كانوا يصنعونه من العمارات ﴿وما كانوا يعرشون﴾ قرأ ابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم «يعرشون» بضم الراء. قال الكسائي: هي لغة تميم. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة «يعرشون» بتشديد الراء وضم حرف المضارعة. وقرأ الباقر بكسر الراء مخففة أي ما كنوا يعرشونه من الجنات، ومنه قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ [الأنعام: 141] وقيل: معنى يعرشون يبنون، يقال عرش يعرش أي: بني يبنى. قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ هذا شروع في بيان ما فعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه. ومعنى جاوزنا ببني إسرائيل البحر: جزأه بهم وقطعناه. وقرئ «جوزنا» بالتشديد، وهو بمعنى قراءة الجمهور ﴿فَاتَوَا عَلَى قوم يعكفون على الأصنام لهم﴾ قرأ حمزة والكسائي «يعكفون» بكسر الكاف، وقرأ الباقر بضمها، يقال عكف يعكف: ويعكف بمعنى أقام على الشيء ولزمه، والمصدر منهما عكوف؛ قيل: هؤلاء القوم الذين أتاهم بنو إسرائيل هم من لحم كانوا نازلين بالرقّة، كانت أصنامهم تماثيل بقر؛ وقيل: كانوا من الكنعانيين ﴿قَالُوا﴾ أي: بنو إسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل ﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً﴾ أي: صنماً نعبده كائنات كالذي لهؤلاء القوم، فالكاف متعلق بمحذوف وقع صفة للإلهاء، فاجاب عليهم موسى، و ﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾ وصفهم بالجهل، لأنهم قد شاهدوا من آيات الله ما يزجر من له أننى علم عن طلب عبادة غير الله، ولكن هؤلاء القوم: أعني بني إسرائيل أشد خلق الله عناداً وجهلاً وتلوّناً، وقد سلف في سورة البقرة بيان ما جرى منهم من ذلك، ثم قال لهم موسى ﴿إن هؤلاء﴾ يعني: القوم العاكفين على الأصنام ﴿متبر ما هم فيه﴾ التبار: الهلاك، وكل إناء منكسر فهو متبر: أي أن هؤلاء هالك ما هم فيه مبرّ مكسر، والذي هم فيه هو: عبادة الأصنام أخبرهم بأن هذا الدين الذي هؤلاء القوم عليه. هالك مبرّ لا يتم منه شيء. قوله: ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي: زاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الأعمال مع عبادتهم للأصنام. قال في الكشف: وفي إيقاع هؤلاء اسماً لأن، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها، واسم لعبد الأصنام بأنهم هم المعرّضون للتبار، وأنه

والضفادع، تسقط على فرشهم وفي أطعمتهم، والدم: يكون في ثيابهم ومائهم وطعامهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: القمل الدباء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: كانت الضفادع برية، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت، فجعلت تقذف نفسها في القدر وهي تغلي، وفي التناير وهي تقور. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: سال النيل دماً، فكان الإسرائيلي يستقي ماء طيباً، ويستقي الفرعوني دماً، ويشتركان في إناء واحد، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء طيباً وما يلي الفرعوني دماً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿والدم﴾ قال: سلب الله عليهم الرعاف. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: مكث موسى في آل فرعون بعدما غلب السحرة أربعين سنة، يريهم الآيات، والجراد، والقمل والضفادع. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿آيات مفصلات﴾ قال: كانت آيات مفصلات يتبع بعضها بعضاً ليكون لله الحجة عليهم. وأخرج ابن المنذر، عنه، قال: يتبع بعضها بعضاً تمكث فيهم سبباً إلى سبب، ثم ترفع عنهم شهراً. وأخرج ابن مردويه، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «الرجز: العذاب» وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبيرة قال: الرجز الطاعون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿إلى لجل هم بالغوه﴾ قال: الغرق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن طريق، عن ابن عباس قال: اليم البحر. وأخرج أيضاً عن السدي مثله.

وَوَيْدْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَكْرَهُ الْأَرْضِ وَنَعْبَهُمَا أَنِّي نَبْرُكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَقُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَوَيْدْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُنُونَ عَلَى أَنْصَارٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْشُوا أَجْمَلُ لَنَا إِلَهُكَ كَمَا تَمْشَى إِلَهُهُ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٥٠﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرُ نَارٍ فِيهِ وَيَكْبَلُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥١﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهُهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومَتُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ إِنَّمَا أَنْتُمْ بِسَاحِرٍ زَلَّالٍ ﴿١٥٣﴾ بَلَاةٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٥٤﴾

قوله: ﴿وَوَيْدْنَا الْقَوْمَ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿الذين كانوا يستضعفون﴾ أي: يذلون ويمتهون بالخدمة لفرعون، وقومه ﴿مشارك الأرض ومغاريها﴾ منصوبان بأورثنا. وقال الكسائي والفراء: إن الأصل في مشارق الأرض ومغاريها ثم حذفت «في» فنصبها، والأول: أظهر لأنه يقال أورثته المال، والأرض هي مصر والشام، ومشارقتها جهات مشرقها. ومغاريها جهات مغربها، وهي التي كانت لفرعون وقومه من القبط؛ وقيل: المراد جميع الأرض؛ لأن داود وسليمان من بني إسرائيل، وقد ملكا الأرض. قوله: ﴿التي

فذلك كان أول شأن العجل ليكون لله عليهم الحجة، فينتقم منهم بعد ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حين فمررنا بسدرة، فقلت: يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها فقال النبي ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنكم تكونون سنن الذين من قبلكم» وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده مرفوعاً، وكثير ضعيف جداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ قال: خسران. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: هلاك.

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَزْيَمِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْبَحْ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

هذا من جملة ما كرم الله به موسى عليه السلام وشرفه. والثلاثين هي نو القعدة، والعشر هي عشر ذي الحجة ضرب الله هذه المدة موعداً لمناجاة موسى ومكالمته؛ قيل: وكان التكليم في يوم النحر، والفائدة في ﴿قَتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ مع العلم بأن الثلاثين والعشر أربعون ليلاً يتوهم وأن المراد أتممت الثلاثين بعشر منها فبين أن العشر غير الثلاثين، وأربعين ليلة منصوب على الحال: أي قَتْمٌ حال كونه بالغاً أربعين ليلة. قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي يَوْمِي﴾ أي: كن خليفتي فيهم، قال موسى هذا لما أراد المضي إلى المناجاة ﴿وَأَصْلَحْ﴾ أمر بني إسرائيل بحسن سياستهم، والرفق بهم، وتفقد أحوالهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عوناً للظالمين.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، من طرق، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَوَاعِدْنَا مُوسَى﴾ الآية، قال: نو القعدة، وعشر من ذي الحجة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن مجاهد مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في الآية، قال: إن موسى قال لقومه: إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه، وأخلف هارون فيكم، فلما فصل موسى إلى ربه، زاده الله عشراً، فكانت فنتتهم في العشر التي زاده الله، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري قد أبصر جبريل، فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب، ثم نكر قصة السامري.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي﴾ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ سَوَّيْتُ لَكَ جَبَلًا رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلًا دَكَاً وَكَرَّ وَفُئِيَ صَوَّافًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ

لا يعدوهم البتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا، وتبغض إليهم ما أحبوا. قوله: ﴿أَغْيِرْ اللَّهُ لِبَغْيِكُمْ إِلَهِهَا﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ: أي كيف أطلب لكم غير الله إلهاً تعبدونه، وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفي البعض منه؟ والمعنى: أن هذا الذي طلبتم لا يكون أبداً، وإدخال الهمزة على غير؛ للإشعار بأن المنكر هو كون المبتغى غيره سبحانه إلهاً، وغير مفعول للفعل الذي بعده، وإلهاً تمييز أو حال، وجملة: ﴿وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم بما أنعم به عليكم من إهلاك عبورك، واستخلافكم في الأرض، وإخراجكم من الذل والهوان إلى العز والرفعة، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره. قوله: ﴿وَإِذْ أَتَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: وذكرنا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون، بعد أن كانوا مالكين لكم، يستعبدونكم فيما يريدونه منكم، ويمتهنونكم بأنواع الامتهانات، هذا على أن هذا الكلام محكي عن موسى، وأما إذا كان في حكم الخطاب لليهود الموجودين في عصر محمد، فهو بمعنى: اذكروا إذ أنجينا أسلافكم من آل فرعون، وجملة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ في محل نصب على الحال: أي أنجيناكم من آل فرعون حال كونهم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما أنجاهم منه، وجملة: ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ مفسرة للجملة التي قبلها، أو يدل منها. وقد سبق بيان ذلك، والإشارة بقوله: ﴿وَفِي نَارِكُمْ﴾ إلى العذاب: أي في هذا العذاب الذي كنتم فيه ﴿بِلَاءٌ﴾ عليكم ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وقيل: الإشارة إلى الإنجاء، والبلاء النعمة. والأول: أولى.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن في قوله: ﴿مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا﴾ التي باركنا فيها قال: الشام. وأخرج هؤلاء عن قتادة مثله. وأخرج ابن عساکر عن زيد بن أسلم نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن عبد الله بن شونب، قال: هي فلسطين، وقد روي عن النبي ﷺ في فضل الشام أحاديث ليس هذا موضع ذكرها. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَوُتِّعَتْ كُلُّ مَرْكَبٍ الْحَسَنِيِّ﴾ قال: ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم في الأرض وما ورثهم منها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿هُوَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قال: يبنون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿فَاتُوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ قال: لخم وجذام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي عمران الجوني مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج، في الآية قال: تماثيل بقر من نحاس، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر،

فالمعتزلة استدلوا بقوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، وبأمره بأن ينظر إلى الجبل. والأشعرية قالوا: إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة، ولا يخفك أن الرؤية الآخورية هي بمعزل عن هذا كله، والخلاف بينهم هو فيها لا في الرؤية في الدنيا، فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة، وكلامهم فيها معروف، قوله: ﴿فلما تجلّى ربه للجبل جعله نكاً﴾ تجلّى معناه: ظهر، من قولك جلوت العروس: أي أيرزتها. وجلوت السيف: أخلصته من الصدأ، وتجلّى الشيء: انكشف. والمعنى: فلما ظهر ربه للجبل جعله نكاً، وقيل المتجلى: هو أمره وقدرته، قاله قطرب وغيره. والـنك مصدر بمعنى المفعول: أي جعله منكوكاً منقوفاً فصار تراباً، هذا على قراءة من قرأ نكاً بالمصدر، وهم أهل المدينة وأهل البصرة، وأما على قراءة أهل الكوفة ﴿جعلته نكاً﴾ على التانيث، والجمع نكوات، كحمراء وحمراوات، وهي اسم للرابية الناشئة من الأرض أو للأرض المستوية، فالمعنى: أن الجبل صار صغيراً كالرابية، أو أرضاً مستوية. قال الكسائي النك: الجبال العراض واحداً نك. والنكوات جمع نكاء، وهي رواب من طين ليست بالغلاظ، والنكادك: ما التبد من الأرض فلم يرتفع، وناق نكاء: لا سنام لها ﴿وَوُضِعَ مُوسَى صَعْقاً﴾ أي: مغشياً عليه مأخوذاً من الصاعقة: والمعنى: أنه صار حاله لما غشي عليه كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له. يقال صعق الرجل، فهو صعق ومصعوق: إذا أصابته الصاعقة ﴿فلما أفاق﴾ من غشيته ﴿قال سبحانك﴾ أي: أنزهك تنزيهاً من أن أسأل شيئاً لم تأذن لي به ﴿تثبت إليك﴾ عن العود إلى مثل هذا السؤال. قال القرطبي: واجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية، فإن الأنبياء معصومون؛ وقيل: هي توبة من قتله للقبطي، نكره القشيري، ولا وجه له في مثل هذا المقام ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بك قبل قومي الموجودين في هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك، وجملة ﴿قال يا موسى﴾ مستأنفة كالتي قبلها، متضمنة لإكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به. والاصطفاء: الاجتباء والاختيار: أي اخترتك على الناس المعاصرين لك برسالتك، كذا قرأ نافع، وابن كثير، بالأفراد، وقرأ الباقر بالجمع. والرسالة مصدر، والأصل فيه الأفراد، ومن جمع فكانه نظر إلى أن الرسالة هي على ضروب فجمع لاختلاف الأنواع، والمراد بالكلام هنا: التكليم. امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة، ثم أمره بأن يأخذ ما آتاه: أي أعطاه من هذا الشرف الكريم، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم، والإكرام الجليل. قوله: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من كل شيء: أي من كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم ودنياهم، وهذه الألواح: هي التوراة، قيل: كانت من زمردة خضراء؛ وقيل: من ياقوتة حمراء؛ وقيل: من زبرجد؛ وقيل:

إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٠﴾ قَالَ يَسْمُوحُ لِي أَنْ أَطْلُبَ نِكَاحَ النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَيَكَلِّمَنِي فَخَذَمْنَا نَاصِيَتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤١﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ نَحْنُهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ بِالْعُذُوِّ بِأَحْسَنِ سَؤْدِيكَ وَآدَارَ الْفَلْسَفِينَ ﴿١٤٢﴾ سَأَمُرُّ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَنْكَرُونِ فِي الْأَرْضِ بِمَنِّ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ آرْشِدِي لَا يَخْذُلُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْفِتْنَةِ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٣﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْظُمُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَمَكُرُونَ ﴿١٤٤﴾

اللام في ﴿لميقاتنا﴾ للاختصاص: أي كان مجيئه مختصاً بالميقات المذكور، بمعنى أنه جاء في الوقت الموعود ﴿وَوَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي: أسمعه كلامه من غير واسطة. قوله: ﴿أرني انظر إليك﴾ أي: أرني نفسك أنظر إليك: أي سألته النظر إليه اشتياقاً إلى رؤيته لما أسمعه كلامه. وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها، والجواب بقوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، أو أنه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا. وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة، ومنهج الحق واضح، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأثر عليه آباءه وأهل بلده، مع عدم التنبيه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة، يوقع في التعصب، والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً فبصيرته عمياء، وأنه عن سماع الحق سماء، يدفع الحق، وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم، وما أقل المنصفين بعد ظهوره هذه المذاهب في الأصول والفروع فإنه صار بها باب الحق مرتجاً، وطريق الإنصاف مستورة، والأمر لله سبحانه، والهداية منه:

يأبى الفتنى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح وجملة: ﴿قال لن تراني﴾ مستأنفة، لكونها جواباً لسؤال مقدر كأنه قيل: فما قال الله له؟ والاستدراك بقوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ معناه: أنك لا تثبت لرؤيتي، ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرماً وصلابة وقوة، وهو الجبل، فانظر إليه ﴿فإن استقر مكانه﴾ ولم يتزلزل عند رؤيتي له ﴿فسوف تراني﴾ وإن ضعف عن ذلك، فانت منه أضعف، فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل؛ وقيل: هو من باب التعليق بالمحال، وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا لما قدّمنا.

وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتين المعتزلة والأشعرية:

سبيلاً من سبيل الغي سلوكه واختاروه لأنفسهم. قرأ أهل المدينة وأهل البصرة «الرشد» بضم الراء وإسكان الشين. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بفتح الراء والشين. قال أبو عبيدة: فرق أبو عمرو بين الرشد والرشد فقال: الرشد الصلاح والرشد في الدين. قال النحاس: سيبويه يذهب إلى أن الرشد والرشد، كالسخط والسخط. قال الكسائي: والصحيح عن أبي عمرو، وغيره، ما قال أبو عبيدة. وأصل الرشد في اللغة: أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو: ضد الخيبة، والإشارة بقوله: «**ذلك**» إلى الصرف: أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم، أو الإشارة إلى التكبر وعدم الإيمان بالآيات، وتجنب سبيل الرشد، وسلوك سبيل الغي، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره جملة: «**بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**» أي: بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها، والموصول في «**وللذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة**» مبتدأ. وخبره «**حبطت أعمالهم**»، والمراد بلقاء الآخرة: لقاء الدار الآخرة: أي لقاءهم لها، أو لقاءهم ما وعدوا به فيها على أن الإضافة إلى الظرف، وحباط الأعمال بطلانها: أي بطلان ما عملوه مما صورته صورة الطاعة، كالصنعة والصلة، وإن كانوا في حال كفرهم لا طاعات لهم، ويحتمل أن يراد أنها تبطل بعلمها كانت مرجوة النفع على تقدير إسلامهم، لما في الحديث الصحيح: «أسلمت على ما أسفلت من خير». **هل يجزون إلا ما كانوا يعملون** من الكفر بالله، والتكذيب بآياته، وتكتب سبيل الحق، وسلوك سبيل الغي.

وقد أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن كعب قال: لما كلم الله موسى قال: يا رب أهكذا كلامك؟ قال: يا موسى إنما اكلمك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسن كلها، ولو كلمتك بكنهه كلامي لم تك شيئاً. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الأسماء والصفات، من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه به يوم ناداه، فقال له موسى: يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال: يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان، ولي قوة الألسن كلها، وأقوى من ذلك، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: يا موسى صف لنا كلام الرحمن، فقال: لا تستطيعونه، ألم تروا إلى أصوات الصواعق التي تقتل، في أحلى حلاوة سمعتموه فذاك قريب منه وليس به». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن أبي الحويرث عبد الرحمن بن معاوية، قال: إنما كلم الله موسى بقدر ما يطيق من كلامه ولو تكلم بكلامه كله لم يطقه شيء، فمكث موسى أربعين ليلة لا يراه أحد، إلا مات من نور رب العالمين. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: «**قال رب أرني أنظر إليك**» يقول: أعطني أنظر إليك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، في الآية، قال: لما سمع الكلام طمع في الرؤية. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: حين قال موسى لربه تبارك وتعالى «**رب أرني**

من صخرة صماء. وقد اختلف في عدد الألواح، وفي مقدار طولها وعرضها، والألواح: جمع لوح، وسمي لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني، وأسند الله سبحانه الكتابة إلى نفسه تشريفاً للمكتوب في الألواح، وهي مكتوبة بأمره سبحانه: وقيل: هي كتابة خلقها الله في الألواح، و«**من كل شيء**» في محل نصب على أنه مفعول «**كتبنا**» و«**موعظة**» و«**تفصيلاً**» بدل من محل كل شيء، أي: موعظة لمن يتعظ بها من بني إسرائيل وغيرهم، وتفصيلاً للأحكام المحتاجة إلى التفصيل «**فخذها بقوة**» أي: خذ الألواح بقوة: أي بجِدِّ ونشاط وقيل الضمير عائد إلى الرسالات، أو إلى كل شيء، أو إلى التوراة، قيل: وهذا الأمر على إضمار القول: أي فقلنا له خذها، وقيل: إن «**فخذها**» بدل من قوله: «**فخذ ما آتيناك**» «**وأمر قومك ياخذوا بأحسنها**» أي: بأحسن ما فيها بما أجزه أكثر من غيره، وهو مثل قوله تعالى: «**اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم**» [الزمر: 55]، وقوله: «**فيتبعون أحسنه**» [الزمر: 18]، ومن الأحسن الصبر على الغير والعفو عنه، والعمل بالعزيمة دون الرخصة، وبالفريضة دون النافلة، وفعل المأمور به، وترك المنهي عنه. قوله: «**ساوريكم دار الفاسقين**» قيل: هي أرض مصر التي كانت لفرعون وقومه وقيل منازل عاد وثمود، وقيل هي جهنم، وقيل منازل الكفار من الجبابرة والمالقة ليعتبروا بها، وقيل الدار: الهلاك. والمعنى: سأريكم هلاك الفاسقين. وقد تقدم تحقيق معنى الفسق. قوله: «**ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق**» قيل: معنى «**ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون**» سامنعمهم فهم كتابي، وقيل: ساصرفهم عن الإيمان بها، وقيل: ساصرفهم عن نفهمها مجازاة على تكبرهم كما في قوله: «**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**» [الصف: 5]، وقيل: ساطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها.

واختلف في تفسير الآيات، فقليل هي المعجزات، وقيل: الكتب المنزلة، وقيل: هي خلق السموات والأرض، وصرفهم عنها: أن لا يعتبروا بها، ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك حمل الصرف على جميع المعاني المذكورة و«**بغير الحق**» إما متعلق بقوله: «**يتكبرون**» أي: يتكبرون بما ليس بحق، أو بمحذوف وقع حالاً: أي يتكبرون متلبسين بغير الحق. قوله: «**وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها**» معطوف على «**يتكبرون**» منتظم معه في حكم الصلة. والمعنى: ساصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات، ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة، والآيات التكوينية، والمعجزات: أي لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت. وقرأ مالك بن دينار «يروا» بضم الياء في الموضعين، وجملة: «**وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً**» معطوفة على ما قبلها داخلة في حكمها، وكذلك جملة: «**وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً**» والمعنى: إنهم إذا وجئوا سبيلاً من سبيل الرشد تركوه وتجنبوه، وإن راوا

وقع حالاً، ومن للتبعيض، أو للابتداء، أو للبيان؛ والحلي جمع حلى. وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة «من حليهم» بضم الحاء وتشديد الياء. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بكسر الحاء. وقرأ يعقوب بفتح الحاء وتخفيف الياء. قال النحاس: جمع حلي وحلى مثل ثدي وثدي، والأصل حلوى أدغمت الواو في الياء، فانكسرت اللام لمجاورتها الياء، وتكسر الحاء لكسرة اللام وضمها على الأصل، وأضيفت الحلي إليهم وإن كانت لغيرهم؛ لأن الإضافة تجوز لأننى ملابسة، و **﴿عجلاً﴾** مفعول اتخذ، وقيل: هو بمعنى التصيير، فيتعدى إلى مفعولين ثانيهما محذوف: أي اتخذوا عجلاً إلهاً. و **﴿جسداً﴾** بدل من عجلاً، وقيل وصف له، والخوار الصياح: يقال خار يخور خوراً إذا صاح. وكذلك خار يخار خواراً. ونسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعاً، مع أنه اتخذوه السامري وحده، لكونه واحداً منهم، وهم راضون بفعله. روي أنه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة فابطأ عليهم في العشر المزیدة، قال السامري لبني إسرائيل وكان مطاعاً فيهم: إن معكم حلياً من حلي آل فرعون الذي استعتموه منهم لتتزينوا به في العيد، وخرجتم وهو معكم. وقد أغرق الله أهله من القبط فهاوتها، فدفعوها إليه، فاتخذ منها العجل المذكور. قوله: **﴿إلم يروا أنه لا يكلمهم﴾** الاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي ألم يعتبروا بأن هذا الذي اتخذوه إلهاً لا يقدر على تكليمهم، فضلاً عن أن يقدر على جلب نفع لهم، أو دفع ضرر منهم **﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾** أي: طريقاً واضحة يسلكونها **﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾** أي: اتخذوه إلهاً **﴿وكانوا ظالمين﴾** لأنفسهم في اتخاذها، أو في كل شيء، ومن جملة ذلك هذا الاتخاذ. قوله: **﴿ولما سقط في أيديهم﴾** أي: ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات؛ يقال للنادم المتحير قد سقط في يده. قال الأخفش: يقال سقط في يده وأسقط، ومن قال سقط في أيديهم على البناء للفاعل، فالمعنى عنده: سقط الندم وأصله أن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعضّ يده غماً، فتصير يده مسقوطة فيها، لأن فاه قد وقع فيها. وقال الأزهري والزجاج والنحاس وغيرهم: معنى سقط في أيديهم: أي في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن كان محالاً أن يكون في اليد تشبيهاً لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد، لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد، قال الله تعالى: **﴿نلك بما قَدَمْتَ يدك﴾** [الحج: 10] وأيضاً الندم وإن حلّ القلب فآثره يظهر في البدن، لأن الندم يعضّ يده ويضرب إحدى يديه على الأخرى، قال الله تعالى: **﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾** [الكهف: 42] ومنه: **﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾** [الفرقان: 27] أي: من الندم، وأيضاً الندم يضع ثقته في يده **﴿وروا أنهم قد ضلوا﴾** معطوف على سقط: أي تبينوا أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل، وأنهم قد ابلتوا بمعصية الله سبحانه **﴿قالوا لئن لم يرجعنا ربنا ويغفر لنا﴾** قرأ حمزة والكسائي بالفوقية في الفعلين

جميعاً، وقرأ الياقوت بالتحتيّة، واللام للقسم، وجوابه: **﴿لنكونن من الخاسرين﴾** وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثّة بالله والتضرع والابتهاال في السؤال، وسيأتي في سورة طه إن شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكي عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى، وإنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد. قوله: **﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾** هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه، وانتصاب غضبان وأسفاً على الحال، والأسف شديد الغضب. قيل هو منزلة وراء الغضب أشد منه، وهو أسف وأسيف وأسفان وأسوف، قال ابن جرير الطبري: أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا، فلذلك رجع وهو غضبان أسفاً **﴿قال بشما خلفتموني من بعدي﴾** هذا نّم من موسى لقومه: أي بش العمل ما علمتموه من بعدي: أي من بعد غيبتني عنكم، يقال خلفه بخير وخلفه بشر، استنكر عليهم ما فعلوه، وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزعاج والإيمان بالله وحده، ولكن هذا شأن بني إسرائيل في تلّون حالهم واضطراب أفعالهم، ثم قال منكراً عليهم **﴿أعجلتم أمر ربكم﴾** والعجلة: التقدّم بالشيء قبل وقته، يقال عجلت الشيء سبقتة، وأعجلت الرجل حملته على العجلة، والمعنى: أعجلتم عن انتظار أمر ربكم: أي ميعاده الذي وعده، وهو الأربعون ففعلتم ما فعلتم؛ وقيل معناه: تعجلتم سخط ربكم؛ وقيل معناه: أعجلتم عبادة العجل قبل أن ياتيكم أمر ربكم **﴿والقى الألواح﴾** أي: طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف حين أشرف على قومه، وهم عاكفون على عبادة العجل. قوله: **﴿ولخذ برأس أخيه يجره إليه﴾** أي: أخذ برأس أخيه هارون أو بشعر رأسه حال كونه يجره إليه: فعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامري، ولا غيره ما رآه من عبادة بني إسرائيل للعجل، فقال: هارون معتزلاً منه **﴿ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكاوا يقتلونني﴾** أي: إنني لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين استضعافهم لي، ومقاربتهم لقتلي وإنما قال ابن أمّ مع كونه أخاه من أبيه وأمه، لأنها كلمة لين وعطف، ولأنها كانت كما قيل مؤمنة. وقال الزجاج: قيل كان هارون أخا موسى لأنه لا لأبيه. قرئ **﴿ابن أمّ﴾** بفتح الميم تشبيهاً له بخمسة عشر، فصار كقولك يا خمسة عشر أقبلوا. وقال الكسائي والفراء وأبو عبيد: إن الفتح على تقدير يابن أما وقال البصريون هذا القول خطأ: لأن الألف خفيفة لا تحذف، ولكن جعل الاسمين اسماً واحداً خمسة عشر، واختاره الزجاج والنحاس. وأما من قرأ بكسر الميم، فهو على تقدير ابن أمي، ثم حذفت الياء وأبقيت الكسرة، لتدل عليها. وقال الأخفش وأبو حاتم: ابن أمّ بالكسر، كما تقول يا غلام أقبل؛ وهي لغة شاذة والقراءة بها بعيدة، وإنما هذا فيما يكون مضافاً إليك. وقرئ **﴿ابن أمي﴾** بإثبات الياء. قوله: **﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾** الشماتة: السرور من الأعداء بما يصيب من يعاونونه مع المصائب، ومنه قوله **﴿اللهم إني أعوذ بك من سوء**

وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن مجاهد، أو سعيد بن جبير، قال: لما ألقاه موسى ذهب التفصيل وبقي الهدى. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، قال: كانت تسعة رفع منها لوحان وبقي سبعة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال: مع أصحاب العجل.

إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَسْأَلُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَلَكِنْ سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابُ وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِزَيْبِهِمْ يَرْجُونَ ﴿٦٨﴾

الغضب ما نزل بهم من العقوبة في الدنيا بقتل أنفسهم، وما سينزل بهم في الآخرة من العذاب، والنلة هي التي ضربها الله عليهم بقوله: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ [البقرة: 61]، وقيل: هي إخراجهم من ديارهم، وقيل: هي الجزية، وفيه نظر لأنها لم تؤخذ منهم، وإنما أخذت من ذراريهم. والأولى أن يقيد الغضب والذلة بالدنيا؛ لقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وإن ذلك مختص بالمخذنين للعجل إليها لا لمن بعدهم من ذراريهم، ومجرد ما أمروا به من قتل أنفسهم هو غضب من الله عليهم، وبه يصيرون أذلاء، وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم، وبه يصبرون أذلاء، وأما ما نال ذراريهم من النلة فلا يصح تفسير ما في الآية به إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقي، وهو لم يتعذر هنا ﴿وَكُنْكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي: مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين، والافتراء الكذب، فمن افترى على الله سيناله من الله غضب ونلة في الحياة الدنيا. وإن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء، بل المراد ما يصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه، وإن فيه نلة بأي نوع كان ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: سيئة كانت ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ عنها ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ عملها ﴿وَأَسْأَلُوا﴾ بالله ﴿إِنْ رَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد هذه التوبة، أو من بعد عمل هذه السيئات التي قد تاب عنها فاعلها وأمن بالله ﴿لِغَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي: كثير الغفران لذنوب عباده وكثير الرحمة لهم. قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ﴾ أصل السكوت: السكون والإمسك؛ يقال جرى الوادي ثلاثاً ثم سكن: أي أمسك عن الجري: قيل هذا مثل كان الغضب كان يغريه على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، والقي الألواح، وجر برأس أخيك، فترك الإغراء وسكت؛ وقيل: هذا الكلام فيه قلب، والأصل: سكت موسى عن الغضب، كقولهم أدخلت الأصبع الخاتم، والخاتم الأصبع، وأدخلت القلنسوة رأسي ورأسي القلنسوة. وقرأ معاوية بن قرة «ولما سكن عن موسى الغضب» وقرئ سكت وأسكت ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابُ﴾ التي ألقاهم عند غضبه ﴿وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ النسخ نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر، ويقال للأصل الذي كان النقل منه نسخة، وللمنقول نسخة

القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء، وهو في الصحيح. ومنه قول الشاعر:

إذا ما الدهر جرَّ على أناس كلاكله أناخ بأخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقي الشامتون كما لقينا
والمعنى: لا تفعل بي ما يكون سبباً للشماتة منهم. وقرأ مجاهد ومالك بن دينار: ﴿فَلَا تَشْمَتْ بِي الْأَعْدَاءُ﴾ بفتح حرف المضارعة وفتح الميم ورفع الأعداء على أن الفعل مسند إليهم: أي لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بي. ودوي عن مجاهد أنه قرأ ﴿تَشْمَتْ﴾ كما تقدّم عنه مع نصب الأعداء. قال ابن جني: والمعنى فلا تشمت بي أنت يا رب، وجاز هذا كما في قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 15] ونحوه، ثم عاد إلى المراد فاضمر فعلاً نصب به الأعداء، كأنه قال: ولا تشمت يا رب بي الأعداء، وما أبعد هذه القراءة عن الصواب، وأبعد تأويلها عن وجوه الإعراب. قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تجعلني بغضبك علي في عداد القوم الظالمين: يعني الذين عبدوا العجل، أو لا تعتقد أنني منهم قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلا أَخِي﴾ هذا كلام مستأنف جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال موسى بعد كلام هارون هذا؟ فقيل: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلا أَخِي﴾ طلب المغفرة له أولاً، ولأخيه ثانياً ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة، فكانه تزم مما فعله بأخيه، وأظهر أنه لا وجه له، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانب، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليهم من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم، ثم طلب إدخاله وإخال أخيه في رحمة الله التي وسعت كل شيء فهو ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَتَأْخُذْ قَوْمَ مُوسَى﴾ الآية، قال: حين دفنوها ألقى عليها السامري قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: استعاروا حلياً من آل فرعون، فجمعه السامري فصاغ منه ﴿عَجَلًا﴾ فجعله ﴿جِسْدًا﴾ لحماً ودماً ﴿لَهُ خَوَارُ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: ﴿خَوَارُ﴾ قال: الصوت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: خار العجل خورة لم يثن ألم تر أن الله قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَهُمْ﴾ وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿سَقَطَ فِي يَدَيْهِمْ﴾ قال: ندموا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق، عن ابن عباس: ﴿سَقَطَ﴾ قال: حزينا. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي الدرداء، قال: الأسف منزلة وراء الغضب أشد من ذلك. وأخرج عبد بن حميد، عن محمد بن كعب، قال: الأسف الغضب الشديد. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: لما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفعت إلا سدسها. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: رفع الله منها ستة أسباعها وبقي سبع.

قوله: ﴿وَلَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ هذا شروع في بيان ما كان من موسى، ومن القوم الذين اختارهم، وسبعين مفعول اختار، وقومه منصوب بنزع الخافض: أي من قومه على الحنف والإيصال، ومثله قوله الراعي:

اخترتك الناس إذ رثت خلائقهم واعتل من كان يرجى عنده السؤل
يريد اخترتك من الناس، ومعنى ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ للوقت الذي وقتناه له، بعد أن وقع من قومه ما وقع، والميقات الكلام الذي تقدم نكره لأن الله أمره أن يأتي إلى الطول في ناس من بني إسرائيل يعتزلون إليه سبحانه من عبادة العجل كذا قيل: والرجفة في اللغة: الزلزلة الشديدة، قيل: إنهم زلزلوا حتى ماتوا، فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَبَايَ﴾ قاله عليه السلام تحسراً وتلهفاً، لأن سبب أخذ الرجفة لهم ما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتَكُمُ الصَّاعِقَةَ﴾ [البقرة: 55] على ما تقدم في البقرة؛ وقيل: هؤلاء السبعون غير من قالوا: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ أَهْلَكْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ وَبَايَ﴾ بل أخذتهم الرجفة، بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل؛ وقيل: إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل، ولا نهوا السامري ومن معه عن عبادته، فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم، والمعنى لو شئت إهلاكنا بذنوبنا قبل هذا الوقت اعترافاً منه عليه السلام بالذنوب، وتلهفاً على ما فرط من قومه، والاستفهام في قوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْسَفَهَاءُ مِنْكُمْ﴾ أي ليست ممن يفعل ذلك، قاله ثقة منه برحمة الله، والمقصود منه الاستعطاف والتضرع؛ وقيل: معناه الدعاء والطلب، أي لا تهلكنا. قال المبرد: المراد بالاستفهام استفهام الإعظام كأنه يقول: وقد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنوب غيره، ولكنه كقول عيسى: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكُمْ﴾ [البقرة: 118]؛ وقيل المراد بالسفهاء: السبعون، والمعنى: أهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [النساء: 153]؛ وقيل المراد بهم: السامري وأصحابه. قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ما الفتنة التي وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت، وتمتحن بها من أردت، ولعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه: ﴿إِنَّا قَدْ فُتِنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: 85] ﴿تَضَلُّ بِهَا مِنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مِنْ تَشَاءُ﴾ أي: تضل بهذه الفتنة من تشاء من عبادك وتهدي بها من تشاء منهم، ومثله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7]، ثم رجع إلا الاستعطاف والدعاء فقال: ﴿وَأَنْتَ وَلِيْنَا﴾ أي المتولى لامورنا ﴿فَاعْفِرْ لَنَا﴾ ما أنبأنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ ببرحمتك التي وسعت كل شيء ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ للذنوب ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بتوفيقنا للأعمال الصالحة، أو تفضل علينا بأفاضة النعم في هذه الدنيا من العافية، وسعة الرزق ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: واكتب لنا في الآخرة الجنة بما تجازينا به، أو بما تفضل به علينا

أيضاً. قال القشيري. والمعنى ﴿وَفِي نَسَخْتِهَا﴾: أي فيما نسخ من الألواح المنكسرة، ونقل إلى الألواح الجديدة ﴿وَهْدَى وَرَحْمَةً﴾ وقيل المعنى: وفيما نسخ له منها: أي من اللوح المحفوظ، وقيل المعنى: وفيما كتب له فيها هدى ورحمة، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه، وهذا كما يقال أنسخ ما يقول فلان: أي أثبتته في كتابك والنسخة فعلة، بمعنى مفعولة كالخطبة. والهدى ما يهتدون به من الأحكام؛ والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة، واللام في ﴿لِلَّذِينَ هُمْ﴾ متعلقة بمحذوف: أي كائنة لهم أو لأجلهم، واللام في ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ للتقوية للفعل، لما كان مفعوله متقدماً عليه، فإنه يضعف بذلك بعض الضعف. وقد صرح الكسائي بأنها زائدة. وقال الأخفش: هي لام الأجل، أي لأجل ربهم يرهبون. وقال محمد بن يزيد المبرد: هي متعلقة بمصدر الفعل المذكور، والتقدير: للذين هم رهبتهم لربهم يرهبون.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أيوب، قال: تلا أبو قلابة هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنْكَ نَجْزِي الْمَفْتَرِينَ﴾ قال: هو جزء كل مفتر، يكون إلى يوم القيامة أن ينله الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: أعطى موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد، فيها بيان لكل شيء وموعظة، ولما جاء فرأى بني إسرائيل عكوفاً على العجل رمى التوراة من يده فتحطمت، وأقبل على هارون فأخذ برأسه، ورفع الله منها ستة أسباع وبقي سبع ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نَسَخْتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً﴾ قال: فيما بقي منها. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، أو سعيد بن جببر، قال: كانت الألواح من زمرد فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل، وبقي الهدى والرحمة، وقرأ ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 145] وقرأ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نَسَخْتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً﴾ قال: ولم يذكر التفصيل هاهنا.

وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَبَايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْسَفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَكَتَبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا أَوْلَىٰ بِكَ خَلْقَ الْأَعْيُنِ ﴿١٥٤﴾ مَن آتَاكَ زَكَاةً فَذَرَكُوهَا فَمَا تَكُنْ لَهُ مَالًا فَذَرِكُنَّ ﴿١٥٥﴾ وَكَتَبْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الدِّينِ الرَّحْمَةَ وَالزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي الْكُوْنِ وَالْإِجْلِ يَأْمُرُهُمُ بِالْعَمْرِوِّ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ النُّكْرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ذَكَرُوا أَسْمَاءُ بِهِمْ وَعَزَّرُوا لَهُمْ وَغَرَّتْهُمُ الْغُلُوبَةُ وَالَّذِينَ

على من يعالني **﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾** أي: اتبعوا القرآن الذي أنزل عليه مع نبوته؛ وقيل المعنى: واتبعوا القرآن المنزل إليه مع اتباعه بالعمل بسنته، مما يامر به وينهى عنه، أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه، والإشارة بـ **﴿أُولَئِكَ﴾** إلى المتصفين بهذه الأوصاف **﴿هُمْ﴾** **﴿الْمُفْلِحُونَ﴾** الفائزون بالخير والفلاح لا غيرهم من الأمم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾** الآية. قال كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فأختار سبعين رجلاً فببر بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا الله أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأختارهم الرجفة. **﴿قَالَ﴾** موسى **﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾** يقول: إن هي إلا عذابك تصيب به من تشاء وتصرفه عن تشاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد **﴿لَمِيقَاتِنَا﴾** قال: لتمام الموعد، وفي قوله: **﴿فَلَمَّا اخْتُنِثُمْ لِرَجْفَةٍ﴾** قال: ماتوا ثم أحياهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن أبي العالية، في قوله **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾** قال: بليتك. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾** قال: مشيقتك وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: إن السبعين الذين اختارهم موسى من قومه، إنما اخذتهم الرجفة، لأنهم لم يرضوا بالعمل ولم ينهوا عنه. وأخرج سعيد بن منصور، عنه، في قوله: **﴿وَأَكْتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾** إلى قوله: **﴿وَأَكْتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾** قال: فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾** قال تبتنا إليك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي جزة السعدي، وكان من أعلم الناس بالعربية قال: لا والله ما أعلمها في كلام العرب هذا؛ قيل فكيف قال هذا بكسر الهاء، يقول: ملنا. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد في الزهد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن وقتادة، في قوله: **﴿وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾** قال: وسعت رحمته في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة. وأخرج مسلم وغيره، عن سلمان، عن النبي ﷺ قال: «إن الله مائة رحمة فمئتها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها، وآخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة». وأخرج نحوه أحمد، وأبو داود، والطبراني، والحاكم، والبيهقي، عن أبي حاتم، عن عبد الله العجلي. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي قال: لما

من النعيم في الآخرة، وجملة **﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾** تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة، والرحمة، والحسنة، في الدنيا وفي الآخرة أي: إننا تبتنا إليك ورجعنا عن الغواية التي وقعت من بني إسرائيل. والهود: التوبة. وقد تقدم في البقرة، وجملة: **﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾** مستأنفة كنظائرها فيما تقدم، قيل المراد بالعذاب هنا: الرجفة؛ وقيل: أمره سبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسهم: أي ليس هذا إليك يا موسى، بل ما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن. والظاهر أن العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب، ويدخل فيه عذاب هؤلاء دخولاً أولياً؛ وقيل المراد: من أشاء من المستحقين للعذاب، أو من أشاء أن أضله وأسلبه التوفيق **﴿وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾** من الأشياء من المكلفين وغيرهم، ثم أخبر سبحانه أنه سيكتب هذه الرحمة الواسعة **﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** الذنوب **﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** المفروضة عليهم **﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾** أي: يصتقون بها ويذعنون لها، ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة، ببيان أوضح مما قبله وأصرح فقال: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِّيَّ﴾** وهو محمد عليه الصلاة والسلام، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل، والأممي: إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب: وهم العرب، أو نسبة إلى الأم. والمعنى أنه باق على حاله التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب؛ وقيل نسبة إلى أم القرى، وهي مكة **﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾** يعني: اليهود والنصارى: أي يجدون نعمته **﴿مَكْتُوبًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾** وهما مرجعهم في الدين، وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل فهو من باب الإخبار بما سيكون، ثم وصف هذا النبي الذي يجدونه كذلك بأنه يامر بالمعروف: أي بكل ما تعرفه القلوب، ولا تنكره من الأشياء التي هي من مكارم الأخلاق **﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾** أي: ما تنكره القلوب ولا تعرفه. وهو ما كان من مساوئ الأخلاق؛ قيل: إن قوله: **﴿يُأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾** إلى قوله: **﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** كلام يتضمن تفصيل أحكام الرحمة التي وعد بها، نكر معناه الزجاج، وقيل: هو في محل نصب على الحال من النبي، وقيل: هو مفسر لقوله: **﴿مَكْتُوبًا﴾**. قوله: **﴿يَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾** أي: للمستلذات وقيل: يحل لهم ما حرم عليهم من الأشياء التي حُرِّمَتْ عليهم بسبب ذنوبهم **﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾** أي: المستخبثات كالحشرات والخنازير **﴿وَيُضِعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾** الإصر الثقل: أي يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة. وقد تقدم بيانه في البقرة **﴿وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** أي: ويضع عنهم الأغلال التي كانت عليهم: الأغلال مستعارة للتكاليف الشاقة التي كانوا قد كلفوها **﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾** أي: بمحمد ﷺ **﴿وَاتَّبَعُوهُ﴾** فيما جاء به من الشرائع **﴿وَعَزَّوهُ﴾** أي: عظموه ووقروه، قاله الأخفش، وقيل: معناه منعوه من عدوه، وأصل العز: المنع، وقرأ الجحدري «وعزروه» بالتخفيف (ونصروه) أي: قاموا بنصره

جريز، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، في قوله: **﴿وَيُضِعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾** قال: ما غلظ على بني إسرائيل من قرض البول من جلودهم إذا أصابهم ونحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَعَزَّوهُ﴾** يعني: عظموه ووقروه.

قُلْ يَكُنْ أَتَى النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا أَلَمْ تَكُنْ مِنَ السَّابِقِينَ وَالْأَرْضُ لِلَّهِ إِلَّا هُوَ يُعْطِي وَيُمْسِكُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْآيَاتِ أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَ قَالَ رَبُّكُمْ تَسْجُدُوا لِلَّهِ تَسْجُودًا ۝

لما تقدم ذكر أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والإنجيل: أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضى لعموم رسالته إلى الناس جميعاً، لا كما كان غيره من الرسل عليهم السلام، فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، وجميعاً منصوب على الحال: أي حال كونكم جميعاً، **﴿وَالَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** إما في محل جر على الصفة للاسم الشريف، أو منصوب على المدح، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وجملة **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾** بدل من الصلة مقرر لمضمونها مبين لها، لأن من ملك السموات والأرض وما فيهما هو الإله على الحقيقة، وهكذا من كان يحيى ويميت هو المستحق لتفرد بالربوبية ونفى الشركاء عنه. والأمر بالإيمان بالله وبرسوله متفرع على ما قبله، وقد تقدم تفسير النبي الأمي، وهما وصفان لرسوله. وكذلك: **﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾** وصف له، والمراد بالكلمات ما أنزله الله عليه وعلى الأنبياء من قبله أو القرآن فقط. وجملة **﴿وَاتَّبَعُوهُ﴾** مقدره لجملة **﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ﴾**، **﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** علة للأمر بالإيمان والاتباع.

وقد أخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس، قال: بعث الله محمداً ﷺ إلى الأحمر والأسود فقال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾** والأحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا المعنى مشهورة، فلا تطيل بنكرها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: **﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾** قال: آياته. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد **﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾** قال: عيسى.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَبْتَغُونَ ۝ وَطَعْنَهُمْ أَثْنَاءَ عَشْرَةِ سَاعَاتٍ أَمْ أَزِجَّاتُ إِلَى مَوْسَى إِذْ استَعْلَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ بِهِ مُنْقِذُكُمْ مِنَ الْمَجَرِّ فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ عَشْرَةُ آلِئِهِ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِيقَهُمْ وَطَرَفَنا عَلَيْهِمُ الْقَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَنْهُمْ الرِّيحَ وَالْطَّيْلَانَ ۝ كَلُوا مِنْ مَكْنَنَاتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَنُّوا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ وَلَا يَدْرِي لَهُمْ استَكْبَارُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَكَلُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشْتَرُونَ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَقُودَ لَكُمْ خَاطِبَتُكُمْ سَرِيذُ الْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً زَكَاةً السَّكَاةَ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ۝ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَبْدُونَ فِي

نزلت: **﴿وَوَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾** قال إبليس: وأنا من الشيء، فنسخها الله، فنزلت: **﴿فَسَاكُتْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** إلى آخر الآية. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جرير، قال: لما نزلت: **﴿وَوَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾** قال إبليس: أنا من الشيء، قال الله تعالى: **﴿فَسَاكُتْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** قالت اليهود: فنحن نتقي ونؤتي الزكاة، قال الله: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِّيَّ﴾** فعزلها الله عن إبليس وعن اليهود، وجعلها لامة محمد ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج البزار في مسنده، وابن المنذر، وابن مروي، عن ابن عباس، قال: سأل موسى ربه مسئلة فأعطاه محمداً ﷺ. قوله: **﴿وَوَلِخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾** إلى قوله: **﴿فَسَاكُتْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** فأعطى محمداً كل شيء سأل موسى ربه في هذه الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، عنه، في قوله: **﴿فَسَاكُتْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** قال: كتبها الله لهذه الامة. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: يتقون الشرك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن النخعي في قوله: **﴿النَّبِيِّ الْأَمِّيَّ﴾** قال: كان لا يقرأ ولا يكتب. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: هو نبيكم ﷺ كان أمياً لا يكتب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عَنْدهُمْ﴾** قال: يجدون نعته وأمره ونبوته مكتوباً عندهم. وأخرج ابن سعد، والبخاري، والبيهقي في الدلائل، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت له أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِراً وَنَذِيراً﴾** وحرزاً للأمينين أثت عبيدي ورسولي سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا تجزى بالسبيبة السيئة، ولكن تعفو وتصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً وأذناً صماً وقلوباً غلفاء. وأخرج ابن سعيد، والدارمي في مسنده، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر، عن عبد الله بن سلام مثله. وقد روى نحو هذا مع اختلاف في بعض اللفاظ، وزيادة في بعض، ونقص في بعض عن جماعة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جرير، في قوله: **﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾** قال: الحلال **﴿وَيُضِعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمُ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** قال: التثقيل الذي كان في دينهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَيُحِزُّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾** قال: كلعم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكول التي حرماها الله، وفي قوله: **﴿وَيُضِعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمُ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** قال: هو ما كان الله أخذ عليهم من الميثاق فيما حرم عليهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن

ظلمونا بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حق قدرها **«ولكن كانوا انفسهم يظلمون»** أي: كان ظلمهم مختصاً بهم مقصوراً عليهم، لا يجاوزهم إلى غيرهم **«وإذ قيل لهم»** أي: وانكر وقت قيل لهم هذا القول وهو **«اسكنوا هذه القرية»** أي: بيت المقدس أو أريحا، وقيل غير ذلك مما تقدم بيانه **«وكلوا منها»** أي: من المأكولات الموجودة فيها **«حيث شئتم»** أي: في أي مكان شئتم من أمكنتها، لا مانع لكم من الأكل فيه **«وقولوا حطة»** قد تقدم تفسيرها في البقرة **«وادخلوا الباب»** أي: باب القرية المتقدمة حال كونكم **«سجداً»** أمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة وبين السجود ساجدين، فلا يقال كيف قُتِم الأمر بالقول هنا على السجود وأخره في البقرة؟ وقد تقدم بيان معنى السجود الذي أمروا به **«تغفر لكم خطيئاتكم»** جواب الأمر، وقرئ **«خطيئتك»**، ثم وعدهم بقوله: **«سنزيد المحسنين»** أي: سنزيدهم على المغفرة للخطايا بما يتفضل به عليهم من النعم، والجملة استئنافية جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا لهم بعد المغفرة؟ **«فبذل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم»** قد تقدم بيان ذلك في البقرة **«فارسلنا عليهم رجلاً من السماء»** أي: عذاباً كائنًا منها **«بما كانوا يظلمون»** أي: بسبب ظلمهم. قوله: **«واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر»** معطوف على عامل إذ المقدر: أي انكر إذ قيل لهم واسألهم، وهذا سؤال تقريع وتوبيخ، والمراد من سؤال القرية: سؤال أهلها: أي أسألهم عن هذا الحادث الذي حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم الله به. وفي ضمن هذا السؤال فائدة جلية، وهي تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله ﷺ، وأن اطلاعه لا يكون إلا بإخبار له من الله سبحانه، فيكون ليلاً على صدقه.

واختلف أهل التفسير في هذه القرية: أي قرية هي؟ فقيل أيلة، وقيل طبرية، وقيل منين، وقيل إيليا، وقيل قرية من قرى ساحل الشام التي كانت حاضرة البحر: أي التي كانت بقرب البحر، يقال كنت بحضرة الدار: أي بقربها. والمعنى: سل يا محمد هؤلاء اليهود الموجودين عن قصة أهل القرية المذكورة. قرئ «واسألهم» وقرئ «سلهم» **«إذ يعدون»** أي: وقت يعدون، وهو ظرف لمحذوف دل عليه الكلام، لأن السؤال هو عن حالهم وقصتهم وقت يعدون؛ وقيل: إنه ظرف لكائن أو لحاضرة. وقرئ «يعنون» بضم الياء وكسر العين وتشديد الدال من الإعداد للآلة. وقرأ الجمهور «يعنون» بفتح الياء وسكون العين وضم الدال مخففة: أي يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت الذي نهوا عن الاصطياد فيه، وقرئ «يعنون» بفتح الياء والعين وضم الدال مشددة بمعنى يعدون، أدغمت التاء في الدال. والسبت: هو اليوم المعروف وأصله السكون، يقال سبت: إذا سكن وسبت اليهود تركوا العمل في سبتهم، والجمع أسبت، وسبوت، وأسبات وقرأ ابن السمعاني في «الاسبات» على الجمع **«إذ تاتيتهم حيتانهم»**

النبت إذ تاتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسئرون لا تاتيتهم كذلك بلوهم بما كانوا يقسئون ﷻ وإذ قالت أمة بينهم لم يظنون قوماً الله مهلكهم أو مؤبدهم عذاباً شديداً قالوا مودة إن رزقكم ولكم ينقون ﷻ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن الشوء وأخذنا الذين ظلموا بذنوبهم بما كانوا يقسئون ﷻ فلما عرنا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كذبا فرزة خبيث ﷻ

قوله: **«ومن قوم موسى»** لما قص الله علينا ما وقع من السامري وأصحابه، وما حصل من بني إسرائيل من التزلزل في الدين: قص علينا سبحانه أن قوم موسى أمة مخالفة لأولئك الذين تقدم ذكرهم، ووصفهم بأنهم **«يهودون بالحق»** أي: يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق **«وبه»** أي: بالحق **«يعملون»** بين الناس في الحكم، وقيل: هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ منهم. قوله: **«وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً»** الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدم ذكرهم: لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهودون بالحق وبه يعملون، والمعنى: صيرناهم قطعاً متفرقة، وميزنا بعضهم من بعض، وهذا من جملة ما قصه الله علينا من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، والمعنى: أنه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطاً كل سبط معروف على انفراده لكل سبط نقيب، كما في قوله تعالى: **«وبعنا منهم اثني عشر نقيباً»** [المائدة: 12] وقد تقدم، وقوله: **«اثنتي عشرة»** هو ثاني مفعولي قطعنا لتضمنه معنى التصيير، وأسباطاً تمييز له أو بدل منه، و **«أمماً»** نعت للأسباط أو بدل منه، والأسباط جمع سبط: وهو ولد الولد، صاروا اثنتي عشرة أمة من اثني عشر ولداً، وأراد بالأسباط القبائل، ولهذا أثبت العدد، كما في قول الشاعر:

وإن قريشاً كلها عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر
أراد بالبطن القبيلة، وقد تقدم تحقيق معنى الأسباط في البقرة، وروى المفصل عن عاصم أنه قرأ **«قطعناهم»** مخففاً، وسماههم أمماً، لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد: وكانوا مختلفي الآراء يؤم بعضهم غير ما يؤمه الآخر **«وإوحينا إلى موسى إذ استسقاها قومه»** أي: وقت استسقاهاهم له لما أصابهم العطش في التيه **«أن اضرب بعصاك الحجر»** تفسير لفعل الإيحاء **«فانجست»** عطف على مقدر يدل عليه السياق: أي فاضرب فانجست، والانجاس: الانفجار: أي فانفجرت **«منه اثنتا عشرة عيناً»** بعدد الأسباط، لكل سبط عين يشربون منها **«قد علم كل إنسان مشربهم»** أي: كل سبط منهم العين المختصة به التي يشرب منها، وقد تقدم في البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الإعادة **«وظللنا عليهم الغمام»** أي: جعلناه ظللاً عليهم في التيه، يسير بسيرهم ويقيم بإقامتهم **«وانزلنا عليهم المن والسلوى»** أي: الترنجيب والسماني كما تقدم تحقيقه في البقرة **«كلوا من طيبات ما رزقناكم»** أي: وقلنا لهم كلوا من المستلذات التي رزقناكم **«وما**

ظرف ليعدون. والحيتان: جمع حوت، وأضيف إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان يوم السبت دون ما عداه، و **«يوم سبتهم»** ظرف لتأنيهم. وقرأ **«يوم أسباتهم»** و **«شرعاً»** حال، وهو جمع شارع: أي ظاهرة على الماء، وقيل رافعة رؤوسها، وقيل: إنها كانت تشرع على أبوابهم كالكبش البيض. قال في الكشاف: يقال شرع علينا فلان إذا دنى منا وأشرف علينا، وشرعت على فلان في بيته فرائته يفعل كذا انتهى **«ويوم لا يسبثون لا تأنيهم»** أي: لا يفعلون السبت، وذلك عند خروج يوم السبت لا تأنيهم الحيتان، كما كانت تأنيهم في يوم السبت **«كنكك نبلوهم»** أي: مثل ذلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم والابتلاء الامتحان والاختبار **«وإذا قالت أمة»** معطوف على إذ يعدون معمول لعامله داخل في حكمه، والأمة الجماعة: أي قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المتعدين في السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة، وإقلاعهم عن المعصية **«لم تعظون قوماً الله مهلكهم»** أي: مستأمل لهم بالعقوبة **«أو معذبهم عذاباً شديداً»** بما انتهكوا من الحرمة وفعلوا من المعصية؛ وقيل: إن الجماعة القائلة لم تعظون قوماً؟ هم العصاة الفاعلون للصيدي في يوم السبت، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم. والمعنى: إذا علمتم أن الله مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا **«قالوا معذرة إلى ربكم»** أي: قال الواعظون للجماعة القائلة لهم لم تعظون، وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأول، أو الفاعلين على الوجه الثاني **«معذرة إلى ربكم»** قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرف **«معذرة»** بالنصب، وهي قراءة حفص عن عاصم، وقرأ الباقر بالرفع. قال الكسائي: ونصبه على وجهين: أحدهما على المصدر، والثاني على تقدير فعلنا ذلك معذرة: أي لأجل المعذرة. والرفع على تقدير مبتدأ: أي موعظتنا معذرة إلى الله حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين أوجبهما علينا، ولرجاء أن يتعظوا فيتقوا ويقبلوا عما هم فيه من المعصية.

ظرف ليعدون. والحيتان: جمع حوت، وأضيف إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان يوم السبت دون ما عداه، و **«يوم سبتهم»** ظرف لتأنيهم. وقرأ **«يوم أسباتهم»** و **«شرعاً»** حال، وهو جمع شارع: أي ظاهرة على الماء، وقيل رافعة رؤوسها، وقيل: إنها كانت تشرع على أبوابهم كالكبش البيض. قال في الكشاف: يقال شرع علينا فلان إذا دنى منا وأشرف علينا، وشرعت على فلان في بيته فرائته يفعل كذا انتهى **«ويوم لا يسبثون لا تأنيهم»** أي: لا يفعلون السبت، وذلك عند خروج يوم السبت لا تأنيهم الحيتان، كما كانت تأنيهم في يوم السبت **«كنكك نبلوهم»** أي: مثل ذلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم والابتلاء الامتحان والاختبار **«وإذا قالت أمة»** معطوف على إذ يعدون معمول لعامله داخل في حكمه، والأمة الجماعة: أي قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المتعدين في السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة، وإقلاعهم عن المعصية **«لم تعظون قوماً الله مهلكهم»** أي: مستأمل لهم بالعقوبة **«أو معذبهم عذاباً شديداً»** بما انتهكوا من الحرمة وفعلوا من المعصية؛ وقيل: إن الجماعة القائلة لم تعظون قوماً؟ هم العصاة الفاعلون للصيدي في يوم السبت، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم. والمعنى: إذا علمتم أن الله مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا **«قالوا معذرة إلى ربكم»** أي: قال الواعظون للجماعة القائلة لهم لم تعظون، وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأول، أو الفاعلين على الوجه الثاني **«معذرة إلى ربكم»** قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرف **«معذرة»** بالنصب، وهي قراءة حفص عن عاصم، وقرأ الباقر بالرفع. قال الكسائي: ونصبه على وجهين: أحدهما على المصدر، والثاني على تقدير فعلنا ذلك معذرة: أي لأجل المعذرة. والرفع على تقدير مبتدأ: أي موعظتنا معذرة إلى الله حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين أوجبهما علينا، ولرجاء أن يتعظوا فيتقوا ويقبلوا عما هم فيه من المعصية.

قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق: فرقة عصت وصابت وكانت نحو سبعين ألفاً، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص، فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية **«لم تعظون قوماً»** يريبنون الفرقة العاصية **«الله مهلكهم أو معذبهم»** قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله ولعلمهم يتقون. ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية، وعاصية لقال: لعلمكم تتقون. قوله: **«فلما نسوا ما نكروا به»** أي: لما ترك العصاة من أهل القرية ما نكروهم به الصالحون الناهون عن المنكر، ترك الناسي للشيء المعرض عنه كلية الإعراض **«أنجيناً الذين ينهون عن السوء»** أي: الذين فعلوا النهي،

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: قال موسى: يا رب أجد أمة أناجيلهم في قلوبهم، قال: تلك أمة تكون بعك أمة أحمد، قال: يا رب أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهن، قال: تلك أمة تكون بعك: أمة أحمد، قال: يا رب أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ثم ترجع فيهم، فيلكون، قال: تلك بعك: أمة أحمد، قال: يا رب اجعلني من أمة أحمد، فأنزل الله كهية المرضاة لموسى **«ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: **«ومن قوم موسى أمة»** الآية، قال: بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً، تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتنوا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج: قال ابن عباس: فذلك قوله: **«وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لغيفاً»** [الإسراء: 104] ووعد الآخرة عيسى ابن مريم، قال ابن

عباس ساروا في السرب سنة ونصفاً.

أقول: ومثل هذا الخبر العجيب والنبأ الغريب محتاج إلى تصحيح النقل.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن علي بن أبي طالب، قال: افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة. وافترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة، ولتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة، فاما اليهود فإن الله يقول: ﴿وَمَنْ قَوْمَ مُوسَى أُمَّة يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْلَمُونَ﴾ فهذه التي تنجو، وأما النصارى فإن الله يقول: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: 66] فهذه التي تنجو، وأما نحن فيقول: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 181] فهذه التي تنجو من هذه الأمة. وقد قدمنا أن زيادة كلها في النار لم تصح لا مرفوعة ولا موقوفة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَانْجِسْتُ﴾ قال: فانفجرت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة قال: نخلت على ابن عباس، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿وَإِسْلَامُهَا عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً لِّلْبَحْرِ﴾ قال: يا عكرمة هل تدري أي قرية هذه؟ قلت لا، قال: هي أيلة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الزهري قال: هي طبرية. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِذْ يَعْبُدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ قال: يظلمون. وأخرج ابن جرير، عنه، في قوله: ﴿شُرْعًا﴾ يقول: من كل مكان. وأخرج ابن جرير، عنه، أيضاً قال: ظاهرة على الماء. وأخرج ابن المنذر، عنه، قال: واردة، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، في الآية قال: هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها أيلة، فحزم الله عليهم الحيتان يوم سببتهم، فكانت تاتيهم يوم سببتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدرها عليها، فمكثوا كذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سببتهم، فنهتهم طائفة فلم يزدوا إلا غياً، فقللت طائفة من النهاية يعلمون أن هؤلاء قوم حق عليهم العذاب ﴿لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾ وكانوا أشد غضباً من الطائفة الأخرى، وكل قد كانوا يهنون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا ﴿لَمْ تَعْظُونْ﴾ والذين قالوا: ﴿مُعْذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، أنهم ثلاث فرق: فرقة العصاة، وفرقة الناهون وفرقة القائلون لم تعظون؛ فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم، فاصبح الذين نهوا ذات غداة في مجالسهم يتفقون الناس لا يرونهم، وقد بلتوا من ليلتهم وغلقت عليهم دورهم، فجعلوا يقولون إن للناس لشأناً فانظروا ما شأنهم؟ فاطلعوا في دورهم، فإذا القوم قد مسخوا يعرفون الرجل بعينه، وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم،

والبيهقي في سننه، عن عكرمة، عن ابن عباس، فنذكر القصة، وفي آخرها أنه قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين نكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها. قال عكرمة: فقلت جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرموا ما هم عليه وخالفهم. وقالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾ قال فامر بي فكسيت ثوبين غليظين، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، أيضاً قال: نجا الناهون وهلك الفاعلون، ولا أدري ما صنع بالساكين، وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عنه قال: والله لأن أكون علمت أن القوم الذين قالوا ﴿لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا﴾ نجوا مع الذين نهوا عن السوء أحب إلي مما عدل به. وفي لفظ: من حمر النعم، ولكن أخاف أن تكون العقوبة نزلت بهم جميعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ قال: فما زلت أبصره حتى عرف أنهم قد نجوا فكساني حلة. وأخرج عبد بن حميد، عن ليث بن أبي سليم، قال: مسخوا حجارة الذين قالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُعَذِّبُ بَيْسٌ﴾ قال: البئس وجيع.

وَلَا تَأْتِيكَ رَيْكَ لِيَمَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَأَنْتُمْ لَعَوْرٌ رَجِيعٌ ﴿٥٧﴾ وَتَلَعَمْتُ فِي الْأَرْضِ أُسْمًا مِنْهُمْ أَصْلَحُوا مِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَيَكُونُهُمْ بِالْحَسَنَةِ وَالْحَقِيقَاتِ لَمْ يَمُرْ بِجَمْعٍ ﴿٥٨﴾ فَكَلَّمَ رَبُّ بَنِي إِسْرَءِيلَ خَلِّفُوا وَارْثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَنْهُمْ هَذَا الْأَذَى وَيُؤْمِنُونَ بِسَمْعٍ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيَهُمْ عَرَضٌ يُفْلِتُوا فَاعْلَوْهُ أَوْ يُعَذِّبْ عَلَيْهِمْ نِجْنُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالَّذِينَ الْأَخْرَجُوا خَرُّوا لِلْأَيْدِي يَتَقُونَ أَفَلَا يَتَّقُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يَسْكُرُونَ الْكِتَابَ وَآفَاكُمُ الصَّلَاةَ إِنَّمَا لَا تُنْجِيكُمْ أَلَمْ تَلْعَبُوا بِالْأَلْهَامِ ﴿٦٠﴾

قوله: ﴿وَأَنْ تَأْتِيَهُمْ رَيْكَ﴾ معطوف على ما قبله: أي واسألهم وقت تأتينا ريك، وتأتينا تفعل من الأيدان، وهو الإعلام، قال أبو علي الفارسي: آذن بالمد أعلم، وأن بالتشديد نادى. وقال قوم: كلاهما بمعنى أعلم، كما يقال أيقن وتيقن، والمعنى في الآية: واسألهم وقت أن وقع الإعلام لهم من ريك ﴿لِيُعْظِنَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: وفي هذا الفعل معنى القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بما يجب به القسم، حيث قال: ﴿لِيُعْظِنَ عَلَيْهِمْ﴾ أي ليرسلن عليهم، ويسلطن كقولهم: ﴿يُعْظِنَا عَلَيْكَ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: 5] ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ غاية لسومهم سوء العذاب ممن يبعثه الله عليهم، وقد كانوا أقماءهم الله هكذا أذلاء مستضعفين معذبين بأيدي أهل الملل، وهكذا هم في هذه الملة الإسلامية، في كل قطر من أقطار الأرض، في الذلة المضروبة عليهم والعذاب والصغار، يسلمون الجزية بحقن دمائهم ويمتحنهم المسلمون فيما فيه ذلة من الأعمال التي يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار. ومعنى ﴿يَسُومُهُمْ﴾

ينقيهم، وقد تقدّم بيان أصل معناه، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنْ رِبْكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ يعاجل به في الدنيا كما وقع لهؤلاء ﴿وإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: كثير الغفران والرحمة ﴿وَقُطِعْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فُرّقناهم في جوانبها، أو شتّنا أمرهم، فلم تجتمع لهم كلمة، و ﴿أَمَّا﴾ منتصب على الحال أو مفعول ثانٍ لقطعنا على تضمينه معنى صيرنا، وجملة ﴿مِنْهُمْ لِلصَّالِحِينَ﴾ بدل من «أَمَّا»، قيل: هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبطل؛ وقيل: هم الذين سكنوا وراء الصين كما تقدّم بيانه قبل هذا ﴿وَمِنْهُمْ بَنُو نَازِكٍ﴾ أي: بنون هذا الوصف الذي اتصفت به الطائفة الأولى وهو الصلاح، ومحل ﴿بَنُو نَازِكٍ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: ومنهم أناس بنون نازك، والمراد بهؤلاء هم من لم يؤمن، بل انهمك في المخالفة لما أمره الله به. قال النحاس ﴿بَنُو نَازِكٍ﴾ منصوب على الظرف ولا نعلم أحداً رفعه ﴿وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: امتحناهم بالخير والشر رجاء أن يرجعوا مما هم من الكفر والمعاصي ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ المراد بهم: أولاد الذين قطعهم الله في الأرض. قال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجمع سواء. والخلف بفتح اللام البديل ولداً كان أو غيره. وقال ابن الأعرابي: الخلف بالفتح الصالح، وبالسكون الطالح. قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
ومنه قيل للردى من الكلام خلف بالسكون، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر، ومنه قول حسان ابن ثابت:

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع
﴿وَرَوَّاهُ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة من أسلافهم يقرؤونها ولا يعملون بها ﴿يَاخُونُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَنْبَى﴾ أخبر الله عنهم بأنهم يأخونون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم وقوة نهمتهم، والأنبياء مأخوذ من النوى وهو القرب: أي يأخونون عرض هذا الشيء الأنبياء، وهو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشاء وما هو مفعول لهم من السحت في مقابلة تحريفهم لكلمات الله، وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة وكتهم لما يكتونه منها؛ وقيل: إن الأنبياء مأخوذ من اللدناء والسقوط: أي إنهم يأخونون عرض الشيء الدنيء الساقط ﴿وَيَقُولُونَ سَيَغْفِرُ لَنَا﴾ أي: يعللون أنفسهم بالمغفرة مع تمايهم في الضلالة وعدم رجوعهم إلى الحق، وجملة ﴿يَاخُونُونَ﴾ يحتمل أن تكون مستأنفة لبيان حالهم، أو في محل نصب على الحال، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ معطوفة عليها، والمراد بهذا الكلام: التقرّيع والتوبيخ لهم، وجملة ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ يَأْخُونَهُ﴾ في محل نصب على الحال: أي يتعللون بالمغفرة، والحال أنهم إذا أتاهم عرض مثل العرض الذي كانوا يأخونونه أخوه غير مباليين بالعقوبة، ولا خائفين من التبعة؛ وقيل: الضمير في ﴿يَأْتِهِمْ﴾ لليهود المدينة: أي وإن يأت هؤلاء اليهود الذين هم في عصر محمد

ﷺ عرض مثل العرض الذي كان يأخذه أسلافهم، أخوه كما أخذه أسلافهم ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والاستفهام للتقرّيع والتوبيخ، وجملة ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معطوفة على ﴿يَأْخُذْ﴾ على المعنى، وقيل: على ﴿وَرَوَّاهُ الْكِتَابَ﴾، والأولى: أن تكون في محل نصب على الحال بتقدير قد. والمعنى: أنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب، والحال أن قد درسوا ما في الكتاب، وعلموه، فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل، وذلك أشدّ ذنباً وأعظم جرماً. وقيل: معنى ﴿دَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي: محوه بترك العمل به والفهم له، من قولهم درست الريح الآثار: إذا محتها ﴿وَالَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرض الذي أخذه وآثروه عليها ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله، ويجتنبون معاصيه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعلمون بهذا وتفهمونه، وفي هذا من التوبيخ والتقرّيع ما لا يقادر قدره، قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قرأ الجمهور «يمسكون» بالتشديد من مسك وتمسك: أي استمسك بالكتاب، وهو التوراة. وقرأ أبو العالية، وعاصم، في رواية أبي بكر، بالتخفيف من أمسك يمسك. وروي عن أبي بن كعب أنه قرأ «مسكوا» والمعنى: أن طائفة من أهل الكتاب لا يمسكون بالكتاب، ولا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه وهم من تقدّم ذكره، وطائفة يمسكون بالكتاب: أي التوراة ويعملون بما فيه ويرجعون إليه في أمر دينهم، فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله، والموصول مبتدأ، و ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ خبره: أي لا نضيع أجر المصلحين منهم، وإنما وقع التنقيص على الصلاة مع كونها داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوراة؛ لأنها رأس العبادات وأعظمها، فكان ذلك وجهاً لتخصيصها بالذكر؛ وقيل لأنها تقام في أوقات مخصوصة، والتمسك بالكتاب مستمر فذكرت لهذا، وفيه نظر. فإن كل عبادة في الغالب تختص بوقت معين، ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على الموصول الذي قبله، وهو للذين يتقون، ولكون ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ جملة معترضة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَسْأَلُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قال محمد وأمه، إلى يوم القيامة؛ وسوء العذاب: الجزية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الخراج، وفي قوله: ﴿وَقُطِعْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ هم اليهود بسطهم الله في الأرض فليس منها بقعة إلا وفيها عصابة منهم وطائفة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، في قوله: ﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ قال: على اليهود والنصارى ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ من يسومهم سوء العذاب، فبعث الله عليهم أمة محمد ﷺ، يأخونون منهم الجزية وهم صاغرون ﴿وَقُطِعْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: اليهود ﴿مِنْهُمْ لِلصَّالِحِينَ﴾ وهم مسلمة

فقيل لهم: **«خذوا ما آتيناكم بقوة»** فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا وأطعنا، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: إني لأعلم لم تسجد لليهود على حرف، قال الله **«وإذا نتقنا لجبل فوقهم»** قال: لتأخذن أمري أو لأمرينكم به، فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم، وكانت سجدة رضيها الله سبحانه فاتخذوها سنة، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة **«وإذا نتقنا لجبل»** قال: انتزعه الله من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، ثم قال: لتأخذن أمري أو لأمرينكم به.

وَلَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَفْرَأْنَا آبَاءَنَا مِنْ قَبْلَ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ أَنْتَ بِنَاكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧٧﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

قوله: **«وإذا»** منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله كما تقدم قوله: **«ومن بني آدم»** استدلل بهذا على أن المراد بالماخوذين هنا: هم ذرية بني آدم، أخرجهم الله من أصلابهم نسلاً بعد نسل.

وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين، قالوا: ومعنى: **«أشهدهم على أنفسهم»** بلهم بخلقهم على أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الأشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما في قوله تعالى: **«فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين»** [فصلت: 11]، وقيل المعنى: أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه؛ وقيل المراد ببني آدم هنا: آدم نفسه كما وقع في غير هذا الموضوع، والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه نريته وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم الذر، وهذا هو الحق الذي لا ينيغي العدول عنه، ولا المصير إلى غيره، لثبوته مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وموقوفاً على غيره من الصحابة، ولا ملجئاً للمصير إلى المجاز، وإذا جاء نهر الله بطل نهر مغل، وسنذكر آخر هذا البحث إن شاء الله بعض ما ورد في ذلك، قوله: **«ومن ظهورهم»** هو بدل من بني آدم، بدل بعض من كل، وقيل بدل اشتغال قوله: **«ذرياتهم»**، قرأ الكوفيون وابن كثير «ذرياتهم» بالتوحيد، وهي تقع على الواحد والجمع، وقرأ الباقون «ذرياتهم» بالجمع **«وأشهدهم على أنفسهم»** أي: أشهد كل واحد منهم **«ألست بربكم»** أي: قائلًا ألسنت بربكم، فهو على إرادة القول **«قالوا بلى شهدنا»** أي: على أنفسنا بأنك ربنا. قوله: **«إن تقولوا»**، قرأ أبو عمرو بالياء التحتية في هذا وفي قوله: **«أو يقولوا»** على الغيبة كما كان فيما قبله على الغيبة، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب. والمعنى: كراهة أن يقولوا أو لئلا يقولوا أي: فعلنا ذلك الأخذ والإشهاد كراهة أن يقولوا **«يوم القيامة إننا كنا عن هذا غافلين»** أي: عن

أهل الكتاب **«ومنهم من ذلك»** قال: اليهود **«وبلوناهم بالحسنات»** قال: الرخاء والعافية **«والسيئات»** قال: البلاء والعقوبة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **«وبلوناهم بالحسنات والسيئات»** بالخصب والجذب، وأخرج أبو الشيخ، عنه، أنه سئل عن هذه الآية **«فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الإنس»** قال: أقوام يقبلون على الدنيا، فياكلونها ويتبعون رخص القرآن **«ويقولون سيغفر لنا»** ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **«فخلف من بعدهم خلف»** قال: النصارى **«ياخذون عرض هذا الإنس»** قال: ما أشرف لهم من شيء من الدنيا حلالاً أو حراماً يشتبهونه أخذوه، ويتمنون المغفرة، وإن يجربوا الغد مثله يأخذوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس **«فخلف من بعدهم خلف»** الآية يقول: ياخذون ما أصابوا ويتركون ما شأوا من حلال أو حرام **«ويقولون سيغفر لنا»** وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **«الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق»** فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزولون يعودون إليها ولا يتوبون منها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي زيد، في قوله: **«ودرسوا ما فيه»** قال: علموا ما في الكتاب لم يأتوه بهالة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: **«والذين يمسكون بالكتاب»** قال: هي لاهل الإيمان منهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: **«والذين يمسكون بالكتاب»** قال: من اليهود والنصارى.

وَلَا نَنْتَقِ الْجِبَلِ قُرُومَهُمْ كَأَنَّ ظِلَّهُم وَطَنًا إِنَّهُمْ فِي غَمٍّ عُدُوا مَا آتَيْنَهُمْ قُوَّةً وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَمَلَكٌ لَقُونُ ﴿٧٩﴾

قوله: **«وإذا»** منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله: أي وإسألهم إذ نتقنا الجبل: أي رفعنا الجبل **«فوقهم»** و **«كانه ظلة»** أي: كأنه ارتفاعه سحابة تظلمهم، والظلة: اسم لكل ما أظل، وقرئ «ظلة» بالطاء من أظل عليه إذا أشرف **«وظنوا أنه واقع بهم»** أي: ساقط عليهم. قيل: الظن هنا بمعنى العلم، وقيل: هو على بابه **«خذوا ما آتيناكم بقوة»** هو على تقدير القول: أي وقلنا لهم خذوا، والقوة: الجذ والعزيمة: أي أخذنا كائننا بقوة **«وانكروا ما فيه»** من الأحكام التي شرعها الله لكم، ولا تنسوه **«لعلكم تتقون»** رجاء أن تتقوا ما نهيتهم عنه، وتعملوا بما أمرتم به، وقد تقدم تفسير ما هنا في البقرة مستوفى فلا نعهده.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **«وإذا نتقنا لجبل»** يقول: رفعناه، وهو قوله: **«ورفعنا فوقهم الطور»** [النساء: 154] فقال: **«خذوا ما آتيناكم بقوة»** ولا أرسلته عليكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في الآية قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم،

يَنْفَكِرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلُمِهِمْ ﴿١٧٧﴾ مِنْ يَدِ اللَّهِ فَهُمْ الْمُهْتَكِرُونَ وَمَنْ يَتَكَلَّمْ فَلَاؤُكُمُ اللَّهُ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

قوله: ﴿وَاتِلْ﴾ معطوف على الأفعال المقدرة في القصص السابقة: وإيراد هذه القصة منه سبحانه وتذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم في التوراة، وقد اختلف في هذا الذي أوتي الآيات ﴿فَانْسِلْخَ مِنْهَا﴾ فقيل: هو بلعم بن باعوراء، وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة؛ وقيل: كان قد أوتي النبوة وكان مجاب الدعوة، بعثه الله إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان، فأعطوه الأعطية الواسعة، فاتبع دينهم وترك ما بعث به؛ فلما أقبل موسى في بني إسرائيل لقتال الجبارين، سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى، فقام ليدعو عليه فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه، فقيل له في ذلك فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون، وأنبلع لسانه على صدره، فقال قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة وسامكر لكم، وإني أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنا، فإن وقعوا فيه هلكوا، فوقع بنو إسرائيل في الزنا، فأرسل الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً؛ وقيل: إن هذا الرجل اسمه باعم، وهو من بني إسرائيل، وقيل المراد به أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك، فلما أرسل الله محمداً ﷺ حسده وكفر به؛ وقيل هو أبو عامر بن صيفي وكان يلبس المسوح في الجاهلية، فكفر بمحمد ﷺ؛ وقيل: نزلت في قريش آتاهم الله آياته التي أنزلها على محمد ﷺ فكفروا بها؛ وقيل: نزلت في اليهود والنصارى انتظروا خروج محمد ﷺ فكفروا به. قوله: ﴿فَانْسِلْخَ مِنْهَا﴾ أي: من هذه الآيات التي أوتيتها كما تنسلخ الشاة عن جلدها، فلم يبق له بها اتصال ﴿فَاتَّبِعْ الشَّيْطَانَ﴾ عند انسلاخه عن الآيات: أي لحقه فادركه وصار قريباً له، أو فاتبعه خطواته، وقرئ «فاتبعه» بالتشديد بمعنى تبعه ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ المتمكنين في الغواية وهم الكفار. قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ الضمير يعود إلى الذي أوتي الآيات، والمعنى: لو شئنا رفعه: بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها: أي بسببها، ولكن لم نشأ ذلك لانسلاخه عنها وتركه للعمل بها؛ وقيل المعنى: ولو شئنا لامتناه قبل أن يعصي فرفعناه إلى الجنة بها: أي بالعمل بها ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصل الإخلاق: اللزوم، يقال أخلد فلان بالمكان إذا قام به ولزمه، والمعنى هنا: أنه مال إلى الدنيا ورغب فيها وأثرها على الآخرة ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: اتبع ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله، وهو حطام الدنيا؛ وقيل: كان هواه مع الكفار؛ وقيل: اتبع رضا زوجته، وكانت هي التي حملته على الانسلاخ من آيات الله. قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أي: فصار لما انسلاخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطاً إلى أسفل رتبة، مشابهاً لأخس الحيوانات في البناء

مماثلًا له في اقبح أوصافه، وهو أنه يلهث في كلا حالتي قصد الإنسان له وتركه، فهو لاهث سواء زجر أو ترك طرد أو لم يطرد شدّ عليه أو لم يشدّ عليه، وليس بعد هذا في الخسة والبناء شيء، وجملة ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ في محل نصب على الحال: أي مثله كمثل الكلب حال كونه متصفاً بهذه الصفة، والمعنى: أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوى عن المعصية في جميع أحواله سواء وعظه الواعظ، ونكره المذكر، وزجره الزاجر، أو لم يقع شيء من ذلك. قال القتيبي: كل شيء يلهث، فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال المرض، وحال الصحة. وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته؛ فقال: إن وعظته ضلّ وإن تركته ضلّ، فهو كالكلب إن تركته لهث، وإن طردته لهث، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَاءَ عَلِيمِكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: 193] واللّهث: إخراج اللسان لتعّب أو عطش أو غير ذلك. قال الجوهري: لهث الكلب بالفتح يلهث لهثاً ولهائاً بالضم إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش، وكذلك الرجل إذا أعيأ قيل معنى الآية: أنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هارباً، وإن تركته شدّ عليك ونبح، فيتعب نفسه مقبلاً عليك ومديرأ عنك، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان، والإشارة بقوله ذلك إلى ما تقدّم من التمثيل بتلك الحالة الخسيسة، وهو مبتدأ وخبره ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود، بعد أن علموا بها وعرفوها، فحرفوا وبنكروا، وكتبوا صفة رسول الله ﷺ وكذبوا بها ﴿فَاقْصُصْ الْقِصَصَ﴾ أي فاقصص عليهم هذا القصص الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات، فإن مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين تقص عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك ويعملون فيه أفهامهم، فينزعجون عن الضلال، ويقبلون على الصواب، قوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا لِلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم البالغة في القبح إلى الغاية: يقال ساء الشيء قبح، فهو لازم، وساءه يسوؤه مساءة: فهو متعد وهو من أفعال الذم: كبش، وفاعله ضمير مستتر فيه، ومثلاً تمييز مفسر له، والمخصوص بالذم هو الذين كذبوا بآياتنا، ولا بدّ من تقدير مضاف محذوف لأجل المطابقة أي: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا، وقال الأخفش: جعل المثل القوم مجازاً، والقوم مرفوع بالابتداء أو على إضمار مبتدأ التقدير: ساء المثل مثلاً هو مثل القوم، كذا قال. وقدره أبو علي الفارسي: ساء مثلاً مثل القوم كما قمنّا، وقرأ الجحدري والأعمش ﴿وَسَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾، قوله: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ﴾ أي: ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها ولا يتجاوزها، والجملة معطوفة على التي قبلها على معنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ

منها قال: نزع منه العلم، وفي قوله: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ قال: رفعه الله بعلمه. وأخرج مسلم، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ في خطبته يحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله، ثم يقول: «من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وبشر الأمور محدثاتها، وكل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» ثم يقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئَادٌ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٧٦﴾

﴿ولقد ذرأنا﴾ أي: خلقنا. وقد تقدم بيان أصل معناه مستوفى، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ﴿لجهنم﴾ أي: للتعذيب بها ﴿كثيراً﴾ أي: خلقاً كثيراً ﴿من الجن والإنس﴾ أي: من طائفتي الجن والإنس جعلهم سبحانه للنار بعد له ويعمل أهلها يعملون. وقد علم ما هم عاملون قبل كونهم كما ثبت في الأحاديث الصحيحة، ثم وصف هؤلاء فقال: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ كما يفقه غيرهم بقولهم، وجملة ﴿لا يفقهون بها﴾ في محل رفع على أنها صفة لقلوب، وجملة ﴿لهم قلوب﴾ في محل نصب صفة لكثيراً جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفهم وإرشادهم، غير فاقهة مطلقاً وإن كانت تفقه في غير ما فيه النفع والإرشاد فهو كالعدم، وهكذا معنى ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ فإن الذي انتقى من الأعين هو إبطار ما فيه الهداية بالتفكير والاعتبار، وإن كانت مبصرة في غير ذلك، والذي انتقى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة، والشرائع التي استملت عليها الكتب المنزلة. وما جاءت به رسل الله، وإن كانوا يسمعون غير ذلك، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى هؤلاء المتصفيين بهذه الأوصاف كالانعام في انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر، ثم حكم عليهم بأنهم أضل منها، لأنها تدرك بهذه الأمور ما ينفعها ويضرها، فينتفع بما ينفع، وتجتنب ما يضر، وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به، ثم حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذي هو من شأن من له عقل وبصر وسمع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولقد ذرأنا﴾ قال: خلقنا. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن في الآية قال خلقنا لجهنم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن النجار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله لما ذرأ لجهنم من ذرأ كان ولد الزنا ممن ذرأ لجهنم». وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ قال: لقد خلقنا لجهنم ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ قال: لا يفقهون شيئاً من أمور الآخرة ﴿ولهم

فهو المهتدي﴾ لما أمر به وشرعه لعباده ﴿ومن يضل فاولئك هم الخاسرون﴾ الكاملون في الخسران، من هده فلا مضل له، ومن أضله فلا هادي له: ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقد أخرج الفريابي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿واولئك عليهم نبال الذي آتيناها آياتنا﴾ قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن أبز، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن طرق عن ابن عباس قال: هو بلعم بن باعوراء، وفي لفظ: بلعام بن باعر الذي أوتي الاسم كان في بني إسرائيل، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿واولئك عليهم نبال الذي آتيناها آياتنا﴾ قال: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم، تعلم اسم الله الأكبر، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرده عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرده موسى ومن معه مضت ننيائي وأخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا الله فسلخ ما كان فيه. وفي قوله: ﴿أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ قال: إن حمل الحكمة لم يحملها، وإن ترك لم يهتد لخير، كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن يطرد لهث. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في الآية قال: هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها واحدة، قال: فلك واحدة فما الذي تريدني؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل؛ فلما علمت أن ليس فيهن مثلها رغبت عنه، وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبه فصارت كلبه، فذهبت دعوتان، فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبه يعيرنا الناس بها، فدعا الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليه، فدعا الله فعدت كما كانت فذهبت الدعوات الثلاث وسميت اليسوس. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عبد الله بن عمرو، في الآية: قال: هو أمية بن أبي الصلت الثقفي، وفي لفظ: نزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساکر، عنه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الشعبي في هذه الآية قال: قال ابن عباس هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء، وكانت الأنصار تقول: هو ابن الراهب الذي بنى له مسجد الشقاق، وكانت تقيف تقول: هو أمية بن أبي الصلت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: هو صيفي بن الراهب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿فانسلخ

اعين لا يبصرون بها» الهدى «ولهم أذان لا يسمعون بها» الحق، ثم جعلهم كالأنعام، ثم جعلهم شراً من الأنعام، فقال: «بل هم أفضل» ثم أخبر أنهم الغافلون.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْمُسَمَّاةُ فَادْعُوهُمْ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٣٧﴾

هذه الآية مشتملة على الأخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل، والحسنى تأنيث الأحسن: أي التي هي أحسن الأسماء لداليتها على لحسن مسمى وأشرف مدلول، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة، فإنه إذا دعي بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة، وقد ثبت في الصحيح: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» وسياي ويأتي أيضاً بيان عددها آخر البحث إن شاء الله. قوله: «وذروا الذين يلحدون في أسمائهم» الإلحاد: الميل وترك القصد، يقال لحد الرجل في الدين وألحد: إذا مال، ومنه اللحد في القبر لأنه في ناحية، وقرئ «يلحدون» وهما لغتان، والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه، إما بالتغيير كما فعله المشركون فإنهم أخذوا اسم اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان؛ أو بالزيادة عليها بأن يفتخروا بأسماء من عندهم لم يأت الله بها، أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض. ومعنى «وذروا الذين يلحدون» أتركوهم؛ ولا تحاجوهم، ولا تعرضوا لهم، وعلى هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال؛ وقيل معناه الوعيد كقوله تعالى: «ونرني ومن خلقت وحيداً» [الم نشر: 11]، وقوله: «نرهم يأكلوا ويتمتعوا» [الحجر: 3] وهذا أولى لقوله: «سيجزون ما كانوا يعملون» فإنه وعيد لهم بتزول العقوبة وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم. وقد نكر مقاتل وغيره من المفسرين أن هذه الآية نزلت في رجل من المسلمين كان يقول في صلاته يا رحمن يا رحيم، فقال رجل من المشركين ليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ حكى ذلك القرطبي.

وقد أخرج أحمد، والبخاري ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وأبو عوانة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة إنه وتر يحب الوتر». وفي لفظ ابن مردويه وأبي نعيم «من دعى بها استجاب الله دعاءه» وزاد الترمذي في سننه بعد قوله يحب الوتر «هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب،

الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الأحد، الصمد، القادر، المقدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الولي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور».

هكذا أخرج الترمذي هذه الزيادة عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعة وقال: هذا حديث غريب. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا يعلم في كثير شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. ورواه ابن حبان في صحيحه، وابن خزيمة، والحاكم من طريق صفوان بإسناده السابق. ورواه ابن ماجه في سننه من طريق أخرى، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعة، فسر الأسماء المتقدمة بزيادة ونقصان. قال ابن كثير في تفسيره والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه. وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم، وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك: أي أنهم جمعوها من القرآن كما روي عن جعفر بن محمد، وسفيان بن عيينة، وأبي زيد اللغوي. قال: ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين، بليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده: عن يزيد بن هارون، عن فضيل ابن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك وأمتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عنك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبلى له مكانه فرحاً؛ فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال: بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها». وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان في صحيحه بمثله انتهى. وأخرجه البيهقي أيضاً في الأسماء والصفات. قال ابن حزم: جاءت في إحصائها، يعني الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً. وقد أخرجها بهذا العدد الذي أخرجه الترمذي ابن مردويه، وأبو نعيم، عن ابن عباس، وابن عمر قالوا: قال رسول الله ﷺ فنكرناه، ولا أدري كيف إسناده. وأخرج ابن أبي النديا، والطبراني كلاهما في الدعاء، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أبي هريرة: إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة:

وقد نكر ابن حجر في التلخيص أنه تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حرّرها منه تسعة وتسعين ثم سردها فابحثه. ويؤيد هذا ما أخرجه أبو نعيم، عن ابن عباس، وابن عمر، قالاً: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة وتسعون اسماً من أحصاها نخل الجنة، وهي في القرآن». وأخرج البيهقي، عن عائشة أنها قالت: «يا رسول الله علمني اسم الله الذي إذا دعى به أجاب، قال لها: قومي فتوضيء وادخلي المسجد فصلي ركعتين ثم ادعي حتى أسمع، ففعلت؛ فلما جلست للدعاء قال النبي ﷺ: اللهم فقها، فقالت: اللهم إني أسألك بجميع أسمائك الحسنى كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، وأسألك باسمك العظيم الأعظم الكبير الأكبر، الذي من دعائك به أجبت، ومن سألك به أعطيت، قال النبي ﷺ: أصبتيه أصبتيه».

وقد أطلأ أهل العلم الكلام على الأسماء الحسنى حتى أن ابن العربي في شرح الترمذي تحكى عن بعض أهل العلم أنه جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُلْحِقُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: الإلحاد، أن يدعو اللات والعزى في أسماء الله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: الإلحاد التكذيب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في الآية قال: اشتقوا العزى من العزيز، واشتقوا اللات من الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في الآية قال: الإلحاد المضاهاة وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش أنه قرأ «يلحدون» من لحد، وقال تفسيرها: يدخلون فيها ما ليس منها. وأخرج عبد الرزاق بن حميد، وابن جرير، عن قتادة، في الآية قال: يشركون.

وَمَنْ خَلَقْنَا أَنَّهُ يَهُودٌ يَلْحَقُ بِهِ يَهُودُونَ ﴿١٠١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَمَّا لَهُمْ إِلَهٌ كَبِيرٌ ﴿١٠٣﴾ أَوَلَمْ يَتَذَكَّرُوا مَا يُصْخَرُونَ مِنْ جَهَنَّمَ إِنَّ هُوَ إِلَّا يُذَكِّرُ ﴿١٠٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ ﴿١٠٥﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ ﴿١٠٦﴾

قوله: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ خبر مقدم و﴿أمة﴾ مبتدأ مؤخر و﴿يهودون﴾ وما بعده صفة له، ويجوز أن يكون ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ هو المبتدأ كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ الناس من يقول﴾ [البقرة: 8] والمعنى: أن من جملة من خلقه الله أمة يهودون الناس متلبسين بالحق، أو يهودونهم بما عرفوه من الحق ﴿وَالَّذِينَ يُلْحِقُونَ﴾ بينهم قيل: هم من هذه الأمة، وإنهم الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين، كما ورد في الحديث الصحيح، ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والاستدراج: هو الأخذ بالتدرج منزلة بعد منزلة، والدرج: كَفَ الشيء، يقال أدرجته ودرجته، ومنه إدراج الميت في أكفانه؛ وقيل:

أسأل الله الرحمن، الرحيم، الإله، الرب، الملك، القُدُّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الحليم، العليم، السميع، البصير، الحي، القيوم، الواسع، اللطيف، الخبير، الحنان، المنان، البديع، الغفور، الدود، الشكور، المجيد، المبدئ، المعيد، النور، البارئ، وفي لفظ: القائم، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العفو، الغفار، الوهاب، الفرد، وفي لفظ: القادر، الأحد، الصمد، الوكيل، الكافي، الباقي، المغيث، الدائم، المتعالي، ذا الجلال والإكرام، المولى البصير، الحق، المتين، الوارث، المنير، الباعث، القدير. وفي لفظ: المجيب، المحي المميت الحميد؛ وفي لفظ: الجميل، الصابق، الحفيظ، المحيط، الكبير، القريب، الرقيب، الفتاح، التواب، القديم، الوتر، الفاطر، الرزاق، العلام، العلي، العظيم، الغني، الملك، المقتدر، الأكرم، الرؤوف، المدبر، المالك، القاهر، الهادي، الشاكر، الكريم، الرفيع، الشهيد، الواحد، ذا الطول، ذا المعارج، ذا الفضل، الخالق، الكفيل، الجليل.

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال: سألت أبي جعفر بن محمد الصديق عن الأسماء التسعة والتسعين التي من أحصاها نخل الجنة؟ فقال: هي في القرآن، ففي الفاتحة خمسة أسماء: يا الله، يا رب، يا رحمن، يا رحيم، يا ملك، وفي البقرة ثلاثون وثلاثون اسماً: يا محيط، يا قدير، يا عليم، يا حكيم، يا على يا عظيم، يا تواب، يا بصير، يا ولي، يا واسع، يا كافي، يا رؤوف، يا بديع، يا شاكراً، يا واحد، يا سميع، يا قابض، يا باسط، يا حي، يا قيوم، يا غني، يا حميد، يا غفور، يا حليم، يا إله، يا قريب يا مجيب، يا عزيز، يا نصير، يا قوي، يا شديد، يا سريع، يا خبير، وفي آل عمران: يا وهاب، يا قائم، يا صادق، يا باعث، يا منعم، يا متفضل، وفي النساء: يا رقيب، يا حسيب، يا شهيد، يا مقيت، يا وكيل، يا علي، يا كبير، وفي الأنعام: يا فاطر، يا قاهر، يا لطيف، يا برهان؛ وفي الأعراف: يا محيي، يا مميت؛ وفي الأنفال: يا نعم المولى، ويا نعم النصير، وفي هود: يا حفيظ، يا مجيد، يا ودود يا فعال لما تريد؛ وفي الرعد: يا كبير، يا متعالي؛ وفي إبراهيم: يا منان، يا وارث؛ وفي الحجر: يا خالق؛ وفي مريم: يا فرد؛ وفي طه: يا غفار؛ وفي قد أفلح [أي: سورة المؤمنون] يا كريم؛ وفي النور: يا حق، يا مبين؛ وفي الفرقان: يا هادي؛ وفي سبا: يا فتاح؛ وفي الزمر: يا عالم؛ وفي غافر: يا قابل التوب، يا ذا الطول، يا رفيع؛ وفي الذاريات: يا رزاق، يا ذا القوة، يا متين؛ وفي الطور: يا بر؛ وفي لقمان: [أي: سورة القمر] يا مقتدر، يا مليك؛ وفي الرحمن: يا ذا الجلال والإكرام، يا رب المشرقين، يا رب المغربين، يا باقي، يا معين؛ وفي الحديد: يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن؛ وفي الحشر: يا ملك، يا قدُّوس، يا سلام، يا مؤمن، يا مهيمن، يا عزيز، يا جبار، يا متكبر، يا خالق، يا بارئ، يا مصوِّر؛ وفي البروج: يا مبدئ، يا معيد؛ وفي الفجر: يا وتر؛ وفي الإخلاص: يا أحد، يا صمد. انتهى.

وينتفعون بالتفكير فيه والاعتبار به ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ الضمير يرجع إلى ما تقدم من التفكير والنظر في الأمور المنكورة: أي فبأي حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون؟ وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ ما لا يقاقر قدره؛ وقيل الضمير للقرآن؛ وقيل لمحمد ﷺ، وقيل للأجل المنكور قبله. وجملة ﴿ومن يضلل الله فلا هادي له﴾ مقررة لما قبلها: أي إن هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن أضله الله، ومن يضلله فلا هادي له: أي فلا يوجد من يهديه إلى الحق، وينزعه عن الضلالة البينة ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ قرئ بالرفع على الاستئناف، وبالجزم عطفًا على محل الجزاء، وقرئ بالنون؛ ومعنى يعمهون: يتحيرون، وقيل: يترددون وهو في محل نصب على الحال.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿ومن خلقنا أمة يهدون بالحق﴾ قال: نكر لنا أن النبي ﷺ قال: «هذه أمتي بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، في الآية قال: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «إذا قرأها هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها» ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ [الأعراف: 159]. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في الآية قال: قال رسول الله ﷺ «إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى نزل». وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ يقول: سناخذهم من حيث لا يعلمون، قال: عذاب بدر. وأخرج أبو الشيخ، عن يحيى بن المثنى في الآية قال: كلما أخذوا ذنباً جددنا لهم نعمة، تنسيهم الاستغفار. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن سفيان في الآية قال: نسيغ عليهم النعمة ونمنعهم شكرها. وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي عن ثابت البناني، أنه سئل عن الاستدرج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين. وأخرج أبو الشيخ، في قوله: ﴿واملي لهم﴾ يقول: أكف عنهم ﴿إن كيدي متين﴾ إن مكري شديد، ثم نسخها الله فانزل ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كيد الله العذاب والنقمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: نكر لنا: «إن نبي الله ﷺ قام على الصفا، فدعا قريشاً فحذاً - فحذاً: يا بني فلان يا بني فلان، يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قاتل إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت حتى أصبح، فانزل الله: ﴿اولم يتفكروا ما يصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين﴾

هو من الدرجة، فالاستدرج: أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود، ومنه درج الصبي: إذا قارب بين خطاه، والدرج الكتاب: طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم: مات بعضهم في أثر بعض؛ والمعنى: سنستدينهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم، وذلك بإدراج النعم عليهم وإنساخهم شكرها، فيتمكنون في الغواية، ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك وأنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة. قوله: ﴿واملي لهم﴾ معطوف على سنستدرجهم: أي أطيل لهم المدة، وأملهم وأؤخر عنهم العقوبة، وجملة ﴿إن كيدي متين﴾ مقررة لما قبلها من الاستدرج والإملاء، ومؤكدة له، والكيد: المكر، والمتين: الشديد القوي، وأصله من المتن وهو اللحم الغليظ الذي على جانب الصلب. قال في الكشف: سماء كيداً، لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان، والاستفهام في ﴿اولم يتفكروا﴾ للإنكار عليهم حيث لم يتفكروا في شأن رسول الله ﷺ، وفيما جاء به «وما» في ﴿ما يصاحبهم﴾ للاستفهام الإنكاري، وهي في محل رفع بالابتداء والخبر بصاحبهم، والجنة مصدر: أي وقع منهم التكذيب، ولم يتفكروا أي شيء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون، فإنهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلاً، وقولهم زوراً وبهتاناً، وقيل إن «ما» نافية واسمها ﴿من جنة﴾ وخبرها بصاحبهم: أي ليس بصاحبهم شيء مما يدعون من الجنون، فيكون هذا رداً لقولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر: 60] ويكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿اولم يتفكروا﴾ والوقف عليه من الأوقاف الحسنة، وجملة ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ مقررة لمضمون ما قبلها، ومبينة لحقيقة حال رسول الله ﷺ، والاستفهام في ﴿اولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾ للإنكار والتقريع والتوبيخ، ولقصد التعجيب من إعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرته وتفردته بالإلهية، والملوك من أبنية المبالغة، ومعناه الملك العظيم وقد تقدم بيانه؛ والمعنى: إن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكير، ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتوا بذلك إلى الإيمان به، بل هم سادرون في ضلالتهم خائضون في غوايتهم لا يعملون فكراً ولا يمعنون نظراً. قوله: ﴿وما خلق الله من شيء﴾ أي: لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض، ولا فيما خلق الله من شيء من الأشياء كائناً ما كان، فإن في كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتفكرين، سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض، أو من دقائقها من سائر مخلوقاته. قوله: ﴿وإن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ معطوف على ملكوت، وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وخبرها عسى وما بعدها؛ أي أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فيموتون عن قريب. والمعنى: إنهم إذا كانوا يجوزون قرب أجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ يُنَزِّلُ السَّعَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَنَةً يُسْأَلُونَكَ كَالَّذِ هِيَ عِنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ لَا أَتَمْلِكُ لِنَفْسِي نَعْمًا

الساعة كأنك عالم بها، أو كأنه مستقص للسؤال عنها ومستكثر منه، والجملة التشبيهية في محل نصب على الحال أي: يسألونك مشبهاً حالك حال من هو حفي عنها؛ وقيل المعنى: يسألونك عنها كأنك حفي بهم: أي حفي ببرهم وفرح بسؤالهم. والأول: هو معنى النظم القرآني على مقتضى المسلك العربي. قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أمره الله سبحانه بأن يكرر ما أجاب به عليهم سابقاً لتقرير الحكم وتأكيد، وقيل: ليس بتكرير، بل أحدهما معناه الاستثثار بوقوعها، والآخر الاستثثار بكنهها نفسها. **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** باستثثار الله بهذا وعدم علم خلقه به، لم يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل. قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه الجملة متضمنة لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة إيان تكون ومتى تقع، لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له، أو دفع ضرر عنه إلا ما شاء الله سبحانه من النفع له والدفع عنه، فبالأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه، وفي هذا من إظهار العبودية والإقرار بالعجز عن الأمور التي ليست من شأن العبيد، والاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له **﴿لَا مَا فِيهِ أَعْظَمُ زَاجِرٍ، وَأَبْلَغُ وَأَعْظَمُ لِمَنْ يَدْعِي لِنَفْسِهِ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا، وَيَنْتَحِلُ عِلْمَ الْغَيْبِ بِالنَّجْمَةِ أَوْ الرَّمْلِ أَوْ الطَّرِيقِ بِالْحَصَا أَوْ الزَّجَرِ، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا وَقَرَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾** أي: لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته إلى نفسي وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسنني، ولكنني عبد لا أدري ما عند ربي، ولا ما قضاء في وقدره لي، فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه؛ وقيل المعنى: لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرّفني لفعلته؛ وقيل: لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أغلب؛ وقيل: لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه، والأولى حمل الآية على العموم، فتندرج هذه الأمور وغيرها تحتها؛ وقد قيل: إن **﴿وَمَا مَسْنِيَّ السَّوءِ﴾** كلام مستأنف، أي: ليس بي ما تزعمون من الجنون والأولى: أنه متصل بما قبله، والمعنى: لو علمت الغيب ما مسني السوء، ولحذرت عنه كما قدّمنا ذلك. قوله: **﴿إِنَّا إِنَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** أي: ما أنا إلا مبلغ عن الله لأحكامه أنذر بها قوماً وأبشر بها آخرين، ولست أعلم غيب الله سبحانه، واللام في **﴿لِّقَوْمٍ﴾** متعلق بكلا الصفتين: أي بشير لقوم، ونذير لقوم، وقيل: هو متعلق ببشير، والمتعلق بنذير محذوف: أي نذير لقوم يكفرون، وبشير لقوم يؤمنون. قوله: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾** هذا كلام مبتدأ يتضمن نكر نعم الله على عباده وعدم مكافئتهم لها، مما يجب من الشكر والاعتراف بالعبودية، وأنه المنفرد بالإلهية. قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة: آدم، وقوله: **﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾** معطوف على **﴿خَلَقَكُمْ﴾** أي: هو الذي خلقكم من نفس آدم وجعل من هذه النفس زوجها، وهي حواء، خلقها من ضلع

وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السَّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٧﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا حَبِيبًا فَهَرَّتْ بِهِ فَمَنَّا أَفْلَحَ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا حَمَلًا لَّتَكُونَنَّ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٧٨﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا حَمَلًا كَمِثْلٍ شُرْكَاهُمْ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧٩﴾ أَيْشُرُكُومَ مَا لَا يَخْلُقُ مِنَّا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٨٠﴾ وَلَا يَسْتَلِيمُونَ لَكُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٨١﴾

قوله: **﴿يسألونك عن الساعة﴾** السائلون: هم اليهود، وقيل: قريش، والساعة: القيامة وهي من الأسماء الغالبة، وإطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، وإيان ظرف زمان مبني على الفتح. قال الرازي: إيان تقضي حاجتي إياناً أمانتي لنجحها أوانا ومعناه معنى متى، واشتقاقه من أي: وقيل من إين. وقراء السلمي «إيان» بكسر الهمزة وهو في موضع رفع. وعلى الخبر، **﴿ومرساها﴾** المبتدأ عند سيوييه، ومرساها بضم الميم: أي وقت إرسائها من أرساها الله: أي أثبها، وافتتح الميم من رست: أي ثبتت، ومنه: **﴿وقدور راسيات﴾** [سبا: 13]، ومنه رسا الجبل، والمعنى: متى يرسىها الله أي يثبتها ويوقعها، وظاهر **﴿يسألونك عن الساعة﴾** أن السؤال عن نفس الساعة، وظاهر **﴿إيان مرساها﴾** أن السؤال عن وقتها، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها في الوقت المعين لذلك، ثم أمره الله سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله: **﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾** أي: علمها باعتبار وقوعها عند الله لا يعلمها غيره ولا يهتدي إليها سواء **﴿لَا يَجْلِبُهَا لَوْقَتُهَا إِلَّا هُوَ﴾** أي: لا يظهرها لوقتها، ولا يكشف عنها إلا الله سبحانه، والتجلية: إظهار الشيء، يقال جلى لي فلان الخبر: إذا أظهره وأوضحه، وفي استثثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة، وتدبير بليغ كسائر الأشياء التي أخفاها الله واستأثر بعلمها. وهذه الجملة مقررّة لمضمون التي قبلها. قوله: **﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** قيل معنى ذلك: أنه لما خفي علمها على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة، لأن كل ما خفي علمه ثقيل على القلوب؛ وقيل المعنى: لا تطيقها السموات والأرض لعظمها، لأن السماء تنشق، والنجوم تتناثر، والبحار تنضب؛ وقيل: عظم وصفها عليهم؛ وقيل: ثقلت المسئلة عنها، وهذه الجملة مقررّة لمضمون ما قبلها أيضاً **﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾** إلا فجأة على غفلة، والبغته، مصدر في موضع الحال، وهذه الجملة كالتّي قبلها في التقرير. قوله: **﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾**. قال ابن فارس: الحفي العالم بالشيء، والحفي المستقصي في السؤال، ومنه قول الأعشى:

فان تسألني عني فيارب سائل حفي عن الأعشى به حيث أصددا
يقال أحفي في المسئلة وفي الطلب فهو محف، وحفي على التكثر مثل مخصب وخصيب. والمعنى: يسألونك عن

من أضلاعه؛ وقيل المعنى **﴿جعل منها﴾** من جنسها، كما في قوله: **﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾** [النحل: 72] والأول: أولى **﴿ليسكن إليها﴾** علة للجعل: أي جعله منها لأجل يسكن إليها يأنس إليها ويطمئن بها، فإن الجنس بجنسه أسكن وإليه أنس، وكان هذا في الجنة كما وردت بذلك الأخبار: ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما، فقال: **﴿فلما تغشاهما﴾**، والتغشي كناية عن الوقاع: أي فلما جامعها **﴿حملت حملاً خفياً﴾** علقته به بعد الجماع، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقته، وعند كونه مضمغة أخف مما بعده، وقيل: إنه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه، ولم تجد منه ثقلاً كما تجده الحوامل من النساء، لقوله: **﴿فمرت به﴾** أي: استمرت بذلك الحمل تقوم وتقع، وتمضى في حوائجها لا تجد به ثقلاً، والوجه الأول، لقوله: **﴿فلما أثقلت﴾** فإن معناه: فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها، وقرئ «فمرت به» بالتخفيف: أي فجزعت لذلك، وقرئ «فمارت به» من المور، وهو المجيء والذهاب؛ وقيل المعنى: فاستمرت به. وقد رويت قراءة التخفيف عن ابن عباس، ويحيى بن يعمر، ورويت قراءة «فمارت» عن عبد الله بن عمر، وروى عن ابن عباس أنه قرأ «فاستمرت به» قوله: **﴿دعوا الله ربهما﴾** جواب لما أي: دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما **﴿لئن أتيتنا صالِحاً﴾** أي: ولداً صالحاً، واللام جواب قسم محذوف، و**﴿لنكونن من الشاكرين﴾** جواب القسم ساء مسد جواب الشرط: أي من الشاكرين لك على هذه النعمة؛ وفي هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ما حدث في بطن حواء من أثر ذلك الجماع هو من جنسهما، وعلماً بثبوت النسل المتأثر عن ذلك السبب **﴿فلما أتاهما﴾** ما طلباه من الولد الصالح وأجاب دعاهما **﴿جعلاً له شركاء فيما أتاهما﴾** قال كثير من المفسرين: إنه جاء إبليس إلى حواء وقال لها: إن ولدت ولداً فسميه باسمي فقالت: وما اسمك؟ قال: الحارث ولو سمي لها نفسه لعرفته، فسمته عبد الحارث، فكان هذا شركاً في التسمية ولم يكن شركاً في العبادة. وإنما قصداً أن الحارث كان سبب نجاة الولد كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه كما قال حاتم الطائي:

ونكرنا أنه خلاف الأولى لأمر منها **﴿وجعل منها زوجها﴾** بأن هذا إنما هو لحواء، ومنها **﴿دعوا الله ربهما﴾** فإن كل مولود يولد بين الجنسين، لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء. وقد قرأ أهل المدينة وعاصم «شركاً» على التوحيد. وقرأ أبو عمرو، وسائر أهل الكوفة بالجمع. وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى. وأجيب عنه بأنها صحيحة على حذف المضاف: أي جعلاً له ذا شرك، أو نوي شرك، والاستقهام في **﴿أيشركون مالا يخلق شيئاً﴾** للتقريع والتوبيخ أي كيف يجعلون لله شريكاً لا يخلق شيئاً ولا يقدر على نفع لهم، ولا نفع عنهم. قوله: **﴿وهم يخلقون﴾** عطف على **﴿مالا يخلق﴾** والضمير راجع إلى الشركاء الذين لا يخلقون شيئاً، أي هؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقين، وجمعهم جمع العقلاء لاعتقاد من جعلهم شركاء أنهم كذلك **﴿ولا يستطيعون لهم﴾** أي: لمن جعلهم شركاء **﴿ينصرون﴾** إن طلبه منهم **﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾** إن حصل عليهم شيء من جهة غيرهم، ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن عباس، قال: قال حمل بن أبي قيس، وشمول بن زيد لرسول الله ﷺ: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فإنا نعلم ما هي؟ فأنزل الله **﴿يسألونك عن الساعة إيان مرساهما قل إنما علمها عند ربي﴾** إلى قوله: **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة **﴿إيان مرساهما﴾** أي: متى قيامها؟ **﴿قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾** قال: قالت قريش يا محمد أسر إلينا الساعة لما بيننا وبينك من القرابة؟ قال: **﴿يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله﴾** ونكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «تهيج الساعة بالناس والرجل يسقي على ماشيته، والرجل يصلح حوضه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه، والرجل يقيم سلعته في السوق قضاء الله لا تاتيكم إلا بغتة» وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿إيان مرساهما﴾** قال: منتهاها. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة، وأبو الشيخ عن مجاهد **﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾** يقول: لا يأتي بها إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في الآية قال: هو يجليها لوقتها لا يعلم ذلك إلا الله. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿ثقلت في السموات والأرض﴾** قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: **﴿ثقلت في السموات والأرض﴾** قال: ثقل علمها على أهل السموات والأرض يقول كبرت عليهم. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: **﴿ثقلت في السموات**

والأرض قال: إذا جاءت انشقت السماء، وانتثرت النجوم. وكوّرت الشمس، وسيرت الجبال، وما يصيب الأرض، وكان ما قال الله سبحانه فذلك ثقلها فيهما. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْةٌ﴾** قال: فجأة آمنين. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في البعث، عن مجاهد، في قوله: **﴿كَانَكَ حَفِيَّ عَنْهَا﴾** قال: استخفيت عنها السؤال حتى علمتها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿كَانَكَ حَفِيَّ عَنْهَا﴾** يقول: كانك عالم بها: أي لست تعلمها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عنه **﴿كَانَكَ حَفِيَّ عَنْهَا﴾** قال: لطيف بها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عنه، أيضاً **﴿كَانَكَ حَفِيَّ عَنْهَا﴾** يقول: كان بينك وبينهم مودةً كأنك صديق لهم، قال لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه: **﴿إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾** استأثر بعلمها، فلم يطلع ملكاً ولا رسولاً. وأخرج عبد بن حميد، عن عمرو بن دينار قال: كان ابن عباس يقرأ «كانك حفي بها» وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج **﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾** قال: الهدى والضلالة **﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾** متى أموت **﴿لَا اسْتَكَثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾** قال: العمل الصالح. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا اسْتَكَثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾** قال: لعلمت إذا اشترت شيئاً ما أربح فيه فلا أبيع شيئاً لأربح فيه **﴿وَمَا مَسْنِي السُّوءِ﴾** قال: ولا يصيبني الفقر. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد في قوله: **﴿وَمَا مَسْنِي السُّوءِ﴾** قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والرويانى، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، فكان ذلك من وحى الشيطان وأمره». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه، عن سمرة في قوله: **﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾** قال: سمياه عبد الحارث. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن أبي بن كعب، نحو حديث سمرة المرفوع موقوفاً عليه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: حملت حواء فاتها إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعنني أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولا فعلن ولا فعلن يخوفهما، سمياه عبد الحرث، فأبى أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت فاتها أيضاً فقال مثل ذلك، فأبى أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت فاتها فذكر لهما، فأنكرهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: **﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا**

آتَاهُمَا﴾. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن، في الآية قال: كان هذا في بعض أهل الملل وليس بآدم. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه، عن سمرة، في قوله: **﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾** لم يستبن **﴿فَمَزَتْ بِهِ﴾** لما استبان حملها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿فَمَزَتْ بِهِ﴾** قال: فشكت أحملت أم لا. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن أيوب قال: سئل الحسن عن قوله: **﴿فَمَزَتْ بِهِ﴾** قال: لو كنت عربياً لعرفتها إنما هي استمرت بالحمل. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: **﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾** قال: هي النطفة **﴿فَمَزَتْ بِهِ﴾** يقول: استمرت به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: **﴿فَمَزَتْ بِهِ﴾** قال: فاستمرت به. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ميمون بن مهران **﴿فَمَزَتْ بِهِ﴾** يقول: استخفته. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي صالح في قوله: **﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾** فقال: أشفقاً أن يكون بهيمة، فقالا لئن آتينا بشراً سوياً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن في الآية قال غلاماً سوياً. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس، في قوله: **﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾** قال: كان شريكاً في طاعة ولم يكن شريكاً في عبادة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه، قال: ما أشرك آدم إن أولها شكر، وآخرها مثل ضربه لمن بعده. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: **﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** هذا فصل من آية آدم خاصة في آلهة العرب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن الحسن، في الآية قال: هذا في الكفار يدعون الله فإذا آتاهما صالحاً هوداً أو نصراً، ثم قال: **﴿الْيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ﴾** يقول: يطيعون ما لا يخلق شيئاً، وهي الشياطين لا تخلق شيئاً وهي تخلق **﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾** يقول لمن يدعوه.

وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَمْسَرْتُمْ صَيْحُوتَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَشْأَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّ كَثْرَةَ صَدِيقِينَ ۖ أَلَهُمْ أَزْجَلُ يَمْسُورُونَ ۖ بَلَّاءُ أَمْ لَهُمْ آيَةٌ يَبْطِشُونَ ۖ بَلَّاءُ أَمْ لَهُمْ أَعْوَنُ يَمِيرُونَ ۖ بَلَّاءُ أَمْ لَهُمْ أَذَاتٌ يَمْسَعُونَ ۖ بَلَّاءُ قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُظْهِرُونَ ۖ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الْآلِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ بِرَأْيِ الْكَافِرِينَ ۖ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَهْرُتُونَ ۖ وَإِنَّ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُظْهِرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۚ

قوله: **﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ﴾** هذا خطاب للمشركون: أي إن وتدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى وإرشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوك لا يتبعوك ولا يجيبوك إلى ذلك، وهو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع، ودفع الضرر، والنصر على الأعداء. قال الاخفش معناه وإن

قوله: **﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ﴾** هذا خطاب للمشركون: أي إن وتدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى وإرشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوك لا يتبعوك ولا يجيبوك إلى ذلك، وهو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع، ودفع الضرر، والنصر على الأعداء. قال الاخفش معناه وإن

ودعوهم: أي الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم؛ وقيل: المراد من سبق في علم الله أنه لا يؤمن. وقرئ «لا يتبعوكم» مشدداً ومخففاً وهما لغتان. وقال بعض أهل اللغة أتبعه مخففاً: إذا مضى خلفه ولم يدركه، وأتبعه مشدداً: إذا مضى خلفه فادركه، وجملة «سواء عليكم ادعوتهم أم أنتم صامتون» مقررّة لمضمون ما قبلها: أي دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء لا فرق بينهما، لأنهم لا ينفعون ولا يضرّون ولا يسمعون ولا يجيبون، وقال: «لأنتم صامتون» مكان أصمت لما في الجملة الاسمية من المبالغة. وقال محمد بن يحيى: إنما جاء بالجملة الاسمية لكونها رأس آية، يعني لمطابقة «ولا انفسهم ينصرون» وما قبله. قوله: «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم» أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتهم آلهة هم عباد الله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم، لأنكم أحياء: تنطقون وتمشون، وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لأمره. وفي هذا تقرير لهم بالغ، وتوبيخ لهم عظيم، وجملة: «فادعوهم فليستجيبوا لكم» مقررّة لمضمون ما قبلها من أنهم إن دعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم، وأنهم لا يستطيعون شيئاً: أي ادعوا هؤلاء الشركاء، فإن كانوا كما تزعمون «فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين» فيما تدعونه لهم، من قدرتهم على النفع والضّر، والاستفهام في قوله: «ألهم أرجل» وما بعده للتقريع والتوبيخ: أي هؤلاء الذين جعلتهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم، فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم: «أرجل يمشون بها» في نفع انفسهم، فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم وليس «لهم أيد يبطشون بها» كما يبطش غيرهم من الأحياء، وليس «لهم أعين يبصرون بها» كما تبصرون، وليس «لهم آذان يسمعون بها» كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات، وبهذه المنزلة من العجز، وأم في هذه المواضع هي المنطقة التي بمعنى بل، والهمزة كما ذكره أئمة النحو. وقرأ سعيد بن جبير: «إن الذين تدعون» بتخفيف إن ونصب عباداً: أي ما الذين تدعون «من دون الله عباداً أمثالكم» على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية، وقد ضعفت هذه القراءة بأنها خلاف ما رجحه سيبويه وغيره من اختيار الرفع في خبرها، وبأن الكسائي قال: إنها لا تكاد تأتي في كلام العرب بمعنى «ما» إلا أن يكون بعدها إيجاب كما في قوله: «إن الكافرون إلا في غرور» [الملك: 20]، والبطش: الأخذ بقوة. وقرأ أبو جعفر «يبطشون» بضم الطاء، وهي لغة، ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام وتعاور وجوه النقص والعجز لها من كل باب، أمره الله بأن يقول لهم: ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضّر «ثم كيديني» أنتم وهم جميعاً بما شئتم من

وجوه الكيد «فلا تنظرون» أي: فلا تمهلوني ولا تؤخرون إنزال الضرر بي من جهتها، والكيد: المكر، وليس بعد هذا التحديّ لهم والتعجيز لأصنامهم شيء ثم قال لهم: «إن ولي الله الذي نزل الكتاب» أي: كيف أخاف هذه الأصنام التي هذه صفتها، ولي ولي الجأ إليه واستنصر به، وهو الله عز وجل «الذي نزل الكتاب» وهذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بها وولي الشيء هو الذي يحفظه، ويقوم بنصرته، ويمنع منه الضرر «وهو يتولى الصالحين» أي: يحفظهم وينصرهم، ويحول ما بينهم وبين أعدائهم. قال الأخفش: وقرئ «إن ولي الله الذي نزل الكتاب» يعني جبرائيل. قال النحاس: هي قراءة عاصم الجحدري والقراءة الأولى أبين لقوله: «وهو يتولى الصالحين». قوله: «والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون» كرّر سبحانه هذا لمزيد التأكيد والتقريع، ولما في تكرار التوبيخ والتقريع من الإهانة للمشركين، والتقصص بهم، وإظهار سخف عقولهم، وركاكة أحلامهم «وتراهم ينظرون إليك» جملة مبتدأة لبيان عجزهم، أو حاله: أي والحال أنك تراهم ينظرون إليك حال كونهم لا يبصرون، والمراد: الأصنام إنهم يشبهون الناظرين، ولا أعين. لهم يبصرون بها، قيل: كانوا يجعلون للأصنام أعياناً من جواهر مصنوعة، فكانوا بذلك في هيئة الناظرين، ولا يبصرون. وقيل: المراد بذلك المشركون، أخبر الله عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم، وإن أبصروا بها غير ما فيه نفعهم.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير قال: وجاء بالشمس والقمر حتى يلقياً بين يدي الله تعالى، وجاء بمن كان يعبدهما، فيقال: «ادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي، في قوله: «وتراهم ينظرون إليك» قال: هؤلاء المشركون. وأخرج هؤلاء أيضاً عن مجاهد، في قوله: «وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون» ما يدعوهم إليه من الهدى.

خُذِ الْقُرْآنَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٨٨﴾ وَإِنَّا نَرْغَبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَوْدَ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّكَ إِلَهِكَ أَتَقُولُ إِذَا مَسَّهُمْ كَلِمَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِنَّا مُنَجِّوهُمْ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّا لَنُحْيِيهِمْ فِي الْقَبْرِ ثُمَّ لَا نُحْيِيهِمْ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّا لَنَمُوتُهُمْ بِنَايَ قَاتِلِهِمْ أَتَقُولُ لَمَّا جَنَّتْهَا قُلُوبُهُمْ أَتَقُولُ لَمَّا جَنَّتْ قُلُوبُهُمْ وَأَنَّا أَتَيْنَا مَا يَدْعُو مِن رَّبِّهِ هَذَا بَصَائِرَ لِّمَن رَّبَّيْكُمْ وَمَعْدَى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنَّا قَرِئَةُ الْقُرْآنِ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٩٣﴾ وَأَذْكُرَنَّكَ فِي نَفْسِكَ نَضْرِبُهَا رَحِمَةً وَدَرَنَ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ بِالْقُدْرَةِ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٩٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ. وَسَبِّحُوا لَهُ وَلَمْ يَسْجُدْ لَهُ ﴿١٩٥﴾

قوله: «خذ العفو» لما عذّب الله ما عذده من أحوال المشركين وتسفيه رأيهم وضلال سعيهم: أمر رسوله ﷺ بأن يأخذ العفو من أخلاقهم، يقال أخذت حقي عفواً: أي

الخيال: ﴿فَإِذَا هُمْ مَبْصُرُونَ﴾ بسبب التذكر: أي منتبهون وقيل على بصيرة. وقرأ سعيد بن جبيرة ﴿تَذَكَّرُوا﴾ بتشديد الذال. قال النحاس: ولا وجه له في الغربية. قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ قيل المعنى: وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضلال الإنس، على أن الضمير في إخوانهم يعود إلى الشيطان المذكور سابقاً، والمراد به الجنس، فجاز إرجاع ضمير الجمع إليه. ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي: تمدُّهم الشياطين في الغي وتكون مدداً لهم، وسميت الفجار من الإنس إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم ويقتدون بهم؛ وقيل: إن المراد بالإخوان الشياطين، وبالضمير الفجار من الإنس، فيكون الخبر جارياً على من هو له. وقال الزجاج: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ لأن الكفار إخوان الشياطين، ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ الاقتصار: الانتهاء عن الشيء: أي لا تقصر الشياطين في مدِّ الكفار في الغي، قيل: إن في الغي متصلاً بقوله ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ وقيل: بالإخوان، والغى: الجهل. قرأ نافع ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ بضم حرف المضارعة وكسر الميم. وقرأ الباقون بفتح حرف المضارعة وضم الميم، وهما لغتان: يقال مدّ وأمد. قال مكي: ومدّ أكثر. وقال أبو عبيد وجماعة من أهل اللغة: فإنمه يقال إذا كثّر شيء شيئاً بنفسه مدّه، وإذا كثّره بغيره، قيل: أمده نحو ﴿يَمُدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [آل عمران: 125] وقيل: يقال: مددت في الشرّ وأمدت في الخير. وقرأ عاصم الجحدي ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾. وقرأ عيسى بن عمر ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف. قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه: أي جمعه، أي: هلا اجتمعته افتعلاً لها من عند نفسك؛ وقيل: المعنى اختلقتها، يقال: اجتبيت الكلام: انتحلته واختلقتها واخترعت إذا جئت به من عند نفسك، كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا تراخى الوحي هذه المقالة، فأمره الله بأن يجيب عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا اتَّبَعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: لست ممن يأتي بالآيات من قبل نفسه كما تزعمون ﴿بَلْ إِنَّمَا اتَّبَعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾، فما أوحاه إليّ وأنزله عليّ أبليته إليكم، وبصائر جمع بصيرة: أي هذا القرآن المنزل عليّ هو ﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يتبصر بها من قبلها؛ وقيل: البصائر الحجج والبراهين. وقال الزجاج: البصائر الطرق ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على بصائر: أي هذا القرآن هو بصائر وهدي يهتدي به المؤمنون ورحمة لهم. قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ أمرهم الله سبحانه بالاستماع للقرآن والإنصات له عند قراءته؛ لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح؛ قيل: هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام، ولا يخفك أن اللفظ أوسع من هذا والعام لا يقصر على سببه، فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة

سهلاً، وهذا نوع من التيسير الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ، كما ثبت في الصحيح أنه كان يقول: «يسرّوا ولا تعسرّوا وبشروا ولا تنفروا» والمراد بالعفو هنا ضد الجهد، وقيل المراد: خذ العفو من صدقاتهم ولا تشدّد عليهم فيها وتأخذ ما يشقّ عليهم، وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة ﴿وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف. وقرأ عيسى بن عمر «بالعرف» بضمّتين، وهما لغتان، والعرف والمعروف والعارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس، ومنه قول الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: إذا أقمت الحجة في أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا، فأعرض عنهم ولا تمارهم ولا تسافهم مكافأة لما يصدر منهم من المرء والسفاهة؛ قيل: وهذه الآية هي من جملة ما نسخ بآية السيف، قاله عبد الرحمن بن زيد وعطاء؛ وقيل هي محكمة، قاله مجاهد وقتادة. قوله: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَغُنَا مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ النزغ: الوسوسة وكذا النزغ والنخس. قال الزجاج: النزغ أننى حركة تكون، ومن الشيطان أننى وسوسة، وأصل النزغ: الفساد، يقال نزغ بيننا: أي أقسد، وقيل النزغ: الإغواء، والمعنى متقارب، أمر الله سبحانه نبيه ﷺ إذا أدرك من وسوسة الشيطان أن يستعيز بالله؛ وقيل إنه لما نزل قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال النبي ﷺ: «كيف ياربّ بالغضب» فنزلت، وجملة ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ علة لأمره بالاستعاذة أي: استعذ به والتجئ إليه، فإنه يسمع ذلك منك ويعلم به، وجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ مقررّة لمضمون ما قبلها أي: إن شأن الذين يتقون الله، وحالهم هو التذكر لما أمر الله به من الاستعاذة به، والالتجاء إليه، عند أن يمسه طائف من الشيطان وإن كان يسيراً. قرأ أهل البصرة ﴿طَيْفٌ﴾ وكذا أهل مكة. وقرأ أهل المدينة والكوفة ﴿طَائِفٌ﴾. وقرأ سعيد بن جبيرة ﴿طَيْفٌ﴾ بالتشديد. قال النحاس: كلام العرب في مثل هذا طيف بالتخفيف على أنه مصدر من طاف طيف. قال الكسائي: هو مخفف مثل ميت وميت. قال النحاس ومعناه في اللغة ما يتخيل في القلب أو يرى في النوم، وكذا معنى طائف. قال أبو حاتم: سألت الأصمعي عن طيف فقال: ليس في المصادر فيعمل. قال النحاس: ليس هو مصدرًا ولكن يكون بمعنى طائف؛ وقيل: الطيف والطائف معنيان مختلفان، فالأول: التخيل، والثاني: الشيطان نفسه. فالأول: من طاف الخيال يطوف طيفاً، ولم يقولوا من هذا طائف. قال السهيلي: لأنه تخيل لا حقيقة له، فاما قوله ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ [القلم: 19] فلا يقال فيه طيف لأنه اسم فاعل حقيقة. قال الزجاج: طفت عليهم أطوف، فطاف الخيال طيف. قال حسان:

فدع هذا ولكن من لطيف يؤرّقني إذا ذهب العشاء
وسميت الوسوسة طيفاً لأنها لمة من الشيطان تشبه لمة

القرآن في كل حالة، وعلى أي صفة مما يجب على السامع؛ وقيل: هذا خاص بقراءة رسول الله ﷺ للقرآن بون غيره، ولا وجه لذلك **﴿لعلمكم ترجمون﴾** أي: تنالون الرحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله سبحانه، ثم أمره الله سبحانه أن يذكره في نفسه، فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأدعى للقبول؛ قيل: المراد بالذكر هنا ما هو أعم من القرآن وغيره من الإنكار التي يذكر الله بها. وقال النحاس: لم يختلف في معنى **﴿وانكر ربك في نفسك﴾** أنه الدعاء؛ وقيل هو خاص بالقرآن: أي اقرأ القرآن بتأمل وتدبر و**﴿تضرعاً وخيفة﴾** منتصبان على الحال: أي متضرعاً وخائفاً، والخيفة: الخوف، وأصلها خوفاً قلبت الواو باء لانكسار ما قبلها. وحكى الفراء أنه يقال في جمع خيفة خيف. وقال الجوهري: والخيفة الخوف والجمع خيف، وأصله الواو: أي خوف **﴿وبون الجهر من القول﴾** أي: بون المجهور به من القول، وهو معطوف على ما قبله: أي متضرعاً، وخائفاً، ومتكلماً بكلام هو بون الجهر من القول، و**﴿بالغنى والأصال﴾** متعلق بانكر أي أوقات الغنوات وأوقات الأصائل، والغنى: جمع غنوة، والأصال: جمع أصيل، قاله الزجاج والأخفش، مثل يمين وإيمان؛ وقيل الأصال جمع أصل، والأصل جمع أصيل، فهو على هذا جمع الجمع، قاله الفراء. قال الجوهري الأصل الوقت من بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أصل وأصال وأصائل كأنه جمع أصيلة. قال الشاعر:

لعمرى لانت البيت أكرم أمه
وأعدني أفتائه بالأصائل

ويجمع أيضاً على أصالان مثل بغير وبعران، وقرأ أبو مجلز «والإيصال» وهو مصدر. وخصّ هذين الوقتين لشرفهما، والمراد: بوم النكر **﴿ولا تكن من الغافلين﴾** أي: عن نكر الله **﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾** المراد بهم: الملائكة. قال القرطبي: بالإجماع. قال الزجاج: وقال عند ربك والله عز وجل بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده. وقال غيره: لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله؛ وقيل: إنهم رسل الله، كما يقال عند الخليفة جيش كثير، وقيل: هذا على جهة التشريف والتكريم لهم، ومعنى: **﴿يسبحونه﴾** يعظمونه وينزهونه عن كل شين **﴿وله يسبحون﴾** أي: يخصونه بعبادة السجود التي هي أشرف عبادة؛ وقيل المراد بالسجود: الخضوع والثلة، وفي نكر الملا الأعلى تعريض لبني آدم.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، والنحاس في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، عن عبد الله بن الزبير، في قوله: **﴿خذ العفو﴾** الآية قال: ما نزلت هذه الآية إلا في اختلاف الناس، وفي لفظ: أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، عن ابن عمر في قوله:

﴿خذ العفو﴾ قال: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي، قال: «لما أنزل الله: **﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾** قال رسول الله ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: لا أدري حتى أسأل العالم، فذهب ثم رجع فقال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك». وأخرج ابن مروي، عن جابر، نحوه. وأخرج ابن مروي، عن قيس بن سعد بن عباد، قال: لما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة بن عبد المطلب قال: «والله لأمثلن بسبعين منهم، فجاء جبريل بهذه الآية». وأخرج ابن مروي، عن عائشة، في قوله: **﴿خذ العفو﴾** ما عفا لك من مكارم الأخلاق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: **﴿خذ العفو﴾** قال: خذ ما عفا من أموالهم ما أتوك به من شيء فخذ، وهذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقة وتفصيلها. وأخرج ابن جرير، والنحاس، في ناسخه، عن السدي في الآية قال: الفضل من المال، نسخته الزكاة. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، قال: لما نزل **﴿خذ العفو﴾** الآية. قال رسول الله ﷺ: «كيف بالغضب يارب؟ فنزل **﴿وإما ينزغك من الشيطان نزغ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿إن الذين اتقوا﴾** قال هم المؤمنون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿إذا مسهم طيف من الشيطان﴾** قال: الغضب. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الطيف: الغضب. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿تذكروا﴾** قال: إذا زلوا تابوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، عن ابن عباس، في الآية قال الطائف: اللمة من الشيطان **﴿تذكروا فإذا هم مبصرون﴾** يقول: فإذا هم منتبهون عن المعصية، أخذون بأمر الله، عاصون للشيطان **﴿وإخوانهم﴾** قال: إخوان الشياطين: **﴿يؤمنونهم في الغي﴾** ثم لا يقصرون. قال: لا الإنس يمسون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم و**﴿إذا لم تاتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾** يقول: لولا أحدثتها لولا تلقيتها فانشأتها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عنه **﴿وإخوانهم يؤمنونهم في الغي﴾** قال: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس **﴿ثم لا يقصرون﴾** يقول: لا يسامون **﴿وإذا لم تاتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾** يقول: هلا افتعلتها من تلقاء نفسك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، وابن عساكر، عن أبي هريرة، في قوله: **﴿وإذا قرئ القرآن﴾** الآية قال: نزلت في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن ابن عباس، في الآية قال: يعني في الصلاة المفروضة. وأخرج ابن مروي، والبيهقي، عنه قال: صلى النبي ﷺ، فقرأ خلفه قوم فخلطوا،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ قَاتِلُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

الأنفال جمع نفل محرّكاً، وهو الغنيمة، ومنه قول عنترة: **إِنَّا إِذَا أَحْمَرُ اللَّوْغَى نَزَوِي الْقَنَا** ونعف عند مقاسم الأنفال أي الغنائم، وأصل النفل: الزيادة، وسميت الغنيمة به لأنها زيادة فيما أحلّ الله لهذه الأمة مما كان محرّماً على غيرهم، أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد، ويطلق النفل على معانٍ آخر منها اليمين، والابتغاء ونبت معروف. والثافلة التطوُّع لكونها زائدة على الواجب، والثافلة: ولد الولد، لانه زيادة على الولد، وكان سبب نزول الآية: اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في يوم بدر، كما سيأتي بيانه فنزع الله ما غنموه من أيديهم، وجعله لله والرسول، فقال: ﴿**قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ أي حكمها مختص بهما يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه، وليس لكم حكم في ذلك.

وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خاصة، ليس لأحد فيها شيء حتى نزل قوله تعالى: ﴿**وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ**﴾ [الأنفال: 41]. ثم أمرهم بالتقوى، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وترك الاختلاف الذي وقع بينهم، ثم قال: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ أي: امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم مؤمنين بالله، وفيه من التهيج والإلهاب ما لا يخفى، مع كونهم في تلك الحال على الإيمان فكانه قال: إن كنتم مستمزين على الإيمان بالله، لأن هذه الثلاثة الأمور التي هي تقوى الله، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله والرسول، لا يكمل الإيمان بدونها، بل لا يثبت أصلاً لمن لم يمتثلها، فإن من ليس بمتقٍ وليس بمطيع لله ورسوله ليس بمؤمن.

وقد أخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن أبي أمامة، قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعها الله من أيدينا وجعلها إلى الرسول ﷺ، فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بواء يقول: عن سواء. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غزاة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب،

فنزلت: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ**﴾ الآية، فهذه في المكتوبة. قال: وإن كنا لم نستمع لمن يقرأ بالأخفى من الجهر. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم، والبيهقي عن محمد بن كعب القرظي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي عن عبد الله بن مغفل نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن ابن مسعود، نحوه أيضاً، وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف، وصرحوا بأن هذه الآية نزلت في قراءة الصلاة من الإمام. وأخرج ابن أبي شيبة، عن الحسن، في الآية قال: عند الصلاة المكتوبة، وعند الذكر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في الآية قال: في الصلاة وحين ينزل الوحي. وأخرج البيهقي عنه في الآية أنه قال: هذا في الصلاة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿**وَأَنْذِرْ رِبْكَ فِي نَفْسِكَ**﴾ الآية قال: أمره الله أن ينكره، ونهاه عن الغفلة: أما بالغفوة فصلاة الصبح، والأصالة بالعشي وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي صخر. قال: الأصالة ما بين الظهر والعصر. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في الآية قال: لا تجهر بذاك ﴿**بِالْغَفْوِ وَالْأَصَالِ**﴾ بالبكر والعشي. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿**بِالْغَفْوِ**﴾ قال: آخر الفجر صلاة الصبح، والأصالة آخر العشي صلاة العصر، والأحاديث والآثار عن الصحابة في سجود التلاوة، وعدد المواضع التي يسجد فيها، وكيفية السجود، وما يقال فيه مستوفاة في كتب الحديث والفقه، فلا نطوّل بإيراد ذلك هاهنا.

تفسير سورة الأنفال

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية ولم يستثنوا منها شيئاً، وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء: وقد روي مثل هذا عن ابن عباس، أخرجه النحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عنه، قال: سورة الأنفال نزلت بالمدينة. وأخرجه ابن مردويه، عن عبد الله بن الزبير. وأخرجه ابن مردويه أيضاً عن زيد بن ثابت. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: نزلت في بدر. وفي لفظ تلك سورة بدر. قال القرطبي: قال ابن عباس هي مدنية إلا سبع آيات من قوله: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ [الأنفال: 30 - 36] إلى آخر سبع آيات، وجملة آيات هذه السورة ست وسبعون آية، وقد كان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب كما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن أبي أيوب وأخرج أيضاً عن زيد بن ثابت عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ في الركعتين من المغرب بسورة الأنفال.

فنزلت: ﴿يسالونك عن الأنفال﴾ الآية، فقسم النبي ﷺ الغنائم بينهم بالسوية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يسالونك عن الأنفال﴾ قال: الأنفال المغنم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ما أصاب من سرايا المسلمين من شيء أتوه به، فمن حبس منه إبرة أو سلكاً فهو غلول، فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئاً فانزل الله: ﴿يسالونك عن الأنفال قل الأنفال﴾ لي جعلتها ولرسولي ليس لكم فيها شيء. ﴿فانقلوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ إلى قوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ ثم أنزل الله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ [الأنفال: 41] الآية، ثم قسم تلك الخمس لرسول الله ﷺ، ولذي القربى واليتامى، والمساكين، والمهاجرين في سبيل الله، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء، للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، وللراجل سهم. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يسالونك عن الأنفال﴾ قال: هي الغنائم، ثم نسخها ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ الآية. وأخرج مالك وابن أبي شيبة، وأبو عبيد، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس وأبو الشيخ، وابن مردويه عن القسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال: الفرس من النفل، والسلب من النفل، فأعاد المسئلة فقال ابن عباس: هذا مثل ضبيع الذي ضربه عمر؛ وفي لفظ: فقال ما أحوك أن يصنع بك كما صنع عمر بضبيع العراقي، وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه، قال: الأنفال المغنم، أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها، فيرد القوي على الضعيف. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس، وأبو الشيخ، عن عطاء، في قوله: ﴿يسالونك عن الأنفال﴾ قال: هو ما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال، من عبد أو دابة أو متاع، فذلك للنبي ﷺ، يصنع به ما شاء، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن محمد بن عمرو، قال: أرسلنا إلى سعيد بن المسيب نسأله عن الأنفال فقال: تسالوني عن الأنفال، وإنه لا نفل بعد رسول الله ﷺ. وأخرج عبد الرزاق عن سعيد أيضاً قال: ما كانوا ينفلون إلا من الخمس وروى عبد الرزاق عنه أنه قال: لا نفل في غنائم المسلمين إلا في خمس الخمس. وأخرج عبد الرزاق عن أنس أن أميراً من الأمراء أراد أن ينفله قبل أن يخمسه، فأبى أنس أن يقبله حتى يخمسه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الشعبي، في قوله: ﴿يسالونك عن الأنفال﴾ قال: ما أصابت السرايا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، والنحاس في ناسخه، عن مجاهد، وعكرمة، قال: كانت الأنفال لله والرسول، حتى نسخها آية الخمس ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ [الأنفال: 41] الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، في الألب المفرد، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن

وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا نحن نفينا عنه العدو وهزمتهم، وقال الذين أحققوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا نحن أحققنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يسالونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ قسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، وإذا أقيلاً راجعاً وكل الناس نفل الثلث، وكان يكره الأنفال ويقول: ليرد قوي المسلمين على ضعيفهم. وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي أيوب الأنصاري قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فنصرها الله وفتح عليها، فكان من آتاه بشيء نفعه من الخمس، فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلونه ويأسرون وتركوا الغنائم خلفهم، فلم ينالوا من الغنائم شيئاً، فقالوا: يا رسول الله ما بال رجال منا يستقدمون ويأسرون، وتخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم بالغنمية؟ فسكت رسول الله ﷺ ونزل: ﴿يسالونك عن الأنفال﴾ الآية، فدعاهم رسول الله ﷺ، فقال: «ربوا ما أخذتم واقتسموا بالعدل والسوية فإن الله يامركم بذلك، فقالوا: قد أنفقنا وأكلنا، فقال احتسبوا بذلك. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن سعد بن أبي وقاص، قال قلت: يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف، فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه، فوضعت، ثم رجعت قلت عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائي إذا رجل يدعوني من ورائي، قلت: قد أنزل الله في شيئاً؟ قال: كنت سألتي هذا السيف وليس هو لي، وإنه قد وهب لي فهو لك. وأنزل الله هذه الآية: ﴿يسالونك عن الأنفال﴾ وفي لفظ لأحمد أن سعداً قال: لما قتل أخي يوم بدر، وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكنية فاتيت به رسول الله ﷺ، ثم ذكر نحو ما تقدم، وقد روي هذا الحديث عن سعد من وجوه آخر. وأخرج ابن جرير وابن مردويه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده: أن الناس سألوا رسول الله ﷺ الغنائم يوم بدر، فنزلت: ﴿يسالونك عن الأنفال﴾. وأخرج ابن مردويه عنه قال: لم ينفل النبي ﷺ بعد إذ نزلت عليه ﴿يسالونك عن الأنفال﴾ إلا من الخمس فإنه نفل يوم خيبر من الخمس. وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداء، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا، فاختصموا إلى النبي ﷺ،

عند ربههم ﴿خبر ثاں ﴿اولئك﴾ أو مستأنفة جواباً لسؤال مقدر، ﴿ومغفرة﴾ معطوف على درجات أي مغفرة للذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ يكرمهم الله به من واسع فضله، وفائض جوده.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وجلت قلوبهم﴾ قال: فرقت قلوبهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، أيضاً في الآية قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من نكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غلبوا، ولا يؤتون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا نكر الله وجلت قلوبهم﴾ فأنوا فرائضه. وأخرج الحكيم الترمذي، وابن جرير، وأبو الشيخ، من طريق شهر بن حوشب، عن أم الدرداء قالت: إنما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر بن حوشب، أما تجد قشعريرة؟ قلت بلى، قالت: فادع عندهما فإن الدعاء يستجاب عند ذلك. وأخرج الحكيم الترمذي عن ثابت البناني قال: قال فلان: إني لأعلم متى يستجاب لي؟ قالوا: ومن أين لك؟ قال: إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي، وفاضت عينا، فذلك حين يستجاب لي. وأخرج أيضاً، عن عائشة قالت: ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضربة السعفة، فإذا وجل أحدهم فليدع عند ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهيم بمعصية، فيقال له اتق الله فيبجل قلبه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿زانتهم إيماناً﴾ قال: تصديقاً. وأخرج هؤلاء عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿زانتهم إيماناً﴾ قال: خشية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ يقول: لا يرجون غيره. وأخرج عنه في قوله: ﴿اولئك هم المؤمنون حقا﴾ قال: برئوا من الكفر. وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿حقاً﴾ قال: خالصاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، في قوله: ﴿لهم درجات﴾ يعني فضائل ورحمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿لهم درجات﴾ قال: أعمال رفيعة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: ﴿لهم درجات﴾ قال: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه. ولا يرى الذي هو أسفل أنه فضل عليه لحد. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿ومغفرة﴾ قال: بترك الذنوب ﴿ورزق كريم﴾ قال: الأعمال الصالحة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي، قال إذا سمعتم الله يقول: ﴿ورزق كريم﴾ فهي الجنة.

ابن عباس، في قوله: ﴿واصلحوا ذات بينكم﴾ قال: هذا تخريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا في الأنفال. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مكحول، قال: كان صلاح ذات بينهم أن ردت الغنائم، فقسمت بين من ثبت عند رسول الله ﷺ وبين من قاتل وغنم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء، في قوله: ﴿واطيعوا الله ورسوله﴾ قال: طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُبَيِّتُونَ الْمَكَاتَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمْ يَجْعَلْهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَمَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣﴾

الوجل الخوف والفرع، والمراد أن حصول الخوف من الله والفرع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملين الإيمان والمخلصين لله، فالحصص باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان. قال جماعة من المفسرين: هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ، فيما أمر به من قسمة الغنائم، ولا يخفاك أن هذا وإن صح إدراج تحت معنى الآية، من جهة أن وجل القلوب عند الذكر وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يستلزمان أمثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول، ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال، ولا بوقت دون وقت، ولا بواقعة دون واقعة، والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة أو التعبير عن بديع صنعته، وكمال قدرته في آياته التكوينية بذكر خلقها البديع وعجائبها التي يخضع عند نكرها المؤمنون، قيل والمراد بزيادة الإيمان: هو زيادة انشراح الصدر وطمانينة القلب وانثلاج خاطر عند تلاوة الآيات؛ وقيل المراد بزيادة الإيمان: زيادة العمل؛ لأن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ لا على غيره، والتوكل على الله: تفويض الأمر إليه في جميع الأمور والموصول في قوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ في محل رفع على أنه وصف للموصول الذي قبله، أو بدل منه، أو بيان له، أو في محل نصب على المدح، وخص إقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وإساسه، و«من» في ﴿مما﴾ للتبعية والإشارة بقوله: ﴿اولئك﴾ إلى المتصفين بالأوصاف المتقدمة، وهو مبتدأ وخبره ﴿هم المؤمنون﴾ أي: أن هؤلاء هم الكاملون الإيمان البالغون فيه إلى أعلى درجاته، وأقصى غاياته و ﴿حقاً﴾ مصدر مؤكد لمضمون جملة هم المؤمنون: أي حق ذلك حقاً أو صفة مصدر محذوف: أي هم المؤمنون إيماناً حقاً، ثم ذكر ما أعد لمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال ﴿لهم درجات﴾ أي: منازل خير وكرامة، وشرف في الجنة كائنة عند ربههم، وفي كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم، وتعظيم وتقدير؛ وجملة ﴿لهم درجات

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرَبَنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاهُونَ ﴿٤﴾ بَجَدَلُوكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّا بُسُوفُونَ إِلَى الْأَوْتَارِ وَمِمَّا يَنْظُرُونَ

﴿وَإِذْ يَبْدَأُ اللَّهُ الْخَلْقَ الْإِنْسَانِ الْمَالِكِينَ أَنَا لَكُمْ وَرُودُونَ أَنْ عَرِّ ذَاتِ
الْكَرَّةِ تَكُونُ لَكُمْ وَرِيدُ اللَّهِ أَنْ يَحْيِيَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ
الْكَافِرِينَ﴾ (٧) ﴿يَحْيِيَ لَقَى وَيَبُولُ الْبَطْلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨)

قوله: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ قال الزجاج: الكاف في موضع نصب: أي الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق: أي مثل إخراج ربك، والمعنى: امض لأمرك في الغنائم ونفل من شئت، وإن كرهوا، لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً قال: بقي أكثر الناس بغير شيء، فموضع الكاف نصب كما نكرنا، وبه قال الفراء وقال أبو عبيدة: هو قسم: أي والذي أخرجك، فالكاف بمعنى الولو، وما بمعنى الذي. وقال الأخفش سعيد بن مسعدة: المعنى أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك. وقال عكرمة المعنى: أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك؛ وقيل كما أخرجك متعلق بقوله: ﴿لهم درجات﴾ أي: هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ الواجب له، فأنجز وعيدك وظفرك بعدوك وأوفى لك، نكره النحاس واختاره؛ وقيل الكاف في «كما» كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعيده: كما وجهتك إلى أعدائي فاستضعفوك، وسألت مدداً فأمديتكم وقويتكم وأزحت علتك، فخذهم الآن فعاقبهم؛ وقيل: إن الكاف في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال كمال إخراجك يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب، نكره صاحب الكشاف، وبالحق متعلق بمحذوف، والتقدير: إخراجاً متلبساً بالحق الذي لا شبهة فيه، وجملة ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ في محل نصب على الحال: أي كما أخرجك في حال كراهتهم لذلك، لأنه لما وعدهم الله إحدى الطائفتين، إما العير أو النفير، رغبوا في العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال كما سيأتي بيانه، وجملة ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين لهم﴾ إما في محل نصب على أنها حال بعد حال، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر، ومجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين، وفات العير وأمرهم بقتال النفير، ولم يكن معهم كثير أمة، لذلك شق عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة وأكملنا الأهبة، ومعنى ﴿في الحق﴾ أي: في القتال بعد ما تبين لهم أنك لا تأمر بالشيء إلا بإذن الله، أو بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم بالظفر بإحدى الطائفتين، وإن العير إذا فاتت ظفروا بالنفير، و«بعد» ظرف ليجادلونك وما مصدرية أي: يجادلونك بعد ما تبين الحق لهم. قوله: ﴿كانما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ الكاف في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿لكارهون﴾ أي: حال كونهم في شدة فزعهم من القتال يشبهون حال من يساق ليقتل، وهو مشاهد لأسباب قتله، ناظر إليها لا يشك فيها. قوله: ﴿وإن يعيدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ الظرف

منصوب بفعل مقدر: أي وانكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين، وأمرهم بتذكير الوقت مع أن المقصود نكر ما فيه من الحواش لقصد المبالغة، والطائفتان: هما العير والنفير، وإحدى هو: ثاني مفعولي يعيد، و﴿أنها لكم﴾ بدل منه بدل اشتغال، ومعناه: أنها مسخرة لكم، وأنكم تغلبونها وتغنمون منها وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة، لا يطيقون لكم دفعاً، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضرراً ولا نفعاً، وفي هذه الجملة تنكير لهم بنعمة من النعم التي أنعم الله بها عليهم. قوله: ﴿وتوتون﴾ معطوف على ﴿يعيدكم﴾ من جملة الحواش التي أمروا بذكر وقتها ﴿أن غير ذات الشوكة﴾ من الطائفتين، وهي طائفة العير ﴿تكون لكم﴾ دون ذات الشوكة، وهي طائفة النفير. قال أبو عبيدة: أي غير ذات الحد. والشوكة: السلاح، والشوكة: النبت الذي له حد. ومنه رجل شائك السلاح: أي حديد السلاح، ثم يقلب فيقال شاكى السلاح؛ فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك، والمعنى: وتوتون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح، وهي طائفة النفير، لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال، إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها. قوله: ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ معطوف على ﴿توتون﴾ وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته: أي ويريد الله غير ما تريدون، وهو أن يحق الحق بإظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة، وقتلكم لصناديدهم، وأسر كثير منهم، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التي أجلسوا بها عليكم، وراموا دفعكم بها، والمراد بالكلمات: الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة، ووعيدكم منه بالظفر بها ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ الدابر: الآخر، وقطعه عبارة عن الاستئصال. والمعنى: ويستأصلهم جميعاً. قوله: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ هذه الجملة علة لما يريده الله: أي أراد ذلك، أو يريد ذلك ليظهر الحق، ويرفعه ﴿ويبطل الباطل﴾ ويضعه، أو اللام متعلقة بمحذوف: أي فعل ذلك ليحق الحق، وقيل متعلق بيقطع، وليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها، لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الإrantين، وهذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك، والعلة المقتضية له، والمصلحة المترتبة عليه. وإحقاق الحق إظهاره، وإبطال الباطل إعدامه: ﴿يل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ [الأنبياء: 18] ومفعول ﴿ولو كره المجرمون﴾ محذوف: أي ولو كرهوا أن يحق الحق، ويبطل الباطل، والمجرمون هم المشركون من قريش، أو جميع طوائف الكفار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت فقال: «ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا، فخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعاده، ففعلنا فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر، فأنخبرنا النبي ﷺ بعثتنا، فسر بذلك وحمد الله وقال: عدة

المؤمنين لكارهون» قال: لطلب المشركين «يجاللونك في الحق بعد ما تبين» أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاک، في قوله: «وتوبون أن غير ذات الشوكة تكون لكم» قال: هي غير أبي سفيان، وذو أصحاب محمد ﷺ أن العير كانت لهم، وأن القتال صرف عنهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة «ويقطع دابر الكافرين» أي: شأقتهم. ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير والتاريخ مستوفاة فلا تطيل بنكرها.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَيْ مُدِّكُمْ يَا أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ مُرْسِيَةً ﴿١٧﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَنَذِيرًا لِلَّذِينَ هُمْ قُلُوبُهُمْ مَّا أَلْهَضُوا ﴿١٨﴾

قوله: «إذ تستغيثون» الظرف متعلق بمحذوف: أي وانكروا وقت استغاثتكم؛ وقيل بدل من «وإن يعذبكم الله» [الأنفال: 7] معمول لعامله؛ وقيل: متعلق بقوله: «ليحق الحق» [الأنفال: 8] والاستغاثة: طلب الغوث، يقال: استغاثني فلان فأعنته والاسم الفياض؛ والمعنى: أن المسلمين لما علموا أنه لا بد من قتال الطائفة ذات الشوكة، وهم النفيير كما أمرهم الله بذلك، وأرادهم منهم، ورأوا كثرة عدد النفيير وقلة عددهم، استغاثوا بالله سبحانه، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن عدد المشركين يوم بدر ألف، وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلاً، وأن النبي ﷺ لما رأى ذلك استقبل القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعبتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» الحديث «فاستجاب لكم» عطف على تستغيثون داخل معه في التذكير، وهو وإن كان مستقبلاً فهو بمعنى الماضي، ولهذا عطف عليه استجاب، قوله: «إني ممدكم بألف من الملائكة» أي: باني ممدكم، فحذف حرف الجر وأوصل الفعل إلى المفعول، وقرئ بكسر الهمزة على إرادة القول. أو على أن في استجاب معنى القول. قوله: «مردفين» قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول، وقرأ الباقون بكسرها اسم فاعل وانتصابه على الحال، والمعنى على القراءة الأولى: أنه جعل بعضهم تابعاً لبعض، وعلى القراءة الثانية: أنهم جعلوا بعضهم تابعاً لبعض؛ وقيل: إن مردفين على القراءتين نعت لألف وقيل: إنه على القراءة الأولى، حال من الضمير المنصوب في ممدكم: أي ممدكم في حال إردافكم بألف من الملائكة؛ وقد قيل: إن ردف وأردف بمعنى واحد، وانكره أبو عبيدة قال: لقوله تعالى: «تتبعها الرافدة» [النازعات: 7] ولم يقل المردفة، قال سيبويه: وفي الآية قراءة ثالثة وهي «مردفين» بضم الراء وكسر الدال مشددة. وقراءة رابعة بفتح الراء وتشديد الدال. وقرأ جعفر بن محمد، وعاصم الجحدري «بألف» جمع ألف، وهو الموافق لما تقدم في آل عمران، والضمير في «وما

أصحاب طالوت، فقال: ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم، فقلنا: يا رسول الله، لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعير، ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى «أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» [المائدة: 24] فانزل الله: «كما أخرجك ربك» إلى قوله: «وإن يعذبكم الله إحدى الطائفتين إنما لكم» فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين، إما القوم وإما العير، طلبت أنفسنا، ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أنشدك وعذك، فقال ابن رواحة: يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك، ورسول الله ﷺ أقضل من أن يشير عليه، إن الله أجل وأعظم من أن تنشده وعده، فقال: يا ابن رواحة لا تشدَّن الله وعده، فإن الله لا يخلف الميعاد، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله ﷺ في وجوه القوم فانهزموا، فانزل الله «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» [الأنفال: 17] فقتلنا وأسرناء، فقال عمر: يا رسول الله ما أرى أن يكون لك أسرى فإنما نحن دأعون مؤلفون، فقلنا: يا معشر الأنصار إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ فقال: ادعوا لي عمر، فدعي له فقال: إن الله قد أنزل عليّ «ما كان لنبي أن يكون له أسرى» [الأنفال: 67] الآية وفي إسناده ابن لهيعة، وفيه مقال معروف. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن مريويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا، ثم خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد، فولاذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن، لنسيرن معك ولا نكون كالذين قالوا لموسى: «أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» [المائدة: 24] ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا معكم متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق» إلى قوله: «ويقطع دابر الكافرين» وإنما كان رسول الله ﷺ يريد الغنيمة مع أبي سفيان، فأحدث الله إليه القتال. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق» قال: كذلك يجاللونك في خروج القتال. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق» قال: خروج النبي ﷺ إلى بدر «وإن فريقاً من

قبله، أو بدل ثان من إذ يعنكم، أو منصوب بالنصر المذكور قبله؛ وقيل: غير ذلك مما لا وجه له، و **﴿يَغْشِيَكُمْ﴾** هي: قراءة نافع وأهل المدينة على أن الفاعل هو الله سبحانه، وهذه القراءة هي المطابقة لما قبلها، أعني قوله: **﴿وَمَا لِلنَّصْرِ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾** ولما بعدها أعني **﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ﴾** فيتشاكل الكلام ويتناسب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو **﴿يَغْشَاكُمْ﴾** على أن الفاعل النعاس، وقرأ الباقر **﴿يَغْشِيَكُمْ﴾** بفتح الغين وتشديد الشين، وهي كقراءة نافع وأهل المدينة في إسناد الفعل إلى الله، ونصب النعاس قال مكي: والاختيار ضم الياء والتشديد، ونصب النعاس لأن بعده **﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾** والهاء في منه لله، فهو الذي يغشيه النعاس، ولأن الأكثر عليه، وعلى القراءة الأولى والثالثة يكون انتصاب أمانة على أنها مفعول له. ولا يحتاج في ذلك إلى تأويل وتكلف، لأن فاعل الفعل المعلى والعلّة واحد بخلاف انتصابها على العلّة، باعتبار القراءة الثانية، فإنه يحتاج إلى تكلف، وأما على جعل الأمانة مصدرًا فلا إشكال، يقال أمن أمانة، وأمنًا وأمانًا، وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم، وهي أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين، وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها، قيل: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: أحدهما أنه قوامهم بالاستراحة على القتال من الغد، الثاني: أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم؛ وقيل: إن النوم غشيهم في حال التقاء الصفين، وقد مضى في يوم أحد نحو من هذا في سورة آل عمران. قوله: **﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾** هذا المطر كان بعد النعاس، وقيل: قبل النعاس. وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر، فنزلوا عليه وبقي المؤمنون لا ماء لهم، فأنزل الله المطر ليلة بدر. والذي في سيرة ابن إسحاق وغيره، أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر، وأنه منع قريشًا من السبق إلى الماء مطر عظيم، ولم يصب المسلمين منه إلا ما شدّ لهم دهمس الوادي، وأعانهم على المسير، ومعنى **﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾** ليرفع عنكم الأحداث **﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾** أي: وسوسته لكم بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التي هي منه من الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت **﴿وَلِيُربِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾** فيجعلها صابرة قوية ثابتة في مواطن الحرب، والضمير في **﴿بِهِ﴾** من قوله: **﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾** راجع إلى الماء الذي أنزله الله: أي يثبت بهذا الماء الذي أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم في مواطن القتال؛ وقيل الضمير راجع إلى الربط الملل على بالفعل. قوله: **﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَنْصِبَ عَلَيْكُمْ الظَّرْفَ مَنْصُوبَ بِفَعْلٍ مَحْذُوفٍ خَاصٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ﴾** لأنه لا يقف على ذلك سواه: أي وانكر يا محمد وقت إحياء ربك إلى الملائكة؛ وقيل: هو بدل من **﴿إِذْ يَعِدُكُمْ﴾** كما تقدّم، ولكنه يلبي ذلك

جعله الله» راجع إلى الإمداد الملل عليه بقوله: **﴿أَنْتِي مُمِدِّمُكُمْ﴾** **﴿إِلَّا بِشْرَى﴾** أي إلا بشارة لكم بنصره، وهو استثناء مفرغ: أي ما جعل إمدانكم لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر **﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ﴾** أي: بالإمداد قلوبكم، وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا، بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم، وتطمئن قلوبهم وتثبّتها، واللام في لتطمئن متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخرًا: أي ولتطمئن قلوبكم فعل ذلك لا لشيء آخر **﴿وَمَا لِلنَّصْرِ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾** لا من عند غيره، ليس للملائكة في ذلك أثر، فهو الناصر على الحقيقة، وليسوا إلا سببًا من أسباب النصر التي سببها الله لكم، وأمكم بها **﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾** لا يغالb **﴿حَكِيمٌ﴾** في كل أفعاله.

وقد أخرج ابن جرير، عن علي رضي الله عنه، قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ، وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا في الميسرة. وأخرج سنيد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: ما أمد النبي ﷺ بكثر من هذه الآلاف التي ذكر الله في الأنفال، وما ذكر الثلاثة الآلاف، والخمسة الآلاف إلا بشرى. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿مُرْدِفِينَ﴾** قال: متتابعين. وأخرج ابن جرير، عنه، في قوله: **﴿مُرْدِفِينَ﴾** يقول: الممد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه، أيضًا في الآية قال: وراء كل ملك ملك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الشعبي، قال: كان ألف مردفين، وثلاثة آلاف منزلين، فكانوا أربعة آلاف، وهم مدد المسلمين في ثغورهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿مُرْدِفِينَ﴾** قال: مجتئين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: متتابعين، أمدهم الله بالف ثم بثلاثة، ثم أكملهم خمسة آلاف **﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بِشْرَى﴾** لكم **﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾** قال: يعني نزول الملائكة. قال: ونكر لنا أن عمر قال: أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا، وأما بعد ذلك فاه أعلم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد **﴿مُرْدِفِينَ﴾** قال: بعضهم على أثر بعض.

إِذْ يُنْصِبُ عَلَيْكُمْ الْأَمَانَ مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيُربِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۖ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَنْصِبَ عَلَيْكُمْ الظَّرْفَ مَنْصُوبَ بِفَعْلٍ مَحْذُوفٍ خَاصٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَنْهَرُوا فَوْقَ الْأَعْتَاكِ وَأَنْهَرُوا بِهِنَّ كُلَّ بَنَانٍ ۖ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ سَأَلُوا اللَّهَ رِجْسًا وَمَنْ يَسْأَلِ اللَّهَ رِجْسًا فَكَرِهَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۚ ذَلِكُمْ فَذَوْهُ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ عَذَابُ الْآثَرِ ۝

قوله: **﴿إِذْ يَغْشَاكُمْ﴾** الظرف منصوب بفعل مقدر كالذي

بزيداً فأضربه غير صحيح؛ لأنه لم يقدّر فيه عليك، بل هو من باب الاشتغال، وجملة ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ معطوفة على ما قبلها فتكون الإشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذي أصيبوا به ويكون ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ إشارة إلى العقاب الأجل.

وقد أخرج أبو يعلى، والبيهقي في الدلائل، عن علي قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب في الآية قال: بلغنا أن هذه الآية أنزلت في المؤمنين يوم بدر، فيما أغشاهم الله من النعاس أمة منه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿أَمِنَ مِنْهُ﴾ قال: أمانة من الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿أَمِنَ مِنْهُ﴾ قال: رحمة منه، أمانة من العدو. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: النعاس في الرأس، والنوم في القلب. وأخرج عبد بن حميد، عنه أيضاً قال: كان النعاس أمانة من الله، وكان النعاس نعاسين: نعاس يوم بدر، ونعاس يوم أحد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن المسيب، في قوله: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ قال: طش كان يوم بدر. وأخرج هؤلاء عن مجاهد في الآية قال: المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فاطفاً بالمطر الغيار، والتبّتت به الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن إسحاق، عن عروة بن الزبير، قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد الأرض ولم يمنهم المسير، وأصاب قريباً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: إن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء، فضحى المسلمون وصلوا مجنبيين محدثين، فالتقى الشيطان في قلوبهم الحزن، وقال أتزعمون أن فيكم نبياً وأنكم أولياء الله، وتصلون مجنبيين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماء، فشرب المسلمون وتطهروا، وثبتت أقدامهم، وذهبت وسوسته. وقد قدّمنا أن المشهور في كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء، وهذا المروي عن ابن عباس في إسناده العوفي، وهو ضعيف جداً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿رَجَزَ الشَّيْطَانُ﴾ قال: وسوسته. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿وَلِيُرِيَتْ عَلَى الْقُلُوبِ﴾ قال: بالصبر ﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ قال: كان بطن الوادي دهساً، فلما مطروا اشتدت الرملة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ قال: حتى تشتد على الرمل، وهو كهيفة الأرض. وأخرج ابن

أن هذا لا يقف عليه المسلمون، فلا يكون من جملة النعم التي عدّها الله عليهم؛ وقيل: العامل فيه ثبتت فيكون المعنى: ثبتت الأقدام وقت الوحي، وليس لهذا التقييد معنى؛ وقيل العامل فيه: ﴿لِيُرِيَتْ﴾ ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإحياء، ومعنى الآية: أني معكم بالنصر والمعونة، فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول ﴿يُوحِي﴾ وعلى قراءة الكسر يكون بتقدير القول، ومعنى ﴿فَثَبَّتُوا النَّيْنَ أَمْنُوا﴾ بشروهم بالنصر، أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم، وتكثير سوادهم، وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها. قوله: ﴿سَالَفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ قد تقدّم بيان معنى إلقاء الرعب في آل عمران، قيل: هذه الجملة تفسير لقوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، قوله: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ قيل: المراد الأعناق أنفسها و﴿فَوْقَ﴾ زائدة: قاله الأخفش وغيره. وقال محمد بن يزيد: هذا خطأ، لأن فوق يفيد معنى فلا يجوز زيادتها، ولكن المعنى أنه أبيع لهم ضرب الوجوه وما قرب منها؛ وقيل المراد بما فوق الأعناق: الرؤوس؛ وقيل المراد بفوق الأعناق: أعاليها لأنها المفاصل الذي يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع. قيل: وهذا أمر للملائكة وقيل للمؤمنين، وعلى الأول قيل هو تفسير لقوله: ﴿فَثَبَّتُوا النَّيْنَ أَمْنُوا﴾. قوله: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال الزجاج: واحد البنان بنانة، وهي هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء، والبنان مشتق من قولهم أبى الرجل بالمكان إذا أقام به، لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة والحياة؛ وقيل المراد بالبنان هنا: أطراف الأصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة عن الثبات في الحرب، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء. قال عنترة:

وكان في الهيجاء يحمي نمارها ويضرب عند الكرب كل بنان وقال عنترة أيضاً:

وإن الموت طوع يدي إذا ما وطئت بنانها بالهندواني قال ابن فارس: البنان الأصابع، ويقال الأطراف، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما وقع عليهم من القتل ودخل في قلوبهم من الرعب، وهو مبتدأ، و﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ خبره، أي ذلك بسبب مشاقتهم، والشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين في شق، وقد تقدّم تحقيق ذلك ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ له يعاقبه بسبب، ما وقع منه من الشقاق. قوله: ﴿ذَلِكَ فَنُزِقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من العقاب، أو الخطاب هنا للكافرين كما أن الخطاب في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح للخطاب. قال الزجاج: ذلكم رفع بإضمار الأمر أو القصة: أي الأمر أو القصة ذلكم فنزقوه. قال: ويجوز أن يضمّر وأعلموا. قال في الكشاف: ويجوز أن يكون نصيباً على: عليكم ذلكم فنزقوه، كقولك زيدا فأضربه. قال أبو حيان: لا يجوز تقدير عليكم لأنه اسم فعل، وأسماء الأفعال لا تضمّر، وتشبيهه

جدير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن علي قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي تلك الليلة ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد، وأصابعهم تلك الليلة مطر شديد، فذلك قوله: **﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ أَالْقِدَامَ﴾** وأخرج ابن أبي شيبة، عن مجاهد، قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، قال: قال لي أبي: يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن ألدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلهم بضرب على الأعناق، وعلى البنات مثل سمة النار قد احترق به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: **﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾** يقول: الرؤوس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عطية **﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾** قال: اضربوا الأعناق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك **﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾** يقول: اضربوا الرقاب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾** قال: يعني بالبنان الأطراف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطية **﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾** قال: كل مفصل.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَتْ إِلَيْكَ كُفْرًا رَمَعًا فَلَا تُولَوْهُمْ الْاَدْبَارَ ۚ
 ۝۱۰۰ وَنَّ يُولِهِمْ يَوْمَهُ دُبُرِهِ إِلَّا مَحَرَّكَ لِقَالٍ أَوْ مَحَرَّكَ إِلَيْكَ وَنَقَدْ
 كَبَا يَضْطَرُّ يَرْكُ اللَّهُ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَرْكُ الْكَيْبَرُ ۝۱۰۱ فَلَمْ تَنْتَلُوهُمْ
 وَلَنْ يَكُنَّ اللَّهُ قَلْبُهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُنَّ اللَّهُ رَمَى وَيَكُنَّ
 الْكُفْرَانِ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝۱۰۲ ذَلِكُمْ وَأَنَّكَ اللَّهُ
 مُؤْمِنٌ كَذِبَ الْكُفْرَانِ ۝۱۰۳

الزحف: اللنو قليلاً قليلاً، وأصله الاندفاع على الإلية، ثم سمي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفاً، والزاحف: التداني والتقارب. تقول زحف إلى العدو زحفاً، وازحف القوم: أي مشى بعضهم إلى بعض، وانتصاب زحفاً إما على أنه مصدر لفعل محذوف: أي تزحفون زحفاً، أو على أنه حال من المؤمنين: أي حال كونكم زاحفين إلى الكفار، أو حال من الذين كفروا: أي حال كون الكفار زاحفين إليكم، أو حال من الفريقين أي متزاحفين **﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْاَدْبَارَ﴾** نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم، وقد نبّ بعضهم إلى بعض للقتال، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن، وعلى كل حال، إلا حالة التحرف والتحيز. وقد روي عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، وعكرمة، ونافع، والحسن، وقتادة، وزيد بن أبي حبيب، والضحاك: أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر، وإن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين، إذ لم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم، ولا لهم فئة إلا النبي ﷺ،

فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض، وبه قال أبو حنيفة، قالوا: ويؤيده قوله: **﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمئِذٍ دُبُرَهُ﴾** فإنه إشارة إلى يوم بدر، وقيل إن هذه الآية منسوخة بأية الضعف. وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة، وأن الفرار من الزحف محرّم، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر. وأجيب عن قول الأولين بأن الإشارة في **﴿يَوْمئِذٍ﴾** إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيد السياق، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف، بل هذه الآية مقيدة بها، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله في آية الضعف، ولا وجه لما نكروه من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها، فقد كان في المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي ﷺ بالخروج، لأنه ﷺ ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء أنه سيكون قتال. ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما في حديث: «اجتنبوا السبع الموبقات، وفيه: والتولي يوم الزحف» ونحوه من الأحاديث، وهذا البحث تطول ذيوله وتتشعب طرقه، وهو مبين في مواطنه. قال ابن عطية: والابار جمع دبر، والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفار والنمّ له. قوله: **﴿إِلَّا مَحَرَّكَ لِقَالٍ﴾**: التحرف: الزوال عن جهة الاستواء. والمراد به هنا التحرف من جانب إلى جانب في المعركة طلباً لمكائد الحرب، وخداعاً للعدو، وكمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو، فيكرّ عليه ويتمكن منه، ونحو ذلك من مكائد الحرب، فإن الحرب خدعة. قوله: **﴿أَوْ مَحَرَّكَ إِلَيْكَ﴾** أي: إلى جماعة من المسلمين، غير الجماعة المقابلة للعدو وانتصاب متحرفاً ومتحيزاً على الاستثناء من المولين: أي ومن يولهم دبره إلا رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً، ويجوز انتصابهما على الحال، ويكون حرف الاستثناء لغواً لا عمل له، وجملة **﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾** جزاء للشرط. والمعنى: من ينهزم ويفرّ من الزحف، فقد رجع بغضب كائن من الله إلا المتحرف والمتحيز **﴿وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ﴾** أي: المكان الذي يأوي إليه هو النار، فقراره أوقعه إلى ما هو أشدّ بلاء مما فرّ منه وأعظم عقوبة. والمأوى: ما يأوي إليه الإنسان **﴿وَيُثَبِّسُ الْمَصِيرَ﴾** ما صار إليه من عذاب النار. وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفرّ عن الزحف، وفي ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة. قوله: **﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾** الفاء جواب شرط مقتر: أي إذا عرفتم ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة، وإيقاع الرعب في قلوبهم، فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر. قوله: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾** اختلف المفسرون في هذا الرمي على أقوال: فروي عن مالك أن المراد به: ما كان منه ﷺ في يوم حنين، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادي، فأصاب كل واحد منهم؛ وقيل المراد به:

﴿ومن يولهم يومئذ نبره﴾ الآية قال: إنها كانت لأهل بدر خاصة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عمر بن الخطاب قال: لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في الآية قال: نزلت في أهل بدر خاصة ما كان لهم أن يهزموا عن رسول الله ﷺ ويتركوه. وقد روي اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين ومن بعدهم، وقد قَدَّمْنَا الإشارة إلى ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جببر، في قوله: **﴿إلا متحرفاً لقتال﴾** يعني: مستطرداً يريد الكرة على المشركين **﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾** يعني: أو ينجاز إلى أصحابه من غير هزيمة **﴿فقد باء بغضب من الله﴾** يقول: استوجبوا سخطاً من الله **﴿ومواه جهنم وبئس المصير﴾** فهذا يوم بدر خاصة، كان شديداً على المسلمين يومئذ، ليقطع دابر الكافرين وهو أول قتال قاتل المشركين من أهل مكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: المتحرف: المتقدم من أصحابه أن يرى عورة من العدو فيصيبها. والمتحيز: الفار إلى رسول الله ﷺ. وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره وأصحابه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عطاء بن أبي رباح، في قوله: **﴿ومن يولهم يومئذ نبره﴾** قال: هذه الآية منسوخة بالآية التي في الأنفال **﴿الآن خفف الله عنكم﴾** [الأنفال: 66] الآية، وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الألب المفرد، واللفظ له، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عمر قال: كنا في غزاة فحاص الناس حيصة، قلنا: كيف تلقى رسول الله ﷺ وقد فررنا من الزحف، ويؤنا بالغضب، فاتينا رسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: من القوم؟ فقال: نحن الفرارون، فقال: لا، بل أنتم العكارون. فقبلنا يده فقال: أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين، ثم قرأ **﴿إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة﴾** وقد روي في تحريم الفرار من الزحف، وأنه من الكبائر أحاديث، وورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر، كما أخرجه ابن جرير، عن ابن عباس. وأخرجه ابن أبي شيبة، عن ابن عمر. وأخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿فلم تقتلوهم﴾** قال لأصحاب محمد ﷺ حين قال: هذا قتلت وهذا قتلت **﴿وما رميت إذ رميت﴾** قال لمحمد ﷺ حين حصب الكفار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، في قوله: **﴿وما رميت إذ رميت﴾** قال: رماهم يوم بدر بالحصباء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً من السماء إلى الأرض

الرمية التي رمى رسول الله ﷺ أبي بن خلف بالحربة في عنقه، فانهزم ومات منها؛ وقيل المراد به: السهم الذي رمى به رسول الله ﷺ في حصن خيبر، فسار في الهوى حتى أصاب ابن أبي الحقيق، وهو على فراشه، وهذه الأقوال ضعيفة، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر. وأيضاً المشهور في كتب السير والحديث في قتل ابن أبي الحقيق: أنه وقع على صورة غير هذه الصورة والصحيح كما قال ابن إسحاق وغيره، أن المراد بالرماية المذكور في هذه الآية هو: ما كان منه ﷺ في يوم بدر، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين، فاصابت كل واحد منهم وبخلت في عينيه ومنخره وأنفه، قال ثعلب: المعنى **﴿وما رميت﴾** الفرع والرعب في قلوبهم **﴿إذ رميت﴾** بالحصباء فانهزموا **﴿ولكن الله رمى﴾** أي: أعانك وأظفرك، والعرب تقول: رمى الله لك: أي أعانك وأظفرك وصنع لك. وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز. وقال محمد بن يزيد المبرد: المعنى **﴿وما رميت﴾** بقوتك **﴿إذ رميت﴾** ولكنك بقوة الله رميت؛ وقيل المعنى: إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فثبت الرمية لرسول الله ﷺ؛ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه، لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل، فكان الله فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من رسول الله ﷺ أصلاً هكذا في الكشاف. قوله: **﴿وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً﴾** البلاء ما هنا: النعمة؛ والمعنى: ولينعم على المؤمنين إنعاماً جميلاً. واللام متعلقة بمحذوف: أي وللإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لا لغيره، أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها: أي ولكن الله رمى، ليمحق الكافرين، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً **﴿وإن الله سميع عليم﴾** لدعائهم، عليم بأحوالهم؛ والإشارة بقوله نلزم إلى البلاء الحسن، وهو في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف: أي الغرض **﴿نلكنم وإن الله موهن كيد الكافرين﴾** أي: إن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة، إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين، وقيل المشار إليه القتل والرمي، وقد قرئ بتشديد الهاء وتخفيفها مع التثوين. وقرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة، والكيد: المكر. وقد تقدّم بيانه.

وقد أخرج البخاري في تاريخه، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن نافع، أنه سأل ابن عمر قال: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة أمامنا أو عسكرنا؟ فقال لي: الفئة رسول الله ﷺ فقلت: إن الله يقول: **﴿إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأبصار﴾** قال: إنما نزلت هذه الآية في أهل بدر لا قبلها ولا بعدها. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، في قوله:

خروجهم من مكة سالوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر فتكلم الله بهم، وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً؛ ومعنى بقية الآية على هذا القول ﴿وَأَنْ تَفْتَحُوا﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله ﴿فَهُوَ﴾ أي: الانتهاء ﴿خَيْرَ لَكُمْ وَأَنْ تَعُودُوا﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿نَعُدُّ﴾ بتسليط المؤمنين عليكم، ونصرهم كما سلطانهم ونصرناهم في يوم بدر ﴿وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ﴾ أي: جماعتكم ﴿شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: لا تغني عنكم في حال من الأحوال، ولو في حال كثرتها، ثم قال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن كان الله معه، فهو: المنصور، ومن كان الله عليه، فهو: المخلول. قرئ بكسر إن وفتحها، فالكسر على الاستئناف، والفتح على تقدير: ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك. وقيل: إن الآية خطاب للمؤمنين، والمعنى إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر في يوم بدر، وإن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم، وفداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك، فهو خير لكم، وإن تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم، كما في قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: 68] الآية، ولا يخفى أنه يابى هذا القول معنى ﴿وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً﴾ ويأباه أيضاً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلف وتعسف، وقيل إن الخطاب في ﴿إِنْ تَسْتَفْتَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ للمؤمنين، وما بعده للكافرين، ولا يخفى ما في هذا من تفكيك التظلم وعود الضمائر الجارية في الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، وابن منده، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن شهاب، عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير، أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة، فكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت ﴿إِنْ تَسْتَفْتَحُوا﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عطية، قال: قال أبو جهل يوم بدر: اللهم انصر أهدي الفتنتين، وأفضل الفتنتين، وخير الفتنتين، فنزلت الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿إِنْ تَسْتَفْتَحُوا﴾ يعني المشركين: أي إن تستنصروا فقد جاءكم الممد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد ﴿إِنْ تَسْتَفْتَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ قال: كفار قريش في قولهم: ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه. ففتح بينهم يوم بدر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة، في قوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتَحُوا﴾ قال: إن تستنصروا فقد جاءكم القضاء في يوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَأَنْ تَفْتَحُوا﴾ قال: عن قتال محمد ﷺ ﴿وَأَنْ تَعُودُوا نَعُدُّ﴾ قال: إن تستفتحو الثانية افتح لمحمد ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: مع محمد

كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصاة وقال: شأته الوجوه، فانهزمنا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن جابر، قال: سمعت صوت حصيات وقعت من السماء يوم بدر، كأنهن وقعن في طست، فلما اصطلف الناس أخذهن رسول الله ﷺ فرمى بهن في وجوه المشركين، فانهزموا. فذلك قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ لعلني قبضة من حصباء، فنأوله فرمى بها في وجوه القوم، فما بقي أحد من القوم إلا امتلات عيناه من الحصباء، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب، قال: لما كان يوم أحد أخذ أبي بن خلف يركض فرسه حتى بنا من رسول الله ﷺ، واعترض رجال من المسلمين لأبي بن خلف ليقتلوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «استأخروا، فاستأخروا فأخذ رسول الله ﷺ حربته في يده، فرمى بها أبي بن خلف، وكسر ضلعاً من أضلاعه، فرجع أبي بن خلف إلى أصحابه ثقيلاً، فاحتملوه حين ولوا قافلين، فطفقوا يقولون لا بأس، فقال أبي حين قالوا له ذلك: والله لو كانت بالناس لقتلتهم، ألم يقل إنني أقتلك إن شاء الله، فانطلق به أصحابه ينعشونه حتى مات ببعض الطريق، فدفنوه. قال ابن المسيب: وفي ذلك أنزل الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب، والزهري نحوه، وإسناده صحيح إليهما، وقد أخرجه الحاكم في المستدرک. قال ابن كثير: وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جداً، ولعلهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها، وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جببر كما سيأتي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن بن جببر: أن رسول الله ﷺ يؤم ابن أبي الحقيق دعا بقوس فرمى بها الحصن، فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق في فراشه، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أي: لم يكن ذلك برميك لولا الذي جعل الله من نصرك وما ألقى في صدور عدوك حتى هزمهم ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بِلَاءٌ حَسَنًا﴾ أي ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته.

إِنْ تَسْتَفْتَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ حَرٌّ لَكُمْ وَإِنْ تَوَدُّوْا نَعْدُ وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

الاستفتاح: طلب النصر، وقد اختلف في المخاطبين بالآية من هم؟ فقيل: إنها خطاب للكفار تهكما بهم، والمعنى: إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر، وقد كانوا عند

عند الله ﴿الآية قال: إن هذه الآية نزلت في فلان وأصحاب له. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال هم نفر من قريش من بني عبد الدار. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿الصَّمِّمَ لِيَكُمُ الذِّنِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: لا يتبعون الحق. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، قال: نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث وقومه، ولعله المكنى عنه بفلان فيما تقدم من قول علي رضي الله عنه. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيمَهُمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأنفذ لهم قولهم الذي قالوا بالسننهم، ولكن القلوب خالفت ذلك منهم. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة، في الآية قال: قالوا نحن صم عما يدعوننا إليه محمد لا نسمعه، بكم لا نجيبه فيه بتصديق، فقلنا جميعاً بأحد، وكانوا أصحاب اللواء يوم أحد.

يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ مَخْرُورٌ ﴿١٦﴾
وَأَنفَرُوا يَنْتَهَى لَا تُهَيِّبُكَ الْكَافِرِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خِصَاةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
شَكِيدُ الْعَقَابِ ﴿١٧﴾

الامر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الامر بالطاعة، ووجد الضمير هنا حيث قال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ كما وحده في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَنْهُ﴾ [الأنفال: 20] وقد قدمنا الكلام في وجه ذلك، والاستجابة: الطاعة. قال أبو عبيدة معنى استجيبوا: أجبوا، وإن كان استجاب يتعدى باللام، وأجاب بنفسه كما في قوله: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: 31]، وقد يتعدى استجاب بنفسه كما في قول الشاعر:

وداع دعايا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب
﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ اللام متعلقة بقوله: ﴿استجيبوا﴾ أي: استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم، ولا مانع من أن تكون متعلقة بدعا: أي إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة، فإن العلم حياة، كما أن الجهل موت؛ فالحياة هنا مستعارة للعلم. قال الجمهور من المفسرين: المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية؛ وقيل المراد بقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الجهاد، فإنه سبب الحياة في الظاهر، لأن العدو إذا لم يغز غزا، ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كلئلاً ما كان، ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال. وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الألة، وترك التقيد بالمذاهب، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان. قوله: ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قيل معناه: يبادر إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي

وأصحابه. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة ﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا نَعْدَهُ﴾ يقول: نعد لكم بالاسر والقتل.

يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمِّمَ الْبُكْمَ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيَوْمَ خِيَرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢١﴾

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ونهاهم عن التولي عن رسوله، فالضمير في ﴿عَنْهُ﴾ عائذ إلى الرسول، لأن طاعة رسول الله ﷺ هي من طاعة الله، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله [النساء: 80] ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى رسوله، كما في قوله: ﴿وَأَرْسَلَهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَاهُ﴾ [التوبة: 62] وقيل: الضمير راجع إلى الأمر الذي دل عليه أطيعوا، وأصل تولوا: تتولوا، فطرح إحدى التاءين، هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين، وبه قال الجمهور، وقيل: إنه خطاب للمنافقين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بالسننهم فقط. قال ابن عطية: وهذا وإن كان محتماً على بعد، فهو ضعيف جداً، لأن الله وصف من خاطبه في هذه الآية بالإيمان وهو التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء، وأبعد من هذا من قال: الخطاب لبني إسرائيل، فإنه أجنبى من الآية، وجملة ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ في محل نصب على الحال، والمعنى: وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين وتصدقون بها ولستم كالصم البكم ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء، فإنهم يسمعون بأذانهم من غير فهم ولا عمل، فهم كالذي لم يسمع أصلاً، لأنه لم ينتفع بما سمعه. ثم أخبر سبحانه ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي: ما دب على الأرض ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه ﴿الصَّمِّمَ الْبُكْمَ﴾ أي: الذين لا يسمعون ولا ينطقون، وصفوا بذلك مع كونه ممن يسمع وينطق، لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه النفع لهم فيآتونه، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه، فهم شر الدواب عند الله، لأنها تميز بعض تمييز، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيمَهُمْ﴾ أي: في هؤلاء الصم البكم ﴿خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعاً ينتفعون به، ويتعقلون عنده الحجج والبراهين. قال الزجاج ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ جواب كل ما سألوا عنه؛ وقيل: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم، لأنهم طلبوا إحياء قصي بن كلاب وغيره؛ ليشهدوا بنبوته محمد ﷺ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون، وجملة ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ في محل نصب على الحال.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال: غاصبون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب، في قوله: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ

فكتبه الله عليكم؛ وقيل معناه: إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبذلهم بعد الخوف: أماناً، ويبدل عدوهم من الأمن خوفاً؛ وقيل هو: من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16] ومعناه: أنه مطلع على ضمائر القلوب، لا تخفى عليه منها خافية. واحتار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته عز وجل، ولا يخفك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني: ﴿وَأَنَّهُ لِلَّهِ تَحْشُرُونَ﴾ معطوف على ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ وأنكم محشورون إليه، وهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشَّرَّ شراً. قال الفراء: ولو استأنفت فكسرت همزة ﴿إِنَّهُ﴾ لكان صواباً، ولعل مراده أن مثل هذا جائز في العربية. قوله: ﴿وَلِتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم.

وقد اختلف النحاة في دخول هذه النون المؤكدة في ﴿تُصِيبُ﴾ فقال الفراء: هو بمنزلة قولك: انزل عن الدابة لا تطرحنك، فهو جواب الأمر بلفظ النهي: أي إن تنزل عنها لا تطرحنك، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنْخَلُوا مَسَاجِدَكُمْ لَا يُحِطَمَكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ [النمل: 18] أي: إن تدخلوا لا يحطمنكم، فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء. وقال المبرد: إنه نهي بعد أمر. والمعنى: النهي للظالمين: أي لا يقربن الظلم، ومثله ما روى عن سيبويه لا أرينك هاهنا. فإن معناه: لا تكن هاهنا، فإن من كان هاهنا رأيته. وقال الجرجاني: إن لا تُصِيبُ نهي في موضع وصف لفتنة، وقرا علي، وزيد بن ثابت، وأبي وابن مسعود ﴿لِتُصِيبُ﴾ على أن اللام جواب لقسم محذوف، والتقدير: اتقوا فتنة والله لتُصِيبُ الذين ظلموا منكم خاصة، فيكون معنى هذه القراءة مخالفاً لمعنى قراءة الجماعة، لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة، بخلاف قراءة الجماعة: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه، ولا يعذب إلا بجنايته، فيمكن حمل ما في هذه الآية على العقوبات التي تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض، ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة، والله أعلم، ويمكن أن يقال: إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب: كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون الإصالة المتعدية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: للحق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة

في الآية: قال هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الدل. وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم. وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد بن المعلى، قال: «كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيت فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله تعالى استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم». الحديث. وفيه دليل على ما نكرنا من أن الآية تعم كل دعاء من الله أو من رسوله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه من طرق، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال: يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس، في الآية قال علمه يحول بين المرء وقلبه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية قال: يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن، في الآية قال: في القرب منه. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن عساكر، عن مطرف، قال: قلت للزبير يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل، ثم جئتم تطلبون بئمه. قال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﴿وَلِتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ولم تكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا، حيث وقعت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، قال: قرأ الزبير ﴿وَلِتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ قال: البلاء والأمر الذي هو كائن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن، في الآية قال: نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك قال نزلت في أصحاب النبي ﷺ خاصة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن السدي قال: نزلت في أهل بدر خاصة، فأصابته يوم الجمل فاقتلوا، فكان من المقتولين طلحة والزبير، وهما من أهل بدر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: تصيب الظلم والصالح عامة. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال: هي مثل ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ حتى يتركه لا يعقل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في الآية قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعصمهم الله بالعذاب، وقد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الأمة إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر عصمهم الله بعذاب من عنده.

وَأَنكَرُوا إِذْ أَتَتْ قَيْلٌ مُّسْتَضْمِنُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَبَكُمْ
الْأَنَاسُ فَتَارَكُمْ وَيَكِيدَكُمْ يُصِرُّهُ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: للحق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة

الفردوس، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، في قوله: **﴿وَانْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَفَتَكُمْ النَّاسُ﴾** قيل: يا رسول الله ومن الناس؟ قال: أهل فارس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: **﴿فَأُولَئِكَ﴾** قال: إلى الانصار بالمدينة **﴿وَأُولَئِكَ بِنَصْرِهِ﴾** قال: يوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن جابر بن عبد الله، أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم، فنزل الله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾** الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبد الله بن أبي قتادة، قال: نزلت هذه الآية **﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾** في أبي لبابة بن عبد المنذر، سألوه يوم قريظة ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح فنزلت. قال أبو لبابة: ما زالت قدمي حتى علمت أنني خنت الله ورسوله. وأخرج سنيد، وابن جرير، عن الزهري نحوه باطول منه. وأخرج عبد بن حميد، عن الكلبي أن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفاً لهم، فأوماً بيده أنه الذبح، فنزلت. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في هذه الآية: أنها نزلت في أبي لبابة، ونسختها الآية التي في براءة **﴿وَأَخْرَجُوا عَتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾** [التوبة: 102]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾** قال: بترك فرائضه **﴿وَالرَّسُولَ﴾** بترك سننه، وارتكاب معصيته **﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾** يقول: لا تنقضوها، والأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد. وأخرج ابن جرير، عن المغيرة بن شعبة، قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان، ولعل مراده أن من جملة من يدخل تحت عمومها قتل عثمان. وأخرج أبو الشيخ، عن يزيد بن أبي حبيب، في الآية قال: هو الإخلال بالسلاح في المغازي، ولعل مراده أن هذا مما يندرج تحت عمومها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود، قال: ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة، لأن الله يقول: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَايُكُمْ فَتَنَةٌ﴾** فمن استعاذ منكم، فليستعذ بالله من مضلات الفتن. وأخرج هؤلاء عن ابن زيد في الآية قال: فتنة الاختبار اختبارهم، وقرأ **﴿وَلِنُؤْمِنُكُمْ بِالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ فَتَنَةٌ﴾** [الأنبياء: 35].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوْنُوا أَمْوَالَكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْلُونَ ۚ وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَايَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝

الخطاب بقوله: **﴿وَانْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾** للمهاجرين: أي انكروا وقت قلتكم، و**﴿مُسْتَضْعَفُونَ﴾** خبر ثان للمبتدأ، والأرض: هي أرض مكة، والخطف: الأخذ بسرعة، والمراد بالناس: مشركو قريش؛ وقيل: فارس والروم **﴿فَأُولَئِكَ﴾** يقال: أوى إليه بالمجد وبالقصر بمعنى: انضم إليه، فالمعنى: ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الانصار **﴿وَأُولَئِكَ بِنَصْرِهِ﴾** أي: قواكم بالنصر في مواطن الحرب التي منها يوم بدر، أو قواكم بالملائكة يوم بدر **﴿وَوَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾** التي من جملتها الغنائم **﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** أي: إرادة أن تشكروا هذه النعم، التي أنعم بها عليكم، والخون أصله كما في الكشاف: النقص، كما أن الوفاء التمام، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان؛ وقيل معناه: الغدر وإخفاء الشيء، ومنه قوله تعالى: **﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾** [غافر: 19] نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم، أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمّنهم عليه، أو بترك شيء مما سنه لهم، أو يخونوا شيئاً من الأمانات التي أوثمنوا عليها، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق، مأخوذة من الأمن، وجملة **﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** في محل نصب على الحال: أي وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة، فتفعلون الخيانة عن عمد، أو وأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل، ثم قال: **﴿وَأَعْلَمُوا إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَايُكُمْ فَتَنَةٌ﴾** لأنهم سبب الوقوع في كثير من الذنوب، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عبادهم، وإن كانوا من حيثة أخرى زينة الحياة الدنيا كما في الآية الأخرى **﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** فأتوا حقه على أموالكم وأولادكم، ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿وَانْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾** قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، أشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعره جلوداً، وأبينه ضلالة، من عاش عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار يؤكلون ولا يكلون، لا والله ما نعلم قبيلة من حاضري الأرض يومئذ كان أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: **﴿يَتَخَفَتُكُمُ النَّاسُ﴾** قال: في الجاهلية بمكة **﴿فَأُولَئِكَ﴾** إلى الإسلام. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن وهب، في قوله: **﴿يَتَخَفَتُكُمُ النَّاسُ﴾** قال: الناس إذا ذك فارس والروم. وأخرج أبو الشيخ، وأبو نعيم، والديلمي، في مسند

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَوَلَّوْا اللَّهَ يَحْمِلْ لَكُمْ رَبُّكَ أَوْثَقَ الْحِمْلِ ۖ وَلَئِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنْ أَمْرِهِ يَخَفِتْكُمْ اللَّهُ عَنِ الْغَنَمِ وَالْخَيْلِ فَتَنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ۝

جعل سبحانه التقوى شرطاً في الجعل المذكور، مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون جرياً على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضاً، والتقوى: اتقاء مخالفة أوامره والوقوع في مناهيه، والفرقان: ما يفرق به بين الحق والباطل،

على ذلك ويرد كيدهم في نحورهم. وسمى ما يقع منه تعالى مكرًا مشككة، كما في نظائره ﴿وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم، فهو: يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون، فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم وأعظم بلاء من مكرهم. قوله: ﴿وَإِذَا تَقَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: التي تأتيهم بها، وتتلوها عليهم ﴿قَالُوا﴾ تعنتا وتمرداً وبعداً عن الحق ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ ما تتلوه علينا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الذي تلوته علينا، قيل: إنهم قالوا هذا توهماً منهم أنهم يقدرون على ذلك، فلما راموا أن يقولوا مثله عجزوا عنه. ثم قال عناداً وتمرداً ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما يستطره الوراقون من أخبار الأولين، وقد تقدم بيانه مستوفى. ﴿وَإِذَا قَالُوا﴾ أي: وإنك إذ قالوا ﴿لَلَّهُمْ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ بنصب الحق على أنه خبر كان، والضمير للفصل، ويجوز الرفع. قال الزجاج: ولا أعلم أحداً قرأ بها، ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها، ولكن القراءة سنة، والمعنى: إن كان القرآن الذي جاءنا به محمد هو الحق، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ قالوا هذه المقالة مبالغاً في الجحود والإنكار. قال أبو عبيدة: يقال أمطر في العذاب، ومطر في الرحمة. وقال في الكشف: قد كثر الإطمار في معنى العذاب ﴿أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء، أو بغيرها من أنواع العذاب الشديد، فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ فِيهِمْ﴾ موجود فإنك ما دمت فيهم فهم في مهلة من العذاب الذي هو الاستئصال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ روي أنهم كانوا يقولون في الطواف غفرانك: أي: وما كان الله معذبهم في حال كونهم يستغفرونه؛ وقيل المعنى: لو كانوا ممن يؤمن بالله ويستغفروه لم يعذبهم؛ وقيل إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم: أي وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين، فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر وما بعده؛ وقيل المعنى: وما كان الله معذبهم وفي أصلابهم من يستغفر الله.

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والخطيب، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأنشئوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فاطلع الله نبيه على ذلك، فبات عليّ على فراش النبي ﷺ حتى لحق بالغار، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رآه علياً ردّ الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدري، فاقترضوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابهِ نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابهِ، فمكث فيه ثلاث ليال. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم،

والمعنى: أنه يجعل لهم من ثبات القلوب، وثقوب البصائر، وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس؛ وقيل: الفرقان المخرج من الشبهات والنجاة من كل ما يخافونه، ومنه قول الشاعر:

مالك من طول الأسى فرقان بعد قطين رحلوا وبانوا ومنه قول الآخر:

وكيف أرجى الخلد والموت طالبي ومالي من كاس المنية فرقان وقال الفراء: المراد بالفرقان الفتح والنصر. قال ابن إسحاق: الفرقان الفصل بين الحق والباطل، وبمثله قال ابن زيد، وقال السدي: الفرقان النجاة، ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2] وبه قال مجاهد ومالك بن أنس ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: يسترها حتى تكون غير ظاهرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما اقترعتم من الذنوب؛ وقد قيل إن المراد بالسيئات: الصغائر؛ وبالذنوب التي تغفر: الكبائر؛ وقيل المعنى: أنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: هو المخرج. وأخرج ابن جرير عنه، قال: هو: النجاة. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة، مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: هو النصر.

وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْبِئُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا قَالُوا أَلَلَّهُمْ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِمَذَاقٍ آيَةٍ ﴿٢٧﴾ وَمَا كُنَّا لَنُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا لَنُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٨﴾

قوله: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الظرف معمول لفعل محذوف. أي: وإنك يا محمد وقت مكر الكافرين بك، أو معطوف على ما تقدم من قوله ﴿وَإِذَا يَمْكُرُونَ﴾ ذكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التي أنعم بها عليه، وهي نجاة من مكر الكافرين وكيدهم كما سيأتي بيانه ﴿فَلْيَبْتُوكَ﴾ أي: يثبتوك بالجراحات، كما قال ثعلب وأبو حاتم، وغيرهما، وعنه قول الشاعر:

فقلت ويحكم ما في صحيفتك قالوا الخليفة أمسى مثبتاً وجعا وقيل: المعنى ليحبسوك، يقال أثبته: إذا حبسه؛ وقيل: ليثبتوك، ومنه: ﴿فَشَبَّوْا الْوِثَاقَ﴾ [محمد: 4]. وقرأ الشعبي ﴿فَلْيَبْتُوكَ﴾ من البيات. وقرئ ﴿فَلْيَبْتُوكَ﴾ بالتشديد ﴿أَوْ يَخْرِجُوكَ﴾ معطوف على ما قبله: أي يخرجوك من مكة التي هي بلدك وبلد أهلك، وجملة: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ مستأنفة، والمكر: التدبير في الأمر في خفية، والمعنى: أنهم يخفون ما يعنونه لرسول الله ﷺ من المكائد، فيجازيهم الله

وفيها ذكر الشيخ النجدي: أي إبليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم في دار الندوة للمشاورة في أمر النبي ﷺ، وأن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاماً، ويعطوا كل واحد منهم سيفاً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل، فقال الشيخ النجدي: هذا والله هو الرأي، فتفرقوا على ذلك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبيد بن عمير، قال: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني، قال: من حثك بهذا؟ قال: ربي، قال: نعم الرب ربك استوص به خيراً، قال: أنا استوصي به؟ بل هو يستوصي بي. وأخرجه ابن جرير من طريق أخرى عنه. وهذا لا يصح، فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنتين. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جرير، في قوله: ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: قال عكرمة هي مكية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء في قوله: ﴿لِيُثَبِّتُكَ﴾ يعني: ليوثقوك. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، عن سعيد بن جبير، قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبه بن أبي معيط، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث؛ وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسول الله أسيري، فقال رسول الله ﷺ: إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول، قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ وهذا مرسل، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي أنها نزلت في النضر بن الحارث. وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن الشيخ، وابن مروي، والبيهقي، عن أنس بن مالك قال: قال أبو جهل بن هشام ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية فنزلت ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، أنها نزلت في أبي جهل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، في الآية، أنها نزلت في النضر بن الحارث. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، عن عطاء، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية. قال ابن عباس، كان فيهم أمانان: النبي ﷺ، والاستغفار؛ فذهب النبي ﷺ، وبقي الاستغفار. وأخرج الترمذي وضعفه، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال النبي ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي

في شعب الإيمان، عن أبي هريرة قال: كان فيكم أمانان مضى أحدهما وبقي الآخر، قال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، والطبراني، وابن مروي، والحاكم، وابن عساکر، عن أبي موسى الأشعري نحوه أيضاً، والأحاديث عن رسول الله ﷺ في مطلق الاستغفار كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث.

﴿وَمَا لَهُمْ آلَ يَعْلَبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا النَّفُوتُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْكَلْبِ إِلَّا مَكَاةٌ وَنَصِيدَةٌ فَنُذِرُوا الْمَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ الْكَلْبَ كَفَرُوا يَنْهَوْنَ أَوْلَاهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفَوِّضُهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿١٠٨﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الْكَلْبِ وَيَعْلَمَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكَبَهُ جَيْمًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَ يَعْلَبُهُمُ اللَّهُ﴾ لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمان المتقدمان وجود رسول الله ﷺ بين ظهورهم، ووقوع الاستغفار. نكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفار، أعني: كفار مكة، مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح. والمعنى: أي شيء لهم يمنع من تعذيبهم؟ قال الأخفش: إن «أن» زائدة. قال النحاس: لو كان كما قال لرفع يعذبهم، وجملة: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في محل نصب على الحال: أي وما يمنع من تعذيبهم؟ والحال أنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام، كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت، وجملة ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ في محل نصب على أنها حال من فاعل ﴿يَصُدُّونَ﴾، وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من أنهم ولاية البيت، وأن أمره مفوض إليهم، ثم قال مبيناً لمن له ذلك: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمَتَّقُونَ﴾ أي: ما أولياؤه إلا من كان في عداد المتقين للمشرك والمعاصي ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعاندون، قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْكَلْبِ إِلَّا مَكَاةٌ وَنَصِيدَةٌ﴾ المكاء: الصفير من مكاء يمشي، ومنه قول عنترة:

وخليل غانية تركت مجندلاً تمكو فريسته كشدق الأعلم
أي: تصوت؛ ومنه مكت است الدابة: إذا نفخت بالريح، قيل للمكاء: هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء. قال الشاعر:

إذا غرد المكاء في غير نوحه فويل لأهل الشاء والحمراء
والتصدية: التصفيق، يقال صدى يصدى تصدياً: إذا صفق، ومنه قول عمر بن الإطابة:

وظلوا جميعاً لهم ضجة مكاء لدى البيت بالتصدية
أي: بالتصفيق؛ وقيل المكاء: الضرب بالأيدي، والتصدية:

﴿أولئك﴾ إشارة إلى الذين كفروا. انتهى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ قال: عذابهم فتح مكة. وأخرج ابن إسحاق، وأبو حاتم، عن عباد بن عبد الله بن الزبير ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ وهم يجحدون بآيات الله ويكذبون رسله. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: ﴿وهم يصنون عن المسجد الحرام﴾ أي: من آمن بالله وعبدته، أنت ومن اتبعك ﴿وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا للمنفقين﴾ الذين يخرجون منه ويقيمون الصلاة عنده: أي أنت ومن آمن بك. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إن أولياؤه إلا للمنفقين﴾ قال: من كانوا حيث كانوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبير، قال: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف، ويستتبهون ويصفقون، فنزلت: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والضياء عن ابن عباس، قال: كانت قريش يطوفون بالكعبة عراة تصفر وتصفق، فأنزل الله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ قال: والمكاء الصفير، إنما شبهوا بصفير الطير، وتصدية: التصفيق وأنزل الله فيهم: ﴿قل من حرم زينة الله﴾ [الأعراف: 32] الآية. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عنه نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عمر قال: المكاء الصفير، والتصدية: التصفيق. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: المكاء إدخال أصابعهم في أقواهم، والتصدية الصفير، يخلطون بذلك كله على محمد ﷺ صلاته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: قال: المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء يكون بأرض الحجاز، والتصديق: التصفيق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿إلا مكاء﴾ قال: كانوا يشيكون أصابعهم ويصفقون فيهنّ ﴿وتصدية﴾ قال: صدّهم الناس. وأخرج عبد بن حميد، عن عكرمة قال: كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال. وهو قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ فالمكاء مثل نفخ البوق، والتصدية: طوافهم على الشمال، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك في قوله: ﴿فتوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ قال: يعني أهل بدر عذبهم الله بالقتل والأسر. وأخرج ابن

الصياح، وقيل المكاء: إدخالهم أصابعهم في أقواهم، والتصدية: الصفير؛ وقيل التصدية: صدّهم عن البيت؛ قيل: والأصل على هذا تصددة فأبدل من إحدى الدالين ياء. ومعنى الآية: أن المشركين كانوا يصفقون ويصفقون عند البيت الذي هو موضع للصلاة والعبادة، فوضعوا ذلك موضع الصلاة، قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة، وقرئ بنصب صلاتهم على أنها خبر كان، وما بعده اسمها. قوله: ﴿فتوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ هذا التثاق إلى مخاطبة الكفار تهديداً لهم ومبالغة في إدخال الروعة في قلوبهم، والمراد به: عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة. قوله: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصنوا عن سبيل الله﴾ لما فرغ سبحانه من شرح أحوال هؤلاء الكفرة في الطاعات البدنية، أتبعها شرح أحوالهم في الطاعات المالية، والمعنى: أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصدّ عن سبيل الحق، بحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك، وإنفاق أموالهم عليها وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر، ويوم أحد، ويوم الأحزاب، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش؛ ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز فقال: ﴿فسيصفقونها﴾ أي: سيقع منهم هذا الإنفاق ﴿ثم تكون﴾ عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم، وكان ذات الأموال تنقلب حسرة تصير ندماً، ﴿ثم﴾ آخر الأمر ﴿يغلبون﴾ كما وعد الله به في مثل قوله: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: 121]. ومعنى ﴿ثم﴾ في الموضعين إما التراخي في الزمان لما بين الإنفاق المنكور، وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، وإما التراخي في الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة، ثم قال: ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي: استمرّوا على الكفر، لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقاً من أسلم وحسن إسلامه: أي يساقون إليها لا إلى غيرها، ثم بيّن العلة التي لأجلها فعل بهم ما فعله فقال: ﴿ليميز الله الخبيث﴾ أي: الفريق الخبيث من الكفار ﴿ومن﴾ الفريق ﴿الطيب﴾ وهم المؤمنون ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾ أي: يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض ﴿فيركمه جميعاً﴾ عبارة عن الجمع والضم: أي يجمع بعضهم إلى بعض، ويضمّ بعضهم إلى بعض حتى يتراكمو لفرط ارتحامهم، يقال ركم الشيء يركمه: إذا جمعه وألقى بعضه على بعض، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الفريق الخبيث ﴿هم للخسرون﴾ أي: الكاملون في الخسران؛ وقيل: الخبيث والطيب: صفة للمال، والتقدير يميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون، فيضمّ تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض فيلقيه في جهنم ويعذبهم بها، كما في قوله تعالى: ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ [التوبة: 35]. قال في الكشاف: واللام على هذا متعلقة بقوله: ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾، وعلى الأوّل بيحشرون، و

هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله **﴿وإن يعيدوا﴾** إلى القتال والعداوة أو إلى الكفر الذي هم عليه، ويكون العود بمعنى الاستمرار **﴿فقد مضت سنة الأولين﴾** هذه العبارة مشتملة على الوعيد، والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله: أي قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب، فليتوقعوا مثل ذلك **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾** أي: كفر، وقد تقدم تفسير هذا في البقرة مستوفى **﴿فإن انتهوا﴾** عما نكر **﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾** لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء **﴿وإن تولوا﴾** عما أمروا به من الانتهاء **﴿فاعلموا﴾** أيها المؤمنون **﴿أن الله مولاكم﴾** أي: ناصركم عليهم **﴿نعم المولى ونعم النصير﴾** فمن والاه فاز ومن نصره غلب.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿فقد مضت سنة الأولين﴾** قال: في قريش وغيرها يوم بدر، والأمم قبل ذلك. وأخرج أحمد، ومسلم، عن عمرو بن العاص، قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ، فقلت: أبسط يدك فلأبأبعك، فبسط يمينه فقبضت يدي، قال: مالك؟ قلت: أريت أن اشتراط، قال: تشتراط ماذا؟ قلت: أن تستغفر لي، قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها» وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى: **﴿فقد مضت سنة الأولين﴾** بما مضى في الأمم المتقدمة من عذاب من قاتل الأنبياء، وصمم على الكفر. وقال السدي ومحمد بن إسحاق: المراد بالآية يوم بدر. وفسر جمهور السلف الفتنة المذكورة هنا بالكفر. وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير، وغيره من علمائنا **﴿حتى لا تكون فتنة﴾** حتى لا يفتن مسلم عن دينه.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَهُ أَشْرَكَ وَالَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مِنَ الْمُنْفَرِينَ قَالُوا إِنَّ الْكُفْرَ أَكْبَرُ مِنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ يَوْمَ الْأَشْرَاقِ يَوْمَ الْأَقْيَامِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ إِذْ أَنتُمْ بِالْمَدِينَةِ الْأَنْبِيَاءُ وَمِنْهُمْ الْوَسِيُّ وَالرُّكْبَةُ أَتَوَلَّوْا مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ أَنْ تَخْلُقْنَ فِي الْعَمِيدِ وَلَكِنْ يَبْقَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَعْرُوفًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾

لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾** [الأنفال: 39] وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة نكر حكم الغنيمة والغنيمة قد قدما أن أصلها إصابة الغنم من العدو، ثم استعملت في كل ما يصاب منهم، وقد تستعمل في كل ما ينال بسعي، ومنه قول الشاعر:

إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، كلهم من طريقه: قال: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش أصيب أبائهم وأبنائهم، فكلما أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم، فاعينوا بهذا المال على حربه فلعنا أن نترك منه ثاراً، ففعلوا، ففيهم كما نكر ابن عباس أنزل الله: **﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصنوا عن سبيل الله﴾** إلى **﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾**. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد نحوه. وأخرج هؤلاء وغيرهم عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحكم بن عتيبة، في الآية قال: نزلت في أبي سفيان أنفق على مشركي قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب، وكانت الوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالاً من ذهب. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن شمر بن عطية، في قوله: **﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾** قال: يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى في جهنم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: **﴿فيركمه جميعاً﴾** قال: يجمعه جميعاً.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُؤْذُوا فَتَدَّ مَعَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَتَوَلَّوْهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِلَّةً فَلَا تَغْنَمُ ۝ وَإِنْ يَنْتَهُوا فَرَحَ اللَّهُ بِمَا يَمْلِكُونَ بَعْثُ ۝ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يُحِمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَتَّبِعِ ۝

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها. قال ابن عطية: ولو كان كما قال الكسائي إنه في مصحف عبد الله بن مسعود **﴿قل للذين كفروا إن تنتهوا﴾** يعني: بالتاء المثناة من فوق لما تأتت الرسالة إلا بتلك الالفاظ بعينها. وقال في الكشف: أي قل لأجلهم هذا القول، وهو **﴿إن ينتهوا﴾** ولو كان بمعنى خاطبهم، لقل إن تنتهوا يغفر لكم، وهي قراءة ابن مسعود، ونحوه **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾** [الاحقاف: 11] خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه: أي إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول في الإسلام **﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾** لهم من العداوة. انتهى وقيل معناه: إن ينتهوا عن الكفر، قال ابن عطية: والحامل على ذلك جواب الشرط بيغفر لهم ما قد سلف، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمتته عن الكفر. وفي

وقد طوّفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب ومثله قول الآخر:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم
وأما معنى الغنيمة في الشرع، فحكي القرطبي الاتفاق على أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ مال الكفار إذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر. قال: ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع. وقد ادّعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية بعد قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: 1] وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغنمين، وأن قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ نزلت حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر على ما تقدّم أول السورة، وقيل إنها أعني قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ محكمة غير منسوخة، وأن الغنيمة لرسول الله ﷺ وليست مقسومة بين الغنمين، وكذلك لمن بعده من الأئمة، حكاه الماوردي عن كثير من المالكية. قالوا: وللإمام أن يخرجها عنهم، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين وكان أبو عبيدة يقول: افتتح رسول الله ﷺ مكة عنوةً ومنّ على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئاً، وقد حكي الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغنمين، ومن حكي ذلك ابن المنذر، وابن عبد البر، والداودي، والمازري، والقاضي عياض، وابن العربي، والأحاديث الواردة في قسمة الغنيمة بين الغنمين، وكيفيتها كثيرة جداً. قال القرطبي: ولم يقل أحد فيما أعلم أن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية ناسخ لقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية، بل قال الجمهور: إن قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ناسخ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله. وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها، قال: وأما قصة حنين فقد عوّض الانصار لما قالوا تعطى الغنائم قريشاً وتتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم نفسه، فقال لهم: أما ترضون أن يرجع الناس بالندب وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم كما في مسلم وغيره، وليس لغيره أن يقول هذا القول، بل ذلك خاص به. قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يشمل كل شيء يصنق عليه اسم الغنيمة و﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان لما الموصولة، وقد خصّص الإجماع من عموم الآية الأسارى، فإن الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف، وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام؛ وقيل: كذلك الأرض المغنومة. وردّ بانه لا إجماع على الأرض. قوله: ﴿فَإِنْ شَاءَ خَمْسَةٌ﴾ قرأ النخعي ﴿فَإِنْ شَاءَ﴾ بكسر إن. وقرأ الباقون بفتحها على أنْ وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير: فتح أو فوجأب أن شاء خمسة.

وقد اختلف العلماء في كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة: الأول قالت طائفة: يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس للكعبة، وهو الذي لله، والثاني لرسول الله، والثالث، لذوي القربى، والرابع لليتامى، والخامس للمساكين،

والسادس لابن السبيل. والقول الثاني: قاله أبو العالية والربيع: إنها تقسم الغنيمة على خمسة، فيعزل منها سهم واحد ويقسم أربعة على الغنمين، ثم يضرب يده في السهم الذي عزله، فما قبضه من شيء جعله للكعبة، ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة للرسول ومن بعده الآية. القول الثالث: روي عن زين العابدين علي بن الحسين أنه قال: إن الخمس لنا، ف قيل له: إن الله يقول: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ فقال: يتامانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا. القول الرابع قول الشافعي: إن الخمس يقسم على خمسة، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف في مصالح المؤمنين، والأربعة الأخرى على الأربعة الأصناف المنكورة في الآية. القول الخامس قول أبي حنيفة: إنه يقسم الخمس على ثلاثة: اليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته، كما ارتفع حكم سهمه، قال: ويبدا من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجند. وروي نحو هذا عن الشافعي. القول السادس قول مالك: إنه موكول إلى نظر الإمام واجتهاده، فيأخذ منه بغير تقدير، ويعطى منه الغزاة باجتهاد، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين. قال القرطبي، وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا، وعليه يدل قوله ﷺ: «مالي مما آفأ الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»، فإنه لم يقسمه لأحداً ولا أثلاثاً، وإنما ذكر ما في الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم، لأنهم من أهم من يدفع إليه. قال الزجاج محتجاً بهذا القول: قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 215] وجائز بلجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك. قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ قيل إعادة اللام في ذي القربى لكون من بعدهم، لنفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ.

وقد اختلف العلماء في القربى على أقوال: الأول: أنهم قريش كلها، روي ذلك عن بعض السلف، واستدلّ بما روي عن النبي ﷺ أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطن قريش كلها قائلاً: يا بني فلان يا بني فلان. وقال الشافعي، وأحمد، وأبو ثور، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج، ومسلم بن خالد: هم بنو هاشم وبنو المطلب لقوله ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشيك بين أصابعه» وهو في الصحيح وقيل: هم بنو هاشم خاصة، وبه قال مالك، والثوري، والأوزاعي، وغيرهم، وهو مروي عن علي بن الحسين، ومجاهد. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ قال الزجاج عن فرقة: إن المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم آمنتم بالله، وقالت فرقة أخرى: إن ﴿إِنْ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ قال ابن عطية: وهذا هو الصحيح لأن قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق إن بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ على هذا المعنى: أي إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله في الغنائم، فيما

الكفر، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها. ولم يكن في حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة، واللام في **﴿ليقضي﴾** متعلقة بمحذوف، والتقدير: جمعهم ليقضي. وجملة: **﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ﴾** بدل من الجملة التي قبلها: أي ليموت من يموت عن بينة ويعيش عن بينة لئلا يبقى لأحد على الله حجة؛ وقيل الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام: أي ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح بينة، ويقين بأنه بين الحق؛ ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالفة شبهة. قرأ نافع، وخلف، وسهل، ويعقوب، والبزي، وأبو بكر **﴿مَنْ حَيَّ﴾** بياءين على الأصل وقرأ الباقون بياء واحدة على الإدغام، وهي اختار أبي عبيد لأنها كذلك وقعت في المصحف **﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** أي: سميع بكفر الكافرين عليم به، وسميع بإيمان المؤمنين عليم به.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: ثم وضع مقاسم الفيء، فقال: **﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾** بعد الذي كان مضى من بدر **﴿فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسُهُ﴾** إلى آخر الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، عن قيس بن مسلم الجذلي قال: سألت الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية عن قول الله: **﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسُهُ﴾** قال: هذا مفتاح كلام، الله الدنيا والآخرة **﴿وَالرَّسُولُ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾** فاختلّفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ في هذين السهمين. قال قائل منهم: سهم ذي القربى لقربة رسول الله ﷺ. وقال قائل منهم: سهم ذي القربى لقربة الخليفة، وقال قائل منهم: سهم النبي ﷺ الخليفة من بعده، واجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله؛ فكان ذلك في خلافة أبي بكر وعمر. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فضرب ذلك في خمسة، ثم قرأ: **﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾** الآية، قال قوله: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسُهُ﴾** مفتاح كلام، الله ما في السموات وما في الأرض، فجعل الله سهم الله والرسول واحداً **﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾** فجعل هذين السهمين قوة في الخيل والسلاح، وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم، وجعل الأربعة الأسهم الباقية: للفرس سهماً ولراكبه سهماً، وللراجل سهماً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس: فاربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس. فربح الله والرسول ولذي القربى، يعني قرابة رسول الله ﷺ، فما كان لله والرسول فهو لقربة النبي ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً؛ والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث

أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة. وقال في الكشف: إنه متعلق بمحذوف يدل عليه **﴿وَأَعْلَمُوا﴾** بمعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به، فاقطعوا عنه أطمامكم، واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم المجرد، ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله، لأن العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر. انتهى. قوله: **﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾** معطوف على الاسم الجليل أي: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا، و**﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾** يوم بدر، لأنه فرق بين أهل الحق وأهل الباطل **﴿وَالْجَمْعَانِ﴾** الفريقان من المسلمين والكافرين **﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الأقل على الفريق الأكثر. قوله: **﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا وَهَمَّ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾** قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، بكسر العين في العدوة في الموضعين، قرأ الباقون بالضم فيهما. و**﴿إِذْ﴾** بدل من يوم الفرقان، ويجوز أن يكون العامل محذوفاً، أي وأنكروا إذ أنتم. والعدوة: جانب الوادي، والدنيا: تانيث الأنثى، والقصوى: تانيث الأقصى، من دنا يدنو، وقصا يقصو، ويقال القصيا، والأصل الوار، وهي لغة أهل الحجاز، والعدوة الدنيا كانت مما يلي المدينة، والقصوى: كانت مما يلي مكة. والمعنى: وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادي إلى جهة المدينة، وعدوكم بالجانب الأقصى منه مما يلي مكة. وجملة: **﴿وَالرَّكِبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾** في محل نصب على الحال، وانتصاب **﴿أَسْفَلَ﴾** على الظرف، ومحلّه الرفع على الخبرية: أي والحال أن الركب في مكان أسفل من المكان الذي أنتم فيه، ولجاز الأخفش والكسائي والفراء رفع أسفل على معنى أشدّ سفلاً منكم؛ والركب: جمع راكب، ولا تقول العرب ركب إلى للجماعة الراكبي الإبل، ولا يقال لمن كان على فرس وغيرها ركب، وكذا قال ابن فارس، وحكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة. والمراد بالركب ها هنا ركب أبي سفيان، وهي المراد بالغير، فإنهم كانوا في موضع أسفل منهم مما يلي ساحل البحر. قيل: وفائدة نكر هذه الحالة التي كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منهم الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته، وذلك لأن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا يابس بها، وأما العدوة الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها، وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم، فامتدّ الله على المسلمين بنصرتهم عليهم والحال هذه. قوله: **﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلاَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾** أي: لو تواعدتم أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا في هذا الموضع للقتال لخالف بعضكم بعضاً. فثبطكم قلّتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من المهابة لرسول الله ﷺ **﴿وَلَكِنْ﴾** جمع الله بينكم في هذا الموطن **﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾** أي: حقيقة بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان أعدائه وإعزاز دينه وإذلال

إخوانك من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك منهم، رأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم بوننا فإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب؟ فقال: إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام. وقد أخرجهم مسلم في صحيحه. وأخرج ابن مريويه، عن زيد بن أرقم قال: آل محمد الذين أعطوا الخمس: آل علي، وآل العباس، وآل جعفر، وآل عقيل. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس قال: كان للنبي ﷺ شيء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه، إما خادم وإما فرس، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مريويه، عن علي قال: قلت يا رسول الله: ألا وليتني ما خصنا الله به من الخمس؟ فولانيه. وأخرج الحاكم وصححه عنه قال: ولاني رسول الله ﷺ خمس الخمس فوضعه مواضعه حياة رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَوْمَ لِلْفِرْقَانِ﴾ قال: هو يوم بدر، وبدر ما بين مكة والمدينة، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَوْمَ لِلْفِرْقَانِ﴾ قال: هو يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل. وأخرج ابن مريويه، عن علي بن أبي طالب، قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، وأخرجه عنه ابن جرير أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِذْ أَنْتَم بِالْعُدُوِّ لِلنَّبِيِّ﴾ قال: العدة الدنيا شاطئ الوادي ﴿وَالرَّكِبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾. قال أبو سفيان. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: العدة الدنيا شفير الوادي الأدنى، والعدة القصوى شفير الوادي الأقصى.

إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاقِعَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَاشَتْكُمْ وَلَكِنَّكُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَمَاءٌ لَكُمْ عَلَيْهِ بِدَاتِ الْأَشْدُّ وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ إِذْ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا مِمَّا لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ يَتَقَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَعْمُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٦﴾

إذ منصوب بفعل مقدر: أي انكر أو هو بدل ثان من يوم الفرقان. والمعنى: أن النبي ﷺ رآهم في منامه قليلاً فقص ذلك على أصحابه، فكان ذلك سبباً لثباتهم، ولو رآهم في منامه كثيراً لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعا في الأمر، هل يلاقونهم أم لا؟ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله ﷺ في المنام؛ وقيل عني بالمنام: محل النوم، وهو العين: أي في موضع منامك وهو عينك، روى ذلك عن الحسن. قال الزجاج: هذا مذهب حسن ولكن الأول أسوغ في العربية لقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقُلُّكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾. فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء، وأن تلك رؤية النوم. قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأول: أي وانكروا وقت

للمساكين؛ والرابع لابن السبيل، وهو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية، في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية قال: كان يجاء بالغنيمة فتوضع، فيقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم، فيعزل سهماً منها، ويقسم أربعة أسهم بين الناس، يعني لمن شهد الواقعة، ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزله، فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة، فهو الذي سمي الله لا تجعلوا لله نصيباً، فإن لله الدنيا والآخرة ثم يعتمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة سهم: سهم للنبي ﷺ، وسهم لذي القربى وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ يجعل سهم الله في السلاح والكرام وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة وطيبها وما تحتاج إليه الكعبة، ويجعل سهم الرسول في الكرام والسلاح ونفقة أهله، وسهم ذي القربى لقربته، يضعه رسول الله ﷺ فيهم مع سهمهم مع الناس، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله ﷺ فيمن شاء حيث شاء، ليس لبني عبد المطلب في هذه الثلاثة الأسهم ولرسول الله ﷺ سهم مع سهام الناس. وأخرج ابن أبي حاتم عن حسين المعلم قال: سألت عبد الله بن بريدة عن قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ فقال: الذي لله لنبيه، والذي للرسول لأزواجه. وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، أن نجدة كتب إليه يسأله عن نوي القربى الذين ذكر الله، فكتب إليه إنا كنا نرى أناهم فأبى ذلك علينا قومنا، وقالوا قريش كلها نوي قربى، وزيادة قوله وقالوا قريش كلها تفرد بها أبو معشر، وفيه ضعف وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، من وجه آخر عن ابن عباس: أن نجدة الحروري أرسل إليه يسأله عن سهم ذي القربى، ويقول لمن تراه؟ فقال ابن عباس: هو لقربى رسول الله ﷺ قسمه لهم رسول الله ﷺ. وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضاً رأيناه دون حقنا فردناه عليهم وأبينا أن نقبله، وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم وأن يقضي عن غارهم، وأن يعطي فقيرهم، وأبى أن يزيدهم على ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «رغبت لكم عن غسالة الأيدي، لأن لكم في خمس الخمس ما يكفيكم أو يغنيكم». رواه ابن أبي حاتم عن إبراهيم بن مهدي المصيصي حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عنه مرفوعاً. قال ابن كثير: هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم. وقال يحيى بن معين: يأتي بمنكأكير. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر، عن جبير بن مطعم: أن النبي ﷺ قسم سهم نوي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب، قال: فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا يا رسول الله هؤلاء

إذا حاربتم جماعة من المشركين **﴿فَانْهَبُوا﴾** لهم ولا تجبنوا عنهم، وهذا لا ينافي الرخصة المتقدمة في قوله: **﴿إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾** [الأنفال: 16] فإن الأمر بالثبات هو في حال السعة، والرخصة هي في حال الضرورة. وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحريف والتحيز **﴿وَانْكُرُوا لِلَّهِ﴾** أي: انكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد؛ وقيل المعنى: اثبتوا بقلوبكم وانكروا بالسنتكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان؛ قيل وينبغي أن يكون الذكر في هذه الحالة بما قاله أصحاب طلوت: **﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصِرْنَا عَلَى قَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** [البقرة: 250]. وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الأحوال، حتى في هذه الحالة التي ترجف فيها القلوب، وتزعج عندها البصائر، ثم أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم إليه، ونهاهم عن التنازع وهو الاختلاف في الرأي، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل، وهو الجبن في الحرب. والفاء جواب النهي، والفعل منصوب بإضمار أن، ويجوز أن يكون الفعل معطوفاً على تنازعوا مجزوماً بجازمه. قوله: **﴿وَوَهَبْ رِيحَكُمْ﴾** قرئ بنصب الفعل، وجزمه عطفاً على تفشلوا على الوجهين، والريح: القوة والنصر، كما يقال الريح لفلان إذا كان غالباً في الأمر؛ وقيل الريح الدولة شبهت في نفوذ أمرها بالريح في هبوبها، ومنه قول الشاعر:

إذ هبت ريحك فاغتنمها فعبى كل خافقة سكون
وقيل المراد بالريح: ريح الصبا، لأن بها كان ينصر النبي ﷺ، ثم أمرهم بالصبر على شدائد الحرب، وأخبرهم بأنه مع الصابرين في كل أمر ينبغي الصبر فيه، وبما حبذا هذه المعية التي لا يغلب من رزقها غالب، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات، وإن كانت كثيرة، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطراً وثناء الناس، وهم قريش. فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع أبي سفيان، ومعهم القيان والمعازف، فلما بلغوا الجحفة بلغهم أن العير قد نجت وسلمت، فلم يرجعوا بل قالوا لا بد لهم من الوصول إلى بدر ليشربوا الخمر، وتغني لهم القيان، وتسمع العرب بمخرجهم، فكان ذلك منهم بطراً وأشراً وطلباً للثناء من الناس، وللمدح إليهم، والفخر عندهم، وهو الرياء؛ وقيل والبطر في اللغة: التقوي بنعم الله على معاصيه، وهو مصدر في موضع الحال: أي خرجوا بطرين مرائين؛ وقيل هو مفعول له وكذا رياء: أي خرجوا للبطر والرياء. وقوله: **﴿وَيَصْنُونَ﴾** معطوف على بطراً، والمعنى كما تقدم: أي خرجوا بطرين مرائين صائين عن سبيل الله، أو للصد عن سبيل الله. والصد: إضلال الناس والحيولة بينهم وبين طرق الهداية. ويجوز أن يكون يصنون معطوفاً على يخرجون، والمعنى: يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد **﴿وَالَّذِينَ يَمْعَلُونَ مِحْيَٰطًا﴾** لا تخفى عليه

إراءتكم إياهم حال كونهم قليلاً، حتى قال القائل من المسلمين لآخر: أتراه سميعين؟ قال: هم نحو المائة، وقلل المسلمين في أعين المشركين حتى قال قائلهم: إنما هم لكلة جزور، وكان هذا قبل القتال، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين في أعين المشركين، كما قال في آل عمران: **﴿يُرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنُ﴾** [آل عمران: 13]، ووجه تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا راوهم قليلاً أقدموا على القتال غير خائفين، ثم يرونهم كثيراً فيفشلون، وتكون الدائرة عليهم، ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه، واللام في **﴿يُلْقِضِي اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾** متعلقة بمحذوف كما سبق مثله قريباً، وإنما كرره لاختلاف المعلن به **﴿وَاللَّهُ يَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾** كلها يفعل فيها ما يريد ويقيضي في شأنها ما يشاء.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **﴿إِذَا يَرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾** قال: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيناً لهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿وَلَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ﴾** يقول: لجبنتم **﴿وَلِتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ﴾** قال: لاختلفتم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾** أي: أتم، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عنه **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾** يقول: سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن مسعود، في قوله: **﴿وَإِذَا يَرِيكُمْوَهُمُ﴾** الآية قال: لقد قلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراه سميعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه قال: كنا ألفاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة، في الآية قال: حضض بعضهم على بعض. قال ابن كثير: إسناده صحيح. وأخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير في قوله: **﴿يُلْقِضِي اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾** أي ليلف بينهم الحرب للنعمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُرُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا الْقِتْلَةَ وَأَتَّبِعُوا أَمْرًا مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِطَرٍّ وَرَيْطَةٍ إِلَى النَّاسِ رُسُودًا مِّن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَمْعَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّقِيظُ أَصْنَبَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْوُجُوهُ لَكُمْ عَلَى عِيقِهِمْ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾ إِذْ يَسْأَلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ عَنِ مَوْلَاكُمْ دِينُهُمْ مِّنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَرِيبٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾

قوله: **﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾** اللقاء الحرب، والفتنة الجماعة: أي

من أعمالهم خافية، فهو: مجازيهم عليها. قوله: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الظرف متعلق بمحذوف: أي وانكر يا محمد وقت تزيين الشيطان لهم أعمالهم، والتزيين: التحسين، وقد روي أن الشيطان تمثل لهم وقال لهم تلك المقالة، وهي: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ أي: مجبر لكم من كل عدو أو من بني كنانة، ومعنى الجار هنا: الدافع عن صاحبه أنواع الضرر، كما يدفع الجار عن الجار، وكان في صورة سراقاة بن مالك بن جشعم، وهو من بني بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم؛ وقيل المعنى: إنه ألقى في روعهم هذه المقالة، وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتُ أَي: فئة المسلمين والمشركين﴾ **نكص على عقبيه** أي: رجع القهقري، ومنه قول الشاعر:

ليس النكص على الأعقاب مكرومة إن المكروم أقدم على الأمل وقول الآخر:

وما نفع المستأخرين نكوصهم ولا ضرر أهل السابقات التقدّم وقيل معنى نكص هاهنا: بطل كيده وذهب ما خيله ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ أي: تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يعني: الملائكة، ثم علل بعله أخرى فقال: ﴿إِنِّي لَخَافُ اللَّهَ﴾ قيل: خاف أن يصاب بمكره من الملائكة الذين حضروا الواقعة؛ وقيل إن دعوى الخوف كذب منه، ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتلّ بذلك، وجملته ﴿وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس، ويحتمل أن تكون كلاماً مستأنفاً من جهة الله سبحانه. قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ الظرف معمول لفعل محذوف هو انكر، ويجوز أن يتعلق بنكص أو بزين أو بشديد العقاب؛ قيل: المنافقون هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم الشاككون من غير نفاق، بل لكونهم حديثي عهد بالإسلام، فوافقوا المنافقين في قولهم بهذه المقالة، أعني: ﴿غُرْ هَؤُلَاءِ﴾ أي: المسلمين ﴿بَيْنَهُمْ﴾ حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش؛ وقيل: الذين في قلوبهم مرض هم المشركون، ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما حولها، وأنهم هم والمنافقون من أهل المدينة، قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر لما راوهم في قلة من العدد وضعف من العدد، فاجاب الله عليهم بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه غالب، ولا يذل من توكل عليه ﴿حَكِيمٌ﴾ له الحكمة البالغة التي تقصر عندها العقول.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وَانْكُرُوا اللَّهَ﴾ قال: افترض الله نكره عند أشغل ما يكونون: عند الضراب بالسيوف. وأخرج الحاكم وصححه، عن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثنتان لا يردان: الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً» وأخرج الحاكم وصححه، عن أبي موسى أن

رسول الله ﷺ كان يكره الصوت عند القتال، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ يقول: لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قال: نصركم وقد ذهب ريح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ بِيَارِهِمُ﴾ الآية، يعني المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والنفوف، فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، عن مجاهد، في الآية قال: أبو جهل وأصحابه يوم بدر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله ﷺ يوم بدر خرجوا ولهم بغى وفخر، وقد قيل لهم يومئذ أرجعوا فقد انطلقت غيركم وقد ظفرتم فقالوا: لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعدنا، ونكر لنا أن نبي الله ﷺ قال يومئذ «اللهم إن قريشاً قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك»، ونكر لنا أنه قال يومئذ «جاءت من مكة أفلاذها»، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، قال: جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدلج، والشيطان في صورة سراقاة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ وأقبل جبريل على إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده وولى متبرأً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقاة إنك جار لنا فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وذلك حين رأى الملائكة ﴿إِنِّي لَخَافُ اللَّهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال: ولما بنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: وما هؤلاء غر هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وأخرج الطبراني، وأبو نعيم، عن رفاعة بن رافع الأنصاري، قال: لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه فتشيت به الحارث بن هاشم، وهو يظن أنه سراقاة بن مالك، فوكل في صدر الحارث، فإلقاه ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه فقال: اللهم إني أسألك نظرتك إياي. وأخرج الواقدي وابن مريويه، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال: نكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة، وقال: ﴿إِنِّي لَخَافُ اللَّهَ﴾ وكذب عدو الله ما به

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 118] قوله: ﴿كُذِّبَ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ لما نكر الله سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سنته في فرق الكافرين، والداب: العادة، والكاف في محل الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف: أي داب هؤلاء مثل داب آل فرعون ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، والمعنى: أنه جوزي هؤلاء كما جوزي أولئك، فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر، وجملة قوله: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ مفسرة لداب آل فرعون: أي دابهم هذا هو أنهم كفروا بآيات الله، فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم، والمراد بنزوبهم: معاصيهم المترتبة على كفرهم، فيكون الباء في «بنزوبهم» للملازمة، أي فآخذهم متلبسين بنزوبهم غير تائبين عنها، وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها، والإشارة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى العقاب الذي أنزله الله بهم، وهو مبتدأ وخبره ما بعده، والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله. والمعنى: أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله في عباده عدم تغيير نعمه التي ينعم بها عليهم ﴿حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَانَفْسَهُمْ﴾ من الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله وغمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين، فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات في الدنيا ومنهم عليهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم، كما غيروا وما كان يجب عليهم سلوكه، والعمل به من شكرها وقبولها، وجملة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوفة على ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ داخلية معها في التعليل: أي تلك بسبب أن الله لم يك مغيراً نعمته، إلخ، وبسبب أن الله سميع عليم يسمع ما يقولونه ويعلم ما يفعلونه. وقرئ بكسر الهمزة على الاستثناء، ثم كرر ما تقدم، فقال ﴿كُذِّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ لقصد التأكيد مع زيادة أنه كالبيان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق؛ وقيل: إن الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم، والثاني: باعتبار ما فعل بهم؛ وقيل: المراد بالأول كفرهم بالله، وبالثاني تكذيبهم الأنبياء؛ وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف، والكلام في ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بنزوبهم، كالكلام المتقدم في فآخذهم الله بنزوبهم ﴿وَأَغْرَقْنَا آلُ فِرْعَوْنَ﴾ معطوف على أهلكناهم، عطف الخاص على العام، لقطاعه وكونه من أشد أنواع الإهلاك، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم، ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم، بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله، وبالظلم لغيرهم، كما كان يجري منهم في معاملاتهم للناس بأنواع الظلم.

مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له به ولا منعة له. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن معمر قال: نكروا أنهم أقبلوا على سراقه بن مالك بعد ذلك، فانكر أن يكون قال شيئاً من ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال: وهم يومئذ في المسلمين. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن الكلبي في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: هم قوم كانوا أقرؤا بالإسلام، وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا المسلمين قالوا: ﴿غَزَى هَؤُلَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الشعبي نحوه.

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَلَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَتْرِكُوهُمْ وَيُكْرَهُهُمْ وَيُوقِفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَسَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لَّيْلِيٍّ ﴿٥٧﴾ كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٨﴾ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٦٠﴾

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه في غير موضع. والمعنى: ولو رايت، لأن لو تقلب المضارع ماضياً، و ﴿إِذْ﴾ ظرف لتري، والمفعول محذوف: أي ولو ترى الكافرين وقت توفي الملائكة لهم؛ قيل أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر؛ وقيل: هي فيمن قتل ببدر وجواب لو محذوف تقديره لرايت أمراً عظيماً، وجملة ﴿يُضْرَبُونَ وَجُوهَهُمْ﴾ في محل نصب على الحال، والمراد بأبصارهم استأصمهم، كنى عنها بالأبصار، وقيل ظهورهم؛ قيل هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيد ذكر التوفي، وقيل: هو يوم القيامة حين يسرون بهم إلى النار. قوله: ﴿وَيُوقِفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ قاله: الفراء، المعنى: ويقولون نوقوا عذاب الحريق، والجملة معطوفة على يضربون؛ وقيل: إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم، والنوق قد يكون محسوساً، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار، وأصله من النوق بالضم والإشارة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ في ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ لِأَيْدِيكُمْ﴾ سببية: أي ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي، واقتربت من الذنوب. وجملة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي والأمر أنه لا يظلمهم، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ذلك العذاب بسبب المعاصي، وبسبب: ﴿أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسلاً، وأنزل عليهم كتبه، وأوضح لهم السبيل، وهداهم النجدين

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال: الذين قتلهم الله ببدر من المشركين. وأخرج ابن جرير، عن الحسن، قال: قال

تدعوا قعياً وقد غص الحديد بها غص الثقال على ضم الأنابيب يقال ثقفته: وجنته، وفلان ثقف: سريع الوجود لما يحاوله، والتشريد: التفريق مع الاضطراب. وقال أبو عبيدة **﴿فسرد بهم﴾** سمع بهم. وقال الزجاج: افعل بهم فعلاً من القتل تفرق به من خلفهم، يقال شردت بني فلان: قلتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها. قال الشاعر:

أطوف في الأباطح كل يوم مخافة أن يشربني حكيم
ومنه شرد البعير: إذا فارق صاحبه، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ **﴿فسرد بهم﴾** بالذال المعجمة. قال قطرب: التشريد بالذال المعجمة هو التنكيل، وبالمهمل هو التفريق. وقال المهدي: الذال المعجمة لا وجه لها إلا أن تكون بدلاً من الدال المهمل لتقاربهما، قال: ولا يعرف فسرد في اللغة، وقرئ **﴿من خلفهم﴾** بكسر الميم والفاء. قوله: **﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾** أي: غشاً ونقضاً للعهد من القوم المعامدين **﴿فانذ إليهم﴾** أي: فاطرح إليهم العهد الذي بينك وبينهم **﴿على سواء﴾** على طريق مستوية. والمعنى: أنه يخبرهم إخباراً ظاهراً مكشوراً بالنقض، ولا يناجزهم الحرب بفتة، وقيل معنى **﴿على سواء﴾** على وجه يستوي في العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم، أو تستوي أنت وهم فيه. قال الكسائي: السواء العدل، وقد يكون بمعنى الوسط، ومنه قوله: **﴿في سواء الجحيم﴾** [الصفات: 55]، ومنه قول حسان:

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد
ومن الأول قول الشاعر:

فاضرب وجوه الغدر الأعداء حتى يجيبوك إلى سواء
وقيل: معنى **﴿فانذ إليهم على سواء﴾** على جهر لا على سر، والظاهر أن هذه الآية عامة في كل معاهد يخاف من وقوع النقص منه. قال ابن عطية: والذي يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بني قريظة انقضى عند قوله: **﴿فسرد بهم من خلفهم﴾** ثم ابتداء تبارك وتعالى في هذه الآية بإمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة، وجملة **﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾** تعليل لما قبلها، يحتمل أن تكون تحذيراً لرسول الله ﷺ عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة. قوله: **﴿ولا تحسبن﴾** قرأ ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص بالياء التحتية، وقرأ الباقون بالمتناة من فوق. فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا فاعل الحسبان، ويكون مفعوله الأول محذوفاً: أي لا تحسبن الذين كفروا أنفسهم، ومفعوله الثاني سبقوا ومعناه: فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم. وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله ﷺ، ومفعوله الأول الذين كفروا، والثاني سبقوا، وقرئ **﴿إنهم سبقوا﴾** وقرئ **﴿يحبسن﴾** بكسر الياء، وجملة **﴿إنهم لا يعجزون﴾** تعليل لما قبلها: أي إنهم لا يفوتون ولا يجدون طلبهم عاجزاً عن إدراكهم. وقرأ ابن عامر أنهم بفتح الهمزة، والباقيون بكسرها، وكلا القراءتين مفيدة لكون الجملة

رجل يا رسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك قال: ذلك ضرب الملائكة. وهذا مرسل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿وإنبارهم﴾** قال: وأستأهمهم، ولكن الله كريم يكنى. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: **﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** قال: نعمة الله: محمد ﷺ أنعم الله به على قريش فكفروا فنقله الله إلى الأنصار.

إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِيثَاقٌ مِّنْ بَيْنِي وَبَيْنَهِمْ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّمَا تَنفَعُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَتَرَهُم مِّنْ خَلْفِهِمْ يُكَذِّبُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّمَا تَنَالُهُم مِّنْ قُوَّةٍ حِثَّانَةً فَإِنَّهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ أَلَّهَ لَا يَصِحُّ لِلْقَائِيْنَ ﴿٥٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَعْلَمْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْغَيْلِ تُرِيدُونَ بِهِ عِذَّ اللَّهِ وَعَذُّكُمْ وَمَنْعَرَجُ بَيْن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبُذْهُ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله: **﴿إن شر الدواب﴾** أي: شر ما يذب على وجه الأرض **﴿عند الله﴾** أي: في حكمه **﴿الذين كفروا﴾** أي: المصرون على الكفر المتمانون في الضلال، ولهذا قال: **﴿فهم لا يؤمنون﴾** أي: إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبداً، ولا يرجعون عن الغواية أصلاً، وجعلهم شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية، وبخولهم في جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم. قوله: **﴿الذين عاهدت منهم﴾** بدل من الذين كفروا أو عطف بيان أو في محل نصب على الذم. والمعنى: أن هؤلاء الكافرين الذين هم شر الدواب عند الله هم هؤلاء الذين عاهدت منهم: أي أخذت منهم عهدهم **﴿ثم﴾** هم **﴿ينقضون عهدهم﴾** الذي عاهدتم **﴿في كل مرة﴾** من مرآت المعاهدة **﴿و﴾** الحال **﴿أنهم لا يتقون﴾** النقص، ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه، وقيل إن **﴿من﴾** في قوله: **﴿منهم﴾** للتبعية، ومفعول عاهدت محذوف: أي الذين عاهدتهم، وهم بعض أولئك الكفرة: يعني الأشراف منهم، وعطف المستقبل وهو ثم ينقضون على الماضي، وهو عاهدت للدلالة على استمرار النقص منهم، وهؤلاء هم قريظة، عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك كما سيأتي، ثم أمر رسول الله ﷺ بالشدة والغلظة عليهم، فقال: **﴿فإنما تنفقهم في الحرب فسرد بهم من خلفهم﴾** أي: فإما تصادفهم في ثفاف، وتلقاهم في حالة تقدر عليهم فيها، وتمكن من غلبهم **﴿فسرد بهم من خلفهم﴾** أي: ففرق بقتلهم والتنكيل بهم من خلفهم من المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهاووا جانبك، ويكفوا عن حريك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء. والثفاف في أصل اللغة: ما يشد به القناة أو نحوها ومنه قول النابغة:

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ في شيء من هذه النفقة التي تنفقونها في سبيل الله: أي من ثوابها، بل يصير ذلك إليكم وأفياً وأفراً كاملاً ﴿وَأَنْ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعَفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: 40] ﴿إِنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: 195].

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة قال: نزلت ﴿إِنْ شَرَّ لِلنَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية في ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ قال: قريظة يوم الخندق مالمثوا على رسول الله ﷺ أعداءه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قال: نكل بهم من بعدهم. وأخرج ابن جرير، عنه، في الآية قال: نكل بهم من رءاهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبيرة، في الآية قال: انذر بهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: عظ بهم من سواهم من الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، قال: أخفهم بهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْكَرُونَ﴾ يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك. وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال: قد وضعت السلاح وما زلنا في طلب القوم، فأخرج فإن الله قد أنزل لك في قريظة، وأنزل فيهم: ﴿وَلِمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَعْجِزُونَ﴾ قال: لا يفوتونا. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَاعْتَدُوا لَهُمْ مَا لِسِتْطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال: الرمي والسيوف والسلاح. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، في قوله: ﴿وَاعْتَدُوا لَهُمْ مَا لِسِتْطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال: أمرهم بإعداد الخيل. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن عكرمة في الآية قال: القوة نكور الخيل، والرباط الإناث. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب في الآية قال: القوة الفرس إلى السهم فما دونه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الإناث. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ قال: تخزون به عدو الله وعدوكم. وقد ورد في استحباب الرمي، وما فيه من الأجر لأحاديث كثيرة، وكذلك ورد في استحباب اتخاذ الخيل وإعدادها، وكثرة ثواب صاحبها أحاديث لا يتسع المقام لبسطها. وقد أورد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَكَ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

تعليقية؛ وقيل المراد بهذه الآية: من أقلت من وقعة بدر من المشركين. والمعنى: أنهم وإن أقلتوا من هذه الوقعة ونجوا فإنهم لا يعجزون، بل هم واقعون في عذاب الله في الدنيا أو في الآخرة. وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم، أن قراءة من قرأ يحسبن بالتحتية لحن، لا تحل القراءة بها لأنه لم يأت ليحسبن بمفعول، وهو يحتاج إلى مفعولين. قال النحاس: وهذا تحامل شديد. ومعنى هذه القراءة: ولا يحسبن من خلفهم الذين كفروا سبقوا، فيكون الضمير يعود على ما تقدم إلا أن القراءة بالتاء أبين. وقال المهدوي: يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلاً، والمفعول الأول محذوف. والمعنى ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا. قال مكي: ويجوز أن يضم مع سبقوا «أن» فتسد مسد المفعولين، والتقدير: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا، فهو مثل: «أحسب الناس أن يتركوا» [العنكبوت: 2] في سد أن مسد المفعولين، ثم أمر سبحانه بإعداد القوة للأعداء، والقوة كل ما يتقوى به في الحرب، ومن ذلك السلاح والقتال. وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «واعتدوا لهم ما استطعتم من قوة إلا أن القوة الرمي، قالها ثلاث مرات». وقيل: هي الحصون، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ متعين. قوله: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ قرأ الحسن وعمر بن دينار وأبو حيو «ومن ربط الخيل» يضم الراء والياء ككتب: جمع كتاب. قال أبو حاتم: الرباط من الخيل الخمس فما فوقها، وهي الخيل التي ترتبط بإزاء العدو. ومنه قول الشاعر:

أمر الإله بربطه بالعدو في الحرب إن الله خير موفق
قال في الكشف: والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المراقبة. ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال. انتهى. ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به في الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام، وجملة «تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» في محل نصب على الحال والترهيب: التخويف، والضمير في به عائد إلى «ما» في «ما استطعتم» أو إلى المصدر المفهوم من «واعتدوا» وهو الإعداد. والمراد بعدو الله وعدوهم هم المشركون من أهل مكة، وغيرهم من مشركي العرب. قوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ معطوف على عدو الله وعدوكم. ومعنى من دونهم: من غيرهم؛ قيل هم اليهود، وقيل فارس والروم، وقيل الجن، ورجحه ابن جرير. وقيل المراد بالآخرين من غيرهم: كل من لا تعرف عدالته قاله السهيلي. وقيل: هم بنو قريظة خاصة، وقيل غير ذلك. والأولى: الوقف في تعيينهم لقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾. قوله: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في الجهاد وإن كان يسيراً حقيقاً «يُؤِفُّ إِلَيْكُمْ» جزأؤه في الآخرة. فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قررناه سابقاً

وَأَن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوا فَرَاكَ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ بَنَصْرَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِي بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَتْنَا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَفْتَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَفْتَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ عِزٌّ حَكِيمٌ ﴿٥٧﴾

الجنوح: الميل، يقال جنح الرجل إلى الرجل: مال إليه؛ ومنه قيل للأضالع جوانح لأنها مالت إلى الحنوة، وجنحت الإبل: إذا مالت أعناقها في السير، ومنه قول ذي الرمة: إذا مات فوق الرجل أحييت روحه بذكراك والعيس والمراسيل جنح ومثله قول عنتره:

جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان لؤل غلب يعني الطير، والسلم: الصلح، قرأ الأعمش وأبو بكر، وابن محيصن، والمفضل بكسر السين، وقرأ الباقر بفتحها، وقرأ العقيلي **﴿فلجنح﴾** بضم النون، وقرأ الباقر بفتحها. والاولى: لغة قيس، والثانية: لغة تميم. قال ابن جني: ولغة قيس هي القياس، والسلم تؤنث كما تؤنث الحرب، أو هي مؤنثة بالخصلة، أو الفعلة.

وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة؟ فقيل هي منسوخة بقوله: **﴿فناقتلوا المشركين﴾** [التوبة: 5] وقيل: ليست بمنسوخة، لأن المراد بها قبول الجزية، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم، فتكون خاصة بأهل الكتاب؛ وقيل: إن المشركين إن دعوا إلى الصلح جاز أن يجابوا إليه، وتمسك المانعون من مصلحة المشركين بقوله تعالى: **﴿ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم﴾** [محمد: 35] وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون في عزة وقوة، لا إذا لم يكونوا كذلك، فهو جائز كما وقع منه ﷺ من مهانة قريش، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك، وكلام أهل العلم في هذه المسئلة معروف مقرر في مواضع **﴿وتوكل على الله﴾** في جنوحك للسلم، ولا تخف من مكرهم، **﴿فإنه﴾** سبحانه **﴿هو السميع﴾** لما يقولون **﴿العليم﴾** بما يفعلون **﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾** بالصلح، وهم مضربون الغدر والخدع **﴿فإن حسبك الله﴾** أي: كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكت والغدر، وجملة **﴿هو الذي إليك بنصره وبالمؤمنين﴾** تعليلية: أي لا تخف من خدعهم ومكرهم، فإن الله الذي قواك عليهم بالنصر فيما مضى، وهو يوم بدر، هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكت، والمراد بالمؤمنين: المهاجرون والانصار، ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال: **﴿وولف بين قلوبهم﴾** وظاهره العموم وأن ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التي أيد الله بها رسوله. وقال جمهور المفسرين: المراد الأوس والخزرج، فقد كان بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة، فالف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله ﷺ، وقيل: أراد التآليف بين المهاجرين والانصار، والحمل على العموم أولى، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية ياكل بعضهم بعضاً ولا يحترم ماله ولا دمه، حتى جاء الإسلام فصاروا يداً واحدة، وذهب

ما كان بينهم من العصبية، وجملة **﴿ولو انفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾** مقززة لمضمون ما قبلها. والمعنى أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حد لا يمكن نفعه بحال من الأحوال، ولو أنفق الطالب له جميع ما في الأرض لم يتم له ما طلبه من التآليف، لأن أمرهم في ذلك قد تفاقم جداً **﴿ولكن الله ألفت بينهم﴾** بعظيم قدرته وبديع صنعه **﴿إنه عزيز﴾** لا يغالبه مغالب، ولا يستعصي عليه أمر من الأمور **﴿حكيم﴾** في تدبيره ونفوذ نبيه وأمره.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **﴿وإن جنحوا للسلم﴾** قال: قريظة. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: نزلت في بني قريظة نسختها: **﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم﴾** [محمد: 35] إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: السلم الطاعة. وأخرج أبو الشيخ عنه في الآية قال: إن رضوا فارض. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي في الآية قال: إن أرادوا الصلح، فآرده. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، عن ابن عباس، في الآية قال: نسختها هذه الآية **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾** [التوبة: 29] إلى قوله: **﴿وهم صاغرون﴾** [التوبة: 29]. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: ثم نسخ ذلك: **﴿فناقتلوا المشركين حيث وجبتهم﴾** [التوبة: 5]. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿وإن يريدون أن يخدعوك﴾** قال: قريظة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: **﴿وبالمؤمنين﴾** قال: بالانصار. وأخرج ابن مروي، عن النعمان بن بشير نحوه. وأخرج ابن مروي، عن ابن عباس، نحوه أيضاً. وأخرج ابن عساکر، عن أبي هريرة، قال: مكتوب على العرش: لا إله إلا الله أنا الله وحدي لا شريك لي، ومحمد عبدي ورسولي أيدته بعلمي، وذلك قوله: **﴿هو الذي إليك بنصره وبالمؤمنين﴾**. وأخرج ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، والنسائي، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود، أن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله **﴿ولو انفقت ما في الأرض جميعاً﴾** الآية. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي في شعب الإيمان، واللفظ له عن ابن عباس قال: قرابة الرحم تقطع؛ ومنة المنعم تكفر، ولم تر مثل تقارب القلوب، يقول الله **﴿ولو انفقت ما في الأرض جميعاً﴾** الآية. وأخرج ابن المبارك، وعبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، والبيهقي عنه نحوه. وليس في هذا عن ابن عباس ما يدل على أنه سبب النزول، ولكن الشأن في قول ابن مسعود رضي الله عنه: إن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله مع أن الواقع قبلها **﴿هو الذي إليك بنصره وبالمؤمنين﴾** والواقع بعدها **﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن**

فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». القول الثالث هو: أنه لا يعينهم ورسول الله ﷺ فيهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]. القول الرابع: أنه لا يعذب أحداً بذنب فعله جاهلاً لكونه ذنباً. القول الخامس: أنه ما قضاه الله من محو الصفات باجتناث الكبائر. القول السادس: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي، ولم يتقدم نهى عن ذلك. وذهب ابن جرير الطبري إلى أن هذه المعاني كلها داخلية تحت اللفظ، وأنه يعمها ﴿لِمَسْكُم﴾ أي: لحل بكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ أي: لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ والفاء في ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ لترتيب ما بعدها عن سبب محذوف: أي قد أبحث لكم الغنائم، فكلوا مما غنمتم ويجوز أن تكون عاطفة على مقدر محذوف: أي اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره؛ وقيل إن ﴿مَا﴾ عبارة عن الفداء: أي كلوا من الفداء الذي غنمتم فإنه من جملة الغنائم التي أحلها الله لكم و﴿حَلَالاً طَيِّباً﴾ منتصبان على الحال، أو صفة المصدر المحذوف: أي اكلاً حلالاً طيباً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما يستقبل، فلا تقدموا على شيء لم يأن الله لكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فرط منكم ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم، فلذلك رخص لكم في أخذ الفداء في مستقبل الزمان.

وقد أخرج أحمد، عن أنس قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر فقال: إن الله قد أمكنكم منهم. فقال عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ. ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم؛ وإنما هم إخوانكم بالأمس، فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ. ثم عاد فقال مثل ذلك فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء، ففعا عنهم وقبل منهم الفداء، فأنزل الله ﴿لَوْلَا كِتَابُ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن مسعود قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس، فقال رسول الله ﷺ: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقتلوك قَتَمَهُم فاضرب أعناقهم؛ وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وائياً كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا فقال العباس وهو يسمع: قطعت رحمك، فدخل النبي ﷺ عليهم ولم يرد عليهم شيئا، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال قوم: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون الين من اللين، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿مَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ

إِنْ كَانَا رَجُلَيْنِ أَمْرُهُمَا وَإِنْ كَانُوا ثَلَاثَةً فَهُوَ فِي سَعَةِ مِنْ تَرْكِهِمْ، وَأَخْرَجَ الْبَخَارِيُّ وَالنَّحَاسُ فِي نَاسِخِهِ، وَابْنُ مَرْبُوتٍ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سَنَنِهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حِينَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ، فَجَاءَ التَّخْفِيفُ ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ الْآيَةُ قَالَ: فَلَمَّا خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعَذَّةِ نَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدَرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ.

مَا كَانَتْ لِيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أُسْرَى حَتَّى يُنْجِزَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾ لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لِمَسْكُمُ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٩﴾

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد. ومعنى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ﴾ ما صح له وما استقام، قرأ أبو عمرو، وسهيل ويعقوب، ويزيد، والمفضل، أن تكون بالفوقية، وقرأ الباقون بالتحية، وقرأ أيضاً يزيد والمفضل «أسارى» وقرأ الباقون «أسرى» والأسرى جمع أسير، مثل قتلى وقتيل، وجرحى وجريح، ويقال في جمع أسير أيضاً أسارى بضم الهمزة ويفتحها، وهو مأخوذ من الأسر، وهو القيد، لأنهم كانوا يشبّون به الأسير، فسمي كل أخيد وإن لم يشد بالقيد أسيراً، قال الأعشى:

وقيدني الشعر في بيته كما قيدت الأسرات الحمرا
وقال أبو عمرو بن العلاء: الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون ربطاً. والإخنان: كثرة القتل والمبالغة فيه؛ تقول العرب: أخن فلان في هذا الأمر: أي بالغ فيه. فالمعنى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبالغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك؛ وقيل معنى الإخنان: التمكن، وقيل: هو القوة. أخبر الله سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم، وفدائهم؛ ثم لما كثر المسلمون رخص الله في ذلك فقال: ﴿فِيمَا مَنَا بَعْدَ إِمَّا فِدَاءٍ﴾ [محمد: 4] كما يأتي في سورة القتال إن شاء الله. قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي: نفعها ومتاعها بما قبضتم من الفداء؛ وسمي عرضاً لأنه سريع الزوال كما تزول الأعراض التي هي مقابل الجواهر ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب في الإخنان بالقتل. وقرأ «يريد الآخرة» بالجر على تقدير مضاف وهو المذكور قبله: أي والله يريد عرض الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغلب ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل أفعاله. قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابُ اللَّهِ سَبَقَ لِمَسْكُمُ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ اختلف المفسرون في هذا الكتاب الذي سبق ما هو؟ على أقوال: الأول ما سبق في علم الله من أنه سيحل لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم. والثاني: أنه مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، كما في الحديث الصحيح «إن الله أطلع على أهل بدر

عباس، قال: سبقت لهم من الله الرحمة قبل أن يعملوا بالمعصية. وأخرج أبو حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: سبق أن لا يعذب أحداً حتى يبين له ويتقدم إليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ إِنَّمَا يُؤْتِيكُمْ مِنَ الْبُخْلِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ إِنَّمَا يُؤْتِيكُمْ مِنَ الْبُخْلِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ إِنَّمَا يُؤْتِيكُمْ مِنَ الْبُخْلِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ

اختلاف القراءة في أسرى⁽¹⁾ والأسارى هو هنا كما سبق في الآية التي قبل هذه، خاطب الله النبي ﷺ بهذا: أي قل لهؤلاء الأسرى الذين هم في أيديكم أسرتهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء «إِنَّ يَظُنُّكُمْ خَيْرًا مِنْ حَسَنِ إِيمَانٍ، وَصَلَاةٍ، وَخُلُوصٍ طَوِيَّةٍ» «يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِمَّا لَأَخَذْتُمْ مِنْهُمْ» من الفداء: أي يعوضكم في هذه الدنيا رزقاً خيراً منه، وأنفع لكم، أو في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة «وَيُغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» والله غفور رحيم. شأنه المغفرة لعباده والرحمة لهم. ولما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم في قلبه خيراً نكر من هو على ضد ذلك منهم فقال: «وَأَنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ» بما قاله لك بالسننهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك، ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة، بل هو مماكرة ومخادعة، فليس ذلك بمستبعد منهم، فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه، وهو أنهم خانوا الله من قبل أن تظفر بهم، فكفروا به وقتلوا رسوله «فَأَمَّا مَنْهُمْ» بأن نصررك عليهم في يوم بدر، فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بما في ضمائرهم «حَكِيمٌ» في أفعاله بهم.

وقد أخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في سننهم، عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص، وبعثت فيه بقلادة، فلما رآها رسول الله ﷺ رقى رقة شديدة وقال: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَطْلُقُوا لَهَا أُسْرِيهَا، وَقَالَ الْعَبَّاسُ: إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ، فَإِنْ تَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللَّهُ يَجْزِيكَ، فَاقْدُ نَفْسَكَ وَابْنِي أَخُوكَ نَوْفَلَ بْنِ الْحَارِثِ وَعَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَحَلِيفَكَ عَتَبَةَ بْنَ عَمْرِو، قَالَ: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّ الْمَالَ الَّذِي بَدَدْتَ أَنْتَ وَأَمَّ الْفَضْلُ؟ فَقُلْتُ لَهَا: إِنْ أَصَبْتُ فَهَذَا الْمَالَ لِبَنِي؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عَلِمَهُ غَيْرِي وَغَيْرَهَا، فَاحْصِبْ لِي مَا أَصَبْتُمْ مِنْ عَشْرُونَ أَوْقِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَتْ مَعِي، قَالَ: لَا أَفْعَلُ، فَفَدَى نَفْسَهُ وَابْنِي أَخُوهُ وَحَلِيفَهُ، وَنَزَلَتْ: «قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى» الآية، فأعطاني مكان العشرين الأوقية في الإسلام، عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله. وأخرج ابن سعد، والحاكم وصححه، عن أبي موسى أن العلاء بن الحضرمي بعث إلى رسول الله

غفور رحيم. [إبراهيم: 36]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال: «إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [المائدة: 118]، ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» [نوح: 26]، ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال: «رَبِّنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» [يونس: 88] أنتم عالة فلا ينفلت أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق، فقال عبد الله: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته ينكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيته في يوم أخوف من أن تقع عليّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء، فأنزل الله «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى» الآية. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننهم، عن علي قال: قال النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر «إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمْ وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِالْفِدَاءِ، وَاسْتَشْهَدْتُمْ مِنْكُمْ بَعْدَهُمْ. فَكَانَ آخِرُ السَّبْعِينَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ اسْتَشْهَدَ بِالْإِمَامَةِ». وأخرج عبد الرزاق في مصنفه، وابن أبي شيبة عن عبيدة نحوه. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عمر، قال: لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسره، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أَمْ لَيْلَةً مِنْ أَجْلِ عَمِي الْعَبَّاسِ، وَقَدْ زَعَمْتَ الْإِنصَارُ أَنَّهُمْ قَاتَلُوهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَاتَيْهِمْ؟ قَالَ نَعَمْ، فَاتَى عُمَرَ الْإِنصَارُ فَقَالَ: أَرْسَلُوا الْعَبَّاسَ، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ لَا نَرْسَلُهُ. فَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ: فَإِنْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رِضًا، قَالُوا: فَإِنْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رِضًا فَخُذْهُ، فَخَذَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا صَارَ فِي يَدِهِ قَالَ لَهُ: يَا عَبَّاسُ أَسْلِمَ، فَوَاللَّهِ إِنْ تَسْلِمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْلِمَ الْخَطَابُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْجِبُهُ إِسْلَامُكَ، قَالَ: فَاسْتَشَارَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: عَشِيرَتُكَ فَارْسَلَهُمْ، فَاسْتَشَارَ عُمَرَ فَقَالَ: اقْتُلْهُمْ، فَفَادَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى» الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: «حَتَّى يَتَخَنَّ فِي الْأَرْضِ» يقول حتى يظهروا على الأرض، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد، قال: الإثخان هو: القتل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن مجاهد، أيضاً في الآية قال: ثم نزلت الرخصة بعد، إن شئت فمَنْ، وإن شئت ففاد، وأخرج ابن المنذر عن قتادة «تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا» قال: أراد أصحاب محمد ﷺ يوم بدر الفداء، ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة «تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا» قال: الخراج. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: «لَوْلَا كِتَابُ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ» قال: سبق لهم المغفرة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، قال: ما سبق لأهل بدر من السعادة. وأخرج النسائي، وابن مردويه، وأبو الشيخ، عن ابن

(1) هكذا بالأصل ولعله في الأسارى فقط اهـ. مصحح القرآن.

كان للطائفة الأولى الجامعين بين الإيمان والهجرة ﴿وَأَنْ يَسْتَنْصِرُوكُمْ﴾ أي: هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا، إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ أي: فواجب عليكم النصر ﴿إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصِرُوكُمْ﴾ على قَوْمَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فلا تنصروهم ولا تنقضوا عهد الذي بينكم وبين أولئك القوم، حتى تنقضي ميثقه. قال الزجاج: ويجوز فعليكم النصر بالنصب على الإغراء. قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مبتدأ خبره ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: بعضهم ينصر بعضاً ويتولاه في أموره، أو يرثه إذا مات، وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم، قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المنكور، وترك موالاة الكافرين ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تقع فتنة إن لم تفعلوا ذلك ﴿وَفُسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: مفسدة كبيرة في الدين والدنيا، ثم بين سبحانه حكماً آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم ونصروهم وهم الانصار، فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: الكاملون في الإيمان، وليس في هذا تكرير لما قبله فإنه وارد في الثناء على هؤلاء، والأول وارد في إيجاب الموالاة والنصرة، ثم أخبر سبحانه أن ﴿لَهُمْ﴾ منه ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ لننوبهم في الآخرة ﴿وَوَيْلٌ لِّهُمُ فِي النَّارِ﴾ ﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ خالص عن الكسر طيب مستند، ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأولين والانصار فهو من جملتهم أي من جملة المهاجرين الأولين والانصار في استحقاق ما استحقوه من الموالاة والمناصرة، وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم، ثم بين سبحانه بأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم في الميراث، والمراد بهم القرباب فيتناول كل قرابة: وقيل المراد بهم هنا: العصباء، قالوا: ومنه قول العرب: وصلتك رحم فإنهم لا يريون قرابة الأم. قالوا: ومنه قول قتيلة:

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه الله أرحام هناك تشقق
ولا يخفك أنه ليس في هذا ما يمنع من إطلاقه على غير
العصبات، وقد استدلل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوي
الأرحام، وهم من ليس بعصبة ولا ذي سهم على حسب
اصطلاح أهل علم المواريث، والخلاف في ذلك معروف مقرر
في موطنه، وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة
والنصرة عند من فسر ما تقدم من قوله: ﴿بعضهم أولياء
بعض﴾ وما بعده بالتوارث، وأما من فسرها بالنصرة
والمعونة فيجعل هذه الآية إخباراً منه سبحانه وتعالى بأن
القربات ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي: في
حكمه، أو في اللوح المحفوظ، أو في القرآن، ويدخل في هذه
الأولية الميراث دخولاً أولاً لوجود سببه، أعني القرابة ﴿إن
الله بكل شيء عليم﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء كأنها
ما كان، ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات.

بمال من البحرين ثمانين ألفاً، فما أتى رسول الله ﷺ مال أكثر منه، فنتشر على حصير، وجاء الناس، فجعل رسول الله ﷺ يعطيهم، وما كان يومئذ عدد ولا وزن، فجاء العباس فقال: يا رسول الله إني أعطيت فدائي، وفداء عقيل يوم بدر، وأعطني من هذا المال، فقال: خذ، فحشا في خميصته ثم ذهب ينصرف فلم يستطع، فرفع رأسه وقال: يا رسول الله ارفع علي، فتبسم رسول الله ﷺ وذهب وهو يقول: أما أحد اللذين وعد الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى ﴿قُلْ لِمَنْ فِي لَيْبِكُمْ مِنَ الْأَسَارَى إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا لَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ فهذا خير مما أخذ مني ولا أدري ما يصنع في المغفرة. والروايات في هذا الباب كثيرة. وأخرج ابن سعد، وابن عسكرو، عن ابن عباس، في الآية قال: نزلت في الأسارى يوم بدر، منهم العباس بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ إِنْ كَانَ قَوْلُهُمْ كَذِبًا ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ فَقَدْ كَفَرُوا وَقَاتَلُوا ﴿فَمَا مَكُنْ﴾ كَ اللَّهُ ﴿مِنْهُمْ﴾.

[illegible]

ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به، وسمى سبحانه المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم، لأنهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلباً لما عند الله، وإجابة لداعيه ﴿وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا﴾ هم الأنصار والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول الأول والآخر، وهو مبتدأ وخبره الجملة المذكورة بعده، ويجوز أن يكون ﴿بَعْضُهُمْ﴾ بدلاً من اسم الإشارة، والخبر ﴿أُولِيَاءَ بَعْضٍ﴾ أي: بعضهم أولياء بعض في النصرة والمعونة، وقيل المعنى: إن بعضهم أولياء بعض في الميراث. وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَأُولَا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾. قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبتدأ، وخبره ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. قرأ يحيى بن وثاب والاعمش، وحمزة «من ولايتهم» بكسر الواو. وقرأ الباقون بفتحها: أي ما لكم من نصرتهم وإعانتهم، أو من ميراثهم، ولو كانوا من قريبتكم لعدم وقوع الهجرة منهم ﴿حَتَّى يَهَاجَرُوا﴾ فيكون لهم ما

مسلمًا، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعُضْمِ أُولَئِهِمْ﴾ الآية. وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله فينا خاصة معشر قريش ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان. فواخيناهم ووارثناهم فأخونا، فأخى أبو بكر خارجة بن زيد، وأخى عمر فلانًا، وأخى عثمان بن عفان رجلًا من بني زريق بن أسعد الزرقى، قال الزبير: وأخيت أنا كعب بن مالك، ووارثونا ووارثناهم، فلما كان يوم أحد قيل لي: قد قتل أخوك كعب بن مالك، فجنحت فانتقلته فوجت السلاح قد ثقلته فيما يرى، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار فرجعنا إلى موارثنا. وأخرج أبو داود الطيالسي، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب.

تفسير سورة التوبة

هي مائة وثلاثون آية، وقيل: مائة وسبع وعشرون آية، ولها أسماء: منها سورة التوبة، لأن فيها التوبة على المؤمنين، وتسمى الفاضحة لأنه ما زال ينزل فيها: ومنهم، ومنهم حتى كانت أن لا تدع أحدًا، وتسمى البحوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين؛ وتسمى المبعثرة، والبغثرة البحث؛ وتسمى أيضاً بأسماء آخر كالمشقة؛ لكونها تقشقش من النفاق: أي تبرئ منه؛ والمخزية، لكونها أخزت المنافقين، والمثيرة، لكونها تثير أسرارهم؛ والحافرة، لكونها تحفر عنها؛ والمنكلة، لما فيها من التكنيل لهم؛ والمدممة، لأنها تدمم عليهم.

وهي مدنية. قال القرطبي باتفاق. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: نزلت براءة بعد فتح مكة. وأخرج ابن مردويه عنه قال: نزلت سورة التوبة بالمدينة. وأخرج ابن مردويه، عن عبد الله بن الزبير نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، والنسائي، وابن الضريس، وابن المنذر، والنحاس وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن البراء قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: 176] وآخر سورة نزلت تامة: براءة.

وقد اختلف العلماء في سبب سقوط البسمة من أولها على أقوال. الأول عن المبرّد وغيره: أنه كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد، فإذا أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بسمة؛ فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين، بعث بها النبي ﷺ

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ الآية قال: إن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل، منهم المؤمن المهاجر المبين لقومه، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا﴾ قال: آووا ونصروا وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة، وشهروا السيوف على من كذب وجحد، فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعض، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا﴾ قال: كانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر بالولاية في الدين، وكان الذي آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر، فبَرَأَ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم، وهي الولاية التي قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ لَسْتُمْ تَصْرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ كان حقاً على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم في الدين أن ينصروهم إن قوتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدو الذي لا ميثاق لهم، ثم أنزل الله بعد ذلك أن الحق كل ذي رحم برحمه من المؤمنين الذين آمنوا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا﴾ فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيباً مفروضاً، لقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ الآية، وفي رواية لابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ قال: يعني في الميراث جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما لكم من ميراثهم من شيء ﴿حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ لَسْتُمْ تَصْرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ يعني: إن استنصر الأعراب المسلمون المهاجرين والأنصار على عو لهم، فعليهم أن ينصروهم إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، فكانوا يعملون على ذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فنسخت الآية التي قبلها، وصارت الموارث لذوي الأرحام. وأخرج أبو عبيد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في هذه الآيات قال: كان المهاجر لا يتولى الأعرابي ولا يرثه وهو مؤمن، ولا يرث الأعرابي المهاجر، فنسختها هذه الآية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عنه، أيضاً قال: قال رجل من المسلمين: لنورثن نوري القريبى منا من المشركين، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعُضْمِ أُولَئِهِمْ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة، والطلقاء من قريش، والعققاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة». وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أسامة، عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر

الرحيم، لقول من قال هما سورة واحدة، فرضي الفريقان. قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما. وقول من جعلهما سورة واحدة أظهر، لأنهما جميعاً في القتال، وتعدان جميعاً سابعة السبع الطوال.

بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسْجُأُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعِلْمُوا أَنَّهُمْ عُذْرٌ مِنَ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ مُجِيبٌ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عُذْرٌ مَعِزٌّ مِنَ اللَّهِ وَيُخَيِّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَيْنَ آيَةٍ ﴿٣﴾

قوله: ﴿براءة من الله ورسوله﴾ برئت من الشيء أبرأ براءة، وأنا منه بريء: إذا أزلته عن نفسك، وقطعت سبب ما بينك وبينه، وبراءة مرتفعة على أنها خبر مبتدأ محذوف: أي هذه براءة، ويجوز أن ترتفع على الابتداء، لأنها نكرة موصوفة، والخبر ﴿إلى الذين عاهدتم﴾. وقرأ عيسى بن عمر ﴿براءة﴾ بالنصب على تقدير اسمعوا براءة، أو على تقدير التزموا براءة، لأن فيها معنى الإغراء، و«من» في قوله: ﴿من الله﴾ لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وقع صفة: أي واصله من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم. وقرأ روح وزيد بنصب رسوله، وقرأ الباقر بنالرفع. والعهد: العقد الموثق باليمين. والخطاب في عاهدتم للمسلمين، وقد كانوا عاهدوا مشركي مكة وغيرهم بإذن من الله ومن الرسول ﷺ، والمعنى: الإخبار للمسلمين بأن الله ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض، فصار التنبذ إليهم بعهدهم واجباً على المعاهدين من المسلمين، ومعنى براءة الله سبحانه، وقوع الإنان منه سبحانه بالتنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم، وفي ذلك من التفتيح لشأن البراءة والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذل والهوان ما لا يخفى. قوله: ﴿فسيجوا في الأرض أربعة أشهر﴾ هذا أمر منه سبحانه بالسياسة بعد الإخبار بتلك البراءة، والسياسة: السير، يقال ساح فلان في الأرض يسبح سياحة وسيجواً وسيحاناً، ومنه سباح الماء في الأرض وسبح الخيل، ومنه قول طرفة بن العبد:

لوحفت هذا منك ما نلتني حتى ترى خيلاً أمامي تسبح
ومعنى الآية أن الله سبحانه بعد أن أذن بالتنبذ إلى المشركين بعهدهم أباح للمشركين الضرب في الأرض والذهاب إلى حيث يريدون، والاستعداد للحرب هذه الأربعة الأشهر، وليس المراد من الأمر بالسياسة تكليفهم بها. قال محمد بن إسحاق وغيره: إن المشركين صنفان: صنف كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر، فأمهل تمام أربعة أشهر، ليرتاد والآخر كانت أكثر من ذلك فقصّر على أربعة أشهر، ليرتاد لنفسه، وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث يوجد، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، وانقضاه إلى عشر من ربيع الآخر، فاما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم، وذلك خمسون يوماً: عشرون من ذي

علي بن أبي طالب فقرأها عليهم، ولم يبسم في ذلك على ما جرت به عادة العرب. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس قال: سألت علي بن أبي طالب لم لا تكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان. وبراءة نزلت بالسيف. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر، بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور نوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر، بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما في السبع الطوال. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي رجاء قال: سألت الحسن عن الأنفال وبراءة أسورتان أو سورة؟ قال: سورتان. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن حذيفة قال: يسمون هذه السورة سورة التوبة، وهي سورة العذاب. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس قال: في هذه السورة هي: الفاضحة ما زالت تنزل، ومنهم حتى ظننا أنه لا يبقى منا أحد إلا نكر فيها. وأخرج أبو الشيخ عن عمر نحوه. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن زيد بن أسلم، أن رجلاً قال لعبد الله بن عمر سورة التوبة، فقال ابن عمر: وأيتها سورة التوبة، ثم قال: وهل فعل بالناس الأفاعيل إلا هي؟ ما كنا ندعوها إلا المقشقة. وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود، قال: يسمونها سورة التوبة، وإنها لسورة عذاب. وأخرج ابن المنذر، عن ابن إسحاق، قال: كانت براءة تسمى في زمن النبي ﷺ وبعدة المبعثرة، لما كشفت من سرائر الناس. وأخرج أبو الشيخ، عن عبيد الله بن عبيد بن عمير قال: كانت براءة تسمى المنقرة، نقرت عما في قلوب المشركين، وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن أبي عطية الهمداني، قال: كتب عمر بن الخطاب: تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور. ومن جملة الأقوال في حذف البسمة: أنها كانت تعدل سورة البقرة أو قريباً منها، وأنه لما سقط أولها سقطت البسمة، روي هذا عن مالك بن أنس، وابن عجلان، ومن جملة الأقوال في سقوط البسمة: أنهم لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلف الصحابة فقال بعضهم: براءة والأنفال سورة واحدة، وقال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة، لقول من قال هما سورتان، وتركت، بسم الله الرحمن

وقيل إنه مجرور على الجوار. قوله: ﴿فَإِنْ تَبَيَّنَ﴾ أي: من الكفر، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، قيل: وفائدة هذا الالتفات زيادة التهديد، والضمير في قوله: ﴿فَهُوَ﴾ راجع إلى التوبة المفهومة من تبين ﴿خَيْرَ لَكُمْ﴾ مما أنتم فيه من الكفر ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن التوبة، ويقيم على الكفر ﴿فَاعْلَمُوا لَكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: غير فائتين عليه، بل هو مدرككم، فمجازيكم بأعمالكم. قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ النَّاسَ كُفْرًا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ هذا تهكم بهم، وفيه من التهديد ما لا يخفى.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿بِرَاءةٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ عَاهِدَتْهُمُ مِنَ الْمَشْرُوكِينَ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومذليج، ومن كان له عهد قبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج، ثم قال: إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحجّ حتى لا يكون ذلك، فأرسل أبا بكر وعلياً فطافا في الناس بذى المجاز، وبأمكنهم التي كانوا يبيعون بها، أو بالموسم كله، فأذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر، وهي الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات عشرون من آخر ذي الحجة إلى عشر تخلو من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وأذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا. وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل، في زوائد المسند، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن علي قال: لما نزلت عشر آيات من براءة عن النبي ﷺ دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم بعاني فقال لي أدرك أبا بكر، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه، فأقرأه على أهل مكة، فلحقته فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر وقال: يا رسول الله نزل في شيء، قال لا، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت، أو رجل منك. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من حديث أنس نحوه. وأخرج ابن مردويه، من حديث سعد بن أبي وقاص، نحوه أيضاً. وأخرج أحمد، والنسائي، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي هريرة، قال: كنت مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة، فكنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فإن أجله وأمه إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر، فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحجّ هذا البيت بعد العام مشرك. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤننين بعثهم يوم النحر يؤننون بمعنى: أن لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم أرفد النبي ﷺ علي بن أبي طالب، فأمره أن يؤنن ببراءة، فأنن علي في يوم النحر ببراءة: أن لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وأخرج الترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر وأمره أن ينادي بهؤلاء

الحجة وشهر محرم. وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر، ومن كان عهده أكثر من ذلك فهو الذي أمر الله أن يتم له عهده بقوله: ﴿فَاتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُتَمِّهِمْ﴾ [التوبة: 4] ورجح هذا ابن جرير، وغيره. وسيأتي في آخر البحث من الرواية ما يتضح به معنى الآية: ﴿وَاعْلَمُوا لَكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: اعملوا أن هذا الإمهال ليس لعجز، ولكن لمصلحة ليتوب من تاب، وفي ذلك ضرب من التهديد، كأنه قيل: افعلوا في هذه المدة كل ما أمكنكم من إعداد الآلات والابوات، فإنكم لا تفوتون الله وهو مخزيكم: أي مثلكم ومهينكم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالعذاب، وفي وضع الظاهر موضع المضمهر، إشارة إلى أن سبب هذا الإخراء هو: الكفر، ويجوز أن يكون المراد: جنس الكافرين، فيدخل فيه المخاطبون دخولاً أولياً. قوله: ﴿وَإِذَا نَزَلَ بِرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ ارتفاع أذان على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ وخبره ما بعده على ما تقدّم في ارتفاع براءة، والجملة هذه معطوفة على جملة ﴿بِرَاءةٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقال الزجاج: إن قوله ﴿وَإِذَا نَزَلَ بِرَسُولِهِ عَلَى قَوْلِهِ بِرَاءةٍ﴾ واعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لكن أذان مخبر عنه بالخبر الأول، وهو ﴿إِلَى النَّاسِ عَاهِدَتْهُمُ مِنَ الْمَشْرُوكِينَ﴾ وليس ذلك بصحيح. بل الخبر عنه هو ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ والأذان بمعنى الإيذان، وهو الإعلام كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. ومعنى قوله: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ التعميم في هذا: أي أنه إيذان من الله إلى كافة الناس غير مختص بقوم نون قوم، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الإعلام لجميع الناس، والجملة الأولى متضمنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة، و﴿يَوْمَ الْحَجِّ﴾ ظرف لقوله: ﴿وَإِذَا نَزَلَ﴾ ووصفه بالأكثر لأنه يجتمع فيه الناس، أو لكون معظم أفعال الحج فيه.

وقد اختلف العلماء في تعيين هذا اليوم المذكور في الآية، فذهب جمع منهم: علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن أبي أوفى، والمغيرة بن شعبة، ومجاهد، أنه: يوم النحر. ورجحه ابن جرير. وذهب آخرون منهم: عمر، وابن عباس، وطاوس، أنه: يوم عرفة. والأول: أرجح، لأن النبي ﷺ أمر من بعثه لإبلاغ هذا إلى المشركين أن يبلغهم يوم النحر. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمَشْرُوكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ قرئ بفتح أن على تقدير بأن الله بريء من المشركين. فحذفت الياء تخفيفاً. وقرئ بكسرهما، لأن في الإيذان معنى القول، وارتفاع رسول الله ﷺ على أنه معطوف على موضع اسم أن، أو على الضمير في بئز، أو على أنه مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير: ورسوله بريء منهم. وقرأ الحسن وغيره ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بالنصب عطفاً على لفظ اسم أن. وقرئ ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بالجر على أن الواو للقسام، روى ذلك عن الحسن، وهي قراءة ضعيفة جداً، إذ لا معنى للقسام برسول الله ﷺ هاهنا، مع ما ثبت من النهي عن الحلف بغير الله؛

الناس الحج الأصغر، فنبت أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحجّ عام حجة الوداع التي حج فيها رسول الله ﷺ مشرك، وأنزل الله في العام الذي نبت فيه أبو بكر إلى المشركين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس﴾ [التوبة: 28] الآية. وأخرج الطبراني، عن سمرة بن جندب، أن رسول الله ﷺ قال زمن الفتح: «إن هذا عام الحج الأكبر، قال: اجتمع حجّ المسلمين وحجّ المشركين في ثلاثة أيام متتابعات، واجتمع النصارى واليهود في ثلاثة أيام متتابعات؛ فاجتمع حجّ المسلمين والمشركين والنصارى واليهود في ستة أيام متتابعات، ولم يجتمع منذ خلق السموات والأرض كذلك قبل العام، ولا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة». وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، أنه سئل عن يوم الحج الأكبر فقال: مالكم وللحج الأكبر؟ ذاك عام حجّ فيه أبو بكر، استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس، واجتمع فيه المسلمون والمشركون، فلذلك سمي الحج الأكبر، ووافق عيد اليهود والنصارى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب، قال: الحجّ الأكبر: اليوم الثاني من يوم النحر، ألم تر أن الإمام يخطب فيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن المسور بن مخرمة، أن رسول الله ﷺ قال: «يوم عرفة هذا يوم الحجّ الأكبر». وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب، قال: الحجّ الأكبر يوم عرفة. وأخرج ابن جرير، عن أبي الصهباء البكري قال: سألت علي بن أبي طالب عن يوم الحجّ الأكبر فقال: يوم عرفة. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: إن يوم عرفة يوم الحجّ الأكبر. وأخرج ابن جرير عن الزبير نحوه.

ولا يخفك أن الأحاديث الواردة في كون يوم النحر هو يوم الحجّ الأكبر هي ثابتة في الصحيحين، وغيرهم من طرق، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرّحة بأنه يوم عرفة. وأخرج ابن أبي شيبه، عن الشعبي، أنه سئل: هذا الحجّ الأكبر، فما الحجّ الأصغر؟ قال: عمرة في رمضان. وأخرج ابن أبي شيبه، عن ابن إسحاق، قال: سألت عبد الله بن شداد عن الحجّ الأكبر فقال: الحجّ الأكبر يوم النحر، والحجّ الأصغر: العمرة. وأخرج ابن أبي شيبه، عن مجاهد، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن مسعود، قال: سئل سفيان بن عيينة عن البشارة تكون في المكروه فقال: ألم تسمع قوله: ﴿وَيُوشِرُ النَّاسَ كُفْرًا بِعَذَابِ الْيَوْمِ﴾.

إِلَّا الْيَوْمَ عَهْدُكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْنَا الْيَوْمَ عَهْدَهُ إِلَىٰ مَدِينَةٍ إِنَّ اللَّهَ يَبْزُغُ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ فَإِذَا أَنْشَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَشُدَّوهُمْ وَاقْتَصِرُوا عَلَيْهِمْ كُلٌّ مَّرْصِدٌ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢﴾ وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْنِ أَيْفَهُ مَأْمُورٌ بِذَلِكَ وَابْنِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

الكلمات، ثم اتبعه علياً وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، فانطلقا فحجا، فقام علي في أيام التشريق فنادى: إن الله برئ من المشركين، ورسوله، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن؛ فكان علي ينادي، فإذا أعيا قام أبو بكر ينادي بها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وأحمد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، والنحاس، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن زيد بن تبيع قال: سألت علياً بأي شيء بعثت مع أبي بكر في الحج؟ قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة. ولا يطوف بالبيت عريان. ولا يجتمع مؤمن وكافر بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعده إلى مثته، ومن لم يكن له عهد، فأجله أربعة أشهر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿جِزَاءَ مَنْ أَتَىٰ رَسُولَهُ﴾ الآية قال: حدّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسبحون فيها حيث شاءوا، وحدّ أجل من ليس له عهد انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم من يوم النحر؛ إلى انسلاخ الحرم خمسين ليلة. فإذا انسلاخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمن عاهد، إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأوّل ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبة: 7] يعني: أهل مكة. وأخرج النحاس، عنه، نحو هذا، وقال: ولم يعاهد رسول الله ﷺ بعد هذا أحداً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والنحاس، عن الزهري ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ قال: نزلت في شوال فهي الأربعة أشهر: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والحرم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَإِذَا نَزَلَ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولُهُ﴾ قال: هو إعلام من الله ورسوله. وأخرج الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن علي قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحجّ الأكبر، فقال: يوم النحر. وأخرجه ابن أبي شيبه، والترمذي، وأبو الشيخ، عنه، من قوله. وأخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم وصححه، عن عبد الله بن قرط، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر». وأخرج ابن مردويه، عن ابن أبي أوفى، عن النبي ﷺ أنه قال: «يوم الأضحى هذا يوم الحجّ الأكبر». وأخرج البخاري تعليقا، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر، قال: هذا يوم الحجّ الأكبر. وأخرج البخاري ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه، عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمعنى أن لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحجّ الأكبر: يوم النحر، والحجّ الأكبر: الحجّ؛ وإنما قيل الأكبر: من أجل قول

عهدهم إلى منتهم» وسميت حراماً لأن الله سبحانه حرم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرض لهم، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم منهم: مجاهد، وابن إسحاق، وابن زيد، وعمرو بن شعيب. وقيل: هي الأشهر المذكورة في قوله: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾. وقد روي ذلك عن ابن عباس وجماعة، ورجحه ابن كثير، وحكاه عن مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وسيأتي بيان حكم القتال في الأشهر الحرم الدائرة في كل سنة في هذه السورة إن شاء الله. ومعنى ﴿حيث وجنتموهم﴾: في أي مكان وجنتموهم من حل أو حرم. ومعنى: ﴿خفوهم﴾ الأسر، فإن الأخذ هو الأسير. ومعنى الحصر منعهم من التصرف في بلاد المسلمين إلا بإذن منهم، والمرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو، يقال رصدت فلاناً أرصده: أي أقعدوا لهم في المواضع التي ترتقبونهم فيها. قال عامر بن الطفيل:

ولقد علمت وما إخالك عالماً أن الغنية للفتى بالمرصد
وقال النابغة:

أعانل إن الجهل من لذة الفتى وإن المنايا للنفس بمرصد
وكل في كل مرصد منتصب على الظرفية وهو اختيار الزجاج، وقيل هو منتصب بنزع الخافض: أي في كل مرصد، وخطأ أبو علي الفارسي الزجاج في جعله ظرفاً. وهذه الآية المتضمنة للامر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك، لا يخرج عنها إلا من خصته السنة، وهو: المرأة، والصبي، والعاجز الذي لا يقاتل، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم، وهذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذامهم. وقال الضحاك وعطاء والسدي: هي منسوخة بقوله: ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾ [محمد: 4]، وأن الأسير لا يقتل صبراً بل يمن عليه أو يفادي. وقال مجاهد وقتادة: بل هي ناسخة لقوله:

﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾، وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل. وقال ابن زيد: الأيتان محكمتان. قال القرطبي: وهو الصحيح؛ لأن المن والقتل والفداء لم تزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أول حرب جاء بهم وهو يوم بدر. قوله: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي: تابوا عن الشرك الذي هو سبب القتل، وحققوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الإسلام، وهو إقامة الصلاة، وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالابدان من العبادات لكونه رأسها، واكتفى بالركن الآخر المالي، وهو إيتاء الزكاة عن كل ما يتعلق بالأموال من العبادات، لأنه أعظمها ﴿فخلوا سبيلهم﴾ أي: اتركوهم وشأنهم، فلا تأسروهم، ولا تحبسوهم، ولا تقتلوهم ﴿إن الله غفور﴾ لهم ﴿رحيم﴾ بهم. قوله: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فاجره﴾. يقال: استجرت فلاناً: أي طلبت أن يكون جارك. أي محامياً

الاستثناء بقوله: ﴿إلا الذين عاهدتم﴾. قال الزجاج: إنه يعود إلى قوله: ﴿براءة﴾ والتقدير: براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقضوا العهد منهم. وقال في الكشف: إنه مستثنى من قوله: ﴿فسيحوا﴾ والتقدير: فقولوا لهم: فسيحوا، إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقضوكم، فاتموا إليهم عهدهم. قال: والاستثناء بمعنى الاستدراك، كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين، ولكن الذين لم ينكثوا فاتموا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم. وقد اعترض عليه بأنه قد تخلل الفاصل بين المستثنى والمستثنى منه، وهو: ﴿وإذا من الله﴾ إلخ. وأجيب بأن ذلك لا يضر، لأنه ليس بأجنبي، وقيل: إن الاستثناء من المشركين المذكورين قبله، فيكون متصلاً وهو ضعيف. قوله: ﴿ثم لم ينقضوكم شيئاً﴾ أي: لم يقع منهم أي نقص. وإن كان يسيراً، وقرأ عكرمة، وعطاء بن يسار، ﴿ينقضوكم﴾ بالضاد المعجمة: أي لم ينقضوا عهدكم، وفيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعدهم، ومنهم من ثبت عليه، فأن الله سبحانه لنبيه ﷺ بنقض عهد من نقض، وبإلفاء لمن لم ينقض إلى منته **﴿ولم يظاهروا عليكم أحداً﴾** المظاهرة: المعاونة: أي لم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم **﴿فاتموا إليهم عهد﴾** أي: اتوا إليهم عهدهم تاماً غير ناقص **﴿إلى منتهم﴾** التي عاهدتموهم إليها، وإن كانت أكثر من أربعة أشهر، ولا تعاملوهم معاملة الناكثين من القتال بعد مضي المدة المذكورة سابقاً، وهي أربعة أشهر أو خمسون يوماً على الخلاف السابق. قوله: ﴿فإذا انسلاخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجنتموهم﴾ انسلاخ الشهر: تكامله جزءاً فجزءاً إلى أن ينقضي كانسلاخ الجلد عما يحويه، شبه خروج المتمز من زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه، وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده، فاستعير لانقضاء الأشهر، يقال: سلخت الشهر تسلخه سلخاً وسلوخاً بمعنى خرجت منه، ومنه قول الشاعر:

إذا ما سلخت الشهر أهلت مثله كفى قاتلاً سلخي للشهور وإملاي
ويقال سلخت المرأة برعها: نزعته، وفي التنزيل: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ [يس: 37].

واختلف العلماء في تعيين الأشهر الحرم المذكورة هاهنا، فقيل: هي الأشهر الحرم المعروفة التي هي: ذو القعدة وذو الحجة، ومحرم، ورجب: ثلاثة سرد، وواحد فرد. ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين في هذه الأشهر الحرم. وقد وقع النداء والنبيذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر، فكان الباقي من الأشهر الحرم التي هي الثلاثة المسرودة: خمسين يوماً تنقضي بانقضاء شهر المحرم، فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون، وبه قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك والباقر. وروي عن ابن عباس، واختاره ابن جرير؛ وقيل المراد بها: شهور العهد المشار إليها بقوله: ﴿فاتموا إليهم

فخلوا سبيلهم». وقال: «وإن أحد من المشركين استجارك فاجرهُ حتى يسمع كلام الله». وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: «وإن أحد من المشركين استجارك فاجرهُ» يقول: من جاءك واستمع ما تقول. واستمع ما أنزل إليك، فهو آمن حين يأتيك فيسمع كلام الله حتى يبلغ مأمنه من حيث جاء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: «ثم لبلغه مأمنه» قال: إن لم يوافقك ما يقص عليه ويخبر به فأبلغه مأمنه، وهذا ليس بمنسوخ. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة في قوله: «حتى يسمع كلام الله» أي: كتاب الله. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن أبي عروبة، قال: كان الرجل يجيئ إذا سمع كتاب الله، وأقر به، وأسلم، فذاك الذي دعي إليه، وإن أنكر ولم يقر به، رد مأمنه، ثم نسخ ذلك، فقال: «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» [التوبة: 36].

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عٰهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُّوْا لَكُمْ فَاسْتَقِمْوْا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ الْبَاصِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ يُؤْتِيكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَأَنْ يَقُولُواهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَكُوا بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَتًّا قَلِيلًا فَوَصَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْبُونَ فِي مَثَلٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِأَوَّابِهِمْ وَتَفَضَّلُوا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُعْلَمُونَ ﴿١١﴾

قوله: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله» الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للإنكار، وعهد اسم يكون. وفي خبره ثلاثة أوجه: الأول: أنه كيف، وقدم للاستفهام، والثاني: للمشركين، وعند على هذين ظرف للعهد، أو ليكون، أو صفة للعهد، والثالث: أن الخبر عند الله، وفي الآية إضمار. والمعنى: كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به من عذابه؛ وقيل معنى الآية: محال أن يثبت لهؤلاء عهد، وهم أضداد لكم مضمون للغدر، فلا يطمعوا في ذلك ولا يحتسبوا به أنفسهم، ثم استدرك، فقال: «إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام» أي: لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم، فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذي بينكم وبينهم «فاستقيموا لهم» قيل: هم بنو بكر، وقيل: بنو كنانة وبنو ضمرة، وفي «ما» وجهان: أحدهما: أنها مصدرية زمانية، والثاني: أنها شرطية، وفي قوله: «إن الله يحب المتقين» إشارة إلى أن الوفاء بالعهد والإستقامة عليه من أعمال المتقين، فيكون تعليلاً للأمر بالاستقامة. قوله: «كيف وإن يظهروا عليكم» أعاد الاستفهام التعجبي للتأكيد والتقرير، والتقدير: كيف يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله؟ والحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم «ولا يرقبوا» أي: لا يراعوا فيكم «إلا»: أي عهداً «ولا ذمة».

ومحافظاً من أن يظلمني ظالم، أو يتعرض لي متعرض. وأحد مرتفع بفعل مقدر يفسره المنكور بعده: أي وإن استجارك أحد استجارك، وكروها الجمع بين المفسر والمفسر. والمعنى: وإن استجارك أحد من المشركين الذين امرت بقتالهم فاجرهُ: أي كن جاراً له مؤمناً محامياً «حتى يسمع كلام الله» منك ويتدبره حق تدبره، ويقف على حقيقة ما تدعو إليه: «ثم لبلغه مأمنه» أي: إلى الدار التي يأمن فيها بعد أن يسمع كلام الله إن لم يسلم، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتله فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه من إباحة دمه، ووجوب قتله حيث يوجد، والإشارة بقوله: «ذلك» إلى ما تقدم من الأمر بالإجارة، وما بعده «بأنهم قوم لا يعلمون» أي: بسبب فقدانهم للعلم النافع المميز بين الخير والشر في الحال والمآل.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: «إلا الذين عاهدتم» قال: هم قريش. وأخرج أيضاً عن قتادة قال: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبي الله زمن الحديبية، وكان بقي من منتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر، فأمر نبيه أن يوفي بعضهم هذا إلى منتهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن عباد بن جعفر، في قوله: «إلا الذين عاهدتم» قال: هم بنو جذيمة بن عامر من بني بكر بن كنانة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: «فاتموا إليهم عهدهم إلى منتهم» قال: كان بقي لبني مذحج وخزاعة عهد، فهو الذي قال الله «فاتموا إليهم عهدهم إلى منتهم». وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: «إلا الذين عاهدتم من المشركين» قال: هؤلاء بنو ضمرة، وبنو ملج، من بني كنانة كانوا حلفاء للنبي ﷺ في غزوة العشيرة من بطن ينبع «ثم لم ينقضوكم شيئاً» ثم لم ينقضوا عهدكم بغدر «ولم يظاهروا عليكم أحداً» قال: لم يظاهروا عدوكم عليكم «فاتموا إليهم عهدهم إلى منتهم» يقول: أجلهم الذي شرطتم لهم «إن الله يحب المتقين» يقول: الذين يتقون الله فيما حرم عليهم، فيوفون بالعهد. قال: فلم يعاهد النبي ﷺ بعد هؤلاء الآيات أحداً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: «فإذا انسלخ الأشهر الحرم» قال: هي الأربعة عشر من ذي الحجة والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر. قلت: مراد السدي أن هذه الأشهر تسمى حرماً لكون تأمين المعاهدتين فيها يستلزم تحريم القتال، لا أنها الأشهر الحرم المعروفة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاک، في الآية قال: هي عشر من ذي القعدة، وذو الحجة، والمحرم، سبعون ليلة. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد قال: هي الأربعة الأشهر التي قال: «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر». وأخرج ابن المنذر، عن قتادة، نحو قول السدي السابق. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن ابن عباس، في قوله: «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجنتهم» ثم نسخ واستثنى. فقال: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي قال: هم بنو جنيمة.
وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿إِلَّا
الَّذِينَ عَاهَدُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: هو يوم
الحديبية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾ قال:
الإل: القرابة، والذمة: العهد. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد
قال: الإل الله عز وجل. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن
عكرمة مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ،
عن مجاهد في قوله ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال:
أبو سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء محمد ﷺ.
وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله:
﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ الآية يقول: إن تركوا اللات والعزى، وشهدوا
أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأخوانكم في الدين.
وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: حرمت
هذه الآية قتال أو بقاء أهل الصلاة.

وَلَنْ نَكُونُوا آمِنَهُمْ مِنْ بَدَلِ عَهْدِهِمْ وَكَلَّمُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا آمِنَهُ
الْكُفْرَ إِنَّهُمْ لَا آمِنُونَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ أَلَا تَقْبَلُونَ قَوْلَنَا
نَكُونُوا آمِنَهُمْ وَكُنُوا بِإِخْرَاجِ الرُّسُلِ وَهُمْ بَدَلُكُمْ أُولَئِكَ
مَرَّةً اخْتَرْتَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ قَبِلْتَهُمْ
بِمَلَبَسِهِمْ اللَّهُ بِإيديكُمْ وَخَيْرِهِمْ وَبِعَرَّتْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَنْفِ صُدُورُ قَوْمٍ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ وَنَذَرْتُ عَقِبَ قُلُوبِهِمْ وَتَوَبَّ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ يَكْفُرُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٤﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَقْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ
يَخْذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَعِ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا
تَكْفُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا﴾ معطوف على ﴿فَلْيَنْتَابُوا﴾ [التوبة: 11]. والنكث: النقض، وأصله نقض الخيط بعد إبرامه، ثم استعمل في كل نقض، ومنه نقض الإيمان بالعهد على طريق الاستعارة. ومعنى: ﴿مَنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ﴾ أي: من بعد أن عاهدوكم. والمعنى: أن الكفار إن نكثوا العهد التي عاهدوا بها المسلمين، ووثقوا لهم بها وضموا إلى ذلك الطعن في دين الإسلام، والقدح فيه، فقد وجب على المسلمين قتالهم. وأئمة الكفر: جمع إمام، والمراد صناديد المشركين، وأهل الرئاسة فيهم على العموم. وقرأ حمزة أمة، وأكثر النحويين يذهب إلى أن هذا لحن، لأن فيه الجمع بين همزين في كلمة واحدة. وقرأ الجمهور بجعل الهمزة الثانية بين بين: أي بين مخرج الهمزة والياء. وقرأ بإخلاص الياء وهو لحن، كما قال الزمخشري. قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا إِيْمَانَ لَهُمْ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها، والإيمان: جمع يمين في قراءة الجمهور. وقرأ ابن عامر «لا إيمان لهم» بكسر الهمزة. والمعنى على قراءة الجمهور: أن إيمان الكافرين وإن كانت في الصورة يميناً، فهي في الحقيقة ليست بيمين، وعلى القراءة الثانية: أن هؤلاء الناكثين للإيمان الطاعنين في الدين،

قال في الصحاح: الإل العهد والقراية، ومنه قول حسان: لمعرك أن لك من قريش كإل السقب من رثل النعام قال الزجاج: الإل عندي على ما توجه اللغة يدور على معنى الحدة، ومنه الإلة للحربة، ومنه إذن مؤللة: أي محددة. ومنه قوله طرفة بن العبد يصف ناقته بالحدة والانتصاب: مؤللتان يعرف العنق منهما كسمعتي شاة بحومل مفرد قال أبو عبيدة: الإل العهد، والذمة والتديم. وقال الأزهري: هو اسم لله بالعبرانية، وأصله من الأليل، وهو البريق، يقال آل لونه يولّ إلا: أي صفا ولمع، والذمة العهد، وجمعها ذمم، فمن فسر الإل بالعهد كان التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين. وقال أبو عبيدة: الذمة: التتبع. وقال أبو عبيدة: الذمة: الأمان، كما في قوله ﷺ: «ويسعى بذمتهم أدناهم» وروي عن أبي عبيدة أيضاً أن الذمة ما يتنعم به: أي ما يجتنب فيه الذمّ. قوله: ﴿يَرْضَوْنَكُمْ بِأَوْهَابِهِمْ﴾ أي: يقولون بأستنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم، طلباً لمرضاتهم وتطبيب قلوبكم، وقلوبهم تابى ذلك وتخالفه، وتودّ ما فيه مساءةكم ومضرتكم، كما يفعله أهل النفاق وذو الوجهين؛ ثم حكم عليهم بالفسق، وهو التمرّد والتجري، والخروج عن الحق لنقضهم للعهد، وعدم مراعاتهم للعقود، ثم وصفهم بقوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: استبدلوا بآيات القرآن التي من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهد ثمناً قليلاً حقيراً، وهو ما آثروه من حطام الدنيا ﴿فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: فعلوا وأعرضوا عن سبيل الحق، أو صرفوا غيرهم عنه. قوله: ﴿لَا يَرْجِعُونَ فِي مَوْمِنٍ إِلَّا وَلَا نَمَّةٌ﴾ قال النحاس: ليس هذا تكريراً، ولكن الأوّل: لجميع المشركين، والثاني: لليهود خاصة، والدليل على هذا ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: اليهود، وقيل: هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق، وفي الأوّل: المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمَعْتُونُونَ﴾ أي: المجاوزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد، أو البالغون في الشرّ والتمرد إلى الغاية القصوى ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الشرك والتمروا أحكام الإسلام، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ أي في دين الإسلام ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبينها ونوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بما فيها من الأحكام ويفهمونه، وخص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها، والمراد بالآيات ما مرّ من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم.

وقد أخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: قريش. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مقاتل قال: كان النبي ﷺ عاهد أناساً من بني ضمرة بني بكر وكنانة خاصة، عاهدهم عند المسجد الحرام، وجعل مدتهم أربعة أشهر، وهم الذين نكر الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ يقول: ما وفوا لكم بالعهد ففوا لهم.

المسلمين فوجهه أن النصر والظفر من جهة الله يكون سبباً لخلوص النية والتوبة عن الذنوب. قوله: ﴿إِذْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ أم هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل، والهمزة والاستفهام للتوبيخ، وحرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر، والمعنى: كيف يقع الحساب منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه، وقوله: ﴿إِنْ تَتُوبَا﴾ في موضع مفعولي الحساب عند سيويه. وقال المبرد: إنه حذف الثاني، والتقدير: أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق، الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب. وجملة: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ في محل نصب على الحال، والمراد من نفي العلم نفي المعلوم، والمعنى كيف تحسبون أنكم تتركون، ولما يتبين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص، وجملة: ﴿وَلَمَّا يَتَذَكَّرُوا﴾ معطوفة على جاهدوا داخلية معه في حكم النفي واقعة في حيز الصلة، والوليعة من الولوج: وهو الدخول، ولج يلج ولوجاً: إذا دخل، فالوليعة: البخيلة. قال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه، فهو وليعة. قال أبان بن ثعلب: فبنس الوليعة للهاربي. ن والسعتهين وأهل الريب وقال الفراء: الوليعة البطانة من المشركين، والمعنى واحد: أي كيف تتخذون بخيلة أو بطانة من المشركين تفشون إليهم بأسراركم، وتعلمونهم أموركم من دون الله ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع أعمالكم. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَأَنْ نَكُونُوا إِيْمَانَهُمْ﴾ قال: عهدهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، عن ابن عباس، في الآية قال: يقول الله لنبيه وإن نكثوا العهد الذي بينك وبينهم، فقاتلهم إنهم أئمة الكفر. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: أئمة الكفر قال: أبو سفيان بن حرب، وأميرة بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هاشم، وسهيل بن عمرو، وهم الذين نكثوا عهد الله وهموا بإخراج الرسول من مكة. وأخرج ابن عساکر، عن مالك بن أنس مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿فَقَاتِلُوا أئمة الكفر﴾ قال: رؤوس قريش. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عمر قال: أبو سفيان بن حرب منهم. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنهم الديلم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن حنيفة أنهم نكروا عنده هذه الآية فقال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد، وأخرج ابن مروي، عن علي بن نوحه. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، وابن مروي، عن حنيفة قال: ما بقي من أهل هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة، فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد تخبروننا لا ندري فما بال هؤلاء الذين ينقرون بيوتنا ويسترقون أعلقتنا، قال: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة. أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده. والاولى: أن الآية عامة في كل رؤساء الكفار من غير تقييد

ليسوا من أهل الإيمان بالله حتى يستحقوا العصمة لمئاتهم وأموالهم، فقاتلهم واجب على المسلمين. قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أي: عن كفرهم ونكثهم وطعنهم في دين الإسلام. والمعنى: أن قتالهم يكون إلى الغاية هي الانتهاء عن ذلك. وقد استدلل بهذه الآية على أن الذمي إذا طعن في الدين لا يقتل حتى ينكث العهد، كما قال أبو حنيفة، لأن الله إنما أمر بقتلهم بشرطين: أحدهما: نقض العهد، والثاني: الطعن في الدين. وذهب مالك والشافعي وغيرهما إلى أنه إذا طعن في الدين قتل، لأنه ينتقض عهده بذلك، قالوا: وكذلك إذا حصل من الذمي مجرد النكث فقط من دون طعن في الدين، فإنه يقتل. قوله: ﴿إِلَّا تَقَاتِلُوا قَوْمًا نَكُثُوا إِيْمَانَهُمْ﴾ الهمزة الداخلة على حرف النفي للاستفهام التوبيخي، مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة في تحقيقه، والمعنى: أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد وإخراج الرسول من مكة والبداة بالقتال، فهو حقيق بأن لا يترك قتاله، وإن يوبخ من فرط في ذلك، ثم زاد في التوبيخ فقال: ﴿تَخْشَوْنَهُمْ﴾ فإن هذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع: أي تخشون أن ينالك منكم مكره فتركوا قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه، فقال: ﴿فَإِنَّهُ لَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو أحق بالخشية منكم، فإنه الضار النافع بالحقيقة، ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله، فإن قضية الإيمان توجب ذلك عليكم، ثم زاد في تأكيد الأمر بالقتال فقال: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ﴾ ورتب على هذا الأمر فوائد: الأولى: تعذيب الله للكفار بأيدي المؤمنين بالقتل والأسر؛ والثانية: إخراجهم، قيل بالأسر، وقيل: بما نزل بهم من الذل والهوان؛ والثالثة: نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم؛ والرابعة: أن الله يشفي بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره؛ والخامسة: أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وجرج الصدر. فإن قيل شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكراراً. قيل في الجواب: إن القلب أخص من الصدر، وقيل: إن شفاء الصدر إشارة إلى الوعد بالفتح، ولا ريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر، وإن إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح، وقد وقعت للمؤمنين والله الحمد هذه الأمور كلها، ثم قال: ﴿وَيُتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو ابتداء كلام يتضمن الإخبار بما سيكون، وهو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره، كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح، فإنهم أسلموا وحسن إسلامهم، وهذا على قراءة الرفع في يتوب، وهي قراءة الجمهور. وقرئ بنصب يتوب بإضمار أن، ودخول التوبة في جملة ما أوجب به الأمر من طريق المعنى. قرأ بذلك ابن أبي إسحاق، وعيسى الثقفي، والأعرج. فإن قيل: كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة؟ وأجيب بأن القتال قد يكون سبباً لها إذا كانت من جهة الكفار، وأما إذا كانت من جهة

بزمن معين أو بطائفة معينة اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفيير، أنه كان في عهد أبي بكر الصديق إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوماً مجوفة رؤوسهم، فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَاتِلُوا أَلَمَةَ الْكُفْرِ﴾. وأخرج أبو الشيخ عن حذيفة لا إيمان لهم قال: لا عهد لهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عمار مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ قَاتَلُوا قَوْمًا يَكُونُوا إِيْمَانَهُمْ﴾ قال: قتال قريش حلفاء النبي ﷺ وهمهم بإخراج الرسول. زعموا أن ذلك عام عمرة النبي ﷺ في العام التابع للحديبية، نكثت قريش العهد عهد الحديبية، وجعلوا في أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوا منها؛ فذلك همهم بإخراجهم، فلم تتابعهم خزاعة على ذلك فلما خرج النبي ﷺ من مكة، قالت قريش لخزاعة: عमितونا عن إخراجهم، فقاتلهم، فقتلوا منهم رجلاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة قال: نزلت في خزاعة: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ يَعْنِيَهُمْ اللَّهُ بِلَايِكُمْ وَيُخْزِمُهُمُ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، نحوه أيضاً، وقد ساق القصة ابن إسحاق في سيرته، وأورد فيها النظم الذي أرسلته خزاعة إلى النبي ﷺ، وأوله:

يا رب إنني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلا
وأخرج القصة البيهقي في الدلائل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: الوليجة: البطانة من غير دينهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، قال: وليجة أي: خيانة.

مَا كَانَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَصْرُوهَا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ
أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧﴾ إِنَّمَا يَصْرُوهَا مَسْجِدَ
اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ
إِلَّا اللَّهَ تَسَمَّى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٨﴾ أَجَلْتُمْ مَقَايِلَ الْمَلَايِ
وَعَارَى الْمَسْجِدِ الْفَرَارِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَنَهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا
يَسْتَوِ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَمْوَالُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ
﴿١٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَمْ يَكُنْ فِيهَا نَجَسٌ قَبْلُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

قرأ الجمهور ﴿يعمرها﴾ بفتح حرف المضارعة وضم الميم من عمر يعمر. وقرأ ابن السميّغ بضم حرف المضارعة من أعمار يعمر: أي يجعلون لها من يعمرها. وقرأ ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن وسهم ويعقوب

﴿مسجد الله﴾ الإفراد. وقرأ الباقر «مساجد» بالجمع، واختارها أبو عبيدة. قال النحاس: لأنها أعم، والخاص يدخل تحت العام، وقد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة، وهذا جائز فيما كان من أسماء الأجناس كما يقال فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرساً قال: وقد أجمعوا على الجمع في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وروي عن الحسن البصري أنه تعالى إنما قال: ﴿مَسَاجِدُ﴾ والمراد المسجد الحرام، لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامة جميع المساجد. قال الفراء: العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم: فلان كثير الدرهم وبالعكس، كقولهم فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس إلا ملكاً واحداً، والمراد بالعمارة إما للمعنى الحقيقي أو المعنى المجازي، وهو ملازمته والتعبد فيه، وكلاهما ليس للمشركين، أما الأول: فلأنه يستلزم المنّة على المسلمين بعمارة مساجدهم، وأما الثاني: فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام، ومعنى ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم وما استقام أن يفعلوا ذلك، و﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ حال: أي ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر، بإظهار ما هو كفر من نصب الأوثان والعبادة لها، وجعلها آلهة؛ فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر، وإن أبوا ذلك بالسنتهم، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين: عمارة المساجد التي هي من شأن المؤمنين، والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من شأن من يتقرب إلى الله بعمارة مساجده. وقيل المراد بهذه الشهادة قولهم في طوافهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك: تملكه وما ملك؛ وقيل: شهادتهم على أنفسهم بالكفر: إن اليهودي يقول هو يهودي، والنصراني يقول هو نصراني، والمصابي يقول هو صابئ، والمشرک يقول هو مشرك

﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها، ويظنون أنها من أعمال الخير: أي بطلت ولم يبق لها أثر ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وفي هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها. ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وفعل ما هو من لوازم الإيمان من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَلَمْ يَخْشَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ فمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف، فهو الحقيق بعمارة المساجد. لا من كان خالياً منها أو من بعضها، واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيهاً بما هو من أعظم أمور الدين على ما عده مما افترضه الله على عباده، لأن كل ذلك من لوازم الإيمان، وقد تقدّم الكلام في وجه جمع المساجد، وفي بيان مامية العمارة، ومن جَوَزَ الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما، وفي قوله: ﴿فَعَسَى لَوْلَاكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ حسم لأطماع الكفار في الانتفاع بأعمالهم، فإن الموصوفين بتلك الصفات إذا كان اعتقادهم مرجحاً فقط، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشيء

من تلك الصفات؛ وقيل: عسى من الله واجبة؛ وقيل: هي بمعنى خليف: أي فخليق أن يكونوا من المهتدين؛ وقيل: إن الرجاء راجع إلى العباد، والاستفهام في ﴿لَجَعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لِلإِنكَارِ، والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية، وفي الكلام حذف، والتقدير: أجعلتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد، أو أهلهما ﴿كَمَنْ أَمَنَ﴾ حتى يتفق الموضوع والمحمول أو يكون التقدير في الخير: أي جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كعمل من آمن أو كليمان من آمن. وقرأ ابن أبي وجرة السعدي، وابن الزبير، وسعيد بن جبيرة، أجعلتم سقاة الحاج، وعمرة المسجد الحرام، جمع ساق وعامر. وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف. والمعنى: أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان عمله الجاهلية من الأعمال التي صورتها صورة الخير، وإن لم ينتفعوا بها وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله، وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة، ويفضلونهما على عمل المسلمين. فأنكر الله عليهم ذلك، ثم صرح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا تساوي تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العمارة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة في سبيله، ودل سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة، التي يدعيها المشركون: أي إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون، ثم حكم عليهم بالظلم وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه، وفي هذا إشارة إلى الفريق المفضل، ثم صرح بالفريق الفاضل فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخره: أي الجامعون بين الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ وأحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحيطة بالباطلة، وفي قوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ تشريف عظيم للمؤمنين، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بالصفات المذكورة ﴿هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ أي: المختصون بالفوز عند الله، ثم فسر الفوز بقوله: ﴿يَبْشِرُهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ والتذكير في الرحمة والرضوان والجَنَاتِ للتعظيم؛ والمعنى أنها فوق وصف الواصفين وتصوّر المتصورين. والنعيم المقيم: الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمناها للتعليل: أي أعطاهم الله سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذي عنده عظيم، يهب منه ما يشاء لمن يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ

أَمَنَ بِهِ﴾ يقول: من وحّد الله وآمن بما أنزل الله ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يقول: لم يعبد إلا الله ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ﴾ يقول: أولئك هم المهتدون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء: 79] يقول إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً، وهي الشفاعة، وكل عسى في القرآن فهي واجبة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ» قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمَنَ بِهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. وقد وردت أحاديث كثيرة في استحباب ملازمة المساجد، وعمارتها والتردد إليها للطاعات. وأخرج مسلم، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن النعمان بن بشير، قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل جهاد في سبيل الله خير مما قلت، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله: ﴿لَجَعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لَجَعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية، وذلك أن المشركين قالوا عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، فكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فنكر الله سبحانه استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُنْكَسُونَ. مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: 66، 67] يعني: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم، وقال به سامراً كانوا به يسمرون ويهجون بالقرآن والنبي ﷺ، فخير الإيمان بالله والجهاد مع نبي الله على عمران المشركين البيت وقيامهم على السعاية، ولم يكن لينفعهم عند الله مع الشرك به وإن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه قال الله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم ظالمين بشركهم، فلم تغن عنهم العمارة شيئاً، وفي إسناد العوفي وهو ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: قال العباس حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتُمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعلم المسجد الحرام، ونسقي الحاج ونفك العاني، فأنزل الله: ﴿لَجَعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية: يعني: أن ذلك كان في الشرك، فلا أقبل ما كان في الشرك. وأخرج ابن مردويه، عنه، أيضاً في

الله بامرهم ﴿ فيكم، وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم؛ وقيل: المراد بأمر الله سبحانه: القتال؛ وقيل فتح مكة وفيه بعد، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح. وفي هذا وعيد شديد، ويؤكد إيهام الأمر وعدم التصريح به، لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردد بين أنواع العقوبات، ﴿والله لا يهدي القوم للغاسقين﴾ أي الخارجين عن طاعته، النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: أمروا بالهجرة فقال العباس بن عبد المطلب: أنا أسقي الحاج. وقال طلحة أخو بني عبد الدار: أنا أحجب الكعبة فلا نهجر، فانزلت ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل، في هذه الآية قال: هي الهجرة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿أفترقتموها﴾ قال: أصبتموها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿حتى يأتي الله بامرهم﴾ قال: بالفتح في أمره بالهجرة، هذا كله قبل فتح مكة. وأخرج البيهقي من حديث عبد الله بن شونب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعث له الألهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فانزل الله: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ [المائدة: 22] الآية، وهي تؤكد معنى هذه الآية، وقد تقدم بيان حكم الهجرة في سورة النساء.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَاءٍ رَجِيًا ثُمَّ وُضِعَ الْكُفْرُوكَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكُوتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حُدُودًا لَكُمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يَبُوءُ اللَّهُ بِمَا بَعَدَ ذَلِكَ عَنْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾

المواطن جمع موطن، ومواطن الحرب: مقاماتها، والمواطن التي نصر الله المسلمين فيها هي يوم بدر، وما بعد من المواطن التي نصر الله المسلمين على الكفار فيها قبل يوم حنين، ﴿ويوم حنين﴾ معطوف على مواطن بتقدير مضاف: إما في الأول وتقديره في أيام مواطن، أو في الثاني، وتقديره وموطن يوم حنين، لثلا يعطف الزمان على المكان. ورد بأنه لا استبعاد في عطف الزمان على المكان، فلا يحتاج إلى تقدير؛ وقيل: إن يوم حنين منصوب بفعل مقدر معطوف على ﴿نصركم﴾ أي: ونصركم يوم حنين، ورجح هذا صاحب الكشاف، قال: وموجب ذلك أن قوله: ﴿إذ أعجبتكم﴾ بدل من يوم حنين، فلو جعلت ناصبة هذا الظاهر لم يصح، لأن كثرت لم تعجبهم في جميع تلك المواطن، ولم يكونوا كثيراً في جميعها. ورد بأن العطف لا يجب فيه تشارك المتعاطفين في جميع ما ثبت للمعطوف، كما تقول: جاءني

الآية، قال: نزلت في علي بن أبي طالب والعباس. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي، قال: تفاخر علي والعباس وشيبة في السقاية والحجابة فانزل الله: ﴿لجعلتم سقاية الحاج﴾ الآية، وقد روى معنى هذا من طرق.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ هُمْ أَشْقَىٰ مِمَّا ظَنَنْتُمْ قَدْ جَاءَكُمْ آبَاؤُكُمْ وَأِخْوَانُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمَّا أَفْتَرْتُمْ وَرَجَعْتُمْ تَخَنُّونَ كَذَابًا وَمَنْ يَكْفُرْ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْفُرُ عَنْكُمْ إِنَّ اللَّهَ يَكْفُرُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٨﴾

الخطاب للمؤمنين كافة، وهو حكم باق إلى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين، وقالت طائفة من أهل العلم: إنها نزلت في الحَضَّ على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب، نهوا بأن يوالوا الآباء والإخوة، فيكونون لهم تبعاً في سكنى البلاد الكفر إن استحبوا: أي أحبوا، كما يقال استجاب بمعنى أجاب، وهو في الأصل طلب المحبة، وقد تقدم تحقيق المقام في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ [المائدة: 51] ثم حكم على من يتولى من استحب الكفر على الإيمان من الآباء والإخوان بالظلم، فدل ذلك على أن تولي من كان كذلك من أعظم الذنوب وأشدّها، ثم أمر الله رسوله ﷺ بأن يقول لهم: ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ إلى آخره، والعشيرة: الجماعة التي ترجع إلى عقد واحد، وعشيرة الرجل قرابته الأنون، وهم الذين يعاشرونه وهي اسم جمع. وقرأ أبو بكر وحمام ﴿عشيرتكم﴾ بالجمع. قال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات. وإنما يجمعونها على عشائر. وقرأ الحسن ﴿عشائركم﴾. وقرأ الباقر ﴿عشيرتكم﴾ والاعتراق: الاكتساب، وأصله اقتطاع الشيء من مكانه، والتركيب يدور على الذنوب. والكاسب يبني الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه، والتجارة الأمتعة التي يشترونها ليربحوها فيها، والكساد عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الأوطان. ومن غرائب التفسير ما روي عن ابن المبارك أنه قال: إن المراد بالتجارة في هذه الآية البنات والأخوات، إذا كسدن في البيت لا يجدن لهنّ خاطباً، واستشهد لذلك بقول الشاعر:

كسدن من الفقر في قومهن وقد زادهنّ مقامسي كسادا
وهذا البيت وإن كان فيه إطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهنّ فليس فيه جواز إطلاق اسم التجارة عليهنّ، والمراد بالمساكن التي يرضونها: المنازل التي تعجبهم وتميل إليها أنفسهم، ويرون الإقامة فيها أحبّ إليهم من المهاجرة إلى الله ورسوله، وأحبّ خبر كان: أي كانت هذه الأشياء المنكورة في الآية أحبّ إليكم من الله ورسوله ومن الجهاد في سبيل الله ﴿فتربصوا﴾ أي: انتظروا ﴿حتى يأتي

عمرو الثقفي. وأخرج ابن المنذر، عن الحسن قال: لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا: الآن نقاتل حين اجتمعنا، فكره رسول الله ﷺ ما قالوا، وما أعجبهم من كثرتهم، فالتقوا فهزموا حتى ما يقوم أحد منهم على أحد حتى جعل رسول الله ﷺ ينادي أحياء العرب: إليّ، فوا الله ما يعرج عليه أحد حتى أعرى موضعه، فالتفت إلى الأنصار وهم ناحية فنادهم: يا أنصار الله وأنصار رسوله، إليّ عباد الله أنا رسول الله، فاجثوا ييكون وقالوا: يا رسول الله ورب الكعبة إليك والله، فنكسوا رؤوسهم ييكون وقدموا أسياهم يضربون بين يدي رسول الله ﷺ، حتى فتح الله عليهم. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن الربيع أن رجلاً قال يوم حنين: لن تغلب من قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ قال الربيع: وكانوا اثني عشر ألفاً، منهم ألفان من أهل مكة. وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه، وأبو نعيم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، فكنا على أقدامنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم البر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قدماً، فقال: ناولني كفاً من تراب، فنولته فضرب به وجوههم فامتلت أعينهم تراباً، وولى المشركون أبارهم، ووقعة حنين منكرة في كتب السير والحديث بطولها وتفصيلها، فلا نطول بذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ قال: هم الملائكة. ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: قتلهم بالسيف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، قال: في يوم حنين أمد الله رسوله بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين، ويومئذ سمي الله الأنصار مؤمنين قال: فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن جبير بن مطعم، قال: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل النجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبيوث قد ملا الوادي، لم أشك أنها الملائكة، ولم تكن إلا هزيمة للقوم.

يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بِمَدَائِمِهِمْ هَكَذَا وَإِنْ جَفَنَتْ عَيْلَةُ قَسَوَتْ بِعَيْنِكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ قِيلُوا الَّذِينَ لَا يَرْسُونَ إِلَهَ وَلَا يُؤْمِنُونَ أَكْبَرُ وَلَا يُؤْمِنُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ رِيبَ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ أَتُوتُوا الصِّبْغَ حَتَّى يَبْطُغُوا الْجَزِيرَةَ مِنْ يَدِ رَمِّمْ صُرُوتٌ ﴿١٨﴾

النجس مصدر لا يثنى ولا يجمع، يقال رجل نجس، وامرأة نجس، ورجلان نجس، وامرأتان نجس، ورجال نجس، ونساء نجس؛ ويقال نجس ونجس بكسر الجيم وضمها؛ ويقال نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من

زيد، وعمرو، مع قومه، أو في ثيابه أو على فرسه؛ وقيل: إن: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ليس ببديل من يوم حنين، بل منصوب بفعل مقدر: أي أنكروا إذا أعجبكم كثرتكم، وحينئذ: واد بين مكة والطائف، وانصرف على أنه اسم للمكان، ومن العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة، ومنه قول الشاعر:

نصروا نبيهم وشكوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال وإنما أعجب من أعجب من المسلمين بكثرتهم لأنهم كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل: أحد عشر ألفاً، وقيل: ستة عشر ألفاً؛ فقال بعضهم: لن تغلب اليوم من قلة، فوكلوا إلى هذه الكلمة، فلم تغن الكثرة شيئاً عنهم، بل انهزموا وثبت رسول الله ﷺ، وثبت معه طائفة يسيرة منهم عمه العباس وأبو سفيان بن الحارث، ثم تراجع المسلمون، فكان النصر والظفر. والإغناء: إعطاء ما يدفع الحاجة؛ أي لم تعطكم للكثرة شيئاً يدفع حاجتكم، ولم تغنكم. قوله: ﴿بِمَا رَحِبتُ﴾ الرحب بضم الراء: السعة، والرحب بفتح الراء: المكان الواسع، والباء بمعنى مع، وما مصدريّة، ومحل الجار والمجرور الت نصب على الحال. والمعنى: أن الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليهم بسبب ما حلّ بهم من الخوف والوجل؛ وقيل: إن الباء بمعنى على: أي على رحبها ﴿وَلَمَّ وَلِيْتُمْ مَدِيرِينَ﴾ أي: انهزمت حال كونكم مدبرين: أي مولين أباركم، جاعلين لها إلى جهة عدوكم. قوله: ﴿وَلَمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنزل ما يسكنهم، فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجترأ على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين، والمراد بالمؤمنين: هم الذين لم يهزموا، وقيل: الذين انهزموا. والظاهر جميع من حضر منهم، لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا. قوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة.

وقد اختلف في عددهم على أقوال: قيل: خمسة آلاف، وقيل: ثمانية آلاف، وقيل: ستة عشر ألفاً، وقيل: غير ذلك، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوة. واختلفوا أيضاً هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم أم لا؟ وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر، وأنهم إنما حضروا في غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين، وإدخال الرعب في قلوب المشركين ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبي النرية، والإشارة بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ إلى التعذيب المفهوم من عذب، وسمي ما حلّ بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف بل لا بد من عذاب الآخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم وتعظيماً له ﴿وَلَمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يغفر لمن أئنب، فتاب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: حنين ما بين مكة والطائف، قاتل نبي الله ﷺ هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف عبد ياليل بن

ظاهر لا يخفى، ولعله أراد تفسير ما بعد المضاف إلى عامهم ولا شك أنه عام عشر، وأما تفسير العام المشار إليه بهذا، فلا شك ولا ريب أنه عام تسع، وعلى هذا يحمل قول قتادة: وقد استدل من قال بأنه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا القيد، أعني قوله: **﴿بعد عامهم هذا﴾** قائلًا إن النهي مختص بوقت الحج والعمرة، فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط، لا عن مطلق النحول. ويجاب عنه بأن ظاهر النهي عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان في كل وقت من الأوقات الكائنة بعده، وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص. قوله: **﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾** العيلة: الفقر، يقال عال الرجل يعيل: إذا افتقر، قال الشاعر: وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود «عائلة» وهو مصدر كالعائلة والعافية والعاقبة؛ وقيل معناه: خصلة شاقة، يقال عالني الأمر يعولني: أي شق عليّ واشتدّ. وحكى ابن جرير الطبري أنه يقال عال يعول: إذا افتقر. وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم وهم كانوا يجلبون إليه الأطعمة والتجارات، قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر، وقالوا: من أين نعيش؟ فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله. قال الضحاك: ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾** الآية. وقال عكرمة: أغناهم بإيراد المطر والنبات وخصب الأرض، وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم الله به. وقيل أغناهم بالفيء، وفائدة التقيد بالمشيئة التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك في كل ما يتكلمون به، مما له تعلق بالزمان المستقبل، ولئلا يفوتوا عن الدعاء والتضرع **﴿إن الله عليم﴾** بالحوالك **﴿حكيم﴾** في إعطائه ومنعه، ما شاء كان ولملم يشأ لم يكن. قوله: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾** الآية، فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف. قال أبو الوفاء بن عقيل: إن قوله **﴿قاتلوا﴾** أمر بالعقوبة، ثم قال: **﴿الذين لا يؤمنون بالله﴾** فبين الذنب الذي توجب العقوبة، ثم قال: **﴿ولا باليوم الآخر﴾** فأكّد الذنب في جانب الاعتقاد، ثم قال: **﴿ولا يحزّمون ما حرم الله ورسوله﴾** فيه زيادة للذنب في مخالفة الأعمال، ثم قال: **﴿ولا يبينون بين الحق﴾** فيه إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعادنة، والافتة عن الاستسلام، ثم قال: **﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾** تأكيد للحجة عليهم لأنهم كانوا يجنونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ثم قال: **﴿حتى يعطوا الجزية﴾** فبين الغاية التي تمتد إليها العقوبة. انتهى. قوله: **﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾** بيان للموصول مع ما في حيزه وهم أهل التوراة والإنجيل. قوله: **﴿حتى يعطوا الجزية عن يد﴾** الجزية وزن فعل من جزى يجرى: إذا كافأ عما أسدي إليه، فكانهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن؛ وقيل: سميت جزية لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه: أي يقضوه،

المحرك. قيل: لا تستعمل إلا إذا قيل معه رجس؛ وقيل ذلك أكثرى لا كلي. والمشركون مبتدأ، وخبره المصدر مبالغة في وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة، أو على تقدير مضاف: أي نوو نجس، لأن معهم الشرك وهو بمنزلة النجس. وقال قتادة ومعمر وغيرهما: إنهم وصفوا بذلك لأنهم لا يتطهرون، ولا يغتسلون، ولا يتجنبون النجاسات. وقد استدل بالآية من قال بأن المشرك نجس الذات، كما ذهب إليه بعض الظاهرية والزيدية. وروي عن الحسن البصري، وهو محكي عن ابن عباس. وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات، لأن الله سبحانه أحل طعامهم، وثبت عن النبي ﷺ في ذلك من فعله، وقوله، ما يفيد عدم نجاسة نواتهم، فاكل في آنتهم، وشرب منها، وتوضأ فيها، وأنزلهم في مسجده. قوله: **﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾** الفاء للتفريع، فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرع على نجاستهم. والمراد بالمسجد الحرام: جميع الحرم، روي ذلك عن عطاء، فيمتنعون عنده من جميع الحرم، وذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه، فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم.

وقد اختلف أهل العلم في دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد؛ فذهب أهل المدينة إلى منع كل مشرك عن كل مسجد. وقال الشافعي: الآية عامة في سائر المشركين خاصة في المسجد الحرام، فلا يمتنعون من دخول غيره من المساجد. قال ابن العربي: وهذا جمود منه على الظاهر، لأن قوله تعالى: **﴿إنما للمشركون نجس﴾** تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة، ويجاب عنه بأن هذا القياس مربود بربطه ﷻ لثماته بن أثال في مسجده، وإنزال وفد ثقيف فيه. وروي عن أبي حنيفة مثل قول الشافعي، وزاد أنه يجوز دخول الذمي سائر المساجد من غير حاجة، وقيده الشافعي بالحاجة. وقال قتادة: إنه يجوز ذلك للذمي دون المشرك. وروي عن أبي حنيفة أيضاً أنه يجوز لهم دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد، ونهى المشركين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهى للمسلمين عن أن يمكنوهم من ذلك، فهو من باب قولهم: لا أرينك هاهنا. قوله: **﴿بعد عامهم هذا﴾** فيه قولان: أحدهما: أنه سنة تسع، وهي التي حج فيها أبو بكر على الموسم. الثاني: أنه سنة عشر قاله قتادة، قال ابن العربي: وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ، ومن العجب أن يقال إنه سنة تسع، وهو العام الذي وقع فيه الأذان، ولو دخل غلام رجل داره يوماً فقال له مولا: لا تدخل هذه الدار بعد يومك، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه. انتهى. ويجاب عنه بأن الذي يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه، فإن الإشارة بقوله: **﴿بعد عامهم هذا﴾** إلى العام المذكور قبل اسم الإشارة وهو عام النداء، وهكذا في المثال الذي ذكره، المراد النهي عن دخولها بعد يوم الدخول الذي وقع فيه الخطاب، والأمر

وهي في الشرع ما يعطيه المعاهد على عهده، **و(عن يدك)** في محل نصب على الحال. والمعنى: عن يد موأية غير ممتنعة، وقيل معناه: يعطونها بأيديهم غير مستنبيين فيها أهدأ؛ وقيل معناه: نقد غير نسيئة؛ وقيل عن قهر؛ وقيل معناه: عن إنعام منكم عليهم، لأن أخذها منهم نوع من أنواع الإنعام عليهم؛ وقيل معناه مذمومون. وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعي، وأحمد، أبو حنيفة، وأصحابه والثوري، وأبو ثور، إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب. وقال الأوزاعي ومالك: إن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الكفرة كائناً من كان، ويدخل في أهل الكتاب على القول الأول: المجوس. قال ابن المنذر: لا أعلم خلافاً في أن الجزية تؤخذ منهم.

واختلف أهل العلم في مقدار الجزية. فقال عطاء: لا مقدار لها. وإنما تؤخذ على ما صلحوا عليه، وبه قال يحيى بن آدم، وأبو عبيد، وابن جرير إلا أنه قال: أقلها دينار، وأكثرها لا حد له. وقال الشافعي: دينار على الغني والفقير من الأحرار البالغين لا ينقص منه شيء، وبه قال أبو ثور. قال الشافعي: وإن صلحوا على أكثر من دينار جاز، وإذا زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم. وقال مالك: إنها أربعة ننانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورق، الغني والفقير سواء، ولو كان مجوسياً لا يزيد ولا ينقص. وقال أبو حنيفة وأصحابه، ومحمد بن الحسن، وأحمد بن حنبل: اثنا عشر، وأربعة وعشرون، وثمانية وأربعون. والكلام في الجزية مقرّر في مواطنه، والحق من هذه الأقوال قد قرّرناه في شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا. قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال، والصغار: الذال. والمعنى: إن الذمي يعطى الجزية حال كونه صاغراً، قيل: وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم، والمتسلم قاعد. وبالجمله ينبغي للقباض للجزية أن يجعل المسلم لها حال قبضها صاغراً ثليلاً.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، في قوله: ﴿وَأَنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية قال: إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة. وقد روي مرفوعاً من وجه أخرجه أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمكم. قال ابن كثير: تفرد به أحمد مرفوعاً. والموقوف: أصح. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون به، فلما نهوا عن أن يتروا البيت. قال المسلمون: فمن أين لنا الطعام؟ فأنزل الله ﴿وَأَن خِفْتُمْ عِيلَةً فَسُوفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ قال: فأنزل الله عليهم المطر. وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم. وأخرج ابن مردويه، عنه، قال: فأغناهم الله من فضله، وأمرهم بقتال أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن

المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: ﴿وَأَنْ خُفْمُ عِيْلَةٍ﴾ قال: الفاقة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: بالجزية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن الضحاک مثله. وأخرج نحوه عبد الرزاق عن قتادة. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَشْرُكُونَ نَجَسٌ﴾ قال: قذر. وأخرج أبو الشيخ عنه، أيضاً قال: من صافحهم فليتوضأ. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صافح مشركاً فليتوضأ أو ليغسل كفيه». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في سننه، عن مجاهد، في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قال: نزلت هذه الآية حين أمر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك. وأخرج ابن المنذر، عن ابن شهاب، قال: نزلت في كفار قريش والعرب وقاتلوه حتى لا تكون فتنة. وأنزلت في أهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿حَتَّى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾، فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: الذين لا يَصَلُّونَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ ﴿وَلَا يَحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ يعني الخمر والحرير ﴿وَلَا يَبْسُتُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ يعني: بين الإسلام ﴿وَمَنْ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ يعني: مثللون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ قال: عن قهر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان بن عيينة، في قوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ قال: من يده ولا يبيعت بها غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي سنان في قوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ قال: عن قدرة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ قال: يمشون بها مثلقلين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سلمان، في الآية قال: غير محمودين.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ فَأَتَوْهُمْ بِآيَاتِهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ ﴿٣٥﴾ أَتَعْبُدُوا أَجْرَانَهُمْ وَذُنُوبَهُمْ أَزْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾ بُرِيدَتْ أَنْ يَطْلُقُوا ثَوْرَ اللَّهِ وَأَتَوْهُمْ وَيَأْتِ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُمَدَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٨﴾

قوله: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾ كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين، وعزيز مبتدأ وابن الله خبره، وقد قرأ عاصم والكسائي «عزيز» بالتنوين، وقرأ الباقون بترك

ابن الله. قوله: ﴿قاتلهم الله﴾ دعاء عليهم بالهلاك، لأن من قاتله الله هلك، وقيل هو تعجب من شناعة قولهم؛ وقيل معنى قاتلهم الله: لعنهم الله، ومنه قول أبان بن ثعلب: قاتلها الله تلحاني وقد علمت أنني لنفسي إفسادي وإصلاحني وحكى النقاش أن أصل قاتل الله: الدعاء، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء، وأنشد الأصمعي:

يا قاتل الله ليلي كيف تعجبني وأخبر الناس أنني لا أباليها
﴿أنى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل. قوله: ﴿اتخذوا أحيار ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الأحيار: جمع حبر، وهو الذي يحسن القول، ومنه ثوب محبر؛ وقيل جمع حبر بكسر الحاء. قال يونس: لم أسمعها إلا بكسر الحاء. وقال الفراء: الفتح والكسر لغتان، وقال ابن السكيت: الحبر بالكسر العالم، والحبر بالفتح العالم. والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة، وهم علماء النصراني كما أن الأحيار علماء اليهود. ومعنى الآية: أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرونهم به، وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً، لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب، قوله: ﴿والنصارى ابن مريم﴾ معطوف على رهبانهم: أي اتخذهم النصارى رباً معبوداً، وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزيز رباً معبوداً، وفي هذه الآية ما يزرع من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياءه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحيار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم، وحرّموا ما حرّموا، وحلّلوا ما حلّلوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرّة، والماء بالماء، فإيا عباد الله ويا أتباع محمد بن عبد الله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاده، فعلمت بما جاءوا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين، ونصوص الكتاب والسنة، تنادي بأبلغ نداء، وتصوّت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعزمتوهما أذناناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأقهاراً مريضة، وعقولاً مهیضة، وأذهاناً كليلّة، وخواطر عليلّة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
فدعوا أرشدكم الله وإياي كتباً كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله، خالفهم وخالفكم، ومتعبدوهم ومتعينكم، ومعبدوهم ومعبدكم، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأي بأقوال إمامكم وإمامهم، وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأوّل:

التنوين لاجتماع العجمة والعلمية فيه. ومن قرأ بالتنوين فقد جعله عربياً؛ وقيل: إن سقوط التنوين ليس لكونه ممتنعاً بل لاجتماع الساكنين، ومنه قراءة من قرأ ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾ [الإخلاص: 1 - 2]. قال أبو علي الفارسي وهو كثير في الشعر، وأنشد ابن جرير الطبري:

لتجديني بالأمير بربراً وبالقناة لامرامكراً
إذا غطيت السلمي فرأى

وظاهر قوله: ﴿وقالت لليهود﴾ إن هذه المقالة لجميعهم، وقيل: هو لفظ خرج على العموم، ومعناه الخصوص لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم. وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها؛ بل قد انقرضوا؛ وقيل: إنه قال ذلك للنبي ﷺ جماعة منهم، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود، لأن قول بعضهم لازم لجميعهم. قوله: ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ قالوا هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب، فكان ذلك سبباً لهذه المقالة، والأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لكون في الإنجيل وصفه تارة بابن الله وتارة بابن الإنسان، كما رأينا ذلك في مواضع متعددة من الإنجيل، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم، أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة؛ قيل: وهذه المقالة إنما هي لبعض النصارى لا لكلهم. قوله: ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة. ووجه قوله بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا الفم. بأن هذا القول لما كان سانحاً ليس فيه بيان، ولا عضده برهان، كان مجرد دعوى، لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه، غير مفيدة لغائدة يعتد بها؛ وقيل: إن ذكر الأفواه لقصد التأكيد، كما في كتبت بيدي ومشيت برجلي، ومنه قوله تعالى: ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ [البقرة: 79]. وقوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38]. وقال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه لم ينكر قولاً مقروناً بنكر الأفواه والألسن، إلا وكان قولاً زوراً كقوله: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ [آل عمران: 167]، وقوله: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ [الكهف: 5]، وقوله: ﴿يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ [الفتح: 11]. قوله: ﴿يضاهئون قول الذين كفروا﴾ المضاهاة: المشابهة، قيل ومنه قول العرب امرأة ضهياء، وهي التي لا تحيض لأنها شابهت الرجال. قال أبو علي الفارسي: من قال: ﴿يضاهئون﴾ مأخوذ من قولهم امرأة ضهياء فقوله خطأ، لأن الهمزة في ضاهاً أصلية، وفي ضهياء زائدة كحمراء، وأصله يضاهئون وامرأة ضهياء. ومعنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم: الأوّل: أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم واللات والعزى ومناة بنات الله. القول الثاني: أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين: إن الملائكة بنات الله، الثالث: أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيز ابن الله وإن المسيح

محمد بن عبد الله ﷺ.

دعوا كل قول عند قول محمد ﷺ فما أبى في يمينه كمخاطر اللهم هادي الضال، مرشد التائه، موضح السبيل، اهتدنا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية، قوله: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال: أي اتخذوا إلهاً واحداً ورهبانهم أرباباً، والحال: أنهم ما أمروا إلا بعبادة الله وحده، أو ما أمر للذين اتخذوهم أرباباً من الأحرار والرهبان إلا بذلك، فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أرباباً. قوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ صفة ثانية لقوله إلهاً ﴿سبحانه عما يشركون﴾ أي: تنزيهاً له عن الإشراك في طاعته وعبادته. قوله: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأقوالهم﴾ هذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق، وهو ما راموه من إبطال الحق بأقوالهم الباطلة، التي هي مجرد كلمات ساذجة، ومجاذلات زائفة، وهذا تمثيل لحالهم في محاولة إبطال دين الحق، ونبوة نبي الصنق، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم قد انارت به الدنيا، وانقضت به الظلمة، ليطفئه ويذهب أضواءه ﴿ويلي الله إلا أن يتم نوره﴾ أي: بينه القويم، وقد قيل: كيف بخلت إلا الاستثنائية على يابى، ولا يجوز كرهته أو بغضته إلا زيداً. قال الفراء: إنما بخلت لأن في الكلام طرفاً من الجحد. وقال الزجاج: إن العرب تحذف مع أبى، والتقدير ويلي الله كل شيء إلا أن يتم نوره. وقال علي بن سليمان: إنما جاز هذا في أبى، لأنها منع أو امتناع فضارعت النفي، قال النحاس: وهذا أحسن كما قال الشاعر:

وهل لي أم غيرها إن تركتها أبى الله إلا أن يكون لها ابنا
وقال صاحب الكشف: إن أبر قد أجرى مجرى لم يرد: أي ولا يريد إلا أن يتم نوره. قوله: ﴿ولو كره الكافرون﴾ معطوف على جملة قبله مقدر: أي أبى الله إلا أن يتم نوره، ولو لم يكره الكافرون ذلك، ولو كرهوا، ثم أكد هذا بقوله: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ أي: بما يهدي به الناس من البراهين والمعجزات، والأحكام التي شرعها الله لعباده، ﴿ودين الحق﴾ وهو: الإسلام، ﴿ليظهره﴾ أي: ليظهر رسوله، أو دين الحق بما اشتمل عليه من الحجج والبراهين، وقد وقع ذلك وشهد الحمد ﴿ولو كره للمشركون﴾ الكلام فيه كاللزام في ﴿ولو كره الكافرون﴾ كما قلنا ذلك.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس، قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وأبو أنس، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقت تركت قبلتنا وأنت لا تزعم عزير ابن الله؟ فأنزل الله ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عنه، قال: كنّ نساء بني إسرائيل يجتمعن بالليل فيصليين ويعتزلن وينكرن ما فضل الله به بني إسرائيل وما أعطاهم، ثم سلط عليهم شر خلقه بختصر،

فحرق التوراة وخرب بيت المقدس، وعزير يومئذ غلام، فقال عزير: أو كان هذا؟ فلحق بالرجال والوحش، فجعل يتعبد فيها، وجعل لا يخالط الناس، فإذا هو ذات يوم بامرأة عند قبر وهي تبكي، فقال: يا أمه اتقي الله واحتسبي واصبري، أما تعلمين أن سبيل الناس إلى الموت؟ فقالت: يا عزير أئنهاني أن أبكي، وأنت قد خلفت بني إسرائيل، ولحقت بالرجال والوحش؟ ثم قالت: إني لست بامرأة ولكني الدنيا، وإنه سينبع في مصلاك عين وتنبت شجرة، فاشرب من ماء العين وكل من ثمر الشجرة، فإنه سيأتيك ملكان فاتركهما يصنعان ما أرادا؛ فلما كان من الغد نبعت العين ونبتت الشجرة، فشرب من ماء العين وأكل من ثمرة الشجرة، وجاء ملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه ما فيها فآلهما الله التوراة، فجاء فأملاه على الناس، فعند ذلك قالوا عزير ابن الله، تعالى الله عن ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، أيضاً فذكر قصة وفيها: أن عزير سال الله بعد ما أنسى بني إسرائيل التوراة ونسخها من صدورهم، أن يرده الذي نسخ من صدره، فبينما هو يصلي نزل نور من الله عز وجل فسفل جوفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأنز في قومه فقال: يا قوم قد آتاني الله التوراة وردّها إلي. وأخرج أبو الشيخ، عن كعب، قال: دعا عزير ربه أن يلقي التوراة كما أنزل على موسى في قلبه، فأنزلها الله عليه، فبعد ذلك قالوا: عزير ابن الله. وأخرج ابن مروي، وابن عساکر، عن ابن عباس، قال: ثلاث أشك فيهن: فلا أدري عزير كان نبياً أم لا؟ ولا أدري ألحق تبع أم لا؟ قال: ونسيت الثالثة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿يضاهون﴾ قال: يشبهون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿قاتلهم الله﴾ قال: لعنهم الله، وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن. وأخرج ابن سعد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن عدي بن حاتم، قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة ﴿اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه. وأخرجه أيضاً أحمد وابن جرير. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في سننه، عن أبي البحتري قال: سأل رجل حذيفة فقال: أرايت قوله: ﴿اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك، قال: أحيارهم: قراؤهم، ورهبانهم: علماءهم. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، قال: الأحيار من اليهود، والرهبان من النصارى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي مثله. وأخرج أيضاً عن الفضيل بن عياض قال: الأحيار: العلماء، والرهبان: العباد.

تجارة أو لهواً انفضوا إليها» [الجمعة: 11] أعاد الضمير إلى التجارة، لأنها الأهم؛ وقيل إن الضمير راجع إلى الذهب والفضة معطوفة عليه، والعرب تؤنث الذهب وتذكره؛ وقيل: إن الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله: «يكنزون» وقيل: إلى الأموال، وقيل: للزكاة، وقيل: إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى، وهو كثير في كلام العرب، وأنشد سيبويه:

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف
ولم يقل: راضون، ومثله قول الآخر:

رمانى بامر كنت منه ووالدي برياً ومن أجل الطوى رمانى
ولم يقل: برين، ومثله قول حسان:

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ود ما لم يعاض كان جنونا
ولم يقل: يعاضا، وقيل: إن أفراد الضمير من باب الذهاب إلى المعنى دون اللفظ، لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية، وعدة كثيرة، ودنانير ودراهم، فهو كقوله: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» [الحجرات: 9] وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمان الأشياء، وغالب ما يكنز وإن كان غيرهما له حكمهما في تحريم الكنز، قوله: «فبشرهم بعذاب اليم» هو خبر الموصول، وهو من باب التهكم بهم كما في قوله:

تحية بينهم ضرب وجيع

وقيل: إن البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة لتأثيره في القلب، سواء كان من الفرح أو من الغم. ومعنى «يوم يحمى عليها في نار جهنم» أن النار توقد عليها وهي ذات حمى وحر شديد. ولو قال يوم تحمى: أي الكنوز لم يعط هذا المعنى، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذف النار وأسند الفعل إلى الجار، كما تقول رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة قلت رفع إلى الأمير، وقرأ ابن عامر «تحمى» بالمشناة الفوقية، وقرأ أبو حيو «فيكوى» بالتحنية. وخص الجباه والجنوب والظهور؛ لكون التألم بكيها أشد لما في داخلها من الأعضاء الشريفة؛ وقيل: ليكون الكي في الجهات الأربع: من قدام، وخلف، وعن يمين، وعن يسار؛ وقيل: لأن الجمال في الوجه، والقوة في الظهر والجنبين، والإنسان إنما يطلب المال للجمال والقوة؛ وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف. قوله: «هذا ما كنزتم لأنفسكم» أي: يقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم: أي كنزتموه لتنتفعوا به، فهذا نفعه على طريقة التهكم والتوبيخ «فذوقوا ما كنزتم تكنزون» ما مصدرية أو موصولة: أي ذوقوا وباله، وسوء عاقبته، وقبح مغيبته، وشؤم فائدته.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: «إن كثيراً من الأحيار والرهبان» يعني: علماء اليهود والنصارى «ليأكلون أموال الناس بالباطل» والباطل: كتب كتبوا لم ينزلها الله فأكلوها بها أموال الناس، وذلك قول الله تعالى: «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله» [البقرة: 79]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في

وأخرج أيضاً عن السدي في قوله: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم» قال: يريدون أن يطفئوا الإسلام بأقوالهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم» يقول: يريدون أن يهلك محمد وأصحابه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، في الآية قال: هم اليهود والنصارى. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى» يعني: بالتوحيد والإسلام والقرآن.

﴿تَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَاسْتِرْإٍ كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُشْهِدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْنُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُخَوِّعُهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُزُؤُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ﴾ [٢٤]

لما فرغ سبحانه من ذكر حال اتباع الأحيار والرهبان المتخذين لهم أرباباً نكر حال المتبوعين فقال: «إن كثيراً من الأحيار» إلى آخره، ومعنى أكلهم لأموال الناس بالباطل أنهم يأخونها بالوجه الباطل كالرشوة، وأثبت هذا للكثير منهم، لأن فيهم من لم يلتبس بذلك، بل بقي على ما يوجب دينه من غير تحريف ولا تبديل، ولا ميل إلى حطام الدنيا، ولقد اقتدى بهؤلاء الأحيار والرهبان من علماء الإسلام من لا يأتي عليه الحصر في كل زمان، فاشك المستعان، قوله: «ويصنون عن سبيل الله» أي: عن الطريق إليه وهو دين الإسلام، أو عن ما كان حقاً في شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل. قوله: «والذين يكنزون الذهب والفضة» قيل: هم المتقدم ذكرهم من الأحيار والرهبان، وإنهم كانوا يصنعون هذا الصنع؛ وقيل: هم من يفعل ذلك من المسلمين، والأولى حمل الآية على عموم اللفظ، فهو أوسع من ذلك، وأصل الكنز في اللغة: الضم والجمع، ولا يختص بالذهب والفضة. قال ابن جرير: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض كان أو على ظهرها. انتهى. ومنه ناقة كنان: أي مكتنزة اللحم، واكتنز الشيء: اجتمع.

واختلف أهل العلم في المال الذي أئيت زكاته هل يسمى كنزاً أم لا؟ فقال قوم: هو كنز، وقال آخرون: ليس بكنز. ومن القائلين بالقول الأول: أبو زر. وقيد بما فضل عن الحاجة. ومن القائلين بالقول الثاني: عمر بن الخطاب، وابن عمر، وابن عباس، وجابر، وأبو هريرة، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم، وهو الحق لما سيأتي من الألة المصروفة بأن ما أئيت زكاته فليس بكنز. قوله: «ولا ينفقونها في سبيل الله» اختلف في وجه أفراد الضمير مع كون المذكور قبله شيئين: هما الذهب والفضة، فقال ابن الأنباري: إنه قصد إلى الأعم الأغلب، وهو الفضة قال: ومثله قوله تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة» [البقرة: 45] رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم، ومثله قوله: «وإذا رأوا

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ قال: هؤلاء الذين لا يؤتون الزكاة من أموالهم، وكل ما لا تؤدي زكاته كان على ظهر الأرض أو في بطنها فهو كنز، وكل مال أثبت زكاته، فليس بكنز، كان على ظهر الأرض أو في بطنها، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، من وجه آخر. وأخرج مالك، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عمر، نحوه. وأخرج ابن مردويه، عنه، نحوه مرفوعاً. وأخرج ابن عدي، والخطيب عن جابر، نحوه مرفوعاً أيضاً. وأخرجه ابن أبي شيبة، عنه، موقوفاً. وأخرج أحمد في الزهد، والبخاري، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر، في الآية قال: إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للأموال، ثم قال: ما أبالي لو كان عندي مثل أحد ذهباً أعلم عدده وإزكيه، وأعمل فيه بطاعات الله؟ وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب قال: ليس بكنز ما أدى زكاته. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي عن أم سلمة، مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، في مسنده، وأبو داود، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ كبر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفرج عنكم، فأنطلق عمر واتبه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال: إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم، فكبر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته. وقد أخرجه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، عن سالم بن أبي الجعد من غير وجه عن ثوبان. وحكى البخاري أن سالم لم يسمعه من ثوبان. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ قال: هم أهل الكتاب، وقال: هي خاصة وعامة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن علي بن أبي طالب، قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة وما فوقها كنز. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، عن أبي أمامة قال: حلية السيوف من الكنوز ما أحذركم إلا ما سمعت. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عراك بن مالك، وعمر بن عبد العزيز، أنهما قالا في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ إنها نسختها الآية الأخرى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: 103] الآية. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها إلا جعل لها يوم القيامة صفائح، ثم أحصى عليها في نار جهنم، ثم يكوى بها جنباه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين الناس فيرى سبيله، إما إلى الجنة،

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الْدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَتَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا بُدِّلُواكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يُكَافِّرُ فِي الْكَفْرِ يُصَلِّ بِهَ الْكَافِرَ كَثْرًا يُحِلُّوهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا يُؤَاطِرُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ رِزْقٌ لَهُمْ سَوْءَ عَمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٨﴾

قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار وذلك أن الله سبحانه لما حكم في كل وقت بحكم خاص، غيروا تلك الأوقات بالنسيء والكبيسة، فأخبرنا الله بما هو حكمه فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي: عدد شهور السنة عند الله في حكمه وقضائه وحكمته: اثنا عشر شهراً. قوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: فيما أثبت في كتابه. قال أبو علي الفارسي: لا يجوز أن يتعلق في كتاب الله بقوله: عِدَّةَ الشُّهُورِ، للفصل بالاجنبي وهو الخبر: أعني اثنا عشر شهراً؛ فقلوه: في كتاب الله، وقوله: يوم خلق بدل من قوله من عند الله، والتقدير: إن عِدَّةَ الشُّهُورِ عند الله في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض. وفائدة الإبدالين تقرير الكلام في الأذهان؛ لأنه يعلم منه أن تلك العدد واجب عند الله في كتاب الله، وثابت في علمه في أول ما خلق الله العالم. ويجوز أن يكون في كتاب الله صفة اثنا عشر: أي اثنا عشر مثبتة في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ. وفي هذه الآية بيان أن الله سبحانه وضع هذه الشهور وسماها باسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض، وأن هذا هو الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب، وأنه لا اعتبار بما عند العجم، والروم، والقيط، من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوماً، وبعضها أكثر، وبعضها أقل. قوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي: ذي القعدة، ونو الحجة، والمحرم، ورجب: ثلاثة سرد، وواحد فرد؛ كما ورد بيان ذلك في السنة المطهرة. قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: كون هذه الشهور كذلك، ومنها أربعة حرم هو: الدين المستقيم، والحساب الصحيح، والعدد المستوفى. قوله: ﴿فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي في هذه الأشهر الحرم بإيقاع القتال فيها والتهتك لحرمتها؛ وقيل: إن الضمير يرجع إلى الشهور كلها الحرم وغيرها، وإن الله نهى عن الظلم فيها، والأول: أولى. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن تحریم القتال

وفيه يقول قائلهم:

ومن أناسي الشهر القلمس

وقيل: هو عمرو بن لحي، وقيل: هو نعيم بن ثعلبة من بني كنانة، وسمى الله سبحانه النسيء زيادة في الكفر؛ لأنه نوع من أنواع كفرهم، ومعصية من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر. قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وابن عامر ﴿يُضِلُّ﴾ على البناء للمعلوم. وقرأ الكوفيون على البناء للمجهول. ومعنى القراءة الأولى: أن الكفار يضلون بما يفعلونه من النسيء، ومعنى القراءة الثانية، أن الذي سئل لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة، وقد اختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار القراءة الثانية أبو عبيد، وقرأ الحسن وأبو رجاء ويعقوب ﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء وكسر الضاد على أن فاعله الموصول، ومفعوله محذوف، ويجوز أن يكون فاعله هو الله سبحانه، ومفعوله الموصول. وقرأ بفتح الياء والضاد من ضل يضل، وقرأ ﴿نُضِلُّ﴾ بالنون، قوله: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ الضمير راجع إلى النسيء: أي يحلون النسيء عاماً ويحرمونه عاماً، أو إلى الشهر الذي يؤخرونه ويقاثلون فيه: أي يحلونه عاماً بإبداله بشهر آخر من شهور الحل، ويحرمون عاماً: أي يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال، بل يبقونه على حرمة. قوله: ﴿لِيُؤْطَقُوا عَذَابٌ مَا حَزَمَ اللَّهُ﴾ أي: لكي يواطئوا، والمواطاة: الموافقة، يقال: تواطأ القوم على كذا: أي توافقوا عليه واجتمعوا. والمعنى: إنهم لم يحلوا شهراً إلا حرموا شهراً لتبقى الأشهر الحرم أربعة، قال قطرب: معناه عمدوا إلى صفر فزادوه في الأشهر الحرم، وقرنوه بالمحرم في التحريم. وكذا قال الطبري. قوله: ﴿فِيحِلُّوا مَا حَزَمَ اللَّهُ﴾ أي: من الأشهر الحرم التي أبطلوها بغيرها ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التي يعملونها، ومن جملتها النسيء. وقرأ على البناء للمفاعل ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: المصيرين على كفرهم المستمرين عليه فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصيها الله سبحانه لجميع عباده.

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث أبي بكر أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». وأخرج نحوه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من حديث ابن عمر. وأخرج نحوه ابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من حديث ابن عباس. وأخرج نحوه أيضاً البزار، وابن جرير، وابن مردويه، من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد، وابن مردويه، من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه مرفوعاً مطولاً. وأخرج سعيد بن منصور،

في الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية، ولقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: 2] ولقوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5] الآية.

وقد ذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف. ويجاب عنه بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما في الآية المذكورة، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم، كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرم للأهلة الواردة في تحريم القتال فيه، وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو: ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، فقد أجيب عنه أنه لم يبتد محاصرته في ذي القعدة بل في شوال، والمحرم إنما هو ابتداء القتال في الأشهر الحرم لا إتمامه، وبهذا يحصل الجمع. قوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي جميعاً. وهو مصدر في موضع الحال. قال الزجاج: مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع ﴿كَمَا يَقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي جميعاً، وفيه دليل على وجوب قتال المشركين، وأنه فرض على الأعيان إن لم يقم به البعض ﴿وَوَاعِلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ينصرهم ويثبتهم، ومن كان الله معه فهو الغالب، وله العاقبة والخليفة. قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قرأ نافع في رواية ورش عنه النسيء بياء مشددة بدون همز. وقرأ الباقر بياء بعدها همزة، قال النحاس: ولم يرو أحد عن نافع هذه القراءة إلا ورش وحده، وهو مشتق من نساء وإنسأه: إذا أخره، حكى ذلك الكسائي. قال الجوهري: النسيء فعيل بمعنى مفعول من قولك نسأت الشيء فهو منسوء: إذا أخرته، ثم تحول منسوء إلى نسيء كما تحول مقتول إلى قتل، قال ابن جرير: في النسيء بالهمزة معنى الزيادة يقال نسأ نسأ: إذا زاد، قال: ولا يكون بترك الهمزة إلا من النسيان، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]، ورد على نافع قراءته. وكانت العرب تحرم القتال في الأشهر الحرم المذكورة، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها وحرموا غيرها، فإذا قاتلوا في المحرم، حرموا بدله شهر صفر، وهكذا في غيره. وكان الذي يحملهم على هذا: أن كثيراً منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعض البعوض، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال، وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرب بهم توالياً وتشتد حاجتهم وتعظم فاقتهم، فيحللون بعضها ويحرمون مكانه بقدره من غير الأشهر الحرم؛ فهذا هو معنى النسيء الذي كانوا يفعلونه. وقد وقع الخلاف في أول من فعل ذلك، فقيل: هو رجل من بني كنانة يقال له حذيفة بن عتيبة، ويلقب القلمس، وإليه يشير الكمي بقوله:

السنا الناشئين على معد شهور الحل نجعلها حراماً

وَأَنفِيَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ حَرِّمَ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَآتَيْنَاكُم مِّنْهُم مَّا كُنْتُمْ تُخَافُونَ مِنَ اللَّهِ وَلَكِنَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْتَهِى وَيُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي نَبِئُوا بِالنَّبِيِّينَ أَنَّهُمْ إِذَا أَثْبَتُوا لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ كَذِبُهُمْ وَلَمْ تُنْلِمْهُمْ كَذِبُهُمْ وَلَئِنِ اتَّبَعْتُ أَهْلَ الْبَيْتِ لَوَجَدْتُكُمْ تُكْفِرُونَ ﴿١٢﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لما شرح معاني أولئك الكفار عاد إلى ترغيب المؤمنين في قتالهم، والاستفهام في ﴿هَلْ لَكُمْ﴾ للإنكار والتوبيخ: أي: أي شيء يمنعكم عن ذلك، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً لمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، والنفر: هو الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان، لأمر يحدث. قوله: ﴿انْأَلِمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصله تشاقلتم، ادغمت التاء في التاء لقربها منها، وجاءي بالالف الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالسكان، ومثله: أذكركوا، وأطيرتم، وأطيروا، وأنشد الكسائي:

تولَّى الضجيج إذا ما اشتاقها حضراً عذب المذاق إذا ما اتابع القبل
وقرأ الأعمش ﴿تَشَاقَلْتُمْ﴾ على الأصل، ومعناه تباطأتم، وعدى بـألى لتضمنه معنى الميل والإخلاق؛ وقيل معناه: ملتم إلى الإقامة بأرضكم والبقاء فيها وقرئ ﴿انْأَلِمْ﴾ على الاستفهام، ومعناه التوبيخ والعامل في الظرف ما في ﴿مَالِكُمْ﴾ من معنى الفعل، كأنه قيل: ما يمنعكم، أو ما تصنعون إذا قيل لكم؟ و﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ متعلق بـانْأَلِمْ وكما مر. قوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بنعيمها بدلاً من الآخرة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مَنَّكُمْ لَآئِدَةً فِي الْأَرْضِ يَخْتَفُونَ﴾ [الزخرف: 60] أي بدلاً منكم، ومثله قول الشاعر:

قلبت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان
أي بدلاً من ماء زمزم، والطهيان: عود ينصب في ناحية الدار للهواء يعلق عليه الماء ليبرد، ومعنى: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة، وفي مقابلها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: إلا متاع حقير لا يعبا به، ويجوز أن يراد بالقليل العدم، إذ لا نسبة للمتناهي الزائل إلى غير المتناهي الباقي، والظاهر: أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل، إذ من البعيد أن يطبقوا جميعاً على التباطؤ والتثاقل، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل، وهو كثير شائع، قوله: ﴿إِلَّا تَخَفُوا﴾ يعنيكم هذا تهديد شديد، وعيد مؤكد لمن ترك النفي مع رسول الله ﷺ ﴿يَعْنِيكُمْ عَذَابًا لَّيْمًا﴾ أي: يهلككم بعذاب شديد مؤلم؛ قيل: في الدنيا فقط، وقيل هو أعم من ذلك. قوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يجعل لرسوله بدلاً منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم إليهم.

واختلف في هؤلاء القوم من هم؟ فقيل أهل اليمن، وقيل أهل فارس، ولا وجه للتمييز بدون دليل. قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ معطوف على ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾، والضمير قيل: لله، وقيل: للنبي ﷺ؛ أي ولا تضرُّوا الله بترك امتثال أمره بالنفي شيئاً، أو لا تضرُّوا رسول الله بترك نصره والنفي معه شيئاً ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن حملة مقبوراته

وابن مريويه، عن ابن عباس ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ﴾ قال: المحرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك قال: إنما سمين حرمًا لثلاث يكون فيهن حرب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ عَذَّةَ لِشَهْرٍ عِنْدَ اللَّهِ لَثَنًا عَشْرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرمًا، وعظم حرمتن، وجعل الدين فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم ﴿فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: في كلهن ﴿وَوَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ يقول جميعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مقاتل، في قوله: ﴿وَوَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ قال: نسخت هذه الآية كل آية فيها رخصة. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: كانت العرب يحلون عاماً شهراً وعاماً شهرين، ولا يصيبون الحج إلا في كل سنة، وعشرين سنة مرة، وهي النسبي الذي ذكره الله في كتابه، فلما كان عام حجّ أبو بكر بالناس، وافق ذلك العام، فسماه الله الحجّ الأكبر، ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل، واستقبل الناس الأهلة، فقال رسول الله ﷺ: ﴿وَأِنْ الزَّمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض.﴾ وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عمر، قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فقال: إنما النسبي من الشيطان زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، فكانوا يحرمون المحرم عاماً ويستحلون صفر، ويحرمون صفر عاماً ويستحلون المحرم، وهي: النسبي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس، قال: كان جنادة بن عوف الكناني يوافي الموسم كل عام، وكان يكتي أباً ثمامة، فينادي ألا إن أباً ثمامة لا يخاب ولا يعاب، ألا وإن صفر الأول العام حلال، فيحله للناس، فيحرم صفر عاماً، ويحرم المحرم عاماً، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لِلنَّسَبِ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في الآية قال: المحرم كانوا يسمونه صفر، وصفر يقولون صفران الأول والآخر، يحل لهم مرة الأول، ومرة الآخر. وأخرج ابن مريويه، عنه، قال: كانت النساء حي من بني مالك من كنانة من بني قحيم، فكان آخرهم رجلاً يقال له القلمس، وهو الذي أنشأ المحرم.

يَتَأْتِيهَا الْزَيْتُ مَاتُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيَتْ وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٣﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا مُمَيَّنَةً عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤﴾ إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثِينَ إِذْ هَمَّ فِي الْكَافِرِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَنْفِرْ إِنَّ اللَّهَ مَعَكَ فَاتَّكَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودِهِ لَمْ تَرَوْهُ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَنْتُمْ خِفَاكَ زَيْفًا وَجَهْدًا بِأَنْفُسِكُمْ

انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت. قيل: وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ [التوبة: 91]، وقيل الناسخ لها قوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ [النور: 122] الآية، وقيل: هي محكمة وليست بمنسوخة، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج﴾ [النور: 61] وإخراج الضعيف والمريض بقوله: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ [التوبة: 91] من باب التخصيص، لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله: ﴿خفافاً وثقالاً﴾ والظاهر: عدم دخولهم تحت العموم.

قوله: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم. والجهاد من أكد الفرائض وأعظمها، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو ويدفعه، فإن كان لا يقوم بالعدو إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض، أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين، والإشارة بقوله: ﴿أنكم﴾ إلى ما تقدم من الأمر بالنفير، والأمر بالجهاد ﴿خير لكم﴾ أي: خير عظيم في نفسه، وخير: من السكون والدعة ﴿إن كنتم تعلمون﴾، ذلك، وتعرفون الأشياء الفاضلة وتميزونها عن المفضولة. قوله:

﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾. قال الزجاج: لو كان المدعو إليه فحذف لدلالة ما تقدم عليه، والعرض: ما يعرض من منافع الدنيا. والمعنى: غنيمة قريبة غير بعيدة ﴿وسفراً قاصداً﴾ عطف على ما قبله: أي سفراً متوسطاً بين القرب والبعد، وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد ﴿ولكن بعثت عليهم الشقة﴾ قال أبو عبيدة وغيره: إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة، يقال منه شقة شاقة. قال الجوهري: الشقة بالضم من الثياب، والشقة أيضاً: السفر البعيد، وربما قالوه بالكسر، والمراد بهذا غزوة تبوك، فإنها كانت سفرة بعيدة شاقة. وقرأ عيسى بن عمر ﴿بعثت عليهم الشقة﴾ بكسر العين والشين ﴿وسيلخفون بالله﴾ أي: المتخلفون عن غزوة تبوك حال كونكم قائلين ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي: لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بد منه ﴿لخرجنا معكم﴾ هذه الجملة سادة مسددة جواب القسم والشرط. قوله: ﴿يهلكون أنفسهم﴾ هو بدل من قوله: ﴿سيلخفون﴾ لأن من حلف كاذباً فقد أهلك نفسه أو يكون حالاً: أي مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع الهلاك ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ في حلفهم الذي سيلخفون به لكم.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا﴾ الآية، قال هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح، وحين أمرهم بالنفير في الصيف وحين خرفت النخل وطابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشق عليهم المخرج، فأنزل الله: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾

تعنيكم والاستبدال بكم. قوله: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ أي: إن تركتم نصره فإله متكفل به، فقد نصره في مواطن القلة، وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر، أو فسینصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه ﴿ثاني اثنين﴾ أي: أحد اثنين، وهما: رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقرأ بسكون الياء، قال ابن جني: حكاها أبو عمرو بن العلاء، وجهها أن تسكن الياء تشبيهاً لها بالالف. قال ابن عطية: فهي كقراءة الحسن ﴿ما بقي من الربا﴾ [البقرة: 278]، وكقول جرير:

هو الخليفة فارضوا ما رضيه لكم ماضي العزيمة ما في حكمه جنف قوله: ﴿إذ هما في الغار﴾ بدل من ﴿إذ لخرجه﴾ بدل بعض، والغار: ثقب في الجبل المسمى ثوراً، وهو: المشهور بغار ثور، وهو: جبل قريب من مكة، وقصة خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر ودخولهما الغار مشهورة منكرة في كتب السير والحديث. قوله: ﴿إذ يقول لصاحبه﴾ بدل ثان: أي وقت قوله لأبي بكر: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ أي: دع الحزن، فإن الله بنصره وعونه وتأييده معنا، ومن كان الله معه فلن يغلب، ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن. قوله: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ السكينة: تسكين جاشه وتأمينه حتى ذهب روعه، وحصل له الأمن، على أن الضمير في ﴿عليه﴾ لأبي بكر؛ وقيل: هو للنبي ﷺ، ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له، ويؤيد كون الضمير في ﴿عليه﴾ للنبي ﷺ الضمير في ﴿وليدته﴾ لأن الله المؤيد بهذه الجنود التي هي الملائكة، كما كان في يوم بدر؛ وقيل: إنه لا محذور في رجوع الضمير من ﴿عليه﴾ إلى أبي بكر، ومن ﴿وليدته﴾ إلى النبي ﷺ، فإن ذلك كثير في القرآن، وفي كلام العرب ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي: كلمة الشرك، وهي دعوتهم إليه. ونداؤهم للأصنام ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ قرأ الأعمش، ويعقوب بنصب كلمة حملاً على جعل، وقرأ الباقر برفعها على الاستئناف. وقد ضعف قراءة النصب للفراء، وأبو حاتم، وفي ضمير الفصل، أعني ﴿هي﴾ تأكيد لفضل كلمته في العلو، وأنها المختصة به دون غيرها، وكلمة الله هي كلمة التوحيد، والدعوة إلى الإسلام ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمة وصواب، ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول ﷺ وضرب له من الأمثال ما ذكره عقبه بالأمر الجزم فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي: حال كونكم خفافاً وثقالاً، قيل المراد: منفردين أو مجتمعين، وقيل: نشاطاً وغير نشاط، وقيل: فقراء وأغنياء، وقيل: شبلاً وشيوخاً، وقيل: رجالاً وفرساناً، وقيل: من لا عيال له ومن له عيال، وقيل: من يسبق إلى الحرب كالطلائع، ومن يتأخر كالجيش، وقيل: غير ذلك. ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني، لأن معنى الآية:

انزل من براءة: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ ثم نزل أولها وأخرها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن أبي مالك، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿خفافاً وثقالاً﴾ قال: نشاطاً وغير نشاط. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحكم في الآية قال: مشاغيل وغير مشاغيل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: في العسر واليسر. وأخرج ابن المنذر، عن زيد بن أسلم، قال: فتيناً وكهولاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن عكرمة، قال: شباباً وشيوخاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: قالوا إن فينا الثقيل، وذا الحاجة، والضيعة، والشغل فأنزل الله: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وأبى أن يعثرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً. وعلى ما كان منهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي قال: جاء رجل زعموا أنه المقداد، وكان عظيماً سمياً، فشكا إليه رساله أن يأتني له فابى، فنزلت: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها فنسخها الله، فقال: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ [التوبة: 91] الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، قال: إن رسول الله ﷺ قيل له: ألا تغزو بني الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم؟ فقال رجلان: قد علمت يا رسول الله أن النساء فتنة فلا تفتننا بهن فأنزل لنا، فأنزل لهما، فلما انطلقنا قال أحدهما: إن هو إلا شحمة لأول أكل، فسار رسول الله ﷺ ولم ينزل عليه شيء في ذلك، فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المناء ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾ ونزل عليه: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: 43] ونزل عليه: ﴿وإنما يستأنذك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ [التوبة: 45] ونزل عليه: ﴿إنهم رجس وما هم جهم جزء بما كانوا يكسبون﴾ [التوبة: 95] وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس: ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ قال: غنيمة قريبة، ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ قال: المسير. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، في قوله: ﴿والله يعلم إنهم لكانبون﴾ قال: لقد كانوا يستطيعون الخروج ولكن كان تبطة من عند أنفسهم، وزهدة في الجهاد.

وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ قال: إن رسول الله ﷺ استنفر حياً من أحياء العرب، فتناقلوا عنه، فأنزل الله هذه الآية، فامسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: لم نزلت: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ وقد كان تخلف عنه أناس في البوادي يفقهون قومهم، فقال المؤمنون: قد بقي ناس في البوادي، وقالوا هلك أصحاب البوادي، فنزلت: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ [التوبة: 122]. وأخرج أبو داود، وابن أبي حاتم، والنحاس، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إلا تنفروا﴾ الآية قال: نسختها: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ [التوبة: 122]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ قال: نكر ما كان من أول شأنه حين بعث، يقول: فانا فاعل ذلك به، وناصره كما نصرته إذ ذاك وهو ثاني اثنين. وأخرج أبو نعيم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن شهاب وعروة: أنهم زكبو في كل وجه يعني المشركين يطلبون النبي ﷺ، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم ويجعلون لهم الحمل العظيم، وأتوا على ثور الجبل الذي فيه الغار، والذي فيه النبي ﷺ حتى طلوعوا فوقه، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم، فاشفق أبو بكر، وأقبل عليه الهم والخوف، فعند ذلك يقول له رسول الله ﷺ: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ ودعا رسول الله ﷺ، فنزلت عليه السكينة من الله، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الآية. وأخرج ابن شاهين، وابن مريويه، وابن عساکر، عن حبشي بن جنادة، قال أبو بكر: يا رسول الله لو أن أحداً من المشركين رفع قدمه لأبصرنا، فقال «يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا». وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن الزهري، في قوله: ﴿إذ هما في الغار﴾ قال: هو الغار الذي في الجبل الذي يسمى ثوراً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساکر في تاريخه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ قال: على أبي بكر لأن النبي ﷺ لم تنزل معه السكينة. وأخرج ابن مريويه، عن أنس، قال: نزل النبي ﷺ وأبو بكر غار حراء، فقال أبو بكر للنبي ﷺ: لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرني وإياك، فقال ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما يا أبا بكر؟» إن الله أنزل سكينته عليك وأيدني بجند لم يروها. وأخرج الخطيب في تاريخه، عن حبيب بن أبي ثابت ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ قال: على أبي بكر، فاما النبي ﷺ، فقد كانت عليه السكينة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ قال: هي الشرك بالله: ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ قال: لا إله إلا الله. وأخرج الفريابي، وأبو الشيخ، عن أبي الضحى قال: أول ما

عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكذابين ﴿لَا يَسْتَنْذِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عِلْمُهُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَنْذِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَزَيَّنَتْ قُلُوبَهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَرْتَدُّونَ﴾ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ لِيُعَاقِبَهُمْ فَتَنْبَأَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْفَكِيدِينَ﴾ ﴿لَوْ حَرَجُوا وَفَكَّرَ مَا زَادَكُمْ إِلَّا خَلَاً وَلَأَصْمَحُوا بِخُلُوكُمْ يَتَوَكَّمُ الْفِتْنَةَ وَيَكْرَهُ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عِلْمُهُ بِالْغُيُوبِ﴾ ﴿لَقَدْ اتَّخَذُوا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَعَلُوا الْحَقَّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ

تحقق الريب في قلوبهم، وهو: الشك. قوله: ﴿فَهِم فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: في شكهم الذي حل بقلوبهم يتحيرون، والتردد: التحير. والمعنى: فهؤلاء الذين يستأنذونك ليسوا بمؤمنين، بل مرتابين حائرين لا يهتدون إلى طريق الصواب، ولا يعرفون الحق. قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعْتَوُا لَهُمْ عُدَّةً﴾ أي: لو كانوا صائقين فيما يدعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك، ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يحتاج إليه، لما تركوا إعداد العدة وتحصيلها قبل وقت الجهاد، كما يستعد لذلك المؤمنون، فمعنى هذا الكلام: أنهم لم يريدوا الخروج أصلاً ولا استعدوا للغزو. والعدة ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح. قوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي: ولكن كره الله خروجهم، فتثبطوا عن الخروج، فيكون المعنى: ما خرجوا ولكن تثبطوا، لأن كراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج، والانبعاث الخروج: أي حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم، لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس، أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين؛ وقيل المعنى: لو أرادوا الخروج لأَعْتَوُا له عدة، ولكن ما أرادوه لكراهة الله له قوله: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِيِّنَ﴾ قيل: القائل لهم هو الشيطان بما يليق به إيلهم من الوسوسة، وقيل: قاله بعضهم لبعض. وقيل: قاله رسول الله ﷺ غضباً عليهم، وقيل هو عبارة عن الخذلان: أي أوقع الله في قلوبهم القعود خذلاً لهم. ومعنى: ﴿مَعَ الْقَاعِيِّنَ﴾ أي: مع أولي الضرر من العميان، والمرضى، والنساء، والصبيان، وفيه من الذم لهم والإضرار عليهم والتقص بهم ما لا يخفى. قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَانُوكُمْ إِلَّا خِيَالاً﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين عن تخلف المنافقين، والخبال: الفساد والنميمة، وإيقاع الإخلاف والأراجيف. قيل هذا الاستثناء منقطع: أي ما زانوكم قوة، ولكن طلبوا الخبال، وقيل المعنى: لا يزنيونكم فيما تردّدون فيه من الرأي إلا خبالاً فيكون متصلاً؛ وقيل هو استثناء من أعمّ العام: أي ما زانوكم شيئاً إلا خبالاً. فيكون الاستثناء من قسم المتصل، لأن الخبال من جملة ما يصدق عليه الشيء. قوله: ﴿وَلَا أَوْضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ الإيضاع: سرعة السير، ومنه قوله ورقة بن نوفل:

يا ليتني فيها جذع أخبّ فيها واضع
يقال أوضع البعير: إذا أسرع السير، وقيل: الإيضاع سير الخب، والخلل الفرجة بين الشيتين، والجمع الخلال: أي الفرج التي تكون بين الصفوف. والمعنى: لسعوا بينكم بالإفساد بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذات البين. قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يقال بغيته كذا: طلبته له، وأبغيته كذا: أغنته على طلبه. والمعنى: يطلبون لكم الفتنة في ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والإفساد؛ وقيل الفتنة هنا الشرك. وجملة: ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ في محل نصب على

يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا تَقِيحُ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَمَاعُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَكُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾

الاستفهام في ﴿عفا الله عنك لم أنته لهم﴾ للإنكار من الله تعالى على رسوله ﷺ حيث وقع منه الإنذار لما استأنه في القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم في عذره الذي أبداه، ومن هو كاذب فيه. وفي ذكر العفو عنه ﷺ ما يدل على أن هذا الإنذار الصادر منه كان خلاف الأولى، وفي هذا عتاب لطيف من الله سبحانه؛ وقيل: إن هذا عتاب له ﷺ في إنته للمنافقين بالخروج معه، لا في إنته لهم بالقعود عن الخروج. والأول: أولى، وقد رخص له سبحانه في سورة النور بقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْزَلْنَا مِنْهُمْ﴾ [النور: 62] ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإنذار قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب، والإنذار هناك متوجه إلى الإنذار بعد الاستثبات، والله أعلم. وقيل: إن قوله: ﴿عفا الله عنك﴾ هي افتتاح كلام كما تقول: أصلحك الله، وأعزك ورحمك، كيف فعلت كذا، وكذا حكاه مكي والنحاس، والمهدوي، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك، وعلى التأويل الأول: لا يحسن. ولا يخفك أن التفسير الأول هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية، ولا وجه لإخراجه عن معناه العربي. وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد منه ﷺ، والمسألة مدونة في الأصول، وفيها أيضاً دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة، والاعتراض بظواهر الأمور، و«حتى» في «حتى يتبين لك الذين صدقوا» للخافية، كنه قيل: لم سارعت إلى الإنذار لهم؛ وهما تأنيث حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم في العذر الذي أبداه، وكذب من هو كاذب منهم في ذلك؛ ثم نكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأنذوا رسول الله ﷺ في القعود عن الجهاد، بل كان من عادتهم أنه ﷺ إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك. فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَجَاهِدُوا﴾ وهذا على أن معنى الآية أن لا يجاهدوا على حذف حرف النفي؛ وقيل المعنى: لا يستأنذك المؤمنون في التخلف كراهة الجهاد؛ وقيل: إن معنى الاستئذان في الشيء الكراهة له، وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى: لا يستأنذك المؤمنون في الجهاد، بل دأبهم أن يبادروا إليه من غير توقف ولا ارتتاب منهم، لوقوع الإنذار منك فضلاً عن أن يستأنذك في التخلف. قال الزجاج: أن يجاهدوا في موضع نصب بإضمار في: أي في أن يجاهدوا: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ وهم هؤلاء الذين لم يستأنذوا ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ، وَالتَّخَلُّفِ عَنْهُ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهم: المنافقون، وذكر الإيمان بالله أولاً، ثم باليوم الآخر ثانياً في الموضعين، لأنهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله. قوله: ﴿وَأَرْتَابَ قُلُوبِهِمْ﴾ عطف على قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وجاء بالماضي للدلالة على

الحال: أي والحال أن فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب، فينقله إليكم فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم، والفساد لإخوانكم **«والله عليم بالظالمين»** وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم، فلذلك اقتضت حكمته البالغة أن لا يخرجوا معكم، وكره انبعاثهم معكم، ولا ينافي حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله ﷺ ما تقدم من عتابه على الإنان لهم في التخلف؛ لأنه سارع إلى الإنان لهم، ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل، فعوتب ﷺ على تسرعهم إلى الإنان لهم قبل أن يتبين له الصفاق منهم في عذره من الكاذب، ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتي في هذه السورة **«فإن رجعت الله إلي طائفة منهم فاستأنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا»** [التوبة: 83] الآية، وقال في سورة الفتح: **«سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم»** إلى قوله **«قل لن تتبونا»** [الفتح: 15]. قوله: **«لقد ابتغوا للفتنة من قبل»** أي: لقد طلبوا الإفساد والخبال وتفريق كلمة المؤمنين وتشيت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلفوا عنك فيها. كما وقع من عبد الله بن أبي وغيره **«ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون»** [التوبة: 32]. قوله: **«وولقبوا لك الأمور»** أي: صرّفوها من أمر إلى أمر، وذبوا لك الحيل والمكائد، ومنه قول العرب **«حول قلب»** إذا كان دائرا حول المكائد والحيل، يدير الرأي فيها ويتبدره. وقرئ **«ولقبوا»** بالتخفيف **«حتى جاء الحق»** أي: إلى غاية هي مجيء الحق، وهو النصر لك والتأييد **«وظهر أمر الله»** بإعزاز دينه، وإعلاء شرعه، وقهر أعدائه؛ وقيل الحق للقرآن **«وهم كارهون»** أي: والحال أنهم كارهون لمجيء الحق وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم منهم **«ومنها»** أي: من المنافقين **«من يقول»** لرسول الله ﷺ **«لئن لم يأتنا بطيئونكم»** في التخلف عن الجهاد **«ولا تفتني»** أي: لا توقعني في الفتنة أي الإثم، إذا لم تأتني لي فتخلفت بغير إنك؛ وقيل معناه: لا توقعني في الهلكة بالخروج **«إلا في الفتنة سقطوا»** أي: في نفس الفتنة سقطوا، وهي فتنة التخلف عن الجهاد، والاعتذار الباطل. والمعنى: أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإنان لهم يقعون في الفتنة، وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة. وفي التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقرع من يهوى من أعلى إلى أسفل، وذلك أشد من مجرد الدخول في الفتنة، ثم توعدهم على ذلك فقال: **«وإن جهنم لمحيطة بالكافرين»** أي: مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصا، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال.

وقد أخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن جرير عن عمرو بن ميمون، قال: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إثنه للمنافقين، وأخذة من الأسارى، فأنزل الله: **«عفا الله عنك لم أئنت لهم»** وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عون بن عبد الله، قال: سمعت بمعاينة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة.

فقال: **«عفا الله عنك لم أئنت لهم»**. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **«عفا الله عنك»** الآية قال: ناس قالوا استأنونا رسول الله ﷺ فإن أئنت لكم، فاقبلوا؛ وإن لم يأنن لكم، فاقبلوا. وأخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس في قوله: **«عفا الله عنك لم أئنت لهم»** الثلاث الآيات، قال: نسخها: «فإذا استأنوك لبعض شأنهم فأنن لمن شئت منهم» [النور: 62]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، عنه، في قوله: **«لا يستأنوك الذين يؤمنون بالله»** الآية قال: هذا تعبير للمنافقين حين استأنوا في القعود عن الجهاد بغير عذر، وعذر الله المؤمنين فقال: **«فإذا استأنوك لبعض شأنهم فأنن لمن شئت منهم»** [النور: 62]. وأخرج أبو عبيدة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عنه، أيضا في قوله: **«لا يستأنوك»** الآيتين قال: نسختها الآية التي في سورة النور: **«إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله»** إلى **«إن الله غفور رحيم»** [النور: 62] فجعل الله النبي ﷺ بأعلى النظريين في ذلك، من غزا غزا في فضيلة، ومن قعد قعد في غير حرج إن شاء الله. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاک، في قوله: **«ولكن كره الله انبعاثهم»** قال: خروجهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **«فقطبهم»** قال: حبسهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: **«ولو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا»** قال: هؤلاء المنافقون في غزوة تبوك. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: **«ولا اوضعوا خلاكم»** قال: لاسرعوا بينكم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **«ولا اوضعوا خلاكم»** قال: لافرضوا **«يبيغونكم الفتنة»** يبطئونكم: عبد الله بن نبتل، وعبد الله بن أبي ابن سلول، ورفاعة بن ثابت، وأوس بن قيطي **«وفيك سماعون لهم»** محدثون لهم بأحاديثكم غير منافقين، وهم عيون للمنافقين. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن ابن عباس، قال: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك، قال لجذ بن قيس: يا جذ بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله إني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساء بني الأصفر افتتن، فأنن لي ولا تفتني، فأنزل الله: **«ومنها من يقول لئن لم يأتنا بطيئونكم»** وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن جابر بن عبد الله، نحوه. وأخرج ابن مريويه، عن عائشة، نحوه أيضا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **«ولا تفتني»** قال: لا تخرجني **«إلا في الفتنة سقطوا»** يعني في الخروج. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **«ولا تفتني»** قال: لا تؤثمني **«إلا في الفتنة»** إلا في الإثم، وقصة تبوك منكورة في كتب الحديث والسير فلا تطول بذكرها.

أولى حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عليهم بهما مفيداً لفائدة غير فائدة الآخر، والتأسيس خير من التاكيد. ومعنى: ﴿هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخصلتين الحسنيتين: إما النصر أو الشهادة، وكلاهما مما يحسن لدينا، والحسن تأنيت الاحسن، ومعنى الاستفهام: التقريع والتوبيخ ﴿ونحن نربص بكم﴾ إحدى المساءتين لكم: إما ﴿أن يصيبكم الله بعداً من عنده﴾ أي: قارعة نازلة من السماء، فبصحتكم بعداً، ﴿أو﴾ بعداً لكم ﴿بأيدينا﴾ أي: بإظهار الله لنا عليكم بالقتل والأسر والنهب والسبي. والفاء في فتريصوا فصيحة، والأمر للتهديد كما في قوله: ﴿لن أنك أنت العزيز الكريم﴾ [الذخ: 49] أي تربصوا بنا ما نكرنا من عاقبتنا فنحن معكم متربصون ما هو عاقبتكم، فستظنون عند ذلك ما يسرنا ويسوؤكم. وقرأ البرزي وابن فليح «هل تربصون» بإظهار اللام وتشديد التاء. وقرأ الكوفيون بإدغام اللام في التاء. وقرأ الباقون بإظهار اللام وتخفيف التاء. قوله: ﴿هل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء، لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم. والتقدير: إن أنفقتم طائعين أو مكريين فلن يتقبل منكم؛ وقيل: هو أمر في معنى الخبر: أي أنفقتم طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم، فهو كقوله: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ [التوبة: 80] وفيه الإشعار بتساري الأمرين في عدم القبول، وانتصاب طوعاً أو كرهاً على الحال، فهما مصدران في موقع المشتقين: أي أنفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله، أو مكريين بأمر منهما. وسمي الأمر منهما إكراهاً لأنهم منافقون لا ياتمرون بالأمر. فكانوا بأمرهم الذي لا ياتمرون كالمكريين على الإنفاق، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائهم أو مكريين منهم، وجملة ﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ تعليل لعدم قبول إنفاقهم، والفسق: التمرد والعق، وقد سبق بيانه لغة وشرعاً؛ ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي: كفرهم بالله ورسوله جعل المانع من القبول ثلاثة أمور: الأول: الكفر؛ الثاني: أنهم لا يصلون في حال من الأحوال إلا في جال الكسل والتثاقل، لأنهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، فصلاحتهم ليست إلا رياء للناس وتظهيراً بالإسلام الذي يبطنون خلفه؛ والثالث: أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون، ولا ينفقونها طوعاً لأنهم يعنون إنفاقها رضاء لها في مضية لعدم إيمانهم بما وعده الله ورسوله. قوله: ﴿فلا تعجبكم أموالهم ولا أولادهم﴾ الإعجاب بالشيء: أن يسر به سروراً راض به متعجب من حسنه، قيل: مع نوع من الافتخار واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه؛ والمعنى: لا تستحسن ما معهم من الأموال والأولاد: ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ بما يحصل معهم من الغم والحزن عند أن يغنمها المسلمون،

إن نصيبك حسنة نسوهم وإن نصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل وكنزلوا وهم كبروت ﴿٥١﴾ قل إن مصيبتنا ما كتب الله لنا هو مولتنا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿٥٢﴾ قل ربصوت بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نربص بكم أن يصيبكم الله بعداً من عنده أو بأيدينا فتريصوا إلنا معكم فتريصون ﴿٥٣﴾ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن نقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴿٥٤﴾ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ولا يأتون الصلوة ولا وهم كسالك ولا ينفقون إلا وهم كدرون ﴿٥٥﴾ فلا تعجبكم أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وترحق أنفسهم وهم كفرون ﴿٥٦﴾ وليلفتن بالله إليهم لنسبكم وما هم بنسبكم ولكنهم قوم يقرئون ﴿٥٧﴾ لو يجدون ملجأ أو مخرجاً أو مدخلاً لولوا إليهم وهم يمحرون ﴿٥٨﴾

قوله: ﴿إن تصيبك حسنة﴾ أي: حسنة كانت بأي سبب اتفق، كما يفيد وقوعها في حيز الشرط، وكذلك القول في المصيبة، وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة في القتال كما يفيد السياق بخواً أولاً، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة: الغنيمة والظفر. ومن جملة ما تصدق عليه المصيبة: الخيبة والانهازم، وهذا نكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم، والإخبار بعظيم عدوانهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، فإن المساءة بالحسنة، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على أنهم في العداوة قد بلغوا إلى الغاية، ومعنى ﴿تولوا﴾ رجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع، ومواطن التحدث حال كونهم فرحين بالمصيبة التي أصابت المؤمنين، ومعنى قولهم: ﴿قد أخذنا أمراً من قبل﴾ أي: لاحتطنا لأنفسنا، وأخذنا بالحزم، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نألهم ما نألهم من المصيبة، ثم لما قالوا هذا القول أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيب عليهم بقوله: ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي: في اللوح المحفوظ، أو في كتابه المنزل علينا، وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدره الله كائن، وأن كل ما ناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه، هانت عليه المصائب، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة ﴿هو مولانا﴾ أي: ناصرنا وجاعل العاقبة لنا، ومظهر دينه على جميع الأديان، والتوكل على الله تفويض الأمور إليه؛ والمعنى: أن من حق المؤمنين أن يجعلوا تركلهم مختصاً بالله سبحانه، لا يتوكلون على غيره. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿يصيبنا﴾ بتشديد الياء. وقرأ عيين قاضي الري «يصيبنا» بنون مشددة. وهو لحن لأن الخبر لا يؤكد. ورد بمثل قوله تعالى: ﴿هل يذهب كيد ما يغيظ﴾ [الحج: 15]. وقال الزجاج: معناه لا يصيبنا إلا ما اختصنا الله من النصر عليكم أو الشهادة. وعلى هذا القول يكون قوله: ﴿هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ تكريراً لغرض التأكيد، والأول:

ويأخذونها قسراً من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرّة أعينهم، وكذا في الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك، وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها، والتصدق بما يحق التصديق به، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لأنهم منافقون، فهم ينفقون كارهين، فيعذبون بما ينفقون. قوله: **﴿وَتَزْهَقْ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾** الزهوق: الخروج بصعوبة، والمعنى: أن الله يريد أن تزْهَقْ أنفُسَهُم وتخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل، وتصميمهم على الكفر وتماييهم في الضلالة، ثم نكر الله سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين، فقال: **﴿وَيُحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمُنْكَم﴾** أي: من جملتكم في دين الإسلام، والانقياد لرسول الله ﷺ، ولكتاب الله سبحانه: **﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾** في ذلك إلا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم **﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾** أي: يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشرّكين من القتل والسبي، فيظهرون لكم الإسلام تقية منهم لا عن حقيقة **﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾** يلتجئون إليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو غيره **﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾** جمع مغارة من غار يغير. قال الأخفش: ويجوز أن يكون من أغار يغير، والمغارات: الغيران والسرايب، وهي المواضع التي يستتر فيها، ومنه غار الماء وغارت العين؛ والمعنى: لو وجدوا أمكنة يغيّبون فيها أشخاصهم هرباً منكم **﴿أَوْ مَخْلَأً﴾** من اللخول: أي مكاناً يدخلون فيه من الأمكنة التي ليست مغارات. قال النحاس: الأصل فيه متدخل قلبت التاء دالاً، وقيل أصله متدخل. وقرأ أبي «متخلأ» وروى عنه أنه قرأ «مندخلأ» بالنون. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق، وابن محيصن «أو منخلأ» بضم الميم وإسكان الدال. قال الزجاج: ويقرأ «أو منخلأ» بضم الميم وإسكان الدال. وقرأ الباكون بتشديد الدال مع ضم الميم **﴿لَوْلَوْ إِلَهِه﴾** أي: لالتجئوا إليه وأنخلوا أنفسهم فيه **﴿وَوَيْلٌ لِلَّهِ مِنَ الْجَمْعِ يَجْمَحُونَ﴾** أي يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء، من جمع الفرس: إذا لم يرده اللجام، ومنه قول الشاعر:

سبوح جموح وإحضارها كعممعة السعف الموقد
والمعنى: لو وجدوا شيئاً من هذه الأشياء المذكورة لولوا إليه مسرعين هرباً من المسلمين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن جابر بن عبد الله، قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهلوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي وأصحابه، فسأهم ذلك فانزل الله **﴿إِنْ تَصْبِكُ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ﴾** الآية. وأخرج سنيد، وابن جرير، عن ابن عباس **﴿إِنْ تَصْبِكُ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ﴾** يقول: إن يصبك في سفرك هذه الغزوة تبوك حسنة تسؤم قال: الجد وأصحابه، يعني الجد بن قيس. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي: **﴿قُلْ لَنْ**

يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ قال: إلا ما قضى الله لنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: **﴿هَلْ تَرِيعُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾** قال: فتح أو شهادة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: **﴿لَوْ بَايَعِينَا﴾** قال: القتل بالسيف. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، قال: قال الجد بن قيس إنني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أقتتن ولكن أعينك بمالي، قال: ففيه نزلت **﴿قُلْ لَنْفُقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾** الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ﴾** قال: هذه من تقاييم الكلام، يقول: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، قال: إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: **﴿وَتَزْهَقْ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾** قال: تزْهَقْ أنفُسَهُم في الحياة الدنيا **﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾** قال: هذه آية فيها تقديم وتأخير. وأخرج أبو حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاك، في قوله: **﴿فَلَا تَعْجَبْ﴾** يقول: لا يفرنك **﴿وَتَزْهَقْ﴾** قال: تخرج أنفسهم، قال في الدنيا وهم كافرون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾** الآية قال: الملجأ الحز في الجبال، والمغارات: الغيران، والمندخل: السرب. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي **﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾** قال: يسرعون.

وَمَنْ مِّنْ يَّكْفُرٍ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا بِهَا رَضَوْا وَإِنْ لَّمْ يَعْطَوْا بِهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا عَاتَيْنَهُمُ اللَّهُ رَسُولُهُمْ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُوفِيْنَا إِنَّهُنَّ مِنْ قَضَائِهِ رَسُولُهُمْ إِنَّ إِلَى اللَّهِ يَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالسَّكِينِ وَالْمُعَلِّينَ عَلَيْهِمُ التَّوَلَّاءُ لِلَّذِينَ هُمْ فِي الرِّبَا وَالْفَنَاءِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾

قوله: **﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ﴾** هذا نكر نوع آخر قبائحهم، يقال لمزه يلمزه: إذا عابه. قال الجوهرى: اللزم العيب، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، وقد لمزه يلمزه ويلمزه، ورجل لمان، ولمزة: أي عياب. قال الزجاج: لمزت الرجل المزه والمزه، بكسر الميم وضمها: إذا عيبته، وكذا همزته. ومعنى الآية: ومن المنافقين من يعيبك في الصدقات: أي في تفريقها وقسمتها. وروى عن مجاهد أنه قال: معنى **﴿يَلْمِزُكَ﴾** يريزوك ويسالك، والقول عند أهل اللغة هو الأوّل، كما قال النحاس. وقرأ يلمزك بضم الميم، ويلمزك بكسرها مع التشديد. وقرأ الجمهور بكسرها مخففة **﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾** أي: من الصدقات بقدر ما يريدون **﴿رَضَوْا﴾** بما وقع من رسول الله ﷺ ولم يعيبيوه، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا، وليسوا من الذين في شيء **﴿وَأَنْ لَّمْ يَعْطَوْا مِنْهَا﴾** أي: من الصدقات ما يريدونه ويطلبونه **﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾** أي: ولن لم يعطوا فاجتوا السخط، وفائدة إذا الفجائية أن الشرط

[الكهف: 79] فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر. وربما سارت جملة من المال، ويؤيده تعوذ النبي ﷺ من الفقر مع قوله: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً» وإلى هذا ذهب الأصمعي وغيره من أهل اللغة. وحكاها الطحاوي عن الكوفيين، وهو أحد قولي الشافعي وأكثر أصحابه. وقال قوم: إن الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قولي الشافعي، وإليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك، وبه قال أبو يوسف. وقال قوم: الفقير المحتاج المتعفف، والمسكين السائل. قاله الأزهري، واختاره ابن شعبان، وهو مروي عن ابن عباس. وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتي الاستكثار منه بغائده يعتد بها. والأولى في بيان ماهية المسكين: ما ثبت عن رسول الله ﷺ عند البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمران، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفتن له فيتصدق عليه. ولا يسأل الناس شيئاً. قوله: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: السعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة فإنهم يستحقون منها قسطاً.

وقد اختلف في القدر الذي يأخذونه منها، فقليل الثمن. روي ذلك عن مجاهد والشافعي. وقيل: على قدر أعمالهم من الأجرة، روي ذلك عن أبي حنيفة وأصحابه. وقيل يعطون من بيت المال قدر أجرتهم. روي ذلك عن مالك، ولا وجه لهذا، فإن الله قد أخبر بأن لهم نصيباً من الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها؟ واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشمياً أم لا؟ فمنعه قوم، وأجازاه آخرون. قالوا: ويعطى من غير الصدقة. قوله: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ﴾ هم قوم كانوا في صدر الإسلام، فقليل: هم الكفار الذين كان النبي ﷺ يتألفهم ليسلموا. وكانوا لا يدخلون في الإسلام بالقهر والسيف، بل بالعطاء؛ وقيل: هم قوم أسلموا في الظاهر ولم يحسن إسلامهم، فكان رسول الله ﷺ يتألفهم بالعطاء؛ وقيل: هم من أسلم من اليهود والنصارى؛ وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع أعطاهم النبي ﷺ ليتألفوا أتباعهم على الإسلام. وقد أعطى النبي ﷺ جماعة ممن أسلم ظاهراً كابي سفيان بن حرب، والحرث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل تألفهم بذلك، وأعطى آخرين دونهم.

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا؟ فقال عمر، والحسن، والشعبي: قد انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره، وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي: وقد ادعى بعض الحنفية أن الصحابة أجمعت على ذلك. وقال جماعة من العلماء: سهمهم باق لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام، وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين. قال يونس: سألت الزهري عنهم فقال: لا أعلم نسخ ذلك، وعلى القول الأول

مفاجئ للجزء وهاجم عليه. وقد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزاء ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: ما فرضه الله لهم وما أعطاهم رسول الله ﷺ من الصدقات، وجوب لو محذوف: أي لكان خيراً لهم، فإن فيما أعطاهم الخير العاجل والأجل ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ أي: قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول الله ﷺ ما هو لهم: أي كفانا الله، سيعطينا من فضله، ويعطينا رسوله بعد هذا ما نرجوه ونؤمله ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ في أن يعطينا من فضله ما نرجوه. قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ لما لمز المنافقون رسول الله ﷺ في قسمة الصدقات بين الله لهم مصرفها نفعاً لطعنهم، وقطعاً لشغبهم، و﴿إِنَّمَا﴾ من صيغ القصر، وتعريف الصدقات للجنس: أي جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا يتجاوزها، بل هي لهم لا لغيرهم.

وقد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة؟ فذهب إلى الأول الشافعي وجماعة من أهل العلم، وذهب إلى الثاني: مالك وأبو حنيفة، وبه قال عمر، وحنيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران. قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم: احتج الأولون بما في الآية من القصر، وبحديث زياد بن الحرث الصدائي عند أبي داود والدارقطني قال: أتيت النبي ﷺ فبأيعته، فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك. وأجاب الآخرون بأن ما في الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف والمصرف، لا لوجوب استيعاب الأصناف، وبأن في إسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي وهو ضعيف. ومما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى: ﴿إِن تَبَدَّلَا الصَّدَقَاتُ فَنِعِمَّا هِيَ وَلَئِنْ تَخَفَرُوا وَتَوْتَرُوا الْفُقَرَاءَ فَنُورِ خَيْرَ لَكُمْ﴾ [البقرة: 271] والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المنبوبة. وصح عنه ﷺ أنه قال: «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردأها في فقرائكم». وقد ادعى مالك الإجماع على القبول الآخر. قال ابن عبد البر: يريد إجماع الصحابة، فإنه لا يعلم له مخالف منهم. قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ قدمهم لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم.

وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال: فقال يعقوب بن السكيت، والقتيبي، ويونس بن حبيب: إن الفقير أحسن حالاً من المسكين، قالوا: لأن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه وقيمه. والمسكين الذي لا شيء له، وذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة. وقال آخرون بالعكس، فجعلوا المسكين أحسن حالاً من الفقير، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾

ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ﴾** قال: يرزؤك يسألك. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة قال: يطعن عليك. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود قال: لما قسم النبي ﷺ غنائم حنين، سمعت رجلاً يقول: إن هذه لقسمة ما أريد بها الله، فأتيت النبي ﷺ، ونكرت ذلك له، فقال: «رحمة الله على موسى قد أودى بكثير من هذا فصيل، ونزل **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾**». وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، قال: نسخت هذه الآية كل صدقة في القرآن **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾** الآية. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن حذيفة، في قوله: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾** الآية قال: إن شئت جعلتها في صنف واحد من الأصناف الثمانية التي سمي الله أو صنفين أو ثلاثة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن أبي العالية، والحسن، وعطاء، وإبراهيم، وسعيد بن جبير، نحوه. وأخرج ابن المنذر، والنحاس، عن ابن عباس، قال: الفقراء فقراء المسلمين. والمساكين: الطوائف. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: الفقير الذي به زمانة، والمساكين: المحتاج الذي ليس به زمانة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عمر، في قوله: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾** قال: هم زمني أهل الكتاب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾** قال: السعاة أصحاب الصدقة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ﴾** قال: هم قوم كانوا يأتون رسول الله ﷺ قد أسلموا، وكان يرضخ لهم من الصدقات، فإذا أعطاهم من الصدقة فأسلموا منها خيراً قالوا: هذا دين صالح، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه. وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي سعيد، قال: بعث علي بن أبي طالب من اليمن إلى النبي ﷺ بذهبية فيها تربتها، فقسمها بين أربعة من المؤلفة: الأقرع بن حابس الحنظلي وعلقمة بن علاثة العامري، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الخيل الطائي؛ فقالت قریش والأنصار: يقسم بين صنابيد أهل نجد ويدعنا؟ فقال النبي ﷺ: إنما اتألفهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الزهري أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال: من أسلم من يهودي أو نصراني، قلت: وإن كان موسراً؟ قال: وإن كان موسراً. وأخرج هؤلاء عن أبي جعفر قال: ليس اليوم مؤلفة قلوبهم. وأخرج هؤلاء أيضاً عن الشعبي مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل، في قوله: **﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾** قال: هم المكاتبون. وأخرج ابن المنذر، عن النخعي، نحوه. وأخرج أيضاً عن عمر بن عبد الله قال: سهم الرقاب نصفان: نصف لكل مكاتب ممن يدعي الإسلام، والنصف الآخر يشتري به رقاب ممن صلى وصام، وقدم إسلامه من نكر وأنشئ، يعتقدون الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو عبيد، وابن المنذر، عن ابن عباس، أنه كان لا يرى بأساً

يرجع سهمهم لسائر الأصناف. قوله: **﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾** أي في فك الرقاب بأن يشتري رقاباً ثم يعتقها. روي ذلك عن ابن عباس، وابن عمر، وبه قال مالك، وأحمد بن حنبل، وإسحاق وأبو عبيد. وقال الحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبير، والنخعي، والزهري، وابن زيد: إنهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة، وهو قول الشافعي وأصحاب الرأي، ورواية عن مالك، والأولى حمل ما في الآية على القولين جميعاً لصق الرقاب على شراء العبد وإعتاقه، وعلى إعانة المكاتب على مال الكتابة. قوله: **﴿وَالْفَارِغِينَ﴾** هم الذين ركبتهم الديون ولا وفاء عندهم بها، ولا خلاف في ذلك إلا من لزمه دين في سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب. وقد أعان النبي ﷺ من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد إلى إعانته منها. قوله: **﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** هم الغزاة والمرابطون، يعطون من الصدقة ما ينفقون في غزوهم ومرابطتهم وإن كانوا أغنياء، وهذا قول أكثر العلماء. وقال ابن عمر: هم الحجاج والعمار، وروي عن أحمد وإسحاق أنهما جعلاً الحج من سبيل الله. وقال أبو حذيفة وصاحبه: لا يعطى الغازي إلا إذا كان فقيراً منقطعاً به. قوله: **﴿وَبَيْنَ السَّبِيلِ﴾** هو: المسافر، والسبيل الطريق، ونسب إليها المسافر لملازمته إياها، والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره، فإنه يعطى منها وإن كان غنياً في بلده، وإن وجد من يسلفه. وقال مالك: إذا وجد من يسلفه فلا يعطى. قوله: **﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾** صمد مؤكد، لأن قوله: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾** معناه: فرض الله الصدقات لهم. والمعنى: أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾** بأحوال عباده **﴿حَكِيمٌ﴾** في أفعاله؛ وقيل إن «فريضة» منتصبة بفعل مقترن: أي فرض الله تلك فريضة. قال في الكشف: فإن قلت لم عدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة؟ قلت: للإيدان بأنها أرسخ في استحقاق التصق عليهم ممن سبق نكره؛ وقيل للنكته في العدول أن الأصناف الأربعة الأول يصرف المال إليهم حتى ينصرفوا به كما شاءوا، وفي الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم، بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتمدة في الصفات التي لأجلها استحقوا سهم الزكاة، كذا قيل.

وقد أخرج البخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري قال: «بينما رسول الله ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التيمي فقال: أعدل يا رسول الله، فقال: ويحك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي فأضرب عنقه فقال النبي ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يرمقون من الدين كما يرمق السهم من الرمية الحديث حتى قال: وفيهم نزلت: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾**. وأخرج

أن يعطى الرجل من زكاته في الحج، وأن يعطى منها رقبة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن الزهري، أنه سئل عن الغارمين قال: أصحاب الدين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي جعفر، في قوله: **﴿وَالْغَارِمِينَ﴾** قال: هو الذي يسأل في دم أو جائحه تصيبه **﴿وفي سبيل الله﴾** قال: هم المجاهدون **﴿ولبن السبيل﴾** قال: المنقطع به يعطى قدر ما يبلغه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ابن السبيل هو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: العامل عليها، أو الرجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه فاهدى منها لغني». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوى». وأخرج أحمد، عن رجل من بني هلال، قال: سمعت رسول الله ﷺ، فنكر مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي عن عبد الله بن عدي بن الجبار، قال: أخبرني رجلان أنهما أتيا رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وهو يقسم الصدقة فسالاهما، فرفع فينا البصر وخفضه فرأنا جليدين، فقال: إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب.

وَهُنَّ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ النَّبِيَّ وَيُؤْذِنُونَ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ بِالْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ يُؤْذِنُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١ يَلْفُوفٌ ١٢ وَاللَّهُ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحْسَنُ أَنْ يُرْضَوْا إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ١٣ أَلَمْ يَسْمَعُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَيُرْسِلْ فَلَا كَلِمَةَ خِلَافًا ذَٰلِكَ الْحَزَنُ الْأَعْلَى ١٤ يَحْذَرُ الْمُشْرِكُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِدُوا إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ مَا تُحَدِّثُونَ ١٥ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَنْزَلَ وَإِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلِ أَبِئَالِهِمْ وَعِيَالِهِمْ وَرُسُلِهِمْ كُنْتُمْ تُسْتَهْزَءُونَ ١٦ لَا تَسْزُدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ مَقَّ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ فَاصْدَبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُخَيَّرُونَ ١٧

قوله: **﴿ومنه﴾** هذا نوع آخر بما حكاه الله من فضائح المنافقين وقبائحهم، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ، على وجه الطعن والذم هو أنن. قال الجوهرى: يقال رجل أنن: إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوري فيه الواحد والجمع ومرادهم، أقماهم الله، أنهم إذا أدوا النبي وبسطوا فيه السنهم. وبلغه ذلك اعتذروا له، وقبل ذلك منهم، لأنه يسمع كل ما يقال له، فيصدق، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدق أنه إذن مبالغه، لأنهم سموه بالجارحة التي هي آلة السماع، حتى كان جملة أنن سامعة، ونظيره قولهم: للربينة عين، وإيذاؤهم له هو قولهم: **﴿هو أنن﴾** لأنهم نسبوه إلى أنه يصدق كل ما يقال له، ولا يفرق

بين الصحيح والباطل، اغتراراً منهم بحلمه عنهم، وصفحه عن جنائياتهم كرماً وحلماً وتغاضياً، ثم أجاب الله عن قولهم هذا، فقال: **﴿قل أنن خير لكم﴾** بالإضافة على قراءة الجمهور. وقرأ الحسن بالتثنية، وكذا قرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه، كأنه قيل: نعم هو أنن، ولكن نعم الآن هو، لكونه أنن خير لكم، وليس بأنن في غير ذلك. كقولهم رجل صدق، يريدون الجودة والصلاح. والمعنى أنه يسمع الخير ولا يسمع الشر. وقرأ «أنن» بسكون الذال وضمها، ثم فسر كونه أنن خير بقوله: **﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾** أي: يصدق بالله ويصدق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الإيمان. فتكون اللام في **﴿للمؤمنين﴾** للتقوية، كما قال الكوفيون، أو متعلقة بمصدر محذوف، كما قال العبري. وقرأ الجمهور **﴿ورحمه﴾** بالرفع عطف على أنن. وقرأ حمزة بالخفض عطفاً على خير. والمعنى على القراءة الأولى: هو أنه أنن خير، وأنه هو رحمة للمؤمنين، وعلى القراءة الثانية: أنه أنن خير وأنن رحمة. قال النحاس: وهذا عند أهل العربية بعيد، يعني: قراءة الجر لأنه قد تباعد بين الاسمين، وهذا يقبح في المخفوض. والمعنى: أن النبي ﷺ أنن خير للمنافقين **﴿ورحمه﴾** لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولا فضحهم، فكانه قال: هو أنن كما قلتكم لكنه أنن خير لكم لا أنن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسره بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفظنته. ومعنى **﴿الذين آمنوا منكم﴾** أي: الذين أظهروا الإيمان وإن لم يكونوا مؤمنين حقيقة **﴿والذين يؤذون رسول الله﴾** بما تقدم من قولهم: هو أنن، ونحو ذلك مما يصدق عليه أنه أنية لرسول الله ﷺ **﴿لهم عذاب أليم﴾** أي: شديد الألم. وقرأ ابن أبي عتبة «ورحمه للمؤمنين» بالنصب على أنها علة لمعلل محذوف أي ورحمه لكم يأنن لكم. ثم نكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الإيمان الكاذبة، فقال: **﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾** والخطاب للمؤمنين. وذلك أن المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين، وعلى النبي ﷺ، فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله وإلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهذه الإيمان الكاذبة: أن يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين، فنعى الله ذلك عليهم. وقال: **﴿ووالله ورسوله أحق أن يرضوه﴾** أي: هما أحق بذلك من إرضاء المؤمنين بالإيمان الكاذبة، فإنهم لو اتقوا الله وآمنوا به وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم، وإفراد الضمير في يرضوه إما للتعظيم للجناب الإلهي بإفراده بالذكر، أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله. فأرضاء الله إرضاء لرسوله؛ أو المراد: الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، كما قال سيبويه، ورجحه النحاس: أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد؛ أو للضمير راجع إلى المذكور. وهو يصدق عليهما. وقال الفراء: المعنى ورسوله أحق أن يرضوه. والله افتتاح كلام، كما تقول ما شاء الله وشئت،

والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم، ولم يعبا بإنكارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين في الإنكار، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزاء به، والباء لحرف النفي، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته، ثم قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ نهيًا لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطنة، فإن ذلك غير مقبول منهم. وقد نقل الواحدي عن أئمة اللغة أن معنى الاعتذار محو أثر الذنب وقطعه، من قولهم اعتذر المنزل: إذا درس، واعتذرت المياه: إذا انقطعت ﴿فَقَدْ كَفَرْتُمْ﴾ أي أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المنكور ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي بعد إظهاركم الإيمان، مع كونكم تبطنون الكفر ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ وهم من أخلص الإيمان، وترك النفاق، وتاب عنه. قال الزجاج الطائفة في اللغة الجماعة. قال ابن الأنباري: ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب ﴿نَعَبَ طَائِفَةٌ بـ﴾ سبب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مجرمين﴾ مصريين على النفاق، لم يتوبوا منه، قرئ⁽¹⁾ نعب بالنون وبالتاء الفوقية على البناء للمفعول وبالتحتية على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ، فيجلس إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال لهم: إنما محمد أذن، من حديثه بشيء صدقه، فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذن﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، قال: اجتمع ناس من المنافقين فيهم: خلاص بن سويد بن صامت، ومخشي بن حمير، ووديعة بن ثابت، فأرأوا أن يقعوا في النبي ﷺ، فنهى بعضهم بعضاً وقالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم، فقال بعضهم: إنما محمد أذن تحلف له فيصقلنا، فنزل: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ النَّبِيَّ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿هُوَ أذن﴾ يعني: أنه يسمع من كل أحد. قال الله تعالى: ﴿أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ يعني: يصق بالله ويصدق المؤمنين. وأخرج الطبراني، وابن عساکر، وابن مردويه، عن عمير بن سعد، قال: في أنزلت هذه الآية ﴿ويقولون هم أذن﴾ وذلك أن عمير بن سعد كان يسمع لأخبار أهل المدينة، فيأتي النبي ﷺ، فيسأله حتى كانوا يتأذنون بعمير بن سعد، وكروها مجالسته، وقال: ﴿هُوَ أذن﴾ فأنزلت فيه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: نكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، ولئن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الحمير، فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق ولأن شر من الحمير، فسعى بها الرجل إلى نبي الله ﷺ فأخبره، فأرسل

وهذه الجملة اعني: ﴿والله ورسوله لحق أن يرضوه﴾ في محل نصب على الحال، وجواب ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ محذوف: أي إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله. قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾. قرأ الحسن، وابن هرمز، ألم تعلموا بالفوقية. وقرأ الباقون بالتحتية: والمحادة وقوع هذا في حد. وذلك في حد كالمشاققة: يقال حاد فلان فلاناً: أي صار في حد غير حده ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي حقق أن له نار جهنم. وقال الخليل وسيبويه: إن «أن» الثانية مبدلة من الأولى، وزعم المبرد أن هذا القول مردود، وأن الصحيح ما قال الجرمي أن الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام. وقال الأخفش المعنى: فوجوب النار له، وأنكره المبرد وقال: هذا خطأ من أجل أن «أن» المفتوحة المشددة لا يبتدأ بها ويضمر الخبر. وقرئ بكسر الهمزة. قال سيبويه، وهي قراءة جيدة، وأنشد:

وإني إذا ملئت ركابي مناخها فإني على حظي من الأمر جامع وانتصاب خالداً على الحال. والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما نكر من العذاب. وهو مبتدأ وخبره ﴿الْخَزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: الخزي البالغ إلى الغاية التي لا يبلغ إليها غيره، وهو الذل والهوان. قوله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ قيل: هو خبر وليس بأمر. وقال الزجاج: معناه ليحذر. فالمعنى على القول الأول: أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم. وعلى الثاني: الأمر لهم بأن يحذروا ذلك، وأن «تنزل» في موضع نصب: أي من أن تنزل، ويجوز على قول سيبويه أن يكون في موضع خفض على تقدير من وإعمالها. ويجوز أن يكون النصب على المفعولية. وقد أجاز سيبويه حذرت زيدا، وأنشد:

حذر أموراً لا تضير وآمن مالم يس ينجب من الأقدار ومنع من النصب على المفعولية المبرد. ومعنى: ﴿عليهم﴾ أي: على المؤمنين في شأن المنافقين، على أن الضمير للمؤمنين، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين: أي في شأنهم ﴿تَنْبِيْهِمْ﴾ أي: المنافقين ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مما يسرونه فضلاً عما يظهره، وهم وإن كانوا عالمين بما في قلوبهم، فالمراد من إنباء السورة لهم إطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما في قلوبهم، ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قُلْ اسْتَهِزُوا إِنْ أَلَّهِ مَخْرَجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ هو أمر تهديد: أي افعلوا الاستهزاء، إن الله مخرج ما تحذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون، إما بإنزال سورة، أو بإخبار رسوله بذلك أو نحو ذلك. قوله: ﴿وَلَوْ لَأَنَّ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: لئن سألتهم عما قالوه من الطعن في الدين، وطلب المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك، ويطلعك الله عليه، ليقولنَّ إنما كنا نخوض ونلعب، ولم تكن في شيء من أمرك ولا أمر المؤمنين. ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قُلْ لِّإِلَهِهِ وَأَيَّاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ والاستفهام للتقريع

(1) صوابه قرنا بالنون على البناء للفاعل؛ وبالياء التحتية والتاء الفوقية على البناء للمفعول اهـ مصحح القرآن.

قَبْلَكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَنْتَمُوا بِحَلْفَتِهِمْ
فَاسْتَنْتَمَ بِحَلْفَتِهِمْ كَمَا اسْتَنْتَمَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِحَلْفَتِهِمْ وَخُذْنِمُ
كَالَّذِي خَاسَرُوا أَوْلَئِكَ حِطَّةً غُصِّلَتْ أَفْئِدَتُهُمْ فِي الذُّبَابِ وَالْآخِرَةُ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْخَائِرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَصَارُوا
وَكُفُورًا وَقَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكِينَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ
وَالْيَتَنَزَّيَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

قوله: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ ذكر
هنا جملة أحوال المنافقين، وأن نكورهم في ذلك كبرائهم،
وأنهم متناهون في النفاق والبعد عن الإيمان، وفيه إشارة
إلى نفي أن يكونوا من المؤمنين، ورد لقولهم ﴿ويحلفون
بالله إنهم لمنكم﴾ [التوبة: 56]، ثم فصل ذلك المجل ببيان
مضادة حالهم لحال المنافقين فقال: ﴿ييامرون بالمنكر﴾
وهو كل قبيح عقلاً أو شرعاً ﴿وينهون عن المعروف﴾
وهو كل حسن عقلاً أو شرعاً قال الزجاج: هذا متصل بقوله
﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم﴾ [التوبة: 56] أي
ليسوا من المؤمنين، ولكن بعضهم من بعض: أي متشابهون
في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ﴿ويقبضون
إبائهم﴾ أي: يشحون فيما ينبغي إخراجهم من المال في
الصنعة، والصلة والجهاد، فالحبض كناية عن الشح، كما أن
البسط كناية عن الكرم. والنسيان الترك: أي تركوا ما أمرهم
به، فتركهم من رحمته وفضله، لأن النسيان الحقيقي لا
يصح إطلاقه على الله سبحانه، وإنما أطلق عليه هنا من باب
المشكلة المعروفة في علم البيان، ثم حكم عليهم بالفسق:
أي الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه، وهذا التركيب يفيد
أنهم هم الكاملون في الفسق. ثم بين مآل حال أهل النفاق
والكفر بأنه ﴿نار جهنم﴾ و﴿خالين فيها﴾ حال مقدرة:
أي مقدرين الخلود؛ وفي هذه الآية دليل على أن وعد يقال
في الشر، كما يقال في الخير: ﴿هي حسبيهم﴾ أي: كافيتهم
لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها، ﴿و﴾ مع ذلك فقد
﴿لعنهم الله﴾ أي: طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ولهم
عذاب مقيم﴾ أي: نوع آخر من العذاب دائم لا ينفك عنهم.
قوله: ﴿كالذين من قبلكم﴾ شبه حال المنافقين بالكفار
الذين كانوا من قبلهم ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب، والكاف
محلهما رفع على خبرية مبتدأ محذوف: أي أنتم مثل الذين
من قبلكم، أو محلهما نصب: أي فعلتم مثل فعل الذين من
قبلكم من الأمم. وقال الزجاج: التقدير وعد الله الكفار نار
جهنم وعداً كما وعد الذين من قبلكم؛ وقيل المعنى: فعلتم
كأفعال الذين من قبلكم في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر، فحذف المضاف. ثم وصف حال أولئك الكفار الذين
من قبلهم، وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم
بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين
للنبي ﷺ ﴿قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا﴾ أي:
تمتعوا ﴿بخلاقهم﴾ أي: نصيبهم الذي قدره الله لهم من
ملاذ الدنيا، ﴿فاستمتعتم﴾ أنتم بخلاقكم﴾ أي: نصيبكم

إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذي قلت؟ فجعل
يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول:
اللهم صدق الصادق، وكذب الكاذب، فأنزل الله في ذلك:
﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ الآية. وأخرج ابن أبي
حاتم، عن السدي مثله، وسمى الرجل المسلم عامر بن قيس
من الأنصار. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك ﴿لهم يعلموا
أنه من يحادده الله ورسوله﴾ يقول: يعادي الله ورسوله.
وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو
الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿يحذر المنافقون﴾ الآية قال:
يقولون القول فيما بينهم، ثم يقولون عسى الله أن لا يفيش
علينا هذا. وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن شريح بن عبيد،
أن رجلاً قال لأبي الدرداء: يا معشر القراء ما بالكم أجبن منا
وأبخل إذا سئلتهم، وأعظم لقمًا إذا كلكتم؟ فأعرض عنه أبو
الدرداء ولم يرد عليه بشيء، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب،
فانطلق عمر إلى الرجل الذي قال ذلك، فقال بثوبه وخنقه
وقاده إلى النبي ﷺ، فقال الرجل: إنما كنا نخوض ونلعب،
فأرحى الله نبيه ﷺ: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا
نخوض ونلعب﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو
الشيخ، وابن مردويه، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رجل
في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء،
لا أرغب بطوناً ولا أکذب السنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال
رجل في المجلس: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله
ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله:
فأنا رأيت متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ، والحجارة تنكبه
وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، والنبي ﷺ
يقول: ﴿إيا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون﴾. وأخرجه
ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي في الضعفاء، وأبو
الشيخ، وابن مردويه، والخطيب، في رواية مالك عن ابن عمر،
فقال: رأيت عبد الله بن أبي وهو يشتد قدام النبي ﷺ
والأحجار تنكبه وهو يقول: يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب،
والنبي ﷺ يقول: ﴿إيا الله وآياته ورسوله كنتم
تستهزءون﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو
الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: بينما رسول الله ﷺ في
غزوة إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: أيرجو
هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيئات
هيئات، فاطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: أحبسوا
على هؤلاء الركب، فاتاهم فقال: قلتم كذا، قالوا: يا نبي الله
إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون. وقد
روي نحو هذا من طرق عن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن
أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إن نفع عن طائفة﴾
قال: الطائفة الرجل والنفر.

الْمُتَوَفُونَ وَالْمُتَوَفَاتُ بَعْضُهُمْ رِيٌّ بَعْضٍ بِأَمْرِ رَبِّكَ وَالْمُكْرَرُ وَيَهُتُونَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ لَسَوْأَ اللَّهُ قَسِيمَهُمْ إِنَّكَ الْمُنْتَوِينَ هُمْ
الْفَاسِقُونَ ﴿٥٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لِفِتْنِهِمْ وَأَلْقَاهُمْ عَذَابٌ مُؤِيمٌ ﴿٥٩﴾ كَالَّذِينَ مِنْ

والفاء في ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ للعطف على مقدر يدل عليه الكلام: أي فكذبوهم، فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك؛ لأنه قد بعث إليهم رسلاً فأنذروهم وحذروهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بسبب ما فعلوه من الكفر بالله، وعدم الانقياد لأنبيائه، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمراً.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَاْمُرُونَ بِالْمَنكْرِ﴾ قال: هو التكنيب، قال: وهو أنكر المنكر ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما أنزل الله، وهو أعظم المعروف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ لِيَدِيهِمْ﴾ قال: لا يبسطونها بنفقة في حق. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ قال: تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: صنيع الكفار، كالكفار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ إلى قوله: ﴿وَوَضَعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ هؤلاء بنو إسرائيل أشبهانهم، والذي نفسي بيده لتنبههم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿بِخُلَاقِهِمْ﴾ قال: بدینهم. وأخرج أيضاً عن أبي هريرة قال الخلاق: الدين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلَاقِهِمْ﴾ قال: بنصيبهم في الدنيا. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، في قوله: ﴿وَوَضَعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ قال: لعبتم كالذي لعبوا. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قال: قوم لوط ائتفكت بهم أرضهم، فجعل عاليها سافلها.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَشَرٌ أُولَآئِ هُمُ الْبَارُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ رُسُلُكُمْ الصَّلَاةَ وَزَوَّجُوا الزَّكَاةَ وَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَآئِكَ سَرَّحْنَاهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَسَنَكُنْ بِطَبْعِهِمْ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرُسُلُونَ رَبِّكَ أَكْثَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَرُؤُ الْمُنِظِيُّ ﴿٧٢﴾

قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: قلوبهم متحدة في التوائد، والتحابب، والتعاطف بسبب ما جمعهم من أمر الدين وضمهم من الإيمان بالله، ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال: ﴿يَاْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما هو معروف في الشرع غير منكر، ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: عما هو منكر في الدين غير معروف، وخصص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات؛ لكونهما الركنتين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان

الذي قدره الله لكم ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلَاقِهِمْ﴾ أي: انتفعت به كما انتفعوا به، والغرض من هذا التمثيل ثم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار، في الاستمتاع بما رزقهم الله. وقد قيل: ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلق في حق الأولين مرة، ثم في حق المنافقين ثانياً، ثم تكريره في حق الأولين ثالثاً؟ وأجيب بأنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا، وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ، فلما قرّر تعالى هذا عاد فشبّه حال المنافقين بحالهم، فيكون ذلك نهاية في المبالغة. قوله: ﴿وَوَضَعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ معطوف على ما قبله: أي كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوا؛ وقيل: أصله كالذين فحذفت النون، والأولى أن يقال إن الذي اسم موصول مثل من وما، يعبر به عن الواحد والجمع، يقال: خضت الماء: أخوضه خوضاً وخيضاً، والموضع مخاضة، وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركباناً، وجمعها المخاض والمخاوض؛ ويقال منه خاض القوم في الحديث، وتخاضوا فيه، أي تفاوضوا فيه. والمعنى: خضتم في أسباب الدنيا، واللهو واللعب؛ وقيل في أمر محمد ﷺ بالتكنيب: أي دخلتم في ذلك، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفيين بهذه الأوصاف من المشبهين، والمشبه بهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت، والمراد بالأعمال ما عملوه مما هو في صورة طاعة، لا هذه الأعمال المذكورة هنا فإنها من المعاصي؛ ومعنى ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أنها باطلة على كل حال: أما بطلانها في الدنيا فلا؛ ما يترتب على أعمالهم فيها لا يحصل لهم بل يصير ما يرجونه من الغنى فقراً، ومن العزّ ذلاً، ومن القوة ضعفاً؛ وأما في الآخرة فلا؛ لأنهم يصيرون إلى عذاب النار، ولا ينتفعون بشيء مما عملوه من الأعمال التي يظنونها طاعة وقربة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: المتمكنون في الخسران الكاملون فيه في الدنيا والآخرة ﴿إِلَٰم يَأْتِهِمْ﴾ أي: المنافقين ﴿نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: خبرهم الذي له شأن، وهو ما فعلوه وما فعل بهم، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال في المشبه بهم، ذكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم، لأن بلادهم وهي الشام قريبة من بلاد العرب، فالاستفهام للتقرير، وأولهم: قوم نوح، وقد أهلكوا بالإغراق، وثانيهم: قوم عاد، وقد أهلكوا بالريح العقيم، وثالثهم: قوم ثمود، وقد أخذوا بالصيحة، ورابعهم: قوم إبراهيم، وقد سلط الله عليهم البعوض، وخامسهم: أصحاب مدين، وهم قوم شعيب، وقد أخذتهم الرجة، وسادسهم: أصحاب الموفكات، وهي قرى قوم لوط، وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة؛ وسميت موفكات لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها، والائتفك الانقلاب ﴿قَتَبَهُمُ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: رسل هذه الطوائف الست؛ وقيل: رسل أصحاب الموفكات؛ لأن رُسولهم لوط وقد بعث إلى كل قرية من قراهم رسولا،

وصيفاً ووصيفة، فيعطى المؤمن من القوة في كل غداة ما يأتي على ذلك كله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قال: معدن الرجل الذي يكون فيه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه، قال: معنهم فيها أبداً. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني: إذا أخبروا أن الله عنهم راض، فهو أكبر عندهم من التحف والتسليم. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحلّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ اللَّهُ لِلَّذِينَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّسْلِمُونَ وَلَئِن لَّمْ يَظْهَرْ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَصَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَن يَفْعَلَهُمْ شَيْئاً إِنَّهُمْ كَانُوا مُّسْلِمِينَ وَلَئِن يَفْعَلْ لَهُمْ شَيْئاً لَّيَكُنَّ مِنْهُمْ آيَةً لِلْعَالَمِينَ

الأمر للنبي ﷺ بهذا الجهاد أمر لأمرته من بعده، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم، حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله، وقال الحسن: إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، واختاره قتادة. قيل في توجيهه: إن المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود. قال ابن العربي: إن هذه دعوى لا برهان عليها، وليس العاصي بمنافق، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق دائماً، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً، وأخبار المحذوبين تشهد بسيافتها أنهم لم يكونوا منافقين. قوله: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ الغلظ: تقيض الرافة، وهو شدة القلب وخشونة الجانب؛ قيل: وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح، ثم نكر من خصال المنافقين أنهم يحلفون بالإيمان الكاذبة، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾.

وقد اختلف أئمة التفسير في سبب نزول هذه الآية، فقيل نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت، ووديعه بن ثابت، وذلك أنه كثر نزول القرآن في غزوة تبوك في شأن المنافقين وذهبهم، فقالوا: لأن كان محمد صادقاً على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير، فقال له عامر بن قيس: لجل، والله إن محمداً لصانق مصلق، وإنك لشراً من الحمير، وأخبر عامر بذلك النبي ﷺ، وجاء الجلاس فحلف بالله أن عامراً لكاتب، وحلف عامر لقد قال، وقال: اللهم أنزل على نبيك شيئاً فنزلت، وقيل: إن الذي سمع ذلك عاصم بن عدي، وقيل حنيفة، وقيل بل سمعه ولد امرأته: أي امرأة الجلاس، واسمه عمير بن سعد، فهم الجلاس بقتله لثلاثين بخره. وقيل إن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي

والأموال، وقد تقدّم معنى هذا. ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ﴾ في صنع ما أمرهم بفعله أو نهاهم عن تركه، والإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف، والسين في ﴿سِيرَ حَمِيمِ اللَّهِ﴾ للمبالغة في إنجاز الوعد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله، ثم نكر تفصيل ما يدخل تحت الرحمة إجمالاً باعتبار الرحمة في الدار الآخرة، فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير؛ ومعنى جري الأنهار من تحت الجنات أنها تجري تحت أشجارها وغرفها، وقد تقدّم تحقيقه في البقرة ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: منازل يسكنون فيها من الدر والياقوت، و ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ يقال عدن بالمكان: إذا أقام به، ومنه المعدن؛ قيل هي أعلى الجنة، وقيل أوسطها، وقيل: قصور من ذهب لا يدخلها إلا نبي، أو صديق، أو شهيد. وصف الجنة بأوصاف: الأول: جري الأنهار من تحتها، والثاني: أنهم فيها خالدون، والثالث: طيب مسكنها، والرابع: أنها دار عدن: أي إقامة غير منقطعة، هذا على ما هو معنى عدن لغة؛ وقيل: هو علم، والتذكير في رضوان للتحقير: أي ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ حقير يستر ﴿مَنْ﴾ رضوان ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ من ذلك كله الذي أعطاهم الله إياه، وفيه دليل على أنه لا شيء من النعم، وإن جلت وعظمت، يماثل رضوان الله سبحانه، وأن أدنى رضوان منه لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية، وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية، اللهم ارض عنا، رضا لا يشوبه سخط، ولا يكثره نكد، يا من بيده الخير كله دقه وجهه، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدّم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ دون كل فوز مما يعده الناس فوزاً.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله، والنفاق في سبيل الله، وما كان من طاعة الله ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشر والكفر قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ قال: إخوانهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية لله، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأحاديث ما هو معروف. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الحسن قال: سألت عمران بن حصين، وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قال: على الخبر سقطت، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: قصر من أولوة في الجنة، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء، في كل بيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش امرأة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، في كل مائدة سبعون لوناً من كل طعام، في كل بيت سبعون

بِالله ما قال ولكن كذب عليّ عمير، فانزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوا﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أنس بن مالك قال: سمع زيد بن أرقم رجلاً من المنافقين يقول والنبي ﷺ يخطب: إن كان هذا صادقاً لنحن شرّ من الحمير؛ قال زيد: هو والله صادق، وأنت شرّ من الحمار، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فجحد القائل، فانزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظلّ شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، وانزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: نكر لنا أن رجلين اقتتلا، أحدهما من جبهة والآخر من غفار، وكانت جبهة حلفاء الأنصار، فظهر الغفاري على الجهني، فقال عبد الله بن أبيّ للأوس: انصروا أخاكم، والله، ما مثلتا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمن كلبك ياكلك» والله ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾ [المنافقون: 8] فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فانزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ﴾ الآية، وفي الباب أحاديث مختلفة في سبب نزول هذه الآية، وفيما ذكرناه كفاية. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قال: همّ رجل يقال له الأسود بقتل النبي ﷺ. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ، في قوله: ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قال: أرادوا أن يتوجّوا عبد الله بن أبيّ بتاج. وأخرج ابن ماجه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، قال: قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ فجعل بيته اثني عشر ألفاً، وذلك قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: بأخذهم الدية.

وَمَنْهُمْ مَّنْ عَلَيْهِمُ اللَّهُ لَبِثَ مَا نَحْنُ مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَهُ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا مَاتَ مِنْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَاعْتَبِرْهُمْ يَا قَوْمِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي بَلَغْتُمْ بِمَا أَنْفَلُوا مَا وَعَدُوا وَيَسَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الشَّدَاقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحْدُرُونَ إِلَّا جُهْدُهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ يَخِرُّونَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

اللام الأولى، وهي ﴿لَنْ نَنْتَهِزَ﴾ الله ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ لام القسم، واللام الثانية، وهي ﴿لَنُصَدِّقَنَّ﴾ لام الجواب للقسم

رأس المنافقين لما قال: ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمنك ليكلك»، و«لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزَّ منها الأذلَّ» [المنافقون: 8] فأخبر النبي ﷺ بذلك، فجاء عبد الله بن أبيّ، فحلف أنه لم يقله. وقيل إنه قول جميع المنافقين، وإن الآية نزلت فيهم، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول إلى جميعهم هي باعتبار موافقة من لم يقل، ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف. ثم ردَّ الله على المنافقين وكتبهم وبين أنهم حلفوا كذباً، فقال: ﴿ولقد قالوا كلمة للكفر﴾ وهي ما تقدّم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ أي: كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام، وإن كانوا كفاراً في الباطن. والمعنى: أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم. قوله: ﴿وهو ما لم ينالوا﴾ قيل: هو مهمم بقتل رسول الله ﷺ ليلة العقبة في غزوة تبوك. وقيل هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبيّ، وقيل: هو همّ الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة، فأخبر رسول الله ﷺ. قوله: ﴿وما نغموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ أي: وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء، وهو إغناء الله لهم من فضله، والاستثناء مفرغ من أعمِّ العام، وهو من باب قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
وبمن باب قول الشاعر:

ما انقموا من بني امية إلا انهم يحلمون إن غضبوا فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم. وقد كان هؤلاء المنافقون في ضيق من العيش، فلما قدم النبي ﷺ المدينة اتسعت معيشتهم، وكثرت أموالهم. قوله: **فإن يتوبوا بك خيراً لهم** أي: فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق يكن ذلك الذي فعلوه من التوبة خيراً لهم في الدين والدنيا، وقد تاب الجلاب بن سويد، وحسن إسلامه، وفي ذلك ليل على قبول التوبة من المنافق والكافر.

وقد اختلف العلماء في قبولها من الزنديق، فمنع من قبولها مالك واتباعه، لأنه لا يعلم صحة توبته إذ هو في كل حين يظهر التوبة والإسلام ﴿وَأَنْ يَقُولُوا﴾ أي: يعرضوا عن التوبة والإيمان ﴿يَعْنِيهِمْ﴾ الله عذاباً ليعلم في الدنيا بالقتل والأسر، ونهب الأموال ﴿وَهُوَ﴾ في الآخرة ﴿بِعَذَابِ النَّارِ﴾ ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يواليهم ﴿وَلَا نُنصِرُهُمْ﴾ ينصرهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن كعب بن مالك، قال: لما نزل القرآن فيه نكر المنافقين قال الجلاس والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير، فسمعها عمير بن سعد، فقال: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي وأحسنهم عندي أثراً، وأعزهم علي أن يدخل عليه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن نكرتها لتفضحك، ولئن سكنت عنها لتهلكني، وإلحادهما أشد علي من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال الجلاس، فحلف

والصدق مع كون ذلك جهد المقل، وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه، قوله: ﴿يَسْخَرُ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين يمثل ذلك، فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم، والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما في غيره، وقيل: هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ثابت مستمر شديد الألم.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في الأمثال، والطبراني، وابن منده، والبارودي، وأبو نعيم، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر، عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا، ويلك يا ثعلبة قليل تؤذي شكره خير من كثير لا تطيقه. قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا، قال: ويحك يا ثعلبة: أما تحب أن تكون مثلي، فلو شئت أن يسير ربي هذه الجبال معي ذهباً لسارت، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فوالذي بعثك بالحق إن أتاني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه قال ويحك يا ثعلبة قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه. فقال رسول الله ﷺ: اللهم أرزقه مالا، قال: فاتخذ غنماً فتمت كما تنمو الدود حتى ضاقت بها المدينة، فتنحى بها، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ، ولا يشهد بالليل، ثم نمت كما تنمو الدود فتنحى بها، فكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ﷺ، ثم نمت كما تنمو الدود فضاقت بها مكانه، فتنحى بها فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله ﷺ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار، وفقده رسول الله ﷺ فسأل عنه، فأخبروه أنه اشترى غنماً، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره، فقال رسول الله ﷺ: ويح ثعلبة بن حاطب ويح ثعلبة بن حاطب، ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات، وأنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: 103] الآية، فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجلاً من جبهة ورجلاً من بني سلمة يأخذان الصدقات، وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها وجوهها، وأمرهما أن يمرآ على ثعلبة بن حاطب، وبرجل من بني سليم، فخرجا فمرا بثعلبة فسألا الصدقة، فقال: أرياني كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلا جزية انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى قدما المدينة، فلما رأهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما: ويح ثعلبة بن حاطب، ودعا للمسلمي بالبركة، وأنزل الله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ﴾ الثلاث الآيات، قال: فسمع بعض أقارب ثعلبة، فأتى ثعلبة فقال: ويحك يا ثعلبة أنزل فيك كذا وكذا، قال: فقدم ثعلبة على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي، فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد منعني أن أقبل منك، فجعل يبكي ويحني التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك بنفسك أمرتك فلم تطعني، فلم يقبل منه رسول الله ﷺ حتى مضى؛ ثم أتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر:

والشرط، ومعنى: ﴿لَتَصْنَعُنَّ﴾ لنخرج الصدقة، وهي أعم من المفروضة وغيرها ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من جملة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدين التاركين لمحرّماته ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: لما أعطاهم ما طلبوا من الرزق بخلوا به: أي بما آتاهم من فضله، فلم يتصنّفوا بشيء منه كما حلفوا به ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله، ﴿وَوَلَّى الْحَالُ أُنْذِرُهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ في جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده. قوله: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ الفاعل هو الله سبحانه: أي فاعقبهم الله بسبب البخل الذي وقع منهم والإعراض، نفاقاً كائناً في قلوبهم، متمكناً منها، مستمراً فيها ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَ﴾ الله عز وجل، وقيل إن الضمير يرجع إلى البخل: أي فاعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه نفاقاً كائناً في قلوبهم إلى يوم يلقون بخلهم: أي جزاء بخلهم. ومعنى ﴿فَاعْقِبْهُمْ﴾ أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن في قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل، والباء في ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ للسببية: أي بسبب إخلافهم لما وعده من التصقّ والصلاح، وكذلك الباء في ﴿وَيَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي: وبسبب تكذيبهم بما جاء به رسول الله ﷺ، ثم أنكر عليهم فقال ﴿قَالُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي المنافقون، وقرئ بالفوقية خطاباً للمؤمنين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: جميع ما يسرونه من النفاق، وجميع ما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبي ﷺ، وعلى أصحابه، وعلى دين الإسلام ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء المغيبة كائناً ما كان، ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين. قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الموصول محله النصب، أو الرفع على الذم، أو الجرّ بدلاً من الضمير في سرّهم ونجواهم، ومعنى ﴿يَلْمِزُونَ﴾ يعيبون. وقد تقدّم تحقيقه، والمطّوعين: أي المتطّوعين، والتطوّع: التبرّع. والمعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوّعوا بشيء من أموالهم وأخرجوه للصدقة، فكانوا يقولون: ما أغنى الله عن هذا، ويقولون: ما فعلوا هذا إلا رياء، ولم يكن لله خالصاً، و ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ متعلق بيلمزون: أي يعيبونهم في شأنها. قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ﴾ معطوف على المطّوعين: أي يلمزون المتطّوعين، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم؛ وقيل معطوف على المؤمنين: أي يلمزون المتطّوعين من المؤمنين، ومن الذين لا يجدون إلا جهدهم، وقرئ ﴿جهدهم﴾ بفتح الجيم، والجهد بالضم الطاقة، وبالفتح المشقة، وقيل: هما لغتان ومعناهما واحد، وقد تقدّم بيان ذلك. والمعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصنّفون بما فضل عن كفايتهم. قوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ معطوف على يلمزون: أي يستهزئون بهم لحقارة ما يخرجونه في

وفي بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين، وإن أكثر النبي ﷺ من الاستغفار لهم، وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولاً، كما في سائر مفاهيم الأعداد، بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول. فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند إرادة التكثير، والمعنى: أنه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم استغفاراً بالغاً في الكثرة، غاية المبالغ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقيد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه، ويدل لذلك ما سيأتي عن النبي ﷺ أنه قال: لا يزيد على السبعين. ونكر بعضهم لتخصيص السبعين وجهاً فقال: إن السبعة عدد شريف، لأنها عند السموات والأرضين، والبحار، والأقاليم، والنجوم السيارة، والأعضاء، وأيام الأسبوع، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة، لأن الحسنة بعشر أمثالها. وقيل خصت السبعون بالذكر لأنه ﷺ كبر على عمه الحمزة سبعين تكبيرة، فكانه قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة. وانتصاب سبعين على المصدر كقولهم: ضربته عشرين ضربة. ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله: ﴿لأنك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي: ذلك الامتناع بسبب كفرهم بالله ورسوله ﴿والله لا يهدي للضالين﴾ أي: المتمردين الخارجين عن الطاعة المتجاوزين لحبودها، والمراد هنا: الهداية الموصلة إلى المطلوب، لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق. ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين، فقال: ﴿فروخ للمخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ المخلفون المتروكون، وهم الذين استأننوا رسول الله ﷺ من المنافقين، فإنهم لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم الله وثبطهم، أو الشيطان، أو كسلهم، أو المؤمنون، ومعنى ﴿بمقعدهم﴾ أي: بقعودهم يقال قعد قعوداً ومقعداً: أي جلس، وأقعد غير، ذكر معناه الجوهري فهو متعلق بفرح: أي فرح المخلفون بقعودهم، وخلاف رسول الله منتصب على أنه ظرف لمقعدهم. قال الأخفش ويونس: الخلاف بمعنى الخلف: أي بعد رسول الله ﷺ، وذلك أن جهة الإمام التي يقصدها الإنسان تخالفها جهة الخلف. وقال قطرب والزجاج: معنى خلاف رسول الله: مخالفة الرسول حين سار وأقاموا، فانتصابه على أنه مفعول له: أي قعدوا لأجل المخالفة، أو على الحال مثل وأرسلها العراك: أي مخالفتين له، ويؤيد ما قاله الأخفش ويونس قراءة أبي حنيفة خلف رسول الله. قوله: ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ سبب ذلك الشح بالأموال والأنفس، وعدم وجود باعث الإيمان، وداعي الإخلاص، ووجود الصارف عن ذلك، وهو ما هم فيه من النفاق، وفيه تعريض بالمؤمنين البائلين لأموالهم وأنفسهم في سبيل الله لوجود الداعي معهم، وانتفاء الصارف عنهم ﴿وقالوا لا تنفروا في الحزب﴾ أي: قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطاً لهم، وكسراً لنشاطهم، وتواصياً بينهم

إقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الأنصار، فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله ﷺ وأقبلها؟ فلم يقبلها أبو بكر؛ ثم ولي عمر بن الخطاب، فاتاه فقال: يا أبا حفص يا أمير المؤمنين إقبل مني صدقتي، قال: ويثقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبي ﷺ، فقال عمر: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر إقبلها أنا؟ فأبى أن يقبلها؛ ثم ولي عثمان فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا إقبلها منك؟ فلم يقبلها منه، فهلك في خلافة عثمان، وفيه نزلت: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ قال: وذلك في الصدقة، وهذا الحديث هو مروي من حديث معاذ بن رفاع، عن علي بن زيد، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الله بن يزيد بن معاوية، عن أبي أمامة الباهلي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ومنها من عاهد الله﴾ الآية، وذلك أن رجلاً كان يقال له ثعلبة من الأنصار أتى مجلساً فاشهدهم فقال: لئن أتاني الله من فضله أتيت كل ذي حق حقه، وتصنقت منه، وجعلت منه للقرابة؛ فابتلاه الله فاتاه من فضله، فأخلف ما وعده، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده، فقص الله شأنه في القرآن. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، أن رجلاً من الأنصار هو الذي قال هذا، فمات ابن عم له فورث منه مالاً فبخل به، ولم يف بما عاهد الله عليه، فأعقبه بذلك نفاقاً في قلبه إلى أن يلقاه. قال ذلك ﴿بما أخلفوا الله ما وعده وبما كانوا يكتبون﴾. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن ابن مسعود، قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصنق بشيء كثير، فقالوا: وراء؛ وجاء أبو عقيل بنصف صاع، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿الذين يلمزون المطوعين﴾ الآية، وفي الباب روايات كثيرة. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿الذين يلمزون المطوعين﴾ أي: يطعنون على المطوعين.

أَسْتَغْفِرُكُمْ أَوْ لَا سَتَغْفِرُكُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُكُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٥﴾ قَرِحَ الشَّجَرُونَ بِمَعْوِدِهِمْ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ قُلْ تَارَ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٥٦﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَسْكُوا كِبِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٧﴾ إِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَهُ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُنْفِرُوا مَعِيَ عَدْرًا إِنَّكُمْ رَجَبْتُمْ بِالْعُمُودِ أَوْلَ مَعْوِدًا مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾

أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء، وذلك لأنهم ليسوا باهل لاستغفاره ﷺ، ولا للمغفرة من الله سبحانه لهم، فهو كقوله تعالى: ﴿قل اتقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ [التوبة: 53]، ثم قال: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾

فأنزل الله: ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ [المنافقون: 6]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، عن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أبي

دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه، فلما وقف قلت: أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا؟ أعدد أيامه، ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا كثرت قال: يا عمر آخر عني، إني قد خيرت، قد قيل لي: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ فلو أعلم اني إن زدت على السبعين غفر له، لزدت عليها، ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره، حتى فرغ منه، فعجبت لي ولجراتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ [التوبة: 84] فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله عز وجل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فرح للمخلفون﴾ الآية قال: عن غزوة تبوك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجال: يا رسول الله الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا تنفروا في الحر، فقال الله: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفتقون﴾ فأمره بالخروج. وأخرج ابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ قال: هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً، يقول الله: فليضحكوا قليلاً في الدنيا، وليبكوا كثيراً في الآخرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فإن رجعتكم إلى طائفة منهم﴾ قال: نكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين، وفيهم قيل ما قيل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فأفاعدوا مع الخالفين﴾ قال: هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو.

وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَثَرُوا فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَتَابُهُمْ قَيْسُوثٌ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَحْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوَّلَدَهُمْ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْأَلْبَانِ وَتَزَهَّقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَكَايِرٍ ﴿٨٦﴾ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ أَمْسُوا بِاللَّهِ وَجْهَهُدَا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَكَأَلُوا دَرَاهِمَ تَكُنْ مَعَ الْفَاحِشِينَ ﴿٨٧﴾ وَشُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ قَهْرٌ لَا يُفْقَهُونَ ﴿٨٨﴾

قوله: ﴿مات﴾ صفة لأحد، و ﴿أبدًا﴾ ظرف لتأييد النفي. قال الزجاج: معنى قوله: ﴿ولا تقم على قبره﴾ أن رسول

بالمخالفة لأمر الله ورسوله، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفتقون﴾ والمعنى: أنكم أيها المنافقون كيف تفرون من هذا الحر اليسير، ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبداً أشد حراً مما قررتم منه، فإنكم إنما قررتم من حر يسير في زمن قصير، ووقعتم في حر كثير في زمن كبير، بل غير متناه أبد الأبدين ودهر الدهارين.

فكنت كالساعي إلى مثعب موائلاً من سبل الراعد وجواب لو في ﴿لو كانوا يفتقون﴾ مقدر أي: لو كانوا يفتقون أنها كذلك لما فعلوا ما فعلوا. قوله: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ هذان الأمران معناهما الخبر، والمعنى: فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً، وإنما جيء بهما على لفظ الأمر، للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره، وقليل كثيراً منصوبان على المصدرية أو الظرفية: أي ضحكاً قليلاً، وبكاءً كثيراً، أو زماناً قليلاً، وزماناً كثيراً ﴿وجزاء بما كانوا يكسبون﴾ أي: جزاء بسبب ما كانوا يكسبون من المعاصي، وانتصاب جزاء على المصدرية: أي يجزون جزاء ﴿فإن رجعتكم الله إلى طائفة منهم﴾ الرجوع متعد كالرد، والرجوع: لازم، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها، وإنما قال ﴿إلى طائفة﴾ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذار صحيحة، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له، ثم عفا عنهم رسول الله ﷺ، وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا، وسيأتي بيان ذلك، وقيل إنما قال: إلى طائفة، لأن منهم من تاب عن النفاق، وندم على التخلف ﴿فاستأنوك للخروج﴾ معك في غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿قل﴾ لهم: ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ أي: قل لهم ذلك بقوة لهم، ولما في استصحابهم من المفساد، كما تقدم في قوله: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادكم إلا خبالاً﴾ [التوبة: 47]، وقرأ يفتح الياء من معي في الموضعين، وقرأ بسكونها فيهما، وجملة: ﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة﴾ للتعليل: أي لن تخرجوا معي، ولن تقاتلوا، لأنكم رضيتم بالقعود والتخلف أول مرة، وهي غزوة تبوك، والفاء في ﴿فأفاعدوا مع الخالفين﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها، والخالفين جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين، والمراد بهم من تخلف عن الخروج، وقيل المعنى: فأفاعدوا مع الفاسدين، من قولهم: فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسداً فيهم، من قولك خلف اللبن: أي فسد بطول المكث في السقاء. نكر معناه الأصمعي، وقرأ: ﴿فأفاعدوا مع الخالفين﴾ وقال الفراء: معناه المخالفين.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عروة أن عبد الله بن أبي قال: لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله، وهو القائل: ﴿ليخرجن الأعر منهن الأذل﴾ [المنافقون: 8] فأنزل الله: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ فقال النبي ﷺ: لا زيدن على السبعين.

عباس، في قوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ قال: مع النساء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في الآية قال: رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: الخوالم النساء.

لَنِكَ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهَنَّمَ بِأَتَمَلِكُمْ وَأَتُسَيِّمُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَفْوَازُ الْمُطِيعِينَ ﴿٩٠﴾

المقصود من الاستدراك بقوله: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ﴾ إلى آخره: الإشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر، فإنه قد قام بفریضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما في قوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 89]. وقد تقدّم بيان الجهاد بالأموال والانفس، ثم نكر منافع الجهاد فقال: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ وهي: جمع خير، فيشمل منافع الدنيا والدين؛ وقيل المراد به: النساء الحسان كقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ [الرحمن: 70] ومفرده خيرة بالتشديد ثم خففت مثل هيئة وهيئة: وقد تقدّم معنى الفلاح، والمراد به هنا: الفائزون بالمطلوب، وتكرير اسم الإشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم، والجنات: البساتين. وقد تقدم بيان جري الأنهار من تحتها، وبيان الخلود والفوز، والإشارة بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إلى ما تقدّم من الخيرات والفلاح، وإعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة، ووصف الفوز بكونه عظيماً يدل على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز. وقد أخرج القرطبي في تفسيره، عن الحسن أنه قال الخيرات: هنّ النساء الحسان.

وَبَلَدٍ الْمَمْدُونِ مِنَ الْأَعْرَابِ يَرْزُقُوكُمْ وَمَقَدَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩١﴾

قرأ الأعرج والضحاك ﴿المعذرون﴾ بالتخفيف، من أعذر، ورواه أبو كريب عن أبي بكر عن عاصم، ورواه أصحاب القراءات عن ابن عباس. قال في الصحاح: وكان ابن عباس يقرأ ﴿وجاء للمعذرون﴾ مخففة من أئذ، ويقول: والله هكذا أنزلت. قال النحاس: إلا أن مدارها على الكلبي، وهي من أعذر: إذا بالغ في العذر، ومنه: من أئذ فقد أعذره أي: بالغ في العذر. وقرأ الجمهور المعذرون بالتشديد فيه وجهان، أحدهما: أن يكون أصله المعذرون فادغمت التاء في الذال، وهم: الذين لهم عذر، ومنه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر فالمعذرون على هذا: هم المحقون في اعتذارهم. وقد روي هذا عن الفراء، والزجاج، وابن الأنباري؛ وقيل: هو من عذر، وهو الذي يعتذر ولا عذر له، يقال عذر في الأمر: إذا قصر واعتذر بما ليس بعذر، نكره الجوهري وصاحب الكشاف: فالمعذرون على هذا: هم المبطون، لأنهم اعتذروا باعذار باطلة لا أصل لها. وروي عن الأخفش، والفراء، وأبي

الله ﷺ كان إذا دفن الميت وقف على قبره، ودعا له فمحنها هنا منه؛ وقيل معناه: لا تقم بمهمات إصلاح قبره، وجملة: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ تعليل للنهي. وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر، لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، والكتب، والنفاق، والخداع، والجبن، والخبث، مستقبحة في كل دين. ثم نهى رسوله عن أن تعجبه أموالهم وأولادهم. وهو تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه؛ وقيل: إن الآية المتقدمة في قوم، وهذه في آخرين؛ وقيل: هذه في اليهود، والأولى: في المنافقين؛ وقيل: غير ذلك. وقد تقدّم في الآية الأولى جميع ما يحتاج إليه في تفسير هذه الآية، ثم عاد الله سبحانه إلى توبيخ المنافقين، فقال: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةَ﴾ أي: من القرآن، ويجوز أن يراد بعض السورة، وأن يراد تمامها؛ وقيل: هي هذه السورة: أي سورة براءة، و«أن» في ﴿إِنْ آمَنُوا بِاللهِ﴾ مفسرة لما في الإنزال من معنى القول: أو مصدرية حذف منها الجاز: أي: بأن آمنوا، وإنما قُدم الأمر بالإيمان، لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان: ﴿إِسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطُّولِ مِنْهُمْ﴾ أي: ذوو الفضل والسعة، من طال عليه طولاً، كذا قال ابن عباس والحسن، وقال الأصم: الرؤساء والكبراء المنظور إليهم، وخصهم بالذكر لأن الذم لهم ألزم، إذ لا عذر لهم في القعود ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا﴾ أي اتركنا ﴿نَكُنْ مَعَ الْقَاعِظِينَ﴾ أي: المتخلفين عن الغزو من المعذرين، كالضعفاء والزماني، والخوالم: النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت، جمع خالفة، وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف، وهو من لا خير فيه: ﴿وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ هو كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7] وقد مرّ تفسيره ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً مما فيه نفعهم وضرهم، بل هم كالأنعام.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي سلول، أتى ابنه عبد الله رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ، فقام عمر فأخذ ثوبه فقال: يا رسول الله أتصلي عليه، وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقال: إن ربي خيرني وقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80] وسأزيد على السبعين، فقال: إنه منافق، فصلى عليه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية، فترك الصلاة عليهم. وأخرج ابن ماجه، والبخاري، وابن جرير، وابن مردويه، عن جابر، قال: مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلي عليه النبي ﷺ، وإن يكفنه في قميصه، فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك، فصلى عليه والبسه قميصه وقام على قبره، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أُولُوا الطُّولِ﴾ قال: أهل الغنى. وأخرج هؤلاء، عن ابن

سبيله، وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد. وترك المعاناة لأعدائهم بوجه من الوجوه؛ ونصيحة الرسول ﷺ: التصديق بنبوته وبما جاء به، وطاعته في كل ما يأمر به، أو ينهي عنه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، ومحبة وتعظيم سنته، وإحيائها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة. وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة ثلاثاً، قالوا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» وجملة: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ**﴾ مقررّة لمضمون ما سبق: أي ليس على المعنورين الناصحين من سبيل: أي طريق عقاب ومؤاخذة، ومن مزيدة للتأكيد، وعلى هذا فيكون لفظ ﴿**لِلْمُحْسِنِينَ**﴾ موضوعاً في موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقاً. أو يكون المراد: ما على جنس المحسنين من سبيل، وهؤلاء المذكورون سابقاً من جملتهم، فتكون الجملة تعليلية. وجملة: ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ تنبيلية. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿**لَا يَكُفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وَسْعَهَا**﴾ [البقرة: 286]، وقوله: ﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾ [النور: 61]، وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعنورين، لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذي عذرهم الله عنه، مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العذر عنه، ومنه حديث أنس عند أبي داود وأحمد، وأصله في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم بعدكم قوماً ما سرتهم من مسير ولا انفتقت من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه. قالوا: يارسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ فقال: حبسهم العذر». وأخرجه أحمد، ومسلم، من حديث جابر، ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعنورين من تضمنه قوله: ﴿**وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ والعطف على جملة ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ**﴾ أي: ولا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره من سبيل. ويجوز أن تكون عطفاً على الضعفاء: أي ولا على إذا ما أتوك إلى آخره حرج. والمعنى: أن من جملة المعنورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه في الغزو، فلم تجد ذلك الذي طلبوه منك. قيل: وجملة ﴿**لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ في محل نصب على الحال من الكاف في أتوك بإضمار قد: أي إذا ما أتوك قائلًا لا أجِدُ، وقيل: هي بدل من أتوك؛ وقيل: جملة معترضة بين الشرط والجزاء، والأوّل: أولى. وقوله: ﴿**تَوَلَّوْا**﴾ جواب إذا، وجملة: ﴿**وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ**﴾ في محل نصب على الحال: أي تولوا عنك لما قلت لهم لا أجِدُ ما أحملكم عليه، حال كونهم باكين، و﴿**حَزَنًا**﴾ منصوب على المصدرية، أو على العلية، أو الحالية، و﴿**أَنْ لَا يَجِدُوا**﴾ مفعول له، وناصبه ﴿**حَزَنًا**﴾ وقال الفراء: أن لا بمعنى ليس: أي حزناً أن ليس يجدوا؛ وقيل المعنى: حزناً على أن لا يجدوا؛ وقيل المعنى: حزناً أنهم لا يجدون ما ينفقون لا عند أنفسهم ولا عنك. ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال: ﴿**إِنَّمَا السَّبِيلُ**﴾ أي: طريق العقوبة

حاتم، وأبي عبيد، أنه يجوز كسر العين لالتقاء السالكين وضمهما للاتباع. والمعنى: أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاءوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين؛ لأجل أن يائز لهم رسول الله ﷺ بالتخلف عن الغزو، وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر، وهم منافقوا الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله، ولم يؤمنوا ولا صدقوا، ثم تورعدهم الله سبحانه، فقال: ﴿**سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ**﴾ أي: من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا، بل كذبوا بالله ورسوله ﴿**عَذَابٌ لِيَمٌ**﴾ أي: كثير الألم، فيصدق على عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة.

وقد أخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿**وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ**﴾ أي: أهل العذر منهم. وروى ابن أبي حاتم، عنه، نحو ذلك. وأخرج ابن الأنباري في كتاب الأضداد عنه أيضاً أنه كان يقول: «لعمرك الله المعذرين» ويقرأ بالتشديد كأن الأمر عنده أن المعذر بالتشديد: هو المظهر للعذر اعتلالاً من غير حقيقة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن إسحاق، في قوله: ﴿**وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ**﴾ قال: ذكر لي أنهم نفر من بني غفار، جاءوا فاعتذروا، منهم خفاف بن إيماء؛ وقيل: لهم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهلينا، ومواشينا.

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرَضِ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَحْمِلُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو جَبَرٍ ﴿١١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَمَوْا بِالْحَوَالِفِ وَطَعَنَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَتْلَوْنَ ﴿١٣﴾

لما ذكر سبحانه المعنورين، ذكر بعدهم أهل الأعذار الصحيحة المسقط للـغزو، وبدأ بالعذر في أصل الخلقة. فقال: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ**﴾ وهم: أرباب الزمانة، والهرم، والعقم، والعرج، ونحو ذلك، ثم ذكر العذر العارض، فقال: ﴿**وَلَا عَلَى الْمَرَضِ**﴾ والمراد بالمرض: كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعاً؛ وقيل: إنه يدخل في المرضي: الأعْمى والأعرج ونحوهما. ثم ذكر العذر الراجع إلى المال، لا إلى البدن فقال: ﴿**وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ**﴾ أي: ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للجهاد، فنفي سبحانه عن هؤلاء الحرج، وأبان أن الجهاد مع هذه الأعذار ساقط عنهم غير واجب عليهم، مقيداً بقوله: ﴿**إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ وأصل النصح: إخلاص العمل من الغش، ومنه التوبة النصوح. قال نفطويه نصح الشيء: إذا خلص، ونصح له القول: أي أخلصه له. والنصح: ش: الإيمان به، والعمل بشريعته. وترك ما يخالفها كائناً ما كان، وينخل تحت دخولاً أولياً نصح عباده. ومحبة المجاهدين في

عمرو المزني. وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة. واختلفوا في البعض، ولا يأتي التطويل في ذلك بكثير فائدة. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة، وغيرهم أن رجلاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم: البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، ثم نكروا أسماءهم، وفيه، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة. قال: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه﴾. وأخرج أبو الشيخ، وابن مريويه، عن الحسن، قال: كان معقل بن يسار من البكائين الذين قال الله: ﴿ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس بن مالك، في قوله: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه﴾ قال: الماء والزاد. وأخرج ابن المنذر، عن علي بن صالح، قال: حدثني مشيخة من جهينة، قالوا: أدركنا الذين سألوا رسول الله ﷺ الحملان، فقلوا: ما سألناه إلا الحملان على النعال. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن إبراهيم بن أدهم، عن حنث في قوله: ﴿ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم﴾ قال: ما سألوه الدواب ما سألوه إلا النعال. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن بن صالح، في الآية قال: استحملوه النعال. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿إنما للسبيل على الذين يستأنونك﴾ قال: هي وما بعدها إلى قوله ﴿إن الله لا يرضى عن قوم الفاسقين﴾ [التوبة: 96] في المنافقين.

يَسْتَوُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَمْدِدُوا لِمَن يُؤْمِنُ لَكُمْ قَدْ
تَبَيَّنَا أَنَّهُ مِنَ الْغَافِلِينَ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِهِ
الْعَلِيِّ وَالْفُهْدِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ سَيَلْبُثُونَ ۖ وَاللَّهُ
لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّبَنَّاهُمْ فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ
وَمَا نَمَسُّهُ جَهَنَّمَ بَرَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾ يَلْبُثُونَ لَكُمْ
لِيُغَرِّبَنَّاهُمْ فَانْقَرَضُوا عَنْهُمْ قُلْ اللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الظَّالِمِينَ
الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَبِقَاعًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَمْلِكُوا حَدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢١﴾ وَبِالْأَعْرَابِ مَا يُنْفِقُ غَرَّامًا
وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرُ عَلَيْهِمْ ذِكْرُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَبِالْأَعْرَابِ
مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ قُرْبَانًا غَدَّ
أَنَّهُ وَصَلَاتُ الرُّسُلِ إِلَّا إِنَّمَا تَرِيهُ لَهُمْ سَيَلْبُثُهُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ إخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل، بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا من الغزو، وهذا كلام مستأنف، وإنما قال: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى المعتذرين بالباطل، ولم يقل إلى المدينة، لأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها، ثم أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بما يجب به عليهم، فقال: ﴿قُلْ لَا

والمواخذة ﴿على الذين يستأنونك﴾ في التخلف عن الغزو، ﴿و﴾ الحال أنهم أغنياء أي: يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به، وجملة: ﴿رضوا بان يكونوا مع الخوالم﴾ مستأنفة كأنه قيل: ما بالهم استأنوا وهم أغنياء. وقد تقم تفسير الخوالم قريباً. وجملة: ﴿وطع الله على قلوبهم﴾ معطوفة على ﴿رضوا﴾ أي: سبب الاستئذان مع الغنى أمران: أحدهما: الرضا بالصفقة الخاسرة، وهي أن يكونوا مع الخوالم، والثاني: الطبع من الله على قلوبهم ﴿فهم﴾ بسبب هذا الطبع ﴿لا يعلمون﴾ ما فيه الربح لهم، حتى يختاروه على ما فيه الخسر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والدارقطني في الإفراد، وابن مريويه، عن زيد بن ثابت، قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فنزلت براءة، فكنت أكتب ما أنزل عليه، فأنى لواقع القلم عن أننى إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿ليس على الضعفاء﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: أنزلت هذه الآية في عابد بن عمر المزني. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: نزل من عند قوله: ﴿عفا الله عنك﴾ [التوبة: 43] إلى قوله: ﴿وما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ في المنافقين. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: ﴿وما على المحسنين من سبيل﴾ قال: ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا لله ورسوله ولم يطبقوا الجهاد، فعذرهم الله وجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين، ألم تسمع أن الله يقول: ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر﴾ [النساء: 95] فجعل الله للذين عثر من الضعفاء، وأولي الضرر، والذين لا يجدون ما ينفقون من الأجر مثل ما جعل للمجاهدين. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما على المحسنين من سبيل﴾ قال: ﴿والله﴾ لاهل الإساءة ﴿غفور رحيم﴾ وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولا على الذين إذا ما اتوك﴾ الآية، قال: أمر رسول الله ﷺ أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال: والله ما أجد ما أحملكم عليه، فتولوا ولهم بكاء وعزيز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً، فأنزل الله عزهم ﴿ولا على الذين إذا ما اتوك﴾ الآية. وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن عبد الله بن مغفل، قال: إني لا أجد الرهط الذين نكر الله ﴿ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب، قال: هم سبعة نفر من بني: عمر بن عوف سالم بن عمير، ومن بني: واقف حرمي بن عمرو، ومن بني: مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى، ومن بني: المعلى سلمان بن صخر، ومن بني: حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عيلة، ومن بني: سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن

الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ وإذا كان هذا هو ما يريده الله سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة، فينبغي لكم أيها المؤمنون أن لا تفعلوا خلاف ذلك، بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم على أن رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتد به، ولا مفيد لهم، والمقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم، نهى المؤمنين عن ذلك؛ لأن الرضا على من لا يرضى الله عليه مما لا يفعله مؤمن. قوله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ لما ذكر الله سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة، ذكر حال من كان خارجاً عنها من الأعراب، وبين أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم، لأنهم أقسى قلباً وأغلظ طبعاً وأجفى قولاً، وأبعد عن سماع كتب الله، وما جاءت به رسله. والأعراب: هم من سكن البوادي بخلاف العرب، فإنه عام لهذا النوع من بني آدم، سواء سكنوا البوادي أو القرى، هكذا قال أهل اللغة، ولهذا قال سيبويه: إن الأعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب. قال النيسابوري: قال أهل اللغة: رجل عربي إذا كان نسبته إلى العرب ثابتاً، وجمعه عرب، كالمجوسي والمجوس، واليهودي واليهود، فالأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح، وإذا قيل للعربي يا أعرابي غضب، وذلك أن من استوطن القرى العربية فهو عربي، ومن نزل البادية فهو أعرابي، ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب، وإنما هم عرب. قال: قيل إنما سمي العرب عرباً لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤوا بالعرب، وهي من تهامة فنسبوا إلى بلدهم، وكل من يسكن جزيرة العرب، وينطق بلسانهم فهو منهم؛ وقيل: لأن السنهم معربة، عما في ضمائرهم، ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة. انتهى. ﴿وَلَجَدَرُ﴾ معطوف على أشد، ومعناه أخلق، يقال: فلان جدير بكذا: أي خليق به، وأنت جدير أن تفعل كذا، والجمع: جدر، أو جديرون، وأصله من جدر الحائط، وهو رفعه بالبناء. والمعنى: أنهم أحق وأخلق به أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من الشرائع والأحكام، لبعدهم عن مواطن الأنبياء، وديار التنزيل. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال مخلوقاته على العموم، وهؤلاء منهم: ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يجازيهم به من خير وشر. قوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ هذا تنويع لجنس إلى نوعين، الأول: هؤلاء، والثاني: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ والمغرم الغرامة والخسران، وهو ثاني مفعولي يتخذ، لأنه بمعنى الجعل، والمعنى: اعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران، وأصل الغرم والغرامة، ما ينفقه الرجل وليس يلزم له في اعتقاده، ولكنه ينفقه للرياء والتقية؛ وقيل: أصل الغرم اللزوم، كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبثق له النفس. ﴿وَاللَّوْثُ﴾ جمع دائرة، وهي الحالة المتقلبة عن النعمة إلى البلية، وأصلها: ما يحيط بالشيء، ودوائر الزمان: توبه وتصاريفه، وبوله، وكأنها لا تستعمل إلا في المكروه، ثم دعا سبحانه عليهم بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وجعل ما دعا به عليهم ماثلاً لما

تعتذروا لن تؤمن لكم﴾ فنهاهم أولاً عن الاعتذار بالباطل، ثم علله بقوله: ﴿لَن تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم، كأنهم ادعوا أنهم صابقون في اعتذارهم، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به، فإذا عرف أنه لا يصدق ترك الاعتذار، وجمله: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ تعليلية للتي قبلها: أي لا يقع منا تصديق لكم لأن الله قد أعلمنا بالوحي ما هو مناف لصديق اعتذاركم، وإنما خص الرسول ﷺ بالجواب عليهم، فقال: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين، لأنه ﷺ رأسهم، والمتولي لما يرد عليهم من جهة الغير، ويحتمل أن يكون المراد بالضمير في قوله: ﴿إِيَّكُمْ﴾ هو الرسول ﷺ على التأويل المشهور في مثل هذا. قوله: ﴿وَسِيرُوا فِي الْأَعْمَالِ فِيمَا بَعْدَ هَلْ تَقْلَعُونَ عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ الْآنَ مِنَ الشَّرِّ أَمْ تَتَّبِقُونَ عَلَيْهِ؟﴾ وقوله: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ معطوف على الاسم الشريف، ووسط مفعول الرؤية إيذاناً، بأن رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شر هي التي يدور عليها الإثابة أو العقوبة، وفي جملة: ﴿ثُمَّ تَرْتَدُّونَ إِلَى عَالَمٍ لِّلْغَيْبِ﴾ إلى آخرها تخويف شديد، لما هي مشتملة عليه من التهديد، ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمهر، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتمنونه ويتظاهرون به، وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه، ثم نكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكثون ما جاؤوا به من الاعتذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو، وغرضهم من هذا التأكيد هو: أن يعرض المؤمنون عنهم، فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلف، ويظهرون الرضا عنهم، كما يفيد ذكر الرضا من بعد، وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه، وهو اعتذارهم الباطل، وأمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد به: تركهم والمهاجرة لهم، لا الرضا عنهم والصفح عن ذنوبهم، كما تفيد جملة ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ الواقعة علة للأمر بالإعراض. والمعنى: أنهم في أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة، فكأنها قد صيرت نواتهم رجساً، أو أنهم نورو رجس: أي نورو أعمال قبيحة، ومثله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28] وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير والتحذير من الشر، فليس لهم إلا الترك. وقوله: ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾ من تمام التعليل، فإن من كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء إلى الخير، والماوى كل مكان يأوي إليه الشيء، ليلاً أو نهاراً. وقد أوى فلان إلى منزله، يأوي أويأ وإيواء. ﴿وَجَزَاءٌ﴾ منصوب على المصدرية، أو على العلية، والباء في ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ للسببية، وجملة ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ بدل مما تقدم. وحذف هنا المحلوف به لكونه معلوماً مما سبق، والمحلوف عليه لمثل ما تقدم، وبين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم، ثم نكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل، فقال: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم ﴿فَإِنْ

النفاق: أي ثبتوا عليه ثبوتاً شديداً، ومهروا فيه حتى خفي أمرهم على رسول الله ﷺ، فكيف سائر المؤمنين؟ والمراد عدم علمه ﷺ بأعيانهم لا من حيث الجملة، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه ﷺ، وجملة: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ مقررة لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه، على وجه يخفى على البشر، ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى، وما تجنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر. ثم تواعدهم سبحانه فقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قيل المراد بالمرتين: عذاب الدنيا بالقتل والسبي، وعذاب الآخرة، وقيل: الفضيحة بانكشاف نفاقهم، والعذاب في الآخرة؛ وقيل: المصائب في أموالهم وأولادهم، وعذاب القبر؛ وقيل: غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على أنه المراد بعينه. والظاهر أن هذا العذاب المكرر هو في الدنيا بما يصنق عليه اسم العذاب، وأنهم يعذبون مرة بعد مرة، ثم يردون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿ثُمَّ يَرْتَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، ومن قال إن العذاب في المرة الثانية هو عذاب الآخرة، قال معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَرْتَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أنهم يردون بعد عذابهم في النار، كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل منها؛ أو أنهم يعذبون في النار عذاباً خاصاً بهم نون سائر الكفار، ثم يردون بعد ذلك إلى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار. ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون في دينهم فقال: ﴿وَأُخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ وهو معطوف على قوله ﴿مُتَنَافِقُونَ﴾: أي ومن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون، ويجوز أن يكون آخرون مبتدأ، واعترفوا بذنوبهم صفة، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً خبره، والمعنى: أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف، ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالاعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب، ورجوا أن يتوب الله عليهم. والمراد بالعمل الصالح: ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام، وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن. والمراد بالعمل السيئ: هو تخلفهم عن هذه الغزوة، وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملاً صالحاً، وهو الاعتراف به والتوبة عنه. وأصل الاعتراف الإقرار بالشئ. ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي، والعزم على تركه في الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا كما سيأتي بيانه إن شاء الله. ومعنى الخلط: أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء. ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء، كقولك بعت الشاة شاة وردهما: أي بذرهم، وفي قوله: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة، أو أن مقدمات التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة، وحرف الترجي وهو عسى، هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع، لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

محمد بن كعب، وعطاء بن يسار، ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها، قال أبو منصور البغدادي: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون، ثم البريريون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية. قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ محذوف الواو وصفاً للأنصار على قراءته برفع الأنصار، فراجع في ذلك زيد بن ثابت، فسأل أبي بن كعب فصنق زيداً، فرجع عمر عن القراءة المذكورة كما رواه أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، ومعنى الذين اتبعوهم بإحسان: الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحاً، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبي ﷺ، بل هم من جملة من يدخل تحت الآية، فتكون ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ الْمُهَاجِرِينَ﴾ على هذا للتبعية، وقيل إنها للبيان، فيتناول المدح جميع الصحابة، ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ قيد للتابعين: أي والذين اتبعوهم متلبسين بإحسان في الأفعال والأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأولين. قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ خير للمبتدأ وما عطف عليه، ومعنى رضاه سبحانه عنهم: أنه قبل طاعاتهم وتجاوز عنهم، ولم يسخط عليهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من فضله، ومع رضاه عنهم فقد ﴿أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ في الدار الآخرة. وقرأ ابن كثير ﴿تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بزيادة من. وقرأ الباقون بحذفها والنصب على الظرفية، وقد تقدم تفسير جري الأنهار من تحت الجنات، وتفسير الخلود وال الفوز. قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَنَافِقُونَ﴾ هذا عود إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة، ومن يقرب منها من الأعراب. ومن حولكم خبر مقدم، ومن الأعراب بيان، وهو في محل نصب على الحال، ومتنافقون هو المبتدأ؛ وقيل: وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم: جهينة ومزينة، وأشجع، وغفار، وجملة: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النَّفَاقِ﴾ معطوفة على الجملة الأولى، عطف جملة على جملة. وقيل: إن من أهل المدينة عطف على الخبر في الجملة الأولى، فعلى الأول: يكون المبتدأ مقدراً، أي ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، وعلى الثاني: يكون التقدير: ومن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة متنافقون مردوا، ولكون جملة مردوا على النفاق مستأنفة لا محل لها، وأصل مرد وتمرد اللين والملاسة والتجرد، فكانهم تجردوا للنفاق، ومنه غصن أمرد: لا ورق عليه، وفرس أمرد: لا شعر فيه. وغلام أمرد: لا شعر بوجهه، وأرض مرداء: لا نبات فيها، وصرح ممرد: مجرد. فالمعنى: أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينتنوا عنه. قال ابن زيد: معناه لجوا فيه وأتوا غيره، وجملة: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ مبنية للجملة الأولى، وهي مردوا على

عملك لا يخفى على الله، ولا على رسوله ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، وأخلصوا أعمالكم لله عز وجل، وفيه أيضاً ترغيب وتنشيط، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيراً أو شراً رغب إلى أعمال الخير، وتجنب أعمال الشر، وما أحسن قول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم والمراد بالرؤية هنا العلم بما يصدر منهم من الأعمال، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال: ﴿وَسْتَرْثَوْنَ إِلَى عَالَمٍ لِّلْغَيْبِ وَلِلْشَّهَادَةِ﴾ أي: وسترثون بعد الموت إلى الله سبحانه، الذي يعلم ما تَسْرَوْنَهُ وما تَعْلُونَهُ، وما تخفونه وما تبونهُ. وفي تقييم الغيب على الشهادة: إشعار بسعة علمه عز وجل، وأنه لا يخفى عليه شيء، ويستوي عنده كل معلوم. ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردهم إليه فقال: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويتفضل على من يشاء من عباده. قوله: ﴿وَأُخْرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ نكر سبحانه ثلاثة أقسام في المتخلفين: الأول: المنافقون الذين مردوا على النفاق، والثاني: التائبون المعترفون بذنوبهم، الثالث: الذين بقي أمرهم موقوفاً في تلك الحال، وهم المرجون لأمر الله، من أرجيته وأرجأته: إذا أخرته. قرأ حمزة والكسائي، ونافع وحفص ﴿مَرْجُونَ﴾ بالواو من غير همز. وقرأ الباقون بالهمزة المضمومة بعد الجيم. والمعنى: أنهم مؤخرون في تلك الحال، لا يقطع لهم بالتوبة لا بعدهما، بل هم على ما يتبين من أمر الله سبحانه في شأنهم ﴿وَأَمَّا يَعْنِيهِمْ﴾ إن بقوا على ما هم عليه، ولم يتوبوا ﴿وَأَمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصاً تاماً، والجملة في محل نصب على الحال، والتقدير ﴿وَأُخْرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ حال كونهم، إما معذبين، وإما متوباً عليهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم من خير أو شر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو نعيم في المعرفة، عن أبي موسى، أنه سئل عن قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ فقال: هم الذين صلوا القبلتين جميعاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، عن سعيد بن المسيب، مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو نعيم، عن الحسن، ومحمد بن سيرين، مثله أيضاً. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، قال: هم أبو بكر، وعمر، وعلي، وسلمان، وعمار بن ياسر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن الشعبي قال: هم من أدرك بيعة الرضوان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبِعُوا بِإِحْسَانٍ﴾ قال: التابعون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، قال: هم من بقي من أهل الإسلام، إلى أن تقوم الساعة. وأخرج أبو الشيخ، وابن عسكرك، عن أبي صخر حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن

أي: يغفر الذنوب ويتفضل على عباده. قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ اختلف أهل العلم في هذه الصدقة المأمور بها، فقيل: هي صدقة الفرض، وقيل: هي مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها، لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، و﴿مِنْ﴾ للتبعية على التفسيرين، والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة، والصدقة مأخوذة من الصق، إذ هي دليل على صدق مخرجها في إيمانه. قوله: ﴿تَطْهَرُ مِنْهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ الضمير في الفعلين للنبي ﷺ: أي تطهرهم وتزكّيهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم. وقيل الضمير في تطهرهم للصدقة: أي تطهرهم هذه الصدقة المأخوذة منهم، والضمير في تزكّيهم للنبي ﷺ: أي تزكّيهم يا محمد بالصدقة المأخوذة، والأول: أولى لما في الثاني من الاختلاف في الضميرين في الفعلين المتعاطفين؛ وعلى الأول: فالفعلان منتصبان على الحال، وعلى الثاني: فالفعل الأول صفة لصدقة، والثاني: حال منه ﷺ. ومعنى التطهير: إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب، ومعنى التزكية: المبالغة في التطهير. قال الزجاج: والأجود أن تكون المخاطبة للنبي ﷺ: أي فإنك يا محمد تطهرهم وتزكّيهم بها على القطع والاستئناف، ويجوز الجزم على جواب الأمر. والمعنى: أن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم. وقد قرأ الحسن بجزم تطهرهم. وعلى هذه القراءة فيكون ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ على تقدير مبتدأ: أي وأنت تزكّيهم بها. قوله: ﴿وَوَصِّلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي ادع لهم بعد أخذك تلك الصدقة من أموالهم، قال النحاس. وحكى أهل اللغة جميعاً فيما علمناه، أن الصلاة في كلام العرب الدعاء، ثم علل سبحانه أمره لرسوله ﷺ بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة فقال: ﴿إِنْ صَلَوَاتُكَ سَكُنَ لَهُمْ﴾ قرأ حفص، وحمزة، والكسائي ﴿صَلَاتُكَ﴾ بالتوحيد. وقرأ الباقون بالجمع، والسكن ما تسكن إليه النفس وتطمئن به. قوله: ﴿لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ لما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقاً. قال الله: ﴿لَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي: غير التائبين، أو التائبون قبل أن يتوب الله عليهم ويقبل صفقاتهم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ لاستغنائهم عن طاعة المطيعين، وعدم ميلاته بمعصية العصاة. وقرئ: ﴿لَمْ تَعْلَمُوا﴾ بالفوقية، وهو إما خطاب للتائبين، أو لجماعة من المؤمنين، ومعنى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يتقبلها منهم، وفي إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة، ولمن فعلها. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه: أي: أن هذا شأنه سبحانه. وفي صيغة المبالغة في التواب، وفي الرحيم مع توسيط ضمير الفصل. والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم ما لا يخفى. قوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فِئْرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه تخويف وتهديد: أي إن

إذا رجع عليهم فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقون انفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة، وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله حتى تطلقهم وتعذرهم، قال: وأنا أقسم بالله، لا أطلقهم، ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق انفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا، فنزلت: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ وعسى من الله واجب، فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فاطلقهم وعذرهم، فجاءوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصنق بها عنا، واستغفر لنا، قال: ما أمرت أن آخذ أموالكم، فأنزل الله عز وجل: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم﴾ يقول: استغفر لهم ﴿إن صلواتك سكن لهم﴾ يقول: رحمة لهم، فآخذ منهم الصدقة واستغفر لهم، وكانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا انفسهم بالسواري، فأرجئوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ [التوبة: 117] إلى قوله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ إلى قوله: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ [التوبة: 118] يعني: إن استقاموا. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاک، مثله سواء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن مجاهد في قوله: ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ قال: هو أبو لبابة إذ قال لقريظة ما قال، وأشار إلى حلقه بأن محمداً يذبكم إن نزلتم على حكمه، والقصة منكرة في كتب السير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿خلطوا عملاً صالحاً﴾ قال: غزوه مع رسول الله ﷺ ﴿وأخر سيناً﴾ قال: تخلفهم عنه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وصل عليهم﴾ قال: استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوها ﴿إن صلواتك سكن لهم﴾ قال: رحمة لهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قال: «اللهم صل على آل فلان، فأتاه أبي بصدقة فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ قال: هذا وعيد من الله عز وجل. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في الشعب، وابن أبي الدنيا، والضياء في المختارة، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحلكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس كائناتاً ما كان». وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة، في قوله: ﴿وأخرون مرجون لأمر الله﴾ قال: هم الثلاثة الذين خلفوا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية قال: هم هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، من الأوس والخزرج. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿إما يعذبهم﴾ يقول: يميتهم على معصية ﴿وإما يتوب عليهم﴾ فأرجأ أمرهم ثم

كعب القرظي: أخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما أريد الفتن، قال: إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ، وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم، قلت له: وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه؟ قال: ألا تقرأون قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون﴾ الآية أوجب لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان، وشرط على التابعين شرطاً لم يشترطه فيهم. قلت: وما اشترط عليهم؟ قال: اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان. يقول: يقتلون بهم في أعمالهم الحسنة، ولا يقتلون بهم في غير ذلك. قال أبو صخر: فوالله لكانني لم أقرأها قبل ذلك، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها علي ابن كعب. وأخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعي قال: حدثني يحيى بن أبي كثير، والقسم ومكحول، وعبد بن أبي لبابة، وحسان بن عطية، أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي ﷺ يقولون لما أنزلت هذه الآية: ﴿والسابقون الأولون﴾ إلى قوله: ﴿ورضوا عنه﴾ قال رسول الله ﷺ: هذا لأمتي كلهم، وليس بعد الرضا سخط. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وممن حولكم من الأعراب﴾ الآية، قال: قام رسول الله ﷺ يوم الجمعة خطيباً، فقال: قم يا فلان فأخرج، فإنك منافق، أخرج يا فلان، فإنك منافق، فأخرجهم باسمائهم ففضحهم، ولم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلك الجمعة لحاجة كانت له، فلقبهم عمر وهم يخرجون من المسجد، فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة، وظن الناس قد انصرفوا، واختبئوا هم من عمر، وظنوا أنه قد علم بأمرهم، فدخل عمر المسجد، فإذا الناس لم ينصرفوا، فقال له رجل: أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم، فهو: العذاب الأول، والعذاب الثاني: عذاب القبر. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿وممن حولكم من الأعراب﴾ قال: جهينة ومزينة، وأشجع وأسلم وغفار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿مردوا على النفاق﴾ قال: أقاموا عليه، ولم يتوبوا كما تاب آخرون. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في الآية قال: ماتوا عليه: عبد الله بن أبي، وأبو عامر الراهب، والجعد بن قيس. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿سنعذبهم مرتين﴾ قال: بالجوع والقتل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي مالك، قال: بالجوع وعذاب القبر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن قتادة قال: عذاب في القبر، وعذاب في النار. وقد روى عن جماعة من السلف نحو هذا في تعيين العذابين، والظاهر ما قلنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وأخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً﴾ قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم انفسهم بسواري المسجد، وكان ممر النبي ﷺ

نسخها فقال: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ [التوبة: 118].

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَارْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِلُنَّ إِنَّ آرِدَنَا إِلَّا الْحَسَنُ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٨﴾ لَا تَقْعَرُ فِيهِ أَبَدًا لَسَجْدَ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَى
مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَمُوتُوا وَاللَّهُ حَكِيمٌ
الْمُبْتَلِينَ ﴿١١٩﴾ أَفَمَنْ أَتَسَسَّ بِئْسَ كُفْرًا تَقْوَى رَبِّكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَيْرٌ أَمْ
مَنْ أَتَسَسَّ بِئْسَ كُفْرًا شَفَا جُرُفٌ هَاكٍ فَلَا تَكْفُرْ فِي تَابٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٠﴾ لَا يَزَالُ بُعِثُهُمْ فِي نُبْوَةٍ رَسُولُهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا
أَنْ تَقَطَّ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢١﴾

لما نكر الله أصناف المنافقين، وبين طرائقهم المختلفة، عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم، وهم الذين اتخذوا مسجداً ضارراً، فيكون التقدير: ومنهم الذين اتخذوا على أن الذين مبتدأ، وخبره منهم المحنوف، والجملة معطوفة على ما تقدمها، ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على الذم. وقرأ المدنيون وابن عامر: ﴿الذين اتخذوا﴾ بغير واو، فتكون قصة مستقلة، الموصول مبتدأ، وخبره: ﴿لا تقم﴾ قاله الكسائي، وقال النحاس: إن الخبر هو ﴿لا يزال بنيانهم الذي بناؤا﴾ وقيل الخبر محنوف، والتقدير يعذبون، وسيأتي بيان هؤلاء البائين لمسجد الضرار، و﴿ضراراً﴾ منصوب على المصدرية، أو على العلية ﴿وكفراً وتفريقاً وإرصاداً﴾ معطوفة على ﴿ضراراً﴾ فقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة: الأول: الضرار لغيرهم، وهو المضاررة. الثاني: الكفر بالله والمباهاة لاهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببناؤه تقوية أهل النفاق. الثالث: التفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء، فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الآفة ما لا يخفى. الرابع: الإرصاد لمن حارب الله ورسوله: أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله. قال الزجاج: الإرصاد الانتظار. وقال ابن قتيبة: الإرصاد الانتظار مع العداوة. وقال الأكثرون: هو الإعداد، والمعنى متقارب، يقال أرصدت لكذا: إذا أعدتته مرتقباً له به. وقال أبو زيد: يقال رصدته وأرصدته في الخير، وأرصدت له في الشر. وقال ابن الأعرابي: لا يقال إلا أرصدت، ومعناه ارتقبت، والمراد بمن حارب الله ورسوله: المنافقون، ومنهم أبو عامر الراهب: أي أعدتوه لهؤلاء، وارتقبوا به وصولهم، وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين، وقوله: ﴿من قبل﴾ متعلق باتخذوا: أي اتخذوا مسجداً من قبل أن يناقق هؤلاء ويبنوا مسجد الضرار، أو متعلق بحارب: أي لمن وقع منه الحرب لله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار. قوله: ﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي: ما أردنا إلا الخصلة الحسنى، وهي: الرفق بالمسلمين، فرد الله عليهم بقوله: ﴿والله يشهد إنهم لكانون﴾ فيما حلفوا عليه، ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، فقال: ﴿لا تقم فيه

ليبدأ﴾ أي: في وقت من الأوقات، والنهي عن القيام فيه، يستلزم النهي عن الصلاة فيه. وقد يعبر عن الصلاة بالقيام، يقال فلان يقوم الليل: أي يصلي، ومنه الحديث الصحيح: «من قام رمضان إيماناً به واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». ثم نكر الله سبحانه علة النهي عن القيام فيه بقوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ واللام في ﴿لمسجد﴾ لام القسم، وقيل: لام الابتداء، وفي ذلك تأكيد لمضمون الجملة، وتأسيس البناء: تثبيته ورفع. ومعنى تأسيسه على التقوى: تأسيسه على الخصال التي تنقي بها العقوبة.

واختلف العلماء في المسجد الذي أسس على التقوى، فقالت طائفة: هو مسجد قباء، كما روي عن ابن عباس والضحاك، والحسن، والشعبي، وغيرهم. وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبي ﷺ. والأول: أرجح لما سيأتي قريباً إن شاء الله، و﴿من أول يوم﴾ متعلق بأسس: أي أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه، قال بعض النحاة: إن ﴿من﴾ هنا بمعنى منذ: أي منذ أول يوم ابتدئ ببناؤه، وقوله: ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ خبر المبتدأ، والمعنى: لو كان القيام في غيره جائزاً لكان هذا أولى بقيامه فيه للصلاة ولنكر الله، لكونه أسس على التقوى من أول يوم، ولكون ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ وهذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه ﷺ فيه: أي كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل، فهو أولى من جهة الحال فيه، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال: أي حال كون فيه رجال يحبون أن يتطهروا، ويجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد. ومعنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجب، وقيل معناه: يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار. والأول: أولى. وقيل يحبون أن يتطهروا بالحصى المطهرة من الذنوب فحسوا جميعاً، وهذا ضعيف جداً. ومعنى محبة الله لهم: الرضا عنهم، والإحسان إليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه. ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بوناً بعيداً. فقال: ﴿أفمن أسس بنيانه﴾ والهمزة للإنكار التقريري، والبيان مصدر كالعمران، وأريد به المبني، والجملة مستأنفة. والمعنى: أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي تقوى الله ورضوانه، خير ممن أسس دينه على ضد ذلك، وهو الباطل والنفاق، والموصول مبتدأ، وخبره خير، وقرئ: «أسس بنيانه» على بناء الفعل للفاعل، ونصب بنيانه، واختار هذه القراءة أبو عبيدة، وقرئ على البناء للمجهول، وقرئ: «أسس بنيانه» بإضافة أساس إلى بنيانه، وقرئ: «أسس بنيانه» والمراد: أصول البناء، وحكى أبو حاتم قراءة أخرى، وهي «أسس بنيانه» على الجمع، ومنه:

أصبح للملك ثابت الأساس بالبهاليل من بني العباس
والشفا: الشفير، والجرف: ما يتجرف السيول، وهي:
الجوانب التي تنجرف بالماء، والاجتراف: اقتلاع الشيء من أصله، وقرئ بضم الراء من جرف وبإسكانها. والهار:

عبد الله بن حنيف، وبيعة بن حزام، ومجمع بن جارية الأنصاري، فبنوا مسجد النفاق، فقال رسول الله ﷺ لبيدج: ويك يا بيدج ما أريت إلى ما أرى، فقال: يا رسول الله والله ما أريت إلا الحسنى وهو كاتب، فصنعه رسول الله ﷺ وأراد أن يعذره، فانزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، يعني: رجالاً يقال له أبو عامر، كان محارباً لرسول الله ﷺ، وكان قد انطلق إلى هرقل، وكانوا يرصدون إذا قدم أبو عامر أن يصلي فيه، وكان قد خرج من المدينة محارباً لله ولرسوله. وأخرج ابن إسحاق، وابن مريويه، عنه، أيضاً قال: دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، فقال مالك لعاصم: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار، ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله، فحرقوه وهدموه، وخرج أهله ففترقوا عنه، فانزل الله هذه الآية. ولعل في هذه الرواية حذفاً بين قوله ﷺ دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم وبين قوله فقال مالك لعاصم، ويبين ذلك ما أخرج ابن إسحاق، وابن مريويه، عن أبي رهم: كلثوم بن الحصين الغفاري، وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة قال: أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذى أوان: بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا يا رسول الله: إنا بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة، والليل الشاتية، والليل المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، قال: إني على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه؛ فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي، ولخاه عاصم بن عدي، أحد بني العجلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك، فدخل إلى أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان، وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا﴾ إلى آخر القصة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، إن الذين بنوا مسجد الضرار كانوا اثني عشر رجلاً، وذكر أسماءهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان: رجل من بني خدره، وفي لفظ: تماريت أنا ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: هو هذا المسجد، لمسجد رسول الله ﷺ، وقال في ذلك خير

الساقط، يقال هار البناء: إذا سقط، وأصله هائر، كما قالوا: شاك السلاح، وشائك كذا، قال الزجاج. وقال أبو حاتم: إن أصله هاور. قال في شمس العلوم: الجرف ما جرف السيل أصله، وأشرف أعلاه فلن اتصدع أعلاه فهو الهار اه جعل الله سبحانه هذا مثلاً لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة، ثم قال: ﴿فَانْهَارْ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، وفاعل فانهار، ضمير يعود إلى الجرف: أي فانهار الجرف بالبنيان في النار، ويجوز أن يكون الضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى من، وهو الباني. والمعنى: أنه طاع الباطل بالبناء، أو الباني في نار جهنم، وجاء بالانهيار الذي هو للجرف ترشيحاً للمجاز، وسبحان الله ما أبلغ هذا الكلام، وأقوى تراكيبه، وأوقع معناه، وأصح منبهاً. ثم ذكر سبحانه أن بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم، واستمرار ترددهم وشكهم فقال: ﴿لَا يَزَالُ بَنِيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكاً في قلوبهم وفاقاً، ومنه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
وقيل معنى الريبة: الحسرة والندامة، لأنهم بنوا على بنيانه. وقال المبرد: أي حرارة وغيظاً. وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين في دينهم، ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله ﷺ نفاقاً وتصميماً على الكفر، ومقماً للإسلام، لما أصابهم من الغيظ الشديد، والغضب العظيم بهدمه، ثم ذكر سبحانه ما يدل على استمرار هذه الريبة وبوامها، وهو قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: لا يزال هذا إلا أن تقطع قلوبهم قطعاً، وتتفرق أجزاء: إما بالموت أو بالسيف، والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء، ويجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة. وقيل معناه: إلا أن يتوبوا توبة تقطع بها قلوبهم نمماً وأسفاً على تفريطهم. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص، ويعقوب، وأبو جعفر، بفتح حرف المضارعة. وقرأ الجمهور بضمها. وروي عن يعقوب أنه قرأ «تقطع» بالتخفيف، والخطاب للنبي ﷺ: أي إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم. وقرأ أصحاب عبد الله بن مسعود: «ولو تقطعت قلوبهم». وقرأ الحسن، ويعقوب، وأبو حاتم: «إلى أن تقطع» على الغاية. أي لا يزالون كذلك إلى أن يموتوا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا﴾ قال: هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر الراهب: لبنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتني بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه؛ فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فيجب أن تصلي فيه، وتدعو بالبركة، فانزل الله: ﴿لَا تَقِيمُ فِيهِ لِبَدًا﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، عنه، قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بيدج جد

كثير، يعني: مسجد قباء. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والزهري بن بكار في أخبار المدينة، وأبو يعلى، وابن حبان، والطبراني، والحاكم في الكنى، وابن مردويه، عن سهل بن سعد الساعدي نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والخطيب، والضياء في المختارة، عن أبي بن كعب قال: «سألت النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى قال: هو مسجد في هذا». وأخرج الطبراني، والضياء المقدسي في المختارة، عن زيد بن ثابت مرفوعاً مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مردويه، والطبراني، من طريق عروة بن الزبير، عن زيد بن ثابت قال: المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد النبي ﷺ. قال عروة: مسجد النبي ﷺ خير منه، إنما أنزلت في مسجد قباء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مردويه، عن ابن عمر، قال: المسجد الذي أسس على التقوى: مسجد النبي ﷺ. وأخرج المذكوران عن أبي سعيد الخدري مثله. وقد روي عن جماعة غير هؤلاء مثل قولهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، أنه مسجد قباء. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، مثله. ولا يخفك أن النبي ﷺ قد عين هذا المسجد الذي أسس على التقوى، وجزم بأنه مسجده ﷺ، كما قَدَّمنا من الأحاديث الصحيحة، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم، ولا غيرهم، ولا يصح لإيراده في مقابلة ما قد صحَّ عن النبي ﷺ، ولا فائدة في إيراد ما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء، فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي أسس على التقوى، على أن ما ورد في فضائل مسجده ﷺ أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء، بلا شك ولا شبهة تعم. وأخرج أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ قال: وكانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية، وفي إسناده يونس بن الحارث، وهو ضعيف. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة، فقال: ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟ فقالوا: يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه، أو قال: مقعته، فقال النبي ﷺ: هو هذا. وأخرج أحمد، وابن خزيمة، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، عن عويم بن ساعدة الأنصاري، أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجلكم، فما هذا الطهور الذي تتطهرون به؟ قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أنبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، رواه أحمد عن حسن بن محمد. حدثنا أبو أيس، حدثنا شريحيل عن عويم بن ساعدة، فنكره. وقد

أخرجه ابن خزيمة في صحيحه. وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الجارود في المنتقى، والدارقطني، والحاكم، وابن مردويه، وابن عساكر، عن طلحة بن نافع، قال: حدثني أبو أيوب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ قال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور، فما طهوركم هذا؟ قالوا: نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة، قال: فهل مع ذلك غيره؟ قالوا: لا، غير أن أحداً إذا خرج إلى الغائط أحب أن يستنجي بالماء، قال: هو ذلك فعليكموه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، والبخاري في معجمه، والطبراني وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن محمد بن عبد الله بن سلام، عن أبيه، قال: لما أتى رسول الله ﷺ المسجد الذي أسس على التقوى مسجد قباء فقال: إن الله قد أثنى عليكم في الطهور خيراً أقلاً تخبروني؟ يعني: قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ والله يحب المطهرين. فقالوا: يا رسول الله إنما لنجد مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاء بالماء، ونحن نفعله اليوم. وإسناد أحمد في هذا الحديث هكذا: حدثنا يحيى بن آدم، حدثني مالك، يعني ابن مغول، سمعت سياراً أبا الحاكم، عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام. وقد روى عن جماعة من التابعين في نكر سبب نزول الآية نحو هذا. ولا يخفك أن بعض هذه الأحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله، وبعضها ضعيف، وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء، وعلى كل حال: لا تقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ في صحتها وصراحتها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿قَاتِلَاهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قال: يعني قواعده في نار جهنم. وأخرج مسند في مسنده، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، قال: لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله ﷺ. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَزَالُ بَيْنَانِهِمُ الَّذِي بَنُوا رِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ قال: يعني الشك ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: الموت. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن حبيب بن أبي ثابت، في قوله: ﴿رِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ قال: غيظاً في قلوبهم ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: إلى أن يموتوا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان، في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: إلا أن يتوبوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْرَأُونَ فِي سَكِينٍ لَّهُ يَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي الْآخِرَةِ وَالْإِيمَانُ وَالْقُرْآنُ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْرَأْ بِرَبِّكُمْ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمَطْلُوبُ ﴿الَّذِينَ الْمَكِيدُونَ﴾

لْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ الْكَافِرُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ الْكَافِرُونَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمُؤْمِنُونَ يُدْرِكُونَ اللَّهُ وَيَسِّرُ الْيُسْرَى

لما شرح فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، وذكر أقسامهم، وفرع على كل قسم منها ما هو لائق به، عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه، وذكر الشراء تمثيل، كما في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ﴾ [البقرة: 16] مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بالشراء، وأصل الشراء بين العباد هو: إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر مثله أو بونه، أو أنفع منه، فهو لاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التي أعدها للمؤمنين أي: بأن يكونوا من جملة أهل الجنة، وممن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم، وهي أنفس الاعلاق، والجدود بها غاية الجود:

يجود بالنفس إن ضلَّ الجبان بها والجدود بالنفس أقصى غاية الجود وجاد الله عليهم بالجنة، وهي أعظم ما يطلبه العباد، ويتوسلون إليه بالأعمال، والمراد بالأنفس هنا: أنفس المجاهدين، وبالأموال: ما يتفقونه في الجهاد. قوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بيان للبيع الذي يقتضيه الاشتراء المذكور، كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل يقاتلون في سبيل الله، ثم بين هذه المقاتلة في سبيل الله بقوله: ﴿فَيُقَاتِلُونَ وَيُقَاتِلُونَ﴾ والمراد أنهم يقدمون على قتل الكفار في الحرب، ويبذلون أنفسهم في ذلك، فإن فعلوا فقد استحقوا الجنة، وإن لم يقع القتل عليهم بعد الإبلاء في الجهاد، والتعرض للموت بالإقدام على الكفار. قرأ الأعمش، والنخعي، وحزمة، والكسائي «وخلف» بتقديم المبني للمفعول على المبني للفاعل. وقرأ الباقون بتقديم المبني للفاعل على المبني للمفعول. وقوله: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ إخبار من الله سبحانه أن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله في التوراة والإنجيل، كما وقع في القرآن، وانتصاب وعداً وحققاً على المصدرة أو الثاني: نعت للآل، وفي التوراة متعلق بمحذوف: أي وعداً ثابتاً فيها. قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بَعْثَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ في هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال، ما لا يخفى، فإنه أولاً أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم، وأموالهم، بأن لهم الجنة، وجاء بهذه العبارة الفخيمة، وهي كون الجنة قد صارت ملكاً لهم، ثم أخبر ثانياً بأنه قد وعد بذلك في كتبه المنزلة، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق، لا بد من حصول الموعد به، فإنه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، ثم زادهم سروراً وجوراً، فقال: ﴿فَاسْتَبَشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم به﴾ أي: أظهروا السرور بذلك، والبشارة هي إظهار السرور، وظهوره يكون في بشرة الوجه، ولذا يقال أسارير الوجه: أي التي يظهر فيها السرور. وقد تقدم إيضاح هذا، وإفاء لترتيب

الاستبشار على ما قبله. والمعنى: أظهروا السرور بهذا البيع الذي بايعتم به الله عز وجل، فقد ربحتم فيه ربحاً لم يربحه أحد من الناس، إلا من فعل مثل فعلكم، والإشارة بقوله: ﴿نَلَكَ﴾ إلى الجنة، أو إلى نفس البيع الذي ربحوا فيه الجنة، ووصف الفوز وهو الظفر المطلوب بالعظم، يدل على أنه فوز لا فوز مثله. قوله: ﴿التَّائِبُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف: أي هم التائبون، يعني: المؤمنون، والتائب الرجوع: أي هم الراجعون إلى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة. وقال الزجاج: الذي عندي أن قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمرة: أي التائبون، ومن بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً، وإن لم يجاهدوا. قال: وهذا أحسن، إذ لو كانت هذه أوصافاً للمؤمنين المذكورين في قوله: ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لكان الوعد خاصاً بمجاهدين. وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزجاج من أن هذا الكلام منفصل عما قبله طائفة من المفسرين، وذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين في الآية الأولى، وأنها على جهة الشرط: أي لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه الأوصاف. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: للتائبين العابدين إلى آخرها - وفيه وجهان: أحدهما: أنها أوصاف للمؤمنين. الثاني: أن النصب على المدح. وقيل: إن ارتفاع هذه الأوصاف على البدل من ضمير يقاتلون، وجوز صاحب الكشاف أن يكون التائبون مبتدأ، وخبره العابدين، وما بعده أخبار، كذلك أي: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال، وفيه من البعد ما لا يخفى، والعبادون القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الإخلاص. و﴿الحامدون﴾ الذين يحمدون الله سبحانه على السراء والضراء، و﴿السائحون﴾ قيل: هم الصائمون، وإليه ذهب جمهور المفسرين، ومنه قوله تعالى: ﴿عِبَادَاتِ سَائِحَاتٍ﴾ [التحريم: 5] وإنما قيل للصائم سائح، لأنه يترك اللذات، كما يتركها السائح في الأرض، ومنه قول أبي طالب بن عبد المطلب:

وبالسائحين لا ينوون فطرة لربهم والراكذات العوامل
وقال آخر:

تراه يصلي ليله ونهاره يظل كثير الذكر لله سائحا
قال الزجاج: ومذهب الحسن أن السائحين ها هنا هم التين يصومون الفرض، وقيل: إنهم الذين يديمون الصيام. وقال عطاء: السائحون المجاهدون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: السائحون المهاجرون. وقال عكرمة: هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم. وقيل: هم الجائلون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته، وما خلق من العبر. والسياحة في اللغة أصلها: الذهاب على وجه الأرض كما يسبح الماء، وهي مما يعين العبد على الطاعة لانتقاعه عن الخلق، ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكر في مخلوقات الله سبحانه، و﴿الراكعون الساجدون﴾ معناه: المصلون، و﴿الأمرون بالمعروف﴾ القائمون بأمر الناس بما هو معروف في

في شعب الإيمان، من طريق عبيد بن عمير، عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مريويه، وابن النجار، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مريويه، عن ابن مسعود، مرفوعاً مثله. وقد روي عن أبي هريرة موقوفاً، وهو أصح من المرفوع من طريقه، وحديث عبيد بن عمير مرسل، وقد أسنده من طريق أبي هريرة في الرواية الثانية. وقد روي من قول جماعة من الصحابة مثل هذا: منهم عائشة عند ابن جرير، وابن المنذر، ومنهم ابن عباس عند ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، ومنهم ابن مسعود، عند هؤلاء المنكرين قبله. وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي أمامة أن رجلاً استأذن رسول الله ﷺ في السباحة فقال: «إن سباحة أمي الجهاد في سبيل الله» وصححه عبد الحق. وأخرج أبو الشيخ، عن الربيع، في هذه الآية قال: هذه أعمال قال فيها أصحاب النبي ﷺ: إن الله قضى على نفسه في التوراة والإنجيل والقرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيداً، ومن مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله. وأخرج ابن المنذر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: الشهيد من لو مات على فراشه دخل الجنة. قال: وقال ابن عباس من مات وفيه تسع، فهو شهيد، وقرأ هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ» يعني: بالجنة، ثم قال: «التائبون» إلى قوله: «وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» يعني: القائمين على طاعة الله، وهو شرط اشتراطه الله على أهل الجهاد، وإذا وفوا الله بشرطه وفي لهم بشرطهم.

مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالْأَنْبِيَاءِ آمَنَاتٌ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّتُمْ أَنَّهُمْ صَحَابَةُ الْحَجَرِ ﴿١٥٦﴾ وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلْوَتَرِ مِنْهُ إِنَّا إِنَّمَا بَعَثْنَاهُ لِنُؤْمِنَ بِهِ

لما بين الله سبحانه في أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة، بين سبحانه هنا ما يزيد تلك تأكيداً، وصرح بأن ذلك محتتم، ولو كانوا أولي قربى، وأن القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها. وقد ذكر أهل التفسير أن «ما كان» في القرآن يأتي على وجهين: الأول: على النفي نحو: «ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله» [آل عمران: 145]، والآخر: على معنى النهي نحو: «ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله» [الأحزاب: 53] و «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار، وتحريم الاستغفار لهم، والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافراً، ولا ينافي هذا ما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر

الشريعة «والناهاون عن المنكر» القائمون بالإنكار على من فعل منكراً: أي شيئاً ينكره الشرع «والحافظون لحُدُودِ اللَّهِ» القائمون بحفظ شرائعه التي أنزلها في كتبه، وعلى لسان رسله، وإنما أدخل الواو في الوصفين الآخرين، وهما «والناهاون عن المنكر والحافظون» الخ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة، ثم عطف عليه الحافظون بالواو لقربه؛ وقيل: إن العطف في الصفات يجيء بالواو وبغيرها، كقوله: «غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب» [غافر: 3]، وقيل: إن الواو زائدة؛ وقيل: هي واو الثمانية المعروفة عند النحاة، كما في قوله تعالى: «ثيياب وإبكاراً» [التحريم: 5]، وقوله: «وفتحت أبوابها» [الزمر: 73]، وقوله: «سبعة وثامنهم كلبهم» [الكهف: 22]، وقد أنكروا والثمانية أبو علي الفارسي وناظره في ذلك ابن خالويه «وبشر للمؤمنين» الموصوفين بالصفات السابقة.

وقد أخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، وغيره قالوا: «قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشتراط لربك ولنفسك ما شئت، قال: اشتراط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشتراط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة، قال: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ» الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن جابر بن عبد الله، قال: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ» فكبر الناس في المسجد، فاقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي رداءه على عاتقه، فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم، فقال الأنصاري: بيع ربيع لا نقيل ولا نستقيل. وقد أخرج ابن سعد، عن عباد بن الصامت، أن النبي ﷺ اشتراط في بيعة العقبة على من بايعه من الأنصار: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله، وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، والسمع والطاعة، ولا ينازعوا في الأمر أهله، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، قالوا: نعم؛ قال قائل الأنصار: نعم، هذا لك يا رسول الله، فما لنا؟ قال: الجنة. وأخرجه ابن سعد أيضاً من وجه آخر، وليس في قصة العقبة ما يدل على إنها سبب نزول الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن ابن عباس، قال: من مات على هذه التسع، فهو في سبيل الله: «التائبون العابدون» إلى آخر الآية. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن المنذر، عن ابن عباس، قال: للشهيد من كان فيه التسع الخصال المذكورة في هذه الآية. وأخرج أبو الشيخ، وابن مريويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عنه، أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة الحمانون الذين يحمدون الله على السراء والضراء». وأخرج ابن جرير، عن عبيد بن عمير، قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين، فقال: هم الصائمون. وأخرج الفريابي، وابن جرير، والبيهقي

استغفر لها، روي ذلك عن أبي أيوب. وقيل: هو الشفيق قاله عبد العزيز بن يحيى. وقيل: إنه المعلم للخير. وقيل: إنه الراجع عن كل ما يكرهه الله قاله عطاء. والمطابق لمعنى الأَوَاه لغة أن يقال إنه الذي يكثر التأوّه من ذنوبه، فيقول مثلاً: أه من ذنوبي أه، مما أعاقب به بسببها، ونحو ذلك، وبه قال الفراء، وهو مروى عن أبي ذر، ومعنى التأوّه هو: أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء. قال في الصحاح: وقد أوّه الرجل تأويهاً، وتاوّه إذا قال أوّه، والاسم منه أمة بالمد، قال:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوّه أمة الرجل الحزين
ووالحليم الكثير الحلم، كما تفيد صيغة المبالغة، وهو الذي يصفح عن الذنوب، ويصبر على الأذى؛ وقيل: الذي لا يعاقب أحداً قط إلا الله.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب دخل النبي ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية، فقال النبي ﷺ: أي عمّ قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فجعل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، وأبو جهل وعبد الله، يعاندانه بتلك المقالة. فقال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: لاستغفرنّ لك ما لم أنه عنك، فنزلت: **﴿ما كان للنبي﴾** الآية، وأنزل الله في أبي طالب: **﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾** [القصص: 56]. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، والضياء في المختارة، عن عليّ قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فنكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: **﴿ما كان للنبي﴾** الآية. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر، عن عليّ قال: أخبرني النبي ﷺ بموت أبي طالب، فيكى، فقال: اذهب فغسله وكفنه، ووراء غفر الله له ورحمه، ففعلت، وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه **﴿ما كان للنبي﴾** الآية. وقد روي كون سبب نزول الآية: استغفار النبي ﷺ لأبي طالب من طرق كثيرة: منها عن محمد بن كعب، عند ابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وهو مرسل. ومنها عن عمرو بن دينار، عند ابن جرير، وهو مرسل أيضاً. ومنها عن سعيد بن المسيب، عند ابن جرير، وهو مرسل أيضاً. ومنها عن عمر بن الخطاب عند ابن سعد، وأبي الشيخ وابن عساکر. ومنها عن الحسن البصري عند ابن عساکر، وهو مرسل. وروي أنها نزلت بسبب زيارة النبي ﷺ لقبر أمه، واستغفاره لها، من طريق ابن عباس عند الطبراني وابن مردويه، ومن طريق ابن مسعود عند ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وعن

المشركون رباعيته وشجوا وجهه: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين، وعلى فرض أنه قد كان بلغه، كما يفيد سبب النزول، فإنه قبل يوم أحد بمدة طويلة، وسيأتي، فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عن تقدّمه من الأنبياء، كما في صحيح مسلم عن عبد الله، قال: كآني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. وفي البخاري، أن النبي ﷺ ذكر نبياً قبله شجّه قومه، فجعل النبي ﷺ يخبر عنه بأنه قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. قوله: **﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾** هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار، والمعنى: أن هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا، وعدم الاعتداد بالقرابة؛ لأنهم ماتوا على الشرك. وقد قال سبحانه: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾** [النساء: 116] فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده. قوله: **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾** الآية: ذكر الله سبحانه السبب في استغفار إبراهيم لأبيه، أنه كان لأجل وعد تقدّم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدو الله، وأنه غير مستحق للاستغفار، وهذا يدل على أنه إنما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار، ومن أعداء الله، فلا حاجة إلى السؤال الذي يورده كثير من المفسرين، أنه كيف خفي ذلك على إبراهيم، فإنه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصرّ على الكفر ومات عليه، وهو لم يعلم ذلك إلا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدو الله، فإن ثبوت هذه العداوة تدل على الكفر، وكذلك لم يعلم نبينا ﷺ بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية. وهذا حكم إنما يثبت بالسمع لا بالعقل. وقيل المراد من استغفار إبراهيم لأبيه: دعاؤه إلى الإسلام، وهو ضعيف جداً. وقيل المراد بالاستغفار في هذه الآية: النهي عن الصلاة على جناز الكفار، فهو كقوله: **﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾** [التوبة: 84] ولا حاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجئ إلى ذلك، ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم. فقال: **﴿إن إبراهيم لأواه﴾** وهو كثير التأوّه، كما تدل على ذلك صيغة المبالغة.

وقد اختلف أهل العلم في معنى الأَوَاه، فقال ابن مسعود، وعبيد بن عمير: إنه الذي يكثر الدعاء. وقال الحسن، وقتادة: إنه الرّحيم بعباد الله. وروي عن ابن عباس: أنه المؤمن بلغه الحبشة. وقال الكلبي: إنه الذي ينكر الله في الأرض للقر. وروي مثله: عن ابن المسيب، وقيل: الذي يكثر الذكر لله من غير تقييد، روي ذلك عن عتبة بن عامر. وقيل: هو الذي يكثر التلاوة، حكى ذلك عن ابن عباس. وقيل: إنه الفقيه، قاله مجاهد والنخعي، وقيل: المتضرع الخاضع، روى ذلك عن عبد الله بن شاذان بن الهاد. وقيل: هو الذي إذا نكر خطايا

بريدة عند ابن مروييه، وما في الصحيحين مقمّم على ما لم يكن فيهما، على فرض أنه صحيح، فكيف وهو ضعيف غالبه. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى قوله: ﴿كما ربياني صغيراً﴾ [الإسراء: 23 - 24] قال: ثم استثنى فقال: ﴿ما كان للنبي﴾ إلى قوله: ﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿فلما تبين له أنه عدو لله﴾ قال: تبين له حين مات وعلم أن التوبة قد انقطعت منه. وأخرج الفريابي، وأبو بكر الشافعي في قوائده، وأبو حاتم، وأبو الشيخ، وأبو بكر الشافعي في قوائده، والضياء في المختارة، عن ابن عباس قال: لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبين له أنه عدو لله، فغضب منه. وأخرج ابن مروييه، عن جابر، أن رجلاً كان يرفع صوته بالذكر، فقال رجل: لو أن هذا خفض صوته؟ فقال رسول الله ﷺ: دعه فإنه أواه. وأخرج الطبراني وابن مروييه، عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له نو النجادين: إنه أواه، وذلك أنه كان يكثر نكر الله بالقرآن والدعاء. وأخرجه أيضاً أحمد قال: حدثنا موسى بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر، فذكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروييه، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: قال رجل: يا رسول الله ما الأواه؟ قال: الخاشع المتضرع الدعاء. وهذا إن ثبت وجب المصير إليه وتقديمه على ما نكره أهل اللغة في معنى الأواه، وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدثني المثنى، حدثني الحجاج بن منهال، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب، عن عبد الله بن شداد، فذكره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾ قال: كان من حلمه أنه كان إذا أذاه الرجل من قومه قال له: هداك الله.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُخِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا بِنَفْسِهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٢﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَتَوْا فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَنِي قَاذِ يَزِيدَ فَلَدَّبَ دَرَبَهُمْ وَهُمْ نَائِمُونَ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رُدُّوا رَجِعُوا ﴿١٢٣﴾ وَكَانَ الْفَتْحُ الْيَوْمَ الَّذِي خَلَقُوا حَتَّى إِذَا سَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْهَارُهُمْ وَقَالُوا إِنَّ لَنَا مَلَكًا بَيْنَ أَلْوَىٰ نَزَّلَ تَابَ عَلَيْهِمْ لِمَتُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَلِيُّ الرَّحِيمُ ﴿١٢٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٥﴾

لما نزلت الآية المتقدمة في النهي عن الاستغفار للمشركين، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار، فأنزل الله سبحانه: ﴿وما كان الله ليضلّ قوماً﴾ إلخ: أي أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم، ولا يسميهم ضلالاً بعد أن هداهم إلى الإسلام، والقيام

بشرائعه، ما لم يقدموا على شيء من المحرمات بعد أن يتبين لهم أنه محرّم، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك، فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به، ومعنى: ﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ مما يحلّ لعباده، ويحرم عليه، ومن سائر الأشياء التي خلقها، ثم بين لهم أن له سبحانه ملك السموات والأرض لا يشاركه في ذلك مشارك، ولا ينازعه منازع يتصرف في ملكه بما شاء من التصرفات التي من جملتها أنه يحيي من قضت مشيئته بإحيائه، ويميت من قضت مشيئته بإماتته، وما لعباده من دونه من ولي يواليهم، ولا نصير ينصرهم، فلا يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى، فإن القرابة لا تنفع شيئاً ولا تؤثر أثراً، بل التصرف في جميع الأشياء لله وحده. قوله: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ فيما وقع منه ﷺ من الإذن في التخلف، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين. وليس من لازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أولاً، لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار. وقد تكون التوبة منه تعالى على النبي من باب أنه ترك ما هو الأولى، والأليق، كما في قوله: ﴿عفا الله عنك لم أنت لهم﴾ [التوبة: 43]، ويجوز أن يكون ذكر النبي ﷺ لأجل التعريض للمؤمنين بأن يتجنبوا الذنوب، ويتوبوا عما قد لا يسوه منها، وكذلك تاب الله سبحانه على المهاجرين والأنصار، فيما قد اقترفوه من الذنوب. ومن هذا القبيل ما صرح عنه ﷺ من قوله: ﴿إن الله أطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم﴾ ثم وصف سبحانه المهاجرين والأنصار بأنهم الذين اتبعوا النبي ﷺ، فلم يتخلفوا عنه، وساعة العسرة هي غزوة تبوك، فإنهم كانوا في عسرة شديدة، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة، ولم يرد ساعة بعينها، والعسرة صعوبة الأمر. قوله: ﴿من بعد ما كاد تزيع قلوب فريق منهم﴾ في كاد ضمير الشأن، وقلوب مرفوع بتزيغ عند سبويه؛ وقيل: هي مرفوعة بكاد، ويكون التقدير من بعد ما كان قلوب فريق منهم تزيغ. وقرأ الأعمش وحمزة وحفص «يزيغ» بالتحية. قال أبو حاتم: من قرأ بالياء التحية، فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد. قال النحاس: والذي لم يجزه جائز عند غيره على تنكير الجمع، ومعنى: ﴿تزيغ﴾ تتلف بالجهد والمشقة والشدة؛ وقيل معناه: تميل عن الحق وتترك المناصرة والممانعة؛ وقيل معناه: تهّم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة. وفي قراءة ابن مسعود «من بعد ما زاغت» وهم المتخلفون على هذه القراءة. وفي تكرير التوبة عليهم بقوله: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها، هذا إن كان الضمير راجعاً إلى من تقدّم ذكر التوبة عنهم، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرر. قوله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ أي: وتاب على الثلاثة الذين خلفوا: أي أخروا، ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم. قال ابن جرير: معنى خلفوا

تركوا، يقال خلفت فلاناً فارقته. وقرأ عكرمة بن خالد «خلفوا» بالتخفيف: أي أقاموا بعد نهوض رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الغزو. وقرأ جعفر بن محمد «خالفوا» وهؤلاء الثلاثة: هم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، أو ابن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وكلهم من الأنصار لم يقبل النبي ﷺ توبتهم، حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم؛ وقيل معنى خلفوا: فسدوا، مأخوذ من خلوف الفم. قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ معناه: أنهم أخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية، وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وما مصدرية: أي برحبها، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد، لأن النبي ﷺ نهى الناس أن يكالموهم. والرحب: الواسع. يقال: منزل رحب ورحيب ورحاب. وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تائبين لهم؛ لينزجروا عن المعاصي. ومعنى ضيق أنفسهم عليهم: أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة، وعبر بالظن في قوله: ﴿ووظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ عن العلم: أي علموا أن لا ملجأ ينجيهم من الله قط، إلا إلى الله سبحانه بالتوبة والاستغفار. قوله: ﴿فَم تاب عليهم ليتوبوا﴾ أي: رجع عليهم بالقبول والرحمة، وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها، ويرجعوا إلى الله فيها ويندموا على ما وقع منهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: الكثير القبول لتوبة التائبين، ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده. قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصنق ما حصل من توبة الله، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم.

وقد أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ قال: نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى. قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم، ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بنائب أننبوه ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ قال: حتى ينهأهم قبل ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته غامض ما فعلوا أو تركوا. وأخرج ابن جرير، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، أنه قال: لعمر بن الخطاب: حدثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فاصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينخر بغيره، فيعصر فرثه، فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عونك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه، فلم يرجعهما

وقد أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ قال: نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى. قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم، ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بنائب أننبوه ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ قال: حتى ينهأهم قبل ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته غامض ما فعلوا أو تركوا. وأخرج ابن جرير، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، أنه قال: لعمر بن الخطاب: حدثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فاصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينخر بغيره، فيعصر فرثه، فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عونك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه، فلم يرجعهما

في قوله: ﴿مَا كَانَ لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَرْجِعُوا وَأَنْفُسُهُمْ عَنْ نَفْسِهِمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا عَمَلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْلُوتُ مَوْطِنًا يَبْتَغِي الْكُفَّارُ وَلَا يُتَأَوَّذُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا كَيْفَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُتَصِفِينَ﴾ ولا يَطْلُوتُ نَفَقَةً صَوْبَهُ وَلَا كِبَرَهُ وَلَا يَطْلُوتُ وَادِيًا إِلَّا كَيْفَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَسْعَوْنَ ﴿١١١﴾

في قوله: ﴿مَا كَانَ لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الخ، زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ، وتحريم التخلف عنه: أي ما صح وما استقام لأهل المدينة ﴿وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كمزينة وجهينة، وأشجع وأسلم وغفار ﴿إِنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ في غزوة تبوك، وإنما

وقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق عمر بن مالك، عن بعض الصحابة قال: لما نزلت ﴿وَمَا كَانَ لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ قال هذا حين كان الإسلام قليلاً لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله ﷺ، فلما كثر الإسلام وفشا قال الله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: 122]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، وإبراهيم بن محمد الفزاري، وعيسى بن يونس السبيعي، أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾ قالوا: هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِذِّبُوا فِيكُمْ غَضَبِي وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

اختلف المفسرون في معنى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد. لأن سبحانه لما بالغ في الأمر بالجهاد والانتداب إلى الغزو، كان المسلمون إذا بعث رسول الله ﷺ سرية من الكفار ينفرون جميعاً ويتركون المدينة خالية، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك: أي ما صح لهم، ولا استقام أن ينفروا جميعاً، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة، ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة. قالوا: ويكون الضمير في قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ عائداً إلى الفرقة الباقية. والمعنى: أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو، ومن بقي من الفرقة يفتقون لطلب العلم، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو، أو يذهبون في طلبه إلى المكان الذي يجنون فيه من يتعلمون منه، ليأخذوا عنه الفقه في الدين، وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم. وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد، وهي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم، والتفقه في الدين، جعله الله سبحانه متصلاً بما دل على إيجاب الخروج إلى الجهاد، فيكون السفر نوعين: الأول: سفر الجهاد، والثاني: السفر لطلب العلم. ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر. والفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية، وبما يتوصل به إلى العالم بها من لغة ونحو، وصرف وبيان وأصول. ومعنى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ فهلا نفر، والطائفة في اللغة: الجماعة. وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه في الدين، وإنذار من لم يتفقه. فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين، وهما تعلم العلم وتعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين، فهو طالب لغرض دنيوي لا لغرض ديني، فهو كما قلت:

خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا، فلم ينفروا، بخلاف غيرهم من العرب، فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقريهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِنَفْسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، فيشحون بها ويصونونها، ولا يشحون بنفس رسول الله، ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها، يقال رغبت عن كذا: أي ترفعت عنه، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق. ويبذلوا أنفسهم بون نفسه؛ وفي هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيد إirاده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم، والتقريع الشديد، والتهبيج لهم، والإزراء عليهم. والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما يفيد السياق من وجوب المتابعة لرسول الله ﷺ: أي ذلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب، وأصناف الشدائد. والظما: العطش، والنصب: التعب، والمخمصة: المجاعة الشديدة التي يظهر عندها ضمور البطن. وقرأ عبيد بن عمير «ظماء» بالمد. وقرأ غيره بالقصر، وهما لغتان مثل خطأ وخطاء، و﴿لَا﴾ في هذا المواضع زائدة للتأكيد. ومعنى ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعة الله. قوله: ﴿وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي: لا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار باقدامهم، أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف رواحلهم، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للکفار. والموطئ: اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدراً ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾ أي: يصيبون من عدوهم قتلاً أو أسراً أو هزيمة أو غنيمه، وأصله من نلت الشيء: أتل: أي أصيب. قال الكسائي: هو من قولهم أمر منيل منه، وليس هو من التناول، إنما التناول من نلته بالعطية. قال غيره: نلت أنول من العطية، ونلته أناله: أدركته، والضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى كل واحد من الأمور المذكورة، والعمل الصالح: الحسنة المقبولة: أي إلا كتبه الله لهم حسنة مقبولة يجازيهم بها، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ لِحِرِّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن، ويصنع على المذكورين هنا صدقاً أولياً. قوله: ﴿وَلَا يَنفَقُونَ نَفَقَةً﴾ معطوف على ما قبله: أي ولا يقع منهم الإنفاق في الحرب، وإن كان شيئاً صغيراً يسيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ وهو في الأصل كل منفرج بين جبال وأكام يكون منفذاً للسيل، والعرب تقول: واد وادية على غير قياس. قال النحاس: ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعلة ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ أي: كتب لهم ذلك الذي عملوه من النفقة والسفر في الجهاد ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ به ﴿لِحَسَنٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أحسن جزاء ما كانوا يعملون من الأعمال، ويجوز أن يكون في قوله: ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ ضمير يرجع إلى عمل صالح. وقد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها، وهي قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: 122] فإنها تدل على جواز التخلف من البعض، مع القيام بالجهاد من البعض، وسيأتي.

حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْمَرْئِ
الْعَلِيمِ ﴿٩٠﴾

قوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ حكاية منه سبحانه لقية فضائح المنافقين: أي إذا ما أنزل الله على رسوله ﷺ سورة من كتابه العزيز، فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ لإخوانه منهم ﴿إِيكُم زَانَتُهُ هَذِهِ﴾ السورة النازلة ﴿إِيْمَانًا﴾ يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين، ويجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الإسلام وزيهدهم فيه، وأيكم مرفوع بالابتداء وخبره زانته. وقد تقدم بيان معنى السورة. ثم حكى الله سبحانه بعد مقاتلتهم هذه أن المؤمنين زانته إيماناً إلى إيمانهم، والحال أنهم يستبشرون مع هذه الزيادة بنزول الوحي، وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وهم: المنافقون ﴿فَزَانَتْهُمْ﴾ السورة المنزلة ﴿رَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ أي: خبثاً الذين هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد، وإظهار غير ما يضمرونه، وثبتوا على ذلك واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفاراً منافقين، والمراد بالمرض هنا: الشك والنفاق؛ وقيل المعنى: زانته إثمًا إلى إثمهم. قوله: ﴿أَوْ لَا يَرُونَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قرأ الجمهور «يرون» بالتحية. وقرأ حمزة ويعقوب بالفوقية خطاباً للمؤمنين. وقرأ الأعمش «أو لم يروا». وقرأ طلحة بن مصرف «أو لا ترى» خطاباً لرسول الله ﷺ، وهي قراءة ابن مسعود. ومعنى: ﴿يَفْتَنُونَ﴾: يختبرون، قاله ابن جرير، وغيره، أو يبتليهم الله سبحانه بالقطر والشدة، قاله مجاهد. وقال ابن عطية بالأمراض والأوجاع. وقال قتادة، والحسن، بالغزو والجهاد مع النبي ﷺ، ويرون ما وعد الله من النصر ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ بسبب ذلك ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ وثم لعطف ما بعدها على يرون، والهمزة في أو لا يرون للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر: أي لا ينتظرون ولا يرون، وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق، وإهمالهم للنظر والاعتبار، ثم نكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد نكره لما كانوا يقولونه، فقال: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ نظر بعضهم إلى بعض: أي: نظر بعض المنافقين إلى البعض الآخر قائلين: ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين، لننصرف عن المقام الذي ينزل فيه الوحي، فإنه لا صبر لنا على استماعه، ولننكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك؛ وقيل المعنى: وإذا أنزلت سورة نكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم، قال بعض من يحضر مجلس رسول الله ﷺ للبيض الآخر منهم: هل يراكم من أحد؟ ثم انصرفوا إلى منازلهم. وحكى ابن جرير، عن بعض أهل العلم، أنه قال: ﴿نَظَرُ﴾ في هذه الآية موضوع موضع قال: أي قال بعضهم لبعض هل يراكم من أحد. قوله: ﴿ثُمَّ لَنْصَرِفُوا﴾ أي: عن ذلك المجلس إلى

وطالب الدنيا بعلم الدين أي يائس كمن غدا لنعله يمسح بالقلانس ومعنى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الترجي لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب فعله فيترك، أو فيما يجب تركه فيفعل، ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا في مقاتلة من يليهم من الكفار، وأن يأخذوا في حربهم بالغلظة والشدة، والجهاد واجب لكل الكفار، وإن كان الابتداء بمن يلي المجاهدين منهم أهم وأقدم، ثم الأقرب فالأقرب؛ ثم أخبرهم الله بما يقوي عزائمهم، ويثبت أقدامهم فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: بالنصرة لهم، وتأييدهم على علومهم، ومن كان الله معه لم يقم له شيء.

وقد أخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: نسخ هؤلاء الآيات: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41] ﴿وَلَنْ لَا تَنْفِرُوا بَعْدَكُمْ﴾ [التوبة: 39] قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ لِيَنْفِرُوا كَافَةً﴾ يقول: لتنفّر طائفة، وتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ، فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون في الدين، وينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، ولعلمهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحوده. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عنه، نحوه من طريق أخرى بسياق آتم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، أيضاً في هذه الآية قال: ليست هذه الآية في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين، أجديت بلادهم؛ فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يخلوا بالمدينة من الجهد، ويقبلوا بالإسلام وهم كاذبون، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم، فانزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين، فردهم إلى عشائريهم وحذر قومهم أن فعلوا فعلهم، فنلك قوله: ﴿وَلْيَنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وفي الباب روايات عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ قال: الأدنى، فالأدنى. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، مثله. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عمر، أنه سئل عن غزو الديلم فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ قال: الروم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غُلَظَةً﴾ قال: شدة.

وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَوَيْهَرُ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ إِيمَانًا فَآثَا
الَّذِينَ مَا أَتَوْا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَا
يَرُونَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ
وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٩٣﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِمَّنْ
بَيْنَكُمْ يَرَى أَحَدٌ ثُمَّ انْصَرَفُوا مَرَكَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَفْقَهُونَ ﴿٩٤﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا
عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩٥﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ

وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن حنيفة، قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فيضل بها فئلم من الناس كثير. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿نَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ قال: هم المنافقون. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: لا تقولوا انصرفنا من الصلاة، فإن قوماً انصرفوا، صرف الله قلوبهم ولكن قولوا قضينا الصلاة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عمر، نحوه. وأقول: الانصراف يكون عن الخير، كما يكون عن الشر، وليس في إطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق إلا على نحو ذلك، وإلا لزم أن كل لفظ يستعمل في لغة العرب في الأمور المتعددة إذا استعمل في القرآن في حكاية ما وقع من الكفار، لا يجوز استعماله في حكاية ما وقع من أهل الخير، كالرجوع والذهاب، وال دخول والخروج، والقيام والقعود. واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله، ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى. وأخرج عبد بن حميد، والحاثر بن أبي أسامة، في مسنده، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، في دلائل النبوة، وابن عساکر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ مضرها وربيعها ويمانيها. وأخرج ابن سعد عنه، في قوله: ﴿مَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: قد ولدتموه يا معشر العرب. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، وأبو الشيخ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» وهذا فيه انقطاع، ولكنه قد وصله الحافظ الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والراعي، فقال: حدثنا أبو أحمد، يوسف بن هرون بن زياد، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي يحيى، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي». وأخرج ابن مردويه، عن أنس، قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ فقال علي بن أبي طالب: يا رسول الله ما معنى من أنفسكم؟ قال: نسباً وصهراً وحسباً، ليس في ولا في آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح». وأخرج الحاكم، عن ابن عباس، «أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: من أعظمكم قدراً». وأخرج ابن سعد عنه نحو حديث علي الأول. وأخرج الطبراني عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر، عن عائشة، نحوه. وفي الباب أحاديث بمعناه، ويؤيد ما في صحيح مسلم، وغيره، من حديث وائلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل،

من آلهم، أو عن ما يقتضى الهداية والإيمان إلى ما يقتضى الكفر والنفاق، ثم دعا الله سبحانه عليهم، فقال: ﴿صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صرفها عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية، وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها؛ وقيل المعنى: أنه خذلهم عن قبول الهداية؛ وقيل: هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه، كقولهم: قاتله الله. ثم نكر سبحانه السبب الذي لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية، أو السبب الذي لأجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله: ﴿صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما يسمعون له لعدم تدبرهم وإنصافهم، ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿رَسُولٌ﴾ أرسله الله إليكم، له شأن عظيم ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم في كونه عربياً وإلى كون هذه الآية خطاباً للعرب ذهب جمهور المفسرين. وقال الزجاج: هي خطاب لجميع العالم. والمعنى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ﴾ جنسكم في البشرية ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ما مصيرية. والمعنى: شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم، ومبعوثاً لهدایتكم، والعنت: التعب لهم والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه، أو بعذاب الآخرة بالنار، أو بمجموعهما ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: شحيح عليكم بأن تدخلوا النار، أو حريص على إيمانكم. والأول: أولى، وبه قال الفراء. والرهوف: الرحيم، قد تقدم بيان معناهما: أي هذا الرسول ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم أيها العرب أو الناس ﴿رُءُوفٌ وَحِيمٌ﴾ ثم قال مخاطباً لرسوله ومسلماً له، ومرشداً له، إلى ما يقوله عند أن يعصى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عنكم ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: كافي الله سبحانه المنفرد بالالوهية ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فوّضت جميع أموري ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وصفه بالعظم، لأنه أعظم المخلوقات. وقد قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة لعرش. وقرأ ابن محيصن بالرفع صفة لرب. وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَإِنَّمَا لِلَّذِينَ آمَنُوا فَزَانَتْهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ قال: كان إذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم الله إيماناً وتصديقاً، وكانوا بها يستبشرون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿رَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ قال: شكاً إلى شكهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ بَانَهُمْ يَفْتَنُونَ﴾ قال: يقتلون. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، نحوه وقال: بالسنة والجوع. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، قال: بالعدو. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: بالغزو في سبيل الله. وأخرج أبو الشيخ، عن بكار بن مالك، قال: يمرضون في كل عام مرة أو مرتين. وأخرج ابن مردويه، عن أبي سعيد، قال: كانت لهم في كل عام كذبة أو كذبتان. وأخرج ابن جرير،

تفسير سورة يونس

هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ﴾ إلى آخره [يونس: 94 - 96]، هكذا روى القرطبي في تفسيره عن ابن عباس. وحكي عن مقاتل أنها مكية إلا آيتين، وهي قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ﴾ [يونس: 94] فإنها نزلت في المدينة. وحكي عن الكلبي أنها مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُمْ من لا يؤمن به﴾ [يونس: 40] فإنها نزلت بالمدينة. وحكي عن الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر، أنها مكية من غير استثناء. وأخرج النحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: نزلت سورة يونس بمكة. وأخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال: كانت سورة يونس بعد السابعة. وأخرج ابن مردويه، عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن الأحنف، قال: صليت خلف عمر غداة قرأ يونس وهود وغيرهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ الَّذِي كَتَبَ الْحَكِيمَ ۝ أَكَا لِنَّاسٍ عَجَبًا أَنْ أَنْزَلْنَا رِجْلَ نَبْتِهِمْ أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ جَزَاءٌ مِنْ رَبِّهِمْ أَلَّا الْكَافِرُونَ ۝ إِنَّ هَذَا لَسَجْدٌ لِلَّذِينَ ۝ إِنْ رَكِبُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بِذِي الْأَمْرِ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَقُولُ لِلسَّمَاءِ أَنْهَ رِجْلَكُمْ فَأَمْسُدْهُ فَلَا تَذْكُرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَأْثُورًا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝

قوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ قد تقدّم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة في أوائل السور في أول سورة البقرة، فلا نعيده. ففيه ما يغني عن الإعادة. وقد قرأ بالإمالة أبو عمرو، وحمزة، وخلف، وغيرهم. وقرأ جماعة من غير إمالة؛ وقد قيل: إن معنى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أنا الله أرى. قال النحاس: ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول، لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب، وأنشد:

بالخير خيرات وإن شرافا

أي: وإن شراً فشر. وقال الحسن وعكرمة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ قسم، وقال سعيد عن قتادة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسم للسورة، وقيل: غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر الله بعلمه، وقد اتفق القراء على أن ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ليس بآية، وعلى أن طه آية، وفي مقنع أبي عمر، والداني، أن العائنين لطه آية هم: الكوفيون فقط، قيل: ولعل الفرق أن ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لا يشاكل مقاطع الآي التي بعده، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والتباعد للتعظيم، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ما بعده. وقال

واصفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصله من بني كنانة قريشاً، واصله من قريش بني هاشم، واصله من بني هاشم. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين خلق القبائل جعلني من خير قبيلة، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم، فانا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً» وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل من طريق يوسف بن مهران، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، قال: آخر آية أنزلت على النبي ﷺ، وفي لفظ: آخر ما أنزل من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، وروي عنه نحوه من طريق أخرى؛ أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن الضريس، في فضائله، وابن أبي داود في المصاحف، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والخطيب في تلخيص المتشابه، والضياء في المختارة. وأخرج ابن مردويه، عن سعد بن أبي وقاص، قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءت بهيمة فقالوا له: إنك قد نزلت بين أظهرنا فاثق لنا نأمنك وتأمنا قال: ولم سألتهم هذا؟ قالوا: نطلب الأمن، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يعني: الكفار تولوا عن النبي ﷺ. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وقد رويت أحاديث كثيرة في صفة العرش وماهيته، وقدره.

وإلى هنا انتهى الثلث الأول من التفسير المسمى: «فتح القدير» الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، بقلم مؤلفه: محمد بن علي الشوكاني، غفر الله لهما. وكان تمام هذا الثلث في نهار يوم الثلاثاء لعله يوم عشرين من شهر محرم سنة 1227 هـ.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين.

الحمد له: انتهى سماعاً على مؤلفه. أطال الله مدته في شهر جمادى الأولى من عام سنة 1235 هـ.

يحيى بن علي الشوكاني

غفر الله لهما أمين

مجاهد وقتادة: أراد التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة، فإن تلك إشارة إلى غائب مؤنث، وقيل: **«تلك»** بمعنى هذه: أي هذه آيات الكتاب الحكيم، وهو القرآن، ويؤيد كون الإشارة إلى القرآن أنه لم يجر للكتب المتقدمة نكر، وأن الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره، و**«الحكيم»** المحكم بالحلال والحرام، والحدود والأحكام، قاله أبو عبيدة وغيره؛ وقيل: الحكيم معناه الحاكم، فهو فعيل بمعنى فاعل، كقوله: **«وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه»** [البقرة: 213]؛ وقيل: الحكيم بمعنى المحكوم فيه، فهو فعيل بمعنى مفعول: أي حكم الله فيه بالعدل والإحسان، قاله الحسن وغيره؛ وقيل: الحكيم ذو الحكمة؛ لاشتماله عليها، والاستفهام في قوله: **«إكان للناس عجباً»** لإنكار العجب مع ما يفيد من التقرير والتوبيخ، واسم كان **«أن أوحينا»** وخبرها **«عجباً»** أي: إكان إيحائنا عجباً للناس. وقرأ ابن مسعود «عجب» على أنه اسم كان، على أن كان تامة، و**«أن أوحينا»** بدل من عجب. وقرئ بإسكان الجيم من «رجل» في قوله: **«إلى رجل منهم»** أي: من جنسهم، وليس في هذا الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضى العجب، فإنه لا يلبس الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه، إلا من كان من جنسه، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة، أو من الجن، ويتعذر المقصود حينئذ من الإرسال، لأنهم لا يأنسون إليه، ولا يشاهدونه، ولو فرضنا تشككه لهم وظهوره، فيما أن يظهر في غير شكل النوع الإنساني، وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنفسهم، أو في الشكل الإنساني، فلا بد من إنكارهم لكونه في الأصل غير إنسان، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم، وإن كان لكونه يتيماً أو فقيراً، فذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعاً من خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره وبالعاقبة في كمال الصفات إلى حد يقصر عنه من كان غنياً، أو كان غير يتيماً، وقد كان لرسول الله ﷺ قبل أن يصطفيه الله بإرساله من خصال الكمال عند قریش ما هو أشهر من الشمس، وأظهر من النهار، حتى كانوا يسمونه الأمين: قوله: **«إن أنذر للناس»** في موضع نصب بنزع الخافض: أي بأن أنذر الناس، وقيل هي المفسرة لأن في الإيحاء معنى القول، وقيل: هي المخففة من الثقيلة، قوله: **«قدم صدق»** أي: منزل صدق، وقال الزجاج: درجة عالية، ومنه قول ذي الرمة:

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحساب العالي طمت على البحر
وقال ابن الأعرابي: القدم المتقدم في الشرف، وقال أبو عبيدة والكسائي: كل سابق من خير أو شر، فهو عند العرب قدم: يقال: لفلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق، وقدم خير، وقدم شر؛ ومنه قول العجاج:

زل بنو العوام عند آل الحكم وتركوا الملك لملك ذي قدم
وقال ثعلب: القدم كل ما قدمت من خير، وقال ابن الأنباري: القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تلخير، ولا إبطاء، وقال قتادة: سلف صدق، وقال الربيع: ثواب صدق،

وقال الحسن: هو محمد ﷺ، وقال الحكيم الترمذي: قدمه ﷺ في المقام المحمود، وقال مقاتل: أعمالاً قاموها واختاره ابن جرير، ومنه قول الواضح:

صل لذي العرش واتخذ قوماً ينجيك يوم الخصام والزلزل
وقيل غير ما تقدم مما لا حاجة إلى التطويل بإيراد. قوله: **«قال الكافرون إن هذا لسحر مبين»**. قرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وابن محيصن «لساحر» على أنهم أرادوا رسول الله ﷺ باسم الإشارة. وقرأ الباقون «لسحر» على أنهم أرادوا القرآن، وقد تقدم معنى السحر في البقرة، وجملة: **«قال الكافرون»** مستأنفة كأنه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجب؛ وقال القفال: فيه إضمار، والتقدير: فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك. ثم إن الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار من الإيحاء إلى رجل منهم، فقال: **«إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام»** أي: من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوّره، كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلاً للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول، وقد تقدم تفسير هذه الآية في الأعراف في قوله: **«إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش»** [الأعراف: 54] فلا تعيده هنا، ثم نكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه فقال: **«يبين الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذن»**. وترك العاطف، لأن جملة يدبر كالتفسير والتفصيل، لما قبلها؛ وقيل: هي في محل نصب على الحال من ضمير استوى؛ وقيل: مستأنفة جواب سؤال مقدر، وأصل التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها؛ لتقع على الوجه المقبول. وقال مجاهد: يقضيه ويقدره وحده، وقيل: يبعث الأمر، وقيل: ينزل الأمر، وقيل: يأمر به ويمضيه، والمعنى متقارب، واشتقاقه من الدبر، والأمر الشأن، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض، والعرش، وسائر الخلق. قال الزجاج: إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون إن الأصنام شفعائنا عند الله، فرد الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذن، لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب. وقد تقدم معنى الشفاعة في البقرة، وفي هذا بيان لاستبداده بالأمر في كل شيء سبحانه وتعالى، والإشارة بقوله: **«تلكم»** إلى فاعل هذه الأشياء من الخلق والتدبير: أي الذي فعل هذه الأشياء العظيمة **«الله ربكم»** واسم الإشارة مبتدأ، وخبره: الاسم الشريف، وربكم بدل منه، أو بيان له، أو خبر ثان، وفي هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله: **«إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض»** ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبدیع صنعه وعظيم اقتداره، فكيف يعبدون الجُمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر؛ والاستفهام في قوله: **«أفلا تذكرون»** للإنكار، والتوبيخ، والتقرير؛ لأن من له أدنى تذكر، وأقل اعتبار، يعلم بهذا ولا يخفى عليه، ثم بين لهم ما يكون آخر

إليهم﴾ [الأنبياء: 7] الآية، فلما كثر الله سبحانه عليهم الحج قالوا: وإذا كان بشراً، فقير محمد كان أحق بالرسالة، ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: 31] يقول: أشرف من محمد، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل الله رداً عليهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ [الزخرف: 32] الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ قال: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول. وأخرج ابن جرير، عنه، أيضاً قال: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن مسعود، قال: القدم هو العمل الذي قدموا. قال الله سبحانه: ﴿نكتب ما قدموا وأثأرهم﴾ [يس: 12] والآثار ممشاهم. قال: مشى رسول الله ﷺ بين أسطواناتين من مسجدهم ثم قال: هذا أثر مكتوب. وأخرج ابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، في قوله: ﴿قدم صدق﴾ قال: محمد ﷺ يشفع لهم. وأخرج ابن مردويه، عن علي بن أبي طالب مثله. وأخرج الحاكم، وصححه، عن أبي بن كعب، قال: سلف صدق. والروايات عن التابعين وغيرهم في هذا كثيرة، وقد قدمنا أكثرها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿ينبئ الأمر﴾ قال: يقضيه وحده، وفي قوله: ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ قال: يحييه ثم يميتة ثم يحييه.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ السَّمْعَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَّتِ السَّجِينَ وَالْجَائِبَاتِ مَا عَلَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُنْفِخُ الْأَنبُتَ لِقَوْرِ يَمْلِكُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّ فِي آيَاتِهِ آيَاتٍ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْرِ يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

نكرها هنا بعض نعمة على المكلفين، وهي مما يستدل به على وجوده ووحدته، وقدرته وعلمه، وحكمته بإتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام، بعدما ذكر قبل هذا إيداعه للسموات والأرض، واستواءه على العرش، وغير ذلك. والضياء قيل: جمع ضوء، كالسياط والحياض. وقرأ قنبل عن ابن كثير «ضياء» بجعل الياء همزة مع الهمزة، ولا وجه له لأن ياءه كانت واواً مفتوحة، وأصله: «ضواء» فقلبت ياء لكسر ما قبلها. قال المهدوي: ومن قرأ ضياء بالهمزة فهو مقلوب قَدِمَتِ الهمزة التي بعد الألف، فصارت قبل الألف، ثم قلبت الياء همزة، والأولى: أن يكون ضياء مصدراً لا جمعا، مثل قام يقوم قياماً، وصام يصوم صياماً، ولا بد من تقدير مضاف: أي: جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور إلا أن يحمل على المبالغة، وكأنهما جعلتا نفس الضياء والنور. قيل: الضياء أقوى من النور، وقيل الضياء هو ما كان بالذات، والنور ما كان بالعرض، ومن هنا قال الحكماء: إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس. قوله: ﴿وقدره منازل﴾ أي: قدر مسيره في منازل، أو قدره ذا منازل، والضمير راجع إلى القمر، ومنازل القمر:

أمرهم بعد الحياة الدنيا، فقال: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى، وانتصاب: ﴿وعد الله﴾ على المصدر؛ لأن في قوله: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ معنى الوعد أو هو منصوب بفعل مقدر، والمراد بالمرجع الرجوع إليه سبحانه: إما بالموت، أو بالبعث، أو بكل واحد منهما، ثم أكد ذلك الوعد بقوله: ﴿حقاً﴾ فهو تأكيد لتأكيد، فيكون في الكلام من الوكادة ما هو الغاية في ذلك. وقرأ ابن أبي عبيدة ﴿وعد الله حق﴾ على الاستئناف، ثم علل سبحانه ما تقدم بقوله: ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي: إن هذا شأنه يبتدئ خلقه من التراب ثم يعيده إلى التراب، أو معنى الإعادة الجزاء يوم القيامة. قال مجاهد: ينشئه ثم يميتة، ثم يحييه للبعث؛ وقيل ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال. وقرأ يزيد بن القعقاع: أنه يبدأ الخلق بفتح الهمزة، فتكون الجملة في وضع نصب بما نصب به وعد الله: أي وعدهم أنه يبدأ الخلق ثم يعيده، ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق، وأجاز الفراء أن تكون «أن» في موضع رفع، فتكون اسماً. قال أحمد بن يحيى بن ثعلب يكون التقدير حقاً إبداءه الخلق، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال: ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ أي: بالعدل الذي لا جور فيه ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب ليم بما كانوا يكفرون﴾ يحتمل أن يكون الموصول الآخر معطوفاً على الموصول الأول: أي ليجزي الذين آمنوا، ويجزي الذين كفروا، وتكون جملة: ﴿لهم شراب من حميم﴾ في محل نصب على الحال، هي وما عطف عليها: أي وعذاب اليم، ويكون التقدير هكذا، ويجزي الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب وهذا العذاب، ولكن يشكل على ذلك أن هذا الشراب وهذا العذاب الاليم هما من الجزاء، ويمكن أن يقال: إن الموصول في ﴿والذين كفروا﴾ مبتدأ وما بعده خبره، فلا يكون معطوفاً على الموصول الأول، والباء في ﴿بما كانوا يكفرون﴾ للسببية: أي بسبب كفرهم، والحميم: الماء الحار، وكل مسخن عند العرب، فهو حميم.

وقد أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الزَّيْلُ﴾ قال: فواتح أسماء من أسماء الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن النجار في تاريخه، عنه، قال: في قوله: ﴿الزَّيْلُ﴾ أنا الله أرى. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبير، مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاک، مثله أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ قال: يعني هذه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ قال: الكتب التي خلت قبل القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ الآية ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى

فيها، وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم، بل جعلها لهم دار عمل، وإذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهي.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لِلشَّمْسِ ضِيَاءً وَالْقَمَرِ نُورًا﴾ قال: لم يجعل الشمس كهية القمر لكي يعرف الليل من النهار، وهو قوله: ﴿فَمَحُونَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: 12]. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس، في الآية قال: وجوهما إلى السموات، واقفيتهما إلى الأرض. وأخرج ابن مروي، عن عبد الله بن عمرو، مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن خليفة العبد، قال: لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فعلاً كل شيء، وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء والصيف، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم ببرهم.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا رَضُوا بِالْمُوتِ وَاطْمَأَنَّنُوا بِهِمْ أَذًى لَهُمْ هُمْ عَنْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يُغْفَرُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا سَوَاءً مِمَّنْ كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩﴾ تَعْلَمُ الْآثَانُ فِي جَنَّةِ النَّبِيِّ ﴿١٠﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَدَعْوَتُهُمْ أَنْ لَقَدْ رَئَى الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾

شرح الله سبحانه في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد، ومن يؤمن به، وقدم الطائفة التي لم تؤمن، لأن الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه، ويهملون النظر والتفكر فيما لا ينبغي إهماله مما هو مشاهد لكل حي طول حياته، فيتسبب عن إهمال النظر، والتفكر الصائق: عدم الإيمان بالمعاد، ومعنى الرجاء هنا الخوف، ومنه قول الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل
وقيل يرجون: يطمعون، ومنه قول الشاعر:

أترجو بني مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة وراثيا
فالمعنى على الأول: لا يخافون عقاباً. وعلى الثاني: لا يطمعون في ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقة؛ فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى: لا يخافون رؤيتنا أو لا يطمعون في رؤيتنا؛ وقيل المراد بالرجاء هنا: التوقع، فيدخل تحته الخوف والطمع، فيكون المعنى: ﴿لا يرجون لقاءنا﴾ لا يتوقعون لقاءنا، فهم لا يخافونه، ولا يطمعون فيه ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ أي: رضوا بها عرضاً عن الآخرة، فعملوا لها ﴿واطمأننوا بها﴾ أي: سكنت أنفسهم إليها، وفرحوا بها ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ لا يعتبرون بها، ولا يتفكرون فيها ﴿أولئك ماوهم﴾ أي: ماثوهم، ومكان إقامتهم النار، والإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة من عدم الرجاء، وحصول الرضا والاطمئنان، والغفلة ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي: بسبب ما

هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به، وجملتها ثمانية وعشرون وهي معروفة، ينزل القمر في كل ليلة منها منزلاً لا يخطأه، فيبدو صغيراً في أول منازلها، ثم يكبر قليلاً قليلاً حتى يبدو كاملاً، وإذا كان في آخر منازلها رق واستقوس، ثم يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملاً، أو ليلة إذا كان ناقصاً، والكلام في هذا يطول، وقد جمعنا فيه رسالة مستقلة جواباً عن سؤال أورده علينا بعض الأعلام. وقيل: إن الضمير راجع إلى كل واحد من الشمس والقمر، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وإذا راوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ [الجمعة: 11]، وفي قول الشاعر:

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف
وقد قلّمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير، والأولى رجوع الضمير إلى القمر وحده، كما في قوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ [يس: 39]، ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير، فقال: ﴿لتعلموا عدد للسنين والحساب﴾ فإن في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى، وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يخفى، ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه، لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم. والسنة تحصل من اثني عشر شهراً، والشهر يتحصل من ثلاثين يوماً إن كان كاملاً، واليوم يتحصل من ساعات معلومة هي: أربع وعشرون ساعة لليل والنهار، قد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة وأيام النقصان، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف؛ ثم بين سبحانه أنه ما خلق الشمس والقمر، واختلاف تلك الأحوال إلا بالحق والصواب، دون الباطل والعبث، فالإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى المذكور قبله، واستثناء مفرغ من أعم الأحوال، ومعنى تفصيل الآيات تبينها، والمراد بالآيات التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، وتدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولاً أولاً في ذلك. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب «يفصل» بالتحته. وقرأ ابن السميع «تفصل» بالفوقية على البناء للمفعول. وقرأ الباقر بالنون. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم، القراءة الأولى، ولعل وجه هذا الاختيار أن قبل هذا الفعل ﴿ما خلق الله ذلك﴾ إلا بالحق. وبعده ﴿وما خلق الله في السموات والأرض﴾ ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وما خلق في السموات والأرض من تلك المخلوقات، فقال: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض آيات لقوم يتقون﴾ أي: الذين يتقون الله سبحانه، ويجتنبون معاصيه، وخصهم بهذه الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكر في مخلوقات الله سبحانه حرراً منهم عن الوقوع في شيء مما يخالف مراد الله سبحانه، ونظراً لعاقبة أمرهم، وما يصلحهم في معادهم. قال القفال: من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس

﴿١٠﴾ وَلَوْ يَسْأَلُ اللَّهُ لَكَ الْإِنْسَانُ الشَّرَّ أَلَسْتُمْ بِأَعْلَمَ بِهِمْ إِنَّهُمْ
أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا ذِكْرُ اللَّهِ لَتَكُنَّ النَّاسُ
جَحِيمًا ﴿١١﴾ وَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِالسَّوءِ غَوَاةً شَقِيظَةً
﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا تَلَوْنَا لَهَا
أَيَّامَ مَعْدُودَتِهَا ﴿١٣﴾ وَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِالسَّوءِ غَوَاةً
شَقِيظَةً ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا
تَلَوْنَا لَهَا أَيَّامَ مَعْدُودَتِهَا ﴿١٥﴾ وَإِنَّمَا يَأْمُرُ
بِالسَّوءِ غَوَاةً شَقِيظَةً ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ
مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا تَلَوْنَا لَهَا أَيَّامَ مَعْدُودَتِهَا ﴿١٧﴾

كانوا يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد، وأما حال الذين يؤمنون به، فقد بيّنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: فعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم من التفكير والاعتبار، فيما تقم نكره من الآيات ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي يقتضيها الإيمان، وهي ما شرع الله لعباده المؤمنين ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح، فيصلون بذلك إلى الجنة، وجملة: ﴿وَتَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ مستأنفة، أو خبر ثان، أو في محل نصب على الحال. ومعنى من تحتهم: من تحت بساتينهم، أو من بين أيديهم؛ لأنهم على سرر مرفوعة. وقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ متعلق بتجري أو يبهديهم، أو خبر آخر أو حال من الأنهار. قوله: ﴿دَعَاؤُهُمْ﴾ أي: دعاؤهم وندائهم، وقيل: الدعاء العباد، كقوله تعالى: ﴿وَأَعِزِّلْكُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: 48] وقيل معنى دعاؤهم هنا: الادّعاء الكائن بين المتخاصمين، والمعنى: أن أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعائب والإقرار له بالإلهية. قال القفال: أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما، وقيل معناه: طريقتهم وسيرتهم، وذلك أن المدّعي للشيء مواظب عليه، فيمكن أن تجعل الدعوى كناية عن الملازمة، وإن لم يكن في قوله: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ دعوى ولا دعاء؛ وقيل معناه: تمنّيه كقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ [يس: 57] وكان تمنّيه في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه، وهو مبتدأ وخبره سبحانه الله، و﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة. والمعنى على القول الأول: أن دعاءهم الذي يدعون به في الجنة هو تسبيح الله وتقديسه، والمعنى: نسبك يا الله تسبيحاً. قوله: ﴿وَتَحْتِهِمْ فِيهَا سِلَاحٌ﴾ أي: تحية بعضهم لبعض، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، أو تحية الله أو الملازمة لهم، فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول. وقد مضى تفسير هذا في سورة النساء، قوله: ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ رِبًّا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين. قال النحاس: مذهب الخليل أن «أن» هذه مخففة من الثقيلة. والمعنى: أنه الحمد لله. وقال محمد بن يزيد المبرد: ويجوز أن تعملها خفيفة عملها ثقيلة. والرفع أقيس، ولم يحك أبو عبيد إلا التخفيف. وقرأ ابن محيصن بتشديد أن ونصب الحمد.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَرِضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: مثل قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: 15] الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، أيضاً في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال: يكون لهم نور يمشون به. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾

حذف، والتقدير: ﴿ولو يعجل الله للناس الشرَّ تعجيلاً مثل استعجالهم بالخير﴾ ثم حذف تعجيلاً وأقام صفته مقامه، ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه قال: هذا مذهب الخليل وسيبويه، وهو قول الأخفش والفراء: قالوا: وأصله كاستعجالهم، ثم حذف الكاف ونصب. قال الفراء: كما تقول ضربت زيداً ضربك: أي كضربك، ومعنى ﴿لقضي إليهم أجلهم﴾ لاهلكوا، ولكنه سبحانه لم يعجل لهم الشرَّ فأمهلوا؛ وقيل معناه: أميتوا. وقرأ ابن عامر «لقضي» على البناء للفاعل، وهي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله: ﴿ولو يعجل الله﴾. قوله: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ الفاء للعطف على مقدر يدل عليه الكلام، لأن قوله: ﴿ولو يعجل الله﴾ يتضمن نفى التعجيل، فكانه قيل: لكن لا يعجل لهم الشرَّ، ولا يقضي إليهم أجلهم، فنذرهم الخ: أي فنتركهم ونمهلهم، والطغيان: التناول، وهو العلوُّ والارتفاع، ومعنى ﴿يعمهون﴾ يتحIRON: أي نتركهم يتحIRON في تناولهم وتكبرهم، وعدم قبولهم للحق استدراجاً لهم منه سبحانه وخذلاناً؛ ثم بين الله سبحانه أنهم كانوا في استعجال الشرِّ، ولو أصابهم ما طلبوه لأظهروا العجز والجزع، فقال: ﴿وإذا مس الإنسان الضرُّ﴾ أي: هذا الجنس الصائق على كل ما يحصل الضرر به ﴿دعانا لجنبه﴾ اللام للوقت، كقوله جثته لشهر كذا، أو في محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعدة أو قائماً عليه، وتكون اللام بمعنى على: أي دعانا مضطجعا ﴿أو قاعدة أو قائماً﴾ وكأنه قال: دعانا في جميع الأحوال المذكورة وغيرها، وخصَّ المذكورة بالذكر لأنها الغالب على الإنسان، وما عداها نادر كالركوع والسجود، ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجعا غير قادر على القعود، وقاعداً غير قادر على القيام، وقائماً غير قادر على المشي، والأوّل: أولى. قال الزجاج: إن تعديل أحوال الدعاء أبلغ من تعديل أحوال المضرة، لأنه إذا كان داعياً على الدوام، ثم نسي في وقت الرخاء كان أعجب. قوله: ﴿فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كان لم يدعنا إلى ضرِّ مسه﴾ أي: فلما كشفنا عنه ضره الذي مسه، كما تفيده الفاء، مضى على طريقته التي كان عليها قبل أن يمسّه الضرُّ، ونسي حالة الجهد والبلاء، أو مضى عن موقف الدعاء والتضرُّع، لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به، كأنه لم يدعنا عند أن مسّه الضرُّ إلى كشف ذلك الضرُّ الذي مسه. وقيل معنى ﴿مرَّ﴾ استمرَّ على كفره، ولم يشكر، ولم يتعظ. قال الأخفش: «أن» في ﴿كان لم يدعنا﴾ هي المخففة من الثقيلة، والمعنى: كأنه انتهى. والجملة التشبيهية في محل نصب على الحال، وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر، بل تنفق لكثير من المسلمين، تلين السنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلُّل عند نزول ما يكرهون بهم. فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرُّع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم، من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من

الضرِّ، وبغ ما أصابهم من المكروه. وهذا مما يدلُّ على أن الآية تعمُّ المسلم والكافر، كما يشعر به لفظ الناس، ولفظ الإنسان، اللهم أوزعنا شكر نعمك، وإنكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء، حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواه، ولا نقدر على غيره، وما أغناك عنه وأحوجنا إليه و ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: 7] والإشارة بقوله: ﴿كنك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ إلى مصدر الفعل المنكور بعده كما مرَّ غير مرة، أي: مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم. والمسرف في اللغة: هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، ومحل كذلك النصب على المصدرية. والتزيين هو: إما من جهة الله تعالى على طريقة التحلية وعدم اللطف بهم، أو من طريق الشيطان بالسوسة، أو من طريق النفس الامارة بالسوء. والمعنى: أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء، والغفلة عن الشكر، والاشتغال بالشهوات. ثم نكر سبحانه ما يجري مجرى الردع والزجر، عما صنعه هؤلاء، فقال: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾ يعني: الأمم الماضية من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي ﷺ: أي أهلكناهم من قبل زمانكم؛ وقيل: الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر، و ﴿لما﴾ ظرف لاهلكنا: أي أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب، والتجاري على الرسل، والتناول في المعاصي من غير تأخير لإهلاكهم، كما أخرجنا إهلاككم، والواو في ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ للحال بإضمار قد: أي وقد جاءتهم رسلهم الذين أرسلناهم إليهم بالبينات: أي بالآيات البينات الواضحات الدالة على صدق الرسل، وقيل الواو للعطف على ﴿ظلموا﴾ والأوّل: أولى؛ وقيل المراد بالظلم هنا: هو الشرك، والواو في ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ للعطف على ظلموا، أو الجملة اعتراضية، واللام لتأكيد النفي: أي وما صَحَّ لهم وما استقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك، وسلب الانطاف عنهم ﴿كنك نجزي القوم المجرمين﴾ أي: مثل ذلك الجزاء نجزي القوم المجرمين، وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم، وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره من الكفار، أو لكفار مكة على الخصوص، ثم خاطب سبحانه الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: ﴿ثم جعلناكم فِئتين﴾ أي: استخلفناكم في الأرض بعد تلك القرون التي تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها، والخلاف جمع خليفة، وقد تقدّم الكلام عليه في آخر سورة الأنعام، واللام في ﴿لننظر كيف تعملون﴾ لام كي: أي: لكي ننظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشرِّ، و ﴿كيف﴾ في محل نصب بالفعل الذي بعده: أي لننظر أيَّ عمل تعملونه، أو في محل نصب على الحالية: أي على أيَّ حالة تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف، ثم حكى الله سبحانه نوعاً ثالثاً من تعنتهم وتلاعبهم بآيات الله، فقال: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عنهم، والمراد بالآيات: الآيات التي في الكتاب العزيز: أي وإذا تلا

اللام والهمزة. والمعنى: ولو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتله عليكم، فتكون اللام لام التأكيد دخلت على ألف أفعل. وقد قرئ «أروكم» بالهمزة فقيلاً: هي منقلبة عن الألف، لكونهما من واحد، ويحتمل أن يكون من درأته إذا نفعته، وأدراته إذا جعلته دارياً. والمعنى: لأجعلكم بتلاته خصماء تدرعونني بالجدال وتكذبونني، وقرأ ابن عباس، والحسن **﴿ولا أدرككم به﴾** قال أبو حاتم: أصله ولا أدريتمكم به، فأبدل من الياء ألفاً، قال النحاس: وهذا غلط. والرواية عن الحسن «ولا أدرككم» بالهمزة. قوله: **﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله﴾** تعليل لكون ذلك بمشيئة الله، ولم يكن من النبي **﴿إلا التبليغ﴾** أي قد أقمت فيما بينكم عمراً من قبله: أي زماناً طويلاً، وهو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفونني بالصدق والأمانة، لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب **﴿أفلا تعقلون﴾** الهمزة للتقريع والتوبيخ: أي أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبني لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدة الطويلة بالصدق والأمانة، وعدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل وتعلمي لما عند أهلها من العلم، ولا طلبي لشيء من هذا الشأن، ولا حرصي عليه، ثم جئتم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الإتيان بسورة منه، وقصرتم عن معارضته وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؟

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾** الآية، قال: هو قولي الإنسان لولده وماله إذا غضب عليهم: اللهم لا تبارك فيه والعنه **﴿لقضي إليهم لجلهم﴾** قال: لأهلك من دعا عليه وأماته. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في الآية قال: قول الرجل للرجل: اللهم العنه، اللهم اخزه، وهو يحب أن يستجاب له. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في الآية قال: هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له، وحكى القرطبي في تفسيره عن ابن إسحاق، ومقاتل، في الآية قال: هو قول النضر بن الحارث: **﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾** [الأنفال: 32] فلو عجل لهم هذا لهلكوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: **﴿دعانا لجنبه﴾** قال: مضطجعاً. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾** قال: على كل حال. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي الدرداء، قال ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرائك.

وأقول أنا: أكثر من شكر الله على السراء يدفع عنك الضراء، فإن وعده للشاركين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقم: اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم، فإننا نشكرك عند ما نشكر الشاكرون بكل لسان في كل زمان، ونحمدك عند ما

التالي عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد، وإبطال الشرك، حال كونها بينات: أي واضحات الدلالة على المطلوب **﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾** وهم المنكرون للمعاد، وقد تقدم تفسيره قريباً: أي قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو رسول الله **﴿أنت بقرآن غير هذا أو بكلمه﴾** طلبوا من رسول الله **﴿لما سمعوا ما غاظهم﴾** فيما تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الأوثان، والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله، وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته، أو كلها، ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم، فأمره الله أن يقول في جوابهم: **﴿ما يكون لي﴾** أي: ما ينبغي لي، ولا يحل لي، أن أبذله من تلقاء نفسي، فنفي عن نفسه أحد القسمين، وهو التبديل لأنه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزاً، بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس في وسعه ولا يقدر عليه. وقيل: إنه **﴿نفي عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلاً على نفي أصعبهما بالطريق الأولى﴾** وهذا منه **﴿من باب مجازاة السفهاء﴾** إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك. وهو أعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة، و**﴿تلقاء﴾** مصدر استعمل ظرفاً، من قبل نفسي. قال الزجاج: سالوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور، وقيل: سالوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم؛ وقيل: سالوه أن يحول الوعد وعيداً والحرام حلالاً والحلال حراماً، ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم من أنه ما صح له، ولا استقام أن يبذله من تلقاء نفسه بقوله: **﴿إن تتبع إلا ما يوحى إلي﴾** أي: ما أتبع شيئاً من الأشياء إلا ما يوحى إلي من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل، ولا تحريف ولا تصحيف، فقصر حاله **﴿على اتباع ما يوحى إليه﴾** وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبي **﴿بأن القرآن كلامه﴾** وأنه يقدر على الإتيان بغيره والتبديل له، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم تكميلاً للجواب عليهم: **﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾** فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها، واليوم العظيم هو يوم القيامة: أي **﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾** يفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة، ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله، وأنه **﴿إنما يبلغ إليهم منه ما أمره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك﴾** فقال: **﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾** أي: أن هذا القرآن المتلئ عليكم هو بمشيئة الله وإرادته، ولو شاء الله أن لا أتله عليكم ولا أبلفكم إياه ما تلوته، فالأمر كله منوط بمشيئة الله، ليس لي في ذلك شيء. قوله: **﴿ولا أدرككم به﴾** معطوف على ما تلوته، ولو شاء الله ما أدركم بالقرآن: أي ما أعلمكم به على لساني يقال: دريت الشيء وأدراني الله به. هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدريه أعلمه يعلمه. وقرأ ابن كثير: **﴿ولا أدركم به﴾** بغير ألف بين

حمدك الحامدون بكل لسان في كل زمان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿لَمَّا جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، قال: نكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صدق ربنا ما جعلنا خلائف في الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله خير أعمالكم بالليل والنهار، والسّر والعلانية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جرير، قال: ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ لامة محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿لَثَلْتُمْ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلْتُمْ هَذَا قَوْلَ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا أُدْرِكُكُمْ بِهِ﴾ أعلمكم به. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: ﴿وَلَا أُدْرِكُكُمْ بِهِ﴾ ولا أشعركم به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ ﴿وَلَا تُفْرِكُكُمْ بِهِ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عَمْرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ قال: لم أتل عليكم ولم أنكر. وأخرج عنه قال: لبث أربعين سنة قبل أن يوحى إليه ورأى الرؤيا سنتين، وأوحى الله إليه عشر سنين بمكة، وعشرًا بالمدينة، وتوفي وهو ابن اثنتين وستين سنة. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، والترمذي، عن ابن عباس، قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاثة عشر يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قَدْ أَفْلَحَ مَنَ افْتَرَىٰ مَلَّ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِيهِ الْجِبْرِيتُونَ ﴿٧٧﴾ وَبَدَّلَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَعْزُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَشِيرُكُمْ اللَّهُ بِمَا لَا يَتْلُمُ فِي الْفُتُورِ وَلَا فِي الْأَرْضِ مَبْحَثَةً رَسُلًا عَمَّا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَمَا كَانَ الْكَاشِ إِلَّا أَكْثَرُ وَجْدَةٍ فَاتَّخَذُوا زُكُوفًا كَلِمَةً سَبَّحْتَ مِنْ رَبِّكَ لَقَوِيَ بَيْنَهُمْ فَيَسْأَلُونَ بِمَنْ لَبِثُوا ﴿٧٩﴾

قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام فيه معنى الجحد، أي لا أحد أظلم ﴿مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾ الكذب، وزيادة ﴿كُذِبًا﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبًا لبيان أن هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه، فربما يكون الافتراء كذبًا في الإنسان فقط، كما إذا أسند نذب زيد إلى عمرو، نكر معنى هذا أبو السعود في تفسيره، قيل: وهذا من جملة رده ﷺ على المشركين لما طلبوا منه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن، أو يبطله، فبين لهم أنه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على الله، ولا ظلم يماثل ذلك؛ وقيل: المفترى على الله الكذب هم: المشركون، والمكذب بايات الله هم أهل الكتاب ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ تحليل لكونه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب باياته، أي لا يظفرون بمطلوب، ولا يفوزون بخير، والضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ للشان: أي إن الشأن هذا، ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الأصنام، وبين أنها لا تنفع من عبدها

ولا تضر من لم يعبدها، فقال: ﴿وَيُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: متجاوزين الله سبحانه إلى عبادة غيره، لا بمعنى ترك عبادته بالكلية ﴿لَمَّا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع، ومن حق المعبود أن يكون مثيبًا لمن أطاعه معاقبًا لمن عصاه، والواو لعطف هذه الجملة على جملة ﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ [يونس: 15] و﴿مَا﴾ في ﴿لَمَّا يَضُرُّهُمْ﴾ موصولة أو موصوفة، والواو في ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ للعطف على ﴿وَيُعْبَدُونَ﴾ زعموا أنهم يشفعون لهم عند الله، فلا يعذبهم بذنوبهم، وهذا غاية الجهالة منهم، حيث ينتظرون الشفاعة في المال ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال؛ وقيل أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال دنياهم، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يجيب عنهم، فقال: ﴿قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ﴾ الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴿قُلْ أَبُو السَّمَالِ الْعَدُوِّي﴾ بالتخفيف من أنبا ينبئ، وقرأ من عدها بالتشديد من نبا ينبئ. والمعنى: أتخبرون الله أن له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد، أو أتخبرونه أن لكم شفعاء بغير إئنه، والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكًا ولا شفيعًا بغير إئنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سمواته وفي أرضه؟ وهذا الكلام حاصله: عدم وجود من هو كذلك أصلاً، وفي هذا من التهمك بالكفار ما لا يخفى، ثم نزه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم، وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم، ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبي ﷺ أن يقول لهم جواباً عليهم. قرأ حمزة والكسائي ﴿عَمَّا يَشْكُرُونَ﴾ بالتحية. وقرأ الباقون بالفوقية، واختار القراءة الأولى أبو عبيد. قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ إِلَّا أَمَةٌ وَاحِدَةٌ فَاخْتَلَفُوا﴾ قد تقدم تفسيره في البقرة. والمعنى: أن الناس ما كانوا جميعاً إلا أمة واحدة موحدة لله سبحانه، مؤمنة به، فصار البعض كافراً وبقي البعض الآخر مؤمناً، فخالف بعضهم بعضاً. وقال الزجاج: هم العرب كانوا على الشرك.

وقال: كل مولود يولد على الفطرة، فاختلّفوا عند البلوغ، والأول أظهر. وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للآخرى، بل المراد كفر البعض وبقي البعض على التوحيد، كما قدمنا: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي: أنه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا يوم القيامة ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِيمَا﴾ هم فيه يختلفون، لكنه قد امتنع تلك بالكلمة التي لا تتخلف، وقيل معنى: ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ بإقامة الساعة عليهم، وقيل لفرغ من هلاكهم، وقيل: الكلمة إن الله أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا؛ وقيل: الكلمة أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجة، وهي إرسال الرسل كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ يَرْسُلَ﴾ [الإسراء: 15]؛ وقيل: الكلمة قوله «سبقت رحمتي غضبي». وقرأ عيسى بن عمر «لَقَضَىٰ» بالبناء للفاعل. وقرأ من عدها بالبناء للمفعول.

نعمته ولا قدرها حق قدرها، بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر، وطعنوا في آيات الله، واحتالوا في دفعها بكل حيلة، وهو معنى المكر فيها. وإذا الأولى شرطية، وجوابها إذا لهم مكر، وهي فجائية، ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ أي: أعجل عقوبة، وقد دلّ أفعال التفضيل على أن مكرهم كان سريعاً، ولكن مكر الله أسرع منه. وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة، لأن المعنى أنهم فاجئوا المكر: أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة، وتسمية عقوبة الله سبحانه مكرًا من باب المشاكلة، كما قرّر قبلها، فإن مكرهم إذا كان ظاهراً لا يخفى، فعقوبة الله كائنة لا محالة، ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدمة وهي: ﴿وإذا مس الإنسان الضر﴾ [يونس: 12] وفي هذه زيادة، وهي أنهم لا يقتصرون على مجرد الإعراض، بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يديرونه من المكر ﴿هو الذي يسيركم في البحر والبر﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلاً حتى ينكشف المراد انكشافاً تاماً، ومعنى تسييرهم في البر أنهم يمشون على أقدامهم التي خلقها لهم، لينتفعوا بها، ويركبون ما خلقه الله لركوبهم من الدواب، ومعنى تسييرهم في البحر: أنه ألهمهم لعمل السفائن التي يركبون فيها في لجج البحر، ويسر ذلك لهم، ونفع عنهم أسباب الهلاك. وقد قرأ ابن عامر: ﴿وهو الذي ينشركم في البحر﴾ بالنون والشين المعجمة من النشر كما في قوله: ﴿فانتشروا في الأرض﴾ [الجمعة: 10] أي ينشرهم سبحانه في البحر، فينجي من يشاء ويفرق من يشاء ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ الفلك يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث، وقد تقدّم تحقيقه ﴿وجرين﴾ أي السفن بهم: أي بالراكبين عليها، وحتى لانتها الغاية، والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها، فالقيود المعتمدة في الشر ثلاثة: أولها: الكون في الفلك؛ والثاني: جريها بهم بالريح الطيبة التي ليست بعاصفة؛ والثالث: فرحهم. والقيود المعتمدة في الجزء ثلاثة: الأول: ﴿جاءتها﴾ أي: جاءت الفلك ريح عاصف، أو جاءت الريح الطيبة: أي تلقتها ريح عاصف، والعصوف: شدة هبوب الريح؛ والثاني: ﴿وجاءهم للموج من كل مكان﴾ أي: من جميع الجوانب للفلك، والمراد: جاء الراكبين فيها، والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر؛ والثالث: ﴿ظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي: غلب على ظنونهم الهلاك، وأصله من إحاطة العدو بقوم أو ببلد، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك وإن كان بغير العدو كما هنا، وجواب إذا في قوله: ﴿إذا كنتم في

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: قال النضر: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى، فأنزل الله: ﴿فمن أضل ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون، ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ قال: آدم وحده ﴿فاختلفوا﴾ قال: حين قتل أحد ابني آدم أخاه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في الآية قال: كان الناس أهل دين واحد على دين آدم، فكفروا، فلولا أن ربك أجلهم إلى يوم القيامة لقضي بينهم.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ بِيَدِ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنْ السَّاعِطِينَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا أَنْزَلْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ سَرَّةٍ مِنْهُمْ إِذَا لَهُمْ تَكْرُؤٌ فَيَايَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْرِعُوا مَعَكُمْ إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَكْتُبُونَ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتَ بِكُمْ رِيحٌ وَكُنتُمْ فِيهَا جُلُودًا مَدْمُومَةً سَأَلْتُمْ مَنْ مَلَكُومُ الْفُلِكِ قَالُوا لَهُمْ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ لَعَلَّاهُمْ نَعْمَةٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ قَالُوا لَا بَلْ أَنْتُمْ أَعْيُنُنَا وَمَنْ يَمُرُّ بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ يَتَّبِعُ الْأَمْرَ إِنْ شَاءَ الْغَيْبُ بِيَدِ اللَّهِ وَنَحْنُ نَكْتُبُ مَا تَكْتُبُونَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أَجَسْتُمْ إِذَا مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ بِمَنْ يُبَيِّنُ الْأَمْرَ إِنْ شَاءَ الْغَيْبُ بِيَدِ اللَّهِ وَنَحْنُ نَكْتُبُ مَا تَكْتُبُونَ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿ويقولون﴾ نكر سبحانه هاهنا نوعاً رابعاً من مخازينهم، وهو معطوف على قوله: ﴿ويعبدون﴾ [يونس: 18] وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه. قيل: والقائلون هم: أهل مكة، كأنهم لم يعتنوا بما قد نزل على رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها إلا القرآن لكفي به نبلياً بيناً ومصنقاً قاطعاً: أي هلا أنزلت عليه آية من الآيات التي تقترحها عليه، ونطلبها منه، كإحياء الأموات، وجعل الجبال ذهباً، ونحو ذلك؟ ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال: ﴿قل إنما الغيب لله﴾ أي: أن نزول الآية غيب، والله هو المختص بعلمه، المستأثر به، لا علم لي ولا لكم، ولا لسائر مخلوقاته ﴿فانتظروا﴾ فنزل ما اقترحتهم من الآيات ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لنزولها، وقيل المعنى: انتظروا قضاء الله ببني وبينكم بإظهار الحق على الباطل. قوله: ﴿وإذا أنقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا﴾ لما بين سبحانه في الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عناداً ومكرًا ولجاجاً، وأكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أنقاهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضراء، فعلا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله؛ والمراد بإذاعتهم رحمته سبحانه: أنه وسع عليهم في الأرزاق، وأثر عليهم النعم بالمطر وصلاح الثمار، بعد أن مستهم الضراء بالجندب وضيق المعاش، فما شكروا

الفلك قوله: **﴿جاءتها﴾** إلى آخره، ويكون قوله: **﴿دعوا الله﴾** بدلاً من ذنونا؛ لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظنّ الهلاك وهو الباعث عليه، فكان بدلاً منه بدل اشتمال لاشتماله عليه، ويمكن أن يكون جملة دعوا مستأنفة كأنه قيل: ماذا صنعوا؟ فقيل: دعوا الله، وفي قوله: **﴿وجريين بهم﴾** التفات من الخطاب إلى الغيبة، جعل الفائدة فيه صاحب الكشف المبالغ. وقال الرازي: الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقت والتباعد، كما أن عكس ذلك في قوله: **﴿إياك نعبد﴾** [الفاتحة: 5] دليل الرضا والتقريب، وانتصاب مخلصين على الحال: أي لم يشوبوا دعاءهم بشيء من الشوائب، كما جرت عالتهم في غير هذا الموطن أنهم يشركون أصنامهم في الدعاء، وليس هذا لأجل الإيمان بالله وحده، بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك، لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى الله سبحانه. وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطرّ يجاب دعاؤه وإن كان كافراً. وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة، وما يشابهها، فباعباً لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات؟ فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات، ولم يخلصوا الدعاء لله، كما فعله المشركون، كما تواتر ذلك إلينا تواتراً يحصل به القطع، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية، وأين وصل بها أهلها، وإلى أين رمى بهم الشيطان، وكيف اقتادهم وتسلب عليهم؟ حتى انقادوا له انقياداً ما كان يطعم في مثله، ولا في بعضه، من عباد الأوثان، فإنا لله وإنا إليه راجعون، واللام في **﴿لئن أنجيئنا من هذه﴾** هي اللام الموطئة للقسم: أي قائلين ذلك، والإشارة بقوله: **﴿من هذه﴾** إلى ما وقعوا فيه من مشارفة الهلاك في البحر، واللام في **﴿لنكونن﴾** جواب القسم: أي لنكونن في كل حال ممن يشكر نعمك التي أنعمت بها علينا، منها هذه النعمة التي نحن بصدد سؤلها أن نفرجها عنا، وتنجينا منها؛

هذه الجملة مفعول دعوا **﴿فلما نجاهم﴾** الله من هذه المحنة التي وقعوا فيها، وإجاب دعاءهم، لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم، بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين، وجعلوا البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر. وإذا في **﴿إذا هم يبغون﴾** هي الفجائية: أي فاجئوا البغي في الأرض بغير الحق، والبغي: هو الفساد، من قولهم بغي الجرح: إذا ترامى في الفساد، وزيادة في الأرض للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض، والبغي وإن كان ينافي أن يكون بحق، بل لا يكون إلا بالباطل، لكن زيادة بغير الحق إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم، بل تمرّداً وعناداً، لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقونها مع كونها باطلة. قوله: **﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾** لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون في الأرض بغير الحق، ذكر عاقبة

البغي وسوء مغيبته. قرأ ابن إسحاق، وحفص، والمفضل بنصب متاع، وقرأ الباقر بالرفع. فمن قرأ بالنصب جعل ما قبله جملة تامة: أي بغيكم وبال على أنفسكم، فيكون بغيكم مبتدأ وعلى أنفسكم خبره، ويكون متاع في موضع المصدر المؤكّد، كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ويكون المصدر مع الفعل المقدّر استثناءً؛ وقيل: إن متاع على قراءة النصب ظرف زمان نحو مقدم الحاج: أي زمن متاع الحياة الدنيا؛ وقيل: هو مفعول له: أي لأجل متاع الحياة الدنيا؛ وقيل منصوب بنزع الخافض: أي كمتاع؛ وقيل على الحال على أنه مصدر بمعنى المفعول: أي ممتعين، وقد نوقش غالب هذه الأقوال في توجيه النصب. وأما من قرأ برفع متاع فجعله خبر المبتدأ: أي بغيكم متاع الحياة الدنيا، ويكون على أنفسكم متعلق بالمصدر، والتقدير: إنما بغيكم على أمثالك، والذين جنسهم جنسكم، متاع الحياة الدنيا ومنفعتا التي لا بقاء لها، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه: أبناء جنسهم، وعبر عنهم بالأنفس لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة؛ وقيل: ارتفاع متاع على أنه خبر ثان؛ وقيل: على أنه خبر لمبتدأ محذوف: أي هو متاع. قال النحاس: على قراءة الرفع يكون بغيكم مرتفعاً بالابتداء، وخبره متاع الحياة الدنيا، وعلى أنفسكم مفعول البغي، ويجوز أن يكون خبره على أنفسكم، ويضمّر مبتدأ: أي ذلك متاع الحياة الدنيا، أو هو متاع الحياة الدنيا. انتهى. وقد نوقش أيضاً بعض هذه الوجوه المذكورة في توجيه الرفع، بما يطول به البحث في غير طائيل. والحاصل أنه إذا جعل خبر المبتدأ على أنفسكم، فالمعنى: أن ما يقع من البغي على الغير هو بغي على نفس الباغي، باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه، وإن جعل الخبر متاع، فالمراد: أن بغي هذا الجنس الإنساني على بعضه بعضاً هو سريع الزوال، قريب الاضمحلال، كسائر أمتعة الحياة الدنيا، فإنها ذاهبة عن قرب، متلاشية بسرعة، ليس لذلك كثيرة فائدة ولا عظيم جدوى. ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغي من المجازاة يوم القيامة، مع وعيد شديد فقال: **﴿ثم إلينا مرجعكم﴾** وتقديم الخبر للدلالة على القصر، والمعنى: أنكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله، فيجازيكم المسيء بإساءته، والمحسن بإحسانه **﴿فنفنيكم بما كنتم تعملون﴾** في الدنيا: أي فنخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير وشرٍّ، والمراد بذلك: المجازاة، كما تقول لمن أساء: سأخبرك بما صنعت، وفيه أشد وعيد وأقطع تهديد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع، في قوله: **﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾** قال: خوفهم عذابه وعقوبته. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿وإذا أنقنا للناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا﴾** قال: استهزاء وتكذيب. وأخرج ابن المنذر، عن ابن

أَن تَمْلَأَ الْأَعْيُنُ بِرُؤُوسِهَا، وَتَجْتَلِبِ الْنفُوسُ بِبَهْجَتِهَا. وتحمل أهلها على أَن يسفكوا دماء بعضهم بعضاً، ويهتكوا حرمهم حباً لها، وعشاقاً لجمالها الظاهري، وتكالباً على التمتع بها، وتهافتاً على نيل ما تشتهي الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب، فقال: ﴿إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ﴾ إلى آخر الآية. والمعنى: أَن مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه وببائنه، مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقه، وذهاب بهجته، وسرعة تقضيه، بعد أَن كان غصاً مخضراً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة، وزهت أوراقه المتصافحة، وتلألأت أنوار نوره، وحالت الزهر أنواع زهره، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله: ﴿كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بل ما يفهم من الكلام، والباء في ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ للسببية: أي فاختلط بسببه نبات الأرض بأن اشتبك بعضه ببعض، حتى بلغ إلى حد الكمال، ويحتمل أن يراد أن النبات كان في أول بروزه، ومبدأ حوثه غير مهتز ولا مترعرع، فإذا نزل الماء عليه اهتز وربا، حتى اختلط بعض الأنواع ببعض ﴿مِمَّا يَأْكُلُ الْإِنْسَانُ وَالْإِنْعَامُ﴾ من الحبوب والثمار، والكلأ والتبن، وأخذت الأرض زخرفها. قال في الصحاح الزخرف: الذهب، ثم يشبه به كل مموء مزور. انتهى. والمعنى: أَن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب، وبعضه للون الفضة، وبعضه للون الياقوت، وبعضه للون الزمرد. وأصل أزينت: تزينت أذعمت التاء في الزاي، وجئ بالف الوصل؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن، والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب «وتزينت» على الأصل. وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية «وأزينت» على وزن أفعلت: أي أزينت بالزينة التي عليها، شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة اللوناً كثيرة. وقال عوف بن أبي جميلة: قرأ أشياخنا «وأزينت» على وزن اسوانت، وفي رواية المقدمي «وأزانت» والأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت. وقرأ الشعبي، وقاتدة «أزينت»، ومعنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا ﴿وَوُضِعَ أَهْلُهَا إِنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: غلب على ظنونهم أو تثقنوا أنهم قادرين على حصادها والانتفاع بها، والضمير في عليها للأرض، والمراد: النبات الذي هو عليها ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ جواب إذا، أي: جاءها أمرنا بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاصيات ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي: جعلنا زرعها شبيهاً بالمحصول في قطعه من أصوله. قال أبو عبيدة: الحصيد المستاصل ﴿كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ أي: كان لم يكن زرعها موجوداً فيها بالأمس مخضراً طرياً، من غنى بالمكان بالكسر يغني بالفتح إذا أقام به، والمراد بالأمس الوقت القريب، والمغاني في اللغة المنازل. وقال قتادة: كان لم تنعم، قال لبيد:

غفيت سنيناً قبل مجرى دلحس لو كان للنفس للرجح خلود
وقرأ قتادة ﴿كَانَ لَمْ يَغْنِ﴾ بالتحنية بإرجاع الضمير

جريح، في قوله: ﴿وَوُضِعَ أَهْلُهَا إِنَّهُمْ لَحِيْطٌ بِهِمْ﴾ قال: هلكوا. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه، عن سعد بن أبي وقاص، ما حاصله: أن النبي ﷺ لما أهدر يوم الفتح دم جماعة، منهم عكرمة بن أبي جهل، هرب من مكة وركب البحر فاصابهم عاصف، فقال أصحاب السفينة لاهل السفينة: اخلصوا فإن ألهمكم لا تغني عنكم شيئاً، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر الإخلاص، ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه، أن أتى محمداً حتى أضع يدي في يده، فلا يجننه عفواً كريماً، فجاء فأسلم. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم، والخطيب في تاريخه، والديلمي في مسند الفردوس، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ هُنَّ رَوَّاجِعٌ عَلَى أَهْلِهَا: الْمَكْرُ، وَالنُّكْتُ، وَالْبَغْيُ»، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» [فاطر: 43] «وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ» [الحج: 10]. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي بكرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَبِغْ وَلَا تَكُنْ بَاغِيًا، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾». وأخرج أبو الشيخ عن مكحول قال: ثلاث من كن فيه كن عليه: المكر، والبغي، والنكث، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾.

أقول أنا: وينبغي أن يلحق بهذه الثلاث التي دل القرآن على أنها تعود على فاعلها: الخدع، فإن الله يقول: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِنَّ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: 9]. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَكَ الْبَاغِي مِنْهُمَا». وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر مثله.

إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ الْإِنْسَانُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِنَّمَا تَلَوْتِ الْأَرْضَ وَرُفْرُفَهَا وَازَوَّجْتَ وَكَرَّمْتَ أَهْلَهَا إِنَّهُمْ لَفِي دَرَكٍ عَظِيمٍ عَلَيْهَا أَنْهَارٌ شَرَبًا لَا تَنَالُهَا وَجُمَلُهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ كَذِبٍ أَلَسْأَلُكَ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّيِّنَاتُ الْمُسْلِمَاتُ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْغَبُ وَجُوهَهُمْ قُدْرًا وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْأَنْوَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩﴾ وَبِمَن تَحْسَبُهُمْ حَيًّا نَّمُوتُ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مَكَانَهُمْ أَنْتَرُوا وَشُرَكَائُهُمْ فَرَلْنَا بَيْنَهُمْ وَآلَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ بِآيَاتِهِمْ حَافِدِينَ ﴿٢٠﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَاشِدًا يَتَنَبَّأُ وَيَتَنَبَّأُ بِمَا تَكُنَّ عِبَادَتُكُمْ لَتُنْفِيَنَّ ﴿٢١﴾ هَٰذَا كَلَّمَكَ اللَّهُ نَفْسًا مَّا سَأَلَتْ وَرَدُّوا إِلَىٰ اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٢﴾

لما ذكر الله سبحانه ما تقدّم من متاع الدنيا، جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها، وأنها تعود بعد

غبرة، ولا يظهر فيها هوان؛ وقيل القتر: الكآبة، وقيل: سواد الوجوه، وقيل: هو دخان النار ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ الإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة هم أصحاب الجنة خالدون فيها، المتنعمون بأنواع نعيمها ﴿وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ هذا الفريق الثاني من أهل الدعوة، وهو معطوف على ﴿للذين أحسنوا﴾ كأنه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أو يقدر وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها: أي يجازي سيئة واحدة بسيئة واحدة، لا يزداد عليها، وهذا أولى من الأول، لكونه من باب العطف على معمولي عاملين مختلفين؛ والمراد بالسيئة: إما الشرك، أو المعاصي التي ليست بشرك، وهي ما يتلبس به العصاة من المعاصي، قال ابن كيسان: الباء زائدة، والمعنى: جزاء سيئة مثلها؛ وقيل: الباء مع ما بعدها الخبر، وهي متعلقة بمحذوف قامت مقامه، والمعنى: جزاء سيئة كائن بمثلها، كقولك إنما أنا بك، ويجوز أن يتعلق بجزاء، والتقدير جزاء سيئة بمثلها كائن، فحذف خبر المبتدأ، ويجوز أن يكون ﴿جزاء﴾ مرفوعاً على تقدير: فلهم جزاء سيئة، فيكون مثل قوله: ﴿فعدّه من أيام أخر﴾ [البقرة: 184] أي: فعليه عدة، والباء على هذا التقدير متعلقة بمحذوف، كأنه قال لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها، أو تكون مؤكدة أو زائدة. قوله: ﴿ترهقهم نلّة﴾ أي يفشاهم هوان وخزي. وقرئ «يرهقهم» بالتحية ﴿مالهم من الله من عاصم﴾ أي: لا يعصمهم أحد كائناً من كان من سخط الله وعذابه، أو مالهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين، والأول: أولى، والجملة في محل نصب على الحالية، أو مستأنفة ﴿كانما أغشيت وجوههم قطعاً من ليل مظلمة﴾ قطعاً جمع قطعة، وعلى هذا يكون مظلماً منتصباً على الحال من الليل: أي أغشيت وجوههم قطعاً من الليل في حالة ظلمته. وقد قرأ بالجمع جمهور القراء. وقرأ الكسائي وابن كثير ﴿قطعاً﴾ بإسكان الطاء، فيكون مظلماً على هذا صفة لقطعاً، ويجوز أن يكون حالاً من الليل. قال ابن السكيت: القطع طائفة من الليل ﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وإطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر في السنة من خروج عصاة الموحدين، قوله: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ الحشر الجمع، وجميعاً منتصب على الحال ﴿ويوم﴾ منصوب بمضمر: أي أنزهرهم يوم نحشرهم، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة. والمعنى: أن الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم ﴿ثم نقول للذين أشركوا﴾ في حالة الحشر، ووقت الجمع تقريباً لهم على رؤوس الأشهاد، وتوبيخاً لهم مع حضور من يشاركونهم في العبادة، وحضور معبوداتهم ﴿مكانكم﴾ أي: ألزموا مكانكم، وأثبتوا فيه، وقفوا في موضعكم ﴿أنتم وشركاؤكم﴾ هذا الضمير تأكيد للضمير الذي في مكانكم لسد مسد الزموا، وشركاؤكم معطوف عليه. وقرئ بنصب شركاؤكم على أن

إلى الزخرف. وقرأ من عداه ﴿تغن﴾ بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك التفصيل البيع ﴿نفصل الآيات﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآية ﴿لنقوم يتفكرون﴾ فيما اشتملت عليه، ويجوز أن يرد الآيات التكوينية. قوله: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ لما نذر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق، رغبهم في الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل إلى دار السلام، قال الحسن وقتادة: السلام هو: الله تعالى، وداره الجنة. وقال الزجاج: المعنى والله يدعو إلى دار السلامة. ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة. ومنه قول الشاعر:

تحیی بالسلامة أم بكر وهل لك بعد قومك من سلام
وقيل: أراد دار السلام الذي هو: التحية؛ لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى: التحية، كما في قوله: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ [يونس: 10]؛ وقيل: السلام اسم لأحد الجنان السبع: أحدها: دار السلام، والثانية: دار الجلال، والثالثة: جنة عدن، والرابعة: جنة المأوى، والخامسة: جنة الخلد، والسادسة: جنة الفردوس، والسابعة: جنة النعيم. وقيل المراد: دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة، وقد اتفقوا على أن دار السلام هي الجنة، وإنما اختلفوا في سبب التسمية بدار السلام ﴿ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة، والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه، تكميلاً للحجة وإظهاراً للاستغناء عن خلقه، ثم قسم سبحانه أهل الدعوة إلى قسمين، وبين حال كل طائفة فقال: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي: الذين أحسنوا بالقيام بما أوجب الله عليهم من الأعمال، والكف عما نهاهم عنه من المعاصي، والمراد بالحسنى المثوبة الحسنى. قال ابن الأنباري: العرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها، ولذلك ترك موصوفها؛ وقيل المراد بالحسنى: الجنة، وأما الزيادة فقيل المراد بها: ما يزيد على المثوبة من التفضل، كقوله: ﴿ليوفيه أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [فاطر: 30] وقيل الزيادة النظر إلى وجهه الكريم؛ وقيل: الزيادة هي: مضاعفة الحسنه إلى عشر أمثالها؛ وقيل الزيادة: غرفة من لؤلؤ، وقيل الزيادة: مغفرة من الله ورضوان؛ وقيل: هي أنه سبحانه يعطيهم في الدنيا من فضله ما لا يحاسبهم عليه؛ وقيل: غير ذلك، مما لا فائدة في ذكره، وسياتي بيان ما هو الحق في آخر البحث: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا نلّة﴾ معنى يرهق: يلحق، ومنه قيل: غلام مراهق، إذا لحق بالرجال، وقيل يعلو، وقيل يغشى، والمعنى متقارب؛ والقتر: الغبار، ومنه قول الفرزدق:

متوج برداء الملك يتبعه موج ترى فوقه الرايات والقتر
وقرأ الحسن «قتر» بإسكان المثناة، والمعنى واحد، قاله النحاس، وواحد القتر قتر، والنلّة: ما يظهر على الوجه من الخضوع والإنكسار والهوان، والمعنى: أنه لا يعلو وجوههم

ويجعلونه إلهاً، ولكن حين لا ينفعهم ذلك.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ قال: اختلط فنبت بالماء كل لون ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالحنطة والشعير، وسائر حبوب الأرض والبقول والثمار، وما تاكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعي. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿وَأَزَيْتَ﴾ قال: أنبتت وحسنت، وفي قوله: ﴿كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ قال: كان لم تعش، كان لم تنعم. وأخرج ابن جرير، عن أبي بن كعب، وابن عباس، ومروان بن الحكم، أنهم كانوا يقرءون بعد قوله: ﴿وَوَضَّأُ أَهْلَهَا أَنُتَمَّ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ وما كان الله ليهلكها إلا بنزول أهلها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنه كان يقرأ: وما أهلكناهما إلا بنزول أهلها ﴿كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن أبي مجلز، قال: كان مكتوب في سورة يونس إلى حيث هذه الآية ﴿حَتَّى إِذَا لُخِثَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ إلى ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، ولو أن لابن آدم وأبيين من مال لتمني أدياً ثالثاً، ولا يشعب نفس ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، قمحيت. وأخرج أبو نعيم، والديميطي في معجمه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ يقول: يدعو إلى عمل الجنة. والله: السلام، والجنة: داره. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالبة، في قوله: ﴿وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ﴾ قال: يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت شمسهُ إلا وكل بجنتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فما قل وكفى خير مما كثر والهي، ولا آت شمسهُ إلا وكل بجنتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً» ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعَصْرِ﴾ [الليل: 1 - 10]. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن سعيد بن أبي هلال، سمعت أبا جعفر محمد بن عليّ وتلا: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فقال: حدثني جابر قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت آتتك، وأعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعمه، فممنهم من أجاب الرسول، وممنهم من ترك؛ فآله هو الملك، والدار

الواو واو مع. قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا: يقال زيلته فزِيلَ: أي فرقته ففترق، والمزيلة المفارقة، يقال زاليه مزيلة، وزيالاً إذا فارقه، والتزائل التباين. قال الفراء: وقرأ بعضهم ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ والمراد بالشركاء هنا الملائكة، وقيل الشياطين، وقيل الأصنام، وإن الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت. وقيل: المسيح، وعزير، والظاهر أنه كل معبود للمشركون كائناً ما كان، وجملة: ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْبُدُونَ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير قد، والمعنى: وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه ما كنتم إباناً تعبدون، وإنما عبستم هواكم وضلالكم، وشياطينكم الذين اغووكم، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، لكنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية؛ وقيل: لكونهم شركاؤهم في هذا الخطاب، وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفاً لما قد وقع من المشركون من عبادتهم، فمعناه إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ إن كنا أمرناكم بعبادتنا، أو رضينا ذلك منكم ﴿وَأَنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾ إن هي المخففة من الثقلية، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والقاتل لهذا الكلام هم: المعبدون. قالوا لمن عبدهم من المشركون: إنا كنا عن عبادتكم لنا لغافلين، والمراد بالغفلة هنا: عدم الرضا بما فعله المشركون من العبادة لهم، وفي هذا دليل على أن هؤلاء المعبدون غير الشياطين، لأنهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم، ويمكن أن يكونوا من الشياطين، ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم، ولا أكرهوهم عليها ﴿هَنَالِكَ قَبِلُوا كُل نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ أي: في ذلك المكان وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان تنوq كل نفس وتختبر جزء ما أسلفت من العمل، فمعنى ﴿قَبِلُوا﴾ تنوq وتختبر، وقيل: تعلم، وقيل: تتبع، وهذا على قراءة من قرأ «قبِلُوا» بالمتناة الفوقية بإسناد الفعل إلى كل نفس؛ وأما على قراءة من قرأ «نبِلُوا» بالنون، فالمعنى: أن الله يبتلي كل نفس ويختبرها، ويكون ما أسلفت بدلاً من كل نفس. والمعنى: أنه يعاملها معاملة من يختبرها ويتققد أحوالها. قوله: ﴿وَرَوَّأَ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ معطوف على ﴿زَيَّلْنَا﴾، والضمير في رَوَّأَ عائِد إلى الذين أشركوا: أي رَوَّأَ إلى جزائه، وما أعد لهم من عقابه، ومولاهم: ربهم، والحق صفة له: أي الصائق الربوبية بون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة، وقرئ «الحق» بالنصب على المدح، كقولهم الحمد لله أهل الحمد ﴿وَوَضَّأُ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ضاع وبطل ما كانوا يفترون من أن الأكلة التي لهم حقيقة بالعبادة، لتشفع لهم إلى الله وتقربهم إليه. والحاصل أن هؤلاء المشركون يرجعون في ذلك المقام إلى الحق، ويعترفون به، ويقرؤون ببطلان ما كانوا يعبدونه

الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول، فمن اجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها، وقد روي معنى هذا من طرق. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: **«وَأَوْاهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ»** قال: ذكر لنا أن في التوراة مكتوباً: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر ائتقه. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، أنه كان إذا قرأ: **«وَأَوْاهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ»** قال: لبيك ربنا وسعديك. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وغيرهم، عن صهيب: «أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: **«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٍ»** قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوا له ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الرؤية، وابن مردويه، عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ: «أن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي بصوت يسمعه أولهم وآخرهم: إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزياة النظر إلى وجه الرحمن. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في الرؤية، عن كعب بن عجرة، عن النبي ﷺ، في قوله: **«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٍ»** قال: الزياة النظر إلى وجه الرحمن. وأخرج هؤلاء والدارقطني، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: **«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٍ»** قال: الذين أحسنوا: أهل التوحيد، والحسنى: الجنة، والزياة: النظر إلى وجه الله. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عمر، مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو الشيخ، والدارقطني، وابن مردويه، والخطيب، وابن النجار، عن انس مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والدارقطني، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي بكر الصديق، في الآية قال: الحسنى الجنة، والزياة النظر إلى وجه الله. وأخرج ابن مردويه، من طريق الحرث، عن علي بن أبي طالب في الآية مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والدارقطني، والبيهقي، عن حذيفة في الآية قال: الزياة النظر إلى وجه الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والدارقطني، والبيهقي، عن أبي موسى نحوه. وأخرج ابن عباس نحوه. وأخرج ابن مسعود، نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن علي قال: الزياة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب غرفها

وأبوابها من لؤلؤة واحدة. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: **«وَزِيَادَةٍ»** قال: هو مثل قوله: **«وَلَدِينَا مَزِيدٌ»** [قآ: 35] يقول يجزيهم بعملهم، ويزيدهم من فضله. وقال: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» [الأنعام: 160]. وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات في تفسير الزياة غالبها أنها النظر إلى وجه الله سبحانه. وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله ﷺ: فلم يبق حينئذ لقاتل مقال، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين الممتذهة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هنيئهم، والله المستعان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **«وَلَا يَرَهُ قُجُوهَهُمْ»** قال لا يغشاهم **«قُجُوهَهُمْ»** قال: سواد الوجوه. وأخرج أبو الشيخ عن عطاء في الآية قال: القتر: سواد الوجه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: خزى. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن صهيب عن النبي ﷺ: **«وَلَا يَرَهُ قُجُوهَهُمْ قُتْرٌ وَلَا نَلَةٌ»** قال: بعد نظرهم إليه عز وجل. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **«وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ»** قال: الذين عملوا الكبائر **«جزءاً سيئةً بمثلها»** قال: النار **«كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً»** القطع: السواد نسختها الآية في البقرة **«بلى من كسب سيئةً»** [البقرة: 81] الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: **«وَوَرَهُمْ نَلَةٌ»** قال: تغشاهم نلة وشدة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: **«إِنَّمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٌ»** يقول: من مانع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **«وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ»** قال: الحشر الموت. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: **«فَرَزِيلًا بَيْنَهُمْ»** قال: فرقنا بينهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: تنصب الأكلة التي كانوا يعبدونها من دون الله، فيقول: هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله؟ فيقولون نعم، هؤلاء الذين كنا نعبد، فتقول لهم الأكلة. والله ما كنا نسمع ولا نبصر، ولا نعقل، ولا نعلم، أنكم كنتم تعبدونها، فيقولون: بلى والله لإيالكم كنا نعبد، فتقول لهم الأكلة: **«فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَاتِكُمْ غَافِلِينَ»** وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله، فيتبعونهم حتى يؤتوهم النار، ثم تلا رسول الله ﷺ: **«هَٰذَا نَكَتُ بَلْوِ كُلِّ نَفْسٍ مَا سَلَفَتْ»**» وأخرج أبو الشيخ، عن السدي **«هَٰذَا نَكَتُ بَلْوِ»** يقول تتبع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: **«تَبْلُو»** تختبر. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، **«تَبْلُو»** قال: تعابن **«كُلُّ نَفْسٍ مَا سَلَفَتْ»** ما عملت **«وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ»** ما كانوا يدعون معه من الانداد. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **«وَوَرَتْهَُا**

إلى الله مولاهم الحق قال: نسخها قوله: ﴿إله مولى الذين آمنوا وإن الكافرين لا مولى لهم﴾ [محمد: 11].

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ النَّفْسَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدْبُرُ الْأُمُورَ سَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَنَدَّاءُ تُنْفَرُونَ ﴿١٠﴾ نَذِيرٌ لَّكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ اللَّهِ فَكَفَرُوا ۚ كَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُلِّ ظَالِمٍ لَعْنَةُ اللَّهِ لِيَتَذَكَّرَ اللَّهُ أُولَئِكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلظَّالِمِ نَصْرًا مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْ اللَّهُ يَسْتَعِذُّ بِالْحَقِّ ثُمَّ يُبَدِّلُ مَا يَشَاءُ اللَّهُ فِي رُؤْيَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ ﴿١٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ أَهْلًا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلٰى سَبِيلٍ مُبِينٍ ﴿١٣﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظُلْمًا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي شِقَاقٍ شَدِيدٍ ﴿١٤﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصْرٌ لِّأُولِي الْبَيْنِ وَيَذِيحٌ لِلْعَالَمِينَ لَا رَبَّ فِىهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُمْ بِشُورَةٍ يُفْلِحُونَ ۚ وَأَعْلَامُ مِمَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ كَذَّابٌ أَزْمَنَ ﴿١٨﴾ قُلْ هَلْ مِنْ قَبْلِهِمْ نَارُظُنُّرٌ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾

لما بين فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة، من أحوال الرزق والحواس، والموت والحياة، والابتداء والإعادة، والإرشاد والهدى، وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤولين، ليكون أبلغ في إلزام الحجة وأوقع في النفوس، فقال: ﴿قل﴾ يا محمد للمشركين احتجاجاً لحقية التوحيد، ويطلان ما هم عليه من الشرك ﴿من يرزقكم من السماء والأرض﴾ من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات والمعادن، فإن اعترفوا حصل المطلوب، وإن لم يعترفوا فلا بد أن يعترفوا بأن الله هو الذي خلقهما ﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ أم هي المنقطعة، وفي هذا انتقال من سؤال إلى سؤال، وخص السمع والبصر بالذكر، لما فيهما من الصنعة العجيبة، والقدرة الباهرة العظيمة أي: من يستطيع ملكهما وتسويتهما على هذه الصفة العجيبة، والخلقة الغريبة، حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم، ويحصلون بهما من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين، ثم انتقل إلى حجة ثالثة، فقال: ﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾ الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، والنبات من الحبة، أو المؤمن من الكافر ﴿يخرج الميت من الحي﴾ أي: النطفة من الإنسان، أو الكافر من المؤمن، والمراد من هذا الاستفهام عمن يحيي ويميت ثم انتقل إلى حجة رابعة، فقال: ﴿ومن يدبر الأمر﴾ أي: يقرره ويقضيه، وهذا من عطف للعام على الخاص، لأنه قد عمّ ما تقدم وغيره ﴿فسيقولون الله﴾ أي: سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات إن الفاعل لهذه الأمور هو: الله سبحانه، إن أنصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح

والعقل السليم، وارتفاع الاسم الشريف على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف، أي: الله يفعل ذلك، ثم أمره الله سبحانه بعد أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول لهم: ﴿أفلا تتقون﴾ والاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقتر: أي تعلمون ذلك، أفلا تتقون وتفعلون ما يوجب هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الأفعال ﴿فذللكم الله ربكم الحق﴾ أي: فذللكم الذي يفعل هذه الأفعال هو ربكم المتصف بانه الحق، لا ما جعلتموه شركاء له، والاستفهام في قوله: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ للتقريع والتوبيخ، إن كانت ما استفهامية، لا إن كانت نافية كما يحتمل الكلام، والمعنى: أي شيء بعد الحق إلا الضلال، فإن ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق بإقرارهم، فكان غيره باطلاً لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحداً في ذاته وصفاته ﴿فأنى تصرفون﴾ أي: كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر، وتقعون في الضلال إذ لا واسطة بينهما؟ فمن تخطى أحدهما وقع في الآخر، والاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجب ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ أي: كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق، كذلك حقت كلمة ربك: أي حكمه وقضاؤه على الذين فسقوا: أي خرجوا من الحق إلى الباطل، وتمزوا في كفرهم عناداً ومكابرة، وجملة ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ بدل من الكلمة. قاله الزجاج: أي حقت عليهم هذه الكلمة، وهي عدم إيمانهم، ويجوز أن تكون الجملة تعليلية لما قبلها بتقدير اللام: أي لأنهم لا يؤمنون. وقال الفراء: إنه يجوز إنهم لا يؤمنون بالكسر على الاستئناف، وقد قرأ نافع، وابن عامر: ﴿كلمات ربك﴾ بالجمع. وقرأ الباقون بالافراد. قوله: ﴿قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ أورد سبحانه في هذا حجة خامسة على المشركين، أمر نبيه ﷺ أن يقولها لهم، وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمعاد، لكنه لما كان أمراً ظاهراً بيناً، وقد أقام الأدلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن نفعها عند من أنصف، ولم يكابر، كان كالمسلم عندهم الذي لا جحد له ولا إنكار فيه، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم: ﴿قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون﴾ أي: هو الذي يفعل ذلك لا غيره، وهذا القول الذي قاله النبي ﷺ، عن أمر الله سبحانه له هو نياحة عن المشركين في الجواب، إما على طريق التلقين لهم، وتعريفهم كيف يجيبون، وإرشادهم إلى ما يقولون، وإما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم، ومعرفة ما لديه، وإما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا الجواب، فراراً منهم عن أن تلزمهم الحجة، أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حابوا عن الحق - ومعنى: ﴿فأنى تؤفكون﴾ فكيف تؤفكون: أي تصرفون عن الحق وتنقلبون منه إلى غيره. ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة سادسة فقال: ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾

في محل نصب بتحكمون، ثم بين سبحانه ما هؤلاء عليه في أمر دينهم، وعلى أي شيء بنوه، وبأي شيء اتبعوا هذا الدين الباطل، وهو الشرك فقال: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ وهذا كلام مبتدأ غير داخل في الأوامر السابقة. والمعنى: ما يتبع هؤلاء المشركون في إشراكهم بالله، وجعلهم له أنداداً إلا مجرد الظن، والتخمين والحس، ولم يكن ذلك عن بصيرة، بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقرّبهم إلى الله، وأنها تشفع لهم، ولم يكن ظنه هذا لمستند قط، بل مجرد خيال مختل وحس باطل، ولعل تنكير الظن هنا للتحقير: أي إلا ظناً ضعيفاً لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون. وقيل المراد بالآية: إنه ما يتبع أكثرهم في الإيمان بالله والإقرار به إلا ظناً. والأول أولى. ثم أخبرنا الله سبحانه: بأن مجرد الظن لا يغني من الحق شيئاً، لأن أمر الدين إنما يبني على العلم، وبه يتضح الحق من الباطل، والظن لا يقوم مقام العلم، ولا يدرك به الحق، ولا يغني عن الحق في شيء من الأشياء، يجوز انتصاب شيئاً على المصيرية، أو على أنه مفعول به، ومن الحق حال منه والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ من الأنفال القبيحة الصادرة لا عن برهان. قوله: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه، شرع في تثبيت أمر النبوة: أي وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة، والبراهين الواضحة، يفترى من الخلق من دون الله، وإنما هو من عند الله عز وجل، وكيف يصح أن يكون مفترى، وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أقصص العرب لساناً وأنهم أذماناً ﴿ولكن﴾ كان هذا القرآن ﴿تصديق للذي بين يديه﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء، ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة، لأن أقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة، مع أن النبي ﷺ لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه، ولا اتصل بمن له علم بذلك، وانتصاب تصديق على أنه خبر لكان المقدرة بعد لكن، ويجوز أن يكون انتصابه على العلية لفعل محذوف: أي لكن أنزل الله تصديق الذي بين يديه. قال الفراء: ومعنى الآية، وما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى كقوله: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ [آل عمران: 161] ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ [التوبة: 122]. وقيل: إن «أن» بمعنى اللام: أي: وما كان هذا القرآن ليفترى؛ وقيل بمعنى لا: أي لا يفترى، قال الكسائي والفراء: إن التقدير في قوله: ﴿ولكن تصديق﴾ ولكن كان تصديق، ويجوز عندهما الرفع أي: ولكن هو تصديق؛ وقيل المعنى: ولكن القرآن تصديق ﴿الذي بين يديه﴾ من الكتب: أي أنها قد بشرت به قبل نزوله، فجاء مصدقاً لها؛ قيل المعنى: ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن، وهو محمد ﷺ، لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن. قوله: ﴿وتفصيل الكتاب﴾ عطف على قوله: ﴿ولكن تصديق الذي بين

والاستفهام ها هنا كالاستفهامات السابقة، والاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن كقوله: ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ [الشعراء: 78] وقوله: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: 50] وقوله: ﴿الذي خلق فسوى والذي قنر فهدي﴾ [الأعلى: 2، 3] وفعل الهداية يجيء متعدياً باللام وإلى، وهما بمعنى واحد. روي ذلك عن الزجاج. والمعنى: قل لهم يا محمد هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام، ويدعو الناس إلى الحق؟ فإذا قالوا لا، فقل لهم: الله يهدي للحق دون غيره، ولليل ذلك ما تقدم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات، وإرساله للرسول، وإنزاله للكتب، وخلق له ما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام، والاسماع والأبصار، والاستفهام في قوله: ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدي﴾ للتقرير والإلزام الحجة.

وقد اختلف القراء في ﴿لا يهدي﴾ فقرا أهل المدينة إلا نافعا «يهدي» بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال فجمعوا في قراءتهم هذه بين ساكنين. قال النحاس: والجمع بين ساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به. قال محمد بن يزيد: لا بد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر، وسيبويه يسمي هذا اختلاصاً. وقرأ أبو عمرو، وقالون، في رواية بين الفتح والإسكان. وقرأ ابن عامر، وابن كثير، وورش، وابن محيصن، بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. قال النحاس: هذه القراءة بيّنة في العربية، والأصل فيها يهتدي، أدغمت التاء في الدال وقلبت حركتها إلى الهاء. وقرأ حفص، ويعقوب، والأعمش مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا: لأن الكسر هو الأصل عند النقاء الساكنين. وقرأ أبو بكر، عن عاصم «يهدي» بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، وذلك لالتباع. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويحيى بن وثاب «يهدي» بفتح الياء وإسكان الهاء، وتخفيف الدال من هدي يهدي. قال النحاس: وهذه القراءة لها وجهان في العربية، وإن كانت بعيدة: الأول: أن أبا العباس والفراء قالوا: إن يهدي بمعنى يهتدي. الثاني: أن أبا العباس قال: إن التقدير أم من لا يهدي غيره، ثم تم الكلام، وقال بعد ذلك ﴿إلا أن يهدي﴾ أي: لكنه يحتاج أن يهدي، فهو استثناء منقطع، كما تقول فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع: أي لكنه يحتاج أن يسمع، والمعنى على القراءات المتقدمة: أفمن يهدي الناس إلى الحق، وهو الله سبحانه أحق أن يتبع ويقتدي به، أم الأحق بأن يتبع ويقتدي به من لا يهتدي بنفسه إلا أن يهتدي غيره، فضلاً عن أن يهدي غيره؟ والاستثناء على هذا، استثناء مفرغ من أعم الأحوال. قوله: ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ هذا تعجب من حالهم باستقامتين متواليتين: أي أي شيء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ، وكيف

وتعلمه وجداناً. والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة، والبرهان الواضح، قبل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتسمك بشيء في هذا التكنيب، إلا مجرد كونه جاهلاً لما كذب به غير عالم به، فكان بهذا التكنيب منادياً على نفسه بالجهل بأعلى صوت، ومسجلاً بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ﴾ معطوف على ﴿لَمْ يَحِيطُوا بعلمه﴾ أي: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وبما لم يأتهم تأويله، أو هذه الجملة في محل نصب على الحال: أي كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به، ولا بلغته عقولهم. والمعنى: أن التكنيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه، وقبل أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدمين، والامم السابقين، ومن حكايات ما سيحدث من الأمور المستقبلية التي أخبر عنها قبل كونها، أو قبل أن يفهموه حق الفهم، وتتعلقه عقولهم، فإنهم لو تدبروه كلية التدبر لفهموه كما ينبغي، وعرفوا ما اشتمل عليه من الأمور الدالة أبليغ دلالة على أنه كلام الله، وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤول إليه لمن تدبره من المعاني الرشيدة، واللطائف الانيقية، وكلمة التوقع أظهر في المعنى الأول: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: أي: مثل ذلك التكنيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه، فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه، وقبل أن يأتيتهم تأويله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ من الأمم السالفة من سوء العاقبة، بالخسف والمسح ونحو ذلك من العقوبات التي حلت بهم، كما حكى ذلك القرآن عنهم، واشتملت عليه كتب الله المنزل عليهم. قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْمُرُ بِهِ﴾ أي: ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به في نفسه، ويعلم أنه صدق وحق، ولكنه كذب به مكابرة وعناداً. وقيل المراد: ومنهم من يؤمن به في المستقبل، وإن كذب به في الحال، والموصول مبتدأ، وخبره منهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَأْمُرُ بِهِ﴾ ولا يصنقه في نفسه، بل كذب به جهلاً كما مر تحقيقه، أو لا يؤمن به في المستقبل، بل يبقى على جوده وإصراره؛ وقيل الضمير في الموضعين للنبي ﷺ. وقد قيل إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة، وقيل: عام في جميع الكفار ﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم، والمراد بهم: المفسدون، أو بكلا الطائفتين، وهم الذين يؤمنون به في أنفسهم، ويكذبون به في الظاهر، والذين يكذبون به جهلاً، أو الذين يؤمنون به في المستقبل، والذين لا يؤمنون به. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم إن أصرؤا على تكذيبه واستمرؤا عليه ﴿لِيْ عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي لي جزء عملي ولكم جزء عملكم، فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه، وليس عليّ غير ذلك، ثم أكد هذا بقوله: ﴿أَنْتُمْ

بنيه﴾ فيجيء فيه الرفع والنصب على الوجهين المذكورين في تصديق، والتفصيل: التبيين، أي يبين ما في كتب الله المتقدمة، والكتاب للجنس؛ وقيل: أراد ما بين في القرآن من الأحكام، فيكون المراد بالكتاب: القرآن. قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الضمير عائد إلى القرآن، وهو داخل في حكم الاستدراك خبر ثالث، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال من الكتاب، ويجوز أن تكون الجملة استثنائية لا محل لها، و﴿مَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر رابع: أي كائن من رب العالمين، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب؛ أو من ضمير القرآن في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: كائناً من رب العالمين، ويجوز أن يكون متعلقاً بتصديق وتفصيل، وجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ معترضة. قوله: ﴿وَأَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ الاستفهام للإنكار عليهم، مع تقرير ثبوت الحجة، ولم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهزمة: أي بل يقولون افتراه واختلقه. وقال أبو عبيدة: لم بمعنى الواو: أي ويقولون افتراه؛ وقيل الميم زائدة، والتقدير: يقولون افتراه، والاستفهام للتقريع والتوبيخ. ثم أمره الله سبحانه أن يتحدثهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال: ﴿قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمداً افتراه، فاتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة، وجودة الصناعة، فأنتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة اللسان وبلاغة الكلام ﴿وَادْعُوا﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿مَنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ دعاءه والاستعانة به، من قبائل العرب، ومن آلهتكم التي تجعلونهم شركاء لله. وقوله: ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ متعلق بادعوا: أي ادعوا من سوى الله من خلقه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أن هذا القرآن مفترى.

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها، وأظهرها للعقول، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم في البشرية والعربية، قال لهم: هذا الذي نسبتموه إليّ وأنا واحد منكم، ليس عليكم إلا أن تأتوا، وأنتم الجمع الجَمُّ، بسورة مماثلة لسورة من سوره، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم، أو من غيرهم من بني آدم، أو من الجن، أو من الأصنام، فإن فعلتم هذا بعد التلّيا والتي، فأنتم صادقون فيما نسبتموه إليّ والصقتموه بي، فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف، والتنزل البالغ، بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة، بل كاعوا عن الجواب، وتشبثوا بأنيال العناد البارد، والمكابرة المجردة عن الحجة، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحذير البالغ ﴿يَلْ كَذِبُوا بِمَا لَمْ يَحِيطُوا بعلمه﴾ فأضرب عن الكلام الأول، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن، قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه، وما اشتمل عليه، وهكذا صنع من تصلب في التقليد، ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف، بل يردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه، ويعلم مبناه، كما تراه عياناً

في النظر. وقد انضم إلى فقد البصر، فقد البصيرة؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر، وكذلك الأصم العاقل، قد يتحسّس تحسّساً يفيد بعض فائدة، بخلاف من جمع له بين عمي البصر والبصيرة، فقد تعذر عليه الإدراك. وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل، فقد انسد عليه باب الهدى، وجواب لو في الموضوعين محذوف، دلّ عليهما ما قبلهما، والمقصود من هذا الكلام تسليّة رسول الله ﷺ، فإن الطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أصلاً أعرض عنه، واستراح من الاشتغال به. قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ لِّلنَّاسِ شَيْئاً وَلَكِنَّ لِّلنَّاسِ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ نكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتداء بالاسماع والأبصار، ليبين أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل، والبصر والبصيرة، بل لأجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق، والمجادلة بالباطل، والإصرار على الكفر، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الأشياء، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم، وخلق بينهم وبين مصالحهم الدينية، فعلى نفسها براقش نجتي، وقرأ حمزة والكسائي ﴿وَلَكِنَّ لِّلنَّاسِ﴾ بتخفيف النون ورفع الناس، وقرأ الباقون بتشديدها ونصب الناس. قال النحاس: زعم جماعة من النحويين منهم الفراء، أن العرب إذا قالت «ولكن» بالواو شدّوا النون، وإذا حنفوا الواو خففوها. قيل: والنكته في وضع الظاهر موضع المضمّر زيادة التعيين والتقرير، وتقديم المفعول على الفعل لإفادة القصر، أو لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة. قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الظرف منصوب بمضمّر: أي وانكر يوم نحشرهم ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ أي: كأنهم لم يلبثوا، والجملة في محل نصب على الحال: أي مشبهين من لم يلبث ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ أي: شيئاً قليلاً منه، والمراد باللبث هو اللبث في الدنيا، وقيل: في القبور، استقلوا المدة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا، فجعّلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش والحيرة، أو لطول وقوفهم في المحشر، أو لشدة ما هم فيه من العذاب، نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن، ومثل هذا قولهم: ﴿لَبِثْنَا يوماً أو بعض يوم﴾ [الكهف: 19] وجملة: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة. والمعنى: يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجهم من القبور، ثم تنقطع التعاريف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول، المذهلة للأفهام. وقيل: إن هذا التعارف، هو: تعارف التوبيخ والتقريع، يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني، لا تعارف شفقة وراقة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسَّالُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ [المعارج: 10] وقوله: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: 101] فيجمع

بريئون مما عمل وآثامهم بريء مما عملون﴾ أي: لا تؤاخذون بعمل، ولا آثامكم بعملكم، وقد قيل إن هذا منسوخ بآية السيف كما ذهب إليه جماعة من المفسرين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يقول: سبقت كلمة ربك. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، قال: صدقت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿لَمْ يَلْهُوْا مِنْ لَّيْلِ يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ﴾ قال: الأوثان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَأَنْ كُنْزُكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي﴾ الآية، قال: أمره بهذا، ثم نسخه، فأمره بجهادهم.

وَمَنْ مِّنْ يَّسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ لَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ۖ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأُمَمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۚ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ حِيزَ الْوَيْلَ كَذَبُوا إِلَيْكَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُكَ يَوْمَئِذٍ يُؤْمِنُونَ أَوْ تُرْمَضُكَ ۖ وَلَئِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۚ تَلَكَّزُكُمُ رُسُلٌ فَإِذَا جَاءَ رُسُلُهُمْ قُوِيَ بَيْنَهُمُ الْقَيْدُ وَلَمْ يَخْلُتُوا ۚ وَيَوْمَئِذٍ مِّنْ هَذَا الْوَعْدِ ۖ إِنَّ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ لَكَاذِبُونَ ۚ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا تَدْعُوا إِلَهًا إِلَّا مَا سَأَلَهُ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَرْسَلْنَا رَحْمَةً لَّهُمْ وَإِن مِّنْ مُّسْلِمٍ إِلَّا لِيَرْسُلُنَّ لِقَاءَهُ أَرْسُلْنَا لِقَاءَهُ أَرْسُلْنَا لِقَاءَهُ أَرْسُلْنَا لِقَاءَهُ وَلَا يَسْتَعِينُونَ ۚ

قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ﴾ الخ بيّن الله سبحانه في هذا أن في أولئك الكفار من بلغت حاله في النفرة والعداوة إلى هذا الحد، وهي أنهم يستمعون إلى النبي ﷺ إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر، ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة؛ لعدم حصول أثر السماع، وهو حصول القبول والعمل بما يسمعون، ولهذا قال: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ لِّلصَّمِّ﴾ يعني: أن هؤلاء وإن استمعوا في الظاهر فهم صم، والصمم مانع من سماعهم، فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع، وهو: الصمم، فكيف إذا انضم إلى ذلك أنهم لا يعقلون، فإن من كان أصم غير عاقل، لا يفهم شيئاً ولا يسمع ما يقال له. وجمع الضمير في يستمعون حملاً على معنى من، وأفرده في ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ﴾ حملاً على لفظه. قيل والنكته: كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناظرين، لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر، من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع، والنور الموافق لنور البصر، والتقدير في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ﴾ و﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ﴾ ومنهم ناس يستمعون، ومنهم بعض ينظر، والهمزتان في ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ﴾ ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي﴾ للإنكار، والفاء في الموضوعين للعطف على مقدّر، كأنه قيل: أيسمعون إليك فأنت تسمعهم؟ أينظرون إليك فأنت تهديهم؟ والكلام في ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ كالكلام في ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ﴾ الخ، لأن العمى مانع، فكيف يطمع من صاحبه

69] وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: 41] والمراد المبالغة في إظهار العدل، والنصفة بين العباد، ثم نكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار، وذلك أن النبي ﷺ، كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ والاستفهام منهم للإنكار، والاستبعاد، وللقدح في النبوة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطاباً منهم للنبي ﷺ، وللمؤمنين، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسولهم الذين أرسلهم الله إليهم، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادة الشبهة ويقطع اللجاج فقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا أقدر على جلب نفع لها، ولا دفع ضرر عنها، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيري، وقدم الضرر، لأن السياق لإظهار العجز عن حضور الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ منقطع كما ذكره أئمة التفسير، أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كان، فكيف أقدر على أن أملك لنفسي ضرراً أو نفعاً، وفي هذه أعظم واعظ، وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيرة المنادة لرسول الله ﷺ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه. فإن هذا مقام رب العالمين الذي خلق الأنبياء والصالحين، وجميع المخلوقين، ورزقهم، وأحياهم ويميتهم، فكيف يطلب من نبي من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه، ويترك الطلب لربِّ الأرباب القادر على كل شيء، الخالق الرائق المعطي المانع؟ وحسبك بما في هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل، يأمره الله بأن يقول لعباده: لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً، فكيف يملكه لغيره، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه، فضلاً عن أن يملكه لغيره، فيا عجباً لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل؟ كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبهون لما حلَّ بهم من المخالفة لمعنى: لا إله إلا الله، وملول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]؟ وأعجب من هذا: اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء، ولا ينكرون عليهم، ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرائق، المحيي المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله، ومقرِّبين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، ويناونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال، وكفاك من شر سماعه، والله ناصر دينه، ومظهر شريعته من أوضار الشرك، وأنباس الكفر، ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه، وينتجج به صدره، من كفر كثير من هذه الأمة

بأن المراد بالتعارف؛ هو: تعارف التوبيخ، وعليه يحمل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ [سبا: 31]، وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة، فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَتَبُوا بَلَاءَ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾ هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران، والجملة في محل النصب على الحال، والمراد بلقاء الله: يوم القيامة عند الحساب والجزاء، ونفى عنهم أن يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم، وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم، قوله: ﴿وَأَمَّا نَرِيكَ بِعُضِّ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ أصله: إن نرك، وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط وزيدت نون التأكيد، والمعنى: إن حصلت منا الإراءة لك بعض الذي وعدناهم من إظهار دينك في حياتك بقتلهم وأسرهم، وجواب الشرط محذوف، والتقدير فتراه، أو فذاك، وجملة: ﴿أَوْ نَتُوفِينِكَ﴾ معطوفة على ما قبلها، والمعنى: أو لا نرينك ذلك في حياتك، بل نتوفيك قبل ذلك ﴿فَالْيُسُفُ مَرْجِعُهُمْ﴾ فعند ذلك نعدبهم في الآخرة، فنريك عذابهم فيها، وجواب ﴿أَوْ نَتُوفِينِكَ﴾ محذوف أيضاً، والتقدير: أو نتوفيك قبل الإراءة فنحن نريك ذلك في الآخرة؛ وقيل: إن جواب ﴿أَوْ نَتُوفِينِكَ﴾ هو قوله: ﴿فَالْيُسُفُ مَرْجِعُهُمْ﴾ لدلالته على ما هو المراد من إراءة النبي ﷺ تعذيبهم في الآخرة، وقيل: العود إلى صيغة المستقبل في الموضعين لاستحضار الصورة، والأصل: أريناك أو توفيك، وفيه نظر، فإن إراءته ﷺ لبعض ما وعد الله المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة. وحاصل معنى هذه الآية: إن لم تنتقم منهم عاجلاً انتقمنا منهم أجلاً. وقد أراه الله سبحانه قتلهم وأسرهم، ونلهم وذهاب عزمهم، وانكسار سورة كبرهم بما أصابهم به في يوم بدر وما بعده من المواطن، فلله الحمد. قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ جاء بثم الدالة على التباعد، مع كون الله سبحانه شهيداً على ما يفعلونه في الدارين؛ للدلالة على أن المراد بهذه الأفعال ما يترتب عليها من الجزاء، أو ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة، فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم، كما ذكره النيسابوري ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الخالية في وقت من الأوقات ﴿رَسُولٌ﴾ يرسله الله إليهم، ويبين لهم ما شرعه الله لهم من الأحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ إليهم، وبلغهم ما أرسله الله به فكتبوه جميعاً ﴿قَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الأمة ورسولها ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: العدل فنجا الرسول، وهلك المكذبون له، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15] ويجوز أن يراد بالضمير في بينهم الأمة على تقدير أنه كذب بعضهم، وصدقه البعض الآخر، فيهلك المكذبون، وينجو المصدقون ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء، فلا يعذبون بغير ذنب، ولا يؤاخذون بغير حجة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الزمر:

المباركة ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ [الكهف: 104] ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة: 156] ثم بين سبحانه أن لكل طائفة حداً محدوداً لا يتجاوزونه، فلا وجه لاستعجال العذاب فقال: ﴿لكل أمة أجل﴾ فإذا جاء ذلك الوقت، أنجز وعده وجازى كل بما يستحقه، والمعنى: أن لكل أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم، أو بين بعضهم البعض أجلاً معيناً، ووقتاً خاصاً، يحل بهم ما يريده الله سبحانه لهم عند حلوله: ﴿إذا جاء لأجلهم﴾ أي: تلك الوقت المعين، والضمير راجع إلى كل أمة ﴿فلا يستلخرون﴾ عن ذلك الأجل المعين ﴿ساعة﴾ أي: شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ولا يستقدمون﴾ وعليه، جملة: لا يستقدمون معطوفة على جملة لا يستأخرون، ومثله قوله تعالى: ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ [الحجر: 5] والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدم في تفسير الآية التي في أول الأعراف، فلا نعيده.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿يتعارفون بينهم﴾ قال: يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يكلمه. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وإما نرينك﴾ الآية. قال: سوء العذاب في حياتك ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ﴿فإلينا مرجعهم﴾ وفي قوله: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم﴾ قال: يوم القيامة.

قُلْ أَنبِئْهُمْ إِنَّكُمْ عَذَابُ بَيْنَا أَوْ نَهَارًا مَّا يَسْتَعِجِلُونَ بِهِ الْمُتَعِجِلُونَ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلَاظِ هَلْ تَحْزَنُونَ ﴿٥٧﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِئَهُمْ بِآيَاتِنَا أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِئَهُمْ بِآيَاتِنَا أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٠﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٦٢﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٦٣﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٦٤﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٦٥﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٦٦﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٦٧﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٦٨﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٦٩﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٧٠﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٧١﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٧٢﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٧٣﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٧٤﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٧٥﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٧٦﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٧٧﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٧٨﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٧٩﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٨٠﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٨١﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٨٢﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٨٣﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٨٤﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٨٥﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٨٦﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٨٧﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٨٨﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٨٩﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٩٠﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٩١﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٩٢﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٩٣﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٩٤﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٩٥﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٩٦﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٩٧﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٩٨﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٩٩﴾ وَتَوَسَّلُوا بَيْنَهُمْ بِأَلْفُسُوفٍ وَأَمْ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله: ﴿قل أرايتم إن اتاكم عذابه﴾ هذا منه سبحانه تزييف لرأي الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف الأول: أي أخبروني إن اتاكم عذاب الله ﴿ببائنا﴾ أي: وقت بيات، والمراد به الوقت الذي يبيتون فيه، وينامون ويففلون، عن التحرز، والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم، وهو منتصب على الظرفية، وكذلك نهراً: أي وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب، والضمير في منه راجع إلى العذاب، وقيل: راجع إلى الله، والاستفهام في ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ للإنكار المتضمن للنهي، كما في قوله: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل: 1] ووجه الإنكار عليهم في استعجالهم: أن العذاب مكروه تنفر منه

القلوب، وتاباه الطبائع فما المقتضى لاستعجالهم له؟ والجملة المصدرة بالاستفهام جواب الشرط بحذف الفاء؛ وقيل: إن الجواب محذوف، والمعنى: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه؛ وقيل: إن الجواب قوله: ﴿إثم إذا ما وقع﴾ وتكون جملة ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ اعتراضاً، والمعنى: إن اتاكم عذابه أمنتكم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان. والأول: أولى. وإنما قال: يستعجل منه المجرمون، ولم يقل: يستعجلون منه؛ للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال، وهو الإجراء، لأن من حق المجرم أن يخاف من العذاب بسبب إجرامه، فكيف يستعجله؟ كما يقال لمن يستوخم أمراً إذا طلبه: ماذا تجني على نفسك. وحكى النحاس، عن الزجاج، أن الضمير في ﴿منه﴾ إن عاد إلى العذاب كان لك في ﴿ماذا﴾ تقديران: أحدهما: أن تكون ما في موضع رفع بالابتداء، وهذا بمعنى الذي، وهو خبر ما، والعائد محذوف. والتقدير الآخر: أن يكون ﴿ماذا﴾ اسماً واحداً في موضع رفع بالابتداء، والخبر ما بعده، وإن جعل الضمير في ﴿منه﴾ عائداً إلى الله تعالى، كان ﴿ماذا﴾ شيئاً واحداً في موضع نصب يستعجل، والمعنى: أي شيء يستعجل منه المجرمون: أي من الله عز وجل. وبخول الهمزة الاستفهامية في ﴿إثم إذا ما وقع أمنتكم به﴾ على ثم كدخلها على الواو والفاء، وهي لإنكار إيمانهم، حيث لا ينفع الإيمان، وذلك بعد نزول العذاب، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم، وتفضيع ما فعلوه في غير وقته، مع تركهم له في وقته الذي يحصل به النفع والنفعة، وهذه الجملة داخلية تحت القول المأمور به، وجيء بكلمة ثم التي للتراضي؛ دلالة على الاستبعاد. وجيء بإذا مع زيادة ما للتأكيد؛ دلالة على تحقق وقوع الإيمان منهم في غير وقته، ليكون في تلك زيادة استعجال لهم، والمعنى: أبعد ما وقع عذاب الله عليهم، وحل بكم سخطه وانتقامه أمنتكم، حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئاً، ولا يدفع عنكم ضرراً. وقيل إن هذه الجملة: ليست داخلية تحت القول المأمور به، وإنما من قول الملائكة استهزاء بهم، وإزراء عليهم. والأول: أولى. وقيل: إن ثم هاهنا، هي بفتح الناء، فتكون ظرفية بمعنى هناك. والأول: أولى. قوله: ﴿الآن وقد كنتم به تستعجلون﴾ قيل: هو استئناف بتقدير القول، غير داخل تحت القول الذي أمر الله رسوله ﷺ أن يقوله لهم: أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: الآن أمنتكم به وقد كنتم به تستعجلون: أي بالعذاب تكتيباً منكم واستهزاء، لأن استعجالهم كان على جهة التأكيد والاستهزاء، ويكون المقصود بأمره ﷺ أن يقول لهم هذا القول: التوبيخ لهم، والاستهزاء بهم، والإزراء عليهم، وجملة ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ في محل نصب على الحال، وقرئ: «الآن» بحذف الهمزة التي بعد اللام، والفاء حركتها على اللام. قوله: ﴿ثم قيل للذين ظلموا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ محطوف على الفعل المقتر، قيل الآن، والمراد منه: التقرير والتوبيخ لهم: أي قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان: إن هذا

الأنفس المملول عليها بكل نفس. ومعنى أسروا: أخفوا: أي لم يظهروا الندامة بل أخفوها، لما قد شاهدهوا في ذلك الموطن مما سلب عقولهم، وذهب بتجلدهم، ويمكن أنه بقي فيهم، وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم إلى العصبية التي كانوا عليها في الدنيا، فأسروا الندامة لثلاث يشمت بهم المؤمنون؛ وقيل: أسرها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم، خوفاً من توبيخهم لهم؛ لكنهم هم الذين أضلّوهم، وحالوا بينهم وبين الإسلام؛ ووقع هذا منهم كان عند رؤية العذاب، وأما بعد الدخول فيه فهم الذين: ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ [المؤمنون: 106] وقيل معنى أسروا: أظهروا، وقيل: وجنوا ألم الحسرة في قلوبهم، لأن الندامة لا يمكن إظهارها، ومنه قول كثير:

فأسررت الندامة يوم نادى برّد جمال عاصرة المنادى
ونكر المبرد في تلك وجهين: الأول: أنها بدت في وجوههم أسرة الندامة، وهي الإنكسار، واحدها: سرار، وجمعها: أسارير، والثاني: ما تقدّم؛ وقيل معنى: ﴿أسروا للندامة﴾ أخلصوها، لأن إخفاءها إخلاصها، و﴿لما﴾ في قوله: ﴿لما رأوا العذاب﴾ ظرف بمعنى حين منصوب بأسروا، أو حرف شرط جوابه محذوف للدلالة ما قبله عليه ﴿وقضى بينهم بالقسط﴾ أي: قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين، أو بين الرؤساء والأتباع، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين؛ وقيل: معنى القضاء بينهم: إنزال العقوبة عليهم، والقسط: العدل، وجملة ﴿وهم لا يظلمون﴾ في محل نصب على الحال: أي: لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذي حل بهم، فإنه بسبب ما كسبوا، وجملة ﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض﴾ مسوقة لتقرير كمال قدرته، لأن من ملك ما في السموات والأرض، تصرف به كيف يشاء، وغلب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات. قيل: لما نكر سبحانه افتداء الكفار بما في الأرض لو كان لهم ذلك بين أن الأشياء كلها لله، وليس لهم شيء يتمكنون من الافتداء به؛ وقيل: لما أقسم على حقيقة ما جاء به النبي ﷺ، أراد أن يصحب ذلك ببليال البرهان البين بأن ما في العالم على اختلاف أنواعه ملكه، يتصرف به كيف يشاء، وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه تنبيه للغافلين، وإيقاظ للذاهلين، ثم أكد ما سبق بقوله: ﴿ألا إن وعد الله حق﴾ أي: كائن لا محالة، وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندراجاً أولياً، وتصدير الجملة بحرف التنبيه، كما قلنا في التي قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين ﴿ولكن أكثر الناس﴾ أي: الكفار ﴿لا يعلمون﴾ ما فيه صلاحهم، فيعملون به، وما فيه فسادهم فيجتنبونه ﴿هو يحيى ويميت﴾ يهب الحياة ويسلبها. ﴿وال إليه ترجعون﴾ في الدار الآخرة، فيجازي كل بما يستحقه، ويتفضل على من يشاء من عباده. قوله: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾ يعني: القرآن فيه ما يتعظ به من قراه وعرف معناه، والوعظ في الأصل: هو: التنكير بالعواقب سواء كان

الذي تطلبونه ضرر محض، عار عن النفع من كل وجه، والعاقل لا يطلب ذلك، ويقال لهم على سبيل الإهانة لهم: نوقوا عذاب الخلد: أي العذاب الدائم الذي لا ينقطع، والقائل لهم هذه المقالة، والتي قبلها، قيل: هم: الملائكة الذين هم: خزنة جهنم. ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص، أو المؤمنون على العموم ﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾ في الحياة من الكفر والمعاصي. والاستفهام للتقرير، وكأنه يقال لهم هذا القول عن استغاثتهم من العذاب، وحلول النقمة. ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة، والجوابات عن أقوالهم الباطلة: أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب، فقال: ﴿ويستنبئونك أحق هو﴾ أي: يستخبرونك عن جهة الاستهزاء منهم والإنكار، أحق ما تعدنا به من العذاب في العاجل والأجل، وهذا السؤال منهم جهل محض، وظلمات بعضها فوق بعض، فقد تقدّم نكره عنهم مع الجواب عليه، فصنعهم في هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول، ولا ما يقال له؛ وقيل المراد بهذا الاستخبار منهم هو: عن حقيقة القرآن، وارتفاع حق على أنه خبر مقدّم، والمبتدأ هو الضمير الذي بعده، وتقديم الخبر للاهتمام، أو هو مبتدأ، والضمير مرتفع به ساء مسدّد الخبر، والجملة في موضع نصب بيستنبئونك، وقرئ ﴿أحق هو﴾ على أن اللام للجنس، فكانه قيل: أهو الحق لا الباطل. قوله: ﴿قل إي وربي إنه لحق﴾ أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة جواباً عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء: أي قل لهم يا محمد غير ملتفت إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء: إي وربي إنه لحق: أي نعم، وربي إن ما أعتكم به من العذاب لحق ثابت كائن لا محالة. وفي هذا الجواب تأكيد من وجوه: الأول: القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم؛ الثاني: دخول إن المؤكدة؛ الثالث: اللام في لحق؛ الرابع: إسمية الجملة، وذلك يدل على أنهم قد بلغوا في الإنكار والتمرد إلى الغاية التي ليست وراءها غاية، ثم توعدهم بأشدّ توعد، وربههم بأعظم ترهيب، فقال: ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي: فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع، والمكابرة التي لا تنفع من قضاء الله شيئاً، وهذه الجملة إما معطوفة على جملة جواب القسم، أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم من عذاب الله بوجه من الوجوه؛ ثم زاد في التأكيد، فقال: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به﴾ أي: ولو أن لكل نفس من الأنفس المتصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر بالله وعدم الإيمان به ما في الأرض، من كل شيء من الأشياء التي تشتمل عليها من الأموال النفيسة، والذخائر الفائقة لافتدت به: أي جعلته فدية لها من العذاب، ومثله قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحد ملاء الأرض ذهباً ولو افتدوا به﴾ [آل عمران: 91] وقد تقدّم قوله: ﴿أسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ [سبا: 33] الضمير راجع إلى الكفار، الذين سياق الكلام معهم. وقيل: راجع إلى

رجس شفاء، إنما الشفاء في شيء من القرآن والعسل، فهما شفاء لهما في الصدور، وشفاء للناس. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، قال: «إن الله جعل القرآن شفاء لما في الصدور، ولم يجعله شفاء لأمرائكم». وأخرج ابن المنذر، وابن مروي، عن أبي سعيد الخدري، قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني اشتكي صدري، فقال: اقرأ القرآن، يقول الله: شفاء لما في الصدور». وأخرج البيهقي في شعب الإيمان، عن واثلة بن الأسقع، أن رجلاً شكاً إلى النبي ﷺ وجع حلقه، قال: «عليك بقراءة القرآن والعسل»، فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء». وأخرج أبو داود، والحكم وصححه، وابن مروي، عن أبي قال: أقراني رسول الله ﷺ بالتاء يعني الفوقية، وقد روى نحو هذا من غير هذه الطريق. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: **«قل بفضل الله وبرحمته»** قال: بفضل الله القرآن، وبرحمته أن جعلكم من أهله. وأخرج الطبراني في الأوسط، عن البراء، مثله من قوله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن أبي سعيد الخدري، مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس، في الآية قال: بكتاب الله بالإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عنه قال: فضله الإسلام، ورحمته القرآن. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عنه أيضاً قال: بفضل الله القرآن، وبرحمته حين جعلهم من أهله. وقد روي عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، هو: خير مما يجمعون من الأموال والحرث والأنعام.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فَمِمَّا شَاءَ مِنْهُ حَرَامًا وَمِمَّا كُنَّا قُلْ مَا اللَّهُ أَذَنٌ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْهُؤْنَ ﴿١٧٦﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ يَوْمَ الْفِتْنَةِ إِنَّ اللَّهَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٧٧﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَسْمَعُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ فِيهِ وَمَا يَصْرُبُ عَنْ رَبِّكَ يَنْتَقَالُ دَرَجَاتُ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَسْمَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٧٨﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلَىٰ آلَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨٠﴾ لَهُمُ الْأَشْرَفُ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبُولُ إِنْ كُنْتُمْ أَتَىٰ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ ﴿١٨١﴾

أشار سبحانه بقوله: **«قل أوفيتكم ما أنزل الله»** الخ إلى طريق أخرى غير ما تقدم في إثبات النبوة، وتقرير ذلك ما حصله أنكم تحكمون بتحليل البعض، وتحريم البعض، فإن كان بمجرد التشهي والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء، مسلمهم وكافرهم، وإن كان لاعتقادكم أنه حكم الله فيكم وفيما رزقكم، فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى الله، ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل

بالتعريب أو الترهيب، والواظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضره، ومن في **«من وبكم»** متعلقة بالفعل، وهو جاءتكم، فتكون ابتدائية، أو متعلقة بمحذوف، فتكون تبعية. **«وشفاء لما في الصدور»** من الشكوك التي تعترى بعض المرتابين، لوجود ما يستفاد منه في من العقائد الحقة، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة، والهدى: الإرشاد لمن اتبع القرآن، وتفكر فيه، وتدبر معانيه إلى الطريق الموصلة إلى الجنة، والرحمة: هي ما يوجد في الكتاب العزيز من الأمور التي يرحم الله بها عباده، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها، فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور، ثم أمر رسول الله ﷺ وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم، فقال: **«قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا»** المراد بالفضل من الله سبحانه: هو تفضله على عباده في الأجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر، والرحمة: رحمته لهم. وروي عن ابن عباس أنه قال: فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام. وروي عن الحسن والضحاك، ومجاهد وقتادة، أن فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن. والأولى: حمل الفضل والرحمة على العموم، ويخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولاً أولياً، وأصل الكلام: قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثاني في قوله: **«فبذلك فليفرحوا»** عليه، قيل: والفاء في هذا الفعل المحذوف داخلة في جواب شرط مقتر، كانه قيل: إن فرحوا بشيء فليخسوا فضل الله ورحمته بالفرح. وتكرير الباء في برحمته للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة سبب مستقل في الفرح، والفرح: هو اللذة في القلب بسبب إدراك المطلوب، وقد ذم الله سبحانه الفرح في مواطن كقوله: **«لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين»** [القصص: 76] وجوز في قوله: **«فرحين بما آتاهم الله من فضله»** [آل عمران: 170] وكما في هذه الآية، ويجوز أن تتعلق الباء في «بفضل الله وبرحمته» بقوله: **«جاءتكم»**، والتقدير: جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك: أي فبمجيتها، فليفرحوا، وقرأ يزيد بن القعقاع ويعقوب «فلتفرحوا» بالفوقية، وقرأ الجمهور بالتحنية، والضمير في «هو خير» راجع إلى المذكور من الفضل والرحمة، أو إلى المجيء على الوجه الثاني، أو إلى اسم الإشارة في قوله: **«فبذلك»** والمعنى: أن هذا خير لهم مما يجمعونه من حطام الدنيا. وقد قرئ بالتاء الفوقية في **«يجمعون»** مطابقة للقراءة بها في **«فلتفرحوا»**. وقد تقرر في العربية أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا في لغة قليلة، جاءت هذه القراءة عليها، وقرأ الجمهور بالتمناة التحنية في يجمعون، كما قرءوا في فليفرحوا. وروي عن ابن عمر أنه قرأ بالفوقية في يجمعون، والتحنية في لتفرحوا.

وقد أخرج الطبراني، وأبو الشيخ، عن أبي الأحوص، قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال: إن أخي يشتكي بطنه، فوصف له الخمر، فقال: سبحان الله! ما جعل الله في

الذين أرسلهم الله إلى عباده، ومعنى أرايتم: أخبروني، و﴿ها﴾ في محل نصب بأرايتم المتضمن لمعنى أخبروني - وقيل: إن «ما» في محل الرفع بالابتداء وخبرها ﴿الله أذن لكم﴾ و«قل» في قوله: ﴿قل الله أذن لكم﴾ تكرير للتأكيد والرباط محذوف، ومجموع المبتدأ والخبر في محل نصب بأرايتم والمعنى: أخبروني الذي أنزل الله إليكم من رزق، فجعلتم منه حراماً وحلالاً، الله أنن لكم في تحليله وتحريمه ﴿أم على الله تفترون﴾ وعلى الوجهين، فمن في منه حراماً للتبعيض، والتقدير: فجعلتم بعضه حراماً وجعلتم بعضه حلالاً، وذلك كما كانوا يفعلونه في الأنعام حسبما سبق حكاية ذلك عنهم في الكتاب العزيز؛ ومعنى إنزال الرزق: كون المطر ينزل من جهة العلو، وكذلك يقضي الأمر في أرزاق العباد في السماء على ما قد ثبت في اللوح المحفوظ من ذكره سبحانه وتعالى، لكل شيء فيه. وروى عن الزجاج أن «ما» في موضع نصب بأنزل، وأنزل بمعنى خلق، كما قال: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر: 6] ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ [الحديد: 25] وعلى هذا القول والقول الأول يكون قوله: ﴿قل الله أذن لكم﴾ مستأنفاً، قيل: ويجوز أن تكون الهمزة في ﴿الله أذن لكم﴾ للإنكار، وأم منقطعة بمعنى: بل تفترون على الله، وإظهار الإسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء. وفي هذه الآية الشريفة ما يصك مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد الله في شريعته، بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله، ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي. ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلده في دينهم، وجعلوه شارعاً مستقلاً. ما عمل به من الكتاب والسنة، فهو المعمول به عندهم. وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه، أو فهمه وأخطأ الصواب في اجتتهاده وترجيحه، فهو: في حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد، مع كون من قلده متعبداً بهذه الشريعة، كما هم متعبدون بها ومحكوماً عليه بأحكامها، كما هو محكوم عليهم بها، وقد اجتهد رأيه وأدى ما عليه، وفاز بأجرين مع الإصابة وأجر مع الخطأ، إنما الشأن في جعلهم لرأيه الذي أخطأ فيه شريعة مستقلة، وليلاً معمولاً به. وقد أخطئوا في هذا خطأ بيناً، وأغلطوا غلطاً فاحشاً. فإن الترخيص للمجتهد في اجتهد رأيه يخصه وحده، ولا قائل من أهل الإسلام المعتد بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليداً له واقتداء به، وما جاء به المقلدة في تقوّم هذا الباطل، فهو من الجهل العاطل، اللهم كما رزقنا من العلم ما نميز به بين الحق والباطل، فارزقنا من الإنصاف ما ننظر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير. ثم قال: ﴿وما ظنّ للنئين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي: أي شيء ظنهم في هذا اليوم، وما يصنع بهم فيه، وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذي أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم، بل مبتدأة مسوقة لبيان ما

سيحلّ بهم من عذاب الله، و«يوم القيامة» منصوب بالظنّ، ونكر الكذب بعد الافتراء، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لزيادة التأكيد. وقرأ عيسى بن عمر «وما ظنّ» على أنه فعل: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعم في الدنيا والآخرة ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ الله على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه في كل وقت من الأوقات، وطرفة من الطرفات. قوله: ﴿وما تكون في شأن﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، وما نافية، والشأن: الأمر بمعنى القصد، وأصله الهمز، وجمعه شؤون. قال الأخفش: تقول العرب: ما شأنت شأنه: أي ما عملت عمله: ﴿وما تقتلوا منه من قرآن﴾ قال الفراء والزجاج: الضمير في منه يعود على الشأن، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف: أي تلاوة كائنة منه، إذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه ﷺ؛ والمعنى: أنه يتلو من أجل الشأن الذي حدّث القرآن، فيعلم كيف حكمه، أو يتلو القرآن الذي ينزل في ذلك الشأن. وقال ابن جرير الطبري: الضمير عائذ في منه إلى الكتاب: أي ما يكون من كتاب الله من قرآن، وأعاده تفخيماً له كقوله: ﴿إنني أنا الله﴾ [طه: 14]، والخطاب في ﴿ولا تعملون من عمل﴾ لرسول الله ولأمة؛ وقيل: الخطاب لكفار قريش ﴿إلا كنا عليهم شهداء﴾ استثناء مفرّغ من أعم الأحوال للمخاطبين: أي شهداء عليكم بعمله منكم، والضمير. في فيه من قوله: ﴿تفيضون فيه﴾ عائذ على العمل، يقال: أفاض فلان في الحديث والعمل: إذا اندفع فيه. وقال الضحاك: الضمير في فيه عائذ على القرآن؛ والمعنى: إذ تشيعون في القرآن الكذب. قوله: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾ قرأ الكسائي «يعزب» بكسر الزاي، وقرأ الباقر بالضم وهما لغتان فصيحتان، ومعنى يعزب: يغيب، وقيل يبعد. وقال ابن كيسان: يذهب، وهذه المعاني متقاربة، ومن في ﴿من مثقال﴾ زائدة للتأكيد: أي وما يغيب عن ربك وزن ذرة: أي: نملة حمراء، وعبر بالأرض والسماء مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شيء، لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما، لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات، وقدّم الأرض على السماء؛ لأنها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب، والوao في ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ لعطف على لفظ مثقال، وانتصبا لكونهما ممتنعين، ويجوز أن يكون العطف على ذرة؛ وقيل: انتصابهما بلا التي لنفي الجنس، والوao للاستئناف، وليس من متعلقات وما يعزب، وخبر لا ﴿إلا في كتاب﴾ والمعنى: ولا أصغر من مثقال الذرة ولا أكبر منه إلا وهو في كتاب مبين، فكيف يغيب عنه؟ وقرأ يعقوب وحمزة برفع أصغر وأكبر، ووجه ذلك أنه معطوف على محل من مثقال، ومحله الرفع، وقد أورد على توجيه النصب والرفع على العطف على لفظ مثقال ومحله، أو على لفظ ذرة إشكال، وهو أنه يصير تقدير الآية: لا يعزب عنه شيء في الأرض، ولا في السماء إلا في كتاب، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذي في

أي لهم البشرى من الله ما داموا في الحياة بما يوحىه إلى أنبيائه، وينزله في كتبه، من كون حال المؤمنين عنده هو إدخالهم الجنة ورضوانه عنهم، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القرآن الكريم، وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة، وما يفضل الله به عليهم من إجابة دعائهم، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم: لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة؛ وأما للبشرى في الآخرة، فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب. والبشرى مصدر أريد به المبشر به، والظرفان في محل نصب على الحال: أي حال كونهم في الدنيا، وحال كونهم في الآخرة، ومعنى: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ لا تغيير لأقواله على العموم، فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولاً أولياً، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين في الدارين ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا يقارن قدره، ولا يماثل غيره، والجملتان: أعني ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ و﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ اعتراض في آخر الكلام عند من يجوزّه، وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، أو الأولى: اعتراضية، والثانية: تنبيئية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق﴾ قال: هم أهل الشرك كانوا يحلون من الأنعام والحرث، ما شاءوا ويحرمون ما شاءوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿إذ تفيضون فيه﴾ قال: إذ تفعلون. وأخرج الفريابي، وابن جرير، عن مجاهد، مثله، وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿وما يعزب عن ربك﴾ قال: لا يغيب عنه وزن نزة ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ إلا في كتاب مبین: قال: هو الكتاب الذي عند الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿إلا إن أولياء الله﴾ قيل: من هم يا رب؟ قال: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جببر، قال: هم الذين إذا رؤوا نكروا الله. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، مرفوعاً وموقوفاً قال: هم الذين إذا رؤوا ينكروا الله لرؤيتهم. وأخرج عنه ابن المبارك، والحكيم الترمذي في نواير الأصول، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه مرفوعاً، مثله. وأخرجه ابن المبارك، وابن شعبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن سعيد بن جببر، مرفوعاً وهو مرسل. وروي نحوه من طرق أخرى مرفوعاً وموقوفاً. وأخرج أحمد، والحكيم الترمذي، عن عمرو بن الجموح، أنه سمع النبي ﷺ يقول: ﴿لا يحق العبد حق صريح الإيمان حتى يحب الله ويبغض الله، فإذا أحب الله وأبغض الله فقد استحق الولاء من الله، وإن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين ينكرون بنكري وأنكر بنكرهم.﴾ وأخرج أحمد

الكتاب خارجاً عن علم الله وهو: محال. وقد أجيب عن هذا الإشكال بأن الأشياء المخلوقة قسمان: قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة، كخلق الملائكة والسموات والأرض؛ وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد، ولا شك أن هذا القسم الثاني متباعد في سلسلة العلية عن مرتبة الأول، فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده، سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبین أثبت فيه صورة تلك المعلومات، والغرض: الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات. وأجيب أيضاً بأن الاستثناء منقطع: أي لكن هو في كتاب مبین. ونكر أبو علي الجرجاني أن إلا بمعنى الواو، على أن الكلام قد تم عند قوله: ﴿ولا أكبر﴾ ثم وقع الابتداء بقوله: ﴿إلا في كتاب مبین﴾ أي: وهو أيضاً في كتاب مبین. والعرب قد تضع إلا موضع الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم﴾ [النمل: 10 - 11] يعني: ومن ظلم، وقوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا﴾ [البقرة: 150] أي: والذين ظلموا، وقدر هو بعد الواو التي جاءت إلا بمعناها، كما في قوله: ﴿وقولوا حطة﴾ [البقرة: 58] أي: هي حطة، ومثله: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ [النساء: 171] ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبین﴾ [الأنعام: 59]. وقال الزجاج: إن الرفع على الابتداء في قراءة من قرأ بالرفع، وخبره: ﴿إلا في كتاب﴾ واختاره صاحب الكشف، واختار في قراءة النصب التي قرأ بها الجمهور أنهما منصوبان بلا التي لنفي الجنس، واستشكل العطف بنحو ما قدمنا. ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء، وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين، وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين، فقال: ﴿إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ الولي: في اللغة: القريب. والمراد بأولياء الله: خالص المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته. وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي: يؤمنون بما يجب الإيمان به، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه، والمراد بنفي الخوف عنهم: أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم؛ لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم، وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم، وحسن ظن بربهم، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب، لأنهم يعلمون أن تلك بقضاء الله وقدره، فيسلمون للقضاء والقدر، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر، فصدورهم منشرة وجوارحهم نشطة، وقلوبهم مسرورة؛ ومحل الموصول النصب على أنه بدل من أولياء أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ وخبره لهم البشرى، فيكون غير متصل بما قبله، أو النصب أيضاً على المدح، أو على أنه وصف لأولياء. قوله: ﴿لهم للبشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ تفسير لمعنى كونهم أولياء الله:

ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في الآية قال: «هي في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له، وفي الآخرة الجنة». وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، وابن مروي، وابن منده، من طريق أبي جعفر، عن جابر أن رسول الله ﷺ فسر البشري في الحياة الدنيا بالرؤيا الحبيبة، وفي الآخرة ببشارة المؤمن عند الموت: إن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك. وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود، مرفوعاً مثل حديث جابر. وأخرج ابن جرير، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن ابن عباس، مثله. وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات، وأنها جزء من أجزاء النبوة، ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية. وقد روي أن المراد بالبشري في الآية هي قوله: «ويُشير المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً» [الأحزاب: 47] أخرج ذلك ابن جرير، وابن المنذر، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وأخرج ابن المنذر، عنه، من طريق مقسم أنها قوله: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» [فصلت: 30]. وأخرج ابن جرير، والحاكم، والبيهقي عن نافع، قال: خطب الحجاج فقال: إن ابن الزبير بدل كتاب الله، فقال ابن عمر: لا تستطيع ذلك أنت ولا ابن الزبير، «ولا تبديل لكلمات الله».

وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٥﴾
 أَلَا إِنَّكَ لَمِنَ الَّذِينَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الْكُفَرُ
 يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمُوتُ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
 يَخْرُصُونَ ﴿٧٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لَسْكُوناً فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْهِراً
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمُوتُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً
 سُبْحَنَهُ هُوَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ عِنْدِكُمْ مِنْ
 سُلْطَانٍ يَهْدَى أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ قُلْ إِنَّ الْكُفْرَ
 عَلَى اللَّهِ الْكِبَرُ لَا يَقْلُصُونَ ﴿٧٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
 نُؤْتِيهِمُ الْمَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨٠﴾

قوله: «ولا يحزنك قولهم» نهي للنبي ﷺ عن الحزن من قول الكفار المتضمن: للظعن عليه وتكذيبه، والقدح في دينه. والمقصود: التسلي له والتبشير. ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول الله ﷺ معللاً لما نكره من النهي لرسوله ﷺ فقال: «إن العزة لله جميعاً» أي: الغلبة والقهر له في مملكته وسلطانه، ليست لأحد من عباده، وإذا كان ذلك كله له، فكيف يقدر على عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة، وهم لا يملكون من الغلبة شيئاً. وقرئ «يحزنك» من أحزنه. وقرئ «أن العزة» بفتح الهمزة على معنى، لأن العزة لله، ولا ينافي ما في هذه الآية من جعل العزة جميعها لله تعالى قوله سبحانه: «ورث العزة ولسوله وللمؤمنين» [المنافقون: 8] لأن كل عزة بالله، فهي كلها لله. ومنه قوله: «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي» [المجادلة: 21] «إنا لننصر رسلنا»

عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي ﷺ: «خيار عباد الله الذين إذا رؤوا نكر الله، وشرار عباده المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون البراءة العنت». وأخرج الحكيم الترمذي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «خياركم من نكرتم الله رؤيته، وزاد في علمكم منطق، ورغبكم في الآخرة عمله». وأخرج الحكيم الترمذي، عن ابن عباس، مرفوعاً نحوه. وأخرج الحاكم وصححه، عن ابن عمر، مرفوعاً: «إن الله عبداً ليسوا بالأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقرهم ومجلسهم منه، فجئنا أعرابي على ركبته فقال: يا رسول الله صفهم لنا حلهم لنا؟ قال: قوم من أقداء الناس من نزاع القبائل، تصافوا في الله وتحابوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم. يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ فنكر نحوه. قال ابن كثير: وإسناده جيد. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي، عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مروي، عن أبي هريرة، قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله «ألا إن أولياء الله» الآية فقال: الذين يتحابون في الله». وأخرج ابن مروي، عن جابر، مرفوعاً مثله. وقد ورد في فضل المتحابين في الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، والحكيم في نوازل الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن معنى قوله: «لهم البشري في الحياة الدنيا» فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت علي: هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له، فهي بشره في الحياة الدنيا. وبشراه في الآخرة الجنة. وفي إسناده هذا الرجل المجهول. وأخرج أبو داود الطيالسي، وأحمد، والدارمي، والترمذي، وابن ماجه، والحكيم الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي، عن عبادة بن الصامت قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: «لهم البشري في الحياة الدنيا» قال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له». وأخرج أحمد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ في قوله: «لهم البشري في الحياة الدنيا» قال: الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، فمن رأى ذلك فليخبر بها الحديث. وأخرج

[غافر: 51] **﴿أَلَا إِنَّ شَاءَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ﴾** ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبي ﷺ، وإذا كانوا في ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله ﷺ بما لا يأتى الله به، وغلب العقلاء على غيرهم؛ لكونهم أشرف. وفي الآية نعي على عباد البشر، والملائكة والجمادات؛ لأنهم عبدوا المملوك، وتركوا المالك، وذلك مخالف لما يوجب العقل، ولهذا عقبه بقوله: **﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾** والمعنى: أنهم وإن سمو معبوداتهم شركاء لله، فليست شركاء له على الحقيقة، لأن ذلك محال: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾** [الأنبياء: 22] وما في وما يتبع نافية وشركاء مفعول يتبع، وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفاً، والأصل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء في الحقيقة؛ إنما هي: أسماء لا مسميات لها، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون، وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى: أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، ويكون على هذا الوجه شركاء منصوباً بيدعون، والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم، والإزراء عليهم. ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على من في السموات: أي الله من في السموات، ومن في الأرض، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء؛ والمعنى: أن الله مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من في السموات ومن في الأرض. ثم زاد سبحانه في تأكيد الرد عليهم، والنفع لأقوالهم، فقال: **﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾** أي: ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظناً، والظن لا يغني عن الحق شيئاً **﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾** أي: يقدرون أنهم شركاء تقديراً باطلاً، وكنياً بحتاً، وقد تقدمت هذه الآية في الانعام. ثم ذكر سبحانه طرفاً من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه، فقال: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾** أي: جعل لعباده الزمان منقسماً إلى قسمين: أحدهما: مظلم وهو: الليل؛ لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب، ويريحون أنفسهم عن الكد والكسب. والآخر: مبصر، لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعتهم، وتوفير معاشهم، ويحصلون ما يحتاجون إليه في وقت مضيء منير، لا يخفى عليهم فيه كبير ولا حقيق، وجعله سبحانه للنهار مبصراً مجاز. والمعنى: أنه مبصر صاحبه كقولهم: نهاره صائم، والإشارة بقوله: **﴿إِنْ فِي ذَلِكَ إِلَى الْجَعْلِ الْمُنْكَرِ﴾** **﴿آيَاتٍ﴾** عجيبية كثيرة **﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾** أي: يسمعون ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره الله سبحانه هاهنا منها، ومن غيرها مما لم يذكره، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون، فيكون ذلك من أعظم أسباب الإيمان. قوله: **﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾** هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التي كانوا يتكلمون بها، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولداً، فرد ذلك عليهم بقوله:

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فتنزه جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين، وبين أنه غني عن ذلك، وأن الولد إنما يطلب للحاجة. والغني المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد، وإيضاً إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض، ليقوم الولد مقامه، والأزلي القديم لا يفتقر إلى ذلك. وقد تقدم تفسير الآية في البقرة. ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان، فقال: **﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾**، وإذا كان الكل له، وفي ملكه، فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولداً له للمنافاة بين الملك والبنوة والأبوة. ثم زيف دعواهم الباطلة وبين أنها بلا دليل فقال: **﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾** أي: عندكم من حجة وبرهان بهذا القول الذي تم لونه، و«من» في **﴿هَذَا﴾** **﴿سُلْطَانٍ﴾** زائدة للتأكيد، والجار والمجرور في **﴿بِهَذَا﴾** متعلق إما بسلطان، لأنه بمعنى الحجة والبرهان، أو متعلق بما عندكم لما فيه من معنى الاستقرار. ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء فقال: **﴿اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾**، ويستفاد من هذا أن كل قول لا دليل عليه، ليس هو من العلم في شيء، بل من الجهل المحض، ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم قولاً يدل على أن ما قالوه كذب، وأن من كذب على الله لا يفلح، فقال: **﴿قُلْ إِنْ لِلَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾** أي: كل مفتر هذا شأنه، ويخلف فيه هؤلاء دخولاً أولياً، وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز. والمعنى: أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب. ثم بين سبحانه أن الافتراء وإن فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة، فهو متاع قليل في الدنيا، ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى الله، فيعذب المفتر عذاباً مؤبداً. فيكون متاع خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة لبيان أن ما يحصل للمفترى بافترائه ليس بفائدة يعتد بها، بل هو متاع يسير في الدنيا، يتعقبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها الكذب على الله. وقال الأخفش: إن التقدير لهم متاع في الدنيا، فيكون المحذوف على هذا هو الخبر. وقال الكسائي: التقدير ذلك متاع أو هو متاع، فيكون المحذوف على هذا هو المبتدأ.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: في قوله تعالى: **﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾** لما لم ينتفعوا بما جاءهم من الله وإقاموا على كفرهم، كبر ذلك على رسول الله ﷺ، فجاءه من الله فيما يعاتبه: **﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** يسمع ما يقولون ويعلمه، فلو شاء بعزته لانتصر منهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: **﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾** قال: منيراً. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: **﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾** يقول: ما عندكم سلطان بهذا.

وَأَتَى عَلَيْهِمْ نَبَأٌ شَرٌّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّبِعُونَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا نَسِيتَ اللَّهُ فَعَلَّ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجِزُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ

لنصرتكم، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر. وقال محمد بن يزيد المبرد: هو معطوف على المعنى، كما قال الشاعر:

يا ليت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً
والرمح لا يتقلد به، لكنه محمول كالسيف. وقال الزجاج: المعنى مع شركائكم، فالواو على هذا واو مع. وأما على قراءة اجمعوا بهمزة وصل فالعطف ظاهر: أي اجمعوا أمركم، واجمعوا شركاءكم. وأما توجيه قراءة الرفع، فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع في اجمعوا، وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر في ذلك أن الكلام قد طال. قال النحاس وغيره: وهذه القراءة بعيدة؛ لأنه لو كان شركاءكم مرفوعاً لرسم في المصحف بالواو، وليس ذلك موجوداً فيه، قال المهدي: ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء، والخبر محذوف: أي وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم، ونسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لا تعقل، لقصد التوبيخ، والتقرع لمن عبدها. وروي عن أبي أنه قرأ: «وادعوا شركاءكم» بإظهار الفعل. قوله: **﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾** الغمة: التغطية من قولهم، غمّ الهلال: إذا استتر أي: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً، قال طرفة:

لعمرك ما أمري عليّ بغمة نهاري ولا ليالي عليّ بسرمد
هكذا قال الزجاج. وقال الهيثم: معناه لا يكن أمركم عليكم مبهماً - وقيل إن الغمة: ضيق الأمر، كذا روي عن أبي عبيدة. والمعنى: لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتي والمجاملة لي ضيقاً شديداً، بل ادفعوا هذا الضيق والشدة بما شئتم، وقدرتم عليه، وعلى الوجهين الأولين: يكون المراد بالأمر الثاني هو الأمر الأول، وعلى الثالث: يكون المراد به غيره. قوله: **﴿ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾** أي ذلك الأمر الذي تريدونه بي، وأصل اقضوا من القضاء، وهو الإحكام، والمعنى: احكموا ذلك الأمر. قال الأخفش والكسائي: هو مثل: **﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾** [الحجر: 66] أي أنهيناها إليه وأبلغناه إياه، ثم لا تنتظرون: أي لا تمهلون، بل عجلوا أمركم واصنعوا ما بدا لكم، وقيل معناه: ثم امضوا إليّ ولا تؤخروني، قال النحاس: هذا قول صحيح في اللغة، ومنه قضى الميت: مضى، وحكى الفراء عن بعض القراء أنه قرأ ثم «اقضوا» بالفاء وقطع الهمزة: أي توجهوا، وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدل على وثوقه بنصر ربه، وعدم ميالاته بما يتوعد به قومه. ثم بين لهم أن كل ما أتى به إليهم من الإعذار والإنذار، وتبليغ الشريعة عن الله ليس هو لطمع دنيوي، ولا لغرض خسيس، فقال: **﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ جَرٍ﴾** أي: إن أعرضتم عن العمل بنصحي لكم، وتذكيري إياكم، فما سألتكم في مقابلة ذلك من أجر تؤبونه إليّ حتى تتيموني فيما جئت به، والفاء في **﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾** لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والفاء في **﴿فَمَا سَأَلْتُمْ﴾** جزائية **﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾** أي: ما ثوابي في النصح والتذكير إلا عليه سبحانه، فهو يثيبني أمتنم أو

أمركم عليّ غمّة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون **﴿١٠﴾** فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ جَرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ **﴿١١﴾** فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلَهُ مِنْ سَخِرَ مِنَ الْفَالِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقِكُمْ وَأَفْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْظِرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الَّذِينَ **﴿١٢﴾** ثُمَّ بَشِّرْ مَنْ يَدْعُوكَ إِلَى قَوْمِهِمْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ بِآيَاتِنَا كَذِبُونَ **﴿١٣﴾** وَمَنْ يَدْعُوكَ إِلَى قَوْمِهِمْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ بِآيَاتِنَا كَذِبُونَ **﴿١٤﴾** وَمَنْ يَدْعُوكَ إِلَى قَوْمِهِمْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ بِآيَاتِنَا كَذِبُونَ **﴿١٥﴾** وَمَنْ يَدْعُوكَ إِلَى قَوْمِهِمْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ بِآيَاتِنَا كَذِبُونَ **﴿١٦﴾** وَمَنْ يَدْعُوكَ إِلَى قَوْمِهِمْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ بِآيَاتِنَا كَذِبُونَ **﴿١٧﴾** وَمَنْ يَدْعُوكَ إِلَى قَوْمِهِمْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ بِآيَاتِنَا كَذِبُونَ **﴿١٨﴾** وَمَنْ يَدْعُوكَ إِلَى قَوْمِهِمْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ بِآيَاتِنَا كَذِبُونَ **﴿١٩﴾** وَمَنْ يَدْعُوكَ إِلَى قَوْمِهِمْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ بِآيَاتِنَا كَذِبُونَ **﴿٢٠﴾**

لما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبهة المنهارة؛ شرع في نكر قصص الأنبياء لما في ذلك من التسلي لرسول الله ﷺ، فقال: **﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾** أي: على الكفار المعاصرين لك، المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة **﴿فَبِأَنبَاءِ نوح﴾** أي: خبره، والنبأ هو الخبر الذي له خطر وشأن، والمراد: ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به، كما فعله كفار قريش وأمثالهم: **﴿إِذْ قَالَ لقومه﴾** أي: وقت قال لقومه، والظرف منصوب بنبا أو بدل منه بدل اشتغال، واللام في **﴿لقومه﴾** لام التبليغ **﴿بِأَنبَاءِ﴾** أي: كبر عليكم مقامي: أي: عظم وثقل، والمقام بفتح الميم: الموضع الذي يقام فيه، وبالضم الإقامة. وقد اتفق القراء على الفتح، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان: أي لأجله. ومنه: **﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾** [الرحمن: 46] أي: خاف ربه، ويجوز أن يراد بالمقام: المكث: أي: شق عليكم مكثي بين أظهركم، ويجوز أن يراد بالمقام: القيام؛ لأن الواظ يقوم حال وعظه؛ والمعنى: إن كان كبر عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم، وكبر عليكم تذكيري لكم **﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾** التكوينية والتنزيلية، **﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾** هذه الجملة جواب الشرط، والمعنى: إني لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على الله، فإن ذلك دأبي الذي أنا عليه قديماً وحديثاً. ويجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة عن مراتب التوكل، ويجوز أن يكون جواب الشرط **﴿فَاجْتَمِعُوا﴾** وجملة **﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾** اعتراض، كقولك: إن كنت أنكرت علي شيئاً فإله حسبي. ومعنى: **﴿فَاجْتَمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾** اعتزموا عليه، من أجمع الأمر: إذا نواه وعزم عليه قاله الفراء: وروي عن الفراء أنه قال: أجمع الشيء: أعدّه، وقال مؤرّج السدوسي: أجمع الأمر أقصم من أجمع عليه، وأنشد:

يا ليت شعري والمعنى لا تنفع هل أغنون يوماً وأمري مجمع
وقال أبو الهيثم: أجمع أمره: جعله جميعاً بعدما كان متفرقاً، وتفرّقه أن تقول مرة أقبل كذا، ومرة أقبل كذا، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه: أي جعله جميعاً، فهذا هو الأصل في الإجماع، ثم صار بمعنى العزم، وقد اتفق جمهور القراء على نصب «شركاءكم» وقطع الهمزة من اجمعوا. وقرأ يعقوب، وعاصم الجحدري بهمزة وصل في اجمعوا، على أنه من جمع يجمع جمعاً. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، ويعقوب «وشركاؤكم» بالرفع. قال النحاس: وفي نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه: الأول: بمعنى وادعوا شركاءكم، قاله الكسائي والفراء: أي ادعواهم

ثم جمعوا بينه وبين هارون في الخطاب في قولهم: **﴿وَتَكُونُ لَكُمْ لِكَبْرِيَاءِ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾** ووجه ذلك أنهم أسندوا المجيء والصرف عن طريق آباؤهم إلى موسى، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم، وجمعوا بينهما في الضميرين الآخرين، لأن الكبرياء شامل لهما في زعمهم، ولكون ترك الإيمان بموسى يستلزم ترك الإيمان بهارون، وقد مرّت القصة في الأعراف، قوله: **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُؤْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾** قال هكذا لما رأى اليد البيضاء والعصا، لأنه اعتقد أنهما من السحر، فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم، هكذا قرأ حمزة والكسائي، وابن وثاب، والأعمش «سحار». وقرأ الباقون: «ساحر» وقد تقدّم الكلام على هذا في الأعراف، والسحار صيغة مبالغة: أي كثير السحر، كثير العلم بعمله وأنواعه **﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾** في الكلام حذف، والتقدير هكذا: وقال فرعون أتؤتوني بكل ساحر عليم، فأتوا بهم إليه، فلما جاء السحرة، فتكون الفاء للعطف على المقدر المحذوف. قوله: **﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾** أي: قال لهم هذه المقالة بعد أن قالوا له: إما أن تلقى، وإما أن تكون نحن الملقون: أي اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم **﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾** ما ألقوه من ذلك **﴿قَالَ﴾** لهم **﴿مُوسَى﴾** ما جئتم به السحر: أي: الذي جئتم به السحر، على أن ما موصولة مبتدأ والخبر السحر: والمعنى: أنه سحر، لا أنه آية من آيات الله. وأجاز الفراء نصب السحر بجئتم، وتكون ما شرطية، والشرط جئتم، والجزاء: **﴿إِنْ اللَّهُ سَيِّبُطُهُ﴾** على تقدير الفاء: أي فإن الله سيبيطه: وقيل: إن السحر منتصب على المصدر: أي ما جئتم به سحراً، ثم دخلت الألف واللام، فلا يحتاج على هذا إلى حذف الفاء واختاره النحاس. وقال: حذف الفاء في المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا في ضرورة الشعر. وقرأ أبو عمرو، وأبو جعفر «أسحر» على أن الهمزة للاستفهام، والتقدير: أهو السحر، فتكون ما على هذه القراءة استفهامية. وقرأ أبي «ما أتيتم به سحر إن الله سيبيطه» أي: سيمحقه، فيصير باطلاً بما يظهره على يدي من الآيات المعجزة **﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَصْلَحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ﴾** أي: عمل هذا الجنس، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد، ويدخل فيه السحر والسحرة دخلاً أولياً، والواو في **﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾** للعطف على سيبطه: أي يبينه ويوضحه **﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾** التي أنزلها في كتبه على أنبيائه، لاشتمالها على الحجج والبراهين **﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾** من آل فرعون، أو المجرمون على العموم، ويدخل تحتهم آل فرعون دخلاً أولياً، والإجرام: الأثام. قوله: **﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾** الضمير يرجع إلى موسى: أي من قوم موسى، وهم طائفة من ذراري بني إسرائيل: وقيل المراد طائفة من ذراري فرعون، فيكون الضمير عائداً على فرعون: قيل: ومنهم مؤمن آل فرعون وأمراته، وملهطة ابنته، وامرأة خازنه: وقيل: هم قوم آبائهم

تذعنوا له، ثم قال أسحر هذا، منكرأ لما قالوه: وقيل إن مفعول **﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾** محذوف، وهو ما دلّ عليه قولهم: **﴿إِنْ هَذَا لَسِحْرٌ مِثْلُ مَا تَقُولُونَ﴾** يعني: قولهم إن هذا لسحر مبین، ثم قيل أسحر هذا، وعلى هذا التقدير والتقدير الأول فتكون جملة **﴿أسحر هذا﴾** مستأنفة من جهة موسى عليه السلام، والاستفهام: للتقريع والتوبيخ، بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قال لهم موسى لما قالوا إن هذا لسحر مبین؟ فقيل: قال أتقولون للحق لما جاءكم، على طريقة الاستفهام الإنكاري، والمعنى: أتقولون للحق لما جاءكم إن هذا لسحر مبین، وهو أبعد شيء من السحر. ثم أنكر عليهم، وقرعهم، ووبخهم، فقال: **﴿أَسْحَرْ هَذَا﴾** فجاء موسى عليه السلام بإنكار بعد إنكار، وتوبيخ بعد توبيخ، وتجهيل بعد تجهيل، وجملة: **﴿وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُونَ﴾** في محل نصب على الحال: أي أتقولون للحق إنه سحر، والحال: أنه لا يفلح الساحرون، فلا يظفرون بمطلوب، ولا يفوزون بخير، ولا ينجون من مكروه، فكيف يقع في هذا من هو مرسل من عند الله، وقد أيدته بالمعجزات والبراهين الواضحة؟ وجملة: **﴿قَالُوا أَجِئْنَا لَتُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال؟ وفي هذا ما يدلّ على أنهم انقطعوا عن الدليل، وعجزوا عن إبراز الحجة، ولم يجحدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم، بل لجئوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة، وهو: الاحتجاج بما كان عليه آبائهم من الكفر، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم، وسبب مكابرتهم للحق، وجودهم للآيات البينة، وهو الرياسة الننيوية التي خافوا عليها، وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا، وكم بقي على الباطل، وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة، وإلى الرواية الصحيحة من الرأي البحت، يقال لفته لفتاً: إذا صرفه عن الشيء ولواه عنه، ومنه قول الشاعر:

تلفت نحو الحي حتى رأيتين وجعت من الإصغاء ليتاً وأخذعا
أي: تريد أن تصرفنا عن الشيء الذي وجدنا عليه آبائنا، وهو عبادة الأصنام، والمراد بالكبرياء الملك، قال الزجاج: سمي الملك كبرياء؛ لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا؛ وقيل سمي بذلك؛ لأن الملك يتكبر.

والحاصل أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين: التمسك بالتقليد للأباء، والحرص على الرياسة الننيوية، لأنهم إذا أجابوا النبي وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه ولم يبق للملك رئاسة تامة، لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك هم بالسياسات والعادات، ثم قالوا: **﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾** تصريحاً منهم بالتكذيب، وقطعاً للطمع في إيمانهم، وقد أفرد الخطاب لموسى في قولهم: **﴿أَجِئْنَا لَتُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾**

والمراد بالقبلة على القول الأول هي: جهة بيت المقدس، وهو: قبلة اليهود إلى اليوم؛ وقيل: جهة الكعبة، وأنها كانت قبلة موسى ومن معه؛ وقيل: المراد أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلية للقبلة، ليصلوا فيها سرّاً لئلا يصيبهم من الكفار معرة بسبب الصلاة، ومما يؤيد هذا قوله: ﴿وَأَقِيمُوا لِلصَّلَاةِ﴾ أي: التي أمركم الله بإقامتها، فإنه يفيد أن القبلة هي قبلة الصلاة، إما في المساجد أو في البيوت، لا جعل البيوت متقابلة، وإنما جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهارون، ثم جعله لهما ولقومهما في قوله: ﴿وَلْجْعَلُوا بِيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا لِلصَّلَاةِ﴾ ثم أقرّد موسى بالخطاب بعد ذلك، فقال: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن اختيار المكان مفوض إلى الأنبياء، ثم جعل عاماً في استقبال القبلة وإقامة الصلاة، لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جعل خاصاً بموسى، لأنه الأصل في الرسالة، وهارون تابع له، فكان ذلك تعظيماً للبشارة وللمبشر بها؛ وقيل: إن الخطاب في وبّشّر المؤمنين لنبينا محمد ﷺ، على طريقة الالتفات والاعتراض، والأول: أولى.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿لَتَلَفْتُنَا﴾ قال: لتلونا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، قال: لتصدنا عن ألّهتنا، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ لِلْكِبْرِيَاءِ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: العظمة والملك والسلطان. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَةٌ﴾ قال: الذرية القليل. وأخرج هؤلاء، عنه، في قوله: ﴿ذُرِيَةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ قال: من بني إسرائيل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آبائهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، قال: كانت الذرية التي أمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، ونعيم بن حماد في الفتن، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا تسلطهم علينا فيفتنونا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال في تفسير الآية: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على الحق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنونا بنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن أبي قلابة، في الآية قال: سال ربه أن لا يظهر علينا عدونا، فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنونا بذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي مجلز، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وَلَوْحِينَا إِلَى مُوسَى وَخِيهِ﴾ الآية، قال ذلك حين منعهم فرعون الصلاة، فأمرهم أن يجعلوا مساجدهم

من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل، روي هذا عن الفراء ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ الضمير لفرعون، وجمع لأنه لما كان جباراً جمعوا ضميره تعظيماً له؛ وقيل: إن قوم فرعون سماوا بفرعون مثل ثمود، فرجع الضمير إليهم بهذا الاعتبار، وقيل: إنه عائد على مضاف محذوف، والتقدير: على خوف من آل فرعون، وروي هذا عن الفراء. ومنع ذلك الخليل، وسيبويه، فلا يجوز عندهما قامت هند وأنت تريد غلامها. وروي عن الأخفش أن الضمير يعود على الذرية، وقوّاه النحاس: ﴿أَنْ يَفْتَنَهُمْ﴾ أي: يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم، وهو بدل اشتغال. ويجوز أن يكون في موضع نصب بالمصدر ﴿وَأِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عات متكبر، متغلب على أرض مصر ﴿وَأِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين للحد في الكفر، وما يفعله من القتل والصلب، وتنويع العقوبات، قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ قيل: إن هذا من باب التكرير للشرط، فشرط في التوكل على الله الإيمان به والإسلام: أي الاستسلام لقضائه وقدره؛ وقيل إن هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل، والمشروط بالإسلام وجوده، والمعنى: أن يسلموا أنفسهم لله: أي يجعلوها له سائمة خالصة لا حظ للشيطان فيها، لأن التوكل لا يكون مع التخليط. قال في الكشف: ونظيره في الكلام إن ضربك زيد فاضربه، إن كانت لك به قوّة ﴿فَقَالُوا﴾ أي: قوم موسى مجيبين له ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ثم دعوا الله مخلصين، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي: موضع فتنة ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ والمعنى: لا تسلطهم علينا، فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا، ولا تجعلنا فتنة لهم، يفتنون بنا غيرنا، فيقولون لهم: لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم، وعلى المعنى الأول: تكون الفتنة بمعنى المفتون. ولما قدّموا التضرّع إلى الله سبحانه في أن يصون دينهم عن الفساد، أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم، فقالوا: ﴿وَنُجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بامر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم. قوله: ﴿وَأَوْحِينَا إِلَى مُوسَى وَخِيهِ أَنْ تَبُولُوا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا﴾ أن هي المفسرة لأن في الإحياء معنى القول أن تبولوا: أي: اتخذوا لقومكم بمصر بيوتاً؛ يقال: بولأت زيدا مكاناً، وبولأت لزيد مكاناً، والمبوا: المنزل الملزوم، ومنه بولاه الله منزلاً: أي الزمه إياه، وأسكنه فيه، ومنه الحديث: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». ومنه قول الراجز: نحن بنو عدنان ليس شك تبوأ المجد بنا والملك قيل: ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية، وقيل: هي مصر المعروفة، لا الإسكندرية ﴿وَلْجْعَلُوا بِيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: متوجهة إلى جهة القبلة، قيل والمراد بالبيوت هنا: المساجد، وإليه ذهب جماعة من السلف؛ وقيل المراد بالبيوت: التي يسكنون فيها، أمروا بأن يجعلوها منا قبلة،

المضاربة: أي يوقعوا الإضلال على غيرهم. وقرأ الباقون بالفتح: أي يضلون في أنفسهم ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾. قال الزجاج: طمس الشيء إذهابه عن صورته؛ والمعنى: الدعاء عليهم بأن يمحو الله أموالهم، ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس ﴿واشدد على قلوبهم﴾ أي: اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق، ولا تنشرح للإيمان. قوله: ﴿فلا يؤمنوا﴾ قال المبرد والزجاج: هو معطوف على ليضلوا، والمعنى: آتيتهم النعم، ليضلوا ولا يؤمنوا، ويكون ما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراضاً. وقال الفراء، والكسائي، وأبو عبيدة: هو دعاء بلفظ النهي، والتقدير: اللهم فلا يؤمنوا، ومنه قول الأعشى:

فلا ينسبط من بين عينيك ما انزوى ولا تلعنني إلا وإنك راغم
وقال الأخفش: إنه جواب الأمر: أي اطمس واشدد، فلا يؤمنوا، فيكون منصوباً. وروي هذا عن الفراء أيضاً، ومنه:

ياناق سيرى عنقاً فسيحاً إلى سليمان فنستريحاً
﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي: لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم. وقد استشكل بعض أهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء، وقال: إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم. واجيب بأنه لا يجوز لنبي أن يدعو على قومه إلا بإذن الله سبحانه، وإنما يأن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن، ولهذا لما أعلم الله نوحاً عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن، قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ [نوح: 26]. ﴿قال قد لجيت دعوتكما فاستقيما﴾ جعل الدعوة ها هنا مضافة إلى موسى وهارون، وفيما تقدم أضافها إلى موسى وحده، فقيل: إن هارون كان يؤمن على دعاء موسى، فسمي ها هنا داعياً، وإن كان الداعي موسى وحده، ففي أول الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعي، وما هنا أضافه إليهما تنزيلاً للمؤمن منزلة الداعي، ويجوز أن يكونا جميعاً داعيين، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى في أول الكلام لأصلته في الرسالة. قال النحاس: سمعت علي بن سليمان يقول: الدليل على أن الدعاء لهما، قول موسى ربنا ولم يقل رب. وقرأ علي والسلمي «دعواكما» وقرأ ابن السميغ «دعواكما» والاستقامة: الثبات على ما هما عليه من الدعاء إلى الله. قال الفراء وغيره: أمر بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه، على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان إلى أن ياتيهما تأويل الإجابة أربعين سنة، ثم أهلكوا؛ وقيل معنى الاستقامة: ترك الاستعجال ولزوم السكينة، والرضا والتسليم لما يقضي به الله سبحانه. قوله: ﴿ولا تتبعان سبيل النين لا يعلمون﴾ بتشديد النون للتأكيد، وحزكت بالكسر لكونه الأصل، ولكونهما أشبهت نون التثنية. وقرأ ابن نكوان بتخفيف النون على النفي لا على النهي. وقرئ بتخفيف الفوقية الثانية من تتبعان. والمعنى: النهي لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعبادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه

في بيوتهم، وأن يوجهوها نحو القبلة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿أن تبوأ لقومكما بمصر﴾ قال: مصر الإسكندرية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية قال: كانوا لا يصلون إلا في البيع حتى خافوا من آل فرعون، فأمرؤ أن يصلوا في بيوتهم. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في الآية قال: أمرؤ أن يتخذوا في بيوتهم مساجد. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي سنان، قال: القبلة: الكعبة، وذكر أن آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولجعلوا بيوتكم قبلة﴾ قال: يقابل بعضها بعضاً.

وَاللَّهُ مَوْسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّاهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٦٦﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتَكُمْ فَوَاقِئًا وَلَا
تُفِيئًا سَبِيلَ النَّارِ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٦٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ الْبَحْرَ
فَأَمْرَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ بَعِيًا وَعَدُوًّا عَنَقًا إِذَا أَذْرَكَ الْفَرْقَ قَالَ مَا نَسْتَأْذِنُ
لَا إِلَهَ إِلَّا الْوَيْلُ مَا نَسْتَأْذِنُ بِهِ بَرًّا أَمْ يَكُنِ مِنَ السَّالِفِينَ ﴿١٦٨﴾ مَا كُنْ وَكَدَّ
عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦٩﴾ قَالُوا مَن نَّبْعُكَ يَقُولُ يَقُولُ يَكُونُ
لِمَن خَلَقَ آبَاءُ وَإِنَّ كِبَارًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَنُفْلِتَنَّ ﴿١٧٠﴾

لما بالغ موسى عليه السلام في إظهار المعجزات، وإقامة الحجج البينات، ولم يكن لذلك تأثير في من أرسل إليهم، دعا عليهم بعد أن بين سبب إصرارهم على الكفر، وتمسكهم بالجحود والعناد، فقال مبيناً للسبب أولاً: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾. قد تقدم أن المملأ هم الأشراف، والزينة: اسم لكل ما يتزين به، من ملبوس ومركوب، وحلية وفراش وسلاح، وغير ذلك، ثم كرر النداء للتأكيد فقال: ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾.

وقد اختلف في هذه اللام الداخلة على الفعل، فقال الخليل وسيبويه: إنها لام العاقبة والصيرورة. والمعنى: أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال، صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتيت؛ وقيل: إنها لام كي: أي أعطيتهم لكي يضلوا. وقال قوم: إن المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا. فحذف لا كما قال سبحانه: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: 176]. قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن، فمؤه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: 176]. وقيل اللام للدعاء عليهم. والمعنى: ابتلهم بالهلاك عن سبيلك، واستدل هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا: اطمس واشدد. وقد أطال صاحب الكشاف في تقرير هذا بما لا طائل تحته، والقول الأول هو: الأولى. وقرأ الكوفيون «ليضلوا» بضم حرف

واضلالك لغيرك. قوله: ﴿فاليوم ننجيك ببينك﴾ قرئ «ننجيك» بالتخفيف، والجمهور على التثقيل. وقرأ اليزيدي: «ننجيك» بالحاء المهملة من التنحية، وحكاها علقمة عن ابن مسعود؛ ومعنى ننجيك بالجيـم: نلّيك على نجوة من الأرض، وذلك أن بني إسرائيل لم يصنّفوا أن فرعون غرق، وقالوا: هو أعظم شأنًا من ذلك، فآلفاه الله على نجوة من الأرض، أي: مكان مرتفع من الأرض حتى شاهده؛ وقيل المعنى: نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر، ونجعلك طافياً ليشاهدوك ميتاً بالغرق، ومعنى ننحيك بالمهملة: نطرحك على ناحية من الأرض، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ «بابدانك».

وقد اختلف المفسرون في معنى ببينك، فقليل معناه: بجسدك بعد سلب الروح منه؛ وقيل معناه: بدرعك، والدرع يسمى بدنًا، ومنه قول كعب بن مالك:

ترى الأبدان فيها مسبغات على الأبطال واليلب الحصينا
أراد بالأبدان الدروع، وقال عمرو بن معدى كرب:

ومضى نساؤهم بكل مضاضة جدلاء سابغة وبالأبدان
أي بدروع سابغة، وبدروع قصيرة؛ وهي التي يقال لها أبدان كما قال أبو عبيدة. وقال الأخفش: وأما قول من قال بدرعك فليس بشيء، ورجح أن البدن المراد به هنا الجسد. قوله: ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ هذا تعليل لتنجيته ببينه، وفي ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى، والمراد بالآية العلامة: أي لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك، وأنت لست كما تدعي وينفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتاً بالغرق؛ وقيل: المراد ليكون طرّحك على الساحل وحكك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله، يحتبر بها الناس، أو يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك، حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه، فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية، واستمر على ذلك دهرًا طويلاً كانت له هذه العاقبة القبيحة. وقرئ «لمن خلفك» على صيغة الفعل الماضي أي: لمن يأتي بعدك من القرون، أو من خلفك في الرئاسة أو في السكن في المسكن الذي كنت تسكنه ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا﴾ التي توجب الاعتبار والتفكير، وتوقظ من سنة الغفلة ﴿لغافلون﴾ عما توجبه الآيات، وهذه الجملة تنبيئية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ يقول: دمر على أموالهم وأهلكها ﴿واشدّد على قلوبهم﴾ قال: اطبع ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وهو الغرق. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي، قال: سألني عمر بن عبد العزيز، عن قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ فأخبرته أن الله طمس على أموال فرعون وآل فرعون، حتى صارت حجارة، فقال عمر: كما أنت حتى آتيتك، فدعا بكيس مختوم ففكه، فإذا

المصالح، تعجلاً وتأجلاً. قوله: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ هو من جاوز المكان: إذا خلفه وتخطاه، والباء للتعنية: أي جعلناهم مجاوزين البحر، حتى بلغوا الشط، لأن الله سبحانه جعل البحر ييبساً فمرّوا فيه حتى خرجوا منه إلى البر. وقد تقدّم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه: ﴿وإذا فرقتا بكم البحر﴾ [البقرة: 50] وقرأ الحسن «وجوّزنا» وهما لغتان ﴿فاتبعهم فرعون وجنوده﴾ يقال تبع واتبع بمعنى واحد: إذا لحقه. وقال الأصمعي: يقال اتبعه بقطع الالف: إذا لحقه وأدركه، واتبعه بوصل الالف: إذا اتبع أثره أدركه، أو لم يدركه. وكذا قال أبو زيد، وقال أبو عمرو: إن اتبعه بالوصل: اقتدى به، وانتصاب بغياً وعدواً على الحال، والبيغي: الظلم، والعدو: الاعتداء، ويجوز أن يكون انتصابهما على العلة: أي للبيغي والعدو. وقرأ الحسن «وعبوا» بضم العين والدال وتشديد الواو، مثل علا يعلو علواً، وقيل إن البيغي: طلب الاستعلاء في القول بغير حق، والعدو: في الفعل ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ أي: ناله ووصله والجمه. وذلك أن موسى خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده، ففرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل، فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر، وتبعهم فرعون، والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضي موسى ومن معه، فلما تكامل دخول جنود فرعون، وكانوا أن يخرجوا من الجانب الآخر، انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك ﴿قال آمنّت أنه لا إله إلا الذي آمنّت به بنو إسرائيل﴾ أي: صدّقت أنه بفتح الهمزة على أن الأصل بانه، فحنّقت الباء، والضمير للشان. وقرئ بكسر إن على الاستئناف، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف: أي آمنّت، فقلت: إنه، ولم ينفعه هذا الإيمان أنه وقع منه بعد إدراك الغرق كله، كما تقدّم في النساء، ولم يقل للعين آمنّت بالله أو برّب العالمين، بل قال آمنّت أنه لا إله إلا الذي آمنّت به بنو إسرائيل، لأنه بقي فيه عرق من دعوى الإلهية. قوله: ﴿ولنا من المسلمين﴾ أي: المستسلمين لأمر الله، المنقادين له، الذين يوحونه وينفون ما سواه، وهذه الجملة إما في محل نصب على الحال أو معطوفة على آمنّت. قوله: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ هو مقول قول مقدّر معطوف على قال آمنّت: أي فقليل له اتؤمن الآن؟

وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقليل: هي من قول الله سبحانه، وقيل: من قول جبريل، وقيل: من قول ميكائيل، وقيل: من قول فرعون، قال ذلك في نفسه لنفسه. وجملة وقد عصيت قبل: في محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقدّر بعد القول المقدّر، وهو اتؤمن الآن؛ والمعنى: إنكار الإيمان منه عند أن الجمه الغرق، والحال أنه قد عصى الله من قبل، والمقصود التقرّيع والتوبيخ له. وجملة وكنت من المفسدين معطوفة على عصيت داخله في الحال: أي: كنت من المفسدين في الأرض بضالك عن الحق،

فيه الفضة مقطوعة كأنها الحجارة والدنانير والدرهم، وأشبه ذلك من الأموال حجارة كلها. وقد روي أن أموالهم تحولت حجارة من طريق جماعة من السلف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: قد أجيببت دعوتكما، قال: فاستجاب له، وحال بين فرعون وبين الإيمان. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة قال: كان موسى إذا دعا أمَّن هارون على دعائه يقول آمين. قال أبو هريرة: وهو اسم من أسماء الله، فذلك قوله: ﴿قَدْ أَجِيبْتُ دَعْوَتَكُمْ﴾. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن عكرمة نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، عن محمد بن كعب القرظي، نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، قال: يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وأخرج ابن جرير، عن ابن جرير، مثله. وأخرج الحكيم الترمذي، عن مجاهد، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، فاستقيما: فامضيا لأمري، وهي الاستقامة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: العدو والعنوة والعلو في كتاب الله: التجبر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: لما خرج آخر أصحاب موسى وبخل آخر أصحاب فرعون، أوحى الله إلى البحر أن انطبق عليهم، فخرجت أصبع فرعون بلا إله إلا الذي آمنتم به بنو إسرائيل، قال جبريل: فعرفت أن الرب رحيم، وخفت أن تدركه الرحمة، فرمسته بجناحي وقلت: الآن وقد عصيت قبل؟ فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلف من قوم فرعون: ما غرق فرعون ولا أصحابه، ولكنه في جزائر البحر يتصيدون، فأوحى الله إلى البحر أن اللفظ فرعون عرياناً، فلفظه عرياناً أصلع أخيش قصيراً فهو قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنْجِيكَ بَبْنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾. لمن قال: إن فرعون لم يفرق، وكان نجاة غيره لم تكن نجاة عافية؛ ثم أوحى الله إلى البحر أن اللفظ ما فيك، فلفظهم على الساحل، وكان البحر لا يلفظ غريقاً في بطنه حتى ياكله السمك، فليس يقبل البحر غريقاً إلى يوم القيامة. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أغرق الله فرعون فقال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾» قال لي جبريل: يا محمد لو رأيته وأنا أخذ من حال البحر فأنسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة، وقد روي هذا الحديث الترمذي من غير وجه، وقال حسن صحيح غريب، وصححه أيضاً الحاكم. وروي عن ابن عباس، مرفوعاً من طرق أخرى. وأخرج الطبراني في الأوسط، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «قال لي جبريل: ما كان على الأرض شيء أبغض إلي من فرعون، فلما آمن جعلت أحشوا فاه حماً وأنا أغطه خشية أن تدركه الرحمة». وأخرج ابن جرير، والبيهقي، من حديث أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عمر، مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي أمامة، مرفوعاً نحوه أيضاً، وفي إسناد

حديث أبي هريرة رجل مجهول، وباقي رجاله ثقات، والعجب كل العجب ممن لا علم له بفن الرواية من المفسرين، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكتب منه، كيف يتجاري على الكلام في أحاديث رسول الله ﷺ والحكم ببطلان ما صغ منها، ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحث، والقصور الفاضح الذي يضحك منه، كل من له أدنى ممارسة لفن الحديث، فيا مسكين مالك ولهذا الشأن الذي لست منه في شيء؟ ألا تستر نفسك وتربع على ضللك، وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين، وتشغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه، وحاصلك الذي ليس لك غيره، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية، ولقد صار صاحب الكشف رحمه الله بسبب ما يتعرض له في تفسيره من علم الحديث الذي ليس هو منه في ورد، ولا صدر، سخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين، ففارة يروي في كتابه الموضوعات، وهو لا يدري أنها موضوعات، وتارة يتعرض لرّد ما صح، ويجزم بأنه من الكذب على رسول الله والبهت عليه، وقد يكون في الصحيحين وغيرهما، مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات أثبات حجج، وأدنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم في علم لا يعلمه، ولا يدري به أقل دراية، وإن كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التي يتواضع عليها طائفة من الناس، ويصطلحون على أمور فيما بينهم، فما بالك تعلم السنة الذي هو قسيم كتاب الله، وقائله رسول الله ﷺ، ورواه عنه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عام، لجميع أهل الإسلام. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنْجِيكَ بَبْنِكَ﴾ قال: أنجى الله فرعون لبني إسرائيل من البحر فنظروا إليه بعدما غرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية قال: بجسدك، قال: كذب بعض بني إسرائيل بموت فرعون، فالتقى على ساحل البحر حتى يراه بنو إسرائيل: أحمر قصيراً كأنه ثور. وأخرج ابن الأنباري، عن محمد بن كعب، في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنْجِيكَ بَبْنِكَ﴾ قال: بدرعك، وكان درعه من لؤلؤة يلاقي فيها الحروب.

وَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ سِدْرًا وَنُفِثْنَاهُمْ مِنَ الْغَيْبِ فَقَا أَهْلُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْغَيَاظُ إِنَّ رَبَّكَ بَعْضُ يَوْمٍ الْيَقِينِ يَمَّا كَانُوا فِي غَيْبٍ مُّتَقَلِّبِينَ ﴿١٠١﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا نَزَّلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِّ الْأَوَّلَ يُقَرِّوْنَ الْكُتُبَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الْأَوَّلَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى بَرَّأَ الْعَذَابُ الْأَوَّلَ ﴿١٠٥﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ مَسَّتْ فَفَعَّمَا إِمْنَهُمْ إِلَّا قَوْمَ يَؤُوسَ لَمَّا مَأْمُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَافِلَ الْآخِرِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُفِثْنَاهُمْ إِلَى جِوْشَنَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ الْآخِرِي كُلَّهُمْ جَزَاءً أَفَآتٍ تَكُونُ الْكَاسِ حَتَّى يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿وَمَا كَانَتْ لَتَيْنِ أَنْ تَحْمِلَا شَيْئًا وَلَا تَحْمِلَا شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَحْمِلُ الْحَرْصَ عَلَى الْوَيْتِ لَا يَقُولُونَ﴾ ٣٦

قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ هذا من جملة ما عَدَّه الله سبحانه من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، ومعنى بَوَّأْنَا: أسكننا، يقال بَوَّأْتُ زَيْدًا مَنْزَلًا: أسكنته فيه، والمبَوَّأ اسم مكان أو مصدر، وإضافته إلى الصلوق علي ما جرت عليه قاعدة العرب، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصلوق، والمراد به هنا: المنزل المحمود المختار، قيل: هو أرض مصر، وقيل: الأردن وفلسطين، وقيل: الشام ﴿وَوَرَّقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: المستلذات من الرزق ﴿فَمَا لَخَتَلَفُوا﴾ في أمر دينهم، وتشعبوا فيه شعباً بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: لم يقع منهم الاختلاف في الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة، وعلمهم بأحكامها، وما اشتملت عليه من الأخبار بنبوّة محمد ﷺ، وقيل المعنى: أنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم، وهو القرآن النازل على نبينا ﷺ، فاختلَفُوا في نعتة وصفته، وأمن به من آمن منهم، وكفر به من كفر. فيكون المراد بالمختلفين على القول الأوّل هم: اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها، وعلى القول الثاني هم: اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿إِنْ رِبْكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، والمحقّ بعمله بالحق، والمبطل بعمله بالباطل ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الشك في أصل اللغة: ضم الشيء بعضه إلى بعض، ومنه شك الجوهر في العقد، والشاك كانه يضم إلى ما يتوهمه شيئاً آخر خلافاً، فيتردّد ويتحير، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره، كما ورد في القرآن في غير موضع. قال أبو عمر، محمد بن عبد الواحد، الزاهد: سمعت الإمامين ثعلباً والمبرد يقولان: معنى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ أي: قل يا محمد للكافر فإن كنت في شك ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله، وقد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم، ويقرّون بأنهم أعلم منهم، فأمر الله سبحانه نبيه أن يرشد الشاكين فيما أنزله الله إليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب الذين قد أسلموا، فإنهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقاً، وأن هذا رسوله، وأن التوراة شاهدة بذلك ناطقة به، وفي هذا الوجه مع حسنة مخالفة للظاهر. وقال القتيبي: المراد بهذه الآية: من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبي ﷺ، ولا بتصديقه، بل كان في شك. وقيل المراد بالخطاب: النبي ﷺ لا غيره. والمعنى: لو كنت ممن يلحقه الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لآلأوا عنك الشك. وقيل: الشك هو ضيق الصدر: أي إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء، فاصبر واسأل الذين يقرءون الكتاب. من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الأنبياء على أذى قومهم. وقيل معنى الآية: الفرض والتقدير،

كانه قال له: فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيلاً منه تقديره: فاسأل الذين يقرءون الكتاب، فإنهم سيخبرونك عن نبوتك وما نزل عليك، ويعترفون بذلك لأنهم يخشونه مكتوباً عندهم، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضياً للكم عندهم. قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ في هذا بيان ما يقلع الشك من أصله ويذهب به بجملة، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذي وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير في الشك هو الحق الذي لا يخالطه باطل، ولا تشوبه شبهة، ثم عقبه بالنهي للنبي ﷺ عن الامترأ فيما أنزل الله عليه، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك. ويمكن أن يكون هذا النهي له تعريضاً لغيره، كما في مواطن من الكتاب العزيز، وهكذا القول في نهيه ﷺ عن التكذيب بآيات الله، فإن الظاهر فيه التعريض، ولا سيما بعد تعقيبها بقوله: ﴿فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وفي هذا التعريض من الزجر للممترئين والمكذابين ما هو أبلغ وأوقع من النهي لهم أنفسهم، لأنه إذا كان بحيث ينهي عنه من لا يتصور صدره عنه، فكيف بمن يمكن منه ذلك. قوله: ﴿إِنْ لِلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قد تقدّم مثله في هذه السورة، والمعنى: أنه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرون على الكفر، ويموتون عليه لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال، وإن وقع منهم ما صورته صورة الإيمان، كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب، فهو في حكم عدم ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ من الآيات التكوينية والتنزيلية، فإن ذلك لا ينفعهم، لأن الله سبحانه قد طبع على قلوبهم، وحق منه القول عليهم ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان، وليس بإيمان، ولا يترتب عليه شيء من أحكامه. قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ لولا هذه هي التحضيضية التي بمعنى هلا، كما قال الأخفش والكسائي وغيرهما، ويدل على ذلك ما في مصحف أبيّ وابن مسعود «فهلأ قرية» والمعنى: فهلأ قرية واحدة من هذه القرى التي أهلكتها آمنت إيماناً معتداً به، وذلك بأن يكون خالصاً لله قبل معاينة عذابه، ولم يؤخره كما أخره فرعون، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ منقطع، وهو استثناء من القرى لأن المراد أهلها: والمعنى: لكن قوم يونس ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾ إيماناً معتداً به قبل معاينة العذاب، أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ وقد قال بأن هذا الاستثناء منقطع: جماعة من الأئمة منهم: الكسائي، والأخفش، والفراء؛ وقيل: يجوز أن يكون متصلاً، والجملة في معنى النفي، كانه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء. وقرئ بالرفع على البدل. وقال الزجاج في توجيه الرفع: يكون المعنى غير قوم يونس، ولكن حملت إلا عليها وتعذر جعل الإعراب عليها، فأعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غيره. قال ابن جرير: خص قوم يونس من بين الأمم بأن: تيب عليهم من

الآية، قال: لم يشك رسول الله ﷺ، ولم يسأل. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة، قال: نكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل. وهو مرسل. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَاسْأَلُ الَّذِينَ يُقْرَءُونَ لَكَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال: التوراة والإنجيل الذين أدركوا محمداً من أهل الكتاب وأمنوا به، يقول: سلم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: حق عليهم سخط الله بما عصوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿فَقُلُوا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمْنَتْ﴾ يقول: فما كانت قرية أمنت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: لم يكن هذا في الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم أمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس، فاستثنى الله قوم يونس. قال: وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بني نوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم التوبة، فلبسوا المسوح وأخرجوا المواشي، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، فعجوا إلى الله أربعين صلباً، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما معنى منهم، كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل. وأخرج ابن مريويه، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: إن يونس دعا قومه، فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب، فقال: إنه ياتيكم يوم كذا وكذا، ثم خرج عنهم، وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما أظلم العذاب خرجوا، ففرقوا بين المرأة وولدها، وبين السخلة وولدها، وخرجوا يعجون إلى الله، وعلم الله منهم الصدق فتأب عليهم، وصرف عنهم العذاب، وقعد يونس في الطريق يسأل عن الخبر، فمر به رجل فقال: ما فعل قوم يونس؟ فحنثه بما صنعوا، فقال: لا أرجع إلى قوم قد كذبتم، وانطلق مغاضياً: يعني مراغماً. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، قال: غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالشوب إذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دماً. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، عن ابن عباس، أن العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل، فلما دعوا كشفه الله عنهم. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي الجلد، قال: لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم. فقالوا له ما ترى؟ قال: قولوا يا حي حين لا حي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت، فقالوا فكشف عنهم العذاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَيَجْعَلُ لِلرَّجْسِ﴾ قال: السخط. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: الرجس: الشيطان، والرجس العذاب.

قُلْ أَنْظَرُوا مَا فِي الْأَرْضِ وَكَمَا تَنْتَ الْأَيْتُ وَالْذُّرُّ عَنْ قَوْمٍ لَا

بعد معاينة العذاب. وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين. وقال الزجاج: إنه لم يقع العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفهم الإيمان، وهذا أولى من قول ابن جرير. والمراد بعذاب الخزي الذي كشفه الله عنهم، وهو: العذاب الذي كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ولم يروه، أو الذي قد رأوا علاماته دون عينه ﴿وَمَتَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي: بعد كشف العذاب عنهم، متعمهم الله في الدنيا إلى حين معلوم، قدره لهم. ثم بين سبحانه أن الإيمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾ بحيث لا يخرج عنهم أحد ﴿جَمِيعاً﴾ مجتمعين على الإيمان، لا يتفرقون فيه ويختلفون، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للمصلحة التي أرادها الله سبحانه، وانتصاب جميعاً على الحال كما قال سيبويه. قال الأخفش: جاء بقوله جميعاً بعد كلهم للتأكيد كقوله: ﴿لَا تَخْذُلُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: 51] ولما كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، أخبره الله بأن ذلك لا يكون، لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة، والمصالح الراجحة، لا تقتضي ذلك، فقال: ﴿أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فإن ذلك ليس في وسعك يا محمد، ولا داخل تحت قدرتك، وفي هذا تسلية له ﷺ، ونفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل، الذي لو كان لم يكن صلاحاً محققاً بل يكون إلى الفساد أقرب، والله الحكمة البالغة. ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ما صح، وما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه: أي بتسهيله وتيسيره ومشيئته؛ لذلك فلا يقح غير ما يشاؤه كائناً ما كان ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: العذاب، أو الكفر، أو الخذلان الذي هو سبب العذاب. وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضل «ونجعل» بالنون. وفي الرجس لغتان: ضم الراء وكسرهما، والمراد بالذين لا يعقلون: هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله، ولا يتفكرون في آياته، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر، عن قتادة، في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِيَّاءَ صُلُقٍ﴾ قال: بولهم الله الشام وبيت المقدس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك قال: منازل صنق مصر والشام. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ قال: العلم كتاب الله الذي أنزل، وأمره الذي أمرهم به. وقد ورد في الحديث أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، وهو في السنن والمسانيد، والكلام فيه يطول. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾

يُنَجِّي إِنْجَاءً، وَنَجَّى يُنَجِّي تَنْجِيَةً بِمَعْنَى وَاحِدٍ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ مَعُطُوفٌ عَلَى رِسْلَانَا: أَي: نَجِينَاهُمْ وَنَجِينَا الَّذِينَ آمَنُوا، وَالتَّعْبِيرُ بِلَفْظِ الْفِعْلِ الْمُسْتَقْبَلِ لِاسْتِحْضَارِ صُورَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ تَهْوِيلًا لِأَمْرِهَا ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أَي: حَقُّ ذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا، أَوْ إِنْجَاءً مِثْلَ ذَلِكَ الْإِنْجَاءِ حَقًّا ﴿نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنْ عَذَابِنَا لِلْكَفَّارِ، وَالْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِينَ: الْجَنَسُ، فَيُبْخَلُ فِي ذَلِكَ الرِّسْلِ وَأَتْبَاعِهِمْ، أَوْ يَكُونُ خَاصًّا بِالْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرِّسْلِ؛ لِأَنَّ الرِّسْلَ دَاخِلُونَ فِي ذَلِكَ بِالْأُولَى. قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ بَيْنِي﴾ أَمْرٌ سَبَّحَانَهُ رِسُولُهُ بَانَ يَظْهَرُ التَّبَايُنَ بَيْنَ طَرِيقَتِهِ وَطَرِيقَةِ الْمُشْرِكِينَ، مُخَاطَبًا لِجَمِيعِ النَّاسِ، أَوْ لِلْكَفَّارِ مِنْهُمْ، أَوْ لِأَهْلِ مَكَّةَ عَلَى الْخُصُوصِ بِقَوْلِهِ: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ بَيْنِي الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ تَعْلَمُوا بِحَقِيقَتِهِ وَلَا عَرَفْتُمْ صَحَّتَهُ، وَأَنَّهُ الدِّينُ الْحَقُّ الَّذِي لَا دِينَ غَيْرَهُ، فَاعْلَمُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِنْ أَدْبَانِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أَي: أَخْصَهُ بِالْعِبَادَةِ، لَا أَعْبُدُ غَيْرَهُ مِنْ مَعْبُودَاتِكُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا، وَخَصَّ صِفَةَ الْمُتَوَفَّى مِنْ بَيْنِ بِالْصِفَاتِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّهْدِيدِ لَهُمْ: أَي: أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ فَيَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَفْعَلُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، وَلِكُونِهِ يَدُلُّ عَلَى الْخَلْقِ أَوَّلًا، وَعَلَى الْإِعَادَةِ ثَانِيًا، وَلِكُونِهِ أَشَدُّ الْأَحْوَالِ مَهَابَةً فِي الْقُلُوبِ، وَلِكُونِهِ قَدْ تَقَدَّمَ نَكْرُ الْإِهْلَاكِ، وَالْوَقَائِعُ النَّازِلَةُ بِالْكَفَّارِ مِنَ الْأَمَمِ السَّابِقَةِ، فَكَانَهُ قَالَ: أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي وَعَدَنِي بِإِهْلَاكِكُمْ. وَلَمَّا نَكَرَ أَنَّهُ لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، بَيَّنَّ أَنَّهُ مَامُورٌ بِالْإِيمَانِ فَقَالَ: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: بَانَ أَكُونَ مِنْ جَنَسٍ مِنْ أَمَنَ بِاللهِ، وَأَخْلَصَ لَهُ النِّينَ، وَجُمْلَةٌ ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ مَعُطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَلَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ كَوْنُ الْمَعُطُوفِ بِصِغَةِ الْأَمْرِ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ «أَنْ» الدَّلَالَةُ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَنَكَرَ لَا يَخْتَلِفُ بِالْخَبَرِيَّةِ وَالْإِنْشَائِيَّةِ، أَوْ يَكُونُ الْمَعُطُوفُ عَلَيْهِ فِي مَعْنَى الْإِنْشَاءِ؛ كَأَنَّهُ قِيلَ: كُنْ مُؤْمِنًا ثُمَّ أَقِمَّ؛ وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَمَرَهُ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي الدِّينِ وَالثَّبَاتِ فِيهِ، وَعَدِمَ التَّزَلُّزَ عَنْهُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ. وَخَصَّ الْوَجْهَ لِأَنَّهُ أَشْرَفُ الْأَعْضَاءِ، أَوْ أَمْرُهُ بِاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَعَدِمَ التَّحَوُّلَ عَنْهَا. وَحَنِيفًا حَالُ مِنَ الدِّينِ، أَوْ مِنَ الْوَجْهِ: أَي: مَائِلًا عَنْ كُلِّ دِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ. ثُمَّ لَكَدَ الْأَمْرَ الْمُتَقَدِّمَ لِلنَّهْيِ عَنْ ضَدِّهِ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَهُوَ مَعُطُوفٌ عَلَى أَقَمَّ، وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّعْرِيزِ لِغَيْرِهِ ﷻ. قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ مَعُطُوفٌ عَلَى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ غَيْرُ دَاخِلٍ تَحْتَ الْأَمْرِ، وَقِيلَ مَعُطُوفٌ عَلَى «وَلَا تَكُونُوا» أَي: لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَلَى حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ بِشَيْءٍ مِنَ النِّفْعِ وَالضَّرِّ إِنْ دَعَوْتَهُ، وَدَعَاءُ مَنْ كَانَ هَكَذَا لَا يَجْلِبُ نَفْعًا، وَلَا يَقْتَرِ عَلَى ضَرِّ ضَائِعٍ لَا يَفْعَلُهُ عَاقِلٌ عَلَى تَقْدِيرِ أَنَّهُ لَا يَوْجِدُ مِنْ يَقْتَرِ عَلَى النِّفْعِ وَالضَّرِّ غَيْرَهُ، فَكَيْفَ

يُؤْمِنُونَ ﴿فَلَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا آيَةً مِنَ اللَّهِ﴾ خَلَا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِلَى مَعَكُمْ رَبِّكَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴿ثُمَّ تَنَجَّى رُسْلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ شَيْءٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ بَيْنِي فَلَا أَغْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَالَّذِينَ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ إِنْ تَسْتَسَلِّ اللَّهَ يَضُرُّكَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِلَى يَدَيْكَ يُخَيَّرُ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُخَيَّبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَخُذُوا حَتَّى يَخْلُصَ إِلَيْكُمْ يَخْلُصَ، وَمَنْ سَلَ فَلَمَّا يُدْعَى إِلَيْهَا وَمَا نَا عَلَيْكُمْ بِرُحُوبٍ وَأَنْتُمْ مَا بُرِّحُوا إِلَيْكَ وَأَسْرَحَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ لِنَظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لِمَا بَيَّنَّ سَبَّحَانَهُ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، أَمْرٌ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالْأَدْلَالِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، وَالْمُرَادُ بِالنَّظَرِ: التَّفَكُّرَ وَالِاعْتِبَارَ: أَي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَفَّارِ تَفَكَّرُوا وَاعْتَبَرُوا بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْمَصْنُوعَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْخَلْقِ وَوُجُودِهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ. وَمَاذَا مَبْتَدَأَ، وَخَبْرَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. أَوْ الْمَبْتَدَأَ مَا، وَذَا بِمَعْنَى الَّذِي، وَفِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ صِلَتُهُ، وَالْمَوْصُولُ وَصِلَتُهُ خَبَرُ الْمَبْتَدَأِ: أَي: أَيُّ شَيْءٍ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ بِالْفِعْلِ الَّذِي قَبْلُهَا، ثُمَّ نَكَرَ سَبَّحَانَهُ أَنَّ التَّفَكُّرَ وَالتَّدَبُّرَ فِي هَذِهِ الدَّلَائِلِ لَا يَنْفَعُ فِي حَقِّ مَنْ اسْتَحْكَمَتْ شِقَاوَتُهُ، فَقَالَ: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ أَي: مَا تَنْفَعُ عَلَى أَنْ مَا نَافِيَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامِيَّةً: أَي: أَيُّ شَيْءٍ يَنْفَعُ، وَالْآيَاتُ هِيَ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَالنُّذُرُ: جَمْعُ نَذِيرٍ، وَهُمْ: الرِّسْلُ أَوْ جَمْعُ إِنْذَارٍ، وَهُوَ الْمَصْدَرُ ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فِي عِلْمِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ؛ وَالْمَعْنَى: أَنْ مَنْ كَانَ هَكَذَا لَا يَجْدِي فِيهِ شَيْءٌ، وَلَا يَنْفَعُهُ عَنِ الْكُفْرِ دَافِعٌ. قَوْلُهُ: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: فَهَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ الْمَعَاصِرُونَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا مِثْلَ وَقَائِعِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ بِالْكَفَّارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ، فَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ يَتَوَعَّدُونَ كُفْرَ زَمَانِهِمْ بِأَيَّامٍ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَهُمْ يَكْتُمُونَهُمْ وَيَصْمُمُونَ عَلَى الْكُفْرِ، حَتَّى يَنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابُهُ، وَيَحِلُّ بِهِمْ انْتِقَامُهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ الْمَعَاصِرِينَ لَكَ ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ أَي: تَرَبَّصُوا لَوَعْدِ رَبِّكُمْ، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمَتَرَبِّصِينَ لَوَعْدِ رَبِّي، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ بِالْغَبْتِ سَيَنْزِلُ بِهِؤُلَاءِ مَا نَزَلَ بِالْأَوَّلِ مِنَ الْإِهْلَاكِ، وَثُمَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسْلَنَا﴾ لِلْعُطْفِ عَلَى مَقْتَرِ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ أَهْلَكْنَا الْأَمَمَ ثُمَّ نَجِينَا رُسْلَنَا الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهِمْ. وَقَرَأَ يَعْقُوبُ ثُمَّ «نُنَجِّي» مُخَفَّفًا. وَقَرَأَ كَذَلِكَ أَيْضًا فِي ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وَدُرِّي كَذَلِكَ عَنِ الْكَسَاثِيِّ وَحَفْصِ فِي الثَّانِيَةِ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ، وَهَذَا لِفَتَانِ فَصِيحَتَانِ: أَنْجَى

الآية قال: حَوِّفَهُمْ عَذَابَهُ وَنَقَمْتَهُ وَعَقِوبَتَهُ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ نَجَى اللَّهُ رُسُلَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ نَفْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَإِنْ يَرِكَ بِخَيْرٍ﴾ يقول: بعافية. وأخرج البيهقي في الشعب، عن عامر بن قيس، قال: ثلاث آيات في كتاب الله اكتفيت بهنَّ عن جميع الخلائق: أُولَئِهِنَّ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، والثانية: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يَمَسُّكَ فَلَا مَرْسَلٍ لَهُ﴾ [فاطر: 2]، والثالثة: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ قال: هو الحق المذكور في قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، في قوله: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ قال: هذا منسوخ، أمره بجهادهم والغلبة عليهم.

تفسير سورة هود

هي مكية في قول الحسن وعكرمة، وعطاء وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية وهي قوله: ﴿وَاقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ [هود: 114] وأخرج النحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن طريق عن ابن عباس قال: نزلت سورة هود بمكة. وأخرج ابن مروي، عن عبد الله بن الزبير، مثله. وأخرج الدارمي، وأبو داود في مراسيله، وأبو الشيخ، وابن مروي، وابن عساكر، والبيهقي في الشعب، عن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرعوا هود يوم الجمعة». وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي، وابن عساكر، عن طريق مسروق، عن أبي بكر الصديق، قال: «قلت يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب، فقال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت». وأخرجه البزار، وابن مروي، عن طريق أنس، عنه، مرفوعاً بلفظ: «قلت يا رسول الله عجل إليك الشيب، قال: شيبتني هود وأخواتها، والواقعة، والحاقة، وعمَّ يتساءلون، وهل أتاك حديث الغاشية». وأخرجه سعيد بن منصور، وابن مروي، عن أنس، قال: «قال أصحاب رسول الله ﷺ: لقد عجل إليك الشيب، فقال: شيبتني هود وأخواتها من المفصل». وأخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث والنشور، عن طريق عكرمة، عن ابن عباس، قال: «قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت. قال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت». وأخرج ابن عساكر عن طريق عطاء عنه، أن الصحابة قالوا: «يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب، قال: أجل شيبتني هود وأخواتها». قال عطاء: وأخواتها: اقتربت الساعة، والمرسلات، وإذا الشمس كورت. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن أبي سعيد الخدري، قال:

إِذَا كَانَ مَوْجُوداً؟ فَإِنَّ الْعَدُولَ عَنْ دَعَاءِ الْقَادِرِ إِلَى دَعَاءِ غَيْرِ الْقَادِرِ أَقْبَحُ وَأَقْبَحُ ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ أَي: فَإِنْ دَعَوْتَ، وَلَكِنَّهُ كُنَى عَنِ الْقَوْلِ بِالْفِعْلِ ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هَذَا جِزَاءُ الشَّرْطِ: أَيِ فَإِنْ دَعَوْتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ، فَإِنَّكَ فِي عَدَادِ الظَّالِمِينَ لَأَنْفُسِهِمْ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْخُطَابِ التَّعْرِيزُ بِغَيْرِهِ ﷺ، وَجُمْلَةً ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ إِلَى آخِرِهَا مَقْرُوءَةٌ لِمُضْمُونِ مَا قَبْلَهَا. وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ هُوَ الضَّارُّ النَّافِعُ، فَإِنْ أَنْزَلَ بَعْدَهُ ضَرًّا لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَكْشِفَهُ كَائِناً مَنْ كَانَ، بَلْ هُوَ الْمُخْتَصُّ بِكَشْفِهِ كَمَا اخْتَصَّ بِإِنْزَالِهِ ﴿وَإِنْ يَرِكَ بِخَيْرٍ﴾ أَي: خَيْرٌ كَانَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَهُ عَنْكَ، وَيَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ كَائِناً مَنْ كَانَ، وَعَبَّرَ بِالْفَضْلِ مَكَانَ الْخَيْرِ لِلإِشْرَادِ إِلَى أَنَّهُ يَتَفَضَّلُ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ بِأَعْمَالِهِمْ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: إِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرِكَ بِخَيْرٍ﴾ هُوَ مِنَ الْقَلْبِ، وَأَصْلُهُ وَإِنْ يَرِدُ بِكَ الْخَيْرُ، وَلَكِنْ لَمَّا تَعَلَّقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْآخِرِ جَازَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَكَانَ لآخر. قَالَ النِّسَابُورِيُّ: وَفِي تَخْصِيصِ الْإِرَادَةِ بِجَانِبِ الْخَيْرِ، وَالْمَسَّ بِجَانِبِ الشَّرِّ لَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْخَيْرَ يَصْدُرُ عَنْهُ سَبْحَانَهُ بِالذَّاتِ، وَالشَّرُّ بِالْعَرَضِ. قُلْتُ: وَفِي هَذَا نَظَرٌ، فَإِنَّ الْمَسَّ هُوَ أَمْرٌ وَرَاءَ الْإِرَادَةِ، فَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لَهَا، وَالضَّمِيرُ فِي يَصِيبُ بِهِ رَاجِعٌ إِلَى فَضْلِهِ: أَيِ يَصِيبُ بِفَضْلِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَجُمْلَةً: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تَنْبِيْلِيَّةٌ، ثُمَّ خَتَمَ هَذِهِ السُّورَةَ بِمَا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ أَي: مَنْفَعَةً اهْتَدَاهُ مَخْتَصَّةً بِهِ، وَضُرراً كَفَرَهُ مَقْصُورٌ عَلَيْهِ لَا يَتَعَدَّاهُ، وَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا غَرَضٌ يَعُودُ إِلَيْهِ ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُكِيلٍ﴾ أَي: بِحَفِيزٍ يَحْفَظُ أُمُورَكُمْ، وَتَوَكَّلْ إِلَيْهِ: إِنَّمَا أَنَا بِشِيرٍ وَنَثِيرٌ. ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يَتَّبِعَ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الَّتِي يَشْرَعُهَا اللَّهُ لَهُ، وَلَامَتَهُ. ثُمَّ أَمَرَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْكُفَّارِ، وَمَا يَلَاقِيهِ مِنْ مَشَاقِّ التَّبْلِيغِ، وَمَا يَعَانِيهِ مِنْ تَلَوْنِ أَخْلَاقِ الْمُشْرِكِينَ وَتَعَجُّرِهِمْ، وَجَعَلَ ذَلِكَ الصَّبْرَ مُمْتَدًّا إِلَى غَايَةِ هِيَ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أَي: يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ لَهُ عَلَيْهِمْ، وَفِي الْآخِرَةِ بِعَذَابِهِمُ بِالنَّارِ، وَهُمْ يَشَاهِدُونَهُ ﷻ هُوَ أَمَتُهُ، الْمُتَبِعُونَ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ، الْعَامِلُونَ بِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، الْمُتَنَبِّهُونَ عَمَّا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ، يَتَقَلَّبُونَ فِي نَعِيمِ الْجَنَّةِ الَّذِي لَا يَنْفَدُ، وَلَا يُمْكِنُ وَصْفُهُ، وَلَا يُوقَفُ عَلَى أَنْتَى مَزَايَاهُ.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ﴾ يقول: عند قوم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ نسخت قوله: ﴿حِكْمَةً بِالْغَةِ﴾ فما تَغْنِي النَّذْرُ [القمر: 5]. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: وقائع الله في الذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ، قَوْمُ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الربيع في

«قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أسرع إليك الشيب. قال: شيبتني هو وأخواتها: الواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت». وأخرج الطبراني، وابن مروي، عن سهل بن سعد الساعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كورت». وأخرج أيضاً عن ابن مسعود «أن أبا بكر قال: يا رسول الله ما شيبك؟ قال: هود والواقعة». وفي إسناده عمرو بن ثابت، وهو متروك. وأخرج الطبراني، وابن مروي بسند صحيح، عن عقبة بن عامر: «أن رجلاً قال: يا رسول الله قد شبت، قال: شيبتني هود، وإذا الشمس كورت وأخواتها». وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وأبو يعلى، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي، وابن عساکر، عن أبي جحيفة قال: «قالوا: يا رسول الله نراك قد شبت، قال: شيبتني هود وأخواتها». وأخرج ابن مروي، وابن عساکر، عن عمران بن حصين: «أن رسول الله ﷺ قال له أصحابه: قد أسرع إليك الشيب. قال: شيبتني هود وأخواتها من المفصل». وأخرج ابن عساکر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «شيبتني هود وأخواتها، وما فعل بالأمم قبل».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَبٌ أُكْرِمَتْ بِإِسْنِهِ ثُمَّ قُوتَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ نَزِيرٍ ① أَلَا سُبُلًا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي لَكُنْ مِنْهُ نَزِيرٌ وَنَزِيرٌ ② وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكَ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَتَغَمَّدْكُمْ بِرَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ لَكُنْ يَاسِرٌ ذُو غَضَبٍ ③ وَتَوْبَتْ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَغُفِرَ لَهُمْ تَوْبَتُهُمْ وَأَنْ تَوْبُوا إِلَيْهِ أَتَأْتِيكُمْ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ كَيْدٍ ④ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑤ أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ مَذْهَبَهُمْ لِيَسْتَغْفِرُوا مِنْهُ آتَيْنَ لِيَسْتَفْشِرُوا لِيَاخُذَهُمْ بِهَيْمَتِهِمْ مَا يَشِيرُونَ وَمَا يُظُنُّونَ إِلَّا أَنَّهُ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الْعَشِيرِ ⑥ وَمَا مِنْ تَائِبَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ يَرْفَعُهَا وَمِمَّا تَشْتَرُونَ بِشُرُوكِهِمْ كُلٌّ فِي كَيْدٍ مُبِينٍ ⑦ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَيْنِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَلْبَسُكُمْ أَنْتُمْ عَمَلًا وَلَيْسَ قَلْبُكُمْ تَبَعُورُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ هَذَا لَا يَمُرُّ مِنْهُمْ إِلَّا بِسَعْرٍ مُبِينٍ ⑧ وَلَكِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أَثَرِهِمْ مَعْدُودٍ لِيَقُولُوا مَا يَجْعَلُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑨

قوله: ﴿الر﴾ إن كان مسروداً على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محل له، وإن كان اسماً للسورة فهو في محل رفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده أو خبر مبتدأ محذوف، أي هذا كتاب، وكذا على تقدير أن ﴿الر﴾ لا محل له، ويجوز أن يكون ﴿الر﴾ في محل نصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو: انكر، أو اقرا، فيكون كتاب على هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف، والإشارة في المبتدأ المقتر إما إلى بعض القرآن أو إلى مجموع القرآن، ومعنى: ﴿أحكمت

آياته﴾ صارت محكمة متقنة، لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم، وقيل معناه: إنها لم تتسخ بخلاف التوراة والإنجيل، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب، وهو المحكم الذي لم ينسخ؛ وقيل معناه: أحكمت آياته بالأمر والنهي، ثم فصلت بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب؛ وقيل: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بالحلال والحرام؛ وقيل: أحكمت جملته، ثم فصلت آياته؛ وقيل: جمعت في اللوح المحفوظ، ثم فصلت بالوحي؛ وقيل آتيت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله؛ وقيل معنى إحكامها: أن لا فساد فيها، أخذاً من قولهم أحكمت الدابة: إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجراح، و﴿ثم فصلت﴾ معطوف على أحكمت، ومعناه ما تقدم، والتراخي المستفاد من ثم إما زمني إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح، وإما رتبي إن فسر بغيره مما تقدم، والجمل في محل رفع على أنها صفة لكتاب، أو خبر آخر للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف، وفي قوله: ﴿من لدن حكيم خبير﴾ لف ونشر، لأن المعنى: أحكمها حكيم، وفصلها خبير عالم بمواقع الأمور. قوله: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ مفعول له حذف منه اللام: كذا في الكشاف، وفيه أنه ليس بفعل لفاعل الفعل المعلن؛ وقيل: أن هي المفسرة لما في التفصيل من معنى القول؛ وقيل: هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله، محكياً على لسان النبي ﷺ، قال الكسائي والفراء: التقدير أحكمت بأن لا تعبدوا إلا الله. وقال الزجاج: أحكمت ثم فصلت لثلاث تعبدوا إلا الله، ثم أخبرهم رسول الله ﷺ بأنه نذير وبشير، فقال: ﴿إني لكم منه نذير وبشير﴾ أي: ينذرهم ويخوفهم من عذابه لمن عصاه، ويبشرهم بالجنة والرضوان لمن أطاعه، والضمير في منه راجع إلى الله سبحانه: أي إني لكم نذير وبشير من جهة الله سبحانه؛ وقيل: هو من كلام الله سبحانه كقوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ [آل عمران: 28]. قوله: ﴿وإن استغفروا ربكم﴾ معطوف على ألا تعبدوا، والكلام في أن هذه الكلام في التي قبلها، وقوله: ﴿ثم توبوا إليه﴾ معطوف على استغفروا، وقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة، لكونه وسيلة إليها؛ وقيل: إن التوبة من تتمات الاستغفار؛ وقيل معنى استغفروا: توبوا، ومعنى توبوا: أخلصوا التوبة واستقيموا عليها؛ وقيل: استغفروا من سالف الذنوب، ثم توبوا من لاحقها؛ وقيل: استغفروا من الشرك، ثم أرجعوا إليه بالطاعة. قال الفراء: ثم هاهنا بمعنى الواو: أي وتوبوا إليه، لأن الاستغفار هو: التوبة، والتوبة هي: الاستغفار؛ وقيل: إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة. هي: السبب إليها، وما كان آخراً في الحصول، كان أولاً في الطلب؛ وقيل: استغفروا في الصفات، وتوبوا إليه في الكبائر؛ ثم رتب على ما تقدم أمرين الأول: ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ أصل الإمتاع: الإطالة، ومنه أمتع الله بك؛ فمعنى الآية: يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من سعة الرزق ورغد العيش ﴿إلى أجل مسمى﴾

إلى وقت مقدّر عند الله، وهو: الموت؛ وقيل: القيامة؛ وقيل: دخول الجنة؛ والأول: أولى. والأمر الثاني قوله: **﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾** أي: يعطى كل ذي فضل في الطاعة والعمل فضله: أي جزء فضله، إما في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً، والضمير في فضله راجع إلى كل ذي فضل؛ وقيل: راجع إلى الله سبحانه على معنى أن الله يعطي كل من فضلت حسناته فضله الذي يتفضل به على عباده. ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال: **﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾** أي: تتولوا وتعرضوا عن الإخلاص في العبادة، والاستغفار، والتوبة **﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾** وهو: يوم القيامة، ووصفه بالكبر، لما فيه من الأحوال؛ وقيل: اليوم الكبير يوم بدر. ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله: **﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾** أي: رجوعكم إليه بالموت، ثم البعث، ثم الجزاء، لا إلى غيره **﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** ومن جملة ذلك عذابكم على عدم الامتثال، وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها. ثم أخبر الله سبحانه بأن هذا الإنذار والتحذير والتوعد لم ينجح فيهم، ولا لانت له قلوبهم، بل هم مصرونّ على العناد مصممون على الكفر، فقال مصدراً لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم، وأنه أمر ينبغي أن يتنبه له العقلاء ويفهموه **﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَفْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾** يقال: ثنى صدره عن الشيء: إذا أوزرّ عنه وانحرف منه، فيكون في الكلام كناية عن الإعراض، لأن من أعرض عن الشيء ثنى عنه صدره، وطوى عنه كشح؛ وقيل معناه: يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق، فيكون في الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكفر، كما كان داب المناققين. والوجه الثاني أولى، ويؤيده قوله: **﴿لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ﴾** أي: ليستخفوا من الله، فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين، أو ليستخفوا من رسول الله ﷺ؛ ثم كرّر كلمة التنبيه مبيناً للوقت الذي يثنون فيه صدورهم، فقال: **﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾** أي: يستخفون في وقت استغشاء الثياب، وهو التغطي بها، وقد كانوا يقولون: إذا أغلقنا أبوابنا، واستغشينا ثيابنا، وثنيّا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا؟ وقيل معنى حين يستغشون: حين يأوون إلى فراشهم، ويتدثرون بثيابهم؛ وقيل إنه حقيقة: وذلك أن بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول الله ﷺ، ثنى صدره، وولى ظهره، واستغشى ثيابه، لئلا يسمع كلام رسول الله ﷺ، وجملة **﴿يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ﴾** وما يعلنون مستأنفة؛ لبيان أنه لا فائدة لهم في الاستخفاء، لأن الله سبحانه يعلم ما يسرونه في أنفسهم، أو في ذات بينهم وما يظهرونه؛ فالظاهر والباطن عنده سواء، والسرّ والجهر سيان، وجملة: **﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** تعليل لما قبلها وتقرير له، وذات الصدور هي: الضمائر التي تشتمل عليها الصدور؛ وقيل: هي القلوب، والمعنى: إنه عليم بجميع الضمائر، أو عليم بالقلوب وأحوالها في الأسرار والإظهار، فلا يخفى عليه شيء من ذلك؛ ثم أكد كونه عالماً بكل المعلومات بما فيه

غاية الامتنان، ونهاية الإحسان، فقال: **﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾** أي: الرزق الذي تحتاج إليه من الغذاء اللائق بالحيوان، على اختلاف أنواعه تفضلاً منه وإحساناً، وإنما جاء به على طريق الوجوب، كما تشعر به كلمة «على» اعتباراً بسبق الوعد به منه، ومن زائدة للتأكيد، ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله: أن الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق، فكيف يغفل عن أحواله، وأقواله، وأفعاله. والدابة: كل حيوان يذب **﴿وَيَعْلَمُ مَسَاقِدَهُمَا﴾** أي: محل استقرارها في الأرض، أو محل قرارها في الأصلاب **﴿وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾** موضعها في الأرحام، وما يجري مجراها كالبهيضة ونحوها. وقال الفراء: مستقرها حيث تأوي إليه ليلاً ونهاراً، ومستودعها موضعها الذي تموت فيه، وقد مرّ تمام الأقوال في سورة الأنعام، ووجه تقدّم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر. وأما على القول الأول: فلعل وجه ذلك أن المستقر أنسب باعتبار ما هي عليه حال كونها دابة. والمعنى: وما من دابة في الأرض إلا يرزقها الله حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة، وقبل كونها دابة، وذلك حيث تكون في الرحم ونحوه؛ ثم ختم الآية بقوله: **﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾** أي: كل من ما تقدّم ذكره من الدواب، ومستقرها ومستودعها، ورزقها في كتاب مبين، وهو اللوح المحفوظ: أي مثبت فيه. ثم أكد دلائل قدرته بالتعرض لذكر خلق السموات والأرض، وكيف كان الحال قبل خلقها فقال: **﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾** قد تقدّم بيان هذا في الأعراف، قيل والمراد بالأيام الأوقات: أي في ستة أوقات، كما في قوله: **﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمُذْ ذَرَهُ﴾** [الأنفال: 16] وقيل: مقدار ستة أيام، ولا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا الأيام هنا الأيام المعروفة، وهي المقابلة لليالي، لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء، وليس اليوم إلا عبارة عن مدة كون الشمس فوق الأرض، وكان خلق السموات في يومين، والأرضين في يومين، وما عليهما من أنواع الحيوان والنبات والجماد، في يومين، كما سيأتي في حم السجدة. قوله: **﴿وَوَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾** أي: كان قبل خلقهما عرشه على الماء، وفيه بيان تقدّم خلق العرش والماء على السموات والأرضين. قوله: **﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾** اللام متعلقة بخلق: أي خلق هذه المخلوقات ليبتلّي عباده بالاعتبار والتفكير والاستدلال، على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء أيهم أحسن عملاً فيما أمر به ونهى عنه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويوفر الجزاء لمن كان أحسن عملاً من غيره، وينخل في العمل الاعتقاد، لأنه من أعمال القلب؛ وقيل المراد بالأحسن عملاً: الأتم عقلاً، وقيل: الأزهد في الدنيا، وقيل: الأكثر شكراً، وقيل: الاتقى لله. قوله: **﴿وَلَوْ أَنَّ قُلُوبَكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ لَنَزَّلْنَاهُ قُرْآنًا مِنْ سَمْرِ مَبِينٍ﴾** ثم لما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره، والمعنى: لأن قلت لهم يا محمد على

مجاهد في قوله: يؤت كل ذي فضل فضله: أي في الآخرة. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن قال: يؤت كل ذي فضل في الإسلام فضل الدرجات في الآخرة. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿يؤت كل ذي فضل فضله﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة، وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره. وأخرج البخاري وغيره، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إلا إنهم يثنون صدورهم﴾ الآية قال: كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. قال البخاري، وعن ابن عباس: ﴿يستغشون﴾ يغطون رؤوسهم. وروى البخاري أيضاً عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، يعني به الشك في الله، وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهما: أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فاعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يعلم ما يسرون﴾ من القول ﴿وما يعلنون﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد، في قوله: ﴿إلا إنهم يثنون صدورهم﴾ قال: كان المنافقون إذا مروا أحدهم بالنبي ﷺ ثنى صدره، وتغشى ثوبه، لكيلا يراه، فنزلت. وأخرج ابن جرير، عن الحسن، في قوله: ﴿إلا حين يستغشون ثيابهم﴾ قال: في ظلمة الليل في أجواف بيوتهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي رزين في الآية قال: كان أحدهم يحني ظهره ويستغشى بثوبه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: كانوا يخبون صدورهم لكيلا يسمعو كتاب الله، قال تعالى: ﴿إلا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون﴾ وذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا أحنى ظهره، واستغشى بثوبه، وأضمر همه في نفسه، فإن الله لا يخفى عليه ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال في الآية: يكتمون ما في قلوبهم إلا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما عملوا بالليل والنهار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما من دابة﴾ الآية قال: يعني كل دابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وما من دابة﴾ الآية قال: يعني ما جاءها من رزق فمن الله، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً، ولكن ما كان لها من رزق لها فمن الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ويعلم مستقرها﴾ قال: حيث تأوى، ومستودعها قال: حيث تموت. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه ﴿ويعلم مستقرها﴾ قال: يأتيها رزقها حيث كانت. وأخرج

ما توجيه قضية الابتلاء، إنكم مبعوثون من بعد الموت، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ليقولن الذين كفروا من الناس إن هذا الذي تقول يا محمد إلا باطل كبطلان السحر، وخدع كخدعه. ويجوز أن تكون الإشارة بهذا إلى القرآن، لأنه المشتمل على الإخبار بالبعث. وقرأ حمزة والكسائي ﴿إن هذا إلا ساحر﴾ يعنون النبي ﷺ، وكسرت إن من قوله: ﴿إنكم﴾ لأنها بعد القول. وحكى سيبويه الفتح على تضمين قلت معنى نكرت، أو على أن بمعنى عل: أي ولئن قلت لعلكم مبعوثون، على أن الرجاء باعتبار باعتبار حال المخاطبين: أي توقعوا ذلك، ولا تتبوا القول بإنكاره ﴿ولئن أخرجنا للعذاب﴾ أي: الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿عذاب يوم كبير﴾ وقيل: عذاب يوم القيامة وما بعده، وقيل يوم بدر ﴿إلى أمة معبودة﴾ أي: إلى طائفة من الأيام قليلة، لأن ما يحصره العد قليل، والأمة اشتقاقها من الأم: وهو القصد، وأراد بها الوقت المقصود لإيقاع العذاب: وقيل: هي في الأصل الجماعة من الناس، وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه، كقولك: كنت عند فلان صلاة العصر: أي في ذلك الحين، فالمراد على هذا: إلى حين تنقضى أمة معبودة من الناس ﴿ليقولن ما يحبسها﴾ أي: أي شيء يمنع من النزول استعجالاً له على جهة الاستهزاء والتكذيب، فأجابهم الله بقوله: ﴿إلا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ أي: ليس محبوساً عنهم، بل واقع بهم لا محالة، ويوم منصوب بمصروفاً ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ أي: أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم، ووضع يستهزءون مكان يستعجلون، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم، وعبر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، فكانه قد حاق بهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، أنه قرأ: ﴿لن كتاب أحكمت آياته﴾ قال: هي كلها محكمة، يعني سورة هود ﴿ثم فصلت﴾ قال: ثم نكر محمداً ﷺ، فحكم فيها بينه وبين من خالفه، وقرأ مثل الفريقين الآية كلها، ثم نكر قوم نوح ثم هود، فكان هذا تفصيل ذلك، وكان أوله محكماً قال: وكان أبي يقول ذلك، يعني: زيد بن أسلم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ قال: أحكمت بالامر والنهي، وفصلت بالوعد والوعيد، وأخرج هؤلاء عن مجاهد ﴿فصلت﴾ قال: فسرت. وأخرج هؤلاء أيضاً عن قتادة في الآية قال: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بعلمه، فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته، وفي قوله: ﴿من لدن حكيم﴾ يعني من عند حكيم، وفي قوله: ﴿بمتعكم متاعاً حسناً﴾ قال: فأنتم في ذلك المتاع، فخذوه بطاعة الله ومعرفة حقه، فإن الله منعم يحب الشاكرين، وأهل الشكر في مزيد من الله، وذلك قضاؤه الذي قضاء: وفي قوله: ﴿إلى لجل مسمى﴾ يعني: الموت، وفي قوله: ﴿يؤت كل ذي فضل فضله﴾ أي: في الآخرة. وأخرج هؤلاء أيضاً عن

أمرهم بالعلم، أمرهم بالثبات عليه؛ لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الإتيان بعشر سور مثله، أو المراد بالأمر بالعلم: الأمر بالازدياد منه، إلى حد لا يشوبه شك، ولا تخالط شبهة، وهو علم اليقين. والأول: أولى. ومعنى: ﴿**إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَّمَ اللَّهُ**﴾ أنه أنزل مطلباً يعلم الله المختص به، الذي لا تطلع على كنهه العقول، ولا تستوضح معناه الأفهام، لما اشتمل عليه من الإعجاز الخارج عن طوق البشر ﴿**وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ أي: واعلموا أن الله هو المتفرد بالالوهية لا شريك له، ولا يقدره غيره على ما يقدر عليه. ثم ختم الآية بقوله: ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ أي: ثابتون على الإسلام، مخلصون له، مزدابون من الطاعات، لأنه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الإتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمانينة فوق ما كنتم عليه، وبصيرة زائدة، وإن كنتم مسلمين من قبل - هذا فإن الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمانينة به مطلوب منكم. وقيل: إن الضمير في ﴿**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا**﴾ للموصول في من استطعتم، وضمير لكم، للكفار، الذين تحداهم رسول الله ﷺ، وكذلك ضمير فاعلموا - والمعنى: فإن لم يستجب لكم من دعوتهم للمعاضدة والمناصرة على الإتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن يعبدونهم، ويزعمون أنهم يضرون وينفعون، فاعلموا أن هذا القرآن الذي أنزله الله على هذا الرسول، خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى، لما اشتمل عليه من الإعجاز الذي تنقاصر نون قوة المخلوقين، وأنه أنزل يعلم الله الذي لا تحيط به العقول، ولا تبلغه الأفهام، واعلموا أنه المنفرد بالالوهية لا شريك له، فهل أنتم بعد هذا مسلمون؟ أي: داخلون في الإسلام، متبعون لأحكامه، مقتدون بشرائعه. وهذا الوجه أقوى من الوجه الأول من جهة، وأضعف منه من جهة، فلما جهة قوته، فلا تتساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها إلى تأويل، وأما ضعفه، فلما في ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه إلى تكلف، وهو أن يقال: إن عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والأكله مع حرصهم على نصرهم، ومعاضدتهم، ومباغتتهم في عدم إيمانهم واستمرارهم على الكفر، يقيد حصول العلم لهؤلاء الكفار، بأن هذا القرآن من عند الله، وأن الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له، وذلك يوجب دخولهم في الإسلام، وأعلم أنه قد اختلف التحدي للكفار بمعارضة القرآن، فتارة وقع بمجموع القرآن، كقوله: ﴿**هَلْ لَّنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾ [الإسراء: 88] وبعشر سور كما في هذه الآية، وذلك لأن العشرة أول عقد من العقود، وبسورة منه كما تقدم، وذلك لأن السورة أقل طائفة منه، ثم إن الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها، فقال: ﴿**مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا**﴾ قال الفراء: إن كان هذه زائدة، ولهذا جزم الجواب. وقال الزجاج:

أي: فلعلك لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب، واقتراح الآيات التي يقترحونها عليه على حسب هواهم، وتعنتهم تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه، مما يشق عليهم سماعه أو يستشقون العمل به، كسبب ألهمهم وأمرهم بالإيمان بالله وحده. قيل: وهذا الكلام خارج مخرج الاستفهام: أي هل أنت تارك؟ وقيل: هو في معنى النفي مع الاستبعاد: أي لا يكون منك ذلك، بل تبليغهم جميع ما أنزل الله عليك، أحبوا ذلك أم كرهوه، شاءوا أم أبوا ﴿**وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ**﴾ معطوف على تارك، والضمير في به راجع إلى ما أو إلى بعض، وعبر بضائق دون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم ﴿**وَأَنْ يَقُولُوا**﴾ أي: كراهة أن يقولوا، أو مخافة أن يقولوا أو لئلا يقولوا ﴿**لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ**﴾ أي: هلا أنزل عليه كُتُبٌ: أي مال مكنوز مخزون ينتفع به ﴿**أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ**﴾ يصنقه ويبين لنا صحة رسالته؛ ثم بين سبحانه أن حاله ﷺ مقصور على النذارة، فقال: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ**﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك، وليس عليك حصول مطلوبهم وإيجاد مقترحاتهم ﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل. قوله: ﴿**وَأَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**﴾ أم هي المنطبعة التي بمعنى بل والهمزة، وأضرب عما تقدم من تهاونهم بالوحي، وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة، وشرع في نكر ارتكابهم لما هو أشد من ذلك، وهو افتراءهم عليه بأنه افتراه، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، والضمير المستتر في افتراه للنبي ﷺ، والبارز إلى ما يوحى ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بما يقطعهم ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم، فقال: ﴿**قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ**﴾ أي: مماثلة له في البلاغة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة المعاني. ووصف السور بما يوصف به المفرد، فقال: مثله، ولم يقل أمثاله، لأن المراد مماثلة كل واحد من السور، أو لقصد الإيحاء إلى وجه الشبه، ومداره المماثلة في شيء واحد، وهو البلاغة البالغة إلى حد الإعجاز، وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة في الجمع والتثنية، والإفراد شرط، ثم وصف السور بصفة أخرى، فقال: ﴿**مَقْتَرِيَاتٍ وَأَدْعَاؤٍ**﴾ للاستظهار على المعارضة بالعشر السور ﴿**مَنْ اسْتَطَاعْتُمْ**﴾ دعاء، وقدرتم على الاستعانة به، من هذا النوع الإنساني، وممن تعبدونه وتجعلونه شريكاً ﷺ سبحانه. وقوله: ﴿**مَنْ يَنْوِي اللَّهُ**﴾ متعلق بادعوا: أي ادعوا من استطعتم متجاوزين الله تعالى: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ فيما تزعمون من افترائي له ﴿**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ**﴾ أي: فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم، وتحديتهم به من الإتيان بعشر سور مثله، ولا استجابوا إلى المعارضة المطلوبة منهم، ويكون الضمير في لكم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، أو للنبي ﷺ وحده، وجمع تعظيماً وتقخيماً ﴿**فَاعْلَمُوا**﴾ أمر لرسول الله ﷺ وللمؤمنين أو للرسول وحده على التأويل الذي سلف قريباً. ومعنى

وتبائناً بعيداً؛ والمعنى: أقمن كان على بيعة من ربه في اتباع النبي ﷺ، والإيمان بالله، كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؛ وقيل المراد بمن كان على بيعة من ربه: النبي ﷺ؛ أي أقمن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل، وقد بشرت به الكتب السالفة، كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها. ومعنى البيعة: البرهان الذي يدل على الحق، والضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُوا شَاهِدْ﴾ راجع إلى البيعة باعتبار تأويلها بالبرهان، والضمير في منه راجع إلى القرآن، لأن قد تقدم ذكره في قوله: ﴿لَمْ يَقُولُوا افْتَرَاهُ﴾ أو راجع إلى الله تعالى. والمعنى: ويتلو البرهان الذي هو البيعة شاهد يشهد بصحته من القرآن، أو من الله سبحانه. والشاهد: هو الإعجاز الكائن في القرآن، أو المعجزات التي ظهرت لرسول الله ﷺ، فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن. وقال الفراء قال بعضهم: ويتلو شاهد منه: الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق، والهاء في منه لله عز وجل؛ وقيل المراد بمن كان على بيعة من ربه: هم مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأضرابه. قوله: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى﴾ معطوف على شاهد. والتقدير: ويتلو الشاهد شاهد آخر من قبله هو كتاب موسى، فهو وإن كان متقدماً في النزول، فهو يتلو الشاهد في الشهادة، وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى، مع كونه متأخراً في الوجود، لكونه وصفاً لازماً غير مفارق، فكان أغرق في الوصفية من كتاب موسى. ومعنى شهادة كتاب موسى، وهو التوراة أنه بشر بمحمد ﷺ، وأخير بآية رسول من الله. قال الزجاج: والمعنى ويتلو من قبله كتاب موسى، لأن النبي ﷺ موصوف في كتاب موسى، يجوده مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. وحكى أبو حاتم، عن بعضهم، أنه قرأ: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى﴾ بالنصب، وحكا المهبوري، عن الكلبي، فيكون معطوفاً على الهاء في يتلو. والمعنى: ويتلو كتاب موسى جبريل، وانتصاب إماماً ورحمة على الحال. والإمام: هو الذي يؤتم به في الدين ويقتدى به، والرحمة: النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على من أنزله عليهم، وعلى من بعدهم باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة، وهو الكون على البيعة من الله. واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: يصدقون بالنبي ﷺ، أو بالقرآن ﴿وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: بالنبي أو بالقرآن. والأحزاب: المتحزبون على رسول الله ﷺ من أهل مكة وغيرهم، أو المتحزبون من أهل الأديان كلها ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي: هو من أهل النار لا محالة، وفي جعل النار موعداً إشعار بأن فيها ما لا يحيط به الوصف من أفانين العذاب، ومثله قول حسان:

أوربتموها حياض الموت صاحبة فالنار موعدها والموت لاقبها
﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ﴾ أي: لا تك في شك من القرآن، وفيه تعريض بغيره ﷺ؛ لأنه معصوم عن الشك في القرآن،

«من كان» في موضع جزم بالشرط، وجوابه نَوْفٌ إليهم: أي من يكن يريد.

واختلف أهل التفسير في هذه الآية، فقال الضحاك: نزلت في الكفار، واختاره النحاس بدليل الآية التي بعدها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾؛ وقيل: الآية وأردت في الناس على العموم، كافرهم ومسلمهم. والمعنى: إن من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك، والمراد بزینتها: ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن، والسعة في الرزق، وارتفاع الحظ، ونفاذ القول، ونحو ذلك. وإنخال «كان» في الآية يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم، لا يكتفون بريدون الآخرة، ولهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعثبون في الآخرة، لأنهم جربوا قصدهم إلى الدنيا، ولم يعملوا للآخرة. وظاهر قوله: ﴿نَوْفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزء الدنيوي ولا محالة، ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك، فليس كل متمرّن ينال من الدنيا أمنيته، وإن عمل لها وأرادها، فلا بد من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه. قال القرطبي: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة، وكذلك الآية التي في الشورى ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى: 20]. وكذلك ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [النساء: 134] قبيحتها وفسرتها التي في سبحانه ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: 18] قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ أي: وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها: أي في الدنيا لا يبخسون: أي لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها، وذلك في الغالب، وليس بمطرد، بل إن قضت به مشيئته سبحانه، ورجحته حكمته البالغة. وقال القاضي: معنى الآية: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها، نَوْفٌ إليهم أعمالهم وأقية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما ينالون من الصحة والكفاف، وسائر اللذات والمنافع، فخصّ الجزء بمثل ما ذكره، وهو حاصل لكل عامل للدنيا، ولو كان قليلاً يسيراً. قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ الإشارة إلى المريدين المذكورين، ولا بد من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتد بها، الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة، أو تكون الآية خاصة بالكفار، كما تقدم ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾ أي: ظهر في الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الآخروي، لولا أنهم أقسدوها بفساد مقاصدهم، وعدم الخلو، وإرادة ما عند الله في دار الجزاء، بل قصرُوا ذلك على الدنيا وزينتها؛ ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أنه كان عملهم في نفسه باطلاً غير معتد به، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء، ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح. قوله: ﴿أَقْمِنَ كَانَ عَلَى بَيْعَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بين سبحانه أن بين من كان طالباً للدنيا فقط، ومن كان طالباً للآخرة تفاهتاً عظيماً،

أو من الموعد ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك مع وجوب الإيمان به، وظهور الدلائل الموجبة له، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقاً، أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلاً.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ قال: لأصحاب محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن أنس، في قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ قال: نزلت في اليهود والنصارى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن معبد، قال: قام رجل إلى عليّ فقال: أخبرنا عن هذه الآية ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَبْطُلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: ويحك، ذلك من كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة. وأخرج النحاس عن ابن عباس ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: ثوابها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ مالهها ﴿نُفُوفٌ إِلَيْهِمْ﴾ نوفر لهم بالصحة والسرور في الأهل، والمال، والولد ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ لا ينقصون. ثم نسخها ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ [الإسراء: 18] الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في الآية قال: من عمل صالحاً: التماس الدنيا صوماً أو صلاة، أو تهجداً بالليل، لا يعمل إلا التماس الدنيا، يقول الله أو فيه الذي التمس في الدنيا وحبط عمله الذي كان يعمل، وهو في الآخرة من الخاسرين. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك، قال: نزلت هذه الآية في أهل الشرك. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿نُفُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ قال: طيباتهم. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جرير، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَحِيطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ قال: حبط ما عملوا من خير، وبطل في الآخرة، ليس لهم فيها جزاء. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية، قال: هم أهل الرياء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن عليّ بن أبي طالب، قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ رسول الله ﷺ بينة من ربه، وأنا شاهد منه. وأخرج ابن عساكر، وابن مريويه من وجه آخر، عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفمن كان على بينة من ربه.. أنا. ويتلو شاهد منه: عليّ». وأخرج أبو الشيخ، عن أبي العالية، في قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال: ذلك محمد ﷺ. وأخرج أبو الشيخ، عن إبراهيم، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، عن محمد بن عليّ بن أبي طالب، قال: قلت لأبي: إن الناس يزعمون في قول الله سبحانه ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أنك أنت التالي، قال: وبدت أني أنا هو، ولكنه لسان محمد ﷺ. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة،

عن ابن عباس، أن الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه من طرق، عن ابن عباس، قال: جبريل فهو شاهد من الله بالذي يتلو من كتاب الله الذي أنزل على محمد ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى﴾ قال: ومن قبله التوراة على لسان موسى، كما تلا القرآن على لسان محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر، عن الحسن بن عليّ، في قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ قال: محمد هو الشاهد من الله. وأخرج أبو الشيخ، عن إبراهيم ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى﴾ قال: ومن قبله جاء الكتاب إلى موسى. وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ قال: الكفار أحزاب كلهم على الكفر. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ قال: من اليهود والنصارى.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَذِبُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَوْمَ الْأَوَّلِ﴾ ﴿يَضَعُفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُجِيرُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَرَوْا أُنْفُسَهُمْ وَكَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَغَصِ وَالْأَصْوَرِ وَالْأَبْيَرِ وَالسَّيِّعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم منهم لأنفسهم؛ لأنهم افتروا على الله كذباً بقولهم لأصنامهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وقولهم: الملائكة بنات الله، وأضافوا كلامه سبحانه إلى غيره، واللفظ وإن كان لا يقتضي إلا نفي وجود من هو أظلم منهم كما يفيد الاستفهام الإنكاري، فالمقام يفيد نفي المساوي لهم في الظلم. فالمعنى على هذا: لا أحد مثلمهم في الظلم فضلاً عن أن يوجد من هو أظلم منهم، والإشارة بقوله: أولئك إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ، وهو مبتدأ، وخبره يعرضون على ربهم فيحاسبهم على أعمالهم، أو المراد بعرضهم: عرض أعمالهم ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ الأشهاد: هم الملائكة الحفظة، وقيل المرسلون، وقيل: الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بإبلاغه، وقيل جميع الخلائق. والمعنى: أنه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض: هؤلاء المعرضون أو المعروضة أعمالهم الذين كذبوا على ربهم بما نسبوه إليه ولم يصرحوا بما كذبوا به، كأنه كان أمراً معلوماً عند أهل ذلك الموقف. قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ هذا من تمام كلام الأشهاد أي: يقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ويقولون:

«لا جرم» بمعنى حق فهي عندهما بمنزلة كلمة واحدة، وبه قال الفراء. وروي عن الخليل والفراء أنها: بمنزلة قولك لا بد ولا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً. وقال الزجاج: إن جرم بمعنى كسب: أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران، وفاعل كسب مضمَر، وأن منصوبة بجرم. قال الأزهري: وهذا من أحسن ما نقل في هذه اللغة. وقال الكسائي: معنى لا جرم: لا صد ولا منع عن أنهم في الآخرة هم الأخسرون. وقال جماعة من النحويين: إن معنى لا جرم لا قطع قاطع «أنهم في الآخرة هم الأخسرون» قالوا: والجرم القطع، وقد جرم النخل واجترمه: أي قطعه، وفي هذه الآية بيان أنهم في الخسران قد بلغوا إلى حد يتقاصر عنه غيرهم، ولا يبلغ إليه، وهذه الآيات مقررة لما سبق من نفي المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، وبين من كان على بينة من ربه «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» أي: صدقوا بكل ما يجب التصديق به من كون القرآن من عند الله، وغير ذلك من خصال الإيمان «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَخَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ» أي: أتوا إليه، وقيل: خضعوا، وقيل: خضعوا، قيل وأصل الإخبات: الاستواء في الخبث: وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان. قال الفراء: إلى ربهم، ولربهم واحد «أُولَٰئِكَ» الموصوفون بتلك الصفات الصالحة «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». قوله: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ» ضرب للفرقتين مثلاً وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع، على أن كل فريق شبه بشيئين، أو شبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر، وعلى هذا تكون الواو في «وَالْأَصْمَىٰ»، وفي «وَالسَّمِيعِ» لعطف الصفة على الصفة، كما قول الشاعر:

إلى الملوك القمر وابن الهمام

والاستفهام في قوله: «هل يستويان» للإنكار، يعني الفريقين، وهذه الجملة مقررة لما تقدم من قوله: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» وانتصاب مثلاً على التمييز من فاعل يستويان: أي هل يستويان حالاً وصفة «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» في عدم استوائهما، وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذي لا يخفى على من له تنكر، وعنده تفكر وتأمل، والهزة لإنكار عدم التنكر واستبعاد صورته عن المخاطبين.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ» قال: الكافر والمنافق «أُولَٰئِكَ يَعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ» فيسألهم عن أعمالهم «وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ» الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَتَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ» شهدوا به عليهم يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، قال: الأشهاد: الملائكة. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، نحوه، وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَبْنِي الْمُؤْمِنَ حَتَّىٰ يَضَعَ كَنَفَهُ وَيَسْتَرَهُ مِنَ النَّاسِ وَيَقْرَرَهُ بِنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ:

إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْإِفْتِرَاءِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، قَالَهُ بَعْدَمَا قَالَ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَتَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ. وَالْأَشْهَادُ جَمْعُ شَهِيدٍ، وَرَجَحَهُ أَبُو عَلِيٍّ بِكَثْرَةِ وَرُودِ شَهِيدٍ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: «وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» [البقرة: 143] «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» [النساء: 41]، وقيل: هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب، والفائدة في قول الأشهاد بهذه المقالة المبالغة في فضيحة الكفار، والتقرع لهم على رؤوس الأشهاد، ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بأنهم «وَالَّذِينَ يَصْنَعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أي: يمتنعون من قنونه على منعه عن دين الله والدخول فيه «وَيُوبِغُونَهَا عِوَجًا» أي: يصفونها بالاعوجاج تنفيراً للناس عنها، أو يبغيون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر، يقال بغيتك شراً: أي طلبته لك «وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» أي: يصفونها بالعوج، والحال أنهم بالآخرة غير مصتقين، فكيف يصنعون الناس عن طريق الحق، وهم على الباطل البحث؟ وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به، حتى كأن كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة إلى عظيم كفرهم «أُولَٰئِكَ» الموصوفون بتلك الصفات «لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» أي: ما كانوا يعجزون الله في الدنيا إن أراد عقوبتهم «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» يفعلون عنهم ما يريد الله سبحانه من عقوبتهم، وإنزال بأسه بهم، وجملة «يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ» مستأنفة لبيان أن تأخير العذاب والتراخي عن تعجيله لهم، ليكون عذاباً مضاعفاً. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويزيد ويعقوب «يُضَاعَفُ» مشدداً «وَمَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ» أي: أفرطوا في إعراضهم عن الحق، وبغضهم له، حتى كأنهم لا يقدرون على السمع ولا يقدرون على الإبصار، لفرط تعاميمهم عن الصواب. ويجوز أن يراء بقوله: «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دُونِ اللَّهِ، ولا ينفعهم ذلك، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون، فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعاً أو ينفعون عنهم ضرراً، ويجوز أن تكون «ماء» هي المدية. والمعنى: أنه يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والبصر. قال الفراء: ما كانوا يستطيعون السمع، لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ. وقال الزجاج: لبغضهم النبي ﷺ. وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفهموا عنه. قال النحاس: هذا معروف في كلام العرب، يقال: فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان: إذا كان ثقیلاً عليه «أُولَٰئِكَ» المتصفون بتلك الصفات «وَالَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» بعبادة غير الله. والمعنى: اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسارتهم في تجارتهم أعظم خسران «وَوُضِّلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» أي: ذهب وضاع ما كانوا يفترون من الآلهة التي يدعون أنها تشفع لهم، ولم يبق بايديهم إلا الخسران. قوله: «لَا جَرَمَ» قال الخليل وسيبويه:

القصص على طريقة التفنن في الكلام، ونقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين، والقبول أتم، فقال: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنني لكم نذير مبين﴾ [هود: 25] قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي بفتح الهمزة على تقدير حرف الجر: أي أرسلناه بأنني: أي أرسلناه مطلبساً بذلك للكلام، وهو أني لكم نذير مبين. وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول: أي قائلاً إنني لكم، والواو في ولقد للابتداء، واللام هي الموطئة للقسم، واقتصروا على النذارة دون البشارة، لأن دعوتهم كانت لمجرد الإنذار، أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به، وجملة ﴿إن لا تعبدوا إلا الله﴾ بدل من إنني لكم نذير مبين: أي أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله، أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا، أو بنذير، أو بمبين، وجملة: ﴿إنني أخاف عليكم عذاب يوم اليم﴾ تعليلية. والمعنى: نهيتكم عن عبادة غير الله لأنني أخاف عليكم، وفيها تحقيق لمعنى الإنذار، واليوم الأليم: هو يوم القيامة، أو يوم الطوفان؛ ووصفه بالآليم من باب الإسناد المجازي مبالغة. ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه، وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم في نبوته من ثلاث جهات، فقال: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ والملأ: الأشراف كما تقدم غير مرة، ووصفهم بالكفر نماً لهم، وفيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة ﴿ما نراك إلا بشراً مثلاً﴾ هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم في نبوته: أي: نحن وأنت مشتركون في البشرية، فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا، والجهة الثانية: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ ولم يتبعك أحد من الأشراف، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل لك، والأراذل جمع أرذل، وأرذل جمع رذل، مثل الكلب والكلب وكتب؛ وقيل: الأراذل جمع الأراذل، كالأسود جمع أسود، وهم: السفلة. قال النحاس: الأراذل: الفقراء والذين لا حسب لهم، والحسب: الصناعات. قال الزجاج: نسبهم إلى الحياكة، ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الديانة. وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: السفلة هو الذي يصلح الدنيا بدينه، قيل له فمن سفلة السفلة؟ قال: الذي يصلح دنياه غيره بفساد دينه. والظاهر من كلام أهل اللغة: أن السفلة هو الذي يدخل في الحرف الدنيا، والرؤية في الموضوعين إن كانت القلبية فبشرنا في الأول، واتبعك في الثاني هما المفعول الثاني، وإن كانت البصرية فهما منتصبان على الحال، وانتصاب بادي الرأي على الظرفية، والعمل فيه اتبعك. والمعنى: في ظاهر الرأي من غير تعق، يقال بدا يبين: إذا ظهر. قال الأزهري: معناه فيما يبدو لنا من الرأي. والوجه الثالث: من جهات قنحهم في نبوته ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ خاطبوه في الوجهين الأولين، منفرداً وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه أي: ما نرى لك وللمن اتبعك من الأراذل علينا من فضل يتميزون به، وتستحقون ما تدعون، ثم أضربوا عن الثلاثة المطامع، وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن البرهان الذي لا مستند له إلا

أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: رب أعرف، حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فيأني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطي كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين». وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿الَّذِينَ يَصْنُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هو محمد يعني سبيل الله، صلت قريش عنه الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿وَيُفْغَوْنَهَا عَوْجًا﴾ يعني: يرجون بمكة غير الإسلام ديناً. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية قال: أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فإنه قال: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ وأما في الآخرة فإنه قال ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً﴾ [القلم: 42، 43]. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ قال: ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيراً فينتفعوا به، ولا يبصروا خيراً فيأخذوا به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لِخَبَاتٍ﴾ قال: خافوا. وأخرج ابن جرير، عنه، قال: الإخبات الإنابة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، قال الإخبات: الخشوع والتواضع. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: اطمأنوا. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْحَى وَالْأَصَمِّ﴾ قال: الكافر ﴿وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ﴾ قال: المؤمن.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ نُّبَيِّتُ ﴿١٥﴾ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾
 اللَّهُ إِلَىٰ الْخَافِ عَلَيْكُمْ حَدَابِ يَوْمِ الْيُسْرِ ﴿١٧﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ مَا تَرْكَبُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرْكَبُ أَنْجَبُكَ إِلَّا الْيَرَبُ هُمْ أَرَادُوا
 بِكَوْنِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ
 يَغْوِرُ أَمْرُهُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدْتَوْ مِنْ رَبِّي وَالَّذِي رَحْمَةُ مِنْ عِنْدِهِ مُمِيتٌ عَلَيْكُمْ
 أَنْزِلُكُمْ مَعَكُمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُوا لَا آتَانَاكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا آتَىٰ
 إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا آتَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آتَانُوا إِيَّاهُمْ مُنْجِعُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنْ هُتُ
 قَوْمًا مَجْهُولَاتِ ﴿٢٠﴾ وَيَقُولُوا مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ دَلِيلٌ فَالْأَلْوَ تَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾
 وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِيَّيْكَ مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ
 لِلْبَرِيَّةِ تَرْدِيهِمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَبْرًا اللَّهُ عَسَا بِكُمْ أَنْ تُنْشِئَهُمْ إِيَّيْكُمْ إِذَا
 كُنْتُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَنْتَهِجُ دَدَ جَدَلْنَا فَاتَكْفُرْتَ بِهِ جَدَلْنَا فَاتَانَا بِمَا تَوَدَّ
 إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أُنْشِ
 بِمُحَرِّجِينَ ﴿٢٤﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ تَصْغِيرُ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
 يُؤْتِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾

لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ أنواع الدلائل التي هي أوضح من الشمس، أكد ذلك بذكر

وكانه قال هذا على وجه الإعظام لهم، ويحتمل أنه قاله خوفاً من مخاصمتهم له عند ربه بسبب طرده لهم؛ ثم بين لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه، والعلل التي اعتلوا بها عن إجابته فقال: **﴿وَلَكِنِّي أراكم قوماً تجهلون﴾** كل ما ينبغي أن يعلم، ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه وسؤالهم له أن يطردهم، ثم أكد عدمه جواز طردهم بقوله: **﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾** أي: من يمنعني من عذاب الله وانتقامه إن طردتهم؟ فإن طردهم بسبب سبهم إلى الإيمان والإجابة إلى الدعوة التي أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم، لا يقع من أنبياء الله المؤيدين بالعصمة، ولو وقع ذلك منهم فرضاً وتقديراً لكان فيه من الظلم مالا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس. وقوله: **﴿أفلا تذكرون﴾** معطوف على مقدر؛ كأنه قيل: أنستمرون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر، أفلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكره وتذكرون فيه، حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ، وما هم عليه من الصواب. قوله: **﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾** بين لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئاً من أموالهم على تبليغ الرسالة، كذلك لا يدعي أن عنده خزائن الله حتى يستلوا بعمدها على كذب، كما قالوا: **﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾** والمراد بخزائن الله: خزائن رزقه **﴿ولا أعلم للغيب﴾** أي: ولا ادّعي أنني أعلم بغيب الله، بل لم أقل لكم إلا أنني نذير مبين، إنني أخاف عليكم عذاب يوم اليم **﴿ولا أقول﴾** لكم **﴿إني ملك﴾** تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلاً. وقد استدلل بهذا من قال إن الملائكة أفضل من الأنبياء، والأدلة في هذه المسئلة مختلفة، وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة، فليست مما كلفنا الله يعلمه **﴿ولا أقول للذين تزديروا عيني﴾** أي: تحتقر، والازدراء مأخوذ من أزرى عليه: إذا عباه، وزري عليه: إذا احتقره، وأنشد الفراء: يباعده الصديق وتزديره خليلته وينهره الصغير والمعنى: إنني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبنهم وتحتقرونهم **﴿لن يؤتيهم الله خيراً﴾** بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة، ورافعهم في الدنيا إلى أعلى محل، ولا يضرهم احتقاركم لهم شيئاً **﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾** من الإيمان به، والإخلاص له، فمجازيهم على ذلك، ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء **﴿إني إذا لمن الظالمين﴾** لهم إن فعلت ما تريدونه بهم، أو من الظالمين لأنفسهم إن فعلت ذلك بهم، ثم جابووه بغير ما تقدم من كلامهم وكلامه عجزاً عن القيام بالحجة، وقصوراً عن رتبة المناظرة، وانقطاعاً عن المبراة بقولهم: **﴿يا نوح قد جابلتنا فاكثرت جدالنا﴾** أي: خاضمتنا بأنواع الخصام، وبفقتنا بكل حجة لها منخل في المقام، ولم يبق لنا في هذا الباب مجال، فقد ضاقت علينا المسالك، وانست أبواب الحيل **﴿فأتينا بما تعدنا﴾** من العذاب الذي تخوفنا منه، وتخافه علينا **﴿إن كنت من الصائقين﴾** فيما تقوله لنا، فأجاب بأن ذلك ليس

مجرد العصبية، والحسد، واستبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية، فقالوا: **﴿بل نظنكم كاذبين﴾** فيما تدعونه، ويجوز أن يكون هذا خطاباً للأراذل وحدهم، والأول: أولى؛ لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له. ثم نكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم، فقال: **﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾** أي: أخبروني إن كنت على برهان من ربي في النبوة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها، مع كون ما جعلتموه قادحاً ليس بقادح في الحقيقة، فإن المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في صفة النبوة، واتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة، فإنهم مثلكم في البشرية والعقل والفهم، فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة **﴿وأتاني رحمة من عنده﴾** هي: النبوة، وقيل: الرحمة: المعجزة، والبينة: النبوة. قيل: ويجوز أن تكون الرحمة هي: البينة نفسها، والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت البينة، والإفراد في **﴿فعميت﴾** على إرادة كل واحدة منهما، أو على إرادة البينة، لأنها هي التي تظهر لمن تفكر، وتخفى على من لم يتفكر، ومعنى عميت: خفيت؛ وقيل: الرحمة هي على الخلق، وقيل: هي الهداية إلى معرفة البرهان، وقيل: الإيمان، يقال عميت عن كذا، وعمي عليّ كذا: إذا لم أقيمه. قيل وهو من باب القلب، لأن البينة أو الرحمة لا تعمى وإنما يعمى عنها فهو كقولهم: انخلت القلنسوة رأسي. وقرأ الأعمش، وحزمة، والكسائي، وحفص «فعميت» بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول أي فعماها الله عليكم، وفي قراءة أبي **﴿فعمماها عليكم﴾** والاستفهام في **﴿أنلزمكموها﴾** للإنكار: أي لا يمكنني أن اضطرركم إلى المعرفة بها، والحال أنكم لها كارهون؛ والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي إلا أنها خافية عليكم أيمكننا أن نضطرركم إلى العلم بها، والحال أنكم لها كارهون غير متبشرين فيها، فإن ذلك لا يقدر عليه إلا الله عز وجل. وحكى الكسائي والفراء إسكان الميم الأولى في أنلزمكموها تخفيفاً كما في قول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثمأ من الله ولا واصل
فإن إسكان الباء في أشرب للتخفيف. وقد قرأ أبو عمرو كذلك. قوله: **﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن لجرى إلا على الله﴾** فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى يكون بذلك محلاً للتهمة، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادّعى ما ادّعى طلباً للدنيا، والضمير في عليه راجع إلى ما قاله لهم، فيما قبل هذا. وقوله: **﴿وما أنا بطارد للذين آمنوا﴾** كالجواب عما يفهم من قولهم **﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرونا﴾** من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل عنه؛ وقيل: إنهم سألوهم طردهم تصريحاً لا تلميحاً، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إنهم ملاقوا ربه﴾** أي: لا طردهم، فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه،

﴿ولا أعلم الغيب﴾ لا أقول: اتبعوني على علمي بالغيب ﴿ولا أقول إني ملك﴾ نزلت من السماء برسالة، ما أنا إلا بشر مثلكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد ﴿ولا أقول للذين تردني أعينكم﴾ قال: حقرتموهم. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿هلن يؤتيهم الله خيراً﴾ قال: يعني: إيماناً. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿فأتانا بما تعدنا﴾ قال: تكذيباً بالعذاب، وأنه باطل.

أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ فَقَدْ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ فَهُمْ يُبْصِرُونَ ﴿١٠٠﴾ وَأَوَّلُ مَا كَلَّمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ وَقُلُوا لَهُمْ سَلَامًا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ذَرْهُمْ عَلَى آلِهِمْ أَنِ لَّهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠١﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١٠٢﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١٠٣﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١٠٤﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١٠٥﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١٠٦﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١٠٧﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١٠٨﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١٠٩﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١١٠﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١١١﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١١٢﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١١٣﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١١٤﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١١٥﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١١٦﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١١٧﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١١٨﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١١٩﴾ وَتَوَلَّى إِلَى رَبِّهِمْ ثَلَاثِينَ نَجْمًا وَالْكَافِرِينَ لَهْوًا مُّزْجًى ﴿١٢٠﴾

قوله: ﴿إم يقولون افتراء﴾ أشكر سبحانه عليهم قولهم: إن ما أوحى إلى نوح مفترى، فقال: ﴿إم يقولون افتراء﴾ ثم أمره أن يجيب بكلام متصف، فقال: ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي﴾ بكسر الهمزة على قراءة الجمهور، مصدر أجرم: أي فعل ما يوجب الإثم، وجرم وأجرم بمعنى قاله النحاس، والمعنى: فعلي إثم، أو جزاء كسبي. ومن قرأ بفتح الهمزة، قال: هو جميع جرم نكره النحاس أيضاً ﴿وإننا بريء مما تجرمون﴾ أي: من إجرامكم بسبب ما تنسبونه إلينا من الافتراء، قيل: وفي الكلام حذف والتقدير: لكن ما افتريته، فالإجرام وعقابه ليس إلا عليكم، وإننا بريء منه.

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية، فقيل: إنها حكاية عن نوح، وما قاله لقومه، وقيل: هي حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبيينا محمد ﷺ وكفار مكة. والأول: أولى؛ لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام. قوله: ﴿وإنا بريء مما تجرمون﴾ أي: من إجرامكم بسبب ما تنسبونه إلينا من الافتراء، قيل: وفي الكلام حذف والتقدير: لكن ما افتريته، فالإجرام وعقابه ليس إلا عليكم، وإننا بريء منه.

إليه وإنما هو بمشيئة الله وإرادته، وقال إنما ياتيكم به الله إن شاء، فإن قضت مشيئته وحكمته بتجليله عجله لكم، وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيرها أخره ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بفائتين عما أراه الله بكم بهرب أو مدافعة ﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ الذي أبطله لكم، وأستكثر منه قياماً مني بحق النصيحة لله بليلاً رسالته، ولكم بليضاح الحق وبيان بطلان ما أنتم عليه ﴿إن أردت أن أنصح لكم﴾ وجواب هذا الشرط محذوف، والتقدير: إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، كما يدل عليه ما قبله: ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي: إن كان الله يريد إغواكم، فلا ينفعكم النصص مني، فكان جواب هذا الشرط محذوفاً كالأول، وتقديره ما نكرناه، وهذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع من تقدم الجزء على الشرط، وأما على مذهب من يجيزه، فجزاء الشرط الأول، ولا ينفعكم نصحي، وجزاء الشرط الثاني الجملة الشرطية الأولى وجزاؤها. قال ابن جرير: معنى يغويكم يهلككم بعذابه، وظاهر لغة العرب أن الإغواء الإضلال؛ فمعنى الآية: لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد، ويضللكم عن طريق الحق. وحكى عن طي أصبح فلان غاوباً: أي مريضاً، وليس هذا المعنى هو المراد في الآية. وقد ورد الإغواء بمعنى الإهلاك، ومنه ﴿فسوف يلقون غيا﴾ [مريم: 59] وهو غير ما في هذه الآية ﴿هو ربكم﴾ فالإيه الإغواء وإليه الهداية ﴿والإيه ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أربابنا بأدي الرأي﴾ قال: فيما ظهر لنا. وأخرج أبو الشيخ، عن عطاء، مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿إن كنت على بينة من ربي﴾ قال: قد عرفت وأعرفت بها أمره، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وأتاني رحمة من عنده﴾ قال: الإسلام الهدى والإيمان، والحكم والنبوة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿أنزلكموها﴾ قال: أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ «أنزلكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون»، وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية، قال في قراءة أبي: «أنزلكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن أبي بن كعب، أنه قرأ: «أنزلكموها من شطر قلوبنا». وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾، قال: قالوا له يا نوح إن أحببت أن نتبعك فاطردهم، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأرض سواء، وفي قوله: ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ قال: فيسألهم عن أعمالهم ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ التي لا يفنيها شيء، فلكون إنما دعوتكم لتتبعوني عليها، لا أعطيكم بملكه لي عليها

مقيم وهو عذاب النار الدائم، ومعنى يحل: يجعل المؤجل حالاً، مأخوذ من حلول الدين المؤجل، ومن موصولة في محل نصب، ويجوز أن تكون استفهامية في محل رفع: أي أينما يأتيه عذاب يخزيه؛ وقيل: في موضع رفع بالابتداء، ويأتيه الخير، ويخزيه صفة لعذاب. قال الكسائي: إن ناساً من أهل الحجاز يقولون سوف تعلمون؛ قال: ومن قال ستعلمون أسقط الواو والفاء جميعاً، وجوز الكوفيون «سوف تعلمون» ومنعه البصريون، والمراد بعذاب الخزي: العذاب الذي يخزي صاحبه، ويحل عليه العار. قوله: ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ حتى هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية، وجعلت غاية لقوله: واصنع الفلك باعيننا.

والتنور اختلف في تفسيرها على أقوال: الأول: أنها وجه الأرض، والعرب تسمى وجه الأرض تنوراً، روي ذلك عن ابن عباس، وعكرمة، والزهرى، وابن عيينة. الثاني: أنه تنور الخبز الذي يخبزونه فيه، وبه قال مجاهد وعطية وهو الحسن، وروي عن ابن عباس أيضاً. الثالث: أنه موضع اجتماع الماء في السفينة، روي عن الحسن. الرابع: أنه طلوع الفجر، من قولهم تنور الفجر، روي عن علي بن أبي طالب. الخامس: أنه مسجد الكوفة، روي عن علي أيضاً ومجاهد؛ قال مجاهد: كان ناحية التنور بالكوفة. السادس: أنه أعالي الأرض، والمواضع المرتفعة، قاله قتادة. السابع: أنه العين التي بالجزيرة المسماة عين الورد، روي ذلك عن عكرمة. الثامن: أنه موضع بالهند؛ قال ابن عباس: كان تنور آدم بالهند. قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمناقضة، لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض، قال: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيوناً﴾ [القمر: 11، 12] فهذه الأقوال تجتمع في أن تلك كان علامة، هكذا قال، وفيه نظر، فإن القول الرابع ينافي هذا الجمع، ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء. إلا إذا كان المراد مجرد العلامة، كما ذكره آخر. وقد ذكر أهل اللغة أن الفور: الغليان، والتنور: اسم عجمي عربيته العرب؛ وقيل معنى فار التنور: التمثيل بحضور العذاب كقولهم: حمي الوطيس: إذا اشتد الحرب، ومنه قول الشاعر:

تركتهم قدركم لا شيء فيها وقد القوم حامية تفور يريد: الحرب.

قوله: ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي: قلنا يا نوح احمل في السفينة من كل زوجين مما في الأرض من الحيوانات اثنين ذكرًا وأنثى. وقرأ حفص «من كل» بتنوين كل: أي: من كل شيء زوجين، والزوجان للأنثيين اللذين لا يستغني أحدهما عن الآخر، ويطلق على كل واحد منهما زوج، كما يقال للرجال زوج، وللمرأة زوج، ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلاً للفرد، ويطلق الزوج على الضرب والصنف، ومثله قوله تعالى: ﴿وانبئت من كل زوج بهيج﴾ [الحج: 5]، ومثله قول الأعشى:

وكل ضرب من الديباج يلبسه أبو حذافة مخبوء بذاك معا

فلا تحزن، والبائس: المستكين، فنهاه الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين؛ لأن الابتئاس حزن في استكانة. ومنه قول الشاعر:

ركم من خليل أو حميم رزئته فلم أبتئس والرزء فيه جليل ثم إن الله سبحانه لما أخبره أنهم لا يؤمنون البتة عرفه وجه إهلاكهم، والهمه الأمر الذي يكون به خلاصه، وخلاص من آمن معه، فقال: ﴿واصنع الفلك باعيننا ووحينا﴾ أي: اعمل السفينة متلبساً باعيننا: أي بمرأى منا، والمراد بحراستنا لك وحفظنا لك، وعبر عن ذلك بالاعين لأنها آلهة الرؤية، والرؤية هي: التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب، وجمع الاعين للتعظيم لا للتكثير؛ وقيل المعنى: ﴿باعيننا﴾ أي: باعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك؛ وقيل: ﴿باعيننا﴾ بعلمنا؛ وقيل: بامرنا. ومعنى بوحينا: بما أوحينا إليك من كيفية صنعها ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي: لا تطلب إمهالهم، فقد حان وقت الانتقام منهم، وجملة ﴿إنهم مغرقون﴾ للتعليل: أي: لا تطلب منا إمهالهم، فإنه محكوم منا عليهم بالغرق، وقد مضى به القضاء فلا سبيل إلى دفعه ولا تأخير؛ وقيل: المعنى ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم، فإنهم مغرقون في الوقت المضروب لذلك، لا يتأخر إغراقهم عنه؛ وقيل المراد بالذين ظلموا: امرأته وابنه ﴿واصنع الفلك﴾ أي: وطفق يصنع الفلك، أو وأخذ يصنع الفلك؛ وقيل: هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة، وجملة: ﴿وكلما مَرَّ عليه مَلَأ من قومه سخروا منه﴾ في محل نصب على الحال: أي استهزؤوا به لعمله السفينة. قال الأخفش والكسائي: يقال سخرت به ومنه. وفي وجه سخرتهم منه قولان: أحدهما: أنهم كانوا يرونه يعمل السفينة، فيقولون يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً. والثاني: أنهم لما شاهدوه يعمل السفينة، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك، قالوا: يا نوح ما تصنع بها؟ قال: أمشي بها على الماء فعجبوا من قوله، وسخروا به. ثم أجاب عليهم بقوله: ﴿إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون﴾ وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ والمعنى: إن تسخروا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم، فإننا نسخر منكم غداً عند الغرق. ومعنى السخرية هنا: الاستجهال، أي: إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم كما تستجهلون، واستجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافهتهم، وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعدة، والتشبيه في قوله: ﴿كما تسخرون﴾ لمجرد التحقق والوقوع، أو التجرد والتكرار، والمعنى: إننا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك، أو متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك؛ وقيل معناه: نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق، وفيه نظر، فإن حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية، إذ هم في شغل شاغل عنها، ثم هددهم بقوله: ﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ وهو عذاب الغرق في الدنيا ﴿ويحل عليه عذاب

أراد كل صنف من الديباج ﴿واهلك﴾ عطف على زوجين، أو على اثنين على قراءة حفص، وعلى محل كل زوجين، فإنه في محل نصب باحمل، أو على اثنين على قراءة الجمهور، والمراد: امراته وبنوه ونسأؤهم ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ أي: من تقدم الحكم عليه بأنه من المغرقين، في قوله: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ على الاختلاف السابق فيهم، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة ﴿لحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك﴾ ومن قال المراد بهم ولده كنعان وامراته وأهله أم كنعان جعل الاستثناء من أهلك، ويكون متصلاً إن أريد بالأهل ما هو أعم من المسلم والكافر منهم، ومنقطعاً إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط، قوله: ﴿ومن آمن﴾ معطوف على أهلك: أي: وأحمل في السفينة من آمن من قومك، وأفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم، أو للاستثناء منهم على القول الآخر. ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة إلى من كفر به، فقال: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ قيل: هم ثمانون إنساناً: منهم ثلاثة من بني، وهو سام، وحام، ويافث، وزوجاتهم، ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين، وهي موجودة بناحية الموصل، وقيل: كانوا عشرة، وقيل: سبعة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين، وقيل: غير ذلك. قوله: ﴿وقال اركبوا فيها﴾ القائل: نوح، وقيل: الله سبحانه. والأول: أولى، لقوله: ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ والركوب: العلو على ظهر الشيء حقيقة نحو ركب الدابة، أو مجازاً نحو ركب الدين، وفي الكلام حذف: أي: اركبوا الماء في السفينة، فلا يرد أن ركب يتعدى بنفسه؛ وقيل إن الفائدة في زيادة ﴿في﴾ أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف السفينة لا على ظهرها؛ وقيل: إنها زبدت لرعاية جانب المحلية في السفينة كما في قوله: ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ [العنكبوت: 65]، وقوله: ﴿حتى إذا ركبوا في السفينة﴾ [الكهف: 71] قيل: ولعل نوحاً قال هذه المقالة بعد إنخال ما أمر بحمله من الأزواج، كأنه قيل: فحمل الأزواج وأدخلها في الفلك، وقال للمؤمنين، ويمكن أن يقال إنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج والأهل والمؤمنين، ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات، أو يكون هذا على طريقة التغليب. قوله: ﴿يسم الله﴾ متعلق باركبو، أو حال من فاعله: أي مسمين الله، أو قائلين: ﴿يسم الله مجراها ومرساها﴾ قرأ أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ منهم على أنهما اسما زمان، وهما: في موضع نصب على الظرفية: أي وقت مجراها ومرساها، ويجوز أن يكونا مصدرين: أي: وقت إجرائها وإرسائها. وقرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص «مجرأها» بفتح الميم، ومرساها بضمها، وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها فيهما. وقرأ مجاهد، وسليمان بن جندب، وعاصم الجحدري، وأبو رجاء العطاردي «مجرها ومرسيها» على أنهما وصفان لله، ويجوز أن يكونا في موضع رفع

باضمار مبتدا: أي هو مجريها ومرسيها ﴿إن ربي لغفور﴾ للذنوب ﴿رحيم﴾ بعباده، ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلاً منه لبقاء هذا الجنس الحيواني، وعدم استئصاله بالغرق. قوله: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ هذه الجملة متصلة بجملة محنونة دل عليها الأمر بالركوب، والتقدير: فركبوا مسمين، وهي تجري بهم، والموج: جمع موجة، وهي: ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض. قوله: ﴿ونادى نوح ابنه﴾ هو: كنعان، قيل: وكان كافراً، واستبعد كون نوح ينادي من كان كافراً مع قوله: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ [نوح: 26]، وأجيب بأنه كان منافقاً، فظن نوح أنه مؤمن، وقيل: حملته شفقة الأبوة على ذلك؛ وقيل: إنه كان ابن امرأته، ولم يكن بابنه، ويؤيده ما روي أن علياً قرأ ونادى نوح ابنها؛ وقيل: إنه كان لغير رشدة، وولد على فراش نوح. ورد بأن قوله: ﴿ونادى نوح ابنه﴾، وقوله: ﴿إن ابني من أهلي﴾ يدفع ذلك على ما فيه من عدم صيانة منصب النبوة ﴿وكان في معزل﴾ أي: في مكان عزل فيه نفسه عن قومه، وقرباته بحيث لم يبلغه قول نوح: اركبوا فيها، وقيل: في معزل من دين أبيه، وقيل: من السفينة، قيل: وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان في أول فور التنور. قوله: ﴿يا بني اركب معنا﴾ قرأ عاصم بفتح الياء، والباقون بكسرها، فأما الكسر فلجعله بدلاً من ياء الإضافة، لأن الأصل يا بني، وأما الفتح فلقلب ياء الإضافة ألفاً أخفة الألف، ثم حذف الألف وبقيت الفتحة لتدل عليه. قال النحاس: وقراءة عاصم مشكلة. وقال أبو حاتم: أصله يا بنياء ثم تحذف، وقد جعل الزجاج للفتح وجهين، وللکسر وجهين. أما الفتح بالوجه الأول ما ذكرناه، والوجه الثاني: أن تحذف الألف للالتقاء الساكنين. وأما الكسر، فالوجه الأول ما ذكرناه، والثاني: أن تحذف للالتقاء الساكنين، كذا حكى عنه النحاس. وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وحفص ﴿اركب معنا﴾ بادغام الباء في الميم لتقاربهما في المخرج. وقرأ الباقر بن عاصم بالإدغام ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ ناه عن الكون مع الكافرين: أي خارج السفينة، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم، ثم حكى الله سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه، فقال: ﴿قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ أي: يمنني بارتفاعه من وصول الماء إلي، فأجاب عنه نوح بقوله: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ أي: لا مانع، فإنه يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن فيه، نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجاً أولياً، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تخفيفاً لشانه، وتهويلاً لأمره. والاستثناء قال الزجاج: هو منقطع: أي: لكن من رحمه الله فهو يعصمه، فيكون: ﴿من رحم﴾ في موضع نصب، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً على أن يكون عاصم بمعنى معصوم: أي: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا

إجرامي» قال علي «ولنا بريء مما تجرمون» أي: مما تعملون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: «ولوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن» وذلك حين دعا عليهم نوح قال: «لا تذكر على الأرض من الكافرين ديارا» [نوح: 26]. وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: إن نوحا لم يدع على قوم حتى نزلت الآية هذه، فانقطع عند ذلك رجاءه منهم، فدعا عليهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: «فلا تبقتس» قال: فلا تحزن. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عنه، في قوله: «واصنع الفلك باعيننا ووحينا» قال: بعين الله ووحيه. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، أيضا قال: لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وزهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعل يعملها سفينة، ويمرّون فيسألونه، فيقول: أعملها سفينة، فيسخرون منه، ويقولون: يعمل سفينة في البر، وكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون، فلما فرغ منها وفار التثور، وكثر الماء في السك خشبته أم الصبي عليه، وكانت تحبه حبا شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي»، وقد ضعفه الذهبي في مستدركه على مستدرك الحاكم. وقد روي في صفة السفينة وقبرها أحاديث، وأثار ليس في نكرها هنا كثير فائدة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: «من يأتيه عذاب يخزيه» قال: هو: الغرق «ويحل عليه عذاب مقيم» قال: هو الخلود في النار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عنه، قال: كان بين دعوة نوح وبين هلاك قومه ثلاثمائة سنة، وكان فار التثور بالهند وطافت سفينة نوح بالبيت أسبوعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أيضاً قال: التثور العين التي بالجزيرة عين الوردية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن علي بن أبي طالب، قال: فار التثور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة. وقد روي عنه نحو هذا من طرق. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: التثور: وجه الأرض، قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض، فاركب أنت ومن معك. والعرب تسمى وجه الأرض تنور الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن علي «وفار التثور» قال: طلع الفجر، قيل له إذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك. وقد روي في تفسير التثور غير هذا، وقد قَدَّمنا الإشارة إلى ذلك. وروي في صفة القصة، وما حملة نوح في السفينة، وكيف كان

من رحمه الله: مثل: «ماء دافق» [الطارق: 6] «وعيشة راضية» [الحاقة: 21] ومنه قول الشاعر:

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك انت الطاعم الكاسي
أي: المطعم المكس، واختار هذا الوجه ابن جرير؛ وقيل: العاصم بمعنى ذي العصمة، كلابن وتامر، والتقيير: لا عاصم قط إلا مكان من رحم الله، وهو السفينة، وحينئذ فلا يرد ما يقال: إن معنى من رحم من رحمه الله، ومن رحمه الله هو معصوم، فكيف يصح استثناءه عن العاصم؟ لأن في كل وجه من هذه الوجوه دفعا للإشكال. وقرئ «إلا من رحم» على البناء للمفعول «وحوال بينهما للموج» أي: حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق؛ وقيل: بين ابن نوح، وبين الجبل، والأول: أولى، لأن تفرغ «فكان من للمغرقين» عليه يدل على الأول لا على الثاني، لأن الجبل ليس بعاصم. قوله: «وقيل يا أرض لبلعي ماءك» يقال: بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع، وبلع يبلع، مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائي والفراء؛ والبلع: الشرب، ومنه البالوعة، وهي: الموضع الذي يشرب الماء، والازتراد، يقال: بلع ما في فمه من الطعام إذا ازترده، واستعير للبلع الذي هو من فعل الحيوان للأنشف دلالة على أن ذلك ليس كالأنشف المعتاد الكائن على سبيل التدرج «ويا سماء اقلعي» الإقلاع الإمساك، ياكل: أقلع المطر إذا انقطع. والمعنى: أمر السماء بامساك الماء عن الإرسال، وقَدَّم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها. «وغيض الماء» أي: نقص، يقال: غاض الماء وغضته أنا «وقضي الأمر» أي: أحكم وفرغ منه: يعني: أهلك الله قوم نوح على تمام وإحكام «واستوت على الجودي» أي: استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودي، وهو جبل بقرب الموصل؛ وقيل: إن الجودي اسم لكل جبل، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل:

سبحانه ثم سبحانا نعوذ به وقبلنا سبوح الجودي والجمد
ويقال: إنه من جبال الجنة، فلذا استوت عليه «وقيل بعدا للقوم الظالمين» القائل: هو الله سبحانه، ليناسب صدر الآية؛ وقيل: هو نوح وأصحابه. والمعنى: وقيل هلاكاً للقوم الظالمين، وهو من الكلمات التي تختص بدعاء السوء ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك، وللإيماء إلى قوله: «ولا تخاطبني في الذين ظلموا» [هود: 37]. وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف، وتضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة، الثابتين الأقدام في علم البيان، الراسخين في علم اللغة، المطلعين على ما هو مدون من خطب مصانع خطباء العرب، وأشعار بواقع شعرائهم، المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها. وقد تعرّض لبيان بعض ما اشتملت عليه من تلك جماعة منهم، فأطالوا وأطالوا، رحمنا الله وإياهم برحمته الواسعة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: «فعلي

الغرق، وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثير، لا منخل لها في تفسير كلام الله سبحانه. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ قال حين يركبون ويجرون ويرسون. وأخرج ابن جرير، عن الضحاک قال: كان إذا أراد أن ترسي قال بسم الله فارست، وإذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت. وأخرج أبو يعلى، والطبراني، وابن السني، وابن عدي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «أمن لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا: بسم الله للملك الرحمن، بسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم، وما قدروا الله حق قدره إلى آخر الآية، وأخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ، عنه، مرفوعاً من طريق أخرى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: كان اسم ابن نوح الذي غرق كنعان. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في النية والعمل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة، في قوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مِنْ رَحِمِهِ﴾ قال: لا ناج إلا أهل السفينة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن القاسم بن أبي بزة، في قوله: ﴿وَوَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ قال: بين ابن نوح والجبل. وأخرج ابن المنذر، وعن عكرمة في قوله: ﴿هِيَ أَرْضُ أِبْلَعٍ﴾ قال: هو بالحبشية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن وهب بن منبه، في ابلعي قال بالحبشية: أي ازردية. وأخرج أبو الشيخ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: معناه اشربي بلغة الهند. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس مثله. أقول: وثبت لفظ البلع وما يشتق منه في لغة العرب: ظاهر مكشوف، فما لنا وللحبشة والهند.

وَوَادَى نُوْحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَتَى مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْمَوْلُودِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَبْنُوْهُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَحْتَسِبْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّهُ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُوْنَنَّ مِنَ الْجَاهِلِيْنَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ أَنْ أَتَشَكَّلَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحْمَتِكَ أَكُوْنَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴿١٧﴾ قِيلَ يَبْنُوْهُ أَهَيْطَ يَسْكُرُ مِنَّا وَزَكَتْ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ وَمَنْ مَعَهُ وَأَمَمْ سَمِعْتَهُمْ ثُمَّ يَشْهَدُ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيْهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَكْتُمُهَا أَنْتَ وَلَا تَوْمُوكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْقِيَمَةَ لِلْمُتَوَكِّلِيْنَ ﴿١٩﴾

معنى: ﴿وَوَادَى نوح ربه﴾ دعاءه، والمراد أراد دعاءه بليل الفاء في ﴿فَقَالَ رَبِّ إِن ابني من أهلي﴾ وعطف الشيء على نفسه غير سائغ، فلا بد من التقدير المنكور، ومعنى قوله: ﴿إِن ابني من أهلي﴾ أنه من الأهل الذين وعدني بتنجيلهم بقولك: واهلك. فإن قيل كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده الله بقوله: ﴿وَوَاهِلْكَ﴾ وهو

المستثنى منه، وترك ما يفيد الاستثناء، وهو: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾؟ فيجواب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول، فإنه كان يظنه من المؤمنين ﴿وَوَان وَعِدَكَ الْحَقُّ﴾ الذي لا خلف فيه، وهذا منه ﴿وَوَانْت أَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ أي: اتقن المتقنين لما يكون به الحكم، فلا يتطرق إلى حكمك نقض، وقيل: أراد بأحكم الحاكمين أعلمهم وأعلهم: أي: أنت أكثر علماً وعدلاً من نوي الحكم؛ وقيل: إن الحاكم بمعنى ذي الحكمة كدارع، ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل، وأنه خارج بقيد الاستثناء فـ ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين آمنوا بك، وتابعوك، وإن كان من أهلك باعتبار القرابة؛ ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة قرابة الدين، لا قرابة النسب، وحده، فقال: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قرأ الجمهور عمل على لفظ المصدر. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والكسائي، ويعقوب، عمل على لفظ الفعل؛ ومعنى القراءة الأولى المبالغة في نومه، كانه جعل نفس العمل، وأصله نوح عمل غير صالح ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل، كذا قال الزجاج وغيره. ومعنى القراءة الثانية ظاهر: أي إنه عمل عملاً غير صالح، وهو: كفره وتركه لمتابعة أبيه؛ ثم نهاه عن مثل هذا السؤال، فقال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله، فَرَعَ على ذلك النبي عن السؤال، وهو وإن كان نهياً عاماً بحيث يشمل كل سؤال، لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولاً أولياً، وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقته للشرع، وسمى دعاءه سؤالاً لتضمنه معنى السؤال ﴿إِنِّي أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ أي: أحذرك أن تكون من الجاهلين، كقوله: ﴿يُعَظُّكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعْبُدُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [النور: 17] وقيل المعنى: أرفعك أن تكون من الجاهلين. قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين، ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع، وإن دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهمه، بانر إلى الاعتراف بالخطأ، وطلب المغفرة والرحمة، فـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: أعوذ بك أن أطلب منك ما لا علم لي بصحته وجوازه، ﴿وَوَان لَا تَغْفِرَ لِي﴾ ذنب ما دعوت به على غير علم مني ﴿وَوَتَرْحَمْنِي﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء، فتقبل توبتي ﴿وَإِن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ في أعمالي، فلا أربح فيها. القائل: هو الله، أو الملائكة ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾ أي: انزل من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض، فقد بلغت الأرض ماءها، وجفت ﴿بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾ أي: بسلامة وأمن، وقيل: بتحية ﴿وَوَبَرَكَاتٍ﴾ أي: نعم ثابتة، مشتق من بركو الجمل، وهو ثبوته، ومنه البركة لثبوت الماء فيها، وفي هذا الخطاب له دليل على قبول توبته ومغفرة زلته ﴿وَوَعَلَى أُمِّهِ مِمَّن مَعَكَ﴾

النيا ﴿ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَ عَذَابِ الْيَمِّ﴾ لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة؛ وأخرج أبو الشيخ قال: ثم رجع إلى محمد ﷺ فقال: ﴿تَكُنْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا وَلَا قَوْمُكَ﴾ يعني: العرب ﴿مَنْ قَبْلَ هَذَا﴾ القرآن.

وَأَنَّ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقُولُونَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَقَادِرٌ ﴿١٠﴾ يَقُولُونَ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَنْجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرْتُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ وَرَقِيمٌ اسْتَفْتَوْا رَبَّكَ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّكَنَةَ عَلَيْكُمْ يُنَادِرُكُمْ وَرَزَقَكُمْ قُوَّةً إِلَى قَوْمِكُمْ وَلَا تَنْوَلُوا بُحَيْرِمَ ﴿١٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِسَارِكِي آلِهِمْ أَمْ أَنْتَ مِنَ الْمُزَيَّنِّينَ ﴿١٣﴾ قَالُوا وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِرِينَ ﴿١٤﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَدِلْ بَيْنَ الْيَسَارِ وَالْيَسَارِ قَالُوا إِنَّ شَيْءَ اللَّهِ وَاتَّخَذُوا آتِيَّ بَرَاءَةٍ سَمَّا تَشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جِيئًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تَوَلَّكَ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَزَقَكُمَا مَن دَابَّةٌ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِرِيسَابِينِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَنَسْتَعِذُّكَ رَبِّي قَوْمًا يَعْبُرُوكَ وَلَا يَمُرُّونَهُمْ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ﴿١٨﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَسْرًا جِيئًا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْنُ نَعْتَمِدُ مِنَ عَذَابِ غِلَظٍ ﴿١٩﴾ وَتِلْكَ عَادُ جَدُّكَ بِكَاتِبَتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُمُ وَاتَّبَعُوا أَتَمَّ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٠﴾ وَأَتَمُّوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿وَالِى عاد اخاهم هوداً﴾ معطوف على وأرسلنا نوحاً: أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم: أي واحداً منهم، وهوداً عطف بيان، وقوم عاد كانوا عبدة أوثان، وقد تقدّم مثل هذا في الأعراف. وقيل: هم عاد الأولى وعاد الأخرى، فهؤلاء هم عاد الأولى، وعاد الأخرى هم: شداد ولقمان وقومهما المذكوران في قوله: ﴿إِذْ دَاوُدُ الْعَمَادُ﴾ [الفجر: 7]، وأصل عاد: اسم رجل، ثم صار اسماً للقبيلة كتميم وبكر، ونحوهما ﴿فَمَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾ قرئ غيره بالجر على اللفظ، ويرفع على محل من إله، وقرئ بالنصب على الاستثناء ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي: ما أنتم باتخاذ إله غير الله إلا كاذبون على الله عز وجل، ثم خاطبهم فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لا أطلب منكم أجراً على ما أبلغه إليكم، وأنصحكم به من الإرشاد إلى عبادة الله وحده، وأنه لا إله لكم سواه، فالضمير راجع إلى مضمون هذا الكلام. وقد تقدّم معنى هذا في قصة نوح ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: ما أجري الذي أطلب إلا من الذي فطرني: أي: خلقتني فهو الذي يثيبني على ذلك ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن أجراً الناصحين إنما هو من رب العالمين، قيل: إنما قال فيما تقدّم في قصة نوح: مالا، وهنا قال: أجراً لذكر الخزانة بعده في قصة نوح، ولفظ المال بها اللطيف، ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة. والمعنى: اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم، ثم توسلوا إليه بالتوبة. وقد تقدّم زيادة بيان لمثل هذا في قصة نوح، ثم رغبهم في الإيمان بالخير العاجل، فقال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءُ﴾ أي: المطر ﴿عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي: كثير الدرور،

أي: ناشئة ممن معك، وهم المتشعبون من نرية من كان معه في السفينة؛ وقيل: أراد من في السفينة، فإنهم أمم مختلفة، وأنواع من الحيوانات متباينة. قيل: أراد الله سبحانه بهؤلاء الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمناً من نريتهم، وأراد بقوله: ﴿وَأَمَّمْ سَنَمْتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَ عَذَابِ الْيَمِّ﴾ من صار كافراً من نريتهم إلى يوم القيامة، وارتفاع أمم في قوله: ﴿وَأَمَّمْ سَنَمْتَهُمْ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي: ومنهم أمم؛ وقيل على تقدير: ويكون أمم. وقال الأخفش: هو كما تقول: كلمت زيدا وعمرو جالس، وأجاز الفراء في غير القراءة وأمماً سَنَمْتَهُمْ: أي: ونمتع أمماً؛ ومعنى الآية: وأمم سَنَمْتَهُمْ في الدنيا بما فيها من المتاع، ونعطيهم منها ما يعيشون به، ثم يمسهم منا في الآخرة عذاب اليم؛ وقيل: يمسهم إما في الدنيا أو في الآخرة، والإشارة بقوله: ﴿تَكُنْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ من جنس أنباء الغيب، والأنباء جمع نبا وهو الخبر: أي من أخبار الغيب التي مرت بك في هذه السورة، والضمير في ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ راجع إلى القصة، والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة ﴿فَمَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا﴾ يعلمها ﴿قَوْمُكَ﴾ بل هي مجهولة عنكم من قبل الوحي، أو من قبل هذا الوقت ﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما تلاقيه من كفار زمانك، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ المحمودة في الدنيا والآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لله المؤمنين بما جاءت به رسله، وفي هذا تسلياً لرسول الله ﷺ، وتبشير له بأن الظفر للمتقين في عاقبة الأمر، ولا اعتبار بمبانيه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: نادى نوح ربه فقال: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّكَ قَدْ وَعَدْتَنِي أَنْ تَنْجِي لِي أَهْلِي، وَإِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي. وأخرج عبد الرزاق، والفريرابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساکر، عن ابن عباس، قال: «ما بغت امرأة نبي قط». وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يقول: ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: إن نساء الأنبياء لا يزني، وكان يقرؤها ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ يقول: مسالك إياي يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلَنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ قال: بين الله لنوح أنه ليس بابنه. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿يَا نُوْحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ قال: أهبطوا والله عنهم راض. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي، قال: دخل في تلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة. وبخل في تلك العذاب الاليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ يعني ممن لم يولد، أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة ﴿وَأَمَّمْ سَنَمْتَهُمْ﴾ يعني: متاع الحياة

وهو منصوب على الحال، دَرَّت السماء تدَرّ، وتدَرّ، فهي: مدرار، وكان قوم هود أهل بساتين، وزرع، وعمارّة، وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن **﴿وَيُزِيكُم قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾** معطوف على يرسل: أي: شدّة مضافة إلى شَبَتَكُمْ، أو خصباً إلى خصبكم، أو عزّاً إلى عزكم. قال الزجاج: المعنى يزيكُم قُوَّةً في النعم **﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ﴾** أي: لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر مصرّين عليه، والإجرام: الآثام كما تقدّم، ثم أجابه قومه بما يدلّ على فرط جهالتهم، وعظيم غباوتهم، ف **﴿قَالُوا يَا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾** أي: بحجة واضحة تعمل عليها، ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه، عناداً وبعداً عن الحق **﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾** التي نعبدُها من دون الله، ومعنى: **﴿عَن قَوْلِكَ﴾** صادرين عن قولك، فالظرف في محل نصب على الحال **﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** أي: بمصنّقين في شيء مما جئت به **﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾** أي: ما نقول إلا أنه أصابك بعض آلِهتنا التي تعيبها، وتسفه رأينا في عبادتها بسوء بجنون، حتى نشأ عن جنونك ما نقوله لنا، وتكرره علينا من التّغيير عنها، يقال عراه الأمر واعتراه: إذا ألمّ به، فأجابهم بما يدلّ على عدم مبالاة بهم، وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه، وأنهم لا يقدرون على شيء مما يريدُه الكفار به، بل الله سبحانه هو الضارّ النافع ف **﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكُمْ﴾** أنتم **﴿أَنْتُمْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾** به **﴿مَنْ دُونَهُ﴾** أي: من إشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطاناً **﴿فَكَيِّدُونِي جَمِيعاً﴾** أنتم وآلهتكم إن كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الإضرار بي، وأنها اعترتني بسوء **﴿لَمْ لَا تَنْظُرُونَ﴾** أي: لا تمهلوني، بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم؛ وفي هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التي يعبدونها ما يصكّ مسامعهم، ويوضح عجزهم، وعدم قدرتهم على شيء **﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾** فهو: يعصمني من كيبتكم، وإن بلغت في تطلب وجوه الإضرار بي كل مبلغ، فمن توكل على الله كفاه. ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته، وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم، وأنه مالك للجميع، وأن ناصية كل دابة من نواب الأرض بيده، وفي قبضته وتحت قهره، وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذلّل، وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه، والمَنْ عليه جزوا ناصيته، فجعلوا ذلك علامة لقهره. قال الفراء: معنى أخذ بناصريتها: مالكها والقادر عليها، وقال القتيبي: قاهرها لأن من أخذت بناصريته فقد قهرته. والناصرية قصاص الشعر من مقدّم الرأس؛ ثم علل ما تقدّم بقوله: **﴿إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** أي: هو على الحق والعدل، فلا يكاد يسلطكم عليّ **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾** أي: تتولّوا فحنفت إحدى التّأعين، والمعنى: فإن تستمروا على الإعراض عن الإجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر **﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا**

أرسلت به إليكم﴾ ليس عليّ إلا ذلك، وقد لزمكم الحجة **﴿وَيَسْتَخْلَفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾** جملة مستأنفة لتقرير الوعيد بالهلاك: أي يستخلف في دياركم وأمواكم قوماً آخرين، ويجوز أن يكون عطفاً على فقد أبلغتكم. وروى حفص عن عاصم أنه قرأ «ويستخلف» بالجزم حملاً على موضع فقد أبلغتكم **﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾** أي: بتوليكم، ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقيق **﴿إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾** أي رقيب مهيم عليه يحفظه من كل شيء، قيل وعلى بمعنى اللام، فيكون المعنى: لكل شيء حفيظ، فهو يحفظني من أن تتألوني بسوء **﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا﴾** أي: عذابنا الذي هو إهلاك عاد **﴿نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾** من قومه **﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾** أي: برحمة عظيمة كائنة منا؛ لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله، وقيل هي الإيمان **﴿مَنْ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾** أي: شديد قيل: وهو السموم التي كانت تبخل أنوفهم **﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾** مبتدأ وخبر، وأنت الإشارة اعتباراً بالقبيلة. قال الكسائي: إن من العرب من لا يصرف عاد ويجعله أسماء للقبيلة **﴿جَحْشُوا بَأْيَاتَ رَبِّهِمْ﴾** أي: كفروا بها، وكذبوها وأنكروا المعجزات **﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾** أي: هوداً وحده، لأنه لم يكن في عصره رسول سواه، وإنما جمع هنا لأن من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل؛ وقيل: إنهم عصوا هوداً ومن كان قبله من الرسل، أو كانوا بحيث لو بعث الله إليهم رسلاً متعدّنين لكذبوهم **﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾** الجبار: المتكبر، والعنيد: الطاغوي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له. قال أبو عبيدة: العنيد العنود والعائد والمعايد، وهو المعارض بالخلاف منه، ومنه قيل للعرق الذي يتفرج بالدم، عائد. قال الراجز:

إنني كبير لا أطيق العنيدا

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: الحقوها، وهي: الإبعاد من الرحمة والطرد من الخير، والمعنى: أنها لازمة لهم لا تفارقهم ما داموا في الدنيا **﴿وَوُكِّلَ لَهُمُ الْيَوْمَ الثَّقِيَامَةُ﴾** فلبعنا هنالك كما لعنوا في الدنيا **﴿إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾** أي: ربهم. وقال الفراء: كفروا نعمة ربهم، يقال كفرته وكفرت به: مثل شكرته وشكرت له **﴿إِلَّا بَعْدَ لَعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ﴾** أي: لا زالوا مبعدين من رحمة الله، والبعد: الهلاك، والبعد: التّباعد من الخير، يقال بعد يبعد بعداً: إذا تأخر وتباعد، وبعد يبعد بعداً: إذا هلك، ومنه قول الشاعر:

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة السجّز
وقال النّابغة:

فلا تبعدن إنّ المنية منهل وكل امرئ يوماً به الحال زائل
ومنه قول الشاعر:

ما كان ينغني مقال نسائهم وقتلت دون رجالهم لا تبعد
وقد تقدّم أن العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة **﴿إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرْنِي﴾** أي: خلقتني. وأخرج ابن عسّاكر، عن الضحّاك، قال: أمسك الله عن عاد

في التائيت باعتبار التأويل بالقبيلة:

غلب المساميح الوليد جماعة وكفى قريش المعضلات وسادها **«هو أنشاكم من الأرض»** أي: ابتداء خلقكم من الأرض، لأن كل بني آدم من صلب آدم، وهو مخلوق من الأرض **«واستعمركم فيها»** أي: جعلكم عمارها وسكانها، من قولهم أعمار فلان فلاناً داره، فهي له عمرى، فيكون استفعل بمعنى أفعّل: مثل استجاب بمعنى أجاب. وقال الضحاك: معناه أطال أعماركم، وكانت أعمارهم من ثلاثمائة إلى ألف؛ وقيل: معناه أكرم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار **«فاستغفروه»** أي: سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام **«ثم توبوا إليه»** أي: ارجعوا إلى عبادته **«إن ربي قريب مجيب»** أي: قريب الإجابة لمن دعاه، وقد تقدّم القول فيه في البقرة عند قوله تعالى: **«فإني قريب أجيب دعوة الداعي»** [البقرة: 186] **«قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا»** أي: كنا نرجو أن تكون فينا سيداً مطاعاً ننتفع برأيك، ونسعد بسيادتك قبل هذا الذي أظهرته من أدعائك النبوة، ودعوتك إلى التوحيد؛ وقيل: كان صالح يعيب آلهم، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا انقطع رجائنا منك، والاستفهام في قوله: **«أنتهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا»** للإنكار، أنكروا عليه هذا النهي، وأن تعبد في محل نصب بحذف الجار: أي بأن نعبد، ومعنى ما يعبد آبائنا: ما كان يعبد آبائنا، فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة **«واننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب»** من أربته، فإنا أربيه: إذا فعلت به فعلاً يوجب له الريبة، وهي: قلق النفس وانتفاء الطمأنينة، أو من أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة، والمعنى: إننا لفي شك مما تدعونا إليه من عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان موقع في الريب **«قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي»** أي: حجة ظاهرة وبرهان صحيح **«وأتأني منكم»** أي: من جهته **«رحمة»** أي: نبوة، وهذه الأمور وإن كانت متحققة الوقوع، لكنها صُنّرت بكلمة الشك اعتباراً بحال المخاطبين، لأنهم في شك من ذلك، كما وصفوه عن أنفسهم **«فمن ينصرنى من الله»** استفهام معناه النفي: أي لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله **«إن عصيتكم»** في تبليغ الرسالة، وراقبتكم وفترت عما يجب عليّ من البلاغ **«فما تزيدونني»** بتشبيطكم إياي **«غير تخسير»** بأن تجعلوني خاسراً بإبطال عملي، والتعرض لعقوبة الله لي. قال الفراء: أي تضليل وإبعاد من الخير؛ وقيل المعنى: فما تزيدونني باحتياجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم. قوله: **«ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية»** قد مرّ تفسير هذه الآية في الأعراف، ومعنى لكم آية: معجزة ظاهرة، وهي منتصبه على الحال، ولكم في محل نصب على الحال من آية مقلّمة عليها، ولو تأخرت لكانت صفة لها؛ وقيل: إن ناقة الله بدل من هذه، والخبر لكم، والأوّل: أولى؛ وإنما قال: «ناقة الله» لأنه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم؛ وقيل من صخرة صماء

القطر ثلاث سنين، فقال لهم هود **«استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً»** فابوا إلا تمادياً. وأخرج أبو الشيخ، عن هارون التيمي، في قوله: **«يرسل السماء عليكم مدراراً»** قال: المطر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **«ويزيكم قوة إلى قوتكم»** قال: شدة إلى شتكم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة، في قوله: **«ويزيكم قوة إلى قوتكم»** قال: ولد الولد. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: **«إن نقول إلا اعتراك بعض آلهمنا بسوء»** قال: أصابتك بالجنون. وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن سعيد قال: ما من أحد يخاف لصاً عانياً، أو سباعاً ضارياً، أو شيطاناً مارداً فيتلو هذه الآية إلا صرفه الله عنه. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد **«إن ربي على صراط مستقيم»** قال: الحق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: **«عذاب غليظ»** قال: شديد. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **«كل جبار عنيد»** قال: المشرك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، قال: العنيد المشاق. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **«واتبعوا في هذه الدنيا لعنة»** قال: لم يبعث نبي بعد عاد إلا لعنت على لسانه. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة، في الآية قال: تتابعت عليهم لعنتان من الله: لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا صَلَاحًا قَالِ يَغْفِرُ اللَّهُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّهُ بَدِيدٌ
يُجِيبُ ۖ قَالُوا يَصْلِحْ ذَنْبُكَ فَاصْلِحْ قَوْلَهُ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ عَمَلٍ
مَّا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
فَقَالَ تَسْمَعُونَ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ آيَاتٍ ذَلِكَ وَعْدُ غَيْرٍ مَكْدُورٍ ۖ فَلَمَّا
جَاءَ أَهْلَهُمْ تَحْمِلَةً عَلَيْهِمْ وَأَوزَارًا وَمَا هُمْ بِمُعْذِرِينَ
يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْمَعِزُّ ۖ وَلَكَ الْآيَاتُ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
فَأَصْحَابُهَا فِي رَبِّهِمْ جَنِينٌ ۖ كَانَ لَمْ يَنْفَرُوا فِيهَا إِلَّا أَنْ تَمُوتُوا كَفَرُوا
رَبِّهِمْ إِلَّا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

قوله: **«وإلى ثمود أخاهم صالحاً»** معطوف على ما تقدم، والتقدير: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، والكلام فيه، وفي قوله: **«يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره»** كما تقدم في قصة هود. وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب «وإلى ثمود» بالتثنية في جميع المواضع. واختلف سائر القراء فيه، فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع، فالصرف باعتبار التأويل بالحي، والمنع باعتبار التأويل بالقبيلة، وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان، وأنشد سيبويه

جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ يقول: ما تزدانون أنتم إلا خساراً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء الخراساني نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿فَاصْبَحُوا فِي بَيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ قال: ميتين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾ قال: كان لم يعيشوا فيها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: كان لم يعمرها فيها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: كان لم ينعموا فيها.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشِيرِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ مَّا لَيْتَ أَنْ جَاءَهُ بِمِثْلِ حَبِيرٍ ﴿٧١﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَنبِئُكَ بِأَنَّ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٧٢﴾ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشِّرْهُمَا بِإِسْحَاقَ بْنِ زَكَرِيَّا وَبِإِسْحَاقَ بِمُحَمَّدٍ ﴿٧٣﴾ قَالَتْ يَتَذَكَّرُ الْأُنثَىٰ حَبْرٌ مُّذْ عَمَّرَ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٤﴾ قَالُوا أَسْمِعِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَرِكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَمَلُ الْآيَةِ إِنَّهُ حَبِيدٌ نَجِيدٌ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَرَبَّاهُ تَبَتَّ الْفَرَىٰ بِمُجِدَّتِهَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنتَبِهُ ﴿٧٧﴾ يَكْذِبُهُمْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رُّبُوبُهُمْ وَأَنبِئُهُمْ عَذَابَ عَافٍ مِّمَّنْ دُورٍ ﴿٧٨﴾

هذه قصة لوط عليه السلام وقومه، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين. فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط، مزوا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه، وكان مرورهم عليه لتبشيريه بهذه البشارة المذكورة، فظنهم أضيافاً، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل: كانوا تسعة، وقيل: أحد عشر، والبشرى التي بشروه بها هي بشارته بالولد؛ وقيل: بإهلاك قوم لوط، والأولى: الأولى. ﴿وقالوا سلاماً﴾ منصوب بفعل مقدر: أي سلمنا عليك سلاماً ﴿قال سلاماً﴾ لارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي أمركم سلام، أو مرتفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف، والتقدير: عليكم سلام ﴿فما لبث﴾ أي: إبراهيم ﴿أن جاء بعجل حنيذ﴾ قال أكثر النحويين ﴿أن﴾ هنا بمعنى حتى أي: فما لبث حتى جاء؛ وقيل: إنها في محل نصب بسقوط حرف الجر، والتقدير فما لبث عن أن جاء: أي ما أبطا إبراهيم عن مجيئه بعجل، وما نافية قاله: سببويه. وقال الفراء فما لبث مجيئه أي ما أبطا مجيئه، وقيل: إن ما موصولة وهي: مبتدأ والخبر أن جاء بعجل حنيذ. والتقدير: فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ، والحنيذ: المشوي مطلقاً؛ وقيل: المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار، يقال حنذ الشاة يحنذها: جعلها فوق حجارة محماة لتنضجها فهي: حنيذ؛ وقيل: معنى حنيذ: سمين؛ وقيل: الحنيذ هو: السميط؛ وقيل: النضيج، وهو فصيل بمعنى مفعول، وإنما جاءهم بعجل، لأن البقر كانت أكثر أمواله ﴿فلما رأى أنبيهم لا تصل إليه﴾ أي: لا يمدونها إلى العجل كما يمد يده من يريد الأكل

﴿فذرهما تاكل في أرض الله﴾ أي: دعوهما تاكل في أرض الله مما فيها من المراعي التي تاكلها الحيوانات. قال أبو إسحاق الزجاج: ويجوز رفع تاكل على الحال والاستئناف، ولعله يعني في الأصل على ما تقتضيه لغة العرب لا في الآية، فالمعتمد القراءات المروية على وجه الصحة ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ قال الفراء: بعقر، والظاهر أن النهي عما هو أعم من ذلك ﴿فياخذكم عذاب قريب﴾ جواب النهي: أي قريب من عقربها. وذلك ثلاثة أيام ﴿فقعقروها﴾ أي: فلم يمتثلوا الأمر من صالح ولا النهي، بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقرب لها ﴿فقال﴾ لهم صالح ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ أي: تمتعوا بالعيش في منازلكم ثلاثة أيام، فإن العقاب نازل عليكم بعدها، قيل: إنهم عقروها يوم الأربعاء، فاقاموا الخميس والجمعة والسبت، واتاهم العذاب يوم الأحد، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام ﴿وعد غير مكثوب﴾ أي: غير مكثوب فيه، فحذف الجار اتساعاً، أو من باب المجاز كان الوعد إذا وفى به صلق ولم يكتب، ويجوز أن يكون مصدراً: أي وعد غير كذب ﴿فلما جاء أمرنا﴾ أي: عذابنا، أو أمرنا بوقوع العذاب ﴿نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ قد تقدم تفسير هذا في قصة هود ﴿ومن خزى يومئذ﴾ أي: ونجيناهم من خزى يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة، والخزى: الذل والمهانة؛ وقيل من عذاب يوم القيامة، والأول: أولى. وقرأ نافع والكسائي بفتح يوم على أنه اكتسب البناء من المضاف إليه. وقرأ الباقون بالكسر ﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء ﴿ولخذلن الذين ظلموا للصيحة﴾ أي: في اليوم الرابع من عقر الناقة، صبح بهم فماتوا، ونكر الفعل لأن الصيحة والصياح واحد، مع كون التانيث غير حقيقي؛ قيل: صيحة جبريل، وقيل: صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا، وتقدم في الأعراف ﴿فاخذتهم الرجفة﴾ [الأعراف: 78] قيل: ولعلها وقعت عقب الصيحة ﴿فاصبحوا في بيارهم جائعين﴾ أي: ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت ﴿كان لم يغنوا فيها﴾ أي: كأنهم لم يقيموا في بلادهم أو ديارهم، والجملة في محل نصب على الحال والتقدير: مماثلين لمن لم يوجد ولم يبق في مقام قط ﴿إلا إن ثموداً كفروا ربهم﴾ وضع الظاهر موضع المضمرة لزيادة البيان، وصرح بكفرهم مع كونه معلوماً تعليلاً للدعاء عليهم بقوله: ﴿إلا بعداً لثمود﴾ وقرأ الكسائي بالتثوين. وقد تقدم تفسير هذه القصة في الأعراف بما يحتاج إلى مراجعته ليضم ما في إحدى القصتين من الفوائد إلى الأخرى.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن السدي ﴿هو انشاكم من الأرض﴾ قال: خلقكم من الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿واستعمركم فيها﴾ قال: أعمركم فيها. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿واستعمركم فيها﴾ قال: استخلفكم فيها. وأخرج ابن

﴿نكروهم﴾ يقال: نكرته وأنكرته واستنكرته: إذا وجبته على غير ما تعهد، ومنه قول الشاعر:

فأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا للشيب والصلعا
فجمع بين اللغتين، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر:

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي علي سواد
وقيل يقال: أنكرت لما تراه بعينك، ونكرت لما تراه بقلبك، قيل: وإنما استنكر منهم ذلك، لأن عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم ولم ياكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بشر ﴿وأوجس منهم﴾ أي: أحس في نفسه منهم ﴿خيفة﴾ أي: خوفاً وفزعاً، وقيل معنى أوجس: أضمر في نفسه خيفة، والأول الصق بالمعنى اللغوي، ومنه قول الشاعر:

جاء البريد بقرطاس يحدث به فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
وكأنه ظن أنهم قد نزلوا به لأمر ينكره، أو لتعذيب قومه ﴿قالوا لا تخف﴾ قالوا له هذه المقالة مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف، بل أوجس ذلك في نفسه، فلعلهم استدلوا على خوفه بآمارات كظهور أثره على وجهه، أو قالوه له بعدما قال عقب ما أوجس في نفسه من الخيفة قولاً يدل على الخوف، كما في قوله في سورة الحجر: ﴿قال إنا منكم وجلون﴾ [الحجر: 52]، ولم ينكر ذلك ها هنا لكتفاء بما هنالك، ثم عللوا نهيهم عن الخوف بقولهم: ﴿إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ أي: أرسلنا إليهم خاصة، ويمكن أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولاً يكون هذا جواباً عنه ﴿قال فما خطبكم أيها المسلمون﴾ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ [الحجر: 57، 58]. وجملة ﴿وأمراته قائمة فضحكت﴾ في محل نصب على الحال، قيل: كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر. وقيل: كانت قائمة تخدم الملائكة وهو جالس، والضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور. وقال مجاهد وعكرمة: إنه الحيض، ومنه قول الشاعر:

وإني لأتي العرس عند طهورها وأهجرها يوماً إذا تك ضاحكاً
وقال الآخر:

وضحك الأرانب فوق الصفا كمثل دم الخوف يوم اللقاء
والعرب تقول ضحكت الأرنب: إذا حاضت. وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت ﴿فبشرناها بإسحاق﴾ ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير. والمعنى: فبشرناها فضحكت سروراً بالولد. وقرأ محمد بن زياد من قراء مكة فضحكت بفتح الحاء، وأنكره المهدي ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ قرأ حمزة، وابن عامر، وحفص بنصيب يعقوب على أنه مفعول فعل دل عليه فبشرناها، كأنه قال: ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب. وأجاز الكسائي، والأخفش، وأبو حاتم أن يكون يعقوب في موضع جر. وقال الفراء: لا يجوز الجر إلا بإعادة حرفه. قال سيبويه: ولو قلت مررت بزيد أول من أمس، وأمس عمر كان قبيحاً خبيثاً، لأنك فرقت بين

المجور، وما يشركه، كما يفرق بين الجار والمجور. وقرأ الباقون برفع يعقوب على أنه مبتدأ وخبره الطرف الذي قبله؛ وقيل الرفع بتقدير فعل محذوف: أي ويحدث لها، أو وثبت لها. وقد وقع التبشير هنا لها، ووقع لإبراهيم في قوله تعالى: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ [الصافات: 101] ﴿وبشره بغلام عليم﴾ [الذاريات: 28]، لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما، وجملة: ﴿قالت يا ويلتا﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل، فماذا قالت؟ قال الزجاج: أصلها يا ويلتي، فابدل من الياء ألف لأنها أخف من الياء والكسرة، وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تقع كثيراً على أفواه النساء إذا طرا عليهن ما يعجبن منه، وأصل الويل: الخزي، ثم شاع في كل أمر فظيع، والاستفهام في قولها: ﴿وإلهنا عجوز﴾ للتعجب: أي: كيف الد وأنا شعبة قد طعنت في السن، يقال: عجزت تعجز مخففاً ومثقلاً عجزاً وتعجزاً: أي: طعنت في السن، ويقال: عجوز وعجوزة، وأما عجزت بكسر الجيم: فمعناها عظمت عجيزتها، قيل: كانت بنت تسع وتسعين، وقيل: بنت تسعين ﴿وهذا بعلي شيخاً﴾ أي: وهذا زوجي إبراهيم شيخاً لا تحبل من مثله النساء، وشيخاً منتصب على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة، قال النحاس: وفي قراءة أبي وابن مسعود شيخ برفع على أنه خبر المبتدأ، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، وعلى الأول يكون «بعلي» بدلاً من اسم الإشارة؛ قيل: كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة؛ وقيل: ابن مائة، وهذه المبشرة هي سارة امرأة إبراهيم. وقد كان ولد إبراهيم من هاجر أمته إسماعيل، فتمنت سارة أن يكون لها ابن، وأيست منه لكبر سنهما، فبشرها الله به على لسان ملائكته ﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ أي: ما نكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد، مع كونها في هذه السن العالية التي لا يولد لمثلها شيء يقضي منه العجب، وجملة ﴿قالوا لتعجبين من أمر الله﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، والاستفهام فيها للإنكار: أي كيف تعجبين من قضاء الله وقدره، وهو لا يستحيل عليه شيء، وإنما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوة، ولا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه، ولهذا قالوا: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي: الرحمة التي وسعت كل شيء، والبركات وهي: النمو والزيادة، وقيل الرحمة: النبوة، والبركات: الأسباط من بني إسرائيل لما فيهم من الأنبياء، وانتصاب أهل البيت على المدح أو الاختصاص، وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد التعميم ﴿إنه حميد﴾ أي: يفعل موجبات حمده من عباده على سبيل الكثرة ﴿مجيد﴾ كثير الإحسان إلى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات، والجملة تعليل لقوله: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾. قوله: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم اللوع﴾ أي: الخيفة التي أوجسها في نفسه، يقال ارتاع من كذا: إذا خاف، ومنه قول النابغة:

فارتاع من صوت كلاب فبات له طوع الشواصت من خوف ومن حذر

﴿وجاءته البشري﴾ أي: بالولد، أو بقولهم: لا تخف، قوله: ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ قال الأخفش والكسائي: إن يجادلنا في موضع جادلنا، فيكون هو جواب لما، لما تقرّر من أن جوابها يكون بالماضي لا بالمستقبل. قال النحاس: جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضي مكان المستقبل في الشرط، وقيل: إن الجواب محذوف، ويجادلنا في موضع نصب على الحال، قاله الفراء. وتقديره: فلما ذهب عنه الروح وجاءته البشري اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا: أي يجادل رسلنا؛ وقيل إن المعنى: أخذ يجادلنا، ومجاملته لهم قيل إنه سمع قولهم: ﴿إننا مهلكوا أهل هذه القرية﴾ [العنكبوت: 31] قال: أرايتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتلكونهم؟ قالوا لا، قال فاربعون؟ قالوا لا، قال فعشرون؟ قالوا لا، ثم قال فعشرة فخمسة؟ قالوا لا. قال فواحد؟ قالوا لا ﴿قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله﴾ [العنكبوت: 32] الآية، فهذا معنى مجاملته في قوم لوط: أي في شأنهم وأمرهم. ثم اتنوا على إبراهيم، أو اتنى الله عليه فقال: ﴿إن إبراهيم لحليم﴾ أي: ليس بعجول في الأمور، ولا بموقع لها على غير ما ينبغي. والأوآه: كثير التأوه، والمنيب: الراجع إلى الله، وقد تقدّم في براءة الكلام على الأوآه. قوله: ﴿يا إبراهيم اعرض عن هذا﴾ هذا قول الملائكة له: أي اعرض عن هذا الجدل في أمر قد فرغ منه، وجفّ به القلم، وحقّ به القضاء ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ الضمير للشان، ومعنى مجيء أمر الله: مجيء عذابه الذي قدره عليهم، وسبق به قضاؤه ﴿ولنهم آتيهم عذاب غير مرئود﴾ أي: لا يرده دعاء ولا جدال، بل هو واقع بهم لا محالة، ونازل بهم على كل حال، ليس بمصروف ولا منفوع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن عثمان بن محصن، في ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورافئيل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يعجل حنيد﴾ قال: نضيج. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: مشوي. وأخرج أبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: سميط. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاک قال: الحنيد الذي انضج بالحجارة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن يزيد بن أبي يزيد البصري، في قوله: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾ قال: لم ير لهم أيدياً فنكرهم، وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿نكرهم﴾ قال: كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم ياكل من طعامهم ظنوا أنه لم يات بخير، وأنه يحدث نفسه بشراً، ثم حدثوه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته. وأخرج ابن المنذر، عن المغيرة قال: في مصحف ابن مسعود «وامراته قائمة وهو جالس». وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد «وامراته قائمة» قال: في خدمة أضياف إبراهيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن

المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: لما أوجس إبراهيم في نفسه خيفة حدثوه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته تعجباً مما فيه قوم لوط من الغفلة، ومما أتاهم من العذاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿فضحكت﴾ قال: فحاضت وهي: بنت ثمان وتسعين سنة. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿فضحكت﴾ قال: حاضت، وكانت ابنة بضع وتسعين سنة، وكان إبراهيم ابن مائة سنة. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة قال: حاضت. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ قال: هو ولد الولد. وأخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء، عن حسان بن أبجر قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل من هنيل، فقال له ابن عباس: ما فعل فلان؟ قال: مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من البراءة، فقال ابن عباس ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ قال: ولد الولد. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب من طرق، عن ابن عباس أنه كان ينهى عن أن يزداد في جواب التحية على قولهم: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ويتلو هذه الآية ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾. وأخرج البيهقي عن ابن عمر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم لروع﴾ قال: الفرق ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ قال: يخاصمنا. وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة في تفسير المجادلة قال: إنه قال لهم يومئذ: أرايتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين؟ قالوا: إن كان فيهم خمسون لم نعتبهم، قال أربعون؟ قالوا وأربعون، قال ثلاثون؟ قالوا وثلاثون حتى بلغوا عشرة، قالوا: إن كان فيهم عشرة لم نعتبهم، قال: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير؟ قال قتادة: إنه كان في قرية لوط أربعة آلاف إنسان، أو ما شاء الله من ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قالوا لإبراهيم: إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب. وأخرج أبو الشيخ، عن عمر بن ميمون قال: الأوآه: الرحيم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: المنيب المقبل إلى طاعة الله. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: المنيب المخلص.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا لُوَاكِيَةً إِلَيْهِمْ رَدَّاهُ فَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿١﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمٌ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَتَمَلَّكُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّرُونَ هَوَاكِهِ بَنَاتُ هُنَّ أَهْلُهُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي صَبِيحَةِ الْبَشَرِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٢﴾ فَأَمَّا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا بِبَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَلَئِنْ لَمْ تَنْهَ مَا تُرِيدُ ﴿٣﴾ قَالَ لَوْ أَنِّي رَأَيْتُكُمْ قَوْمًا أَوْ مَوَدَّةً لَكُمْ سَدِيدٌ ﴿٤﴾ فَأَمَّا يَنْتَوِي سُرُكُكُمْ لَوْ أَنِّي يَعْلَمُ إِلَيْكُمْ فَأَسْرُ بِأَهْلِكِ يَقْطَعُ مِنَ الْبَيْتِ وَلَا يَلْتَوِي مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمَرَكَ إِنَّهُ مِصْبَاهٌ مَا أَصَابَهُمْ إِلَّا مَوَدُّهُمْ الصَّبِيحُ الْبَشَرِ بِرَبِّهِ

على التفضيل، بل هي مثل «الله أكبر». وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر بنصب أظهر، وقرأ الباقون بالرفع؛ ووجه النصب أن يكون اسم الإشارة مبتدأ، وخبره بناتي، وهن ضمير فصل، وأظهر حال. وقد منع الخليل، وسيبويه، والآخر مثل هذا، لأن ضمير الفصل الذي يسمى عماداً إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك **﴿فأتقوا الله ولا تخزون في ضيقي﴾** أي: اتقوا الله بترك ما تريدون من الفاحشة بهم، ولا تنزلوني وتجلبوا علي العار في ضيقي، والضيف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة، لأنه في الأصل مصدر، ومنه قول الشاعر:

لا تعدمي الدهر شفار الجازر للضيف والضيف لحق زائر
ويجوز فيه التثنية والجمع، والأول: أكثر. يقال خزي الرجل خزاية: أي استحيا أو ذل أو هان، وخزي خزياً: إذا افتضح، ومعنى في ضيقي: في حق ضيقي، فخزي الضيف: خزي للمضيف، ثم وبخهم فقال: **﴿أليس منكم رجل رشيد﴾** يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح، ويمنعكم منه، فاجابوا عليه معرضين عما نصحهم به، وأرشدهم إليه، بقوله: **﴿ما لنا في بئناك من حق﴾** أي: ما لنا فيهم من شهوة ولا حاجة، لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق. ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور، وشدة الشهوة إليهم، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء؛ ويمكن أن يريدوا: أنه لا حق لنا في نكاحهن، لأنه لا ينكحهن ويتزوج بهن إلا مؤمن، ونحن لا نؤمن أبداً؛ وقيل: إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردنهم، وكان من سنتهم أن من خطب فرداً، فلا تحل المخطوبة أبداً **﴿وانك لتعلم ما نريد﴾** من إتيان الذكور، ثم إنه لما علم تصميمهم على الفاحشة، وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه **﴿قال لو أن لي بكم قوة﴾** وجواب لو محذوف. والتقدير: لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم، وهذا منه عليه السلام على طريق التمني: أي لو وجدت معيماً وناصرأ، فسمي ما يتقوى به قوة **﴿أو أي إلى ركن شديد﴾** عطف على ما يبعد لو لما فيه من معنى الفعل، والتقدير: لو قويت على دفعكم، أو أويت إلى ركن شديد. وقرئ **﴿أو أي﴾** بالنصب عطفاً على قوة كانه قال: لو أن لي بكم قوة، أو إيواء إلى ركن شديد؛ ومراده بالركن الشديد: العشيبة، وما يمتنع به عنهم هو ومن معه، وقيل أراد بالقوة: الولد، وبالركن الشديد: من ينصره من غير ولده؛ وقيل: أراد بالقوة: قوته في نفسه. ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة، وجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعته **﴿قالوا يا لوط إنا نرسل ريك لن يصلوا إليك﴾** أخبروه أولاً أنهم رسل ربه، ثم بشروه بقولهم: **﴿لن يصلوا إليك﴾** وهذه الجملة موضحة لما قبلها، لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند الله إليه لم يصل عدوه إليه ولم يقدروا عليه؛ ثم أمره أن يخرج عنهم، فقالوا له: **﴿فأسر باهلك بقطع من الليل﴾** قرأ

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَهْرًا جَمَلًا عَلَيْهِمَا سَافِلَاهَا وَأَمْرًا عَلَيْهَا حِكَاةً رَن سَبِيلٍ مَّشْهُورٍ ۝٨٧ سُورَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا مِنْ أَكْثَرِ لَوَاكِبٍ ۝٨٨﴾

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ، جاءوا إلى لوط. فلما رآهم لوط، وكانوا في صورة غلمان حسان مرد، **﴿سيء بهم﴾** أي: ساءه مجيئهم، يقال ساءه ساءه يسوءه، وأصل سيء بهم سويء بهم نقلت حركة الواو إلى السين فقلبت الواو ياء، ولما خففت الهمزة القيت حركتها على الياء. وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو عمرو بإشمام السين الضم **﴿وضاق بهم ذرعاً﴾** قال الأزهري: الذرع يوضع موضع الطاعة، وأصله أن البعير ينزع بيده في سيره على قدر سعة خطوه: أي يبسطها، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته، ضاق ذرعه عن ذلك، فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر؛ وقيل هو من ذرعه القيء: إذا غلبه وضاق عن حبسه. والمعنى أنه ضاق صدره لما رأى الملائكة في تلك الصورة خوفاً عليهم من قومه، لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط **﴿وقال هذا يوم عصيب﴾** أي: شديد. قال الشاعر:

وإنك إن لم ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب
يقال عصيب وعصيب وعصوب على التكرير: أي: يوم مكروه يجتمع فيه الشر، ومنه قيل: عصبه وعصابة: أي مجتمعوا الكلمة، ورجل معصوب: أي مجتمع الخلق **﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾** أي: جاءوا لوطاً، الجملة في محل نصب على الحال. ومعنى يهرعون إليه: يسرعون إليه. قال الكسائي، والفراء، وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهرع إلا إسراعاً مع رعدة، يقال أهرع الرجل إهرعاً: أي أسرع في رعدة من برد أو غضب أو حمى، قال مهلهل:

فجاءوا يهرعون وهم أسارى نهروهم على رغم الأنوف
وقيل يهرعون: يهرولون، وقيل: هو مشي بين الهرولة والعدو. والمعنى: أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة أسرعوا إليه، كأنما يدفعون نفعا لطلب الفاحشة من أضيافه **﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾** أي: ومن قبل مجيء الرسل في هذا الوقت، كانوا يعملون السيئات؛ وقيل: ومن قبل لوط كانوا يعملون السيئات أي: كانت عاداتهم إتيان الرجال، فلما جاءوا إلى لوط، وقصدوا أضيافه لذلك العمل، قام إليهم لوط مدافعاً **﴿وقال يا قوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم﴾** أي: تزوجوهن، ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافني، وقد كان له ثلاث بنات، وقيل: اثنتان، وكانوا يطلبون منه أن يزوجهن بهن، فيمتنع لخبثهم، وكان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما بنتيه؛ وقيل: أراد بقوله: **﴿هؤلاء بناتي﴾** النساء جملة، لأن نبي القوم أب لهم، وقالت طائفة: إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة، ولم يرد الحقيقة. ومعنى: **﴿هن أظهر لكم﴾** أي: أحل وأنزله؛ والتظهر: التنزه عما لا يحل، وليس في صيغة أظهر دلالة

جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى انماها من السماء ثم قلبها عليهم ﴿وامطرتنا عليها حجارة من سجيل﴾ قيل: إنه يقال أمطرتنا في العذاب وأمطرتنا في الرحمة؛ وقيل: هما لغتان، يقال مطرت السماء وأمطرت حكي ذلك الهروي؛ والسجيل: الطين المتحجر بطبخ أو غيره؛ وقيل هو الشنيد الصلب من الحجارة؛ وقيل: السجيل الكثير؛ وقيل: إن السجيل لفظة غير عربية، أصله سج وجيل، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً؛ وقيل: هو من لغة العرب. ونكر الهروي: أن السجيل اسم لسماء الدنيا. قال ابن عطية: وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود؛ وقيل: هو بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض؛ وقيل: هي جبال في السماء. وقال الزجاج: هو من التسجيل لهم: أي ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما سجين﴾ كتاب مرقوم [المطففين: 8، 9] وقيل: هو من أسجلته إذا أعطيته، فكانه عذاب أعطوه، ومنه قول الشاعر:

من يساجلني يساجل ماجداً يملأ اللؤلؤ إلى عقد الكرب
ومعنى ﴿منضود﴾: أنه نضد بعضه فوق بعض، وقيل: بعضه في أثر بعض، يقال نضدت المتاع: إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود ونضيد، والمسومة: المعلمة أي التي لها علامة: قيل كان عليها أمثال الخواتيم؛ وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمى به. وقال الفراء: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض. فذلك تسويمها؛ ومعنى: ﴿وعند ربك﴾ في خزائنه ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ أي: وما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين وهم قوم لوط ببعيد، أو ما هي من كل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد ﷺ ببعيد، فهم لظلمهم مستحقون لها. وقيل: ﴿وما هي﴾ أي: قري ﴿من الظالمين﴾ من كفر بالنبِيِّ ﷺ ببعيد، فإنها بين الشام والمدينة. وفي إمطار الحجارة قولان: أحدهما: أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل. والثاني: أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها، وكان خارجاً عنها. وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر، أو إجراء له على موصوف منكر: أي شيء بعيد، أو مكان بعيد، أو لكونه مصدراً كالزفير والصهيل، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ قال: ساء ظناً بقومه، وضاق ذرعاً بضايقه. وقال هذا يوم عصيب. يقول: شديد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿يهرعون إليه﴾ قال: يسرعون ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ قال: يأتون الرجال. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: ﴿يهرعون إليه﴾ يستمعون إليه. وأخرج أبو الشيخ، عنه، أيضاً في قوله: ﴿هؤلاء بناتي﴾ قال: ما عرض لوط

نافع وابن كثير بالوصل، وقراً غيرهما بالقطع، وهما لغتان فصيحتان. قال الله تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ [الفجر: 4] وقال: ﴿سبحان الذي أسرى﴾ [الإسراء: 1] وقد جمع الشاعر بين اللغتين فقال:

حي النضير وربة الخدر أسرت عليه ولم تكن تسري
وقيل: إن أسرى للمسير من أول الليل، وسرى للمسير من آخره، والقطع من الليل: الطائفة منه. قال ابن الأعرابي: بقطع من الليل: بساعة منه، وقال الأخفش: بجنح من الليل، وقيل: بظلمة من الليل، وقيل: بعد هدوء من الليل، قيل: إن السرى لا يكون إلا في الليل، فما وجه زيادة بقطع من الليل؟ قيل: لو لم يقل بقطع من الليل لجاز أن يكون في أوله قبل اجتماع الظلمة، وليس ذلك بمراد ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي: لا ينظر إلى ما وراءه، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره. قيل: وجه النهي عن الالتفات أن لا يروا عذاب قومهم، وهو ما نزل بهم، فيرحمهم ويرقوا لهم، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات، فإنه لا بد للملتفت من فترة في سيره ﴿إلا امرأتك﴾ بالانصب على قراءة الجمهور، وقراً أبو عمرو، وابن كثير بالرفع على البذل، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة من قوله: ﴿فأسر باهلك﴾ أي: أسر بأهلك جميعاً إلا امرأتك فلا تسر بها، فـ ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ من العذاب، وهو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة؛ وإنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيد وقال: لا يصح ذلك إلا برفع يلتفت ويكون نعتاً، لأن المعنى يصير إذا أبطلت وجزمت أن المرأة أبيع لها الالتفات وليس المعنى كذلك. قال النحاس: وهذا العمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالته ومحلّه من العربية لا يجب أن يكون، والرفع على البذل له معنى صحيح، وهو أن يكون استثناء من النهي عن الالتفات: أي لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك، فإنها تلتفت وتهلك؛ وقيل: إن الرفع على البذل من أحد، ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف، فكانه قال: ولا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك، فإنها تتخلف، والملجئ إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين، والضمير في ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ للشان، والجملة خبر إن ﴿إن موعدهم للصبح﴾ هذه الجملة تقليل لما تقدّم من الأمر بالإسراء والنهي عن الالتفات، والمعنى: إن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، والاستفهام في ﴿ليس الصبح بقريب﴾ للإنكار التقريري، والجملة تأكيد للتعليل. وقراً عيسى بن عمر ﴿ليس الصبح﴾ بضم الباء وهي لغة، ولعل جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن، والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم ﴿فلما جاء امرؤ﴾ أي: الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه، أو المراد بالامرؤ نفس العذاب ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ أي: عالي قري قوم لوط سافلها، والمعنى: أنه قلبها على هذه الهيئة، وهي كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها، وذلك لأن جبريل أنزل

وبناؤه على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً، إنما قال: هؤلاء نسأؤكم، لأن النبي إذا كان بين ظهراني قوم فهو أبوهم، قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَهْلَاتِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6] (وهو أبوهم) في قراءة أبي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: لم تكن بناته ولكن كَنٌّ من أمته، وكل نبي أبو أمته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة نحوه. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساکر، عن السدي نحوه. قال: وفي قراءة عبد الله: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [وهو أب لهم] وأزواجه أمهاتهم [الأحزاب: 6]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن حنيفة بن اليمان، قال: عرض عليهم بناته تزويجاً، وأراد أن يقي أضيافه بتزويج بناته. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَلَا تَخْزُون فِي ضَيْفِي﴾ قال: لا تقضحوني، وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك: ﴿ليس منكم رجل رشيد﴾ قال: رجل يامر بالمعروف وينهى عن المنكر. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في الاسماء والصفات، عن ابن عباس: ﴿ليس منكم رجل رشيد﴾ قال: واحد يقول لا إله إلا الله. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿وانك لتعلم ما نريد﴾ قال: إنما نريد الرجال ﴿قال﴾ لوط ﴿لو أن لي بكم قوة لو أوى إلى ركن شديد﴾ يقول: إلى جند شديد لمقاتلتكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، أو أوى إلى ركن شديد قال: عشيرة.

وقد ثبت في البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يغفر الله للوط إن كان يأوي إلى ركن شديد» وهو مروى في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس: ﴿بقطع من الليل﴾ قال: جوف الليل. وأخرج عنه قال: بسواد الليل. وأخرج عبد الرزاق، عن قتادة، قال: بطائفة من الليل. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ قال: لا ينظر وراءه أحد ﴿إلا امرأته﴾. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، عن هارون قال: في حرف ابن مسعود «فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأته». وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قال: لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم، فقلعها من أركانها، ثم انخل جناحه ثم حملها على خواتي جناحه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها، فكان أول ما سقط منها سرانقها، فلم يصب قوماً ما أصابهم، ثم إن الله طمس على أعينهم، ثم قلبت قريتهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل. وقد ذكر المفسرون روايات وقصصاً في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة، وليس في ذكرها فائدة لا سيما وبين من قال بشيء من ذلك، وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح، وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب،

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ قَالُوا اتَّبِعُوا أَمْرَنَا وَلَا نَنْصِفْكُمْ وَلَا نَنْصِفْكُمْ مِنْهُمْ﴾ وقد أمرنا بأننا لا نصدقهم ولا نكذبهم، فأعرف هذا، فهو الوجه في حذفنا لكثير من هذه الروايات الكثينة في قصص الأنبياء وقومهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قال: يرمب بها قريش أن يصيبهم ما أصاب القوم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في الآية قال: من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: من ظلمي هذه الأمة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ قَالُوا اتَّبِعُوا أَمْرَنَا وَلَا نَنْصِفْكُمْ وَلَا نَنْصِفْكُمْ مِنْهُمْ﴾ وقد أمرنا بأننا لا نصدقهم ولا نكذبهم، فأعرف هذا، فهو الوجه في حذفنا لكثير من هذه الروايات الكثينة في قصص الأنبياء وقومهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قال: يرمب بها قريش أن يصيبهم ما أصاب القوم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في الآية قال: من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: من ظلمي هذه الأمة.

أي وأرسلنا إلى مدنين، وهم قوم شعيب، أخاهم في النسب شعيباً، وسموا مدنين باسم أبيهم، وهو مدني بن إبراهيم؛ وقيل: باسم مدنيته. قال النحاس: لا ينصرف مدني لأنه اسم مدينة. وقد تقدم الكلام على هذا في الأعراف بإسقاط مما هنا، وقد تقدم تفسير: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ في أول السورة، وهذه الجملة مستأنفة؛ كانه قيل: ما أنا قال لهم شعيب لما أرسله الله إليهم؟ وقد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه، أمرهم أولاً بعبادة الله سبحانه الذي هو الإله وحده لا شريك له، ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال والميزان، لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف، كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، وكذلك إذا وصل إليهم الموزون أخذوا بوزن زائد، وإذا باعوا باعوا بكيل

ناقص ووزن ناقص؛ وجملة **﴿إني أراكم بخير﴾** تعليل للنهي: أي لا تنقصوا المكيال والميزان لأنني أراكم بخير: أي بثروة وسعة في الرزق، فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده، ففي هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها، ثم نكر بعد هذه العلة علة أخرى، فقال: **﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾** فهذه العلة فيها الإنكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإنكار لهم بنعيم الدنيا؛ ووصف اليوم بالإحاطة والمراد العذاب، لأن العذاب واقع في اليوم؛ ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم، أنه لا يشذ منهم أحد عنه، ولا يجدون منه ملجأ ولا مهرباً، واليوم: هو يوم القيامة، وقيل: هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة؛ ثم أكد النهي عن نقص الكيل والوزن بقوله: **﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾** والإيفاء: هو الإتمام، والقسط: العدل، وهو عدم الزيادة والنقص وإن كان الزيادة على الإيفاء فضل وخير، ولكنها فوق ما يفيد اسم العدل، والنهي عن النقص، وإن كان يستلزم الإيفاء ففي تعاضد الداليتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن، ثم زاد ذلك تأكيداً فقال: **﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾** قد مرّ تفسير هذا في الأعراف، وفيه النهي عن البخس على العموم، والأشياء أعم مما يكال ويوزن، فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن في هذا دخلاً أولياً؛ وقيل البخس المكس خاصة، ثم قال: **﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾** قد مرّ أيضاً تفسيره في البقرة، والعثي في الأرض يشمل كل ما يقع فيها من الإضرار بالناس، فيدخل فيه ما في السياق من نقص المكيال والميزان، وقيدته بالحال وهو قوله: **﴿مفسدين﴾** ليخرج ما كان صورته من العثي في الأرض، والمقصود به الإصلاح كما وقع من الخضر في السفينة **﴿بقيت الله خير لكم﴾** أي: ما يبقي لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيراً وبركة مما تبوقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس، والفساد في الأرض، نكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين. وقال مجاهد: بقية الله طاعته. وقال الربيع: وصيته. وقال الفراء: مراقبته، وإنما قيد ذلك بقوله: **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر، أو المراد بالمؤمنين هنا: المصنّفون لشعيب **﴿وما لنا عليكم بحفيظ﴾** أحفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرهما، أو أحفظ عليكم أعمالكم، وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها، وجملة: **﴿قلوا يا شعيب أصلوّاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آبائنا﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل فماذا قالوا لشعيب؟ وقرئ **﴿أصلواتك﴾** بالإنفراد، وأن نترك في موضع نصب. وقال الكسائي: موضعها خفض على إضمار الباء، ومرادهم بما يعبد آبائهم ما كانوا يعبدون من الأوثان، والاستفهام للإنكار عليه والاستهزاء به، لأن الصلوات عندهم ليست من الخير الذي يقال لفاعله عند إرادة تليين قلبه وتذليل صغوبته كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لا يناسب الصواب:

أصفتك أمرتك بهذا، وقيل المراد بالصلاة هنا القراءة؛ وقيل المراد بها الدين، وقيل المراد بالصلوات اتباعه، ومنه المصلى الذي يتلو السابق؛ وهذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده، وقولهم: **﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾** جواب له عن أمرهم بإيفاء الكيل والوزن، ونهيهم عن نقصهما، وعن بخس الناس، وعن العثي في الأرض، وهذه الجملة معطوفة على «ما» في ما يعبد آبائنا. والمعنى: أصلوّاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آبائنا، وتأمرك أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء، من الأخذ والإعطاء، والزيادة والنقص. وقرئ **﴿نفعل ما نشاء﴾** بالفوقية فيها. قال النحاس: فتكون أو على هذه القراءة للعطف على أن الأولى، والتقدير: أصلوّاتك تأمرك أن تفعل في أموالنا ما تشاء. وقرئ «نفعل» بالنون وما تشاء بالفوقية، ومعناه: أصلوّاتك تأمرك أن نفعل نحن في أموالنا ما تشاءه أنت ونندع ما نشاءه نحن وما يجري به التراضي بيننا؛ ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا: **﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾** على طريقة التهكم به، لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما، أو يربون إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك، وفي اعتقادك، ومعناهم: أن هذا الذي نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما تعتقده في نفسك من الحلم والرشد؛ وقيل إنهم قالوا لك لا على طريقة الاستهزاء بل هو عندهم كذلك، وإنكروا عليه الأمر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم. وقد تقدّم تفسير الحلم والرشد، وجملة: **﴿يا قوم أرايتم إن كنتم على بينة من ربي﴾** مستأنفة كالجملة التي قبلها؛ والمعنى: أخبروني إن كنتم على حجة واضحة من عند ربي فيما أمرتكم به ونهيتمكم عنه **﴿ورزقني منه﴾** أي من فضله وخزائنه ملكه **﴿رزقاً حسناً﴾** أي: كثيراً واسعاً حلالاً طيباً، وقد كان عليه السلام كثير المال؛ وقيل: أراد بالرزق النبوة، وقيل: الحكمة، وقيل: العلم، وقيل: التوفيق، وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه سياق الكلام تقديره: أترك أمركم ونهيكم، أو أقولون في شأني ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء **﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أتياكم منه﴾** أي: وما أريد بنهيي لكم عن التطفيف والبخس أن أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه فأفعله بونكم، يقال: خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مولّد عنه، وخالفته عن كذا في عكس ذلك **﴿إن أريد إلا الإصلاح﴾** أي: ما أريد بالأمر والنهي إلا لإصلاح لكم وبنفخ الفساد في دينكم ومعاملاتكم **﴿ما استطعت﴾** ما بلغت إليه استطاعتي، وتمكنت منه طاقتي **﴿وما توفيقي إلا بالله﴾** أي: ما صرت موقفاً هادياً نبياً مرشداً إلا بتأييد الله سبحانه، وإقداري عليه ومنحي إياه **﴿عليه توكلت﴾** في جميع أموري التي منها أمركم ونهيكم **﴿وليه أنيب﴾** أي: أرجع في كل ما نابني من الأمور، وأفوض جميع أموري إلى ما يختاره لي من قضاؤه وقدره، وقيل معناه: وإليه أرجع في الآخرة؛ وقيل: إن الإنابة الدعاء. ومعناه: وله أدعوا. قوله: **﴿ويا قوم لا**

يجرمكم شقاقي ﴿ قال الزجاج: معناه لا يكسبكم شقاقي إصابة العذاب إياكم، كما أصاب من كان قبلكم؛ وقيل معناه: لا يحملكم شقاقي، والشقاق العداوة، ومنه قول الأخطل:

الامن مبلغ عني رسولا
نكيف وجنتم طعم الشقاق

و**إن يصيبكم** ﴿ في محل نصب على أنه مفعول ثان ليجرمكم **﴿مثل ما أصاب قوم نوح﴾** من الغرق **﴿أو قوم هود﴾** من الريح **﴿أو قوم صالح﴾** من الصيحة، وقد تقدّم تفسير يجرمكم وتفسير الشقاق **﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾** يحتمل أن يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم، أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم، أو ليسوا ببعيد منكم في السبب الموجب لعقوبتهم، وهو مطلق الكفر، وأقرّد لفظ **﴿بعيد﴾** لمثل ما سبق في **﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾** ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة، فقال: **﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾** وقد تقدّم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه في أوّل السورة، وتقدّم تفسير الرحيم، والمراد هنا أنه عظيم الرحمة للتائبين، والودود المحبّ. قال في الصحاح: ودت الرجل أوده إذا أحببته، والودود المحب، والودّ والودّ والودّ: المحبة؛ والمعنى هنا: أنه يفعل بعباده ما يفعله من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به، وسوق الخير إليه، ودفع الشر عنه. وفي هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار مستأنفة كالجمال السابقة، والمعنى: أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية، كالبعث والنشور، ولا نفقه ذلك: أي نفهم كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة، فيكون نفى الفقه على هذا حقيقة لا مجازاً، وقيل: قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه، واحتقار الكلام مع كونه مفهوماً لديهم معلوماً عندهم، فلا يكون نفى الفقه حقيقة بل مجازاً، يقال فقه يفقه: إذا فهم فقهها وفقها، وحكى الكسائي فقهاً، ويقال فقه فقهاً: إذا صار فقيهاً **﴿وإنّا لنراك فينا ضعيفاً﴾** أي: لا قوة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا، وتتمكن بها من مخالفتنا؛ وقيل: المراد أنه ضعيف في بنه قاله علي بن عيسى؛ وقيل: إنه كان مصاباً ببصره. قال النحاس: وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى ضعيف: أي قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له ضرير: أي قد ضرّ بذهاب بصره؛ وقيل: الضعيف: المهين، وهو قريب من القول الأوّل **﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾** رهط الرجل عشيرته الذين يستند إليهم، ويتقوّى بهم، ومنه الراهط لجرير اليربوع، لأنه يتوثق به ويخبا فيه ولده، والرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة، وإنما جعلوا رهطه مانعاً من إنزال الضرر به مع كونهم في قلة، والكفار الوف مؤلفة، لأنهم كانوا على دينهم، فتركوه احتراماً لهم لا خوفاً منهم، ثم اكثروا ما وصفوه به من الضعف بقولهم: **﴿وما انت علينا بعزیز﴾** حتى تكفّ عنك لأجل عزتك عندنا، بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا، ومعنى لرجمناك لقتلناك بالرجم، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه

بالحجارة وقيل معنى لرجمناك لشتمناك، ومنه قول الجعدي: ترجمنا بمرّ القول حتى نصير كأننا فرسارها
ويطلق الرجم على اللعن، ومنه الشيطان الرجيم، وجملة: **﴿قال يا قوم أرهطي أعزّ عليكم من الله﴾** مستأنفة، وإنما قال أعزّ عليكم من الله، ولم يقل أعزّ عليكم مني، لأن نفى العزة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفي استهانة به، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عزّ وجل، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعزّ عليه من الله، فاستنكر ذلك عليهم، وتعجب منه وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه، ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، وفي هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإلزام الخصم الحجر ما لا يخفى، ولأمر ما سمي شعيب خطيب الأنبياء، والضمير في **﴿واتخذتموه﴾** راجع إلى الله سبحانه. والمعنى: واتخذتم الله عزّ وجلّ بسبب عدم اعتدالكم بنبيه الذي أرسله إليكم **﴿وراءكم ظهرياً﴾** أي: منبوذاً وراء الظهر لا تبالون به؛ وقيل المعنى: واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه إليكم، وهو ما جئتمكم به وراء ظهوركم، يقال: جعلت أمره بظهر: إذا قصرت فيه، و**﴿ظهرياً﴾** منسوب إلى الظهر، والكسر لتغيير النسب **﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾** لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم. **﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون﴾** لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم، وعدم تأثير الموعظة فيهم، توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكثهم ونهاية استطاعتهم، يقال مكن مكانة: إذا تمكن أبلغ تمكن، وأخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه ويقدر الله له؛ ثم بالغ في التهديد والوعيد بقوله: **﴿سوف تعلمون﴾** أي: عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله والإضرار بعباده، وقد تقدّم مثله في الانعام **﴿ومن يأتية عذاب يخزيه﴾** من في محل نصب بتعلمون: أي: سوف تعلمون من هو الذي يأتية العذاب المخزي الذي يتأثر عنه الذلّ والفضيحة والعار **﴿ومن هو كاذب﴾** معطوف على من يأتية؛ والمعنى: ستعلمون من هو المعذب ومن هو الكاذب؛ وفيه تعريض بكنبهم في قولهم: **﴿ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزیز﴾**؛ وقيل: إن من مبتدأ، وما بعدها صلتها، والخبر محذوف، والتقدير: من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره. قال الفراء: إنما جاء بهو في **﴿من هو كاذب﴾** لأنهم لا يقولون من قائم: إنما يقولون من قام، ومن يقوم، ومن القائم، فزادوا هو ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل. قال النحاس: ويدل على خلاف هذا قول الشاعر:

من رسولني إلى الثريا فإني ضقت نزعاً بهجرها والكتاب

﴿وارتقبوا إني معكم رقيب﴾ أي: انتظروا إني معكم منتظر لما يقضي به الله بيننا **﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه﴾** أي: لما جاء عذابنا، أو أمرنا بعذابهم، نجينا شعيباً واتباعه الذين آمنوا به **﴿برحمة منا﴾** لهم بسبب إيمانهم، أو برحمة منا لهم: وهي هدايتهم للإيمان

حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي﴾ لا يحملكنم فراقِي. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، قال: شِقَاقِي عداوتي. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ قال: لا تحملكنم عداوتي. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة، في قوله: ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطُ مِنْكُمْ بِيعِيدٌ﴾ قال: إنما كنوا حديثي عهد قريب بعد نوح وشمود. وأخرج أبو الشيخ، وابن عساکر، عن سعيد بن جبیر ﴿وَأَنَا لَنُرَاكُ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: كان أعمى، وإنما عمي من بكائه من حبّ الله عزّ وجل. وأخرج الواحدي، وابن عساکر، عن شدّاد بن أوس، قال: قال رسول الله ﷺ: «بكى شعيب عليه السلام من حبّ الله حتى عمي». وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والخطيب، وابن عساکر من طرق، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَنَا لَنُرَاكُ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: كان ضرير البصر. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي صالح، مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن سفيان في قوله: ﴿وَأَنَا لَنُرَاكُ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: كان أعمى، وكان يقال له خطيب الأنبياء. وأخرج أبو الشيخ، عن السديّ، قال: معناه إنما أنت واحد. وأخرج أبو الشيخ، عن عليّ بن أبي طالب، أنه خطب قتلًا هذه الآية في شعيب ﴿وَأَنَا لَنُرَاكُ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: كان مكفوفًا، فنسبوه إلى الضعف ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ قال عليّ: فوالله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلا العشيّة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ قال: نبذتم أمره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال في الآية: لا تخافونه. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاک قال: تهاونتم به.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحِيَّ بِآيَاتِنَا وَسُلَاطِنٍ مُّبِينٍ ﴿١٦١﴾ إِذْ فِرْعَوْنُكَ وَمَلَأْنِيهِ فَأَبَى أَكْرَامُ بُخَيْرٍ ﴿١٦٢﴾ قَالَ: رَخَّصَ السَّعْرُ ﴿١٦٣﴾ وَأَنَا لَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿١٦٤﴾ قَالَ: غَلَا السَّعْرُ، وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، عَنْهُ «بَقِيَّةُ اللَّهِ» قَالَ: رَزَقَ اللَّهُ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ قَتَادَةَ «بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ» يَقُولُ: حَظُّكَ مِنْ رَبِّكَ خَيْرٌ لَكَ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: طَاعَةُ اللَّهِ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ الْأَعْمَشِ فِي قَوْلِهِ: «أَصْلُوتُكَ تَامِرُكَ» قَالَ: أَقْرَأْتُكَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرٍ، عَنْ الْأَحْنَفِ: أَنَّ شُعَيْبًا كَانَ أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَاةً. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ ابْنِ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ قَالَ: نَهَاهُمْ عَنْ قَطْعِ هَذِهِ النَّنَائِرِ وَالزَّهَامِ فَقَالُوا: إِنَّمَا هِيَ أَمْوَالُنَا نَفْعَلُ فِيهَا مَا نَشَاءُ، إِنْ شِئْنَا قَطَعْنَاهَا، وَإِنْ شِئْنَا أَحْرَقْنَاهَا، وَإِنْ شِئْنَا طَرَحْنَاهَا. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ نَحْوَهُ. وَأَخْرَجَا عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ نَحْوَهُ أَيْضًا. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ سَعِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَأَبُو الشَّيْخِ، وَعَبِيدُ بْنُ حَمِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، نَحْوَهُ أَيْضًا. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قَالَ: يَقُولُونَ إِنَّكَ لَسْتَ بِحَلِيمٍ وَلَا رَشِيدٍ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: اسْتَهْزَأَ بِهِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ الضَّحَّاكِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قَالَ: الْحَالِلُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ تُخَالِفْكُم لِىَ مَا أَنْتَ بِهَاجِمٌ عَنْهُ﴾ قَالَ: يَقُولُ لَمْ يَكُنْ لِأَنْتَ أَنْتَ مِنْ أَمْرِ وَارِكِيهِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْيَاقِينُ﴾ قَالَ: إِلَيْهِ أَرْجِعْ. وَأَخْرَجَ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ، عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: قُلْ اللَّهُ رَبِّي ثُمَّ اسْتَغْفِرْ، قُلْتُ: رَبِّي اللَّهُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، قَالَ: لِيَهْجُرَ الْعِلْمُ أَبَا الْحَسَنِ، لَقَدْ شَرِبْتَ الْعِلْمَ شَرْبًا وَنَهَلْتَهُ نَهْلًا، وَفِي إِسْنَادِهِ مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ الْكِنْدِيِّ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي

﴿وَأَخَذْتُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ غَيْرَهُمْ بِمَا أَخَذُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ بِغَيْرِ وَجْهِ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالتَّصْمِيمِ عَلَى الْكَفْرِ ﴿لِلصَّيْحَةِ﴾ الَّتِي صَاحَ بِهِمْ جِبْرَائِيلُ حَتَّى خَرَجَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، وَفِي الْأَعْرَافِ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: 78، 91] وَكَذَا فِي الْعَنْكَبُوتِ. وَقَدْ قَعْنَا أَنَّ الرَّجْفَةَ الزَّلْزَلَةَ، وَأَنَّهُ تَكُونُ تَابِعَةً لِلصَّيْحَةِ لَتَمُوجِ الْهَوَى الْمَفْضِي إِلَيْهَا ﴿فَأَصْبَحُوا فِي بِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أَي: مَيِّتِينَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ وَتَفْسِيرُ ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾ قَرِيبًا، وَكَذَا تَفْسِيرُ ﴿أَلَا بَعْدَا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ﴾ وَحَكَى الْكَسَاثِيُّ أَنَّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيَّ قَرَأَ ﴿كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ﴾ بِضَمِّ الْعَيْنِ. قَالَ الْمَهْدِيُّ: مَنْ ضَمَّ الْعَيْنَ مِنْ بَعْدَتْ فَهِيَ لَفَةٌ يَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَبَعْدَتْ بِالْكَسْرِ عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ يَسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ خَاصَّةً، وَهِيَ هُنَا بِمَعْنَى اللَّعْنَةِ.

وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ قَالَ: رَخَّصَ السَّعْرُ ﴿وَأَنَا لَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ قَالَ: غَلَا السَّعْرُ، وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، عَنْهُ «بَقِيَّةُ اللَّهِ» قَالَ: رَزَقَ اللَّهُ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ قَتَادَةَ «بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ» يَقُولُ: حَظُّكَ مِنْ رَبِّكَ خَيْرٌ لَكَ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: طَاعَةُ اللَّهِ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ الْأَعْمَشِ فِي قَوْلِهِ: «أَصْلُوتُكَ تَامِرُكَ» قَالَ: أَقْرَأْتُكَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرٍ، عَنْ الْأَحْنَفِ: أَنَّ شُعَيْبًا كَانَ أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَاةً. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ ابْنِ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ قَالَ: نَهَاهُمْ عَنْ قَطْعِ هَذِهِ النَّنَائِرِ وَالزَّهَامِ فَقَالُوا: إِنَّمَا هِيَ أَمْوَالُنَا نَفْعَلُ فِيهَا مَا نَشَاءُ، إِنْ شِئْنَا قَطَعْنَاهَا، وَإِنْ شِئْنَا أَحْرَقْنَاهَا، وَإِنْ شِئْنَا طَرَحْنَاهَا. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ نَحْوَهُ. وَأَخْرَجَا عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ نَحْوَهُ أَيْضًا. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ سَعِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَأَبُو الشَّيْخِ، وَعَبِيدُ بْنُ حَمِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، نَحْوَهُ أَيْضًا. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قَالَ: يَقُولُونَ إِنَّكَ لَسْتَ بِحَلِيمٍ وَلَا رَشِيدٍ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: اسْتَهْزَأَ بِهِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ الضَّحَّاكِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قَالَ: الْحَالِلُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ تُخَالِفْكُم لِىَ مَا أَنْتَ بِهَاجِمٌ عَنْهُ﴾ قَالَ: يَقُولُ لَمْ يَكُنْ لِأَنْتَ أَنْتَ مِنْ أَمْرِ وَارِكِيهِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْيَاقِينُ﴾ قَالَ: إِلَيْهِ أَرْجِعْ. وَأَخْرَجَ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ، عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: قُلْ اللَّهُ رَبِّي ثُمَّ اسْتَغْفِرْ، قُلْتُ: رَبِّي اللَّهُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، قَالَ: لِيَهْجُرَ الْعِلْمُ أَبَا الْحَسَنِ، لَقَدْ شَرِبْتَ الْعِلْمَ شَرْبًا وَنَهَلْتَهُ نَهْلًا، وَفِي إِسْنَادِهِ مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ الْكِنْدِيِّ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي

المراد بالآيات التوراة، والسلطان المبين: المعجزات؛ وقيل المراد بالآيات هي التسعة المذكورة في غير هذا الموضع، والسلطان المبين: العصا، وهي وإن كانت من التسعة لكنها لما كانت أبهرها أقربت بالذكر؛ وقيل: المراد بالآيات: ما يفيد

والنّاس في قسم المنيّة بينهم كالزّرع منه قائم وحصيد
﴿وما ظلمناهم﴾ بما فعلنا بهم من العذاب **﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾** بالكفر والمعاصي **﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾** أي: فما نفعت عنهم أصنامهم التي يعبدونها من دون الله شيئاً من العذاب **﴿لما جاء أمر ربك﴾** أي: لما جاء عذابه **﴿وما زأبهم غير قتيل﴾**: الهلاك والخسران: أي ما زألتهم الأصنام التي يعبدونها إلا هلاكاً وخسراناً، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع **﴿وكذلك أخذ ربك﴾** قرأ الجحدري وطلحة بن مصرف «أخذ» على أنه فعل. وقرأ غيرهما «أخذ» على المصدر **﴿إذا أخذ القرى﴾** وهي ظالمة **﴿أي: أهلها وهم ظالمون﴾** **﴿إن أخذك﴾** أي: عقوبته للكافرين **﴿اليم شديد﴾** أي: موجع غليظ **﴿إن في ذلك لآية﴾** أي: في أخذ الله سبحانه لأهل القرى، أو في القصص الذي قصه على رسوله لعلبة وموعظة **﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾** لأنهم الذين يعتبرون بالعبر، ويتعظون بالمواعظ، والإشارة بقوله: **﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾** إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة أن يجمع فيه الناس للمحاسبة والمجازاة **﴿ولذلك﴾** أي: يوم القيامة **﴿يوم مشهود﴾** أي: يشهده أهل المحشر، أو مشهود فيه الخلاق، فأتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول **﴿وما نؤخره﴾** إلا لأجل معنود **﴿أي: وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاه أجل معنود معلوم بالعدد، قد عيّن الله سبحانه وقوع الجزاء بعده﴾** **﴿يوم يات﴾** قرأ أهل المدينة وأبو عمرو، والكسائي بإثبات الياء في الدرج، حذفها في الوقف. وقرأ أبي، وابن مسعود بإثباتها وصلّاً ووقفاً. وقرأ الأعمش بحذفها فيهما، ووجه حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائي أن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم فحذفت الياء كما تحذف الضمة. ووجه قراءة من قرأ بحذف الياء مع الوصل: أنهم راوا رسم المصحف كذلك. وحكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول لا أنر، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسر، وأنشد الفراء في حذف الياء:

كفأك كف ما تليق برهماً جوداً وأخرى تعط بالسيف الدما
 قال الزّجاج: والأجود في النحو إثبات الياء، والمعنى: حين يأتي يوم القيامة **﴿لا تكلم نفس﴾** أي: لا تتكلم حذفت إحدى التّامين تخفيفاً: أي لا تكلم فيه نفس إلا بما أنن لها من الكلام؛ وقيل: لا تكلم بحجة ولا شفاعة **﴿إلا بإئنه﴾** سبحانه لها في التكلم بذلك، وقد جمع بين هذا وبين قوله: **﴿هذا يوم لا ينطقون﴾** ولا يؤذن لهم فيعتنون **﴿[المرسلات: 35، 36] باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة﴾** وقد تكرّر مثل هذا الجمع في مواضع **﴿فمنهم شقي وسعيد﴾** أي: من الأنفس شقي، ومنهم سعيد؛ فالشقي: من كتبت عليه الشقاوة، والسعيد: من كتبت له السعادة، وتقديم الشقي على السعيد لأن المقام مقام تحنير **﴿فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾** أي: فاما الذين سبقت لهم للشقاوة، فمستقرّون في النار لهم فيها زفير وشهيق. قال

الظنّ، والسلطان المبين ما يفيد القطع بما جاء به موسى؛ وقيل: هما جميعاً عبارة عن شيء واحد: أي أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية، وكونه سلطاناً مبيناً؛ وقيل إن السلطان المبين: ما أورده موسى على فرعون في المحاورّة بينهما **﴿إلى فرعون وملأه﴾** أي: أرسلناه بذلك إلى هؤلاء. وقد تقدّم أن الملأ أشرف القوم، وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم، لأنهم أتباع لهم في الإصدار والإيراد، وخصّ هؤلاء الملأ بون فرعون بقوله: **﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾** أي: أمره لهم بالكفر، لأن حال فرعون في الكفر أمر واضح، إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره، ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه وطريقته، فيعمّ الكفر وغيره **﴿وما أمر فرعون برشيد﴾** أي: ليس فيه رشد قط، بل هو: غي وضلال، والرّشيد بمعنى المرشد، والإسناد مجازي، أو بمعنى ذي رشد، وفيه تعريض بأن الرشد في أمر موسى **﴿يفقد قومه يوم القيامة﴾** من قدمه بمعنى تقمّسه: أي يصير متقدماً لهم يوم القيامة سابقاً لهم إلى عذاب النار، كما كان يتقدّمهم في الدنيا **﴿فاوردهم النار﴾** أي: إنه لا يزال متقدماً لهم، وهم يتبعونه حتى يوردهم النار، وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، ثم نّم الورد الذي أوردهم إليه، فقال: **﴿ويؤس الورد للورود﴾** لأن الورد إلى الماء الذي يقول له الورد، إنما يرده ليطفى حَرّ العطش، ويذهب ظمأه، والنار على ضدّ ذلك، ثم نّمهم بعد نّم المكان الذي يردونه، فقال: **﴿واتبعوا في هذه لعنة﴾** أي: اتبع قوم فرعون مطلقاً، أو الملأ خاصة، أو هم وفرعون في هذه الدنيا لعنة عظيمة: أي طرداً وإبعاداً **﴿ويوم القيامة﴾** أي: واتبعوا لعنة يوم القيامة، يلعنهم أهل المحشر جميعاً، ثم إنه جعل اللعنة رعداً لهم على طريقة التهكم، فقال: **﴿ويؤس الورد للمرفود﴾**. قال الكسائي وأبو عبيدة: ردفته أرفده رعداً: أمّنته وأعطيته، واسم العطية الرّفد: أي بّس العطاء، والإعانة ما أعطوهم إياه، وأعانوهم به، والمخصوص بالنّم محنوف: أي رفدهم، وهو: اللعنة التي اتبعوها في الدنيا والآخرة، كأنها لعنة بعد لعنة تمدّ الأخرى الأولى وتؤيدها. وذكر الماوردي حكاية عن الأصمعي أن الرّفد بالفتح: القدح، وبالكسر: ما فيه من الشراب فكانه نّم ما يستقونه في النار، وهذا أنسب بالمقام؛ وقيل: إن الرّفد الزيادة: أي بّس ما يرفدون به بعد الغرق، وهو الزيادة قاله الكلبي؛ والإشارة بقوله: **﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾** أي: ما قصه الله سبحانه في هذه السورة من أخبار الأمم السالفة، وما فعلوه مع أنبيائهم: أي هو مقصود عليك خبر بعد خبر، وقد تقدّم تحقيق معنى القصص، والضمير في منها عائذ إلى القرى: أي من القرى قائم، ومنها حصيد، والقائم: ما كان قائماً على عروشه، والحصيد: ما لا أثر له؛ وقيل القائم: العامر، والحصيد: الخراب؛ وقيل القائم: القرى الخاوية على عروشها، والحصيد: المستأصل بمعنى محصود، شبه القرى بالزّرع القائم على ساقه والمقطوع. قال الشاعر:

قد حصلت جزءاً؛ وقد حكى هذا القول الزجاج أيضاً. السابع: أن المعنى: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم في قبوركم وللحساب، حكاة الزجاج أيضاً. الثامن: أن المعنى: خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لأهل الجحيم؛ حكاة أيضاً الزجاج، واختاره الحكيم الترمذي. التاسع: أن إلا بمعنى الواو قاله الفراء؛ والمعنى وما شاء ربك من الزيادة؛ قال مكي: وهذا القول بعيد عند البصريين أن تكون إلا بمعنى الواو. العاشر: أن إلا بمعنى الكاف، والتقدير: كما شاء ربك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: 22] أي: كما قد سلف.

الحادي عشر: أن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذي ننب إليه الشارع في كل كلام، فهو على حدّ قوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ﴾ [الفتح: 27] روى نحو هذا عن أبي عبيد، وهذه الأقوال هي جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم. وقد نوقش بعضها بمناقشات، ودفعت بدفوعات. وقد أوضحت ذلك في رسالة مستقلة جمعتها في جواب سؤال ورد من بعض الأعلام. ﴿وَمَا لِلَّذِينَ سَعَدُوا فِي لُجَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قرأ الأعمش، وحفص، وحمزة، والكسائي «سعدوا» بضم السين، وقرأ الباقر بفتح السين، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم. قال سيبويه: لا يقال سعد فلان، كما لا يقال شقي فلان؛ لكونه مما لا يتعدى، قال النحاس: ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية، وهذا لحن لا يجوز، ومعنى الآية كما مر في قوله: ﴿فَمَا لِلَّذِينَ شَقَّوْا﴾ قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قد عرف من الأقوال المتقدمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ أي: يعطيهم الله عطاء غير مجذوذ، والمجذوذ: المقطوع، من جذه يجذّه إذا قطعه، والمعنى: أنه ممتد إلى غير نهاية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يُقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقول: أضلهم فأوردهم النار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: فرعون يمضي بين أيدي قومه حتى يهجم بهم على النار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَأُورِدَهُمُ النَّارَ﴾ قال: الورد: الدخول. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ يعني: قرى عامرة وقرى خادمة. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة: منها قائم يرى مكانه، وحصيد لا يرى له أثر. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جريج: منها قائم خاو على عروشه، وحصيد ملصق بالأرض. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي عاصم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ قال: ما نفعت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عمر،

الزجاج: الزفير من شدة الأنين، وهو المرتفع جداً. قال: وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين: أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير، والشهيق: بمنزلة آخره؛ وقيل الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف؛ وقيل الزفير: إخراج النفس، والشهيق: ردّ النفس؛ وقيل: الزفير من الصدر، والشهيق: من الحلق، وقيل الزفير: ترديد النفس من شدة الخوف، والشهيق: النفس الطويل الممتد، والجملة إما مستأنفة كأنه قيل ما حالهم فيها؟ أو في محل نصب على الحال ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: مدة دوامهما.

وقد اختلف العلماء في بيان معنى هذا التوقيت، لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأييد عذاب الكفار في النار، وعدم انقطاعه عنهم، وثبت أيضاً أن السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا، فقالت طائفة: إن هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة في نوام الشيء، قالوا: هو دائم ما دامت السموات والأرض، ومنه قولهم: لا أتيك ما جنّ ليل، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام ونحو ذلك، فيكون معنى الآية: أنهم خالدون فيها أبداً لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له؛ وقيل إن المراد: سموات الآخرة وأرضها، فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سموات وأرضاً غير هذه الموجودة في الدنيا، وهي دائمة بدوام دار الآخرة، وإيضاً لا بدّ لهم من موضع يقلهم وآخر يظلمهم، وهما أرض وسماء. قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قد اختلف أهل العلم في معنى هذا الاستثناء على أقوال: الأول: أنه من قوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك. روي هذا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري. الثاني: أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين، وأنهم يخرجون بعد مدة من النار، وعلى هذا يكون قوله سبحانه: ﴿فَمَا لِلَّذِينَ شَقَّوْا﴾ عاماً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من خالدين، وتكون ما بمعنى من، وبهذا قال قتادة، والضحاك، وأبو سنان، وغيرهم. وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلك مخصصاً لكل عموم. الثالث: أن الاستثناء من الزفير والشهيق: أي لهم فيها زفير وشهيق ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق، قاله ابن الأنباري. الرابع: أن معنى الاستثناء: أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض، لا يموتون إلا ما شاء ربك، فإنه يأمر النار فتاكلهم حتى يفنوا، ثم يجدد الله خلقهم؛ روي ذلك عن ابن مسعود. الخامس: أن إلا بمعنى سوى. والمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود، كأنه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه، ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له حكاة الزجاج. السادس: ما روي عن الفراء وابن الأنباري وابن قتيبة من أن هذا لا يناقح عدم المشيئة كقولك: والله لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا لمدة التي شاء الله، فالمشيئة

في قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا تَتْبِيبًا﴾ أي: هلكة. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن زيد قال: تخسير. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكُنْكَ لَأُخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ إِنَّ أَخَذَهُ لَيْمٌ شَدِيدٌ». وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، في قوله: ﴿إِنْ فِي نَفْسِكَ لَأَيَّةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يقول: إِنَّا سَوْفَ نَفِي لَهُمْ بِمَا وَعَدْنَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ كَمَا وَفَيْنَا لِلْأَنْبِيَاءِ أَنَّا نَنْصُرُهُمْ. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿تِلْكَ يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَتِلْكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ قال: يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جرير، في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتُ﴾ قال: ذلك اليوم. وأخرج الترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عمر بن الخطاب، قال: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلِمَ نَعْمَلُ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فَرَّغَ مِنْهُ، أَوْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَفْرِغْ مِنْهُ؟ قَالَ: بَلْ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فَرَّغَ مِنْهُ، وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ يَا عُمَرُ، وَلَكِنْ كُلُّ مَيْسَرٍ لَمَّا خُلِقَ لَهُ». وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: هَاتَانِ مِنَ الْمُخْبَرَاتِ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وَ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة: 109] أَمَا قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فَهَمْ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَبْلَةِ يَعْنِيهِمْ اللَّهُ بِالنَّارِ مَا شَاءَ بِنُؤْيِهِمْ، ثُمَّ يَأْتُنْ فِي الشِّفَاعَةِ لَهُمْ، فَيُشْفَعُ لَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَيُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ فَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ، فَسَامَهُمْ أَشْقِيَاءُ حِينَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ زَفِيرٌ وَشَهيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ حِينَ أَنْزَلَ فِي الشِّفَاعَةِ لَهُمْ وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ النَّارِ وَأَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ وَهُمْ هُمْ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ يَعْنِي بَعْدَ الشَّقَاءِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّارِ. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن قتادة أنه تلا هذه الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُخْرِجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ وَلَا نَقُولُ كَمَا قَالَ أَهْلُ حُرُورَاءَ: إِنَّهُمْ لَخَلُّوا بَقِيَّ فِيهَا». وأخرج ابن مردويه، عن جابر، قال: «قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُخْرِجَ أَنْسَاءُ مِنَ الَّذِينَ شَقُوا مِنَ النَّارِ فَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ فَعَلَّ». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن خالد بن معدان في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ: إِنَّهَا فِي التَّرْجِيدِ مِنْ أَهْلِ الْقَبْلَةِ. وأخرج عبد الرزاق، وابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله، أو عن أبي سعيد الخدري، أو رجل

من أصحاب النبي ﷺ، في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ: هَذِهِ الْآيَةُ قَاضِيَةٌ عَلَى الْقُرْآنِ كُلِّهِ، يَقُولُ حَيْثُ كَانَ فِي الْقُرْآنِ خَالِدِينَ فِيهَا تَأْتِي عَلَيْهِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، وَابْنُ بَيْهَقٍ عَنْ أَبِي نُضْرَةَ، قَالَ: يَنْتَهِي الْقُرْآنُ كُلُّهُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنْ رَبُّكَ فَعَالٌ لَمَّا يَرِيدُ﴾. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قَالَ: لِكُلِّ جَنَّةٍ سَمَاءٌ وَأَرْضٌ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ الْحَسَنِ، نَحْوَهُ أَيْضًا. وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْبَيْعِ وَالنَّشُورِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ: فَقَدْ شَاءَ رَبُّكَ أَنْ يَدْخُلَ هَؤُلَاءُ فِي النَّارِ، وَأَنْ يَدْخُلَ هَؤُلَاءُ فِي الْجَنَّةِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ: اسْتَشْنَى اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَنْ تَأْكُلَهُمْ. وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ، عَنْ السَّدِيدِيِّ، فِي الْآيَةِ قَالَ: فَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ مَا نَسَخَهَا، فَانْزَلَ بِالْمَدِينَةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: 168] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَذَهَبَ الرَّجَاءُ لِأَهْلِ النَّارِ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا، وَأُوجِبَ لَهُمْ خُلُودُ الْأَبَدِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ الْآيَةُ. قَالَ: فَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ مَا نَسَخَهَا، فَانْزَلَ بِالْمَدِينَةِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ظِلًّا ظِلِيلًا﴾ [النساء: 57] فَأُوجِبَ لَهُمْ خُلُودُ الْأَبَدِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ، عَنْ الْحَسَنِ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ: لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ كَقَدَرِ رَمْلِ عَالِجٍ، لَكُنْ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمَ يُخْرِجُونَ فِيهِ. وَأَخْرَجَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوِيَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «سَيَاتِي عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ لَا يَبْقَى فِيهَا أَحَدٌ، وَقَرَأَ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ الْآيَةَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: «مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَرْجَى لِأَهْلِ النَّارِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾» قَالَ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا زَمَانٌ تَخْفَقُ أَبْوَابُهَا». وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ: «جَهَنَّمَ أَسْرَعُ الدَّارَيْنِ عَمْرَانًا وَأَسْرَعُهُمَا خَرَابًا». وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِتَثْنِيَّتِهِ مَا وَقَعَتْ. وَقَدْ رَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ مِثْلَ مَا ذَكَرَهُ عُمَرُ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، كَابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَجَابِرُ، وَأَبِي سَعِيدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَعَنْ أَبِي مَجْلَزٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بَنِ اسْمُ، وَغَيْرُهُمَا مِنَ التَّابِعِينَ. وَوَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ فِي مَعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ الْكَبِيرِ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ صَدِيقِ بْنِ عَجَلَانَ الْبَاهِلِيِّ، وَاسْنَادُهُ ضَعِيفٌ. وَلَقَدْ تَكَلَّمَ صَاحِبُ الْكَشَافِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِمَا كَانَ لَهُ فِي تَرْكِهِ سَعَةً، وَفِي السَّكُوتِ عَنْهُ غَنًى، فَقَالَ: وَلَا يَخْدَعُنَا قَوْلُ الْمَجْبُورَةِ إِنْ الْمُرَادُ بِالْإِسْتِثْنَاءِ خُرُوجُ أَهْلِ الْكِبَايَرِ مِنَ النَّارِ، فَإِنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ الثَّانِي يُنَادِي عَلَى تَكْنِيْبِهِمْ وَيُسَجِّلُ بِأَفْتَرَائِهِمْ، وَمَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ لَمَّا رَوَى لَهُمْ بَعْضُ الثَّوَابِتِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: لَيَأْتِيَنَّ عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ تَصْفَقُ فِيهِ أَبْوَابُهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: وَأَقُولُ: مَا كَانَ

إلى كفر عصره ﷺ؛ وقيل المعنى: لا تك في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء؛ وقيل: لا تك في شك من سوء عاقبتهم. ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني، وهذا النهي له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك. فإنه ﷺ لا يشك في ذلك أبداً. ثم بين له سبحانه أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم، أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من قبل، وفي هذا استثناء تعليل للنهي عن الشك. والمعنى: أنهم سواء في الشرك بالله وعبادة غيره. فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك. فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك، وجاء بالمضارع في كما يعبد آبائهم لاستحضار الصورة. ثم بين له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال: ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبِهِمْ﴾ من العذاب كما وفينا آبائهم، لا ينقص من ذلك شيء، وانتصاب غير الحال، والتوفية لا تستلزم عدم النقص، فقد يجوز أن يوفى وهو ناقص، كما يجوز أن يوفى وهو كامل، وقيل: المراد نصيبهم من الرزق، وقيل: ما هو أعم من الخير والشر ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: في شأنه وتفاصيل أحكامه، فأمن به قوم، وكفر به آخرون، وعمل بأحكامه قوم، وترك العمل ببعضها آخرون، فلا يضق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء في القرآن ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا أن الله سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح لقضى بينهم: أي بين قومك، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين، فأثيب المحق وعذب المبطل؛ أو الكلمة هي أن رحمته سبحانه سبقت غضبه، فامهلهم ولم يعاجلهم لذلك؛ وقيل: إن الكلمة هي أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال، وهذا من جملة التسلية له ﷺ، ثم وصفهم بأنهم في شك من الكتاب فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ﴾ أي: من القرآن، إن حمل على قوم محمد ﷺ، أو من التوراة، إن حمل على قوم موسى عليه السلام، والمريب: المزعج في الريبة. ثم جمع الأولين والآخرين في حكم توفية العذاب لهم، أو هو والشواهد فقال: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَّا لِيُوفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر «وإن» بالتخفيف على أنها إن المخففة من الثقيلة وعملت في كلا النصب، وقد جَوَزَ عملها الخليل وسيبويه، وقد جَوَزَ البصريون تخفيف إن مع إعمالها، وأنكر ذلك الكسائي وقال: ما أدري على أي شيء قرئ «وإن كلا» وزعم الفراء أن انتصاب كلا بقوله ليوفينهم، والتقدير وإن ليوفينهم كلا، وأنكر ذلك عليه جميع النحويين. وقرأ الباقر بتشديد «إن» ونصبوا بها كلا. وعلى كلا القراءتين فالتنوين في كلا عوض عن المضاف إليه: أي وإن كل المختلفين. وقرأ عاصم وحزمة وابن عامر «لما» بالتشديد، وخففها الباقر. قال الزجاج: لام لما لام إن، وما زائدة مؤكدة، وقال الفراء: ما بمعنى من كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُطِغْنَ﴾ [النساء: 72] أي: وإن كلاً لمن ليوفينهم؛ وقيل: ليست بزائدة بل هي اسم نخلت عليها لام التوكيد، والتقدير:

لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث. انتهى.

وأقول: أما الطعن على من قال بخروج أهل الكباثر من النار، فالقائل بذلك يا مسكين رسول الله ﷺ، كما صرح عنه في نواوين الإسلام التي هي بغائر السنة المطهرة، وكما صرح عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر؛ فمالك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته، وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة، وأي مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاء به الأدلة الصحيحة الكثيرة، كما ذهب إلى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف؛ وأما ما ظننته من أن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم، ويسجل بافترائهم، فلا مناداة ولا مخالفة، وأي مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمة، فالاستثناء الأول: يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من خروج العصاة من هذه الأمة من النار، والاستثناء الثاني: يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم، وذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدة التي لبثوا فيها في النار؛ وقد قال بهذا من أهل العلم من قدمنا ذكره، وبه قال ابن عباس حبر الأمة. وأما الطعن على صاحب رسول الله ﷺ، وحافظ سنته، وعابد الصحابة، عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، فإلى أين يا محمود، أتدري ما صنعت، وفي أي واد وقعت، وعلى أي جنب سقطت؟ ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان، وتتناول نجوم السماء بيدك القصيرة، ورجلك العرجاء، أما كان لك في مكسري طلبتك من أهل النحو واللغة ما يربك عن الدخول فيما لا تعرف، والتكلم بما لا تدري، فيأله العجب ما يفعل القصور في علم الرواية، والبعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه، ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَبْدُئُكَ مَا يَقُولُونَ إِلَّا كَانَ مِمَّا بَدَأُوا وَمِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبِهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٥٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ ﴿١٥٩﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَّا لِيُوفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَصْمُونَ خَبِيرٌ ﴿١٦٠﴾ فَاتَّقُوا كَمَا أَمَرْتُمْ وَمَنْ تَابَ مَعَكُمْ وَلَا ظَلَمُوا فَإِنَّهُمْ يَكْمُلُونَ حَيْثُ شَاءُوا وَلَا تَزِرُكُمْ إِلَيَّ الْكَلْبُ ظَلَمُوا فَنَنْصَبْكُمْ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١٦١﴾ وَأَقْرِضْكَ مَكْمُولَةً وَرُفْقًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّهُ أَلَسَّنَتْ بِذِيْنِ الْأَشْيَاءِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِ ﴿١٦٢﴾ وَأَمِيرٌ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٣﴾

لما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة، وبيان حال السعداء والأشقياء، سلى رسوله ﷺ بشرح أحوال الكفرة من قومه في ضمن النهي له عن الامتراء في أن ما يعبدونه غير نافع ولا ضار، ولا تأثير له في شيء. وحذف النون في «لا تك» لكثرة الاستعمال، والمرية: الشك، والإشارة بهؤلاء

باب علم يعلم. وقرأ ابن أبي عبله بضم التاء وفتح الكاف على البناء للمفعول من أركنه. قال في الصحاح: ركن إليه يركن بالضم. وحكى أبو زيد: ركن إليه بالكسر، يركن ركوناً فيهما: أي مال إليه وسكن قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وأما ما حكى أبو زيد ركن يركن بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع بين اللغتين. انتهى. وقال في شمس العلوم: الركون: السكون. يقال: ركن إليه ركوناً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ انتهى. وقال في القاموس: ركن إليه، كنصر وعلم، ومنع ركوناً: مال وسكن انتهى، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشف حيث قال: فإن الركون هو الميل اليسير، وهكذا فسره المفسرون، بمطلق الميل والسكون من غير تقييد إلا من كان من المتقين بما ينقله صاحب الكشف؛ ومن المفسرين من ذكر في تفسير الركون قيوداً لم ينكرها أئمة اللغة. قال القرطبي في تفسيره: الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به. ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه اللغوي. فروي عن قتادة، وعكرمة في تفسير الآية أن معناها: لا تودهم ولا تطيعوهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية: الركون هنا الإدهان، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم: وقال أبو العالية: معناه لا ترضوا أعمالهم.

وقد اختلف أيضاً الأئمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة؟ فقيل خاصة، وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين، وأنهم المرادون بالذين ظلموا، وقد روي ذلك عن ابن عباس؛ وقيل: إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من الآية، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون، لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فإن قلت: وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتاً لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة، بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح: «أطيعوا السلاطين وإن كان عبداً حبشياً رأسه كالزبيبة». وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة، وما لم يظهر منهم الكفر البواح، وما لم يأمروا بمعصية الله. وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله؛ ومن جملة ما يأمرون به تولي الأعمال لهم، والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله؛ ومن جملة ما يأمرون به: الجهاد، وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم، وإقامة الحدود على من وجبت عليه. وبالجمل، فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية الله، ولا بد في مثل ذلك

وإن كلاً لمن خلق. قيل: وهي مركبة، وأصلها لمن ماء، فقلبت النون ميماً واجتمعت ثلاث ميقات، فحذفت الوسطى حكى ذلك النحاس عن النحويين. وزيف الزجاج هذا وقال: من اسم على حرفين فلا يجوز حذف النون. وذهب بعض النحويين إلى أن لما هذه بمعنى إلا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4] وقال المازني: الأصل لما المخففة ثم ثقلت. قال الزجاج: وهذا خطأ، إنما يخفف المثل ولا يتقل المخفف. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: يجوز أن يكون التشديد من قولهم لمت الشيء ألمه: إذا جمعته، ثم بنى منه فعلى كما قرئ ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾ [المؤمنون: 44] وأحسن هذه الأقوال أنها بمعنى إلا الاستثنائية. وقد روي ذلك عن الخليل، وسيبويه، وجميع البصريين، ورجحه الزجاج ويؤيده أن في حرف أبي «وإن» كلاً إلا ليوافقهم» كما حكاه أبو حاتم عنه. وقرئ بالتونين: أي جميعاً. وقرأ الأعمش «وإن كل لما» بتخفيف إن ورفع كل وتشديد لما، وتكون إن على هذه القراءة نافية ﴿إنه بما يعملون﴾ أيها المختلفون ﴿خبير﴾ لا يخفى عليه منه شيء، والجملة تعليل لما قبلها، ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه، فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ أي: كما أمرك الله، فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه، لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه، كما أمره بفعل ما تعبد به بفعله، وأمرته أسوته في ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي: رجع من الكفر إلى الإسلام، وشاركك في الإيمان، وهو معطوف على الضمير في فاستقم، لأن الفصل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد: أي: وليستقم من تاب معك، وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأتقن المطهرة، والنوات المقدسة، ولهذا يقول المصطفى ﷺ: «شيبنتي هود» كما تقدم ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ الطغيان: مجاوزة الحد، لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين أن الغلو في العبادة، والإفراط في الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذي حدّه، والمقدار الذي قدره ممنوع منه منهي عنه، وذلك كمن يصوم ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغب فيه، ولهذا يقول الصانق المصدق فيما صح عنه: «أما أنا فاصوم واقطر، وأقوم وأنام، وأتكح النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني». والخطاب للنبي ﷺ ولأئمة تغليظاً لحالهم على حاله، أو النهي عن الطغيان خاص بالأئمة ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون، والجملة تعليل لما قبلها، قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قرأ الجمهور بفتح الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف، وقتادة، وغيرهما ﴿تَرْكَنُوا﴾ بضم الكاف. قال الفراء: وهي لغة تميم وقيس، قال أبو عمرو: وقراءة الجمهور هي لغة أهل الحجاز، قال: ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف، وهم يكسرون حرف المضارعة في كل ما كان من

هو الرضا بما عليه الظلمة. أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم، ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب؛ فأمّا مدخلتهم لرفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة، فغير داخلة في الركون؛ قال: وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية ﴿إليس الله بكاف عبده﴾ [الزمر: 36]. انتهى.

قوله: ﴿فتمسك النار﴾ بسبب الركون إليهم، وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار، أو كالنار، ومصاحبة النار توجب لا محالة مسّ النار، وجملة: ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ في محل نصب على الحال من قوله: فتمسك النار. والمعنى: أنها تمسك النار حال عدم وجود من ينصركم، وينقذك منها ﴿ثم لا تنصرون﴾ من جهة الله سبحانه، إذ قد سبق في علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذي نهيتهم عنه، فلم تنتهوا عناداً وتمرداً. قوله: ﴿واقم الصلاة طرفي النهار﴾ لما نكر الله سبحانه الاستقامة خصّ من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان، وانتصاب طرفي النهار على الظرفية، والمراد صلاة الغداة والعشي، وهما: الفجر والعصر؛ وقيل: الظهر موضع العصر، وقيل الطرفان الصبح والمغرب، وقيل هما الظهر والعصر. ورجح ابن جرير أنهما الصبح والمغرب، قال: واللبليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ﴿وزلفاً من الليل﴾ أي: في زلف من الليل، والزلف: الساعات القريبة بعضها من بعض، ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة، وقرأ ابن القعقاع وأبو إسحاق وغيرهما «زلفاً» بضم اللام جمع زليف، ويجوز أن يكون واحده زلفة. وقرأ ابن محيصن بإسكان اللام. وقرأ مجاهد «زلفى» مثل فعلى. وقرأ الباقر «زلفاً» بفتح اللام كغرفة وغرف. قال ابن الأعرابي: الزلف الساعات واحدها زلفة. وقال قوم: الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس. قال الأخفش: معنى زلفاً من الليل: صلاة الليل ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ أي: إن الحسنات على العموم، ومن جملتها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم؛ وقيل المراد بالسيئات: الصفات، ومعنى يذهبن السيئات: يكفرنّها حتى كأنها لم تكن، والإشارة بقوله: ﴿ذلك نذكرى للذاكرين﴾ إلى قوله: ﴿فاستقم﴾ وما بعده؛ وقيل: إلى القرآن نذكرى للذاكرين أي: موعظة للمتعتبين ﴿وإصبر﴾ على ما أمرت به من الاستقامة وعدم الطغيان، والركون إلى الذين ظلموا؛ وقيل: إن المراد الصبر على ما أمر به دون ما نهى عنه، لأنه لا مشقة في اجتنابه، وفيه نظر، فإن المشقة في اجتناب المنهي عنه كائنة، وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر، فنلك لا يخرجها عن مطلق المشقة ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي: يوفيه أجورهم ولا يضيع منها شيئاً فلا يهمل ولا يبخسه بنقص.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وإننا لموفونهم

من المخالطة لهم والدخول عليهم، ونحو ذلك مما لا بدّ منه، ولا محيص عن هذا الذي نكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة، لتواتر الأدلة الواردة به، بل قد ورد به الكتاب العزيز: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: 59] بل ورد أنهم يعطون الذي لهم من الطاعة، وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا كما في بعض الأحاديث الصحيحة: «أعطوهم الذي لهم، واسألوا الله الذي لكم» بل ورد الأمر بطاعة السلطان، وبإلغ في نكح النبي ﷺ حتى قال: «وإن أخذ مالك وضرب ظهرك»، فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون، فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون؛ وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهراً وباطناً فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال إليهم في الظاهر، لأمر يقتضي نكحاً شرعاً كالطاعة، أو للتقية ومخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة، إذا لم يكن له ميل إليهم في الباطن، ولا محبة، ولا رضا بأفعالهم. قلت: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله، فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها، مخصصة لعموم النهي عنه بألتها التي قدّمنا الإشارة إليها، ولا شك في هذا ولا ريب، فكل من أمره ابتداءً أن يخل في شيء من الأعمال التي أمرها إليهم مما لم يكن من معصية الله، كالمناصب الدينية، ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه، فذلك واجب عليه فضلاً عن أن يقال جائز له. وأما ما ورد من النهي عن الدخول في الإمارة، فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلطين، والأمراء جمعاً بين الأدلة، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به، كما ورد لتعليل النهي عن الدخول في الإمارة بذلك في بعض الأحاديث الصحيحة، وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة، مع كراهة ما هم عليه من الظلم، عدم ميل النفس إليهم ومحبتها لهم، وكراهة المواصله لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة، فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا، فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد، والأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، ولا تخفى على الله خافية؛ وبالجمله فمن ابتلي بمخالطة من فيه ظلم، فعليه أن يزن أقواله وأفعاله، وما يأتي وما يذر بميزان الشرع، فإن زاغ عن ذلك: «فعلى نفسه براقش تجني» ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته، فهو الأولى له والأليق به.

يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، أجعلنا من عبادك الصالحين الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وقوّنا على نكح ويسره لنا، وأعنا عليه. قال القرطبي في تفسيره: وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار. انتهى. وقال النيسابوري في تفسيره: قال المحققون: الركون المنهي عنه

فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذه؟ قال: هي لمن عمل بها من أمتي. وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود وغيرهم عن أبي أمامة: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أقم في حدة الله مرة أو مرتين، فأعرض عنه، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ قال: أين الرجل؟ قال: أنا ذا، قال أتممت الوضوء وصليت معنا أنفاً؟ قال: نعم. قال: فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد، وإنزل الله حينئذ على رسوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾». وفي الباب أحاديث كثيرة بالفاظ مختلفة، ووردت أحاديث أيضاً: «إن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن». وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، في قوله: ﴿فَلَنْ تَكُونَ لِلذَّاكِرِينَ﴾ قال: هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والعافية والبلاء. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج قال: لما نزع الذي قبل المرأة تذكر، فذلك قوله: ﴿تَذَكَّرُ لِلذَّاكِرِينَ﴾.

قَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقَرَةً بِيَوتَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الْآيَاتِ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهَا بِكُفْرٍ وَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٠﴾ وَكَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْمُفْرَكُ يَطْلُبُ وَأَهْلُهَا مُتَمَلِّحُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُونَ مَخَلِّفِينَ ﴿١٠٢﴾ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَكَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمِينَ ﴿١٠٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ. فَوَاقِدُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَرَوْحُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ آمِنُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَاكِفُونَ ﴿١٠٥﴾ وَانظُرُوا إِنَّا سُنْطِرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ كَلِمَةَ رَبِّكَ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِمُعْتَدِلٍ عَنَّا قَاصِدُونَ ﴿١٠٧﴾

هذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد ويأمر بالرشاد، فقال: ﴿قَوْلَا أَي: فهلا﴾ كان من القرون الكائنة ﴿مَنْ قَبْلَكُمْ أُولُوا بَقَرَةً﴾ من الرأي والعقل والدين ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهم ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ويمنعونهم من ذلك، لكنهم ممن جمع الله له بين جودة العقل، وقوة الدين، وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى، والبقية في الأصل لما يستبقيه الرجل مما يخرج، وهو لا يستبقي إلا أجوده وأفضله، فصار لفظ البقية مثلاً في الجودة، والاستثناء في ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منقطع: أي: لكن قليلاً ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ينهون عن الفساد في الأرض. وقيل هو متصل لأن في حرف التحضيض معنى النفي، فكانه قال: ما كان في القرون أُولُوا بَقَرَةً ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، ومن في ممن أنجينا بيانية لأنه لم ينج إلا الناهون: قيل: هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: 98] وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق من الأمم على العموم ﴿وَأَتَتْهُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا تَرَفَعُوا فِيهِ﴾ معطوف على مَقَرَّ يَقْتَضِيهِ الكلام، تقدير: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد؛

نصيبهم غير منقوص﴾ قال: ما قَدَّرَ لهم من خير أو شر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في الآية قال: من العذاب. وأخرجنا عن أبي العالية. قال من الرزق. وأخرجنا أيضاً عن قتادة في قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ قال: أمر الله نبيه أن يستقيم على أمره، ولا يطغى في نعمته، وأخرج أبو الشيخ، عن سفيان، في الآية قال: استقم على القرآن. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ قال: شمروا شمروا فما رؤي ضاحكاً. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكُمْ﴾ قال: آمن. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن العلاء بن عبد الله بن بدر، في قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ قال: لم يرد أصحاب النبي ﷺ إنما عني الذين يجيئون من بعدهم. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ يقول: لا تظلموا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، قال: الطغيان. خلاف أمره وارتكاب معصيته. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال: يعني الركون إلى الشرك. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر عنه ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ قال: لا تميلوا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، أيضاً قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ لا تدهنوا. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة، في الآية قال: أن تطيعوهم أو تولوهم أو تصطنعوهم. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ قال: صلاة المغرب والغداة ﴿وَزُلْفَى مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: صلاة العتمة. وأخرجنا عن الحسن قال الفجر والعصر ﴿وَزُلْفَى مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: هما زلفتان: صلاة المغرب وصلاة العشاء. قال: وقال رسول الله ﷺ:

«هما زلفتا الليل». وأخرج عبد الرزاق، وابن جريج، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في الطرفين قال: صلاة الفجر، وصلاتي العشي: يعني الظهر والعصر ﴿وَزُلْفَى مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: المغرب والعشاء. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَزُلْفَى مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: ساعة بعد ساعة، يعني صلاة العشاء الآخرة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جريج، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أنه كان يستحب تأخير العشاء، ويقرأ زلفاً من الليل. وأخرج ابن جريج، ومحمد بن نصر، وابن مردويه، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال: الصلوات الخمس. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبه، ومحمد بن نصر، وابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال: الصلوات الخمس، والباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وأخرج البخاري ومسلم، وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَى مِنَ اللَّيْلِ إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

الذي لا حق غيره، أو إلا من رحم ربك بالقناعة. والأولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجموعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء في ﴿إلا من رحم ربك﴾ واضحاً غير محتاج إلى تكلف ﴿ولذلك﴾ أي: لما نكر من الاختلاف ﴿خلقهم﴾ أو ولرحمته خلقهم. وصح تنكير الإشارة إلى الرحمة لكون تانيها غير حقيقي، والضمير في خلقهم راجع إلى الناس، أو إلى من في من رحم ربك؛ وقيل الإشارة بذلك إلى مجموع الاختلاف والرحمة، ولا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما في قوله: ﴿عوان بين ذلك﴾ [البقرة: 68]، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ [الإسراء: 110] ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ [يونس: 58]. قوله: ﴿وتمت كلمة ربك﴾ معنى تمت ثبتت، كما قدره في أزل، وإذا تمت امتنعت من التغيير والتبديل، وقيل: الكلمة هي قوله: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ أي: ممن يستحقها من الطائفتين، والتنوين في ﴿وكلاً﴾ للتعويض عن المضاف إليه، وهو منصوب بنقص. والمعنى: وكل نبا من أنباء الرسل مما يحتاج إليه نقص عليك: أي تخبرك به. وقال الأخفش: ﴿كلاً﴾ حال مقدمة كقولك: كلاً ضربت القوم، والأنباء الأخبار ﴿ما نثبت به فؤادك﴾ أي: ما نجعل به فؤادك مثباً بزيادة يقينه بما قصصناه عليك، ووفور طمأنينته، لأن كثائر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم، وجملة: ﴿ما نثبت﴾ بدل من أنباء الرسل، وهو بيان لكلاً، ويجوز أن يكون ﴿ما نثبت﴾ مفعولاً لنقص، ويكون ﴿كلاً﴾ مفعولاً مطلقاً، والتقدير: كل أسلوب من أساليب الاقتصاص نقص عليك ما نثبت به فؤادك ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي: جاك في هذه السورة، أو في هذه الأنباء البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد ﴿وموعظة﴾ يتعظ بها الواقف عليها من المؤمنين ﴿ونذكر﴾ يتذكر بها من تفكر فيها منهم، وخص المؤمنين كونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر؛ وقيل المعنى: وجاءك في هذه الدنيا الحق، وهو النبوة؛ وعلى التفسير الأول، يكون تخصص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور، لقصد بيان اشتمالها على ذلك، لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بهذا الحق، ولا يتعظون، ولا يتذكرون ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ على تمكنكم وحالكم وجهتكم، وقد تقدم تحقيقه ﴿إننا عاملون﴾ على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الإيمان بالحق، والاتعاظ، والتذكر، وفي هذا تشديد للوعيد والتهديد لهم، وكذلك قوله: ﴿وانظروا إننا منتظرون﴾ فيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى. والمعنى: انتظروا عاقبة أمرنا فإننا منتظرون عاقبة أمركم وما يحل بكم من عذاب الله وعقوبته ﴿ووه غيب السموات والأرض﴾ أي: علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما، وخص الغيب من كونه يعلم بما هو مشهود، كما يعلم بما هو مغيب، لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره؛ وقيل: إن غيب السموات والأرض: نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض،

والمعنى: أنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهي عنه ما أترفوا فيه. والمترف: الذي أبطرتة النعمة، يقال صبي مترف: منعم اللبن، أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش، ورفاهية الحال وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغفروا أعمارهم في الشهوات النفسانية؛ وقيل المراد بالذين ظلموا: تاركو النهي. ورد بأنه يستلزم خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا وهم أشد ظلماً ممن لم يباشروا، وكان ذنبه ترك النهي. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه: «واتبع الذين ظلموا» على البناء المفعول، ومعناه: أتبعوا جزء ما أترفوا فيه، وجملة: ﴿وكانوا مجرمين﴾ متضمنة لبيان سبب إهلاكهم، وهي معطوفة على أترفوا: أي وكان هؤلاء الذين أتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين، والإجرام الأثام. والمعنى: أنهم أهل إجرام بسبب اتباعهم الشهوات، واشتغالهم بها عن الأمور التي يحق الاشتغال بها، ويجوز أن تكون جملة: ﴿وكانوا مجرمين﴾ معطوفة على واتبع الذين ظلموا: أي اتبعوا شهواتهم، وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ أي: ما صح ولا استقام أن يهلك الله سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به وهو الشرك، والحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم في تعاطي الحقوق لا يظلمون الناس شيئاً. والمعنى: أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده حتى ينضم إليه الفساد في الأرض، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم، وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء؛ وقيل إن قوله: ﴿يظلم﴾ حال من الفاعل. والمعنى: وما كان الله ليهلك القرى ظالماً هم حال كونهم مصلحين غير مفسدين في الأرض، ويكون المراد بالآية تنزيهه سبحانه وتعالى عن صدور ذلك منه بلا سبب يوجب، على تصوير ذلك بصورة ما يستحيل منه، وإلا فكل أفعاله كائنة ما كانت لا ظلم فيها، فإنه سبحانه ليس بظلام للعبيد. قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: وما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه، وإن كان على نهاية الصلاح لأن تصرفه في ملكه، دليله قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ [يونس: 44] وقيل المعنى: وما كان ليهلكهم بنزولهم وهم مصلحون: أي مخلصون في الإيمان، فالظلم المعاصي على هذا ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ أي: أهل دين واحد، إما أهل ضلالة، أو أهل هدى؛ وقيل معناه: جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه، أو مجتمعين على دين الإسلام دون سائر الأديان، ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن، ولهذا قال: ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ في ذات بينهم على أديان شتى، أو لا يزالون مختلفين في الحق أو دين الإسلام؛ وقيل مختلفين في الرزق: فهذا غني. وهذا فقير ﴿إلا من رحم ربك﴾ بالهداية إلى الدين الحق، فإنهم لم يختلفوا، أو إلا من رحم ربك من المختلفين في الحق أو دين الإسلام، بهديته إلى الصواب الذي هو حكم الله، وهو الحق

يختلف، وفريقاً لا يرحم يختلف، فذلك قوله: ﴿فَمَنْهُمْ شَقِيّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: 105]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جرير، في قوله: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِكَ فُؤَادِكْ﴾ لتعلم يا محمد ما لقيت الرسل قبلك من أممهم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طرق، عن ابن عباس، قال: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ قال: في هذه السورة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي موسى الأشعري مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جببر مثله أيضاً. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن مثله. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة، قال في هذه الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: منازلكم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جرير، ﴿وَانْتَظَرُوا إِنَّا مُنْتَظَرِينَ﴾ قال: يقول انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزين لكم، وفي قوله: ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ قال: فيقضي بينهم بحكم العدل. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن الضريس في فضائل القرآن، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن كعب قال: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿وَوَهَّ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية.

تفسير سورة يوسف (١)

وهي مكية كلها، وقيل: نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة. وقال ابن عباس في رواية عنه وقتادة: إلا أربع آيات. وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة يوسف بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج الحاكم وصححه عن رفاعه بن رافع الزرقني: أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة، ونكر قصة وفي آخرها أن رسول الله ﷺ علمهما سورة يوسف، و ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: 1]، ثم رجعا. وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس: «أن حبراً من اليهود دخل على رسول الله ﷺ، ووافقه وهو يقرأ سورة يوسف، فقال: يا محمد من علمكما؟ قال: الله علمنيها، فعجب الحبر لما سمع منه، فرجع إلى اليهود، فقال لهم: والله إن محمداً ليقراً القرآن كما أنزل في التوراة، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرّفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه، فجعلا سمعهم إلى

والأول: أولى، وبه قال أبو علي الفارسي وغيره، وأضاف الغيب إلى المفعول توسعاً ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي: يوم القيامة فيجازى كلّا بعمله. وقرأ نافع وحفص «يرجع» على البناء للمفعول. وقرأ الباقون على البناء للفاعل ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك كل ما تكره، ومعطيك كل ما تحب، والفاء لترتيب الأمر بالعادة، والتوكّل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله سبحانه ﴿وَمَا بِكَ مِنْ غَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل عالم بجميع ذلك، ومجاز عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقرأ أهل المدينة والشام وحفص ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالفوقية على الخطاب. وقرأ الباقون بالتحية.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾ قال: فهلا. وأخرج ابن مردويه، عن أبي بن كعب، قال: أقراني رسول الله ﷺ: فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية، وأحلام، ينهون عن الفساد في الأرض. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جرير، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ يستقلهم الله من كل قوم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿وَتَتَّبِعَ الْبَاقُونَ ظِلْمًا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ﴾ قال: في ملكهم وتجبرهم، وتركهم الحق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ من طريق ابن جرير، قال: قال ابن عباس: أترفوا فيه أبطروا فيه، وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي عن جرير، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يستل عن تفسير هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مَظْلُومِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: وأهلها ينصف بعضهم بعضاً». وأخرجه ابن أبي حاتم، والخرائطي في مساوي الأخلاق موقوفاً على جرير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاک ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: أهل دين واحد أهل ضلالة أو أهل هدى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ قال: أهل الحق وأهل الباطل ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ قال: أهل الحق ﴿وَلَنْتُكَ خَلْقَهُمْ﴾ قال: للرحمة. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عنه ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ قال: إلا أهل رحمته فإنهم لا يختلفون. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: لا يزالون مختلفين في الأهواء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء بن أبي رباح ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي: اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية، وهم الذين رحم ربك الحنيفية. وأخرج هؤلاء عن الحسن في الآية قال: الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك، فمن رحم ربك غير مختلف ﴿وَلَنْتُكَ خَلْقَهُمْ﴾ قال: للاختلاف. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ قال: أهل الباطل ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ قال: أهل الحق ﴿وَلَنْتُكَ خَلْقَهُمْ﴾ قال: للرحمة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة نحوه. وأخرجنا عن الحسن قال: لا يزالون مختلفين في الرزق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، ولذلك خلقهم قال: خلقهم فريقين فريقاً يرحم فلا

(1) (تنبيه) جرى المفسر رحمه الله في ضبط ألفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية نافع مع تعرضه للقراءات السبع وإثباتها القرآن طبق رسم المصحف العثماني.

قصاصاً أحسن القصص، فيكون بمعنى الاقتصاص، أو هو بمعنى المفعول أي: المقصوص، ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بإحساننا إليك ﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾ وانتصاب القرآن على أنه صفة لاسم الإشارة، أو بدل منه، أو عطف بيان، وإجاز الزجاج الرفع على تقدير مبتدأ، وإجاز الفراء الجر، ولعل وجهه أن يقدّر حرف الجر في بما أوحينا داخلاً على اسم الإشارة، فيكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن، ﴿وَأَنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ إن هي المخففة من الثقلية بليل اللام الفارقة بينها وبين النافية، والضمير في من قبله عائذ على الإحياء المفهوم من أوحينا، والمعنى: أنك قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة.

واختلف في وجه كون ما في هذه السورة هو أحسن القصص، فقيل: لأن ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها؛ وقيل: لما فيها من حسن المحاورة وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على أذاهم وعفوه عنهم، وقيل: لأن فيها نكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والآنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن؛ وقيل: لأن فيها نكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما؛ وقيل: إن أحسن هنا بمعنى أعجب؛ وقيل: إن كل من نكر فيها كان ماله السعادة. قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ إذ منصوب على الظرفية بفعل مقرر، أي: أنكر وقت قال يوسف، قرأ الجمهور (يوسف) بضم السين، وقرأ طلحة بن مصرف بكسرهما مع الهمز مكان الواو، وحكى ابن زيد الهمز وفتح السين، وهو غير منصرف للجملة والعلمية، وقيل: هو عربي. والأول أولى بليل عدم صرفه، ﴿لأبيه﴾ أي: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿يَا أَبَتِ﴾ بكسر التاء في قراءة أبي عمرو وعاصم وحزمة والكسائي ونافع وابن كثير، وهي عند البصريين علامة التانيث، ولحقت في لفظ أب في النداء خاصة بدلاً من الباء وأصله يا أبي، وكسرهما للدلالة على أنها عوض عن حرف يناسب الكسر، وقرأ ابن عامر بفتحها، لأن الأصل عنده يا أبتا، ولا يجمع بين العوض والمعوّض، فيقال يا أبتي، وإجاز الفراء يا أبت بضم التاء، ﴿إِنِّي رَأَيْتُكَ مِنَ الرُّؤْيَا النُّوْمِيَّةِ لَا مِنَ الرُّؤْيَا الْبَصَرِيَّةِ﴾ كما يدل عليه ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾. قوله: ﴿وَإِذَا عَشْرُ كُوكِبَةٍ﴾ قرئ بسكون العين تخفيفاً لتوالي الحركات، وقرأ بفتحها على الأصل ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ إنما أخرهما عن الكواكب لإظهار مزيتها وشرفهما كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وقيل: إن الواو بمعنى مع، وجملة ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي رآهم عليها، وأجريت مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصف العقلاء، وهو كونها ساجدة، كذا قال الخليل وسيبويه، والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته، ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ الرؤيا

قراءته لسورة يوسف فتعجبوا منه، وأسلموا عند ذلك. وأخرج الثعلبي عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا أقاربكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً». وفي إسناده سلام بن سالم، ويقال: ابن سليم المدائني، وهو متروك عن هارون بن كثير. قال أبو حاتم: مجهول، وقد نكر له الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم عن هارون بن كثير، ومن طريق شبابة عن مجلز بن عبد الواحد البصري، عن علي بن زيد بن جدعان، وعن عطاء بن ميمون، عن نر بن حبيش، عن أبي بن كعب مرفوعاً فذكر نحوه، وهو منكر من جميع طرقه. قال القرطبي: قال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: لو حدثتنا، فنزل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: 23]. قال: قال العلماء: ونكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكثرها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بالفاظ متباينة على درجات البلاغة. وقد نكر قصة يوسف ولم يكرها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، إِنَّكَ الْكَاتِبُ الْبَرُّ، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿عَنْ نَفْسٍ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَمْعِ بِنَا أَرْحَمَنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشْرَ كُوكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ﴿قَالَ يَبْنَؤُكَ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ مَقَامَكَ عَلَى الْإِلَهِ يُعْقَبُونَ كَمَا أَنْتَاهَا عَلَى أَوَّلِكَ مِنْ قَبْلِ إِدْرِهِمْ وَأَنْتَ إِنْ رَبُّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

قوله: ﴿الر﴾ قد تقدّم الكلام فيه في فاتحة سورة يوسف، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى آيات السورة، والكتاب المبين السورة، أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهن، والمبين من أبان بمعنى بان، أي: الظاهر أمره في كونه من عند الله وفي إعجازه، أو المبين بمعنى الواضح المعنى بحيث لا يلتبس على قارئه وسماعه، أو المبين لما فيه من الأحكام، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب المبين حال كونه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، فعلى تقدير أن الكتاب السورة تكون تسميتها قرآنًا باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل وعلى البعض، وعلى تقدير أن المراد بالكتاب كل القرآن، فتكون تسميته قرآنًا واضحة، وعربياً صفة قرآنًا أي: على لغة العرب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ القصص تتبع الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ لَأَخْتُهُ قَصِيهِ﴾ [القصص: 11]، أي: تتبعي أثره وهو مصدر، والتقدير: نحن نقص عليك

على طريق الإجمال، أو علم ذلك من طريق الوحي، أو عرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخاليل اليوسفية.

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ قال: بين الله حلاله وحرامه، وأخرج ابن جرير عن معاذ قال: بين الله الحروف التي سقطت عن السنن الأعاجم، وهي ستة أحرف، وأخرج الحاكم عن جابر: أن رسول الله ﷺ تلا قرآناً عربياً، ثم قال رسول الله ﷺ: «لهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً»، وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نزل القرآن بلسان قريش، وهو كلامهم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود مثله، وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قال: من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم، ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل هذا القرآن ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قال: القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ قال: رؤيا الأنبياء وحى. وأخرج سعيد بن منصور، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي، وابن حبان في الضعفاء، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال: «جاء بستانى اليهودي إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها؟ فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء، فنزل عليه جبريل فأخبره بأسمائها، فبعت رسول الله ﷺ إلى البستانى اليهودي فقال: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم، قال: خرفان، والطارق، والذئال، وذو الكتفان، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلق، والمصباح، والضروح، وذو الفرغ، والضياء، والنور: رآها في أفق السماء ساجدة له، فلما قص يوسف على يعقوب قال: هذا أمر مشئت يجمعه الله من بعد، فقال اليهودي: إي والله إنها لأسماؤها، هكذا ساقه السيوطي في الدر المنثور، وأما ابن كثير فجعل قوله: «فلما قص إلخ»، رواية منفردة وقال: تفرد بها الحكم بن ظهيرة الفزاري، وقد ضعفوه وتركه الاكثرون. وقال الجوزجاني: ساقط. وقال ابن الجوزي: هو موضوع. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ قال: إخوته، والشمس قال: أمه، والقمر قال: أبوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن السدي نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿وَكُنْكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ قال: يصطفيك. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة مثله، وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد

مصدر رأى، في المنام رؤيا على وزن فعلى كالسقيا والبشرى، وألفه للتأنيث ولذلك لم يصرف، نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقصّ رؤياه على إخوته، لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته فيفهمون تأويلها، ويحصل منهم الحسد له، ولهذا قال: ﴿فِيكُونُوا لَكَ كَيْدًا﴾ وهذا جواب النهي وهو منصوب بإضمار أن، أي: فيفعلوا لك، أي: لأجلك كيداً مثبتاً راسخاً لا تقدر على التخلص منه، أو كيداً خفياً عن فهمك، وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام أكد من أن يقال: فيكيدوا كيداً؛ وقيل: إنما جيء باللام لتضمينته معنى الاحتيال المتعدّي باللام، فيفيد هذا التضمين معنى الفعلين جميعاً الكيد والاحتيال كما هو القاعدة في التضمين أن يقدر أحدهما أصلاً والآخر حالاً، وجملة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ مستأنفة، كأن يوسف عليه السلام قال: كيف يقع منهم، فنبهه بأن الشيطان يحملهم على ذلك، لأنه عدو للإنسان مظهر للعنوة مجاهر بها. قوله: ﴿وَكُنْكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي مثل ذلك الاجتباء البين الذي رأيته في النوم، من سجود الكواكب والشمس والقمر يجتبيك ربك، ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا، فيجعلك نبياً ويصطفيك على سائر العباد، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التي رأيته في منامك فصارت ساجدة لك. قال النحاس: والاجتباء أصله من جبيت الشيء، حصلته، ومنه جبيت الماء في الحوض جمعته، ومعنى الاجتباء: الاصطفاء، وهذا يتضمن الثناء على يوسف وتعدد نعم الله عليه، ومنها ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: تأويل الرؤيا. قال القرطبي: واجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا، وقد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وقيل المراد: ويعلمك من تأويل أحاديث الأمم والكتب، وقيل المراد به: إحوال إخوته إليه، وقيل: إنجاؤه من كل مكروه، وقيل: إنجاؤه من القتل خاصة، ﴿وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ فيجمع لك بين النبوة والملك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله، أو يجمع لك بين خيرى الدنيا والآخرة ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ وهم قرابته من إخوته وأولاده ومن بعدهم، وذلك أن الله سبحانه أعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين، ولا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر من النعم التي من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم أنبياء ﴿كَمَا أَتَمَمَّا عَلَى أَبَوَيْكَ﴾ أي: إتماماً مثل إتمامها على أبويك: وهي نعمة النبوة عليهما، مع كون إبراهيم اتخذ الله خليلاً، ومع كون إسحاق نجاه الله سبحانه من الذبح وصار لهما الذرية الطيبة: وهم يعقوب، ويوسف، وسائر الأسباط، ومعنى ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه، أو من قبلك، وإبراهيم وإسحق عطف بيان لأبويك، وعبر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جداً: وهو إبراهيم، لأن الجد أب، ﴿إِنْ رَبُّكَ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل أفعاله، والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلاً له، أي: فعل ذلك لأنه عليم حكيم، وكان هذا كلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيراً لرؤياه

﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ قال: عبارة الرؤيا. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ قال: تأويل العلم والحلم، وكان يوسف من أعبر الناس. وأخرج ابن جرير عن عكرمة ﴿كما لتمها على لبويك﴾ قال: فنعمته على إبراهيم: أن نجاه من النار، وعلى إسحاق: أن نجاه من الذبح.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِ الَّذِينَ يُؤْتُوا وَآخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْهُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَاءَنَا لَفِي شَكٍّ مِنْهُ أَتَقُولُوا يُونُسَ أَوْ أُطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَقْرَبُ فِي عَيْنِنَا الْجَنَّةِ يَنْقُطُ بِمَعْنَى السَّيِّئَةِ إِنْ كُنْتُمْ قَتَلْتُمْ

أي: ﴿لقد كان﴾ في قصتهم علامات دالة على عظيم قدرة الله وبيع صنعه ﴿للسائلين﴾ من الناس عنها، وقرا أهل مكة (آية) على التوحيد، وقرا الباؤون على الجمع، واختار قراءة الجمع أبو عبيد. قال النحاس: وآية ها هنا قراءة حسنة، وقيل: المعنى لقد كان في يوسف وإخوته آيات دالة على نبوة محمد ﷺ للسائلين له من اليهود، فإنه روي أنه قال له جماعة من اليهود وهو بمكة: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمي، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا، فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة. وقيل: معنى ﴿آيات للسائلين﴾ عجب لهم، وقيل: بصيرة، وقيل: عبرة. قال القرطبي: وأسماؤهم يعني: إخوة يوسف: روبيل، وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وريالون، ويشجر، وأهم ليا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة، وهم: دان، ونفتالي، وجاد، وأشر، ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف، وبنيامين. وقال السهيلي: إن أم يوسف اسمها وقفا، وراحيل ماتت من نفاس بنيامين وهو أكبر من يوسف، ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه﴾ أي: وقت قالوا، والظرف متعلق بكان ﴿أحب إلى آبينا منا﴾ والمراد بقوله ﴿وأخوه﴾ هو بنيامين، وخصوه بكونه أخاه مع أنهم جميعاً إخوته، لأنه أخوه لأبويه كما تقدم، ووحد الخبر فقال: أحب مع تعدد المبتدأ، لأن أفعال التقضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه إذا لم يعرف، واللام في ليوسف هي الموطئة للقسم، وإنما قالوا: هذه لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيدته، وجملة ﴿ونحن عصبة﴾ في محل نصب على الحال، والعصبة: الجماعة، قيل: وهي ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر، وقيل: من العشرة إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها بل هي كالنفر والرهط، وقد كانوا عشرة، ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي: لفي ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا وإيثارهما دوننا مع استوائنا في الانتساب إليه، ولا يصح أن يكون مرادهم أنه في بينه في

ضلال مبين، ﴿أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي قالوا: أفعلوا به أحد الأمرين: إما القتل، أو الطرح في أرض، أو المشير بالقتل بعضه والمشير بالطرح البعض الآخر، أو كان المتكلم بذلك واحد منهم فوافقه الباؤون، فكانوا كالقائل في نسبة هذا المقول إليهم، وانتصاب أرضاً على الظرفية، والتذكير للإيهام: أي أرضاً مجهولة، وجواب الأمر ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ أي: يصف ويخلص فيقبل عليكم ويحكم حياً كاملاً ﴿وتكونوا﴾ معطوف على يخل، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن ﴿من بعده﴾ أي: من بعد يوسف، والمراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه، وقيل: من بعد الذنب الذي اقترفوه في يوسف ﴿قوماً صالحين﴾ في أمور بينكم وطاعة أبيكم، أو صالحين في أمور دنياكم لذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك، وهو الحسد ليوسف وتكثر خواطركم بتأثيره عليكم هو وأخوه، أو المراد بالصالحين: التائبون من الذنب، ﴿قال قائل منهم﴾ أي: من الإخوة، قيل: هو يهوذا، وقيل: روبيل، وقيل: شمعون ﴿لا تقتلوا يوسف وأخوه في غيابات الجب﴾ قيل وجه الإظهار في لا تقتلوا يوسف استجلاب شفقتهم عليه. قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة وأهل الشام (في غيابة الجب) بالإنفراد، وقرأ أهل المدينة (في غيابات) بالجمع، واختار أبو عبيد الإفراد وأنكر الجمع، لأن الموضع الذي القوه فيه واحد. قال النحاس: وهذا تضيق في اللغة، وغيابات على الجمع تجوز، والغيابة: كل شيء غيب عنك شيئاً، وقيل للقبور: غيابة، والمراد به هنا غور البئر الذي لا يقع البصر عليه، أو طاقة فيه. قال الشاعر:

ألا فلبئساً شهرين أو نصف ثالث إلى ذاكما قد غيبنني غيابيا
والجب: البئر التي لم تطو، ويقال لها قبل الطي ركية، فإذا طويت قيل لها: بئر، سميت جباً لأنها قطعت في الأرض قطعاً، وجمع الجب جبب وجباب وأجباب، وجمع بين الغيابة والجب مبالغة في أن يلقيه في مكان من الجب شديد الظلمة حتى لا يبركه نظر الناظرين، قيل: وهذه البئر ببית المقدس، وقيل: بالأردن، وجواب الأمر ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ قرأ مجاهد، وأبو رجا، والحسن، وقتادة (تلتقطه) بالمثناة الفوقية، ووجه أن بعض السيارة سيارة، وحكي عن سيبويه سقطت بعض أصابعه. ومنه قول الشاعر:

أرى من السنين أحن مني كما أخذ السرار من الهلال
وقرأ الباؤون (يلتقطه) بالتحتيبة، والسيارة: الجمع الذي يسيرون في الطريق، والالتقاط: هو أخذ شيء مشرف على الضياع، وكانهم أرادوا أن بعض السيارة إذا التقطه حمله إلى مكان بعيد بحيث يخفي عن أبيه ومن يعرفه، ولا يحتاجون إلى الحركة بأنفسهم إلى المكان البعيد، فربما أن والدهم لا يأتون لهم بذلك، ومعنى: ﴿إن كنتم فاعلين﴾ إن كنتم عاملين بما أشرت به عليكم في أمره، كأنه لم يجزم بالأمر، وبإل وكله إلى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره. وفي هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء، فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم

إبانا مالك لا تامنا على يوسف أي: أي شيء لك لا تجعلنا أمنا عليه، وكانهم قد كانوا سالوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى. وقرأ يزيد بن القعقاع، وعمرو بن عبيد، والزهرى (لا تامنا) بالإدغام بغير إشمام. وقرأ طلحة بن مصرف (لا تامنا) بنونين ظاهرتين على الأصل. وقرأ يحيى بن وثاب، وأبو رزين، والأعمش (لا تيمنا) وهو لغة تميم كما تقدم. وقرأ سائر القراء بالإدغام والإشمام ليدل على حال الحرف قبل إدغامه ﴿وإنا له لناصحون﴾ في حفظه وحيطته حتى نردّه إليك ﴿أرسله معنا غداً﴾ أي: إلى الصحراء التي أراؤا الخروج إليها، وغدا ظرف، والأصل عند سيبويه غداً. قال النضر بن شميل: ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له: غداً، وكذا يقال له بكرة ﴿نرتع ونلعب﴾ هذا جواب الأمر. قرأ أهل البصرة وأهل مكة وأهل الشام بالنون وإسكان العين كما رواه البعض عنهم. وقرأوا أيضاً بالاختلاس. وقرأ الباقر بن النون وكسر العين. والقراءة الأولى مأخوذة من قول العرب: رتع الإنسان أو البعير إذا لكل كيف شاء، أو المعنى: نتسع في الخصب، وكل مخصب راتع. قال الشاعر: فارعى فزاره لا هناك المرتع. ومنه قول الشاعر:

فارعى فزاره لا هناك المرتع

ومنه قول الشاعر:

ترتع ما رتعت حتى إذا انكرت فإنما هي إقبال وإبهار
والقراءة الثانية مأخوذة من رعي الغنم. وقرأ مجاهد وقتادة (يرتع ويلعب) بالتحتيه فيهما، ورفع يلعب على الاستئناف، والضمير ليوسف. وقال القتيبي: معنى نرتع نتحارس ونحافظ ويرعى بعضنا بعضاً، من قولهم: رعاك الله أي: حفظك، ونلعب من اللعب. قيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا ونلعب وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء، وقيل: المراد به اللعب المباح من الأنبياء، وهو مجرد الانبساط، وقيل هو اللعب الذي يتعلمون به الحرب ويتقنون به عليه كما في قولهم: ﴿إنا ذهبنا نستبِق﴾ لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق، ولذلك لم ينكر يعقوب عليهم لما قالوا: ونلعب، ومنه قوله ﷺ لجابر: «فها لا تلعبا وتلاعبك» فاجابهم يعقوب بقوله: ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي: ذهابكم به، واللام في ﴿ليحزنني﴾ لام الابتداء للتأكيد ولتخصيص المضارع بالحال، أخبرهم أنه يحزن لغيبه يوسف عنه لفرط محبته له وخوفه عليه، ﴿وإخاف أن ياكله الذئب﴾ أي: ومع ذلك أخاف أن ياكله الذئب. قال يعقوب: هذا تخوفاً عليه منهم، فكفى عن ذلك بالذئب، وقيل: إنه خاف أن ياكله الذئب حقيقة، لأن ذلك المكان كان كثير الذئب، ولو خاف منهم عليه أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه. قال ثعلب: والذئب مأخوذ من تذابذت الريح: إذا هاجت من كل وجه. قال: والذئب مهموز لأنه يجيء من كل وجه. وقد قرأ ابن كثير ونافع في رواية عنه بالهمز على الأصل، وكذلك أبو عمرو في رواية عنه وابن عامر، وعاصم، وحزمة.

ظلماً وبغياً، وقيل: كانوا أنبياء، وكان ذلك منهم زلة قدم وأوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم. ورد بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكثيرة المتباعدة في الكبر، مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وإفتراء الكذب، وقيل: إنهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء، بل صاروا أنبياء من بعد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿آيات للمساءلين﴾ قال: عبرة. وأخرج أيضاً عن قتادة في الآية يقول: من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قص الله عليكم وأنبياءكم به. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق قال: إنما قص الله على محمد ﷺ خبر يوسف وبغي إخوته عليه وحسداهم إياه حين نكر رؤياه لما رأى رسول الله ﷺ من بغي قومه عليه وحسداهم إياه حين أكرمه الله بنبوته ليأتسى به. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه﴾ يعني: بنيامين هو أخوه لأبيه وأمه، وفي قوله ﴿ونحن عصبه﴾ قال: العصبه ما بين العشرة إلى الأربعين. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد قال: العصبه الجماعة، ﴿إنا لبانا لغى ضلال مبين﴾ قال: لغى خطأ من رايه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في قوله ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف﴾ قال: قله كبيرهم الذي تخلف، قال: والجب بئر بالشام ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ قال: التقطه ناس من الأعراب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿ولفوه في غيابة الجب﴾ يعني: الركية. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: الجب البئر. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ قال: هي بئر ببيت المقدس، يقول في بعض نواحيها. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: الجب بحذاء طبرية بينه وبينها أميال.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا أَنْ يَرْجُوَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصَحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَبِيرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَآجِمُوا أَنَّ يَمْعَلُونَ فِي غَيْبِ الْجُبِّ وَأَوْسَتِ بِأَيِّهِ لَتَتَّبِعَنَّهُ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَكَأَمَرَ أَبَاهُمْ عِشَاهُ يَكُونُ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَمِينَا نَسْتَبِشُ وَرَكَعًا يُسَبِّحُ عِنْدَ مَدِينَةٍ فَآكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَكَأَمَرَ عَلَى فِجْعِهِ يَذْمُرُ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

لما أجمع رأيهم على أن يلقوه في غيابات الجب جاءوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوة استعطافاً له وتحريكاً للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء. وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه، واستفهموه استفهام المنكر لأمر ينبغي أن يكون الواقع على خلافه، فـ ﴿قالوا يا

وقرا الباقيون بالتخفيف. ﴿وانتم عنه غافلون﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب، أو لكونهم غير مهتمين بحفظه ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ اللام هي الموطئة للقسم. والمعنى: والله لئن أكله الذئب والحال إن نحن عصبة أي: جماعة كثيرة عشرة ﴿إننا إذا لخاسرون﴾ أي: إنما في ذلك الوقت، وهو أكل الذئب له لخاسرون هالكون ضعفاً وعجزاً، أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا، وانتفاء القدرة على أيسر شيء وأقله، أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار، وقيل: لخاسرون لجاهلون حقه، وهذه الجملة جواب القسم المقدر في الجملة التي قبلها ﴿فلما ذهبوا به﴾ من عند يعقوب ﴿ولجمعوا﴾ أمرهم ﴿أن يجعلوه في غيابة الجب﴾ قد تقدم تفسير الغيابة والجب قريباً، وجواب لما محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه، والتقدير: فعلوا به ما فعلوا، وقيل: جوابه ﴿قالوا يا إيانا إنا ذهبنا نستيق﴾ وقيل: الجواب المقدر جعلوه فيها، وقيل: الجواب أوحينا والوار مقحمة، ومثله قوله تعالى: ﴿فلما أسلمنا وتله للجبين * وناديناه﴾ [الصافات: 103 - 104] أي: ناديناه ﴿واوحينا إليه﴾ أي: إلى يوسف تيسيراً له وتأنيساً لوحشته مع كونه صغيراً اجتمع على إنزال الضرر به عشرة رجال من إخوته، بقلوب غليظة فقد نزعت عنها الرحمة وسلبت منها الرافة، فإن الطبع البشري، دع عنك الدين يتجاوز عن ذنب الصغير ويفترقه لضعفه عن الدفع وعجزه عن أيسر شيء يراد منه، فكيف بصغير لا ذنب له، بل كيف بصغير هو أخ وله ولهم أب مثل يعقوب، فلقد أبعد من قال إنهم كانوا أنبياء في ذلك الوقت، فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين. وفي هذا دليل على أنه يجوز أن يوحى الله إلى من كان صغيراً ويعطيه النبوة حينئذ كما وقع في عيسى ويحيى بن زكريا، وقد قيل: إنه كان ذلك الوقت قد بلغ مبالغ الرجال، وهو بعيد جداً، فإن من كان قد بلغ مبالغ الرجال لا يخاف عليه أن يأكله الذئب. ﴿لنلتبئهم بأمرهم هذا﴾ أي: لتخبرن إخوانك بأمرهم هذا الذي فعلوه معك بعد خلوصك مما أرادوه بك من الكيد وأنزلوه عليك من الضرر، وجملة ﴿وهم لا يشعرون﴾ في محل نصب على الحال، أي: لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بالقائهم لك في غيابة الجب، ولبعد عهدهم بك، ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك، وسيأتي ما قاله لهم عند نخولهم عليه بعد أن صار إليه ملك مصر. قوله: ﴿وجاءوا إياهم عشاء ييبكون﴾ عشاء منتصب على الظرفية، وهو آخر النهار، وقيل: في الليل، ويبكون في محل نصب على الحال أي: باكين أو متباكين لأنهم لم يبكوا حقيقة، بل فعلوا فعل من يبكي ترويحاً لكنهم وتنقيحاً لمكرهم وغدرهم. فلما وصلوا إلى أبيهم ﴿قالوا يا إيانا إنا ذهبنا نستيق﴾ أي: نتسابق في العدو أو في الرمي؛ وقيل: نتنצל، ويؤيده قراءة ابن مسعود (نتنצל). قال الزجاج: وهو نوع من المسابقة. وقال الأزهري: النضال في السهام،

والرهان في الخيل، والمسابقة تجمعهما. قال القشيري: نستيق، أي: في الرمي أو على الفرس أو على الأقدام. والغرض من المسابقة التدرّب بذلك في القتال ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أي: عند ثيابنا ليحرسها ﴿فأكله للذئب﴾ الفاء للتعقيب أي: أكله عقب ذلك. وقد اعتذروا عليه بما خافه سابقاً عليه، وربّ كلمة تقول لصاحبها دعني ﴿وما انت بمؤمن لنا﴾ بمصنق لنا في هذا العذر الذي أبدينا، والكلمة التي قلناها ﴿ولو كنا﴾ عندك أو في الواقع ﴿صادقين﴾ لما قد علق بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له. قال الزجاج: والمعنى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصنق ما صنقنا في هذه القضية لشدة محبتك ليوسف. وكذا ذكره ابن جرير وغيره ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ على قميصه في محل نصب على الظرفية: أي جاءوا فوق قميصه بدم، ووصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو معروف في وصف اسم العين باسم المعنى، وقيل المعنى: بدم ذي كذب أو بدم مكذوب فيه. وقرأ الحسن وعائشة (بدم كذب) بالدال المهملة أي: بدم طري. يقال للدم الطري: كذب. وقال الشعبي: إنه المتغير، والكذب أيضاً البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث، فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين. وقد استدلل يعقوب على كذبهم بصحة القميص، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً ياكل يوسف ولا يخرق القميص؟ ثم ذكر الله سبحانه ما أجاب به يعقوب عليهم فقال: ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ أي: زينت وسهلت. قال النيسابوري: التسويل تقرير في معنى النفس مع الطمع في تمامه، وهو تفعليل من السؤل وهو الأمنية. قال الأزهري: وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة ﴿فصبر جميل﴾ قال الزجاج: أي: فشاني أو الذي اعتقده صبر جميل. وقال قطرب: أي: فصبري صبر جميل؛ وقيل: فصبر جميل أولى بي، قيل: والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه. قال الزجاج: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف (فصبراً جميلاً) قال: وكذا في مصحف أنس. قال المبرد: فصبر جميل بالرفع أولى من النصب، لأن المعنى: قال ربّ عندي صبر جميل، وإنما النصب على المصدر أي: فلاصبرن صبراً جميلاً. قال الشاعر:

شكا إليّ جملي طول السرى صبراً جميلاً فكلانا مبتلى

﴿والله المستعان﴾ أي: المطلوب منه العون ﴿على ما تصفون﴾ أي: على إظهار حال ما تصفون، أو على احتمال ما تصفون، وهذا منه عليه السلام إنشاء لا إخبار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾ قال: نسعى وننشط ونلهو. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، والسلفي في الطيوريات عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلقوا الناس فيكنبوا، فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب ياكل الناس، فلما لقنهم أبوهم كذبوا، فقالوا: أكله الذئب».

أَتَأْتِيَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

هذا شروع في حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلك من خبره، وقد تقدم تفسير السيرة، والمراد بها هنا رفقة مارة تسير من الشام إلى مصر، فآخذوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجبّ، وكان في قفرة بعيدة من العمران. والوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم، وكان اسمه فيما ذكر المفسرون مالك بن دعر من العرب العاربة ﴿فأنلى بلوه﴾ أي: أرسله، يقال: أنلى لبلوه إذا أرسلها ليملاها، ودلاها: إذا أخرجها، قاله الأصمعي وغيره. فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج اللؤلؤ من البئر أبصره الوارد ف (قال يا بشراي) هكذا قرأ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة، وأهل الشام بإضافة البشري إلى الضمير. وقرأ أهل الكوفة (يا بشري) غير مضاف، ومعنى مناداته للبشري: أنه أراد حضورها في ذلك الوقت، فكانه قال: هذا وقت مجيئك وأوان حضورك؛ وقيل: إنه نادى رجلاً اسمه بشري. والأول أولى. قال النحاس: والمعنى من نداء البشري التبشير لمن حضر، وهو أوكد من قولك بشرته كما تقول يا عجباً أي: يا عجب هذا من أيامك فاحضر. قال: وهذا مذهب سيبيويه ﴿وأسرّوه﴾ أي: أسرّ الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهره لهم؛ وقيل: إنهم لم يخفوه، بل أخفوا وجدانه لهم في الجبّ، وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء ليبيعوه لهم بمصر؛ وقيل: ضمير الفاعل في أسرّوه لإخوة يوسف، وضمير المفعول ليوسف، وذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام، فأتاه يوم خروجه من البئر فأخبر إخوته فاتوا الرفقة وقالوا: هذا غلام أبقي منا فاشتره منهم، وسكت يوسف مخافة أن يأخذوه فيقتلوه، والأول أولى. وانتصاب بضاعة على الحال: أي أخفوه حال كونه بضاعة أي: متاعاً للتجارة، والبضاعة: ما يوضع من المال أي: يقطع منه لأنها قطعة من المال الذي يتجر به، قيل: قاله لهم الوارد وأصحابه أنه بضاعة استبضعناها من الشام مخافة أن يشاركوه فيه، وفي قوله: ﴿والله عليم بما يعملون﴾ وعيد شديد لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف من المحن وما صار فيه من الابتذال بجري البيع والشراء فيه، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كما قال نبينا ﷺ في وصفه بذلك. قوله: ﴿وشرّوه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ يقال: شرّاه بمعنى اشتراه، وشرّاه بمعنى باعه. قال الشاعر:

وشرّيت برداً ليتني من بعد برد كنت هامه
أي: بعته.

وقال آخر:

فلما شرّاهما فاضت العين عبرة

أي اشتراها. والمراد هنا: وباعوه أي: باعه الوارد وأصحابه ﴿بثمن بخس﴾ أي: ناقص أو زائف، وقيل: يعود

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿وألوحينا إليه﴾ الآية، قال: أوحى إلى يوسف وهو في الجبّ لتنبئني إختك بما صنعوا وهم لا يشعرون بذلك الوحي. وأخرج هؤلاء عن قتادة قال: أوحى الله إليه وحياً وهو في الجبّ أن سينبئهم بما صنعوا وهم أي: إخوته لا يشعرون بذلك الوحي. فهوّن ذلك الوحي عليه ما صنع به. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وهم لا يشعرون﴾ قال: لم يعلموا بوحي الله إليه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: لما نخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون جيء بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف يذنيه دنونكم، وأنكم انطلقتم به فالتقيتموه في غيابة الجبّ فاتيتم إياكم فقلت: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره ويخبركم، فقال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية نزلت إلّا في ذلك لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي بكر بن عياش قال: كان يوسف في الجبّ ثلاثة أيام. وأخرج أبو الشيخ عن الضحّاك ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ قال: بمصلّق لنا. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ قال: كان دم سخله. وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ قال: لما أتى يعقوب بقميص يوسف فلم ير فيه خرقاً قال: كذبتم لو كان كما تقولون أكله الذئب لخرق القميص. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿بل سئلت لكم أنفسكم أمراً﴾ قال: أمرتكم أنفسكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿بل سئلت لكم أنفسكم أمراً﴾ يقول: بل زينت لكم أنفسكم أمراً ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ أي: على ما تكذبون. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبان بن أبي حيلة قال: «سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فصبر جميل﴾ قال: لا شكوى فيه، من بثّ لم يصبر»، وهو من طريق هشيم عن عبد الرحمن، عن حبان بن أبي حيلة، وهو مرسل. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿فصبر جميل﴾ قال: ليس فيه جزع.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبَتْشَرُّهُ هَذَا عَلَّمَ وَأَسْرَوْهُ
يَضْمَعُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَأَسْرَوْهُ بِمَنْ دَرَجَمَ مَعْدُودَةٍ
وَكَانُوا فِيهِ مِنْ أَزْهَدِيكَ ﴿١٤﴾ وَقَالَ الْإِنْسِي أَشْرَبْتُهُ مِنْ مَقَرٍّ لِأَكْرَأِيهِ
أَكْرَبِي مَوْنَهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَهُ أَوْ نَجِّدَهُ وَلَدَا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

إلى إخوة يوسف على القول السابق، وقيل: عائد إلى الرفقة، والمعنى: اشتروه؛ وقيل: بخس ظلم، وقيل: حرام. قيل: باعوه بعشرين درهماً، وقيل: بأربعين، ودرهم بدل من ثمن أي: دنائير، ومعبودة وصف لدرهم، وفيه إشارة إلى أنها قليلة تعد ولا تؤنن، لأنهم كانوا لا يزنون ما بون أوقية وهي أربعون درهماً، ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ يقال: زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرهما. قال سيويوه والكسائي: قال أهل اللغة: يقال: زهد فيه أي رغب عنه، وزهد عنه أي: رغب فيه. والمعنى: أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يباليون به فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس، وذلك لأنهم التفتوه، والملتقط للشيء متهاون به، والضمير من كانوا يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال فيه ﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾ هو العزيز الذي كان على خزائن مصر، وكان وزيراً لملك مصر، وهو الريان بن الوليد من العماليقة، وقيل: إن الملك هو هرمون موسى، قيل: اشتراه بعشرين ديناراً، وقيل: تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلئ وجواهر، فلما اشتراه العزيز قال: ﴿لامراته﴾ واللام متعلقة باشتراه ﴿لكرمي مثواه﴾ أي: منزله الذي يثوى فيه بالطعام الطيب واللباس الحسن. يقال: ثوى بالمكان أي: أقام به ﴿وعسى أن ينفعنا﴾ أي: يكفينا بعض المهمات مما نحتاج إلى مثله فيه ﴿أو نتخذة ولداً﴾ أي: نتبناه فنجعله ولداً لنا. قيل: كان العزيز حصوراً لا يولد له، وقيل: كان لا يأتي النساء، وقد كان تفرس فيه أنه ينوب عنه فيما إليه من أمر المملكة. قوله: ﴿وكنكلك مكناً ليوسف﴾ الكاف في محل نصب على أنه نعت مصدر محذوف، والإشارة إلى ما تقنم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الحب، وعطف قلب العزيز عليه أي: مثل ذلك التمكن البديع مكناً ليوسف حتى صار متمكناً من الأمر والنهي، يقال: مكنه فيه أي أثبته فيه، ومكن له فيه أي: جعل له فيه مكاناً، ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر. قوله: ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ هو علة لمعلل محذوف كأنه قيل: فعلنا ذلك التمكن لنعلمه من تأويل الأحاديث، أو كان ذلك الإنجاء لهذه العلة، أو معطوف على مقدر، وهو أن يقال: مكناً ليوسف ليرتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز، ولنعلمه من تأويل الأحاديث؛ ومعنى تأويل الأحاديث: تأويل الرؤيا فلإنها كانت من الأسباب التي بلغ بها ما بلغ من التمكن، وقيل: معنى تأويل الأحاديث فهم أسرار الكتب الإلهية وسنن من قبله من الأنبياء، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع ﴿والله غالب على أمره﴾ أي: على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء، ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: 82]. ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضمير ما يتعلق بيوسف عليه السلام من الأمور التي أرادها الله سبحانه في شأنه. وقيل: معنى ﴿والله غالب على أمره﴾

أنه كان من أمر يعقوب أن لا يقص رؤيا يوسف على إخوته، فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع، وهذا بعيد جداً ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي: لا يطلعون على غيب الله وما في طيه من الأسرار العظيمة والحكم النافعة، وقيل: المراد بالأكثر الجميع لأنه لا يعلم الغيب إلا الله؛ وقيل إن الله سبحانه قد يطلع بعض عبده على بعض غيبه كما في قوله: ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ إلا من ارتضى من رسول ﴿[الجن: 26 - 27]﴾. وقيل: المعنى ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله غالب على أمره وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر. قوله: ﴿ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً﴾ الأشد: قال سيويوه: جمع واحدة شدة. وقال الكسائي: واحدة شدة. وقال أبو عبيد: إنه لا واحد له من لفظه عند العرب، ويرد قول الشاعر:

عهدي به شد النهار كأنما خضب البنان ورأسه بالعظم والأشد: هو وقت استكمال القوة ثم يكون بعده النقصان. قيل: هو ثلاث وثلاثون سنة، وقيل بلوغ الحلم، وقيل: ثاني عشرة سنة، وقيل غير ذلك مما قد قدمنا بيانه في النساء والأنعام. والحكم: هو ما كان يقع منه من الأحكام في سلطان ملك مصر، والعلم: هو العلم بالحكم الذي كان يحكمه؛ وقيل: العقل والفهم والنبوة؛ وقيل: الحكم هو النبوة، والعلم: هو العلم بالدين؛ وقيل: علم الرؤيا. ومن قال: إنه أوتي النبوة صبياً قال: المراد بهذا الحكم والعلم الذي آتاه الله هو الزيادة فيهما ﴿وكنكلك نجزي للمحسنين﴾ أي: ومثل ذلك الجزء العجيب نجزي المحسنين، فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه. وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به. وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أولاً. قال الطبري: هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ يقول الله تعالى كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك في الأرض. والأولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما نكره ابن جرير الطبري.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن الضحاک في قوله: ﴿وجاءت سيارة﴾ قال: جاءت سيارة فنزلت على الجب ﴿فأرسلوا وأردهم﴾ فاستسقى الماء فاستخرج يوسف، فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاماً لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه، فزهّدوا فيه فباعوه، وكان يبيعه حراماً، وباعوه بدرهم معدودة. وأخرج عبد الرزاق، وابن بن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿فأرسلوا وأردهم﴾ يقول: فأرسلوا رسولهم ﴿فأبلى لولوه﴾ فنشب الغلام باللو، فلما خرج ﴿قال يا بشراي هذا غلام﴾ تباشروا به حين استخرجوه، وهي بئر بيت المقدس معلوم مكانها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي في قوله: ﴿يا بشراي﴾ قال: كان اسم صاحبه بشرى كما تقول يا زيد، وهذا على ما

تاويل الأحاديث قال: عبارة الرؤيا. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب الأضداد، والطبراني في الأوسط، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: **﴿ولما بلغ أشده﴾** قال: ثلاثاً وثلاثين سنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: أربعين سنة. وأخرج عن عكرمة قال: خمساً وعشرين سنة. وأخرج عن السدي قال: ثلاثين سنة. وأخرج عن سعيد بن جبيرة قال: ثمانية عشر سنة. وأخرج عن ربيعة قال: الحلم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الشعبي نحوه. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: عشرين سنة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿أتمينه حكماً وعِلماً﴾** قال: هو الفقه العلم والعقل قبل النبوة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿وكنك نجزي المحسنين﴾** قال: المهتدين.

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَكَانَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٧﴾ وَقَدْ هَمَّتْ بِرَبِّهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا مِّنْ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَصِرَتْ عَصَ السَّحَابِ ﴿١٨﴾ وَالْحَصَاةُ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِكَ الْمُغْلَبِينَ ﴿١٩﴾ وَاسْتَبَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْسَمُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْسَمُ قَدْ مِّنْ بُرَى فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَيْسَمُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا رَأَى قَيْسَمُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُمْ إِنِّي كَيْدُكُمْ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَلِّكَ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٤﴾

المراودة: الإرادة والطلب برفق ولين وقيل: هي مأخوذة من الردود أي: الرفق والتاني، يقال أردوني: أمهلني، وقيل: المراودة مأخوذة من راد يروء إذا جاء وذهب، كان المعنى: أنها فعلت في مراودتها له فعل المخادع، ومنه الراشد لمن يطلب الماء والكلاء، وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال: راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه: إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع، وهي مفاعلة، وأصلها أن تكون من الجانبين، فجعل السبب هنا في أحد الجانبين قائماً مقام المسبب، فكان يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة في الحسن سبباً لمراودة امرأة العزيز له مراود. وإنما قال: **﴿التي هو في بيتها﴾** ولم يقل: امرأة العزيز، وزليخا قصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها **﴿وغلقت الأبواب﴾** قيل: في هذه الصيغة ما يدل على التكثر، فيقال: غلق الأبواب، ولا يقال: غلق الباب، بل يقال: أغلق الباب، وقد يقال: أغلق الأبواب، ومنه قول الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء:

ما زلت أغلق أبواباً وأقتحها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار قيل: وكانت الأبواب سبعة. قوله: **﴿هيئت لك﴾**. قرأ أبو

فيه من البعد لا يتم إلا على قراءة من قرأ (يا بشري) بدون إضافة. وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿واسأروه بضاعة﴾** يعني: إخوة يوسف أسأروا شأنه وكتما أن يكون لأخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته واختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: أسره التجار بعضهم من بعض. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه **﴿واسأروه بضاعة﴾** قال: صاحب اللؤلؤ ومن معه، قالوا لأصحابهم: إنا استبضعناه خيفة أن يشركهم فيه إن علموا به، واتبعهم إخوته يقولون للملئى وأصحابه: استوثقوا منه لا يابق حتى وقفوا بمصر، فقال: من يبتاعني ويبيشر، فابتاعه الملك والملك مسلم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: **﴿وشروه﴾** قال: إخوة يوسف باعوه حين أخرجه الملئى للؤلؤ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: بيع بينهم بثمن بخس، قال: حرام لم يحل لهم بيعه، ولا أكل ثمنه. وأخرج ابن جرير عن قتادة **﴿وشروه بثمن بخس﴾** قال: هم السيارة. وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب أنه قضى في اللقيط أنه حر، وقرأ **﴿وشروه بثمن بخس﴾**. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: البخس القليل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إنما اشتري يوسف بعشرين درهماً، وكان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلثمائة وتسعين إنساناً: رجالهم أنبياء، ونسأؤهم صنيقات، والله ما خرجوا مع موسى حتى بلغوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً. وقد روي في مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة إلى التطويل بذكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾** قال: كان اسمه قبطير. وأخرج أبو الشيخ عن شعيب الجبائي: أن اسم امرأة العزيز زليخا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال: الذي اشتراه أظفير بن روجب، وكان اسم امرأته راعيل بنت رعايل. وأخرج ابن جرير، وابن إسحاق، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: اسم الذي باعه من العزيز مالك بن ذعر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: **﴿أكرمي مثواه﴾** قال: منزلته. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: أقرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامراته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: يا أبت استأجره، وأبو بكر حين استخلف عمر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿ولنعلمه من**

بقوله: ﴿أكرمي مثواه﴾ ، فكيف أخونه في أهله وأجيبك إلى ما تريدين من ذلك؟ وقال الزجاج: إن الضمير لله سبحانه أي: إن الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرّمه، وجملته ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها، والفلح: الظفر. والمعنى: أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم، ومن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تطلبها امرأة العزيز من يوسف. قوله: ﴿ولقد همت به وهمّ بها﴾ يقال: همّ بالامر إذا قصده وعزم عليه. والمعنى: أنه همّ بمخالطتها كما همت بمخالطته ومال كل واحد منهما إلى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجملة الخلقية، ولم يكن من يوسف عليه السلام القصد إلى ذلك اختياراً كما يفيد ما تقدّم من استعانته بالله، وإن ذلك نوع من الظلم. ولما كان الأنبياء معصومين عن الهمّ بالمعصية والقصد إليها شطح أهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف، فمن ذلك ما قاله أبو حاتم قال: كنت أقرأ على أبي عبيدة غريب القرآن، فلما أتيت على ﴿ولقد همت به وهمّ بها﴾ قال: هذا على التقديم والتأخير: كأنه قال: ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها. وقال أحمد بن يحيى ثعلب: أي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرّة، وهمّ يوسف ولم يوقع ما همّ به، فبين الهمين فرق، ومن هذا قول الشاعر:

هممت بهم من شنية لؤلؤ شفيت غليلات الهوى من فؤاديا
فهذا إنما هو حديث نفس من غير عزم، وقيل همّ بها أي: همّ بضرّ بها، وقيل: همّ بها بمعنى تمنى أن يتزوّجها. وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف إلى ما قدّمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوي، ويدل على هذا ما سيأتي من قوله: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ [يوسف: 52]، وقوله: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ [يوسف: 53] ومجرد الهمّ لا ينافي العصمة، فإنها قد وقعت العصمة عن الوقوع في المعصية، وذلك المطلوب، وجواب لو في ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ محذوف: أي لولا أن رأى برهان ربه لفعل ما همّ به.

واختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو؟ فقيل: إن زليخا قامت عند أن همت به وهمّ بها إلى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال: ما تصنعني؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني على هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أولى أن أستحي من الله تعالى. وقيل: إنه رأى في سقف البيت مكتوباً ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة﴾ [الإسراء: 32] الآية؛ وقيل: رأى كفاً مكتوباً عليها ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ [الإنفطار: 10] وقيل إن البرهان هو تذكره عهد الله وميثاقه وما أخذه على عباده؛ وقيل: نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؛ وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدار عاضاً على أناملته يتوعده، وقيل غير ذلك مما يطول ذكره. والحاصل أنه رأى شيئاً حال بينه وبين ما همّ به قوله: ﴿كنكك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ الكاف نعت مصدر محذوف، والإشارة بذلك إلى الإراءة المملول عليها

عمرو، وعاصم، والكسائي، وحمزة، والأعمش بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء، وبها قرأ ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وعكرمة. قال ابن مسعود: لا تنقطعوا في القراءة، فإنما هو مثل قول أحكم: هلمّ وتعال، وقرأ ابن أبي إسحاق النحوي بفتح الهاء وكسر التاء. وقرأ عبد الرحمن السلمي وابن كثير (هيت) بفتح الهاء وضم التاء، ومنه قول طرفة:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما قال داع من العشيرة هيت
وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء وسكون الياء وفتح التاء. وقرأ عليّ وابن عباس في رواية عنه وهشام بكسر الهاء ويعدها همزة ساكنة وضم التاء. وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء وبالهزة وفتح التاء. ومعنى «هيت» على جميع القراءات معنى هلمّ وتعال، لأنها من أسماء الأفعال إلا في قراءة من قرأ بكسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة. فإنها بمعنى: تهيات لك. وأنكر أبو عمرو هذه القراءة. وقال أبو عبيدة: سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء والهزة وضم التاء فقال: باطل جعلها بمعنى تهيات اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهي إلى اليمن، هل تعرف أحداً يقول هكذا؟ وأنكرها أيضاً الكسائي. وقال النحاس: هي جيدة عند البصريين، لأنه يقال: هاء الرجل يهأ ويهيء هيئة، ورجح الزجاج القراءة الأولى، وأنشد بيت طرفة المذكور هيتا بالفتح، ومنه قول الشاعر في علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أبلغ أمير المؤمنين أخص العراق إذا أتيتا
إن العراق وأهله سلم إليك فهيت هيتا
وتكون اللام في ﴿لك﴾ على القراءات الأولى التي هي فيها بمعنى اسم الفعل للبيان أي: لك. أقول هذا كما في هلمّ لك. قال النحويون: هيت جاء بالحركات الثلاث: فالفتح للخفة، والكسر لالتقاء الساكنين، والضم تشبيهاً بحيث، وإذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت قائم مقام المصدر كآف له أي: لك أقول هذا، وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل، إما خبر أي: تهيات، وإما أمر أي: أقبل. وقال في الصحاح: يقال هوّت به وهيت به إذا صاح به ودعا، ومنه قول الشاعر:

يحبو بها كل فتى هيات

وقد روي عن ابن عباس والحسن أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه إلى نفسها. قال أبو عبيدة: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناها تعال. قال أبو عبيدة: فسألت شيخاً عالماً من حوران فنكر أنها لغتهم ﴿قال معاذ الله﴾ أي: أعوذ بالله معاذاً مما دعوتني إليه، فهو مصدر منتصب بفعل محذوف مضاف إلى اسم الله سبحانه، وجملته ﴿إنه ربي أحسن مثوأي﴾ تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز، والضمير للشأن أي: إن الشأن ربي، يعني: العزيز أي سيدي الذي رباني وأحسن مثوأي حيث أمرت

بقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك أي: مثل تلك الإراءة أريناه، أو مثل تلك التثبيت ثبتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ أي: كل ما يسوؤه، والفحشاء كل أمر مفرط القبح، وقيل: السوء الخيانة للعزیز في أهله، والفحشاء: الزنا؛ وقيل: السوء الشهوة، والفحشاء: المباشرة؛ وقيل: السوء الثناء القبيح. والأولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أولاً، وجملة ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لما قبله. قرأ ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو (المخلصين) بكسر اللام، وقرأ الآخرون بفتحها. والمعنى على القراءة الأولى أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته لله، وعلى الثانية أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة، وقد كان عليه السلام مخلصاً مستخلصاً ﴿وَأَسْتَبْقَى الْبَابَ﴾ أي: تسابقاً إليه، فحذف حرف الجر وأوصل الفعل بالمفعول، أو ضمن الفعل معنى فعل آخر يتعدى بنفسه كابتدأ الباب، وهذا الكلام متصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وما بينهما اعتراض، ووجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار والخروج من الباب، وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه، ووجد الباب هنا وجمعه فيما تقدم، لأن تسابقهما كان إلى الباب الذي يخلص منه إلى خارج الدار ﴿وَوَقَدْتُ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: جذبت قميصه من روائه فانشق إلى أسفله، والقد: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طويلاً، والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضاً، وقع منها ذلك عند أن فر يوسف لما رأى برهان ربه فأرادت أن تمنعه من الخروج بجذبها لقميصه ﴿وَأَلْفَا سَيْدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ أي: وجدا العزيز هنالك، وعني بالسيد: الزوج لأن القبط يسمون الزوج سيداً، وإنما لم يقل: سيدهما، لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحاً فلم يكن سيداً له، وجملة ﴿قَالَتْ مَا جِئْتُ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ مستأنفة جواب سؤال مقرر كأنه قيل: فما كان منهما عند أن ألفيا سيدهما لدى الباب، وما استفهامية، والمراد بالسوء هنا الزنا؛ قالت هذه المقالة طلباً منها للحيلة وللستر على نفسها، فنسبت ما كان منها إلى يوسف أي: جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا، ثم أجابت عن استفهامها بقولها: ﴿إِلَّا أَنْ يَسْجَنَ﴾ أي: ما جزاؤه إلا أن يسجن، ويحتمل أن تكون ما نافية أي: ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم؛ قيل: والعذاب الأليم هو الضرب بالسياط، والظاهر أنه ما يصلق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره، وفي الإيهام للعذاب زيادة تهويل، وجملة ﴿قَالَ هِيَ رَأَوْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ مستأنفة كالجملة الأولى. وقد تقدم بيان معنى المراودة أي: هي التي طلبت مني ذلك ولم أرد بها سوءاً ﴿وَوَشَّهَدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: من قرابتها، وسمي الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل، قيل: لما التبس الأمر على العزيز احتاج إلى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصديق من الكاذب. قيل: كان ابن عم لها واقفاً مع العزيز في الباب، وقيل: ابن خال لها،

وقيل: إنه طفل في المهد تكلم. قال السهيلي: وهو الصحيح للحديث الوارد في ذلك عن النبي ﷺ في نكر من تكلم في المهد، ونكر من جملتهم شاهد يوسف؛ وقيل: إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيريه في أموره، وكان من قرابة المرأة ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ أي: فقال الشاهد هذه المقالة مستدلاً على بيان صدق الصابق منهما وكذب الكاذب بأن قميص يوسف إن كان مقطوعاً من قبل: أي من جهة القبيل ﴿فَصَدَقْتُ﴾ أي: فقد صدقت بأنه أراد بها سوءاً ﴿وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في قوله إنها راوبته عن نفسه. وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق (من قبل) بضم اللام. وكذا قرأ (من دبر) قال الزجاج: جعلاهما غائتين كقبيل وبعد كأنه قيل: من قبله ومن دبره، فلما حنف المضاف إليه: وهو مراد صار المضاف غاية بعد أن كان المضاف إليه هو الغاية ﴿وَأَنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: من روائه ﴿فَكَذَبْتُ﴾ في دعواها عليه ﴿وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواه عليها، ولا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقميهما وتالييهما، لا عقلاً ولا عادة، وليس ها هنا إلا مجرد أمارة غير مطردة، إذ من الجائز أن تجذبه إليها وهو مقبل عليها فينقذ القميص من دبر، وأن تجذبه وهو مدير عنها فينقذ القميص من قبل ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ أي: العزيز ﴿قَمِيصَهُ﴾ أي: قميص يوسف ﴿قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ﴾ أي: هذا الأمر الذي وقع فيه الاختلاف بينكما، أو أن قولك: ﴿مَا جِئْتُ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ ﴿مَنْ كَيْدُكَ﴾ أي: من جنس كيدك يا معشر النساء ﴿إِنْ كَيْدُكَ عَظِيمٌ﴾ والكيد: المكر والحيلة، ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله: ﴿يُوسُفُ اعْرَضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: عن هذا الأمر الذي جرى واكتمه ولا تتحدث به، ثم أقبل عليها بالخطاب فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَنَفْسِكَ﴾ الذي وقع منك ﴿إِنَّكَ كُنْتَ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ أي: من جنسهم، والجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار ولم يقل من الخاطئات تغليبا للمنكر على المؤنث كما في قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحریم: 12] ومعنى من الخاطئين من المتعمدين، يقال: خطئ إذا ائنب متعمداً، وقيل: إن القائل ليوسف وامرأة العزيز بهذه المقالة هو الشاهد الذي حكم بينهما.

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَرَأَوْنِي هِيَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهَا﴾ قال: هي امرأة العزيز. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: راوبته حين بلغ مبلغ الرجال. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: هلم لك تدعوه إلى نفسها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: هلم لك بالقبطية، وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: هي كلمة بالسريانية أي: عليك. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبیر قال: معناها تعال. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد: إنها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها.

لها كان حكيماً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: إنه ليس بإنسي ولا جنّي هو خلق من خلق الله. قلت: ولعله لم يستحضر قوله تعالى: ﴿من أهلها﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنْهَى عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّتْ بِكَرِهٍ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمْنَعْنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوْدْنَاهُنَّ عَنْ نَفْسِهِ فَوَاسْتَعْتَمَّ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَكُنْتَنَ وَلَيْكُونَا مِنَ الْخَاصِرِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ ﴿إِنِّي وَمِمَّا يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَوَقَعَ عَنَتَهُ فَاذْكُرُونَهُ يَوْمَ فَتْحِ الْقُدُسِ﴾ ﴿وَهُوَ السَّيِّحُ الْمِيلُ﴾ ﴿١٣٧﴾

يقال: (نسوة) بضم النون، وهي قراءة الأعمش والفضل وسليمان، ويقال: (نسوة) بكسر النون، وهي قراءة الباقيين، والمراد جماعة من النساء، ويجوز التكرير في الفعل المسند إليهن كما يجوز التانيث. قيل: وهن امرأة ساقى العزيز وامرأة خبازة، وامرأة صاحب نوبه، وامرأة صاحب سجنه، وامرأة حاجبه، والفتى في كلام العرب: الشاب، والفتاة: الشابة، والمراد به هنا: غلامها، يقال: فتاي وفتاتي أي: غلامي وجاريتي، وجملة ﴿قد شغفها حباً﴾ في محل رفع على أنها خبر ثانٍ للمبتدأ، أو في محل نصب على الحال، ومعنى شغفها حباً: غلبها حبه، وقيل: نخل حبه في شغافها. قال أبو عبيدة: وشغاف القلب غلافه وهو جلدة عليه؛ وقيل: هو وسط القلب، وعلى هذا يكون المعنى: نخل حبه إلى شغافها فغلب عليه، وأنشد الأصمعي قول الراجل:

يتبعها وهي له شفاف

وقرأ جعفر بن محمد، وابن محيصن، والحسن (شغفها) بالعين المهملة. قال ابن الأعرابي: معناه أجرى حبه عليها. وقرأ غيرهم بالمعجمة. قال الجوهري: شغفه الحب أحرق قلبه. وقال أبو زيد: أمرضه. قال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة: قد ذهب بها كل مذهب، لأن شغاف الجبال: أعاليها، وقد شغف بذلك شغفاً بإسكان الغين المعجمة: إذا ولع به، وأنشد أبو عبيدة بيت امرئ القيس:

أثقتلني من قد شغفت فؤادها كما شغف المهنة الرجل الطائي
قال: فشبهت لوعة الحب بذلك. وقرأ الحسن (قد شغفها) بضم الغين. قال النحاس: وحكي قد شغفها بكسر الغين، ولا يعرف ذلك في كلام العرب إلا شغفها بفتح الغين؛ ويقال: إن الشغاف الجلدة اللصقة بالكبد التي لا ترى، وهي الجلدة البيضاء، فكأنه لصق حبه بقلبها كصوص الجلدة بالكبد، وجملة ﴿إننا لنراها في ضلال مبين﴾ مقرونة لمضمون ما قبلها. والمعنى: إننا لنراها أي: تعلمها في فعلها هذا، وهو المراودة لفتاها في ضلال عن طريق الرشد والصواب، مبين: واضح لا يلتبس على من نظر فيه ﴿فلما سمعت﴾ امرأة

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قرأ: (هت لك) مكسورة الهاء مضمومة التاء مهموزة قال: تهيات لك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إنه ربي﴾ قال: سيدي، قال: يعني زوج المرأة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لما همت به تزيت ثم استلقت على فراشها، وهم بها جلس بين رجلها رجل ثياب، فنودي من السماء يا ابن يعقوب لا تكن كطائر تنف ريشه فبقي لا ريش له، فلم يتعظ على النداء شيئاً حتى رأى برهان ربه جبريل في صورة يعقوب عاضاً على أصبعه ففرغ فخرجت شهوته من أنامله فوثب إلى الباب فوجده مغلقاً، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفجر له واتبعته فاندركته، فوضعت يديها في قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه فألفيا سيدها لدى الباب. وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿همت به وهم بها﴾ قال: طمعت فيه وطمع فيها، وكان فيه من الطمع أن هم أن يحل التكة، فقامت إلى صنم لها مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه، فقال: أي شيء تصنعين؟ فقالت: أستحي من إلهي أن يراني على هذه السوء، فقال يوسف: تستحين من صنم لا ياكل ولا يشرب، ولا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت؟ ثم قال: لا تتأليها مني أبداً، وهو البرهان الذي رأى. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو أن رأى برهان ربه﴾ قال: مثل له يعقوب، فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقد أطال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه، واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافاً كثيراً. وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال: السيد الزوج، يعني في قوله: ﴿والأفيا سيدها لدى الباب﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا أن يسجن أو عذاب ليم﴾ قال: القيد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قال: صبي أنطقه الله كان في الدار. وأخرج أحمد، وابن جرير، والبيهقي، في الدلائل عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قال: كان رجلاً ذا حية. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وأبو الشيخ عنه قال: كان من خاصة الملك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: هو رجل له فهم وعلم. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: ابن عم

والعزيز ﴿بمكرهن﴾ أي: بغيبتهن إياهما، سميت الغيبة مكرًا لاشتراكهما في الإخفاء، وقيل: أردن أن يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف، فلهذا سمي قولهن مكرًا؛ وقيل: إنها أسرّت عليهن فافشين سرها فسمي ذلك مكرًا، ﴿أرسلت إليهن﴾ أي: تدعوهن إليها لينظرن إلى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه ﴿واعتدت لهن متكأ﴾ أي: هيات لهن مجالس يتكئن عليها، وأعتدت من الاعتداد، وهو كل ما جعلته عدة لشيء. وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير (متكأ) مخففاً غير مهموز، والمتكأ: هو الأترج بلغة القبط، ومنه قول الشاعر:

نشرب الإثم بالصواع جهارا وترى المتكأ بيننا مستعارا
وقيل: إن ذلك هو لغة أزد شنوءة، وقيل: حكى ذلك عن الأخفش. وقال الفراء: إنه ماء الورد. وقرأ الجمهور (متكأ) بالهمز والتشديد، وأصح ما قيل فيه: إنه المجلس، وقيل: هو الطعام، وقيل: المتكأ كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث. وحكى الفتيبي أنه يقال: اتكأنا عند فلان أي: أكلنا، ومنه قول الشاعر:

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله
ويؤيد هذا قوله: ﴿وأتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ فإن ذلك إنما يكون لشيء ياكلته بعد أن يقطعنه، والسكين تذكر وتؤنث، قاله الكسائي والفراء. قال الجوهري: والغالب عليه التذكير، والمراد من إعطائها لكل واحدة سكيناً أن يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع من الأطعمة، ويمكن أنها أرادت بذلك ما سيق منهن من تقطيع أيديهن ﴿وقالت﴾ ليوسف ﴿أخرج عليهن﴾ أي: في تلك الحالة التي هن عليها من الاتكاء والأكال وتقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام. قوله: ﴿فلما رآينه أكبرنه﴾ أي: عظمته، وقيل: أمنين، ومنه قول الشاعر:

فلست لإنسي ولكن لملك تنزل من جود السماء يصوت
وقرأ الحسن (ما هذا بشراً) على أن الباء حرف جر، والشين مكسورة: أي ما هذا بعيد يشترى، وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله: ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾. وأعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن صور بني آدم، فإنهن لم يقلنه للليل، بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهن وذلك ممنوع، فإن الله سبحانه يقول: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: 4]. وظاهر هذا أنه لم يكن شيء مثله من أنواع المخلوقات في حسن تقويمه وكمال صورته، فما قاله صاحب الكشف في هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ في عقله من أقوال المعتزلة، على أن هذه المسألة أعني: مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر ليست من مسائل الدين في ورد ولا صدر، فما أغنى عباد الله عنها وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف ﴿قالت فلنكن الذي لمقتني فيه﴾ الإشارة إلى يوسف، والخطاب للنسوة أي: عبرتني فيه. قالت لهن هذا لما رأت اقتتانهن بيوسف إظهاراً لعز نفسها؛ ومعنى فيه أي: في حبه؛ وقيل: الإشارة

إذ ما راين الفحل من فوق قلة سهلن وأكبرن المنى المقطرا
وقيل: حضن. قال الأزهري: أكبرن بمعنى حضن، والهاء للسكت، يقال: أكبرت المرأة أي: نخلت في الكبر بالحوض، وقع منهن ذلك دهشاً وفزعاً لما شاهدنه من جماله الفائق، وحسنه الرائق، ومن ذلك قول الشاعر:

ناتي النساء على أطهارهن ولا ناتي النساء إذا أكبرن إكبارا
وانكر ذلك أبو عبيدة وغيره قالوا: ليس ذلك في كلام العرب. قال الزجاج: يقال أكبرنه ولا يقال حضنه، فليس الإكبار بمعنى الحضن. وأجاب الأزهري فقال: يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية. وقد زيف هذا بأن هاء الوقف تسقط في الوصل. وقال ابن الأنباري: إن الهاء كناية عن مصدر الفعل أي: أكبرن إكباراً بمعنى حضن حضناً ﴿وقطعن أيديهن﴾ أي: جرحنها، وليس المراد به القطع الذي تبين منه، اليد، بل المراد به الخدش والحر، وذلك معروف في اللغة كما قال النحاس؛ يقال: قطع يد صاحبه إذا خدشها؛ وقيل: المراد بأيديهن هنا أناملهن، وقيل: اكمامهن. والمعنى: أنه لما خرج يوسف عليهن أعظمته ودهشن وراعهن حسنه حتى اضطربت أيديهن فوق القطع عليها

والمعنى: أنه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية، لأنه إذا صرف عنه كيدهم لم يقع شيء مما رمنه منه، ووجه إسناد الكيد قد تقدم، وجملة ﴿إنه هو السميع العليم﴾ تعليل لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه أي: إنه هو السميع لدعوات الداعين له، العليم بأحوال الملتجئين إليه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿قد شغفها﴾ قال: غلبها. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه ﴿قد شغفها﴾ قال: قتلها حب يوسف، الشغف: الحب القاتل، والشغف: حبّ يورث ذلك، والشغاف: حجاب القلب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿قد شغفها﴾ قال: قد علّقها. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ قال: بحديثهن. وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ قال: يعملهن، وكل مكر في القرآن فهو عمل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في قوله: ﴿واعتدت لهن متكاً﴾ قال: هيات لهن مجلساً، وكان سنتهم إذا وضعوا المائدة أعطوا كل إنسان سكيناً يأكل بها ﴿فلما رأيته﴾ قال: فلما خرج عليهن يوسف ﴿أكبرنه﴾ قال: اعظمته ونظرن إليه، وأقبلن يحزرن أيديهن بالسكاكين وهن يحسبن أنهن يقطعن الطعام. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿واعتدت لهن متكاً﴾ قال: أعطتهن أترنجا، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً، فلما رأى يوسف أكبرنه، وجعلن يقطعن أيديهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترنج. وأخرج مسدد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عنه: المتكا الأترنج، وكان يقرؤها خفيفة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿متكاً﴾ قال: طعاماً. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر عنه قال: هو الأترنج. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: هو كل شيء يقطع بالسكين. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن الضحّاك مثله. وأخرج أبو الشيخ من طريق عبد العزيز بن الوزير بن الكميث بن زيد قال: حدثني أبي، عن جدي يقول في قوله: ﴿فلما رأيته أكبرنه﴾ قال: أمنين. وأنشد:

ولما رآته الخيل من رأس شامق صهلن وأمنين المنى المنفقا
وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده ابن عباس في قوله: ﴿فلما رأيته أكبرنه﴾ قال: لما خرج عليهن يوسف حزن من الفرح، وذكر قول الشاعر الذي قدّمنا ذكره:

نأتي النساء لدى أطهارهن... البيت

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿أكبرنه﴾ قال: اعظمته ﴿وقطعن أيديهن﴾ قال: حرّاً بالسكين حتى ألقينها ﴿وقلن حاشا لله﴾ قال: معاذ الله. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة

إلى الحب، والضمير له أيضاً، والمعنى: فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب، والأول أولى. ورجحه ابن جرير. وأصل اللوم: الوصف بالقبيح. ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهن ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه، فأقرّت بذلك وصرّحت بما وقع منها من المراودة له، فقالت: ﴿ولقد راوبته عن نفسه فاستعصم﴾ أي: استعف وامتنع مما أريده طالباً لعصمة نفسه عن ذلك، ثم توعدت إن لم يفعل ما تريده كاشفة لجلباب الحياء هاتكة لستر العفاف فقالت:

﴿ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ أي: لئن لم يفعل ما قد أمرته به فيما تقدم ذكره عند أن غلقت الأبواب وقالت: هيت لك ليسجنن أي: يعقل في السجن وليكونن من الصاغرين الأذلاء لما يناله من الإهانة، ويسلب عنه من النعمة والعزة في زعمها، قرئ (ليكونن) بالتثنية والتخفيف، قيل: والتخفيف أولى لأن النون كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف. وذلك لا يكون إلا في الخفيفة، وأما ليسجنن فبالثقل لا غير؛ فلما سمع يوسف مقالها هذا، وعرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز قال مناجياً لربه سبحانه:

﴿رب السجن﴾ أي: يا رب السجن الذي أوعتني هذه به ﴿أحب إليّ مما يدعونني إليه﴾ من مؤاتاتها والوقوع في المعصية العظيمة التي تذهب بخير الدنيا والآخرة. قال الزجاج: أي دخول السجن، فحذف المضاف. وحكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ (السجن) بفتح السين، وقرأ كذلك ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن الأعرج، ويعقوب، وهو مصدر سجنه سجنًا، وإسناد الدعوة إليهن جميعاً، لأن النسوة رغبته في مطاوعتها وخوّفنه من مخالفتها، ثم جرى على هذا في نسبة الكيد إليهن جميعاً، فقال: ﴿والأ تصرف عني كيدهن﴾ أما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه في هذه السورة، وأما كيد سائر النسوة فهو ما تقدم من الترغيب له في المطاوعة والتخويف من المخالفة، وقيل: إنها كانت كل واحدة تخلو به وحدها وتقول له: يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك من امرأة العزيز، وقيل: إنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيماً لها، أو عدولاً عن التصريح إلى التعريض، والكيد: الاحتيال. وجرم ﴿أحب إليهن﴾ على أنه جواب الشرط أي: أمل إليهن، من صبا يصبو: إذا مال واشتاق، ومنه قول الشاعر:

إلى هند صبا قلبي وهند حبها يصبي
﴿واكن من الجاهلين﴾ معطوف على أصب أي: لكن ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه، أو ممن يعمل عمل الجاهل. قوله: ﴿فاستجاب له ربه﴾ لما قال: ﴿والأ تصرف عني كيدهن﴾ كان ذلك منه تعرضاً للدعاء، وكأنه قال: اللهم اصرف عني كيدهن، فالاستجابة من الله تعالى له هي بهذا الاعتبار، لأنه لم يتقدم دعاء صريح منه عليه السلام،

التي فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف إليهم ولم يجد ذلك فيهم بل كانت امرأته هي الغالبة على رأيه الفاعلة لما يطابق هواها في يوسف، وإنفاذاً ما تقدّم منها من الوعيد له بقولها: ﴿وَلَنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ بِهِ لَيْسَجُنَّ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: 32] قيل: وسبب ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف أنهم أراؤوا ستر القالة، وكنتم ما شاع في الناس من قصة امرأة العزيز معه؛ وقيل: إن العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم أنها قد صارت بمكان من حبه لا تبالي معه بحمل نفسها عليه على أي صفة كانت؛ ومعنى قوله: ﴿حَتَّى حِينَ﴾ إلى مدة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين، وقيل: إلى انقطاع ما شاع في المدينة. وقال سعيد بن جبيرة: إلى سبع سنين، وقيل: إلى خمس، وقيل: إلى ستة أشهر، وقد تقدّم في البقرة الكلام في تفسير الحين وحتى بمعنى إلى. قوله: ﴿وَوُجِلَ مَعَهُ السَّجْنُ فِتْيَانًا﴾ في الكلام حذف متقدّم عليه، والتقدير: وبدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنّته حتى حين فسجنوه، ودخل معه السجن فتيان، ومع للمصاحبة، وفتيان تثنية فتى، وذلك يدل على أنهما عبدان له، ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً، وقد قيل: إن أحدهما خباز الملك، والآخر ساقيه، وقد كانا وضعا للملك سما لما ضمن لهما أهل مصر مالا في مقابلة ذلك، ثم إن الساقى رجع عن ذلك وقال للملك: لا تاكل الطعام فإنه مسموم، وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقى: اشرب فشرّب فلم يضره، وقال للخباز كل فابى، فجزّب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما، وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف، وقيل: قبله، وقيل: بعده. قال ابن جرير: إنهما سالا يوسف عن علمه فقال: إني أعبر الرؤيا، فسألاه عن رؤيائهما كما قص الله سبحانه ﴿فَقَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: رأيتني، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة. والمعنى: إني أراي أعصر عنباً، فسماه باسم ما يثول إليه لكونه المقصود من العصر. وفي قراءة ابن مسعود (أعصر عنباً). قال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب، فقال له: ما معك؟ فقال خمر. وقيل: معنى أعصر خمرأ أي: عنب خمر، فهو على حذف المضاف، وهذا الذي رأى هذه الرؤيا هو الساقى، وهذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال، وكذلك الجملة التي بعدها وهي ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبِزًا﴾ ثم وصف الخبز هذا بقوله: ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وهذا الرائي لهذه الرؤيا هو الخباز، ثم قال لا يوسف جميعاً بعد أن قصا رؤيائهما عليه ﴿نَبِيئُنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع التريئين، أو بتأويل المذكور لك من كلامنا؛ وقيل: إن كل واحد منهما قال له ذلك عقب قص رؤياه عليه، فيكون الضمير راجعاً إلى ما رآه كل واحد. منهما؛ وقيل: إن الضمير في بتأويله موضوع موضع اسم الإشارة، والتقدير بتأويل ذلك ﴿إِنَّا نُرَاكَ مِنَ الْمَحْسِنِينَ﴾

في قوله ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلِكٌ كَرِيمٌ﴾ قال: قلن ملك من الملائكة من حسنه. وأخرج أبو الشيخ عن منبه، عن أبيه قال: مات من النسوة التي قطعن أيديهن تسع عشرة امرأة كمداً. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم عن انس، عن النبي ﷺ قال: «أعطي يوسف وأمه شطر الحسن»، وقد وردت روايات عن جماعة من السلف في وصف حسن يوسف؛ والمبالغة في ذلك، ففي بعضها أنه أعطي نصف الحسن، وفي بعضها ثلثه، وفي بعضها ثلثيه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ قال: امتنع. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ قال: فاستعصى. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ قال: إن لا تكن منك أنت القوي والمنعة لا تكن مني ولا عندي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ﴿أَصْبَحَ لِيَهْنُ﴾ قال: اتبعهن. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: أطاوعهن.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَّاتِ لَيْسَجُنَّهُمْ حَتَّى يَخِينُوا وَيَدْخُلَ مَعَهُ الْيَسَجَنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَئُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كُفْرُونَ ﴿٣٣﴾ وَاتَّبَعَتْ مِنْهُ إِهْرَاءً وَتَتْخَلَّى رَسْمًا مِمَّا كَانَتْ تَأْتِي مِنَ اللَّهِ مِنْ مُرُو ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَقُلُ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ يَصْحَبُ السَّجْنِ أَيْنَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَبْرَ أَبِي اللَّهِ الْوَلَدِ الْقَهَّارِ ﴿٣٥﴾ مَا تَبْدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَبَّحْتُمُوهُمَا أَتَشْرَأْنَهُمَا بِمَا آتَاكُم مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ إِلَهٌ إِلَيْنَ الْقِيَمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

معنى ﴿بدا لهم﴾ ظهر لهم، والضمير للعزيز وأصحابه الذين يدبرون الأمر معه ويشيرون عليه، وأما فاعل ﴿بدا لهم﴾ فقال سببويه: هو ليسجنّته أي: ظهر لهم أن يسجنوه. قال المبرد: وهذا غلط لأن الفاعل لا يكون جملة، ولكن الفاعل ما دلّ عليه (بدا) وهو المصدر كما قال الشاعر: وحق لمن أبو موسى أبوه يوفقه الذي نصب الجبالا أي وحق الحق فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه وقيل: الفاعل المحذوف هو رأي أي: وظهر لهم رأي لم يكونوا يعرفونه من قبل، وهذا الفاعل حذف لدلالته ليسجنّته عليه، واللام في ليسجنّته جواب قسم محذوف على تقدير القول أي: ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين والله ليسجنّته. وقرئ (لتسجنّته) بالمشثاة الفوقية على الخطاب، إما للعزيز ومن معه، أو له وحده على طريق التعظيم، والآيات قيل: هي القميص وشهادة الشاهد وقطع الأيدي، وقيل: هي البركات

الناس كافة ببيعة الانبياء إليهم وهدايتهم إلى ربهم وتبيين طرائق الحق لهم ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ الله سبحانه على نعمه التي أنعم بها عليهم فيؤمنون به ويوحونه ويعملون بما شرع لهم. قوله: ﴿يا صاحبي السجن﴾ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه، وقيل: المراد يا صاحبي في السجن، لأن السجن ليس بمصاحب بل مصحوب فيه، وأن ذلك من باب يا سارق الليلة. وعلى الأول يكون من باب قوله: ﴿أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ [الأعراف: 44] والاستفهام للإنكار مع التقريع والتوبيخ، ومعنى التفرق هنا هو التفرق في النوات والصفات والعدد أي: هل الأرباب المتفرقون في نواتهم المختلفون في صفاتهم المتفاوتون في عددهم خير لكما يا صاحبي السجن، أم الله المعبود بحق المتفرد في ذاته وصفاته الذي لا ضد له ولا ند ولا شريك، القهار الذي لا يغالبه مغالب ولا يعانده معانده؟ أورد يوسف عليه السلام على صاحبي السجن هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام، لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام؛ وقد قيل: إنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب، ولهذا قال لهما: ﴿ما تعبدون من نونه إلا أسماء سميتوهما﴾ أي: إلا أسماء فارغة سميتوهما ولا مسميات لها، وإن كنتم تزعمون أن لها مسميات، وهي الأكلة التي تعبدونها، لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لا مسميات لها؛ وقيل: المعنى ما تعبدون من دون الله إلا مسميات أسماء سميتوهما أنتم وأبائكم من تلقاء أنفسكم، وليس لها من الإلهية شيء إلا مجرد الأسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر؛ وإنما قال: ﴿ما تعبدون﴾ على خطاب الجمع وكذلك ما بعده من الضمائر، لأنه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان على دينهم، ومفعول سميتوهما الثاني محذوف أي: سميتوهما آلهة من عند أنفسكم ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي: بتلك التسمية ﴿من سلطان﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي: ما الحكم إلا لله في العبادة، فهو الذي خلقكم وخلق هذه الأصنام التي جعلتموها معبودة بدون حجة ولا برهان، وجملة ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ مستأنفة، والمعنى: أنه أمركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون أنه معبود، ثم بين لهم أن عبادة وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره فقال: ﴿ذلك﴾ أي: تخصيصه بالعبادة ﴿الدين القيم﴾ أي: المستقيم الثابت ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ذلك هو دينه القويم، وصراطه المستقيم، لجهلكم وبعيدكم عن الحقائق.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات﴾ فقال: ما سألتني عنها أحد قبلك، من الآيات قد القميص وأثرها في جسده، وأثر السكين، وقالت امرأة

أي: من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، وكذا قال الفراء: إن معنى من المحسنين من العالمين الذين أحسنوا العلم. وقال ابن إسحاق: من المحسنين إلينا إن فسرت ذلك، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فقد روي أنه كان كذلك، وجملة ﴿قال لا ياتيكما طعام ترزقانه إلا نياتكما بئاويله قبل أن ياتيكما﴾ مستأنفة جواب سؤال مقتر، ومعنى ذلك أنه يعلم شيئاً من الغيب، وأنه لا ياتيهما إلى السجن طعام إلا أخبرهما بما هيته قبل أن ياتيهما، وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه، بل جعله عليه السلام مقامة قبل تعبيره لرؤياهما بياناً لعل مرتبته في العلم، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين، فهو كقول عيسى عليه السلام ﴿وانتبهكم بما تكلون﴾ [آل عمران: 49] وإنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر، ومعنى ترزقانه: يجري عليهما من جهة الملك أو غيره، والجملة صفة لطعام، أو يرزقكما الله سبحانه، والاستثناء بقوله: ﴿إلا نياتكما بئاويله﴾ مفرغ من أعم الأحوال: أي لا ياتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نياتكما أي: بينت لكما ماهيته وكيفيته قبل أن ياتيكما، وسماه تأويلاً بطريق المشكلة، لأن الكلام في تأويل الرؤيا، أو المعنى: إلا نياتكما بما يتوّل إليه الكلام من مطابقة ما أخبركما به للواقع، والإشارة بقوله: ﴿نلتكما﴾ إلى التأويل، والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما ﴿مما علمني ربي﴾ بما أوحاه إليّ والهمني إياه لا من قبيل الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ، ثم بين لهما أن ذلك الذي ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم الجمة هو بسبب ترك الملة التي لا يؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الانبياء من آباءه فقال: ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ وهو كلام مستأنف يتضمن التعليل لما قبله، والمراد بالترك هو عدم التلبس بذلك من الأصل، لا أنه قد كان تلبس به، ثم تركه كما يدل عليه قوله: ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله﴾ ثم وصف هؤلاء القوم بما يدل على تصلبهم في الكفر وتهالكهم عليه. فقال: ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي: هم مختصون بذلك دون غيرهم لإفراطهم في الكفر بالله. وقوله: ﴿ولاتبعت﴾ معطوف على تركت، وسماه آباء جميعاً لأن الأجداد آباء، وقنم الجد الأعلى، ثم الجد الأقرب ثم الأب لكون إبراهيم هو أصل هذه الملة التي كان عليها أولاده ثم تلقاها عنه إسحاق ثم يعقوب، وهذا منه عليه السلام لترغيب صاحبيه في الإيمان بالله ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله﴾ أي: ما صح لنا ذلك فضلاً عن وقوعه، والضمير في لنا له وللأنبياء المذكورين، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى الإيمان المفهوم من قوله ما كان لنا أن نشرك بالله، و﴿من فضل الله علينا﴾ خبر اسم الإشارة أي: ناشئ من تقضلات الله علينا ولطفه بنا بما جعله لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه، ومن فضل الله على

منعم عليه لا يدري، ويا ربّ حامل فقه غير فقيه. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿ءأرباب متفرقون﴾ الآية، قال: لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظهما من ربهما وإلى نصيبهما من آخرتهما. وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج في قوله: ﴿تلك الدين القيم﴾ قال: العدل، فقال:

يَصْنَعِي أَلَيْسِي أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ حَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ
فَتَأْكُلُ التَّلَبُّرُ مِنْ رَأْسِهِ. فَوَيْلٌ لِلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَانْسَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ
رَبِّهِ. فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٢﴾

هذا هو بيان ما طلباه منه من تعبير رؤياهما. والمراد بقوله: ﴿أما أحدهما﴾ هو الساقى، وإنما ابهمه لكونه مفهوماً أو لكرامة التصريح للخباز بأنه الذي سيصلب ﴿فيسقي ربه خمرًا﴾ أي: ماله، وهي عيبته التي كان قائماً بها في خدمة الملك، فكانه قال: أما أنت أيها الساقى فستعود إلى ما كنت عليه ويدعو بك الملك ويطلقك من الحبس ﴿وأما الآخر﴾ وهو الخباز ﴿فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ تعبيراً لما رآه من أنه يحمل فوق رأسه خبزاً فتأكل الطير منه ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وهو ما رآه وقصاه عليه، يقال: استفتاه إذا طلب منه بيان حكم شيء سأل عنه مما أشكل عليه، وهما قد سألاه تعبيراً ما أشكل عليهما من الرؤيا ﴿وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما﴾ أي: قال يوسف، والظان هو أيضاً يوسف، والمراد بالظن العلم لأنه قد علم من الرؤيا نجا الشرابي وهلاك الخباز، هكذا قال جمهور المفسرين وقيل: الظاهر على معناه، لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظناً، والأول أولى وإنسب بحال الأنبياء. ولا سيما وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه الله على شيء من علم الغيب كما في قوله: ﴿لا ياتيكم طعام ترزقانه﴾ [يوسف: 37] الآية، وجملة ﴿أذكركني عند ربك﴾ هي مقول القول أمره بأن يذكره عند سيده ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والاطلاع على شيء من علم الغيب، وكانت هذه المقالة منه عليه السلام صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان، فيكون ضمير المفعول في أنساه عائداً إلى يوسف، هكذا قال بعض المفسرين ويكون المراد بربه في قوله: ﴿تذكر ربه﴾ وهو الله سبحانه أي: إنساء الشيطان يوسف ذكر الله تعالى في تلك الحال ﴿وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما﴾ يذكره عند سيده ليكون ذلك سبباً لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات ما يدل على براءته. وذهب كثير من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان نكر ربه هو الذي نجا من الغلامين، وهو الشرابي، والمعنى: إنساء لشيطان الشرابي نكر سيده أي: نكره لسيده فلم يبلغ إليه ما أوصاه به يوسف من نكره عند سيده، ويكون المعنى: فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به

العزیز: إن أنت لم تسجنه ليصدقته الناس. وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال: من الآيات كلام الصبي. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: الآيات حرّهن أيبهن وقد القميص.

وأقول: إن كان المراد بالآيات: الدالة على براءته فلا يصح عدّ قطع أيدي النسوة منها، لأنه وقع منهن ذلك لما حصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن مع ما البسه الله سبحانه من الجمال الذي تنقطع عند مشاهدته عرى الصبر وتضعف عند رؤيته قوى التجلد، وإن كان المراد الآيات الدالة على أنه قد أعطي من الحسن ما يسلب عقول المبصرين، ويذهب بإدراك الناظرين، فنعم يصح عدّ قطع الأيدي من جملة الآيات، ولكن ليس هذه الآيات هي المرادة هنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: عوقب يوسف ثلاث مرات: أما أول مرة فبالحبس لما كان من همّه بها، والثانية لقوله: ﴿أذكركني عند ربك...﴾ فلبث في السجن بضع سنين ﴿[يوسف: 42] عوقب بطول الحبس، والثالثة حيث قال: ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ [يوسف: 70] فاستقبل في وجهه: ﴿أن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾. [يوسف: 77]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ويدخل معه السجن فتيان قال أحدهما﴾ خازن الملك على طعامه، والآخر ساقيه على شرابه. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ قال: عنياً. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿نبتنا بقاءويله﴾ قال: عبارته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ قال: كان إحسانه فيما نكر لنا أنه كان يعزّي حزينهم ويداوي مريضهم. ورأوا منه عبادة واجتهاداً فأحبوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب عن الضحاك قال: كان إحسانه أنه إذا مرض إنسان في السجن قام عليه، وإذا ضاق عليه المكان أوسع له، وإذا احتاج جمع له. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: دعا يوسف لأهل السجن فقال: اللهم لا تعمّ عليهم الأخبار وهونّ عليهم مرّ الأيام. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله: ﴿لا ياتيكم طعام﴾ الآية، قال: كره العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريحهما أن عنده علماً، وكان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به إليه، فقال يوسف: ﴿لا ياتيكم طعام ترزقانه﴾ إلى قوله: ﴿يشكرون﴾ فلم يدعه صاحباً للرؤية حت يعبر لهما، فكره العبارة فقال: ﴿يا صاحبي السجن﴾ وأرباب متفرقون إلى قوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ قال: فلم يدعاه فعبّر لهما. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿تلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾ قال: إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله، ويشكر ما بالناس من نعم الله، نكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول: يا ربّ شاكر نعمة غير

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة فذكر نحوه وهو مرسل أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أنس قال: أوحى إلى يوسف: من استنقذك من القتل حين هم إخوانك أن يقتلوك؟ قال: أنت يا رب، قال: فمن استنقذك من الجب إذ القوك فيه؟ قال: انت يا رب، قال: فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك؟ قال: انت يا رب، قال: فما لك نسيتني ونكرت أسمى؟ قال: جزأ وكلمة تكلم بها لساني، قال: فوعزتي لأخلدك في السجن بضع سنين، فلبث فيه سبع سنين، وقد اختلف السلف في تقدير مدة لبثه في السجن على حسب ما قدمنا ذكره، فلم نشغلها هنا بذكر من قال بذلك ومن خرجه.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ خَمَرٍ وَأُخَرَ يَابَسَاتٍ يَأْكُلْنَ أُولَئِكَ فِي رُبْعِي إِنْ كُنْتُ لِلرَّيَا سَمْرُوتَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَضْمَنْتَ أَعْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِبَيْنٍ ﴿١٧﴾ وَقَالَ الَّذِي نَمَّا بَيْنَهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمْرِ أَنَا أَبْنَى كُنْتُ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿١٨﴾ يُؤْمِنُ أَثَرُ الْحَزِينِ أُفٍّ فِي سَبْعٍ بَقَرَاتٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ خَمَرٍ وَأُخَرَ يَابَسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُونَهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا لَكَ يَمَنَّا نَأْكُلُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ بَاقِيَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْمِلُونِ ﴿٢١﴾ ثُمَّ بَاقِيَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَصِيرُونَ ﴿٢٢﴾

المراد بالملك هنا: هو الملك الأكبر، وهو الريان بن الوليد الذي كان العزيز وزيراً له، رأى في نومه لما دنا فرج يوسف عليه السلام أنه خرج من نهر يابس «سبع بقرات سمان» جمع سمين وسمينة، في إثرهن سبع عجاف: أي: مهزليل، وقد أقبلت العجاف على السمان فاكلتهن. والمعنى: إني رأيت، ولكنه عبر بالمضارع لاستحضار الصورة، وكذلك قوله: «ياكلهن» عبر بالمضارع للاستحضار، والعجاف جمع عجفاء، وقياس جمعه عجف، لأن فعلاء وأفعل لا تجمع على فعال، ولكنه عدل عن القياس حملاً على سمان «وسبع سنبلات» معطوف على سبع بقرات. والمراد بقوله: «خضر» أنه قد انعقد حبها، واليابسات التي قد بلغت حد الحصاد. والمعنى: وأرى سبعاً آخر يابسات، وكان قد رأى أن السبع السنبلات اليابسات قد أدركت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها، ولعل عدم التعرض لنكر هذا في النظم القرآني للاكتفاء بما نكر من حال البقرات «يا أيها الملاء» خطاب للأشراف من قومه «أفتوني في رؤيائي» أي: أخبروني بحكم هذه الرؤيا «إن كنتم للرؤيا تعبرون» أي: تعلمون عبارة الرؤيا، وأصل العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عبرت النهر: بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يخبر بما يتوَلَّى إليه أمرها. قال الزجاج: اللام في للرؤيا للتبيين أي: إن كنتم تعبرون. ثم بين فقال: (لرؤيا) وقيل: هو للتقوية، وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل. وجملة «قالوا اضغاث

يوسف مع خلوصه من السجن ورجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقي الملك، وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء. وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف، ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فنذكروني». ورجح أيضاً بأن النسيان ليس بنقص، فلو كان الذي أنساه الشيطان نكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وأجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك، وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه، ويؤيد رجوع الضمير إلى يوسف ما بعده من قوله: «فلبث في السجن بضع سنين» ويؤيد رجوعه إلى الذي نجا من الغلامين قوله فيما سيأتي «وقال الذي نجا منهما وانكر بعد أمة» سنة «فلبث» أي: يوسف «في السجن» بسبب تلك القول الذي قاله للذي نجا من الغلامين، أو بسبب تلك الإنشاء «بضع سنين» البضع: ما بين الثلاث إلى التسع كما حكاه الهروي عن العرب. وحكي عن أبي عبيدة أن البضع: ما دون نصف العقد، يعني: ما بين واحد إلى أربعة؛ وقيل: ما بين ثلاث إلى سبع، حكاه قطرب. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس، وقد اختلف في تعيين قدر المدة التي لبث فيها يوسف في السجن فقبل سبع سنين، وقيل: ثنتا عشرة سنة، وقيل: أربع عشرة سنة، وقيل: خمس سنين.

وقد أخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله: «أما لحنكما» قال: أتاه فقال: رأيت فيما يرى النائم أنني غرست حبة من عنب فنبئت، فخرج فيه عناقيد فعصرتهن ثم سقيتهن الملك؛ فقال: تمكت في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمرًا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال: ما رأى صاحباً يوسف شيئاً، إنما تحالماً ليحزباً علمه. فلما أَوَّلَ رؤياهما قال: إنما كنا نلعب ولم نَرِ شيئاً، فقال «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان» يقول: وقعت العبارة فصار الأمر على ما عبر يوسف. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن أبي مجلز قال: كان أحد اللذين قصا على يوسف الرؤيا كائناً. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن سابط «وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك» قال: عند ملك الأرض. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله». وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن عكرمة مرفوعاً نحوه، وهو مرسل، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن مرفوعاً نحوه، وهو مرسل.

(دأباً) بتحريك الهمزة، وكذا روى حفص عن عاصم وهما لغتا قال الفراء: حرك لأن فيه حرفاً من حروف الحلق، وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز في كلمات معروفة. فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان بسبع سنين فيها خصب، والعجاف بسبع سنين فيها جبد وهكذا عبر السبع السنبلات الخضرة والسبع السنبلات اليابسات، واستدل بالسبع السنبلات الخضرة على ما ذكره في التعبير من قوله: ﴿فَمَا حَصَنْتُمْ فَذُرُّوهُ فِي سَنَبْلَةٍ﴾ أي: ما حصنتم في كل سنة من السنين المخصصة فذروا ذلك المحصول في سنبلة ولا تفصلوه عنها لئلا ياكله السوس إلا قليلاً مما تاكلون في هذه السنين المخصصة فإنه لا بد لكم من فصله عن سنبلة وإخراجه عنها، واقتصر على استثناء الماكول دون ما يحتاجون إليه من البذر الذي يذرونه في أموالهم لأنه قد علم من قوله تزرعون ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد السبع السنين المخصصة ﴿سَبْعَ شَدَادٍ﴾ أي: سبع سنين مجبة يصعب أمرها على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ من تلك الحبوب المتروكة في سنايلها، وإسناد الأكل إلى السنين مجاز، والمعنى: ياكل الناس فيهن أو ياكل أهلهن ما قدمتم لهن: أي: ما اخترتم لاجلهن فهو من باب: نهارة صائم، ومنه قول الشاعر:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم
﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ أي: مما تحبسون من الحب لتزرعوا به، لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات. وقال أبو عبيدة: معنى تحصنون تحزرون، وقيل: تنخرون، والمعنى واحد. قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ﴾ أي: من بعد السنين المجديات، فالإشارة إليهما، والعام السنة ﴿فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ﴾ من الإغاثة أو الفوث، والغيث المطر، وقد غاث الغيث الأرض أي: أصابها، وغاث الله البلاد يغيثها غوثاً: أمطرها، فمعنى يغاث الناس: يمتطرون ﴿وَفِيهِ يَعْصُرُونَ﴾ أي: يعصرون الأشياء التي تعصر كالعنب والسمنسم والزيتون، وقيل: أراد حلب الألبان؛ وقيل: معنى يعصرون ينجون، مأخوذ من العصرة وهي المنجاة. قال أبو عبيدة: والعصر بالتحريك الملجأ والمنجاة، ومنه قول الشاعر:

صايبا يستغيث غير مغاث ولقد كان عصرة المنجود
واعترضت بفلان: التجأت به. وقرأ حمزة والكسائي (يعصرون) بقاء الخطاب. وقرئ (يعصرون) حرف المضارعة وفتح الصاد، ومعناه يمتطرون. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾ [النبا: 14].

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قال يوسف للمساقي: أنكرني عند ربك أي: الملك الأعظم ومظلمتي وحبسي في غير شيء، فقال: أفعل، فلما خرج الساقي رد على ما كان عليه ورضي عنه صاحبه وإنساه الشيطان نكر الملك الذي أمره يوسف أن ينكره له، فلبث يوسف بعد ذلك في السجن بضعة سنين، ثم إن الملك

أحلاماً مستأنفة جواب سؤال مقدر، والأضغاث جمع ضغث، وهو كل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما، والمعنى: أخلط أحلام، والأحلام جمع حلم: وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان، والإضافة بمعنى من، وجمعوا الأحلام ولم يكن من الملك إلا رؤيا واحدة مبالغة منهم في وصفها بالبطلان، ويجوز أن يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ قال الزجاج: المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له، لا مطلق العلم بالتأويل، وقيل: إنهم نفوا عن أنفسهم علم للتعبير مطلقاً، ولم يدعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا، وقيل: إنهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها، ولم يكن ما نكروه من نفي العلم حقيقة ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من الغلامين، وهو الساقي الذي قال له يوسف: ﴿انكرني عند ربك﴾ [يوسف: 42] (وانكر بعد أمة) بالدال المهملة على قراءة الجمهور، وهي القراءة الفصيحة أي: تذكر الساقي يوسف وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا، وقرئ بالمعجمة: ومعنى ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: بعد حين، ومنه ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هود: 8] أي: إلى وقت. قال ابن درستويه: والأمة لا تكون على الحين إلا على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كانه قال: والله أعلم وانكر بعد حين أمة أو بعد زمن أمة، والأمة: الجماعة الكثيرة من الناس. قال الأخفش: هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع، وكل جنس من الحيوان أمة. وقرأ ابن عباس وعكرمة (بعد أمة) بفتح الهمزة وتخفيف الميم أي: بعد نسيان، ومنه قول الشاعر:

أمت وكن لا أنسى حديثاً كذاك الدهر يودي بالعقول
ويقال أمة يامه أمة: إذا نسي. وقرأ الأشهب العقيلي (بعد أمة) بكسر الهمزة أي: بعد نعمة، وهي نعمة النجاة ﴿أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أخبركم به بسؤالي عنه من له علم بتأويله، وهو يوسف ﴿فَارْسَلُونَا﴾ خاطب الملك بلفظ التعظيم، أو خاطبه ومن كان عنده من الملا، طلب منهم أن يرسلوه إلى يوسف ليقص عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك إلى الملك ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ افْتَنَّا﴾ أي: يا يوسف، وفي الكلام حذف، والتقدير: فإرسلوه إلى يوسف فسار إليه، فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ إلى آخر الكلام، والمعنى: أخبرنا في رؤيا من رأى سبع بقرات إلخ وترك ذكر ذلك اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بأن ذلك رؤيا، وأن المطلوب منه تعبيرها ﴿وَعَلَىٰ أَرْجَعِ إِلَى النَّاسِ﴾ أي: إلى الملك ومن عنده من الملا ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ما تأتي به من تأويل هذه الرؤيا أو يعلمون فضلك ومعرفتك لفن التعبير، وجملة ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ إلخ مستأنفة جواب سؤال مقدر كغيرها مما يرد هذا المورد ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ أي: متوالي متتابعة، وهو مصدر، وقيل هو حال أي: دائبين، وقيل: صفة لسبع أي: دأبة. وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه قرأ

يَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَكُنْهُ وَالْقَبْرَ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٦﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَكْبَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَقَالَ إِلَيْكَ أَتَوَقُّ بِذِهِ اسْتَحْلَمْتَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٨﴾ قَالَ لِمَتَلَيْ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴿٥٩﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَرَأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَتَرُ الْغَافِلِينَ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَجْرُ الْأَجْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُورُونَ ﴿٦١﴾

قوله: ﴿وقال الملك لئتوني به﴾ في الكلام حذف قبل هذا، والتقدير: فذهب الرسول إلى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا، وقال الملك لمن بحضرته ائتوني به أي: بيوسف، ورغب إلى رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم من فضله ما علمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه ﴿فلما جاءه﴾ أي: جاء إلى يوسف ﴿الرسول﴾ واستدعاه إلى حضرة الملك وأمره بالخروج من السجن ﴿قال﴾ يوسف للرسول ﴿ارجع إلى ربك﴾ أي: سينك ﴿فأسأله ما بال للنسوة اللاتي قطعن لبيديهن﴾ أمره بأن يسأل الملك عن ذلك وتوقف عن الخروج من السجن، ولم يسارع إلى إجابة الملك، ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه، وأنه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلماً بيناً، ولقد أعطى عليه السلام من الحلم والصبر والأناة ما تضيق الأذهان عن تصوّره، ولهذا ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، يعني: الرسول الذي جاء يدعوه إلى الملك، قال ابن عطية: هذا الفعل من يوسف أناة وصبراً، وطلباً لبراءة ساحته، وذلك أنه خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة، ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز، وإنما قال: ﴿فأسأله ما بال للنسوة﴾ وسكت عن امرأة العزيز رعاية لئلام الملك العزيز، أو خوفاً منه من كيدها وعظيم شرها، وذكر السؤال عن تقطيع الأيدي ولم يذكر مراودتهن له، تنزهاً منه عن نسبة ذلك إليهن، ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدّم إلى امرأة العزيز إلا بعد أن رمته بدائها وانسلت، وقد اكتفى هنا بالإشارة الإجمالية بقوله: ﴿إن ربي بيكيهين عليم﴾ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنياً عن التصريح، وجملة ﴿قال فما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ مستانفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فمأذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف؟ والخطب: الشأن العظيم الذي يحق له أن يخاطب فيه صاحبه خاصة. والمعنى: ما شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه. وقد تقدّم معنى المراودة، وإنما نسب إليهن المراودة، لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدّم؛ ومن جملة من شمله خطاب الملك امرأة العزيز، أو أراد بنسبة ذلك إليهن وقوعه منهن في الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشياً عن التصريح منه بنسبة ذلك إليها لكونها امرأة وزيره وهو

ريان بن الوليد رأى رؤياه التي أرى فيها فهلته وعرف أنها رؤيا واقعة ولم يدر ما تأويلها، فقال للملأ حوله من أهل مملكته ﴿إني أرى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات﴾ فلما سمع من الملك ما سمع منه ومسالته عن تأويلها نكر يوسف ما كان عبر له ولصاحبه وما جاء من ذلك على ما قال فقال: أنا أنبتكم بتأويله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿اضغات لحلام﴾ يقول: مشتهية. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير عنه قال: من الأحلام الكاذبة. وأخرج ابن جرير عن الضحاک مثله. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وانكر بعد أمة﴾ قال: بعد حين. وأخرج ابن جرير عن مجاهد والحسن وعكرمة وعبد الله بن كثير والسدي مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بعد سنين. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: بعد أمة من الناس. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿افتتنا في سبع بقرات﴾ الآية، قال: أما السمان فسنون فيها خصب، وأما العجاف فسنون مجببة، وسبع سنبلات خضر هي السنون المخاصب تخرج الأرض نباتها ويزرعها وثمارها، وآخر يابسات المحول الجدوب لا تثبت شيئاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجب من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط عليهم أن يخرجوني، ولقد عجب من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لباردتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾ يقول: تخزنون، وفي قوله: ﴿وفيه يعصرون﴾ يقول: الأعناب والدهن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وفيه يغاث الناس﴾ يقول: يصيبهم فيه غيث ﴿وفيه يعصرون﴾ يقول: يعصرون وفيه العنب ويعصرون فيه الزبيب ويعصرون من كل الثمرات. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿وفيه يعصرون﴾ قال: يحتلبون. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام﴾ قال: أخبرهم بشيء لم يسألوه عنه كأن الله قد علمه إياه فيه يغاث الناس بالمطر، وفيه يعصرون السمس دهناً والعنب خمرأ والزيتون زيتاً.

وَقَالَ لِلَّذِي أَتَوَيْ بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَتَنَّهُ مَا بَالَ الْبُؤْسِ الَّذِي فَعَلْتَ لِيُؤْيِيَنَّ إِنَّ رَبِّي بَيَّكِيهِنَّ عَلَيَّ ﴿٦٢﴾ قَالَ مَا خَطْبُكِ إِذْ رَوَدْتِ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَسْبُ لِيَ مَا عَلِمْتَا بَعْدَ مِنْ سَوْءِ قَالَتِ أَمَرْتُ الْغَزِيرَ أَنْ يَحْصِيَ الْخَبْزَ أَثَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنَادِينَ ﴿٦٣﴾ ذَلِكَ

ذلك ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إِلَّا مَنْ رَحِمَ مِنَ النَفُوسِ فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء، أو إِلَّا وَقْتُ رَحْمَةِ رَبِّي وعصمته لها، وقيل: الاستثناء منقطع؛ والمعنى: لكن رحمة ربِّي هي التي تكفها عن أن تكون أمارة بالسوء، وجملة ﴿إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل لما قبلها أي: إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم. قوله: ﴿وَقَالَ لِلْمَلِكِ اثْنُونِي بِهِ اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي﴾ الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدّم؛ ومعنى ﴿اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي﴾: أجعله خالصاً لي دون غيري، وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز، والاستخلاص: طلب خلوص الشيء من شوائب الشركة، قال ذلك لما كان يوسف نفيساً، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ في الكلام حذف، وتقديره فأتوه به فلما كلمه أي: فلما كلم الملك يوسف ويحتمل أن يكون المعنى: فلما كلم يوسف الملك. قيل: والأوّل أولى، لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداءً إِلَّا هم بون من يدخل عليهم؛ وقيل: الثاني أولى لقول الملك ﴿قَالَ إِنَّكَ لِلْيَوْمِ لُبَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فإن هذا يفيد أنه لما تكلم يوسف في مقام الملك جاء بما حبه إلى الملك، وقربه من قلبه، فقال له هذه المقالة، ومعنى مكين: ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريد من الملك ويأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره، أو على ما يكله إليه من ذلك. قيل: إنه لما وصل إلى الملك أجلسه على سريره، وقال له: إني أحب أن أسمع منك تعبير رؤيائي، فعبرها له بأكمل بيان وأتم عبارة، فلما سمع الملك منه ذلك قال له: ﴿إِنَّكَ لِلْيَوْمِ لُبَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فلما سمع يوسف منه ذلك ﴿قَالَ لَجْعَلَنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي: ولني أمر الأرض التي أمرها إليك وهي أرض مصر، أو لَجْعَلَنِي عَلَى حِفْظِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وهي الأمكنة التي تخزن فيها الأموال طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم، ويتوصل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأوثان وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق ويهدم ما أمكنه من الباطل طلب ذلك لنفسه ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي لها ترغيباً فيما يرومه، وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك باللقاء مقاليد الأمور إليه وجعلها منوطاً به ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا ﷺ من النهي عن طلب الولاية والمنع من تولية من طلبها أو حرص عليها، والخزائن جمع خزانة، وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء والحفيظ الذي يحفظ الشيء أي: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ﴾ لما جعلته إليّ من حفظ الأموال لا أخرجها في غير مخرجها، ولا أصرفها في غير مصارفها ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجود جمعها وتفريقها ومداخلها ومخرجها ﴿وَكُنْتُ مَكْنًا لِيُوسُفَ﴾ أي: ومثل ذلك التمكين العجيب مكناً ليوسف في الأرض أي: جعلنا له مكاناً، وهو عبارة عن كمال قدرته ونفوذه أمره ونهيه حتى صار الملك يصدر عن رأيه، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه

العزيز، فاجبن عليه بقولهن: ﴿قُلْنَ حَاشَ اللَّهُ﴾ أي: معاذ الله ﴿وَمَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سَوْءٍ﴾ أي: من أمر سيء ينسب إليه، فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ منزلة لجانبه مقررة على نفسها بالمرادة له ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي: تبين وظهر. وأصله حصّ، فقيل: حصص كما قيل في كبوا كبكبوا، قاله الزجاج، وأصل الحصّ: استئصال الشيء، يقال: حصّ شعره إذا استأصله، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت: قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوماً غير تهجاء والمعنى أنه انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه، ومنه: فمن مبلغ عني خدasha فإنه كنوب إذا ما حصص الحق ظالم وقيل: هو مشتق من الحصة. والمعنى: بانت حصة الباطل. قال الخليل: معناه ظهر الحق بعد خفائه، ثم أوضحت ذلك بقولها: ﴿إِنَّا رَأَوْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ولم تقع منه المرادة لي أصلاً ﴿وَلَئِنْ لَمْ نَلِصْاقِينَ﴾ فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المرادة إليها، وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام. قوله: ﴿لَنْ نَكُنَّ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف عليه السلام. قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصارفة لكل منهما إلى ما يليق به، والإشارة إلى الحادثة الواقعة منه، وهي تثبته وتأيينه أي: فعلت ذلك ليعلم العزيز أنني لم أخنه في أهله بالغيب؛ والمعنى بظهر الغيب، والجار والمجرور في محل نصب على الحال أي: وهو غائب عني، أو وأنا غائب عنه. قيل: إنه قال ذلك وهو في السجن بعد أن أخبره الرسول بما قالت النسوة، وما قالتها امرأة العزيز، وقيل: إنه قال ذلك وقد صار عند الملك، والأوّل أولى. وذهب الأقلون من المفسرين إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز، والمعنى: تلك القول الذي قلته في تنزيهه، والإقرار على نفسي بالمرادة ليعلم يوسف أنني لم أخنه فأنسب إليه ما لم يكن منه وهو غائب عني، أو وأنا غائبة عنه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي: لا يثبت ويسنده، أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم وإذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منها الكيد له والخيانة لزوجها، وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته ونزاهته ﴿وَمَا لِبَرِّئٍ نَفْسِي﴾ إن كان من كلام يوسف فهو من باب الهمز للنفس، وعدم التزكية بها مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنه بريء وظهر ذلك ظهور الشمس، واقرّت به المرأة التي ادّعت عليه الباطل، ونزمته النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وإن كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة، لأنها قد اقرت بالذنب، واعترفت بالمرادة بالافتراء على يوسف. وقد قيل: إن هذا من قول العزيز وهو بعيد جداً؛ ومعناه: وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف، والمساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي: إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات، وتأثيرها بالطبع، وصعوبة قهرها، وكفها عن

وإنا ابن يعقوب نبي الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن شيبه بن نعمة الضبي في قوله: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ يقول: على جميع الطعام. ﴿إني حفيظ﴾ لما استودعني ﴿عليهم﴾ بسني المجاعة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿وكنك مكنيا ليوسف في الأرض﴾ قال: ملكناه فيها يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا يصنع فيها ما يشاء. وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم أن يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكراً، وكان زوجها عنيثا.

وَكَلَّمَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَعَلَا عَلَيْهِ قَمَرَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَكَلَّمَ جَهْرَهُمْ بِهَاهُمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَرْفِي الْأَكِيلَ وَأَنَا سَيِّرُ الْأَثَرِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي ﴿٦٠﴾ فَأَلَا سَأَلْتُمْ عَنْهُمْ آبَاءَ رَبِّكَ لَعَلَّكُمْ أَتَمْلِكُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِيُفَيْسُ أَجْمَلُوا بِضَعْتُمْ فِي رِجَالِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ وَإِنَّا أَنْتَكِلُوا إِلَيْكَ أَمْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلَ مَنَّا أَحَاكَ نَكْشَلُ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ مَلَأْنَاكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ سَيِّرُ حَفِظَ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَعْتَهُمْ رَدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُئُكَ هَذِهِ بَضْعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَبِئْسَ أَهْلًا وَنَحْفَظُ أَحَاكَ وَزَدَادُ كَيْلٍ بَيْتٌ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْفِقُوا مَوْفِقًا يَرْضَى اللَّهُ تَأْتِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْفِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

قوله: ﴿وجاء إخوة يوسف﴾ أي: جاءوا إلى مصر من أرض كنعان ليبتاعوا لما أصابهم القحط ﴿فدخلوا﴾ على يوسف ﴿فعرّفهم﴾ لأنه فارقهم رجلاً ﴿وهم له منكرون﴾ لأنهم فارقوه صبياً يباع بالدرهم في أيدي السيارة بعد أن أخرجوه من الجب، وبخلوا عليه الآن وهو رجل عليه أبهة الملك، ورويق الرثاسة، وعنده الخدم والحشم. وقيل: إنهم أنكروه لكونه كان في تلك الحال على هيئة ملك مصر، ولبس تاجه وتطوق بطوقه، وقيل: كانوا بعيداً منه فلم يعرفوه، وقيل غير ذلك، ﴿ولما جهّزهم بجهازهم﴾ المراد هنا أنه أعطاهم ما طلبوه من الميرة وما يصلحون به سفرهم من العدة التي يحتاجها المسافرين. يقال: جهّز القوم تجهيزاً إذا تكلفت لهم جهازاً للسفر. قال الأزهري: القراء كلهم على فتح الجيم، والكسر لغة جيدة. ﴿قال أنتوني باخ لكم من أبيكم﴾ قيل: لا بد من كلام ينشأ عنه طلبه لهم بأن يأتوه باخ لهم من أبيهم. فروي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: ما أنتم وما شأنكم فإني أنكركم؟ فقالوا: نحن قوم من أهل الشام جئنا نمتار ولنا أب شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: عشرة وقد كنا اثني عشر، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك، وكان أحبنا إلى أبينا، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه هو باقى لديه يتسلى به، فقال لهم حينئذٍ: ﴿أنتوني باخ لكم من أبيكم﴾ يعني: أخاه

﴿يتبوا منها حيث يشاء﴾ أي: ينزل منها حيث أراد ويتخذ مباءة، وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدّم، وكأنه يتصرف في الأرض التي أمرها إلى سلطان مصر كما يتصرف الرجل في منزله. وقرأ ابن كثير بالتون، وقد استدلّ بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق. وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفي في قوله سبحانه: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ [هود: 113] ﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان إليه والإنعام عليه، وفي الآخرة بإدخاله الجنة وإنجائه من النار ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ في أعمالهم الحسنة التي هي مطلوب الله منهم أي: لا نضيع ثوابهم فيها، ومجازاتهم عليها ﴿ولا لاجر الآخرة﴾ أي: لجرهم في الآخرة، وأضيف الأجر إلى الآخرة للملائسة، وأجرهم هو الجزء الذي يجازيهم الله به فيها، وهو الجنة التي لا يتفقد نعيمها ولا تنقضي مدتها ﴿خير للذين آمنوا﴾ بأش ﴿وكانوا يتقون﴾ الوقوع فيما حرّم عليهم، والمراد بهم المحسنون المتقدم ذكرهم، وفيه تنبيه على أن الإحسان المعتد به هو الإيمان والتقوى.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وما بال للنسوة﴾ قال: أراد يوسف العنبر قبل أن يخرج من السجن. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب عنه قال: لما قالت امرأة العزيز: أنا راودته، قال يوسف: ﴿ذلك ليعلم أنني لم أئخه بالغيب﴾ فغمزه جبريل فقال: ولا حين هممت بها؟ فقال: ﴿وما لبرئ نفسي﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿حصحص للحق﴾ قال: تبين. وأخرج ابن جرير عن مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، والسدي مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، عن حكيم بن حزام في قوله: ﴿ذلك ليعلم أنني لم أئخه بالغيب﴾ فقال له جبريل: ولا حين حلت السراويل؟ فقال عند ذلك ﴿وما لبرئ نفسي﴾. وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿وقال الملك أنتوني به استخلصه لنفسه﴾ قال: فأتاه الرسول فقال: ألق عنك ثياب السجن واللبس ثياباً جديداً وقم إلى الملك، فدعا له أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلما أتاه رأى غلاماً حدثاً، فقال: أيعلم هذا رؤيائي ولا يعلمها السحرة والكهنة؟ وأقعده قدامه وقال: لا تخف، وألبسه طوقاً من ذهب وثياب حرير، وأعطاه دابة مسروجة مزينة كدابة الملك، وضرب الطبل بمصر: إن يوسف خليفة الملك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال الملك ليوسف: إني أحب أن تخالطني في كل شيء إلا في أهلي. وإنا أنف أن ناكل معي، فغضب يوسف وقال: أنا أحق أن أنف، أنا ابن إبراهيم خليل الله، وأنا ابن إسحاق نبيح الله،

بنيامين الذي تقدّم ذكره، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه، فوعده بذلك، فطلب منهم أن يتركوا أحدهم رهينة عنده حتى يأتوه بالأخ الذي طلبه، فافترعوا فاصابت القرعة شمعون فخلفوه عنده، ثم قال لهم: ﴿وَالَا تَرُونَ أَنِّي أَوفِي الْكَيْلِ﴾ أي: أتممه، وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أن ذلك عاقبته المستمرة، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقاً به وتصديقاً لقوله، فقال: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمَنْزِلِينَ﴾ أي: والحال أنني خير المنزلين لمن نزل بي كما فعلته بكم من حسن الضيافة وحسن الإنزال. قال الزجاج: قال يوسف: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمَنْزِلِينَ﴾ لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم، ثم توعدهم إذا لم يأتوه به فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرِبُونِ﴾ أي: فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد، وأما في الحال فقد أوفاهم كيلهم، ومعنى لا تقربون: لا تدخلون بلادي فضلاً عن أن أحسن إليكم وقيل: معناه لا أنزلكم عندي كما أنزلتكم هذه المرة، ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده، وتقريبون مجزوم إما على أن لا ناهية أو على أنها نافية، وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كأنه قال: فإن لم تأتوني تحرموا ولا تقربوا فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم فـ ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنطلبه منه، ونجتهد في ذلك بما نقدر عليه، وقيل: معنى المرادة هنا المخادعة منهم لأبيهم والاحتتيال عليه حتى ينتزعوه منه ﴿وَأَنَا لِفَاعِلُونَ﴾ هذه المرادة غير مقصرين فيها. وقيل: معناه وإننا لقادرون على ذلك، لا نتعاضى به ولا نتعاضمه ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾. قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر (لفتيته)، واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما، وقرأ سائر الكوفيين (لفتيان)، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وفي مصحف عبد الله بن مسعود كالقراءة الآخرة. قال النحاس: لفتيانته مخالف للسواد الأعظم، ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الإسناد المنقطع وأيضاً فإن فتية أشبه من فتیان، لأن فتية عند العرب لأقل العدد، وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبه. والجملة مستأنفة جواب سؤال كأنه قيل: فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك؟ فأجيب بأنه قال لفتيته. قال الزجاج الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك. وقال الثعلبي: هما لغتان جيتان مثل الصبيان والصبية. والمراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروها بها الطعام، وكانت نعالاً وأماناً، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم؛ وقيل: فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلهم أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن قاله الفراء. وقيل: فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام؛ وقيل: إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام، ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ فجعل علّة جعل البضاعة في الرحال هي

معرفتهم لها إذا انقلبوا إلى أهلهم، وذلك لأنهم لا يعلمون بردّ البضاعة إليهم إلا عند تفرغ الأوعية التي جعلوا فيها الطعام، وهم لا يفرغونها إلا عند الوصول إلى أهلهم، ثم علل معرفتهم بالبضاعة المردودة إليهم المجعل في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فإنهم إذا عرفوا ذلك وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن، وإن ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع إليهم، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم نشطوا إلى العود إليه، ولا سيما مع ما هم فيه من الجذب الشديد والحاجة إلى الطعام وعدم وجوده لديهم، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع، وبهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يردّ البضاعة إليهم إلا لهذا المقصد، وهو رجوعهم إليه فلا يتم تحليل ردّها بغير ذلك، والرحال جمع رحل، والمراد به هنا ما يستصعبه الرجل معه من الأثاث. قال الواحدي: الرجل كل شيء معدّ للرحيل من وعاء للمتع والمركب للبعير ومجلس ورسن انتهى. والمراد هنا الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام. قال ابن الأنباري: يقال: للوعاء رحل والبيت: رحل ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَنَا الْكَيْلَ﴾ أرادوا بهذا ما تقدّم من قول يوسف لهم: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ أي: منع منا الكيل في المستقبل، وفيه دلالة على أن الامتياز مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه، ولعلمهم قالوا له بهذه المقالة قبل أن يفتحوا متاعهم ويعلموا بردّ بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ إلى آخره، ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف، فقالوا: ﴿فَارْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ يعنون بنيامين و ﴿نَكْتَلْ﴾ جواب الأمر أي: نكتل بسبب إرساله معنا ما نريده من الطعام. قرأ أهل الحرمين، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم (نكتل) بالنون. وقرأ سائر الكوفيون بالياء التحتية. واختار أبو عبيد القراءة الأولى قال: ليكونون كلهم داخلين فيمن يكتال، وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده أي: يكتال أخونا بنيامين، واعترضه النحاس مما حاصله أن إسناد الكيل إلى الأخ لا ينافي كونه للجميع، والمعنى: يكتال بنيامين لنا جميعاً. قال الزجاج: أي إن أرسلته اكتلنا وإلاّ منعنا الكيل ﴿وَأَنَا لَهُ﴾ أي: لأخيهم بنيامين ﴿لِحَافِظُونَ﴾ من أن يصيبه سوء أو مكروه، وجملة ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كما تقدّم في نظائر ذلك في مواضع كثيرة، والمعنى: أنه لا يأمنهم على بنيامين إلا كما آمنهم على أخيه يوسف وقد قالوا له في يوسف: ﴿وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ كما قالوا هنا: ﴿وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ ثم خانوه في يوسف فهو إن آمنهم في بنيامين خاف أن يخونوه فيه كما خانوه في يوسف ﴿فَاللَّهُ خَيْرُ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لعل هنا إضماراً والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم وقال: فالله خير حفظاً. قرأ أهل المدينة (حفظاً) وهو منتصب على التمييز، وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وابن عامر. وقرأ سائر الكوفيين (حافظاً)، منتصب على الحال. وقال الزجاج:

اعطوه ما طلبه منهم من اليمين ﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾ أي قال يعقوب: الله على ما قلناه من طلبتي الموثق منكم وإعطائكم لي ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفي عليه منه خافية، فهو المعاقب لمن خاس في عهده وفجر في الحلف به، أو موكل إليه القيام بما شهد عليه منا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: إن إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون، جاء بصواع الملك الذي كان يشرب فيه، فوضعه على يده فجعل ينقره ويطحن، وينقره ويطحن، فقال: إن هذا الجام ليخبرني عنكم خبراً. هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف؟ وكان أبوه يحبه لونه، وإنكم انطلقتم به فالتقيتموه في الجب وأخبرتم إياكم أن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب؟ قال: فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويعجبون. وأخرج أبو الشيخ عن وهيب قال: لما جعل يوسف ينقر الصواع ويخبرهم قام إليه بعض إخوته فقال: انشيك بالله أن لا تكشف لنا عورة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿الفتوني باخ لكم من أبيكم﴾ قال: يعني بنيامين، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وإنا خير للمنزّلين﴾ قال: خير من يضيف بمصر. وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿لفتيته﴾ أي: لغلماناه ﴿لجعلوا بضاعتهم﴾ أي: أوراقيهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿ما نبغي هذه بضاعتنا رئت إلينا﴾ يقولون: ما نبغي وراء هذا ﴿ونزداد كيل بعير﴾ أي: حمل بعير. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿ونزداد كيل بعير﴾ قال: حمل حمار، قال: وهي لغة، قال أبو عبيد: يعني مجاهداً أن الحمار يقال له: في بعض اللغات بعير. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ قال: تهلكوا جميعاً. وفي قوله: ﴿فلما أتوه موثقهم﴾ قال: عهدهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ قال إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك.

وَقَالَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَدْعُلُوا مِنْ بَابِ رَجُلٍ وَأَدْعُلُوا مِنْ أَبْوَابِ مُتَرَفِقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاكِمَةٌ مِنْ تَبَنٍ يُعْقَبُ فَبَصَلَتْ يَدَهُ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعَلَمَتْهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ آبَاءَ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَعْرَضَ عَنْهُمْ فَوَسَّوْا بَيْنَهُمْ فَسَخَطَ اللَّهُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِمَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ إِنَّهُمَا الْيَوْمَ بِكُمْ لَسِرُورٌ ﴿٨٠﴾ قَالُوا وَاقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا نَنْفِيهِمْ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٨٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ بِهِ الْيَوْمَ ﴿٨٣﴾ قَالُوا وَمَا كُنَّا سِرْقِينَ ﴿٨٤﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ

على البيان يعني: التمييز؛ ومعنى الآية: أن حفظ الله إياه خير من حفظهم له، لما وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه، ولما قال في يوسف: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ [يوسف: 13] وقع له من الامتحان ما وقع. ﴿ولما فتحواً متاعهم﴾ أي: أوعية الطعام أو ما هو أعم من ذلك مما يطلق عليه لفظ المتاع سواء كان الذي فيه طعاماً أو غير طعام ﴿وجنوا بضاعتهم رئت إليهم﴾ أي: البضاعة التي حملوها إلى مصر ليتماروا بها، وقد تقدّم بيانها، وجملة ﴿قالوا يا إيلنا﴾ مستأنفة كما تقدّم ﴿ما نبغي﴾ ما استفهامية والمعنى: أي شيء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا ما صنع من الإحسان بردّ البضاعة والإكرام عند القنوم إليه، وتوفير ما أردناه من الميرة، ويكون الاستفهام للإنكار، وجملة ﴿هذه بضاعتنا رئت إلينا﴾ مقرّرة لما دل عليه الاستفهام من الإنكار لطلب شيء مع كونها قد رئت إليهم؛ وقيل: إن (ما) في ما نبغي نافية أي: ما نبغي في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وإكرامه لنا، ثم برهنوا على ما لقوه من التزيد في وصف الملك بقولهم ﴿هذه بضاعتنا رئت إلينا﴾ فإن من تفضل عليهم بردّ ذلك حقيق بالثناء عليه منهم، مستحق لما وصفوه به، ومعنى ﴿ونمير أهلنا﴾ تجلب إليهم الميرة وهي الطعام، والمائر الذي يأتي بالطعام. وقرأ السلمي بضم النون، وهو معطوف على مقدر يدلّ عليه السياق. والتقدير: هذه بضاعتنا رئت إلينا فنحن نستعين بها على الرجوع ونمير أهلنا ﴿ونحفظ لأخانا﴾ بنيامين مما تخافه عليه ﴿ونزداد﴾ بسبب إرساله معنا ﴿كيل بعير﴾ أي: حمل بعير زائد على ما جئنا به هذه المرة، لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير، ومعنى ﴿نلك كيل يسير﴾ أن زيادة كيل بعير لأخيها يسهل على الملك، ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيراً لا يتعاضمه ولا يضايقنا فيه، وقيل إن المعنى: نلك المكيل لأجلنا قليل نريد أن ينضاف إليه حمل بعير لأخيها. واختار الزجاج الأول. وقيل: إن هذا من كلام يعقوب جواباً على ما قاله أولاده، ﴿ونزداد كيل بعير﴾ يعني: إن حمل بعير شيء يسير لا يخطر لأجله بالرك وهو ضعيف، لأن جواب يعقوب هو ﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾ أي: حتى تعطوني ما أثق به وأركن إليه من جهة الله سبحانه، وهو الحلف به، واللام في ﴿لتاتنني به﴾ جواب القسم، لأن معنى ﴿حتى تؤتون موثقاً من الله﴾: حتى تحلفوا بالله لتاتني به أي: لتردّ بنيامين إلي، والاستثناء بقوله: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ وقيل إن المعنى: نلك المكيل، وإن كان كلاماً مثبتاً فهو في معنى النفي، ﴿لتاتنني به﴾. وإن كان كلاماً مثبتاً فهو في معنى النفي، فكانه قال: لا تمنعون من إتياني به في حال من الأحوال لعله من الملل إلا لعلة الإحاطة بكم، والإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو، ومن أحاط به العدو فقد غلب أو هلك، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن ياتوه ببنيامين إلا أن تغلبوا عليه أو تهلكوا بونه، فيكون ذلك عذراً لكم عندي ﴿فلما أتوه موثقهم﴾ أي:

إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا جَزَاءُ مَنْ رَمَدَ فِي رَعْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُ كَذَّابٍ
يَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٧﴾ بَدَأَ بِأَرْبَعِهِمْ قَبْلَ رَعَا أَخِي ثُمَّ اسْتَخَرَهَا مِنْ رَعَا
أَخِي كَذَلِكَ كَذَبَ الْيُوسُفُ مَا كَانَ لِأَخِي أَنْ يَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَتَ مَنْ نَشَاءُ وَنُفِقْ كَيْفَ ذِي عِلْمٍ ﴿٧٨﴾

لما تجهز أولاد يعقوب للمسير إلى مصر خاف عليهم أبوهم أن تصيبهم العين لكونهم كانوا ذوي جمال ظاهر وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد، فنهاهم أن يدخلوا مجتمعين من باب واحد لأن في ذلك مظنة لإصابة الأعين لهم، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، ولم يكتف بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ عن قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم لو دخلوا من بابين مثلاً كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد، ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، قيل: وكانت أبواب مصر أربعة.

وقد أنكر بعض المعتزلة كآبي هاشم والبلخي أن للعين تأثيراً، وقالوا: لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به كانت المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف معلقاً به. وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما، فقد صار نفع آفة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وبينهم، وأي مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك؟ وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأصيب بها جماعة في عصر النبوة، ومنهم رسول الله ﷺ. وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلي والتنطع في العبارات كالزخشري في تفسيره، فإنه في كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذي يدعيه على العقل حتى يضم إلى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة والمذاهب الزائفة. وبالجمله فقول هؤلاء مدفوع بالآلة المتكاثرة وإجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً، وبما هو مشاهد في الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنساني وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب.

وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالإصابة بالعين، فقال قوم: يمنع من الاتصال بالناس دفعا لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته؛ وقيل: ينفي؛ وأبعد من قال إنه يقتل إلا إذا كان يعتمد ذلك وتتوقف إصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك، فإنه إذا قتل كان له حكم القاتل. ثم قال يعقوب لأولاده ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا أنفع عنكم ضرراً ولا أجلب إليكم نفعاً بتبيري هذا، بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة. قال الزجاج وابن الأنباري: لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم مع الاجتماع

لكان تفرقهم كلجمعهم. وقال آخرون: ما كان يغني عنهم يعقوب شيئاً قط حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم، ثم صرح يعقوب بأنه لا حكم إلا الله سبحانه فقال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك في ذلك ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كل إيراد وإصدار لا على غيره أي: اعتمدت ووثقت ﴿وعليه﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على العموم، ويدخل فيه أولاده بخلاً أولاً ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي: من الأبواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد. وجواب لما ﴿مَا كَانَ يَغْنَى عَنْهُمْ﴾ ذلك الدخول ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ أي: من جهته ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأشياء مما قدره الله عليهم لأن الحزن لا يدفع القدر، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ منقطع؛ والمعنى: ولكن حاجة كانت في نفس يعقوب، وهي شفقتة عليهم ومحبة لسلامتهم قضاهما يعقوب أي: أظهرها لهم ووصاهم بها غير معتقد أن للتبدير الذي يبره لهم تأثيراً في دفع ما قضاه الله عليهم، وقيل: إنه خطر ببال يعقوب أن الملك إذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة. وسيما الشجاعة أوقع بهم حسداً وحقدًا أو خوفاً منهم، فامرهم بالتفرق لهذه العلة. وقد اختار هذا النحاس وقال: لا معنى للعين ها هنا، وفيه أن هذا لو كان هو السبب لامرهم بالتفرق ولم يخص النهي عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من باب واحد، لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد. وقيل: إن الفاعل في قضاهما ضمير يعود إلى الدخول لا إلى يعقوب. والمعنى: ما كان الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً، ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب إرادته ﴿وَوَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ﴾ أي: وإن يعقوب لصاحب علم لأجل تعليم الله إياه بما أوحاه الله من أن الحزن لا يدفع القدر، وأن ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بذلك كما ينبغي، وقيل: لا يعلمون أن الحزن مندوب إليه وإن كان لا يغني من القدر شيئاً، والسياق يدفعه؛ وقيل: المراد بأكثر الناس المشركون ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: ضم إليه أخاه بنيامين، قيل: إنه أمر بإنزال كل اثنين في منزل فبقي أخوه منفرداً فضمه إليه و ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا لَخُوكُ﴾ يوسف، قال له ذلك سرّاً، من دون أن يطلع عليه إخوته ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إخوتك من الأعمال الماضية التي عملوها؛ وقيل: إنه لم يخبره بأنه يوسف، بل قال له: إني أخوك مكان أخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسداً وبغياً؛ وقيل: إنه أخبره بما سيبره معهم من جعل السقاية في رحله، فقال: لا أبالي، وقيل: إنه لما أخبر يوسف أخاه بنيامين بأنه أخوه قال: لا ترنني إليهم، فقال قد علمت اغتنام أبنينا يعقوب فإذا حبستك عندي ازداد غمه، فأتى بنيامين فقال له يوسف: لا يمكن

حبسك عندي إلا بأن أنسبك إلى ما لا يجمل بك، فقال: لا أبالي، ففس الطاع في رحله، وهو المراد بالسقاية وأصلها المشربة التي يشرب بها جعلت صاعاً يكال به، وقيل: كان تسقى بها الدواب ويكال بها الحب، وقيل: كانت من فضة وقيل: كانت من ذهب، وقيل غير ذلك. وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل. والمعنى: أنه جعل السقاية التي هو الصواع في رحل أخيه الذي هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتره من الطعام من مصر **﴿ثم﴾** بعد ذلك **﴿أذن مؤذن﴾** أي: نادى مناد قائلاً **﴿إيتها العير﴾** قال الزجاج: معناه يا أصحاب العير. وكل ما امتير عليه من الإبل والحميز والبالغ فهو عير؛ وقيل: هي قافلة الحمير. وقال أبو عبيدة: العير الإبل المرحولة المركوبة **﴿إنكم لسارقون﴾** نسبة السرق إليهم على حقيقتها، لأن المنادي غير عالم بما دبره يوسف؛ وقيل: إن المعنى إن حالكم حال السارقين كون الصواع صار لديكم من غير رضا من الملك **﴿قالوا﴾** أي: إخوة يوسف **﴿واقبلوا عليهم﴾** أي حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادي من أصحاب الملك **﴿ماذا تفقنون﴾** أي: ما الذي فقدتموه، يقال: فقدت الشيء إذا عدته بضياع أونحوه، فكانهم قالوا ماذا ضاع عليكم؟ وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة **﴿قالوا﴾** في جوابهم **﴿نفقد صواع الملك﴾**. قرأ يحيى بن يعمر (صواع) بالغين المعجمة. وقرأ أبو رجاء (صوع) بضم الصاد المهملة وسكون الواو بعدها عين مهملة. وقرأ أبي (صياع). وقرأ أبو جعفر صاع، وبها قرأ أبو هريرة. وقرأ الجمهور (صواع) بالصاد والعين المهملتين. قال الزجاج: الصواع هو الصاع بعينه، وهو ينكر ويؤنث، وهو السقاية، ومنه قول الشاعر:

نشرب الخمر بالصواع جهاراً

﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي قالوا: ولمن جاء بالصواع من جهة نفسه حمل بعير. والبعير الجمل، وفي لغة بعض العرب أنه الحمار، والمراد بالحمل ها هنا ما يحمله البعير من الطعام، ثم قال المنادي **﴿وانا به زعيم﴾** أي: بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية، والزعيم هو الكفيل، ولعل القائل نفقد صواع الملك هو المنادي، وإنما نسب القول إلى الجماعة لكونه واحداً منهم، ثم رجع الكلام إلى نسبة القول إلى المنادي وحده لأنه القائل بالحقيقة **﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفقد في الأرض﴾** التاء بدل من واو القسم عند الجمهور، وقيل: من الباء، وقيل: أصل بنفسها، ولا تدخل إلا على هذا الاسم الشريف دون سائر أسمائه سبحانه، وقد دخلت نائراً على الرب، وعلى الرحمن، والكلام على هذا مستوفى في علم الإعراب؛ وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف وأصحابه بنزاهة جانبهم وطهارة ذيلهم عن التلوث بقذر الفساد في الأرض الذي من أعظم أنواعه السرقة، لأنهم قد شاهدوا منهم في قومهم عليه المرة الأولى، وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم

الجازم بأنهم ليسوا بمن يتجاراً على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد، ولو لم يكن من ذلك إلا ردّهم لبضاعتهم التي وجبوا في رحالهم، والمراد بالأرض هنا أرض مصر، ثم أكتوا هذه الجملة التي أقسموا بالله عليها بقولهم: **﴿وما كنا سارقين﴾** لزيادة التبرّي مما قرفوهم به والتنزّه عن هذه النقيصة الخسيسة والرديلة الشنعاء **﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾** هذه الجملة مستأنفة كما تقدّم غير مرة في نظائرها، والقائلون هم أصحاب يوسف، أو المنادي منهم وحده كما مرّ، والضمير في جزاؤه للصواع على حذف مضاف أي: فما جزاء سرقة الصواع عنكم، أو الضمير للسارق أي: فما جزاء سارق الصواع عنكم **﴿إن كنتم كاذبين﴾** فيما تدّعون لأنفسكم من البراءة عن السرقة، وذلك بأن يوجد الصواع معكم، فأجاب أخوة يوسف و **﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾** أي: جزاء سرقة الصواع أو جزاء سارق الصواع. وجزاؤه مبتدأ، والجملة الشرطية: وهي من وجد في رحله فهو جزاؤه خبر المبتدأ على إقامة الظاهر مقام الضمير فيها، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو، فيكون الضمير الثاني عائد إلى المبتدأ، والأول إلى من، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ ومن وجد في رحله، والتقدير: جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد في رحله، وتكون جملة فهو جزاؤه لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها. قال الزجاج: وقوله: **﴿فهو جزاؤه﴾** زيادة في البيان أي: جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير. قال المفسرون: وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة فلذلك استقوتهم في جزائه **﴿كنك نجزي الظالمين﴾** أي: مثل تلك الجزاء الكامل نجزي الظالمين. لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم، وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام إخوة يوسف، ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف أي: كنك نحن نجزي الظالمين بالسرق. ثم لما ذكروا جزاء السارق أرباباً أن يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر، فأقبل يوسف على ذلك **﴿فبدأ به﴾** تفتيش **﴿أوعيتهم﴾** أي: أوعية الإخوة العشرة **﴿قبل وعاء أخيه﴾** أي: قبل تفتيشه لوعاء أخيه بنيامين دفعا للهمة ورفعاً لما دبره من الحيلة **﴿ثم استخرجها﴾** أي: السقاية أو الصواع، لأنه ينكر ويؤنث **﴿كنك كننا ليوסף﴾** أي: مثل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوסף يعني: علمناه إياه أوحيناه إليه، والكيد مبلوّه السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه، وهو محمول في حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية. قال القتيبي: معنى كدنا دبرنا. وقال ابن الأنباري: أربنا. وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً **﴿ما كان ليأخذ لخاصه في دين الملك﴾** أي: ما كان يوسف ليأخذ أخاه بنيامين في دين الملك أي: ملك مصر، وفي شريعته التي كان عليها، بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق

ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته. وحاصله أن يوسف ما كان يتمكن من إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفاً لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له وببره وأزاده حتى وجد السبيل إليه، وهو ما أجراه على السنن إخوانه من قولهم: إن جزء السارق الاسترقاق، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتبديره، وهو معنى قوله: **﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾** أي: إلا حال مشيئته وإذنه بذلك وإرادته له، وهذه الجملة: أعني ما كان ليأخذ أخاه إلخ تحليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف أو تفسير له **﴿ترفع درجات من نشاء﴾** بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعا درجة يوسف بذلك **﴿وفوق كل ذي علم﴾** ممن رفعه الله بالعلم **﴿عليم﴾** أرفع رتبة منهم وأعلى درجة لا يبلغون مداه ولا يرتقون شأوه. وقيل: معنى ذلك أن فوق كل أهل العلم عليم وهو الله سبحانه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَخْلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾** قال: رهب يعقوب عليهم العين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن محمد بن كعب قال: خشي عليهم العين. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن النخعي في قوله: **﴿وَابْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾** قال: أحب يعقوب أن يلقي يوسف أخاه في خلوة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾** قال: خيفة العين على بنييه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿وَأَنَّهُ لَنَوْعٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾** قال: إنه لعامل بما علم، ومن لا يعمل لا يكون عالماً. وأخرج هؤلاء عنه في قوله: **﴿وَأَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾** قال: ضمه إليه، وفي قوله: **﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾** قال: لا تحزن ولا تياس، وفي قوله: **﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾** قال: قضى حاجتهم وكال لهم طعامهم، وفي قوله: **﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾** قال: هو إناء الملك الذي يشرب منه **﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾** قال: في متاع أخيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس في قوله: **﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾** قال: هو الصواع، وكل شيء يشرب منه فهو صواع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿أَنِيتَهَا لِلْعِيرِ﴾** قال: كانت العير حميراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿وَوَلَمِنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾** قال: حمل حمار طعم، وهي لغة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿وَأَنَّا بِهِ زَعِيمٌ﴾** يقول: كفيل. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقاتدة، والضحاك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس في قوله: **﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾** يقول: ما جئنا

لنقصي في الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: **﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾** قال: عرفوا الحكم في حكمهم فقالوا: من وجد في رحله فهو جزاؤه. وكان الحكم عند الأنبياء يعقوب وبنيه أن يؤخذ السارق بسرقة عبداً يسترق. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾** قال: نكر لنا أنه كان كلما فتح متاع رجل استغفر تأثماً مما صنع حتى بقي متاع الغلام قال: ما أظن أن هذا أخذ شيئاً. قالوا: بلى فاستبره. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: **﴿كَذَلِكَ كُنَّا لِيُوسُفَ﴾** قال: كذلك صنعنا ليوسف **﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾** يقول: في سلطان الملك. قال: كان في دين ملكهم أنه من سرق أخذت منه السرقة ومثلها معها من ماله فيعطيه المسروق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: **﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾** يقول: في سلطان الملك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾** قال: إلا بعة كادها الله ليوسف فاعتل بها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه في قوله: **﴿ترفع درجات من نشاء﴾** قال: يوسف وإخوانه أوتوا علماً فرفعنا يوسف في العلم فوقهم درجة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث، فقال رجل عنده: **﴿وَفُوقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾** فقال ابن عباس: بشئ ما قلت، الله العليم الخبير، وهو فوق كل عالم. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال: سأل رجل علياً عن مسألة، فقال فيها، فقال الرجل ليس هكذا ولكن كذا وكذا، قال علي: أصبت وأخطأت **﴿وَفُوقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾** وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عن عكرمة في قوله: **﴿وَفُوقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾** قال: علم الله فوق كل عالم.

ط قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَفُوا يُوْسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَبْهَرُوا لَهُمْ قَالَ أُنْتُ شَرُّ مَكْنَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا يَبْنَؤُهَا الْعَمْرُؤُ إِنَّ لَهُ أَبًا مَيْمَنًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَا وَدَعْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَفَاحِشُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا اسْتَفْتَسُوا مِنْهُمْ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ إِلَى أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّجَمُوا إِلَيْهِ أَيْكُمُ فَقُولُوا يَبْنَؤُهَا إِنَّا كُنَّا نَسْتَفْتِيكَ فِي النَّبِيِّ الْأَيُّهَا عَلَيْنَا وَمَا كُنَّا لِنَقْبِ بِحُفَظِينَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ لِي بِالْغَرِيِّ أَنِّي كُنَّا فِيهَا وَالْأَمِيرُ إِلَيْنَا أَتَيْنَا بِهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٢٢﴾

قوله: **﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾** أي بنيامين **﴿فقد سرق أخ له﴾**

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَخْلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾** قال: رهب يعقوب عليهم العين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن محمد بن كعب قال: خشي عليهم العين. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن النخعي في قوله: **﴿وَابْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾** قال: أحب يعقوب أن يلقي يوسف أخاه في خلوة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾** قال: خيفة العين على بنييه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿وَأَنَّهُ لَنَوْعٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾** قال: إنه لعامل بما علم، ومن لا يعمل لا يكون عالماً. وأخرج هؤلاء عنه في قوله: **﴿وَأَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾** قال: ضمه إليه، وفي قوله: **﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾** قال: لا تحزن ولا تياس، وفي قوله: **﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾** قال: قضى حاجتهم وكال لهم طعامهم، وفي قوله: **﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾** قال: هو إناء الملك الذي يشرب منه **﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾** قال: في متاع أخيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس في قوله: **﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾** قال: هو الصواع، وكل شيء يشرب منه فهو صواع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿أَنِيتَهَا لِلْعِيرِ﴾** قال: كانت العير حميراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿وَوَلَمِنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾** قال: حمل حمار طعم، وهي لغة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿وَأَنَّا بِهِ زَعِيمٌ﴾** يقول: كفيل. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقاتدة، والضحاك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس في قوله: **﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾** يقول: ما جئنا

من قبل﴾ يعنون يوسف.

يوسف عليهم بقوله: ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ أي: نعوذ بالله معاذاً، فهو مصدر منصوب بفعل محذوف، والمستعبد بالله هو المعتصم به، وأن نأخذ منصوب بنزع الخافض، والأصل من أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، وهو بنيامين لأنه الذي وجد الصواع في رحله فقد حلّ لنا استعباده بفتواكم التي أفتيتونا بقولكم: ﴿جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾. ﴿إنا إذا لظالمون﴾ أي: إنا إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لظالمون في دينكم وما تقتضيه فتواكم ﴿فلما استئثسوا منه﴾ أي: يشسوا من يوسف وإسعافهم منه إلى مطلبهم الذي طلبوه، والسين والتاء للمبالغة ﴿خلصوا نجيا﴾ أي: انفردوا حال كونهم متناجين فيما بينهم، وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كما في قوله: ﴿وقربناه نجيا﴾ [مريم: 52]. قال الزجاج: معناه انفردوا وليس معهم أخوهم متناجين فيما يعملون به في ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهيم ﴿قال كبيرهم﴾، قيل: هو روبيل لأنه الأسر، وقيل: يهوذا لأنه الأوفر عقلاً، وقيل: شمعون لأنه رئيسهم ﴿الم تعلموا أن لياكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ أي: عهداً من الله في حفظ ابنه ورده إليه، ومعنى كونه من الله أنه بإذنه ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ معطوف على ما قبله. والتقدير: ألم تعلموا أن أبائكم وتعلموا تفرطكم في يوسف، ذكر هذا النحاس وغيره، ومن قبل متعلقة بتعلموا أي: وتعلموا تفرطكم في يوسف من قبل، على أن ما مصدرية، ويجوز أن تكون زائدة، وقيل: ما فرطتم مرفوع المحل على الابتداء، وخبره من قبل؛ وقيل: إن ما موصولة أو موصوفة، وكلاهما في محل النصب أو الرفع، وما ذكرناه هو الأولى، ومعنى فرطتم: قصرتم في شأنه، ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه ﴿فلن أبرح الأرض﴾. يقال: أبرح أبرحاً وبروحاً، أي زال، فإذا نخله النفي صار مثبتاً أي: لن أبرح من الأرض، بل الزمها ولا أزال مقيماً فيها ﴿حتى ياذن لي أبي﴾ في مفارقتها والخروج منها، وإنما قال ذلك لأنه يستحي من أبيه أن يأتي إليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الموثق بإرجاعه إليه إلا أن يحاط بهم كما تقدم، ﴿لو يحكم الله لي﴾ بمفارقتها والخروج منها، وقيل: المعنى أو يحكم الله لي بخلاص أخي من الأسر حتى يعود إلى أبي وأعود معه، وقيل: المعنى أو يحكم الله لي بالنصر على من أخذ أخي فأحاربه وأخذ أخي منه، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأن أحكامه لا تجري إلا على ما يوافق الحق، ويطابق الصواب، ثم قال كبيرهم مخاطباً لهم ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾. قرأ الجمهور (سرق) على البناء للفاعل، وذلك لأنهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه. وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو رزين على البناء للمفعول، وروى ذلك النحاس عن الكسائي. قال الزجاج: إن سرق يحتمل معنيين: أحدهما علم منه السرق، والآخر اتهام بالسرقة ﴿وما شاهدنا إلا بما علمنا﴾ من استخراج

وقد اختلف المفسرون في هذه السرقة التي نسبوها إلى يوسف ما هي؟ فقيل: إنه كان ليوسف عمه هي أكبر من يعقوب، وكانت عندها منطقة إسحاق لكونها أسن أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سنّاً من ذكر أو أنثى، وكانت قد حضنت يوسف وأحبته حباً شديداً، فلما ترعرع قال لها يعقوب: سلمني يوسف إلي فاشفقت من فراقه واحتالت في بقاءه لديها، فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمتها بها، ثم قالت: قد سرقت منطقة إسحاق فانظروا من سرقها، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فاخذته عندها كما هو شرع الأنبياء في ذلك الوقت من آل إبراهيم. وقد سبق بيان شريعتهم في السرقة، وقيل: إن يوسف أخذ صنماً كان لجده أبي أمه فكسره وألقاه على الطريق تغييراً للمكر. وحكي عن الزجاج أنه كان صنماً من ذهب. وحكى الواحدي عن الزجاج أنه قال: الله أعلم، أسرق أخ له أم لا؟ وحكى القرطبي في تفسيره عن الزجاج أنه قال: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه، قلت: وهذا أولى، فما هذه الكنية بأول كذباتهم، وقد قنمنا ما يدفع قول من قال: إنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم. قوله: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾ قال الزجاج وغيره: الضمير في أسرها يعود إلى الكلمة أو الجملة، كانه قيل: فأسر الجملة في نفسه ﴿ولم يدها لهم﴾ ثم فسرهما بقوله: ﴿قال أنتم شر مكاناً﴾ وقد ردّ أبو عليّ الفارسي هذا فقال: إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل؛ وقيل: الضمير عائد إلى الإجابة أي: أسر يوسف إجابتهم في ذلك الوقت إلى وقت آخر؛ وقيل: أسر في نفسه قولهم: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل. وهذا هو الأولى، ويكون معنى ﴿ولم يدها لهم﴾ أنه لم يبد لهم هذه المقالة التي أسرها في نفسه بأن ينكر لهم صحتها أو بطلانها، وجملة ﴿قال أنتم شر مكاناً﴾ مفسرة على القول الأول، ومستأنفة على القولين الآخرين، كأنه قيل: فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة؟ أي: أنتم شر مكاناً أي: موضعاً ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقة وهو بريء، فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف إلى الحب والكذب على أبيكم وغير ذلك من أفاعيلكم، ثم قال: ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ من الباطل بنسبة السراق إلى يوسف، وأنه لا حقيقة لذلك، ثم أرادوا أن يستطفوه ليطلق له أخاهم بنيامين يكون معهم يرجعون به إلى أبيهم لما تقدم من أخذه الميثاق عليهم بأن يرثوه إليه، ﴿فقلوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً﴾ أي: إن لبنيامين هذا أبا متصفاً بهذه الصفة، وهي كونه شيخاً كبيراً لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه ولا يقدر على الوصول إليه ﴿فخذ أحداً مكانه﴾ يبقى لديك، فإن له منزلة في قلب أبيه ليست لواحد منا فلا يتضرر بفرق أحداً كما لا يتضرر بفرق بنيامين، ثم عللوا ذلك بقوله: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ إلى الناس كافة، وإلينا خاصة، فتمم إحسانك إلينا بإجابتنا إلى هذا المطلب، فأجاب

للغيب حافظين» قال: ما كنا نعلم أن ابنك يسرق. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ قال: يعنون مصر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة مثله.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمَّا فَصَبِّرْ بِحَبْلِ جَدِّكَ إِنَّ إِلَهَكَ أَنَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيْكُمْ وَيُوسُفُ وَأَيَّتْ عِيْنَهُ مِنَ الْعَزْزِ هُوَ كَلِيمٌ ﴿٨٢﴾ قَالُوا نَأْتِيَنَا نَقْضُا نَذْرَكَ يُونُسُ هَئِهِ تَكُونُ حَرَمًا أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٣﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَتَيْنَا لَبِئْسَ بِشَيْءٍ مُنْجِيًا وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ مُؤْتَاةً وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ مُؤْتَاةً وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ مُؤْتَاةً وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ مُؤْتَاةً وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ مُؤْتَاةً

قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمَّا﴾ أي: زينت، والامر هنا قولهم: ﴿إِنْ ابْنُكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: 81] وما سرق في الحقيقة، وقيل: المراد بالامر إخراجهم بنيامين، والمضي به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد ذلك بالضررة؛ وقيل: التسويل التخويل أي: خيلت لكم أنفسكم أمراً لا أصل له؛ وقيل: الأمر الذي سئلت لهم أنفسهم فتيانهم بأن السارق يؤخذ بسرقة، والإضراب هنا هو باعتبار ما أثبتوه من البراءة لأنفسهم، لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح، والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر كغيرها. وجملة ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أي: فأمرني صبر جميل أو فصبر جميل أجمل بي وأولى لي، والصبر الجميل هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى بل يفوض أمره إلى الله ويسترجع، وقد ورد أن الصبر عند أول الصدمة ﴿عَسَى أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي: بيوسف وأخيه بنيامين، والآخر الثالث الباقي بمصر، وهو كبيرهم كما تقدم، وإنما قال هكذا لأنه قد كان عنده أن يوسف لم يمت، وأنه باق على الحياة وإن غاب عنه خبره ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يقضي به ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم، وقطع الكلام معهم ﴿وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يُونُسَ﴾ قال الزجاج: الأصل يا أسفي، فأبدل من الياء ألفاً لخفة الفتحة، والاسف: شدة الجزع؛ وقيل: شدة الحزن، ومنه قول كثير:

فيا أسفا للقلب كيف انصراقه وللنفس لما سليت فتسلت قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغة بسبب فراقه ليوسف، وانضمام فراقه لأخيه بنيامين، وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر، فتضاعفت أحزانه، وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخير الأخير. وقد روي عن سعيد بن جبيرة: أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت

الصواع من وعائه، وقيل المعنى: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ حتى يتضح لنا هل الأمر على ما شاهدناه أو على خلافه؟ وقيل: المعنى ما كنا وقت أخذنا له منك ليخرجنا معنا إلى مصر للغيب حافظين بأنه سيقع منه السرقة الذي افتضحنا به؛ وقيل: الغيب هو الليل، ومرادهم أنه سرق وهم نيام؛ وقيل: مرادهم أنه فعل ذلك وهو غائب عنهم، فخفي عليهم فعله ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ هذا من تمام قول كبيرهم لهم أي: قولوا لأبيكم أسأل القرية التي كنا فيها أي: مصر، والمراد أهلها أي: أسأل أهل القرية؛ وقيل: هي قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها؛ وقيل: المعنى وأسأل القرية نفسها وإن كانت جماداً فلأنك نبي الله، والله سبحانه سينطقها فتجيبك. ومما يؤيد هذا أنه قال سيبيويه: لا يجوز كلم هنداً وأنت تريد غلام هند ﴿وَالْعَبِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: وقولوا لأبيكم أسأل العبير التي أقبلنا فيها أي: أصحابها وكانوا قوماً معروفين من جيران يعقوب ﴿وَأَيْنَا لِلصَّالِقِينَ﴾ فيما قلنا، جاءوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد لأن ما قد تقدم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة في خبرهم هذا عند السامع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: يعنون يوسف. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: سرق مكحلة لخالته، يعني: يوسف. وأخرج أبو الشيخ عن عطية قال: سرق في صباه مليون من ذهب. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «سرق يوسف صنماً لجده أبي أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه على الطريق فعيّره بذلك إخوته». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة مثله غير مرفوع، وقد روى نحوه عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَأَسْرِهَا يُونُسَ فِي نَفْسِهِ﴾ قال: أسر في نفسه قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن قتادة مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق في قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ قال: أيسوا منه، ورواوا شدته في أمره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَأَخْرَجُوا أَبْنَاءَهُمْ﴾ قال: وحدهم. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ قال شمعون الذي تخلف أكبرهم عقلاً، وأكبر منه في الميلاد روبييل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ هو روبييل، وهو الذي كان ناهم عن قتله وكان أكبر القوم. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿أَوِ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي﴾ قال: أقاتل بسيقي حتى أقتل. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن أبي صالح نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة ﴿وَمَا كُنَّا

إني امرؤ لَجَّ بي حب فأحرضني حتى بليت وحتى شفني السقم ويقال: رجل محرض، ومنه قول الشاعر:

طلبت الخيل يوماً كاملاً ولو الفتة لأضحى محرّضاً
قال النحاس: وحكى أهل اللغة أحرضه الهم: إذا أسقمه،
ورجل حارّض: أي أحق. وقال الأخفش: الحارّض الذاهب.
وقال ابن الأنباري: هو الهالك. والأولى تفسير الحرّض هنا
بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة حتى يكون
لقلوبه: ﴿أَو تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ معنى غير معنى الحرّض،
فالتأسيس أولى من التأكيد، ومعنى من الهالكين: من الميتين،
وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه وإن
كانوا هم سبب أحزانه ومنشأ همومه وغمومه ﴿قَالَ إِنَّمَا
أَشْكُو بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ هذه الجملة مستأنفة، كأنه
قيل: فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا؟ والبث: ما يرد على
الإنسان من الأشياء التي يعظم حزن صاحبها بها حتى لا
يقدر على إخفائها، كذا قال أهل اللغة، وهو مأخوذ من بثّته
أي: فرقته، فسميت المصيبة بثاً مجازاً، قال نو الزّمة:

وقفت على ربع لمية يا فتى فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
واسقيه حتى كاد مما أبثت تكلمني أحجاره وملاعبه
وقد ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل
به من المصائب كان ذلك حزناً، وإن لم يقدر على كتمه كان
ذلك بثاً، فالبث على هذا: أعظم الحزن وأصعبه، وقيل: البث
الهم؛ وقيل: هو الحاجة. وعلى هذا القول يكون عطف الحزن
على البث واضح المعنى. وأما على تفسير البث بالحزن
العظيم، فكأنه قال: إنما أشكو حزني العظيم وما دونه من
الحزن إلى الله لا إلى غيره من الناس. وقد قرئ (حزني)
بضم الحاء وسكون الزاي (وحزني) بفتحهما ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من لطفه وإحسانه وثوابه على
المصيبة ما لا تعلمونه أنتم؛ وقيل: أراد علمه بأن يوسف
حي، وقيل: أراد علمه بأن رؤياه صادقة؛ وقيل: أعلم من
إجابة المضطرين إلى الله ما لا تعلمون ﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا
فَتَحْسَسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ التحسس بمهمات: طلب
الشيء بالحواس، مأخوذ من الحس، أو من الإحساس أي:
أذهبوا فتعرّفوا خبر يوسف وأخيه وتطلبوه، وقرئ بالجيم،
وهو أيضاً التطلب ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ أي: لا
تقنطوا من فرجه وتنفيسه. قال الأصمعي: الروح ما يجده
الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه، والتركيب يدل على
الحركة والهزة، فكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتذ به فهو
روح. وحكى الواحدي عن الأصمعي أيضاً أنه قال: الروح
الاستراحة من غم القلب. وقال أبو عمرو: الروح الفرج،
وقيل: الرحمة ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ﴾ لكنهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه، وعظيم
صنعه، وخفيّ أطافه. قوله: ﴿فَلَمَّا بَدَّلَا عَلَيْهِ﴾ أي: على
يوسف، وفي الكلام حذف، والتقدير: فذهبوا كما أمرهم
أبوهم إلى مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه، فلما دخلوا
على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أي: الملك الممتنع

في شريعتنا من الاسترجاع والصبر على المصائب، ولو كان
عنده ذلك لما قال: يا أسفا على يوسف. ومعنى المنادة
للأسف طلب حضوره، كأنه قال: تعال يا أسفي واقبل إلي
﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أي: انقلب سواد عينيه
بياضاً من كثرة البكاء. قيل: إنه زال إدراكه بحاسة البصر
بالمرة، وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً. وقد قيل في توجيه
ما وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم
المفضي إلى ذهاب بصره كلا أو بعضاً بأنه إنما وقع منه
ذلك لأنه علم أن يوسف حي، فخاف على دينه مع كونه
بارض مصر وأهلها حينئذ كفار، وقيل: إن مجرد الحزن ليس
بمحرّم، وإنما المحرّم ما يفضي منه إلى الوله وشق الثياب
والتكلم بما لا ينبغي، وقد قال النبي ﷺ عند موت ولده
إبراهيم: «تتمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسيخط
الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون». ويؤيد هذا قوله:
﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مكظوم، فإن معناه: أنه مملوء من الحزن
ممسك له لا يبيته، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه، فالمكظوم
المسدود عليه طريق حزنه، من كظم السقاء: إذا سدّه على ما
فيه، والكظم بفتح الظاء: مخرج النفس، يقال: أخذ بكظامه،
وقيل: الكظيم بمعنى الكاظم أي: المشتمل على حزنه الممسك
له، ومنه:

فإن ك كاضماً لمصائب ناس فإني اليوم منطلق لسانني
ومنه ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134]. وقال
الزجاج: معنى كظيم: محزون. وروي عن ابن عباس أنه قال:
معناه مغموم مكروب. قال بعض أهل اللغة: الحزن بالضم
والسكون: البكاء، وبفتحتين: ضدّ الفرج، وقال أكثر أهل اللغة:
هما لغتان بمعنى ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرْ يَوْسُفَ﴾ أي: لا
تفتن، فحذف حرف النفي لعدم اللبس. قال الكسائي: فتأت
وفتئت أفعل كذا أي: مازلت. وقال الفراء: إن لا مضمرة أي:
لا تفتن. قال النحاس: والذي قال صحيح. وقد روي عن
الخليل وسيبويه مثل قول الفراء، وأنشد الفراء محتجاً على
ما قاله:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لبيك وأوصالي
ويقال فتىء وفتأ لغتان، ومنه قول الشاعر:

فما فتئت حتى كأن غبارها سراق يوم ذي رباح ترفع
﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ الحرّض مصدر يستوي فيه
الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والصفة المشبهة، حرّض
بكسر الراء كدنف وبنف، وأصل الحرّض: الفساد في الجسم
أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم، حكى ذلك عن أبي
عبيدة وغيره، ومنه قول الشاعر:

سرى همي فأمرضني وقدم ما زانني مرضاً
كذاك الحب قبل السيور مما يورث الحرّضاً
وقيل: الحرّض ما دون الموت، وقيل: الهرم، وقيل:
الحارّض: الباقي الدائر. وقال الفراء: الحارّض: الفساد الجسم
والعقل، وكذا الحرّض. وقال مؤرج: هو الذائب من الهم، ويدل
عليه قول الشاعر:

قال: الميتين. وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿تَفْتَتُوا تَذْكُرَ يَوْسُفَ﴾ قال: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ قال: هراً ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ قال: أو تموت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاک ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ قال: الحرص البالي ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ قال: من الميتين. وأخرج ابن جرير، وعبد الرزاق عن مسلم بن يسار يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «من بث لم يصبر، ثم قرأ ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾» وأخرج ابن منده في المعرفة عن مسلم بن يسار عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ فنكره. وأخرج ابن مردويه عن حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن يعمر مرفوعاً مرسلًا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ قال: همي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَأَعْلَمَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سأسجد له. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في قوله: ﴿وَلَا تَيْاسَوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ قال: من رحمة الله. وأخرج ابن جرير، عن الضحاک مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد قال: من فرج الله يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ﴾ قال: أي الضر في المعيشة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بِضَاعَةٍ﴾ قال: دراهم ﴿مَزْجَاةً﴾ قال: كاسدة. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه قال: مزجاة رثة المتاع خلقة الحبل والغرارة والشيء. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه أيضاً مزجاة قال: الورق الزيوف التي لا تنفق حتى يوضع منها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن جرير في قوله: ﴿وَتَصْنُقُ عَلَيْنَا﴾ قال: أريد علينا أخانا.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا مَعَلَّمْتُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَشْرَفَ جَاهِلُوتُ ۖ قَالُوا لَا نَعْلَمُ يُوْسُفَ قَالَ أَنَا يُوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَرَبَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّمِ مِنْ يَتَى وَيَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۖ قَالُوا تَأَلَّاهُ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيطِينَ ۖ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَلَيْسَ يَوْمُؤُا اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۖ أَذْهَبُوا بِمِصْبِي هَذَا فَأَلْفَوْهُ عَلَىٰ بَيْتِهِ بِأَيْ بَصِيرًا وَأَتَوْهُ بِأَمْلِكُمْ أَخْمِيتَ ۖ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْوَيْلُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنَّ لِأَجْدٍ رِيحَ يُوْسُفَ لَوْلَا أَنْ تُقْبَدُوا ۖ قَالُوا تَأَلَّاهُ إِنَّكَ لَكَيْتَ لَكُنَّا أَكْثَرُ ۖ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ۖ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَِّّي أَعْلِمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

القادر ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ﴾ أي: الجوع والحاجة، وفيه دليل على أنه تجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة، وهذه المرة التي دخلوا فيها مصر هي المرة الثالثة كما يفيد ما تقدم من سياق الكتاب العزيز ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مَزْجَاةٍ﴾ البضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء شيء، يقال: أبضعت الشيء واستبضعته: إذا جعلته بضاعة، وفي المثل: «كمستبضع التمر إلى هجر». والإجزاء السوق بدفع. قال الواحدي: الإجزاء في اللغة السوق والدفع قليلاً قليلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزِيحُ سَحَابًا﴾ [النور: 43]، والمعنى: أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار. قال ثعلب: البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة. قال أبو عبيدة: إنما قيل للدرهم الربيضة مزجاة لأنها مربودة مدفوعة غير مقبولة.

واختلف في هذه البضاعة ما هي؟ فقيل: كانت قليلاً وحيساً، وقيل: صوف وسمن، وقيل: الحبة الخضراء والصنوبر، وقيل: دراهم ربيضة، وقيل: النعال والأدم. ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفي لهم الكيل أي: يجعله تاماً لا نقص فيه، وطلبوا منه أن يتصنق عليهم إما بزيادة يزيدا لهم على ما يقابل بضاعتهم، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها، وأن يجعلها كالبيضة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها، وبهذا قال أكثر المفسرين؛ وقد قيل: كيف يطلبون التصنق عليهم وهم أنبياء والصدقة محرمة على الأنبياء. وأجيب باختصاص ذلك بنبينا ﷺ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بما يجعله لهم من الثواب الأخروي، أو التوسيع عليهم في الدنيا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ قال: يوسف وأخيه وروبييل. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: يوسف وأخيه وكبيرهم الذي تخلف، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَسَفَا عَلَى يَوْسُفَ﴾ قال: يا حزناً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة مثله. وأخرجوا عن مجاهد قال: يا جزعاً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قال: حزين. وأخرج ابن المبارك، وعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة قال: كظم على الحزن فلم يقل إلا خيراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال: كظيم مكروب. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاک قال: الكظيم الكمد. وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿تَأَلَّاهُ تَفْتَتُوا تَذْكُرَ يَوْسُفَ﴾ قال: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ قال: بنفا من المرض ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَفْتِرْنَا دُونََ إِيَّا كُنَّا خَطِيئِينَ﴾ ﴿٧١﴾ قَالَ سَوْفَ
اسْتَفْتِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٧٢﴾

الاستفهام في قوله: ﴿هل علمتم﴾ للتوبيخ والتتريح، وقد كانوا عالمين بذلك، ولكنه أراد ما نكرناه، ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه في قوة: ما أعظم الأمر الذي ارتكبتم من يوسف وأخيه، وما أقبح ما أقدمتم عليه؟ كما يقال للمذنب: هل تدري من عصيت؟ والذي فعلوا بيوسف هو ما تقدم مما قصه الله سبحانه علينا في هذه السورة وأما ما فعلوا بأخيه، فقال جماعة من المفسرين: هو ما أدخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف، وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة، ولم يستفهمهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب مع أنه قد نالهم منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى، قال الواحدي: ولم ينكر إياه يعقوب مع عظم ما بخل عليه من الغم بفراقه تعظيماً له ورفعاً من قدره، وعلماً بأن ذلك كان بلاء له من الله عز وجل ليزيد في درجته عنده ﴿إِذْ أَقْتَمَ جَاهِلُونَ﴾ نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل، لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم، وقيل: إنه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الأمر عليهم، فكأنه قال: إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم وقصور معارفكم عن عاقبته، وما يترتب عليه، أو أراد أنهم عند ذلك في أوان الصبا وزمان الصغر، اعتذاراً لهم وبغماً لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا في ذلك الوقت كباراً ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ﴾. قرأ ابن كثير (إنك) على الخبر بدون استفهام. وقرأ الباقون على الاستفهام التقريري، وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب، قيل: سبب معرفتهم له بمجرد قوله لهم: ﴿ما فعلتم بيوسف ولخيه﴾ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو؛ وقيل: إنه لما قال لهم بهذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرّفوه، وقيل: إنه تبسم فعرّفوا ثناياه ﴿قَالَ إِنَّا يَوْسُفُ وَهَذَا لَخِي﴾ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه. قال ابن الأنباري: أظهر الاسم فقال: أنا يوسف ولم يقل: أنا هو، تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته، كأنه قال: أنا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله. فاكتمى بإظهار الاسم عن هذه المعاني، وقال: وهذا أخي مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه، لأن قصده وهذا أخي المظلوم كظلمي، ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالخلاص هما ابتلينا به، وقيل: من الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة؛ وقيل: بالجمع بيننا بعد التفرق، ولا مانع من إرادة جميع ذلك ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّقٍ وَيَصْبِرُ﴾. قرأ الجمهور بالجزم على أن من شرطية. وقرأ ابن كثير بإثبات الياء في يتقي، كما في قول الشاعر:

ألم يأتيك والأنباء تنمسي بما لاقت لبون بني زياد
وقيل إنه جعل من موصولة لا شرطية، وهو بعيد.
والمعنى: إنه من يفعل التقوى أو يفعل ما يقيه عن الذنوب

ويصبر على المصائب ﴿فإن الله لا يضيع أجر
المحسنين﴾ على العموم، فيدخل فيه ما يفيد السياق
سجلاً أولياً، وجاء بالظاهر، وكان المقام مقام المضمّر، أي:
أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون
بصفة الإحسان ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: لقد
اختلفناك وفضلناك علينا بما خصك به من صفات الكمال، وهذا
اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره، ولا يلزم من ذلك أن لا
يكونوا أنبياء، فإن درج الأنبياء متفاوتة، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ
الرَّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253] ﴿وَإِنْ كُنَّا
لَخَاطِئِينَ﴾ أي: وإن الشأن ذلك. قال أبو عبيدة: خطئ وأخطأ
بمعنى واحد. وقال الأزهري: المخطئ من أراد الصواب
فصار إلى غيره، ومنه قولهم: المجتهد يخطئ ويصيب،
والخاطئ من تعدى ما لا ينبغي. قالوا هذه المقالة المتضمنة
للاعتراف بالخطأ والذنب استجلاباً لعفوه واستجداباً لصفحه
﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ التثريب التعبير والتوبيخ أي: لا
تعيير ولا توبيخ، ولا لوم عليكم. قال الأصمعي ثربت عليه:
قبحت عليه فعله. وقال الزجاج: المعنى لا إفساد لما بيني
وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكم عندي الصلح والعفو،
وأصل التثريب الإفساد، وهي لغة أهل الحجاز. وقال ابن
الأنباري: معناه قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم
بالتنكب. قال ثعلب: ثرب فلان على فلان إذا عُدَّ عليه ذنوبه،
وأصل التثريب من الثرب، وهو الشحم الذي هو غاشية
الكرش، ومعناه إزالة التثريب، كما أن التجليد والتقرع إزالة
الجلد والقرع، وانتصاب اليوم بالتثريب أي: لا أثرب عليكم أو
منتصب بالعامل المقتر في عليكم وهو مستقر أو ثابت أو
نحوهما أي: لا تثريب مستقر أو ثابت عليكم. وقد جُوزَ
الأخفش الوقف على عليكم، فيكون اليوم متعلق بالفعل الذي
يعده. وقد نكر مثل هذا ابن الأنباري، ثم دعا لهم بقوله:
﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ على تقدير الوقف على اليوم، أو أخبرهم
بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على عليكم
﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون
بها فيما بينهم فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم. قوله:
﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ قيل: هذا القميص هو القميص
الذي لبسه الله إبراهيم لما ألقى في النار وكساه إبراهيم
إسحاق وكساه إسحاق يعقوب. وكان يعقوب أدرج هذا
القميص في قضيبه وعلقه في عنق يوسف لما كان يخاف
عليه من العين، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى
يعقوب ليعود عليه بصره لأن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا
يقع على سقيم إلا شفي ولا مبتلي إلا عوفي ﴿فَالْقَوَىٰ عَلَىٰ
وَجْهِ لَبِي يَأْتُ بِصِيرًا﴾ أي: يصير بصيراً على أن «يأت»
هي التي من أخوات كان. قال الفراء: يرجع بصيراً. وقال
السدي: يعد بصيراً. وقيل: معناه يأت إلي مصر وهو
بصير قد ذهب عنه العمى، ويؤيده قوله: ﴿وَوَاتُونِي بِأَهْلِكُمْ
لِجَمْعِينَ﴾ أي: جميع من شمله لفظ الأهل من النساء
والنراري، قيل: كانوا نحو سبعين، وقيل: ثلاثة وتسعين

من أهله الذين قال لهم: إني لأجد ريح يوسف، ألم أتل لكم هذا القول فقلتم ما قلتم، ويكون قوله: ﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ كلاً ما مبتداً لا يتعلق بالقول، ويجوز أن تكون جملة ﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ مقول القول، ويريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقاً ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: 86]، **﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾** طلبوا منه أن يستغفر لهم، واعترفوا بالذنوب، وفي الكلام حذف، والتقدير: ولما رجعوا من مصر ووصلوا إلى أبيهم قالوا هذا القول، فوعدهم بما طلبوه منه و قال سوف استغفر لكم ربي. قال الزجاج: أراد يعقوب أن يستغفر لهم في وقت السحر، لأنه أخلق بإجابة الدعاء، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار، وقيل: أخره إلى ليلة الجمعة، وقيل: أخره إلى أن يستحل لهم من يوسف، ولم يعلم أنه قد عفا عنهم. وجملة **﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾** تعليل لما قبله.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في قوله: **﴿لا تثريب﴾** قال: لا تعيير. وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة التفت إلى الناس فقال: ماذا تقولون وماذا تظنون؟ فقالوا: ابن عم كريم، فقال: **﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾**. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عطاء الخراساني قال: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألم تر إلى قول يوسف **﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾**؟ وقال يعقوب: **﴿سوف استغفر لكم ربي﴾**.

أقول: وفي هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف أن يعفو عنهم بقولهم: لقد أترك الله علينا، فقال: لا تثريب عليكم اليوم، لأن مقصودهم صدور العفو منه عنهم، وطلبوا من أبيهم يعقوب أن يستغفر الله لهم وهو لا يكون إلا بطلب ذلك منه إلى الله عز وجل، وبين المقامين فرق، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلأ عليهم بسؤال الله لهم، ولا سيما إذا صح ما تقدم من أنه أخر ذلك إلى وقت الإجابة. فإنه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول.

وأخرج الحكيم الترمذي، وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال: لما كان من أمر إخوة يوسف ما كان، كتب يعقوب إلى يوسف وهو لا يعلم أنه يوسف: بسم الله الرحمن الرحيم، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى عزيز آل فرعون، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإننا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء، كان جدِّي إبراهيم خليل الله ألقى في النار في طاعة ربه، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأمر الله جدِّي أن ينبج له أبي ففداه الله بما فداه، وكان لي ابن وكان من أحب الناس إلي ففقدته، فأنهز حزني عليه نور بصري، وكان له أخ من أمه كنت إذا ذكرت ضممته إلى صدي فأنهز عني بعض وجدي، وهو المحبوس عندك

﴿ولما فصلت العير﴾ أي: خرجت منطلقاً من مصر إلى الشام. يقال: فصل فصولاً، وفصلته فصلاً، لازم ومتعد، ويقال فصل من البلد فصولاً: إذا انفصل عنه وجاوز حيطانه **﴿قال ليوهم﴾** أي: يعقوب لمن عنده في أرض كنعان من أهله **﴿إني لأجد ريح يوسف﴾** قيل: إنها هاجت ريح فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة، فأخبرهم بما وجد، ثم قال: **﴿لولا أن تفننوا﴾** لولا أن تنسبونني إلى الفند، وهو ذهاب العقل من الهرم، يقال: أقند الرجل إذا خرف وتغير عقله. وقال أبو عبيدة: لولا أن تسفهون، فجعل الفند السفه. وقال الزجاج: لولا أن تجهلون، فجعل الفند الجهل، ويؤيد قول من قال إنه السفه قول النابغة:

إلا سليمان إذ قال للمليك له قم في البرية فاحدها عن الفند
أي: امنعها عن السفه. وقال أبو عمرو الشيباني: التفنيد التقييح، ومنه قول الشاعر:

يا صاحبني دعا لومي وتفنيد فليس ما فات من أمري بمربود
وقيل: هو الكنب، ومنه قول الشاعر:

هل في افتخار الكريم من أود أم هل لقول الصنيق من فند
وقال ابن الأعرابي **﴿لولا أن تفننوا﴾** لولا أن تضعفوا رأيي، وروي مثله عن أبي عبيدة. وقال الأخفش: التفنيد اللوم وضعف الرأي. وكل هذه المعاني راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي، يقال: فنده تفنيداً: إذا عجزه، وأقند: إذا تكلم بالخطأ، والفند: الخطأ من الكلام، ومما يدل على إطلاقه على اللوم قول الشاعر:

يا عائلي دعا الملام وأقصرا طال الهوى وأطلتما التفنيدا
أخبرهم يعقوب بأن الصبا قد حملت إليه ريح حبيبه، وأنه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك في ذلك:

فإن الصباريح إذا ما تنفست على نفس مهموم تجلت هموما
إذا قلت هذا حين أسلو يهيجني نسيم الصبا من حيث ما يطع الفجر
ولقد تهب لي الصبا من أرضها فليد مس هبوبها ويطيب
﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي: قال الحاضرون عنده من أهله: إنك يا يعقوب لفي ذهابك عن طريق الصواب الذي كنت عليه قديماً من إفراط حبك ليوسف لا تنساه، ولا تفتر عنه، ولسان حال يعقوب يقول لهم:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها
لا تمعل المشتاق في أشواقه حتى تكون حشاك في لحشائه

وقيل: المعنى إنك لفي جنونك القديم، وقيل: في محبتك القديمة. قالوا له ذلك لأنه لم يكن قد بلغهم قنوم البشير **﴿فلما أن جاء البشير﴾** قال المفسرون: البشير هو يهوذا بن يعقوب، قال لإخوته: أنا جئته بالقميص ملطخاً بالدم، فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حي، فأفرجه كما أحزنته **﴿لقاه على وجهه﴾** أي: ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه **﴿فارتد بصيراً﴾** الارتداد: انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها، والمعنى: عاد ورجع إلى حالته الأولى من صحة بصره **﴿قال ألم أقل لكم﴾** أي: قال يعقوب لمن كان عنده

قال: أخرهم إلى السحر، وكان يصلي بالسحر. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروييه عنه قال: أخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أيضاً قال: قال النبي ﷺ في قصة «هو قول أخي يعقوب لبنيه: ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾»، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَيْنَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ آمِينَ ﴿١٠٠﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْمُرْتَبِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأَيَّتُهَا هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَرْغِبَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا تَنَاءَى إِنَّهُ هُوَ الْكَلِيمُ الْمُرِيدُ ﴿١٠١﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبُّ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْآخِرَةُ تَوَكَّلْتُ مُسْلِمًا حَقِيقًا وَالْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله: ﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ لعل في الكلام محنوفاً مقدراً، وهو فرحل يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه أي: ضمهما وأنزلهما عنده. قال المفسرون: المراد بالابوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف، لأن أمه قد كانت ماتت في ولادتها لأخيه بنيامين كما تقدم؛ وقيل: أحيا الله له أمه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له ﴿وقال انخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ مما تكرهون، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر، ولا يدخلونها إلا بجواز منهم. قيل: والتقيد بالمشيئة عائد إلى الأمن، ولا مانع من عوده إلى الجميع، لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه، كما أنهم لا يكونون آمنين إلا بمشيئته؛ وقيل: إن التقيد بالمشيئة راجع إلى قوله: ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾ [يوسف: 98] وهو بعيد. وظاهر النظم القرآني: أن يوسف قال لهم هذه المقالة أي: ادخلوا مصر قبل دخولهم، وقد قيل في توجيه ذلك أنه تلقاهم إلى خارج مصر، فوقف منتظراً لهم في مكان أو خيمة، فدخلوا عليه فـ ﴿آوى إليه أبويه وقال انخلوا مصر﴾ فلما دخلوا مصر ودخلوا عليه دخولا آخر في المكان الذي له بمصر ﴿رفع أبويه على العرش﴾ أي: أجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هو عادة الملوك ﴿وخرّوا له سجداً﴾ أي: الابوان والأخوة، والمعنى: أنهم خرّوا ليوسف سجداً، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم منزلاً منزلة التحية؛ وقيل: لم يكن ذلك سجوداً بل هو مجرد إيماء، وكانت تلك تحيتهم، وهو يخالف معنى: وخرّوا له سجداً، فإن الخور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلا بوضع الوجه على الأرض؛ وقيل: الضمير في قوله: «له» راجع إلى الله سبحانه، أي: وخرّوا لله سجداً، وهو بعيد جداً؛ وقيل: إن الضمير ليوسف، واللام للتعليل أي: وخرّوا لأجله، وفيه أيضاً بعد وقال يوسف: ﴿يا ابت هذا تأويل رؤياي﴾ يعني: التي تقدم نكراها ﴿من قبل﴾ أي: من قبل هذا الوقت ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ بوقوع تأويلها على ما نلت عليه ﴿وقد أحسن بي إذ

في السرقة، وإني أخبرك اني لم أسرق، ولم ألد سارقاً؛ فلما قرأ يوسف الكتاب بكى وصاح وقال: ﴿اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يات بصيراً﴾. وأخرج أبو الشيخ عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال في قوله: ﴿اذهبوا بقميصي هذا﴾ أن نمرود لما ألقى إبراهيم في النار نزل إليه جبريل بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة، فالبسه القميص واقعده على الطنفسة، وقعد معه يتحدث، فأوحى الله إلى النار ﴿كوني برداً وسلاماً﴾ [الأنبياء: 69]. ولولا أنه قال وسلاماً لأذاه البرد. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعاً: «إن الله كسا إبراهيم ثوباً من الجنة، فكساه إبراهيم إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، فأخذه يعقوب فجعله في قسبة من حديد وعلقه في عنق يوسف، ولو علم إخوته إذ ألقوه في الجب لأخذه؛ فلما أراد الله أن يرد يوسف على يعقوب كان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل، فوجد يعقوب ريحه فقال: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفننن، فلما ألقاه على وجهه ارتد بصيراً، وليس يقع شيء من الجنة على عامة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بلان الله». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأحمد في الزهد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروييه عن ابن عباس في قوله: ﴿ولما فصلت العير﴾ قال: لما خرجت العير هاجت الريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفننن﴾ تسفهون، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه قال: وجد ريحه من مسيرة عشرة أيام. وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عنه قال: وجده من مسيرة ثمانين فرسخاً. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿لولا أن تفننن﴾ قال: تجهلون. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: قال تكتبون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: تهرمون، يقولون: قد ذهب عقلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن الربيع قال: لولا أن تحمقون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾ يقول: خطئك القديم. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: جنونك القديم. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: حبك القديم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: البشير البريد. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن الضحاك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سفيان قال: البشير هو يهوذا بن يعقوب. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: لما أن جاء البشير إلى يعقوب فالقى عليه القميص قال: على أي دين خلقت يوسف؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾ قال: إن يعقوب أخر بنييه إلى السحر. وأخرج ابن المنذر، وابن مروييه عن ابن عباس

مزيّنة بالكواكب النيرة السيارة والثوابت، وفي الأرض من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تلهم على توحيد الله سبحانه، وأنه الخالق لذلك، الرزاق له المحيي والمميت، ولكن أكثر الناس يَمُرُّون على هذه الآيات غير متأمّلين لها، ولا مفكرين فيها، ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود خالقها، وأنه المتفرد بالالوهية مع كونهم مشاهدين لها **﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾** وإن نظروا إليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحقيقة، وهي التفكير والاعتبار والاستدلال. وقرأ عكرمة وعمرو بن فايد برفع الأرض على أنه مبتدأ، وخبره يَمُرُّونَ عليها. وقرأ السدي بنصب الأرض بتقدير فعل. وقرأ ابن مسعود (يمشون عليها) **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾** أي: وما يصنق ويقرّ أكثر الناس بالله من كونه الخالق الرزاق المحيي المميت **﴿إِلَّا وَهُمْ مَشْرُكُونَ﴾** بالله يعبدون معه غيره كما كانت تفعله الجاهلية، فإنهم مقرّون بالله سبحانه وبأنه الخالق لهم **﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** [الزخرف: 87]. **﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** [لقمان: 25] لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدهم ليقربهم إلى الله **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾** [الزمر: 3] ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله المعتقدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه كما يفعله كثير من عبّاد القبور، ولا ينافي هذا ما قيل من أن الآية نزلت في قوم مخصوصين، فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ لا بما يفيد السبب من الاختصاص بمن كان سبباً لنزول الحكم **﴿فَأَمَّا مَنْ أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾** الاستفهام للإنكار، والغاشية ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله تعالى: **﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾** [العنكبوت: 55] وقيل: هي الساعة، وقيل: الصواعق والقوارع، ولا مانع من الحمل على العموم **﴿أَوْ تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾** أي: فجأة، وانتصاب بغتة على الحال. قال المبرد: جاء عن العرب حال بعد نكرة، وهو قولهم وقع أمر بغتة، يقال: بغتتم الأمر بغتاً وبغتة: إذا فاجأهم **﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** بإتيانه، ويجوز انتصاب بغتة على أنها صفة مصدر محذوف **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾** أي: قل يا محمد للمشركين هذه الدعوة التي ادعو إليها والطريقة التي أنا عليها سبيلي أي: طريقي وسنتي، فاسم الإشارة مبتدأ وخبره سبيلي، وفسر ذلك بقوله: **﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾** أي: على حجة واضحة، والبصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل والجملة في محل نصب على الحال **﴿لَنَا وَمَنْ لَتَبِعُنِي﴾** أي: ويدعو إليها من اتبعني واهتدى بهديي. وقال الفراء: والمعنى ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. وفي هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدي به في الدعاء إلى الله أي: الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده **﴿وَسُبْحَانَ**

الزجاج: ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي ونوحيه إليك خبره أي: الذي من أنباء الغيب نوحيه إليك. والمعنى: الإخبار من الله تعالى لرسوله الله ﷺ بأن هذا الذي قصه عليه من أمر يوسف وإخوته من الأخيار التي كانت غائبة عن رسول الله ﷺ، فأوحاه الله إليه وأعلمه به ولم يكن عنده قبل الوحي شيء من ذلك، وفيه تعريض بكفار قريش، لأنهم كانوا مكذّبين له **﴿بِمَا جَاءَ بِهِ جَوْثًا وَعِنَادًا وَحَسَدًا﴾** مع كونهم يعلمون حقيقة الحال **﴿وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ﴾** أي: لدي إخوة يوسف **﴿إِنْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾** إجماع الأمر: العزم عليه، أي: وما كنت لدى إخوة يوسف إذ عزموا جميعاً على إلقائه في الجب **﴿وَهُمْ﴾** في تلك الحالة **﴿يَمَكُرُونَ﴾** به، أي: يبيسون في هذا الفعل الذي فعلوه به ويبغون الغوائل، وقيل: الضمير ليعقوب أي: يمكرون بيعقوب حين جاءوه بقميص يوسف ملطخاً بالدم وقالوا: أكله الذئب. وإذا لم يكن رسول الله ﷺ لديهم عند أن فعلوا ذلك، انتفى علمه بذلك مشاهدة، ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ولا خالطهم ولا خالطوه، فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير، فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحي من الله سبحانه، فهذا يستلزم الإيمان بما جاء به، فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار، قال الله سبحانه ذاكراً لهذا **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** أي: وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد، أو ما أكثر الناس على العموم ولو حرصت على هدايتهم وبالغت في ذلك بمؤمنين بالله لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم، يقال: حرص يحرص مثل ضرب يضرب، وفي لغة ضعيفة حرص يحرص مثل حمد يحمّد، والحرص طلب الشيء باجتهاد. قال الزجاج: ومعناه وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم، لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. قال ابن الأنباري: إن قريشاً واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته فشرحهما شرحاً شافياً، وهو يؤمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم، فخالفوا ظنه، وحزن رسول الله ﷺ لذلك فعزاه الله بقوله: **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾** الآية، **﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ جَزَاءٍ﴾** أي: على القرآن وما تتلوه عليهم منه، أو على الإيمان وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحنّتهم به من هذا الحديث من أجر من مال يعطونك إياه ويجعلونه لك كما يفعله أحيارهم **﴿إِنْ هُوَ﴾** أي: القرآن أو الحديث الذي حنّتهم به **﴿إِلَّا نَكُرُ لِلْعَالَمِينَ﴾** أي: ما هو إلا نكر للعالمين كافة لا يختص بهم وحدهم **﴿وَكَايُنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** قال الخليل وسيبويه، والأكثرون: إن كايُن أصلها أي نخل عليها كاف التشبيه، لكنه انمحق عن الحرفين المعنى الإفرادي، وصار المجموع كاسم واحد بمعنى كم الخبرية، والأكثر إبخال من في مميّزه، وهو تمييز عن الكاف لا عن أي كما في مثلك رجلاً. وقد مرّ الكلام على هذا مستوفى في آل عمران. والمعنى: كم من آية تلهم على توحيد الله كائنة في السموات من كونها منصوبة بغير عمد،

من النساء ولا من الجن، وهذا يردُّ على من قال: إن في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم. وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمراً معروفاً عند العرب، حتى قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبئة:

أضحت نبيتنا أنثى نظيف بها وأصبحت أنبياء الله نكرانا
فلعننا الله والأقوام كلهم على سجاح ومن باللوم أغرانا

﴿نوحى إليهم﴾ كما نوحى إليك ﴿من أهل القرى﴾ أي:

المداثر دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو

ولكون أهل الأمصار أتم عقلاً وأكمل حلماً وأجل فضلاً

﴿أقلم يسبوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين

من قبلهم﴾ يعني: المشركين المنكرين لنبوّة محمد ﷺ أي:

أقلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا إلى مصارع الأمم

الماضية فيعتبروا بهم حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب

﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا﴾ أي: لدار الساعة الآخرة،

أو لحالة الآخرة على حذف الموصوف. وقال الفراء: إن الدار

هي الآخرة، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم

الجمعة وصلاة الأولى ومسجد الجامع، والكلام في ذلك

مبين في كتب الإعراب، والمراد بهذه الدار: الجنة أي: هي

خير للمتقين من دار الدنيا. وقرئ (ولدار الآخرة). وقرأ نافع

وعاصم ويعقوب (أقلا تعقلون) بئالة الفوقية على الخطاب.

وقرأ الباقر بالتحية. ﴿حتى إذا استتيسر الرسل﴾ هذه

الغاية المحذوف دل عليه الكلام، وتقديره: وما أرسلنا من

قبلك يا محمد إلا رجالاً ولم نعالج أمهم الذين لم يؤمنوا

بما جاءوا بالعقوبة ﴿حتى إذا استتيسر الرسل﴾ من النصر

بعقوبة قومهم، أو حتى إذ استتيسر الرسل من إيمان قومهم

لانهماكهم في الكفر ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قرأ ابن

عباس، وابن مسعود، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو

جعفر بن القعقاع، والحسن، وقتادة، وأبو رجاء العطاردي،

وعاصم وحزمة والكسائي، ويحيى بن وثاب، والأعمش

وخلف (كذبوا) بالتخفيف أي: ظنّ القوم أن الرسل قد

كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا، وقيل:

المعنى ظنّ القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من

نصرهم، وقيل: المعنى وظنّ الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم

حين حذّتهم بأنهم ينصرون عليهم، أو كذبهم رجالهم

لنصر. وقرأ الباقر (كذبوا) بالتشديد، والمعنى عليها

واضح أي: ظنّ الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم

به من العذاب، ويجوز في هذا أن يكون فاعل ظنّ القوم

المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما

جاءوا به من الوعد والوعيد. وقرأ مجاهد وحيد (قد كذبوا)

بفتح الكاف والذال مخففتين على معنى: وظنّ قوم الرسل أن

الرسل قد كذبوا؛ وقد قيل: إن الظنّ في هذه الآية بمعنى

اليقين، لأن الرسل قد تيقنوا أن قومهم كذبوهم، وليس ذلك

مجرد ظنّ منهم. والذي ينبغي أن يفسر الظنّ باليقين في

مثل هذه الصورة يفسر بمعناه الأصلي فيما يحصل فيه

مجرد ظنّ فقط من الصور السابقة ﴿جاءهم نصرنا﴾ أي:

الله وما أنا من المشركين﴾ أي: وقل يا محمد لهم سبحانه الله وما أنا من المشركين بالله الذين يتخذون من دونه أنداداً.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله ﴿ادعوا

إلى الله﴾ ثم ابتداء، فقال: ﴿على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو

الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وما كنت لديهم إذ

لجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ قال: هم بنو يعقوب إذ

يمكرون بيوسف. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة

في الآية يقول: وما كنت لديهم وهم يلقونه في غيبة الجب

وهم يمكرون بيوسف. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاک

﴿وكأين من آية﴾ قال: كم من آية في السماء يعني:

شمسها وقمرها ونجومها وسحابها، وفي الأرض ما فيها من

الخلق والأنهار والجبال والمداثر والقصور. وأخرج ابن

جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال: سلهم

من خلقهم ومن خلق السموات والأرض فسيقولون الله، فذلك

إيمانهم وهم يعبدون غيره. وأخرج سعيد بن منصور، وابن

جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن عطاء في قوله: ﴿وما

يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال: كانوا يعلمون

أن الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم، وكانوا مع ذلك

يشركون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الضحاک في

الآية قال: كانوا يشركون به في تلبيتهم يقولون: لبيك اللهم

لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وأخرج

أبو الشيخ عن الحسن في الآية قال: ذلك المنافق يعمل

بالرياء وهو مشرك بعمله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير،

وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿غاشية

من عذاب الله﴾ قال: وقية تغشاهم. وأخرج ابن أبي حاتم

عن ابن عباس في قوله: ﴿هذه سبيلي﴾ قل: هذه دعوتي.

وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿قل هذه سبيلي﴾ قال: صلاتي.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال:

أمري ومشيتي ومنهجي، وأخرجنا عن قتادة في قوله:

﴿على بصيرة﴾ أي: على هدى ﴿أنا ومن اتبعني﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُرِىٰهِمْ مِنْ أَمْلِ الْفَرَجِ أَفَلَا

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَكُنَّ

الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ أَتَقَوَّا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ

وَعَلَّظُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا يَرَوْا بَاسًا مِنَ

الْقَوْمِ الْمُتَكِبِينَ ﴿١٢﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ

حَدِيثًا يُنْكَرُ وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ

شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ هذا رد على

من قال: ﴿لولا أنزل إليه ملك﴾ [الفرقان: 7] أي: لم نبعث

من الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجالاً لا ملائكة. فكيف ينكرون

إرسالنا إياك. وتدل الآية على أن الله سبحانه لم يبعث نبياً

وقوم صالح والامم التي عذب الله. وأخرج البخاري وغيره من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول الله سبحانه **﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾** قال: قلت اكتبوا أم كذبوا؟ يعني: على هذه الكلمة مخففة أم مشددة، فقالت: بل كذبوا تعني بالتشديد. قلت: والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبهم فما هو بالظن، قالت: أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت: لعلها، وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة، قالت: معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بريها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقهم وطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبهم جاءهم نصر الله عند ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن عبد الله بن أبي مليكة: أن ابن عباس قراها عليه (وظنوا أنهم قد كذبوا) مخففة يقول: أخلفوا. وقال ابن عباس: كانوا بشراً، وتلا **﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾** [البقرة: 214] قال ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: والله ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبهم، وكانت تقرؤها مثقلة. وأخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة: أن النبي ﷺ قرأ: (وظنوا أنهم قد كذبوا) مخففة. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ (قد كذبوا) مخففة. قال: يئس الرسل من قومهم أن يستجيروا لهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبهم بما جاءوا به **﴿جاءهم نصرنا﴾** قال: جاء الرسل نصرنا. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ عن تميم بن حنبل قال: قرأت على ابن مسعود القرآن فلم يأخذ علي إلا حرفين **﴿كل أتوه داخرين﴾** [النمل: 87] فقال: أتوه مخففة، وقرأت عليه **﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾** فقال: كذبوا مخففة. قال: استيأس الرسل من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا. وأخرج ابن مردويه من طريق أبي الأحوص عنه قال: حفظت عن رسول الله ﷺ في سورة يوسف **﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾** خفيفة. وللسلف في هذا كلام يرجع إلى ما نكرناه من الخلاف عن الصحابة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿ففتنجي من نشاء﴾** قال: فتنجي الرسل ومن نشاء **﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾** وذلك أن الله بعث الرسل يدعون قومهم، فأخبرهم أن من أطاع الله نجا ومن عصاه عذب وغوى. وأخرج أبو الشيخ عن السدي **﴿جاءهم نصرنا﴾** العذاب. وأخرج أبو الشيخ عن السدي **﴿ولا يرد بأسنا﴾** قال: عذابه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿لقد كان في قصصهم﴾**

فجاء الرسل نصر الله سبحانه فجأة، أو جاء قوم الرسل الذين كذبهم نصر الله لرسله بإيقاع العذاب على المكذبين **﴿ففتنجي من نشاء﴾**. قرأ عاصم (فتنجي) بنون واحدة. وقرأ الباقون (ففتنجي) بنونين، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى، لأنها في مصحف عثمان كذلك. وقرأ ابن محيصن (فتنجا) على البناء للفاعل، فتكون من على القراءة الأولى في محل رفع على أنها نائب الفاعل، وتكون على القراءة الثانية في محل نصب على أنها مفعول، وعلى القراءة الثالثة في محل رفع على أنها فاعل، والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم، وهلك المكذبون **﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾** عند نزوله بهم، وفيه بيان من يشاء الله نجاه من العذاب وهم من عدا هؤلاء المجرمين **﴿لقد كان في قصصهم﴾** أي: قصص الرسل ومن بعثوا إليه من الأمم، أو في قصص يوسف وإخوته وأبيه **﴿عبارة لأولى الألباب﴾** والعبارة: الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة، وقيل: هي نوع من الاعتبار، وهي العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، وأولوا الألباب هم نورو العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم، وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قص حبيبتهم، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأخبارهم **﴿ما كان حيناً يفتري﴾** أي: ما كان هذا المقصود الذي يدل عليه نكر القصص وهو القرآن المشتمل على ذلك حديثاً يفتري **﴿ولكن تصديق الذين بين يديه﴾** أي: ما قبله من الكتب المنزلة كالأنجيل والإنجيل والزبور. وقرئ برفع (تصديق) على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو تصديق وتفصيل كل شيء من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها، لأن الله سبحانه لم يفرض في الكتاب من شيء؛ وقيل: تفصيل كل شيء من قصة يوسف مع إخوته وأبيه. قيل: وليس المراد به ما يقتضيه من العموم، بل المراد به الأصول والقوانين وما يثول إليها **﴿وهدي﴾** في الدنيا يهتدي به كل من أراد الله هدايته **﴿ورحمته﴾** في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه شرط الإيمان الصحيح، ولهذا قال: **﴿لقوم يؤمنون﴾** أي: يصنفون به وبما تضمنته من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره، وأما من عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدي بما اشتمل عليه من الهدى، فلا يستحق ما يستحقونه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾** قال: أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: ما نعلم أن الله أرسل رسولا قط إلا من أهل القرى، لأنهم كانوا أعلم وأحل من أهل المعمور. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: **﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** قال: كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط

جميعه على أن المراد بالكتاب جميع القرآن ويكون قوله: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ جملة مبنية لكون هذا المنزل هو الحق. قال الفراء: والذي رفع بالاستثناف وخبره الحق. قال: وإن شئت جعلت الذي خفضاً نعتاً للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما في قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام

ويجوز أن يكون محل والذي أنزل إليك الجَرُّ على تقدير: وآيات الذي أنزل إليك، فيكون الحق على هذا خبراً لمبتدأ محذوف ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الحق الذي أنزله الله عليك. قال الزجاج: لما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ والعمد: الأساطين جمع عماد أي: قائمات بغير عمد تعتمد عليه؛ وقيل لها أعمد ولكن لا نراه. قال الزجاج: العمدة قدرته التي يمسك بها السموات، وهي غير مرئية لنا، وقري (عمد) على أنه جمع عمود يعمد به أي: يسند إليه. قال النابغة:

وخبر الجنّ إني قد أننت لهم يبنون تنمر بالصفا والعمد
وجملة ترونها مستأنفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك، وقيل: هي صفة لعمد، وقيل في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: رفع السموات ترونها بغير عمد، ولا ملجئ إلى مثل هذا التكلف ﴿فَمَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: استولى عليه بالحفظ والتدبير، أو استوى أمره، أو أقبل على خلق العرش، وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى، والاستواء على العرش صفة لله سبحانه بلا كيف كما هو مقرر في موضعه من علم الكلام: ﴿وَسَخَّرَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ أي: نللهما لما يراد منهما من منافع الخلق ومصالح العباد ﴿وَكُلٌّ يَجْرِي إِلَى لَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي كل من الشمس والقمر يجري إلى وقت معلوم: وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التي تكوّن عندها الشمس ويخسف القمر وتكثر النجوم وتنتثر، وقيل: المراد بالأجل المسمى بمرجاتهما ومنازلهما التي تنتهيان إليها لا يجاوزنها، وهي سنة للشمس، وشهر للقمر ﴿يَبْدُرُ الْأَمْرُ﴾ أي: يصرفه على ما يريد، وهو أمر ملكوته وربوبيته ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: يبينها وهي الآيات الدالة على كمال قدرته وربوبيته، ومنها ما تقدّم من رفع السماء بغير عمد وتسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى والجملة في محل نصب على الحال أو خبر إن لقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ﴾ على أن الموصول صفة للمبتدأ، والمراد من هذا تنبيه العباد أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة، ولذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ بَلَاءٌ بِكُمْ تُوفَّقُونَ﴾ أي: لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توفّقون بذلك لا تشكون فيه، ولا تمترّون في صدقه، ولما ذكر الدلائل السماوية اتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ قال الفراء: بسطها طولاً وعرضاً. وقال الأصم: إن المدّ هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه، وهذا المدّ الظاهر للبصر لا ينافي كبريتها في نفسها لتباعد أطرافها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي:

قال: يوسف وإخوته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ﴿عِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ قال: معروفة لذوي العقول. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة ﴿مَا كَانَ حَبِيباً يُفْتَرَى﴾ قال: الفرية الكذب. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال: القرآن يصدّق الكتب التي كانت قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه كالطوراة والإنجيل والزبور، ويصدّق ذلك كله ويشهد عليه أن جميعه حق من عند الله ﴿وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فصل الله بين حلاله وحرامه وطلّاعته ومعصيته.

تفسير سورة الرعد

قد وقع الخلاف هل هي مكية أو مدنية؟ فروى النحاس في ناسخه عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. وروى أبو الشيخ وابن مردويه عنه أنها نزلت بالمدينة. وممن ذهب إلى أنها مكية سعيد بن جبير، والحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر بن زيد. وممن ذهب إلى أنها نزلت بالمدينة ابن الزبير والكلبي ومقاتل. وقول ثالث: إنها مدنية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بمكة، وهما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَن قَرَأْنَا سِيرَتَ بِهِ الْجِبَالِ﴾ [الرعد: 31] وقيل قوله: ﴿لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تَصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: 31] وقد روي هذا عن ابن عباس أيضاً وقاتلة. وقد أخرج ابن أبي شيبة والمروزي في الجنائز عن جابر بن زيد قال: كان يستحب إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد فإن ذلك يخفف عن الميت وإنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْءَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لِفَلَهُ رَبِّكُمْ تُوفَّقُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الْجَبَلِ جَمَلٌ ذَا رَجَوٍ آتَيْنَا آيَاتِ الْبَاقِرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قُلُوعٌ مُّتَجَدِّدَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتُونٌ وَنَخِيلٌ مُّنبُتُونَ وَغَيْرُ مُنْتَوَيْنَ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِيدٍ وَنُقْعَلُ بِمَعْبَأٍ عَنْ بَعْضِ فِي الْأَكْشَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

قوله: ﴿الْقَمَرِ﴾ قد تقدّم الكلام في هذه الحروف الواقعة في أوائل السور بما يغني عن الإعادة، وهو اسم للسورة مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده، والتقدير على الأول هذه السورة اسمها هذا، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى آيات هذه السورة، والمراد بالكتاب السورة أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن، ويكون قوله: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ مراداً به القرآن كله أي: هو الحق البالغ في اتصافه بهذه الصفة، أو تكون الإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى آيات القرآن

يتفرع فيصير نخيلاً، ثم يحمل، وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير. قال ابن الأعرابي: الصنو: المثل، ومنه قوله ﷺ: «دم الرجل صنو أبيه»، فمعنى الآية على هذا: أن أشجار النخيل قد تكون متمائلة وقد لا تكون. قال في الكشف: والصنوان جمع صنو، وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد، وقيل: الصنوان المجتمع، وغير الصنوان المتفرق. النحاس: وهو كذلك في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر: صنوان، والصنو: المثل، ولا فرق بين التثنية والجمع إلا بكسر النون في المثنى، وبما يقتضيه الإعراب في الجمع. **﴿يسقى بماء واحد﴾**، قرأ عاصم وابن عامر: (يسقى) بالتحية أي: يسقى ذلك كله. وقرأ الباقر بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد وأبو عمرو، قال أبو عمرو: للتأنيث أحسن لقوله: **﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾** ولم يقل: بعض. وقرأ حمزة والكسائي (يفضل) بالتحية كما في قوله: **﴿يبدر الأمر بفصل الآيات﴾** [الرعد: 2] وقرأ الباقر بالنون على تقدير: ونحن نفضل.

وفي هذا من الدلالة على بيع صنعه وعظيم قدرته ما لا يخفى على من له عقل، فإن القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل في الثمرات في الأكل، فيكون طعم بعضها حلوًا والآخر حامضًا، وهذا في غاية الجودة، وهذا ليس بجيد، وهذا فائق في حسنه، وهذا غير فائق مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضي لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا لسببين: إما اختلاف المكان الذي هو المنبت، أو اختلاف الماء الذي تسقى به، فإذا كان المكان متجاورًا، وقطع الأرض متلاصقة، والماء الذي تسقى به واحدًا، لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب، ولهذا قال الله سبحانه: **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾** أي: يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكير في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودة.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: **﴿المر﴾** قال: أنا الله أرى. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد **﴿المر﴾** فواتح يفتح بها كلامه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: **﴿تلك آيات الكتاب﴾** قال: التوراة والإنجيل **﴿والذي أنزل إليك من ربك الحق﴾** قال: القرآن. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿رفع السفوات بغير عمد ترونها﴾** قال: وما يدريك لعلها بعد لا ترونها. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ عنه في الآية قال: يقول لها عمد ولكن لا ترونها يعني: الأعماد. وأخرج ابن جرير عن إيلس بن معاوية في الآية قال: السماء مقببة على الأرض مثل القبة. وأخرج ابن أبي حاتم

جبالاً ثوابت، واحدها راسية لأن الأرض ترسو بها أي: تثبت، والإرساء: الثبوت. قال عنترة: نصرت عارفة لملك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع وقال جميل:

أحبها والذي أرسى قواعده حتى إذا ظهرت آياته بطنا **﴿ونهاراً﴾** أي: مياماً جارية في الأرض فيها منافع الخلق، أو المراد جعل فيها مجاري الماء **﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾** من كل الثمرات متعلق بالفعل الذي بعده أي: جعل فيها من كل الثمرات زوجين اثنين، الزوج يطلق على الاثنين، وعلى الواحد المزواج لآخر، والمراد هنا بالزوج الواحد، ولهذا أكد الزوجين بالاثنتين لنفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين، وقد تقدم تحقيق هذا مستوفي، أي: جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين، إما في اللونية: كالبياض والسود ونحوهما، أو في الطعمية كالحو والحامض ونحوهما، أو في القدر كالصغير والكبير، أو في الكيفية كالحر والبرد. قال الفراء: يعني بالزوجين هنا الذكر والأنثى. والأول أولى **﴿يغشى الليل للنهار﴾** أي: يلبسه مكانه، فيصير أسود مظلمًا بعدما كان أبيض منيرًا شبه إزالة نور الهدى بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالآغطية التي تستورها، وقد سبق تفسير هذه في الأعراف **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** أي: فيما نكر من مد الأرض وإثباتها بالجبال، وما جعله الله فيها من الثمرات المتزاوجة. وتعاقب النور والظلمة آيات بيينة للناظرين المتفكرين المعبرين **﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾** هذا كلام مستأنف مشتمل على نكر نوع آخر من أنواع الآيات. قيل وفي الكلام حذف أي: قطع متجاورة، وغير متجاورات كما في قوله: **﴿سرابيل تقيكم الحر﴾** [النحل: 81] أي: وتقيكم البرد. قيل: والمتجاورات المنن وما كان عامرًا، وغير المتجاورات: الصحارى وما كان غير عامر، وقيل: المعنى متجاورات متدنات، ترابها واحد ومأواها واحد، وفيها زرع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار فيكون البعض حلوًا والبعض حامضًا، والبعض طيبًا والبعض غير طيب، والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع آخر **﴿وجنات من أعناب﴾** الجنات: البساتين، قرأ الجمهور برفع جنات على تقدير: وفي الأرض جنات، فهو معطوف على قطع متجاورات، أو على تقدير: وبينها جنات. وقرأ الحسن بالنصب على تقدير: وجعل فيها جنات، ونكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل، لأنه يكون في الخارج كثيرًا كذلك، ومثله في قوله سبحانه **﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾** [الكهف: 32]. **﴿صنوان وغير صنوان﴾**، قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص (وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) برفع هذه الأربعة عطفاً على جنات. وقرأ الباقر بالجر عطفاً على أعناب. وقرأ مجاهد والسلمي بضم الصاد من صنوان. وقرأ الباقر بالكسر، وهما لغتان. قال أبو عبيدة: صنوان: جمع صنو، وهو أن يكون الأصل واحدًا، ثم

مُرِّدٌ وَكُلُّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَمَكِّنُ مَا يَشَاءُ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ بِقَدَرٍ ﴿١١﴾ عَنِ الْقَيْبِ الْأَرْحَامِ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿١٢﴾ عَنِ الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ السَّمَاءِ ﴿١٣﴾ سَوَاءٌ يَسْكُرُ مِنْ أَسَرِّ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَعْجِلٌ بِأَيْلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٤﴾ لَمْ تُمَيِّقْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقْوِمُ حَتَّى يَتَغَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقْوِمُ شَيْئًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١٥﴾

قوله: ﴿وَإِنْ تَعْجَب فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: إن تعجب يا محمد من تكنيهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فأعجب منه تكنيهم بالبعث، والله تعالى لا يجوز عليه التعجب، لأنه تغير النفس بشيء تخفى أسبابه وإنما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله وأتباعه. قال الزجاج: أي هذا موضوع عجب أيضاً أنهم أنكروا البعث، وقد بين لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة، وقيل الآية في منكري المصانع أي: إن تعجب من إنكارهم المصانع مع الآلة الواضحة بأن المتغير لا بد له من مغير، فهو محل التعجب، والأول أولى لقوله: ﴿وَإِذَا كُنَّا تَرَابًا لَنَا فِيهِ خَلْقٌ جَدِيدٌ﴾ وهذه الجملة في محل رفع على البلية من قولهم، ويجوز أن تكون في محل نصب على أنها مقول القول والعجب على الأول كلامهم، وعلى الثاني تكلمهم بذلك، والعامل في «إذا» ما يفيد قوله: ﴿لَنَا فِيهِ خَلْقٌ جَدِيدٌ﴾ وهو نبعث أو نعاد، والاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد، وتقديم الظرف في قوله: ﴿فِيهِ خَلْقٌ﴾ لتأكيد الإنكار بالبعث، وكذلك تكرير الهمزة في قوله: ﴿لَنَا﴾. ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة: الأول ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: أولئك المنكرون لقدرة سبحانه على البعث هم المتعادون في الكفر الكاملون فيه، والثاني ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ الأغلال: جمع غل، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق أي: يغلق بها يوم القيامة، وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق، والثالث ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَنْفَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال، وفي توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكري البعث ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ السيئة العقوبة المهلكة، والحسنة: العافية والسلامة، قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم وشدة تصميمهم وتهالكهم على الكفر، وقيل: معنى الآية أنهم طلبوا العقوبة قبل الحسنه، وهي الإيمان ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾. قرأ الجمهور (مثلات) بفتح الميم وضم المثلة جمع مثلة كسمرة، وهي العقوبة. قال ابن الأنباري: المثلة العقوبة التي تبقى في المعاقب شيئا بتغيير بعض خلقه من قولهم: مثل فلان بفلان إذا شأن خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه ويقر بطنه. وقرأ الأعشى بفتح الميم وإسكان المثلة تخفيفاً لثقل الضمة، وفي لغة تميم بضم الميم والمثلة جميعاً، واحتلتها على لغتهم: مثلة، بضم الميم وسكون المثلة

عن ابن عباس قال: السماء على أربعة أملاك كل زاوية موكل بها ملك. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في قوله: ﴿لَا جُلَّ مَسْمُومٍ﴾ قال: الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿يَسِيرُ الْأَمْرُ﴾ قال: يقضيه وحده. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: الدنيا مسيرة خمسمائة عام، أربعمائة خراب، ومائة عمران في أيدي المسلمين من ذلك مسيرة سنة. وقد روي عن جماعة من السلف في تلك تقديرات لم يأت عليها دليل يصح. وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب قال: لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: أي رب تجعل علي بني آدم يعملون علي الخطايا ويعملون علي الخبث، فأرسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم ترجرج. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ لَشَفِينِ﴾ قال: ذكرأ وأنثى من كل صنف. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ أي: يلبس الليل النهار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ﴾ قال: يريد الأرض الطيبة العذبة التي يخرج نباتها بأذن ربها تتجاوزها السبخة القبيحة المالحة التي لا تخرج، وهما أرض واحدة، وماؤها شيء واحد، ملح أو عذب، ففصلت إحداهما على الأخرى. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: قرئ (متجاورات) قريب بعضها من بعض. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: الأرض تنبت حلواً، والأرض تبنت حامضاً، وهي متجاورات تسقى بماء واحد. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي عن البراء بن عازب في قوله: ﴿صُنُوفٌ وَغَيْرُ صُنُوفٍ﴾ قال: الصنوف ما كان أصله واحداً وهو متفرق، وغير صنوف التي تنبت وحدها، وفي لفظ: صنوف النخلة في النخلة ملتصقة، وغير صنوف النخل المتفرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿صُنُوفٌ﴾ قال: مجتمع النخل في أصل واحد ﴿وَغَيْرُ صُنُوفٍ﴾ قال: النخل المتفرق. وأخرج الترمذي وحسنه والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَنُفُضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ قال: للنخل والفارسي والحلو والحامض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: هذا حامض، وهذا حلو، وهذا بقل، وهذا فارسي.

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَوَلَا كُنَّا تَرَابًا لَنَا فِيهِ خَلْقٌ جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَنْفَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْحَسَنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقَرٍّ يَتْنَبِئُ عَنْ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَاءٌ مِنَ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ

جداً، وما موصولة أي: يعلم الذي تحمله كل أنثى في بطنها من علقه، أو مضغة، أو ذكر، أو أنثى، أو صبيح، أو قبيح، أو سعيد، أو شقي. ويجوز أن تكون استفهامية أي: يعلم أي شيء في بطنها، وعلى أي حال هو. ويجوز أن تكون مصدرية أي: يعلم حملها **﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾** الغيض النقص أي: يعلم الذي تغيضه الأرحام أي: تنقصه، ويعلم ما تزداده. فقيل: المراد نقص خلقه الحمل وزيادته كنقص أصعب أو زيادتها وقيل: إن المراد نقص مدة الحمل على تسعة أشهر، أو زيادتها، وقيل: إذا حاضت المرأة في حال حملها كان ذلك نقصاً في ولدها، وقيل الغيض: ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداده منه، و «ما» في ما تغيض وما تزداد تحتل الثلاثة الوجوه المتقدمة في ما تحمل كل أنثى **﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾** أي: كل شيء من الأشياء التي من جملتها الأشياء المذكورة عند الله سبحانه بمقدار، والمقدار: القدر الذي قدره الله، وهو معنى قوله سبحانه: **﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾** [القمر: 49] أي: كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه، لا يخرج عن ذلك شيء **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** أي: عالم كل غائب عن الحس، وكل مشهود حاضر، أو كل معدوم وموجود ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك **﴿الكبير المتعال﴾** أي: العظيم الذي كل شيء بونه، المتعالى عما يقوله المشركون، أو المستعلي على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره، ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يفارده شيء منها، بين أنه عالم بما يسرّونه في أنفسهم وما يجهرون به لغيره، وأن ذلك لا يتفاوت عنده فقال: **﴿سواء منكم﴾** من أسرّ القول ومن جهر به **﴿فهو يعلم ما أسرّه الإنسان كعلمه بما جهر به من خير وشر. وقوله: منكم متعلق بسواء على معنى يستوي منكم من أسر ومن جهر، أو سر من أسر وجهر من جهر ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾** أي: مستتر في الظلمة الكائنة في الليل متوار عن الأعين. يقال: خفي الشيء واستخفى أي: استتر وتوارى **﴿وسارب بالنهار﴾** قال الكسائي: سرب يسرب سرباً وسروباً إذا ذهب. ومنه قول الشاعر:

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب أي: ذهب. وقال القتبي: سارب بالنهار متصرف في حوائجه بسرعة، من قولهم: أسرب الماء. قال الأصمعي حل سربه أي: طريقته. وقال الزجاج: معنى الآية الجاهر بنطقه، والمضمّر في نفسه، والظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات علم الله فيهم جميعاً سراً، وهذا الصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفي والسارب فالمستخفي المستتر، والسارب البارز الظاهر **﴿له معقبات﴾** الضمير في «له» راجع إلى من في قوله: من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف أي: لكل من هؤلاء معقبات. والمعقبات المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلاً

مثل غرفة وغرفات. وحكي عن الأعمش في رواية أخرى أنه قرأ هذا الحرف بضمها على لغة تميم. والمعنى: إن هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم، وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون بهم ويحذرون من حلول ما حلّ بهم، والجملة في محل نصب على الحال، وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم: **﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾** [الأنفال: 32] الآية. **﴿وإن ربك ل ذو مغفرة﴾** أي: لذو تجاوز عظيم **﴿للناس على ظلمهم﴾** أنفسهم باقترافهم الذنوب ووقوعهم في المعاصي إن تابوا عن ذلك، ورجعوا إلى الله سبحانه، والجار والمجرور أي: على ظلمهم في محل نصب على الحال أي: حال كونهم ظالمين، وعلى بمعنى مع أي: مع ظلمهم وفي الآية بشارة عظيمة ورجاء كبير، لأن من المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً، ولهذا قيل: إنها في عصاة الموحدين خاصة، وقيل: المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة. وكما تفيده الجملة المذكورة بعد هذه الآية، وهي **﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾** يعاقب العصاة المكذبين من الكافرين عقاباً شديداً على ما تقتضيه مشيئته في الدار الآخرة **﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾** أي: هلا أنزل عليه آية غير ما قد جاء به من الآيات، وهؤلاء الكفار القائلون هذه المقالة هم المستعجلون للعقاب. قال الزجاج: طلبوا غير الآيات التي أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى، فقال الله تعالى: **﴿إنما أنت منذر﴾** تنذرهم بالنار، وليس إليك من الآيات شيء. انتهى. وهذا مكابرة من الكفار وعناد، وإلا فقد أنزل الله على رسوله من الآيات ما يغني البعض منه، وجاء في **﴿إنما أنت منذر﴾** بصيغة الحصر لبيان أنه ﷺ مرسل لإنذار العباد، وبيان ما يحذرون عاقبته، وليس عليه غير ذلك، وقد فعل ما هو عليه، وأنذر أبلغ إنذار، ولم يدع شيئاً مما يحصل به ذلك إلا أتى به وأوضحه وكرره، فجاءه الله عن أمته خيراً **﴿ولكل قوم هاد﴾** أي: نبي يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ورشادهم. وإن لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها، وآيات الرسل مختلفة هذا يأتي بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها، ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ في التعنت إلى مكان عظيم، فليس المراد من الآيات إلا الدلالة على النبوة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية، وذلك لا يختص بفرد منها، ولا بأفراد معينة. وقيل: إن المعنى ولكل قوم هاد، وهو الله عز وجل فإنه القادر على ذلك، وليس على أنبيائه إلا مجرد الإنذار **﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾** الجملة مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته بالعلم سبحانه، وعلمه بالغيب الذي هذه الأمور المذكورة منه، قيل: ويجوز أن يكون الاسم الشريف خبراً لمبتدأ محذوف أي: ولكل قوم هاد وهو الله، وجملة **﴿يعلم ما تحمل كل أنثى﴾** تفسير لهاد على الوجه الأخير، وهذا بعيد

منه، وهم الحفظة من الملائكة في قول عامة المفسرين. قال الزجاج: المعقبات ملائكة يأتي بعضهم يعقب بعض، وإنما قال: معقبات مع كون الملائكة نكوراً لأن الجماعة من الملائكة يقال لها: معقبة، ثم جمع معقبة على معقبات: نكر معناه الفراء؛ وقيل: أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة. قال الجوهري: والتعقب العود بعد البدء. قال الله تعالى: ﴿وَلِي مَدْبَرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: 10 - القصص: 31] وقرئ (معاقيب) جمع معقب ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ﴾ أي: من بين يدي من له المعقبات. والمراد إن الحفظة من الملائكة من جميع جوارئبه، وقيل المراد بالمعقبات الأعمال، ومعنى من بين يديه ومن خلفه: ما تقدم منها وما تأخر ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: من أجل أمر الله، وقيل: يحفظونه من بأس الله إذا أذن بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب. قال الفراء: في هذا قولان: أحدهما أنه على التقديم والتأخير، تقديره: له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، والثاني أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به. قال الزجاج: المعنى حفظهم إياه من أمر الله أي: مما أمرهم به لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمراً. قال ابن الأنباري: وفي هذا قول آخر، وهو أن «من» بمعنى الباء أي: يحفظونه بأمر الله؛ وقيل: إن من بمعنى عن أي: يحفظونه عن أمر الله بمعنى من عند الله. لا من عند أنفسهم، كقوله: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ [قريش: 4] أي: عن جوع وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب؛ وقيل: يحفظونه من الجن. واختار ابن جرير أن المعقبات الموكب بين أيدي الأمراء، على معنى أن ذلك لا ينفع عنه القضاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِيَهُمْ﴾ من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة الله. والمعنى: أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة، أو يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها. قيل: وليس المراد، أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما في الحديث «أنه سال رسول الله سائل فقال: أتهلك وفيها الصالحون؟ قال: نعم إذا كثرت الخيبت». ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي: هلاكاً وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ أي فلا رد له. وقيل: المعنى إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى قلوبهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نُونَةٍ مِنْ وَادٍ﴾ يلي أمرهم ويلتجئون إليه، فيلجأ عنهم ما ينزل بهم من الله سبحانه من العقاب، أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله. والمعنى: أنه لا راد لعذاب الله ولا ناقص لحكمه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن في قوله: ﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك فعجب قولهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم، وهم رأوا من قدرة الله وأمره، وما ضرب لهم من الأمثال وأراهم من حياة الموتى والأرض الميتة ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذْ ذَا تَرَوْا ثَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أو لا

يرون أنه خلقهم من نطفة، فالخلق من نطفة أشد من الخلق من تراب وعظام. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ قال: العقوبات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في المثلثات قال: وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: المثلثات ما أصاب القرون الماضية من العذاب. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ رِبْكَ لَتُوْ مَغْفِرَةً لِلنَّاسِ عَلَى ظَلَمِهِمْ وَإِنْ رِبْكَ لَشَيْدٍ الْعِقَابِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزته ما هنا لأحد العيش: ولولا وعيده وعقابه لاتكل، كل أحد». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: داع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: المنذر محمد ﷺ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبي يدعوهم إلى الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: محمد المنذر والهادي الله عز وجل. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه أيضاً. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: رسول الله ﷺ هو المنذر وهو الهادي. وأخرج ابن جرير عن عكرمة وأبي الضحى نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، وأبو نعيم في المعرفة، والديلمي، وابن عساکر، وابن النجار عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: «وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: أنا المنذر، وأوما بيده إلى منكب علي فقال: أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي». قال ابن كثير في تفسيره: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة. وأخرج ابن مروي عن أبي برزة الأسلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ فذكر نحوه. وأخرج ابن مروي والضياء في المختارة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، وابن مروي، وابن عساکر عن علي بن أبي طالب في الآية نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ قال: كل أنثى من خلق الله. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة في الآية قال: هي يعلم نكراً هو أو أنثى ﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامَ﴾ قال: هي المرأة ترى الدم في حملها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامَ﴾ قال: خروج الدم ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: استمسكه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامَ﴾ قال: أن ترى الدم في حملها ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: في التسعة أشهر. وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق الضحاك عنه في الآية قال: ما تزداد على تسعة، وما

ملائكة يحفظونه من أن تقع عليه حائط، أو ينزوي في بئر، أو ياكله سبع أو غرق أو حرق، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر، وقد ورد في نكر الحفظة الموكلين بالإنسان لحديث كثيرة منكرة في كتب الحديث.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآيَاتِ خَوْفًا وَكَمَامًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿٧﴾ وَيَسْخِرُ الرُّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكَةَ مِنْ جُفَيْفٍ وَيُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨﴾ فَأَمَّا فِيهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِسَابِ ﴿٩﴾ لَمْ يَخْلُقْ لِقَى وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَنَسِيطٍ كَثِيرٍ إِلَى الْمَاءِ يَنْتَهِجُ مَاءَهُ وَهُوَ يَلْفُفُهُ وَمَا نَعْلَمُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمَ لَهُمْ بِالْأَصْحَابِ ﴿١١﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَتَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَشْيَاءٍ شَرًّا وَلَا سَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ يَحْضُوا بِأَن يَخْرُجَ الْفَوْزُ ﴿١٢﴾ خَلَقُوا كَلْبَةَ كَلْبَةٍ فَتَنَنَّا لِقَائِهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٣﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ أُتَيْتَ لَظْمًا مِنْ زَيْدٍ يَنْفُلُ كَذَلِكَ يَنْفُرُ اللَّهُ الْخَلْقَ وَالْبَاطِلَ فَمَا أَزِيدُ قَدْ هَبَّتْ فَجَاءَتْ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَكَّتْ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِالظُّلُمِ لَمْ يَنفُرُوا لَمْ تَوْأَنَ لَهُمْ فَا فِي الْأَرْضِ جَيْمًا وَقَعْلَهُمْ مَعَهُ لَأَقْدَرُوا بِوَيْهِ أَوْلِيَاءُ لَهُمْ سَوْءُ الْحِسَابِ وَمَا أَوْفَتْهُمْ جَهَنَّمَ وَيُسَّرُ لِلْهَادِ ﴿١٥﴾

لما خوف سبحانه عباده بإنزال ما لا مرد له أتبعه بأمر ترجى من بعض الوجوه ويخاف من بعضها، وهي البرق والسحاب والرعد والصاعقة، وقد مر في أول البقرة تفسير هذه الألفاظ وأسبابها.

وقد اختلف في وجه انتصاب «خَوْفًا وَطَمَعًا» فقيل: على المصدرية أي: لتخافوا ولتطمعوا طمعاً، وقيل: على العلة بتقدير إرادة الخوف والطمع لثلا يختلف فاعل الفعل المعمل وفاعل المفعول له، أو على الحالية من البرق، أو من المخاطبين بتقدير ذوي خوف، وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه. قيل: والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق، وبالطمع هو الحاصل في المطر، وقال الزجاج: الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر، والطمع للحاضر، لأنه إذا رأى البرق طمع في المطر الذي هو سبب الخصب «وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ» التعريف للجنس والواحدة سحابة، والثقال جمع ثقيلة، والمراد أن الله سبحانه يجعل السحاب التي ينشئها ثقلاً بما يجعله فيها من الماء «وَيَسْخِرُ الرُّعْدَ بِحَمْدِهِ» أي: يسبح الرعد نفسه بحمد الله أي: متلبساً بحمده، وليس هذا بمستبعد، ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك «وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ» [الإسراء: 44]. وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد في ذلك، ويكون نكره على الأفراد مع نكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له، وعناية به، وقيل: المراد ويسبح سامعوا

تنقص من التسعة. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ عنه أيضاً في الآية «ما تغيض الأرحام» قال: السقط «وما تزداد» ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تنقص، فذلك الغيظ والزيادة التي ذكر الله، وكل ذلك يعلمه تعالى. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «عالم الغيب والشهادة» قال: السر والعلانية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في قوله: «ومن هو مستخف بالليل» قال: راكب رأسه في المعاصي «وسارب بالنهار» قال: ظاهر بالنهار بالمعاصي. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس «وسارب بالنهار» قال: الظاهر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو صاحب ربيعة مستخف بالليل، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، وابن مروي، وأبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس: أن سبب نزول الآية قديم عامر بن الطفيل، وأريد بن قيس على رسول الله ﷺ في القصة المشهورة، وأنه لما أصيب عامر بن الطفيل بالغة نزل قوله تعالى: «الله يعلم ما تحمل كل أنثى» إلى قوله: «معهقات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله» قال: المعقات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ، ثم نكر أريد بن قيس وما قتله، فقال: «هو الذي يريكم البرق» إلى قوله: «وهو شديد المحال» وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: «معهقات» الآية قال: هذه للنبي ﷺ خاصة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه «يحفظونه من أمر الله» قال: ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً «من أمر الله» قال: بإنزال الله. وأخرج ابن جرير عن قتادة مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: ولي السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، يقول: يحفظونه من أمري، فلاني إذا أردت بقوم سوءاً فلا مرد له. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه في الآية قال: الملوك يتخلون الحرس يحفظونه من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله يحفظونه من القتل، ألم تسمع أن الله يقول: «إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له» أي: إذا أراد سوءاً لم يغن الحرس عنه شيئاً. وأخرج ابن جرير عن عكرمة في الآية قال: هؤلاء الأمراء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ عن علي في الآية قال: ليس من عبد إلا ومعه

يبلغ فاه. ولهذا قال: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَاءُ﴾ أي: الماء ﴿بِالْفَهْمِ﴾ أي: يبلغ فيه. قال الزجاج: إلا كما يستجاب للذي يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه، والماء لا يستجيب، أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعو إلى بلوغ فمه، وما الماء بفاه. وقيل: المعنى أنه كياسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه. وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدره مثلاً بالقبض على الماء كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها من الرد مثل القابض الماء باليد
وقال الآخر:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خائته فروج الأصابع
وقال الفراء: إن المراد بالماء هنا ماء البثر لأنها معدن للماء، وأنه شبهه بمن مد يده إلى البثر بغير رشاء، ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: يضل عنهم ذلك الدعاء فلا يجنون منه شيئاً، ولا ينفعهم بوجه من الوجوه بل هو ضائع ذاهب ﴿وَهُوَ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقي، وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع والتذلل، فنلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن؛ وأما في الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا في حقهم، فلا بد أن يحمل للسجود المذكور في الآية على معنى حق لله السجود ووجب حتى يُنَال السجود بالفعل وغيره، أو يفسر للسجود بالانقياد. لأن الكفار وإن لم يسجدوا لله سبحانه فهم منقادون لأمره، وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت والفقر والغنى. ويدل على إرادة هذا المعنى قوله: ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ فإن الكفار ينقادون كرهاً كما ينقاد المؤمنون طوعاً، وهما منتصبان على المصدرية أي: انقياد طوع وانقياد كره، أو على الحال أي: طائعين وكارهين، وقال الفراء: الآية خاصة بالمؤمنين فإنهم يسجدون طوعاً، وبعض الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين، فالآية محمولة على هؤلاء؛ وقيل: الآية في المؤمنين، فمنهم من سجد طوعاً لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه لأن التزام التكليف مشقة ولكنهم يتحملون المشقة إيماناً بالله وإخلاصاً له ﴿وَوَظَلَّاهُمْ بِالْغَنَى وَالْأَصَالِ﴾ وظلالهم جمع ظل، والمراد به ظل الإنسان الذي يتبعه، جعل ساجداً بسجوده حيث صار لازماً له لا ينكف عنه. قال الزجاج، وابن الأنباري: ولا يبعد أن يخلق الله للضلال أفعالاً تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال أفعالاً حتى اشتغلت بتسبيحه، فظل المؤمن يسجد لله طوعاً. وظل الكافر يسجد لله كرهاً وخص الغنى والأصال بالذاكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما، وهما ظرف للسجود المقدر أي: ويسجد ظلّاهم في هذين الوقتين، وقد تقدّم تفسير الغنى والأصال في الأعراف، وفي معنى هذه الآية قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ضَلَالَةً عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لَهُ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾

الرعد، أي يقولون: سبحانه الله والحمد لله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: ويسبح الملائكة من خيفة الله سبحانه؛ وقيل: من خيفة الرعد. وقد نكر جماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد. وإن الله سبحانه جعل له أعواناً ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه فيهلكه، وسياق هذه الأمور هنا للغرض الذي سيقت له الآيات التي قبلها، وهي الدلالة على كمال قدرته ﴿وَهُمْ يَجَانِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ الضمير راجع إلى الكفار المخاطبين في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾ أي: وهؤلاء الكفرة مع هذه الآيات التي أراهم الله يجادلون في شأن الله سبحانه فينكرون البعث تارة ويستعجلون العذاب أخرى، ويكذبون الرسل ويعصون الله، وهذه الجملة في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون مستأنفة ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ﴾ قال ابن الأعرابي: المحال المكر، والمكر من الله: التبدير بالحق. وقال النحاس: المكر من الله إيصال المكره إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وقال الأزهري: المحال القوة والشدة، والميم أصلية، وما حلت فلاناً محالاً أينا أشد. وقال أبو عبيد: المحال العقوبة والمكره. قال الزجاج: يقال ما حلته محالاً: إذا قلاوته حتى يتبين أيكأ أشد، والمحل في اللغة: الشدة. وقال ابن قتيبة: أي شديد الكيد، وأصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان، وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. قال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة بل هي أصلية. وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية مثل مهاد وملاك ومراسي وغير ذلك من الحروف. وقرأ الأعرج (وهو شديد المحال) بفتح الميم. وقد فسرنا هذه القراءة بالحول..

وللصحابة والتابعين في تفسير المحال هنا أقوال ثمانية: الأول العداوة، الثاني الحول، الثالث الأخذ، الرابع الحقد، الخامس القوة، السادس الغضب، السابع الهلاك، الثامن الحيلة ﴿هُوَ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ إضافة الدعوة إلى الحق للملاسة أي: الدعوة الملاسة للحق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه كما يقال: كلمة الحق؛ والمعنى أنها دعوة مجابة واقعة في موقعها، لا كدعوة من نونه. وقيل: الحق هو الله سبحانه، والمعنى: أن الله سبحانه دعوة المدعو الحق وهو الذي يسمع فيجيب، وقيل: المراد بدعوة الحق ها هنا كلمة التوحيد والإخلاص، والمعنى: الله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له. وقيل: دعوة الحق دعاءه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه سواه كما قال تعالى: ﴿فَضْلٌ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 67]. وقيل: الدعوة العبادة، فإن عبادة الله هي الحق والصدق ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أي: والألوهة الذين يدعونهم يعني: الكفار من دون الله عز وجل لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه منهم كائناتاً ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه، لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه، ولا يدري أنه طلب منه أن

جعلوا له شركاء الأصنام ونحوها، وهي بمعزل عن أن تكون كذلك، ثم أمره الله سبحانه بأن يوضح لهم الحق ويرشداهم إلى الصواب فقال: ﴿قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كائنًا ما كان ليس لغيره في تلك مشاركة بوجه من الوجوه. قال الزجاج: والمعنى أنه خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقاً، ألا ترى أنه تعالى شيء وهو غير مخلوق ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ أي: المتفرد بالربوبية ﴿الْقَهَّارُ﴾ لما عداه، فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب، ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر للحق وذويه، وللباطل ومنتحليه فقال: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من جهتها، والتذكير للتكثير أو للتنوع ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ جمع وادٍ، وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما. قال أبو علي الفارسي: لا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة إلا هذا، وكأنه حمل على فاعيل فجمع على أفعلة مثل جريب وأجربة. كما أن فاعلاً حمل على فاعل، فجمع على أفعال مثل يتيم وأيتام وشريف وأشرف، كاصحاب وإنصار في صاحب وناصر. قال: وفي قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ توسع أي: سال ماؤها، قال: ومعنى ﴿بِقُدْرِهَا﴾ بقدر مائها، لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها. قال الواحدي: والقدر مبلغ الشيء، والمعنى: بقدرها من الماء، فإن صغر الوادي قل الماء وإن اتسع كثر، وقال في الكشف: بقدرها بمقدارها التي يعرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار. قال ابن الأنباري: شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر، إذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر، وشبه الأودية بالقلوب: إذ الأودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والإيمان في قلوب المؤمنين ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَلِيًّا﴾ الزبد: هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل، ويقال له: الغشاء والرغوة، والرابي: العالي المرتفع فوق الماء. قال الزجاج: هو الطافي فوق الماء، وقال غيره: هو الزائد بسبب انتفاخه، من ربا يربو إذا زاد، والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضحل ويعلق بجنيات الوادي وتدفعه الرياح. فكنك يذهب الكفر ويضحل. وقد تم المثل الأول، ثم شرح سبحانه في نكر المثل الثاني فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ من لابتداء الغاية أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو للتبويض بمعنى: وبعضه زبد مثله، والضمير للناس، أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره. هذا على قراءة (يوقدون) بالتحية، وبها قرأ حميد وابن محيصن، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص. وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، واختار القراءة الأولى أبو عبيد. والمعنى: ومما توقدون عليه في النار فينوب من الأجسام المنطرفة الذاتية ﴿إِتِّغَاءَ حَلِيَةٍ﴾ أي: لطلب اتخاذ حلية تتزينون بها وتتجملون كالذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ أي: أو طلب متاع تتمتعون به من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والصفير والنحاس والرصاص ﴿زَبَدٍ مِثْلِهِ﴾ المراد بالزبد هنا الخبث، فإنه يعلو فوق ما أتيب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء فالضمير في مثله يعود

[النحل: 48] وجاء بمن في من في السموات والأرض تغليياً للعقلاء على غيرهم، ولكن سجد غيرهم تبعاً لسجودهم. ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيد تقديمه على الفعل من الاختصاص، فإن سجد الكفار لأصنامهم معلوم، ولا يتقانون لهم كاتقيادهم لله في الأمور التي يقرّون على أنفسهم بأنها من الله، كالخلق والحياة والموت ونحو ذلك ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أمر الله سبحانه رسوله أن يسأل الكفار من رب السموات والأرض؟ ثم لما كانوا يقرّون بذلك ويعترفون به كما حكاها الله سبحانه في قوله: ﴿لَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: 9] وقوله: ﴿لَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87] أمر رسوله ﷺ أن يجيب، فقال: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ فكانه حكي جوابهم وما يعتقونه، لأنهم ربما تلعموا في الجواب حذراً مما يلزمهم، ثم أمره بأن يلزمهم الحجة ويكثفهم فقال: ﴿قُلْ افْتَحْتُمْ مِنْ دُونِهِ أُولِيَاءَ﴾ والاستفهام للإنكار أي: إذا كان رب السموات والأرض هو الله كما تقرّون بذلك وتعترفون به كما حكاها سبحانه عنكم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ سيقولون ﷻ [المؤمنون: 86 - 87] فما بالكم اتخذتم لأنفسكم من دونه أولياء عاجزين ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا﴾ ينفعونها به ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ يضرّون به غيرهم أو ينفعونه عن أنفسهم، فكيف ترجون منهم النفع والضرر وهم لا يملكونها لأنفسهم والجملة في محل نصب على الحال، ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي الأعمى في دينه وهو الكافر، والبصير فيه وهو الموحد، فإن الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه، والثاني عالم بذلك. قرأ ابن محيصن، وأبو بكر، والأعمش، وحمزة، والكسائي (أم هل يستوي الظلمات والنور) بالتحية، وقرأ الباقون بالفوقية، واختار القراءة الثانية أبو عبيد، والمراد بالظلمات الكفر، وبالنور الإيمان، والاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: كيف يكونان مستويين وبينهما من التفاوت ما بين الأعمى والبصير، وما بين الظلمات والنور، ووجد النور وجمع الظلمة، لأن طريق الحق واحدة لا تختلف، وطرائق الباطل كثيرة غير محصورة ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ أم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة أي: بل أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، والاستفهام لإنكار الوقوع. قال ابن الأنباري: معناه أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل ما خلق الله فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم أي: ليس الأمر على هذا حتى يشبه الأمر عليهم، بل إذا فكروا بعقولهم وجدوا الله هو المنفرد بالخلق، وسائر الشركاء لا يخلقون شيئاً، وجملة: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ في محل نصب صفة لشركاء، والمعنى: أنهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه ﴿فَتَشَابَهَ﴾ بهذا السبب ﴿الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم، بل إنما

الشرطية، وهي ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من أصناف الأموال التي يملكها العباد ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شيء ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: مثل ما في الأرض جميعاً كأننا معه ومنصمماً إليه ﴿لَا فَتَنُوا بِهِ﴾ أي: بمجموع ما ذكر وهو ما في الأرض ومثله. والمعنى: ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم، ثم بين الله سبحانه ما أعدّه لهم فقال: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ يعني: الذين لم يستجيبوا ﴿لَهُمْ سُوءُ الْحَسَابِ﴾ قال الزجاج: لأن كفرهم أحبب أعمالهم، وقال غيره: سوء الحساب المناقشة فيه؛ وقيل: هو أن يحاسب الرجل بنسبه كله لا يغفر منه شيء ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: مرجعهم إليها ﴿وَبُئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: المستقر الذي يستقرون فيه. والمخصوص بالذم محذوف.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يَرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشتقته وطمعاً للمقيم يطمع في رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: خوفاً لأهل البحر وطمعاً لأهل البر. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: الخوف ما يخاف من الصواعق والطمع: الغيث. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في سننه من طرق عن علي بن أبي طالب قال: البرق مخاريق من نار بأيدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب. ودوي عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه، ولعلنا قد قدمنا في سورة البقرة شيئاً من ذلك. وأخرج أحمد عن شيخ من بني غفار قد صحب رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب فتتطرق أحسن النطق وتضحك أحسن الضحك». قيل: والمراد بنطقها الرعد، وبضحكها البرق. وقد ثبت عند أحمد، والترمذي، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه من حديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك». وأخرج العقيلي وضعفه، وابن مروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ينشئ الله السحاب ثم ينزل فيه الماء، فلا شيء أحسن من ضحكك، ولا شيء أحسن من نطقه، ومنطقه الرعد وضحك البرق». وأخرج ابن مروي عن جابر بن عبد الله: «أن خزيمه بن ثابت، وليس بالأنصاري، سأل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب فقال: إن ملكاً موكلاً يلّم القاصية ويلحم الدانية في يده مخراق، فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت، وإذا ضرب صعقت». وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مروي، وأبو نعيم في الدلائل والضيء في المختارة عن ابن عباس قال: «أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة

إلى زيداً رابياً، وارتفاع زيد على الابتداء وخبره مما يوقنون ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي: مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل، ثم شرع في تقسيم المثل فقال: ﴿فَمَا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جَفَاءً﴾ يقال: جفاً الوادي بالهمز جفأ: إذا رمى بالقدر والزبد. قال الفراء: الجفأ الرمي. يقال: جفاً الوادي غشاء جفأ: إذا رمى به، والجفأ بمنزلة الغشاء. وكذا قال أبو عمرو بن العلاء، وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤية يقرأ جفلاً. قال أبو عبيدة: يقال: أجفلت القدر إذا قذفت بزبدتها. وأجفلت الريح السحاب إذا قطعت، قال أبو حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤية، لأنه كان ياكل الفار. وأعلم أن وجه المماثلة بين الزبد في الزبد الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الأجسام المنطوقة، أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبداً رابياً فوقه وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى ينوب من الأجسام المنطوقة، فإن أصله من المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب، فإذا انبثت صار ذلك التراب الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ منهما وهو الماء الصافي، والذائب الخالص من الخبث ﴿فَيَمَكْتُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ينبت فيها. أما الماء فإنه يسلك في عروق الأرض فتنتفع الناس به، وأما ما أنيب من تلك الأجسام فإنه يصاغ حلية وأمتعة. وهذان مثلاًن ضربهما الله سبحانه للحق والباطل. يقول: إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإن الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العقوبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل وكخبث هذه الأجسام فإنه وإن علا عليها فإن الكبر يقنقه ويدفعه، فهذا مثل الباطل؛ وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الأرض، كذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شوب فيه، وهو مثل الحق. قال الزجاج: فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعاً بها، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفأ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به. وقد حكينا عن ابن الأنباري فيما تقدم أنه شبه نزول القرآن إلى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلاًن ضربه الله للقرآن ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله الأمثال في كل باب لكمال العناية بعباده واللفظ بهم، وهذا تأكيد لقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾، ثم بين سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده، فقال: فيمن ضرب له مثل الحق ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أجابوا لدعوته إذ دعاهم إلى توحيدهم وتصديق أنبيائهم والعمل بشرائعه، والحسنى صفة موصوف محذوف، أي: المثوبة الحسنى وهي الجنة، وقال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ لدعوته إلى ما دعاهم إليه، والموصول مبتدأ وخبره الجملة

وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه أيضاً في قوله: ﴿انزل من السماء ماء﴾ الآية قال: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فاما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فاما للزبد فيذهب جفأ﴾ وهو الشك ﴿واما ما ينفع للنفس فيمكث في الأرض﴾ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك، وأخرج هؤلاء عنه أيضاً: ﴿فسالت أودية بمقدورها﴾ قال: الصغير قدر صغره، والكبير قدر كبره.

[illegible]

الهمزة في قوله: ﴿إِنَّمَن يَعْلَمُ﴾ للإنكار على من يتوهم
المماثلة بين من يعلم أنما أنزله الله سبحانه إلى رسوله ﷺ
من الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة، وهو القرآن، وبين من
هو أعمى لا يعلم ذلك، فإن الحال بينهما متباعد جداً كالتباعد
الذي بين الماء والزبد، وبين الخبث والخالص من تلك
الأجسام، ثم بين سبحانه أنه إنما يقف على تفاوت
المنزلتين، وتباين المرتبتين أهل العقول الصحيحة، فقال:
﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَبْصَارِ﴾ ثم وصفهم بهذه الأوصاف
المانحة، فقال: ﴿لَّذِينَ يُوَفُّونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي: بما عقده
من العهود فيما بينهم وبين ربهم، أو فيما بينهم وبين العباد
﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ الذي وثقوه على أنفسهم، وكنوه
بالإيمان ونحوها، وهذا تعميم بعد التخصيص، لأنه يدخل
تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها،
ويحتمل أن يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد
الترميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله، وهي أوامره
ونواهيه التي وصى بها عبده، ويدخل في ذلك الالتزامات
التي يلزم بها العبد نفسه، ويراد بالميثاق ما أخذه الله على
عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم النذر المنكور في
قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيَّ أَدَمَ﴾ [الأعراف: 172]
الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ظاهره
شمول كل ما أمر الله بصلته، ونهى عن قطعه من حقوق الله
وحقوق عباده، ويدخل تحت تلك صلة الأرحام دخولاً أولياً،
وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم، واللفظ
أوسع من ذلك ﴿وَيُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خشية تحملهم على فعل
ما وجب، واجتناب ما لا يحل ﴿وَيُخَافُونَ سَوْءَ الْحِسَابِ﴾

أشياء، فإن أنبأنا بهنَّ عرفنا أنك نبيٌّ واتبعناك، فاخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: الله على ما نقول وكيل، قال هاتوا، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تنكر؟ قال: يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أنكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت؟ قالوا: أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتهي عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا البان كذا وكذا، يعني: الإبل، فحرم لحومها قالوا: صدقت، قالوا أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: صوته، قالوا: صدقت إنما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا، إنه ليس من نبيٍّ إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل، قالوا: جبريل ذلك ينزل بالخراب والقتال والعذاب عوناً، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: 97] إلى آخر الآية. وأخرج البخاري في الأدب المفرد وابن أبي الدنيا في المطر، وابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان الذي سبحت له، وقال: إن الرعد ملك ينطق بالغيث كما ينطق الراعي بغنمه. وقد روي نحو هذا عنه من طرق. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن الرعد صوت الملك، وكذا أخرج نحوه أبو الشيخ عن ابن عمر. وأخرج ابن المنذر، وابن مريويه عن ابن عباس قال: الرعد ملك اسمه الرعد، وصوته هذا تسبيحه، فإذا اشتدَّ زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه، وأخرج ابن أبي حاتم، والخرائطي، وأبو الشيخ في العظمة عن أبي عمران الجوني قال: إن يحوراً من نار دون العرش يكون منها الصواعق. وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال: الصواعق نار. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿وهو شديد للمحال﴾ قال: شديد القوة. وأخرج ابن جرير عن علي قال: شديد الأخذ. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه في قوله: ﴿له دعوة الحق﴾ قال: التوحيد: لا إله إلا الله. وأخرج عبد الرزاق، والغريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿دعوة الحق﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير عن علي في قوله: ﴿إلا كياسط كفيه إلى السماء ليبلغ فاه وما هو ببالغ﴾ قال: كان الرجل العطشان يمدُّ يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال: هذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناولوه ولا يقدر عليه. وأخرج أبو الشيخ عنه في قوله: ﴿هل يستوي الأعمى والبصير﴾ قال: المؤمن والكافر. وأخرج ابن جرير،

الدار جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح ما أعطاهم من عقبي الدار المتقّم نكرها للترغيب والتشويق، ثم اتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء، فقال: **«وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ»** وقد مرّ تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منهما تفسير النقض والقطع، ولم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهما وما بعدهما من الأوصاف المتقدّمة لبخولها في النقض والقطع **«وَيُفْسِلُونَ فِي الْأَرْضِ»** بالكفر وارتكاب المعاصي والأضرار بالأنفس والأموال **«أُولَئِكَ»** الموصوفون بهذه الصفات الذميمة **«لَهُمْ»** بسبب ذلك **«اللعنة»**: أي: الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه **«وَلَهُمْ سُوءُ الدَارِ»** أي: سوء عاقبة دار الدنيا، وهي النار أو عذاب النار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله تعالى: **«فَمَنْ يَعْلَمْ نِزْلَ وَإِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقِّ»** قال: هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه **«كَمَنْ هُوَ أَعْمَى»** قال: عن الحق فلا يبصره ولا يعقله **«إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ»** فبين من هم، فقال: **«الَّذِينَ يُوَفُّونَ بِعَهْدِ اللَّهِ»**. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة **«أُولُوا الْأَلْبَابِ»** قال: من كان له لبّ أي: عقل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة أن الله نكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين آية من القرآن. وأخرج الخطيب، وابن عساكر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ الْبِرَّ وَالصَّلَاةَ لِيُخَفِّفَانِ سُوءَ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** ثم تلا رسول الله ﷺ: **«وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ»**. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة في قوله: **«وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ»** يعني: من إيمان بالبينين وبالكاتب كلها **«وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ»** يعني: يخافون من قطيعة ما أمر الله به أن يوصل **«وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ»** يعني: شدة الحساب.

وقد ورد في صلة الرحم وتحريم قطعها أحاديث كثيرة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، أبو الشيخ عن الضحاك **«وَيُؤَدُّونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ»** قال: يدفعون بالحسنة السيئة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن مسعود في قوله: **«جَنَّاتُ عَدْنٍ»** قال: بطنان الجنة، يعني: وسطها. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن عمر قال لعبي: ما عدن؟ قال: هو قصر في الجنة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل. وأخرج ابن مريويه عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: **«جَنَّةٌ عَدْنٌ قُضِيَ غَرَسُهُ»** الله بيده، ثم قال له: كن فكان. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد **«وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ»** قال: من آمن في الدنيا. وأخرج

وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد، فمن نوقش الحساب عذب، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا **«وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ»** قيل: هو كلام مستأنف، وقيل: معطوف على ما قبله، والتعبير عنه بلفظ المضى للتنبيه على أنه ينبغي تحقيقه، والمراد بالصبر الصبر على الإتيان بما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه؛ وقيل: على الرزايا والمصائب، ومعنى كون ذلك الصبر ابتغاء وجه الله: أن يكون خالصاً له، لا شائبة فيه لغيره **«وَوَقَامُوا الصَّلَاةَ»** أي: فعلوها في أوقاتها على ما شرعه الله سبحانه في أنكارها وأركانها مع الخشوع والإخلاص، والمراد بها الصلوات المفروضة، وقيل أعم من ذلك **«وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ»** أي: أنفقوا بعض ما رزقناهم، والمراد بالسّر: صدقة النفل، والعلانية: صدقة الفرض، وقيل: السّر لمن لم يعرف بالمال، أو لا يتهم بترك الزكاة، والعلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة **«وَيُؤَدُّونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ»** أي: يدفعون سيئة من سوء إليهم بالإحسان إليه كما في قوله تعالى: **«ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»** [المؤمنون: 96 - فصلت: 34]، أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء، أو يدفعون الشرّ بالخير، أو المنكر بالمعروف، أو الظلم بالعفو، أو الذنب بالتوبة، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور، والإشارة بقوله: **«أُولَئِكَ»** إلى الموصوفين بالصفات المتقدّمة **«لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ»** العقبى مصدر كالعاقبة؛ والمراد بالدار الدنيا، وعقبها الجنة؛ وقيل: المراد بالدار الآخرة، وعقبها الجنة للمطيعين، والنار للعصاة **«جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا»** بدل من عقبى الدار أي: لهم جنات عدن، ويجوز أن يكون مبتدأ، وخبره يدخلونها، والعن أصله الإقامة، ثم صار علماً لجنة من الجنان. قال القشيري: وجنات عدن: وسط الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن، ولكن في صحيح البخاري وغيره: **«إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاَسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»** **«وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ»** يشتمل الأبياء والأمهات **«وَأَزْوَاجُهُمْ وَنَرِيَّتُهُمْ»** معطوف على الضمير في يدخلون، وجاز ذلك للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه أي: ويدخلها أزواجهم ونريتهم، ونكر الصلاح لئلا على أنه لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرايب أولئك، ولا ينفع مجرد كونه من الأبياء أو الأزواج أو النرية بدون صلاح **«وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ»** أي: من جميع أبواب المنازل التي يسكنونها، أو المراد من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه **«سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»** أي: قائلين سلام عليكم أي: سلمتم من الآفات أو دامت لكم السلامة **«بِمَا صَبَرْتُمْ»** أي بسبب صبركم وهو متعلق بالسلام أي: إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم، أو يحذف أي: هذه الكرامة بسبب صبركم أو بدل ما احتملت من مشاق الصبر **«فَنَعَمْ عَقَبَى**

الآية تقديم وتأخير، والتقدير: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا، فيكون وفرحوا معطوفاً على يفسدون **﴿وَمَا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾** أي: ما هي إلا شيء يستمتع به، وقيل: المتاع واحد الامتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما، وقيل: المعنى شيء قليل ذاهب، من متع النهار: إذا ارتفع فلا بد له من زوال، وقيل: زاد كزاد الراكب يتزود به منها إلى الآخرة **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾** أي يقول: أولئك المشركون من أهل مكة هلا أنزل على محمد آية من ربه؟ وقد تقدم تفسير هذا قريباً، وتكرر في مواضع **﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلَّ مَنْ يَشَاءُ﴾** أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بهذا، وهو أن الضلال بمشيئة الله سبحانه، من شاء أن يضلّه ضلّ كما ضلّ هؤلاء القائلون «لولا أنزل عليه آية من ربه»، **﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾** أي: ويهدي إلى الحق، أو إلى الإسلام، أو إلى جنبه عزّ وجلّ: **﴿مَنْ أَنْابَ﴾** أي: من رجع إلى الله بالتوبة والإقلاع عما كان عليه، وأصل الإنابة الدخول في نوبة الخير. كذا قال النيسابوري، ومحل الذين آمنوا النصب على البلية من قوله: **﴿مَنْ أَنْابَ﴾** أي: أنهم هم الذين هداهم الله وأنابوا إليه، ويجوز أن يكون الذين آمنوا خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين آمنوا، أو منصوب على المدح **﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾** أي: تسكن وتستأنس بذكر الله سبحانه بالسنتهم، كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم، وقد سمي سبحانه القرآن نكراً قال: **﴿وَهَذَا ذِكْرُ مَبْرُكٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾** [الأنبياء: 50]، وقال: **﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ﴾** [الحجر: 9]. قال الزجاج: أي إذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله: **﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾** [الزمر: 45] وقيل: تطمئن قلوبهم بتوحيد الله، وقيل: المراد بالذكر هنا الطاعة، وقيل: بوعد الله، وقيل: بالحلف بالله، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه، وقيل: بذكر رحمته، وقيل: بذكر دلائله الدالة على توحيده **﴿إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ﴾** وحده دون غيره **﴿تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وإن كان يفيد طمأنينة في الجملة، لكن ليست كهذه الطمأنينة، وكذلك النظر في المعجزات من الأمور التي لا يطيقها البشر، فليس إفانيتها للطمأنينة كإفادة نكر الله، فهذا وجه ما يفيد هذا التركيب من القصر **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَبَى﴾** الموصول مبتدأ خبره الجملة الدعائية، وهي طوبى لهم على التأويل المشهور، ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على المدح، وطوبى لهم خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من القلوب على حذف مضاف أي: قلوب الذين آمنوا. قال أبو عبيدة، والزجاج، وأهل اللغة: طوبى فعلى من الطيب. قال ابن الأنباري: وتأويلها الحال المستطابة، وقيل: طوبى شجرة في الجنة، وقيل: هي

عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي عمران الجوني في قوله: **﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾** قال: على دينكم **﴿فَنَعَمْ عَقِبَى الدَّارِ﴾** قال: نعم ما أعقبكم الله من الدنيا في الجنة. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم، وصححه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ فَقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ تَسَدَّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتَتَقَى بِهِمُ الْمَكَارَهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، فَيَقُولُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: ائْتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: رَبَّنَا نَحْنُ سَكَانُ سَمَائِكَ وَخَيْرُكَ مِنْ خَلْقِكَ، اقْتَامَرْنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءَ فَنَسْلَمَ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ اللَّهُ: إِنْ هَؤُلَاءَ عِبَادِي كَانُوا يَعْبُونَنِي وَلَا يَشْرَكُونَ بِي شَيْئاً، وَتَسَدَّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتَتَقَى بِهِمُ الْمَكَارَهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ **﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنَعَمْ عَقِبَى الدَّارِ﴾**» وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي أمامة: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَكُونُ مَتَكِّئاً عَلَى أُرِيكَةٍ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَعِنْدَهُ سَمَاطَانُ مِنْ خَدَمٍ وَعِنْدَ طَرَفِ السَّمَاطَيْنِ بَابٌ مَبُوبٌ، فَيَقْبَلُ الْمَلِكُ فَيَسْتَأْنِزُ، فَيَقُولُ أَقْصَى الْخَدَمِ لِلَّذِي يَلِيهِ: مَلِكٌ يَسْتَأْنِزُ، وَيَقُولُ الَّذِي يَلِيهِ: مَلِكٌ يَسْتَأْنِزُ، حَتَّى يَبْلُغَ الْمُؤْمِنَ، فَيَقُولُ: ائْتِنَا لَهُ، فَيَقُولُ أَقْرَبُهُمْ إِلَى الْمُؤْمِنِ: ائْتِنَا لَهُ، وَيَقُولُ الَّذِي يَلِيهِ لِلَّذِي يَلِيهِ: ائْتِنَا لَهُ حَتَّى يَبْلُغَ أَقْصَاهُمْ الَّذِي عِنْدَ الْبَابِ فَيَفْتَحُ لَهُ فَيَدْخُلُ وَيَسْلَمُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ **﴿وَلَهُمْ سَوْءُ الدَّارِ﴾** قال: سوء العاقبة.

اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْمَكْرَةِ الَّتِي رَمَى لَكُمُوهُ الَّتِي فِي الْآخِرَةِ وَلَا مَتَّعَ ۖ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ ۚ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۚ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَبَى ۚ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أَمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَّةٌ لَنْ تَجْنُوا عَنْهُمْ اللَّهُ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ مِثْلُ شَيْءٍ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ ۚ

لما نكر الله سبحانه عاقبة المشركين بقوله: **﴿وَلَهُمْ سَوْءُ الدَّارِ﴾** كان لقائل أن يقول: قد نرى كثيراً منهم قد وفر الله له الرزق وبسط له فيه، فأجاب عن ذلك بقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾** فقد يبسط الرزق لمن كان كافراً، ويقتره على من كان مؤمناً ابتلاءً وامتحاناً، ولا يدل البسط على الكرامة ولا القبض على الإهانة، ومعنى يقدر: يضيق، ومنه **﴿مَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾** [الطلاق: 7] أي: ضيق؛ وقيل: معنى يقدر يعطي بقدر الكفاية، ومعنى الآية: أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره **﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** أي: مشركو مكة فرحوا بالدنيا وجهلوا ما عند الله، قيل: وفي هذه

الشيخ عن انس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه حين نزلت هذه الآية **﴿إِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ أَلْفًا مِنْ سِنِينَ رَأَىٰ سَبْعًا مِنَ الْأُمَمِ﴾** هل تدرون ما معنى ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: من أحب الله ورسوله وأحب أصحابي». وأخرج ابن مريويه عن علي: «أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية: **﴿إِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ أَلْفًا مِنْ سِنِينَ رَأَىٰ سَبْعًا مِنَ الْأُمَمِ﴾** قال: «ذلك من أحب الله ورسوله، وأحب أهل بيتي صانقاً غير كاتب، وأحب المؤمنين شاهداً وغائباً، ألا يذكر الله يتحابون». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: **﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾** قال: فرح وقرّة عين. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله: **﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾** قال: نعم ما لهم.

وقد روي عن جماعة من السلف نحو ما قدّمنا ذكره من الأقوال، والأرجح تفسير الآية بما روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ كما أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي عن عتبة بن عبد قال: «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله في الجنة فاكهة؟ قال: نعم فيها شجرة تدعى طوبى». الحديث. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والخطيب في تاريخه عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ: «أن رجلاً قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: طوبى لمن آمن بي ورآني، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني، فقال رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسير مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها، وفي الباب أحاديث وأثار عن السلف. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث انس قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، اقرءوا إن شئتم **﴿وِظِلُّ مَدْمُودٍ﴾** [الواقعة: 30] وفي بعض الألفاظ «إنها شجرة الخلد». وأخرج أبو الشيخ عن السدي **﴿وَحَسَنَ مَأْبٍ﴾** قال: حسن منقلب. وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾** قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ زمن الحبيبية حين صالح قريشاً كتب في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، فقالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم، فقال أصحابه: دعنا نفاتلهم، فقال: لا، ولكن اكتبوا كما يريدون». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في هذه الآية نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وَالِيهِ مَتَابٌ﴾** قال: توبتي.

الجنة، وقيل: هي البستان بلغة الهند، وقيل: معنى طوبى لهم: حسنى لهم، وقيل: خير لهم، وقيل: كرامة لهم، وقيل: غبطة لهم، قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة، والأصل طوبى فصارت الياء واواً لسكونها وضم ما قبلها، واللام في لهم للبيان مثل سقياً لك ورعياً لك، وقرئ (حسن مأب) بالنصب والرفع، من أب إذا رجع أي: وحسن مرجع، وهو الدار الآخرة **﴿كَفَّكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ خَلَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾** أي: مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة أرسلناك يا محمد، وقيل: شبه الأنعام على من أرسل إليه محمد ﷺ بالأنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله، ومعنى **﴿فِي أُمَّةٍ خَلَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾** في قرن قد مضت من قبله قرون، أو في جماعة من الناس قد مضت من قبلها جماعات **﴿لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾** أي: لتقرأ عليهم القرآن، **﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾** أي: بالكثير الرحمة لعباده، ومن رحمته لهم إرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم كما قال سبحانه: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء: 107] وجملة **﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾** مستأنفة بتقدير سؤال كأنهم قالوا: وما الرحمن؟ فقال سبحانه: **﴿قُلْ﴾** يا محمد **﴿هُوَ رَبِّي﴾** أي: خالقي **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾** أي: لا يستحق العبادة له والإيمان به سواه **﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾** في جميع أموري **﴿وَالِيهِ﴾** لا إلى غيره **﴿مَتَابٌ﴾** أي: توبتي، وفيه تعريض بالكفار وحث لهم على الرجوع إلى الله والتوبة من الكفر والدخول في الإسلام.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن سابط في قوله: **﴿وَمَا الْحَيَاةُ لِلدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾** قال: كزاد الراعي يزوده أهله الكف من التمر أو الشيء من النقيق أو الشيء يشرب عليه اللبن. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: كان الرجل يخرج في الزمان الأول في إبله، أو غنمه فيقول لأهله: متعوني فيمتعونه فلفة الخبز أولتمر، فهذا مثل ضربه الله للدنيا. وأخرج الترمذي وصححه عن عبد الله بن مسعود قال: «نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك؟ فقال مالي والدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها». وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ملج عن المستور قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع؟ وأشار بالسبابة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾** قال: هشت إليه واستأنست به، وأخرج أبو الشيخ عن السدي في الآية قال: إذا حلف لهم بالله صلحوا **﴿إِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ أَلْفًا مِنْ سِنِينَ رَأَىٰ سَبْعًا مِنَ الْأُمَمِ﴾** قال: تسكن. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال: بمحمد وأصحابه. وأخرج أبو

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِيَ بِهِ الْوَعْدُ بَلِّ
لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِ الْبَرِّيَّةَ أَمْ مَوْتًا أَنْ تَرَىٰ نَسَاءَ اللَّهِ يَلْبَسْنَ
جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَيِّبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ
حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١١٠﴾ وَلَقَدْ أَسْمَعْتُ يُرْسَلُ مِن قِبَلِكِ
قَائِلَتٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا تَمَّ لَعْنَتُهُمْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ ﴿١١١﴾ أَفَنُ هُوَ قَائِلُهُ

أي: ألم يعلم، وأنشد في هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النضري:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تياسوا أني ابن فارس زهدم
أي: ألم تعلموا، فمعنى الآية على هذا: أقلم يعلم الذين
آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن
يشاهدوا الآيات، وقيل: إن الإيثار على معناه الحقيقي أي:
أقلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار، لعلمهم أن الله
تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم، لأن المؤمنين تمنوا نزول
الآيات التي اقترحها الكفار طمعاً في إيمانهم ﴿وَلَا يَزَالُ
الَّذِينَ كَفَرُوا تَصْصِيهِمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً﴾ هذا وعيد
للكفار على العموم أو لكفار مكة على الخصوص أي: لا يزال
الذين كفروا تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب
للسل قارعة أي: داهية تفجؤهم، يقال: قرعه الأمر إذا
أصابه، والجمع قوارع، والأصل في القرع الضرب. قال
الشاعر:

أقنى تلادي وما جمعت من نشب قرع القراقير أقواه الأباريق
والمعنى: أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم داهية
مهلكة من قتل أو أسر أو جنب أو نحو ذلك من العذاب؛ وقد
قيل: إن القارعة النكبة، وقيل: الطلائع والسرائي، ولا يخفى أن
القارعة تطلق على ما هو أعم من ذلك ﴿وَأَوْ تَحُلَّ﴾ أي:
القارعة ﴿قريباً من دارهم﴾ فيفزعون منها ويشاهدون من
أتارها ما ترجف له قلوبهم وترعد منه بواجرهم، وقيل: إن
الضمير في ﴿تَحُلَّ﴾ للنبي ﷺ، والمعنى: أو تحل أنت يا
محمد قريباً من دارهم محاصراً لهم أخذاً بمخانقهم كما وقع
منه ﷺ لاهل الطائف ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ وهو موتهم،
أو قيام الساعة عليهم، فإنه إذا جاء وعد الله المحتوم حل
بهم من عذابه ما هو الغاية في الشدة؛ وقيل: المراد بوعد الله
هنا الإذن منه بقتال الكفار، والأول أولى ﴿إِنْ﴾ الله لا يخلف
للميعاد، فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة ﴿وَلَقَدْ
لَسْتَ هَؤُلَاءِ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَامْلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التنكير
في رسل للتكثير أي: برسل كثيرة، والإملاء: الإمهال، وقد
مرَّ تحقيقه في الاعراف ﴿ثُمَّ لَاحِظْتَهُمْ﴾ بالعذاب الذي أنزلته
بهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستفهام للتقريع والتهديد أي:
فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزؤا بالرسول،
فاملت لهم ثم اخذتهم، ثم استفهم سبحانه استفهاماً آخر
للتوبيخ والتقريع يجري مجرى الحجاج للكفار واستركاك
صنعهم والإزراء عليهم، فقال: ﴿أَقْمِنِ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ
نَفْسٍ﴾ القائم الحفيظ والمتولي للأمور، وأراد سبحانه نفسه،
فإنه المتولي لأمر خلقه المدير لأحوالهم بالأجبال والأزراق،
وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت،
والجواب محنوف أي: أقمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه
الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضر. قال الفراء:
كانه في المعنى أقمن هو قائم على كل نفس بما كسبت
كشركائهم الذين اتخوهم من دون الله، والمراد من الآية
إنكار المماثلة بينهما؛ وقيل: المراد بمن هو قائم على كل

عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَحْكُمُ
فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظُهُرِ بَنِي الْقُرَىٰ بَدَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ
الْجَنَّةِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ عَذَابٌ فِي النَّارِ أَذْيًا وَلَكِنَّهَا
الْآخِرَةُ أَشَقُّ وَمَا هُمْ مِنْ اللَّهِ بِشَيْءٍ وَابٍ ﴿١٢٢﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ
الْمُتَّقُونَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا فِي عَيْنِ ذِي الْوَرَعِ أَتَقْوَى
وَعُقُوبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿١٢٣﴾

قوله: ﴿وَلَوْ﴾ ان قرأنا سيرت به للجبال، قيل: هذا
متصل بقوله: ﴿وَلَوْ﴾ أنزل عليه آية من ربه، [الرعد: 7] وأن
جماعة من الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يسير لهم جبال
مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة، فأمره الله سبحانه بأن
يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن
وفساد رأي الكفار حيث لم يقتنعوا به وأصرؤا على تعنتهم
وطلبهم ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة
الإلهية من عدم إنزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد.
ومعنى سيرت به الجبال أي: بإنزاله وقراءته فسارت عن
محل استقرارها ﴿وَأَوْ قَطَعْتَ بِهِ الْأَرْضَ﴾ أي: صدعت حتى
صارت قطعاً متفرقة ﴿وَأَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ أي: صاروا
أحياء بقراءته عليهم، فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما
يفهمه الأحياء.

وقد اختلف في جواب لو ماذا هو؟ فقال الفراء: هو
محذوف، وتقديره: لكان هذا القرآن، وروي عنه أنه قال: إن
الجواب لكفروا بالرحمن أي: لو فعل بهم هذا لكفروا
بالرحمن؛ وقيل: جوابه لما آمنوا كما سبق في قوله: ﴿وَمَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 111] وقيل: الجواب
متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير أي: وهم يكفرون بالرحمن
لو أن قرأنا إلى آخره، وكثيراً ما تحذف العرب جواب لو إذا
دل عليه سياق الكلام، ومنه قول امرئ القيس:

فلو أنها نفس تموت جميعاً ولكننا نفس تساقط أنفسنا
أي: لهان علي ذلك ﴿بَلِ﴾ الله الأمر جميعاً، أي: لو أن
قرأنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن، ولكن لم يفعل بل فعل ما
عليه الشأن الآن، فلو شاء أن يؤمنوا آمنوا وإذا لم يشأ أن
يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات،
فالإضراب متوجه إلى ما يؤدي إليه كون الأمر لله سبحانه
ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته،
ويدل على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله: ﴿أَقْلَمُ
يِيَّاسَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾.
قال الفراء: قال الكلبي أقلم ييأس بمعنى أقلم يعلم، وهي لغة
النخع. قال في الصحاح: وقيل هي لغة هوازن، وبهذا قال
جماعة من السلف. قال أبو عبيدة: أقلم يعلموا ويتبينوا. قال
الزجاج: وهو مجاز لأن اليائس من الشيء عالم بأنه لا
يكون، نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف، والنسيان
في الترك لتضمنهما إياهما، ويؤيده قراءة علي، وابن عباس،
وجماعة (أقلم يتبين)، ومن هذا قول رباح بن عدي:
ألم ييأس الأقول أنني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة ناثياً

نفس الملائكة الموكلون ببني آدم، والأول أولى، وجملة **﴿وجعلوا لله شركاء﴾** معطوفة على الجواب المقتر مبينة له أو حالية بتقدير قد أي: وقد جعلوا، أو معطوفة على **﴿ولقد استهزئ﴾** أي: استهزؤا وجعلوا **﴿قل سموهم﴾** أي: قل يا محمد جعلتم له شركاء فسموهم من هم؟ وفي هذا تبكيك لهم وتوبيخ، لأنه إنما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحق أن يلتفت إليه، فيقال: سمه إن شئت يعني: أنه أحقر من أن يسمى؛ وقيل: إن المعنى سموهم بالأكهة كما تزعمون، فيكون ذلك تهديداً لهم **﴿لم تنبئونه﴾** أي: بل أنبئوني الله **﴿بما لا يعلم في الأرض﴾** من الشركاء الذين تعبئونهم مع كونه العالم بما في السموات والأرض **﴿لم بظاهر من القول﴾** أي: بل أسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن تكون له حقيقة؛ وقيل: المعنى قل لهم أنبئوني الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه؟ فإن قالوا: بباطن لا يعلمه فقد جاءوا بدعوى باطلة، وإن قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم: سموهم، فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما، فقل لهم إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً، وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها، وإن لم يكن له شريك في غير الأرض، لأنهم ادّعوا له شريكاً في الأرض؛ وقيل: معنى **﴿لم بظاهر من القول﴾** أم بزايل من القول باطل، ومنه قول الشاعر:

اعبرتنا البانها ولحومها ونلك عار يا ابن ربطة ظاهر
أي: زائل باطل، وقيل: يكذب من القول، وقيل: معنى بظاهر من القول بحجة من القول ظاهرة على زعمهم **﴿يل زين للذين كفروا مكرهم﴾** أي: ليس لله شريك، بل زين للذين كفروا مكرهم. وقرأ ابن عباس (زين) على البناء للفاعل على أن الذي زين لهم ذلك هو مكرهم. وقرأ من عده بالبناء للمفعول، والمزين هو الله سبحانه، أو الشيطان ويجوز أن يسمى المكر كفرة، لأن مكرهم برسول الله ﷺ كان كفرة. وأما معناه الحقيقي فهو الكيد، أو التمويه بالباطيل **﴿ووصتوا عن السبيل﴾** قرأ حمزة والكسائي وعاصم (صتوا) على البناء للمفعول أي: صدهم الله، أو صدهم الشيطان. وقرأ الباقر على البناء للفاعل أي: صتوا غيرهم، واختار هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الصاد **﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾** أي: يجعله ضالاً وتقتضي مشيئته إضلاله، فما له من هاد يهديه إلى الخير. قرأ الجمهور (هاد) من دون إثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة. وقرئ بإثباتها على اللغة القليلة، ثم بين سبحانه ما يستحقونه، فقال: **﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾** بما يصابون به من القتل والأسر وغير ذلك **﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾** عليهم من عذاب الحياة الدنيا **﴿وما لهم من الله من وإق﴾** يقيه عذابه، ولا عاصم يعصمهم منه، ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب في الأولى والأخرى، ذكر ما أعدّه للمؤمنين، فقال: **﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار﴾** أي: صفتها العجيبة الشأن التي هي في الغربة كالمثل، قال

ابن قتيبة: المثل الشبه في أصل اللغة، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته، يقال: مثلت لك كذا أي: صورته ووصفته، فأراد هنا يمثل الجنة وصورتها وصفتها، ثم ذكرها، فقال: **﴿تجري من تحتها الأنهار﴾** وهو كالتفسير للمثل. قال سيبويه: وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة. وقال الخليل وغيره: إن مثل الجنة مبتدأ والخبر تجري. وقال الزجاج: إنه تمثيل للغائب بالشاهد، ومعناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار؛ وقيل: إن فائدة الخبر ترجع إلى **﴿أكلها دائم﴾** أي: لا ينقطع، ومثله قوله سبحانه: **﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾** [الواقعة: 33] وقال الفراء: المثل مقم للتأكيد، والمعنى: الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار، والعرب تفعل ذلك كثيراً **﴿وظلها﴾** أي: كذلك دائم لا يتقلص ولا تنسخه الشمس، والإشارة بقوله: **﴿تلك﴾** إلى الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة، وهو مبتدأ خبره **﴿وعقبى الذين اتقوا﴾** أي: عاقبة الذين اتقوا المعاصي، ومنتهى أمرهم **﴿وعقبى للكافرين النار﴾** ليس لهم عاقبة ولا منتهى إلا ذلك.

وقد أخرج الطبراني، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: قالوا للنبي ﷺ: إن كان كما تقول فارنا شيئاً من الموتى نكلمهم، وافسح لنا هذه الجبال جبال مكة التي قد ضمتنا، فنزلت: **﴿ولو أن قرأنا سيرت به الجبال﴾** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي عن عطية العوفي قال: قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرت فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان يحيي عيسى الموتى لقومه، فانزل الله: **﴿ولو أن قرأنا سيرت به الجبال﴾** الآية إلى قوله: **﴿أفلم يئس الذين آمنوا﴾** قال: أفلم يتبين الذين آمنوا، قالوا: هل تروي هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ؟ قال: عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ. وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم قال: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، أخبرنا بشر بن عمار، حدثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفي فنكره. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن طريق العوفي عن ابن عباس نحوه مختصراً. وأخرج أبو يعلى، وأبو نعيم في الدلائل، وابن مروي عن الزبير بن العوام في نكر سبب نزول الآية نحو ما تقدم مطولاً. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿يل الله الأمر جميعاً﴾** لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿أفلم يئس﴾** يقول: يعلم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي العالية **﴿أفلم يئس﴾** قال: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: **﴿تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾** قال: السرايا. وأخرج

كل عبد. وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن التبتل. وقرأ قتادة: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ﴾** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن سعد بن هشام قال: دخلت على عائشة فقلت: إني أريد أن أتبتل؟ قالت: لا تفعل، أما سمعت الله يقول: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَنْزُلًا وَذُرِّيَّةً﴾** وقد ورد في النهي عن التبتل والترغيب في النكاح ما هو معروف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل: **﴿هُمَا كَانُوا لِرَسُولٍ أَنْ يَلْتَمِسَ بَايَةَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** ما نراك يا محمد تملك من شيء، ولقد فرغ من الأمر، فانزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعيداً لهم **﴿يُمَحْوُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْبِتُ﴾** إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا شيئاً، ويحدث الله في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم. وأخرج عبد الرزاق، والفرغاني، وابن جرير، وابن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: **﴿يُمَحْوُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْبِتُ﴾** قال: ينزل الله في كل شهر رمضان إلى سماء الدنيا، فيدير أمر السنة إلى السنة فيمحو ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله. وأخرج ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً في الآية قال: هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت، وعنده أم الكتاب أي: جملة الكتاب. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوت، والدفتان لوحان: لله كل يوم ثلاث وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدثنا محمد بن شهر بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس فنكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينزل في ثلاث ساعات ييقن من الليل فيفتح الذكر في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت» الحديث. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه بإسناد. قال السيوطي: ضعيف عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والممات». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: «لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر». وأخرج ابن جرير عن

سبحانه: **﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾** [الأنعام: 67] وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم بل على حسب ما يشاءه ويختاره **﴿يُمَحْوُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْبِتُ﴾** أي: يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه. يقال: محوت الكتاب محواً إذا أذهبت أثره. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم (ويثبت) بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد. وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شر، ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا **﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾** [الأنبياء: 23] وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وأبو وائل، وقتادة، والضحاك، وابن جريج وغيرهم؛ وقيل: الآية خاصة بالسعادة والشقاوة؛ وقيل: يمحو ما يشاء من ديوان الحفظ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت ما فيه الثواب والعقاب؛ وقيل: يمحو ما يشاء من الرزق؛ وقيل: يمحو من الأجل؛ وقيل: يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه؛ وقيل: يمحو ما يشاء من ذنوب عباده ويترك ما يشاء؛ وقيل: يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة؛ وقيل: يمحو الآباء ويثبت الأبناء؛ وقيل: يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله: **﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾** [الإسراء: 12] وقيل: يمحو ما يشاء من الأرواح التي يقبضها حال النوم فيميت صاحبها ويثبت ما يشاء فيرده إلى صاحبه؛ وقيل: يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها؛ وقيل: يمحو الدنيا ويثبت الآخرة؛ وقيل: غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره، والأول أولى كما تفيد ما في قوله: ما يشاء من العموم مع تقدم نكر الكتاب في قوله: **﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾** ومع قوله: **﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾** أي: أصله، وهو اللوح المحفوظ، فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته، وهذا لا ينافي ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «جَفَّ الْقَلَمُ»، وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاها الله سبحانه؛ وقيل: إن أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿يُفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾** قال: أولئك أصحاب محمد ﷺ فرحوا بكتاب الله وبرسوله وصنّفوا به **﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكَرُ بَعْضَهُ﴾** يعني: اليهود والنصارى والمجوس. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال: هؤلاء من آمن برسول الله ﷺ من أهل الكتاب يفرحون بذلك، ومنهم من يؤمن به، ومنهم من لا يؤمن به **﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكَرُ بَعْضَهُ﴾** قال: الأحزاب الأمم اليهود والنصارى والمجوس. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿وَالِيَهُ مَتَابُ﴾** قال: إليه مصير

قيس بن عباد قال: العاشر من رجب وهو يوم يحمو الله فيه ما يشاء. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عنه نحوه باطول منه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قال وهو يطوف بالبيت: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو نذبا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في المنخل عن ابن عباس في قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قال: يبذل الله ما يشاء من القرآن فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبطله ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب: الناسخ والمنسوخ، ما يبذل، وما يثبت كل ذلك في كتاب. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الذكر. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن يسار، عن ابن عباس: أنه سأل كعبا عن أم الكتاب، فقال: علم الله ما هو خالق، وما خلقه عالمون، فقال لعلمه: كن كتابا، فكان كتابا.

وَأَنَّ مَا تَهْتِكُ بَعْضُ الْأَرَى يَهْدُهُمْ أَوْ تَرَفُّفَتِكَ فَلَمَّا عَلِمْتَ الْبَلْعَ وَطَعْنَا لِمَسَابٍ ﴿١٠﴾ أَوْلَمْ بَرَأْنَا نَاقِي الْأَرْضِ نَهَضًا مِنْ أَمْرَانَا وَاللَّهُ بِكُمْ لَا مَعْبَدَ إِلَّا حَكِيمٌ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا بِمَلَأْ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَنَسِمْهُ الْكَفَرُ لِمَنْ عَقِبَ الدَّارِ ﴿١٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٣﴾

﴿وإما نرينك﴾ ما زائدة وأصله: وإن نرك ﴿بعض الذي نعدهم﴾ من العذاب كما وعدناهم بذلك بقولنا: ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ [الرعد: 34] ويقولنا: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ [الرعد: 31]، والمراد أريناك بعض ما نعدهم قبل موتك، أو توفيئك قبل إراءتك لذلك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ أي: فليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة، ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم ﴿وعلينا الحساب﴾ أي: محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها، وليس ذلك عليك، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به، وليس عليه غيره، وأن من لم يجب دعوته، ويصدق نبوته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك ﴿أولم يروا﴾ يعني أهل مكة، والاستفهام للإنكار أي: أولم ينظروا ﴿لأننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ أي: نأتي أرض الكفر كمكة ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئا فشيئا. قال الزجاج: أعلم الله أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر، يقول: أولم يروا أننا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم، فكيف لا يعتبرون؟ وقيل: إن معنى الآية: موت العلماء والصلحاء. قال القشيري: وعلى هذا فالأطراف الأشراف، وقد قال ابن الأعرابي: الطرف للرجل الكريم. قال

القرطبي: وهذا القول بعيد، لأن مقصود الآية: أنا أريناهم النقصان في أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عجز إلا أن يحمل على موت أحبار اليهود والنصارى، وقيل: المراد من الآية خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران في ناحية منها؛ وقيل: المراد بالآية هلاك من هلك من الأمم؛ وقيل: المراد نقص ثمرات الأرض؛ وقيل: المراد جور ولايتها حتى تنقص ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ أي: يحكم ما يشاء في خلقه، فيرفع هذا ويضع هذا، ويحيي وهذا ويميت هذا، ويغني هذا ويفقر هذا، وقد حكم بعة الإسلام وعلوه على الأديان، وجملة ﴿لا معقب لحكمه﴾ في محل نصب على الحال، وقيل: معترضة. والمعقب: الذي يكر على الشيء فيبطله، وحقيقته الذي يقفيه بالرد والإبطال. قال الفراء: معناه لا راد لحكمه، قال: والمعقب الذي يتبع الشيء فيستدركه، ولا يستدرك أحد عليه، والمراد من الآية أنه لا يتعقب أحد حكم الله سبحانه بنقص ولا تغيير ﴿وهو سريع الحساب﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته على السرعة ﴿وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعا﴾ أي: قد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم من الرسل فكادهم وكفروا بهم، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ حيث أخبره أن هذا بين الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم، وأن المكر كله لله، فقال: ﴿فله المكر جميعا﴾ لا اعتداد بمكر غيره، ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره، فقال: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ من خير وشر فيجازيها على ذلك، ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها كان المكر كله له، لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون. وقال الواحدي: إن مكر الماكرين مخلوق فلا يضمر إلا بإرائته؛ وقيل: المعنى فله جزاء مكر الماكين ﴿وسيعلم الكافر لمن عقبي الدار﴾. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (الكافر) بالإفراد، وقرأ الباقون (الكفار) بالجمع: أي: سيعلم جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا، أو في الدار الآخرة، أو فيهما؛ وقيل المراد بالكافر، أبو جهل ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسل﴾ أي: يقول المشركون أو جميع الكفار: لست يا محمد مرسل إلى الناس من الله، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم﴾ فهو يعلم صحة رسالتي، وصق دعواتي، ويعلم كذبكم ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ أي: علم جنس الكتاب كالطورا والإنجيل، فإن أهلها العالمين بهما يعلمون صحة رسالة رسول الله ﷺ، وقد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري ونحوهم، وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم، فأرشدهم الله سبحانه في هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك؛ وقيل: المراد بالكتاب القرآن ومن عنده علم منه هم المسلمون؛ وقيل: المراد من عنده علم اللوح المحفوظ، وهو الله سبحانه،

عنده علم للكتاب» يقول: ومن عند الله علم الكتاب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أهو عبد الله بن سلام؟ قال: كيف وهذه السورة مكية؟ وأخرج ابن المنذر عن الشعبي قال: ما نزل في عبد الله بن سلام شيء من القرآن. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: جبريل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: هو الله.

تفسير سورة إبراهيم

وهي مكية كما أخرجه ابن مروي عن ابن عباس. وأخرجه ابن مروي أيضاً عن الزبير، وحكاه القرطبي عن الحسن، وعكرمة، وجابر بن زيد، وقتادة إلا آيتين منها، وقيل: إلا ثلاث آيات نزلت في الذين حاربوا رسول الله ﷺ وهي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: 28 - 30]. وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس قال: هي مكية سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ الآيتين نزلتا في قتلي بدر من المشركين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كَتَبْتُ أَنْزَلْنَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ الَّذِي يَرْزُقُ الْغَنَى ۝ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحْجُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ۝ وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ آيَاتَهُ فِي سَكْرٍ بَعِيدٍ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوِيمٍ ۝ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ قُلُوبَكُمْ ۝ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ مِنْ نَفْسٍ رِيحًا ۝ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۝ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَفِّرْهُمْ بِإِثْمِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَكَبِيرٌ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝

قوله: ﴿الر﴾ قد تقدم الكلام في أمثال هذا، وبيان قول من قال إنه متشابه، وبيان قول من قال إنه غير متشابه وهو إما مبتدأ خيره كتاب، أو خبر مبتدأ محذوف، ويكون ﴿كتاب﴾ خبراً لمحذوف مقدر أو خبراً ثانياً لهذا المبتدأ أو يكون ﴿الر﴾ مسروداً على نمط التعييد فلا محل له، و﴿انزلناه إليك﴾ صفة لكتاب: أي أنزلنا الكتاب إليك يا محمّد، ومعنى ﴿لتخرج للناس من الظلمات إلى النور﴾ لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية؛ جعل الكفر بمنزلة الظلمات، والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة، واللام في لتخرج للغرض والغاية، والتعريف في الناس للجنس، والمعنى: أنه

واختار هذا الزجاج وقال: لأن الأشباه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره.

وقد أخرج ابن مروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: ذهب العلماء. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، ونعيم بن حماد في الفتن، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: موت علمائها وفقهائها وذهب خيار أهلها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن مجاهد في تفسير الآية قال: موت العلماء. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: أولم يروا أننا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال: يعني أن نبي الله ﷺ كان ينقص له ما حوله من الأرضين ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون. وقال الله في سورة الأنبياء: ﴿ناتى الأرض ننقصها من أطرافها أقهم الغالبون﴾ [الأنبياء: 44]. بل نبي الله وأصحابه هم الغالبون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: نقصان أهلها وبركتها. وأخرج ابن المنذر عنه قال: إنما تنقص الأنفس والثمرات وأما الأرض فلا تنقص. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: أولم يروا إلى القرية تخرّب حتى يكون العمران في ناحية منها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ ليس أحد يتعقب حكمه فيرده كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن فقال رسول الله ﷺ: «هل تجنّني في الإنجيل؟ قال: لا، فأنزل الله: ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم للكتاب﴾» يقول عبد الله بن سلام. وأخرج ابن مروي عن طريق عبد الملك بن عمير عن جندب قال: جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضائني باب المسجد، ثم قال: أنشدكم بالله أتعلمون أني أنزلت في: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؟ قالوا: اللهم نعم. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج ابن جرير عن طريق العوفي عن ابن عباس ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في الآية قال: كان قوم من أهل الكتاب يشهدون بالحق ويعرفونه، منهم عبد الله بن سلام، والجارود، وتميم الداري، وسلمان الفارسي. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن مروي، وابن عديّ بسنن ضعيف عن ابن عمر أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: ومن عند الله علم الكتاب. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿وَمَنْ

يخرج بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور؛ وقيل: إن الظلمة مستعارة للبدعة، والنور مستعار للسنّة؛ وقيل: من الشك إلى اليقين، ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور، والباء في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقة بتخرج، وأسند الفعل إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والهادي والمنذر. قال الزجاج: بما أنك لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ هو بدل من إلى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيراً أي: لتخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد، وهو طريقة الله الواضحة التي شرعها لعباده، وأمرهم بالمصير إليها والدخول فيها؛ ويجوز أن يكون مستأنفاً بتقدير سؤال كأنه قيل: ما هذا النور الذي أخرجهم إليه؟ فقيل: صراط العزيز الحميد، والعزيز هو القادر الغالب، والحميد هو الكامل في استحقاق الحمد ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو الله المتصف بملك ما في السموات وما في الأرض. وقرأ الجمهور بالجرّ على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة، فلا يصح وصف ما قبله به، لأن العلم لا يوصف به؛ وقيل: يجوز أن يوصف به من حيث المعنى. وقال أبو عمرو: إن قراءة الجرّ محمولة على التقديم والتأخير، والتقدير: إلى صراط الله العزيز الحميد. وكان يعقوب إذا وقف على الحميد رفع، وإذا وصل خفض. قال ابن الأنباري: من خفض وقف على وما في الأرض. ثم توعّد من لا يعترف ببروبيته فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قد تقدم بيان معنى الويل، وأصله النصب كسائر المضارع، ثم رفع للدلالة على الثبات. قال الزجاج: هي كلمة تقال للعذاب والهلكة، فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهدية رسول الله ﷺ له بما أنزله الله عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان و﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ متعلق بويل على معنى يولولون ويضجون من العذاب الشديد الذي صاروا فيه، ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: يؤثرونها لمحبتهم لها ﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾ الدائمة والنعيم الأبدي، وقيل: إن الموصول في موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين؛ وقيل: الموصول مبتدأ وخبره أولئك، وجملة ﴿وَيَصْنَوْنَ﴾ وكذلك ويبغون معطوفتان على يستحبون، ومعنى الصدّ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صرف الناس عنه ومنعهم منه، وسبيل الله الذي شرعه لعباده ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون لها زيفاً وميلاً لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم، والعوج بكسر العين في المعاني ويفتح العين في الأعيان وقد سبق تحقيقه. والأصل يبغيون لها فحذف الحرف وأوصل الفعل إلى الضمير، واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال، ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ والإشارة إلى الموصوفين بتلك

الصفات القبيحة والبعد وإن كان من صفة الضال لكنه يجوز وصف الضلال به مجازاً لقصد المبالغة، ثم لما من على المكلفين بإنزال الكتاب وإرسال الرسول نكر من كمال تلك النعمة أن تلك المرسل بلسان قومه فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أي: متلبساً بلسانهم متكلاً بلغتهم لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول، ولا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرًا طويلاً ومع ذلك فلا بد أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة، ولهذا علل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: ليوضح لهم ما أمرهم الله به من الشريعة التي شرعها لهم ووجد اللسان لأن المراد بها اللغة. وقد قيل: في هذه الآية إشكال، لأن النبي ﷺ أرسل إلى الناس جميعاً بل إلى الجن والإنس ولغاتهم متباينة والسننهم مختلفة، وأجيب بأنه وإن كان مرسلًا إلى الثقلين كما مرّ لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخصّ به وأقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فإهماله كفهمهم إيّاه، ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم، وبينه رسول الله لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحاً لباب التنازع لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها، وربما كان ذلك أيضاً مفضياً إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوي الباطلة التي يقع فيها المتعصبون، وجملة ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ مستأنفة أي: يضلّ من يشاء وإضلاله ويهدي من يشاء هدايته. قال الفراء: إذا نكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلاً للأول فالرفع على الاستئناس هو الوجه، فيكون معنى هذه الآية: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي ألفوها وفهموها، ومع ذلك فإن المضلّ والهادي هو الله عزّ وجلّ؛ والبيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله الله سبحانه واسطة وسبباً، وتقديم الإضلال على الهداية لأنه متقدّم عليها، إذ هو إبقاء على الأصل، والهداية إنشاء ما لم يكن وهو العزيز الذي لا يغالبه مغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يجري أفعاله على مقتضى الحكمة، ثم لما بين أن المقصود من بعثة نبينا ﷺ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور أراد أن يبين أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلك، وخصّ موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدّمة على هذه الأمة المحمدية فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: متلبساً بها، والمراد بالآيات: المعجزات التي لموسى، ومعنى ﴿أَن يُخْرِجَ﴾ أي: لتخرج، لأن الإرسال فيه معنى القول، ويجوز أن يكون التقدير بأن أخرج، والمراد بقومه بنو إسرائيل بعد ملك فرعون ﴿مِنْ الظُّلُمَاتِ﴾ من الكفر أو من الجهل الذي قالوا بسببه: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾

تعالى في هذين الوقتين، فإن هذا التائن أيضاً نعمة وقيل: هو من قول الله سبحانه أي: وانكر يا محمد إذ تائن ربكم. وقرأ ابن مسعود (وإذ قال ربكم) والمعنى واحد كما تقدم، واللام في لئن شكرتم هي الموطئة للقسم، وقوله: ﴿لَازِيدَنكُمْ﴾ ساء مسد جوابي الشرط والقسم، وكذا اللام في ﴿وَلَنُكْفِرَنَّكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ساء مسد الجوابين أيضاً، والمعنى: لأن شكرتم إنعامي عليكم بما نكر لازيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلاً مني، وقيل: لازيدنكم من طاعتي، وقيل: لازيدنكم من الثواب، والأول أظهر فالشك سبب المزيد، ولنن كفرتم ذلك وجحدتموه إن عذابي لشديد، فلا بد أن يصيبكم منه ما يصيب، وقيل: إن الجواب محذوف أي: ولنن كفرتم لأعذبكم، والمذكور تعليل للجواب المحذوف ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ أي: إن تكفروا نعمته تعالى أنتم وجميع الخلق ولم تشكروها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم لا يحتاج إليه ولا يلحقه بترك نقص ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: مستوجب للحمد لذاته لكثرة إنعامه، وإن لم تشكروه، أو يحمده غيركم من الملائكة ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى لقومه، فيكون داخلاً تحت التذكير بأيام الله، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطاباً لقوم موسى وتذكيراً لهم بالقرون الأولى وأخبارهم ومجيء رسل الله إليهم، ويحتمل أنه ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد ﷺ تحذيراً لهم عن مخالفته، والنبا: الخبر، والجمع الأنبياء، ومنه قول الشاعر:

ألم تأتنيك والأنبياء تنمي بما لاقت لبون بني زياد
و ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ بدل من الموصول، أو عطف بيان
﴿وَعَادَ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هؤلاء المذكورين ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يحصي عددهم ويحيط بهم علماً إلا الله سبحانه، والموصول مبتدأ وخبره لا يعلمهم إلا الله والجملة معترضة، أو يكون الموصول معطوفاً على ما قبله ولا يعلمهم إلا الله اعتراض، وعدم العلم من غير الله إما أن يكون راجعاً إلى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم أي: هذه الأمور لا يعلمها إلا الله ولا يعلمها غيره، أو يكون راجعاً إلى نواتهم أي: لا يعلم نوات أولئك الذين من بعدهم إلا الله سبحانه وجملة ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مستأنفة لبيان النبا المذكور في ﴿قَدْ يَأْتِيَكُمُ النَّبَأُ مِنَ قَبْلِكُمْ﴾ أي: جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرة وبالشرائع الواضحة ﴿فَرْتَوْا أَيُّدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ﴾ أي جعلوا أيدي أنفسهم في أقواهم ليعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل كما في قوله تعالى: ﴿عَضَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: 119] لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم وشتت أصنامهم؛ وقيل: إن المعنى أنهم أشاروا بأصابعهم إلى أقواهم لما جاءتهم الرسل بالبينات أي: اسكتوا وارتكوا هذا الذي جئتم به تكذيباً لهم ورداً لقولهم؛ وقيل: المعنى أنهم أشاروا إلى أنفسهم وما يصدر عنها من

المقالة، وهي قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: لا جواب لكم سوى هذا الذي قلناه لكم بالسنتنا هذه؛ وقيل: وضمو أيديهم على أقواهم استهزاء وتعجباً كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه؛ وقيل: المعنى رتؤا على الرسل قولهم وكذبوهم بأقواهم، فالضمير الأول للرسل والثاني للكفار؛ وقيل: جعلوا أيديهم في أقواهم الرسل ردّاً لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار والثاني للرسل؛ وقيل: معناه أوتوا إلى الرسل أن اسكتوا؛ وقيل: أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أقواهم الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم؛ وقيل: إن الأيدي هنا النعم أي: رتؤا نعم الرسل بأقواهم أي: بالنطق والتكذيب، والمراد بالنعم هنا ما جاءهم به من الشرائع. وقال أبو عبيدة: ونعم ما قال: هو ضرب مثل أي: لم يؤمنوا ولم يجيبوا، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد ردّ يده في فيه. وهكذا قال الأخفش، واعترض ذلك القتيبي فقال: لم يسمع أحد من العرب يقول ردّ يده في فيه: إذا ترك ما أمر به، وإنما المعنى عضوا على الأيدي حقناً وغيظاً، كقول الشاعر:

يردن في فيه غيظ الحسود حتى بعض علي الأكفا
وهذا هو القول الذي قدمناه على جميع هذه الأقوال، ومنه قول الشاعر:

لو أن سلمى أبصرت تجدي عضت من الوجد باطراف اليد
وهو أقرب التفسير للآية إن لم يصح عن العرب ما نكره أبو عبيدة والأخفش، فإن صح ما نكره ف تفسير الآية به أقرب ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي قال الكفار للرسل: إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ من البينات على زعمكم ﴿وَأِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ أي: في شك عظيم مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما سواه ﴿مَرِيبٌ﴾ أي: موجب للريب. يقال: أربت إذا فعلت أمراً أوجب ريبة وشكاً، والريب قلق للنفس وعدم سكونها. وقد قيل: كيف صرحوا بالكفر ثم امرهم على الشك؟ وأجيب بأنهم أرادوا إنا كافرون برسالتكم وإن نزلنا عن هذا المقام فلا أقل من أننا نشك في صحة نبوتكم، ومع كمال الشك لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم، وجملة ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالت لهم الرسل؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: أفي وحدانيته سبحانه شك، وهي في غاية الوضوح والجلالة. ثم إن الرسل نكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه ووحدانيته، فقالوا: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدتهما بعد العدم ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان به وتوحيده ﴿لِيُغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: من زائدة، ووجه ذلك قوله في موضع آخر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر: 53] وقال سيبويه: هي للتبعية، ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع؛ وقيل: التبعية على حقيقته ولا يلزم من غفران جميع الذنوب لامة

عند الله من تلك، ولكن يقول لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتي. وأخرج أحمد، والبيهقي عن أنس قال: «أتى النبي ﷺ سائل فامر له بتمرة فلم يأخذها، وآتاه آخر فامر له بتمرة فقبلها وقال: تمرة من رسول الله، فقال للجارية: اذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها»، وفي إسناد أحمد عمارة بن زاذان، وثقه أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان. وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه. وقال أحمد: روي عنه أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذلك، وضعفه الدارقطني. وقال ابن عدي: لا بأس به. وأخرج البخاري في تاريخه، والضياء المقدسي في المختارة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ألهم خمسة لم يحرم خمسة، وفيها: ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة». وأخرج الحكيم الترمذي في نوابر الأغر أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أعطيهن لم يمنع من الله أربعاً». وفيها: ومن أعطي الشكر لم يمنع الزيادة؟ ولا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة بل الظاهر من الآية العموم كما يفيد جعل الزيادة جزاء للشكر، فمن شكر الله على ما رزقه وسع الله عليه في رزقه، ومن شكر الله على ما أنعم عليه به من الصحة زاده الله صحة ونحو ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله» ويقول: كذب النسابون. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن عمرو بن ميمون مثله. وأخرج ابن الضريس عن أبي مجلز قال: قال رجل لعلي بن أبي طالب: أنا أنسب الناس، قال: إنك لا تنسب الناس، فقال بلى: فقال له علي: أرايت قوله: «وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثير» [الفرقان: 38] قال: أنا أنسب ذلك الكثير، قال: أرايت قوله: «والم ياتكم نبي النين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله» فسكت. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير قال: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عذنان. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: بين عذنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «وفرأوا إنيهم في أقوامهم» قال: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أقوامهم «وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب» يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به فإن عذنا فيه شكاً قوياً. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود: فرأوا إنيهم في أقوامهم قال: عضوا عليها. وفي لفظ: على أناملهم غيظاً على رسلهم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي

محمد ﷺ غفران جميعها لغيرهم، وبهذه الآية احتج من جَوَزَ زيادة من في الإثبات؛ وقيل: من للبلد وليست بزيادة ولا تبعيضية أي: لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب «ويؤخركم إلى أجل مسمى» أي: إلى وقت مسمى عنده سبحانه، وهو الموت فلا يعذبكم في الدنيا «قالوا إن أنتم إلا بشر مثلهنا» أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا في الهيئة والصورة، تاكلون وتشربون كما ناكل ونشرب ولستم ملائكة «تريدون أن تصولنا» وصفوهم بالبشر أولاً، ثم بإرادة الصّد لهم عما كان يعبد آبائهم ثانياً أي: تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الأصنام ونحوها «فتولنا» إن كنتم صائقين بأنكم مرسلون من عند الله «يسلطان مبین» أي: بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدعونه، وقد جاؤهم بالسلطان المبين والحجة الظاهرة، ولكن هذا النوع من تعنتاتهم، ولون من تولياتهم «قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم» أي: ما نحن في الصورة والهيئة إلا بشر مثلكم كما قلتم «ولكن الله يمشي على من يشاء من عباده» أي: يتفضل على من يشاء منهم بالنبوة؛ وقيل: بالتوفيق والهداية «وما كان لنا أن نتليكم بسلطان» أي: ما صح ولا استقام لنا أن نتليكم بحجة من الحجج «إلا بإذن الله» أي: إلا بمشيئته وليس ذلك في قدرتنا. قيل: المراد بالسلطان هنا هو ما يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت، وقيل أعم من ذلك، فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» أي: عليه وحده، وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله نون من عداه، وكان الرسل فصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصداً أولاً، ولهذا قالوا: «وما لنا ألا نتوكل على الله» أي: وأيّ عذر لنا في ألا نتوكل عليه سبحانه «وقد هدانا سبيلنا» أي: والحال أنه قد فعل بنا ما يجب توكلنا عليه من هدايتنا إلى الطريق الموصل إلى رحمته، وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه «ولتصبرن على آياتنا» بما يقع منكم من التكذيب لنا والافتراءات الباطلة «وعلى الله وحده نون من عداه» «فليتوكل المتوكلون» قيل: المراد بالتوكل الأول استعداده، وبهذا السعي في بقائه وثبوته؛ وقيل: معنى الأول إن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله سبحانه لا علينا، فإن شاء سبحانه أظهرها وإن شاء لم يظهرها. ومعنى الثاني: إبداء التوكل على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله: «وإذا تاذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم» قال: أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله وأوسع لهم من الرزق وأظهرهم على العالم. وأخرج ابن جرير عن الحسن «لأزيدنكم» قال: من طاعتي. وأخرج ابن المبارك، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن علي بن صالح مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري في الآية قال: لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون

للفريقين ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ الجبار المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة، والعنيد المعاند للحق والمجانِب له، وهو مأخوذ من العند، وهو الناحية أي: أخذ في ناحية معرضاً. قال الشاعر:

إذا نزلت فاجعلوني وسطاً إنني كبير لا أطيق العندا
قال الزجاج: العنيد الذي يعدل عن القصد، وبمثله قال الهروي. وقال أبو عبيد: هو الذي عند وبغى، وقال ابن كيسان: هو الشامخ بأنفه؛ وقيل: المراد به العاصي؛ وقيل: الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله؛ ومعنى الآية: أنه خسر وهلك من كان متصفاً بهذه الصفة ﴿ومن ورائه جهنم﴾ أي: من بعده جهنم، والمراد بعد هلاكه على أن وراء ما هنا بمعنى بعد، ومنه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ربية وليس وراء الله للمرء مذهب
أي: ليس بعد الله، وبمثله قوله: ﴿وكان من ورائه عذاب غليظ﴾ أي: من بعده، كذا قال الفراء؛ وقيل: من ورائه أي: من أمامه. قال أبو عبيد: هو من أسماء الأضداد، لأن أحدهما ينقلب إلى الآخر، ومنه قول الشاعر:

ومن ورائك يوم أنت بالغ لا حاضر معجز عنه ولا بادي
وقال آخر:

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة وراثيا
أي: أمامي، ومنه قوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ [الكهف: 79]. أي: أمامهم، ويقول أبي عبيدة هذا قال قطرب. وقال الأخفش: هو كما يقال: هذا الأمر من ورائك أي: سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان أي: في طلبه. وقال النحاس: من ورائه أي: من أمامه، وليس من الأضداد، ولكنه من تورى أي: استتر فصارت جهنم من ورائه، لأنها لا ترى، وحكى مثله ابن الأنباري ﴿ويسقي من ماء صديد﴾ معطوف على مقتر جواً عن سؤال سائل، كأنه قيل: فماذا يكون إن؟ قيل: يلقي فيها ويسقي، والصديد ما يسيل من جلود أهل النار واشتقاقه من الصد، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته، وهو دم مختلط بقيق، والصديد صفة لماء، وقيل: عطف بيان منه ﴿ويتجرعه﴾ في محل جر على أنه صفة لماء، أو في محل نصب على أنه حال؛ وقيل: هو استئناف مبني على سؤال، والتجرع التحسي أي: يتحساه مرة بعد مرة لا مرة واحدة لمارته وحرارته ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أي: يبتلعه، يقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغاً إذا كان سهلاً، والمعنى: ولا يقارب إساغته، فكيف تكون الإساغة؟ بل يغص به فيطول عذابه بالعطش تارة، ويشربه على هذه الحال أخرى؛ وقيل: إنه يسيغه بعد شدة وإبطاء، كقوله: ﴿وما كانوا يفعلون﴾ [البقرة: 71] أي: يفعلون بعد إبطاء، كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى ﴿يصهر به ما في بطونهم﴾ [الحج: 20] ﴿وبياتيه الموت من كل مكان﴾ أي: تأتيه أسباب الموت من كل جهة من الجهات، أو من كل موضع من مواضع بنه. وقال الأخفش: المراد بالموت هنا البلى التي تصيب الكافر في النار، سماها

مَلَيْئاً فَأَرْجَى إِلَيْهِمْ رَهْمٌ لِّئَلَّا يَكُنَّ الظَّالِمِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَنُخْرِجَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَيْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَابِي وَتَافَى وَبَعِيدٌ ﴿٨٠﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٨١﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَسَوَاءٌ مِنْ مَاءٍ مَكِيدٍ ﴿٨٢﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٨٣﴾ تَتَلَوَّاتُ الدُّرُوبُ كَقَرَارٍ رِيْهِمَ آَعْمَلَهُمْ كَرَامًا أَشَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاقُ الْبَعِيدُ ﴿٨٤﴾

قوله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ هؤلاء القائلون هم طائفة المتمردين عن إجابة الرسل، واللام في «لنخرجنكم» هي الموطئة للقسَم أي: والله لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا، لم يقتنعوا بردهم لما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعواهم إليه حتى اجترعوا عليهم بهذا، وخيروهم بين الخروج من أرضهم، أو العود في ملتهم الكفرية، وقد قيل: إن «أو» في «أو لتعودن» بمعنى حتى أو يعني: إلا أن تعودوا كما قاله بعض المفسرين، ورد بأنه لا حاجة إلى ذلك، بل أو على بابها للتخيير بين أحد الأمرين؛ وقد تقدم تفسير الآية في سورة الأعراف. قيل والعود هنا بمعنى الصيرورة لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها؛ وقيل: إن الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فقلب على اتباعهم ﴿فأوحى إليهم ربهم﴾ أي: إلى الرسل ﴿لنهلكن الظالمين﴾ أي قال لهم: لنهلكن الظالمين ﴿ولنصكننكم الأرض﴾ أي أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوا من الإخراج أو العود، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ [الأعراف: 137]. وقال: ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم﴾ [الأحزاب: 27] وقرئ (ليهلكن) (وليسكننكم) بالتحية في الفعلين اعتباراً بقوله فأوحى، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين في مسكنهم ﴿لمن خاف مقامي﴾ أي: موقعي، وذلك يوم الحساب، فإنه موقف الله سبحانه، والمقام بفتح الميم مكان الإقامة، وبالضم فعل الإقامة، وقيل: إن المقام هنا مصدر بمعنى القيام أي: لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي له كقوله تعالى: ﴿أقمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ [الرعد: 33]. وقال الأخفش: ذلك لمن خاف مقامي أي: عذابي ﴿وخاف وعيد﴾ أي: خاف وعيدي بالعذاب، وقيل: بالقرآن وزوجره، وقيل: هو نفس العذاب، والوعيد الاسم من الوعد ﴿واستفتحوا﴾ معطوف على أوحى، والمعنى: أنهم استنصروا بالله على أعدائهم، أو سألوا الله القضاء بينهم، من الفتاحة وهي الحكومة؛ ومن المعنى الأول قوله: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ [الأنفال: 19] أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر؛ ومن المعنى الثاني قوله: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ [الأعراف: 89] أي: احكم، والضمير في استفتحوا للرسل؛ وقيل: للكفار، وقيل:

في قوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ قال: للرسول كلها يقول استفتنوا، وفي قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ قال: معاند للحق مجانب له. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: استنصرت الرسول على قومها ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يقول: عنيد عن الحق معرض عنه، أبى أن يقول لا إله إلا إله. وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي قال: العنيد الناكب عن الحق. وأخرج أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيَسْأَلُ مِنْ مَاءٍ صَنِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ﴾ قال: يقرب إليه فيتركه، فإذا لنا منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره. يقول الله تعالى: ﴿وَسَقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: 15]. وقال: ﴿وَأَن يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: 29]. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس في قوله: ﴿مِنْ مَاءٍ صَنِيدٍ﴾ قال: يسيل من جلد الكافر ولحمه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: ﴿مِنْ مَاءٍ صَنِيدٍ﴾ هو القيح والدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيُؤْتِيهِ الْمَوْتَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت لأن الله يقول: ﴿لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: 36]. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ﴿وَيُؤْتِيهِ الْمَوْتَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: من كل عظم وعرق وعصب. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن محمد بن كعب نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي قال: من موضع كل شعرة في جسده ﴿وَمَنْ وَرِثَهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: الخلود. وأخرج ابن المنذر عن الفضيل بن عياض ﴿وَمَنْ وَرِثَهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: حبس الانفاس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الآية قال: مثل الذين عبدوا غيره فاعمالهم يوم القيامة كرماد اشتدَّت به الريح في يوم عاصف لا يقدر على الرماد إذا أرسل في يوم عاصف.

موتاً لشدتها ﴿وَمَا هُوَ بِمِيتٍ﴾ أي: والحال أنه لم يموت حقيقة فيستريح؛ وقيل: تعلق نفسه في حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فيحيا، ومثله قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ [طه: 74]، وقيل: معنى وما هو بميت لتطاول شدائد الموت به وامتداد سكراته عليه. والأولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقة لما ذكرنا من قوله سبحانه ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ [طه: 74] وقوله: ﴿لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: 36] ﴿وَمَنْ وَرِثَهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي من أمامه، أو من بعده عذاب شديد، وقيل هو الخلود، وقيل حبس النفس ﴿مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ قال سيبويه: مثل مرتفع على الابتداء، والخبر مقدر أي: فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا وبه قال الزجاج. وقال الفراء: للتفسير مثل أعمال الذين كفروا فحذف المضاف. وروي عنه أنه قال ببالغاء مثل. والتقدير الذين كفروا ببربهم أعمالهم كرماد؛ وقيل هو: أعني مثل مبتدأ وخبره أعمالهم كرماد على أن معناه الصفة، فكانه قال صفتهم العجيبة أعمالهم كرماد. والمعنى: أن أعمالهم باطلة غير مقبولة، والرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء، ضرب الله سبحانه هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يحرقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف. ومعنى اشتدَّت به الريح: حملته بشدة وسرعة، والعصف شدة الريح، وصف به زمانها مبالغة كما يقال: يوم حار ويوم بارد، والبرد والحر فيهما لا منهما ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: لا يقدر الكفار مما كسبوا من تلك الأعمال الباطلة على شيء منها، ولا يرون له أثراً في الآخرة يجازون به ويثابون عليه، بل جميع ما عملوه في الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما دل عليه التمثيل أي: هذا البطلان لأعمالهم وذهاب أثرها ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن طريق الحق المخالف لمنهج الصواب، لما كان هذا خسراناً لا يمكن تداركه سماه بعيداً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ الآية، قال كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرونهم ويكذبونهم ويدعونهم إلى أن يعودوا في ملتهم، فأبى الله لرسوله والمؤمنين أن يعودوا في ملة الكفر، وأمرهم أن يتوكلوا على الله، وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة، ووعدهم أن يسكنهم الأرض من بعدهم، فأنجز لهم ما وعدهم، واستفتحوا كما أمرهم الله أن يستفتحوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: وعدهم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة، فبين الله من يسكنها من عباده فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: 46] وإن لله مقاماً هو قائمه، وإن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا ودأبوا الليل والنهار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَسَأَ إِلَهُكُمْ وَيَأْتِ عِبَادِي جَبْرِيلُ ﴿١٠﴾ وَمَا ذَكَرَ عَلَى اللَّهِ عِزِّيزٌ ﴿١١﴾ وَيَرْزُقُ اللَّهُ جِبْرِيلاً فَقَالَ أَلَسَمِعْتُمْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَا فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْشَرُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنُفُوزٌ قَوْلُهُمْ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَرْجِيءٍ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَنَا فَيْقُ الْأَمْرِ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَلَيْكُمْ وَعَدَ اللَّهُ وَلَعَدُّكُمْ فَأَخْلَفَكُمْ وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ تَعْلَمُوا فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْزَمُونِي وَلَوْ أَنَّ أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ لِي كَفَرْتُمْ بِمَا أَتَيْتُكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ أَطْلِقَ إِلَيْكُمْ عَذَابِي

﴿أَيُّكُمْ﴾ وَأَدْخَلَ الْآيَاتِ ءَامَنُوا وَكَلِمَاتٍ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٦٠﴾

قوله: ﴿أَيُّكُمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا هي القلبية، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لامته، أو الخطاب لكل من يصلح له. وقرأ حمزة والكسائي (خالق السموات) ومعنى بالحق: بالوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقها عليه ليستدل بها على كمال قدرته. ثم بين كمال قدرته سبحانه واستغناؤه عن كل واحد من خلقه فقال: ﴿إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فيعدم الموجودين ويوجد المعدمين ويهلك العصاة ويأتي بمن يطيعه من خلقه، والمقام يحتمل أن يكون هذا الخلق الجديد من نوع الإنسان، ويحتمل أن يكون من نوع آخر ﴿وَمَا تِلْكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع، لأنه سبحانه قادر على كل شيء، وفيه أن الله تعالى هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخاف عقابه، فلذلك أتبعه بنكر أحوال الآخرة فقال: ﴿وَيَبْرُؤُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ أي: يبرؤوا من قبورهم يوم القيامة، والبروز: الظهور، والبراز المكان الواسع لظهوره، ومنه امرأة برزة أي: تظهر للرجال؛ فمعنى يبرؤوا ظهوراً من قبورهم. وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه كما هو مقرر في علم المعاني، وإنما قال: ويبرؤوا الله مع كونه سبحانه علماً بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم يبرؤوا أو لم يبرؤوا، لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى، فالكلام خارج على ما يعتقدهونه ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي قال: الاتباع الضعفاء لل رؤساء الأقوياء المتكبرين لما هم فيه من الرياسة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ أي: في الدنيا، فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم، والتبع جمع تابع، أو مصدر وصف به للمبالغة أو على تقدير نوي تبع، قال الزجاج: جمعهم في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع، فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم عن عبادة الله: إنا كنا لكم تبعاً جمع تابع مثل خادم وخدم وحارس وحرس وراصد ورصد ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونُونَ﴾ أي: دافعون عنا من عذاب الله من شيء، من الأولى للبيان، والثانية للتوبيخ أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله؛ يقال: أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى. وأغناه إذا أوصل إليه النفع ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ أي: قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين، والجملة مستأنفة بتقدير سؤال كأنه قيل كيف أجابوا؟ أي لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه؛ وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها؛ وقيل: لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه ﴿سِوَا عَلَيْنَا لَئِنْ جِئْنَاكُمْ مِنْ صَبْرٍ أَوْ غَيْرِهِ لَسَوْفَ يَكُونُ عَلَيْنَا لِئْسَ بِالشَّاكِكِينَ مِنَ الْمَعْجُونِ﴾ أي: مستو علينا الجزع والصبر، والهمزة وأم لتأكيد التوسية في قوله: ﴿سِوَا عَلَيْنَا لَئِنْ جِئْنَاكُمْ مِنْ صَبْرٍ أَوْ غَيْرِهِ لَسَوْفَ يَكُونُ عَلَيْنَا لِئْسَ بِالشَّاكِكِينَ مِنَ الْمَعْجُونِ﴾ [البقرة: 6] ﴿وَمَا لَنَا مِنْ مَحْيٍ﴾ أي: من منجى ومهرب من العذاب، يقال: حاص فلان عن كذا أي: فرّ وذاغ يحيص حيصاً

وحيصاً وحيصاناً، والمعنى: ما لنا وجه نتباعد به عن النار، ويجوز أن يكون هذا من كلام الفريقين، وإن كان الظاهر أنه كلام المستكبرين ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قَضَى الْأَمْرُ﴾ أي: قال للفريقين هذه المقالة، ومعنى لما قضى الأمر: لما دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار على ما يأتي بيانه في سورة مريم. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وهو وعده سبحانه بالبعث والحساب، ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿وَوَعَدْتُمْ فَاخْلَفْتُمْ﴾ أي: وعدتكم وعداً باطلاً، بأنه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار فاخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك. قال الفراء: وعد الحق هو من إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم: مسجد الجامع. وقال البصريون: وعيدكم وعد اليوم الحق ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: إلا مجرد دعائي لكم إلى الغواية والضلال بلا حجة ولا برهان، ودعوته إياهم ليست من جنس السلطان حتى تستثنى منه، بل الاستثناء منقطع أي: لكن دعوتكم فاستجبت لى أي: فسارعت إلى إجابتي؛ وقيل: المراد بالسلطان هنا القهر أي: ما كان لى عليكم من قهر يضطركم إلى إجابتي؛ وقيل هذا الاستثناء هو من باب:

تحية بينهم ضرب وجيع

مبالغة في نفية للسلطان عن نفسه كأنه قال: إنما يكون لى عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء من السلطان، وليس منه قطعاً ﴿فَلَا تُلْمُونِي﴾ بما وقعت فيه بسبب وعدي لكم بالباطل وإخلافي لهذا الموعد ﴿وَلَوْلِمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ باستجابتكم لى بمجرد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة، فإن من قبل المواعيد الباطلة والدعوى الزائفة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى، ولما رنه قطع ولا سيما ودعوتى هذه الباطلة وموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعده الله لكم وعد الحق ودعوتكم لكم إلى الدار السلام مع قيام الحجة التي لا تخفى على عاقل ولا تلتبس إلا على مخذول. وقريب من هذا من يقتدي بأراء الرجال المخالفة لما في كتاب الله سبحانه، ولما في سنة رسوله ﷺ ويؤثرها على ما فيها، فإنه قد استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حجة ولا دل عليه برهان، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المتنكيين طريق الحق بسوء اختيارهم. اللهم غفراً ﴿مَا أَنَا بِمُصْرَخٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرَخِي﴾ يقال: صرخ فلان إذا استغاث يصرخ صرخاً وصرخاً، واستصرخ بمعنى صرخ، والمصرخ المغيث، والمستصرخ المستغيث، يقال: استصرخني فأصبرخته، والصريخ: صوت المستصرخ، والصريخ أيضاً: الصارخ وهو المغيث والمستغيث، وهو من أسماء الأضداد كما في الصحاح. قال ابن الأعرابي: الصارخ: المستغيث، والمصرخ: المغيث، ومعنى الآية: ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، وما أنتم بمغيثي مما أنا فيه، وفيه إرشاد لهم إلى أن

الجمهور (أنخل) على البناء للمفعول، وقرأ الحسن (وأنخل) على الاستقبال والبناء للفاعل أي: وأنا أنخل الذين آمنوا، ثم نكر سبحانه خلودهم في الجئات وعدم انقطاع نعيمهم، ثم نكر أن ذلك بإن ربه أي: بتوقيفه ولطفه وهدايته، هذا على قراءة الجمهور، وأما على قراءة الحسن فيكون (بإن ربه) متعلقاً بقوله: ﴿تَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلام﴾ أي: تحية الملائكة في الجنة سلام بإن ربه، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة يونس.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قال: بخلق آخر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿وَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ قال: الاتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ قال: للقادة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا﴾ قال زيد بن أسلم: جزعوا مائة سنة، وصبروا مائة سنة. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن كعب بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ الآية قال: يقول أهل النار: هلموا فلنصبر، فيصبرون خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: هلموا فلنجزع، فيكوا خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا لِحُزْنِنَا أَمْ صَبْرِنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾. والظاهر أن هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فُهِمَ أَنْتُمْ مَغْنُونٌ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ﴾ قال الذين استكبروا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُمُ الْبَاقِيَةَ [غافر: 47 - 48] وأخرج ابن المبارك في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساکر عن عقبة بن عامر يرفعه، وذكر فيه حديث الشفاعة، ثم قال: «ويقول الكافر عند ذلك: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس فهو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا، فيقوم إبليس فيثور من مجلسه من انتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظم بهجته، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعِدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَيْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾» الآية، وضعف السيوطي إسناده، ولعل سبب ذلك كون في إسناده رشدين بن سعد عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن نجين الحجزى، عن عقبة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعِدَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرَخِي﴾ قال: بناصري ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: بطاعتكم إياي في الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي في هذه الآية قال: خطيبان يقومان يوم القيامة: إبليس، وعيسى، فاما إبليس فيقوم في حزبه فيقول: هذا القول يعني: المنكر في الآية، وأما عيسى فيقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكَنتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا

الشیطان في تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب محتاج إلى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه، فكيف يطعمون في إغاثته من هو محتاج إلى من يغيثه؟ وما ورد مورد هذه الأقوال من قول العرب قول أمية بن أبي الصلت:

فلا تجزعوا إنني لكم غير مصرخ وليس لكم عندي غناء ولا نفر و (مصرخي) بفتح الياء في قراءة الجمهور. وقرأ الأعمش وحزمة بكسر الياء على أصل التقاء الساكنين. قال الفراء: قراءة حمزة وهم منه، وقل من سلم عن خطأ، وقال الزجاج: هي قراءة ربيعة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف يعني: ما نكرناه من أنه كسرهما على الأصل في التقاء الساكنين. وقال قطرب: هذه لغة بني يربوع يزيبون على ياء الإضافة ياء، وأنشد الفراء فيما ورد على هذه القراءة قول الشاعر:

قلت لها ياتاه هل لك في قالته ما أنت بالمرضي ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ لما كشف لهم القناع بأنه لا يغيث عنهم من عذاب الله شيئاً، ولا ينصرهم بنوع من أنواع النصر. صرح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع الله في الربوبية من قبل هذا الوقت الذي قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة، وهو ما كان منهم في الدنيا من جعله شريكاً، ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم، فأوضح لهم أولاً أن مواعيده التي كان يعدم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعده الحق من الله سبحانه وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها؛ ثم أوضح لهم ثانياً بأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول، ولا ينفق على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره، ثم أوضح ثالثاً بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء، ثم نعى عليهم رابعاً ما وقعوا فيه، وبنفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل؛ ثم أوضح لهم خامساً بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعاً ولا ينفع عنهم ضرراً، بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة؛ ثم صرح لهم سادساً بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب، وإذا كان جملة ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من تنمة كلامه كما ذهب إليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذي خاطبهم به، فاثبت لهم الظلم، ثم نكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الأليم، لا على قول من قال: إنه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن ما مصدرية في «ما أشركتمون» وقيل: يجوز أن تكون موصولة على معنى إنني كفرت بالذي أشركتموني وهو الله عز وجل، ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند أن أمره بالسجود لآدم ﴿وَأَنخَلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لما أخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة. وقرأ

تطلقه حيناً وحيناً تراجع

قال النحاس: وهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت. وقد ورد الحين في بعض المواضع يراد به أكثر كقوله: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ [الإنسان: 1]. وقد تقدم بيان أقوال العلماء في الحين في سورة البقرة في قوله: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ [البقرة: 36]. وقال الزجاج: الحين الوقت طال أم قصر ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ يتفكرون أحوال المبدأ والمعاد. ويدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته، وفي ضرب الأمثال زيادة تنكير وتفهم وتصوير للمعاني ﴿ومثل كلمة خبيثة﴾ قد تقدم تفسيرها؛ وقيل: هي الكافر نفسه، والكلمة الطيبة: المؤمن نفسه ﴿كشجرة خبيثة﴾ أي: كمثل شجرة خبيثة. قيل: هي شجرة الحنظل؛ وقيل: هي شجرة الثوم، وقيل: الكمأة؛ وقيل: الطحلية؛ وقيل: هي الكشوث بالضم وآخره مثله، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض. قال الشاعر:

وهي كشوث فلا أصل ولا ثمر

وقرئ (ومثلاً كلمة) بالنصب عطفاً على كلمة طيبة ﴿اجتثت من فوق الأرض﴾ أي: استوصلت واقتلعت من أصلها، ومنه قول الشاعر:

هو الجلاء الذي يجتث أصلكم

قال المؤرخ: أخذت جثتها وهي نفسها، والجثة: شخص الإنسان، يقال: جثه قلعه، واجتته: اقتلعه. ومعنى ﴿من فوق الأرض﴾: أنه ليس لها أصل راسخ وعروق متمكنة من الأرض ﴿ما لها من قرار﴾ أي: من استقرار على الأرض؛ وقيل: من ثبات على الأرض، كما أن الكافر وكلمته لا حجة له ولا ثبات فيه ولا خير يأتي منه أصلاً، ولا يصعد له قول طيب ولا عمل طيب ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ أي: بالحجة الواضحة، وهي الكلمة الطيبة المتقدم ذكرها، وقد ثبت في الصحيح أنها كلمة الشهادة «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وذلك إذا قعد المؤمن في قبره قال النبي ﷺ: فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾، وقيل: معنى تثبيت الله لهم هو أن يؤموا على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

يثبت الله ما أتاك من حسن تثبيت موسى ونصر أكالذي نصروا
ومعنى ﴿في الحياة الدنيا﴾ أنهم يستمرون على القول الثابت في الحياة الدنيا، قال جماعة: المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية القبر لأن الموتى في الدنيا حتى يبعثوا، ومعنى ﴿وفي الآخرة﴾ وقت الحساب. وقيل: المراد، بالحياة الدنيا وقت المساءلة في القبر، وفي الآخرة: وقت المساءلة يوم القيامة؛ والمراد أنهم إذا سئلوا عن معتقدتهم ودينهم أوضحوا نك بالقول الثابت من دون تلعم ولا تردد ولا جهل، كما يقول: من لم يوفق لا أدري، فيقال له: لا دريت ولا تليت ﴿ويضل الله الظالمين﴾ أي: يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت فلا يقدرون على التكلم بها في قبورهم ولا عند

توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ [المائدة: 117]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ما لنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي﴾ قال: ما أنا بنافعكم وما أنتم بنافعي ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال شركه: عبائته. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة ﴿ما لنا بمصرخكم﴾ قال: ما أنا بمغيثكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ قال: الملائكة يسلمون عليهم في الجنة.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٥﴾ تُوَفَّقُ أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ يَذُنُ رِيحًا وَيَرْبُرُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٧﴾ يُمِيتُ اللَّهُ الْبَرِّتَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَعْمَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

لما نكر سبحانه مثل أعمال الكفار، وإنها كرماد اشتدت به الريح، ثم ذكر نعيم المؤمنين، وما جازاهم الله به من إدخالهم الجنة خالدين فيها، وتحية الملائكة لهم نكر تعالى ما هنا مثلاً للكلمة الطيبة، وهي كلمة الإسلام أي: لا إله إلا الله، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الخير، وذكر مثلاً للكلمة الخبيثة، وهي كلمة الشرك، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشر، فقال مخاطباً لرسول الله ﷺ، أو مخاطباً لمن يصلح للخطاب: ﴿لم تَرَ كيف ضرب الله مثلاً﴾ أي: اختار مثلاً وضعه في موضعه اللائق به، وانتصاب مثلاً على أنه مفعول ضرب وكلمة بدل منه، ويجوز أن تنتصب الكلمة على أنها عطف بيان لمثلاً، ويجوز أن تنتصب الكلمة بفعل مقدر أي: جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، وحكم بأنها مثلاً، ومحل كشجرة النصب على أنها صفة لكلمة، أو الرفع على تقدير مبتدأ أي: هي كشجرة، ويجوز أن تكون كلمة أول مفعولي ضرب، وأخرت عن المفعول الثاني، وهو مثلاً لثلاث تبعه عن صفتها، والأول أولى، وكلمة وما بعدها تفسير للمثل، ثم وصف الشجرة بقوله: ﴿أصلها ثابت﴾ أي: راسخ آمن من الانقلاص بسبب تمكنها من الأرض بعروقها ﴿وفروعها في السماء﴾ أي: أعلاها ذاهب إلى جهة السماء مرتفع في الهواء، ثم وصفها سبحانه بأنها ﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ كل وقت ﴿يذُن ريحاً﴾ بإرانبته ومشيتها، قيل: وهي النخلة؛ وقيل غيرها. قيل: والمراد بكونها تؤتي أكلها كل حين أي: كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار في جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف؛ وقيل: المراد في أوقات مختلفة من غير تعيين؛ وقيل: كل غدوة وعشية، وقيل: كل شهر؛ وقيل: كل ستة أشهر. قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة لأن الخبر عند جميع أهل اللغة إلا من شدّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعي قول النابغة:

عبيد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: الحين هنا سنة. وأخرج البيهقي عنه أيضاً قال: الحين قد يكون غدوة وعشية. وقد روي عن جماعة من السلف في هذا أقوال كثيرة. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾». وأخرج ابن أبي شيبه، والبيهقي عن البراء بن عازب في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية قال: التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملاك إلى الرجل في القبر فقالا: من ربك؟ فقال: ربي الله، قال: وما دينك؟ قال ديني الإسلام، قال: ومن نبيك؟ قال نبيي محمد ﷺ، فذلك التثبيت في الحياة الدنيا. وأخرج البيهقي عن ابن عباس نحوه. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن أبي سعيد في الآية قال: في الآخرة القبر، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: «قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية قال: هذا في القبر». وأخرج البيهقي من حديثه نحوه. وأخرج البزار عنها أيضاً قالت: «قلت: يا رسول الله تبثي هذه الأمة في قبورها، فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة؟ قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية»، وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره، وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفنتته، وليس هذا موضع بسطها، وهي معروفة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِسَاءَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَعْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَنَسُوا الْفَرَاقَ ۖ وَجَعَلُوا لَوَ أُنْدَادًا لِّمُسْلِمٍ ۖ سَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي مَبَارِكَاتِهِ إِلَى النَّارِ ۖ قُلْ لِّمَسْلُومٍ أَمْشُوا بِقَبُولِهِمْ ۖ وَيُقَرَّرُ بِمَا زَكَتُمْ سِرًّا وَكَافَرَتْ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يُلْفَى ۚ﴾ **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَخَّرُوا الدَّيَّانَ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لِّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۖ﴾** **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلِيلَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ﴾** **﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً سَائِغًا وَنَازِلًا وَمِنْهُ نَحْيِي النَّاسَ عَنِ أَكْثَرِ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۖ﴾**

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، وهو تعجيب من حال الكفار حيث جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر أي: بدل شكرها الكفر بها، وذلك بتكذيبهم محمداً ﷺ حين بعثه الله منهم وأنعم عليهم به. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنهم كفار مكة وأن الآية نزلت فيهم، وقيل: نزلت في الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر، وقيل: نزلت في بطون قريش بني مخزوم وبني أمية؛ وقيل: نزلت في منتصرة العرب، وهم جيلة بن الأيهم وأصحابه، وفيه نظر، فإن جيلة وأصحابه لم يسلموا إلا في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وقيل: إنها عامة في جميع المشركين؛ وقيل: المراد بتبديل نعمة الله

الحساب، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا. قيل: والمراد بالظالمين هنا الكفرة؛ وقيل كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض عن البينات الواضحة فإنه لا يثبت في مواقف الفتن ولا يهتدي إلى الحق، ثم ذكر سبحانه أنه يفعل ما يشاء من التثبيت والخذلان لا راد لحكمه، ولا يسأل عما يفعل. قال الفراء: أي لا تنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل والإظهار في محل الإضمار في الموضعين لتربية المهابة كما قيل: والله أعلم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهو المؤمن ﴿وَصَلَّاهَا ثَابِتَةً﴾ يقول: لا إله إلا الله ثابت في قلب المؤمن ﴿وَوَفَّرَهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الشرك ﴿كَلِمَةً خَبِيثَةً﴾ يعني: الكافر ﴿لَجِئْتُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً. وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم. وأخرج الترمذي، والنسائي، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس قال: «أتى رسول الله ﷺ بقناع من بسر فقال: ﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿تَوْتِي أَكَلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: هي النخلة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ قال: هي الحنظلة». وروي موقوفاً على أنس، قال الترمذي: الموقوف أصح. وأخرج أحمد وابن مردويه. قال السيوطي بسند جيد عن عمر، عن النبي ﷺ في قوله ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: «هي التي لا ينقص ورقها قال: هي النخلة». وأخرج البخاري وغيره من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن شجرة من الشجر لا يطرح ورقها مثل المؤمن، قال: فوقع الناس في شجرة البوادي. ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ: هي النخلة». وفي لفظ للبخاري قال: «أخبروني عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها ولا توتّي أكلها كل حين»، فنكر نحوه. وفي لفظ لابن جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون مات الشجرة الطيبة؟» ثم قال: هي النخلة»، وروي نحو هذا عن جماعة من الصحابة والتابعين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿تَوْتِي أَكَلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: كل ساعة بالليل والنهار والشتاء والصيف، وذلك مثل المؤمن يطيع ربه بالليل والنهار والشتاء والصيف. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: يكون أخضر ثم يكون أصفر. وأخرج عنه أيضاً في قوله: ﴿كُلِّ حِينٍ﴾ قال: جذاء النخل. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿تَوْتِي أَكَلَهَا كُلِّ حِينٍ﴾ قال: تطعم في كل ستة أشهر. وأخرج أبو

على الظرف أي: وقت سرّ ووقت علانية. قال الجمهور: السرّ ما خفي. والعلانية ما ظهر. وقيل: السرّ التطوُّع، والعلانية الفرض، وقد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّلَاتِ فَتَعْمَأْ مَي﴾ [البقرة: 271]. ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ قال أبو عبيدة: البيع ما هنا الغداء والخلال المخالة، وهو مصدر. قال الواحدي: هذا قول جميع أهل اللغة، وقال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون جمع خلة مثل برمة وبرام وعلية وعلاب، والمعنى: أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدي المقصر في العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك، وليس هناك مخاللة حتى يشفع الخليل لخليله وينقذه من العذاب، فأمرهم سبحانه بالإتفاق في وجوه الخير مما رزقهم الله ما داموا في الحياة الدنيا قارين على إتفاق أموالهم من قبل أن يأتي يوم القيامة، فإنهم لا يقدرون على ذلك بل لا مال لهم إذ ذاك، فالجملة أعني: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ لتأكيد مضمون الأمر بالإتفاق مما رزقهم الله، ويمكن أن يكون فيها أيضاً تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة، وذلك لأن تركها كثيراً ما يكون سبب الاشتغال بالبيع ورعاية حقوق الأخلاء، وقد تقدم في البقرة تفسير البيع والخلال ﴿اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أبدعهما واخترعهما على غير مثال وخلق ما فيهما من الأجرام العلوية والسفلية. والاسم الشريف مبتدأ وما بعده خبره ﴿وَنَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد بالسما هنا جهة العلو، فإنه يدخل في ذلك الفلك عند من قال: إن ابتداء المطر منه. ويدخل فيه السحاب عند من قال: إن ابتداء المطر منها، وتدخل فيه الأسباب التي تثير السحاب كالرياح. وتكثير الماء هنا للتنوعية أي: نوعاً من أنواع الماء، وهو ماء المطر ﴿فَخَرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ أي: أخرج بذلك الماء من الثمرات المتنوعة رزقاً لبني آدم يعيشون به، و«من» في من الثمرات للبيان كقولك: أنفقت من الدراهم، وقيل: للتبويض لأن الثمرات منها ما هو رزق لبني آدم، ومنها ما ليس برزق لهم، وهو ما لا ياكلونه ولا ينتفعون به ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ﴾ فجرت على إراتكم واستعملتموها في مصالحكم. ولذا قال: ﴿لَتَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ كما تريبن وعلى ما تطلبون ﴿بِأَمْرِ﴾ أي: بأمر الله ومشيطته، وقد تقدم تفسير هذا في البقرة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْإِنْفَارَ﴾ أي: نللهما لكم بالركوب عليها والإجراء لها إلى حيث تريبن ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوءهما. وانتصاب «دائبين» على الحال. والدُّوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية أي: دائبين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره؛ وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمر الله. والمعنى: يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران ولا ينقطع سيرهما ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان، فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم وما تحتاجون إليه من أمور دنياكم. والليل لتسكنوا كما قال سبحانه: ﴿مَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلْ

كفراً أنهم لما كفروها سلبهم الله ذلك فصاروا متبكين بها الكفر ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي: أنزلوا قومهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر دار البوار، وهي جهنم، والبوار الهلاك؛ وقيل هم قادة قريش أحلوا قومهم يوم بدر دار البوار أي: الهلاك وهو القتل الذي أصيبوا به، ومنه قول الشاعر:

فلم أرَ مثلهم أبطل حرب غداة الحرب إذ خيف البوار

والأول أولى لقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ فإنه عطف بيان لدار البوار، و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ في محل نصب على الحال، أو هو مستأنف لبيان كيفية حلولهم فيها ﴿وَيُبْسُ لِلْقَرَارِ﴾ أي: بش القرار قرارهم فيها، أو بش المقر جهنم، فالمخصوص بالنم محذوف ﴿وَجَعَلُوا لَهْ أَنْدَاداً﴾ معطوف على وأحلوا أي: جعلوا لله شركاء في الربوبية، أو في التسمية وهي الأصنام. قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليضلوا) بفتح الياء أي: ليضلوا أنفسهم عن سبيل الله، وتكون اللام للعاقبة أي: ليتعقب جهلهم لله أنداداً ضلالهم، لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه، وحسن استعمال لام العاقبة هنا لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها في آخر المراتب، والمشابهة لحد الأمور المصححة للمجاز. وقرأ الباقون بضم الياء ليقعوا قومهم في الضلال عن سبيل الله، فهذا هو الغرض من جعلهم لله أنداداً. ثم هذهم سبحانه، فقال لنبيه ﷺ ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ بما أنتم فيه من الشهوات، وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم وإضلال الناس ﴿فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مرئكم ومرجعكم إليها ليس إلا، ولما كان هذا حالهم، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهمالكهم فيه لا يقلعون عنه، ولا يقبلون فيه نصح الناصحين جعل الأمر بمباشرة مكان النهي قربانه أيضاً لما تكون عليه عاقبتهم، وأنهم لا محالة صائررون إلى النار فلا بد لهم من تعاطي الأسباب المقتضية ذلك، فجملته ﴿فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ تعليل للأمر بالتمتع، وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره، ويجوز أن تكون هذه الجملة جواباً لمحذوف دل عليه سياق الكلام، كأنه قيل: فإن دتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار، والأول أولى والنظم القرآني عليه أدل، وذلك كما يقال لمن يسعى في مخالفة السلطان: اصنع ما شئت من المخالفة، فإن مصيرك إلى السيف ﴿قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سراً وعلانية﴾ لما أمره بأن يقول للمبكين نعمة الله كفراً الجاعلين لله أنداداً ما قاله لهم أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم، وهي طائفة المؤمنين هذا القول، والمقول محذوف دل عليه المذكور أي: قل لِعِبَادِي أَقِيمُوا وَانْفِقُوا وَيُقِيمُوا وَيَنْفِقُوا، فجزم يقيموا على أنه جواب الأمر المحذوف، وكذلك ينفقوا، نكر معنى هذا الفراء. وقال الزجاج: إن يقيموا مجزوم بمعنى اللام أي: ليقيموا فاسقطت اللام، ثم نكر وجهاً آخر للجزم مثل ما نكره الفراء. وانتصاب سرّاً وعلانية، إما على الحال أي: مسرين ومعلنين، أو على المصدر أي: إتفاق سرّاً وإتفاق علانية، أو

ومعنى تهوي إليهم: تنزع إليهم، يقال: هوى نحوه إذا مال، وهوت الناقة تهوي هويًا فهي هاربة: إذا عدت عدوًا شديدًا كأنها تهوي في بئر، ويحتمل أن يكون المعنى: تجيء إليهم أو تسرع إليهم، والمعنى متقارب ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: أرزق نريتي الذين أسكنتهم هناك أو هم ومن يسكنهم من الناس من أنواع الثمرات التي تنبت فيه، أو تجلب إليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ نعمك التي أنعمت بها عليهم ﴿وَبِنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلَنُ﴾ أي: ما نكتمه وما نظهره، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليه سبحانه سياتر. قيل والمراد هنا بما نخفي ما يقابل ما نعلن، فالمعنى ما نظهره وما لا نظهره، وقدم ما نخفي على ما نعلن للدلالة على أنهما مستويان في علم الله سبحانه. وظاهر النظم القرآني عموم كل ما لا يظهر وما يظهر من غير تقييد بشيء معين من ذلك؛ وقيل المراد ما يخفيه إبراهيم من وجده بإسماعيل وأمه حيث أسكنهما بؤاب غير ذي زرع، وما يعلنه من ذلك؛ وقيل: ما يخفيه إبراهيم من الوجد ويعلنه من البكاء والدعاء، والمجيء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط، بل أراد جميع العباد، فكان المعنى: أن الله سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد وبكل ما لا يظهره. وأما قوله: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فقال جمهور المفسرين: هو من كلام الله سبحانه تصديقاً لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم بما يخفيه العباد وما يعلنونه، فقال سبحانه: وما يخفى على الله شيء من الأشياء الموجودة كائناً ما كان، وإنما ذكر السموات والأرض لأنها المشاهدة للعباد، ولأفعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية. قيل: ويحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقاً لقوله الأول، وتعميماً بعد التخصيص، ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة إليه فقال: ﴿لِلْحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي: وهب لي على كبر سني وسنّ أمراتي، قيل: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة، قيل: و «على» هنا بمعنى مع أي: وهو لي مع كبري وبأسي عن الولد ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: لمجيب الدعاء من قولهم سمع كلامه: إذا أجابه واعتد به وعمل بمقتضاه، وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول، والمعنى: إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك، ثم سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة محافظاً عليها غير مهمل لشيء منها، ثم قال: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعض ذُرِّيَّتِي أي: أجعلني وأجعل بعض ذُرِّيَّتِي مقيمين للصلاة، وإنما خص البعض من ذُرِّيَّتِي، لأنه علم أن منهم من لا يقيمها كما ينبغي. قال الزجاج: أي أجعل من ذُرِّيَّتِي من يقيم الصلاة، ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم، ويدخل في ذلك دعائه في هذا المقام دخولاً أولياً. قيل: والمراد بالدعاء هنا العبادة، فيكون المعنى: وتقبل عبادتي

أي: ذا أمن، وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده، لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخر من أمور الدين والدنيا، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في البقرة عند قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: 126] والفرق بين ما هنا وما هناك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد، والمطلوب هناك البلدية والأمن ﴿وَلَجَنِبَنِي وَيُنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، يقال: جنبته كذا وأجنبته وجنبته أي: باعدته عنه، والمعنى: باعدني، وابعاد بني عن عبادة الأصنام، قيل: أراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية، وقيل: أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه وبني بنيه، وقيل: أراد جميع ذُرِّيَّتِي ما تناسلوا، ويؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً، والصنم هو التمثال الذي كانت تصنعه أهل الجاهلية من الأحجار ونحوها فيعبدونه. وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر (وأجنبني) بقطع الهمزة على أن أصله اجنب ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل، لأنها سبب لضلالهم فكأنها أضلتهم، وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه، ثم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ أي: من تبع بي من الناس فصار مسلماً موحداً ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني جعل أهل ملته كنفسه مبالغة ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فلم يتتابعني ويدخل في ملتي ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قادر على أن تغفر له، قيل: قال هذا قبل أن يعلم أن الله لا يفر من يشرك به كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك، كذا قال ابن الأنباري، وقيل: المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك، وقيل: إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك، ثم قال: ﴿وَبِنَا إِنِّي اسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال الفراء: من للتبعيض أي: بعض ذُرِّيَّتِي. وقال ابن الأنباري: إنها زائدة أي: أسكنت ذُرِّيَّتِي، والأول أولى، لأنه إنما أسكن إسماعيل وهو بعض ولده ﴿بِؤَابٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أي: لا زرع فيه، وهو وادي مكة ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أي: الذي يحرم فيه ما يستباح في غيره، وقيل: إنه محرم على الجبابرة، وقيل: محرم من أن تنتهك حرمة، أو يستخف به، وقد تقدم في سورة المائدة ما يفني عن الإعادة، ثم قال: ﴿وَبِنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اللام متعلقة بأسكنت أي: أسكنتهم ليقوموا الصلاة فيه، متوجهين إليه، متبركين به، وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها، ولعل تكرير النداء لإظهار العناية الكاملة بهذه العبادة ﴿فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ الأفئدة جمع فؤاد، وهو القلب، عبر به عن جميع البدن، لأنه أشرف عضو فيه. وقيل: هو جمع وفد والأصل أفئدة فقدمت الفاء، وقلبت الواو ياء، فكانه قال: وجعل وفوداً من الناس تهوي إليهم، و «من» في من الناس للتبعيض، وقيل: زائدة، ولا يلزم منه أن يحج اليهود والنصارى بدخولهم تحت لفظ الناس، لأن المطلوب توجيه قلوب الناس إليهم للسكون معهم والجلب إليهم لا توجيهها إلى الحج، ولو كان هذا مراداً لقال تهوي إليه، وقيل: من لا ابتداء كقولك: القلب مني سقيم، يريد قلبي،

عليه فارس والروم. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحكم قال: سألت عكرمة وطاوساً وعطاء بن أبي رباح عن هذه الآية: ﴿فاجعل أقدسة من الناس تهوي إليهم﴾ فقالوا البيت تهوي إليه قلوبهم يأتونه، وفي لفظ قالوا: هوامهم إلى مكة أن يحجوا. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿تهوي إليهم﴾ قال: تنزع إليهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم الطائفي: أن إبراهيم لما دعا للحرم ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ نقل الله الطائف من فلسطين. وأخرج ابن أبي حاتم عن الزهري قال: إن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في شعب الإيمان قال السيوطي بسند حسن عن ابن عباس قالوا: لو كان إبراهيم عليه السلام قال فاجعل أقدسة الناس تهوي إليهم لحج اليهود والنصارى والناس كلهم، ولكنه قال أقدسة من الناس فخص به المؤمنين. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وما نخفي وما نعلن﴾ قال: من الحزن. وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي﴾ قال: من حب إسماعيل وأمه ﴿وما نعلن﴾ قال: ما ظهر لسارة من الجفاء لهما. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ قال: هذا بعد نكاحين. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: بشر إبراهيم بعد سبع عشرة سنة ومائة سنة.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَتَّبِعُونَ إِنَّمَا يُعِزُّهُمْ يُرِيهِمْ تَخَافُ فِيهِ الْآفَافُ ﴿١٤﴾ مُطِيعِينَ مُتَّبِعِينَ رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفَةٌ وَأَنذَرْتَهُمْ هَوَاهُ ﴿١٥﴾ وَأَذَرْنَا النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْكُذَّابُ يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا لَعَلَّ أَجَلَ قَرِيبٍ يَخْتَرُجُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مَن قَبْلَ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴿١٦﴾ وَكَسَبْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَنَاتِ ﴿١٧﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُم وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَئَزُولَ مِنْهُ الْجَبَالُ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿ولا تحسبن﴾ خطاب للنبي ﷺ وهو تعريض لامته، فكأنه قال: ولا تحسب أمتك يا محمد، ويجوز أن يكون خطاباً لكل من يصلح له من المكلفين، وإن كان الخطاب للنبي ﷺ من غير تعريض لامته فمعناه التثنية على ما كان عليه من عدم الحساب كقوله: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ [الأنعام: 14] ونحوه، وقيل: المراد ولا تحسبته يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم؛ أو يكون المراد بالتهي عن الحساب الإيذان بأنه عالم بذلك لا تخفى عليه منه خافية. وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم، بل سنة الله سبحانه في إمهال العصاة ﴿إنما

التي أعبدك بها، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه مما يستحق أن يغفره الله وإن لم يكن كبيراً لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر لوالديه. وقد قيل: إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوان لله سبحانه كما في قوله سبحانه: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ [التوبة: 114]. وقيل: كانت أمه مسلمة، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء. وقرأ سعيد بن جبير (ولو الولدي) بالتوحيد على إرادة الأب وحده. وقرأ إبراهيم النخعي (ولو الولدي) يعني: إسماعيل وإسحاق، وكذا قرأ يحيى بن يعمر، ثم استغفر للمؤمنين. وظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته أو لم يكن منهم، وقيل: أراد المؤمنين من ذريته فقط ﴿يوم يقوم للحساب﴾ أي: يوم يثبت حساب المكلفين في المحشر، استعير له لفظ يقوم الذي هو حقيقته في قيام الرجل للدلالة على أنه في غاية الاستقامة؛ وقيل: إن المعنى يوم يقوم الناس للحساب، والاول أولى.

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وإذا قال إبراهيم﴾ الآية قال: فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، واستجاب الله له، وجعل هذا البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماماً، وجعل من ذريته من يقيم الصلاة، وتقبل دعاءه فأراه مناسكه وتاب عليه. وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن عقيل بن أبي طالب: «أن النبي ﷺ لما أتاه الستة نفر من الأنصار جلس إليهم عند جمرة العقبة، فدعاهم إلى الله وإلى عبادته والموازرة على دينه، فسألوهم أن يعرض عليهم ما أوحى إليه، فقرأ من سورة إبراهيم: ﴿وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيتي أن نعبد الأصنام﴾ إلى آخر السورة، ففرق القوم وأختبوا حين سمعوا منه ما سمعوا وأجابوه». وأخرج الواقدي، وابن عسلكر من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال: كانت سارة تحت إبراهيم، فمكثت تحت دهرأ لا ترزق منه ولداً، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمة لها قبطية، فولدت له إسماعيل، فغارت من ذلك سارة ووجدت في نفسها وعتبت على هاجر، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أطراف، فقال لها إبراهيم: هل لك أن تبري يمينك؟ قالت: كيف أصنع؟ قال: انثقي أنثيها واخفضيها، والخفض: هو الختان، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في أنثيها قرطين فازدادت بهما حسناً، فقالت سارة: أراني إنما زنتها جمالاً فلم تقازه على كونه معها ووجد بها إبراهيم وجداً شديداً، فنقلها إلى مكة فكان يزورها في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إني أسكنت من ذريتي﴾ قال: أسكن إسماعيل وأمه مكة. وأخرج ابن المنذر عنه قال: إن إبراهيم حين قال: ﴿فاجعل أقدسة من الناس تهوي إليهم﴾ لو قال أقدسة الناس تهوي إليهم لازحمت

يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي: يؤخر جزاءهم ولا يؤاخذهم بظلمهم. وهذه الجملة تعليل للنهي السابق. وقرأ الحسن والسلمي وهو رواية عن أبي عمرو بالنون في تؤخرهم. وقرأ الباقون بالتحية. واختارها أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿ولا تحسبن الله﴾ ومعنى ﴿ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي: ترفع فيه أبصار أهل الموقف، ولا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم، هكذا قال الفراء. يقال: شخص الرجل بصره وشخص البصر نفسه إلى السماء من هول ما يرى، والمراد أن الأبصار بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة ﴿مهطعين﴾ أي: مسرعين من أطمع يهطع إطماعاً: إذا أسرع؛ وقيل: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع. ومنه:

بسجلة نارهم ولقد أرامهم بسجلة مهطعين إلى السماء
وقيل: المهطع الذي يديم النظر. قال أبو عبيدة: قد يكون الوجهان جميعاً، يعني: الإسراع مع إدامة النظر؛ وقيل: المهطع الذي لا يرفع رأسه. وقال ثعلب: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع؛ وقيل: هو الساکت. قال النحاس: والمعروف في اللغة أطمع: إذا أسرع ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ أي: رافعي رؤوسهم، وإقناع الرأس: رفعه، وأقنع صوته: إذا رفعه، والمعنى: أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم إلى السماء ينظرون إليها نظر فزع وذل ولا ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: إن إقناع الرأس نكسه؛ وقيل: يقال أقنع: إذا رفع رأسه، وأقنع: إذا طأطأ ذلة وخضوعاً، والآية محتملة للوجهين. قال المبرد: والقول الأوّل أعرف في اللغة. قال الشاعر:

انغض نحوي رأسه وأقنعا كأنما أبصر شيئاً أطمعا
﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم، وأصل الطرف: تحريك الأجزاء، وسميت العين طرفاً لأنه يكون بها، ومن إطلاق الطرف على العين قول عنتره:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتني حتى توارى جارتني ما واما
﴿واقفئتهم هواء﴾ الهواء في اللغة: المجرف الخالي الذي لم تشغله الأجرام. والمعنى: أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش، وجعلها نفس الهوى مبالغة، ومنه قيل للأحمق والجبان: قلبه هواء أي: لا رأي فيه ولا قوة؛ وقيل: معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر؛ وقيل: للمعنى إن اقتدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير؛ وقيل: المعنى واقفئتهم ذات هواء. ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ [القصص: 10]، أي: خالياً من كل شيء إلا من هم موسى ﴿وانذر الناس﴾ هذا رجوع إلى خطاب رسول الله ﷺ، وأمره الله سبحانه بأن ينذر الناس، والمراد الناس على العموم؛ وقيل: المراد كفار مكة؛ وقيل: الكفار على العموم. والأوّل أولى لأن الإنذار كما يكون للكافر يكون أيضاً للمسلم. ومنه قوله تعالى: ﴿إنما تنذر من اتبع الذکر﴾ [يس: 11]. ومعنى ﴿يوم يأتئهم العذاب﴾ يوم القيامة أي: خوفهم هذا اليوم، وهو يوم إتيان

العذاب، وإنما اقتصر على نكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان الثواب، لأن المقام مقام تهديد؛ وقيل: المراد به يوم موتهم، فإنه أوّل أوقات إتيان العذاب؛ وقيل المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، وانتصاب يوم على أنه مفعول ثانٍ لانذر ﴿فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ المراد بالذين ظلموا ها هنا هم الناس أي: فيقولون، والعنول إلى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم، هذا إذا كان المراد بالناس هم الكفار. وعلى تقدير كون المراد بهم من يعمّ المسلمين، فالمعنى: فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار ربنا أخرنا أمهلنا إلى أجل قريب إلى أمد من الزمان معلوم غير بعيد ﴿نحب دعوتك﴾ أي: دعوتك لعبالك على ألسن أنبيائك إلى توحيدك ﴿ونتبّع لرسلك﴾ المرسلين منك إلينا فنعمل بما بلغوه إلينا من شرائعك، ونتدارك ما فرط منا من الإهمال، وإنما جمع الرسل، لأن دعوتهم إلى التوحيد متفقة، فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم، وهذا منهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة ﴿ولو ربنا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: 28] ثم حكى سبحانه ما يجب به عنهم عند أن يقولوا هذه المقالة، فقال: ﴿اولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ أي: فيقال لهم هذا القول توبيخاً وتقريعاً أي: أولم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم مالكم من زوال من دار الدنيا؛ وقيل: إنه لا قسم منهم حقيقة، وإنما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم في الشهوات وإخلاصهم إلى الحياة الدنيا؛ وقيل: قسمهم هذا هو ما حكاها الله عنهم في قوله: ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ [النحل: 38]، وجواب القسم ﴿مالكم من زوال﴾ وإنما جاء بلفظ الخطاب في مالكم من زوال لمراعاة أقسمتم ولولا ذلك لقال: مالنا من زوال ﴿ووسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ أي: استقرتكم. يقال: سكن الدار وسكن فيها، وهي بلاد ثمود ونحوهم من الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله والعصيان له ﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ قرأ عبد الرحمن السلمي (نبيين) بالنون والفعل المضارع. وقرأ من عداه بالتاء الفوقية والفعل الماضي أي: تبين لكم بمشاهدة الآثار كيف فعلنا بهم من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوه من الذنوب، وفاعل تبين ما نلت عليه الجملة المذكورة بعده أي: تبين لكم فعلنا العجيب بهم ﴿ووضربنا لكم الأمثال﴾ في كتب الله وعلى ألسن رسله أيضاً لكم وتقديراً وتكميلاً للحجة عليكم ﴿وقد مكروا مكروهم﴾ الجملة في محل نصب على الحال أي: فعلنا بهم ما فعلنا، والحال أنهم قد مكروا في رد الحق وإثبات الباطل مكروهم العظيم، الذي استفرغوا فيه وسعهم ﴿وعند الله مكروهم﴾ أي: وعند الله جزاء مكروهم، أو وعند الله مكتوب مكروهم فهو مجازيهم، أو وعند الله مكروهم الذي يمكروهم به على أن يكون المكر مضافاً إلى المفعول؛ قيل: والمراد بهم قوم محمد ﷺ مكروا بالنبي ﷺ حين هموا بقتله أو نفيه، وقيل: المراد ما

نصب على الحال **﴿وتغشى وجوههم النار﴾** أي: تعلق وجوههم وتضربها؛ وخص الوجه لأنها أشرف ما في البن، وفيها الحواس الممركة، والجملة في محل نصب على الحال أيضاً، و **﴿ليجزى الله﴾** متعلق بمحنوف أي: يفعل ذلك بهم ليجزي **﴿كل نفس ما كسبت﴾** من المعاصي أي: جزاء موافقاً لما كسبت من خير أو شر **﴿إن الله سريع الحساب﴾** لا يشغله عنه شيء. وقد تقدم تفسيره **﴿هذا بلاغ﴾** أي: هذا الذي أنزل إليك بلاغ أي: تبليغ وكفاية في الموعظة والتذكير. قيل إن الإشارة إلى ما ذكره سبحانه هنا من قوله: **﴿ولا تحسبن الله غافلاً﴾** إلى **﴿سريع الحساب﴾** [إبراهيم: 42 - 51] أي: هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة، وقيل: الإشارة إلى جميع السورة، وقيل: إلى القرآن، ومعنى **﴿للناس﴾** للكفار، أو لجميع الناس على ما قيل في قوله: **﴿وانذر الناس﴾** [إبراهيم: 44]، **﴿ولينذروا به﴾** معطوف على محنوف أي: لينصحووا و لينذروا به، والمعنى: وليخوفوا به، وقرئ (ولينذروا) بفتح الباء التحتية والذال المعجمة، يقال: نذرت بالشيء أنذر: إذا علمت به فاستعدت له **﴿وليعلموا إنما هو إليه واحد﴾** أي: ليعلموا بالآلة التكوينية المذكورة سابقاً وحدانية الله سبحانه، وأنه لا شريك له **﴿وليذكرن أولوا الألباب﴾** أي: وليتعض أصحاب العقول، وهذه الالامات متعلقة بمحذوف، والتقدير: وكذلك أنزلنا، أو متعلقة بالبلاغ المذكور أي: كفاية لهم في أن ينصحووا وينذروا ويعلموا بما أقام الله من الحجج والبراهين وحدانيته سبحانه وأنه لا شريك له، وليتعض بذلك أصحاب العقول التي تعقل وتترك.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿إن الله عزيز ذو انتقام﴾** قال: عزيز والله في أمره، يملئ وكيدته متين، ثم إذا انتقم انتقم بقدرة. وأخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان قال: «جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: في الظلمة دون الجسر». وأخرج مسلم أيضاً وغيره من حديث عائشة، قالت: «أنا أول من سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قلت: أين الناس يومئذ؟ قال: على الصراط». وأخرج البزار، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، وابن عساكر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: في قول الله **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قال: «أرض بيضاء، كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام، ولم يعمل بها خطيئة». وأخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عنه موقوفاً نحوه، قال البيهقي: الموقوف أصح. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال: «أتى اليهود النبي ﷺ فقال: جاءوني يسألونني وسأخبرهم قبل أن يسألوني **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قال:

لاغلبن أنا ورسلي» [المجادلة: 21]. وقرئ (مخلف وعده رسله) بجزر رسله ونصب وعده. قال الزمخشري: وهذه القراءة في الضعف كمن قرأ: قتل أولادهم شركائهم **﴿إن الله عزيز﴾** غالب لا يغالبه أحد **﴿نو انتقام﴾** ينتقم من أعدائه لأولائيه والجملة تعليل للنهي، وقد مر تفسيره في أول آل عمران **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قال الزجاج: انتصاب يوم على البدل من يوم يأتيهم، أو على الظرف للانتقام. انتهى. ويجوز أن ينتصب بمقدر يدل عليه الكلام أي: وانكر أو ارتقب، والتبديل قد يكون في الذات كما في بدلت الدراهم ندانير، وقد يكون في الصفات كما في بدلت الحلقة خاتماً، والآية تحتمل الأمرين، وقد قيل: المراد تغير صفاتها، وبه قال الأكثر، وقيل تغير ذاتها، ومعنى **﴿والسموات﴾** أي: وتبدل السموات غير السموات على الاختلاف الذي مر **﴿وبرزوا لله الواحد القهار﴾** أي: برز العباد لله أو الظالمون كما يفيد السياق أي: ظهروا من قبورهم، أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتُمونه، والتعبير على المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه كما في قوله: **﴿ونفخ في الصور﴾** [الكهف: 99 - يس: 51] والواحد القهار المتفرد بالالوهية الكثير القهر لمن عانده **﴿وقرى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد﴾** معطوف على برزوا أو على تبدل، والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة، والمجرمون هم المشركون، ويومئذ يعني: يوم القيامة، و **﴿مقرنين﴾** أي: مشودين إما يجعل بعضهم مقروناً مع بعض، أو قرنوا مع الشياطين كما في قوله: **﴿نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾** [الزخرف: 36] أو جعلت أيديهم مقرونة إلى أرجلهم، والأصفاد: الأغلال، والقيود، والجار والمجرور متعلق بمقرنين أو حال من ضميره، يقال: صفنته صفداً أي: قيدته، والاسم الصفد، فإذا أريت الكثير قلت صفنته. قال عمرو بن كلثوم:

فأبوا بالنهب وبالسبيا وابنا بالملوك مصفدينا
وقال حسان بن ثابت:

من بين مأسور يشد صفاده صقر إذا لاقى الكريهة حامى
ويقال: صفنته وأصفنته إذا أعطيته، ومنه قول النابغة:

ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد

﴿سراييلهم من قطران﴾ السراييل: القمص، واحدها سربال، ومنه قول كعب بن مالك:

تلغاكم عصب حول النبي لهم من نسج داود في الهيجا سراييل
والقطران: هو قطران الإبل الذي تهنا به أي: قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك اللطاء كالسراييل؛ وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته. وقال جماعة هو النحاس أي: قمصانهم من نحاس. وقرأ عيسى بن عمر (من قطران) بفتح القاف وتسكين الطاء. وقرئ بكسر القاف وسكون الطاء، وقرئ بفتح القاف والطاء، رويت هذه القراءة عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ويعقوب، وهذه الجملة في محل

يُشِيعَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَتَوَقَّعْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا فَتَوَلَّوْا فَلَوْلَا فِيهِ بُرْهَانٌ لَكُمْ لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرَاتُ مَا أَصْبَرْنَا بِهَا عَنْ قَوْمٍ مَسْجُورِينَ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿الر﴾ قد تقدّم الكلام في محله مستوفي، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات والتعريف في الكتاب. قيل: هو للجنس، والمراد جنس الكتب المتقدمة؛ وقيل: المراد به القرآن، ولا يقدح في هذا ذكر القرآن بعد الكتاب، فقد قيل: إنه جمع له بين الإسمين؛ وقيل: المراد بالكتاب هذه السورة، وتنكير القرآن للتفخيم أي: القرآن الكامل ﴿ربما يؤذ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ قرأ نافع وعاصم بتخفيف الباء من ربما، وقرأ الباقر بن تشديد، وهما لغتان. قال أبو حاتم: أهل الحجاز يخفون، ومنه قول الشاعر:

ربما ضربة سيف صقيل بين بصرى وطعنة نجلاء
وتميم وربيعا يثقلونها. وقد تراء التاء الفوقية، وأصلها أن تستعمل في القليل، وقد تستعمل في الكثير. قال الكوفيون: أي يؤذ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين. ومنه قول الشاعر:

رب رقد هرقته ذلك البوم وأسرى من معشر أقيال
وقيل: هي هنا للتقليل لأنهم ودوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعباد. قيل: وما هنا لحقت رب لتبنيها للدخول على الفعل؛ وقيل: هي نكرة بمعنى شيء، وإنما دخلت رب هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلا على الماضي، لأن المترقب في أخباره سبحانه كالأوقع المتحقق، فكانه قيل: ربما ود الذين كفروا لو كانوا مسلمين أي: متقايين لحكمه مذعنين له من جملة أهله. وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة. والمراد أنه لما انكشف لهم الأمر واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر وأن الدين عند الله سبحانه هو الإسلام لا دين غيره حصلت منهم هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بل هي لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرطت في جنب الله؛ وقيل: كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين؛ وقيل: عند خروج عصاة الموحدين من النار، والظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم ﴿ذرهم ياكلوا ويتمتعوا﴾ هذا تهديد لهم أي: دعهم عما أنت بصده من الأمر لهم والنهي، فهم لا يراعون أبداً ولا يخرجون من باطل ولا يدخلون في حق، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالاكل والتمتع بزهرة الدنيا، فإنهم كالأنعام التي لا تهتم إلا بذلك ولا تشتغل بغيره، والمعنى: اتركهم على ما هم عليه من الاشتغال بالاكل ونحوه من متاع الدنيا ومن إلهاء الأمل لهم عن اتباعك فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم. وفي هذا من التهديد والزجر

أرض بيضاء كالفضة، فسألهم فقالوا: أرض بيضاء كالنقي. وأخرج ابن مردويه مرفوعاً عن علي بن أبي طالب عن ابن مسعود. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن أنس موقوفاً نحوه، وقد روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة، وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي». وفيهما أيضاً من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفوها الجبار بيده». الحديث. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مقرنين في الأصفاد﴾ قال: الكبول. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن قتادة ﴿في الأصفاد﴾ قال: القيود والأغلال. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: في السلاسل. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿في الأصفاد﴾ يقول: في وثاق. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿سربيلهم﴾ قال: قمصهم. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿من قطران﴾ قال: قطران الإبل. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال: هذا القطران يطلى به حتى يشتعل ناراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هو النحاس المذاب. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة أنه قرأ ﴿من قطران﴾ فقال: القطر الصفر. والآن: الحار. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة نحوه. وأخرج مسلم وغيره عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿هَذَا بَلَاحٌ لِلنَّاسِ﴾ قال: القرآن ﴿ولينذروا به﴾ قال القرآن.

تفسير سورة الحجر

وهي مكية بالاتفاق كما قال القرطبي. وأخرج النحاس في ناسخه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحجر بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّيَّةَ مَائِدَ الْكِتَابِ وَفَرَّانِ مَيْنِ ﴿١﴾ رَبُّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَفْلَحْنَا مِنْ قَرِينَةٍ إِلَّا وَلَمَّا كَانَتْ مَلُومًا ﴿٤﴾ مَا تَشِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِنُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَأْتِيُنَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نَزَّلَ الْمَلَكُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَكَاظِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي

بالحق ﴿قرئ﴾ (ما نزل) بالنون مبنياً للفاعل، وهو الله سبحانه فهو على هذا من التنزيل، والمعنى على هذه القراءة: قال الله سبحانه مجيباً على الكفار لما طلبوا إتيان الملائكة إليهم ما نزل نحن ﴿الملائكة إلا بالحق﴾ أي: تنزيلاً متلبساً بالحق الذي يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الإلهية والمشيفة الربانية وليس هذا الذي اقترحتوه مما يحق عنده تنزيل الملائكة، وقرئ (نزل) مخففاً من الإنزال أي: ما نزل نحن الملائكة إلا بالحق، وقرئ (ما نزل) بالمعناة من فرق مضارعاً مثقلاً مبنياً للفاعل من التنزيل بحنف إحدى التاءين أي: تنزل، وقرئ أيضاً بالفوقية مضارعاً مبنياً للمفعول، وقيل: معنى إلا بالحق إلا بالقرآن، وقيل: بالرسالة، وقيل: بالعذاب ﴿وما كانوا إذا منظرين﴾ في الكلام حنف، والتقدير: ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة وما كانوا إذا منظرين، فالجملة المذكورة جزء للجملة الشرطية المحذوفة، ثم أنكر على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ فقال سبحانه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ أي: نحن نزلنا ذلك الذكر الذي أنكروه ونسبوك بسببه إلى الجنون ﴿وإنا له لحافظون﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقص ونحو ذلك. وفيه وعيد شديد للمكذبين به المستهزئين برسول الله ﷺ، وقيل: الضمير في له لرسول الله ﷺ، والأول أولى بالمقام. ثم نكر سبحانه أنه عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسلياً لرسول الله ﷺ، فقال ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾ أي: رسلاً، وحذف لدلالة الإرسال عليه أي: رسلاً كائنه من قبلك ﴿في شيع الأولين﴾ في أممهم وأتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم. قال الفراء: الشيع الأمة التابعة بعضهم بعضاً فيما يجتمعون عليه، وأصله من شاعه إذا تبعه، وإضافته إلى الأولين من إضافة الصفة إلى الموصوف عند بعض النحاة، أو من حذف الموصوف عند آخرين منهم ﴿وما ياتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ أي: ما يأتي رسول من الرسل شيعته إلا كانوا به يستهزئون كما يفعل هؤلاء الكفار مع محمد ﷺ، وجملة ﴿إلا كانوا به يستهزئون﴾ في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها صفة رسول، أو في محل جر على أنها صفة له على اللفظ لا على المحل ﴿كذلك نسله في قلوب المجرمين﴾ أي: مثل ذلك الذي سلكتها في قلوب أولئك المستهزئين برسولهم ﴿نسله﴾ أي: الذكر ﴿في قلوب المجرمين﴾، فالإشارة إلى ما دل عليه الكلام السابق من إلقاء الرحي مقروناً بالاستهزاء، والسلك إنخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط، قاله الزجاج قال: والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزؤوا نسلك الضلال في قلوب المجرمين، وجملة ﴿لا يؤمنون به﴾ في محل نصب على الحال من ضمير نسله أي: لا يؤمنون بالذكر الذي أنزلناه، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها فلا محل لها، وقيل إن الضمير في نسله للاستهزاء، وفي:

ما لا يقدر قدره، يقال: الهاء كذا أي: شغله، ولهي هو عن الشيء يلهي أي: شغلهم الأمل عن اتباع الحق، وما زالوا في الأعمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذي عينين وانكشف الأمر وראوا العذاب يوم القيامة، فعند ذلك ينوقون وبال ما صنعوا. والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر، وهذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾ أي: وما أهلكنا قرية من القرى بنوع من أنواع العذاب ﴿إلا ولها﴾ أي: لتلك القرية ﴿كتاب﴾ أي أجل مقرر لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه ﴿معلوم﴾ غير مجهول ولا منسي فلا يتصور التخلف عنه بوجه من الوجوه، وجملة ﴿لها كتاب﴾ في محل نصب على الحال من قرية وإن كانت نكرة لأنها قد صارت بما فيها من العموم في حكم الموصوفة، والواو للفرق بين كون هذه الجملة حالاً، أو صفة فإنها تعينها للحالية كقولك حالي رجل على كتفه سيف، وقيل: إن الجملة صفة لقرية. والواو لتأكيد اللصوق بين الصفة والموصوف ﴿وما تسبق من أمة أجلها﴾ أي: ما تسبق أمة من الأمم أجلها المضروب لها المكتوب في اللوح المحفوظ؛ والمعنى: أنه لا يأتي ملاكها قبل مجيء أجلها ﴿وما يستأخرون﴾ أي: وما يتأخرون عنه. فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الأجل المضروب له، وإيراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل، ولذلك حذف الجار والمجرور، والجملة مبنية لما قبلها، فكانه قيل: إن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتر به العقلاء، فإن لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر. وقد تقدم تفسير الأجل في أول سورة الأنعام. ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع في بيان بعض عتوهم في الكفر، وتماديهم في الغي مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب، فقال ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ أي قال: كفار مكة مخاطبين لرسول الله ﷺ ومتهمين به حيث أثبتوا له إنزال الذكر عليه مع إنكارهم لذلك في الواقع أشد إنكار ونفيهم له أبلغ نفي، أو أرادوا: بيا أيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه، وعلى وفق ما يدعيه ﴿إنك لمجنون﴾ أي: إنك بسبب هذه الدعوى التي تدعيها من كونك رسولاً لله مأموراً بتبليغ أحكامه لمجنون، فإنه لا يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً، فقولهم هذا لمحمد ﷺ هو كقول فرعون ﴿إن رسولك الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ [الشعراء: 27] ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾ لو ما حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمني ومن ما المزيدة، فافاد المجموع الحث على الفعل الداخلة هي عليه؛ والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صلتك ﴿إن كنت من الصانقين﴾. قال الفراء: الميم في لو ما بدل من اللام في لولا. وقال الكسائي: لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام. قال النحاس: لوما ولولا وهلا واحد؛ وقيل: المعنى لو ما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك ﴿وما نفل للملائكة إلا﴾

من النار. وأخرج سعيد بن منصور، وهناد بن السري في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس قال: ما يزال الله يشفع ويبذل ويشفع ويرحم حتى يقول: من كان مسلماً فليدخل الجنة، فذلك قوله: **﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن عباس وأنس أنهما تذاكرا هذه الآية **﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾** فقالا: هذا حيث يجمع الله من أهل الخطايا من المسلمين والمشركون في النار، فيقول المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون، فيغضب الله لهم فيخرجهم بفضلهم ورحمته. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه بسند، قال السيوطي صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أمتي يعذبون بنزوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم، فلا يبقى موحد إلا أخرجته الله من النار، ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم في السنة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً نحوه. وأخرج إسحاق بن راهويه، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج هناد بن السري، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً. وفي الباب أحاديث في تعيين هذا السبب في نزول هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: **﴿ذُرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾** الآية قال: هؤلاء الكفرة. وأخرج أيضاً عن أبي مالك في قوله: **﴿ذُرْهُمْ﴾** قال: خل عنهم. وأخرج ابن جرير عن الزهري في قوله: **﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾** قال: نرى أنه إذا حضر أجله، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدم، وأما ما لم يحضر أجله فإن الله يؤخر ما شاء ويقدم ما شاء. قلت: وكلام الزهري هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه. وأخرج ابن جرير عن الضحاح في قوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ لِلذِّكْرِ﴾** قال: القرآن. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿مَا نُنْزِلُ لِلْمَلَائِكَةِ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾** قال: بالرسالة والعذاب. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: **﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾** قال: وما كانوا لو نزلت الملائكة بمنظرين من أن يعذبوا. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وَأَنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾** قال: عننا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾** قال: أمم الأولين. وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس في قوله: **﴿كُنْكَ نَسْلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾** قال: الشرك نسله في قلوب المشركين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،

لا يؤمنون به للذكر، وهو بعيد، والأولى أن الضميرين للذكر **﴿وَقَدْ خَلَّتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ﴾** أي مضت طريقتهما التي سنّها الله في إهلاكهم، حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء. وقال الزجاج: وقد مضت سنة الله في الأولين بأن سلك الكفر والضلال في قلوبهم. ثم حكى الله سبحانه إصرارهم على الكفر وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء، فقال: **﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ﴾** أي: على هؤلاء المعاندين لمحمد ﷺ المكذبين له المستهزئين به **﴿بَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾** أي: من أبوابها المعهودة ومكانهم من الصعود إليه **﴿فَفُتِلُوا فِيهِ﴾** أي: في ذلك الباب **﴿يُعْرَجُونَ﴾** يصعدون بكأة أو بغير آلة حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجدها جاحد ولا يعاند عند مشاهدتها معاند؛ وقيل: الضمير في فتلوا للملائكة أي: فذل الملائكة يعرجون في ذلك الباب، والكفار يشاهدونهم وينظرون صعودهم من ذلك الباب **﴿فَلَقَالُوا﴾** أي: الكفار لفرط عنادهم وزيادة عتوهم **﴿إِنَّمَا سَكِرْتُمْ أَبْصَارُنَا﴾** قرأ ابن كثير (سكرت) بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، وهو من سكر الشراب، أو من السكر، وهو سدها عن الإحساس، يقال: سكر النهر إذا سده وجبسه عن الجري. ورجح الثاني بقراءة التخفيف، وقال أبو عمرو بن العلاء: سكرت غشيت وغطيت، ومنه قول الشاعر:

وطلعت شمس عليها مغفر وجعلت عين الجوز تسكر
وبه قال أبو عبيد، وأبو عبيدة، وروي عن أبي عمرو أيضاً أنه من سكر الشراب أي: غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله، وقيل: معنى سكرت حبست كما تقدم، ومنه قول أوس بن حجر:

فصرت على ليلة ساهره فليست بطلق ولا ساكره
قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة **﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾** أضربوا عن قولهم سكرت أبصارنا، ثم ادعوا أنهم مسحورون أي: سحرهم محمد ﷺ، وفي هذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائناتاً ما كان، فإنهم إذا راوا آية توجب عليم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقي لعارض السكر، أو أن عقولهم قد سحرت فصار إدراكهم غير صحيح، ومن بلغ في التعتن إلى هذا الحد فلا تنفع فيه موعظة، ولا يهتدي بآية.

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: **﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾** قال: التوراة والإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في **﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾** قال: الكتب التي كانت قبل القرآن **﴿وَقُرْآنَ مِيقِينَ﴾** قال: مبين والله هداه ورشده وخيره. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: **﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾** قال: ودّ المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في الآية قال: هذا في الجهنميين إذا راوهم يخرجون

وزيناها راجع إلى السماء أي: وزينا السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج للناظرين إليها، أو للمتفكرين المعبرين المستقلين إذا كان من النظر، وهو الاستدلال ﴿وحفظناها﴾ أي: السماء ﴿من كل شيطان رجيم﴾ قال أبو عبيدة: الرجيم المرجوم بالنجوم، كما في قوله: ﴿رجوماً للشياطين﴾ [الملك: 5] والرجم في اللغة هو الرمي بالحجارة، ثم قيل: للعن والطرد والإبعاد رجم، لأن الرامي بالحجارة يوجب هذه المعاني ﴿إلا من استرق السمع﴾ استثناء متصل أي: إلا ممن استرق السمع، ويجوز أن يكون منقطعاً أي: ولكن من استرق السمع ﴿فاتبعه شهاب مبين﴾ والمعنى: حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلا من استرق السمع فإنها تتبعه الشهب فتقتله أو تخبله، ومعنى فاتبعه: تبعه ولحقه أو أدركه. والشهاب: الكوكب أو النار المشتعلة الساطعة كما في قوله: ﴿يشهاب قيس﴾ [النمل: 7] قال ذو الرمة:

كانه كوكب في إثر عفریت

وسمي للكوكب شهاباً لبريقه شبه النار، والمبين: الظاهر للمبصرين يروونه لا يلتبس عليهم. قال القرطبي: واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا؟ فقال ابن عباس: الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل، وقال الحسن وطائفة: يقتل. فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان: أحدهما أنهم يقتلون قبل إلقاء السمع ما استرقوه من السمع إلى غيرهم فلا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة. والثاني أنهم يقتلون بعد إلقاء السمع ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن، قال نكره الماوردي، ثم قال: والقول الأول أصح. قال: واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث؟ فقال الأكثرون: نعم، وقيل: لا وإنما ذلك بعد المبعث. قال الزجاج: والرمي بالشهب من آيات النبي ﷺ مما حدث بعد مولده لأن الشعراء في القديم لم ينكروه في أشعارهم. قال كثير من أهل العلم: نحن نرى انقضاء الكواكب، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى. ثم يصير ناراً إذا أدرك الشيطان، ويجوز أن يقال: يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل إلى بناء أنه نجم يسري ﴿والأرض مدبهاها﴾ أي: بسطانها وفرشناها كما في قوله: ﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾ [النازعات: 30]. وفي قوله: ﴿والأرض فرشناها ففعم الماهدون﴾ [الذاريات: 48] وفيه رد على من زعم أنها كالكرة ﴿واللقينا فيها روسي﴾ أي: جبال ثابتة لثلاث تحرك بأهلها، وقد تقدم بيان ذلك في سورة الرعد. ﴿وانبئتنا فيها من كل شيء موزون﴾ أي: أنبئتنا في الأرض من كل شيء مقتر معلوم، فعبر عن ذلك بالوزن لأنه مقدار تعرف به الأشياء ومنه قول الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذامرةً عندي لكل مخاصم ميزانه
وقيل: معنى موزون مقسوم؛ وقيل: معبود، والمقصود من الإثبات الإنشاء والإيجاد؛ وقيل: الضمير راجع إلى الجبال أي: أنبئتنا في الجبال من كل شيء موزون من الذهب

وابن أبي حاتم عن قتادة مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن مثله أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ قال: وقائع الله فيمن خلا من الأمم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿فظلوا فيه يعرجون﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: فظلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم لقالوا: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ قال: قريش تقول. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في الآية عن ابن عباس أيضاً يقول: ولو فتحنا عليهم باباً من أبواب السماء فظلت الملائكة تعرج فيه يختفون فيه ذاهبين وجائين لقال أهل الشرك: إنما أخذ أبصارنا وشبه علينا، وإنما سحرنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد سكرت أبصارنا قال: سئمت، وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه قال: ومن قرأ (سكرت) مخففة، فإنه يعني: سحرت.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاجِثِينَ ﴿١٧﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَاطِئٍ رَجِيمٍ ﴿١٨﴾ إِلَّا مِنْ أَمْرِ أُنْتَبِهُمُ فِيهَا نَجْمٌ ﴿١٩﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ أَسْتَمِعْ لَكُمْ بَرْزُقِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنْ يَنْ مَعَهُ إِلَّا عِندَ خَزَائِنِهِ وَمَا نُثَرِّلُهُ إِلَّا بِغَدْرِ مَقْلُوبٍ ﴿٢٢﴾ وَأَوْسَلْنَا الْوَيْحَ لِرُوحِ قَارُونَ مِنْ السَّمَاءِ مَا هَاسَتْ كَيْفَ كُفُّوا وَمَا أَسْمِعْ لَكُمْ يُخْرِجِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا لَنَعْنُ فِيهِ وَبَيِّتٌ وَمَعْنُ الْوَرْثُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا لِسْتَفْقِينَ مِنْكُمْ لَقَدْ عَلِمْنَا لِسْتَفْقِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ رَيْكَ هُوَ يُحَرِّمُهُمْ إِنَّمَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾

لما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم، ذكر قدرته الباهرة وخلقه البديع ليستدل بذلك على وحدانيته، فقال: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ الجعل إن كان بمعنى الخلق، ففي السماء متعلق به، وإن كان بمعنى التصيير ففي السماء خبره، والبروج في اللغة: القصور والمنازل، والمراد بها هنا منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة، وهي الاثنا عشر المشهورة كما تدل على ذلك التجربة، والعرب تعد المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها من أجل العلوم، ويستعملون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجذب، وقالوا: الفلك اثنا عشر برجاً، وأسماء هذه البروج: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت. كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة المشتغلين بهذا العلم، ويسمون الحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. وأصل البروج الظهور، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها. وقال الحسن وقاتدة: البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها؛ وقيل: السبعة السيارة منها قاله أبو صالح؛ وقيل: هي قصور وبيوت في السماء فيها حرس، والضمير في

والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك؛ وقيل: موزون بميزان الحكمة، ومقدر بقدر الحاجة، وقيل: الموزون هو المحكوم بحسنه كما يقال كلام موزون، أي: حسن **﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾** تعيشون بها من المطاعم والمشارب جمع معيشة، وقيل: هي الملابس؛ وقيل: هي التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة. قال الماوردي: وهو الظاهر. قلت: بل القول الأول أظهر، ومنه قول جرير:

تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرق والضباب
﴿ومن لستم له برازقين﴾ معطوف على معايش أي: وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين، وهم الممالك والخدم والأولاد الذين رازقهم في الحقيقة هو الله، وإن ظن بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب، ويجوز أن يكون معطوفاً على محل لكم أي: جعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش، وهم من تقدم ذكره، ويدخل في ذلك الدواب على اختلاف أجناسها، ولا يجوز العطف على الضمير المجزور في لكم لأنه لا يجوز عند الأكثر إلا بإعادة الجاز؛ وقيل: أراد الوحش **﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾** إن هي النافية ومن مزيدة للتأكيد، وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة من، ومع لفظ شيء المتناول لكل الموجودات الصائق على كل فرد منها، فافاد ذلك أن جميع الأشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شيء، والخزائن جمع خزنة؛ وهي المكان الذي يحفظ فيه نفاس الأمور، ونكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور؛ والمعنى: أن كل الممكنات مقدورة ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود بمقدار كيف شاء. وقال جمهور المفسرين: إن المراد بما في هذه الآية هو المطر، لأنه سبب الرزاق والمعايش؛ وقيل: الخزائن المفاتيح أي: ما من شيء إلا عندنا في السماء مفاتيحه، والأولى ما نكرناه من العموم لكل موجود، بل قد يصدق الشيء على المعلوم على الخلاف المعروف في ذلك **﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾** أي ما ننزله من السماء إلى الأرض أو نوجده للعباد إلا بقدر معلوم، والقدر المقدار؛ والمعنى: أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئاً من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبساً ذلك الإيجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد إليه كما قال سبحانه: **﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾** [الشورى: 27]. وقد فسر الإنزال بالإعطاء، وفسر بالإنشاء، وفسر بالإيجاد، والمعنى متقارب، وجملة وما ننزله معطوفة على مقدر أي: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ننزله وما ننزله، أو في محل نصب على الحال **﴿ووارسلنا للرياح لواقح﴾** معطوف على **﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾** وما بينهما اعتراض. قرأ حمزة (الريح) بالتوحيد، وقرأ من عده (الرياح) بالجمع، وعلى قراءة حمزة فتكون اللام في الريح للجنس. قال الأزهري: وجعل الرياح لواقح لأنها تحمل السحاب؛ أي تقلعه وتصرفه، ثم تمر به فتنزله. قال الله

سبحانه: **﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾** [الأعراف: 57] أي: حملت. وناقلة لاقح: إذا حملت الجنين في بطنها، وبه قال الفراء وابن قتيبة؛ وقيل: لواقح بمعنى ملقحة. قال ابن الأنباري: تقول العرب: أبقل النبت فهو باقل أي: مبقل؛ والمعنى: أنها تلقح الشجر أي: بقوتها؛ وقيل: معنى لواقح نوات لقح. قال الزجاج: معناه وذات لقحة، لأنها تعصر السحاب وتدره كما تدر اللقحة؛ يقال: رامح أي: ذو رمح، ولابن أي: ذو لبن، وتامر أي: ذو تمر. قال أبو عبيدة: لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنها جمع ملقحة. وفي هذه الآية تشبيه الرياح التي تحمل الماء بالحامل، ولقاح الشجر بلفاح الحمل **﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾** أي: من الحساب وكل ما علاك فاضلك فهو سماء؛ وقيل: من جهة السماء، والمراد بالماء هنا ماء المطر **﴿فأسقيناكموه﴾** أي: جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم. قال أبو علي: يقال سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروي؛ وأسقيته نهراً أي: جعلته شرباً له، وعلى هذا فأسقيناكموه أبلغ من سقيناكموه؛ وقيل: سقى وأسقى بمعنى واحد **﴿وما أنتم له بخازنين﴾** أي ليست خزائنه عنكم، بل خزائنه عندنا، ونحن الخازنون له، فنفي عنهم سبحانه ما أثبت لنفسه في قوله: **﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾** وقيل المعنى: إن ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم؛ أي لا تقدرون على حفظه في الآبار والغدران والعيون، بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة إليه **﴿وإننا لنحن نحيي ونميت﴾** أي نوجد الحياة في المخلوقات ونسليها عنها متى شئنا، والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته عز وجل، وأنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه وتقتضيه مشيئته، ولهذا قال: **﴿ونحن لوارثون﴾** أي للأرض ومن عليها، لأنه سبحانه الباقي بعد فناء خلقه، الحي الذي لا يموت، الدائم الذي لا ينقطع وجوده **﴿والله ميراث السموات والأرض﴾** [آل عمران: 180] **﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾** هذه اللام هي الموطئة للقسم، وهكذا اللام في **﴿ولقد علمنا المستأخرين﴾**، والمراد من تقدم ولادة وموتاً، ومن تأخر فيها؛ وقيل من تقدم طاعة ومن تأخر فيها؛ وقيل من تقدم في صف القتال ومن تأخر؛ وقيل المراد بالمستقدمين الأموات، وبالمستأخرين الأحياء؛ وقيل المستقدمين هم الأمم المتقدمون على أمة محمد، والمستأخرون هم أمة محمد؛ وقيل المستقدمون من قتل في الجهاد، والمستأخرون من لم يقتل **﴿وإن ربك هو يحشرهم﴾** أي هو المتولى لذلك القادر عليه دون غيره كما يفيد ضمير الفصل من الحصر. وفيه أنه سبحانه يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لأنه الأمر المقصود من الحشر **﴿إنه حكيم﴾** يجري الأمور على ما تقتضيه حكمته البالغة **﴿عليم﴾** أحاط علمه بجميع الأشياء لا يخفى عليه شيء منها، ومن كان كذلك فله القدرة البالغة على كل شيء مما وسعه علمه،

وجرى فيه حكمه سبحانه لا إله إلا هو.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ قال: كواكب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح قال: الكواكب العظام. وأخرج أيضاً عن عطية قال: قصوراً في السماء فيها الحرس. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال الرحيم: الملعون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مِنْ لِسْتَرْقٍ لِّلْسَمْعِ﴾ أراد أن يخطف السمع كقوله: ﴿إِلَّا مِنْ خُطْفِ الْخُطْفَةِ﴾ [الصفات: 10]. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: كان ابن عباس يقول: إن الشهب لا تقتل، ولكن تحرق وتخبّل وتجرّح من غير أن تقتل. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه في قوله: ﴿وَأَنْتَبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ قال: معلوم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ قال: بقدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال الأشياء التي توزن. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: ما أنبت الجبال مثل الكحل وشبهه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَنْ لِّسْتَمْ لَهُ بَرَاذِقِينَ﴾ قال: اللوالب والأنعام. وأخرج هؤلاء عن منصور قال: الوحش. وأخرج البزار، وابن مردويه، وأبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن فكان». وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله: ﴿إِلَّا عَنِينَا خَزَائِنَهُ﴾ قال: المطر خاصة. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «ما نقص المطر منذ أنزل الله، ولكن تمطر أرض أكثر مما تمطر أخرى ثم قرأ: ﴿وَمَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: «ما من عام يامطر من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عَنِينَا خَزَائِنَهُ وَمَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾». وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾ قال: يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فتندثر كما تندثر اللقحة ثم تمطر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال: يبعث الله المباشرة فتقم الأرض قماءً، ثم يبعث الميثرة فتثير السحاب فتجعله كسفاً ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركاماً، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتُمطر. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والديلمي بسنن ضعيف عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ريح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه».

وأخرج الطيالسي، وسعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: «كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن النساء، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لثلاً يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركب نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾». وهذا الحديث هو من رواية أبي الجوزاء عن ابن عباس. وقد رواه عبد الرزاق، وابن المنذر من قول أبي الجوزاء قال الترمذي: وهذا أشبه أن يكون أصح. وقال ابن كثير: في هذا الحديث نكارة شديدة. وأخرج الحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: المستقدمين الصفوف المقنمة، والمستأخرين: الصفوف المؤخرة. وقد وردت أحاديث كثيرة في أن خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء ومقاتل بن حبان أن الآية في صفوف القتال. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: المستقدمين في طاعة الله، والمستأخرين في معصية الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: يعني بالمستقدمين من مات، وبالمستأخرين من هو حي لم يموت. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً قال: المستقدمين آدم ومن مضى من نريته، والمستأخرين في أصلاب الرجال. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة نحوه.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿١٩﴾ وَلَكِنَّ خَلْقَهُ مِنْ بَلِّ مِنْ تَارٍ التَّوْمِ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعَا لَهُ سَوِيدٌ ﴿٢٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْمَاءً ﴿٢٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٣٠﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٣٢﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٣٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٣٥﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٣٦﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٣٧﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٣٨﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٤٤﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٤٥﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٤٦﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٤٧﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٤٩﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَاتِنَا يُنْكِرْنَ ﴿٥٠﴾

المراد بالإنسان في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ هو آدم لأنه أصل هذا النوع، والصلصال قال أبو عبيدة: هو الطين المخلوط بالرمال الذي يتصلصل إذا حرك، فإذا طبع في النار فهو الفخار. وهذا قول أكثر المفسرين. وقال الكسائي: هو الطين الممتنن، مأخوذ من قول العرب صل

اللحم وأصل: إذا أنتن، مطبوخاً كان أو نيئاً. قال الحطيطي: ذاك فتى يبذل ذا قدرة لا يفسد اللحم لديه للصلول والحماء: الطين الأسود المتغير. أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير. قال ابن السكيت: تقول منه حمات البئر حمأ بالتسكين: إذا نزع حماتها، وحمئت البئر حمأ بالتحريك: كثرت حماتها، وأحميتها إحماء: ألقيت فيها الحمأة. قال أبو عبيدة: الحمأة بسكون الميم مثل الحمأة يعني بالتحريك، والجمع حمء مثل تمره وتمر، والحمأ المصدر مثل الهلع والجزع، ثم سمي به. والمسنون قال الفراء: هو المتغير، وأصله من سننت الحجر على الحجر: إذا حككته، وما يخرج بين الحجريين يقال له: السنانة والسنين، ومنه قول عبد الرحمن بن حسان:

ثم حاصرتها إلى القبة الحمراء تمشي في ممرم وسنون أي: محكوك، ويقال: أسن الماء إذا تغير، ومنه قوله: ﴿لم يتسنه﴾ [البقرة: 259]. وقوله: ﴿ماء غير أسن﴾ [محمد: 15] وكلا الاشتقاقين يدل على التغير، لأن ما يخرج بين الحجريين لا يكون إلا منتناً. وقال أبو عبيدة: المسنون المصوب، وهو من قول العرب سننت الماء على الوجه: إذا صببته، والسنن الصب. وقال سيبويه: المسنون المصوب، مأخوذ من سنة الوجه، وهي صورته، ومنه قول ذي الرمة:

تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب وقال الأخفش: المسنون المنصوب القائم، من قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول. والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بل صار طيناً، فلما أنتن صار حمأ مسنوناً، فلما يش صار صلصالاً. فاصل الصلصال: هو الحمأ المسنون، ولهذا وصف بهما ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ الجان أبو الجن عند جمهور المفسرين. وقال عطاء والحسن وقتادة ومقاتل: هو إبليس. وسمي جاناً لتواريه عن الأعين. يقال: جن الشيء إذا ستره. فالجان يستر نفسه عن أعين بني آدم، ومعنى من قبل: من قبل خلق آدم، والسموم: الريح الحادة النافذة في المسام، تكون بالنهار وقد تكون بالليل، كذا قال أبو عبيدة، وذكر خلق الإنسان والجان في هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الإلهية، وبيان أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر أي: أنكر، بين سبحانه بعد نكركه لخلق الإنسان ما وقع عند خلقه له، وقد تقدم تفسير ذلك في البقرة، والبشر مأخوذ من البشرة، وهي ظاهر الجلد، وقد تقدم تفسير الصلصال والحمأ المسنون قريباً مستوفى ﴿فإذا سويته﴾ أي: سويت خلقه وعلنت صورته الإنسانية وكملت أجزائه ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ النفخ: إجراء الريح في تجاويف جسم آخر؛ فمن قال: إن الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر، ومن قال: إنه جوهر مجرد غير متحيز ولا حال في متحيز. فمعنى النفخ عنده تهيئة البدن لتعلق النفس الناطقة به. قال النيسابوري: ولا خلاف في أن الإضافة في روعي للتشريف

والتكريم، مثل ناقة الله، وبيت الله. قال القرطبي: والروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع تلك الجسم. وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، قال: ومثله ﴿وروح منه﴾ [النساء: 171]. وقد تقدم في النساء ﴿فقعوا له ساجدين﴾ الفاء تدل على أن سجودهم واجب عليهم عقب التسوية والنفع من غير تراخ، وهو أمر بالوقوع من وقع يقع. وفيه دليل على أن المأمور به هو السجود لا مجرد الانحناء كما قيل، وهذا السجود هو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء؛ وقيل: كان السجود لله تعالى وكان آدم قبله لهم ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعاً عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ، قال المبرد: قوله ﴿كلهم﴾ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد، وقوله أجمعون تأكيد بعد تأكيد، ورجح هذا الزجاج. قال النيسابوري: وذلك لأن أجمع معرفة فلا يقع حالاً ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصباً، ثم استثنى إبليس من الملائكة فقال: ﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ قيل: هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة ولكنه أبى ذلك استكباراً واستعظماً لنفسه وحسداً لأدم فحقت عليه كلمة الله؛ وقيل: إنه لم يكن من الملائكة ولكنه كان معهم فغلب اسم الملائكة عليه وأمر بما أمروا به، فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلاً؛ وقيل: إن الاستثناء منفصل بناءً على عدم كونه منهم، وعدم تغليبهم عليه أي: ولكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين وقد تقدم الكلام في هذا في سورة البقرة، وجملة ﴿أبى أن يكون مع الساجدين﴾ استئناف مبين لكيفية ما فهم من الاستثناء من عدم السجود، لأن عدم السجود قد يكون مع التردد، فبين سبحانه أنه كان على وجه الإباء، وجملة ﴿قال يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين﴾ مستأنفة أيضاً جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله سبحانه لإبليس بعد أن أبى السجود؟ وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم، بل للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أي غرض لك في الامتناع؟ وأي سبب حملك عليه على أن لا تكون مع الساجدين لأدم مع الملائكة وهم في الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التي قد علمتها، وجملة ﴿قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ مستأنفة كالتي قبلها، جعل العلة لترك سجوده كون آدم بشراً مخلوقاً من صلصال من حمأ مسنون زعماً منه أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم، وفيه إشارة إجمالية في كونه خيراً منه. وقد صرح بذلك في موضع آخر، فقال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [ص: 76]. وقال في موضع آخر: ﴿أسجد لمن خلقت طيناً﴾ [الإسراء: 61]. واللام في لأسجد لتأكيد النفي أي: لا يصح ذلك مني، فلجاب الله سبحانه عليه بقوله: ﴿قال فأخرج منها

وقتادة، والحسن، وقيس بن عباد، وأبو رجاء، وحמיד، ويعقوب (هذا صراط علي) على أنه صفة مشبهة، ومعناه رفيع ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ المراد بالعباد هنا هم المخلصون، والمراد أنه لا تسلط له عليهم بإيقاعهم في نذب يهلكون به ولا يتوبون منه، فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء ونحوهما، فإنه نذب مغفور لوقوع التوبة عنه ﴿إِلَّا مَنْ تَبِعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثنى سبحانه من عباده هؤلاء. وهم المتبعون لإبليس من الغاوين عن طريق الحق الواقعين في الضلال، وهو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله: ﴿لَا غَوِيَّتَهُمْ لْجَمْعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمَخْلُصِينَ﴾، ويمكن أن يقال: إن بين الكلامين فرقاً فكلام الله سبحانه فيه نفي سلطان إبليس على جميع عباده إلا من اتبعه من الغاوين، فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع إبليس من الغاوين؛ وكلام إبليس اللعين يتضمن إغواء الجميع إلا المخلصين، فيخل فيهم من لم يكن مخلصاً ولا تابعاً لإبليس غاوياً. والحاصل أن بين المخلصين والغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصه ولا غاوية تابعة لإبليس؛ وقد قيل: إن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 100]، ثم قال الله سبحانه متوعداً لاتباع إبليس ﴿وَأِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ لْجَمْعِينَ﴾ أي: موعد المتبعين الغاوين، وأجمعين تأكيد للضمير أو حال ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يدخل أهل النار منها وإنما كانت سبعة لكثرة أهلها ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من الاتباع الفتوة ﴿جِزْرٌ مَقْسُومٌ﴾ أي: قدر معلوم متميز عن غيره؛ وقيل: المراد بالأبواب الطباق طبق فوق طبق، وهي جهنم، ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير، ثم سقر ثم الجحيم، ثم الهاوية؛ فاعلاها للموحنين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين، فجهنم أعلى الطباق، ثم ما بعدها تحتها، ثم كذلك، كذا قيل.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال: خلق الإنسان من ثلاث من طين لازب وصلصال وحماً مسنون، فالطين اللازب: اللازم الجيد، والصلصال: المنطق الذي يصنع منه الفخار، والحماً المسنون: الطين الذي فيه الحماة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه قال: الصلصال الماء يقع على الأرض الطيبة ثم يحسر عنها فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال هو التراب اليابس الذي يبل بعد يسه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال طين خلط برمل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال الذي إذا ضربته صلصل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال الطين تعصر بيديك فيخرج الماء من بين أصابعك. وأخرج ابن جرير، وابن

فإنك رجيم﴾ والضمير في منها، قيل عائذ إلى الجنة، وقيل: إلى السماء؛ وقيل: إلى زمرة الملائكة أي: فأخرج من زمرة الملائكة فإنك رجيم أي: مرجوم بالشبه؛ وقيل معنى رجيم ملعون أي: مطرود لأن من يطرد يرجم بالحجارة ﴿وَأَنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: عليك الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه مستمراً عليك لازماً لك إلى يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، وجعل يوم الدين غاية للعنة لا يستلزم انقطاعها في ذلك الوقت، لأن المراد نواها من غير انقطاع، وذكر يوم الدين للمبالغة كما في قوله تعالى: ﴿مَا دامت السموات والأرض﴾ [هود: 107] أو أن المراد أنه في يوم الدين وما بعده يعذب بما هو أشد من اللعن من أنواع العذاب، فكانه لا يجد له ما كان يجده قبل أن يمسه العذاب ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ أي: أخرني وأمهلني ولا تمتني إلى يوم يبعثون أي: آمم ونزيتي. طلب أن يبقى حياً إلى هذا اليوم لما سمع ذلك علم أن الله قد أخر عذابه إلى الدار الآخرة وكأنه طلب أن لا يموت أبداً، لأنه إذا أخر موته إلى ذلك اليوم فهو يوم لا موت فيه؛ وقيل: إنه لم يطلب أن لا يموت، بل طلب أن يؤخر عذابه إلى يوم القيامة ولا يعذب في الدنيا ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ لما سال الانتظار لأجابه الله سبحانه إلى ما طلبه وأخبره بأنه من جملة من أنظره ممن أخر آجالهم من مخلوقاته، أو من جملة من أخر عقوبتهم بما اقترفوا، ثم بين سبحانه الغاية التي أمهله إليها، فقال: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو يوم القيامة فإن يوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم كلها عبارات عن يوم القيامة؛ وقيل: المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب من البعث، فعند ذلك يموت. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الباء للقسمة، وما صديرة، وجواب القسم لأزينن لهم أي: أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم في الأرض أي: ما داموا في الدنيا، والتزيين منه إما بتحسين المعاصي لهم وإيقاعهم فيها، أو يشغلهم بزيينة الدنيا عن فعل ما أمرهم الله به فلا يلتفتون إلى غيرها. وإقسامه ها هنا بإغواء الله له لا ينافي إقسامه في موضع آخر بعة الله التي هي سلطانه وقهره، لأن الإغراء له هو من جملة ما تصنع عليه العزة ﴿وَلَا غَوِيَّتَهُمْ لْجَمْعِينَ﴾ أي: لأضلنهم عن طريق الهدى وأوقعهم في طريق الغواية وأحملهم عليها ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ لْمَخْلُصِينَ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام أي: الذين استخلصتهم من العباد. وقرأ الباقون بكسر اللام أي: الذين أخلصوا لك العبادة فثم يقصدوا بها غيرك ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: حق علي أن أراعيه، وهو أن لا يكون لك على عبادي سلطان. قال الكسائي: هذا على الوعيد والتهديد، كقولك لمن تهدد: طريقك علي ومصيرك إلي، وكقوله: ﴿إِنْ رِيكَ لِالْمَرْصَادِ﴾ [الفجر: 14] فكان معنى هذا الكلام هذا طريق مرجعه إلي فأجازي كلا بعمله، وقيل: على هنا بمعنى إلى؛ وقيل: المعنى على أن الصراط المستقيم بالبيان والحجة؛ وقيل: بالتوفيق والهداية. وقرأ ابن سيرين،

مَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْمُنِيرِينَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمَصْدُوقُونَ ﴿١٨﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّجِبْ أَزْوَاجَهُمْ وَلَا يَلْبُوثَ فِيكَ وَرَأْسُكَ وَأَمْشُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿١٩﴾ وَفَصَّلْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَذِهِ مَقْطُوعٌ مُّفَصَّلِينَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: المتقين للشرك بالله كما قاله جمهور الصحابة والتابعين، وقيل هم الذين اتقوا جميع المعاصي في جنات وهي البساتين، وعيون وهي الأنهار. قرئ بضم العين من عيون على الأصل، وبالكسر مراعاة للياء، والتركيب يحتمل أن يكون لجميع المتقين جنات وعيون، أو لكل واحد منهم جنات وعيون، أو لكل واحد منهم جنة وعين ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ قرأ الجمهور بلفظ الأمر على تقدير القول أي قيل لهم: ادخلوها. وقرأ الحسن وأبو العالية، وروي عن يعقوب بضم الهمزة مقطوعة، وفتح الخاء على أنه فعل مبني للمفعول أي: ادخلهم الله إياها. وقد قيل: إنهم إذا كانوا في جنات وعيون، فكيف يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور؟ فإن الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها، وأجيب بأن المعنى أنهم لما صاروا في الجنات، فإذا انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها: ادخلوها، ومعنى ﴿بِإِسْلَامٍ آمَنِينَ﴾ بسلامة من الآفات، وأمن من المخافات، أو مسلمين على بعضهم بعضاً، أو مسلماً عليهم من الملائكة، أو من الله عز وجل: ﴿وَنُزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ الغل: الحقد والعداوة، وقد مر تفسيره في الأعراف، وانتصاب ﴿إِخْوَانًا﴾ على الحال أي: إخوة في الدين والتعاطف ﴿عَلَى سُرَرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي: حال كونهم على سرر، وعلى صورة مخصوصة وهي التقابل، ينظر بعضهم إلى وجه بعض، والسرر جمع سرير، وقيل: هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور، ومنه قولهم: سرر الوادي لأفضل موضع منه ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب وإعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك في الجنة، لأنها نعيم خالص، ولذة محضة تحصل لهم بسهولة، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد، بل بمجرد خور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفوا عفوا ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ أبداً، وفي هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم، فإن علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتنغص نعيمه وتكدر لذته. ثم قال سبحانه بعد أن قص علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم والاجر الجزيل ﴿نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: أخبرهم يا محمد أنني أنا الكثير المغفرة للذنوبهم، الكثير الرحمة لهم، كما حكمت به على نفسي: «إن رحمتي سبقت غضبي»، اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة، وادخلتهم تحت واسع الرحمة. ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة

المُنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿مَنْ حَمَا مَسْنُونٌ﴾ قال: من طين رطب. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً ﴿مَنْ حَمَا مَسْنُونٌ﴾ قال: من طين منتن. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الجان مسيح الجن كالقردة والخنازير مسيح الإنسان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: الجان: هو إبليس خلق من قبل آدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْجَانِ خَلْقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَارَ السَّمُومِ﴾ قال: من أحسن النار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: نار السموم الحارة التي تقتل. وأخرج الطيالسي، والفريابي، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: السموم: التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، ثم قرأ: ﴿وَالْجَانِ، خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَارَ السَّمُومِ﴾ وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُون﴾ قال: أراد إبليس لا يثوق الموت فقيل: إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن سيرين ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: رفيع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ بعدد أطباق جهنم كما تقدمنا. وأخرج ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وهناد، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في صفة النار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث من طرق عن علي قال: أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيملا الأول، ثم الثاني، ثم الثالث حتى. تملا كلها، وأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي، وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بجهنم سبعة أبواب، باب منها لمن سلّ السيف على أمّتي». وقد ورد في صفة النار لحديث وآثار. وأخرج ابن مردويه، والخطيب في تاريخه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ قال: «جزء اشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله».

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴿١٥﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴿١٧﴾ تَبَوَّءَ عِبَادَتِي أَنَا وَالْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿١٩﴾ وَيَتَّبِعُهُمْ عَنْ حَيْفٍ إِبْرَاهِيمُ ﴿٢٠﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَكِيلٌ ﴿٢١﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نَحْنُ بَنِيكَ يُصَالِمُ ﴿٢٢﴾ عَلَيْهِ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَتَسْتَأْذِنُونِي قَالَ أَن مَسَّيْتُ إِلَيْكَ يُدْعِي بِئْسَ الدُّعَاءُ قَالَ إِنَّا لَمُتَشَكِّرُونَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا لَا يَنْصُرُكَ إِلَّا الْهَالِكُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ نَحْنُ خَلْقُكُمْ إِنَّا الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا إِنَّا أَزْوَاجٌ لَكَ قَوْمٌ مُّجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾ إِلَّا مَا لُوطٌ إِنَّا لَمُجْرِمُونَ أَجْمَعِينَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا أَمْرًا نَرَى

العظيمة، امره بأن ينكر لهم شيئاً مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال: **﴿وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾** أي: الكثير الإيلام، وعند أن جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطاً بين اليأس والرجاء، وخير الأمور أوساطها، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف، وبين حالتي الانس والهيبة، وجملة **﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾** معطوفة على جملة نبي عبادي أي: أخبرهم بما جرى على إبراهيم من الأمر الذي اجتمع فيه له الرجاء والخوف، والتبشير الذي خالطه نوع من الوجع ليعتبروا بذلك ويعلموا أنها سنة الله سبحانه في عباده، وأيضاً لما اشتملت القصة على إنجاء المؤمنين وإهلاك الظالمين كان في ذلك تقريراً لكونه الغفور الرحيم وإن عذابه هو العذاب الأليم، وقد مرّ تفسير هذه القصة في سورة هود، وانتصاب **﴿إِذْ نَحَلُّوا عَلَيْهِ﴾** بفعل مضمر معطوف على **﴿نَبِّئِ عِبَادِي﴾** أي: وانكر لهم دخولهم عليه، أو في محل نصب على الحال. والضيف في الأصل مصدر، ولذلك وحد وإن كانوا جماعة، وسمي ضيفاً لإضافته إلى المضيف **﴿فَقَالُوا سَلَاماً﴾** أي: سلمنا سلاماً **﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجُلُونَ﴾** أي: فزعون خائفون، وإنما قال هذا بعد أن قرّب إليهم العجل فرأهم لا يكلون منه كما تقدم في سورة هود **﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾** [هود: 70] وقيل: انكر السلام منهم لأنه لم يكن في بلادهم، وقيل: انكر دخولهم عليه بغير استئذان **﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾** أي قالت: الملائكة لا تخف. وقرئ (لا تاجل) ولا توجل من أوجله أي: أخافه، وجملة **﴿إِنَّا نَبْشُرُكَ بِغَلَامٍ عَلِيمٍ﴾** مستأنفة لتعليل النهي عن الوجع، والعليم: كثير العلم، وقيل: هو الحليم كما وقع في موضع آخر من القرآن، وهذا الغلام: هو إسحاق كما تقدم في هود، ولم يسمه هنا ولا ذكر التبشير بيعقوب اكتفاء بما سلف **﴿قَالَ ابْشُرْ تَمُونِي﴾** قرأ الجمهور بالف الاستفهام. وقرأ الأعمش (بشرتموني) بغير الالف **﴿عَلَى أَنْ مَسْنِيَ الْكَبِيرِ﴾** في محل نصب على الحال أي: مع حالة الكبر والهزم **﴿فَبِمَ تَبْشُرُونَ﴾** استفهام تعجب، كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار إليه من الهرم الذي جرت العادة بانه لا يولد لمن بلغ إليه، والمعنى: فبأي شيء تبشرون، فإن البشارة بما لا يكون عادة لا تصح. وقرأ نافع (تبشرون) بكسر النون والتخفيف وإبقاء الكسرة لتدل على الباء المحذوفة. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بكسر النون مشددة على إدغام النون في النون، وأصله تبشرونني. وقرأ الباقر (تبشرون) بفتح النون **﴿قَالُوا بِشْرَكَ بِالْحَقِّ﴾** أي: باليقين الذي لا خلف فيه، فإن ذلك وعد الله وهو لا يخلف الميعاد ولا يستحيل عليه شيء، فإنه القادر على كل شيء **﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾** هكذا قرأ الجمهور بإثبات الالف. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب (من القنطين) بغير الف،

وروي ذلك عن أبي عمرو أي: من الآيسين من ذلك الذي بشرناك به **﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾** قرئ بفتح النون من يقنط وبكسرهما وهما لغتان. وحكي فيه ضم النون، والضالون المكتوبون، أو المخطئون الزاهبون عن طريق الصواب أي: إنما استبعت الولد لكبر سني لا لقنوطي من رحمة ربي؛ ثم سألهم عما لأجله أرسلهم الله سبحانه ف **﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ إِلَيْهَا الْمُرْسَلُونَ﴾** الخطب: الأمر الخطير والشأن العظيم أي: فما أمركم وشأنكم وما الذي جئتم به غير ما قد بشرتموني به، وكأنه قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا **﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾** أي: إلى قوم لهم إجرام، فيدخل تحت ذلك الشرك وما هو بونه، وهؤلاء القوم: هم قوم لوط، ثم استثنى منهم من ليسوا مجرمين فقال: **﴿إِلَّا آلَ لُوطَ﴾** وهو استثناء متصل، لأنه من الضمير في مجرمين، ولو كان من قوم لكان منقطعاً لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين، وليس آل لوط مجرمين. ثم ذكر ما سيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم في إجرامهم فقال: **﴿إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي: آل لوط، وهم أتباعه وأهل دينه، وهذه الجملة مستأنفة على تقدير كون الاستثناء متصلاً كأنه قيل: ماذا يكون حال آل لوط؟ فقال: **﴿إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** وأما على تقدير كون الاستثناء منقطعاً فهي خبر أي: لكن آل لوط ناجون من عذابنا. وقرأ حمزة والكسائي (لمنجومهم) بالتخفيف من أنجا. وقرأ الباقر بالتشديد من نجّي. واختار هذه القراءة الأخيرة أبو عبيدة وأبو حاتم، والتنجية والإنجاء التخليص مما وقع فيه غيرهم **﴿إِلَّا أُمَّرَئَهُ﴾** هذا الاستثناء من الضمير في منجومهم إخراجاً لها من التنجية أي: إلا امرأته فليست ممن تنجيه بل ممن نهلك؛ وقيل: إن الاستثناء من آل لوط باعتبار ما حكم لهم به من التنجية، والمعنى: قالوا: **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لَنَهْلِكَهُمْ إِلَّا آلَ لُوطَ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ إِلَّا أُمَّرَئَهُ فإِنَّهَا مِنَ الْهَالِكِينَ﴾** ومعنى **﴿قَدَرْنَا لَهَا مِنَ الْغَايِبِينَ﴾** قضينا وحكمنا أنها من الباقرين في العذاب مع الكفرة، والغاير الباقي، قال الشاعر:

لا تكسح للشول بأغيارها — إنك لا تسري من السناج
والإغار: بقايا اللبن. قال الزجاج: معنى قدرنا ببرنا وهو قريب من معنى قضينا وأصل التقدير: جعل الشيء على مقدار الكفاية. وقرأ عاصم من رواية أبي بكر والمفضل (قدرنا) بالتخفيف. وقرأ الباقر بالتشديد. قال الهروي: هما بمعنى، وإنما أسند التقدير إلى الملائكة من كونه مع فعل الله سبحانه لما لهم من القرب عند الله **﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطَ الْمُرْسَلُونَ﴾** هذه الجملة مستأنفة لبيان وإهلاك من يستحق الهلاك وتنجية من يستحق النجاة **﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَنكُرُونَ﴾** أي قال لوط مخاطباً لهم: إنكم قوم منكرون أي: لا أعرفكم بل أنكركم **﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كُنَّا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾** أي: بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه، فالإضراب هو عن مجيئهم بما ينكره؛ كأنهم قالوا: ما جئناك بما خطر

وبأن مردويه عن علي قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾. وأخرج ابن مردويه، وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في هذه الآية قال: نزلت في عشرة: أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي، وطلحة والزبير، وسعد وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود. وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صالح موقوفاً عليه. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قال: لا يرى بعضهم قفا بعض. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عن مجاهد، عن ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو القاسم البغوي، وابن مردويه، وابن عساكر عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: «﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾» قال: المتحابون في الله في الجنة ينظر بعضهم إلى بعض». وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ قال: المشقة والأذى. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «أطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه فقال: ألا أراكم تضحكون؟ ثم أدير حتى إذا كان عند الحجر رجع القهقري فقال: إني لما خرجت جاء جبريل فقال: يا محمد إن الله عز وجل يقول: لم تقنط عبادي؟ ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وأن عذابي هو للعذاب الأليم». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مصعب بن ثابت قال: «مرّ النبي ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال: انكروا الجنة وانكروا النار»، فنزلت: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. وأخرج الطبراني، والبخاري، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: مرّ النبي ﷺ فنكر نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر كل الذي عند الله من رحمته لم يئس من الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار». وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿قَالُوا لَا تَوَجَّلْ﴾ لا تخف. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿مَنْ الْفَاطِنِينَ﴾ قال: الآيسين. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ يعني: الباقيين في عذاب الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَنَّكَرُونَ﴾ قال: أنكرهم لوط، وفي قوله: ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: بعذاب قوم لوط. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: يشككون. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَاتَّبَعَ آبَارَهُمْ﴾ قال: أمر أن يكون خلف أهله يتبع آبائهم في آخرهم إذا مشوا. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿وَامْضُوا حَيْثُ

ببالك من المكروه، بل جئناك بما فيه سرورك، وهو عذابهم الذي كنت تحذرهم منه وهم يكتوبونك ﴿وَاتَّبَعْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: باليقين الذي لا مرية فيه ولا تردد، وهو العذاب النازل بهم لا محالة ﴿وَأَنَا لَصَادِقُونَ﴾ في ذلك الخبر الذي أخبرناك. وقد تقدم تفسير قوله: ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ في سورة هود ﴿وَاتَّبَعَ آبَارَهُمْ﴾ أي: كن من ورائهم تنوذهم لئلا يختلف منهم أحد فيناله العذاب ﴿وَلَا يَلْتَفَتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا تلتفت أنت ولا يلتفت أحد منهم فيرى ما نزل بهم من العذاب، فيشتغل بالنظر في ذلك ويتباطأ عن سرعة السير والبعد عن نيار الظالمين؛ وقيل: معنى لا يلتفت لا يتخلف ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي: إلى الجهة التي أمركم الله سبحانه بالمضي إليها، وهي جهة الشام، وقيل: مصر؛ وقيل: قرية من قرى لوط؛ وقيل: أرض الخليل ﴿وَقُضِيَ إِلَيْهِ﴾ أي: أوحينا إلى لوط ﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ وهو إهلاك قومه، ثم فسره بقوله: ﴿أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ قال الزجاج: موضع أن نصب، وهو بدل من ذلك الأمر، والدابر هو الآخر أي: أن آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح، وانتصاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ على الحال أي: حال كونهم داخلين في وقت الصبح، ومثله ﴿فَقُطِعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: 45].

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿أَمْنِينَ﴾ قال: آمنوا الموت فلا يموتون ولا يكبرون ولا يسقمون ولا يعرون ولا يجوعون. وأخرج ابن جرير عن علي ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ قال: العداوة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن الحسن البصري قال: قال علي بن أبي طالب: فينا والله أهل الجنة نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾. وأخرج ابن عساكر، وابن مردويه عنه في الآية قال: نزلت في ثلاثة أحياء من العرب: في بني هاشم، وبني تميم، وبني عدي، في وفي أبي بكر وعمر. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عساكر عن كثير النواء، قال: قلت لأبي جعفر إن فلاناً حدثني عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ قال: والله إنها لفيهم أنزلت؛ وفيمن تنزل إلا فيهم؟ قلت: وأي غل هو؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه عن علي من طرق أنه قال لابن طلحة: إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ الآية، فقال رجل من همدان: الله أعلم من ذلك، فصاح علي عليه صيحة تداعى لها القصر وقال: فيمن إذن إن لم تكن نحن أولئك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والطبراني،

تؤمرون قال: أخرجهم الله إلى الشام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد **«وقضينا إليه تلك الأمر»** قال: أوحيناه إليه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **«أن دابر هؤلاء مقطوع»** يعني: استئصال هلاكهم.

وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٠﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءَ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦١﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا ﴿٦٢﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْكَلْبِ كَيْفَ تَمْنَعُ الْكَلْبَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا هَؤُلَاءَ ضَيْفِي وَإِنْ كُنْتُمْ مَسْئُورِينَ ﴿٦٤﴾ فَمَجَلْنَا عَلَيْهِمَا كَلِمَتًا أَمْطَرْنَا عَلَيْهِنَّ حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ ﴿٦٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿٦٦﴾

نكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة إلى قريتهم فقال: **«وجاء أهل المدينة يستبشرون»** أي: أهل مدينة قوم لوط، وهي سلوم كما سبق، وجملة يستبشرون في محل نصب على الحال أي: مستبشرون باضياف لوط طمعاً في ارتكاب الفاحشة منهم فـ **«قال»** لهم لوط **«إن هؤلاء ضيغي»** وحد الضيف لأنه مصدر كما تقدم، والمراد اضيافي، وسماهم ضيفاً لأنه رآهم على هيئة الاضياف، وقومه رأوهم مرداً حسان الوجوه، فلذلك طمعوا فيهم **«فلا تفضحون»** يقال: فضحه يفضحه فضيحة وفضحاً إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بإظهاره، والمعنى: لا تفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فيعلمون أنني عاجز عن حماية من نزل بي، أو لا تفضحون بفضيحة ضيغي، فإن من فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضح المضيف **«واتقوا الله»** في أمرهم **«ولا تخزون»** يجوز أن تكون من الخزي: وهو الذل والهوان، ويجوز أن يكون من الخزاية وهي الحياء والخجل، وقد تقدم تفسير ذلك في هود **«قالوا»** أي: قوم لوط مجيبين له **«أولم تنهك عن»** للعالمين الاستفهام للإنكار، والواو للعطف على مقدر أي: ألم نتقّم إليك وننهك عن أن تكلمنا في شأن أحد من الناس إذا قصدها بالفاحشة؟ وقيل: نهوه عن ضيافة الناس، ويجوز حمل ما في الآية على ما هو أعم من هذين الأمرين **«قال»** هؤلاء بناتي **«فتزوجوهن»** **«إن كنتم فاعلين»** ما عزمت عليه من فعل الفاحشة بضيغي فهؤلاء بناتي تزوجوهن حلالاً ولا تركبوا الحرام؛ وقيل أراد بيناته نساء قومه، لكون النبي بمنزلة الأب لقومه، وقد تقدم تفسير هذا في هود **«لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون»** العمر والعمر بالفتح والضم واحد، لكنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الاخف فإنه كثير الدور على السنتهم، نكر ذلك الزجاج. قال القاضي عياض: اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جلّ جلاله بمدة حياة محمد ﷺ، وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد ﷺ تشريعاً له. قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله سبحانه بحياة

أحد غير محمد ﷺ لأنه أكرم البرية عنده. قال ابن العربي: ما الذي يتمتع أن يقسم الله سبحانه بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد ﷺ لأنه أكرم على الله منه أو لا تراه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة وموسى التكليم، وأعطى تلك لمحمد ﷺ فإذا أقسم الله سبحانه بحياة لوط فحياة محمد أرفع. قال القرطبي: ما قاله حسن فإنه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد ﷺ كلاماً معترضاً في قصة لوط فإن قيل: قد أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين، ونحو ذلك فما فيهما من فضل. وأجيب بأنه ما من شيء أقسم الله به إلا وفي ذلك دلالة على فضله على جنسه، ونكر صاحب الكشاف وأتباعه أن هذا القسم هو من الملائكة على إرادة القول أي: قالت الملائكة للوط: لعمرك، ثم قال: وقيل الخطاب لرسول الله ﷺ وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له. انتهى. وقد كره كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه، وجاءت بذلك الأحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير الله فليس لعباده أن يقسموا بغيره، وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته **«لا يسأل عما يفعل وهم يسألون»** [الأنبياء: 23]. وقيل: الإقسام منه سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين والنجم والضحى والشمس والليل ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به أي: وخالق التين وكذلك ما بعده، وفي قوله: **«لعمرك»** أي: وخالق عمرك، ومعنى **«إنهم لفي سكرتهم يعمهون»**: لفي غرايتهم يتحيرون، جعل الغواية لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة والضمير لقريش على أن القسم بمحمد ﷺ أو القوم لوط على أن القسم للرسول عليه السلام **«فأخذهنم للصيحة»** العظيمة أو صيحة جبريل حال كونهم **«مشركين»** أي: داخلين في وقت الشروق، يقال: أشرقت الشمس أي: أضاءت وشرقت إذا طلعت، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد. وأشرق القوم إذا دخلوا في وقت شروق الشمس؛ وقيل: أراد شروق الفجر؛ وقيل: أول العذاب كان عند شروق الفجر وامتد إلى طلوع الشمس. والصيحة العذاب **«فجعلنا عاليها سافلها»** أي: عالي المدينة سافلها **«وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل»** من طين متحجر، وقد تقدم الكلام مستوفى على هذا في سورة هود **«إن في ذلك»** أي: في المذكور من قصتهم وبيان ما أصابهم **«آيات»** لعلامات يستدل بها **«للمتوسمين»** للمتفكرين الناظرين في الأمر ومنه قول زهير:

وفيهن ملهى للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم وقال الآخر:

أو كلما ربت عكاظ قبيلة بعثوا إلي عريغهم يتوسم وقال أبو عبيدة: للمتبصرين، وقال ثعلب: الواسم الناظر إليك من قرنك إلى قدمك، والمعنى متقارب، وأصل التوسم التثبت والتفكر، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في

وإبن أبي حاتم عن قتادة قال: لبطريق واضح.
 وَإِنْ كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ لَطَائِفُ ۖ فَأَنْفَقْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِيَامَارِ ثَبِيرِ ۖ
 ۖ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَحَبُّ لِمَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ۖ وَانْقَسَمَ مَا بَيْنَنَا فَكَأَنَّا عَنْهَا
 مُعْرِضِينَ ۖ وَكَأَنَّا يَخُونُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَآءَ بَرِيكَ ۖ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّبِيحَةُ
 مُصْبِحِينَ ۖ قَدْ أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۖ وَمَا عَلَفْنَا أَلْسِنَتِهِمْ وَلَا أَرْضَ
 وَمَا يَنْهَمُونَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۖ وَكَانَ السَّاعَةُ لَأَيَّةً ۖ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۖ إِنَّ
 رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۖ

قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ﴾، إن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف أي: وإن الشأن كان أصحاب الأيكة. والأيكة الغيضة، وهي جماع الشجر، والجمع الأيكة. ويروى أن شجرهم كان دوماً، وهو المقول، فالمعنى: وإن كان أصحاب الشجر المجتمع، وقيل: الأيكة اسم القرية التي كانوا فيها. قال أبو عبيدة: الأيكة وليكة مدينتهم كمكة وبكة، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب، وقد تقدم خبرهم، واقتصر الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم، وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق، والضمير في ﴿وَإِنَّمَا لِيَامَارِ ثَبِيرِ﴾ يرجع إلى مدينة قوم لوط، ومكان أصحاب الأيكة أي: وإن المكانين لبطريق واضح، والإمام اسم لما يؤتم به، ومن جملة ذلك الطريق التي تسلك. قال الفراء والزجاج: سمي الطريق إماماً لأنه يؤتم ويتبع. وقال ابن قتيبة: لأن المسافرين يأتهم به حتى يصل إلى الموضع الذي يريد، وقيل: الضمير للأيكة ومدين لأن شعبياً كان ينسب إليهما. ثم إن الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ لِلْمُرْسَلِينَ﴾ الحجر اسم لدير ثمود، قاله الأزهرى. وهي ما بين مكة وتبوك. وقال ابن جرير: هي أرض بين الحجاز والشام. وقال: المرسلين، ولم يرسل إليهم إلا صالح، لأن من كذب واحداً من الرسل فقد كذب الباقين لكونهم متفقين في الدعوة إلى الله، وقيل: كذبوا صالحاً ومن تقدمه من الأنبياء، وقيل: كذبوا صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ أي الآيات المنزل على نبيهم، ومن جملتها الناقة فإن فيها آيات جمة كخروجها من الصخرة وبنو نتاجها عند خروجها وعظمها وكثرة لبنها ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: غير معتبرين، ولهذا عقروا الناقة وخالفوا ما أمرهم به نبيهم ﴿وَكَانُوا يَخَنُقُونَ مِنَ الْجِبَالِ بَيوتاً﴾ النحت في كلام العرب: البري والنجر، نحتة ينحت بالكَسْرِ نحتاً أي: براء، وفي التنزيل ﴿اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: 95]. أي: تنجرون، وكانوا يتخنون لأنفسهم من الجبال بيوتاً أي: يخرقونها في الجبال، وانتصاب ﴿أَمْنِينَ﴾ على الحال. قال الفراء: أمنين من أن ينقع عليهم، وقيل: أمنين من الموت، وقيل: من العذاب ركناً منهم على قوتها وثاقتها ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّبِيحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: داخلين في وقت الصبح، وقد تقدم ذكر الصيحة في الأعراف وفي هود، وتقدم أيضاً قريباً ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: لم ينفع عنهم شيئاً من عذاب الله ما كانوا يكسبون من

جلد البعير ﴿وَإِنَّمَا لِبَسِيلٍ مَقِيمٌ﴾ يعني: قرى قوم لوط أو معدينتهم على طريق ثابت، وهي الطريق يمر بتلك القرى ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ المنكور من المدينة أو القرى ﴿لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعتبرون بها فإن المؤمنين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قال: استبشروا باضياف نبي الله لوط حين نزلوا به لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُنْهَكْ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾ قال: يقولون: أولم ننهك أن تضيف أحداً أو تؤويه، ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أمرهم لوط بتزويج النساء وأراد أن يبقى أضيافه ببناته. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم عن ابن عباس قال: ما خلق الله وما نرا وما برا نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال: ﴿لِعَمْرِكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لِعَمْرِكَ﴾ قال: لعيشك. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: ما حلف الله بحياة أحد إلا بحياة محمد قال: ﴿لِعَمْرِكَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون أن يقول الرجل لعمرى يرويه كقوله وحياتي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: في ضلالهم يلعبون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الأعمش في الآية لفي غفلتهم يترددون. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فأخذتهم الصيحة مثل الصاعقة، وكل شيء أهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة. وأخرج ابن جرير عنه ﴿مُشْرِقِينَ﴾ قال: حين أشرقت الشمس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ قال: علامة أما ترى الرجل يرسل خاتمه إلى أهله، فيقول: هاتوا كذا وكذا، فإذا راوه عرفوا أنه حق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: للناظرين. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة قال: للمتوسمين. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر عن مجاهد قال: للمتفرسين، وأخرج البخاري في التاريخ، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن السني، وأبو نعيم، وابن مردويه، والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَإِنَّمَا لِبَسِيلٍ مَقِيمٌ﴾ يقول: لبهلاك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: لبطريق مقيم. وأخرج ابن جرير،

البيهقي في الشعب عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد قال: هذه الآية قبل القتال. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة مثله.

وَلَقَدْ مَآئِكَ سَمَاءً مِنَ الْمَنَافِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٥٧﴾ لَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَّا مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفَضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَقُلْ إِنْ أَرَادْتُمْ أَنَا التَّذِيرُ الْآمِنُ ﴿٥٩﴾ كَمَا أَرْزَأْنَا عَلَى الْمُفْتَسِينَ ﴿٦٠﴾ الَّذِينَ جَمَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٦١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَمْعِينَ ﴿٦٢﴾ عَنَّا كَانُوا يَمْشُونَ ﴿٦٣﴾ فَأَصْحَ بِمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَزِينَ ﴿٦٥﴾ الَّذِينَ يَمْشُونَ مَعَ اللَّهِ إِنَّهَا آخِرُ سَفْوَةٍ يَمْشُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ تَمَرَّأْتَ بِعَيْنِ صَدْرِكَ بِمَا يَكُونُونَ ﴿٦٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٦٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ بِلَانِكَ الْيَقِينِ ﴿٦٩﴾

اختلف أهل العلم في السبع المثاني ماذا هي؟ فقال جمهور المفسرين: إنها الفاتحة. قال الواحدي وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب، وهو قول عمر، وعلي، وابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والربيع، والكلبي. وزاد القرطبي أبا هريرة وأبا العالية، وزاد النيسابوري الضحاك وسعيد بن جبير. وقد روي ذلك من قول رسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه فتعين المصير إليه. وقيل: هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة الأنفال والتوبة، لأنها كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية، روي هذا القول عن ابن عباس. وقيل: المراد بالمثاني السبعة الأحزاب فإنها سبع صحائف، والمثاني جمع مثناة من التثنية أو جمع مثنية. وقال الزجاج: تثني بما يفرد بعدها معها، فعلى القول الأول يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني أنها تثني أي: تكرر في كل صلاة، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية إن العبر والأحكام والحدود كررت فيها، وعلى القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها، وقد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحاك، وطاوس، وأبو مالك، وهو رواية عن ابن عباس واستدلوا بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْمَثَانِي﴾ [الزمر: 23] وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن وهي: الأمر، والنهي، والتبشير، والإنذار، وضرب الأمثال، وتعريف النعم، وإنشاء قرون ماضية. قاله زيد بن أبي مريم، ولا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثاني لا تستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم، وقد تقرر أنها المرادة بهذه الآية، فلا يقدح في ذلك صلق وصف المثاني على غيرها ﴿وَاللَّعْلِيمُ﴾ معطوف على سبعة من المثاني، ويكون من عطف العام على الخاص لأن الفاتحة بعض من القرآن، وكذلك إن أريد بالسبع المثاني السبع الطوال لأنها بعض من القرآن، وأما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه، فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر، كما قيل في قول الشاعر:

الأموال والحصون في الجبال ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: متلبسة بالحق، وهو ما فيهما من الفوائد والمصالح، وقيل: المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِنِعْمِهِمْ فِي الْحَقِّ وَالْإِنْفَاقِ﴾ [النجم: 31]. وقيل: المراد بالحق الزوال لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائل ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُنِي﴾ وعند إتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب، ويحسن إلى من يستحق الإحسان، وفيه وعيد للعصاة وتهديد، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يصفح عن قومه، فقال: ﴿فَاصْفَحْ لِّلصَّفْحِ الْجَمِيلِ﴾ أي: تجاوز عنهم راعف عفواً حسناً؛ وقيل: فاعرض عنهم إعراضاً جميلاً ولا تعجل عليهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، قيل: وهذا منسوخ بآية السيف ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الخالق للخلق جميعاً العليم بأحوالهم وبالصالح والطالح منهم.

وقد أخرج ابن مردويه، وابن عساكر عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، والأيكة ذات أجام وشجر كانوا فيها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأيكة الغيضة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: أصحاب الأيكة أهل مدين، والأيكة الملتفة من الشجر. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الأيكة مجمع الشيء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال في قوله: ﴿وَلَهُمَا لِبَاسٌ مَّبِينٌ﴾ طريق ظاهر. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في أصحاب الحجر قال: أصحاب الوادي. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: كان أصحاب الحجر ثمود وقوم صالح. وأخرج البخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم». وأخرج ابن مردويه عنه قال: «نزل رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم، فامرهم بإهراق القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، فقال: إني أخشى أن يصيبكم مثل الذي أصابهم فلا تدخلوا عليهم». وأخرج ابن مردويه عن سبرة بن معبد أن النبي ﷺ قال بالحجر لأصحابه: «من عمل من هذا الماء شيئاً فليلقه»، قال: ومنهم من عجن العجين، ومنهم من حاس الحيس. وأخرج ابن مردويه، وابن النجار عن علي في قوله: ﴿فَاصْفَحْ لِّلصَّفْحِ الْجَمِيلِ﴾ قال: الرضا بغير عتاب. وأخرج

إلى الملك القرم وابن الهمام

ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة أن هذه السورة مكية، وأكثر السبع الطوال مدنية، وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه، وظاهر قوله: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾** أنه قد تقدم إتياء السبع على نزول هذه الآية، و«من» في من المثاني للتبعية أو البيان على اختلاف الأقوال، ذكر معنى ذلك الزجاج فقال: هي للتبعية إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان إذا أردت الإشباع. ثم لما بين لرسوله الله ﷺ ما أنعم به عليه من هذه النعمة اللبينة نغره عن الذات العاجلة الزائلة فقال: **﴿لَا تَمَدَّنْ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾** أي: لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمنّ لها، والأزواج الأصناف، قاله ابن قتيبة. وقال الجوهري: الأزواج القراء. قال الواحدي: إنما يكون ماداً عينية إلى الشيء إذا دام النظر نحوه، وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمنيه. وقال بعضهم: معنى الآية لا تحسّنْ أحداً على ما أوتي من الدنيا، وردّ بأن الحسد منهي عنه مطلقاً، وإنما قال في هذه السورة لا تمدّن بغير أو، لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه، ثم لما نهاه عن الالتفات إلى أموالهم وأمتعتهم نهاه عن الالتفات إليهم فقال: **﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾** حيث لم يؤمنوا وصمموا على الكفر والعناد؛ وقيل: المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا فك الآخرة. والأول أولى، ثم لما نهاه عن أن يمد عينيه إلى أموال الكفار ولا يحزن عليهم. وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم أمره أن يتواضع للمؤمنين، فقال: **﴿وَلَا تَخْضَ جَنَاحُكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** وخض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب، ومنه قوله سبحانه: **﴿وَاخْضَعْ لَهَا جَنَاحَ الذَّلِّ﴾** [الإسراء: 24]، وقول الكميت:

خفضت لهم مني جناحي مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه، ثم قبضه على الفرخ فجعل ذلك وصفاً لتواضع الإنسان لاتباعه؛ ويقال: فلان خافض الجناح أي: وقور ساكن، والجناحان من ابن آدم جانبيه، ومنه **﴿وَاَضْمَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾** [طه: 22] ومنه قول الشاعر:

وحسبك فتنة لزعيم قوم يمدّ على أخي سقم جناحا

﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أي: المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله **﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾** قيل: المفعول محذوف أي: مفعول أنزلنا، والتقدير: كما أنزلنا على المقتسمين عذاباً، فيكون المعنى: إني أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذي أنزلناه عليهم كقوله تعالى: **﴿أَنْذَرْتَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثُمُودَ﴾** [فصلت: 13]؛ وقيل: إن الكاف زائدة، والتقدير: إني أنا النذير المبين أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين من العذاب؛ وقيل: هو متعلق بقوله: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾** أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون، والأولى أن يتعلق بقوله: **﴿إني أنا النذير المبين﴾** لأنه في قوة الأمر بالإنذار.

وقد اختلف في المقتسمين من هم؟ فقال الفراء: هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقسموا أنقاب مكة وفجاجها يقولون لمن دخلها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون، وربما قالوا: ساحر وربما قالوا: شاعر وربما قالوا: كاهن، فقيل لهم: مقتسمين لأنهم اقتصموا هذه الطرق، وقيل: إنهم قوم من قريش اقتصموا كتاب الله، فجعلوا بعضه شعراً، وبعضه سحراً، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، قاله قتادة. وقيل: هم أهل الكتاب، وسموا مقتسمين لأنهم كانوا يقتسمون القرآن استهزاء، فيقول بعضهم: هذه السورة لي وهذه لك، روي هذا عن ابن عباس؛ وقيل: إنهم قسموا كتابهم وفرقوه وبنّوه وحرقوه، وقيل: المراد قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال تعالى: **﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾** [النمل: 49]؛ وقيل: تقاسموا إيماناً تحالفوا عليها، قاله الأخفش؛ وقيل: إنهم العاص بن وائل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأمّية بن خلف، ومنبه بن الحجاج ذكره الماوردي **﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾** جمع عضّة، وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أجزاء، فيكون المعنى على هذا: الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرقة، بعضه شعر، وبعضه سحر، وبعضه كهانة ونحو ذلك؛ وقيل: هو مأخوذ من عضته إذا بهته، فالمحذوف منه الهاء لا الواو، وجمعت العضّة على المعنيين جمع العقلاء لما لحقها من الحنف فجعلوا ذلك عوضاً عما لحقها من الحنف؛ وقيل: معنى عضين إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، ومما يؤيد، أن معنى عضين التفريق، قول رؤية:

وليس بين الله بالعضيين

أي: بالمفروق، وقيل: العضّة والعضيين في لغة قريش السحر، وهم يقولون: للساحر عاضه، وللساحرة عاضهة، ومنه قول الشاعر:

أعوذ بربّي من النافثات في عقد العاضهة والعضه
وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لعن العاضهة والمستعضهة، وفسر بالساحرة والمستسحرة، والمعنى: أنهم أكثروا البيهت على القرآن، وسموه سحراً وكذباً وأساطير الأولين، ونظير عضّة في النقصان شفة، والأصل شفة، وكذلك سنّة، والأصل سنهة. قال الكسائي: العضّة الكذب والبهتان، وجمعها عضون. وقال الفراء: إنه مأخوذ من العضاء، وهي شجر يؤذي ويجرح كالشوك، ويجوز أن يراد بالقرآن التوراة والإنجيل لكونهما مما يقرأ، ويراد بالمقتسمين هم اليهود والنصارى أي: جعلوهما أجزاء متفرقة، وهو أحد الأقوال المتقدمة **﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي: لنسأل هؤلاء الكفرة أجمعين يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا من الأعمال التي يحاسبون عليها ويسألون عنها؛ وقيل: إن المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد، والعموم في عما كانوا يعملون، يفيد ما هو أوسع من ذلك؛ وقيل: إن المسؤولين ها هنا هم جميع المؤمنين والعصاة

غاية هي قوله **«حتى ياتيكم اليقين»** أي: الموت. قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: يعني الموت لأنه موثق به. قال الزجاج: المعنى اعبد ربك أبداً، لأنه لو قيل: اعبد ربك بغير توقيت لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعاً، فإذا قال: حتى ياتيكم اليقين، فقد أمره بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حياً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عمر في قوله: **«ولقد آتيناك سبعاً من المثاني»** قال: السبع المثاني فاتحة الكتاب. وأخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن علي بن مثله. وأخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود مثله وزاد: والقرآن العظيم سائر القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس في الآية قال: فاتحة الكتاب استثنائها الله لامة محمد، فرفعها في أم الكتاب فانخرها لهم حتى أخرجها ولم يعطها أحد قبل؛ قيل: فإين الآية السابعة؟ قال: **«بسم الله الرحمن الرحيم»**. وروي عنه نحو هذا من طرق. وأخرج ابن الضريس، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: السبع المثاني فاتحة الكتاب. وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب قال: السبع المثاني **«الحمد لله رب العالمين»**. وروي نحو قول هؤلاء الصحابة عن جماعة من التابعين. وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أنه قال له النبي ﷺ: **«ألا أعلمك أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد، فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت؛ فقال: «الحمد لله رب العالمين» [الفاتحة: 1] هي السبع المثاني والقرآن العظيم»**. وأخرج البخاري أيضاً من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»**، فوجب بهذا المصير إلى القول بأنها فاتحة الكتاب، ولكن تسميتها بذلك لا ينافي تسمية غيرها به كما قدمنا. وأخرج ابن مردويه عن عمر قال في الآية: هي السبع الطوال. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله. وأخرج الفريابي، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال في الآية: هي السبع الطوال. وأخرج الدارمي، وابن مردويه عن أبي بن كعب مثله. وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: هي فاتحة الكتاب والسبع الطوال. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: ما ثني من القرآن، ألم تسمع لقول الله: **«الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني»** [الزمر: 23]. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: المثاني القرآن يذكر الله القصة الواحدة مراراً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن زياد بن أبي مريم في الآية قال: أعطيتك سبعة أجزاء: مر، وأنه، وبشر وأنذر، وأضرب

والكفار، ويدل عليه قوله: **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** [التكاثر: 8]، وقوله: **«وقوفهم إنهم مسؤولون»** [الصفافات: 24]، وقوله: **«إن إلينا إيابهم»** ثم إن علينا حسابهم [الغاشية: 25 - 26]. ويمكن أن يقال: إن قصر هذا السؤال على المذكورين في السياق وصرف العموم إليهم لا ينافي سؤال غيرهم **«فاصدع بما تؤمر»** قال الزجاج: يقول أظهر ما تؤمر به، أخذ من الصديق وهو الصبح انتهى. وأصل الصدع الفرق والشق، يقال: صدعته فانصدع أي: انشق، وتصدع القوم أي: تفرقوا، ومنه **«يومئذ يصدعون»** [الروم: 43] أي: يتفرقون. قال الفراء: أراد فاصدع بالأمر أي: أظهر دينك فما مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر، وقال ابن الأعرابي: معنى اصدع بما تؤمر أي: أقصد؛ وقيل: فاصدع بما تؤمر أي: فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون، والأولى أن الصدع الإظهار، كما قاله الزجاج والفراء وغيرهم. قال النحويون: المعنى بما تؤمر به من الشرائع، وجوزوا أن تكون مصدرية أي: بأمرك وشأنك. قال الواحدي: قال المفسرون: أي أجهر بالأمر أي: بأمرك بعد إظهار الدعوة، وما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت هذه الآية، ثم أمره سبحانه بعد أمره بالصدع بالإعراض وعدم الالتفات إلى المشركين، فقال: **«واعرض عن المشركين»** أي: لا تبال بهم ولا تلتفت إليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة، ثم أكد هذا الأمر وثبت قلب رسوله بقوله: **«إنما كفيناك المستهزئين»** مع كونهم كانوا من أكابر الكفار، وأهل الشوكة فيهم فإذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى، وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب بن الحارث بن زمة، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلائطة، كذا قال القرطبي ووافقه غيره من المفسرين. وقد أهلكهم الله جميعاً وكفاهم أمرهم في يوم واحد، ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال: **«الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر»** فلم يكن ذنبهم مجرد الاستهزاء، بل لهم ثنّب آخر وهو الشرك بالله سبحانه، ثم توعدهم فقال: **«فسوف يعلمون»** كيف عاقبتهم في الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه، ثم ذكر تسليّة أخرى لرسول الله ﷺ بعد التسليّة الأولى بكفايته شرهم ودفعه لمكرهم فقال: **«ولقد تعلم أنك ضيق صدرك بما يقولون»** من الأقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول الله ﷺ بالسحر والجنون والكهانة والكنب. وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله ﷺ بمقتضى الجيلة البشرية والمزاج الإنساني، ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال: **«فسبح بحمد ربك»** أي: متلبساً بحمده أي: افعل التسبيح المتلبس بالحمد **«وكن من الساجدين»** أي: المصلين فإنك إذا فعلت ذلك كشف الله همك وأذهب غمك وشرح صدرك، ثم أمره بعبادة ربه أي: بالدوام عليها إلى

الأمثال، واعدد النعم، واتل نبأ القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَمْدَن عَيْنِيكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ قال: الأغنياء الأمثال والأشباه. وأخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة قال: من أعطي القرآن فمدَّ عينه إلى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن، ألم يسمع إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾، وإلى قوله: ﴿وَوَرِّقْ رَبِّكَ خَيْرَ وَأَبْقَى﴾ [طه: 131] وقد فسر ابن عيينة أيضاً الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، فقال: إن المعنى يستغنى به. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَإِخْلُصْ جَنَاحَكَ﴾ قال: اخضع. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ الآية قال: هم أهل الكتاب جزءه أجزاء فأمّنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه قال: عضين فرقاً. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس أنها نزلت في نفر من قريش كانوا يصنّون الناس عن رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة. وأخرج الترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أنس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿قُورِيكَ لِنَسَالَتِهِمْ لَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: عن قول لا إله إلا الله. وأخرجه ابن أبي شيبة، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر من وجه آخر عن أنس موقوفاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿فَاصْطِدْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فامضه، وفي علي بن أبي طلحة مقال معروف. وأخرج ابن جرير عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزل ﴿فَاصْطِدْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هذا أمر من الله لنبيه بتبليغ رسالته قومه وجميع من أرسل إليه. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿فَاصْطِدْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قال: أعلن بما تؤمر. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال: نسخه قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5]. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، وأبو نعيم، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ قال: المستهزئون الوليد بن المغيرة، والأسود بن يغوث، والأسود بن المطلب، والحاتر بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل، وذكر قصة هلاكهم. وقد روي هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة في عددهم ونقص على طول في ذلك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في التاريخ، وابن مردويه، والديلمي عن أبي مسلم

تفسير سورة النحل

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ورواه ابن مردويه عن ابن عباس وعن أبي الزبير. وأخرج النحاس من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: سورة النحل نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله ﷺ من أحد، قيل وهي قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126] الآية. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: 127] في شأن التمثيل بحمزة وقتل أحد. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنْ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [النحل: 110]. الآية؛ وقيل: الثالثة ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿بِإِحْسَانٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 95 - 96].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنَّا أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يَزِيلُ أَلْفَ مِائَةٍ مِّنْ أَمْرِهِ. عَلَّمَ مَثَلَهُ لِبَنِي إِدْرَاةٍ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَقَّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيصٌ يُدْرِكُ ﴿٤﴾ وَالْأَنفُسُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ فِيهَا تَرْجُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَوْفَاقُهَا إِلَىٰ بَدَلٍ لَّكُمْ تَكُونُوا فِيهَا بِأَنفُسِكُمْ لَا يَشُقُّ الْأَنفُسُ عَلَيْكُمْ لَمُوتِ رُوحِكُمْ فِيهَا ﴿٧﴾ وَالْجَنَّةُ وَالْجَهَنَّمُ لَكُمْ فِيهَا وَمِنْهَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

قوله: ﴿هَاتِي أَمْرَ اللَّهِ﴾ أي: عقابه للمشركين، وقال جماعة من المفسرين: القيامة. قال الزجاج: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه؛ وقيل: إن المراد بأمر الله حكمه بذلك، وقد وقع وأتى، فأما المحكوم به فإنه لم يقع، لأنه سبحانه حكم بوقوعه في وقت معين، فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود؛ وقيل: إن المراد بإتيانه إتيان

مبانيه ومقدماته ﴿فلا تستعجلوه﴾ نهاهم عن استعجاله أي: فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت، وقد كان المشركون يستعجلون عذاب الله كما قال النضر بن الحارث ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ [الأنفال: 32]، الآية. والمعنى: قرب أمر الله فلا تستعجلوه، وقد كان استعجالهم له على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة، وفي نهيمهم عن الاستعجال تهكم بهم ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي: تنزه وترفع عن إشراكهم، أو عن أن يكون له شريك، وشركهم فهنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب، أو قيام الساعة استهزاء وتكديبا، فإنه يتضمن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك، وأنه عاجز عنه والعجز وعدم القدرة من صفات المخلوق لا من صفات الخالق، فكان ذلك شركا ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ قرأ المفضل عن عاصم (تنزل الملائكة)، والأصل تنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الأعمش (تنزل) على البناء للمفعول، وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم (تنزل) بالنون، والفاعل هو الله سبحانه. وقرأ الباقون (ينزل الملائكة) بالياء التحتية إلا أن ابن كثير وأبا عمرو يسكنان النون، والفاعل هو الله سبحانه؛ ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها أنه ﷺ لما أخبرهم عن الله أنه قد قرب أمره، ونهاهم عن الاستعجال تركوا في الطريق التي علم بها رسول الله ﷺ بذلك، فأخبر أنه علم بها بالوحي على لسان رسل الله سبحانه من ملائكته، والروح: الوحي، ومثله ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [غافر: 15].

وسمي الوحي روحاً لأنه يحيي قلوب المؤمنين، فإن من جملة الوحي القرآن، وهو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد؛ وقيل: المراد أرواح الخلائق؛ وقيل: الروح الرحمة، وقيل: الهداية لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح. قال الزجاج: الروح ما كان فيه من الله حياة بالإرشاد إلى أمره. وقال أبو عبيد: الروح هنا جبريل، وتكون الباء على هذا بمعنى مع، «ومن» في ﴿من أمره﴾ بيانية أي: بأشياء أو مبتدأ من أمره أو صفة للروح، أو متعلق بـ﴿ينزل﴾، ومعنى ﴿على من يشاء من عباده﴾ على من اختصه بذلك، وهم الأنبياء ﴿إن أنذروا﴾. قال الزجاج: ﴿إن أنذروا﴾ بدل من الروح أي: ينزلهم بأن أنذروا، وإن إما مفسرة لأن تنزل الوحي فيه معنى القول، وإما مخففة من الثقلية وضمير الشأن مقدر أي: بأن الشأن أقول لكم أنذروا أي: أعلموا الناس ﴿فإنه لا إله إلا أنا﴾ أي: مروهم بتوحيدي وأعلموهم ذلك مع تخويفهم، لأن في الإنذار تخويفاً وتهديداً، والضمير في أنه للشأن ﴿فاتقون﴾ الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات، وهو تحذير لهم من الشرك بالله، ثم إن الله سبحانه لما أرشدهم إلى توحيده ذكر دلائل التوحيد فقال: ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي: أوجدهما على هذه الصفة التي هما عليهما بالحق أي: للدلالة على قدرته ووحدانيته؛ وقيل: المراد بالحق هنا الفناء والزوال ﴿تعالى﴾ الله ﴿عما

يشركون﴾ أي: ترفع وتقدس عن إشراكهم أو عن شركة الذي يجعلونه شريكاً له، ثم لما كان نوع الإنسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية قدمه وخصه بالذكر فقال: ﴿خلق الإنسان﴾ وهو اسم لجنس هذا النوع ﴿من نطفة﴾ من جماد يخرج من حيوان، وهو المنى فنقله أطواراً إلى أن كملت صورته، ونفخ فيه الروح وأخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار فعاش فيها ﴿فإذا هو﴾ بعد خلقه على هذه الصفة ﴿خصيم﴾ أي: كثير الخصومة والمجادلة، والمعنى: أنه كالمخاصم لله سبحانه في قدرته، ومعنى ﴿مبين﴾ ظاهر الخصومة وأضحها، وقيل: يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل، والمبين هو المفسح عما في ضميره بمنطقة ومثله قوله تعالى: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ [يس: 77]. ثم عقب نكر خلق الإنسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع، فالامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها، فقال: ﴿والأنعام خلقها لكم﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال: نعم وأنعام للإبل، ويقال للمجموع، ولا يقال للغنم مفردة، ومنه قول حسان: وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء فعطفت النشاء على النعم، وهي هنا الإبل خاصة. قال الجوهري: والنعم واحد الأنعام، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل. ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبني آدم بين المنفعة التي فيها لهم فقال: ﴿فيها نفع﴾ النفع: السخانة، وهو ما استفدى به من أصوافها وأوبارها وأشعارها، والجملة في محل النصب على الحال ﴿ومنافع﴾ معطوف على نفع، وهي نرها وركوبها ونتائجها والحراثة بها ونحو ذلك. وقد قيل: إن النفع النتاج واللبن. قال في الصحاح: النفع نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها، ثم قال: والنفع أيضاً السخونة، وعلى هذا فإن أريد بالنفع المعنى الأول فلا بد من حمل المنافع على ما عدها مما ينتفع به منها، وإن حمل على المعنى الثاني كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحاً؛ وقيل: المراد بالمنافع النتاج خاصة؛ وقيل: الركوب ﴿ومنها تاكلون﴾ أي: من لحومها وشحومها؛ وخص هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها؛ وقيل: خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التي فيها، وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل، وبغيره نادر ﴿ولكم فيها جمال﴾ أي: لكم فيها مع ما تقدم ذكره جمال، والجمال: ما يتجمل به ويتزين، والجمال: الحسن، والمعنى هنا: لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين إليها ﴿حين تريحون وحين تسرحون﴾ أي: في هذين الوقتين، وهما وقت ردها من مراعيها، ووقت تسريحها إليها، فالروح رجوعها بالعشي من المراعي، والسراح مسيرها إلى مراعيها بالغداة، يقال: سرحت الإبل أسرحها سرحاً وسروحاً: إذا غدوت بها إلى المرعى، وقدم الإراحة على التسريح لأن منظرها عند الإراحة أجمل، ونواتها أحسن

لكونها في تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب، فعظمت بطونها وانتفخت ضرورها، وخصّ هذين الوقتين لانهما وقت نظر الناظرين إليها لأنها عند استقرارها في الحظائر لا يراها أحد، وعند كونها في مراعيها هي متفرقة غير مجمعة كل واحد منها يرى في جانب ﴿وتحمل أثقالكم﴾ الأثقال جمع ثقل، وهو متاع المسافر من طعام وغيره، وسمي ثقلًا لأنه يثقل الإنسان حمله، وقيل: المراد أبدانهم ﴿إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس﴾ أي: لم تكونوا واصلين إليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم إلا بشقّ الأنفس لبعده عنكم، وعدم وجود ما يحمل ما لا بد لكم منه في السفر، وظاهره يتناول كل بلد بعيدة من غير تعيين؛ وقيل: المراد بالبلد مكة، وقيل: اليمن ومصر والشام لأنها متاجر العرب، وشقّ الأنفس: مشقتها. قرأ الجمهور بكسر الشين، وقرأ أبو جعفر بفتحها. قال الجوهري: والشقّ المشقة، ومنه قوله: ﴿لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس﴾ وحكى أبو عبيدة بفتح الشين، وهما بمعنى؛ ويجوز أن يكون المفتوح مصدرًا من شققت عليه أشق شقًا، والمكسور بمعنى النصف، يقال: أخذت شقّ الشاة وشقة الشاة، ويكون المعنى على هذا في الآية: لم تكونوا بالغيه إلا بذهاب نصف الأنفس من التعب، وقد امتنّ الله سبحانه على عباده بخلق الانعام على العموم، ثم خصّ الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم، والاستثناء من أعمّ العام أي: لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بشقّ الأنفس ﴿والخيل والبغال والحمير﴾ بالنصب عطفًا على الانعام أي: وخلق لكم هذه الثلاثة الأصناف، وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع فيها كلها؛ وسميت الخيل خيلًا لاختيالها في مشيها، ووحد الخيل خائل كضائن واحد الضأن، وقيل: لا واحد له. ثم علل سبحانه خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله: ﴿لتركبوها﴾ وهذه العلة هي باعتبار معظم منافعها لأن الانتفاع بها في غير الركوب معلوم كالتحميل عليها ﴿و﴾ عطف ﴿زينة﴾ على محل «لتركبوها» لأنه في محل نصب على أنه علة لخلقها، ولم يقل: لتزينا بها حتى يطابق لتركبوها، لأن الركوب فعل المخاطبين، والزينة فعل الزائن وهو الخالق، والتحقيق فيه أن الركوب هو المعتبر في المقصود، بخلاف الزينة فإنه لا يلتفت إليه أهل الهمم العالية لأنه يورث العجب، فكانه سبحانه قال: خلقتها لتركبوها فتلفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات. وقد استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب يدلّ على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها. قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الانعام فيفقد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل. قالوا: ولو كان أكل الخيل جائزًا لكان نكره، والامتنان به أولى من نكر الركوب، لأنه أعظم فائدة منه، وقد ذهب إلى هذا مالك وأبو حنيفة، وأصحابهما والأوزاعي،

ومجاهد وأبو عبيدة وغيرهم. وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم إلى حل لحوم الخيل، ولا حجة لاهل القول الأوّل في التعليل بقوله: ﴿لتركبوها﴾ لأن نكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافي غيره، ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى ينكر ويكون نكره أقدم من نكر الركوب. وأيضًا لو كانت هذه الآية تدلّ على تحريم الخيل لملت على تحريم الحمر الأهلية، وحينئذٍ لا يكون ثم حاجة لتحديد التحريم لها عام خيبر، وقد قسّمنا أن هذه السورة مكية، والحاصل أن الآية الصحيحة قد نلت على حلّ أكل لحوم الخيل، فلو سلمنا أن في هذه الآية متمسكًا للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال، ودافعة لهذا الاستدلال، وقد أوضحنا هذه المسألة في مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ أي: يخلق ما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدّه ها هنا؛ وقيل: المراد من أنواع الحشرات والهوامّ في أسافل الأرض، وفي البحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به؛ وقيل: هو ما أعدّ الله لعباده في الجنة وفي النار مما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولا خطر على قلب بشر؛ وقيل: هو خلق السوس في النبات والود في الفواكه؛ وقيل: عين تحت العرش؛ وقيل نهر من النور؛ وقيل: أرض بيضاء، ولا وجه للاقتصار في تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع، بل المراد أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد، فيشمل كل شيء لا يحيط علمهم به، والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة، لأنه سبحانه قد خلق ما لا يعلم به العباد ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ القصد مصدر بمعنى الفاعل، فالمعنى وعلى الله قاصد السبيل أي: هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع؛ وقيل: هو على حذف مضاف، والتقدير: وعلى الله بيان قصد السبيل، والسبيل: الإسلام، وبيانه بإرسال الرسل وإقامة الحجج والبراهين، والقصد في السبيل هو كونه موصولًا إلى المطلوب، فالمعنى: وعلى الله بيان الطريق الموصول إلى المطلوب ﴿ومنها جائر﴾ الضمير في «منها» راجع إلى السبيل بمعنى الطريق، لأنها تذكر وتؤنث، وقيل: راجع إليها بتقدير مضاف أي: ومن جنس السبيل جائر مائل عن الحق عادل عنه، فلا يهتدي به، ومنه قول امرئ القيس:

ومن الطريقة جائر وهدي قصد السبيل ومنه نوبل وقيل: إن الطريق كناية عن صاحبها، والمعنى: ومنهم جائر عن سبيل الحق: أي عادل عنه، فلا يهتدي إليه، قيل: وهم أهل الأهواء المختلفة، وقيل: أهل الملل الكفرية، وفي مصحف عبد الله (ومنكم جائر)، وكذا قرأ عليّ، ﴿ولو شاء لهداكم لجميعين﴾ أي: ولو شاء أن يهديكم جميعًا إلى الطريق الصحيح، والمنهج الحق لفعل ذلك، ولكنه لم يشأ، بل اقتضت مشيئته سبحانه إراءة الطريق والدلالة عليها ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: 10]. وأما الإيصال إليها بالفعل

لحوم الحمر الأهلية وأثنى في الخيل». وأما ما أخرجه أبو عبيد، وأبو داود، والتسائي من حديث خالد بن الوليد قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير»، ففي إسناداه صالح بن يحيى بن أبي المقدم وفيه مقال. ولو فرضنا أن الحديث صحيح لم يبق على معارضة أحاديث الحلّ على أنه يكون أن هذا الحديث المصرّح بالتحريم متقدّم على يوم خيبر فيكون منسوخاً. وأخرج الخطيب وابن عساكر قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: «البرائين». وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما خلق الله أرضاً من لؤلؤة بيضاء». ثم ساق من أوصافها ما يدلّ على أن الحديث موضوع، ثم قال في آخره: «فذلك قوله ويخلق ما لا تعلمون». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: على الله أن يبين الهدى والضلالة ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ قال السبيل المتفرقة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: على الله بيان حاله، وحرامه، وطاعته، ومعصيته ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ قال: من السبل ناكب عن الحق، قال: وفي قراءة ابن مسعود (ومنكم جائر). وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن عليّ أنه كان يقرأ هذه الآية (ومنكم جائر).

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
ثَمِيمٌ ﴿٦﴾ يَبُثُّ لَكُمْ فِيهِ الزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلُ وَالْأَنْعَابُ وَمِنْ كُلِّ
الشَّجَرِ أَنْ فِي ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْيَلَدَ
وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ سَخَّرَتْ بِأَمْرِ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٨﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ حَبْلًا أَوَّلَهُ إِلَّا فِي
ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٩﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا
مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلْبَسْتُمْ بِهِ الْفُلُوكَ
مَوَاجِرَ فِيهِ وَتَلْتَقُوا مِنْ قَبْلِهِ وَلَكُنْ تَضَعُونَ ﴿١٠﴾ وَالْقَنْ فِي
الْأَرْضِ رَوَاسٍ أَنْ تُبِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَكَرَ وَبَلَغَ لِمَالِكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١﴾
وَعَلَّمَكُم مِمَّا تَشَاءُونَ ﴿١٢﴾ فَقَدْ أَخْلَقَ كَمَنْ لَا يُخَلِّقُ إِلَّا أَنْتَ تَذَكَّرُونَ
﴿١٣﴾ وَإِنْ تَسْأَلُوا اللَّهَ لَنُخَصِّصَهُمْ إِلَّا أَنْ تَحْضُرُوا إِلَيْهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ
بِعَلْمِهِ خَفِيٌّ وَهُوَ شَرِيفٌ ﴿١٥﴾ وَمَا تَشَاءُونَ وَمَا تُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾

لما استدلل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال: ﴿هو الذي أنزل من السماء﴾ أي: من جهة السماء، وهي السحاب ﴿ماء﴾ أي: نوعاً من أنواع الماء، وهو المطر ﴿لكم منه شراب﴾ يجوز أن يتعلق لكم بأنزل أو هو خبر مقدم، وشراب مبتدأ مؤخر، والجملة صفة لما ﴿ومنه﴾ في محل نصب على الحال، والشراب اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم، والمعنى:

فذلك يستلزم أن لا يوجد في العباد كافر، ولا من يستحق النار من المسلمين، وقد اقتضت المشيئة الربانية أنه يكون البعض مؤمناً والبعض كافراً كما نطق بذلك القرآن في غير موضع.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: «لما نزل ﴿تَٰمَتِ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ذُعر أصحاب رسول الله ﷺ حتى نزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكنوا». وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص قال: لما نزلت ﴿تَٰمَتِ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قاموا، فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. وأخرج ابن مريويه من طريق الضحاك عن ابن عباس ﴿تَٰمَتِ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قال: خروج محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿تَٰمَتِ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن أمر الله أتى، فامسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنتظروا ما هو كائن»، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل شيء، فنزلت ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1] فقالوا: إن هذا يزعم مثلها أيضاً، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل شيء، فنزلت ﴿وَلَوْثِنَّا أَخْرَبْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: 8].

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿تَٰمَتِ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قال: الأحكام والحدود والفرائض. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس في قوله: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ﴾ قال: بالوحي. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه، والبيهقي عنه قال: الروح أمر من أمر الله وخلق من خلق الله، وصورهم على صورة بني آدم، وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح، ثم تلا ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [التبا: 38]. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ﴾ قال: القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا نَفْعٌ﴾ قال: الثياب ﴿وَمَنَافِعُ﴾ قال: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: نسل كل دابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَرْكَالَهُم بِأَئْدِيٍّ﴾ يعني: مكة ﴿لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا يَشُقُّ الْأَنْفُسُ﴾ قال: لو تكلفتموه لم تطيقوه إلا بجهد شديد.

وقد ورد في حلّ أكل لحوم الخيل أحاديث منها في الصحيحين وغيرهما، من حديث أسماء قالت: نحرنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ فأكناه. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن جابر قال: أطعمنّا رسول الله ﷺ لحوم الخيل، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية. وأخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضاً، وهما على شرط مسلم. وثبت أيضاً في الصحيحين من حديث جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ عن

التسخير ﴿لآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يعملون عقولهم في هذه الآثار الدالة على وجود الصانع وتفرده وعدم وجود شريك له، وذكر الآيات لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة، وجمعها ليطابق قوله مسخرات؛ وقيل: إن وجه الجمع هو أن كلا من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها بخلاف ما تقدم من الإنابت فإنه آية واحدة، ولا يخلو كل هذا عن تكلف، والأولى أن يقال: إن هذه المواضع الثلاثة التي أفرد الآية في بعضها وجمعها في بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار والإفراد باعتبار، فلم يجرها على طريقة واحدة افتناناً وتنبهاً على جواز الأمرين وحسن كل واحد منهما ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خلق يقال: ذرأ الله الخلق ينزروهم ذراً: خلقهم، فهو ذارئ، ومنه الذرية، وهي نسل الثقلين، وقد تقدم تحقيق هذا، وهو معطوف على النجوم رفعاً ونصباً أي: وسخر لكم ما ذرأ في الأرض، فالمعنى: أنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية، وانتصاب مختلفاً لوانه على الحال، والوانه: هيئاته ومناظره، فإن ذرأ هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكل في الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التسخير لهذه الأمور ﴿لآيَةً﴾ واضحة ﴿لِقَوْمٍ يَنْكُرُونَ﴾ فإن من تنكر اعتبر، ومن اعتبر استدل على المطلوب، قيل: وإنما خصّ المقام الأوّل بالتفكير لإمكان إيراد الشبهة المذكورة؛ وخصّ المقام الثاني بالعقل لذكره بعد إمطة الشبهة وإراحة العلة، فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له؛ وخصّ المقام الثالث بالتنكر لمزيد الدلالة، فمن شك بعد ذلك فلا حسن له، وفي هذا من التكلف ما لا يخفى. والأولى أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدم في أفراد الآية في البعض وجمعها في البعض الآخر، وبيانه أن كلا من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكير ولذكر التعقل ولذكر التنكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية، فكان في التعبير في كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ امتن الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه واستخراج ما فيه من صيد وجواهر، لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته، وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التنكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة، وتكميلاً للإنذار، وتوضيحاً لمنازع الاستدلال، ومناطات البرهان، ومواضع النظر والاعتبار، ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ المراد به السمك، ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته، والإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعة ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً

إن الماء النازل من السماء قسمان: قسم يشربه الناس، ومن جملة ماء الآبار والعيون، فإنه من المطر لقوله: ﴿فَسَلَكْهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: 21] وقسم يحصل منه شجر ترعاه المواشي. قال الزجاج: كل ما ينبت من الأرض فهو شجر، لأن التركيب يدل على الاختلاط، ومنه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم ببعض، ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلأ وفيما له ساق. وقال ابن قتيبة: المراد من الشجر في الآية الكلأ، وقيل: الشجر كل ماله ساق كقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: 6]. والعطف يقتضي التغاير، فلما كان النجم ما لا ساق له وجب أن يكون الشجر ماله ساق، وأجيب بأن عطف الجنس على النوع جائز ﴿فِيهِ تَسْمُونُ﴾ أي: في الشجر ترعون مواشيك، يقال: سامت السائمة تسوم سوماً رعت فهي سائمة، وأسماها أي: أخرجتها إلى الرعي فأنما مسيم وهي مسامة وسائمة، وأصل السوم الإبعاد في المرعى. قال الزجاج: أخذ من السومة وهي العلامة، لأنها تؤثر في الأرض علامات برعيها ﴿يَنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم (نبت) بالنون، وقرأ الباقون بالياء التحتية أي: ينبت الله لكم بذلك الماء الذي أنزله من السماء، وقدم الزرع لأنه أصل الأغذية التي يعيش بها الناس، وأتبعه بالزيتون لكونه فاكهة من وجه وإداماً من وجه لكثرة ما فيه من الدهن، وهو جمع زيتونة، ويقال للشجرة نفسها: زيتونة؛ ثم ذكر النخيل لكونه غذاء وفاكهة وهو مع العنب أشرف الفواكه، وجمع الأعناب لاشتمالها على الأصناف المختلفة، ثم أشار إلى سائر الثمرات فقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كما أجمل الحيوانات التي لم ينكرها فيما سبق بقوله: ﴿وَيُخَلِّقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8] وقرأ أبي بن كعب (ينبت لكم به الزرع) يرفع الزرع وما بعده ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: الإنزال والإنابت ﴿لآيَةً﴾ عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد بالربوبية ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في مخلوقات الله ولا يهتمون النظر في مصنوعاته ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعي حاجاتهم، يتعاقبان دائماً كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمر به ولا يخرج عن إرادته ولا يهمل السعي في نفعه، وكذا الكلام في تسخير الشمس والقمر والنجوم، فإنها تجري على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات، ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان؛ ومعنى مسخرات منللات. وقرأ ابن عامر وأهل الشام (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) بالرفع على الابتداء والخبر. وقرأ الباقون بالنصب عطفاً على الليل والنهار، وقرأ حفص عن عاصم برفع النجوم على أنه مبتدأ وخبره مسخرات ﴿بِمَامَرِهِ﴾ وعلى قراءة النصب في مسخرات يكون حالاً مؤكدة، لأن التسخير قد فهم من قوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾؛ وقرأ حفص في رواية برفع مسخرات مع نصب ما قبله على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي مسخرات ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾

به في سفرهم ليلاً. وقرأ ابن وثاب (وبالنجم) بضم النون والجيم، ومراده النجوم فقصره، أو هو جمع نحو كسقف وسقف؛ وقيل: المراد بالنجم هنا الجدي والفرقدان قاله الفراء؛ وقيل: الثريا، وقيل: العلامات الجبال، وقيل: هي النجوم، لأن من النجوم ما يهتدى به، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها. وذهب الجمهور إلى أن المراد في الآية الاهتداء في الأسفار؛ وقيل: هو الاهتداء إلى القبلة، ولا مانع من حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك. قال الأخفش: ثم الكلام عند قوله ﴿وعلامات﴾. وقوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ كلام منفصل عن الأول؛ ثم لما عند الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال: ﴿أفمن يخلق﴾ هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هذه الأفاعيل العجيبة ﴿كمن لا يخلق﴾ شيئاً منها ولا يقدر على إيجاد واحد منها، وهو هذه الأصنام التي تعبدونها وتجعلونها شركاء لله سبحانه، وأطلق عليها لفظ «من» إجراء لها مجرى أولى العلم جرياً على زعمهم بأنها آلهة، أو مشاكلة لقوله: ﴿أفمن يخلق﴾ لوقوعها في صحبته، وفي هذا الاستفهام من التقريع بالتوبيخ للكفار ما لا يخفى، وما أحقهم بذلك، فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكاً لخالقها: ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ [الأعراف: 190]. ﴿فألا تذكرون﴾ مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرده بالربوبية وبيع صنعتها فستتلون بها على ذلك، فإنها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرد التذكر لها؛ ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة إلى المكلفين نعم قال: ﴿وإن تعبدوا نعمه الله لا تحصوها﴾ وقد مر تفسير هذا في سورة إبراهيم، قال العقلاء: إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص لنقص النعم على الإنسان، وتنبى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل، فهو سبحانه يبيد بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك فكيف يطبق حصر بعض نعم الله عليه أو يقدر على إحصائها، أو يتمكن من شكر انبائها؟

يا ربنا هذه نواصينا بيبك خاضعة لعظيم نعمك معترفة بالعجز عن بانية الشكر لشيء منها، لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ولا نطيق التعبير بالشكر لك، فتجاوز عنا واغفر لنا وأسل ذنوب سترك على عوارتنا فإنك إن لا تفعل ذلك نهلك بمجرد التقصير في شكر نعمك، فكيف بما قد فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك والانتفاء عن مناهيك، وما أحسن ما قال من قال:

العفو يرجي من بني آدم فكيف لا يرجي من الرب
فقلت منيلاً لهذا البيت الذي هو قصر مشيد:

فإنه أرف بي منهم حسبي به حسبي به حسبي
وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على إنسان مشيراً إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال: ﴿إن الله

تلبسونها﴾ أي: لؤلؤاً ومرجاناً كما في قوله سبحانه: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ [الرحمن: 22] وظاهر قوله: ﴿تلبسونها﴾ أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أي: يجعلونه حلية لهم كما يجوز للنساء، ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله: ﴿تلبسونها﴾ بقوله تلبسه نسائهم، لأنهم من جملتهم، أو لكونهن يلبسها لأجلهم، وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة، فإن ذلك ممنوع من جهة كونه تشبهاً بهن، وقد ورد الشرع بمعناه لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان ﴿وترى للفلك مولخاً فيه﴾ أي: ترى السفن شواق للماء تنفعه بصدورها. ومخر السفينة: شقها الماء بصدورها. قال الجوهري: مخر السابح: إذا شق الماء بصدورها، ومخر الأرض: شقها للزراعة، وقيل: موالخ جوارى، وقيل: معترضة، وقيل: تذهب وتجيء، وقيل: ملجئة. قال ابن جرير: المخر في اللغة: صوت هبوب الريح، ولم يقد بكونه في ماء ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ معطوف على تستخرجوا، وما بينهما اعتراض، أو على علة محذوفة تقديره لتبتغوا بذلك ولتبتغوا، أو على تقدير فعل ذلك لتبتغوا أي: لتتجروا فيه فيحصل لكم الربح من فضل الله سبحانه: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي: إذا وجدتم فضله عليكم وإحسانه إليكم اعترفتم بنعمته عليكم فشكرتم ذلك باللسان والأركان. قيل: ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث أن فيها قطعاً لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزولة أسباب السفر، بل من غير حركة أصلاً مع أنها في تضاعيف المهالك، ويمكن أن يضم إلى ما نكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها. وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له، ثم أرف هذه النعم الموجبة للتوحيد المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى وآية كبرى فقال: ﴿والقى في الأرض رؤسها﴾ أي: جبلاً ثابتة، يقال: رسا يرسو إذا ثبت وأقام، قال الشاعر:

فصبرت عارفة لئلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع
﴿إن تميد بكم﴾ أي: كراهة أن تميد بكم على ما قاله البصريون، أو لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون، والمعيد: الاضطراب يميناً وشمالاً، ماد الشيء يميد ميلاً تحرك، وماتت الأغصان تمايلت، وماد الرجل تبخرت ﴿وأنهارها﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً، لأن الإلقاء هنا بمعنى الجعل والخلق كقوله: ﴿والقيت عليك محبة مني﴾ [طه: 39]. ﴿ووسيلها﴾ أي: وجعل فيها سبلاً وأظهرها وبيتها لأجل تهتدون بها في أسفاركم إلى مقاصدكم. والسيل: الطريق. ﴿وعلامات﴾ أي: وجعل فيها علامات وهي معالم الطرق. والمعنى: أنه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ المراد بالنجم الجنس أي: يهتدون

كاملة أي قالوا: هذه المقالة لكي يحملوا أوزارهم كاملة. لم يكفر منها شيء لعدم إسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب، وقيل: إن اللام هي لام العاقبة، لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل يحملون الأوزار، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به كقوله: ﴿ليكون لهم عداً وحزناً﴾ [القصص: 8]. وقيل: هي لام الأمر **﴿ومن أوزار الذين يضلونهم﴾** أي: ويحملون بعض أوزار الذين أضلّوهم لأن من سرّ سئة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها؛ وقيل: من الجنس لا للتبعض أي: يحملون كل أوزار الذين يضلونهم، ومحل **﴿بغير علم﴾** النصب على الحال من فاعل «يضلونهم» أي: يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه، ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام؛ وقيل: إنه حال من المفعول أي: يضلون من لا علم له، ومثل هذه الآية: **﴿وليحملن أثقالهن وثقالاً مع أثقالهن﴾** [العنكبوت: 13]. وقد تقدّم في الانعام الكلام على قوله: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** [الأنعام: 164] **﴿ألا ساء ما يزرّون﴾** أي: بشس شيئاً يزرّونه ذلك. ثم حكى سبحانه حال اضطرابهم من المتقنمين فقال: **﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾** ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به نمرود بن كنعان حيث بنى بناءً عظيماً ببابل، ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها، فاهبّ الله الريح، فخرّ ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا، والأولى أن الآية عامة في جميع المبطلين من المتقنمين الذين يحاولون إلحاق الضرر بالمحقين؛ ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير الذي لا يطابق الحق، وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له ﷺ بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم **﴿فلأتى الله بنيانهم﴾** أي: أتى أمر الله، وهو الريح التي أخربت بنيانهم. قال المفسرون: أرسل الله ريحاً فالقت رأس الصرح في البحر، وخرّ عليهم الباقي **﴿من للقواعد﴾** قال الزجاج: من الأساطين، والمعنى: أنه أتاهم أمر الله من جهة قواعد ما فزعزعا **﴿فخرّ عليهم للسقف من فوقهم﴾** قرأ ابن أبي هريرة، وابن محيصن (السقف) بضم السين والقاف جميعاً. وقرأ مجاهد بضم السين وسكون القاف، وقرأ الباقون (السقف) بفتح السين وسكون القاف، والمعنى: أنه سقط عليهم السقف، لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها. قال ابن الأعرابي، وإنما قال من فوقهم ليعلمك أنهم كانوا حاليين تحته، والعرب تقول خرّ علينا سقف، ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه، فجاء بقوله: **﴿من فوقهم﴾** ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب، فقال: **﴿من فوقهم﴾** أي: عليهم وقع، وكانوا تحته فهلكوا، وما أفلتوا؛ وقيل: إن المراد بالسقف السماء أي: أتاهم العذاب من السماء التي فوقهم؛ وقيل: إن هذه الآية تمثيل لهلاكهم؛ والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه عليه.

وقد اختلف في هؤلاء الذين خرّ عليهم السقف، فقيل: هو نمرود كما تقدّم، وقيل: إنه بختنصر وأصحابه، وقيل هم

الأمور الظاهرة فضلاً عن الأمور التي لا يعلمها إلا الله سبحانه، وقيل: يجوز أن يكون الضمير في يبعثون للآلئة أي: وما تشعر هذه لأصنام آيان تبعث، ويؤيد ذلك ما روي أن الله يبعث الأصنام ويخلق لها أرواحاً معها شياطينها فيؤمر بالكل إلى النار، ويدل على هذا قوله: **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾** [الأنبياء: 98]. وقيل: قد تمّ الكلام عند قوله: **﴿وهم يخلقون﴾** ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء وما يشعرون آيان يبعثون، فيكون الضميران على هذا للكفار، وعلى القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جرياً على اعتقاد من يعبدونها بأنها تعقل. وقرأ السلمي (إيان) بكسر الهمزة، وهما لغتان، وهو في محل نصب بالفعل الذي قبله **﴿إلهكم إله واحد﴾** لما زيف سبحانه طريقة عبدة الأوثان صرح بما هو الحق في نفس الأمر، وهو وحدانيته سبحانه، ثم نكر ما لأجله أصرّ الكفار على شركهم فقال: **﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾** للوحدانية لا يؤثر فيها وعظ ولا ينفع فيها تنكير **﴿وهم مستكبرون﴾** عن قبول الحق، متعظمون عن الإذعان للصواب، مستمرون على الجحد **﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾** قال الخليل: لا جرم كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً أي: حقاً أن الله يعلم ما يسرون من أقوالهم وأفعالهم وما يعلنون من ذلك، وقد مرّ تحقيق الكلام في لا جرم **﴿إنه لا يحب المستكبرون﴾** أي: لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لآنيائه، والجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدّم **﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾** أي: وإذا قال هؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل ماذا أنزل ربكم؟ أي: أي شيء أنزل ربكم؟ أو ماذا الذي أنزل؟ قيل: القائل النضر بن الحارث والآية نزلت فيه؛ فيكون هذا القول منه على طريق التهكم؛ وقيل: القائل هو من يفد عليه؛ وقيل: القائل المسلمون، فأجاب المشركون المنكرون المستكبرون فـ **﴿قالوا أساطير الأولين﴾** بالرفع أي: ما تدعون أيها المسلمون نزوله أساطير الأولين، أو أن المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا: المنزل عليكم أساطير الأولين. وعلى هذا فلا يرد ما قيل من أن هذا لا يصلح أن يكون جواباً من المشركين، وإلا لكان المعنى الذي أنزله ربنا أساطير الأولين والكفار لا يقرّون بالإنزال، ووجه عدم وروده هو ما نكرناه؛ وقيل: هو كلام مستأنف أي: ليس ما تدعون إنزاله أيها المسلمون منزلاً بل هو أساطير الأولين؛ وقد جوّز على مقتضى علم النحو نصب أساطير وإن لم تقع القراءة به، ولا بد في النصب من التأويل الذي نكرنا أي: أنزل على دعوكم أساطير الأولين، أو يقولون ذلك من أنفسهم على طريق السخرية. والأساطير: الأباطيل والترّهات التي يتحدث الناس بها عن القرون الأولى. وليس من كلام الله في شيء ولا مما أنزله الله أصلاً في زعمهم **﴿ليحملوا أوزارهم**

وابن المنذر عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿فَأَنشَأَ اللَّهُ بَنِيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ قال: أنشأ أمر الله من أصلها ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ والسقف: أعالي البيوت فائنكت بهم بيوتهم، فاهلكهم الله ودمرهم ﴿وَوَاتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿تَشَاقُقُونَ فِيهِمْ﴾ قال: تخالفوني.

قَالَ الْبَرَزِيُّ أَرَادَ الْبَرَزِيُّ الْخَزْيَ الْيَمَّ وَالشَّرَّ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿وَالَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا أَلْفًا مَآ كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوْرٍ بَلْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تَأَدَّلُوا أَتَوَلَّى جَهَنَّمَ خَلِيلِيكُ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُسْكِينِ ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَبَرٌ وَلِيُمْ مَنَّا دَارُ الْمُسْكِينِ﴾ جَعَلَ مَثْوًى يَسْتَلُونَ تَجَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثُمَّ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْرَى اللَّهُ الْمَلَكِيَّةَ ﴿وَالَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوتَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ﴾ قيل: هم العلماء قالوه لأممهم الذين كانوا يعظونهم ولا يلتفتون إلى وعظهم، وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة؛ وقيل: هم الأنبياء، وقيل: الملائكة، والظاهر الأول لأن نكرهم بوصف العلم يفيد ذلك وإن كان الأنبياء والملائكة هم من أهل العلم، بل هم أعرق فيه لكن لهم وصف ينكرون به هو اشرف من هذا الوصف، وهو كونهم أنبياء أو كونهم ملائكة، ولا يقدح في هذا جواز الإطلاق، لأن المراد الاستدلال على الظهور فقط ﴿وَأَن لَّخَزْيَ الْيَوْمِ﴾ أي: الذل والهوان والفضيحة يوم القيامة ﴿وَالسُّوءِ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ مختص بهم ﴿وَالَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ قد تقدم تفسيره، والموصول في محل الجر على أنه نعت للكافرين، أو بدل منه، أو في محل نصب على الاختصاص، أو في محل رفع على تقدير مبتدأ أي: هم الذين تتوفاهم، وانتصاب ظالمي أنفسهم على الحال ﴿فَالْقَوَاعِدُ السَّلَامُ﴾ معطوف على ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ وما بينهما اعتراض أي: أقروا بالربوبية، وانقادوا عند الموت، ومعناه الاستسلام قاله قطرب، وقيل: معناه المسالمة أي: سالموا وتركوا المشاقة قاله الأخفش؛ وقيل: معناه الإسلام أي: أقروا بالإسلام وتركوا ما كانوا فيه من الكفر، وجملة ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ يجوز أن تكون تفسيراً للمسلم على أن يكون المراد بالمسلم الكلام الدال عليه، ويجوز أن يكون المراد بالسوء هنا للشرك، ويكون هذا القول منهم على وجه الجحود والكذب، ومن لم يجوز الكتب على أهل القيامة حمله على أنهم أراؤا أنهم لم يعملوا سوءاً في اعتقادهم وعلى حسب ظنونهم، ومثله قولهم: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] فلما قالوا هذا أجاب عليهم أهل العلم بقولهم: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

الْمُقْسِمُونَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ نَكَرَهُمْ فِي سُورَةِ الْحَجَرِ ﴿وَوَاتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: الهلاك ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به، بل من حيث أنهم في أمان، ثم بين سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا. فقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْزِيهِمْ﴾ بإبخالهم النار، ويفضحهم بذلك ويهينهم، وهو معطوف على مقدر. أي هذا عذابهم في الدنيا، ثم يوم القيامة يخزيهم ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم مع ذلك توبيخاً وتقريعاً ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ كما تزعمون وتدعون، قرأ ابن كثير من رواية البرقي (شركائي) من دون همز، وقرأ الباقر باللهمز، ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله: ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشَاقُقُونَ فِيهِمْ﴾ قرأ نافع بكسر النون على الإضافة، وقرأ الباقر بفتحها أي: تخصمون الأنبياء والمؤمنين فيهم، وعلى قراءة نافع تخصمونني فيهم وتعالونني، ادعوهم فلينبغوا عنكم هذا العذاب النازل بكم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا جُرمَ﴾ يقول: بلى. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك ﴿لَا جُرمَ﴾ قال: يعني الحق. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: لا كذب. وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فقال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، فقال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمص الناس». وفي ذم الكبر ومدح التواضع أحاديث كثيرة، وكذلك في إخراج محبة حسن الثوب وحسن النعل، ونحو ذلك من الكبر أحاديث كثيرة. والحاصل أن النبي ﷺ قد بين ماهية الكبر أنه بطر الحق وغمص الناس، فهذا هو الكبر المنموم. وقد ساق صاحب الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية: أعني قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أحاديث كثيرة ليس هذا مقام إيرادها، بل المقام مقام نكر ماله علاقة بتفسير الكتاب العزيز. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أن ناساً من مشركي العرب كانوا يقعدون بطريق من أتى نبي الله ﷺ، فإذا مرؤا سالوهم فأخبروهم بما سمعوا من النبي ﷺ فقالوا: إنما هو أساطير الأولين. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يَلْحَمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ الآية يقول يحملون مع نؤيهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه، وزاد ولا يخفف ذلك عن أطاعهم من العذاب شيئاً. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: نمرود بن كنعان حين بنى الصرح. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن زيد بن أسلم أنه النمرود أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير،

ومعناه يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون السلام إنذاراً لهم بالوفاة. الثاني أن يكون تبشيراً لهم بالجنة لأن السلام أمان. وقيل: إن الملائكة يقولون: السلام عليك ولي الله إن الله يقرأ عليك السلام ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ أي: بسبب عملكم. قيل: يحتمل هذا وجهين: الأول أن يكون تبشيراً بدخول الجنة عند الموت، الثاني أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة. ولا ينافي هذا بدخول الجنة بالتفضل كما في الحديث الصحيح: «سننوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا أنا إلا أن يتغمضني الله برحمته». وقد قلّمنا البحث عن هذا.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ قال: هؤلاء المؤمنون، يقال لهم: ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ فيقولون: ﴿خيراً للذين أحسنوا﴾ أي: آمنوا بالله وكتبه وأمروا بطاعته وحثوا عباد الله على الخير ودعواهم إليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ قال: أحياء وأمواتاً قدر الله لهم ذلك.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَشْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَنَّمُوا أَنَّ اللَّهَ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَبِأَنفُسِهِمْ يَكْفُرُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَتَرَكُوا كَلَّا اللَّهُ مَا عِدَّنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ قُوَّةٍ وَكُنَّا عَائِلًا بَوَاقًا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ قُوَّةٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعَلَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا الْبَلْعَ الْمَيْمِ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِئُهُمْ بِأَنَّهُمْ لَاحِقُونَ لَاحِقُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ السَّيِّئَاتُ فَنَظَرْنَا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ تَحْرُشَ عَلَى هُدُنِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُبْغِلُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴿٤٠﴾ وَأَسْمَوْا بِاللَّهِ جَهْدَ أَعْيُنِهِمْ لَا يُبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلْ وَرَدَّ عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٣﴾

قوله: ﴿هل ينظرون﴾ الآية هذا جواب شبهة أخرى لمنكري النبوة، فإنهم طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم ملكاً من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال: هل ينظرون في تصديق نبوتك ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ شاهدين بذلك، ويحتمل أن يقال: إنهم لما طعنوا في القرآن بأنه أساطير الأولين أو عدهم الله بقوله: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي: عذابه في الدنيا المستأصل لهم، أو المراد بامر الله القيامة. وقرأ الأعمش، وابن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف (إلا أن يأتيهم الملائكة) بالياء التحتية وقرأ الباقر بالمشنة الفوقية؛ والمراد بكونهم ينظرون أي: ينتظرون إتيان الملائكة

بما كنتم تعملون﴾ أي: بلى كنتم تعملون السوء. إن الله عليم بالذي كنتم تعملونه فجازيكم عليه ولا ينفعكم هذا الكذب شيئاً ﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ أي: يقال لهم ذلك عند الموت. وقد تقدّم نكر أبواب جهنم وأن جهنم درجات بعضها فوق بعض، و﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة لأن خلودهم مستقبل ﴿فلبئس مثوى المتكبرين﴾ المخصوص بالذم محذوف، والتقدير، لبئس مثوى المتكبرين جهنم، والمراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الإيمان والعبادة كما في قوله: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ [الصفافات: 35]. ثم اتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء، فقال: ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ وهم المؤمنون ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي: أنزل خيراً. قال الثعلبي: فإن قيل: لم ارتفع الجواب في قوله: ﴿أساطير الأولين﴾ وانتصب في قوله: ﴿خيراً؟﴾ فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكانهم قالوا الذي يقولونه محمد هو أساطير الأولين، والمؤمنون آمنوا بالتنزيل، فقال: أنزل خيراً ﴿للذين أحسنوا﴾ في هذه الدنيا حسنة ﴿قيل: هذا من كلام الله عز وجل، وقيل: هو حكاية لكلام الذين اتقوا، فيكون على هذا بدلاً من خيراً، وعلى الأول يكون كلاماً مستأنفاً مسوقاً للمدح للمتقين، والمعنى: للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا حسنة أي: مثوبة حسنة ﴿ولدار الآخرة﴾ أي: مثوبتها ﴿خيراً﴾ مما أوتوا في الدنيا ﴿ولنعلم دار المتقين﴾ دار الآخرة، فحذف المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه، وارتفاع ﴿جنات عدن﴾ على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها، أو خبر مبتدأ محذوف، وقيل: يجوز أن تكون هي المخصوص بالمدح ﴿يدخلونها﴾ هو إما خبر المبتدأ، أو خبر بعد خبر، وعلى تقدير تنكير عدن تكون صفة لجنات، وكذلك ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ وقيل: يجوز أن تكون الجملتان في محل نصب على الحال على تقدير أن لفظ عدن علم، وقد تقدّم معنى جري الأنهار من تحت الجنات ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ أي: لهم في الجنات ما تقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرد ذلك ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي: مثل ذلك الجزاء يجزيهم، والمراد بالمتقين كل من يتقي الشرك وما يوجب النار من المعاصي. والموصول في قوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ في محل نصب نعت للمتقين المذكور قبله، قرأ الأعمش وحمزة (تتوفاهم) في هذا الموضع، وفي الموضع الأول بالياء التحتية، وقرأ الباقر بالمشنة الفوقية. واختار القراءة الأولى أبو عبيد مستدلاً بما روي عن ابن مسعود أنه قال: إن قريشاً زعموا أن الملائكة إناث فنكروهم أنتم. وطيبين فيه أقوال: طاهرين من الشرك، أو الصالحين، أو زاكية أفعالهم وأقوالهم، أو طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله، أو طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله، أو طيبين الوفاة أي: هي عليهم سهلة لا صعوبة فيها، وجملة ﴿يقولون سلام عليكم﴾ في محل نصب على الحال من الملائكة أي: قائلين سلام عليكم؛

إلى الضلال ﴿فمنهم﴾ أي: من هذه الأمم التي بعث الله إليها رسوله ﴿ومن هدى الله﴾ أي: أرشده إلى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت ﴿ومنهم من حققت عليه الضلالة﴾ أي: وجبت وثبتت لإصراره على الكفر والعناد. قال الزجاج: أعلم الله أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة وهو من وراء الإضلال والهداية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ [الأعراف: 30]. وفي هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الشيطان وكل ما يدعو إلى الضلال، وأنهم بعد ذلك فريقان فمنهم من هدى ومنهم من حققت عليه الضلالة، فكان في ذلك دليل على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته فإنه يأمر لكل بالإيمان، ولا يريد الهداية إلا للبعث، إذ لو أرادها لكل لم يكفر أحد، وهذا معنى ما حكيناه عن الزجاج هنا. ﴿فسيروا في الأرض﴾ سير معتبرين ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لأثارهم كعاد وثمود أي: كيف صار آخر أمرهم إلى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب ثم خصص الخطاب برسوله ﷺ مؤكداً لما تقدم فقال: ﴿إن تحرص على هداهم﴾ أي: تطلب بجهنك ذلك ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾، قرأ ابن مسعود وأهل الكوفة (لا يهدي) بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند إلى الله سبحانه أي: فإن الله لا يرشد من أضله، و «من» في موضع نصب على المفعولية. وقرأ الباقون (لا يهدي) بضم حرف المضارعة على أنه مبني للمجهول، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم على معنى أنه لا يهدي هاد كائن من كان، و «من» في موضع رفع على أنها نائب الفاعل المحذوف، فتكون هذه الآية على هذه القراءة كقوله في الآية الأخرى ﴿من يضل الله فلا هادي له﴾ [الأعراف: 186]. والعائد على القراءتين محذوف أي: من يضل. وروى أبو عبيد عن الفراء على القراءة الأولى أن معنى ﴿لا يهدي﴾ لا يهتدي كقوله تعالى: ﴿ومن لا يهدي﴾ إلا أن يهدي [يونس: 35]. بمعنى يهتدي، قال أبو عبيد: ولا نعلم أحداً روى هذا غير الفراء وليس بمتهم فيما يحكيه. قال النحاس: حكى عن محمد بن يزيد المبرد، كأن معنى ﴿لا يهدي من يضل﴾ من علم ذلك منه وسبق له عنده ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم على الهداية لمن أضله الله أو ينصرونهم برفع العذاب عنهم، ثم نكر عناد قريش وإنكارهم للبعث فقال: ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ مصدر في موضع الحال أي: جاهدين ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ من عباده، زعموا أن الله سبحانه عاجز عن بعث الأموات، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿بلى وعدا عليه حقاً﴾ هذا إثبات لما بعد النفي أي: بلى يبعثهم، و «وعدا» مصدر مؤكد لما دل عليه بلى وهو يبعثهم لأن البعث وعد من الله وعد عباده به، والتقدير وعد البعث وعداً عليه حقاً لا خلف فيه، و «حقاً» صفة لوعده، وكذا عليه فإنه صفة لوعده أي: كائنات عليه، أو نصب حقاً على المصدرية: أي حق حقاً ﴿ولكن أكثر الناس

أو إتيان أمر الله على التفسير الآخر أنهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب وصار منتظراً له، وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة، فإنهم لا يؤمنون بذلك ولا يصنقونه ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي: مثل فعل هؤلاء من الإصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء فعل الذين خلوا من قبلهم من طوائف الكفار فاتاهم أمر الله فهلكوا ﴿وما ظلمهم الله﴾ بتدميرهم بالعذاب فإنه أنزل بهم ما يستحقونه بكفرهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بما ارتكبوه من القبائح، وفيه أن ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما إليه يتول، وجملة ﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ معطوفة على فعل الذين من قبلهم، وما بينهما اعتراض. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله، والمعنى: فأصابهم جزء سيئات أعمالهم، أو جزء أعمالهم السيئة ﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل بهم على وجه الإحاطة ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: للعذاب الذي كانوا به يستهزئون أو عقاب استهزئتهم ﴿وقال الذين أشركوا﴾ هذا نوع آخر من كفرهم الذي حكاه الله عنهم، والمراد بالذين أشركوا هنا أهل مكة ﴿لو شاء الله ما عبثنا من دونه من شيء﴾ أي: لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره ما عبثنا ذلك ﴿نحن ولا آبائنا﴾ الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من دين الكفر والشرك بالله. قال الزجاج: إنهم قالوا هذا على جهة الاستهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين، وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة الأنعام ﴿ولا حزننا من دونه من شيء﴾ من السوائب والبخائر ونحوهما، ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشيئة الطعن في الرسالة أي: لو كان ما قاله الرسول حقاً من المنع من عبادة غير الله، والمنع من تحريم ما لم يحرمه الله حاكياً ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما أراد منا فإنه قد شاء ذلك وما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن، فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه كان ذلك ليللاً على أن ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته، مع أنهم في الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرّون به لكنهم قصدوا ما نكرنا من الطعن على الرسل ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ من طوائف الكفر فإنهم أشركوا بالله وحرموا ما لم يحرمه وجادلوا رسله بالباطل واستهزؤا بهم، ثم قال: ﴿فهل على الرسل﴾ الذين يرسلهم الله إلى عباده بما شرعه لهم من شرائعه التي رأسها توحيده، وترك الشرك به ﴿إلا البلاغ﴾ إلى من أرسلوا إليهم بما أمروا بتبليغه بلاغاً واضحاً يفهمه المرسل إليهم ولا يلتبس عليهم، ثم إنه سبحانه أكد هذا وزاده إيضاحاً فقال: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾ كما بعثنا في هؤلاء لإقامة الحجة عليهم ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء: 15] و «أن» في قوله: ﴿أن اعبدوا الله﴾ إما مصدرية أي: بعثنا بأن اعبدوا الله، أو مفسرة لأن في البعث معنى القول: ﴿واجتنبوا الطاغوت﴾ أي: اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم وكل من دعا

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عن أبي هريرة قال: قال الله تعالى سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، أما تكذبيه إياي فقال: وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، وقلت: بلى وعداً عليه حقاً. وأما سب إياي، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: 73]، وقلت: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهِ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1 - 4]، هكذا نكره أبو هريرة موقوفاً وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ اللَّهُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ يقول: للناس عامة.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنَزِلَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا نُجْزِي الْآخِرَةَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَتْلَمُونَ ﴿١١١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُرِيهِمْ آيَاتِنَا فَتَوَلَّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١٣﴾ بِالنَّبِيِّ وَالْزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ يُخَيِّرُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ مَكَرُوا السُّيُوفَ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْغَدَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يُشْعُرُونَ ﴿١١٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَأَمَّا هُمْ فَيَمْجِرِينَ ﴿١١٦﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى مَا حَلَّى اللَّهُ مِنْ قَبْلِ يَتَوَكَّلُوا ظِلْمَهُ عَنِ الْبَيِّنِ وَالْكَافِلِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَهُوَ دَرَجُونَ ﴿١١٨﴾ وَلَقَدْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالنَّجْمِ كُلِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١١٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوْنِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١٢٠﴾

قد تقدم تحقيق معنى الهجرة في سورة النساء، وهي ترك الأهل والأوطان، ومعنى ﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ في شأن الله سبحانه وفي رضاه؛ وقيل: ﴿فِي اللَّهِ﴾ في دين الله، وقيل: في بمعنى اللام أي: الله ﴿مَنْ بَعْدَ مَا ظَلَمُوا﴾ أي: عذبوا وأهينوا فإن أهل مكة عذبوا جماعة من المسلمين حتى قالوا ما أرادوا منهم، فلما تركوهم هاجروا. وقد اختلف في سبب نزول الآية، فقيل: نزلت في صهيب وبلال وخباب وعمار. واعترض بأن السورة مكية، وذلك يخالف قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾. وأجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية في هذه السورة كما قدمنا في عنوانها، وقيل: نزلت في أبي جندل بن سهيل، وقيل: نزلت في أصحاب محمد ﷺ لما ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبيشة.

﴿لَنَبْلُوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ اختلف في معنى هذا على أقوال؛ فقيل: المراد نزولهم المدينة قاله ابن عباس، والحسن، والشعبي، وقتادة؛ وقيل: المراد الرزق الحسن قاله مجاهد؛ وقيل: النصر على عتوهم قاله الضحاك؛ وقيل: ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات؛ وقيل: ما بقي لهم فيها من الثناء وصار لأولادهم من الشرف. ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور؛

لا يعلمون﴾ أن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير. وقوله ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: ليظهر لهم، وهو غاية لما دلَّ عليه بلى من البعث، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ راجع إلى من يموت، والموصول في قوله: ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ في محل نصب على أنه مفعول ليبين أي: الأمر الذي وقع الخلاف بينهم فيه، وبينه إذ ذاك يكون بما جأته به الرسل، ونزلت عليهم فيه كتب الله؛ وقيل: إن ليبين متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ أي: بعثنا في كل أمة رسولا ليبين وهو بعيد ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله سبحانه وأنكروا البعث ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في جدالهم وإنكارهم البعث بقولهم: ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾، وجملة ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَيْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإبداء والإعادة بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه. قال الزجاج: أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه فأخبر أنه متى أراد الشيء كان، وهذا كقوله: ﴿وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]. وقرأ ابن عامر، والكسائي (فيكون) بالنصب عطفاً على أن نقول. قال الزجاج: يجوز أن يكون نصباً على جواب كن. وقرأ الباقر بالرفع على معنى: فهو يكون. قال ابن الأنباري: أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق، لأنه بمنزلة ما قد وجد وشوهد. وقال الزجاج: إن معنى «لشيء» لأجل شيء فجعل اللام سببية؛ وقيل: هي لام التبليغ، كما في قوله: قلت له قم فقام، و ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ مبتدأ ﴿وَأَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ خبره، وهذا الكلام من باب التمثيل على معنى: أنه لا يمتنع عليه شيء، وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمورية عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع، وليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال: إنه يلزم منه أحد محالين إما خطاب المعلوم، أو تحصيل لحاصل. وقد مضى تفسير ذلك في سورة البقرة مستوفى.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿هُمْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَتْلِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال: بالموت، وقال في آية أخرى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: 50]، وهو ملك الموت، وله رسل ﴿وَأُوْىٰى أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وذاكم يوم القيامة. وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ قال: من يضلله الله لا يهديه أحد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا، فقال له المشرك: إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت، فاقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ الآية. وأخرج ابن العنقي، وابن مردويه عن علي في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ قال: نزلت في.

يذكر بعلم، والبيّنات: الحجج والبراهين، والزبر: الكتب. وقد تقدّم الكلام على هذا في آل عمران ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن، ثم بين الغاية المطلوبة من الإنزال فقال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ جميعاً ﴿مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الذكر من الأحكام الشرعية والوعد والوعيد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إرادة أن يتأملوا ويعملوا أفكارهم فيبتعدوا ﴿أَفَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا لِّلسَّيِّئَاتِ﴾ يحتمل أن تكون السيئات صفة مصدر محذوف أي: مكروا المكرات السيئات، وأن تكون مفعولة للمفعول المذكور على تضمينه معنى العمل أي: عملوا السيئات، أو صفة لمفعول مَقَرَّ أي: أفأمن الماكرون العقوبات السيئات، أو على حذف حرف الجرّ أي: مكروا بالسيئات ﴿أَنْ يَخْشَفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ هو مفعول آمن، أو بدل من مفعوله على القول بأن مفعوله محذوف، وأن السيئات صفة للمحذوف، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، ومكر السيئات: وسعيهم في إيذاء رسول الله ﷺ وإيذاء أصحابه على وجه الخفية، واحتياهم في إبطال الإسلام، وكيد أهله ﴿أَنْ يَخْشَفَ اللَّهُ بِهِمُ﴾ كما خسف بقارون، يقال: خسف المكان يخسف خسفاً: ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفاً أي: غاب به فيها، ومنه قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصاص: 81] وخسف هو في الأرض وخسف به ﴿أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به في حال غفلتهم عنه كما فعل يقوم لوط وغيرهم، وقيل: يريد يوم بدر فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ولم يكن في حسابناهم ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾.

نكر المفسرون فيه وجوهاً، فقيل: المراد في أسفارهم ومتاجرهم فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم في السفر كما يهلكهم في الحضر، وهم لا يفوتونه بسبب ضريرهم في الأرض، ويعددهم عن الاوطان؛ وقيل: المراد في حال تقلبهم في قضاء أوطارهم بوجود الحيل، فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم؛ وقيل: في حال تقلبهم في الليل على فرشهم، وقيل: في حال إقبالهم وإبصارهم، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار، والقلب بالمعنى الأول مأخوذ من قوله: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: 196]. وبالمعنى الثاني مأخوذ من قوله: ﴿وَقَلْبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ [التوبة: 48]. ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين ولا ممتنعين ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: حال تخوف وتوقع للبلایا بأن يكونوا متوقعين للعذاب حزينين منه غير غافلين عنه، فهو خلاف ما تقدم من قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقيل: معنى ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ على تنقص. قال ابن الأعرابي: أي على تنقص من الأموال والنفوس والثمرات حتى أهلكهم. قال الواحدي: قال عامة المفسرين: على تخوف قال: تنقص إما بقتل أو بموت، يعني: بنقص من أطرافهم ونواحيهم يأخذهم الأول فالأول حتى يأتي الأخذ على جميعهم. قال: والتخوف التنقص، يقال: هو يتخوف المال أي: يتنقصه، ويأخذ من أطرافه، انتهى.

ومعنى ﴿لِنُبَيِّنَهُمْ فِي النَّبِيَا حَسَنَةً﴾ لنبيوتهم مباءة حسنة أو تبوئة حسنة، فحسنة صفة مصدر محذوف ﴿وَلَا جَرَّ الْآخِرَةَ﴾ أي: جزاء أعمالهم في الآخرة ﴿الْكَبِيرِ﴾ من أن يعلمه أحد من خلق الله قيل أن يشاهده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: 20]. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان هؤلاء الظلمة يعلمون ذلك، وقيل إن الضمير في «يعلمون» راجع إلى المؤمنين أي: لو رأوا ثواب الآخرة وعابثوه لعلوا أنه أكبر من حسنة الدنيا ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ الموصول في محل نصب على المدح، أو الرفع على تقدير مبتدأ، أو هو بدل من الموصول الأول، أو من الضمير في «لنبيوتهم»، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: على ربهم خاصة يتوكلون في جميع أمورهم معرضين عما سواه، والجملة معطوفة على الصلة أو في محل نصب على الحال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾. قرأ حفص عن عاصم (نوحى) بالنون، وقرأ الباقر (يوحى) بالياء التحتية، وهذه الآية ردّ على قريش حيث زعموا أن الله سبحانه أجل من أن يرسل رسولاً من البشر، فردّ الله عليهم بأن هذه عادته وسنته أن لا يرسل إلّا رجلاً من البشر يوحى إليهم. وزعم أبو علي الجبائي أن معنى الآية أن الله سبحانه لم يرسل إلى الأنبياء بوحيه إلّا من هو على صورة الرجال من الملائكة. ويردّ عليه بأن جبريل كان يأتي رسول الله ﷺ على صور مختلفة، ولما كان كفار مكة مقرّين بأن اليهود والنصارى هم أهل لعلم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل صرف الخطاب إليهم وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب، فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فاسألوا أيها المشركون مؤمن أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون فإنهم سيخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرًا، أو أسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنهم كما يفيد الظاهر فإنهم كانوا يعرفون بذلك ولا يكتمونه؛ وقيل: المعنى فاسألوا أهل القرآن، و﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ﴾ يتعلق بأرسلنا، فيكون دالّخاً في حكم الاستثناء مع رجلاً، وأنكر للفراء ذلك، وقال: إن صفة ما قيل إلّا لا تتأخر إلّا ما بعدها، لأن المستثنى عنه هو مجموع ما قيل: إلّا مع صلته، كما لو قيل أرسلنا إلّا رجلاً بالبيّنات، فلما لم يصّر هذا المجموع منكوراً بتمامه امتنع إدخال الاستثناء عليه؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما أرسلنا من قبلك بالبيّنات والزبر إلّا رجلاً؛ وقيل: يتعلق بمحذوف دلّ عليه المذكور أي: أرسلناهم بالبيّنات والزبر، ويكون جواباً عن سؤال مقترّ كأنه قيل: لماذا أرسلهم؟ فقال: أرسلناهم بالبيّنات والزبر؛ وقيل: متعلق بالبيّنات والزبر؛ وقيل: متعلق بالبيّنات والزبر؛ وقيل: بنوحى أي: نوحى إليهم بالبيّنات والزبر؛ وقيل: منصوب بتقدير أعني، والباء زائدة، وأهل الذكر هم أهل الكتاب كما تقدّم. وقال الزجاج: أسألوا كل من

يقال: تخوفه الدهر وتخونه بالغاء والنون: تنقصه، قال ذو الرمة:

لا بل هو الشوق من دار تخوفها مراسحاب ومرابارح ترب وقال لبيد:

تخوفها نزولي وارتحالي

أي: تنقص لحمها وشحمها قال الهيثم بن عدي: للتخوف بالغاء التثني لفة لأزد شنودة، وأنشد:

تخوف عبوم مالي واميدي سلاسل في الحلق لها صليل وقيل: على تخوف على عجل قاله الليث بن سعد، وقيل: على تقريع بما قَمَّوه من ذنوبهم، روي ذلك عن ابن عباس، وقيل: على تخوف أن يعاقب ويتجاوز قاله قتادة: ﴿فإن ريكم لرءوف رحيم﴾ لا يعاجل، بل يمهل راقية بكم ورحمة لكم مع استحقاقهم للعقوبة ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ لما خوف سبحانه المالكين بما خوف أتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته في تبدير أحوال العالم العلوي والسفلي ومكانهما، والاستفهام في ﴿أولم يروا﴾ للإنكار، وما مبهم مفسرة بقوله: «من شيء»، قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويحيى بن وثاب، والأعمش (تروا) بالمثلثة الفوقية على أنه خطاب لجميع الناس؛ وقرأ الباقون بالتحته بإرجاع الضمير إلى الذين مكروا السيئات، وقرأ أبو عمرو ويعقوب (تتفياً ظلاله) بالمثلثة الفوقية، وقرأ الباقون بالتحته، واختارها أبو عبيد: أي يميل من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال ويتقلص، ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى. قال الأزهري: تفياً الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار، فالتفياً لا يكون إلا بالعشي وما انصرف عنه الشمس والقمر، والذي يكون بالعادة هو الظل. وقال ثعلب: أخبرت عن أبي عبيدة أن رؤية قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل، ومعنى ﴿من شيء﴾ من شيء له ظل، وهي الأجسام، فهو عام أريد به الخاص، وظلاله جمع ظل، وهو مضاف إلى مفرد لأنه واحد يراد به الكثرة ﴿عن اليمين والشمائل﴾ أي: عن جهة إيمانها وشمائلها أي: عن جانبي كل واحد منها. قال الفراء: وحد اليمين، لأنه أراد واحداً من نوات الأظلال، وجمع الشمائل لأنه أراد كلها، لأن ما خلق الله لفظه مفرد ومعناه جمع. وقال الواحدي: وحد اليمين والمراد به الجميع إيجازاً في اللفظ كقوله: ﴿يولولون الديبر﴾ [القمر: 45]، وبلت الشمائل على أن المراد به الجمع؛ وقيل: إن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ [الأنعام: 1]، و﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ [البقرة: 7]، وقيل: المراد باليمين النقطة التي هي مشرق الشمس، وأنها واحدة. والشمائل عبارة عن الانحراف في فلك الإظلال بعد وقوعها على الأرض وهي كثيرة، وإنما عبر عن المشرق باليمين لأن أقوى جانبي الإنسان يمينه، ومنه تظهر الحركة القوية ﴿سجداً لله﴾ منتصب على الحال أي: حال كون الظلال

سجداً لله. قال الزجاج: يعني أن هذه الأشياء مجبولة على الطاعة، وقال أيضاً: سجود الجسم انقياده وما يرى من أثر الصنعة ﴿وهم داخرون﴾ في محل نصب على الحال أي: خاضعون صاغرون، والبخور: الصغار والذل، يقال: نخر الرجل فهو داخر وأخضره الله. قال الشاعر:

فلم يبق إلا داخري مخيس ومتحجر في غير أرضك في حجر ومخيس: اسم سجن كان بالعراق ﴿ووه يسجد ما في السفوات وما في الأرض من دابة﴾ أي: له وحده يخضع وينقاد لا لغيره ما في السموات جميعاً، وما في الأرض من دابة تند على الأرض، والمراد به كل دابة. قال الأخفش: هو كقولك ما أتاني من رجل مثله، وما أتاني من الرجال مثله. وقد نخل في عموم ما في السموات وما في الأرض جميع الأشياء الموجودة فيهما، وإنما خص الدابة بالذكر لأنه قد علم من قوله: ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ انقياد الجمادات، وعطف الملائكة على ما قبلهم تشريفاً لهم، وتعظيماً لنحوهم في المعطوف عليه ﴿وهم لا يستكبرون﴾ أي: والحال أنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم، والمراد الملائكة؛ ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة. وفي هذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل يسجد، وما عطف عليه أي: يسجد لله ما في السموات وما في الأرض والملائكة وهم جميعاً لا يستكبرون عن السجود ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال أي: حال كونهم يخافون ربهم من فوقهم، أو جملة مستأنفة لبيان نفي استكبارهم، ومن آثار الخوف عدم الاستكبار، ومن فوقهم متعلق بيخافون على حذف مضاف أي: يخافون عذاب ربهم من فوقهم، أو يكون حالاً من الرب أي: يخافون ربهم حال كونه من فوقهم، وقيل: معنى ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ يخافون الملائكة فيكون على حذف المضاف: أي يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم وهو تكلف لا حاجة إليه، وإنما اقتضى مثل هذه التاويلات البعيدة المحاماة على مذاهب قد رسخت في الأذهان، وتقررت في القلوب، قيل: وهذه المخافة هي مخافة الإجلال، واختاره الزجاج فقال: ﴿يخافون ربهم﴾ خوف مجلين، ويدل على صحة هذا المعنى قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ [الأنعام: 61]. وقوله إخباراً عن فرعون ﴿وإننا فوقهم قاهرون﴾ [الأعراف: 127]. ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي: ما يؤمرون به من طاعة الله يعني: للملائكة، أو جميع من تقدم ذكره، وحمل هذه الجمل على الملائكة أولى، لأن في مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته، ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به، كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وبإليس وجنوده.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا﴾ قال: هم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعد ظلمهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي

في **﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾** لام كي أي: لكي يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر، حتى كأن هذا الكفر منهم الواقع في موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم، وهذا غاية في العتو والعناد ليس وراءها غاية؛ وقيل: اللام للعاقبة يعني: ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا هذا الكفر. ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب **﴿فتمتعوا﴾** بما أنتم فيه من ذلك **﴿فسوف تعلمون﴾** عاقبة أمركم وما يحل بكم في هذه الدار وما تصيرون إليه في الدار الآخرة. ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من قبائح أعمالهم فقال: **﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾** أي: يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجوار إلى الله سبحانه في كشف الضر عنهم وما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والإشراك به، ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيباً مما رزقناهم من أموالهم يتقربون به إليه، وقيل: للمعنى أنهم أي الكفار يجعلون للأصنام وهم لا يعلمون شيئاً لكونهم جمادات، ففاعل يعلمون على هذا هي الأصنام وأجراها مجرى العقلاء في جمعها بالوار والنون جرياً على اعتقاد الكفار فيها، وحاصل المعنى: ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعقل شيئاً نصيباً من أموالهم التي رزقهم الله إياها **﴿تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾** هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب، وهذا السؤال سؤال توبيخ وتوبيخ **﴿عما كنتم تفترون﴾** تختلفونه من الكذب على الله سبحانه في الدنيا **﴿ويجعلون لله البنات﴾** هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم، وقد كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله **﴿سبحانه﴾** نزه سبحانه نفسه عما نسبته إليه هؤلاء الجفافة الذين لا عقول لهم صحيحة ولا أفهام مستقيمة **﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾** [الفرقان: 44] وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم **﴿ولهم ما يشتهون﴾** أي: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهونه من البنين على أن «ما» في محل نصب بالفعل المقدر، ويجوز أن تكون في محل رفع على الابتداء. وإنكر النصب الزجاج قال: لأن العرب لا يقولون: جعل له كذا وهو يعني نفسه، وإنما يقولون: جعل لنفسه كذا، فلو كان منصوباً لقال: ولأنفسهم ما يشتهون. وقد أجاز النصب الفراء. ثم ذكر سبحانه كراهمتهم للإناث التي جعلوها لله سبحانه فقال: **﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى﴾** أي: إذا أخبر أحدهم بولادة بنت له **﴿ظلل وجهه مسوداً﴾** أي: متغيراً، وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسود وجهه غماً وحرزاً قاله الزجاج. وقال المارودي: بل المراد سواد اللون حقيقة، قال: وهو قول الجمهور، والأول أولى، فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحنن واغتم لا يحصل في لونه إلا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي، وجملة **﴿وهو كظيم﴾** في محل نصب

لا ابتغي الحمد القليل بقاؤه بزم يكون الدهر لجمع واصبا أي: دائماً. وروي عن الفراء أيضاً أنه قال: الواصب الخالص، والأول أولى، ومنه قوله سبحانه: **﴿ولهم عذاب واصب﴾** [الصافات: 9] أي دائم. وقال الزجاج: أي طاعته واجبة أبداً. ففسر الواصب بالواجب. وقال ابن قتيبة في تفسير الواصب: أي ليس أحد يطاع إلا انقطع ذلك بزوال أو بهلكة غير الله تعالى فإن الطاعة تدوم له، ففسر الواصب بالدائم، وإذا دام الشيء دواماً لا ينقطع فقد وجب وثبت، يقال: وصب الشيء يصب وصوباً فهو واصب: إذا دام، ووصب الرجل على الأمر: إذا واطب عليه؛ وقيل: الوصب التعب والإياء أي: يجب طاعة الله سبحانه وإن تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما في الآية، والاستفهام في قوله: **﴿أفغير الله تتقون﴾** للتقريع والتوبيخ، وهو معطوف على مقدر كما في نظائره، والمعنى: إذا كان الدين: أي الطاعة واجباً له دائماً لا ينقطع كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به وعدم إيقاعها لغيره. ثم امتزى سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقبلون فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال: **﴿وما بكم من نعمة﴾** أي: ما يلبسكم من النعم على اختلاف أنواعها فمن الله أي: فهي منه، فتكون ما شرطية، ويجوز أن تكون موصولة متضمنة معنى الشرط، وبكم صلتها، ومن نعمة حال من الضمير في الجار والمجرور، أو بيان لما. وقوله: **﴿فمن الله﴾** الخبر، وعلى كون ما شرطية يكون فعل الشرط محذوفاً أي: ما يكن، والنعمة إما دينية وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به، وإما دنيوية نفسانية، أو بدينية أو خارجية كالسعادات المالية وغيرها، وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها، والكل من الله سبحانه فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه، ثم بين تلون الإنسان بعد استغراقه في بحر النعم فقال: **﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجارون﴾** أي: إذا مسكم الضر أي مس فإلى الله سبحانه لا إلى غيره تتضرعون في كشفه فلا كاشف له إلا هو، يقال جار يجار في لسان العرب جواراً: إذا رفع صوته في تضرع. قال الأعشى يصف بقرة: فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة وكان للنكير أن تطيف وتجارا والضر المرض والبلاء والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الإنسان **﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يربهم يشركون﴾** أي: إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر «إذا فريق» أي: جماعة منكم يربهم الذين رفع الضر عنهم يشركون فيجعلون معه إلهاً آخر من صنم أو نحوه، والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء حيث يضعون الإشراك بالله الذي أتم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له، وهذا المعنى قد تقدم في الأنعام ويونس، ويأتي في سبحان. قال الزجاج: هذا خاص بمكر وكفر، وقابل كشف الضر عنه بالاجود والكفر، وعلى هذا فتكون من في منكم للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعاً، والفريق هم الكفرة وإن كان الخطاب موجهاً إلى الكفار فمن للبيان، واللام

غيرهم فبشؤم ظلم الظالمين، والله الحكمة البالغة ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]، ومثل هذا قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: 25]. وفي معنى هذا أحاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم»، وكذلك حديث الجيش «الذين يخسف بهم في البيداء، وفي آخره: أنهم يبعثون على نياتهم» وقد قَدَّمنا عند تفسير قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ [الأنفال: 25] الآية تحقيقاً حقيقاً بالمراجعة له ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرْهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم عنده وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم أو أجل عذابهم، وفي هذا التأخير حكمة بالغة منها الإعذار إليهم وإرخاء العنان معهم، ومنها حصول من سبق في علمه من أولادهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ الذي سماه لهم حقت عليهم كلمة الله سبحانه في تلك الوقت من دون تقدُّم عليه ولا تأخر عنه، والساعة المدة القليلة، وقد تقدَّم تفسيرها هذا وتحقيقه، ثم ذكر نوعاً آخر من جهلهم وحملهم فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَكُم مَّا يَكْرَهُونَ﴾ أي: ينسبون إليه سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات، وهو تكرير لما قد تقدَّم لقصد التأكيد والتقرير، ولزيادة التوبيخ والتقريع ﴿وَتُصَفُّ السِّنْتُهُمُ لَكُذِبٍ﴾ هذا من النوع الآخر الذي ذكره سبحانه من قبائحهم وهو أي: هذا الذي تصفه السنتهم من الكذب هو قولهم: ﴿أَن لَّهُمُ الْحَسَنَى﴾ أي: الخصلة الحسنى، أو العاقبة الحسنى. قال الزجاج: يصفون أن لهم مع قبح قولهم من الله الجزاء الحسن. قال الزجاج أيضاً والفراء: أبدل من قوله وتصف السنتهم الكذب قوله أن لهم الحسنى، والكذب منصوب على أنه مفعول نصف. وقرأ ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وابن محيصن (الكذب) برفع الكاف والذال والياء على أنه صفة للألسن وهو جمع كذب، فيكون للمفعول على هذا هو أن لهم الحسنى. ثم ردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي: حقاً أن لهم مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى النار، وقد تقدَّم تحقيق هذا ﴿وَأَنَّهُمْ مَفْرُطُونَ﴾ قال ابن الأعرابي وأبو عبيدة: أي متروكون منسيون في النار، وبه قال الكسائي والفراء، فيكون مشتقاً من أفرطت فلاناً خلفي: إذا خلفته ونسيته. وقال قتادة والحسن: معجلون إليها مقدمون في دخولها من أفرطته أي: قَدَّمته في طلب الماء، والفراط هو الذي يتقدَّم إلى الماء، والفراط المتقدمون في طلب الماء، والورد المتأخرون، ومنه قوله ﷺ: «أنا فراطكم على الحوض»، أي: متقدمكم، قال القطامي:

فاستعجلونا وكانوا من صاحبنا
كما تعجل فراط لوراد
وقرأ نافع في رواية ورش (مفراطون) بكسر الراء وتخفيفها، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس؛ ومعناه: مسرفون في الذنوب والمعاصي؛ يقال: أفرط فلان على فلان: إذا أربى عليه وقال له أكثر مما قال من الشر. وقرأ أبو

على الحال أي: ممتلئ من الغم غيظاً وحنقاً. قال الأخفش: هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره، وقيل: إنه المغموم الذي يطبق فاه من الغم، مأخوذ من الكظامة وهو سدُّ فم البئر قاله علي بن عيسى، وقد تقدَّم في سورة يوسف ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: يتغيب ويختفي ﴿مَنْ سَوءَ مَا بَشَرُ بِهِ﴾ أي: من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب حدوث البنت له ﴿أَيَمْسُكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: لا يزال متردداً بين الأمرين: وهو إمساك البنت التي بشر بها، أو دفنها في التراب ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: هوان، وكذا قرأ عيسى الثقفي. قال اليزيدي: والهون الهوان بلغة قريش، وكذا حكاه أبو عبيد عن الكسائي، وحكي عن الكسائي أنه البلاء والمشقة، قالت الخنساء:

نهين النفوس وهون النفوس
س يوم الكريهة أبقي لها
وقال الفراء: الهون القليل بلغة تميم. وحكى النحاس عن الأعمش أنه قرأ (أيمسكه على سوء أم يسه في التراب) أي: يخفيه في التراب بالواد كما كانت تفعله العرب، فلا يزال الذي بشر بحدوث الأنثى متردداً بين هذين الأمرين، والتذكير في يمسه ويدسه مع كونه عبارة عن الأنثى لرعاية اللفظ. وقرأ الجحدري (أم يدسها في التراب) ويلزمه أن يقرأ أيمسكها، وقيل: نسها إخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالمسدوس لإخفائه عن الأبصار ﴿إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث أضافوا البنات التي يكرهونها إلى الله سبحانه وأضافوا البنين المحبوبين عندهم إلى أنفسهم ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ * تلك إذا قسمة ضيزى. [النجم: 21 - 22]. ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي: لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة مثل السوء أي: صفة السوء من الجهل والكفر بالله؛ وقيل: هو وصفهم الله سبحانه بالصاحبة والولد؛ وقيل: هو حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم واد البنات لنفع العار وخشية الإملاق؛ وقيل: العذاب والنار ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ وهو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجدو الشامل والعلم الواسع، أو التوحيد وإخلاص العبادة، أو أنه خالق رازق قادر مجاز؛ وقيل: شهادة أن لا إله إلا الله وقيل ﴿اللَّهُ نَورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ [النور: 35]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب فلا يضُرُّه نسبتهم إليه ما لا يليق به ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله. ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم بيَّن سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ولم يؤاخذهم بظلمهم، فقال: ﴿وَلَوْ يُوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمُ﴾ والمراد بالناس هنا الكفار أو جميع العصاة ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض وإن لم يذكر فقد دل عليها ذكر الناس وذكر الدابة، فإن الجميع مستقرُّون على الأرض، والمراد بالدابة الكافر، وقيل: كل ما دب؛ وقد قيل على هذا كيف يعمُّ بالهلاك مع أن فيهم من لا ذنب له؟ وأجيب بإهلاك الظالم انتقاماً منه، وإهلاك غيره إن كان من أهل التكليف فلأجل توفير أجره، وإن كان من

الشعب عنه قال: كاد الجعل أن يعذب في حجره بذنب ابن آدم. ثم قرأ ﴿وَلَوْ يُوَلِّدْهُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾. وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا عن أنس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، قال أبو هريرة: بلى والله إن الحباري لتموت هزلاً في وكراها من ظلم الظالم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاک ﴿وَيَجْعَلُونَ لَكَ مَا يُكْرَهُونَ﴾ قال: يجعلون لي البنات ويكرهون ذلك لأنفسهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ قال: قول كفار قريش لنا البنون وله البنات. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿وَأَنَّهُمْ مَفْرُطُونَ﴾ قال: منسبون. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة قال: معجلون. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه.

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَوَجَدْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ لِّهَدْيٍ مِّنْهُم يَوْمَئِذٍ لِّمَن عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا تَحْقِيقَ لِمَن أَلْهِىَ اخْتَلَاوُا فِيهِ وَهُم مِّن قَوْمٍ يَوْمِنَا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَأَ بِهِ الْأَرْضَ بِعَدْوَيَاتٍ ۖ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا لَكُمُ فِي الْأَنْهَارِ لَآيَةٌ لِّتُؤْخَذَ بِهَا بِطُولِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَوْمٍ وَبَيْنَ قَوْمٍ ۚ فَجَاءَ خَالِدًا سَاهِيًا لِلشَّامِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ تَمَرَّدَ النَّجِيلَ وَالْأَخْتَبَ تَجِدُونَهُ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَأَدْنَىٰ رَدِّكَ إِلَى الْفَصْلِ أَنِّي أَجِدُنِي مِنَ الْبَيْتِ يُؤْتَانِي السَّحَرُ وَمَعَا يَحْشُرُونِ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّيْءِ فَاسْتَلْكِي شِبْلَ رَبِّكَ ۖ ذَٰلِكَ مَبْرَجٌ مِّنْ بَطُونِهَا مَرَاتِبٌ خُتِيفٌ الْوَدْنُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾

يَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ أَنْ مَثَلُ صَنِيْعِ قَرِيْشٍ قَدْ وَقَعَ مِنْ سَائِرِ
الْأُمَمِ، فَقَالَ: مَسْلِيًّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿تَاشَأْ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى
أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ أَيُّ رَسُولًا﴾ ﴿فَرِيقٍ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ﴾
الْخَبِيْثَةُ ﴿فَهُوَ وَلِيَهُمْ الْيَوْمُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْيَوْمُ عِبَارَةً
عَنْ زَمَانِ الدُّنْيَا، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: فَهُوَ قَرِيْنُهُمْ فِي الدُّنْيَا،
وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْيَوْمُ عِبَارَةً عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا بَعْدَهُ،
فَيَكُونُ لِلْحَالِ الْآتِيَةِ، وَيَكُونُ الْوَلِيُّ بِمَعْنَى النَّاصِرِ، وَالْمُرَادُ
نَفْيُ النَّاصِرِ عَنْهُمْ عَلَى أَبْلَغِ الْوُجُوْهِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَصَوَّرُ
مِنْهُ النَّصْرَةُ أَصْلًا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَإِذَا كَانَ النَّاصِرُ
مُنْحَصَرًّا فِيهِ لَزِمَ أَنْ لَا نَصْرَةَ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ
بِالْيَوْمِ بَعْضُ زَمَانِ الدُّنْيَا، وَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ أَنْ يَرَادَ
الْبَعْضُ الَّذِي قَدْ مَضَى، وَهُوَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ التَّزْيِينُ مِنَ
الشَّيْطَانِ لِلأُمَمِ الْمَاضِيَةِ فَيَكُونُ عَلَى طَرِيقِ الْحِكَايَةِ لِلْحَالِ
الْمَاضِيَةِ. الثَّانِي أَنْ يَرَادَ الْبَعْضُ الْحَاضِرُ، وَهُوَ وَقْتُ نَزُولِ

ججعفر القاري (مفرتون) بكسر الراء وتشديدها أي: مضيعون أمر الله، فهو من التفريط في الواجب. وقرأ الباقيون (مفرتون) بفتح الراء مخففاً، ومعناه: مقدمون إلى النار.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَهُ الدِّينَ وَأَصَابَهُ﴾ قال: الدين الإخلاص، وواصباً دائماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح ﴿وَلَهُ الدِّينَ وَأَصَابَهُ﴾ قال: لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَصَابَهُ﴾ قال: دائماً. وأخرج الفريابي، وابن جرير عنه: قال: واجباً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿تَجَارُونَ﴾ قال: تتضرعون دعاء. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: تصيحون بالدعاء. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿فَتَمْتَعُوا﴾ فسوف تعلمون قال: وعيد. وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَجْعَلُونَ﴾ قال: يعلمون أن الله خلقهم ويضرمهم وينفهمهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم ﴿نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية، قال: هم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله وجزءوا من أموالهم جزءاً فجعلوه لأوثانهم وشياطينهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية، قال: هو قولهم هذا لله بزمعهم وهذا لشركائنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلْبَنَاتِ﴾ الآية، يقول: يجعلون لي البنات يرتضونهن لي ولا يرتضونهن لأنفسهم، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هوان أو نسها في التراب وهي حية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال: يعني به البنين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج ﴿وَأُمِّ يَسَى﴾ في التراب قال: يثد ابنته. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ قال: يثس ما حكموا، يقول: شيء لا يرضونه لأنفسهم فكيف يرضونه لي. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَاللَّهُ لَمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس ﴿وَاللَّهُ لَمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ قال: يقول ليس كمثله شيء. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ قال: ما سقام المطر. وأخرج أيضاً عن السدي نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في الآية، قال: قد فعل ذلك في زمن نوح، أهلك الله ما على ظهر الأرض من دابة إلا ما حمل في سفينته. وأخرج أحمد في الزهد عن ابن مسعود قال: ذنوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره، ثم قال: أي والله زمن غرق قوم نوح. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في

مما في بطون ما نكرنا فهو على هذا عائد إلى المنكور. قال الفراء: وهو صواب. وقال المبرد: هذا فاش في القرآن كثير مثل قوله للشمس ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: 78] يعني: هذا الشيء الطالع، وكذلك ﴿وَإِنِّي مرسلة إليهم بهدية﴾ [النمل: 35]، ثم قال: ﴿فلما جاء سليمان﴾ [النمل: 36]، ولم يقل: جاءت لأن المعنى جاء الشيء الذي نكرنا انتهى، ومن ذلك قوله: ﴿كَلَّا إِنهَا تَنكُرُهُ * فَمَنْ شَاءَ نَكَرْهُ﴾ [عبس: 11 - 12] ومثله قول الشاعر:

مثل الفراخ نيفت حواصله

ولم يقل: حواصلها وقول الآخر:

وطاب إلحاق اللببان وبرد

ولم يقل: وبردت وحكي عن الكسائي أن المعنى مما في بطون بعضه وهي الإناث، لأن النكور لا البان لها، وبه قال أبو عبيدة: وحكي عن الفراء أنه قال: النعم والأنعام واحد ينكر ويؤنث، ولهذا تقول العرب: هذه نعم واردة، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام، وهو كقول الزجاج ورجحه ابن العربي فقال: إنما يرجع التنكير إلى معنى الجمع، والثانيث إلى معنى الجماعة، فنكره هنا باعتبار لفظ الجمع واثته في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة ﴿مَنْ بَيْنَ فَرَثٍ وَدَمٍ﴾ الفرث: الزبل الذي ينزل إلى الكرش، فإذا خرج منه لم يسم فرثاً يقال: أقرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها، والمعنى: أن الشيء الذي تاكله يكون منه ما في الكرش، وهو الفرث ويكون منه الدم، فيكون أسفله فرثاً وأعلاه دماً وأوسطه ﴿لَبَنًا﴾ فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع، ويبقى الفرث كما هو ﴿خَالِصًا﴾ يعني: من حمرة الدم وقذارة الفرث بعد أن جمعتهما وعاء واحد ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: لنبيذاً هنيئاً لا يفص به من شربه: يقال: ساغ الشراب يسوغ سوغاً أي: سهل مخلخ في الحلق ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ قال ابن جرير: التقدير، ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخون، فحذف ما يدل على حذفه قوله: منه. وقيل: هو معطوف على الأنعام، والتقدير: وإن لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرة، ويجوز أن يكون معطوفاً على مما في بطونه أي: نسقيكم مما في بطونه ومن ثمرات النخيل، ويجوز أن يتعلق بمحذوف دل عليه ما قبله، تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل، ويكون على هذا ﴿تَتَخَوَّنُ مِنْهُ سَكْرًا﴾ بياناً للإسقاء وكشفاً عن حقيقة، ويجوز أن يتعلق بتخون، تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخون منه سكرًا، ويكون تكرير الظرف، وهو قوله منه للتأكيد كقولك زيد في الدار فيها، وإنما نكر الضمير في منه لأنه يعود إلى المنكور، أو إلى المضاف المحذوف، وهو العصير، كأنه قيل: ومن عصير ثمرات النخيل والأعناب تتخون منه، والسكر ما يسكر من الخمر، والرزق الحسن جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والبس والزبيب والخل، وكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر: وقيل: إن السكر الخل بلغة الحبشة، والرزق

الآية. والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش فيكون الضمير في «وليهم» لكفار قريش: أي فهو ولي هؤلاء اليوم، أو على حذف مضاف: أي: فهو ولي أمثال أولئك الأمم اليوم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ أي: في الآخرة وهو عذاب النار. ثم نكر سبحانه أنه ما هلك من هلك إلا بعد إقامة الحجة عليهم وإزاحة العلة منهم فقال: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وهذا خطاب لرسول الله ﷺ، والمراد بالكتاب القرآن، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: ما أنزلناه عليك لحال من الأحوال ولا لعل من اللعل إلا لعل التبیین لهم أي: للناس الذي اختلفوا فيه من التوحيد وأحوال البعث وسائر الأحكام الشرعية، ﴿وَوُكِّلَ انتصاب﴾ هدى ورحمة على أنهما مفعول لهما معطوفان على محل لتبين، ولا حاجة إلى اللام، لأنهما فعلاً فاعل الفعل المعلل، بخلاف التبيين فإنه فعل المخاطب لا فعل المنزل ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله سبحانه ويصدقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب. ثم عاد سبحانه إلى تقرير وجوده وتفردّه بالإلهية بذكر آياته العظام فقال: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من السحاب، أو من جهة العلو كما مرّ أي: نوعاً من أنواع الماء ﴿فَلَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: أحيانا بالنبات بعد أن كانت يابسة لا حياة بها ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ الْإِنزَالِ وَالْإِحْيَاءِ﴾ الآية أي: علامة دالة على وحدانيته وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ كلام الله ويفهمون ما يتضمنه من العبر، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ﴾ الأنعام هي الإبل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز، والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة، ومنه ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2]. وقال أبو بكر الوارق: العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، والظاهر أن العبرة هي قوله: ﴿نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ﴾ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة. قرأ أهل المدينة، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر (نسقيكم) بفتح النون من سقى يسقي. وقرأ الباقر وحفص عن عاصم بضم النون من أسقى يسقي، قيل: هما لغتان. قال لبيد:

سقى قومي بني مجد وأسقى نميراً والقبائل من هلال
وقرئ بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الأنعام، وقرئ بالتحية على إرجاع الضمير إلى الله سبحانه، وهما ضعيفتان، وجميع القراء على القراءتين الأولىين، والفتح لغة قريش، والضم لغة حمير؛ وقيل: إن بين سقى وأسقى فرقاً، فإذا كان الشراب من يد الساقى إلى فم المسقى فيقال: سقيته، وإن كان بمجرد عرضه عليه وتهيته له قيل: أسقاه. والضمير في قوله: ﴿مِمَّا فِي بَطُونِهِ﴾ راجع إلى الأنعام. قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد. وقال الزجاج: لما كان لفظ الجمع ينكر ويؤنث، فيقال: هو الأنعام، وهي الأنعام جاز عود الضمير بالتنكير. وقال الكسائي معناه

الرزق في الجبال وخلال الشجر، أو أسلكي ما أكلت في سبل ربك أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقرته النور عسلاً، أو إذا أكلت الثمار في الأمكنة البعيدة فأسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها، وا انتصاب ﴿ثَلَاث﴾ على الحال من السبل، وهي جمع نلول أي: منللة غير متوعدة، واختار هذا الزجاج وابن جرير؛ وقيل: حال من النحل يعني: مطيعة للتسخير وإخراج العسل من بطونها، واختار هذا ابن قتيبة، وجملة «يخرج من بطونها» مستأنفة عدل به عن خطاب النحل، تعليدا للنعم، وتعجيباً لكل سامع، وتنبيهاً على الغير، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب، والمراد بالـ «شرب» في الآية هو العسل، ومعنى «مختلف ألوانه» أن بعضه أبيض وبعضه أحمر وبعضه أزرق وبعضه أصفر باختلاف نوات النحل وألونها وماكولاتها. وجمهور المفسرين على أن العسل يخرج من أفواه النحل؛ وقيل: من أسفلها؛ وقيل: لا يدري من أين يخرج منها، والضمير في قوله: «فيه شفاء للناس» راجع إلى الشرب الخارج من بطون النحل وهو العسل، وإلى هذا ذهب الجمهور. وقال الفراء وابن كيسان وجماعة من السلف: إن الضمير راجع إلى القرآن، ويكون التقدير فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس، ولا وجه للعدل عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين.

وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذي جعله الله في
العسل عام لكل داء أو خاص ببعض الأمراض؟ فقالت طائفة:
هو على العموم، وقالت طائفة: إن ذلك خاص ببعض
الأمراض، ويدل على هذا أن العسل نكرة في سياق الإثبات
فلا يكون عاماً، وتكثيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على
أن فيه شفاءً عظيماً لمرض أو أمراض، لا لكل مرض، فإن
تتكرر التعظيم لا يفيد العموم، والظاهر المستفاد من التجربة
ومن قوانين علم الطب، أنه إذا استعمل منفرداً كان دواء
لأمراض خاصة وإن خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها كان
مع ما خلط به دواء لكثير من الأمراض. وبالجملته فهو من
أعظم الأغذية وأنفع الأدوية، وقليلًا ما يجتمع هذان الأمران
في غيره ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من أمر النحل ﴿لَايَةٌ
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يعملون أفكارهم عند النظر في صنع
الله سبحانه وعجائب مخلوقاته فإن أمر النحل من أعجيبها
وأغربها وأتقها وأحكمها.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، وابن مردويه عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿تَتَخَذُون مِّنْهُ سَكْرًا مِّرْوَقًا حَسَنًا﴾ قال: السكر ما حرم من ثمرتهما، والرزق للحسن ما حلّ. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه قال: السكر الحرام، والرزق الحسن زبيبته وخله وعنبه ومنافعه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن

الحسن الطعام من الشجرتين؛ وقيل: السكر العصير الحلو الحلال، وسمي سكرأ لأنه قد يصير مسكرأ إذا بقي، فإذا بلغ الإسكار حرم. والقول الأول أولى وعليه الجمهور، وقد صرح أهل اللغة بأن السكر اسم للخمر، ولم يخالف في ذلك إلا أبو عبيدة فإنه قال: السكر الطعم، ومما يدل على ما قاله جمهور أهل اللغة قول الشاعر:

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم إذا جرى فيهم الهندي والسكر
ومما يدل على ما قاله أبو عبيدة ما أنشده:
جعلت عيب الأكرمين سكرا

أي: جعلت لهم طعاماً، ورجع هذا ابن جرير فقال: إن السكر ما يطعم من الطعام ويحل شربه من ثمار النخل والأعناب وهو الرزق الحسن، فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل ﴿إنما أشكر بثي وحزني إلى الله﴾ [يوسف: 86]. قال الزجاج: قول أبي عبيدة هذا لا يعرف، وأهل التفسير على خلافه ولا حجة في البيت الذي أتشدّه لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس، وقد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة وعلى ما ذهب ثلثاها بالطبخ، قالوا: وإنما يمتنّ الله على عباده بما أحله لهم لا بما حرّمه عليهم، وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر. اهـ. **﴿إِنْ فِي نَفْسِكَ لَأَيَّةٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** أي لدلالة لمن يستعمل العقل ويعمل بما يقتضيه عند النظر في الآيات التكوينية **﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾** قد تقدّم الكلام في الوحي وأنه يكون بمعنى الإلهام، وهو ما يخلقه في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر، ومنه قوله سبحانه: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهُ﴾** فاللهما فجورها وتقواها. [الشمس: 7 - 8]. ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها وترك ما يضرها، وقرأ يحيى بن وثاب (إلى النحل) بفتح الحاء. قال الزجاج: وسمي نحلاً لأن الله سبحانه نحلّ العسل الذي يخرج منه. قال الجوهري: والنحل والنحلة الدبر يقع على الذكر والأنثى **﴿أَن تَأْخُذَ مِنْ الْجِبَالِ يَبُوتًا﴾** أي: بأن تأخذ على أن "أن" هي المصدرية، ويجوز أن تكون تفسيرية لأن في الإحياء معنى القول، وأنت الضمير في تأخذ لكونه أحد الجائزين كما تقدّم، أو للحمل على المعنى أو لكون النحل جمعاً، وأهل الحجاز يؤنثون النحل "ومن" في من الجبال بيوتاً **﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَمُنُّونَ أَنَّ الْجِبَالَ بَيْوتًا﴾** كذا في **﴿مَنْ الشَّجَرِ﴾** كذا في **﴿مِمَّا يَعْرِشُونَ﴾** للتبعية أي: مساكن توافقها وتليق بها في كوى الجبال وتجويف الشجر، وفي العروش التي يعرشها بنو آدم من الأجناح والحيطان وغيرها، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب، يقال: عرش يعرش بكسر الراء وضمة. وبالضم قرأ ابن عامر وشعبة، وقرأ الباقر بالكسر. وقرأ أيضاً بيوتاً بكسر الياء وضمة **﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾** من للتبعية لأنها تأكل النور من الأشجار فإذا أكلتها **﴿فَأَسْلَكَ سَبْلَ رَبِّكَ﴾** أي: الطرق التي فهمك الله وعلمك، وأضافها إلى الربّ لأنه خالقها وملهم النحل أن تسلكها أي: أسخلى طرق ربك لطلب

المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: السكر النبيذ، والرزق الحسن الزبيب. فنسختها هذه الآية ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: 90]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه أيضاً في الآية قال: فحرم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لأنه منه، ثم قال: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ وأشبهه ذلك، فأقره الله وجعله حلالاً للمسلمين. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه سئل عن السكر، فقال: الخمر بعينها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود قال: السكر خمر. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ قال: ألهمها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ نَلًّا﴾ قال: طرقاتاً لا يتوعر عليها مكان سلكته. وأخرج عبد الرازقي، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة نلاً قال: مطيعة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: نليلة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابًا﴾ قال: العسل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: هو العسل فيه الشفاء وفي القرآن. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن ابن مسعود قال: إن العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصلوة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: عليكم بالشفاءين العسل والقرآن. وأخرج ابن ماجه، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، وابن السني، وأبو نعيم، والخطيب عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين العسل والقرآن». وقد وردت أحاديث في كون العسل شفاءً منها ما أخرجه البخاري من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الشفاء في ثلاثة في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وأنا أنهى أمتي عن الكية». وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد: «أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أخي استطلق بطنه، فقال: اسقه عسلاً فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً، قال إذهب فاسقه عسلاً فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً، فذهب فسقاه عسلاً فبرأ».

لما نكر سبحانه بعض أحوال الحيوان وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة، وخصائص القدرة القاهرة، أتبعه بعجائب خلق الإنسان وما فيه من العبر فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ يقال: رذل يردل رذلة، والأردل والرذالة أردأ الشيء وأوضعه. قال النيسابوري: وأعلم أن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان في أربع: أولها سنُّ النشوء، وثانيها سنُّ الوقوف، وهو سنُّ الشباب، وثالثها سنُّ الانحطاط اليسير، وهو سنُّ الكهولة، ورابعها سنُّ الانحطاط الظاهر، وهو سنُّ الشيخوخة؛ قيل: وأردل العمر هو عند أن يصير الإنسان إلى الخرف، وهو أن يصير بمنزلة الصبي الذي لا عقل له؛ وقيل: خمس وسبعون سنة، وقيل: تسعون سنة، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ثم رددناه أسفل سافلين [التين: 4 - 5] ثم علل سبحانه رد من يرده إلى أردل العمر بقوله: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كان قد حصل له ﴿شَيْئًا﴾ من العلم لا كثيراً ولا قليلاً أو شيئاً من المعلومات إذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم، وقيل: المراد بالعلم هنا العقل، وقيل: المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك. ثم لما بين سبحانه خلق الإنسان وتقلبه في أطوار العمر نكر طرفاً من أحواله لعله يتذكر عند ذلك فقال: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فجعلكم متفاوتين فيه فوسع على بعض عباده حتى جعل له من الرزق ما يكفي الوفاً مؤلفة من بني آدم، وضيقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفف لهم، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم والفهم وقوة البدن وضعفه والحسن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك من الأحوال، وقيل: معنى الآية: أن الله سبحانه أعطى الموالى أفضل مما أعطى ممالئكم بدليل قوله: ﴿فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَازِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم برأى رزقهم الذي رزقهم الله إياه على ما ملكت أيمانهم من الممالك ﴿فَهُمْ﴾ أي: المالكون والمماليك ﴿فِيهِ﴾ أي: في الرزق ﴿سَوَاءٌ﴾ أي: لا يترؤنه عليهم بحيث يساوونهم، فالفاء على هذا للدلالة على أن التساوي مترتب على الترادى أي: لا يترؤنه عليهم رداً مستتبعاً للتساوي، وإنما يترؤن عليهم منه شيئاً يسيراً، وهذا مثل ضربه الله سبحانه بعبد الأصنام أي: إذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء ولا ترضون بذلك فكيف تجعلون عبيدي معي سواء والحال أن عبيدكم مساوون لكم في البشرية والمخلوقية، فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في أموالكم، فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له فتعبدونهم معه، أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالأصنام شركاء له في العبادة، نكر معنى هذا ابن جرير،

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيرٌ ﴿٩١﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَّازِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَيْنِهِمِ اللَّهُ يَجْمَعُونَ ﴿٩٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَحْمِلَ لَكُمْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ بَيْنَ وَحْنَةً وَرِزْقَكُمْ مِنَ الْكَيْسِ أَلَمْ يَبْلُغِ الْيَوْمُونَ وَيَنْصَرِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٩٣﴾ وَيَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٩٤﴾ فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾

بنين، ومن البنين حفدة ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ التي تستطيعونها وتستلونها ومن للتعبيض لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلا في الجنة، ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ والاستفهام للإنكار التوبيخي، والفاء للعطف على مقتر أي: يكفرون بالله فيؤمنون بالباطل، وفي تقدم «الباطل» على الفعل دلالة على أنه ليس لهم إيمان إلا به، والباطل هو اعتقادهم في أصنامهم أنها تضر وتنفع؛ وقيل: الباطل ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما. قرأ الجمهور (يؤمنون) بالتحية، وقرأ أبو بكر بالفوقية على الخطاب ﴿وينعمة الله هم يكفرون﴾ أي: ما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر، وفي تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك لا يتجاوز له لقصد المبالغة والتأكيد ﴿ويعبدون من دون الله﴾ هو معطوف على يكفرون داخل تحت الإنكار التوبيخي إنكاراً منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام، وهي لا تنفع ولا تضر، ولهذا قال ﴿ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً﴾ قال الأخفش: إن شيئاً بدل من الرزق. وقال الفراء: هو منصوب بإيقاع الرزق عليه، فجعل رزقاً مصدرأ عاملاً في شيئاً، والأخفش جعله اسماً للرزق؛ وقيل: يجوز أن يكون تأكيداً لقوله: «لا يملك» أي: لا يملك شيئاً من الملك، والمعنى: أن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقاً أي رزق، ومن السموات والأرض صفة لرزق أي: كائناً منهما، والضمير في ﴿ولا يستطيعون﴾ راجع إلى ما، وجمع جمع العقلاء بناءً على زعمهم الباطل، والفائدة في نفي الاستطاعة عنهم أن لا يملك شيئاً قد يكون موصوفاً باستطاعة التملك بطريق من الطرق، فبين سبحانه أنها لا تملك ولا تستطيع؛ وقيل: يجوز أن يكون الضمير في يستطيعون للكفار أي: لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياء متصرفين، فكيف بالجمادات التي لا حياة لها ولا تستطيع التصرف؟ ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه، فقال: ﴿فلا تضربوا له الأمثال﴾ فإن ضارب المثل يشبه حالاً بحال وقصة بقصة. قال الزجاج: لا تجعلوا له مثلاً لأنه واحد لا مثل له، وكانوا يقولون: إن إله العالم أجل من أن يعبد الواحد منا، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنهاهم عن ذلك، وعلل النهي بقوله: ﴿إن الله﴾ عليم ﴿يعلم﴾ ما عليكم من العبادة ﴿وانتم لا تعلمون﴾ ما في عبادتها من سوء العاقبة، والتعرض لعذاب الله سبحانه، أو أنتم لا تعلمون بشيء من ذلك، وفعلكم هذا هو عن توهم فاسد وخطر باطل وخيال مختل، ويجوز أن يراد فلا تضربوا له الأمثال إن الله يعلم كيف تضرب الأمثال وانتم لا تعلمون ذلك.

وقد أخرج ابن جرير عن علي في قوله: ﴿ومنكم من يرذ إلى أرذل العمر﴾ قال: خمس وسبعون سنة. وأخرج ابن

ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ [الروم: 28] وقيل: إن الفاء في «فهم فيه سواء» بمعنى حتى ﴿أفبينعمة الله تجدون﴾ حيث تفعلون ما تفعلون من الشرك، والنعمة هي كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك. وقد قرئ (يجحدون) بالتحية والفوقية. قال أبو عبيدة، وأبو حاتم: وقراءة الغيبة أولى لقرب المخبر عنه، ولأنه لو كان خطاباً لكان ظاهره للمسلمين، والاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقتر أي: يشركون به فيجحدون نعمته، ويكون المعنى على قراءة الخطاب أن المالكين ليسوا برادّي رزقهم على ممالكهم، بل أنا الذي أرزقهم وإياهم فلا يظنوا أنهم يعطونهم شيئاً، وإنما هو رزقي أجريه على أيديهم وهم جميعاً في ذلك سواء لا مزية لهم على ممالكهم، فيكون المعطوف عليه المقتر فعلاً يناسب هذا المعنى، كان يقال: لا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله. ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الإنسان فقال: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ قال المفسرون: يعني النساء فإنه خلق حواء من ضلع آدم. أو المعنى: خلق لكم من جنسكم أزواجاً لتستأنسوا بها، لأن الجنس يأنس إلى جنسه ويستوحش من غير جنسه، ويسبب هذه الأنسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب للنسل الذي هو المقصود بالزواج، ولهذا قال: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ الحفدة جمع حافد، يقال: حفد يحفد حفداً وحفوداً: إذا أسرع، فكل من أسرع في الخدمة فهو حافد، قال أبو عبيدة: الحفد العمل والخدمة. قال الخليل بن أحمد: الحفدة عند العرب الخدم، ومن ذلك قول الشاعر وهو الأعشى:

كلفت مجهولنا نوقا يمانية إذ الحداة على أكتافها حنفوا
أي: الخدم والأعوان. وقال الأزهري: قيل الحفدة أولاد الأولاد، وروي عن ابن عباس، وقيل: الأختان. قاله ابن مسعود، وعلقمة، وأبو الضحى، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، ومنه قول الشاعر:

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحث لها حافداً مما تعدّ كثير
ولكنها نفس عليّ أبية عيوف لأصهار اللثام قنود
وقيل: الحفدة الأصهار. قال الأصمعي: الختن من كان من قبل المرأة كابنها وأخيها وما أشبههما، والأصهار منهما جميعاً، يقال: أصهر فلان إلى بني فلان وصاهر؛ وقيل: هم أولاد امرأة الرجل من غيره، وقيل: الأولاد الذين يخدمونه؛ وقيل: البنات الخدامات لابيهن. ورجح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد، لأنه سبحانه امتنّ على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين وحفدة، فالحفدة في الظاهر معطوفون على البنين، وإن كان يجوز أن يكون المعنى: جعل لكم من أزواجكم بنين وجعل لكم حفدة، ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لا يخدم، وبالحفدة من يخدم الأب منهم، أو يراد بالحفدة البنات فقط، ولا يفيد أنهم أولاد الأولاد إلا إذا كان تقدير الآية: وجعل لكم من أزواجكم

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٧﴾ وَاللَّهُ أَفْرَجَكُمْ مِنْ ظُلُمِ أَنْهَاجِكُمْ لَا تَمْلِكُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَكُمْ فِيهَا مَعَالِمٌ تَشْكُرُونَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ يَوْمَئِذٍ إِلَى الْكَبِيرِ مُخْرَجَتٌ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يَشْكُرُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٩﴾

قوله: ﴿ضَرْبُ اللَّهِ مِثْلًا﴾ لما قال سبحانه إن الله يعلم أي: بالمعلومات التي من جعلتها كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون؟ علمهم سبحانه كيف تضرب الأمثال فقال: ضرب الله مثلاً أي: ذكر شيئاً يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه، وبين ما جعلوه شريكاً له من الأصنام، ثم ذكر ذلك فقال: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ والمثل في الحقيقة هي حالة للعبد عارضة له، وهي المملوكية والعجز عن التصرف، فقلوه: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ تفسير للمثل وبدل منه، ووصفه بكونه مملوكاً لأن العبد والحرَّ مشتركان في كون كل واحد منهما عبد الله سبحانه، ووصفه بكونه لا يقدر على شيء لأن المكاتب والمأذون يقدران على بعض التصرفات، فهذا الوصف لتمييزه عنهما ﴿وَمِنْ رِزْقَانِهِ﴾ من هي الموصولة، وهي معطوفة على عبداً أي: والذي رزقناه ﴿مِمَّا﴾ أي: من جهتنا ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ من الأحرار الذين يملكون الأموال ويتصرفون بها كيف شاءوا، والمراد بكون الرزق حسناً أنه مما يحسن في عيون الناس، لكونه رزقاً كثيراً مشتملاً على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين إليها. والفاء في قوله: ﴿فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ﴾ لترتيب الإنفاق على الرزق أي: ينفق منه في وجوه الخير ويصرف منه إلى أنواع البرِّ والمعروف، وانتصاب ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ على الحال أي: ينفق منه في حال السرِّ وحال الجهر؛ والمراد بيان عموم الإنفاق للأوقات، وتقديم السرِّ على الجهر مشعر بفضيلته عليه، وأن الثواب فيه أكثر؛ وقيل: إن «من» في ﴿وَمِنْ رِزْقَانِهِ﴾ موصوفة كأنه قيل: وحرراً رزقناه ليطابق عبداً ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أي: الحرَّ والعبد الموصوفان بالصفات المتقدمة، وجمع الضمير لمكان من، لأنه اسم مبهم يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث؛ وقيل: إنه أريد بالعبد والموصول الذي هو عبارة عن الحرِّ الجنس؛ أي من اتصف بتلك الأوصاف من الجنسين، والاستفهام للإنكار أي: هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بتلك الصفات مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر، ومن المعلوم أنهم لا يستوون عندهم، فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً، ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه؟ وحاصل المعنى: أنه كما لا يستوي عنكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حرّ قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه، كذلك لا يستوي الربُّ الخالق الرائق والجمادات من الأصنام التي تعبدونها وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع؛ وقيل: المراد بالعبد المملوك في الآية هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته، والآخر

أبي حاتم عن السدي قال: هو الخرف. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، ثم قرأ ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾. وأخرج ابن أبي شيبة عن طلوس قال: العالم لا يخرف. وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح وغيره أنه كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ قال: لم يكونوا ليشاركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم فكيف يشاركون عبيدي معي في سلطاني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: هذا مثل لأكله الباطل مع الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ قال: خلق آدم، ثم خلق زوجته منه. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: ﴿بَيْنَيْنِ وَحَفْدَةٍ﴾ قال: الحفدة الأختان. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الحفدة الأصهار، وأخرج عنه قال: الحفدة الولد وولد الولد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الحفدة بنو البنين. وأخرج ابن جرير، عن أبي جمره قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿بَيْنَيْنِ وَحَفْدَةٍ﴾ قال: من أعانك فقد حفلك، أما سمعت الشاعر يقول:

حَدَّ الْوَلَدُ حَوْلَهُمْ وَأَسْلَمْتُ بِكَفِّهِمْ أِزْمَةَ الْأَجْمَالِ
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الحفدة بنو امرأة الرجل ليسوا منه. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿أَقْبِلْ الْبَاطِلَ يُؤْمِنُونَ﴾ قال: الشرك. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: هو الشيطان ﴿وَيُنْعِمُهُ اللَّهُ﴾ قال: محمد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَيُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية قال: هذه الأوثان التي تعبد من دُونِ اللَّهِ لا تملك لمن يعبدها ﴿رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولا خيراً ولا حياة ولا نشوراً ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فإنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ يعني: اتخاذهم الأصنام، يقول: لا تجعلوا معي إلهاً غيري، فإنه لا إله غيري.

﴿ضَرْبَ اللَّهِ مِثْلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِنْ رِزْقَانِهِ﴾ وَمِنْ رِزْقَانِهِ حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ لِمَعَدٍّ إِلَهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَضَرْبَ اللَّهِ مِثْلًا رَجُلَيْنِ لِمَدَّهَا أَبْصَارُكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَانِهِ أَيْسَارُ يَرْجِعُهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٨﴾ وَهُوَ عَيْبٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ

هو المؤمن؛ والغرض أنهما لا يستويان في الرتبة والشرف، وقيل: العبد هو الصنم، والثاني عابد الصنم، والمراد أنهما لا يستويان في القدرة والتصرف، لأن الأول جماد، والثاني إنسان ﴿الحمد لله﴾ أي: الحمد لله كله، لأنه المنعم لا يستحق غيره من العباد شيئاً منه، فكيف تستحق الأصنام منه شيئاً ولا نعمة منها أصلاً لا بالأصالة ولا بالتوسط؛ وقيل: أراد الحمد لله على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد؛ وقيل: أراد قل الحمد لله، والخطاب إما لمحمد ﷺ أو لمن رزقه الله رزقاً حسناً، وقيل: إنه لما ذكر مثلاً مطابقاً للغرض كاشفاً عن المقصود قال: الحمد لله أي: على قوة هذه الحجة ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ذلك حتى يعبدوا من تحق له العبادة ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة، ونفي العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم، أو هم يتركون الحق عناداً مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له، وخص الأكثر بنفي العلم: إما لكونه يريد الخلق جميعاً، وأكثرهم المشركون، أو ذكر الأكثر وهو يريد الكل، أو المراد أكثر المشركين، لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم. ثم ذكر سبحانه مثلاً ثانياً ضربه لنفسه، ولما يفيض على عباده من النعم البنية والنبوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع فقال: ﴿وضرب الله مثلاً﴾ أي: مثلاً آخر أوضح مما قبله وأظهر منه، و﴿رجلين﴾ بدل من مثل وتفسير له، والأبكم العيي المفعم؛ وقيل: هو الأقطع اللسان الذي لا يحسن الكلام، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه الذي لا يسمع ولا يبصر، ثم وصف الأبكم فقال: ﴿لا يقدر على شيء﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه وعدم قدرته على التطق، ومعنى ﴿كل على مولاه﴾ ثقيل على وليه وقرباته وعيال على من يلي أمره ويعوله ووبال على إخوانه، وقد يسمى اليتيم كلا لنقله على من يكفله، ومنه قول الشاعر:

أقول لمال الكل قبل شبابه إذا كان عظم الكل غير شديد
وفي هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقاً، ثم وصفه بصفة رابعة فقال: ﴿إينما يوجهه لا يات بخير﴾ أي: إذا وجهه إلى أي جهة لا يات بخير قط. لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول. وقرأ يحيى بن وثاب (إينما يوجه) على البناء للمجهول، وقرأ ابن مسعود (إينما توجه) على صيغة الماضي ﴿هل يستوي هو﴾ في نفسه مع هذه الأوصاف التي اتصف بها ﴿ومن يامر بالعدل﴾ أي: يامر الناس بالعدل مع كونه في نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم. ويقدر على التصرف في الأشياء ﴿وهو﴾ في نفسه ﴿على صراط مستقيم﴾ على دين قويم وسيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبي الإقراط والتفريط، قابل لأوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للأخر، لأن حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشيء، وحاصل وصف الثاني أنه مستحق أكمل استحقاق، والمقصود الاستدلال بعدم تساوي

هذين المذكورين على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكاً له. ولما فرغ سبحانه من ذكر المثليين مدح نفسه بقوله: ﴿والله غيب للسفوات والأرض﴾ أي: يختص ذلك به لا يشاركه فيه غيره ولا يستقل به، والمراد علم ما غاب عن العباد فيهما، أو أراد بغيبيهما يوم القيامة لأن علمه غائب عن العباد، ومعنى الإضافة إليهما التعلق بهما. والمعنى: التوبيخ للمشركين والتقريع لهم أي: أن العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته لا من كان جاهلاً عاجزاً لا يضر ولا ينفع ولا يعلم بشيء من أنواع العلم ﴿وما أمر الساعة﴾ التي هي أعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصة به سبحانه ﴿إلا كلمح البصر﴾ اللمح النظر بسرعة، ولا بد فيه من زمان تنقلب فيه الحدة نحو المرئي وكل زمان قابل للتجزئة، ولذا قال: ﴿أو هو﴾ أي: أمرهما ﴿أقرب﴾ وليس هذا من قبيل المبالغة، بل هو كلام في غاية الصدق، لأن مدة ما بين الخطاب وقيام الساعة متناهية، ومنها إلى الأبد غير متناه، ولا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي؛ أو يقال: إن الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت من القرب كلمح البصر. وقال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها، لأنه يقول للشيء كن فيكون، وقيل: المعنى هي عند الله كذلك وإن لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة، ومثله قوله سبحانه: ﴿إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً﴾ [المعارج: 6 - 7]. ولفظ أو في «أو هو أقرب» ليس للشك بل للتمثيل؛ وقيل: دخلت لشك المخاطب، وقيل: هي بمنزلة بل ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدراته. ثم إنه سبحانه ذكر حالة أخرى للإنسان دالة على غاية قدرته ونهاية راقته فقال: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ وهذا معطوف على قوله: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ منتظم معه في سلك أدلة التوحيد أي: أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء، وجملة لا تعلمون شيئاً في محل نصب على الحال، وقيل: المراد لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق، وقيل: لا تعلمون شيئاً مما قضي به عليكم من السعادة والشقاوة، وقيل: لا تعلمون شيئاً من منافعكم والأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور وغيرها اعتباراً بعموم اللفظ، فإن شيئاً نكرة واقعة في سياق النفي. وقرأ الأعمش، وابن وثاب، وحزمة (أمهاتكم) بكسر الهمزة والميم هنا، وفي النور والزمر والنجم. وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم. وقرأ الباقر بضم الهمزة وفتح الميم ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي: ركب فيكم هذه الأشياء، وهو معطوف على أخرجكم، وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الإخراج لما أن ملول الواو هو مطلق الجمع. والمعنى: جعل لكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذي كان مسلوباً عنكم عند إخراجكم من بطون أمهاتكم وتعلموا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه،

الجراح، وقيل: الخطاب لاهل مكة أي: لعلكم يا اهل مكة تخلصون لله الربوبية، والاولى الحمل على العموم، وإفراد النعمة هنا لأن المراد بها المصير ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ لِلْمُبِينِ﴾ أي: إن تولوا عنك ولم يقبلوا ما جئت به فقد تمهد عنك، فإنما عليك البلاغ لما أرسلت به إليهم المبين أي: الواضح، وليس عليك غير ذلك، وصرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسلياً له، وجملة ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا﴾ استئناف لبيان توليهم أي: هم يعرفون نعمة الله التي عندها، ويعترفون بأنها من عند الله سبحانه ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله ويتأولهم الباطلة، حيث يقولون: هي من الله ولكنها بشفاعة الأصنام، وحيث يقولون: إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم، وايضاً كونهم لا يستعملون هذه النعم في مرضاة الرب سبحانه، وفي وجوه الخير التي أمرهم الله بصرفها فيها؛ وقيل: نعمة الله نبوة محمد ﷺ كانوا يعرفونها ثم ينكرون نبوته ﴿وَإِكْرَهُمْ لِلْكَافِرُونَ﴾ أي: الجاحدون لنعم الله أو الكافرون بالله، وعبر هنا بالاكتر عن الكل، أو أراد بالاكتر العقلاء نون الأطفال ونحوهم، أو أراد كفر الجحود ولم يكن كفر كلهم كذلك، بل كان كفر بعضهم كفر جهل، وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول ﷺ مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14].

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد سكتا قال: تسكنون فيها. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحوه قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً﴾ وهي خيام العرب ﴿تَسْتَخَفُونَهَا﴾ يقول: في الحمل ﴿وَمَتَاعاً﴾ يقول بلاغاً ﴿إِلَى حِينٍ﴾ قال: إلى الموت. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿تَسْتَخَفُونَهَا﴾ يوم ظعنكم. قال: بعض بيوت السيارة بنيانه في ساعة، وفي قوله: ﴿وَأَوْبَارَهَا﴾ قال: الإبل ﴿وَأَشْعَارَهَا﴾ قال: الغنم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ثَانِثاً﴾ قال: الاثاث المتاع. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الاثاث المال ﴿وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ يقول: تنتفعون به إلى حين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً﴾ قال: من الشجر ومن غيرها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ قال: غارات يسكن فيها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ قال: من القطن والكتان والصوف ﴿وَسُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَاسَ﴾ من الحديد ﴿كَذَلِكَ يَتَمَنَّاهُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ﴾ ولذلك هذه السورة تسمى سورة النعم. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿سُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ قال: يعني الثياب، ﴿وَسُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَاسَ﴾ قال: يعني الدروع والسلاح ﴿كَذَلِكَ يَتَمَنَّاهُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ﴾ يعني: من الجراحات، وكان

والأشعار للمعز، وهي من جملة الغنم، فيكون نكر هذه الثلاثة على وجه التنويع كل واحد منها لواحد من الثلاثة، أعني: الإبل، ونوعي الغنم، والاثاث متاع البيت، وأصله الكثرة والاجتماع، ومنه شعر أثيث أي: كثير مجتمع، قال الشاعر: وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنن النخلة المتعطل قال الخليل اثاثاً أي: منضماً بعضه إلى بعض، من أث إذا كثرت، قال الفراء: لا واحد له، والمتاع: ما يتمتع به بأنواع التمتع، وعلى قول أبي زيد الأنصاري: إن الاثاث المال أجمع: الإبل والغنم والعبيد والمتاع، يكون عطف المتاع على الاثاث من عطف الخاص على العام، وقيل: إن الاثاث ما يكتسبه به الإنسان ويستعمله من الغطاء والوطاء، والمتاع ما يفرش في المنازل ويتزين به، ومعنى ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى أن تقضوا أوطاركم منه، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى الموت، أو إلى القيامة، ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام، أو أبنية يستظل بها لفقر، أو لعارض آخر فيحتاج إلى أن يستظل بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك نبه سبحانه على ذلك فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً﴾ أي: أشياء تستظلون بها كالأشياء المذكورة، والحاصل أن الظلال تعم الأشياء التي تظل، ثم لما كان المسافر قد يحتاج إلى ركن يأوي إليه في نزوله، وإلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد، نبه سبحانه على ذلك فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ وهي جمع كن: وهو ما يستكن به من المطر، وهي هنا الغيران في الجبال، جعلها الله سبحانه عدة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سُرَابِيلَ﴾ جمع سريال، وهي القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها. قال الزجاج: كل ما لبسته فهو سريال. ومعنى ﴿تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ تدفع عنكم ضرر الحر، وخص الحر ولم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر، لأن ما وقى من الحر وقى من البرد، ووجه تخصيص الحر بالذكر أن الوقاية منه كانت أهم عندهم من الوقاية من البرد لغلبة الحر في بلادهم ﴿وَسُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَاسَ﴾ وهي الدروع والجواشن يتقون بها الطعن والضرب والرمي، والمعنى: أنها تقم الباس الذي يصل من بعضهم إلى بعض في الحرب ﴿كَذَلِكَ يَتَمَنَّاهُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مثل ذلك الإتمام البالغ يتم نعمته عليكم، فإنه سبحانه قد من على عباده بصنوف النعم المذكورة ما هنا وبغيرها، وهو بفضل وإحسانه سيتم لهم نعمة الدين والدنيا ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ﴾ إرادة أن تسلموا، فإن من أمعن النظر في هذه النعم لم يسعه إلا الإسلام والانقياد للحق. وقرأ ابن محيصن، وحמיד (تتم نعمته) بتاءين فوقيتين على أن فاعله نعمته، وقرأ الباقرين بالتحتية على أن الفاعل هو الله سبحانه. وقرأ ابن عباس، وعكرمة (تسلمون) بفتح التاء واللام من السلامة من الجراح، وقرأ الباقرين بضم التاء وكسر اللام من الإسلام. قال أبو عبيد: والاختيار قراءة العامة، لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من

«وبشرى للمسلمين» خاصة دون غيرهم، أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة بهم، لأنهم المنتفعون بذلك. ثم لما ذكر سبحانه أن في القرآن تبيان كل شيء نكر عقبة آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقاً لذلك فقال: «إن الله يامر بالعدل والإحسان».

وقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل والإحسان؛ فقيل: العدل لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض، وقيل: العدل الفرض، والإحسان النافلة، وقيل: العدل استواء العلانية والسريّة، والإحسان أن تكون السريّة أفضل من العلانية، وقيل: العدل الإنصاف، والإحسان التفضل، والأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الإقراط والتفريط؛ فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة؛ ليست بمائلة إلى جانب الإقراط وهو الغلو المنموم في الدين، ولا إلى جانب التفريط وهو الإخلال بشيء مما هو من الدين؛ وأما الإحسان فمعناه اللغوي يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب كصدقة التطوع، ومن الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه، فقال في حديث ابن عمر الثابت في الصحيحين: «والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذا هو معنى الإحسان شرعاً «وإيتاء ذي القربى» أي: إعطاء القرباة ما تدعو إليه حاجتهم، وفي الآية إرشاد إلى صلة الأقارب وترغيب في التصديق عليهم، وهو من باب عطف الخاص على العام إن كان إعطاء الأقارب قد نخل تحت العدل والإحسان؛ وقيل: من باب عطف المندوب على الواجب، ومثل هذه الآية قوله: «وأت ذا القربى حقّه» [الإسراء: 26]. وإنما خصّ نوري القربى لأن حقهم أكد، فإن الرحم قد اشتق اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلتها وقطيعتها من قطيعته «وينهى عن الفحشاء» هي الخصلة المتزايدة في القبح من قول أو فعل، وقيل: هي الزنا؛ وقيل: البخل «والمنكر» ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي على اختلاف أنواعها، وقيل: هو الشرك «و» أما «البغي» فقيل هو الكبر، وقيل: الظلم، وقيل: الحقد، وقيل: التعدي، وحقيقته تجاوز الحد فيشمل هذه المنكورة ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر، وإنما خصّ بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره وببطلان عاقبته، وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها لقوله سبحانه: «إنما بغىكم على أنفسكم» [يونس: 23]، وهذه الآية هي من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله: «يعظكم لعلكم تتقون» أي: يعظكم بما نكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه، فإنها كافية في باب الوعظ والتذكير، لعلكم تتقون إرادة أن تتذكروا ما ينبغي تذكره فتتقوا بما وعظكم الله به.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل والإحسان؛ فقيل: العدل لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض، وقيل: العدل الفرض، والإحسان النافلة، وقيل: العدل استواء العلانية والسريّة، والإحسان أن تكون السريّة أفضل من العلانية، وقيل: العدل الإنصاف، والإحسان التفضل، والأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الإقراط والتفريط؛ فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة؛ ليست بمائلة إلى جانب الإقراط وهو الغلو المنموم في الدين، ولا إلى جانب التفريط وهو الإخلال بشيء مما هو من الدين؛ وأما الإحسان فمعناه اللغوي يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب كصدقة التطوع، ومن الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه، فقال في حديث ابن عمر الثابت في الصحيحين: «والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذا هو معنى الإحسان شرعاً «وإيتاء ذي القربى» أي: إعطاء القرباة ما تدعو إليه حاجتهم، وفي الآية إرشاد إلى صلة الأقارب وترغيب في التصديق عليهم، وهو من باب عطف الخاص على العام إن كان إعطاء الأقارب قد نخل تحت العدل والإحسان؛ وقيل: من باب عطف المندوب على الواجب، ومثل هذه الآية قوله: «وأت ذا القربى حقّه» [الإسراء: 26]. وإنما خصّ نوري القربى لأن حقهم أكد، فإن الرحم قد اشتق اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلتها وقطيعتها من قطيعته «وينهى عن الفحشاء» هي الخصلة المتزايدة في القبح من قول أو فعل، وقيل: هي الزنا؛ وقيل: البخل «والمنكر» ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي على اختلاف أنواعها، وقيل: هو الشرك «و» أما «البغي» فقيل هو الكبر، وقيل: الظلم، وقيل: الحقد، وقيل: التعدي، وحقيقته تجاوز الحد فيشمل هذه المنكورة ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر، وإنما خصّ بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره وببطلان عاقبته، وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها لقوله سبحانه: «إنما بغىكم على أنفسكم» [يونس: 23]، وهذه الآية هي من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله: «يعظكم لعلكم تتقون» أي: يعظكم بما نكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه، فإنها كافية في باب الوعظ والتذكير، لعلكم تتقون إرادة أن تتذكروا ما ينبغي تذكره فتتقوا بما وعظكم الله به.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن

عباس في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض ﴿وَالِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ قال: إعطاء نوي الأرحام الحق الذي أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ قال: الزنا ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ قال: الشرك ﴿وَالْبَغْيِ﴾ قال: الكبر والظلم ﴿يُعْظَمُكُمْ﴾ قال: يوصيكم ﴿لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الألب، ومحمد بن نصر في الصلاة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب قال: أعظم آية في كتاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]. واجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآيات التي في النحل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾. وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب [الطلاق: 2 - 3]. واشد آية في كتاب الله رجاء ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53] الآية. وأخرج البيهقي في الشعب عن الحسن أنه قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ إلى آخرها ثم قال: إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه. وأخرج البخاري في تاريخه من طريق الكلبي عن أبيه قال: مر علي بن أبي طالب بقوم يتحدثون فقال: فيم أنتم؟ قالوا: نتذكر المروءة، فقال: أو ما كفلكم الله عز وجل ذلك في كتابه إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ فالعدل الإنصاف، والإحسان التفضل، فما بقي بعد هذا؟

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْدًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ ۖ لَآبِلٌ ﴿١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلُهُ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكُنَّا نَخْذِرُكُمْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُمْ أَنْ تَكُونُوا أَتَمَّ مِنْ أَنْكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَكْثَرُ فِيهِ غَفْلَتُونَ ﴿٢﴾ وَلَوْ سَأَلَ اللَّهُ لَجَسَّكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسْتَ لَنَا عَنْ كَثْرٍ تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ وَلَا تَخْذَرُوا أَیْمَانَكُمْ دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُمْ فَزَلْتُمْ بِمَدِّ بُرُجَيْهَا وَتَذَرُوهَا أَلْسُوهُمَا مَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤﴾ وَلَا تَشْرَبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَشْرَبُوا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدٌ لَكُمْ أَنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦﴾

خص سبحانه من جملة المأمورات التي تضمنها قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الوفاء بالعهد فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وظاهره العموم في كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره، وخص هذا العهد المذكور في هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي ﷺ على الإسلام وهو خلاف ما يفيد للعهد

المضاف إلى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله، ولو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجباً لقصره على السبب، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفسره بعضهم باليمين، وهو مدفوع بنكر الوفاء بالآيمان بعده حيث قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها، وليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالآيمان المؤكدة، لا بغيرها مما لا تأكيد فيه، فإن تحريم النقض يتناول الجميع، ولكن في نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذي في نقض ما لم يؤكد منها، يقال: وكذا أكد توكيداً وتأكيداً، وهما لغتان. وقال الزجاج: الأصل الواو والهزمة بدل منها، وهذا العموم مخصوص بما ثبت في الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ فقال: «من حلف على يمين فرائ غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»، حتى بالغ في ذلك ﷺ فقال: «والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني». وهذه الألفاظ ثابتة في الصحيحين وغيرهما، ويخص أيضاً من هذا العموم يمين اللغو لقوله سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: 225 - المائدة: 89] ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لإخراج إيمان اللغو، وقد تقدم بسط الكلام على الآيمان في البقرة ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْدًا﴾ أي: شهيداً، وقيل: حافظاً، وقيل: ضامناً، وقيل: رقيباً لأن الكفيل يراعي حال المكفول به، وقيل: إن توكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشيء الواحد مراراً. وحكى القرطبي عن ابن عمر أن التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازيكم بحسب ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه ترغيب وترهيب. ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضُوا غَزْلَهُمْ﴾ أي لا تكونوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كالتي نقضت غزلها أي: ما غزلته ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: من بعد إبرام الغزل وإحكامه، وهو متعلق بنقضت ﴿أَنْكَاشًا﴾ جمع نكث بكسر النون ما ينكث قتله. قال الزجاج: انتصب أنكاشاً على المصدر، لأن معنى نقضت نكثت؛ ورد بأن أنكاشاً ليس بمصدر، وإنما هو جمع كما ذكرنا. وقال الواحدي: هو منصوب على أنه مفعول ثانٍ كما تقول كسرتة أقطاعاً وأجزاء: أي جعلته أقطاعاً وأجزاء، ويحتمل أن يكون حالاً. قال ابن قتيبة: هذه الآية متعلقة بما قبلها، والتقدير: وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الآيمان، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكاشاً، وجملة ﴿تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُمْ﴾ في محل نصب على الحال. قال الجوهرى: والدخل المكر والخديعة، وقال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً فهو نخل، وقيل: الدخول ما أدخل في الشيء على فساد. وقال الزجاج: غشاً وغلاً ﴿إِنْ تَكُونُ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: بأن تكون جماعة هي

السيء في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بما صديتم ﴿عن سبيل الله﴾ أي: بسبب صديكم أنتم عن سبيل الله وهو الإسلام، أو بسبب صديكم لغيركم عن الإسلام، فإن من نقض البيعة وأرتد أقتدى به غيره في ذلك فكان فعله سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها ولهذا قال: ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ أي: متبالم في العظم، وهو عذاب الآخرة إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا. ثم نهاهم سبحانه عن الميل إلى عرض الدنيا والرجوع عن العهد لأجله فقال: ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ أي: لا تأخذوا في مقابلة عهدكم عوضاً يسيراً حقيراً، وكل عرض بنوي وإن كان في الصورة كثيراً فهو لكونه ذاهباً زائلاً يسير، ولهذا نكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند الله فقال: ﴿إنما عند الله هو خير لكم﴾ أي: ما عنده من النصر في الدنيا والغنائم والرزق الواسع، وما عنده في الآخرة من نعيم الجنة الذي لا يزول ولا ينقطع هو خير لهم، ثم علل النهي عن أن يشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً وأن ما عند الله هو خير لهم بقوله: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والتمييز بين الأشياء، ثم نكر بليلاً قاطعاً على حقارة عرض الدنيا وخيرية ما عند الله فقال: ﴿ما عنكم ينقد وما عند الله باق﴾ ومعلوم لكل عاقل أن ما ينقد ويزول وإن بلغ في الكثرة إلى أي مبلغ فهو حقير يسير، وما كان يبقى ولا يزول فهو كثير جليل، أما نعيم الآخرة فظاهر، وأما نعيم الدنيا الذي أنعم الله به على المؤمنين فهو وإن كان زائلاً لكنه لما كان متصلاً بنعيم الآخرة كان من هذه الحثية في حكم الباقي الذي لا ينقطع، ثم قال: ﴿ولنجزيهن الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ اللام هي الموطئة أي: لنجزيهم بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف وجهاد الكافرين والصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات. قيل: وإنما خص أحسن أعمالهم، لأن ما عنده وهو الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعة، وقيل: المعنى ولنجزيهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم كقوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام: 160]، أو لنجزيهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأعلى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل، لا أننا نعطى الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن، والأحسن بالأحسن، كذا قيل. قرأ عاصم وابن كثير (لنجزيهن) بالنون. وقرأ الباقون بالياء التحتية.

وقد لخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مزينة بن جابر في قوله: ﴿ووفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ قال: أنزلت هذه الآية في بيعة رسول الله ﷺ، كان من أسلم بايع على الإسلام، فقال: ﴿ووفوا بعهد الله﴾ الآية، فلا يحملكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن

أربي من جماعة أي: أكثر عدداً منها وأوفر مالا. يقال: ربا الشيء يربو إذا كثر، قال الفراء: المعنى لا تغدروا يقوم لقلنتهم وكثرتكم أو لقلنتكم وكثرتهم وقد عززتموهم بالآيمان. قيل: وقد كانت قريش إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم، وقيل: هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبي ﷺ ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ أي: يختبركم بكونكم أكثر وأوفر لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء أم تنقضون اغتراراً بالكثرة؟ فالضمير في به راجع إلى مضمون جملة: أن تكون أمة هي أربي من أمة أي: إنما يبلوكم الله بتلك الكثرة ليعلم ما تصنعون، أو إنما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم ﴿وليبيّن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ فيوضح الحق والمحققين ويرفع درجاتهم، ويبين الباطل والمبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه، وفي هذا إنذار وتحذير من مخالفة الحق والركون إلى الباطل، أو يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث والجنة والنار. ثم بين سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء أو على الإيما فقال: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ متفقة على الحق ﴿ولكن﴾ بحكم الإلهية ﴿يفضل من يشاء﴾ بخلافه إياهم عدلاً منه فيهم ﴿ويهدي من يشاء﴾ بترفيقه إياهم فضلاً منه عليهم ﴿ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ [الأنبياء: 23]. ولهذا قال: ﴿ولتسألن عما كنتم تعملون﴾ من الأعمال في الدنيا، واللام في وليبينن لكم، وفي ولتسألن هما الموطئتان للقسم. ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الإيما نهاهم عن نقض إيمان مخصوصة فقال: ﴿ولا تتخذوا إيمانكم دخلاً بينكم﴾ وهي إيمان البيعة. قال الواحدي: قال المفسرون: وهذا في نهى الذين بايعوا رسول الله ﷺ عن نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين، واستلوا على هذا التخصيص بما في قوله: ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ من المبالغة، وبما في قوله: ﴿وتنوقوا السوء بما صديتم﴾ لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ صنووا غيرهم عن النحول في الإسلام. وعلى تسليم أن هذه الإيما مع رسول الله ﷺ هي سبب نزول هذه الآية، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقال جماعة من المفسرين: إن هذا تكرير لما قبله لقصد التأكيد والتقرير، ومعنى ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ فتزل قدم من اتخذ يمينه دخلاً عن محجة الحق بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها، قيل: وأقرد القدم للإيذان بأن زلل قدم واحد أي قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ وهذا استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر، ويقال لمن أخطأ في شيء: زلت به قدمه، ومنه قول الشاعر:

تداركتما عبساً وقد نزل عرشها ونبيان قد زلت بأقدامها النعل
﴿وتنوقوا السوء بما صديتم﴾ أي: تنوقوا العذاب

وقيل: بالتوفيق إلى الطاعة، قاله الضحاك. وقيل: الحياة الطيبة هي حياة الجنة، روي عن مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكي عن الحسن أنه قال: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة، وقيل: الحياة الطيبة هي السعادة، روي ذلك عن ابن عباس. وقيل: هي المعرفة بالله، حكي ذلك عن جعفر الصادق. وقال أبو بكر الوراق: هي حلوة الطاعة. وقال سهل بن عبد الله التستري: هي أن ينزع عن العبد تدبير نفسه ويرد تدبيره إلى الحق؛ وقيل: هي الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق، وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هي في الدنيا لا في الآخرة، لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد قلنا قريباً تفسير الجزء بالأحسن، ووحد الضمير في لنحيينه وجمعه في ولنجزينهم حملاً على لفظ من، وعلى معناه. ثم لما نكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعانة التي تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوسواس الشيطانية فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ والفاء لترتيب الاستعانة على العمل الصالح، وقيل: هذه الآية متصلة بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]. والتفسير: فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله: قال الزجاج وغيره من أئمة اللغة: معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ وليس معناه استعذ بعد أن تقرأ القرآن، ومثله: إذا أكلت فقل: بسم الله. قال الواحدي: وهذا إجماع الفقهاء أن الاستعانة قبل القراءة، إلا ما روي عن أبي هريرة، وابن سيرين، ودأود، ومالك، وحزمة من القراء فإنهم قالوا: الاستعانة بعد القراءة، ذهبوا إلى ظاهر الآية، ومعنى فاستعذ بالله: أسأله سبحانه أن يعينك من الشيطان الرجيم أي: من وسوسه، وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعانة عند إرادتها للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم، لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كانت عند إرادة غيره أولى، كذا قيل. وتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعانة، لأنه إذا أمر بها لنفع وسواس الشيطان مع عصمته، فكيف بسائر أمته؟ وقد ذهب الجمهور إلى أن الأمر في الآية للتنبيه. وروي عن عطاء الوجوب أخذاً بظاهر الأمر. وقد تقدم الكلام في الاستعانة مستوفى في أول هذا التفسير، والضمير في ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ للشان أو للشيطان أي: ليس له تسلط ﴿وعلى﴾ إغواء ﴿الذين آمنوا﴾ وعلى ربههم يتوكلون. وحكى الواحدي عن جميع المفسرين أنهم فسروا السلطان بالحجة، وقالوا: المعنى ليس له حجة على المؤمنين في إغوائهم ودعائهم إلى الضلالة؛ ومعنى ﴿وعلى ربههم يتوكلون﴾ يفوضون أمورهم إليه في كل قول وفعل، فإن الإيمان بالله والتوكل عليه يمتنع الشيطان من وسوسته لهم، وإن وسوس لأحد منهم لا تؤثر فيه وسوسته، وهذه

أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَقْنُصُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يقول: بعد تغليظها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن مريويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أن سعيدة الأسدية كانت تجمع الشعر والليف، فنزلت فيها هذه الآية ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص مثله، وفي الروايتين جميعاً أنها كانت مجنونة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في سبب نزول الآية قال: كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء كانت تغزل فإذا أبرمت غزلها نقضته. وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير معناه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ تَكُونُ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال: ناس أكثر من ناس. وأخرجوا عن مجاهد في الآية قال: كانوا يحالفون الحلفاء فيجسدون أكثر منهم وأعر، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون هؤلاء الذين هم أعر فنهوا عن ذلك.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٧٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَنَّهُم يَتَوَلَّوْنَ هُم بِهِمْ مُّشْرِكُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذَا بَدَأْنَا بِآيَةٍ نَّكَاتٍ ؕ آيَةً ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُفْرِكُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْجِيٌّ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا يَمْلِكُونَ ﴿٨١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ يَلْمِزُ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٢﴾ وَلَقَدْ نَلَمْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئَلَّا يُخْلِدُوا إِلَيْهِ عُجَبًا ۖ وَهَذَا لِإِسَاءٍ عَمَرُوا ثِيْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٤﴾ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أَلِيْنَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح، وتعميم للوعد؛ ومعنى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من عمل عملاً صالحاً أي: عمل كان، وزيادة التمييز بنكر أو أنشئ مع كون لفظ «من» شاملاً لهما لقصد التأكيد والمبالغة في تقرير الوعد؛ وقيل: إن لفظ «من» ظاهر في الذكور، فكان في التنصيص على الذكر والأنثى بيان لشموله للنوعين، وجملة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في محل نصب على الحال، جعل سبحانه الإيمان قيداً في الجزء المنكسر لأن عمل الكافر لا اعتداد به لقوله سبحانه: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23]. ثم نكر سبحانه الجزء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال: ﴿فَلَنَحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ وقد وقع الخلاف في الحياة الطيبة بماذا تكون؟ فقيل: بالرزق الحلال، روي ذلك عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضحاك؛ وقيل: بالقناعة، قاله الحسن البصري، وزيد بن وهب، وهب بن منبه. وروي أيضاً عن عليّ وابن عباس؛

اسمه يعيش، عبد لبني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، وقيل: غلام لبني عامر بن لؤي، وقيل: هما غلامان: اسم أحدهما يسار، واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يعلنان السيوف، وكانا يقرآن كتاباً لهم؛ وقيل: كانا يقرآن التوراة والإنجيل، وقيل: عنوا سلمان الفارسي؛ وقيل: عنوا نصرانياً بمكة اسمه بلعام، وكان يقرأ التوراة؛ وقيل: عنوا رجلاً نصرانياً كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية، وفي رواية اسمه عداس. قال النحاس: وهذه الأقوال غير متناقضة، لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعاً يعلمونه، ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال إنه سلمان، لأن هذه الآية مكية، وهو إنما أتى إلى النبي ﷺ بالمدينة. ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: ﴿لِسَانُ الَّذِي يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾ الإلحاد: الميل، يقال: لحد وألحد أي: مال عن القصد. وقد تقدّم في الأعراف. وقرأ حمزة والكسائي (يلحدون) بفتح الياء والحاء. وقرأ من عداهما بضم الياء وكسر الحاء أي: لسان الذين يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمك أعجمي، يقال: رجل أعجم وامرأة عجماء أي: لا يفصحان، والعجمة الإخفاء، وهي ضدّ البيان، والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجمياً. قال الفراء: الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب، والأعجمي: هو الأعجمي الذي أصله من العجم. وقال أبو علي الفارسي: الأعجمي المنسوب إلى العجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم، وكذلك الأعجم، والأعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً ﴿وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ الإشارة إلى القرآن، وسماه لساناً لأن العرب تقول للقسيصة والبيت: لساناً، ومنه قول الشاعر:

لسان الشر تهديها إلينا وخنت وما حسبتك أن تخونا
أو أرا باللسان البلاغة فكأنه قال: وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح، فكيف تزعمون أن بشراً يعلمه من العجم؟ وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه، وأنتم أهل اللسان العربي ورجال الفصاحة وقادة البلاغة، وهاتان الجملتان مستانفتان سيقتا لإبطال طعنهم ودفْع كذبهم. ولما ذكر سبحانه جوابهم وبخهم وهذّهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا يصدقون بها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى الحق الذي هو سبيل النجاة هداية موصلة إلى المطلوب لما علم من شقاوتهم ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بسبب ما هم عليه من الكفر والتكذيب بآيات الله. ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء إلى رسول الله ﷺ ردّ عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللَّهِ﴾ فكيف يقع الافتراء من رسول الله ﷺ، وهو رأس المؤمنين بها، والداعين إلى الإيمان بها، وهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها، فهم المفترون للكذب. قال الزجاج: المعنى إنما يفتري الكذب الذين إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها هؤلاء أكذب الكذبة، ثم سماهم الكاذبين. فقال: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بذلك ﴿هُمُ الْكَانِبُونَ﴾ أي: إن

الجملة تعليل للأمر بالاستعانة، وهؤلاء الجامعون بين الإيمان والتوكل هم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 40] وقال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 42] ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان، فقال: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ أي: تسلطه على الإغواء ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي: يتخذونه ولياً ويطيعونه في وسائسه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ الضمير في به يرجع إلى الله تعالى أي: الذين هم بالله مشركون؛ وقيل: يرجع إلى الشيطان؛ والمعنى: والذين هم من أجله وبسبب وسوسته مشركون بالله ﴿وَإِذَا بَلَغْنَا آيَةَ مَكَانٍ آيَةً﴾ هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبه كفرية ودفْعها. ومعنى التبديل: رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها، وهو نسخها بآية سواها، وقد تقدّم الكلام في النسخ في البقرة ﴿قَالُوا﴾ أي: كفار قريش الجاهلون للحكمة في النسخ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ بِمَا مُحَمَّدٌ مَّفْتَرٍ﴾ أي: كاذب مختلق على الله متقول عليه بما لم يقل حيث تزعم أنه أمرك بشيء. ثم تزعم أنه أمرك بخلافه، فردّ الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال: ﴿يَبْلُغُهُمْ كَثْرَتُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم أصلاً، أو لا يعلمون بالحكمة في النسخ، فإنه مبني على المصالح التي يعلمها الله سبحانه، فقد يكون في شرع هذا الشيء مصلحة مؤقتة بوقت، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره، ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف. ثم بين سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله، وأن رسوله ﷺ افتراه فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ أي: القرآن المملول عليه بذكر الآية. ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل، والقدس: التطهير؛ والمعنى: نزل الروح المطهر من أدناس البشرية، فهو من إضافة موصوف إلى الصفة ﴿مَنْ رَبُّكَ﴾ أي: ابتداء تنزيهه من عنده سبحانه، و﴿بِالْحَقِّ﴾ في محل نصب على الحال أي: متلبساً بكونه حقاً ثابتاً لحكمة بالغة ﴿لِيُثَبِّتَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الإيمان، فيقولون: كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا، ولأنهم أيضاً إذا عرفوا ما في النسخ من المصالح ثبتت أقدامهم على الإيمان ورسخت عقائدهم. وقرئ (ليثبت) من الإثبات ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وهما معطوفان على محل ليثبت أي: تثبيتاً لهم وهداية وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضرار هذه الخصال لغيرهم. ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ اللام هي الموطئة أي: ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون: إنما يعلم محمداً القرآن بشر من بني آدم غير ملك. وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا، فقيل: هو غلام الفاكه بن المغيرة، واسمه جبر، وكان نصرانياً فأسلم، وكان كفار قريش إذا سمعوا من النبي ﷺ أخبار القرون الأولى مع كونه أمياً، قالوا: إنما يعلمه جبر، وقيل:

السيوف بمكة، وكانا يقرآن الإنجيل، فربما مر بهما النبي ﷺ وهما يقرآن فيقف ويستمع، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما، فنزلت هذه الآية.

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
وَالْإِيمَانُ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٥٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَمَعَ اللَّهُ عَلَى
قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَصْرَهُمْ وَأَوَّلِيكَ هُمْ الْغَافِلُونَ ﴿١٥٣﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَسِرُونَ ﴿١٥٤﴾ ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ
هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَرُّوا إِنَّ رَبَّكَ لَزَلِيلٌ
بِمَوَدَّتِهِمْ لَغَوْرٌ رَجِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا
وَتَقُولُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهِيَ لَا تَعْلَمُ ﴿١٥٦﴾

قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ قد اختلف أهل العلم في إعرابه، فذهب الأكثرون على أنه بدل إما من ﴿إِنْ﴾ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴿النحل: 104﴾ وما بينهما اعتراض، والمعنى: إنما يفترى الكذب من كفر، واستثنى منهم المكره فلا يدخل تحت حكم الافتراء. ثم قال: ﴿وَلَكِنْ مِنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: اعتقده وطابت به نفسه واطمان إليه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ وإما من المبتدأ الذي هو ﴿أُولَئِكَ﴾ [النحل: 105] أو من الخبر الذي هو ﴿الكَافِرُونَ﴾ [النحل: 105]، وذهب الزجاج إلى الأول. وقال الأخفش: إن «من» مبتدأ وخبره محذوف اكتفي منه بخبر من الثانية كقولك: من يأتنا منك نكرمه؛ وقيل: هو أي: «من» في «من كفر» منصوب على الذم؛ وقيل: إن من شرطية والجواب محذوف لأن جواب «من شرح» دال عليه، وهو كقول الأخفش، وإنما خالفه في إطلاق لفظ الشرط على من والجواب على خبرها، فكانه قيل على هذا من كفر بالله فعليهم غضب إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب، وإنما صح استثناء المكره من الكافر مع أنه ليس بكافر لأنه ظهر منه بعد الإيمان ما لا يظهر إلا من الكافر لولا الإكراه. قال القرطبي: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يظهر الكفر كان مرتداً في الظاهر، وفيما بينه وبين الله على الإسلام، وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات ولا يرث أباه إن مات مسلماً، وهذا القول مردود على قائله مدفوع بالكتاب والسنة، وذهب الحسن البصري، والأوزاعي، والشافعي، وسحنون إلى أن هذه الرخصة المذكورة في هذه الآية إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة، مثل أن يكره على السجود لغير الله ويدفعه ظاهر الآية، فإنها علامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل، ولا دليل لهؤلاء القاصرين للآية على القول، وخصوص السبب لا

الكذب نعت لازم لهم وعادة من عانتهم فهم الكاملون في الكذب، إذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الحياة الطيبة المذكورة في الآية فقال: الحياة الطيبة الرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا، وإذا صار إلى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الكسب الطيب والعمل الصالح. وأخرج العسكري في الأمثال عن علي في الآية قال: القناعة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال: القنوع، قال: «وكان رسول الله ﷺ يدعو اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه، واخلف علي كل غائبة لي بخير». وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه». وأخرج الترمذي، والنسائي من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به». وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر عن عطاء قال: الاستعانة واجبة لكل قراءة في الصلاة وغيرها من أجل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. وقد ورد في مشروعية الاستعانة عند التلاوة ما لعلنا قد قدمنا ذكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يقول: سلطان الشيطان على من تولى الشيطان وعمل بمعصية الله. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن مردويه، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغْنَا آيَةَ مَكَانٍ آيَةٍ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ قال: عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ فأنزله الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان رسول الله ﷺ فأجازه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغْنَا آيَةَ مَكَانٍ آيَةٍ﴾ قال: هو كقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسُهَا﴾ [البقرة: 106]. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم بمكة قينا اسمه بلعام، وكان أعجمياً، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله ﷻ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ الآية. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عنه في الآية، قال: قالوا إنما يعلم محمداً عبد بن الحضرمي وهو صاحب الكتب، فأنزل الله ﷻ هذه الآية. وأخرج آدم بن أبي إياس، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان من أهل عين التمر، يقال لأحدهما: يسار والآخر جبر، وكان يصنعان

رحيم به، والضمير في بعدها يرجع إلى الفتنة أو إلى المهاجرة والجهاد والصبر، أو إلى الجميع ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُل نَفْسٌ تَجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ قال الزجاج: يوم تأتي منتصب بقوله: رحيم، أو بإضمار انكر، أو نكرهم، أو أنذرهم، وقد استشكل إضافة ضمير النفس إلى النفس، ولا بد من التغيرات بين المضاف والمضاف إليه، وأجيب بأن المراد بالنفس الأولى جملة بدن الإنسان، وبالنفس الثانية الذات؛ فكان قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمل غيرها، ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها، فهو مجالل ومخاصم عن نفسه لا يتقَرَّغَ غيرها يوم القيامة.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه: «تفرقوا عني فمن كانت به قوة فليتناخر إلى آخر الليل، ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا بي، فاصبح بلال المؤذن، وخباب، وعمار، وجارية من قریش كانت أسلمت، فأخذهم المشركون وأبو جهل، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى، فجعلوا يضعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه، فإذا لبسوها إياه قال: أحد أحد، وأما خباب فجعلوا يجرّونه في الشوك، وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقيّة، وأما الجارية فوجد لها أبو جهل أربع أوتاد، ثم مَدّها فأدخل الحربة في قلبها حتى قتلها، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فالحقوا برسول الله ﷺ فأخبروه بالذي كان من أمرهم، واشتدّ على عمار الذي كان تكلم به. فقال له رسول الله ﷺ: كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟ إكان منشراحاً بالذي قلت أم لا؟ قال لا، فأنزل الله ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مَطمئنٌ بِالْإِيمَانِ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساکر من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبّ النبي ﷺ. وذكر آلهتهم بخير فتركوه، فلما أتى النبي ﷺ قال: ما وراءك؟ قال: شرّ ما تركت حتى نلت منك ونكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان. قال: إن عانوا فعد. فنزلت ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مَطمئنٌ بِالْإِيمَانِ﴾. قال: ذاك عمار بن ياسر. ولكن من شرح بالكفر صدراً. عبد الله بن أبي سرح. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن عساکر عن أبي مالك في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مَطمئنٌ بِالْإِيمَانِ﴾. قال: نزلت في عمار بن ياسر. وفي الباب روايات مصرحة بأنها نزلت في عمار بن ياسر. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال: نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مَطمئنٌ بِالْإِيمَانِ﴾. في عياش بن أبي ربيعة. وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: في سورة النحل ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم نسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿ثُمَّ إِنْ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا

اعتبار به مع عموم اللفظ كما تقرر في علم الأصول، وجملة ﴿وَقَلْبُهُ مَطمئنٌ بِالْإِيمَانِ﴾ في محل نصب على الحال من المستثنى أي: إلا من كفر بإكراه، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته، وليس بعد هذا الوعيد العظيم وهو الجمع للمرتدين بين غضب الله وعظيم عذابه، والإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ﴾ إلى الكفر بعد الإيمان، أو إلى الوعيد بالغضب والعذاب، والباء في ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَوْا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ للسببية أي: ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا ﴿وَعَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف على ﴿أَنَّهُمْ اسْتَحْبَوْا﴾ أي: ذلك بأنهم استحبوا، وبأن الله لا يهدي القوم الكافرين إلى الإيمان به، ثم وصفهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما نكر من الأوصاف القبيحة ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَبَصَارِهِمْ﴾ فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها، ولا أبصروا الآيات التي يستدل بها على الحق، وقد سبق تحقيق الطبع في أول البقرة، ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدمة فقال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عما يراد بهم، وضمير الفصل يفيد أنهم متناهون في الغفلة، إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران البالغون إلى غاية منه ليس فوقها غاية، وقد تقدّم تحقيق الكلام في معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ في مواضع منها ما هو في هذه السورة ﴿ثُمَّ إِنْ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام، وخبر إن محذوف، والتقدير لغفور رحيم، وإنما حذف لدلالة خبر إن ربك المتأخرة عليه؛ وقيل: الخبر هو للذين هاجروا أي: إن ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم، وفيه بعد؛ وقيل: إن خبرها هو قوله ﴿لِغُفُورٍ رَحِيمٍ﴾، وإن ربك الثانية تأكيد للاولى. قال في الكشف: ثم، ها هنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء، يعني: الذين نزلت الآية فيهم عن حال أولئك، وهم عمار وأصحابه، ويدل على ذلك ما روي أنها نزلت في عبد الله بن أبي سرح، وسيأتي بيان ذلك ﴿مَنْ بَعْدَ مَا فُتِنُوا﴾ أي: فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا في الكفر، وقرئ (فتنوا) على البناء للفاعل أي: الذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الإسلام ﴿ثُمَّ جَاهِدُوا﴾ في سبيل الله وصبروا على ما أصابهم من الكفار، وعلى ما يلقونه من مشاق التكليف ﴿لِغُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي: كثير الغفران والرحمة لهم، ومعنى الآية على قراءة من قرأ (فتنوا) على البناء للفاعل واضح ظاهر أي: إن ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم وعذبوهم ثم جاهدوا وصبروا لغفور رحيم، وأما على قراءة البناء للمفعول وهي قراءة الجمهور، فالمعنى: أن هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين وصنورهم غير منشرحة للكفر إذا صلحت أعمالهم وجاهدوا في الله وصبروا على المكاره لغفور لهم رحيم بهم؛ وأما إذا كان سبب الآية هذه هو عبد الله بن أبي سرح الذي ارتدّ عن الإسلام ثم رجع بعد ذلك إلى الإسلام، فالمعنى: أن هذا المفتون في دينه بالردة إذا أسلم وجاهد وصبر فإله غفور له

يفيد ذلك، ومكة تبخل في هذا العموم البليّ بخلاً أولياً، وأيضاً يكون الوعيد أبلغ، والمثل أكمل، وغير مكة مثلاً، وعلى فرض إرادتها في المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها، ثم وصف القرية بأنها **«كانت آمنة»** غير خائفة **«مطمئنة»** غير منزعة أي: لا يخاف أهلها ولا يزعجون **«يأتيها رزقها»** أي: ما يرتزق به أهلها **«ورغدا»** واسعاً **«من كل مكان»** من الأمكنة التي يجلب ما فيها إليها **«فكفرت»** أي: كفر أهلها **«بأنعم الله»** التي أنعم بها عليهم، والأنعم جمع نعمة كالأشدّ جمع شدة، وقيل: جمع نعى مثل يؤسى وأبؤس. وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسوله **«فأذاقها الله»** أي: أذاق أهلها **«لباس الجوع والخوف»** سمي ذلك لباساً لأنه يظهر به عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس، فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاعة، وأصلها الذوق بالفهم، ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنبائها بشدة الإصابة لما فيها من اجتماع الإبراكين: إدراك اللبس، والذوق. روي أن ابن الراوندي الرننيق قال لابن الأعرابي إمام اللغة والأدب: هل يذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابي: لا لباس إياها النسئس، هب أن محمداً ما كان نبياً أما كان عربياً؟ كنه طعن في الآية بأن المناسب أن يقال: فكساها الله لباس الجوع أو فأذاقها الله طعم الجوع، فرد عليه ابن الأعرابي: وقد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة، وذلك أنه استعار اللباس لما غشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتغاله عليه اشتغال اللباس على اللابس، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له وهو الجوع والخوف، لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق فلان اليؤس والضر وأذاقه غيره، فكانت الاستعارة مجرّدة. ولو قال فكساها كانت مرشحة. قيل: وترشيح الاستعارة وإن كان مستحسنًا من جهة المبالغة إلا أن للتجريد ترجيحاً من حيث إنه روعي جانب المستعار له فازداد الكلام وضوحاً؛ وقيل: إن أصل الذوق بالفهم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف والاختبار، ومن ذلك قول الشاعر:

ومن ينق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذبا وعذابها
وقرا حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث بنصب (الخوف) عطفًا على لباس، وقرأ الباقر بن الضم عطفًا على الجوع، قال الفراء: كل الصفات أجريت على القرية إلا قوله: **«يصنعون»** تنبيهاً على أن المراد في الحقيقة أهلها **«ولقد جاءهم»** يعني: أهل مكة **«رسول منهم»** من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه، فامرهم بما فيه نفعهم ونهاهم عما فيه ضررهم **«فكتبوه»** فيما جاء به **«فأخذهم للعذاب»** النازل بهم من الله سبحانه، والحال أنهم في حال أخذ العذاب لهم **«ظالمون»** لأنفسهم بإيقاعها في العذاب الأبدي ولغيرهم بالإضرار بهم وصدّهم عن سبيل الله، وهذا

من بعد ما فتنوا الآية قال: وهو عبد الله بن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله ﷺ، فأزله الشيطان فلحق بالكفار. فأمر به النبي ﷺ أن يقتل يوم فتح مكة، فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن مثله. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية **«ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا»** فيمن كان يفتي من أصحاب النبي ﷺ. وأخرج ابن مردويه عنه قال: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام فنزلت فيهم **«ثم إن ربك للذين هاجروا»** الآية، فكتبوا إليهم بذلك إن الله قد جعل لكم مخرجاً فأخرجوا، فأمرهم المشركون فقاتلهم فنجوا من نجا، وقتل من قتل. وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن أن عيوناً لمسيمة أخنوا رجلين من المسلمين فاتوه بهما، فقال لأحدهما: اتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: اتشهد أنني رسول الله؟ فاهوى إلى أذنيه فقال: إني أصم، فأمر به فقتل؛ وقال للآخر: اتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: اتشهد أنني رسول الله؟ قال: نعم، فأرسله فاتى النبي ﷺ فقال له: أما صاحبك فمضى على إيمانه، وأما أنت فأخذت بالرخصة، وهو مرسل.

وَمَرَّيَ اللَّهُ مَلَأَ قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٧﴾ تَكُونُوا مِنْكُمْ رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا لِنِعْمَتِ اللَّهِ إِنَّ كُفْرَ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُمِلَ إِلَيْهِ لِيَمْلِكِ اللَّهُ بِكُمْ مَا تَشَاءُونَ عَزَّ بَرَكَّ وَلَا عَادِلَ فَإِنَّهُ عَزِيزٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَمِنَّا حَرَامٌ لِنَقُولَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَكَلَّ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا مَا فَصَنَّا لَكُنَّ مِنْ قَبْلُ وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَادَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾

قوله: **«وَضَرَبَ الله مَلَأَ قَرْيَةً»** قد قلّمنا أن ضرب مضمن معنى جعل حتى تكون قرية المفعول الأول ومثلاً المفعول الثاني، وإنما تأخرت قرية لثلا يقع الفصل بينها وبين صفاتها. وقلّمنا أيضاً أنه يجوز أن يكون ضرب على بابه غير مضمن ويكون مثلاً لمفعوله الأول وقرية بدلاً منه. وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة، أو المراد قرية غير معينة، بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة؟ فذهب الأكثر إلى الأول وصرحوا بأنها مكة، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال: **«اللهم أشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»**، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، والثاني أرجح لأن تنكير قرية

إبراهيم وأصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان نبي من أنبيائه؛ وقيل: والمراد هنا اتباع النبي ﷺ لملة إبراهيم في التوحيد والدعوة إليه. وقال ابن جرير: في التبزي من الأوثان والتئين بدين الإسلام؛ وقيل: في مناسك الحج، وقيل: في الأصول دون الفروع، وقيل: في جميع شريعته إلا ما نسخ منها، وهذا هو الظاهر، وقد أمر النبي ﷺ بالاعتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم، فقال تعالى: ﴿فَبِهِدَاهُمْ آتَاهُ﴾ [الأنعام: 90]، وانتصاب ﴿حَنِيفًا﴾ على الحال من إبراهيم، وجاز مجيء الحال منه، لأن الملة كالجاء منه. وقد تقدّر في علم النحو أن الحال من المضاف إليه أو جائز إذا كان يقتضي المضاف العمل في المضاف إليه أو كان جزءاً منه أو كالجاء ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهو تكرير لما سبق للفتنة التي نكرناها ﴿إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه، أو إنما جعل فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه على الذين اختلفوا فيه لا على غيرهم من الأمم.

وقد اختلف العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت، فقالت طائفة: إن موسى أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم وأخبرهم بفضيلته على غيره، فخالفوه وقالوا: إن السبت أفضل، فقال الله له: دعهم وما اختاروا لأنفسهم. وقيل: إن الله سبحانه أمرهم بتعظيم يوم في الأسبوع، فاختلف اجتهداهم فيه، فعينت اليهود السبت لأن الله سبحانه فرغ فيه من الخلق، وعينت النصارى يوم الأحد لأن الله بدأ فيه الخلق، فالزم الله كلا منهم ما أدى إليه اجتهداه، وعين لهذه الأمة الجمعة من غير أن يكلمهم إلى اجتهداهم فضلاً منه ونعمة. ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شرائع إبراهيم، فأخبر الله سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ولم يجعله على إبراهيم ولا على غيره ﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَيُحْكِمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المختلفين فيه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيما كانوا فيه يختلفون، فيجازي كلا فيه بما يستحقه ثواباً وعقاباً، كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والتنجية لأخرى، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يدعو أمته إلى الإسلام فقال ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث إلى الناس كافة، وسبيل الله هو الإسلام ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ أي: بالمقالة المحكمة الصحيحة، قيل: وهي الحج القطعية المفيدة لليقين ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها. قيل: وهي الحج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة؛ قيل: وليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان، ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الأدل إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَجَانِبُكُمْ بِالْأَمْرِ﴾ أي: بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، وإنما

له: كذبت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حُرْمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ قال: في سورة الأنعام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة مثله، وقال حيث يقول: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: 146].

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ شَاحِكًا لِأَتَمِّهِ أَجَنَّهُ وَهَدَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ وَمَآ تَنَّبَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَآلَهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٠﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُ يَأْتِي مِنَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنَّ عَابِثًا لَفَعَابِثُوا خِلَافَ مَا عَوِّضُكَ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي سَبِيلِهِمْ ﴿٢٣﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿٢٤﴾

لما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وإبطال مطاعنهم، وكان إبراهيم عليه السلام من الموحدين وهو قدوة كثير من النبيين نكره الله في آخر هذه السورة فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال ابن الأعرابي: يقال للرجل العالم أمة، والأمة الرجل الجامع للخير. قال الواحدي: قال أكثر أهل التفسير: أي معلماً للخير، وعلى هذا فمعنى كون إبراهيم كان أمة أنه كان معلماً للخير أو جامعاً لخصال الخير أو عالماً بما علمه الله من الشرائع؛ وقيل: أمة بمعنى مأموم أي: يؤمه الناس لياخذوا منه الخير كما قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124] والقانت المطيع، وقد تقدّم بيان معاني القنوت في البقرة، والحنيف للمائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وقد تقدّم بيانه في الأنعام. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بالله كما تزعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل ﴿شَاحِكًا لِأَتَمِّهِ﴾ التي أنعم الله بها عليه وإن كانت قليلة كما يدل عليه جمع القلة فهو شاكر لما كثر منها بالأولى ﴿لِجَنَابِهِ﴾ أي: اختاره للنبوّة واختصه بها ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو ملة الإسلام وبين الحق ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الْبَنِي حَسَنَةً﴾ أي: خصلة حسنة أو حالة حسنة؛ وقيل هي الولد الصالح؛ وقيل: الثناء الحسن؛ وقيل: النبوّة؛ وقيل: الصلاة منا عليه في التشهد؛ وقيل: هي أنه يتولاه جميع أهل الأديان، ولا مانع أن يكون ما أتاه الله شاملاً لذلك كله ولما عده من خصال الخير ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حسبما وقع منهم السؤال لربه حيث قال: ﴿وَالْحَقُّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ واجعل لي لسان صدق في الآخرين * واجعلني من ورثة جنة النعيم [الشعراء: 83 - 85]. ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد مع علوّ درجتك وسموّ منزلتك وكونك سيد ولد آدم ﴿وَأَن تَتَّبِعَ مِلَّةَ

والقيام بما أمروا بها منها؛ وقيل: المعنى إن الله مع الذين اتقوا للزيادة في العقوبة، والذين هم محسنون في أصل الانتقام فيكون الأول إشارة إلى قوله: ﴿فَعَقِبُوا بِمَثَلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾ والثاني إشارة إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾، وقيل: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ إشارة إلى الشفقة على عباد الله تعالى.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد، بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي عن ابن مسعود: أنه سئل عن الأمة ما هي؟ فقال: الذي يعلم الناس الخير، قالوا: فما القانت؟ قال: الذي يطيع الله ورسوله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ قال: كان على الإسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ قال: إماماً في الخير ﴿قَانِتًا﴾ قال: مطيعاً. وأخرج ابن مروي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد تشهد له أمة إلا قبل الله شهادتهم. والأمة: الرجل فما فوقه، إن الله يقول ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ والأمة الرجل فما فوقه». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عمر قال: صلى جبريل بإبراهيم الظهر والعصر بعرفات، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس نفع به، ثم صلى المغرب والعشاء بجمع ثم صلى الفجر به كاسرع ما يصلي أحكم من المسلمين ثم وقف به حتى إذا كان كابطاً ما يصلي أحد من المسلمين نفع به. ثم رمى الجمرة ثم نبح ثم حلق ثم أفاض به إلى البيت فطاف به، فقال الله لنبيه: ﴿ثُمَّ لَوْحِينَا إِلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قال: أراد الجمعة فأخذوا السبت مكانها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق السدي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في الآية قال: باستحلالهم إياه، رأى موسى رجلاً يحمل حطباً يوم السبت فضرب عنقه، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم. ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يعني: الجمعة، فاختلَفُوا فيه فهدانا الله له فالناس فيه لنا تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد». وأخرج مسلم وغيره من حديث حذيفة نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَجَاءَ لَهُمْ بِالْبَيْتِ هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: أعرض عن أذاهم إليك. وأخرج الترمذي وحسنه، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة في الفوائد، وابن

أمر سبحانه بالمجالبة الحسنة لكون الداعي محققاً وغرضه صحيحاً، وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ لما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بين أن الرشد والهداية ليس إلى النبي ﷺ وإنما ذلك إليه تعالى فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: هو العالم بمن يضل ومن يهتدي ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: بمن يبصر الحق فيقصده غير متعنت، وإنما شرع لك الدعوة وأمرك بها قطعاً للمعذرة وتتميماً للحجة وإزاحة للشبهة، وليس عليك غير ذلك، ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع إلى الحق فإن أبوا قوتلوا، أمر الداعي بأن يعدل في العقوبة فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أي: أرتبتم المعاقبة ﴿فَعَقِبُوا بِمَثَلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾ أي: بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك، قال ابن جرير: أنزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلمة أن لا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتعداها إلى غيرها، وهذا صواب، لأن الآية وإن قيل إن لها سبباً خاصاً كما سيأتي، فالاعتبار بعموم اللفظ، وعمومه يؤدّي هذا المعنى الذي نكره، وسمى سبحانه الفعل الأول الذي هو فعل البدأ بالشّر عقوبة، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثاني وهو المجازي للمشكلة. وهي باب معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز. ثم حث سبحانه على العفو فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ أي: لئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل فالصبر خير لكم من الانتصاف، ووضع الصابرين موضع الضمير، ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة في الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم، وقيل: هي منسوخة بآيات القتال، ولا وجه لذلك، ثم أمر الله سبحانه رسوله بالصبر فقال: ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ما أصابك من صنوف الأذى ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بتوقيفه وتثبيتته، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء أي: وما صبرك مصحوباً بشيء من الأشياء إلا بتوقيفه لك، وفيه تسلية للنبي ﷺ. ثم نهاه عن الحزن فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الكافرين في إعراضهم عنك، أو لا تحزن على قتلى أحد، فإنهم قد أقضوا إلى رحمة الله. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الضاد، وقرأ ابن كثير بكسرها. قال ابن السكيت: هما سواء، يعني: المفتوح والمكسور. وقال للفراء: الضيق بالفتح ما ضاق عنه صدرك، والضيق بالكسر ما يكون في الذي يتسع مثل الدار والثوب، وكذا قال الأخفش، وهو من الكلام المقلوب، لأن الضيق وصف للإنسان يكون فيه ولا يكون الإنسان فيه، وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشيء المحيط بالإنسان من جميع جوانبه، ومعنى مما يَمْكُرُونَ: من مكروهم لك فيما يستقبل من الزمان. ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: اتقوا المعاصي على اختلاف أنواعها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ بتأدية الطاعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِمَرْيَمَ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُنَّ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾
وَمَا كُنَّا بِمَوْسَىٰ الْكَذِّبِ وَجَعَلْنَاهُ هُكْمًا إِنِّي سَمِعْتُ لَأَن تَكْفُرَ مِنِّي وَإِنِّي لَأَكِيدُ فِي لُبِّي كَيْدًا مِّنْ خَلْقٍ لَّيِّنٍ ﴿٢﴾

قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِمَرْيَمَ لَيْلًا﴾ هو مصدر سبح، يقال: سبح يسبح تسبيحاً وسبحاناً، مثل كفر اليمين تكفيراً وكفراناً، ومعناه التنزيه والبراءة لله من كل نقص. وقال سيدي: العامل فيه فعل لا من لفظه، والتقدير أنزه الله تنزيهاً، فوقع سبحان مكان تنزيهاً، فهو على هذا مثل قعد للفرصاء واشتمل الصماء؛ وقيل: هو علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمّر متروك إظهاره تقديره أسبح الله سبحان، ثم نزل منزلة الفعل وسدّ مسدّه، وقد قُتِمَا في قوله: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ [البقرة: 32]. طرفاً من الكلام المتعلق بسبحان. والإسراء قيل: هو سير الليل، يقال: سرى وأسرى، كسقى وأسقى لغتان، وقد جمع بينهما الشاعر في قوله:

حي النضير وردية الخدر أسرت إلي ولم تكن تسري
وقيل هو سير أول الليل خاصة، وإذا كان الإسراء لا يكون إلا في الليل فلا بدّ للتصريح بنكر الليل بعده من فائدة، فقيل: أراد بقوله لَيْلًا تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلة. ووجه دلالة لَيْلًا على تقليل المدة ما فيه من التذكير الدالّ على البعوضة، بخلاف ما إذا قلت: سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً. وقد استدلل صاحب الكشاف على إفادة لَيْلًا للبعوضة بقراءة عبد الله وحذيفة (من الليل)، وقال الزجاج: معنى أسرى أسريه لَيْلًا سير عبده يعني: محمداً لَيْلًا، وعلى هذا فيكون معنى أسرى معنى سير فيكون للتقدير بالليل فائدة، وقال: بعده ولم يقل: بنبيه أو رسوله أو بمحمد تشريفاً له ﷺ. قال أهل العلم: لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسماه الله سبحانه به في هذا المقام العظيم والحالة العلية:

لا تدعني لإبائعبيها فإنه أشرف أسمائي
ادعاء بأسماء نبذا في قبائلها كان أسماء أضحت بعض أسمائي
﴿من للمسجد للحرام﴾ قال الحسن وقتادة: يعني المسجد نفسه وهو ظاهر القرآن. وقال عامة المفسرين: أسرى برسول الله ﷺ من دار أم هانئ، فحملوا المسجد الحرام على مكة أو الحرم لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام، أو لأن الحرم كله مسجد. ثم نكر سبحانه الغاية التي أسرى برسوله ﷺ إليها فقال: ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ وهو بيت المقدس، وسمي الأقصى لبعده المسافة بينه وبين المسجد الحرام ولم يكن حينئذ وراءه مسجد، ثم وصف المسجد الأقصى بقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ بالثمار والأنهار والأنبياء والصالحين، فقد بارك الله سبحانه حول

حبان، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمُتُّوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنزبن عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى: ﴿وَإِن عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب، كفوا عن القوم إلا أربعة». وأخرج ابن سعد، والبزار، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ وقف على حمزة حيث استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه، ونظر إليه قد مثل به، فقال: رحمة الله عليك، فإنك كنت ما علمت وصولاً للرحم فعولاً للخير، ولولا حزن من بعك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى، أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وَإِن عَاقِبْتُمْ﴾ الآية، فكفر النبي ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبره. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن عَاقِبْتُمْ﴾ الآية، قال: هذا حين أمر الله نبيه أن يقاتل من قتله، ثم نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم فهذا منسوخ. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ قال: اتقوا فيما حرم عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم.

تفسير سورة الإسراء

قوله عز وجل: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَسْتَفْزَنُوكَ﴾ [الإسراء: 76] نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وقد ثقیف، وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء، وقوله: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق﴾ [الإسراء: 80] وقوله: ﴿إِن ربي أدخلني بالناس﴾ [الإسراء: 60]، وزاد مقاتل قوله: ﴿إِن الذين أوتوا العلم من قبلي﴾ [الإسراء: 107]. وأخرج النحاس، وابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة بني إسرائيل بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، وابن الضريس، وابن مريويه عن ابن مسعود قال: في بني إسرائيل والكهف ومريم، إنهن من العتاق الأول وهن من تلاميذ. وأخرج أحمد، والترمذي، وحسنه، والنسائي، والحاكم، وابن مريويه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي عمرو الشيباني قال: صلى بنا عبد الله الفجر فقرأ السورتين الأخيرة منهما بنو إسرائيل.

باربع، ولم تفرض الصلاة إلا ليلة الإسراء. وقد استدلل بهذا ابن عبد البر على ذلك، وقد اختلفت الرواية عن الزهري. وممن قال بأن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة الزهري في رواية عنه، وكذلك الحربي فإنه قال: أسري بالنبي ﷺ ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة. وقال ابن القاسم في تاريخه: كان الإسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً. قال ابن عبد البر: لا أعلم أحداً من أهل السير قال بمثل هذا. وروي عن الزهري أنه أسري به قبل مبعثه بسبعة أعوام، وروي عنه أنه قال: كان قبل مبعثه بخمس سنين. وروي يونس عن عروة عن عائشة أنها قالت: توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة.

﴿وَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة، قيل: والمعنى كرمنا محمداً بالمعراج وأكرمنا موسى بالكتاب ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: ذلك الكتاب؛ وقيل: موسى ﴿هَذَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يهتدون به ﴿أَنْ لَا تَتَّخِذُوا﴾. قرأ أبو عمر بالياء التحتية، وقرأ الباقر بالفوقية أي: لئلا يتخذوا. والمعنى: آتينا الكتاب لهداية بني إسرائيل لئلا يتخذوا ﴿مَنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾ قال الفراء: أي كفيلاً بأمرهم، وروي عنه أنه قال: كافياً؛ وقيل: أي متوكلون عليه في أمورهم، وقيل: شريكاً، ومعنى الوكيل في اللغة من توكل إليه الأمور ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء، نكرم سبحانه إنعامه عليهم في ضمن إنجاء آبائهم من الغرق، ويجوز أن يكون المفعول الأول لقوله ﴿أَنْ لَا تَتَّخِذُوا﴾ أي: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من نوني وكيلاً كقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: 80]. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من فاعل تتخذوا، وقرأ مجاهد بفتح الذال، وقرأ زيد بن ثابت بكسرهما، والمراد بالذرية هنا جميع من في الأرض لأنهم من ذرية من كان في السفينة؛ وقيل: موسى وقومه من بني إسرائيل وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص، والرفع على البدل وعلى الخبر فإنها كلها راجعة إلى بني إسرائيل المذكورين، وأما على جعل النصب على أن ذرية هي المفعول الأول لقوله ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾، فالأولى تفسير الذرية بجميع من في الأرض من بني آدم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي: نوحاً، وصفه الله بكثرة الشكر وجعله كالعلة لما قبله إذ إذاً يكون الشكر من أعظم أسباب الخير، ومن أفضل الطاعات حثاً لذريته على شكر الله سبحانه.

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: أسري بالنبي ﷺ ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة. وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب قال: أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. وأخرج البيهقي عن عروة مثله. وأخرج البيهقي أيضاً عن السدي قال: أسري برسول الله ﷺ قبل مهاجره بستة عشر شهراً. وأخرج ابن أبي

المسجد الأقصى ببركات الدنيا والآخرة، وفي باركننا بعد قوله أسرى التفات من الغيبة إلى التكلم. ثم نكر العلة التي أسرى به لاجلها فقال: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: ما أراه الله سبحانه في تلك الليلة من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ بكل مسموع، ومن جملة ذلك قول رسوله ﷺ ﴿الْبَصِيرُ﴾ بكل مبصر، ومن جملة ذلك ذات رسوله وأفعاله.

وقد اختلف أهل العلم هل كان الإسراء بجسده ﷺ مع روحه أو بروحه فقط؛ فذهب معظم السلف والخلف إلى الأول، وذهب إلى الثاني طائفة من أهل العلم منهم عائشة، ومعاوية، والحسن، وابن إسحاق، وحكاها ابن جرير عن حنيفة بن اليمان، وذهبت طائفة إلى التفصيل فقالوا: كان الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح، واستدلوا على هذا التفصيل بقوله: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾، فجعله غاية للإسراء بذاته ﷺ، فلو كان الإسراء من بيت المقدس إلى السماء وقع بذاته لذكره، والذي يلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب إليه معظم السلف والخلف من أن الإسراء بجسده وروحه يقظة إلى بيت المقدس، ثم إلى السموات، ولا حاجة إلى التأويل وصرف هذا النظم القرآني وما يماثله من الفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة، ولا مقتضى لذلك إلا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من أنه لا يستحيل عليه سبحانه شيء، ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم أن الإسراء كان بالروح فقط، وأن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبي ﷺ عند إخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالإيمان صدراً، فإن الإنسان قد يرى في نومه ما هو مستبعد، بل ما هو محال ولا ينكر ذلك أحد؛ وأما التمسك لمن قال بأن هذا الإسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: 60] فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا هو هذا الإسراء فالتصريح الواقع هنا بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ والتصريح في الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لا تقتصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة في الآية بروية العين، فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا، وكيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبي ﷺ ركب البراق؛ وكيف يصح وصف الروح بالركوب؛ وهكذا كيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريحه ﷺ بأنه كان عند أن أسري به بين النائم واليقظان.

وقد اختلف أيضاً في تاريخ الإسراء، فروي أن ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة. وروي أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام. ووجه ذلك أن خديجة صلت مع النبي ﷺ وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بثلاث؛ وقيل:

حاتم عن السدي في قوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ قال: انتبتنا حوله الشجر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هَدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: جعله الله هدى يخرجهم من الظلمات إلى النور وجعله رحمة لهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا تَتَخَفُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾ قال: شريكاً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ قال: هو على النداء يا ذرية من حملنا مع نوح. وأخرج ابن مريويه عن عبد الله بن زيد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «ذرية من حملنا مع نوح، ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد: حام، وسام، ويافث، وكوش، فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق». وأعلم أنه قد اطلأ كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطي وغيرهما في هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة في الإسراء على اختلاف ألفاظها، وليس في ذلك كثير فائدة، فهي معروفة في موضعها من كتب الحديث، وهكذا اطلأوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وهو مبحث آخر، والمقصود في كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز، ونذكر أسباب النزول، وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية، وما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة.

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَنُفَيْدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَمَنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۖ ﴿١﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَٰئِكَ بَشَّرْنَا عَلَىٰ غَيْرِ كَيْدٍ مِنَّا شَدِيدًا ۖ ﴿٢﴾ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۚ ﴿٣﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاهُمْ وَأَمْرًا وَبَرًّا ۚ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۚ ﴿٤﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا بِوَعْدِهِمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسِيدَ كَمَا دَخَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عُلُوًّا قَبِيرًا ۚ ﴿٥﴾ عَسَىٰ أَنْ يَرْجِعَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاً وَمَعَنَا جَهَنَّمُ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۚ ﴿٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قُرْآنٌ يَدْعُو إِلَىٰ هِمٍّ ۖ أَقَوْمٌ مُّشِيرُونَ ۚ وَالَّذِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّلَاحَ ۖ إِنَّ قَوْمَ الْفَرَسِ كَبِيرًا ۚ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَتَيْنَاهُمْ مَعْدًا ۖ أَلَيْسَا بِوَعْدِ الْإِنْسَانِ بِأَلَسَّرَ دُعَاءَهُ وَلِخَيْرٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۚ ﴿٨﴾

قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي: أعلمنا وأخبرنا، أو حكمتنا وأتممتنا، وأصل القضاء: الإحكام للشيء والفراغ منه؛ وقيل: أوحينا، ويدل عليه قوله: ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار لقال قضينا بني إسرائيل، ولو كان بمعنى حكمتنا لقال على بني إسرائيل، ولو كان بمعنى أتممتنا لقال لبني إسرائيل، والمراد بالكتاب: التوراة، ويكون إنزالها على نبيهم موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه؛ وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ. وقرأ أبو العالية وسعيد بن جبير (في الكتب). وقرأ عيسى الثقفي (لتفسدن في الأرض) بفتح المثناة، ومعنى هذه القراءة قريب من معنى قراءة الجمهور، لأنهم إذا أفسدوا فسدوا في نفوسهم، والمراد بالفساد مخالفة ما شرعه الله

ومنا الذي لاقى بسيف محمد فجاس به الأعداء عرض العساكر وقال قطرب: معناه نزلوا. وأنشد قول الشاعر:

فجسنا ليارهم عنوة وأبنا بساداتهم موشقيناً

وقرأ ابن عباس (فجاسوا) بالحاء المهملة. قال أبو زيد: الحوس والجوس والعوس والهوس: الطوف بالليل، وقيل: الطوف بالليل هو الجوسان محرراً، كذا قال أبو عبيدة. وقرأ (خلل الديار) ومعناه معنى خلال وهو وسط الديار ﴿وَكُنَّا﴾ ذلك ﴿وَعُدَّا مَفْعُولًا﴾ أي: كائننا لا محالة ﴿فَنَمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الدولة والغلبة والرجعة وذلك عند توبتهم. قيل: وذلك حين قتل داود جالوت، وقيل: حين قتل بختنصر ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ بعد نهب أموالكم وسبي أبنائكم حتى عاد أمركم كما كان ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ قال أبو عبيدة: النفير العدد من الرجال؛ فالمعنى: أكثر رجالاً من عيوكم، والنفير من ينفر مع الرجل من عشيرته، يقال: نفير ونافر مثل قدير وقدر، ويجوز أن يكون النفير جمع نفر ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ أي: أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم ﴿وَأِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أفعالكم وأقوالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم ﴿فَلَهَا﴾ أي: فعليتها. ومثله قول الشاعر:

فخر صريعاً للبيدين وللنم

أي: على البيدين وعلى النم. قال ابن جرير: اللام بمعنى

إلى أي: فإليها ترجع الإساءة كقوله تعالى: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ [الزلزلة: 5] أي: إليها؛ وقيل: المعنى فلها الجزء أو العقاب. وقال الحسين بن الفضل: فلها رب يغفر الإساءة، وهذا الخطاب قيل هو لبني إسرائيل الملائكة لما نكر في هذه الآيات، وقيل: لبني إسرائيل الكائنات في زمن محمد ﷺ، ومعناه: إعلامهم ما حل بسلفهم فليرتقبوا مثل ذلك، وقيل: هو خطاب لمشركي قريش ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي: حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة، والمرة الآخرة هي قتلهم يحيى بن زكريا كما سبق، وقصة قتله مستوفاة في الإنجيل واسمه فيه يوحنا، قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله، واسم الملك لاخت قاله ابن قتيبة. وقال ابن جرير: هيربوس، وجواب إذا محذوف تقديره بعثناهم لدلالة جواب إذا الأولى عليه، ﴿وليسعوا وجوهكم﴾ متعلق بهذا الجواب المحذوف أي: ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة وتبين في وجوهكم الكآبة، وقيل: المراد بالوجوه السادة منهم. وقرأ الكسائي (لنسوء) بالنون على أن الضمير لله سبحانه. وقرأ أبي (لنسوءن) بنون التأكيد، وقرأ أبو بكر، والأعمش، وابن وثاب، وحمزة، وابن عامر ليسوء بالتحتية والإفراء. قال الزجاج: كل شيء كسرتة وفتته فقد تبرته، والضمير لله أو الوعد ﴿وليدخلوا المسجد﴾ معطوف على ليسعوا ﴿كما دخلوه أول مرة وليتبروا﴾ أي: يدمروا ويهلكوا، وقال قنطرب: يهدموا، ومنه قول الشاعر:

فما الناس إلا عاملان فاعمال يتبر ما يبني وآخر رافع
وقرأ الباقر بالتحتية وضم الهمزة وثبات واو بعدها على أن الفاعل عباد لنا ﴿ما علوا﴾ أي: ما غلبوا عليه من بلائكم أو مدة علوهم ﴿تتبروا﴾ أي: تنميرا، ذكر المصدر إزالة للشك وتحقيقاً للخبر ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ يا بني إسرائيل بعد انتقامه منكم في المرة الثانية ﴿وإن عذبتكم﴾ للثالثة ﴿عذنا﴾ إلى عقوبتكم. قال أهل السير: ثم إنهم عادوا إلى ما لا ينبغي وهو تكذيب محمد ﷺ وكتمان ما ورد من بعثه في التوراة والإنجيل فعاد الله إلى عقوبتهم على أيدي العرب، فجرى على بني قريظة والنضير وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبي والإجلاء وضرب الجزية على من بقي منهم، وضرب النلة والمسكنة ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ وهو المحبس فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول. والمعنى: أنهم محبوسون في جهنم لا يتخلصون عنها أبداً. قال الجوهري: حصره يحصره حصراً: ضيق عليه ولأطاح به؛ وقيل: فراشاً ومهاداً، وأراد على هذا بالحصير الحصير الذي يفرشه الناس ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ يعني: القرآن يهدي الناس الطريقة التي هي أقوم من غيرها من الطرق وهي ملة الإسلام، فالتى هي أقوم صفة لموصوف محذوف وهي الطريق. وقال الزجاج: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله، وكذا قال الفراء. ﴿ويبشّر

للمؤمنين﴾ قرأ حمزة والكسائي (يبشّر) بفتح الباء وضم الشين. وقرأ الباقر بضم الباء وكسر الشين من التبشير أي: يبشّر بما اشتمل عليه من الوعد بالخير أجلاً وعاجلاً للمؤمنين ﴿الذين يعملون الصالحات﴾ التي أرشد إلى عملها القرآن ﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾ أي: بأن لهم ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ وأحكامها المبينة في القرآن ﴿اعتننا لهم عذاباً ليماً﴾ وهو عذاب النار، وهذه الجملة معطوفة على جملة يبشّر بتقدير يخبر أي: ويخبر بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ وقيل: معطوفة على قوله: ﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾، ويراد بالتبشير مطلق الإخبار، أو يكون المراد منه معناه الحقيقي، ويكون الكلام مشتقاً على تبشير المؤمنين ببشارتين: الأولى ما لهم من الثواب، والثانية ما لأعدائهم من العقاب ﴿ويدع الإنسان بالشئ﴾ المراد بالإنسان هنا الجنس لوقوع هذا الدعاء من بعض أقرانه، وهو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له ﴿ودعاه بالخير﴾ أي: مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولأهله كطلب العافية والرزق ونحوهما، فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشئ هلك، لكنه لم يستجب تفضلاً منه ورحمة، ومثل ذلك ﴿ولو يعجل الله للناس الشئ استعجالهم بالخير﴾ [يونس: 11]. وقد تقدم؛ وقيل: المراد بالإنسان هنا القائل هذه المقالة هو الكافر يدعو لنفسه بالشئ، وهو استعجال العذاب دعاه بالخير كقول القائل: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: 32]. وقيل: هو أن يدعو في طلب المحذور كدعائه في طلب المباح، وحذفت الواو من ويدع الإنسان في رسم المصحف لعدم التلغظ بها لوقوع اللام الساكنة بعدها كقوله: ﴿سندع الزبانية﴾ [العلق: 18]. ﴿ويمح الله الباطل﴾ [الشورى: 146] ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين﴾ [النساء: 24] ونحو ذلك، ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ أي: مطبوعاً على العجلة، ومن عجلته أنه يسأل الشر كما يسأل الخير؛ وقيل: إشارته إلى أنه عليه السلام حين نهض قبل أن تكمل فيه الروح، والمناسب للسياق هو الأول.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ قال: أعلمناهم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: أخبرناهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾: قضينا عليهم. وأخرج ابن عسكرو في تاريخه عن علي في قوله: ﴿تلفسند في الأرض مرتين﴾ قال: الأولى قتل زكريا، والآخرة قتل يحيى. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في الآية قال: كان أول الفساد قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، ثم إن بني إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فاضابوا منهم، فنلك قوله: ﴿فردينا لكم الكرة عليهم﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: بعث الله عليهم في الأولى جالوت، وبعث عليهم في

﴿فمَحُونَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: طمسنا نورها، وقد كان القمر كالشمس في الإنارة والضوء. قيل: ومن آثار المحو السواد الذي يرى في القمر، وقيل المراد بمحوها أنه سبحانه خلقها ممحوة الضوء مطموسة، وليس المراد أنه محاهها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ لِلنَّهَارِ مَبْصُرَةً﴾ أي: جعل سبحانه شمس مضيئة تبصر فيها الأشياء. قال أبو عمرو بن العلاء والكسائي: هو من قول العرب: أبصر النهار إذا صار بحالة يبصر بها؛ وقيل: مبصرة للناس من قوله أبصره فيبصر. فالأول وصف لها بحال أهلها، والثاني وصف لها بحال نفسها، وإضافة آية إلى الليل والنهار بيانية أي: فمَحُونَا الآيَةَ التي هي الليل والآية التي هي النهار كقولهم نفس الشيء وذاته ﴿لَتَتَّبِعُوا فُضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف في وجوه المعاش، واللام متعلق بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ لِلنَّهَارِ مَبْصُرَةً﴾ أي: جعلناها لتتبعوا فضلاً من ربكم أي: رزقاً، إذ غالب تحصيل الأرزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار، ولم يذكر هنا السكن في الليل اكتفاء بما قاله في موضع آخر ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ [يونس: 67]. ثم ذكر مصلحة أخرى في ذلك الجعل فقال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ وهذا متعلق بالفعلين جميعاً أعني: محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط كالأول. إذ لا يكون علم عند السنين والحساب، إلا باختلاف الجديدين ومعرفة الأيام والشهور والسنين. والفرق بين العدد والحساب أن العدد إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء، والحساب إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص، فالسنة مثلاً إن وقع النظر إليها من حيث عند أيامها فذلك هو العدد، وإن وقع النظر إليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة أشهر، قد يحصل كل شهر من عدة أيام، قد يحصل كل يوم من عدة ساعات، قد حصلت كل ساعة من عدة دقائق، فذلك هو الحساب ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فُضِّلْنَا بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ لَعَلَّهُ يَذَكَّرُ﴾ [الأنفال: 42]. ولهذا قال: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ﴾ [الأنفال: 42]. ولهذا قال: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ﴾ [الأنفال: 42]. ولهذا قال: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ﴾ [الأنفال: 42]. ولهذا قال: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ﴾ [الأنفال: 42].

المرّة الأخرى بختنصر، فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿فَجَاسُوا﴾ قال: فمَشَوْا. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: ﴿تَتَّبِعُوا﴾ تدميراً. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاک في قوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُرَحِّمَكُمْ﴾ قال: كانت الرحمة التي وعدهم بعث محمد ﷺ. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ عِنْتُمْ عَذَابٌ﴾ قال: فعادوا فبعث الله سبحانه عليهم محمداً ﷺ، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وأعلم أنها قد اختلفت الروايات في تعيين الواقع منهم في المرتين، وفي تعيين من سلطه الله عليهم، وفي كيفية الانتقام منهم، ولا يتعلق بذلك كثير فائدة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ قال: سجنًا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه، قال: معنى حصيراً: جعل الله ماوهم فيها. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿حَصِيرًا﴾ قال: فراشاً ومهاداً. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال: للتي هي أصوب. وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه كان يتلو كثيراً ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ﴾. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيُذِيعُ الْإِنْسَانَ بِالْضُرِّ دَعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ يعني قول الإنسان: اللهم العنه واغضب عليه. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ قال: ضجراً لا صبر له على سراء ولا ضراء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساکر عن سلمان الفارسي قال: أول ما خلق الله من آدم رأسه، فجعل ينظر وهو يخلق ويقيت رجلاه، فلما كان بعد العصر قال: يا رب أعجل قبل الليل، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

وَجَعَلْنَا آيَةَ لِلنَّهَارِ مَبْصُرَةً وَآيَةَ لِلَّيْلِ مَحْمُومَةً آيَةَ النَّهَارِ مُبِيرَةً لِيَتَّبِعُوا فُضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فُضِّلْنَا بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ لَعَلَّهُ يَذَكَّرُ ﴿١٧﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿١٨﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿١٩﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٢٠﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٢١﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٢٢﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٢٣﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٢٤﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٢٥﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٢٦﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٢٧﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٢٩﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٣٠﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٣١﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٣٢﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٣٣﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٣٤﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٣٥﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٣٦﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٣٧﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٣٨﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٣٩﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٤٠﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٤١﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٤٢﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٤٣﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٤٤﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٤٥﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٤٦﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٤٧﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٤٨﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٤٩﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٥٠﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٥٣﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٥٤﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٥٥﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٥٦﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٥٧﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٥٨﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٥٩﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٦٠﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٦١﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٦٢﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٦٣﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٦٤﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٦٥﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٦٦﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٦٧﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٦٨﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٦٩﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٧٠﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٧١﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٧٢﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٧٣﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٧٤﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٧٥﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٧٦﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٧٧﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٧٨﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٧٩﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٨٠﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٨١﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٨٢﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٨٣﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٨٤﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٨٥﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٨٦﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٨٧﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٨٨﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٨٩﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٩٠﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٩١﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٩٢﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٩٣﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٩٤﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٩٥﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٩٦﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٩٧﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٩٨﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿٩٩﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِمْ كَافِرٌ ﴿١٠٠﴾

لما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد أكدها بنليل آخر من عجائب صنعه وبدائع خلقه فقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ وذلك لما فيهما من الإظلام والإنارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الأفهام، ومعنى كونهما آيتين أنهما يدلان على وجود الصانع وقدرته، وقدم الليل على النهار لكونه الأصل

عنقه ﴿أي: ما طار له في علم الله، وفي عنقه عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس. قال الزجاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق﴾ **ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً** ﴿قرأ ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن محيصن، وأبو جعفر، ويعقوب (ويخرج) بالمثلثة التحتية المفتوحة وبالراء المضمومة على معنى ويخرج له الطائر. «وكتاباً» منصوب على الحال، ويجوز أن يكون المعنى: يخرج لها الطائر فيصير كتاباً. وقرأ يحيى بن وثاب (يخرج) بضم الياء وكسر الراء: أي: يخرج الله. وقرأ شيبه ومحمد بن السميع. وروي أيضاً عن أبي جعفر (يخرج) بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول أي: ويخرج له الطائر كتاباً. وقرأ الباقر (ونخرج) بالنون على أن المخرج هو الله سبحانه وكتاباً مفعول به، واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى ﴿الزمناء﴾. وقرأ أبو جعفر، والحسن، وابن عامر (يلقاه) بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، وقرأ الباقر بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف. وإنما قال سبحانه: ﴿يلقاه منشوراً﴾ تعجيلاً للبشرى بالحسنة والتوبيخ على السيئة ﴿اقرأ كتابك﴾ أي نقول له: اقرأ كتابك، أو قائلين له، قيل: يقرأ ذلك الكتاب من كان قارئاً، ومن لم يكن قارئاً ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ الباء في بنفسك زائدة وحسيباً تمييز أي: حاسباً. قال سيبويه: ضريب القادح بمعنى ضاربها، وصريم بمعنى صارم، ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى الكافي، ثم وضع موضع الشهيد فعني بعلی، والنفس بمعنى الشخص، ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى المحاسب كالنشرى والجليس ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ بين سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده يختصان بفاعلهما لا يتعدان منه إلى غيره، فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به وترك ما نهى الله عنه، فإنما تعود منفعة ذلك إلى نفسه، ﴿ومن ضل﴾ عن طريق الحق فلم يفعل ما أمر به، ولم يترك ما نهى عنه ﴿فإنما يضل عليها﴾ أي: فإن وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها، فكل أحد محاسب عن نفسه مجزي بطاعته معاقب بمعصيته، ثم أكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ والوزر الإثم، يقال: وزر يزر وزراً ووزرة، أي: إثمها، والجمع أوزار، والوزر الثقل. ومنه ﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ [الأنعام: 31] أي: أثقال ذنوبهم ومعنى الآية: لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى تخلص الأخرى عن وزرها وتتخذ به الأولى، وقد تقدم مثل هذا في الأنعام. قال الزجاج في تفسير هذه الآية: إن الآثم والمنذب لا يؤخذ بذنوب غيره ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسلاً﴾ لما نكر سبحانه اختصاص المهتدي بهديته والضال بضلاله، وعدم مؤاخذه الإنسان بجناية غيره، نكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم، والظاهر أنه لا

يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل، وبه قالت طائفة من أهل العلم. وذهب الجمهور إلى أن المنفي هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة ﴿وإذا أمرنا أن نهلك قرية أمرنا﴾ اختلف المفسرون في معنى أمرنا على قولين: الأول أن المراد به الأمر الذي هو نقيض النهي، وعلى هذا اختلفوا في المأمور به، فالأكثر على أنه الطاعة والخير. وقال في الكشف: معناه أمرناهم بالفسق ففسقوا، وأطال الكلام في تقرير هذا وتبعه المقتدون به في التفسير، وما نكره هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل أمرته فعصاني، فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شيء غير المعصية، لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له، فذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق، لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به، فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ويناقضه. القول الثاني أن معنى ﴿أمرنا مترفيها﴾ أكثرنا فساقها. قال الواحدي: تقول العرب أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله إذا أكثرهم. وقد قرأ أبو عثمان النهدي، وأبو رجاء، وأبو العلية، والربيع، ومجاهد، والحسن (أمرنا) بتشديد الميم أي: جعلناهم أمراء مسلمين. وقرأ الحسن أيضاً، وقتادة، وأبو حيو الشامي، ويعقوب، وخارجه عن نافع وحمام بن سلمة عن ابن كثير وعلي وابن عباس (أمرنا) بالمد والتخفيف أي: أكثرنا جبابرتها وأمراءها قاله الكسائي. وقال أبو عبيدة: أمرته بالمد وأمرته لغتان بمعنى كثرت، ومنه الحديث: «خير المال مهرة مأمورة» أي: كثيرة النجاس والنسل، وكذا قال ابن عزيز. وقرأ الحسن أيضاً، ويحيى بن يعمر (أمرنا) بالقصر وكسر الميم على معنى فعلنا، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس. قال قتادة والحسن: المعنى أكثرنا. وحكي نحوه أبو زيد وأبو عبيد وأنكره الكسائي وقال: لا يقال من الكثرة إلا أمرنا بالمد. قال في الصحاح: وقال أبو الحسن أمر ماله بالكسر أي: كثر، وأمر القوم أي: كثروا، ومنه قول لبيد: إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا يوماً يكن للهلاك والفند وقرأ الجمهور (أمرنا) من الأمر، ومعناه ما قدمنا في القول الأول، ومعنى ﴿مترفيها﴾ المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش، والمفسرون يقولون في تفسير المترفين: إنهم الجبارون المتسلطون والملوك الجاثرون، قالوا: وإنما خصوا بالذكر لأن من عداهم أتباع لهم، ومعنى فسقوا فيها: خرجوا عن الطاعة وتمرضوا في كفرهم لأن الفسوق الخروج إلى ما هو أفحش ﴿فحق عليها القول﴾ أي ثبت وتحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم ﴿فأمروناها تدميراً﴾ أي: تدميراً عظيماً لا يوقف على كنهه لشنته وعظم موقعه، وقد قيل في تأويل أمرنا بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق، وهو إدرار النعم عليهم، وقيل أيضاً: إن المراد بأمرنا أن نهلك قرية أنه قرب إهلاك قرية، وهو عدول عن الظاهر بنون ملجئ إليه. ثم نكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية فقال: ﴿وكم أهلكنا من القرون﴾

فقال: «هم من آبائهم، ثم سألته بعد ذلك فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلت ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فقال: هم على الفطرة. أو قال: في الجنة». قال السيوطي: وسنده ضعيف. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما: «أن النبي ﷺ سئل فقيل له: «يا رسول الله إنا نصيب في البيات من ذراري المشركين، قال: هم منهم». وفي تلك أحاديث كثيرة وبحث طويل. وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة في أطفال المشركين، ثم نقل كلام أهل العلم في المسألة فليرجع إليه. وأخرج إسحاق بن راهويه، وأحمد، وابن حبان، وأبو نعيم في المعرفة، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في كتاب الاعتقاد عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة، ثم قال: فيأخذ الله موثقهم ليطيعه ويرسل إليهم رسولاً أن أدخلوا النار، قال: فولدني نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها»، وإسناده عند أحمد، هكذا حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي عن أبي قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع. وأخرج نحوه إسحاق بن راهويه، وأحمد، وابن مردويه عن أبي هريرة، وهو عند أحمد بالإسناد المذكور عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة. وأخرج قاسم بن أصبغ، والبزار، وأبو يعلى، وابن عبد البر في التمهيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ فنذكر نحوه. وجعل مكان الأحق المعنوه. وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والطبراني وأبو نعيم عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلاً وبالهالك في الفترة، وبالهالك صغيراً» فنذكر معناه مطولاً. وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله: ﴿أمرنا مترفيها﴾ قال: بطاعة الله فعصوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب قال: سمعت ابن عباس يقول في الآية: ﴿أمرنا مترفيها﴾ بحق فخالفوه، فحق عليهم بذلك التتمير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه في الآية قال: سلطنا شرارنا فعصوا فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب وهو كقوله: ﴿وكنكك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ [الأنعام: 123]. وأخرج البخاري، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنا نقول للحبي إذا كثروا في الجاهلية قد أمر بنو فلان.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَآجِلَةَ عَجَلْنَا لَمْ يَهْمَا مَا شَاءَ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَمْ جَهَنَّمَ يَصْلَحُهَا مَذْمُومًا مَذْكُورًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٨﴾ كُلًّا نُمِيزُ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاةِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاةُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿١٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

أي: كثيراً ما أهلكنا منهم، فكم مفعول أهلكنا، ومن القرون بيان لكم وتمييز له: أي: كم من قوم كفروا من بعد نوح كعاد وشمود، فحل بهم البوار ونزل بهم سوط العذاب؛ وفيه تخويف لكفار مكة. ثم خاطب رسوله بما هو ردد للناس كافة فقال: ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ قال الفراء: إنما يجوز إسخال الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم به، كقولك: كفاك، وإكرم به رجلاً، وطاب بطعامك طعاماً، ولا يقال: قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك. وفي الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة وتخويف شديد لأهل المعصية، لأن العلم التام والخبرة الكاملة والبصيرة النافذة تقتضي إيصال الجزاء إلى مستحقه بحسب استحقاقه، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك، والمراد بكونه سبحانه خبيراً بصيراً أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهراً وباطناً لا تخفى عليه منها خافية.

وقد أخرج البيهقي في دلائل النبوة، وابن عساكر عن سعيد المقبري: «أن عبد الله بن سلام سأل النبي ﷺ عن السواد الذي في القمر، فقال: كانا شمسين، قال الله ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل﴾ فالسواد الذي رأيت هو المحو». وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ معنى هذا بأطول منه. قال السيوطي: وإسناده واه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف عن علي في قوله: ﴿فمحونا آية الليل﴾ قال: هو السواد الذي في القمر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ قال: منيرة ﴿تلتفتوا فضلاً من ربكم﴾ قال: جعل لكم سبجاً طويلاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فصلناه﴾ قال: بيناه. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير بسند حسن عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طائر كل إنسان في عنقه»، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ألزمناه طائرهُ في عنقه﴾ قال: سعابته وشقاوته وما قدر الله له وعليه فهو لازمه أين كان. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن أنس في قوله: ﴿طائرهُ﴾ قال: كتبه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: عمله. ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ قال: هو عمله الذي أحصى عليه، فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل فقرأه منشوراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿اقرأ كتابك﴾ قال: سيقرا يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا. وأخرج ابن عبد البر في التمهيد عن عائشة في قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ قال: سألت خديجة^(١) عن أولاد المشركين

(1) يعني: رسول الله ﷺ.

وَلَاخِرُهُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢٠﴾ لَا تَجْمَلُ مَعَ اللَّهِ إِنَّهَا مَخَرَّ
فَتَعَدَّ مَذْمُومًا مَعْدُولًا ﴿٢١﴾ وَقَفَى رَيْكَ أَلَّا تَسْبُدَّ إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ
إِنْ سَأَلْتَهُمَا إِنَّمَا يَتَلَفَعْنَ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَقُو
وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٢﴾ وَارْتَوْضَ لَهُمَا جَنَاحُ الذَّلِيلِ مِنَ
الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتُ صَغِيرًا ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿من كان يريد للعجلة﴾ هذا تأكيد لما سلف من جملة كل إنسان الزمناه، ومن جملة من امتدى، والمراد بالعجلة: المنفعة العاجلة أو الدار العاجلة، والمعنى: من كان يريد بأعمال البر أو بأعمال الآخرة ذلك، فيدخل تحته الكثرة والفسقة والمراوم والمناقفون ﴿عجلنا له﴾ أي: عجلنا لذلك المريد ﴿فيها﴾ أي: في تلك العاجلة، ثم قيد المعجل بقيدتين: الأولى: قوله: ﴿ما نشاء﴾ أي: ما يشاء الله سبحانه تعجيله له منها، لا ما يشاءه ذلك المريد، ولهذا ترى كثيراً من هؤلاء المريدين للعجلة يريدون من الدنيا ما لا ينالون ويتمنون ما لا يصلون إليه، والقيد الثاني قوله: ﴿لمن نريد﴾ أي: لمن نريد التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا، وجملة لمن نريد بدل من الضمير في له بإعادة الجار بدل البعض من الكل. لأن الضمير يرجع إلى من وهو للعموم، وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة كقوله سبحانه: ﴿من كان يريد حرت الدنيا نؤته منها﴾ [الشورى: 20]. وقوله: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ [هود: 15]. وقد قيل: إنه قرئ (ما يشاء) بالياء التحتية، ولا ندري من قرأ بذلك من أهل الشواذ، وعلى هذه القراءة فقيل: الضمير لله سبحانه أي: ما يشاءه الله فيكون معناها معنى القراءة بالنون، وفيه بعد لمخالفته لما قبله، وهو عجلنا وما بعده وهو لمن نريد؛ وقيل: الضمير راجع إلى «من» في قوله: ﴿من كان يريد﴾ فيكون ذلك مقيداً بقوله لمن «نريد» أي: عجلنا له ما يشاءه، لكن بحسب إرادتنا فلا يحصل لمن أراد العجلة ما يشاءه إلا إذا أراد الله له ذلك، ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التي لا تأثير لها إلا بالقيدين المنكورين عذاب الآخرة الدائم، ولهذا قال: ﴿ثم جعلنا له جهنم﴾ أي: جعلنا له بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة وإخلاصه عن الشوائب عذاب جهنم على اختلاف أنواعه ﴿بصلاها﴾ في محل نصب على الحال أي: يدخلها ﴿مذموماً منجوراً﴾ أي: مطروداً من رحمة الله مبعداً عنها، فهذه عقوبته في الآخرة مع أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره الله سبحانه له، فإين حال هذا الشقي من حال المؤمن التقى؟ فإنه ينال من الدنيا ما قدره الله له وإرادته بلا هلع منه ولا جزع، مع سكون نفسه واطمئنان قلبه وثقت بربه، وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من الله سبحانه، وهو الجنة، ولهذا قال: ﴿ومن أراد الآخرة﴾ أي: أراد بأعماله الدار الآخرة ﴿وسعى لها سعيها﴾ أي: السعي الحقيقي بها اللائق بطالبها، وهو الإتيان بما أمر به وترك ما نهى عنه خالصاً لله غير مشوب، وكان

الإتيان به على القانون الشرعي من نون ابتداء ولا هوى ﴿وهو مؤمن﴾ بالله إيماناً صحيحاً، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ [المائدة: 27]، والجملة في محل نصب على الحال، والإشارة بقوله: ﴿فأولئك﴾ إلى المريدين للآخرة الساعين لها سعيها وخبره ﴿كان سعيهم مشكوراً﴾ عند الله أي: مقبولاً غير مربود، وقيل: مضاعفاً إلى أضعاف كثيرة، فقد اعتبر سبحانه في كون السعي مشكوراً أموراً ثلاثة: الأول إرادة الآخرة، الثاني أن يسعى لها السعي الذي يحق لها، والثالث أن يكون مؤمناً. ثم بين سبحانه كمال راقته وشمول رحمته فقال: ﴿كلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾ التخيول في «كلاً» عوض عن المضاف إليه، والتقدير كل واحد من الفريقين نمدّ أي: نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع، نرزق المؤمنين والكفار وأهل الطاعة وأهل المعصية، لا تؤثر معصية العاصي في قطع رزقه وما به الإمداد هو ما عجله لمن يريد للنيا، وما أنعم به في الأولى والأخرى على من يريد الآخرة، وفي قوله: ﴿من عطاء ربك﴾ إشارة إلى أن ذلك بمحض التفضل وهو متعلق بنمدّ ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي: ممنوعاً، يقال: حظره يحظره حظراً منعه، وكل ما حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك، ومن «هؤلاء» بدل من «كلاً» وهؤلاء معطوف على البديل. قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أنه يعطي المسلم الكافر وأنه يرزقهما جميعاً الفريقين فقال: ﴿هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾، انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض الخطاب لمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكون لكل من له أهلية النظر والاعتبار، وهذه الجملة مقررة لما مر من الإمداد وموضحة له، والمعنى: انظر كيف فضلنا في العطايا العاجلة بعض العباد على بعض، فمن غني وفقير، وقوي وضعيف، وصحيح ومريض وعاقل وأحمق وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن إدراكها ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ وذلك لأن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، وليس للدنيا بالنسبة إلى الآخرة مقدار، فلماذا كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، وقيل: المراد أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين. وحصل المعنى أن التفاضل في الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل في الدنيا ومراتب أهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما، ثم لما أجمل سبحانه أعمال البر في قوله: ﴿وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾ أخذ في تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذي هو التوحيد فقال: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ والخطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته تهيجاً وإلهاباً، أو لكل متأهل له صالح لتوجيهه إليه، وقيل: هو على إضمار القول، والتقدير: قل لكل مكلف لا تجعل، وانتصاب تعدد على جواب النهي، والتقدير: لا يكون منك جعل ففعود؛

ومعنى تقعد تصير، من قولهم: شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها خربة، وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام؛ وقيل: هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات، فإن السعي فيه إنما يتأتى بالقيام، والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعداً عن الطلب؛ وقيل: إن من شأن المذموم المخلول أن يقعد نادماً مفكراً على ما فرط منه، فالقعود على هذا حقيقة، وانتصاب ﴿مذموماً مخذولاً﴾ على خبرية تقعد أو على الحال: أي فتصير جامعاً بين الأمرين الذم لك من الله ومن ملائكته، ومن صالحى عباده، والخذلان لك منه سبحانه، أو حال كونك جامعاً بين الأمرين. ثم لما نكر ما هو الركن الأعظم وهو التوحيد اتبعه سائر الشعائر والشرائع فقال: ﴿وقضى ربك﴾ أي: أمر امرأ جزماً، وحكماً قطعاً، وحثاً مبرماً ﴿أن لا تعبدوا﴾ أي: بأن لا تعبدوا، فتكون «أن» ناصبة، ويجوز أن تكون مفسرة ولا نهى. وقرئ (ووصى ربك) أي: وصى عباده بعبادته وحده، ثم أرفقه بالأمر ببرّ الوالدين فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: وقضى بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً، أو وأحسنوا بهما إحساناً، ولا يجوز أن يتعلق بالوالدين بإحساناً، لأن المصدر لا يتقدم عليه ما هو متعلق به. قيل: وجه نكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه أنهما السبب الظاهر في وجود المتولد بينهما، وفي جعل الإحسان إلى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى، وهكذا جعل سبحانه في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره فقال: ﴿إن أشكر لي ولوالديك﴾ [لقمان: 14]. ثم خص سبحانه حالة الكبر بالنكر لكونها إلى البر من الولد أحوج من غيرها فقال: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ إما مركبة من إن الشرطية وما الإبهامية لتأكيد معنى الشرط ثم انخلت نون التوكيد في الفعل لزيادة التقرير كأنه قيل: إن هذا الشرط مما سيقع البتة عادة. قال النحويون: إن الشرط يشبه النهي من حيث الجزم وعدم الثبوت، فلماذا صح دخول النون المؤكدة عليه. وقرأ حمزة والكسائي (يبلغان). قال الفراء: ثنى لأن الوالدين قد نكرا قبله فصار الفعل على عدهما، ثم قال: ﴿لأحدهما أو كلاهما﴾ على الاستثناف، وأما على قراءة (يبلغن) فأحدهما فاعل بالاستقلال وقوله: ﴿أو كلاهما﴾ فاعل أيضاً لكن لا بالاستقلال بل بتبعية العطف، والأولى أن يكون أحدهما على قراءة (يبلغان) بدل من الضمير الراجع إلى الوالدين في الفعل ويكون «كلاهما» عطفاً على البدل، ولا يصح جعل كلاهما تأكيداً للضمير لاستلزام العطف المشاركة، ومعنى عندك في كنفك وكفالتك، وتوحيد الضمير في عندك ولا تقل وما بعدهما للإشعار بأن كل فرد من الأفراد منهى بما فيه النهي، ومأمور بما فيه الأمر، ومعنى ﴿فلا تقل لهما أف﴾ لا تقل لواحد منهما في حالتي الاجتماع والافتراق، وليس المراد حالة

الاجتماع فقط، وفي أف لغات: ضم الهمزة مع الحركات الثلاث في الفاء، وبالتنوين وعلمه، وبكسر الهمز والفاء بلا تنوين، وأفي ممالاً، وافة بالهاء. قال الفراء: تقول العرب: فلان يتأفف من ريح وجدها أي: يقول أف أف. وقال الأصمعي: الأف وسخ الآن، والثف وسخ الأظفار، يقال لك: عند استقدار الشيء ثم كثر حتى استعملوه في كل ما يتأثرون به. وروى ثعلب عن ابن الأعرابي أن الأفف الضجر، وقال القتيبي: أصله أنه إذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله، فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل أف، ثم توسعوا فنكروه عند كل مكروه يصل إليهم. وقال الزجاج: معناه التثن. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأف وسخ بين الأظفار والثف قلامتها. والحاصل أنه اسم فعل ينبئ عن التضجر والاستئثار، أو صوت ينبئ عن ذلك، فنهى الولد عن أن يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستئثار لهما، وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو متقرر في الأصول ﴿ولا تنهرهما﴾ النهر: الزجر والغلظة، يقال: نهره وانتهره، إذا استقبله بكلام يزجره. قال الزجاج: معناه لا تكلمهما ضجراً صائحاً في وجوههما ﴿وقل لهما﴾ بدل التوقيف والنهر ﴿قولاً كريماً﴾ أي: ليلاً لطيفاً أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع التائب والحياء والاحتشام ﴿ولخفض لها جناح للذل من الرحمة﴾ نكر القفال في معنى خفض الجناح وجهين: الأول أن الطائر إذا أراد ضم فراخه إليه للتربية خفض لها جناحه، فلها صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير، فكانه قال للولد: اكفل والدك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك. والثاني أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد النزول خفض جناحه، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وترك الارتفاع؛ وفي إضافة الجناح إلى الذل وجهان: الأول أنها كإضافة حاتم إلى الجود في قولك حاتم الجود، فالأصل فيه الجناح الذليل، والثاني سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحاً ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً. وقرأ الجمهور (الذل) بضم الذال من ذل يذل ذلاً وثلة ومثلة فهو ذليل. وقرأ سعيد بن جبير، وعروة بن الزبير بكسر الذال، وروي ذلك عن ابن عباس وعاصم، من قولهم دابة نلول بنية للذل أي: متقادة سهلة لا صعوبة فيها، ومن الرحمة فيه معنى التعليل أي: من أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس، ثم كأنه قال له سبحانه: ولا تكف برحمتك التي لا دوام لها ﴿و﴾ لكن ﴿قل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ والكاف في محل نصب على أنه صفة لمصدر محذوف أي: رحمة مثل تربيتيها لي أو مثل رحمتيها لي، وقيل: ليس المراد رحمة مثل الرحمة بل الكاف لاقترانها في

﴿وقضى ربك﴾ قال: أمر. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: عهد ربك. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ يقول: براء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿فلا تقل لهما آف﴾ لما تميظ عنهما من الأذى: الخلاء والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميظان عنك من الخلاء والبول. وأخرج الديلمي عن الحسين بن علي مرفوعاً: «لو علم الله شيئاً من العقوق أننى من آف لحرمه». وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في قوله: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ قال: إذا دعواك فقل: لبيكما وسعديكما. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: قولاً ليلاً سهلاً. وأخرج البخاري في الآب، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عروة في قوله: ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ قال: يلين لهما حتى لا يمتنع من شيء أحباه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال: اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد اللفظ الغليظ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وقل رب ارحمهما﴾ ثم أنزل الله بعد هذا ﴿وما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾ [التوبة: 113]. وأخرج البخاري في الآب المفرد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عنه نحوه، وقد ورد في بَرِّ الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما، وهي معروفة في كتب الحديث.

رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غُفْرًا ﴿٥٥﴾ وَمَاذَا أَلْفَنُ حَقُّمُ وَالْمَشْرِكِينَ وَإِنَّ السَّيْلَ وَلَا يُبَدِّلُ تَبِيرًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ السَّيْلَ كَانُوا إِخْوَانَ السَّيْلِ وَكَانَ السَّيْلُ لِرَبِّهِمْ كُفُورًا ﴿٥٧﴾ رَمَا نَرِصَنَ عَنْهُمْ أَيْتَهُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ نَحْمُوا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا ﴿٥٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٥٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ لَعَلِيمًا ﴿٦٠﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٦١﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَلَيْسَ حَرَمَ اللَّهِ إِلَّا بِالْحَيِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٦٢﴾

قوله: ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾ أي: بما في ضمائرکم من الإخلاص وعدمه في كل الطاعات، ومن التوبة من الذنب الذي فرط منكم أو الإصرار عليه، ويندرج تحت هذا العموم ما في النفس من البرِّ والعقوق اندراجاً أولياً؛ وقيل: إن الآية خاصة بما يجب للأبوين من البرِّ، ويحرم على الأولاد من العقوق، والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ، فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قاصدين الصلاح، والتوبة من الذنب والإخلاص للطاعة فلا يضرکم ما وقع من الذنب الذي تبتّم عنه ﴿فإنه كان

الوجود فلتقع هذه كما وقعت تلك. والتربية التنمية، ويجوز أن يكون الكاف للتعليل أي: لأجل تربيتكما لي كقوله: ﴿وانكروه كما هداكم﴾ [البقرة: 198]. ولقد بالغ سبحانه في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق وتقف عندهما شعورهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاک في قوله: ﴿من كان يريد العاجلة﴾ قال: من كان يريد بعمله الدنيا ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ ذاك به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عن الحسن في قوله: ﴿كلا نمذ﴾ الآية قال: كل يرزق الله في الدنيا البرِّ والفاجر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: يرزق الله من أراد الدنيا ويرزق من أراد الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاک قال: ﴿محظوراً﴾ ممنوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد مثله. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفع بها إلا وضعه الله في الآخرة درجة أكبر منها وأطول، ثم قرأ ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾»، وهو من رواية زاذان عن سلمان. وثبت في الصحيحين: «أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما يرون الكوكب الغابر في أفق السماء». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ممنوما﴾ يقول: ملوماً. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ: (ووصى ربك)، مكان وقضى، وقال: التزقت الواو والصاد وأنتم تقرأونها (وقضى ربك). وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاک عنه مثله. وأخرج أبو عبيد، وابن منيع، وابن المنذر، وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عنه أيضاً مثله وزاد ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد. وأقول: إنما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الأمر، وهو وإن كان أحد معاني مطلق القضاء، كما في قوله: ﴿قضى الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: 41]. وقوله: ﴿فلإذا قضيت مناسكتكم﴾ [البقرة: 200]. ﴿فلإذا قضيت الصلاة﴾ [النساء: 103]. ولكنه ما هنا بمعنى الأمر، وهو أحد معاني القضاء والأمر لا يستلزم ذلك، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه، ومن جملة ذلك إفراذه بالعبادة وتوحيده وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين، ومن معاني مطلق القضاء معاني آخر غير هذين المعنيين كالقضاء بمعنى الخلق، ومنه ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ [فصلت: 12]. وبمعنى الإرادة كقوله: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [آل عمران: 47 - مريم: 35]. وبمعنى العهد كقوله: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ [القصص: 44]. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله:

وابن السبيل لأمر اضطرك إلى تلك الإعراض ﴿ابتغاء رحمة من ربك﴾ أي لفقد رزق من ربك ولكنه أقام المسبب الذي هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذي هو فقد الرزق لأن فاقده الرزق مبتغى له، والمعنى: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح الله به عليك ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي: قولاً سهلاً ليناً كالوعد الجميل أو الاعتذار المقبول. قال الكسائي: يسرت له القول أي: لينته. قال الفراء: معنى الآية إن تعرض عن السائل إضافة وإعساراً فقل لهم: قولاً ميسوراً عدهم عدة حسنة ويجوز أن يكون المعنى: وإن تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولاً ميسوراً، وليس المراد هنا الإعراض بالوجه. وفي هذه الآية تأنيب من الله سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون؟ ربما يزلون، ولقد أحسن من قال:

إن لا يكن ورق يوماً أجود بها للسائلين فإني لين العود لا يعدم السائلون الخير من خلفي إمانوال وإما حسن مردود لما نكر سبحانه أدب المنع بعد النهي عن التبذير بين أدب الإنفاق فقال: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ وهذا النهي يتناول كل مكلف سواء كان الخطاب للنبي ﷺ تعريضاً لأمته وتعليماً لهم أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين. والمراد النهي للإنسان بأن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله ولا يوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه بحيث يكون به مسرفاً، فهو نهى عن جانبي الإفراط والتفريط. ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط، وهو يدل الذي ننب الله إليه:

ولا تك فيها مفرطاً أو مفرطاً كلا طرفي قصد الأمور نديم وقد مثل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرف بها، ومثل حال من يجاوز الحد في التصرف بحال من يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدي عليه، وفي هذا التصوير مبالغة بليغة، ثم بين سبحانه غائلة الطرفين المنهي عنهما فقال: ﴿فتقعد ملوماً﴾ عند الناس بسبب ما أنت عليه من الشح ﴿محسوراً﴾ بسبب ما فعلته من الإسراف أي: منقطعاً عن المقاصد بسبب الفقر، والمحسور في الأصل: المنقطع عن السير، من حصره السفر إذا بلغ منه، والبعير الحسير هو الذي ذهب قوته فلا انبعاث به، ومنه قوله تعالى: ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ [الملك: 4]. أي: كليل منقطع؛ وقيل: معناه نادماً على ما سلف، فجعله هذا القائل من الحسرة التي هي الندامة، وفيه نظر لأن الفاعل من الحسرة حسران. ولا يقال محسور إلا للملوم. ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذين يرهقهم من الإضافة ليس لهوانهم على الله سبحانه، ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال: ﴿إن ربك ييسر للرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي: يوسع على بعض ويضيقه على بعض لحكمة بالغة لا لكون من وسع له رزقه مكرماً عنده، ومن

للاوليين غفوراً﴾ أي: الرجاعين عن الذنوب إلى التوبة، وعن عدم الإخلاص إلى محض الإخلاص غفوراً لما فرط منهم من قول أو فعل أو اعتقاد، فمن تاب تاب الله عليه، ومن رجع إلى الله رجع الله إليه. ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الولالين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال: ﴿وأت ذا القربى حقه﴾ والخطاب إما لرسول الله ﷺ تهيباً وإلهاباً لغيره من الأمة، أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما في قوله: ﴿وقضى ربك﴾ [الإسراء: 23] والمراد بذى القربى ذو القرابة، وحققهم هو صلة الرحم التي أمر الله بها، كرر التوصية فيها. والخلاف بين أهل العلم في وجوب النفقة للقرابة، أو لبعضهم كالوالدين على الأولاد. والأولاد على الوالدين معروف، والذي ينبغي الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ إليه القدرة وحسبما يقتضيه الحال ﴿والمسكين﴾ معطوف على ذا القربى، وفي هذا العطف لبيل على أن المراد بالحق الحق المالي ﴿ولبن السبيل﴾ معطوف على المسكين، والمعنى: وأت من اتصف بالمسكنة، أو بكونه من أبناء السبيل حقه. وقد تقدم بيان حقيقة المسكين وابن السبيل في البقرة، وفي التوبة، والمراد في هذه الآية التصديق عليهما بما بلغت إليه القدرة من صدقة النفل، أو مما فرضه الله لهما من صدقة الفرض، فإنيهما من الأصناف الثمانية التي هي مصرف الزكاة. ثم لما أمر سبحانه بما أمر به ها هنا نهى عن التبذير فقال: ﴿ولا تبذر تبذيراً﴾ التبذير تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه، وهو الإسراف المذموم لمجاورته للحد المستحسن شرعاً في الإنفاق، أو هو الإنفاق في غير الحق، وإن كان يسيراً. قال الشافعي: التبذير إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير. قال القرطبي بعد حكايته القول الشافعي هذا: وهذا قول الجمهور. قال أشهب عن مالك: التبذير هو أخذ المال من حقه، ووضع في غير حقه، وهو الإسراف، وهو حرام لقوله: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ فإن هذه الجملة تعليل للنهي عن التبذير، والمراد بالأخوة المماثلة التامة، وتجنب مماثلة للشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب، فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه إطلاق المماثلة، والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان، فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به ﴿وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ أي: كثير الكفران عظيم التمرد عن الحق، لأنه مع كفره لا يعمل إلا شراً، ولا يأمر إلا بعمل الشر، ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه. وفي هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين، ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور، فاقترض ذلك أن المنذر مماثل للشيطان، وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان. وكل شيطان كفور، فالمبذر كفور ﴿وما تعرض عنهم﴾ قد تقدم قريباً أن أصل «إما» هذه مركب من إن الشرطية وما الإبهامية، وإن دخول نون التأكيد على الشرط لمشابهته للنهي؛ أي: إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين

ضيقه عليه هائناً لديه. قيل ويجوز أن يراد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي لا تفنى خزائنه. فإما عبادته فعليهم أن يقتصدوا. ثم علل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بَعْبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: يعلم ما يسترون وما يعلنون، لا يخفى عليه من ذلك خافية، فهو الخبير بأحوالهم البصير بكيفية تدبيرهم في أرزاقهم، وفي هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده، فلذلك قال بعدهما: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ إملق: أملق الرجل لم يبق له إلا الملقات: وهي الحجارة العظام الملس، قال الهنلي يصف صائداً:

أتبع لها أقيدر نوخشف إذا سامت على الملقات ساما
الأيدير تصغير الأقد: وهو الرجل القصير، والخشف من الثياب الخلق، وسامت مَرَّت، ويقال: أملق إذا افتقر وسلب الدهر ما بيده. قال أوس:

وأملق ما عندي خطوب تنجل

نهامهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، وقد كانوا يفعلون ذلك، ثم بين لهم أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له، فإن الله سبحانه هو الرزاق لعباده يرزق الأبناء كما يرزق الآباء فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع، وقد مر مثل هذه الآية في الانعام ثم علل سبحانه النهي عن قتل الأولاد لذلك بقوله: ﴿إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا﴾. قرأ الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهزم المقصور. وقرأ ابن عامر (خطأ) بفتح الخاء والطاء والقصر في الهمز، يقال: خطئ في بيته خطأً: إذا أثم، وأخطأ: إذا سلك سبيل خطأً عامداً أو غير عامد. قال الأزهري، خطئ يخطئ خطأً مثل أثم يآثم إثماً: إذا تعمد الخطأ، وأخطأ: إذا لم يتعمد، أخطأ وخطأ، قال الشاعر:

نعيني إنما خطأه وصدا علي وإنما أملكت مالي
والخطأ الاسم يقوم مقام الأخطاء، وفيه لغتان القصر، وهو الجيد، والمد وهو قليل. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمز⁽¹⁾. قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، وكذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. وقرأ الحسن (خطأ) بفتح الخاء والطاء منونة من غير همز. ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل ذكر النهي عن الزنا المفضي إلى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب فقال: ﴿وَلَا تَقْرِبُوا الزَّوْنَى﴾ وفي النهي عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى، فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كانت حراماً كان المتوصل إليه حراماً بفحوى الخطاب، والزنى فيه لغتان: المد، والقصر. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزناء فريضة الرجم
ثم علل النهي عن الزنا بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي:

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قال: تكون الباهرة من الولد إلى الولد، فقال الله: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ إن تكن النية صائقة ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ للبادرة التي بدرت منه، وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب عنه في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ قال، الرجاعين إلى الخير. وأخرج سعيد بن منصور، وهناد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن الضحاک في

(1) (وقوله ومد الهمز) صوابه: وحدها للهمز. اهـ

الآية قال: الرجاعين من الذنب إلى التوبة، ومن السيئات إلى الحسنات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَوْلَا بَيْنُكُمْ﴾ قال: للمطيعين المحسنين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عنه قال: للتوايين. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ قال: أمره بأحقّ الحقوق، وعلمه كيف يصنع إذا كان عنده، وكيف يصنع إذا لم يكن عنده؟ فقال: ﴿وَأَمَّا تَعْرِضُ عَنْهُمْ لَيْتَ عَنْ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ قال: إذا سالوك وليس عنك شيء انتظرت رزقاً من الله ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا﴾ يكون إن شاء الله يكون شبه العدة. قال سفيان: والعدة من النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: هو أن تصل ذا القرابة وتطعم المسكين وتحسن إلى ابن السبيل. وأخرج ابن جرير عن علي بن الحسين أنه قال لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: فما قرأت في بني إسرائيل ﴿وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ قال: وإنكم للقرابة التي أمر الله أن يؤتي حقهم؟ قال: نعم. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: والقرى قرى بني عبد المطلب.

وأقول: ليس في السياق ما يفيد هذا التخصيص، ولا دلّ على ذلك دليل، ومعنى النظم القرآني واضح إن كان الخطاب مع كل من يصلح له من الأمة، لأن معناه أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بأن يعطيهم حقهم وهو الصلة التي أمر الله بها. وإن كان الخطاب للنبي ﷺ، فإن كان على وجه التعريض لأمره فالأمر فيه كالأول، وإن كان خطاباً له من دون تعريض، فأمته أسوته، فالأمر له ﷺ بإيتاء ذي القرى حقه أمر لكل فرد من أفراد أمته، والظاهر أن هذا الخطاب ليس خاصاً بالنبي ﷺ بليل ما قبل هذه الآية، وهي قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّي أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وما بعدها، وهي قوله: ﴿وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا إِنْ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾.

وفي معنى هذه الآية الدالة على وجوب صلة الرحم أحاديث كثيرة. وأخرج أحمد، والحاكم وصححه عن أنس: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إني نو مال كثير ونو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ قال: تخرج الزكاة المفروضة، فإنها طهرة تطهرك وتصل أقاربك وتعرف حقّ السائل والجار والمسكين، فقال: يا رسول الله أقتل لي؟ قال: فأت ذا القرى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً. قال: حسبي يا رسول الله. وأخرج البزار، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فاعطاها ففك. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أقطع رسول الله ﷺ فاطمة ففك. قال ابن كثير بعد أن ساق حديث أبي سعيد هذا ما لفظه: وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده، لأن الآية مكية، وفكك إنما فتحت مع خبير سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتئم هذا مع هذا، انتهى. وأخرج الفريابي، وسعيد بن

منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ قال: التبذير إنفاق المال في غير حقه. وأخرج ابن جرير عنه قال: كنا أصحاب محمد نتحدث أن التبذير النفقة في غير حقه. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ الْمُبْذِرِينَ﴾ قال: هم الذين ينفقون المال في غير حقه. وأخرج البيهقي في الشعب عن علي قال: ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير شرف ولا تبذير وما تصدقت فلك، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا﴾ قال: العدة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سيار أبي الحكم قال: أتى رسول الله ﷺ بز من العراق، وكان معطاء كريماً فقسمه بين الناس، فبلغ ذلك قوماً من العرب، فقالوا: إنا نأتي النبي ﷺ نسأله، فوجوه وقد فرغ منه، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال: محبوسة ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ يلومك الناس ﴿مَحْسُورًا﴾ ليس بينك شيء. أقول: ولا أدري كيف هذا؟ فالآية مكية، ولم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول الله ﷺ ولا يحمل إليه شيء من العراق ولا مما هو أقرب منه، على أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته ﷺ. وأخرج ابن جرير عن المنهال بن عمرو: «بعثت امرأة إلى النبي ﷺ بابتها فقالت: قل له: اكسني ثوباً، فقال: ما عندي شيء، فقالت: ارجع إليه فقل له: اكسني قميصك، فرجع إليه فنزع قميصه فاعطاها إياه، فنزلت ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ الآية. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال لعائشة وضرب بيده: «أنفقي ما على ظهر كفي، قالت: إنني لا ببقى شيء. قال: ذلك ثلاث مرات، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ الآية، ويقدر في ذلك أنه ﷺ لم يتزوج بعائشة إلا بعد الهجرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ قال: يعني بذلك البخل. وأخرج عنه في الآية قال: هذا في النفقة يقول: لا تجعلها مغلولة لا تبسطها بخير، ولا تبسطها كل البسط، يعني: التبذير ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ يلوم نفسه على ما فاتته من ماله ﴿مَحْسُورًا﴾ ذهب ماله كله. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِنْ رَبِّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ قال: ينظر له، فإن كان الغنى خيراً له أغناه، وإن كان الفقر خيراً له أفقره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ قال: مخافة الفقر والفاقة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿خُطَا﴾ قال: خطيئة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ قال: يوم نزلت هذه

يصلحه، وذلك يستلزم مباشرته، فقال: ﴿إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال، وهي حفظه وطلب الربح فيه والسعي فيما يريد به. ثم ذكر الغاية التي للنهي عن قربان مال اليتيم فقال: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: لا تقربوه إلا بالتتي هي أحسن حتى يبلغ اليتيم أشده، فإنما بلغ أشده كان لكم أن تدفعوه إليه، أو تتصرفوا فيه بإنه، وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى في الانعام ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع. قال الزجاج: كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد، فيدخل في ذلك ما بين العبد وربّه، وما بين العباد بعضهم البعض. والوفاء بالعهد هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي، إلا إذا دلّ دليل خاص على جواز النقص وإن العهد كان مسؤولاً أي: مسؤولاً عنه، فالمسؤول هنا هو صاحبه، وقيل: إن العهد يسأل تبكيتاً لناقضه ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: أتموا الكيل ولا تخسروه وقت كيلكم للناس ﴿وَوُزْنُوا بِالْقِسْطِ أَلْتَسْتَقِيمُ﴾ قال الزجاج: هو ميزان العدل أي: ميزان كان من موازين الدراهم وغيرها، وفيه لغتان: ضم القاف، وكسرهما، وقيل هو القيان المسمى بالقسطون؛ وقيل هو العدل نفسه، وهي لغة الروم، وقيل: لغة سريانية. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر (القسطاس) بضم القاف، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر القاف، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى إيفاء الكيل والوزن، وهو مبتدا وخبره ﴿خَيْرٌ﴾ أي: خير لكم عند الله وعند الناس يتأثر عنه حسن النكر وترغيب الناس في معاملة من كان كذلك ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة، من آل إذا رجع. ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان والقلب فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تتبع ما لا تعلم، من قولك: قفوت فلاناً إذا اتبعت أثره، ومنه قافية الشعر لأنها تقفو كل بيت، ومنه القبيلة المشهورة بالقافة لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس. وحكى ابن جرير عن فرقة أنها قالت: قفا وقاف مثل عثا وعث. قال منذر بن سعيد البلوطي: قفال وقاف، مثل جذب وجذب. وحكى الكسائي عن بعض القراء أنه قرأ (تقف) بضم القاف وسكون الفاء. وقرأ الفراء بفتح القاف وهي لغة لبعض العرب، وإنكرها أبو حاتم وغيره. ومعنى الآية: النهي عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له به، وهذه قضية كلية، وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور: فقيل: لا تنم لحداً بما ليس لك به علم؛ وقيل: هي في شهادة الزور؛ وقيل: هي في القنف. وقال القتيبي: معنى الآية: لا تتبع الحدس والظنون، وهذا صواب، فإن ما عدا ذلك هو العلم؛ وقيل: المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعياً كان أو ظنياً. قال أبو السعود في تفسيره: واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه. وأقول: إن هذه الآية قد دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم، ولكنها عامة مخصصة بالآلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل

الآية لم يكن حدود، فجاءت بعد ذلك الحدود في سورة النور. وأخرج أبو يعلى، وابن مردويه عن أبي بن كعب أنه قرأ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ إلا من تاب فإن الله كان غفوراً رحيمًا، فنكر لعمر قاتاه فسأله، فقال: أخذتها من في رسول الله وليس لك عمل إلا الصفق باليقيع. وقد ورد في التهريب عن فاحشة الزنا أحاديث كثيرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الضحاك في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ الآية قال: هذا بمكة ونبي الله ﷺ بها، وهو أول شيء نزل من القرآن في شأن القتل، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله ﷺ فقال الله: من قتلتم من المشركين، فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أباً أو أخاً أو واحداً من عشيرته وإن كانوا مشركين، فلا تقتلوا إلا قاتلكم، وهذا قبل أن تنزل براءة، وقيل أن يؤمر بقتال المشركين فذلك قوله: ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّه كَانَ مَنْصُورًا﴾ يقول: لا تقتل غير قاتلك، وهي اليوم على ذلك الموضع من المسلمين لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم. وأخرج البيهقي في سننه عن زيد بن أسلم أن الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلاً لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً إذا كان قاتلهم غير شريف لم يقتلوا قاتلهم وقتلوا غيره، فوعظوا في ذلك بقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ قال: بيعة من الله أنزلها يطلبها ولي المقتول القود أو العقل، وذلك السلطان. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عنه ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ قال: لا يكثر في القتل. وأخرج ابن المنذر من طريق أبي صالح عنه أيضاً: لا يقاتل إلا قاتل رحمه.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولَةً ﴿٢٨﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ زَوْجًا بِالْقِسْطِ أَلْتَسْتَقِيمُ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٩﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولَةٌ ﴿٣٠﴾ وَلَا تَمْسُقْ فِي الْأَرْضِ مَرَّةً إِنَّكَ لَنْ تَحْفَرِ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ لِبَالًا طُولًا ﴿٣١﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُومًا ﴿٣٢﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَعَهُ فَتَلْفَنَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْمُورًا ﴿٣٣﴾ أَفَأَسْفَكَرْتُمْ بِالَّذِينَ وَاعَدُوا مَلَكُوتَكَ إِنَّا نَكْرُ لِقَوْلِهِمْ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٣٥﴾

لما ذكر سبحانه النهي عن إتلاف النفوس أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال، وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾. والنهي عن قربانه مبالغة في النهي عن المباشرة له وإتلافه، ثم بين سبحانه أن النهي عن قربانه، ليس المراد منه النهي عن مباشرته فيما يصلحه ويفسده بل يجوز لولي اليتيم أن يفعل في مال اليتيم ما

وقيل: التكبر في المشي؛ وقيل: تجاوز الإنسان قدره؛ وقيل: الخيلاء في المشي؛ وقيل: البطر والأشر؛ وقيل: النشاط. والظاهر أن المراد به هنا الخيلاء والفخر، قال الزجاج في تفسير الآية: لا تمش في الأرض مختلاً فخوراً، وذكر الأرض مع أن المشي لا يكون إلا عليها أو على ما هو معتمد عليها تأكيداً وتقريراً، ولقد أحسن من قال:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هم منك أرفع
وإن كنت في عز وحز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أرفع
والمرح مصدر وقع حالاً أي: ذا مرح. وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد. وقرأ الجمهور (مرحاً) بفتح الراء على المصدر. وحكى يعقوب عن جماعة كسرهما على أنه اسم فاعل، ثم علل سبحانه هذا النهي فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخِرْقَ الْأَرْضَ﴾ يقال: خرق الثوب أي: شقه، وخرق الأرض قطعها، والخرق الواسع من الأرض، والمعنى: أنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبراً، وفيه تهكم بالمختال المتكبر ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ أي: ولن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملاً لك على الكبر والاختيال، فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشي عليها، ولا عظم في بدنك حتى تطاول الجبال، فما الحامل لك على ما أنت فيه؟ وطولاً مصدر في موضع الحال أو تمييز أو مفعول له؛ وقيل: المراد بخرق الأرض نقبها لا قطعها بالمسافة. وقال الأزهري: خرقها قطعها، قال النحاس: وهذا أبين كأنه مأخوذ من الخرق، وهو الفتحة الواسعة، ويقال: فلان أخرق من فلان: أي أكثر سفراً، والإشارة بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مِّنْهُم مَّا قَدَّمَتْ نَفْسُهَا مِّنْ الْأُمُورِ وَالنَّوَائِي، أَوْ إِلَىٰ مَا نَهَىٰ عَنْهُ فَقَطَّ مِّنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾﴾ ولا تمش. قرأ عاصم، وابن عامر، وحزم، والكسائي، ومسروق (سيئته) على إضافة سيء إلى الضمير، ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿مَكْرُوهاً﴾ فإن السيء هو المكروه. ويؤيدها أيضاً قراءة أبي: (كان سيئاته)، واختار هذه القراءة أبو عبيد. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو (سيئة) على أنها واحدة السيئات، وانتصابها على خبرية كان، ويكون مكروهاً صفة لسيئة على المعنى، فإنها بمعنى سيئة، أو هو بدل من سيئة؛ وقيل: هو خبر ثانٍ لكان حملاً على لفظ كل، ورجح أبو علي الفارسي البذل، وقد قيل في توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى. قال الزجاج: والإضافة أحسن، لأن ما تقدم من الآيات فيها سيء وحسن، فسيئته المكروه ويقوي ذلك التذكير في المكروه، قال: ومن قرأ بالتثنية جعل «كل ذلك» إحاطة بالمنهي عنه نون الحسن. المعنى: كل ما نهى الله عنه كان سيئة وكان مكروهاً. قال: والمكروه على هذه القراءة بدل من السيئة وليس بنعت، والمراد بالمكروه عند الله هو الذي يبغضه ولا يرضاه، لا أنه غير مراد مطلقاً، لقيام الأئمة القاطعة على أن الأشياء واقعة بآرائه سبحانه، وذكر مطلق الكراهة مع أن في الأشياء المتقدمة ما هو من الكبائر إشعاراً بأن مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب أنزجار السامع

بالعام وبخبر الواحد والعمل بالشهادة والاجتهاد في القبلة وفي جزاء الصيد ونحو ذلك، فلا تخرج من عمومها ومن عموم ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَىٰ مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ [يونس: 36]. إلا ما قام دليل جواز العمل به، فالعمل بالرأي في مسائل الشرع إن كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسنة، فقد رخص فيه النبي ﷺ كما في قوله ﷺ لمعاذ لما بعثه قاضياً: «بم تقضي؟» قال بكتاب الله، قال: فإن لم تجد، قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد، قال: اجتهد رأيي». وهو حديث صالح للاحتجاج به كما أوضحنا ذلك في بحث مفرد. وأما التوثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب أو السنة، ولكنه قصر صاحب الرأي عن البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي دخولاً أولياً، لأنه محض رأي في شرع الله، وبالناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ ولم تدع إليه حاجة، على أن الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به، ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به وينزله منزلة مسائل الشرع، وبهذا يتضح لك أتم اتضاح ويظهر لك اكتمل ظهور أن هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء، والعامل بها على شفا جرف هار، فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم، والمقلد المسكين العامل برأيي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده ﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾ [النور: 40]. وقد قيل: إن هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلاً. ثم علل سبحانه النهي عن العمل بما ليس بعلم بقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ إشارة إلى الأعضاء الثلاثة، وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسئولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها. وقال الزجاج: إن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك، وأنشد ابن جرير مستدلاً على جواز هذا قول الشاعر:

نم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام
واعترض بأن الرواية بعد أولئك الأقوام، وتبعه غيره على هذا الخطأ كصاحب الكشاف. والضمير في كان من قوله: ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ يرجع إلى كل، وكذا الضمير في عنه، وقيل: الضمير في كان يعود إلى القافي المملول عليه بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾. وقوله: «عنه» في محل رفع لإسناد مسئولا إليه، ورد بما حكاه النحاس من الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جاراً أو مجروراً. قيل: والأولى أن يقال: إنه فاعل مسئولا المحذوف، والمنكسر مفسر له. ومعنى سؤال هذه الجوارح أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات، والمستعمل لها هو الروح الإنساني، فإن استعملها في الخير استحق الثواب، وإن استعملها في الشر استحق العقاب؛ وقيل: إن الله سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ المرح قيل: هو شدة الفرح،

واجتنباه لذلك. والحاصل أن في الخصال المتقدمة ما هو حسن وهو المأمور به، وما هو مكروه وهو المنهي عنه، فعلى قراءة الإضافة تكون الإشارة بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ إلى جميع الخصال حسنها ومكروها، ثم الإخبار بأن ما هو سيئ من هذه الأشياء وهو المنهي عنه مكروه عند الله، وعلى قراءة الأفراد من نون إضافة تكون الإشارة إلى المنهيات، ثم الإخبار عن هذه المنهيات بأنها سيئة مكروهة عند الله ﴿كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ الإشارة إلى ما تقدم نكره من قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ﴾ إلى هذه الغاية وترتقي إلى خمسة وعشرين تكليفاً، ﴿مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ أي: من جنسه أو بعض منه، وسمي حكمة لأنه كلام محكم، وهو ما علمه من الشرائع أو من الأحكام المحكمة التي لا يطرق إليها الفساد، وعند الحكماء أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته، و «من الحكمة» متعلق بمحذوف وقع حالاً أي: كائناتاً من الحكمة، أو بدل من الموصول بإعادة الجار، أو متعلق بأوحى. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ كرر سبحانه النهي عن الشرك تأكيداً وتقريباً وتنبهاً عن أنه رأس خصال الدين وعمته. قيل: وقد رأى سبحانه في هذا التأكيد بقيقة فرتب على الأوّل كونه مضموماً مخذولاً، وذلك إشارة إلى حال الشرك في الدنيا، ورتب على الثاني أنه يلقي ﴿فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾، وذلك إشارة إلى حاله في الآخرة، وفي القعود هناك، والإلقاء هنا إشارة إلى أن الإنسان في الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة، وقد تقدم تفسير المعلوم والمدحور ﴿افصافكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً﴾ قال أبو عبيدة: أصفافكم خصمكم، وقال الفضل: أخلصكم، وهو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله، وفيه توبيخ شديد وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضلّ، والفاء للعطف على مقتر كنظارته مما قد كررناه. ﴿إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ﴾ يعني: القائلين بأن لهم الذكر والش الإناث ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بالغا في العظم والجرأة على الله إلى مكان لا يقادر قدره ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: بينا ضروب القول فيه من الأمثال وغيرها، أو كررنا فيه؛ وقيل: «في» زائدة، والتقدير ولقد صرّفنا هذا القرآن. والتصريف في الأصل صرف الشيء من جهة إلى جهة؛ وقيل: معنى التصريف المغايرة أي: غايرنا بين المواعظ ليتذكروا ويعتبروا، وقراءة الجمهور (صرّفنا) بالتشديد، وقرأ الحسن بالتخفيف، ثم علل تعالى ذلك فقال: ﴿لِيُنْذِرُوا﴾ أي: ليتعظوا ويتبدروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه. قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وحمره، والكسائي (لينكروا) مخففاً، والباقون بالتشديد، واختارها أبو عبيد لما تفيد من معنى التذكير، وجملة ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن هذا التصريف والتذكير ما يزيدهم إلا تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر في الصواب لأنهم قد اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر، وهم لا

يَنْزَعُونَ عَنْ هَذِهِ الْغَوَايَةِ وَلَا وَاِزَعَ لَهُمْ يَزْعُهُمْ إِلَى الْهَدَايَةِ.

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ قال: كانوا لا يخالطونهم في مال ولا ماكل ولا مركب حتى نزلت ﴿وَلَا تَخَالَطُوهُمْ فَاِخْوَانَكُمْ﴾ [البقرة: 220]. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِنْ لِّلْعَهْدِ كَانَ مَسْئُولًا﴾ قال: يسأل الله ناقض العهد عن نقضه. وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير في الآية قال: يسأل عهده من أعطاه إياه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ يعني: لغيركم ﴿وَوَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ يعني: الميزان، وبلغه الروم الميزان القسطاس ﴿تِلْكَ خَيْرٌ﴾ يعني: وفاء الكيل والميزان خير من النقصان ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة. وأخرج ابن أبي شيبة، والفريرابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: القسطاس العدل بالرومية. وأخرج ابن المنذر عن الضحاک قال: القسطاس القَبَان. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: الحديد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ قال: لا تقل. وأخرج ابن جرير عنه قال: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن الحنفية في الآية قال: شهادة الزور. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ يقول: سمعه وبصره وفؤاده تشهد عليه. وأخرج الفريرابي عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ قال: يوم القيامة أكلنك كان أم لا؟. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قال: لا تمش فخراً وكبراً، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال ولا أن تخرق الأرض بفخرك وكبرك. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن التوراة في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ثم تلا ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْحُورًا﴾ قال: مطروداً.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ دَالِمٌ مَا يَقُولُونَ إِذَا أَجْتَمَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿١٠١﴾ سَخِرَ مِنْهُمْ مَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٠٢﴾ سَخِرَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْحَبُونَهُ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَالْجِلْمِ عَنُودًا ﴿١٠٣﴾ وَلَئِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿١٠٤﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَوْا فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ أَنْ أُنْزِلَتْهُمْ ثُغُرًا ﴿١٠٥﴾ مِمَّنْ آمَنُوا بِمَا يُسْتَعْمَلُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَعْمِلُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ بِخُرُوجِهِ إِقْبَلُوا يَقُولُ الْقُلُوبُ إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١٠٦﴾ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١٠٧﴾

قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾. قرأ ابن كثير، وحفص (يقولون) بـالياء التحتية، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب للغائلين بأن مع الله آلهة أخرى، وإن جواب

كانوا يسمعون تسبيح الطعام، وهم ياكلون مع رسول الله ﷺ، وهكذا حديث حنين الجذع، وحديث أن حجراً بمكة كان يسلم على النبي ﷺ، وكلها في الصحيح ومن ذلك تسبيح الحصى في كفه ﷺ، ومناقعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعايات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده، ومعنى ﴿إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ﴾ إلا يسبح متلبساً بحمده ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. قرأ الحسن، وأبو عمرو، ويعقوب، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف (تسبح) بالمشنة الفوقية على الخطاب، وقرأ الباقون بالتحية، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فمن حلمه الإمهال لكم وعدم إنزال عقوبته عليكم، ومن مغفرته لكم أنه لا يأخذ من تاب منكم. ولما فرغ سبحانه من الإلهيات شرع في نكر بعض من آيات القرآن وما يقع من سامعية فقال: ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ جعلنا بينك يا محمد وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً أي: إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يَمُرُّون بك ولا يرونك، ذكر معناه الزجاج وغيره، ومعنى مستوراً ساتراً. قال الأخفش: أراد ساتراً، والفاعل قد يكون في لفظ المفعول كما تقول: إنك لمشووم وميمون، وإنما هو شائم ويامن؛ وقيل: معنى مستوراً ذا ستر، كقولهم: سيل مفعم: أي: نو إفعام، وقيل: هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها، وقيل: حجاب من نونه حجاب فهو مستور بخبره، وقيل: المراد بالحجاب المستور الطبع والختم ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الأكنة: جمع كنان. وقد تقدّم تفسيره في الأنعام، وقيل: هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: 88] ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: 5]. و ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول لأجله أي: كراهة أن يفقهوه، أو لئلا يفقهوه أي: يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً وثقلًا، وفي الكلام حذف، والتقدير: إن يسمعوهم. ومن قبائح المشركين أنهم كانوا يحبون أن ينكر آلهتهم كما ينكر الله سبحانه فإذا سمعوا نكر الله دون نكر آلهتهم نفروا عن المجلس، ولهذا قال الله: ﴿وَإِذَا نَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي: واحداً غير مشفوع بنكر آلهتهم، فهو مصدر وقع موقع الحال ﴿وَلَوْلا عَلَى أَنْبَارِهِمْ نَفُورًا﴾ هو مصدر، والتقدير: هربوا نفوراً، أو نفروا نفوراً، وقيل: جمع نافر كقاعد وقعود. والأوّل أولى. ويكون المصدر في موضع الحال أي: ولوا نافرين ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أي: يستمعون إليك متلبسين به من الاستخفاف بك وبالقُرْآن واللغو في نكرك لربك وحده، وقيل: الباء زائدة والظرف في ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ متعلق بأعلم أي: نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به، وفيه تأكيد للوعيد، وقوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ متعلق بأعلم أيضاً أي: ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيتهم، وقد

عن مقاتلهم الباطلة وجزاء للو ﴿لَا يَتَغَوَّاهُ إِلَى ذِي الْعَرْشِ﴾ وهو الله سبحانه ﴿سَبِيلاً﴾ طريقاً للمغالبة والممانعة كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة والمصالحة؛ وقيل: معناه إن لا ابتغت الأكلة إلى الله القرية والزلفة عنده، لأنهم بونه، والمشركون إنما اعتقدوا أنها تقربهم إلى الله. والظاهر المعنى الأول، ومثل معناه قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]. ثم نزه تعالى نفسه، فقال: ﴿سَبْحَانَهُ﴾ والتسبيح التنزيه، وقد تقدّم ﴿وَتَعَالَى﴾ متباعد ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الأقوال الشنيعة والفرية العظيمة ﴿عُلُوًّا﴾ أي: تعالياً، ولكنه وضع العلو موضع التعالي كقوله: ﴿وَإِلَّا أَنْبَتُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: 17]. ثم وصف العلو بالكبر مبالغة في النزاهة، وتنبيهاً على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته، وبين الغني المطلق، والفقر المطلق مباينة لا تعقل الزيادة عليها، ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمة سلطانه فقال: ﴿يَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ قرئ بالمشنة التحتية في (يسبح)، وبالفوقية، وقال: «فيهنّ» بضمير العقلاء لإسناده إليها التسبيح الذي هو فعل العقلاء، وقد أخبر سبحانه عن السموات والأرض بأنّها تسبحه، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والإنس والجن وغيرهم من الأشياء التي لا تعقل، ثم زاد ذلك تعميماً وتأكيداً فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ﴾ فشمّل كل ما يسمى شيئاً كائناً ما كان، وقيل: إنه يحمل قوله: ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ على الملائكة والثقلين، ويحمل ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ﴾ على ما عدا ذلك من المخلوقات.

وقد اختلف أهل العلم في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا؟ فقالت طائفة: ليس بمخصوص، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدلّ غيره بأن الله خالق قادر. وقالت طائفة: هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره. والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذي معناه التنزيه وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه، ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد، وأجيب بأن المراد بقوله ﴿لَا تَفْقَهُونَ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار. وقالت طائفة: إن هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين بون الجمادات، وقيل: خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات، كما روي هذا القول عن عكرمة والحسن وخصاً تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها. وقد استدللّ لذلك بحديث: «أن النبي ﷺ مرّ على قبرين» وفيه «ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنتين، وقال: إنه يخفف عنهما ما لم يببسا». ويؤيد حمل الآية على العموم قوله: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18]. وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 74]. وقوله: ﴿وَتُخَرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: 90]، ونحو ذلك من الآيات. وثبت في الصحيح أنهم

قال ابن كثير إسناده فيه ضعف. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح». وأخرج النسائي، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عمر قال: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال: نقيقتها تسبح». وأخرج أبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: الزرع يسبح وأجره لصاحبه والثوب يسبح ويقول الوسخ إن كنت مؤمنا فاغسلني إنني. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: كل شيء يسبح إلا الكلب والحمار. وأخرج ابن راهويه في مسنده من طريق الزهري قال: أتى أبو بكر بغراب وافر الجناحين، فجعل ينشر جناحيه ويقول: ما صيد من صيد ولا عضد من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح. وأخرجه أحمد في الزهد، وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال: أتى أبو بكر الصديق فنكره من قوله غير مرفوع. وأخرجه أبو نعيم في الحلية، وابن مردويه من حديث أبي هريرة بنحوه. وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود بمعنى بعضه. وأخرج أبو الشيخ من حديث أبي الدرداء بمعناه. وأخرج ابن عساکر من حديث أبي رهم نحوه. وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: هذه الآية في التوراة كقدر ألف آية ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: في التوراة تسبح له الجبال ويسبح له الشجر، ويسبح له كذا ويسبح له كذا. وأخرج أحمد، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: صلى داود ليلة حتى أصبح، فلما أصبح وجد في نفسه سرورا فنادته ضفدعة يا داود كنت أداب منك قد أغفيت إغفاء. وأخرج البيهقي في الشعب عن صدقة بن يسار قال: كان داود في محرابه فابصر نودة صغيرة ففكر في خلقها وقال: ما يعبد الله بخلق هذه، فأنطقها الله فقالت: يا داود أعجبك نفسك، لانا على قدر ما أتاني الله أنكره وأشكره منك على ما أتاك الله، قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾ وفي الباب أحاديث وروايات عن السلف فيها التصريح بتسبيح جميع المخلوقات. وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أسماء بنت أبي بكر قال: «لما نزلت ﴿تَبْتَ دَا أَيْ لَهْب﴾ [المسد: 1] أقبلت العوراء أم جميل ولها ولولة، وفي يدها فهر وهي تقول:

مَنْمَأَبِينَا وَبِينَه قَلِينَا
وَأَمْرَه عَصِينَا

ورسول الله جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: إنها لن تراني، وقرأ قرأنا اعتصم به كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني، فقال أبو بكر: لا ورب هذا

كانوا يتناجون بينهم بالكذب والاستهزاء، يقول بدل من «إذ هم نجوى». ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أي: يقول كل منهم للآخرين عند تناجيه: ما تتبعون إلا رجلا سحر فاختلط عقله وزال عن حد الاعتدال. قال ابن الأعرابي: المسحور الذاهب العقل الذي أقسد من قولهم: طعم مسحور إذا أقسد عمله، وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فافسدها؛ وقيل: المسحور المخدوع، لأن السحر حيلة وخديعة، وذلك لأنهم زعموا أن محمدا ﷺ كان يتعلم من بعض الناس، وكانوا يخدعونه بذلك التعليم. وقال أبو عبيدة: معنى مسحورا أن له سحرا أي: رثة، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب فهو مثلكم، وتقول العرب للجبان: قد انتفخ سحره، وكل من كان ياكل من أدمي أو غيره مسحور، ومنه قول امرئ القيس:

أَرَانَا مَوْضِعَيْنِ لَأَمْرِ غَيْبٍ وَنَسَحَرَ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ
أَي: نغذي ونعقل. قال ابن قتيبة: لا أدري ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي قالوا: تارة إنك كاهن وتارة ساحر، وتارة شاعر، وتارة مجنون ﴿فَضْلًا﴾ عن طريق الصواب في جميع ذلك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى أو إلى الطعن الذي تقبله العقول ويقع التصديق له لا أصل الطعن، فقد فعلوا منه ما قدروا عليه؛ وقيل: لا يستطيعون مخرجا لتناقض كلامهم كقولهم: ساحر مجنون.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قال: على أن يزيلوا ملكه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرط: «أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلى، فلما رجع قال: سمعت تسبيحا من السموات العلى مع تسبيح كثيرا سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلوق بما علا، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى». وأخرج ابن مردويه عن أنس: «أن رسول الله ﷺ قال وهو جالس مع أصحابه إذ سمع هدة فقال: أطلت السماء ويحق لها أن تظط، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح بحمده». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحا قال لابنه: يا بني أملك أن تقول: سبحان الله، فإنها صلاة الخلائق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق» قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾. وأخرج أحمد، وابن مردويه من حديث ابن عمر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال: ما من عبد سبح تسبيحة إلا سبح ما خلق الله من شيء، قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾

عجبتهم من إنشاء الله لكم عظماً ولحمًا فكونوا أنتم حجارة أو حديدًا إن قدرتم على ذلك، وقال علي بن عيسى: معناه إنكم لو كنتم حجارة أو حديدًا لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرسلكم. إلا أنه خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ في الإلزام؛ وقيل: معناه لو كنتم حجارة أو حديدًا لأعاديكم كما باديكم ولأماتكم ثم أحياكم، قال النحاس: وهذا قول حسن، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديدًا، وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث، ف قيل لهم: استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارة أو حديدًا لبعثتم كما خلقتم أول مرة. قلت: وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا ﴿وَأَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبِرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: بعظم عنديكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة فإنكم مبعوثون لا محالة، وقيل: المراد به السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس. وقال جماعة من الصحابة والتابعين: المراد به الموت، لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه. والمعنى: لو كنتم الموت لأماتكم الله ثم بعثكم. ولا يخفى ما في هذا من البعد، فإن معنى الآية الترقى من الحجارة إلى الحديد، ثم من الحديد إلى ما هو أكبر في صدور القوم منه، والموت نفسه ليس بشيء يعقل ويحس حتى يقع الترقى من الحديد إليه ﴿فَسَيَقُولُونَ مِنْ يَعِينُنَا﴾ إذا كنا عظاماً ورفاتاً، أو حجارة أو حديدًا مع ما بين الحالتين من التفاوت ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يعيدكم الذي خلقكم واخترعكم عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدمة ﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحركونها استهزاء، يقال: نفض رأسه ينفض رأسه وينفض رأسه ويغض رأسه وتحرك، وانفض رأسه حركه كالمتعجب، ومنه قول الرازي:

أنفض نحوي رأسه وأقنعا

وقول الرازي الآخر:

ونفضت من هرم أسنانها

وقال آخر:

لما رائني أنفضت لي رأسها

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي: البعث والإعادة استهزاء منهم وسخرية ﴿قُلِ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب، لأن عسى في كلام الله واجب الوقوع، ومثله ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: 63]، وكل ما هو آت قريب ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ الظرف منتصب بفعل مضمّر أي: أنكر، أو بدل من قريباً، أو التقدير: يوم يدعوكم كان ما كان، الدعاء النداء إلى المحشر بكلام يسمعه الخلاق، وقيل: هو الصيحة التي تسمعونها، فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض المحشر ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: متقدين له حامدين لما فعله بكم، فهو في محل نصب على الحال. وقيل المعنى: فتستجيبون والحمد لله كما قال الشاعر:

وإني بحمد الله لا ثوب فاخر لبست ولا من غيرة أتقنع
وقد روي أن الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون:

البيت ما هجك، فانتصرفت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها، وقد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ قال: الحجاب المستور أكمة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفعوا به أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في الآية قال: ذلك رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا قراءته ولا يرونه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ عَلَى الْأَنْبَارِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ شَيْطَانٍ﴾ قال: الشياطين. وأخرج ابن مردويه عنه في قوله: ﴿إِنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ قال: عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل.

وَقَالُوا أَوَآدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَاتًا أَوَآدَا لَمُبْعُوثُونَ خَلَقًا جَدِيدًا ﴿١١﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿١٢﴾ أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مِنْ يَشِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتُنَا إِلَّا نَاقِرًا ﴿١٤﴾ وَقُلْ لِمَ أَدَى يَقُولُوا أَلَيْسَ مِنْ أَحْسَنَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانُ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٥﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّ لَهُمْ مَعَ اللَّهِ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ قُلْ يَسِّرْ يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَاقٍ فَتُخْرَجُونَ مِنْ حَتَمٍ وَتُكَلِّمُ الْوَسْوَاسَ الْخَفِيَّ ﴿١٧﴾ قُلْ يَسِّرْ يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَاقٍ فَتُخْرَجُونَ مِنْ حَتَمٍ وَتُكَلِّمُ الْوَسْوَاسَ الْخَفِيَّ ﴿١٨﴾ قُلْ يَسِّرْ يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَاقٍ فَتُخْرَجُونَ مِنْ حَتَمٍ وَتُكَلِّمُ الْوَسْوَاسَ الْخَفِيَّ ﴿١٩﴾ قُلْ يَسِّرْ يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَاقٍ فَتُخْرَجُونَ مِنْ حَتَمٍ وَتُكَلِّمُ الْوَسْوَاسَ الْخَفِيَّ ﴿٢٠﴾

لما فرغ سبحانه من حكاية شبه القوم في النبوات حكى شبهتهم في أمر المعاد فقال: ﴿وَقَالُوا أَأُفَادَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَاتًا﴾ والاستفهام للاستنكار والاستبعاد. وتقرير الشبهة أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع، فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمر ممكن، ولو فرضتم أن بنه قد صار أبعد شيء من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد، فهو كقول القائل: أطمع في وأنا ابن فلان، فيقول: كن ابن السلطان أو ابن من شئت فساطلب منك حقي. والرفات: ما تكسر وبلي من كل شيء كالفتات والحطام والرضاض، قاله أبو عبيدة، والكسائي، والفراء، والأفش. تقول: منه رفت الشيء رفناً أي: حطم فهو مرفوت. وقيل: الرفات الغبار، وقيل: التراب ﴿وَإِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلَقًا جَدِيدًا﴾ كرر الاستفهام الدال على الاستنكار والاستبعاد تأكيداً وتقريراً، والعامل في إذا هو ما دل عليه لمبعوثون، لا هو نفسه، لأن ما بعد إن والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها، والتقدير: إذا كنا عظاماً ورفاتاً نبعث إنا لمبعوثون، وانتصاب خلقاً على المصدرية من غير لفظه، أو على الحال أي: مخلوقين، وجديداً صفة له ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلَقًا﴾ آخر ﴿مِمَّا يَكْبِرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال ابن جرير: معناه إن

ثم نكر ما فضل به داود، فقال: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُوبَرَ﴾ أي: كتاباً مزبوراً. قال الزجاج: أي فلا تنكروا تفضيل محمد وإعطائه القرآن فقد أعطى الله داود زبوراً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَفَّاتُكُ﴾ قال: غباراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَوَفَّاتُكُ﴾ قال: تراباً، وفي قوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ قال: ما شئتم فكونوا، فسيعيبكم الله كما كنتم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله: ﴿أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُورِكُمْ﴾ قال: الموت، لو كنتم موتاً لأحييتكم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، والحاكم عن ابن عباس مثله. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن مثله أيضاً. وأخرج عبد الله بن أحمد، وابن جرير، وابن المنذر عن سعيد بن جبيرة نحوه، وزاد قال: فكونوا الموت إن استطعتم فإن الموت سيموت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَسَيَنْغْضُونَ عَلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال: سيحركونها استهزاء. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ قال: الإعادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ قال: بأمره. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في الآية قال: يخرجون من قبورهم وهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ قال: بمعرفته وطاعته في أنفسهم، وقلت حين عاينوا يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين في قوله: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: لا إلا الله. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: يعفو عن السيئة. وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: يقول له يرحمك الله يغفر الله لك. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: نزع الشيطان تحريشه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُوبَرَ﴾ قال: كنا نحثُّ أنه دعاء علمه داود وتحميد وتمجيد لله عزَّ وجلَّ ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال: الزبور ثناء على الله ودعاء وتسبيح. قلت: الأمر كما قاله قتادة والربيع فإننا وقفنا على الزبور فوجدناه خطاباً يخطبها داود عليه السلام ويخاطب بها ربه سبحانه عند دخوله الكنيسة، وجملة مائة وخمسون خطبة كل خطبة تسمى مزموراً بفتح الميم الأولى وسكون الزاي وضم الميم الثانية: وآخره راء، ففي بعض هذه الخطب يشكو داود على ربه من أعدائه ويستنصره عليهم، وفي بعضها يحمده الله ويمجده ويثني عليه بسبب ما وقع من النصر عليهم والغلبة لهم، وكان عند

سبحانك وبحمك؛ وقيل: المراد بالدعاء هنا البعث والاستجابة أنهم يبعثون، فالمعنى: يوم يبعثكم فتبعثون متقنين ﴿وَتُظَنُّونَ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: تظنون عند البعث أنكم ما لبثتم في قبوركم إلا زمناً قليلاً، وقيل: بين النفختين، وذلك أن العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين، وذلك أربعون عاماً ينأمن فيها، فلذلك ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: 52]، وقيل: إن الدنيا تحقرت في أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة، فقالوا هذه المقالة. ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي قل: يا محمد لعبادي المؤمنين: إنهم يقولون عند محاورتهم للمشركين الكلمة التي هي أحسن من غيرها من الكلام الحسن كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجَانِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]. وقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾ [طه: 44] لأن المخاشنة لهم ربما تفهم عن الإجابة أو تؤدي إلى ما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108]. وهذا كان قبل نزول آية السيف، وقيل: المعنى قل لهم يأمرؤا بما أمر الله وينهوا عما نهى عنه، وقيل: هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة، والأول أولى كما يشهد به السبب الذي سنذكره إن شاء الله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بالفساد وإلقاء العداوة والإغراء. قال اليزيدي: يقال نزغ بيننا أي: أقسد. وقال غيره: النزغ الإغراء ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أي: متظاهراً بالعداوة مكاشفاً بها، وهو تعليل لما قبله، وقد تقدّم مثل هذا في البقرة ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ قيل: هذا خطاب للمشركين، والمعنى: إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم أو يميّتكم عن الشرك فيعذبكم، وقيل: هو خطاب للمؤمنين أي: إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من الكفار أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم؛ وقيل: إن هذا تفسير للكلمة التي هي أحسن ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ كَيْلًا﴾ أي: ما وكلناك في منعمهم من الكفر، وقسره على الإيمان؛ وقيل: ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم، ومنه قول الشاعر:

نكرت أبا أروى فبثت كانني برد الأمور الماضية وكيلا
أي: كفيلا. ﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أعلم بهم ذاتاً وحالاً واستحقاقاً، وهو أعم من قوله: ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ لأن هذا يشمل كل ما في السموات والأرض من مخلوقاته، وذلك خاص ببني آدم أو ببعضهم، وهذا كالتوطئة لقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: أن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن نونه، وبمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله. وقد تقدّم هذا في البقرة. وقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وجعل عيسى كلمته وروحه، وجعل لسليمان ملكاً عظيماً، وغفر لمحمد ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وجعله سيد ولد آدم. وفي هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله ﷺ من ارتفع درجته عند ربه عزَّ وجلَّ،

عذابه ﴿ كما يخافه غيرهم ﴾ [إن عذاب ربك كان محذوراً] تعليل لقوله يخافون عذابه أي: إن عذابه سبحانه حقيق بأن يحزنه العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم. ثم بين سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال: ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ﴾ [إن نافية، ومن للاستفراق أي: ما من قرية، أي قرية كانت من قرى الكفار. قال الزجاج: أي ما من أهل قرية إلا سيهلكون إما بموت وإما بعذاب يستاصلهم، فالمراد بالقرية أهلها، وإنما قيل: قبل يوم القيامة لأن الإهلاك يوم القيامة غير مختص بالقرى الكافرة، بل يعم كل قرية لانقضاء عمر الدنيا؛ وقيل: الإهلاك المصالحة والتعذيب للمطالعة، والأول أولى لقوله: ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ [القصص: 59]. ﴿ كان ذلك ﴾ المنكور من الإهلاك، والتعذيب ﴿ في الكتاب ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿ مسطوراً ﴾ أي: مكتوباً، والسطر الخط وهو في الأصل مصدر، والسطر بالتحريك مثله. قال جرير:

من شاء بايعته مالي وخلفت ما تكمل اليتيم في بيوانها سطرا
والخلفة بضم الخاء خيار المال، والسطر جمع أسطر، وجمع السطر بالسكون أسطر ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ولا أن نكذب بها الأولون ﴾ قال المفسرون: إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم جبال مكة، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان ما سأل قومك، ولكنهم إن لم يؤمنوا بها يمهلوا وإن شئت استأنيت بهم، فأنزل الله هذه الآية. والمعنى: وما معنا من إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه في عباده، فالمنع مستعار بترك، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء أي: ما تركنا إرسالها لشيء من الأشياء إلا تكذيب الأولين، فإن كذب بها هؤلاء كما كذب بها أولئك لاشتراكهم في الكفر والعناد حل بهم ما حل بهم، و «أن» الأولى في محل نصب بإيقاع المنع عليها، و «أن» الثانية في محل رفع، والباء في بالآيات زائدة. والحاصل أن المنع من إرسال الآيات التي اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلي وهو الاستئصال، وقد عزمنا على أن نؤخر أمر من بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة؛ وقيل معنى الآية: إن هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لأبائهم فلا يؤمنون البتة كما لم يؤمن أولئك، فيكون إرسال الآيات ضائعاً، ثم إنه سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح ونافقة، فإنهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها التي قد بينت في محل آخر وأعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب، وإنما خص قوم صالح بالاستشهاد، لأن آثار إهلاكهم في بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صابريهم وواردهم فقال: ﴿ وأتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ أي: ذات إبصار يدركها الناس بأبصارهم كقوله: ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ [الإسراء: 12] أو أسند إليها حال من يشاهدها مجازاً، أو

الخطبة يضرب بالقيثارة، وهي آلة من آلات الملاهي. وقد نكر السيوطي في الدر المنثور ها هنا روايات عن جماعة من السلف ينكرون اللفظاً وقفوا عليها في الزبور ليس لها كثير فائدة، فقد أغنى عنها وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ والزواجر.

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَتْفَ الْعَرْشِ عَنْكُمْ وَلَا تَحْزَنُوا ﴿٥٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَٰهَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ عَذَابًا كَثِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفِتْنَةِ أَوْ مَعَذَرَهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦٠﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَمَتَّعْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ ثَمِيرَةً فَلَمَّا كَذَّبُوهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَعْرِيفًا ﴿٦١﴾ وَلَا تَلْمِزْنَاكَ لَئِنْ رَّبُّكَ أَحَاكُم بِالنَّارِ وَمَا جَعَلْنَا الْأَرْيَاءَ إِلَٰهَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنَعَزَّوْهُمْ فَمَا يَرُدُّهُمْ إِلَّا طُفَيْنًا كَبِيرًا ﴿٦٢﴾

قوله: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ هذا رد على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم وعزير، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله؛ وقيل: أراد بالذين زعمتم نفرًا من الجن عندهم ناس من العرب، وإنما خصصت الآية بمن نكرنا لقوله: ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾، فإن هذا لا يليق بالجمادات ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أي: لا يستطيعون ذلك، والمعبود الحق هو الذي يقدر على كشف الضر، وعلى تحويله من حال إلى حال، ومن مكان إلى مكان، فوجب القطع بأن هذه التي تزعمونها آلهة ليست بآلهة، ثم إنه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم إلى الله في جلب المنافع و دفع المضار، فقال: ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ فالولئك مبتدا والذين يدعون صفته، وضمير الصلة محذوف أي: يدعونهم، وخبر المبتدا يبتغون إلى ربهم الوسيلة، ويجوز أن يكون الذين يدعون خبر المبتدا أي: الذين يدعون عباده إلى عبادتهم، ويكون يبتغون في محل نصب على الحال. وقرأ ابن مسعود (تدعون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الباقون بالتحية على الخبر؛ ولا خلاف في يبتغون أنه بالتحية. والوسيلة القرية بالطاعة والعبادة أي: يتضرعون إلى الله في طلب ما يقربهم إلى ربهم، والضمير في ربهم يعود إلى العابدين أو المعبودين ﴿ إليهم أقرب ﴾ مبتدا وخبر. قال الزجاج: المعنى أيهم أقرب بالوسيلة إلى الله أي: يتقرب إليه بالعمل الصالح، ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير في يبتغون أي: يبتغي من هو أقرب إليه تعالى الوسيلة، فكيف بمن لونه؟ وقيل: إن يبتغون مضمن معنى يحرصون أي: يحرصون أيهم أقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ﴿ ويرجون رحمته ﴾ كما يرجوها غيرهم ﴿ ويخافون

حصل من المساء لرسول الله ﷺ، أو يحمل على أنه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا، وقيل: إن الله سبحانه أراه في المنام مصارع قريش حتى قال: والله لكانني أنظر إلى مصارع القوم وهو يومئ إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان، فلما سمع قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ عطف على الرؤيا، قيل: وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس. قال جمهور المفسرين: وهي شجرة الزقوم، والمراد بلعننا لعن أكلها كما قال سبحانه: ﴿إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم﴾ [الدخان: 43 - 44]. وقال الزجاج: إن العرب تقول: لك طعام مكروه ملعون، ومعنى الفتنة فيها أن أبا جهل وغيره قالوا: زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر، ثم يقول: ينبت فيها الشجر، فأنزل الله هذه الآية. وروي أن أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمرًا وزبدًا وقال لأصحابه: تزقمو، وقال ابن الزبيري: كثر الله من الزقوم في داركم فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن، وقيل: إن الشجرة الملعونة هي الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتلها، وهي شجرة الكشوث؛ وقيل: هي الشيطان؛ وقيل: اليهود؛ وقيل: بنو أمية ﴿ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ أي: نخوفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغياناً متجاوزاً للحد متمادياً غاية التمادي فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة في الكفر، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، وهو عذاب الاستئصال ولكننا قد قضينا بتأخير العقوبة.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود في قوله: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من بونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم نفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل الله ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ كلاهما، يعني: الفعليين بالياء التحتية، وروي نحو هذا عن ابن مسعود من طرق أخرى. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً. وروي عنه من وجه آخر بلفظ عيسى وأمه وعزير، وعيسى والشمس والقمر. وأخرج الترمذي، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة، قالوا: وما الوسيلة؟ قال: القرب من الله، ثم قرأ ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾». وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ قال: في اللوح المحفوظ. وأخرج أحمد، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني،

أنها جعلتهم ذوي إيصار، من أبصره جعله بصيراً. وقرأ على صيغة المفعول. وقرأ بفتح الميم والصاد وانتصابها على الحال. وقرأ برفعها على أنها خبر مبتدأ محذوف، والجملة معطوفة على محذوف يقتضيه سياق الكلام أي: فكذبوها وأتينا ثمود الناقة، ومعنى ﴿فظلموا بها﴾ فظلموا بتكذيبها أو على تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا أي: فجحدوا بها أو كفروا بها ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ اختلف في تفسير الآيات على وجه: الأول أن المراد بها العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين؛ الثاني أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي؛ الثالث تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى كهول ثم إلى شيب ليعتبر الإنسان بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره؛ الرابع آيات القرآن، الخامس الموت الذريع والمناسب للمقام أن تفسر الآيات المذكورة بالآيات المقترحة أي: لا نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً من نزول العذاب، فإن لم يخافوا وقع عليهم، والجملة مستأنفة لا محل لها، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير ظلموا بها أي: فظلموا بها ولم يخافوا، والحال أن ما نرسل بالآيات التي هي من جملتها إلا تخويفاً. قال ابن قتيبة: وما نرسل بالآيات المقترحة إلا تخويفاً من نزول العذاب العاجل. ولما ذكر سبحانه الامتناع من إرسال الآيات المقترحة على رسوله للمصارف المذكور قوي قلبه بوعد النصر والغلبة فقال: ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ الظرف متعلق بمحذوف أي: انكر إذ قلنا لك أي: أنهم في قبضته وتحت قدرته، فلا سبيل لهم إلى الخروج مما يريده بهم لإحاطته لهم بعلمه وقدرته، وقيل: المراد بالناس أهل مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم أي: إن الله سيهلكهم، وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، وذلك كما وقع يوم بدر ويوم الفتح، وقيل: المراد أنه سبحانه عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ لما بين سبحانه أن إنزال الآيات يتضمن التخويف ضم إليه ذكر آية الإسراء، وهي المذكورة في صدر السورة، وسماها رؤيا لأنها وقعت بالليل، أو لأن الكفرة قالوا لعلها رؤيا، وقد قدمنا في صدر السورة وجهاً آخر في تفسير هذه الرؤيا، وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي ﷺ أنه أسري به، وقيل: كانت رؤيا نوم، وأن النبي ﷺ رأى أنه يدخل مكة فاقتتن المسلمون لذلك، فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ [الفتح: 27] وقد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية، والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة، وقيل: إن هذه الرؤيا المذكورة في هذه الآية هي أنه رأى بني مروان ينزون على منبره نزل القردة فسأه ذلك، فقيل: إنما هي الدنيا أعطوها فسري عنه، وفيه ضعف، فإنه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا إلا أن يراد بالناس رسول الله ﷺ وحده، ويراد بالفتنة ما

عن الحسين بن علي نحوه مرفوعاً وهو مرسل. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر عن سعيد بن المسيب نحوه وهو مرسل. وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجنك: «إنكم الشجرة الملعونة في القرآن» وفي هذا نكارة لقولها: يقول لأبيك وجنك ولعل جد مروان لم يدرك زمن النبوة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: إن رسول الله ﷺ أرى أنه دخل مكة هو وأصحابه، وهو يومئذ بالمدينة فسار إلى مكة قبل الأجل فردّه المشركون، فقال ناس: قد ردّه، وقد كان حدثنا أنه سيخلها، فكانت رجعت فتنتهم وقد تعارضت هذه الأسباب، ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير إلى الترجيح والراجح كثرة وصحة هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الإسراء فيتعين ذلك. وقد حكى ابن كثير إجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك في الرؤيا، وفي تفسير الشجرة وأنها شجرة الزقوم، فلا اعتبار بغيرهم معهم. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لما ذكر رسول الله ﷺ شجرة الزقوم تخويفاً لهم: يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا لا قال: عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمكننا منها لخرقمنها تزقماً. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ * طَعَامُ الْإِثْمِ﴾ [البخا: 43 - 44]، وأنزل ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ﴾ قال: ملعونة لأنه قال: «طلعها كانه رؤوس الشياطين» [الصافات: 65]. والشياطين ملعونون.

وَرَدَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَجِدُ لِمَنْ خَلَقْتُ بَيْنَ ۞ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخْرِجْتُ إِنَّ يَوْمَ الْآيَةِ لَأُخْرِجَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۞ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْقَىٰ مِنْهُمْ فَيَنْبَأُ جَهَنَّمَ بَازًا أَمْ جَزَاءُ جَزَاءً مُّؤَقَّراً ۞ وَاسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَمْتُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ جَنَّتِكَ وَرَجَّلَكَ فِي الْآثَمِ وَالْأَوَّلِ وَيَعْدُهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرْوًا ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ رَكِيبًا ۞

لما ذكر سبحانه أن الرسول ﷺ كان في بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة، أراد أن يبين أن جميع الأنبياء كانوا كذلك، حتى أن هذه عادة قديمة سنّها إبليس اللعين، وأيضاً لما نكر أن الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ذكرها هنا ما يحقق ذلك فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه في سبعة مواضع في البقرة، والاعراف، والحجر، وهذه السورة، والكهف، وطه، وص، وقد تقدّم تفسيرها مبسوطاً فلنقتصر هنا على تفسير ما لم يتقدّم نكره من الألفاظ، فقوله: ﴿طِيناً﴾ منتصب بنزع

والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا، فقبل له: إن شئت أن تستاني بهم وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم من الأمم، قال: لا بل أستاني بهم، فأنزل الله ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾» الآية. وأخرج أحمد، والبيهقي من طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال: قال الناس لرسول الله ﷺ لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبؤين؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم، فإن عصيتم هلكتم، فقالوا: لا نريدها». وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ قال: الموت. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن قال: هو الموت الذريع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قال: عصمك من الناس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: فهم في قبضته. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وأحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلرُّؤْيَا﴾ الآية قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، وليست برؤيا منام ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ قال: هي شجرة الزقوم. وأخرج أبو سعيد، وأبو يعلى، وابن عساكر عن أم هانئ: أن رسول الله ﷺ لما أسري به أصبح يحدث نفراً من قريش وهم يستهزئون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس، وذكر لهم قصة العير، فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر، فأنزل الله إليه ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان يزنون على منبره نزو القردة فسأه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات. فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾. قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده: وهذا السند ضعيف جداً. وذكر من جملة رجال السند محمد بن الحسن بن زبّان وهو متروك وشيخه عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد ضعيف جداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمرو أن النبي ﷺ قال: «رايت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ﴾» يعني: الحكم وولده. وأخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رايت بني أمية على منابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء، واهتم رسول الله ﷺ لذلك، فأنزل الله الآية». وأخرج ابن مردويه

الخافض أي: من طين، أو على الحال. قال الزجاج: المعنى لمن خلقته طيناً، وهو منصوب على الحال ﴿أوليتك﴾ أي: أخبرني عن هذا الذي فضلته علي لم فضلته؟ وقد ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [الأعراف: 12] فحذف هذا للعلم به ﴿لاحتنكن ذريته﴾ أي: لاستولين عليهم بالإغواء والإضلال قال الواحدي: أصله من احتنك الجراد الزرع، وهو أن تستاصله بأحنائها وتفسده، هذا هو الأصل، ثم سمي الاستيلاء على الشيء وأخذه كله احتناكاً؛ وقيل معناه: لاسوقنهم حيث شئت وأقويتهم حيث أردت، من قولهم حنكت الفرس أحنكه حنكاً، إذا جعلت فيه الرسن، والمعنى الأول أنسب بمعنى هذه الآية، ومنه قول الشاعر:

أشكو إليك سنة قد أجمعت جهداً إلى جهد بنا وأصعقت واحتنكت أموالنا واختلفت

أي: استأصلت أموالنا، واللام في ﴿لئن أخرجتني﴾ هي الموطئة، وإنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بجزية آدم ما نكره لعلم قد سبق إليه من سمع استرقه، أو قاله لما ظنه من قوة نفوذ كيده في بني آدم، وأنه يجري منهم في مجاري الدم، وأنهم بحيث يروج عندهم كيده وتنفق لديهم وسوسته إلا من عصم الله، وهم المرادون بقوله: ﴿إلا قليلاً﴾ وفي معنى هذا الاستثناء قوله سبحانه: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ويؤيد ما نكرناه قوله تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ [سبا: 20]. فإنه يفيد أنه قال ما قاله هنا اعتماداً على الظن، وقيل: إنه استنبط ذلك من قول الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ [البقرة: 30]، وقيل: علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات، أو ظن ذلك لأنه وسوس لأدم، فقبل منه ذلك ولم يجد له عزماً، كما روي عن الحسن ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم﴾ أي: أطاعك ﴿فإن جهنم جزأؤكم﴾ أي: إبليس ومن أطاعه ﴿جزأء موفوراً﴾ أي: وافراً مكلاً، يقال: وفرته أفره وقرأ، ووفر المال بنفسه يفر وفوراً، فهو وافر، فهو مصدر، ومنه قول زهير:

ومن يجعل المعروف من لونه عرضه يفره ومن لا يثقي الشتم يشتم ثم كرر سبحانه الإمهال لإبليس اللعين فقال: ﴿ولستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ أي: استزعج واستخف من استطعت من بني آدم، يقال: أقره واستقره أي: أزعجه واستخفه، والمعنى: استخفهم بصوتك داعياً لهم إلى معصية الله، وقيل: هو الغناء واللهو واللعب والمزامير ﴿ولجلب عليهم بخلك ورجلك﴾ قال الفراء وأبو عبيدة: أجلب من الجلبة والصباح أي: صبح عليهم. وقال الزجاج أي: أجمع عليهم كل ما تقدر من مكاييدك، فالإجلاّب الجمع. والباء في «بخلك» زائدة. وقال ابن السكيت: الإجلاب الإعانة، والخيل تقع على الفرسان كقوله ﴿يا خيل الله اركبي﴾، وتقع على الأفراس، والرجل بسكون الجيم: جمع رجل كتاجر وتجر، وصاحب وصاحب. وقرأ حفص بكسر الجيم على أنه صفة. قال أبو زيد: يقال رجل ورجل، بمعنى راجل، فالخيل

والرجل كناية عن جميع مكاييد الشيطان، أو المراد كل راكب وراجل في معصية الله ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ أما المشاركة في الأموال، فهي كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذاً من غير حق، أو وضعاً في غير حق كالغصب والسرقة والربا، ومن ذلك تبتيك أذان الأنعام وجعلها بحيرة وسائبة، والمشاركة في الأولاد دعوى الولد بغير سبب شرعي، وتحصيله بالزنا وتسميتهم بعبد اللات وعبد العزى، والإساءة في تربيتهم على وجه يالفون فيه خصال الشر وأفعال السوء ويخل فيه ما قتلوا من أولادهم خشية إملاق، وواد البنات وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التي هم عليها، ومن ذلك مشاركة الشيطان للمجامع إذا لم يسم، ثم قال: ﴿وعدهم﴾ قال الفراء: قل لهم لا جنة ولا نار. وقال الزجاج: وعدهم بأنهم لا يبعثون ﴿وما يعدهم للشيطان إلا غروراً﴾ أي: باطلاً، وأصل الغرور تزيين الخطأ بما يومه الصواب؛ وقيل معناه: وعدهم النصرة على من خالفهم، وهذه الأوامر للشيطان من باب التهديد والوعيد الشديد، وقيل: هي على طريقة الاستخفاف به وبمن تبعه ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ يعني: عباده المؤمنين كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد إليه يراد بها المؤمنون لما في الإضافة من التشريف، وقيل: المراد جميع العباد بليل الاستثناء بقوله في غير هذا الموضع ﴿إلا من أتبعك من الغاوين﴾ [الحجر: 42] والمراد بالسلطان التسلسل ﴿وكفى بربك وكيلاً﴾ يتولكون عليه، فهو الذي يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال إبليس إن آدم خلق من تراب من طين خلق ضعيفاً وإني خلقت من نار، والنار تحرق كل شيء ﴿لاحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ فصنق ظنه عليهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿لاحتنكن ذريته﴾ قال: لاستولين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿لاحتنكن ذريته﴾ قال: لأحتويئهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: لأضلنهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿موفوراً﴾ قال: وافراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ولستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قال: صوته كل داع دعا إلى معصية الله ﴿ولجلب عليهم بخلك﴾ قال: كل راكب في معصية الله ﴿ورجلك﴾ قال كل راجل في معصية الله ﴿وشاركهم في الأموال﴾ قال: كل مال في معصية الله ﴿والأولاد﴾ قال: كل ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم الحرام. وأخرج الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في الآية قال: كل خيل تسير في معصية الله، وكل مال أخذ بغير حقه، وكل ولد زنا. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: ﴿والأموال﴾ ما كانوا يحرمون من أنعامهم ﴿والأولاد﴾ أولاد

انهدم أصلها، وعين خاسف أي: غائرة حنقتها في الراس، وخسفت عين الماء: إذا غار ماؤها، وخسفت الشمس: إذا غابت عن الأرض وجانب البر ناحية الأرض، وسماء جانباً، لأنه يصير بعد الخسف جانباً، وأيضاً فإن البحر جانب من الأرض والبر جانب، وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر، فحذرهم ما آمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر **﴿أو يرسل عليكم حاصباً﴾** قال أبو عبيدة والقتيبي: الحصب الرمي أي: ريحاً شديدة حاصبة، وهي التي ترمي بالحصى الصفار. وقال الزجاج: الحاصب التراب الذي فيه حصباء، فالحاصب نو الحصباء كاللاين، والتامر: وقيل: الحاصب حجارة من السماء تحصبهم كما فعل يقوم لوط، ويقال للسحابة التي ترمي بالبرد حاصب، ومنه قول الفرزدق:

مستقبلين جبال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور
﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾ أي: حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله **﴿إمام لمنتم أن يعيكم فيه تارة أخرى﴾** أي: في البحر مرة أخرى بأن يقوي نواحيكم ويوفر حوائجكم إلى ركوبه، وجاء بفي ولم يقل إلى البحر للدلالة على استقرارهم فيه **﴿فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾** القاصف: الريح الشديدة التي تكسر بشدة، من قصف الشيء يقصفه أي: كسره بشدة، والقصف: الكسر، أو هو الريح التي لها قصيف أي: صوت شديد من قولهم رعد قاصف أي: شديد الصوت **﴿فيفرقكم﴾** قرأ أبو جعفر، وشيبة، ورويس، ومجاهد (فتفرقكم) بالثاء الفوقية على أن فاعله الريح. وقرأ الحسن وقتادة، وابن وردان (فيفرقكم) بالتحية والتشديد في الراء. وقرأ أبو جعفر أيضاً (الرياح). وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون في جميع هذه الأفعال. وقرأ الباقر بالياء التحتية في جميعها أيضاً، والياء في بما كفرتم للسينية أي: بسبب كفركم **﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾** أي: ثائراً يطالبنا بما فعلنا. قال الزجاج: لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم. قال النحاس: وهو من الثار، وكذا يقال لكل من طلب بثار أو غيره تببع وتابع. **﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾** هذا إجمال لنذكر النعمة التي أنعم الله بها على بني آدم أي: كرمناهم جميعاً، وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله. وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم ياكلون بأيديهم، وسائر الحيوانات تاكل بالضم، وكذا حكاها النحاس. وقيل: ميزهم بالنطق والعقل والتمييز، وقيل: أكرم الرجال بالحي والنساء بالنواثب. وقال ابن جرير: أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم، وقيل: بالكلام والخط والفهم، ولا مانع من حمل التكريم المذكور في الآية على جميع هذه الأشياء. وأعظم خصال التكريم العقل، فإن به تسلطوا على سائر

الزنا. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: **﴿الأموال﴾** البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله **﴿والأولاد﴾** سموا عبد الحارث وعبد شمس.

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَبَّأَ بِنَفْسِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ **﴿وَلَوْ أَنَّ سَكَمَ الْفَرْقِ فِي الْبَحْرِ مَدَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِنَّا هَمَّا نَجِّنُكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾** **﴿أَفَأَمْسَرَ أَنْ يَخِيفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾** **﴿أَمْ أَمْسَرَ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَرَّبِيلَ عَلَيْهِمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ يَفْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ ذَبْماً﴾** **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْآلِ وَالْبَحْرِ وَنَزَّلْنَاهُمْ مِنَ الْمَلَكُوتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾** **﴿٧﴾**

قوله: **﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر﴾** الإزجاء: السوق والإجراء والتسيير، ومنه قوله سبحانه **﴿إلم تر أن الله يزجي سحاباً﴾** [النور: 43]. وقول الشاعر:
يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصور
وقول الآخر:

عونا تزجي خلفها أطفالها

والمعنى: أن الله سبحانه يسيّر الفلك في البحر بالريح والفلك ها هنا جمع، وقد تقدّم، والبحر هو الماء الكثير عذبا كان أو مالحة، وقد غلب هذا الاسم على المشهور **﴿لِتَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾** أي: من رزقه الذي تفضل به على عباده أو من الربح بالتجارة، ومن زائدة أو للتبعيض، وفي هذه الآية تنكير لهم بنعم الله سبحانه عليهم حتى لا يعينوا غيره ولا يشركوا به أحداً، وجملة **﴿إنه كان بكم رحيماً﴾** تعليل لما تقدّم أي: كان بكم رحيماً فهداكم إلى مصالح دنياكم **﴿وإذا مسكم الضر﴾** يعني: خوف الغرق **﴿ففي البحر ضل من تدعون﴾** من الألهة وذهب عن خواطركم، ولم يوجد لإغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم، أو جن، أو ملك، أو بشر **﴿إلا إياه﴾** وحده فإنكم تعتقدون رجاءكم برحمته وإغاثته، والاستثناء منقطع، ومعنى الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم في غير هذه الحالة، فاما في هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علماً لا يقدر على مدافعتها أن الأصنام ونحوها لا فعل لها **﴿فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾** عن الإخلاص لله وتوحيده ورجعتم إلى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها **﴿وكان الإنسان كفوراً﴾** أي: كثير الكفران لنعمة الله، وهو تعليل لما تقدّمه، والمعنى: أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله، وفي الرخاء يعرضون عنه. ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم قاتلاً: **﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر﴾** الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتهم فأمتمتم فحملكم ذلك على الإعراض، فبين لهم أنه قادر على هلاكهم في البر وإن سلموا من البحر. والخسف أن تنهار الأرض بالشيء، يقال: بئر خسيف إذا

وأخرجه البيهقي من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفاً قال: وهو الصحيح. وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: المؤمن أكرم على الله من ملائكته. وأخرج الطبراني عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا رب أعطيت بني آدم الدنيا ياكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمك ولا ناكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان». وأخرجه عبد الرزاق، وابن جرير عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة، وإسناد الطبراني هكذا: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ فنكره. وأخرج ابن عساكر من طريق عروة بن رويم قال: حدثني أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ، فنكر نحو حديث ابن عمرو الأول مع زيادة. وأخرج نحوه البيهقي أيضاً في الاسماء والصفات من وجه آخر عن عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ، فنكره. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس في قوله: «ولقد كرمنا بني آدم» قال: جعلناهم ياكلون بأيديهم وسائر الخلق ياكلون بأقوامهم. وأخرج الحاكم في التاريخ، والديلمي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الكرامة الاكل بالأصابع».

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أَوَّلَ كِتَابِهِ يُسَمِّيهِ، فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَغْلَبُونَ كِتَابَهُمْ ﴿٧٦﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَمِّنَ فَمَنْ فِي الْآخِرَةِ أَمِّنَ وَأَصْلُ سَبِيلٍ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَتَنَبَّؤُنَا عَنْ آيَاتِنَا أَوْحِيَا إِلَيْكَ لَيَنْتَبِهُنَّ عَلَيْنَا عَيْرٌ وَإِذَا اتَّخَذْتُمْ عَجَازًا ﴿٧٨﴾ وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَفَتَ إِكْدٌ تَرَكْنَ إِلَيْنَا سَبِيلًا قَلِيلًا ﴿٧٩﴾ إِذَا لَدَخْتْنَا ضَمْعَ الْحَيَوَةِ وَضَعَفَ الْمَمَاتُ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنْ الْأَرْضِ لَيُخْرِجَنَّ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨١﴾ سَنَنْ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسِتَابِنَا حُوبًا ﴿٨٢﴾

قوله: «يوم ندعو كل أناس بإمامهم» قال الزجاج: يعني يوم القيامة، وهو منصوب على معنى أذكر يوم ندعو. وقري (يدعو) بالياء التحتية على البناء للفاعل و (يدعى) على البناء للمفعول، والباء في إمامهم للإلصاق كما تقول: أدعوك باسمك، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف هو حال، والتقدير: ندعو كل أناس متلبسين بإمامهم أي: يدعون وإمامهم فيهم نحو ركب بجنوده، والأول أولى. والإمام في اللغة كل ما يؤتم به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب.

وقد اختلف المفسرون في تعيين الإمام الذي تدعى كل أناس به، فقال ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك إنه كتاب كل إنسان الذي فيه عمله أي: يدعى كل إنسان بكتاب

الحيوانات، وميزوا بين الحسن والقيح، وتوسعوا في المطاعم والمشارب، وكسبوا الأموال التي تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان، وبه قدروا على تحصيل الآبنة التي تمنعهم مما يخافون، وعلى تحصيل الأكسية التي تقبهم الحر والبرد، وقيل تكريمهم: هو أن جعل محمداً ﷺ منهم «وجعلناهم في البر والبحر» هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم، حملهم سبحانه في البر على اللواب، وفي البحر على السفن، وقيل: حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم ولم نفرقهم «ورزقناهم من الطيبات» أي: لنذير المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه ويتنعمون به «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك أن بني آدم فضلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته. وقد جعل بعض أهل العلم الكثير هنا بمعنى الجميع وهو تعسف لا حاجة إليه.

وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلق به فائدة، وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء أو الأنبياء على الملائكة، ومن جملة ما تمسك به مفضلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية، ولا دلالة لها على المطلوب لما عرفت من إجمال الكثير وعدم تبيينه، والتعصب في هذه المسألة هو الذي حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة، وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء. ولا دلالة بها على ذلك، فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير، ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد أنه أفضل من بني آدم، بل غاية ما فيه أنه لم يكن الإنسان مفضلاً عليه. فيحتمل أن يكون مساوياً للإنسان، ويحتمل أن يكون أفضل منه، ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال، والتأكيد بقوله: «وتفضيلاً» يدل على عظم هذا التفضيل وأنه بمكان مكين، فعلى بني آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «يزجي» قال: يجري، وأخرجوا عن قتادة قال: يسيرها في البحر. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: «حاصباً» قال: مطر الحجارة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: حجارة من السماء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس «قاصفاً من الريح» قال: التي تغرق. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن عبد الله بن عمرو قال: القاصف والعاصف في البحر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «قاصفاً» قال: عاصفاً، وفي قوله: «ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا» قال: نصيراً. وأخرج الطبراني، والبيهقي في الشعب، والخطيب في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم قيل: يا رسول الله ولا الملائكة؟ قال: ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر».

الفراء عن بعض العرب أنه سمعه يقول: ما أسود شعره، ومن ذلك قول الشاعر:

لما الملوكة فأتت اليوم الأهمم لؤما وأبيضهم سربال طباح
والبحث مستوفي في النحو. وقرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائي، وخلف (أعمى) بالإمالة في الموضعين. وقرأهما أبو عمرو ويعقوب والباقون بغير إمالة، وأمال أبو عبيد الأول دون الثاني ﴿وَأَضْلُ سَبِيلًا﴾ يعني: أن هذا أضل سبيلاً من الأعمى لكونه لا يجد طريقاً إلى الهداية، بخلاف الأعمى فقد يهتدي في بعض الأحوال. ثم لما عدد سبحانه في الآيات المتقدمة أقسام النعم على بني آدم أرفقه بما يجري مجرى التحذير من الاغترار بوساس الاشقياء فقال: ﴿وَأَنْ كَادُوا لَيَفْتَنُوكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إن هي المخفة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والمعنى: وإن الشأن قاربوا أن يخدعوك فانتين، وأصل الفتنة الاختيار، ومنه فتن الصائغ الذهب، ثم استعمل في كل من أزال الشيء عن حذو وجهته، وذلك لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعد وغير ذلك ﴿عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد ﴿لَتَفْتُرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ لتتقوّل علينا غير الذي أوحينا إليك مما اقترحه عليك كفار قريش ﴿وَإِذَا لَاتَخْذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: لو اتبعت أهواءهم لاتخذوك خليلاً لهم أي: والوك وصافوك، مأخوذ من الخلّة بفتح الخاء ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ على الحق وعصمتك عن موافقتهم ﴿لَقَدْ كُنْتَ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ﴾ لقاربت أن تميل إليهم أننى ميل، والركون هو الميل اليسير، ولهذا قال: ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ لكن أركنك ﷻ العصمة فمنعته من أن يقرب من أننى مراتب الركون إليهم، فضلاً عن نفس الركون، وهذا دليل على أنه ﷻ ما هم بإجابته، ذكر معناه القشيري وغيره، وقيل: المعنى وإن كانوا ليخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم، فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً كما تقول للرجل: كنت تقتل نفسك أي: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت، ذكر معناه المهدي. ثم توعد سبحانه في ذلك أشد الوعيد فقال: ﴿إِذَا لَأَنْفُكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: لو قاربت أن تتركن إليهم، أي: مثلي ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل في الدارين، والمعنى: عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات أي: مضاعفاً، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وأضيفت، وذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مِنْ يَدٍ مَنَكُنَّ﴾ بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴿[الأحزاب: 30]﴾. وضعف الشيء مثلاً، وقد يكون الضعف النصيب كقوله: ﴿لِكُلِّ ضَعْفٌ﴾ [الأعراف: 38] أي: نصيب. قال الرازي: حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا

عمله، ويؤيد هذا قوله: ﴿فَمَا مِنْ أَوْتِي كِتَابِهِ﴾ [الحاقة: 19]. الآية، وقال ابن زيد: الإمام هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة، وأهل الإنجيل بالإنجيل، وأهل القرآن بالقرآن، فيقال: يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل يا أهل القرآن. وقال مجاهد وقتادة: إمامهم نبيهم فيقال: هاتوا متبوعي إبراهيم، هاتوا متبوعي موسى، هاتوا متبوعي عيسى، هاتوا متبوعي محمد، وبه قال الزجاج. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المراد بالإمام إمام عصرهم، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذي كانوا ياتَمرون بأمره وينتهون بنيهيه. وقال الحسن وأبو العلية: المراد بإمامهم أعمالهم، فيقال مثلاً: أين المجاهدون، أين الصابرون، أين الصائمون، أين المصلون؟ ونحو ذلك. وروي عن ابن عباس وأبي هريرة. وقال أبو عبيدة، المراد بإمامهم صاحب مذهبهم، فيقال مثلاً: أين التابعون للعالم فلان بن فلان، وهذا من البعد بمكان. وقال محمد بن كعب: بإمامهم بأمهاتهم، على أن إمام جمع أم كخف وخفاف، وهذا بعيد جداً. وقيل: الإمام هو كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعلم والكرم والشجاعة، أو قبيح كاضدادها، فالداعي إلى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام نكر معناه الرازي في تفسيره ﴿فَمَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ بِبَيِّنَةٍ﴾ من أولئك المدعوين، وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير ﴿فَقَاوَلُوكَ﴾ الإشارة إلى من باعتبار معناه. قيل: ووجه الجمع الإشارة إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل، أو الإشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد ﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ الذي أوتوه ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَانًا﴾ أي: لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل، وهو القشرة التي في شق النواة، أو هو عبارة عن أقل شيء، ولم يذكر أصحاب الشمال تصريحاً، ولكنه نكر سبحانه ما يدل على حالهم القبيح فقال: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ أي: من كان من المدعوين في هذه الدنيا أعمى أي: فاقد البصيرة. قال النيسابوري: لا خلاف أن المراد بهذا العمى عمى القلب، وأما قوله: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله: ﴿وَنُحْشِرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴿[طه: 124 - 125]﴾ وفي هذا زيادة العقوبة، ويحتمل أن يراد عمى القلب؛ وقيل: المراد بالآخرة عمل الآخرة أي: فهو في عمل، أو في أمر الآخرة أعمى؛ وقيل: المراد من عمي عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى؛ وقيل: من كان في الدنيا التي تقبل فيها التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى؛ وقيل: من كان في الدنيا أعمى عن حُجَجِ الله فهو في الآخرة أعمى، وقد قيل: إن قوله: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ أقبل تفضيل أي: أشد عمى وهذا مبني على أنه من عمى القلب إذ لا يقال ذلك في عمى العين. قال الخليل وسيبويه: لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل، فلا يقال ما أعماه كما لا يقال ما أيداه. وقال الأخفش: لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من أحرف، وقد حكي

بهذا وبارك لنا في هذا، حتى يأتيتهم فيقول: ابشروا لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ستين نراعاً على صورة آدم، ويلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيتهم فيقولون: اللهم أخزه، فيقول: أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا، قال البزار بعد إخراج: لا يروى إلا من هذا الوجه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ يقول: من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه هذا ﴿فَهُوَ﴾ عما وصفت له ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ ولم يره ﴿أَعْمَى وَاضِلٌ سَبِيلًا﴾ يقول: أبعد حجة. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عنه نحو هذا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً يقول: من عمي عن قدرة الله في الدنيا فهو في الآخرة أعمى. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن مروي عنه أيضاً قال: «إن أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالاً من قريش أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: تعال فتمسح ألفتنا وندخل معك في دينك، وكان رسول الله ﷺ يشد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرق لهم، فأنزل الله ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾». وأخرج ابن مروي عن طريق الكلبي عن ياذان، عن جابر بن عبد الله مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: «كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر، فقالوا لا ندعك تستلمه حتى تستلم بالكتف، فقال رسول الله ﷺ: وما علي لو فعلت والله يعلم مني خلاف؟ فأنزل الله ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ الآية». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير: «أن قريشاً أتوا النبي ﷺ فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لتكون نحن أصحابك، فركن إليهم، فأوحى الله إليه ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ الآية». وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: أنزل الله ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: 1]. فقرأ عليهم رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم: 19]. فلقى عليه الشيطان: تلك الغرائق العلى. وإن شفاعتهم لترتجى، فقرأ النبي ﷺ ما بقي من السورة وسجد، فأنزل الله ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية، فما زال مهموماً مغموماً حتى أنزل الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج: 52]. الآية. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس: «أن ثقيفاً قالوا للنبي ﷺ: أجلنا سنة حتى يهدي لاهتنا، فإذا قبضنا الذي يهدي للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة فهم أن يؤجلهم، فنزلت ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ الآية». وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿ضَعْفُ الْحَيَاةِ وَضَعْفُ الْمَمَاتِ﴾ يعني: ضعف عذاب الدنيا والآخرة. وأخرج البيهقي عن الحسن في الآية قال: هو عذاب القبر.

نصيراً﴾ ينصرك فيبفع عنك هذا العذاب. قال النيسابوري: أعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها، والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها، فلا يلزم من الآية طعن في العصمة ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ الكلام في هذا كالكلام في ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ أي: وإن الشان أنهم قاربوا أن يزعموك من أرض مكة لتخرج عنها، ولكنه لم يقع ذلك منهم، بل منعهم الله منه حتى هاجر بامر ربه بعد أن هموا به، وقيل: إنه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجويزاً ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوف على ليستفتونك أي: لا يبقون بعد إخراجك إلا زمناً قليلاً، ثم عوقبوا عقوبة تستأصلهم جميعاً. وقرأ عطاء بن أبي رباح (لا يلبثوا) بتشديد الباء الموحدة. وقرأ (لا يلبثوا) بالنصب على إعمال إن على أن الجملة معطوف على جملة ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ لا على الخبر فقط. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو بكر، وأبو عمرو (خلفك) ومعناه بعدك. وقرأ ابن عامر، وحفص، وحزمة، والكسائي (خلافك) ومعناه أيضاً بعدك. وقال ابن الأنباري: خلافك بمعنى مخالفتك، واختار أبو حاتم القراءة الثانية لقوله: ﴿فَرَحَ الْمُخْلَفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 81] ومما يدل على أن خلاف بمعنى بعد قول الشاعر:

غفت الديار خلافاً فكانما بسط الشواطئ بينهن حصيرا
يقال: شطبت المرأة الجريد إذا شققته لتعمل منه الحصير. قال أبو عبيدة: ثم تلقى الشاطئة إلى المثقبة ﴿سَنَّةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ سَنَّةً منتصبة على المصدرية أي: سن الله سنة. وقال الفراء: أي يعذبون كسنة من قد أرسلنا فلما سقط الخافض عمل الفعل. وقيل المعنى: سنننا سنة من قد أرسلنا. قال الزجاج: يقول إن سنننا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك إليهم أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه أن ينزل العذاب بهم ﴿وَلَا تَجِدْ لِسَنَتِنَا تُحْوِيلًا﴾ أي: ما أجرى الله به العادة لم يتمكن أحد من تحويله ولا يقدر على تغييره.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنْثَى بِإِمامِهِمْ﴾ قال: إمام هدى وإمام ضلالة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، والخطيب في تاريخه عن أنس في الآية قال: نبيهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: يكتب أعمالهم. وأخرج ابن مروي عن علي في الآية قال: يدعى كل قوم بإمام زمانهم، وكتاب ربهم وسنة نبيهم. وأخرج الترمذي وحسنه، والبزار، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنْثَى بِإِمامِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين نراعاً ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلأل، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم اثنتا

المحمود هو مقام الشفاعة. القول الثاني: أن المقام المحمود إعطاء النبي ﷺ لواء الحمد يوم القيامة. ويمكن أن يقال إن هذا لا ينافي القول الأول، إذ لا منافاة بين كونه قائماً مقام الشفاعة وببده لواء الحمد. القول الثالث: أن المقام المحمود هو أن الله سبحانه يجلس محمداً ﷺ معه على كرسيه، حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد، وقد ورد في ذلك حديث. وحكى النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا منهم ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا الحديث. قال ابن عبد البر: مجاهد وإن كان أحد الأئمة بالتأويل، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا، والثاني في تأويل ﴿وَجُوهَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ إلى ربها ناظرة ﴿[القيامة: 22 - 23]﴾. قال: معناه تنتظر الثواب، وليس من النظر. انتهى. وعلى كل حال فهذا القول غير منافٍ للقول الأول لإمكان أن يقعه الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة. القول الرابع: أنه مطلق في كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات، نكره صاحب الكشاف والمفتون به في التفسير، ويجب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة، فالمصير إليها متعين، وليس في الآية عموم في اللفظ حتى يقال: الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومعنى قوله وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد أنه عام في كل ما هو كذلك، ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق، كما نكره في ذبح البقرة، ولهذا قال هنا. وقيل: المراد الشفاعة، وهي نوع واحد مما يتناولها يعني: لفظ المقام، والفرق بين العموم البدلي والعموم الشمولي معروف، فلا نطيل بنكره ﴿وَقُلْ رَبِّ انْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾. قرأ الجمهور (مدخل صدق ومخرج صدق) بضم الميمين. وقرأ الحسن، وأبو العالية، ونصر بن عاصم بفتحهما، وهما مصدران بمعنى الإدخال والإخراج، والإضافة إلى الصديق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود أي: إنخالاً يستأهل أن يسمى إنخالاً، ولا يرى فيه ما يكره. قال الوليدي: وإضافتهما إلى الصديق مدح لهما، وكل شيء أضفته إلى الصديق فهو مدح.

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية، فقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة واختاره ابن جرير، وقيل: المعنى أمتني إماتة صدق وأبعثني يوم القيامة مبعث صدق، وقيل: المعنى أدخلني فيما أمرتني به، وأخرجني مما نهيتني عنه، وقيل: إدخاله موضع الأمن وإخراجه من بين المشركين، وهو كالقول الأول، وقيل: المراد إنخال عز وإخراج نصر، وقيل: المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوة مدخل صدق، وأخرجني منه إذا أمتني مخرج صدق، وقيل: أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق، وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق، وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق، وأخرجني بالصدق. وقيل: الآية عامة في كل ما تتناوله من الأمور فهي دعاء، ومعناها ربّ أصلح لي وردي في كل الأمور وصدري عنها ﴿وَلَجْعَلْ لِي

وبذلك قال جمهور المفسرين ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ من للتبعض، وانتصابه على الظرفية بمضمري أي: قم بعض الليل فتجد به، والضمير المجزور راجع إلى القرآن وما قيل من أنه منتصب على الإغراء، والتقدير عليك بعض الليل فبعيد جداً، والتهجد مأخوذ من الهجود. قال أبو عبيدة وابن الأعرابي: هو من الأضداد، لأنه يقال: هجد الرجل إذا نام، وهجد إذا سهر فمن استعماله في السهر قول الشاعر:

الآزارت وأهل منى هجود فليت خيالها بمنى يعود
يعني: منتبهين، ومن استعماله في النوم قول الآخر:

الاطرقتنا والرفاق هجود فباتت بعلات النوال تجود
يعني: نياماً. وقال الأزهري: الهجود في الأصل هو النوم بالليل، ولكن جاء الفعل فيه لأجل التجنب ومنه تأثم وتخرج أي: تجنب الإثم والحرج، فالتهجد من تجنب الهجود، فقام بالليل. وروي عن الأزهري أيضاً أنه قال: التهجد القائم إلى الصلاة من النوم هكذا حكى عنه الواحدي، فقيد التهجد بالقيام من النوم، وهكذا قال مجاهد، وعلمقة، والأسود فقالوا: التهجد بعد النوم. قال الليث: تهجد إذا استيقظ للصلاة ﴿نافلة لك﴾ معنى النافلة في اللغة الزيادة على الأصل، فالمعنى أنها للنبي ﷺ نافلة زائدة على الفرائض، والأمر بالتهجد وإن كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر، وقيل: المراد بالنافلة هنا أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في حقه ﷺ، ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة، وقيل: كانت صلاة الليل فريضة في حقه ﷺ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً، وعلى هذا يحمل ما ورد في الحديث أنها عليه فريضة، ولأمرته تطوع. قال الواحدي: إن صلاة الليل كانت زيادة للنبي ﷺ خاصة لرفع الدرجات، لا للكفارات، لأنه غفر له من نبيه ما تقدم وما تأخر، وليس لنا بنافلة لكثرة ثنوبنا إنما نعمل لكفارتها، قال: وهو قول جميع المفسرين. والحاصل أن الخطاب في هذه الآية وإن كان خاصاً بالنبي ﷺ في قوله ﴿اقم الصلاة﴾، فالأمر له أمر لأمرته، فهو شرع عام، ومن ذلك الترغيب في صلاة الليل، فإنه يعم جميع الأمة، والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب، فالتهجد من الليل مندوب إليه ومشروع لكل مكلف. ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض والنوافل فقال: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾. قد نكرنا في مواضع أن عسى من الكريم إطماع وأجب الوقوع، وانتصاب ﴿مقاماً﴾ على الظرفية بإضمار فعل، أو بتضمين البعث معنى الإقامة، ويجوز أن يكون انتصابه على الحال أي: يبعثك ذا مقام محمود؛ ومعنى كون المقام محموداً: أنه يحمد كل من علم به. وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال: الأول أنه المقام الذي يقومه النبي ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هو فيه، وهذا القول هو الذي يلت عليه الأئمة الصحيحة في تفسير الآية، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل، قال الواحدي: وإجماع المفسرين على أن المقام

والارتباب موضع اليقين والاطمئنان ﴿إِلَّا خُسَارًا﴾ أي: هلاكاً، لأن سماع القرآن يغيظهم ويحقنهم ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرّداً وعناداً، فعند ذلك يهلكون؛ وقيل: الخسار النقص كقوله: ﴿فَزَانَتْهُمْ رَجْسًا إِلَىٰ رَجْسِهِمْ﴾ [التوبة: 125]. ثم نبّه سبحانه على فتح بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبايع المذمومة فقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ أي: على هذا الجنس بالنعم التي توجب الشكر كالصحة والغنى ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر لله والذكر له ﴿وَنَآىٰ بِجَانِبِهِ﴾ النأي البعد والباء للمتعدية أو للمصاحبة، وهو تأكيد للإعراض، لأن الإعراض عن الشيء هو أن يوليّه عرض وجهه أي: ناحيته، والنأي بالجانب أن يولي عنه عطفه ويوليّه ظهره، ولا يبعد أن يراد بالإعراض هنا الإعراض عن الدعاء والابتغال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به، ويراد بالنأي بجانبه التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم. وقرأ ابن عامر في رواية ابن نكوان وأبو جعفر (نام) مثل باع بتأخير الهمزة على القلب، وقرأ حمزة (نأى) بلام الفتحين ووافقه الكسائي، وأمال شعبة والسوسي الهمزة فقط. وقرأ الباقون بالفتح فيهما ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من مرض أو فقر ﴿كَانَ يَفُوسًا﴾ شديد اليأس من رحمة الله، والمعنى: أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي وظفر بالمقصود نسي المعبود، وإن فاتته شيء من ذلك استولى عليه الأسف، وغلب عليه القنوط، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ولا يناقي ما في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْهُ دَعَا عَرِيضًا﴾ [فصلت: 51]. ونظائره، فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور في هذه الآية، ولا يبعد أن يقال لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ الشاكلة قال الفراء: الطريقة، وقيل: الناحية، وقيل: الطبيعة، وقيل: الدين، وقيل: النية، وقيل: الجبلة، وهي مأخوذة من الشكل، يقال: لست على شكلي ولا على شاكلكي، والشكل: هو المثل والنظير. والمعنى: أن كل إنسان يعمل على ما يشكل أخلاقه التي ألفها، وهذا نَمٌّ للكافر ومدح للمؤمن ﴿فَرِيكُمُ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ لأنه الخالق لكم، العالم بما جبلتم عليه من الطبايع وما تباينت في من الطرائق، فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة، وبين الكافر الذي شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم. ثم لما انجرّ الكلام إلى ذكر الإنسان وما جبل عليه، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ قد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه، فقيل: هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته، وبهذا قال أكثر المفسرين. قال الفراء: الروح الذي يعيش به الإنسان لم يخبر الله سبحانه به أحداً من خلقه، ولم يعط علمه أحداً من عباده فقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: إنكم لا تعلمونه، وقيل: الروح المسؤول عنه جبريل، وقيل: عيسى، وقيل:

من لبيك سلطاناً نصيراً﴾ أي: حجة ظاهرة قاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني، وقيل: اجعل لي من لبيك ملكاً وعزاً قوياً وكأنه ﷺ علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسال سلطاناً نصيراً. وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن جرير. قال ابن كثير: وهو الأرجح لأنه لا بدّ مع الحق من قهر لمن عاداه ونأواه، ولهذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسَ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: 25] وفي الحديث: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيراً من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع. انتهى. ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ المراد بالحق الإسلام، وقيل: القرآن، وقيل: الجهاد ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائناً ما كان، والمراد بالباطل الشرك، وقيل: الشيطان ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل. ومعنى زهق بطل واضمح، ومنه زهوق النفس وهو بطلانها ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: إن هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت، والحق ثابت دائماً ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الجمهور (ننزل) بالنون⁽¹⁾. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف. وقرأ مجاهد بالياء التحتية والتخفيف، ورواه المروزي عن حفص، ومن لا ابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس. وقيل: للتبعيض وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه، وردّه ابن عطية بأن المبعض هو إنزاله.

واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على القولين: الأول أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه. القول الثاني أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك، ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز، أو من باب حمل المشترك على معنويه. ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا، ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذي يكون سبباً لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي أَذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: 44]. ثم لما ذكر سبحانه ما في القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرة عليهم فقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خُسَارًا﴾ أي: ولا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الظالمين الذي وضعوا التكذيب موضع التصديق، والشك

(1) (قوله بالنون) صوابه بالنون والتشديد. اهـ مصحح القرآن.

القرآن، وقيل: ملك من الملائكة عظيم الخلق، وقيل: خلق كخلق بني آدم، وقيل: غير ذلك مما لا طائل تحته ولا فائدة في إيراده، والظاهر القول الأول، وسيأتي نكر سبب نزول هذه الآية، وبيان السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح، ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح، لأن معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله، ثم أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال: ﴿قُلْ لِلرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ من بيانية، والأمر الشأن والإضافة للاختصاص، أي: هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأشياء التي لم يعلم بها عباده، وقيل: معنى ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ من وحيه وكلامه لا من كلام البشر، وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ما هيئته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع، وقد أطلوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا.

وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر مائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه ولا آئنه لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلاً عن أممهم المقتدين بهم، فيأخذ العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما آذن الله بالكلام فيه، ولم يستأثر بعلمه. ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَوْتَيْنَا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: أن علمكم الذي علمكم الله، ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه، وإن أوتي حظاً من العلم وأفرأ، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر، كما في حديث موسى والخضر عليهم السلام.

وقد أخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي عن ابن مسعود قال: ﴿لِلدُّوِكِ الشَّمْسِ﴾ غروبها، تقول العرب إذا غربت الشمس: دلكت الشمس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي قال: دلوكها غروبها. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس، قال: ﴿لِلدُّوِكِ الشَّمْسِ﴾ لزوال الشمس. وأخرج البزار، وأبو الشيخ، وابن مروي، والديلمي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لِدُّوِكِ الشَّمْسِ زَوَالُهَا﴾. وضعف السيوطي إسناده. وأخرجه مالك في الموطأ، وعبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عمر من قوله. وأخرج عبد الرزاق عنه قال: ﴿لِدُّوِكِ الشَّمْسِ زِيَاغُهَا﴾ بعد نصف النهار. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير عن ابن عباس قال: دلوكها زوالها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿لِلدُّوِكِ الشَّمْسِ﴾ قال: إذا فاء

الفاء. وأخرج ابن جرير عن أبي مسعود وعقبة بن عمرو قالاً: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل ليلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر». وأخرج ابن جرير عن أبي برزة الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر إذا زالت الشمس، ثم تلا ﴿اقْمِ الصَّلَاةَ لِلدُّوِكِ الشَّمْسِ﴾. وأخرج ابن مروي عن حديث أنس نحوه. ومما يستشهد به على أن ليلوك الزوال وسط النهار ما أخرجه ابن جرير عن جابر قال: «دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه يطعمون عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال: أخرج يا أبا بكر فهذا حين ملكت الشمس»، وفي إسناده رجل مجهول ولكنه أخرجه عنه من طريق أخرى عن سهل بن بكار، عن أبي عوانة، عن الأسود بن قيس، عن نبيح العنبري، عن جابر فذكر نحوه مرفوعاً. وأخرج الطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ قال: إلى العشاء الآخرة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: ﴿غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ اجتماع الليل وظلمته. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ بؤ الليل. وأخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: ليلوك الشمس إذا زالت الشمس عن بطن السماء وغسق الليل غروب الشمس. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ قال: صلاة الصبح. وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ إن قرآن الفجر كان مشهوداً. قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها، وهو في الصحيحين عنه مرفوعاً بلفظ تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ إن قرآن الفجر كان مشهوداً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن ابن مسعود موقوفاً نحوه. وأخرج الحكيم الترمذي، وابن جرير، والطبراني، وابن مروي عن أبي الدرداء قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ قرآنَ الْفَجْرِ﴾ كان مشهوداً». قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ يعني: خاصة للنبي ﷺ، أمر بقيام الليل وكتب عليه. وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في سننه عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ثلاث هن علي فرائض وهن لكم سنة: الوتر والسواك، وقيام الليل». وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن أبي امامة في قوله: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ قال: كانت للنبي ﷺ نافلة ولكم فضيلة، وفي لفظ: إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله ﷺ. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ وسئل عنه، قال: هو المقام المحمود الذي أشفع فيه لامتي. وأخرج أحمد،

متكئاً على العسيب فظننت أنه يوحى إليه، فقال: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾**». وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن حبان، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسال هذا الرجل، قالوا: سلوه عن الروح، فنزلت **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾** قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فانزل الله **﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَاداً لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ أَنْتَفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾** [الكهف: 109]. وفي الباب أحاديث وأثر.

وَلَكِنْ شَيْئًا لَنُذَكِّرَنَّ بِالَّذِي أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تُجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكِيلًا ﴿١٧٠﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَتْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿١٧١﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِخَبَرٍ هَذَا الْفَرَقَانِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ يُعِينُ ظَهْرَ الْآخَرِ ﴿١٧٢﴾ وَلَقَدْ سَرَقْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا ﴿١٧٣﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْزِلَ لَنَا مِنَ السَّمَاءِ بَيِّنَاتٌ أَوْ تَكُونَ لَكَ بَيِّنَةٌ مِّنْ عِندِ رَبِّكَ فَتُنَجِّرَ الْأَنْفُسَ خِلَافَهَا تَنْجِيرًا ﴿١٧٤﴾ أَوْ تُسَوِّطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْكَ كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَالًا ﴿١٧٥﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيِّنٌ مِّنْ رَبِّكَ أَوْ تُرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُؤْيَاكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّدُ بِهِ قُلُوبَنَا مِنْ هَلْ كُنْتَ إِلَّا مُنْكَرًا رَّسُولًا ﴿١٧٦﴾

لما بين سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلاً بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل، فقال: **﴿وَلَكِنْ شَيْئًا لَنُذَكِّرَنَّ بِالَّذِي أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ﴾** واللام هي الموطنة، ولنذهبن جواب القسم ساء مسد جواب الشرط. قال الزجاج: معناه لو شئنا لمحوانه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر. انتهى. وعبر عن القرآن بالموصول تفخيماً لشأنه **﴿ثم لا تجد لك به﴾** أي: بالقرآن **﴿علينا وكيلاً﴾** أي: لا تجد من يتوكل علينا في رد شيء منه بعد أن ذهبنا به، والاستثناء بقوله: **﴿إلا رحمة من ربك﴾** إن كان متصلاً فمعناه إلا أن يرحمك ربك فلا نذهب به، وإن كان منقطعاً فمعناه لكن لا يشأ ذلك رحمة من ربك، أو لكن رحمة من ربك تركته غير مذهب به **﴿إن فضله كان عليك كبيراً﴾** حيث جعلك رسولا وأنزل عليك الكتاب وصيرك سيد ولد آدم، وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم به عليه، ثم احتج سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال: **﴿قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن﴾** المنزل من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ **﴿لا يأتون بمثله﴾** أظهر في مقام الإضمار، ولم يكتف بأن يقول: لا يأتون به على أن الضمير راجع إلى المثل المنكور، لنفع توهم أن

وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة فكلون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء، ثم يؤذن لي فاقول ما شاء الله أن أقول، فنلك المقام المحمود». وأخرج البخاري وغيره عن ابن عمر قال: إن كل أمة يوم القيامة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فنلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً. وأخرج عنه نحوه مرفوعاً، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً ثابتة في الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها، ومن رام الاستيفاء نظر في أحاديث الشفاعة في الأمهات وغيرها، وأخرج الطبراني في قوله: **﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾** قال: يجلسه فيما بينه وبين جبريل ويشفع لأمته، فنلك المقام المحمود. وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً، قال: يجلسني معه على السرير»، وينبغي الكشف عن إسناد هذين الحديثين. وأخرج أحمد، والترمذي، وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياع في المختارة عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فانزل الله **﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وجعل لي من لئلك سلطاناً نصيراً﴾**. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن قتادة في قوله: **﴿وقل رب أدخلني﴾** الآية قال: أخرجه الله من مكة مخرج صدق، وأدخله المدينة مدخل صدق. قال: وعلم نبي الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسال سلطاناً نصيراً لكتاب الله وحنوده وفرائضه وإقامة كتاب الله، فإن السلطان عزة من الله جعلها بين أظهر عباده، ولولا ذلك لا غار بعضهم على بعض، واكل شديدهم ضعيفهم. وأخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب قال: والله لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعننها يعود في يده ويقول: **﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾** **﴿جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾** [سبا: 49]». وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿كان ينوساً﴾** قال: فتواط، وفي قوله: **﴿كل يعمل على شاكلته﴾** قال: على ناحيته. وأخرج هناد، وابن المنذر عن الحسن قال: على شاكلته: على نيته. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: اسألوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال

القطعة من الشيء، يقال: أعطني كسفة من ثوبك، والجمع كسف وكسف، ويقال: الكسف والكسفة واحد، وانتصاب كسفاً على الحال، والكاف في كما زعمت في محل نصب على أنه صفة مصدر محذوف أي: إسقاطاً مماثلاً لما زعمت، يعنون بذلك قول الله سبحانه ﴿إِنْ نَشَأْ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ [سبا: 9]. قال أبو علي: الكسف بالسكون، الشيء المقطوع كالطحن للمطحون واشتقاقه على ما قال أبو زيد من كسفت الثوب كسفاً إذا قطعته. وقال الزجاج: من كسفت الشيء إذا غطيته كأنه قيل: أو تسقطها طبقاً علينا ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾.

اختلف المفسرون في معنى ﴿قبيلاً﴾ فقيل: معناه معانية، قاله قتادة وابن جريج، واختاره أبو علي الفارسي فقال: إذا حملته على المعانية كان القبيل مصدراً كالنكير والنكير. وقيل: معناه كقبلاً قاله الضحاك، وقيل: شهيداً قاله مقاتل، وقيل هو جمع القبيلة أي: تأتي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة قاله مجاهد وعطاء، وقيل: ضمناً، وقيل: مقابلاً كالعشير والمعاشر ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ أي: من ذهب، وبه قرأ ابن مسعود، وأصله الزينة، والمزخرف المزين، وزخارف الماء طرائقه، وقال الزجاج: هو الزينة فرجع إلى الأصل معنى الزخرف، وهو بعيد لأنه يصير المعنى: أو يكون لك بيت من زينة ﴿أو ترقى في السماء﴾ أي: تصعد في معارجها يقال: رقيت في السلم إذا صعدت وارتقيت مثله ﴿ولن نؤمن لرقبك﴾ أي: لأجل رقبك، وهو مصدر نحو مضى يمضي مضياً وهوى يهوي هويًا ﴿حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾ أي: حتى تنزل علينا من السماء كتاباً يصدقك ويدل على نبوتك نقرؤه جميعاً، أو يقرؤه كل واحد منا، وقيل معناه: كتاباً من الله إلى كل واحد منا كما في قوله: ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسورة﴾ [المثتر: 52] فأمر سبحانه رسوله ﷺ أن يأتي بما يفيد التعجب من قولهم، والتزنية للرب سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال: ﴿قل سبحانه ربي﴾ أي: تنزيهاً له عن أن يعجز عن شيء. وقرأ أهل مكة والشام (قال سبحانه ربي) يعني النبي ﷺ ﴿هل كنت إلا بشراً﴾ من البشر لا ملكاً حتى أصعد السماء ﴿رسولاً﴾ مأموراً من الله سبحانه بإبلاغكم، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشراً قدر على شيء منها؟ وإن أربتم أني أطلب ذلك من الله سبحانه حتى يظهرها على يدي، فالرسول إذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك، لأنها بها يتبين صدقه، ولا ضرورة إلى طلب الزيادة، وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على ربي بما ليس بضروري، ولا دعت إليه حاجة، ولو لزممتني الإجابة لكل متعنت لاقتراح كل معاند في كل وقت اقتراحات، وطلب لنفسه إظهار آيات، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وتزده عن تعنتاتهم، وتقدس عن اقتراحاتهم.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم

يكون له مثل معين، وللإشعار بأن المراد نفي المثل على أي صفة كان، وهو جواب قسم محذوف كما تدل عليه اللام الموطنة، وسأد مسدّ جواب الشرط، ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدي لها كل واحد منهم على الانفراد، أو كان المتصدر بها المجموع بالمظاهرة فقال: ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ أي: عوناً ونصيراً، وجواب لو محذوف، والتقدير: ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يأتون بمثله، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كل حال، وقد تقدّم وجه إعجاز القرآن في أوائل سورة البقرة في هذه الآية ردّ لما قاله الكفار ﴿ولو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ ولإكذاب لهم. ثم بين سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم إيمانهم فقال: ﴿ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي: ردنا القول فيه بكلّ مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ يعني: من أهل مكة، فإنهم جحدوا وأنكروا كون القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم، واقترحوا من الآيات ما ليس لهم، وأظهر في مقام الإضمار حيث قال: فأبى أكثر الناس توكيداً أو توضيحاً، ولما كان «أبى» مؤولاً بالنفي أي: ما قبل أو لم يرض صح الاستثناء منه قوله: ﴿إلا كفوراً﴾ * وقالوا لن نؤمن لك﴾ أي قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحارث، ثم علقوا نفي إيمانهم بغاية طلبوها فقالوا: ﴿حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾. قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم (حتى تفجر) مخففاً مثل تقتل. وقرأ الباقون بالتشديد، ولم يختلفوا في (فتفجر الأنهار) أنها مشددة، ووجه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع. وأجيب عنه بأن ينبوع وإن كان واحداً في اللفظ فالمراد به الجمع، فإن ينبوع العين التي لا تنضب. ويردّ بأن ينبوع عين الماء والجمع الينابيع، وإنما يقال للعين ينبوع إذا كانت غزيرة من شأنها ينبوع من غير انقطاع والياء زائدة كيحبوب من عبّ الماء ﴿أو تكون لك جنة﴾ أي: بستان تستر أشجاره أرضه. والمعنى هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة ﴿من نخيل وعنب فتفجر الأنهار﴾ أي: تجريها بقوة ﴿خلالها تفجيراً﴾ أي: وسطها تفجيراً كثيراً ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ قرأ مجاهد (أو تسقط) مسنداً إلى السماء. وقرأ من عاده (أو تسقط) على الخطاب أي: أو تسقط أنت يا محمد السماء. والكسف بفتح السين جمع كسفة. وهي قراءة نافع وابن عامر، وعاصم، والكسفة القطعة. وقرأ الباقون «كسفاً» بإسكان السين. قال الأخفش: من قرأ بإسكان السين جعله واحداً ومن قرأ بفتحها جعله جمعاً. قال المهدوي: ويجوز أن يكون على قراءة الكون جمع كسفة، ويجوز أن يكون مصدراً. قال الجوهري: الكسفة

جنس الملائكة امرين: الأول كون سكان الأرض ملائكة، والثاني كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران باجنحتهم إلى السماء، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها، وسمعوها من أهلها ما يجب معرفته وسماعه فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة. وانتصاب بشراً وملكاً على أنهما مفعولان للفعلين، ورسولاً في الموضوعين وصف لهما. وجوز صاحب الكشاف أن يكونا حالين في الموضوعين من رسولاً فيهما وقراه صاحب الكشاف، ولعل وجه ذلك أن الإنكار يتوجه إلى الرسول المتصف بالبشرية في الموضوع الأول، فيلزم بحكم التقابل أن يكون الآخر كذلك، ثم ختم الكلام بما يجري مجرى التهديد، فقال: ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ أي قل لهم: يا محمد من جهتك كفى بالله وحده شهيداً على إبلاغي إليكم ما أمرني به من أمور الرسالة، وقال: بيني وبينكم ولم يقل: بيننا تحقيقاً للمفارقة الكلية، وقيل: إن إظهار المعجزة على وفق دعوى النبي شهادة من الله له على الصيق، ثم علل كونه سبحانه شهيداً كافياً بقوله: ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي: علماً بجميع أحوالهم محيطاً بطواهرها وبواطنها بصيراً بما كان منها وما يكون، ثم بين سبحانه أن الإقرار والإنكار مستندان إلى مشيئته فقال: ﴿ومن يهد الله فهو المهتدي﴾ أي: من يرد الله هدايته فهو المهتدي إلى الحق أو إلى كل مطلوب ﴿ومن يضلل الله يضلل﴾ أي: يرد إضلاله ﴿فلن تجد لهم أولياء﴾ ينصرونهم ﴿من نونه﴾ يعني: الله سبحانه، ويهدونهم إلى الحق الذي أضلهم الله عنه أو إلى طريق النجاة، وقوله: ﴿فهو المهتدي﴾ حملاً على لفظ «من»، وقوله: ﴿فلن تجد لهم﴾ حملاً على المعنى، والخطاب في قوله: ﴿فلن تجد﴾ إما للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح له ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾ هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسرين: الأول أنه عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم، من قول العرب: قد مر القوم على وجوههم: إذا أسرعوا. الثاني أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانتهم وتعذيبهم، وهذا هو الصحيح، لقوله تعالى: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ [القمر: 48]. ولما صح في السنة كما سيأتي، ومحل على وجوههم النصب على الحال من ضمير المفعول و﴿عمياً﴾ منتصب على الحال ﴿وبكماً وصماً﴾ معطوفان عليه، والابكم: الذي لا ينطق، والأصم: الذي لا يسمع، وهذه هيئة يبعثون عليها في أقبح صورة، وأشنع منظر، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم، ثم من وراء ذلك ﴿ماواهم جهنم﴾ أي: المكان الذي يأوون إليه، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة لا محل لها ﴿كلما خبت زناهم سعيهم﴾ أي: كلما سكن لهبها، يقال: خبت النار تخبو خبوا: إذا خمدت وسكن لهبها. قال ابن قتيبة: ومعنى زناهم سعيهم تسعراً، وهو التلهب. وقد قيل: إن في

خبو النار تخفيفاً لعذاب أهلها، فكيف يجمع بينه وبين قوله: ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ [البقرة: 162]؟ وأجيب بأن المراد بعدم التخفيف أنه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبو والتسعر، وقيل: إنها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابها ﴿نلك﴾ أي: العذاب ﴿جزأؤهم﴾ الذي أوجب الله لهم واستحقوه عنده، والباء في قوله: ﴿بأنهم كفروا بأياتنا﴾ للسببية أي: بسبب كفرهم بها فلم يصنقوا بالآيات التنزيلية ولا تفكروا في الآيات التكوينية، واسم الإشارة مبتداً وخبره جزأؤهم، و﴿بأنهم كفروا﴾ خبر آخر، ويجوز أن يكون جزأؤهم مبتداً ثانياً، وخبره ما بعده، والجملة خبر المبتداً الأول. ﴿وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ الهمزة للإنكار، وقد تقدم تفسير الآية في هذه السورة، وخلقاً في قوله: ﴿لئن لميعوثون خلقاً جيداً﴾ مصدر من غير لفظه أو حال أي: مخلوقين، فجاء سبحانه بحجة تدفعهم عن الإنكار وتردُّهم عن الجحود. فقال: ﴿اولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي: من هو قادر على خلق هذا، فهو على إعادة ما هو أدون منه أقدر، وقيل: المراد أنه قادر على إفنائهم وإيجاد غيرهم، وعلى القول الأول يكون الخلق بمعنى الإعادة، وعلى هذا القول هو على حقيقته، وجملة ﴿وجعل لهم لجلاً لا ريب فيه﴾ عطف على ﴿اولم يروا﴾، والمعنى: قد علموا ببديل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم، لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهم كما قال: ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء﴾ [النازعات: 27] ﴿وجعل لهم لجلاً لا ريب فيه﴾ وهو الموت أو القيامة، ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير أي: أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض وجعل لهم لجلاً لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم ﴿فلبى الظالمون إلا كفوراً﴾ أي: أبى المشركون إلا جحوداً، وفيه وضع الظاهر موضع المضمحل للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحد، ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب إجراء الأنهار والعيون في أراضيهم لتتسع معاشهم، بين الله سبحانه أنهم لا يقنعون، بل يبقون على بخلهم وشحهم فقال: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي﴾ «أنتم» مرتفع على أنه فاعل فعل محذوف يفسره ما بعده أي: لو تملكون أنتم تملكون على أن الضمير المنفصل مبديل من الضمير المتصل وهو الواو، وخزائن رحمته سبحانه: هي خزائن الأرزاق. قال الزجاج: أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحاً وبخلًا، وهو خشية الإنفاق أي: خشية أن ينفقوا فيففقروا، في حنف الفعل الذي ارتفع به أنتم، وإيراد الكلام في صورة المبتدا والخبر دلالة على أنهم هم المختصون بالشح. قال أهل اللغة: أنفق وأصرم وأعدم وأقتر: بمعنى قلّ ماله، فيكون المعنى: لأمسكنم خشية قلّ المال ﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ أي: بخيلاً مضيقاً عليه. يقال: قتر على عياله يقتري ويقتري قترًا وقتورًا: ضيق عليهم في النفقة، ويجوز أن يراد وكان

نوفل، وعبد الله بن سلام **﴿إِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾** أي: القرآن **﴿يَخْرُجُونَ لِلْأَنْفَاقِ سَجْدًا﴾** أي: يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه، وإنما قيد الخور، وهو السقوط بكونه للأنفاق أي: عليها، لأن النقن: وهو مجتمع للحيين أول ما يحاذي الأرض. قال الزجاج: لأن النقن مجتمع للحيين، وكما يبتدئ الإنسان بالخور للسجود، فأول ما يحاذي الأرض به من وجهه النقن، وقيل: المراد تعفير الحية في التراب، فإن نك غايه الخضوع، وإيثار اللام في الأنفاق على الدلالة على الاختصاص، فكانهم خصوا أنفانهم بالخور، أو خصوا الخور بأنفانهم، وقيل: الضمير في قوله **﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾** راجع إلى النبي ﷺ، والأولى ما نكرناه من رجوعه إلى القرآن لدلالة السياق على ذلك، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ. وحاصلها أنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه، فلا تبال بذلك، فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعاً ظهر أثره البالغ بكونهم يخرجون على أنفانهم سجداً لله **﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾** أي: يقولون في سجودهم تنزيهاً لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب أو تنزيهاً له عن خلف وعده **﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾** إن هذه هي المخففة من الثقلية، واللام هي الفارقة. ثم ذكر أنهم خروا لأنفانهم باكين فقال: **﴿وَيَخْرُجُونَ لِلْأَنْفَاقِ يَبْكُونَ﴾** وكرر ذكر الخور للأنفاق لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه، والثاني للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم، ولهذا قال: **﴿وَيُزِيدُهُمْ﴾** أي: سماع القرآن، أو القرآن بسماعهم له **﴿خُشُوعًا﴾** أي: لين قلب ورطوبة عين.

وقد أخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿تَسْعَ آيَاتٍ﴾** فنكر ما نكرناه عن أكثر المفسرين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: يده، وعصاه ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وأخرج الطيالسي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن قانع، والحاكم وصححه، وأبو نعيم، والبيهقي، وابن مردويه عن صفوان بن عسال: «أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: انطلق بنا إلى هذا النبي نسأله، فأتياه فسألاه عن قول الله **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾** فقال: لا تشرکوا بالله شيئاً، ولا تزنا، ولا تسرفوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحرُوا، ولا تمشوا بيريء إلى سلطان فيقتله، ولا تاكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، أو قال: لا تفروا من الزحف، شك شعبية، عليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا في السبت، فقبلاً يديه ورجليه وقالوا: نشهد أنك نبي الله، قال: فما يمنعكما أن تسلما؟ قالوا: إن داود دعا الله أن يزال في نريته نبي، وإننا نخاف أن أسلمنا أن يقتلنا اليهود».

أي: من بعد إغراقه ومن معه، والمراد بالأرض هنا: أرض مصر التي أراد أن يستقرهم منها **﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾** أي الدار الآخرة وهو القيامة، أو الكثرة الآخرة، أو الساعة الآخرة **﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾** قال الجوهري: اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، يقال: جاء القوم بلغهم ولفيفهم أي: باخلاطهم، فالمراد هنا جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر. قال الأصمعي: اللفيف جمع وليس له واحد، وهو مثل الجمع **﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾** الضمير يرجع إلى القرآن، ومعنى **﴿بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾** أوحيناه متلبساً بالحق، ومعنى **﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾** أنه نزل وفيه الحق، وقيل: الباقي، وبالحق الأول بمعنى مع أي: مع الحق أنزلناه كقولهم: ركب الأمير بسيفه أي: مع سيفه، وبالحق نزل أي: بمحمد كما تقول نزلت يزيد. وقال أبو علي الفارسي: الباء في الموضعين بمعنى مع، وقيل: يجوز أن يكون المعنى: وبالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل، أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً من تخطيط الشياطين، والتقديم في الموضعين للتخصص. **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾** أي: مبشراً لمن أطاع بالجنة ونذيراً لمخوفاً لمن عصى بالنار **﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ﴾** انتصاب قرأناً بفعل مضمر يفسره ما بعده، قرأ علي، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وقتادة، وأبو رجاء، والشعبي (فرقناه) بالتشديد أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملة واحدة. وقرأ الجمهور (فرقناه) بالتخفيف أي: بيناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل. وقال الزجاج: فرقه في التنزيل ليفهمه الناس. قال أبو عبيد: التخفيف أعجب إلي، لأن تفسيره بيناه، وليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقاً، ويؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال: فرقت مخففاً بين الكلام، وفرقت مشدداً بين الأجسام، ثم ذكر سبحانه العلة لقوله: **﴿فَرَقْنَاهُ﴾** فقال: **﴿لِتَقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْتٍ﴾** أي: على تناول في المدة شيئاً بعد شيء على القراءة الأولى، أو أنزلناه آية آية، وسورة سورة. ومعناه على القراءة الثانية على مكث أي: على ترسل وتمهل في التلاوة، فإن ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ. وقد اتفق القراء على ضم الميم في (مكث) إلا ابن محيصن فإنه قرأ بفتح الميم **﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾** التأكيد بالمصدر للمبالغة، والمعنى: أنزلناه منجماً مفترقاً لما في ذلك من المصلحة، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا **﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تَوْمِنُوا﴾** أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للكافرين المقترحين للآيات: آمنوا به أو لا تؤمنوا، فسواء إيمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيد ذلك ولا ينقصه. وفي هذا وعيد شديد لأمره ﷺ بالإعراض عنهم واحتقارهم، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾** أي: أن العلماء الذين قرءوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن أنس بن مالك أنه سئل عن قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال: مخالفًا، وقال: الأنبياء أكرم من أن تلعن أو تسب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس «مَثْبُورًا» قال: ملعونًا. وأخرج الشيرازي في الألقاب، وابن مردويه عنه قال: قليل العقل. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً «لَفِيضًا» قال: جميعاً. وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس أنه قرأ: (وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ) مثقلاً قال: نزل القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث لهم جواباً، ففرقه الله في عشرين سنة. وقد روي نحو هذا عنه من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً «فَرَقْنَاهُ» قال: فصلناه على مكث بامد «يُخْرَوْنَ لِلْأُنْقَارِ» يقول: للوجوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد «إِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ» قال: كتابهم.

قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَمَّا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٦٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُلْ وَلَدًا وَكَانَ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبَرُ تَكْبِيرًا ﴿١٦١﴾

أراد سبحانه أن يعلم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ ومعناه: انهما مستويان في جواز الإطلاق وحسن الدعاء بهما، ولهذا قال: ﴿لَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التثوين في أيا عوض عن المضاف إليه، وما مزيدة لتوكيد الإيهام في أيا، والضمير في له راجع إلى المسمى، وكان أصل الكلام: أيا ما تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة، وللدلالة على أنها إذا حسنت أسماءه كلها حسن هذان الإسمان، ومعنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال والإكرام، نكر معنى هذا النيسابوري وتبعه أبو السعود. قال الزجاج: أعلمهم الله أن دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان إلى قول واحد، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية، وبه يتضح المراد منها، ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا﴾ أي: بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت، لا من نعوت أفعال الصلاة، فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء، يقال: خفت صوته خفوتاً: إذا انقطع كلامه وضعف وسكن، وخفت الزرع إذا نبل، وخافت الرجل بقراءته: إذا لم يرفع بها صوته، وقيل معناه: لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها، والأول أولى «وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ» أي: الجهر والمخافتة المتداول عليها بالفعلين «سَبِيلًا» أي: طريقاً متوسطاً بين الأمرين فلا تكن مجهورة ولا مخافتاً بها، وعلى التفسير الثاني يكون معنى ذلك النهي عن الجهر بقراءة الصلوات كلها، والنهي عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها، والأمر بجعل البعض منها مجهوراً به، وهو صلاة الليل والمخافتة

بصلاة النهار، وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55] ولما أمر أن لا ينكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى نبه على كيفية الحمد له فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما تقول اليهود والنصارى، ومن قال من المشركين: إن الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي: مشارك له في ملكه وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي: لم يحتج إلى موالاة أحد لئلا يلحقه فهو مستغنى عن الولي والنصير. قال الزجاج: أي لم يحتج أن ينتصر بغيره، وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات، لأنه القادر على الإيجاد وإفاضة النعم لكون الولد مجبنة ومبذلة، ولأنه أيضاً يستلزم حدوث الأب لأنه متولد من جزء من أجزائه، والمحدث غير قادر على كمال الإنعام، والشركة في الملك إنما تتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به، ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلاً عن تمام ما هو له، فضلاً عن نظام ما هو عليه، وإيضاً الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين فقد يمنعه الشريك من إفاضة الخير إلى أوليائه ومؤنية إلى الفساد «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» [الأنبياء: 22]. والمحتاج إلى ولي يمنعه من الذل وينصره على من أراد إذلاله ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغن بنفسه «وَكَبَرُ تَكْبِيرًا» أي: عظمه تعظيماً وصفه بأنه أعظم من كل شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم فقال في دعائه: يا الله يا رحمن، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين، وهو يدعو إلهين، فأنزل الله ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾» الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال: إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الرحمن، وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن، فنزلت الآية. وهو مرسل. وأخرج ابن جرير عن مكحول: «أن النبي ﷺ كان يتجهد بمكة ذات ليلة يقول في سجوده: يا رحمن يا رحيم، فسمعه رجل من المشركين فلما أصبح قال لأصحابه: إن ابن أبي كبشة يدعو لليلة الرحمن الذي باليمن، وكان رجل باليمن يقال له: رحمن، فنزلت». وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاک، عن ابن عباس قال: «سئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾ إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: هو أمان من السرقة». وإن رجلاً من المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ تلاها حيث أخذ مضجعه، فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردوداً، فوضع الكارة، ففعل ذلك ثلاث مرات، فضحك صاحب الدار ثم قال: إني حصنت بيتي. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن

«نكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية: ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ إلى آخرها الصغير من أهله والكبير». وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم بن أبي أمية قال: «كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرات ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ إلى آخر السورة». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف من طريق عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب فنكره. وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

تفسير سورة الكهف

قال القرطبي: وهي مكية في قول جميع المفسرين. وروي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جرزاً﴾ والأول أصح انتهى. ومن القائلين إنها مكية جميعها ابن عباس، أخرجه عنه النحاس وابن مروييه ومنهم ابن الزبير، أخرجه عنه ابن مروييه. وقد ورد في فضلها أحاديث: منها ما أخرجه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي وغيرهم، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال». وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن حبان، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال». وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن البراء قال: «قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيت، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: اقرأ فلان، فإن السكينة نزلت للقرآن»، وهذا الذي كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بيّنه الطبراني. وأخرج الترمذي وصححه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال». وفي قراءة العشر الآيات من أولها أو من آخرها أحاديث. وأخرج ابن مروييه والضياء في المختارة عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الكهف يوم الجمعة فهر معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون، فإن خرج الدجال عصم منه». وأخرج الطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، وابن مروييه، والبيهقي، والضياء، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف كانت له نوراً من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره». وأخرج الحاكم وصححه من حديث أبي سعيد، أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين». وأخرجه البيهقي أيضاً في السنن من هذا الوجه ومن وجه آخر. وأخرج ابن مروييه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين». وأخرج ابن مروييه عن

عباس في قوله: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ الآية قال: نزلت ورسول الله ﷺ متواري، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله لنبيه: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي: بقرأتك، فيسمع المشركون، فيسبوا القرآن ﴿ولا تخافت بها﴾ عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وابتغ بينك سبيلاً﴾ يقول: بين الجهر والمخافة. وأخرج ابن مروييه عنه قال كان نبي الله ﷺ يجهر بالقراءة بمكة فيؤذى، فأنزل الله ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾. وأخرج ابن أبي شيبة عنه أيضاً نحوه. وأخرج أبو داود في ناسخه عنه نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مروييه عنه أيضاً قال: كان مسيلمة الكذاب قد سمي الرحمن، فكان النبي ﷺ إذا صلى فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قال المشركون: ينكر إله اليمامة، فأنزل الله ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا قرأ خفص، وكان عمر إذا قرأ جهر، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أنا أناجي ربي، وقد عرف حاجتي، وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان وأرقت الوسنان، فلما نزل ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ قيل لأبي بكر: أرفع شيئاً، وقيل لعمر أخفض شيئاً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت: إنما نزلت هذه الآية ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ في الدعاء. وأخرج ابن جرير، والحاكم عنها قالت: نزلت في التشهد. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن منيع، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن مروييه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأول. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً، وقالت العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لنذل. فأنزل الله هذه الآية ﴿قل الحمد لله﴾ إلى آخرها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ولم يكن له ولي من الدن﴾ قال: لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد. وأخرج أحمد، والطبراني عن معاذ بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «آية العز ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾، الآية كلها. وأخرج أبو يعلى وابن السني عن أبي هريرة قال: «خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده في يدي، فأتى علي رجل رث للهيئة فقال: أي فلان ما بلغ بك ما أرى؟ قال: السقم والضر، قال: ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر؟ توكلت على الحي الذي لا يموت، ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ إلى آخر الآية، فأتى عليه رسول الله ﷺ وقد حسنت حاله فقال: مهيم؟ قال: لم أزل أقول الكلمات التي علمتني». وفي لفظ أن النبي ﷺ علم ذلك أبا هريرة. قال ابن كثير: وإسناده ضعيف وفي متنه نكارة. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال:

والتقدير: أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً، ثم أراد سبحانه أن يفصل ما أجمله في قوله قيماً فقال: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ **بأساً شديداً**، وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم، والمعنى لينذر الكافرين، والبأس العذاب، ومعنى **﴿لِنُعْذِرُ لَهُنَا﴾** صابراً من لئنه نازلاً من عنده. روى أبو بكر، عن عاصم: أنه قرأ من لئنه بإشمام الدال الضمة، وبكسر النون والهاء، وهي لغة الكلابيين. وروى أبو زيد عن جميع القراء فتح اللام وضم الدال وسكون النون **﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾**، قرئ يبشر بالتشديد والتخفيف، وأجرى الموصول على موصوفه المنكور، لأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان **﴿إِنْ لَهُمْ لِحُجْرًا حَسَنًا﴾** وهو الجنة حال كونهم **﴿مُؤْمِنِينَ فِيهِ﴾** أي: في تلك الأجر **﴿أَبَدًا﴾** أي: مكثاً دائماً لا انقطاع له، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار ثم كرر الإنذار ونكر المنذر لخصوصه وحذف المنذر به، وهو البأس الشديد، لتقدم ذكره فقال: **﴿وَيُنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾** وهم: اليهود والنصارى وبعض كفار قريش، القائلون بأن الملائكة بنات الله، فذكر سبحانه أولاً قضية كلية، وهي إنذار عموم الكفار، ثم عطف عليها قضية خاصة هي بعض جزئيات تلك الكلية، تنبيهاً على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية. فافاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر **﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾** أي: بالولد، أو اتخاذ الله إياه، ومن مزيدة لتأكيد النفي، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة، والمعنى: ما لهم بذلك علم أصلاً **﴿وَلَا لِأَبَائِهِمْ﴾** علم، بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة، وقلدهم أبناءهم فضلو جميعاً **﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾** انتصاب كلمة على التمييز، وقرئ بالرفع على الفاعلية. قال الفراء: كبرت تلك الكلمة كلمة. وقال الزجاج: كبرت مقاتلهم كلمة، والمراد بهذه الكلمة هي: قولهم اتخذ الله ولداً. ثم وصف الكلمة بقوله: **﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾** وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوه بها، والخارج من الفم وإن كان هو مجرد الهوى، لكن لما كانت الحروف والاصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحال ما هو من شأن المحل. ثم زاد في تقييد ما وقع منهم فقال: **﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كُنُيَا﴾** أي: ما يقولون إلا كنياً لا مجال للصدق فيه بحال. ثم سلى رسوله ﷺ بقوله: **﴿فَعَلَّكَ بَاخِعَ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾** قال الأخفش والفراء: البخع الجهد. وقال الكسائي: بخعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحرثة، وبخع الرجل نفسه إذا نهكها وقال أبو عبيدة: معناه: مهلك نفسك، ومنه قول ذي الرمة:

ألا إياهذا الباخع الوجد نفسه

فيكون المعنى على هذه الأقوال لعلك مجهد نفسك أو مضعفاً أو مهلكها **﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾** على فراقهم ومن بعد توليهم وإعراضهم **﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَيْثِ﴾** أي: القرآن وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. وقرئ بفتح

عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بسورة ملا عظمتها ما بين السماء والأرض ولكاتبها من الأجر مثل ذلك من قراها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله من أي الليل شاء؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: سورة أصحاب الكهف». وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة». وفي الباب أحاديث وآثار وفيما أوردها كفاية مغنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ يَمَنُّ الَّذِينَ أَتَوْا عَلَى عِبْدِهِ الرُّسُلَ وَأَنَّهُمْ كَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَئِنْ لَمْ يَرْجُوا رَوْعَهُمْ أَذَلَّتْ نَفْسُهُمْ وَبِشْرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلُكُونَ الْقُلُوبَ إِنَّ لَهُمْ أُجْرًا حَسَنًا ۖ تَنَزَّلُ فِيهِ آيَاتٌ وَلِيُذَكِّرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا آلَهُ الْإِنْسِ ۚ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَوْمًا لَا يَعْلَمُونَ ۚ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِكَلِمَةِ رَجُلٍ مِنْ آلِهِمْ أَنْ يَقُولُوا إِنَّ رَبَّكُمْ إِبْرَاهِيمُ ۖ قُلْ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثُ نِصَافٍ ۖ لَنُجِزَنَّ عَنْكُمْ بَعْضَ عُشْرِكُمْ وَلَنُجِزَنَّ عَنْكُمْ بَعْضَ عُشْرِكُمْ وَلَنُجِزَنَّ عَنْكُمْ بَعْضَ عُشْرِكُمْ ۚ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ۚ مَاعْبَادُ سِوَيْهِ ۚ جَزَاءُ ۝

علم عباده كيف يحمونه على إفاضة نعمه عليهم، ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما في حيز الصلة لما قبله ووجه كون إنزال الكتاب، وهو القرآن نعمة على رسول الله ﷺ كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد، وأحوال الملائكة والأنبياء، وعلى كيفية الأحكام الشرعية التي تعبد الله وتعبد أمته بها، وكذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما نكرناه في النبي: **﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾** أي: شيئاً من العوج بنوع من أنواع الاختلال في اللفظ والمعنى، والعوج بالكسر في المعاني، وبالفصح في الأعيان كذا قيل، ويرد عليه قوله سبحانه: **﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾** [طه: 107]، يعني: الجبال، وهي من الأعيان. قال الزجاج: المعنى في الآية لم يجعل فيها اختلافاً كما قال: **﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾** [النساء: 82]. والقيم المستقيم الذي لا ميل فيه، أو القيم بمصالح العباد الدينية والنبرية، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمناً عليها، وعلى الأول يكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج، فرب مستقيم في الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج في الحقيقة، وانتصاب قيماً بمضمر: أي جعله قيماً، ومنع صاحب الكشف أن يكون حالاً من الكتاب، لأن قوله ولم يجعل معطوف على أنزل فهو داخل في حيز الصلة، فجعله حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذو الحال ببعض الصلة. وقال الأصفهاني: هما حالان متواليان إلا أن الأول جملة والثاني مفرد، وهذا صواب لأن قوله: **﴿وَلَمْ يَجْعَلْ﴾** لم يكن معطوفاً على ما قبله بل الواو للحال، فلا فصل بين الحال وذو الحال ببعض الصلة، وقيل: إن قيماً حال من ضمير لم يجعل له، وقيل في الكلام تقديم وتأخير،

أبي حاتم عن قتادة **«إسفاً»** أي: غيضاً وحزناً وهو مفعول له أو مصدر في موضع الحال كذا قال الزجاج. **«إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها»** هذه الجملة استئناف. والمعنى: إنا جعلنا ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها من الحيوانات والنبات والجماد كقوله سبحانه: **«هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً»** [البقرة: 29]، وانتصاب زينة على أنها مفعول ثانٍ لجعل، واللام في **«لنبلوهم إياهم أحسن عملاً»** متعلقة بجعلنا، وهي إما للغرض أو للعاقبة، والمراد بالابتلاء: أنه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان. وقال الزجاج: إياهم رفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام، والمعنى: لنمتحن أهذا أحسن عملاً أم ذاك؟ قال الحسن: إياهم أزهى، وقال مقاتل: إياهم أصلح فيما أوتي من المال، ثم أعلم سبحانه أنه مبيد لذلك كله ومفتيه فقال: **«وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً»** أي: لجاعلون ما عليها من هذه الزينة عند تنامي عمر الدنيا صعيداً تراباً. قال أبو عبيدة: الصعيد المستوي من الأرض. وقال الزجاج: هو الطريق الذي لا نبات فيه. قال الفراء: الجزز الأرض التي لا نبات فيها، ومن قولهم: امرأة جرزا إذا كانت أكولا. وسيافاً جرزا إذا كان مستاصلاً، وجرز الجراد والشاة والإبل الأرض إذا أكلت ما عليها. قال ذو الرمة:

طوى النحر والإجاز ما في بطونها

ومعنى النظم: لا تحزن يا محمد مما وقع من هؤلاء من التكذيب فإننا قد جعلنا ما على الأرض زينة لاختبار أعمالهم، وإنا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا فمجازوهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مريويه عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: **«الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب»** الآية قال: أنزل الكتاب عدلاً قيماً **«وولم يجعل له عوجاً»** ملتبساً. وأخرج ابن المنذر عن الضحاك **«قيماً»** قال: مستقيماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة **«من لينة»** أي: من عنده. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي **«حسناً»** يعني: الجنة **«وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً»** قال: هم اليهود والنصارى. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأبو البحتري في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة، فأحزنه حزناً شديداً، فأنزل الله سبحانه: **«فلعلك باخع نفسك»**. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه **«باخع نفسك»** يقول: قاتل نفسك، وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد **«إسفاً»** قال: جزعاً. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر، وابن

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿١٠٠﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَمَعَيْنَا مِنْ أَمْرًا رَشِيدًا ﴿١٠١﴾ فَفَرَرْنَا عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَّةً ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ بِغَمٍّ أَلَمَ لِمَنْ يَرَى لِمَا يَشَاءُ أَمَدًا ﴿١٠٣﴾ ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِمْ رُسُوقًا فَرَفَضُوا عَنْ أَمْثَلِمْ وَمَعَيْنَا أَقْوَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٠٤﴾ وَإِذْ أَنْفَخْنَا فِيهِمْ رُسُوقًا فَرَفَضُوا عَنْ أَمْثَلِمْ وَمَعَيْنَا أَقْوَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٠٥﴾ وَإِذْ أَنْفَخْنَا فِيهِمْ رُسُوقًا فَرَفَضُوا عَنْ أَمْثَلِمْ وَمَعَيْنَا أَقْوَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٠٦﴾ وَإِذْ أَنْفَخْنَا فِيهِمْ رُسُوقًا فَرَفَضُوا عَنْ أَمْثَلِمْ وَمَعَيْنَا أَقْوَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٠٧﴾ وَإِذْ أَنْفَخْنَا فِيهِمْ رُسُوقًا فَرَفَضُوا عَنْ أَمْثَلِمْ وَمَعَيْنَا أَقْوَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٠٨﴾ وَإِذْ أَنْفَخْنَا فِيهِمْ رُسُوقًا فَرَفَضُوا عَنْ أَمْثَلِمْ وَمَعَيْنَا أَقْوَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٠٩﴾ وَإِذْ أَنْفَخْنَا فِيهِمْ رُسُوقًا فَرَفَضُوا عَنْ أَمْثَلِمْ وَمَعَيْنَا أَقْوَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١١٠﴾

قوله: **«أم حسبت»** أم: هي المنقطعة المقدرة ببل والهمزة عند الجمهور، وببل وحدها عند بعضهم والتقدير: بل أحسبت، أو بل حسبت، ومعناها: الانتقال من حديث إلى حديث آخر، لا لإبطال الأول والإضراب عنه كما هو معنى بل في الأصل. والمعنى: أن القوم لما تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان، قال سبحانه: بل أظننت يا محمد أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط؟ لا تحسب ذلك فإن آياتنا كلها عجب، فإن من كان قادراً على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء، ثم جعل ما عليها صعيداً جرزاً كان لم تفن بالأمس، لا تستبعد قبرته وحفظه ورحمته بالنسبة إلى طائفة مخصوصة، وإن كانت قصتهم خارقة للعادة، فإن آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك.

من أصحاب الكهف المختلفين في مدة لبثهم. ومعنى أحصى: أضيف. وكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف، فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك، ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه، وما في ﴿لَمَّا لَبِثُوا﴾ مصدرية أي: أحصى للبثهم، وقيل: اللام زائدة، وما بمعنى الذي، و﴿أَمَدًا﴾ تمييز، والأمد الغاية، وقيل: إن أحصى أفعل تفضيل. ورد بأنه خلاف ما تقرر في علم الإعراب، وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم: أفلس من ابن المثلث، وأعدى من الجرب. وأجيب بأن أفعل التفضيل من المزيد قياس مطرد عند سيوبه وابن عصفور، وقيل: إن الحزبين هم أصحاب الكهف اختلّفوا بعد انتباههم كم لبثوا، وقيل: إن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب. وقال الفراء: إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلّفوا في مدة لبثهم

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَاهَهُم بِالْحَقِّ﴾ هذا شروع في تفصيل ما أجمل في قوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ أي: نحن نخبرك بخبرهم بالحق أي: قصصناه بالحق، أو متلبساً بالحق ﴿إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ﴾ أي: أحداث شبان، و﴿أَمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ صفة لفظة والجملة مستأنفة بتقدير سؤال، والفتية جمع قلة، و﴿زَمَنَاهُمْ هُدًى﴾ بالتثنية والتوفيق، وفيه التغات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قويناها بالصبر على هجر الأهل والأوطان، وقرآق الخلان والأخذان ﴿إِذْ قَامُوا﴾ الظرف منصوب بربطنا. واختلف أهل التفسير في هذا القيام على أقوال فقيل: إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعة، فقال رجل منهم هو أكبر القوم: إني لأجد في نفسي شيئاً، إن ربي ربّ السموات والأرض، فقالوا: ونحن أيضاً كذلك نجد في أنفسنا، ققاموا جميعاً ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قاله مجاهد. وقال أكثر المفسرين: إنه كان لهم ملك جبار يقال له: نقيانوس، وكان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت، فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال عطاء ومقاتل: إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم ﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أي: لن نعبد معبوداً آخر غير الله لا اشتراكاً ولا استقلالاً ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي: قولاً ذا شطط، أو قولاً هو نفس الشطط لقصد المبالغة بالوصف بالمصدر، واللام هي: الموطئة للقسم، والشطط: الغلو ومجاوزة الحد. قال أعشى بن قيس:

أَتَنْتَهُونَ وَلَنْ يَنْهَى نَوِي شَطَطُ كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْفُزْلُ
﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ هَؤُلَاءِ مبتدأ، وخبره اتخذوا، وقومنا عطف بيان، وفي هذا الإخبار معنى للإنكار، وفي الإشارة إليهم تحقير لهم ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنٍ﴾ أي: هلا يأتون بحجة ظاهرة تصلح للمسك بها ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزع أن له شريكاً في العبادة أي: لا أحد أظلم منه ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: فارقتموهم وتنجيتم عنهم جانباً أي: عن العابدين للأصنام، وقوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ معطوف على

﴿عَجَبًا﴾ منتصبه على أنه خبر كان أي: ذات عجب، أو موصوفة بالعجب مبالغة، ومن آياتنا في محل نصب على الحال، و﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ ظرف لحسبت أو لفعل مقتر، وهو أنكر أي: صاروا إليه وجعلوه مأواهم، والفتية: هم أصحاب الكهف، والكهف هو الغار الواسع في الجبل، فإن كان صغيراً سمي غاراً، والرقيم قال كعب والسدي: إنه اسم القرية التي خرج منها أصحاب الكهف. وقال سعيد بن جبير ومجاهد: إنه لوح من حجارة أو رصاص رقت فيه أسماءهم جعل على باب الكهف. قال الفراء: ويروى أنه إنما سمي رقيماً لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه. والرقم الكتابة. وروي مثل ذلك عن ابن عباس. ومنه قول العجاج في أرجوزة له:

ومستقري المصحف الرقيم

وقيل: إن الرقيم اسم كلبهم، وقيل: هو اسم الوادي الذي كانوا فيه، وقيل: اسم الجبل الذي فيه الغار. قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجبية من آيات الله، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: من عندك، ومن ابتدائية متعلقة بآياتنا، أو لمحذوف وقع حالاً، والتونين في رحمة: إما للتعظيم أو للتوزيع، وتقديم من لدنك للاختصاص أي: رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك، وهي: المغفرة في الآخرة والأمن من الأعداء، والرزق في الدنيا ﴿وَهِيَءَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: أصلح لنا، من قولك هيأت الأمر فتهيأ، والمراد بأمرهم: الأمر الذي هم عليه وهو مفارقتهم للكفار، والرشد نقيض الضلال، ومن للابتداء. ويجوز أن تكون للتجريد كما في قولك: رأيت منك رشداً. وتقدم المجرورين للاهتمام بهما ﴿فَضْرِبْنَا عَلَى أَذَانِهِمْ﴾ قال المفسرون: أنماهم. والمعنى: سدنا أذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات، والمفعول محذوف أي: ضربنا على أذانهم الحجاب تشبيهاً للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الأذان بضرب الحجاب عليها، و﴿فِي الْكَهْفِ﴾ ظرف لضربنا، وانتصاب ﴿سَنِينَ﴾ على الظرفية، و﴿عَدَدًا﴾ صفة لسنين أي: نوات عدد على أنه مصدر أو بمعنى معدودة على أنه لمعنى المفعول، ويستفاد من وصف السنين بالعدد الكثرة. قال الزجاج: إن الشيء إذا قلّ فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى العدد، وإن كثر احتاج إلى أن يعدّ وقيل: يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند الله ﴿وَأَنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُونَ﴾ [الحج: 47] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: أيقظناهم من تلك النوم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: ليظهر معلومنا، وقرئ بالتحية مبنياً للفعل على طريقة الالتفات، و﴿أَيُّ الْحَزْبَيْنِ﴾ مبتدأ معلق عنه العلم لما في أي من الاستفهام، وخبره ﴿أَحْصَى﴾ وهو فعل ماض، قيل: والمراد بالعلم الذي جعل علة للبعث هو: الاختبار مجازاً فيكون المعنى بعثناهم لنعامهم معاملة من يختبرهم، والأولى ما ذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده، والمراد بالحزبين الفريقان من المؤمنين والكافرين

إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا، ومما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر:

البست قومك مخزاة ومنقصة حتى أبيضوا وخلصوا فجوة الدار
ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ أي: إلى الحق ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشيد والفلاح ﴿وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ أي: ناصراً يهديه إلى الحق كدقيانوس وأصحابه. ثم حكى سبحانه طرفاً آخر من غرائب أحوالهم فقال: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ لِنِقَاطًا﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها ﴿وَهُمْ رَقُودٌ﴾ أي: نيام، وهو جمع راقد كقعود في قاعد. قيل: وسبب هذا الحساب أن عيونهم كانت مفتحة وهم نيام. وقال الزجاج: لكثرة تقلبهم ﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾ أي: نقبلهم في رقبتهم إلى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم ﴿وَكُلِّبُهمْ بِأَسَاطِيرَ ذُرَاعِهِ﴾ حكاية حال ماضية، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى المضى كما تقرر في علم النحو. قال أكثر المفسرين: هربوا من ملكهم ليلاً، فمرؤا براح معه كلب فتبعهم. والوصيد، قال أبو عبيد وأبو عبيدة هو فناء الباب، وكذا قال المفسرون، وقيل: العتبة، ورد بان الكهف لا يكون له عتبة ولا باب، وإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ قال الزجاج: فراراً منصوب على المصدرية بمعنى: التولية، والفرار: الهرب ﴿وَوَلَّمَلْتُمْ﴾ قرئ بتشديد اللام وتخفيفها ﴿مِنْهُمْ رَعْبًا﴾ قرئ بسكون العين وضمها أي: خوفاً يملا الصدر، وانتصاب رعباً على التمييز، أو على أنه مفعول ثانٍ، وسبب الرعب الهيئة التي ألبسهم الله إياها، وقيل: طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم، ويدفعه قوله تعالى: ﴿لَيْبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئاً، ولا وجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة ﴿وَكُنْكَ بَعْثُنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمُ﴾ الإشارة إلى المنكور قبله أي: وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم، وفيه تنكير لقدرته على الإماتة والبعث جميعاً، ثم ذكر الأمر الذي لأجله بعثهم فقال: ليتساءلوا بينهم أي: ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة البعث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة، والاقتصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها، وإنما أفرد لاستتباعه لسائر الآثار، وجملة ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ مبينة لما قبلها من التساؤل أي: كم مدة لبنتكم في النوم؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا في أنفسهم غير ما يعهونه في العادة ﴿قَالُوا لَيْبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ﴾ أي: قال بعضهم جواباً عن سؤال من سأل منهم، قال المفسرون: إنهم دخلوا الكهف غفوة، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار، فلذلك قالوا يوماً، فلما رأوا الشمس قالوا أو بعض يوم، وكان قد بقيت بقية من النهار، وقد مر مثل هذا الجواب في قصة عزيز في البقرة ﴿قَالُوا رَيْبُكُمْ عَلِيمٌ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ أي: قال البعض الآخر هذا القول إما على طريق

الاستدلال، أو كان ذلك إلهاماً لهم من الله سبحانه أي: إنكم لا تعلمون مدة لبنتكم، وإنما يعلمها الله سبحانه ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أعرضوا عن التنازع في مدة البعث، وأخذوا في شيء آخر، كأنه قال القائل منهم: اتركوا ما أنتم فيه من المحاورة، وخذوا في شيء آخر مما يهمكم، والفاء للسببية، والورق: الفضة مضرورية أو غير مضرورية. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم بكسر الراء، وقرأ أبو عمرو وحمرزة، وأبو بكر عن عاصم بسكونها، وقرئ بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف. وقرأ ابن محيصن بكسر الواو وسكون الراء. وفي حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمسك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافي التوكل على الله، والمدينة دقوس، وهي مدينة التي كانوا فيها، ويقال لها اليوم: طرسوس، كذا قال الواحدي ﴿فَلْيَنْظُرْ إِنِّي أَرْكَبُ طَعَامًا﴾ أي: ينظر أي أهلها أطيب طعاماً، وأحل مكسباً، أو أرخص سعراً، وقيل: يجوز أن يعود الضمير إلى الأطعمة المدلول عليها في المقام كما يقال: زيد طيب أبا علي أن الأب هو زيد، وفيه بعد. واستدل بالآية على حل نباح أهل الكتاب لأن عامة أهل المدينة كانوا كفاراً، وفيهم قوم يخفون إيمانهم، ووجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: يتنق النظر حتى لا يعرف أو لا يغبن، والأول أولى، ويؤيده ﴿وَلَا يَشْعُرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا يفعل ما يؤدي إلى الشعور ويتسبب له، فهذا النبي يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف، ثم علل ما سبق من الأمر والنهي فقال: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يطلعو عليكم ويعلموا بمكانكم، يعني: أهل المدينة ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم، وهذه القتل هي أخبث قتل. وكان ذلك كان عادة لهم، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل ﴿أَوْ يَعْبُدُوكُمْ فِي مُلْتَهُمْ﴾ أي: يربوكم إلى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهديكم الله، أو المراد بالعود هنا: الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم، وإيثار كلمة في على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار ﴿وَلَنْ تَفْلَحُوا إِذَا أُنْذِرَ﴾ في إنن معني الشرط. كأنه قال: إن رجعت إلى دينهم فلن تفلحوا إذا أبدأ، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿تَزَاوَرُ﴾ قال: تميل، وفي قوله: ﴿تَقْرَضُهُمْ﴾ قال: تترحم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿تَقْرَضُهُمْ﴾ قال: تتركهم ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ قال: المكان الداخل. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة، قال: الفجوة: الخلة من الأرض، ويعني بالخلة: الناحية من الأرض. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهمْ﴾ الآية قال: ستة أشهر على ذي الجنب اليمين، وستة أشهر على ذي الجنب الشمال. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سعيد بن جبيرة في الآية قال: كي لا تأكل الأرض

سبحانه: حاكياً لقول المتنازعين فيهم وفي عددهم، وفي مدة لبثهم، وفي نحو ذلك مما يتعلق بهم **﴿رَبِّهِمْ أَعْلَمَ بِهِمْ﴾** من هؤلاء المتنازعين فيهم، قالوا: ذلك تفويضاً للعلم إلى الله سبحانه، وقيل: هو من كلام الله سبحانه، رداً لقول المتنازعين فيهم أي: دعا ما أنتم فيه من التنازع، فإني أعلم بهم منكم، وقيل: إن الظرف في **﴿إِذَا يَتَنَازَعُونَ﴾** متعلق بمحذوف هو أنكر، ويؤيده أن الإعتار ليس في زمن التنازع بل قبله، ويمكن أن يقال: إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرناً بعد قرن، منذ أووا إلى الكهف إلى وقت الإعتار، ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوباً على باب الغار، كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون: **﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ۚ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَمِعَهُ وَإِنَّا مِنْهُمْ كَلْبُهُمْ كُلٌّ فِي غَلْمٍ بِهَدْيِهِمْ مَّا يَكْتُمُونَ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْزَنْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظُهُورًا وَلَا تَسْتَفِثْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۚ وَلَا تَقُولَنَّ لَشَأْنِي ۚ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ رَبِّكَ إِذَا نَبِئْتُ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَيْدًا ۚ وَلَسَوْفَ يَكُونُ لَكَ مِنْهُمْ ثَلَاثٌ وَابْعَثْ سَبْعِينَ وَارْتَدَّوْا تِسْعًا ۚ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ لَمْ يَكُنْ غَيْبٌ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ وَالَّذِينَ ابْتَرِشُوا بِهِمُ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهُمْ مِنْ دُونِهِمْ لَا يَشْكُرُونَ فِي حُكْمِهِمْ أَحَدًا ۚ﴾**

سبحانه: حاكياً لقول المتنازعين فيهم وفي عددهم، وفي مدة لبثهم، وفي نحو ذلك مما يتعلق بهم **﴿رَبِّهِمْ أَعْلَمَ بِهِمْ﴾** من هؤلاء المتنازعين فيهم، قالوا: ذلك تفويضاً للعلم إلى الله سبحانه، وقيل: هو من كلام الله سبحانه، رداً لقول المتنازعين فيهم أي: دعا ما أنتم فيه من التنازع، فإني أعلم بهم منكم، وقيل: إن الظرف في **﴿إِذَا يَتَنَازَعُونَ﴾** متعلق بمحذوف هو أنكر، ويؤيده أن الإعتار ليس في زمن التنازع بل قبله، ويمكن أن يقال: إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرناً بعد قرن، منذ أووا إلى الكهف إلى وقت الإعتار، ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوباً على باب الغار، كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون: **﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ۚ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَمِعَهُ وَإِنَّا مِنْهُمْ كَلْبُهُمْ كُلٌّ فِي غَلْمٍ بِهَدْيِهِمْ مَّا يَكْتُمُونَ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْزَنْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظُهُورًا وَلَا تَسْتَفِثْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۚ وَلَا تَقُولَنَّ لَشَأْنِي ۚ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ رَبِّكَ إِذَا نَبِئْتُ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَيْدًا ۚ وَلَسَوْفَ يَكُونُ لَكَ مِنْهُمْ ثَلَاثٌ وَابْعَثْ سَبْعِينَ وَارْتَدَّوْا تِسْعًا ۚ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ لَمْ يَكُنْ غَيْبٌ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ وَالَّذِينَ ابْتَرِشُوا بِهِمُ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهُمْ مِنْ دُونِهِمْ لَا يَشْكُرُونَ فِي حُكْمِهِمْ أَحَدًا ۚ﴾**

لحومهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أن اسم كلبهم: قطمورا. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: اسمه قطمير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: **﴿بِالْوَصِيدِ﴾** قال: بالفناء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: بالباب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **﴿أَنْزَىٰ طَعَامًا﴾** قال: أحل ذبيحة، وكانوا ينبجون للطواغيت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **﴿أَنْزَىٰ طَعَامًا﴾** يعني: أظهر، لأنهم كانوا ينبجون للطواغيت.

وَكَذَٰلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ كَيْدَ اللَّهِ شَدِيدٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۚ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَمِعَهُ وَإِنَّا مِنْهُمْ كَلْبُهُمْ كُلٌّ فِي غَلْمٍ بِهَدْيِهِمْ مَّا يَكْتُمُونَ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْزَنْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظُهُورًا وَلَا تَسْتَفِثْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۚ وَلَا تَقُولَنَّ لَشَأْنِي ۚ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ رَبِّكَ إِذَا نَبِئْتُ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَيْدًا ۚ وَلَسَوْفَ يَكُونُ لَكَ مِنْهُمْ ثَلَاثٌ وَابْعَثْ سَبْعِينَ وَارْتَدَّوْا تِسْعًا ۚ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ لَمْ يَكُنْ غَيْبٌ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ وَالَّذِينَ ابْتَرِشُوا بِهِمُ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهُمْ مِنْ دُونِهِمْ لَا يَشْكُرُونَ فِي حُكْمِهِمْ أَحَدًا ۚ

قوله: **﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ كَيْدَ اللَّهِ شَدِيدٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾** أي: وكما أنماهم وبعثناهم، أعترنا عليهم أي: أطلعنا الناس عليهم وسمي الإعلام إعتاراً، لأن من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه وعرفه، فكان الإعتار سبباً لحصول العلم **﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾** أي: ليعلم الذين أعترهم الله عليهم أن وعد الله بالبعث حق. قيل: وكان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث، فأراه الله هذه الآية. قيل: وسبب الإعتار عليهم أن نكح الرجل الذي بعثه بالورق، وكانت من ضربة نقيانوس إلى السوق، لما أطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقال له: من أين وجدت هذه الدراهم؟ قال: بعث بها أمس شيئاً من التمر، فعرف الملك صدقه، ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا إلى الكهف **﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾** أي: وليعلموا أن القيامة لا شك في حصولها، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث **﴿إِذَا يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾** الظرف متعلق بأعترنا أي: أعترنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعترهم الله في أمر البعث، وقيل: في أمر أصحاب الكهف في قدر مكثهم، وفي عددهم، وفيما يفعلونه بعد أن أطلعوا عليهم **﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾** لئلا يتطرق الناس إليهم، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية، فقال بعضهم: ابنوا عليهم بنياناً يستترهم عن أعين الناس، ثم قال

أي: عسى أن يهديني ربي عند هذا النسيان لشيء آخر بدل هذا المنسي، وأقرب منه رشداً وأدنى منه خيراً ومنفعة، والأول أولى **﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا﴾** قرأ الجمهور بتثني مائة ونصب سنين، فيكون سنين على هذه القراءة بدلاً أو عطف بيان. وقال الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائي: فيه تقديم وتأخير، والتقدير سنين ثلاثمائة، ورجح الأول أبو علي الفارسي. وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين، وعلى هذه القراءة تكون سنين تمييزاً على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله تعالى: **﴿بالأخسرين أعمالاً﴾** [الكهف: 103] قال الفراء: ومن العرب من يضع سنين موضع سنة. قال أبو علي الفارسي: هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الأحاد نحو ثلاثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى المجموع وفي مصحف⁽¹⁾ عبد الله (ثلاثمائة سنة). وقال الأخفش: لا تكاد العرب تقول مائة سنين. وقرأ الضحاك (ثلاثمائة سنون) بالواو. وقرأ الجمهور (تسعا) بكسر التاء. وقرأ أبو عمرو بفتحها، وهذا إخبار من الله سبحانه بمدة لبثهم. قال ابن جرير: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإغثار عليهم، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله نبيه ﷺ أن هذه المدة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمر الله أن يرَدَّ علم ذلك إليه، فقال: **﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾** قال ابن عطية: فقوله على هذا: لبثوا الأول يريد في يوم الكهف، ولبثوا الثاني يريد بعد الإغثار عليهم إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى أن ماتوا. وقال بعضهم: إنه لما قال: **﴿وازدادوا تسعا﴾** لم ير الناس أمي ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام؟ واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله برد العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمة. والأول أولى، لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم بحسب لغتهم أن التسع أعوام، بليل أن العدد في هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للأيام ولا للساعات. وعن الزجاج أن المراد: ثلاثمائة سنة شمسية وثلاثمائة وتسع سنين قمرية، وهذا إنما يكون من الزجاجة على جهة التقريب. ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله: **﴿له غيب السموات والأرض﴾** أي: ما خفي فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شيء، ثم زاد في المبالغة والتأكيد فجاء بما يدل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال: **﴿أبصر به وأسمع﴾** فأكاد هذا التعجب على أن شأنه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين، وأنه يستوي في علمه الغائب والحاضر، والخفي والظاهر، والصغير والكبير، واللطيف والكثيف، وكان أصله ما أبصره وما أسمع، ثم نقل إلى صيغة الأمر للإنشاء، والباء زائدة عند

لقليل من الناس فقال: **﴿وما يعلمهم﴾** أي: يعلم نواتهم فضلاً عن عددهم، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف **﴿إلا قليل﴾** من الناس، ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الجدل مع أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف فقال: **﴿فلا تمار فيهم﴾** المراء في اللغة: الجدل يقال: ماري يماري مماراة ومراء أي: جادل، ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهراً واضحاً فقال: **﴿إلا مراء ظاهراً﴾** أي: غير متعمق فيه وهو أن يقصَّ عليهم ما أوحى الله إليه فحسب. وقال الرازي: هو أن لا يكنهم في تعيين ذلك العدد، بل يقول: هذا التعيين لا دليل عليه، فوجب التوقف، ثم نهى سبحانه عن الاستفتاء في شأنهم فقال: **﴿ولا تستفت فيهم منهم أحدا﴾** أي: لا تستفت في شأنهم من الخائضين فيهم أحداً منهم، لأن المفتي يجب أن يكون أعلم من المستفتي، وما هنا الأمر بالعكس، ولا سيما في واقعة أهل الكهف، وفيما قصَّ الله عليك في ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له **﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا﴾** أي: لأجل شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، فعبر عنه بالغد، ولم يرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولاً أولياً. قال الواحدي: قال المفسرون: «لما سألت اليهود النبي ﷺ عن خبر الفتية فقال: أخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه حتى شقَّ عليه، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله يقول: إذا قلت لشيء: إني فاعل ذلك غداً، فقل: إن شاء الله. وقال الأخفش والمبرد والكسائي والفراء: لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن تقول إن شاء الله، فأضمر القول ولما حذف تقول نقل شاء إلى لفظ الاستقبال، قيل: وهذا الاستثناء مفرغ أي: لا تقولن ذلك في حال من الأحوال، إلا حال ملابسته لمشيئة الله وهو أن تقول إن شاء الله، أو في وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقاً، وقيل: الاستثناء جار مجرى التابيد كأنه قيل: لا تقولنه أبداً كقوله: **﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾** [الأعراف: 89]. لأن عودهم في ملتهم مما لا يشاؤه الله **﴿وانك ربك إذا نسيت﴾** الاستثناء بمشيئة الله أي: فقل إن شاء الله، سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة.

وقد اختلف أهل العلم في المدة التي يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة في مواضعها وقيل: المعنى **﴿وانك ربك﴾** بالاستغفار **﴿إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً﴾** المشار إليه بقوله من هذا هو نبأ أصحاب الكهف أي: قل يا محمد عسى أن يوفقني ربي لشيء أقرب من هذا النبأ من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي. قال الزجاج: عسى أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدنى من قصة أصحاب الكهف، وقد فعل الله به ذلك حيث أتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم ما كان أوضح في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف، وقيل: الإشارة إلى قوله: **﴿وانك ربك إذا نسيت﴾**

(1) لم تثبت هذه القراءة في كتب القراءات، أفاد ذلك العلامة سيدنا حسين هادي القاري، عافاه الله.

والمعنى: إنك إن لم تتبع القرآن وتعمل بأحكامه لن تجد معدلاً تعدل إليه ومكاناً تميل إليه. وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف. ثم شرح سبحانه في نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز فقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ قد تقدم في الأنعام نهيهم ﴿عَنْ طَرْدِ فَقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الأنعام: 52] وأمره سبحانه هنا بأن يحبس نفسه معهم، فصبر النفس هو حبسها، وذكر الغداة والعشي كتابة عن الاستمرار على الدعاء في جميع الأوقات، وقيل: في طرفي النهار، وقيل المراد: صلاة العصر والفجر. وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن وابن عامر (بالغداة) بالواو، واحتجوا بأنها في المصحف كذلك مكتوبة بالواو. قال النحاس: وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكاد العرب تقول: الغداة، ومعنى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: أنهم يريدون بدعائهم رضى الله سبحانه، والجملة في محل نصب على الحال، ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم فقال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تتجاوز عينك إلى غيرهم. قال الفراء: معناه لا تصرف عينك عنهم، وقال الزجاج: لا تصرف بصرك إلى غيرهم من نوي الهيئات والزينة، واستعماله بمن لتضمنه معنى النبؤ، من عدوته عن الأمر أي: صرفته منه، وقيل: معناه لا تحتقرهم عينك ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: مجالسة أهل الشرف والغنى، والجملة في محل نصب على الحال أي: حال كونك مريداً لذلك، هذا إذا كان فاعل تريد هو النبي ﷺ، وإن كان الفاعل ضميراً يعود إلى العينين، فالتقدير: مريدة زينة الحياة الدنيا، وإسناد الإرادة إلى العينين مجاز، وتوحيد الضمير للتلازم كقول الشاعر:

لَمَنْ زَحْلُوقة زَلَّ بِهَا الْعَيْنَانِ تَنْهَلُ
﴿وَلَا تَطْعُ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبِهِ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: جعلناه غافلاً بالختم عليه، نهي رسول الله ﷺ عن طاعة من جعل الله قلبه غافلاً عن ذكره كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحي الفقراء عن مجلسه، فإنهم طلبوا تخيعة الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله، ومع هذا فهم ممن اتبع هواه وأثره على الحق فاختر الشرك على التوحيد ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فَرْطًا﴾ أي: متجاوزاً عن جد الاعتدال، من قولهم: فرس فرط إذا كان متقدماً للخليل فهو على هذا من الإفراط وقيل هو: من التفريط، وهو التقصير والتضييع. قال الزجاج: ومن قدم العجز في أمره أضاعه وأهلكه، ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ ما يقوله لأولئك الغافلين، فقال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي قل لهم: إن ما أوحى إليك وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله، لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير، وقيل: المراد بالحق الصبر مع الفقراء. قال الزجاج: أي الذين اتيتكم به ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: لم آتكم به من قبل نفسي إنما آتيتكم به من الله ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ قيل: هو

يا حكم بن المنذر بن جارد سرائق المجد عليك ممدود وقال الشاعر:

هو المخلخ النعمان بيتاً سماؤه صبور الفيول بعد بيت مسروق
يقوله سلام بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة. وقال ابن الأعرابي: سرائقها سورها. وقال القتيبي: السرائق الحجرة التي تكون حول الفسطاط. والمعنى: أنه أحاط بالكفار سرائق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرائق المحيط بمن فيه ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من حر النار ﴿يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ وهو: الحديد المذاب. قال الزجاج: إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر، وقيل: هو دردي الزيت. وقال أبو عبيدة والآخرش: هو كل ما أتيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس. وقيل: هو ضرب من القطران. ثم وصف هذا الماء الذي يغاثون به بأنه ﴿يَشْوِي لِلْجَوَاهِرِ﴾ إذا قُتِمَ إليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ شرابهم هذا ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مَرْتَفَقًا﴾ متكأ، يقال: ارتفعت أي: اتكأت، وأصل الارتفاق نصب المرفق، ويقال: ارتفق الرجل إذا نام على مرفقه، وقال القتيبي: هو المجلس، وقيل، المجتمع. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذا شروع في وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين، والمعنى: إن الذين آمنوا بالحق الذي أوحى إليك وعملوا الصالحات من الأعمال ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ هذا خبر إن الذين آمنوا، والعائد محذوف أي: من أحسن منهم عملاً، وجملة ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ استئناف لبيان الأجر، والإشارة إلى من تقدم ذكره، وقيل: يجوز أن يكون أولئك خبر إن الذين آمنوا، وتكون جملة ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ﴾ اعتراضاً، ويجوز أن يكون أولئك خبراً بعد خبر، وقد تقدم الكلام في جنات عدن، وفي كيفية جري الأنهار من تحتها ﴿يَحِلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ قال الزجاج: أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، وهي زينة تلبس في الزند من اليد وهي من زينة الملوك، قيل: يحلى كل واحد منهم ثلاثة أسورة: واحد من فضة واحد من لؤلؤ واحد من ذهب، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب، ويمكن أن يكون

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده في قوله: **«وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ»** الآية قال: نزلت في صلاة الصبح وصلاة العصر. وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر، عن الضحّاك، عن ابن عباس في قوله: **«وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا»** قال: نزلت في أمية بن خلف، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صنائيد أهل مكة، فانزل الله هذه الآية، يعني: من ختمنا على قلبه يعني: التوحيد **«وَاتَّبَعَ هَوَاهُ»** يعني الشرك **«وَوَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَا»** يعني: فرطاً في أمر الله وجهالة بالله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ في يوم حار، وعنده سلمان عليه جبة صوف، فصار منه ريح العرق في الصوف، فقال عيينة: يا محمد إذا نحن أتيناك فأخرج هذا وضرباه من عنك لا يؤنينا، فإذا خرجنا فانت وهم أعلم، فانزل الله: **«وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ»** الآية. وقد ثبت في صحيح مسلم في سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية، وهي قوله تعالى: **«وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ»** [الأنعام: 52]، عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: لطرده هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحث نفسه، فانزل الله **«وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ»** [الأنعام: 52] الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«وَوَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَا»** قال: ضياعاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة **«وَقُلْ لِلْحَقِّ»** قال: هو القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: **«فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ»** يقول: من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفر كفر، وهو قوله: **«وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»** [التكوير: 29]. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال في الآية: هذا تهديد ووعيد. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: **«لِحَاطِطِ بِهِمْ سَرَانِقُهُا»** قال: حائط من نار. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن أبي النجيا، وابن جرير، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: **«لسرانق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة»**. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن البحر هو من جهنم، ثم تلا «نَاراً لِحَاطِطِ بِهِمْ سَرَانِقُهُا»**. وأخرج أحمد، والترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البيعت عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله:

قول القائل هذا جمعاً بين الآيات لقوله سبحانه في آية أخرى: **«أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ»** [الإنسان: 21]، ولقوله في آية أخرى: **«وَلَوْلِئْلَآءُ»** [الحج: 23]. و«من» في قوله: **«مَنْ أَسَاوِرَ»** للابتداء، وفي من ذهب للبيان. وحكى الفراء يحلون بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام، يقال: حليت المرأة تحلى فهي حالية إذا لبست الحلي **«وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خَضَرًا مِنْ سَنَدَسٍ وَاسْتَبْرَقٍ»** قال الكسائي: السندس الرقيق واحده سندسة، والإستبرق ما ثخن وكذا قال المفسرون، وقيل: الإستبرق هو الديباج كما قال الشاعر:

وَاسْتَبْرَقَ الدِّبَاجُ طَوْرًا لِبَاسَهَا

وقيل: هو المنسوج بالذهب. قال القتبي: هو فارسي معرب. قال الجوهري: وتصغيره أبيرق، وخَصَّ الأخضر لأنه الموافق للبصر ولكونه أحسن الألوان **«مَتَكْتِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ»** قال الزجاج: الأرائك جمع أريكة، وهي السرر في الحجال، وقيل: هي أسرة من ذهب مكللة بالدرّ والياقوت، وأصل اتكا أوتكا، وأصل متكتئين موتكتئين، والاتكاء التحامل على الشيء **«نَعَمَ الثَّوَابُ»** ذلك الذي أثابهم الله به **«وَحَسَنَتْ»** تلك الأرائك **«مَرْتَفَقًا»** أي متكاً وقد تقدم قريباً.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«مَلْتَحَدًا»** قال: ملتجأ. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عن سلمان قال: «جاءت المؤلفة قلوبهم: عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس قالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغييت عن هؤلاء وأرواح جبابهم، يعنون: سلمان وأبا نر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف، جالسناك وحائنناك وأخذنا عنك، فانزل الله **«وَوَاتِلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ»** إلى قوله: **«إِنَّا اعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ نَارًا»**، زاد أبو الشيخ عن سلمان: «أن رسول الله ﷺ قام يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرهم الله تعالى فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا والممات». وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: «نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته **«وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ»** فخرج يلتمسهم فوجد قومًا يذكرهم الله منهم ثائر الرأس وحاف الجلد وثو الثوب الخلق، فلما رآهم جلس معهم وقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم». وأخرج البزار عن أبي سعيد وأبي هريرة قال: «جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت، فقال رسول الله ﷺ: هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم»، وفي الباب روايات. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن نافع قال: أخبرني عبد الله بن عمر في هذه الآية: **«وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ»** أنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس.

قوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزّز بالندى ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾.

وقد اختلف في الرجلين هل هما مقدّران أو محققان؟ فقال بالأوّل: بعض المفسرين. وقال بالآخر: بعض آخر. واختلفوا في تعيينهما، ف قيل: هما أخوان من بني إسرائيل، وقيل: هما أخوان مخزوميان من أهل مكة: أحدهما مؤمن، والآخر كافر، وقيل: هما المنكوران في سورة الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: 51]. وانتصاب مثلاً ورجلين على أنهما مفعولاً اضرب، قيل: والأوّل هو الثاني والثاني هو الأوّل ﴿جعلنا لأحدهما جنتين﴾ هو الكافر، و ﴿من أعناب﴾ بيان لما في الجنتين أي: من كروم متنوعة ﴿وحققناهما بنخل﴾ الحف الإحاطة، ومنه ﴿حافين من حول العرش﴾ [الزمر: 75] ويقال: حف القوم بفلان يحفون حفاً أي: أطافوا به، فمعنى الآية: وجعلنا النخل مطيافاً بالجنتين من جميع جوانبهما ﴿وجعلنا بينهما زرعاً﴾ أي: بين الجنتين، وهو وسطهما، ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات والفواكه، ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤذي حملها وما فيها، فقال: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ أخبر عن كلتا بآتت، لأن لفظه مفرد، فراعى جانب اللفظ. وقد ذهب البصريون إلى أن كلتا وكلا اسم مفرد غير مثني. وقال الفراء: هو مثني. وهو مأخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية. وقال سيبويه: ألف كلتا للتانيث، والتاء بدل من لام الفعل، وهي واو، والأصل كلوا. وقال أبو عمرو: التاء ملحقة واكلهما هو: ثمرهما، وفيه دلالة على أنه قد صار صالحاً للأكل. وقرأ عبد الله بن مسعود (كل الجنتين آتى أكله) ﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي: لم تنقص من أكلها شيئاً، يقال: ظلمه حقه أي: نقصه، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد في سائر البساتين فإنها في الغالب تكثر في عام، وتقل في عام ﴿وفجرنا خلالها نهراً﴾ أي: أجرنا وشققنا وسط الجنتين نهراً ليسقيهما دائماً من غير انقطاع، وقرأ (فجرنا) بالتشديد للمبالغة، وبالتخفيف على الأصل ﴿وكان له﴾ أي: لصاحب الجنتين ﴿ثمر﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق (ثمر) بفتح التاء والميم. وكذلك قرعوا في قوله: ﴿أحيط بثمره﴾ وقرأ أبو عمرو بضم التاء وإسكان الميم فيهما، وقرأ الباقر بضمهما جميعاً في الموضعين. قال الجوهري: الثمرة واحدة الثمر، وجمع الثمر ثمار مثل جبل وجبال. قال الفراء: وجمع الثمار ثمر، مثل كتاب وكتب، وجمع الثمر أثمار، مثل عنق وأعناق، وقيل: الثمر جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك، وقيل: هو الذهب والفضة خالصة ﴿فقال لصاحبه﴾ أي: قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن ﴿وهو يحاوره﴾ أي: والكافر يحاور المؤمن، والمعنى: يراجعه الكلام ويجاوبه، والمحاورة المراجعة، والتحاوّر التجاوب

﴿بماء كالمهل﴾ قال: «كعكر الزيت، فإذا قرّب إليه سقطت فروة وجهه فيه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كالمهل﴾ قال: أسود كعكر الزيت. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطية قال: سئل ابن عباس عن المهل فقال: ماء غليظ كدردي الزيت. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود: أنه سئل عن المهل، فذهب بذهب وفضة فأنابه، فلما ذاب قال: هذا أشبه شيء بالمهل الذي هو شراب أهل النار ولونه لون السماء، غير أن شراب أهل النار أشدّ حرّاً من هذا. وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: هل تدرون ما المهل؟ المهل سهل الزيت، يعني: آخره. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وساءت مرتفعاً﴾ قال: مجتمعاً. وأخرج البخاري، ومسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». وأخرج البيهقي عن أبي الخير مرثد بن عبد الله قال: في الجنة شجرة تثبت السنس منه يكون ثياب أهل الجنة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن عكرمة قال: الإستبرق الديباج الغليظ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطاشي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحوّل منه ولا يمله، يأتيه ما اشتتهت نفسه ولذت عينه». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأرائك السرر في جوف الحجال عليها الفرش منضود في السماء فرسخ. وأخرج البيهقي في البعث عنه قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عكرمة، أنه سئل عن الأرائك فقال: هي الحجال على السرر.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ ﴿وَكَانَ لَمْ يَمُرَّ فَقَالَ لَصَنِيعِهِ وَهُوَ مُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن يَبْدُ لِي هَؤُلَاءِ أَبَدًا﴾ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿قَالَ لَمْ يَصْلِهِمْ وَهُوَ مُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ ﴿لَيْكَأَنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَبُّنًا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا رَبِّي نَذَرْتُ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَرَمَيْتَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتَصَيِّحُ صَيْحًا زَلًّا﴾ ﴿أَوْ يَصْيحُ مَاؤُهَا غَرًّا فَإِنْ تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلِبْنَا﴾ ﴿وَأَحِيطَ بِخَبْرِهِ فَأَصْبَحَ يَبْكُ كَبْكَةً عَلَى مَا أَتَقَفَ فِيهَا وَهُوَ خَائِبٌ عَلَى عُرُوشِهِ وَيَقُولُ يَا بَنِيَّ لَرَأَيْتُمْ لَوَ تَأْتِيكُمْ بِرَبِّ أَحَدًا﴾ ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فَنَدَّ بِضُرٍّ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ﴿هَٰذَاكَ الْوَكِيلَ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾

لأنها قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضاً، قال: وفي قراءة أبي (لكن أنا هو الله ربي) وقرأ ابن عامر والمثنى عن نافع، وورش عن يعقوب (لكننا) في حال الوصل والوقف معاً بإثبات الألف، ومثله قول الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفوني فإني قد تدرت السناما

ومنه قول الأعشى:

فكيف أنا والحن القوافي وبعد الشيب يكفي ذاك عارا

ولا خلاف في إثباتها في الوقف، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وأبو العالية، وروي عن الكسائي (لكن هو الله ربي) ثم نفى عن نفسه الشرك بالله، فقال: ﴿ولا أشرك بربي أحداً﴾ وفيه إشارة إلى أن أخاه كان مشركاً، ثم أقبل عليه يلومه فقال: ﴿ولولا إذ بخلت جنتك قلت ما شاء الله﴾ لولا للتحضيض أي: هلاً قلت عنما بخلتها هذا القول. قال الفراء والزجاج: ما في موضع رفع على معنى الأمر ما شاء الله أي: هلاً قلت حين دخلتها الأمر بمشيئة الله، وما شاء الله كان، ويجوز أن تكون ما مبتدأ والخبر مقدر أي: ما شاء الله كائن، ويجوز أن تكون ما شرطية والجواب محذوف أي: أي شيء شاء الله كان ﴿لا قوة إلا بالله﴾ أي: هلاً قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، تحضيضاً له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله، إن شاء أبقاهما وإن شاء أبقاها، وعلى الاعتراف بالمعجز، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوة وقدرته. قال الزجاج: لا يقوى أحد على ما في يده من ملك ونعمة إلا بالله، ولا يكون إلا ما شاء الله. ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال: ﴿إن ترني لنا أقل منك مالا وولداً﴾ المفعول الأول ياء الضمير، وأنا ضمير فصل، وأقل المفعول الثاني للرؤية إن كانت علمية، وإن جعلت بصرية كان انتصاب أقل على الحال، ويجوز أن يكون أنا تأكيد لياء الضمير، وانتصاب مالا وولداً على التمييز ﴿فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ هذا جواب الشرط أي: إن ترني أفقر منك، فإنا أرجو أن يرزقني الله سبحانه جنة خيراً من جنتك في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ﴿ويرسل عليها حساباً﴾ أي: ويرسل على جنتك حساباً، والحسبان مصدر، بمعنى الحساب كالغفران أي: مقدراً قدره الله عليها، ووقع في حسابها سبحانه، وهو الحكم بتخريبها. قال الزجاج: الحسبان من الحساب أي: يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما كسبت يدك. وقال الأخفش: حساباً أي: مرامي ﴿من السماء﴾ واحداً حسباناً، وكذا قال أبو عبيدة والقتيبي. وقال ابن الأعرابي: الحسبان السحابة، والحسبانة الوسادة، والحسبانة الصاعقة، وقال النضر بن شميل: الحسبان سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبه تنزع في قوس، ثم يرمي بعشرين منها دفعة، والمعنى: يرسل عليها مرامي من عذابه: إما برد، وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب. ومنه قول أبي زياد الكلابي:

﴿إنا أكثر منك مالا وأعز نفراً﴾ النفر الرهط، وهو ما دون العشرة، وأراد ما هنا الاتباع والخدم والأولاد ﴿ويضل جنته﴾ أي: دخل الكافر جنة نفسه. قال المفسرون: أخذ بيد أخيه المسلم، فأنخله جنته يطوف به فيها، ويريه عجائبها، وإفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منهما، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة، أو لأنه أدخله في واحدة، ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما. وما أبعد ما قاله صاحب الكشاف: أنه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنين، وجملة ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ في محل نصب على الحال أي: وذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره وعجبه ﴿قال ما أظن أن تتبد هذه أبداً﴾ أي: قال الكافر لفرط غفلته وطول أمه: ما أظن أن تفنى هذه الجنة التي تشاهدنا ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته. قال الزجاج: أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ اللام هي الموطنة للقسم، والمعنى: أنه إن يرد إلى ربه فرضاً وتقديراً كما زعم صاحبه، واللام في ﴿لأجدن﴾ جواب القسم، والشرط أي: لأجدن يومئذ خيراً من هذه الجنة، في مصاحف مكة والمدينة والشام (خيراً منهما) وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة (خيراً منها) على الأفراد، و ﴿منقلباً﴾ منتصب على التمييز أي: مرجعاً وعاقبة قال هذا قياساً للغائب على الحاضر، وأنه لما كان غنياً في الدنيا، سيكون غنياً في الآخرة، اغتراراً منه بما صار فيه من الغنى الذي هو استدراج له من الله ﴿قال له صاحبه﴾ أي: قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له منكرراً عليه ما قاله ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب﴾ بقولك ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ وقال خلقك: من تراب أي: جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق أباك آدم منه، وهو أصلك، وأصل البشر لكل فرد حظ من ذلك، وقيل: يحتمل أنه كان كافراً بالله فأنكر عليه ما هو عليه من الكفر، ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة ﴿ثم من نطفة﴾ وهي المادة القرية ﴿ثم سواك رجلاً﴾ أي: صيرك إنساناً نكراً وعُدل أعضائك وكملك، وفي هذا تلويح بالدليل على البعث، وأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة، وانتصاب رجلاً على الحال أو التمييز ﴿لكننا هو الله ربي﴾ كذا قرأ الجمهور بإثبات الألف بعد لكن المشددة. وأصله لكن أنا حذفت الهمزة والقيت حركتها على النون الساكنة قبلها فصار لكننا، ثم استثقلوا اجتماع النونين فسكنت الأولى وادغمت الثانية، وضمير هو للشان، والجملة بعده خبره والمجموع خبر أنا، والراجع ياء الضمير، وتقدير الكلام: لكن أنا الشان الله ربي. قال أهل العربية: إثبات ألف أنا في الوصل ضعيف. قال النحاس: مذهب الكسائي والفراء والمازني أن الأصل لكن أنا، وذكر نحو ما قدمنا. وروي عن الكسائي أن الأصل لكن الله هو ربي أنا. قال الزجاج: إثبات الألف في لكننا في الإدراج جيد

أصاب الأرض حسبان

أي: جراد ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾ أي: فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسباناً صعيداً أي: أرضاً لا نبات بها وقد تقدم تحقيقه، زلقاً أي: تزل فيها الأقدام لملاستها، يقال: مكان زلق بالتحريك أي: نحض، وهو في الأصل مصدر قولك زلقت رجله تزلق زلقاً وإزلقها غيره، والمزلفة الموضع الذي لا يثبت عليه قدم، وكذا الزلاقة، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة، أو أريد به المفعول، وجملة ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها والغور: الغائر. وصف الماء بالمصدر مبالغة، والمعنى: أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائماً، ويجيء الغور بمعنى: الغروب، ومنه قول أبي نؤيب:

هل الدهر إلا ليلة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيرها

﴿فلن تستطيع له طلباً﴾ أي: لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلاً عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل، وقيل: المعنى فلن تستطيع طلب غيره عوضاً عنه. ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر فقال: ﴿وأحيط بثمره﴾ قد قمنا اختلاف القراء في هذا الحرف وتفسيره، وأصل الإحاطة من إحاطة العدو بالشخص كما تقدم في قوله: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ [يوسف: 66]، وهي عبارة عن إهلاكه وإفناؤه، وهو معطوف على مقدر كأنه قيل: فوقع ما توقعه المؤمن وأحيط بثمره ﴿فأصبح يقلب كفيه﴾ أي: يضرب إحدى يديه على الأخرى وهو كناية عن الندم، كأنه قيل: فأصبح يندم ﴿على ما أنفق فيها﴾ أي: في عمارتها وإصلاحها من الأموال، وقيل: المعنى يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق، لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم في يده مال، وهو بعيد جداً، وجملة ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائهم التي تعتمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض، مأخوذ من خوت النجوم تخوى إذا سقطت ولم تمطر في نواتها، ومنه قوله تعالى: ﴿فذلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ [النمل: 52] قيل: وتخصيص ماله عروش بالذكر لكون النخل والزرع لأنه الأصل، وأيضاً إهلاكها مغن عن نكر إهلاك الباقي، وجملة ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ معطوفة على يقلب كفيه، أو حال من ضميره أي: وهو يقول تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك، أو كان هذا القول منه على حقيقته، لا لما فاتته من الغرض الدنيوي، بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله﴾ فئة اسم كان وله خبرها، وينصرونه صفة لفئة أي: فئة ناصرة، ويجوز أن تكون ينصرونه الخبر، ورجح الأول سببويه ورجح الثاني المبرز، واحتج بقوله: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ [الإخلاص: 4] والمعنى: أنه لم تكن له فرقة

وجماعة يلتجئ إليها وينتصر بها، ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق ﴿وما كان﴾ في نفسه ﴿ممتصراً﴾ أي: ممتنعاً بقوته عن إهلاك الله لجنته، وانتقامه منه ﴿هنالك للولاية لله الحق﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي الحق بالرفع نعتاً للولاية، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وعاصم وحمزة الحق بالجر نعتاً لله سبحانه. قال الزجاج: ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول هذا لك حقاً، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي الولاية بكسر الواو، وقرأ الباقر بفتحها، وهما لغتان بمعنى، والمعنى هنالك أي: في ذلك المقام النصر لله وحده لا يقدر عليها غيره، وقيل: هو على التقديم والتأخير أي: الولاية لله الحق هنالك ﴿هو خير ثواباً وخير عقاباً﴾ أي: هو سبحانه خير ثواباً لأوليائه في الدنيا والآخرة ﴿وخير عقاباً﴾ أي: عاقبة، قرأ الأعمش وعاصم وحمزة (عقياً) يسكنون القاف، وقرأ الباقر بضمها، وهما بمعنى واحد أي: هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به، يقال: هذا عاقبة أمر فلان، وعقابه: أي أخراه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿جعلنا لأحدهما جنتين﴾ قال: الجنة هي البستان، فكان له بستان واحد وجدار واحد، وكان بينهما نهر، فلذلك كانا جنتين، ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذي عليها. وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال: نهر أبي قرطس نهر الجنتين. قال ابن أبي حاتم: وهو نهر مشهور بالرملة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ قال: لم تنقص، كل شجر الجنة أطعم. وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عنه ﴿وكان له ثمر﴾ يقول: مال. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة: قال: قرأها ابن عباس ﴿وكان له ثمر﴾ بالضم، وقال: هي أنواع المال. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وكان له ثمر﴾ قال: ذهب وفضة. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ يقول: كفور لنعمة ربه. وأخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قالت: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب: «الله الله ربي لا أشرك به شيئاً». وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن يحيى بن سليم الطائفي عن ذكره قال: «طلب موسى من ربه حاجة فابطأت عليه فقال: ما شاء الله، فإذا حاجته بين يديه، فقال: يا رب إنني أطلب حاجتي منذ كذا وكذا أعطيتها الآن، فأوحى الله إليه: يا موسى، أما علمت أن قولك ما شاء الله أنجح ما طلبت به الحوائج». وأخرج أبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أتم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته، وقرأ: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾»، وفي إسناده عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس. قال أبو الفتح الأزدي:

كانوا يفتخرون بالمال والغنى والابناء فاخبرهم سبحانه أن ذلك مما يتزين به في الدنيا لا مما ينفع في الآخرة، كما قال في الآية الأخرى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: 15]. وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: 14]. ولهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي: أعمال الخير، وهي ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ثواباً، وأكثر عائدة ومنفعة لاهلها ﴿وَأَخَيْرُ أَمْثَلًا﴾ أي أفضل أملاً، يعني: أن هذه الأعمال الصالحة لاهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين، لأنهم يتأولون بها في الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا، وليس في زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة، ولكن هذا التفضيل خرج مخرج قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: 24]. والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبهذا تعرف أن تفسير الباقيات الصالحات في الأحاديث بما سيأتي لا ينافي إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ﴾ حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد جمعهما الله لأقوام. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هن؟ يا رسول الله؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله»، وأخرج الطبراني وابن شاهين وابن مردويه عن أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ: «سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هن الباقيات الصالحات». وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الصغير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً: «خذوا جنتكم، قيل: يا رسول الله من أي عمل قد حضر؟ قال: بل جنتكم من النار قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنيات، وهي الباقيات الصالحات». وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وابن مردويه عن النعمان بن بشير، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا وإن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله الباقيات الصالحات». وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أنس مرفوعاً، وزاد التكبير وسماه من الباقيات الصالحات. وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أبي

عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس لا يصح حديثه. وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن أنس نحوه موقوفاً. وأخرج البيهقي في الشعب عنه نحوه مرفوعاً. وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال لي نبي الله ﷺ: «ألا أنك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قلت: نعم، قال: أن تقول لا قوة إلا بالله». وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى، أن النبي ﷺ قال له: «ألا أنك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»، وقد وردت أحاديث وأثار عن السلف في فضل هذه الكلمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ قال: مثل الجز. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿حَسْبَانَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال: عذاباً فتصبح صعيداً زلقاً أي: قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شيء ﴿وَأَوْ يَصْبِحُ مَاؤُهَا غُورًا﴾ أي: ذاهباً قد غار في الأرض ﴿وَوَلَحِيظٌ بَثْمُهُ فَاصِبٌ يَقْلِبُ كَفِيهِ﴾ قال: يصفق ﴿عَلَى مَا اتَّفَقَ فِيهَا﴾ متلفهاً على ما فاته.

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَرْزَلْتَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿أَلَمْ أَلْأَمْ وَالْأَنسُونَ زِينَةَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرُ أَمَلًا﴾

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر لجبابرة قريش فقال: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: أنكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في حسناتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا إليها، وقد تقدم هذا المثل في سورة يونس، ثم بين سبحانه هذا المثل فقال: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ويجوز أن يكون هذا هو المفعول الثاني لقوله اضرب على جعله بمعنى: صير ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى، وقيل: المعنى إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء، لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر، فتكون الباء في به سببية ﴿فَأَصْبَحَ﴾ النبات ﴿هَشِيمًا﴾ الهشيم الكسير، وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وتفتت، ورجل هشيم ضعيف البدن، وتهشم عليه فلان إذا تعطف. واهتشم ما في ضرع الناقة إذا احتلبه، وهشم الثريد كسره وثرده، ومنه قول ابن الزبيري: عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنون عجاج ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ تفرقه. قال أبو عبيدة وابن قتيبة: تذروه تنسفه. وقال ابن كيسان: تذهب به وتجيء، والمعنى متقارب. وقرا طلحة بن مصرف (تذرية الريح) قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله (تذرية) يقال: ذرته الريح تذروه، وأذرته تذرية. وحكى الفراء: أذريت الرجل عن فرسه أي: قلبته ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ أي: على كل شيء من الأشياء يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هذا رد على الرؤساء الذين

لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح للرؤية، ومعنى بروزها. ظهورها وزوال ما يستترها من الجبال والشجر والبنيان، وقيل المعنى ببروزها: بروز ما فيها من الكنوز والأموال كما قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الإنشاق: 4]، وقال: ﴿وَأَخْرَجْتَ الْأَرْضَ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2]، فيكون المعنى: وترى الأرض بارزة ما في جوفها ﴿وَوَحْشَرْنَاهُمْ﴾ أي: الخلائق، ومعنى الحشر الجمع أي: جمعناهم إلى الموقف من كل مكان ﴿فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فلم نترك منهم أحداً، يقال: غادره وأغدره إذا تركه، قال عنترة:

غادرته متغفراً أوصله والقوم بين مجرّ ومجنّدل
أي: تركته، ومنه الغدر، لأن الغادر ترك الوفاء للمغدور، قالوا: وإنما سمي الغدير غديراً لأن الماء ذهب وتركه، ومنه غداثر المرأة لأنها تجعلها خلفها ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ انتصاب صفّاً على الحال أي: مصفوفين كل أمة وزمرة صف، وقيل: عرضوا صفّاً واحداً كما في قوله: ﴿ثُمَّ اثْنُوا صَفًّا﴾ [طه: 64] أي جميعاً، وقيل: قياماً، وفي الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذي يعرض على السلطان ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هو على إضمار القول أي: قلنا لهم لقد جئتمونا، والكاف في كما خلقناكم نعت مصدر محذوف أي: مجيئاً كأننا كمجيئكم عند أن خلقناكم أول مرة، أو كائنين كما خلقناكم أول مرة أي: حفاة عراة غلّا، كما ورد ذلك في الحديث. قال الزجاج أي: بعثناكم وأعدناكم كما خلقناكم، لأن قوله لقد جئتمونا معناه: بعثناكم ﴿يَبْلُغْ زَعْمَتُنَا أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ هذا إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتقريع والتوبيخ، وهو خطاب لمنكري البعث أي: زعمتم في الدنيا أن لن تبعثوا، وأن لن نجعل لكم موعداً نجازيكم بأعمالكم وننجز ما وعداكم به من البعث والعذاب، وجملة ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ﴾ معطوفة على عرضوا، والمراد بالكتاب: صحائف الأعمال، وأفرده لكون التعريف فيه للجنس، والوضع إما حسي بأن يوضع صحيفة كل واحد في يده: السعيد في يمينه، والشقي في شماله، أو في الميزان. وإما عقلي أي: أظهر عمل كل واحد من خير وشرّ بالحساب الكائن في ذلك اليوم ﴿فَقَرَى الْمَجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: خائفين وجلين مما في الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع. والمجازاة بالعذاب الأليم ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم في الهلاك، ومعنى هذا النداء قد تقدّم تحقيقه في المائدة ﴿يَمَالُ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: أي شيء له لا يترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها وأثبتها ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة، أو وجدوا جزاء ما عملوا ﴿حَاضِرًا﴾ مكتوباً مثبتاً ﴿وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: لا يعاقب أحداً من عباده بغير نيب، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذي يستحقه، ثم إنه سبحانه عاد إلى الردّ على أرباب الخيلاء من

هريرة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن مردويه من حديث عائشة مرفوعاً نحوه، وزالت: «ولا حول ولا قوة إلا بالله». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من حديث عليّ مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً فذكر نحوه بون الحوقلة. وأخرج الطبراني عن سعد بن جندة مرفوعاً نحوه. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن جرير عن ابن عمر من قوله نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس من قوله نحوه. وكل هذه الأحاديث مصدحة بأنها الباقيات الصالحات، وأما ما ورد في فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة في الآية فأحاديث كثيرة لا فائدة في ذكرها هنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كل شيء من طاعة الله، فهو من الباقيات الصالحات.

وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ دُورَى الْأَرْضِ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٥٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَحْمِلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٥٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ قَرَى الْمَجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلِنَا مَاذَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدِي لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ لِلظَّالِمِينَ كَدًّا ﴿٦٠﴾ مَّا أَشْهَدْتُمُ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُنْذِرِينَ الْمُنِذِرِينَ عَصَا ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا مُرْكَاؤِي الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَذَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٦٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِدُوهَا وَلَمْ يَحْدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٦٣﴾

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ﴾ قرأ الحسن وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير بمثناة فوقية مضمومة وفتح الياء التحتية على البناء للمفعول، ورفع الجبال على النيابة عن الفاعل. وقرأ ابن محيصن ومجاهد (تسير) بفتح التاء الفوقية والتخفيف على أن الجبال فاعل. وقرأ الباقون (نسير) بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه والجبال منصوبة على المفعولية، ويناسب القراءة الأولى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سِيرَتْ﴾ [التكوير: 3]، ويناسب القراءة الثانية قوله تعالى: ﴿وتسير الجبال سيرا﴾ [الطور: 10]، واختار القراءة الثالثة أبو عبيدة لأنها المناسبة لقوله: ﴿وَوَحْشَرْنَاهُمْ﴾ قال بعض النحويين: التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نُسِرَّ الجبال، وقيل: العامل في الظرف فعل محذوف، والتقدير: وإنك يوم نُسِرَّ الجبال، ومعنى تسير الجبال: إزالتها من أماكنها وتسييرها كما تسير السحاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وهي تمرّ مرّ السحاب﴾ [النمل: 88]، ثم تعود إلى الأرض بعد أن جعلها الله كما قال: ﴿وَيُسَبِّحُ الْجِبَالُ بِسَاءٍ﴾ فكانت هباءً منبثاً [الواقعة: 5 - 6]. والخطاب في قوله: ﴿وترى الأرض بارزة﴾ [الكهف: 47]

﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ [القصص: 35] أي: سنعينك ونقويك به، ويقال: أعضدت يفلان إذا استعنت به، ونكر العضد على جهة المثل، وخَصَّ المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ. والمعنى: ما استعنت على خلق السموات والأرض بهم ولا شاورتهم وما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعواناً، ووجد العضد لموافقة الفواصل، وقرأ أبو جعفر الجندري (وما كنت) بفتح اللام على أن الخطاب للنبي ﷺ أي: وما كنت يا محمد متخذاً لهم عضداً ولا صح لك ذلك، وقرأ الباقر بن بضم اللام. وفي عضد لغات ثمان أقصحتها فتح العين وضم الضاد، وبها قرأ الجمهور. وقرأ الحسن «عضد» بضم العين والضاد. وقرأ عكرمة بضم العين وإسكان الضاد، وقرأ الضحاک بكسر العين وفتح الضاد، وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما، ولغة تميم فتح العين وسكون الضاد. ثم عاد سبحانه إلى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال: ﴿ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ قرأ حمزة ويحيى بن وثاب وعيسى بن عمر نقول بالنون، وقرأ الباقر بالياء التحتية أي: أنكر يوم يقول الله عز وجل للكفار توبيحاً لهم وتقريعاً نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم، وأضافهم سبحانه إلى نفسه جرياً على ما يعتقده المشركون، تعالى الله عن ذلك ﴿فدعوههم﴾ أي: فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ إذ ذاك أي: لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم، فضلاً عن أن ينفعهم أو ينفعوا عنهم ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ أي: جعلنا بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله موبقاً، نكر جماعة من المفسرين أنه اسم وإن عميق فرق الله به تعالى بينهم، وعلى هذا فهو اسم مكان. قال ابن الأعرابي: كل حاجز بين شيئين فهو موبق. وقال الفراء: الموبق المهلك. والمعنى: جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكاً لهم في الآخرة، يقال: وبق يوبق فهو وبق. هكذا نكره الفراء في المصادر. وحكى الكسائي وبق يبق وبوقاً فهو وباق، والمراد بالمهلك على هذا: هو عذاب النار يشتركون فيه. والأول أولى، لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء لله الملائكة وعزير والمسيح، فالموبق هو المكان الحائل بينهم. وقال أبو عبيدة: الموبق هنا الموعد للمهلك، وقد ثبت في اللغة أوبقه بمعنى: أهلكه، ومنه قول زهير:

ومن يشترى حسن الثناء بماله يصن عرضه عن كل شناعة موبق
ولكن المناسب لمعنى الآية: هو المعنى الأول ﴿ووراء للمجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ المجرمون موضوع موضع الضمير للإشارة إلى زيادة الذم لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به، والظن هنا بمعنى اليقين. والمواقعة المخالطة بالوقوع فيها، وقيل: إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظناً ﴿ولم يحسبوا أنها مصراً﴾ أي: معدلاً يعملون إليه، أو انصرافاً، لأن النار قد لاحظت بهم من كل جانب. قال الواحدي: المصرف الموضع الذي ينصرف إليه. وقال القتيبي: أي معدلاً ينصرفون إليه،

قريش، فنكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه فقال: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ أي: وأنكر وقت قولنا لهم اسجدوا سجود تحية وتكريم، كما مرَّ تحقيقه ﴿فسجدوا﴾ طاعة لأمر الله وامتنالاً لطلبه السجود ﴿إلا إبليس﴾ فإنه أبى واستكبر ولم يسجد، وجملة ﴿كان من الجن﴾ مستأنفة لبيان سبب عصيانه وأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة فلهذا عصي. ومعنى ﴿ففسق عن أمر ربه﴾: أنه خرج عن طاعة ربه. قال الفراء: العرب تقول فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه. قال النحاس: اختلف في معنى ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ على قولين: الأول مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى: آثاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه، كما تقول: أطعمه عن جوع. والقول الآخر قول قطرب: أن المعنى على حذف المضاف أي: فسق عن ترك أمره. ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس في الكفر والمعاصي وخالف أمر الله فقال: ﴿افتتخونه وذريته أولياء﴾ كأنه قال: أعقبت ما وجد منه من الإباء والفسق تتخونه وتتخذون ذريته أي: أولاده؛ وقيل: أتباعه مجازاً أولياء ﴿من نوني﴾ فتطيعونهم بدل طاعتي وتستبدلونهم بي، والحال أنهم أي: إبليس وذريته ﴿لكم عدو﴾ أي: أعداء وأقرده لكونه اسم جنس، أو لتشبيهه بالمصادر كما في قوله: ﴿فإنهم عدو لي﴾ [الشعراء: 77]. وقوله: ﴿هم العدو﴾ [المنافقون: 4] أي: كيف تصنعون هذا الصنع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم؟ بمن لم يكن لكم منه منفعة قط، بل هو عدو لكم يتربص حصول ما يضركم في كل وقت ﴿يئس للظالمين بدلاً﴾ أي: الواضعين للشيء في غير موضعه المستبدلين بطاعة ربه طاعة الشيطان، فيئس ذلك البذل الذي استبدلوه بدلاً عن الله سبحانه ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ قال أكثر المفسرون: إن الضمير للشركاء، والمعنى: أنهم لو كانوا شركاء لي في خلق السموات والأرض وفي خلق أنفسهم لكانوا مشاهدين خلق ذلك مشاركين لي فيه، ولم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لي بشركاء. وهذا استدلال بانتفاء الملزوم المساوي على انتفاء اللازم، وقيل: الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين، والمراد: أنهم ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم ببليل أنني ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴿ولا خلق أنفسهم﴾ وما اعتضت بهم بل هم كسائر الخلق، وقيل: المعنى أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم في الأزل، لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله، والأول من هذه الوجوه أولى لما يلزم في الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين، وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور، وقرأ أبو جعفر (ما أشهدناهم) وقرأ الباقر (ما أشهدتهم) ويؤيده ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ والعضد يستعمل كثيراً في معنى العون، وذلك أن العضد قوام اليد، ومنه قوله:

وقيل: ملجأ يلجأون إليه. والمعنى متقارب في الجميع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال: ليس عليها بناء ولا شجر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قال: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك. وزاد ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم عنه قال: الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة القهقهة بذلك. وأقول: صغيرة وكبيرة نكرتان في سياق النفي، فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بصغر، وكل ذنب يتصف بالكبر، فلا يبقى من الذنوب شيء إلا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبساً بين كونه صغيراً أو كبيراً، فذلك إنما هو بالنسبة إلى العباد لا بالنسبة إلى الله سبحانه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة يقال لهم: الجن فكان إبليس منهم، وكان يوسوس ما بين السماء والأرض، فعصى فسخط الله عليه فمسخه الله شيطاناً رجيماً. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال: كان خازن الجنان، فسمي بالجن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: قاتل الله أقواماً زعموا أن إبليس كان من الملائكة، والله يقول: كان من الجن. وأخرج ابن جرير، وابن الأنباري عنه أنه قال: ما كان من الملائكة طرفة عين، إنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: يقول: ما أشهدت الشياطين الذين اتخذتم معي هذا ﴿وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قال: الشياطين عضداً، قال: ولا اتخذتهم عضداً على شيء عضدوني عليه فاعانوني. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ يقول: مهلكاً. وأخرج ابن أبي شيبه وابن المنذر عن مجاهد مثله. وأخرج أبو عبيد، وهناد، وابن المنذر عنه قال: وإي في جهنم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن أنس في الآية قال: وإي في جهنم من قبيح ودم. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عمرو قال: هو وإي عميق في النار فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة، وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿فَقُتِلُوا أَنَّهُمْ مَوَاقِعُهُمْ﴾ قال: علموا.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا ﴿٢٠﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ بَغْلاً ﴿٢١﴾ وَمَا تُرِيدُ الْمَلَائِكَةُ

إِلَّا مَبْرُورِينَ وَمُذْهِبِينَ وَجَدُولَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ يُدْخِلُهُمْ فِي النَّارِ وَأَخَذُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ هُتِفُوا ﴿٢٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَجَلَّ لَحْمُ الْعَذَابِ لَنْ لَّهُمْ مَوْعِدٌ أَنْ يَهْتَدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَلْقَيْنَا آيَاتِنَا عَلَى الْفِرْعَوْنَ فَكَفَرَ بِالْبَاطِلِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٥﴾

لما نكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائيرهم، وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة، حكى بعض أموال الآخرة فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا أَي: كَرَّرْنَا وَرَبَّنَا﴾ ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾ أي لاجلهم ولرعاية مصالحهم ومنفعتهم ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من الأمثال التي من جملتها الأمثال المذكورة في هذه السورة، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة بني إسرائيل، وحين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدل بالباطل، ختم الآية بقوله ﴿وَكُنَّا الْإِنْسَانَ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ قال الزجاج: المراد بالإنسان الكافر، واستدل على أن المراد الكافر بقوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ وقيل المراد به في الآية: النضر بن الحارث، والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل جدلاً، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث علي: «أن النبي ﷺ طرقه وقاطمة ليلاً، فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فأنصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكُنَّا الْإِنْسَانَ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، وانتصاب جدلاً على التمييز. ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ قد تقدّم الكلام على مثل هذا في سورة بني إسرائيل، ونكرنا أنَّ (أن) الأولى في محل نصب، والثانية في محل رفع، والهدى: القرآن ومحمد ﷺ، والناس هنا هم أهل مكة، والمعنى على حذف مضاف أي: ما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلب إتيان سنة الأولين، أو انتظار إتيان سنة الأولين، وزاد الاستغفار في هذه السورة لأنه قد نكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التي من جملتها جدالهم بالباطل، وسنة الأولين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال. قال الزجاج: سنّتهم هو قولهم: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: 32] الآية ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿فَقِيلًا﴾ قال الفراء: إن قبلاً جمع قبيل أي: متفرقاً يتلو بعضه بعضاً، وقيل: عياناً، وقيل: فجأة. ويناسب ما قاله الفراء قراءة أبي جعفر وعاصم والأعمش وحزمة والكسائي ويحيى بن وثاب وخلف ﴿فَقِيلًا﴾ بضمين فإنه جمع قبيل، نحو سبيل وسيل، والمراد: أصناف العذاب، ويناسب التفسير الثاني أي: عياناً،

﴿وجعلنا لمهلكم موعداً﴾ أي: وقتاً معيناً، وقرأ عاصم⁽¹⁾ مهلكهم بفتح الميم واللام، وهو مصدر هلك، وأجاز الكسائي والفراء كسر اللام وفتح الميم، وبذلك قرأ حفص، وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام. وقال الزجاج مهلك: اسم للزمان، والتقدير: لوقت مهلكهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ قال: عقوبة الأولين. وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش في قوله: ﴿قبلاً﴾ قال: جهاراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: فجأة. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وونسي ما قممت يدها﴾ قال: نسي ما سلف من الذنوب الكثيرة. وأخرج أيضاً عن ابن عباس ﴿يما كسبوا﴾ يقول: بما عملوا. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿يل لهم موعد﴾ قال: الموعد يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿موثلاً﴾ قال: ملجأ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿موثلاً﴾ قال: محرراً.

وَلَا قَالَتْ مُوسَى يَقْنَنُ لَا أَنْبَحُ حَتَّىٰ أَنْبَغَ مَجْمَعُ الْيَحْرَنِيِّ أَوْ
أَمْنِي حَقًّا ﴿١٦﴾ لَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسَاءَ خُزَيْمَةَ وَأَخَذَ سَيِّدُهَا الْيَحْرَنِيُّ
مَرْكًا ﴿١٧﴾ فَلَمَّا جَارَا قَالَ يَقْنَنُ إِنِّي أَخَذْتُهَا لَقَدْ لَيْسَ مِنِّي سَرِيرًا هَذَا نَسَاءُ
﴿١٨﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الْخَصْرَةِ فَإِنِّي نَبِيتُ الْخَوَاتِمَ وَمَا أَكْنِيئُهُ إِلَّا
الْقَيْطَلُنَ أَنِ أَذْكُرْ وَأَخَذَ سَيِّدُهَا فِي الْيَحْرَنِيِّ حَبًّا ﴿١٩﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ
فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٢٠﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ
عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٢١﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تَغْلِبَنِي وَمَا
كُنْتُ بِكَ رُشْدًا ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْلُطَنِي مَعِيَ سَبْرًا ﴿٢٣﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ
يَحُطْ بِهِ خَيْرٌ ﴿٢٤﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٢٥﴾
قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢٦﴾

الظرف في قوله: ﴿وإن قال﴾ متعلق بفعل محذوف هو انكر. قيل: وجه ذكر هذه القصة في هذه السورة: أن اليهود لما سألوا النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا: إن أخبركم فهو نبي وإلا فلا. ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيهاً على أن النبي لا يلزمه أن يكون عالماً بجميع القصص والأخبار. وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى بن عمران النبي المرسل إلى فرعون، وقالت فرقة: لا التفات إلى ما تقوله منهم نوف البكالي: إنه ليس ابن عمران، وإنما هو موسى بن ميثي بن يوسف بن يعقوب، وكان نبياً قبل موسى بن عمران، وهذا باطل قد رده السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم كما في صحيح البخاري وغيره، والمراد بفتاه هنا هو: يوشع بن نون. قال الواحدي:

قراءة الباقي بكسر القاف وفتح الباء أي: مقابلة ومعانية، وقرئ بفتححتين على معنى أو يأتيهم العذاب مستقبلاً، وانتصابه على الحال. فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستاصل لهم، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معانيته ﴿وما نرسل المرسلين﴾ من رسلنا إلى الأمم ﴿إلا﴾ حال كونهم ﴿مبشرين﴾ للمؤمنين ﴿ومنذرين﴾ للكافرين. فالاستثناء مفرغ من أعم العام، وقد تقدم تفسير هذا ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ أي: ليزيلوا بالجدال بالباطل الحق ويبطلون وأصل الدحض الزلق يقال: دحضت رجله أي: زلقت تنحس نحضاً، ودحضت الشمس عن كبد السماء زالت، ودحضت حجته دحوضاً بطلت، ومن ذلك قول طرفة:

أبا منذر رمت الوفاء فهبته وحدث كما حاد البعير عن الدحض
ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسول ﴿ما أنتم إلا بشر مثلهنا﴾ [يس: 15]. ونحو ذلك ﴿ولتخذوا آياتي﴾ أي: القرآن ﴿وما أنذروا﴾ به من الوعيد والتهديد ﴿هزوا﴾ أي: لعباً وباطلاً، وقد تقدم هذا في البقرة ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها﴾ أي: لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما فتهاون بها وأعرض عن قبولها، ولم يتدبرها حق التدبر ويتفكر فيها حق التفكير ﴿وونسي ما قممت يدها﴾ من الكفر والمعاصي، فلم يتب عنها. قيل: والنسيان هنا بمعنى الترك، وقيل: هو على حقيقته ﴿إننا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ أي: أغطية، والأكنة جمع كنان، والجملة تحليل لإعراضهم ونسيانهم. قال الزجاج: أخبر الله سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم ﴿ووفي آذانهم وقرأ﴾ أي: وجعلنا في آذانهم ثقلاً يمنع من استماعه، وقد تقدم تفسير هذا في الأنعام ﴿وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتتوا إذا أبدا﴾ لأن الله قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿ووربك الغفور ذو الرحمة﴾ أي: كثير المغفرة، وصاحب الرحمة التي وسعت كل شيء فلم يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿ولو يؤاخذهم بما كسبوا﴾ أي: بسبب ما كسبوه من المعاصي التي من جملتها الكفر والمجادلة والإعراض ﴿للعجل لهم العذاب﴾ لاستحقاقهم لذلك ﴿يل﴾ جعل ﴿لهم موعد﴾ أي: أجل مقدر لعذابهم، قيل: هو عذاب الآخرة، وقيل: يوم بدر ﴿لن يجنوا من نونه مويثلاً﴾ أي: ملجأ يلجئون إليه. وقال أبو عبيدة: منجأ، وقيل: محيصاً، ومنه قول الشاعر:

لأولئك نفسك خليتها للعامريين ولم تكلم

وقال الأعشى:

وقد لخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر مني ثم ما يثل

أي ما ينجو ﴿وتلك القرى﴾ أي: قرى عاد وثمود وأمثالها ﴿أهلكتهم﴾ هذا خبر اسم الإشارة والقرى صفته، والكلام على حذف مضاف أي: أهل القرى أهلكتهم ﴿لما ظلموا﴾ أي: وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصي

(1) (قوله عاصم) صوابه: أبو بكر عن عاصم، اهـ. مصحح القرآن.

بالسرب الذي هو الكوة المحفورة في الأرض. قال الفراء: لما وقع في الماء جمد مذهبه في البحر فكان كالسرب، فلما جاوزا ذلك المكان الذي كانت عنده الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا، فأصابهما ما يصيب المسافرين من النصب والكلال، ولم يجدا النصب حتى جاوزا الموضع الذي فيه الخضر، ولهذا قال سبحانه: ﴿فلما جاوزا﴾ أي: مجمع البحرين الذي جعل موعداً للملاقاة: ﴿قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ وهو ما يؤكل بالغداة، وأراد موسى أن يأتيه بالحوت الذي حملاه معهما: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً﴾ أي: تعباً وإعياء، قال المفسرون: الإشارة بقوله سفرنا هذا إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة المكان المذكور، فإنهما لم يجدا النصب إلا في ذلك دون ما قبله: ﴿قال أرايت إذ أويئنا إلى الصخرة﴾ أي: قال فتى موسى لموسى، ومعنى الاستفهام تعجبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لا ينسى، لأنه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة، ومفعول أرايت محذوف لدلالة ما ذكره من النسيان عليه، والتقدير: أرايت ما دهاني، أو نابني في ذلك الوقت والمكان. وتلك الصخرة كانت عند مجمع البحرين الذي هو الموعد، وإنما ذكرها دون أن يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان، لاحتمال أن يكون المجمع مكاناً متسعاً يتناول مكان الصخرة وغيره، وأوقع النسيان على الحوت نون الغداء الذي تقدم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذي جعله زاداً لهما، وأما لوجدان مطلوبهما. ثم ذكر ما يجري مجرى السبب في وقوع ذلك النسيان فقال: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ بما يقع منه من الوسوسة، و﴿أن أنكره﴾ بدل اشتمال من الضمير في أنسانيه، وفي مصحف عبد الله: وما أنسانيه أن أنكره إلا الشيطان ﴿واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ انتصاب عجباً على أنه المفعول الثاني كما مر في سرباً، والظرف في محل نصب على الحال، يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجباً للناس، وموضع التعجب أن يحيا حوت قد مات وكل شقه، ثم يثب إلى البحر ويبقى أثر جريته في الماء لا يحو أثرها جريان ماء البحر، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت، فيكون ما بين الكلامين اعتراضاً: ﴿قال ذلك ما كنا نبغي﴾ أي: قال موسى لفتاه: ذلك الذي ذكرت من فقد الحوت في ذلك الموضع هو الذي كنا نطلبه، فإن الرجل الذي نريده هو هنالك: ﴿فارتداً على آثارهما قصصاً﴾ أي: رجعا على الطريق التي جاءا منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما، وانتصاب قصصاً على أنه مصدر لفعل محذوف، أو على الحال أي: قاصين أو مقتصين، والقصص في اللغة اتباع الأثر: ﴿فوجدنا عبداً من عبادنا﴾ هو الخضر في قول جمهور المفسرين، وعلى ذلك نلت الأحاديث الصحيحة، وخالف في ذلك من لا يعتد بقوله، فقال: ليس هو الخضر بل عالم آخر؛ قيل: سمي الخضر لأنه

أجمعوا على أنه يوشع بن نون، وقد مضى ذكره في المائدة، وفي آخر سورة يوسف، ومن قال: إن موسى هو ابن ميثى قال: إن هذا الفتى لم يكن هو يوشع بن نون. قال الفراء: وإنما سمي فتى موسى لأنه كان ملازماً له يأخذ عنه العلم ويخدمه، ومعنى ﴿لا أبرح﴾ لا أزال، ومنه قوله: ﴿لن نبرح عليه عاكفين﴾ [طه: 91]. ومنه قول الشاعر:

وأبرح ما أدام الله قومي بحمد الله منتطقاً مجيداً
وبرح إذا كان بمعنى زال فهو من الأفعال الناقصة، وخبره هنا محذوف اعتماداً على دلالة ما بعده وهو ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ قال الزجاج: لا أبرح بمعنى لا أزال، وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه، ولأن قوله: ﴿حتى أبلغ﴾ غاية مضروبة، فلا بد لها من ذي غاية، فالمعنى: لا أزال أسير إلى أن أبلغ، ويجوز أن يراد لا يبرح مسيري حتى أبلغ، وقيل: معنى لا أبرح لا أفارقك حتى أبلغ مجمع البحرين، وقيل: يجوز أن يكون من برح التام، بمعنى: زال يزال، ومجمع البحرين ملتقاهما. قيل: المراد بالبحرين بحر فارس والروم؛ وقيل: بحر الأردن وبحر القلزم، وقيل: مجمع البحرين عند طنجة، وقيل: بإفريقية. وقالت طائفة: المراد بالبحرين موسى والخضر، وهو من الضعف بمكان. وقد حكى عن ابن عباس ولا يصح: ﴿أو أمضي حقيلاً﴾ أي: أسير زماناً طويلاً. قال الجوهري: الحقب بالضم ثمانون سنة. وقال النحاس: الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبه زمان من الدهر مبهم غير محدود، كما أن رهطاً وقوماً منهم غير محدود، وجمعه أحقاب. وسبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام ما روي أنه سئل موسى من أعلم الناس؟ فقال: أنا، فأوحى الله إليه: إن أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين: ﴿فلما بلغا﴾ أي: موسى وفتاه ﴿مجمع بينهما﴾ أي: بين البحرين، وأضيف مجمع إلى الظرف توسعاً وقيل: البين: بمعنى الافتراق أي: البحران المفترقان يجتمعان هناك، وقيل: الضمير لموسى والخضر أي: وصلا الموضع الذي فيه اجتماع شملهما، ويكون البين على هذا بمعنى الوصل، لأنه من الأضداد، والأول أولى: ﴿نسيا حوتهما﴾ قال المفسرون: إنهما تزودا حوتاً مملحاً في زنبيل، وكانا يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام، وكان قد جعل الله فقدانه أمانة لهما على وجدان المطلوب. والمعنى: أنهما نسيا بفقد أمره، وقيل: الذي نسي إنما هو فتى موسى، لأنه وكل أمر الحوت إليه، وأمره أن يخبره إذا فقده، فلما انتهيا إلى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذي فيه الحوت فأحياه الله، فتحرك واضطرب في المكتل، ثم انسرب في البحر، ولهذا قال: ﴿فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ انتصاب سرباً على أنه المفعول الثاني لاتخذ، أي اتخذ سبيلاً سرباً، والسرب النفق الذي يكون في الأرض للضب ونحوه من الحيوانات، وذلك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذي انسرب فيه الحوت فصار كالطاق فشبه مسلك الحوت في البحر مع بقائه وانجياي الماء عنه

السؤال عنها مما قبلها.

وقد أخرج الدارقطني في الأفراد، وابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحاك، عن ابن عباس قال: الخضر ابن آدم لصليبه ونسبه له في أجله حتى يكذب الدجال. وأخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: وإنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء. وأخرج ابن عساكر من حديث ابن عباس. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن مجاهد: إنما سمي الخضر لأنه إذا صلى أخضر ما حوله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿لَا يَرْجُحُ حَتَّىٰ يُبْلَغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ قال: حتى أنتهي. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ قال: بحر فارس والروم، وهما نحو المشرق والمغرب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب قال: ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ إفريقية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب قال: طنجة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَوْ أَمْضَىٰ حَقْبًا﴾ قال: سبعين خريفاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: دهرًا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿نَسِيا حَوْتَهُمَا﴾ قال: كان مملوحاً مشقوق البطن. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ قال: أثره يابس في البحر كأنه في حجر. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال: عودهما على بدنهما. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ قال: أعطيناه الهدى والنبوة.

واعلم أنها قد رويت في قصة الخضر مع موسى المذكورة في الكتاب العزيز أحاديث كثيرة، وأتمها وأكملها ما روي عن ابن عباس ولكنها اختلفت بعض الألفاظ، وكلها مروية من طريق سعيد بن جبيرة عنه، وبعضها في الصحيحين وغيرهما، وبعضها في أحدهما، وبعضها خارج عنهما. وقد رويت من طريق العوفي عنه كما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، ومن طريق هارون بن عنترة، عن أبيه، عنه عند ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخطيب، وابن عساكر، فلنقتصر على الرواية التي هي أتم الروايات الثابتة في الصحيحين، ففي ذلك ما يغني عن غيره، وهي: قال سعيد بن جبيرة: قلت لابن عباس: إن نوحا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله. حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فاستل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال:

كان إذا صلى أخضر ما حوله، قيل واسمه بلياً بن ملكان. ثم وصفه الله سبحانه فقال: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ قيل: الرحمة هي النبوة، وقيل: النعمة التي أنعم الله بها عليه ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو ما علمه الله سبحانه من علم الغيب الذي استأثر به، وفي قوله من لدنا تفخيم لشأن ذلك العلم، وتعظيم له. قال الزجاج: وفيما فعل موسى وهو من جملة الأنبياء من طلب العلم، والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، وإن يتواضع لمن هو أعلم منه، ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ تَتَّبِعَكَ عَلَىٰ أَن تَعْلَمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَشْدًا﴾ في هذا السؤال ملاطفة ومبالغة في حسن الالتماس، لأنه استأذنه أن يكون تابعاً له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم. والرشد الوقوف على الخير وإصابة الصواب، وانتصابه على أنه مفعول ثانٍ لتعلمني أي: علماً ذا رشد أرشد به، وقرئ رشداً بفتححتين، وهما لغتان كالبلخل والبلخل. وفي الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، وليس في ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل وقد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختلف أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: قال الخضر لموسى: إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي، لأن الظواهر التي هي علمك لا توافق ذلك، ثم أكد ذلك مشيراً إلى علة عدم الاستطاعة، فقال: ﴿كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي: كيف تصبر على علم ظاهره منكرو، وانت لا تعلم، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكرو والإقرار عليه، وخبراً منتصب على التمييز أي: لم تحط به خبرك والخبر: العلم بالشيء، والخبر بالأمور هو العالم بخفاياها، وبما يحتاج إلى الاختبار منها ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: قال موسى للخضر: ستجدني صابراً معك، ملتزماً طاعتك ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ فجملة ولا أَعْصِي معطوفة على صابراً، فيكون التقيد بقوله: إن شاء الله شاملاً للصبر ونفي المعصية، وقيل: إن التقيد بالمشيئة مختص بالصبر، لأنه أمر مستقبل لا يدري كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزوم عليه في الحال، ويجب عنه بأن الصبر، ونفي المعصية متفقان في كون كل واحد منهما معزوم عليه في الحال، وفي كون كل واحد منهما لا يدري كيف حاله فيه في المستقبل. ﴿قَالَ فَإِن تَبِعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ مما تشاهده من أفعالي المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذي بعثك الله به ﴿حَتَّىٰ أَتْلُوكَ كِتَابَ الذِّكْرِ﴾ أي: حتى أكون أنا المبتدئ لك بذكره، وبيان وجهه وما يؤول إليه، وهذه الجملة المعنونة بقال وقال مستأنفة، لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كل واحدة ينشأ

﴿قَالَ﴾ موسى: قوم آتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَبَدَأَ أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبِيرًا حَتَّى يَقْصُ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرِهِمَا، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ ﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وَكَانَ يَقْرَأُ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ لِبَوَاهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وَبَقِيَّةُ رَوَايَاتِ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ هِيَ مُوَافِقَةٌ لِهَذِهِ الرِّوَايَةِ فِي الْمَعْنَى وَإِنْ تَفَاوُتَتْ الْأَلْفَاظُ فِي بَعْضِهَا فَلَا فَائِدَةَ فِي الْإِطَالَةِ بِذِكْرِهَا، وَكَذَلِكَ رَوَايَاتُ غَيْرِ سَعِيدٍ عَنْهُ.

فَاطْلُقًا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَلِّمُنِي بِمَا نَجِيتُ وَلَا تُرَفِّقْ بِي مِنْ أَمْرِ عَشِيرَةٍ ﴿٧٣﴾ فَاطْلُقًا حَتَّى إِذَا لَبَّيَا غُلَامًا فَفَلَّمْهُ قَالَ أَفَأَنْتَ نَسَاؤُكَ زَكِيَّةٌ بِمِثْرِ نَخْلٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ قَدْ بَغَاكَ فُلَانٌ فَجَبَّيْ فَدَ بَلَّغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا ﴿٧٦﴾ فَاطْلُقًا حَتَّى إِذَا نَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَظَمَّ أَهْلُهَا فَأَوْبَا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا رَأَيْتَ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْتَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أُغْبِغَ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَصَبْنَا أَنْ يَرْثِيَهُمَا طُغْيَانًا رَكِبَهُمَا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا يَتَّقُونَ ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا كُنَّا عَنْ أَمْرِ ذَلِكَ غَائِبِينَ ﴿٨٢﴾ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٣﴾

قوله: ﴿فَاطْلُقًا﴾ أي: موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة، فمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَمُوهُمَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا فَحْمَلُوهُمَا ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ قيل: قلع لوحاً من ألواحها، وقيل: لوحين مما يلي الماء، وقيل: خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق إلى أهلها ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لِخَرَقَتِهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي: لقد أتيت أمرًا عظيمًا، يقال: أمر الأمر إذا كبر، والأمر الاسم منه. وقال أبو عبيدة: الأمر الداهية العظيمة وأنشد:

قد لقي الأقران مني نكراً داهية دهيأ وإمراً إمراً
وقال القتيبي: الأمر العجب. وقال الاخفش: أمر أمره يأمر إذا اشتد، والاسم الأمر. قرأ حمزة والكسائي ﴿ليُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ بالياء التحتية المفتوحة، ورفع أهلها على أنه فاعل، وقرأ الباقون بالفوقية المضمومة ونصب أهلها على المفعولية ﴿قَالَ﴾ أي: الخضر ﴿لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أنكره ما تقدم من قوله له سابقاً ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ف ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿لَا تُؤَلِّخُنِي

تَأْخُذُ مَعَكَ حَتَّى تَفْجِعَهُ فِي مَكْتَلٍ فَحَيْثَمَا فَجَدْتَ الْحَوْتَ فَهُوَ ثُمَّ، فَأَخَذَ حَوْتَاً فَجَعَلَهُ فِي مَكْتَلٍ. ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الْحَوْتَ فِي الْمَكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحَوْتَ جَرِيَةِ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقِظَ نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحَوْتَ، فَانْطَلَقَا بِقِيَةِ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، حَتَّى إِذَا كَانَا مِنَ الْغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿أَتَنَا غَدَاؤُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قَالَ: وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قَالَ: فَكَانَ لِلْحَوْتَ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ مُوسَى: ﴿تِلْكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قَالَ سَفِيَانٌ: يَزْعُمُ نَاسٌ أَنَّ تِلْكَ الصَّخْرَةَ عِنْدَهُمَا عَيْنَ الْحَيَاةِ لَا يَصِيبُ مَاؤُهَا مِيتًا إِلَّا عَاشَ، قَالَ: وَكَانَ الْحَوْتَ قَدْ أَكَلَ مِنْهُ. فَلَمَّا قَطَرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ عَاشَ، قَالَ: فَجَعَا يَقْصَانِ اثْرَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مَسْجِي بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَإِنِّي بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: مُوسَى نَبِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَتَيْتَكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلِمْتَ رَشْدًا، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ عِلْمِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ عِلْمِكَ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، قَالَ مُوسَى: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ نَكَرًا﴾ فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَمُوهُمَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنَ الْأَوَاحِ السَّفِينَةِ بِالْقُدُومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمُ حَمْلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمِدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ: لَا تُؤَلِّخُنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرَفِّقْ بِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا. قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسِيَانًا. قَالَ: وَجَاءَ عَصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعَصْفُورُ الَّذِي وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ. ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَامَانِ فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَأَقْتَلَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ * قَالَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا﴾ * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَظَمَّ أَهْلُهَا فَأَبْوَا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ قَالَ: مِثْلُ، فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ، فـ

حتى إذا أتيا أهل قرية. قيل: هي أيلة؛ وقيل: انطاكية؛ وقيل: برقة؛ وقيل: قرية من قرى أنريجان؛ وقيل: قرية من قرى الروم ﴿استطعما أهلها﴾ هذه الجملة في محل الجر على أنها صفة لقرية، ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التأكيد، أو لكرامة اجتماع الضميرين في هذه الكلمة لما فيه من الكلفة، أو لزيادة التشنيع على أهل القرية بإظهارهم ﴿فألبوا أن يضيقوهما﴾ أي: أبوا أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من ضيافتهما، فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحل الكنية فقد أخطأ خطأ بيناً، ومن ذلك قول بعض الأديباء الذين يسألون الناس:

فإن ربت فما في الرد منقصه علي قد رد موسى قبل والخضر
وقد ثبت في السنة تحريم السؤال بما لا يمكن دفعه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة ﴿فوجدوا فيها﴾ أي: في القرية ﴿جداراً يريد أن ينقض﴾ إسناد الإرادة إلى الجدار مجاز. قال الزجاج: الجدار لا يريد إرادة حقيقية إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالإرادة، ومنه قول الراعي:

في مهمه فلفت به هاماتها فلق الغفوس إذا ربن نصولا
ومعنى الانقضاء: السقوط بسرعة، يقال: انقض الحائط إذا وقع، وانقض الطائر إذا هوى من طيرانه فسقط على شيء، ومعنى فاقامه: فسواه، لأنه وجده مائلاً فردّه كما كان؛ وقيل: نقضه وبناء؛ وقيل: أقامه بعمود. وقد تقدّم في الحديث الصحيح أنه مسح بيده ﴿قال﴾ موسى ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ أي: على إقامته وإصلاحه، تحريضاً من موسى للخضر على أخذ الأجر. قال الفراء: معناه لو شئت لم تقمه حتى يقرؤنا فهو الأجر، قرأ أبو عمرو، ويعقوب، وابن كثير، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن (لتخذت) يقال: تخذ فلان يتخذ تخذاً مثل اتخذ. وقرأ الباقر (لتخذت) الخضر ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ على إضافة فراق إلى الظرف اتساعاً أي: هذا الكلام والإنكار منك على ترك الأجر هو المفرق بيننا. قال الزجاج: المعنى هذا فراق بيننا أي: هذا فراق اتصائنا، وكبر بين تأكيداً، ولما قال الخضر لموسى بهذا أخذ في بيان الوجه الذي فعل بسببه تلك الأفعال التي أنكرها موسى فقال: ﴿سانيك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ والتأويل: رجوع الشيء إلى ماله. ثم شرع في البيان له فقال: ﴿أما السفينة﴾ يعني: التي خرقتها ﴿فكانت لمساكين﴾ لضعفاء لا يقدرّون على دفع من أراد ظلمهم ﴿يعملون في البحر﴾ ولم يكن لهم مال غير تلك السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة، وقد استدل الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين ﴿فأردت أن أعيبها﴾ أي: أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ﴿وكان وراهم ملك﴾ قال المفسرون: يعني أمامهم، ووراء يكون بمعنى أمام، وقد مرّ الكلام على هذا في قوله: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ [إبراهيم: 17]. وقيل: أراد خلفهم، وكان طريقهم في الرجوع

بما نسيته. يحتمل أن تكون ما مصدرية، أي: لا تؤاخذني بنسياني أو موصولة أي: لا تؤاخذني بالذي نسيته، وهو قول الخضر ﴿فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ فالنسيان إما على حقيقته على تقدير أن موسى نسي ذلك، أو بمعنى: الترك على تقدير أنه لم ينس ما قاله له، ولكنه ترك العمل به ﴿ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ قال أبو زيد: أرهقته عسراً إذا كلفته ذلك والمعنى: عاملني باليسر لا بالعسر. وقرئ عسراً بضمّتين ﴿فانطلقا﴾ حتى إذا لقيا غلاماً فقتله. أي: الخضر، ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير، قيل: كان الغلام يلعب مع الصبيان فاقبل الخضر رأسه ﴿قال﴾ موسى ﴿اقتلت نفساً زكية بغير نفس﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأويس بالغ بعد الزاي وتخفيف الياء اسم فاعل. وقرأ الباقر بتشديد الياء من نون ألف، الزكّية: البريئة من الذنوب. قال أبو عمرو: الزكّية التي لم تذنّب، والزكّية التي أذنبت ثم تابت. وقال الكسائي: الزكّية والزكّية لغتان. وقال الفراء: الزكّية والزكّية مثل القاسية والقسية، ومعنى ﴿بغير نفس﴾: بغير قتل نفس محرّمة حتى يكون قتل هذه قصاصاً ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ أي: فظيماً منكراً لا يعرف في الشرع. قيل: معناه أنكر من الأمر الأوّل لكون القتل لا يمكن تداركه، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه، وقيل: النكر أقل من الأمر، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة. قيل: استبعد موسى أن يقتل نفساً بغير نفس، ولم يتأول للخضر بأنه يحلّ القتل بأسباب أخر ﴿قال﴾ الخضر ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ زاد هنا لفظ لك، لأن سبب العتاب أكثر، وموجبه أقوى، وقيل: زاد لفظ لك لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه: لك أقول وإياك أعني ﴿قال﴾ موسى ﴿إن سألتك عن شيء بعدها﴾ أي: بعد هذه المرة، أو بعد هذه النفس المقتولة ﴿فلا تصاحبني﴾ أي: لا تجعلني صاحباً لك، نهاء عن مصاحبتك مع حرصه على التعلم لظهور عنده، ولذا قال: ﴿قد بلغت من لحي عذراً﴾ يريد أنك قد أعذرت حيث خالفك ثلاث مرّات، وهذا كلام نادم شديد الندامة، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف. قرأ الأعرج (تصاحبني) وقرأ يعقوب (تصاحبني) بضم التاء وكسر الحاء ورواه سهل عن أبي عمرو. قال الكسائي: معناه لا تتركني أصحابك. وقرأ الجمهور (لنني) بضم الدال إلا أن نافعاً وعاصماً خففا النون، وشدها الباقر. وقرأ أبو بكر عن عاصم (لنني) بضم اللام وسكون الدال. قال ابن مجاهد: وهي غلط. قال أبو علي: هذا التغليب لعله من جهة الرواية، فأما على قياس العربية فصحيحة. وقرأ الجمهور (عذراً) بسكون الدال. وقرأ عيسى بن عمر بضم الدال. وحكى الداني أن أبيّاً روى عن النبي ﷺ بكسر الراء وياء بعدها بإضافة العذر إلى نفسه ﴿فانطلقا﴾

عليه، وما كان عندهم خبر بأنه **«يأخذ كل سفينة غصبا»** أي: كل سفينة صالحة لا معيبة، وقد قرئ بزيادة صالحة روي ذلك عن أبي وابن عباس. وقرأ جماعة بتشديد السين من مساكين، واختلف في معناها، فقول: هم ملاحو السفينة، وذلك أن المساك هو الذي يمسك السفينة، والأظهر قراءة الجمهور بالتخفيف **«وأما الغلام»** يعني: الذي قتله **«فكان أبواه مؤمنين»** أي: ولم يكن هو كذلك **«فخشينا أن يرهقهما»** أي: يرهق الغلام أبويه، يقال رهقه أي: غشيه، وأرهقه أغشاه. قال المفسرون: معناه خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه في دينه، وهو الكفر، و **«طغيانا»** مفعول يرهقهما **«وكفرا»** معطوف عليه، وقيل: المعنى فخشينا أن يرهق الوالدين طغياناً عليهما وكفراً لنعمتهما بعقوقه. قيل: ويجوز أن يكون فخشينا من كلام الله، ويكون المعنى: كرهنا كراهة من خشى سوء عاقبة أمره فغيره، وهذا ضعيف جداً، فالكلام كلام الخضر. وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة، فقيل: إنه كان بالغاً وقد استحق ذلك بكفره؛ وقيل: كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك، ويكون معنى فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً: أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعوا في المعصية، وقد يؤدي ذلك إلى الكفر والارتداد. والحاصل أنه لا إشكال في قتل الخضر له إذا كان بالغاً كافراً أو قاطعاً للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوغ له ذلك، وأما إذا كان الغلام صبياً غير بالغ، فقيل: إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغاً لكان كافراً يتسبب عن كفره إحلال أبويه وكفرهما، وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية بإياه، فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحل في الشريعة المحمية، ولكنه حل في شريعة أخرى، فلا إشكال. وقد ذهب الجمهور إلى أن الخضر كان نبياً **«فأرانا أن يبينلهم ربهما خيراً منه»** قرأ الجمهور بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال. وقرأ عاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بسكون الباء وتخفيف الدال، والمعنى: أردنا أن يرزقهما الله بدل هذا الولد ولداً خيراً منه **«زكاة»** أي: ديناً وصالحاً وطهارة من الذنوب **«وأقرب رحماً»** قرأ ابن عباس، وحزمة، والكسائي، وابن كثير، وابن عامر (رحماً) بضم الحاء. وقرأ الباقر بسكونها، ومعنى الرحم: الرحمة، يقال: رحمه الله رحمة ورحمى، والالف للثاني **«وأما الجدار»** يعني: الذي أصلحه **«فكان لغلامين يتيمين في المدينة»** هي القرية المذكورة سابقاً، وفيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة **«وكان تحته كنز لهما»** قيل: كان مالا جسيماً كما يفيد اسم الكنز، إذ هو المال المجموع. قال الزجاج: المعروف في اللغة أن الكنز إذا أقرد فمعناه: المال المنفون، فإذا لم يكن مالا قيل: كنز علم وكنز فهم؛ وقيل: لوح من ذهب، وقيل: صحف مكتوبة

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **«لقد جئت شيئا إمرا»** يقول: نكراً. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **«إمرا»** قال: عجباً. وأخرج ابن جرير، عن أبي بن كعب في قوله: **«لا تؤاخذني بما نسيت»** قال: لم ينس، ولكنها من معاريض الكلام. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العلية قال: كان الخضر عبداً لا تراه العين، إلا من أراد الله أن يريه إياه، فلم يره من القوم إلا موسى، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام. وأقول: ينبغي أن ينظر من أين له هذا؟ فإن لم يكن مستنده إلا قوله: ولو رآه القوم إلخ، فليس ذلك بموجب لما نكره، أما أولاً: فإن من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام، لا لكونه لا تراه العين، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم. وأما ثانياً: فيمكن أن أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه وعرفوا أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر من الله كما يفعل الأنبياء، فسلموا لأمر الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: **«نفساً زاكية»** قال: مسلمة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، قال: لم تبلغ الخطايا. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن الحسن نحوه. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: **«شيئاً نكراً»** قال: النكر أنكروا من العجب. وأخرج أحمد، عن عطاء قال: كتب نجدة الحروري إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان، فكتب إليه: إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم. وزاد ابن أبي شيبة من طريق أخرى عنه: «ولكنك لا تعلم، قد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم فاعتزلهم». وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن مروي، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي

لَمَنْ نَكَرَ النَّارَ ثُمَّ ضَحَكَ، وَعَجِبَتْ لِمَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ ثُمَّ غَفَلَ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. وَفِي نَحْوِ هَذَا رَوَايَاتُ كَثِيرَةٍ لَا تَتَعَلَّقُ بِنَكْرِهَا فَائِدَةً. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُبَارَكِ، وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَأَحْمَدُ فِي الزَّهْدِ، وَالْحَمِيدِيُّ فِي مَسْنَدِهِ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «وَكَانَ لِبُوهِمَا صَالِحًا» قَالَ: حَفْظًا بِصَلَاةِ ابْنَيْهِمَا. وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْبُوءٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَصْلَحُ بِصَلَاةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَأَهْلَ بُوَيْرَتِهِ وَأَهْلَ بُوَيْرَاتِ حَوْلِهِ، فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللَّهِ تَعَالَى مَا دَامَ فِيهِمْ». وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنْ اللَّهُ يَصْلَحُ بِصَلَاةِ الرَّجُلِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَيَحْفَظُهُ فِي بُوَيْرَتِهِ، وَالْبُوَيْرَاتِ حَوْلَهُ، فَمَا يَزَالُونَ فِي سِتْرِ مِنَ اللَّهِ وَعَافِيَةٍ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ بْنِ عِمَارَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: لِمَ نَسْمَعُ لِفَتَى مُوسَى بِذِكْرِ وَقَدْ كَانَ مَعَهُ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ فِيمَا يَذْكُرُ مِنْ حَدِيثِ الْفَتَى: إِنَّهُ شَرِبَ مِنَ الْمَاءِ فَخَلَدَ، فَأَخَذَهُ الْعَالَمُ فطَابِقَ بِهِ سَفِينَةً ثُمَّ أَرْسَلَهُ فِي الْبَحْرِ، فَلِإِنِّهَا لَتَتَوَجَّعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ، الْحَسَنُ مَتْرُوكٌ وَأَبُوهُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ.

وَرَوَى اللَّهُ عَنْ ذِي الْقَرْظَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢٧﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَوَدَّعْنَاهُمْ مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ سَبِيلًا ﴿٢٨﴾ فَأَتَيْنَ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَقَرَّبَ الْأَشْجِسَ رَجَعَا مَرَّتَيْنِ فِي عَرَبٍ حَمِيٍّ وَوَدَّعْنَاهَا قَوْمًا فَلَمَّا يَدَا الْقَرْظَيْنِ إِذَا أَنْ تَدْبَرَا إِنَّا أَنْ نَجْعَدَ فِيهِمْ حَسَنًا ﴿٣٠﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا ﴿٣١﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَى وَنُفُوسٌ لَمْ يَنْزِلْ مِنْ أَمْرٍ أَمْرًا ﴿٣٢﴾ ثُمَّ أَتَى سَبِيلًا ﴿٣٣﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الْأَشْجِسَ وَوَدَّعْنَاهُ تَلْعَلُ عَلَى قَرْيَةٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٣٥﴾

لَمَّا لُجِبَ سَبْحَانَهُ عَنْ سُؤَالَيْنِ مِنْ سُؤَالَاتِ الْيَهُودِ، وَانْتَهَى الْكَلَامُ إِلَى حَيْثُ انْتَهَى شَرْعُ سَبْحَانَهُ فِي السُّؤَالِ الثَّلَاثِ وَالْجَوَابِ عَنْهُ، فَالْمُرَادُ بِالسَّائِلِينَ هُنَا هُمُ الْيَهُودُ.

وَاخْتَلَفُوا فِي ذِي الْقَرْظَيْنِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَقِيلَ: هُوَ الْإِسْكَندَرُ بْنُ فِيلِقُوسَ الَّذِي مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَسْرَافِ الْيُونَانِيِّ بَانِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، اسْمُهُ مَرْزَبَانُ بْنُ مَرْزَبَةِ الْيُونَانِيِّ، مِنْ وَلَدِ يُونَانَ بْنِ يَافَثَ بْنِ نُوحٍ؛ وَقِيلَ: هُوَ مَلِكَ اسْمُهُ هَرْمَسُ؛ وَقِيلَ: مَلِكَ اسْمُهُ هَرَبِيسُ؛ وَقِيلَ: شَابٌ مِنَ الرُّومِ؛ وَقِيلَ: كَانَ نَبِيًّا؛ وَقِيلَ: كَانَ عَبْدًا صَالِحًا؛ وَقِيلَ: اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الضَّحَّاكِ؛ وَقِيلَ: مَصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، مِنْ أَوْلَادِ كَهْلَانَ بْنِ سَبَأَ. وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ عَنِ السَّهْلِيِّ أَنَّهُ قَالَ: إِنْ الظَّاهِرُ مِنْ عِلْمِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُمَا اثْنَانِ: أَحَدُهُمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَالْآخَرُ كَانَ قَرِيبًا مِنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَقِيلَ: هُوَ أَبُو كَرْبِ الْحَمِيرِيِّ؛ وَقِيلَ هُوَ مَلِكَ مِنَ الْمَلَانِكَةِ، وَرَجَّحَ الرَّازِيُّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ، قَالَ: لِأَنَّ مِنْ بَلَّغَ مَلِكُهُ مِنَ السَّعَةِ وَالْقُوَّةِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا التَّنْزِيلُ إِنَّمَا هُوَ الْإِسْكَندَرُ الْيُونَانِيُّ كَمَا

قَتَلَهُ الْخَضِرُ طَبَعَ يَوْمَ طَبَعَ كَافِرًا، وَلَوْ أَدْرَكَ لَأَرْهَقَ أَبُوهُ طَغْيَانًا وَكَفْرًا. وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ وَالبَزَارُ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَالبَطْرَانِيُّ، وَابْنُ مَرْبُوءٍ، عَنْ أَبِي: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ «مَنْ لَبِنِي عَذْرًا» مُثَقَّلًا. وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْبُوءٍ عَنْ أَبِي: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ «أَنْ يَضِيفُوهُمَا» مُشَدَّدَةً. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي الْمَصَاحِفِ، وَابْنُ مَرْبُوءٍ عَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّهُ قَرَأَ «فَوْجِدًا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ» فَهَمَهُ، ثُمَّ قَعَدَ يَبْنِيهِ». قُلْتُ: وَرَوَايَةُ الصَّحِيحِينَ الَّتِي قَدَّمَاهَا أَنَّهُ مَسَحَهُ بِيَدِهِ أَوَّلَى. وَأَخْرَجَ الْفَرِيَابِيُّ فِي مَعْجَمِهِ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْبُوءٍ عَنْ أَبِي: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ «لَوْ شِئْتُ لَتَخَذْتُ عَلَيْهِ لَجْرًا» مُخَفَّفَةً. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْبُوءٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى. لَوْ صَبَرَ لَقَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبْرِهِ، وَلَكِنْ «قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تَصَاحِبْنِي»». وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْبُوءٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَلْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضِبًا». وَأَخْرَجَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ، عَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ قَرَأَهَا كَذَلِكَ. وَأَخْرَجَ أَبُو عُبَيْدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، عَنْ أَبِي الزَّاهِرِيَّةِ قَالَ: كَتَبَ عُثْمَانُ (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضِبًا). وَأَخْرَجَ أَبُو عُبَيْدٍ، وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ (وَمَا الْغَلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ). وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: هِيَ فِي مِصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ (فَخَافَ رَبُّكَ أَنْ يَرَهُمَا طَغْيَانًا وَكَفْرًا). وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً» قَالَ: دِينًا «وَأَقْرَبَ رَحْمَةً» قَالَ: مُوَدَّةٌ، فَابْدَلَا جَارِيَةً وَلَدَتْ نَبِيًّا. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: «وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا» قَالَ: كَانَ الْكَنْزُ لِمَنْ قَبَلْنَا وَحَرَّمَ عَلَيْنَا، وَحَرِّمَتْ الْغَنِيمَةُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَنَا وَأَحْلَتْ لَنَا، فَلَا يَعْجِبُ الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: فَمَا شَأْنُ الْكَنْزِ، أَحَلَّ لِمَنْ قَبَلْنَا وَحَرَّمَ عَلَيْنَا؟ فَإِنَّ اللَّهَ يَحِلُّ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ وَيَحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، وَهِيَ السَّنَنُ وَالْفَرَائِضُ، يَحِلُّ لَأُمَّةٍ وَيَحَرِّمُ عَلَى أُخْرَى. وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ، وَالبَزَارُ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالبَطْرَانِيُّ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْبُوءٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ««وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا» قَالَ: ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ. وَأَخْرَجَ البَطْرَانِيُّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي قَوْلِهِ: ««وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا» قَالَ: أَحْلَتْ لَهُمُ الْكَنْزُ وَحَرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الْغَنَائِمَ، وَأَحْلَتْ لَنَا الْغَنَائِمَ وَحَرِّمَتْ عَلَيْنَا الْكَنْزُ. وَأَخْرَجَ البَزَارُ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْبُوءٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَفَعَهُ قَالَ: «إِنَّ الْكَنْزَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ مَصْمُوتٌ فِيهِ: عَجِبْتَ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ نَصَبَ، وَعَجِبْتَ

القرنين خيراً. وذلك بطريق الوحي المتلو. ثم شرع سبحانه في بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه نكراً فقال: ﴿إِنَّا مَكْنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أقدرناه بما مهدنا له من الأسباب، فجعلنا له مكتة وقدرة على التصرف فيها، وسهلّ عليه المسير في مواضعها، ونلّ له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء؟ ومن جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل والنهار سواء في الإضاءة ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يتعلق بمطلوبه ﴿سَبِيحاً﴾ أي: طريقاً يتوصل بها إلى ما يريده ﴿فَاتَّبَعَ سَبَباً﴾ من تلك الأسباب. قال المفسرون: والمعنى طريقاً تؤديه إلى مغرب الشمس. قال الزجاج: فاتبع سبباً من الأسباب التي أوتي، وذلك أنه أوتي من كل شيء سبباً فاتبع من تلك الأسباب التي أوتي سبباً في المسير إلى المغرب، وقيل: اتبع من كل شيء علماً يتسبب به إلى ما يريد؛ وقيل: بلاغاً إلى حيث أراد؛ وقيل: من كل شيء يحتاج إليه الخلق؛ وقيل: من كل شيء تستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء. وأصل السبب الحبل فاستعين لكل ما يتوصل به إلى شيء. قرأ ابن عامر، وأهل الكوفة، وعاصم، وحمزة، والكسائي (فاتبع) بقطع الهمزة، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وأبو عمرو بوصلها. قال الأخفش: تبعته واتبعته بمعنى. مثل ردفته وأردفته، ومنه قوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفاء: 10]. قال النحاس: واختار أبو عبيدة قراءة أهل الكوفة، قال: لأنها من السير. وحكى هو والأصمعي أنه يقال: تبعته واتبعته إذا سار ولم يلحقه، واتبعه إذا لحقه. قال أبو عبيدة: ومثله ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: 60]. قال النحاس: وهذا من الفرق وإن كان الأصمعي قد حكاه فلا يقبل إلا بعلم أو ليل، وقوله عز وجل: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: 60] ليس في الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث لما خرج موسى وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه في البحر انطبق عليهم البحر. والحق في هذا أن تبع واتبع واتبعت لغات بمعنى واحد، وهو بمعنى: السير ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي: نهاية الأرض من جهة المغرب، لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط، وهو لا يمكن المضى فيه ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي حامية: أي: حارة. وقرأ الباقر (حمئة) أي: كثيرة الحمأة، وهي الطينة السوداء، تقول: حمئت البثر حمماً بالتسكين إذا نزع حماتها، وحمات البثر حماتها بالتحريك كثرت حماتها، ويجوز أن تكون حامية من الحمأة، فخففت الهمزة وقلبت ياء، وقد يجمع بين القراءتين فيقال: كانت حارة وذات حمأة. قيل: ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رأها كذلك في نظره، ولا يبعد أن يقال: لا مانع من أن يمكنه الله من عبور البحر المحيط حتى يصل إلى تلك العين التي تغرب فيها الشمس، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مغرب الشمس، ومكن له في الأرض والبحر من جعلتها، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل

تشهد به كتب التاريخ؛ قال: فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر، قال: وفيه إشكال لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس الحكيم، وكان على مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصديق، وذلك مما لا سبيل إليه. قال النيسابوري: قلت: ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلاً فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر والله أعلم. ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلي أنهما اثنان كما قدّمنا ذلك، وبين أن الأول طاف بالبيت مع إبراهيم أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر. وأما الثاني فهو الإسكندر المقدوني اليوناني، وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس، وكان قبل المسيح بنحو من ثلثمائة سنة. فاما الأول المنكور في القرآن فكان في زمن الخليل، هذا معنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره رأوا له عن الأزرق وغيره؛ ثم قال: وقد ذكرنا طرفاً صالحاً في أخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية. وحكى أبو السعود في تفسيره عن ابن كثير أنه قال: وإنما بينا هذا يعني: أنهما اثنان، لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المنكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر، فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير، كيف لا، والأول كان عبداً صالحاً مؤمناً، وملكاً عادلاً، ووزيره الخضر، وقد قيل: إنه كان نبياً، وأما الثاني فقد كان كافراً، ووزيره أرسطاطاليس الفيلسوف، وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة، فابن هذا من ذاك؟ انتهى. قلت: لعله ذكر هذا في الكتاب الذي ذكره سابقاً، وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه، والذي يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان كما ذكره السهيلي والأزرق وابن كثير وغيرهم لا كما ذكره الرازي وأدعى أنه الذي تشهد به كتب التاريخ، وقد وقع الخلاف هل هو نبي أم لا؟ وسيأتي ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث إن شاء الله.

وأما السبب الذي لأجله سمي ذا القرنين، فقال الزجاج والأزهري: إنما سمي ذا القرنين، لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها، وقرن الشمس من مغربها؛ وقيل: إنه كان له ضفيريّتان من شعر، والصفائر تسمى قرونًا، ومنه قول الشاعر:

فلثمت فاما أخذاً بقرونها شرب الذئيف ببرد ماء الحشرج
والحشرج ماء من مياه العرب؛ وقيل: إنه رأى في أول ملكه كائنه قابض على قرني الشمس فسمي بذلك، وقيل: كان له قرنان تحت عمامته؛ وقيل: إنه دعا إلى الله فشججه قومه على قرنه، ثم دعا إلى الله فشجوه على قرنه الآخر، وقيل: إنما سمي بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه، وقيل: لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي، وقيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً، وقيل: لأنه أعطي علم الظاهر والباطن، وقيل: لأنه دخل النور والظلمة، وقيل: لأنه ملك فارس والروم، وقيل: لأنه ملك الروم والترك، وقيل: لأنه كان لتاجه قرنان. قوله: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ نَكَرًا﴾ أي: سأتلو عليكم أيها السائلون من ذي

المانع شرعاً ولا عقلاً من وصوله إليه كما أوضحناه فيما سبق **﴿وجودها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾** يستترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شيء من العمارة. قيل: لأنهم بارض لا يمكن أن يستقر عليها البناء **﴿كنكك﴾** وقد أحطنا بما لديه خبراً أي: كذلك أمر ذي القرنين أتبع هذه الأسباب حتى بلغ، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به؛ وقيل: المعنى لم نجعل لهم ستراً مثل تلك الستر الذي جعلنا لكم من الأبنية والثياب، وقيل: المعنى كذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها، وقيل: المعنى كذلك تطلع على قوم مثل تلك القبيل الذي تغرب عليهم، فقضي في هؤلاء كما قضي في أولئك من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين، ويكون تأويل الإحاطة بما لديه في هذه الوجوه على ما يناسب ذلك كما قلنا في الوجه الأول.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: «قالت اليهود للنبي ﷺ يا محمد إنك تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبیین، إنك سمعت نكرهم منا، فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد، قال: ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين، قال: ما بلغني عنه شيء، فخرجوا فرحين قد غلبوا في أنفسهم، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات **﴿ويسالونك عن ذي القرنين﴾**». وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري أتبع كان نبياً أم لا؟ وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا؟»، وأخرج ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال: سئل علي عن ذي القرنين أنبي هو؟ قال: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «هو عبد ناصح لله فنصحه». وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، وابن أبي عاصم في السنة، وابن مردويه من طريق أبي الطفيل: أن ابن الكواء سأل علي بن أبي طالب عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكاً؟ قال: لم يكن نبياً ولا ملكاً، ولكن كان عبداً صالحاً أحب الله فأحبه الله، ونصح لله فنصحه الله، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه فمات، ثم أحياه الله لجهادهم، ثم بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات، فأحياه الله لجهادهم، فلذلك سمي ذا القرنين، وإن فيكم مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عمرو قال: نو القرنين نبي. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأخرص بن حكيم، عن أبيه، أن النبي ﷺ سئل عن ذي القرنين فقال: «هو ملك مسح الأرض بالأسباب». وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن خالد بن معدان الكلاعي مرفوعاً مثله. وأخرج ابن عبد الحكم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب الأضداد، وأبو الشيخ عن عمر بن

القرآن على خلاف ظاهره **﴿ووجد عندها قوماً﴾** الضمير في عندها إما للعين أو للشمس. قيل: هم قوم لباسهم جلود الوحش، وكانوا كفاراً، فخيرهم الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم، فقال: **﴿إما أن تعذب، وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾** أي: إما أن تعذبهم بالقتل من أول الأمر، وإما أن تتخذ فيهم أمراً ذا حسن أو أمراً حسناً مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر، والمراد: دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع. **﴿قال﴾** ذو القرنين مختاراً للدعوة التي هي الشق الأخير من الترييد **﴿إما من ظلم﴾** نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتي **﴿فسوف نعذب﴾** بالقتل في الدنيا **﴿ثم يرد إلى ربه﴾** في الآخرة **﴿فيعذب﴾** فيها **﴿عذاباً نكراً﴾** أي: منكرًا فظيعاً. قال الزجاج: خيرهم الله بين الأمرين. قال النحاس: ورد علي بن سليمان قوله لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبي فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عز وجل **﴿ثم يرد إلى ربه﴾** وكيف يقول: **﴿فسوف نعذب﴾** فيخاطبه بالنون، قال: والتقدير قلنا: يا محمد قالوا: يا ذا القرنين. قال النحاس: وهذا الذي نكره لا يلزم لجواز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي في وقته، وكان ذا القرنين خاطب أولئك القوم فلا يلزم ما نكره. ويمكن أن يكون مخاطباً للنبي الذي خاطبه الله على لسانه، أو خاطب قومه الذين وصل بهم إلى ذلك الموضع. قال ثعلب: إن في قوله: **﴿إما أن تعذب وإما أن تتخذ﴾** في موضع نصب، ولو رفعت لكان صواباً بمعنى فاما هو كقول الشاعر:

فسيروا فإما حاجة تقضيانها وإما مقيل صالح وصديق
﴿وإما من آمن﴾ بالله وصلى دعوتي **﴿وعمل﴾** عملاً **﴿صالحاً﴾** مما يقتضيه الإيمان **﴿فله جزاء الحسنى﴾** قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم وابن كثير وابن عمر (فله جزاء) بالرفع على الابتداء أي: جزاء الخصلة الحسنى عند الله، أو الفعلة الحسنى وهي الجنة قاله الفراء. وإضافة الجزاء إلى الحسنى التي هي الجنة كإضافة حق اليقين ودار الآخرة، ويجوز أن يكون هذا الجزاء من ذي القرنين أي: أعطيه وأفضل عليه، وقرأ سائر الكوفيين (فله جزاء الحسنى) بنصب جزاء وتنوينه. قال الفراء: انتصابه على التمييز. وقال الزجاج: هو مصدر في موضع الحال أي مجزياً بها جزاء. وقرأ ابن عباس ومسروق بنصب (جزاء) من غير تنوين. قال أبو حاتم: هي على حذف التنوين لالتقاء الساكنين. قال النحاس: وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين. وقرأ برفع (جزاء) منوناً على أنه مبتدأ، والحسنى بدل منه والخبر الجاز والمجرور **﴿ونسوق له من أمرنا يسراً﴾** أي: مما نأمر به قولاً ذا يسر ليس بالصعب الشاق، أو أطلق عليه المصدر مبالغة **﴿ثم اتبع سبباً﴾** أي: طريقاً آخر غير الطريق الأولى وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق **﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس﴾** أي: الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمور الأرض، أو مكان طلوعها لعلم

الترمذي، وأبو داود الطيالسي، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ: «كان يقرأ ﴿في عين حمئة﴾». وأخرج الطبراني، والحاكم، وابن مروي عن ابن عباس مرفوعاً مثله.

ثُمَّ أُنشِئَ سَبَّابٌ ۖ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۖ قَالُوا يَا بَنَا الْعَرَبَيْنِ إِنَّا جَائِعٌ ۖ وَأُجِرْ مُقِيدُونَ فِي الْأَرْضِ ۖ فَهَلْ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۖ قَالَ مَا مَكْنِي فِيمَا رَزَقَ خَيْرٌ ۖ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۖ وَأَوْتِي زَكْرًا لَّخَالِدٍ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ السَّدَّيْنِ قَالَ انْشُرُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُوا نَارًا قَالَ أَوْتِي زَكْرًا لَّخَالِدٍ ۖ فَأَنْزَجَ عَلَيْهِ قَطْرًا ۖ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ۖ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ يَقْبَا ۖ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دُخَانًا ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۖ

ثم حكى سبحانه سفر ذي القرنين إلى ناحية أخرى، وهي ناحية القطر الشمالي بعد تهية أسبابه فقال: ﴿ثُمَّ اتَّبِعْ سَبَبًا﴾ أي: طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، وابن محيصن، ويحيى اليزيدي، وأبو زيد، عن المفضل بفتح السين. وقرأ الباقون بضمها. قال أبو عبيدة وابن الأنباري وأبو عمرو بن العلاء: السد إن كان خلق الله سبحانه فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول أي: هو مما فعله الله وخلقه، وإن كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثاً. وقال ابن الأعرابي: كل ما قابلك فسد ما وراءه فهو سدٌ وسد نحو الضعف والضعف، والفقر والفقر، والسدان هما جبلان من قبل أرمينية وأنربيجان، وانتصاب بين على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية في قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 94]. وقيل: موضع بين السدين هو منقطع أرض الترك مما يلي المشرق لا جبلاً أرمينية وأنربيجان. وحكى ابن جرير في تاريخه أن صاحب أنربيجان أيام فتحها وجه إنساناً من ناحية الجزر فشاهده، ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع، و ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أي: من ورائهما مجازاً عنهما، وقيل: أمامهما ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ حمزة والكسائي (يفقهون) بضم الياء وكسر القاف من ألقه إذا أبان أي: لا يبينون لغيرهم كلاماً، وقرأ الباقون بفتح الياء والقاف أي: لا يفهمون كلام غيرهم، والقراءتان صحيحتان، ومعناهما: لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم ﴿قَالُوا﴾ أي: هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولاً، قيل: إن فهم ذي القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التي أعطاه الله، وقيل: إنهم قالوا ذلك لترجمانهم، فقال لذي القرنين بما قالوا له ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَا جُوجَ مَفْسُودُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يا جوج وماجوج اسمان عجميان بليل منع صرفهما، وبه قال الأكثر. وقيل: مشتقان من أج الظلم في مثبه إذا هرول، وتأججت النار إذا تلهبت، قراهما الجمهور بغير همز، وقرأ عاصم بالهمز. قال ابن الأنباري:

الخطاب: أنه سمع رجلاً ينادي بمنى يا ذا القرنين، فقال عمر: ها أنتم قد سمعتم باسماء الأنبياء فما بالكُم وأسماء الملائكة؟ وفي الباب غير ما نكرناه مما يغني عنه ما قد أوردناه. وقد أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر الجهني حديثاً يتضمن: «أن نقرأ من اليهود سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء، وكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك في السماء، وذهب به إلى السد، وإسناده ضعيف، وفي متنه نكارة، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل، نكر معنى هذا ابن كثير في تفسيره وعزاه إلى ابن جرير والأموي في مغازيه، ثم قال بعد ذلك: والعجب أن أبا زرعة الداري مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة، انتهى. وقد ساقه بتمامه السيوطي في الدر المنثور، وساق أيضاً خبراً طويلاً عن وهب بن منبه وعزاه إلى ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والشيرازي في الألقاب، وأبي الشيخ، وفيه أشياء منكورة جداً، وكذلك ذكر خبراً طويلاً عن محمد الباقر أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب، وقد أمرنا بأن لا تصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه إلينا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: علماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن أبي هلال: أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثرية، قال له كعب: إن كنت قلت ذلك فإن الله قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن أبي حاصر، أن ابن عباس ذكر له: أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف ﴿تَغْرِبُ فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ﴾ قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: ما نقرأها إلا (حمئة) فسأل معاوية عبد بن عمرو كيف تقرؤها؟ فقال عبد الله: كما قرأتها، قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن، فأرسل إلى كعب، فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال له كعب: سل أهل العربية فإنهم أعلم بها، وأما أنا فلاني أجد في التوراة في ماء وطن، وأشار بيده إلى المغرب. قال ابن أبي حاصر: لو أنني عندك بكلام تزداد به بصيرة في حمئة، قال ابن عباس: وما هو؟ قلت: فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم وأتباعه إياه:

قد كان ذو القرنين عمر مسلماً ملكاً نزل له الملوك وتحشد فأتى المشرق والمغرب يبتغي أسباب ملك من حكيم مرشد فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثاط خرمد فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قلت: الطين بكلامهم، قال: فما الثاط؟ قلت: الحمأة. قال: فما الخرمد؟ قلت: الأسود، فدعا ابن عباس غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل. وأخرج

يقال: ردمت التلثة أردمها بالكسر رداً أي: سدتها، والردم أيضاً الاسم، وهو السد، وقيل: الردم أبلغ من السد، إذ السد كل ما يسد به، والردم: وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع، ومنه ردم ثوبه: إذا رقعته برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض، ومنه قول عنترة:

هل غادر الشعراء من مترنم

أي: من قول يركب بعضه على بعض ﴿أتوني زير الحديد﴾ أي: أعطوني ونالوني، وزير الحديد جمع زبرة، وهي القطعة. قال الخليل: الزبرة من الحديد القطعة الضخمة. قال الفراء: معنى ﴿أتوني زير الحديد﴾ أتوني بها فلما ألقيت الباء زببت ألفاً، وعلى هذا فانتصاب زير بنزع الخافض ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ والصدفان: جانبا الجبل. قال الأزهري: يقال لجانبي الجبل صدفان إذا تحانيا لتصانفهما أي: تلاقيهما، وكذا قال أبو عبيدة والهروي. قال الشاعر:

كلا الصدفين ينفذه سناهما تود مثل مصباح الظلام
وقد يقال: لكل بناء عظيم مرتفع صدف، قاله أبو عبيدة. قرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وحفص الصدفين بفتح الصاد والدال. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب، واليزيدي، وابن محيصن بضم الصاد والدال. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بضم الصاد وسكون الدال. وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال، واختار القراءة الأولى أبو عبيد لأنها أشهر اللغات. ومعنى الآية: أنهم أعطوه زير الحديد، فجعل بيني بها بين جبلين حتى ساوهما ﴿قال انفضوا﴾ أي قال للعملة: انفضوا على هذه الزير بالكيران ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ أي: جعل تلك المنفوخ فيه، وهو الزير ناراً أي: كالنار في حرها وإسناد الجبل إلى ذي القرنين مجاز لكونه الأمر بالنفخ. قيل: كان يامر بوضع طاقة من الزير والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة، وهو معنى قوله: ﴿قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾ قال أهل اللغة: القطر النحاس الذائب، والإفراغ: الصب، وكذا قال أكثر المفسرين. وقالت طائفة: القطر الحديد المذاب. وقالت فرقة أخرى منهم ابن الأنباري: هو الرصاص المذاب ﴿فما استطاعوا﴾ أصله استطاعوا، فلما اجتمع المتقاربان، وهما التاء والطاء خففوا بالحنف. قال ابن السكيت: يقال: ما أستطيع، وما أسطيع، وما أستطيع، وبالتخفيف قرأ الجمهور، وقرأ حمزة وحده (فما استطاعوا) بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا فادغم التاء في الطاء وهي قراءة ضعيفة الوجه، قال أبو علي الفارسي: هي غير جائزة. وقرأ الأعشى (فما استطاعوا) على الأصل، ومعنى ﴿أن يظهره﴾ أن يعلوه أي: فما استطاع يأجوج وملجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ يقال نقبت الحائط: إذا خرقت فيه خرقة

وجه همزهما وإن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حرفواً لا يعرف للهمز فيها أصل كقولهم: كباث ورثاث واستنشاث الريح. قال أبو علي: يجوز أن يكونا عربيين، فمن همز فهو على وزن يفعل مثل يربوع، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة قبلها ألفاً مثل رأس. وأما ملجوج، فهو مفعول من أج، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق. قال: وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة.

واختلف في نسبهم؛ فقيل: هم من ولد يافث بن نوح، وقيل: يأجوج من الترك وماجوج من الجبل والديلم. وقال كعب الأحبار: احتلم آدم فاختلفت ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء. قال القرطبي: وهذا فيه نظر، لأن الأنبياء لا يحتملون، وإنما هم من ولد يافث، كذلك قال مقاتل وغيره.

وقد وقع الخلاف في صفتهم؛ فمن الناس: من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة، ومنهم: من يقول: لهم مخالب كمخالب السباع، وإن منهم: صنفاً يفترش إحدى أنفيه ويلتحف بالأخرى، ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة في صفاتهم وأفعالهم.

واختلف في إفسادهم في الأرض؛ فقيل: هو أكل بني آدم؛ وقيل: هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد؛ وقيل: كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكواهم إلى ذي القرنين في أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه ﴿فهل نجعل لك خراجاً﴾ هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذي القرنين. وقرئ (خراجاً). قال الأزهري: الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفيء، ويقع على الجزية وعلى الغلة. والخراج أيضاً اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال، والخروج المصدر. وقال قطرب: الخرج الجزية والخراج في الأرض، وقيل: الخرج ما يخرج كل أحد من ماله، والخراج ما يجبيه السلطان؛ وقيل: هما بمعنى واحد ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ أي: رداً حاجزاً بيننا وبينهم. وقرئ سداً بفتح السين. قال الخليل وسيبويه: الضم هو الاسم، والفتح المصدر. وقال الكسائي: الفتح والضم لغتان بمعنى واحد، وقد سبق قريباً ما حكيناه عن أبي عمرو بن العلاء، وأبي عبيدة، وابن الأنباري من الفرق بينهما. وقال ابن أبي إسحاق: ما رأته عينك فهو سد بالضم، وما لا ترى فهو سد بالفتح، وقد قدمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم في السدين ﴿قال ما مكثي فيه ربي﴾ أي قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله لي من القدرة والملك ﴿خير﴾ من خرجكم، ثم طلب منهم المعاونة له فقال: ﴿فاعينوني بقوة﴾ أي: برجال منكم يعملون بأيديهم، أو أعينوني بآلات البناء، أو بمجموعهما. قال الزجاج: يعمل تعملونه معي. قرأ ابن كثير وحده (ما مكثني) بنونين، وقرأ الباقون بنون واحدة ﴿لجعل بينكم وبينهم رداً﴾ هذا جواب الأمر، والردم: ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل. قال الهروي:

فيستقون المياه. ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء قسراً وعلواً، فيبعث الله عليهم نغفاً في أفتانهم فيهلكون، قال رسول الله ﷺ: فالذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتيطر وتشكر شكراً من لحومهم». وقد ثبت في الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت: «استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمّر وجهه وهو يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق، قلت: يا رسول الله انهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثرت الخبث». وأخرجنا نحوه من حديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾ قال: أجرة عظيماً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ردماً﴾ قال: هو كاشد الحجاب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿زبر الحديد﴾ قال: قطع الحديد. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿بين الصديقين﴾ قال: الجبلين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: رؤوس الجبلين. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس في قوله: ﴿قطرأ﴾ قال: النحاس وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿فما استطاعوا أن يظهروه﴾ قال: أن يرتقوه. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: أن يعلوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿جعله نكاء﴾ قال: لا أدري الجبلين يعني به أم بينهما.

وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي بَعْضٍ وَفَعَّ فِي أَصْوَارِهِمْ جَمْعًا ۖ وَرَمَوْا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَسًا ۚ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَظَاوَةٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ مِمَّا ۖ أَحْسِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَحْذَرُوا عِبَادِي مِنْ دُولِي ۚ أَوَّلَئِكَ إِنَّمَا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۚ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۚ الَّذِينَ سَلَ سَعِيمٍ فِي أَلْبُورَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبَطَلُوا أَعْمَالَهُمْ فَلَا نَبْعَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَنَا ۚ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ۚ إِنِّي وَرَسُولِي مَرْهُو ۚ إِنَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَحَمَلْنَا الصَّلَاحَتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّتُ الْفَرْدَوْسِ نُزُلًا ۚ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَمُوتُونَ فِيهَا ۚ

جَوْلَا ۚ

قوله: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ هذا من كلام الله سبحانه بعد انقضاء كلام ذي القرنين، والضمير في بعضهم ليأجوج ومأجوج أي: تركنا بعض يأجوج ومأجوج يوم مجيء الوعد، أو يوم خروج يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر منهم، يقال ماج الناس: إذا دخل بعضهم في بعض حيارى كموج الماء. والمعنى: أنهم يضطربون ويختلطون، وقيل: الضمير في بعضهم للخلق، واليوم يوم القيامة أي: وجعلنا بعض الخلق من الجن والإنس يموج في بعض، وقيل: المعنى وتركنا يأجوج ومأجوج يوم

فخلص إلى ما وراءه. قال الزجاج: ما قدروا أن يعلوا عليه لارتفاعه وانملاسه، وما استطاعوا أن يتقبوه من أسفله لشنّته وصلابته ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾ أي: قال ذو القرنين مشيراً إلى السد: هذا السد رحمة من ربي أي: أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرفتهم لو لم يكن ذلك السد؛ وقيل: الإشارة إلى التمكن من بنائه ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي: أجل ربي أن يخرجوا منه، وقيل هو مصدر بمعنى المفعول، وهو يوم القيامة ﴿جعله نكاء﴾ أي: مستويّاً بالأرض ومنه قوله: ﴿حتى إذا نكت الأرض نكاً﴾ [الفجر: 21]. قال الترمذي: أي مستويّاً، يقال ناقة نكاء: إذا ذهب سنّاها. وقال القتيبي: أي جعله منكوكاً ملصقاً بالأرض. وقال الحليمي: قطعاً منكسراً. قال الشاعر:

هل غير غلرك غاراً فانهدم

قال الأزهري: نكته أي: بققته. ومن قرأ نكاء بالمد وهو عاصم وحزمة والكسائي أراد التشبيه بالناقة النكاء، وهي التي لا سنّ لها أي: مثل نكاء، لأن السدّ مذكّر فلا يوصف بنكاء. وقرأ الباقون (نكاً) بالتثنية على أنه مصدر، ومعناه ما تقدّم، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الحال أي: منكوكاً ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي: وعده بالثواب والعقاب، أو الوعد المعهود حقاً ثابتاً لا يتخلف. وهذا آخر قول ذي القرنين.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿حتى إذا بلغ بين السنين﴾ قال: الجبلين أرمينية وأذربيجان. أخرج أيضاً عن ابن جريج ﴿لا يكادون يفقهون قولاً﴾ قال: الترك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم صححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: يأجوج ومأجوج شبر وشبران وأطولهم ثلاثة أشبار؛ وهم من ولد آدم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر والطبراني وابن مردويه، والبيهقي في البعث، وابن عساکر عن ابن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من نريته ألفاً فصاعداً، وإن من وراثتهم ثلاث أمم: تاويل، وتاريس، ومنسك». وأخرج النسائي من حديث عمرو بن أوس عن أبيه مرفوعاً: «أنه لا يموت رجل منهم إلا ترك من نريته ألفاً فصاعداً». وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض يحفرون السدّ كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستفتحونه غداً، فيعودون إليه أشدّ ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستفتحونه غداً إن شاء الله، ويستثنى فيعودون إليه وهو كهيبته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ويجوز أن يكون في محل جرّ على أنه نعت للأخسرين أو بدل منه، ويكون الجواب أيضاً هو أولئك وما بعده، وأول هذه الوجوه هو أولها، وجملة ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صَنْعًا﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ضلّ أي: والحال أنهم يظنون أنهم محسنون في ذلك منتفعون بآثاره، وتكون جملة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران وبيان سببه، هذا على الوجه الأول الراجح لا على الوجوه الآخرة، فإنها هي الجواب كما قدّمنا، ومعنى كفرهم بآيات ربهم: كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية، ومعنى كفرهم بآياته: كفرهم بالبعث وما بعده من أمور الآخرة، ثم رتب على ذلك قوله: ﴿فَحَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: التي عملوها مما يظنونه حسناً، وهو خسران وضلال، ثم حكم عليهم بقوله: ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعيأ بهم، وقيل: لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم، لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين، وهؤلاء لا حسنات لهم. قال ابن الأعرابي: العرب تقول ما لفلان عندنا وزن أي: قدر لخسته، ويوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته، وسرعة طيشه، وقلة تثبته. والمعنى على هذا أنهم لا يعتدّ بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة، وقرأ مجاهد (يقيم) بالياء التحتية أي: فلا يقيم الله، وقرأ الباقون بالنون، ثم بيّن سبحانه عاقبة هؤلاء وما يثول إليه أمرهم فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الذي ذكرناه من أنواع الوعيد جزأؤهم، ويكون قوله: جهنم عطف بيان للجزاء، أو جملة جزأؤهم جهنم مبتدأ وخبر والجملة خبر ذلك، والسبب في ذلك أنهم ضمو إلى الكفر اتخاذ آيات الله واتخاذ رسله هزواً، فالباء في ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ للسببية، ومعنى كونهم هزواً: أنهم مهزوء بهم. وقد اختلف السلف في تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالاً، فقيل: اليهود والنصارى، وقيل: كفار مكة، وقيل: الخوارج، وقيل: الرهبان أصحاب الصوامع، والأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة. ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ قال ابن الأنباري: كانت فيما سبق من علم الله كانت لأهل طاعته ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قال المبرد: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب. واختار الزجاج ما قاله مجاهد: إن الفردوس البستان باللغة الرومية، وقد تقدّم بيان النزول، وانتصابه على أنه خبر كان. والمعنى: كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلاً معداً لهم مبالغة في إكرامهم، وانتصاب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ على الحال، وكذلك جملة ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ في محل نصب على الحال، والحول مصدر أي: لا يطلبون تحوّلًا عنها إذ هي أعزّ من أن يطلبوا غيرها، أو تشتاق أنفسهم إلى سواها. قال ابن الأعرابي وابن قتيبة

كمال السدّ وتامام عمارته بعضهم يموج في بعض، وقد تقدّم تفسير ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ في الانعام، قيل: هي النفخة الثانية بلبيل قوله بعد: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ فإن الفاء تشعر بذلك، ولم يذكر النفخة الأولى لأن المقصود هنا نكر أحوال القيامة.

والمعنى: جمعنا الخلائق بعد تلاشي أبدانهم ومصيرها تراباً جمعاً تاماً على أكمل صفة وأبعد هيئة وأعجب أسلوب ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ المراد بالعرض هنا الإظهار أي: أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم، وفي ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفرع والروعة ثم وصف الكافرين المنكوبين بقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: كانت أعْيُنُهُمْ في الدنيا في غطاء وهو ما غطى الشيء وستره من جميع الجوانب عن ذكرى عن سبب ذكرى وهو الآيات التي يشاهدها من له تفكر واعتبار، فينكر الله بالتوحيد والتمجيد، فاطلق المسبب على السبب، أو عن القرآن العظيم، وتامل معانيه وتدبر فوائده. ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله، وهذا أبلغ مما لو قال: وكانوا صماً، لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صح به، وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية، وفي نكر غطاء الأعين وعدم استطاعة السمع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار وإعراضهم عن الآلة السمعية ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الحسين هنا بمعنى الظنّ. والاستفهام للتقريع والتوبيخ والفاء للعطف على مقترّ كنتأثره. والمعنى: أظنوا أنهم ينتفعون بما عبيده مع إعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردهم عن قبول الحق، ومعنى ﴿أَن يَتَخَنَّوْا عِبَادِي مِنْ دُونِي﴾ أي: يتخذوهم من دون الله، وهم الملائكة والمسيح والشياطين ﴿أُولَئَاءِ﴾ أي: محبوبين، قال الزجاج: المعنى: يحسبون أن ينفعهم ذلك؟ وقرئ (أفحسب) بسكون السين، ومعناه: أكافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على أنه مبتدأ وخبر، يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا ﴿إِنَّا أَعْتَصْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أي: هيأتها لهم نزلاً يتمتعون به عند ورودهم. قال الزجاج: للنزل المأوى والمنزل، وقيل: إنه الذي يعدّ للضيف، فيكون تهكماً بهم كقوله: ﴿فَبِشْرِهِمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]. والمعنى: إن جهنم معدّة لهم عندنا كما يعدّ النزل للضيف ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ انتصاب أعمالاً على التمييز والجمع للدلالة على إرادة الأنواع منها، ومحل الموصول وهو ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: هم الذين ضلّ سعيهم، والمراد بضلال السعي: بطلانه وضياعه، ويجوز أن يكون في محل نصب على النّم، ويكون الجواب

الصامت، أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، كل درجة منها ما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومن فوقها يكون العرش، ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس». والأحاديث بهذا المعنى كثيرة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: الفردوس بستان بالرومية. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: هو الكرم بالنبطية. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن المنذر، عن عبد الله بن الحارث: أن ابن عباس سأل كعباً عن الفردوس قال: هي جنات الأعناب بالسريانية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ قال: متحولاً.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَاتُ رَبِّي لَنَدَّ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَعُدَّ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِمِثْلِهِ مِدادًا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ رَبُّكَ فَهُمْ كَانُوا بِهِ خَائِعِينَ ۝١٦

لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل فيه على كمال القرآن فقال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَاتُ رَبِّي﴾ قال ابن الأنباري: سمي المداد مداداً لإمداده الكاتب، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء، ويقال للزيت الذي يوقد به السراج: مداد، والمراد بالبحر هنا: الجنس. والمعنى: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته، وفرض أن جنس البحر مداداً لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات، ولو جثنا بمثل البحر مداداً لنفد أيضاً، وقيل في بيان المعنى: لو كان البحر مداداً للقلم والقلم يكتب ﴿لَنفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَعُدَّ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ جِثَا بِمِثْلِهِ مِدادًا﴾ كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله: (قل لو كان). وفيه زيادة مبالغة وتأكيد، والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها أي: لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته لو لم يجيء بمثله مداداً ولو جثنا بمثله مداداً، والممد الزيادة، وقيل: عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى، وهو وإن كان واحداً فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد، وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع، قال الأعشى:

وجه نقي اللون صاف يزينه مع الجيد لبات لها ومعاصم
فعبّر باللبات عن اللبة. قال الجبائي: إن قوله ﴿قَبْلَ أَنْ تَعُدَّ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ يدل على أن كلماته قد تنفد في الجملة، وما ثبت عنده امتنع قدمه. وأجيب بأن المراد: الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية، وقيل في الجواب: إن نفاد شيء قبل نفاد شيء آخر لا يدل على نفاد الشيء الآخر، ولا على عدم نفاده، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات الله بحيث لا تضبطها عقول البشر، أما أنها متناهية، أو غير متناهية فلا دليل على ذلك في الآية. والحق أن كلمات الله تابعة لمعلوماته، وهي غير متناهية، فالكلمات غير متناهية. وقرأ مجاهد وابن محيصن وحמיד (ولو جثنا بمثله مداداً) وهي كذلك في مصحف أبي، وقرأ الباقون (مداداً) وقرأ حمزة

والأزهري: الحول اسم بمعنى التحول يقوم مقام المصدر، وقال أبو عبيدة والفراء: إن الحول التحويل.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق هارون بن عنترة، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمُ الْآيَةَ﴾ قال: الجن والإنس ﴿يَمُوجُ﴾ بعضهم ﴿فِي بَعْضٍ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ قال: لا يعللون سمعاً. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر عن علي: أنه قرأ ﴿فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال أبو عبيد: بجزم السين وضم الباء. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة: أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد الرزاق، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه عن طريق مصعب بن سعد قال: سألت أبي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أمم الحرورية؟ قال: لا هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: 27]. وكان سعد يسميهم: الفاسقين. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن مصعب قال: قلت لأبي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الحرورية هم؟ قال: لا ولكنهم أصحاب الصوامع، والحرورية قوم: زاغوا فزاغ الله قلوبهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي حمصة عبد الله بن قيس قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول: في هذه الآية ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري. وأخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال: سمعت علي بن أبي طالب وسأله ابن الكوا فقال: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ قال: فجرة قریش. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن طريقين عن علي: أنه سئل عن هذه الآية ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ قال: لا أظن إلا أن الخوارج منهم، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا تَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله الفردوس، فإنها سرّة الجنة، وإن أهل الفردوس يسمعون أطيب العرش». وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سألت الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وقوفه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأحمد، والترمذي، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي، وابن مردويه عن عبادة بن

أبي هريرة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا؟ فقال: لا أجر له، فاعظم الناس تلك، فعاد الرجل فقال: لا أجر له». وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص، وابن جرير في تهذيبه، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن شاذ بن أوس قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر. وأخرج الطيالسي، وأحمد، وابن أبي الدنيا، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن شاذ بن أوس أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك، ثم قرأ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية». وأخرج الطيالسي، وأحمد، وابن مردويه، وأبو نعيم عن شاذ أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشركه أنا عنه غني». وأخرج أحمد، والحكيم الترمذي، وابن جرير في تهذيبه، والحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي لماكن رجل». وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي عن شاذ بن أوس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية، قلت: أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراون الناس بأعمالهم، قلت: يا رسول الله ما الشهوة الخفية؟ قال: يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته». وأخرج أحمد، ومسلم، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ عن ربه أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فانا بريء منه، وهو للذي أشرك»، وفي لفظ: «فمن أشرك بي أحداً فهو له كله». وفي الباب أحاديث كثيرة في التحذير من الرياء وأنه الشرك الأصغر، وأن الله لا يقبله، وقد استوفاهما صاحب الدر المنثور في هذا الموضع فليرجع إليه، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية، بل الشرك الجلي يدخل تحتها دخولاً أولياً، وعلى فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير إلى ذلك ما تقدمنا، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في علم الأصول.

وقد ورد في فضائل هذه الآية بخصوصها ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه عن أبي حكيم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكنتهم». وأخرج ابن راهويه، والبزار، والحاكم وصححه، والشيخاني في الألقاب، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية، كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة». قال ابن كثير بعد إخراج: غريب جداً.

والكسائي (قبل أن ينفذ) بالتحتية، وقرأ الباقر بالفوقية، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يسلك مسلك التواضع، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: إن حالي مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية، ومن كان هكذا فهو لا يدعي الإحاطة بكلمات الله إلا أنه امتاز عنهم بالوحي إليه من الله سبحانه فقال: ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ وكفى بهذا الوصف فارقاً بينه وبين سائر أنواع البشر، ثم بين أن الذي أوحى إليه هو قوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له في ألوهيته، وفي هذا إرشاد إلى التوحيد، ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الرجاء توقع وصول الخير في المستقبل، والمعنى: من كان له هذا الرجاء الذي هو شأن المؤمنين ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو ما دلّ الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ من خلقه سواء كان صالحاً، أو طالحاً، حيواناً أو جماداً، قال الماوردي: قال جميع أهل التأويل في تفسير هذه الآية: إن المعنى لا يرائي بعمله أحداً. وأقول: إن دخول الشرك الجلي الذي كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدم على دخول الشرك الخفي الذي هو الرياء، ولا مانع من دخول هذا الخفي تحتها، إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿لِكَلِمَاتٍ رَبِّي﴾ يقول: علم ربي. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: يقول: ينفذ ماء البحر قبل أن ينفذ كلام الله وحكمته. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية قال: أنزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً غيره، وليست هذه في المؤمنين. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس قال: «قال رجل: يا نبي الله إني أقف المواقف أبتغي وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يردّ عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾». وأخرج ابن منده، وأبو نعيم في الصحابة، وابن عساكر من طريق السدي الصغير عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له، فزاد في تلك لقالة الناس فلا يريد به الله، فنزل في ذلك ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: «قال رجل: يا رسول الله اعتق وأحب أن يرى، وأتصدق وأحب أن يرى، فنزلت: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية، وهو مرسل. وأخرجه هناك في الزهد عنه أيضاً. وأخرج ابن سعد، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله الله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن

الحسن جماعة. وقيل في تأويلها: أنه كان يشمّ الرفع فقط. وأظهر الدال من هجاء ضاد نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وعاصم، ويعقوب، وهو اختيار أبي عبيد وأدغمها الباقون. وقد قيل في توجيه هذه القراءات: أن التفخيم هو الأصل، والإمالة فرع عنه، فمن قرأ بتفخيم الهاء والياء فقد عمل بالأصل، ومن أمالهما فقد عمل بالفرع، ومن أمال أحدهما وفخم الآخر فقد عمل بالأمرين، وقد تقدم الكلام في هذه الحروف الواقعة في فواتح السورة مستوفي في أوائل سورة البقرة، ومحل هذه الفاتحة إن جعلت اسماً للسورة على ما عليه الأكثر الرفع على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها، قاله الفراء. واعترضه الزجاج فقال: هذا محال لأن كَهَيْصَ ليس هو مما أنبأنا الله عزّ وجلّ به عن زكرياء، وقد أخبر الله تبارك وتعالى عنه وعما بشر به، وليس كَهَيْصَ من قصته، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف، وإن جعلت مسرودة على نمط التعديد، فقول: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي: هذا نكر رحمة ربك؛ وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف أي: فيما يتلى عليك نكر رحمة ربك. قال الزجاج: نكر مرتفع بالمضمر، والمعنى: هذا الذي نتلوه عليك نكر رحمة ربك ﴿عَبْدَهُ زَكْرِيَاءَ﴾ يعني: إجابته إياه حين دعاه رساله الولد، وانتصاب عبده على أنه مفعول للرحمة قاله الأخفش، وقيل: للذكر. ومعنى نكر الرحمة بلوغها وإصابتها، كما يقال: نكرني معروف فلان أي: بلغني. وقرأ يحيى بن يعمر (نكر) بالنصب، وقرأ أبو العالية عبده بالرفع على أن المصدر مضاف إلى المفعول، وفاعل النكر هو عبده، وزكرياء على القراءتين عطف بيان له أو بدل منه، وقرأ الكلبي (نكر) على صيغة الفعل الماضي مشدداً ومخففاً على أن الفاعل عبده، وقرأ ابن معمر على الأمر، وتكون الرحمة على هذا عبارة عن زكرياء، لأن كل نبي رحمة لأمته ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ خَفِيًّا﴾ العامل في الظرف رحمة، وقيل: نكر، وقيل: هو بدل اشتغال من زكرياء. واختلف في وجه كون ندائه هذا خفياً؛ فقيل: لأنه أبعد عن الرياء، وقيل: أخفاه، لئلا يلام على طلبه للولد في غير وقته، ولكونه من أمور الدنيا، وقيل: أخفاه مخافة لا يقدر على الجهر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ هذه الجملة مفسرة لقوله: نادى ربه، يقال: وهن يهن وهناً إذا ضعف فهو وهن، وقرئ بالحركات الثلاث. أراد أن عظامه فترت وضعفت قوته، وذكر العظم، لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولأن أشد ما في الإنسان صلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحد العظم قصداً إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّاسُ شَيْبًا﴾ قرأ أبو عمرو بإدغام السين في الشين، والباقون بعدهم، والاشتعال في الأصل انتشار شعاع النار، فشبّه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية، بأن

وأخرج ابن الضريس عن أبي الدرداء قال: من حفظ خاتمة الكهف كان له نور يوم القيامة من لدن قرنه إلى قدمه. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن معاوية بن أبي سفيان أنه تلا هذه الآية ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن. قال ابن كثير: وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية هي آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أضاف أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا يغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه.

تفسير سورة مريم

أخرج النحاس، وابن مروي عن ابن عباس قال: أنزلت بمكة سورة ﴿كَهَيْصَ﴾. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة. وأخرج ابن مروي عن عائشة مثله. وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن لم سلمة أن النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب: هل معك مما جاء به يعني: رسول الله ﷺ عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه صدراً من ﴿كَهَيْصَ﴾ فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. وقد نكر ابن إسحاق القصة بطولها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْصَ ﴿١﴾ وَذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُ زَكْرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شُعِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَلَإِ مِن رَّبِّي وَكَانَتْ آمْرًا مُّعَاقَرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ تَرَىٰ رَبِّي وَرَبِّي مِنَ آلِ يَعْقُوبَ وَآجِسُهُ رَبِّ رِضِيًّا ﴿٦﴾ يُنَادِيكَ إِنَّا ذُنُوبُهُمْ يُنَادِيكَ أَسْمُوعِيْلُ لَمْ يَجْعَلْ لَّنَا مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنْتُ مِنْ أَعْمَارٍ وَكَانَتْ آمْرًا مُّعَاقَرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَدًى وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَوْ نَشَاءُ لَنَمَكِّتُكَ أَتَىٰ آيَةً قَالَ: إِنِّي أَتَىٰكَ الْكَلَمُ النَّاسُ ثَلَاثَ لَّيَالٍ سُوِّيًّا ﴿٩﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْغَحَرِ فَأَوَّحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بِكُرَةِ وَعَشِيًّا ﴿١٠﴾

قوله: ﴿كَهَيْصَ﴾ قرأ أبو جعفر هذه الحروف مقطعة، ووصلها الباقون، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء، وعكس ذلك ابن عامر وحمزة، وأمالهما جميعاً الكسائي وأبو بكر وخلف، وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة وفتحهما الباقون. وعن خارجة أن الحسن كان يضم كاف، وحكي عن غيره أنه كان يضم ها. وقال أبو حاتم: لا يجوز ضم الكاف ولا الهاء ولا الياء. قال النحاس: قراءة أهل المدينة من أحسن ما في هذا، والإمالة جائزة في ها وفي يا وقد اعترض على قراءة

قال ابن جرير: وكان اسم امرأته إشاع بنت فاقود بن ميل، وهي أخت حنة، وحنة هي أم مريم. وقال القتيبي: هي إشاع بنت عمران، فعلى القول يكون يحيى بن زكرياء ابن خالة أم عيسى، وعلى القول الثاني يكونان ابني خالة كما ورد في الحديث الصحيح **﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾** أي: أعطني من فضلك ولياً، ولم يصرح يطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته في حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما وحصوله منهما. وقد قيل: إنه كان ابن بضع وتسعين سنة، وقيل: بل أراد بالولي الذي طلبه هو الولد، ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة، فإن الله سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك، فيكون من جملة المعجزات الدالة على صفتهم **﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾** قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمره وابن محيصن واليزيدي ويحيى بن المبارك⁽¹⁾ بالرفع في الفعلين جميعاً على أنهما صفتان للولي وليس بجواب للدعاء. وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائي بالجزم فيهما على أنهما جواب للدعاء. ورجح القراءة الأولى أبو عبيد وقال: هي أصوب في المعنى، لأنه طلب ولياً هذه صفة فقال: هب لي الذي يكون وارثي. ورجح ذلك النحاس وقال: لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة، تقول: أطع الله يدخلك الجنة أي: إن تطعه يدخلك الجنة، وكيف يخبر الله سبحانه بهذا، أعني كونه أن يهب له ولياً يرثه، وهو أعلم بذلك، والورثة هنا هي وراثة العلم والنبوة على ما هو الراجح كما سلف. وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وزعم بعض المفسرين أنه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان، وبه قال الكلبي ومقاتل، وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم إليه للقربة أو الصبحة أو الموافقة في الدين، وقد كان فيهم أنبياء وملوك، وقرئ يرثني وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثني. وقرئ (وارث آل يعقوب) أي: أنا. وقرئ (أو يرث آل يعقوب) بلفظ التصغير على أن هذا المصغر فاعل يرثني، وهذه القراءات في غاية الشنوذ لفظاً ومعنى **﴿ولجعل رب رضيعاً﴾** أي مرضياً في أخلاقه وأفعاله؛ وقيل: راضياً بقضائك وقدرك؛ وقيل: رجلاً صالحاً ترضى عنه؛ وقيل: نبياً كما جعلت آباءه أنبياء **﴿يا زكرياء إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾** قال جمهور المفسرين: إن هذا النداء من الله سبحانه، وقيل: إنه من جهة الملائكة، لقوله في آل عمران **﴿فنبأته الملائكة﴾** [آل عمران: 39]، وفي الكلام حذف أي: فاستجاب له دعاءه، فقال: يا زكرياء، وقد تقدّم في آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكرياء. قال الزجاج: سمي يحيى لأنه حيي بالعلم والحكمة التي أوتيتها **﴿لم نجعل له من قبل**

حذف المشبه به وأداة التشبيه، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها. قال الزجاج: يقال للشيب إذا كثّر جداً: قد اشتعل رأس فلان، وأنشد للبيد:

فإن ترى رأسي أمسى واضحاً سلط الشيب عليه فاشتعل وانتصاب شيباً على التمييز قاله الزجاج. وقال الأخفش: انتصابه على المصدر، لأن معنى اشتعل: شاب. قال النحاس: قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل، والمصدرية أظهر فيما كان كذلك، وكان الأصل اشتعل شيب رأسي، فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة الشمول **﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾** أي: لم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت من الأوقات، بل كلما دعوتك استجبت لي.

قال العلماء: يستحب للمرء أن يجمع في دعائه بين الخضوع، وذكر نعم الله عليه كما فعل زكرياء ما هنا، فإن في قوله: **﴿وهمن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾** غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه، وبلوغ مأربه، وفي قوله: **﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾** ذكر ما عوّده الله من الإنعام عليه بإجابة أدعيته، يقال شقي بكذا أي: تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه **﴿وإني خفت للموالي من ورثتي﴾** قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن علي بن الحسين وأبوه علي ويحيى بن يعمر (خفت) بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وفاعله **﴿الموالي﴾** أي: قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدي، أو انقطعوا بالموت، مأخوذاً من خفت القوم إذا ارتحلوا، وهذه قراءة شاذة بعيدة عن الصواب. وقرأ الباقر (خفت) بكسر الخاء وسكون الفاء على أن فاعله ضمير يعود إلى زكرياء، ومفعوله الموالى، ومن ورثتي متعلق بمحذوف لا بخفت، وتقديره: خفت فعل الموالى من بعدي. قرأ الجمهور (ورثتي) بالهمز والمد وسكون الياء، وقرأ ابن كثير بالهمز والمد وفتح الياء. وروي عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح الياء، مثل عصاي، والموالى هنا: هم الأقارب الذين يرثون وسائر العصابات من بني العم ونحوهم، والعرب تسمي هؤلاء موالى، قال الشاعر:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا لا تنشروا بيننا ما كان مدفوناً قيل: الموالى الناصرون له. واختلفوا في وجه المخافة من زكرياء لمواليه من بعده، فقيل: خاف أن يرثوا ماله، وأراد أن يرثه ولده، فطلب من الله سبحانه أن يرثه ولداً، وقال آخرون: إنهم كانوا مهملين لأمر الدين، فخاف أن يضع الدين بموته، فطلب ولياً يقوم به بعد موته، وهذا القول أرجح من الأوّل لأن الأنبياء لا يورثون وهم أجل من أن يعتنوا بأمور الدنيا، فليس المراد هنا وراثة المال، بل المراد: وراثة العلم والنبوة والقيام بأمر الدين. وقد ثبت عن نبينا ﷺ أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» **﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾** العاقر: هي التي لا تلد لكبر سنّها، والتي لا تلد أيضاً لغير كبر وهي المرادة هنا، ويقال: للرجل الذي لا يلد عاقر أيضاً، ومنه قول عامر بن الطفيل:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً

(1) (قوله واليزيدي ويحيى بن المبارك). الصواب ويحيى بن المبارك اليزيدي اهـ مصصح القرآن.

سمياً﴾ قال أكثر المفسرين: معناه لم نسم أحداً قبله يحيى. وقال مجاهد وجماعة: معنى ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أنه لم يجعل له مثلاً ولا نظيراً، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السمو، ورد هذا بأنه يقتضي تفضيله على إبراهيم وموسى، وقيل: معناه لم تلد عاقر مثله، والأول أولى. وفي إخباره سبحانه بأنه لم يسم بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين: الأولى أن الله سبحانه هو الذي تولى تسميته به، ولم يكلها إلى الأبوين. والجهة الثانية أن تسميته باسم لم يوضع لغيره يفيد تشريفه وتعظيمه ﴿قال رب أنى يكون لي غلام﴾ أي: كيف أو من أين يكون لي غلام؟ وليس معنى هذا الاستفهام الإنكار، بل التعجب من قدرة الله وبديع صنعته، حيث يخرج ولداً من امرأة عاقر وشيخ كبير، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في آل عمران ﴿وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ يقال: عتأ الشيخ يعتو عتياً إذا انتهى سنه وكبر، وشيخ عات إذا صار إلى حال اليبس والجفاف، والاصل عتوا لأنه من نوات الواو فابتلوه ياء لكونها أخف، ومثل ما في الآية قول الشاعر:

إنما يعنر الوليد ولا يعنر من كان في الزمان عتياً
وقرأ يحيى بن وثاب وحمة والكسائي وحفص والأعمش (عتياً) بكسر العين، وقرأ الباقون بضم العين وهما لغتان، ومحل جملة ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ النصب على الحال من ضمير المتكلم، ومحل جملة ﴿وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ النصب أيضاً على الحال، وكلا الجملتين لتأكيد الاستبعاد والتعجب المستفاد من قوله: ﴿أنى يكون لي غلام﴾ أي: كيف يحصل بيننا ولد الآن، وقد كانت امرأتي عاقراً لم تلد في شبابها وشبابي وهي الآن عجوز، وأنا شيخ هرم؟ ثم أجاب الله سبحانه على هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله: ﴿قال كذلك قال ربك﴾ الكاف في محل رفع أي: الأمر كذلك، والإشارة إلى ما سبق من قول زكريا، ثم ابتدأ بقوله: ﴿قال ربك﴾ ويحتمل أن يكون محله النصب على المصدرية أي: قال قولاً مثل ذلك، والإشارة بذلك إلى مبهم يفسره قوله: ﴿هو علي هين﴾ وأما على الاحتمال الأول فتكون جملة ﴿هو علي هين﴾ مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره أي: قال هو مع بعده عندك علي هين، وهو فيعمل من هان الشيء يهون إذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد. قال الفراء: أي خلقه علي هين ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها. قال الزجاج: أي خلق الولد لك كخلقك، والمعنى: أن الله سبحانه خلقه ابتداء وأوجده من عدم المحض، فيأجد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه، وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من عدم حقيقة بأن يقول: وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيئاً، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من عدم. قرأ أهل المدينة وأهل مكة والبصرة وعاصم وابن عامر (وقد خلقتك من

قبل) وقرأ سائر الكوفيين (وقد خلقناك من قبل) ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي: علامة تذلني على وقوع المسؤول وتحققه وحصول الحبل، والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه. قال ابن الأنباري: وجه ذلك أن نفسه تانت إلى سرعة الأمر، فسأل الله آية يستدل بها على قرب ما من به عليه، وقيل: طلب آية تدل على أن البشرى من الله سبحانه لا من الشيطان، لأن إبليس أوهمه بذلك، كذا قال الضحك والسدي وهو بعيد جداً ﴿قال آيتك ألا تكلم للناس ثلاث ليال سوياً﴾ قد تقدم تفسير هذا في آل عمران مستوفى، وانتصاب سوياً على الحال، والمعنى: آيتك أن لا تقدر على الكلام والحال أنك سوي الخلق ليس بك آفة تمنعك منه، وقد دل بنكر الليالي هنا والأيام في آل عمران أن المراد ثلاثة أيام ولياليهن ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ وهو مصلاه، واشتقاقه من الحرب، كأن ملازمه يحارب الشيطان، وقيل: من الحرب محرراً، كان ملازمه يلقي حرباً وتعباً ونصباً ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ قيل معنى أوحى: أوماً ببليلى قوله في آل عمران ﴿إلا رمزاً﴾ [آل عمران: 41]؛ وقيل: كتب لهم في الأرض وبالأول قال الكلبي، والقرظي، وقتادة، وابن منبه، وبالثاني قال مجاهد، وقد يطلق الوحي على الكتابة ومنه قول ذي الرمة:

سوى الأربع الدم اللواتي كأنها بقية وحي في بطون الصحائف
وقال عنتر:

كوحى صحائف من عهد كسرى فأمداها لأعجم طمطمى
و «أنه في قوله: ﴿أن سبحوا﴾ مصدرية أو مفسرة، والمعنى: فأوحى إليهم بأن صلوا أو أي: صلوا، وانتصاب بكرة وعشياً على الظرفية. قال الفراء: العشي يؤنث، ويجوز تنكيره إذا أبهم. قال: وقد يقال العشي جمع عشية، قيل: والمراد صلاة الفجر والعصر، وقيل: المراد بالتسبيح هو قولهم سبحان الله في الوقتين أي: نزهوا ربكم طرفي النهار. وقد أخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات والضيء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿كهيعص﴾ كبير هاد أمين عزيز صادق، وفي لفظ كاف بدل كبير. وأخرج عبد الرزاق، وأدم بن أبي إياس، وعثمان بن سعيد الدارمي في التوحيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس ﴿كهيعص﴾ قال: كاف من كريم، وهاء من هاد، وياء من حكيم، وعين من سليم، وصاد من صادق. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة ﴿كهيعص﴾ هو الهاء المقطع، الكاف من الملك، والهاء من الله، والياء والعين من العزيز، والصاد من المصور. وأخرج ابن مردويه عن الكلبي أنه سئل عن ﴿كهيعص﴾ فحدث عن أبي صالح، عن أم هانئ، عن

اليهم قال: كتب لهم كتاباً. وأخرج ابن أبي الدنيا، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ قال: أمرهم بالصلاة ﴿بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا﴾

يَتَجَنَّبُ عَنْ الْحَبَثِ يَفُورُ وَيَأْتِيَهُ الْخُفَّ صَبِيحًا ﴿١٦﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٧﴾ يَبْرَأُ بَوْلَهُ لَمْ يَكُنْ جَنَارًا صَغِيرًا ﴿١٨﴾ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٩﴾

قوله: ﴿يَا يَحْيَى﴾ ها هنا حذف، وتقديره: وقال الله للمولود: يا يحيى، أو فولد له مولود فبلغ المبلغ الذي يجوز أن يخاطب فيه، فقلنا له: يا يحيى. وقال الزجاج: المعنى فوهبنا له وقلنا له: يا يحيى. والمراد بالكتاب: التوراة لأنه المعهود حينئذ، ويحتمل أن يكون كتاباً مختصاً به وإن كنا لا نعرفه الآن، والمراد بالأخذ: إما الأخذ الحسي أو الأخذ من حيث المعنى، وهو القيام بما فيه كما ينبغي، وذلك بتحصيل ملكة تقتضي سهولة الإقدام على المأمور به، والإحجام عن المنهي عنه، ثم أكده بقوله: ﴿قُوَّةٌ﴾ أي: بجذ وعزيمة واجتهاد ﴿وَأَتَيْنَاهُ لِلْحُكْمِ صَبِيحًا﴾ المراد بالحكم: الحكمة، وهي الفهم للكتاب الذي أمر بأخذه وفهم الأحكام الدينية، وقيل: هي العلم وحفظه والعمل به، وقيل: النبوة، وقيل: العقل، ولا مانع من أن يكون الحكم صالحاً لحمله على جميع ما نكر. قيل: كان يحيى عند هذا الخطاب له ابن سنتين، وقيل: ابن ثلاث ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ معطوف على الحكم. قال جمهور المفسرين: الحنان الرحمة والشفقة والعطف والمحبة، وأصله توفيق النفس، مأخوذ من حنين الناقة على ولدها. قال أبو عبيدة: تقول حنانك يا رب وحنانك يا رب بمعنى واحد، يريد رحمتك، قال طرفة:

لِأَمْرِ أَقْنَيْتَ فَاسْتَبَقَ بَعْضُنَا حَنَانِكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَمُونٌ مِنْ بَعْضٍ وَقَالَ أَمْرُ الْقَيْسِ:

وَيَمْنَحُهَا بَنُو سُلَخِ بْنِ بَكْرٍ مَعِيزُهُمْ حَنَانُكَ ذَا الْحَنَانِ
قال ابن الأعرابي: الحنان مشدداً من صفات الله عز وجل، والحنان مخففاً: العطف والرحمة، والحنان الرزق والبركة. قال ابن عطية: والحنان: في كلام العرب أيضاً: ما عظم من الأمور في ذات الله، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل: والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حناناً، يعني: بلالاً، لما مر به، وهو يعذب، وقيل: إن القائل لذلك هو ورقة بن نوفل. قال الأزهري: معنى ذلك لأترحمن عليه، ولأتعطفن عليه لأنه من أهل الجنة، ومثله قول الحطية:

تَحْنَنُ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِيكَ فَلِنْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالَا
ومعنى ﴿مَنْ لَدُنَّا﴾ من جنابنا، قيل: ويجوز أن يكون المعنى: أعطيناه رحمة من لنا كائنة في قلبه يتحنن بها على الناس، ومنهم أبواه وقربته حتى يخلصهم من الكفر ﴿وَزَكَاةً﴾ معطوف على ما قبله، والزكاة التطهير والبركة والتزمية والبر أي: جعلناه مباركاً للناس يهديهم إلى الخير؛ وقيل: زكياه بحسن الثناء عليه كتركيزية الشهود، وقيل: صدقة تصدقنا به على أبويه قاله ابن قتيبة ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾

رسول الله ﷺ قال: «كاف هاد عالم صائق». وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي، وابن ماجه، وابن جرير عن فاطمة ابنة علي قال: كان علي يقول: يا كَهَيْصَ اغفر لي. وأخرج أبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في ﴿كَهَيْصَ﴾ قال: للكاف الكافي، والهاء الهادي، والعين العالم، والصاد الصائق. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن السدي قال: كان ابن عباس يقول في كَهَيْصَ وَحَمَّ وَيَسَّ وأشباه هذا: هو اسم الله الأعظم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله.

وكما وقع الخلاف في هذا وأمثاله بين الصحابة وقع بين من بعدهم ولم يصح مرفوعاً في ذلك شيء، ومن روي عنه من الصحابة في ذلك شيء فقد روى عن غيره ما يخالفه، وقد يروى عن الصحابي نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة في هذه الفواتح فلا يقوم شيء من ذلك حجة، بل الحق الوقف، ورد العلم في مثلها إلى الله سبحانه، وقد قمنا تحقيق هذا في فاتحة سورة البقرة. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان زكريا نجاراً». وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: كان آخر أنبياء بني إسرائيل زكريا بن أذر بن مسلم من نرية يعقوب دعا ربه سرّاً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهِنَ الْعِظْمِ مِنِّي﴾ إلى قوله: ﴿خَفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ قال: وهم العصابة ﴿يُرِثُنِي﴾ يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب، فنأثته الملائكة، وهو جبريل: إن الله يبشرك ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال: يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس من الله إنما هو من الشيطان سخر بك، فشكل وقال: ﴿إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ يقول: من أين يكون وقد بلغني الكبر وامراتي عاقر، قال الله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَاقِي خَفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَثَتِي﴾ قال: الورثة وهم عصابة الرجل. وأخرج الفريابي عنه قال: كان زكريا لا يولد له فسال ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثَ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال: مثلاً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه قال: لا أدري كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف عتياً أو عسياً. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله: ﴿عَتِيًّا﴾ قال: لبث زماناً في الكبر. وأخرج أيضاً عن السدي قال: هرمأ. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ لِيَالٍ سُوِيًّا﴾ قال: اعتقل لسانه من غير مرض، وفي لفظ من غير خرس، أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَوَاحِشٍ﴾

عُلِمَا زَكِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَجَعْنَا إِلَيْهِمَا ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا يَكُن جَبَارًا عَصِيًّا ﴿٢٠﴾ أَي: لم يكن متكبراً ولا عاصياً لوالديه أو لربه، وهذا وصف له عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح ﴿٢١﴾ وَوَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴿٢٢﴾ قَالَ ابْن جرير وغيره: معناه أمان عليه من الله. قال ابن عطية: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأنبه من الأمان، لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه، وهو أقل درجاته، وإنما الشرف في أن يسلم الله عليه، ومعنى ﴿يَوْمٌ وَلَدَتْهُ﴾ أنه آمن من الشيطان وغيره في ذلك اليوم، أو أن الله حياه في ذلك اليوم، وهكذا معنى ﴿يَوْمٌ يَمُوتُ﴾ وهكذا معنى ﴿يَوْمٌ يَبْعَثُ حَيًّا﴾ قيل: أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن: يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه، ويوم يموت لأنه يرى قوماً لم يكن قد عرفهم وأحكاماً ليس له بها عهد، ويوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة. فخص الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ قال: بجدة ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قال: الفهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: يقول: اعمل بما فيه من فرائض. وأخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار قال: اللب. وأخرج أبو نعيم، والديلمي، وابن مردويه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قال: أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم عن قتادة: بدلة وهو ابن ثلاث سنين. وأخرج الحاكم في تاريخه من طريق نهشل بن سعد، عن الضحك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الغلمان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال يحيى: ما للعب خلقنا، اذهبوا نصلي فهو قول الله ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾». وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبيًّا». وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً. وأخرج عبد الرزاق، والفرغاني، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَحَنَانًا﴾ قال: لا أدري ما هو إلا أنني أفنّه يعطف الله على عبده بالرحمة، وقد فسرهما جماعة من السلف بالرحمة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَزَكَاةً﴾ قال: بركة، وفي قوله: ﴿وَوَكَانَ تَقِيًّا﴾ قال: طهر فلم يعمل بذنب.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿٢٣﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٢٤﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَذِيرًا ﴿٢٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ

قوله: ﴿وَأَنكَرَ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ هذا شروع في ابتداء خلق عيسى، والمراد بالكتاب: هذه السورة أي: أنكر يا محمد للناس في هذه السورة قصة مريم، ويجوز أن يراد بالكتاب جنس القرآن، وهذه السورة منه، ولما كان الذكر لا يتعلق بالاعيان احتيج إلى تقدير مضاف يتعلق به الذكر، وهو قصة مريم، أو خبر مريم ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ العامل في الظرف هو ذلك المضاف المقترن، ويجوز أن يجعل بدل اشتمال من مريم، لأن الأزمان مشتملة على ما فيها، ويكون المراد بمريم: خبرها، وفي هذا الإبدال دلالة على تفخيم شأن الوقت لوقوع قصتها العجبية فيه، والنبد الطرح والرعي. قال الله سبحانه ﴿فَنَبِّئُوهُمْ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: 187]. والمعنى: أنها تحت وتباعثت. وقال ابن قتيبة: اعتزلت وقيل: انفردت، والمعاني متقاربة. واختلفوا في سبب انتباذها فقيل: لأجل أن تعبد الله سبحانه؛ وقيل لتطهر من حيضها، و ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ متعلق بانتبذت، وانتصاب ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ على المفعولية للفعل المذكور أي: مكاناً من جانب الشرق، والشرق بسكون الراء: المكان الذي تشرق فيه الشمس، وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار، حكى معناه ابن جرير.

وقد اختلف الناس في نبوة مريم، فقيل: إنها نبية بمجرّد هذا الإرسال إليها ومخاطبتها للملك؛ وقيل: لم تكن نبية، لأنه إنما كلمها الملك وهو على مثال البشر. وقد تقدّم الكلام في هذا في آل عمران ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: اتخذت من دون أهلها حجاباً يستترها عنهم لئلا يروها حال العبادة، أو حال التطهر من الحيض، والحجاب الستر والحاجز ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو روح عيسى، لأن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد، والأول أولى لقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: تمثل جبريل لها بشراً مستوي الخلق لم يفقد من نعوت بني آدم شيئاً. قيل: وجه تمثل الملك لها بشراً أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته، فلما رآته في صورة إنسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظنّت أنه يريد بها بسوء، فاستعانت بالله منه و ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أي: ممن يتقي الله ويخافه، وقيل: إن تقياً اسم رجل صالح فتعزّلت منه تعجباً، وقيل:

إنه اسم رجل فاجر معروف في ذلك الوقت، والأول أولى. وجواب الشرط محذوف أي: فلا تتعرض لي ﴿قال إنما أنا رسول ربك﴾ أي: قال لها جبريل: إنما أنا رسول ربك الذي استعنت به، ولست ممن يتوقع منه ما خطر ببالك من إرادة السوء ﴿لا هب لك غلاماً زكياً﴾ جعل الهبة من قبله لكونه سبباً فيها من جهة كون الإعلام لها من جهته، أو من جهة كون النفخ قام به في الظاهر. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب، وورش، عن نافع (ليهب) على معنى أرسلني ليهب لك، وقرأ الباقرن بالهمز. والزكي الطاهر من الذنوب الذي ينمو على النزاهة والعفة، وقيل: المراد بالزكي النبي ﴿قالت انى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر﴾ أي: لم يقربني زوج ولا غيره ﴿ولم اك بغياً﴾ البغي هي الزانية التي تبغي للرجال. قال المبرد: أصله بغوي على فعل قلبت اللوا ياء ثم أذغمت في الياء وكسرت الغين للمناسبة. وقال ابن جني: إنه فعيل، وزيادة نكر كونها لم تك بغياً مع كون قولها لم يمسسني بشر يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيهاً لجانبها من الفحشاء؛ وقيل: ما استبعدت من قدرة الله شيئاً، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد هل من قبل زوج تتزوجه في المستقبل أم يخلقه الله سبحانه ابتداءً؟ وقيل: إن المس عبارة عن النكاح الحلال، وعلى هذا لا يحتاج إلى بيان وجه قولها: ولم اك بغياً، وما نكرناه من شموله أولى باستعمالات أهل اللغة، وما يوجد في محاوراتهم مما يطول تعداده اهـ. ﴿ولنجعله آية للناس﴾ أي: ولنجعل هذا الغلام أو خلقه من غير أب آية للناس يستدلون بها على كمال القدرة، وهو علة لمعلل محذوف، والتقدير خلقناه لنجعله، أو معطوف على علة أخرى مضمرة تتعلق بما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿وهو علي هين﴾ وجملة ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين﴾ مستأنفة، والقائل هو الملك، والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من قول زكرياء. وقوله: ﴿ورحمة منا﴾ معطوف على آية أي: ولنجعله رحمة عظيمة كائنة منا للناس لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير، لأن كل نبي رحمة لأمته ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ أي: وكان ذلك المنكور أمراً مقدرًا قد قدره الله سبحانه وجف به القلم ﴿فحملته﴾ ها هنا كلام مطوي، والتقدير: فاطمانت إلى قوله فدنا منها فنفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملته، وقيل: كانت النفخة في ذيلها، وقيل: في قمها. قيل: إن وضعها كان متصلاً بهذا الحمل من غير مضي مدة للحمل، ويدل على ذلك قوله: ﴿فانتبذت به مكاناً قصياً﴾ أي: تنحت واعتزلت إلى مكان بعيد، والقصي هو البعيد. قيل: كان هذا المكان وراء الجبل؛ وقيل: أبعد مكان في تلك الدار، وقيل: أقصى الوادي، وقيل: إنها حملت به ستة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: سبعة ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾ أي: أجاها واضطرها، ومنه قول زهير:

أجاءته المخافة والرجاء

وقرأ شبل (فأجاها) من المفاجأة، ورويت هذه القراءة

عن عاصم، وقرأ الحسن بغير همز، وفي مصحف أبي (فلما أجاها) قال في الكشف: إن أجاها منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تعين بعد النقل إلى معنى الإلجاء، وفيه بعد، والظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقل، والمخاض مصدر مخضت المرأة تمخض مخضاً ومخاضاً إذا لنا ولادها. وقرأ الجمهور بفتح الميم، وقرأ ابن كثير بكسرهما، والجذع ساق النخلة اليابسة، كانها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لبشدة وجع الطلق بشيء مما تجده عندها، والتعريف إما للجنس أو للعهد ﴿قالت يا ليتني مت قبل هذا﴾ أي: قبل هذا الوقت، تمت الموت لأنها خافت أن يظن بها السوء في بينها، أو لئلا يقع قوم بسببها في البهتان ﴿وكنتم نسياً﴾ النسي في كلاب العرب: الشيء الحقيق الذي من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتكلم لفقده كالولد والحب، ومنه قول الكميت:

أجعلنا خسر الكلب قضاةً ولسنا بنسي في معد ولا نخل
وقال الفراء: النسي ما تلقى المرأة من خرق اعتلالها، فتقول مريم ﴿نسياً منسياً﴾ أي: حيضة ملقاة، وقد قرئ بفتح النون وكسرهما، وهما لغتان مثل الحجر والحجر، والوتر والوتر. وقرأ محمد بن كعب القرظي (نساء) بالهمز مع كسر النون. وقرأ نوف البكالي بالهمز مع فتح النون. وقرأ بكر بن حبيب (نسياً) بفتح النون وتشديد الياء بدون همز، والمنسي المترك الذي لا يذكر ولا يخطر ببال أحد من الناس ﴿فناداها من تحتها﴾ أي: جبريل لما سمع قولها، وكان أسفل منها تحت الاكمة، وقيل: تحت النخلة، وقيل المنادي هو عيسى. وقد قرئ بفتح الميم من (من) وكسرهما. وقوله: ﴿الا تحزني﴾ تفسير للنداء أي: لا تحزني أو المعنى بأن لا تحزني على أنها المصدرية ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ قال جمهور المفسرين: السري النهر الصغير، والمعنى: قد جعل ربك تحت قدمك نهراً. قيل: كان نهراً قد انقطع عنه الماء، فأرسل الله فيه الماء لمريم، وأحيا به ذلك الجذع اليابس الذي اعتمدت عليه حتى أورق وأثمر، وقيل: المراد بالسري هنا عيسى، والسري: العظيم من الرجال، ومنه قولهم فلان سري أي: عظيم، ومن قوم سراة أي: عظام ﴿وهزني إليك بجذع النخلة﴾ الهز التحريك، يقال: هزه فاهتز، والباء في جذع النخلة مزيدة للتوكيد. وقال الفراء: العرب تقول هزه وهز به، والجذع هو أسفل الشجرة. قال قطرب: كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع، ومعنى إليك: إلى جهتك، وأصل تساقط تتساقط فادغم التاء في السين. وقرأ حمزة والأعمش (تساقط) مخففاً. وقرأ عاصم في رواية حفص والحسن بضم التاء مع التخفيف وكسر القاف. وقرئ (تتساقط) بإظهار التاءين. وقرئ بالتحتية مع تشديد السين. وقرئ (تسقط، ويسقط). وقرأ الباقرن بإدغام التاء في السين. فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة، ومن قرأ بالتحتية جعل الضمير للجذع، وانتصاب ﴿وطباً﴾ على بعض هذه القراءات للتمييز، وعلى

فأتخنوها سنة. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن عساكر من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس. وعن مرة عن ابن مسعود قال: خرجت مريم بنت عمران إلى جانب المحراب لحيض أصابها، فلما طهرت إذا هي برجل معها ﴿فتمثل لها بشراً﴾ ففرغت و﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ فخرجت وعليها جلبابها، فأخذ بكما فنفع في جنب درعها، وكان مشقوقاً من قدامها، فدخلت النفخة صدرها فحملت، فأنثتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها، فلما فتحت لها الباب التزمتها، فقالت امرأة زكريا: يا مريم أشعرت أني حبلى، قالت مريم: أشعرت أني حبلى، فقالت امرأة زكريا: فإني وجدت ما في بطني سجد للذي في بطنك، فنلك قوله تعالى: ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ [آل عمران: 39]. فولدت امرأة زكريا يحيى، ولما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب ﴿فاجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا﴾ الآية ﴿فناداها﴾ جبريل ﴿من تحتها الا تحزني﴾ فلما ولدته ذهب الشيطان، فأخبر بني إسرائيل أن مريم ولدت، فلما أرادوها على الكلام أشارت إلى عيسى فتكلم ف﴿قال إني عبد الله أتاني الكتاب﴾ الآيات، ولما ولد لم يبق في الأرض صنم إلا خر لوجهه. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في مريم قال: حين حملت وضعت. وأخرج ابن عساكر عنه قال: وضعت لثمانية أشهر. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿فارسلنا إليها روحنا﴾ قال: جبريل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن عساكر عن أبي بن كعب في الآية قال: تمثل لها روح عيسى في صورة بشر فحملته، قال: حملت الذي خاطبها دخل في فيها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿مكناً قصياً﴾ قال: نائياً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿إلى جذع النخلة﴾ قال: كان جذعاً يابساً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿وكنتم نسياً منسياً﴾ قال: لم أخلق ولم أك شيئاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿وكنتم نسياً منسياً﴾ قال: حيضة ملقاة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن نوف البكالي، والضحاك مثله. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله: ﴿فناداها من تحتها﴾ قال: الذي ناداها جبريل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: الذي ناداها من تحتها جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وقد اختلفت الروايات عن السلف، هل هذا المنادي هو جبريل أو عيسى. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي بكر بن عياش قال: قرأ عاصم بن أبي النجود ﴿فناداها من تحتها﴾ بالنصب، قال: وقال عاصم: من قرأ

البعض الآخر على المفعولية لتساقط. قال المبرد والأخفش: يجوز انتصاب رطباً بهزي أي: هزي إليك رطباً ﴿جنيّاً﴾ بجذع النخلة أي: على جذعها، وضعفه الزمخشري، والجني المأخوذ طرياً، وقيل: هو ما طلب وصلح للاجتاء، وهو فعيل بمعنى مفعول. قال الفراء: الجني والمجني واحد، وقيل: هو فعيل بمعنى فاعل أي: رطباً طرياً طيباً ﴿فكلي واشربي﴾ أي: من ذلك الرطب وذلك الماء، أو من الرطب وعصيره، وقدم الأكل مع أن ذكر النهر مقدّم على الرطب، لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء، ثم قال: ﴿وقري عيناً﴾ قرأ الجمهور بفتح القاف. وحكى ابن جرير أنه قرئ بكسرهما، قال: وهي لغة نجد. والمعنى: طيبي نفساً وارفضي عنك الحزن، وهو مأخوذ من القرّ والقرّة وهما البرد، والمسرور بارد القلب ساكن الجوارح، وقيل: المعنى وقري عيناً برؤية الولد الموهوب لك. وقال الشيباني: معناه نامي. قال أبو عمرو: أقر الله عينه أي: أنام عينه وأذهب سهره ﴿فإذا ترين من البشر أحداً﴾ أصله ترعين، مثل تسمعين خففت الهمزة وسقطت النون للجزم وياء الضمير للساكنين بعد لحوق نون التوكيد، ومثل هذا مع عدم لحوق نون التوكيد قول ابن دريد:

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أثيل النجى
وقرأ طلحة، وأبو جعفر، وشيبة (تريين) بسكون الياء وفتح النون مخففة. قال أبو الفتح: وهي شاذة، وجواب الشرط ﴿فقولي إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي قولي إن طلب منك الكلام أحد من الناس إني نذرت للرحمن صوماً أي: صمتاً؛ وقيل: المراد به الصوم الشرعي، وهو الإمساك عن المفطرات، والأول أولى. وفي قراءة أبي (إني نذرت للرحمن صوماً صمتاً) بالجمع بين اللفظين، وكذا روي عن أنس، وروي عنه أنه قرأ «صوماً وصمتاً» بالواو، والذي عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت، ويدل عليه ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ ومعنى الصوم في اللغة: أوسع من المعنيين. قال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم. وقراءة أبي تدل على أن المراد بالصوم هنا الصمت، لأنه تفسير للصوم. وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيد الواو. ومعنى ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أنها لا تكلم أحداً من الإنس بعد إخبارهم بهذا الخبر، بل إنما تكلم الملائكة وتناجي ربها؛ وقيل: إنها لم تخبرهم هنا باللفظ، بل بالإشارة المفيدة للنذر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ قال: مكاناً أظلالها الشمس أن يراها أحد منهم. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: إنما اتخذت النصرى المشرق قبلة، لأن مريم اتخذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخنوا ميلاده قبلة، وإنما سجدت اليهود على حرف حين نتق فوقهم الجبل، فجعلوا ينحرفون وهم ينظرون إليه، يتخوفون أن يقع عليهم، فسجدوا سجدة رضيها الله،

وقيل: كان لها أخ من أبيها اسمه هارون؛ وقيل: هارون هذا رجل صالح في ذلك الوقت؛ وقيل: بل كان في ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون، فنسبوا إليه على وجهه التعبير والتوبيخ، حكاه ابن جرير ولم يسم قائله وهو ضعيف ﴿مَا كَانَ أَبِيكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ هذا فيه تقريره لما تقدم من التعبير والتوبيخ، وتنبيه على أن الفاحشة من نزية الصالحين مما لا ينبغي أن تكون ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى عيسى، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق، لأنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام كما تقدم، هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك في أيام نذرها، وعلى تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها، فيمكن أن يقال: إن اقتصرها على الإشارة للمبالغة في إظهار الآية العظيمة، وإن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة ﴿قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم، قال أبو عبيدة: في الكلام حشو زائد. والمعنى: كيف نكلم صبيًّا في المهد كقول الشاعر:

وجيران لنا كانوا كرام

وقال الزجاج: الأجود أن تكون من في معنى الشرط والجزاء، والمعنى: من يكون في المهد صبيًّا فكيف نكلمه. ورجحه ابن الأنباري وقال: لا يجوز أن يقال إن كان زائدة وقد نصبت صبيًّا، ويجاب عنه بأن القائل بزيانتها يجعل الناصب له الفعل، وهو نكلم كما سبق تقديره، وقيل: إن كان هنا هي التامة التي بمعنى الحنوث والوجود. ورد بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر، والمهد هو شيء معروف يتخذ لتتوهم الصبي. والمعنى: كيف نكلم من سبيله أن يتوهم في المهد لصغره، وقيل: هو هنا حجر الأم، وقيل: سرير كالمهد، فلما سمع عيسى كلامهم ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فكان أول ما نطق به الاعتراف بالعبودية لله ﴿أَتَأْنِي لِلْكِتَابِ﴾ أي: الإنجيل أي: حكم لي بليتاني الكتاب والنبوة في الأزل، وإن لم يكن قد نزل عليه في تلك الحال ولا قد صار نبياً؛ وقيل: إنه أتاه الكتاب وجعله نبياً في تلك الحال، وهو بعيد ﴿وجعلني مباركا أين ما كنت﴾ أي: حيثما كنت، والبركة أصلها من برك البعير، والمعنى: جعلني ثابتاً في دين الله، وقيل: البركة هي الزيادة والعلو، فكأنه قال: جعلني في جميع الأشياء زائداً عالياً منجهاً، وقيل: معنى المبارك النفع للعباد، وقيل: المعلم للخير، وقيل: الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ أي: أمرني بها ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ زكاة المال، أو تطهير النفس ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: مدة دوام حياتي، وهذه الأفعال الماضية هي من باب تنزيل ما لم يقع منزلة الواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه لكونه قد سبق في القضاء المبرم ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ معطوف على مباركا، واقتصر على البر بوالدته لأنه قد علم في تلك الحال أنه لم يكن له أب، وقرئ (وبراً) بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ الجبار المتعظم الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، والشقي العاصي لربه،

بالنصب فهو عيسى، ومن قرأ بالخفض فهو جبريل. وأخرج الطبراني، وابن مروي، وابن النجار عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ السَّرِيَّ الَّذِي قَالَ اللَّهُ لَمَرْيَمَ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكُ سَرِيًّا﴾ نَهْرٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَهَا لِتَشْرَبَ مِنْهُ». وفي إسناده أيوب بن نهيك الجبلي قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال أبو فتح الأزدي: متروك الحديث، وقال الطبراني بعد إخراج هذا الحديث: إنه غريب جداً. وأخرج الطبراني في الصغير، وابن مروي عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكُ سَرِيًّا﴾ قال: النهر. وأخرج عبد الرزاق، والفريلبي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، والحاكم، وابن مروي عن البراء قال في الآية: هو الجدول، وهو النهر الصغير، فظهر بهذا أن الموقوف أصح. وقد روي عن جماعة من التابعين أن السري هو عيسى. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿رُطِبًا جَنِيًّا﴾ قال: طريا. وأخرج ابن المنذر، وابن مروي في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قال: صمتاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري عنه أنه قرأ (صوماً صمتاً).

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً قَالُوا يَسْرِمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَرِيَّا ۖ تَأَخَّتْ هَؤُلَاءُ مَا كَانَ آبَاؤُهُمْ أَمْراً سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۖ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَمَّنْتُ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَمَا دُمْتُ حَيًّا ۖ بَرًّا بِوَالِدَاتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ

لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات وفرغت من نفاسها ﴿أَتَتْ بِهِ﴾ أي: بعيسى، وجملة ﴿تَحْمِلُهُ﴾ في محل نصب على الحال، وكان إتيانها إليهم من المكان القصي التي انتبذت فيه، فلما راوا الولد معها حزنوا، وكانوا أهل بيت صالحين ﴿فَقَالُوا﴾ منكرين لذلك ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾ أي: فعلت ﴿شَيْئًا فَرِيًّا﴾ قال أبو عبيدة: الفرّي العجيب النادر، وكذا قال الأخفش. والفرّي القطع، كأنه مما يخرق العادة، أو يقطع بكونه عجيباً نادراً. وقال قطرب: الفرّي الجديد من الأسقية أي: جئت بأمر بليغ جديد لم تسبقني إليه. وقال سعيد بن مسعدة: الفرّي المخلوق المفتعل، يقال: فريت وأفريت بمعنى واحد، والولد من الزنا كالشيء المفترى، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا مِنْ يَفْتِرَيْنِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَارْجُلَيْهِ﴾ [المتحنته: 12] وقال مجاهد: الفرّي العظيم ﴿يَا لَخْتُ هَارُونَ﴾.

قد وقع الخلاف في معنى هذه الأخوة، وفي هارون المذكور من هو؟ فقيل: هو هارون أخو موسى، والمعنى: إن من كانت نظنها مثل هارون في العبادة كيف تأتي بمثل هذا؛ وقيل: كانت مريم من ولد هارون أخي موسى، فقيل: لها يا أخت هارون، كما يقال لمن كان من العرب: يا أخا العرب؛

الحق، قاله الكسائي. وسمي قول الحق كما سمي كلمة الله، والحق هو الله عز وجل. وقال أبو حاتم: المعنى هو قول الحق، وقيل التقدير: هذا لكلام قول الحق، وهو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة مثل حق اليقين، وقيل: الإضافة للبيان، وقرئ (قال الحق) وروي ذلك عن ابن مسعود، وقرأ الحسن (قول الحق) بضم القاف، والقول والقول والقال والمقال بمعنى واحد، و «الذي فيه يمترون» صفة لعيسى أي: ذلك عيسى ابن مريم الذي فيه يمترون قول الحق، ومعنى يمترون: يختلفون على أنه من المماراة، أو يشكو على أنه من المرية. وقد وقع الاختلاف في عيسى؛ فقالت اليهود هو ساحر، وقالت النصارى: هو ابن الله «وما كان لله أن يتخذ من ولد» أي: ما صح ولا استقام ذلك، فإن في محل رفع على أنها اسم كان. قال الزجاج: من في «من ولد» مؤكدة تدل على نفي الواحد والجماعة، ثم نزه سبحانه نفسه فقال: «سبحانه» أي: تنزهه وتقدس عن مقالتهم هذه، ثم صرح سبحانه بما هو شأنه تعالى سلطانه فقال: «إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون» أي: إذا قضى أمراً من الأمور فيكون حينئذ بلا تأخير. وقد سبق الكلام على هذا مستوفى في البقرة، وفي إيراده في هذا الموضع تبيكت عظيم للنصارى أي: من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ «وإن الله ربي وربكم فاعبدوه» قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح أن. وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة بكسرها، وهو من تمام كلام عيسى، وقرأ أبي (إن الله) بغير واو، قال الخليل وسيبويه: في توجيه قراءة النصب بأن المعنى: ولأن الله ربي وربكم، وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض عطفاً على الصلاة، وجوز أبو عمرو بن العلاء عطفه على أمراً «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» أي: هذا الذي نكرته لكم من أنه ربي وربكم، هو الطريق القيم الذي لا اعوجاج فيه ولا يضل سالكه «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ» من زائد للتوكيد، والأحزاب اليهود والنصارى أي: فاختلعت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى، فاليهود قالوا إنه ساحر كما تقدم، وقالوا إنه ابن يوسف النجار، والنصارى اختلفت فريقهم فيه، فقالت النسطورية منهم: هو ابن الله، وقالت الملكية: هو ثالث ثلاثة، وقالت اليعقوبية: هو الله تعالى فافترطت النصارى وغلطت، وفترطت اليهود وقصرت «فَقِيلَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» وهم المختلفون في أمره «مَنْ مَشْهُدٌ يَوْمَ عَظِيمٍ» أي: من شهود يوم القيامة وما يجري فيه من الحساب والعقاب، أو من مكان الشهود فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم، وقيل: المعنى فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور «اسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ» قال أبو العباس: العرب تقول هذا في موضع التعجب، فيقولون: اسمع تريد وأبصر به أي: ما أسمع وأبصره، فعجب الله سبحانه نبيه ﷺ منهم «يَوْمَ يَتَذَكَّرُونَ» أي: للحساب والجزاء «لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ» أي: في الدنيا «فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أي: واضح ظاهر ولكنهم

وقيل الخائب، وقيل العاق «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» قال المفسرون: السلام هنا بمعنى السلامة أي: السلامة عليّ يوم ولدت، فلم يضرني الشيطان في ذلك الوقت ولا أغواني عند الموت ولا عند البعث؛ وقيل: المراد به التحية. قيل: واللام للجنس، وقيل: للعهد أي: وذلك السلام الموجه إلى يحيى في هذه المواطن الثلاثة موجه إليّ. قيل: إنه لم يتكلم المسيح بعد هذا الكلام حتى بلغ المدة التي تتكلم فيها الصبيان في العادة.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن عساكر، عن ابن عباس في قوله: «فَإِنَّمَا بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ» قال: بعد أربعين يوماً بعد ما تعالت من نفاسها، وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا: أرايت ما تقرءون؟ «يَا لُحْتَ هَارُونَ» وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟» وهذا التفسير النبوي يغني عن سائر ما روي عن السلف في ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس قال: كان عيسى قد درس الإنجيل وأحكامها في بطن أمه، فذلك قوله: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: «آتَانِيَ الْكِتَابَ» الآية، قال: قضى أن أكون كذلك. وأخرج الإسماعيلي في معجمه، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه، وابن النجار عن أبي هريرة قال: «قال النبي ﷺ في قول عيسى: «وَجَعَلَنِي مَبْرُكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ» قال: جعلني نفاعاً للناس أينما اتجهت». وأخرج ابن عدي، وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله: «وَجَعَلَنِي مَبْرُكًا» قال: معلماً ومؤنباً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا» يقول: عصياً.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٢٢﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٣﴾ وَلِلَّهِ اللَّهُ رَبُّ رَبِّكُمْ فَاَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ أَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادَىٰ لِلْعَالَمِينَ أَلْيَوْمِ فِي صَلَاتِي مِيقَاتِي ﴿٢٦﴾ وَأَذِذْهُمْ يَوْمَ الْقَسْرَةِ إِذْ يَفُوقَ الْوُضُوءَ الْمَرْءُ وَنَفْسُهُ فِي غَلَاظِهِمْ وَلَا يُوَفُّونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا رُجُوعٌ ﴿٢٨﴾

الإشارة بقوله: «ذلك» إلى المتصف بالأوصاف السابقة. قال الزجاج: ذلك الذي قال إني عبد الله عيسى ابن مريم، لا ما تقوله النصارى من أنه ابن الله وأنه إله. وقرأ ابن عامر، وعاصم، ويعقوب «قول الحق» بالنصب. وقرأ الباقون بالرفع. فوجه القراءة الأولى أنه منتصب على المدح، أو على أنه مصدر مؤكد لقال: إني عبد الله قاله الزجاج. وجه القراءة الثانية أنه نعت لعيسى أي: ذلك عيسى ابن مريم قول

هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيؤمر به فينبج ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ الآية، وأشار بيده قال: أهل الدنيا في غفلة. وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: يوم الحسرة هو من أسماء يوم القيامة، وقرأ ﴿وَأَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتَ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 56]. وعليه هذا ضعيف، والآية التي استدل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِيكَ بِمَبْدَأٍ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُفْقِ عَنكَ شَيْئًا ﴿١١٢﴾ يَأْتِيكَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْغَيْبِ نَبَأٌ لَّيْسَ بِكَافٍ لَكَ بِأَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ ﴿١١٣﴾ يَأْتِيكَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابُ بَيْنَ الْأَرْحَمِينَ فَتَكُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿١١٤﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْ يَسْأَلَنِي عَنْ إِلَهِكَ يَأْتِيكَ بِهِ نَبَأٌ لَّيْسَ بِكَافٍ لَكَ بِأَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ سَأَلْتُكَ عَنْ رَبِّكَ فَقَالَ لَا أَعْلَمُ بِشَيْءٍ ﴿١١٦﴾ فَلَمَّا أَتَاهُ نُوحٌ بِنَبَأٍ لَّيْسَ بِكَافٍ لَكَ بِأَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَبَلًا نَبِيًّا ﴿١١٨﴾ وَهَبْنَا لَهُمُ مِنْ رَحْمَتِنَا جَعَلْنَا

أغفلوا التفكير. والاعتبار والنظر في الآثار ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: يوم يتحسرون جميعاً، فالمسيء يتحسر على إساءته، والمحسن على عدم استكثاره من الخير ﴿إِذْ قَضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فرغ من الحساب وطويت الصحف، وصار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وجملة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ في محل نصب على الحال أي: غافلين عما يعمل بهم، وكذلك جملة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في محل نصب على الحال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات، فكانه سبحانه ورث الأرض ومن عليها حيث أماتهم جميعاً ﴿وَاللَّيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: يردون إلينا يوم القيامة فنجازي كلا بعمله، وقد تقدم مثل هذا في سورة الحجر.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ قال: الله الحق عز وجل. وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمُتُونَ﴾ قال: اجتمع بنو إسرائيل وأخرجوا منهم أربعة نفر من كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض وأحيا من أحياء، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء، وهم اليعقوبية؛ فقالت الثلاثة: كذبت، ثم قال اثنان منهم للثالث: قل فيه، فقال: هو ابن الله، وهم النسطورية، فقال اثنان كذبت؛ ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه، فقال: هو ثالث ثلاثة، الله إله، وعيسى إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية، وهم ملوك النصارى، فقال الرابع: كذبت، هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته، وهم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا، فظفروا على المسلمين، فذلك قول الله سبحانه: ﴿وَيُقْتَلُونَ النَّبِيُّنَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 21]. قال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً، فاختصم القوم، فقال المرء المسلم: أنشدكم بالله هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام وأن الله لا يطعم؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فهل تعلمون أن عيسى كان ينام وأن الله لا ينام؟ قالوا: اللهم نعم، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم، فنذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون، فأنزل الله ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ يقول الكفار يومئذ: أسمع شيء وأبصره، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ قال: ذلك يوم القيامة. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشربون وينظرون إليه فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادى يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشربون وينظرون فيقولون: نعم

قوله: ﴿وَأَنكَرُ﴾ معطوف على وأنذر، والمراد بذكر الرسول إياه في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس كقوله: ﴿وَاتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: 69]. وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ تعليل لما تقدم من الأمر لرسول الله ﷺ بأن ينكره، وهي معترضة ما بين البذل والمبدل منه، والصديق كثير الصدق، وانتصاب نبياً على أنه خير آخر لكان أي: أنكر إبراهيم الجامع لهذين الوصفين، و ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ بدل اشتمال من إبراهيم، وتعليق الذكر الوقت مع أن المقصود تنكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة، وأبو إبراهيم هو أزر على ما تقدم تقريره، التاء في يا أبت عوض عن الياء، ولهذا لا يجتمعان، والاستفهام في ﴿لَمْ تَعْبُدْ﴾ للإنكار والتوبيخ ﴿وَمَا لَا يَسْمَعُ﴾ ما تقوله من الثناء عليه والدعاء له ﴿وَلَا يَبْصُرُ﴾ ما تفعله من عيباته ومن الأفعال التي تفعلها مريداً بها الثواب، يجوز أن يحمل نفي السمع والبصير على ما هو أعم من ذلك أي: لا يسمع شيئاً من المسموعات، ولا يبصر شيئاً من المبصرات ﴿وَلَا يُفْقِ عَنكَ شَيْئًا﴾ من الأشياء، فلا يجلب لك نفعاً ولا يدفع عنك ضرراً، وهي الأصنام التي كان يعبدونها أزر. وأورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح، وصدر كلا منها بالدعاء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه، وامتنالاً لأمربه، ثم كرر دعوته إلى الحق فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ فآخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل إلى أبيه، وأنه قد تجدد له حصول ما يتوصل به منه إلى الحق ويقتدر

قوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: 114] وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ تحليل لما قبلها؛ والمعنى: سأطلب لك المغفرة من الله، فإنه كان بي كثير البرّ واللطف. يقال: حفي به وتحفّى إذا برّه. قال الكسائي: يقال حفي بي حفاوة وحفوة. وقال الفراء: إنه كان بي حفياً أي: عالماً لطيفاً يجيبني إذا دعوته. ثم صرح الخليل بما تضمنته سلامه من التوديع والمشاركة فقال: ﴿وَأَعْتَزَلَكَ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أهاجر بديني عنكم وعن معبوداتكم حيث لم تقبلوا نصحي ولا نجعت فيكم دعوتي ﴿وَادْعُوا رَبِّي﴾ وحده ﴿عَسَى أَنْ لَا أَكُونَ بِدَعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي: خائباً، وقيل: عاصياً. قيل: أراد بهذا الدعاء: هو أن يهب الله له ولداً وأهلاً يستأنس بهم في اعتزاله ويطمان إليهم عند وحشته؛ وقيل: أراد دعاءه لأبيه بالهداية، وعسى للشك لأنه كان لا يدري هل يستجاب له فيه أم لا، والأول أولى لقوله: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: جعلنا هؤلاء الموهوبين له أهلاً ولداً بدل الأهل الذين فارقهم ﴿وَوَكَّلْنَا جَعْلَنَا نَبِيًّا﴾ أي: كل واحد منهما، وانتصاب كلا على أنه المفعول الأول لجعلنا قَدَمَ عليه للتخصيص، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا بالنسبة إلى من عداهم أي: كل واحد منهم جعلنا نبياً، لا بعضهم دون بعض ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ بأن جعلناهم أنبياء، ونكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوة هي من باب الرحمة؛ وقيل: المراد بالرحمة هنا المال؛ وقيل: الأولاد؛ وقيل: الكتاب، ولا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور ﴿وَوَجَّعْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ لسان الصديق الثناء الحسن، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به كما عبر باليد عن العطية، وإضافته إلى الصديق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على السن العباد.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَارْجِمَنَّكَ﴾ قال: لأشتمنك ﴿وَوَاهِجْرَنِي مَلِيًّا﴾ قال: حيناً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿وَوَاهِجْرَنِي مَلِيًّا﴾ قال: اجتنبني سوياً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: اجتنبني سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة. وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبيرة وعكرمة ﴿مَلِيًّا﴾ دهرأ. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة قال: سالماً. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال: لطيفاً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال: يقول: وهبنا له إسحاق ويعقوب ابن ابنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَوَجَّعْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ قال: الثناء الحسن.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ كَانَ عَصَا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿١٦﴾ وَوَدَّعَتْهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَوَرَّتْهُ رِيًّا ﴿١٧﴾ وَبَيْنَا لَمْ يَمْسَسْهَا آتَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا ﴿١٨﴾

به على إرشاد الضالّ، ولهذا أمره باتباعه فقال: ﴿فَاتَّبَعْنِي أَهْكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ مستوياً موصلاً إلى المطلوب منجياً من المكروه، ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال: ﴿يَا ابْتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطعه فإن عبادة الأصنام هي من طاعة الشيطان، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ حين ترك ما أمر به من السجود لأدم، ومن أطاع من هو عاص لله سبحانه فهو عاص لله، والعاصي حقيق بأن تسلب عنه النعم وتحلّ به النقم. قال الكسائي: العصي والعاصي بمعنى واحد. ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال: ﴿يَا ابْتَ إِنِّي لَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ قال الفراء: معنى أخاف هنا: أعلم. وقال الأكثرون: إن الخوف هنا محمول على ظاهره، لأن إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر، إذ لو كان جازماً بذلك لم يشتغل بنصحه، ومعنى الخوف على الغير: هو أن يظنّ وصول الضرر إلى ذلك الغير ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه في النار واللعة، فتكون بهذا السبب مولى، أو تكون بسبب موالاته في العذاب معه، وليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: 67]. وقيل: الولي بمعنى التالي، وقيل: الولي بمعنى القريب أي: تكون للشيطان قريباً منه في النار، فلما مرّت هذه النصائح النافعة والمواظ على المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلظة والفظاظة والقسوة، فـ ﴿قَالَ أَرَأَيْبَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب، والمعنى: أ معرض أنت عن ذلك ومنصرف إلى غيره؟ ثم توعده فقال: ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَهِ لَارْجِمَنَّكَ﴾ أي: بالحجارة؛ وقيل: باللسان، فيكون معناه: لأشتمنك؛ وقيل: معناه لأضربنك، وقيل: لآظهرنّ أمرك ﴿وَوَاهِجْرَنِي مَلِيًّا﴾ أي: زماناً طويلاً. قال الكسائي: يقال هجرته ملياً وملاوة وملاوة، بمعنى: الملاوة من الزمان، وهو الطويل، ومنه قول مهلهل:

فَتَصَدَّعَتْ صَمَّ الْجِبَالِ لَمَوْتِهِ وَبَكَتْ عَلَيْهِ الْمَرَمَلَاتُ مَلِيًّا
وقيل: معناه اعتزلني سالم العرض لا تصيبك مني معرة، واختار هذا ابن جرير، فملياً على هذا منتصب على الحال من إبراهيم وعلى القول الأول منتصب على الظرفية، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أي: تحية توديع ومشاركة كقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63]. وقيل: معناه أمنة مني لك، قاله ابن جرير، وإنما أمنة مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله، والأول أولى، وبه قال الجمهور؛ وقيل: معناه الدعاء له بالسلامة، استمالة له ورفقاً به ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من الله سبحانه تكافاً له وطمعاً في لئنه وذهاب قسوته:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يورى في ثرى رمسه وكان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على الكفر، وتحق عليه الكلمة، ولهذا قال الله سبحانه في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114]. بعد

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَكَانَ يُأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٧﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٨﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِنَّا نَقُلُّ عَلَىٰ عِلْمٍ مَا نَبَأُ الرَّحْمَنُ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَكَبَّرُوا ﴿٦٠﴾ وَخَلَقَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفَ أَصَاغِرَ الصَّلَاةِ وَأَنْبَعَا أَشْهُدَٰتٍ مُّسَوِّفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٦١﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُلَاقُونَ فِيهَا شَرًّا ﴿٦٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا مُشْكَكًا ﴿٦٣﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا سُلْهًا وَلَمْ يُرْمَوْا فِيهَا بِكَرٍّ وَشَيْءٍ ﴿٦٤﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٥﴾

قفي سبحانه قصة إبراهيم بقصة موسى لأنه تلوّه في الشرف. وقدمه على إسماعيل لثلاث: يفصل بينه وبين نكر يعقوب أي: وأقرأ عليهم من القرآن قصة موسى ﴿إنه كان مخلصاً﴾ قرا أهل الكوفة بفتح اللام أي: جعلناه مختاراً وأخلصناه، وقرا الباقر بكسرهما أي: أخلص العبادة والتوحيد لله غير مراء للعباد ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ أي: أرسله الله إلى عباده فأنبأهم عن الله بشرائعه التي شرعها لهم، فهذا وجه نكر النبي بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوّة، فكانه أراد بالرسول معناه اللغوي لا الشرعي، والله أعلم. وقال النيسابوري: الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء، والنبي الذي ينبي عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب، وكان المناسب نكر الأعم قبل الأخص، إلا أن رعية الفاصلة اقتضت عكس ذلك كقوله في طه: ﴿بربّ هارون وموسى﴾ [طه: 70]. انتهى ﴿ونائباه من جانب للطور الأيمن﴾ أي: كلمناه من جانب الطور، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير، ومعنى الأيمن: أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى، فإن الشجرة كانت في ذلك الجانب والنداء وقع منها، وليس المراد يمين الجبل نفسه. فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال؛ وقيل: معنى الأيمن الميمون، ومعنى النداء: أنه تمثل له الكلام من تلك الجانب ﴿وقربناه نجياً﴾ أي: أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه، والنجي بمعنى المناجى كالجلس والنديم، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام، مثل حاله بحال من قربّه الملك لمناجاته. قال الزجاج: قربّه منه في المنزلة حتى سمع مناجاته؛ وقيل: إن الله سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم. روي هذا عن بعض السلف ﴿ووهبنا له من رحمتنا﴾ أي: من نعمتنا، وقيل: من أجل رحمتنا، و﴿هارون﴾ عطف بيان، و﴿نبياً﴾ حال منه، وذلك حين سأل ربه قال: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ هارون أخي [طه: 29 - 30]. ووصف الله سبحانه إسماعيل بصدق الوعد مع كونه جميع الأنبياء كذلك، لأنه كان مشهوراً بذلك مبالغاً فيه، ونأهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفى بذلك، وكان ينتظر لمن وعده بوعده الأيام والليالي، حتى قيل: إنه انتظر لبعض من وعده حولاً. والمراد

بإسماعيل هنا: هو إسماعيل بن إبراهيم، ولم يخالف في ذلك إلا من لا يعتد به فقال: هو إسماعيل بن حزقييل، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيره الله فيما شاء من عذابهم، فاستغفاه ورضي بثوابه، وقد استدلل بقوله تعالى في إسماعيل ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته، وقيل: إنه وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرحم ﴿وكان يامر أهله بالصلاة والزكاة﴾ قيل: المراد بأهله هنا أمته، وقيل: جرحم، وقيل: عشيرته كما في قوله: ﴿وانذر عشيرتاك الأقربين﴾ [الشعراء: 214] والمراد بالصلاة والزكاة هنا، هما العبادتان الشرعيتان، ويجوز أن يراد معناه اللغوي ﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ أي: رضى زاكياً صالحاً. قال الكسائي والفراء: من قال مرضي بنى على رضيت، قالوا: وأهل الحجاز يقولون: مرضو ﴿وانذر في الكتاب إدريس﴾ اسم إدريس أخنوخ، قيل: هو جد نوح، فإن نوحاً هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، وعلى هذا فيكون جد أبي نوح نكره الثعلبي وغيره، وقد قيل: إن هذا خطأ، وامتناع إدريس للعجمة والعلمية. وهو أول من خط بالقلم ونظر في النجوم والحساب، وأول من خاط الثياب. قيل وهو أول من أعطي النبوة من بني آدم. وقد اختلف في معنى قوله: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ فقيل: إن الله رفعه إلى السماء الرابعة، وقيل: إلى السادسة، وقيل: إلى الثانية. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث الإسراء وفيه: ومنهم إدريس في الثانية، وهو غلط من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر. والصحيح أنه في السماء الرابعة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ، وقيل: إن المراد برفعه مكاناً علياً: ما أعطيه من شرف النبوة، وقيل: إنه رفع إلى الجنة ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ الإشارة إلى المذكورين من أول السورة إلى هنا، والموصول صفته، ومن النبيين بيان للموصول، و﴿من ذرية آدم﴾ بدل منه بإعادة الخافض، وقيل: إن من في من ذرية آدم للتبويض ﴿وممن حملنا مع نوح﴾ أي: من ذرية من حملنا معه وهم من عدا إدريس، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿وممن ذرية إبراهيم﴾ وهم الباقرين ﴿وإسرائيل﴾ أي: ومن ذرية إسرائيل، ومنهم موسى وهارون ويحيى وعيسى، وقيل: إنه أراد بقوله: ﴿من ذرية آدم﴾ إدريس وحده، وأراد بقوله: ﴿وممن حملنا مع نوح﴾ إبراهيم وحده، وأراد بقوله: ﴿وممن ذرية إبراهيم﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وأراد بقوله: ﴿وممن ذرية إسرائيل﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وممن هدينا﴾ أي: من جملة من هدينا إلى الإسلام ﴿ولجئينا﴾ بالإيمان ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ وهذا خبر لأولئك، ويجوز أن يكون الخبر هو الذين أنعم الله عليهم. وهذا استئناف لبيان خشوعهم لله وخشيتهم منه. وقد تقدّم في سبحان بيان

معنى خَرَوْا سجداً يقال: بكى يبكي بكاءً وبكياً. قال الخليل: إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن أي: ليس معه صوت، ومنه قول الشاعر:

بكت عيني وحوّلها بكاءها وما يغني البكاء ولا العويل
وسجدا منصوب على الحال. قال الزجاج: قد بين الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله بكوا وسجدوا. وقد استدلل بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة، ولما مدح هؤلاء الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيباً لغيرهم في الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم ذكر أصدادهم تنفيراً للناس عن طريقتهم فقال: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ أي: عقب سوء. قال أهل اللغة: يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام، ولعقب الشر خلف بسكون اللام، وقد قدمنا الكلام على هذا في آخر الأعراف ﴿أضاعوا الصلاة﴾ قال الأكثر: معنى ذلك أنهم أخرجوها عن وقتها؛ وقيل: أضاعوا الوقت وقيل: كفروا بها وجحدوا وجوبها؛ وقيل: لم يأتوا بها على الوجه المشروع. والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضاً من فروضها أو شرطاً من شروطها أو ركناً من أركانها فقد أضاعها، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة أو جحدها دخولاً أولياً.

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية؟ فقيل: في اليهود؛ وقيل: في النصارى؛ وقيل: في قوم من أمة محمد ﷺ يأتون في آخر الزمان، ومعنى ﴿وأتبعوا الشبهات﴾ أي: فعلوا ما تشتهيهم أنفسهم وترغب إليه من المحرمات كشرب الخمر والزنا ﴿فسوف يلقون غيا﴾ الغي هو الشر عند أهل اللغة كما أن الخير هو الرشاد. والمعنى: أنهم سيلقون شراً لا خيراً؛ وقيل: الغي الضلال، وقيل: الخيبة؛ وقيل: هو اسم وإو في جهنم؛ وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: سيلقون جزاء الغي كذا قال الزجاج، ومثله قوله سبحانه: ﴿يلق أثاماً﴾ [الفرقان: 68]، أي: جزاء أثام ﴿إلا من تاب وأمن وعمل صالحاً﴾ أي: تاب مما فرط منه من تضییع الصلوات واتباع الشبهات فرجع إلى طاعة الله وأمن به وعمل عملاً صالحاً، وفي هذا الاستثناء دليل على أن الآية في الكفرة لا في المسلمين ﴿فأولئك يخلون الجنة﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة، وابن كثير، وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر (يبدلون) بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الخاء ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ أي: لا ينقص من أجورهم شيء وإن كان قليلاً، فإن الله سبحانه يوفي إليهم أجورهم، وانتصاب ﴿جنات عدن﴾ على البدل من الجنة، بدل البعض لكون جنات عدن بعض من الجنة. قال الزجاج: ويجوز جنات عدن بالرفع على الابتداء، وقرئ كذلك. قال أبو حاتم: ولولا الخط لكان جنة عدن يعني: بالإفراد مكان الجمع وليس هذا بشيء، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التي هي بمنزلة الأنواع للجنس. وقرئ بنصب الجنات على المدح، وقد قرئ جنة بالإفراد ﴿التي وعد للرحمن عبياده بالغيب﴾ هذه الجملة صفة لجنات عدن، وبالفعل في محل نصب على الحال من الجنات، أو من عباده أي: متلبسة، أو

متلبسين بالغيب، وقرئ بصرف عدن، ومنعها على أنها علم لمعنى العدن وهو الإقامة، أو علم لأرض الجنة ﴿إنه كان وعده مأتياً﴾ أي: موعوده على العموم، فتدخل فيه الجنات دخولاً أولياً. قال الفراء: لم يقل آتياً، لأن كل ما أتاك فقد أتيتك، وكذا قال الزجاج ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ هو الهذر من الكلام الذي يلغى ولا طائل تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم؛ وقيل: اللغو كل ما لم يكن فيه نكر الله ﴿إلا سلاماً﴾ هو استثناء منقطع أي: سلام بعضهم على بعض، أو سلام الملائكة عليهم. وقال الزجاج: السلام اسم جامع للخير، لأنه يتضمن السلامة. والمعنى: أن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم وإنما يسمعون ما يسلمهم ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ قال المفسرون: ليس في الجنة بكرة ولا عشاء، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغذاء والعشاء ﴿تلك الجنة التي نورت من عبائنا من كان تقياً﴾ أي: هذه الجنة التي وصفنا أحوالها نورثها من كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال مورثه. قرأ يعقوب (نورث) بفتح الواو وتشديد الراء، وقرأ الباقر بالتخفيف، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: نورث من كان تقياً من عبائنا.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ قال: النبي الذي يكلم وينزل عليه ولا يرسل، ولفظ ابن أبي حاتم: الأنبياء الذين ليسوا برسول يوحى إلى أحدهم ولا يرسل إلى أحد. والرسول: الأنبياء الذين يوحى إليهم ويرسلون. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿جانب للطور الأيمن﴾ قال: جانب الجبل الأيمن ﴿وقربناه نجياً﴾ قال: نجا بصدقه. وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية قال: قربه حتى سمع صريف القلم، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في الآية قال: حتى سمع صريف القلم يكتب في اللوح. وأخرجه الديلمي عنه مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون﴾ قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن إنما وهب له نبوته. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: كان إدريس خياطاً، وكان لا يغز غزوة إلا قال: سبحان الله، وكان يعسى حين يمسي وليس على الأرض أفضل عملاً منه، فاستأن ملك من الملائكة ربه فقال: يا رب ائذن لي فأهبط إلى إدريس، فأنن له فأتى إدريس فقال: إنني جئتك لأخدمك، قال: كيف تخدمني وأنت ملك وأنا إنسان؟ ثم قال إدريس: هل بينك وبين ملك الموت شيء؟ قال الملك: ذاك أخي من الملائكة، قال: هل تستطيع أن تنفعي؟ قال: أما يؤخر شيئاً أو يقدمه فلا، ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت، فقال: اركب بين جنباحي، فركب إدريس فصعد إلى

يلقون غيابة قال: خسراً. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث من طرق عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيَابًا﴾ قال: الغي نهر، أو وادٍ في جهنم من قبح بعيد القعر خبيث الطعام، يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات. وقد قال بأنه وادٍ في جهنم البراء بن عازب. وروى ذلك عنه ابن المنذر والطبراني. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي عن أبي امامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً، ثم تنتهي إلى غي وثام، قلت: وما غي وثام؟ قال: نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللذان نكر الله في كتابه ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيَابًا﴾ ومن يفعل ذلك يلق اثاماً» [الفرقان: 68]. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الغي وادٍ في جهنم». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ قال: باطلاً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿بَكَرَةً وَعِشْيَا﴾ قال: يؤتون به في الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به في الدنيا. وأخرج الحكيم الترمذي في نوار الأصول من طريق إبان، عن الحسن وأبي قلابة قال: قال رجل: يا رسول الله هل في الجنة من ليل؟ قال: وما هي بك على هذا؟ قال: سمعت الله يذكر في الكتاب ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعِشْيَا﴾ فقلت: الليل من البكرة والعشي، فقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك ليل، وإنما هو ضوء ونور، يرد الغلو على الرواح والرواح على الغلو، تأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة، وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من غداة من غدوات الجنة، وكل الجنة غدوات، إلى أنه يزف إلى ولي الله فيها زوجة من الحور العين وأدناها التي خلقت من الزعفران»، قال بعد إخرجه: قال أبو محمد: هذا حديث منكر.

وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَرَكٌ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ فِيهِمَا ﴿١٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَنصُرُ لَهُ مَا سِوَا ۖ ﴿١٦﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ حَتَّىٰ كُنَّا ۖ ﴿١٧﴾ أَفَوَلَّكَ لِحَشَّتَهُمْ ۖ وَالشَّيَاطِينُ نُمَّا لِحَشَّتَهُمْ حَتَّىٰ جُمِعَ ۖ ﴿١٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَئًا ۖ عَلَّ الْأَرْضِ عَيْنًا ۖ ﴿١٩﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنَ الَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِمَا صَبَّحُوا ۖ وَإِنْ تَنْصُرُوا ۖ وَلَا وَارِدًا ۖ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْصُوبًا ۖ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ أَتَقَوْا وَنَنْزِلُ أَطْلُفَاتٍ ۖ فِيهَا جَنَّاتٌ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿وَمَا نَنْتَزِلُ﴾ أي: قال الله سبحانه: قل يا جبريل وما ننتزل، وذلك أن رسول الله ﷺ استبطا نزول جبريل عليه، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تنتزل عليه إلا

السماء العليا فلقي ملك الموت وإدريس بين جناحيه، فقال له الملك: إن لي إليك حاجة، قال: علمت حاجتك تكلمني في إدريس، وقد محي اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله إلا نصف طرفه عين، فمات إدريس بين جناحي الملك. وأخرج ابن أبي شيبة في المصاحف، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: سألت كعباً فذكر نحوه، فهذا هو من الإسرائيليات التي يرويها كعب. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس قال: «رفع إدريس إلى السماء السادسة». وأخرج الترمذي وصححه، وابن المنذر، وابن مريويه قال: حدثنا أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لما عرج بي رأيت إدريس في السماء الرابعة». وأخرج ابن مريويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: رفع إدريس كما رفع عيسى ولم يمض. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: إدريس هو إلياس. وحسنه السيوطي. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخره، قال: هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم؛ أما من نزية آدم: فإدريس ونوح، وأما من حمل مع نوح فإبراهيم، وأما نزية إبراهيم: فإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وأما نزية إسرائيل: فموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ قال: هم اليهود والنصارى. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في الآية قال: هم من هذه الأمة يتركبون في الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس، ولا يخافون من الله في السماء. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في قوله: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: ليس إضاعتها تركها قد يضيع الإنسان الشيء ولا يتركها، ولكن إضاعتها: إذا لم يصلها لوقتها. وأخرج أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري: «سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ الآية قال: يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيَابًا﴾ ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعنو ترافيقهم، ويقرأ القرآن ثلاثة، مؤمن، ومناق، وفاجر». وأخرج أحمد، والحاكم وصححه عن عتبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل اللين، قلت: يا رسول الله ما أهل الكتاب؟ قال: قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا، قلت: ما أهل اللين؟ قال: قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، والحاكم وصححه عن عائشة أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة وتقول: لا تعطوا منها بربرياً ولا بربرية، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هم الخلف الذين قال الله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَسَوْفَ

على أبلغ وجه واكمل **﴿ويقول الإنسان ائذا ما مت لسوف اخرج حياً﴾** قرأ الجمهور على الاستفهام، وقرأ ابن زكوان إذا ما مت على الخير، والمراد بالإنسان ها هنا: الكافر، لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث؛ وقيل: اللام في الإنسان للجنس بأسره وإن لم يقل هذه المقالة إلا للبعض، وهم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم، والمراد بقوله أخرج أي: من القبر، والعامل في الظرف فعل دل عليه أخرج، لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها **﴿أو لا ينكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾** الهمزة للإنكار التوبيخي، والواو لعطف الجملة التي بعدها على الجملة التي قبلها، والمراد بالذكر هنا إعمال الفكر أي: ألا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه فيستدل بالابتداء على الإعادة، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة، لأن النشأة الأولى هي إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداءً واختراعاً، لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له، وأما النشأة الآخرة فقد تقدم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها، ومعنى **﴿من قبل﴾** قبل الحالة التي هو عليها الآن، وجملة **﴿ولم يك شيئاً﴾** في محل نصب على الحال أي: والحال أنه لم يكن حينئذ شيئاً من الأشياء أصلاً، فأعادته بعد أن كان شيئاً موجوداً أسهل وأيسر. قرأ أهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر وأهل الكوفة إلا عاصماً (أو لا ينكر) بالتشديد، وأصله يتنكر. وقرأ شيبه ونافع وعاصم وابن عامر (ينكر) بالتخفيف، وفي قراءة أبي (أو لا يتنكر). ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التي أجمع العقلاء على أنه لم يكن في حجج البعث حجة أقوى منها، أكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافاً إلى رسوله تشريراً له وتعظيماً، فقال: **﴿فأوريك لحشركهم﴾** ومعنى لحشركهم: لنسوقنهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا، والواو في قوله: **﴿والشياطين﴾** للعطف على المنصوب، أو بمعنى مع. والمعنى: أن هؤلاء الجاحدين يحشركهم الله مع شياطينهم الذين أغوهم وأضلّوهم، وهذا ظاهر على جعل اللام في الإنسان للمعهد، وهو الإنسان الكافر، وأما على جعلها للجنس فكونه قد وجد في الجنس من يحشر مع شيطانه **﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جنياً﴾** الجنّي جمع جاث، من قولهم جثا على ركبتيه يجثو جثواً، وهو منتصب على الحال أي: جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب، أو لكون الجنّي على الركب شأن أهل الموقف كما في قوله سبحانه: **﴿وترى كل أمة جاثية﴾** [الجاثية: 28]. وقيل: المراد بقوله جثياً جماعات، وأصله جمع جثوة، والجثوة هي المجموع من التراب أو الحجارة. قال طرفة:

أرى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ الشيعة الفرقة التي تبعت نبياً من الأنبياء، وخصص ذلك الزمخشري فقال: هي الطائفة التي شاعت أي: تبعت غاويّاً من الغواة قال الله تعالى: **﴿إن**

بأمر الله. قيل: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ أربعين يوماً؛ وقيل: خمسة عشر؛ وقيل: اثني عشر؛ وقيل: ثلاثة أيام؛ وقيل: إن هذا حكاية عن أهل الجنة، وأنهم يقولون عند دخولها: وما ننزل هذه الجنان **﴿إلا بأمر ربك﴾** والأول أولى بدلالة ما قبله، ومعناه يحتمل وجبين: الأول وما ننزل عليك إلا بأمر ربك لنا بالنزول. والثاني وما ننزل عليك إلا بأمر ربك الذي يأمر بك به بما شرعه لك ولأمتك، والنزول على مهل، وقد يطلق على مطلق النزول. ثم أكد جبريل ما أخبر به النبي ﷺ فقال: **﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾** أي: من الجهات والأماكن، أو من الأزمنة الماضية والمستقبلية، وما بينهما من الزمان أو المكان الذي نحن فيه، فلا نقدر على أن نتنقل من جهة إلى جهة، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك ومشيتته، وقيل: المعنى له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك، وهو ما بين النفختين؛ وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا، والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض، وقيل: ما مضى من أعمارنا وما غير منها والحالة التي نحن فيها. وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى: أن الله سبحانه هو المحيط بكل شيء لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة، فلا تقدم على أمر إلا بإذنه. وقال: وما بين ذلك، ولم يقل وما بين ذلك لأن المراد: وما بين ما ذكرنا كما في قوله سبحانه: **﴿عوان بين ذلك﴾** [البقرة: 68]. **﴿وما كان ربك نسياً﴾** أي: لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي، وقيل: المعنى إنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئاً؛ وقيل: المعنى وما كان ربك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذي يرسل فيه رسله **﴿ربّ السفوات والأرض وما بينهما﴾** أي: خالقهما وخالق ما بينهما، ومالكهما ومالك ما بينهما، ومن كان هكذا فالنسيان محال عليه. ثم أمر الله نبيه ﷺ بعبادته والصبر عليها فقال: **﴿فأعبده واصطبر لعباتك﴾** والفاء للسببية لأن كونه ربّ العالمين سبب موجب لأن يعبد، وعدى فعل الصبر باللام دون على التي يتعدى بها لتضمنه معنى الثبات **﴿هل تعلم له سمياً﴾** الاستفهام للإنكار. والمعنى: أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه، فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له، هذا مبني على أن المراد بالسمي هو الشريك في المسمى؛ وقيل: المراد به الشريك في الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل: المعنى إنه لم يسم شيئاً من الأصنام ولا غيرها بالله قط، يعني: بعد دخول الألف واللام التي عوضت عن الهمزة ولزمت، وقيل: المراد هل تعلم أحداً اسمه الرحمن غيره؟ قال الزجاج: تأويله والله أعلم: هل تعلم له سمياً يستحق أن يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون، وعلى هذا لا سمي لله في جميع أسمائه، لأن غيره وإن سمي بشيء من أسمائه، فلله سبحانه حقيقة ذلك الوصف، والمراد بنفي العلم المستفاد من الإنكار هنا: نفي المعلوم

[القصص: 23]. فإن المراد أشرف عليه لا أنه دخل فيه، ومنه قول زهير:

فلما وردن الماء زرقا حمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم
ولا يخفى أن القول بأن الورد هو المرور على الصراط، أو الورد على جهنم وهي خادمة فيه جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك، لأنه قد حصل الجمع بحمل الورد على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعداً من عذابهما، أو بحمله على المضى فوق الجسر المنصوب عليها، وهو الصراط ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ أي: كان ورودهم المذكور أمراً محتوماً قد قضى سبحانه أنه لا بد من وقوعه لا محالة، وقد استلكت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله، وعند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف إليه ﴿ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ تَقَوَّاهُ﴾ أي: اتقوا ما يوجب النار، وهو الكفر بالله ومعاصيه، وترك ما شرعه، وأوجب العمل به. قرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قرة (ننجي) بالتخفيف من أنجي، وبها قرأ حميد ويعقوب والكسائي، وقرأ الباقر بالتشديد، وقرأ ابن أبي ليلى ﴿ثُمَّ نَذِرُ﴾ بفتح الذاء من ثم، والمراد بالظالمين: الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار، أو ظلموا غيرهم بمظلمة في النفس أو المال أو العرض، والجني جمع جاث، وقد تقدم قريباً تفسير الجني وأعرابه.

وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية». وزاد ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وكان ذلك الجواب لمحمد. وأخرج ابن مريويه من حديث أنس قال: «سئل رسول الله ﷺ أي البقاع أحب إلى الله، وأيها أبغض إلى الله؟ قال: ما أري حتى أسأل، فنزل جبريل، وكان قد أبطأ عليه، فقال: لقد أبطأت عليّ حتى ظننت أن بربري عليّ موحدة، فقال: ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾». وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: «أبطأ جبريل على النبي ﷺ أربعين يوماً ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: ما نزلت حتى اشتقت إليك، فقال له جبريل: أنا كنت إليك أشوق، ولكنني مأمور، فأوحى إلى جبريل أن قل له: ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾». وهو مرسل. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: «أبطأت الرسل على رسول الله ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال له: «ما حبسك عني؟ قال: وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ولا تنقون براجمكم ولا تأخذون شواربكم ولا تستلكون؟ وقرأ ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾». وهو مرسل أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير «له ما بين أيدينا» قال: من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفُنَا﴾ قال: من أمر الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال: ما بين الدنيا والآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال: ما

الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً [الأنعام: 159]. ومعنى ﴿إِيَّاهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ من كان أعصى لله وأعتى فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف النقي والفساد أعصاهم وأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحهم في جهنم. والعتي ها هنا مصدر كالعتو، وهو التمرّد في العصيان، وقيل: المعنى لننزع من أهل كل دين قانتهم ورؤساهم في الشر. وقد اتفق القراء على قراءة أيهم بالضم إلا هارون الغازي فإنه قرأها بالفتح. قال الزجاج: في رفع أيهم ثلاثة أقوال: الأول قول الخليل بن أحمد إنه مرفوع على الحكاية. والمعنى: ثم لننزع من كل شعبة الذين يقال لهم أيهم أشد، وأنشد الخليل في ذلك قول الشاعر:

وقد أبيت من الفتاة بمنزل فابيت لاحرج ولا محروم
أي: فابيت بمنزلة الذي يقال له هو لا حرج ولا محروم. قال النحاس: ورأيت أبا إسحاق يعني: الزجاج يختار هذا القول ويستحسنه. القول الثاني قول يونس: وهو أن لننزع بمنزلة الأفعال التي تلتقى وتعلق، فهذا الفعل عنده معلق عن العمل في أي، وخصص الخليل وسيبويه وغيرهما التعليق بأفعال الشك ونحوها مما لم يتحقق وقوعه. القول الثالث قول سيبويه: إن أيهم ها هنا مبني على الضم، لأنه خالف أخواته في الحذف، وقد غلط سيبويه في قوله هذا جمهور النحويين حتى قال الزجاج: ما تبين لي أن سيبويه غلط في كتابه إلا في موضعين هذا أحدهما، وللنحويين في إعراب أيهم هذه في هذا الموضع كلام طويل ﴿ثُمَّ لَنُحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صُلًيًا﴾ يقال: صلى يصلي صلياً مثل مضى الشيء يمضي مضياً، قال الجوهري: يقال صليت الرجل نأراً إذا أسخلته النار وجعلته يصلها، فإن القيت إلقاء كائنك تريد الإحراق قلت: أصلية بالالف وصلية تصلية ومنه ﴿وَيُصَلِّي سَعِيرًا﴾ [الإنشاق: 12]. ومن خفف فهو من قولهم: صلى فلان النار بالكسر يصلي صلياً احترق، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صُلًيًا﴾ قال العجاج:

والله لولا النار أن تصلها

ومعنى الآية: أن هؤلاء الذين هم أشد على الرحمن عتياً هم أولى بصليها أو صليهم أولى بالنار ﴿وَأَن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ الخطاب للناس من غير التفات، أو للإنسان المذكور، فيكون التفاتاً أي: ما منكم من أحد إلا واردها أي: واصلها.

وقد اختلف الناس في هذا الورد، فقيل: الورد الدخول ويكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم. وقالت فرقة: الورد هو المرور على الصراط؛ وقيل: ليس الورد الدخول إنما هو كما يقول: وردت البصرة ولم أسخّلها، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورد، وحمله على ظاهره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَىٰ أُولَٰئِكَ مِنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 101]. قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها، ومما يدل على أن الورد لا يستلزم الدخول قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾

الصراط. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي، وابن الأنباري، وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليرد الناس كلهم النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضرة الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كشدة الرجل، ثم كمشيته». وقد روي نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يقول: مجتاز فيها. وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد شهد براءاً والحديبية. قالت حفصة: اليس الله يقول: ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قالت: ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾». وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم»، ثم قرأ سفيان ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾. وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى، والطبراني، وابن مردويه عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم، فإن الله يقول: ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾». والاحاديث في تفسير هذه الآية كثيرة جداً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿حَتَّمَا مَقْضِيًّا﴾ قال: قضاء من الله. وأخرج الخطيب في تالي التلخيص عن عكرمة حتماً مقضياً قال: قسماً واجباً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَذِرَ الظَّالِمِينَ فِيهَا جَنَّتًا﴾ قال: باقين فيها.

وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مَّائِنَاتُنَا يَسْتَنَ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّا مَّا وَأَحْسَنُ نَزَا ﴿٧٦﴾ وَكَرَّاهُوا قَوْلَهُمْ يَنْ قَرْنَهُمْ أَحْسَنُ أُنْتَا وَرَبِّيَا ﴿٧٧﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدَدْ لَهُ أَرْحَمَنُ مَدَا سَجَّ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْمَذَابُ رِزَا السَّاعَةِ فَسَيَعْمَلُونَ مِمَّا هُوَ مَرُّ نَكَارًا وَأَضْمَعُ جُنْدًا ﴿٧٨﴾ وَبَزِيدَ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هَذِهِ وَالْبَئِثَتِ الْفَالِحَتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ نَوَا وَخَيْرٌ مَّرَدًا ﴿٧٩﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٨٠﴾ أَلَمْ يَلْعَلِ الْغَيْبُ أَرَأَيْتَ عِنْدَ أَرْحَمَنِ عَهْدًا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًا ﴿٨٢﴾ وَنَزِجُهُ مَّا يَقُولُ وَنَافِثًا فَرْدًا ﴿٨٣﴾

الضمير في ﴿عليهم﴾ راجع إلى الكفار الذين سبق نكرهم في قوله: ﴿إنذا ما مت لسوف أخرج حياً﴾ [مريم: 66] أي: هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعذبوا بالنداء، وقالوا: لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أظيب من حالنا. ولم يكن بالعكس، لأن الحكيم لا يليق به أن يهين أوليائه ويعز أعداءه، ومعنى البيئات: الواضحات التي لا تلتبس معانيها: وقيل: ظاهرات الإعجاز، وقيل: إنها حجج وبراهين، والأول أولى. وهي حال مؤكدة لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة، ووضع الظاهر موضع المضمهر في قوله:

بين النفختين. وأخرج ابن المنذر عن أبي العالية مثله. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني، والبيهقي، والحاكم وصححه عن أبي الدرداء رفع الحديث قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية. فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً، ثم تلا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾». وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال: هل تعرف للرب شيئاً أو مثلاً؟ وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عنه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾؟ قال: ليس أحد يسمى الرحمن غيره، وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: يا محمد هل تعلم لإلهك من ولد؟ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ قال: العاص بن وائل، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جَنَّتِيًّا﴾ قال: قعوداً، وفي قوله: ﴿عَتِيًّا﴾ قال: معصية. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿عَتِيًّا﴾ قال: عصياً. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُنْزِعَنَّ﴾ قال: لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤوسهم في الشر. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: نحشر الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، ثم قرأ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿عَتِيًّا﴾. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْشِرَنَّ﴾ قال: لنحشرهم بالذين هم أولى بها صلياً قال: يقول إنهم أولى بالخلود في جهنم. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورد، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعاً ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فلقيت جابر بن عبد الله فنكرت له، فقال وأهوى بأصبعه إلى أنفيه صمّاً: إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن النار ضجيجاً من بردها ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ونذر الظالمين فيها جثياً». وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن مجاهد قال: خاصم نافع بن الأزرق وابن عباس، فقال ابن عباس: الورد اللؤلؤ، وقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: 98]. وقال: وردوا أم لا؟ وقرأ ﴿يَقْدِمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: 98]. أوردوا أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وأخرج الحاكم عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: وإن منكم إلا داخلها. وأخرج هناد، والطبراني عنه في الآية قال: ورودها

من كان مستقراً في الضلالة ﴿فليمد له الرحمن مداً﴾ هذا وإن كان على صيغة الأمر، فالمراد به الخبر، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة، وأن ذلك كائن لا محالة لتقطع معاذير أهل الضلال، ويقال لهم يوم القيامة ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ [فاطر: 37]. أو للاستدراج كقوله سبحانه: ﴿إنما نملّي لهم ليزدادوا إثماً﴾ [آل عمران: 178]. وقيل: المراد بالآية الدعاء بالممد والتنقيس. قال الزجاج: تأويله أن الله جعل جزاء ضلّالته أن يتركه ويمدّه فيها، لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كان المتكلم يقول: أقعل ذلك وأمر به نفسي ﴿حتى إذا راوا ما يوعدون﴾ يعني: الذين مدّ لهم في الضلالة، وجاء بضمير الجماعة اعتباراً بمعنى من، كما أن قوله: ﴿كان في الضلالة فليمد له﴾ اعتبار بلفظها، وهذه غاية للمدّ، لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد ﴿إما العذاب وإما الساعة﴾ هذا تفصيل لقوله ما يوعدون أي: هذا الذي توعدون هو أحد أمرين إما العذاب في الدنيا بالقتل والأسر، وإما يوم القيامة وما يحلّ بهم حينئذٍ من العذاب الآخري ﴿فسيعلمون من هو شرّ مكاناً وأضعف جنداً﴾ هذا جواب الشرط، وهو جواب على المفتخرين أي: هؤلاء القائلون: أي الفريقين خير مقاماً، إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوي بأيدي المؤمنين، أو الآخري، فسيعلمون عند ذلك من هو شرّ مكاناً من الفريقين، وأضعف جنداً منهما: أي أنصاراً وأعواناً. والمعنى: أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شرّ مكاناً لا خير مكاناً، وأضعف جنداً لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين، وليس المراد أن للمفتخرين هناك جنداً ضعفاء، بل لا جند لهم أصلاً كما في قوله سبحانه: ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً﴾ [الكهف: 43] ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة، أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ وذلك أن بعض الهدى يجزّ إلى البعض الآخر، والخير يدعو إلى الخير؛ وقيل: المراد بالزيادة العبادة من المؤمنين، والوأي في «ويزيد» للاستئناف، والجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين؛ وقيل: الواو للعطف على فليمد؛ وقيل: للعطف على جملة من كان في الضلالة. قال الزجاج: المعنى أن الله يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقيناً كما جعل جزاء الكافرين أن يمدّهم في ضلالتهم ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً﴾ هي الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية، ومعنى كونها خيراً عند الله ثواباً: أنها أنفع عائدة مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية ﴿وخير مرداً﴾ المردّ ها هنا مصدر كالردّ، والمعنى: وخير مرداً للثواب على فاعلها ليست كاعمال الكفار التي خسروا فيها، والمردّ المرجع والعاقبة والتفضل للتهكم بهم للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلاً. ثم أرفف سبحانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال: ﴿أفرايت الذي كفر بآياتنا﴾ أي: أخبرني بقصة هذا الكافر وأذكر حديثه عقب

﴿قال الذين كفروا﴾ للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم، وقيل: المراد بالذين كفروا هنا هم المتمردون المصرون منهم، ومعنى قالوا ﴿للذين آمنوا﴾ قالوا: لأجلهم، وقيل: هذه اللام هي لام التبليغ كما في قوله: ﴿وقال لهم نبيهم﴾ [البقرة: 247 و248] أي: خاطبهم بذلك وبلغوا القول إليهم ﴿أي الفريقين خير مقاماً﴾ المراد بالفريقين: المؤمنون والكافرون، كأنهم قالوا: أفرقنا خير أم فريقكم؟ قرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحמיד، وشبل بن عباد مقاماً بضم الميم وهو موضع الإقامة، ويجوز أن يكون مصدرأ بمعنى: الإقامة، وقرأ الباقرن بالفتح أي: منزلاً ومسكناً وقيل: المقام الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة والمعنى: أي الفريقين أكبر جاهاً وأكثر أنصاراً وأعواناً، والندى والنادي: مجلس القوم ومجتمعهم، ومنه قوله تعالى: ﴿تأتون في ناديكم المنكر﴾ [العنكبوت: 29]. وناداه جالسه في النادي، ومنه دار النوبة، لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم، ومنه أيضاً قول الشاعر:

أنادي به آل الوليد جعفرًا

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ القرن: الأمة والجماعة ﴿هم أحسن اثناً ورثياً﴾ الإثنا المال أجمع: الإبل والغنم والبقر والعبيد والمتاع وقيل: هو متاع البيت خاصة، وقيل: هو الجنيّد من الفرش؛ وقيل: اللباس خاصة. واختلّفت القراءات في (ورثياً) فقرأ أهل المدينة وابن نكوان (ورثياً) بياء مشدّدة، وفي ذلك وجهان: أحدهما أن يكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء وأدغمت الياء في الياء، والمعنى على هذه القراءة: هم أحسن منظرأ وبه قول جمهور المفسرين، وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس؛ أو حسن الأبدان وتنعمها، أو مجموع الأمرين. وقرأ أهل الكوفة وأبو عمرو وابن كثير (ورثياً) بالهمز، وحكاها ورش عن نافع، وهشام عن ابن عامر، ومعناها معنى القراءة الأولى. قال الجوهري: من همز جعله من المنظر من رأيت، وهو ما رآته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي:

أشافتك الظعائن يوم بانوا
بذي الرثي الجميل من الإثنا
ومن لم يهمز: إما أن يكون من تخفيف الهمزة، أو يكون من رويت ألوانهم أو جلودهم ريثاً أي: أمثلاً وحسناً. وقد ذكر الزجاج معنى هذا كما حكاها عنه الواحدي. وحكى يعقوب أن طلحة بن مصرف قرأ بياء واحدة خفيفة، فقيل: إن هذه القراءة غلط، ووجهها بعض النحويين أنه كان أصلها الهمزة فقلبت ياء ثم حذفت إحدى الياءين، وروي عن ابن عباس أنه قرأ بالزاي مكان الراء، وروي مثل ذلك عن أبي بن كعب، وسعيد بن جبيرة، والأعصم المكي واليزيدي، والزيّ الهيئة والحسن. قيل: ويجوز أن يكون من زويت أي: جمعت، فيكون أصلها زوياً فقلبت الواو ياء، والزيّ محاسن مجموعة ﴿قل من كان في الضلالة﴾ أمر الله سبحانه رسوله الله ﷺ أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية أي:

حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿خَيْرَ مَقَامًا﴾ قال: المنازل ﴿وَلِحَسَنَ نَّدِيًّا﴾ قال: المجالس، وفي قوله: ﴿أَحْسَنَ اثْنَانًا﴾ قال: المتاع والمال ﴿وَرِثِيًّا﴾ قال: المنظر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدَدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَذًّا﴾ فليدعه الله في طغيانه؛ وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبيب بن أبي ثابت قال في حرف أبي: «قل من كان في الضلالة فإنه يزيد الله ضلالة». وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ من حيث خياب بن الارت قال: كنت رجلاً قتيلاً وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيك، فأنزل الله فيه هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله يرجو بها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَوَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ماله وولده.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يَكُونُونَ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِرَّادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزِمُهُمْ أَكَّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْبَلُ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الْآرِثِينَ وَفَدَّا ﴿٨٥﴾ وَتَسْأَلُ النَّجْمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبَدَا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَفَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضُ وَتَعْرِثُ الْجِبَالُ مَدًّا ﴿٨٩﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩١﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا ﴿٩٢﴾ لَقَدْ أَحْضَمْنَاهُ بِعَدُوِّهِمْ عَذَابًا ﴿٩٣﴾ وَكُلُّهُمْ فِي يَوْمٍ أُفٍّ مَرَّةً فَرَدًّا ﴿٩٤﴾

حتى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا يستحقونه، وتالوا على الله سبحانه من اتخاذهم الآلهة من دون الله لأجل يتعززون بذلك. قال الهروي: معنى ﴿يَلِيكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ليكونوا لهم أعواناً. قال الفراء: معناه ليكونوا لهم شفعاء في الآخرة، وقيل: معناه ليتعززوا بهم من عذاب الله ويمتنعوا بها ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَابَتِهِمْ﴾ أي: ليس الأمر كما ظنوا وترحموا، والضمير في الفعل إما للآلهة أي: ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها الله سبحانه، لأنها عند أن عبوها جمادات لا تعقل ذلك، وإما للمشركين أي: سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام، ويدل على الوجه الأول قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: 63]. وقوله: ﴿فَالْقُلُوبُ لِلَّهِمَّ الْقَوْلُ إِنَّكُمْ لَكَايِبُونَ﴾ [النحل: 86]. ويدل على الوجه الثاني قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] وقرأ ابن أبي نهيك (كلا) بالثنتين، وروي عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها فعلى الضم هي بمعنى جميعاً وانتصابها بفعل مضمر كأنه قال: سيكفرون كلا سيكفرون بعبادهم، وعلى الفتح يكون مصدراً

حديث أولئك، وإنما استعملوا رأيتم بمعنى أخبر، لأن رؤية الشيء من أسباب صحة الخبر عنه، والآيات تعم كل آية ومن جملتها آية البعث، والفاء للعطف على مقدر يدل عليه المقام أي: أنظرت فرأيت، واللام في ﴿لَاؤَتَيْنِ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هي الموطئة للقسم، كأنه قال: والله لأؤتين في الآخرة مالا وولداً أي: أنظر إلى حال هذا الكافر وتعجب من كلامه وتاليه على الله مع كفره به وتكذيبه بآياته. ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله، فقال: ﴿أُطْلِعُ﴾ على الغيب أي: أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه في الجنة ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ بذلك، فإنه لا يتوصل إلى العلم إلا بإحدى هاتين الطريقتين؛ وقيل: للمعنى أنظر في اللوح المحفوظ؛ أم اتخذ عند الرحمن عهداً؛ وقيل: معنى أم اتخذ عند الرحمن عهداً؟ أم قال: لا إله إلا الله فأرحمه بها؛ وقيل: المعنى أم قدم عملاً صالحاً فهو يرجوه، وأطلع مأخوذ من قولهم: أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه. وقرأ حمزة، والكسائي، ويحيى بن وثاب، والأعمش (ولداً) بضم الواو، والباقون بفتحها، فقيل: هما لغتان معناهما واحد، يقال: ولد وولد كما يقال: عدم وعدم، قال الحارث بن حلزة:

ولقد رأيت معاشراً قد تدمروا مالا وولداً
وقال آخر:

فليت فلاناً كان في بطن أمه وليت فلاناً كان ولد حمار
وقيل: الولد بالضم للجمع وبالفتح للواحد. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله: ﴿لَاؤَتَيْنِ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أنه يؤتى ذلك في الدنيا. وقال جماعة: في الجنة، وقيل: المعنى إن أقيمت على دين أبائي لاوتين؛ وقيل: المعنى لو كنت على باطل لما أوتيت مالا وولداً ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ كلا حرف ردع وزجر أي: ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد سيكتب ما يقول أي: سنحفظ عليه ما يقوله فنجازيه في الآخرة، أو سنظهر ما يقول، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته ﴿وَوَعَدُ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ مَذًّا﴾ أي: نزيد عذاباً فوق عذابه مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، أو نطول له من العذاب ما يستحقه وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء ﴿وَوَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نيمته فنرثه المال والولد الذي يقول إنه يؤتاه. والمعنى: مسمى ما يقول ومصادقه، وقيل: المعنى نحرمة ما تمناه ونعطيه غيره ﴿وَيَا تَيْنَا فَرَدًّا﴾ أي: يوم القيامة لا مال له ولا ولد، بل نسلبه ذلك، فكيف يطعم في أن ثؤتيه؛ وقيل: المراد بما يقول نفس القول لا مسماه، والمعنى: إنما يقول هذا القول ما دام حياً، فإذا أمتناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضاً له منفرداً عنه، والأول أولى.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِنِّي الْفَرِيقَيْنِ خَيْرَ مَقَامًا﴾ قال: قرئش تقول لها ولأصحاب محمد. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

لفعل محنوف تقديره: كل هذا الرأي كلا، وقراءة الجمهور هي الصواب، وهي حرف ردع وزجر ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ أي: تكون هذه الأكلة التي ظنوها عراً لهم ضداً عليهم أي: ضداً للعز وضد العزّ النذل هذا على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني فيكون المشركون للأكلة ضداً وأعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يحبونها ويؤمنون بها ﴿إلم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾ ذكر الزجاج في معنى هذا وجهين: أحدهما أن معناه خلينا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم منهم ولم نعدهم، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الإسراء: 65]. الوجه الثاني أنهم أرسلوا عليهم وقبضوا لهم بكفرهم قال: ﴿ومن يعيش عن نكر الرحمن نقبض له شيطاناً﴾ [الزخرف: 36]. فمعنى الإرسال ها هنا: التسليط ومن نكّر قوله سبحانه لإبليس ﴿واستغفر من استطعت منه بصوتك﴾ [الإسراء: 64]. ويؤيد الوجه الثاني تمام الآية، وهو ﴿تؤزّمهم أزاً﴾ فإن الأزّ والهزّ والاستغفار معناه: التحريك والتهيج والإزعاج، فأخبر الله سبحانه أن الشياطين تحرك الكافرين وتهيجهم وتغويهم، وذلك هو التسليط لها عليهم، وقيل: معنى الأزّ الاستعجال، وهو مقارب لما ذكرنا لأن الاستعجال تحريك وتهيج واستغفار وإزعاج، وسياق هذه الآية لتعجيب رسول الله ﷺ من حالهم وللتنبية له على أن جميع ذلك بلإضلال الشياطين وإغوائهم، وجملة: ﴿تؤزّمهم أزاً﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة على تقدير سؤال يدل عليه المقام؛ كأنه قيل: ماذا تفعل الشياطين بهم؟ ﴿فلا تعجل عليهم﴾ بأن تطلب من الله إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم للحق وتمردهم عن داعي الله سبحانه، ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله: ﴿إنما نعدّ لهم عداً﴾ يعني: نعدّ الأيام والليالي والشهور والسنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم؛ وقيل: نعدّ أنفاسهم؛ وقيل خطواتهم؛ وقيل: لحظاتهم؛ وقيل: الساعات. وقال قطرب: نعدّ أعمالهم؛ وقيل: المعنى لا تعجل عليهم فإنما تؤخرهم ليزدانوا إثماً. ثم لما قرّر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكره أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذ، فقال: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ الظرف منصوب بفعل مقتر أي: أنكر يا محمد يوم الحشر؛ وقيل: منصوب بالفعل الذي بعده، ومعنى حشرهم إلى الرحمن: حشرهم إلى جنته ودار كرامته، كقوله: ﴿إني ذاهب إلى ربي﴾ [الصفافات: 99] والوفد جمع وافد كالركب جمع راكب وصحب جمع صاحب، يقال: وفد وفداً وإذا خرج إلى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهري ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ السوق: الحثّ على السير، والورد: العطاش قاله الأخفش وغيره. وقال الفراء وابن الأعرابي: هم المشاة، وقال الأزهري: هم المشاة العطاش كالإبل ترد الماء؛ وقيل ورداً أي: للورد، كقولك جئتكم إكراماً أي: للإكرام، وقيل: أفراداً. قيل: ولا تناقض بين هذه الأقوال فهم يساقون مشاة عطاشاً أفراداً، وأصل الورد

الجماعة التي ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك. والورد الماء الذي يورد، وجملة ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ مستأنفة لبيان بعض ما يكون في ذلك اليوم من الأمور، والضمير في يملكون راجع إلى الفريقين؛ وقيل: للمتقين خاصة؛ وقيل: للمجرمين خاصة، والأول أولى. ومعنى لا يملكون الشفاعة: أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم؛ وقيل: لا يملك غيرهم أن يشفع لهم، والأول أولى ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ هذا الاستثناء متصل على الوجه الأول أي: لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من استعدّ لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم بأن يكون مؤمناً متقياً، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله؛ وقيل: معنى اتخاذ العهد أن الله أمره بذلك كقولهم: عهد الأمير إلى فلان إذا أمره به؛ وقيل: معنى اتخاذ العهد شهادة أن لا إله إلا الله؛ وقيل: غير ذلك. وعلى الاتصال في هذا الاستثناء يكون محل من في «من اتخذ» الرفع على البذل، أو النصب على أصل الاستثناء. وأما على الوجه الثاني فالاستثناء منقطع لأن التقدير: لا يملك المجرمون الشفاعة ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ وهم المسلمون؛ وقيل: هو متصل على هذا الوجه أيضاً، والتقدير: لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من كان منهم مسلماً ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وحمزة، والكسائي (ولداً) بضم الواو وإسكان اللام. وقرأ الباقر في الأربعة المواضع المذكورة في هذه السورة بفتح الواو واللام، وقد قُدمنا الفرق بين القراءتين، والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله، وفي قوله: ﴿لقد جئتم شيئاً إداً﴾ الثقات من الغيبة إلى الخطاب، وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء، والإدّ كما قال الجوهري: الداهية والأمر الغلط، وكذلك الآفة، وجمع الآفة أد. يقال: أنت فلاناً الداهية تؤدّه أداءً بالفتح. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (إداً) بفتح الهمزة، وقرأ الجمهور بالكسر، وقرأ ابن عباس وأبو العالية (أداً) مثل ماداً، وهي مأخوذة من الثقل، يقال: أدّه الحمل يؤدّه: إذا أثقله. قال الواحدي ﴿لقد جئتم شيئاً إداً﴾ أي: عظيماً في قول الجميع، ومعنى الآية: قلتم قولاً عظيماً؛ وقيل: الإدّ العجب، والإدّة الشدة، والمعنى متقارب ولتركيب يدور على الشدة والثقل ﴿يكاد السّموات ينفطرن منه﴾ قرأ نافع، والكسائي، وحفص، ويحيى بن وثاب (يكاد) بالتحية، وقرأ الباقر بالفوقية وقرأ نافع وابن كثير وحفص⁽¹⁾ (ينفطرن) بالتاء الفوقية، وقرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر والمفضل (ينفطرن) بالتحية من الانفطار، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ [الانفطار: 1]. وقوله: ﴿السماء منفطر به﴾ [المزمل: 18]. وقرأ ابن مسعود (يتصدّعن) والانفطار

(1) (قوله وحفص) صوابه والكسائي وحفص، اهـ مصصح القرآن.

والتفطر التشقق ﴿وتنشق الأرض﴾ أي: وتكاد أن تنشق الأرض، وكرر الفعل للتأكيد لأن تتفطرن وتنشق معناهما واحد ﴿وتخز الجبال﴾ أي تسقط وتنهدم، وانتصاب ﴿هذه﴾ على أنه مصدر مؤكد لأن الخور في معناه، أو هو مصدر لفعل مقدر أي: وتنهّد هذه، أو على الحال أي: مهودة، أو على أنه مفعول له أي: لأنها تنهد، قال الهروي: يقال هدني الأمر وهذ ركني أي: كسرني وبلغ مني. قال الجوهري: هذ البناء يهذه هذا كسره وضعضعه، وهنته المصيبة أوهنت ركته، وانهذ الجبل أي: انكسر والهذة صوت وقع الحائط، كما قال ابن الأعرابي، ومحل ﴿أن دعوا للرحمن ولدا﴾ الجر بدلاً من الضمير في منه. وقال الفراء: في محل نصب بمعنى لأن دعوا. وقال الكسائي: هو في محل خفض بتقدير الخافض، وقيل: في محل رفع على أنه فاعل هذا. والدعاء بمعنى التسمية أي: سموا للرحمن ولداً، أو بمعنى النسبة أي: نسبوا له ولداً ﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا﴾ أي: لا يصلح له ولا يليق به لاستحالة ذلك عليه لأن الولد يقتضي الجنسية والحدوث، والجملة في محل نصب على الحال أي: قالوا اتخذ الرحمن ولداً، أو أن دعوا للرحمن ولداً، والحال أنه ما يليق به سبحانه ذلك ﴿إن كل من في السموات والأرض﴾ أي: ما كل من في السموات والأرض ﴿إلا﴾ وهو ﴿أتى﴾ الله يوم القيامة مقراً بالعبودية خاضعاً لنيلاً كما قال: ﴿وكل أتوه داخرين﴾ [النمل: 87] أي: صاغرين. والمعنى: أن الخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولداً له؟ وقرئ (أت) على الأصل ﴿بلقد لخصاصهم﴾ أي: حصرهم وعلم عندهم ﴿وعندهم عذاب﴾ أي: عذاب أشخاصهم بعد أن حصرهم فلا يخفى عليه أحد منهم ﴿وكلهم أتية يوم القيامة فرداً﴾ أي: كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة فرداً لا ناصر له ولا مال معه كما قال سبحانه ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ [الشعراء: 88].

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ويكونون عليهم ضدا﴾ قال: أعواناً. وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿ضدا﴾ قال: حسرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ﴿تؤزهم أزا﴾ تغويهم إغواء. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿تؤزهم أزا﴾ قال: تحرّض المشركين على محمد وأصحابه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس ﴿وفدا﴾ قال: ركبناً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي هريرة ﴿وفدا﴾ قال: على الإبل. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق: راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا». والأحاديث في

هذا الباب كثيرة جداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس ﴿وردا﴾ قال: عطاشاً. وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وتبرأ من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله. وأخرج ابن مردويه عنه في الآية قال: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: إن الله يقول يوم القيامة: من كان له عندي عهد فليقم، فلا يقوم إلا من قال هذا في الدنيا، قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في الحياة الدنيا أنك إن تكلمني إلى عملي تقربني من الشر وتباعني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فأجعله لي عنك عهداً تؤيده إلي يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرتني، ومن سرتني فقد اتخذ عند الرحمن عهداً، ومن اتخذ عند الرحمن عهداً فلا تمسه النار، إن الله لا يخلف الميعاد». وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءنا بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه، ومن جاء قد انتقص منهم شيئاً فليس له عند الله عهد، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بلقد جئتم شيئاً إدا﴾ قال: قولاً عظيماً. وفي قوله: ﴿يكاد السموات﴾ قال: إن الشوك فرغت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقليين وكانت تزول منه لعظمة الله سبحانه، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك يرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وفي قوله: ﴿وتخز الجبال هدا﴾ قال: هداماً. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والطبراني، والبيهقي في الشعب من طريق عون عن ابن مسعود قال: إن الجبل ليلنادي الجبل باسمه، يا فلان هل مر بك اليوم أحد ذكر الله؟ فإذا قال نعم استبشر. قال عون: أفيسمعن الزور إذا قيل ولا يسمعن الخير؟ هن للخير أسمع، وقرا ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا﴾ الآيات.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٦١﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْكُ بِسُلْطَانِكَ لِئَیْسَرَ بِهِ الْآتِیَاتُ وَتُذِیْرُ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ﴿٦٢﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُ مِن قَوْمٍ هَلْ تَحْسِبُ أَنَّهُمْ مِنْ أُولَئِیْنَ أَلَمْ تَسْمَعْ لِقَوْلِ رَبِّكَ ﴿٦٣﴾

ذكر سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصهم به بعد نكره لقبايح الكافرين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

وأخرج الحكيم الترمذي، وابن مرويّه عن عليّ قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ما هو؟ قال: المحبة الصائفة في صدور المؤمنين». وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً فأحبه، فينادي في السماء، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض فذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل إني قد أبغضت فلاناً، فينادي في أهل السماء، ثم ينزل له البغضاء في الأرض». والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ قال: فجاراً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: صماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿هَلْ تَحَسُّهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ قال: هل ترى منهم من أحد. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿رُكَّازًا﴾ قال: صوتاً.

تفسير سورة طه

قال القرطبي: مكية في قول الجميع. وأخرج النحاس، وابن مرويّه، عن ابن عباس قال: نزلت سورة طه بمكة. وأخرج ابن مرويّه عن ابن الزبير مثله. وأخرج الدارمي، وابن خزيمة في التوحيد، والعقيلي في الضعفاء، والطبراني في الأوسط، وابن عدي، وابن مرويّه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويسّ قبل أن يخلق السموات والأرض بالقيّ عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لامة ينزل عليها هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لالسنّة تكلمت بهذا». قال ابن خزيمة بعد إخراجها: حديث غريب، وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما، يعني: إبراهيم بن مهاجر بن سمار وشيخه عمر بن حفص بن نكوان وهما من رجال إسناده. وأخرج ابن مرويّه عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت السورة التي ذكرت فيها الأنعام من الذكر الأول، وأعطيت سورة طه والطواشين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلة». وأخرج ابن مرويّه، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «كل قرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرءون منه شيئاً إلا سورة طه ويسّ، فإنهم يقرءون بهما في الجنة». وأخرج الدارقطني في سننه عن أنس بن مالك، فنكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته وخباب وقراءتهما طه، وكان ذلك بسبب إسلام عمر، والقصة مشهورة في كتب السير.

للصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًّا أي: حباً في قلوب عباده يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التي توجب ذلك كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب، والسين في سيجعل للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل وأنه مجعول من بعد نزول الآية. وقرئ (وداً) بكسر الواو، والجمهور من السبعة وغيرهم على الضم. ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصاً هذه السورة لاشتمالها على التوحيد والنبوة، وبيان حال المعاندين فقال: ﴿فَلَنُؤَمِّرَنَّ مِنْكُمْ لُجُتًا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي حُلِيِّمِهِمْ وَفِي عُيُونِهِمْ لُجُتٌ يُظْهِرُ الْأَشْجَارَ أَتَدْرُكُونَ﴾ أي: يسرنا القرآن بإنزالنا له على لغتك، وفصلناه وسهلناه، والباء بمعنى على، والفاء لتعليل كلام ينساق إليه النظم كأنه قيل: بلغ هذا المنزل أو بشر به أو أنذر ﴿فَلَنُؤَمِّرَنَّ مِنْكُمْ لُجُتًا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي حُلِيِّمِهِمْ وَفِي عُيُونِهِمْ لُجُتٌ يُظْهِرُ الْأَشْجَارَ أَتَدْرُكُونَ﴾ أي: المتلبسين بالتقوى، المتصفين بها ﴿وَنُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ اللذ جمع الألد، وهو الشديد الخصومة. ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْخَصْمَ﴾ [البقرة: 204]. قال الشاعر:

أبيت نجياً للهموم كائنني إخاصم أقواماً نوي جدل لداً
وقال أبو عبيدة: اللذ الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل؛ وقيل: اللذ الصم؛ وقيل: الظلمة ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: من أمة وجماعة من الناس، وفي هذا وعد لرسول الله ﷺ بهلاك الكافرين ووعيد لهم ﴿هَلْ تَحَسُّهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها أي: هل تشعر بأحد منهم أو تراه ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رُكَّازًا﴾ الرّكز الصوت الخفي، ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض. قال طرفة:

وصافتها سمع التوجس للسرى لركز خفي أو لصوت مفند
وقال نو الرمة:

إذا توجس ركزاً مقفر تنس بنبأة الصوت ما في سمعه كذب
أي: في استماعه كذب بل هو صائق الاستماع، والنس الحائق، والنبأة الصوت الخفي. وقال البيهقي وأبو عبيد: الرّكز ما لا يفهم من صوت أو حركة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مرويّه، عن عبد الرحمن بن عوف أنه لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم: شيبه بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمّية بن خلف، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية، قال ابن كثير: وهو خطأ، فإن السورة مكية بكما لم ينزل شيء منها بعد الهجرة، ولم يصح سند ذلك. وأخرج الطبراني، وابن مرويّه عن ابن عباس قال: نزلت في علي بن أبي طالب ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: محبة في قلوب المؤمنين. وأخرج ابن مرويّه، والديلمي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلّي: قل اللهم اجعل لي عنك عهداً، واجعل لي عنك وداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة، فأنزل الله الآية في علي». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس ﴿وُدًّا﴾ قال: محبة في الناس في الدنيا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِلَّا نَشْفَقُ ۖ ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْتَصِمُ ﴿٢﴾ تَنزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالْمَرْوَةِ الْعُلَىٰ ﴿٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْسِيَ اسْتَوَىٰ ۖ لَمْ يَكُن فِي الْأَعْنَاقِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَاتَتْ وَرَثَتُهُ ۖ وَإِنْ يَجْهَرُ الْقَوْلُ فَلَا يَسْمَعُ الْبَصِيرُ وَأَخْبَىٰ ﴿٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٥﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٦﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا مَّا لِيَ بِهَا لَأُبْكِرَنَّهَا يُقْبِنُ أَوْ أُجِدَ عَلَىٰ نَارًا هُدًى ﴿٧﴾ فَلَمَّا أَنهَا نُورٌ يُّبْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاسْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْأَعْيَنِ طُورِي ﴿٩﴾ وَأَنَا أَفْتَرُكَ فَاسْتَجِبْ لِمَا يَرْحَمُ ﴿١٠﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١١﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ۖ يَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴿١٢﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَرَدَدَتْهُ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿طه﴾ قرا بإمالة الهاء وفتح الطاء أبو عمرو وابن أبي إسحاق، وأمالهما جميعاً أبو بكر وحمره، والكسائي، والأعمش. وقراهما أبو جعفر وشيبة وناقع بين اللفظين، واختار هذه القراءة أبو عبيد. وقرا الباقرين بالتخفيف. قال الثعلبي: وهي كلها لغات صحيحة فصيحة. وقال النحاس: لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين: الأولى أنه ليس ها هنا ياء ولا كسرة حتى تكون الإمالة، والعللة الثانية أن الطاء من موانع الإمالة.

وقد اختلف أهل العلم في معنى هذه الكلمة على أقوال: الأول أنها من المتشابه الذي لا يفهم المراد به. والثاني أنها بمعنى. يا رجل في لغة عك، وفي لغة عك. قال الكلبي: لو قلت لرجل من عك يا رجل لم يجب حتى تقول طه، وأنشد ابن جرير في ذلك:

دعوت بطة في القتال فلم يجب فخفضت عليه أن يكون موائلا
ويروى مزيلاً، وقيل: إنها في لغة عك بمعنى يا حبيبي. وقال قطرب: هي كذلك في لغة طي أي: بمعنى يا رجل، وكذلك قال الحسن وعكرمة؛ وقيل: هي كذلك في اللغة السريانية، حكاه المهدوي. وحكى ابن جرير أنها كذلك في اللغة النبطية، وبه قال السدي وسعيد بن جبیر. وحكى الثعلبي عن عكرمة أنها كذلك في لغة الحبشة، ورواه عن عكرمة، ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى في تلك اللغات كلها إذا صح النقل. القول الثالث: أنها اسم من أسماء الله سبحانه. والقول الرابع: أنها اسم للنبي ﷺ. القول الخامس: أنها اسم للسورة. القول السادس: أنها حروف مقطعة يدل كل واحد منها على معنى. ثم اختلفوا في هذه المعاني التي تدل عليها هذه الحروف على أقوال كلها متكلفة متعسفة. القول السابع: أن معناها طوبى لمن اهتدى. القول الثامن: أن معناها: طم الأرض يا محمد. قال ابن الأنباري: وذلك أن النبي ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كانت قدماه تتورم ويحتاج إلى الترويح، فقيل له: طم الأرض أي: لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح. وحكى القاضي عياض في الشفاء عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ

إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله ﴿طه﴾ يعني: طم الأرض يا محمد، وحكى عن الحسن البصري أنه قرا طه على وزن دع أمر بالوطء، والأصل طاً فقلبت الهمزة هاء. وقد حكى الواحدي عن أكثر المفسرين أن هذه الكلمة معناها: يا رجل، يريد النبي ﷺ قال: وهو قول الحسن، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وقتادة، ومجاهد وابن عباس في رواية عطاء والكلبي غير أن بعضهم يقول: هي بلسان الحبشة والنبطية والسريانية، ويقول الكلبي: هي بلغة عك. قال ابن الأنباري: ولغة قريش وافقت تلك اللغة في هذا المعنى، لأن الله سبحانه لم يخاطب نبيه بلسان غير قريش انتهى. وإذا تقرر أنها لهذا المعنى في لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور التي قلّمنا بيان كونها من المتشابه في فاتحة سورة البقرة، وهكذا إذا كانت لهذا المعنى في لغة من لغات العجم واستعملتها العرب في كلامها في تلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التي استعملتها العرب الموجودة في الكتاب العزيز، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب، وجملة ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب، والشقاء يجيء في معنى التعب. قال ابن كيسان: وأصل الشقاء في اللغة العناء والتعب، ومنه قول الشاعر:

نو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا، فهو كقوله سبحانه: ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ [الكهف: 6]. قال النحاس: بعض التحويين يقول: هذه اللام في «لتشقى» لام النفي، وبعضهم يقول: لام الجحود. وقال ابن كيسان: هي لام الخفض، وهذا التفسير للآية هو على قول من قال: إن طه كسائر فواتح السور التي ذكرت تعدداً لأسماء الحروف، وإن جعلت اسماً للسورة كان قوله: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ خبراً عنها، وهي في موضع المبتدأ، وأما على قول من قال: إن معناها يا رجل، أو بمعنى الأمر بوطء الأرض فتكون الجملة مستأنفة لصرفه ﷺ عما كان عليه من المبالغة في العبادة، وانتصاب ﴿إلا تنكرة﴾ على أنه مفعول له لأنزلنا كقولك: ما ضربتك للتأنيب إلا إشفافاً عليك. وقال الزجاج: هو بدل من لتشقى أي: ما أنزلناه إلا تنكرة. وأنكره أبو علي الفارسي من جهة أن التذكرة ليست بشقاء، قال: وإنما هو منصوب على المصدرية أي: أنزلناه لتذكر به تنكرة، أو على المفعول من أجله أي: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة، وانتصاب ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلا﴾ على المصدرية أي: أنزلناه تنزيلاً؛ وقيل: بدل من قوله تذكرة؛ وقيل: هو منصوب على الملح، وقيل: منصوب بيخشى أي: يخشى تنزيلاً من الله على أنه مفعول به، وقيل: منصوب على الحال بتأوله باسم الفاعل. وقرا أبو حيوة الشامي (تنزيل) بالرفع على معنى هذا تنزيل؛ ومنم خلق

ومتعلق بتنزيلاً؛ أو محذوف هو صفة له، وتخصيص خلق الأرض والسّموات لكونهما أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عزّ وجلّ، والعلی: جمع العلیا أي: المرتفعة كجمع كبرى وصغرى على كبر وصغر. ومعنى الآية إخبار العباد عن كمال عظمته سبحانه وعظيم جلاله، وارتفاع **«الرحمن»** على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قال الأخفش، ويجوز أن يكون مرتفعاً على المدح أو على الابتداء. وقرئ بالجر، قال الزجاج: على البذل ممن، وجوز النحاس أن يكون مرتفعاً على البذل من المضممر في خلق، وجملة **«على العرش استوى»** في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أو على أنها خبر الرحمن عند من جعله مبتدأ. قال أحمد بن يحيى: قال ثعلب: الاستواء الإقبال على الشيء، وكذا قال الزجاج والفراء، وقيل: هو كناية عن الملك والسلطان، والبحث في تحقيق هذا يطول، وقد تقدّم البحث عنه في الأعراف. والذي ذهب إليه أبو الحسن الأشعري أنه سبحانه مستوي على عرشه بغير حد ولا كيف، وإلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذي يروون لصفات كما وردت من دون تحريف ولا تأويل **«له ما في السموات وما في الأرض»** أي: أنه مالك كل شيء ومبدئ **«وما بينهما»** من الموجودات **«وما تحت للثرى»** الثرى في اللغة: التراب الندي أي: ما تحت التراب من شيء. قال الواحدي: والمفسرون يقولون: إنه سبحانه أراد الثرى الذي تحت الصخرة التي عليها الثور الذي تحت الأرض ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله سبحانه **«وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى»** الجهر بالقول هو رفع الصوت به والسرّ ما حثّ به الإنسان غيره وأسرّه إليه، والأخفى من السرّ هو ما حثّ به الإنسان نفسه وأخطره بهاله. والمعنى: إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن ذلك، فإنه يعلم السرّ وما هو أخفى من السرّ، فلا حاجة لك إلى الجهر بالقول، وفي هذا معنى النهي عن الجهر كقوله سبحانه: **«وانكسر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة»** [الأعراف: 205]. وقيل: لسرّ ما أسرّ الإنسان في نفسه، والأخفى منه هو ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه، وقيل: السرّ ما أضمره الإنسان في نفسه، والأخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد، وقيل: السرّ سرّ الخلائق، والأخفى منه سرّ الله عزّ وجلّ، وأنكر ذلك ابن جرير وقال: إن الأخفى ما ليس في سرّ الإنسان وسيكون في نفسه. ثم ذكر أن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه المنزه عن الشريك المستحق لتسميته بالأسماء الحسنی فقال: **«الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنی»** فالله خبر مبتدأ محذوف أي: الموصوف بهذه الصفات الكمالية الله، وجملة لا إله إلا هو مستأنفة لبيان اختصاص الإلهية به سبحانه أي: لا إله في الوجود إلا هو، وهكذا جملة له الأسماء الحسنی مبينة لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنی، وهي التسعة والتسعون التي ورد بها الحديث الصحيح.

وقد تقدم بيانها في قوله سبحانه: **«و الله الأسماء الحسنی»** [الأعراف: 180] من سورة الأعراف، الحسنی تأنث الأحسن، والأسماء مبتدأ وخبرها الحسنی، ويجوز أن يكون الله مبتدأ وخبره الجملة التي بعده، ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير في يعلم. ثم قرّر سبحانه أمر التوحيد بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة، والخبر الغريب، فقال: **«وهل لتلك حديث موسى»** الاستفهام للتقرير، ومعناه: أليس قد أتاك حديث موسى، وقيل: معناه قد أتاك حديث موسى، وقال الكلبي: لم يكن قد أتاه حديث موسى إذ ذلك. وفي سياق هذه القصة تسليّة للنبي ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها، وإن تلك شأن الأنبياء قبله. والمراد بالحديث القصة الواقعة لموسى. و **«إذ رأى ناراً»** ظرف للحديث، وقيل: العامل فيه مقدر أي: أنكر؛ وقيل: يقدر مؤخراً أي: حين رأى ناراً كان كيت وكيت، وكانت رؤيته للنار في ليلة مظلمة لما خرج مسافراً إلى أمه بعد استئذانه لشعيب **«ف»** لما رآها **«قال لأهله امكثوا»** والمراد بالأهل هنا: امرأته، والجمع لظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم؛ وقيل: المراد بهم المرأة والولد والخادم، ومعنى امكثوا: أقيموا مكانكم، وعبر بالمكان دون الإقامة، لأن الإقامة تقتضي الدوام، والمكان ليس كذلك. وقرأ حمزة (لأهله) بضم الهاء، وكذا في القصص. قال النحاس: وهذا على لغة من قال: مررت بهو يا رجل فجاء به على الأصل وهو جائز إلا أن حمزة خالف أصله في هذين الموضعين خاصة **«إني أنست ناراً»** أي: أبصرت، يقال: أنست الصوت سمعته، وأنست الرجل أبصرته؛ وقيل: الإنسان الإبصار البين؛ وقيل: الإنسان مختص بإبصار ما يؤنس، والجملة تعليل للأمر بالمكان، ولما كان الإتيان بالقبس، ووجود الهدى متوقعين بني الأمر على الرجاء فقال: **«لعلني أتيتكم منها بقبس»** أي: أجيتكم من النار بقبس، والقبس شعلة من النار، وكذا المقباس، يقال: قبست منه ناراً أقبس قبساً فأقبسني أي: أعطاني وكذا اقتبست. قال اليزيدي: أقبست الرجل علماً وقبسته ناراً، فإن كنت طلبتها له قلت: أقبسته. وقال الكسائي: أقبسته ناراً وعلماً سواء، قال: وقبسته أيضاً فيهما **«أو لجد على النار هدى»** أي: هادياً يهديني إلى الطريق ويدلني عليها. قال الفراء: أراد هادياً، فنكره بلفظ المصدر، أو عبر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف أي: ذا هدى، وكلمة أو: في الموضعين لمنع الخلط بين الجمع، وحرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان إليها **«فلما أتاهم نودي»** أي: فلما أتى النار التي أنسها **«نودي»** من الشجرة، كما هو مصرح بذلك في سورة القصص أي: من جهتها، ومن ناحيتها **«يا موسى إني أنا ربك»** أي: نودي، فقيل: يا موسى. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وأبو جعفر، وابن محيصن، وحמיד، واليزيدي (إني) بفتح الهمزة. وقرأ الباقر بكسرها أي: باني **«فاخلع نعليك»** أمره الله

القرطبي: وكذا رواه ابن الأنباري في كتاب الرد قال: حدثني أبي، حدثنا محمد بن الجهم، حدثنا الفراء، حدثنا الكسائي فنكره. قال النحاس: وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان، عن الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير أنه قرأ (أخفيها) بضم الهمزة. قال ابن الأنباري: قال الفراء: ومعنى قراءة الفتح أكاد أظهرها، من خفيت الشيء إذا أظهرته أخفيه. قال القرطبي: وقد قال بعض اللغويين: يجوز أن يكون أخفيها بضم الألف معناه أظهرها، لأنه يقال: خفيت الشيء وأخفيته من حروف الأضداد يقع على السستر والإظهار. قال أبو عبيدة: خفيت وأخفيت بمعنى واحد. قال النحاس: وهذا حسن، وقد أنشد الفراء وسيبويه ما يدل على أن معنى أخفاه أظهر، وذلك قول امرئ القيس:

فإن تكتموا الداء لا نخف وإن تبعثوا الحرب لا ننعقد
أي: وإن تكتموا الداء لا نظهره. وقد حكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أنه بضم النون من نخف، وقال: امرؤ القيس:

خفاهن من أنفاقهن كأنما خطاهن برق من غشي مخلب
أي: أظهرهن. وقد زيف النحاس هذا القول وقال: ليس المعنى على أظهرها، ولا سيما وأخفيها قراءة شاذة، فكيف ترد القراءة الصحيحة الشائعة. وقال ابن الأنباري: في الآية تفسير آخر، وهو أن الكلام ينقطع على أكاد، وبعده مضمّر أي: أكاد آتي بها، ووقع الابتداء بأخفيها لتجزي كل نفس بما تسعى، ومثله قول عمير بن ضابئ البرجمي:

هممت ولم أفعل وكنت وليتني تركت على عثمان تبكي حلاله
أي: وكنت أفعّل، واختار هذا النحاس. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب السلب وليس من الأضداد، ومعنى أخفيها: أزيل عنها خفاءها، وهو سترها، ومن هذا قولهم أشكيتني أي: أزلت شكواها. وحكى أبو حاتم عن الأخفش أن أكاد زائدة للتأكيد، قال: ومثله ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ [النور: 40]. ومثله قول الشاعر:

سريع إلى الهياج شك سلاحه فما أن يكاد قرنه يتنفس
قال: والمعنى أكاد أخفيها أي: أقارب ذلك، لأنك إذا قلت: كاد زيد يقوم جاز أن يكون قام وأن يكون لم يقم، ودلّ على أنه قد أخفاهما بدلالة غير هذه الآية على هذا، وقوله: ﴿للتجزي كل نفس بما تسعى﴾ متعلق بآتية، أو بأخفيها، وما مصدرية أي: لتجزي كل نفس بسعيها، والسعي وإن كان ظاهراً في الأفعال، فهو هنا يعمّ الأفعال والتروك، للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به ﴿فلا يصننك عنها﴾ أي: لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة، والتصديق بها، أو عن نكرها ومراقبتها ﴿من لا يؤمن بها﴾ من الكفرة، وهذا النهي وإن كان للكافر بحسب الظاهر، فهو في الحقيقة نهى له ﷺ عن الانصداد، أو عن إظهار اللين للكافرين فهو من باب: لا أرينك ها هنا، كما هو معروف، وقيل: للضمير في عنها للصلاة وهو بعيد، وقوله: ﴿ولاتبع هواه﴾ معطوف على ما قبله أي: من لا يؤمن، ومن اتبع هواه أي: هوى نفسه بالانتهماك في اللذات الحسية الفانية

سبحانه بخلع نعليه، لأن ذلك أبلغ في التواضع، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التآدب؛ وقيل: إنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ، وقيل: معنى الخلع للنعلين: تفريغ القلب من الأهل والمال، وهو من بدع التفاسير. ثم علل سبحانه الأمر بالخلع فقال: ﴿إنك بالواد المقدس طوى﴾ المقسّ: المطهر، والقس: الطهارة، والأرض المقدسة: المطهرة، سميت بذلك لأن الله أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين، وطوى اسم للوادي. قال الجوهري: وطوى اسم موضع بالشام يكسر طأؤه ويضم، يصرف ولا يصرف، فمن صرفه جعله اسم وادٍ ومكان وجعله نكرة ومن لم يصرفه جعله بلدة، وبقة وجعله معرفة، وقرأ عكرمة (طوى) بكسر الطاء، وقرأ الباقون بضمها؛ وقيل: إن طوى كثي من الطي مصدر لنودي، أو للمقدس أي: نودي ندائين، أو قدس مرة بعد أخرى ﴿وإنا اخترتك﴾ قرأ أهل المدينة، وأهل مكة، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والكسائي (وإنا اخترتك) بالإنفراد. وقرأ حمزة (وإنا اخترتك) بالجمع. قال النحاس: والقراءة الأولى أولى من جهتين: إحداهما أنها أشبه بالخط، والثانية أنها أولى بنسق الكلام لقوله: ﴿يا موسى إني أنا ربك﴾، ومعنى اخترتك: اصطفتيك للنبوة والرسالة، والفاء في قوله: ﴿فاستمع لما يوحى﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها وما موصولة أو مصدرية أي: فاستمع للذي يوحى إليك، أو للوحي، وجملة ﴿إني أنا الله﴾ بدل من ما في لما يوحى. ثم أمره سبحانه بالعبادة فقال: ﴿فاعبديني﴾ والفاء هنا كالفاء التي قبلها لأن اختصاص الإلهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة ﴿واقم الصلاة لذكرك﴾ خصّ الصلاة بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة، لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة، وعلل الأمر بإقامة الصلاة بقوله لذكرك أي: لتذكرني فإن الذكر الكامل لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة، أو المعنى: لتذكرني فيهما لاشتغالهما على الانكار، أو المعنى: أقم الصلاة متى نكرت أن عليك صلاة، وقيل: المعنى لا تذكر بالمدح في عليين، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول، وجملة ﴿إن الساعة آتية﴾ تعليل لما قبلها من الأمر أي: إن الساعة التي هي وقت الحساب والعقاب آتية، فاعمل الخير من عبادة الله والصلاة.

ومعنى ﴿أكاد أخفيها﴾ مختلف فيه. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين: أخفيها من نفسي، وهو قول سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة. وقال المبرد وقطرب: هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء كتمته حتى من نفسي أي: لم أطلع عليه أحداً؛ ومعنى الآية: أن الله بالغ في إخفاء الساعة، فنكره بأبلغ ما تعرفه العرب. وقد روي عن سعيد بن جبير أنه قرأ (أخفيها) بفتح الهمزة ومعناه أظهرها، وكذا روى أبو عبيد، عن الكسائي، عن محمد بن سهل، عن وفاء بن إياس، عن سعيد بن جبير. قال النحاس: وليس لهذه الرواية طريق غير هذا. قال

﴿فتردى﴾ أي: فتهلك لأن انصدادك عنها بصد الكفارين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، وابن عساكر عن ابن عباس، أن النبي ﷺ: «أول ما نزل عليه الوحي كان يقوم على صدر قدميه إذا صلى، فأنزل الله ﴿طه﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى». وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه قال: قالوا لقد شقي هذا الرجل بربه، فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن عساكر عنه أيضاً قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل لثلاثين، فأنزل الله هذه الآية». وأخرج البزار عن علي قال: «كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾» وحسن السيوطي إسناده. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً بأطول منه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ ربما قرأ القرآن إذا صلى، فقام على رجل واحدة، فأنزل الله ﴿طه﴾ برجليك فما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿طه﴾ قال: يا رجل. وأخرج الحارث بن أبي أسامة، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿طه﴾ بالنبطية. أي: طأ يا رجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو كقولك أقعد. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال: ﴿طه﴾ بالنبطية يا رجل. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿طه﴾ يا رجل بالسريانية. وأخرج الحاكم عنه أيضاً قال: ﴿طه﴾ هو كقولك يا محمد بلسان الحبش. وفي هذه الروايات عن ابن عباس اختلاف وتداخل. وأخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي عند ربي عشرة أسماء، قال أبو الطفيل: حفظت منها ثمانية: محمد، وأحمد، وأبو القاسم، والفتاح، والخاتم، والماحي، والعاقب، والحاشر». وزعم سيف أن أبا جعفر قال له الاسمان الباقيان: طه ويسر. وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿طه﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. قال: يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، وكان يقوم الليل على رجله فهي لغة لعك إن قلت لعكي: يا رجل لم يلتفت، وإذا قلت طه: التفت إليك. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: ﴿طه﴾ قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وما تحت الثرى﴾ قال: الثرى كل شيء مبتل. وأخرج أبو يعلى عن جابر: «أن النبي ﷺ سئل ما تحت هذه الأرض؟ قال: الماء، قيل: فما تحت الماء؟ قال: ظلمة، قيل: فما تحت الظلمة؟ قال: الهواء، قيل: فما تحت الهواء؟ قال: الثرى، قيل: فما تحت الثرى؟ قال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق». وأخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله ﴿ويعلم السر وأخفى﴾ قال: السر ما أسرّه ابن آدم في نفسه وأخفى ما خفي عن ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمل، فإنه يعلم ذلك كله فيما

مضى من ذلك وما بقي علم واحد وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة وهو كقوله: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ [لقمان: 28]. وأخرج الحاكم وصححه عنه في الآية قال: السر ما علمته أنت، وأخفى ما كلف الله في قلبك مما لم تعلمه. وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي بلفظ يعلم ما تسر في نفسك ويعلم ما تعمل غداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أو أجد على النار هدى﴾ يقول: من يدل على الطريق. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن علي في قوله: ﴿فاخلع نعليك﴾ قال: كانتا من جلد حمار ميت فقيل له: اخلعهما. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿إنك بالواد المقدس طوى﴾ قال المبارك: طوى قال اسم الوادي. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿بالواد المقدس طوى﴾ يعني: الأرض المقدسة، وذلك أنه مر بوابيها ليلاً فطوى يقال: طويت وادي كذا وكذا. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿طوى﴾ قال: طم الوادي. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث انس، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا نكرها، فإن الله قال: ﴿اقم الصلاة لذكري﴾». وأخرج الترمذي، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاة فليصلها إذا نكرها، فإن الله قال: ﴿اقم الصلاة لذكري﴾». وكان ابن شهاب يقرؤها (للتكري). وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أكاد أخفيها﴾ قال: لا أظهر عليها أحداً غيري. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿أكاد أخفيها﴾ من نفسي.

وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِكَ يَمْوُتُ ﴿٧٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَوُكِّرُ عَلَيْهَا وَأَقْرُبُ بِهَا عَلَى عَنِي وَلِي فِيهَا مَرَاتِبٌ أُخْرَى ﴿٧٨﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَمْوُتُ ﴿٧٩﴾ تَأْتِيهَا قَادًا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٨٠﴾ قَالَ غُلَا وَلَا تَخَفْ سَوِّدَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٨١﴾ وَأَضْمَمَ يَدَهُ إِلَى حَنَاجِكَ تَخْرُجُ بَيْسَةً مِنْ عَيْرٍ سَوَّى أَيْةُ أُخْرَى ﴿٨٢﴾ لِرَبِّكَ مِنْ مَائِيكَ الْكُبْرَى ﴿٨٣﴾ أَتَهَبُ إِنْ فَرَعُونَ إِنَّهُ طَعْنٌ ﴿٨٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٨٥﴾ وَبَشِّرْ نَفْسِي بِأَمْرِي ﴿٨٦﴾ وَأَسْأَلُ عَفْوَكَ مِنْ لِسَانِي ﴿٨٧﴾ بِقَهْرٍ قَوْلِي ﴿٨٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَبَرًا مِنْ أَمَلِي ﴿٨٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٩٠﴾ أَشَدُّ بَوَاءَ أَرَى ﴿٩١﴾ وَأَشْرَفُ فِي أَرَى ﴿٩٢﴾ كَيْ نَسْمَكَ كَبِيرًا ﴿٩٣﴾ وَتَذَكَّرَ كَبِيرًا ﴿٩٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٩٥﴾

قوله: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ قال الزجاج والفراء: إن تلك اسم ناقص وصلت بيمينك أي: ما التي بيمينك؟ وروي عن الفراء أنه قال: تلك بمعنى هذه، ولو قال ما ذلك لجاز أي: ما ذلك الشيء؟ وبالأول قال الكوفيون. قال الزجاج: ومعنى سؤال موسى عما في يده من العصا: التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها والتأمل لها. قال الفراء: ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى: هي

قومه ﴿[الأعراف: 155]﴾. قال: ويجوز أن يكون مصدرًا، لأن معنى سنجيدها سنسبورها، ويجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل أي: سائرة، أو بمعنى اسم المفعول أي: مسيرة. والمعنى: سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التي هي العسوية. قيل: إنه لما قيل له: لا تخف بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده في فمها ويأخذ بلحيتها ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ قال الفراء والزجاج: جناح الإنسان عضده، وقال قطرب: جناح الإنسان جنبه. وعبر عن الجنب بالجناح لأنه في محل الجناح؛ وقيل: إلى بمعنى مع، أي: مع جناحك، وجواب الأمر ﴿تخرج بيضاء﴾ أي: تخرج يدك حال كونها بيضاء، ومحل ﴿من غير سوء﴾ النصب على الحال أي: كائنة من غير سوء، والسوء العيب، كني به عن البرص أي: تخرج بيضاء ساطعاً نورها تضيء بالليل والنهار كسوء الشمس من غير برص، وانتصاب ﴿آية أخرى﴾ على الحال أيضاً أي: معجزة أخرى غير العصا. وقال الأخفش: إن آية منتصبة على أنها بدل من بيضاء. قال النحاس: وهو قول حسن. وقال الزجاج: المعنى آيتناك أو نؤتيك آية أخرى لأنه لما قال: ﴿تخرج بيضاء﴾ دل على أنه قد أتاه آية أخرى، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ قيل والتقدير: فعلنا ذلك لنريك، ومن آياتنا متعلق بمحذوف وقع حالاً، والكبرى معناها العظمى، وهو صفة لموصوف محذوف، والتقدير: لنريك من آياتنا الآية الكبرى أي: لنريك بهاتين الآيتين يعني: اليد والعصا بعض آياتنا الكبرى، فلا يلزم أن تكون اليد هي الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا، فيرد على ذلك أنه لم يكن في اليد إلا تغير اللون فقط بخلاف العصا، فإن فيها مع تغير اللون الزيادة في الحجم وخلق الحياة والقدرة على الأمور الخارقة. ثم صرح سبحانه بالفرض المقصود من هذه المعجزات فقال: ﴿أذهب إلى فرعون﴾ وخصه بالذكر لأن قومه تبع له، ثم علل ذلك بقوله ﴿إنه طغي﴾ أي: عصى وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحد، وجملة ﴿قال رب اشرح لي صدري﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قال؟ ومعنى شرح الصدر: توسيعه، تضرع عليه السلام إلى ربه وأظهر عجزه بقوله: ﴿ويضيق صدري ولا ينطق لساني﴾ [الشعراء: 13]، ومعنى تيسير الأمر: تسهيله ﴿وألحل عقدة من لساني﴾ يعني: العجمة التي كانت فيه من الجمرة التي ألقاها فيه وهو طفل أي: أطلق عن لساني العقدة التي فيه، قيل: أذهب الله سبحانه تلك العقدة جميعها بليل قوله: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ [طه: 36]. وقيل: لم تذهب كلها لأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية، بل سأل حل عقدة تمنع الإقحام بليل قوله: ﴿من لساني﴾ أي: كائنة من عقد لساني، ويؤيد ذلك قوله: ﴿هو أقصع مني لساناً﴾ [القصص: 34]. وقوله حكاية عن فرعون: ﴿ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف: 52]. وجواب الأمر قوله: ﴿يفقهوا قولي﴾ أي: يفهموا كلامي، واللفق في كلام العرب الفهم، ثم خص به علم

عصاي لتثبيت الحجة عليه بعد ما اعترف، وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل، ومحل «ما» الرفع على الابتداء، وتلك خبره، وبيمينك في محل نصب على الحال إن كانت تلك اسم إشارة على ما هو ظاهر اللفظ، وإن كانت اسماً موصولاً كان بيمينك صلة للموصول ﴿قال هي عصاي﴾ قرأ ابن أبي إسحاق (عصى) على لغة هنيل. وقرأ الحسن ﴿عصاي﴾ بكسر الياء للقاء الساكنين ﴿أتوكا عليها﴾ أي: اتحامل عليها في المشي واعتمدها عند الإعياء والوقوف ومنه الاتكاء ﴿وأهش بها على غنمي﴾ هش بالعصا يهش هشاً: إذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق. قال الشاعر:

أهش بالعصا على أغنامي من ناعم الأورك والسنامل
وقرأ النخعي أهس بالسبين المهمل، وهو زجر الغنم، وكذا قرأ عكرمة، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ أي: حوائج واحدها ماربة وماربة مثلث الرء، كذا قال ابن الأعرابي وقطرب، نكر تفصيل منافع العصا، ثم عقبه بالإجمال.

وقد تعرض قوم لتعداد منافع العصا فذكروا من ذلك أشياء: منها قول بعض العرب: عصاي أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي، ليتسع خطوي، وأثب بها النهر، وتؤمنني العثر، وألقي عليها كسائي، فتقيني الحر، وتدفيني من القر، وتدني إلي ما بعد مني، وهي تحمل سفرتي، وعلاقة إداوتي، أعصي بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأقي بها عقور الكلاب، وتنبؤ عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي وأورثها بعدي بني، انتهى.

وقد وقفت على مصنف في مجلد لطيف في منافع العصا لبعض المتأخرين، وذكر فيه أخباراً وأشعاراً وفوائد لطيفة ونكتاً رشيقة. وقد جمع الله سبحانه لموسى في عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام ما آمن به من كيد السحرة ومعرة المعاندين، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته، وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي ﷺ وعزته، وكان يخطب بالفضيب وكذلك الخلفاء من بعده، وكان عادة العرب العرباء أخذ العصا والاعتماد عليها عند الكلام، وفي المحافل والخطب ﴿قال القها يا موسى﴾ هذه جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، أمره سبحانه بإلقائها ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة ﴿فألقاها﴾ موسى على الأرض ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى أي: تمشي بسرعة وخفة، قيل: كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان فما وباقيهما جسم حية تنتقل من مكان إلى مكان وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفظاعة منظرها، فلما رآها كذلك خاف وفرز وولى مديراً ولم يعقب، فعند ذلك ﴿قال﴾ سبحانه ﴿خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ قال الأخفش والزجاج: التقدير إلى سيرتها، مثل ﴿واختار موسى

وأخرجنا عنه أيضاً ﴿مَنْ غَيْرُ سَوْءٍ﴾ قال: من غير برص. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي﴾ * هَارُونَ أَخِي ﴿﴾ قال: كان أكبر من موسى. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ ﴿﴾ قال: نبيء هارون ساءتئذ حين نبيء موسى.

قَالَ قَدْ أُوتِيْتَ سُوءَكَ بِمُوسَى ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿١٨﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَتِيَنِي فِي الْتَابُوتِ فَأَقِيبِي فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِنِي أَلِيمٌ وَالسَّاحِلُ بِأَخْذِهِ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ وَالْقَيْْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً رِيًّا وَلِصْنَعِ عَلَنَ عَيْنِي ﴿١٩﴾ إِذْ تَنَبَّيْتُ لَمُتْلَكَ فَقَوْلُ هَلْ أَتْلُكَ عَلَنَ مِنْ يَكْفَلُكَ مَرِحَتَكَ إِنَّكَ أَيْكَ كَى نَفَرٍ عَيْنًا وَلَا حَزَنَ وَقَلَّتْ نَفْسًا فَجَنَّتْكَ مِنْ أَلَمٍ وَفَنَّتْ فَنُؤًا فَلَيْتَ سَيِّئِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ بِمُوسَى ﴿٢٠﴾ وَأَسْطَفَتَكَ لِنَفْسِي ﴿٢١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَحْرُكَ يَتَابَعِي وَلَا يَلِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٢٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٣﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَمْ يُذَكَّرْ آوْ يَحْتَضِرُ ﴿٢٤﴾

لما سأل موسى ربه سبحانه أن يشرح صدره وييسر له أمره ويحل عقدة من لسانه ويجعل له وزيراً من أهله أخبره الله سبحانه بأنه قد أجاب تلك الدعاء، فقال: ﴿قَدْ أُوتِيْتَ سُوءُكَ يَا مُوسَى﴾ أي: أعطيت ما سألت، والسؤال المسؤول أي: المطلوب كقولك: خبر بمعنى مخبر، وزيادة قوله يا موسى لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل، وجملة ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه، والمن: الإحسان والإفضال. والمعنى: ولقد أحسننا إليك مرة أخرى قبل هذه المرة، وهي حفظ الله سبحانه له من شر الأعداء كما بينه سبحانه ها هنا، وأخرى تانيث آخر بمعنى غير ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ أي: مننا تلك الوقت وهو وقت الإيحاء فإذا ظرف للإيحاء، والمراد بالإيحاء إليها: إما مجرد الإلهام لها أو في النوم بأن أراها تلك أو على لسان نبيء أو على لسان ملك، لا على طريق النبوة كالوحي إلى مريم أو بإخبار الأنبياء المتقدمين بذلك وانتهى الخبر إليها، والمراد بما يوحى: ما سيأتي من الأمر لها، أبهمه أولاً وفسره ثانياً تفخيماً لسانه، وجملة ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ مفسرة لأن الوحي فيه معنى القول، أو مصدرية على تقدير بأن أقذفيه، والقذف ها هنا الطرح أي: طرحه في التابوت وقد مر تفسير التابوت في البقرة في قصة طالوت ﴿فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي: اطرحيه في البحر، واليم: البحر أو النهر الكبير. قال الفراء: هذا أمر وفيه المجازاة أي: أقذفيه يلقه اليم بالساحل والأمر للبحر مبني على تنزيله منزلة من يفهم ويميز، لما كان إلقاؤه إياه بالساحل أمراً واجب الوقوع، والساحل هو شط البحر، سمي ساحلاً لأن الماء سحله قاله ابن دريد، والمراد هنا: ما يلي الساحل من البحر لا نفس الساحل، والضمائر هذه كلها لموسى لا للتابوت، وإن كان قد لقي معه لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا وبعده له، وجملة ﴿يَاخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ جواب الأمر بالإلقاء، والمراد بالعدو:

الشريعة والعالم به فقيه، قاله الجوهري ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي﴾ * هَارُونَ أَخِي ﴿﴾ الوزير: الموزر كالأكيل المواكل لأنه يحمل عن السلطان وزره أي: ثقله. قال الزجاج: واشتقاقه في اللغة من الوزر، وهو الجبل الذي يعتصم به لينجى من الهلكة، والوزير الذي يعتمد الملك على رأيه في الأمور ويلتجئ إليه. وقال الأصمعي: هو مشتق من الموازنة، وهي المعاونة، وانتصاب وزيراً وهارون على انهما مفعولا أجعل؛ وقيل مفعولاه: لي وزيراً، ويكون هارون عطف بيان للوزير، والأول أظهر، ويكون لي متعلقاً بمحنوف أي: كائناً لي، ومن أهلي صفة لوزيراً، وأخي بدل من هارون. قرا الجمهور (أشدد) بهمزة وصل، و (أشركه) بهمزة قطع كلاهما على صيغة الدعاء أي: يا رب احكم به قوتي واجعله شريكاً في أمر الرسالة، والأزر القوة، يقال: أزره أي: قواه، وقيل: الظهر أي: أشدد به ظهري. وقرا ابن عامر ويحيى بن الحارث، وأبو حيوة، والحسن، وعبد الله بن أبي إسحاق (أشدد) بهمزة قطع (وأشركه) بضم الهمزة أي: أشدد لنا به أزمي وأشركه أنا في أمري. قال النحاس: جعلوا الفعلين في موضع جزم جواباً لقوله أجعل لي وزيراً، وقرا بفتح الياء من أخي ابن كثير وأبو عمرو ﴿كَي نَسِيحُ كَثِيرًا وَنَذِيرُ كَثِيرًا﴾ هذا التسييح والنكر هما الغاية من الدعاء المتقدم، والمراد: التسييح هنا باللسان، وقيل: المراد به الصلاة، وانتصاب كثيراً في الموضعين على أنه نعت مصدر محنوف، أو لزمان محنوف ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ البصير المبصر والبصير العالم بخفيات الأمور، وهو المراد هنا أي: إنك كنت بنا عالماً في صغرنا فأحسننا إلينا فأحسن إلينا أيضاً كذلك الآن.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في عصا موسى قال: أعطاه ملك من الملائكة إذ توجه إلى مدني فكانت تضيء له بالليل، ويضرب بها الأرض فتخرج له النبات، ويهش بها على غنمه ورق الشجر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ قال: أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمي، وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ﴾ قال: حوائج. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحوه، وأخرج أيضاً عن قتادة قال: كانت تضيء له بالليل، وكانت عصا آدم عليه السلام. وأخرج أيضاً عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالْقَالِهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ قال: ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فاكلتها، ومرت بصخرة فابتلعها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها فولى مديراً فنودي أن يا موسى خذها، فلم يأخذها، ثم نودي الثانية أن خذها ولا تخف، فقبل له في الثالثة: إنك من الأمنين فأخذها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿سَنَعِيْدُهَا سَبِيْرَتَهَا الْأُولَى﴾ قال: حالتها الأولى.

وقيل: المعنى ولا تحزن أنت يا موسى بفقد إشفاقها، وهو تحسف «وَقَتَلْتَ نَفْسًا» المراد بالنفس هنا: نفس القبطي الذي وكزه موسى فقضى عليه، وكان قتله له خطأ «فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ» أي: الغم الحاصل معك من قتله خوفاً من العقوبة الأخروية أو الننيوية أو منهما جميعاً؛ وقيل: الغم هو القتل بلغة قريش، وما أبعد هذا «وَوَفَّقْنَاكَ فِتْنًا» الفتنة تكون بمعنى المحنة، وبمعنى الأمر الشاق، وكل ما يبئلى به الإنسان، والفتن يفتن يفتن أن يكون مصدراً كالشور والشكور والكفور أي: ابتليناك ابتلاء، واختبرناك اختباراً، ويجوز أن يكون جمع فتنة على ترك الاعتداد بقاء التأنيث كحجور في حجرة ويور في بكرة أي: خلصناك مرة بعد مرة مما وقعت فيه من المحن التي سبق نكرها قبل أن يصطفيه الله لرسالته، ولعل المقصود بذكر تنجيته من الغم الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو الامتنان عليه بصنع الله سبحانه له وتقوية قلبه عند ملاقة ما سيق له من ذلك مع فرعون وبني إسرائيل «فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ» قال الفراء: تقدير الكلام وفتنناك فتناً، فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين ومثل هذا الحذف كثير في التنزيل، وكذا في كلام العرب فإنهم يحذفون كثيراً من الكلام إذا كان المعنى معروفاً، ومدين هي بلد شعيب، وكانت على ثماني مراحل من مصر، هرب إليها موسى فأقام بها عشر سنين، وهي أتم الأجلين، وقيل: أقام عند شعيب ثمان وعشرين سنة منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب، ومنها ثماني عشرة سنة بقي فيها عنده حتى ولد له، والفاء في «فَلَبِثْتَ» تدل على أن المراد بالمحن المذكورة هي ما كان قبل لبثه في أهل مدين «ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى» أي: في وقت سبق في قضائي وقدرني أن أكلمك وأجعلك نبياً، أو على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء، وهو رأس أربعين سنة، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به. قال الشاعر:

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر
وكلمة ثم المفيدة للتراخي للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدة، وذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق وتفرق غنمه ونحو ذلك «وَوَاصَطْنَعَكَ لِنَفْسِي» الاصطناع: اتخاذ الصنعة، وهي الخير تسديه إلى إنسان، والمعنى: اصطنعت لوحيا ورسالتي لتتصرف على إرادتي. قال الزجاج: تأويله اخترتك لإقامة حجتى، وجعلتك بيني وبين خلقي، وصرت بالتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتجت عليهم. قيل: وهو تمثيل لما حوَّله الله سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصه «إِذْ هَبَّتْ زَفَاتُ لَحْوَكَ» أي: وليذهب أخوك، وهو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع ومعنى «بِأَيَاتِي» بمعجزاتي التي جعلتها لك آية، وهي التسع الآيات «وَلَا تُفْنِيَا فِي نَكْرِي» أي: لا تضعفا ولا تقترا، يقال: ونى يني ونياً، إذا ضعف. قال الشاعر:

فما ونى محمد من غفر له الإله ما مضى وما غبر

فرعون، فإن أم موسى لما ألقته في البحر وهو النزيل المعروف، وكان يخرج منه نهر إلى دار فرعون فساقه الله في ذلك النهر إلى داره، فأخذ التابوت فوجد موسى فيه؛ وقيل: إن البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون فأمر من يأخذه، وقيل: وجدته ابنة فرعون، والأول أولى «وَوَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي» أي: ألقى الله على موسى محبة كائنة منه تعالى في قلوب عباده لا يراه أحد إلا أحبه؛ وقيل: جعل عليه مسحة من جمال لا يراه أحد من الناس إلا أحبه. وقال ابن جرير: المعنى والقيت عليك رحمتي؛ وقيل: كلمة «مِنْ» متعلقة بالقيت، فيكون المعنى: ألقىت مني عليك محبة أي: أحببتك، ومن أحبه الله أحب الناس «وَوَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي» أي: ولتربي وتغذى بمرأى مني، يقال صنع الرجل جاريته: إذا رباه، وصنع فرسه: إذا داوم على علفه والقيام عليه، وتفسير «عَلَى عَيْنِي» بمرأى مني صحيح. قال النحاس: وذلك معروف في اللغة، ولكن لا يكون في هذا تخصيص لموسى، فإن جميع الأشياء بمرأى من الله. وقال أبو عبيدة وابن الأنباري: إن المعنى لتغذى على محبتي وإرادتي، تقول: اتخذ الأشياء على عيني أي: على محبتي. قال ابن الأنباري: العين في هذه الآية يقصد بها قصد الإرادة والاختيار، من قول العرب: غدا فلان على عيني أي: على المحبة مني. قيل: واللام متعلقة بمحذوف أي: فعلت ذلك لتصنع؛ وقيل: متعلقة بالقيت، وقيل: متعلقة بما بعده أي: ولتصنع على عيني قدرنا مشي أختك. وقرأ ابن القعقاع (ولتصنع) بإسكان اللام على الأمر، وقرأ أبو نهيك بفتح التاء. والمعنى: ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي، وعلى عين مني «إِذَا تَمْشِي لَخْتُكَ» أوحينا، وأخته اسمها مريم «فَتَقُولُ هَلْ أُنْكِمُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ» وذلك أنها خرجت متعرفة لخبيره فوجدت فرعون وامرأته أسية يطلبان له مرضعة، فقالت لهما هذا القول أي: هل أنلكم على من يضمه إلى نفسه ويربيه، فقالا لها: ومن هو؟ قالت: أمي، فقالا: هل لها لبن؟ قالت نعم لبن أخي هارون، وكان هارون أكبر من موسى بسنة، وقيل: بأكثر، فجاءت الأم فقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدي مرضعة غيرها، وهذا هو معنى «فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ» وفي مصحف أبي (فردناك)، والفاء فصيحة «كَي تَقْرَ عَيْنَهَا» قرأ ابن عامر في رواية عبد الحميد عنه (كي تقر) بكسر القاف، وقرأ الباقر بفتحها. قال الجوهري: قررت به عيناً قرّة وقرورا، ورجل قرير العين، وقد قرّت عينه تقر وتقر، نقيض سخت، والمراد بقرّة العين: السرور برجوع ولدها إليها بعد أن طرحته في البحر وعظم عليها فراقه «وَلَا تَحْزَنْ» أي: لا يحصل لها ما يكثر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب، ولو أراد الحزن بالسبب الذي قرّت عينها بزواله لقدم نفي الحزن على قرّة العين، فيحمل هذا النفي للحزن على ما يحصل بسبب يطرا بعد ذلك، ويمكن أن يقال: إن الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعين،

وقال امرؤ القيس:

يسبح إذا ما السباحات على الرنى اثرن غباراً بالكديد الموكل

قال الفراء: في نكري وعن نكري سواء، والمعنى: لا تقصرا عن نكري بالإحسان إليكما، والإنعام عليكما ونكر النعمة شكرها. وقيل: معنى ﴿لا تنيا﴾ لا تبطن في تبليغ الرسالة، وفي قراءة ابن مسعود ﴿لا تنها في نكري﴾ ﴿انذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ هذا أمر لهما جميعاً بالذهاب، وموسى حاضر وهارون غائب تغليبا لموسى، لانه الأصل في أداء الرسالة، وعلل الأمر بالذهاب بقوله: ﴿إنه طغى﴾ أي: جاوز الحد في الكفر والتمرد، وخص موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم، وجمعهما هنا تشريفاً لموسى بإفراده، وتاكيداً للأمر بالذهاب بالتكرير؛ وقيل: إن في هذا دليلاً على أنه لا يكفي ذهاب أحدهما، وقيل الأول: أمر لموسى بالذهاب إلى كل الناس، والثاني: أمر لهما بالذهاب إلى فرعون. ثم أمرهما سبحانه بإلانة القول له لما في ذلك من التأثير في الإجابة، فإن التخشين بادئ بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب في الكفر، والقول اللين هو الذي لا خشونة فيه، يقال: لان الشيء يلين ليناً، والمراد تركهما للتعنيف كقولهما: ﴿هل لك إلى أن تركي﴾ [النازعات: 18]. وقيل: القول اللين هو الكنية له، وقيل: أن يعدها بنعيم الدنيا إن أجاب، ثم علل الأمر بإلانة القول له بقوله: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ أي: باشراً ذلك مباشرة من يرجو ويطمع، فالرجاء راجع إليهما كما قاله جماعة من النحويين: سيبويه وغيره. وقد تقدم تحقيقه في غير موضع قال الزجاج: ﴿لعل﴾ لفظة طمع وترج، فخطابهم بما يعقلون. وقيل: لعل ها هنا بمعنى الاستفهام. والمعنى: فانظرا هل يتذكر أو يخشى؛ وقيل: بمعنى كي. والتذكر: النظر فيما بلغاه من الذكر وإيمان الفكر فيه حتى يكون ذلك سبباً في الإجابة، والخشية هي خشية عقاب الله الموعود به على لسانهما، وكلمة أو لمنع الخلط بين الجمع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿فاقذفه في اليم﴾ قال: هو النيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿والقيت عليك محبة مني﴾ قال: كان كل من رآه القيت عليه منه محبته. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سلمة بن كهيل قال: حبيبك إلى عبادي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني في قوله: ﴿ولتصنع على عيني﴾ قال: تربى بعين الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: لتغذى على عيني. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: يقول أنت بعيني إذ جعلتك أمك في التابوت، ثم في البحر، وإذ تمشي أختك. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والخطيب عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ يقول الله سبحانه: ﴿وقتلتم نفساً فنجيتكم من الغم﴾ قال: من قتل النفس ﴿وفتلك فتونا﴾ قال: أخلصناك

إخلاصاً». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وفتلك فتونا﴾ قال: ابتليتك ابتلاءً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: اختبرناك اختباراً. وقد أخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس أثراً طويلاً في تفسير الآية، فمن أحب استيفاء ذلك فلينظره في كتاب التفسير من سنن النسائي. وأخرج ابن جريج عن ابن عباس في قوله: ﴿ثم جئت على قدر﴾ قال: لميقات. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد وقتادة ﴿على قدر﴾ قال: موعد. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ولا تنيا﴾ قال: لا تبطن. وأخرج ابن أبي حاتم عن علي في قوله: ﴿قولاً ليناً﴾ قال: كنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: كنياه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ قال: هل يتذكر.

قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَفَخْنَا أَنْ يَفْرُطَ عَيْنًا أَوْ أَنْ يَطْعَى ﴿١٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَكْنًا أَسْعَى وَرَأَيْتُ ﴿١٦﴾ فَأَيُّهَا قَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَنْزِلْ مَعَنَا بَيْتَ إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْزِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَأَنْتَ السَّلَامُ عَلَيْنَا أُنْزِلْ الْهُدَى ﴿١٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٨﴾ قَالَ مَنْ رَجَعْنَا بِمُوسَى ﴿١٩﴾ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَصْنَى كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٢٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٢١﴾ قَالَ عَلِمْنَا عِنْدَ رَبِّي أَنْ كَسَبْنَا لَا يَعِزُّ رَبِّي وَلَا يَنْصُرُ ﴿٢٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَشْجَارًا مِنْ بَيْنَاتٍ شَتَّى ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢٤﴾ يَبْنَى خَلْقَكُمْ وَيَبْنَى تُعِيدُكُمْ وَيَبْنَى تَحْرِيكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا كَاهِنًا فَكَذَّبَ وَإِنَّا ﴿٢٦﴾ قَالَ أَجِئْنَاكَ بِخُرُوجٍ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ بِمُوسَى ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا بَيْنَاكَ يَسْعَى يُفْلِحُ فَاَجْعَلْ بَيْنَنَا وَمُوسَى مَوْعِدًا لَا تُؤْخِرْهُ عَنْهُ وَلَا أَنْتَ مَكَا سَوَى ﴿٢٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ صَبِيءًا ﴿٢٩﴾

قرأ الجمهور أن يفرط بفتح الياء وضم الراء، ومعنى ذلك: أننا نخاف أن يعجل ويبادر بعقوبتنا، يقال: فرط منه أمر أي: بدر، ومنه الفارط، وهو الذي يتقدم القوم إلى الماء أي: يعذبنا عذاب الفارط في الذنب، وهو المتقدم فيه، كذا قال المبرد، وقال أيضاً: فرط منه أمر وأفرط: أسرف، وفرط: ترك. وقرأ ابن محيصن (يفرط) بضم الياء وفتح الراء أي: يحمله حامل على التسرع إلينا. وقرأت طائفة بضم الياء وكسر الراء، ومنهم ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة من الإفراط أي: يشتط في أنبتنا، قال الرازي:

قد أفرط العلاج علينا وعجل

ومعنى ﴿أو أن يطغى﴾ قد تقدم قريباً. وجملة ﴿قال لا تخافا﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، نهى لهما عن الخوف الذي حصل معهما من فرعون. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إنني معكما﴾ أي: بالنصر لهما، والمعونة على فرعون، ومعنى

شيء فيما خلق له، وأما على القراءة الآخرة، فيكون الفعل صفة للمضاف أو للمضاف إليه أي: أعطى كل شيء خلقه الله سبحانه ولم يخله من عطائه، وعلى هذه القراءة يكون المفعول الثاني محذوفاً أي: أعطى كل شيء خلقه ما يحتاج إليه، فيوافق معناها معنى القراءة الأولى **﴿قال فما بال القرون الأولى﴾** لما سمع فرعون ما احتج به موسى في ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف، ولا بدّ لهما من خالق وهادٍ، وذلك الخالق والهادي هو الله سبحانه لا ربّ غيره. قال فرعون: فما بال القرون الأولى فإنها لم تقرّ بالربّ الذي تدعو إليه يا موسى بل عبت الأوثان ونحوها من المخلوقات، ومعنى البال: الحال والشأن أي: ما حالهم وما شأنهم؟ وقيل: إن سؤال فرعون عن القرون الأولى مغالطة لموسى لما خاف أن يظهر لقومه أنه قد قهره بالحجة أي: ما حال القرون الماضية، وماذا جرى عليهم من الحوادث؟ فأجابه موسى، **﴿قال علمها عند ربي﴾** أي: إن هذا الذي سألت عنه ليس مما نحن بصدد، بل هو من علم الغيب الذي استأثر الله به لا تعلمه أنت ولا أنا. وعلى التفسير الأوّل يكون معنى **﴿علمها عند ربي﴾** أن علم هؤلاء الذين عبدوا الأوثان ونحوها محفوظ عند الله في كتابه سيجازيهم عليها، ومعنى كونها في كتاب أنها مثبتة في اللوح المحفوظ. قال الزجاج: المعنى أن أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها، والتقدير: علم أعمالها عند ربي في كتاب.

وقد اختلف في معنى **﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾** على أقوال الأول: أنه ابتداء كلام تنزيهه تعالى عن هاتين الصفتين. وقد تمّ الكلام عند قوله في كتاب كذا قال الزجاج. قال: ومعنى **﴿لا يضل﴾** لا يهلك من قوله: **﴿إنذا ضللنا في الأرض﴾** [السجدة: 10]. **﴿ولا ينسى﴾** شيئاً من الأشياء، فقد نزهه عن الهلاك والنسيان. القول الثاني: أن معنى **﴿لا يضل﴾** لا يخطئ. القول الثالث: أن معناه لا يغيب. قال ابن الأعرابي: أصل الضلال الغيبوبة. القول الرابع: أن المعنى لا يحتاج إلى كتاب، ولا يضلّ عنه علم شيء من الأشياء، ولا ينسى ما علمه منها، حكى هذا عن الزجاج أيضاً. قال النحاس: وهو أشبهها بالمعنى. ولا يخفى أنه كقول ابن الأعرابي. القول الخامس: أن هاتين الجملتين صفة للكتاب، والمعنى: أن الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له **﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾** الموصول في محل رفع على أنه صفة لربي متضمنة لزيادة البيان، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أو في محل نصب على الحال. قرأ الكوفيون (مهداً) على أنه مصدر لفعل مقتر أي: مهداً مهداً، أو على تقدير مضاف محذوف: أي ذات مهد، وهو اسم لما يمهّد كالفرش لما يفرش. وقرأ الباقون (مهداً) واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لا لاتفاقهم على قراءة **﴿الم نجعل الأرض مهداً﴾** [النبا: 6]. قال النحاس: والجمع أولى من المصدر، لأن هذا الموضع ليس موضع المصدر إلا على

﴿أسمع وأرى﴾ إدراك ما يجري بينهما وبينه بحيث لا يخفى عليه سبحانه منه خافية، وليس بغافل عنهما، ثم أمرهما بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعد أمرهما بالذهاب إليه فلا تكرر **﴿فقلوا إنا رسولا ربك﴾** أرسلنا إليك **﴿فأرسل معنا بني إسرائيل﴾** أي: خلّ عنهم وأطلقهم من الأسر **﴿ولا تعذبهم﴾** بالبقاء على ما كانوا عليه، وقد كانوا عند فرعون في عذاب شديد: يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويكلفهم من العمل ما لا يطيقونه، ثم أمرهما سبحانه أن يقولوا لفرعون **﴿قد جئناك بآية من ربك﴾** قيل: هي العصا واليد؛ وقيل إن فرعون قال لهما: وما هي؟ فأدخل موسى يده في جيب قميصه، ثم أخرجها لها شعاع كشعاع الشمس، فعجب فرعون من ذلك، ولم يره موسى العصا إلا يوم الزينة **﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾** أي: السلامة. قال الزجاج: أي من اتبع الهدى سلم من سخط الله عزّ وجلّ ومن عذابه، وليس بتحية. قال: والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب. قال الفراء: السلام على من اتبع الهدى، ولمن اتبع الهدى سواء **﴿إننا قد أوحى إلينا﴾** من جهة الله سبحانه **﴿أن العذاب على من كذب وتولى﴾** المراد بالعذاب: الهلاك والدمار في الدنيا والخلود في النار، والمراد بالتكذيب: التكذيب بآيات الله وبرسله، والتولي: الإعراض عن قبولها والإيمان بها **﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾** أي: قال فرعون لهما: فمن ربكما؟ فأضاف الربّ إليهما ولم يصفه إلى نفسه لعدم تصديقه لهما ولجده للربوبية، وخص موسى بالنداء لكونه الأصل في الرسالة؛ وقيل: لمطابقة رؤوس الآي **﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه﴾** أي: قال موسى مجيباً له، وربنا مبتدأ، وخبره **﴿الذي أعطى كل شيء خلقه﴾**، ويجوز أن يكون ربنا خبر مبتدأ محذوف، وما بعده صفته، قرأ الجمهور (خلقه) بسكون اللام، وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ خلقه بفتح اللام على أنه فعل، وهي قراءة ابن أبي إسحاق، ورواها نصير عن الكسائي. فعلى القراءة الأولى يكون خلقه ثاني مفعولي أعطى. والمعنى: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش، والرجل للمشي واللسان للنطق، والعين للنظر، والآنن للسمع، كذا قال الضحّاك وغيره. وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه وهده لما يصلحه. وقال مجاهد: المعنى لم يخلق خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً، ومنه قول الشاعر:

وله في كل شيء خلقه وكذلك الله ما شاء فعل
وقال الفراء: المعنى خلق للرجل المرأة، ولكل نكر ما يوافقه من الإناث، ويجوز أن يكون خلقه على القراءة الأولى هو المفعول الأوّل لأعطى أي: أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه، ويرتفقون به، ومعنى **﴿ثم هدى﴾** أنه سبحانه هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل

حذف المضاف. قيل: يجوز أن يكون مهاداً مفرداً كالفراش، ويجوز أن يكون جمعاً، ومعنى الهاد: الفراش فالمهاد جمع المهدي أي: جعل كل موضع منها مهدياً لكل واحد منكم **«ووسلك لكم فيها سبلاً»** السلك: إدخال الشيء في الشيء. والمعنى: أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها وسهلاً لكم. وفي الآية الأخرى **«الذي جعل لكم الأرض مهاداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون»** [الزخرف: 10]. ثم قال سبحانه ممتناً على عباده **«وانزل من السماء ماء»** هو ماء المطر، قيل: إلى هنا انتهى كلام موسى، وما بعده هو **«فأخرجنا به أنولاً من نبات شتى»** من كلام الله سبحانه؛ وقيل: هو من الكلام المحكي عن موسى معطوف على أنزل، وإنما التفت إلى التكلم للتنبية إلى ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة. ونوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم، ويجب عنه بأن الكلام كله محكي عن واحد هو موسى، والحاكي للجميع هو الله سبحانه والمعنى: فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث والمعالجة أنولاً أي: ضروباً وأشجاراً من أصناف النبات المختلفة وقوله من نبات صفة لأنولاً، أو بيان له، وكذا شتى صفة أخرى له، أي: متفرقة جمع شتيت. وقال الأخفش: التقدير أنولاً شتى من نبات. قال: وقد يكون النبات شتى، فيجوز أن يكون شتى نعناً لأنولاً، ويجوز أن يكون نعناً للنبات، يقال أمر شت أي: متفرق، وشت الأمر شتاً وشتاتاً تفرق واشتت مثله، والشتيت المتفرق، قال رؤبة: جاءت معاً وأطرفت شتيتاً

وجملة **«كلوا وارعوا»** في محل نصب على الحال بتقدير القول أي: قائلين لهم ذلك، والأمر للإباحة، يقال: رعت الماشية الكلأ ورعاها صاحبها رعية أي: أسامها وسرحها يجيء لازماً ومتعدياً، والإشارة بقوله: **«إن في تلك آيات لأولي النهى»** إلى ما تقدم ذكره في هذه الآيات، والنهى العقول جمع نهية، وخص نوي النهى لأنهم الذين ينتهى إلى رأيهم؛ وقيل: لأنهم يهتدون النفس عن القبائح، وهذا كله من موسى احتجاجاً على فرعون في إثبات الصانع جواباً لقوله: **«فمن ربكما يا موسى»** والضمير في **«منها خلقناكم»** وما بعده راجع إلى الأرض المذكورة سابقاً. قال الزجاج وغيره: يعني أن آدم خلق من الأرض وأولاده منه؛ وقيل: المعنى أن كل نطفة مخلوقة من التراب في ضمن خلق آدم، لأن كل فرد من أقراد البشر له حظ من خلقه **«وفيها»** أي: في الأرض **«نعيديكم»** بعد الموت فتدفعون فيها وتتفرق أجزاءكم حتى تصير من جنس الأرض، وجاء بفي نون إلى للدلالة على الاستقرار **«ومنها»** أي: من الأرض **«نخرجكم تارة أخرى»** أي: بالبعث والنشور وتاليف الأجسام ورد الأرواح إليها على ما كانت عليه قبل الموت، والتارة كالتارة **«ولقد أنبأنا آياتنا كلها»** أي: أنبأنا فرعون وعرفناه آياتنا كلها، والمراد بالآيات هي: الآيات التسع المذكورة في قوله: **«ولقد أنبأنا موسى تسع آيات»** [الإسراء: 101]. على أن الإضافة للعهد؛ وقيل المراد جميع الآيات التي جاء بها

موسى، والتي جاء بها غيره من الأنبياء، وأن موسى قد كان عرّفه جميع معجزاته ومعجزاته سائر الأنبياء، والأول أولى، وقيل: المراد بالآيات حجج الله سبحانه الدالة على توحيده **«فكذب وأبى»** أي: كذب فرعون موسى وأبى عليه أن يجيبه إلى الإيمان، وهذا يدل على أن كافر فرعون كفر عناد لأنه رأى الآيات وكذب بها كما في قوله: **«وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً»** [النمل: 14]. وجملة **«قال لجنّتنا لتخرجنا من أرضنا يسحرك يا موسى»** مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال فرعون بعد هذا؟ والهمزة للإنكار لما جاء به موسى من الآيات أي: جئت يا موسى لتروم الناس بأنك نبي يجب عليهم اتباعك، والإيمان بما جئت به، حتى تتوصل بذلك الإيهام الذي هو شعبة من السحر إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها. وإنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض لتنفير قومه عن إجابة موسى، فإنه إذا وقع في أذهانهم وتقرّر في أفعالهم أن عاقبة إجابته لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين في معجزاته ولا ملتفتين إلى ما يدعو إليه من الخير **«فلنأتينك بسحر مثله»** الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام هي الموطئة للقسم أي: والله لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر، حتى يتبين للناس أن الذي جئت به سحر يقدر على مثله الساحر **«فاجعل بيننا وبينك موعداً»** هو مصدر أي: وعداً؛ وقيل: اسم مكان أي: اجعل لنا يوماً معلوماً، أو مكاناً معلوماً لا نخلفه. قال القشيري: والأظهر أنه مصدر، ولهذا قال: **«لا نخلفه»** أي: لا نخلف ذلك الوعد، والإخلاف أن تعد شيئاً ولا تنجزه. قال الجوهري: الميعاد المواعدة والوقت والموضع، وكذلك الموعد. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج **«لا نخلفه»** بالجرم على أنه جواب لقوله اجعل. وقرأ الباقر بالرفع على أنه صفة لموعداً أي: لا نخلف ذلك الوعد **«نحن ولا أنت»** وفوض تعيين الموعد إلى موسى إظهاراً لكمال اقتداره على الإتيان بمثل ما أتى به موسى، وانتصاب **«مكاناً سوى»** بفعل مقدر يدل عليه المصدر، أو على أنه بدل من موعد. قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة (سوى) بضم السين، وقرأ الباقر بكسرهما وهما لغتان. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة؛ والمراد: مكاناً مستوياً، وقيل: مكاناً منصفاً عدلاً بيننا وبينك. قال سيبويه: يقال سَوَى وسَوَى أي: عدل، يعني: عدلاً بين المكانين. قال زهير:

أرونا خطة لا ضيم فيها يسوى بيننا فيها السواء
قال أبو عبيدة والقتيبي: معناه مكاناً وسطاً بين الفريقين، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي:

وإن أباننا كل حل ببلدة سوى بين قيس قيس غيلان والفز
والفز سعد بن زيد مناة. ثم واعده موسى بوقت معلوم فـ **«قال موعدكم يوم الزينة»** قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي: كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه، وقال سعيد بن جبير: كان ذلك يوم عاشوراء، وقال الضحّاك: يوم السبت؛

ونك قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾. وأخرج أحمد، والحاكم عن أبي أمامة قال: لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ في القبر قال رسول الله ﷺ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، «بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله». وفي حديث في السنن: «أنه أخذ قبضة من التراب فإلقاها في القبر وقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾، ثم أخرى وقال: ﴿وفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، ثم أخرى وقال: ﴿ومِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وموعدهم يوم الزينة﴾ قال: يوم عاشوراء. وأخرج ابن المنذر عن ابن عمرو نحوه.

فَقَالَ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿١٥﴾ قَالَ لَهُ مَوْسَى وَيَلِكُمْ لَا تَفْعَلُوا عَلَى اللَّهِ كَيْدًا فَيَسْجُذَكُمْ بِمَذَآبٍ وَفَدَّ خَابَ مِنْ أَفْتَرَى ﴿١٦﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرٌ بَرِيدٌ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِحَرَمٍ بَيْنَهُمَا يَدَيَا بَطْرِفَيْكَمُ الثَّنَلِ ﴿١٨﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَسْلَمَ ﴿١٩﴾ قَالُوا يَتَّبِعُونَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ أَكْثَرِ مَنْ أَتَى ﴿٢٠﴾ قَالَ بَلْ أَتَوْا لِذَا جَاءَهُمْ وَعِصِيَهُمْ بِئِيلُ إِلَهِ مِنْ يَحْرَمُ أَتَا تَمِيمٌ ﴿٢١﴾ فَأَنجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُؤَمِّمٌ ﴿٢٢﴾ ثَلَاثًا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٢٣﴾ وَالَّذِي مَافِي يَمِينِكَ لَتَفَتَّ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَهْرٌ وَلَا يُبْلِغُ النَّاسِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٢٤﴾ فَأَتَوِي السَّحْرَةَ فَجَعَلَا قَالُوا مَأْمَنَّا رِبِّي هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٢٥﴾

قوله: ﴿فقتولى فرعون﴾ أي: انصرف من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعدا عليه؛ وقيل: معنى تولى أعرض عن الحق، والأول أولى ﴿فجمع كيده﴾ أي: جمع ما يكيد به من سحره وحيلته، والمراد أنه جمع السحرة، قيل: كانوا اثنين وسبعين، وقيل: أربعمائة؛ وقيل: اثنا عشر ألفاً، وقيل: أربعة عشر ألفاً، وقال ابن المنذر: كانوا ثمانين ألفاً ﴿ثم أتى﴾ أي: أتى الموعد الذي تواعدا إليه مع جمعه الذي جمعه، وجملة ﴿قال لهم موسى﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ﴿ويلكم لا تفترؤا على الله كتاباً﴾ دعا عليهم بالويل، ونهاهم عن افتراء الكذب، قال الزجاج: هو منصوب بمحذوف، والتقدير الزمهم الله ويلاً. قال: ويجوز أن يكون نداء كقوله: ﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقننا﴾ [يس: 52]. ﴿فيسحتكم بعذاب﴾ السحت الاستئصال، يقال: سحتت شجرة وأسحت بمعنى، وأصله استقصاء الشعر. وقرأ الكوفيون إلا شعبة (فيسحتكم) بضم حرف المضارعة من أسحت، وهي لغة بني تميم، وقرأ الباقون بفتحها من سحت، وهي لغة الحجاز وانتصابه على أنه جواب للنهي ﴿وقد خاب من افتري﴾ أي: خسر وهلك، والمعنى: قد خسر من افتري على الله أي: كذب كان ﴿فتتنازعوا أمرهم بينهم﴾ أي: السحرة لما سمعوا كلام موسى تناظروا وتشاؤروا وتجاوزوا أطراف الكلام في ذلك ﴿واسرؤا النجوى﴾ أي: من موسى، وكانت نجواهم هي قولهم: ﴿إن هذان لساحران﴾ وقيل: إنهم

وقيل: يوم النيروز؛ وقيل: يوم كسر الخليج. وقرأ الحسن والأعمش، وعيسى الثقفي، والسلمي، وهبيرة عن حفص (يوم الزينة) بالنصب، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو أي: في يوم الزينة إنجاز موعدها. وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر موعدهم، وإنما جعل الميعاد زماناً بعد أن طلب منه فرعون أن يكون مكاناً سوى، لأن يوم الزينة يدل على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم، أو على تقدير مضاف محذوف أي: موعدهم مكان يوم الزينة ﴿وأن يحشر للناس ضحى﴾ معطوف على يوم الزينة فيكون في محل رفع، أو على الزينة فيكون في محل جر، يعني: ضحى ذلك اليوم، والمراد بالناس: أهل مصر. والمعنى: يحشرون إلى العيد وقت الضحى، وينظرون في أمر موسى وفرعون. قال الفراء: المعنى إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد. قال: وجرت عانيتهم بحشر الناس في ذلك اليوم. والضحى قال الجوهري: ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ثم بعده الضحى، وهو حين تشرق الشمس، وخص الضحى لأنه أول النهار، فإذا امتد الأمر بينهما كان في النهار متسع. وقرأ ابن مسعود والجحدري (وأن يحشر) على البناء للفاعل أي: وأن يحشر الله الناس ضحى. وروي عن الجحدري أنه قرأ (وأن نحشر) بالنون وقرأ بعض القراء بالتاء الفوقية أي: وأن تحشر أنت يا فرعون، وقرأ الباقون بالتحية على البناء للمفعول.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إننا نخاف أن يفرط علينا﴾ قال: يعجل ﴿أو أن يطغى﴾ قال: يعتدي. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿أسمع وأرى﴾ قال: أسمع ما يقول وأرى ما يجاوبكما به، فأوحى إليكما فتجاوبانه. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: لما بعث الله موسى إلى فرعون قال: رب أي شيء أقول؟ قال: قل أهيا شراهما. قال الأعشى: تفسير ذلك الحي قبل كل شيء، والحي بعد كل شيء. وجود السيوطي إسناده، وسبقه إلى تجويد إسناده ابن كثير في تفسيره. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿على من كذب وتولى﴾ قال: كذب بكتاب الله وتولى عن طاعة الله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿أعطي كل شيء خلقه﴾ قال: خلق لكل شيء زوجة ﴿ثم هدى﴾ قال: هداه لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يضل ربي﴾ قال: لا يخطئ. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿من نبات شتى﴾ قال: مختلف. وفي قوله: ﴿لأولي النهى﴾ قال: لأولي التقى. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿لأولي النهى﴾ قال: لأولي الحجا والعقل. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال: إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فينثره على النطفة، فيخلق من التراب ومن النطفة،

وكانت التثنية لا تغير الواحد أجريت التثنية مجرى الواحد فثبت الألف في الرفع والنصب والجر، فهذه أقوال تتضمن توجيه هذه القراءة توجه تصح به وتخرج به عن الخطأ، وبذلك ينفع ما روي عن عثمان وعائشة أنه غلط من الكاتب للمصحف **﴿يريدان أن يخرجكما من أرضكم﴾** وهي أرض مصر **﴿يسحرهما﴾** الذي أظهره **﴿ويذهبا بطريقتكم للمثلى﴾** قال الكسائي: بطريقتكم بسنتكم، والمثلى نعت كقولك: امرأة كبرى، تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم. قال الفراء: العرب تقول هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم، والمثلى تانيث الأمثل، وهو الأفضل، يقال: فلان أمثل قومه أي: أفضلهم، وهم الأمثل. والمعنى: أنهما إن غلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم، أو يذهبا بمذهبيكم الي هو أمثل المذاهب **﴿فاجمعوا كيحكم﴾** الإجماع الإحكام، والعزم على الشيء قاله الفراء. تقول: أجمعت على الخروج مثل أزمعت. وقال الزجاج: معناه ليكن عزمكم كلكم كالكلد مجمعا عليه، وقد اتفق القراء على قطع الهمزة في أجمعوا إلا أبا عمرو، فإنه قرأ بوصلها وفتح الميم من الجمع. قال النحاس: وفيما حكى لي عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: يجب على أبي عمرو أن يقرأ بخلاف هذه القراءة، وهي القراءة التي عليها أكثر الناس **﴿ثم ائتوا صفا﴾** أي: مصطفين مجتمعين ليكون أنظم لأمرهم وأشد لهيبته، وهذا قول جمهور المفسرين. وقال أبو عبيدة: الصف موضع الجمع ويسمى المصلى الصف. قال الزجاج: وعلى هذا معناه: ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعبيدكم وصلاتكم، يقال: أتيت الصف بمعنى أتيت المصلى، فعلى التفسير الأول يكون انتصاب صفا على الحال، وعلى تفسير أبي عبيدة يكون انتصابه على المفعولية. قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى ثم ائتوا والناس مصطفون، فيكون على هذا مصدرا في موضع الحال، ولذلك لم يجمع، وقرأ بكسر الهمزة بعدها ياء، ومن ترك الهمزة أبدل منها ألفا **﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾** أي: من غلب، يقال: استعلى عليه إذا غلبه، وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض؛ وقيل: من قول فرعون لهم، وجملة **﴿قالوا: يا موسى إما أن تلقى﴾** مستأنفة جوابا لسؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا فعلوا بعدما قالوا فيما بينهم ما قالوا فقيل: قالوا يا موسى إما أن تلقى، وإن مع ما في حيزها في محل نصب بفعل مضمري أي: اختر إلقاءك أولا أو إلقاءنا، ويجوز أن تكون في محل رفع على أنها وما بعدها خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر الإلقاء، أو الإقائنا، ومفعول تلقي محذوف، والتقدير: إما أن تلقى ما تلقىه أولا **﴿وإما أن تكون﴾** نحن **﴿أول من القى﴾** ما يليق، أو أول من يفعل الإلقاء، والمراد: إلقاء العصي على الأرض، وكانت السحرة معهم عصي، وكان موسى قدلقى عصاه يوم دخل على فرعون، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول، ف**﴿قال﴾** لهم موسى **﴿هبل القوا﴾** أمرهم بالإلقاء أولا

تتاجوا فيما بينهم فقالوا: إن كان ما جاء به موسى سحرا فسنغلبه، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر؛ وقيل: الذي أسروه أنه إذا غلبهم اتبعوه قاله الفراء والزجاج؛ وقيل: الذي أسروه أنهم لما سمعوا قول موسى ولكم لا تقتروا على الله، قالوا: ما هذا بقول ساحر. والنجوى المناجاة يكون اسما ومصدرا.

قرأ أبو عمرو **﴿إن هذين لساحران﴾** بتشديد الحرف الداخل على الجملة وبالياء في اسم الإشارة على إعمال إن عملها المعروف، وهو نصب الاسم ورفع الخبر، ورويت هذه القراءة عن عثمان، وعائشة وغيرهما من الصحابة، وبها قرأ الحسن، وسعيد بن جبير، والنخعي وغيرهم من التابعين، وبها قرأ عاصم الجحدري، وعيسى بن عمر كما حكاها النحاس، وهذه القراءة موافقة للإعراب للظاهر مخالفة لرسم المصحف فإنه مكتوب بالألف. وقرأ الزهري، والخليل بن أحمد، والمفضل، وأبان، وابن محيصن، وابن كثير، وعاصم في رواية حفص عنه (إن هذان) بتخفيف إن على أنها نافية، وهذه القراءة موافقة لرسم المصحف والإعراب، وقرأ ابن كثير مثل قراءتهم إلا أنه يشدد النون من هذان. وقرأ المدنيون والكوفيون وابن عامر (إن هذان) بتشديد إن وبالألف، فوافقوا الرسم وخالفوا الإعراب الظاهر. وقد تكلم جماعة من أهل العلم في توجيه قراءة المدنيين والكوفيين وابن عامر، وقد استوفى نكر ذلك ابن الأنباري والنحاس، فقيل إنها لغة بني الحارث بن كعب، وختم وكنانة يجعلون رفع المثني ونصبه وجره بالألف، ومنه قول الشاعر:

فأطرق إطران الشجاع ولو يرى مسافعا لناباه الشجاع لصمما
وقول الآخر:

تزوّد منابيين أنناه ضربة

وقول الآخر:

إن أباهما وأبا أباهما قد بلغا في المجد غايتاهما
ومما يؤيد هذا تصريح سيبويه، والأخفش، وأبي زيد، والكسائي، والفراء إن هذه القراءة على لغة بني الحارث بن كعب، وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أنها لغة بني كنانة، وحكى غيره أنها لغة خثعم، وقيل: إن إن بمعنى نعم ما هنا كما حكاها الكسائي عن عاصم، وكذا حكاها سيبويه. قال النحاس: رأيت الزجاج والأخفش يذهبان إليه، فيكون التقدير: نعم هذان لساحران، ومنه قول الشاعر:

ليت شعري هل للمحب شفاء من جوى حبهن إن اللقاء
أي: نعم اللقاء. قال الزجاج: والمعنى في الآية: أن هذا لهما ساحران، ثم حذف المبتدأ وهو هما. وذكروا أبو علي الفارسي وأبو الفتح بن جني؛ وقيل: إن الألف في هذا مشبهة بالألف في يفعلان فلم تغير؛ وقيل: إن الهاء مقدرّة أي: إنه هذان لساحران حكاها الزجاج عن قدماء النحويين، وكذا حكاها ابن الأنباري. وقال ابن كيسان: إنه لما كان يقال هذا بالألف في الرفع والنصب والجر على حال واحدة،

هارون على موسى في حكاية كلامهم رعاية لفواصل الآي وعناية بتوافق رؤوسها.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَيَسْحَتُكُمْ بِغُذَابٍ﴾ قال: يهلككم. أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة ﴿فَيَسْحَتُكُمْ﴾ قال: يستأصلكم. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن أبي صالح قال: فيذبحكم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي ﴿وَيُذْهِبُ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ قال: يصرفا وجوه الناس إليهما. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: يقول: أمثلكم، وهم بنو إسرائيل. وأخرج عبد بن حميد، وعبد الرزاق في قوله: ﴿تَلْقَفُ مَا يَصْنَعُونَ﴾ ما يافكون، عن قتادة قال: ألغاهما موسى فتحوّلت حية تاكل حبالهم وما صنعوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة أن سحرة فرعون كانوا تسعمائة، فقالوا لفرعون: إن يكن هذان ساحران فإننا نغلبهما فإنه لا أسحر منا، وإن كانا من رب العالمين فإنه لا طاقة لنا برب العالمين، فلما كان من أمرهم أن خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي إليها يصيرون فعندما ﴿قَالُوا لَنْ نُوْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قُلْ أَنْ مَادَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَحَكُمْ فِي حُجُوعِ النَّفْلِ وَلَنُفَعِّلَنَّ إِنَّا شَدِيدُ الْعَذَابِ وَأَبْقَى ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَنْ نُوْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٧﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَمُنَا عَلَيْنَا مِنْ الْبَحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٨﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٩﴾ وَنَنْ يَأْتِيَهُ مُرْتَضًى فَعَلِيَ الصَّلَاحَاتِ فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ رَزَقْنَا أَمْثَلًا ﴿٨٠﴾ جَعَلْنَا عَدُوَّ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ الْأَنْهَارَ خَالِيَةً فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٨١﴾

قوله: ﴿قال آمنتم له﴾ يقال: آمن له وآمن به، فمن الأول قوله: ﴿فأمن له لوط﴾ [العنكبوت: 26]، ومن الثاني، قوله في الأعراف: ﴿آمنتم به قبل أن أنزل لكم﴾ [الأعراف: 123]. وقيل: إن الفعل هنا متضمن معنى الاتباع. وقرئ على الاستفهام التوبيخي أي: كيف آمنتم به من غير إذن مني لكم بذلك ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ أي: إن موسى لكبيركم أي: أسحركم وأعلامكم درجة في صناعة السحر، أو معلمكم وأستاذكم كما يدل عليه قوله: ﴿الذي علمكم السحر﴾ قال الكسائي: الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال: جئت من عند كبري. وقال محمد بن إسحاق: إنه لعظيم السحر. قال الواحدي: والكبير في اللغة الرئيس، ولهذا يقال للمعلم الكبير. أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى، ولا كان رئيساً لهم، ولا بينه وبينهم مواصلة ﴿فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ أي: والله لأفعلن

لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم ثم يلقي هو عصاه فتبتلع ذلك، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرم ﴿فلماذا حبالهم وعصيتهم﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فآلقوا فلماذا حبالهم، والفاء فصيحة، وإذا للمفاجأة أو ظرفية. والمعنى: فآلقوا فاجأ موسى وقت أن ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ﴾ سعي حبالهم وعصيتهم، وقرأ الحسن (عصيتهم) يضم العين وهي لغة بني تميم، وقرأ الباقون بكسرهما اتباعاً لكسرة الصاد، وقرأ ابن عباس، وابن نكوان، وروح، عن يعقوب (تخيل) بالمشناة، لأن العصي والحبال مؤنثة، وذلك أنهم لطحوها بالزئبق، فلما أصابها حر الشمس ارتعشت واهتزت، وقرئ (تخيل) بالنون على أن الله سبحانه هو المخيل لذلك، وقرئ (يخيل) بالياء التحتية مبنياً للفاعل على أن المخيل هو الكيد، وقيل: المخيل هو أنها تسعى، فإن في موضع رفع أي: يخيّل إليه سعيها، ذكر معناه الزجاج. وقال الفراء: إنها في موضع نصب أي: بانها ثم حذف الباء. قال الزجاج: ومن قرأ بالتاء يعني: الفوقية جعل أن في موضع نصب أي: تخيل إليه ذات سعي. قال: ويجوز أن يكون في موضع رفع بدلاً من الضمير في تخيل، وهو عائد على الحبال والعصي، والبديل فيه بديل اشتمال، يقال: خيل إليه إذا شبه له وأدخل عليه البهمة والشبهة ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ أي: أحس؛ وقيل: وجد؛ وقيل: أضمر؛ وقيل: خاف، وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه؛ وقيل: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه؛ وقيل: إن سبب خوفه هو أن سحرم كان من جنس ما أراهم في العصا، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا، فأنه الله سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشره به بقوله: ﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ أي: المستعلي عليهم بالظفر والغلبة، والجملة تعليل للنهي عن الخوف ﴿وإلق ما في يمينك﴾ يعني: العصا، وإنما أيهما تعظيماً وتفضيلاً، وجزم ﴿تلقف ما صنعوا﴾ على أنه جواب الأمر قرئ بتشديد القاف، والأصل تتلقف فحذف إحدى التاءين، وقرئ تلقف بكسر اللام من لقفه إذا ابتلعه بسرعة، وقرئ (تلقف) بالرفع على تقدير فإنها تتلقف، ومعنى ﴿ما صنعوا﴾ الذي صنعوه من الحبال والعصي. قال الزجاج: القراءة بالجزم جواب الأمر، ويجوز الرفع على معنى الحال. كأنه قال: ألغاهما متلقفة، وجملة ﴿إنما صنعوا كيد ساحر﴾ تعليل لقوله تلقف، وارتفاع كيد على أنه خبر لإن، وهي قراءة الكوفيين إلا عاصماً. وقرأ هؤلاء ﴿سحر﴾ بكسر السين وسكون الحاء، وإضافة الكيد إلى السحر على الاتساع من غير تقدير، أو بتقدير ذي سحر. وقرأ الباقون (كيد ساحر) ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ أي: لا يفلح جنس الساحر حيث أتى وابن توجه، وهذا من تمام التعليل ﴿فالقي السحرة سجداً﴾ أي: فالقي ذلك الأمر الذي شاهدوه من موسى والعصا السحرة سجداً لله تعالى، وقد مر تحقيق هذا في سورة الأعراف ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ إنما قدم

ألا من لنفس لا تموت فينقضى شقاها ولا تحيا حياة لها طعم وهذه الآية من جملة ما حكاها الله سبحانه من قول السحرة: وقيل: هو ابتداء كلام، والضمير في إنه على هذا الوجه للشأن ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ومن يأت ربه مصنفًا به قد عمل الصالحات أي: الطاعات، والموصوف محذوف، والتقدير الأعمال الصالحات، وجملة قد عمل في محل نصب على الحال وهكذا مؤمنًا منتصب على الحال، والإشارة بـ ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إلى من باعتبار معناه ﴿لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أي: المنازل الرفيعة التي قصرت دونها الصفات ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بيان للدرجات أو بدل منها، والعدن الإقامة وقد تقدم بيانه، وجملة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال من الجنات، لأنها مضافة إلى عدن، وعدن علم للإقامة كما سبق، وانتصاب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ على الحال من ضمير الجماعة في لهم أي: ماكثين دائمين، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ إِذْ يَأْتُوا الصَّلَاةَ إِذِ اتَّبَعُوا صَوْتِ النَّبِيِّ طَرَفًا﴾ أي: الذين هم من آلِهَتِهِمْ إِذْ يَأْتُوا الصَّلَاةَ إِذِ اتَّبَعُوا صَوْتِ النَّبِيِّ طَرَفًا، وهو مبتدأ، و ﴿جَزَاءُ مِنْ تَرْكٍ﴾ خبره أي: جزاء من تطهر من الكفر والمعاصي الموجبة للنار.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالقُرْمَا⁽¹⁾، قال: علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم الذين قالوا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿وَأَوَّاهٌ خَيْرٌ وَابْقَى﴾ قال: خير منك إن أطيع وأبقى منك عذاباً إن عصى. وأخرج أحمد، ومسلم، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له: الحياة أو الحيوان، فينبتون كما ينبت الغطاء في حميل السيل». وأخرج أبو داود، وابن مريويه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرّي في أفق السماء، وإن أباً بكر وعمر منهم وأنعماء، وفي الصحيحين بلفظ: «إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء».

وَلَقَدْ أَرْحَمْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِرَبِّكَ قَاتِلْتَهُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ نَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا مَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتَيْنَاهُمُ فِرْعَوْنَ بِحُجُوبٍ فَقَسَّيْهُمْ مِنْ أَلَيْمٍ مَا عَشِينَا ﴿٧٨﴾ وَأَضَلُّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾ نَبِيُّ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْتِنَاكَ مِنْ مَدْرَكٍ وَعَدْنَكَ رَبَّكَ الْطُّورِ الْآيَمِينَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى ﴿٨٠﴾ كَلَّا بَيْنَ

بكم ذلك، والتقطيع للأيدي والأرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ومن للابتداء ﴿وَأَلْصَقْنَاهُمْ فِي جَنُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جنوعها كقوله: ﴿لَهُمْ لَهْمٌ سَلِمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: 38]. أي: عليه، ومنه قول سويد بن أبي كاهل:

هم صلبوا العبد في جذع نخلة فلا عسست شيبان إلا بأجدعا وإنما أثر كلمة ﴿فِي﴾ للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف في الظرف ﴿وَلِتَعْلَمَنَّ لَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَابْقَى﴾ أراد لتعلمن هل أنا أشد عذاباً لكم أم موسى؟ ومعنى أبقي: أنوم، وهو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى، لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء، ويمكن أن يريد العذاب الذي توعدهم به موسى إن لم يؤمنوا، وقيل: أراد بموسى رب موسى على حذف المضاف ﴿قَالُوا لَنْ نُوْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند الله سبحانه كاليد والعصا، وقيل: إنهم أرادوا بالبينات ما راوه في سجودهم من المنازل المعدة لهم في الجنة ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ معطوف على ما جاءنا أي: لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات وعلى الذي فطرنا أي: خلقنا، وقيل هو قسم أي: والله الذي فطرنا لن نُوْثِرَكَ، أو لا نُوْثِرَكَ، وهذان الوجهان في تفسير الآية نكرهما الفراء والزجاج ﴿فَأَقْضَ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم لا قطعن إلخ، والمعنى: فاصنع ما أنت صانع، واحكم ما أنت حاكم، والتقدير: ما أنت صانعه ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما سلطانتك علينا ونفوذ أمرك فينا في هذه الدنيا ولا سبيل لك علينا فيما بعدها، فاسم الإشارة في محل نصب على الظرفية أو على المفعولية وما كافة، وإجاز الفراء الرفع على أن تجعل ما بمعنى الذي أي: أن الذي تقضيه هذه الحياة الدنيا فقضاؤك وحكمك منحصر في ذلك ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ التي سلفت منا من الكفر وغيره ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ معطوف على خطايانا أي: ويغفر لنا الذي أكرهتنا عليه من عمل السحر في معارضة موسى فما في محل نصب على المفعولية؛ وقيل: هي نافية، قال النحاس: والأول أولى. قيل: ويجوز أن يكون في محل رفع بالابتداء والخبر مقرر أي: وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنا ﴿وَأَوَّاهٌ خَيْرٌ وَابْقَى﴾ أي: خير منك ثواباً وأبقى منك عقاباً، وهذا جواب قوله: ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ المجرم هو المتلبس بالكفر والمعاصي، ومعنى لا يموت فيها ولا يحيى أنه لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه. قال المبرد: لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة، فهو يالم كما يالم الحي ويبلغ به حال الموت في المكروه إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم، والعرب تقول: فلان لا حي ولا ميت إذا كان غير منتفع بحياته، وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا:

(1) قرما: مدينة بقرى مصر - لسان العرب (ج 12 ص 453).

بعضه. فهذه العبارة للدلالة على أن الذي غرقهم بعض الماء، والاول أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم. وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم أي: غطاهم ما غطاهم ﴿واضل فرعون قومه وما هدى﴾ أي: أضلهم عن الرشيد، وما هداهم إلى طريق النجاة لانه قدر أن موسى ومن معه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون في طريق يابسة، وبين أيديهم البحر، وفي قوله: ﴿وما هدى﴾ تأكيد لإضلاله، لأن المضل قد يرشد من يضلّه في بعض الأمور ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم﴾ نكر سبحانه ما أنعم به على بني إسرائيل بعد إنجائهم، والتقدير قلنا لهم بعد إنجائهم: يا بني إسرائيل، ويجوز أن يكون خطاباً لليهود المعاصرين لنبينا ﷺ لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء، والمراد بعنودهم هنا: فرعون وجنوده، وذلك بإغراقه وإغراق قومه في البحر بمرأى من بني إسرائيل ﴿وواعظناكم جانب الطور الأيمن﴾ انتصاب جانب على أنه مفعول به، لا على الظرفية لانه مكان معين غير مبهم، وإنما تنتصب الامكنة على الظرفية إذا كانت مبهمة. قال مكي: وهذا أصل لا خلاف فيه. قال النحاس: والمعنى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لنكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام، وقيل: وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور، فالوعد كان لموسى، وإنما خاطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم. وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (ووعظناكم) بغير ألف، واختاره أبو عبيدة، لأن الوعد إنما هو من الله لموسى خاصة والمواعدة لا تكون إلا من اثنين، وقد قدمنا في البقرة هذا المعنى، والأيمن منصوب على أنه صفة للجانب، والمراد: يمين الشخص، لأن الجبل ليس له يمين ولا شمال، فإذا قيل: خذ عن يمين الجبل بمعناه: عن يمينك من الجبل. وقرئ بجزر الأيمن على أنه صفة للمضاف إليه ﴿ووترلنا عليكم للمن والسلوى﴾ قد تقدم تفسير المن والسلوى بالترنجيبين والسلوى بالسماوي وأوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه، وإنزال ذلك عليهم كان في التيه ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: وقلنا لهم كلوا والمراد بالطيبات: المستلذات؛ وقيل: الحلال على الخلاف المشهور في ذلك. وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش: قد أنجيتكم من عدوكم ووعظتكم جانب الطور كلوا من طيبات ما رزقتمك بتاء المتكلم في الثلاثة. وقرأ الباقون بنون العظمة فيها ﴿ولا تطغوا فيه﴾ الطغيان التجاوز أي: لا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز؛ وقيل: المعنى لا تجحدوا نعمة الله فتكونوا طائغين؛ وقيل: لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكرها، وقيل: لا تعصوا المنعم أي: لا تحملنكم السعة والعافية على المعصية، ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعاني فإن كل واحد منها يصدق عليه أنه طغيان ﴿فيحل عليكم غضبي﴾ هذا جواب النهي أي: يلزكم غضبي وينزل بكم، وهو مأخوذ من حلول الدين أي: حضور وقت أدائه ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائي (فيحل)

طَبَّيْتُ مَا رَزَقْتُمْ وَلَا تَطْلَعُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿١٧﴾ وَإِنِّي لَنَذَارُ لَنِ تَابَ وَآمَنَ وَرَبِّهِمْ صَلَاحًا مَّ أَهَدَكُنَّ ﴿١٨﴾ وَمَا أَعْجَلَكُ عَنْ قَوْمِكَ بِمُؤْتَى ﴿١٩﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَصَحَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٢٠﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَسْلَمْنَا النَّامِرَى ﴿٢١﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقُولُونَ لَمْ يَحْلِلْ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُ مَوْعِدِي ﴿٢٢﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوَارَاكَ مِنْ رَبِّهِ أَتَقْوَى ﴿٢٣﴾ فَقَدْ فَتَنَّاكَ أَتَى النَّامِرَى ﴿٢٤﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا حَوَارٍ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمُ وَإِنَّهُ مَوْسَى فَيَسْأَلُ أَلَّا يُرْجَعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكَ لَهُمْ سَرَكٌ وَلَا نَفْعًا ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُولُوا لَنَا فَنُشْرِبَ بِهِ وَإِنْ رَبِّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّعَوْهُ وَالطَّمْرُ أَتَرَى ﴿٢٦﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٢٧﴾

هذا شروع في إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوهم، وقد تقدم في البقرة، وفي الاعراف، وفي يونس، واللام في لقد هي الموطنة للقسم، وفي ذلك من التأكيد ما لا يخفى، و ﴿أن﴾ في أن أسر بعبادي، إما المفسرة لأن في الوحي معنى القول، أو مصدرية أي: بأن أسر أي: أسر بهم من مصر. وقد تقدم هذا مستوفى ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً﴾ أي: اجعل لهم طريقاً، ومعنى يبساً: يابساً وصف به الفاعل مبالغة، وذلك أن الله تعالى أيسس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء ولا طين، وقرئ (يبساً) بسكون الباء على أنه مخفف من يبسا المحرك، أو وجمع يابس كصحب في صاحب، وجملة ﴿لا تخاف دركا﴾ في محل نصب على الحال أي: أماناً من أن يدرككم العدو، أو صفة أخرى لطريق، والدرك اللحاق بهم من فرعون وجنوده. وقرأ حمزة (لا تخف) على أنه جواب الأمر، والتقدير: إن تضرب لا تخف، ولا تخشى على هذه القراءة مستأنف أي: ولا أنت تخشى من فرعون أو من البحر. وقرأ الجمهور (لا تخاف) وهي أرجح لعدم الجزم في تخشى، ويجوز أن تكون هذه الجملة على قراءة الجمهور صفة أخرى لطريق أي: لا تخاف منه ولا تخشى منه ﴿فاتبعهم فرعون بجنوده﴾ اتبع هنا مطاوع تبع، يقال: اتبعته إذا تبعته، وذلك إذا سبقوك فلحقته، فالمعنى: تبعهم فرعون ومعه جنوده، وقيل: الباء زائدة والأصل اتبعهم جنوده أي: أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه، وقرئ (فاتبعهم) بالتشديد أي: لحقهم بجنوده وهو معهم كما يقال: ركب الأمير بسيفه أي: معه سيفه، ومحل بجنوده النصب على الحال أي: سابقاً جنوده معه ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ أي: غلام وأصابهم ما غلام وأصابهم، والتكرير للتعظيم والتهويل كما في قوله: ﴿الحاقة﴾ ما الحاقة [الحاقة: 1 - 2]. وقيل: غشيهم ما سمعت قصته. وقال ابن الأنباري: غشيهم البعض الذي غشيهم، لانه لم يغشهم كل ماء البحر، بل الذي غشيهم

أسفاً قيل: وكان الرجوع إلى قومه بعد ما استوفى أربعين يوماً: ذا القعدة، وعشر ذي الحجة، والأسف الشديد الغضب؛ وقيل: الحزين، وقد مضى في الأعراف بيان هذا مستوفى **﴿قال يا قوم لم يعملكم ربكم وعداً حسناً﴾** الاستفهام للإنكار التوبيخي، والوعد الحسن وعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته، ووعدهم أن يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى ليعملوا بما فيها، فيستحقوا ثواب عملهم، وقيل: وعدهم النصر والظفر؛ وقيل هو قوله: **﴿واني لغفار لمن تاب﴾** الآية، **﴿فقطال عليكم العهد﴾** الفاء للعطف على مقتر أي: أوعىكم ذلك، فطال عليكم الزمان فنسيتم **﴿أم أريدتم أن يحل عليكم غضب من ربكم﴾** أي: يلزمكم وينزل بكم، والغضب: العقوبة والنقمة، والمعنى: أم أريدتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله عليكم **﴿فأخلفتم موعد﴾** أي: موعدكم إياي، فالمصدر مضاف إلى المفعول، لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور، وقيل: وعدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات، فتوقفوا فأجابوه، و **﴿قالوا ما أخلفنا موعدك﴾** الذي وعدناك **﴿بملكنا﴾** بفتح الميم، وهي قراءة نافع وأبي جعفر، وعاصم، وعيسى بن عمر، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر الميم، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لأنها على اللغة العالية الفصيحة، وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكاً، والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف أي: بملكنا أمورنا، أو بملكنا الصواب، بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا وكنا مضطرين إلى الخطأ، وقرأ حمزة والكسائي (بملكنا) بضم الميم، والمعنى بسلطاننا أي: لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك؛ وقيل: إن الفتح والكسر والضم في بملكنا كلها لغات في مصدر ملكت الشيء **﴿وولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم﴾** قرأنا نافع وابن كثير، وابن عامر، وحفص وأبو جعفر ورويس (حملنا) بضم الحاء وتشديد الميم، وقرأ الباقون بفتح الحاء والميم مخففة، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم، وما حملوها كرهاً، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى، وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة، وقيل: هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل، وسميت أوزاراً أي: آثاماً، لأنه لا يحل لهم أخذها، ولا تحل لهم الغنائم في شريعتهم والأوزار في الأصل: الأثقال كما صرح به أهل اللغة، والمراد بالزينة هنا: الحلي **﴿فقدفناها﴾** أي: طرحناها في النار طلباً للخلاص من إثمها، وقيل: المعنى طرحناها إلى السامري لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرى فيها رايه **﴿فكنكك القى السامري﴾** أي: فمثل ذلك القذف ألقاها السامري، قيل: إن السامري قال لهم حين استبطن القوم رجوع موسى: إنما احتبس عنكم لأجل ما عندكم من الحلي، فجمعوه وبفعوه إليه، فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلاً، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول وهو جبريل، فصار **﴿عجلاً جسداً**

بضم الحاء وكذلك قرعوا يحلل بضم اللام الأولى، وقرأ الباقون بالكسر فيهما وهما لغتان. قال الفراء: والكسر أحب إلي من الضم لأن الضم من الحلول بمعنى الوقوع، ويحل بالكسر يجب، وجاء التفسير بالجواب لا بالوقوع، ونكر نحو هذا أبو عبيدة وغيره. ومعنى **﴿فقد هوى﴾** فقد هلك. قال الزجاج **﴿فقد هوى﴾** أي: صار إلى الهواية، وهي قعر النار من هوى يهوي هويأ أي: سقط من علو إلى سفلى، وهوى فلان أي: مات **﴿واني لغفار لمن تاب وأمن وعمل صالحاً﴾** أي: لمن تاب من الذنوب التي أعظمها الشرك بالله، وأمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وعمل عملاً صالحاً مما ندب إليه الشرع وحسنه **﴿ثم اهتدى﴾** أي: استقام على ذلك حتى يموت كذا قال الزجاج وغيره؛ وقيل: لم يشك في إيمانه، وقيل: أقام على السنة والجماعة، وقيل: تعلم العلم ليهتدي به؛ وقيل: علم أن لذلك ثواباً وعلى تركه عقاباً، والأول أرجح مما بعده **﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾** هذا حكاية لما جرى بين الله سبحانه وبين موسى عند موافاته الميقات. قال المفسرون: وكانت المواعدة أن يوافي موسى وجماعة من وجوه قومه، فسار موسى بهم، ثم عجل من بينهم شوقاً إلى ربه، فقال الله له: ما أعجلك؟ أي: ما الذي حملك على العجلة، حتى تركت قومك وخرجت من بينهم، فأجاب موسى عن ذلك **﴿قال هم أولاء على أثري﴾** أي: هم بالقرب مني، تابعون لأثري واصلون بعدي؛ وقيل: لم يرد أنهم يسبغون خلفه، بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده إليهم، ثم قال مصرحاً بسبب ما سأل الله عنه فقال: **﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾** أي: لترضى عني بمسارعتي إلى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عني بذلك. قال أبو حاتم: قال عيسى بن عمر: بنو تميم يقولون: (أولاء) مقصورة، وأهل الحجاز يقولون (أولاء) ممدودة. وقرأ ابن أبي إسحاق، ونصر، ورويس عن يعقوب (على إثري) بكسر الهمزة وإسكان اللاء، وقرأ الباقون بفتحها وهما لغتان. ومعنى عجلت إليك: عجلت إلى الموضوع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عني، يقال: رجل عجل وعجول وعجلان: بين العجلة، والعجلة خلاف البطء، وجملة **﴿قال فلنا قد فتنا قومك من بعدك﴾** مستأنفة جواب سؤال مقتر، كأنه قيل فماذا قال الله له؟ فقيل: قال: إنا قد فتنا قومك من بعدك أي: ابتليناهم واختبرناهم والقيناهم في فتنة ومحنة. قال ابن الأنباري: صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم، وهم الذين خلفهم مع هارون **﴿وأضلهم السامري﴾** أي: دعاهم إلى الضلالة، وكان من قوم يعبدون البقر، فدخل في دين بني إسرائيل في الظاهر وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر، وكان من قبيلة تعرف بالسامرة، وقال لمن معه من بني إسرائيل: إنما تخلف موسى عن الميعاد الذي بينكم وبينه لما صار معكم من الحلي، وهي حرام عليكم وأمرهم بإلقائها في النار، فكان من أمر العجل ما كان **﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان**

صالحاً قال: أدنى الفرائض **﴿ثم اهتدى﴾** قال: لم يشكك. وأخرج سعيد بن منصور، والفريابي عنه أيضاً **﴿وإني لغفار لمن تاب﴾** قال: من تاب من الذنب، وأمن من الشرك، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه **﴿ثم اهتدى﴾** علم أن لعمله ثواباً يجزى عليه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جببر **﴿ثم اهتدى﴾** قال: ثم استقام لزم السنة والجماعة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي في البعث من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: تعجل موسى إلى ربه، فقال الله: **﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾** الآية، قال: فرأى في ظل العرش رجلاً فعجب له، فقال: من هذا يا رب؟ قال: لا أحدثك من هو، لكن سأخبرك بثلاث فيه: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يقرّ والديه، ولا يمشي بالنميمة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن عليّ قال: لما تعجل موسى إلى ربه عمد السامريّ فجمع ما قدر عليه من حلّي بني إسرائيل فضربه عجلًا، ثم ألقي القبض في جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار، فقال لهم السامريّ: هذا إلهكم وإله موسى، فقال لهم هارون: يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً، فلما أن رجع موسى أخذ برأس أخيه، فقال له هارون ما قال، فقال موسى للسامريّ: ما خطبك؟ قال: **﴿قبضت قبضة من اثر الرسول فنبتتها وكذلك سؤلت لي نفسي﴾** فعمد موسى إلى العجل، فوضع موسى عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل إلا اصفرّ وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً، فأخنوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه ولا يبالي بمن قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم، فقد غفرت لمن قتل وتبت على من بقي، والحكايات لهذه القصة كثيرة جداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿بملكنا﴾** قال: بأمرنا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة **﴿بملكنا﴾** قال: بطقنا. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي مثله. وأخرج أيضاً عن الحسن قال: بسلطاننا. وأخرج الفريابي وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾** قال: فنسي موسى أن ينكر لكم أن هذا إلهه.

قَالَ يَهْرُونُ مَا مَلَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلَا نَتَّبِعُ أَفْصَحْتَ ۖ آتَرَى ۚ قَالَ يَنْتَوِي لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۚ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۚ قَالَ مَا خَطْبُكَ يَاسِرِيُّ ۖ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِوَءٍ فَفَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۚ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا سِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَآخِثًا لَّكَ إِلَٰهًا الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ ۚ عَاكِفًا لَّنَحَرِّقَنَّ ثُمَّ لَنَنْبَسُفَنَّ فِي أَتُونِ سَفَا ۚ إِنَّكُمْ إِلَٰهَكُمْ اللَّهُ الَّذِي

له خوار﴾ أي: يخور كما يخور الحي من العجول، والخوار صوت البقر، وقيل: خواره كان بالريح، لأنه كان عمل فيه خروقاً. فإذا دخلت الريح في جوفه خار ولم يكن فيه حياة، **﴿فقالوا هذا إلهكم وإله موسى﴾** أي: قال السامريّ ومن وافقه هذه المقالة **﴿فنسي﴾** أي: فضل موسى ولم يعلم مكان إلهه هذا، وذهب يطلبه في الطور، وقيل: المعنى فنسي موسى أن ينكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم، وقيل: الناسي هو السامريّ أي: ترك السامريّ ما أمر به موسى من الإيمان وضلّ، كذا قال ابن الأعرابي **﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا﴾** أي: أفلا يعتبرون ويتفكرون في أن هذا العجل لا يرجع إليهم قولا أي: لا يردّ عليهم جواباً، ولا يكلمهم إذا كلموه، فكيف يتوهمون أنه إله وهو عاجز عن المكالمة، فإن في «ألا يرجع» هي المخففة من الثقلية، وفيها ضمير مقتر يرجع إلى العجل، ولهذا ارتفع الفعل بعدها، ومنه قول الشاعر:

في فتية من سيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى وينتلع
أي: أنه هالك. وقرئ بنصب الفعل على أنها الناصبة، وجملة **﴿ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً﴾** معطوفة على جملة لا يرجع أي: أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرراً ولا يجلب إليهم نفعاً **﴿ولقد قال لهم هارون من قبل﴾** اللام هي الموطئة للقسم والجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التي قبلها من الإنكار عليهم والتوبيخ لهم أي: ولقد قال لهم هارون من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم **﴿يا قوم إنما فتنتم به﴾** أي: وقعتم في الفتنة بسبب العجل وابتليتم به وضللتم عن طريق الحق لأجله، قيل: ومعنى القصر المستفاد من إنما هو أن العجل صار سبباً لفتنتهم لا لرشادهم وليس معناه أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره **﴿وإن ربكم للرحمن فاتبعوني واطيعوا أمري﴾** أي: ربكم الرحمن لا للعجل، فاتبعوني في أمري لكم بعبادة الله، ولا تتبعوا السامريّ في أمره لكم بعبادة العجل، واطيعوا أمري لا أمره **﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾** أجابوا هارون عن قوله المتقدم بهذا الجواب المتضمن لعصيان، وعدم قبول ما دعاهم إليه من الخير وحذرهم عنه من الشرّ أي: لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل، حتى يرجع إلينا موسى، فينظر هل يقرّرنا على عبادته أو ينهانا عنها، فعند ذلك اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من المنكرين لما فعله السامريّ.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله: **﴿يبسا﴾** قال: يابساً ليس فيه ماء ولا طين. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿ولا تخاف دركاً﴾** من آل فرعون **﴿ولا تخشى﴾** من البحر غرقاً. وأخرج عنه أيضاً في قوله: **﴿فقد هوى﴾** شقي. وأخرج عنه أيضاً **﴿وإني لغفار لمن تاب﴾** قال: من الشرك **﴿وآمن﴾** قال: وحده الله **﴿وعمل**

حياً. وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، وخلف (ما لم تبصروا به) بالمشنة من فوق على الخطاب، وقرأ الباقون بالتحية، وهي أولى، لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب موسى بذلك ويدعي لنفسه أنه علم ما لم يعلم به موسى، وقرأ بضم الصاد فيهما وبكسرهما في الأول وفتحها في الثاني، وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود، والحسن، وقتادة (فقبضت قبضة) بالصاد المهملة فيهما، وقرأ الباقون بالصاد المعجمة فيهما، والفرق بينهما أن القبض بالمعجمة هو الأخذ بجميع الكف، وبالمهملة بأطراف الأصابع، والقبضة بضم القاف: القدر المقبوض. قال الجوهري: هي ما قبضت عليه من شيء، قال: وربما جاء بالفتح، المرة من القبض، ثم أطلقت على المقبوض وهو معنى القبضة بضم القاف، ومعنى «من أثر الرسول» من المحل الذي وقع عليه حافر فرس جبريل، ومعنى «فنبذنها» فطرحتها في الحلي المذابة المسبوكة على صورة العجل «وكنك سؤلت لي نفسي» قال الأخفش أي: زينت أي: ومثل ذلك التسويل سؤلت لي نفسي، وقيل: معنى سؤلت لي نفسي: حذتني نفسي، فلما سمع موسى منه ذلك «قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس» أي: فاذهب من بيننا وأخرج عنا فإن لك في الحياة أي: ما دمت حياً، وأطول حياتك أن تقول لا مساس، المساس مأخوذ من المماساة أي: لا يمسه أحد ولا تمس أحد، لكن لا بحسب الاختيار منك، بل بموجب الاضطراب الملجئ إلى ذلك، لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينفى السامري عن قومه، وأمر بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. قيل: إنه لما قال له موسى ذلك هرب، فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش لا يجد لحداً من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لا مساس لبعده عن الناس وبعد الناس عنه، كما قال الشاعر:

حمل رايات بها قناعاً حتى تقول الأزدي لا مساساً

قال سيبويه: وهو مبني على الكسر. قال الزجاج: كسرت السين لأن الكسرة من علامة التأنيث. قال الجوهري في الصحاح: وأما قول العرب لا مساس مثل قطام فإنما مبني على الكسر لأنه معول عن المصدر، وهو المس. قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول: إذا اعتل الشيء من ثلاث جهات وجب أن يبنى، وإذا اعتل من جهتين وجب أن لا ينصرف، لأنه ليس بعد الصرف إلا البناء، فمساس دراك اعتل من ثلاث جهات: منها أنه معول، ومنها أنه مؤنث، ومنها أنه معرفة، فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين. وقد رأيت أبا إسحاق يعني: الزجاج ذهب إلى أن هذا القول خطأ والغزم أبا العباس إذا سميت امرأة بفرعون أن يبنيه وهذا لا يقوله أحد. وقد قرأ بفتح الميم أبو حيوة والباقون بكسرهما. وحاصل ما قيل في معنى لا مساس ثلاثة أوجه: الأول: أنه حرّم عليه مماسة الناس،

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٤١﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٤٢﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٤٣﴾ خَلِيلِينَ فِيهِمْ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٤٤﴾

جملة: «قال يا هارون» مستانفة جواب سؤال مقدر، والمعنى: أن موسى لما وصل إليهم أخذ بشعور رأس أخيه هارون وبليحيته وقال: «ما منعك» من اتباعي والحق بي عند أن وقعوا في هذه الضلالة ودخلوا في الفتنة، وقيل: معنى «ما منعك أن لا تتبعتني» ما منعك من اتباعي في الإنكار عليهم؛ وقيل: معناه هلا قاتلتهم إذ قد علمت أنني لو كنت بينهم لقاتلتهم؛ وقيل: معناه هلا فارقتهم، ولا في «أن لا تتبعتني» زائدة، وهو في محل نصب على أنه مفعول ثانٍ لمنع أي: أي شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعي، والاستهتار في «افحصيت أمري» للإنكار والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر كمنظاره، والمعنى: كيف خالفت أمري لك بالقيام لله ومنايذة من خالف بينه وأقامت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً، وقيل: المراد بقوله أمري هو قوله الذي حكى الله عنه: «وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين» [الأعراف: 142]. فلما أقام معهم ولم يبالغ في الإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه «قال يا ابن أم لا تأخذ بليحتي ولا براسي» قرئ بالفتح والكسر للميم، وقد تقدّم الكلام على هذا في سورة الأعراف، ونسبه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور استعظافاً له وترقيقاً لقلبه، ومعنى «ولا براسي» ولا بشعر رأسي أي: لا تفعل هذا بي عقوبة منك لي، فإن لي عنراً هو «إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل» أي: خشيت أن خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا فتقول إني فرقت جماعتهم وذلك لأن هارون لو خرج لاتبه جماعة منهم وتخلف مع السامري عند العجل آخرون، وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم، ومعنى «ولم ترقب قولي» ولم تعمل بوصيتي لك فيهم، إني خشيت أن تقول فرقت بينهم وتقول لم تعمل بوصيتي لك فيهم وتحفظها، ومراده بوصية موسى له هو قوله: «اخلفني في قومي وأصلح» [الأعراف: 142]. قال أبو عبيد: معنى «ولم ترقب قولي» ولم تنتظر عهدي وقنومي لأنك أمرتني أن أكون معهم، فاعتذر هارون إلى موسى ما هنا بهذا، واعتذر إليه في الأعراف بما حكاه الله عنه هناك حيث قال: «إني أكون مستضعفون وكابوا يقتلونني» [الأعراف: 150]. ثم ترك موسى الكلام مع أخيه وخاطب السامري فـ «قال فما خطبك يا سامري» أي ما شأنك وما الذي حملك على ما صنعت «قال بصرت بما لم يبصروا به» أي: قال السامري مجيباً على موسى: رأيت ما لم يروا أو علمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفتنوا له، وأراد بذلك أنه رأى جبريل على فرس الحياة فالقى في ذهنه أن يقبض قبضة من أثر الرسول، وأن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار

إنها نعت لمصدر محذوف أي: كما قصصنا عليك خبر موسى كذلك نقص عليك **﴿من أنباء ما قد سبق﴾** أي: من أخبار الحوادث الماضية في الأمم الخالية لتكون تسلية لك ودلالة على صدقك، ومن للتبعية أي: بعض أخبار ذلك **﴿وقد آتيناك من لدنا ذكراً﴾** المراد بالذكر: القرآن، وسمي تذكراً لما فيه من الموجبات للتذكر والاعتبار، وقيل: المراد بالذكر الشرف كقوله: **﴿وإنه لنذكر لك ولقومك﴾** [الزخرف: 44]. ثم تودع سبحانه المعرضين على هذا الذكر فقال: **﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾** أي: أعرض عنه فلم يؤمن به ولا عمل بما فيه؛ وقيل: أعرض عن الله سبحانه، فإن المعرض عنه يحمل يوم القيامة وزراً أي: إثمًا عظيمًا وعقوبة ثقلية بسبب إعراضه **﴿خالدين فيه﴾** أي في الوزر، والمعنى: أنهم يقيمون في جزائه، وانتصاب خالدين على الحال **﴿وساء لهم يوم القيامة حملًا﴾** أي: بئس الحمل يوم القيامة، والمخصوص بالذم محذوف أي: ساء لهم حملًا وزرهم، واللام للبيان كما في هيت لك.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: **﴿يا هارون ما منعك﴾** إلى قوله: **﴿أفقصيت أمري﴾** قال: أمره موسى أن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين. فكان من إصلاحه أن ينكر العجل. وأخرج عنه أيضاً في قوله: **﴿ولم ترقب قلبي﴾** قال: لم تنتظر قلبي ما أنا صانع، وقال ابن عباس: لم ترقب لم تحفظ قلبي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿وإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾** قال: عقوبة له **﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾** قال: لن تغيب عنه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا﴾** قال: أمت **﴿لنحرقنه﴾** قال: بالنار **﴿ثم لننسفنه في اليوم﴾** قال: لنذرينه في البحر. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ **﴿لنحرقنه﴾** خفيفة ويقول: إن الذهب والفضة لا تحرق بالنار، بل تسحل بالمبرد ثم تلقى على النار فتصير رماداً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: **﴿اليوم﴾** البحر. وأخرج أيضاً عن عليّ قال: **﴿اليوم﴾** النهر. وأخرج أيضاً عن قتادة في قوله: **﴿وسع كل شيء علماً﴾** قال: ملا. وأخرج أيضاً عن ابن زيد في قوله: **﴿من لدنا ذكراً﴾** قال: القرآن. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وزراً﴾** قال: إثمًا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وساء لهم يوم القيامة حملًا﴾** يقول: بئس ما حملوا.

يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْنُ الْمُنْجِبِينَ يَوْمَئِذٍ رَفَعًا ﴿٢٠﴾ يَخْفَتُونَ يَنْهَمُونَ ﴿٢١﴾ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ يَوْمَئِذٍ يَبْقَوْنَ إَزِيدٌ يُقَالُ أَمْلَهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٢٢﴾ وَنَسْأَلُكَ عَنِ الْبَلَاءِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿٢٣﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٢٤﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا فِجْرًا وَلَا أَمْنَا ﴿٢٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿٢٦﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ

وكان إذا ماسه أحد حمّ الماس والممسوس، فلذلك كان يصيح إذا رأى أحداً لا مساس. والثاني: أن المراد منع الناس من مخالطته، واعترض بأن الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول هو لا مساس، وإنما يقال له، وأجيب بأن المراد الحكاية أي: أجعلك يا سامري بحيث إذا أخبرت عن حالك قلت لا مساس. والقول الثالث: أن المراد انقطاع نسله، وأن يخبر بأنه لا يتمكن من مماسة المرأة قاله أبو مسلم وهو ضعيف جداً. ثم نكر حاله في الآخرة فقال: **﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾** أي: لن يخلفك الله ذلك الموعد، وهو يوم القيامة، والموعد مصدر أي: إن لك وعداً لعذابك، وهو كائن لا محالة، قال الزجاج أي: يكافئك الله على ما فعلت في القيامة والله لا يخلف الميعاد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن لن تخلفه بكسر اللام، وله على هذه القراءة معنيان: أحدهما ستأتيه ولن تجده مخلفاً كما تقول أحملتني أي: وجنته محموداً. والثاني: على التهديد أي: لا بد لك من أن تصير إليه. وقرأ ابن مسعود (لن نخلفه) بالنون أي: لن يخلفه الله. وقرأ الباقر بفتح اللام، وبالفوقية مبنياً للمفعول، معناه ما قمتناه **﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا﴾** ظلت أصله ظللت فحذفت اللام الأولى تخفيفاً، والعرب تفعل ذلك كثيراً. وقرأ الأعمش بلامين على الأصل. وفي قراءة ابن مسعود (ظلت) بكسر الظاء. والمعنى: انظر إلى إلهك الذي دمت وأقمت على عبادته، والعاكف الملازم **﴿لنحرقنه﴾** قرأ الجمهور بضم النون وتشديد الراء من حرّقه يحرقه. وقرأ الحسن بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء من أحرّقه يحرقه. وقرأ عليّ، وابن عباس، وأبو جعفر، وابن محيصن، وأشب، والعقيلي (لنحرقنه) بفتح النون وضم الراء مخففة من حرقت الشيء أحرّقه أحرّقا إذا برئته وحككت بعضه ببعض أي: لنذرينه بالمبارد، ويقال للمبرد: المحرق. والقراءة الأولى أولى، ومعناها الإحراق بالنار، وكذا معنى القراءة الثانية، وقد جمع بين هذه الثلاث القراءات بأنه أحرّق، ثم برد بالمبرد، وفي قراءة ابن مسعود (لنذبحه) ثم لنحرقنه، واللام هي الموطئة للقسمة **﴿ثم لننسفنه في اليوم نسفا﴾** النسف نفذ الشيء ليذهب به الريح. قرأ أبو رجاء (لننسفنه) بضم السين، وقرأ الباقر بكسرها، وهما لغتان. والمنسف ما ينسف به الطعام، وهو شيء منصوب الصدر أعلاه مرتفع، والنسافة ما يسقط منه **﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو﴾** لا هذا العجل الذي فتنتم به السامري **﴿وسع كل شيء علماً﴾** قرأ الجمهور وسع بكسر السين مخففة. وهو متعد إلى مفعول واحد، وهو كل شيء، وانتصاب علماً على التمييز المحوّل عن الفاعل أي: وسع علمه كل شيء. وقرأ مجاهد وقاتة وسع بتشديد السين وفتحها فيتعدى إلى مفعولين، ويكون انتصاب علماً على أنه المفعول الأول وإن كان متاخراً، لأنه في الأصل فاعل، والتقدير: وسع علمه كل شيء، وقد مرّ نحو هذا في الأعراف **﴿كذلك نقص عليك﴾** الكاف في محل نصب على

أَشْفَعَهُ إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٣٨﴾ يَمْكُرُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١٣٩﴾ وَعَنَتِ الزُّجُجُ لِإِنِّي الْقَوِيُّ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٤٠﴾ وَمَنْ يَمَلِكُ مِنَ الصَّلَاحَةِ وَهُوَ مُؤْتٍ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٤١﴾

الطرف وهو «يوم ينفخ» متعلق بمقدر هو انكر؛ وقيل: هو بدل من يوم القيامة، والأول أولى. قرأ الجمهور (ينفخ) بضم الباء التحتية مبنياً للمفعول، وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق بالنون مبنياً للفاعل، واستدل أبو عمرو على قراءته هذه بقوله: (ونحشر) فإنه بالنون. وقرأ ابن هرمز (ينفخ) بالتحكية مبنياً للفاعل على أن الفاعل هو الله سبحانه أو إسرافيل، وقرأ أبو عياض (في الصور) بفتح الواو جمع صورة، وقرأ الباقون بسكون الواو. وقرأ طلحة بن مصرف والحسن «يحشر» بالياء التحتية مبنياً للمفعول ورفع (المجرمين) وهو خلاف رسم المصحف وقرأ الباقون بالنون، وقد سبق تفسير هذا في الأنعام، والمراد بالمجرمين المشركون والعصاة المأخوذون بنزوبهم التي لم يغفرها الله لهم، والمراد بـ «يوم مؤث» يوم النفخ في الصور، وانتصاب زرقاً على الحال من المجرمين أي: زرق العيون، والزرقه الخضرة في العين كعين السنور والعرب تتشامم بزرقه العين، وقال الفراء: زرقاً أي: عمياء. وقال الأزهري: عطاشاً، وهو قول الزجاج لأن سواد العين يتغير بالعطش إلى الزرقه، وقيل إنه كني بقوله زرقاً عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة؛ وقيل: هو كناية عن شحوص البصر من شدة الحوص، ومنه قول الشاعر:

لقد زرقت عينك يا بن معكير كما كل شبي من اللؤم أزرق
والقول الأول أولى، والجمع بين هذه الآية وبين قوله: «ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً» [الإسراء: 97]. ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم، وجملة «يتخافتون بينهم» في محل نصب على الحال، أو مستأنفة لبيان ما هم فيه في ذلك اليوم، والخفت في اللغة السكون، ثم قيل لمن خفض صوته: خفته. والمعنى يتساررون أي: يقول بعضهم لبعض سراً «إن لبئتم إلا عشراً» أي: ما لبئتم في الدنيا إلا عشر ليال؛ وقيل: في القبور، وقيل: بين النفثتين. والمعنى: أنهم يستقصرون مدة مقامهم في الدنيا، أو في القبور، أو بين النفثتين لشدة ما يرون من أهوال القيامة؛ وقيل: المراد بالمشعر عشر ساعات، ثم لما قالوا هذا القول قال الله سبحانه: «نحن أعلم بما يقولون» إذ يقول أمثلهم طريقة أي: أعلمهم قولاً وأكملهم رأياً وأعلمهم عند نفسه «إن لبئتم إلا يوماً» أي: ما لبئتم إلا يوماً واحداً، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم، لكونه أدل على شدة الهول، لا لكونه أقرب إلى الصدق «ويسألونك عن الجبال» أي: عن حال الجبال يوم القيامة، وقد كانوا سألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال:

«فقل ينسفها ربي نسفاً» قال ابن الأعرابي وغيره: يقلعها قلعا من أصولها، ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً، ثم يسيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا، ثم كالهباء المنثور. والفاء في قوله: «فقل» الجواب شرط مقدر، والتقدير: إن سألوك فقل، أو للمسارعة إلى إلزام السائلين، والضمير في قوله: «فيذرها» راجع إلى الجبال باعتبار مواضعها أي: فيذر مواضعها بعد نسف ما كان عليها من الجبال «قاعاً صفضاً» قال ابن الأعرابي: القاع الصفض الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء، وقال الفراء: القاع مستنقع الماء، والصفض القرعاء الملساء التي لا نبات فيها. وقال الجوهري: القاع المستوي من الأرض، والجمع أقوع وأقواع وقيعان. والظاهر من لغة العرب أن القاع الموضع المكتشف، والصفض المستوي الأمس، وأنشد سيبويه:

وكم بون بيتك من صفض وبكدك رمل وأعقادها
وانتصاب قاعاً على أنه مفعول ثانٍ ليذر على تضمينه معنى التصيير، أو على الحال، والصفض صفة له، ومحل «لا ترى فيها عوجاً» النصب على أنه صفة ثانية لقاعاً، والضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار، والعوج بكسر العين التعوج، قاله ابن الأعرابي. والامت التلال الصغار، والامت في اللغة المكان المرتفع، وقيل: العوج الميل والامت الأثر مثل الشراك؛ وقيل: العوج الوادي، والامت الرابية، وقيل: هما الارتفاع، وقيل: العوج الصدوع، والامت الأكمة؛ وقيل: الامت الشقوق في الأرض؛ وقيل: الامت أن يغلظ في مكان ويبقى في مكان. ووصف مواضع الجبال بالعوج بكسر العين ما هنا ينفخ ما يقال: إن العوج بكسر العين في المعاني ويفتحها في الأعيان. وقد تكلف لذلك صاحب الكشاف في هذا الموضع بما عنه غني، وفي غيره سعة «يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له» أي: يوم نسف الجبال يتبع الناس داعي الله إلى المحشر. وقال الفراء: يعني صوت المحشر؛ وقيل: الداعي هو إسرافيل إذا نفخ في الصور لا عوج له أي: لا معدل لهم عن دعائه فلا يقدرين على أن يزيغوا عنه، أو ينحرفوا منه بل يسرعون إليه كذا قال أكثر المفسرين؛ وقيل لا عوج لدعائه «وخشعت الأصوات للرحمن» أي: خضعت لهيبته؛ وقيل ذلت؛ وقيل: سكنت، ومنه قول الشاعر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع
«فلا تسمع إلا همساً» الهمس الصوت الخفي. قال أكثر المفسرين: هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر، ومنه قول الشاعر:

ومن يمشين بنا هميسا

يعني صوت أخفاف الإبل.

وقال رؤية يصف نفسه:

ليث يبق الأسد الهموسا ولا يهاب الفيل والجاموسا
يقال للأسد الهموس، لأنه يهمس في الظلمة أي: يطأ وطناً خفياً. والظاهر أن المراد هنا كل صوت خفي سواء كان

بالقدم، أو من الفم، أو غير ذلك، ويؤيده قراءة أبي بن كعب (فلا ينطقون إلا همساً) «يومئذ لا تنفع الشفاعة» أي: يوم يقع ما نكر لا تنفع الشفاعة من شافع كائناً من كان «إلا من أذن له الرحمن» أي: إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع له «ورضي له قولا» أي: رضي قوله في الشفاعة أو رضي لأجله قول الشافع. والمعنى: إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، وكان له قول يرضي، ومثل هذه الآية قوله: «لا يشفعون إلا لمن ارتضى» [الأنبياء: 28]. وقوله: «لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً» [مريم: 87]. وقوله: «فما تنفعهم شفاعة الشافعين» [المنثر: 48]. «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم» أي: ما بين أيديهم من أمر الساعة، وما خلفهم من أمر النيا، والمراد هنا: جميع الخلق؛ وقيل: المراد بهم الذين يتبعون الداعي، وقال ابن جرير: الضمير يرجع إلى الملائكة، أعلم الله من يعبدونها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها «ولا يحيطون به علماً» أي: بالله سبحانه، لا تحيط علومهم بذاته، ولا بصفاته، ولا بمعلوماته؛ وقيل: الضمير راجع إلى ما في الموضوعين فإنهم لا يعلمون جميع ذلك «وعنت الوجوه للحى القيوم» أي: نلت وخضعت، قاله ابن الأعرابي. قال الزجاج: معنى عنت في اللغة: خضعت، يقال: عنى يعنوا عنوا إذا خضع. ومنه قيل للأسير: عان، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

ملك على عرش السماء مهيم
لعرته تعنو الوجوه وتسجد

وقيل: هو من العناء، بمعنى التعب «وقد خاب من حمل ظلماً» أي: خسر من حمل شيئاً من الظلم؛ وقيل: هو الشرك «ومن يعمل من الصالحات» أي: الأعمال الصالحة «وهو مؤمن» بالله، لأن العمل لا يقبل من غير إيمان، بل هو شرط في القبول «فلا يخاف ظلماً» يصاب به من نقص ثواب في الآخرة «ولا هضمًا» الهضم النقص والكسر يقال هضمت لك من حقي أي: حططته وتركته، وهذا يهضم الطعام أي: ينقص ثقله، وامرأة هضيم الكشح أي: ضامرة البطن، وقرأ ابن كثير ومجاهد لا يخف بالجزم جواباً لقوله: (ومن يعمل من الصالحات) وقرأ الباقر (يخاف) على الخبر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلاً أتاه، فقال: رأيت قوله: «ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً» وأخرى عمياً قال: إن يوم القيامة فيه حالات يكونون في حال زرقاً، وفي حال عمياً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «يتخافتون بينهم» قال: يتساررون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: «أمثلهم طريقة» قال: أوفاهم عقلاً، وفي لفظ قال: أعلمهم في نفسه. وأخرج ابن المنذر، وابن جرير قال: قالت قريش: كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت «ويسألونك عن الجبال» الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذَرُونَ
لَهُمْ ذِكْرٌ ﴿١٠٠﴾ فَمَنْ لَّهُ أَلَمٌ أَلَمٌ أَلَمٌ وَلَا تَعْمَلْ بِالشُّرْكِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْصَلَ
إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٠١﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسِوٍ
وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١٠٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِسَ أُنْ ﴿١٠٣﴾ فَقُلْنَا يَبْقَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَبِّكَ فَلَا تَجْرَحَنَّ مِنْ
الْجَنَّةِ فَتَنْفَعَنَّ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجْرَحَ فِيهَا وَلَا تَمُرَّ ﴿١٠٥﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَرُ فِيهَا

وَلَا تَصْحَى ۖ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ
الْمَلَكُ وَمَلَكٍ لَا يَكُنْ ۖ فَاصْطَلَا بَيْنَهُمَا فَدَنَّتْ فَكَا سَوَاءً نَهُمَا وَكَفَعَا بَيْنَهُمَا
عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقٍ الْجَنَّةِ وَصَوَّى آدَمُ رِزْقَ فَتَوَى ۖ ثُمَّ اجْنَبْهُ رِزْقَ فَتَابَ عَلَيْهِ
وَعَدَى ۖ

قوله: ﴿وَكُنْكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿كُنْكَ﴾
نقص عليك ﴿طه: 99﴾ أي: مثل تلك الإنزال أنزلناه أي:
القرآن حال كونه ﴿قَرَأْنَا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب ليفهموه
﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ بيّنا فيه ضرباً من الوعيد
تخويفاً وتهديداً أو كررنا فيه بعضاً منه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾
أي: كي يخافوا الله فيجتنبوا معاصيه ويحذروا عقابه ﴿وَإِذْ
يُحَدِّثُ لَهُمْ زُكْرَهُمْ﴾ أي: اعتباراً واطعاً، وقيل: ورعاً؛ وقيل:
شرفاً، وقيل: طاعة وعبادة، لأن الذكر يطلق عليها. وقرأ
الحسن (أو نحدث) بالنون ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ لما
بين للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزه نفسه عن
مماثلة مخلوقاته في شيء من الأشياء أي: جلّ الله عن إلحاد
الملحدين وعمّا يقول المشركون في صفاته فإنه الملك الذي
بيده الثواب والعقاب وأنه الحق أي: ذو الحق ﴿وَلَا تَعْجَلْ
بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: يتم إليك
وحيه. قال المفسرون: كان النبي ﷺ يبادر جبريل فيقرأ
قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً منه على ما كان
ينزل عليه منه فنهاه الله عن ذلك، ومثله قوله: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ
لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: 16]. على ما يأتي إن شاء الله؛
وقيل: المعنى ولا تلق إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله،
وقرأ ابن مسعود، ويعقوب، والحسن، والأعمش (من قبل أن
نقضي) بالنون ونصب وحيه ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ أي:
سل ربك زيادة العلم بكتابه ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ الْإِلَهِ
الْمَوْطِنَةَ لِلْقَسَمِ، وَالْجَمْلَةَ مُسْتَأْنَفَةً مَقْرَرَةً لِمَا قَبْلُهَا مِنْ
تَصْرِيفِ الْوَعِيدِ أَي: لَقَدْ أَمَرْنَاهُ وَوَصَيْنَاهُ، وَالْمَعْهُودُ مُحْذُوفٌ،
وَهُوَ مَا سَيَأْتِي مِنْ نَهْيِهِ عَنِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَمَعْنَى
﴿مَنْ قَبْلُ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ هَذَا الزَّمَانِ ﴿فَنَسِيَ﴾ قَرَأَ الْأَعْمَشُ
بِإِسْكَانِ الْيَاءِ، وَالْمُرَادُ بِالنِّسْيَانِ هُنَا: تَرَكَ الْعَمَلَ بِمَا وَقَعَ بِهِ
الْعَهْدُ إِلَيْهِ فِيهِ، وَبِهِ قَالَ أَكْثَرُ الْمَفْسَرِينَ؛ وَقِيلَ: النَّسْيَانُ عَلَى
حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّهُ نَسِيَ مَا عَهْدَ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ وَيُنْتَهِي عَنْهُ، وَكَانَ آدَمُ
مَأْخُذًا بِالنِّسْيَانِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَإِنْ كَانَ النَّسْيَانُ مَرْفُوعًا
عَنْ هَذِهِ الْأَمَةِ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ تَسْلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْقَوْلِ
الْأَوَّلِ أَي: أَنْ طَاعَةَ بَنِي آدَمَ لِلشَّيْطَانِ أَمْرٌ قَدِيمٌ، وَأَنْ هَؤُلَاءِ
الْمُعَاصِرِينَ لَهُ إِنْ نَقَضُوا 'عَهْدَ فَقْدَ نَقَضَ آبُوهُمْ آدَمَ، كَذَا
قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَالْقَشِيرِيُّ، وَاعْتَرَضَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ قَائِلًا بِأَنْ
كُونَ آدَمَ مِمَّاثِلًا لِلْكَافِرِ الْجَاهِلِينَ بِاللَّهِ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَقَرَأَ
(فَنَسِيَ) بِضَمِّ النَّونِ وَتَشْدِيدِ السِّينِ مَكْسُورَةً مَبْنِيًا لِلْمَفْعُولِ
أَي: فَنَسَاهُ إِبْلِيسُ ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عِزْماً﴾ الْعِزْمُ فِي اللِّغَةِ
تَوَطُّينَ النَّفْسِ عَلَى الْفِعْلِ وَالتَّصْمِيمَ عَلَيْهِ، وَالْمُضَيَّ عَلَى
الْمُعْتَقَدِ فِي أَيْ شَيْءٍ كَانَ، وَقَدْ كَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ وَطَّنَ
نَفْسَهُ عَلَى أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ وَصَمَّ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا

وسوس إليه إبليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف
البشر؛ وقيل: العزم الصبر أي: لم نجد له صبراً عن أكل
الشجرة. قال النحاس: وهو كذلك في اللغة، يقال لفلان عزم
أي: صبر وثبات على التحفظ عن المعاصي حتى يسلم منها،
ومنه ﴿كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ [الأحقاف: 35].
وقيل المعنى ولم نجد له عزمًا على الذنب، وبه قال ابن
كيسان، وقيل: ولم نجد له رأياً معزوماً عليه، وبه قال ابن
قتيبة. ثم شرع سبحانه في كيفية ظهور نسيانه وفقدان
عزمه، والعامل في إذ مقتر أي: ﴿وَوَيْلٌ لَكُم مِمَّا كَفَرْتُمْ﴾
لِلْمَلَائِكَةِ لَسَجُّوْا أَلَمٌ﴾ وتعليق الذكر بالوقت مع أن
المقصود نكر ما فيه من الحوادث للمبالغة، لأنه إذا وقع
الامر بنكر الوقت كان نكر ما فيه من الحوادث لازماً بطريق
الأولى وقد تقدم تفسير هذه القصة في البقرة مستوفى،
ومعنى ﴿فَتَشَقَّى﴾ فتتعب في تحصيل ما لا بد منه في
المعاش كالحرث والزرع، ولم يقل فتشقى، لأن الكلام من
أول القصة مع آدم وحده، ثم علل ما يوجب ذلك النهي بما
فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام فقال: ﴿إِنْ لَكَ أَنْ لَا
تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾ أي: في الجنة. والمعنى: أن لك فيها
تمتعاً بأنواع المعاش وتنعماً بأصناف النعم من المأكّل
الشهيّة والملابس البهيّة، فإنه لما نفى عنه الجوع والعري
أفاد ثبوت الشبع والاكتماء له، وهكذا قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾
فيها ولا تضحى ﴿فَإِنْ نَفَى الظُّلْمَ يَسْتَلْزِمُ حُصُولَ الرَّيِّ
وَوُجُودَ الْمَسْكَنِ الَّذِي يَنْفَعُ عَنْهُ مَشَقَّةُ الضُّحَى يُقَالُ: ضَحَى
الرَّجُلُ يَضْحَى ضُحاً: إِذَا بَرَزَ لِلشَّمْسِ فَاصْطَبَحَ حَرّاً، فَذَكَرَ
سَبْحَانَهُ هَا هُنَا أَنَّهُ قَدْ كَفَاهُ الْإِسْتِغْنَاءُ بِأَمْرِ الْمَعَاشِ وَتَعَبِ
الْكَدِّ فِي تَحْصِيلِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَصُولَ الْمُتَاعِبِ فِي الدُّنْيَا هِيَ
تَحْصِيلُ الشَّبَعِ وَالرَّيِّ وَالْكُسُوفَةِ وَالْكُنْ، وَمَا عَدَا هَذِهِ
فَفَضْلَاتٌ يُمْكِنُ الْبَقَاءُ بِدُونِهَا، وَهُوَ إِعْلَامُ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ
لَأَدَمَ أَنَّهُ إِنْ أَطَاعَهُ فَلَهُ فِي الْجَنَّةِ هَذَا كُلُّهُ، وَإِنْ ضَيَّعَ وَصِيَّتَهُ
وَلَمْ يَحْفَظْ عَهْدَهُ أَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الدُّنْيَا فَيَحِلُّ بِهِ التَّعَبُ
وَالنَّصَبُ بِمَا يَدْفَعُ الْجُوعَ وَالْعَرِيَّ وَالظَّمَأَ وَالضُّحَى، فَالْمُرَادُ
بِالشَّقَاءِ: شَقَاءُ الدُّنْيَا كَمَا قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسَرِينَ لَا شَقَاءَ
الْآخِرَى، قَالَ الْفَرَاءُ: هُوَ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ كَدِّ يَدَيْهِ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو
وَالْكُوفِيُّونَ إِلَّا عَاصِماً (وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ) بَفَتْحِ أَنْ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ
بِكَسْرِهَا عَلَى الْعَطْفِ عَلَى إِنْ لَكَ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
الشَّيْطَانُ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ:
﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 20] أَي: أَنَّهُ إِلَيْهِ
وَسْوَسَتُهُ، وَجُمْلَةٌ ﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾ إِلَى آخِرِهِ إِمَّا بَدَلَ مِنْ
وَسْوَسَ أَوْ مُسْتَأْنَفَةً بِتَقْيِيرِ سَوْأَلِ كَانَتْ قِيلَ: فَمَاذَا قَالَ لَهُ فِي
وَسْوَسَتِهِ؟ وَ﴿شَجَرَةَ الْخُلْدِ﴾ هِيَ الشَّجَرَةُ الَّتِي مِنْ أَكْلِ
مِنْهَا لَمْ يَمُتْ أَصْلًا ﴿وَمَلَكٌ لَا يُبْلَى﴾ أَي: لَا يَزُولُ وَلَا
يَنْقُضِي ﴿فَلَاكُلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ
هَذَا وَمَا بَعْدَهُ فِي الْأَعْرَافِ. قَالَ الْفَرَاءُ: وَمَعْنَى طَفَقَا فِي
الْعَرَبِيَّةِ: اقْبَلَا، وَقِيلَ: جَعَلَا يَلْصِقَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقِ التِّينِ
﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ أَي: عَصَاهُ بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ

وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، وهي شجرة الخلد». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «حاج آدم موسى قال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم بمعصيتك، قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، أتولمني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو قتره عليّ قبل أن يخلقني، قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى».

قَالَ أَمِطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هَذِهِ فَمَنِ اتَّبَعَ فَلَا يُضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٨﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي حَشَرْتُكُمْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٩﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَوَّلَنْتَ نَفْسِيكَ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنصَّبُ وَكَذَلِكَ تُجْرَى مِنْ أَرَفٍ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِاتِّبَاعِ رَبِّي وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَبْشَرُ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿قال اميطا﴾ قد مرّ تفسيره في البقرة أي: انزلا من الجنة إلى الأرض، خصهما الله سبحانه بالهبوط لأنهما أصل البشر، ثم عمم الخطاب لهما ولزيتهما فقال: ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ والجملة في محل نصب على الحال ويجوز أن يقال: خاطبهما في هذا وما بعده خطاب الجمع، لأنهما منشا الأولاد. ومعنى ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ تعابيهما في أمر المعاش ونحوه، فيحدث بسبب ذلك القتال والخصام ﴿فإما يأتينكم مني هدي﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ أي: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ أي: عن ديني، وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه، ولم يتبع هداي ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ أي: فإن له في هذه الدنيا معيشة ضنكا أي: عيشاً ضيقاً. يقال: منزل ضنك وعيش ضنك، مصدر يستوي فيه الواحد وما فوقه والمذكر والمؤنث، قال عنترة:

إن المنية لو تمثل مثلث مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل وقرئ ﴿ضنكى﴾ بضم الضاد على فعلى. ومعنى الآية: أن الله عز وجل جعل لمن اتبع هداي وتمسك بدينه أن يعيش في الدنيا عيشاً هنيئاً غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه كما قال سبحانه: ﴿فلنحييه حياة طيبة﴾ [النحل: 97]. وجعل لمن لم يتبع هداي وأعرض عن دينه أن يعيش عيشاً ضيقاً وفي تعب ونصب، ومع ما يصيبه في هذه الدنيا من المتاعب، فهو في الآخرة أشدّ تعباً وأعظم ضيقاً وأكثر نصباً، وذلك معنى ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ أي: مسلوب البصر، وقيل: المراد العمى عن الحجة، وقيل: أعمى عن جهات الخير لا يهتدي إلى شيء منها، وقد قيل: إن المراد بالمعيشة الضنكى عذاب القبر، وسيأتي ما يرجح هذا ويقولونه ﴿قال ربي لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾

فغوى فضل عن الصواب أو عن مطلوبه، وهو الخلود بكل تلك الشجرة؛ وقيل: فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا وقيل: جهل موضع رشده؛ وقيل: بشم من كثرة الأكل. قال ابن قتبية: أكل آدم من الشجرة التي نهى عنها باستزلال إبليس وخداعه إياه، والقسم له بالله إنه له لمن الناصحين حتى دلاه بغرور ولم يكن نذبه عن اعتقاد متقدم ونية صحيحة، فنحن نقول: عصى آدم ربه فغوى. انتهى. قال القاضي أبو بكر بن العربي: لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم. قلت: لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله في كتابه بأنه عصاه، وكما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومما قلته في هذا المعنى:

عصى أبو العالم وهو الذي من طينة صورته الله
واسجد الأملاك من أجله وصير الجنة ملواه
أغواه إبليس فمن ذا أنا المسد كين إن إبليس أغواه

﴿ثم اجتبا ربه﴾ أي: اصطفاه وقربه. قال ابن فورك: كانت المعصية من آدم قبل النبوة لبليل ما في هذه الآية، فإنه ذكر الاجتباء والهداية بعد ذكر المعصية، وإذا كانت المعصية قبل النبوة فجاز عليهم الذنوب وجهاً واحداً ﴿فتاب عليه وهدى﴾ أي: تاب عليه من معصيته، وهداه إلى الثبات على التوبة. قيل: وكانت توبة الله عليه قبل أن يتوب هو وحواء بقولهما: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ [الأعراف: 23]. وقد مرّ وجه تخصيص آدم بالذكر دون حواء.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿أو يحدث لهم﴾ أي: القرآن ﴿ونذكرهم﴾ قال: جداً وورعاً. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا تعجل بالقرآن﴾ يقول: لا تعجل حتى نبينه لك. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن الحسن قال: لطم رجل امرأته، فجاءت إلى النبي ﷺ تطلب قصاصاً، فجعل النبي ﷺ بينهما الفصاص، فانزل الله ﴿ولا تعجل بالقرآن﴾ الآية، فوقف النبي ﷺ حتى نزلت ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ [النساء: 34] الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ولا تعجل﴾ الآية قال: لا تتله على أحد حتى تنته لك. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن منده في التوحيد، والطبراني في الصغير، وصححه، عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه ففسى. وأخرج عبد الغني، وابن سعد عن ابن عباس ﴿ولقد عهدنا إلى آدم﴾ أن لا تقرب الشجرة ﴿ففسى﴾ فترك عهدي ﴿ولم نجد له عزماء﴾ قال: حفظاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ففسى﴾ فترك ﴿ولم نجد له عزماء﴾ يقول: لم نجعل له عزماء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿إنك لا تظلم فيها ولا تضحى﴾ قال: لا يصيبك فيها عطش ولا حر. وأخرج أحمد،

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قال: عمى عليه كل شيء إلا جهنم، وفي لفظ: لا يبصر إلا النار. وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ قال: من أشرك بالله.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا لَمَمًا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٧٦﴾ وَلَا كَيْفَ سَبَّحْتَ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٧٧﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَكَ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٧٨﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ حَرْبًا وَآبَاءَ ﴿١٧٩﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِزُّ لِلَّهِ الْعَلِيِّ ﴿١٨٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا بَأْسُنَا بِبَنِي آدَمَ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصَّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨١﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَعَالَمُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا فَتُنَبِّئُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ الْوَحْيَ ﴿١٨٢﴾ قُلْ كُلُّ مُرْسِلٍ فَرِيسٌ فَاسْتَلْزِمُوا مَنَاصِبَ الْأَصْحَابِ الْأَسْوَى وَمَنْ أَهْتَكُنَّ ﴿١٨٣﴾

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا لَهُمْ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر، كما مر غير مرة، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها وفاعل يهد هو الجملة المذكورة بعدها، والمفعول محذوف، وإنكر البصريون مثل هذا لأن الجمل لا تقع فاعلاً، وجوزوه غيرهم. قال القفال: جعل كثرة ما أهلك من القرون مبيناً لهم. قال النحاس: وهذا خطأ لأن كم استفهام، فلا يعمل فيها ما قبلها. وقال الزجاج: المعنى أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكنا، وحقيقته تدل على الهدى، فالفاعل هو الهدى، وقال: ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بأهلكنا وقيل: إن فاعل يهد ضمير لله أو للرسل، والجملة بعده تفسره، ومعنى الآية على ما هو الظاهر: أفلم يتبين لأهل مكة خبر من ﴿أهلكنا قبلهم من القرون﴾ حال كون القرون ﴿يمشون في مساكنهم﴾ ويتقلبون في ديارهم، أو حال كون هؤلاء يمشون من مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة وطلب المعيشة، فيرون بلاد الأمم الماضية، والقرون الخالية خاوية خاربة من أصحاب الحجر وثمود وقرى قوم لوط فإن ذلك مما يوجب اعتبارهم لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك، وقرأ ابن عباس والسلمي (نهج) بالنون، والمعنى على هذه القراءة واضح، وجملة ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ آيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية، والإشارة بقوله ذلك إلى مضمون كم أهلكنا إلى آخره. والنهى: جمع نهية، وهي العقل أي: لذوي العقول التي تنهى أربابها عن القبيح ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ولولا الكلمة السابقة، وهي وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الدار الآخرة ﴿لَكَانَ﴾ عقاب ذنوبهم إلزاماً أي: لازماً لهم، لا ينفك عنهم بحال ولا يتأخر. وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معطوف على كلمة، قاله الزجاج وغيره، والأجل المسمى هو: يوم القيامة، أو يوم بدر، واللام مصدر لازم، قيل: ويجوز عطف وأجل مسمى على الضمير المستتر في

في الدنيا ﴿قَالَ كُنْ﴾ أي: مثل ذلك فعلت أنت، ثم فسره بقوله: ﴿لَتَكُنَّ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا﴾ أي: عرضت عنها، وتركها، ولم تنظر فيها ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْصَى﴾ أي: مثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا تنسى أي: تترك في العمى والعذاب في النار، قال الفراء: يقال إنه يخرج بصيراً من قبره فيعمى في حشره ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء نجزيه والإسراف: الانهماك في الشهوات، وقيل: الشرك ﴿وَلَمْ يَأْمُرْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بل كذب بها ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ أي: أقطع من المعيشة الضنكى ﴿وَأَوْبَقَى﴾ أي: أوم وأثبت لأنه لا ينقطع.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتبع كتاب الله هداة الله من الضلالة في الدنيا، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة»، وذلك أن الله يقول: ﴿فَمَنْ لَتَبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى﴾ وأخرج القرطبي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال: أجاز الله تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة، ثم قرأ ﴿فَمَنْ لَتَبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى﴾ قال: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، ومسدد في مسنده، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ قال: عذاب القبر. ولفظ عبد الرزاق قال: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه. ولفظ ابن أبي حاتم قال: ضمة القبر. وفي إسناده ابن لهيعة، وفيه مقال معروف. وقد روي موقوفاً. قال ابن كثير: الموقوف أصح. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: «﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكاً﴾ قال: المعيشة الضنكى أن يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة». وأخرج ابن أبي الدنيا، والحكيم الترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه بأطول منه. قال ابن كثير: رفعه منكر جداً. وأخرج ابن أبي شيبة، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكاً﴾ قال: عذاب القبر. قال ابن كثير بعد إخراجه: إسناده جيد. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكاً﴾ قال: عذاب القبر. ومجموع ما نكرنا هنا يرجح تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في كتاب عذاب القبر عن ابن مسعود أنه فسر المعيشة الضنكى بالشقاء. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله:

الرزق الآخروي لا النبوي، وإن كان حلالاً طيباً ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ [النحل: 96]. ﴿وامرأهك بالصلاة﴾ أمره الله سبحانه بأن يامر أهله بالصلاة، والمراد بهم: أهل بيته، وقيل: جميع أمته ولم يذكرها هنا الأمر من الله بالصلاة، بل قصر الأمر على أهله، إما لكون إقامته لها أمراً معلوماً، أو لكون أمره بها قد تقدّم في قوله: ﴿وسبح بحمد ربك﴾ إلى آخر الآية، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمراً له، ولهذا قال: ﴿واصبر عليها﴾ أي: اصبر على الصلاة، ولا تشتغل عنها بشيء من أمور الدنيا ﴿لا نسالك رزقاً﴾ أي: لا نسالك أن ترزق نفسك ولا أهلك، وتشتغل بذلك عن الصلاة ﴿نحن نرزقك﴾ ونرزقهم ولا نكلفك ذلك ﴿والعاقبة للمتقوى﴾ أي: العاقبة المحمودة، وهي الجنة لأهل التقوى على حنف المضاف كما قال الأخفش، وفيه دليل على أن التقوى هي ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير ﴿وقالوا لولا ياتينا بأية من ربك﴾ أي قال كفار مكة: هلا ياتينا محمد بأية من آيات ربه كما كان يأتي بها من قبله من الأنبياء؟ وذلك كالناقة والعصا، أو هلا ياتينا بأية من الآيات التي قد اقترحناها عليه؟ فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿أو لم ياتهم بيته ما في الصحف الأولى﴾ يريد بالصحف الأولى: التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة، وفيها التصريح بنبوته والتبشير به، وذلك يكفي، فإن هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصحتها وصحتها، وفيها ما يرفع إنكارهم لنبوته، ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم، وقيل: المعنى أو لم ياتهم إهلاكنا للأسم الذين كفروا واقترحوا الآيات، فما يؤمنهم إن انتهت الآيات التي اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم، وقيل: المراد أو لم تاتهم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني: القرآن، فإنه برهان لما في سائر الكتب المنزلة. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن أبي إسحاق، وحفص (أو لم تاتهم) بالياء الفوقية وقرأ الباقون بالتحته لأن معنى البينة البيان والبرهان، فنكروا الفعل اعتباراً بمعنى البينة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. قال الكسائي: ويجوز بينة بالتونين. قال النحاس: إذا نوتت بينة ورفعت جعلت ما بدلاً منها، وإذا نصبت فعلى الحال. والمعنى: أو لم ياتهم ما في الصحف الأولى مبيناً، وهذا على ما يقتضيه الجواز النحوي وإن لم تقع القراءة به ﴿ولو أنا اهلكناهم بعذاب من قبله﴾ أي: من قبل بعثة محمد ﷺ أو من قبل إتيان البينة لنزول القرآن ﴿لقالوا﴾ يوم القيامة ﴿ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا﴾ أي: هلا أرسلت إلينا رسولا إلى الدنيا ﴿ففتبع آياتك﴾ التي يأتي بها الرسول ﴿ومن قبل أن نذل﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿ونخزي﴾ بدخول النار، وقرئ (نذل ونخزي) على البناء للمفعول، وقد قطع الله معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم ولهذا حكى الله عنهم أنهم ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء﴾ [المك: 9]، ﴿قل كل متربص

كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد أي: لكان الأخذ العاجل ﴿ولجل مسمى﴾ لازميين لهم كما كانا لازميين لعاد وثمود، وفيه تعسف ظاهر. ثم لما بين الله سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر فقال: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ من أنك ساحر كذاب، ونحو ذلك أن مطاعنهم الباطلة، والمعنى: لا تحتفل بهم، فإن لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدم ولا يتأخر؛ وقيل: هذا منسوخ بأية القتال ﴿وسبح بحمد ربك﴾ أي: متلبساً بحمده، قال أكثر المفسرين: والمراد الصلوات الخمس كما يفيد قوله: ﴿قبل طلوع الشمس﴾ فإنه إشارة إلى صلاة الفجر ﴿وقبل غروبها﴾ فإنه إشارة إلى صلاة العصر ﴿ومن آتاء الليل﴾ العتمة، والمراد بالآتاء: الساعات، وهي جمع إني بالكسر والقصر، وهو الساعة، ومعنى ﴿فسبح﴾ أي: فصل ﴿واطراف النهار﴾ أي: المغرب والظهر لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، وأول طرف النهار الآخر؛ وقيل: إن الإشارة إلى صلاة الظهر هي بقوله: ﴿وقبل غروبها﴾ لأنها هي وصلاة العصر قبل غروب الشمس؛ وقيل: المراد بالآية صلاة التطوع، ولو قيل ليس في الآية إشارة إلى الصلاة بل المراد التسبيح في هذه الأوقات أي: قول القائل سبحان الله، لم يكن ذلك بعيداً من الصواب، والتسبيح وإن كان يطلق على الصلاة ولكنه مجاز، والحقيقة أولى إلا لقرينة تصرف ذلك إلى المعنى المجازي، وجملة ﴿لعلك ترضى﴾ متعلقة بقوله فسبح أي: سبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله سبحانه ما ترضى به نفسك، هذا على قراءة الجمهور، وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم (ترضى) بضم التاء مبنياً للمفعول أي: يرتضيك ربك ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية في الحجر. والمعنى: لا تطل نظر عينيك، وأزواجاً مفعول متعنا، وزهرة منصوبة على الحال، أو بفعل محذوف أي: جعلنا أو أعطينا، نكر معنى هذا الزجاج؛ وقيل: هي بدل من الهاء في به باعتبار محله، وهو النصب لا باعتبار لفظه، فإنه مجرور كما تقول مررت به أخك. ورجع الفراء النصب على الحال، يجوز أن تكون بدلاً، ويجوز أن تكون منتصبة على المصدر مثل صبغة الله ووعد الله ﴿وزهرة الحياة الدنيا﴾ زينتها وبهجتها بالنبات وغيره. وقرأ عيسى بن عمر (زهرة) بفتح الهاء، وهي نور النبات، واللام في ﴿لنفتنهم﴾ فيه متعلق بمتعنا أي: لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالة، ابتلاء منا لهم كقوله: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم﴾ [الكهف: 7]، وقيل: لنعذبهم؛ وقيل: لنشدد عليهم في التكليف ﴿وورزق ربك خير وأبقى﴾ أي: ثواب الله، وما أخر لصالحه عباده في الآخرة خير مما رزقهم في الدنيا على كل حال، وأيضاً فإن ذلك لا ينقطع، وهذا ينقطع، وهو معنى وأبقى، وقيل: المراد بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها. والأول أولى لأن الخيرية المحققة والدوام الذي لا ينقطع إنما يتحققان في

الجديد، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَمُنَّ بِعَيْنِكَ﴾. كانه يعزيه عن الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: بركات الأرض». وأخرج ابن مريويه، وابن عساكر، وابن النجار، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ كان النبي ﷺ يجيء إلى باب علي صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: الصلاة رحمكم الله ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: 33]. وأخرج ابن مريويه عن أبي الحمراء نحوه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ثابت، قال: «كان النبي ﷺ إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله: يا أهله صلوا صلوا، قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب بإسناد. قال السيوطي صحيح عن عبد الله بن سلام قال: كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة، وقرأ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ الآية.

تفسير سورة الأنبياء

وأخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم والأنبياء هم من العتاق الأول، وهم من تلادي. وأخرج ابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله ﷺ وأبياً ما في العرب وإني أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطعك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿اقْتَرِبْ لِلنَّاسِ حَسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفلة معرضون﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرِبْ لِلنَّاسِ حَسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفلة معرضون ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ الْكَذِبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَمْ لَمْ يَلْبَسُوا لَهُمْ خُلُقًا ﴿٣﴾ وَلَا شِرْكَ لَهُمْ كَذِبًا وَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ بَلْ قَالُوا أَخُفَّتْ أَعْيُنُنَا بِكُلِّ آفَاقَةٍ بَعْدَ مَا عَاينَا بِآيَاتِهِ كَمَا نُزِّلَ الْآنُورُ ﴿٦﴾ مَا أَمَنَّا قَبْلَهُمْ مِنْ قُرْبَةٍ أَمْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نَحْنُ نَقُصُّهُمْ عَلَيْكَ لَا يُلْقِي الْكُفْرُ إِلَّا كَثْرًا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جِنَّةً إِلَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٩﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿١٠﴾

فتربصوا أي: قل لهم يا محمد كل واحد منا ومنكم متربص أي: منتظر لما يؤول إليه الأمر فتربصوا أنتم ﴿فستعلمون﴾ عن قريب ﴿من أصحاب الصراط السوي﴾ أي: فستعلمون بالنصر والعاقبة من هو من أصحاب الصراط المستقيم ﴿ومن اهتدى﴾ من الضلالة ونزع عن الغواية، ومن في الموضوعين في محل رفع بالابتداء. قال النحاس: والفراء يذهب إلى أن معنى ﴿من أصحاب الصراط السوي﴾ من لم يضل، وإلى أن معنى ﴿من اهتدى﴾ من ضل ثم اهتدى؛ وقيل: من في الموضوعين في محل نصب، وكذا قال الفراء. وحكي عن الزجاج أنه قال: هذا خطأ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. وقرأ أبو رافع (فسوف تعلمون) وقرأ يحيى بن يعمر، وعاصم الجحدري (السوي) على فعلى، وردت هذه القراءة بأن تانيث الصراط شاذ؛ وقيل: هي بمعنى الوسط والعدل اهـ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿اقْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ألم نبين لهم ﴿حكم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ نحو عاد وثمود ومن أهلك من الأمم وفي قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ يقول: هذا من مقاييم الكلام، يقول لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحوه. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: الأجل المسمى الكلمة التي سبقت من ربك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ قال موتاً. وأخرج الفريابي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَسُبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الآية قال: هي الصلاة المكتوبة. وأخرج الطبراني، وابن مريويه، وابن عساكر عن جرير عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَسُبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، وقرأ ﴿فَسُبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾». وفي صحيح مسلم، وسنن أبي داود، والنسائي عن عمارة بن رؤية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يَلِجِ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن راهويه، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والخراطي، وأبو نعيم عن أبي رافع قال: «أضاف النبي ﷺ ضيقاً. ولم يكن عند النبي ﷺ ما يصلحه، فإرسلني إلى رجل من اليهود أن يبعنا أو سلفنا نقيماً إلى هلال رجب، فقال: لا إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ فاخبرته، فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض، ولئن أسلفني وباعني لأتيت إليه، اذهب بدري

(لاهيية) بالرفع كما قرئ محدث بالرفع ﴿وَأَسْرَ النَجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ النجوى اسم من التناجي، والتناجي لا يكون إلا سرّاً، فمعنى إسرار النجوى: المبالغة في الإخفاء. وقد اختلف في محل الموصول على أقوال: فقيل إنه في محل رفع بدل من الواو في أسروا، قاله المبرد وغيره؛ وقيل: هو في محل رفع على الذم، وقيل: هو فاعل لفاعل محذوف، والتقدير: يقول الذين ظلموا، واختار هذا النحاس، وقيل: في محل نصب بتقدير أعني وقيل: في محل خفض على أنه بدل من الناس ذكر ذلك المبرد؛ وقيل: هو في محل رفع على أنه فاعل أسروا على لغة من يجوز الجمع بين فاعلين كقولهم: اكلوني البراغيث، نكر ذلك الأخفش، ومثله ﴿ثم عموا وصموا كثير منهم﴾ [المائدة: 71]. ومنه قول الشاعر:

فامتنين البغال للأغراض

وقول الآخر:

ولكن نابي أبوه وأمه بحوران يعصرن السليط أقاربه
وقال الكسائي: فيه تقييد وتأخير أي: والذين ظلموا أسروا النجوى. قال أبو عبيدة: أسروا هنا من الأضداد: يحتمل أن يكون بمعنى أخفوا كلامهم، ويحتمل أن يكون بمعنى أظهروه وأعلنوه ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ هذه الجملة بتقدير القول قبلها أي: قالوا هل هذا الرسول إلا بشر مثلكم لا يتميز عنكم بشيء؟ ويجوز أن تكون هذه الجملة بدلاً من النجوى، وهل بمعنى النفي أي: وأسروا هذا الحديث، والهمزة في ﴿افقتون السحر﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدّر كظنّاره، وجملة ﴿وانتم تبصرون﴾ في محل نصب على الحال. والمعنى: إذا كان بشراً مثلكم، وكان الذي جاء به سحراً، فكيف تجيبونه إليه وتتبعونه، فاطلع الله نبيه ﷺ على ما تناجوا به، وأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم فقال: ﴿قل ربي يعلم القول في السماء والأرض﴾ أي: لا يخفى عليه شيء مما يقال فيهما، وفي مصاحف أهل الكوفة (قال ربي) أي: قال محمد ربي يعلم القول، فهو عالم بما تناجيتم به. قيل: القراءة الأولى أولى، لأنهم أسروا هذا القول، فاطلع الله رسوله ﷺ على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا. قال النحاس: والقراءتان صحيحتان، وهما بمنزلة آيتين ﴿وهو السميع﴾ لكل ما يسمع ﴿العليم﴾ بكل معلوم، فيدخل في ذلك ما أسروا بخلاً أولاً ﴿بل قالوا أضغاث أحلام﴾ قال الزجاج: أي قالوا الذي تاتي به أضغاث أحلام. قال القتيبي: أضغاث الأحلام الرؤيا الكاذبة. وقال اليزيدي: الأضغاث ما لم يكن له تأويل، وهذا إضراب من جهة الله سبحانه حكاية لما وقع منهم، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية هذا القول. ثم حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم: أضغاث أحلام، قال: ﴿بل افتراء﴾ أي: بل قالوا افتراء من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل. ثم حكى سبحانه عنهم أنهم أضربوا عن هذا وقالوا: ﴿بل هو شاعر﴾ وما أتى به من جنس الشعر، وفي هذا الاضطراب منهم، والتلون والتردد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة

يقال: قرب الشيء وأقرب وقد اقتراب الحساب أي: قرب الوقت الذي يحاسبون فيه. قال الزجاج: المعنى ﴿اقتراب للناس﴾ وقت ﴿حسابهم﴾ أي: القيامة كما في قوله: ﴿اقتربت الساعة﴾ [القمر: 1]. واللام في للناس متعلقة بالفعل، وتقديمها في مجرورها على الفاعل لإبخال الروعة، ومعنى اقتراب وقت الحساب: نؤوه منهم، لأنه في كل ساعة أقرب إليهم من الساعة التي قبلها؛ وقيل: لأن كل ما هو أقرب، وموت كل إنسان قيام ساعته، والقيامة أيضاً قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان، فما بقي من الدنيا أقل مما مضى. والمراد بالناس: العموم؛ وقيل: المشركون مطلقاً؛ وقيل: كفار مكة، وعلى هذا الوجه قيل: المراد بالحساب: عذابهم يوم بدر، وجملة ﴿وهم في غفلة معرضون﴾ في محل نصب على الحال أي: هم في غفلة بالدنيا معرضون عن الآخرة، غير متاهبين بما يجب عليهم من الإيمان بالله، والقيام بفرائضه، والانزجار عن مناهيه ﴿ما ياتينهم من نكر من ربهم محدث﴾ من لا بداء الغاية، وقد استدل بوصف النكر لكونه محدثاً على أن القرآن محدث، لأن النكر هنا هو القرآن. وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف، لأنه متجدد في النزول. فالمعنى محدث تنزيهه، وإنما النزاع في الكلام النفسي، وهذه المسئلة أعني: قدم القرآن وحيث قد ابتلي بها كثير من أهل العلم والفضل في الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية، وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل، وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي، وصارت فتنة عظيمة في ذلك الوقت وما بعده، والقصة أشهر من أن تذكر، ومن أحب الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في كتاب النبلاء لمؤرخ الإسلام الذهبي. ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداء، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدمه ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال لفظي بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف وإرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسئلة شيء من الكلام، ولا نقل عنهم كلمة في ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، والتمسك بأذيال الوقف، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه. وقوله: ﴿إلا استمعوه﴾ استثناء مفرغ في محل نصب على الحال، وجملة ﴿وهم يلعبون﴾ في محل نصب على الحال أيضاً من فاعل استمعوه، و﴿لاهيية قلوبهم﴾ حال أيضاً والمعنى: ما ياتينهم من نكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا في الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلوب، وقرئ

جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴿١﴾ أي: إن الرسل أسوة لسائر أقران بني آدم في حكم الطبيعة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون، والجسد جسم الإنسان. قال الزجاج: هو واحد، يعني: الجسد ينبت عن جماعة أي: وما جعلناهم نوي أجساد لا يأكلون الطعام فجعله لا يأكلون الطعام صفة لجسداً أي: وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الأكل، بل هو محتاج إلى ذلك ﴿وما كانوا خالدين﴾ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر، وقد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون، فأجاب الله عليهم بهذا، وجعله ﴿ثم صدقناهم للوعد﴾ معطوفة على جملة يدل عليها السياق، والتقدير: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم الوعد أي: أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم وإهلاك من كنهم، ولهذا قال سبحانه ﴿فانجيهم﴾ ومن نشاء ﴿من عبادنا المؤمنين، والمراد: إنجائهم من العذاب وإهلاك من كفر بالعذاب الدنيوي، والمراد بـ ﴿المسرفين﴾ المجاوزون للحد في الكفر والمعاصي، وهم المشركون.

وقد أخرج النسائي عن أبي سعيد النبي ﷺ في قوله: ﴿وهم في غفلة معرضون﴾ قال: في الدنيا. وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في الآية قال: من أمر الدنيا. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿بل قالوا أضغاث أحلام﴾ أي: فعل الأحلام إنما هي رؤيا رآها ﴿بل افتراه بل هو شاعر﴾ كل هذا قد كان منه ﴿فليتينا بآية كما أرسل الأولون﴾ كما جاء عيسى وموسى بالبينات والرسل ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها﴾ أي: أن الرسل كانوا إذا جاءوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: قال أهل مكة للنبي ﷺ: إذا كان ما تقوله حقاً ويسرك أن تؤمن فحول لنا الصفا ذهباً، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان الذي سالك قومك، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا، وإن شئت استأنيت بقومك، قال: بل استأنيت بقومي، فأنزل الله ﴿ما آمنت قبلهم﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ يقول: لم نجعلهم جسداً ليس يأكلون الطعام، إنما جعلناهم جسداً يأكلون الطعام.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كَاتِبِينَ فَذَكَرَكُمْ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَكَمْ قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ طَائِفَةً أَوْشَكَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢﴾ فَلَمَّا أَحْسَرُوا فَاسْتَأْذَنُوا فَهُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ ﴿٣﴾ لَا تَرْكَبُوا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ إِلَى مَا أَتَيْتُمْ بِهِ وَسَيَكُونُ لَكُمْ مَعْنَاهُ ﴿٥﴾ قَالُوا يَبْنَؤُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٦﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حُمَاقًا خِلْدِينَ ﴿٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَنَيْبٍ ﴿٨﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ لَآخِذَةً مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا مُعْلِينَ ﴿٩﴾ بَلْ نَقْذِرُ الْبَلَّ عَلَى الْبَاطِلِ فَإِذَا هُرَاقَهُمْ وَلَكُمْ الْوَيْلُ بِمَا نَيْسْتُمْ ﴿١٠﴾ وَلَكُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْئَلُكُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴿١١﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا إِلَهُ مِنْ

ما جاء به، لا يدرون ما هو ولا يعرفون كنهه؟ أو كانوا قد علموا أنه حق، وأنه من عند الله، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرموه بكل حجر ومدى، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان. ثم بعد هذا كله، قالوا: ﴿فليتينا بآية﴾ وهذا جواب شرط محذوف أي: إن لم يكن كما قلنا: فليتينا بآية ﴿كما أرسل الأولون﴾ أي: كما أرسل موسى بالعصا وغيرها، وصالح بالناق، ومحل الكاف الجر صفة لآية، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف، وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفي، ولو علم الله سبحانه أنهم يؤمنون إذا أعطاهم ما يقتضوه لأعطاهم ذلك، كما قال: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال: 23]. قال الزجاج: اقترحوا الآيات التي لا يقع معها إهمال، فقال الله مجيباً لهم ﴿ما آمنت قبلهم من قرية﴾ أي: قبل مشركي مكة ومعنى من قرية: من أهل قرية، ووصف القرية بقوله: ﴿أهلكناها﴾ أي: أهلكنا أهلها، أو أهلكناها بإهلاك أهلها، وفيه بيان أن سنة الله في الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه، ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة، ومن في من قرية مزيدة للتأكيد. والمعنى: ما آمنت قرية من القرى التي أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء، فكيف نعطيهم ما يقتضون، وهم أسوة من قبلهم، والهزمة في ﴿أفهم يؤمنون﴾ للتقريع والتوبيخ، والمعنى: إن لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا، فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا، ثم أجاب سبحانه عن قولهم: هل هذا إلا بشر مثلكم بقوله: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً يوحي إليهم﴾ أي: لم نرسل قبلك إلى الأمم السابقة إلا رجالاً من البشر، ولم نرسل إليهم ملائكة كما قال سبحانه: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ [الإسراء: 95]. وجملة يوحى إليهم مستأنفة لبيان كيفية الإرسال، ويجوز أن تكون صفة لرجالاً أي: متصفين بصفة الإيحاء إليهم. قرأ حفص، وحزمة، والكسائي (نوحى) بالنون، وقرأ الباقون بالياء التحتية. ثم أمرهم الله بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا فقال: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وأهل الذكر هم أهل الكتابين: اليهود والنصارى، ومعنى إن كنتم لا تعلمون: إن كنتم لا تعلمون أن رسل الله من البشر، كذا قال أكثر المفسرين. وقد كان اليهود والنصارى لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه، وتقدير الكلام: إن كنتم لا تعلمون ما نكر فاسألوا أهل الذكر. وقد استدل بالآية على أن التقليد جائز وهو خطأ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة، لا عن الرأي البحت، وليس التقليد إلا قبول قول الغير دون حجة. وقد أوضحنا هذا في رسالة بسيطة: سميناهم «القول المفيد في حكم التقليد» ثم لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر فقال: ﴿وما

نزول العذاب بكم. قال المفسرون وأهل الأخبار: إن المراد بهذه الآية أهل حضور من اليمن، وكان الله سبحانه قد بعث إليهم نبياً اسمه شعيب بن مهدم، وقبره بجبل من جبال اليمن يقال: له ضين وبينه وبين حضور نحو برید، قالوا: وليس هو شعيباً صاحب مدين. قلت: وآثار القبر بجبل ضين موجودة، والعمامة من أهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي قالوا: لما قالت لهم الملائكة لا تركضوا يا ويلنا أي: بإهلاكنا إنا كنا ظالمين لانفسنا مستوجبين العذاب بما قَدَّمنا، فاعترفوا على انفسهم بالظلم الموجب للعذاب ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي: ما زالت هذه الكلمة دعواهم أي: دعوتهم، والكلمة هي قولهم يا ويلنا أي: يدعون بها ويردونها ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: بالسيف كما يحصد الزرع بالمنجل، والحصيد هنا بمعنى المحصود، ومعنى ﴿خَامِسِينَ﴾ أنهم ميتون، من خمدت النار إذا طففت، فشبه خمود الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات قد طفئ ﴿وَمَا خَلَقْنَا لِلْإِنسَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ﴾ أي: لم نخلقهما عبثاً ولا باطلاً، بل للتنبيه على أن لهما خالقاً قادراً يجب امتثال امره، وفيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم، والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها ﴿لَوْ أَرْنَا أَن تَتَّخِذَ لَهَوًا﴾ اللهو ما يتلهى به، قيل: اللهو الزوجة والولد؛ وقيل: الزوجة فقط؛ وقيل: الولد فقط. قال الجوهري: قد يكتفى باللهو عن الجماع، ويدل على ما قاله قول امرئ القيس:

الازمعت بسباسة اليوم أنني كبرت ولا يحسن اللهو أمثالي

ومنه قول الآخر:

وفيهن ملهى للصديق ومنظر

والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها، وجواب لو قوله: ﴿لَا تَخْذَنَاهُ مِن لِّغَاءٍ﴾ أي من عنينا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم. قال المفسرون: أي من الحور العين، وفي هذا رد على من قال بإضافة الصاحبة والولد إلى الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وقيل: أراد الردّ على من قال: الأصنام أو الملائكة بنات الله. وقال ابن قتيبة: الآية ردّ على النصارى ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قال الواحدي قال المفسرون: ما كنا فاعلين. قال الفراء، والمبرد، والزجاج: يجوز أن تكون إن للنفي كما ذكره المفسرون أي: ما فعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولداً؛ ويجوز أن تكون للشرط أي: إن كنا ممن يفعل ذلك لا تخذناه من لينا. قال الفراء: وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية ﴿بَلْ نَقْصِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ هذا إضراب عن اتخاذ اللهو أي: دع ذلك الذي قالوا فإنه كذب وباطل، بل شأننا أن نرمي بالحق على الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي: يقهره، وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، ومنه الدامغة. قال الزجاج: المعنى نذهب نذهب الصغار والإنزال، وذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب. قيل أراد بالحق

الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ ﴿١٦﴾ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَ الثَّوَرِ الْأَرْضِ عَنَّا صُبْرًا ﴿١٧﴾ لَا يَسْتَلِ عَنَّا يَمُوتُ وَمَنْ يَسْتَلُوكَ ﴿١٨﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ أَتَيْنَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّوَدِّعِكُم مَّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لَمَقِّ فِيمَ تُرْضَوْنَ ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٠﴾

نبه عباده على عظيم نعمته عليهم بقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا﴾ يعني: القرآن ﴿فِيهِ نُكَرِّمُكُمْ﴾ صفة لكتابنا، والمراد بالذكر هنا الشرف أي: فيه شرفكم كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]. وقيل: فيه نكرمكم أي: نكرم أمر دينكم، وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب، وقيل: فيه حديثكم. قاله مجاهد؛ وقيل: مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم؛ وقيل: فيه العمل بما فيه حياتكم، قاله سهل بن عبد الله، وقيل: فيه موعظتكم، والاستفهام في ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتوبيخ والتقريع أي: أفلا تعقلون أن الأمر كذلك، أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما نكر، ثم أودعهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكتبة، فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كم في محل نصب على أنها مفعول قصمنا، وهي الخبرية المفيدة للتكثير، والقسم كسر الشيء، ونقه، يقال: قصمت ظهر فلان إذا كسرت، واقتصمت سنه إذا انكسرت. والمعنى هنا: الإهلاك والعذاب، وأما القسم بالفاء فهو الصدع في الشيء من غير بينونة، وجملة ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ في محل جر صفة لقريّة، وفي الكلام مضاف محذوف أي: وكم قصمنا من أهل قريّة كانوا ظالمين أي: كافرين بالله مكذّبين بآياته، والظلم في الأصل وضع الشيء في غير موضعه، وهم وضعوا الكفر في موضع الإيمان ﴿وَوَإِنَّا نَأْتِيهِمْ قَوْمًا أَجْرَيْنَ﴾ أي: أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاك أهلها قوماً ليسوا منهم ﴿فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا﴾ أي: أدركوا أو راوا عذابنا، وقال الأخفش: خافوا وتوقعوا، أو اليأس العذاب الشديد ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكضُونَ﴾ الركض الفرار والهرب والانهاز، وأصله من ركض الرجل الدابة برجليه، يقال: ركض الفرس إذا كدّه بساقيه، ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا، ومنه ﴿ارْكضْ بِرَجْلِكَ﴾ [ص: 42] والمعنى: أنهم يهربون منها راكضين نوابهم، فقيل لهم: ﴿لَا تَرْكضُوا﴾ أي: لا تهربوا. قيل: إن الملائكة نابتهم بذلك عند فرارهم، وقيل: إن القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم وكفركم، والمترف المنعم، يقال: أترف فلان أي: وسع عليه في معاشه ﴿وَمَسَاكِنَكُمْ﴾ أي: وارجعوا إلى مساكنكم التي كنتم تسكنونها وتفتخرون بها ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ أي: تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم؛ وقيل: المعنى لعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به؛ وقيل: لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل

تعُدُّ الألهة، فقال: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ أي: لو كان في السموات والأرض آلهة معبدون غير الله لفسدتا أي: لبطلتا، يعني: السموات والأرض بما فيهما من المخلوقات. قال الكسائي، وسيبويه، والأخفش، والزجاج، وجمهور النحاة: إن إلا هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة لألهة، ولذلك ارتفع الاسم الذي بعدها وظهر فيه إعراب غير التي جاءت إلا بمعناها، ومنه قول الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أربيك إلا الفرقدان

وقال الفراء: إن إلا هنا بمعنى سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسدتا، ووجه الفساد أن كون مع الله إلهاً آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد. **هـ** ﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوجدانية بالبرهان: أي تنزّه عز وجل عما لا يليق به من ثبوت الشريك له، وفيه إرشاد للعباد أن ينزهوا الرب سبحانه عما لا يليق به ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ هذه الجملة مستأنفة مبيّنة أنه سبحانه لقوة سلطانه وعظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شيء من قضائه وقدره ﴿وهم﴾ أي: العباد ﴿يسألون﴾ عما يفعلون أي: يسألهم الله عن ذلك لأنهم عبيده، وقيل: إن المعنى أنه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون. قيل والمراد بذلك أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالمنسيح والملائكة لا يصلح لأن يكون إلهاً ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ أي: بل اتخذوا، وفيه إضراب وانتقال من إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم، ولهذا قال: ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ على دعوى أنها آلهة، أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله، ولا سبيل لهم إلى شيء من ذلك، لا من عقل ولا نقل، لأن دليل العقل قد مرّ بيانه، وأما دليل النقل فقد أشار إليه بقوله: ﴿هذا نكر من معي ونكر من قبلي﴾ أي: هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع نكر أمّتي ونكر الأمم السالفة وقد أقمته عليكم وأوضحته لكم، فاقموا أنتم برهانكم، وقيل: المعنى هذا القرآن وهذه الكتب التي أنزلت قبلي فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه. قال الزجاج: قيل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبا أمّته بأن لهم إلهاً غير الله، فهل في نكر من معي ونكر من قبلي إلا توحيد الله؟ وقيل: معنى الكلام الوعيد والتهديد أي: افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء. وحكى أبو حاتم: إن يحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف قرأ: هذا نكر من معي ونكر من قبلي بالتثنية وكسر الميم، وزعم أنه لا وجه لهذه القراءة. وقال الزجاج في توجيه هذه القراءة: إن المعنى هذا نكر مما أنزل إليّ ومما هو معي ونكر من قبلي، وقيل نكر كائن من قبلي أي: جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلي. ثم لما توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع

الحجة **ا هـ** وبالباطل شبههم، وقيل: الحق المواعظ، والباطل المعاصي، وقيل: الباطل الشيطان، وقيل: كذبهم. ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته ﴿فلماذا هو زاهق﴾ أي: زائل ناهب؛ وقيل: هالك تالف، والمعنى متقارب، وإذا هي الفجائية ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ أي: العذاب في الآخرة بسبب وصفكم الله بما لا يجوز عليه؛ وقيل: الويل وإي في جهنم، وهو وعيد لقريش بأن لهم من العذاب مثل الذي لأولئك، ومن هي التعليلية ﴿وله من في السموات والأرض﴾ عبيداً وملكا، وهو خالقهم ورازقهم ومالكهم، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكاً يعبد كما يعبد، وهذه الجملة مقررة لما قبلها ﴿ومن عنده﴾ يعني: الملائكة، وفيه رد على القائلين بأن الملائكة بنات الله، وفي التعبير عنهم بكونهم عنده إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم، وأنهم بمنزلة المقربين عند الملوك، ثم وصفهم بقوله: ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي: لا يتعاضمون ولا يأنفون عن عبادة الله سبحانه والتذلل له ﴿ولا يستحسرون﴾ أي: لا يعيون، مأخوذ من الحسير، وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب، يقال: حسر البعير يحسر حسوراً أعياء وكل، واستحسر وتحسر مثله وحسرت أنا حسراً، يتعدى ولا يتعدى. قال أبو زيد: لا يكون، وقال ابن الأعرابي: لا يفشلون. قال الزجاج: معنى الآية أن هؤلاء الذين نكرتم أنهم أولاد الله عباد الله لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها كقوله: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ [الأعراف: 206]. وقيل: المعنى لا ينقطعون عن عبادته وهذه المعاني متقاربة ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أي: ينزهون الله سبحانه دائماً لا يضعفون عن ذلك ولا يسمون؛ وقيل: يصلون الليل والنهار. قال الزجاج: مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شيء، فكذلك تسبيحهم دائم، وهذه الجملة إما مستأنفة جواب سؤال مقدر، أو في محل نصب على الحال ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض﴾ قال المفضل: مقصود هذا الاستفهام الجحد أي: لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء، وأم هي المنقطعة، والهمزة لإنكار الوقوع. قال المبرد: إن أم هنا بمعنى هل أي: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، ولا تكون أم هنا بمعنى بل، لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدّر أم مع الاستفهام، فتكون أم المنقطعة، فيصح المعنى، ومن الأرض متعلق باتخذوا، أو بمحذوف هو صفة لألهة، ومعنى ﴿هم ينشرون﴾ هم يبعثون الموتى، والجملة صفة لألهة، وهذه الجملة هي التي يدور عليها الإنكار والتجهيل، لا نفس الاتخاذ، فإنه واقع منهم لا محالة. والمعنى: بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى، وليس الأمر كذلك، فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك. قرأ الجمهور (ينشرون) بضم الياء وكسر الشين من أنشره أي: أحياء، وقرأ الحسن بفتح الياء أي: يحيون ولا يموتون، ثم إنه سبحانه أقام البرهان على بطلان

الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فج و ﴿سبلاً﴾ تفسير للفجاج، لأن الفج قد لا يكون طريقاً نافذاً مسلوكة ﴿لعلهم يهتدون﴾ إلى مصالح معاشهم، وما تدعو إليه حاجاتهم ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ عن أن يقع ويسقط على الأرض كقوله: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ [الحج: 65]. وقال الفراء: محفوظاً بالنجوم من الشيطان كقوله: ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ [الحجر: 17]. وقيل: محفوظاً لا يحتاج إلى عماد؛ وقيل: المراد بالمحفوظ هنا المرفوع؛ وقيل: محفوظاً عن الشرك والمعاصي، وقيل: محفوظاً عن الهدم والنقض ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أضاف الآيات إلى السماء، لأنها مجعولة فيها، وذلك كالشمس والقمر ونحوهما، ومعنى الإعراض أنهم لا يتنبرون فيها، ولا يتفكرون فيما توجبه من الإيمان ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر﴾ هذا تكثير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم، وذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليتصرفوا فيه في معاشهم، وخلق الشمس والقمر أي: جعل الشمس آية النهار، والقمر آية الليل، ليعلموا عدد الشهور والحساب كما تقدم بيانه في سبحان ﴿كل في فلك يسبحون﴾ أي: كل واحد من الشمس والقمر والنجوم في فلك يسبحون أي: يجرون في وسط الفلك، ويسيرون بسرعة كالسباح في الماء، والجمع في الفعل باعتبار المطالع، قال سيبويه: إنه لما أخبر عنهم بفعل من يعقل، وجعلهم في الطاعة بمنزلة من يعقل، جعل الضمير عنهم ضمير العقلاء، ولم يقل يسبحون أو تسبح، وكذا قال الفراء. وقال الكسائي: إنما قال يسبحون لأنه رأس آية، والفلك واحد أفلك النجوم، وأصل الكلمة من الدوران، ومنه فلك المغزل لاستدارتها ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ أي: نولم البقاء في الدنيا ﴿أفأنت مت﴾ بأجلك المحتوم ﴿فهم للخالدين﴾ أي: أنهم الخالدون. قال الفراء: جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم سيموت. قال: ويجوز حذف الفاء وإضمارها، والمعنى: إن مت فهم يموتون أيضاً، فلا شماتة في الموت. وقرئ (مت) بكسر الميم وضمها لغتان: وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم: ﴿أم يقولون شاعر نترصد به ريب المتنون﴾ [الطور: 30] ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أي: زائقة مفارقة جسدها، فلا يبقى أحد من نوات الأنفس المخلوقة كائناً ما كان ﴿ونبيلوكم بالشر والخير فتنة﴾ أي: نخبركم بالشدة والرخاء، لننظر كيف شكركم وصبركم. والمراد: أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم، وفتنة مصدر لنبلوكم من غير لفظه ﴿ولينا ترجعون﴾ لا إلى غيرنا فنجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: قالت اليهود إن الله عز وجل صاهر الجن فكانت بنينهم الملائكة، فقال الله تكليفاً لهم ﴿بل عباد مكرمون﴾ أي: الملائكة ليس كما قالوا، بل عباد أكرمهم بعبادته ﴿لا يسبقونه بالقول﴾

يامرهم الله به، التابعون له المطيعون لربهم ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها أي: يعلم ما عملوا وما هم عاملون، أو يعلم ما بين أيديهم وهو الآخرة، وما خلفهم وهو الدنيا، ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قنموا وأخروا، لم يعملوا عملاً ولم يقولوا قولاً إلا بامرهم ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ أي: يشفع الشافعون له، وهو من رضي عنه؛ وقيل: هم أهل لا إله إلا الله، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة يشفعون في الدار الآخرة ﴿وهم من خشيتهم مشفقون﴾ أي: من خشيتهم منه، فالمصدر مضاف إلى المفعول، والخشية الخوف مع التعظيم، والإشفاق الخوف مع التوقع والحذر أي: لا يأمنون مكر الله ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه﴾ أي: من يقل من الملائكة إني إله من دون الله. قال المفسرون: عني بهذا إبليس، لأنه لم يقل أحد من الملائكة إني إله إلا إبليس؛ وقيل: الإشارة إلى جميع الأنبياء ﴿فذلك نجزيه جهنم﴾ أي: فذلك القائل على سبيل الفرض والتقدير: نجزيه جهنم بسبب هذا القول الذي قاله، كما نجزي غيره من المجرمين ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الظالمين، أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم، فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعها، والمراد بالظالمين: المشركون ﴿ولو لم ير الذين كفروا﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر، والرؤية هي القلبية أي: ألم يتفكروا أو لم يعلموا ﴿أن للسماوات والأرض كانتا رتقاً﴾ قال الأخفش: إنما قال كانتا، لأنهما صنفان أي: جماعتا السموات والأرضين كما قال سبحانه: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾ [فاطر: 41] وقال الزجاج: إنما قال كانتا لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد، لأن السموات كانت سماء واحدة، وكذلك الأرضون، والرتق، السد ضد الفتق، يقال: رتقت الفتق ارتقه فارتقت أي: التأم، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج يعني: إنها كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما، وقال رتقاً ولم يقل رتقين لأنه مصدر، والتقدير: كانتا نواتي رتق، ومعنى ﴿فففتقناهما﴾ ففصلناهما أي: فصلنا بعضهما من بعض، فرفعنا السماء، وأبقينا الأرض مكانها ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي: أحيينا بالماء الذي نزل به من السماء كل شيء، فيشمل الحيوان والنبات، والمعنى: أن الماء سبب حياة كل شيء؛ وقيل: المراد بالماء هنا النطفة، وبه قال أكثر المفسرين، وهذا احتجاج على المشركين بقدرة الله سبحانه وبديع صنعه، وقد تقدم تفسير هذه الآية، والهمزة في ﴿أفلا يؤمنون﴾ للإنكار عليهم، حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية ﴿وجعلنا في الأرض رواسي﴾ أي: جبلاً ثوابت ﴿أن تميد بهم﴾ الميد التحرك والدوران أي: لئلا تتحرك وتدور بهم، أو كراهة ذلك، وقد تقدم تفسير ذلك في النحل مستوفى ﴿وجعلنا فيها﴾ أي: في الرواسي، أو في الأرض ﴿فجلاً﴾ قال أبو عبيدة: هي المسلك. وقال

مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِالْآيِلِ وَالْأَنْهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٧﴾ أَمْ هُمْ بِآيَاتِهِ تَتَمَنَّوْنَ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ بِنِعْمَتِنَا يُمْشِكُونَ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: المستهزئين من المشركين ﴿إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما يتخذونك إلا مهزوءاً بك، والهزؤ السخرية، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: 95] والمعنى: ما يفعلون بك إلا اتخذوك هزواً ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ هو على تقدير القول أي: يقولون أهذا الذي، فعلى هذا هو جواب إذا، ويكون قوله: ﴿إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ اعتراضاً بين الشرط وجوابه، ومعنى ينكروها: يعيبها. قال الزجاج: يقال فلان يذكر الناس أي: يفتابهم، وينكروهم بالعيوب، وفلان يذكر الله أي: يصفه بالتعظيم ويثني عليه، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه، وعلى ما قالوا لا يكون الذكر في كلام العرب العيب، وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء، قيل: ومن هذا قول عنترة:

لا تنكري مهري وما طعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجر
أي: لا تعيبي مهري، وجملة ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال أي: وهم بالقرآن كافرون، أو هم يذكر الرحمن الذي خلقهم كافرون، والمعنى: أنهم يعيبون على النبي ﷺ أن يذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء، والحال أنهم ينكر الله سبحانه بما يليق به من التوحيد، أو القرآن كافرون، فهم أحق بالعيب لهم والإنكار عليهم، فالضمير الأول مبتدأ خبره كافرون، وينكر متعلق بالخبر، والضمير الثاني تأكيد ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ أي: جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل. قال الفراء: كأنه يقول بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة. وقال الزجاج: خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثر منه الشيء خلقت منه كما تقول: أئت من لعب، وخلقت من لعب، تريد المبالغة في وصفه بذلك. ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11]. والمراد بالإنسان: الجنس، وقيل: المراد بالإنسان آدم، فإنه لما خلقه الله ونفخ فيه الروح صار الروح في رأسه، فذهب لينهض قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه فوقه، فقيل: خلق الإنسان من عجل، كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير، والسدي، والكلبي، ومجاهد، وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني: العجل الطين بلغة حمير. وأنشدوا:

والنخل تنبت بين الماء والعجل

وقيل: إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث، وهو القائل: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: 32]. وقيل: نزلت في قريش لأنهم استعجلوا العذاب. وقال الأخفش: معنى خلق الإنسان من عجل أنه قيل له كن فكان؛ وقيل: إن هذه الآية من المقلوب أي: خلق العجل من الإنسان وقد حكى هذا عن أبي عبيدة والنحاس، والقول الأول أولى

يثنى عليهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ قال: لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ قال: لأهل التوحيد. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ قال: لأهل التوحيد لمن رضي عنه. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في الآية قال: قول لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في الآية قال: الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن جابر أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ قال: إن شفاعتي لأهل الكباثر من أمتي. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿كَانَتَا رَتَقًا فَقَنَتُنَاهُمَا﴾ قال: فتقت السماء بالغيث، وفتقت الأرض بالنبات. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿كَانَتَا رَتَقًا﴾ قال: لا يخرج منهما شيء، وذكر مثل ما تقدم. وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عنه أيضاً من طريق أخرى. وأخرج ابن جرير عنه ﴿كَانَتَا رَتَقًا﴾ قال: ملتصقتين. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي العالية في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ قال: نطفة الرجل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وعن ابن عباس ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فُجُجًا سُبُلًا﴾ قال: بين الجبال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلَّ فِي فَلَكَ﴾ قال: دوران ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قال: يجرون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عنه ﴿كُلَّ فِي فَلَكَ﴾ قال: فلك كفلكة المغزل ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قال: يدورون في أبواب السماء. كما تدور الفلكة في المغزل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو فلك السماء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن عائشة قالت: نخل أبو بكر على النبي ﷺ وقد مات فقبله وقال: وإنبياه وأخيلاه وأصفياه، ثم تلا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ قال: نبئليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلالة.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٧﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ سَأَلْتُكُمْ عَائِدَتِي فَلَا تَسْتَعْمِلُونَ ﴿١٨﴾ وَتَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ عَنْ وَجْهِهِمْ أَتَّارٌ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يَحْشُرُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعًا وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَوْدَعْتُ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَكَانَ بِالَّذِينَ سَخَّرْنَا مِنْهُمْ مَأَكْرَاهٍ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ

إن سلمي وأه يكلوها ضنت بشيء ما كان يرزوها أي: قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التفرغ والتوبيخ: من يحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار من بأس الرحمن وعذابه الذي تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم؟ وقال الزجاج: معناه من يحفظكم من بأس الرحمن. وقال الفراء: المعنى من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة. وحكى الكسائي والفراء: من يكلوكم بفتح اللام وإسكان الواو ﴿بل هم عن نكر ربه معرضون﴾ أي: عن نكره سبحانه فلا ينكرونه ولا يخطرونه بباليهم، بل يعرضون عنه، أو عن القرآن، أو عن مواعظ الله، أو عن معرفته ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من نونا﴾ أم هي المنقطة التي بمعنى بل، والهزمة للإضراب والانتقال عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم إلى توبيخهم وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه، والدفع عنها. والمعنى: بل لهم آلهة تمنعهم من عذابنا؛ وقيل: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: أم لهم آلهة من نونا تمنعهم. ثم وصف آلهتهم هذه التي زعموا أنها تنصرهم بما يدل على الضعف والعجز فقال: ﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا أصحابون﴾ أي: هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ولا هم منا أصحابون أي: ولا هم يجارون من عذابنا. قال ابن قتيبة: أي لا يجيرهم منا أحد، لأن المجير صاحب الجار، والعرب تقول: صاحبك الله أي: حفظك وأجارك، ومنه قول الشاعر:

ينادي بأعلى صوته متعوذاً ليصحب منا والرماح بواني
تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان أي: مجير منه. قال المازني: هو من أصحبت الرجل إذا منعته.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: «مر النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف، فغضب أبو سفيان فقال: ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي، فسمعها النبي ﷺ، فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه وقال: ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك، وقال لأبي سفيان: أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية، فنزلت هذه الآية ﴿وإذا رآك الذين كفروا﴾. قلت: ينظر من الذي روى عنه السدي. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة قال: لما نفخ في أذن الروح صار في رأسه فعطس فقال: الحمد لله، فقالت الملائكة: يرحمك الله، فذهب لينهض قبل أن تمر في رجليه فوقه، فقال الله: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾. وقد أخرج نحو هذا ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير. وأخرج نحوه أيضاً ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد، وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿قل من يكلوكم﴾ قال: يحرسكم، وفي

﴿سأوريكم آياتي﴾ أي: سأريكم نعماتي منكم بعذاب النار ﴿فلا تستعجلون﴾ أي: لا تستعجلوني بالإتيان به، فإنه نازل بكم لا محالة، وقيل: المراد بالآيات ما دل على صنق محمد ﷺ من المعجزات وما جعله الله له من العاقبة المحمودة، والأول أولى، ويدل عليه قولهم: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صائقين﴾ أي: متى حصول هذا الوعد، الذي تعينا به من العذاب، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء والسخرية؛ وقيل: المراد بالوعد هنا القيامة، ومعنى ﴿إن كنتم صائقين﴾ إن كنتم يا معشر المسلمين صائقين في وعيدكم، والخطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنزلة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب، وجملة ﴿لو يعلم الذين كفروا﴾ وما بعدها مقرر لما قبلها أي: لو عرفوا ذلك الوقت، وجواب لو محذوف، والتقدير: لو علموا الوقت الذي لا يكفون عن وجوههم للنار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون. لما استعجلوا الوعد. وقال الزجاج: في تقدير الجواب لعلموا صنق الوعد؛ وقيل: لو علموه ما أقاموا على الكفر. وقال الكسائي: هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة أي: لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية، ويدل عليه قوله: ﴿بل تأتيهم بغتة﴾ وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب الجوانب في استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم، ومحل حين لا يكفون النصب على أنه مفعول العلم، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذي كانوا يستعجلونه ومعنى ولا هم ينصرون: ولا ينصروهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم، وجملة بل تأتيهم بغتة معطوفة على يكفون أي: لا يكفونها بل تأتيهم العدة أو النار أو الساعة بغتة أي: فجأة ﴿فتبتهم﴾ قال الجوهري: بته بهتاً أخذ بهتاً، وقال الفراء فتبتهم أي: تحيرهم؛ وقيل: فتفجؤهم ﴿فلا يستطيعون ردّها﴾ أي: صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم فالضمير راجع إلى النار؛ وقيل: راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة؛ وقيل: راجع إلى الحين بتأويله بالساعة ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار، وجملة ﴿ولقد استهزئ برسلك﴾ مسوقة لتسليّة رسول الله ﷺ وتعزيته، كأنه قال: إن استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر شأنهم ﴿فحاق بالذين سخروا منهم﴾ أي: أحاط ودار بسبب تلك بالذين سخروا من أولئك الرسل وهزئوا بهم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ ما موصولة، أو مصدرية أي: فاحاط بهم الأمر الذي كانوا يستهزئون به، أو فاحاط بهم استهزؤهم أي: جزأه على وضع السبب موضع المسبب، أو نفس الاستهزاء، إن أريد به العذاب الآخروي ﴿قل من يكلوكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ أي: يحرسكم ويحفظكم والكلاء الحراسة والحفظ، يقال: كلاه الله كلاءة بالكسر أي: حفظه وحرسه. قال ابن هرة:

قراءة العامة، وقرأ الباقون بفتح الياء وفتح الميم ورفع الصم على أنه الفاعل ﴿وَلَوْ أَنَّ مَسْئِمَتَهُمْ نَفْحَةً مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ المراد بالنفحة، القليل، مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان، ومنه قول الشاعر:

وعمرة من سروات النسا ء تنفح بالمسك أردانها

وقال المبرد: للنفحة البفحة من الشيء التي دون معظمه، يقال: نفحه نفحة بالسيف إذا ضربه ضربة خفيفة؛ وقيل: هي النصيب، وقيل هي الطرف، والمعنى متقارب: أي ولئن مسهم أقل شيء من العذاب ﴿يَلْقَوْنَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: ليدعون على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفون عليها بالظلم ﴿وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقُسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الموازين جمع ميزان، وهو يدل على أن هناك موازين، ويمكن أن يراد ميزان واحد، عبر عنه بلفظ الجمع، وقد ورد في السنة في صفة الميزان ما فيه كفاية، وقد مضى في الأعراف، وفي الكهف في هذا ما يغني عن الإعادة. والقسط صفة للموازين، قال الزجاج: قسط مصدر يوصف به، تقول: ميزان قسط وموازين قسط. والمعنى: نوات قسط، والقسط العدل. وقرئ (القسط) بالصاد والطاء، ومعنى ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لآل يوم القيامة؛ وقيل: اللام بمعنى في أي: في يوم القيامة ﴿فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقص من إحسان محسن ولا يزداد في إساءة مسيء ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر برفع ميثقال على أن كان تامة؛ أي: إن وقع أو وجد ميثقال حبة. وقرأ الباقون بنصب الميثقال على تقدير: وإن كان العمل المبدول عليه بوضع الموازين ميثقال حبة، كذا قال الزجاج. وقال أبو علي الفارسي: وإن كان الظلامة ميثقال حبة. قال الواحدي: وهذا أحسن لتقدم قوله: فلا تظلم نفس شيئاً، وميثقال الشيء ميزانه أي: وإن كان في غاية الخفة والحقارة، فإن حبة الخردل مثل في الصفر ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قرأ الجمهور بالقصر أي: أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها، وبها أي: بحبة الخردل. وقرأ مجاهد وعكرمة (آتيناه) بالمد على معنى جازيناه بها، يقال آتيت يأتيت مؤاتاة جازي ﴿وَوَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أي: كفى بنا محصين، والحسب في الأصل معناه العد؛ وقيل: كفى بنا عالمين، لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه؛ وقيل: كفى بنا مجازين على ما قُدموه من خير وشر. ثم شرع سبحانه في تفصيل ما أجمله سابقاً بقوله: ﴿رَبِّمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: 7]. فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَنُكَرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ المراد بالفرقان هنا: التوراة. لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام، وقيل: الفرقان هنا هو النصر على الأعداء كما في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَىٰ عِبْنِائِ يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: 41]. قال الثعلبي: وهذا القول أشبه بظاهر الآية، ومعنى وضياء: أنهم استضاءوا بها في ظلمات الجهل والغواية، ومعنى ﴿وَنُكَرًا﴾ الموعظة أي: أنهم يتعظون بما فيها، وخص المتقين لأنهم الذين ينتفعون بذلك، ووصفهم بقوله:

قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَصْحَبُونَ﴾ قال: لا ينصرون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَصْحَبُونَ﴾ قال: لا يجارون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في الآية: قال لا يمتنعون.

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْقَسْرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١١﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿١٢﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفَسَةٌ مِنَ عَذَابِ رَبِّكَ لِيُؤْثِرُوا يُؤْتِيَنَا إِنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ ﴿١٣﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقُسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَنُكَرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَحْشُرُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿١٦﴾ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكِ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿١٨﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقَبَائِلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿١٩﴾ قَالُوا بَشَرًا مِثْلَ بَنَانَا نَحْنُ عِبِيدُكَ ﴿٢٠﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكَاءَ بِآبَائِكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّامِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ بَلْ زَجَرْتُمْ زَكَاةً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾

لما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلاً إلى بيان أن ما هم فيه من الخير والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله، لا من مانع يمنعه من الهلاك، ولا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ يعني: أهل مكة متعهم الله بما أنعم عليهم ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعَمْرُ﴾ فاغترتوا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون كذلك، فرد سبحانه عليهم قائلاً: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: أقلا ينظرون فيرون ﴿إِنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: أرض الكفر ننقصها بالظهور عليها من أطرافها فنفختها بلداً بعد بلد وأرضاً بعد أرض، وقيل: ننقصها بالقتل والسبي، وقد مضى في الردع الكلام على هذا مستوفى، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدر كمنظائره أي: كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها؟ وفي هذا إشارة إلى أن الغالبين هم المسلمون ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي: أخوفكم وأحذركم بالقرآن، وذلك شائي وما أمرني الله به، وقوله: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ إما من تنمة الكلام الذي أمر النبي ﷺ أن يقول لهم، أو من جهة الله تعالى. والمعنى: أن من أصم الله سمعه وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء. قرأ أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن السميع (ولا يسمع) بضم الياء وفتح الميم على ما لم يسم فاعله. وقرأ ابن عامر، وأبو حيوة، ويحيى بن الحارث بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم أي: إنك يا محمد لا تسمع هؤلاء. قال أبو علي الفارسي. ولو كان كما قال ابن عامر لكان إذا ما تنذرهم فيحسن نظم الكلام، فاما ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ فحسن أن يتبع

زعم أنه لم يقف على ليل يخالفها، إما لقصور منه أو لتقصير في البحث فوجد ذلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار:

كأنه علم في رأسه نار

وقال: هذا كتاب الله أو هذه سنة رسوله، وأنشدهم:

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في بيته كمخاطر
فقالوا كما قال الأول:

ما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
وقد أحسن من قال:

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح
ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل **﴿قالوا اجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبيين﴾** أي: أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح قال: مضرباً عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد **﴿بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن﴾** أي: خلقهن وأبدعهن **﴿وانا على نلكم﴾** الذي ذكرته لكم من كون ربكم هو رب السموات والأرض دون ما عاده **﴿من للشاهدين﴾** أي: العالمين به المبرهنين عليه، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالماً به مبرهنًا عليه مبيناً له.

وقد أخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير في تهذيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن عائشة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكتوبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتهم فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم دون نوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق نوبهم كان كفافاً لا عليك ولا لك، وإن كان عقابك إياهم فوق نوبهم اقتص لهم منك الفضل، فجعل الرجل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: أما تقرأ كتاب الله **﴿ونضع للموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾** فقال له الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهم خيراً من مفارقتهم أشبهك أنهم أحرار». رواه أحمد هكذا: حدثنا أبو نوح الأقراد، أخبرنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة فنكره، وفي معناه أحاديث. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان يقرأ: **﴿ولقد أتينا موسى وهارون الفرقان وضياء﴾** وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح **﴿ولقد أتينا موسى وهارون الفرقان﴾** قال: للتوراة. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: **﴿الفرقان﴾** الحق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة **﴿وهذا نكر مبارك﴾** أي: القرآن. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿ولقد أتينا إبراهيم رشده﴾** قال: هديناه صغيراً، وفي قوله: **﴿ما هذه التماثيل﴾** قال: الأصنام.

وَتَأْتِي لَكِنَّةٌ أَشْكِرَ بَدَأَ تَوَلَّى مَدِينَهُ ۖ فَجَعَلَهُمْ جَذَآءَ ۙ

﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ لأن هذه الخشية تلازم التقوى. ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من المتقين أو بيانا له، ومحل بالغيب النصب على الحال أي: يخشون عذابه وهو غائب عنهم، أو هم غائبون عنه لأنهم في الدنيا، والعذاب في الآخرة. وقرأ ابن عباس وعكرمة (ضياء) بغير واو. قال الفراء: حذف الواو والمجيء بها واحد، واعترضه الزجاج بأن الواو تجيء لمعنى فلا تزداد **﴿وهم من الساعة مشفقون﴾** أي: وهم من القيامة خائفون وجلون، والإشارة بقوله: **﴿وهذا نكر مبارك﴾** إلى القرآن. قال الزجاج: المعنى وهذا القرآن نكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به. والمبارك كثير البركة والخير. وقوله: **﴿انزلناه﴾** صفة ثانية للذكر، أو خبر بعد خبر، والاستفهام في قوله: **﴿انزلناه﴾** له منكرين للإنكار لما وقع منهم من الإنكار أي: كيف تتكبرون كونه منزلاً من عند الله مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده **﴿ولقد أتينا إبراهيم رشده﴾** أي: الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل، ومعنى **﴿من قبل﴾** أنه أعطى رشده قبل إيتاء موسى وهرون التوراة. وقال الفراء: المعنى أعطيناه هداية من قبل النبوة أي: وفقناه للنظر والاستدلال لما جئ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم، وعلى هذا أكثر المفسرين، وبالأول قال أقلهم **﴿وكننا به عالمين﴾** أنه موضع لإيتاء الرشد، وأنه يصلح لذلك، والظرف في قوله: **﴿إذ قال لأبيه﴾** متعلق بآتيناه أو بمحنوف أي: أنكر حين قال، وأبوه هو آزر **﴿وقومه﴾** نمرود ومن أتبعه، والتمائيل الأصنام، وأصل التمثال الشيء المصنوع مشابهاً لشيء من مخلوقات الله سبحانه، يقال مثلث الشيء بالشيء: إذا جعلته مشابهاً له، واسم ذلك الممثل تمثال، أنكر عليهم عبادتها بقوله: **﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾** والعكوف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء، واللام في لها للاختصاص، ولو كانت للتعبية لجيء بكلمة على أي: ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟ وقيل: إن العكوف مضمن معنى العبادة **﴿قالوا وجدنا آبائنا لها عاكبين﴾** أجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء أي: وجدنا آبائنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشياً على طريقته، وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية، وإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأي المدفوع بالدليل قالوا هذا قد قال به إمامنا الذي وجدنا آبائنا له مقلدين وبراهين آخزين، وجوابهم هو ما أجاب به الخليل ما هنا **﴿قال لقد كنتم أنتم ولآؤكم في ضلال مبين﴾** أي: في خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذي عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوي هذا الخسران خسران، وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استقبلوا بكتاب الله وبسنة رسوله كتاباً قد نوتت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام

للمستفهمين لهم، وهذا القائل هو الذي سمع إبراهيم يقول: ﴿تَاللَّهِ لَآكِيدُنِ أَصْنَامُكُمْ﴾ ومعنى ﴿يُنْكِرُهُمْ﴾ يعيبهم، وقد سبق تحقيق مثل هذه العبارة، وجملة ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ صفة ثانية لفتى. قال الزجاج: وارتفع إبراهيم على معنى: يقال له هو إبراهيم، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف، وقيل: ارتفاعه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، وقيل: مرتفع على النداء.

ومن غرائب التدقيقات النحوية، وعجائب التوجيهات الإعرابية، أن الأعلام الشنتمري الأشبيلي قال: إنه مرتفع على الإهمال، قال ابن عطية: ذهب إلى رفعه بغير شيء. والفتى: هو الشاب، والفتاة الشابة ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ﴾ القائلون هم السائلون، أمروا بعضهم أن يأتي به ظاهراً بمرأى من الناس. قيل: إنه لما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه كرهوا أن يأخضروه بغير بينة، فقالوا هذه المقالة ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به، ومعنى ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ لعلهم يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به في مثل هذا؛ وقيل: لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر الأصنام، أو لعلهم يشهدون طعنه على أصنامهم، وجملة ﴿قَالُوا أَأَتَتْكُمْ مُنَادٍ﴾ وفي الكلام حذف تقديره: فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستفهموه هل فعل ذلك لإقامة الحجة عليه في زعمهم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أي: قال إبراهيم مقيماً للحجة عليهم مبتكراً لهم، بل فعله كبيرهم هذا مشيراً إلى الصنم الذي تركه ولم يكسره ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أي: إن كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه، أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله، فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة، لأنهم إذا قالوا إنهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته؛ وقيل: أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه إرشاداً لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تتفعل ولا تدفع لا تستحسن في العقل مع وجود خالقها وخالقهم، والأول أولى. وقرأ ابن السميعة بل فعله بتشديد اللام على معنى بل فعل الفاعل كبيرهم ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقالة بينهم وبين إبراهيم أن من لا يقدر على نفع المضرة عن

كَبِيرًا ثُمَّ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا مَنْ نَعمَلُ هَذَا تَالِهْتُمْ إِنَّهُ لَيْسَ أَتَالِيكُمُ ﴿١٦﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿١٧﴾ قَالُوا قَاتِلُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا ءَأَتَتْكُمْ هَذَا تِبَالِكُمْ بَأْسٌ كَبِيرٌ ﴿١٩﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنَّاوُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ نَاطِقُونَ ﴿٢٠﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَفْعَلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٢٣﴾ أَيُّ لَكُمْ رَيْبٌ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْنَا يَبْنَؤُا كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٦﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿وَتَالِهَاتُ أَصْنَامُكُمْ﴾ أخبرهم أنه سينتقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه، والكيد المكر يقال: كاده يكيد كيداً ومكيدة، والمراد هنا الاجتهاد. في كسر الأصنام قيل: إنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك سرّاً؛ وقيل: سمعه رجل منهم ﴿يَعِدُ أَنْ تُولُوا مُبْدِرِينَ﴾ أي: بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين. قال المفسرون: كان لهم عيد في كل سنة يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فقال إبراهيم هذه المقالة. والفاء في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ جَذَازًا﴾ فصيحة أي: فولوا، فجعلهم جذاذاً الجذ: القطع والكسر، يقال: جذت الشيء قطعت وكسرت، الواحد جذاذة، والجذاذ والجذاذ ما كسر منه. قال الجوهري: قال الكسائي: ويقال لحجارة الذهب الجذاذ لأنها تكسر. قرأ الكسائي، والأعمش، وابن محيصن (جذاذاً) بكسر الجيم أي: كسراً وقطعاً، جمع جذيذ: وهو الهشيم، مثل خفيف وخفاف، وظريف وظراف. قال الشاعر:

جذذ الأصنام في محرابها ذاك في الله العلي المقدر
وقرأ الباقون بالضم، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم أي: الحطام والرقاق، فعال بمعنى مفعول، وهذا هو الكيد الذي وعدهم به. وقرأ ابن عباس وأبو السماك (جذاذاً) بفتح الجيم ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ أي: للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيحاجهم بما سيأتي فيحجهم؛ وقيل: لعلهم إلى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكسر، لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه في المهمات، فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خبراً، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً، ولا تعلم بخير ولا شر، ولا تخبر عن الذي ينوبها من الأمر، وقيل: لعلهم إلى الله يرجعون، وهو بعيد جداً ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بآلهتهم قالوا هذه المقالة، والاستفهام للتوبيخ، وقيل: إن من ليست استفهامية، بل هي مبتدأ وخبرها إنه لم الظالمين أي: فاعل هذا ظالم، والأول أولى لقولهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ إلخ، فإنه قال بهذا بعضهم مجيباً

الذين سمعوا إبراهيم يقول: ﴿تَاللّٰهِ لَآكِيدُنَ اَصْنَامُكُمْ﴾ ﴿سَمِعْنَا فَنُكَرَهُمْ﴾ فجادلهم عند ذلك إبراهيم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جَدًّا ذَا﴾ قال: حطاماً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: فتأتا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ قال: عظيم آلهتهم. وأخرج أبو داود، والترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكتب إبراهيم في شيء قط إلا في ثلاث كلهن في الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ولم يكن سقيماً، وقوله لسارة أختي، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾». وهذا الحديث هو في الصحيحين من حديث أبي هريرة بأطول من هذا. وقد روى نحو هذا أبو يعلى من حديث أبي سعيد. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما جمع لإبراهيم ما جمع، وألقي في النار جعل خازن المطر يقول: متى أُمِرَ بالمطر فإرسله؟ فكان أمر الله أسرع، قال الله ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ فلم يبق في الأرض نار إلا طفتت. وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن حبان، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى في النار لم تكن دابة إلا تطفئ عنه النار، غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمر رسول الله ﷺ بقتله». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر عن ابن عمر، قال: أَوَّلَ كلمة قالها إبراهيم حين ألقى في النار «حسبنا الله ونعم الوكيل». وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ قال: كان جبريل هو الذي ناداه. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن علي بن وهب، وأخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمي، عن بعض أصحابه قال: جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى في النار. فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن كعب قال: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن المنهال بن عمرو قال: أخبرني أن إبراهيم ألقى في النار، فكان فيها إمام خمسين وإمام أربعين، قال: ما كنت إماماً وليالي قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها، ودلت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها.

وَبَيَّنَّاهُ وَلَوْ لَمْ يَلِدْ إِلَى الْأَرْضِ أَلَيْ بَرَكَا فِيهَا لِلْمَلَكَيْنِ ﴿٧١﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرًا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ لَمْ يَلِدْ كُنَّا مَعَكُمْ وَعَلَيْنَا وَجِبْنُهُ مِنَّا أَلْفَرِيَّةَ أَلَيْ كَانَتْ تَمْلِكُ لِقَبْضَتِهِ إِنْهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَرِيقَيْنِ ﴿٧٤﴾ وَأَدْعَيْنَاهُ بِرَحْمَةٍ إِنَّهُ مِّنَ السَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَتَوَّأ إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلِ

نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به ما فعله إبراهيم بتلك الأصنام، يستحيل أن يكون مستحقاً للعبادة، ولهذا ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات، وليس الظالم من نسبتم الظلم إليه بقولكم: إنه لمن الظالمين ﴿ثُمَّ نَكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رجعوا إلى جهلهم وعنادهم، شبه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه؛ وقيل المعنى: أنهم طأطأوا رءوسهم خجلة من إبراهيم، وهو ضعيف لأنه لم يقل نكسوا رءوسهم بفتح الكاف وإسناد الفعل إليهم حتى يصح هذا التفسير، بل قال: نكسوا على رءوسهم، وقرئ نكسوا بالتشديد، ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أي: قائلين لإبراهيم لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام، ﴿قَالَ﴾ إبراهيم مكتئباً لهم ومزرياً عليهم ﴿فَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا﴾ من النفع ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ بنوع من أنواع الضرر، ثم تضجر عليه السلام منهم، فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وفي هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم، واللام في لكم لبيان المتأفف به أي: لكم ولآلهتكم، والتأفف صوت يدل على التضجر ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ليس لكم عقول تتفكرون بها، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذي صنعتموه ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ أي: قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة في نفع إبراهيم، وعجزوا عن مجادلته، وضائق عليهم مسالك المناظرة: حرقوا إبراهيم انصرافاً منهم إلى طريق الظلم والغش، وميلاً منهم إلى إظهار الغلبة بأي وجه كان، وعلى أي أمر اتفق، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: انصروها بالانتقام من هذا الذي فعل بها ما فعل إن كنتم فاعلين للنصر وقيل: هذا القائل هو نمرود، وقيل: رجل من الأكراد ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ في الكلام حذف تقديره فاضرموا النار، وذهبوا بإبراهيم إليها، فعند ذلك قلنا: يا نار كوني ذات برود وسلام، وقيل: إن انتصاب سلاماً على أنه مصدر لفعل محذوف أي: وسلمنا سلاماً عليه ﴿وَأَرَانَا بِهِ كَيْدًا﴾ أي: مكرًا ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْآخِضِينَ﴾ أي: أخسر من كل خاسر، وربنا مكرهم عليهم، فجعلنا لهم عاقبة السوء، كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مزوا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس، قال: ﴿تَاللّٰهِ لَآكِيدُنَ اَصْنَامُكُمْ﴾ بعد أن تولوا مدبرين، فسمعه أناس منهم، فلما خرجوا انطلق إلى أهله، فأخذ طعاماً ثم انطلق إلى آلهتهم ففتربه إليهم، فقال: ألا تاكلون؟ فكسرها إلا كبيرهم. ثم ربط في يده الذي كسر به آلهتهم، فلما رجع القوم من عيدهم نخلوا، فإذا هم بالآلهتهم قد كسرت، وإذا كبيرهم في يده الذي كسر الأصنام، قالوا: من فعل هذا بالآلهتنا؟ فقال

بالطوفان، والكرب الغم الشديد، والمراد بأهله: المؤمنون منهم ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: نصرناه نصراً مستتباً للانتقام من القوم المذكورين؛ وقيل: المعنى منعناه من القوم. وقال أبو عبيدة: من بمعنى على، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاعْرِضْنَاهُمْ لَجَمْعَيْنِ﴾ أي: لم نترك منهم أحداً بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم بسبب إصرارهم على الذنب.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ قال: الشام. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي مالك نحوه. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لوط كان ابن أخي إبراهيم. وأخرج ابن جرير عنه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ قال: ولدًا ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال: ابن الابن. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحكم نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ قال: أعطيناه ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال: عطية.

وَدَاوُدَ وَهَارُونَ إِذْ يَمُكِّنُ فِي الْمَدْيَنَ إِذْ نَفَثَ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٦﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَاللَّيْلُ وَكُنَّا لِفِعْلِيلِهِ ﴿٧٧﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبِيسٍ لَكُمْ لَتَحْمِلَنَّ مِنْ بَاسِكُمْ فَبَلِّغْهُمْ أَتَيْنَاهُ الْعِلْمَ وَالْجَبَالَ نَجَرْنَا بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٧٨﴾ وَرَبُّكَ الشَّيْطَانُ مَن يَفْضَحْكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَرِّ دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِيظِينَ ﴿٧٩﴾ وَأَتَيْنَاكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنَى سَبَقِ الْأَمْرِ وَأَنْتَ أَزْكَمُ الْأَرْجَى ﴿٨٠﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُمُ رَجُلٌ مِّنْ عِبَادِنَا الَّذِي يَمُكِّنُ فِي الْمَدْيَنَ إِذْ نَفَثَ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٨١﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٥﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٨﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٩﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٠﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٩١﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٢﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٣﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٤﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٥﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٦﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٧﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٩﴾ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ ﴿١٠٠﴾

قوله: ﴿وداود﴾ معطوف على نوحاً ومعطوف لعامله المذكور، أو المقترن كما مر ﴿وسليمان﴾ معطوف على داود، والظرف في ﴿إذ يحكمنا﴾ متعلق بما عمل في داود أي: وانكرهما وقت حكمهما. والمراد من نكرهما: نكر خبرهما. ومعنى ﴿في الحرث﴾ في شأن الحرث، قيل: كان زرعاً، وقيل: كرمًا، واسم الحرث يطلق عليهما ﴿إذ نفثت فيه﴾ أي: تفرقت وانتشرت فيه ﴿غمم للقوم﴾ قال ابن السكيت: النفث بالتحريك أن تنتشر الغم بالليل من غير راع ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ أي: لحكم الحاكمين، وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين، وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشري والرضي، وتقدمهما إلى القول به الفراء؛ وقيل:

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَئْنَاهُ بِهَبْلٍ مِّنَ الْكَوْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَصَرَّحَ بِهِ الْقَوْمُ الْأَنَاسُ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

قد تقدم أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم، فحكى الله سبحانه ما هنا أنه نجى إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. قال المفسرون: وهي أرض الشام، وكانا بالعراق، وسماها سبحانه مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها، ولأنها معادن الأنبياء، وأصل البركة ثبوت الخير، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح وقيل: الأرض المباركة مكة، وقيل: بيت المقدس لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء، وهي أيضاً كثيرة الخصب، وقد تقدم تفسير العالمين. ثم قال سبحانه ممتناً على إبراهيم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ النافلة الزيادة، وكان إبراهيم قد سأل الله سبحانه أن يهب له ولداً، فوهب له إسحاق، ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء، فكان ذلك نافلة أي: زيادة، وقيل: المراد بالنافلة هنا العطية قلله الزجاج؛ وقيل: النافلة هنا ولد الولد، لأنه زيادة على الولد، وانتصاب نافلة على الحال. قال الفراء: النافلة يعقوب خاصة، لأنه ولد الولد ﴿وكلا جعلنا صالحين﴾ [الأنبياء: 72] أي: وكل واحد من هؤلاء الأربعة: إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب، لا بعضهم نون بعض جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله تاركاً لمعاصيه، وقيل: المراد بالصلاح هنا النبوة ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ أي: رؤساء يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات ومعنى بأمرنا بأمرنا لهم بذلك أي: بما أنزلنا عليهم من الوحي ﴿واوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ أي: أن يفعلوا الطاعات، وقيل: المراد بالخيرات شرائع النبوات ﴿وكانوا لنا عابدين﴾ أي: كانوا لنا خاصة نون غيرنا مطيعين، فاعلين لما نأمرهم به، تاركين ما نهاهم عنه ﴿ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً﴾ انتصاب لوطاً بفعل مضمر دل عليه قوله آتيناه أي: وآتيناه لوطاً آتيناه، وقيل: بنفس الفعل المذكور بعده، وقيل: بمحذوف هو انكر، والحكم النبوة، والعلم المعرفة بامر الدين، وقيل: الحكم هو فصل الخصومات بالحق، وقيل: هو الفهم ﴿ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث﴾ القرية هي سدوم كما تقدم، ومعنى تعمل الخبائث: يعمل أهلها الخبائث، فوصفت القرية بوصف أهلها، والخبائث التي كانوا يعملونها هي اللواط والضرط وخذف الحصى كما سيأتي، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿إنهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، والفسوق الخروج كما تقدم ﴿وادخلناه في رحمتنا﴾ بإنجاننا إياه من القوم المذكورين، ومعنى في رحمتنا: في أهل رحمتنا؛ وقيل: في النبوة؛ وقيل: في الإسلام، وقيل: في الجنة ﴿إنه من الصالحين﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴿ونوحاً﴾ إذ نادى، أي: وانكر نوحاً إذ نادى ربه ﴿من قبل﴾ أي: من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين ﴿فاستجبنا له﴾ دعاءه ﴿فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ أي: من الغرق

المراد الحاكمان والمحكوم عليه. ومعنى شاهدين: حاضرين، والجملة اعتراضية، وجملة ﴿فَفَهَمْنَاهَا سَلِيمَانٌ﴾ معطوفة على إذ يحكمان، لأنه في حكم الماضي، والضمير في فهمناها يعود إلى القضية المفهومة من الكلام، أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم. قال المفسرون: دخل رجلان على داود، وعنده ابنة سليمان: أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في حرثي فلم تبق منه شيئاً، فقال: لك رقاب الغنم، فقال سليمان: أو غير ذلك، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيّبون من ألبانها ومنافعها ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى إذا كان كلبلة نفشت فيه دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم، فقال داود: للقضاء ما قضيت، وحكم بذلك. قال النحاس: إنما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لأن ثمنها كانا قريباً منه، ولما في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم، وقيمة ما أفسدت الغنم سواء. قال جماعة من العلماء: إن داود حكم بوحى، وحكم سليمان بوحى نسخ الله به حكم داود، فيكون التفهيم على هذا بطريق الوحي. وقال الجمهور: إن حكمهما كان باجتهاد، وكلام أهل العلم في حكم اجتهاد الأنبياء معروف، وهكذا ما ذكره أهل العلم في اختلاف المجتهدين، وهل كل مجتهد مصيب، أو الحق مع واحد؟ وقد استدلل المستدلون بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب، ولا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً، فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها، بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين وغيرهما أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر، فسماه النبي ﷺ مخطئاً، فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له، فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين، وإلا لزم توقف حكمه عز وجل على اجتهادات المجتهدين، واللازم باطل فالملزوم مثله. وأيضاً يستلزم أن تكون العين التي اختلفت اجتهاد المجتهدين فيها بالحل والحرمة حلالاً حراماً في حكم الله سبحانه. وهذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله. وأيضاً يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد في تلك الحادثة، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله. وقد أوضحنا هذه المسألة بما لا مزيد عليه في المؤلف الذي سميناه «القول المفيد في حكم التقليد» وفي «أب الطلب» ومنتهى الأرباب فمن أحب الوقوف على تحقيق الحق فليرجع إليهما. فإن قلت: فما حكم هذه الحادثة التي حكم فيها داود وسليمان في هذه الشريعة المحمدية، والملة الإسلامية؟ قلت: قد ثبت عن النبي ﷺ من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المولشي بالليل مضمون على أهلها، وهذا الضمان هو مقدار الذهاب عيناً أو قيمة. وقد

ذهب جمهور العلماء إلى العمل بما تضمنه هذا الحديث. وذهب أبو حنيفة، وأصحابه، وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ، وإن البهائم إذا أفسدت زرعاً في ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء، وأدخلوا فسادها في عموم قول النبي ﷺ: «جرح العجماء جبار»، قياساً لجميع أفعالها على جرحها. ويجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار، لأنه في مقابلة النص، ومن أهل العلم من ذهب إلى أنه يضمن رب الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل والنهار. ويجاب عنه بحديث البراء ومما يدل على أن هذين الحكمين من داود وسليمان كانا بوحى من الله سبحانه لا باجتهاد. قوله: ﴿وَعَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فإن الله سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين، وهما إن كانا خاصين فصديقهما على هذه القضية التي حكاها الله سبحانه عنهما مقدّم على صديقهما على غيرها، وإن كانا عامين فهذا الفرد من الحكم والعلم، وهو ما وقع من كل واحد منهما في هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه، ومما يستفاد من ذلك دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهم، من عدم كون حكم داود حكماً شرعياً أي: وكل واحد منهما أعطيناه حكماً وعلماً كثيراً، لا سليمان وحده. ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك، ذكر ما يختص بكل واحد منهما، فبدأ بداود فقال: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ لِلْجِبَالِ يَسْبِغْنَ﴾ التسبيح إما حقيقة أو مجاز، وقد قال بالأول جماعة وهو الظاهر. وذلك أن داود كان إذا سبّح سبّحت الجبال معه؛ وقيل: إنها كانت تصلي معه إذا صلى، وهو معنى التسبيح. وقال بالمجاز جماعة آخرون، وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجباً من عظيم خلقها وقدره خالقها، وقيل: كانت الجبال تسير مع داود، فكان من رآها سائرة معه سبّح ﴿وَالطَّيْرُ﴾ معطوف على الجبال، وقرأ بالرفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف أي: والطير مسخرات، ولا يصح العطف على الضمير في يسبحن لعدم التأكيد والفصل ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني: ما نكر من التفهيم، وإتياء الحكم والتسخير ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ اللبوس عند العرب: السلاح كله درعاً كان أو جوشناً، أو سيفاً، أو رمحاً. قال الهذلي:

وعندي لبوس في اللباس كأنه

إلخ، والمراد في الآية: الدروع خاصة، وهو بمعنى الملبوس، كالركوب والحلوق، والجار والمجرور أعني لكم متعلق بعلما ﴿لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ يَأْسِكُمْ﴾ قرأ الحسن، وأبو جعفر، وابن عامر، وحفص، وروح (لتحصنكم) بالياء الفوقية، بإرجاع الضمير إلى الصنعة، أو إلى اللبوس بتأويل الدرع. وقرأ شيبه، وأبو بكر، والمفضل، وابن أبي إسحاق (لتحصنكم) بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه. وقرأ الباقون بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس، أو إلى داود، أو إلى الله سبحانه. ومعنى ﴿مِنْ يَأْسِكُمْ﴾ من حريكم، أو من وقع السلاح فيكم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ لهذه النعمة التي

وانختلف في مدة إقامته على البلاء فقيل: سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال؛ وقيل: ثلاثين سنة، وقيل: ثمانين سنة. ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل﴾ أي: وانكر هؤلاء، وإدريس هو أخنوخ، وذا الكفل إلياس؛ وقيل: يوشع بن نون؛ وقيل: زكريا. والصحيح أنه رجل من بني إسرائيل كان لا يتوزع عن شيء من المعاصي، فتاب فغفر الله له، وقيل: إن اليسع لما كبر قال: من يتكفل لي بكذا وكذا من خصال الخير حتى أستخلفه؟ فقال رجل: أنا، فاستخلفه وسمي ذا الكفل، وقيل: كان رجلاً يتكفل بشأن كل إنسان إذا وقع في شيء من المهمات، وقيل غير ذلك. وقد ذهب الجمهور إلى أنه ليس بنبي. وقال جماعة: هو نبي. ثم وصف الله سبحانه هؤلاء بالصبر فقال: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: كل واحد من هؤلاء من الصابرين على القيام بما كلفهم الله به: ﴿وأنزلناهم في رحمتنا﴾ أي: في الجنة، أو في النبوة، أو في الخير على عمومهم، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إنهم من الصالحين﴾ أي: الكاملين في الصلاح ﴿وذا النون﴾ أي: وانكر ذا النون، وهو يونس بن متى، ولقب ذا النون لابتلاع الحوت له، فإن النون من أسماء الحوت، وقيل: سمي ذا النون لأنه رأى صبياً مليحاً فقال: دسموا نونته، لثلاث تصييه العين. وحكى ثعلب عن ابن الأعرابي أن نونة الصبي هي الثقب التي تكون في نقرن الصبي الصغير، ومعنى دسموا سؤدوا ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ أي: انكر ذا النون وقت ذهابه مغاضباً: أي: مرغماً. قال الحسن، والشعبي، وسعيد بن جبير: ذهب مغاضباً لربه، واختاره ابن جرير والقتبي والمهدوي. وحكى عن ابن مسعود: قال النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح. والمعنى: مغاضباً من أجل ربه، كما تقول غضبت لك أي: من أجلك. وقال الضحاك: ذهب مغاضباً لقومه. وحكى عن ابن عباس: وقالت فرقة منهم الأخفش: إنما خرج مغاضباً للملك الذي كان في وقته واسمه حزقيا؛ وقيل: لم يغاضب ربه ولا قومه ولا الملك، ولكنه مأخوذ من غضب إذا أنف، وذلك أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف الله عنهم العذاب فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج عنهم، ومن استعمال الغضب في هذا المعنى قول الشاعر:

واغضب أن تهجى تميم بعامر

أي آنف ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ قرأ الجمهور (نقدر) بفتح النون وكسر الدال.

واختلف في معنى الآية على هذه القراءة، فقيل: معناها أنه وقع في ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته. وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير، وهو قول مروي، فإن هذا الظن بالله كفر؛ ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وذهب جمهور العلماء أن معناها: فظن أن لن نصيق عليه، كقوله: ﴿بيسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ [الرعد: 26]، أي: يضيق، ومنه قوله: ﴿ومن قدر

انعمنا بها عليكم، والاستفهام في معنى الأمر. ثم ذكر سبحانه ما خص به سليمان. فقال: ﴿وسليمان الريح﴾ أي: وسخرنا له الريح ﴿عاصفة﴾ أي: شديدة الهبوب. يقال: عصفت الريح أي: اشتدت، فهي ريح عاصف وعصوف، وانتصاب الريح على الحال. وقرأ عبد الرحمن الأعرج، والسلمي، وأبو بكر (وسليمان الريح) برفع الريح على القطع مما قبله، ويكون مبتدأ وخبره تجري. وأما على قراءة النصب فيكون محل ﴿تجري بامرء﴾ النصب أيضاً على الحالية، أو على البلية ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ وهي أرض الشام كما تقدم ﴿وكنّا بكل شيء عالمين﴾ أي: بتدبير كل شيء ﴿ومن الشياطين﴾ أي: وسخرنا من الشياطين ﴿من يغوصون له﴾ في البحار ويستخرجون منها ما يطلبه منهم؛ وقيل: إن من مبتدأ وخبره ما قبله، والغوص النزول تحت الماء، يقال: غاص في الماء، والغواص: الذي يغوص في البحر على اللؤلؤ ﴿ويعملون عملاً بون﴾ أي: قال القراء: أي سوى ذلك؛ وقيل: يراد بذلك المحارب والتمثيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه ﴿وكنّا لهم حافظين﴾ أي: لأعمالهم. وقال القراء: حافظين لهم من أن يهربوا أو يتمنعوا، أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره. قال الزجاج: كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار ﴿وأيوب إذ نادى ربه﴾ معطوف على ما قبله، والعامل فيه: إما المذكور أو المقدر كما مر، والعامل في الظرف وهو إذ نادى ربه هو العامل في أيوب ﴿أنني مسني للضر﴾ أي: بأنني مسني الضر. وقرأ بكسر (إني).

واختلف في الضر الذي نزل به ماذا هو؟ فقيل: إنه قام ليصلي فلم يقدر على النهوض، وقيل: إنه أقر بالعجز، فلا يكون ذلك منافياً للصبر، وقيل: انقطع الوحي عنه أربعين يوماً، وقيل: إن بودة سقطت من لحمه، فأخذها وردّها في موضعها فاكلت منه، فصاح مسني الضر؛ وقيل: كان البود تناول بنه فيصبر حتى تناولت بودة قلبه، وقيل: إن ضرّه قول إبليس لزوجه اسجدي لي، فخاف ذهاب إيمانها، وقيل إنه تقدره قومه؛ وقيل: أراد بالضرّ الشماتة، وقيل: غير ذلك. ولما نادى ربه متضرعاً إليه وصفه بغاية الرحمة فقال: ﴿وانت أرحم الراحمين﴾ فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه، فقال: ﴿فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر﴾ أي: شفاه الله مما كان به وأعاضه بما ذهب عليه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وأتيناها أهله ومثلهم معهم﴾ قيل: تركهم الله عز وجل له، وأعطاه مثلهم في الدنيا. قال النحاس: والإسناد بذلك صحيح، وقد كان مات أهله جميعاً إلا امرأته، فأحياهم الله في أقل من طرف البصر، وآتاه مثلهم معهم؛ وقيل: كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله، فيكون معنى الآية على هذا: أتيناها مثل أهله ومثلهم معهم، وانتصاب ﴿رحمة من عندنا﴾ على العلة أي: أتيناها ذلك لرحمتنا له ﴿وننكرى للعابدين﴾ أي: وتنكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر.

عليه رزقه» [الطلاق: 7]. يقال: قدر وقدر وقتر وقتر أي: ضيق، وقيل: هو من القدر الذي هو القضاء والحكم أي: فظن أن لن نقضي عليه العقوبة، قاله قتادة ومجاهد، واختاره الفراء والزجاج، مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة. قال أحمد بن يحيى ثعلب: هو من التقدير ليس من القدرة، يقال منه: قدر الله لك الخير يقدره قدرًا، وأنشد ثعلب:

فليست عشيات اللوى برولاج لنا أبداً ما أبرم السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر مع نك الشكر
أي: ما تقدره وتقضي به، ومما يؤيد ما قاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري (فظن أن لن نقدر) بضم النون وتشديد الدال من التقدير. وحكى هذه القراءة الماوردي عن ابن عباس، ويؤيد ذلك أيضاً قراءة عبيد بن عمير وقاتدة والأعرج (أن لن يقدر) بضم الياء وتشديد مبنياً للمفعول، وقرأ يعقوب، وعبد الله بن أبي إسحاق، والحسن (يقدر) بضم الياء وفتح الدال مخففاً مبنياً للمفعول.

وقد اختلف العلماء في تأويل الحديث الصحيح في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قط لأهله أن يحرقوه إذا مات، ثم قال: فوالله لئن قدر الله علي الحديث كما اختلفوا في تأويل هذه الآية، والكلام في هذا يطول وقد ذكرنا ما هنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره، والفاء في قوله: «فنادى في الظلمات» فصيحة أي: كان ما كان من التقام الحوت له، فنادى في الظلمات، والمراد بالظلمات: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وكان نداؤه: هو قوله: «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَنْتَ سَبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» أي: بأن لا إله إلخ، ومعنى سباحتك: تنزيهاً لك من أن يعجزك شيء، إني كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم، قال الحسن وقاتدة: هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته، قال ذلك وهو في بطن الحوت. ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له فقال: «فاستجبنا له» دعاه الذي دعانا به في ضمن اعترافه بالذنب على اللطف وجه «وَنُجِّنَا مِنْ الْغَمِّ» بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل «وَكُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أي: نخلصهم من مهمهم بما سبق من عملهم وما أعدناه لهم من الرحمة، وهذا هو معنى الآية الأخرى، وهي قوله: «فَقُلُوا لَهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلْبُثِّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» [الصافات: 143 - 144] قرأ الجمهور (ننجي) بنونين، وقرأ ابن عامر نجى بنون واحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الفعل الماضي وإضمار المصدر، وكذلك نجى النجاة المؤمنين كما تقول ضرب زيداً أي: ضرب الضرب زيداً، ومنه قول الشاعر:

ولو ولدت فقيرة جروكلب لسبّ بذلك الجرو الكلاب
هكذا قال في توجيه هذه القراءة الفراء وأبو عبيد وثعلب، وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا: هي لحن لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله، وإنما يقال: نجى المؤمنين. ولأبي عبيدة قول آخر، وهو أنه ادغم النون في الجيم وبه قال القتيبي.

واعترضه النحاس فقال: هذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا يدغم فيها، ثم قال النحاس: لم أسمع في هذا أحسن من شيء سمعته من علي بن سليمان الأخفش قال: الأصل ننجي، فحذف إحدى النونين لاجتماعهما كما يحذف إحدى التاءين لاجتماعهما نحو قوله تعالى: «وَلَا تَفْرَقُوا» [آل عمران: 103]. والأصل: ولا تتفرقوا. قلت: وكذا الواحدي عن أبي علي الفارسي أنه قال: إن النون الثانية تخفى مع الجيم، ولا يجوز تبينها، فالتبس على السامع الإخفاء بالإدغام، فظن أنه إدغام، ويدل على هذا إسكانه الياء من نجى ونصب المؤمنين، ولو كان على ما لم يسم فاعله ما سكن الياء ولوجب أن يرفع المؤمنين. قلت: ولا نسلم قوله إنه لا يجوز تبينها فقد بينت في قراءة الجمهور، وقرأ محمد بن السميع وأبو العالية (وكنك نجى المؤمنين) على البناء للفاعل أي: نجى الله المؤمنين.

وقد أخرج ابن جرير عن مرة في قوله: «إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ» قال: كان الحرث نباتاً فنفتشت فيه ليلاً فاختمصوا فيه إلى داود، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث. فمروا على سليمان فنكروا ذلك له. فقال: لا، تدفع الغنم فيصيبون منها ويقوم هؤلاء على حرثهم، فإذا كان كما كان ربوا عليهم فنزلت «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» وقد روي هذا عن مرة عن ابن مسعود. وأخرج ابن جرير، والحاكم وابن مروي، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ» قال: كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله قال: وما ذاك؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا عاد الكرم كما كان نفعت الكرم إلى صاحبه والغنم إلى صاحبها، فلنك قوله: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مسروق نحوه، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه، ولكنه لم يذكر الكرم. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عنه نحوه بأطول منه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً «فَنَفَّثْتُمْ» قال: رعت. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عن حرام بن محيصة: أن ناقة للبراء بن عازب نخلت حائطاً فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها. وقد علل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه في شرح المنقذ. وأخرج ابن مروي عن حديث عائشة نحوه، وزاد في آخره، ثم تلا هذه الآية «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ» الآية. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنتان جاء الذئب فأخذ

أحد الاثنين، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبيري، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: رحمك الله، هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى، وهذا الحديث وإن لم يكن داخلًا فيما حكته الآية من حكمهما لكنه من جملة ما وقع لهما. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة في قوله: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالِ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ قال: يصلين مع داود إذا صلى ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ قال: كانت صفائح، فأول من سردها وحلقها داود عليه السلام. وأخرج ابن أبي شيبة، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسي، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي أشراف الإنس ثم يدعو الطير فتظلمهم، ثم يدعو الريح فتحملمهم تسير مسيرة شهر في الغداة الواحدة. وأخرج ابن عساکر، والديلمي، وابن النجار عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لأبيوب: تدري ما جرمك عليّ حتى ابتليتك؟ قال: لا يا رب، قال: لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده في كلمتين». وأخرج ابن عساکر عن ابن عباس قال: إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه، ولم يأمر بالمعروف، ولم ينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله، وفي إسناده جويرير. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: «كان لأبيوب أخوان جاء يوماً فلم يستطيعا أن يندوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان علم الله من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط مثله، فقال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة قط شبعا، وأنا أعلم مكان جائع فصنّقتي فصنّقتي من السماء وهما يسمعان، ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم ألبس قميصاً قط وأنا أعلم مكان عار فصنّقتي، فصنّقتي من السماء وهما يسمعان ثم خرّ ساجداً وقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه». وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ﴾ قال: قيل: له يا أيوب إن أهلك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك لهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم، قال: لا، بل أتركهم لي في الجنة، قال: فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن الضحاک قال: بلغ ابن مسعود أن مروان قال في هذه الآية: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ﴾ قال: أوتي أهلاً غير أهله، فقال ابن مسعود: بل أوتي أهله بأعيانهم ومثلهم معهم. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي

حاتم، والرويانى، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يفتنون إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أئذبه أحد، قال: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى نكر له ذلك، فقال أيوب: لا أدري ما يقول غير أن الله يعلم أنني أمر بالرجلين يتنازعا ينكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كرامة أن ينكر الله إلا في حق وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن «أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب» [ص: 42]، فاستبطأته فتلقته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله المبتلي، والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً؟ قال: فإنني أنا هو، قال: وكان له أندران: أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله صحابتيين، فلما كانت إحدهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض. وأفرغت الأخرى في أندر الشعير اللوز حتى فاض». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿هَذَا الْكُفْلُ﴾ قال: رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي ذا الكفل. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان في بني إسرائيل قاضٍ فضضه الموت، فقال: من يقوم مقامي على أن لا يغضب؟ فقال رجل: أنا، فسمي ذا الكفل، فكان ليلة جميعاً يصلي، ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس، وذكر قصة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال: ما كان ذو الكفل نبياً، ولكن كان في بني إسرائيل رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة فتوفي، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في شعب الإيمان من طريق سعد مولى طلحة، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فاتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطاها، فلما قعد منها مقعد للرجل من امرأته ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك أكرهتك؟ قالت: لا ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تغلين أنت هذا وما فعلته أذهبي فهي لك، وقال: والله لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته فأصبح مكتوب على باب: إن الله قد غفر للكفل». وأخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم، وابن مريويه من طريق سعد مولى طلحة.

حسبي إن لم ترزقني ولداً فإنني أعلم أنك لا تضيق دينك وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترضيه للتبليغ ﴿فاستجبنا له﴾ دعاءه ﴿ووهبنا له يحيى﴾. وقد تقدم مستوفى في سورة مريم ﴿وواصلحنا له زوجة﴾. قال أكثر المفسرين: إنها كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً. فهذا هو المراد بإصلاح زوجة، وقيل: كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعاً، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها، فتكون ولوداً بعد أن كانت عاقراً، ويصلح أخلاقها فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية، وجملة ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ للتعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فالضمير المذكور راجع إليهم، وقيل: هو راجع إلى زكريا وأمراته ويحيى. ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم كانوا يدعون ﴿رغباً ورهباً﴾ أي: يتضرعون إليه في حال الرخاء وحال الشدة؛ وقيل: الرغبة رفع بطون الأكف إلى السماء، والرغبة رفع ظهورها، وانتصاب رغباً ورهباً على المصدرية أي: يرغبون رغباً ويرهبون رهباً، أو على العلة أي: للرغب والرهب، أو على الحال أي: راغبين وراهبين. وقرأ طلحة بن مصرف (ويبدعون) بنون واحدة، وقرأ الأعمش بضم الراء فيهما وإسكان ما بعده، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو، وقرأ الباقر بفتح الراء وفتح ما بعده فيهما ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: متواضعين متضرعين ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أي: وانكر خبرها، وهي مريم، فإنها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسسها بشر، وإنما ذكرها مع الأنبياء وإن لم تكن منهم لأجل ذكر عيسى، وما في ذكر قصتها من الآية الباهرة ﴿ففنفخنا فيها من روحنا﴾ أضاف سبحانه الروح إليه، وهو للملك تشريفاً وتعظيماً، وهو يريد روح عيسى ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ قال الزجاج: الآية فيهما واحدة لأنها ولبته من غير فعل، وقيل: إن التقدير على مذهب سيبويه: وجعلناها آية وجعلنا ابنها آية كقوله سبحانه: ﴿وإله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة: 62]. والمعنى: إن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكثير آيات كل واحد منهما، وقيل: أراد بالآية الجنس الشامل، لما لكل واحد منهما من الآيات، ومعنى أحصنت: عفت فامتنعت من الفاحشة وغيرها، وقيل: المراد بالفرج جيب القميص أي: أنها طاهرة الاثواب، وقد مضى بيان مثل هذا في سورة النساء ومريم. ثم لما ذكر سبحانه الأنبياء بين أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد فقال: ﴿إن هذه أمتمكم أمة واحدة﴾ والامة الذين كما قال ابن قتيبة، ومنه ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ [الزخرف: 22]، أي: على دين، كأنه قال: إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة في التوحيد، ولا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون بالله، وقيل: المعنى إن هذه الشريعة التي بينتها لكم في كتابكم شريعة واحدة، وقيل: المعنى إن هذه ملتكم ملة واحدة، وهي

وأخرجه ابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمرو قال فيه: ذو الكفل. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضياً﴾ يقول: غضب على قومه ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ يقول: أن لن نقضي عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه في غضبه عليهم وفراره، قال: وعقوبته أخذ النون إياه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ قال: ظن أن لن يأخذه العذاب الذي أصابه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود ﴿فنادى في الظلمات﴾ قال: ظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر. وأخرج أحمد، والترمذي، والنسائي، والحاكم الترمذي في نوافر الأصول، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص سمعت رسول الله ﷺ قال: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له». وأخرج ابن جرير عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى، قلت: يا رسول الله، هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا به، ألم تسمع قول الله: ﴿وكنك نجي المؤمنين﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه». وأخرج الحاكم من حديثه أيضاً نحوه، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». وروي أيضاً في الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود، وروي أيضاً في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

وَرَكَّابًا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَعَدْنَا لَهُ لَمَّا وَطَعَتْ أَنصَلْنَاهُ لَمْ يَزِدْكَ إِلَّا نَجْمًا كَانُوا يَسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَعْمَلُونَ زَكَاةً وَيَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَآلَيْهِ أَهْضَمْتَ قَرْيَةً فَفَتَنَّا فِيهَا مِنْ زُوجِكَ وَجَعَلْنَاهَا وَأَهْلَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٣﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٨٤﴾ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِثْمًا رَجِعُوا ﴿٨٥﴾ فَمَنْ يَمْلِكْ مِنَ الصَّلَاحِ وَقَوْمُهُ فَلَا كُفْرَانَ لِعَبَدِي وَإِنَّا لَهُمْ كَايِدُونَ ﴿٨٦﴾ وَحَرَّمْ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُوا ﴿٨٧﴾ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٨٨﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخَصَةٌ أَبْهَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَيُتْلَا ذِكْرُكَ فِي غَمْلَةٍ مِنْ مَذَابِلَ كُنَّا عَلَى لِيكٍ ﴿٨٩﴾

قوله: ﴿ووزكربا﴾ أي: وانكر خبر زكريا وقت ندائه لربه قال: ﴿رب لا تذرني فرداً﴾ أي: منفرداً وحيداً لا ولد لي. وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران ﴿وانت خير الوارثين﴾ أي: خير من يبقى بعد كل من يموت، فانت

الفارسي: إن في الكلام إضماراً، أي: وحرام على قرية حكماً باستئصالها، أو بالختم على قلوب أهلها، أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ حتى هذه هي التي يحكى بعدها الكلام، ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الإنس، والمراد بفتح يأجوج ومأجوج: فتح السد الذي عليهم، على حذف المضاف، وقيل: إن حتى هذه هي التي للغاية. والمعنى: أن هؤلاء المذكورين سابقاً مستمرّون على ما هم عليه إلى يوم القيامة، وهي يوم فتح سدّ يأجوج ومأجوج ﴿وهم من كل حذب ينسلون﴾ الضمير ليأجوج ومأجوج والحذب كلّ أكمة من الأرض مرتفعة والجمع أحداً، مأخوذ من حذبة الأرض، ومعنى ﴿ينسلون﴾ يسرعون؛ وقيل: يخرجون. قال الزجاج: والنسلان مشية الثنّب إذا أسرع. يقال: نسل فلان في العدو ينسل بالكسر والضم نسلًا ونسلاً ونسلاناً أي: أن يأجوج ومأجوج من كلّ مرتفع من الأرض يسرعون المشي ويتفرقون في الأرض، وقيل: الضمير في قوله وهم: لجميع الخلق، والمعنى: أنهم يحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كلّ مرتفع من الأرض. وقرئ بضم السين. حكى ذلك المهدوي عن ابن مسعود. وحكى هذه القراءة أيضاً الثعلبي، عن مجاهد، وأبي الصهباء ﴿واقترب الوعد﴾ عطف على فتحت، والمراد: ما بعد الفتح من الحساب. وقال الفراء والكسائي وغيرهما: المراد بالوعد الحق: القيامة والوعد زائدة؛ والمعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق وهو القيامة، فاقترب جواب إذا، وأنشد الفراء:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي

أي: انتحي، ومنه قوله تعالى: ﴿وتله للجبین * وناديناه﴾ [الصافات: 103 - 104]. وأجاز الفراء أن يكون جواب إذا ﴿فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا﴾ وقال البصريون: الجواب محذوف، والتقدير: قالوا يا ويلنا. وبه قال الزجاج، والضمير في ﴿فإذا هي﴾ للقصة، أو مبهم يفسره ما بعده، وإذا للمفاجأة؛ وقيل: إن الكلام تم عند قوله هي، والتقدير: فإذا هي، يعني: القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة، ثم ابتداء فقال: شاخصة أبصار الذين كفروا على تقديم الخبر على المبتدأ أي: أبصار الذين كفروا شاخصة، و﴿يا ويلنا﴾ على تقدير القول: ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ أي: من هذا الذي دهمنا من العتب والحساب ﴿بل كنا ظالمين﴾ أضربوا عن وصف انفسهم بالغفلة أي: لم تكن غافلين بل كنا ظالمين لانفسنا بالتكذيب وعدم الانقياد للرسول.

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿واصلحنا له زوجة﴾ قال: كان في لسان امرأة زكريا طول فاصلحه الله. وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: وهبنا له ولدها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً وهب له منها يحيى، وفي قوله: ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ قال: أذلاء.

ملة الإسلام. وانتصاب أمة واحدة على الحال أي: متفقة غير مختلفة، وقرئ (إن هذه أمتكم) بنصب أمتكم على البدل من اسم إن والخبر أمة واحدة. وقرئ برفع (أمتكم) ورفع (أمة) على أنهما خبران؛ وقيل: على إضمار مبتدأ أي: هي أمة واحدة. وقرأ الجمهور برفع (أمتكم) على أنه الخبر ونصب (أمة) على الحال كما قدّمنا. وقال الفراء والزجاج: على القطع بسبب مجيء النكرة بعد تمام الكلام ﴿وانا ربكم فاعبدون﴾ خاصة لا تعبدوا غيري كأننا ما كان ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي: تفرّقوا فرقاً في الدين حتى صار كالقطع المتفرقة. وقال الأخفش: اختلفوا فيه، وهو كالقول الأول. قال الأزهري: أي تفرّقوا في أمرهم، فنصب أمرهم بحذف في، والمقصود بالآية المشركون، ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله؛ وقيل: المراد جميع الخلق وأنهم جعلوا أمرهم في أديانهم قطعاً وتقسيمه بينهم، فهذا موحد، وهذا يهودي، وهذا نصراني، وهذا مجوسي، وهذا عابد وثن. ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه فقال: ﴿كل إلينا راجعون﴾ أي: كل واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالبعث، لا إلى غيرنا ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ أي: من يعمل بعض الأعمال الصالحة، لا كلها، إذ لا يطيق ذلك أحد ﴿وهو مؤمن﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿فلا كفران لبعثه﴾ أي: لا جحد لعمله، ولا تضییع لجزائه، والكفر ضد الإيمان، والكفر أيضاً جحد النعمة وهو ضد الشكر، يقال: كفر كفوراً وكفراناً، وفي قراءة ابن مسعود (فلا كفر لبعثه) ﴿وانا له كاتبون﴾ أي: لسعيه حافظون، ومثله قوله سبحانه: ﴿إني لا أضیع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ [آل عمران: 195].

﴿وحرام على قرية أهلكناها﴾، قرأ زيد بن ثابت وأهل المدينة (وحرام) وقرأ أهل الكوفة (وحرّم) وقد اختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم، ورويت القراءة الثانية عن عليّ وابن مسعود وابن عباس؛ وهما لفتان مثل حلّ وحلال. وقرأ سعيد بن جبیر (وحرّم) بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم. وقرأ عكرمة وأبو العالية (حرّم) بضم الراء وفتح الحاء والميم، ومعنى ﴿أهلكناها﴾ قدّرنا إهلاكها، وجملة ﴿أنهم لا يرجعون﴾ في محل رفع على أنه مبتدأ وخبره حرام، أو على أنه فاعل له ساد مسدّ خبره. والمعنى: وممتنع ألبيّة عدم رجوعهم إلينا للجزاء، وقيل: إن «لا» في لا يرجعون زائدة أي: حرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا، واختار هذا أبو عبيدة؛ وقيل: إن لفظ حرام هنا بمعنى الواجب أي: واجب على قرية، ومنه قول الخنساء: وإن حراماً لا أرى الدهر بلكيا على شجوه إلا بكيت على صخر وقيل: حرام أي: ممتنع رجوعهم إلى التوبة، على أن لا زائدة. قال النحاس: والآية مشكلة ومن أحسن ما قيل فيها وأجلّه ما رواه ابن عيينة، وابن علية، وهشيم، وابن إريس، ومحمد بن فضل، وسليم بن حبان، ومعلّى، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في معنى الآية قال: واجب أنهم لا يرجعون أي: لا يتوبون. قال الزجاج وأبو علي

وَأَنزَلَتْ آيَاتٍ أَرَبِيَّةً أَمْ بَيْبَةً مَا تُوعَدُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّهُمْ يَمَسُّونَ الْجَهَنَّمَ مِن
الْقُرُولِ وَيَمَسُّونَ مَا تَكْثُرُونَ ﴿١٣٩﴾ وَأَنزَلَتْ آيَاتٍ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٤٠﴾
﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ لِي وَلِأَهْلِ الْإِيمَانِ الْبَقَاةَ وَالْزَيْنَ وَالْحَيَاةَ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١٤١﴾

بَيَّنَّ سبحانه حال معبودهم يوم القيامة فقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ وهذا خطاب منه
سبحانه لأهل مكة، والمراد بقوله وما تعبدون: الأصنام التي
كانوا يعبدون. قرأ الجمهور (حصب) بالصاد المهملة أي:
وقود جهنم وحطبها، وكل ما أوقنت به النار أو هيبتها به
فهو حصب، كذا قال الجوهري. قال أبو عبيدة: كل ما قنفته
في النار فقد حصبته به، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]. وقرأ
علي بن أبي طالب، وعائشة (حطب جهنم) بالطاء، وقرأ ابن
عباس (حضب) بالضاد المعجمة. قال الفراء: نكر لنا أن
الحضب في لغة أهل اليمن الحطب، ووجه إلقاء الأصنام في
النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحس به: التبكيت
لمن عبدها وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم،
وقيل: إنها تحمى فتلتصق بهم زيادة في تعذيبهم، وجملة
﴿انتم لها وارثون﴾ إما مستأنفة أو بدل من حصب جهنم،
والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا، واللام في لها للتقوية
لضعف عمل اسم الفاعل، وقيل: هي بمعنى على، والمراد
بالورود هنا: النحول. قال كثير من أهل العلم: ولا يدخل في
هذه الآية عيسى وعزير والملائكة، لأن دماء لمن لا يعقل،
ولو أراد العموم لقال: ومن يعبدون. قال الزجاج: ولأن
المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة بون غيرهم ﴿ولو كان
هؤلاء آلهة ما وردوها﴾ أي: لو كانت هذه الأصنام آلهة
كما تزعمون ما وردوها أي: ما ورد العابدون هم والمعبودون
النار، وقيل: ما ورد العابدون فقط، لكنهم وردوها فلم يكونوا
آلهة، وفي هذا تبكيت لعباد الأصنام وتوبيخ شديد ﴿وكل
فيها خاللون﴾ أي: كل العابدون والمعبودين في النار
خاللون لا يخرجون منها ﴿لهم فيها زفير﴾ أي: لهؤلاء
الذين وردوا النار، والزفير صوت نفس المغمو، والمراد هنا
الأنين والتنفس الشديد، وقد تقدم بيان هذا في هود ﴿وهم
فيها لا يسمعون﴾ أي: لا يسمعون بعضهم زفير بعض لشدة
الهول، وقيل: لا يسمعون شيئا؛ لأنهم يحشرون صما كما
قال سبحانه: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا
وبكما وصما﴾ [الإسراء: 97] وإنما سلبوا السماع، لأن فيه
بعض ترويح وتانس، وقيل: لا يسمعون ما يسرهم، بل
يسمعون ما يسوءهم، ثم لما بيَّن سبحانه حال هؤلاء
الاشقياء شرع في بيان حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ أي: الخصلة الحسنة التي هي
أحسن الخصال وهي السعادة؛ وقيل: التوفيق، أو التبشير
بالجنة، أو نفس الجنة ﴿اولئك عنها مبعدون﴾ إشارة إلى
الموصوفين بتلك الصفة ﴿عنها﴾ أي: عن جهنم
﴿مبعدون﴾ لأنهم قد صاروا في الجنة لا يسمعون

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن
جريج في قوله: ﴿يُودَعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال: رغباً في
رحمة الله ورهباً من عذاب الله. وأخرج ابن مريويه عن
جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله
سبحانه: ﴿يُودَعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال: رغباً هكذا ورهباً
هكذا وبسط فكيفه، يعني: جعل ظهرهما للأرض في الرغبة
وعكسه في الرهبة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن
أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم وصححه، والبيهقي
في الشعب عن عبد الله بن عكيم قال: خطبنا أبو بكر
الصديق فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني أوصيكم
بتقوى الله، وأن تثبتوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا
الرغبة بالرغبة، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال:
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيُودَعُونَنا رَغَبًا
وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي
حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾
قال: إن هذا دينكم ديناً واحداً. وأخرج ابن جرير عن مجاهد
مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن
قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله:
﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ قال: تقطعوا اختلفوا في الدين.
وأخرج الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في
الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَحَرِّمْنَا عَلَى الْقُرْبَى
أَهْلَكُنَا﴾ قال: وجب إهلاكها ﴿أنهم لا يرجعون﴾ قال: لا
يتوبون. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن
جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس أنه كان
يقول: ﴿وَحَرِّمْنَا عَلَى الْقُرْبَى﴾ قال: وجب على قرية ﴿أهلكناها
أنهم لا يرجعون﴾ كما قال: ﴿إِذَا يَرَوْا كَمِ أَهْلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ
الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [آيس: 31]. وأخرج عبد بن
حميد عن عكرمة وسعيد بن جبيرة مثله. وأخرج ابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ
كُلَّ حَبِيبٍ﴾ قال: شرف ﴿يفسلسون﴾ قال: يقبلون، وقد ورد
في صفة ياجوج وماجوج وفي وقت خروجهم أحاديث كثيرة
لا يتعلق بذكرها هنا كثير فائدة.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا
وَرِثَةٌ ﴿١٣٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آيَةً لَّكُنْتُمْ أَكْثَرًا مِّنْ قَوْمٍ قَدْ خَلَتْ
لَهُمْ فِيهَا رِثَةٌ وَمَنْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ
مِنَّا الْحَسَنَةُ أُولَٰئِكَ مَعَ رَبِّكَ لَا يُسْمَعُونَ حَسْبَهُمْ وَمَنْ فِي مَا
أَشْهَتْ أَنْشُرَهُمْ خِلَافَهُمْ ﴿١٤٠﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمْ
الْمَلَكَةَ هَذَا يَوْمَئِذٍ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٤١﴾ يَوْمَ نَقُولُ الْمَلَكَةَ
كُلِّي السِّجْلَ لِلْكُفْرِ كَمَا بَدَأْنَا أَزْلَ خَلْقِي نُفِيدُهُ وَعِذًّا عَلَيْنَا مَا كُنَّا
فَعَلِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ فِي الشُّكِّ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا
عِبَادِي أَصْلَحُومٌ ﴿١٤٣﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاءً لِّقَوْمٍ عَصِيْبٍ ﴿١٤٤﴾ وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوَفَّى إِلَٰهَ الْهَيْكَلِ
إِلَٰهُهُ وَحْدَهُ نَعْلَمُ أَنَّهُ شَهِيدٌ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَنذَرْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ

حسبها ﴿الحسن والحسيس الصوت تسمعه من الشيء يمر قريباً منك. والمعنى: لا يسمعون حركة النار وحركة ألهيها، وهذه الجملة بدل من مبعوثين، أو حال من ضميره ﴿وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ أي: دائمون، وفي الجنة ما تشتهي الأنفس وتلذ به الأعين كما قال سبحانه: ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون﴾ [فصلت: 31]. ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ قرأ أبو جعفر، وابن محيصن (لا يحزنهم) بضم الياء وكسر الزاي، وقرأ الباقر (لا يحزنهم) بفتح الياء وضم الزاي. قال اليزيدي: حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم، والفزع الأكبر: أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾ أي: تستقبلهم على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ أي: توعدون به في الدنيا وتبشرون بما فيه، هكذا قال جماعة من المفسرين إن المراد بقوله: ﴿إن الذين سبقتم لهم من الحسن﴾ إلى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح، لا المسيح وعزير والملائكة، وقال أكثر المفسرين: إنه لما نزل ﴿إنكم وما تعبدون﴾ الآية، أتى ابن الزبير إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ألسنت تزعم أن عزيراً رجل صالح، وأن عيسى رجل صالح، وأن مريم امرأة صالحة؟ قال: بلى، فقال: فإن الملائكة، وعيسى وعزيراً ومريم يعبدون من دون الله، فهؤلاء في النار، فأنزل الله ﴿إن الذين سبقتم لهم من الحسن﴾ وسيأتي بيان من أخرج هذا قريباً إن شاء الله ﴿يوم تطوي السماء كطي السجل للكتاب﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع، وشيبة، والأعرج، والزهري (تطوي) بمثناة فوقية مضمومة ورفع السماء، وقرأ مجاهد (يطوي) بالتحية المفتوحة مبنياً للفعل على معنى يطوي الله السماء وقرأ الباقر (تطوي) بنون العظمة وانتصاب يوم بقوله: ﴿نعبيده﴾ أي: نعيده يوم تطوي السماء؛ وقيل: هو بدل من الضمير المحذوف في توعدون، والتقدير: الذي كنتم توعدونه يوم تطوي، وقيل: بقوله لا يحزنهم الفزع؛ وقيل: بقوله تتلقاهم، وقيل: متعلق بمحذوف، وهو أنكر، وهذا أظهر وأوضح، والطّي ضد النشر؛ وقيل: المحو، والمراد بالسماء الجنس، والسجل الصحيفة أي: طياً كطي الطومار؛ وقيل: السجل الصلح، وهو مشتق من المساجلة وهي المكاتبة، وأصلها من السجل، وهو الدلو، يقال: ساجلت الرجل إذا نزعته دلواً ونزع دلواً، ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام، ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب: من يساجلني يساجل ماجداً يملأ الدلو إلى عقد الكرب وقرأ أبو زرعة بن عمرو وابن جرير ﴿السجل﴾ بضم السين والجيم وتشديد اللام، وقرأ الأعمش وطلحة بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام، والطّي في هذه الآية يحتمل معنيين أحدهما: الطّي الذي هو ضد النشر، ومنه قوله: ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾ [الزمر: 67]. والثاني:

الإخفاء والتعمية والمحو، لأن الله سبحانه يحو ويطمس رسومها ويكثر نجومها؛ وقيل: السجل اسم ملك، وهو الذي يطوي كتب بني آدم، وقيل: هو اسم كاتب لرسول الله ﷺ، والأول أولى. قرأ الأعمش، وحفص، وحمرزة، والكسائي، ويحيى، وخلف (للكتب) جمعاً، وقرأ الباقر (للكتاب) وهو متعلق بمحذوف حال من السجل أي: كطي السجل كأننا للكتب أو صفة له أي: الكائن للكتب، فإن الكتب عبارة عن الصحف وما كتب فيها، فسجلها بعض أجزائها، وبه يتعلق الطّي حقيقة. وأما على القراءة الثانية فالكتاب مصدر، واللام للتعليل أي: كما يطوي الطومار للمكاتبة أي: ليكتب فيه، أو لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة، وهذا على تقدير أن المراد بالطّي المعنى الأول، وهو ضد النشر ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ أي: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم وأخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرلاً كذلك نعيدهم يوم القيامة، فأول خلق مفعول نعيد مقدراً يفسره نعيده المنكسر، أو مفعول لبدأنا، وما كافة أو موصولة، والكاف متعلقة بمحذوف أي: نعيد مثل الذي بدأنا نعيده، وعلى هذا الوجه يكون أول ظرف لبدأنا، أو حال، وإنما خص أول الخلق بالذكر تصويراً للإيجاد عن العدم، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ لشمول الإمكان الذاتي لهما، وقيل معنى الآية: نهلك كل نفس كما كان أول مرة، وعلى هذا فالكلام متصل بقوله: ﴿يوم تطوي السماء﴾ وقيل: المعنى نغير السماء، ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها، والأول أولى، وهو مثل قوله: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ [الأنعام: 94]. ثم قال سبحانه: ﴿وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ انتصاب وعداً على أنه مصدر أي: وعدنا وعداً علينا إنجازه والوفاء به. وهو البعث والإعادة، ثم أكد سبحانه ذلك بقوله: ﴿إنا كنا فاعلين﴾. قال الزجاج: معنى إنا كنا فاعلين: إنا كنا قادرين على ما نشاء، وقيل: إنا كنا فاعلين ما وعدناكم، ومثله قوله: ﴿كان وعده مفعولاً﴾ [الزمر: 18]. ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ الزبور في الأصل الكتب، يقال: زبرت أي: كتبت، وعلى هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة والإنجيل، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور، وقيل: المراد به هنا كتاب داود، ومعنى ﴿من بعد الذكر﴾ أي: اللوح المحفوظ، وقيل: هو التوراة أي: والله لقد كتبنا في كتاب داود من بعد ما كتبنا في التوراة أو من بعد ما كتبنا في اللوح المحفوظ ﴿إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾. قال الزجاج: الزبور جميع الكتب: التوراة والإنجيل والقرآن، لأن الزبور والكتاب في معنى واحد، يقال زبرت وكتبت، ويؤيد ما قاله قراءة حمزة في الزبور بضم الزاي، فإنه جمع زبر. وقد اختلف في معنى ﴿يرثها عبادي الصالحون﴾ فقيل: المراد أرض الجنة، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾ [الزمر: 74]. وقيل: هي الأرض المقدسة؛ وقيل: هي أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا ﷺ وأمته بفتحها؛ وقيل:

إلى حين﴾ أي: وتمتيع إلى وقت مقدّر تقتضيه حكمته. ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه ﷺ بقوله: ﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي: احكم بيني وبين هؤلاء المكذّبين بما هو الحق عندك ففوّض الأمر إليه سبحانه، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وابن محيصن (رب) بضم الباء. قال النحاس: وهذا لحن عند النحويين لا يجوز عندهم رجل أقبل حتى يقول يا رجل. وقرأ الضحاك، وطلحة، ويعقوب (احكم) بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم أي: قال محمد ربي احكم بالحق من كل حاكم. وقرأ الجحدري (احكم) بصيغة الماضي أي: احكم الأمور بالحق. وقرأ قل بصيغة الأمر أي: قل يا محمد. قال أبو عبيدة: الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف، والتقدير: ربّ احكم بحكمك الحق، وربّ في موضع نصب، لأنه منادى مضاف إلى الضمير، وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه ﷺ فعذبهم ببدر، ثم جعل العقوبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين. ثم قال سبحانه متمماً لتلك الحكاية ﴿ورينا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ من الكفر والتكذيب، قربنا مبتدأ وخبره الرحمن أي: هو كثير الرحمة لعباده، والمستعان خبر آخر أي: المستعان به في الأمور التي من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم، ومن قولكم: ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ [الأنبياء: 3] وقولكم: ﴿اتخذ الرحمن ولدًا﴾ [الأنبياء: 26 - مريم: 88] وكثيراً ما يستعمل الوصف في كتاب الله بمعنى الكذب كقوله: ﴿ولكم اللويل مما تصفون﴾ [الأنبياء: 18]، وقوله: ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ [الأنعام: 139] وقرأ المفضل، والسلمي (على ما يصفون) بالياء التحتية. وقرأ الباقر بالفوقية على الخطاب.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مرويّه من طرق عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها وارثون﴾ قال المشركون: فالملائكة، وعيسى، وعزير يعبدون من دون الله، فنزلت ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ عيسى، وعزير، والملائكة. وأخرج ابن مرويّه، والضياء في المختارة عنه قال: جاء عبد الله بن الزبير إلى النبي ﷺ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها وارثون﴾ قال ابن الزبير: قد عبت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهم، فنزلت: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ وقالوا آلهمتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾ [الزخرف: 57 - 58]. ثم نزلت: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، والطبراني من وجه آخر عنه أيضاً نحوه بأطول منه. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إن

المراد بذلك بنو إسرائيل بلبيل قوله سبحانه: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ [الأعراف: 137] والظاهر أن هذا تبشير لامة محمد ﷺ بوراثة أرض الكافرين، وعليه أكثر المفسرين. وقرأ حمزة (عبادي) بتسكين الباء، وقرأ الباقر بتحريكها ﴿إن في هذا لبالغا﴾ أي: فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبيه لبالغا لكفاية، يقال: في هذا الشيء بلاغ وبلغة وتبلغ أي: كفاية؛ وقيل: الإشارة بقوله: ﴿إن في هذا﴾ إلى القرآن ﴿لنقوم عابدين﴾ أي: مشغولين بعبادة الله مهتمين بها، والعبادة هي الخضوع والتذلّل، وهم أمة محمد ﷺ، ورأس العبادة الصلاة ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ أي: وما أرسلناك يا محمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والعلل أي: ما أرسلناك لعل من العلل إلا لرحمتنا الواسعة، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين. قيل: ومعنى كونه رحمة للكفار: أنهم آمنوا به من الخسف والمسح والاستئصال، وقيل: المراد بالعالمين المؤمنون خاصة، والأول أولى بلبيل قوله سبحانه: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: 33]. ثم بيّن سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال: ﴿قل إنما يوحى إليّ أنما إليهم كماله ولحدّه﴾ إن كانت «ما» موصولة فالمعنى: أن الذي يوحى إليّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الودعانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادها، وإن كانت «ما» كافة فالمعنى: أن الوحي إليّ مقصور على استئثار الله بالوحدة، ووجه ذلك أن القصر أبداً يكون لما يلي إنما، فإنما الأولى لقصر الوصف على الشيء كقولك إنما يقوم زيد أي: ما يقوم إلا زيد، والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك إنما زيد قائم أي: ليس به إلا صفة القيام ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ متقانون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه ﴿فإن تولوا﴾ أي: عرضوا عن الإسلام ﴿فقل لهم﴾ ﴿أنفثكم على سواء﴾ أي: أعلمتكم أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا كائنين على سواء في الإعلام لم أخص به بعضكم دون بعض كقوله سبحانه: ﴿وما تخافون من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ [الأنفال: 58] أي: أعلمهم أنك نقضت العهد نقضاً سوّيت بينهم فيه. وقال الزجاج: المعنى أعلمتكم ما يوحى إليّ على استواء في العلم به، ولا أظهر لأحد شيئاً كتمته على غيره ﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون﴾ أي: ما أدري أما توعدون به قريب حصوله أم بعيد، وهو غلبة الإسلام وأهله على الكفر وأهله؛ وقيل: المراد بما توعدون القيامة؛ وقيل: أنتمكم بالحرب ولكن لا أدري ما يؤن لي في محاربتكم ﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ أي: يعلم سبحانه ما تجامرون به من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما تكتمونه من ذلك وتخفونه ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم﴾ أي: ما أدري لعل الإمهال فتنة لكم واختبار ليرى كيف صنعكم ﴿ومتاح

جعفر ابن جرير للإنكار على هذا الحديث ورده أتم رد، وقال: ولا تعرف في الصحابة أحداً اسمه سَجَلٌ، وكتاب النبي ﷺ كانوا معروفين، وليس فيهم أحد اسمه السجل وصدق رحمه الله في ذلك وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث. وأما من نكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم. قال: والصحيح عن ابن عباس: أن السجل هو الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة والعمري عنه. ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: يوم تطوي السماء كطي السجل للكتاب أي: على الكتاب، يعني: المكتوب كقوله: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ [الصفحات: 103]، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة والله أعلم. قلت: أما كون هذا هو الصحيح عن ابن عباس فلا، فإن علي بن أبي طلحة والعمري ضعيفان، فالأولى التعويل على المعنى اللغوي والمصير إليه. وقد أخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: ﴿السجل﴾ هو الرجل، زاد ابن مردويه بلغة الحبشة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في تفسير الآية قال: كطي الصحيفة على الكتاب. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿كما بدنا أول خلق نعيده﴾ يقول: نهلك كل شيء كما كان أول مرة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ قال: القرآن ﴿أن الأرض﴾ قال: أرض الجنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ قال: الكتب ﴿من بعد الذكر﴾ قال: التوراة وفي إسناده العمري. وأخرج سعيد بن منصور عنه أيضاً، قال: الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن، والذكر: الأصل الذي نسخت منه هذه الكتب الذي في السماء والأرض: أرض الجنة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ قال: أرض الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد الأرض، ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون، وفي قوله: ﴿لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: عالمين، وفي إسناده علي بن أبي طلحة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن أبي هريرة ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: الصلوات الخمس. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم، والديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿في قول الله ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: في الصلوات الخمس شغلاً للعبادة.﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: هي الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة.». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ قال: من آمن

الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿حصب جهنم﴾ قال: شجر جهنم، وفي إسناده العمري. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه من وجه آخر أن ﴿حصب جهنم﴾ وقودها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو حطب جهنم بالزنجية. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ قال: حيات على الصراط تقول حس حس. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عثمان النهدي في قوله: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ قال: حيات على الصراط تلسعنهم، فإذا لسنعتهم قالوا: حس حس. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن محمد بن حاطب قال: سئل علي عن هذه الآية ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال: هو عثمان وأصحابه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ يقول: لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزل منزلهم من الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ قال: الفضة الأخيرة، وفي إسناده العمري. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة على كتابان المسك لا يهلهم الفزع الأكبر يوم القيامة: رجل أم قوماً وهم له راضون، ورجل كان يؤمن في كل يوم وليلة. وعبد أدى حق الله وحق مواليه.». وأخرج عبد بن حميد، عن علي في قوله: ﴿كطي للسجل﴾ قال: ملك. وأخرج عبد بن حميد، عن عطية مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: السجل ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبوها نوراً. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عساکر، عن أبي جعفر الباقر قال: السجل ملك. وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده في المعرفة، وابن مردويه، والبيهقي في سننه وصححه، عن ابن عباس قال: السجل كاتب للنبي ﷺ. وأخرج ابن المنذر، وابن عدي، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى السجل، وهو قوله: ﴿يوم تطوي السماء كطي للسجل للكتاب﴾ قال: كما يطوي السجل للكتاب كذلك تطوي السماء. وأخرج ابن منده، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساکر عن ابن عمر قال: كان للنبي ﷺ كاتب يقال له السجل، فانزل الله ﴿يوم تطوي السماء كطي للسجل للكتاب﴾ قال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا الحديث: وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر لا يصح أصلاً. قال: وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبي داود وغيره لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه، وإن كان في سنن أبي داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي، وقد أقررت بهذا الحديث جزءاً له على حدة، والله الحمد. قال: وقد تصدَّى الإمام أبو

الحجّ على القرآن بسجديّتين». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والإسماعيلي، وابن مرويّه، والبيهقي عن عمر: أنّه كان يسجد سجديّتين في الحجّ وقال: إنّ هذه السورة فضّلت على سائر القرآن بسجديّتين. وقد روي عن كثير من الصحابة أنّ فيها سجديّتين، وبه يقول ابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق. وقال بعضهم: إنّ فيها سجدة واحدة، وهو قول سفیان الثوري، وأخرجه ابن أبي شيبة، عن ابن عباس، وإبراهيم النخعي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ

[illegible]

لما أنجزَ الكلام في خاتمة السورة المتقدمة إلى ذكر الإعادة وما قبلها وما بعدها، بدأ سبحانه في هذه السورة بذكر القيامة وأهوالها حثاً على التقوى التي هي أنفع زاد فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ أَيَّ حُزْنًا عَابَهُ بِفِعْلٍ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ الْوَأْجِبَاتِ وَتَرَكُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ الْحُرْمَاتِ، وَلَفْظِ النَّاسِ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْمَكْلُفِينَ مِنَ الْمُجَوِّبِينَ وَمَنِ اسْتَوْجَدَ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا طَرَفًا مِنْ تَحْقِيقِ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَجُمْلَةً ﴿إِنْ زُلْزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تَعْلِيلَ لِمَا قَبْلُهَا مِنَ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى، وَالزَّلْزَلَةِ شِدَّةَ الْحَرَكَةِ، وَأَصْلُهَا مِنْ زَلَّ عَنِ الْمَوْضِعِ أَيَّ: زَالَ عَنْهُ وَحُرِّكَ، وَزَلَزَلَ اللَّهُ قَدَمَهُ أَيَّ: حَرَكَهَا، وَتَكَرَّرَ الْحَرْفُ يَدُلُّ عَلَى تَأَكِيدِ الْمَعْنَى، وَهُوَ مِنْ إِشَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى فَاعِلِهِ، وَهِيَ عَلَى هَذَا الزَّلْزَلَةِ الَّتِي هِيَ أَحَدُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ؛ وَقِيلَ: إِنَّهَا تَكُونُ فِي النِّصْفِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَمِنْ بَعْدِهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَقِيلَ: إِنَّ الْمَصْدَرَ هُنَا مُضَافٌ إِلَى الظَّرْفِ، وَهُوَ السَّاعَةُ إِجْرَاءً لَهُ مَجْرَى الْمَفْعُولِ، أَوْ بِتَقْيِيرٍ فِي كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿يَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سَبَأٌ: 33]، وَهِيَ الْمَنْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزَّلْزَلَةُ: 1]، قِيلَ: وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْهَا بِالشَّيْءِ إِيذَانٌ بِأَنَّ الْعُقُولَ قَاصِرَةٌ عَنْ إدْرَاكِ كُنْهَيْهَا ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾

تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن عوفي فما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسح والقذف. وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: «قيل: يا رسول الله ادع الله على المشركين، قال: إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة». وأخرج الطيالسي، وأحمد، والطبراني، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين». وأخرج أحمد، والطبراني، عن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «أما رجل من أمتي سببته سبة في غضبي أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما يغضبون، وإنما بعثني رحمة للعالمين، فأجعلها عليه صلاة يوم القيامة». وأخرج البيهقي في الدلائل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة». وقد روي معنى هذا من طرق. وأخرج ابن أبي خيثمة، وابن عساكر، عن الربيع بن أنس قال: لما أسري بالنبي ﷺ رأى فلاناً، وهو بعض بني أمية على المنبر يخطب الناس، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَأَنْ أَدْرِي لَعَلَّهِ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يقول: هذا الملك. وأخرج ابن جرير، وابن حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَنْ أَدْرِي لَعَلَّهِ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾ يقول: ما أخبركم به من العذاب والساعة، لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿قُلْ رَبِّ لِحُكْمِ بِالْحَقِّ﴾ قال: لا يحكم الله إلا بالحق، وإنما يستعجل بذلك في الدنيا يسأل ربه.

تفسير سورة الحج

اختلف أهل العلم، هل هي مكة أو مدنية؟ فأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحجّ بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله. وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال: نزل بالمدينة من القرآن الحجّ غير أربع آيات مكيات: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ إلى ﴿عذاب يوم عقيم﴾، وحكى القرطبي عن ابن عباس أنها مكة سوى ثلاث آيات؛ وقيل: أربع آيات إلى قوله: ﴿عذاب الحريق﴾، وحكى عن النقاش أنه نزل بالمدينة منها عشر آيات. قال القرطبي وقال الجمهور: إن السورة مختلطة، منها مكّي، ومنها مدني. قال: وهذا هو الصحيح. قال العزيزي: وهي من أعاجيب السور نزلت ليلاً ونهاراً، سفرأ وحضرأ، مكياً ومدنيأ، سلمياً وحربياً، ناسخأ ومنسوخأ، محكمأ ومتشابهأ، وقد ورد في فضلها ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عتبة بن عامر قال: «قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحجّ على سائر القرآن بسجنتين؟ قال: نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما». قال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقوي. وأخرج أبو داود في المراسيل، والبيهقي عن خالد بن معدان، أن رسول الله ﷺ قال: «فصلت سورة

الشيطان بوصفين: الأول أنه مريد، والثاني ما أفاده جملة كتب عليه الخ، وجملة ﴿ويهيئه إلى عذاب السعير﴾ معطوفة على جملة يضل أي: يحمله على مباشرة ما يصير به في عذاب السعير. ثم نكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدمة، فقال: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ قرأ الحسن (البعث) بفتح العين وهي لغة، وقرأ الجمهور بالسكون، وشكهم يحتمل أن يكون في وقوعه أو في إمكانه. والمعنى: إن كنتم في شك من الإعادة فانظروا في مبدأ خلقكم أي: خلق أبيكم آدم ليزول عنكم الريب ويرتفع الشك وتدحض الشبهة الباطلة ﴿فإننا خلقناكم من تراب﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم ﴿ثم﴾ خلقناكم ﴿من نطفة﴾ أي: من مني، سمي نطفة لقلته، والنطفة: القليل من الماء. وقد يقع على الكثير منه، والنطفة: القطرة، يقال: نطف ينطف أي: قطر، وليلة نطوف أي: دائمة القطر ﴿ثم من علققة﴾ والعلقة: الدم الجامد، والعلق: الدم العبيط أي: الطري أو المتجمد؛ وقيل: الشديد الحمرة والمراد: الدم الجامد المتكون من المنى ﴿ثم من مضغة﴾ وهي القطعة من اللحم قدر ما يبيض الماضغ تتكون من العلقة ﴿مخلقة﴾ بالجر صفة لمضغة أي: مستبينة الخلق ظاهرة التصوير ﴿وغير مخلقة﴾ أي: لم يستبين خلقها ولا ظهر تصويرها، قال ابن الأعرابي: مخلقة يزيد قد بدا خلقه، وغير مخلقة لم تصور. قال الأكثر: ما أكمل خلقه ينفخ الروح فيه فهو المخلقة وهو الذي ولد لتمام، وما سقط كان غير مخلقة أي: غير حي بكمال خلقته بالروح. قال الفراء: مخلقة تام الخلق، وغير مخلقة: السقط، ومنه قول الشاعر:

أفي غير المخلقة البكاء فإين الحزم ويحك والحياء واللام في ﴿لنبين لكم﴾ متعلق بخلقنا أي: خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم ﴿ونقر في الأرحام ما نشاء﴾ روى أبو حاتم، عن أبي زيد، عن المفضل، عن عاصم أنه قرأ بنصب نقر عطفاً على نبين، وقرأ الجمهور (نقر) بالرفع على الاستئناف أي: ونحن نقر. قال الزجاج: نقر بالرفع لا غير، لأنه ليس المعنى فعلنا ذلك لنقر في الأرحام ما نشاء، ومعنى الآية: وثبت في الأرحام ما نشاء فلا يكون سقطاً ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو وقت الولادة، وقال ما نشاء ولم يقل من نشاء، لأنه يرجع إلى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح، وقرئ (لنبين) - ويقر - و - يخرجكم) بالتحية في الأفعال الثلاثة، وقرأ ابن أبي وثاب (ما نشاء) بكسر النون ﴿ثم نخرجكم طفلاً﴾ أي: نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلاً أي: أطفالاً، وإنما أفردته إرادة للجنس الشامل للموحد والمتعدد. قال الزجاج: طفلاً في معنى أطفالاً، ودل عليه نكر الجماعة يعني: في نخرجكم، والعرب كثيراً ما تطلق اسم الواحد على الجماعة، ومنه قول الشاعر:

يلحنني من حبها ويلمني إن العوائل لسن لي بأمير

انتصاب الظرف بما بعده، والضمير يرجع إلى الزلزلة أي: وقت رؤيتكم لها تذهل كل ذات رضاع عن رضيعها وتغفل عنه. قال قطرب: تذهل تشغل، وأنشد قول الشاعر:

ضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله وقيل: تنسى، وقيل: تلهو؛ وقيل: تسلو، وهذه معانيها متقاربة. قال المبرد: إن «ما» فيما أَرْضَعَت بمعنى المصدر أي: تذهل عن الإرضاع، قال: وهذا يدل على أن هذه الزلزلة في الدنيا، إذ ليس بعد القيامة حمل وإرضاع، إلا أن يقال: من ماتت حاملاً فتضع حملها للهول، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك، ويقال: هذا مثل كما يقال: ﴿يوماً يجعل ولدان شيباً﴾ [المزمل: 17]. وقيل: يكون مع النفخة الأولى، قال: ويحتمل أن تكون الساعة عبارة عن أهوال يوم القيامة، كما في قوله: ﴿مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ [البقرة: 214]. ومعنى ﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ أنها تلقي جنينها لغير تمام من شدة الهول، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك ﴿وترى للناس سكارى﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء والراء خطاب لكل واحد أي: يراهم الراي كأنهم سكارى ﴿وما هم بسكارى﴾ حقيقة، قرأ حمزة، والكسائي (سكرى) بغير ألف، وقرأ الباقون بإثباتها وهما لغتان يجمع بهما سكران، مثل كسلى وكسالى، ولما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذي لأجله شابهوا السكارى فقال: ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ فبسبب هذه الشدة والهول العظيم طاشت عقولهم، واضطربت أفعالهم فصاروا كالسكارى، بجامع سلب كمال التمييز وصحة الإدراك وقرئ (وترى) بضم التاء وفتح الراء مسنداً إلى المخاطب من رأيته أي: تظنهم سكارى. قال الفراء: ولهذه القراءة وجه جيد في العربية، ثم لما أراد سبحانه أن يحتج على منكري البعث قدم قبل ذلك مقدمة تشمل أهل الجدل كلهم فقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ وقد تقدم إعراب مثل هذا التركيب في قوله: ﴿ومن الناس من يقول﴾ [البقرة: 8]. ومعنى ﴿في الله﴾ في شأن الله وقدرته، ومحل ﴿بغير علم﴾ النصب على الحال. والمعنى: أنه يخاصم في قدرة الله فيزعم أنه غير قادر على البعث بغير علم يعلمه، ولا حجة يدلي بها ﴿ويتبع﴾ فيما يقوله ويتعاطاه ويحتج به ويجادل عنه ﴿كل شيطان مريد﴾ أي: متمرّد على الله وهو العاتي، سمي بذلك لخلوه عن كل خير، والمراد: إبليس وجنوده أو رؤساء الكفار الذين يدعون أنبياءهم إلى الكفر. وقال الواحدي: قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث وكان كثير الجدل، وكان ينكر أن الله يقدر على إحياء الأموات؛ وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة ﴿كتب عليه أنه من تولاه﴾ أي: كتب على الشيطان، وفاعل كتب أنه من تولاه، والضمير للشان أي: من اتخذه ولياً ﴿فانه يضلّه﴾ أي: فشان الشيطان أن يضلّه عن طريق الحق، فقوله أنه يضلّه جواب الشرط إن جعلت من شرطية أو خبر الموصول إن جعلت موصولة، فقد وصف

الحق، وأنه المتفرد بإحياء الموتى، وأنه قادر على كل شيء من الأشياء. والمعنى: أنه المتفرد بهذه الأمور وأنها من شأنه لا يدعي غيره أنه يقدر على شيء منها، فدلّ سبحانه بهذا على أنه الحق الحقيقي الغني المطلق، وأن وجود كل موجود مستفاد منه، والحق هو الموجود الذي لا يتغير ولا يزول، وقيل ذو الحق على عباده، وقيل: الحق في أفعاله. قال الزجاج: ذلك في موضع رفع أي: الأمر ما وصفه لكم وبين بأن الله هو الحق. قال: ويجوز أن يكون ذلك نصباً، ثم أخبر سبحانه بأن **﴿الساعة آتية﴾** أي: في مستقبل الزمان، قيل: لا بدّ من إضمار فعل أي: ولتعلموا أن الساعة آتية **﴿لا ريب فيها﴾** أي: لا شك فيها ولا تردد، وجملة **﴿لا ريب فيها﴾** خبر ثانٍ للساعة، أو في محل نصب على الحال. ثم أخبر سبحانه عن البعث فقال: **﴿وإن الله يبعث من في القبور﴾** فيجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأن ذلك كائن لا محالة.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين قال: «لما نزلت **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾** إلى قوله **﴿ولكن عذاب الله شديد﴾** أنزلت عليه هذه وهو في سفر، فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول الله لأدم ابعت بعث النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، واحداً إلى الجنة، فأنشأ المسلمون ييكون، فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسددوا وأبشروا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية فتنؤخذ العدة من الجاهلية، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم والامم إلا كمثل الرقعة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا، قال: ولا أنري قال الثلثين أم لا. وأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر عن عمران بن حصين مرفوعاً نحوه، وقال في آخره: «اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج، ومن مات من بني آدم ومن بني إبليس، فسري عن القوم بعض الذي يجدون قال: اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو كالرقعة في ذراع الدابة». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً، وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي

وقال المبرد: هو اسم يستعمل مصدرًا كالرضا، والعدل فيقع على الواحد والجمع، قال الله سبحانه: **﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾** [النور: 31]. قال ابن جرير: هو منصوب على التمييز كقوله: **﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً﴾** [النساء: 4]. وفيه بعد، والظاهر انتصابه على الحال بالتأويل المنكسر، والطفل يطلق على الصغير من وقت انفصاله إلى البلوغ **﴿ثم لتبلغوا أشركم﴾** قيل: هو علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى مناسبة له، كانه قيل: نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا إلى الأشد، وقيل: إن ثم زائدة، والتقدير: لتبلغوا؛ وقيل: إنه معطوف على نبين، والأشد هو كمال العقل وكمال القوة والتمييز، قيل: وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين. وقد تقدم الكلام في هذا مستوفى في الأنعام **﴿وومنكم من يتوفى﴾** يعني: قبل بلوغ الأشد، وقرئ يتوفى مبنياً للفاعل. وقرأ الجمهور (يتوفى) مبنياً للمفعول **﴿وومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾** أي: أخسه وأدونه، وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل، ولهذا قال سبحانه: **﴿لكن لا يعلم من بعد علم شيئاً﴾** أي شيئاً من الأشياء، أو شيئاً من العلم، والمعنى: أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها، لا علم له ولا فهم، ومثله قوله: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾** ثم رددناه أسفل سافلين [التين: 4-5]. وقوله: **﴿ومن نعلمه ننكسه في الخلق﴾** [يس: 68]. **﴿ووترى الأرض هامدة﴾** هذه حجة أخرى على البعث، فإنه سبحانه احتج بإحياء الأرض بإنزال الماء على إحياء الأموات، والهامدة اليابسة التي لا تنبت شيئاً، قال ابن قتيبة: أي ميتة يابسة كالنار إذا طفت؛ وقيل: دارسة، والهمود النورس، ومنه قول الأعشى:

قالت قتيلة ما لجسمك شاحباً وارى ثيابك بالبيات هموداً
وقيل: هي التي ذهب عنها الندى؛ وقيل: هالكة، ومعاني هذه الأقوال متقاربة **﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾** المراد بالماء هنا: المطر، ومعنى: اهتزت تحركت، والاهتزاز شدة الحركة، يقال هزرت الشيء فاهتز أي: حركته فتحرك والمعنى: تحركت بالنبات، لأن النبات لا يخرج منها حتى يزِيل بعضها من بعض إزالة حقيقة، فسماه اهتزازاً مجازاً. وقال المبرد: المعنى اهتزت نباتها فحنف المضاعف، واهتزازة شدة حركته، والاهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض، ومعنى ربت ارتفعت، وقيل: انتفتحت. والمعنى واحد، وأصله الزيادة، يقال: ربا الشيء يربو ربواً إذا زاد ومنه الربا والربوة. وقرأ يزيد بن القعقاع وخالد بن إلياس (وربات) أي: ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربابة، وهو الذي يحفظ القوم على مكان مشرف يقال له ربابى وربابة ورببئة **﴿وانبتت﴾** أي: أخرجت **﴿من كل زوج بهيج﴾** أي: من كل صنف حسن ولون مستحسن، والبهجة الحسن، وجملة **﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾** مستأنفة، لما نكر افتقار الموجودات إليه سبحانه وتسخيرها على وفق إرادته واقتداره. قال بعد ذلك هذه المقالات، وهي إثبات أنه سبحانه

والأخروي، وهو مبتدأ خبره ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكُ﴾. والباء للسببية أي: تلك العذاب النازل بك بسبب ما قَدَّمْتُمْ يداك من الكفر والمعاصي، وعبر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصي تكون بها في الغالب، ومحل أن وما بعدها في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: والأمر أنه سبحانه لا يعذب عباده بغير نذير. وقد مرَّ الكلام على هذه الآية في آخر آل عمران فلا نعيده ﴿وَمَنْ لِلنَّاسِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عَلَى حَرْفٍ﴾ هذا بيان لشقاق أهل الشقاق. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين: الحرف الشك، وأصله من حرف الشيء وهو طرفه، مثل حرف الجبل والحائط، فإن القائم عليه غير مستقر والذي يعبد الله على حرف قلق في دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذي هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطراباً ويضعف قيامه، فقليل للشاك في دينه: إنه يعبد الله على حرف، لأنه على غير يقين من وعده ووعيده، بخلاف المؤمن لأنه يعبد على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف، وقيل: الحرف الشرط أي: ومن الناس من يعبد الله على شرط، والشرط هو قوله: ﴿فَإِنْ أَصْلَبَهُ خَيْرَ أَطْمَأْنٍ بِهِ﴾ أي: خير دنيوي من رضاء وعافية وخصب وكثرة مال، ومعنى اطمأن به: ثبت على دينه واستمر على عبادته، أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذي أصابه ﴿وَأَنْ أَصَابَتْهُ مُتَنَةٌ﴾ أي: شيء يفتن به من مكروه يصيبه في أهله أو ماله أو نفسه ﴿لَنَنْقَلِبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: ارتدَّ ورجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر، ثم بين حاله بعد انقلابه على وجهه فقال: ﴿خُسْرٌ لِّلْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: ذهباً منه وفقدهما، فلا حظ له في الدنيا من الغنيمة والثناء الحسن، ولا في الآخرة من الأجر وما أعدّه الله للصالحين من عبادته. وقرأ مجاهد، وحמיד بن قيس، والأعرج، والزهرى، وابن أبي إسحاق (خاسراً الدنيا والآخرة) على صيغة اسم الفاعل منصوباً على الحال. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى خسران الدنيا والآخرة وهو مبتدأ وخبره ﴿وَهُوَ لِّلْخُسْرَانِ الْمُبِينِ﴾ أي: الواضح الظاهر الذي لا خسران مثله ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ﴾ أي: هذا الذي انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر يدعو من دون الله أي: يعبد متجاوزاً عبادة الله إلى عبادة الأصنام ما لا يضرُّه إن ترك عبادته، ولا ينفعه إن عبده لكون ذلك المعبود جامداً لا يقدر على ضرٍّ ولا نفع، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى الدعاء المفهوم من الفعل وهو يدعو، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: عن الحق والرشد مستعار من ضلال من سلك غير الطريق فصار بضلاله بعيداً عنها. قال الفراء: البعيد الطويل ﴿يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ يدعو بمعنى: يقول، والجملة مقررّة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالاً بعيداً. والأصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال بل هي ضرر بحت لمن يعبدها، لأنه دخل النار بسبب عبادتها، وإيراد صيغة التفضيل مع عدم

النفع بالمرة للمبالغة في تقبيح حال ذلك الداعي، أو ذلك من باب ﴿وَأَنَا أَوْلَىٰ بِكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: 24] واللام هي الموطنة للقسم، ومن موصولة أو موصوفة، وضرُّه مبتدأ خبره أقرب، والجملة صلة الموصول. وجملة ﴿لِبَيْتِ الْمَوْلَىٰ وَلِبَيْتِ الْعَشِيرِ﴾ جواب القسم، والمعنى: أنه يقول تلك الكافر يوم القيامة لمعبوده الذي ضرُّه أقرب من نفعه: لبَيْتِ الْمَوْلَىٰ أَنْتَ وَلِبَيْتِ الْعَشِيرِ، والمولى الناصر، والعشير للصاحب، ومثل ما في هذه الآية قول عنترة:

يدعون عنتراً والرماح كأنها أشطان بشر في لبان الأدهم
وقال الزجاج: يجوز أن يكون يدعو في موضع الحال، وفيه هاء محذوفة أي: تلك هو الضلال البعيد يدعو، وعلى هذا يوقف على يدعو، ويكون قوله: ﴿لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ كلاماً مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء، وخبره لبَيْتِ الْمَوْلَىٰ. قال: وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أول الكلام. وقال الزجاج والفراء: يجوز أن يكون يدعو مكررة على ما قبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء أي: يدعو ما لا يضرُّه ولا ينفعه يدعو مثل ضربت زيداً ضربت. وقال الفراء، والكسائي، والزجاج: معنى الكلام القسم، واللام مقمّمة على موضعها، والتقدير: يدعو من لضرُّه أقرب من نفعه، فمن في موضع نصب بيده، واللام جواب القسم وضرُّه مبتدأ، وأقرب: خبره، ومن التصرف في اللام بالتقديم والتأخير قول الشاعر:

خالي لانت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا
أي: لخالي أنت. قال النحاس: وحكى لنا علي بن سليمان عن محمد بن يزيد قال: في الكلام حذف، والمعنى: يدعو لمن ضرُّه أقرب من نفعه إلهاً. قال النحاس: وأحسب هذا القول غلطاً عن محمد بن يزيد، ولعل وجهه أن ما قبل اللام هذه لا يعمل فيما بعدها، وقال الفراء أيضاً: والقفال اللام صلة أي: زائدة، والمعنى: يدعو من ضرُّه أقرب من نفعه أي: يعبد، وهكذا في قراءة عبد الله بن مسعود بحذف اللام، وتكون اللام في (لبَيْتِ الْمَوْلَىٰ) وفي (لبَيْتِ الْعَشِيرِ) على هذا موطئة للقسم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لما فرغ من نكر حال المشركين، ومن يعبد الله على حرف نكر حال المؤمنين في الآخرة، وأخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة، وقد تقدّم الكلام في جري الأنهار من تحت الجنات، وبينّا أنه إن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها، فجرّان الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف أي: من تحت أشجارها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها أي: يفعل ما يريد من الأفعال ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23]. فيثبت من يشاء ويعذب من يشاء ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال النحاس: من أحسن ما قيل في هذه الآية أن المعنى: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ وأنه يتهاى له أن يقطع النصر الذي

والفضة، فنزلت ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾. وأخرج القرطبي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَن يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ قال: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً في الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ قال: فليربط بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ قال: إلى سماء بيته السقف ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ قال: ثم يقطع به حتى يموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه قال: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَن يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ يقول: أن لن يرزقه الله ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ فليأخذ حبلاً فليربطه في سماء بيته فليقطع به ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَذْهَبُنْ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ قال: فليظن هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجْرُسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بِهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّجَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالْأَنْدَادُ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ فَمَّا لَمْ يَمُوتْ يَكْرِهْ إِنَّ اللَّهَ يَعْمَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٧٨﴾ هَٰذَانِ حَصَنَانِ أَمْصَمُوا فِي رَيْبٍ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ وَنَارُ يَسَبُّ مَن قَبْلَ رُؤُسِهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٧٩﴾ وَكَمْ مَقْتَبِعٍ مِّنْ حَبِيدٍ ﴿٨٠﴾ كَلِمَاتُ آدَامَ أَنَّ يَحْزَنُوا وَمَنَّا مَن عَمِرَ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْخَرِقِ ﴿٨١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْرُونَ فِيهَا مِن دَرَاهِقٍ مِّنْ لَّيْسَ فِيهَا مِن دَهَبٍ وَزُلُفًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٨٢﴾ وَهَدُوا إِلَى الْغَلِيْبِ مَنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى مَرْكَبِ الْغَلِيْبِ ﴿٨٣﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله وبرسوله، أو بما ذكر من الآيات البينات ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود المنتسبون إلى ملة موسى ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ قوم يعبدون النجوم؛ وقيل: هم من جنس النصارى وليس ذلك بصحيح بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلى ملة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء ﴿وَالْمَجْرُسَ﴾ هم الذين يعبدون النار، ويقولون: إن للعالمين أصلين: النور والظلمة؛ وقيل: هم قوم يعبدون الشمس والقمر؛ وقيل: هم قوم يستعملون النجاسات؛ وقيل: هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح، وقيل: إنهم أخذوا بعض دين اليهود وبعض دين النصارى ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الذين يعبدون الأصنام، وقد مضى تحقيق هذا في البقرة، ولكنه سبحانه قدّم هنالك النصارى على الصابئين، وأخّره عنهم هنا. فقيل: وجه تقديم النصارى هنالك: أنهم أهل كتاب دون الصابئين، ووجه تقديم الصابئين هنا: أن زمنهم متقدم على زمن النصارى، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ في محل رفع على أنها خبر لأن المتقدمة، ومعنى الفصل: أنه سبحانه يقضي بينهم فيدخل المؤمنين منهم

أوتيه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ أي: ثم ليقطع النصر إن تهايا له ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَذْهَبُنْ كَيْدُهُ﴾ وحيلته ﴿مَا يَغِيظُ﴾ من نصر النبي ﷺ؛ وقيل: المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً حتى يظهره على الدين كله فليمت غيظاً، ثم فسره بقوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: فليشد حبلاً في سقف بيته ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ أي: ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً، والمعنى: فليقطع غيظاً حتى يموت، فإن الله ناصره ومظهره، ولا ينفعه غيظه؛ ومعنى فليظن هل يذهب كيدُهُ أي: صنيعه وحيلته ما يغيظ أي: غيظه، وما مصدريه؛ وقيل: إن الضمير في ينصره يعود إلى من، والمعنى: من كان يظن أن الله لا يرزقه فليقتل نفسه، وبه قال أبو عبيدة؛ وقيل: إن الضمير يعود إلى الدين أي: من كان يظن أن لن ينصر الله دينه. وقرأ الكوفيون بإسكان اللام في (ثم ليقطع) قال النحاس: وهذه القراءة بعيدة من العربية ﴿وَكُنْكَ لَنُزْلِنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: مثل ذلك الإنزال البين انزلناه آيات واضحة ظاهرة الدلالة على مبلولاتها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَرِيدُ﴾ هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهدياً من قبل.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ثَانِي عَطْفُهُ﴾ قال: لاري عنقه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والسدي، وابن يزيد، وابن جرير: أنه المعروض. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿ثَانِي عَطْفُهُ﴾ قال: أنزلت في النضر بن الحارث. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: هو رجل من بني عبد الدار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿ثَانِي عَطْفُهُ﴾ قال: مستكبراً في نفسه. وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً وانتجت خيله قال: هذا بين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه بسند صحيح قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ يسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جلب وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً نحوه، وفي إسناده العوفي. وأخرج ابن مردويه أيضاً من طريقه أيضاً عن أبي سعيد قال: «أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاهم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: اقلني، قال: إن الإسلام لا يقال، فقال: لم أصب من ديني هذا خيراً ذهب بصري ومالي ومات ولدي، فقال: يا يهودي الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب

لعقوبته؛ وقيل: المراد بالخصمين هم: الذين برزوا يوم بدر، فمن المؤمنين حمزة وعلي وعبيدة، ومن الكافرين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة. وقد كان أبو نر رضي الله عنه يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه في الصحيح، وقال بمثل هذا: جماعة من الصحابة، وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول. وقد ثبت في الصحيح أيضاً عن علي أنه قال: فينا نزلت هذه الآية. وقرأ ابن كثير **﴿هَٰذَا﴾** بتشديد النون، وقال سبحانه: **﴿اٰخِصْمُوْهُمْ﴾** ولم يقل اختصما. قال الفراء: لأنهم جمع، ولو قال اختصما لجاز، ومعنى **﴿فِي رَبِّهِمْ﴾** في شأن ربهم أي: في دينه، أو في ذاته، أو في صفاته، أو في شريعته لعباده، أو في جميع ذلك، ثم فصل سبحانه ما أجمله في قوله: **﴿يُفَصِّلُ بَيْنَهُمْ﴾** فقال: **﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾** قال الأزهرى: أي سويت وجعلت لبوساً لهم، شبهت النار بالثياب لأنها مشتملة عليهم كاشتغال الثياب، وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقق وقوعه؛ وقيل: إن هذه الثياب من نحاس قد آتيت فصار كالنار، وهي السراويل المذكورة في آية أخرى؛ وقيل: المعنى في الآية: أحاطت النار بهم. وقرئ **﴿قُطِعَتْ﴾** بالتخفيف ثم قال سبحانه: **﴿يُصَبِّبُ مِنْ فَوْقٍ رَعْسَهُمُ الْحَمِيمُ﴾** والحميم هو الماء الحار المغلي بنار جهنم، والجملة مستأنفة أو هي خبر ثانٍ للموصول **﴿يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ﴾** الصهر الإذابة، والصهارة ما ذاب منه، يقال: صهرت الشيء فانصهر أي: أثبتته فذاب فهو صهير، والمعنى: أنه يذاب بذلك الحميم ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء **﴿وَالْجُلُودُ﴾** معطوفة على ما أي: ويصهر به الجلود، والجملة في محل نصب على الحال؛ وقيل: إن الجلود لا تذاب، بل تحرق، فيقدر فعل يناسب ذلك، ويقال: وتحرق به الجلود كما في قول الشاعر:

علفتها تبناً وماءً بارداً

أي: وسقيتها ماء، ولا يخفى أنه لا ملجئ لهذا، فإن الحميم إذا كان يذيب ما في البطن فيأذيته للجلد الظاهر بالاولى **﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حديدٍ﴾** المقامع جمع مقمعة ومقمع قمعته ضربته بالمقمعة، وهي قطعة من حديد. والمعنى: لهم مقامع من حديد يضربون بها أي: للكفرة، وسميت المقامع مقامع لأنها تقع المضروب أي: تذلل. قال ابن السكيت: أقمعت الرجل عني إقماً: إذا أطلع عليك فربدتك عنك **﴿كَلِمًا اٰرَاوْا اَنْ يَخْرُجُوْا مِنْهَا﴾** أي: من النار **﴿اَعِدُوا فِيْهَا﴾** أي: في النار بالضرب بالمقامع، و **﴿مِنْ غَمٍّ﴾** بدل من الضمير في منها بإعادة الجار أو مفعول له أي: لأجل غم شديد من غموم النار **﴿وَنُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾** هو بتقدير القول أي: أعيدوا فيها؛ وقيل لهم نوقوا عذاب الحريق أي: العذاب المحرق، وأصل الحريق الاسم من الاحتراق، تحرق الشيء بالنار واحترق حرقاً واحتراقاً، والنوق مامسة يحصل معها إدراك الطعم، وهو هنا توسع، والمراد به: إدراك الألم. قال الزجاج: وهذا لأحد الخصمين.

الجنة والكافرين منهم النار؛ وقيل: الفصل هو أن يميز المحق من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما، وجملة **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** تحليل لما قبلها أي: أنه سبحانه على كل شيء من أفعال خلقه وأقوالهم شهيد لا يعزب عنه شيء منها، وأنكر الفراء أن تكون جملة **﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾** خبراً لأن المتقدمة. وقال لا يجوز في الكلام: إن زيداً إن أخاه منطلق، وردّ الزجاج ما قاله الفراء، وأنكره وأنكر ما جعله مماثلاً للآية، ولا شك في جواز قولك: إن زيداً إن الخير عنده، وإن زيداً إنه منطلق، ونحو ذلك **﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ﴾** الرؤية هنا هي القلبية لا البصرية أي: ألم تعلم، والخطاب لكل من يصلح له، وهو من تتأتى منه الرؤية، والمراد بالسجود هنا هو: الانقياد الكامل، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء، سواء جعلت كلمة من خاصة بالعقلاء، أو عامة لهم ولغيرهم، ولهذا عطف **﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالتَّوَابُ﴾** على من، فإن ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء، وإنما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت من، على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعداً في العادة، وارتفاع **﴿كثِيرٍ مِنَ النَّاسِ﴾** بفعل مضمّر يدل عليه المذكور أي: ويسجد له كثير من الناس؛ وقيل: مرتفع على الابتداء وخبره محذوف وتقديره: وكثير من الناس يستحق الثواب، والأول أظهر. وإنما لم يرتفع بالعطف على من، لأن سجد هؤلاء الكثير من الناس هو سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء، والمراد بالسجود المتقدم هو: الانقياد، فلما ارتفع بالعطف على من لكان في ذلك جمع بين معنيين مختلفين في لفظ واحد. وأنت خبير بأنه لا ملجئ، إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد، ولا شك أنه يصح أن يراد من سجد كثير من الناس هو انقيادهم لا نفس السجود الخاص، فارتفاعه على العطف لا بأس به، وإن أبي ذلك صاحب الكشاف ومتابعوه، وأما قوله: **﴿وَكثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾** فقال الكسائي والفراء: إنه مرتفع بالابتداء وخبره ما بعده؛ وقيل: هو معطوف على كثير الأول ويكون المعنى: وكثير من الناس يسجد وكثير منهم يأبى ذلك، وقيل: المعنى وكثير من الناس في الجنة وكثير حق عليه العذاب هكذا حكاه ابن الأنباري **﴿وَمَنْ يَهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ﴾** أي: من أهانه الله بأن جعله كافراً شقياً، فما له من مكرم يكرمه فيصير سعيداً عزيزاً. وحكى الأخفش والكسائي والفراء أن المعنى: ومن يهين الله فما له من مكرم أي: إكرام **﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ﴾** من الأشياء التي من جملتها ما تقدم ذكره من الشقاوة والسعادة والإكرام والإهانة **﴿هَٰذَا خِصْمَانِ﴾** الخصمان أحدهما أنجس الفرق: اليهود، والنصارى، والصابئون، والمجوس والذين أشركوا، والخصم الآخر: المسلمون، فهما فريقان مختصمان. قاله الفراء وغيره؛ وقيل: المراد بالخصمين الجنة والنار. قالت الجنة: خلقتني لرحمتي، وقالت النار: خلقتني

نَرَ أَنَّهُ كَانَ يَقْسِمُ قَسَمًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿هَٰذَا خَصْمَانُ﴾ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الثَّلَاثَةِ وَالثَّلَاثَةِ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بدر، وهم: حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث، وعلي بن أبي طالب وعتبة، وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، قال علي: وأنا أوَّل من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة، وأخرجه البخاري وغيره من حديث علي. وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس بنحوه، وهكذا روي عن جماعة من التابعين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿قَطَعْتَ لَهُمْ لِيَابَ مِنْ ثَارٍ﴾ قال: من نحاس، وليس من الآنية شيء إذا حُمِيَ أَشَدَّ حَرًّا مِنْهُ، وفي قوله: ﴿يَصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ قال: النحاس يذاب على رؤوسهم، وقوله: ﴿يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ قال: تسيل أمعاؤهم، و﴿الْجُلُودُ﴾ قال: تتناثر جلودهم. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وصححه، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه عن أبي هريرة أنه تلا هذه الآية ﴿يَصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْحَمِيمَ لِيَصْبُ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَيَنْفِذَ الْجَمْعَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَتْمِهِ وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يَعَادُ كَمَا كَانَ». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ قال: يمشون وأمعاءهم تتساقط وجلودهم. وفي قوله ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالويل والثبور. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: يسقون ماء إذا دخل في بطونهم أذابها والجلود مع البطون. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ مَقْعًا مِنْ حَدِيدٍ وَضَعَ فِي الْأَرْضِ فَاجْتَمَعَ الثَّقَلَانِ مَا أَقْلَوْهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَوْ ضَرَبَ الْجَبَلُ بِمَقْعٍ مِنْ حَدِيدٍ لَنَفَقَتْ ثُمَّ عَادَ كَمَا كَانَ». وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وهناك، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة لا يضيءُ لهبها ولا جمرها، ثُمَّ قَرَأَ ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. وفي الصحيحين وغيرهما عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ». وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال: ألهموا. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: هدوا إلى الطيب من القول في الخصومة إذ قالوا: الله مولانا ولا مولى لكم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن إسماعيل بن أبي خالد في الآية قال: القرآن ﴿وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ قال: الإسلام. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي

وقال في الخصم الآخر وهم المؤمنون ﴿إِنَّ اللَّهَ يَخْلُ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فَيَبِّينُ سُبْحَانَهُ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ بَيَانِهِ لِحَالِ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَعْضَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ بَعْدَ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ فَقَالَ: ﴿يَحِلُّونَ فِيهَا﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ (يحلون) بِالتَّشْدِيدِ وَالبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَقَرَأَ مَخْفَفًا أَي: يَحْلِيهِمْ اللَّهُ أَوْ الْمَلَائِكَةُ بِأَمْرِهِ. وَمِنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَسَاوَرُ﴾ لِلتَّبَعِضِ أَي: يَحْلُونَ بَعْضُ أَسَاوَرٍ أَوْ لِلْبَيَانِ، أَوْ زَلْذُدَةٍ، وَمِنْ فِي ﴿مَنْ ذَهَبَ﴾ لِلْبَيَانِ، وَالْأَسَاوَرُ جَمْعُ أَسْوَرَةٍ وَالْأَسْوَرَةُ جَمْعُ سَوَارٍ، وَفِي السَّوَارِ لَفْتَانٌ: كَسَرُ السَّيْنِ وَضَمُّهَا، وَفِيهِ لُغَةٌ ثَالِثَةٌ، وَهِيَ أَسَاوَرٌ. قَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَعَاصِمٌ، وَشَيْبَةُ (وَلَوْلَا) بِالنَّصْبِ عَظْفٌ عَلَى مَحَلِّ أَسَاوَرٍ أَي: وَيَحْلُونَ لَوْلَا، أَوْ بِفَعْلٍ مَقْتَرٍ يَنْصِبُهُ، وَهَكَذَا قَرَأَ بِالنَّصْبِ يَعْقُوبُ، وَالْجَحْدَرِيُّ، وَعِيسَى بْنُ عَمْرِو، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ هِيَ الْمَوَافَقَةُ لِرِسْمِ الْمُصْحَفِ فَإِنَّ هَذَا الْحَرْفَ مَكْتُوبٌ فِيهِ بِالْأَلْفِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْجَرِّ عَظْفًا عَلَى أَسَاوَرٍ أَي: يَحْلُونَ مِنْ أَسَاوَرٍ وَمِنْ لَوْلَا، وَاللَّوْلُو مَا يَسْتَخْرِجُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْ جَوْفِ الصَّنَفِ. قَالَ الْقَشِيرِيُّ: وَالْمَرَادُ تَرْصِيعُ السَّوَارِ بِاللَّوْلُو، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ فِي الْجَنَّةِ سَوَارٌ مِنْ لَوْلُو مَصْمُتٌ كَمَا أَنَّ فِيهَا أَسَاوَرٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أَي: جَمِيعٌ مَا يَلْبَسُونَهُ حَرِيرٌ كَمَا تَفِيدُهُ هَذِهِ الْإِضَافَةُ، وَيُجَوِّزُ أَنْ يَرَادَ: أَنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْمَلْبُوسِ الَّذِي كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا حَلَالٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ مِنْ جَمَلَةٍ مَا يَلْبَسُونَهُ فِيهَا، فَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَعْطَى مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ وَيُنَالُ مَا يَرِيدُهُ ﴿وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أَي: أَرْشَدُوا إِلَيْهِ، قِيلَ: هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقِيلَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَقِيلَ: الْقُرْآنُ؛ وَقِيلَ: هُوَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْبَشَارَاتِ. وَقَدْ رَدَّ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْمَجْمَلِ هُنَا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ [الزمر: 74]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: 34]، وَمَعْنَى ﴿وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أَنَّهُمْ أَرْشَدُوا إِلَى الصِّرَاطِ الْمَحْمُودِ وَهُوَ طَرِيقُ الْجَنَّةِ، أَوْ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي هُوَ بَيْنَهُ الْقَوِيمُ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ قال: هم قوم يعصبون الملائكة، ويصلون القبلة، ويقرون الزبور ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ عبدة الشمس والقمر والنيران، ﴿وَالَّذِينَ اشْرَكُوا﴾ عبدة الأوثان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ قال: الأديان ستة، فخمسة للشيطان، وبين الله عز وجل. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال: فصل قضاء بينهم فجعل الخمسة مشتركة وجعل هذه الأمة واحدة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: الذين هادوا: اليهود، والصابغون: ليس لهم كتاب، والمجوس: أصحاب الأصنام، والمشركون: نصارى العرب. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي

عمرو في الوقف، وحذفها نافع في الوصل والوقف. قال القرطبي: وأجمع الناس على الاستواء في المسجد الحرام نفسه.

واختلفوا في مكة فذهب مجاهد، ومالك إلى أن دور مكة ومنازلها يستوي فيها المقيم والطائر؛ وذهب عمر بن الخطاب، وابن عباس، وجماعة إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد، وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أم أبى. وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام، ولا لها منع الطائر من النزول فيها. والحاصل أن الكلام في هذا راجع إلى أصليين: الأصل الأول ما في هذه الآية هل المراد بالمسجد الحرام المسجد نفسه، أو جميع الحرم، أو مكة على الخصوص؟ والثاني هل كان فتح مكة صلحاً أو عنوة؟ وعلى فرض أن فتحها كان عنوة هل أقرها النبي ﷺ في يد أهلها على الخصوص؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم؟ وقد أوضحنا هذا في شرحنا على المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾** مفعول يرد محذوف لقصد التعميم، والتقدير: ومن يرد فيه مراداً أي: مراد بإلحاد أي: يعنول عن القصد، والإلحاد في اللغة الميل إلا أنه سبحانه بين هنا أنه الميل بظلم.

وقد اختلف في هذا الظلم ماذا هو؟ فقيل: هو الشرك؛ وقيل: الشرك والقتل؛ وقيل: صيد حيواناته وقطع أشجاره، وقيل: هو الحلف فيه بالآيمان الفاجرة، وقيل: المراد المعاصي فيه على العموم، وقيل: المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية في تلك المكان. وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود، وابن عمر، والضحاك، وابن زيد وغيرهم حتى قالوا: لو هم الرجل في الحرم يقتل رجل بعدن لعنّبه الله. والحاصل أن هذه الآية دلت على أن من كان في البيت الحرام مأخوذاً بمجرّد الإرادة للظلم، فهي مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها إلا أن يقال إن الإرادة فيها زيادة على مجرد حديث النفس، وبالجملّة فالبحت عن هذا وتقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الألة ويرفع الإشكال يطول جداً، ومثل هذه الآية حديث: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». فدخل النار هنا بسبب مجرد حرصه على قتل صاحبه. وقد أفرنا هذا البحث برسالة مستقلة، والباء في قوله: **﴿وبالإلحاد﴾** إن كان مفعول يرد محذوفاً كما نكرنا فليست بزيادة؛ وقيل: إنها زائدة هنا كقول الشاعر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج
أي: نرجو الفرج، ومثله:

ألم يأتيك والانباء تنمى بما لاقت لبون بني زياد
أي: ما لاقت، ومن القائلين بأنها زائدة الأخفش، والمعنى عنده: ومن يرد فيه إلحاداً بظلم. وقال الكوفيون: دخلت الباء لأن المعنى بأن يلحد، والباء مع أن تدخل وتحذف، ويجوز

حاتم عن الضحاك في الآية قال: الإسلام. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله الذي قال: **﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾** [فاطر: 10].

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّبِيلِ الَّذِي جَعَلْنَا لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَذَابُ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ يُؤَدِّ يَدَهُ بِالْعَمَلِ يُطْلَمُ نَذْرُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتَ لِسَاءِ الْبَيْنِ وَالْقَابِ وَالرَّصِيعِ الشَّجْوِ ﴿١٦﴾ وَأِذْنِي فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١٧﴾ لِيُخْبِرُوا مَتَّعٍ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَنْبَاءِ مُسَوِّدَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْسَمَةِ الْآفَنَةِ فَكَلَّمُوا بِهَا وَلَعَلَّوْا الْكَلَامَ الْقَبِيرَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ لَبَّيْكُمْ فَتَحْتُمْ وَلَيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَمِيقِ ﴿١٩﴾

قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** عطف المضارع على الماضي، لأن المراد بالمضارع: ما مضى من الصد، ومثل هذا قوله: **﴿الذين كفروا وصنوا عن سبيل الله﴾** [محمد: 1 - النحل: 88]، أو المراد بالصد ما هنا الاستمرار لا مجرد الاستقبال، فصح بذلك عطفه على الماضي، ويجوز أن تكون الواو في ويصدون واو الحال أي: كفروا والحال أنهم يصدون؛ وقيل: الواو زائدة والمضارع خبر إن والأولى أن يقدر خبر إن بعد قوله: **﴿واللّٰه﴾** وذلك نحو خسروا أو هلكوا. وقال الزجاج: إن الخبر نذره من عذاب أليم. ورد بأنه لو كان خبراً لأن لم يجز أن يضرباً لو كان خبراً لأن لبقى الشرط وهو **﴿ومن يرد﴾** بغير جواب فالأولى أنه محذوف كما نكرنا والمراد بالصد: المنع وبسبيل الله دينه أي: يمنعون من أراد الدخول في دين الله والمسجد الحرام، معطوف على سبيل الله قيل: المراد به المسجد نفسه كما هو الظاهر من هذا النظم القرآني، وقيل: الحرم كله، لأن المشركين صنوا رسول الله ﷺ وأصحابه عنه يوم الحديبية؛ وقيل: المراد به: مكة بليل قوله: **﴿الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد﴾** أي: جعلناه للناس على العموم يصلون فيه ويطوفون به مستويين فيه العاكف، وهو المقيم فيه الملازم له والباد أي الواصل من البادية، والمراد به: الطائر عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم وانتصاب سواء على أنه المفعول الثاني لجعلناه، وهو بمعنى مستويين، والعاكف مرتفع به، وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقرع والتوبيخ للصائين عنه، ويحتمل أن يكون انتصاب **﴿سواء﴾** على الحال. وهذا على قراءة النصب، وبها قرأ حفص عن عاصم، وهي قراءة الأعمش، وقرأ الجمهور برفع (سواء) على أنه مبتدأ وخبره (العاكف) أو على أنه خبر مقدم، والمبتدأ (العاكف) أي: العاكف فيه والبادي سواء، وقرئ بنصب (سواء) وجز (العاكف) على أنه صفة للناس أي: جعلناه للناس العاكف والبادي سواء، وثابت الباء في البادي ابن كثير وصلاً ووقفاً، وحذف أبو

وقرأ ابن أبي إسحاق في كل القرآن بكسرهما **﴿يأتوك﴾** رجلاً. هذا جواب الأمر، وعده الله إجابة الناس له إلى حج البيت ما بين رجل وراكب، فمعنى رجلاً: مشاة جمع رجل؛ وقيل: جمع رجل. وقرأ ابن أبي إسحاق (رجلاً) بضم الراء وتخفيف الجيم، وقرأ مجاهد (رجالي) على وزن فعالي مثل كسالي، وقدم الرجال على الركبان في الذكر لزيادة تعبه في المشي، وقال: يأتوك وإن كانوا يأتون البيت، لأن من أتى الكعبة حاجاً فقد أتى إبراهيم، لأنه أجاب نداه **﴿وعلى كل ضامر﴾** عطف على رجلاً أي: وركباناً على كل بعير، والضامر البعير المهزول الذي أتعبه السفر، يقال: ضمر يضمّر ضموراً، ووصف الضامر بقوله: **﴿يأتين﴾** باعتبار المعنى، لأن ضامر في معنى ضומר، وقرأ أصحاب ابن مسعود، وابن أبي عبيدة، والضحاك (يأتون) على أنه صفة لرجلاً. والفج الطريق الواسع الجمع فجاج، والعميق البعيد، واللام في **﴿ليشهدوا منافع لهم﴾** متعلقة بقوله يأتوك؛ وقيل: بقوله وآئن، والشهود الحضور، والمنافع هي تعم منافع الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بها المناسك، وقيل: المغفرة؛ وقيل: التجارة كما في قوله: **﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾** [البقرة: 198]. **﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾** أي: يذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله؛ وقيل: إن هذا الذكر كناية عن الذبح لأنه لا ينفك عنه. والأيام المعلومات هي أيام النحر كما يفيد ذلك قوله: **﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾** وقيل: عشر ذي الحجة. وقد تقدم الكلام في الأيام المعلومات والمعدودات في البقرة فلا نعيده، والكلام في وقت ذبح الأضحية معروف في كتب الفقه وشروح الحديث، ومعنى: على ما رزقهم: على ذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، وبهيمة الأنعام هي الأنعام فالإضافة في هذا كالإضافة في قولهم: مسجد الجامع وصلاة الأولى **﴿فكلوا منها﴾** الأمر هنا للنذب عند الجمهور، وذهبت طائفة إلى أن الأمر للوجوب، وهذا التفتت من الغيبة إلى الخطاب **﴿وأطعموا البائس الفقير﴾** البائس ذو اليأس وهو شدة الفقر فنكر الفقير بعده لمزيد الإيضاح، والأمر هنا للوجوب؛ وقيل: للنذب **﴿ثم ليقتضوا تفهم﴾** المراد بالقضاء هنا هو الثانية أي: ليؤدوا إزالة وسخهم، لأن التفتت هو الوسخ والقذارة من طول الشعور والأظفار، وقد أجمع المفسرون كما حكاها النيسابوري على هذا. قال الزجاج: إن أهل اللغة لا يعرفون التفتت. وقال أبو عبيدة: لم يأت في الشعر ما يحتج به في معنى التفتت. وقال الميزد: أصل التفتت في اللغة كل قانونه تلحق الإنسان، وقيل: قضاؤه أدعائه لأن الحاج مغبر شعث لم يدهن ولم يستحد، فإذا قضى نسكه وخرج من إحرامه حلق شعره ولبس ثيابه، فهذا هو قضاء التفتت. قال الزجاج: كأنه خروج من الإحرام إلى الإحلال **﴿وليوفوا بنورهم﴾** أي: ما يتنورون به من البر في حجهم، والأمر للوجوب، وقيل: المراد بالنور هنا: أعمال الحج **﴿وليطفؤوا بالنار﴾**

أن يكون التقدير: ومن يرد الناس بإلحاد؛ وقيل: إن يرد مضمن معنى يهيم، والمعنى: ومن يهيم فيه بإلحاد. وأما الباء في قوله بظلم فهي للسببية، والمعنى: ومن يرد فيه بإلحاد بسبب الظلم، ويجوز أن يكون بظلم بدلاً من بإلحاد بإعادة الجواز ويجوز أن يكونا حالين مترانفين **﴿وإذا بؤنا لإبراهيم مكان البيت﴾** أي: وانكر وقت ذلك، يقال بؤاته منزلاً وبؤات له كما يقال مكنتك ومكنت لك. قال الزجاج: معناه جعلنا مكان البيت ميواً لإبراهيم، ومعنى بؤنا: بينا له مكان البيت، ومثله قول الشاعر:

كمن من أخ لي ماجد بؤاته بيدي لحداً
وقال الفراء: إن اللام زائدة ومكان ظرف أي: أنزلناه فيه **﴿ألا تشرك بي شيئاً﴾** قيل: إن هذه هي مفسرة لبؤنا لتضمنه معنى تعبتنا، لأن التبوئة هي للعبادة. وقال أبو حاتم: هي مصدرية أي: لأن لا تشرك بي؛ وقيل: هي المخففة من الثقيلة، وقيل: هي زائدة؛ وقيل: معنى الآية: وأوحينا إليه أن لا تعبد غيري. قال المبرد: كأنه قيل له وحدي في هذا البيت، لأن معنى لا تشرك بي وحدي **﴿وطهر بيتي﴾** من الشرك وعبادة الأوثان. وفي الآية طعن على ما أشرك من قطن البيت أي: هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأنتم فلم تفوا بل أنشركم. وقالت فرقة: الخطاب بقوله: **﴿ألا تشرك﴾** لمحمد ﷺ وهذا ضعيف جداً. ومعنى **﴿وطهر بيتي﴾** تطهيره من الكفر والأوثان والدماء وسائر النجاسات، وقيل: عنى به التطهير عن الأوثان فقط، وذلك أن جرمها والعمالة كانت لهم أصنام في محل البيت، وقد مر في سورة براءة ما فيه كفاية في هذا المعنى، والمراد بالقائمين هنا: هم المصلون **﴿وذكر الركع السجود﴾** بعده لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة، وقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا في البيت، فالطواف عنده والصلاة إليه **﴿وآذن في الناس بالحج﴾** قرأ الحسن وابن محيصن (وآذن) بتخفيف الذال والمد. وقرأ الباقون بتشديد الذال، والأذان الإعلام، وقد تقدم في براءة.

قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت جاءه جبريل فأمره أن يؤذن في الناس بالحج، فقال: يا رب من يبلغ صوتي؟ فقال الله سبحانه: آذن وعليّ البلاغ، فعلا المقام فأشرف به حتى صار كاعلى الجبال، فأدخل أصبعيه في آذنيه وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً وقال: يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم، فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء: لبك اللهم لبك؛ وقيل: إن الخطاب لنبيينا محمد ﷺ. والمعنى: أعلمهم يا محمد بوجوب الحج عليهم، وعلى هذا فالخطاب لإبراهيم انتهى عند قوله: **﴿والركع السجود﴾** وقيل: إن خطابه انقضى عند قوله: **﴿وإذا بؤنا لإبراهيم مكان البيت﴾** وإن قوله: **﴿أن لا تشرك بي﴾** وما بعده خطاب لنبيينا محمد ﷺ، وقرأ الجمهور (بالحج) بفتح الحاء،

الانصار، فافتخروا في الانساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الانصاري ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة، فنزلت فيه **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾** يعني: من لجأ إلى الحرم بإلحاد، يعني: بميل عن الإسلام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾** قال: بشرك. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن يعلى بن أمية، عن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه». وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في تاريخه، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: بيع الطعام بمكة إلحاد. وأخرج البيهقي في الشعب عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «احتكار الطعام بمكة إلحاد». وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، عن علي قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر. فلما قدم مكة رأى على رابية في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس، فكلمه فقال: يا إبراهيم ابن علي ظلي أو على قدري ولا تزد ولا تنقص، فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر، وذلك حين يقول الله: **﴿وإذ بؤنا إبراهيم مكان البيت﴾** الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطاء **﴿والقائمين﴾** قال: المصلين عنده. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة معناه. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: رب قد فرغت، فقال: **﴿أذن في الناس بالحج﴾** قال: رب وما يبلغ صوتي؟ قال أنن وعليّ البلاغ، قال: رب كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فسمعه من في السماء والأرض، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبنون. وفي الباب آثار عن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿ليشهدوا منافع لهم﴾** قال: أسواقاً كانت لهم، ما نكر الله منافع إلا الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة، فاما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فمما يصيبون من لحوم البدن في تلك اليوم والذبايح والتجارات. وأخرج أبو بكر المروزي في كتاب العينين عنه أيضاً قال: الأيام المعلومات: أيام العشر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: أيام التشريق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً في الأيام المعلومات قال: قبل يوم التروية بيوم، ويوم التروية ويوم عرفة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: البائس الزمن. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عمر

العتيق **﴿هذا الطواف هو طواف الإفاضة﴾** قال ابن جرير: لا خلاف في ذلك بين المتأولين، والعتيق القديم كما يفيد قوله سبحانه: **﴿إن أول بيت وضع للناس﴾** [آل عمران: 96] الآية، وقد سمي العتيق لأن الله اعتقه أن يتسلط عليه جبار؛ وقيل: لأن الله يعتق فيه رقاب المنذبن من العذاب؛ وقيل: لأنه اعتق من غرق الطوفان؛ وقيل: العتيق للكرم.

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: **﴿والمسجد الحرام﴾** قال: الحرم كله، وهو المسجد الحرام **﴿سواء العاكف فيه والباد﴾** قال: خلق الله فيه سواء. وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبيرة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: هم في منازل مكة سواء، فينبغي لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم. وقال البادي وأهل مكة سواء، يعني: في المنزل والحرم. وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال: من أخذ من أجور بيوت مكة إنما ياكل في بطونه ناراً. وأخرج ابن سعد عن عمر بن الخطاب، أن رجلاً قال له عند المروة: يا أمير المؤمنين أقطعني مكاناً لي ولعقبتي، فأعرض عنه عمر وقال: هو حرم الله سواء العاكف فيه والباد. وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال: كان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبواباً حتى ينزل الحاج في عرصات الدور. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه قال السيوطي بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله الله: **﴿سواء العاكف فيه والباد﴾** قال: سواء المقيم والذي يدخل». وأخرج ابن مريويه عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قال: «مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن ماجه، عن علقمة بن نضلة قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوايب، من احتاح سكن ومن استغنى أسكن. رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عيسى بن يونس، عن عمر بن سعيد بن أبي حفرة، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة فنكره. وأخرج الدارقطني عن ابن عمر مرفوعاً: «من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً». وأخرج القرطبي، وسعيد بن منصور، وابن راهويه، وأحمد، وعبد بن حميد، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن مسعود رفعه في قوله: **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾** قال: لو أن رجلاً هم فيه بإلحاد وهو يعدن أبين لأذاقه الله عذاباً أليماً. قال ابن كثير: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه، ولهذا صمم شعبة على وقفه. وأخرج سعيد بن منصور، والطبراني عن ابن مسعود في الآية قال: من هم بخطيئة فلم يعملها في سوى البيت لم تكتب عليه حتى يعملها، ومن هم بخطيئة في البيت لم يمته الله من الدنيا حتى ينفيقه من عذاب اليم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أنيس: أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من

قال: التفت المناسك كلها. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: التفت حلق الرأس، والأخذ من العارضين، وتفت الإبط، وحلق العانة، والوقوف بعرفة، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، وقص الأظفار، وقص الشارب والذبح. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه **﴿وَلِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾** هو طواف الزيارة يوم النحر، وورد في وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، وورد في فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فُهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿١٦﴾ حُفَّةً لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ مُشْرِكِي بَيْتِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ تَخِطُّهُ الشَّحَابُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ مُشْرِكٌ اللَّهُ فَإِنَّهُ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿١٨﴾ لَوْ أَنَّهُ مَنُفَعٌ إِلَى أَهْلِ نَفْسٍ ثُمَّ يَحْلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿١٩﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَمَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَقْدَارًا فِيهِ يُتْلَى ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ حَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَأَلْفَيْتُمْ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ الْمُنْيَمُ وَالْمُنْيَمُ يُعُفِّرُهُمْ يُفْقَرُونَ ﴿٢١﴾

محل **﴿ذلك﴾** الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلك، أو مبتدأ خبره محذوف أو في محل نصب بفعل محذوف أي: افعلوا ذلك، والمشار إليه هو ما سبق من أعمال الحج، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين طرفي كلام واحد، والحرمان جمع حرمة. قال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرمة التفريط فيه، وهي في هذه الآية ما نهى عنها ومنع من الوقوع فيها. والظاهر من الآية عموم كل حرمة في الحج وغيره كما يفيد اللفظ وإن كان السبب خاصاً، وتعظيمها ترك ملاسستها **﴿فهو خير له﴾** أي: فالتعظيم خير له **﴿عند ربه﴾** يعني: في الآخرة من التهاون بشيء منها؛ وقيل: إن صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناها الحقيقي، بل المراد: أن ذلك التعظيم خير ينتفع به، فهي عدة بخير **﴿ولحلت لكم الأنعام﴾** وهي الإبل والبقر والغنم **﴿إلا ما يتلى عليكم﴾** أي: في الكتاب العزيز من المحرمات، وهي الميتة وما ذكر معها في سورة المائدة؛ وقيل في قوله: **﴿إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾** [المائدة: 1]. **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾** الرجس: القذر، والوثن: التمثال، وأصله من وثن الشيء أي: أقام في مقامه، وسمى الصليب وثناً لأنه ينصب ويركز في مقامه، فلا يبرح عنه والمراد اجتناب عبادة الأوثان، وسماها رجساً لأنها سبب الرجس وهو العذاب؛ وقيل: جعلها سبحانه رجساً حكماً، والرجس النجس، وليست النجاسة وصفاً ذاتياً لها ولكنها وصف شرعي، فلا تزول إلا بالإيمان كما أنها لا

تزال النجاسة الحسية إلا بالماء. قال الزجاج: من هنا لتخليص جنس من أجناس أي: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن **﴿واجتنبوا قول الزور﴾** الذي هو الباطل، وسمى زوراً لأنه مائل عن الحق، ومنه قوله تعالى: **﴿تجاوز عن كنههم﴾** [الكهف: 17]. وقولهم مدينة زوراء أي: مثالة، والمراد هنا: قول الزور على العموم، وأعظمه الشرك بالله بأي لفظ كان. وقال الزجاج: المراد بقول الزور ما هنا: تحليلهم بعض الأنعام وتحريمهم بعضها، وقولهم: **﴿هذا حلال وهذا حرام﴾** [النحل: 116]؛ وقيل: المراد به شهادة الزور، وانتصاب **﴿حنفاء﴾** على الحال أي: مستقيمين على الحق، أو مائلين إلى الحق. ولفظ حنفاء من الأضداد يقع على الاستقامة، ويقع على الميل؛ وقيل: معناه حجاجاً، ولا وجه لهذا **﴿غير مشركين به﴾** هو حال كالأول أي: غير مشركين به شيئاً من الأشياء كما يفيد الحذف من العموم، وجملة **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء﴾** مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب، ومعنى خر من السماء: سقط إلى الأرض أي: انحط من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر **﴿فتخطفه الطير﴾**، يقال: خطفه يخطفه إذا سلبه، ومنه قوله: **﴿يخطف أبصارهم﴾** [البقرة: 20]. أي: تخطف لحمة وتقطعه بمخالبها. قرأ أبو جعفر ونافع بتشديد الطاء وفتح الخاء، وقرأ بكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما **﴿أو تهوي به الريح﴾** أي: تقذفه وترمي به **﴿في مكان سحيق﴾** أي: بعيد، يقال: سحق يسحق سحقاً فهو سحيق إذا بعد، قال الزجاج: أعلم الله أن بعد من أشرك به من الحق كبعد ما خر من السماء، فذهب به الطير أو هوت به الريح في مكان بعيد **﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله﴾** الكلام في هذه الإشارة قد تقدم قريباً والشعائر جمع الشعيرة، وهي كل شيء فيه لله تعالى شعار، ومنه شعار القوم في الحرب، وهو علامتهم التي يتعارفون بها، ومنه إشعار البدن، وهو الطعن في جانبها الأيمن، فشعائر الله أعلام بينه، وتدخل الهدايا في الحج بخلاً أولياً، والضمير في قوله: **﴿فإنها من تقوى القلوب﴾** راجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف أي: فإن تعظيمها من تقوى القلوب أي: من أفعال القلوب التي هي من التقوى، فإن هذا التعظيم ناشئ من التقوى **﴿لكم فيها منافع﴾** أي: في الشعائر على العموم، أو على الخصوص، وهي البدن كما يدل عليه السياق. ومن منافعها الركوب والذبح والنسل والصوف وغير ذلك **﴿إلى أجل مسمى﴾** وهو وقت نحرها **﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾** أي: حيث يحل نحرها، والمعنى: أنها تنتهي إلى البيت وما يليه من الحرم، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرة إلى وقت نحرها، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية، وقيل: إن محلها هنا مأخوذ من إحلال الحرم، والمعنى: أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي تنتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت، فالبيت على هذا مراد بنفسه **﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾** المنسك

محل **﴿ذلك﴾** الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلك، أو مبتدأ خبره محذوف أو في محل نصب بفعل محذوف أي: افعلوا ذلك، والمشار إليه هو ما سبق من أعمال الحج، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين طرفي كلام واحد، والحرمان جمع حرمة. قال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرمة التفريط فيه، وهي في هذه الآية ما نهى عنها ومنع من الوقوع فيها. والظاهر من الآية عموم كل حرمة في الحج وغيره كما يفيد اللفظ وإن كان السبب خاصاً، وتعظيمها ترك ملاسستها **﴿فهو خير له﴾** أي: فالتعظيم خير له **﴿عند ربه﴾** يعني: في الآخرة من التهاون بشيء منها؛ وقيل: إن صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناها الحقيقي، بل المراد: أن ذلك التعظيم خير ينتفع به، فهي عدة بخير **﴿ولحلت لكم الأنعام﴾** وهي الإبل والبقر والغنم **﴿إلا ما يتلى عليكم﴾** أي: في الكتاب العزيز من المحرمات، وهي الميتة وما ذكر معها في سورة المائدة؛ وقيل في قوله: **﴿إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾** [المائدة: 1]. **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾** الرجس: القذر، والوثن: التمثال، وأصله من وثن الشيء أي: أقام في مقامه، وسمى الصليب وثناً لأنه ينصب ويركز في مقامه، فلا يبرح عنه والمراد اجتناب عبادة الأوثان، وسماها رجساً لأنها سبب الرجس وهو العذاب؛ وقيل: جعلها سبحانه رجساً حكماً، والرجس النجس، وليست النجاسة وصفاً ذاتياً لها ولكنها وصف شرعي، فلا تزول إلا بالإيمان كما أنها لا

معاصيه كلها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ يقول: اجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان ﴿واجتنبوا قول الزور﴾ يعني: الافتراء على الله والتكذيب به. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عن أيمن بن حريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور شركاً بالله ثلاثاً، ثم قرأ ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾». قال أحمد: غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن حريم سماعاً من النبي ﷺ. وقد أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في الشعب من حديث حريم. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً، فجلس فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿حنفاء لله غير مشركين به﴾ قال: حجاجاً لله غير مشركين به، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين، فلما أظهر الله الإسلام، قال الله للمسلمين: حجوا الآن غير مشركين بالله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر الصديق نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾ قال: البدين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام، وفي قوله: ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ قال: إلى أن تسمى بدنًا. وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه، وفيه قال: ولكم فيها منافع إلى أجل مسمى، في ظهورها وألبانها وأوبارها وأشعارها وأصوافها إلى أن تسمى هدياً، فإذا سميت هدياً ذهب المنافع ﴿ثم محلها﴾ يقول: حين تسمى إلى البيت العتيق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة قال: إذا نخلت الحرم فقد بلغت محلها. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ قال: عيداً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: إهراق الدماء. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: نبأ. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في الآية قال: مكة لم يجعل الله لامة قط منسكاً غيرها. وقد روت أحاديث في الأضحية ليس هذا موضع نكرها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وبشر المخبتين﴾ قال: المطمئنين. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في ذم الغضب، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن

ها هنا المصدر من نسك ينسك إذا نبج القربان، والذبيحة نسيكة، وجمعها نسك. وقال الأزهري: إن المراد بالمنسك في الآية: موضع النحر، ويقال: منسك بكسر السين وفتحها لغتان قرأ بالكسر الكوفيون إلا عاصماً وقرأ الباقون بالفتح. وقال الفراء: المنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد في خير أو شر، وقال ابن عرفة: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ أي: مذهباً من طاعة الله. وروي عن الفراء أن المنسك العيد؛ وقيل: الحج، والأول أولى لقوله: ﴿لينكروا اسم الله﴾ إلى آخره، والامة: الجماعة المجتمعة على مذهب واحد، والمعنى: وجعلنا لكل أهل دين من الأتيان نبأ ينبحونه وبما يريقونه، أو متعبداً أو طاعة أو عيداً أو حجاً يحجون، لينكروا اسم الله وحده ويجعلوا نسكهم خاصاً به ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ أي: على نبج ما رزقهم منها، وفيه إشارة إلى أن القربان لا يكون إلا من الأنعام بون غيرها، وفي الآية دليل على أن المقصود من الذبح المنكور هو نكر اسم الله عليه. ثم أخبرهم سبحانه بتفردة بالإلهية وأنه لا شريك له، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، ثم أمرهم بالإسلام له، والانقياد لطاعته وعبادته، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للقصر، والفاء هنا كالفاء التي قبلها، ثم أمر رسوله ﷺ بأن يبشر ﴿المخبتين﴾ من عباده أي: المتواضعين الخاشعين المخلصين، وهو مأخوذ من الخبيت، وهو المنخفض من الأرض، والمعنى: بشرهم يا محمد بما أعد الله لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه؛ وقيل: إن المخبتين هم الذين لا يظلمون غيرهم وإذا ظلمهم غيرهم لم ينتصروا، ثم وصف سبحانه هؤلاء المخبتين بقوله: ﴿الذين إذا نكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: خافت وحذرت مخالفته، وحصول الوجع منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوة إيمانهم، ووصفهم بالصبر ﴿على ما أصابهم﴾ من البلايا والمحن في طاعة الله ثم وصفهم بإقامة ﴿الصلاة﴾ أي: الإتيان بها في أوقاتها على وجه الكمال. قرأ الجمهور والمقيمي الصلاة بالجر على ما هو الظاهر، وقرأ أبو عمرو بالنصب على توهم بقاء النون، وأنشد سيبويه على ذلك قول الشاعر:

الحافظ عورة العشيرة

البيت بنصب عورة، وقيل: لم يقرأ بهذه القراءة أبو عمرو، وقرأ ابن محيصن (والمقيمين) بإثبات النون على الأصل، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود، ثم وصفهم سبحانه بقوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي: يتصدقون به وينفقونه في وجوه البر، ويضعونه في مواضع الخير، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا نكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زانته إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ [الأنفال: 2].

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿حرمات الله﴾ قال: الحرمة مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من

المسألة. وبالأول قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبيرة والحسن، وروي عن ابن عباس. وبالثاني قال عنزة وقتادة. وأما المعتز، فقال محمد بن كعب القرظي، ومجاهد، وإبراهيم، والكلبي، والحسن: أنه الذي يتعرض من غير سؤال، وقيل: هو الذي يعتريك ويسالك. وقال مالك: أحسن ما سمعت أن القانع: الفقير، والمعتز: الزائر. وروي عن ابن عباس: أن كلاهما الذي لا يسأل، ولكن القانع الذي يرضى بما عنده ولا يسأل، والمعتري الذي يتعرض لك ولا يسالك. وقرأ الحسن والمعتري ومعناه كمعنى المعتز، ومنه قول زهير:

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين الساحة والبذل

يقال: عتراه واعتراه وعزّه وعراه: إذا تعرض لما عنده أو طلبه، نكره النحاس **﴿كنك سخرناها لكم﴾** أي: مثل ذلك التسخير البديع سخرناها لكم، فصارت تنقاد لكم إلى مواضع نحرها فتتحرّونها وتتفتعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهرها والحلب لها ونحو ذلك **﴿لعلكم تشكرون﴾** هذه النعمة التي أنعم الله بها عليكم **﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾** أي: لن يصعد إليه ولا يبلغ رضاه ولا يقع موقع القبول منه لحوم هذه الإبل التي تتصدقون بها ولا دماؤها التي تنصب عند نحرها من حيث إنها لحوم ودماء **﴿ولكن يناله﴾** أي: يبلغ إليه تقوى قلوبكم، ويصل إليه إخلاصكم له وإراتكم بذلك وجهه، فإن ذلك هو الذي يقبله الله ويجازي عليه؛ وقيل: المراد أصحاب اللحوم والدماء أي: لن يرضى المضحون والمتقربون إلى ربهم باللحوم والدماء ولكن بالتقوى. قال الزجاج: أعلم الله أن الذي يصل إليه تقواه وطاعته فيما يأمر به، وحقيقة معنى هذا الكلام تعود إلى القبول، وذلك أن ما يقبله الإنسان يقال قد ناله ووصل إليه، فخطب الله الخلق كعائتهم في مخاطبتهم **﴿كنك سخرها لكم﴾** كرّ هذا للتذكير، ومعنى **﴿لتكبروا الله على ما هداكم﴾** هو قول الناحر: الله أكبر عند النحر، فنكر في الآية الأولى الأمر بذكر اسم الله عليها، ونكر هنا التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير، وقيل: المراد بالتكبير وصفه سبحانه بما يدل على الكبرياء، ومعنى **﴿على ما هداكم﴾** على ما أرشدكم إليه من علمكم بكيفية التقرب بها، وما مصدريه، أو موصولة **﴿وبشر المحسنين﴾** قيل: المراد بهم المخلصون؛ وقيل: الموحون. والظاهر أن المراد بهم كل من يصدر منه من الخير ما يصح به إطلاق اسم المحسن عليه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عبد الله بن عمر قال: لا نعلم البين إلا من الإبل والبقر. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: البين ذات الجوف. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: ليس البين إلا من الإبل، وأخرجوا عن الحكم نحوه، وأخرجوا عن عطاء نحو ما قال ابن عمر. وأخرج ابن أبي شيبة عن، سعيد بن المسيب نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه

عمرو بن أوس قال: المخبتون في الآية الذين لا يظلمون الناس، وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكَ مِنْ شَتَّى أَلْفٍ لَكَ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا رَجَعْتَ جُؤِبَا نَكَلُوا يَتَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرِ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِمَلَكُم تَشْكُرُونَ ﴿٣١﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحْمُهَا وَلَا دَمُهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ الْقَوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَيُبَيِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٢﴾

قرأ ابن أبي إسحاق **﴿والبدن﴾** بضم الباء والدال، وقرأ الباقر بإسكان الدال وهما لغتان، وهذا الاسم خاص بالإبل، وسميت بدنة لأنها تبدين، والبدانة: السمن. وقال أبو حنيفة ومالك: إنه يطلق على غير الإبل، والأول أولى لما سيأتي من الأوصاف التي هي ظاهرة في الإبل، ولما تفيد كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالإبل. وقال ابن كثير في تفسيره: واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح في الحديث **﴿جعلناها لكم﴾** وهي ما تقدم بيانه قريباً **﴿لكم فيها خير﴾** أي: منافع دينية ودنيوية كما تقدم **﴿فانكروا اسم الله عليها﴾** أي: على نحرها ومعنى **﴿صواف﴾** أنها قائمة قد صفت قوائمها، لأنها تنحر قائمة معقولة، وأصل هذا الوصف في الخيل يقال: صفن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثني الرابعة. وقرأ الحسن، والأعرج، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وأبو موسى الأشعري (صوافي) أي: خوالصه لا تشركون به في التسمية على نحرها أحداً، وواحد صواف صافة، وهي قراءة الجمهور. وواحد صوافي صافية، وقرأ ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وأبو جعفر، ومحمد بن علي (صوافن) بالنون جمع صافنة، والصفانة هي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لثلاً تضطرب، ومنه قوله تعالى: **﴿الصفافن الجياد﴾** [ص: 31]. ومنه قول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا

وقال الآخر:

الف الصفون فما يزال كانه مما يقوم على الثلاث كسير

﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ الوجوب السقوط أي: فإذا سقطت بعد نحرها، وذلك عند خروج روحها **﴿فكلوا منها﴾** ذهب الجمهور أن هذا الأمر للنبي **﴿واطعموا القانع والمعتز﴾** هذا الأمر قيل: هو للنبي كالأول، وبه قال مجاهد، والنخعي، وابن جرير، وابن سريج، وقال الشافعي وجماعة: هو للوجوب.

واختلف في القانع من هو؟ فقيل: هو السائل، يقال: قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرهما إذا سأل، ومنه قول الشماخ: لمال المرء يصلحه فيغني مفارقة أعف من القنوع أي السؤال؛ وقيل: هو المتعفف عن السؤال المستغني ببلغة، ذكر معناه الخليل. قال ابن السكيت: من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة، وهي الرضا والتعفف وترك

قرأ أبو عمرو وابن كثير (ينفع) وقرأ الباقون يدافع وصيغة المفاعلة هنا مجرّدة عن معناها الأصلي، وهو وقوع الفعل من الجانبين كما تدلّ عليه القراءة الأخرى. وقد ترد هذه الصيغة ولا يراد بها معناها الأصلي كثيراً مثل عاقبت اللص ونحو ذلك، وقد قلّمنا تحقيقه، وقيل: إن إيراد هذه الصيغة هنا للمبالغة؛ وقيل: للدلالة على تكرار الواقع. والمعنى: يدافع عن المؤمنين غوائل المشركين، وقيل: يعلي حجتهم؛ وقيل: يوفّقهم والجملة مستأنفة لبيان هذه المزية للحاصلة للمؤمنين من ربّ العالمين، وأنه المتولي للمدافعة عنهم، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ مقرّرة لضمون الجملة الأولى، فإن المدافعة من الله لهم عن عبادة المؤمنين مشعرة أتمّ إشعار بانهم مبغضون إلى الله غير محبوبين له. قال الزجاج: من ذكر غير اسم الله وتقرّب إلى الأصنام بنبيحته فهو خوّان كفور، وإيراد صيغتي المبالغة للدلالة على أنهم كذلك في الواقع لا لإخراج من خان دون خيانتهم، أو كفر دون كفرهم ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَانِهِمْ ظُلُمًا﴾ قرئ (أذن) مبنياً للفاعل ومبنياً للمفعول وكذلك يقاتلون، قرئ مبنياً للفاعل ومبنياً للمفعول، وعلى كلا القراءتين فالإذن من الله سبحانه لعباده المؤمنين بانهم إذا صلحوا للقتال، أو قاتلهم المشركون قاتلوهم. قال المفسرون: كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ باستنّهم وإيديهم، فيشكّون ذلك إلى رسول الله ﷺ، فيقول لهم: «اصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر»، فانزل الله سبحانه هذه الآية بالمدينة، وهي أوّل آية نزلت في القتال. وهذه الآية مقرّرة أيضاً لمضمون قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ﴾ فإن إباحة القتال لهم هي من جملة دفع الله عنهم، والباء في ﴿بَانِهِمْ ظُلُمًا﴾ للسببية أي: بسبب أنهم ظلّموا بما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب وطرد، ثم وعدهم سبحانه النصر على المشركين، فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وفيه تأكيد لما مرّ من المدافعة أيضاً. ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ويجوز أن يكون بدلاً من الذين يقاتلون، أو في محل نصب على المدح، أو محل رفع بإضمار مبتدأ، والمراد بالديار: مكة ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ قال سيبويه: هو استثناء منقطع أي: لكن لقولهم ربنا الله أي: أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم ربنا الله. وقال الفراء والزجاج: هو استثناء متصل، والتقدير الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق إلا بأن يقولوا ربنا الله، فيكون مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا﴾ [الأعراف: 126] وقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكنايب

﴿ولولا دفاع الله الناس﴾ قرأ نافع (ولولا دفاع) وقرأ الباقون (ولولا دفع) والمعنى: لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك، وذهبت مواضع العبادة من الأرض، ومعنى ﴿لَهْدَمَتْ﴾ لخربت

أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن يعقوب الرباحي عن أبيه قال: أوصى إلي رجل، وأوصى ببينة، فأتيت ابن عباس فقلت له: إن رجلاً أوصى إلي وأوصى ببينة، فهل تجزئ عني بقرة؟ قال: نعم، ثم قال: ممن صاحبكم؟ فقلت: من بني رباح، فقال: ومتى اقتنى بنو رباح البقر إلى الإبل؟ وهم صاحبكم، إنما البقر للأسد وعبد القيس. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في الأضاحي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن أبي ظبيان قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿فَانْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾ قال: إذا أردت أن تنحر البينة فاقمها على ثلاث قوائم معقولة، ثم قل بسم الله والله أكبر. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿صَوَافٍ﴾ قال: قياماً معقولة، وفي الصحيحين وغيرهما عنه أنه رأى رجلاً قد أتاه بنته وهو ينحرها، فقال: أبعثها قياماً مقيدة سنة محمد ﷺ. وأخرج أبو عبيدة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن ميمون بن مهران قال: في قراءة ابن مسعود (صوافن) يعني: قياماً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ﴾ قال: سقطت على جنبها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: نحرته. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ﴿القانع﴾ المتعفف ﴿والمعتز﴾ السائل. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال: القانع الذي يقنع بما أتته. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: القانع الذي يقنع بما لوتي، والمعتز الذي يعترض. وأخرج عنه أيضاً قال: القانع الذي يجلس في بيته. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي في سننه عنه أنه سئل عن هذه الآية، فقال: أما القانع فالقانع بما أرسلت إليه في بيته، والمعتز الذي يعترض. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: القانع الذي يسأل، والمعتز الذي يتعترض، ولا يسأل. وقد روي عن التابعين في تفسير هذه الآية أقوال مختلفة، والمرجع المعنى للغوي لا سيما مع الاختلاف بين الصحابة ومن بعدهم في تفسير ذلك. وأخرج ابن المنذر، وابن مروي عن ابن عباس قال: كان المشركون إذا نبخوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينضحون بها نحو الكعبة، فاراد المسلمون أن يفعلوا ذلك، فانزل الله ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لَحْمُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج نحوه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾
﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَانِهِمْ ظُلُمًا﴾ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿١٢٦﴾
الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَلَنَمَسَتْ صَرَائِعُ نَبِيٍّ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا
أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٢٧﴾
الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: **«الذين أخرجوا من ديارهم»** أي: من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني: محمداً ﷺ وأصحابه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال: فينا نزلت هذه الآية **«الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق»** والآية بعدها أخرجنا من ديارنا بغير حق، ثم مكناهم في الأرض أقمنا الصلاة وآتيناهم الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فهي لي ولأصحابي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب محمد **«ولو لا دفع الله للناس»** الآية قال: لو لا دفع الله بأصحاب محمد عن التابعين لهدمت صوامع. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«لهدمت صوامع»** الآية قال: الصوامع التي تكون فيها الرهبان، والبيع مساجد اليهود وصلوات كنائس النصارى، والمساجد مساجد المسلمين. وأخرج عنه قال: البيع بيع النصارى، وصلوات كنائس اليهود. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله: **«الذين إن مكناهم في الأرض»** قال: أرض المدينة **«أقاموا للصلاة»** قال: المكتوبة **«وأتوا الزكاة»** قال: المفروضة **«وأمروا بالمعروف»** قال: بلا إله إلا الله **«ونهبوا عن المنكر»** قال: عن الشرك بالله **«ووشع عاقبة الأمور»** قال: وعند الله ثواب ما صنعوا.

وَلَا يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْحٍ وَعَادٌ وَنَمُودٌ ۝١٧ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝١٨ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمْنَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٩ فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَعْلَنَتْهَا رَبِّي ظِلْمَةً فَهِيَ خَارِجَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِكَا وَيَوْمَ مَعْطَلَهُ وَصَّرَ شَيْبِ ۝٢٠ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الْأَفْئِدَةِ ۝٢١ وَتَسْمَعُ لَوَاكِبُ الْعَذَابِ وَلَنْ يُخَفِّفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝٢٢ وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أُنْزِلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَلَمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَإِنَّ الْمَصِيرَ ۝٢٣ قُلْ يَتَّابِعَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٢٤ تَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٢٥ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَآيِنَا مُعْرِضِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٢٦

قوله: **«وإن يكنوك»** إلخ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وتعزية له متضمنة للوعد له بإهلاك المكذبين له كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله. وفيه إرشاد له ﷺ إلى الصبر على قومه والافتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك، وقد تقدم نكر هذه الأمم وما كان منهم ومن أنبيائهم وكيف كانت عاقبتهم وإنما غير النظم في قوله: **«وكذب موسى»** فجاء بالفعل مبنيًا للمفعول، لأن قوم موسى لم يكنوه وإنما كذبه غيرهم من القبط **«فأما ليت للكافرين»** أي: أخرت عنهم العقوبة وأمهلتهم والفاء لترتيب الإمهال على التكذيب

بإستيلاء أهل الشرك على أهل الملل، فالصوامع: هي صوامع الرهبان؛ وقيل: صوامع الصابئين، والبيع: جمع بيعة، وهي كنيسة النصارى، والصلوات هي كنائس اليهود، واسمها بالعبرانية صلواتا بالمثلثة فحريته، والمساجد هي مساجد المسلمين، وقيل: المعنى لولا هذا الدفع لهدمت في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد المساجد. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية؛ وقيل: المعنى ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة؛ وقيل: لولا دفع الله العذاب بدعاء الأخيار؛ وقيل: غير ذلك. والصوامع: جمع صومعة، وهي بناء مرتفع، يقال: صمغ الثريدة؛ إذا رفع رأسها، ورجل أصمغ القلب أي: حاذق الفطنة، والأصمغ من الرجال: الحديد القول؛ وقيل: الصغير الآن. ثم استعمل في المواضع التي يؤذن عليها في الإسلام. وقد ذكر ابن عطية في صلوات تسع قراءات، ووجه تقديم مواضع عبادات أهل الملل على موضع عبادة المسلمين كونها أقدم بناء وأسبق وجوداً. والظاهر من الهدم المذكور معناه الحقيقي كما نكره الزجاج وغيره، وقيل: المراد به المعنى المجازي، وهو تعطلها من العبادة، وقرئ (لهدمت) بالتشديد، وانتصاب كثيراً في قوله: **«يذكر فيها اسم الله كثيراً»** على أنه صفة لمصدر محذوف أي: نكراً كثيراً، أو وقتاً كثيراً، والجملة صفة للمساجد؛ وقيل: لجميع المذكورات **«ولينصرون الله من ينصره»** اللام هي جواب لقسم محذوف أي: والله لينصر الله من ينصره، والمراد بمن ينصر الله: من ينصر دينه وأوليائه، والقوي القادر على الشيء، والعزیز الجليل الشریف قاله الزجاج، وقيل: الممتنع الذي لا يرام ولا يدافع ولا يمانع، والموصول في قوله: **«الذين إن مكناهم في الأرض»** في موضع نصب صفة لمن في قوله من ينصره قاله الزجاج، وقال غيره: هو في موضع جر صفة لقوله للذين يقاتلون؛ وقيل: المراد بهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان؛ وقيل: أهل الصلوات الخمس؛ وقيل: ولاية العدل؛ وقيل: غير ذلك، وفيه إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من مكناه الله في الأرض وأقدره على القيام بذلك. وقد تقدم تفسير الآية، ومعنى **«وشع عاقبة الأمور»** أن مرجعها إلى حكمه وتبديره لكون غيره.

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم - **«إنا لله وإنا إليه راجعون»** [البقرة: 156] - ليهلك القوم، فنزلت **«إن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا»** الآية. قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال. قال الترمذي: حسن، وقد رواه غير واحد عن الثوري، وليس فيه ابن عباس انتهى. وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين. وأخرج

البئر المذكورة في إباحته بعد الانس، وإقفاره بعد العمران، وإن أحداً لا يستطيع أن يدنو منه على أميال، لما يسمع فيه من عزيف الجنّ والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك، وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا، فنكرهم الله سبحانه في هذه الآية موعظة وعبرة. قال: وقيل: إنهم الذين أهلّكم بختنصر على ما تقدّم في سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء: 11]. ففتعلت بثرهم وخربت قصورهم انتهت. ثم أنكر سبحانه على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الآثار قائلاً: ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حثاً لهم على السفر ليرى مصارع تلك الأمم فيعتبروا، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا، فلماذا أنكر عليهم، كما في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَتَمُوتُنَّ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ وبالليل أقلّا تعقلون [الصفات: 137 - 138]. ومعنى ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه وأستند التعقل إلى القلوب لأنها محل العقل، كما أن الأذان محل السمع؛ وقيل: إن العقل محله الدماغ ولا مانع من ذلك، فإن القلب هو الذي يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجاً عنه.

وقد اختلف علماء المعقول في محل العقل وماهيته اختلافاً كثيراً لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿أَوِ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: ما يجب أن يسمعه مما تلاه عليهم أنبياءهم من كلام الله، وما نقله أهل الأخبار إليهم من أخبار الأمم المهلكة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ قال الفراء: الهاء عماد يجوز أن يقال: فإنه، وهي قراءة عبد الله بن مسعود، والمعنى واحد، التذكير على الخبر، والتأنيث على الأبصار أو القصة أي: فإن الأبصار لا تعمى، أو فإن القصة لا تعمى الأبصار أي: أبصار العيون ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ فِي الْصُّلُوبِ﴾ أي: ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم أي: لا تترك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار. قال الفراء والزجاج: إن قوله التي في الصدور من التوكيد الذي تزيده العرب في الكلام كقوله: ﴿عُشْرَةَ كَامِلَةٍ﴾ [البقرة: 196]، ﴿وَيَقُولُونَ بِأَفْوَاعِهِمْ﴾ [آل عمران: 167]، و﴿يُطِيرُ بِجَنَاحِهِ﴾ [الأنعام: 38]. ثم حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشدّ إنكار، فاستعجلهم له هو على طريقة الاستهزاء والسخرية، وكأنهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما تقوله الأنبياء عن الله سبحانه من الوعد منه عز وجل بوقوعه عليهم وحلوله بهم، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ قال الفراء: في هذه الآية وعيد لهم بالعذاب في الدنيا والآخرة. ونكر الزجاج وجهاً آخر فقال: أعلم أن الله لا يفوته شيء، وإن يوماً عنده ألف سنة في قدرته واحد، ولا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره في القدرة، إلا أن الله تفضل بالإمهال انتهت. ومحل جملة: ولن يخلف الله وعده

﴿لَنْ يَخْلَفَهُمْ﴾ أي: أخذت كل فريق من المكذبين بالعذاب بعد انقضاء مدة الإمهال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ هذا الاستفهام للتقرير أي: فانظر كيف كان إنكاري عليهم وتغيير ما كانوا فيه من النعم وإهلاكهم، والنكير اسم من المنكر. قال الزجاج: أي ثم أخذتهم فانكرت أبلغ إنكار. قال الجوهري: النكير والإنكار تغيير المنكر. ثم نكر سبحانه كيف عذب أهل القرى المكذبة فقال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: أهلكنا أهلها، وقد تقدّم الكلام على هذا التركيب في آل عمران، وقرأ أهلكتها، وجملة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حالية، وجملة ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ عطف على أهلكنا، لا على ظالمة لأنها حالية، والعذاب ليس في حال الظلم، والمراد بنسبة الظلم إليها: نسبتته إلى أهلها والخواء بمعنى: السقوط أي: فهي ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: على سقوفها، وذلك بسبب تعطل سكانها حتى تهدمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في البقرة ﴿وَيُبَثَّرُ مَعْطَلَةٌ﴾ معطوف على قرية، والمعنى: وكم من أهل قرية، ومن أهل بئر معطلة هكذا قال الزجاج. وقال الفراء: إنه معطوف على عروشها، والمراد بالمعطلة: المتروكة، وقيل: الخالية عن أهلها لهلاكهم، وقيل: الفائرة، وقيل معطلة من الدلاء والأرشية، والقصر المشيد هو المرفوع البنيان كذا قال قتادة والضحاك، ويدلّ عليه قول عدي بن زيد:

شاده مرمرًا وجلله كلساً فللطير في نراه وكور شاده أي: رفعه. وقال سعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد: المراد بالمشيد: المجصص، مأخوذ من الشيد، وهو الجص، ومنه قول الرازي:

لا تحسبني وإن كنت أمراً غمراً كحبة الماء بين الطين والشيد وقيل: المشيد الحصين قاله الكلبي. قال الجوهري: المشيد المعمول بالمشيد، والشيد بالكسر كل شيء طليت به السائط من جص أو بلاط، وبالفصح المصدر، تقول: شاده يشيده جصصه، والمشيد بالتشديد المطول. قال الكسائي: للواحد من قوله تعالى: ﴿فِي بَرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: 78]. والمعنى المعني: وكم من قصر مشيد معطل مثل البئر المعطلة؟ ومعنى التعطيل في القصر هو: أنه معطل من أهله، أو من آلاته، أو نحو ذلك. قال القرطبي في تفسيره: ويقال: إن هذه البئر والقصر بحضرموت معروفان، فالقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى إليه بحال، والبئر في سفحه لا تقرّ الرياح شيئاً سقط فيها إلا أخرجه، وأصحاب القصر ملوك الحضرم، وأصحاب البئر ملوك البدو. حكى الثعلبي وغيره: أن البئر كان يعدن من اليمن في بلد يقال: لها حضرواء، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ونجوا من العذاب ومعهم صالح فمات صالح، فسمي المكان حضر موت، لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حضرواء وتعدوا على هذه البئر وأمرؤا عليهم رجلاً، ثم نكر قصة طويلة، وقال بعد ذلك: وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم، لم يبق في الأرض مثله فيما نكروا وزعموا، وحاله أيضاً كحال هذه

يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة، فقد مضى منها ستة آلاف. وأخرج ابن عدي والديمي عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿معاجزين﴾** قال: مراغمين. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: مشاقين.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِنَّا مَنَعْنَا آلَ الْفِئَةِ الشَّيْطَانَ فِي أَمْنِيَّتِهِمْ فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يَحْكُمُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٩﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِلَى الْفَاطِلِينَ لِيَلْقُوا شِقَاقَ بَعِيرٍ ﴿٧٠﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخَفَّ لَمْ قُلُوبُهُمْ وَلَئِنْ اللَّهُ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧١﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي بَرِيَّةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ ﴿٧٢﴾ أَلَمْ تَلَفْ يَوْمَئِذٍ رَبُّكَ يَوْمَئِذٍ بِكُمْ بَيْنَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ مَّاءٌ وَكَيْلُوا أَمْزَلَجَتْ فِي جَنَّتِ الْغَيْمِ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُتُوتْكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٧٤﴾

قوله: **﴿من رسول ولا نبي﴾** قيل: الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عياناً ومحاورته شفاهاً، والنبي الذي يكون إلهاماً أو مناماً؛ وقيل: الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه، والنبي: من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله، ولم ينزل عليه كتاب، ولا بدّ لهما جميعاً من المعجزة الظاهرة **﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾** معنى تمنى: تشهى وهيا في نفسه ما يهواه. قال الواحدي: وقال المفسرون: معنى تمنى تلا. قال جماعة المفسرين في سبب نزول هذه الآية: أنه ﷺ لما شقّ عليه إعراض قومه عنه تمنى في نفسه أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه لحرصه على إيمانهم، فكان ذات يوم جالساً في ناء من أنديتهم وقد نزل عليه سورة **﴿والنجم إذا هوى﴾** [النجم: 1]. فاخذ يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله: **﴿أقرايتم اللات والعزى﴾** ومنوة الثالثة الأخرى: [النجم: 19 - 20]. وكان ذلك التمني في نفسه، فجرى على لسانه مما لقيه الشيطان عليه «تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتها لترتجى»، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ في قراءته حتى ختم السورة، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي من المسلمين والمشركين، فنفرقت قريش مسرورين بذلك وقالوا: قد نكر محمد آلهتنا بأحسن النكر، فاتاه جبريل فقال: ما صنعت؟ تلوت على الناس ما لم أتك به عن الله، فحزن رسول الله ﷺ وخاف خوفاً شديداً، فانزل الله هذه الآية، هكذا قالوا.

ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه، قال الله: **﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾** * لاخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين **﴿[الحاقة: 44 - 46].﴾**

النصب على الحال أي: والحال أنه لا يخلف وعده أبداً، وقد سبق الوعد فلا بدّ من مجيئه حتماً، أو هي اعتراضية مبينة لما قبلها، وعلى الأول تكون جملة **﴿وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون﴾** مستأنفة، وعلى الثاني تكون معطوفة على الجملة التي قبلها مسوقة لبيان حالهم في الاستعجال، وخطابهم في ذلك ببيان كمال حلمه لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم كما في قوله: **﴿إنهم يرونه بعيداً﴾** ونراه قريباً **﴿[المعارج: 6 - 7].﴾** قال الفراء: هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة أي: يوم من أيام عذابهم في الآخرة كالف سنة؛ وقيل: المعنى وإن يوماً من الخوف والشدة في الآخرة كالف سنة من سني الدنيا فيها خوف وشدة، وكذلك يوم النعيم قياساً. قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (مما يعدون) بالتحية، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: **﴿ويستعجلونك﴾** وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، واختارها أبو حاتم **﴿وكلين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم لاختتها وإلى المصير﴾** هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قوماً بعد الإملاء والتأخير. قيل: وتكرير هذا مع نكره قبله للتأكيد، وليس بتكرار في الحقيقة، لأن الأول سيق لبيان الإهلاك مناسباً لقوله: **﴿فكيف كان تكثير﴾** ولهذا عطف بالفاء بدلاً عن ذلك، والثاني سيق لبيان الإملاء مناسباً لقوله: **﴿وإن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كالف سنة﴾** فكانه قيل: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أمهلتم حيناً، ثم أخذتهم بالعذاب ومرجع الكل إلى حكمي. فجملة: **﴿وإلى المصير تنذيل لتقرير ما قبلها﴾**، ثم أمره الله سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدي الساعة مبين لهم ما نزل إليهم، فمن آمن وعمل صالحاً فاز بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة، ومن كان على خلاف ذلك فهو في النار وهم الذين سعوا في آيات الله معاجزين، يقال: عاجزه سابقه، لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر، فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه، قاله الأخفش؛ وقيل: معنى معاجزين: ظانين ومقدرين أن يعجزوا الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم، قاله الزجاج؛ وقيل: معاندين، قاله الفراء.

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: **﴿فهي خاوية على عروشها﴾** قال: خربة ليس فيها أحد **﴿وبشر معطلة﴾** عطلتها أهلها وتركوها **﴿وقصر مشيد﴾** قال: شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس **﴿وبشر معطلة﴾** قال: التي تركت لا أهل لها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه **﴿وقصر مشيد﴾** قال: هو المجصص. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن عطاء نحوه أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون﴾** قال: من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة، قال في الآية: هو

وقوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: 3]. وقوله: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم﴾ [الإسراء: 74]. فنفى المقاربة للركون فضلاً عن الركون. قال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل. وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم أن رواية هذه القصة مطعون فيها. وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزناقة. قال القاضي عياض في الشفاء: إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً. قال ابن كثير: قد نكر كثير من المفسرين ما هنا قصة الغرائيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة طناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، وإذا تقرّر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى ﴿تمنى﴾ قرأ وتلا كما قمنا من حكاية الولحي لذلك عن المفسرين. وكذا قال البيهقي: إن أكثر المفسرين قالوا معنى ﴿تمنى﴾ تلا وقرأ كتاب الله، ومعنى ﴿لقى الشيطان في أمنيته﴾ أي: في تلاوته وقراءته. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام، ويؤيد هذا ما تقدم في تفسير قوله: ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أمانى﴾ [البقرة: 78]. وقيل: معنى ﴿تمنى﴾ حدث، ومعنى ﴿لقى الشيطان في أمنيته﴾ في حديثه، روي هذا عن ابن عباس، وقيل: معنى ﴿تمنى﴾ قال. فحاصل معنى الآية: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من نون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ أي: لا يهولك ذلك ولا يحزنك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء، وعلى تقدير أن معنى تمنى حدث نفسه كما حكاه الفراء والكسائي فإنهما قالاً: تمنى إذا حدث نفسه، فالمعنى: أنه إذا حدث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من نون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه. قال ابن عطية: لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة. وقد قيل في تأويل الآية: إن المراد بالغرائيق الملائكة، ويردّ بقوله: ﴿فينسخ الله ما يلقي للشيطان﴾ أي: يبطله، وشفاعة الملائكة غير باطلة؛ وقيل: إن ذلك جرى على لسانه ﷺ سهواً ونسياناً وهما مجوزان على الأنبياء، ويردّ بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز كما هو مقرّر في مواضعه، ثم لما سلاه الله سبحانه بهذه التسلية وأنها قد وقعت لمن قبله من الرسل والأنبياء بين سبحانه أنه يبطل ذلك ولا يثبت ولا يستمر تغيير الشيطان به فقال: ﴿فينسخ الله ما يلقي للشيطان﴾ أي: يبطله ويجعله ذاهباً غير ثابت ثم يحكم الله آياته: أي: يثبتها ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: كثير العلم والحكمة في كل أقواله وأفعاله، وجملة ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة﴾ للتعليل أي: ذلك الإلقاء الذي يليقه الشيطان فتنة أي: ضلالة ﴿للذين في قلوبهم مرض﴾ أي:

شك ونفاق ﴿واللغاسية قلوبهم﴾ هم المشركون، فإن قلوبهم لا تلين للحق أبداً ولا ترجع إلى الصواب بحال، ثم سجل سبحانه على هاتين الطائفتين: وهما من في قلبه مرض، ومن في قلبه قسوة بأنهم ظالمون فقال: ﴿وان للظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي: عداوة شديدة، ووصف الشقاق بالبعد مبالغاً، والموصوف به في الحقيقة من قام به. ولما بين سبحانه أن ذلك الإلقاء كان فتنة في حق أهل النفاق والشك والشرك، بين أنه في حق المؤمنين العالمين بالله العارفين به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حق وصديق فقال: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك﴾ أي: الحق النازل من عنده؛ وقيل: إن الضمير في أنه راجع إلى تمكين الشيطان من الإلقاء، لأنه مما جرت به عادته مع أنبيائه، ولكنه يردّ هذا قوله: ﴿فيؤمنوا به﴾ فإن المراد الإيمان بالقرآن أي: يثبتوا على الإيمان به ﴿فتختب له قلوبهم﴾ أي: تخشع وتسكن وتنقاد، فإن الإيمان به وإخبات القلوب له لا يمكن أن يكونا تمكين من الشيطان بل للقرآن ﴿وان الله لهاد الذين آمنوا﴾ في أمور دينهم ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي: طريق صحيح لا عوج به. وقرأ أبو حيوة ﴿وان الله لهاد الذين آمنوا﴾ بالتنوين ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي: في شك من القرآن؛ وقيل: في الدين الذي يدل عليه ذكر الصراط المستقيم؛ وقيل: في إلقاء الشيطان، فيقولون: ما باله نكر الأصنام بخير ثم رجع عن ذلك؟ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (في مرية) بضم الميم ﴿حتى تأتيهم الساعة﴾ أي: القيامة ﴿هفتة﴾ أي: فجأة ﴿أو يأتيهم عذاب عقيم﴾ وهو يوم القيامة لأنه لا يوم بعده، فكان بهذا الاعتبار عقيماً، والعقيم في اللغة من لا يكون له ولد، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهية الولادة، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقم، وقيل: يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر، وقيل: إن اليوم وصف بالعقم، لأنه لا رافة فيه ولا رحمة، فكانه عقيم من الخير، ومنه قوله تعالى: ﴿إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ [الذاريات: 41]، أي: التي لا خير فيها ولا تأتي بمطر ﴿الملك يومئذ﴾ أي: السلطان القاهر والاستيلاء التام: يوم القيامة لله سبحانه وحده لا منازع له فيه ولا مدافع له عنه، وجملة ﴿يحكم بينهم﴾ مستأنفة جواباً عن سؤال مقدر، ثم فسر هذا الحكم بقوله سبحانه: ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم﴾ أي: كائنون فيها مستقرّون في أرضها منغمسون في نعيمها ﴿والذين كفروا وكتبوا بآياتنا﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله والتكذيب بآياته ﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾ أي: عذاب متصف بأنه مهين للمعتبين بالغ منهم المبلغ العظيم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف، عن عمرو بن دينار قال: كان ابن عباس يقرأ: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله،

ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُرِيحُ الْيَسْلَ فِي الْهَارِ وَيُرِيحُ الْهَارَ فِي الْيَسْلِ وَأَنَّ
 اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٨﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَنْعُوتُ مِنْ
 دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٩﴾ أَنْتَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ
 أَنْزَلَ مِنْكَ الْكِتَابَ مَاءً فَضِيحٌ الْأَرْضُ خَضِرَةٌ إِنْ كُنَّ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ
 ﴿٢٠﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَكِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ
 ﴿٢١﴾ أَنْتَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْمَلَكُ نَزَلَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ
 وَيَسُكُّ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ
 ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْحَاكُمْ ثُمَّ يُثَبِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْسِكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ
 لَكَفُورٌ ﴿٢٣﴾

أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصاً لهم بمزيد الشرف، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال بعض المفسرين: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة. وقال بعضهم: الذين هاجروا من الأوطان في سرية أو عسكر، ولا يبعد حمل ذلك على الأمرين، والكل من سبيل الله ﴿ثُمَّ قَتَلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ أي: في حال المهاجرة، واللام في ﴿لِيُرْزَقْنَهُمْ﴾ الله رزقاً حسناً ﴿جَوَابَ قَسَمِ مُحذوف، والجملة خبر الموصول بتقدير القول، وانتصاب رزقاً على أنه مفعول ثانٍ أي: مرزوقاً حسناً، أو على أنه مصدر مؤكدة، والرزق الحسن هو نعيم الجنة الذي لا ينقطع، وقيل هو الغنيمة لأنه حلال؛ وقيل: هو العلم والفهم كقول شعيب: ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ [هود: 88]. قرأ ابن عامر وأهل الشام (ثم قتلوا) بالتشديد على التكرير، وقرأ الباقر بالتخفيف ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإنه سبحانه يرزق بغير حساب، وكل رزق يجري على يد العباد لبعضهم البعض، فهو منه سبحانه، لا رازق سواه ولا معطي غيره، والجملة تنبيل مقرر لما قبلها، وجملة ﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ مستأنفة، أو بدل من جملة ليرزقهم الله. قرأ أهل المدينة (مدخلاً) بفتح الميم، وقرأ الباقر بضمها، وهو اسم مكان أريد به الجنة، وانتصابه على أنه مفعول ثانٍ أو مصدر ميمي مؤكد للفعل المنكود، وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة سبحان. وفي هذا من الامتنان عليهم والتبشير لهم ما لا يقادر قدره، فإن المدخل الذي يرضونه هو الأوفى لنفوسهم والأقرب إلى مطلبهم، على أنهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وذلك هو الذي يرضونه وفوق الرضا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن تفریط المفرطين منهم لا يعاجلهم بالعقوبة، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم. قال الزجاج: أي الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصة إذا قتلوا أو ماتوا، فهو على هذا خير مبتدا محذوف، ومعنى ﴿وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عَاقَبَ بِهِ﴾ من جازى الظالم بمثل ما ظلمه، وسمي الابتداء باسم الجزاء مشكلة كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى

وزاد فنسخت محدث، قال: والمحدثون: صاحب يس، ولقمان، ومؤمن آل فرعون، وصاحب موسى. وأخرج البزار، والطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة. قال السيوطي بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «إن رسول الله ﷺ قرأ ﴿أَقْرَأْتُمُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى﴾ ومنزلة الثالثة الأخرى﴾ [النجم: 19 - 20] تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى. ففرح المشركون بذلك وقالوا: قد ذكر آلهتنا، فجاءه جبريل فقال: اقرأ علي ما جئت به، فقرأ: ﴿أَقْرَأْتُمُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى﴾ ومنزلة الثالثة الأخرى﴾ [النجم: 19 - 20] تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فقال: ما أتيتك بهذا، هذا من الشيطان، فانزل الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، قال السيوطي بسند صحيح عن سعيد بن جبير، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم، فنكر نحوه، ولم يذكر ابن عباس، وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبي العلية، والسدي، عن سعيد مرسلًا. ورواه عبد بن حميد، عن السدي، عن أبي صالح مرسلًا. ورواه ابن أبي حاتم عن ابن شهاب مرسلًا. وأخرج ابن جرير، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه مرسلًا أيضاً. والحاصل أن جميع الروايات في هذا الباب إما مرسل أو منقطعة لا تقوم الحجة بشيء منها. وقد أسلفنا عن الحفاظ في أول هذا البحث ما فيه كفاية، وفي الباب روايات من أحب الوقوف على جميعها فلينظرها في الدر المنثور للسيوطي، ولا يأتي التطويل بنكرها هنا بفائدة، فقد عرفت أنك أنها جميعها لا تقوم بها الحجة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿حَتَّى إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحك، قال: يعني بالتمني التلوة والقراءة، ألقى الشيطان في أمنيته: في تلاوته ﴿فَيَنْسُخُ اللَّهُ﴾ ينسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبي. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ قال: تكلم ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ قال: كلامه. وأخرج ابن مردويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس في قوله: ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ قال: يوم بدر. وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير: عذاب يوم عقيم، قال: يوم بدر. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وعكرمة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: يوم القيامة لا ليلة له. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن الضحك مثله. وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٢٤﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَكَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عَاقَبَ بِهِ ثُمَّ يُبَيِّ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢٦﴾

في الكلام: إن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة أي: ذات خضرة كما تقول مبقلة ومسبغة أي: نوات بقل وسباع، وهو عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة، وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدد الإنزال واستمراره، وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل، والرفع هنا متعين لأنه لو نصب لانعكس المعنى المقصود من الآية: فينقلب إلى نفي الاخضرار، والمقصود إثباته. قال ابن عطية: هذا لا يكون يعني: الاخضرار في صباح ليلة المطر إلا بمكة وتهامة. والظاهر أن المراد بالاخضرار اخضرار الأرض في نفسها لا باعتبار النبات فيها كما في قوله: ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ [فصلت: 39]. والمراد بقوله: ﴿إن الله لطيف﴾ أنه يصل علمه إلى كل بقيق وجليل؛ وقيل: لطيف بأرزاق عباده؛ وقيل: لطيف باستخراج النبات، ومعنى ﴿خبير﴾ أنه ذو خبرة بتبديل عباده وما يصلح لهم، وقيل: خبير بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر؛ وقيل: خبير بحاجتهم وفاقتهم ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً وكلهم محتاجون إلى رزقه ﴿وإن الله لهو الغني﴾ فلا يحتاج إلى شيء ﴿الحميد﴾ المستوجب للحمد في كل حال ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ هذه نعمة أخرى نكرها الله سبحانه، فأخبر عباده بأنه سخر لهم ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والانهار وجعله لمنافعهم ﴿والفلك﴾ عطف على ما، أو على اسم أن أي: وسخر لكم الفلك في حال جريها في البحر، وقرأ عبد الرحمن الأعرج ﴿والفلك﴾ بالرفع على الابتداء وما بعده خبره، وقرأ الباقون بالنصب. ومعنى ﴿تجري في البحر بامرة﴾ أي: بتقديره، والجملة في محل نصب على الحال على قراءة الجمهور ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ أي: كراهة أن تقع، وذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للإمسك، والجملة معطوفة على تجري ﴿إلا بإنه﴾ أي: بإرادته ومشئته، وذلك يوم القيامة ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي: كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الأمور لعباده وهيا لهم أسباب المعاش، وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم تفضلاً منه على عباده وإنعاماً عليهم. ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال: ﴿وهو الذي أحياكم﴾ بعد أن كنتم جماداً ﴿ثم يميتكم﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ثم يحييكم﴾ عند البعث للحساب والعقاب ﴿وإن الإنسان لَكفور﴾ أي: كثير الجحود لنعم الله عليه مع كونه ظاهرة غير مستترة، ولا ينافي هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد، لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن سلمان الفارسي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل تلك الأجر، وأجرى عليه الرزق وأمن من الفئانين، وأقروا إن شئتم ﴿والذين هاجروا في سبيل الله

عليكم﴾ [البقرة: 194]. والعقوبة في الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه، والمراد بالمثلية أنه اقتصر على المقدار الذي ظلم به ولم يزد عليه، ومعنى ﴿ثم بغى عليه﴾ أن الظالم له في الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى، قيل: المراد بهذا البغي: هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كذبوا نبيهم وأنوا من آمن به، واللام في ﴿لينصرنه الله﴾ جواب قسم محذوف أي: لينصرن الله المبغى عليه على الباغي ﴿إن الله لعفو غفور﴾ أي: كثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب؛ وقيل: العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو؛ وقيل: إن معنى ﴿ثم بغى عليه﴾ أي: ثم كان المجازي مبيغياً عليه أي: مظلوماً، ومعنى ثم تفاوتا الرتبة، لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم كما قيل في أمثال العرب: البادي أظلم؛ وقيل: إن هذه الآية مدنية، وهي في القصاص والجراحات، والإشارة بقوله: ﴿ذلك بأن الله يوليح الليل في النهار﴾ إلى ما تقدم من نصر الله سبحانه للمبغى عليه، وهو مبتدأ وخبره جملة بأن الله يوليح، والباء للسببية أي: ذلك بسبب أنه سبحانه قادر، ومن كمال قدرته إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وعبر عن الزيادة بالإيلاج، لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر، والمراد تحصيل أحد العرضين في محل الآخر. وقد مضى في آل عمران معنى هذا الإيلاج ﴿وإن الله سميع﴾ يسمع كل مسموع ﴿بصير﴾ يبصر كل مبصر، أو سميع للاقوال مبصر للأفعال، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ إلى ما تقدم من اتصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة والعلم التام أي: هو سبحانه ذو الحق، فبينه حق، وعبادته حق ونصره لأولياته على أعدائه حق، ووعدته حق، فهو عز وجل في نفسه وأفعاله وصفاته حق ﴿وإن ما تدعون من بونه هو الباطل﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة تدعون بالفوقية على الخطاب للمشركين، واختار هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ الباقون بالتحية على الخير، واختار هذه القراءة أبو عبيدة. والمعنى: إن الذين تدعونهم إلهاً، وهي الأصنام هو الباطل الذي لا ثبوت له ولا لكونه إلهاً ﴿وإن الله هو العلي﴾ أي: العالي على كل شيء بقدرته المتقدس على الأشباه والاناد المتنزه عما يقول الظالمون من الصفات ﴿الكبير﴾ أي: ذو الكبرياء، وهو عبارة عن كمال ذاته وتفرد به بالإلهية، ثم نكر سبحانه بليلاً بيناً على كمال قدرته، فقال: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ الاستقهام للتقرير، والفاء للعطف على أنزل، وارتفع الفعل بعد الفاء لكون استقهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل وسبويه. قال الخليل: المعنى أنزل من السماء ماء فكان كذا وكذا، كما قال الشاعر:

الم تسأل الربيع الفواء فينطق وهل يخبرك اليوم ببيد سملق معناه: قد سألته فنطق. قال الفراء: ألم تر خبر كما تقول

عاد سبحانه إلى بيان أمر التكليف مع الزجر لمعاصري رسول الله ﷺ من أهل الأديان عن منازعته فقال: ﴿لِكُلِّ أمة جعلنا منسكاً﴾ أي: لكل قرن من القرون الماضية وضعنا شريعة خاصة، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، وجملة ﴿وهم ناسكوه﴾ صفة لمنسكاً، والضمير لكل أمة أي: تلك الأمة هي العاملة به لا غيرها، فكانت التوراة منسك الأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى، والإنجيل منسك الأمة التي من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ، والقرآن منسك المسلمين. والمنسك مصدر لا اسم مكان كما يدل عليه هم ناسكوه، ولم يقل ناسكون فيه؛ وقيل: المنسك موضع أداء الطاعة، وقيل: هو النبايح، ولا وجه للتخصيص، ولا اعتبار بخصوص السبب، والفاء في قوله: ﴿فلا ينافرنك﴾ أي: لا تنزعهم له. قال الزجاج: إنه نهي له ﷺ عن المنازعتهم أي: لا تنازعهم أنت كما تقول لا يخاصمك فلان أي: لا تخصمه، وكما تقول لا يضاربك فلان أي: لا تضاربه، وذلك أن المفاعلة تقتضي العكس ضمناً، ولا يجوز لا يضربك فلان وأنت تريد لا تضربه. وحكي عن الزجاج أنه قال في معنى الآية: فلا ينافرنك أي: فلا يجادلوك. قال: ودل على هذا ﴿وإن جادلوك﴾ وقرأ أبو مجلز (فلا ينافرنك في الأمر) أي: لا يستخفك ولا يغلبك على دينك. وقرأ الباقون (ينازعونك) من المنازعة ﴿وادرع إلى ربك﴾ أي: وادع هؤلاء المنازعين أو ادع الناس على العموم إلى دين الله وتوحيده والإيمان به ﴿إنك لعلى هدى مستقيم﴾ أي: طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ﴿وإن جادلوك﴾ أي: وإن أبوا إلا الجدل بعد البيان لهم وظهور الحجة عليهم ﴿فقل الله أعلم بما تعملون﴾ أي: فكل أمرهم إلى الله وقل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد ﴿الله يحكم بينكم﴾ أي: بين المسلمين والكافرين ﴿يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ من أمر الدين فيتين حينئذ الحق من الباطل، وفي هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغي لهم أن يجيبوا به من أراد الجدل بالباطل، وقيل: إنها منسوخة بآية السيف، وجملة ﴿لم تعلم﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها، والاستفهام للتقرير أي: قد علمت يا محمد وتيقنت ﴿أن الله يعلم ما في السموات والأرض﴾ ومن جملة ذلك ما أنتم فيه مختلفون ﴿إن ذلك﴾ الذي في السماء والأرض من معلوماته ﴿في كتاب﴾ أي: مكتوب عنده في أم الكتاب ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي: إن الحكم منه سبحانه بين عباديه فيما يختلفون فيه يسير عليه غير عسير، أو إن إحاطة علمه بما في السماء والأرض يسير عليه ﴿ويعجبون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً﴾

ثم قتلوا أو ماتوا﴾ إلى قوله: ﴿حليم﴾. وإسناد ابن أبي حاتم هكذا: حدثنا المسيب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن شريح، عن عبد الكريم بن الحارث عن أبي عقبة، يعني: أبا عبيدة بن عقبة قال: قال شرحبيل بن السمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بارض الروم، فمر بي سلمان يعني: الفارسي قال: سمعت رسول الله ﷺ فذكره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي أنه كان بروم، فمروا بجنازتين أحدهما قتيل والآخر متوفى، فمال الناس عن القتل، فقال فضالة: مالي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا: هذا القتل في سبيل الله، فقال: والله ما أبالي من أي حفرتيها بعثت اسمعوا كتاب الله ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا﴾ الآية. وإسناده عند ابن أبي حاتم هكذا: حدثنا أبو زرعة عن زيد بن بشر، أخبرني ضمام أنه سمع أبا قبيل وربيعه بن سيف المغافري يقولان: كنا بروم ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ فذكره. قلت: ويؤيد هذا قول الله سبحانه: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ [النساء: 100]. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله: ﴿ومن عاقب بمثل ما عوقب به﴾ قال: إن النبي ﷺ بعث سرية في ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام، وإن أصحاب محمد ناشوهم ونكروهم بالله أن يعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام إلا من باداهم، وإن المشركين بدعوا فقاتلوهم، فاستحل أصحاب قتالهم عند ذلك فقاتلوهم ونصرهم الله عليهم. وهو مرسل. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ومن عاقب﴾ الآية قال: تعاون المشركون على النبي ﷺ وأصحابه فأخرجوه، فوعده الله أن ينصره، وهو في القصص أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وأن ما تدعون من نونه هو الباطل﴾ قال: الشيطان. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إن الإنسان لَكفور﴾ قال: يعد المصيبات وينسى النعم.

لِكُلِّ أمة جَعَلْنَا مَنَسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأُدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلِكٌ مُّسْتَبِيرٌ ﴿١٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخُلَاقِ وَمِنْ تَعْبِيرٍ ﴿٢١﴾ وَإِذَا تَنَاسَلْتُمْ عَلَيْكُمْ عَائِلَاتٌ جُنُودٌ تَقُوفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ كَأَنَّهُمْ كَالْأَشجارِ يَتَلَفَعُونَ فِي نَارٍ ذَاتِ لَهَبٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْنُونِ ﴿٢٣﴾

قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش: اكتب، قال: ما اكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة، فذلك قوله للنبي ﷺ ﴿وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: ما في السموات السبع والأرضين السبع ﴿إِنْ لَكَ﴾ العلم ﴿فِي كِتَابٍ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلق السموات والأرضين ﴿إِنْ لَكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني: هين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿يَكُونُونَ يَسْطُونُ﴾ يبطشون.

يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَقُومُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْدِئُوهُ مِنْهُ ضَرْفٌ لَطَالِبٌ وَالطَّلُوبُ ﴿٧٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ أَلَّهِ لَقَوْهُمْ عَزِيزٌ ﴿٧٧﴾ اللَّهُ يَعْطِلُ رِيتَ الْبَلْبَكَةِ رِيشًا وَيَرَى الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُرْءِينَ ﴿٧٨﴾ سَكِينٌ بِمِصْرٍ ﴿٧٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَهُ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ ﴿٨٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْكُوا الْخَيْرَ لَكُمْ تَقْلِيلُونَ ﴿٨١﴾ وَجَنِّدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بَلَّةَ أَيْكُمْ إِذْ يُرِيضُ عَنْكُمْ السَّيْلِينَ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّ هَذَا لَكُنَّ أَرْسُولَ شَيْدَا عَزَّكَرُ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٨٢﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ﴾ هذا متصل بقوله: ﴿وَيُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الحج: 71] قال الأخفش: ليس ثم مثل، وإنما المعنى: ضربوا لي مثلاً ﴿فَاسْتَمِعُوا﴾ قولهم، يعني: أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره، فكأنه قال: جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه. وقال القتيبي: إن المعنى يا أيها الناس مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق نبياً، وإن سلبها شيئاً لم تستطع أن تستنقذه منه. قال النحاس: المعنى ضرب الله عز وجل لما يعبدونه من دونه مثلاً. قال: وهذا من أحسن ما قيل فيه أي: بين الله لكم شبيهاً ولمعبودكم. وأصل المثل جملة من الكلام متعلقة بالرضا والقبول مسيرة في الناس مستغربة عندهم، وجعلوا مضربها مثلاً لموردها، ثم قد يستعبرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها في الغرابة كهذه القصة المذكورة، في هذه الآية. والمراد بما يدعون من دون الله: الأصنام التي كانت حول الكعبة وغيرها؛ وقيل: المراد بهم السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله لكونهم أهل الحل والعقد فيهم؛ وقيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية الله، والأول أوفق بالمقام وأظهر في التمثيل، والنبأ اسم للواحد يطلق على الذكر والأنثى، وجمع القلة

هذا حكاية لبعض فضائحهم أي: إنهم يعبدون أصناماً لم يتمسكوا في عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من دليل عقل يدل على جواز ذلك بوجه من الوجوه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران، وجملة ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾ معطوفة على يعبدون، وانتصاب بينات على الحال أي: حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة ﴿تُعَرِّفُ فِي وَجْهِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْمُنْكَرِ﴾ أي: الأمر الذي ينكر، وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها، أو المراد بالمنكر الإنكار أي: تعرف في وجوههم إنكارها، وقيل: هو التجبر والترفع، وجملة ﴿يَكُونُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ما ذلك المنكر الذي يعرف في وجوههم؟ فقيل: يكونون يسطون أي: يبطشون، والسطوة شدة البطش، يقال: سطا به يسطو إذا بطش به بضرب، أو شتم، أو أخذ باليد، وأصل السطو القهر.

وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز، أو من السنة الصحيحة مخالفاً لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركون، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف، والله ناصر الحق ومظهر الدين وداحض الباطل ودافع البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم المبينين للناس ما نزل إليهم، وهو حسينا ونعم الوكيل، ثم أمر رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُفَرْتُمْ﴾ أي: أخبركم ﴿بِشَرِّ مِنْ لَكُمْ﴾ الذي فيكم من الغيظ على من يتلوا عليكم آيات الله ومقاربتكم للوثوب عليهم، وهو النار التي أعدّها الله لكم، فالنار مرتفعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف، والجملة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ما هذا الأمر الذي هو شر مما نكابد ونناهده عند سماعنا ما تتلوه علينا؟ فقال: هو ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقيل: إن النار مبتدأ وخبره جملة وعدها الله الذين كفروا، وقيل: المعنى أفأخبركم بشر مما يلحق تالي القرآن منكم من الأذى والتوعد لهم والوثوب عليهم، وقرئ النار بالنصب على تقدير أعني، وقرئ بالجر بدلاً من شر ﴿وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ﴾ أي: الموضع الذي تصيرون إليه، وهو النار.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ قال: يعني هم ذابحوه ﴿فَلَا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني: في أمر الذبح. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: ﴿فَلَا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ قول أهل الشرك: لما ما نبح الله بيمينه فلا تاكلوه، وأما ما نبحتم بأيديكم فهو حلال. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام، وقال للقلم

فعلتم هذه كلها رجوتم الفلاح. وهذه الآية من مواطن سجود التلاوة عند الشافعي ومن وافقه، لا عند أبي حنيفة ومن قال بقوله، وقد تقدم أن هذه السورة فضلت بسجنتين، وهذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية. ثم أمرهم بما هو سنام الدين وأعظم أعماله، فقال: **﴿وجاهدوا في الله﴾** أي: في ذاته ومن أجله، والمراد به الجهاد الأكبر، وهو الغزو للكفار ومدافعته إذا غزوا بلاد المسلمين، وقيل: المراد بالجهاد هنا امتثال ما أمرهم الله به في الآية المتقدمة، أو امتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم، ومعنى **﴿حق جهاده﴾** المبالغة في الأمر بهذا الجهاد، لأنه أضاف الحق إلى الجهاد، والأصل إضافة الجهاد إلى الحق أي: جهاداً خالصاً لله، فنعكس ذلك لقصد المبالغة، وأضاف الجهاد إلى الضمير اتساعاً، أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولاً له ومن أجله؛ وقيل: المراد بحق جهاده هو أن لا تخافوا في الله لومة لائم؛ وقيل: المراد به استفرغ ما في وسعهم في إحياء دين الله. وقال مقاتل والكلبي: إن الآية منسوخة بقوله تعالى: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾** [التغابن: 16]. كما أن قوله: **﴿اتقوا الله حق تقاته﴾** [آل عمران: 102] منسوخ بذلك، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة، فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ، ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله: **﴿هو اجتباكم﴾** أي: اختاركم لدينه، وفيه تشريف لهم عظيم. ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال: **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** أي: من ضيق وشدة.

وقد اختلف العلماء في هذا الحرج الذي رفعه الله فقيل: هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين؛ وقيل: المراد قصر الصلاة، والإفطار للمسافر، والصلاة بالإيماء على من لا يقدر على غيره، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض، واعتقار الخطأ في تقديم الصيام وتأخيرها لاختلاف الأهلة، وكذا في الفطر والأضحية؛ وقيل: المعنى أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجاً بتكليف ما يشق عليهم، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه، ورفع عنهم التكليف التي فيها حرج، فلم يتعبدوا بها كما تعبد بها بني إسرائيل؛ وقيل: المراد بذلك أنه جعل لهم من الذنب مخرجاً بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والأرش، أو القصاص في الجنايات، ورد المال أو مثله أو قيمته في الغصب ونحوه. والظاهر أن الآية أعم من هذا كله، فقط حط سبحانه ما فيه مشقة من التكليف على عباده: إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه، أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذي شرعه الله، وما انتفع هذه الآية ولجل موقعها وأعظم فائدتها، ومثلها قوله سبحانه: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾** [التغابن:

أذية، والكثرة نبان مثل غراب وأغربة وغريان. وقال الجوهري: الذباب معروف الواحد ذبابة. والمعنى: لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات، وجملة **﴿ولو اجتمعوا له﴾** معطوفة على جملة أخرى شرطية محذوفة أي: لو لم يجتمعوا له لن يخلقوه ولو اجتمعوا له، والجواب محذوف والتقدير لن يخلقوه وهما في محل نصب على الحال أي: لن يخلقوه على كل حال. ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم فقال: **﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾** أي: إذا أخذ منهم الذباب شيئاً من الأشياء لا يقدرن على تخليصه منه لكمال عجزهم وفرط ضعفهم، والاستنقاذ والإنقاذ التخلص، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف، وعن استنقاذ ما أخذهم عليهم فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرماً وأشد منه قوة أعجز وأضعف، ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام والذباب، فقال: **﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾** فالصنم كالتطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه، والمطلوب الذباب؛ وقيل: الطالب عابد الصنم، والمطلوب الصنم، وقيل: الطالب الذباب والمطلوب الآلهة. ثم بين سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة عاجزة إلى هذه الغاية في العجز ما عرفوا الله حق معرفته فقال: **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** أي: ما عظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال، وقد تقدم في الانعام **﴿إن الله لقوي﴾** على خلق كل شيء **﴿عزيز﴾** غالب لا يغالبه أحد، بخلاف آلهة المشركين، فإنها جماد لا تعقل ولا تنفع ولا تضر ولا تقدر على شيء. ثم أراد سبحانه أن يرد عليهم ما يعتقدونه في النبوات والإلهيات فقال: **﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً﴾** كجبريل، وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل **﴿و﴾** يصطفي أيضاً رسلاً **﴿من الناس﴾** وهم الأنبياء، فيرسل الملك إلى النبي، والنبي إلى الناس، أو يرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته، أو لتحصيل ما ينفعكم، أو لإنزال العذاب عليهم **﴿إن الله سميع﴾** لأقوال عباده **﴿بصير﴾** بمن يختاره من خلقه **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾** أي: ما قدموا من الأعمال وما يتركونه من الخير والشر كقوله تعالى: **﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾** [يس: 12]. **﴿والى الله ترجع الأمور﴾** لا إلى غيره، ولما تضمن ما نكروه من أن الأمور ترجع إليه الزجر لعباده عن معاصيه، والحض لهم على طاعاته صرح بالمقصود فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾** أي: صلوا الصلاة التي شرعها الله لكم، وخص الصلاة لكونها أشرف العبادات. ثم عمم فقال: **﴿واعبدوا ربكم﴾** أي: افعلوا جميع أنواع العبادة التي أمركم الله بها **﴿وافعلوا الخير﴾** أي: ما هو خير، وهو أعم من الطاعة الواجبة والمنوبة، وقيل: المراد بالخير هنا المنوبات. ثم علل ذلك بقوله: **﴿لعلكم تفلحون﴾** أي: إذا

بنو أمية الأمراء، وبنو المغيرة الوزراء. وأخرجه البيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فنكره. وأخرج الترمذي وصححه، وابن حبان، وابن مردويه والعسكري في الأمثال عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله». وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن عائشة: أنها سألت النبي ﷺ عن هذه الآية **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** قال: الضيق. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد قال: قال أبو هريرة لابن عباس: أما علينا في الدين من حرج في أن نسرق أو نزني؟ قال: بلى، قال: فما جعل عليكم في الدين من حرج، قال: الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن شهاب، أن ابن عباس كان يقول: **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** توسعة الإسلام، ما جعل الله من التوبة والكفارات. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن يسار عن ابن عباس **﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** قال: هذا في هلال رمضان إذا شك فيه الناس، وفي الحج إذا شكوا في الأضحية، وفي الفطر وأشباهه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبيرة: أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال: ادع لي رجلاً من هذيل، فجاءه فقال: ما الحرج فيكم؟ قال: للحرجة من الشجر التي ليس فيها مخرج، فقال ابن عباس: الذي ليس له مخرج. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق عبيد الله بن أبي يزيد، أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال: ها هنا أحد من هذيل؟ قال رجل: أنا، فقال: ما تعنون الحرجة فيكم؟ قال: الشيء الضيق، قال: هو ذلك. وأخرج البيهقي في سننه عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر قال: قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** ثم قال لي: ادع لي رجلاً من بني منلج، قال عمر: ما الحرج فيكم؟ قال: الضيق. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: **﴿لملة أبيكم﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: **﴿سماكم المسلمين من قبل﴾** قال الله عز وجل: سماكم. وروي نحوه عن جماعة من التابعين. وأخرج الطيالسي، وأحمد والبخاري في تاريخه، والترمذي وصححه، والنسائي، وأبو يعلى، وابن خزيمة، وابن حبان، والبخاري، والبارودي، وابن قانع، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوة الجاهلية فإنه من جثي جهنم»، قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: نعم، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله..

16] وقوله: **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾** [البقرة: 185]. وقوله: **﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾** [البقرة: 286]. وفي الحديث الصحيح أنه سبحانه قال: قد فعلت كما سبق بيانه في تفسير هذه الآية، والاحاديث في هذا كثيرة، وانتصاب ملة في **﴿لملة أبيكم إبراهيم﴾** على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله أي: وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم. وقال الزجاج: المعنى اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم. وقال الفراء: انتصب على تقدير حذف الكاف أي: كملة، وقيل: التقدير وافعلوا الخير كفعل أبيكم إبراهيم، فأقام الملة مقام الفعل؛ وقيل: على الإغراء، وقيل على الاختصاص، وإنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة، ولأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من نريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن لكونه أبا لنبيهم ﷺ **﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾** أي: في الكتب المتقدمة **﴿وفي هذا﴾** أي: القرآن، والضمير لله سبحانه؛ وقيل: راجع إلى إبراهيم. والمعنى هو أي: إبراهيم سماكم المسلمين من قبل النبي ﷺ، وفي هذا أي: في حكمه أن من اتبع محمداً فهو مسلم. قال النحاس: وهذا القول مخالف لقول علماء الأمة. ثم علل سبحانه ذلك بقوله: **﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾** أي: بتبليغه إليكم **﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾** أن رسلكم قد بلغتكم، وقد تقدم بيان معنى هذه الآية في البقرة. ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال: **﴿فاقيموا الصلاة واتوا الزكاة﴾** وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما **﴿واعتصموا بالله﴾** أي: اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون، والتجئوا إليه في جميع أموركم، ولا تطلبوا ذلك إلا منه **﴿هو مولاكم﴾** أي: ناصركم ومتولي أموركم بيقينها وجليلها **﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾** أي: لا مماثل له في الولاية لأموركم والنصرة على أعدائكم؛ وقيل: المراد بقوله: **﴿اعتصموا بالله﴾** تمسكوا بدين الله؛ وقيل: تقوا به تعالى.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿يا أيها الناس ضرب مثل﴾** قال: نزلت في صنم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه **﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾** قال: الطالب أهبتهم، والمطلوب الذباب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في قوله: **﴿لا يستتقنوه منه﴾** قال: لا تستنقذ الأصنام ذلك الشيء من الذباب. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى موسى بالكلام، وإبراهيم بالخلعة». وأخرج أيضاً عن أنس وصححه أن النبي ﷺ قال: «موسى بن عمران صفي الله». وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال لي عمر: السنا كنا نقرأ فيما نقرأ: وجاهدوا في الله جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله؟ قلت: بلى فمتى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كانت

تفسير سورة المؤمنون

وقد أخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم عن عبد الله بن السائب قال: صلى النبي ﷺ بمكة الصبح فاستفتح سورة المؤمنون، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر عيسى أخذته سعدة فركع. وأخرج البيهقي من حديث أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «لما خلق الله الجنة قال لها تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون». وأخرجه أيضاً ابن عدي والحاكم. وأخرج الطبراني في السنة، وابن مردويه من حديث ابن عباس مثله. وقد ورد في فضائل العشر الآيات من أول هذه السورة ما سيأتي قريباً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِفُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُرْضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُمْ فِيهَا مَوَدَّةٌ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْآلُورُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

قوله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ قال الفراء: قد ما هنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين، ويجوز أن تكون تقريباً للماضي من الحال، لأن قد تقرب الماضي من الحال حتى تلحقه بحكمه، ألا تراهم يقولون: قد قامت الصلاة قبل حال قيامها، ويكون المعنى في الآية: أن الفلاح قد حصل لهم، وأنهم عليه في الحال، والفلاح الظفر بالمراد والنجاة من المكروه؛ وقيل: البقاء في الخير، وأفلح إذا دخل في الفلاح، ويقال: أفلحه إذا أصاره إلى الفلاح، وقد تقدم بيان معنى الفلاح في أول البقرة. وقرأ طلحة بن مصرف (قد أفلح) بضم الهمزة وبناء الفعل للمفعول. وروي عنه أنه قرأ (أفلحوا المؤمنون) على الإبهام والتفسير، أو على لغة أكلوني البراغيث. ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله ﴿والذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ وما عطف عليه، والخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرغبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث، وهو في اللغة السكون والتواضع والخوف والتخل.

وقد اختلف الناس في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها؟ على قولين: قيل: الصحيح الأول، وقيل: الثاني. وادعى عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء على أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته، حكاه النيسابوري في تفسيره. قال: ومما يدل على صحة هذا القول قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ [النساء: 82]. والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى، وكذا قوله: ﴿أقم الصلاة

لنكري﴾ [طه: 14]. والغفلة تضاد الذكر، ولهذا قال: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ [الأعراف: 205]. وقوله: ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ [النساء: 43]. نهى للسكران والمستغرق في هموم الدنيا بمزلة. واللغو، قال الزجاج: هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية وما لا يجمل من القول والفعل، وقد تقدم تفسيره في البقرة. وقال الضحاک: إن اللغو هنا الشرك. وقال الحسن: إنه المعاصي كلها. ومعنى إعراضهم عنه: تجنبهم له وعدم التفاتهم إليه، وظاهره اتصافهم بصفة الإعراض عن اللغو في كل الأوقات، فيدخل وقت الصلاة في ذلك دخولاً أولياً كما تفيد الجملة الإسمية، وبناء الحكم على الضمير، ومعنى فعلهم للزكاة: تأتيتهم لها، فعبّر عن التأدية بالفعل لأنها مما يصدق عليه الفعل، والمراد بالزكاة هنا: المصدر لأنه الصادر عن الفاعل، وقيل: يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف أي: ﴿والذين هم﴾ لتأدية ﴿الزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون﴾ الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة، ومعنى حفظهم لها: أنهم ممسكون لها بالعفاف عما لا يحل لهم. قيل: والمراد هنا الرجال خاصة دون النساء بدليل قوله ﴿إلا على أزواجهن أو ما ملكت أيمانهم﴾ للإجماع على أنه لا يحل للمرأة أن يطأها من تملكه. قال الفراء: إن على في قوله: ﴿إلا على أزواجهن﴾ بمعنى: من. وقال الزجاج: المعنى أنهم يلامون في إطلاق ما حظر عليهم فامروا بحفظه إلا على أزواجهن ودل على المحذوف ذكر اللوم في آخر الآية، والجملة في محل نصب على الحال، وقيل: إن الاستثناء من نفي الإرسال المفهوم من الحفظ أي: لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهن؛ وقيل: المعنى إلا والين على أزواجهن وقوامين عليهم، من قولهم كان فلان على فلانة فمات عنها فحلف عليها فلان. والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في جميع الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم، وجملة ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ في محل جر عطفاً على أزواجهن، وما مصدرية، والمراد بذلك الإماء، وعبر عنهن بما التي لغير العقلاء، لأنه اجتمع فيهن الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهن كسائر السلع، فلجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء، وجملة ﴿فإنهم غير ملومين﴾ تعليل لما تقدم مما لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ الإشارة إلى الزوجات وملك اليمين، ومعنى العادون: المجاوزون إلى ما لا يحل لهم، فسمى سبحانه من نكح ما لا يحل عانياً، ووراء هنا بمعنى: سوى وهو مفعول ابتغى. قال الزجاج: أي فمن ابتغى ما بعد ذلك فمفعول الابتغاء محذوف، ووراء ظرف.

وقد نلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة، واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناة لأنه من الوراء لما ذكر، وقد جمعنا في تلك رسالة سمينها (بلوغ المني في حكم الاستمنا)، ونكرنا فيها ألة المنع والجواز وترجيح الراجح منهما ﴿والذين هم﴾ لآماناتهم وعهدهم

راعون ﴿قرأ الجمهور (لاماناتهم) بالجمع. وقرأ ابن كثير بالإفراد. والامانة ما يؤتمنون عليه، والعهد ما يعاهدون عليه من جهة الله سبحانه أو جهة عباده، وقد جمع العهد والامانة كل ما يتحمله الإنسان من أمر الدين والدنيا، والامانة أعم من العهد، فكل عهد أمانة، ومعنى راعون: حافظون ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قرأ الجمهور (صلواتهم) بالجمع. وقرأ حمزة والكسائي (صلاتهم) بالإفراد، ومن قرأ بالإفراد فقد أراد اسم الجنس وهو في معنى الجمع والمحافظة على الصلاة إقامتها والمحافظة عليها في أوقاتها وإتمام ركوعها وسجودها وقراءتها والمشروع من أنكارها. ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال: ﴿اولئك هم الوارثون﴾ أي: الأحقاء بأن يسموا بهذا الاسم دون غيرهم. ثم بين الموروث بقوله: ﴿الذين يرثون الفردوس﴾ وهو أوسط الجنة، كما صرح تفسيره بذلك عن رسول الله ﷺ. والمعنى: أن من عمل بما نكر في هذه الآيات فهو الوارث الذي يرث من الجنة ذلك المكان، وفيه استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم؛ وقيل: المعنى أنهم يرثون من الكفار منازلهم حيث فرقوا على أنفسهم، لأنه سبحانه خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. ولفظ الفردوس لغة رومية معربة، وقيل: فارسية؛ وقيل: حبشية؛ وقيل: هي عربية؛ وجملة ﴿هم فيها خالدون﴾ في محل نصب على الحال المقدرة، أو مستأنفة لا محل لها، ومعنى الخلود: أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، وتأنيت الضمير مع أنه راجع إلى الفردوس لأنه بمعنى الجنة.

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والعقيلي، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب قال: «كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فانزل الله عليه يوماً فمكثنا ساعة، فسرني عنه فاستقبل القبلة فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر». وفي إسناده يونس بن سليم الإيلي. قال النسائي: لا تعرف أحداً رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم ويونس لا نعرفه. وأخرج البخاري في الأئب المفرد، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلقه القرآن، ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنین؟ فقرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى بلغ العشر، فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت ﴿الذين هم في

صلاتهم خاشعون﴾. وأخرجه عبد الرزاق عنه، وزاد: فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده، وأخرجه عنه أيضاً عبد بن حميد، وأبو داود في المراسيل، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن بلفظ: كان إذا قام في الصلاة نظر هكذا، وهكذا، يميناً وشمالاً، فنزلت ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ فحنى رأسه. وروي عنه من طرق مراسلاً هكذا. وأخرجه الحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في سننه عنه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قطاً رأسه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن سيرين بلفظ: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون رؤوسهم وأبصارهم إلى السماء في الصلاة يلتفتون يميناً وشمالاً، فانزل الله ﴿قد افلح المؤمنون﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ فالأول برؤوسهم فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك في الصلاة، ولم يلتفتوا يميناً وشمالاً. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن علي: أنه سئل عن قوله: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال: الخشوع في القلب وأن تلتين كتفك للمرء المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال: خائفون ساكنون. وقد ورد في مشروعية الخشوع في الصلاة والنهي عن الالتفات وعن رفع البصر إلى السماء أحاديث معروفة في كتب الحديث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ قال: الباطل. وأخرج عبد الرزاق، وأبو داود في ناسخه عن القاسم بن محمد: أنه سئل عن المتعة فقال: إني لأرى تحريمها في القرآن، ثم تلا ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والطبراني عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر نكر الصلاة في القرآن ﴿الذين هم على صلاتهم داثمون﴾ [المعارج: 23]. ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قال: تلك على موافقتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على تركها، قال: تركها كفر. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه عن أبي هريرة في قوله: ﴿اولئك هم الوارثون﴾ قال: يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم التي أعدت لهم لو أطاعوا الله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿اولئك هم الوارثون﴾». وأخرج عبد بن حميد، والترمذي

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والعقيلي، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب قال: «كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فانزل الله عليه يوماً فمكثنا ساعة، فسرني عنه فاستقبل القبلة فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر». وفي إسناده يونس بن سليم الإيلي. قال النسائي: لا تعرف أحداً رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم ويونس لا نعرفه. وأخرج البخاري في الأئب المفرد، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلقه القرآن، ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنین؟ فقرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى بلغ العشر، فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت ﴿الذين هم في

عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغة، ومعنى ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا للنطفة علقَةً﴾ أي: أنه سبحانه أحال النطفة البيضاء علقه حمراء ﴿فَخَلَقْنَا العلقة مضغة﴾ أي: قطعة لحم غير مخلقة ﴿فَخَلَقْنَا المضغة عظاماً﴾ أي: جعلها الله سبحانه متصلة لتكون عموداً للبدن على أشكال مخصوصة ﴿فَكَسَوْنَا للعظام لحماً﴾ أي: أنبت الله سبحانه على كل عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويناسبه ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ أي: نفخنا فيه الروح بعد أن كان جماداً؛ وقيل: أخرجناه إلى الدنيا؛ وقيل: هو نبات الشعر؛ وقيل: خروج الأسنان؛ وقيل: تكميل القوى المخلوقة فيه، ولا مانع من إرادة الجميع، والمجيء بثم لكمال التفاوت بين الخلقين ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: استحق التعظيم والشثناء؛ وقيل: مأخوذ من البركة أي: كثر خيريه وبركته: والخلق في اللغة التقدير، يقال: خلقت الأيام: إذا قسسته لنقطع منه شيئاً، فمعنى أحسن الخالقين: اتقن الصانعين المقدرين، ومنه قول الشاعر:

ولانت تفري ما خلقت وبعد خسر القوم يخلق ثم لا يفري
﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ أي: ثم إنكم بعد تلك الأمور لميتون صائرون إلى الموت لا محالة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعَثُونَ﴾ من قبوركم إلى المحشر للحساب والعقاب. واللام في ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ جواب لقسم محذوف، والجملة مبتدأة مشتملة على بيان خلق ما يحتاجون إليه بعد بيان خلقهم، والطرائق هي السموات. قال الخليلي والفراء والزجاج، سميت طرائق لأنه طوبق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل. قال أبو عبيدة: طارت الشيء جعلت بعضه فوق بعض، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة؛ وقيل: لأنها طرائق الملائكة، وقيل: لأنها طرائق الكواكب ﴿وَمَا كُنَّا مِنَ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ المراد بالخلق هنا المخلوق أي: وما كنا عن هذه السبع الطرائق وحفظها عن أن تقع على الأرض بغافلين. وقال أكثر المفسرين: المراد الخلق كلهم بغافلين بل حفظنا السموات عن أن تسقط، وحفظنا من في الأرض أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم أو تميد بهم الأرض، أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم، ويجوز أن يراد نفي الغفلة عن القيام بمصالحهم وما يعيشون به، ونفي الغفلة عن حفظهم ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هذا من جملة ما امتن الله سبحانه به على خلقه، والمراد: بالماء ماء المطر، فإن به حياة الأرض وما فيها من الحيوان، ومن جملة ذلك ماء الأنهار النازلة من السماء والعيون، والآبار المستخرجة من الأرض، فإن أصلها من ماء السماء؛ وقيل: أراد سبحانه في هذه الآية الأنهار الأربعة: سيحان، وجيحان، والفرات، والنيل، ولا وجه لهذا التخصيص؛ وقيل: المراد به الماء العذب، ولا وجه لذلك أيضاً فليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء، ومعنى ﴿يَقْدِرُ﴾ بتقدير منا أو بمقدار يكون به

وقال: حسن صحيح غريب عن أنس، فنكر قصة، وفيها أن النبي ﷺ قال: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، ويدل على هذه الوراثة المذكورة هنا قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63]. وقوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]. ويشهد لحديث أبي هريرة هذا ما في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بنذوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى». وفي لفظ له قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقول: هذا فكلك من النار».

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي رَقٍّ مَرْكَبٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكْهُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَكَيْتُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُعَذَّبُونَ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿٦﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِنَّ الْأَرْضَ وَهِيَ رَتْقًا فَتَبْدُونَ ﴿٧﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ تَنْجِيلٍ وَأَعْنَبْ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٨﴾ وَسَجَّرْنَا خُرُوجَكُمْ مِنْ أَرْضِ رَبَّنَا بِالنَّارِ الَّتِي لَا يَلْأَكِلُهَا شَايٍ وَلَا تَلْمُزُهَا أَسَافٌ وَلَا تُخْزِيهَا كَلِبَةٌ ﴿٩﴾ وَإِن لَّكَ فِي الْأَنْثَمِ لَعِبْرَةٌ لِّئَلَّا تُكْرِهُوا وَلَكُمْ فِيهَا نَمْتٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٠﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالْجِ مَحْمُوتُونَ ﴿١١﴾

لما حث سبحانه عباده على العبادة ووعدهم الفردوس على فعلها، عاد إلى تقرير المبدأ والمعاد ليتمكن ذلك في نفوس المكلفين فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ إلى آخره، واللام جواب قسم محذوف، والجملة مبتدأة، وقيل: معطوفة على ما قبلها، والمراد بالإنسان: الجنس لأنهم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم؛ وقيل: المراد به آدم. والسلالة فعالة من السل، وهو استخراج الشيء من الشيء، يقال: سللت الشعرة من العجين، والسيف من الغمد فانسَل، فالنطفة سلالة، والولد سليل، وسلالة أيضاً، ومنه قول الشاعر:

فجاءت به غضب الأنيم غضنفرا سلالة فرج كان غير حصين
وقول الآخر:

وهل هند إلا مهرة عربية سلالة أفراس تحللها بغل
و ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ ابتدائية متعلقة بخلقنا، وفي ﴿مِنْ طِينٍ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف، وقع صفة لسلالة أي: كائنة من طين، والمعنى: أنه سبحانه خلق جوهر الإنسان أولاً من طين، لأن الأصل آدم، وهو من طين خالص وأولاده من طين ومني؛ وقيل: السلالة الطين إذا عصرته انسل من بين أصابعك؛ فالذي يخرج هو السلالة، قاله الكلبي ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الجنس باعتبار أفراده الذين هم بنو آدم، أو جعلنا نسله على حذف مضاف إن أريد بالإنسان آدم ﴿نُطْفَةٍ﴾ وقد تقدّم تفسير النطفة في سورة الحج، وكذلك تفسير العلقة والمضغة. والمراد بالقرآن المكين: الرَّحْم، وعبر

الباء الموحدة. والمعنى على القراءة الأولى: أنها تنبت في نفسها متلبسة بالدهن، وعلى القراءة الثانية: الباء بمعنى مع، فهي للمصاحبة. قال أبو علي الفارسي: تنبت جناحها ومعه الدهن، وقيل: الباء زائدة. قاله أبو عبيدة، ومثله قول الشاعر:

هَنَ الحِرَارِثُ لَارِيَاتٍ لَحْمَرَةً سود المحاجر لا يقرآن بالسور
وقال آخر:

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقال الفراء والزجاج: إن نبت وأنبت بمعنى، والأصمعي ينكر أنبت، ويرد عليه قول زهير:

رأيت نوي الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل
أي: نبت. وقرأ الزهري، والحسن، والأعرج (تنبت) بضم المثناة وفتح الموحدة. قال الزجاج وابن جني أي: تنبت ومعها الدهن، وقرأ ابن مسعود (تخرج) بالدهن، وقرأ زُرَّ بن حبيش (تنبت الدهن) بحذف حرف الجر. وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب بالدهان ﴿وصبغ للأكلين﴾ معطوف على الدهن أي: تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهنا يدهن به. وكونه صبغاً يؤتم به. قرأ الجمهور (صبغ) وقرأ قوم (صباغ) مثل ليس ولباس، وكل إدام يؤتم به فهو صبغ وصباغ، وأصل الصبغ ما يلون به الثوب، وشبه الإدام به لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ به ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ هذه من جملة النعم التي امتن الله بها عليهم، وقد تقدم تفسير الأنعام في سورة النحل. قال النيسابوري في تفسيره: ولعل القصد بالأنعام هنا إلى الإبل خاصة لأنها هي المحمول عليها في العادة، ولأنه قرننها بالفلك وهي سفائن البر، كما أن الفلك سفائن البحر. وبين سبحانه أنها عبرة، لأنها مما يستدل بخلقها وأفعالها على عظيم القدرة الإلهية، ثم فصل سبحانه ما في هذه الأنعام من النعم بعد ما ذكره من العبرة فيها للعباد فقال: ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ يعني سبحانه: اللبن المتكوّن في بطونها المنصبّ إلى ضروعها، فإن في انعقاد ما تاكله من العلف واستحالتة إلى هذا الغذاء اللذيذ، والمشروب النفيس أعظم عبرة للمعتبرين، وأكبر موعظة للمتعظين. قرئ (نسقيكم) بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه، وقرئ بالتاء الفوقية على أن الفاعل هو الأنعام، ثم ذكر ما فيها من المنافع إجمالاً فقال: ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ يعني: في ظهورها وبليانها وأولادها وأصوافها وأشعارها، ثم ذكر منفعة خاصة فقال: ﴿ومنها تاكلون﴾ لما في الأكل من عظيم الانتفاع لهم، وكذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ أي: وعلى الأنعام، فإن أريد بالأنعام الإبل والبقر والغنم، فالمراد وعلى بعض الأنعام، وهي الإبل خاصة، وإن أريد بالأنعام الإبل خاصة، فالمعنى واضح. ثم لما كانت الأنعام هي غالب ما يكون الركوب عليه في

صلاح الزرائع والثمار، فإنه لوكثر لكان به هلاك ذلك، ومثله قوله سبحانه: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ [الحجر: 21] ومعنى ﴿فلسكناه في الأرض﴾ جعلناه مستقرّاً فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه كالماء الذي يبقى في المستنقعات والغدران ونحوها ﴿وإننا على ذهاب به لقادرون﴾ أي: كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرين على أن نذهب به بوجه من الوجوه، ولهذا التنكير حسن موقع لا يخفى، وفي هذا تهديد شديد لما يدل عليه من قدرته سبحانه على إذهابه وتغييره حتى يهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم، ومثله قوله: ﴿قل رأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن ياتيكم بماء معين﴾ [الملك: 30] ثم بين سبحانه ما يتسبب عن إنزال الماء فقال: ﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾ أي: أوجدنا بذلك الماء جنات من النوعين المذكورين ﴿لكم فيها﴾ أي: في هذه الجنات ﴿فواكه كثيرة﴾ تتفكهون بها وتتطعمون منها، وقيل: المعنى ومن هذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم كقوله: فلان ياكل من حرفة كذا، وهو بعيد، واقتصر سبحانه على النخيل والأعناب، لأنها الموجودة بالطائف والمدينة وما يتصل بذلك. كذا قال ابن جرير، وقيل: لأنها أشرف الأشجار ثمرة وأطيبها منفعة وطعماً ولذّة. قيل: المعنى بقوله: ﴿لكم فيها فواكه﴾ أن لكم في هذه الجنات فواكه من غير العنب والنخيل؛ وقيل: المعنى لكم في هذين النوعين خاصة فواكه، لأن فيهما أنواعاً مختلفة متفاوتة في الطعم واللون.

وقد اختلف أهل الفقه في لفظ الفاكهة على ماذا يطلق؟ واختلفوا كثيراً، وأحسن ما قيل: إنها تطلق على الثمرات التي ياكلها الناس، وليست بقوت لهم ولا طعام ولا إدام، واختلف في البقول هل تدخل في الفاكهة أم لا؟ وانتصاب شجرة على العطف على جنات، وأجاز الفراء الرفع على تقدير: وثم شجرة فتكون مرتفعة على الابتداء وخبرها محذوف مقرر قبلها، وهو الظرف المذكور. قال الواحدي: والمفسرون كلهم يقولون: إن المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون، وخصت بالذكر لأنه لا يتعاهدها أحد بالسقي، وهي التي يخرج الدهن منها، فنكرها الله سبحانه امتناناً منه على عباده بها، ولأنها أكرم الشجر وأعمها نفعاً وأكثرها بركة، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بأنها ﴿تخرج من طور سيناء﴾ وهو جبل ببيت المقدس، والطور الجبل في كلام العرب؛ وقيل: هو مما عذب من كلام العجم. واختلف في معنى سيناء، فقيل: هو الحسن؛ وقيل: هو المبارك، وذهب الجمهور إلى أنه اسم للجبل كما تقول جبل أحد؛ وقيل: سيناء حجر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده، وقيل: هو كل جبل يحمل الثمار. وقرأ الكوفيون (سيناء) بفتح السين، وقرأ الباقون بكسر السين، ولم يصرف لأنه جعل اسماً للبقعة، وزعم الأخفش أنه أعجمي. وقرأ الجمهور (تنبت بالدهن) بفتح المثناة وضمّ الباء الموحدة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمّ المثناة وكسر

المعنى أي: واسلك أهلك ﴿إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أي: القول بإهلاكهم منهم ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ بالدعاء لهم بإنجائهم، وجملة ﴿إنهم مفرقون﴾ تعليل للنهي عن مخاطبة أي: إنهم مقضي عليهم بالإغراق لظلمهم، ومن كان هكذا فهو لا يستحق الدعاء له ﴿فإذا استويت﴾ أي: علوت ﴿أنت ومن معك﴾ من أهلك وأتباعك ﴿على الفلك﴾ راكبين عليه ﴿فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾ أي: حال بيننا وبينهم، وخلصنا منهم، كقوله: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام: 45]. وقد تقدم تفسير هذه القصة في سورة هود على التمام والكمال، وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الفرق جزماً، لأنه قد سبق في علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة، وسلامتهم من أن يصلبوا بما أصيبوا به من العذاب. ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له وأتم فائدة فقال: ﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾ أي: أنزلني في السفينة. قرأ الجمهور منزلاً بضم الميم وفتح الزاي على أنه مصدر. وقرأ زر بن حبیش، وأبو بكر، عن عاصم، والمفضل بفتح الميم وكسر الزاي على أنه اسم مكان. فعلى القراءة الأولى: أنزلني إنزالاً مباركاً، وعلى القراءة الثانية: أنزلني مكاناً مباركاً. قال الجوهري: والمنزل بفتح الميم والزاي النزول، وهو الحلول، تقول: نزلت نزولاً ومنزلاً. قال الشاعر:

إن نكرتك الدار منزلها جمل بكيت فدمع العين منحدر سجل
بنصب منزلها، لأنه مصدر، قيل: أمره الله سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخوله السفينة؛ وقيل: عند خروجه منها، والآية تعليم من الله لعباده إذا ركبوا ثم نزلوا أن يقولوا هذا القول: ﴿وأنزل خير المنزلين﴾ هذا ثناء منه على الله عز وجل إثر دعائه له. قال الواحدي: قال المفسرون: إنه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك: الحمد لله، وعند نزوله منها: رب أنزلني منزلاً مباركاً، والإشارة بقوله: ﴿إن في ذلك﴾ إلى ما تقدم مما قصه الله علينا من أمر نوح عليه السلام: والآيات الدلالات على كمال قدرته سبحانه، والعلامات التي يستدل بها على عظيم شأنه ﴿وإن كنا لمبتلين﴾ أي: لمختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم، ليظهر المطيع والعاصي للناس أو للملائكة. وقيل: المعنى إنه يعاملهم سبحانه معاملة المختبر لأحوالهم، تارة بالإرسال، وتارة بالعذاب ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ أي: من بعد إهلاكهم. قال أكثر المفسرين: إن هؤلاء الذين أنشأهم الله بعدهم هم عاد قوم هود، لمجيء قصتهم على إثر قصة نوح في غير هذا الموضع، ولقوله في الأعراف ﴿وأنكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ [الأعراف: 69]. وقيل: هم ثمود لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة. وقد قال سبحانه في هذه القصة: ﴿فأخذتهم الصيحة﴾ [الحجر: 73 و83]. وقيل: هم أصحاب مدين قوم شعيب لأنهم ممن أهلك بالصيحة ﴿فأرسلنا فيهم رسولاً﴾ عدى فعل الإرسال بقي مع أنه يتعدى إلى، للدلالة

لكونه وصفاً لإله على المحل، لأنه مبتدأ خبره لكم أي: ما لكم في الوجود إله غيره سبحانه، وقرئ بالجر اعتباراً بلفظ إله ﴿أفلا تتقون﴾ أي: أفلا تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذي لا يستحق العبادة غيره، وليس لكم إله سواه؛ وقيل: المعنى أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خولكم من النعم ويسلبها عنكم، وقيل: المعنى أفلا تقون أنفسكم عذابه الذي تقتضيه نوبكم ﴿فقال الملا الذين كفروا من قومه﴾ أي: قال أشراف قومه الذين كفروا به ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي: من جنسكم في البشرية، لا فرق بينكم وبينه ﴿يريد أن يتفضل عليكم﴾ أي: يطلب الفضل عليكم بأن يسويكم حتى تكونوا تابعين له متقائين لأمره، ثم صرحوا بأن البشر لا يكون رسولاً فقالوا: ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ أي: لو شاء الله إرسال رسول لأرسل ملائكة، وإنما عبر بالإنزال عن الإرسال لأن إرسالهم إلى العباد يستلزم نزولهم إليهم ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ أي: بمثل دعوى هذا المدعي للنبوّة من البشر، أو بمثل كلامه، وهو الأمر بعبادة الله وحده أو ما سمعنا ببشر يدعي هذه الدعوى في آبائنا الأولين أي: في الأمم الماضية قبل هذا؛ وقيل: الباء في بهذا زائدة أي: ما سمعنا هذا كائناً في الماضين، قالوا: هذا اعتماداً منهم على التقليد واعتصاماً بحبله، ولم يقنعوا بذلك حتى ضموا إليه الكتب البحت، والبهت الصراح فقالوا: ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ أي: جنون لا يدري ما يقول: ﴿فتقربصوا به حتى حين﴾ أي: انتظروا به حتى يستبين أمره، بأن يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى، أو حتى يموت فتستريحوا منه. قال الفراء: ليس يريد بالحين هنا وقتاً بعينه إنما هو كقولهم: دعه إلى يوم ما، فلما سمع عليه الصلاة والسلام كلامهم وعرف تمانيتهم على الكفر وإصرارهم عليه ﴿قال رب أنصرني﴾ عليهم فانتقم منهم بما تشاء وكيف تريد، والباء في ﴿بما كذبون﴾ للسببية أي: بسبب تكذيبهم إياي ﴿فأوحينا إليه﴾ عند ذلك أي: أرسلنا إليه رسولاً من السماء ﴿أن اصنع الفلك﴾ وأن هي مفسرة لما في الوحي من معنى القول ﴿بإعفينا﴾ أي: متلبساً بحفظنا وكلاءتنا، وقد تقدم بيان هذا في هود. ومعنى ﴿ووحينا﴾ أمرنا لك وتعليمنا إياك لكيفية صنعها، والفاء في قوله: ﴿فإذا جاء أمرنا﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلك، والمراد بالأمر: العذاب ﴿وفار التنور﴾ معطوف على الجملة التي قبله عطف النسق؛ وقيل: عطف البيان أي: إن مجيء الأمر هو فور التنور أي: تنور آثم الصائر إلى نوح أي: إذا وقع ذلك ﴿فأسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي: أدخل فيها، يقال: أسلكه في كذا أدخله، وأسلكته أدخلته. قرأ حفص (من كل) بالتنوين، وقرأ الباقون بالإضافة، ومعنى القراءة الأولى: من كل أمة زوجين، ومعنى الثانية من كل زوجين، وهما أمة الذكر والأنثى اثنين، وانتصاب ﴿أهلك﴾ بفعل معطوف على فأسلك، لا بالعطف على زوجين، أو على اثنين على القراءتين لادائه إلى اختلاف

حياتنا الدنيا أي: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، لا الحياة الآخرة التي تعدنا بها، وجملة **﴿نموت ونحيا﴾** مفسرة لما أعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا. ثم صرحوا بنفي البعث، وإن الوعد به منه افتراء على الله فقالوا: **﴿وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً﴾** أي: ما هو فيما يدعيه إلا مفتر للكذب على الله **﴿وما نحن له بمؤمنين﴾** أي: بمصدقين له فيما يقوله: **﴿قال رب أنصرني﴾** أي: قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصنّفونه البتة: رب أنصرني عليهم وانتقم لي منهم بسبب تكذيبهم إياي **﴿قال عما قليل ليصبحن نادمين﴾** أي: قال الله سبحانه مجيباً لدعائه وأعداً له بالقبول لما دعا به: عما قليل من الزمان ليصبحن نادمين على ما وقع منهم من التكذيب والعناد والإصرار على الكفر، و«ما» في عما قليل مزيدة بين الجار والمجرور للتأكيد لقلة الزمان كما في قوله: **﴿فيما رحمة من الله﴾** [آل عمران: 159]، ثم أخبر سبحانه بأنهم **﴿اختلفتم للصيحة﴾** وحق بهم عذابه ونزل عليهم سخطه. قال المفسرون: صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التي أهلكهم الله بها فماتوا جميعاً؛ وقيل: للصيحة هي نفس العذاب الذي نزل بهم، ومنه قول الشاعر:

صاح الزمان بالبرمك صيحة خزا الشنتها على الأنقان
والبلاء في الحق متعلق بالأخذ، ثم أخبر سبحانه عما صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم فقال: **﴿فجعلناهم غناء﴾** أي: كغناء السيل الذي يحمله والغناء: ما يحمل السيل من بالي الشجر والحشيش والقصب ونحو ذلك مما يحمله على ظاهر الماء. والمعنى: صيرهم هلكى فيبسوا كما يبس الغناء **﴿فبعداً للظالمين﴾** انتصاب بعداً على المصدرية وهو من المصادر التي لا ينكر فعلها معها أي: بعنوا بعداً، واللام لبيان من قيل له ذلك.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿فأسلك فيها﴾** يقول: أجعل معك في السفينة **﴿من كل زوجين اثنين﴾**. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾** قال لنوح حين أنزل من السفينة. وأخرج هؤلاء عن قتادة في الآية قال: يعلمكم سبحانه كيف تقولون إذا ركبتم، وكيف تقولون إذا نزلتم. أما عند الركوب **﴿فسبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾** * وإنا إلى ربنا لمنقلبون. [الزخرف: 13 - 14]. و**﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾** [هود: 41]. وعند النزول **﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: **﴿قرناً﴾** قال: أمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿هيهات هيهات﴾** قال: بعيد بعيد. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: **﴿فجعلناهم غناء﴾** قال: جعلوا كالشيء الميت البالي من الشجر.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قَرُونًا كَذَّبَتْ (١١) مَا تَبَيَّنَ مِنْ أَثَرِ آلِهَامَا وَمَا

على أن هذا الرسول المرسل إليهم نشأ فيهم بين أظهرهم، يعرفون مكانه ومولده، ليكون سكوتهم إلى قوله أكثر من سكوتهم إلى من يأتيهم من غير مكانهم، وقيل: وجه التعدية للفعل المذكور بقي أنه ضمن معنى القول أي: قلنا لهم على لسان الرسول **﴿اعبدوا الله﴾** ولهذا جيء بأن المفسرة. والأول أولى لأن تضمين أرسلنا معنى قلنا لا يستلزم تعديته بفي، وجملة **﴿ما لكم من إله غيره﴾** تعليل للأمر بالعبادة **﴿أفلا تتقون﴾** عذابه الذي يقتضيه شرككم **﴿وقال الملا من قومه﴾** أي: أشراقهم وقادتهم. ثم وصف الملا بالكفر والتكذيب فقال: **﴿الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة﴾** أي: كذبوا بما في الآخرة من الحساب والعقاب، أو كذبوا بالبعث **﴿واترقناهم﴾** أي: وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه **﴿في الحياة الدنيا﴾** من كثرة الأموال ورفاهة العيش **﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾** أي: قال الملا لقومهم هذا القول، وصفوه بمساواتهم في البشرية، وفي الأكل **﴿مما تاكلون منه﴾** والشرب مما تشربون منه، وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم. قال الفراء: إن معنى **﴿ويشرب مما تشربون﴾** على حذف منه أي: مما تشربون منه وقيل: إن ما مصدرية، فلا تحتاج إلى عائذ **﴿ولئن اطعتم بشراً مثلكم﴾** فيما ذكر من الأوصاف **﴿إنكم لخاصرون﴾** أي: مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم، والاستفهام في قوله: **﴿أيعنكم أنكم إذا متم﴾** للإنكار، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تقبيح اتباعهم له. قرئ بكسر الميم من متم، من مات يمات كخاف يخاف. وقرئ بضمها من مات يموت: كقال يقول: **﴿وكنتم تراباً وعظاماً﴾** أي: كان بعض أجزاءكم تراباً، وبعضها عظماً نخرة لا لحم فيها ولا أعصاب عليها، قيل: وتقديم التراب لكونه أبعد في عقولهم؛ وقيل: المعنى كان متقومكم تراباً ومتأخروكم عظماً **﴿أنكم مخرجون﴾** أي: من قبوركم أحياء كما كنتم، قال سيبويه: إن الأولى في موضع نصب بوقوع أيعنكم عليها، وأن الثانية بدل منها. وقال الفراء والجزمي والمبرد: إن أن الثانية مكررة للتوكيد، وحسن تكريرها لطول الكلام، وبمثله قال الزجاج. وقال الاخفش: أن الثانية في محل رفع بفعل مضمر أي: يحدث إخراجكم كما تقول: اليوم القتال، فالمعنى: اليوم يحدث القتال **﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾** أي: بعد ما توعدون، أو بعيد ما توعدون، والتكرير للتأكيد. قال ابن الأنباري: وفي هيهات عشر لغات ثم سردها، وهي مبينة في علم النحو. وقد قرئ ببعضها، واللام في لما توعدون لبيان المستبعد كما في قوله: **﴿هيت لك﴾** [يوسف: 23]، لكنه قيل: لماذا هذا الاستبعاد؟ فقيل: لما توعدون. والمعنى: بعد إخراجكم للوعد الذي توعدون، هذا على أن هيهات اسم فعل، وقال الزجاج: هو في تقدير المصدر أي: البعد لما توعدون، أو بعد لما توعدون على قراءة من نون فتكون على هذا مبتدأ خبره لما توعدون. ثم بين سبحانه إترافهم بأنهم قالوا: **﴿إن هي إلا**

ومنه قول ابن زيد في مقصوته:

ولنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن روى
﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾ وصفهم هنا بعدم الإيمان،
 وفيما سبق قريباً بالظلم لكون كل من الوصفين صامداً عن
 كل طائفة من الطائفتين، أو لكون هؤلاء لم يقع منهم إلا
 مجرد عدم التصديق، وأولئك ضموا إليه تلك الأقوال الشنيعة
 التي هي من أشد الظلم واقطعه. ثم حكى سبحانه ما وقع
 من فرعون وقومه عند إرسال موسى وهارون إليهم فقال:
﴿ثم أرسلنا موسى وإخاه هارون بآياتنا﴾ هي التسع
 المتقدم نكراها غير مرة، ولا يصح عد فلق البحر منها هنا.
 لأن المراد: الآيات التي كذبوا بها واستكبروا عنها. والمراد
 بالسلطان المبين: الحجة الواضحة البينة. قيل: هي الآيات
 التسع نفسها والعطف من باب

إلى الملك القرم وابن الهمام

وقيل: أراد العصي لأنها أم الآيات، فيكون من باب عطف
 جبريل على الملائكة؛ وقيل: المراد بالآيات: التي كانت لهما،
 وبالسُّلطان الدلائل المبين: التسع الآيات، والمراد بالملا في
 قوله: **﴿إلى فرعون وملائه﴾** هم الأشراف منهم كما سبق
 بيانه غير مرة **﴿فاستكبروا﴾** أي: طلبوا الكبر وتكفوه فلم
 ينقادوا للحق **﴿وكانوا قوماً عالين﴾** قاهرين للناس بالبغي
 والظلم، مستعقلين عليهم، متطاولين كبراً وعناداً وتمرداً،
 وجملة **﴿فقالوا إنؤمن لبشرين مثلاً﴾** معطوفة على جملة
﴿استكبروا﴾ وما بينهما اعتراض، والاستفهام للإنكار أي:
 كيف نصنع من كان مثلاً في البشرية، والبشر يطلق على
 الواحد كقوله: **﴿بشراً سوياً﴾** [مريم: 17]. كما يطلق على
 الجمع كما في قوله: **﴿فلما ترين من البشر أحداً﴾** [مريم:
 26]. فتشيت هنا هي باعتبار المعنى الأول، وأفرد المثل لأنه
 في حكم المصدر، ومعنى **﴿وقومهما لنا عابنون﴾** أنهم
 مطيعون لهم منقادون لما يأمرهم به كانقياد العبيد. قال
 المبرِّد: العابد المطيع الخاضع. قال أبو عبيدة: العرب تسمي
 كل من دان لملك عابداً له، وقيل: يحتمل أنه كان يدعي
 الإلهية فدعى الناس إلى عبادته فأطاعوه، واللام في **﴿لنا﴾**
 متعلقة بعبادون، قُدمت عليه لرعاية الفواصل، والجملة حالية
﴿فكذبوهما﴾ أي: فاضروا على تكذيبهما **﴿فكانوا من
 المهلكين﴾** بالغرق في البحر. ثم حكى سبحانه ما جرى
 على قوم موسى بعد إهلاك عدوهم فقال: **﴿ولقد آتينا
 موسى الكتاب﴾** يعني: التوراة، وخَصَّ موسى بالذكر لأن
 التوراة أنزلت عليه في الطور، وكان هارون خليفته في قومه
﴿لعلهم يهتدون﴾ أي: لعل قوم موسى يهتدون بها إلى
 الحق، ويعملون بما فيها من الشرائع، فجعل سبحانه إيتاء
 موسى إياها إيتاء لقومه، لأنها وإن كانت منزلة على موسى
 فهي لإرشاد قومه. وقيل: إن ثَمَّ مضافاً محذوفاً أقيم
 المضاف إليه مقامه أي: آتينا قوم موسى الكتاب؛ وقيل: إن
 الضمير في **﴿لعلهم﴾** يرجع إلى فرعون وملائه، وهو وهم
 لأن موسى لم يؤت التوراة إلا بعد إهلاك فرعون وقومه كما

يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا سُورًا تَرَاهُ كُلَّ مَرْجَأٍ أَنَّهُ رُسُلُنَا كَذَّبُوا فَأَتَيْنَا بِمَصْنَعِهِمْ
 بَعْضًا وَمَحَلَّتْهُمْ أَجَادِيثٌ فَبَدَأَ لِقَوْمِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَإِخَاهُ
 هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَكُلِّ ذُرِّيَةٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا
 عَالِينَ ﴿٣٤﴾ فَقَالُوا أَتَأْتِيَنَا السُّحْرُ بِآيَاتِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدَّةٌ ﴿٣٥﴾ فَكَذَّبُوهُمْ فَكَاوَرُوا
 مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ وَهَلَّلْنَا ابْنَ
 مَرْيَمَ وَأَمْنَاهُ مَائَةً وَآيَاتِنَاهُمَا إِلَى زَيْدٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٣٨﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلرُّسُلِ كُلُّوْا
 مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْمُؤُا صَاحِبًا إِلَى يَمَا تَمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ ﴿٣٩﴾ وَلَئِنْ هَدَيْنَاهُ لَأُنْكِرُ أَنَّهُ
 وَاحِدٌ وَأَنَا رِبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِي فَعَسَىٰ أَنتُمْ مِّنْهُمْ ذُرِّيَّةٌ كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٠﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤١﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٤﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٥﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٦﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٧﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٩﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥١﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٧﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٥﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٦﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٧﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٩﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٠﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧١﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٤﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٠﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨١﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٤﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٥﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٦﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٧﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٨﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩١﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٥﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٦﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٩﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ
 فَالَّذِينَ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّةً كُلِّ حَزْبٍ لَّيَمَّ لِيَوْمِهِمْ

قوله: **﴿ثم أنشأنا من بعدهم﴾** أي: من بعد إهلاكهم
﴿قروناً آخرين﴾ قيل: هم قوم صالح ولوط وشعيب كما
 وردت قصتهم على هذا الترتيب في الأعراف وهود، وقيل:
 هم بنو إسرائيل. والقرون الأمم، ولعل وجه الجمع هنا
 للقرون والإفراد فيما سبق قريباً أنه أراد ما هنا أمماً متعدداً
 وهناك أمة واحدة. ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته في
 شأن عباده فقال: **﴿ما تسبق من أمة لجلها وما
 يستأخرون﴾** أي: ما تتقدم كل طائفة مجتمعة في قرن
 آجالها المكتوبة لها في الهلاك ولا تتأخر عنها، ومثل ذلك
 قوله تعالى: **﴿فيأذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا
 يستقدمون﴾** [الأعراف: 34]. ثم بين سبحانه أن رسله كانوا
 بعد هذه القرون متواترين، وأن شأن أممهم كان واحداً في
 التكذيب لهم فقال: **﴿ثم أرسلنا رسلاً تترأف﴾** والجملة
 معطوفة على الجملة التي قبلها بمعنى أن إرسال كل رسول
 متأخر عن إنشاء القرن الذي أرسل إليه، لا على معنى أن
 إرسال الرسل جميعاً متأخر عن إنشاء تلك القرون جميعاً،
 ومعنى **﴿تترأف﴾** تتواتر واحداً بعد واحد ويتبع بعضهم
 بعضاً، من الوتر وهو الفرد. قال الأصمعي: واترت كتبي
 عليه: أتبع بعضها بعضاً إلا أن بين كل واحد منها وبين
 الآخر مهلة. وقال غيره: المتواترة المتتابعة بغير مهلة. قرأ
 ابن كثير، وابن عمرو (تترئ) بالتثنية على أنه مصدر. قال
 النحاس: وعلى هذا يجوز تترئ بكسر التاء الأولى. لأن
 معنى ثم أرسلنا: واترنا، ويجوز أن يكون في موضع الحال
 أي: متواترين **﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾** هذه الجملة
 مستأنفة مبنية لمجيء كل رسول لأمرته على أن المراد
 بالمجيء: التبليغ **﴿فقتلنا بعضهم بعضاً﴾** أي: في الهلاك
 بما نزل بهم من العذاب **﴿وجعلناهم أحاديث﴾** الأحاديث
 جمع أحوثة، وهي ما يتحدث به الناس كالأعاجيب جمع
 أعجوبة، وهي ما يتعجب الناس منه. قال الأخفش: إنما يقال
 جعلناهم أحاديث في الشر ولا يقال في الخير، كما يقال:
 صار فلان حديثاً أي: عبرة، وكما قال سبحانه في آية أخرى
﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾ [سبا: 19]. قلت:
 وهذه الكلية غير مسلمة فقد يقال: صار فلان حديثاً حسناً،

ريكم المختص بالربوبية أي: لا تفعلوا ما يوجب العقوبة عليكم مني بأن تشاركوا بي غيري، أو تخالفوا ما أمرتكم به أو نهيتكم عنه. ثم نكر سبحانه ما وقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل فقال: ﴿فَنَقْطِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ والفاء لترتيب عصيانهم على ما سبق من الأمر بالتقوى، والضمير يرجع إلى ما يدل عليه لفظ الأمة، والمعنى: أنهم جعلوا بينهم مع اتحادهم قطعاً متفرقة مختلفة. قال المبرد: زبراً فرقاً وقطعاً مختلفة، واحدها زبور، وهي الفرقة والطائفة، ومثله الزبرة وجمعها زبر، فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا فاتبعوا فرقة التوراة، وفرقة الزبور، وفرقة الإنجيل ثم حرقوا وبنكوا، وفرقة مشركة تبعوا ما رسمه لهم آبائهم من الضلال. قرئ (زبراً) بضم الباء جمع زبور، وقرئ بفتحها أي: قطعاً كقطع الحديد ﴿كُلَّ حَزْبٍ بِمَا لَيْسَ لَهُمْ فَرْحُونٌ﴾ أي: كل فريق من هؤلاء المختلفين بما لديهم أي: بما عندهم من الدين فرحون أي: معجبون به ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: اتركهم في جهلهم، فليسوا بأهل للهداية، ولا يضق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكل شيء وقت، شبه سبحانه ما هم فيه من الجهل بالأمم الذي يغمر من نخل فيه، والغمرة في الأصل ما يغمر ويعلوك، وأصله الستر، والغمر: الماء الكثير لأنه يغطي الأرض، وغمر الرداء هو الذي يشمل الناس بالغطاء، ويقال للحقد: الغمر، والمراد هنا: الحيرة والغفلة والضلالة، والآية خارجة مخرج التهديد لهم، لا مخرج الأمر له ﷺ بالكف عنهم، ومعنى ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل، أو حتى يموتوا على الكفر فيعذبون في النار ﴿إِنْ حَسِبُونَ أَنَّمَا نُطْعِمُهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْبَنِينَ﴾ (نسارع) به ﴿لَهُمْ﴾ فيما فيه خيرهم وإكرامهم، والهزمة للإنكار، والجواب عن هذا مقتر يدل عليه قوله: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنه عطف على مقدر ينسحب إليه الكلام أي: كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل، فإن ما خولناهم من النعم وأمدناهم به من الخيرات إنما هو استدراج لهم ليزدادوا إثماً كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]. قال الزجاج: المعنى نسارع لهم به في الخيرات، فحذفت به، و (ما) في إنما موصولة، والرباط هو هذا المحذوف. وقال الكسائي: إن إنما هنا حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير رابط. قيل: يجوز الوقف على بنين؛ وقيل: لا يحسن لأن يحسبون يحتاج إلى مفعولين، فتمام المفعولين في الخيرات. قال ابن الأنباري: وهذا خطأ لأن ما كفاة. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعبد الرحمن بن أبي بكرة (يسارع) بالياء التحتية على أن فاعله ما يدل عليه أمدنا، وهو الإمداد، ويجوز أن يكون المعنى: يسارع الله لهم. وقرأ الباقون (نسارع) بالنون. قال الثعلبي: وهذه القراءة هي الصواب لقوله نمدهم. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: 43]. ثم أشار سبحانه إلى قصة عيسى إجمالاً فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَامَةً آيَةً﴾ أي: علامة تدل على عظيم قدرتنا، وبديع صنعنا، وقد تقدم الكلام على هذا في آخر سورة الأنبياء في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 91]. ومعنى قوله: ﴿وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ﴾ إلى مكان مرتفع أي: جعلناهما بأريان إليها. قيل: هي أرض دمشق، وبه قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب، ومقاتل، وقيل: بيت المقدس، قاله قتادة وكعب؛ وقيل: أرض فلسطين، قاله السدي ﴿ذَاتَ قَرَارٍ﴾ أي: ذات مستقر يستقر عليه ساكنوه ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: وماء معين. قال الزجاج: هو الماء الجاري في العين، فالميم على هذا زائدة كزيائتها في منبع؛ وقيل: هو فعل بمعنى مفعول. قال علي بن سليمان الأخفش: معن الماء: إذا جرى فهو معين وممعون وكذا قال ابن الأعرابي؛ وقيل: هو مأخوذ من الماعون، وهو النفع، وبمثل ما قال الزجاج قال الفراء: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال الزجاج: هذه مخاطبة لرسول الله ﷺ ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا؛ وقيل: إن هذه المقالة خوطب بها كل نبي، لأن هذه طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها، فيكون المعنى: وقلنا يا أيها الرسل خطاباً لكل واحد على انفراده، لاختلاف أزمנתهم. وقال ابن جرير: إن الخطاب لعيسى. وقال الفراء: هو كما تقول للرجل الواحد كفوا عنا، والطيبات: ما يستطاب ويستلذ، وقيل: هي الحلال، وقيل: هي ما جمع الوصفين المذكورين. ثم بعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح فقال: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً وهو ما كان موافقاً للشرع، ثم علل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى علي شيء منه، وإني مجازيك على حسب أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَإِنْ هَذِهِ أَمْتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء، والمعنى: أن هذه ملتكم وبشريعتكم أيها الرسل ملّة واحدة، وشريعة متحدة يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقيل: المعنى إن هذا الذي تقدم نكره هو بينكم وملتكم فالزموه على أن المراد بالأمة هنا: الدين كما في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22]. ومنه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يائمن نومة وهو طائع
قرئ بكسر (إن) على الاستئناف المقرر لما تقدمه، وقرئ بفتحها وتشديدها. قال الخليل: هي في موضع نصب لما زال الخافض أي: أنا عالم بأن هذا بينكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به. وقال الفراء: إن متعلقة بفعل مضمّر، وتقديره: واعلموا أن هذه أمتكم. وقال سيبويه: هي متعلقة باتقون، والتقدير: فاتقون لأن أمتكم أمة واحدة، والفاء في ﴿فَاتَّقُونَ﴾ لترتيب الأمر بالتقوى على ما قبله من كونه

قَدْ كَانَتْ مَآزِي نَتْلَ عَلَيْكُمْ فَمَنْكُمْ عَلَىٰ أَغْلَبِكُمْ نَكْصُونُ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْرِبِينَ بِهِ سِرًّا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾

لما نفي سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين اتبع تلك بنكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وأجلاً فوصفهم بصفات أربع: الأولى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ الإشفاق: الخوف، تقول أنا مشفق من هذا الأمر أي: خائف. قيل: الإشفاق هو الخشية، فظاهر ما في الآية التكرار. واجيب بحمل الخشية على العذاب أي: من عذاب ربهم خائفون، وبه قال الكلبي ومقاتل. واجيب أيضاً بحمل الإشفاق على ما هو أثر له: وهو الدوام على الطاعة أي: الذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته. واجيب أيضاً بأن الإشفاق كمال الخوف فلا تكرار؛ وقيل: هو تكرار للتأكيد. والصفة الثانية قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يَوْمَنُونَ﴾ قيل: المراد بالآيات هي التنزيلية؛ وقيل: هي التكوينية؛ وقيل: مجموعهما، قيل: وليس المراد بالإيمان بها هو التصديق بوجودها فقط. فإن ذلك معلوم بالضرورة ولا يوجب المدح، بل المراد: التصديق بكونها دلائل وأن مدلولها حق. والصفة الثالثة قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: يتركون الشرك تركاً كلياً ظاهراً وباطناً. والصفة الرابعة قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي: يعطون ما أعطوا وقلوبهم خائفة من أجل ذلك الإعطاء يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله، وجملة ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن قلوبهم خائفة أشد الخوف. قال الزجاج: قلوبهم خائفة لأنهم إلى ربهم راجعون، وسبب الوجل هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب، لا مجرد رجوعهم إليه سبحانه، وقيل: المعنى أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء والحساب وعلم أن المجازي والمحاسب هو الرب الذي لا تخفى عليه خافية لم يخل من وجل. قرأت عائشة، وابن عباس، والنخعي ﴿يَاتُونَ مَا آتَوْا﴾ مقصوداً من الإتيان. قال الفراء: ولو صحت هذه القراءة لم تخالف قراءة الجماعة لأن من العرب من يلزم في الهمز الألف في كل الحالات. قال النحاس: ومعنى هذه القراءة يعملون ما عملوا والإشارة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات، ومعنى ﴿يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون بها. قال الفراء والزجاج: ينافسون فيها، وقيل: يسابقون، وقرئ (يسرعون) ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ اللام للتنوية، والمعنى: هم سابقون إياها، وقيل: اللام بمعنى إلى كما في قوله: ﴿بِأَن رَّبَّكَ أَوْحَىٰ إِلَيْهَا﴾ [الزلزلة: 5]. أي: أوحى إليها، وأنشد سيبويه قول الشاعر:

تجانف عن أهل اليمامة يا فتى وما قصدت من أهلها لسوانكا
أي: إلى سوانكا، وقيل: المفعول محذوف، والتقدير: وهم سابقون الناس لأجلها. ثم لما انجر الكلام إلى نكر أعمال المكلفين نكر لهما حكمين: الأول قوله: ﴿وَلَا تَكُلِفْ نَفْسًا إِلَّا

عِباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاءً﴾ قال: يتبع بعضهم بعضاً. وفي لفظ قال: بعضهم على إثر بعض. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿وَجَعَلْنَا لِبَنِّ مَرْيَمَ وَامَّةَ آيَةً﴾ قال: ولسنه من غير أب. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس آية قال: عبرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ﴾ قال: الربوة المستوية، والمعين: الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ ذِكْرًا﴾ [مريم: 24]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ﴾ قال: هي المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ذَاتَ قُرَارٍ﴾ ذات خصب، والمعين: الماء الظاهر. وأخرج وكيع، والفريابي وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وتمام الرازي، وابن عساكر. قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَىٰ رِبْوَةٍ﴾ قال: أنبئنا أنها دمشق. وأخرج ابن عساكر، عن عبد الله بن سلام مثله. وكذا أخرجه ابن أبي حاتم عنه. وأخرج ابن عساكر عن أبي أمامة مرفوعاً نحوه، وإسناده ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مريويه، وابن عساكر عن مرة النهزي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الربوة الرملة». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن عساكر عن أبي هريرة قال: هي الرملة من فلسطين. وأخرجه ابن مريويه من حديثه مرفوعاً. وأخرج الطبراني، وابن السكن، وابن منده، وأبو نعيم، وابن عساكر عن الأقرب بن شفي العكي مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]. ثم نكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، فإني يستجاب لذلك. وأخرج سعيد بن منصور عن حفص الفزاري في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: ذلك عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه. وأخرجه عبيد بن الصامية عن حفص مرفوعاً، وهو مرسل لأن حفصاً تابعي. إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يَوْمَنُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

والشقاوة لا محيص لهم عن ذلك. ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار فقال: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾ حتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هو الجملة الشرطية المذكورة، وهذه الجملة مبنية لما قبلها، والضمير في مترفيهم راجع إلى من تقدم ذكره من الكفار، والمراد بالمترفين: المتنعمين منهم، وهم الذين أمدهم الله بما تقدم ذكره من اللال والبئتين، أو المراد بهم: الرؤساء منهم. والمراد بالعذاب هو: عذابهم بالسيف يوم بدر، أو بالجوع بدعاء النبي ﷺ عليهم حيث قال: اللهم أشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف؛ وقيل المراد بالعذاب: عذاب الآخرة، ورجح هذا بأن ما يقع منهم من الجوار إنما يكون عند عذاب الآخرة، لأنه الاستغاثة بالله ولم يقع منهم ذلك يوم بدر ولا في سني الجوع. ويجاب عنه بأن الجوار في اللغة الصراخ والصياح. قال الجوهري: الجوار مثل الخوار، يقال: جأر الثور جأراً أي: صاح. وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عند أن عذبوا بالسيف يوم بدر، وبالجوع في سني الجوع، وليس الجوار ما هنا مقيد بالجوار الذي هو التضرع بالدعاء حتى يتم ما ذكره ذلك القائل، وجملة ﴿إذا هم يجارون﴾ جواب الشرط، وإذا هي الفجائية، والمعنى: حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فاجئوا بالصراخ، ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذٍ على جهة التبكيت ﴿لا تجاروا لنيوم﴾ فالقول مضمراً، والجملة مسوقة لتبكيتهم وإقناطهم وقطع أطماعهم، وخصص سبحانه المترفين مع أن العذاب لاحق بهم جميعاً واقع على مترفيهم وغير مترفيهم لبيان أنهم بعد النعمة التي كانوا فيها صاروا على حالة تخالفها وتباينها، فانتقلوا من النعيم التام إلى الشقاء الخالص، وخصّ اليوم بالذكر للتحويل، وجملة ﴿إنكم منا لا تنصرون﴾ تعليل للنهي عن الجوار، والمعنى: إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم؛ وقيل: المعنى إنكم لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب. ثم عند سبحانه عليهم قبائحهم توبيخاً لهم فقال: ﴿قد كانت آياتي تقلى عليكم﴾ أي: في الدنيا، وهي آيات القرآن ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ أي: ترجعون وراكم، وأصل النكوص أن يرجع القهقري، ومنه قول الشاعر:

زعموا أنهم على سبل الحق وإننا نكص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق، وقرأ علي بن أبي طالب (على أباركم) بدل ﴿على أعقابكم تنكصون﴾ بضم الكاف، وعلى أعقابكم متعلق بتنكصون، أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل تنكصون ﴿مستكبرين به﴾ الضمير في به راجع إلى البيت العتيق، وقيل: للحرم، والذي سوغ الإضمار قبل الذكر اشتغالهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته والقيام به، وكانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لأننا أهل الحرم وخدأه. وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين، وقيل: الضمير عائد إلى القرآن. والمعنى: أن سماعه يحدث لهم كبراً وطغياناً فلا يؤمنون به. قال ابن عطية: وهذا قول جيد.

وسعها: الوسع هو الطاقة، وقد تقدم بيان هذا في آخر سورة البقرة. وفي تفسير الوسع قولان: الأول أنه الطاقة كما فسره بذلك أهل اللغة. الثاني أنه بون الطاقة، وبه قال مقاتل والضحاك والكلبي. والمعتزلة قالوا: لأن الوسع إنما سمي وسعاً لأنه يتسع على فاعله فعله ولا يضيق عليه، فمن لم يستطع الجلوس فليوم إيماء، ومن لم يستطع الصوم فليفطر. وهذه الجملة مستأنفة للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدي إلى نيل الكرامات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، وإن ذلك عادة الله سبحانه في تكليف عباده، وجملة ﴿ولينا كتاب ينطق بالحق﴾ من تمام ما قبلها من نفي التكليف بما فوق الوسع والمراد بالكتاب: صحائف الأعمال أي: عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ما هي عليه، ومعنى ﴿ينطق بالحق﴾ يظهر به الحق المطابق للواقع من بون زيادة ولا نقص، ومثله قوله سبحانه: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية: 29]. وفي هذا تهديد للعصاة وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم، وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، فإنه قد كتب فيه كل شيء، وقيل: المراد بالكتاب: القرآن، والأول أولى. وفي هذه الآية تشبيه للكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه، فإن الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق المحق، وقوله: ﴿بالحق﴾، يتعلق بينطق، أو بمحذوف هو حال من فاعله أي: ينطق ملتبساً بالحق، وجملة ﴿وهم لا يظلمون﴾ مبنية لما قبلها من تفضله وعمله في جزاء عباده أي: لا يظلمون بنقص ثواب أو بزيادة عقاب، ومثله قوله سبحانه: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ريك أحداً﴾ [الكهف: 49]، ثم أضرِب سبحانه عن هذا فقال: ﴿بَلْ قُلُوبِهِمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ والضمير للكفار أي: بل قلوب الكفار في غمرة غامرة لها عن هذا الكتاب الذي ينطق بالحق، أو عن الأمر الذي عليه المؤمنون، يقال غمره الماء: إذا غطاه، ونهر غمر: يغطي من دخله، والمراد بها هنا: الغطاء والغفلة أو الحيرة والعمى، وقد تقدم الكلام على الغمرة قريباً ﴿ولهم أعمال من دون ذلك﴾ قال قتادة ومجاهد أي: لهم خطايا لا بد أن يعملوها من بون الحق. وقال الحسن وابن زيد: المعنى ولهم أعمال ربيثة لم يعملوها من بون ما هم عليه لا بد أن يعملوها فيدخلون بها النار، فالإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إما إلى أعمال المؤمنين، أو إلى أعمال الكفار أي: لهم أعمال من بون أعمال المؤمنين التي نكرها الله، أو من بون أعمال الكفار التي تقدم نكرها من كون قلوبهم في غفلة عظيمة مما نكر، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم التي من جملتها ما سيأتي من طعنهم في القرآن. قال الواحدي: إجماع المفسرين وأصحاب المعاني على أن هذا إخبار عما سيعملونها من أعمالهم الخبيثة التي كتبت عليهم لا بد لهم أن يعملوها، وجملة ﴿هم لها عاملون﴾ مقررّة لما قبلها أي: واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من

وقال النحاس: القول الأول أولى وبينه بما ذكرنا. فعلى القول الأول يكون به متعلقاً بمستكبرين، وعلى الثاني يكون متعلقاً بـ «سامرا» لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامة سمرهم نكر القرآن والطعن فيه، والسامر كالحاضر في الإطلاق على الجمع. قال الواحدي: السامر الجماعة يسمرون بالليل أي: يتحدثون، ويجوز أن يتعلق «به» بقوله: «تهجرون» والهجر بالفتح الهذيان أي: تهنون في شأن القرآن، ويجوز أن يكون من الهجر بالضم، وهو الفحش. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبو حنيفة (سمر) بضم السين وفتح الميم مشددة، وقرأ زيد بن علي وأبو رجاء (سمارا) ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، وانتصاب سامرا على الحال إما من فاعل تنكصون، أو من الضمير في مستكبرين؛ وقيل: هو مصدر جاء على لفظ الفاعل، يقال: قوم سامر، ومنه قول الشاعر:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
قال الراغب: يقال: سامر وسمار، وسمر وسامرون. قرأ الجمهور (تهجرون) بفتح التاء المثناة من فوق وضم الجيم. وقرأ نافع، وابن محيصن بضم التاء وكسر الجيم من أخرج أي: أفضح في منطق. وقرأ زيد بن علي، وابن محيصن، وأبو نهيك بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم مشددة مضارع هجر بالتشديد. وقرأ ابن أبي عاصم كالجمهور إلا أنه بالياء التحتية، وفيه التثاق.

وقد أخرج الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن عائشة قالت: «قلت: يا رسول الله، قول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أم الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: لا، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه». وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قالت عائشة: يا رسول الله، فنكر نحوه. وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ قال: يعطون ما أعطوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ قال: يعملون خائفين. وأخرج الفريابي، وابن جرير عن ابن عمر ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ قال: الزكاة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عائشة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ قالت: هم الذين يخشون الله ويطيعونه. وأخرج عبد بن حميد عن ابن أبي مليكة قال: قالت عائشة: لأن تكون هذه الآية كما قرأ أحب إلي من حمر النعم، فقال لها ابن عباس: ما هي؟ قالت: «الذين يؤتون ما آتوا» وقد قمنا نكر قراءتها ومعناها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه عنها، عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ مقصوداً من المعجى.

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي شيبة، وابن الأنباري في المصاحف، والدارقطني في الأفراد، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن عبيد بن عمير: أنه سأل عائشة كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾؟ قالت: أيتهما أحب إليك؟ قلت: والذي نفسي بيده لأحدهما أحب إلي من الدنيا وما فيها جميعاً، قالت: أيهما؟ قلت: «الذين يؤتون ما آتوا» فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كان يقرأها كذلك، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حُرّف. وفي إسناده إسماعيل بن علي وهو ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ قال: سبقت لهم السعادة من الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يعني بالغمرة: الكفر والشك ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ يقول: أعمال سيئة دون الشرك ﴿وَهُمْ لَهَا عاملون﴾ قال: لا بدّ لهم أن يعملوها. وأخرج النسائي عنه «حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب» قال: هم أهل بدر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ قال: يستغيثون، وفي قوله: ﴿فَكَنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُنْكَصُونَ﴾ قال: تدبرون، وفي قوله: «سامرا تهجرون» قال: تسمرون حول البيت وتقولون هجراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه «مستكبرين به» قال: بحرم الله أنه لا يظهر عليهم فيه أحد. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً «سامرا تهجرون» قال: كانت قريش يتحلقون حلقاً يتحدثون حول البيت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ «مستكبرين به سامرا تهجرون» قال: كان المشركون يهجرون برسول الله ﷺ في القول في سمرهم. وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: «مستكبرين به سامرا تهجرون».

أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥١﴾ أَمْ لَمْ يَبْرَوْا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يَكْرَهُوا ﴿١٥٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ الْبَاقِيُّ وَأَكْرَهُمُ الْبَاقِي كَرِهُوا ﴿١٥٣﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ آلُ آلِهِمْ قَوْلَهُمْ لَقَدَّبَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَبَيْنَ فَيْهَرٍ بَلْ آتَيْنَاهُمْ بَذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٥٤﴾ أَمْ تَتْلُوهُمْ حَرُوفًا مُفْرَاجٍ رَبِّكَ حَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١٥٥﴾ رَبُّكَ لَتَنَرَّهُمْ إِلَى صَوْبِهِ مُتَوِّجِينَ ﴿١٥٦﴾ وَلَنْ أَلَيْنَ لَا يَوْمُنَا وَبِالْآخِرَةِ عَنَّا الصِّرَاطُ لَنَكْبُوتَ ﴿١٥٧﴾ وَلَوْ رَعَيْنَاهُمْ وَكَفَّنا مَا بِهِمْ مِن شَرٍّ لَلَّجُوا فِي طُلْعَتِهِمْ يَعْهَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ مِمَّا اسْتَكْبَرُوا لِيَرَوْهُ وَبِمَا بَغَضُوا عَنْهُمْ ﴿١٥٩﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿١٦٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ

قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] وقد ذهب إلى القول الأول الأكثرين، ولكنه يرد عليه أن المراد بالحق هنا هو: الحق المذكور قبله في قوله: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ ولا يصح أن يكون المراد به هناك الله سبحانه، فالأولى تفسير الحق هنا وهناك بالصق الصحيح من الدين الخالص من شرع الله، والمعنى: ولو ورد الحق متابعاً لاهوائهم موافقاً لفاسد مقاصدهم لحصل الفساد، والمراد بقوله: ﴿وَمَنْ فِيهِمْ﴾ من في السموات والأرض من المخلوقات. وقرأ ابن مسعود (وما بينهما) وسبب فساد المكلفين من بني آدم ظاهر، وهو تنويعهم التي من جعلتها الهوى المخالف للحق، وإما فساد ما عداهم فعلى وجه التبع لأنهم مديرون في الغالب بذوي العقول فلما فسدوا فسدوا. ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن عليهم من جملة الحق فقال: ﴿بَلْ كَتَبْنَاهُمْ بَنُكْرَهُمْ﴾ والمراد بالذكر هنا القرآن أي: بالكتاب الذي هو فخرهم وشرافهم، ومثله قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]. والمعنى: بل أتيناهم بفخرهم وشرافهم الذي كان يجب عليهم أن يقبلوه، ويقبلوا عليه. وقال قتادة: للمعنى بنكرهم الذي نكر فيه ثوابهم وعقابهم. وقيل: المعنى بنكر ما لهم به حاجة من أمر الدين. وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر (أتيتهم) بقاء التكلم. وقرأ أبو حيوة والجحدري ﴿فَتَتَّبِعُهُمْ﴾ بقاء الخطاب أي: أتيتهم يا محمد. وقرأ عيسى بن عمر (بنكرهم) وقرأ قتادة (نذكرهم) بالنون والتشديد من التنكير، وتكون الجملة على هذه القراءة في محل نصب على الحال، وقيل: الذكر هو الوعظ والتحذير ﴿فَفَهَّمْ عَنْ نَكْرِهِمْ مَعْرُضُونَ﴾ أي: هم بما فعلوا من الاستكبار والنكوص عن هذا الذكر المختص بهم معرضون لا يلتفتون إليه بحال من الأحوال، وفي هذا التركيب ما يدل على أن إعراضهم مختص بذلك لا يتجاوز به إلى غيره. ثم بين سبحانه أن دعوة نبيه ﷺ ليست مشوبة باطماع الدنيا فقال: ﴿وَأَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً﴾ وأم هي المنقطعة، والمعنى: لم يزعمون أنك تسألهم خرجاً تأخذه على الرسالة، والخرج الأجر والجعل، فتركوا الإيمان بك وبما جئت به لأجل ذلك، مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك ولا طلبته منهم ﴿فَخَرَجَ رِبْكَ خَيْرٌ﴾ أي: فربك الذي يرزقك في الدنيا، وأجره الذي يعطيك في الآخرة خير لك مما ذكر. قرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب (أم تسألهم خراجاً) وقرأ الباقون (خرجاً) وكلهم قرءوا ﴿فَخَرَجَ﴾ إلا ابن عامر وأبا حيوة فإنهما قرأا (فخرج) بغير الف، والخرج هو الذي يكون مقابلاً للبلخ، يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك: خرجاً، والخراج غالب في الضريبة على الأرض. قال المبرد: الخرج المصدر، والخراج الاسم. قال النضر بن شميل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال: الخراج ما لزمك، والخرج ما تبرعت به. وروي عنه أنه قال: الخرج من الرقاب، والخراج من الأرض ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لِلرَّازِقِينَ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من كون خراجها سبحانه خير.

وَالْأَنْبَسَرُ وَالْأَفِيدَةُ قِيلَا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ تَحِيَّتُ الْآلِ وَالنَّهَارِ أَلَا تَحْقُلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا يَنْذِرُ مَا قَالِ الْآذِلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَوَآدَا مِثْنَا وَكُنَّا تَرَاةَ وَعِطْنَا أَوْآدَا تَعْبُرُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا عَنْ وَمَا كُنَّا مِنْ بَلَدٍ إِلَّا نَحْنُ أَسْطُرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْتَبِرُوا لِلْقَوْلِ﴾ بين سبحانه أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة: الأول عدم التنبير في القرآن، فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صنفه وأمنوا به وبما فيه، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر أي: فعلوا ما فعلوا فلم ينتبروا، والمراد بالقول: القرآن، ومثله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [النساء: 82 - محمد: 24]. والثاني قوله: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أم هي المنقطعة أي: بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأتِ آباءهم الأولين، فكان ذلك سبباً لاستنكارهم للقرآن، والمقصود تقرير أنه لم يأتِ آباءهم الأولين رسول، فلذلك أنكروه، ومثله قوله: ﴿لَتَنْتَرِ قَوْمًا مَا أَنْذَرْنَا أُولَهُمْ﴾ [يس: 6]. وقيل: إنه أتى آباءهم الأقدمين رسل أرسلهم الله إليهم. كما هي سنة الله سبحانه في إرسال الرسل إلى عباده، فقد عرف هؤلاء ذلك، فكيف كتبوا هذا القرآن، وقيل: المعنى أم جاءهم من الأمن من عذاب الله ما لم يأتِ آباءهم الأولين كإسماعيل ومن بعده. والثالث قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مَنكَرُونَ﴾ وفي هذا إضراب وانتقال من التوبيخ بما تقدم إلى التوبيخ بوجه آخر أي: بل ألم يعرفوه بالأمانة والصق فأنكروه، ومعلوم أنهم قد عرفوه بذلك. والرابع قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ وهذا أيضاً انتقال من توبيخ إلى توبيخ أي: بل اتقولون به جنة أي: جنون، مع أنهم قد علموا أنه أرجح الناس عقلاً، ولكنه جاء بما يخالف هواهم فنفغوه وجنوه تعصباً وحمية. ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله فقال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسل، بل جاءهم ملتبساً بالحق، والحق هو الدين القويم، ﴿وَكَاتَرَهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لما جبلوا عليه من التعصب، والانحراف عن الصواب، والبعد عن الحق، فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر، وظاهر النظم أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق، ولكنهم لم يظهروا الإيمان خوفاً من الكافرين له، وجملة ﴿وَلَوْ تَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان أنه لو جاء الحق على ما يهوونه ويريدونه لكان ذلك مستلزماً للفساد العظيم، وخروج نظام العالم عن الإصلاح بالكلية، وهو معنى قوله: ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ قال أبو صالح، وابن جريج، ومقاتل والسدي: الحق هو الله، والمعنى: لو جعل مع نفسه كما يحبون شريكاً لفسدت السموات والأرض. وقال الفراء والزجاج: يجوز أن يكون المراد بالحق القرآن أي: لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لفسد نظام العالم؛ وقيل: المعنى ولو كان الحق ما يقولون من اتحاد الآلهة مع الله لاختلفت الآلهة، ومثل ذلك

تَقَمَّ تحقيقه ﴿وإليه تحشرون﴾ أي: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿وهو الذي يحيي ويميت﴾ على جهة الانفراد والاستقلال، وفي هذا تذكير لنعمة الحياة، وبيان الانتقال منها إلى الدار الآخرة ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ قال الفراء: هو الذي جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض، وقيل: اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر؛ وقيل: تكررهما يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة ﴿أفلا تعقلون﴾ كنه قدرته وتتفكرون في ذلك. ثم بين سبحانه أنه لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد المبني على مجرد الاستبعاد فقال: ﴿هل قالوا مثل ما قال الأولون﴾ أي: أبأزهم والموافقون لهم في دينهم. ثم بين ما قاله الأولون فقال: ﴿قالوا أئذا كنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ فهذا مجرد استبعاد لم يتعلقوا فيه بشيء من الشبه، ثم كملوا ذلك القول بقولهم: ﴿لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل﴾ أي: وعدنا هذا البعث وعده آباؤنا الكائنون من قبلنا فلم نصنعه كما لم يصنعه من قبلنا، ثم صرحوا بالتكذيب وفروا إلى مجرد الزعم الباطل فقالوا: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: ما هذا إلا أكاذيب الأولين التي سطروها في الكتب جمع أسطورة كأحوتة، والأساطير الأباطيل والترهات والكتب.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾ قال: عرفوه ولكنهم حسدوه. وفي قوله: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم﴾ قال: الحق الله عز وجل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿هل تدينهم بتكريمهم﴾ قال: بينا لهم. وأخرجوا عنه في قوله: ﴿عن الصراط لناكبون﴾ قال: عن الحق لحائثون. وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أنشكك الله والرحم فقد أكلنا العلهز يعني: الوير بالدم، فأنزل الله ﴿ولقد أخنناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ وأصل الحديث في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» الحديث. وأخرج ابن جرير، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس: أن ابن أثال الحنفي لما أتى رسول الله ﷺ فأسلم وهو أسير فخلى سبيله لحق باليمامة. فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: ليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى. قال: فقد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع، فأنزل الله ﴿ولقد أخنناهم بالعذاب﴾ الآية. وأخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ قال: أي لم يتواضعوا في الدعاء ولم يخضعوا،

ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الآلة الواضحة المقتضية لقبول ما جاء به ونفى عنه أضداد ذلك قال: ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ أي: إلى طريق واضحة تشهد العقول بأنها مستقيمة غير معوجة، والصراط في اللغة الطريق، فسمي الدين طريقاً لأنها تؤدي إليه. ثم وصفهم سبحانه بأنهم على خلاف ذلك فقال: ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ يقال: نكب عن الطريق ينكب نكوباً: إذا عدل عنه ومال إلى غيره، والنكوب والنكب العدول والميل، ومنه النكباء للريح بين ريحين، سميت بذلك لعدولها عن المهاب، وعن الصراط متعلق يناكبون، والمعنى: أن هؤلاء الموصوفين بعنم الإيمان بالآخرة عن ذلك الصراط أو جنس الصراط لعادلون عنه. ثم بين سبحانه أنهم مصرّون على الكفر لا يرجعون عنه بحال فقال: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرِّ﴾ أي: من قحط وجبب ﴿للجوا في طغيانهم﴾ أي: لتماموا في طغيانهم وضلالهم ﴿يعمهمون﴾ يتركون ويتنبذون ويخبطون، وأصل اللجاج التمادي في العناد، ومنه اللجة بالفتح لتردد الصوت، ولجة البحر تردد أمواجه، ولجة الليل تردد ظلامه، وقيل: المعنى لو رددناهم إلى الدنيا ولم نخلهم النار وامتحانهم للجوا في طغيانهم ﴿ولقد أخنناهم بالعذاب﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها. والعذاب قيل: هو الجوع الذي أصابهم في سني القحط؛ وقيل: المرض، وقيل: القتل يوم بدر، واختاره الزجاج؛ وقيل: الموت، وقيل: المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية ﴿فما استكانوا لربهم﴾ أي: ما خضعوا ولا تنزلوا، بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرد على الله والانهمك في معاصيه ﴿وما يتضرعون﴾ أي: وما يخشعون لله في الشدائد عند إصابتها لهم، ولا يدعونه لرفع ذلك ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً﴾ أي: عذاب شديد قيل: هو عذاب الآخرة؛ وقيل: قتلهم يوم بدر بالسيف؛ وقيل: القحط الذي أصابهم؛ وقيل: فتح مكة ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ أي: متحيرين، لا يدرون ما يصنعون، والإبلاس التحير والإياس من كل خير. وقرأ السلمي (مبلسون) بفتح اللام من أبلسه أي: أدخله في الإبلاس، وقد تقدّم في الأنعام ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار﴾ امتنّ عليهم ببعض النعم التي أعطاهم، وهي نعمة السمع والبصر ﴿والأفئدة﴾ فصارت هذه الأمور معهم ليسمعوا المواعظ وينظروا العبر ويتفكروا بالأفئدة فلم ينتفعوا بشيء من ذلك لإصرارهم على الكفر وبعدهم عن الحق، ولم يشكروه على ذلك ولهذا قال: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي: شكراً قليلاً حقيراً غير معتد به باعتبار تلك النعم الجليلة، وقيل: المعنى أنهم لا يشكرونه البتة، لا أن لهم شكراً قليلاً. كما يقال لجاحد النعمة: ما أقل شكره أي: لا يشكر، ومثل هذه الآية قوله: ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم﴾ [الأحقاف: 26]. ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي: بكم فيها كما تبث الحبوب لتنبث وقد

أحدًا من عذاب الله ولا يقدر على نصره وإغاثته، يقال: أجرت فلانًا: إذا استغاث بك فحميته، وأجرت عليه: إذا حميت عنه ﴿قُلْ فإني تسحرون﴾ قال الفراء والزجاج أي: تصرفون عن الحق وتخدعون، والمعنى: كيف يخيل لكم الحق باطلاً والصحيح فاسداً، والخادع لهم هو الشيطان أو الهوى أو كلاهما. ثم بين سبحانه أنه قد بالغ في الاحتجاج عليهم فقال: ﴿بَلْ آتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: الأمر الواضح الذي يحق اتباعه ﴿وإنهم لكانبون﴾ فيما ينسبونه إلى الله سبحانه من الولد والشريك، ثم نفاهما عن نفسه فقال: ﴿مَا لَتَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ من في الموضوعين زائدة لتأكيد النفي. ثم بين سبحانه ما يستلزمه ما يدعيه الكفار من إثبات الشريك، فقال: ﴿إِذَا لَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ وفي الكلام حذف تقديره لو كان مع الله آلهة لانفرد كل إله بخلقه واستبد به وامتنان ملكه عن ملك الآخر، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: غلب القوي على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بني آدم، وحينئذٍ فنلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلهاً، وإذا تقرر عدم إمكان المشاركة في ذلك، وأنه لا يقوم به إلا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه، وهذا الدليل كما دل على نفي الشريك فإنه يدل على نفي الولد، لأن الولد ينازع أباه في ملكه. ثم نزه سبحانه نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: من الشريك والولد وإثبات ذلك لله عز وجل ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: هو مختص بعلم الغيب والشهادة، وأما غيره فهو وإن علم الشهادة لا يعلم الغيب. قرأ نافع، وأبو بكر، وحزمة، والكسائي (عالم) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو عالم. وقرأ الباقون بالجر على أنه صفة لله أو بدل منه. وروي عن يعقوب أنه كان يخفض إذا وصل ويرفع إذا ابتدأ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معطوف على معنى ما تقدم كانه قال: علم الغيب فتعالى، كقولك: زيد شجاع فعظمت منزلته أي: شجع فعظمت، أو يكون على إضمار القول أي: أقول فتعالى الله، والمعنى: أنه سبحانه متعالٍ عن أن يكون له شريك في الملك ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إن كان ولا بد أن تريني ما يوعدون من العذاب المستأصل لهم ﴿وَرَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قل يا رب فلا تجعلني. قال الزجاج: أي إن أنزلت بهم النعمة يا رب فلا تجعلني خارجاً عنهم، ومعنى كلامه هذا: أن النداء معترض، و«ما» في إِمَّا زائدة أي: قل رب إن تريني، والجواب فلا تجعلني، وذكر الرب مرتين: مرة قبل الشرط ومرة بعده مبالغة في التضرع. وأمره الله أن يسأله أن لا يجعله في القوم الظالمين مع أن الأنبياء لا يكونون مع القوم الظالمين أبداً، تعليماً له ﷺ من ربه كيف يتواضع؟ وقيل: يهضم نفسه، أو لكون شؤم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله كقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

ولو خضعوا لله لاستجاب لهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال: قد مضى، كان يوم بدر.

قُلْ لِيَ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِيَ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٩﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ أَلَسَبِّحُ رَبِّيَ الْكَرِيمَ ﴿٩٠﴾ سَيَقُولُونَ لِيَ قُلْ أَفَلَا تَنْقُوتُ ﴿٩١﴾ قُلْ مَنْ يُدِيرُ الْمَلَكُوتَ كُلِّي قَوْلٌ وَهُوَ يُجِيبُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٢﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْعِرُونَ ﴿٩٣﴾ بَلْ آتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٩٤﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلِلَّهِ يَتَّبِعُونَ عَلَى بَعْضٍ مُشَاحِنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَمَلَّكْ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا زَيَّنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٧﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٨﴾ وَإِنَّا عَلَمٌ أَنَّ نُرِيكَ مَا تَعِدُهُمْ لَعَنَ الرَّسُولُ ﴿٩٩﴾ أَدْعَى بَالِي إِلَى أَحْسَنَ السَّبِيحَةِ مِمَّنْ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٠١﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي ﴿١٠٢﴾

أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يسأل الكفار عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها، ثم أمره أن ينكر عليهم بعد الاعتراف منهم ويوبخهم فقال: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي: قل يا محمد لأهل مكة هذه المقالة، والمراد بمن في الأرض: الخلق جميعاً، وعبر عنهم بمن تغليباً للعلاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم، وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم تعلمون فأخبروني، وفي هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي: لا بد لهم أن يقولوا ذلك، لأنه معلوم ببديهة العقل، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم بعد اعترافهم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ترغيباً لهم في التدبر وإمعان النظر والفكر، فإن ذلك مما يقودهم إلى اتباع الحق وترك الباطل، لأن من قدر على ذلك ابتداء قدر على إحياء الموتي ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ سَيَقُولُونَ اللَّهُ جاء سبحانه باللام نظراً إلى معنى السؤال، فإين قولك: من ربه، ولمن هو في معنى واحد، كقولك: من رب هذه الدار؟ فيقال: زيد، ويقال: لزيد. وقرأ أبو عمرو، وأهل العراق (سَيَقُولُونَ اللَّهُ) بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال، وهذه القراءة أوضح من قراءة الباقيين باللام، ولكنه يؤيد قراءة الجمهور أنها مكتوبة في جميع المصاحف باللام بدون ألف، وهكذا قرأ الجمهور في قوله: (قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون) ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ باللام نظراً إلى معنى السؤال كما سلف. وقرأ أبو عمرو وأهل العراق بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال، ومثل هذا قول الشاعر:

إذا قيل من رب المزالف والقرى رب الجياد الجرد قيل لخالد
أي: لمن المزالف، والملوك الملك، وزيادة التاء للمبالغة، نحو جبروت ودهبوت، ومعنى ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أنه يغيث غيره إذا شاء ويمنعه ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يمنع أحد

من غضبه وعقابه وشرّ عبادته، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»، قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه. وفي إسناده محمد بن إسحاق، وفيه مقال معروف. وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال: «يا رسول الله إني أجد وحشة، قال: إذا أخذت مضجعتك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشرّ عبادته، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنه لا يحضرك، وبالحري لا يضرك».

حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٥٠﴾ لَعَلَّ أَعْمَلَ صَلَاحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ مَوْقَالُهَا وَمِنْ رَبَائِهِمْ بَرِّخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٥١﴾ فإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ يَنْتَهَرُ يَوْمَئِذٍ وَلَا تَسْتَلُونَ ﴿١٥٢﴾ نَمَّنْ نَقَلْتَ مَوْزِينَهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَوَلَّوْنَ ﴿١٥٣﴾ وَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَتَرَى حَفَّتْ مَوَازِينُهُمْ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ ﴿١٥٤﴾ تَلْعَقُ لُحُومَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْعِخَرِ ﴿١٥٥﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَى النَّارَ مَكِينًا فَكُنْهُمْ بِهَا تُكَلِّمُونَ ﴿١٥٦﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٥٧﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عَمِلْنَا ظُلُمًا ﴿١٥٨﴾ قَالَ أَكُنْتُمْ فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ ﴿١٥٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٦٠﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِرَاجًا وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ نَضِجُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي جَزَّيْتُكُمْ أَيُّومَ يَسَاءَ صَبَوَا أَنْتُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٦٢﴾ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سَبْعِينَ ﴿١٦٣﴾ قَالُوا أَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ يَوْمِ الْقِسْطِ الْأَمْرُ بِشَيْءٍ ﴿١٦٤﴾ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦٥﴾ أَمْحِشْتُمْ أَنْتُمْ خَلَقْتُمْكُمْ عَبَادًا وَلَكُمْ إِيَّانَا لَا تُرْجِعُونَ ﴿١٦٦﴾ تَتَمَلَّكُ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ ﴿١٦٧﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٦٨﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٦٩﴾

«حقتي» هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية، وهي مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بقوله لكاذبون وقيل: بيصفون، والمراد بمجيء الموت: مجيء علاماته **«قال رب أرجعون»** أي: قال ذلك الأحد الذي حضره الموت تحسراً وتحزناً على ما فرط منه رب أرجعون أي: ربوني إلى الدنيا، وإنما قال: أرجعون بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب، وقيل: هو على معنى تكرير الفعل أي: أرجعني أرجعني أرجعني، ومثله قوله: **«الغيا في جهنم»** [ق: 24]. قال المازني: معناه لقي لقي، وهكذا قيل في قول امرئ القيس:

قفا نيك من نكرى حبيب ومنزل

ومنه قول الحجاج:

يا حرسى اضربا عنقه

ومنه قول الشاعر:

ولو شئت حرمت النساء سواكم

وقول الآخر:

الافارجموني يا إله محمد

وقيل: إنهم لما استغاثوا بالله قال قائلهم رب، ثم رجع إلى

منكم خاصة [الأنفال: 25]، ثم لما كان المشركون ينكرون العذاب، ويسخرون من النبي ﷺ إذا نكر لهم ذلك أكد سبحانه وقوعه بقوله: **«وإننا على أن نريك ما نعدهم لقادرون»** أي: أن الله سبحانه قادر على أن يري رسوله عذابهم، ولكنه يؤخره لعلهم بأن بعضهم سيؤمن، أو لكون الله سبحانه لا يحبهم والرسول فيهم، وقيل: قد أراه الله سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة، ثم أمره سبحانه بالصبر إلى أن ينقضي الأجل المضروب للعذاب فقال: **«انفع بالتي هي أحسن السيئة»** أي: انفع بالخصلة التي هي أحسن من غيرها، وهي الصفح والإعراض عما يفعله الكفار من الخصلة السيئة وهي الشرك. قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف؛ وقيل: هي محكمة في حق هذه الأمة فيما بينهم، منسوخة في حق الكفار **«نحن أعلم بما يصفون»** أي: ما يصفونك به مما أنت على خلافه، أو بما يصفون من الشرك والتكذيب، وفي هذا وعيد لهم بالعقوبة. ثم علمه سبحانه ما يقويه على ما أرشده إليه من العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة فقال: **«وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين»** الهمزات جمع همزة، وهي في اللغة الدفعة باليد أو بغيرها، وهمزات الشياطين نزغاتهم ووساوسهم كما قاله المفسرون، يقال: همزه ولمزه ونخسه أي: دفعه، وقيل: الهمز كلام من وراء الفقا، واللمز المواجهة، وفيه إرشاد لهذه الأمة إلى التعوذ من الشيطان، ومن همزات الشياطين سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه **«وأعوذ بك رب أن يحضرون»** أمره سبحانه أن يتعوذ بالله من حضور الشياطين بعد ما أمره أن يتعوذ من همزاتهم، والمعنى: وأعوذ بك أن يكونوا معي في حال من الأحوال، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة والإغراء على الشر والصرف عن الخير. وفي قراءة أبي (وقل رب عاذاً بك من همزات الشياطين * وعائذاً بك رب أن يحضرون).

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«قل من بيده ملكوت كل شيء»** قال: خزائن كل شيء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه **«انفع بالتي هي أحسن السيئة»** يقول: اعرض عن أذاهم إياك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطاء **«انفع بالتي هي أحسن»** قال: بالسلام. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عن أنس في قوله: **«انفع بالتي هي أحسن السيئة»** قال: قول الرجل لأخيه ما ليس فيه، فيقول إن كنت كاذباً فانا أسأل الله أن يغفر لك، وإن كنت صادقاً فانا أسأل الله أن يغفر لي. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع: بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة

الجملة في محل نصب على الحال، والكالم: الذي قد تشمرت شفاته وبيت أسنانه، قاله الزجاج. ودهر كالم أي: شديد. قال أهل اللغة: الكلوخ تكتيز في عبوس، وجملة ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ هي على إضمار القول أي: يقال لهم ذلك توبيخاً وتقريعاً أي: ألم تكن آياتي تتلى عليكم في الدنيا ﴿فكنتم بها تكذبون﴾ وجملة ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر أي: غلبت علينا لذاتنا وشهواتنا، فسمي ذلك شقوة، لأنه يؤول إلى الشقاء. قرأ أهل المدينة⁽¹⁾ وأبو عمرو، وعاصم (شقوتنا) وقرأ الباقون (شقارتنا) وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن ﴿وكننا قوماً ضالين﴾ أي: بسبب ذلك فإنهم ضلوا عن الحق بتلك الشقوة. ثم طلبوا ما لا يجابون إليه فقالوا: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ أي: فإن عدنا إلى ما كنا عليه من الكفر وعدم الإيمان فإنا ظالمون لأنفسنا بالعود إلى ذلك، فاجاب الله عليهم بقوله: ﴿قال لخصنوا فيها ولا تكلمون﴾ أي: اسكنوا في جهنم. قال المبرد: الخسن إبعاد بمكروه، وقال الزجاج: تباعدوا تباعد سخط وأبعدوا بعد الكلب. فالمعنى على هذا: أبعادوا في جهنم، كما يقال للكلب اخسأ أي: ابعاد، خسأت الكلب خساً طرنته، ولا تكلمون في إخراجكم من النار ورجوعكم إلى الدنيا، أو في رفع العذاب عنكم، وقيل: المعنى لا تكلمون رأساً. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون﴾ وهم المؤمنون وقيل: الصحابة، يقولون: ﴿ربنا آمنا فاعفر لنا وارحمنا وإنت خير الراحمين﴾ قرأ الجمهور (إنه كان فريق) بكسر إن استئنافاً تعليلياً، وقرأ أبي بفتحها ﴿فاتخذتموهم سخرياً﴾ قرأ نافع، وحزمة، والكسائي بضم السين. وقرأ الباقون بكسرها. وفرق بينهما أبو عمرو فجعل الكسر من جهة الهزئ، والضم من جهة السخرية. قال النحاس: ولا يعرف هذا الفرق الخليل، ولا سيبويه، ولا الكسائي، ولا الفراء، وحكى الثعلبي عن الكسائي: أن الكسر بمعنى الاستهزاء والسخرية بالقول، والضم بمعنى التسخير والاستبعاد بالفعل ﴿حتى اتسوكم نكري﴾ أي: اتخذتموهم سخرياً إلى هذه الغاية فإنهم نسوا نكر الله لشدة اشتغالهم بالاستهزاء ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ في الدنيا، والمعنى: حتى نسيتم نكري باشتغالكم بالسخرية والضحك، فنسب ذلك إلى عباده المؤمنين لكونهم السبب، وجملة ﴿إني جزيتهم ليوم بما صبروا﴾ مستأنفة لتقرير ما سبق، والباء في بما صبروا للسببية ﴿أنهم هم للفائزون﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف، وقرأ الباقون بالفتح أي: لأنهم الفائزون، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه المفعول الثاني للفعل ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ القائل هو: الله عز وجل وتذكيراً لهم كم لبثوا! لما سألوا الرجوع إلى

مخاطبة الملائكة فقال: ﴿ارجعون لعلي أعمل صالحاً﴾ أي: أعمل عملاً صالحاً في الدنيا إذا رجعت إليهما من الإيمان وما يتبعه من أعمال الخير، ولما تمنى أن يرجع ليعمل رد الله عليه ذلك بقوله: ﴿علا إنها كلمة هو قائلها﴾ ف جاء بكلمة الردع والزجر، والضمير في إنها يرجع إلى قوله: ﴿رب ارجعون﴾ أي: إن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة، وليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، أو المعنى: أنه لو أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء كما في قوله: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: 28]. وقيل: إن الضمير في قائلها يرجع إلى الله أي: لا خلف في خبره، وقد أخبرنا بأنه لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم والبرزخ هو: الحاجز بين الشيئين. قاله الجوهري.

واختلف في معنى الآية، فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد: حاجز بين الموت والبعث. وقال الكلبي: هو الأجل ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة. وقال السدي: هو الأجل، و ﴿إلى يوم يبعثون﴾ هو يوم القيامة ﴿فإذا نفخ في الصور﴾ قيل: هذه هي النفخة الأولى؛ وقيل: الثانية، وهذا أولى، وهي النفخة التي تقع بين البعث والنشور؛ وقيل: المعنى فإذا نفخ في الأجساد أرواحها، على أن الصور جمع صورة، لا القرن ويدل على هذا قراءة ابن عباس، والحسن (الصور) بفتح الواو مع ضم الصاد جمع صورة. وقرأ أبو رزين بفتح الصاد والواو. وقرأ الباقون بضم الصاد وسكون الواو، وهو القرن الذي ينفخ فيه ﴿فلا لنساب بينهم يومئذ﴾ أي: لا يتفخرون بالنساب وينكرونها لما هم فيه من الحيرة والدهشة ﴿ولا يتساءلون﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً، فإن لهم إذ ذاك شغلاً شاعلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبه وبنيه﴾ [عبس: 34 - 36]. وقوله: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ [المعارج: 10]. ولا ينافي هذا ما في الآية الأخرى من قوله: ﴿واقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ [الصفات: 27]. فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة، فالإثبات باعتبار بعضها، والنفي باعتبار بعض آخر كما قررناه في نظائر هذا، مما أثبت تارة ونفي أخرى ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ أي: موازناته من أعماله الصالحة ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي: الفائزون بمطالبهم المحبوبة، الناجون من الأمور التي يخافونها ﴿ومن خفت موازينه﴾ وهي أعماله الصالحة ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي: ضيعوها وتركوا ما ينفعها ﴿في جهنم خالدون﴾ هذا بدل من صلة الموصول، أو خبر ثانٍ لاسم الإشارة، وقد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده، وجملة ﴿تلفج وجوههم للنار﴾ مستأنفة، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال، أو تكون خبراً آخر لأولئك، والتلفج الإحراق، يقال: لفتح النار، إذا أحرقته، ولفتحته بالسيف، إذا ضربته، وخص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء ﴿وهم فيها كالحون﴾ هذه

(1) قوله: أهل المدينة: صوابه أهل الحجاز اهـ مصحح القرآن.

الدنيا بعد أن أخبرهم بأن ذلك غير كائن كما في قوله: اخسثوا فيها، والمراد بالأرض: هي الأرض التي طلبوا الرجوع إليها، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوه في الحياة وفي القبور، وقيل: هو سؤال عن مدة لبثهم في القبور لقوله: في الأرض، ولم يقل على الأرض، وردّ بمثل قوله تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ [الأعراف: 56 و85]. وانتصاب عدد سنين على التمييز، لما في كم من الإيهام، وسنين بفتح النون على أنها نون الجمع، ومن العرب من يخفضها وينونها ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ استقصروا مدة لبثهم لما هم فيه من العذاب الشديد، وقيل: إن العذاب رفع عنهم بين النفختين، فنسوا ما كانوا فيه من العذاب في قبورهم، وقيل: أنساهم الله ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى النفخة الثانية. ثم لما عرفوا ما أصابهم من النسيان لشدة ما هم فيه من الهول العظيم أحالوا على غيرهم فقالوا: ﴿فاسأل العائنين﴾ أي: المتمكنين من معرفة العدد، وهم الملائكة، لأنهم الحفظة العارفون بأعمال العباد وأعمارهم؛ وقيل: المعنى فاسأل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي (قل كم لبثتم في الأرض) على الأمر، والمعنى: قل يا محمد للكفار، أو يكون أمراً للملك يسؤالهم، أو التقدير: قولوا كم لبثتم، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد، والمراد: الجماعة. وقرأ الباقر (قال كم لبثتم) على أن القائل هو الله عز وجل أو الملك ﴿قال إن لبثتم إلا قليلاً﴾ قرأ حمزة والكسائي (قل إن لبثتم) كما في الآية الأولى، وقرأ الباقر قال على الخبر، وقد تقدّم توجيه القراءتين أي: ما لبثتم في الأرض إلا لبثاً قليلاً ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ شيئاً من العلم، والجواب محذوف أي: لو كنتم تعلمون لعلمتم اليوم قلة لبثكم في الأرض أو في القبور أو فيهما، فكل ذلك قليل بالنسبة إلى لبثهم. ثم زاد سبحانه في توبيخهم فقال: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ الهمة للتوبيخ والتقدير، والفاء للعطف على مقدّم كما تقدّم بيانه في مواضع أي: ألم تعلموا شيئاً فحسبتم، وانتصاب عبثاً على الحال أي: عبثين، أو على العلة أي: للعبث. قال بالأول سيبويه وقطرب، وبالثاني أبو عبيدة. وقال أيضاً: يجوز أن يكون منتصباً على المصدرية، وجملة ﴿وانكم إلينا لا ترجعون﴾ معطوفة على أنما خلقناكم عبثاً، والعبث في اللغة: اللعب، يقال: لعبت لعبث عبثاً فهو عبث أي: لاعب، وأصله من قولهم عبثت الأقط أي: خلطته، والمعنى: أفحسبتم أن خلقنا لكم للإهمال كما خلقت البهائم ولا ثواب ولا عقاب، وأنكم إلينا لا ترجعون بالبعث والنشور فنجازيكم بأعمالكم، قرأ حمزة والكسائي (ترجعون) بفتح الفوقية وكسر الجيم مبنياً للفاعل، وقرأ الباقر على البناء للمفعول؛ وقيل: إنه يجوز عطف وأنكم إلينا لا ترجعون على عبثاً على معنى: أنما خلقناكم للعبث ولعدم الرجوع. ثم نزه سبحانه نفسه فقال: ﴿فتعالى الله﴾ أي: تنزه عن الأولاد والشركاء أو عن أن يخلق شيئاً عبثاً، أو

عن جميع ذلك، وهو ﴿الملك﴾ الذي يحق له الملك على الإطلاق ﴿الحق﴾ في جميع أفعاله وأقواله ﴿لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم﴾ فكيف لا يكون إلهاً ورباً، لما هو دون العرش الكريم من المخلوقات، ووصف العرش بالكريم لنزول الرحمة والخير منه، أو باعتبار من استوى عليه، كما يقال: بيت كريم: إذا كان ساكنوه كراماً. قرأ أبو جعفر، وابن محيصن، وإسماعيل، وأبان بن ثعلب (الكريم) بالرفع على أنه نعت لربّ، وقرأ الباقر بالجرّ على أنه نعت للعرش. ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخاً لهم وتقرّياً فقال: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر﴾ يعبد مع الله أو يعبد وحده، وجملة ﴿لا برهان له به﴾ في محل نصب صفة لقوله إلهاً، وهي صفة لازمة جيء بها للتأكيد، كقوله: ﴿يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38] والبرهان: الحجة الواضحة والدليل الواضح، وجواب الشرط قوله: ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ وجملة لا برهان له به معترضة بين الشرط والجزاء، كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحقّ منه بالإحسان، فالحق مثبته؛ وقيل: إن جواب الشرط قوله: لا برهان له به على حذف فاء الجزاء كقول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ قرأ الحسن وقتادة بفتح (أن) على التعليل، وقرأ الباقر بالكسر على الاستئناف، وقرأ الحسن (لا يفلح) بفتح الياء واللام مضارع فليح بمعنى أفلح، ثم ختم هذه السورة بتعليم رسوله ﷺ أن يدعوهم بالمغفرة والرحمة فقال: ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ أمره سبحانه بالاستغفار لتقتدي به أمته؛ وقيل: أمره بالاستغفار لأمته. وقد تقدّم بيان كونه أرحم الراحمين، ووجه اتصال هذا بما قبله أنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع إليه والاتجاه إلى غفرانه ورحمته.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا في نكر الموت، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: إذا أدخل الكافر في قبره فبرى مقعده من النار ﴿قال ربّ أرجعون﴾ أتوب أعمل صالحاً، فيقال له: قد عمرت ما كنت معمراً، فيضيق عليه قبره، فهو كالمنهوش ينازع ويفزع تهوي إليه حيات الأرض وعقاربها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج قال: زعموا أن النبي ﷺ قال لعائشة: إن المؤمن إذا عاين الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا، فيقول: إلى دار الهموم والأحزان، بل قدما إلى الله، وأما الكافر فيقولون له: نرجعك، فيقول: ربّ أرجعون ﴿علي عمل صالحاً فيما تركت﴾ وهو مرسل. وأخرج الديلمي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: وإذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شيء يمنه عن الحق فيجعل بين عينيه. فعند ذلك يقول: ربّ أرجعون عليّ أعمل صالحاً فيما تركت. وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿أعمل صالحاً﴾ قال: أقول لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة

السورة في اللغة اسم للمنزلة الشريفة، ولذلك سميت السورة من القرآن سورة، ومنه قول زهير:
 ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتنزيب
 أي: منزلة. قرأ الجمهور (سورة) بالرفع وفيه جهان: أحدهما: أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أي: هذه سورة، ورجحه الزجاج، والفراء، والمبرد، قالوا: لأنها نكرة، ولا يبتدأ بالنكرة في كل موضع. والوجه الثاني أن يكون مبتدأ وجاز الابتداء بالنكرة لكونها موصوفة بقوله ﴿انزلناها﴾ والخبر ﴿الزانية والزاني﴾ ويكون المعنى: السورة المنزلة المفروضة كذا وكذا، إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها مبدأ ومختتم، وهذا معنى صحيح، ولا وجه لما قاله الأولون من تعليل المنع من الابتداء بها كونها نكرة فهي نكرة مخصصة بالصفة، وهو مجمع على جواز الابتداء بها. وقيل: هي مبتدأ محذوف الخبر على تقدير: فيما أوحينا إليك سورة، ورد بأن مقتضى المقام ببيان شأن هذه السورة الكريمة، لا بيان أن في جملة ما أوحى إلى النبي ﷺ سورة شأنها كذا وكذا. وقرأ الحسن بن عبد العزيز، وعيسى الثقفي، وعيسى الكوفي، ومجاهد، وأبو حيوة، وطلحة بن مصرف بالنصب، وفيه أوجه: الأول أنها منصوبة بفعل مقتر غير مفسر بما بعده، تقديره اتل سورة، أو اقرأ سورة. والثاني أنها منصوبة بفعل مضمّر يفسره ما بعده على ما قيل في باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضميره أي: أنزلنا سورة أنزلناها، فلا محل لأنزلناها هاهنا؛ لأنها جملة مفسرة، بخلاف الوجه الذي قبله، فإنها في محل نصب على أنها صفة لسورة. الوجه الثالث أنها منصوبة على الإغراء أي: نونك سورة، قاله صاحب الكشف. ورده أبو حيان بأنه لا يجوز حذف أداة الإغراء. الرابع أنها منصوبة على الحال من ضمير أنزلناها، قال الفراء: هي حال من لها، والألف، والحال من المكنى يجوز أن تتقدم عليه، وعلى هذا فالضمير في أنزلناها ليس عائداً على سورة، بل على الأحكام، كأنه قيل: أنزلنا الأحكام حال كونها سورة من سور القرآن. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو (وفرّضناها) بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف، قال أبو عمرو: فرّضناها بالتشديد أي: قطعناها في الإنزال نجماً نجماً، والفرض القطع، ويجوز أن يكون التشديد للتكثير، أو للمبالغة، ومعنى التخفيف: أوجبناها، وجعلناها مقطوعاً بها، وقيل: الزمانك العمل بها، وقيل: قرّنا ما فيها من الحدود، والفرض التقدير، ومنه ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ [القصص: 85] ﴿وانزلنا فيها آيات بينات﴾ أي: أنزلنا في غضوننا وتضاعفها، ومعنى كونها بينات: أنها واضحة الدلالة على ملولها، وتكرير أنزلنا لكمال العناية بإنزال هذه السورة، لما اشتملت عليه من الأحكام ﴿الزانية والزاني﴾ هذا شروع في تفصيل ما أجمل من الآيات البينات، والارتفاع على الابتداء، والخبر ﴿فاجلدوا كل واحد منهما﴾، أو على الخبرية لسورة كما تقدّم، والزنا هو وطء الرجل للمرأة في فرجها من غير نكاح، ولا شبهة نكاح.

وقيل: هو إيلاج فرج في فرج مشتبه طبعاً محرّم شرعاً، والزانية هي المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المكروهة، وكذلك الزاني، وبخول الفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط على مذهب الأخفش، وأما على مذهب سيبويه فالخبر محذوف، والتقدير: فيما يتلى عليكم حكم الزانية، ثم بين ذلك بقوله ﴿فاجلدوا﴾، والجلد الضرب، يقال: جلده إذا ضرب جلده، مثل بطنه إذا ضرب بطنه، ورأسه إذا ضرب رأسه، وقوله ﴿مائة جلدة﴾ هو حدّ الزاني للحر البالغ البكر، وكذلك الزانية، وثبت بالسنة زيادة على هذا الجلد، وهي: تغريب عام، وأما المملوك، والمملوكة، فجلد كلّ واحد منهما خمسون جلدة لقوله سبحانه: ﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ [النساء: 25] وهذا نص في الإماء، والحق بهنّ العبيد لعدم الفارق، وأما من كان محصناً من الأحرار، فعليه الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة، ويجمع أهل العلم بل وبالقُرآن المنسوخ لفظه الباقي حكمه وهو ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا﴾ فارجمهما لقتلة. وزاد جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة، وقد أوضحنا ما هو الحق في ذلك في شرحنا للمنتقى، وقد مضى الكلام في حدّ الزنا مستوفى، وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة النساء. وقرأ عيسى بن عمر الثقفي، ويحيى بن يعمر، وأبو جعفر، وأبو شيبه (الزانية والزاني) بالنصب، قيل: وهو القياس عند سيبويه؛ لأنه عنده كقولك: زيداً أضرب. وأما الفراء، والمبرد، والزجاج، فالرفع عندهم أوجه وبه قرأ الجمهور. ووجه تقديم الزانية على الزاني هاهنا أن الزنا في ذلك الزمان كان في النساء أكثر حتى كان لهنّ رايات تنصب على أبوابهنّ ليعرفهنّ من أراد الفاحشة منهنّ. وقيل: وجه التقديم أن المرأة هي الأصل في الفعل، وقيل: لأن الشهوة فيها أكثر، وعليها أغلب، وقيل: لأن العار فيهنّ أكثر إذ موضوعهنّ الحجة، والصيانة، فقدّم ذكر الزانية تغليظاً، واهتماماً. والخطاب في هذه الآية للأئمة ومن قام مقامهم، وقيل: للمسلمين أجمعين، لأن إقامة الحدود واجبة عليهم جميعاً، والإمام ينوب عنهم، إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود ﴿ولا تلخّنكم بهما رافة في دين الله﴾ يقال: راف رافة على وزن فعلة، ورافة على وزن فعالة، مثل النشأة، والنشأة وكلاهما بمعنى: الرقة، والرحمة. وقيل: هي أرق الرحمة. وقرأ الجمهور (رافة) بسكون الهمزة، وقرأ ابن كثير بفتحها، وقرأ ابن جريج (رافة) بالمد كفعالة، ومعنى: (في دين الله) في طاعته، وحكمه، كما في قوله: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ [يوسف: 76]، ثم قال: مثبّتاً للمأمورين ومهيّجاً لهم ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ كما تقول للرجل تحضه على أمر: إن كنت رجلاً فافعل كذا أي: إن كنتم تصدّقون بالتوحيد، والبعث الذي فيه جزاء الأعمال فلا تعطلوا الحدود ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ أي: ليحضره زيادة في التنكيل بهما،

حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جارية لابس عمر زنت فضرب رجلها وظهرها، فقلت: ﴿ولا تآخذنكم بهما رافة في عين الله﴾ قال: يا بني رأيتني أخذتني بها رافة؟ إن الله لم يأمروني أن أقتلها، ولا أن أجلد رأسها، وقد أوجعت حيث ضربت. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. عن ابن عباس ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ قال: الطائفة الرجل فما فوقه. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، والضياء المقدسي في المختارة من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس في قوله ﴿الزاني لا ينكح﴾ قال: ليس هذا بالنكاح، ولكن الجماع، لا يزني بها حين يزني إلا زان، أو مشرك ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ يعني: الزنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن مجاهد في قوله ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾ قال: كن نساء في الجاهلية بغيات، فكانت منهن امرأة جميلة تدعى أم جميل، فكان الرجل من المسلمين يتزوج إحداهن لتنفق عليه من كسبه، فنهى الله سبحانه أن يتزوجهن أحد من المسلمين، وهو مرسل. وأخرج عبد بن حميد، عن سليمان بن يسار نحوه مختصراً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عطاء، عن ابن عباس قال: كانت بغايا في الجاهلية بغايا آل فلان، وبغايا آل فلان، فقال الله ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾ الآية، فأحكم الله ذلك في أمر الجاهلية، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن الضحاك في الآية قال: إنما عني بذلك الزنا، ولم يعن به التزويج. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبيرة نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في هذه الآية قال: الزاني من أهل القبلة لا يزني إلا بزانية مثله من أهل القبلة، أو مشركة من غير أهل القبلة، والزانية من أهل القبلة لا تزني إلا بزاني مثله من أهل القبلة، أو مشرك من غير أهل القبلة، وحرم الزنا على المؤمنين. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها: أم مهزول، وكانت تسافح، وتشرط أن تنفق عليه، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله ﴿الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد، يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بغية يقال لها: عناق، وكانت صديقة له، وذكر

وشيوخ العار عليهما، وإشهار فضيحتهما، والطائفة الفرقة التي تكون حافة حول الشيء، من الطوف، وأقل الطائفة ثلاثة، وقيل: اثنان، وقيل: واحد، وقيل: أربعة، وقيل: عشرة.

ثم ذكر سبحانه شيئاً يختص بالزاني، والزانية، فقال ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾.

قد اختلف أهل العلم في معنى هذه الآية على أقوال: الأول: أن المقصود منها تشنيع الزنا، وتشنيع أهله، وأنه محرم على المؤمنين، ويكون معنى الزاني لا ينكح: الوطء لا العقد أي: الزاني لا يزني إلا بزانية، والزانية لا تزني إلا بزاني، وزاد ذكر المشركة والمشرک لكون الشرك أعم في المعاصي من الزنا. ورد هذا الزواج وقال: لا يعرف النكاح في كتاب الله إلا بمعنى التزويج، ويرد هذا الرد بأن النكاح بمعنى الوطء ثابت في كتاب الله سبحانه، ومنه قوله: ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ [البقرة: 230] فقد بينه النبي ﷺ، بأن المراد به الوطء، ومن جملة القائلين بأن معنى الزاني لا ينكح إلا زانية: الزاني لا يزني إلا بزانية، سعيد بن جبيرة، وابن عباس، وعكرمة، كما حكاه ابن جرير عنهم، وحكاها الخطابي عن ابن عباس. القول الثاني: أن الآية هذه نزلت في امرأة خاصة كما سيأتي بيانه فتكون خاصة بها كما قاله الخطابي. القول الثالث: أنها نزلت في رجل من المسلمين، فتكون خاصة به قاله مجاهد. الرابع: أنها نزلت في أهل الصفة، فتكون خاصة بهم قاله أبو صالح. الخامس: أن المراد بالزاني والزانية المحدودان حكاة الزواج، وغيره عن الحسن قال: وهذا حكم من الله، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة. وروي نحوه عن إبراهيم النخعي، وبه قال بعض أصحاب الشافعي. قال ابن العربي: وهذا معنى لا يصح نظراً كما لم يثبت نقلاً. السادس: أن الآية هذه منسوخة بقوله سبحانه: ﴿وانكحوا الأيامي منكم﴾ [النور: 32] قال النحاس: وهذا القول عليه أكثر العلماء. القول السابع: أن هذا الحكم مؤسس على الغالب، والمعنى: أن غالب الزناة لا يرغب إلا في الزواج بزانية مثله، وغالب الزواني لا يرغب إلا في الزواج بزاني مثله، والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا، وهذا أرجح الأقوال، وسبب النزول يشهد له كما سيأتي.

وقد اختلف في جواز تزويج الرجل بامرأة قد زنى هو بها، فقال الشافعي، وأبو حنيفة: بجواز ذلك. وروي عن ابن عباس، وروي عن عمر، وابن مسعود، وجابر: أنه لا يجوز. قال ابن مسعود: إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبداً، وبه قال مالك، ومعنى ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي: نكاح الزواني، لما فيه من التشبه بالفسقة، والتعرض للتهمة، والطنع في النسب. وقيل: هو مكروه فقط، وعبر بالتحريم عن كراهة التزويج بمبالغة في الزجر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾ قال: بينهاها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن

والأنفس المحصنات، ويؤيد هذا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: 24] فإن البيان يكونهن من النساء يشعر بأن لفظ المحصنات يشمل غير النساء، وإلا لم يكن للبيان كثير معنى، وقيل: أراد بالمحصنات الفروج كما قال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: 91] فتتناول الآية الرجال والنساء. وقيل: إن لفظ المحصنات، وإن كان للنساء لكنه هاهنا يشمل النساء والرجال تغليباً، وفيه أن تغليب النساء على الرجال غير معروف في لغة العرب، والمراد بالمحصنات هنا العفاف، وقد مضى في سورة النساء ذكر الإحصان، وما يحتمله من المعاني. وللعلماء في الشروط المعتبرة في المقدوف والقاذف أبحاث مطولة مستوفاة في كتب الفقه، منها ما هو مأخوذ من دليل، ومنها ما هو مجرد رأي بحث. قرأ الجمهور (والمحصنات) بفتح الصاد، وقرأ يحيى بن وثاب بكسرها. وذهب الجمهور من العلماء: أنه لا حد على من قذف كافراً أو كافرة. وقال الزهري، وسعيد بن المسيب، وابن أبي ليلى: إنه يجب عليه الحد. وذهب الجمهور أيضاً: أن العبد يجلد أربعين جلدة. وقال ابن مسعود، وعمر بن عبد العزيز، وقبيصة: يجلد ثمانين. قال القرطبي: وأجمع العلماء على: أن الحر لا يجلد للعبد إذا افتري عليه لتباين مرتبتهما، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ: «أن من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال». ثم نكر سبحانه شرطاً لإقامة الحد على من قذف المحصنات فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: يشهدون عليهم بوقوع الزنا منهن، ولفظ «ثم» يدل على: أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود في غير مجلس القذف، وبه قال الجمهور، وخالف في ذلك مالك. وظاهر الآية: أنه يجوز أن يكون الشهود مجتمعين ومفترقين، وخالف في ذلك الحسن، ومالك، وإذا لم تكمل الشهود أربعة كانوا قذفة يحدون حد القذف. وقال الحسن، والشعبي: إنه لا حد على الشهود، ولا على المشهود عليه، وبه قال أحمد، وأبو حنيفة، ومحمد بن الحسن. ويرد ذلك ما وقع في خلافة عمر رضي الله عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا، ولم يخالف في ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنه. قرأ الجمهور (بأربعة شهداء) بإضافة أربعة إلى شهداء، وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار، وأبو زرعة بن عمرو بتنوين أربعة.

وقد اختلف في إعراب شهداء على هذه القراءة، فقيل: هو تمييز. ورد بأن المميز من ثلاثة إلى عشرة يضاف إليه العدد كما هو مقرر في علم النحو. وقيل: إنه في محل نصب على الحال. ورد بأن الحال لا يجيء من النكرة التي لم تخصص. وقيل: إن شهداء في محل جر نعتاً لأربعة، ولما كان فيه ألف التانيث لم ينصرف. وقال النحاس: يجوز أن يكون شهداء في موضع نصب على المفعولية أي: ثم لم يحضروا أربعة شهداء، وقد قوى ابن جني هذه القراءة، وينفع ذلك قول سيبويه: إن تنوين العدد، وترك إضافته إنما يجوز في الشعر.

قصة وفيها: «فاتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً، فلم يرد علي شيئاً حتى نزلت ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ فلا تنكحها وأخرج ابن جرير، عن عبد الله بن عمرو في الآية قال: كنّ نساء معلومات، فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوّج المرأة منهن لتتفق عليه، فنهاهم الله عن ذلك. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس: أنها نزلت في بغايا معلنات كنّ في الجاهلية وكنّ زواني مشركات، فحرم الله نكاحهن على المؤمنين. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن طريق شعبة مولى ابن عباس قال: كنت مع ابن عباس، فأتاه رجل، فقال: إني كنت أتبع امرأة، فأصببت منها ما حرم الله عليّ، وقد رزقني الله منها توبة، فأريت أن أتزوجها، فقال الناس: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾. فقال ابن عباس: ليس هذا موضع هذه الآية، إنما كنّ نساء بغايا متعائنات يعلنن على أبوابهن رايات يأتينهن الناس يعرفن بذلك، فانزل الله هذه الآية، تزوّجها فما كان فيها من إثم فعليّ. وأخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مروي، والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله». وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب: أن رجلاً تزوّج امرأة، ثم إنه زنى فاقم عليه الحد، فجاءوا به إلى عليّ ففرق بينه وبين امرأته، وقال: لا تزوّج إلا مجلودة مثلك.

وَالَّذِينَ يَزِينُونَ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجِدُوهُمْ فَتُخَيِّبُهُمْ جُلْدَةٌ وَلَا تُعْاقِبُوا لَهُمْ مَقْصِدٌ آتِيًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ وَالَّذِينَ يَزِينُونَ أَرْجَاهُمْ وَكَرَّ يَمُّنَ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْشَأْنَاهُمْ مَقْصِدَهُ أَحْمَرُ أَرْبَعِ شَهَدَاتٍ وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ لَيِّنٌ الْقَصْدِ ﴿١٠٣﴾ وَلَقَدْ نَسِئْنَا أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٠٤﴾ وَتَدْرَأُ عَنَّا الْعَدَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعِ شَهَدَاتٍ وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ لَيِّنٌ الْقَصْدِ ﴿١٠٥﴾ وَلَقَدْ نَسِئْنَا أَنْ عَذَّبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَا فَضْلَ اللَّهُ عَلَيْكَ رَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٧﴾

قوله ﴿وَالَّذِينَ يَزِينُونَ﴾ استعار الرمي للشتم بفاحشة الزنا لكونه جنابة بالقول كما قال النابغة:

وجرح اللسان كجرح اليد

وقال آخر:

رماني بامرئ كنت عنه ووالدي برياً ومن أجل الطوى رماني ويسمى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة قذفاً، والمراد بالمحصنات النساء، وخصهن بالذكر لأن قذفهن أشنع، والعار فيهن أعظم، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة، وقد جمعنا في ذلك رسالة ردنا بها على بعض المتأخرين من علماء القرن الحادي عشر لما نازع في ذلك. وقيل: إن الآية تعم الرجال، والنساء، والتقدير:

بكونه قيداً لها لا تنفي كونه قيداً لما قبلها، غاية الأمر، أن تقيد الأخيرة بالقيد المتصل بها أظهر من تقيد ما قبلها به، ولهذا كان مجعاً عليه، وكونه أظهر لا ينافي قوله فيما قبلها ظاهراً. وقد أطال أهل الأصول الكلام في القيد الواقع بعد جمل بما هو معروف عند من يعرف ذلك الفن، والحق هو هذا، والاحتجاج بما وقع تارة من القيود عائداً إلى جميع الجمل التي قبله، وتارة إلى بعضها لا تقوم به حجة، ولا يصلح للاستدلال، فإنه قد يكون ذلك ليليل كما وقع هنا من الإجماع على عدم رجوع هذا الاستثناء إلى جملة الجلد. ومما يؤيد ما قررناه ويقوّيه أن المانع من قبول الشهادة، وهو الفسق المتسبب عن القذف قد زال، فلم يبق ما يوجب الردّ للشهادة.

واختلف العلماء في صورة توبة القائف، فقال عمر بن الخطاب، والشعبي، والضحاك، وأهل المدينة: إن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي وقع منه، وأقيم عليه الحد بسبببه. وقالت فرقة منهم مالك، وغيره: إن توبته تكون بأن يحسن حاله، ويصلح عمله، ويندم على ما فرط منه، ويستغفر الله من ذلك، ويعزم على ترك العود إلى مثله. وإن لم يكذب نفسه، ولا رجع عن قوله. ويؤيد هذا الآيات والأحاديث الواردة في التوبة، فإنها مطلقة غير مقيدة بمثل هذا القيد.

وقد أجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب، ولو كان كفراً فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى هكذا حكى الإجماع القرطبي. قال أبو عبيد: الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة، وليس من رمى غيره بالزنا بأعظم جرماً من مرتكب الزنا، والزاني إذا تاب قبلت شهادته، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن منها قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [المائدة: 33 - 34] ولا شك أن هذا الاستثناء يرجع إلى الجميع. قال الزجاج: وليس القائف بأشدّ جرماً من الكافر، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته، قال: وقوله ﴿أَبْدَأُ﴾ أي: ما دام قائفًا، كما يقال لا تقبل شهادة الكافر أبداً فإن معناه: ما دام كافراً. انتهى. وجملة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء من عدم المؤاخذه للقائف بعد التوبة، وصيرورته مغفوراً له، مرحوماً من الرحمن الرحيم، غير فاسق، ولا مردود الشهادة، ولا مرفوع العدالة. ثم نكر سبحانه بعد نكره لحكم القذف على العموم حكم نوع من أنواع القذف، وهو قذف الزوج للمرأة التي تحتها بعقد النكاح فقال ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: لم يكن لهم شهود يشهدون بما رموهنّ به من الزنا إلا أنفسهم بالرفع على البذل من شهداء. قيل: ويجوز النصب على خبر يكن. قال الزجاج: أو على الاستثناء على الوجه المرجوح ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ قرأ الكوفيون برفع

ثم بين سبحانه ما يجب على القائف فقال ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ الجلد الضرب كما تقدّم، والمجالدّة المضاربة في الجلود، أو بالجلود، ثم استعير للضرب بالعصى، والسيف، وغيرهما، ومنه قول قيس بن الخطيم: أجالدهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق لأعب وقد تقدّم بيان الجلد قريباً، وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر، وجملة منتصبة على التمييز، وجملة ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ معطوفة على اجلدوا أي: فاجمعوا لهم بين الأمرين: الجلد، وترك قبول الشهادة، لأنهم قد صاروا بالقذف غير عدول بل فسقة كما حكم الله به عليهم في آخر هذه الآية. واللام في لهم متعلقة بمحذوف هو: حال من شهادة ولو تأخرت عليها لكانت صفة لها، ومعنى ﴿أَبْدَأُ﴾: ما داموا في الحياة، ثم بين سبحانه حكمهم بعد صدور القذف منهم، وإصرارهم عليه، وعدم رجوعهم إلى التوبة، فقال ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وهذه جملة مستأنفة مقررة لما قبلها، والفسق هو الخروج عن الطاعة، ومجاوزة الحد بالمعصية، وجوز أبو البقاء أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال. ثم بين سبحانه أن هذا التأييد لعدم قبول شهادتهم هو مع عدم التوبة فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ وهذه الجملة في محل نصب على الاستثناء، لأنه من موجب، وقيل: يجوز أن يكون في موضع خفض على البذل، ومعنى التوبة قد تقدّم تحقيقه، ومعنى ﴿مَنْ يَبْدَأُ﴾: من بعد اقترافهم للذنوب القذف، ومعنى ﴿وَأَصْلَحُوا﴾: إصلاح أعمالهم التي من جعلتها ذنب القذف، ومداركة ذلك بالتوبة، والانقياد للحد.

وقد اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء هل يرجع إلى الجملتين قبله؟ وهي: جملة عدم قبول الشهادة، وجملة الحكم عليهم بالفسق، أم إلى الجملة الأخيرة؟ وهذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أنه لا يعود إلى جملة الجلد بل يجلد التائب كالمصر، وبعد إجماعهم أيضاً على أن هذا الاستثناء يرجع إلى جملة الحكم بالفسق، فحلّ الخلاف هل يرجع إلى جملة عدم قبول الشهادة أم لا؟ فقال الجمهور: إن هذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين، فإذا تاب القائف قبلت شهادته، وزال عنه الفسق، لأن سبب ردها هو ما كان متصفاً به من الفسق بسبب القذف، فإذا زال بالتوبة بالإجماع كانت الشهادة مقبولة. وقال القاضي شريح، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، ومكحول، وعبد الرحمن بن زيد، وسفيان الثوري، وأبو حنيفة: إن هذا الاستثناء يعود إلى جملة الحكم بالفسق، لا إلى جملة عدم قبول الشهادة، فيرتفع بالتوبة عن القائف وصف الفسق، ولا تقبل شهادته أبداً. وذهب الشعبي، والضحاك إلى التفصيل فقالا: لا تقبل شهادته، وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه بانه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته. وقول الجمهور هو الحق؛ لأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها مع كون الكلام واحداً في واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب، وأولوية الجملة الأخيرة المتصلة بالقيد

من تاب، وأصلح، فشهادته في كتاب الله تقبل. وفي الباب روايات عن التابعين. وقصة قذف المغيرة في خلافة عمر مروية من طرق معروفة. وأخرج البخاري، والترمذي، وابن ماجه، عن ابن عباس: «أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: البينة، وإلا حد في ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحداً على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول: البينة وإلا حد في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصائق، وليزّلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، ونزل جبريل فأنزل عليه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ فارسل إليهما، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: الله يعلم أن أحكما كاذب فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوا، وقالوا إنها موجبة، فتلكات ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أقضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي ﷺ: أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدج الساقين فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن، وأخرج هذه القصة أبو داود الطيالسي، وعبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس مطولة. وأخرجها البخاري، ومسلم، وغيرهما، ولم يسموا الرجل ولا المرأة. وفي آخر القصة: أن النبي ﷺ قال له: «أذهب فلا سبيل لك عليها، فقال: يا رسول الله مالي، قال: لا مال لك، وإن كنت صنعت عليها، فذاك أبعد لك منها». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن سهل بن سعد قال: «جاء عويمر إلى عاصم بن عدي، فقال: سل رسول الله ﷺ أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله، أبقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ: فعاب رسول الله ﷺ المسائل، فقال عويمر: والله لأتقين رسول الله ﷺ لأسأله، فاتاه، فوجده قد أنزل عليه، فدعا بهما، فلأعن بينهما. قال عويمر: إن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها، ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ. فصارت سنة للمتلاعنين، فقال رسول الله ﷺ: أبصروها، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الاليتين، فلا أراه إلا قد صدق، وإن جاءت به أحيمر كانه وحره، فلا أراه إلا كاذباً، فجاءت به مثل النعت المكروه، وفي الباب أحاديث كثيرة، وفيما نكرنا كفاية. وأخرج عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، قالوا: لا يجتمع المتلاعنان أبداً.

(أربع) على أنها خبر لقوله ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ أي: فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حد القذف أربع شهادات. وقرأ أهل المدينة، وأبو عمرو (أربع) بالنصب على المصدر. ويكون ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: فالواجب شهادة أحدهم، أو مبتدأ محذوف الخبر أي: فشهادة أحدهم واجبة. وقيل: إن أربع منصوب بتقدير: فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ متعلق بشهادة أو بشهادات، وجملة ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هي المشهود به، وأصله على أنه فحذف الجار وكسرت إن، وعلق العامل عنها ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ قرأ السبعة وغيرهم (الخامسة) بالرفع على الابتداء، وخبرها ﴿أَنْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَافِبِينَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن، وطلحة، وعاصم في رواية حفص (والخامسة) بالنصب على معنى وتشهد الشهادة الخامسة، ومعنى ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الْكَافِبِينَ﴾ أي: فيما رماها به من الزنا. قرأ الجمهور بتشديد (إن) من قوله ﴿أَنْ لَعَنَ اللَّهُ﴾ وقرأ نافع بتخفيفها، فعلى قراءة نافع يكون اسم أن ضمير الشأن، ولعنة الله مبتدأ، وعليه خبره، والجملة خبر أن، وعلى قراءة الجمهور تكون لعنة الله اسم أن، قال سيويه: لا تخفف أن في الكلام، وبعدها الأسماء إلا وأنت تريد الثقيلة. وقال الأخفش: لا أعلم الثقيلة إلا أجود في العربية ﴿وَيُودِرَا عَنْهَا الْعَذَابِ﴾ أي: عن المرأة، والمراد بالعذاب الدنيوي: وهو الحد، وفاعل يدرأ قوله ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِأَنَّهُ﴾ والمعنى: أنه ينفع عن المرأة الحد شهادتها أربع شهادات بأش: أن الزوج ﴿لَمِنَ الْكَافِبِينَ وَالْخَامِسَةَ﴾ بالنصب عطفاً على أربع أي: وتشهد الخامسة، كذلك قرأ حفص، والحسن، والسلمي، وطلحة، والأعمش، وقرأ الباقون بالرفع على الابتداء، وخبره ﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ﴾ الزوج ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا، وتخصيص الغضب بالمرأة للتفليظ عليها لكونها أصل الفجور ومأثته، ولأن النساء يكثرن اللعن في العادة، ومع استكثارهن منه لا يكون له في قلوبهن كبير موقع بخلاف الغضب ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ﴾ جواب لولا محذوف، قال الزجاج: المعنى: ولولا فضل الله لنال الكاذب منهما عذاب عظيم. ثم بين سبحانه كثر توبته على من تاب، وعظيم حكمته البالغة فقال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي: يعود على من تاب إليه، ورجع عن معاصيه بالتوبة عليه، والمغفرة له، حكيم فيما شرع لعباده من اللعان، وفرض عليهم من الحدود.

وقد أخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قال: تاب الله عليهم من الفسوق، وأما الشهادة فلا تجوز. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، عن عمر بن الخطاب، أنه قال لأبي بكر: إن تبت قبلت شهادتك. وأخرج ابن مردويه عنه قال: توبتهم إكذابهم أنفسهم، فإن أكذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال:

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٠٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ

بضم الكاف. قال الفراء: وهو وجه جيد، لأن العرب تقول: فلان تولى عظيم كذا وكذا أي: أكبره، وقرأ الباقون بكسرهما. قيل: هما لغتان، وقيل: هو بالكسر معظم الإفك، وبالكسر البداية به، وقيل: هو بالكسر الإثم. فالمعنى: إن الذي تولى معظم الإفك من العصابة له عذاب عظيم في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما.

واختلف في هذا الذي تولى أكبره من عصابة الإفك من هو منهم؟ فقيل: هو عبد الله بن أبي، وقيل: هو حسان، والأول هو الصحيح. وقد روى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة، وهم مسطح بن أثانة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش. وقيل: جلد عبد الله بن أبي، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، ولم يجلد مسطحاً، لأنه لم يصرح بالكذب، ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح. وقيل: لم يجلد أحداً منهم. قال القرطبي: المشهور من الأخبار، والمعروف عند العلماء: أن الذين حنوا: حسان، ومسطح، وحمنة. ولم يسمع بحد لعبد الله بن أبي، ويؤيد هذا ما في سنن أبي داود عن عائشة، قالت: لما نزل عذري، قام النبي ﷺ فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدّهم، وسماهم: حسان، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش.

واختلفوا في وجه تركه ﷺ لجلد عبد الله بن أبي، فقيل: لتوفير العذاب العظيم له في الآخرة، وحدّ من عداه ليكون ذلك تكفيراً لذنوبهم كما ثبت عنه ﷺ في الحدود أنه قال: «إنها كفارة لمن أقيمت عليه». وقيل: ترك حدّه تألفاً لقومه، واحتراماً لابنّه، فإنه كان من صالحى المؤمنين، وإطفاء لنائرة الفتنة، فقد كانت ظهرت مبايها من سعد بن عباد ومن معه كما في صحيح مسلم. ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول الله ﷺ ومن معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات فقال «ولو لا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً» «ولو لا» هذه هي التحضيضية تأكيداً للتوبيخ، والتقريع، ومبالغة في معاتبتهم أي: كان ينبغي للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم، فهو: في أم المؤمنين أبعد. قال الحسن: معنى بأنفسهم باهل دينهم، لأن المؤمنين كنفس واحدة لا ترى إلى قوله: «ولا تقتلوا أنفسكم» [النساء: 29]. قال الزجاج: ولذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضاً: إنهم يقتلون أنفسهم. قال الميزد: ومثله قوله سبحانه «فاقتلوا أنفسكم» [البقرة: 54] قال النحاس: بأنفسهم بإخوانهم، فأوجب الله سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقتل أحداً، وينكره بقبیح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكتبوه. قال العلماء: إن في الآية دليلاً على أن درجة الإيمان والعفاف لا يزيلها الخبر المحتمل وإن شاع «وقالوا هذا إفك مبين» أي: قال المؤمنون عند سماع الإفك: هذا إفك ظاهر مكشوف، وجملة «ولو لا جاءوا عليه بأربعة شهداء» من تمام ما يقوله المؤمنون أي وقالوا: هلا

هم الكذّيون ﴿١٧﴾ وَلَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ إِذْ تَلَقَّوْهُ بِالْأَيْتِ كَ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيَّا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ وَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُنْ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَشَرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعْمُدُوا إِلَيْهِمْ أُولَئِكَ كُنتُمْ مَرْغُوبِينَ ﴿٢١﴾ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عِلْمُهُ حَكِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الذِّكْرِ أَمَانُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ إِنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الْأَقْبَطِينَ وَنَنْ يَخُوبُ الْأَقْبَطِينَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُرُ بِالْعَنَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

خبر إن من قوله «إن الذين جاءوا بالإفك»: هو: «عصابة»، و«منكم» صفة لعصابة، وقيل: هو «ولا تحسبوه شراً لكم»، ويكون عصابة بدلا من فاعل جاءوا. قال ابن عطية: وهذا انسق في المعنى، وأكثر فائدة من أن يكون الخبر عصابة، وجملة لا تحسبوه، وإن كانت طلبية، فجعلها خبراً يصح بتقدير كما في نظائر ذلك، والإفك أسوأ الكذب وأقبحه، وهو مأخوذ من أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه. فالإفك هو: الحديث المقلوب، وقيل: هو البهتان وأجمع المسلمون على أن المراد بما في الآية ما وقع من الإفك على عائشة أم المؤمنين، وإنما وصفه الله بأنه إفك، لأن المعروف من حالها رضي الله عنها خلاف ذلك، قال الواحدي: ومعنى القلب في هذا الحديث الذي جاء به أولئك النفر: أن عائشة رضي الله عنها كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة، وشرف النسب والسبب لا القنف، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه، فهو إفك قبيح، وكذب ظاهر، والعصابة: هم الجماعة من العشرة إلى الأربعين، والمراد بهم هنا عبد الله بن أبي رأس المنافقين، زيد بن رفاع، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش، ومن ساعدتهم. وقيل: العصابة من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: من عشرة إلى خمسة عشر، وأصلها في اللغة الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض، وجملة «ولا تحسبوه شراً لكم» إن كانت خبراً لأن فظاها، وإن كان الخبر عصابة كما تقدم، فهي مستأنفة، فخطب بها النبي ﷺ، وعائشة، وصفوان بن المعطل الذي قنف مع أم المؤمنين، وتسلية لهم، والشر ما زاد ضره على نفعه، والخير ما زاد نفعه على ضره، وأما الخير الذي لا شر فيه فهو: الجنة، والشر الذي لا خير فيه فهو: النار، ووجه كونه خيراً لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أم المؤمنين، وصيرورة قصتها هذه شرعاً عاماً «لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم» أي: بسبب تكلمه بالإفك «والذي تولى أكبره منهم له عذاب عظيم» قرأ الحسن، والزهري، وأبو رجاء، وحמיד الأعرج، ويعقوب، وابن أبي عمير، ومجاهد، وعمرة بنت عبد الرحمن

راجع إلى الحديث الذي وقع الخوض فيه والإذاعة له **﴿وتحسبونه هيناً﴾** أي: شيئاً يسيراً لا يلحقكم فيه إثم، وجملة **﴿وهو عند الله عظيم﴾** في محل نصب على الحال أي: عظيم ننبه وعقابه **﴿ولولا﴾** إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا **﴿هذا عتاب لجميع المؤمنين﴾** أي: هلا إذا سمعتم حديث الإفك قلتم تكتنباً للخائضين فيهم المفتريين له ما ينبغي لنا، ولا يمكننا أن نتكلم بهذا الحديث، ولا يصبر ذلك منا بوجه من الوجوه، ومعنى قوله **﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾** التعجب من أولئك الذين جاءوا بالإفك، وأصله التنزيه لله سبحانه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، والبهتان هو: أن يقال في الإنسان ما ليس فيه أي: هذا كذب عظيم لكونه قيل في أم المؤمنين رضي الله عنها، وصوره مستحيل شرعاً من مثلها. ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا في الإفك فقال **﴿يعظكم الله أن تعبدوا لمثله لبدأ﴾** أي: ينصحكم الله، أو يحرم عليكم، أو ينهاكم كراهة أن تعبدوا، أو من أن تعبدوا، أو في أن تعبدوا لمثل هذا القذف مدة حياتكم **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** فإن الإيمان يقتضي عدم الوقوع في مثله ما متم، وفيه تهيب عظيم وتقريع بالغ **﴿ويبين الله لكم الآيات﴾** في الأمر والنهي لتعملوا بذلك، وتتأدبوا بأداب الله، وتتزجروا عن الوقوع في محارمه **﴿والله عليم﴾** بما تبون وتخفون **﴿حكيم﴾** في تدبيراته لخلقه. ثم هذ سبحانه القاذفين، ومن أراد أن يتسامع الناس بعيوب المؤمنين، ونزوبهم فقال: **﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا﴾** أي: يحبون أن تفشو الفاحشة وتنتشر، من قولهم: شاع الشيء يشيع شيوعاً، وشيعاً، وشيعاناً. إذا ظهر وانتشر، والمراد بالذين آمنوا المحصنون العفيفون، أو كل من اتصف بصفة الإيمان، والفاحشة هي: فاحشة الزنا، أو لقول السبي **﴿لهم عذاب اليم في الدنيا﴾** بإقامة الحد عليهم **﴿والآخرة﴾** بعذاب النار **﴿والله يعلم﴾** جميع المعلومات **﴿وانتم لا تعلمون﴾** إلا ما علمكم به وكشفه لكم، ومن جملة ما يعلمه الله عظم نذب القذف، وعقوبة فاعله **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾** هو: تكرير لما تقدم تنكيراً للمنة منه سبحانه على عباده بترك المعالجة لهم **﴿وان الله رءوف رحيم﴾** ومن رافته بعباده أن لا يعاجلهم بنزوبهم، ومن رحمته لهم أن يتقدم إليهم بمثل هذا الإعذار، والإنذار، وجملة: **﴿وان الله رءوف رحيم﴾** معطوفة على فضل الله، وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: لعاجلكم بالعقوبة **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾** الخطوات جمع خطوة، وهي: ما بين القدمين، والخطوة بالفتح المصغر أي: لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه، ولا تسلكوا طرائقه التي يدعوكم إليها. قرأ الجمهور (خطوات) بضم الخاء، والطاء، وقرأ عاصم، والأعمش بضم الخاء، وإسكان الطاء. **﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يامر بالفحشاء والمنكر﴾** قيل: جزاء الشرط محذوف أقيم مقامه ما هو علة له، كأنه قيل: فقد ارتكب

جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا **﴿فإذا لم يأتوا بالشهداء فاولئك﴾** أي: الخائضون في الإفك **﴿عند الله هم الكاذبون﴾** أي: في حكم الله تعالى هم الكاذبون الكاملون في الكذب **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾** هذا خطاب للسامعين، وفيه زجر عظيم **﴿ولولا﴾** هذه هي لامتناع الشيء لوجود غيره **﴿لمسكم فيما أفضتم فيه﴾** أي: بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، يقال أقاض في الحديث، واندفع وخاض. والمعنى: لولا أنني قضيت عليكم بالفضل في الدنيا بالنعم التي من جملتها الإسهال، والرحمة في الآخرة بالعفو، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك. وقيل: المعنى لولا فضل الله عليكم لمسكم العذاب في الدنيا والآخرة معاً، ولكن برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً **﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾** الظرف منصوب بـمسكم، أو بأقضتم، قرأ الجمهور: **﴿إذ تلقونه﴾** من التلقي، والأصل تتلقونه، فحذف إحدى التاءين. قال مقاتل، ومجاهد: المعنى يرويه بعضكم عن بعض. قال الكلبى: وذلك أن الرجل منهم يلقي الرجل فيقول: بلغني كذا، وكذا، ويتلقونه تلقياً. قال الزجاج: معناه يلقيه بعضكم إلى بعض. وقرأ محمد بن السميع بضم التاء، وسكون اللام، وضم القاف، من الإلقاء، ومعنى هذه القراءة واضح. وقرأ أبي، وابن مسعود (تتلقونه) من التلقي، وهي كقراءة الجمهور. وقرأ ابن عباس، وعائشة، وعيسى بن عمر، ويحيى بن يعمر، وزيد بن علي بفتح التاء، وكسر اللام، وضم القاف، وهذه القراءة مأخوذة من قول العرب، ولقي يلق ولقاءً إذا كذب. قال ابن سيده: جاءوا بالمتعدي شاهداً على غير المتعدي. قال ابن عطية: وعندي أنه أراد يلقون فيه، فحذف حرف الجر، فاتصل الضمير. قال الخليل، وأبو عمرو: أصل الولي الإسراع، يقال: جاءت الإبل تلق أي: تسرع، ومنه قول الشاعر:

لما رأوا جيشاً عليهم قد طرق
جاءوا بأسراب من الشام ولق

وقال الآخر:

جاءت به عيس من الشام تلق

قال أبو البقاء: أي: يسرعون فيه. قال ابن جرير: وهذه اللفظة أي: تلقونه على القراءة الأخيرة مأخوذة من الولي، وهو: الإسراع بالشيء بعد الشيء كعند في إثر عند، وكلام في إثر كلام. وقرأ زيد بن أسلم، وأبو جعفر (تألقونه) بفتح التاء، وهمزة سالكنة، ولام مكسورة، وقاف مضمومة من الألق، وهو: الكذب، وقرأ يعقوب (تيلقونه) بكسر التاء من فوق بعدها ياء تحتية سالكنة، ولام مفتوحة، وقاف مضمومة، وهو: مضارع ولق بكسر اللام، ومعنى: **﴿وتقولون﴾** باقواهم ما ليس لكم به علم **﴿أن قولهم هذا مختص بالافواه من غير أن يكون واقعاً في الخارج معتقداً في القلوب﴾** وقيل: إن نكر الافواه للتأكيد كما في قوله: **﴿يطير بجناحيه﴾** [الأنعام: 38]، ونحوه، والضمير في تحسبونه

عبد الله بن أبي، قال: فقال لي: فما كان جرمه؟ قلت: حدثني شيخان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول: كان مسيئاً في أمري. وقال يعقوب بن شيبه في مسنده: حدثنا الحسن بن علي الحلواني، حدثنا الشافعي، حدثنا عمي قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له: يا سليمان الذي تولى كبره من هو؟ قال: عبد الله بن أبي. قال: كذبت هو علي. قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، فدخل الزهري فقال: يا ابن شهاب من الذي تولى كبره؟ فقال: ابن أبي. قال: كذبت هو علي. قال: أنا أكذب؟ لا أبا لله، والله لو نادى منا من السماء أن الله قد أحل الكذب ما كذبت، حدثني عروة، وسعيد، وعبد الله، وعلقمة عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن مسروق قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبه وقال:

حصان رزن ما تزن بريبة وتصبح غرشي من لحوم الغوافل
قالت: لكنك لست كذلك، قلت: تدعين مثل هذا يدخل عليك،
وقد أنزل الله ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾
فقلت: وأي عذاب أشد من العمى؟ وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساکر عن بعض الأنصار: أن امرأة أبي أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب، اكننت أنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك، وأطيب، إنما هذا كذب وإفك باطل، فلما نزل القرآن نكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك. ثم قال: ﴿ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ أي: كما قال أبو أيوب، وصاحبت. وأخرج الواقدي، والحاكم، وابن عساکر عن أفلح مولى أبي أيوب: أن أم أيوب، فنكر نحوه. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾ قال: يحرّج الله عليكم. وأخرج البخاري في الأدب، والبيهقي في شعب الإيمان، عن علي بن أبي طالب قال: القائل الفاحشة، والذي شيع بها في الإثم سواء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿وما زكى منكم من أحد أبداً﴾ قال: ما اهتدى أحد من الخلاق لشيء من الخير.

أَوَّلَا يَأْتِي أَوَّلُ الْفَضْلِ وَنَكَرَ وَالسَّعَى أَنْ يُؤْتُوا أَوَّلُ الْقُرَى وَالسَّكِينِ
وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْمَلُوا بِرِصَصِهِمْ أَلَّا يُخْبَرُوا أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُصَافِيَةَ الْمُؤْمِنَاتِ لِيُؤْمِنُوا فِي
الْأَنبَاءِ وَالْآخِرَةِ وَلَمْ يَدْعُوا عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٩﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ يُرْوَاهُمْ اللَّهُ مِنْ يَمِينِهِمْ وَأَلْحَقَ وَمَلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
هُوَ أَلْحَقُ الْمُنَى ﴿٢٠﴾ لَقَدْ يَنْتَ لِلْحَبِيثِ وَالْحَبِيثِ لِلْحَبِيثِ وَالْحَبِيثِ وَالْحَبِيثِ

الفحشاء والمنكر لأن دأبه أن يستمرّ أمراً لغيره بهما، والفحشاء ما أفرط قبحه، والمنكر ما ينكره الشرع، وضمير إنه للشيطان، وقيل: للشان، والأولى أن يكون عائداً إلى من يتبع خطوات الشيطان، لأن من اتبع الشيطان صار مقتدياً به في الأمر بالفحشاء والمنكر ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ قد تقدّم بيانه، وجواب لولا هو قوله ﴿وما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي: لولا التفضيل، والرحمة من الله ما طهر أحد منكم نفسه من نفسها ما دام حياً. قرأ الجمهور (زكى) بالتخفيف، وقرأ الأعمش، وابن محيصن، وأبو جعفر بالتشديد أي: ما طهره الله. وقال مقاتل: أي: ما صلح. والأولى تفسير زكى بالتطهر والتطهير، وهو الذي نكره ابن قتبية. قال الكسائي: إن قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ معترض، وقوله ﴿وما زكى منكم من أحد أبداً﴾ جواب لقوله: أولاً، وثانياً، ولولا فضل الله. وقرأه التخفيف أرجح لقوله ﴿ولكن الله يزكى من يشاء﴾ أي: من عباده بالتفضل عليهم، والرحمة لهم ﴿والله سميع﴾ لما يقولونه ﴿عليهم﴾ بجميع المعلومات، وفيه حث بالغ على الإخلاص، وتهيج عظيم لعباده التائبين، ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان، ويحب أن تشيع الفاحشة في عباد الله المؤمنين، ولا يزر نفسه بزواج الله سبحانه.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم حديث عائشة الطويل في سبب نزول هذه الآيات بالفاظ متعددة، وطرق مختلفة. حاصله: أن سبب النزول هو: ما وقع من أهل الإفك الذين تقدّم ذكرهم في شأن عائشة رضي الله عنها، وذلك أنها خرجت من هوجها تلتمس عقداً لها انقطع من جزع، فرحلوا، وهم يظنون أنها في هوجها، فرجعت، وقد ارتحل الجيش، واليهود معهم، فاقامت في ذلك المكان، ومز بها صفوان بن المعطل، وكان متأخراً عن الجيش، فأتاها راحلته، وحملها عليها؛ فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا، فبرأها الله مما قالوه. هذا حاصل القصة مع طولها، وتشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأهل السنن الأربع، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ على المنبر فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حذم. قال الترمذي: هذا حديث حسن. ووقع عند أبي داود تسميتهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحممة بنت جحش. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: الذين افتروا على عائشة عبد الله بن أبي ابن سلول، ومسطح، وحسان، وحممة بنت جحش. وأخرج البخاري، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال: الذي تولى كبره منهم علي، فقلت لا، حدثني سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كلهم سمع عائشة تقول: الذي تولى كبره منهم

لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ الَّذِينَ يُبَدِّلُونَ مَا فِي بُطُونِهِمْ قَوْلًا هَرَجًا وَمَكْرًا
كَرِيمًا ﴿٥٨﴾

قوله ﴿ولا ياتل﴾ أي: يحلف، وزنه يفتعل من الآلية، وهي اليمين، ومنه قول الشاعر:
تألى ابن أوس حلفه ليرئني إلى نسوة كاتهن مفليد
وقول الآخر:

قليل الألباء حافظ ليمينه وإن بدرت منه الآلية برت
يقال: اثتلى ياتلي إذا حلف. ومنه قوله سبحانه: ﴿للمن
يؤلون من نسائهم﴾ [البقرة: 226] وقالت فرقة: هو: من ألوت
في كذا إذا قصر، ومنه لم آل جهداً: أي: لم أقصر، وكذا
منه قوله: ﴿لا يالونكم خبالاً﴾ [آل عمران: 118] ومنه قول
الشاعر:

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمسرك أطراف الخطوب ولا آل
والأول أولى ببليلى سبب النزول، وهو ما سيأتي، والمراد
بالفضل الغنى والسعة في المال ﴿أن يؤتوا أولى القربى
والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي: على أن لا
يؤتوا. قال الزجاج: أن لا يؤتوا فحذف لا، ومنه قول الشاعر:
فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لنيك وأوصالي
وقال أبو عبيدة: لا حاجة إلى إضمار لا، والمعنى: لا
يحلّفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان
الجامعين لتلك الأوصاف، وعلى الوجه الآخر يكون المعنى:
لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم شحنة
لنذب اقترفوه، وقرأ أبو حيوة (إن يؤتوا) بقاء الخطاب على
الالتفات، ثم علمهم سبحانه ألباً آخر، فقال: ﴿وليغفوا﴾ عن
ذنوبهم الذي أنذّبوه عليهم، وجانيبتهم التي اقترفوها، من عفا
الربع: أي: نرس، والمراد مجو الذنب حتى يغفو كما يغفو أثر
الربع ﴿وليصفحوا﴾ بالإغضاء عن الجاني، والإغماض عن
جانيته، وقرئ بالوقفية في الفعلين جميعاً. ثم نكر سبحانه
ترغيباً عظيماً لمن عفا وصفح، فقال ﴿الا تحبون أن يغفر
الله لكم﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة
عليكم ﴿والله غفور رحيم﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة
لعباده مع كثرة ذنوبهم، فكيف لا يقتدي العباد بربهم في
العفو والصفح عن المسيئين إليهم ﴿إن الذين يرمون
المحصنات﴾ قد مرّ تفسير المحصنات، وذكرنا الإجماع
على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من
النساء في حدّ القذف.

وقد اختلف في هذه الآية هل هي خاصة أو عامة؟ فقال
سعيد بن جببر: هي خاصة فيمن رمى عائشة رضي الله
عنها. وقال مقاتل: هي خاصة بعبدة الله بن أبي رأس
المنافقين. وقال الضحاك، والكلبي: هذه الآية هي في عائشة
وسائر أزواج النبي ﷺ، نون سائر المؤمنين والمؤمنات،
فمن قذف إحدى أزواج النبي ﷺ، فهو من أهل هذه الآية.
قال الضحاك: ومن أحكام هذه الآية: أنه لا توبة لمن رمى
إحدى أزواجه ﷺ، ومن قذف غيره فقد جعل الله له التوبة
كما تقدم في قوله: ﴿الا الذين تابوا﴾ [النور: 5]. وقيل: إن

هذه الآية خاصة بمن أصرّ على القذف ولم يتب، وقيل: إنها
تعم كل قائف ومقذوف من المحصنات والمحصنين،
واختاره النحاس، وهو: الموافق لما قرره أهل الأصول من
أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: إنها
خاصة بمشركي مكة، لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت
مهجرة: إنما خرجت لتفجر. قال أهل العلم: إن كان المراد
بهذه الآية المؤمنون من القنفة، فالمراد باللجنة الإبعاد،
وضرب الحدّ، وهجر سائر المؤمنين لهم، وزوالهم عن رتبة
العدالة، والبعد عن الثناء الحسن على السنة المؤمنين، وإن
كان المراد بها من قذف عائشة خاصة كانت هذه الأمور في
جنب عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وإن كانت في
مشركي مكة فإنهم ملعونون ﴿في الدنيا والآخرة ولهم
عذاب عظيم﴾، والمراد بالغافلات اللاتي غفلن عن الفاحشة
بحيث لا تخطر ببالهنّ، ولا يخطر لها، وفي ذلك من الدلالة
على كمال النزاهة وطهارة الجيب ما لم يكن في المحصنات،
وقيل: من السليمان الصدور النقيات القلوب ﴿يوم تشهد
عليهم السنن﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها مبيّنة لوقت
حلول ذلك العذاب بهم، وتعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه
من للعذاب الذي لا يحيط به وصف. وقرأ الجمهور (يوم
تشهد) بالوقفية، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وقرأ الأعمش،
ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف بالتحية،
واختار هذه القراءة أبو عبيد، لأن الجارّ والمجرور قد حال
بين الاسم والفعل، والمعنى: تشهد عليهم السنن في ذلك اليوم بما
في ذلك اليوم، وقيل: تشهد عليهم السنن في ذلك اليوم بما
تكلموا به ﴿وليبيهم وأرجلهم﴾ بما عملوا بها في الدنيا،
وإن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم، والمشهود محنوف،
وهو: ذنوبهم التي اقترفوها أي: تشهد هذه عليهم بذنوبهم
التي اقترفوها، ومعاصيهم التي عملوها ﴿يومئذ يوفيهم الله
بدينهم الحق﴾ أي: يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم
القبیحة يعطيهم الله جزاءهم عليها موفراً، فالمراد بالدين
ها هنا الجزاء، وبالحق الثابت الذي لا شك في ثبوته. قرأ
زيد بن علي (يوفيههم) مخففاً من أوفى، وقرأ من عاده
بالتشديد من وفى. وقرأ أبو حيوة، ومجاهد (الحق) بالرفع
على أنه نعت لله، وروي ذلك عن ابن مسعود. وقرأ الباقر
بالنصب على أنه نعت لبيّنهم. قال أبو عبيدة: ولولا كراهة
خلاف الناس لكان الوجه الرفع؛ ليكون نعتاً لله عزّ وجلّ،
ولتكون موافقة لقراءة أبي، وذلك أن جرير بن حازم قال:
رايت في مصحف أبي (يوفيههم الله الحق دينهم). قال
النحاس: وهذا الكلام من أبي عبيدة غير مرضي؛ لأنه احتج
بما هو مخالف للسواد الأعظم، ولا حجة أيضاً فيه؛ لأنه لو
صحّ أنه في مصحف أبي كذلك جاز أن يكون دينهم بدلاً من
الحق ﴿ويعلمون أن الله هو الحق للمبين﴾ أي: ويعلمون
عند معابنتهم لذلك، ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز:
إن الله هو: الحق الثابت في ذاته، وصفاته، وأفعاله، المبين
المظهر للأشياء كما هي في أنفسها، وإنما سمي سبحانه

في عائشة وأزواج النبي ﷺ، ولم يجعل لمن فعل ذلك توبة، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: 4 - 5]. وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «إنا كان يوم القيامة عَرَفَ الكافر بعمله فجحد وخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك، فيقول: كذبوا، فيقال: أهلك وعشيرتك، فيقول: كذبوا، فيقال: احلفوا، فيحلفون، ثم يصمتهم الله، وتشهد عليهم ألسنتهم، وأيديهم، ثم يدخلهم النار». وقد روي عن النبي ﷺ من طريق جماعة من الصحابة ما يتضمن شهادة الجوارح على العصاة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله سبحانه ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّهِمُ اللَّهُ بِهِنِّمْ الْحَقَّ﴾ قال: حسابهم، وكل شيء في القرآن الدين، فهو الحساب. وأخرج الطبراني، وابن مروي عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: أن النبي ﷺ قرأ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّهِمُ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ (ينهم). وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مروي، عن ابن عباس في قوله ﴿وَالْخَبِيثَاتُ﴾ قال: من الكلام ﴿وَالْخَبِيثَاتُ﴾ من الرجال ﴿وَالْخَبِيثَاتُ﴾ من الكلام ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ من الكلام ﴿وَالطَّيِّبِينَ﴾ من الناس ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ من الكلام، نزلت في الذين قالوا في زوجة النبي ﷺ ما قالوا من البهتان. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، والطبراني، عن قتادة نحوه أيضاً، وكذا روي عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن زيد في الآية قال: نزلت في عائشة حين رماها المنافقون بالبهتان، والفرية، فبرأها الله من ذلك، وكان عبد الله بن أبي هو: الخبيث، فكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة، ويكون لها، وكان رسول الله ﷺ طيباً، فكان أولى أن تكون له الطيبة، وكانت عائشة الطيبة، وكانت أولى بأن يكون لها الطيب، وفي قوله: ﴿أُولَئِكَ مِزْعُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ قال: هاهنا برئت عائشة. وأخرج ابن مروي عن عائشة قالت: لقد نزل عذري من السماء، ولقد خلقت طيبة، وعند طيب، ولقد وعدت مغفرة، وأجرأ عظيماً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا رَسُلُوا عَلَيْهَا إِلَيْكُمْ خَيْرَ لَكُمْ لِمَنْ تَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ أَرْجِعُوا فَأَرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَمْشُونَ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٧٩﴾

لما فرغ سبحانه من نكر الزجر عن الزنا والقذف شرع في نكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان لما في ذلك من مخالطة الرجال بالنساء، فربما يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين، وأيضاً إن الإنسان يكون في بيته، ومكان خلوته

الحق؛ لأن عيافته هي الحق نون عبادة غيره. وقيل: سمي بالحق أي: الموجود لأن نقيضه الباطل، وهو المعلوم. ثم ختم سبحانه الآيات الواردة في أهل الإفك بكلمة جامعة فقال ﴿وَالْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ أي: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال أي: مختصة بهم لا تتجاوزهم، وكذا الخبيثون مختصون بالخبيثات لا يتجاوزنهن، وهكذا قوله ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، وأكثر المفسرين: المعنى الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات، والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل. قال الزجاج: ومعناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء، ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء، وهذا ذم للذين قذفوا عائشة بالخبيث، ومدح للذين برءوها. وقيل: إن هذه الآية مبنية على قوله: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾ [النور: 3] فالخبيثات الزواني، والطيبات العفاف، وكذا الخبيثون، والطيبون، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ مِزْعُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إلى الطيبين، والطيبات أي: هم مبرءون مما يقول الخبيثون، والخبيثات، وقيل: الإشارة إلى أزواج النبي ﷺ، وقيل: إلى رسول الله ﷺ، وعائشة، وصفوان بن المعطل، وقيل: عائشة، وصفوان فقط. قال الفراء: وجمع كما قال: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: 11]، والمراد أخوان ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: هؤلاء المبرءون لهم مغفرة عظيمة لما لا يخلوا عنه البشر من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، وهو رزق الجنة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلْ﴾ الآية، يقول: لا يقسموا أن لا ينفعوا أحداً. وأخرج ابن المنذر، عن عائشة قالت: كان مسطح بن أثانة ممن تولى كبره من أهل الإفك، وكان قريباً لأبي بكر، وكان في عياله، فحلف أبو بكر: أن لا ينيله خيراً أبداً، فأنزل الله ﴿وَلَا يَقْتُلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الآية، قالت: فأعاده أبو بكر إلى عياله، وقال: لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها إلا تحللته، وأتيت الذي هو خير. وقد روي هذا من طرق عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، عن ابن عباس في الآية قال: كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقبیح واقشوا ذلك، وتكلموا فيها، فاقسم ناس من أصحاب النبي ﷺ منهم أبو بكر: أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من هذا، ولا يصلوه، فقال: لا يقسم أولوا الفضل منكم والسعة أن يصلوا أرحامهم، وأن يعطوهم من أموالهم كالذي كانوا يفعلون قبل ذلك، فأمر الله: أن يغفر لهم، وأن يعفى عنهم. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي عنه في قوله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية، قال: نزلت في عائشة خاصة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، وابن مروي عنه أيضاً في الآية قال: هذه

﴿هو أذكى لكم﴾ أي: أفضل ﴿واظهر﴾ من التبنس بالمشاحة على الدخول لما في ذلك من سلامة الصدر، والبعد من الريبة، والفرار من الدناءة ﴿والله بما تعملون عليم﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ أي: لا جناح عليكم في الدخول بغير استئذان إلى البيوت التي ليست بمسكونة.

وقد اختلف الناس في المراد بهذه البيوت، فقال محمد بن الحنفية، وقتادة، ومجاهد: هي الفنايق التي في الطرق السابلة الموضوعة لابن السبيل يأوي إليها. وقال ابن زيد، والشعبي: هي حوانيت القيساريات، قال الشعبي: لأنهم جاءوا ببيعهم، فجعلوها فيها، وقالوا: للناس هلم. وقال عطاء: المراد بها الخرب التي يدخلها الناس للبلول، والغائط، ففي هذا أيضاً متاع، وقيل: هي بيوت مكة. روي ذلك عن محمد ابن الحنفية أيضاً، وهو موافق لقول من قال: إن الناس شركاء فيها، ولكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بأنها غير مسكونة. والمتاع: المنفعة عند أهل اللغة، فيكون معنى الآية: فيها منفعة لكم، ومنه قوله: ﴿ومتعوهم﴾ [البقرة: 236] وقولهم: أمتع الله بك، وقد فسر الشعبي المتاع في كلامه المتقّم بالاعيان التي تباع. قال جابر بن زيد: وليس المراد بالمتاع الجهاز، ولكن ما سواه من الحاجة. قال النحاس: وهو حسن موافق للغة ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ أي: ما تظهرون وما تخفون، وفيه وعيد لمن لم يتأب بأداب الله في دخول بيوت الغير.

وقد أخرج الفريابي، وابن جرير من طريق عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال: قالت امرأة: يا رسول الله إني أكون في بيتي على الحالة التي لا أحب أن يراني عليها أحد، ولد ولا والد، فيأتيني الأب فيدخل علي، فكيف أصنع؟ ولفظ ابن جرير: وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي، وأنا على تلك الحالة، فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم﴾ الآية. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، وابن منده في غرائب شعبة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والضياء في المختارة من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿حتى تستأنسوا﴾ قال: أخطأ الكاتب حتى تستأننوا ﴿وتسلموا على أهلها﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، عن إبراهيم النخعي قال في مصحف عبد الله (حتى تسلموا على أهلها وتستأننوا). وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: الاستئناس: الاستئذان. وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي، والطبراني، وابن مردويه، وابن أبي حاتم، عن أبي أيوب قال: قلت: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى ﴿حتى تستأنسوا

على حالة قد لا يحب أن يراه عليها غيره، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير إلى غاية، هي قوله ﴿حتى تستأنسوا﴾، والاستئناس: الاستعلام، والاستخبار أي: حتى تستعلموا من في البيت، والمعنى: حتى تعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم، وتعلموا أنه قد أنن بدخولكم، فإذا علمتم ذلك دخلتم، ومنه قوله: ﴿فإن أنستم منهم رشداً﴾ [النساء: 6] أي: علمتم. قال الخليل: الاستئناس الاستكشاف، من أنس الشيء إذا أبصره كقوله: ﴿إني أنست ناراً﴾ [طه: 10، النمل: 7] أي: أبصرت. وقال ابن جرير: إنه بمعنى وتؤنسوا أنفسكم. قال ابن عطية: وتصريف الفعل يأبى أن يكون من أنس. ومعنى كلام ابن جرير هذا: أنه من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش، لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤمن له أم لا؟ فهو كالمستوحش حتى يؤئن له، فإذا أنن له استأنس، فنهى سبحانه عن دخول تلك البيوت حتى يؤئن للداخل. وقيل: هو من الإنس، وهو: أن يتعرف هل ثم إنسان أم لا؟ وقيل: معنى الاستئناس: الاستئذان أي: لا تدخلوها حتى تستأننوا. قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: حتى تستأننوا، ويؤيده ما حكاه القرطبي عن ابن عباس، وأبي، وسعيد بن جبير: أنهم قرءوا (حتى تستأننوا). قال مالك فيما حكاه عنه ابن وهب: الاستئناس فيما يرى، والله أعلم الاستئذان، وقوله ﴿وتسلموا على أهلها﴾ قد بينه النبي ﷺ كما سيأتي بأن يقول: «السلام عليكم النخل؟» مرة، أو ثلاثاً كما سيأتي.

واختلفوا هل يقدم الاستئذان على السلام، أو العكس، فقيل: يقدم الاستئذان، فيقول: أدخل سلام عليكم، لتقديم الاستئناس في الآية على السلام. وقال الكثيرون: إنه يقدم السلام على الاستئذان فيقول: السلام عليكم النخل، وهو الحق، لأن البيان منه ﷺ للآية كان هكذا. وقيل: إن وقع بصره على إنسان قنم السلام، وألّ قنم الاستئذان ﴿لنكم خير لكم﴾ الإشارة إلى الاستئناس، والتسليم أي: دخولكم مع الاستئذان، والسلام خير لكم من الدخول بغتة ﴿لعلكم تذكرون﴾ أن الاستئذان خير لكم، وهذه الجملة متعلقة بمقتر أي: أمرتم بالاستئذان، والمراد بالذكر الاتعاظ، والعمل بما أمروا به ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤئن لكم﴾ أي: إن لم تجدوا في البيوت التي لغيركم أحداً ممن يستأنن عليه فلا تدخلوها حتى يؤئن لكم بدخولها من جهة من يملك الإنن. وحكى ابن جرير عن مجاهد أنه قال: معنى الآية فإن لم تجدوا فيها أحداً أي: لم يكن لكم فيها متاع، وضعفه، وهو حقيق بالضعف، فإن المراد بالأحد المنكور أهل البيوت الذين يأننون للغير بدخولها، لا متاع الداخلين إليها ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾ أي: إن قال لكم أهل البيت: ارجعوا، فارجعوا، ولا تعاونوهم بالاستئذان مرة أخرى، ولا تنتظروا بعد ذلك أن يأننوا لكم بعد أمرهم لكم بالرجوع. ثم بين سبحانه: أن الرجوع أفضل من الإلحاح، وتكرار الاستئذان، والعود على الباب فقال:

الخطاب على طريق التأكيد لدخولهن تحت خطاب المؤمنين تغليباً كما في سائر الخطابات القرآنية، وظهر التضعيف في يفضضن، ولم يظهر في يفضوا، لأن لام الفعل من الأول متحركة، ومن الثاني ساكنة، وهما في موضع جزم جواباً للأمر، وبدأ سبحانه بالغض في الموضعين قبل حفظ الفرج، لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج، والوسيلة مقدمة على المتوسل إليه، ومعنى: يفضضن من أبصارهن كمعنى: يفضوا من أبصارهم، فيستدل به على تحريم نظر النساء إلى ما يحرم عليهن، وكذلك يجب عليهن حفظ فروجهن على الوجه الذي تقدم في حفظ الرجال لفروجهم ﴿وَلَا يَبِينِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: ما يترتب به من الحلية، وغيرها، وفي النهي عن إبداء الزينة نهى عن إبداء مواضعها من أبدانهن بالاولى. ثم استثنى سبحانه من هذا النهي، فقال ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

اختلف الناس في ظاهر الزينة ما هو؟ فقال ابن مسعود، وسعيد بن جبير: ظاهر الزينة هو الثياب، وزاد سعيد بن جبير: الوجه. وقال عطاء، والأوزاعي: الوجه والكفان. وقال ابن عباس، وقتادة، والمسور بن مخرمة: ظاهر الزينة هو: الكحل، والسواك، والخضاب إلى نصف الساق، ونحو ذلك، فإنه يجوز للمرأة أن تبديه. وقال ابن عطية: إن المرأة لا تبدي شيئاً من الزينة، وتخفي كل شيء من زينتها، ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة. ولا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآني النهي عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها كالجلباب، والخمار، ونحوهما مما على الكف، والقدمين من الحلية، ونحوها، وإن كان المراد بالزينة مواضعها كان الاستثناء راجعاً إلى ما يشق على المرأة ستره كالكفين والقدمين، ونحو ذلك. وهكذا إذا كان النهي عن إظهار الزينة يستلزم النهي عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب، فإنه يحمل الاستثناء على ما ذكرناه في الموضعين؛ وأما إذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة، وما تترتب به النساء فالأمر واضح، والاستثناء يكون من الجميع. قال القرطبي في تفسيره: الزينة على قسمين: خلقية، ومكتسبة؛ فالخلقية: وجهها فإنه أصل الزينة، والزينة المكتسبة ما تحاوله المرأة في تحسين خلقها كالثياب، والحلي، والكحل، والخضاب، ومنه قوله تعالى ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: 31] وقول الشاعر:

ياخذن زينتهن أحسن ما ترى وإذا عطلن فهن خير عواطل
﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ قرأ الجمهور بإسكان اللام التي للأمر. وقرأ أبو عمرو بكسرها على الأصل؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس. والخمر جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، ومنه اختمرت المرأة، وتخمرت. والجيوب: جمع جيب، وهو: موضع القطع من الدرع، والقميص، مأخوذ من الجوب، وهو: القطع. قال المفسرون: إن نساء الجاهلية كنَّ يسلمن خمرهن من خلفهن، وكانت جيوبهن من قدام واسعة، فكان

تنكشف نحورهن، وقلائدهن، فأمرو: أن يضربن مقانعهن على الجيوب لتستر بذلك ما كان يبدي، وفي لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء الذي هو: الإصااق. قرأ الجمهور (بخمرهن) بتحريك الميم، وقرأ طلحة بن مصرف بسكونها. وقرأ الجمهور (جيوبهن) بضم الجيم، وقرأ ابن كثير، وبعض الكوفيين بكسرها، وكثير من متقدمي النحويين لا يجوزون هذه القراءة. وقال الزجاج: يجوز: أن يبدل من الضمة كسرة، فاما ما روي عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فمحال لا يقدر لحد أن ينطق به إلا على الإيماء، وقد فسر الجمهور الجيوب بما قدمنا، وهو: المعنى الحقيقي، وقال مقاتل: إن معنى على جيوبهن: على صدورهن، فيكون في الآية مضاف محنوف أي: على مواضع جيوبهن، ثم كرر سبحانه النهي عن إبداء الزينة لأجل ما سينكره من الاستثناء، فقال ﴿وَلَا يَبِينِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتَهُنَّ﴾ البعل هو: الزوج، والسيد في كلام العرب، وقدم البعولة لأنهم المقصولون بالزينة، ولأن كل بدن الزوجة والسرية حلال لهم، ومثله قوله سبحانه: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين [المؤمنون: 5 - 6]، ثم لما استثنى سبحانه الزوج أتبعه باستثناء ذوي المحارم، فقال ﴿وَلَا أَبَائَهُنَّ وَلَا أَبَاءَهُنَّ﴾ إلى قوله ﴿وَأَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ فجوز للنساء أن يبينن الزينة لهؤلاء لكثرة المخالطة، وعدم خشية الفتنة لما في الطباع من النفرة عن القرائب. وقد روي عن الحسن والحسين رضي الله عنهما: أنهما كانا لا ينظران إلى أمهات المؤمنين ذهاباً منهما إلى أن أبناء البعولة لم ينكروا في الآية التي في أزواج النبي ﷺ وهي قوله: ﴿لَا جناح عليهن في آبائهن﴾، [الأحزاب: 55] والمراد بأبناء بعولتهن نكود أولاد الأزواج، ويدخل في قوله ﴿وَأَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ أولاد الأولاد، وإن سفلوا، وأولاد بناتهن، وإن سفلوا، وكذا آباء البعولة، وآباء الآباء، وآباء الأمهات، وإن علوا، وكذلك أبناء البعولة، وإن سفلوا، وكذلك أبناء الإخوة، والأخوات. وذهب الجمهور إلى أن العم والخال كسائر المحارم في جواز النظر إلى ما يجوز لهم، وليس في الآية ذكر الرضاع، وهو كالنسب. وقال الشعبي، وعكرمة: ليس العم والخال من المحارم، ومعنى ﴿وَأَوْ نَسَائِهِنَّ﴾ هن: المختصات بهن الملابس لهن بالخيمة، أو الصلبة، وينخل في تلك الإماء، ويخرج من تلك نساء الكفار من أهل الذمة، وغيرهم، فلا يحل لهن أن يبينن زينتهن لهن لأنهن لا يتحرجن عن وصفهن للرجال. وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم، وإضافة النساء إليهن تدل على اختصاص تلك بالمؤمنات ﴿وَأَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيد، والإماء من غير فرق بين أن يكونوا مسلمين أو كافرين، وبه قال جماعة من أهل العلم، وإليه ذهب عائشة، وأم سلمة، وابن عباس، ومالك، وقال سعيد بن المسيب: لا تفرنكم هذه الآية ﴿وَأَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ إنما عني بها الإماء، ولم يعن بها العبيد. وكان الشعبي يكره أن ينظر

يسمعه من الرجال، فيعلمون أنها ذات خلخال. قال الزجاج: وسماع هذه الزينة أشد تحريكاً للشهوة من إبدائها. ثم أرشد عباده إلى التوبة عن المعاصي، فقال سبحانه ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه الأمر بالتوبة، ولا خلاف بين المسلمين في وجوبها، وأنها فرض من فرائض الدين، وقد تقدم الكلام على التوبة في سورة النساء. ثم ذكر ما يرغبهم في التوبة، فقال ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي: تفوزون بسعادة الدنيا، والآخرة، وقيل: إن المراد بالتوبة هنا هي عما كانوا يعملونه في الجاهلية، والأول أولى لما تقرر في السنة أن الإسلام يجب ما قبله.

وقد أخرج ابن مريويه عن علي بن أبي طالب قال: «مر رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة، ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان: أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط، وهو ينظر إليها، إذ استقبله الحائط، فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدم حتىأتي رسول الله ﷺ، هذا عقوبة ننبك، وأنزل الله ﷻ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ قال: يعني من شهواتهم مما يكره الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، والبيهقي في سننه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتبع النظرة النظرة، فإن الأولى لك وليست لك الآخرة». وفي مسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، عن جرير البجلي قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري»، وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيكم والجلوس على الطرقات، قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها، فقال: إن أبيتم فاعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حقه يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر». وأخرج البخاري، وأهل السنن، وغيرهم عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: «قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها، وما نذر؟ قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك، قلت: يا نبي الله إذا كان القوم بعضهم في بعض، قال: إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينها، قلت: إذا كان أحداً خالياً، قال: فإله حق أن يستحيا منه من الناس». وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأنين السماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطو، والنفس تتمنى، والفرج يصنق ذلك أو يكذب». وأخرج الحاكم وصححه عن حنيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيماناً يجد حلالته في قلبه»، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

المملوك إلى شعر مولاته، وهو قول عطاء، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وروي عن ابن مسعود، وبه قال أبو حنيفة، وابن جريج ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ قرأ الجمهور (غير) بالجر. وقرأ أبو بكر، وابن عامر بالنصب على الاستثناء، وقيل: على القطع، والمراد بالتابعين: هم الذين يتبعون القوم فيصيبون من طعامهم لا همة لهم إلا ذلك، ولا حاجة لهم في النساء، قاله مجاهد، وعكرمة، والشعبي، ومن الرجال في محل نصب على الحال. وأصل الإربة، والإرب، والمأربة: الحاجة، والجمع: مأرب: أي: حوائج، ومنه قوله سبحانه: ﴿أُولِي فِيهَا مَأْرَبٍ أُخْرَى﴾ [طه: 18] ومنه قول طرفة:

إذا المرء قال الجهل والحب والخفا تقدم يوماً ثم ضاعت مأربه
وقيل: المراد بغير أولي الأربة من الرجال الحمقى الذين لا حاجة لهم في النساء، وقيل: للبلة، وقيل: العنين، وقيل: الخصي، وقيل: المخنث، وقيل: الشيخ الكبير، ولا وجه لهذا التخصيص، بل المراد بالآية ظاهرها، وهم: من يتبع أهل البيت، ولا حاجة له في النساء، ولا يحصل منه ذلك في حال من الأحوال، فيدخل من هؤلاء من هو بهذه الصفة ويخرج من عدها ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ الطفل يطلق على المفرد، والمثنى، والمجموع، أو المراد به هنا الجنس الموضوع موضع الجمع بدلالة وصفه بوصف الجمع، وفي مصحف أبي (أو الأطفال) على الجمع، يقال للإنسان طفلاً: ما لم يراهق الحلم، ومعنى ﴿لَمْ يَظْهَرُوا﴾: لم يطلعوا، من الظهور بمعنى الاطلاع، قاله ابن قتيبة. وقيل معناه: لم يبلغوا حد الشهوة، قاله الفراء والزجاج، يقال: ظهرت على كذا: إذا غلبته، وقهرته. والمعنى: لم يطلعوا على عورات النساء ويكشفوا عنها للجماع، أو لم يبلغوا حد الشهوة للجماع. قراءة الجمهور (عورات) بسكون الواو تخفيفاً، وهي لغة جمهور العرب. وقرأ ابن عامر في رواية بفتحها. وقرأ بذلك ابن أبي إسحاق، والأعمش. ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، وهي لغة هذيل بن مدركة، ومنه قول الشاعر الذي أنشده الفراء:

أخرب ببيضات رائح متأوب رفيق لمسح المنكبين سبور
واختلف العلماء في وجوب ستر ما عدا الوجه والكفين من الأطفال، فقيل: لا يلزم لأنه لا تكليف عليه، وهو الصحيح؛ وقيل: يلزم لأنها قد تشتبه المرأة. وهكذا اختلف في عورة الشيخ الكبير الذي قد سقطت شهوته، والأولى بقاء الحرمة كما كانت، فلا يحل النظر إلى عورته، ولا يحل له أن يكشفها.

وقد اختلف العلماء في حد العورة، قال القرطبي: أجمع المسلمون على أن السوءتين عورة من الرجل، والمرأة، وأن المرأة كلها عورة إلا وجهها، ويديها على خلاف في ذلك. وقال الأكثر: إن عورة الرجل من سرتة إلى ركبته ﴿وَلَا يَضْرِبُ بَارِجِلَهُنَّ لِيعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت لئلا يسمع صوت خلخالها من

قال ﴿وَلَا يَبِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبَعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ الآية، والزينة التي تبديها لهؤلاء قرطها، وقلائتها، وسوارها، فأما خلخالها، ومعصدها، ونحرها، وشعرها، فإنها لا تبديه إلا لزوجها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﴿أَوْ نَسَائِهِنَّ﴾ قال: هن: المسلمات لا تبديه اليهودية ولا نصرانية، وهو النحر، والقرط، والوشاح، وما يحرم أن يراه إلا محرم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن عمر بن الخطاب: أنه كتب إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فإنه من قبلك عن ذلك، فإنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: لا بأس أن يرى العبد شعر سيده. وأخرج أبو داود، وابن مريويه، والبيهقي عن أنس: «أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبء قد وهب لها، وعلى فاطمة ثوب إذا قنع به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك»، وإسناده في سنن أبي داود هكذا، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار، عن ثابت، عن أنس فنكره. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحدائكم مكاتب، وكان له ما يؤدي، فلتحتجب منه»، وإسناده أحمد هكذا: حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن نيهان: أن أم سلمة، فنكره. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ قال: هذا الذي لا تستحي منه النساء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في الآية قال: هذا الرجل يتبع القوم، وهو مغفل في عقله، لا يكثر للنساء، ولا يشتبه النساء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في الآية قال: كان الرجل يتبع الرجل في الزمان الأول لا يغار عليه، ولا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده، وهو الأحق الذي لا حاجة له في النساء. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: هو المخنث الذي لا يقوم زيه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي، عن عائشة قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، فكانوا يدعون من غير أولي الإربة، «فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نساء»، وهو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بآربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، قال النبي ﷺ: ألا أرى هذا يعرف ما ها هنا لا يدخلن عليكم، فحجبوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَا يَضُرُّنَّ بَارِجِلَهُنَّ﴾ وهو: أن تقرر الخلخال بالآخر عند الرجال، أو يكون في رجلها

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلغنا، والله أعلم: أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت يزيد كانت في نخل لها لبني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزوات فيبسو ما في أرجلهن، يعني: الخلخال، وتبدو صدورهن ونواثيهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا، فانزل الله ذلك ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ بُصَاهِرَهُنَّ﴾ الآية، وفيه مع كونه مرسلًا مقاتل. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن مسعود في قوله ﴿وَلَا يَبِينُ زِينَتَهُنَّ﴾ قال: الزينة السوار، والدمالج، والخلخال، والقرط، والقلادة، ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الثياب والجلباب. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه قال: الزينة زينتان زينة ظاهرة، وزينة باطنة لا يراها إلا الزوج، فاما الزينة الظاهرة، فالثياب، وأما الزينة الباطنة، فالكحل، والسوار، والخاتم. ولفظ ابن جرير: فالظاهرة منها الثياب، وما خفي الخلخالان، والقرطان، والسواران. وأخرج ابن المنذر عن أنس في قوله ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكحل والخاتم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس ﴿وَلَا يَبِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكحل، والخاتم، والقرط، والقلادة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عنه قال: هو خضاب الكف، والخاتم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن ابن عمر قال: الزينة الظاهرة الوجه والكفان. وأخرج ابن عباس قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وجهها، وكفها، والخاتم، وأخرج أيضاً عنه قال: رقعة الوجه وباطن الكف. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن عائشة: أنها سئلت عن الزينة الظاهرة قالت: القلب، والفتخ، وضمت طرف كمها. وأخرج أبو داود، وابن مريويه، والبيهقي عن عائشة: «أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا، وأشار إلى وجهه وكفه». قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي، هذا مرسل لأنه من طريق خالد بن دريك عن عائشة، ولم يسمع منها. وأخرج البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن عائشة: قالت: رحم الله نساء المهاجرات الأولات لما أنزل الله ﴿وَلِيُضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن أكثف مروطهن، فاختمن به. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مريويه عنها بلفظ: أخذ النساء أزهرن، فشققنها من قبل الخواشي، فاختمن بها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَبِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، والزينة الظاهرة الوجه، وكحل العينين، وخضاب الكف، والخاتم، فهذا تظهره في بيتها لمن دخل عليها، ثم

خلاخل فتحركهن عند الرجال، فنهى الله عن ذلك، لأنه من عمل الشيطان.

وَأَنكِحُوا الْأَيَّتِمَّ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِنَّا مَلَكَتْ أَيْتَانِكُمْ فَمَا يُكْرِهُنَّ فَإِنَّ إِلَهُنَّ فِيهِمْ مَعْرُوفٌ وَمَالُ اللَّهِ أَلَدَىٰ أَيْتَانِكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا قَبِيحَتِكُمْ عَلَى الْإِثْمِ إِن أَرَدْنَ نَحْصًا لِّبَنَاتِهِنَّ عَرَضَ الْحَيَرُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ أَرْكَهِنَّ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ لِمَنْ كَانَ مِنْكُمْ قَلْبٌ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

لما أمر سبحانه بغض الأَبصار، وحفظ الفروج أرشد بعد ذلك إلى ما يحل للمعباد من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة، وسكون دواعي الزنا، ويسهل بعده غض البصر عن المحرمات، وحفظ الفرج عما لا يحل، فقال ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّامَىٰ مِنْكُمْ﴾ الأيم التي لا زوج لها بكرة كانت أو ثيباً، والجمع أياامى، والأصل أيايم، والأيم بتشديد الياء، ويشمل الرجل والمرأة. قال أبو عمرو، والكسائي: اتفق أهل اللغة على أن الأيم في الأصل هي: المرأة التي لا زوج لها بكرة كانت أو ثيباً. قال أبو عبيد: يقال رجل أيم، وامرأة أيم، وأكثر ما يكون في النساء، وهو كالمستعار في الرجال، ومنه قول أمية ابن أبي الصلت:

لله زبني علي أيم منهم وناكح

ومنه أيضاً قول الآخر:

لقد امت حتى لامني كل صاحب رجاء سليمي أن تلهم كما امت والخطاب في الآية للؤلؤاء، وقيل: للأنزاج، والأول أرجح، وفيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها، وقد خالف في ذلك أبو حنيفة.

واختلف أهل العلم في النكاح هل مباح، أو مستحب، أو واجب؛ فذهب إلى الأول الشافعي، وغيره، وإلى الثاني مالك، وأبو حنيفة، وإلى الثالث بعض أهل العلم على تفصيل لهم في ذلك، فقالوا: إن خشي على نفسه الوقوع في المعصية وجب عليه، وإلا فلا. والظاهر أن القائلين بالإباحة والاستحباب لا يخالفون في الوجوب مع تلك الخشية، وبالجملة، فهو مع علمها سنة من السنن المؤكدة لقوله ﷺ في الحديث الصحيح بعد ترغيبه في النكاح: «ومن رغب عن سنتي فليس مني». ولكن مع القدرة عليه، وعلى مؤنه كما سيأتي قريباً، والمراد بالأياامى هنا الأحرار، والأحرار، وأما المماليك فقد بين ذلك بقوله ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ قرأ الجمهور (عبادكم)، وقرأ الحسن (عبيدكم). قال الفراء: ويجوز (وإماءكم) بالنصب برده على الصالحين، والصالح هو الإيمان. ونكر سبحانه الصلاح في المماليك دون الأحرار لأن الغالب في الأحرار الصلاح بخلاف المماليك، وفيه دليل على أن المملوك لا يزوج نفسه، وإنما يزوجه ماله. وقد ذهب الجمهور إلى أنه يجوز للسيد أن

يكره عبده وأمه على النكاح. وقال مالك: لا يجوز. ثم رجع سبحانه إلى الكلام في الأحرار، فقال ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل والمرأة، أو أحدهما، فإنهم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله سبحانه، ويتفضل عليهم بذلك. قال الزجاج: حث الله على النكاح، وأعلم أنه سبب لنفي الفقر، ولا يلزم أن يكون هذا حاصلاً لكل فقير إذا تزوج، فإن ذلك مقيد بالمشيئة. وقد يوجد في الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوجوا. وقيل: المعنى إنه يغنيه بغنى النفس، وقيل: المعنى إن يكونوا فقراء إلى النكاح يغنيهم الله من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا. والوجه الأول أولى، ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا خَفَتم عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ [التوبة: 28]، فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك، وجملة ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ مؤكدة لما قبلها، ومقررة لها، والمراد: أنه سبحانه ذو سعة لا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده عليم بمصالح خلقه، يغني من يشاء، ويفقر من يشاء. ثم نكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح بعد بيان جواز مناكحتهم إرشاداً لهم إلى ما هو الأولى، فقال ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ لِيَجِدُوا نِكَاحًا﴾ استعفف طلب أن يكون عفيفاً أي: ليطلب العفة عن الزنا والحرام من لا يجد نكاحاً أي: سبب نكاح، وهو المال. وقيل: النكاح هنا ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة كاللحاف اسم لما يلتحف به، واللباس اسم لما يلبس، وقيد سبحانه هذا النهي بتلك الغاية، وهي ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يرزقهم رزقاً يستغنون به، ويتمكنون بسببه من النكاح، وفي هذه الآية ما يدل على تقييد الجملة الأولى. وهي: أن يكونوا فقراء يغنيهم الله بالمشيئة كما نكرنا، فإنه لو كان وعداً حتماً لا محالة في حصوله لكان الغنى والزواج متلازمين، وحينئذ لا يكون للأمر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة، فإنه سيغنى عند تزوجه لا محالة، فيكون في تزوجه مع فقره تحصيل للغنى، إلا أن يقال: إن هذا الأمر بالاستعفاف للعاجز عن تحصيل مبادئ النكاح، ولا ينافي ذلك وقوع الغنى له من بعد أن ينكح، فإنه قد صدق عليه أنه لم يجد نكاحاً إذا كان غير واجد لأسبابه التي يتحصل بها، وأعظمها المال. ثم لما رغب سبحانه في تزويج الصالحين من العبيد والإماء، أرشد المالكين إلى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار، فقال ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الموصول في محل رفع على الابتداء، ويجوز أن يكون في محل نصب على إضمار فعل يفسره ما بعده أي: وكتبوا الذين يبتغون الكتاب، والكتاب مصدر كاتب كالمكاتبة، يقال: كاتب، يكتب، كتاباً، ومكاتبة، كما يقال: قاتل، يقتل، قتلاً، ومقاتلة. وقيل: الكتاب ها هنا اسم عين للكتاب الذي يكتب فيه الشيء، وذلك لأنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه، وعلى أنفسهم بذلك كتاباً، فيكون المعنى الذين يطلبون كتاب المكاتب. ومعنى المكاتب في الشرع: أن يكتب الرجل

عبدته على مال يؤديه منجماً، فإذا أداه فهو حرّ، وظاهر قوله **﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾**: أن العبد إذا طلب الكتابة من سيده وجب عليه أن يكتبه بالشرط المذكور بعده، وهو **﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾**، والخير هو: القدرة على أداء ما كُتِبَ عليه، وإن لم يكن له مال، وقيل: هو المال فقط، كما ذهب إليه مجاهد، والحسن، وعطاء، والضحاك، وطاوس، ومقاتل، وذهب إلى الأول ابن عمر، وابن زيد، واختاره مالك، والشافعي، والفرّاء، والزجاج. قال الفرّاء: يقول إن رجوتهم عندهم وفاء وثانية للمال. وقال الزجاج: لما قال «فيهم» كان الأظهر الاكتساب، والوفاء، وإداء الأمانة، وقال النخعي: إن الخير الدين والأمانة. وروي مثل هذا عن الحسن، وقال عبيدة السلماني: إقامة الصلاة. قال الطحاوي: وقول من قال: إنه المال لا يصح عندها، لأن العبد مال لمولاه، فكيف يكون له مال؟ قال: والمعنى عندها: إن علمتم فيهم الدين والصنق. قال أبو عمر بن عبد البر: من لم يقل إن الخير هنا المال أنكر أن يقال: إن علمتم فيهم مالاً، وإنما يقال: علمت فيه الخير، والصلاح، والأمانة، ولا يقال: علمت فيه المال. هذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم في الخير المذكور في هذه الآية. وإذا تقرّر لك هذا، فاعلم: أنه قد ذهب ظاهر ما يقتضيه الأمر المذكور في الآية من الوجوب. عكرمة، وعطاء، ومسروق، وعمرو بن دينار، والضحاك، وأهل الظاهر، فقالوا: يجب على السيد أن يكتب مملوكه إذا طلب منه ذلك، وعلم فيه خيراً. وقال الجمهور من أهل العلم: لا يجب ذلك، وتمسكوا بالإجماع على أنه لو سأل العبد سيده، أن يبيعه من غيره لم يجب عليه ذلك، ولم يجبر عليه، فكذا الكتابة لأنها معاوضة.

ولا يخفك أن هذه حجة واهية، وشبهة داحضة، والحق ما قاله الأولون، وبه قال عمر بن الخطاب، وابن عباس واختاره ابن جرير. ثم أمر سبحانه الموالى بالإحسان إلى المكاتبين، فقال **﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾** ففي هذه الآية: الأمر للمالكين بإعانة المكاتبين على مال الكتابة، إما بأن يعطوهم شيئاً من المال، أو بأن يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه، وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار، وقيل: الثلث، وقيل: الربع، وقيل: العشر، ولعل وجه تخصيص الموالى بهذا الأمر هو كون الكلام فيهم، وسياق الكلام معهم فإنهم المأمورون بالكتابة. وقال الحسن، والنخعي، وبريدة: إن الخطاب بقوله: **﴿وَأَتَوْهُمْ لَجَمِيعِ النَّاسِ﴾**، وقال زيد بن أسلم: إن الخطاب للمولاة؛ بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم كما في قوله سبحانه: **﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾** [البقرة: 177، التوبة: 60]، وللمكاتب أحكام معروفة إذا وفى ببعض مال الكتابة. ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالى إلى نكاح الصالحين من المماليك، نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمتهن على الزنا، فقال **﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾** والمراد بالفتيات هنا الإماء، وإن كان الفتى والفتاة قد يطلقان على الأحرار في مواضع آخر. والبغاء: الزنا،

مصدر بغت المرأة تبغي بغاء إذا زنت، وهذا مختص بزنا النساء، فلا يقال للرجل إذا زنا: إنه بغى، وشرط الله سبحانه هذا النهي بقوله **﴿إِنْ أُرِدْنَ تَحَصُّناً﴾**؛ لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادتهم للتحصن، فإن من لم ترد التحصن لا يصح أن يقال لها: مكرهة على الزنا، والمراد بالتحصن هنا: التعفف، والتزوج. وقيل: إن هذا القيد راجع إلى الأيامي. قال الزجاج، والحسن بن الفضل: في الكلام تقديم وتأخير أي: وأنكحوا الأيامي، والصالحين من عبيانكم، وإمائكم إن أردن تحصناً. وقيل: هذا الشرط ملغى. وقيل: إن هذا الشرط باعتبار ما كانوا عليه، فإنهم كانوا يكرهونهن، وهن يرين التعفف، وليس لتخصص النهي بصورة إرادتهن التعفف. وقيل: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب؛ لأن الغالب: أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن، وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه، فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال، ولا للحرام كما فيمن لا رغبة لها في النكاح، والصغيرة، فتوصف بأنها مكرهة على الزنا مع عدم إرادتها للتحصن، فلا يتم ما قيل: من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن، إلا أن يقال: إن المراد بالتحصن هنا مجزئ التعفف، وأنه لا يصدق على من كانت تريد الزواج أنها مريدة للتحصن، وهو بعيد، فقد قال الحبر ابن عباس: إن المراد بالتحصن التعفف، والتزوج، وتابعه على ذلك غيره، ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله: **﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**، وهو: ما تكسبه الأمة بفرجها، وهذا التعليل أيضاً خارج مخرج الغالب، والمعنى: أن هذا العرض هو الذي كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء في الغالب، لأن إكراه الرجل لأمته على البغاء لا لفائدة له أصلاً لا يصدر مثله عن العقلاء، فلا يدل هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها، إذا لم يكن مبتغياً بإكراهها عرض الحياة الدنيا. وقيل: إن هذا التعليل للإكراه هو باعتبار أن عانتهم كانت كذلك، لا أنه مدار للنهي عن الإكراه لهن، وهذا يلاقي المعنى الأول، ولا يخالفه. **﴿وَمَنْ يَكْرَهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** هذا مقرر لما قبله، ومؤكّد له، والمعنى: أن عقوبة الإكراه راجعة إلى المكرهين لا إلى المكرهات، كما تدلّ عليه قراءة ابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وسعيد بن جبير: (فإن الله غفور رحيم لهن). قيل: وفي هذا التفسير بعد، لأن المكرهة على الزنا غير آثمة. واجيب: بأنهن، وإن كانت مكرهة، فربما لا تخلو في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة إما بحكم الجيلة البشرية، أو يكون الإكراه قاصراً عن حدّ الإلجاء المزيل للاختيار. وقيل: إن المعنى: فإن الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم لهن، إما مطلقاً، أو بشرط التوبة. ولما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام، شرع في وصف القرآن بصفات ثلاث: الأولى: أنه **﴿آيَاتٌ مُبِينَاتٌ﴾** أي: واضحات في أنفسهم، أو موضحات، فتدخل الآيات المذكورة في هذه الصورة دخولاً أولياً. والصفة الثانية: كونه **﴿مُفَصِّلَاتٌ﴾** من الذين خلوا من قبل هؤلاء أي: مثلاً

عِلْمًا وَزَيْدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٧٨﴾

لما بين سبحانه من الأحكام ما بين أريف ذلك بكونه سبحانه في غاية الكمال، فقال ﴿الله نور السموات والأرض﴾، وهذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها، والاسم الشريف مبتدأ، ونور السموات والأرض خبره، إما على حذف مضاف: أي: ذو نور السموات، والأرض، أو لكون المراد المبالغة في وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله، وظهور عدله، وبسطه أحكامه، كما يقال: فلان نور البلد، وقمر الزمن، وشمس العصر، ومنه قول النابغة:

فإنك شمس والملوك كوكب
إذا ظهرت لم يبق فيهن كوكب

وقول الآخر:
هلا قصدت من البلاد لمفضل
ومن ذلك قول الشاعر:
إذا سار عبد الله من مروليلة
نقد سار منها نورها وجمالها

وقول الآخر:
نسب كان عليه من شمس الضحى نوراً ومن لفق الصباح عموداً
ومعنى النور في اللغة: الضياء، وهو: الذي يبين الأشياء، ويرى الأبصار حقيقة ما تراه، فيجوز إطلاق النور على الله سبحانه على طريقة المدح، ولكونه أوجد الأشياء المنورة، وأوجد أنوارها، ونورها، ويدل على هذا المعنى قراءة زيد بن علي، وأبي جعفر، وعبد العزيز المكي ﴿الله نور السموات والأرض﴾ على صيغة الفعل الماضي، وفاعله ضمير يرجع إلى الله، والسموات مفعول؛ فمعنى ﴿الله نور السموات والأرض﴾ إنه سبحانه صيرهما منبرتين باستقامة أحوال أهلها، وكمال تبديره عز وجل لمن فيهما، كما يقال: الملك نور البلد، هكذا قال الحسن، ومجاهد، والأزهري، والضحاك، والقرظي، وابن عرفة، وابن جرير، وغيرهم، ومثله قول الشاعر:

وأنت لنا نور وغيث وعصمة ونبت لمن يرجو نذك وريف
وقال هشام الجواليقي، وطائفة من المجسمة: إنه سبحانه نور لا كالأنوار، وجسم لا كالأجسام، وقوله ﴿مثل نوره﴾ مبتدأ، وخبره ﴿كمشكاة﴾ أي: صفة نوره الفاضل عنه، الظاهر على الأشياء كمشكاة، والمشكاة الكوة في الحائط غير النافذة، كذا حكاه الواحدي عن جميع المفسرين، وحكاها القرطبي عن جمهورهم. ووجه تخصيص المشكاة: أنها أجمع للضوء الذي يكون فيه من مصباح، أو غيره، وأصل المشكاة الوعاء يجعل فيه الشيء. وقيل: المشكاة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة. وقال مجاهد: هي القنديل. والأول أولى، ومنه قول الشاعر:

كان عينيه مشكاتان في جحر
ثم قال ﴿فيها مصباح﴾ وهو السراج ﴿المصباح في زجاجة﴾ قال الزجاج: النور في الزجاج، وضوء النار أبين منه في كل شيء، وضوءه يزيد في الزجاج، ووجه ذلك: أن الزجاج جسم شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور. ثم وصف الزجاج، فقال ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ أي: منسوب

إلى الدرّ لكون فيه من الصفاء والحسن ما يشابه الدرّ. وقال الضحاك: الكوكب الدرّي الزهرة. قرأ أبو عمرو (درّي) بكسر الدال. قال أبو عمرو: لم أسمع أعرابياً يقول: إلا كأنه كوكب درّي بكسر الدال، أخذه من درأت النجوم تدراً إذا اننفعت. وقرأ حمزة بضم الدال مهموزاً، وأنكره الفراء، والزجاج، والمبرد. وقال أبو عبيد: إن ضمنت الدال وجب أن لا تهمز، لأنه ليس في كلام العرب. والدراري هي المشهورة من الكوكب كالمشتري، والأزهري، والمريخ، وما يضاهاها من الثوابت. ثم وصف المصباح بقوله ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ ومن هذه هي الابتدائية: أي: ابتداء إيقاد المصباح منها، وقيل: هو على تقدير مضاف أي: يوقد من زيت شجرة مباركة، والمباركة: الكثيرة المنافع. وقيل: المنماة، والزيتون من أعظم الثمار نماء، ومنه قول أبي طالب، يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس:

ليت شعري مسافر بن أبي عمرو وليت يقولها المحزون
بورك الميت الغريب كما بورك نبع الرمان والزيتون
قيل: ومن بركتها أن أغصانها تودق من أسفلها إلى أعلاها، وهي إدام، ودهان، ونباغ، ووقود، وليس فيها شيء إلا وفيه منفعة، ثم وصفها بأنها ﴿لا شرقية ولا غربية﴾. وقد اختلف المفسرون في معنى هذا الوصف، فقال عكرمة، وقتادة، وغيرهم: إن الشرقية هي التي تصيبها الشمس إذا شرقت، ولا تصيبها إذا غربت. والغربية هي التي تصيبها إذا غربت، ولا تصيبها إذا شرقت. وهذه الزيتونة هي في صحراء بحيث لا يسترها عن الشمس شيء لا في حال شروقها، ولا في حال غروبها، وما كانت من الزيتون هكذا، فثمرها أجود. وقيل: إن المعنى: إنها شجرة في نوبة قد أحاطت بها، فهي غير منكشفة من جهة الشرق، ولا من جهة الغرب، حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس. قال ابن عطية: وهذا لا يصح عن ابن عباس، لأن الثمرة التي بهذه الصفة يفسد جناها، وذلك مشاهد في الوجود. ورجح القول الأول الفراء، والزجاج. وقال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية. قال الثعلبي: قد أقصص القرآن بأنها من شجر الدنيا، لأن قوله: ﴿زيتونة﴾ بدل من قوله: ﴿شجرة﴾. قال ابن زيد: إنها من شجر الشام، فإن الشام لا شرقي، ولا غربي، والشام هي الأرض المباركة. وقد قرئ (توقد) بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الزجاجة دون المصباح، وبها قرأ الكوفيون. وقرأ شيبه، ونافع، وأيوب، وسلام، وابن عامر، وأهل الشام، وحفص: (يوقد) بالتحنية مضمومة، وتخفيف القاف، وضم الدال. وقرأ الحسن، والسلمي، وأبو عمرو بن العلاء، وأبو جعفر (توقد) بالفوقية مفتوحة، وفتح الواو، وتشديد القاف، وفتح الدال على أنه فعل ماض من توقد يتوقد، والضمير في هاتين القراءتين راجع إلى المصباح. قال النحاس: وهاتان القراءتان متقاربتان؛ لأنهما جميعاً للمصباح، وهو أشبه بهذا الوصف

لأنه الذي ينير، ويضيء، وإنما الزجاجة وعاء له. وقرأ نصر بن عاصم كقراءة أبي عمرو ومن معه إلا أنه ضم الدال على أنه فعل مضارع، وأصله تتوقد. ثم وصف الزيتونة بوصف آخر، فقال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قرأ الجمهور (تمسسه) بالفوقية، لأن النار مؤنثة. قال أبو عبيد: إنه لا يعرف إلا هذه القراءة. وحكى أبو حاتم: أن السدي روى عن أبي مالك، عن ابن عباس: أنه قرأ «بمسسه» بالتحية لكون تأنيث النار غير حقيقي. والمعنى: أن هذا الزيت في صفائه وإنارته يكاد يضيء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلاً، وارتفاع «نور» على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو نور، و«على نور» متعلق بمحذوف، هو صفة لنور مؤكدة له، والمعنى: هو نور كائن على نور. قال مجاهد: والمراد النار على الزيت. وقال الكلبي: المصباح نور، والزجاجة نور. وقال السدي: نور الإيمان، ونور القرآن ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عبادته أي: هداية خاصة موصلة إلى المطلوب، وليس المراد بالهداية هنا مجرد الدلالة ﴿وَيُضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ أي: يبين الأشياء بأشبهائها، ونظائرهما تقريباً لها إلى الأفهام وتسهيلاً لإدراكها، لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس، وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يغيب عنه شيء من الأشياء معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً، أو باطناً. واختلف في قوله ﴿فِي بَيْوتِ أَزْوَاجٍ﴾ أن ترفع بما هو متعلق؛ فقيل: متعلق بما قبله أي: كمشكاة في بعض بيوت الله، وهي المساجد، كأنه قيل: مثل نوره كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت، وقيل: متعلق بمصباح. وقال ابن الأنباري: سمعت أبا العباس يقول: هو حال للمصباح، والزجاجة، والكوكب، كأنه قيل: وهي في بيوت، وقيل: متعلق بتوقد أي: توقد في بيوت، وقد قيل: متعلق بما بعده، وهو يسبح أي: يسبح له رجال في بيوت، وعلى هذا يكون قوله ﴿فِيهَا﴾ تكريراً كقولك، زيد في الدار جالس فيها. وقيل: إنه منفصل عما قبله، كأنه قال: الله في بيوت أزواج الله أن ترفع. قال الحكيم الترمذي: وبذلك جاءت الأخبار أنه من جلس في المسجد فلنما يجالس ربه. وقد قيل: على تقدير تعلقه بمشكاة، أو بمصباح، أو بتوقد ما الوجه في توحيد المصباح، والمشكاة، وجمع البيوت؟ ولا تكون المشكاة الواحدة، ولا المصباح الواحد إلا في بيت واحد. وأجيب: بأن هذا من الخطاب الذي يفتح أركه بالتوحيد، ويختم بالجمع كقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: 1]، ونحوه. وقيل معنى في بيوت: في كل واحد من البيوت، فكأنه قال: في كل بيت، أو في كل واحد من البيوت. واختلف الناس في البيوت، على أقوال: الأول: أنها المساجد، وهو قول مجاهد، والحسن، وغيرهما. الثاني: أن المراد بها بيوت بيت المقدس، روي ذلك عن الحسن. الثالث: أنها بيوت النبي ﷺ، روي عن مجاهد. الرابع: هي البيوت كلها، قاله عكرمة. الخامس: أنها المساجد الأربعة

واختلف في هذا التسبيح ما هو؟ فالأكثر حملوه على الصلاة المفروضة، قالوا: الغر صلاة الصبح، والأصاال صلاة الظهر، والعصر، والعشاءين، لأن اسم الأصاال يشملها، ومعنى بالغر والأصاال: بالغداة والعشي، وقيل: صلاة الصبح، والعصر، وقيل: المراد صلاة الضحى، وقيل: المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقي، وهو: تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به في ذاته، وصفاته، وأفعاله، ويؤيد هذا نكر الصلاة والزكاة بعده، وهذا أرجح مما قبله، لكونه المعنى الحقيقي مع وجود دليل يدل على خلاف ما ذهب إليه الأولون، وهو ما نكرناه ﴿لَا تَلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ هذه الجملة صفة لرجال أي: لا تشغلهم التجارة والبيع عن الذكر، وخصّ التجارة بالذكر؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الذكر. وقال الفراء: للتجارة لأهل الجلب، والبيع ما باعه الرجل على بنه، وخصّ قوم التجارة هاهنا بالشراء لنكر البيع بعدهما، وبمثل قول الفراء. قال الواقي: فقال: التجار هم: الجلاب المسافرون، والباعة هم المقيمون، ومعنى ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ هو ما تقدّم في قوله ﴿وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمَهُ﴾، وقيل: المراد الأذان، وقيل: عن ذكره باسمه الحسن أي: يوحونه، ويمجونه. وقيل: المراد عن الصلاة، ويردّه ذكر الصلاة بعد النكر هنا، والمراد بإقام الصلاة إقامتها لمواقيتها من غير تأخير، وحذفت التاء؛ لأن الإضافة تقوم مقامها في ثلاث كلمات جمعها الشاعر في قوله:

غربية ﴿إنها التي في سفح جبل لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت﴾ **﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾** فنلك مثل قلب المؤمن نور على نور. وأخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف، عن الشعبي قال: في قراءة أبي بن كعب (مثل نور المؤمن كمشكاة). وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في الآية قال: يقول مثل نور من آمن بالله كمشكاة، وهي الكوة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه **﴿مثل نوره﴾** قال: هي خطا من الكاتب هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة. قال: مثل نور المؤمن كمشكاة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عنه أيضاً **﴿الله نور السموات والأرض﴾** قال: هادي أهل السموات والأرض **﴿مثل نوره﴾** مثل هداية في قلب المؤمن **﴿كمشكاة﴾** يقول: موضع الفتيلة كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوءه، كذلك يكون قلب المؤمن بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى، ونوراً على نور، وفي إسناده علي بن أبي طلحة، وفيه مقال. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروييه، عن أبي بن كعب **﴿الله نور السموات والأرض﴾** مثل نوره قال: هو المؤمن الذي قد جعل الإيمان والقرآن في صدره، فضرِبَ الله مثله، فقال **﴿نور السموات والأرض مثل نوره﴾** فبدأ بنور نفسه، ثم نكر نور المؤمن، فقال: مثل نور من آمن به، فكان أبي بن كعب يقرؤها (مثل نور من آمن به) فهو: المؤمن، جعل الإيمان والقرآن في صدره **﴿كمشكاة﴾** قال: فصدر المؤمن المشكاة **﴿فيها مصباح للمصباح﴾** النور، وهو القرآن والإيمان الذي جعل في صدره **﴿في زجاجة﴾** **﴿والزجاجة﴾** قلبه **﴿كانها كوكب دري﴾** يقول كوكب مضيء **﴿يوقد من شجرة مباركة﴾**، والشجرة المباركة: أصل المبارك الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له **﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾** قال: فمثله كمثل شجرة التفت بها للشجر، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت، فكنك هذا المؤمن قد أجير من أن يضل شيء من الفتن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروييه، عن ابن عباس: أن اليهود قالوا لمحمد: كيف يخلص نور الله من نون السماء؟ فضرِبَ الله مثل ذلك لنوره، فقال **﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة﴾** المشكاة كوة البيت فيها مصباح، وهو: السراج يكون في الزجاجة، وهو: مثل ضربه الله لطاعته، فسمى طاعته نوراً، ثم سماها أنواعاً شتى **﴿لا شرقية ولا غربية﴾** قال: وهي: وسط الشجر لا تنالها الشمس إذا طلعت، ولا إذا غربت، وذلك أجود الزيت **﴿يكاد زيتها يضيء﴾** بغير نار **﴿نور على نور﴾** يعني بذلك: إيمان العبد وعلمه **﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾** وهو مثل

ثلاثة تحذف تآتها مضافة عند جمع للنحاة وهي إذا شئت أبو عنزها وليت شعري وإقام الصلاة وأنشد الفراء في الاستشهاد للحذف المذكور في هذه الآية قول الشاعر:

إن الخليط أجود البين وانجربوا وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا أي: عدة الأمر، وفي هذا البيت دليل على أن الحذف مع الإضافة لا يختص بتلك الثلاثة المواضع. قال الزجاج: وإنما حذفت الهاء لأنه يقال: أقمت الصلاة إقامة، وكان الأصل إقواماً، ولكن قلبت الواو ألفاً، فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، فبقي أقمت الصلاة إقاماً، فانبخلت الهاء عوضاً من المحذوف، وقامت الإضافة هاهنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة، وهذا إجماع من النحويين. انتهى. وقد احتاج من حمل نكر الله على الصلاة المفروضة: أن يحمل إقام الصلاة على تآيتها في أوقاتها فراراً من التكرار، ولا ملجئ إلى ذلك، بل يحمل الذكر على معناه الحقيقي كما قدّمنا. والمراد بالزكاة المذكورة هي: المفروضة، وقيل: المراد بالزكاة طاعة الله، والإخلاص، إذ ليس لكل مؤمن مال **﴿يخافون يوماً﴾** أي: يوم القيامة، وانتصابه على أنه مفعول للفعل لا ظرف له، ثم وصف هذا اليوم بقوله **﴿تنتقلب فيه القلوب والأبصار﴾** أي: تضطرب، وتتحول، قيل: المراد بتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر فلا ترجع إلى أماكنها، ولا تخرج، والمراد بتقلب الأبصار هو: أن تصير عمياء بعد أن كانت مبصرة. وقيل: المراد بتقلب القلوب أنها تكون متقلبة بين الطمع في النجاة، والخوف من الهلاك، وإما تقلب الأبصار فهو: نظرها من أي ناحية يؤخزون، وإلى أي ناحية يصيرون. وقيل: المراد تحول قلوبهم وأبصارهم عما كانت عليه من الشك إلى اليقين، ومثله قوله: **﴿فكشفتنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾** [ق: 22] فما كان يراه في الدنيا غياً يراه في الآخرة رشداً. وقيل: المراد التقلب على جمر جهنم، وقيل: غير ذلك: **﴿ليجزئهم الله أحسن ما عملوا﴾** متعلق بمحذوف أي: يفعلون ما يفعلون من التسبيح، والذكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا أي: أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدهم من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله، وإلى سبعمائة ضعف، وقيل: المراد بما في هذه الآية ما يتفضل سبحانه به عليهم زيادة على ما يستحقونه، والأول أولى لقوله **﴿ويزيدهم من فضله﴾** فإن المراد به التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به **﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾** أي: من غير أن يحاسبه على ما أعطاه، أو أن عطاه سبحانه لا نهاية له، والجملة مقررّة لما سبقها من الوعد بالزيادة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله **﴿الله نور السموات والأرض﴾** قال: يدبر الأمر فيهما نجومهما، وشمسهما، وقمرهما. وأخرج الفريابي عنه في قوله **﴿الله نور السموات والأرض﴾** مثل نوره الذي أعطاه المؤمن **﴿كمشكاة﴾**، وقال في تفسير **﴿زيتونة لا شرقية ولا**

المؤمن. وأخرج الطبراني، وابن عدي، وابن مروي، وابن عساكر، عن ابن عمر في قوله ﴿كَمْشَاكَ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ قال: المشكاة جوف محمد ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي في قلبه. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الشجرة إبراهيم ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لا يهودية ولا نصرانية، ثم قرأ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، عن شمر بن عطية قال: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار: فقال: حدثني عن قول الله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ قال: مثل نور محمد ﷺ كَمْشَاكَ قَالَ: الْمَشَاكَ الْكَوَّةُ ضَرْبُهَا اللَّهُ مِثْلًا لِقَمَةِ فِيهَا مَصْبَاحٌ، وَالْمَصْبَاحُ قَلْبُهُ ﴿وَالْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾، وَالزُّجَاجَةُ صَدْرُهُ ﴿كَانَهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ شبه صدر محمد ﷺ بالكوكب الدرّي، ثم رجع المصباح إلى قلبه، فقال: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ - يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ قال: يكاد محمد ﷺ يبين للناس، ولو لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد الزيت أن يضيء، ولو لم تمسه نار.

وأقول: إن تفسير النظم القرآني بهذا ونحوه مما تَقَمَّ عن أبي بن كعب، وابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم ليس على تقتضيه لغة العرب، ولا ثبت عن رسول الله ﷺ ما يجوز العلول عن المعنى العربي إلى هذه المعاني التي هي شبيهة بالانغاز والتعمية، ولكن هؤلاء الصحابة، ومن وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح في المشكاة، ولهذا قال ابن عباس: هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة كما قَمَمْنَا عنه، ولا وجه لهذا الاستبعاد. فإننا قد قَمَمْنَا في أول البحث ما يرفع الإشكال ويوضح ما هو المراد على أحسن وجه، وأبلغ أسلوب، وعلى ما تقتضيه لغة العرب، ويفيده كلام الفصحاء، فلا وجه للعلول عن الظاهر، لا من كتاب، ولا من سنة، ولا من لغة. وأما ما حكى عن كعب الأحبار في هذا كما قَمَمْنَا، فإن كان هو سبب علول أولئك الصحابة الأجلاء عن الظاهر في تفسير الآية، فليس مثل كعب رحمه الله ممن يقتدى به في مثل هذا. وقد نبهناك فيما سبق: أن تفسير الصحابي إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب كما يقع ذلك كثيرا، فلا تقوم به الحجة، ولا يسوغ لأجله العلول عن التفسير العربي، نعم إن صحت قراءة أبي بن كعب، كانت هي المستند لهذه التفسيرات المخالفة للظاهر، وتكون كالزيادة المبينة للمراد، وإن لم تصح، فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة، وغيرهم ممن قبلهم، وممن بعدهم هو المتعين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿فِي بَيْتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعُ﴾ قال: هي المساجد تكرم، وينهى عن اللغو فيها، ويذكر فيها اسم الله، يتلى فيها كتابه ﴿يَسْبِيحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ صلاة الغداة، وصلاة العصر، وهما أول ما فرض الله من الصلاة فأحب أن

ينكرهما، وينكر بهما عباده. وقد ورد في تعظيم المساجد، وتنزيهاها عن القذر، وتنظيفها، وتطيبها أحاديث ليس هذا موضع نكرها. وأخرج، ابن أبي شيبة، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: إن صلاة الضحى لفي القرآن، وما يغوص عليها إلى غرأص في قوله ﴿فِي بَيْتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعُ وَيُنْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ يَسْبِيحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ نَكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هم الذين يضرّبون في الأرض يبتغون من فضل الله. وأخرج ابن مروي، والديلمي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في قوله ﴿لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ نَكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هم الذين يبتغون من فضل الله. وأخرج ابن مروي، عن ابن عباس في الآية، قال: كانوا رجلا يبتغون من فضل الله يشترّون وبيعون، فإذا سمعوا النداء بالصلاة أقوا ما في أيديهم، وقاموا إلى المسجد، فصلوا. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في الشعب، عنه في الآية، قال: ضرب الله هذا المثل قوله ﴿كَمْشَاكَ﴾ لأولئك القوم الذين لا تُلْهِيمُ تِجَارَةً، ولا بَيْعَ عَنْ نَكْرِ اللَّهِ، وكانوا أئجر الناس، وأبيعهم، ولكن لم تكن تُلْهِيمُ تجارتهم، ولا بيعهم عن نكر الله. وأخرج، عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً ﴿عَنْ نَكْرِ اللَّهِ﴾ قال: عن شهود الصلاة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر: أنه كان في السوق، فاقبضت الصلاة فأغلغوا حوانيتهم، ثم دخلوا المسجد، فقال ابن عمر فيهم: نزلت ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ نَكْرِ اللَّهِ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود: أنه رأى ناساً من أهل السوق سمعوا الأذان، فتركوا أمتعتهم، فقال: هؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ نَكْرِ اللَّهِ﴾. وأخرج هناد بن السري في الزهد، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الشعب، ومحمد بن نصر في الصلاة، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، فيقوم منا، فينادي: أين الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء؟ فيقومون، وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب؛ ثم يعود فينادي: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون، وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب؛ ثم يعود فينادي: ليقم الذين كانوا لا تُلْهِيمُ تِجَارَةً، ولا بَيْعَ عَنْ نَكْرِ اللَّهِ، فيقومون، وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يقوم سائر الناس، فيحاسبون». وأخرج الحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب، عن عتبة بن عامر مرفوعاً نحوه.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَمَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَنَقًا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ إِلَّا عَذَابًا وَثِقًا اللَّهُ غَدْرُكُمْ إِنَّهُمْ لَا يَحْسَبُونَ ﴿١٢٨﴾ أَوْ كَلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَبِيٍّ يَنْقَضُ مَوْجٌ مِنْ قَوْفِهِمْ مَوْجٌ مِنْ قَوْفِهِمْ سَابَقَ

عَلَّمْتُكُمْ بَعْضَهُ فَرَّقَ بَعْضٌ إِذَا أُخْرِجَ يَكْدُرُ لَمْ يَكْدُرْ يَرْهَأُ وَمَنْ لَمْ يَحْمِلْ اللَّهُ لَهُ مُرَا
فَمَا لَمْ يَنْ تُورِ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّعُ لِمَنْ يَشَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ
صَفَّيْتُ كُلَّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُمْ وَنَسِيحَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِلَّهِ الْصَّبِيرُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزِيلُ حَبَابَ تَمْرٍ يُؤَلَّفُ يَنْتَهُ
ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ جَنْبِهِ وَتَبْرَأُ مِنَ السَّمَاءِ يَنْجَالُ فِيهَا مِنْ
بَرَرٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ
۝ يَلْبَسُ اللَّهُ الْبَاسُ وَالْأَنْهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ
دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَيَمْشِي مَنِ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَيَمْشِي مَنِ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ وَيَمْشِي مَنِ
يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَفَلَا تَرَأَوْنَ
أَنَّا إِنَّا بَنَيْنَا لِلَّهِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ صِرْطَ مَسْتَوِيٍّ ۝

لما نكر سبحانه حال المؤمنين، وما يتوكل إليه أمرهم نكر
مثلاً للمكافرين، فقال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
بَقِيْعَةٍ﴾ المراد بالأعمال هنا هي الأعمال التي من أعمال
الخير كالصدقة، والصلة، وفك العاني، وعمارة البيت، وسقاية
الحاج، والسراب: ما يرى في المغاور من لمعان الشمس عند
اشتداد حرّ النهار على صورة الماء في ظنّ من يراه، وسمي
سراباً لأنه يسرب أي: يجري كالماء؛ يقال: سرب الفحل أي:
مضى، وسار في الأرض، ويسمى الآل أيضاً. وقيل: الآل هو
الذي يكون ضحى كالماء، إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى
يصير كأنه بين السماء والأرض، قال امرؤ القيس:
الم أنض المطي بكلّ خرق طويل الطول لماع السراب
وقال آخر:

فلما كلفنا الحرب كانت عهودهم كلمع سراب بالفلا متلّق
والقيعة جمع قاع: وهو الموضع المنخفض الذي يستقرّ
فيه الماء، مثل جيرة، وجار، قاله الهروي. وقال أبو عبيد:
قيعة، وقاع واحد. قال الجوهري: القاع المستوي من الأرض،
والجمع: اقوع، واقواع، وقيعان، صارت الواو ياء لكسر ما
قبلها، والقيعة مثل القاع. قال: وبعضهم يقول: هو جمع
﴿يَحْسِبُهُ الظُّلُمَانُ مَاءً﴾ هذه صفة ثانية لسراب، والظلمان:
العطشان، وتخصيص الحسيان بالظلمان مع كون الزّيان يراه
كذلك، لتحقيق التشبيه المبني على الطمع ﴿حتى إذا جاءه
لم يجده شيئاً﴾ أي: إذا جاء العطشان ذلك الذي حسبه ماء
لم يجده شيئاً مما قدره وحسبه، ولا من غيره، والمعنى: إن
الكفار يعولون على أعمالهم التي يظنونها من الخير،
ويطمعون في ثوابها، فإذا قدموا على الله سبحانه لم يجدوا
منها شيئاً، لأن الكفر أحبطها، ومحا أثرها، والمراد بقوله
﴿حتى إذا جاءه﴾ مع أنه ليس بشيء أنه جاء الموضع
الذي كان يحسبه فيه. ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على زيادة
حسرة الكفرة، وأنه لم يكن قصارى أمرهم مجرد الخيبة
كصاحب السراب، فقال ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قُوفَاهُ حَسَابِهِ
وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: وجد الله بالمرصاد، قوفاه
حسابه أي: جزاء عمله، كما قال امرؤ القيس:

فولى مديراً يهوى حديثاً وإيقن أنه لاقى الحساب

وقيل: وجد وعد الله بالجزاء على عمله، وقيل: وجد أمر
الله عند حشره، وقيل: وجد حكمه، وقضاه عند المجيء،
وقيل: عند العمل، والمعنى متقارب. وقرأ مسلمة بن محارب
(بقيعاه) بهاء متورة كما يقال رجل عزهاه. وروى عنه: أنه
قرأ (بقيعات) بتاء مبسوطة. قيل: يجوز أن تكون الألف
متولدة من إشباع العين على الأول، وجمع قبيعة على الثاني.
وروي عن نافع، وأبي جعفر، وشيبة: أنهم قرءوا (الظلمان)
بغير همز، والمشهور عنهم الهمز ﴿أو كظلمات﴾ معطوف
على كسراب، ضرب الله مثلاً لأعمال الكفار كما أنه تشبه
السراب الموصوف بتلك الصفات، فهي أيضاً تشبه الظلمات.
قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن أعمال الكفار إن مثلت بما
يوجد، فمثلها كمثل السراب، وإن مثلت بما يرى، فهي كهذه
الظلمات التي وصف. قال أيضاً: إن شئت مثل بالسراب، وإن
شئت مثل بهذه الظلمات، فأول للإباجة حسباً تقدّم من القول
في ﴿أو كصيب﴾ [البقرة: 19]. قال الجرجاني: الآية الأولى
في نكر أعمال الكفار، والثانية في نكر كفرهم، ونسق الكفر
على أعمالهم لأنه أيضاً من أعمالهم. قال القشيري: فعند
الزّجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار، وعند الجرجاني لكفر
الكفار ﴿وفي بحر لجي﴾ اللجة معظم الماء، والجمع لجج،
وهو: الذي لا يدرك لمقه. ثم وصف سبحانه هذا البحر
بصفة أخرى، فقال ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ أي: يعلو هذا البحر
موج، فيستره ويغطيه بالكلية، ثم وصف هذا الموج بقوله
﴿ومن فوقه موجٌ﴾ أي من فوق هذا الموج موج، ثم وصف
الموج الثاني، فقال ﴿ومن فوقه سحبٌ﴾ أي: من فوق ذلك
الموج الثاني سحب، فيجتمع حينئذٍ عليهم خوف البحر
وأمواجه، والسحاب المرتفعة فوقه. وقيل: إن المعنى: يغشاه
موج من بعده موج، فيكون الموج يتبع بعضه بعضاً حتى
كان بعضه فوق بعض، والبحر أخوف ما يكون إذا توالى
أمواجه، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه زاد
الخوف شدة، لأنها تستر النجوم التي يهتدي بها من في
البحر، ثم إذا أمطرت تلك السحاب، وهبت الريح المعتادة في
الغالب عند نزول المطر تكاثفت الهموم، وترايفت الغيوم،
وبلغ الأمر إلى الغاية التي ليس وراءها غاية، ولهذا قال
سبحانه: ﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾ أي: هي ظلمات، أو
هذه ظلمات متكاثفة مترانفة، ففي هذه الجملة بيان لشدة
الأمر وتعاطفه، وقرأ ابن محيصن، والبرقي (سحاب ظلمات)
بإضافة سحب إلى ظلمات، ووجه الإضافة: أن السحاب
يرتفع وقت هذه الظلمات، فاضيف إليها لهذه الملازمة. وقرأ
الباقون بالقطع، والتنوين.

ومن غرائب التفسير: أنه سبحانه أراد بالظلمات: أعمال
الكافر، وبالبحر اللجي: قلبه، وبالموج فوق الموج: ما يغشى
قلبه من الجهل، والشك، والحيرة. والسحاب الرين، والختم،
والطبع على قلبه، وهذا تفسير هو عن لغة العرب بمكان
بعيد. ثم بالغ سبحانه في هذه الظلمات المذكورة بقوله ﴿إذا
أُخْرِجَ يَدُهُ لَمْ يَكْدُرْ يَرَاهَا﴾ وفاعل أخرج ضمير يعود على

واحد مما نكر، والضمير في علم يرجع إلى كل، والمعنى: إن كل واحد من هذه المسبحات لله قد علم صلاة المصلي، وتسبيح المسيح. وقيل: المعنى أن كل مصل، ومسبح قد علم صلاة نفسه، وتسبيح نفسه. قيل: والصلاة هنا بمعنى التسبيح، وكرّر للتأكيد، والصلاة قد تسمى تسبيحاً. وقيل: المراد بالصلاة هنا الدعاء أي: كل واحد قد علم دعاءه، وتسبيحه. وقائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك، أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علمها الله ذلك، والهمها إليه، لا أن صلوره منها على طريقة الإتفاق بلا روية، وفي ذلك زيادة دلالة على بيع صنع الله سبحانه، وعظيم شأنه، كونه جعلها مسبحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها أي: لا تخفى عليه طاعتهم، ولا تسبيحهم، ويجوز أن يكون الضمير في «علم» لله سبحانه أي: كل واحد من هذه المسبحة قد علم الله صلاته له، وتسبيحه إياه، والأول أرجح لاتفاق القراء على رفع كل، ولو كان الضمير في علم الله لكان نصب كل أولى. ونكر بعض المفسرين: أنها قراءة طائفة من القراء علم على البناء للمفعول. ثم بين سبحانه: أن المبدأ منه، والمعاد إليه، فقال ﴿والله ملك السموات والأرض﴾ أي: له لا غيره ﴿والله المصور﴾ لا إلى غيره، والمصور: الرجوع بعد الموت. وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في غير موضع. ثم نكر سبحانه ليلاً آخر من الآثار العلوية، فقال ﴿الكم تر أن الله يزيجي سحاباً﴾ الإجزاء: السوق قليلاً قليلاً، ومنه قول النابغة:

إني أتيتك من أهلي ومن وطني أزيجي حشاشة نفس ما بها رمق
وقوله أيضاً:

أسرت عليه من الجوزاء سارية يزيجي السماك عليه جامد البرد
والمعنى: أنه سبحانه يسوق السحاب سوقاً رقيقاً إلى حيث يشاء ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي: بين أجزائه، فيضم بعضه إلى بعض، ويجمعه بعد تفرقه ليقوى، ويتصل، ويكتف، والأصل في التاليف الهمز. وقرأ ودرش، وقالون عن نافع (يولف) بالواو تخفيفاً، والسحاب واحد في اللفظ، ولكن معناه جمع، ولهذا دخلت «بين» عليه لأن أجزائه في حكم المفردات له. قال الفراء: إن الضمير في بينه راجع إلى جملة السحاب، كما تقول: الشجر قد جلست بينه، لأنه جمع، وأفرد الضمير باعتبار اللفظ ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي: متراكماً يركب بعضه بعضاً. والركم: جمع الشيء، يقال: ركم الشيء يركمه ركاماً أي: جمعه، وألقى بعضه على بعض وارتكم الشيء، وتراكم إذا اجتمع، والركمة: الطين المجموع، والركام: الرمل المتراكب ﴿فترى الونق يخرج من خلاله﴾ الونق: المطر عند جمهور المفسرين، ومنه قول الشاعر:

فلا مزنة وبقت وبقتها ولا أرض أبقل إقبالها
وقال امرؤ القيس:

نفعهما وبق وسع وديمه وسكب وتوكاف وتنهملان
يقال: وبقت السحاب فهي: وادقة، وودق المطر يدق أي:

مقتر دل عليه المقام أي: إذا أخرج الحاضر في هذه الظلمات أو من ابتلى بها. قال الزجاج، وأبو عبيدة: المعنى لم يرها، ولم يكدر. وقال الفراء: إن كاد زائدة. والمعنى: إذا أخرج يده لم يرها، كما تقول ما كنت أعرفه. وقال المبرد: يعني: لم يرها إلا من بعد الجهد. قال النحاس: أصح الأقوال في هذا أن المعنى: لم يقارب رؤيتها، فإن لم يرها رؤية بعيدة، ولا قريبة، وجملة ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ مقررة لما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة، والمعنى: ومن لم يجعل الله له هداية، فما له من هداية. قال الزجاج: ذلك في الدنيا، والمعنى: من لم يهده الله لم يهتد، وقيل: المعنى: من لم يجعل له نوراً يمشي به يوم القيامة، فما له من نور يهتدي به إلى الجنة ﴿الكم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض﴾ قد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة سبحان، والخطاب لكل من له أهلية النظر، أو للرسول ﷺ، وقد علمه من جهة الاستدلال؛ ومعنى ﴿الكم تر﴾: ألم تعلم، والهمزة للتقرير أي: قد علمت علماً يقينياً شبيهاً بالمشاهدة، والتسبيح التنزيه في ذاته، وأفعاله، وصفاته عن كل ما لا يليق به، ومعنى ﴿ومن في السموات والأرض﴾: من هو مستقر فيهما من العقلاء، وغيرهم، وتسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها، ويشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها. وقيل: إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء، والتنزيه من غيرهم. وقد قيل: إن هذه الآية تشمل الحيوانات، والجمادات، وأن آثار الصنعة الإلهية في الجمادات ناطق، ومخبر باتصافه سبحانه بصفات الجلال، والكمال، وتنزهه عن صفات النقص، وفي ذلك تقريع للكفار، وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادة عز وجل. وبالجملة، فإنه ينبغي حمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات على طريقة عموم المجاز. قرأ الجمهور (والطير صافات) بالرفع للطير، والنصب لصافات على أن الطير معطوفة على من، وصفات منتصب على الحال. وقرأ الأعرج (والطير) بالنصب على المفعول معه، وصفات حال أيضاً. قال الزجاج: وهي أجود من الرفع. وقرأ الحسن، وخارجة عن نافع (والطير صافات) برفعهما على الابتداء، والخبر، ومفعول صافات محذوف أي: أجنحتها، وخص الطير بالذكر مع دخولها تحت من في السموات، والأرض لعدم استمرار استقرارها في الأرض، وكثرة لبثها في الهواء، وهو ليس من السماء، ولا من الأرض، ولما فيها من الصنعة البديعة التي تقدر بها تارة على الطيران، وتارة على المشي بخلاف غيرها من الحيوانات، ونكر حالة من حالات الطير، وهي كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها؛ لأن هذه الحالة هي أغرب أحوالها، فإن استقرارها في الهواء مسبحة من نون تحريك لأجنحتها، ولا استقرار على الأرض من أعظم صنع الله الذي اتقن كل شيء. ثم زاد في البيان فقال ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي: كل

وقال امرؤ القيس:

يضئ سناه أو مصابيح راهب أمان السليط في الذبال المفتل
فالسنا بالقصر ضوء البرق، وبالمذ الرفعة، كذا قال
الميرد، وغيره. وقرأ طلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب
(سناه برق) بالمذ على المبالغة في شدة الضوء، والصفاء،
فأطلق عليه اسم: الرفعة، والشرف. وقرأ طلحة، ويحيى أيضاً
بضم الباء من برقه، وفتح الراء. قال أحمد بن يحيى ثعلب:
وهي على هذه القراءة جمع برق. وقال النحاس: البرقة
المقدار من البرق، والبرقة الواحدة. وقرأ الجحدري، وابن
القعقاع (يذهب) بضم الباء، وكسر الهاء من الإذهب. وقرأ
الباقون (سنا) بالقصر (وبرقه) بفتح الباء، وسكون الراء،
(ويذهب) بفتح الباء والهاء من الذهاب، وخطأ قراءة
الجحدري، وابن القعقاع الأخفش، وأبو حاتم. ومعنى ذهاب
البرق بالأبصار: خطفه إياها من شدة الإضاءة، وزيادة
البرق، والباء في الأبصار على قراءة الجمهور للإلصاق،
وعلى قراءة غيرهم زائدة. «يقرب الله الليل والنهار» أي:
يعاقب بينهما، وقيل يزيد في أحدهما، وينقص الآخر، وقيل:
يقربهما باختلاف ما يقدره فيهما من خير وشر، ونفع وضر،
وقيل: بالحر والبرد، وقيل: المراد بذلك تغيير النهار بظلمة
السحاب مرة، وبضوء الشمس أخرى، وتغيير الليل بظلمة
السحاب تارة، وبضوء القمر أخرى، والإشارة بقوله «إن في
ذلك لعبرة لأولي الأبصار» إلى ما تقدم، ومعنى العبرة:
الدلالة الواضحة التي يكون بها الاعتبار، والمراد بأولي
الأبصار كل من له بصر يبصر به. ثم ذكر سبحانه دليلاً
ثالثاً من عجائب خلق الحيوان، وبديع صنعته، فقال «والله
خلق كل دابة من ماء» قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش،
وحمزة، والكسائي (والله خالق كل دابة)، وقرأ الباقرن
(خلق)، والمعنيان صحيحان، والدابة: كل ما دب على الأرض
من الحيوان، يقال: دب يذب، فهو: داب، والهاء للمبالغة،
ومعنى «من ماء» من نطفة، وهي المنى، كذا قال الجمهور.
وقال جماعة: إن المراد الماء المعروف، لأن آدم خلق من
الماء، والطين. وقيل: في الآية تنزيل الغالب منزلة الكل على
القول الأول، لأن في الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة، ويخرج
من هذا العموم الملائكة، فإنهم خلقوا من نور، والجآن، فإنهم
خلقوا من نار. ثم فصل سبحانه أحوال كل دابة، فقال
«فمنهم من يمشي على بطنه»، وهي الحيات، والحوت،
والدود، ونحو ذلك «ومنهم من يمشي على رجلين»
الإنسان، والطيور «ومنهم من يمشي على أربع» سائر
الحيوانات، ولم يتعرض لما يمشي على أكثر من أربع ألقته،
وقيل: لأن المشي على أربع فقط، وإن كانت القوائم كثيرة،
وقيل: لعدم الاعتداد بما يمشي على أكثر من أربع، ولا وجه
لهذا، فإن المراد التنبيه على بديع الصنع، وكمال القدرة،
فكيف يقال: لعدم الاعتداد بما يمشي على أكثر من أربع؟
وقيل: ليس في القرآن ما يدل على عدم المشي على أكثر من
أربع، لأنه لم ينف ذلك، ولا جاء بما يقتضي الحصر، وفي

قطر يقطر، وقيل: إن الودق البرق، ومنه قول الشاعر:

أثرن عجاجة وخرجن منها خروج الودق من خلل السحاب
والأول أولى. ومعنى «من خلاله»: من فتوقه التي هي
مخارج القطر، وجملة «يخرج من خلاله» في محل
نصب على الحال، لأن الرؤية هنا هي البصرية. وقرأ ابن
عباس، وابن مسعود، والضحاك، وأبو العالية (من خلله)
على الإفراد. وقد وقع الخلاف في خلال، هل هو مفرد
كحجاب؟ أو جمع كجبال؟ «وينزل من السماء من جبال
فيها من برد» المراد بقوله: من سماء من عال، لأن
السماء قد تطلق على جهة العلو، ومعنى من جبال: من
قطع عظام تشبه الجبال، ولفظ «فيها» في محل نصب على
الحال، و«من» في من برد للتبويض، وهو مفعول ينزل.
وقيل: إن المفعول محذوف، والتقدير: ينزل من جبال فيها
من برد برداً. وقيل: إن «من» في من برد زائدة، والتقدير:
ينزل من السماء من جبال فيها برد. وقيل: إن في الكلام
مضافاً محذوفاً أي: ينزل من السماء قدر جبال، أو مثل
جبال من برد إلى الأرض. قال الأخفش: إن «من» في من
جبال، وفي من برد زائدة في الموضعين، والجبال، والبرد
في موضع نصب أي: ينزل من السماء برداً يكون كالجبال.
والحاصل: أن «من» في من السماء لابتداء الغاية بلا
خلاف، و«من» في من جبال فيها ثلاثة أوجه: الأول لابتداء
الغاية، فتكون هي ومجرورها بدلاً من الأولى بإعادة
الخافض بدل اشتغال الثاني: أنها للتبويض فتكون على هذا
هي ومجرورها في محل نصب على أنها مفعول الإنزال،
كأنه قال: وينزل بعض جبال. الثالث: أنها زائدة أي: ينزل
من السماء جبلاً. وأما «من» في من برد، ففيها أربعة
أوجه: الثلاثة المتقدمة. والرابع: أنها لبيان الجنس، فيكون
التقدير على هذا الوجه: وينزل من السماء بعض جبال التي
هي البرد. قال الزجاج: معنى الآية: وينزل من السماء من
جبال برد فيها كما تقول: هذا خاتم في يدي من حديد أي:
خاتم حديد في يدي، لأنك إذا قلت: هذا خاتم من حديد،
وخاتم حديد كان المعنى واحداً. انتهى. وعلى هذا يكون من
برد في موضع جر صفة لجبال كما كان من حديد صفة
لخاتم، ويكون مفعول ينزل من جبال، ويلزم من كون
الجبال برداً: أن يكون المنزل برداً. ونكر أبو البقاء: أن
التقدير: شيئاً من جبال، فحذف الموصوف، واكتفى بالصفة
«فيصيب به من يشاء» أي: يصيب بما ينزل من البرد
من يشاء أن يصيبه من عباده «ويصرفه عن يشاء»
منهم، أو يصيب به مال من يشاء، ويصرفه عن مال من
يشاء، وقد تقدم الكلام عن مثل هذا في البقرة «يكاد سنا
برقه يذهب بالأبصار» السنا الضوء أي: يكاد ضوء
البرق الذي في السحاب يذهب بالأبصار من شدة برقه،
وزيادة لمعانه، وهو كقوله: «يكاد البرق يخطف أبصارهم»
[البقرة: 20] قال الشماخ:

وما كادت إذا رفعت سناها ليبصر ضوءها إلا للبصير

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١١﴾ وَنَبِيُّ اللَّهِ رَسُولُهُ وَنَحْسُ اللَّهِ وَنَتَقِي قَوْلَ اللَّهِ هُمُ الْقَائِمُونَ ﴿١٢﴾ وَالْقَوْمُ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ لَنْ أَمْرِهِمْ يَخْرُجُونَ قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفٍ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ أطيعوا اللَّهَ وَأطيعوا الرَّسُولَ فَإِنَّا نَأْمُرُ بِمَا يَحِلُّ وَعَلَيْكُمْ مَا حُرِّمَتْ وَإِنْ طُوعُوا فَتَعَدُّوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّخَذُوا عَهْدًا أَنْتَخَلْتُ الْأَرْضَ كَمَا اسْتَخَلْتُ الْأَرْضَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَسِّرَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الْوَيْسَى اللَّهُمَّ وَلَيَسِّرْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ حَرْبِهِمْ أَنَا عَبْدُكَ لَا يَشْكُرُونَ بِي شَيْئًا وَنَنْكَرُ كَفْرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمْسُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأطيعوا الرَّسُولَ لِمَا كُنْتُمْ تُحْمَلُونَ ﴿١٦﴾ لَا تَحْسَبِ الَّذِينَ كَفَرُوا مَفْجُوعِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهُمْ أَنَا زَكَاةُ الْمَسْكِينِ ﴿١٧﴾

شرح سبحانه في بيان احوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم، فقال ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾، هؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فإنهم كما حكى الله عنهم هانئا ينسبون إلى أنفسهم الإيمان بالله، وبالرسول والطاعة لله ورسوله نسبة بمجرد اللسان، لا عن اعتقاد صحيح، ولهذا قال ﴿لَهُمْ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة ﴿مِنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان، والطاعة، ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بعدم الإيمان، فقال ﴿وَمَا أَوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما أولئك القائلون هذه المقالة بالمؤمنين على الحقيقة، فيشمل الحكم بنفي الإيمان جميع القائلين، ويندرج تحتهم من تولى اندراجاً أولياً، وقيل: إن الإشارة بقوله ﴿أَوْلَئِكَ﴾ راجع إلى من تولى، والأول أولى. والكلام مشتمل على حكمين: الحكم الأول على بعضهم بالتولي، والحكم الثاني على جميعهم بعدم الإيمان. وقيل: أراد بمن تولى: من تولى عن قبول حكمه ﷺ، وقيل: أراد بذلك رؤساء المنافقين، وقيل: أراد بتولي هذا الفريق رجوعهم إلى الباقيين، ولا ينافي ما تحتله هذه الآية باعتبار لفظها ورودها على سبب خاص، كما سيأتي بيانه. ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقاً منهم يعرضون عن إجابة الدعوى إلى الله، وإلى رسوله في خصوصياتهم، فقال ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليحكم الرسول بينهم، فالضمير راجع إليه؛ لأنه المباشر للحكم، وإن كان الحكم في الحقيقة لله سبحانه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: 62]. وإذاً في قوله ﴿وَإِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مَعْزُومُونَ﴾ هي الفجائية أي: فجاء فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إلى الله، والرسول، ثم ذكر سبحانه: أن إعراضهم إنما هو إذا كان الحق عليهم، وأما إذا كان لهم فإنهم يذعنون لعلمهم بأن رسول الله ﷺ لا يحكم إلا بالحق، فقال ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ

مصحف أبي (ومنهم من يمشي على أكثر من أربع، فعم بهذه الزيادة جميع ما يمشي على أكثر من أربع، كالسرطان، والعنكب، وكثير من خشاش الأرض) **يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** مما نكره هانئاً، ومما لم ينكره، كالجمادات مركبها وبسيطها، ناميها وغير ناميها **وَإِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** لا يعجزه شيء بل الكل من مخلوقاته داخل تحت قدرته سبحانه **بَلَدْنَا آيَاتٍ مَبِينَاتٍ** أي: القرآن، فإنه قد اشتمل على بيان كل شيء، وما فرطنا في الكتاب من شيء، وقد تقدم بيان مثل هذا في غير موضع **وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** بتوفيقه للنظر الصحيح، وإرشاده إلى التامل الصائق **إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** إلى طريق مستوي لا عوج فيه، فيتوصل بذلك إلى الخير التام، وهو نعيم الجنة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسَرَابٍ﴾** قال: هو مثل ضربه الله كرجل عطش، فاشتد عطشه، فرأى سراباً، فحسبه ماء، فطلبه، فظن أنه قدر عليه حتى أتى، فلما أتاه لم يجده شيئاً، وقبض عند ذلك، يقول: الكافر كذلك السراب إذا أتاه الموت لم يجد عمله يغني عنه شيئاً، ولا ينفعه إلا كما نفع السراب العطشان **﴿أَوْ كظلمات في بحر لجي﴾** قال: يعني بالظلمات: الأعمال، وبالبحر اللجي قلب الإنسان **﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾** يعني بذلك: الغشاوة التي على القلب، والسمع، والبصر. وأخرج ابن جرير عنه **﴿بِقَبِيحَةٍ﴾**: بارض مستوية. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق السدي، عن أبيه، عن أصحاب النبي ﷺ قال: «إن الكفار يبعثون يوم القيامة ورداً عطاشاً، فيقولون: أين الماء؟ فيتمثل لهم السراب، فيحسبونه ماء، فينطلقون إليه، فيجدون الله عنده، فيوفيه حساباً، والله سريع الحساب»، وفي إسناده السدي عن أبيه، وفيه مقال معروف. وأخرج ابن أبي حاتم، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة في قوله **﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾** قال: الصلاة للإنسان، والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله **﴿وَالطَّيْرُ صَافَاتٌ﴾** قال: بسط أجنحتهن. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله **﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾** يقول: ضوء بركه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: كل شيء يمضي على أربع إلا الإنسان. وأقول: هذه الطيور على اختلاف أنواعها تمشي على رجلين، وهكذا غيرها، كالنعامة، فإنها تمشي على رجلين، وليست من الطير، فهذه الكلية المروية عنه رضي الله عنه لا تصح.

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾ وَلَنْ يَكُنْ لَهُمْ لَقَى يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْبِرِينَ ﴿١٩﴾ إِنْ قُلُوبُهُمْ مُرْسُورٌ أَرَأَنْتُمْ أَن يَخَافُوا أَنْ يَحْجِبَ اللَّهُ عَنْهُمْ وُجُوهَهُمْ وَرَسُولَهُمْ قُلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٠﴾

الآقطار الإسلامية، فليرجع إليهما. ثم لما نكر ما كان عليه أهل النفاق أتبع بما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا دعوا إلى حكم الله، ورسوله، فقال ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قرأ الجمهور بنصب (قول) على أنه خبر كان، واسمها أن يقولوا. وقرأ علي، والحسن، وابن أبي إسحاق برفع (قول) على أنه الاسم، وأن المصدرية، وما في حيزها الخبر، وقد رجحت القراءة الأولى بما تقرر عند النحاة من: أنه إذا اجتمع معرفتان، وكانت إحدهما أعرف جعلت التي هي أعرف اسماً. وأما سيبويه فقد خير بين كل معرفتين، ولم يفرق هذه التفرقة، وقد قُصِّمَتِ الكلام على الدعوة إلى الله، ورسوله للحكم بين المتخاصمين، ونكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة، ومن لا تجب ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: أن يقولوا هذا القول لا قولاً آخر، وهذا، وإن كان على طريقة الخبر، فليس المراد به ذلك، بل المراد به تعليم الألب الشرعي عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر. والمعنى أنه ينبغي للمؤمنين أن يكونوا هكذا بحيث إذا سمعوا الدعاء المذكور قابِلوه بالطاعة، والإنعان. قال مقاتل، وغيره: يقولون سمعنا قول النبي ﷺ وأطعنا أمره، وإن كان ذلك فيما يكرهونه، ويضُرُّهم، ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله ﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: المؤمنون الذين قالوا هذا القول ﴿هُمْ لِلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: الفائزون بخير الدنيا، والآخرة، ثم أرفق الثناء عليهم بشيء آخر، فقال ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، وهذه الجملة مقررة لما قبلها من حسن حال المؤمنين، وترغيب من عداهم إلى الدخول في عدادهم، والمتابعة لهم في طاعة الله ورسوله، والخشية من الله عز وجل، والتقوى له. قرأ حفص (ويته) بإسكان القاف على نية الجزم. وقرأ الباقون بكسرها، لأن جزم هذا الفعل بحذف آخره، وأسكن الهاء أبو عمرو، وأبو بكر، واختلس الكسرة يعقوب، وقالبون عن نافع، والمثنى عن أبي عمرو، وحفص، وأشبع كسرة الهاء الباقون. قال ابن الأنباري: وقراءة حفص هي على لغة من قال: لم أر زيدا، ولم أشتَرِ طعاماً يسقطون الياء للجزم، ثم يسكنون الحرف الذي قبلها، ومنه قول الشاعر:

قالت سلمي اشتري لنا نقيقاً

وقول الآخر:

عجبت لمولود وليس له أب وذئ وليد لم يلد له أبوان
وأصله يلد بكسر اللام، وسكون الدال للجزم، فلما سكن اللام التقى ساكنان، فلو حرك الأول؛ لرجع إلى ما وقع الفرار منه، فحرك ثانيهما، وهو: الدال. ويمكن أن يقال: إنه حرك الأول على أصل التقاء الساكنين، وبقي السكون على الدال لبيان ما عليه أهل هذه اللغة، ولا يضُرُّ الرجوع إلى ما وقع الفرار منه، فهذه الحركة غير تلك الحركة، والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ إلى الموصوفين بما نكر من الطاعة، والخشية، والتقوى أي: هم الفائزون بالنعيم الدنيوي،

الحق يأتوا إليه مذعنين﴾ قال الزجاج: الإنعان الإسراع مع الطاعة، يقال: أنعن لي بحقي أي: طأوعني لما كنت التمس منه، وصار يسرع إليه، وبه قال مجاهد. وقال الأخفش، وابن الأعرابي: مذعنين مقرّين. وقال النقاش: مذعنين: خاضعين. ثم قسم الأمر في إعراضهم عن حكومته إذا كان الحقّ عليهم، فقال ﴿إِنِّي قُلُوبُهُمْ مَّرْضٌ﴾، وهذه الهمزة للتوبيخ، والتقرّيع لهم، والمرض النفاق أي: لكان هذا الإعراض منهم بسبب النفاق الكائن في قلوبهم ﴿وَأَمَّا أَرْتَابُوكَ﴾، وشكوا في أمر نبوتك ﷺ، وعنده في الحكم ﴿وَأَمَّا يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾، والحييف الميل في الحكم؛ يقال: حاف في قضيته أي: جار فيما حكم به، ثم أضرب عن هذه الأمور التي صدرها بالاستفهام الإنكاري، فقال ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك لشيء مما ذكر، بل لظلمهم، وعنادهم؛ فإنه لو كان الإعراض لشيء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحقّ لهم، وفي هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضي العالم بحكم الله العادل في حكمه؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، والحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب، والسنة، العادلين في القضاء. هو: حكم بحكم الله، وحكم رسوله، فالداعي إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى الله، وإلى رسوله أي: إلى حكمهما. قال ابن خويز منداد: واجب على كل من دعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق. قال القرطبي: في هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم، لأن الله سبحانه ذم من دعي إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذم، فقال ﴿إِنِّي قُلُوبُهُمْ مَّرْضٌ﴾ الآية. انتهى. فإن كان القاضي مقصراً لا يعلم بأحكام الكتاب، والسنة، ولا يعقل حجج الله، ومعاني كلامه، وكلام رسوله، بل كان جاهلاً جهلاً بسيطاً، وهو من لا علم له بشيء من ذلك، أو جهلاً مركباً، وهو: من لا علم عنده بما نكرنا، ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين، وأطلع على شيء من علم الرأي، فهذا في الحقيقة جاهل، وإن اعتقد أنه يعلم بشيء من العلم، فاعتقاده باطل؛ فمن كان من القضاة هكذا، فلا تجب الإجابة إليه؛ لأنه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين إليه، بل هو من قضاة الطاغوت، وحكام الباطل، فإن ما عرفه من علم الرأي إنما رخص في العمل به للمجتهد الذي هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب، والسنة، ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتي بعده. وإذا تقرر ذلك، فهذه حق فهمه علمت: أن التقليد، والإنساب إلى عالم من العلماء دون غيره، والتقليد بجميع ما جاء به من رواية، ورأي، وإهمال ما عناه من أعظم ما حدث في هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة، والفاقر الموحشة، فلنا لله وإنا إليه راجعون. وقد أوضحنا هذا في مؤلفنا الذي سميناه: [القول المفيد في حكم التقليد] وفي مؤلفنا الذي سميناه: [أدب الطلب] ومنتهى الأرب، فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التي طبقت

المبين: التبليغ الواضح، أو الموضح. قيل: يجوز أن يكون قوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ماضياً، وتكون الواو لضمير الغائبين، وتكون هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول الله ﷺ أن يقول لهم، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، والأول أرجح. ويؤيده الخطاب في قوله ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ﴾، وفي قوله ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا تَهْتَدُوا﴾، ويؤيده أيضاً قراءة البزي (فإن تولوا) بتشديد التاء، وإن كانت ضعيفة لما فيها من الجمع بين ساكنين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول الله ﷺ سبب لهدايتهم، وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله، وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم في الأرض لما استخلف الذين من قبلهم من الأمم، وهو وعد يعم جميع الأمة. وقيل: هو خاص بالصحاب، ولا وجه لذلك، فإن الإيمان، وعمل الصالحات لا يختص بهم، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومن عمل بكتاب الله، وسنة رسوله، فقد أطاع الله ورسوله، واللام في ﴿لِيَسْتَخْلَفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جواب لقسم محذوف، أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم، لأنه ناجز لا محالة، ومعنى ﴿لِيَسْتَخْلَفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: ليجعلهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك في مملوكاتهم، وقد أبعد من قال: إنها مختصة بالخلفاء الأربعة، أو بالمهاجرين، أو بأن المراد بالأرض أرض مكة، وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وظاهر قوله ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كل من استخلفه الله في أرضه، فلا يخص ذلك ببني إسرائيل، ولا أمة من الأمم دون غيرها. قرأ الجمهور ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾ بفتح الفوقية على البناء للفاعل. وقرأ عيسى بن عمر، وأبو بكر، والمفضل، عن عاصم بضمها على البناء للمفعول، ومحل الكاف النصب على المصدرية أي: استخلفاً كما استخلف، وجملة ﴿وَلِيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ معطوفة على ليستخلفنهم داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب، والمراد بالتمكين هنا: التثبيت، والتقرير أي: يجعله الله ثابتاً مقرراً، ويوسع لهم في البلاد، ويظهر دينهم على جميع الأديان، والمراد بالدين هنا: الإسلام، كما في قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] ذكر سبحانه وتعالى الإستخلاف لهم أولاً، وهو جعلهم ملوكاً، وذكر التمكين ثانياً، فافاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض، والطوبى، بل على وجه الاستقرار، والثبات، بحيث يكون الملك لهم، ولعقبهم من بعدهم، وجملة ﴿وَلِيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ معطوفة على التي قبلها. قرأ ابن كثير، وابن محيصن، ويعقوب، وأبو بكر (ليبذلنهم) بالتخفيف من أبيل، وهي قراءة الحسن، واختارها أبو حاتم. وقرأ الباقر بالتشديد من بئل، واختارها أبو عبيد، وهما لغتان، وزيادة البناء تدل على زيادة المعنى، فقراءة التشديد أرجح من قراءة التخفيف. قال النحاس: وزعم أحمد بن

والأخروي لا من: عداهم. ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا، فقال: ﴿وَاقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي: لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن، وجهد أيمانهم منتصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف الناصب له أي: أقسموا بالله يجهدون أيمانهم جهداً. ومعنى ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: طاقة ما قدروا أن يحلفوا، مأخوذ من قولهم جهد نفسه: إذا بلغ طاقتها، وأقصى وسعها. وقيل: هو منتصب على الحال والتقدير: مجتهدين في أيمانهم، كقولهم: أفعل ذلك جهداً، وطاقتك، وقد خلط الزمخشري الوجهين، فجعلهما واحداً. وجواب القسم قوله ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾، ولما كانت مقالتهم هذه كاذبة، وأيمانهم فاجرة رد الله عليهم، فقال ﴿قُلْ لَا تَقْسَمُوا﴾ أي: رد عليهم زاجراً لهم، وقل لهم: لا تقسموا أي: لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة، والخروج إلى الجهاد إن أمرتم به، وهاتنا تم الكلام. ثم ابتداء، فقال ﴿طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ﴾، وارتفاع طاعة على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد، ويجوز أن تكون طاعة مبتدأ، لأنها قد خصصت بالصفة، ويكون الخبر مقترناً أي: طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم، ويجوز أن ترتفع بفعل محذوف أي: لتكن منكم طاعة، أو لتوجد، وفي هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلا إذا تقدم ما يشعر به. وقرأ زيد بن علي، والترمذي (طاعة) بالنصب على المصدر لفعل محذوف أي: أطيعوا طاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال، وما تضمنونه من المخالفة لما تنطق به ألسنتكم، وهذه الجملة تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق. ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ: أن يأمرهم بطاعة الله ورسوله، فقال ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ طاعة ظاهرة، وباطنة بخلوص اعتقاد، وصحة نية، وهذا التكرير منه تعالى لتأكيد وجوب الطاعة عليهم، فإن قوله ﴿قُلْ لَا تَقْسَمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ﴾ في حكم الأمر بالطاعة، وقيل: إنها مختلفان، فالأول نهى بطريق الرد، والتوبيخ، والثاني أمر بطريق التكليف لهم، والإيجاب عليهم ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ خطاب للمأمورين، وأصله، فإن تتولوا، فحذف إحدى التامين تخفيفاً، وفيه رجوع من الخطاب مع رسول الله ﷺ إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم، والمبالغة في العناية بهدياتهم إلى الطاعة، والانقياد، وجواب الشرط قوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ﴾ أي: فاعلموا أنما على النبي ﷺ ما حمل مما أمر به من التبليغ، وقد فعل، وعليكم ما حملتم أي: ما أمرتم به من الطاعة، وهو وعيد لهم، كأنه قال لهم: فإن توليتهم، فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق، وترشدوا إلى الخير، وتفوزوا بالاجر، وجملة ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ مقررة لما قبلها، واللام إما للعهد، فيراد بالرسول نبينا ﷺ، وإما للجنس، فيراد كل رسول، والبلاغ

وبين الرجل خصومة، أو منازعة على عهد رسول الله ﷺ، فإذا دعي إلى النبي ﷺ، وهو محقّ أذعن، وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض، وقال: أنطلق إلى فلان، فأنزل الله سبحانه **﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** إلى قوله **﴿هُمْ الظالمون﴾**، فقال رسول الله ﷺ: «من كان بينه وبين أخيه شيء، فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين، فلم يجب، فهو ظالم لا حق له». قال ابن كثير بعد أن ساق هذا المتن ما لفظه: وهذا حديث غريب، وهو مرسل. وقال ابن العربي: هذا حديث باطل، فأما قوله: فهو ظالم، فكلام صحيح. وأما قوله: فلا حق له، فلا يصح. ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق. انتهى. وأقول: أما كون الحديث مرسلًا، فظاهر. وأما دعوى كونه باطلاً، فمحتاجة إلى برهان، فقد أخرجه ثلاثة من أئمة الحديث عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما نكرنا، ويبعد كل البعد أن يتفق عليهم ما هو باطل، وإسناده عند ابن أبي حاتم هكذا: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا مبارك، حدثنا الحسن، فنكره. وليس في هؤلاء كذاب، ولا وضاع. ويشهد له ما أخرجه الطبراني، عن الحسن، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعي إلى سلطان، فلم يجب، فهو ظالم لا حق له». انتهى. ولا يخفك أن قضية العدل، وحكام الشرع الذين هم على الصفة التي قمنا لك قريباً هم سلاطين الدين المترجمون عن الكتاب، والسنة، المبيّنون للناس ما نزل إليهم. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس قال: أتى قوم النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا، فأنزل الله **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية قال: ذلك في شأن الجهاد، قال: يأمرهم أن لا يحلفوا على شيء **﴿طاعة معروفة﴾** قال: أمرهم أن يكون منهم طاعة معروفة للنبي ﷺ من غير أن يقسموا. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد **﴿طاعة معروفة﴾** يقول: قد عرفت طاعتهم أي: إنكم تكذبون به. وأخرج مسلم، والترمذي، وغيرهما، عن علقمة بن وائل الحضرمي، عن أبيه قال: «قدم زيد بن أسلم على رسول الله ﷺ، فقال: أرايت إن كان علينا أمراء يأخذون منا الحق، ولا يعطونا؟ قال: فإنما عليهم ما حملوا، وعليكم ما حملتم». وأخرج ابن جرير، وابن قانع، والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي، عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: قلت: يا رسول، فذكر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن الزبير، عن جابر أنه سئل: إن كان عليّ إمام فاجر، فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا؟ قال: قاتل أهل الضلالة أينما وجبتهم، وعلى الإمام ما حمل، وعليكم ما حملتم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن البراء في قوله **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾** الآية. قال: فينا نزلت، ونحن في خوف شديد. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: «كان النبي ﷺ، وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين

يحيى ثعلب أن بين التخفيف والتثقيل فرقاً، وأنه يقال: بملكته أي: غيرته، وأبلىته: أزلته، وجعلت غيره. قال النحاس، وهذا القول صحيح. والمعنى: أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمناً، ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا الله سبحانه، ولا يرجون غيره. وقد كان المسلمون قبل الهجرة، وبعد ما بقليل في خوف شديد من المشركين، لا يخرجون إلا في السلاح، ولا يمسون ويصبحون إلا على ترقب لنزول المضرة بهم من الكفار، ثم صاروا في غاية الأمن، والدعة، وأذل الله لهم شياطين المشركين، وفتح عليهم البلاد، ومهد لهم في الأرض، ومكنهم منها، فله الحمد، وجملة **﴿يَعْبُدُونِي﴾** في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة للثناء عليهم، وجملة **﴿لَا يَشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾** في محل نصب على الحال من فاعل **﴿يَعْبُدُونِي﴾** أي: يعبدونني، غير مشركين بي في العبادة شيئاً من الأشياء، وقيل: معناه لا يرامون بعبادتي أحداً، وقيل: معناه لا يخافون غيري، وقيل: معناه لا يحبون غيري **﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** أي: من كفر هذه النعم بعد ذلك الوعد الصحيح، أو من استمر على الكفر، أو من كفر بعد إيمان، فأولئك الكافرون، هم الفاسقون: أي: الكاملون في الفسق. وهو الخروج عن الطاعة، والطفيان في الكفر، وجملة **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾** معطوفة على مقدر يدل عليه ما تقدم، كأنه قيل لهم: فآمنوا، وأعملوا صالحاً، وأقيموا الصلاة، وقيل: معطوف على **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾**، وقيل التقدير: فلا تكفروا، وأقيموا الصلاة. وقد تقدم الكلام على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وكرّر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد، وخصه بالطاعة، لأن طاعته طاعة لله، ولم ينكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشعر به الحذف على ما تقرّر في علم المعاني من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم **﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾** أي: افعلوا ما نكر من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول راجين أن يرحمكم الله سبحانه **﴿لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْجَازِينَ فِي الْأَرْضِ﴾** قرأ ابن عامر، وحمزة، وأبو حية (لا يحسبن) بالتحية بمعنى: لا تحسبن الذين كفروا، وقرأ الباقون بالفوقية أي: لا تحسبن يا محمد، والموصول المفعول الأول، ومعجزين الثاني، لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين، قاله الزجاج، والفراء، وأبو علي. وأما على القراءة الأولى، فيكون المفعول الأول محذوفاً أي: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم. قال النحاس: وما علمت أحداً بصرياً، ولا كوفياً، إلا وهو يخطئ قراءة حمزة، ومعجزين معناه: فائتين. وقد تقدم تفسيره، وتفسير ما بعده.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله **﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾** الآية قال: أناس من المنافقين أظهروا الإيمان، وهم في ذلك يصنّون عن سبيل الله وطاعته، وجهاد مع رسوله ﷺ. وأخرجوا أيضاً عن الحسن قال: إن الرجل كان يكون بينه،

عليكم، وفي بعضكم لاختلاف العاملين. ومعنى طوافون عليكم أي: يطوفون عليكم، ومنه الحديث في الهرة: «إنما هي من الطوافين عليكم، أو الطوافات، أي: هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم في غير هذه الأوقات بغير إذن، ومعنى ﴿بعضكم على بعض﴾: بعضكم يطوف، أو طائف على بعض، وهذه الجملة بدل مما قبلها، أو مؤكدة لها. والمعنى: أن كلا منكم يطوف على صاحبه العبيد على الموالي، والموالي على العبيد، ومنه قول الشاعر:

ولما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أثبت عيدانه أن تكسرا
وقرأ ابن أبي عبيدة (طوافين) بالنصب على الحال كما تقدم عن الفراء، وإنما أباح سبحانه الدخول في غير تلك الأوقات الثلاثة بغير استئذان، لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم في غيرها، والإشارة بقوله ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ إلى مصدر الفعل الذي بعده، كما في سائر المواضع في الكتاب العزيز أي: مثل تلك التبيين يبين الله لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام ﴿والله عليم حكيم﴾ كثير العلم بالمعلومات، وكثير الحكمة في أفعاله ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾ بين سبحانه هاهنا حكم الأطفال الأحرار إذا بلغوا الحلم بعد ما بين فيما مر حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم في أنه لا جناح عليهم في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، فقال

﴿فليستأنوا﴾ يعني: الذين بلغوا الحلم إذا دخلوا عليكم ﴿كما استأذن الذين من قبلهم﴾، والكاف نعت مصدر محذوف أي: استأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم، والموصول عبارة عن الذين قيل لهم: ﴿لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾ [النور: 27] الآية. والمعنى: أن هؤلاء الذين بلغوا الحلم يستأذنون في جميع الأوقات كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء، ثم كرر ما تقدم للتأكيد، فقال ﴿كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾. وقرأ الحسن (الحلم)، فحذف الضمة لثقلها. قال عطاء: واجب على الناس أن يستأنوا إذا احتلما أحراراً كانوا أو عبيداً. وقال الزهري: يستأن الرجل على أمه، وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية، والمراد بالقواعد من النساء: العجائز التي قعدن عن الحيض، والولد من الكبر، وأحدثها قاعد يلا هاء ليدل حذفاً على أنه قعود الكبر، كما قالوا: امرأة حامل ليدل بحذف الهاء على أنه حمل حبل، ويقال: قاعدة في بيتها، وحاملة على ظهرها. قال الزجاج: هن اللاتي قعدن عن التزويج، وهو معنى قوله ﴿اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾ أي: لا يطمعن فيه لكبرهن. وقال أبو عبيدة: اللاتي قعدن عن الولد، وليس هذا بمستقيم، لأن المرأة تقعد عن الولد، وفيها مستمتع. ثم نكر سبحانه حكم القواعد، فقال ﴿فليس عليهم جناح أن يضعن ثيابهن﴾ أي: الثياب التي تكون على ظاهر البنين كالجلباب ونحوه، لا الثياب التي على العورة الخاصة، وإنما جاز لهن ذلك لانصراف الانفس عنهن إذ لا رغبة للرجال فيهن، فإباح

الثياب، والخلو بالاهل، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل، فقال ﴿ثلاث عورات لكم﴾ قرأ الجمهور (ثلاث عورات) برفع ثلاث، وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم بالنصب على البديل من ثلاث مرات. قال ابن عطية: إنما يصح البديل بتقدير أوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، ويحتمل: أنه جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة؛ ويجوز أن يكون ثلاث عورات بدلاً من الأوقات المنكورة أي: من قبل صلاة الفجر إلخ؛ ويجوز أن تكون منصوبة بإضمار فعل أي: أعني، ونحوه، وأما الرفع فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هن ثلاث. قال أبو حاتم: النصب ضعيف مربود. وقال الفراء: الرفع أحب إلي، قال: وإنما اخترت الرفع لأن المعنى هذه الخصال ثلاث عورات. وقال الكسائي: إن ثلاث عورات مرتفعة بالإبتداء، والخبر ما بعدها. قال: والعورات الساعات التي تكون فيها العورة. قال الزجاج: للمعنى: ليستأننكم أوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وعورات جمع عورة، والعورة في الأصل الخلل، ثم غلب في الخلل الواقع فيما يهمن حفظه، ويتعين ستره أي: هي ثلاث أوقات يختل فيها الستر. وقرأ الأعمش (عورات) بفتح الواو، وهي لغة هذيل، وتميم، فإنهم يفتحون عين فعلن سواء كان وواو، أو ياء، ومنه:

أخو بيضات رايح متأوب رفيق بمسح المنكبين سبوح وقوله:

أبو بيضات رايح أو مبعد عجلان نازاد وغير مزود
ولكم متعلق بمحذوف، هو صفة لثلاث عورات أي: كائنة لكم، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ أي: ليس على المماليك، ولا على الصبيان جناح أي: إثم في الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجب من مخالفة الأمر، والإطلاع على العورات. ومعنى بعدهن: بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث، وهي الأوقات المتخللة بين كل اثنين منها، وهذه الجملة مستأنفة مقررة للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة، ويجوز أن تكون في محل رفع صفة لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها. قال أبو البقاء: ﴿بعدهن﴾ أي: بعد استئذانهم فيهن، ثم حذف حرف الجر والمجرور فبقي بعد استئذانهم، ثم حذف المصدر، وهو الاستئذان، والضمير المتصل به. وروى: بأنه لا حاجة إلى هذا التقدير الذي نكره، بل المعنى: ليس عليكم جناح، ولا عليهم أي: العبيد، والإماء، والصبيان جناح في عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المنكورة، وارتفاع ﴿طوافون﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم طوافون عليكم، والجملة مستأنفة مبينة للعذر المرخص في ترك الاستئذان. قال الفراء: هذا كقولك في الكلام هم خدمكم، وطوافون عليكم، وأجاز أيضاً نصب طوافين لانه نكرة، والمضمر في ﴿عليكم﴾ معرفة، ولا يجيز البصريون أن تكون حالا من المضمرين اللذين في

وبيوت الأمهات، ومن بعدهم. قال النحاس: وعارض بعضهم هذا، فقال: هذا تحكم على كتاب الله سبحانه بل الأولى في الظاهر أن يكون الابن مخالفاً لهؤلاء. ويجاب عن هذه المعارضة بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء لا تنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد، بل للآباء مزيد خصوصية في أموال الأولاد لحديث: «أنت، ومالك لأبيك»، وحديث: «ولد الرجل من كسبه»، ثم قد نكر الله سبحانه هاهنا بيوت الإخوة، والأخوات، بل بيوت الأعمام، والعلمات، بل بيوت الأخوال، والخالات، فكيف ينفي سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء، ولا ينفيه عن بيوت الأولاد؟ وقد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم. وقال آخرون: لا يشترط الإذن. قيل: وهذا إذا كان الطعام مبنوياً، فإن كان محرراً نونهم لم يجز لهم أكله. ثم قال سبحانه ﴿لَوْ مَا مَلَكَتْ مَفَاتِحَهُ﴾ أي: البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أربابها، وذلك كالوكلاء، والعبيد، والخزّان، فإنهم يملكون التصرف في بيوت من أذن لهم بدخول بيته، وإعطائهم مفاتيحه. وقيل: المراد بها بيوت الممالك. قرأ الجمهور (ملكتم) بفتح الميم، وتخفيف اللام. وقرأ سعيد بن جبيرة بضم الميم، وكسر اللام مع تشديدها. وقرأ أيضاً (مفاتيحه) بياء بين التاء، والحاء. وقرأ قتادة (مفاتيحه) على الإفراد، والمفاتيح جمع مفتاح، والمفاتيح جمع مفتاح ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم، وإن لم يكن بينكم وبينه قرابة، فإن الصديق في الغالب يسمح لصديقه بذلك، وتطيب به نفسه، والصديق يطلق على الواحد، والجمع، ومنه قول جرير:

دعون الهوى ثم أرتمين قلوبنا بأسهم أعداء ومن صديق ومثله العدو، والخليفة، والقطين، والعشير، ثم قال سبحانه ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا﴾ من بيوتكم ﴿جَمِيعاً أَوْ لِسِتَاتٍ﴾ انتصاب جميعاً وأشتاتاً على الحال. والأشتات جمع شت، والشت المصدر بمعنى: التفرق، يقال: شت القوم أي: تفرقوا، وهذه الجملة كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر من جنس ما قبله أي: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم مجتمعين، أو متفرقين، وقد كان بعض العرب يتحرّج أن يأكل وحده حتى يجد له أكياً يؤاكله، فيأكل معه، وبعض العرب كان لا يأكل إلا مع ضيف، ومنه قول حاتم:

إذا ما صنعت الزاد فالتمس لي أكياً فإني لست أكله وحدي ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ هذا شروع في بيان أنب آخر أنب به عبادته أي: إذا دخلتم بيوتاً غير البيوت التي تقدّم ذكرها ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم. وقيل: المراد البيوت المذكورة سابقاً. وعلى القول الأول، فقال الحسن، والنخعي: هي المساجد، والمراد سلموا على من فيها من صنفكم، فإن لم يكن في المساجد أحد، فقليل يقول: السلام على رسول الله، وقيل يقول: السلام عليكم مريداً للملائكة، وقيل يقول: السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين. وقال بالقول الثاني: أعني: أنها البيوت

الله سبحانه لهنّ ما لم يباح لغيرهنّ، ثم استثنى حالة من حالاتهنّ، فقال ﴿غَيْرِ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير مظهرات للزينة التي أمرن بإخفائها في قوله ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: 31]، والمعنى: من غير أن يردن بوضع الجلايبب إظهار زينتهنّ، ولا متعرّضات بالتزين لينظر إليهنّ الرجال. والتبرّج الكشف، والظهور للعين، ومنه ﴿بروج مشيدة﴾ [النساء: 78] وبروج السماء، ومنه قولهم: سفينة بارجة أي: لا غطاء عليها ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: وأن يتركن وضع الثياب فهو خير لهنّ من وضعها. وقرأ عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وابن عباس: (أن يضعن من ثيابهن) بزيادة من، وقرأ ابن مسعود (وأن يعففن) بغير سين ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ كثير السماع والعلم، أو بليغهما ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ قال بالأول جماعة من العلماء، وبالثاني جماعة. قيل: إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زناهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون لهم: قد أحلنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرّجون من ذلك وقالوا: لا ندخلها، وهم غيب، فنزلت هذه الآية رخصة لهم: فمعنى الآية: نفي الحرج عن الزمى في أكلهم من بيوت أقاربهم، أو بيوت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو. قال النحاس: وهذا القول من أجل ما روي في الآية لما فيه من الصحابة، والتابعين من التوقيف. وقيل: إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرّجون من مؤاكلة الأصحاء حذاراً من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تأنيهم بأفعالهم، فنزلت. وقيل: إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به القدرة الكاملة على المشي على وجه يتعذر الإتيان به مع العرج، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه، وقيل: المراد بهذا الحرج المرفوع عن هؤلاء هو المرج في الغزو أي: لا حرج على هؤلاء في تأخيرهم عن الغزو. وقيل: كان الرجل إذا أدخل أحداً من هؤلاء الزمناء إلى بيته، فلم يجد فيه شيئاً يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته، فيتخرج الزمى من ذلك، فنزلت. ومعنى قوله ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ عليكم، وعلى من يماثلكم من المؤمنين ﴿أَنْ تَأْكُلُوا﴾ أنتم، ومن معكم، وهذا ابتداء كلام أي: ولا عليكم أيها الناس. والحاصل: أن رفع الحرج عن الأعمى، والأعرج، والمريض إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء، أو دخول بيوتهم، فيكون ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ متصلاً بما قبله، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكليف التي يشترط فيها وجود البصر، وعدم العرج، وعدم المرض، فقله ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ابتداء كلام غير متصل بما قبله. ومعنى ﴿مَنْ بِيُوتِكُمْ﴾: البيوت التي فيها متاعهم، وأهلهم، فيدخل بيوت الأولاد، كذا قال المفسرون، لأنها داخلة في بيوتهم لكون بيت ابن الرجل بيته، فلذا لم ينكر سبحانه بيوت الأولاد، وذكر بيوت الآباء،

يدخل عليه صبي، ولا خادم إلا بإذنه حتى يصلي الغداة، وإذا خلا بأهله عند الظهر، فمثل ذلك، ورخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير إذن، وهو قوله **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾**، فأما من بلغ الحلم، فإنه لا يدخل على الرجل، وأهله إلا بإذن على كل حال، وهو قوله **﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾**. وأخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في السنن بسند صحيح من طريق عكرمة عنه أيضاً: أن رجلاً سأل عن الاستئذان في الثلاث العورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: وإن الله ستير يحب السترة، وكان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجاب في بيوتهم، فربما فجا الرجل خادمه، أو ولده، أو يتيماً في حجره، وهو على أهله، فامرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله، ثم جاء الله بعد بالاستور، فبسط عليهم في الرزق، فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجاب، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عمر في قوله **﴿ليستأنكم الذين ملكت إيمانكم﴾** قال: هي على الذكور دون الإناث، ولا وجه لهذا التخصيص، فالاطلاع على العورات في هذه الأوقات كما يكرهه الإنسان من الذكور يكرهه من الإناث. وأخرج ابن مريويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن بعض أزواج النبي **﴿في الآية قالت: نزلت في النساء أن يستأنن علينا. وأخرج الحاكم وصححه عن علي في الآية قال: النساء، فإن الرجال يستأننون. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن السلمي في هذه الآية قال: هي في النساء خاصة، الرجال يستأننون على كل حال بالليل، والنهار. وأخرج الفريابي، عن موسى بن أبي عائشة قال: سألت الشعبي عن هذه الآية أمسوخة هي؟ قال: لا. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عطاء، أنه سأل ابن عباس: أستانن على أختي؟ قال: نعم، قلت: إنها في حجري، وإنني اتفق عليها، وإنها معي في البيت أستانن عليها؟ قال: نعم، إن الله يقول **﴿ليستأنكم الذين ملكت إيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم﴾** الآية، فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا في هؤلاء العورات الثلاث، قال: **﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾** فالإذن واجب على كل خلق الله أجمعين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال: عليكم إذن على أمهاتكم. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب عنه قال: يستأنن الرجل على أبيه، وأمه، وأخيه، وأخته. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب، عن جابر نحوه. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في السنن عن عطاء بن يسار: «أن رجلاً قال: يا رسول الله أستانن على**

المذكورة سابقاً جماعة من الصحابة، والتابعين، وقيل: المراد بالبيوت هنا هي كل البيوت المسكونة، وغيرها، فيسلم على أهل المسكونة، وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه. قال ابن العربي: القول بالعموم في البيوت هو الصحيح، وانتصاب **﴿تحية﴾** على المصدرية، لأن قوله: **﴿فسلموا﴾** معناه: فحيوا أي: تحية ثابتة **﴿من عند الله﴾** أي: إن الله حياكم بها. وقال الفراء: أي: إن الله أمركم أن تفعلوها طاعة له، ثم وصف هذه التحية، فقال **﴿مباركة﴾** أي: كثيرة البركة والخير دائمتهما **﴿طيبة﴾** أي: تطيب بها نفس المستمع، وقيل: حسنة جميلة. وقال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر والثواب، ثم كرر سبحانه، فقال: **﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾** تأكيداً لما سبق. وقد قُتِمَا: أن الإشارة بذلك إلى مصدر الفعل **﴿لعلكم تعقلون﴾** تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات الله سبحانه وفهم معانيها.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان قال: بلغنا أن رجلاً من الأنصار، وأمراته أسماء بنت مرشدة صنعاً للنبي **﴿طعاماً﴾** فقالت أسماء: يا رسول الله ما أتبع هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها، وهما في ثوب واحد غلامهما بغير إذن، فأنزل الله في ذلك **﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأنكم الذين ملكت إيمانكم﴾** يعني: العبيد والإماء **﴿والذين لم يبلغوا الحلم منكم﴾** قال: من أحراركم من الرجال والنساء. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في هذه الآية قال: كان أناس من أصحاب رسول الله **﴿يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا، ثم يخرجوا إلى الصلاة، فامرهم الله أن يأمرؤا المملوكين، والغلمان، أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن. وأخرج ابن مريويه عن ثعلبة القرظي، عن عبد الله بن سويد قال: سألت رسول الله **﴿عن العورات الثلاث، فقال: إذا أنا وضعت ثيابي بعد الظهيرة لم يلج علي أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم، ولا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلا بإذن، وإذا وضعت ثيابي بعد صلاة العشاء، ومن قبل صلاة الصبح. وأخرجه عبد بن حميد، والبخاري في الأدب، عن عبد الله بن سويد من قوله. وأخرج نحوه أيضاً ابن سعد عن سويد بن النعمان. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: إنه لم يؤمن بها أكثر الناس يعني: آية الإذن، وإنني لأمر جاريتي هذه، لجارية قصيرة قائمة على رأسه أن تستأنن علي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهن **﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأنكم الذين ملكت إيمانكم﴾** والآية التي في سورة النساء **﴿وإذا حضر القسمة﴾** [النساء: 8] الآية، والآية التي في الحجرات **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** [الحجرات: 13]. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن عنه أيضاً في الآية قال: إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا****

بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن ياكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فانزل الله **﴿ليس على الأعمى حرج﴾** إلى قوله **﴿أو ما ملكتكم مفاتيحه﴾**، وهو: الرجل يوكل الرجل بضيعته، والذي رخص الله أن ياكل من ذلك الطعام، والتمر، ويشرب اللبن، وكانوا أيضاً يتحرجون أن ياكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم فقال **﴿ليس عليكم جناح أن تاكلوا جميعاً أو اشتاتاً﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى، ولا مريض، ولا أعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، فنزلت رخصة في مؤاكلتهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود في مراسيله، وابن جرير، والبيهقي، عن الزهري: أنه سئل عن قوله **﴿ليس على الأعمى حرج﴾** ما بال الأعمى، والأعرج، والمريض نكروا هنا؟ فقال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله: أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمتهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم يقولون: قد أحللتنا لكم أن تاكلوا مما في بيوتنا، وكانوا يتحرجون من ذلك يقولون: لا ندخلها، وهم غيب، فانزل الله هذه الآية رخصة لهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن ياكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل يسوق الزود الحفل، وهو جاثع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فانزل الله **﴿ليس عليكم جناح أن تاكلوا جميعاً أو اشتاتاً﴾**، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة، وأبي صالح قال: كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا ياكلون حتى ياكل الضيف معهم، فنزلت رخصة لهم. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس في الآية، قال: خرج الحارث غزياً مع رسول الله ﷺ، وخلف على أهله خالد بن يزيد، فخرج أن ياكل من طعامه، وكان مجهوداً، فنزلت. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله **﴿أو صديقكم﴾** قال: إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرتك، ثم أكلت من طعامه بغير إذنه لم يكن بذلك بأس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله **﴿أو صديقكم﴾** قال: هذا شيء قد انقطع، إنما كان هذا في أوله، ولم يكن لهم أبواب، وكانت الستور مرخاة، فربما نخل الرجل البيت، وليس فيه أحد، فربما وجد الطعام، وهو جاثع فسوغه الله أن ياكله. وقال: ذهب تلك اليوم البيوت فيها أهلها، فإذا خرجوا أغلقوا، فقد ذهب ذلك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله **﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم﴾** يقول: إذا دخلتم بيوتكم، فسلموا على أنفسكم **﴿تحية من عند الله﴾**، وهو السلام، لأنه اسم الله، وهو: تحية أهل الجنة. وأخرج البخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن طريق أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: إذا دخلت على أهلك، فسلم عليهم تحية من عند

أبي؟ قال: نعم، قال: إني معها في البيت، قال: استأذن عليها، قال: إني خادمها فاستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أحب أن تراها عريانة؟ قال: لا، قال: فاستأذن عليها، وهو مرسل. وأخرج ابن أبي شيبة نحوه عن زيد بن أسلم: أن رجلاً سأل النبي ﷺ، وهو أيضاً مرسل. وأخرج أبو داود، والبيهقي في السنن، عن ابن عباس **﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾** [النور: 31] الآية، فنسخ، واستثنى من ذلك **﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾** الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن عنه قال: هي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرع وخمار، وتضع عليها الجلاب ما لم تتبرج بما يكرهه الله، وهو قوله **﴿فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة﴾**. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الأنباري في المصاحف، والبيهقي عن ابن عباس: أنه كان يقرأ **﴿أن يضعن من ثيابهن﴾** ويقول: هو: الجلاب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن ابن عمر في الآية قال: تضع الجلاب. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن عن ابن مسعود **﴿أن يضعن ثيابهن﴾** قال: الجلاب، والرداء. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾** [النساء: 29] قالت الأنصار: ما بالمدينة مال أعز من الطعام كانوا يتحرجون أن ياكلوا مع الأعمى يقولون: إنه لا يبصر موضع الطعام، وكانوا يتحرجون الأكل مع الأعرج يقولون: الصحيح يسبقه إلى المكان، ولا يستطيع أن يزاحم، ويتحرجون الأكل مع المريض يقولون: لا يستطيع أن ياكل مثل الصحيح، وكانوا يتحرجون أن ياكلوا في بيوت أقاربهم، فنزلت **﴿ليس على الأعمى﴾** يعني: في الأكل مع الأعمى. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مقسم نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن مجاهد قال: كان الرجل يذهب بالأعمى، أو الأعرج، أو المريض إلى بيت أبيه، أو بيت أخيه، أو بيت عمه، أو بيت عمته، أو بيت خاله، أو بيت خالته، فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن النجار، عن عائشة قالت: كان المسلمون يرغبون في التقير مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتيحهم إلى أمثائهم، ويقولون لهم: قد أحللتنا لكم أن تاكلوا مما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن ناكل إنهم أنثوا لنا من غير طيب نفس، وإنما نحن زمنى، فانزل الله **﴿ولا على أنفسكم أن تاكلوا﴾** إلى قوله **﴿أو ما ملكتكم مفاتيحه﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس قال: لما نزلت **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾** [النساء: 29] قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن ناكل أموالنا

من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التي يراها رسول الله ﷺ، ثم أرشده الله سبحانه إلى الاستغفار لهم، وفيه إشارة إلى أن الاستئذان إن كان لعذر مسوغ، فلا يخلو عن شائبة تأثير أمر الدنيا على الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة بالغ فيهما إلى الغاية التي ليس وراءها غاية ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها أي: لا تجعلوا دعوتهم إياكم كالدعاء من بعضكم لبعض في التساهل في بعض الأحوال عن الإجابة، أو الرجوع بغير استئذان، أو رفع الصوت. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: المعنى قولوا: يا رسول الله في رفق ولين، ولا تقولوا: يا محمد بتجهم. وقال قتادة: أمرهم: أن يشرفوه، ويفخموه. وقيل: المعنى لا تتعرضوا لدعاء الرسول عليكم بإسقاطه، فإن دعوته موجبة ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لُؤَادًا﴾ التسلل: الخروج في خفية، يقال: تسلل فلان من بين أصحابه: إذا خرج من بينهم، واللؤاد من الملاوذة، وهو: أن تستتر بشيء مخافة من يراك، وأصله أن يلوذ هذا بذاك، وذلك بهذا، واللؤد ما يطيف بالجبل، وقيل: اللؤاد الزوغان من شيء إلى شيء في خفية. وانتصاب لؤاداً على الحال أي: متلاوئين يلوذ بعضهم ببعض، وينضم إليه، وقيل: هو منتصب على المصدرية لفعل مضمهر هو الحال في الحقيقة أي: يلونون لؤاداً. وقرأ زيد بن قطيب (لؤاداً) بفتح اللام. وفي الآية بيان ما كان يقع من المنافقين، فإنهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوئين ينضم بعضهم إلى بعض استتاراً من رسول الله ﷺ، وقد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين لما يرون من الاجتماع للصلاة، والخطبة، فكانوا يفرّون عن الحضور، ويتسللون في خفية، ويستتر بعضهم ببعض، وينضم إليه. وقيل: اللؤاد الفرار من الجهاد، وبه قال الحسن، ومنه قول حسان:

وقريش تجول منكم لؤاداً لم تحافظ وجف منها الحلو
﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي: يخالفون أمر النبي ﷺ بترك العمل بمقتضاه، وعدي فعل المخالفة بعن مع كونه متعدياً بنفسه لتضمينه معنى الإعراض، أو الصّد، وقيل: الضمير لله سبحانه لانه الأمر بالحقيقة، و﴿أن تصيبهم فتنه﴾ مفعول يحذر، وفاعله الموصول. والمعنى: فليحذر المخالفون عن أمر الله، أو أمر رسوله، أو أمرهما جميعاً إصابة فتنه لهم ﴿أو يصيبهم عذاب اليم﴾ أي: في الآخرة؛ كما أن الفتنه التي حذرهم من إصابتها لهم هي في الدنيا، وكلمة «أو» لمنع الخلو. قال القرطبي: احتج الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية، ووجه ذلك أن الله سبحانه قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقوله: ﴿أن تصيبهم فتنه﴾ الآية، فيجب امتثال أمره، وتحريم مخالفته، والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن، وقيل: هي القتل، وقيل: الزلزل، وقيل: تسلط سلطان جائر عليهم، وقيل: الطبع على قلوبهم.

الله ﴿مباركة طيبة﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس في قوله ﴿فاسلموا على أنفسكم﴾ قال: هو المسجد إذا دخلته، فقل: السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب عن ابن عمر قال: إذا دخل البيت غير المسكون، أو المسجد، فليقل: السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين.

إِنَّا الْتَمُوتُكَ الْيَزِيدَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا مِنَ الْيَزِيدِ يَسْتَأْذِنُكَ أَوْكَتِلَكَ الْيَزِيدُ يُؤْمِنُكَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذِنُكَ لِمَعْنٍ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ وَاسْتَفْتَرَ هُمْ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لُؤَادًا فليحذر الْيَزِيدُ يَحْذَرُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الْآ إِنَّكَ إِلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتَ عَلَيْهِ وَرَؤُوسَ رُجُومٍ إِنَّكَ بِبَيْنَتِهِمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

جملة ﴿إنما للمؤمنون﴾ مستأنفة مسوقة لتقدير ما تقدمها من الأحكام، و﴿إنما﴾ من صيغ الحصر. والمعنى: لا يتم إيمان، ولا يكمل حتى يكون ﴿بإله ورسوله﴾، وجملة ﴿وإذا كانوا معه على أمر جامع﴾ معطوفة على آمنا داخلة معه في حيز الصلة أي: إذا كانوا مع رسول الله على أمر جامع أي: على أمر طاعة يجتمعون عليها، نحو الجمعة، والنحر، والفطر، والجهاد، وأشباه ذلك، وسمى الأمر جامعاً مبالغة ﴿لم يذهبوا حتى يستأنفوه﴾ قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر، لم يخرج حتى يقوم بحيال النبي ﷺ حيث يراه، فيعرف أنه إنما قام ليستأنف، فيأذن لمن يشاء منهم. قال مجاهد: وإن الإمام يوم الجمعة: أن يشير بيده، قال الزجاج: أعلم الله أن المؤمنين إذا كانوا مع نبيه فيما يحتاج فيه إلى الجماعة لم يذهبوا حتى يستأنفوه، وكذلك ينبغي أن يكونوا مع الإمام لا يخالفونه، ولا يرجعون عنه في جمع من جموعهم إلا بإذنه، وللإمام أن يأنف، وله أن لا يأنف على ما يرى لقوله تعالى ﴿فأذن لمن شئت منهم﴾، وقرأ اليماني (على أمر جميع). والحاصل: أن الأمر الجامع، أو الجميع هو الذي يعم نفعه، أو ضرره، وهو الأمر الجليل الذي يحتاج إلى اجتماع أهل الرأي، والتجارب. قال العلماء: كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه، ولا يرجعون عنه إلا بإذن، ثم قال سبحانه ﴿إن الذين يستأنفونك أولئك الذين يؤمنون بإله ورسوله﴾ فبين سبحانه أن المستأنفين هم: المؤمنون بإله ورسوله كما حكم أولاً بأن المؤمنين الكاملين الإيمان هم: الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان ﴿فإذا استأنفوك لبعض شأنهم﴾ أي: إذا استأنف المؤمنون رسول الله ﷺ لبعض الأمور التي تهمهم، فإنه يأنف لمن شاء منهم، ويمنع

عقبة بن عامر قال: رأيت رسول الله ﷺ، وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة سورة النور، وهو جاعل على أصبعيه تحت عينيه يقول: بكل شيء بصير.

تفسير سورة الفرقان

وهي مكية كلها في قول الجمهور، وكذا أخرجه ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه من طرق عن ابن عباس. وأخرجه ابن مريويه، عن ابن الزبير. قال القرطبي: وقال ابن عباس، وقتادة: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: 68، 69، 70] الآيات. وأخرج مالك، والشافعي، والبخاري، ومسلم، وابن حبان، والبيهقي في سننه، عن عمر بن الخطاب قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكنت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلبثته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرانيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرانيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله، أقرئنا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، ثم قال: أقرئنا عمر، فقرأت القراءة التي أقراني، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَنْجِذُ رَكَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ يَنْدَرُ ﴿٢﴾ وَأَنذَرُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُوا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا إِنَّا نَمُوتُ وَأَنَّا نَمُوتُ قَوْمٌ مُّكْذِبُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُجْرًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَتُطِيعُونَ الْأَوَّلِينَ أَتَعْبُدُونَ فِئَةً شَأْنُهَا عَلَيْهِ بُكَرَةٌ وَأَصْلُهَا قُلٌّ أَنزَلَهُ اللَّهُ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٥﴾

تكلّم سبحانه في هذه السورة على التوحيد؛ لأنه أقدم وأهم، ثم في النبوة لأنها الوسطة، ثم في المعاد لأنه الخاتمة. وأصل تبارك مأخوذ من البركة، وهي: النماء والزيادة، حسية كانت أو عقلية. قال الزجاج: تبارك تفاعل، من البركة. قال: ومعنى البركة: الكثرة من كل ذي خير، وقال الفراء: إن تبارك وتقدس في العربية واحد، ومعناها: العظمة. وقيل: للمعنى تبارك عطاؤه أي: زاده، وكثر، وقيل: المعنى دام

قال أبو عبيدة، والآخرش: «عن» في هذا الموضع زائدة. وقال الخليل، وسيبويه: ليست بزائدة، بل هي بمعنى بعد، كقوله: «ففسق عن أمر ربه» [الكهف: 5] أي: بعد أمر ربه، والأولى ما نكرناه من التضمين ﴿إِلَّا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من المخلوقات بأسرها، فهي ملكه ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها العباد من الأحوال التي أنتم عليها، فيجازيكم بحسب ذلك، ويعلم ما هنا بمعنى علم ﴿وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ما أنتم عليه أي: يعلم ما أنتم عليه، ويعلم يوم يرجعون إليه، فيجازيكم فيه بما عملتم، وتعليق علمه سبحانه بيوم يرجعون لا بنفس رجوعهم لزيادة تحقيق علمه، لأن العمل بوقت وقوع الشيء يستلزم العلم بوقوعه على إبلغ وجه ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بما عملوا من الأعمال التي من جعلتها مخالفة الأمر، والظاهر من السياق: أن هذا الوعيد للمنافقين ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن عروة، ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسياخ من رومة بئر بالمدينة، قائدها أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنقمة إلى جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ، الخبر، فضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه المسلمون، وأبطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يوزنون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ، ولا إن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها ينكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأنه في الحقوق لحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنَّهُ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في الآية قال: هي في الجهاد، والجمعة، والعديد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله ﴿عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ قال: من طاعة الله عام. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، وأبو نعيم في الدلائل، عنه في قوله ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾ الآية قال: يعني: كدعاء أحكم إذا دعا أخاه باسمه، ولكن وقروه، وقولوا له: يا رسول الله يا نبي الله. وأخرج عبد الغني بن سعيد في تفسيره، وأبو نعيم في الدلائل عنه أيضاً في الآية قال: لا تصيحوا به من بعيد: يا أبا القاسم، ولكن كما قال الله في الحجرات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَسْوَاطَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: 3]. وأخرج أبو داود في مراسيله، عن مقاتل، قال: كان لا يخرج أحد لرعاف، أو أحداث حتى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام، فيأذن النبي ﷺ يشير إليه بيده، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة، والجلوس في المسجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج. فأنزل الله ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذٍ﴾ الآية. وأخرج أبو عبيد في فضائله، والطبراني، قال: السيوطي بسنن حسن، عن

لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً أي: لا يقدرُونَ على أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً، ولا يدفعوا عنها ضرراً، وقَدَّم نكر الضرر لأن نفعه أهم من جلب النفع، وإذا كانوا بحيث لا يقدرُونَ على الدفع والنفع فيما يتعلق بأنفسهم، فكيف يملكون ذلك لمن يعبدُهم؟ ثم زاد في بيان عجزهم، فنصص على هذه الأمور، فقال **﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾** أي: لا يقدرُونَ على إماتة الأحياء، ولا إحياء الموتى، ولا بعثهم من القبور، لأن النشور الإحياء بعد الموت، يقال: أنشَر الله الموتى، فنشروا، ومنه قول الأعشى:

حتى يقول الناس مमारوا يا عجباً للمميت الناشر
ولما فرغ من بيان التوحيد، وتزييف مذاهب المشركين شرع في نكر شبه منكري النبوة، فالشبهة الأولى ما حكاها عنهم بقوله **﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك﴾** أي: كذب **﴿افتراء﴾** أي: اختلقه محمد ﷺ، والإشارة بقوله **﴿هذا﴾** إلى القرآن **﴿وواعائه عليه﴾** أي: على الاختلاق **﴿قوم آخرون﴾** يعنون: من اليهود. قيل: وهم: أبو فكيهة يسار مولى الحضرمي، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى، وجبر مولى ابن عامر، وكان هؤلاء الثلاثة من اليهود، وقد مر الكلام على مثل هذا في النحل. ثم ردَّ الله سبحانه عليهم، فقال **﴿فقد جاءو ظلماً وزوراً﴾** أي: فقد قالوا ظلماً هاتلاً عظيماً، وكتباً ظاهراً، وانتصاب ظلماً بجاءوا، فإن جاء قد يستعمل استعمال آتى، ويعدَّى تعديته. وقال الزجاج: إنه منصوب بنزع الخافض، والأصل جاءوا بظلم. وقيل: هو منتصب على الحال، وإنما كان ذلك منهم ظلماً، لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه، وهذا هو الظلم، وأما كون ذلك منهم زوراً، فظاهر لأنهم قد كتبوا في هذه المقالة، ثم نكر الشبهة الثانية، فقال **﴿وقالوا أساطير الأولين﴾** أي: أحاديث الأولين، وما سطره من الأخبار، قال الزجاج: واحد الأساطير أسطورة مثل أحاديث وأحوتة، وقال غيره: أساطير جمع أسطار مثل أقاويل وأقوال **﴿اكتتبها﴾** أي: استكتبتها، أو كتبها لنفسه، ومحل اكتتبها النصب على أنه حال من أساطير، أو محله الرفع على أنه خبر ثانٍ، لأن أساطير مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هذه أساطير الأولين اكتتبها، ويجوز أن يكون أساطير مبتدأ، واكتتبها خبره، ويجوز أن يكون معنى (اكتتبها): جمعها من الكتب، وهو: الجمع، لا من الكتابة بالقلم، والأول أولى. وقرأ طلحة (اكتتبها) مبنيًا للمفعول، والمعنى: اكتتبها له كاتب، لأنه كان أمياً لا يكتب، ثم حذفت اللام، فاقضى الفعل إلى الضمير، فصار اكتتبها إياه، ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه، فانقلب مرفوعاً مستترأ بعد أن كان منصوباً بارزاً، كذا قال في الكشف، واعترضه أبو حيان **﴿فهي تملى عليه﴾** أي: تلقى عليه تلك الأساطير بعد ما اكتتبها، ليحفظها من أقواه من يملئها عليه من ذلك المكتتب لكونه أمياً لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه، ويجوز: أن يكون المعنى، اكتتبها: أراد اكتتابها **﴿فهي تملى عليه﴾** لأنه يقال: أملت عليه، فهو يكتب **﴿بكرة﴾**

وثبت. قال النحاس: وهذا أولاً في اللغة، والاشتقاق من برك الشيء إذا ثبت، ومنه برك الجمل، أي: دام، وثبت. واعترض ما قاله الفراء: بأن التقديس إنما هو من الطهارة، وليس من ذا في شيء. قال العلماء: هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي، والفرقان القرآن، وسمي فرقاناً: لأنه يفرق بين الحق والباطل بأحكامه، أو بين الحق والمبطل، والمراد بعبدته: نبينا ﷺ، ثم علل التنزيل **﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾** فإن النذارة هي الغرض المقصود من الإنزال، والمراد محمد ﷺ، أو للفرقان، والمراد بالعالمين هنا الإنس والجن، لأن النبي ﷺ مرسل إليهما، ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلًا إلى الثقلين، والنذير: المنذر أي: ليكون محمد منناراً، أو ليكون إنزال القرآن منناراً، ويجوز: أن يكون النذير هنا بمعنى المصير للمبالغة أي: ليكون إنزاله إنذاراً، أو ليكون محمد إنذاراً، وجعل الضمير للنبي ﷺ أولى، لأن صدور الإنذار منه حقيقة، ومن القرآن مجاز، والحمل على الحقيقة أولى، ولكونه أقرب مذكور. وقيل: إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى: **﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾** [الإسراء: 9]، ثم إنه سبحانه وصف نفسه بصفات أربع: الأولى **﴿له ملك للسموات والأرض﴾** دون غيره، فهو المتصرف فيهما، ويحتمل: أن يكون الموصول الآخر بدلاً، أو بياناً للموصول الأول، والوصف أولى، وفيه تنبيه على افتقار الكل إليه في الوجود، وتواضعه من البقاء، وغيره، والصفة الثانية **﴿ولم يتخذ ولداً﴾**، وفيه ردٌّ على النصارى، واليهود. والصفة الثالثة **﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾**، وفيه ردٌّ على طوائف المشركين من الوثنية، والثنية، وأهل الشرك الخفي. والصفة الرابعة **﴿وخلق كل شيء﴾** من الموجودات **﴿فقدَّره﴾** تقديره أي: قدر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد، وهياه لما يصلح له. قال الواحدي: قال المفسرون: قدر له تقديرًا من الأجل والرزق، فجرت المقادير على ما خلق. وقيل: أريد بالخلق هنا مجرد الإحداث، والإيجاد مجازاً من غير ملاحظة معنى التقدير، وإن لم يخل عنه في نفس الأمر، فيكون المعنى: أوجد كل شيء، فقدَّره لئلا يلزم التكرار، ثم صرح سبحانه بتزييف مذاهب عبدة الأوثان، فقال **﴿واتخذوا من دونه آلهة﴾**، والضمير في اتخذوا للمشركين، وإن لم يتقدم لهم نكر، لدلالة نفي الشريك عليهم أي: اتخذ المشركون لأنفسهم متجاوزين الله آلهة **﴿ولا يخلقون شيئاً﴾**، والجملة في محل نصب صفة لآلهة أي: لا يقدرُونَ على خلق شيء من الأشياء، وغلب العقلاء على غيرهم، لأن في معبودات الكفار الملائكة، وعزير، والمسيح **﴿وهم يخلقون﴾** أي: يخلقهم الله سبحانه. وقيل: عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جرياً على اعتقاد الكفار أنها تضر وتنفع. وقيل: معنى **﴿وهم يخلقون﴾**: أن عبيتهم يصورونهم. ثم لما وصف سبحانه نفسه بالقدرة الباهرة وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ، فقال **﴿ولا يملكون﴾**

أي: قرن كل واحد منهم إلى شيطانه، وقد تقدّم الكلام على مثل هذا في سورة إبراهيم ﴿دعوا هنالك﴾ أي: في ذلك المكان الضيق ﴿ثبورا﴾ أي: هلاكاً. قال الزجاج: وانتصابه على المصيرية أي: ثبورتنا ثبوراً، وقيل: منتصب على أنه مفعول له، والمعنى: أنهم يتمنون هنالك الهلاك، وينادونه لما حلّ بهم من البلاء، فأجيب عليهم بقوله ﴿لا تدعوا اليوم ثبورا واحداً﴾ أي: فيقال لهم هذه المقالة، والقاتل لهم هم الملائكة أي: اتركوا دعاء ثبور واحد، فإن ما أنتم فيه من الهلاك أكبر من ذلك، وأعظم، كذا قال الزجاج ﴿وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ والثبور مصدر يقع على القليل والكثير، فلماذا لم يجمع، ومثله ضربته ضرباً كثيراً، وقعد قعداً طويلاً، فالكثرة هنا هي بحسب كثرة الدعاء المتعلق به، لا بحسب كثرة في نفسه، فإنه شيء واحد، والمعنى: لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاء واحداً، وادعوه أدعية كثيرة، فإن ما أنتم فيه من العذاب أشدّ من ذلك لطول مدّته، وعدم تناهيه، وقيل: هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول، وقيل: إن المعنى: إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً بل هو ثبور كثير، لأن العذاب أنواع، والأولى أن المراد بهذا الجواب عليهم الدلالة على خلود عذابهم، وإقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجي لهم مما هم فيه. ثم وبّخهم الله سبحانه توبيخاً بالغا على لسان رسوله، فقال ﴿قل أأنلك خير أم الجنة الخلد التي وعد المتقون﴾ والإشارة بقوله ذلك إلى السعير المتصف بتلك الصفات العظيمة أي: أتلك السعير خير أم جنة الخلد، وفي إضافة الجنة إلى الخلد إشعار بدوام نعيمها، وعدم انقطاعه، ومعنى ﴿التي وعد للمتقون﴾: التي وعدوا للمتقون، والمجيء بلفظ خير هنا مع أنه لا خير في النار أصلاً، لأن العرب قد تقول ذلك، ومنه ما حكاه سيبويه عنهم: أنهم يقولون: السعادة أحب إليك أم الشقاوة؟ وقيل: ليس هذا من باب التفضيل، وإنما هو كقولك: عنده خير. قال النحاس: وهذا قول حسن كما قال:

اتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
ثم قال سبحانه ﴿كانت لهم جزاء ومصيراً﴾ أي: كانت تلك الجنة للمتقين جزاء على أعمالهم، ومصيراً يصيرون إليه ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ أي: ما يشاءونه من النعيم، وضروب الملذات كما في قوله: ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم﴾ [فصلت: 31]، وانتصاب خالدين على الحال، وقد تقدم تحقيق معنى الخلود. ﴿كان على ربك وعداً مسؤولاً﴾ أي: كان ما يشاءونه، وقيل: كان الخلود، وقيل: كان الوعد المنلول عليه بقوله ﴿وعد المتقون﴾ ومعنى الوعد المسؤول: الوعد المحقق بأن يسأل ويطلب كما في قوله: ﴿ربنا وآتانا وعدتنا على رسلك﴾ [آل عمران: 194]، وقيل: إن الملائكة تسأل لهم الجنة كقوله: ﴿وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾ [غافر: 8]، وقيل: المراد به الوعد الواجب، وإن لم يسأل.

إلى القدر في نبوة هذا النبي طريقاً من الطرق ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ أي: تكاثر خير الذي إن شاء جعل لك في الدنيا معجلاً خيراً من ذلك الذي اقترحوه. ثم فسر الخير، فقال ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، فجنات بدل من خيراً ﴿ويجعل لك قصوراً﴾ معطوف على موضع جعل، وهو الجزم، وبالجزم قرأ الجمهور. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر برفع (يجعل) على أنه مستأنف، وقد تقدّر في علم الإعراب: أن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع، فجاز أن يكون جعل هنا في محل جزم ورفع، فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم ويرفع. وقرئ بالنصب، وقرئ بإدغام لام لك في لام يجعل لاجتماع المثلثين. وقرئ بترك الإدغام: لأن الكلمتين منفصلتان، والقصر البيت من الحجارة: لأن الساكن به مقصور عن أن يوصل إليه، وقيل: هو بيت الطين، وبيوت الصوف والشعر. ثم أضرَب سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذي لا يصدر عن العقلاء، فقال ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ أي: بل أتوا بأعجب من ذلك كله. وهو تكذيبهم بالساعة، فلماذا لا ينتفعون بالدلائل، ولا يتأملون فيها. ثم نكر سبحانه ما أعدّه لمن كذب بالساعة، فقال ﴿واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ أي: ناراً مشتملة متسعة، والجملة في محل نصب على الحال أي: بل كذبوا بالساعة، والحال أنا اعتدنا. قال أبو مسلم: اعتدنا أي: جعلناه عتيداً، وعداً لهم ﴿إذا رآتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ هذه الجملة الشرطية في محل نصب صفة لسعيراً لأنه مؤنث بمعنى: النار، قيل: معنى إذا رآتهم: إذا ظهرت لهم، فكانت بمرأى الناظر في البعد، وقيل: المعنى: إذا رآتهم خزنتها، وقيل: إن الرؤية منها حقيقية، وكذلك التغيظ والزفير، ولا مانع من أن يجعلها الله سبحانه مدركة هذا الإدراك. ومعنى ﴿من مكان بعيد﴾: أنها رآتهم، وهي بعيدة عنهم، قيل: بينها وبينهم مسيرة خمسمائة عام. ومعنى التغيظ: أن لها صوتاً يدل على التغيظ على الكفار، أو لغيلانها صوتاً يشبه صوت المغتاط. والزفير: هو الصوت الذي يسمع من الجوف. قال الزجاج: المراد: سماع ما يدل على الغيظ، وهو الصوت أي: سمعوا لها صوتاً يشبه صوت التغيظ. وقال قطرب: أراد علموا لها تغيظاً، وسمعوا زفيراً كما قال الشاعر:

مقلداً سيفاً ورمحاً

أي: وحاملاً رمحاً، وقيل: المعنى: سمعوا فيها تغيظاً وزفيراً للمعذبين كما قال: ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ [هود: 106]، وفي اللام متقاربان، تقول: أفعَل هذا في الله وشه ﴿وإذا لقوا منها مكاناً ضيقاً﴾ وصف المكان بالضيق للدلالة على زيادة الشدة، وتنامي البلاء عليهم، وانتصاب ﴿مقرنين﴾ على الحال أي: إذا لقوا منها مكاناً ضيقاً حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع مصفدين بالحديد، وقيل: مكتفين، وقيل: قرنوا مع الشياطين

إيلس في تفسيره عن ابن عباس في قوله ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال: من مسيرة مائة عام، وذلك إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام يشد بكل زمام سبعون ألف ملك لو تركت لأتت على كل برّ وفاجر ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ تزفر زفرة لا تبقى قطرة من دمع إلا بدت، ثم تزفر الثانية، فتقطع القلوب من أماكنها، وتبلغ القلوب الحناجر. وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أسيد: أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله ﴿وَإِذَا لَقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُّقْرِنِينَ﴾ قال: والذي نفسي بيده إنهم ليستكروهم في النار كما يستكروه التود في الحائط. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَدَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ قال: ويلاً ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ يقول: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في البعث. قال السيوطي بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يَكْسِي حُلَّتَهُ مِنَ النَّارِ إِبْلِيسَ، فَيُضَعُّهَا عَلَى حَاجِبِيهِ، وَيُسْحِبُهَا مِنْ خَلْفِهِ، وَذَرِيَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ يَنَادِي يَا ثُبُورَاهُ، وَيَقُولُونَ يَا ثُبُورَهُمْ حَتَّى يَقِفَ عَلَى النَّاسِ، فَيَقُولُ: يَا ثُبُورَاهُ، وَيَقُولُونَ: يَا ثُبُورَهُمْ، فَيَقَالُ لَهُمْ ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾. وإسناد أحمد هكذا: حَدَّثَنَا عَفَانُ عَنْ حَمِيدِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَكَرَهُ. وَفِي عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ بَنِ جَدْعَانَ مَقَالَ مَعْرُوفٍ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مُسْوُوًّا﴾ يقول: سلوا الذي وعدتكم تتجزوه.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ رَبَّنَا يَئِجُودُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَا أَنتُمْ أَضِلُّنَا عَنْ عِبَادَتِي هَؤُلَاءَ أَمْ هُمْ سَكَّارُوا السَّيْلِ ﴿٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَلْبِسُنَا لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ نَتَّبِعُهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوءَ الْفُكْرَ وَنَأْكُلَ الْقَوْمَ يَوْمًا نَبُورًا ﴿٨﴾ فَتَذَكَّرُوكُمْ بِمَا تَفُوتُوكُمْ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسًا نَفْسًا نَفْسًا نَفْسًا نَفْسًا نَفْسًا وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ [الفرقان: 20] أي: جعلت بعضهم لبعض بلاء، لتصبروا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي، فلا يخالفون لفعلت. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن خزيمة قال: قيل للنبي ﷺ: «إِنْ شِئْتَ أَعْطَيْتُكَ مِنْ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وَمَفَاتِيحِهَا مَا لَمْ يُعْطِ نَبِيٌّ قَبْلَكَ، وَلَا نَعْطَاهَا أَحَدًا بَعْدَكَ، وَلَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ شِئْتَ جَمَعْتُهَا لَكَ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: أَجْمَعُوهَا لِي فِي الْآخِرَةِ، فَانْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا. وَأَخْرَجَ نَحْوَهُ عَنْهُ ابْنُ مَرْيُومَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ طَرِيقٍ خَالِدُ بْنُ دُرَيْكٍ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ، أَوْ ادْعِي إِلَى غَيْرِ وَالِدِي، أَوْ انْتَمِي إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَلْيَتَّبِعُوا بَيْنَ عَيْنِي جَهَنَّمَ مَقْعَدًا، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَهَلْ لَهَا مِنْ عَيْنَيْنِ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتُمْ اللَّهَ يَقُولُ ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾». وَأَخْرَجَ أَنَسُ بْنُ أَبِي

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس: أن عتبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البحتري، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيه بن الحجاج، ومنبه بن الحجاج اجتمعوا فقال بعضهم لبعض: ابعدوا إلى محمد، وكلموه، وخلصوه حتى تعذروا منه، فبعثوا إليه إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك؛ ليكلموك، قال: فجاءهم رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك؛ لنعذر منك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلب به الشرف، فنحن نسؤلك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك، فقال رسول الله ﷺ: «مَا بِي مِمَّا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ، وَلَا الشَّرَفَ فَيْكُمْ، وَلَا الْمَلِكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَبْعَثُنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمْرُنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَيُفْلِحَتْكُمْ رَسُولَاتِي، وَنُصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقَبَّلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ، فَهُوَ حِظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرْتُوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ مِنَّا شَيْئًا مِمَّا عَرْضْنَا عَلَيْكَ، أَوْ قَالُوا: فَإِذَا لَمْ تَفْعَلْ هَذَا، فَسَلْ لِنَفْسِكَ، وَسَلْ رَبِّكَ: أَنْ يَبْعَثَ مَعَكَ مَلَكًا يَصْلُقُكَ بِمَا تَقُولُ، وَيَرِاجِعُنَا عَنْكَ، وَسَلْ أَنْ يَجْعَلَ لَكَ جَنَانًا، وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ، وَفُضَّةً تَغْنِيكَ عَمَّا تَرَكَ تَبْتَغِي، فَإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ، وَتَلْتَمِسُ الْمَعَاشَ كَمَا تَلْتَمِسُهُ، حَتَّى تَعْرِفَ فَضْلَكَ، وَمِنْزَلَتَكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولًا كَمَا تَزْعُمُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، مَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا، وَمَا بَعَثَ إِلَيْكُمْ بِهَذَا، وَلَكِنْ اللَّهُ يَبْعَثُنِي بَشِيرًا، وَنَذِيرًا، فَانْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا لِلرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا. [الفرقان: 20] أي: جعلت بعضهم لبعض بلاء، لتصبروا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي، فلا يخالفون لفعلت. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن خزيمة قال: قيل للنبي ﷺ: «إِنْ شِئْتَ أَعْطَيْتُكَ مِنْ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وَمَفَاتِيحِهَا مَا لَمْ يُعْطِ نَبِيٌّ قَبْلَكَ، وَلَا نَعْطَاهَا أَحَدًا بَعْدَكَ، وَلَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ شِئْتَ جَمَعْتُهَا لَكَ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: أَجْمَعُوهَا لِي فِي الْآخِرَةِ، فَانْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا. وَأَخْرَجَ نَحْوَهُ عَنْهُ ابْنُ مَرْيُومَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ طَرِيقٍ خَالِدُ بْنُ دُرَيْكٍ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ، أَوْ ادْعِي إِلَى غَيْرِ وَالِدِي، أَوْ انْتَمِي إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَلْيَتَّبِعُوا بَيْنَ عَيْنِي جَهَنَّمَ مَقْعَدًا، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَهَلْ لَهَا مِنْ عَيْنَيْنِ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتُمْ اللَّهَ يَقُولُ ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾». وَأَخْرَجَ أَنَسُ بْنُ أَبِي

قوله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الظرف منصوب بفعل مضمر أي: وانكر، وتعليق التنكير باليوم مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة والتأكيد كما مر مراراً. قرأ ابن محيصن، وحמיד، وابن كثير، وحفص، ويعقوب، وأبو عمرو في رواية الدوري (يحشرهم) بالياء التحتية، واختارها أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله في أول الكلام ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ﴾ [الفرقان: 16]،

ووسعت عليهم الرزق، وأطلت لهم العمر حتى غفلوا عن نكرتك، ونسوا موعظتك، والتدبر لكتابتك، والنظر في عجائب صنعك، وغرائب مخلوقاتك. وقرأ أبو عيسى الأسود القارئ (ينبغي) مبنياً للمفعول. قال ابن خالويه: زعم سيبويه أنها لغة، وقيل: المراد بنسيان الذكر هنا هو ترك الشكر ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ أي: وكان هؤلاء الذين أشركوا بك، وعبدوا غيرك في قضائك الأزلّي قوماً بوراً أي: هلكى، مأخوذ من البوار، وهو الهلاك. يقال: رجل بائر، وقوم بور، يستوي فيه الواحد والجماعة، لأنه مصدر يطلق على القليل والكثير، ويجوز أن يكون جمع بائر. وقيل: البوار الفساد. يقال: بارت بضاعته أي: فسدت، وأمر بائر أي: فاسد، وهي لغة الأزد. وقيل: المعنى: لا خير فيهم، مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها من الزرع، فلا يكون فيها خير، وقيل: إن البوار الكساد، ومنه بارت السلعة إذا كسدت ﴿فقد كنزكم بما تقولون﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فقال الله عند تباري المعبوبين مخاطباً للمشركين العابدين لغير الله فقد كنزكم أي: فقد كنزكم المعبوبون بما تقولون أي: في قولكم إنهم آلهة ﴿فما يستطيعون﴾ أي: الآلهة ﴿صرفاً﴾ أي: دفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه، وقيل: حيلة ﴿ولا نصرأ﴾ أي: ولا يستطيعون نصركم، وقيل: المعنى: فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كنزهم المعبوبون صرفاً للعذاب الذي عذبهم الله به، ولا نصرأ من الله، وهذا الوجه مستقيم على قراءة من قرأ (تستطيعون) بالفوقية، وهي قراءة حفص، وقرأ الباقرن بالتحنية، وقال ابن زيد: المعنى: فقد كنزكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد ﷺ، وعلى هذا، فمعنى بما تقولون: ما تقولونه من الحق، وقال أبو عبيد: المعنى: فما يستطيعون لكم صرفاً عن الحق الذي هداكم الله إليه، ولا نصرأ لأنفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم. وقرأ الجمهور (بما تقولون) بالتاء الفوقية على الخطاب. وحكى للفراء: أنه يجوز أن يقرأ (فقد كنزكم) مخففاً بما يقولون، أي: كنزكم في قولهم، وكذا قرأ بالياء التحتية مجاهد، والبزي ﴿ومن يظلم منكم ننفقه عذاباً كبيراً﴾ هذا وعيد لكل ظالم، ويدخل تحته الذين فيهم السياق بخولاً أولاً، والعذاب الكبير عذاب النار، وقرئ (ينقه) بالتحنية، وهذه الآية وأمثالها مقيدة بعدم التوبة. ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله موضحاً لبطلان ما تقدم من قوله: ﴿يياكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ [الفرقان: 7] فقال ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ قال الزجاج: الجملة الواقعة بعد إلا صفة لموصوف محذوف، والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا أكليين وماشين، وإنما حذف الموصوف: لأن في قوله: ﴿من المرسلين﴾ دليلاً عليه، نظيره ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: 164] أي: وما منا أحد. وقال الفراء: لا محل لها من الإعراب، وإنما هي صلة لموصول محذوف هو المفعول، والتقدير: إلا من أنهم فالضمير في أنهم وما

والباقرن بالنون على التعظيم ما عدا الأعرج، فإنه قرأ (نحشرهم) بكسر الشين في جميع القرآن. قال ابن عطية: هي قليلة في الاستعمال قوية في القياس، لأن يفعل بكسر العين في المتعدي أقيس من يفعل بضمها، وردّه أبو حبان باستواء المضموم والمكسور إلا أن يشتهر أحدهما، اتبع ﴿وما يعبدون من دون الله﴾ معطوف على مفعول نحشر، وغلب غير العقلاء من الأصنام والأوثان، ونحوها على العقلاء من الملائكة، والجن، والمسيح تنبيهاً على أنها جميعاً مشتركة في كونها غير صالحة لكونها آلهة، أو لأن من يعبد من لا يعقل أكثر ممن يعبد من يعقل منها، فغلبت اعتباراً بكثرة من يعبد، وقال مجاهد، وابن جريج: المراد: الملائكة، والإنس، والجن، والمسيح، وعزير بنليل خطابهم وجوابهم فيما بعد. وقال الضحاك، وعكرمة، والكلبي: المراد: الأصنام خاصة، وإنها وإن كانت لا تسمع ولا تتكلم، فإن الله سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة، ﴿فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ قرأ ابن عامر، وأبو حية، وابن كثير، وحفص⁽¹⁾، (فنقول) بالنون، وقرأ الباقرن بالياء التحتية، واختارها أبو عبيد كما اختار القراءة بها في نحشرهم، وكذا أبو حاتم. والاستفهام في قوله ﴿أأنتم أضللتم﴾ للتوبيخ والتقريع، والمعنى: إكان ضلالهم بسببكم وبدعوتكم لهم إلى عبادتكم، أم هم ضلوا عن سبيل الحق بأنفسهم لعدم التفكير فيما يستدل به على الحق، والتدبر فيما يتوصل به إلى الصواب، وجملة ﴿قالوا سبحانه﴾ مستأنفة جواب سؤال مقتر، ومعنى ﴿سبحانك﴾: التعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة، أو أنبياء معصومين، أو جمادات لا تعقل أي: تنزيهاً لك. ﴿وما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء﴾ أي: ما صح، ولا استقام لنا أن نتخذ من دونك أولياء، فنعبد، فكيف ندعو عبادك إلى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبد غيرك، والولي يطلق على التابع كما يطلق على المتبوع، هذا معنى الآية على قراءة الجمهور (نتخذ) مبنياً للفاعل. وقرأ الحسن، وأبو جعفر (نتخذ) مبنياً للمفعول أي: ما كان ينبغي لنا أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك. قال أبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر: لا تجوز هذه القراءة، ولو كانت صحيحة لحنفت من الثانية، قال أبو عبيدة: لا تجوز هذه القراءة لأن الله سبحانه نكر «من» مرتين، ولو كان كما قرأ لقال: أن نتخذ من دونك أولياء. وقيل: إن «من» الثانية زائدة، ثم حكى عنهم سبحانه: بأنهم بعد هذا الجواب نكروا سبب ترك المشركين للإيمان، فقال ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر﴾ وفي هذا ما يدل على أنهم هم الذين ضلوا السبيل، ولم يضلهم غيرهم، والمعنى: ما أضللناهم، ولكنك يا رب متعتهم، ومتعت آباءهم بالنعم،

(1) (قوله وابن كثير وحفص) المشهور عنهما قراءتها بالياء التحتية

أي: لا إبالي، وقيل: المعنى: لا يخافون لقاء ربهم كقول الشاعر:

إذا لست للخل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل
أي: لم يخف، وهي لغة تهامة. قال الفراء وضع الرجاء موضع الخوف، وقيل: لا ياملون، ومنه قول الشاعر:

أترجومة قتلت حسينا شفاعة جده يوم الحساب
والحمل على المعنى الحقيقي أولى، فالمعنى: لا ياملون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب، ومعلوم أن من لا يرجو الثواب لا يخاف العقاب ﴿ولو أنزل علينا الملائكة﴾ أي: هلا أنزلوا علينا، فيخبرونا أن محمداً صادق، أو هلا أنزلوا علينا رسلاً يرسلهم الله ﴿أو نرى ربنا﴾ عياناً، فيخبرنا بأن محمداً رسول، ثم أجاب سبحانه عن شبهتهم هذه، فقال ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتواً كبيراً﴾ أي: أضمرنا الاستكبار عن الحق والعناد في قلوبهم كما في قوله: ﴿إن في صنورهم إلا كبر ما هم بباليغيه﴾ [غافر: 56]،

والعتو مجاوزة الحد في الطغيان، والبلوغ إلى أقصى غايته، ووصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة في غاية الكبر والعظم، فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم، بل جاوزوا ذلك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه، ورؤيته في الدنيا من دون أن يكون بينهم وبينه ترجمان، ولقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغاً هي أحقر، وأقل، وأرذل من أن تكون من أهله، أو تعد من المستعنيين له، وهكذا من جهل قدر نفسه، ولم يقف عند حده، ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى، وانتصاب ﴿يوم يرون الملائكة﴾ بفعل محذوف أي: وأنكر يوم يرون الملائكة رؤية ليست على الوجه الذي طلبوه، والصورة التي اقترحوها، بل على وجه آخر، وهو يوم ظهورهم لهم عند الموت، أو عند الحشر، ويجوز أن يكون انتصاب هذا الظرف بما يدل عليه قوله ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ أي: يمنعون البشرى يوم يرون، أو لا توجد لهم بشرى فيه، فاعلم سبحانه بأن الوقت الذي يرون فيه الملائكة، وهو وقت الموت، أو يوم القيامة قد حرمهم الله البشرى. قال الزجاج: المجرمون في هذا الموضع الذين اجترموا الكفر باله ﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ أي: ويقول الكفار عند مشاهدتهم للملائكة، حجراً محجوراً، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو، وهجوم نازلة يضعونها موضع الاستعانة، يقال للرجل: اتفعل كذا، فيقول: حجراً محجوراً أي: حراماً عليك التعرض لي. وقيل: إن هذا من قول الملائكة أي: يقولون للكفار: حراماً محرماً أن يدخل أحكم الجنة، ومن ذلك قول الشاعر:

ألا أصبحت أسماء حجراً محرماً وأصبحت من أنى حمومتها حماء
أي: أصبحت أسماء حراماً محرماً، وقال آخر:

حتت إلى النخلة للقصى فقلت لها حجر حرام إلا تلك الدهاريس
وقد نكر سيبويه في باب: المصادر المنصوبة بأفعال متروكة إظهارها هذه الكلمة، وجعلها من جملتها ﴿وقد معنا

بعده راجع إلى من المقترنة، ومثله قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا وأردها﴾ [مريم: 71] أي: إلا من يردها، وبه قرأ الكسائي، قال الزجاج: هذا خطأ؛ لأن من الموصولة لا يجوز حذفها. وقال ابن الأنباري: إنها في محل نصب على الحال، والتقدير: إلا وأنهم، فالمحذوف عنده الواو، قرأ الجمهور (إلا أنهم) بكسر إن لوجود اللام في خبرها كما تقرّر في علم النحو، وهو مجمع عليه عندهم. قال النحاس: إلا أن علي بن سليمان الأخفش حكى لنا عن محمد بن يزيد المبرد: أنه قال: يجوز في إن هذه الفتحة، وإن كان بعدها اللام، وأحسبه وهماً، وقرأ الجمهور (يمشون) بفتح الباء، وسكون الميم، وتخفيف الشين. وقرأ علي، وابن عوف، وابن مسعود بضم الباء، وفتح الميم، وضم الشين المشددة، وهي بمعنى القراءة الأولى، قال الشاعر:

أمشي باعطان المياه واتقي قلائص منها صعبة وركوب
وقال كعب بن زهير:

منه تظل سباع الحي ضامرة ولا تمشي بوادي الأراجيل
﴿وجعلنا بعضهم لبعض فتنة﴾ هذا الخطاب عام للناس، وقد جعل سبحانه بعض عباده فتنة لبعض، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، وقيل: المراد بالبعث الأول كفار الأمم، وبالبعض الثاني الرسل. ومعنى الفتنة: الابتلاء والمحنة. والأول أولى، فإن البعض من الناس ممتهن بالبعض مبتلى به؛ فالمرضى يقول: لم لم أجعل كالصحيح؟ وكذا كل صاحب آفة، والصحيح مبتلى بالمرضى، فلا يضجر منه، ولا يحقره، والغني مبتلى بالفقر يواسيه، والفقير مبتلى بالغني يحسده، ونحو هذا مثله، وقيل: المراد بالآية: أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم، ورأى الوضع قد أسلم قبله أنف، وقال: لا أسلم بعده، فيكون له علي السابقة والفضل، فيقيم على كفره، فذلك افتتان بعضهم لبعض، واختار هذا الفراء، والزجاج. ولا وجه لقصر الآية على هذا، فإن هؤلاء إن كانوا سبب النزول، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ثم قال سبحانه بعد الإخبار بجعل البعض للبعض فتنة ﴿اتصبرون﴾ هذا الاستفهام للتقدير، وفي الكلام حذف تقديره، أم لا تصبرون أي: اتصبرون على ما ترون من هذه الحال الشديدة، والابتلاء العظيم. قيل: موقع هذه الجملة الاستفهامية ما هنا موقع قوله: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ في قوله ﴿ليليولكم أيكم أحسن عملاً﴾ [هود: 7]، ثم وعد الصابرين بقوله ﴿وكان ربك بصيراً﴾ أي: بكل من يصبر ومن لا يصبر، فيجازي كلا منهما بما يستحقه. وقيل: معنى اتصبرون: اصبروا مثل قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: 91] أي: انتهوا ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ هذه المقالة من جملة شبههم التي قدحوا بها في النبوة، والجملة معطوفة على ﴿وقالوا مال هذا﴾ [الفرقان: 7] أي: وقال المشركون الذين لا يبالون بلقاء الله كما في قول الشاعر:

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

شدة الكفر. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ قال: يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطية العوفي نحوه. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ قال: عوناً معاذاً، الملائكة تقولوه. وفي لفظ قال: حراماً محرماً أن تكون البشرية في اليوم إلا للمؤمنين. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري في قوله ﴿وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ قال: حراماً محرماً أن نبشركم بما نبشر به المتقين. وأخرج عبد الرزاق، وابن

جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، وقتادة ﴿وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ قالوا: هي كلمة كانت العرب تقولها، كان الرجل إذا نزلت به شدة قال: حَجَرًا مَحْجُورًا حراماً محرماً. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وَقَدْ قُمْنَا إِلَىٰ مَآءِ عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ قال: عمدنا إلى ما عملوا من خير ممن لا يتقبل منه في الدنيا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿هَبَاءٌ مَّنْثُورًا﴾ قال: الهباء شعاع الشمس الذي يخرج من الكوة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب قال: الهباء وهيغ الغبار يسطع، ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء، فجعل الله أعمالهم كذلك. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الهباء الذي يطير من النار إذا اضطربت يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: هو ما تسفي الرياح وتبثه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو الماء المهرق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال: في الغرف من الجنة. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود قال: لا ينصرف النهار من يوم القيامة حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء، ثم قرأ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ وَتَكُونُ كَالْمُهْلِ ۖ وَتَوَدَّدَتِ الْكَوْكَبُ تَرِيلاً ۖ ﴿١٥﴾ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ۖ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ نَبَسَ الظُّلُمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَكُونِي أَعْتَدْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿١٧﴾ يَتَوَقَّى لَنِّي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿١٨﴾ لَقَدْ أَتَيْتُكَ مِنَ الْبُحْرِ إِذْ جَاءَتْنِي وَكَانَ الشَّطْرُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ﴿١٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٢٠﴾ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكُنَّ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٢١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَأْتِيكَ يَسْتَلٌ إِلَّا بِحُثُوكَ بِالنَّحْوِ وَأَحْسَنَ تَقْرِيرًا ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ كَلِمَاتَهُمْ أَزْوَاجًا مُّشْرُوفًا

إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ هذا وعيد آخر، وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالاً لها صورة الخير: من صلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وإطعام الطعام، وأمثالها، ولم يمنع من الإثابة عليها إلا الكفر الذي هم عليه، فمثلت حالهم وأعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم، واستعصوا عليه، فقدم إلى ما معهم من المتاع، فأنقده، ولم يترك منها شيئاً، وإلا فلا تقوم ما هنا. قال الواحدي: معنى قدمنا: عمدنا وقصدنا، يقال: قدم فلان إلى أمر كذا إذا قصد، أو عمد، ومنه قول الشاعر:

وقدم الخوراج الضلال إلى عباد ربهم فقالوا
إن نساءكم لنا حلال

وقيل: هو قديم الملائكة أخبر به عن نفسه تعالى، والهباء واحده هباءة، والجمع أهباء. قال النضر بن شميل: الهباء التراب الذي تطيره الريح كأنه نخان. وقال الزجاج: هو ما يدخل من الكوة مع ضوء الشمس يشبه الغبار، وكذا قال الأزهرى: والمنثور المفرق، والمعنى: أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور، لم يتكف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرق متبدد؛ وقيل: إن الهباء ما أثرته الرياح من يابس أوراق الشجر، وقيل: هو الماء المهرق، وقيل: الرماد. والأول هو الذي ثبت في لغة العرب، ونقله العارفون بها، ثم ميز سبحانه حال الأبرار من حال الفجار، فقال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ أي: أفضل منزلاً في الجنة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: موضع قائلة، وانتصاب مستقراً على التمييز. قال الأزهرى: القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر، وإن لم يكن مع ذلك يوم. قال النحاس: والكوفيون يجيزون: العسل أحلى من الخل.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿يَوْمَ نَحْشُرْهُمْ﴾ الآية قال: عيسى، وعزير، والملائكة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ قال: هلكى. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن الحسن في قوله ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مَنكُم﴾ قال: هو: الشرك. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: يشرك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ يقول: إن الرسل قبل محمد ﷺ كانوا بهذه المنزلة يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ قال: بلاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن الحسن ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ قال: يقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان، ويقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله ﴿وَعَتُوا عَتَاً كَبِيراً﴾ قال:

مَكَانًا وَأَصْلٌ سَبِيلًا ﴿٢٦﴾

كل ظالم يرد تلك المكان، وينزل تلك المنزل، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب **﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾** «يقول» في محل نصب على الحال، ومقول القول هو: يا ليتني، إلخ، والمنادى محذوف أي: يا قوم ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً طريقاً، وهو طريق الحق، ومشيت فيه حتى أخلص من هذه الأمور المضلة، والمراد: اتباع النبي ﷺ فيما جاء به **﴿يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾** دعاء على نفسه بالويل والثبور على مخاللة الكافر الذي أضله في الدنيا، وفلان كناية عن الأعلام. قال النيسابوري: زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان في الفصح إلا حكاية، لا يقال: جاءني فلان. ولكن يقال: قال زيد: جاءني فلان، لأنه اسم اللفظ الذي هو علم الاسم، وكذلك جاء في كلام الله. وقيل: فلان كناية عن علم نكرو من يعقل، وفلانة عن علم إناثهم. وقيل: كناية عن نكرة من يعقل من النكرو. وفلانة عمن يعقل من الإناث، وأما فلان وفلانة فكناية عن غير العقلاء، وقل يختص بالنداء إلا في ضرورة كقول الشاعر:

في لجة امسك فلاناً عن فل

وقوله:

حنّاني عن فلان وفل

وليس فل مرخماً من فلان خلافاً للفرأ. وزعم أبو حيان أن ابن عصفور، وابن مالك، وهما في جعل فلان كناية علم من يعقل. وقرأ الحسن (يا ويلتي) بالياء الصريحة، وقرأ البوري بالإمالة. قال أبو علي: وترك الإمالة أحسن، لأن أصل هذه اللفظة الياء، فأبليت الكسرة فتحة، والياء التاء فراراً من الياء، فمن أمال رجع إلى الذي فر منه **﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾** أي: والله لقد أضلني هذا الذي اتخذته خليلاً عن القرآن، أو عن الموعدة، أو كلمة الشهادة، أو مجموع ذلك. بعد إذ جاءني، وتمكنت منه، وقدرت عليه **﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾** الخذل ترك الإغائة، ومنه خذلان إبليس للمشركين حيث يوالونه، ثم يتركهم عند استغاثتهم به، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى، أو من تمام كلام الظالم، وأنه سمى خليله شيطاناً بعد أن جعله مضلاً. أو أراد بالشيطان إبليس لكونه الذي حمله على مخاللة المضلين **﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾** معطوف على **﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾** [الفرقان: 21]، والمعنى: إن قومي اتخذوا هذا القرآن الذي جئت به إليهم، وأمرتني بإبلاغه، وأرسلتني به مهجوراً متروكاً لم يؤمنوا به، ولا قبلوه بوجه من الوجوه، وقيل: هو من هجر إذا هذى. والمعنى: أنهم اتخذوه هجراً، وهنيئناً. وقيل: معنى **﴿مهجوراً﴾** مهجوراً فيه، ثم حذف الجار، وهجرهم فيه قولهم: إنه سحر، وشعر، وأساطير الأولين، وهذا القول يقوله الرسول ﷺ يوم القيامة: وقيل: إنه حكاية لقوله ﷺ في الدنيا **﴿وكنك جعلنا لكل نبي عدواً من**

قوله **﴿ويوم تشق السماء بالغمام﴾** وصف سبحانه هاهنا بعض حوادث يوم القيامة، والتشقق التفتح، قرأ عاصم، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو (تشقق) بتخفيف الشين، وأصله تشقق، وقرأ الباقون بتشديد الشين على الإدغام. واختار القراءة الأولى أبو عبيد، واختار الثانية أبو حاتم، ومعنى تشققها بالغمام: أنها تشقق عن الغمام. قال أبو علي الفارسي: تشقق السماء، وعليها غمام كما تقول: ركب الأمير بسلاحه أي: وعليه سلاحه، وخرج بثيابه أي: وعليه ثيابه. ووجه ما قاله: أن الباء وعن يتعاقبان كما تقول: رميت بالقوس. وعن القوس، وروي أن السماء تشقق عن سحب رقيق أبيض، وقيل: إن السماء تشقق بالغمام الذي بينها وبين الناس. والمعنى: أنه يتشقق السحاب بتشقق السماء، وقيل: إنها تشقق لنزول الملائكة، كما قال سبحانه بعد هذا **﴿ونزل الملائكة تزيلاً﴾** وقيل: إن الباء في بالغمام سببية أي: بسبب الغمام، يعني: بسبب طلوعه منها كأنه الذي تشقق به السماء، وقيل: إن الباء متعلقة بمحذوف أي: ملتبسة بالغمام. قرأ ابن كثير (ونزل الملائكة) مخففاً، من الإنزال بنون بعدها نون ساكنة، (وزاي) مخففة بكسرة مضارع أنزل، والملائكة منصوبة على المفعولية. وقرأ الباقون من السبعة (ونزل) بضم النون، وكسر الزاي المشددة ماضياً مبنياً للمفعول، وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء (نزل) بالتشديد ماضياً مبنياً للمفاعل، وفاعله الله سبحانه، وقرأ أبي بن كعب (أنزل الملائكة)، وروي عنه: أنه قرأ (تنزلت الملائكة)، وقد قرئ في الشواذ بغير هذه، وتأكيد هذا الفعل بقوله **﴿تنزيلاً﴾** يدل على أن هذا التنزيل على نوع غريب، ومنط عجيب. قال أهل العلم: إن هذا تنزيل رضا ورحمة لا تنزيل سخط وعذاب **﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾** الملك مبتدأ، والحق صفة له وللرحمن. الخبر كذا قال الزجاج: أي: الملك الثابت الذي لا يزول للرحمن يومئذ، لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك في الحقيقة، وفائدة التقييد بالظرف أن ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصة في هذا اليوم. وأما فيما عداه من أيام الدنيا، فلغيره ملك في الصورة، وإن لم يكن حقيقاً. وقيل: إن خبر المبتدأ هو الظرف، والحق نعت للملك. والمعنى: الملك الثابت للرحمن خاص في هذا اليوم **﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾** أي: وكان هذا اليوم مع كون الملك فيه لله وحده شديداً على الكفار لما يصابون به فيه، وينالهم من العقاب بعد تحقيق الحساب، وأما على المؤمنين فهو يسير غير عسير، لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى العظيمة **﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾** الظرف منصوب بمحذوف أي: واذكر، كما انتصب بهذا المحذوف الظرف الأول، أعني: يوم تشقق، ويوم يعض الظالم على يديه، الظاهر أن العض هنا حقيقة، ولا مانع من ذلك، ولا موجب لتأويله. وقيل: هو كناية عن الغيظ والحسرة، والمراد بالظالم

نريعته، ويبطل شبهته، ويحسم مائته. ومعنى ﴿أحسن تفسيراً﴾: جئناك بأحسن تفسير، فأحسن تفسيراً معطوف على الحق، والإستثناء بقوله ﴿إلا جئناك﴾ مفرغ، والجمله في محل نصب على الحال أي: لا يأتونك بمثل إلا في حال إيتائنا إياك ذلك. ثم أورد هؤلاء الجهلة، وبهمهم فقال ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾ أي: يحشرون كأنهم على وجوههم، والموصول مبتدأ، وخبره: أولئك، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين، ويجوز نصبه على الذم. ومعنى ﴿يحشرون على وجوههم﴾: يسحبون عليها إلى جهنم ﴿أولئك شر مكاناً﴾ أي: منزلاً ومصيراً ﴿وأفضل سيلاً﴾، وأخطأ طريقاً، وذلك لأنهم قد صاروا في النار. وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة سبحان، وقد قيل: إن هذا متصل بقوله: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ [الفرقان: 24].

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس في قوله ﴿يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ قال: يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد: الجن، والإنس، والبهائم، والسباع، والطير، وجميع الخلق، فتتشقق السماء الدنيا، فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الجن، والإنس، وجميع الخلق، فيحيطون بالجن، والإنس، وجميع الخلق، فيقول أهل الأرض: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، ثم تنشق السماء الثانية، ونكر مثل ذلك، ثم كذلك في كل سماء إلى السماء السابعة، وفي كل سماء أكثر من السماء التي قبلها، ثم ينزل ربنا في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون، وهم أكثر من أهل السموات السبع، والإنس، والجن، وجميع الخلق لهم قرون ككعوب القثاء، وهم تحت العرش، لهم زجل بالتسبيح، والتلهيل، والتقدس لله تعالى، ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، ومن ركبته إلى فخذيه مسيرة خمسمائة عام، ومن فخذيه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام، وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام. وإسناده عند ابن جرير هكذا قال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني الحجاج بن مبارك بن فضالة عن علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران: أنه سمع ابن عباس، فنكره. وأخرجه ابن أبي حاتم بإسناد هكذا: قال: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث مأمول، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد به. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل بسند، قال السيوطي: صحيح من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن أبا معيط كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكان رجلاً حليماً، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آنوه، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبا أبو معيط، وقدم خليله من الشام ليلاً، فقال لامراته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشد ما كان أمراً، فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صبا، فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط، فحياه، فلم يرد عليه

للمجرمين. هذا تسليية من الله سبحانه لرسوله ﷺ، والمعنى: أن الله سبحانه جعل لكل نبي من الأنبياء الداعين إلى الله علواً يعابيه من مجرمي قومه، فلا تجزع يا محمد، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك، وأصبر كما صبروا ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ قال المفسرون: الباء زائدة أي: كفى ربك، وانتصاب نصيراً وهادياً على الحال، أو التمييز أي: يهدي عباده إلى مصالح الدين، والدنيا، وينصرهم على الأعداء ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ هذا من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم أي: ملا نزل الله علينا هذا القرآن بقعة واحدة غير منجم. واختلف في قائل هذه المقالة: فقيل: كفار قريش، وقيل: اليهود، قالوا: ملا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة، والإنجيل، والزبور، وهذا زعم باطل، ودعوى داحضة، فإن هذه الكتب نزلت مفرقة كما نزل القرآن، ولكنهم معانئون، أو جاهلون لا يدرون بكيفية نزول كتب الله سبحانه على أنبيائه، ثم رد الله سبحانه عليهم، فقال ﴿كنذك﴾ لثبث به فؤادك أي: نزلنا القرآن كذلك مفرقاً، والكاف في محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف، وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم أي: مثل تلك التنزيل المفرق الذي قدحوا فيه، واقترحوا خلافة؛ نزلناه لنقوي بهذا التنزيل على هذه الصفة فؤادك، فإن إنزاله مفرقاً منجماً على حسب الحوائث أقرب إلى حفظك له، وفهمك لمعانيه، وذلك من أعظم أسباب التثبيت، واللام متعلقة بالفعل المحذوف الذي قدرناه. وقال أبو حاتم: إن الاخفش قال: إنها جواب قسم محذوف. قال: وهذا قول مرجوح. وقرأ عبد الله (ليثبت) بالتحية أي: الله سبحانه، وقيل: إن هذه الكلمة أعني: كذلك، هي من تمام كلام المشركين، والمعنى كذلك أي: كالتوراة، والإنجيل، والزبور، فيوقف على قوله ﴿كنذك﴾، ثم يبتدأ بقوله: ﴿لنثبت به فؤادك﴾ على معنى: أنزلناه عليك متفرقاً لهذا الغرض. قال ابن الأنباري: وهذا أجود وأحسن. قال النحاس: وكان ذلك أي: إنزال القرآن منجماً من أعلام النبوة لأنهم لا يسألونه عن شيء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبي، فكان ذلك تثبتيًا لفؤاده وأثبتتهم. ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ هذا معطوف على الفعل المقدر أي: كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلاً، ومعنى الترتيل: أن يكون آية بعد آية، قاله النخعي، والحسن، وقتادة. وقيل: إن المعنى بيناه تبيناً، حكى هذا عن ابن عباس. وقال مجاهد: بعضه في إثر بعض. وقال السدي: فصلناه تفصيلاً. قال ابن الأعرابي: ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين. ثم نكر سبحانه أنهم محجوجون في كل أوان مدفوع قولهم بكل وجه، وعلى كل حالة، فقال ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ أي: لا يأتيك يا محمد المشركون بمثل من أمثالهم التي من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة إلا جئناك في مقابلة مثلمهم بالجواب الحق الثابت الذي يبطل ما جاءوا به من المثل ويدمغه وينفعه. فالمراد بالمثل هنا السؤال، والإقتراح، و «بالحق» جوابه الذي يقطع

وَسَوْفَ يَسْمَعُونَ حُرُوتَ رَبِّكَ أَتَيْنَاكَ مِنْ أَهْلِ سَبِيلٍ ﴿١٠﴾ أَوْبَيْتَ مِنْ أَخَذَ إِلَهُهُمْ هَوْنَهُ فَأَنَّتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١١﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَهْلُ سَبِيلٍ ﴿١٢﴾

اللام في قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ جواب قسم محذوف أي: والله لقد آتينا موسى التوراة، ذكر سبحانه طرفاً من قصص الأولين تسلياً له ﷺ بأن تكتنّب قوم أنبياء الله لهم عادة للمشركين بالله، وليس ذلك بخاص بمحمد ﷺ، و﴿هَرُونَ﴾ عطف بيان ويجوز: أن ينصب على القطع، و﴿وَزِيرًا﴾ المفعول الثاني، وقيل: حال، والمفعول الثاني معه، والأول أولى. قال الزجاج: الوزير في اللغة الذي يرجع إليه، ويعمل برأيه، والوزر ما يعتصم به، ومنه ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: 11]. وقد تقدّم تفسير الوزير في طه، والوزارة لا تنافي النبوة، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء، ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضاً. وقد كان هارون في أول الأمر وزيراً لموسى، ولاشتراكهما في النبوة قيل لهما ﴿أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، وهم فرعون وقومه، والآيات هي التسع التي تقدم ذكرها، وإن لم يكونا قد كذبا بها عند أمر الله لموسى، وهرون بالذهاب بل كان التكتنّب بعد ذلك، لكن هذا الماضي بمعنى المستقبل على عادة إخبار الله أي: أذهبوا إلى القوم الذين يكذبون بآياتنا. وقيل: إنما وصفوا بالتكتنّب عند الحكاية لرسول الله ﷺ بيانا لعله استحقاقهم للعذاب. وقيل: يجوز أن يراد إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا. وقيل: إن المراد بوصفهم بالتكتنّب عند الإرسال: أنهم كانوا مكذبين للآيات الإلهية، وليس المراد آيات الرسالة. قال القشيري: وقوله: تعالى في موضع آخر: ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: 24] لا ينافي هذا لأنهما إذا كانا مأمورين، فكل واحد مأمور. ويمكن أن يقال: إن تخصيص موسى بالخطاب في بعض المواطن لكونه الأصل في الرسالة، والجمع بينهما في الخطاب لكونهما مرسلين جميعاً ﴿فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ في الكلام حذف أي: فذهب إليهم، فكنبوهم، فدمرناهم أي: أهلكناهم إثر ذلك للتكتنّب إهلاكاً عظيماً. وقيل: إن المراد بالتدمير هنا الحكم به، لأنه لم يحصل عقب بعث موسى وهارون إليهم، بل بعده بمنه ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ﴾ لما كذبوا للرسول أغرقناهم في نصب قوم أقوال: العطف على الهاء، والميم في ممرناهم، أو النصب بفعل محذوف أي: أنكر، أو بفعل مضمّر يفسره ما بعده، وهو أغرقناهم أي: أغرقنا قوم نوح أغرقناهم. وقال الفراء: هو منصوب بأغرقناهم المذكور بعده من نون تقدير مضمّر يفسره ما بعده، ورده النحاس: بأن أغرقنا لا يتعدى إلى مفعولين حتى يعمل في الضمير المتصل به، وفي قوم نوح، ومعنى ﴿لَمَّا كَذَبُوا الرَّسُلَ﴾: أنهم كذبوا نوحاً، وكذبوا من قبله من رسل الله. وقال الزجاج: من كذب نبياً فقد كذب جميع الأنبياء، وكان إغراقهم بالطوفان كما تقدّم في هود ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي: جعلنا إغراقهم، أو قصتهم

التحية، فقال: مالك لا ترد عليّ تحيتي؟ فقال: كيف أرد عليك تحيتك، وقد صوبت؟ قال: أو قد فعلتها قريش؟ قال نعم، قال: فما يبريء صدورهم إن أنا فعلته؟ قال: تأتيه في مجلسه فتبزيق في وجهه، وتشتبه بأخبث ما تعلم من الشتم، ففعل فلم يرد رسول الله ﷺ على أن مسح وجهه من البزاق، ثم التفت إليه فقال: «إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صبراً، فلما كان يوم بدر، وخرج أصحابه لبي أن يخرج، فقال له أصحابه: أخرج معنا، قال: وعندي هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً، فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك، فلو كانت الهزيمة طرت عليه، فخرج معهم، فلما هزم الله المشركين، وحمل به جملة في جلود من الأرض، فأخذه رسول الله ﷺ أسيراً في سبعين من قريش، وقدم إليه أبو معيط، فقال: أتقتلني من بين هؤلاء؟ قال: نعم بما برزت في وجهي، فأنزل الله في أبي معيط ﴿يَوْمَ يَعْصِي لِلظَّالِمِ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ لِلشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ خُلُولًا﴾. وأخرج أبو نعيم هذه القصة من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، ونكر: أن خليل أبي معيط، هو أبي بن خلف. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أيضاً في قوله ﴿يَوْمَ يَعْصِي لِلظَّالِمِ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ قال: أبي بن خلف، وعقبه بن أبي معيط، وهما الخليطان في جهنم. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله ﴿وَكُنْكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ﴾ قال: كان عدو النبي ﷺ أبو جهل، وعدو موسى قارون، وكان قارون ابن عم موسى. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: قال المشركون: لو كان محمد كما يزعم نبياً، فلم يعنّه ربه؟ إلا ينزل عليه القرآن جملة واحدة! ينزل عليه الآية والآيتين، والسورة والسورتين، فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ إلى ﴿وَاضِلٍ سَبِيلًا﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿لَنُنَبِّئَنَّ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ قال: لنشد به فؤادك ونربط على قلبك ﴿وَوَرْتَلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ قال: رسلناه ترسيلاً، يقول شيئاً بعد شيء ﴿وَلَا يَتُوكَ بِمِثْلِ﴾ يقول: لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة، ثم سالوك لم يكن عنده ما يجيب، ولكننا نمسك عليك، فإذا سالوك أجبت.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَهَمَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْرًا ﴿١٠﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿١١﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَهَمَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْنَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢﴾ وَكَانَ زَكَرِيَّا وَرَأْسَ الْوَحْيِ وَفُؤَادًا بَيْنَ ذَلِكَ كَبِيرًا ﴿١٣﴾ وَكَانَ مَرْبَاةً الْأَمْتَلُ وَكَانَ تَرَبَّاتًا تَبِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى النَّبِيِّ أَنبُطَ طَبَرِ السَّوَةِ أَنْتُمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرَوْنَ شُرُوكَ ﴿١٥﴾ وَإِذَا رَأَوْهُ إِذَا يَخْذُلُوكَ إِلَّا هُرُؤًا أَهْدَا أَلْوَى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿١٦﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن مَرْبَاةً عَلَيْهَا

وللناس آية أي: عبرة لكل الناس على العموم يتعظ بها كل مشاهد لها، وسامع لخبرها ﴿واعتدنا للظالمين﴾ المراد بالظالمين قوم نوح على الخصوص. ويجوز أن يكون المراد كل من سلك مسلكهم في التكذيب والعذاب الأليم: هو عذاب الآخرة، وانتصاب ﴿عاداً﴾ بالعطف على قوم نوح، وقيل: على محل الظالمين، وقيل: على مفعول جعلناهم ﴿وثمود﴾ معطوف على عاداً، وقصة عاد وثمود قد ذكرت فيما سبق ﴿وأصحاب الرس﴾ الرس في كلام العرب: البئر التي تكون غير مطوية، والجمع رساس كذا قال أبو عبيدة، ومنه قول الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم تنابله يحفرون الرساسا
قال السدي: هي بئر بلنطاكبة قتلوا فيها حبيبا النجار، فنسبوا إليها، وهو صاحب رس الذي ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ [يس: 20] وكذا قال مقاتل، وعكرمة، وغيرهما. وقيل: هم قوم بانربيجان قتلوا أنبياءهم، فجفت أشجارهم وزروعهم، فماتوا جوعاً وعطشاً. وقيل: كانوا يعبدون الشجر، وقيل: كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيباً، فكذبوه، وأنه. وقيل: هم قوم أرسل الله إليهم نبياً، فاكلوه، وقيل: هم أصحاب الأخبود. وقيل: إن الرس هي البئر المعطلة التي تقدم نكرها، وأصحابها أهلها. وقال في الصحاح: والرس اسم بئر كانت لبقيّة ثمود، وقيل: الرس ماء ونخل لبني أسد، وقيل: الثلج المتراكم في الجبال. والرس: اسم واد، ومنه قول زهير:

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهن لودي الرس كاليد للنفم
والرس أيضاً: الإصلاح بين الناس، والإفساد بينهم، فهو: من الأضداد. وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صفوان، وهم الذين ابتلاهم الله بالطائر المعروف بالنعقاء ﴿وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ معطوف على ما قبله، والقرون جمع قرن أي: أهل قرون، والقرن مائة سنة. وقيل: مائة وعشرون. وقيل: القرن أربعون سنة، والإشارة بقوله ﴿بين ذلك﴾ إلى ما تقدم نكره من الأمم. وقد ينكر الذاكر أشياء مختلفة، ثم يشير إليها بذلك ﴿وكلا ضربنا له الأمثال﴾ قال الزجاج: أي: وأنذرنا كلا ضربنا لهم الأمثال، وبيننا لهم الحجة، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة، فجعله منصوباً بفعل مضمر يفسره ما بعده، لأن حذرنا، ونكرنا، وأنذرنا في معنى: ضربنا، ويجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله، والتوئين عوض عن المضاف إليه المحذوف، وهو الأمم أي: كل الأمم ضربنا لهم الأمثال ﴿وه﴾، أما ﴿كلاً﴾ الأخرى: فهي منصوبة بالفعل الذي بعده، والتبشير: الإهلاك بالعذاب. قال الزجاج: كل شيء كسرتة وفتتته فقد تبرته. وقال المؤرج، والأخفش: معنى ﴿تبرنا تبشيراً﴾: إنمنا تمييزاً أبطلت التاء والباء من الدال والميم ﴿ولقد اتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء﴾ هذه جملة مستأنفة مبينة لمشاهدتهم لأثار هلاك بعض الأمم. والمعنى: ولقد اتوا أي: مشركو مكة على قرية قوم لوط التي أمطرت مطر السوء،

وهو الحجارة أي: هلكت بالحجارة التي أمطروا بها، وانتصاب مطر على المصدرية، أو على أنه مفعول ثانٍ: إذ المعنى: أعطيتها، وأوليتها مطر السوء، أو على أنه نعت مصدر محذوف أي: إمطاراً مثل مطر السوء، وقرأ أبو السمال (السوء) بضم السين، وقد تقدم تفسير السوء في براءة ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي: يرون القرية المذكورة عند سفرهم إلى الشام للتجارة، فإنهم يمرّون بها، والفاء للعطف على مقدر أي: لم يكونوا ينظرون إليها، فلم يكونوا يرونها ﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ أضرب سبحانه عما سبق من عدم رؤيتهم لتلك الآثار إلى عدم رجاء البعث منهم المستلزم لعدم رجائهم للجزاء، ويجوز أن يكون معنى يرجون: يخافون ﴿وإذا راوك إن يتخونك إلا هزوا﴾ أي: ما يتخونك إلا هزوا أي: مهزواً بك، قصر معاملتهم له على اتخاذهم إياه هزواً، فجواب «إذا» هو ﴿إن يتخونك﴾ وقيل: الجواب محذوف، وهو قالوا ﴿أهذا الذي﴾ وعلى هذا، فتكون جملة ﴿إن يتخونك إلا هزوا﴾ معترضة، والأول أولى. وتكون جملة ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول: أي: قائلين أهذا؟ إلخ، وفي اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له، وتهكمهم به، والعائد محذوف أي: بعثه الله، وانتصاب رسولا على الحال أي: مرسلأ، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره الموصول، وصلته ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا﴾ أي: قالوا: إن كاد هذا الرسول ليضلنا: ليصرفنا عن آلهتنا، فنترك عبادتها، وإن هنا هي المخففة، وضمير الشأن محذوف أي: إنه كاد أن يصرفنا عنها ﴿ولو أن صبرنا عليها﴾ أي: حبسنا أنفسنا على عبادتها، ثم إنه سبحانه أجب عليهم، فقال ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾ أي: حين يرون عذاب يوم القيامة الذي يستحقونه ويستوجبونه بسبب كفرهم من هو أضل سبيلاً أي: أبعد طريقاً عن الحق والهدى، أمم أم المؤمنون؟ ثم بين لهم سبحانه أنه لا تمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد واتباع الهوى، فقال معجباً لرسول الله ﷺ ﴿أرايت من اتخذ إلهه هواه﴾ قَم المفعول الثاني للعناية كما تقول: علمت منطلقاً زيداً أي: أطاع هواه طاعة كطاعة الإله أي: انظر إليه يا محمد، وتعجب منه. قال الحسن: معنى الآية: لا يهوى شيئاً إلا أتبعه ﴿أفانت تكون عليه كيداً﴾ الاستفهام للإنكار والاستبعاد أي: أفانت تكون عليه حفيظاً وكفيلاً حتى ترده إلى الإيمان، وتخرجه من الكفر، ولست تقدر على ذلك ولا تطبيقه، فليست الهداية والفضالة موكلتين إلى مشيبتك، وإنما عليك البلاغ. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة بآية القتال. ثم انتقل سبحانه من الإنكار الأول إلى إنكار آخر، فقال ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾ أي: أتَحَسِب أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من آيات القرآن، ومن المواعظ، أو يعقلون معاني ذلك، ويفهمونه حتى تعني بشأنهم، وتطمع في إيمانهم، وليسوا كذلك، بل هم بمنزلة

والله أعلم بالصواب

أي: نقضته، وأرسلته، ورجل مسبوت أي: ممدود الخلقه. وقيل: للنوم ثبات، لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل: السبت القطع، فالنوم انقطاع عن الإشتغال، ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الإشتغال. قال الزجاج: السبات النوم، وهو أن ينقطع عن الحركة، والروح في بدنه أي: جعلنا نومكم راحة لكم. وقال الخليل: السبات نوم ثقيل أي: جعلنا نومكم ثقيلًا ليكمل الإجمام والراحة ﴿وجعل للنهار شهوراً﴾ أي: زمان بحث من ذلك السبات، شبه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات الشبيه بالممات. وقال في الكشف: إن السبات الموت، واستدل على ذلك بكون النشور في مقابلته ﴿وهو الذي أرسل الرياح نشرًا بين يدي رحمته﴾ قرئ (الريح)، وقرئ (بشرًا) بالباء الموحدة، وبالنون. وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في الأعراف ﴿وانزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ أي: يتطهر به كما يقال: وضوء للماء الذي يتوضأ به. قال الأزهري: الطهور في اللغة الطاهر المطهر، والطهور ما يتطهر به. قال ابن الأنباري: الطهور بفتح الطاء الاسم، وكذلك الوضوء، والوقود، وبالضم المصدر، هذا هو المعروف في اللغة؛ وقد ذهب الجمهور إلى أن الطهور هو الطاهر المطهر، ويؤيد ذلك كونه بناءً مبالغة. وروي عن أبي حنيفة أنه قال: الطهور هو الطاهر، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ [الإنسان: 21] يعني: طاهرًا، ومنه قول الشاعر:

خليلي هل في نظرة بعد توبة أدوي بها قلبي علي فجور
إلى رجح الأكفال غيد من الظبي عذاب الشنايا ريقهن طهور
فوصف الريق بأنه طهور، وليس بمطهر، ورجح القول الأول ثعلب، وهو راجح لما تقدم من حكاية الأزهري لذلك عن أهل اللغة. وأما وصف الشاعر للريق بأنه طهور، فهو على طريق المبالغة، وعلى كل حال، فقد ورد الشرع بأن الماء طاهر في مظهر نفسه مطهر لغيره، قال الله تعالى: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾ [الأنفال: 11] وقال النبي ﷺ: «خلق الماء طهوراً»، ثم ذكر سبحانه علة الإنزال، فقال: ﴿لنحيي به﴾ أي: بالماء المنزل من السماء ﴿بلدة ميتاً﴾ وصف البلدة بميتاً، وهي صفة للمنكر؛ لأنها بمعنى البلد. وقال الزجاج: أراد بالبلد المكان، والمراد بالإحياء هنا إخراج النبات من المكان الذي لا نبات فيه ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وإناسي كثيراً﴾ أي: نسقي تلك الماء، قرأ أبو عمرو، وعاصم في رواية عنهما، وأبو حيان، وابن أبي عيلة بفتح النون من (نسقيه)، وقرأ الباقر بضمها، ومن في ﴿مما خلقنا﴾ للإبتداء، وهي متعلقة بنسقيه، ويجوز أن تتعلق بمحذوف على أنه حال، والأنعام قد تقدم الكلام عليها، والأناسي جمع إنسان على ما ذهب إليه سيبويه. وقال الفراء، والميرد، والزجاج: إنه جمع إنسي، وللغراء قول آخر: إنه جمع إنسان، والأصل أناسين مثل سرحان، وسراحين، وبستان، وبساتين، فجعلوا الباء عوضاً من النون ﴿ولقد صرفناه بينهم لينكروا﴾ ضمير صرفناه

قال أبو عبيدة: الظل بالغداة، والفء بالعشي، لأنه يرجع بعد زوال الشمس، سمي فيئاً لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب. قال حميد بن ثور يصف سرحة، وكنى بها عن امرأة:

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفء من برد العشي تنوق
وقال ابن السكيت: الظل ما نسخته الشمس، والفء ما نسخ الشمس. وحكى أبو عبيدة عن رؤية قال: كل ما كانت عليه الشمس، فزالت عنه، فهو فيء وظل، وما لم تكن عليه الشمس، فهو ظل. انتهى. وحقيقة الظل أنه أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهذا المتوسط هو أعدل من الطرفين، لأن الظلمة الخالصة يكرهاها الطبع، وينفر عنها الحس، والضوء الكامل لقوته يبهر الحس البصري، ويؤذي بالتسخين، ولذلك وصفت الجنة به بقوله: ﴿وظل ممنود﴾ [الواقعة: 30]، وجملة ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه أي: لو شاء الله سبحانه سكونه لجعله ساكناً ثابتاً دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس. وقيل: المعنى: لو شاء لمنع الشمس الطلوع، والأول أولى. والتعبير بالسكون عن الإقامة، والاستقرار سائغ، ومنه قولهم: سكن فلان بلد كذا: إذا أقام به، واستقر فيه. وقوله ﴿ثم جعلنا الشمس عليه ليلاً﴾ معطوف على قوله ﴿ثم جعلنا للظل داخل في حكمه﴾ أي: جعلناها علامة يستدل بها بأحوالها على أحواله، وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص، وقوله ﴿ثم قبضناه﴾ معطوف أيضاً على ﴿ثم جعلنا للظل داخل في حكمه﴾ المعنى: ثم قبضنا ذلك الظل المنود، ومحوانه عند إيقاع شعاع الشمس موقعه بالتدريج حتى انتهى ذلك الإطلال إلى العدم والإضمحلال. وقيل: المراد في الآية قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام النيرة. والأول أولى. والمعنى: أن الظل يبقى في هذا الجو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار للظل مقبوضاً، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس، فأشرقت على الأرض، وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت، فليس هناك ظل، إنما فيه بقية نور النهار وقال قوم: قبضه بغروب الشمس، لأنها إذا لم تغرب، فالظل فيه بقية، وإنما يتم زواله بمجيء الليل، وبخول الظلمة عليه. وقيل: المعنى: ثم قبضنا ضياء الشمس بالفء ﴿قبضاً يسيراً﴾، ومعنى ﴿إيسيراً﴾: أن مرجعه إليه سبحانه كما أن حدوثه منه قبضاً يسيراً أي: على تدريج قليلاً قليلاً بقدر ارتفاع الشمس، وقيل: يسيراً سريعاً، وقيل: المعنى يسيراً علينا أي: يسيراً قبضه علينا ليس بعسير ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر. قال ابن جرير: وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث أنه يستر الأشياء، ويغشاها، واللام متعلقة بجعل ﴿والنوم سباتاً﴾ أي: وجعل للنوم سباتاً أي: راحة لكم، لأنكم تنقطعون عن الإشتغال، وأصل السبات التمدد، يقال: سبت المرأة شعرها

واضطرب، ومنه قوله: ﴿فِي أَمْرِ مَرْيَمَ﴾ [ق: 5] وقال الأزهري: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلى بينهما، يقال: مرجت الدابة: إذا خليتها ترعى. وقال ثعلب: المرج الإجراء، فقوله ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أجرامهما. قال الأخفش: ويقول قوم: أمرج البحرين مثل مرج، فعل وأفعل بمعنى: ﴿هَذَا عَذَبَ فِرَاتٍ﴾ الفرات البليغ العنوبة، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: كيف مرجهما؟ فقيل: هذا عذب، وهذا ملح، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال. قيل: سمى الماء الحلو فراتاً، لأنه يفرغ العطش أي: يقطعه، ويكسره ﴿وَهَذَا مَلْحَ لِحَاجٍ﴾ أي: بليغ الملوحة، هذا معنى الأجاج، وقيل: الأجاج البليغ في الحرارة، وقيل: البليغ في المرارة، وقرا طلحة (ملح) بفتح الميم، وكسر اللام ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ البرزخ الحاجز، والحائل الذي جعله الله بينهما من قدرته يفصل بينهما، ويمنعهما التمازج، ومعنى ﴿حِجْراً مَحْجُوراً﴾: سترأ مستوراً يمنع أحدهما من الإختلاط بالآخر، فالبرزخ الحاجز، والحجز المانع. وقيل: معنى ﴿حِجْراً مَحْجُوراً﴾: هو ما تقدم من أنها كلمة يقولها المتعبد، كأن كل واحد من البحرين يتعبد من صاحبه، ويقول له هذا القول، وقيل: حداً محدوداً. وقيل: المراد من البحر العذب الأنهار العظام كالنيل، والفرات، وجيحون، ومن البحر الأجاج البحار المشهورة، والبرزخ بينهما الحائل من الأرض. وقيل: معنى ﴿حِجْراً مَحْجُوراً﴾: حراماً محرماً أن يعذب هذا المالح بالعذب، أو يملح هذا العذب بالمالح، ومثل هذه الآية قوله سبحانه في سورة الرحمن: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: 19، 20] ثم نكر سبحانه حالة من أحوال خلق الإنسان والماء، فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾، والمراد بالماء هنا ماء النطفة أي: خلق من ماء النطفة إنساناً، فجعله نسباً وصِهْراً، وقيل: المراد بالماء الماء المطلق الذي يراد في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، والمراد بالنسب هو الذي لا يحل نكاحه. قال الفراء، والزجاج: واشتقاق الصهر من صهرت الشيء: إذا خلطته، وسميت المناكح صهراً لاختلاط الناس بها. وقيل: الصهر قرابة النكاح؛ فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء، والأصهار تمهما، قاله الأصمعي. قال الواحدي: قال المفسرون: النسب سبعة أصناف من القرابة يجمعها قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَأُمَّهَاتُ نَسَائِكُمْ﴾ [النساء: 23] ومن هنا إلى قوله ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: 23] تحريم بالصهر، وهو الخلطة التي تشبه القرابة، حرم الله سبعة أصناف من النسب، وسبعة من جهة الصهر، قد اشتملت الآية المذكورة على ستة منها، والسابعة قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: 22]، وقد جعل ابن عطية، والزجاج، وغيرهما الرضاع من جملة النسب، ويؤيده قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي: بليغ القدرة عظيمها، ومن

ذهب الجمهور إلى أنه راجع إلى ما نكر من الدلائل أي: كَرَرْنَا أحوال الإِظلال، ونكر إنشاء السحاب، وإنزال المطر في القرآن، وفي سائر الكتب السماوية، ليتفكروا ويعتبروا ﴿فَابْيَأِ كَثْرَ﴾ هم إلا كفران النعمة وجحدها. وقال آخرون: إنه يرجع إلى أقرب المذكورات، وهو المطر أي: صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة، فنزيد منه في بعض البلدان، وننقص في بعض آخر منها، وقيل: الضمير راجع إلى القرآن، وقد جرى نكره في أول السورة حيث قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: 1]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان: 29]، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: 30] والمعنى: ولقد كَرَرْنَا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس؛ لينكروا به، ويعتبروا بما فيه، فابْيَأِ أكثرهم ﴿إِلَّا كُفُوراً﴾ به، وقيل: هو راجع إلى الريح، وعلى رجوع الضمير إلى المطر؛ فقد اختلف في معناه، فقيل: ما نكرناه. وقيل: صرفناه بينهم وابلأً وطشاً وطلاً ورذاذاً، وقيل: تصريفه تنويع الإنتفاع به في الشرب، والسقي، والزراعات به، والطهارات. قال عكرمة: إن المراد بقوله ﴿فَابْيَأِ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ هو قولهم: في الأنواء مطرنا بنوء كذا. قال النحاس: ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافاً أن الكفر هنا قولهم: مطرنا بنوء كذا. وقرا عكرمة (صرفناه) مخففاً، وقرا الباقر بالتثنية. وقرا حمزة، والكسائي (لينكروا) مخففة الذال من النكر، وقرا الباقر بالتثنية من التذكر ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ أي: رسولاً ينذرهم كما قسمنا المطر بينهم، ولكننا لم نفعل ذلك بل جعلنا نذيراً واحداً، وهو أنت يا محمد، فقابل ذلك بشكر النعمة ﴿فَلَا تَطْعَ لُكَاْفِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم، بل اجتهد في الدعوة، وثابت فيها، والضمير في قوله ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ راجع إلى القرآن أي: جاهدكم بالقرآن، وأتل عليهم ما فيه من القوارع، والزواجر، والأوامر، والنواهي. وقيل: الضمير يرجع إلى الإسلام، وقيل: بالسيف، والأوّل أولى. وهذه السورة مكية، والأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة. وقيل: للضمير راجع إلى ترك الطاعة المفهوم من قوله ﴿فَلَا تَطْعَ لُكَاْفِرِينَ﴾ وقيل: للضمير يرجع إلى ما دل عليه قوله ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾، لأنه سبحانه لو بعث في كل قرية نذيراً لم يكن على كل نذير إلا مجاهدة القرية التي أرسل إليها، وحين اقتصر على نذير واحد لكل القرى، وهو محمد ﷺ، فلا جرم اجتمع عليه كل المجاهدات، فكبر جهاده وعظم، وصار جامعاً لكل مجاهدة، ولا يخفى ما في هذين الوجهين من البعد. ثم نكر سبحانه دليلاً رابعاً على التوحيد، فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ مرج خلى، وخلط، وأرسل، يقال: مرجت الدابة، وأمرجتها: إذا أرسلتها في المرعى، وخليتها تذهب حيث تشاء. قال مجاهد: أرسلهما، وأقاض أحدهما إلى الآخر. وقال ابن عرفة: خلطهما، فهما يلتقيان، يقال: مرجته: إذا خلطته، ومرج الدين والأمر: اختلط

يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَهُمْ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٩٢﴾

لما نكر سبحانه دلائل التوحيد عاد إلى نكر قبائح الكفار، وفصائح سيرتهم، فقال ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبوده ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوه ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ الظهير المظاهر أي: المعاون على ربه بالشرك والعداوة، والمظاهرة على الرب هي المظاهرة على رسوله، أو على دينه. قال الزجاج: لأنه يتابع الشيطان، ويعاونه على معصية الله، لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان. وقال أبو عبيدة: المعنى: وكان الكافر على ربه هيناً ثليلاً، من قول العرب ظهرت به أي: جعلته خلف ظهره لم تلتفت إليه، ومنه قوله: ﴿وَاتَخَذْتُمُوهُمْ رَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ [هود: 92] أي: هيناً، ومنه أيضاً قول الفرزدق:

تيم بن بدر لا تكونن حاجتي بظهر فلا يعيا علي جوابها
وقيل: إن المعنى: وكان الكافر على ربه الذي يعبده، وهو الصنم قوياً غالباً يعمل به ما يشاء، لأن الجماد لا قدرة له على دفع ونفع، ويجوز أن يكون الظهير جمعاً كقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4]، والمعنى: أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول الله، أو على دين، والمراد بالكافر هنا الجنس، ولا ينافيه كون سبب النزول هو كفر معين كما قيل: إنه أبو جهل. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: مبشراً للمؤمنين بالجنة، ومنذراً للكافرين بالنار ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ما أسألكم على القرآن من أجر، أو على تبليغ الرسالة المملول عليه بالإرسال، والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ منقطع أي: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل، وقيل: هو متصل. والمعنى: إلا من شاء أن يتقرب إليه سبحانه بالطاعة، وصور ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الحصول، ولما بين سبحانه أن الكفار متظاهرون على رسول الله، وأمره أن لا يطلب منهم أجراً البتة، أمره أن يتوكل عليه في دفع المضار، وجلب المنافع، فقال ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ وخص صفة الحياة إشارة إلى أن الحي هو الذي يوثق به في المصالح، ولا حياة على الدوام إلا الله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم، والتوكل: اعتماد العبد على الله في كل الأمور ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: نزهه عن صفات نقصان، وقيل: معنى سبح: صل، والصلاة تسمى تسبيحاً ﴿وَكُفَىٰ بِهِ يَتَذَوُّبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أي: حسبك، وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك: كفى بالله رباً، والخير المطلق على الأمور بحيث لا يخفى عليه منها شيء، ثم زاد في المبالغة، فقال ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قد تقدم تفسير هذا في الأعراف، والموصول في محل جر على أنه صفة للحي، وقال: بينهما، ولم يقل: بينهما؛ لأنه أراد النوعين، كما قال القطامي:

لم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد ثباتنا انقطاعاً

جملة قدرته الباهرة خلق الإنسان، وتقسيمه إلى القسمين المنكوبين.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿لَمْ تَر إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ قال: بعد الفجر قبل أن تطلع الشمس. وأخرج ابن أبي حاتم عنه بلفظ: ﴿لَمْ تَرَ﴾: أنك إذا صليت الفجر كان بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلاً؛ ثم بعث الله عليه الشمس دليلاً، فقبض الظل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: مَدَّ الظِّلَّ ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ قال: دائماً ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لِلشَّمْسِ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ يقول: طلوع الشمس ﴿ثُمَّ قَبِضْنَاهُ لِيُنَظَّرَ قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قال: سريعاً. وأخرج أهل السنن، وأحمد، وغيرهم من حديث أبي سعيد قال: ﴿قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اتَّوَضَّأَ مِنْ بَثْرٍ بَضَاعَةً؟﴾ وهي: بثر يلقى فيها الحيز، ولحوم الكلاب، والنتن، فقال: إن الماء طهور لا ينجسه شيء. وفي إسناد هذا الحديث كلام طويل قد استوفيناه في شرحنا على المنتقى. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: ما من عام بأقل مطراً من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ قال: بالقرآن. وأخرج ابن جرير عنه ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ يعني: خلط أحدهما على الآخر، فليس يفسد العذب المالح، وليس يفسد المالح العذب. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿وَجَحْرًا مَحْجُورًا﴾ يقول: حجر أحدهما عن الآخر بامر وقضائه. وأخرج عبد بن حميد، عن عبد الله بن المغيرة قال: سئل عمر بن الخطاب عن ﴿نَسِيبًا وَصَهْرًا﴾، فقال: ما أراكم إلا وقد عرفتم النسب، وأما الصهر: فالأختان، والصحابه.

وَيَسْتَدِينُ مِنَ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩٤﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٩٥﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ إِلَٰهٍ إِلَٰهٍ لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ يَتَذَوُّبًا وَيَا دُوَيْحَ الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَشَكَلَ يَوْمَ خَيْرًا ﴿٩٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٩٧﴾ نَبَّأَكَ الَّذِي جَمَعَ فِي السَّكَّةِ رُبُوبًا وَجَمَعَ فِيهَا مَرْكَبًا وَقَمَرًا مُبِيرًا ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ الْأَيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَرَّ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٩٩﴾ وَيَسَادُّ الرَّحْمَنُ الْآلِيَةَ يَشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوَاً وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ﴿١٠٠﴾ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ رِزْقَهُمْ سَخِرًا وَفِتْنًا ﴿١٠١﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُكَ كَانَ غَرَامًا ﴿١٠٢﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٠٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ

أولى. ثم نكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن، فقال ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ المراد بالبروج بروج النجوم أي: منازلها الإثنا عشر، وقيل: هي النجوم الكبار، والأول أولى. وسميت بروجاً، وهي القصور العالية؛ لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها، واشتقاق البرج من التبرج، وهو الظهور. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سُرَاجًا﴾ أي: شمساً، ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سُرَاجًا﴾ [نوح: 16] قرأ الجمهور (سراجاً) بالإنفراد. وقرأ حمزة، والكسائي (سرجاً) بالجمع أي: النجوم العظام الواقعة، ورجح القراءة الأولى أبو عبيد. قال الزجاج: في تأويل قراءة حمزة، والكسائي أراد الشمس والكواكب ﴿وَقَمَرًا مَنِيرًا﴾ أي: ينير الأرض إذا طلع، وقرأ الأعمش (قمرًا) بضم القاف، وإسكان الميم، وهي قراءة ضعيفة شاذة ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال أبو عبيدة: الخلفة كل شيء بعد شيء: الليل خلفه للنهار، والنهار خلفه لليل، لأن أحدهما يخلف الآخر، ويأتي بعده، ومنه خلفه النبات، وهو: ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف، ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

بها العين والأرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
قال الفراء في تفسير الآية: يقول: يذهب هذا، ويجيء هذا، وقال مجاهد: خلفه من الخلاف، هذا أبيض، وهذا أسود. وقيل: يتعاقبان في الضياء والظلام، والزيادة والنقصان. وقيل: هو من باب حذف المضاف أي: جعل الليل، والنهار نوي خلفه أي: اختلاف ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ﴾ قرأ حمزة مخففاً، وقرأ الجمهور بالتشديد، فالقراءة الأولى من النكر لله، والقراءة الثانية من التذكر له. وقرأ أبي بن كعب (يتنكر)، ومعنى الآية: أن المتنكر المعتبر إذا نظر في اختلاف الليل والنهار علم أنه لا بد في انتقالهما من حال إلى حال من ناقل ﴿وَإِذَا أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: أراد أن يشكر الله على ما أودعه في الليل والنهار من النعم العظيمة، والألطف الكثيرة. قال الفراء: وينكر ويتنكر يأتیان بمعنى واحد. قال الله تعالى: ﴿وَانْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: 63]، وفي حرف عبد الله (وينكروا ما فيه) ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ هذا كلام مستأنف مسوق لبيان صالحى عباد الله سبحانه، وعباد الرحمن مبتدأ، وخبره الموصول مع صلته، والهنون مصدر، وهو السكينة والوقار. وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الهون متعلق بيمشون أي: يمشون على الأرض مشياً هوناً. قال ابن عطية: ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق تلك الماشي هوناً مناسبة لمشيته، وأما أن يكون المراد صفة المشيء وحده، فباطل، لأنه ربّ ماش هوناً رويده، وهو نذب أطلس، وقد كان رسول الله ﷺ يتكفاً في مشيه كأنما يمشي في صيب ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ نكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل والسفه، فلا يجهلون مع من يجهل، ولا

فإن قيل: يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات، والأرض كما تفيدته ثم، فيقال: إن كلمة ثم لم تدخل على خلق العرش بل على رفعه على السموات، والأرض، ﴿وَالرَّحْمَنُ﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وهو صفة أخرى للحي، وقد قرأه الجمهور بالرفع، وقيل: يجوز أن يكون بدلاً من الضمير في استوى، أو يكون مبتدأ وخبره الجملة أي: فاسأل على رأي الأخفش، كما في قول الشاعر:

وقائلة خلوان فأتكح فتاتهم

وقرأ زيد بن علي (الرحمن) بالجر على أنه نعت للحي، أو للموصول ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ الضمير في «به» يعود إلى ما نكر من خلق السموات والأرض، والاستواء على العرش. والمعنى: فاسأل بتفاصيل ما نكر إجمالاً من هذه الأمور. وقال الزجاج، والأخفش: الباء بمعنى عن أي: فاسأل عنه، كقوله ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1] وقول امرئ القيس:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلم
وقال امرؤ القيس:

فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير بأدواء النساء طبيب
والمراد بالخبير الله سبحانه؛ لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو، ومن هذا قول العرب: لو لقيت فلاناً للقيك به الأسد أي: للقيك بلفظك إياه الأسد، فخبيراً منتصب على المفعولية، أو على الحال المؤكدة، واستضعف الحالية أبو البقاء، فقال: يضعف أن يكون خبيراً حالاً من فاعل أسأل، لأن الخبر لا يسأل إلا على جهة التوكيد، كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: 91، فاطر: 31] قال: ويجوز أن يكون حالاً من الرحمن إذا رفعته باستوى. وقال ابن جرير: يجوز أن تكون الباء في به زائدة. والمعنى: فاسأله حال كونه خبيراً. وقيل: قوله: به يجري مجرى القسم كقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ [النساء: 1]، والوجه الأول أقرب هذه الوجوه، ثم أخبر سبحانه عنهم بأنهم جهلوا معنى الرحمن فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا لِلرَّحْمَنِ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: إِنَّهُمْ قَالُوا مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ، يَعْنُونَ مَسِيلَةَ. قَالَ الزَّجَّاجُ: الرَّحْمَنُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، فَلَمَّا سَمِعُوهُ أَنْكُرُوا، فَقَالُوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَنْسَجِدَ لِمَا تَامَرْنَا، وَالْأَسْتَفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ أَي: لَا نَسْجُدُ لِلرَّحْمَنِ الَّذِي تَامَرْنَا بِالسُّجُودِ لَهُ، وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّحْتِيةِ، فَالْمَعْنَى: أَنْسَجِدَ لِمَا يَامَرُنَا مُحَمَّدٌ بِالسُّجُودِ لَهُ. وَقَدْ قَرَأَ الْمَدَنِيُّونَ، وَالْبَصْرِيُّونَ ﴿لَمَّا تَامَرْنَا﴾ بِالْفَوْقِيةِ، وَاخْتَارَ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ أَبُو عُبَيْدٍ، وَأَبُو حَاتِمٍ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ، وَحَمْزَةً، وَالْكَسَائِيُّ بِالتَّحْتِيةِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يَعْنُونَ الرَّحْمَنَ. قَالَ النَّحَّاسُ: وَلَيْسَ يَجِبُ أَنْ يَتَأَوَّلَ عَلَى الْكَوْفِيِّينَ فِي قِرَاءَتِهِمْ هَذَا التَّأْوِيلَ الْبَعِيدَ، وَلَكِنْ الْأَوَّلَى: أَنْ يَكُونَ التَّأْوِيلُ لَهُمْ اسْجُدُوا لِمَا يَامَرُنَا النَّبِيُّ ﷺ، فَتَصَحَّ الْقِرَاءَةُ عَلَى هَذَا، وَإِنْ كَانَتْ الْأَوَّلَى أَبْيَنَ. ﴿وَزَادَهُمْ نَفُورًا﴾ أي: زادهم الأمر بالسجود نفوراً عن الدين، وبعداً عنه، وقيل: زادهم نكر الرحمن تباعداً من الإيمان، كذا قال مقاتل، والأول

يسافهون أهل السفه. قال النحاس: ليس هذا السلام من التسليم إنما هو من التسلم، تقول العرب: سلاماً أي: تسليماً منك أي: براءة منك، منصوب على أحد أمرين: إما على أنه مصدر لفعل محذوف أي: قالوا: سلمنا سلاماً، وهذا على قول سيبويه، أو على أنه مفعول به أي: قالوا: هذا اللفظ، ورجحه ابن عطية. وقال مجاهد: معنى سلاماً: سداداً أي: يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين. قال سيبويه: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على قوله تسليماً منكم، ولا خير، ولا شر بيننا وبينكم. قال المبرد: كان ينبغي أن يقال: لم يؤمر المسلمون يومئذ بحريهم، ثم أمروا بحريهم. وقال محمد بن يزيد: أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة. قال النحاس: ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى الناسخ، والمنسوخ إلا في هذه الآية، لأنه قال في آخر كلامه: فنسختها آية السيف. ولقول: هكذا يكون كلام الرجل إذا تكلم في غير علمه، ومشى في غير طريقته، ولم يؤمر المسلمون بالسلام على المشركين، ولا نهوا عنه. بل أمروا بالصفح، والهجر الجميل، فلا حاجة إلى دعوى النسخ. قال النضر بن شميل: حدثني الخليل قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي، وكان من أعلم من رأيته. فلذا هو على سطح، فسلمنا، فرد علينا السلام، وقال لنا: استووا، فبقينا متحيرين، ولم ندر ما قال، فقال لنا أعرابي إلى جنبه: أمركم أن ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول الله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 29] قال: فصعدنا إليه، فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير؟ فقلنا: الساعة فارقناه، فقال: سلاماً، فلم ندر ما قال، فقال الأعرابي: إنه سالمكم متاركة لا خير فيها ولا شر. قال الخليل: هو من قول الله ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ * والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً، البيتوتة: هي أن يدركك الليل نمت أو لم تتم. قال الزجاج: من أدركه الليل، فقد بات، نام أو لم ينام، كما يقال: بات فلان قلقاً، والمعنى يبيتون لربهم سجداً على وجوههم، وقياماً على أقدامهم، ومنه قول امرئ القيس:

فبتنا قياماً عند رأس جواننا
يزولنا عن نفسه ونزولها
﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً﴾ أي: هم مع طاعتهم مشفقون وجلون خائفون من عذابه، والغرام اللازم الدائم، ومنه سمي الغريم لملازمته، ويقال: فلان مغرم بكذا أي: ملازم له مولى به، هذا معناه في كلام العرب، كما نكره ابن الأعرابي، وابن عرفة، وغيرهما، ومنه قول الأعشى:

إن يعاقب يكن غراماً
وإن يعط جزيلاً فإنه لا يبالي
وقال الزجاج: الغرام أشد العذاب. وقال أبو عبيدة: هو الهلاك. وقال ابن زيد: الشر، وجملة ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ تعليل لما قبلها، والمخصوص محذوف: أي: هي، وانتصاب مستقراً على الحال، أو التمييز، وكذا مقاماً، قيل: هما مترادفان، وإنما عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما، وقيل: بل هما مختلفان معنى: فالمستقر للعصاة،

وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رِيحٍ ظَهِيرًا﴾ يعني: أبا الحكم الذي سماه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ لَاجِرٍ﴾ قال: قل لهم يا محمد: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من لاجر، يقول عرض من عرض الدنيا، وأخرج الخطيب في كتاب النجوم عنه أيضاً في قوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ قال: هي هذه الإثنا عشر برجاً أولها: الحمل، ثم الثور، ثم الجوزاء، ثم السرطان، ثم الأسد، ثم السنبلة، ثم الميزان، ثم العقرب، ثم القوس، ثم الجدي، ثم الدلو، ثم الحوت. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال: أبيض وأسود. وأخرج ابن جرير،

جزائه. وقرأ الحسن (يلق أياماً) جمع يوم يعني: شدائد، والعرب تعبر عن ذلك بالأيام، وما أظن هذه القراءة تصح عنه ﴿يضاعف له العذاب﴾ قرأ نافع، وابن عامر، وحزمة، والكسائي (يضاعف ويخلد) بالجزم، وقرأ ابن كثير (يضعف) بتشديد العين، وطرح الألف، والجزم، وقرأ طلحة بن سليمان (تضعف) بضم النون، وكسر العين المشددة، والجزم، وهي: قراءة أبي جعفر، وشيبة. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بالرفع في الفعلين على الاستئناف. وقرأ طلحة بن سليمان (وتخلد) بالفوقية خطاباً للكافر. وروي عن أبي عمرو أنه قرأ (ويخلد) بضم الياء التحتية، وفتح اللام. قال أبو علي الفارسي: وهي غلط من جهة الرواية، ووجه الجزم في يضاعف: أنه بدل من يلقي لاتحادهما في المعنى، ومثله قول الشاعر:

إِنْ عَلِيَ اللَّهُ أَنْ تَبَايَعَا تُوْخَذَرُكُهُمَا أَوْ تَجِيءَ طَائِعَا
والضمير في قوله ﴿ويخلد فيه﴾ راجع إلى العذاب المضاعف أي: يخلد في العذاب المضاعف ﴿مهاناً﴾ نليلاً حقيراً ﴿إلا من تاب وأمن وعمل عملاً صالحاً﴾ قيل: هو استثناء متصل، وقيل: منقطع. قال أبو حيان: لا يظهر الإتصال؛ لأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب، فيصير التقدير: إلا من تاب، وأمن، وعمل عملاً صالحاً، فلا يضاعف له العذاب، ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف. قال: والأولى عندي: أن تكون منقطعاً أي: لكن من تاب. قال القرطبي: لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام في الكافر والزاني. واختلفوا في القاتل من المسلمين. وقد تقدم بيانه في النساء والمائدة، والإشارة بقوله ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ إلى المذكورين سابقاً، ومعنى: تبديل السيئات حسنات: أنه يمحو عنهم المعاصي، ويثبت لهم مكانها طاعات. قال النحاس: من أحسن ما قيل في ذلك: أنه يكتب موضع كافر مؤمن، وموضع عاص مطيع. قال الحسن: قوم يقولون التبديل في الآخرة، وليس كذلك إنما التبديل في الدنيا يبدل الله لهم إيماناً مكان الشرك، وإخلاصاً من الشك، وإحساناً من الفجور. قال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة. وقيل: إن السيئات تبدل بحسنات، وبه قال جماعة من الصحابة، ومن بعدهم. وقيل: التبديل عبارة عن الغفران أي: يغفر الله لهم تلك السيئات، لا أن يبدلها حسنات. وقيل: المراد بالتبديل: أن يوفقه لأضداد ما سلف منه ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من التبديل ﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي: من تاب عما اقترَف، وعمل عملاً صالحاً بعد ذلك، فإنه يتوب بذلك إلى الله متاباً أي: يرجع إليه رجوعاً صحيحاً قوياً. قال الفقهاء: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال ﴿إلا من تاب وأمن﴾، ثم عطف عليه من تاب من المسلمين، واتباع توبته عملاً صالحاً، فله حكم التائبين أيضاً. وقيل: أي:

وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً يقول: من فاته شيء من الليل أن يعمل أدركه بالنهار، ومن النهار أدركه بالليل. وأخرج الطيالسي، وابن أبي حاتم، عن الحسن: أن عمر أطل صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه، فقال: إنه بقي علي من وردي شيء، فأحببت أن أتمه، أو قال: أقضيه، وتلا هذه الآية ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ووعباد الرحمن﴾ قال: هم: المؤمنون ﴿الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ قال: بالطاعة، والعفاف، والتواضع. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال ﴿هوناً﴾ علماً وحلماً. وأخرج عبد بن حميد عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ قال: الدائم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿الذين إذا انفكوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ قال: هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٥٦﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٥٧﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٨﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُصِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعَيْتًا ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَةً آمَنَ بِرَحْمَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَثْرَتُهُمْ مِنْ الْقُرْآنِ وَلَا يَسْتَوُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهَا حَسَنَةٌ مُسْتَفْتَرًا وَمَقَامًا ﴿٦٢﴾ فَلَمْ يَجْزُوا بِكُرٍّ وَقَى لَوْلَا دَعَاؤُهُمْ فَقَدْ كَذَّبَتْ سُوءٌ يَكُونُ لِرَأَا ﴿٦٣﴾

قوله ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ لما فرغ من نكر إتيانهم بالطاعات شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي، فقال: والذي لا يدعون مع الله سبحانه رباً من الأرباب. والمعنى: لا يشركون به شيئاً، بل يوحّدونه، ويخلصون له العبادة والدعوة ﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾ أي: حرم قتلها ﴿إلا بالحق﴾ أي: يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحسان، أو قتل نفس بغير نفس ﴿ولا يزنون﴾ أي: يستحلون الفروج المحرمة بغير نكاح، ولا ملك يمين ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: شيئاً مما نكر ﴿يلق﴾ في الآخرة ﴿أثاماً﴾، والأثام في كلام العرب: العقاب. قال الفراء: أثمه الله يؤثمه أثاماً، وأثاماً أي: جزاءه جزاء الإثم. وقال عكرمة، ومجاهد: إن أثاماً وإٍ في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة. وقال السدي: جبل فيها. وقرئ (يلق) بضم الياء، وتشديد القاف. قال أبو مسلم: والأثام والإثم واحد، والمراد هنا جزاء الأثام، فأطلق اسم الشيء على

عينك أي: صانف فؤادك ما يحبه، وقال المفضل: في قرّة العين ثلاثة أقوال: أحدهما برد دمعها، لأنه دليل السرور والضحك، كما أن حرّه دليل الحزن والغم. والثاني نومها، لأنه يكون مع فراغ خاطر، وذهاب الحزن، والثالث حصول الرضا ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: قدوة يقتدى بنا في الخير، وإنما قال: إماماً، ولم يقل: أئمة، لأنه أريد به الجنس كقوله: ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: 5] قال الفراء: قال إماماً، ولم يقل أئمة؛ كما قال للإثنين ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 16] يعني: أنه من الواحد الذي أريد به الجمع. وقال الأخفش: الإمام جمع أم من أم يأم، جمع على فعال، نحو صاحب وصحاب، وقائم وقيام. وقيل: إن إماماً مصدر، يقال: أم فلان فلاناً إماماً، مثل الصيام والقيام. وقيل: أرادوا جعل كل واحد منا إماماً، وقيل: أرادوا جعلنا إماماً واحداً لاتحاد كلمتنا، وقيل: إنه من الكلام المقلوب، وأن المعنى: ولجعل للمتقين لنا إماماً، وبه قال مجاهد. وقيل: إن هذا الدعاء صادر عنهم بطريق الإنفراد، وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء: واجعلني للمتقين إماماً، ولكنها حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير لقصد الإيجاز كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 51]، وفي هذا إبقاء إماماً على حاله، ومثل ما في الآية قول الشاعر:

يا عاذلاتي لا تزيني ملامتي إن العواذل ليس لي بأمين
أي: أمناء. قال القفال: وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحده كأنه قيل: جعلنا حجة للمتقين، ومثله البينة: يقال: هؤلاء بينة فلان. قال النيسابوري: قيل: في الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تطلب، ويرغب فيها، والأقرب: أنهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم، ويقتدى بهم، والإشارة بقوله ﴿أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ إلى المتصفين بتلك الصفات، وهو مبتدأ وخبره ما بعده، والجمل مستأنفة. وقيل: إن «أولئك»، وما بعده خبر لقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: 63] كذا قال الزجاج، والغرفة: الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها، وهي في الأصل لكل بناء مرتفع، والجمع غرف. وقال الضحاك: الغرفة الجنة، والبناء في ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ سببية، وما مصدرية أي: يجزون الغرفة بسبب صبرهم على مشاق التكليف ﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ قرأ أبو بكر، والمفضل، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحزمة، والكسائي، وخلف (يلقون) بفتح الباء، وسكون اللام، وتخفيف القاف، واختار هذه القراءة الفراء، قال: لأن العرب تقول: فلان يلقي بالسلام، والتحية، والخير وقل ما يقولون: يلقي. وقرأ الباقر بن عبيد، وأبو حاتم وتشديد القاف، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله: ﴿وَلِقَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: 11]، والمعنى: أنه يحيي بعضهم بعضاً، ويرسل إليهم الرب سبحانه بالسلام، قيل: التحية البقاء الدائم، والملك العظيم، وقيل: هي

من تاب بلسانه، ولم يحقق التوبة بفعله، فليست تلك التوبة نافعة، بل من تاب وعمل صالحاً، فحقق توبته بالأعمال الصالحة، فهو الذي تاب إلى الله متاباً أي: تاب حق التوبة، وهي النصوح، ولذلك أكد بالمصدر، ومعنى الآية: من أراد التوبة، وعزم عليها، فليتب إلى الله، فالخبر في معنى الأمر كذا قيل لثلاث يتحد الشرط والجزاء، فإنه لا يقال: من تاب، فإنه يتوب، ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات، فقال ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يشهدون الشهادة الكاذبة، أو لا يحضرون الزور، والزور: هو الكذب والباطل، ولا يشاهدونه، وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين. قال الزجاج: الزور في اللغة الكذب، ولا كذب فوق الشرك بالله. قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن الزور هنا بمعنى الشرك. والحاصل أن يشهدون إن كان من الشهادة ففي الكلام مضاف محذوف أي: لا يشهدون شهادة الزور، وإن كان من الشهود والحضور، كما ذهب إليه الجمهور، فقد اختلفوا في معناه، فقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، وقال محمد ابن الحنفية لا يحضرون اللهو والغناء، وقال ابن جريج: الكذب، وروي عن مجاهد أيضاً والأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور، بل المراد الذين لا يحضرون ما يصنع عليه اسم الزور كأنما ما كان ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغَا مَرَّوْا كَرَامًا﴾ أي: معرضين عنه غير ملتفتين إليه، واللغو كل ساقط من قول أو فعل. قال الحسن: اللغو المعاصي كلها، وقيل: المراد مرّوا بنوعي اللغو، يقال: فلان يكرم عما يشينه أي: يتنزهه، ويكرم نفسه عن الدخول في اللغو، والاختلاط بأمله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا نَكَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بالقرآن، أو بما فيه موعظة وعبرة ﴿هَلُمَّ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا صُمًّا وَعِمْيَانًا﴾ أي: لم يقفوا عليها حال كونهم صُمًّا وعِمْيَانًا، ولكنهم اكبوا عليها سامعين مبصرين، وانتفعوا بها. قال ابن قتيبة: المعنى: لم يتغافلوا عنها، كأنهم صَمٌّ لم يسمعوها، وعمي لم يبصروها. قال ابن جرير: ليس ثم خروء، بل كما يقال: قعد يبكي، وإن كان غير قاعد. قال ابن عطية: كان المستمع للذكر قائم، فإذا أعرض عنه كان ذلك خروءاً، وهو السقوط على غير نظام. قيل: المعنى: إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم، فخرؤا سجداً وبكياً، ولم يخرؤوا عليها صُمًّا وعِمْيَانًا. قال الفراء: أي: لم يقفوا على حالهم الأول كان لم يسمعوها. قال في الكشف: ليس بنفي للخروء، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، وأراد أن النفي متوجه إلى القيد لا إلى المقيد ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ من ابتدائية، أو بيانية، قرأ نافع، وابن كثير، وابن عباس، والحسن (وذريّاتنا) بالجمع، وقرأ أبو عمرو وحزمة، والكسائي، وطلحة، وعيسى (وذريّتنا) بالإنفراد، والذرية تقع على الجمع، كما في قوله: ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾ [النساء: 9]، وتقع على الفرد كما في قوله: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38]، وانتصاب قرّة أعين على المفعولية، يقال: قرّت عينه قرّة. قال الزجاج: يقال: أقرّ الله

بعضكم ببعض، كقول أبي نؤيب:

فساجاه بعناية لزام كما يتفجر الحوض اللفيف
يعني: باللزام الذي يتبع بعضه بعضاً، وباللفيف
المتساقط من الحجارة المنهدمة. وحكى أبو حاتم عن أبي
زيد قال: سمعت أبا السمك يقرأ (لزاماً) بفتح اللام. قال أبو
جعفر: يكون مصدر لزم، والكسر أولى.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود
قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل الله
نداً، وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن
يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حيلة جارك، فانزل
الله تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا
يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾». **و**
وأخرج، وغيرهما أيضاً عن ابن عباس: أن ناساً من أهل
الشرك قد قتلوا فاكثروا، وزنوا فاكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ،
فقالوا: إن الذي تقول، وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما
عملنا كفارة، فنزلت ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ﴾ الآية، ونزلت
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53]
الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن
عبد الله بن عمرو في قوله ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾ قال: وأو في
جهنم. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: لما نزلت
﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ الآية اشتد ذلك على
المسلمين، فقالوا: ما منا أحد إلا أشرك، وقتل، وزنى، فانزل
الله ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية، يقول
لهؤلاء الذين أصابوا هذا في الشرك، ثم نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا
مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ
سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، فأبيلهم الله بالكفر الإسلام، وبالمعصية
الطاعة، وبالإتكار المعرفة، وبالجهالة العلم. وأخرج ابن
المنذر، والطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس قال: قرأناها
على عهد رسول الله ﷺ سنين ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ
إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا
يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾، ثم نزلت ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ
وَآمَنَ﴾، فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشيء قط فرحه بها،
وفرحه بـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ [الفتح: 1]، وأخرج ابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿فَأُولَئِكَ
يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: هم المؤمنون كانوا من
قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحولهم
إلى الحسنات، فأبيلهم مكان السيئات الحسنات. وأخرج
أحمد، وهناد، والترمذي، وابن جرير، والبيهقي في الأسماء
والصفات عن أبي نؤيب قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى
بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه،
فيعرض عليه صغارها، وينحى عنه كبارها، فيقال: عملت
يوم كذا كذا، وهو يقر، ليس ينكر، وهو مشفق من الكيثر أن
تجيء، فيقال: أعطوه بكل سيئة عملها حسنة»، والأحاديث
في تكفير السيئات، وتبديلها بالحسنات كثيرة. وأخرج ابن
مريويه عن ابن عباس في قوله ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَوْنَ

بمعنى السلام، وقيل: إن الملائكة تحييهم وتسلم عليهم،
والظاهر: أن هذه التحية والسلام هي من الله سبحانه لهم،
ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾
[الأحزاب: 44]، وقيل: معنى التحية: الدعاء لهم بطول الحياة.
ومعنى السلام: الدعاء لهم بالسلامة من الآفات، وانتصاب
﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ على الحال أي: مقيمين فيها من غير موت
﴿حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: حسنت الغرفة مستقراً
يستقرون فيه، ومقاماً يقيمون به، وهذا في مقابل ما تقدم
من قوله ﴿سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 66] ﴿قُلْ مَا
يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾ بين سبحانه أنه غني عن
طاعة الكل، وإنما كلهم ليتنفعوا بالتكليف، يقال: ما عبات
بفلان: أي: ما باليت به، ولا له عندي قدر، وأصل يعبا من
العبء، وهو الثقل. قال الخليل: ما أعبا بفلان أي: ما اصنع
به كأنه يستقله ويستحقره، ويدعي أن وجوده وعلمه سواء،
وكذا قال أبو عبيدة. قال الزجاج: ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ يريد:
أي وزن يكون لكم عنده. والعبء: الثقل، وما استفهامية، أو
نافية، وصرح الفراء: بأنها استفهامية. قال ابن السجري:
وحقيقة القول عندي: أن موضع «ما» نصب، والتقدير: أي
عبء يعبا بكم أي: أي مبالاة يبالي بكم ﴿لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾:
أي: لولا دعاؤكم إياه، لتعبوده، وعلى هذا، فالمصدر الذي هو
الدعاء مضاف إلى مفعوله، وهو اختيار الفراء، وفاعله
محذوف، وجواب لولا محذوف: تقديره لولا دعاؤكم لم يعبا
بكم، ويؤيد هذا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، والخطاب لجميع الناس، ثم خص
الكفار منهم، فقال ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾. وقرأ ابن الزبير (فقد كذب
الكافرون)، وفي هذه القراءة ليليل بين على أن الخطاب
لجميع الناس. وقيل: إن المصدر مضاف إلى الفاعل أي: لولا
استغاثتكم إليه في الشدائد. وقيل: المعنى: ما يعبا بكم أي:
بمغفرة ذنوبكم لولا دعاؤكم الآلهة معه. وحكى ابن جني: أن
ابن عباس قرأ كقراءة ابن الزبير. وحكى الزمهراري،
والنحاس: أن ابن مسعود قرأ كقراءتهما، وممن قال: بأن
الدعاء مضاف إلى الفاعل القتيبي، والفارسي قال: والأصل
لولا دعاؤكم آلهة من دونه، وجواب لولا محذوف تقديره على
هذا الوجه: لولا دعاؤكم لم يعذبكم، ويكون معنى ﴿فَقَدْ
كَذَّبْتُمْ﴾ على الوجه الأول: فقد كذبتم بما دعيتم إليه، وعلى
الوجه الثاني: فقد كذبتم بالتوحيد. ثم قال سبحانه ﴿فَسَوْفَ
يَكُونُ لَكُمْ أَعْتَابٌ﴾ أي: فسوف يكون جزاء التكذيب لازماً لكم،
وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا: ما لزم
المشركين يوم بدر، وقالت طائفة: هو عذاب الآخرة. قال أبو
عبيدة: لزاماً فيصلاً أي: فسوف يكون فيصلاً بينكم وبين
المؤمنين. قال الزجاج: فسوف يكون تكذيبكم لزاماً يلزمكم،
فلا تعطون التوبة، وجمهور القراء على كسر اللام من لزاماً،
وأشد أبو عبيدة لصخر:

فلما ينجو من خسف أرض فقد لقياً حترقهما لزاماً
قال ابن جرير لزاماً: عذاباً دائماً، وهلاكاً مغبناً يلحق

يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ حَدِيثٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُنْصَرِفِينَ ﴿١٠﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَهُمْ
 ائْتِيَتْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ وَأَوَّلَ رِوَا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ أَتَيْنَا بِهَا مِنْ كُلِّ رَجْعٍ
 كَرِيمٍ ﴿١٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ ﴿١٤﴾ وَإِلَّا نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا
 يَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٧﴾ وَيَخْبِئُوا صَدْرِي وَلَا يَخْلُقُوا
 لِسَانِي فَأَرْسِلْ لِي هَذِهِ ﴿١٨﴾ وَلَسْتُ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٩﴾ قَالَ كَلَّا
 فَادْعِنَا بِأَيَّتِنَا إِنْأَ مَعَكُمْ شَيْعْمَةٌ ﴿٢٠﴾ فَأَنَّا فِرْعَوْنَكَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَمِشْتَ
 فِينَا مِنْ عَمْرِئَ نَبِيٍّ ﴿٢٣﴾ وَقَلَّمْتَ مَعْلَكَ آتَيْنَا فَكَلَّمْتَ رَأَيْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٤﴾
 ﴿٢٥﴾ قَالَ فَلَمَّا إِذَا مَا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ فَنَزَّلْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَكُمُكَ فَوَهَبَ لِي رَبِّي
 حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُتَرَسِّلِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِلَّا نَعْتَذِرَ شَعْبًا عَلَى أَنْ عَدَّتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٨﴾

قوله ﴿طَسَمَ﴾ قرأ الاعمش، ويحيى بن وثاب، وأبو بكر،
 والمفضل، وحمزة، والكسائي، وخلف بإمالة الطاء، وقرأ نافع،
 وأبو جعفر، وشيبة، والزهري بين اللفظين، واختار هذه
 القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وقرأ الباقر بالفتح مشبعا.
 وقرأ المنبئون، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي بإدغام النون
 من «طسن» في الميم، وقرأ الاعمش، وحمزة بإظهارها، قال
 الثعلبي: الإدغام اختصار أبي عبيد، وأبي حاتم. قال النحاس:
 وحكى الزجاج في كتابه فيما يجري وما لا يجري: أنه يجوز
 أن يقال: (طاسين ميم) بفتح النون، وضم الميم كما يقال:
 هذا معدي كرب. وقرأ عيسى، ويروى عن نافع بكسر الميم
 على البناء. وفي مصحف عبد الله بن مسعود (ط س م)
 هكذا حروفاً مقطعة، فيوقف على كل حرف وقفة يتميز بها
 عن غيره، وكذلك قرأ أبو جعفر، ومحلها الرفع على الابتداء
 إن كان اسماً للسورة كما ذهب إليه الأكثر، أو على أنه خبر
 مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون في محل نصب بتقدير:
 انكسر، أو اقرأ. وأما إذا كان مسروداً على نمط التعديد كما
 تقدم في غير موضع من هذا التفسير، فلا محل له من
 الإعراب. وقد قيل: إنه اسم من أسماء الله سبحانه، وقيل:
 اسم من أسماء القرآن، والإشارة بقوله ﴿تلك آيات الكتاب
 الميمين﴾ إلى السورة، ومحلها الرفع على أنها وما بعدها
 خبر للمبتدأ إن جعلنا طسم مبتدأ، وإن جعلناه خبراً لمبتدأ
 محذوف، فمحلها الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر
 مبتدأ محذوف، أو بدل من طسم، والمراد بالكتاب هنا: القرآن،
 والمبين الميمين المظهر، أو البين الظاهر إن كان من أبان
 بمعنى بان ﴿لعلك باخع نفسك﴾ أي: قاتل نفسك ومهلكها
 ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ أي: لعدم إيمانهم بما جئت به
 والبخع في الأصل: أن يبلغ بالنبي اللخاع بالنون قاموس،
 وهو عرق في القفا، وقد مضى تحقيق هذا في سورة
 الكهف، وقرأ قتادة (باخع نفسك) بالإضافة، وقرأ الباقر
 بالقطع قال: الفراء أن في قوله ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ في
 موضع نصب: لأنها جزء قال النحاس: وإنما يقال: إن
 مكسورة لأنها جزء هكذا التعارف، والقول في هذا ما قاله

الزور﴾ قال: إن الزور كان صنماً بالمدينة يلعبون حوله كل
 سبعة أيام، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا مروا به مروا
 كراماً لا ينظرون إليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن
 أبي حاتم عن ابن عباس ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من
 أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ قال: يعنون: من يعمل
 بالطاعة، فتقر به أعيننا في الدنيا، والآخرة ﴿ولجعلنا
 للمتقين إماماً﴾ قال: أئمة هدى يهتدى بناء، ولا تجعلنا أئمة
 ضلالة، لأنه قال لأهل السعادة: ﴿وجعلناهم أئمة يهتدون
 بأمرنا﴾ [الأنبياء: 73]، ولأهل الشقاوة ﴿وجعلناهم أئمة
 يدعون إلى النار﴾ [القصص: 41]. وأخرج الحكيم الترمذي
 عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ في قوله ﴿اولئك
 يجزون الغرفة﴾ قال: الغرفة من ياقوتة حمراء، أو زبرجدة
 خضراء، أو لذة بيضاء. ليس فيها فسم ولا وسم. وأخرج
 ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في
 قوله ﴿قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ يقول: لولا
 إيمانكم، فاخبر الله أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم
 مؤمنين، ولو كانت له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما
 حببه إلى المؤمنين ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ قال: موتاً.
 وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
 الأنباري عنه: أنه كان يقرأ ﴿فقد كذب الكافرون فسوف
 يكون لزاماً﴾ وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي
 حاتم، عن ابن الزبير أنه قرأها كذلك. وأخرج عبد بن حميد،
 وابن جرير، وابن مردويه ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ قال: القتل
 يوم بدر، وفي الصحيحين عنه قال: «خمس قد مضين:
 الدخان، والقمر، والزلزوم، والبطشة، والزلزوم».

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور. وكذا أخرج ابن مردويه عن ابن
 عباس، وابن الزبير. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال:
 سورة الشعراء أنزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها
 نزلت بالمدينة، وهي: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾
 [الشعراء: 224] إلى آخرها. وأخرج القرطبي في تفسيره عن
 البراء: أن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان
 التوراة، وأعطاني المثني مكان الإنجيل، وأعطاني الطواسين
 مكان الزبور، وفضلني بالحواميم، والمفصل ما قرأه نبي
 قبلي». وأخرج أيضاً عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ:
 «أعطيت السورة التي تنكر فيها البقرة من النكر الأول،
 وأعطيت فواتح القرآن، وخواتيم سورة البقرة من تحت
 العرش، وأعطيت المفصل نافلة». قال ابن كثير في تفسيره:
 ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها بسورة الجمعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّذِينَ ﴿٢﴾ تِلْكَ بَشِيعَتُكَ أَلَا يَكْفُرُوا
 مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنَّ لَنَا نَزْلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرٍ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ نَخْلُقَهُمْ لَمَّا خَضِبُوا ﴿٤﴾ وَمَا

هذا وعيد شديد، وقد مرّ تفسير مثل هذا في سورة الأنعام. ثم نكر سبحانه ما يدلّ على كمال قدرته من الأمور الحسية التي يحصل بها للمتأمل فيها، والتأمل إليها، والمستدلّ بها اعظم دليل، وأوضح برهان، فقال ﴿اولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ الهمة للتوبيخ، والوإ للعطف على مقتر كما في نظائره، فنَبّه سبحانه على عظمته وقدرته، وأن هؤلاء المكذّبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذي يستحق أن يعبد، والمراد بالزوج هنا الصنف، وقال الفراء: هو اللون، وقال الزجاج: معنى زوج نوع، وكريم، محمود، والمعنى: من كل زوج نافع لا يقدر على إنباته إلا ربّ العالمين، والكريم في الأصل: الحسن الشريف، يقال: نخلة كريمة: أي كثيرة الثمرة، ورجل كريم: شريف فاضل، وكتاب كريم: إذا كان مرضياً في معانيه، والنبات الكريم هو المرضي منافعه، قال الشعبي: للناس مثل نبات الأرض، فمن صار منهم إلى الجنة، فهو كريم، ومن صار منهم إلى النار، فهو لثيم، والإشارة بقوله ﴿إن في تلك لآية﴾ إلى المنكور قبله أي: إن فيما نكر من الإنبات في الأرض لدلالة بينة، وعلامة واضحة على كمال قدرة الله سبحانه، وبيع صنّعه، ثم أخبر سبحانه: بأن أكثر هؤلاء مستمرّ على ضلالته مصمم على جحوده، وتكذيبه، واستهزائه، فقال ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي: سبق علمي فيهم أنهم سيكونون هكذا، وقال سيبويه: إن «كان» هنا صلة ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي: الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم مع كونه كثير الرحمة، ولذلك أمهلهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة، أو المعنى: أنه منتقم من أعدائكم رحيم بأوليائكم. وجملة ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ إلخ، مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من الإعراض، والتكذيب، والاستهزاء، والعامل في الظرف محذوف تقديره: وأتت إذ نادى، أو انكر، والنداء: الدعاء، و «أن» في قوله ﴿إن أتت القوم الظالمين﴾ يجوز أن تكون مفسرة، وأن تكون مصدرية، ووصفهم بالظلم: لأنهم جمعوا بين الكفر الذي ظلموا به أنفسهم، وبين المعاصي التي ظلموا بها غيرهم كاستعباد بني إسرائيل، ونهب أبنائهم، وانتصاب ﴿قوم فرعون﴾ على أنه بدل، أو عطف بيان من القوم الظالمين، ومعنى ﴿ألا يتقون﴾: ألا يخافون عقاب الله سبحانه، فيصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته، وبيل المعنى: قل لهم: ألا تتقون، وجاء بالياء التحتية: لأنهم غيب وقت الخطاب، وقرأ عبيد بن عمير، وأبو حازم (ألا تتقون) بالفوقية: أي: قل لهم ذلك، ومثله ﴿قل للمّنين كفروا ستغلبون﴾ [آل عمران: 12] بالتحية والفوقية، ﴿قال ربّ إنني أخاف أن يكذبون﴾ أي: قال موسى هذه المقالة، والمعنى: أخاف أن يكذبوني في الرسالة ﴿ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾ معطوفان على أخاف أي: يضيق صدري لتكذيبهم إياي، ولا ينطلق لساني بتأدية الرسالة، قرأ الجمهور برفع ﴿يضيق﴾، (ولا ينطلق) بالعطف على أخاف

الزجاج في كتابه في القرآن إنها في موضع نصب مفعول لأجله، والمعنى: لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ؛ لأنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الأسف لما يراه من إعراضهم، وجملة ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية، والمعنى: إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان، ولكن قد سبق القضاء بأن لا ننزل ذلك، ومعنى ﴿فطلت أعناقهم لها خاضعين﴾: أنهم صاروا منقادين لها أي: فطلت أعناقهم إلخ، قيل: وأصله، فظلوا لها خاضعين، فاقحمت الأعناق لزيادة التقرير والتصوير، لأن الأعناق موضع الخضوع، وقيل: إنها لما وضعت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجازهم، ووصفت بما يوصفون به. قال عيسى بن عمر: خاضعين، وخاضعة هنا سواء، واختاره المبرد، والمعنى: أنها إذا ذلت رقابهم ذلوا، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها، ويسوغ في كلام العرب: أن يترك الخبر عن الأول، ويخبر عن الثاني، ومنه قول الرازي: طول الليالي أسرع في نقضي طوين طولي وطوين عرضي فأخبر عن الليالي، وترك الطول، ومنه قول جرير:

أرى من السنين أخذني مني كما أخذ السرار من الهلال
وقال أبو عبيد، والكسائي: إن المعنى: خاضعياً هم، وضعفه النحاس، وقال مجاهد: أعناقهم كبراًؤهم، قال النحاس: وهذا معروف في اللغة، يقال: جاءني عنق من الناس أي: رؤساء منهم. وقال أبو زيد، والأخفش: أعناقهم جماعاتهم، يقال: جاءني عنق من الناس أي: جماعة ﴿وما يأتينهم من نكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾ بيّن سبحانه أنه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين إلى الإيمان يأتينهم بالقرآن حالاً بعد حال، وأن لا يجد لهم موعظة وتذكيراً إلا جنّوا ما هو نقيض المقصود، وهو الإعراض، والتكذيب، والاستهزاء، و «من» في ﴿من نكر﴾ مزيدة لتأكيد العموم، ومن في ﴿من ربهم﴾ لابتداء الغاية، والاستثناء مفرغ من أعمّ العامّ محله النصب على الحالية من مفعول يأتينهم، وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في سورة الأنبياء ﴿فقد كذبوا﴾ أي: بالذكر الذي يأتينهم تكذيباً صريحاً، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض، وقيل: إن الإعراض بمعنى التكذيب، لأن من أعرض عن شيء ولم يقبله، فقد كذّب، وعلى هذا، فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح والأول أولى، فالإعراض عن الشيء عدم الالتفات إليه. ثم انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشدّ منه، وهو التصريح بالتكذيب، ثم انتقلوا عن التكذيب إلى ما هو أشدّ منه، وهو الاستهزاء كما يدلّ عليه قوله ﴿فسياتينهم أنباء ما كانوا به يستهزءون﴾، والأنباء هي ما يستحقونه من العقوبة أجلاً وعاجلاً، وسمّيت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن، وقال ﴿ما كانوا به يستهزءون﴾، ولم يقل: ما كانوا عنه معرضين، أو ما كانوا به يكذبون، لأن الاستهزاء أشدّ منهما، ومستلزم لهما، وفي

لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول ﴿قال ألم نريك فينا وليداً﴾ أي: قال فرعون لموسى بعد أن أتياه، وقال له ما أمرهما الله به، ومعنى «فينا»: أي: في حجرنا ومنازلنا، أراد بذلك المَنّ عليه، والاحتقار له أي: ربيناك لدينا صغيراً، ولم ننقلك فيمن قتلنا من الأطفال ﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾، فمتى كان هذا الذي تدعيه؟ قيل: لبث فيهم ثماني عشرة سنة، وقيل: ثلاثين سنة، وقيل: أربعين سنة. ثم قرّر بقتل القبطي، فقال ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ الفعل بفتح الفاء: المَرّة من الفعل، وقرأ الشعبي (فعلتك) بكسر الفاء، والفتح أولى؛ لأنها للمرة الواحدة لا للنوع، والمعنى: أنه لما عندّ عليه النعم نكر له ذنوبه، وأراد بالفعل قتل القبطي، ثم قال ﴿وانت من الكافرين﴾ أي: من الكافرين للنعمة حيث قتلت رجلاً من أصحابي، وقيل: المعنى: من الكافرين بأن فرعون إله، وقيل: من الكافرين بالله في زعمه؛ لأنه كان معهم على دينهم، والجملة في محل نصب على الحال ﴿قال فعلتها إذن وأنا من الضالين﴾ أي: قال موسى مجيباً لفرعون: فعلت هذه الفعل التي نكرت، وهي قتل القبطي، وأنا إذ ذاك من الضالين أي: الجاهلين. نفى عليه السلام عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذي علمه الله، وقيل: المعنى: من الجاهلين أن تلك الوكزة تبلغ القتل، وقال أبو عبيدة: من الناسين ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾ أي: خرجت من بينكم إلى مدين كما في سورة القصص، ﴿فوهب لي ربي حكماً﴾ أي: نبوة، أو علماً وفهماً. وقال الزجاج: المراد بالحكم تعليمه التوراة التي فيها حكم الله ﴿وجعلني من المرسلين﴾ وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ﴿قيل: هذا الكلام من موسى على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه قال: نعم تلك التربية نعمة تمنّ بها علي، ولكن لا يفيق ذلك رسالتي، وبهذا قال الفراء، وابن جرير. وقيل: هو من موسى على جهة الإنكار: أي: أتمنّ عليّ بأن ربيتني وليداً، وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم، وهم قومي؟ قال الزجاج: المفسرون أخرجوا هذا على جهة الإنكار: بأن يكون ما ذكر فرعون نعمة على موسى، واللفظ لفظ خبر، وفيه تبيك للمخاطب على معنى: أنك لو كنت لا تقتل أبناء بني إسرائيل لكنت أمني مستغنية عن ذنبي في اليوم، فكانك تمنّ عليّ ما كان بلاؤك سبباً له، ونكر نحوه الأزهري بأبسط منه، وقال المبرد: يقول التربية كانت بالسبب الذي نكرت من التعبد أي: تربيتك إياي كانت لأجل التملك، والقهر لقومي، وقيل: إن في الكلام تقدير الاستفهام أي: أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش، وأنكره النحاس. قال الفراء: ومن قال: إن الكلام إنكار قال معناه: أو تلك نعمة؟ ومعنى ﴿أن عبدت بني إسرائيل﴾: أن اتخذتهم عبيداً، يقال: عبيته وأعبته بمعني، كذا قال الفراء، ومحلّه الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف بدل من نعمة، والجر بإضمار الباء، والنصب بحذفها.

كما ذكرنا، أو على الاستثناء، وقرأ يعقوب، وعيسى بن عمر، وأبو حيوة بنصبهما عطفاً على يكتبون، قال الفراء: كلا القراءتين له وجه، قال النحاس الوجه: الرفع، لأن النصب عطف على يكتبون، وهذا بعيد ﴿فأرسل إلى هرون﴾ أي: أرسل إليه جبريل بالوحي؛ ليكون معي رسولا موازراً مظاهراً معاوناً، ولم ينكر الموازنة هنا، لأنها معلومة من غير هذا الموضع كقوله في طه: ﴿واجعل لي وزيراً﴾ [طه: 29]، وفي القصص ﴿أرسله معي رداً يصنقني﴾ [القصص: 34]. وهذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له بإرسال أخيه، لا من باب الاستعفاء من الرسالة، ولا من التوقف عن المسارعة بالامتثال ﴿ولهم عليّ نذير فلخاف أن يقتلون﴾ الذنب هو قتله للقبطي، وسماه نذيراً بحسب زعمهم: فخاف موسى أن يقتلوه به، وفيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلاً عن الفضلاء، ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع، وطرف من الزجر ﴿قال كلا فإذهباً بأياتنا﴾، وفي ضمن هذا الجواب إجابة موسى إلى ما طلبه من ضم أخيه إليه كما يدلّ عليه توجيه الخطاب إليهما كأنه قال: ارتدع يا موسى عن ذلك، وأذهب أنت ومن استدعيت، ولا تخف من القبط ﴿إننا معكم مستمعون﴾، وفي هذا تعليل للردع عن الخوف، وهو كقوله سبحانه: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه: 46]، وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما، وأنه متولّ لحفظهما، وكلاهما، وأجرامهما مجرى الجمع فقال: ﴿معكم﴾ لكون الاثنين أقلّ الجمع على ما ذهب إليه بعض الأئمة، أو لكونه أراد موسى وهرون ومن أرسلوا إليه، ويجوز أن يكون المراد هما مع بني إسرائيل، ومعكم، ومستمعون خبران، لأنّ، أو الخبر مستمعون، ومعكم متعلق به، ولا يخفى ما في المعية من المجاز: لأن المصاحبة من صفات الأجسام، فالمراد معية النصرة والمعونة ﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول ربّ العالمين﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، ووجد الرسول هنا، ولم يثنه كما في قوله: ﴿إنا رسولا ربك﴾ [طه: 47]؛ لأنه مصدر بمعنى: رسالة، والمصدر يوحد، وأما إذا كان بمعنى المرسل، فإنه يثنى مع المثنى، ويجمع مع الجمع، قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة، والتقدير على هذا: إنا نوا رسالة ربّ العالمين، ومنه قول الشاعر:

ألا يبلغ إبا عمرو رسولا فإني عن فتاحتكم غنى أي: رسالة. وقال العباس بن مرداس:

ألا من مبلغ عني خفافا رسولا بيت أهلك منتهاها أي: رسالة. قال أبو عبيدة أيضاً، ويجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع، تقول العرب: هذا رسولي ووكلي، وهذان: رسولي ووكلي، وهؤلاء: رسولي ووكلي، ومنه قوله تعالى: ﴿فإنهم عدو لي﴾ [الشعراء: 77]، وقيل معناه: إن كل واحد منا رسول رب العالمين، وقيل: إنهما لما كانا متعاضدين متساندين في الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد، و «أن» في قوله ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ مفسرة

هي حية تسعى ﴿طه: 21﴾، وفي موضع بالجان، فقال: ﴿كانها جان﴾ [القصص: 31، النمل: 10]، والجان هو المائل إلى الصغر، والشعبان هو المائل إلى الكبر، والحية جنس يشمل الكبير والصغير، ومعنى ﴿فماذا تأمرون﴾: ما رأيكم فيه، وما مشورتكم في مثله؟ فإظهر لهم الميل إلى ما يقولونه تألفاً لهم، واستجلاباً لمؤنتهم، لأنه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال، وقارب ما كان يفرز به عليهم الاضمحلال، وإلا، فهو اكبرتها، واعظم كبراً من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة المشعرة بأنه فرد من أفرادهم، وواحد منهم، مع كونه قبل هذا الوقت يدعي أنه إلههم، ويدعون له بذلك، ويصنقونه في دعواه، ومعنى ﴿أرجه ولخاه﴾: آخر أمرهما، من أرجأته إذا أخرته، وقيل: للمعنى: احبسهما ﴿وابعث في المماتن حاشرين﴾، وهم للشرط الذين يحشرون الناس أي: يجمعونهم ﴿ياتوك بكل سحار عليم﴾ هذا ما أشاروا به عليه، والمراد بالسحار العليم: الفائق في معرفة السحر وصنعتة ﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ هو يوم الزينة كما في قوله: ﴿قال موعنكم يوم الزينة﴾ [طه: 59] ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ حثاً لهم على الاجتماع؛ ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة، ولمن تكون الغلبة، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور، وطلباً أن يكون بمجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم، فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده، لأنه يعلم أن حجة الله هي الغالبة، وحجة الكافرين هي الداحضة، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحققين، والانتقار للمبطلين، ومعنى ﴿لعلنا نتبع السحرة﴾: نتبعهم في دينهم ﴿إن كانوا هم الغالبين﴾، والمراد باتباع السحرة في دينهم هو البقاء على ما كانوا عليه، لأنه دين السحرة إذ ذاك، والمقصود المخالفة لما دعاهم إليه موسى، فعند ذلك طلب السحرة من فرعون الجزاء على ما سيفعلونه فـ ﴿قالوا لفرعون لئن لنا لأجر﴾ أي: لجزاء تجزيها به من مال، أو جاه، وقيل: أرادوا إن لنا ثواباً عظيماً، ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى، فقالوا ﴿إن كنا نحن الغالبين﴾، فوافقهم فرعون على ذلك، و ﴿قال نعم وإنكم إذن لمن المقربين﴾ أي: نعم لكم ذلك عندي مع زيادة عليه، وهي كونكم من المقربين لدي ﴿قال لهم موسى القوا ما أنتم ملقون﴾، وفي آية أخرى ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما نكون نحن الملقين﴾ [الأعراف: 115]، فيحمل ما هنا على أنه قال لهم: القوا بعد أن قالوا هذا القول، ولم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمراً لهم بفعل السحر، بل أراد أن يقهرهم بالحجة، ويظهر لهم أن الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته به ﴿قالوا حبالبهم وعصيتهم وقالوا﴾ عند الإلقاء ﴿بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ يحتل قولهم بعزة فرعون، وجهين: الأول أنه قسم، وجوابه إنا نحن الغالبون، والثاني متعلق بمحنوف، والباء للسببية أي: تغلب بسبب عزته، والمراد بالعزة العظمة

﴿فالتقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يافكون﴾ قد تقدم تفسير هذا مستوفى. والمعنى: أنها تلقف ما صدر منهم من الإفك بإخراج الشيء عن صورته الحقيقية ﴿فالتقى السحرة ساجدين﴾ أي: لما شاهدوا ذلك، وعلموا أنه صنع صانع حكيم ليس من صنيع البشر، ولا من تمويه السحرة، آمنوا بالله، وسجدوا له، وأجابوا دعوة موسى، وقبلوا نبوته، وقد تقدم بيان معنىلقى، ومن فاعله لوقوع التصريح به، وعند سجودهم ﴿قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ رب موسى عطف بيان لرب العالمين، وأضافوه سبحانه إليهما؛ لأنهما القائمان بالدعوة في تلك الحال. وفيه تبيكت لفرعون بأنه ليس برب، وأن الرب في الحقيقة هو هذا، فلما سمع فرعون ذلك منهم، ورأى سجودهم لله ﴿قال آمنتم له قبل أن أذن لكم﴾ أي: بغير إذن مني، ثم قال مغالطاً للسحرة الذين آمنوا، وموهماً للناس: أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم للسحر﴾ وإنما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يحب الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى، لأنه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاءوا به السحرة، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم، وإن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة، فهو فعل كبيرهم، ومن هو أستاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة، فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر، وأنه من فعل الرب الذي يدعو إليه موسى، ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا بالله لما قهرتهم حجة الله، فقال ﴿فلسوف تعلمون﴾ أجمل التهديد أولاً للتهويل، ثم فصله، فقال ﴿لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصليبنكم أجمعين﴾، فلما سمعوا ذلك من قوله ﴿قالوا لا ضير لنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي: لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا، فإن ذلك يزول، وننقلب بعده إلى ربنا، فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يحذر ولا يوصف. قال الهروي: لا ضير، ولا ضرر، ولا ضرر بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة:

فإنك لا يضرك بعدحول اظبي كان أمك أم حمار
قال الجوهري: ضاره يضوره، ويضيره ضيراً، وضوراً
أي: ضره. قال الكسائي: سمعت بعضهم يقول: لا ينفعني ذلك ولا يضورني ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾، ثم عللوا هذا بقولهم ﴿إن كنا أول المؤمنين﴾ بنصب أن أي: لأن كنا أول المؤمنين. وأجاز الفراء، والكسائي كسرهما على أن يكون مجازاة، ومعنى ﴿أول المؤمنين﴾: أنهم أول من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية. وقال الفراء: أول مؤمني زمانهم، وأنكره الزجاج، وقال: قد روي أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً، وهم الشرذمة القليلون الذين عناهم فرعون بقوله: ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ [الشعراء: 54].

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿فالتقى عصاه فإذا هي شعبان مبين﴾ يقول: مبين له خلق حية

وحانرون، وحنرون بضم الذال، حكى ذلك الأخفش. قال الفراء: الحانر الذي يحنرك الآن، والحنر المخلوق كذلك لا تلقاه إلا حنراً. وقال الزجاج: الحانر المستعد، والحنر للمتيقظ، وبه قال الكسائي، ومحمد بن يزيد، قال النحاس: (حنرون) قراءة المنينين، وأبي عمرو، و (حانرون) قراءة أهل الكوفة، قال: وأبو عبيدة يذهب إلى أن معنى حنرون، وحانرون واحد، وهو قول سيبويه، وأنشد سيبويه:

حذر أمورا لا تضير وحائر ما ليس ينجيهِ من الأقدار
﴿فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم﴾ يعني: فرعون وقومه أخرجهم الله من أرض مصر، وفيها الجنات، والعيون، والكنوز، وهي جمع جنة، وعين، وكنز، والمراد بالكنوز الخزائن. وقيل: اللفائن، وقيل: الأنهار، وفيه نظر؛ لأن العيون المراد بها عند جمهور المفسرين عيون الماء، فيبخل تحتها الأنهار.

واختلف في المقام الكريم؛ فقيل: المنازل الحسان، وقيل: المنابر، وقيل: مجالس الرؤساء، والأمراء، وقيل: مرابط الخيل، والأول أظهر، ومن ذلك قول الشاعر:

وفيهم مقامات حسان وجوهها وأنسية ينتابها القول والفعل
﴿كنكك وأورثناها بني إسرائيل﴾ يحتمل أن يكون كذلك في محل نصب أي: أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا، ويحتمل أن يكون في محل جر على الوصفية أي: مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم، ويحتمل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر كنكك؛ ومعنى ﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾: جعلناها ملكاً لهم، وهو معطوف على فأخرجناهم ﴿فاتبعوههم مشرقين﴾ قراءة الجمهور بقطع الهمزة، وقرأ الحسن، والحاتر البيناري بوصلها، وتشديد التاء أي: فلحقوهم حال كونهم مشرقين أي: داخلين في وقت الشروق، يقال: شرقت الشمس شروفاً إذا طلعت كاصبح وأمسى أي: نخل في هذين الوقتين، وقيل: داخلين نحو المشرق كأنجد وأتهم، وقيل: ﴿معنى مشرقين﴾: مضيين. قال الزجاج: يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت ﴿فلما تراءى للجمعان﴾ قرأ الجمهور (تراءى) بتخفيف الهمزة، وقرأ ابن وثاب، والأعمش من غير همز، والمعنى: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه، وهو تفاعل من الرؤية، وقرأ (تراءت الفتان) ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ أي: سيدركنا جمع فرعون، ولا طاقة لنا بهم، قرأ الجمهور (إنا لمدركون) اسم مفعول من أرك، ومنه ﴿حتى إذا أركه الغرق﴾ [يونس: 90]، وقرأ الأعرج، وعبيد بن عمير بفتح الدال مشددة، وكسر الراء.

قال الفراء: هما بمعنى واحد. قال النحاس: ليس كذلك يقول النحويون الحذاق: إنما يقولون: مدركون بالتخفيف ملحوق، وبالتشديد مجتهدون في لحاقهم. قال: وهذا معنى قول سيبويه، وقال الزمخشري: إن معنى هذه القراءة: إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد ﴿قال كلا إن معي ربي سيهدين﴾ قال موسى هذه المقالة

﴿ونزع يده﴾ يقول، وأخرج موسى يده من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء﴾ تلمع ﴿للمناظرين﴾ لمن ينظر إليها ويراهما. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ قال: كانوا بالإسكندرية. قال: ويقال: بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة يومئذ. قال: وهربوا، وأسلموا فرعون، وهمت به، فقال: خذها يا موسى، وكان مما بلى الناس به منه أنه كان لا يضع على الأرض شيئاً أي: يومهم أنه لا يحدث، فأحدث يومئذ تحت. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿لاضير﴾ قال: يقولون: لا يضرنا الذي تقول، وإن صنعت بنا، وصلبتنا ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ يقولون: إنا إلى ربنا راجعون، وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا، وثباتنا على توحيد، والبراءة من الكفر، وفي قوله ﴿إن كنا أول المؤمنين﴾ قالوا: كانوا كذلك يومئذ أول من آمن بآياته حين راوها.

﴿وَلَوْعَبَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَّ أَشْرَٰبَكَ أَكْثَرُ مُشْرِيقًا ۖ فَارْتَلَّ فَرَعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ حَشِيرَةً ۖ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۖ وَلَٰهُمْ لَأَعْلَٰطُونَ ۖ﴾ ﴿رَأَىٰ جَمِيعَ حِيلِهِ ۖ﴾ ﴿فَأَخْرَجْتَهُمْ مِنْ جَنَّتَيْهِ وَيَتْرُكُهُمْ يَنْزِعَارَ ۖ كَرِيمًا ۖ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْثَقْنَاهُم بِخَيْبِ إِسْرَءِيلَ ۖ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ۖ﴾ ﴿فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانَ ۖ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَدْرَكُونَ ۖ﴾ ﴿قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۖ﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْآحْمَرَ فَانْفَلَقَ ۖ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۖ﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا نُمُودًا ۖ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ مِنْ مَّعَمِّهِ أَهْمِينَ ۖ﴾ ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۖ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِدٌ ۖ الرَّجِيمُ ۖ﴾

قوله ﴿إن أسر بعبادي﴾ أمر الله سبحانه موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً، وسامهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى، وبما جاء به، وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الاعراف، وجملة ﴿إنكم متبعون﴾ تعليل للأمر المتقدم أي: يتبعكم فرعون وقومه ليرتوكم، و ﴿فارسل فرعون في المداثر حاشرين﴾، وذلك حين بلغه مسيرهم، والمراد بالحاشرين: الجامعون للجيش من الأمكنة التي فيها أتباع فرعون، ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه ﴿إن هؤلاء لشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ يريد بني إسرائيل، والشِرْذِمَةُ الجمع الحقيق القليل، والجمع شرانم، قال الجوهري: الشِرْذِمَةُ الطائفة من الناس، والقطعة من الشيء، وثوب شرانم أي: قطع، ومنه قول الشاعر:

جاء الشتاء وقميصي أخلاق شرانم يضحك منها الخلاق
قال الفراء: يقال: عصابة قليلة، وقليلون، وكثيرون، قال المبرد: الشِرْذِمَةُ القطعة من الناس غير الكثير، وجمعها الشرانم، قال الواحدي: قال المفسرون: وكان الشِرْذِمَةُ الذين قللهم فرعون ستمائة ألف، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون ﴿وإنهم لنا لغافلون﴾ يقال: غافطني كذا، وأغافطني، والغيط الغضب، ومنه التغيظ، والاختياط أي: غافطونا بخروجهم من غير إذن مني ﴿وإننا لجميع حذرون﴾ قرئ حنرون،

كبهيمة عمياء قاد زمامها - أعمى على عوج الطريق الحائر
فعليك أيها العامل بالكتاب والسنة المبرأ من التعصب
والتعسف: أن تورّد عليهم حجج الله، وتقيم عليهم براهينه،
فإنه ربما انتقاد لك منهم من لم يستحکم داء التقليد في قلبه،
ولما من قد استحكم في قلبه هذا الداء، فلو أوردت عليه كل
حجة، وأقمت عليه كل برهان لما أعارك إلا أننا صماء، وعينا
عمياء، ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبه عليك
القرآن، والهداية بيد الخلاق العليم ﴿إنك لا تهدي من أحببت
ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: 56]. ولما قال هؤلاء
المقلدة هذه المقالة ﴿قال﴾ الخليل ﴿أفرايتم ما كنتم
تعبدون * أنتم وأبائكم الأقدمون﴾ أي: فهل أبصرتم،
وتفكرتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام التي لا تسمع،
ولا تنفع، ولا تضر حتى تعلموا أنكم على ضلالة وجهالة، ثم
أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التي يعبدونها. فقال
﴿فإنهم عدو لي﴾، ومعنى كونهم عدواً له مع كونهم جماداً:
أنه إن عبدهم كانوا له عدواً يوم القيامة. قال الفراء: هذا من
المقلوب أي: فإنني عدو لهم؛ لأن من عاديته عادك، والعدو
كالصديق يطلق على الواحد، والمثنى، والجماعة، والمذكر،
والمؤنث، كذا قال الفراء. قال علي بن سليمان: من قال: عدوة
الله، فأنثب الهاء. قال: هي بمعنى المعادية، ومن قال: عدو،
للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب. وقيل: المراد بقوله
﴿فإنهم عدو لي﴾: أبائهم الأقدمون لأجل عبادتهم الأصنام،
وردّ بأن الكلام مسوق فيما عبده لا في العابدين،
والاستثناء في قوله ﴿إلا رب العالمين﴾ منقطع أي: لكن
رب العالمين ليس كذلك، بل هو ولي في الدنيا والآخرة. قال
الزجاج: قال النحويون: هو استثناء ليس من الأول، وأجاز
الزجاج أيضاً أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله
عز وجل، ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما
يعبدون إلا الله. قال الجرجاني: تقديره: أفرايتم ما كنتم
تعبدون أنتم وأبائكم الأقدمون إلا رب العالمين، فإنهم عدو
لي، فجعله من باب التقديم والتأخير، وجعل إلا بمعنى دون
وسوى كقوله: ﴿لا ينوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾
[الدخان: 56] أي: دون الموتة الأولى. وقال الحسن بن
الفضل: إن المعنى: إلا من عبد رب العالمين، ثم وصف رب
العالمين بقوله ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ أي: فهو
يرشني إلى مصالح الدين والدنيا. وقيل: إن الموصول مبتدأ،
وما بعده خبره، والأول أولى. ويجوز أن يكون الموصول
بدلاً من رب، وأن يكون عطف بيان له، وأن يكون منصوباً
على المدح بتقدير أعني، أو مدح، وقد وصف الخليل ربه
بما يستحق العبادة لأجله، فإن الخلق، والهداية، والرزق يدل
عليه قوله ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾، ودفع ضرر
المرض، وجلب نفع الشفاء، والإماتة، والإحياء، والمغفرة
للذنوب، كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها فضلاً عن
كلها أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التي أعلاها،
وأولاها العبادة، وبخول هذه الضمائر في صدور هذه الجمل

إليس أجعون ﴿٥٩﴾ فأولواهم فيها يخسرون ﴿٦٠﴾ تالله إن كنا لفي ضلال مبين ﴿٦١﴾ إذ نسويكم رب العالمين ﴿٦٢﴾ وما أضلنا إلا الضالين ﴿٦٣﴾ فأننا من
شقيين ﴿٦٤﴾ ولا صديق حميم ﴿٦٥﴾ كل أن لنا كرة فنكون من الخاسرين ﴿٦٦﴾ إن في
ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿٦٧﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿٦٨﴾

قوله ﴿واتل عليهم﴾ معطوف على العامل في قوله:
﴿وإذا نادى ربك موسى﴾ [الشعراء: 10]، وقد تقدّم، والمراد
بنبا إبراهيم خبره أي: اقتصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم
وحديثه، و ﴿إذ قال﴾ منصوب بنبا إبراهيم أي: وقت قوله
﴿لأبيه وقومه ما تعبدون﴾، وقيل: إذ بدل من نبا بدل
اشتغال، فيكون العامل فيه اتل، والأول أولى. ومعنى ﴿ما
تعبدون﴾: أي شيء تعبدون؟ وهو يعلم أنهم يعبدون
الأصنام، ولكنه أراد إلزامهم الحجة ﴿قالوا نعبد أصناما
فنظّل لها عاكفين﴾ أي: فنقيم على عبادتها مستمراً لا في
وقت معين، يقال: ظلّ يفعل كذا: إذا فعله نهاراً، ويات يفعل
كذا: إذا فعله ليلاً، فظاهره: أنهم يستمرون على عبادتها نهاراً
لا ليلاً، والمراد من العكوف لها الإقامة على عبادتها، وإنما
قال لها لإفادة أن ذلك العكوف لأجلها، فلما قالوا هذه المقالة
قال إبراهيم منبهاً على فساد مذهبهم ﴿هل يسمعونكم إذ
تدعون﴾ قال الأخفش: فيه حذف، والمعنى: هل يسمعون
منكم، أو هل يسمعون دعاءكم. وقرأ قتادة (هل يسمعونكم)
بضم الباء أي: هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم
﴿أو ينفعونكم﴾ بوجه من وجوه النفع ﴿أو يضرّون﴾ أي:
يضرّونكم إذا تركتم عبادتهم، وهذا الاستفهام للتقرير، فإنها
إذا كانت لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضرّ، فلا وجه لعبادتها،
فإذا قالوا: نعم هي كذلك، أقرّوا بأن عبادتهم لها من باب
اللعب والعبث، وعند ذلك تقوم الحجة عليهم، فلما أورد
عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة لم يجدوا لها جواباً إلا
رجوعهم إلى التقليد البحت، وهو أنهم وجدوا آباءهم كذلك
يفعلون أي: يفعلون لهذه العبادة لهذه الأصنام مع كونها
بهذه الصفة التي هي سلب السمع والنفع والضرر عنها، وهذا
الجواب هو العصي التي يتوكأ عليها كل عاجز، ويمشي بها
كل أعرج، ويغترّ بها كل مغرور، وينخدع لها كل مخدوع؛
فإنك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التي طبقت الأرض
بطولها، والعرض، وقلت لهم: ما الحجة لهم على تقليد فرد
من أفراد العلماء، والأخذ بكل ما يقوله في الدين، وبيّنته
من الراي المخالف للدليل لم يجدوا غير هذا الجواب، ولا
فأهاو بسواه، وأخذوا يعدّون عليك من سبقهم إلى تقليد هذا
من سلفهم، واقتداء بأقواله وأفعاله، وهم قد ملئوا صدورهم
هيبة، وضائق أذهانهم عن تصوّرهم، وظنوا أنهم خير أهل
الأرض، وأعلمهم، وأورعهم، فلم يسمعوا لناصح نصحاء، ولا
لداع إلى الحق دعاء، ولو فطنوا لوجدوا أنفسهم في غرور
عظيم، وجهل شنيع، وإنهم كالبهيمة العمياء، وأولئك
الأسلاف كالعمي الذين يقودون البهائم العمي، كما قال
الشاعر:

تبين له أنه عبث الله تباراً منه، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في سورة التوبة، وسورة مريم، ومعنى ﴿من الضالين﴾: من المشركين الضالين عن طريق الهداية، وكان زائدة على مذهب سيبويه كما تقدم في غير موضع ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ أي: لا تفضحني على رؤوس الأشهاد بمعاتبتي، أو لا تعذبني يوم القيامة، أو لا تخزني بتعذيب أبي، أو ببعثه في جملة الضالين، والإخزاء يطلق على الخزي، وهو الهوان، وعلى الخزية، وهي الحياء، و﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ بدل من يبعثون أي: يوم لا ينفع فيه المال والبنون أحداً من الناس، والابن هو أخص القرابة، وأولاهم بالحماية، والنفع، والنفع، فلماذا لم ينفع، فغيره من القرابة، والأعوان بالأولى. وقال ابن عطية: إن هذا وما بعده من كلام الله، وهو ضعيف، والاستثناء بقوله ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ قيل: هو منقطع أي: لكن من أتى الله بقلب سليم. قال في الكشف: إلا حال من أتى الله بقلب سليم، فقدّر مضافاً محنوقاً. قال أبو حيان: ولا ضرورة تدعو إلى ذلك. وقيل: إن هذا الاستثناء بدل من المفعول المحنوق، أو مستثنى منه، إذ التقدير لا ينفع مال، ولا بنون أحداً من الناس إلا من كانت هذه صفته، ويحتمل أن يكون بدلاً من فاعل ينفع، فيكون مرفوعاً. قال أبو البقاء: فيكون التقدير: إلا مال من أو بنو من، فإنه ينفع.

واختلف في معنى القلب السليم، فقيل: السليم من الشرك، فأما النوب، فليس يسلم منها أحد، قاله أكثر المفسرين. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر والمنافق مريض، وقيل: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة، وقيل: السالم من أفة المال والبئير. وقال الضحاك: السليم الخالص. وقال الجنيدي: السليم في اللغة اللين، فمعناه: أنه قلب كاللين من خوف الله تعالى، وهذا تحريف وتحكيس لمعنى القرآن. قال الرازي: أصح الأقوال: أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة ﴿وازلفت الجنة للمتقين﴾ أي: قريت، وأدنت لهم؛ ليدخلوها. وقال الزجاج: قرب دخولهم إياها، ونظرهم إليها ﴿ويرزت الجحيم للغاوين﴾ أي: جعلت بارزة لهم، والمراد بالغاوين: الكافرون، والمعنى: أنها أظهرت قبل أن يدخلها المؤمنون، ليشهد حزن الكافرين، ويكثر سرور المؤمنين ﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون * من دون الله﴾ من الأصنام والأنداد ﴿هل ينصرونكم﴾ فيبغون عنكم العذاب ﴿أو ينتصرون﴾ بنفعه عن أنفسهم. وهذا كله توبيخ وتقريع لهم، وقرأ مالك بن دينار (وبرزت) بفتح الباء، والراء مبنياً للمفاعل ﴿فكبكبوا فيها هم والغاؤون﴾ أي: ألقاوا في جهنم هم يعني: المعبريين، والغاؤون يعني: العابدين لهم. وقيل: معنى كبكبوا: قلبوا على رؤوسهم. وقيل: ألقي بعضهم على بعض، وقيل: جمعوا، مأخوذاً من الكيكبة، وهي الجماعة قاله الهروي. وقال النحاس: هو مشتق من كركب الشيء أي: معظمه، والجماعة

للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره، وأسند المرض إلى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المنكورة رعاية للألب مع الرب، وإلا فالمرض، وغيره من الله سبحانه، ومراده بقوله ﴿ثم يحيين﴾ البعث، وحذف الباء من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآي. وقرأ ابن أبي إسحاق هذه الأفعال كلها بإثبات الباء، وإنما قال عليه الصلاة والسلام: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ هضماً لنفسه، وقيل: إن أطمع هنا بمعنى اليقين في حقه، وبمعنى الرجاء في حق سواه. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق (خطيائي) قالوا: ليست خطيئته واحدة. قال النحاس: خطيئة بمعنى خطايا في كلام العرب. قال مجاهد: يعني بخطيئته: قوله: ﴿هل فعله كبيرهم هذا﴾ [الأنبياء: 63]، وقوله: ﴿إني سقيم﴾ [الصافات: 89]، وقوله إن سارة أخته، زاد الحسن: وقوله للكوكب: ﴿هذا ربي﴾ [الأنعام: 77 - 78]، وحكى الواحدي عن المفسرين: أنهم فسروا الخطايا بما فسرهما به مجاهد. قال الزجاج: الأنبياء بشر، ويجوز أن تقع عليهم الخطيئة إلا أنهم لا تكون منهم الكبيرة؛ لأنهم معصومون، والمراد بيوم الدين: يوم الجزاء للعباد بأعمالهم، ولا يخفى أن تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد، ومن معه ضعيف، فإن تلك معاريض، وهي أيضاً إنما صدرت عنه بعد هذه المقابلة الجارية بينه وبين قومه. ثم لما فرغ الخليل من الثناء على ربه، والاعتراف بنعمه عقبه بالدعاء؛ ليقندي به غيره في ذلك. فقال: ﴿رب هب لي حكماً﴾، والمراد بالحكم العلم والفهم، وقيل: النبوة والرسالة، وقيل: المعرفة بحدود الله، وإحكامه إلى آخره ﴿والحقني بالصالحين﴾ يعني: بلنبيين من قبلي، وقيل: بأهل الجنة ﴿ولجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ أي: لجعل لي ثناء حسناً في الآخرين الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة. قال القتيبي: وضع اللسان موضع القول على الاستعارة، لأن القول يكون به، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة، ومنه قول الأعشى:

إني أتتني لسان لا أسر بها

وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك بقوله ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ [الصافات: 108] فإن كل أمة تتمسك به وتعظمه. وقال مكي: قيل: معنى سؤاله: أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق، فأجيب دعوته في محمد ﷺ، ولا وجه لهذا التخصيص. وقال القشيري: أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة، ولا وجه لهذا أيضاً، فإن لسان الصديق أعم من ذلك ﴿ولجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ من ورثة يحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً، وأن يكون صفة لمحذوف هو المفعول الثاني أي: وارثاً من ورثة جنة النعيم، لما طلب عليه السلام بالدعوة الأولى سعادة الدنيا طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة، وهي جنة النعيم، وجعلها مما يورث تشبيهاً لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا، وقد تقدم تفسير معنى الورثة في سورة مريم ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾ كان أبوه قد وعده أنه يؤمن به، فاستغفر له، فلما

الآخرين ﴿ قال: اجتماع أهل الملل على إبراهيم. وأخرج عنه أيضاً ﴿ واغفر لأبي ﴾ قال: آمنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك. وأخرج البخاري، وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة، وعلى وجه أزر قفرة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم اقل لك لا تعصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: رب إنك وعنتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأتى خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقول: يا إبراهيم ما تحت رجلك؟، فإذا هو بنخ مطلق، فيؤخذ بقوائمها فيلقى في النار»، والنخ هو الذكر من الضباع، فكانه حول أزر إلى صورة نخب. وقد أخرجه النسائي باطول من هذا. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿ فكبكبا فيها ﴾ قال: جمعوا فيها هممهم والغاؤون ﴿ قال: مشركو العرب والألوهة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ فقلو أن لنا كزّة ﴾ قال: رجعة إلى الدنيا ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾ حتى تحل لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء.

كذبت قوم نوح المرسلين ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَئِذِينَ ﴿١٦٣﴾ إِنَّكُمْ أَنتَ لَمَنْ تَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ قَالَ لَهُمُ ابْنُ الْمَرْثُومَةِ ﴿١٦٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَئِذِينَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبِعُكَ أَلَا تَدْرِي لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِدَعْوَتِكَ الْغَمَامُ ﴿١٦٧﴾ لَكُنَّا عَنْكَ كَافِينَ ﴿١٦٨﴾ فَانْزِلْ بِدَعْوَتِكَ الْغَمَامَ ﴿١٦٩﴾ وَكُلُّهُمْ جُفَاءً عَنْهُ يَوْمَ تَطَايَرُ الْأُنْفُسُ ﴿١٧٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ ابْنُ الْمَرْثُومَةِ ﴿١٧١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَئِذِينَ ﴿١٧٢﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبِعُكَ أَلَا تَدْرِي لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِدَعْوَتِكَ الْغَمَامُ ﴿١٧٣﴾ لَكُنَّا عَنْكَ كَافِينَ ﴿١٧٤﴾ فَانْزِلْ بِدَعْوَتِكَ الْغَمَامَ ﴿١٧٥﴾ وَكُلُّهُمْ جُفَاءً عَنْهُ يَوْمَ تَطَايَرُ الْأُنْفُسُ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ ابْنُ الْمَرْثُومَةِ ﴿١٧٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَئِذِينَ ﴿١٧٨﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبِعُكَ أَلَا تَدْرِي لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِدَعْوَتِكَ الْغَمَامُ ﴿١٧٩﴾ لَكُنَّا عَنْكَ كَافِينَ ﴿١٨٠﴾ فَانْزِلْ بِدَعْوَتِكَ الْغَمَامَ ﴿١٨١﴾ وَكُلُّهُمْ جُفَاءً عَنْهُ يَوْمَ تَطَايَرُ الْأُنْفُسُ ﴿١٨٢﴾

قوله: ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ انث الفعل لكونه مسنداً إلى قوم، وهو في معنى الجماعة، أو الأمة، أو القبيلة، وأوقع التكنيب على المرسلين، وهم لم يكنوا إلا الرسول المرسل إليهم، لأن من كذب رسولا، فقد كذب الرسل، لأن كل رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل. وقيل: كذبوا نوحاً في الرسالة، وكذبوه فيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده ﴿ إذ قال لهم أخوهم نوح ﴾ أي: أخوهم من أبيهم، لا أخوهم في الدين. وقيل: هي أخوة المجانسة، وقيل: هو من قول العرب: يا لثا بني تميم، يريدون واحداً منهم ﴿ ألا تتقون ﴾ أي: ألا تتقون الله بترك عبادة الأصنام، وتجييبون رسوله الذي أرسله إليكم ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي: إني لكم رسول من الله أمين فيما أبلغكم عنه، وقيل: أمين فيما بينكم، فإنهم كانوا قد عرفوا أمانته وصدقه ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أي: اجعلوا طاعة الله وقاية لكم من عذابه،

من الخيل كوكب، وكبكبة، وقيل: ددهوا، وهذه المعاني متقاربة، وأصله ككبوا بباءين الأولى مشددة من حرفين، فأبدل من الباء الوسطى الكاف. وقد رجح الزجاج أن المعنى: طرح بعضهم على بعض. ورجح ابن قتيبة أن المعنى: التقوا على رؤوسهم. وقيل: الضمير في ككبوا لقريش، والغاؤون الألوهة، والمراد بجنود إبليس شياطينه الذين يغوون العباد، وقيل: ذريته، وقيل: كل من يدعو إلى عبادة الأصنام، و﴿ لجمعون ﴾ تأكيد للضمير في ككبوا، وما عطف عليه، وجملة ﴿ قالوا وهم فيها يختصمون ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل، ومقول القول ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين ﴾ وجملة: ﴿ وهم فيها يختصمون ﴾ في محل نصب على الحال أي: قالوا هذه المقالة حال كونهم في جهنم مختصمين، و﴿ إن ﴾ في ﴿ إن كنا ﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية أي: قالوا تالله إن الشأن كوننا في ضلال واضح ظاهر، والمراد بالضلال هنا: الخسار، والتبار، والحيرة عن الحق، والعامل في الظرف، أعني: ﴿ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ هو كونهم في الضلال المبين. وقيل: العامل هو الضلال، وقيل: ما يدل عليه الكلام، كأنه قيل: ضللنا وقت تسويتنا لكم برب العالمين. وقال الكوفيون: إن ﴿ إن ﴾ في ﴿ إن كنا ﴾ نافية، واللام بمعنى إلا أي: ما كنا إلا في ضلال مبين. والأول أولى، وهو مذهب البصريين ﴿ فمالنا من شافعين ﴾ يشفعون لنا من العذاب كما للمؤمنين ﴿ ولا صديق حميم ﴾ أي: ذي قرابة، والحميم القريب الذي تودّه، ويونك، ووجد الصديق لما تقدم غير مرة أنه يطلق على الواحد، والإثنين، والجماعة، والمذكر، والمؤنث، والحميم مأخوذ من حامة الرجل أي: اقربائه، ويقال: حم الشيء وأحم إذا قرب منه، ومنه الحمى؛ لأنه يقرب من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سمي القريب حميماً؛ لأنه يحمي لغضب صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحمية ﴿ فقلو أن لنا كزّة فنكون من المؤمنين ﴾ هذا منهم على طريق التمني الدال على كمال التحسر كأنهم قالوا: فليت لنا كزّة أي: رجعة إلى الدنيا، وجواب التمني، فنكون من المؤمنين أي: نصير من جملتهم، والإشارة بقوله ﴿ إن في تلك لآية ﴾ إلى ما تقدم نكره من نبا إبراهيم، والآية العبرة، والعلامة، والتثني يدل على التعظيم والتفخيم ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أي: أكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم رسول الله ﷺ نبا إبراهيم، وهم قريش، ومن دان بدينهم. وقيل: وما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين، وهو ضعيف؛ لأنهم كلهم غير مؤمنين ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ أي: هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه، أو الرحيم للأعداء بتأخير عقوبتهم، وترك معاجلتهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله ﴿ والحقني بالصالحين ﴾ يعني: بأهل الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿ ولجعل لي لسان صدق في

معه في الفلك المشحون» أي: السفينة المملوءة، والشحن ملء السفينة بالناس، والدواب، والمتاع ﴿ثم أغرقنا بعد الباقين﴾ أي: ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي: علامة وعبرة عظيمة ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ كان زائدة عند سببويه، وغيره على ما تقدم تحقيقه ﴿وإن ربك لهُوَ العزيز الرحيم﴾ أي: القاهر لأعدائه، الرحيم بأوليائه. ﴿كنبت عاد المرسلين﴾ أنت الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة، لأن عاداً اسم أبيهم الأعلى. ومعنى تكذيبهم المرسلين مع كونهم لم يكنوا إلا رسلاً واحداً قد تقدم وجهه في قصة نوح قريباً ﴿إذا قال لهم نخوهم هود ألا تتقون﴾ الكلام فيه كالكلام في قول نوح المتقدم قريباً، وكذا قوله ﴿إني لكم رسول أمين﴾ فاتقوا الله واطيعون * وما نسألكم عليه من أجر إن لجرى إلا على رب العالمين﴾ الكلام فيه كالذي قبله سواء ﴿اتقون بكل ريع آية تعبثون﴾ الريع المكان المرتفع من الأرض جمع رعية، يقال: كم ريع أرضك؟ أي: كم ارتفاعها. قال أبو عبيدة: الريع الارتفاع جمع رعية. وقال قتادة، والضحاك، والكلبي: الريع الطريق، وبه قال مقاتل، والسدي. وإطلاق الريع على ما ارتفع من الأرض معروف عند أهل اللغة، ومنه قول ذي الرمة:

طراق الخوافي مشرف فوق رعية بذي ليلة في ريشه يترقرق
وقيل: الريع الجبل، واحده رعية، والجمع أرياع. وقال مجاهد: هو الفج بين الجبلين، وروي عنه أنه الثنية الصغيرة، وروي عنه: أيضاً أنه المنطرة. ومعنى الآية: أنكم تبثون بكل مكان مرتفع علماً تعبثون ببنيانه، وتلعبون بالمارة، وتسخرون منهم، لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق، فتؤذون المارة، وتسخرون منهم. وقال الكلبي: إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم حكاية الماوردي. قال ابن الأعرابي: الريع الصومعة، والريع البرج يكون في الصحراء، والريع التل العالي، وفي الريع لغتان كسر الراء، وفتحها ﴿وتتخذون مصانع﴾ المصانع: هي الأبنية التي يتخذها الناس منازل. قال أبو عبيدة: كل بناء مصنعة منه، وبه قال الكلبي، وغيره، ومنه قول الشاعر:

تركن ديارهم منهم قفارا وهذ من المصانع والبروجا
وقيل: هي الحصون المشيدة، قاله مجاهد، وغيره، وقال الزجاج: إنها مصانع الماء التي تجعل تحت الأرض واحدها مصنعة، ومصنع، ومنه قول لبيد:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعنا والمصانع
وليس في هذا البيت ما يدل صريحاً على ما قاله الزجاج، ولكنه قال الجوهري: المصنعة بضم النون الحوض يجمع فيه ماء المطر، والمصانع الحصون. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العالية. ومعنى ﴿لعلكم تخلصون﴾ راجع أن تخلصوا، وقيل: إن لعل هنا للاستفهام التوبيخي أي: هل تخلصون، كقولهم: لعلك تشمتني أي: هل

واطيعون فيما أمركم به عن الله من الإيمان به وترك الشرك، والقيام بفرائض الدين ﴿وما نسألكم عليه من أجر﴾ أي: ما أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، ولا أطمع في ذلك منكم ﴿إن أجرى﴾ الذي أطلبه وأريده ﴿إلا على رب العالمين﴾ أي: على ما أجرى إلا عليه، وكرر قوله ﴿فاتقوا الله واطيعون﴾ للتأكيد والتقرير في النفوس مع كونه علق كل واحد منهم بسبب، وهو الأمانة في الأول، وقطع الطمع في الثاني، ونظيره قوله: ألا تتقي الله في عقوقتي، وقد رببتك صغيراً، ألا تتقي الله في عقوقتي، وقد علمتكم كبيراً، وقم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته، لأن تقوى الله علة لطاعته ﴿قالوا أنؤمن لك وتتبعك الأرئلون﴾ الاستفهام للإنكار أي: كيف نتبعك ونؤمن لك، والحال أن قد اتبعك الأرئلون، وهم جمع أرذل، وجمع التكسير أرذل، والأنتى رنلى، وهم الأقلون جاهاً ومالاً، والرذالة الخسة والذلة، استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم، أو لاتضاع انسابهم. وقيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة، وقد تقدم تفسير هذه الآيات في هود. وقرأ ابن مسعود، والضحاك، ويعقوب الحضرمي: (واتباعك الأرئلون) قال النحاس: وهي قراءة حسنة، لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيراً، واتباع جمع تابع، فأجابهم نوح بقوله ﴿وما علمي بما كانوا يعملون﴾ كان زائدة، والمعنى: وما علمي بعملهم أي: لم أكلف العلم بأعمالهم. إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار به، لا بالحرف، والصنائع، والفقر، والغنى، وكانهم أشاروا بقولهم ﴿واتبعك الأرئلون﴾ إلى أن إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح، فأجابهم بهذا. وقيل: المعنى: إني لم أعلم أن الله سيهديهم ويضلهم ﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعروا﴾ أي: ما حسابهم، والتفتيش عن ضمائرهم وأعمالهم إلا على الله لو كنتم من أهل الشعور والفهم، قرأ الجمهور (تشعرون) بالفوقية، وقرأ ابن أبي عبيدة، وابن السميع، والأعرج، وأبو زرعة بالتحية، كأنه ترك الخطاب للكفار، والتفت إلى الإخبار عنهم. قال الزجاج: والصناعات لا تضر في باب الديانات، وما أحسن ما قال ﴿وما لنا بطارد المؤمنين﴾ هذا جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم ﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي: ما أنا إلا نذير موضح لما أمرني الله سبحانه بإبلاغه إليكم، وهذه الجملة كالعلة لما قبلها ﴿قالوا لنن لم تنته يا نوح لتكون من المرجومين﴾ أي: إن لم تترك عيب ديننا، وسب آلهتنا لتكون من المرجومين بالحجارة، وقيل: من المشتمين، وقيل: من المقتولين، فعلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد، فلما سمع نوح قولهم هذا ﴿قال رب إن قومي كذبون﴾ أي: أصروا على تكذبي، ولم يسمعوا قولي، ولا أجابوا دعائي ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ الفتح الحكم أي: احكم بيني وبينهم حكماً، وقد تقدم تحقيق معنى الفتح ﴿ونجني ومن معي من المؤمنين﴾ فلما دعا ربه بهذا الدعاء استجاب له، فقال ﴿فانجينا ومن

فَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَقْسَىٰ ذُنُوبِهِمْ وَلَئِنَّ أَكْثَرَهُمْ مُّزَيَّرِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَيْبَكُمْ لَهُوَ أَلْفَبُورٌ ﴿١٥٩﴾

أي وعظكم، وعدهم ﴿سواء﴾ عندنا لا نبالي بشيء منه، ولا نلتفت إلى ما تقول. وقد روى العباس عن أبي عمرو. وروى بشر عن الكسائي ﴿أو عظت﴾ بإدغام الظاء في التاء، وهو بعيد، لأن حرف الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جذاً، وروى ذلك عن عاصم، والأعمش، وأبن محيصن. وقرأ الباقر بإظهار الظاء ﴿إِنَّ هَذَا إِلاَّ خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئتنا به، ودعوتنا إليه من الدين إلا خلق الأولين أي: عانتهم التي كانوا عليها. وقيل: المعنى: ما هذا الذي نحن عليه إلا خلق الأولين وعانتهم، وهذا بناء على ما قاله الفراء، وغيره: إن معنى: ﴿خلق الأولين﴾: عادة الأولين. قال النحاس: خلق الأولين عند الفراء بمعنى: عادة الأولين. وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن محمد بن يزيد قال: ﴿خلق الأولين﴾ مذهبهم، وما جرى عليه أمرهم. والقولان متقاربان. قال: وحكى لنا محمد بن يزيد: أن معنى ﴿خلق الأولين﴾: تكذيبهم. قال مقاتل: قالوا: ما هذا الذي تدعونا إليه إلا كذب الأولين. قال الواحدي: وهو قول ابن مسعود، ومجاهد. قال: والخلق، والإختلاق الكذب، ومنه قوله: ﴿وتخلقون إفكاً﴾ [العنكبوت: 17] قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ويعقوب (خلق الأولين) بفتح الخاء، وسكون اللام. وقرأ الباقر بضم الخاء، واللام. قال الهروي: معناه على القراءة الأولى: اختلاقهم، وكذبهم. وعلى القراءة الثانية: عانتهم، وهذا التفصيل لا بد منه. قال ابن الأعرابي: الخلق الدين، والخلق الطبع، والخلق المروءة. وقرأ أبو قلابة بضم الخاء، وسكون اللام، وهي تخفيف لقراءة الضم لهما، والظاهر: أن المراد بالآية هو قول من قال: ما هذا الذي نحن عليه إلا عادة الأولين، وفعلهم، ويؤيده قولهم ﴿وما نحن بمعنيين﴾ أي: على ما نفعل من البطش، ونحوه مما نحن عليه الآن ﴿فكنبوه فاهلكناهم﴾ أي: بالريح كما صرح القرآن في غير هذا الموضع بذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿قد تقدم تفسير هذا قريباً في هذه السورة. ثم لما فرغ سبحانه من نكر قصة هود وقومه، نكر قصة صالح وقومه، وكانوا يسكنون الحجر، فقال ﴿كنبت نمود﴾ إلى قوله ﴿إلا على رب العالمين﴾ قد تقدم تفسيره في قصة هود المذكورة قبل هذه القصة ﴿اتتركون في ما ها هنا آمينين﴾ الاستفهام للإنكار. أي: اتتركون في هذه النعم التي أعطاكم الله آمينين من الموت والعذاب، باقين في الدنيا. ولما أبهم النعم في هذا فسرهما بقوله ﴿في جنات وعيون﴾ * وزرع ونخل طلعها هضيم، والهضيم النضيج الرخص اللين اللطيف، والطلع ما يطلع من الثمر، وذكر النخل مع دخوله تحت الجنات لفضله على سائر الأشجار، وكثيراً ما ينكرون الشيء الواحد بلفظ يعمه وغيره، كما يذكرون النعم، ولا يقصدون إلا الإبل، وهكذا ينكرون الجنة، ولا يريدون إلا

تشتمني. وقال الفراء: كي تخلصون لا تتفكرون في الموت، وقيل: المعنى كأنكم باقون مخلصون. قرأ الجمهور (تخلصون) مخففاً. وقرأ قتادة بالتشديد. وحكى النحاس: أن في بعض القراءات (كأنكم مخلصون)، وقرأ ابن مسعود (كي تخلصوا) ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ البطش السطوة والأخذ بالعنف. قال مجاهد، وغيره: البطش العسف قتلاً بالسيف، وضرباً بالسطو. والمعنى: فعلتم ذلك ظلماً، وقيل: هو القتل على العصب قاله الحسن، والكلي. قيل: والتقدير: وإذا أربتم البطش، لئلا يتحد الشرط، والجزاء، وانتصاب جبارين على الحال. قال الزجاج: إنما أنكر عليهم ذلك؛ لأنه ظلم، وأما في الحق، فالبطش بالسطو والسيف جائز. ثم لما وصفهم بهذه الأوصاف القبيحة الدالة على الظلم، والعتو، والتمرد، والتجبر أمرهم بالتقوى، فقال ﴿فاتقوا الله واطيعوا﴾ لاجل التقوى ثم فصلها بقوله ﴿ولتقوا الذي آمنكم بما تعلمون﴾ * أمكنكم بأنعام وبنيين، وأعاد الفعل للتقرير والتأكيد ﴿وجنات وعيون﴾ أي: بساتين، وأنهار وأبار. ثم وعظهم، وحذرهم، فقال ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ إن كفرتم، وأصررت على ما أنتم فيه ولم تشكروا هذه النعم، والمراد بالعذاب العظيم الدنيوي والأخروي.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿قالوا لنؤمن لك﴾ أي: أنصدقك؟ وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ولتبعد الأربلون﴾ قال: الحواكون. وأخرج أيضاً عن قتادة قال: سفلة الناس، وأربلهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿الفلك المشحون﴾ قال: الممتلئ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه، أنه قال: «أتدرون ما المشحون؟ قلنا: لا، قال: هو الموقر». وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: هو المثقل. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿بكل ريع﴾ قال: طريق ﴿آية﴾ قال: علماً ﴿تعبثون﴾ قال: تلعبون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿بكل ريع﴾ قال: شرف. وأخرجوا أيضاً عنه ﴿لعلكم تخلصون﴾ قال: كأنكم تخلصون. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿جبارين﴾ قال: أقوياء.

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَارِثِينَ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ هَذَا إِلاَّ خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦١﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٦٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٤﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَوَافِيٍّ ثَمُودَ النَّاسِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ مَوْلَاهُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾ إِنْ لَكُمْ رُسُلٌ أَيْنَ ﴿١٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْ بِآمِنِينَ ﴿١٧٠﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٧١﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٧٢﴾ وَتَنَجُّوتُ مِنْ أَجْنَالٍ يَرَوْنَهَا ﴿١٧٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٤﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ النَّاسِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٧٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٧٦﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٧٧﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَارُ رَبِّي أَتْلُوهُ وَلَكِنْ يَرَاهُ يَوْمَ تَلُوتٍ ﴿١٧٨﴾ وَسَمَوْهَا يُسَبِّحُونَ فَاتَّخَذُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٩﴾ فَفَرَّقْنَا مَا صَبَحُوا نَدِيرِينَ ﴿١٨٠﴾

النخل. قال زهير:

كان عيني في غربي مقبلة من النواضع تسقي جنة سحقا
وسحقا جمع سحوق، ولا يوصف به إلا النخل. وقيل:
المراد بالجنات غير النخل من الشجر، والأول أولى. وحكى
الموردي في معنى هضم اثني عشر قولاً أحسنها وأوفقها
للفظة ما نكرناه ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِين﴾
النحت: النجر، والبري، نحته ينحته بالكسر براه، والنحات
البراية، وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال لما طالت أعمارهم،
وتهنم بناؤهم من المنر. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن
ذكوان⁽¹⁾ (فرهين) بغير ألف. وقرأ الباقون (فارهين) بالألف.
قال أبو عبيدة، وغيره: وهما بمعنى واحد. والفرة: النشاط،
وفرق بينهما أبو عبيد، وغيره، فقالوا: (فارهين) حانقين
بنحتها، وقيل: متجبرين، (وفرهين) بطرين أشرين، وبه قال
مجاهد، وغيره. وقيل: شرهين. وقال الضحاك: كيسين. وقال
قتادة: معجبين ناعمين آمنين، وبه قال الحسن. وقيل:
فرحين، قاله الأخفش. وقال ابن زيد: أقوياء ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاطِيعُونَ * وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المشركين،
وقيل: الذين عقروا الناقة، ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله
﴿الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ﴾ أي: تلك
دابهم يفعلون الفساد في الأرض، ولا يصدر منهم الصلاح
البتة ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ أي: الذين أصيبوا
بالمسحور قاله مجاهد، وقتادة. وقيل: المسحور هو المعلل
بالطعام والشراب قاله الكلبي، وغيره، فيكون المسحور الذي
له سحر، وهو الرقة، فكانهم قالوا: إنما أنت بشر مثلنا تأكل
وتشرب. قال الفراء: أي: إنك تأكل تأكل الطعام والشراب،
وتسحر به، ومنه قول امرئ القيس، أو لبيد:

فإن تسالينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الانام المسحر
وقال امرؤ القيس أيضاً:

أرانا موضعين لحتم غيب ونسحر بالطعام وبالشراب
قال المؤرج: المسحر المخلوق بلغة ربيعة ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُنَا فَاتِّبَاعُ بَأْيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله،
ودعواك ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ الله ﴿لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ
مَعْلُومٍ﴾ أي: لها نصيب من الماء، ولكم نصيب منه معلوم
ليس لكم أن تشربوا في اليوم الذي هو نصيبها، ولا هي
تشرب في اليوم الذي هو نصيبكم. قال الفراء: الشرب الحظ
من الماء. قال النحاس: فأما المصدر، فيقال: فيه شرب شرباً،
وشرباً، وأكثرها المضموم، والشرب بفتح الشين جمع
شارب، والمراد هنا الشرب بالكسر، وبه قرأ الجمهور فيهما،
وقرأ ابن أبي عبيدة بالضم فيهما ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ أي: لا تمسوها بعقر، أو
ضرب، أو شيء مما يسوقها، وجواب النهي، فياخذكم

﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ على عقرها، لما عرفوا أن
العذاب نازل بهم، وذلك أنه أنذرهم ثلاثاً، فظهرت عليهم
العلامة في كل يوم، وندموا حيث لا ينفع الندم، لأن ذلك
لا يجدي عند معاناة العذاب، وظهور آثاره ﴿فَاخْذَهُمُ
لِلْعَذَابِ﴾ الذي وعدهم به. وقد تقدم تفسير قوله ﴿إِنْ فِي
تِلْكَ لَآيَةٌ لِرَبِّكَ﴾ في هذه السورة، وتقدم أيضاً تفسير قصة
صالح وقومه في غير هذه السورة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن
عباس ﴿وَنُخِّلَ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: معشب. وأخرج ابن
جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: أئعن وبلغ. وأخرج ابن أبي
حاتم عنه أيضاً قال: أرطب، واسترخى. وأخرج ابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿فَرِهِين﴾
قال: حانقين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال
﴿فَرِهِين﴾ أشرين. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: شرهين.
وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والخطيب،
وابن عساکر من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّمَا أَنْتَ
مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ قال: من المخلوقين، وأتشد قول لبيد بن
ربيعة:

فإن تسالينا فيم نحن.....
وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً في قوله ﴿لَهَا شَرْبٌ﴾
قال: إذا كان يومها أصدر لها لبناً ما شاموا.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٥٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيُحْيِي ﴿١٥٣﴾ وَكَأَنتُمْ عَلَيْهِ مِن لَّجَرٍ إِنْ أَجَبْتُمْ
إِلَّا عَلَى رِبِّ الْمَلَكِيَّاتِ ﴿١٥٤﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ النِّسَاءِ ﴿١٥٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ
لَكُمْ رِبَّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٥٦﴾ قَالُوا لَنْ لَوْ تَنْتَهَ بِأَلُوطٍ لَتَكُونَنَّ
مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٥٧﴾ قَالَ إِنِّي لَمَلَكٌ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٥٨﴾ رَبِّ يَحْنِي وَأَهْلِي بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٥٩﴾
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٦١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٦٢﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٤﴾ وَلَئِنْ رَأَيْتَ مُزَيَّرَ الرَّجِيمِ ﴿١٦٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٨﴾ فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَالْيُحْيِي ﴿١٦٩﴾ وَكَأَنتُمْ عَلَيْهِ مِن لَّجَرٍ إِنْ أَجَبْتُمْ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْمَلَكِيَّاتِ ﴿١٧٠﴾
﴿١٧١﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَزِنُوا بِالْقِسَاسِ أَلْسِنَتِكُمْ
﴿١٧٣﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَمْنُوا فِي الْأَرْضِ مُقْبِلِينَ ﴿١٧٤﴾ وَأَتَقُوا إِلَى
خَلْقِكُمْ وَالْجَلَّةِ الْآخَرِينَ ﴿١٧٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَئِنْ الْكَذِبِينَ ﴿١٧٧﴾ فَاسْوَطَ عَلَيْنَا كَيْسًا مِنَ السَّكْوِ إِنْ
كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧٨﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ
عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨١﴾ وَلَئِنْ رَأَيْتَ مُزَيَّرَ الرَّجِيمِ ﴿١٨٢﴾

نكر سبحانه القصة السادسة من قصص الانبياء مع

(1) قوله وابن ذكوان: الصواب ذكر نافع بدلاً عنه كما هو المشهور

تخفيفاً ألقيت حركتها على اللام. قال الخليل: الآية غيضة تنبت السدر، والأراك، ونحوهما من ناعم الشجر ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ لم يقل أخوهم كما قال في الأنبياء قبله؛ لأنه لم يكن من أصحاب الآية في النسب، فلما نكر مينين قال أخاهم شعيباً؛ لأنه كان منهم، وقد مضى تحقيق نسبه في الأعراف، وقد تقدم تفسير قوله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في هذه السورة. قوله ﴿أَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: أتموا الكيل لمن أراد، وعامل به، ولا تكونوا من المخسرين: الناقصين للكيل والوزن، يقال: أخسرت الكيل والوزن؛ أي: نقصته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنَهُمْ يَخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 3]، ثم زاد سبحانه في البيان، فقال ﴿وَوَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلَسْتُمْ بِأَعْيُنٍ سَابِقَةٍ﴾ أي: أعطوا الحق بالميزان السوي؛ وقد مر بيان تفسير هذا في سورة سبحان، وقد قرئ (بالقسطاس) مضموماً، ومكسوراً ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ البخس النقص، يقال: بخسه حقه: إذا نقصه أي: لا تنقصوا الناس حقوقهم التي لهم، وهذا تعميم بعد التخصيص، وقد تقدم تفسيره في سورة هود، وتقدم أيضاً تفسير ﴿وَلَا تَعْلَوْا فِي الْأَرْضِ مَغْسِينَ﴾ فيها، وفي غيرها ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام، وقرأ أبو حصين، والاعمش، والحسن، والأعرج، وشيبة بضمهما، وتشديد اللام، وقرأ السلمي بفتح الجيم مع سكون الباء، والجبلية الخليفة قاله مجاهد، وغيره يعني: الأمم المتقدمة، يقال: جبل فلان على كذا أي: خلق. قال النحاس: الخلق يقال له: جبل بكسر الحرفين الأولين، وبضمهما مع تشديد اللام فيهما، وبضم الجيم، وسكون الباء، وضمه وفتحها، قال الهروي: الجبلية، والجبلية، والجبل، والجبل لغات، وهو: الجمع ذو العدد الكثير من الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿جِبَلًا كَثِيرًا﴾ [يس: 62] أي: خلقاً كثيراً، ومن ذلك قول الشاعر:

والمسوت أعظم حادث فيما يمر على الجبلية
﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ وما أنت إلا بشر مثلاً، قد تقدم تفسيره مستوفى في هذه السورة ﴿وَإِنْ تَنْظُرُكَ لِمَنِ الْكَانِبِينَ﴾ إن هي المخففة من الثقيلة عملت في ضمير شأن مقدر، واللام هي الفارقة أي: فيما تدعيه علينا من الرسالة، وقيل: هي النافية، واللام بمعنى إلا أي: ما ننظرك إلا من الكانبيين، والأول أولى ﴿فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ كان شعيب يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، فقالوا له هذا القول نعتاً، واستبعاداً، وتعجيزاً. والكسف: القطعة. قال أبو عبيدة: الكسف جمع كسفة مثل سدر، وسدر. قال الجوهري: الكسفة القطعة من الشيء، يقال: أعطني كسفة من ثوبك، والجمع كسف، وقد مضى تحقيق هذا في سورة سبحان ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دواك ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك، والمعاصي، فهو مجازيك

قومهم، وهي قصة لوط. وقد تقدم تفسير قوله ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في هذه السورة، وتقدم أيضاً تفسير قصة لوط مستوفى في الأعراف، قوله ﴿تَاتُونَ الزَّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الزكران جمع الزكر ضد الأنثى، ومعنى تاتون: تنكحون الزكران من العالمين، وهم بنو آدم، أو كل حيوان، وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم في الأعراف ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أي: وتتركون ما خلقه الله لأجل استمتاعكم به من النساء، وأراد بالأزواج جنس الإنثى ﴿بَلْ لَكُمْ قَوْمٌ بَادُونَ﴾ أي: مجاوزون للحد في جميع المعاصي، ومن جعلتها هذه المعصية التي ترتكبونها من الزكران ﴿قَالُوا لَشَيْءٌ لَمْ تَنْفَعْ يَا لُوطُ﴾ عن الإنكار علينا، وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ﴾ من بلدنا المنفيين عنها ﴿قَالَ إِنِّي لَعَمْرُكُمُ﴾ وهو ما أنتم فيه من إتيان الزكران ﴿مِنْ الْقَالِينَ﴾ المبغضين له، والقلبي البغض، قلبيته أقلية قلا، وقلاء، ومنه قول الشاعر:

فلست بمقلبي الخلال ولا قالي

وقال الآخر:

ومالك عندي إن نأيت قلاء

ثم رغب عليه الصلاة والسلام عن محاورتهم، وطلب من الله عز وجل أن ينجيهم، فقال ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عملهم الخبيث، أو من عقوبته التي ستصيبهم، فأجاب الله سبحانه دعاءه، وقال ﴿فَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ لَجْمَعِينَ﴾ أي: أهل بيته، ومن تابعه على يمينه، وأجاب دعوته ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ هي: امرأة لوط، ومعنى ﴿مِنْ الْغَابِرِينَ﴾: من الباقيين في العذاب. وقال أبو عبيدة: من الباقيين في الهرم أي: بقيت حتى هرمت. قال النحاس: يقال للذهاب غابر، وللباقي غابر. قال الشاعر:

لا تكسع الشول باغبارها إنك لا تدري من الناتج

والأغبار بقية الألبان، وتقول العرب: ما مضى، وما غير أي: ما مضى، وما بقي ﴿ثُمَّ بَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾ أي: أهلكناهم بالخسف، والحصب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ يعني: الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ المخصوص بالنم محذوف، والتقدير مطرهم، وقد تقدم تفسير ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم في هذه السورة ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (ليكة) بلام واحدة، وفتح التاء جعلوه اسماً غير معرّف بال مضافاً إليه أصحاب، وقرأ الباقر (الأيكة) معرّفاً، والأيكة الشجر الملتف، وهي الغيضة، وليكة اسم للقرية، وقيل: هما بمعنى واحد اسم للغيضة. قال القرطبي: فاما ما حكاه أبو عبيد من: أن ليكة اسم القرية التي كانوا فيها، وأن الآية اسم البلد كله، فشيء لا يثبت، ولا يعرف من قاله، ولو عرف لكان فيه نظر، لأن أهل العلم جميعاً على خلافه. قال أبو علي الفارسي: الآية تعريف أيكة، فإذا حذفت الهمزة

كالسحابة السوداء، فلما راوها ابتدروها يستغيثون بظلمها حتى إذا كانوا جميعاً أطبقت عليهم، فهلکوا، ونجى الله شعباً والذين آمنوا معه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال **﴿الجبلۃ الأولین﴾** الخلق الأولین. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عنه أيضاً أنه سئل عن قوله **﴿فأخذهم عذاب يوم للظلة﴾** قال: بعث الله عليهم حراً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فسلخوا أجواف البيوت، فدخل عليهم أجوافها، فأخذ بأنفسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة، فآظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم ناراً، فذلك عذاب يوم الظلة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم عنه أيضاً قال: من حدثك من العلماء عذاب يوم الظلة، فكذب. أقول: فما نقول له رضي الله عنه فيما حدثنا به من ذلك مما نقلناه عنه ها هنا، ويمكن أن يقال: إنه لما كان هو البحر الذي علمه الله تأويل كتابه بدعوة نبيه ﷺ كان مختصاً بمعرفة هذا الحديث دون غيره من أهل العلم، فمن حدث بحديث عذاب الظلة على وجه غير هذا الوجه الذي حدثنا به، فقد وصانا بتكذيبه، لأنه قد علمه، ولم يعلمه غيره.

وَلَمَّا تَنَزَّلَتْ رِيَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٠﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٠١﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٠٢﴾ بِلِسَانٍ عَرَبٍ مُبِينٍ ﴿١٠٣﴾ وَلَمَّا لَوَّى زُرَّ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠٤﴾ أَوْرَى بِكُنْ مُمْرَأَةً يَلْعَنُهَا عَلَمُهَا عَلَتْ بَابَ إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجِينَ ﴿١٠٦﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ النَّبِيِّينَ ﴿١٠٨﴾ لَتَكُونَ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُعْتَدِلَةٌ ﴿١٠٩﴾ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١١٠﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١١﴾ فَيَقُولُوا هَلْ مَحْنٌ مِّنْظُورٍ ﴿١١٢﴾ أَفَعِدَّائِي يَسْتَحْمِلُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَعَدَّيْتُ إِن مَّشَغَلْتُمْ سِينِي ﴿١١٤﴾ فَرُجَاهُمْ مَا كَانُوا يوعَدُونَ ﴿١١٥﴾ مَا أَفَنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١٦﴾ وَمَا أَفْلَحْنَا مِنْ قُرَيْبَةٍ إِلَّا مَا نَشِئُونَ ﴿١١٧﴾ ذِكْرًا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا نَنْزِلُكَ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿١١٩﴾ وَمَا يَلْنِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّمَا هِيَ السَّمَاءُ لَمَعَزُولُ ﴿١٢١﴾ فَلَا تَنفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكَوِّرُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿١٢٢﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٢٣﴾ وَخُفِضَ جَنَاحُكَ لِمَنِ أَبْعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٥﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٢٦﴾ الَّذِي يَرْبِكَ جِئْتَ تَقُومُ ﴿١٢٧﴾ وَتَقَلَّبُكَ فِي السَّجَدِينَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٩﴾ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَنْ مِّنْ نَّزَلِ الشَّيْطَانِ ﴿١٣٠﴾ نَزَلَ عَلَى كُلِّ فَأَلٍ أَثِيرٍ ﴿١٣١﴾ يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿١٣٢﴾ وَالشَّعْرَةَ يَبْمُجُّهُمُ الْفَأْوِنَ ﴿١٣٣﴾ أَلَّا تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهْمُونَ ﴿١٣٤﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿١٣٦﴾

قوله: **﴿وإنه لتنزِيل رب العالمين﴾** الضمير يرجع إلى ما نزل عليه من الأخبار أي: وإن هذه الأخبار، أو وإن القرآن، وإن لم يجر له نكر للعلم به، قيل: وهو على تقدير مضاف محذوف أي: نو تنزيل، وأما إذا كان تنزيل بمعنى

على ذلك إن شاء، وفي هذا تهديد شديد **﴿فكذبوه﴾**، فاستمروا على تكذيبه، وأصروا على ذلك **﴿فأخذهم عذاب يوم للظلة﴾**، والظلة السحاب، أقامها الله فوق رؤوسهم، فأمطرت عليهم ناراً، فهلکوا، وقد أصابهم الله بما اقترحوا، لأنهم إن أرادوا بالكشف القطعة من السحاب، فظاهر، وإن أرادوا بها القطعة من السماء، فقد نزل عليهم العذاب من جهتها، وأضاف العذاب إلى يوم الظلة لا إلى الظلة تنبيهاً على أن لهم في ذلك اليوم عذاباً غير عذاب الظلة، كذا قيل. ثم وصف سبحانه هذا العذاب الذي أصابهم بقوله **﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾** لما فيه من الشدة عليهم التي لا يقادر قدرها، وقد تقدم تفسير قوله **﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾** وإن ربك لهو العزيز الرحيم في هذه السورة مستوفى، فلا نعيده، وفي هذا التكرير لهذه الكلمات في آخر هذه القصص من التهديد، والزجر، والتقرير، والتأكيد ما لا يخفى على من يفهم مواقع الكلام، ويعرف أساليبه.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله **﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾** قال: تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال، وأدبار النساء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة نحوه. وأخرج أيضاً عن قتادة **﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾** قال: هي: امرأة لوط غبرت في عذاب الله. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد (ليكة) قال: هي الأيكة. وأخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر عن ابن عباس في قوله **﴿كذب أصحاب الأيكة للمرسلين﴾** قال: كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر إلى مدين **﴿إذ قال لهم شعيب﴾**، ولم يقل أخوهم شعيب. لأنه لم يكن من جنسهم **﴿ألا تتقون﴾** كيف لا تتقون، وقد علمتم أنني رسول أمين لا تعذبون من هلاك مدين، وقد أهلكوا فيما يأتون، وكان أصحاب الأيكة مع ما كانوا فيه من الشرك استنوا بسنة أصحاب مدين، فقال لهم شعيب **﴿إني لكم رسول أمين﴾** فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم على ما أَدْعُوكُمْ إليه **﴿ومن لجر﴾** في العاجل من أموالكم **﴿إن لجرى إلا على رب العالمين﴾** **﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلۃ الأولین﴾** يعني: القرون الأولين الذي أهلكوا بالمعاصي، ولا تهلکوا مثلهم **﴿قالوا إنما أنت من المسحورين﴾** يعني من المخلوقين **﴿وما أنت إلا بشر مثلكم وإن نطقك لمن الكائنين﴾** فأسقط علينا كسفاً من السماء، يعني: قطعاً من السماء **﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾** أرسل الله إليهم سموماً من جهنم، فاطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر، فحميت بيوتهم، وغلت مياههم في الآباء، والعيون، فخرجوا من منازلهم، ومحلثهم هاربين، والسموم معهم، فسلب الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم، فغشيتهم حتى تقلقت فيها جماجمهم، وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم، ثم نشأت لهم ظلة

منزل، فلا حاجة إلى تقدير مضاف، قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم ﴿نزل﴾ مخففاً، وقرأه الباقون مشدداً، و﴿والزوح الأمين﴾ على القراءة الثانية منصوب على أنه مفعول به، وقد اختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد، والروح الأمين جبريل، كما في قوله: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزل على قلبك﴾ [البقرة: 97]، ومعنى ﴿على قلبك﴾: أنه تلاه على قلبه، ووجه تخصيص القلب، لأنه أول منرك من الحواس الباطنة. قال أبو حيان: إن على قلبك، ولتكون متعلقان بنزل، وقيل: يجوز أن يتعلقا بتنزيل، والأول أولى، وقرئ (نزل) مشدداً مبنياً للمفعول، والفاعل هو الله تعالى، ويكون الروح على هذه القراءة مرفوعاً على النياحة ﴿لتكون من المنذرين﴾ علة للإنزال أي: أنزله، لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات، والإنذارات، والعقوبات ﴿يلسان عربي مبين﴾ متعلق بالمنذرين أي: لتكون من المنذرين بهذا اللسان، وجوز أبو البقاء أن يكون بدلاً من «به»، وقيل: متعلق بنزل، وإنما أخر للاعتناء بذكر الإنذار، وإنما جعل الله سبحانه القرآن عربياً بلسان الرسول العربي لئلا يقول مشركو العرب: لسانا فهم ما تقوله بغير لساننا، فقطع بذلك حجتهم، وأزاح علتهم، ودفع معذرتهم ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي: إن هذا القرآن باعتبار أحكامه التي أجمعت عليها الشرائع في كتب الأولين من الأنبياء، والزبر الكتب، الواحد زبور، وقد تقدم الكلام على تفسير مثل هذا. وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ، وقيل: المراد بكون القرآن في زبر الأولين أنه منكور فيها هو نفسه، لا ما اشتمل عليه من الأحكام، والأول أولى ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر كما تقدم مراراً، والآية العلامة والدلالة أي: ألم يكن لهؤلاء علامة دالة على أن القرآن حق، وأنه تنزيل رب العالمين. وأنه في زبر الأولين، أن يعلمه علماء بني إسرائيل على العموم، أو من آمن منهم كعبد الله بن سلام، وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون إليهم، ويصنفونهم. قرأ ابن عامر (تكن) بالفوقية، وآية بالرفع على أنها اسم كان، وخبرها أن يعلمه الخ، ويجوز أن تكون تامة، وقرأ الباقون (يكن) بالتحية، وآية بالنصب على أنها خبر يكن، واسمها أن يعلمه الخ، قال الزجاج: أن يعلمه اسم يكن، وآية خبره. والمعنى: أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل أن محمداً نبي حق علامة ودلالة على نبوته، لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود نكره في كتبهم، وكذا قال الفراء، ووجها قراءة الرفع بما نكرنا. وفي قراءة ابن عامر نظر، لأن جعل النكرة اسماً، والمعرفة خبراً غير سائغ، وإن ورد شاذاً في مثل قول الشاعر:

فلايك موقف منك الوداعا

وقول الآخر:

وكان مزاجها عسل وماء

ولا وجه لما قيل: إن النكرة قد تخصصت بقولهم ﴿لهم﴾؛ لأنه في محل نصب على الحال، والحال صفة في المعنى؛ فأحسن ما يقال في التوجيه: ما قلنا نكره من أن يكن تامة ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ أي: لو نزلنا القرآن على الصفة التي هو عليها على رجل من الأعجمين الذي لا يقدرون على التكلم بالعربية ﴿فقراه عليهم﴾ قراءة صحيحة ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ مع انضمام إعجاز القراءة من الرجل الأعجمي للكلام العربي إلى إعجاز القرآن. وقيل: المعنى: ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم، فقراه عليهم بلغته لم يؤمنوا به، وقالوا: ما نفقه هذا، ولا نفهمه، ومثل هذا قوله: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته﴾ [فصلت: 44] يقال: رجل أعجم، وأعجمي إذا كان غير فصيح اللسان، وإن كان عربياً، ورجل عجمي إذا كان أصله من العجم، وإن كان فصيحاً، إلا أن الفراء أجاز أن يقال: رجل عجمي بمعنى أعجمي، وقرأ الحسن (على بعض الأعجميين)، وكذلك قرأ الجحدري. قال أبو الفتح بن جني: أصل الأعجمين: الأعجميين، ثم حذفت ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون ليلاً عليها ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ أي: مثل ذلك السلك سلكناه أي: انخلناه في قلوبهم يعني: القرآن حتى فهموا معانيه، وعرفوا فصاحته، وأنه معجز. وقال الحسن، وغيره: سلكناه الشر والكذب في قلوب المجرمين، وقال عكرمة: سلكناه القسوة، والأول أولى، لأن السياق في القرآن، وجملة ﴿لا يؤمنون﴾ تحتمل وجهين: الأول الاستئناف على جهة البيان والإيضاح لما قبلها. والثاني: أنها في محل نصب على الحال من الضمير في سلكناه، ويجوز أن يكون حالاً من المجرمين. وأجاز الفراء الجزم في لا يؤمنون، لأن فيه معنى الشرط، والمجازاة، وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كيلاً مثل هذا ربما جزم ما بعدهاء، وربما رفعت، فنقول: ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع، والجزم؛ لأن معناه: إن لم أربطه ينفلت، وأنشد لبعض بني عقيل:

وحتى رأينا أحسن الفعل بيننا مساكنا لا يقرب الشر قارب بالرفع، ومن الجزم قول الآخر:

لطال ما حللتماها لا ترد فخلياها والسخال تبترد قال النحاس: وهذا كله في لا يؤمنون خطأ عند البصريين، ولا يجوز الجزم بلا جازم ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي: لا يؤمنون إلى هذه الغاية، وهي مشاهدتهم للعذاب الأليم ﴿فيا أيها العذاب﴾ العذاب ﴿بغتة﴾ أي: فجأة ﴿و﴾ الحال أنه لا يشعرون ﴿بآياته﴾، وقرأ الحسن، (فتأتينهم) بالفوقية: أي: الساعة، وإن لم يتقدم لها نكر، لكنه قد دل العذاب عليها ﴿فيقولوا هل نحن منظرون﴾ أي: مؤخرون، وممهلون، قالوا هذا تحسراً على ما فات من الإيمان، وتعميلاً للرجعة إلى الدنيا، لاستدراك ما فرط منهم. وقيل: إن المراد بقولهم: ﴿هل نحن منظرون﴾ الاستعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله ﴿أبعدنا

يستعجلون»، ولا يخفى ما في هذا من البعد والمخالفة للمعنى الظاهر، فإن معنى «هل نحن منظرون»: طلب النظرة، والإمهال، وأما قوله «فيعذبنا يستعجلون»، فالمراد به الرد عليهم، والإنكار لما وقع منهم من قولهم: «أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» [الأنفال: 32]، وقولهم: «فأتانا بما تعدنا» [الأعراف: 70، هود: 32، الأحقاف: 22] «أقرأيت إن متعناهم سنين» الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يناسب المقام كما مر في غير موضع، ومعنى رأيت: أخبرني، والخطاب لكل من يصلح له أي: أخبرني إن متعناهم سنين في الدنيا متطاوله، وطولنا لهم الأعمار «ثم جاءهم ما كانوا يوعدون» من العذاب، والهلاك «ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون» ما هي الاستفهامية، والمعنى: أي شيء أغنى عنهم كونهم متمتعين ذلك التمتع الطويل، و «ما كانوا يمتعون» يجوز أن تكون المصدرية، ويجوز أن تكون الموصولة، والاستفهام للإنكار التقريري، ويجوز أن تكون الأولى نافية، والمفعول محذوف أي: لم يغن عنهم تمتيعهم شيئاً، وقرئ (يمتعون) بإسكان الميم، وتخفيف التاء من أمتع الله زيداً بكذا «وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون» من مزيدة للتأكيد أي: وما أهلكنا قرية من القرى إلا لها منذرون. وجملة «إلا لها منذرون» يجوز أن تكون صفة لقرية، ويجوز أن تكون حالاً منها، وسوّغ ذلك سبق النفي والمعنى: ما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد الإنذار إليهم، والإعذار بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وقوله «نكزي» بمعنى تنكزة، وهي في محل نصب على العلة، أو المصدرية. وقال الكسائي: نكزي في موضع نصب على المصدرية أي: الفراء، والزجاج: إنها في موضع نصب على المصدرية أي: ينكرون نكزي. قال النحاس: وهذا قول صحيح، لأن معنى «إلا لها منذرون»: إلا لها منكرون. قال الزجاج: ويجوز أن يكون نكزي في موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: إنذارنا نكزي، أو نكزي. قال ابن الأنباري: المعنى: هي نكزي، أو ينكرهم نكزي، وقد رجح الأخفش أنها خبر مبتدأ محذوف «وما كنا ظالمين» في تعذيبهم، فقد قدمنا الحجة إليهم، وأنذرناهم، وأعذرنا إليهم «وما تنزلت به الشياطين» أي: بالقرآن، وهذا رد لما زعمه الكفرة في القرآن أنه من قبيل ما يلقيه الشياطين على الكهنة «وما ينبغي لهم» ذلك، ولا يصح منهم «وما يستطيعون» ما نسب الكفار إليهم أصلاً «إنهم عن السمع» للقرآن، أو لكلام الملائكة «لمعزولون» محجوبون مرجومون بالشبه. وقرأ الحسن، وابن السميع، والأعمش (وما تنزلت به الشياطين) بالواو، والنون إجراء له مجرى جمع السلامة. قال النحاس: وهذا غلط عند جميع النحويين. قال: وسمعت علي بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: هذا من غلط العلماء، وإنما يكون بشبهة لما رأى الحسن في آخره، ياء، ونوناً، وهو في موضع رفع اشتبه عليه بالجمع السالم،

فغلط. قال الفراء: غلط الشيخ يعني: الحسن، فقيل: ذلك للنخضر بن شميل، فقال: إن جاز أن يحتج بقول روبة، والعجاج، ونويهما، جاز أن يحتج بقول الحسن، وصاحبه يعني: محمد بن السميع مع أنا نعلم أنهما لم يقرأ بذلك إلا، وقد سمعا فيه شيئاً. وقال المؤرج: إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه. قال يونس بن حبيب: سمعت أعرابياً يقول: دخلنا بساتين من ورائها بساتون، ثم لما قرّر سبحانه حقية القرآن، وأنه منزل من عنده أمر نبيه ﷺ بدعاء الله وحده، فقال «فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين»، وخطاب النبي ﷺ بهذا مع كونه منزهاً عنه معصوماً منه لحث العباد على التوحيد، ونهيهم عن شوائب الشرك، وكأنه قال: أنت أكرم الخلق علي، وأعزهم عندي، ولو اتخذت معي إلهاً لعذبك، فكيف بغيرك من العباد «وانذر عشيرتك الأقربين» خص الأقربين: لأن الاهتمام بشأنهم أولى، وهدايتهم إلى الحق أقدم، قيل: هم قريش، وقيل: بنو عبد مناف، وقيل: بنو هاشم. وقد ثبت في الصحيح: أن هذه الآية لما نزلت دعا النبي ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعم، وخص، فنلك منه ﷺ بيان للعشيرة الأقربين، وسيأتي بيان ذلك «ولخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» يقال: خفض جناحه إذا آلنه، وفيه استعارة حسنة. والمعنى: أكن جناحك، وتواضع لمن اتبعك من المؤمنين، وأظهر لهم المحبة، والكرامة، وتجاوز عنهم «فإن عصوك» أي: خالفوا أمرك، ولم يتبعوك «فقل إني بريء مما تعملون» أي: من عملكم، أو من الذي تعملونه، وهذا يدل على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان المصدقون باللسان، لأن المؤمنين الخالص لا يعصونه، ولا يخالفونه، ثم بين له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له، فقال «فتوكل على العزيز الرحيم» أي: فوِّض أمورك إليه، فإنه القادر على قهر الأعداء، وهو: الرحيم للولياء، قرأ نافع، وابن عامر (فتوكل) بالفاء. وقرأ الباقون (وتوكل) بالواو، فعلى القراءة الأولى يكون ما بعد الفاء كالجزء مما قبلها مترتباً عليه، وعلى القراءة الثانية يكون ما بعد الواو معطوفاً على ما قبلها عطف جملة على جملة من غير ترتيب «الذي يراك حين تقوم» أي: حين تقوم إلى الصلاة وحده في قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد: حين تقوم حيثما كنت «وتقلب في الساجدين» أي: ويراك إن صليت في الجماعة راكعاً، وساجداً، وقائماً، كذا قال أكثر المفسرين. وقيل: يراك في الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة. وقيل: المراد بقوله «يراك» حين تقوم قيامه إلى التهجد، وقوله «وتقلب في الساجدين» يريد ترنك في تصفح أحوال المجتهدين في العبادة، وتقلب بصرك فيهم، كذا قال مجاهد «إنه هو السميع» لما تقوله «العليم» به. ثم أكد سبحانه معنى قوله «وما تنزلت به الشياطين»، وبينه، فقال «هل أتنبئكم على من تنزل الشياطين» أي: على من تنزل، فحذف إحدى التائين، وفيه بيان استحالة تنزل

والشياطين على رسول الله ﷺ ﴿تَنْزِلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ لَّئِيمٍ﴾، والأفَّاك الكثير الإفك، واللئيم كثير الإثم، والمراد بهم كل من كان كاهناً، فإن الشياطين كانت تسترقق السمع، ثم يأتون إليهم، فيلقونهم إليهم، وهو معنى قوله ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ أي: ما يسمعون مما يسترققونه، فتكون جملة ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ على هذا راجعة إلى الشياطين في محل نصب على الحال أي: حال كون الشياطين ملقنين السمع أي: ما يسمعون من الملائكة الأعلى إلى الكهنة. ويجوز أن يكون المعنى: إن الشياطين يلقون السمع أي: ينصتون إلى الملائكة الأعلى: ليسترققوا منهم شيئاً، ويكون المراد بالسمع على الوجه الأول المسموع، وعلى الوجه الثاني نفس حاسة السمع. ويجوز أن تكون جملة ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ راجعة إلى كل أفَّاك لئيم على أنها صفة، أو مستأنفة، ومعنى الإلقاء: أنهم يسمعون ما تلقونه إليهم الشياطين من الكلمات التي تصق الواحدة منها، وتكذب المائة الكلمة كما ورد في الحديث، وجملة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَانِبُونَ﴾ راجعة إلى كل أفَّاك لئيم أي: وأكثر هؤلاء الكهنة كانبون فيما يلقونه من الشياطين، لأنهم يضمون إلى ما يسمعون كثيراً من أكانيبيهم المختلفة، أو أكثرهم كانبون فيما يلقونه من السمع أي: المسموع من الشياطين إلى الناس، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَانِبُونَ﴾ راجعة إلى الشياطين أي: وأكثر الشياطين كانبون فيما يلقونه إلى الكهنة مما يسمعون، فإنهم يضمون إلى ذلك من عند أنفسهم كثيراً من الكذب، وقد قيل: كيف يصح على الوجه الأول وصف الأفَّاكين بأن أكثرهم كانبون بعد ما وصفوا جميعاً بالأفك، واجيب: بأن المراد بالأفَّاك الذي يكثر الكذب لا الذي لا يتنطق إلا بالكذب، فالمراد بقوله ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَانِبُونَ﴾ أنه قل من يصنق منهم فيما يحكي عن الشياطين، والغرض الذي سيق لأجله هذا الكلام رد ما كان يزعمه المشركون من كون النبي ﷺ من جملة من يلقي إليه الشيطان السمع من الكهنة ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب، ولم يظهر من أحوال محمد ﷺ إلا الصق، فكيف يكون كما زعموا، ثم إن هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين، وهذا النبي المرسل من عند الله برسالاته إلى الناس ينمهم، ويلعنهم، ويأمر بالتعوذ منهم. ثم لما كان قد قال قائل من المشركين: إن النبي ﷺ شاعر، بين سبحانه حال الشعراء، ومنافاة ما هم عليه لما عليه النبي ﷺ، فقال ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ والمعنى: أن الشعراء يتبعهم أي: يجاريهم، ويسلك مسلكهم، ويكون من جملتهم، الغاوون أي: الضالون عن الحق، والشعراء جمع شاعر، والغاوون جمع غاو، وهم ضلال الجن والإنس، وقيل: الزائلون عن الحق، وقيل: الذين يروون الشعر المشتمل على الهجاء، وما لا يجوز، وقيل: المراد شعراء الكفار خاصة، قرأ الجمهور (والشعراء) بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره ما بعده، وقرأ عيسى بن عمر (الشعراء) بالنصب على الاشتغال، وقرأ نافع، وشيبة، والحسن، والسلمي (يتبعهم) بالتخفيف،

وقرأ الباقون بالتشديد. ثم بين سبحانه قبائح شعراء الباطل، فقال ﴿لَمَّا تَرَاهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ﴾، والجملة موقرة لما قبلها، والخطاب لكل من تنأت منه الرؤية، يقال: هام يهيم هيماً، وهيماناً إذا ذهب على وجهه أي: ألم تر أنهم في كل فن من فنون الكذب يخوضون، وفي كل شعب من شعاب الزور يتكلمون، فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء، وتارة يتون من المجون بكل ما يمجج السمع، ويستقبحه العقل، وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة، ويذمون الحق، ويمحون الباطل، ويرغبون في فعل المحرمات، ويدعون الناس إلى فعل المنكرات كما تسمعه في أشعارهم من مدح الخمر، والزنا، واللواط، ونحو هذه الرذائل الملعونة، ثم قال سبحانه ﴿وَلَهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يقولون فعلنا، وفعلنا، وهم كذبة في ذلك، فقد يلون بكلامهم على الكرم، والخير، ولا يفعلونه، وقد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشر ما لا يقدرون على فعله كما تجده في كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة، والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات، وأنهم فعلوا بهن كذا، وكذا، وذلك كذب محض، واقتراء بحت.. ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم تحري الحق والصديق، فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: دخلوا في حزب المؤمنين، وعملوا بأعمالهم الصالحة، ﴿وَنُكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في أشعارهم ﴿وَوَلَّيْتُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: فاضل كما كان يقع من شعراء النبي ﷺ، فإنهم كانوا يهجون من يهجو، ويحمون عنه، ويذنون عن عرضه، ويكافحون شعراء المشركين، وينافحونهم، ويخل في هذا من انتصر بشعره لأهل السنة، وكافح أهل البدعة، وزيف ما يقوله شعراؤهم من مدح بدعتهم، وهجو السنة المطهرة، كما يقع ذلك كثيراً من شعراء الرافضة، ونحوهم، فإن الانتصار للحق بالشعر، وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله المنتصرين لدينه القائمين بما أمر الله بالقيام به.

واعلم أن الشعر في نفسه ينقسم إلى أقسام، فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلى قسم الحرام، وقد يبلغ ما فيه خير منه إلى قسم الواجب، وقد وردت أحاديث في ذمه، ونم الاستكثار منه، ووردت أحاديث أخر في إباحته، وتجويزه، والكلام في تحقيق ذلك يطول، وسنذكر في آخر البحث ما ورد في ذلك من الأحاديث. ثم ختم سبحانه هذه السورة بأية جامعة للوعيد كله، فقال ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، فإن في قوله ﴿سَيَعْلَمُ﴾ تهويلاً عظيماً، وتهويداً شديداً، وكذا في إطلاق الذين ظلموا، وإيهام أي منقلب ينقلبون، وخصص هذه الآية بعضهم بالشعراء، ولا وجه لذلك، فإن الاعتبار بعموم اللفظ، وقوله ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ﴾ صفة لمصدر محنوف أي: ينقلبون منقلباً أي منقلب، وقدم لتضمنه معنى الاستفهام، ولا يعمل فيه سيعلم، لأن

الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، بل هو معلق عن العمل فيه. وقرأ ابن عباس، والحسن (أي منقلبت ينقلتون) بالفاء مكان القاف، والتاء مكان الباء من الانفلات بالنون، والفاء الفوقية، وقرأ الباؤون بالقاف، والباء من الانقلاب بالنون، والقاف، والموحدة، والمعنى على قراءة ابن عباس، والحسن: أن الظالمين يطعمون في الانفلات من عذاب الله، والانفكاك منه، ولا يقدرون على ذلك.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة **﴿وإنه لتنزِيل رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** قال: هذا القرآن **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾** قال: جبريل. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾** قال: جبريل. وأخرج أبو الشيخ في العظمة، وابن مروي عنه، عن النبي **﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾** قال: الروح الأمين جبريل، رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فيها مثل ريش الطواويس. وأخرج ابن النجار في تاريخه عن ابن عباس في قوله **﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾** قال: بلسان قريش، ولو كان غير عربي ما فهموه. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن بريدة في قوله **﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾** قال: بلسان جرهم. وأخرج مثله أيضاً عنه ابن المنذر، وابن أبي حاتم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن سلام من علماء بني إسرائيل، وكان من خيارهم، فأمن بكتاب محمد، فقال لهم الله **﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**. وأخرج البخاري، مسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: «لما نزلت هذه الآية **﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾** دعا رسول الله **﴿قُرَيْشًا، وَعَمَ، وَخَصَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرْأً، وَلَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرْأً، وَلَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرْأً، وَلَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي قَصِيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرْأً، وَلَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرْأً، وَلَا نَفْعاً، يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكَ ضَرْأً، وَلَا نَفْعاً إِلَّا أَنْ لَكُمْ رَحْماً، وَسَابِلَهَا بِلَالُهَا، وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثُ مِنْ طَرِيقِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ **﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾** قال: للصلاة. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عنه **﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾** يقول: قيامك، وركوعك، وسجودك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً **﴿وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾** قال: يراك، وأنت مع الساجدين تقوم، وتقدم معهم، وأخرج ابن مروي عنه أيضاً في قوله **﴿وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾** قال: كان النبي **﴿وَإِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ يَرَى مِنْ خَلْفِهِ كَمَا يَرَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِينَ، وَغَيْرِهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **﴿: هَلْ تَرَوْنَ قَبْلَتِي******

ها هنا؟ فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم، ولا ركوعكم، وإنني لأراكم من وراء ظهري».

وأخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده، والبزار، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله **﴿وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾** قال: من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجت نبياً وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، وأبو نعيم عنه في الآية نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: «سأل أناس النبي **﴿ﷺ﴾** عن الكهان قال: إنهم ليسوا بشيء، قالوا: يا رسول الله إنهم يحنثون أحياناً بالشئ يكون حقاً؟ قال: تلك الكلمة من الحق يخطئها الجني، فيقذفها في آذن ولية، فيخطئون فيها أكثر من مائة كذبة»، وفي لفظ للبخاري «فيزيئون معها مائة كذبة». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول الله **﴿ﷺ﴾** أحدهما: من الانصار، والآخر من قوم آخرين، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء، فأنزل الله **﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾** الآيات. وأخرج ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن عسكرك عن عروة قال: لما نزلت **﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾** إلى قوله **﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾** قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله قد علم الله أني منهم، فأنزل الله **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** إلى قوله **﴿يَنْقَلِبُونَ﴾**، وروي نحو هذا من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس **﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾** قال: هم: الكفار يتبعون ضلال الجن، والإنس **﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾** قال: في كل لغو يخوضون **﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾** أكثر قولهم يكذبون، ثم استثنى منهم، فقال **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَنَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾** قال: رنوا على الكفار كانوا يهجون المؤمنين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عنه أيضاً **﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾** قال: المشركون منهم الذين كانوا يهجون النبي **﴿ﷺ﴾** **﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾** قال: قال غواة الجن في كل واد يهيمون في كل فن من الكلام يأخذون. ثم استثنى، فقال **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية، يعني حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك كانوا يذنون عن النبي **﴿ﷺ﴾** وأصحابه بهجاء المشركين. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه **﴿الغَاوُونَ﴾** قال: هم الرواة. وأخرج ابن مروي، وابن عسكرك عنه أيضاً **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية قال: أبو بكر، وعمر، وعلي، وعبد الله بن رواحة. وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى، وابن مروي عن كعب بن مالك: «أنه قال للنبي **﴿ﷺ﴾** إن الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فكيف ترى فيه؟ فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه، ولسانه، والذي نفسي بيده لكن ما ترمونهم به نضح النبل». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد عن أبي سعيد قال: «بينما نحن نسير مع رسول الله **﴿ﷺ﴾** إذا عرض شاعر ينشد، فقال النبي **﴿ﷺ﴾**: لأن

الكلام». قال القرطبي: رواه إسماعيل عن عبد الله بن عون الشامي، وحديثه عن أهل الشام صحيح، فيما قال يحيى بن معين، وغيره. قال: وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «الشعر بمنزلة الكلام حسنة كحسن الكلام، وقبيحة كقبيح الكلام». وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: «ربت رسول الله ﷺ، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت؟ قلت: نعم. قال: هيه، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، ثم أنشدته بيتاً، فقال: هيه حتى أنشدته مائة بيت». وأخرج ابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد في قوله «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» قال: هؤلاء الذين يخربون البيت.

تفسير سورة النمل

قال القرطبي: وهي مكية كلها في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة النمل بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ يَلَكَّ مَاتَتْ الْفَرَائِدُ وَكَتَابُ ثِيَابٍ ① هَذَى وَنُفْرَى ② لِلْمُؤْمِنِينَ ③
الَّذِينَ يُعِيشُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ إِنَّ الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زُفَرًا هُمْ أَصْلَهُمْ هُمْ يَعْهَوْنَ ⑤ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ
الْكَتَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ⑥ وَلَئِكَ نُلْقِي الْأَفْرَاتَ مِنْ أَدْنَى حِكِيمٍ
يَلِيمٍ ⑦ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ مَا كُنْتُ بِكَ بِشِيرًا وَلَا بِكَ بِشِيرًا وَلَا بِكَ بِشِيرًا
فَقَبْرٌ لَكُمْ صَطْلُوكَ ⑧ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورِي أَنْ يُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلَهَا
وَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ⑨ يُسَمِّيهِمْ إِنَّهُ أَلَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑩ وَأَلَى عَصَا
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْمِرٌ وَلَّى مُعَبِّدٌ يُفْشِي ⑪ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا أَنُفِثُ لَدَيْ
الرَّسُولِ ⑫ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي مُفَوِّدٌ رَحِيمٌ ⑬ وَأَدْخِلْ
يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَغْصَنَةً مِنْ عَيْرٍ سَوْفَ فِي يَتَبِعُ الْآيَاتِ الْفَرَعُونَ وَقَوْمَهُمْ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ
فَوَا قِيصِينَ ⑭ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ أَيْنِسَاءُ مَبْعُورَةٌ قَالُوا هَذَا بِرَحْمَةِ رَبِّهِمْ ⑮ وَحَمْدُ
يَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ عَلِيمًا وَعَلِيمًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ⑯

قوله «طَسَّ» قد مرَّ الكلام مفصلاً في فواتح السور، وهذه الحروف إن كانت اسماً للسورة، فمحلها الرفع على الابتداء، وما بعده خبره، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هذا اسم هذه السورة، وإن لم تكن هذه الحروف اسماً للسورة، بل مسرودة على نمط التعديد، فلا محل لها، والإشارة بقوله «تلك» إلى نفس السورة، لأنها قد نكرت إجمالاً بذكر اسمها، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره «آيات القرآن»، والجملة خبر المبتدأ الأول على تقدير أنه مرتفع بالإبتداء «وكتاب مبين» قرأ الجمهور بجر كتاب عطفاً على القرآن أي: تلك آيات القرآن، وآيات كتاب مبين، ويحتمل

يتمثل جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يتمثل شعراً. وأخرج الديلمي عن ابن مسعود مرفوعاً الشعراء الذين يموتون في الإسلام بأمرهم الله أن يقولوا شعراً يتغنى به الحور العين لأزواجهن في الجنة، والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل، والثبور في النار. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة» قال: وإتاه قريظة بن كعب، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، فقالوا: إنا نقول الشعر، وقد نزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأوا، فقرءوا» والشعراء إلى قوله «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» فقال: أنتم هم «وأنكروا الله كثيراً»، فقال: أنتم هم. «وأنكروا من بعد ما ظلموا» فقال: أنتم هم، وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبه عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: لحسان بن ثابت: «اهج المشركين، فإن جبريل معك». وأخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال: «قل: يا رسول الله إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك، فقام ابن رواحة فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه، فقال: أنت الذي تقول ثبت الله؟ فقال: نعم يا رسول الله، قلت: ثبت الله ما أعطك من حسن تثبيت موسى ونصراً مثل ما نصرا قال: وأنت، ففعل الله بك مثل ذلك، ثم وثب كعب فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه؟ فقال: أنت الذي تقول همت؟ قال: نعم يا رسول الله، قلت:

همت سخينة أن تغالب ربها فلتغلب مغالب الغلاب فقال: أما إن الله لم ينس ذلك لك، ثم قام حسان، فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه، وأخرج لساناً له أسود، فقال: يا رسول الله لو شئت لفريت به المراد، ائذن لي فيه، فقال: اذهب إلى أبي بكر، فليحدثك حديث القوم، وإياهم، وأحسابهم، وأهجم، وجبريل معك. وأخرج أحمد، وابن سعد عن أبي هريرة قال: مرَّ عمر بحسان، وهو ينشد في المسجد، فلحظ إليه، فنظر إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، فسكت، ثم التفت حسان إلى أبي هريرة فقال: أنشدك بالله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني اللهم أيده بروح القدس؟» قال: نعم. وأخرج ابن سعد من حديث جابر مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي شيبه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر حكماً». وأخرج ابن أبي شيبه عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ: «إن من الشعر حكماً، ومن البيان سحراً». وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يتمثل جوف أحدكم قبحاً يريه، خير من أن يتمثل شعراً». وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يتمثل جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يتمثل شعراً». قال في الصحاح: وروى القيق جوفه يريه، ورياً: إذا أكله، قال القرطبي: روى إسماعيل بن عباس عن عبد الله بن عون، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حسن الشعر كحسن الكلام، وقبيح الشعر كقبيح

والإشارة بقوله ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إلى المذكورين قبله، وهو مبتدأ خبره ﴿لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ قيل: في الدنيا كالقتل والأسر، ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ أي: هم أشد الناس خسرانا، وأعظمهم خيبة، ثم مهد سبحانه مقدمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة، فقال ﴿وَأِنَّكَ لَتَلْقَىٰ لِلْقُرْآنِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: يلقي عليك، فتلقاه، وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم، قيل: إن لدن هاهنا بمعنى: عند. وفيها لغات كما تقدم في سورة الكهف ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِهِ﴾ الطرف منصوب بمضمر، وهو أنكر. قال الزجاج: موضع «إذ» نصب، المعنى: أنكر إذ قال موسى أي: أنكر قصته إذ قال لأهله، والمراد بأهله: امرأته في مسيره من مدين إلى مصر، ولم يكن معه إذ ذاك إلا زوجته بنت شبيب، فكفى عنها بلفظ الأهل الدال على الكثرة، ومثله قوله: ﴿مَكُونَا﴾ [طه: 10، القصص: 29]، ومعنى ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾: أبصرتها ﴿سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبِيرٍ﴾ السنين تدل على بعد مسافة النار ﴿وَأَتَيْكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾ قرا عاصم، وحمزة، والكسائي بتنوين شهاب، وقرا الباقيون بإضافته إلى قبس، فعلى القراءة الأولى يكون قبس بدلاً من شهاب، أو صفة له؛ لأنه بمعنى مقبوس، وعلى القراءة الثانية الإضافة للبيان، والمعنى على القراءتين: أتاكم بشعلة نار مقبوسة أي: مأخوذة من أصلها. قال الزجاج: من نون جعل قبس من صفة شهاب، وقال الفراء: هذه الإضافة كالإضافة في قولهم: مسجد الجامع، وصلاة الأولى، أضاف الشيء إلى نفسه لاختلاف أسمائه. وقال النحاس: هي إضافة النوع إلى الجنس كما تقول: ثوب خز، وخاتم حديد، قال: ويجوز في غير القرآن بشهاب قبساً على أنه مصدر، أو بيان، أو حال ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: رجاء أن تستغفروا بها، أو لكي تستغفروا بها من البرد، يقال: صلي بالنار، واصطلى بها إذا استغفا بها. قال الزجاج: كل أبيض ذي نور، فهو: شهاب. وقال أبو عبيدة: الشهاب النار، ومنه قول أبي النجم:

كانما كان شهاباً وأقداً أضاء ضوءاً ثم صار خامداً
وقال ثعلب: أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جمرة، والآخر لا نار فيه، والشهاب الشعاع المضيء، وقيل: للكوكب شهاب، ومنه قول الشاعر:

في كفه صعدة مثقفة فيها سنان كشعلة القبس
﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي: جاء النار موسى ﴿يُنَادِي أَنْ بورك من في النار ومن حولها﴾ أن هي المفسرة لما في النداء من معنى القول، أو هي المصدرية أي: بأن بورك، وقيل: هي المخففة من الثقيلة. قال الزجاج: أن في موضع نصب أي: بأن قال، ويجوز أن يكون في موضع رفع اسم ما لم يسم فاعله. والأولى أن النائب ضمير يعود إلى موسى. وقرا أبي، وابن عباس، ومجاهد (أن بورك النار ومن حولها) حكى ذلك أبو حاتم. وحكى الكسائي عن العرب: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، وكذلك حكى هذا الفراء. قال

أن يكون المراد بقوله ﴿وَكِتَابٍ﴾ القرآن نفسه، فيكون من عطف بعض الصفات على بعض مع اتحاد الملل، وإن يكون المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، أو نفس السورة، وقرا ابن أبي عبيدة (وكتاب مبين) برفعهما عطفاً على آيات. وقيل: هو على هذه القراءة على تقدير مضاف محذوف، وإقامة المضاف إليه مقامه أي: وآيات كتاب مبين، فقد وصف الآيات بالوصفين: القرآنية الدالة على كونه مقروءاً مع الإشارة إلى كونه قرآناً عربياً معجزاً، والكتابية الدالة على كونه مكتوباً مع الإشارة إلى كونه متصفاً بصفة الكتب المنزلة، فلا يكون على هذا من باب عطف صفة على صفة مع اتحاد الملل، ثم ضم إلى الوصفين وصفاً ثالثاً، وهي: الإبانة لمعانيه لمن يقرؤه، أو هو: من إبان بمعنى: بان، معناه: واتضح إعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة. وقدم وصف القرآنية هنا نظراً إلى تقدم حال القرآنية على حال الكتابة، وأخره في سورة الحجر، فقال: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مَبِينٍ﴾ [الحجر: 1] نظراً إلى حالته التي قد صار عليها، فإنه مكتوب، والكتابة سبب القراءة، والله أعلم. وأما تعريف القرآن هنا، وتنكير الكتاب، وتعريف الكتاب في سورة الحجر، وتنكير القرآن، فلصلاحيه كل واحد منهما للتعريف، والتنكير ﴿هَٰذَا يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في موضع نصب على الحال من الآيات، أو من الكتاب أي: تلك آيات هانية ومبشرة، ويجوز أن يكون في محل رفع على الإبتداء أي: هو هدى، أو هما خبران آخران لتلك، أو هما مصدران منصوبان بفعل مقتر أي: يهدي هدى، ويبشر بشرى. ثم وصف المؤمنين الذي لهم الهدى والبشرى، فقال ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، والموصول في محل جر، أو يكون بدلاً، أو بياناً، أو منصوباً على المدح، أو مرفوعاً على تقدير مبتدأ. والمراد بالصلاة الصلوات الخمس، والمراد بالزكاة الزكاة المفروضة، وجملة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ في محل نصب على الحال، وكثر الضمير للدلالة على الحصر أي: لا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، وجعل الخبر مضارعاً للدلالة على التجدد في كل وقت، وعدم الإنقطاع. ثم لما نكر سبحانه أهل السعادة نكر بعدهم أهل الشقاوة، فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، وهم الكفار أي: لا يصنفون بالبعث ﴿زَيْنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ قيل: المراد زين الله لهم أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة. وقيل: المراد أن الله زين لهم الأعمال الحسنة، ونكر لهم ما فيها من خيري الدنيا، والآخرة، فلم يقبلوا ذلك. قال الزجاج: معنى الآية: أنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زيننا لهم ما هم فيه ﴿فَهُمْ يَعْصِمُونَ﴾ أي: يترددون فيها متحيرين على الإستمرار لا يهتدون إلى طريقة، ولا يقفون على حقيقة. وقيل: معنى يعمهون: يتملكون. وقال قتادة: يلعبون، وفي معنى التحير. قال الشاعر:

ومهمه أطرافه في مهمه أعمى الهدى الحائر في العمه

﴿وَأَنْخَلْ يَنْكَ فِي جَيْبِكَ﴾ المراد بالجيب هو المعروف، وفي القصص ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص: 32]، وفي أنخل من المبالغة ما لم يكن في أسلك ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ أي: من غير برص، أو نحوه من الآفات، فهو احتراس. وقوله: ﴿تَخْرُجُ﴾ جواب أنخل يديك. وقيل: في الكلام حذف تقديره: أنخل يديك تدخل، وأخرجها تخرج، ولا حاجة لهذا الحذف، ولا ملجئ إليه. قال المفسرون: كانت على موسى مدرعة من صوف لا كم لها ولا إزار، فانخل يده في جيبه وأخرجها، فإذا هي تبرق كالبرق، وقوله ﴿فِي تِسْعَ آيَاتٍ﴾ قال أبو البقاء: هو في محل نصب على الحال من فاعل تخرج، وفيه بعد. وقيل: متعلق بمحذوف أي: اذهب في تسع آيات. وقيل: متعلق بقوله: ﴿وَالْقَصَصُ﴾، وأنخل يديك في جملة تسع آيات، أو مع تسع آيات. وقيل: المعنى: فهما آيتان من تسع يعني: العصا واليد، فتكون الآيات إحدى عشرة: هاتان، والفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، والجذب في بوابيهم، والنقصان في مزارعهم. قال النحاس: أحسن ما قيل فيه أن هذه الآية يعني: اليد داخلة في تسع آيات، وكذا قال المهدوي، والقشيري. قال القشيري: تقول خرجت في عشرة نفر، وأنت أحدهم أي: خرجت عاشر عشرة، ففي بمعنى: من لقربها منها، كما تقول: خذ لي عسراً من الإبل فيها فحلان أي: منها. قال الأصمعي في قول امرئ القيس:

وهل ينعمن من كان أخرعهده ثلاثون شهراً في ثلاثة أحوال
في بمعنى من، وقيل: في بمعنى مع ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ قال الفراء: في الكلام إضمار أي: إنك مبعوث، أو مرسل إلى فرعون وقومه، وكذا قال الزجاج. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ الجملة تعليل لما قبلها ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مَبْصُورَةً﴾ أي: جاءتهم آياتنا التي على يد موسى حال كونها مبصرة أي: واضحة بينة كأنها لفرط وضوحها تبصر نفسها كقوله: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مَبْصُورَةً﴾ [الإسراء: 59] قال الأخفش: ويجوز أن تكون بمعنى مبصرة على أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول، وقد تقدّم تحقيق الكلام في هذا. وقرأ علي بن الحسين، وقتادة (مبصرة) بفتح الميم، والصاد أي: مكاناً يكثر فيه التبصر، كما يقال: الولد مجبنة ومبخله ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: لما جاءتهم قالوا هذا القول أي: سحر واضح. ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: كذبوا بها حال كون أنفسهم مستيقنة لها، قالوا للحال، وانتصاب ﴿ظُلُمًا وَعَلَاً﴾ على الحال أي: ظالمين عالين، ويجوز أن ينتصبا على العلة أي: الحامل لهم على ذلك الظلم والعلو. ويجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف أي: ﴿جَحَدُوا بِهَا﴾ جحدوا ظُلُمًا وَعَلَاً. قال أبو عبيدة: والباء في (وجحدوا بها) زائدة أي: وجحدوها. قال الزجاج: التقدير: وجحدوا بها ظُلُمًا وَعَلَاً: شركاً، وتكبراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى، وهم يعلمون أنها من عند الله ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِقِينَ﴾ أي: تفكر في ذلك، فإن فيه معتبراً

لبن جرير: قال: بورك من في النار، ولم يقل: بورك على النار، على لغة من يقول: باركك الله أي: بورك على من في النار، وهو: موسى، أو على من في قرب النار لا أنه كان في وسطها. وقال السدي: كان في النار ملائكة، والنار هنا هي مجرد نور، ولكنه ظن موسى أنها نار، فلما وصل إليها وجدها نوراً. وحكي عن الحسن، وسعيد بن جبير: أن المراد بمن في النار هو الله سبحانه أي: نوره. وقيل: بورك ما في النار من أمر الله سبحانه الذي جعلها على تلك الصفة. قال الواحدي: ومذهب المفسرين: أن المراد بالنار النور، ثم نزه سبحانه نفسه، فقال ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وفيه تعجيب لموسى من ذلك ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الضمير للشأن، أنا الله العزيز الغالب القاهر الحكيم في أمره وفعله. وقيل: إن موسى قال: يا رب من الذي ناداني؟ فأجابه الله سبحانه بقوله: إنه أنا الله، ثم أمره سبحانه: بأن يلقي عصاه؛ ليعرف ما أجراه الله سبحانه على يده من المعجزة الخارقة، وجملة ﴿وَالْقَصَصُ﴾ معطوفة على بورك، وفي الكلام حذف، والتقدير: فإلقاهما من يده، فصارت حية ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ قال الزجاج: صارت العصا تتحرك كما يتحرك الجان، وهي الحية البيضاء، وإنما شبهها بالجان في خفة حركتها، وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها، وجمع الجان جنان، وفي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم. وقال الكلبى: لا صغيرة ولا كبيرة ﴿وَلِي مَبْرَأٌ﴾ من الخوف ﴿وَلَمْ يَعْقِبْ﴾ أي: لم يرجع: يقال: عقب فلان إذا رجع، وكل راجع معقب، وقيل: لم يقف، ولم يلتفت. والأول أولى، لأن التعقيب هو: الكر بعد الفر، فلما وقع منه ذلك قال الله سبحانه ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ أي: من الحية وضررها ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لا يخاف عندي من أرسلته برسالتني، فلا تخف أنت. قيل: ونفي الخوف عن المرسلين ليس في جميع الأوقات، بل في وقت الخطاب لهم؛ لأنهم إذ ذاك مستغرقون. ثم استثنى استثناء منقطعاً، فقال ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لكن من آتنب في ظلم نفسه بالمعصية ﴿ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا﴾ أي: توبة وندماً ﴿بَعْدَ سَوْءٍ﴾ أي: بعد عمل سوء ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقيل: الاستثناء من مقدر محذوف أي: لا يخاف لدي المرسلون، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم إلا من ظلم ثم بدل إلخ، كذا قال الفراء. قال النحاس: الاستثناء من محذوف محال، لأنه استثناء من شيء لم يذكر. وروي عن الفراء أنه قال: إلا بمعنى الواو. وقيل: إن الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف. والمعنى: إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصفات التي لا يسلم منها أحد، واختار هذا النحاس، وقال: علم من عصى منهم، فاستثناه فقال: إلا من ظلم، وإن كنت قد غفرت له كآثم، وداود، وإخوة يوسف، وموسى يقتله القبطي. ولا مانع من الخوف بعد المغفرة، فإن نبينا ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كان يقول: «وددت أني شجرة تعضده»

للمعتبرين. وقد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم في البحر على تلك الصفة الهائلة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار﴾ يعني: تبارك وتعالى نفسه كان نور رب العالمين في الشجرة ﴿ومن حولها﴾ يعني: الملائكة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: كان الله في النور نودي من النور ﴿ومن حولها﴾ قال: الملائكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً قال: ناداه الله، وهو في النور. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿أن بورك من في النار﴾ قال: بورك النار. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: في مصحف أبي بن كعب: (بورك النار ومن حولها)، أما النار، فيزعمون: أنها نور رب العالمين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿أن بورك﴾ قال: قدس. وأخرج عبد بن حميد، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق أبي عبيدة، عن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لا ينالم، ولا ينبغي له أن ينالم. يخفض القسط، ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجاب النور لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره. ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين﴾». والحديث أصله مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه، فقال له: أدخل يدك في جيبك، فدخلها. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله ﴿واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ قال: تكبراً، وقد استيقنتها أنفسهم، وهذا من التقديم والتأخير.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ أَلَيْسَ لَنَا بِكَبِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ قُلْنَا مَطُوعُ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١٦﴾ وَخَيْرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُودُ مِنْ آيَاتِهِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّعَلَّوْا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْمِلُنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَتَخَوَّوْنَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّ سَاجِدًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ رَحْمَتِكَ وَأَنْ أَغْلِي سُلَيْمَانًا رَّضْنَهُ وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَذَّةَ هَذِهِ كَانَتْ مِّنَ الْفَائِزِينَ ﴿٢٠﴾ لِأَعْلَيْتُمْ مَذَابًا كَرِهْتُهَا أَوْ لِأَنَّهُنَّ أَوْ لِأَيُّنِي بِسُلْطَانِي ثَبِيرَ ﴿٢١﴾ فَكَتَبَ غَيْرَ بَيِّنٍ فَقَالَ أَحْمَلْتُ بِمَا لَمْ تُحْمَلْ بِهِ. وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَلِّغْ بَيْنِي ﴿٢٢﴾ إِنِّي بَدَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عُرِضَ عَظِيمُهُ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا رَقُومًا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ

اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْيَانَهُمْ فَصَدَّاهُمْ عَنِ الذِّبْرِ لَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ الشَّجَرِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُرَىٰ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْمَرْصِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

لما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع في قصة داود، وابنه سليمان، وهذه القصص وما قبلها وما بعدها هي كالبیان، والتقرير لقوله: ﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ [النمل: 6]، والتنوين في ﴿علماً﴾ إما للنوع أي: طائفة من العلم، أو للتعظيم أي: علماً كثيراً، والواو في قوله ﴿وقال الحمد لله﴾ للعطف على محذوف، لأن هذا المقام مقام الفاء، فالتقدير: ولقد آتيناها علماً، فعملاً به، وقالوا: الحمد لله، ويؤيده أن الشكر باللسان إنما يحسن إذا كان مسبوقاً بعمل القلب، وهو العزم على فعل الطاعة، وترك المعصية ﴿الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ أي: فضلنا بالعلم، والنبوة، وتسخير الطير، والجن، والإنس، ولم يفضلوا أنفسهم على الكل تواضعاً منهم. وفي الآية دليل على شرف العلم، وارتفاع محله، وأن نعمة العلم من أجل النعم التي ينعم الله بها على عباده، وأن من أوتيها فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد، ومنع شرفاً جليلاً ﴿وورث سليمان داود﴾ أي: ورثه العلم والنبوة. قال قتادة، والكلبي: كان لداود تسعة عشر ولداً نكراً، فورث سليمان من بينهم نبوته، ولو كان المراد وراثة المال لم يخص سليمان بالذكر؛ لأن جميع أولاده في ذلك سواء، وكذا قال جمهور المفسرين، فهذه الوراثة هي وراثة مجازية كما في قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»، ﴿وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير﴾ قال سليمان: هذه المقالة مخاطباً للناس تحذيراً بما أنعم الله به عليه، وشكر النعمة التي خصه بها، وقدم منطق الطير، لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره. قال الفراء: منطق الطير كلام الطير، فجعل كمنطق الرجل، وأنشد قول حميد بن ثور:

عجيب لها أن يكون غناؤها فصيحاً ولم يفر بمنطقها فماً ومعنى الآية: فهما ما يقول الطير. قال جماعة من المفسرين: إنه علم منطق جميع الحيوانات، وإنما ذكر الطير؛ لأنه كان جنداً من جنده يسير معه لتظليله من الشمس. وقال قتادة، والشعبي: إنما علم منطق الطير خاصة، ولا يعترض ذلك بالنملة، فإنها من جملة الطير، وكثيراً ما تخرج لها لجنحة، فتطير، وكذلك كانت هذه النملة التي سمع كلامها، وفهمه، ومعنى ﴿وألوتينا من كل شيء﴾: كل شيء تدعو إليه الحاجة: كالعلم، والنبوة، والحكمة، والمال، وتسخير الجن، والإنس، والطير، والرياح، والوحش، والدواب، وكل ما بين السماء والأرض. وجاء سليمان بنون العظمة، والمراد نفسه بياناً لحاله من كونه مطاعاً لا يخالف، لا تكبراً وتعظيماً لنفسه، والإشارة بقوله ﴿إن هذا﴾ إلى ما تقدم نكره من التحليم، والإيتاء ﴿لهو الفضل المبين﴾ أي: الظاهر الواضح الذي لا يخفى على أحد، أو المظهر لفضيلتنا

ويحتمل أن يكون جواباً للأمر. قال أبو حيان: أما تخريجه على جواب الأمر، فلا يكون إلا على قراءة الأعمش، فإنه قرأ (لا يحطكم) بالجزم بدون نون التوكيد، وأما مع وجود نون التوكيد، فلا يجوز ذلك إلا في الشعر. قال سيبويه: وهو قليل في الشعر، شبهوه بالنهاي حيث كان مجزوماً. وقرأ أبي (اسخلوا مساكنكم)، وقرأ شهر بن حوشب (مسكنكم) وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وقتادة وعيسى الهمداني (لا يحطمنكم) بضم اللام، وفتح الحاء، وتشديد الطاء، وقرأ ابن أبي إسحاق، ويعقوب، وأبو عمرو في رواية بسكون نون التوكيد، وجملة **﴿وهم لا يشعرون﴾** في محل نصب على الحال من فاعل يحطمنكم أي: لا يشعرون بحطكم، ولا يعلمون بمكانكم، وقيل: إن المعنى: والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقاتلتها، وهو بعيد **﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾** قرأ ابن السميع (ضحكاً)، وعلى قراءة الجمهور يكون ضاحكاً حالاً مؤكدة؛ لأنه قد فهم الضحك من التبسم، وقيل: هي حال مقترنة؛ لأن التبسم أول الضحك، وقيل: لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبيهاً له، وقيل: إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير، وعلى قراءة ابن السميع يكون ضحكاً مصدرأ منصوباً بفعل محذوف، أو في موضع الحال، وكان ضحك سليمان تعجباً من قولها، وفهمها، واهتدائها إلى تحذير النمل **﴿وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾** قد تقدم بيان معنى أوزعني قريباً في قوله: **﴿فهم يوزعون﴾** [النمل: 17، فصلت: 19] قال في الكشاف: وحقيقة أوزعني: اجعلني أزع شكر نعمك عندي، وأكفه، وأرتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكراً لك. انتهى. قال الواحدي: أوزعني أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي، يقال: فلان موزع بكذا أي: مولع به. انتهى. قال القرطبي: وأصله من وزع، فكانه قال: كفني عما يسخطك. انتهى. والمفعول الثاني لأوزعني هو: أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وقال الزجاج: إن معنى أوزعني: امنعني أن أكفر نعمتك، وهو تفسير باللازم، ومعنى **﴿وعلى والدي﴾**: الدعاء منه بأن يوزعه الله شكر نعمته على والديه كما أوزعه شكر نعمته عليه، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه، وذلك يستوجب الشكر منه لله سبحانه، ثم طلب أن يضيف الله له لوالحق نعمه إلى سوابقها، ولا سيما النعم الدينية، فقال **﴿وإن أعمل صالحاً ترضاه﴾** أي: عملاً صالحاً ترضاه مني، ثم دعا أن يجعله الله سبحانه في الآخرة داخلاً في زمرة الصالحين فإن ذلك هو الغاية التي يتعلق الطلب بها، فقال **﴿وانخليني برحمتك في عبادك الصالحين﴾**، والمعنى: انخليني في جملتهم، وأثبت اسمي في أسمائهم، واحشروني في زمرتهم إلى دار الصالحين، وهي الجنة، اللهم وإني أدعوك بما دعاك به هذا النبي الكريم، فتقبل ذلك مني، وتفضل علي به، فإنني وإن كنت مقصراً في العمل، ففضلك هو سبب الفوز بالخير، فهذه الآية منادية بأعلى صوت، وأوضح بيان بأن دخول الجنة التي هي دار المؤمنين

﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير﴾ الحشر الجمع أي: جمع له جنوده من هذه الأجناس. وقد أطال المفسرون في نكر مقدار جنده، وبالغ كثير منهم مبالغة تستبعد العقل، ولا تصح من جهة النقل، ولو صحت لكان في القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر **﴿فهم يوزعون﴾** أي: لكل طائفة منهم وزعة تروء، أولهم على آخرهم، فيقفون على مراتبهم، يقال: وزعه يزعه وزعاً: كفه، والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم أي: يردّه، ومنه قول النابغة:

على حين عانت المشيب على الصبا وقلت المأ أصح والشيب وازع
وقول الآخر:

ومن لم يزع له وبه وحيأزه فليس له من شيب فويده وازع
وقول الآخر:

ولا يزع النفس للوجع عن الهوى من الناس إلا وافر العقل كامله
وقيل: من التوزيع بمعنى التفريق، يقال: القوم أوزاع أي: طوائف **﴿حتى إذا أتوا على واد النمل﴾** حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام، ويكون غاية لما قبلها، والمعنى: فهم يوزعون إلى حصول هذه الغاية، وهو إتيانهم على واد النمل أي: فهم يسيرون ممنوعاً بعضهم من مفارقة بعض حتى إذا أتوا إلخ، وعلى واد النمل، متعلق بأتوا، وعدّي بعلى؛ لأنهم كانوا محمولين على الريح فهم مستعلون. والمعنى: أنهم قطعوا الوادي، وبلغوا آخره، ووقف القراء جميعهم على واد بدون ياء اتباعاً للرسم حيث لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله: **﴿الذين جابوا الصخر بالواد﴾** [الفجر: 9] إلا الكسائي، فإنه وقف بالياء، قال: لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل. قال كعب: واد النمل بالطائف. وقال قتادة، ومقاتل: هو بالشام **﴿قالت نملة﴾** هذا جواب إذا، كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت، ونبهت سائر النمل منادية لها قائلة **﴿يا أيها النمل اسخلوا مساكنكم﴾** جعل خطاب النمل كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب، والمساكن هي الأمكنة التي يسكن النمل فيها.

قيل: وهذه النملة التي سمعها سليمان هي أنثى بلليل تأنث الفعل المسند إليها. ورد هذا أبو حيان، فقال: لحاق التاء في قالت لا يدل على أن النملة مؤنثة، بل يصح أن يقال في المنكر: قالت، لأن نملة، وإن كانت بالتاء، فهي مما لا يتميز فيه المنكر من المؤنث بتذكير الفعل ولا بتأنيثه، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه نكر، أو أنثى، ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة، ولا بالتعرض لاسم النملة، ولما نكر من القصص الموضوع، والأحاديث المكنوية. وقرأ الحسن، وطلحة، ومعر بن سلمة، وقرأ سليمان «نملة»، والنمل بضم الميم، وفتح النون بزنة رجل وسمرة. وقرأ سليمان التيمي بضميتين فيهما. **﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾** الحطم الكسر، يقال: حطمته حطماً أي: كسرتة كسراً، وتحطم تكسر، وهذا النهي هو في الظاهر للنمل، وفي الحقيقة لسليمان، فهو من باب: لا أرينك هاهنا، ويجوز أن يكون بدلاً من الأمر،

مكوثاً كقعد يقعد قعوداً. وقيل: إن الضمير في مكث لسليمان. والمعنى: بقي سليمان بعد التقعد والتوعد زماناً غير طويل، والأول أولى **﴿فقال لحطت بما لم تحط به﴾** أي: علمت ما لم تعلمه من الأمر، والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته، ولعل في الكلام حنفاً، والتقدير: فمكث الهدهد غير بعيد، فجاء، فعوتب على مغيبه، فقال معتذراً عن ذلك: **﴿لحطت بما لم تحط به﴾**. قال الفراء: ويجوز إدغام التاء في الطاء، فيقال: لحط، وإدغام الطاء في التاء، فيقال: لحت **﴿وجئتك من سبأ بنبا يقين﴾** قرأ الجمهور (من سبأ) بالصرف على أنه اسم رجل، نسب إليه قوم، ومنه قول الشاعر:

الوارثون وتيم في نرى سبأ قد غصن أعناقهم جلد الجواميس
وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بفتح الهمزة، وترك الصرف على أنه اسم مدينة، وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل، وقال: سبأ اسم مدينة تعرف بمارب اليمن بينهما وبين صنعاء ثلاثة أيام. وقيل: هو اسم امرأة سميت بها المدينة. قال القرطبي: والصحيح أنه اسم رجل كما في كتاب الترمذي من حديث فروة بن مسيك المرادي. قال ابن عطية: وخفي هذا على الزجاج، فخطب خطب عشواء. وزعم الفراء: أن الرؤاسي سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ، فقال: ما أرى ما هو؟ قال النحاس: وأبو عمرو أجل من أن يقول هذا، قال: والقول في سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسم رجل، فإن صرفته، فلأنه قد صار اسماً للحي، وإن لم تصرفه جعلته اسماً للقبيلة مثل ثمود، إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف. انتهى.

وأقول: لا شك أن سبأ اسم لمدينة باليمن كانت فيها بلقيس، وهو أيضاً اسم رجل من قحطان، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود، ولكن المراد هنا أن الهدهد جاء إلى سليمان بخبر ما عاينه في مدينة سبأ مما وصفه، وسيأتي في آخر هذا البحث من المأثور ما يوضح هذا، ويؤيده، ومعنى الآية: أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة بخبر يقين، والنبا هو الخبر الخطير الشأن، فلما قال الهدهد لسليمان ما قال، قال له سليمان: وما ذاك؟ فقال **﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾**، وهي: بلقيس بنت شرحبيل، وجدها الهدهد تملك أهل سبأ، والجملة هذه كالبیان، والتفسير للجملة التي قبلها أي: ذلك النبا اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء **﴿وأتيت من كل شيء﴾** فيه مبالغة، والمراد: أنها أتيت من كل شيء من الأشياء التي تحتاجها، وقيل: المعنى: أتيت من كل شيء في زمانها شيئاً، فحنف شيئاً: لأن الكلام قد دل عليه **﴿ولها عرش عظيم﴾** أي: سرير عظيم، ووصفه بالعظم: لأنه كما قيل: كان من ذهب طوله ثمانون نراعاً، وعرضه أربعون نراعاً، وارتفاعه في السماء ثلاثون نراعاً مكلل بالدر، والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر. وقيل: المراد بالعرش هنا الملك، والأول أولى لقوله **﴿أيكم ياتيني بعروشها﴾** قال ابن عطية: واللازم من الآية أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن ذات ملك

بالتفضل منك لا بالعمل منهم كما قال رسولك الصانق المصدوق فيما ثبت عنه في الصحيح: «سَدَنُوا وقاربوا، واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمطني الله برحمته»، فإذا لم يكن إلا تفضلك الواسع، فترك طلبه منك عجز، والتفريط في التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع. ثم شرع سبحانه في ذكر قصة بلقيس، وما جرى بينها وبين سليمان، وذلك بدلالة الهدهد، فقال **﴿وتفقد الطير﴾** التفقد تطلب ما غاب عنك، وتعرف أحواله، والطير اسم جنس لكل ما يطير، والمعنى أنه تطلب ما فقد من الطير، وتعرف حال ما غاب منها، وكانت الطير تصحبه في سفره، وتظله بأجنحتها **﴿فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾** أي: ما للهدهد لا أراه؟ فهذا الكلام من الكلام المقلوب الذي تستعمله العرب كثيراً، وقيل: لا حاجة إلى ادعاء القلب، بل هو استفهام عن المانع له من رؤية الهدهد، كأنه قال: مالي لا أراه هل ذلك لساتر يستتره عني، أو لشيء آخر؟ ثم ظهر له أنه غائب، فقال: أم كان من الغائبين، وأم هي المنقطعة التي بمعنى الإضراب قرأ ابن كثير⁽¹⁾، وابن محيصن، وهشام، وأيوب (مالي) بفتح الياء، وكذلك قرؤوا في يس **﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾** [يس: 22] بفتح الياء، وقرأ بإسكانها في الموضعين حمزة، والكسائي، ويعقوب، وقرأ الباقر بفتح التي في يس، وإسكان التي هنا. قال أبو عمرو: لأن هذه التي هنا استفهام، والتي في يس نفى، واختار أبو حاتم، وأبو عبيد الإسكان **﴿لأعذبه عذاباً شديداً أو لأنبهه﴾**.

اختلفوا في هذا العذاب الشديد ما هو؟ فقال مجاهد، وابن جريج: هو أن ينتف ريشه جميعاً. وقال يزيد بن رومان: هو أن ينتف ريش جناحيه، وقيل: هو أن يحبس مع أضداده، وقيل: أن يمنع من خدمته، وفي هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب لا على قدر الجسد. وقوله: **﴿عذاباً﴾** اسم مصدر، أو مصدر على حذف الزوائد كقوله: **﴿أتبكم من الأرض نباتاً﴾** [نوح: 17]. **﴿ولو لياتيني بإسكان مبيين﴾** قرأ ابن كثير وحده بنون التأكيد المشددة بعدما نون الوقاية، وقرأ الباقر بنون مشددة فقط، وهي نون التوكيد، وقرأ عيسى بن عمر بنون مشددة مفتوحة غير موصولة بالياء، والسلطان المبين هو الحجة البينة في غيبته **﴿فمكث غير بعيد﴾** أي: الهدهد مكث زماناً غير بعيد. قرأ الجمهور (مكث) بضم الكاف، وقرأ عاصم وحده بفتحها، ومعناه في القراءتين: أقام زماناً غير بعيد. قال سيبويه: مكث يمكث

(1) (قوله قرأ ابن كثير إلخ) فيه مخالفة للمشهور، وهو أن ابن كثير وابن محيصن وهشام وأيوب وعاصم والكسائي يقرؤون بفتح الياء في الموضعين، وحمزة ويعقوب واليزار يقرؤون بإسكانها فيهما، والباقر بفتح التي في يس وإسكان التي هنا، فليعلم اهـ مصحح القرآن.

عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار ﴿وجنتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي: يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه، قيل: كانوا مجوساً، وقيل: زنادقة ﴿وزين لهم للشيطان أعمالهم﴾ التي يعملونها، وهي عبادة الشمس، وسائر أعمال الكفر ﴿فصدّهم عن السبيل﴾ أي: صدّهم الشيطان بسبب تلك التزيين عن الطريق الواضح، وهو الإيمان بالله وتوحيده ﴿فهم لا يهتدون﴾ إلى ذلك ﴿ألا يسجدوا﴾ قرأ الجمهور بتشديد (الا). قال ابن الأنباري: الوقف على فهم لا يهتدون غير تامّ عند من شدّد الأ، لأن المعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا. قال النحاس: هي أن دخلت عليها لا، وهي في موضع نصب. قال الأخفش: أي: زين لهم أن لا يسجدوا لله بمعنى لئلا يسجدوا لله. وقال الكسائي: هي في موضع نصب بصدّهم أي: فصدّهم ألا يسجدوا بمعنى لئلا يسجدوا، فهو على الوجهين مفعول له. وقال اليزيدي: إنه بدل من أعمالهم في موضع نصب. وقال أبو عمرو: في موضع خفض على البذل من السبيل. وقيل: العامل فيها لا يهتدون أي: فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، وتكون لا على هذا زائدة كقوله: ﴿وما منك أن لا تسجد﴾ [الأعراف: 12]، وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة، لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود: إما بالتزيين، أو بالصدّ، أو بمنع الاهتداء، وقد رجح كونه علة للمصدّ الزجاج، ورجع الفراء كونه علة لزين، قال: زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا، ثم حذف اللام. وقرأ الزهري، والكسائي بتخفيف (الا). قال الكسائي: ما كنت أسمع الأشياخ يقرؤونها إلا بالتخفيف على نية الأمر، فتكون «الأ» على هذه القراءة حرف، تنبيه واستفتاح، وما بعدها حرف نداء، واسجدوا فعل أمر، وكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا ألا يا اسجدوا، ولكن الصحابة رضي الله عنهم أسقطوا الألف من يا، وهمزة الوصل من اسجدوا خطأ، ووصلوا الياء بسين اسجدوا، فصارت صورة الخط ألا يسجدوا، والمندادى محذوف، وتقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا، وقد حذف العرب المندادى كثيراً في كلامها، ومنه قول الشاعر:

ألا يا اسلمي يا دارمي على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر
وقول الآخر:

ألا يا اسلمي تمت اسلمي تمت اسلمي ثلاث تحيات وإن لم تكلم
وقول الآخر أيضاً:

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بكر

وهو كثير في أشعارهم. قال الزجاج: وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود نون قراءة التشديد، واختار أبو حاتم، وأبو عبيد قراءة التشديد. قال الزجاج: ولقراءة التخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ، ثم الرجوع بعد ذلك إلى نكرهم. والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضها بعضاً لا انقطاع في وسطه، وكذا قال النحاس، وعلى هذه القراءة تكون جملة ﴿ألا يسجدوا﴾ معترضة من كلام

الهدد، أو من كلام سليمان، أو من كلام الله سبحانه. وفي قراءة عبد الله بن مسعود (هل لا تسجدوا) بالفوقية، وفي قراءة أبي ﴿ألا تسجدوا﴾ بالفوقية أيضاً ﴿الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ أي: يظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما، يقال: خبأت الشيء أخبؤه خبأ، والخبء ما خبأته. قال الزجاج: جاء في التفسير أن الخبء هاهنا بمعنى: القطر من السماء، والنبات من الأرض. وقيل: خبء الأرض كنوزها، ونباتها. وقال قتادة: الخبء السر. قال النحاس: أي: ما غاب في السموات والأرض. وقرأ أبي، وعيسى بن عمر (الخب) بفتح الباء من غير همز تخفيفاً، وقرأ عبد الله، وعكرمة، ومالك بن دينار (الخبأ) بالالف. قال أبو حاتم: وهذا لا يجوز في العربية. وردّ عليه بأن سيبويه حكى عن العرب: أن الألف تبدل من الهمزة إذا كان قبلها ساكن. وفي قراءة عبد الله «يخرج الخب من السموات والأرض». قال الفراء: ومن وفي يتعاقبان، والموصول يجوز أن يكون في محل جرّ نعتاً لله سبحانه، أو بدلاً منه، أو بياناً له، ويجوز أن يكون في محل نصب على المدح، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وجملة ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلمون﴾ معطوفة على يخرج، قرأ الجمهور بالتحية في الفعلين، وقرأ الجحدري، وعيسى بن عمر، وحفص، والكسائي بالفوقية للخطاب، أما القراءة الأولى فلكون الضمائر المتقدمة ضمائر غيبة، وأما القراءة الثانية فلكون قراءة الزهري، والكسائي فيها الأمر بالسجود، والخطاب لهم بذلك، فهذا عندهم من تمام تلك الخطاب. والمعنى: أن الله سبحانه يخرج ما في هذا العالم الإنساني من الخفاء يعلمه له كما يخرج ما خفي في السموات والأرض. ثم بعد ما وصف الرب سبحانه بما تقدّم مما يدلّ على عظيم قدرته، وجليل سلطانه، ووجوب توحّده، وتخصيصه بالعبادة، قال ﴿الله لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم﴾ قرأ الجمهور (العظيم) بالجرّ نعتاً للعرش، وقرأ ابن محيصن بالرفع نعتاً للربّ، وخصّ العرش بالذكر: لأنه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك في المرفوع إلى رسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن عبد العزيز: أنه كتب إن الله لم ينعم على عبد نعمة، فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل. قال الله عزّ وجلّ ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ وأي نعمة أفضل مما أعطى داود وسليمان.

أقول: ليس في الآية ما يدلّ على ما فهمه رحمه الله، والذي تدلّ عليه أنهما حمداً الله سبحانه على ما فضلهما به من النعم، فمن أين تدلّ على أن حمده أفضل من نعمته. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿وورث سليمان داود﴾ قال: ورثه نبوّته، وملكه، وعلمه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال: «خرج سليمان بن داود

شبية، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿وَأُولَئِكَ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ بَاسِعٌ﴾ قال: خبر الحق الصديق البين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس كل سلطان في القرآن حجة، ونكر هذه الآية، ثم قال: وأي سلطان كان للهدد؟ يعني: أن المراد بالسلطان الحجة لا السلطان الذي هو الملك. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿وَلَحِطَتْ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ﴾ قال: اطلعت على ما لم تطلع عليه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وَوَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ قال: سبأ بارض اليمن، يقال لها: مارب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليالٍ ﴿بَيْنَا يَقِينٌ﴾ قال: بخبر حق. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿إِنِّي وَجِئْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ قال: كان اسمها بلقيس بنت ذي شيرة، وكانت صلباء شعراء. وروي عن الحسن، وقتادة، وزهير بن محمد: أنها بلقيس بنت شراحيل، وعن ابن جريج بنت ذي شرح. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مربي، وابن عساكر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إحدى أبوي بلقيس كان جنياً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ قال: سرير كريم من ذهب، وقوائمه من جوهر ولؤلؤ، حسن الصنعة غالي الثمن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿يُخْرِجُ الْخَبَاءَ﴾ قال: يعلم كل خبيثة في السماء والأرض.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿أَذْهَبَ بِكَتْنِي هَذَا فَأَلْفَيْهِ لَيْتِمُ ثُمَّ تَرَى فَانْفُرَ مَاذَا سَمِعُوا﴾ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّ إِلَهِي لَخَبِيرٌ بِكَيْدِكُمْ﴾ ﴿إِنَّهُمْ مِنْ شُعَيْنَ وَلَهُمْ سَمِيرُ اللَّهِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَا تَتْلُوا عَلَيَّ وَأَتُونَ سُبُحِينَ﴾ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَائِلَةً بِأَنْتُمْ حَقٌّ فَتَهَدَّبُوكُمْ﴾ ﴿قَالُوا عَنْ أَوْلَى قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَنزِلَ إِلَيْنَا فَأَنْظِرْ مَاذَا نَأْمُرُ﴾ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا أُولَئِكَ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ يُهَادِثُوكُمْ فِثْنًا مِنَ الْفِتْنِ يَمُرُّ بِكُمْ يَمَرُ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ شُعَيْنَ قَالَ أَتَيْدُونَ بِمَا لَنَا أَنَّنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِنَّا مَا كُنْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ فَرَحُوكُمْ﴾ ﴿أَنْجَحِ إِلَيْنَا لِنَأْتِيَنَّهُمْ بِمُحَوَّرٍ لَا يَقِلُّ لَهُمْ مَا وَلَيْتُمْ بِهِمْ نَبَأَ أُولَئِكَ وَهُمْ يَقْبُرُونَ﴾ ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّكُمْ بِأَمْرِي بَعْرِضُوا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنَّا سُلَيْبُوكَ﴾ ﴿قَالَ عَمْرُو بْنُ لَاحِيٍّ أَنَا أَعْلَمُ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَعِيبُ﴾ ﴿قَالَ أَلَيْسَ عِنْدَ عَمْرٍو مِنَ الْكِتَابِ أَنَا أَعْلَمُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي يُتْلَى فَاشْكُرُوا لَمْ أَكْفُرْ وَمَنْ شَكَرْ فَلَمْ أَشْكُرْ لِنَفْسِي وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾

جملة ﴿قال سننظر﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر أي: قال سليمان للهدد: سننظر فيما أخبرتنا به من هذه القصة ﴿أصديقت﴾ فيما قلت ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ هذه الجملة الاستفهامية في محل نصب على أنها مفعول سننظر، وأم هي: المتصلة، وقوله ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ أبلغ من قوله لم كذبت، لأن المعنى: من الذين اتصفوا بالكذب، وصار خلقاً

يستسقي بالناس، فمر على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك، فيما أن تسقينا، وإما أن تهلكنا، فقال سليمان للناس: ارجعوا، فقد سقيتم بدعوة غيركم. وأخرج الحاكم في المستدرك عن جعفر بن محمد قال: أعطي سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن، والإنس، والدواب، والطيور، والسباع، وأعطى كل شيء، ومنطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة، حتى إذا أراد الله أن يقبضه إليه أوحى إليه أن يستودع علم الله وحكمته أخاه، وولد داود كانوا أربعمئة وثمانين رجلاً أنبياء بلا رسالة. قال الذهبي: هذا باطل، وقد روي قصص في عظم ملك سليمان لا تطيب النفس بذكر شيء منها، فالإمسك عن ذكرها أولى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿فَهُمْ يَوِزْعُونَ﴾ قال: يدفعون. وأخرج ابن جرير عنه في قوله ﴿فَهُمْ يَوِزْعُونَ﴾ قال: جعل لكل صنف وزعة ترد أولاهما على آخرهما لئلا تتقدمه في السير كما تصنع الملوك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿أَوْزَعْنِي﴾ قال: ألهمني. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس أنه سئل كيف تفقد سليمان الهدد من بين الطير؟ قال: إن سليمان نزل منزلاً، فلم يدرك ما بعد الماء، وكان الهدد يدل سليمان على الماء، فاراد أن يسأله عنه، ففقدته، قيل: كيف ذاك والهدد ينصب له الفخ يلقي عليه التراب، ويضع له الصبي الحبال، فيغيبها، فيصيده؟ فقال: إذا جاء القضاء ذهب البصر. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله ﴿لَا عَيْنِيهِ عَذَاباً شَدِيداً﴾ قال: انتف ريشه كله، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين، وروي ابن أبي حاتم عن الحسن قال: كان اسم هدد سليمان غبر.

وأقول: من أين جاء علم هذا للحسن رحمه الله، وهكذا ما رواه عنه ابن عساكر: أن اسم النملة حرس، وأنها من قبيلة يقال لها: بنو الشيصان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذئب، وهو رحمه الله أورد الناس عن نقل الكذب، ونحن نعلم أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء، ونعلم أنه ليس للحسن إسناد متصل بسليمان، أو بأحد من أصحابه، فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب، وقد أمرنا: أن لا نصنقهم، ولا نكذبهم، فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ما روى: ﴿حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج﴾، فليس ذلك فيما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم. وقد كررنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغربية. وأخرج ابن أبي

لهم. والنظر هو التأمل والتصفح، وفيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار، والكشف عن الحقائق، وعدم قبول خبر المخبرين تقليداً لهم، واعتماداً عليهم إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه. ثم بين سليمان هذا النظر الذي وعد به، فقال: **«إذهب بكتابي هذا فالقه إليهم»** أي: إلى أهل سبا. قال الزجاج: في آله خمسة أوجه: إثبات الياه في اللفظ، وحنفها، وإثبات الكسرة للدلالة عليها، ويضم الهاء وإثبات الواو، ويحذف الواو وإثبات الضمة للدلالة عليها، ويسكان الهاء. وقرأ بهذه اللغة الخامسة أبو عمرو، وحزمة، وأبو بكر. وقرأ قالون بكسر الهاء فقط من غير ياء. وروي عن هشام وجهان: إثبات الياه لفظاً، وحنفها مع كسر الهاء. وقرأ الباقون بإثبات الياه في اللفظ. وقوله **«بكتابي هذا»** يحتمل أن يكون اسم الإشارة صفة للكتاب، وأن يكون بدلاً منه، وأن يكون بياناً له، وخَصَّ الهدد بإرساله بالكتاب؛ لأنه المخبر بالقصة، ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضي كونه أهلاً للرسالة **«ثم قول عنهم»** أي: تنح عنهم، أمره بذلك لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسول الملوك، والمراد بالتنحي إلى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما سمع، وقيل: معنى التولي: الرجوع إليه، والأول أولى لقوله **«فانظر ماذا يرجعون»** أي: تأمل، وتفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وما يترجعونه بينهم من الكلام **«قالت»** أي: بلقيس **«يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم»** في الكلام حذف، والتقدير: فذهب الهدد، فالقاه إليهم، فسمعها تقول: يا أيها الملأ إلخ، ووصفت الكتاب بالكريم لكونه من عند عظيم في نفسها، فعظمته إجلالاً لسليمان، وقيل: وصفته بذلك لاشتماله على كلام حسن، وقيل: وصفته بذلك لكونه وصل إليها مختوماً بخاتم سليمان، وكرامة الكتاب ختمه كما روي ذلك مرفوعاً، ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب، فقالت **«إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم»** أي: وإن ما اشتمل عليه من الكلام، وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية، وبعد التسمية **«أن لا تعلموا علي»** أي: لا تتكبروا كما يفعله جبابرة الملوك، وإن هي المفسرة، وقيل: مصدرية، ولا ناهية، وقيل: نافية، ومحل الجملة الرفع على أنها بدل من كتاب، أو خبر مبتدأ محذوف أي: هو أن لا تعلموا. قرأ الجمهور (إنه من سليمان وإنه) بكسرهما على الاستئناف، وقرأ عكرمة، وابن أبي عيلة بفتحهما على إسقاط حرف الجر، وقرأ أبي (إن من سليمان وإن بسم الله) بحذف الضميرين، وإسكان النونين على أنهما مفسرتان، وقرأ عبد الله بن مسعود (وإنه من سليمان) بزيادة الواو، وروي ذلك أيضاً عن أبي، وقرأ أشهب العقيلي، وابن السميع (أن لا تغلوا) بالغين المعجمة من الغل، وهو تجاوز الحد في الكبر **«واتوني مسلمين»** أي: متقابين للدين مؤمنين بما جئت به **«قالت يا أيها الملأ افقوني في أمري»** الملأ أشرف القوم، والمعنى: يا أيها الأشرف أشيروا علي، وبيّنوا

لي الصواب في هذا الأمر، وأجيبوني بما يقتضيه الحزم، وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون في ذلك حلّ لما أشكل من الأمر عليها، وفي الكلام حنف، والتقدير: فلما قرأت بلقيس الكتاب جمعت أشرف قومها، وقالت لهم: يا أيها الملأ إني ألقي إلي، يا أيها الملأ افقوني، وكزّر «قالت» لمزيد العناية بما قالته لهم، ثم زادت في التائب، واستجلاب خواطرهم، ليمحضوها النصيح، ويشيروا عليها بالصواب، فقالت **«ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون»** أي: ما كنت مبرمة أمراً من الأمور حتى تحضروا عندي، وتشيروا علي. فـ **«قالوا»** مجيبين لها **«نحن أولوا قوة»** في العدد والعدة **«وأولوا بأس شديداً»** عند الحرب، واللقاء لنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا، وبلدنا، ومملكتنا، ثم فوّضوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها، وقوة عقلها، فقالوا **«والأمر إليك»** أي: موكل إلى رأيك ونظرك **«فانظري ماذا تأمرين»** أي: تأملي ماذا تأمرينا به، فنحن سامعون لأمرك مطيعون له، فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها **«قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها»** أي: إذا دخلوا قرية من القرى خربوا مبانيها، وغيروا معانيها، وأتلفوا أموالها، وفرّقوا شمل أهلها **«وجعلوا عزّة أهله أئمة»** أي: أهانوا أشرفها، وحطوا مراتبهم، فصاروا عند ذلك أئمة، وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتمّ لهم الملك، وتستحكم لهم الوطاة، وتتقرّر لهم في قلوبهم المهابة. قال الزجاج: أي: إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة، والمقصود من قولها هذا تحذير قومها من مسير سليمان إليهم، ودخوله بلادهم، وقد صدقها الله سبحانه فيما قالت، فقال سبحانه **«وكنك يفعلون»** أي: مثل ذلك الفعل يفعلون. قال ابن الأنباري: الوقف على قوله **«وجعلوا عزّة أهله أئمة»** وقف تام، فقال الله عزّ وجلّ تحقيقاً لقولها **«وكنك يفعلون»**، وقيل: هذه الجملة من تمام كلامها، فتكون من جملة مقول قولها، وعلى القول الأول تكون هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ثم لما قدّمت لهم هذه المقدّمة، وبيّنت لهم ما في دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة، أوضحت لهم وجه الرأي عندها، وصرحت لهم بصوابه، فقالت **«وإني مرسلة إليهم بهدية»** أي: إني لأجرب هذا الرجل بإرسال رسلي إليه بهدية مشتملة على نفائس الأموال، فإن كان ملكاً أرضيناه بذلك، وكفينا أمره، وإن كان نبياً لم يرضه ذلك، لأن غاية مطلبة، ومنتهى أربه هو الدعاء إلى الدين، فلا ينجينا منه إلا إجابته، ومتابعته، والتدين بدينه، وسلوك طريقته، ولهذا قالت **«فناظرة به يرجع المرسلون»** الفاء للعطف على مرسله، وبم متعلق بيرجع، والمعنى: إني ناظرة فيما يرجع به رسلي المرسلون بالهدية من قبول أو ردّ فعاملة بما يقتضيه ذلك، وقد طوّل المفسرون في نكر هذه الهدية، وسيأتي في آخر البحث بيان ما هو أقرب ما قيل إلى الصواب، والصحة **«فلما جاء سليمان»** أي: فلما جاء رسولها المرسل بالهدية سليمان، والمراد بهذا المضمهر الجنس، فلا يتنافى كونهم

إياها، وبعثه الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهور المتأولين. وقيل: استدعاء العرش قبل وصولها؛ ليربها القدرة التي هي من عند الله، ويجعله ليلاً على نبوته، وقيل: أراد أن يختبر عقلها، ولهذا **﴿قال نكروا لها عرشها﴾** إلخ، وقيل: أراد أن يختبر صنق الهدهد في وصفه للعرش بالعظم، والقول الأول هو الذي عليه الأكثر **﴿قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾** قرأ الجمهور بكسر العين، وسكون الفاء، وكسر الراء، وسكون المثناة التحتية، وبالثاء، وقرأ أبو رجاء، وعيسى الثقفي، وابن السميع، وأبو السمال (عفريه) بفتح التحتية بعدها تاء تانيث متقلبة هاء، رويت هذه القراءة عن أبي بكر الصديق. وقرأ أبو حيان بفتح العين، والعفريت المارد الغليظ الشديد. قال النحاس: يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء: عفر، وعفريه، وعفريت، وقال قتادة: هو الداهية، وقيل: هو رئيس الجن، قال ابن عطية: وقرأت فرقة (عفر) بكسر العين جمعه على عفار، ومما ورد من أشعار العرب مطابقاً لقراءة الجمهور ما أنشده الكسائي:

فقال شيطان لهم عفريت مالككم مكث ولا تبسيت
ومما ورد على القراءة الثانية قول ذي الرمة:
كانه كوكب في إثر عفريه مصوب في سواد الليل منقضب
ومعنى قول العفريت: أنه سيأتي بالعرش إلى سليمان
قبل أن يقوم من مجلسه الذي يجلس فيه للحكومة بين
الناس **﴿ولاني عليه لقوي أمين﴾** إني لقوي على حمله
أمين على ما فيه. قيل: اسم هذا العفريت كونه نكرة النحاس
عن وهب بن منبه، وقال السهيلي: نكوان، وقيل: اسمه
دعوان، وقيل: صخر. وقوله **﴿أتيك﴾** فعل مضارع، وأصله
أتيك بهمزتين، فأبدلت الثانية ألفاً، وقيل: هو اسم فاعل
**﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيك به قبل أن يرتد
إليك طرفك﴾** قال أكثر المفسرين: اسم هذا الذي عنده علم
من الكتاب أصف بن برخيا، وهو من بني إسرائيل، وكان
وزيراً لسليمان، وكان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به
أجاب، وإذا سئل به أعطى. قال ابن عطية، وقالت فرقة: هو
سليمان نفسه، ويكون الخطاب على هذا للعفريت: كان
سليمان استبطاً ما قاله العفريت، فقال له تحقيقاً له **﴿أنا
أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾**، وقيل: هو جبريل،
وقيل: الخضر، والأول أولى. وقد قيل غير ذلك بما لا أصل
له. والمراد بالطرف تحريك الأجفان، وفتحها للنظر، وارتداده
انضمامها. وقيل: هو بمعنى المطروف أي: الشيء الذي
ينظره، وقيل: هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما
تقول لصاحبك: افعل ذلك في لحظة. قاله مجاهد. وقال
سعيد بن جبير: إنه قال لسليمان: انظر إلى السماء، فما
طرف حتى جاء به، فوضعه بين يديه، والمعنى: حتى يعود
إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء، والأول أولى هذه الأقوال.
ثم الثالث **﴿فلما رآه مستقراً عنده﴾** قيل: في الآية حذف،
والتقدير: فأنن له سليمان، فدعا الله، فأتى به، فلما رآه

جماعة كما يدل عليه قولها: «بم يرجع المرسلون»، وقرأ
عبد الله (فلما جاءوا سليمان) أي: الرسل، وجملة **﴿قال
تقدمون بمال﴾** مستأنفة جواب سؤال مقتر، والاستفهام
للاستنكار أي: قال: منكرًا لإمدادهم له بالمال مع علو
سلطانه وكثرة ماله. وقرأ حمزة بإدغام نون الإعراب في نون
الوقاية، والباقيون بنونين من غير إدغام، وأما الياء، فإن نافعاً،
وأبا عمرو، وحمزة يثبتونها وصلًا، ويحذفونها وقفًا، وابن
كثير يثبتها في الحالين، والباقيون يحذفونها في الحالين.
وروي عن نافع: أنه يقرأ بنون واحدة **﴿فلما أتاني الله خير
مما أتاكم﴾** أي: ما أتاني من النبوة، والملك العظيم، والأموال
الكثيرة خير مما أتاكم من المال الذي هذه الهدية من جملته.
قرأ أبو عمرو، ونافع، وحفص (أتاني الله) بياء مفتوحة، وقرأ
يعقوب بإثباتها في الوقف، وحذفها في الوصل، وقرأ الباقيون
بغير ياء في الوصل والوقف. ثم إنه أضرب عن الإنكار
المتقدم، فقال **﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾** توبيخاً لهم
بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء، وأما أنا فلا أفرح
بها، وليست الدنيا من حاجتي، لأن الله سبحانه قد أعطاني
منها ما لم يعطه أحداً من العالمين، ومع ذلك أكرمني بالنبوة.
والمراد بهذا الإضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم
على الهدية مع الإضرار بهم، والحث عليهم **﴿ارجع إليهم
فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها﴾** أي: قال سليمان
لِلرسل: ارجع إليهم أي: إلى بلقيس وقومها، وخطب المفرد
ها هنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل، إما لأن الذي سيرجع
هو الرسول فقط، أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا،
وخطبهم معه فيما سبق افتتاناً في الكلام. وقرأ عبد الله بن
عباس (ارجعوا)، وقيل: إن الضمير يرجع إلى الهدهد، واللام
في لنأتينهم جواب قسم محذوف. قال النحاس: وسمعت ابن
كيسان يقول: هي لام تركيد ولام أمر ولام خفض، وهذا
قول الحذاق من النحويين لأنهم يرون الشيء إلى أصله،
وهذا لا يتبها إلا لمن ركب في العربية، ومعنى **﴿لا قبل
لهم﴾**: لا طاقة لهم بها، والجملة في محل جر صفة لجنود
﴿ولنخرجنهم﴾ معطوف على جواب القسم أي: لنخرجنهم
من أرضهم التي هم فيها **﴿أنلة﴾** أي: حال كونهم أنلة بعد
ما كانوا أعزة، وجملة **﴿وهم صاغرون﴾** في محل نصب
على الحال، قيل: وهي حال مؤكدة؛ لأن الصغار هو النلة،
وقيل: إن المراد بالصغار هنا الأسر، والاستبعاد، وقيل: إن
الصغار الإهانة التي تسبب عنها النلة. ولما رجع الرسول
إلى بلقيس تجهزت للمسير إلى سليمان، وأخبر جبريل
سليمان بذلك، فـ **﴿قال﴾** سليمان **﴿يا أيها للملا أيكم
يأتيني بعرشها﴾** أي: عرش بلقيس الذي تقدم وصفه
بالعظم **﴿قيل أن يأتوني مسلمين﴾** أي: قيل أن تأتيني هي
وقومها مسلمين. قيل: إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن
يصلوا إليه، ويسلموا، لأنها إذا أسلمت، وأسلم قومها لم يحل
أخذ أموالهم بغير رضاهم. قال ابن عطية: وظاهر الروايات
أن هذه المقالة من سليمان هي بعد مجيء هديتها، وردّه

شبية في المصنف، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله **﴿وإني مرسله إليهم بهيمة﴾** قال: أرسلت بلبنة من ذهب، فلما قدموا إذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله **﴿تتمدون بمال﴾** الآية. وقال ثابت البناني: أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج. وقال مجاهد: جوارى لباسهن لباس الغلمان، وغلمان لباسهم لباس الجوارى. وقال عكرمة: أهدت مائتي فرس على كل فرس غلام وجارية، وعلى كل فرس لون ليس على الآخر. وقال سعيد بن جبير: كانت الهدية جواهر، وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره. وأخرج ابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله **﴿قبل أن ياتوني مسلمين﴾** قال: طائفتين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: اسم العفريت صخر. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿قبل أن تقوم من مقامك﴾** قال: من مجلسك. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾** قال: هو آصف بن برخيا، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: في قراءة ابن مسعود (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أنظر في كتاب ربي ثم أتيت به قبل أن يرد إليك طرفك) قال: فتكلم ذلك العالم بكلام نخل العرش في نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله **﴿قبل أن يرد إليك طرفك﴾** قال: قال لسليمان: انظر إلى السماء، قال: فما أطرف حتى جاءه به، فوضعه بين يديه. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن عساكر عن ابن عباس قال: لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء، ولكن انشقت به الأرض، فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان.

قَالَ تَكْرُؤًا لَمَّا عَرَّيَا نَظَرَ أَنَّهُدَى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرَشُكَ قَالَتْ كَلَّهْ هُوَ وَأَوْرَثَنَا الْمَلِكُ مِنْ قَبْلِهَا وَكَأَنَّ سُلَيْمَانَ ﴿١٧﴾ وَصَدَّقَا مَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قُوَى كَذِبِيْنَ ﴿١٨﴾ قِيلَ لَمَّا أُنْذِلَ الصَّرْحُ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبِيبَتُهُ لُحْمًا وَكَثَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَتْ إِنَّكُمْ صَرَحْتُمْ مَرَّةً مِنْ قَرَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٩﴾

قوله: **﴿نكروا لها عرشها﴾** التنكير التغير، يقول: غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رآته. قيل: جعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، وقيل: غير بزيادة ونقصان. قال الفراء، وغيره: إنما أمر بتنكيره؛ لأن الشياطين قالوا له: إن في عقلها شيئاً، فأراد أن يمتحنها، وقيل: خافت الجن أن يتزوج بها سليمان، فيولد له منها ولد فييقون مسخرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان: إنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل الحمار، وقوله **﴿تنظروا﴾** بالجزم على أنه جواب الأمر، وبالجزم قرأ الجمهور، وقرأ أبو حيان بالرفع على الاستئناف **﴿اتهددي﴾** إلى معرفته، أو إلى الإيمان بالله **﴿إم تكون من الذين لا يهتدون﴾** إلى ذلك **﴿فلما جاءت﴾** أي: بلقيس إلى سليمان

سليمان مستقراً عنده أي: رأى العرش حاضراً لديه **﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر﴾** الإشارة بقوله **﴿هذا﴾** إلى حضور العرش، ليبلوني أي: ليختبرني أشكره بذلك، وأعترف أنه من فضله من غير حول مني ولا قوة، أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به. قال الأخفش: المعنى: لينظر أشكر أم أكفر، وقال غيره: معنى **﴿ليبلوني﴾**: ليتعبدني، وهو مجاز، والأصل في الابتلاء الاختبار **﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾**؛ لأنه استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها، والمعنى: أنه لا يرجع نفع ذلك إلا إلى الشاكر **﴿ومن كفر﴾** بترك الشكر **﴿فإن ربي غني﴾** عن شكره **﴿كريم﴾** في ترك المعالجة بالعقوبة بنزع نعمه عنه، وسلبه ما أعطاه منها، وأم في **﴿أم أكفر﴾** هي المتصلة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿أذهب بكتابي هذا فإلقه إليهم ثم تول عنهم﴾** يقول: كن قريباً منهم **﴿فانظر ماذا يرجعون﴾** فانطلق بالكتاب حتى إذا توسط عرشها ألقى الكتاب إليها، فقرأ عليها، فإذا فيه **﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾**، وأخرج ابن مردويه عنه **﴿كتاب كريم﴾** قال: مختم، وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران: أن النبي ﷺ كان يكتب: «باسمك اللهم» حتى نزلت **﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾**. وأخرج أبو داود في مراسيله عن أبي مالك مرفوعاً مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿افتوني في أمري﴾** قال: جمعت رؤوس مملكتها فشاورتهم في رأيها، فأجمع رأيهم ورأيها على أن يغزوه، فسارت حتى إذا كانت قريبة قالت: أرسل إليهم بهيمة، فإن قبلها، فهو ملك أقاتله، وإن ردّها تابعت، فهو: نبي، فلما دنت رسلها من سليمان علم خبرهم، فأمر الشياطين، فمؤموا ألف قصر من ذهب وفضة، فلما رأت رسلها قصور الذهب قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا، وقصوره ذهب وفضة، فلما دخلوا عليه بهديتها **﴿قال تتمدون بمال﴾**، ثم قال سليمان: **﴿إيكم ياتيني بعرشها قبل أن ياتوني مسلمين﴾** فقال كاتب سليمان: أرفع بصرك، فرفع بصره، فلما رجع إليه طرفه فإذا هو بسرير **﴿قال نكروا لها عرشها﴾** فنزع منه فصوصه، ومرافقه، وما كان عليه من شيء ف **﴿قيل﴾** لها **﴿أهكذا عرشك﴾** قالت كأنه هو **﴿[النمل: 42] وأمر الشياطين فجعلوا لها صرحاً ممرداً من قوارير، وجعل فيها تماثيل السمك، ف **﴿قيل﴾** لها ادخلي الصرح﴾** [النمل: 44] فكشفت عن ساقها فإذا فيها شعر، فعند ذلك أمر بصنعة النورة فصنعت، فقيل لها **﴿إنه صرح ممرّد من قوارير قالت ربّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين﴾** [النمل: 44]. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله **﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدها﴾** قال: إذا أخذوها عنوة أخربوها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: يقول الربّ تبارك وتعالى: **﴿وكنلك يفعلون﴾**. وأخرج ابن أبي

سليمان، لأنها توهمت أنه أراد تغريقها في اللجة، والأول أولى **﴿وأسلمت مع سليمان﴾** متابعة له داخله في بيته **﴿الله رب العالمين﴾** التفتت من الخطاب إلى الغيبة، قيل: لإظهار معرفتها بالله، والأولى أنها التفتت لما في هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الأسماء، ولكونه علماً للذات.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿نكروا لها عرشها﴾** قال: زيد فيه، ونقص له **﴿ننظر لتهددي﴾** قال: لننظر إلى غفلها فوجدت ثابتة العقل. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله **﴿وأتينا العلم من قبلها﴾** قال: من قول سليمان. وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد نحوه. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله **﴿فلما رآته حسبته لجة﴾** قال: بحراً. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في أثر طويل أن سليمان تزوجها بعد ذلك. قال أبو بكر بن أبي شيبة: ما أحسنه من حديث. قال ابن كثير في تفسيره بعد حكايته لقول أبي بكر بن أبي شيبة: بل هو منكر جداً، ولعله من أوهم عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم.

والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقة عن أهل الكتاب بما يوجد في صحفهم كروايات كعب، وهوب سامحهما الله فيما نقلنا إلى هذه الأمة من بني إسرائيل من الأوابد، والغرائب، والعجائب مما كان، ومما لم يكن، ومما حُرف، وبُذِل، ونسخ، انتهى. وكلامه هذا هو شعبة مما قد كُرناه في هذا التفسير، ونهنا عليه في عدة مواضع، وكنت أظن أنه لم يَنْهَ على ذلك غيري. فالحمد لله على الموافقة لمثل هذا الحافظ المنصف. وأخرج البخاري في تاريخه، والعقيلي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من صنعت له الحمامات سليمان»، وروي عنه مرفوعاً من طريق أخرى رواها الطبراني، وابن عدي في الكامل، والبيهقي في الشعب بلفظ «أول من دخل الحمام سليمان فلما وجد حره قال: أوه من عذاب الله».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَنَاثَهُمْ مَّطْلِحًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِمَ يُعْبَدُونَ لِمَ نَسْتَعِجُوكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ قُلِ الْحَسَنَةُ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا الْمَلِئْنَا بِكَ وَيَمَنَ مَمْلَكًا قَالِ مَطْلِحُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْسِدُونَ ﴿١٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَنُو إِسْرَافِيلَ يَبْنُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلُّونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا قَاتِلُوا إِلَهُكُمُ النَّارَ يَخْلُقُهَا هُبْلًا ثُمَّ تُنْقَذُونَ لِأُولَئِهِ مَا جَعَلْنَا مَلَائِكَةً وَلَا نَصِفُوكُمْ ﴿١٩﴾ وَكَرُوا مَكْرًا وَكَرَّاءَةً مَكْرًا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ ﴿٢١﴾ قِيلَ لَهُمْ خُذُوا بِمَا ظَنَّمُوا لَكُمْ فِي ذَلِكَ لَكُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ

﴿قيل﴾ لها، والقائل: هو سليمان، أو غيره بأمره **﴿هكذا عرشك﴾** لم يقل: هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقيناً لها فلا يتم الاختبار لعقلها **﴿قالت كأنه هو﴾** قال مجاهد: جعلت تعرف، وتكر، وتعجب من حضوره عند سليمان، فقالت: كأنه هو. وقال مقاتل: عرفته، ولكنه شبهت عليهم كما شبهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت: نعم. وقال عكرمة: كانت حكيمة، قالت: إن قلت: هو هو خشيت أن أكتب، وإن قلت: لا خشيت أن أكتب، فقالت: كأنه هو، وقيل: أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له **﴿وأتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾** قيل: هو من كلام بلقيس: أي: أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية في العرش **﴿وكنا مسلمين﴾** منقابين لأمره. وقيل: هو من قول سليمان أي: أوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس، وقيل: أوتينا العلم بإسلامها، ومجيئها طائفة من قبلها أي: من قبل مجيئها، وقيل: هو من كلام قوم سليمان. والقول الثاني أرجح من سائر الأقوال **﴿وصدّها ما كانت تعبد من دون الله﴾** هذا من كلام الله سبحانه بيان لما كان يمنعها من إظهار ما أدعت من الإسلام، ففاعل صدّ هو ما كانت تعبد أي: منعها من إظهار الإيمان ما كانت تعبد، وهي الشمس، قال النحاس: أي: صدّها عبادتها من دون الله، وقيل: فاعل صدّ هو الله أي: منعها الله ما كانت تعبد من دونه فتكون «ما» في محل نصب، وقيل: الفاعل سليمان أي: ومنعها سليمان ما كانت تعبد، والأول أولى، والجملة مستأنفة للبيان كما نكرنا، وجملة **﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾** تعليل للجملة الأولى أي: سبب تأخرها عن عبادة الله، ومنع ما كانت تعبد عن ذلك أنها كانت من قوم متصفين بالكفر. قرأ الجمهور (إنها) بالكسر. وقرأ أبو حيان بالفتح. وفي هذه القراءة وجهان: أحدهما: أن الجملة بدل مما كانت تعبد. والثاني أن التقدير: لأنها كانت تعبد، فسقط حرف التعليل **﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾** قال أبو عبيدة: الصرح القصر. وقال الزجاج: الصرح الصحن. يقال: هذه صرحه الدار وقاعتها. قال ابن قتيبة: الصرح بلاط اتخذ لها من قواري، وجعل تحته ماء وسمك، وحكى أبو عبيد في الغريب أن الصرح كل بناء عالي مرتفع، وأن الممرّد الطويل **﴿فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها﴾** أي: فلما رأت الصرح بين يديها حسبت أنه لجة، واللجة معظم الماء، فلذلك كشفت عن ساقها؛ لتخوض الماء، فلما فعلت ذلك **﴿قال﴾** سليمان **﴿إنه صرح ممرّد من قواري﴾** الممرّد المحكوك للملص، ومنه الأمرد، وتمرّد الرجل إذا لم تخرج لحيته، قاله الفراء. ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق لها. والممرّد أيضاً المطول، ومنه قيل: للحصن ما رده، ومنه قول الشاعر:

غوت صباحاً باكراً فوجبتهم قبيل الضحى في السابري الممرّد
أي: الدروع الواسعة الطويلة، فلما سمعت بلقيس ذلك أدعت، واستسلمت، و **﴿قالت ربّ إني ظلمت نفسي﴾** أي: بما كنت عليه من عبادة غيرك، وقيل: بالظنّ الذي توهمت في

قوله **﴿ولقد أرسلنا﴾** معطوف على قوله: **﴿ولقد أتينا داود﴾** [النمل: 15] واللام هي الموطئة للقسم، وهذه

شأنهم، وعملهم الفساد في الأرض الذي لا يخالطه صلاح، وقد اختلف في أسماء هؤلاء التسعة اختلافاً كثيراً لا حاجة إلى التطويل بذكره **﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾** أي: قال بعضهم لبعض: احلفوا بالله، هذا على أن تقاسموا فعل أمر، ويجوز أن يكون فعلاً ماضياً مفسراً لقولوا: كأنه قيل: ما قالوا؟ فقال: تقاسموا، أو يكون حالاً على إضمار قد أي: قالوا ذلك متقاسمين، وقرأ ابن مسعود (يفسدون في الأرض ولا يصلحون * تقاسموا بالله) وليس فيها قالوا، واللام في **﴿لَنَبِيَّتِنَ أَهْلَهُ﴾** جواب القسم أي: لنأيتنه بغتة في وقت البيات، فنقلته وأهله **﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْ يَكُنَّا قَوْمًا فَاهِمْ﴾** قرأ الجمهور بالنون للمتكلم في لنبيتنه، وفي لنقولن، واختار هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ حمزة، والكسائي بالفوقية فيهما على خطاب بعضهم لبعضهم، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وقرأ مجاهد، وحמיד بالتحية فيهما، والمراد بولي صالح رهطه **﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾** أي: ما حضرنا قتلهم، ولا ندري من قتله، وقتل أهله، ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدل على نفي شهودهم لنفس القتل بالأولى، وقيل: إن المهلك بمعنى الإهلاك، وقرأ حفص⁽¹⁾، والسلمي مهلك بفتح الميم، واللام، وقرأ أبو بكر، والمفضل بفتح الميم، وكسر اللام **﴿وَإِنَّا لَصَائِقُونَ﴾** فيما قلناه. قال الزجاج: وكان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً وأهله، ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك، ولا رأوه، وكان هذا مكرراً منهم، ولهذا قال الله سبحانه **﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾** أي: بهذه المحالفة **﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾** جازيناهم بفعلهم، فأهلكناهم **﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** بمكر الله بهم **﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾** أي: انظر ما انتهى إليه أمرهم الذي بنوه على المكر، وما أصابهم بسببه **﴿إِنَّا لَمُرْنَاهُمْ وَقَوْمُهُمْ لَجَمْعِين﴾** قرأ الجمهور بكسر همزة أنا، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، والحسن، وابن أبي إسحاق، وعاصم بفتحها، فمن كسر جعله استثنافاً. قال الفراء، والزجاج: من كسر استأنف، وهو يفسر به ما كان قبله، كأنه جعله تابعاً للعاقبة، كأنه قال: العاقبة إنا لمرناهم، وعلى قراءة الفتح يكون التقدير بأننا لمرناهم، أو لانا لمرناهم، وكان تامة، وعاقبة فاعل لها، أو يكون بدلاً من عاقبة، أو يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هي إنا لمرناهم، ويجوز أن تكون كان ناقصة، وكيف خبرها، ويجوز أن يكون خبرها أنا لمرنا. قال أبو حاتم: وفي حرف أبي (أن لمرناهم). والمعنى في الآية: أن الله نمر التسعة الرهط المذكورين، ونمر

القصة من جملة بيان قوله: **﴿وَإِنَّا لَنَقُولَنَّ لَكَ﴾** وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم **﴿النمل: 6﴾** و **﴿صَالِحًا﴾** عطف بيان، و **﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾** تفسير للرسالة، وإن هي المفسرة، ويجوز أن تكون مصدرية أي: بأن أعبدوا الله، وإذا في **﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَان﴾** هي الفجائية أي: ففاجئوا التفرق، والاختصاص، والمراد بالفريقان المؤمنون منهم، والكافرون، ومعنى الاختصاص: أن كل فريق يخاصم على ما هو فيه، ويزعم أن الحق معه، وقيل: إن الخصومة بينهم في صالح هل هو مرسل أم لا؟ وقيل: لحد الفريقين صالح، والفريق الآخر جميع قومه، وهو ضعيف **﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾** أي: قال صالح للفريق الكافر منهم منكراً عليهم: لم تستعجلون بالسَّيِّئَةِ قبل الحسنة؟ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة. والمعنى: لم تؤخروا الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدمون الكفر الذي يجلب إليكم العقوبة؟ وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون: اثنتا يا صالح بالعذاب **﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾** هلا تستغفرون الله، وتوبون إليه من الشرك **﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾** رجاء أن ترحموا، أو كي ترحموا فلا تعذبوا، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر، ووصف العذاب بأنه سيئة مجازاً، إما لأن العقاب من لوازمه، أو لأنه يشبهه في كونه مكروهاً، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح، والكلام للذين أنهم **﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾** أصله تطيرنا، وقد قرئ بذلك، والتطير التشاؤم: أي: تشاءمنا منك، وبمن معك ممن أجابك، ودخل في دينك، وذلك لأنه أصابهم قحط فتشاءموا بصالح، وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة، واشقاقهم بها، وكانوا إذا أرابوا سفيراً أو أمراً من الأمور نفروا طائراً من وكره فإن طار يمتة ساروا، وفعلوا ما عزموا عليه، وإن طار يسرة تركوا ذلك فلما قالوا ذلك **﴿قَالَ﴾** لهم صالح **﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾** أي: ليس ذلك بسبب الطير الذي تشاءمون به، بل سبب ذلك عند الله، وهو ما يقدره عليكم، والمعنى: أن الشؤم الذي أصابكم هو من عند الله بسبب كفركم، وهذا كقوله تعالى: **﴿يَطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا مَطَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾** [الأعراف: 131]. ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان، فقال: **﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾** أي: تمتحنون، وتختبرون وقيل: تعذبون بنزوبكم، وقيل: يفتنكم غيركم، وقيل: يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة، أو بما لأجله تطيرون، فأضرب عن ذكر الطائر إلى ما هو السبب الداعي إليه **﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾** التي فيها صالح، وهو الحجر **﴿تِسْعَةَ رَهْط﴾** أي: تسعة رجال من أبناء الأشراف، والرهط اسم للجماعة، فكانهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم جماعة، والجمع أرهط، وأراهط، وهؤلاء التسعة هم أصحاب قدار عاقر الناقة، ثم وصف هؤلاء بقوله **﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ﴾** أي

(1) (قوله وقرأ حفص إلخ) في العبارة قلب إذ المشهور أن حفصاً والسلمي قرأ بفتح الميم وكسر اللام وأبى بكر والمفضل بفتحهما ولعله سهو اهـ مصحح القرآن.

قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك، ومعنى التأكيد باجمعين: أنه لم يشذ منهم أحد ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم، وجملة ﴿فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ مقررّة لما قبلها. قرأ الجمهور (خاوية) بالنصب على الحال. قال الزجاج: المعنى: فانظر إلى بيوتهم حال كونها خاوية، وكذا قال الفراء، والنحاس: أي: خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن. وقال الكسائي وأبو عبيدة: نصب خاوية على القطع، والأصل فتلك بيوتهم الخاوية، فلما قطع منها الألف، واللام نصبت كقوله: ﴿وَلَهُ الدِّينَ وَأَصْبَأُ﴾ [النحل: 52]. وقرأ عاصم بن عمر، ونصر بن عاصم، والجحدري، وعيسى بن عمر برفع (خاوية) على أنه خبر اسم الإشارة، وبيوتهم بدل، أو عطف بيان، أو خبر لاسم الإشارة، وخاوية خبر آخر، والباء في ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ للسببية أي: بسبب ظلمهم ﴿إِنْ فِي تِلْكَ التَّمِيرِ، وَالْإِمْلَاقِ﴾ الآية عظيمة ﴿لَقَوْمٌ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يتصفون بالعلم بالاشياء ﴿وَوَانَجِينَا لَنَيْنَ أَمْنُوهُ﴾ وهم صالح، ومن آمن به ﴿وَوَكُنَّا يُقْنُونَ﴾ الله، ويخافون عذابه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿طَائِرُكُمْ﴾ قال: مصائبكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿وَوَكُنَّا فِي الْمَعِينَةِ تَسْعَةً رَهْطًا﴾ قال: هم الذين عقروا الناقة، وقالوا حين عقروها: نبيت صالحاً وأهله، فنقتلهم، ثم نقول لأوليائه صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به علم فمهرهم الله أجمعين.

وَلَوْ لَمْ يَذْكُرْ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ وَأنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٠﴾ أَيْكُمْ تَأْتُونَ أَيْحَالَ شَهْوَةٍ مِنْ دُونِ الْإِسْلَامِ لَمْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَهْتَكُونَ ﴿١٠١﴾ مَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَمَرُوهَا مَا لَوْ لَمْ يَنْزِلْ قَوْمُكُمْ إِنْهُمْ أَنَا يَنْتَهَرُونَ ﴿١٠٢﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَمَلْنَا إِلَّا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿١٠٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا مُسَوِّيًا مَطَرُ الْمُتَذَكِّرِينَ ﴿١٠٤﴾ قُلْ لَسْتُ بِوَسِيٍّ عَلَى عِبَادِهِ أَلَيْسَ أَصْطَفَى مَا اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٠٥﴾ أَلَمْ يَخْلُقِ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ وَأَنْبَتَ بِهِجَرًا مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُلْبِسُوا شَجَرًا أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿١٠٦﴾ أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَافَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْذَبُكُمْ لَا يَسْتَدْرِكُ ﴿١٠٧﴾ أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ خُلْفَهُ الْأَرْضَ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴿١٠٨﴾ أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَيْلٍ وَالْيَمْرِ وَمَنْ يَرْسِلُ الْوَيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ تَسْلَى اللَّهُ سَخَا يُشْرِكُونَ ﴿١٠٩﴾ أَمِنْ يَنْدُرُ الْفَلَقُ ثُمَّ يُعِيدُ وَمَنْ يَرْفُكُ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٠﴾ قُلْ لَا يَمْلِكُ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ الْقَيْبُ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي السَّمَاءِ قُلْ أَدْرَكَ عَنْهُمْ مِنَ الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ يَنْتَهَمُونَ ﴿١١١﴾

انتصاب لوطاً: بفعل مضمر معطوف على أرسلنا أي: وأرسلنا لوطاً، و ﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف للفعل المقدر، ويجوز أن يقدر انكر؛ والمعنى: وأرسلنا لوطاً وقت قوله ﴿لَقَوْمِهِ قَاتِلُونَ لِالْفَاحِشَةِ﴾ أي: الفعلة المتنامية في القبح، والشناعة، وهم أهل سدوم، وجملة ﴿وَوَانْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال متضمنة لتأكيد الإنكار أي: وأنتم تعلمون أنها فاحشة. وذلك أعظم لتوبيخكم، على أن تبصرون من بصر القلب، وهو العلم، أو بمعنى: النظر، لأنهم كانوا لا يستترون حال فعل الفاحشة عتواً، وتمرداً، وقد تقدّم تفسير هذه القصة في الأعراف مستوفى ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ فيه تكرير للتوبيخ مع التصريح بأن تلك الفاحشة هي اللواط، وانتصاب شهوة على العلة أي: للشهوة، أو على أنه صفة لمصدر محذوف: أي: إتياناً شهوة، أو أنه بمعنى الحال أي: مشتبهين لهم ﴿مَنْ لَوْنُ النِّسَاءِ﴾ أي: متجاوزين النساء اللاتي هن محل لذلك ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ﴾ التحريم، أو العقوبة على هذه المعصية، واختار الخليل، وسيبويه تخفيف الهمزة من أنكم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ لَأَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قرأ الجمهور بنصب (جواب) على أنه خبر كان، واسمها إلا أن قالوا: أي: إلا قولهم. وقرأ ابن أبي إسحاق برفع (جواب) على أنه اسم كان، وخبرها ما بعده، ثم عللوا ما أمروا به بعضهم بعضاً من الإخراج بقولهم: إنهم أناس يتطهرون أي: يتزهدون عن أنبار الرجال، قالوا ذلك استهزاء منهم بهم ﴿فَوَانَجِينَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ من العذاب ﴿إِلَّا أَمْرًا قَدَرْنَاهُ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: قدرنا أنها من الباقيين في العذاب، ومعنى قدرنا: قضينا، قرأ الجمهور قدرنا بالتشديد، وقرأ عاصم^(١) بالتخفيف. والمعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى ﴿وَوَامْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ هذا للتأكيد يدل على شدة المطر، وأنه غير معهود ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ المخصوص بالنذم محذوف أي: ساء مطر المنذرين مطرهم، والمراد بالمنذرين الذين انذروا، فلم يقبلوا، وقد مضى بيان هذا كله في الأعراف، والشعراء ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ﴾ قال الفراء: قال أهل المعاني: قيل: للوط قل: الحمد لله على هلاكهم، وخالفه جماعة فقالوا: إن هذا خطاب لنبينا ﷺ، أي: قيل: الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية، وسلام على عباده ﴿الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ قال النحاس: وهذا أولى؛ لأن القرآن منزل على النبي ﷺ، وكل ما فيه فهو مخاطب به إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره. قيل: والمراد بعباده الذين اصطفى: أمة محمد ﷺ، والأولى حمله على العموم، فيدخل في تلك الأنبياء وأتباعهم ﴿أَلَيْسَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: أليس الذي نكرت أفعاله وصفاته الدالة على

(١) (قوله وقرأ عاصم) وقرأ أبو بكر عن عاصم اهـ مصحح

عظيم قدرته خير أما يشركون به من الأصنام، وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلي. بل هي كقول الشاعر:

اتهجوه ولست له بكفء فشركما الخيركما الفداء

فيكون ما في الآية من باب التهكم بهم، إذ لا خير فيهم أصلاً. وقد حكى سيبويه أن العرب تقول: السعادة أحب إليك أم الشقاوة، ولا خير في الشقاوة أصلاً. وقيل: المعنى: أثواب الله خير، أم عقاب ما تشركون به؟ وقيل: قال لهم ذلك جرياً على اعتقادهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيراً. وقيل: المراد من هذا الاستفهام الخبر. قرأ الجمهور (تشركون) بالفوقية على الخطاب، وهي اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب (يشركون) بالتحية، و«أم» في «أما يشركون» هي المتصلة، وأما في قوله «أمن خلق السموات والأرض» فهي المنقطعة. وقال أبو حاتم: تقديره «ألهمتكم خير أم من خلق السموات والأرض، وقدر على خلقهن؟ وقيل: المعنى: أعبادة ما تعبدون من أولئكم خير، أم عبادة من خلق السموات والأرض؟ فتكون أم على هذا متصلة، وفيها معنى التوبيخ، والتهكم كما في الجملة الأولى. وقرأ الأعمش (أمن) بتخفيف الميم «وانزل لكم من السماء ماء» أي: نوعاً من الماء، وهو المطر «فانبتنا به حنائق» جمع حديقة. قال الفراء: الحديقة البستان الذي عليه حائط، فإن لم يكن عليه حائط، فهو البستان، وليس بحديقة. وقال قتادة، وعكرمة: الحنائق النخل «ذات بهجة» أي: ذات حسن، ورونق. والبهجة: هي الحسن الذي يتبهج به من رآه، ولم يقل: نوات بهجة على الجمع، لأن المعنى: جماعة حنائق «وما كان لكم أن تنبتوا شجرها» أي: ما صبح لكم أن تفعلوا ذلك، ومعنى هذا النفي: الحظر، والمنع من فعل هذا أي: ما كان للبشر، ولا يتهاى لهم ذلك، ولا يخل تحت مقدرتهم لعجزهم عن إخراج الشيء من العدم إلى الوجود. ثم قال سبحانه موبخاً لهم، ومقرعاً «إله مع الله» أي: هل معبود مع الله الذي تقدم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به، ويجعل شريكاً له في العبادة، وقرئ (إلهاً مع الله) بالنصب على تقدير: أتدعون إلهاً. ثم اضرب عن قريعتهم وتوبيخهم بما تقدم، وانتقل إلى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، فقال «بل هم قوم يعطلون» أي: يعطلون بالله غيره، أو يعطلون عن الحق إلى الباطل، ثم شرع في الاستدلال بأحوال الأرض وما عليها، فقال «أمن جعل الأرض قراراً» القرار المستقر أي: لهاها، وسواها بحيث يمكن الإستقرار عليها. وقيل: هذه الجملة وما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله: «أمن خلق السموات والأرض»، ولا ملجئ لذلك، بل هي وما بعدها إضراب وانتقال من التوبيخ والتقريع بما قبلها إلى التوبيخ والتقريع بشيء آخر «وجعل خلالها أنهاراً» الخلائط الوسط. وقد تقدم تحقيقه في قوله: «وفجرنا خلالها نهراً» [الكهف: 33] «وجعل لها رواسي» أي: جبلاً ثوابت تمسكها، وتمنعها من الحركة «وجعل بين

البحرين حاجزاً» الحاجز: المانع أي: جعل بين البحرين من قدرته حاجزاً. والبحران هما العنب والمالح، فلا يختلط أحدهما بالآخر فلا هذا يغير ذاك، ولا ذاك يخل في هذا، وقد مرّ بيانه في سورة الفرقان «إله مع الله» أي: إذا ثبت أنه لا يقدر على ذلك إلا الله فهل إله في الوجود يصنع صنعه، ويخلق خلقه؟ كيف يشركون به ما لا يضر ولا ينفع «بل أكثرهم لا يعلمون» توحيد ربهم، وسلطان قدرته «أمن يجيب المضطر إذا دعاه» هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الإنسان إليه على العموم، والمضطر اسم مفعول من الاضطراب: وهو المكروب المجهود الذي لا حول له ولا قوة. وقيل: هو المنذب، وقيل: هو الذي عراه ضر من فقر، أو مرض، فالجاء إلى التضرع إلى الله، واللام في المضطر لجنس لا للاستفراق، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين إجابة دعائه، وإلا فقد ضمن الله سبحانه إجابة دعاء المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والوجه في إجابة دعاء المضطر أن تلك الاضطراب الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص، وقطع النظر عما سوى الله، وقد أخبر الله سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين، وإن كانوا كافرين، فقال: «حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعاوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين» [يونس: 22] وقال: «فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون» [العنكبوت: 65] فاجلبهم عند ضرورتهم، وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم «ويكشف السوء» أي: الذي يسوء العبد من غير تعيين، وقيل: هو الضر، وقيل: هو الجور «ويجعلكم خلفاء الأرض» أي: يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله بعد انقراضهم، والمعنى: يهلك قرناً، وينشئ آخرين، وقيل: يجعل أولائكم خلفاً منكم، وقيل: يجعل المسلمين خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم، ويأمرهم «إله مع الله» الذي يوليكم هذه النعم الجسام «قليل ما تذكرون» أي: تذكرنا قليلاً ما تذكرون. قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب. وقرأ أبو عمرو، وهشام، ويعقوب بالتحية على الخبر رداً على قوله: «بل أكثرهم لا يعلمون» واختار هذه القراءة أبو حاتم «أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر» أي: يرشدكم في الليالي المظلمة إذا سافرتهم في البر، أو البحر. وقيل: المراد: مفاز البر التي لا أعلام لها، ولجج البحار، وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها «ومن يرسل الرياح نشرأ بين يدي رحمته» والمراد بالرحمة هنا المطر أي: يرسل الرياح بين يدي المطر، وقبل نزوله «إله مع الله» يفعل ذلك، ويوجده «تعالى الله عما يشركون» أي: تنزهه، وتقدس عن وجود ما يجعلونه شريكاً له «أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده» كانوا يقرّون بأن الله سبحانه هو الخالق، فالزمهم الإعادة أي: إذا قدر على الابتداء

منها» أي: بل هم اليوم في الدنيا في شك من الآخرة، ثم أضرب عن ذلك إلى ما هو أشد منه، فقال ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ فلا يدركون شيئاً من دلائلها لاختلال بصائرهم التي يكون بها الإدراك، وعمون جمع عم: وهو من كان أعمى القلب، والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون إلى شيء مما يوصل إلى العلم بها، فمن قال: إن معنى الآية الأولى أعني ﴿بَلْ أَذَارُكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: أنه كمل علمهم، وتم مع المعانيعة فلا بد من حمل قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إلخ على ما كانوا عليه في الدنيا، ومن قال: إن معنى الآية الأولى: الاستهزاء بهم، والتبكيك لهم لم يحتج إلى تقييد قوله ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إلخ بما كانوا عليه في الدنيا. وبهذا يتضح معنى هذه الآيات، ويظهر ظهوراً بيناً.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ قال: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه، وروي مثله عن سفيان الثوري. والأولى ما قدمناه من التعميم، فيدخل في ذلك أصحاب نبينا ﷺ بخلاً أولياً. وأخرج أحمد، وإبو داود، والنسائي، والطبراني عن رجل من بلجهم قال: «قلت: يا رسول الله إلى ما تدعو؟ قال: أدعو الله وحده الذي إن مسك ضر، فدعوته كشفه عنك»، هذا طرف من حديث طويل. وقد رواه أحمد من وجه آخر فبين اسم الصحابي فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا يونس، حدثنا عبيد بن عبيدة الهجيمي عن أبيه، عن أبي تميمه الهجيمي، عن جابر بن سليم الهجيمي. ولهذا الحديث طرق عند أبي داود، والنسائي. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث عائشة قالت: «ثلاث من تكلم بواحدة منهم، فقد أعظم على الله الفرية» وقالت في آخره: «ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿بَلْ أَذَارُكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ قال: حين لا ينفع العلم. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه: أنه قرأ (بل أدرك علمهم في الآخرة) قال: لم يدرك علمهم. قال أبو عبيد: يعني: أنه قرأها بالاستفهام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿بَلْ أَذَارُكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يقول: غاب علمهم.

قدر على الإعادة ﴿وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالمطر، والنبات أي: هو خير أم ما تجعلونه شريكاً له مما لا يقدر على شيء من ذلك ﴿وَاللَّهُ مَعَ اللَّهِ﴾ حتى تجعلونه شريكاً ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: حجتكم على أن الله سبحانه شريكاً، أو هاتوا حجتكم أن ثم صانعاً يصنع كصنعه، وفي هذا تبكيك لهم، وتهكم بهم ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة في السموات، والأرض الغيب الذي استأثر الله بعلمه، والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ منقطع أي: لكن الله يعلم ذلك، ورفع ما بعد إلا مع كون الاستثناء منقطعاً هو على اللغة التيمية كما في قولهم:

إِلَّا السِّعَافِيرُ وَالْأَلْعِيسُ

وقيل: إن فاعل يعلم هو ما بعد إلا، ومن في السموات مفعوله، والغيب بدل من أي: لا يعلم غيب من في السموات، والأرض إلا الله، وقيل: هو استثناء متصل من «من». وقال الزجاج: إلا الله بدل من «من». قال الفراء: وإنما رفع ما بعد إلا لأن ما بعدها خبر كقولهم: ما ذهب أحد إلا أبوك، وهو كقول الزجاج. قال الزجاج: ومن نصب نصب على الاستثناء ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يشعرون متى ينشرون من القبور، وأيان مركبة من أي، وإن. وقد تقدم تحقيقه، والضمير للكفرة. وقرأ السلمي (أيان) بكسر الهمزة، وهي لغة بني سليم، وهي منصوبة بيبعثون، ومعلقة ليشعرون، فتكون هي وما بعدها في محل نصب ينزع الخافض أي: وما يشعرون بوقت بعثهم، ومعنى ﴿أَيَّانَ﴾: معنى متى ﴿بَلْ أَذَارُكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾. قرأ الجمهور (أدراك)، وأصل أدراك تدارك أدغمت التاء في الدال، وجيء بهمزة الوصل ليتمكن الابتداء بالساكن. وقرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمر، وحמיד (بل أدرك) من الإدراك. وقرأ عطاء بن يسار، وسليمان بن يسار، والأعمش (بل أدرك) بفتح لام بل، وتشديد الدال. وقرأ ابن محيصن (بل أدرك) على الاستفهام. وقرأ ابن عباس، وأبو رجاء وشيبة، والأعمش، والأعرج (بلى أدراك) بِلَاءَاتِ الباء في بل، وبهمزة قطع وتشديد الدال. وقرأ أبي (بل تدارك)، ومعنى الآية: بل تكامل علمهم في الآخرة: لأنهم راوا كل ما وعدوا به، وعاینوه. وقيل: معناها: تتابع علمهم في الآخرة، والقراءة الثانية معناها: كمل علمهم في الآخرة مع المعانيعة، وذلك حين لا ينفعهم العلم: لأنهم كانوا في الدنيا مكذبين. وقال الزجاج: إنه على معنى الإنكار، واستدل على ذلك بقوله فيما بعد ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي: لم يدرك علمهم علم الآخرة، وقيل: المعنى: بل ضل، وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم، ومعنى القراءة الثالثة كمعنى القراءة الأولى، فافتعل، وتفاعل قد يجيئان لمعنى، والقراءة الرابعة هي بمعنى الإنكار. قال الفراء: وهو وجه حسن كأنه وجهه إلى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم، وفي الآية قراءات أخر لا ينبغي الاشتغال بذكرها وتوجيهها ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوَدَا كُنَّا قَوْمًا وَمَا نَدْنَاهُ إِلَّا أَسْطُورًا الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٣﴾ وَتَوَلَّوْا مَعَ هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٤﴾ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدْدٌ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي سْتَعْمِلُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ فَصَلِّ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ

التي تسبنا به ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ يقال: ردف الرجل، وأردفته إذا ركبت خلفه، ودفه إذا أتبعه، وجاء في أثره، والمعنى: قل: يا محمد لهؤلاء الكفار عسى أن يكون هذا العذاب الذي به توعدون تبعمكم، ولحقكم، فتكون اللام زائدة للتأكيد، أو بمعنى اقترب لكم، ودنا لكم، فتكون غير زائدة. قال ابن شجرة: معنى ردف لكم: تبعمكم، قال: ومنه ردف المرأة؛ لأنه تبع لها من خلفها، ومنه قول أبي نؤيب:

عاد للسواد بياضاً في مفارقة لا مرحباً بياض الشيب إذ ردفنا
قال الجوهري: وأردفه لغة في ردفه مثل تبعه وأتبعه بمعنى. قال خزيمة بن مالك بن نهد:

إذا الجوزاء أربفت الشريا ظننت بال فاطمة الظنوننا
قال الفراء: ردف لكم: دنا لكم، ولهذا قيل: لكم، وقرأ الأعرج (ردف لكم) بفتح الدال، وهي لغة، والكسر أشهر. وقرأ ابن عباس (أزف لكم)، وارتفاع ﴿بعض الذي تستعجلون﴾ أي: على أنه فاعل ردف، والمراد بعض الذي تستعجلونه من العذاب أي: عسى أن يكون قد قرب، ودنا، وأزف بعض ذلك، قيل: هو عذابهم بالقتل يوم بدر، وقيل: هو عذاب القبر. ثم نكر سبحانه فضله في تأخير العذاب، فقال ﴿وَإِنْ رِبْكَ لَدُوْ فُضِّلَ عَلَى النَّاسِ﴾ في تأخير العقوبة، والأولى أن تحمل الآية على العموم، ويكون تأخير العقوبة من جملة أفضاله سبحانه وإنعامه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله، وإنعامه، ولا يعرفون حق إحسانه، ثم بين أنه مطلع على ما في صدورهم، فقال ﴿وَإِنْ رِبْكَ لَيَعْلَمُ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما تخفيه. قرأ الجمهور (تكن) بضم التاء من كن. وقرأ ابن محيصن، وابن السميع، وحيد بفتح التاء، وضم الكاف، يقال: كننته بمعنى سترته، وخفيت أثره ﴿وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ وما يظهرون من أقوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قال المفسرون: ما من شيء غائب، وأمر يغيب عن الخلق في السماء، والأرض إلا في كتاب مبين إلا هو مبين في اللوح المحفوظ، وغائبة هي من الصفات الغالبة، والتاء للمبالغة. قال الحسن: الغائبة هنا هي: القيامة. وقال مقاتل: علم ما يستعجلون من العذاب هو مبين عند الله، وإن غاب عن الخلق. وقال ابن شجرة: الغائبة هنا جميع ما أخفى الله عن خلقه، وغيبه عنهم مبين في أم الكتاب، فكيف يخفى عليه شيء من ذلك، ومن جملة ذلك ما يستعجلونه من العذاب فإنه موقت بوقت، وموَّجَل بأجل علمه عند الله فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له؟ ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك لأن أهل الكتاب تفرَّقوا فرقاً، وتحرَّبوا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض، ويتبرأ بعضهم من بعض، فنزل القرآن مبيناً لما اختلفوا فيه من الحق، فلو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم وينفع تفرقهم ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وإن القرآن لهدي ورحمة للمؤمنين، وإن القرآن لهدي، ورحمة لمن آمن بالله، وتابع رسوله،

وَمَا يُؤْمِنُونَ ﴿وَمَا مِنْ عَلَاقَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي عَلَى بَيِّنٍ إِسْرَآءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿وَأَنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إِنَّ رَدَفَكَ بَعْضُ بَيْنِهِمْ يَحْكِيوهُ وَهُوَ الْغَرِيزُ الْفَلَسِيَّةُ ﴿فَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتُ وَلَا تَسْمِعُ الْقَبْرُ الْوَعْدَ إِذَا وَلُوا مُدِيرِينَ ﴿وَمَا أَنتَ بِهَدَى عَنْ سَبِيلِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ﴾ ﴿وَلَا يَفْعَلُ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾

لما نكر سبحانه أن المشركين في شك من البعث، وأنهم عمون عن النظر في دلائله أراد أن يبين غاية شبههم، وهي مجرد استبعاد إحياء الأموات بعد صيرورتهم تراباً، فقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآيَاتُنَا آتِنَا لَمُخْرَجُونَ﴾. والعامل في إذا محذوف دل عليه مخرجون تقديره أتبع، أو نخرج إذا كنا، وإنما لم يعمل فيه مخرجون لتوسط همزة الاستفهام، وإن ولام الإيتاء بينهما. قرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة. وقرأ عاصم، وحزمة باستفهامين، إلا أنهما حققا الهمزتين. وقرأ نافع بهمزة. وقرأ ابن عامر، وورش⁽¹⁾، ويعقوب (إذا) بهمزتين (ورائنا) بنونين على الخبر، ورجح أبو عبيد قراءة نافع، ورد على من جمع بين استفهامين؛ ومعنى الآية: أذهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا تراباً، ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث، فقالوا: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا﴾ يعنون: البعث ﴿نَحْنُ وَآيَاتُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل وعد محمد لنا، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإنكار مصدرة بالقسم لزيادة التقرير ﴿إِنْ هَذَا﴾ الوعد بالبعث ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة، وقد تقدم تحقيق معنى الأساطير في سورة المؤمنون، ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث. فامرهم بالنظر في أحوال الأمم السابقة المكذبة للأنبياء، وما عوقبوا به، وكيف كانت عاقبتهم، فقال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ بما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث، ومعنى النظر هو مشاهدة آثارهم بالبصر فإن في المشاهدة زيادة اعتبار. وقيل: المعنى: فانظروا بقلوبكم، وبصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم، والأول أولى لأمرهم بالسير في الأرض ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لما وقع منهم من الإصرار على الكفر ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ الضيق: الحرج، يقال: ضاق الشيء ضيقاً بالفتح، وضيقاً بالكسر قرئ بهما، وهما لغتان. قال ابن السكيت: يقال: في صدر فلان ضيق، وضيق، وهو ما تضيق عنه الصدور. وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة النحل ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: بالعذاب

(1) (قوله وورش) صوابه والكسائي اهـ مصحح القرآن.

والمعاني متقاربة. وقيل: المراد بالقول ما نطق به القرآن من مجيء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها، وقيل: وقع القول بموت العلماء، وذهاب العلم، وقيل: إذا لم يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر. والحاصل أن المراد بوقع وجب، والمراد بالقول مضمونه، أو أطلق المصدر على المفعول أي: المقول، وجواب الشرط ﴿لخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم﴾.

واختلف في هذه الدابة على أقوال، فقيل: إنها فصيلة ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة، ويكون من أشرط الساعة. وقيل: هي دابة ذات شعر، وقوائم طوال يقال لها: الجساسة. وقيل: هي دابة على خلقة بني آدم، وهي في السحاب، وقوائمها في الأرض. وقيل: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأنها أنثى فيل، وقرنها قرن إبل، وعنقها عنق نعام، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر، ونبتها ننب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعاً. وقيل: هي الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة، والمراد أنها هي التي تخرج في آخر الزمان، وقيل: هي دابة ما لها ننب، ولها لحية، وقيل: هي إنسان ناطق متكلم ينظر أهل البدع، ويراجع الكفار، وقيل: غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره، وقد رجح القول الأول القرطبي في تفسيره.

واختلف من أي موضع تخرج؟ فقيل: من جبل الصفا بمكة، وقيل: تخرج من جبل أبي قبيس. وقيل: لها ثلاث خرجات: خرجة في بعض البوادي حتى يتقاتل عليها الناس، وتكثر الدماء، ثم تكمن، وتخرج في القرى، ثم تخرج من أعظم المساجد، وأكرمها، وأشرفها، وقيل: تخرج من بين الركن والمقام، وقيل: تخرج في تهامة، وقيل: من مسجد الكوفة من حيث فار التنور، وقيل من أرض الطائف، وقيل: من صخرة من شعب أجيد، وقيل: من صدع في الكعبة.

واختلف في معنى قوله: «تكلمهم» فقيل: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام، وقيل: تكلمهم بما يسوؤهم، وقيل: تكلمهم بقوله تعالى ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يوقنون﴾ أي: بخروجها؛ لأن خروجها من الآيات. قرأ الجمهور «تكلمهم» من التكليم، ويدل على قراءة أبي (تنبئهم)، وقرأ ابن عباس، وأبو زرعة، وأبو رجا، والحسن: (تكلمهم) بفتح الفوقية، وسكون الكاف من الكلم، وهو الجرح. قال عكرمة: أي: تسمهم وسماء، وقيل: تجرحهم، وقيل: إن قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم بفتح الكاف، وسكون اللام، وهو الجرح، والتشديد للتكثير، قاله أبو حاتم. قرأ الجمهور: (إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) بكسر إن على الاستئناف، وقرأ الكوفيون، وابن أبي إسحاق بفتح «أن». قال الأخفش: المعنى على قراءة الفتح (بأن الناس)، وكذا قرأ ابن مسعود (بأن الناس) بالياء. وقال أبو عبيد: موضعها نصب بوقوع الفعل عليها أي: تخبرهم أن الناس، وعلى هذه

وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به، ومن جملتهم من آمن من بني إسرائيل ﴿إِنَّ رِيكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ أي: يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بما يحكم به من الحق، فيجازي المحق، ويعاقب المبطل، وقيل: يقضي بينهم في الدنيا، فيظهر ما حرقوه. قرأ الجمهور (بحكمه) بضم الحاء، وسكون الكاف. وقرأ جناح بكسرها، وفتح الكاف جمع حكمة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ العزيز الذي لا يخالف، والعليم بما يحكم به، أو الكثير العلم، ثم أمره سبحانه بالتوكل، وقلة المبالاة، فقال ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما تقدم ذكره، والمعنى: فوَضَّ إِلَيْهِ أَمْرَكَ، واعتمد عليه فإنه ناصر. ثم علل ذلك بعلمين: الأول قوله ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي: الظاهر، وقيل: المظهر. والعلة الثانية قوله ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى في انتفاء الجدى بالسماح، أو كحال الصم الذين لا يسمعون، ولا يفهمون، ولا يهتدون صار ذلك سبباً قوياً في عدم الاعتداد بهم، شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم، ولا عقل، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ، ولا يجيبون الدعاء إلى الله. ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه، وتأكيده، فقال ﴿إِذَا وَلَوْ سَدُّوا عَنْكَ آيَاتِنَا﴾ أي: إذا عرضوا عن الحق إعراضاً تاماً، فإن الأصم لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلاً فكيف إذا كان معرضاً عنه مولياً مدبراً. وظاهر نفى إسماع الموتى العموم، فلا يخص منه إلا ما ورد بلبيل كما ثبت في الصحيح: أنه ﷺ خاطب القتلى في قليب بدر، فقيل له: يا رسول الله إنما تكلم أجساداً لا أرواح لها، وكذلك ما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا. وقرأ ابن محيصن، وحמיד، وابن كثير، وابن أبي إسحاق (لا يسمع) بالتحية مفتوحة، وفتح الميم، وفاعله الصم. وقرأ الباقر (تسمع) بضم الفوقية، وكسر الميم من أسمع. قال قتادة: الأصم إذا ولى مدبراً، ثم نابته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان. ثم ضرب للعمى مثلاً لهم، فقال ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أي: ما أنت بمُرشد من أعماه الله عن الحق إرشاداً يوصله إلى المطلوب منه، وهو: الإيمان، وليس في وسعك ذلك، ومثله قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56] قرأ الجمهور بإضافة هادي إلى العمى. وقرأ يحيى بن الحارث، وأبو حيان (بهاد العمى) بفتح الهاء. وقرأ حمزة (تهدي) فعلاً مضارعاً، وفي حرف عبد الله (وما أن تهدي العمى) ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: ما تسمع إلا من يؤمن لا من يكفر، والمراد بمن يؤمن بالآيات من يصتق القرآن، وجملة ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ تعليل للإيمان: أي: فهم متقانون مخلصون. ثم هدد العباد بذكر طرف من أشرط الساعة وأهوالها، فقال ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾.

واختلف في معنى وقوع القول عليهم، فقال قتادة: وجب الغضب عليهم. وقال مجاهد: حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقيل: حق العذاب عليهم، وقيل: وجب السخط،

بهذا الحشر هو حشر العذاب بعد الحشر الكلي الشامل لجميع الخلق، ومن لا يتداء الغاية، والفرج: الجماعة كالزمرة، و «من» في «ممن يكذب بآياتنا» بيانية «فهم يوزعون» أي: يحبس أولهم على آخره، وقد تقدم تحقيقه في هذه السورة مستوفى، وقيل معناه: يدفعون، ومنه قول الشماخ:

وسمه وزعنا من خميس جحفل

ومعنى الآية: وانكر يا محمد يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة مكّبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يرد أولهم على آخرهم، أو يدفعون أي: انكر لهم هذا، أو بينه تحنّيراً لهم، وترهيباً «حتى إذا جاءوا» إلى موقف الحساب قال الله لهم توبيحاً، وتقريعاً «اكتبتم بآياتي» التي أنزلتها على رسلي، وأمرتهم بإبلاغها إليكم «و» الحال أنكم «لم تحيطوا بها علماء» بل كنّتم بها بادئ بدء جاهلين لها غير ناظرين فيها، ولا مستدلين على صحتها، أو بطلانها تمرّداً، وعناداً، وجرّة على الله وعلى رسله، وفي هذا مزيد تقريع وتوبيخ، لأن من كذب بشيء، ولم يحط به علماً فقد كذب في تكذيبه، ونادى على نفسه بالجهل، وعدم الإنصاف، وسوء الفهم، وقصور الإدراك، ومن هذا القبيل من تصدّى لندم علم من العلوم الشرعية، أو لندم علم هو مقنعة من مقنماتها، ووسيلة يتوسل بها إليها، ويفيد زيادة بصيرة في معرفتها، وتعلّق معانيها كعلوم اللغة العربية بأسرها، وهي اثنا عشر علماً، وعلم أصول الفقه فإنه يتوصل به إلى استنباط الأحكام الشرعية عن أنلتها التفصيلية مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية، وهكذا كل علم من العلوم التي لها مزيد نفع في فهم كتاب الله، وسنة رسوله، فإنه قد نادى على نفسه بأرفع صوت بأنه جاهل مجادل بالباطل طاعن على العلوم الشرعية، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التي تزجره عن جهله، وضلاله، وطعنه على ما لا يعرفه، ولا يعلم به، ولا يحيط بكنهه حتى يصير عبرة لغيره، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعف العقول، وركاك الأديان، ورعاع المتلبسين بالعلم زوراً، وكذباً، وأم في قوله «إم ماذا كنتم تعملون» هي المنقطعة، والمعنى: لم أي شيء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها، والتفكير في معانيها، وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم «ووقع للقول عليهم» قد تقدم تفسيره قريباً، والباء في «بما ظلموا» للسببية أي: وجب القول عليهم بسبب الظلم الذي أعظم أنواعه الشرك بالله «فهم لا ينطقون» عند وقوع القول عليهم أي: ليس لهم عذر ينطقون به، أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم. وقال أكثر المفسرين: يختم على أفواههم فلا ينطقون، ثم بعد أن حوّلهم بأهوال القيامة ذكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد، وعلى الحشر، وعلى النبوة مبالغة في الإرشاد، وإبلاء للمعذرة، فقال «إلم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً» أي: جعلنا الليل للسكون، والاستقرار، والنوم، وذلك بسبب ما فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه

للمعاش، والنهار مبصراً، ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذي لا بدّ له منهم، ووصف النهار بالإبصار، وهو وصف للناس مبالغة في إضاءته كأنه يبصر ما فيه. قيل: في الكلام حنف، والتقدير: وجعلنا الليل مظلاً ليسكنوا، وحذف مظلاً لدلالة مبصراً عليه، وقد تقدّم تحقيقه في الإسراء وفي يونس «إن في ذلك» المذكور «آيات» أي: علامات ودلالات «للقوم يؤمنون» بالله سبحانه. ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال: «ويوم ينفخ في الصور» هو معطوف على «ويوم نحشر» منصوب بنصبه المتقدّم. قال الفراء: إن المعنى: وذلك يوم ينفخ في الصور، والأول أولى. والصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل، وقد تقدّم في الأنعام استيفاء الكلام عليه. والنفخات في الصور ثلاث: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث. وقيل: إنها نفختان، وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق، أو إلى نفخة البعث، واختار هذا القشيري، والقرطبي، وغيرهما. وقال الماوردي: هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور «ففزع من في السموات ومن في الأرض» أي: خافوا، وانزعجوا لشدة ما سمعوا، وقيل: المراد بالفزع هنا: الإسراع، والإجابة إلى النداء من قولهم: فزعت إليك في كذا: إذا أسرعت إلى إجابتك، والأول أولى بمعنى الآية. وإنما عبر بالماضي مع كونه معطوفاً على مضارع للدلالة على تحقق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان. وقال الفراء: هو محمول على المعنى: لأن المعنى إذا نفخ «إلا من شاء الله» أي: إلا من شاء الله أن لا يفزع عند تلك النفخة.

واختلف في تعيين من وقع الاستثناء له، فقيل: هم الشهداء، والأنبياء، وقيل: الملائكة، وقيل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، وقيل: الحور العين، وقيل: هم المؤمنون كافة بليل قوله فيما بعد «من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون»، ويمكن أن يكون الاستثناء شاملاً لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك «وكل أتوه داخرين» قرأ الجمهور (أتوه) على صيغة اسم الفاعل مضافاً إلى الضمير الراجع إلى الله سبحانه. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحزمّة، وحفص عن عاصم (أتوه) فعلاً ماضياً، وكذا قرأ ابن مسعود. وقرأ قتادة (وكل أتاه). قال الزجاج: إن من قرأ على الفعل الماضي فقد وحد على لفظ كل، ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه، وهو غلط ظاهر، فإن كلا القراءتين لا توحيد فيها، بل التوحيد في قراءة قتادة فقط، ومعنى «داخرين»: صاغرين ذليلين، وهو منصوب على الحال، قرأ الجمهور (داخرين)، وقرأ الأعرج (لخزين) بغير ألف، وقد مضى تفسير هذا في سورة النحل «وترى للجهال تحسبها جامدة» معطوف على «ينفخ». والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح للرؤية، و«تحسبها جامدة» في محل نصب على الحال من ضمير ترى، أو من مفعوله، لأن الرؤية بصرية. وقيل: هي بدل من

الجملة الأولى، وفيه ضعف، وهذه هي العلامة الثالثة لقيام الساعة، ومعنى (تحسبها جامدة): أي: قائمة ساكنة، وجملة «وهي تمر من السحاب» في محل نصب على الحال: أي: وهي تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التي تسيرها الرياح. قال القتيبي: وذلك أن الجبال تجمع، وتسير، وهي في رؤية العين كالقائمة، وهي تسير. قال القشيري: وهذا يوم القيامة، ومثله قوله تعالى: «وسيرت الجبال فكانت سراباً» [النبا: 20] قرأ أهل الكوفة (تحسبها) بفتح السين، وقرأ الباقون بكسرهما «صنع الله الذي أتقن كل شيء» انتصاب صنع على المصدرية عند الخليل، وسيبويه، وغيرهما أي: صنع الله ذلك صنعا، وقيل: هو مصدر مؤكد لقوله: «ويوم ينفخ في الصور»، وقيل: منصوب على الإغراء أي: انظروا صنع الله، ومعنى «الذي أتقن كل شيء»: الذي أحكمه، يقال: رجل تقن أي: حائق بالاشياء، وجملة «إنه خبير بما تفعلون» تعليل لما قبلها من كونه سبحانه صنع ما صنع، وأتقن كل شيء، والخبير: المطلع على الظواهر، والضمائر. قرأ الجمهور بالتاء الفوقية على الخطاب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وهشام بالتحية على الخبر «من جاء بالحسنة فله خير منها» الألف، واللام للجنس أي: من جاء بجنس الحسنة فله من الجزاء والثواب عند الله خير منها أي: أفضل منها، وأكثر، وقيل: خير حاصل من جهتها، والأول أولى. وقيل: المراد بالحسنة هنا: لا إله إلا الله، وقيل: هي الإخلاص، وقيل: أداء الفرائض، والتعميم أولى، ولا وجه للتخصيص، وإن قال به بعض السلف. قيل: وهذه الجملة بيان لقوله «إنه خبير بما تفعلون»، وقيل: بيان لقوله «وكل أتوه دلوخين». قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي (وهم من فزع) بالتثنية، وفتح ميم (يومئذ). وقرأ نافع بفتحها من غير تنوين، وقرأ الباقون بإضافة فزع إلى يومئذ. قال أبو عبيد: وهذا أعجب إليّ لأنه أعم التأويلين؛ لأن معناه: الأمن من فزع جميع ذلك اليوم، ومع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع. وقيل: إنه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيح بما ذكر، فتكون القراءة بمعنى واحد. وقيل: المراد بالفزع ها هنا هو الفزع الأكبر المذكور في قوله: «لا يحزنهم الفزع الأكبر» [الأنبياء: 103]، ووجه قراءة نافع أنه نصب يوم على الظرفية لكون الإعراب فيه غير متمكن، ولما كانت إضافة الفزع إلى ظرف غير متمكن بني، وقد تقدم في سورة هود كلام في هذا مستوفى «ومن جاء بالسيسة فكبت وجوههم في النار». قال جماعة من الصحابة، ومن بعدهم حتى قيل: إنه مجمع عليه بين أهل التأويل: إن المراد بالسيسة هنا الشرك، ووجه التخصيص قوله «فكبت وجوههم في النار»، فهذا الجزاء لا يكون إلا بمثل سينة الشرك، ومعنى «فكبت وجوههم في النار»: أنهم كبوا فيها على وجوههم، والقوا فيها، وطرحوا عليها، يقال: كببت الرجل: إذا قنيت لوجهه، فانكبت، وكبت، وجملة «هل تجزون إلا ما كنتم تعملون» بتقدير القول أي: يقال ذلك، والقاتل

خزنة جهنم أي: ما تجزون إلا جزاء عملكم «إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها» لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ، والمعاد أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة أي: قل يا محمد: إنما أمرت أن أخص الله بالعبادة، وحده لا شريك له، والمراد بالبلدة: مكة، وإنما خصها من بين سائر البلاد لكون فيها بيت الله الحرام، ولكونها أحب البلاد إلى رسوله، والموصول صفة للرب، وهكذا قرأ الجمهور. وقرأ ابن عباس، وابن مسعود التي حرمها على أن الموصول صفة للبلدة، ومعنى «حرمها»: جعلها حراماً آمناً لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصطاد صيدها، ولا يختلى خلاها «وله كل شيء» من الأشياء خلقاً، وملكاً، وتصرفاً أي: وله كل شيء «وأمرت أن أكون من المسلمين» أي: المتقنين لأمر الله المستسلمين له بالطاعة، وامتنال أمره، واجتناب نهيه، والمراد بقوله: «أن أكون» أن أثبت على ما أنا عليه «وأن أتلوا القرآن» أي: أداوم تلاوته، وأواظب على ذلك. قيل: وليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلا تلاوة الدعوة إلى الإيمان، والأول أولى «فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه» لأن نفع ذلك راجع إليه أي: فمن اهتدى على العموم، أو فمن اهتدى بما أتوه عليه، فعمل بما فيه من الإيمان بالله، والعمل بشرائعه. قرأ الجمهور (وأن أتلوا) بإثبات الواو بعد اللام على أنه من التلاوة، وهي القراءة، أو من التلوا، وهو الاتباع. وقرأ عبد الله (وأن اتل) يحذف الواو أمراً له ﷺ كذا وجهه الفراء. قال النحاس: ولا نعرف أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفة لجميع المصاحف «ومن ضل فقل إنما أنا من المذنبين» أي: ومن ضل بالكفر، وأعرض عن الهداية، فقل له: إنما أنا من المذنبين، وقد فعلت بإبلاغ ذلك إليكم، وليس عليّ غير ذلك. وقيل: الجواب محذوف أي: فويل ضلاله عليه، وأقيم إنما أنا من المذنبين مقامه لكونه كالعلة له «وقل الحمد لله» على نعمه التي أنعم بها عليّ من النبوة والعلم، وغير ذلك، وقوله «يسيركم آياته» هو من جملة ما أمر به النبي ﷺ أن يقول أي: سيركم آياته في أنفسكم، وفي غيركم «فتعرفونها» أي: تعرفون آياته، ودلائل قدرته، ووحدانيته، وهذه المعرفة لا تنفع الكفار؛ لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان، وذلك عند حضور الموت. ثم ختم السورة بقوله: «وما ربك بغافل عما تعملون»، وهو كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت الكلام الذي أمر النبي ﷺ أن يقول، وفيه ترهيب شديد، وتهديد عظيم، قرأ أهل المدينة، والشام، وحفص عن عاصم (تعملون) بالفوقية على الخطاب، وقرأ الباقون بالتحية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله «دلوخين» قال: صاغرين. وأخرج هؤلاء عنه في قوله «وترى الجبال تحسبها جامدة» قال: قائمة «صنع الله الذي أتقن كل شيء» قال: أحكم. وأخرج ابن أبي جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله «صنع الله الذي أتقن كل شيء» قال: أحسن كل شيء خلقه، وأوتقه.

رسول الله ﷺ يقرأه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّرَ ① يَكْتُبُ الْكِتَابَ الَّذِينَ ② نَتَلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِيفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدْعِيَ أَهْلَاءَهُمْ وَيَسْتَنِيحِي. يَسَاءَ لَهُمُ الْآثَرُ
كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ④ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ
وَجَعَلَهُمْ آيَةً لِلْعَالَمِينَ ⑤ وَنُكَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرِثَةً
فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ وَهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥ وَأَوْحَيْنَا إِلَى
أُورِ مُوسَى أَنْ أَرْضِعْهَا فَإِنْ حَفِظْتَهُ عَلَيْكِ وَكَانَ ابْنُكِ فَلَا تَحْزَنِي
إِنَّا رَأَيْنَاهُ إِتَابًا وَبَاطِلًا مِنْكَ ⑦ فَالْتَقِطْهُ مَالِ فِرْعَوْنَ
يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ كَانُوا
خَاطِلِينَ ⑧ وَقَالَتْ أُمُّكُ أَتُحِبُّ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكِ لَا تَقْشَرِي عَنْهُ أَنْ
يَنْفَعَنَا أَوْ نَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ ⑨ وَأَصْبَحَ مُؤَادٌ أُرِ مُوسَى فَرِحًا
إِنْ كَادَتْ تُفْبِقُ بِهِ. لَوْلَا أَنْ تَبَلَّغَ عَلَى قَلْبِهَا لَنُكَرْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ
⑩ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑪
وَصَرَّفْنَا عَلَيْهِ الْفَرَاغَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ يَكْفُلُوكَ
لَكَ وَهُمْ لَكُمْ صَبْرُونَ ⑫ فَرِيدَتْهُ لَكُمْ أُوَيْدُ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ⑬

الكلام في فاتحة هذه السورة قد مر في فاتحة الشعراء
وغيرها، فلا نعيد، وكذلك مر الكلام على قوله ﴿تلك آيات
للكتاب المبين﴾ فاسم الإشارة مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر
مبتدأ محذوف، وآيات بدل من اسم الإشارة، ويجوز أن يكون
﴿تلك﴾ في موضع نصب بنتلو، والمبين المشتمل على بيان
الحق من الباطل. قال الزجاج: مبين الحق من الباطل،
والحلال من الحرام، وهو من أبان بمعنى أظهر ﴿ونتلاوا
عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ أي:
نوحى إليك من خبرهما ملتبساً بالحق، وخص المؤمنين؛ لأن
التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن، وقيل: إن مفعول نتلو
محذوف، والتقدير: نتلو عليك شيئاً من نبيئهما، ويجوز أن
تكون من مزيدة على رأي الأخفش أي: نتلو عليك نبا موسى
وفرعون، والأولى أن تكون للبيان على تقدير المفعول كما
نكر، أو للتبعض، ولا ملجئ للحكم بزيانها، والحق الصديق،
وجملة ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ وما بعدها مستأنفة
مسوقة لبيان ما أجمل من النبا. قال المفسرون: معنى علا:
تكبر، وتجبر بسلطانه، والمراد بالأرض أرض مصر. وقيل:
معنى علا: ادعى الربوبية، وقيل: علا عن عبادة ربه ﴿وجعل
أهلها شيعاً﴾ أي: فرقاً، وأصنافاً في خدمته يشايعونه على
ما يريد، ويطيعونه، وجملة ﴿يستضعف طائفة منهم﴾
مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقاً
وأصنافاً، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من
فاعل جعل أي: جعلهم شيعاً حال كونهم مستضعفاً طائفة

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مروي عن أبي
هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿من جاء بالحسنة فله خير
منها﴾ قال: هي: لا إله إلا الله، ﴿ومن جاء بالسيسة
فكبت وجوههم في النار﴾ قال: هي: الشرك، وإذا صح
هذا عن رسول الله ﷺ فالمراد به في تفسير كلام الله
سبحانه متعين، ويحمل على أن المراد قال: لا إله إلا الله
بحقها، وما يجب لها، فيدخل تحت ذلك كل طاعة، ويشهد له
ما أخرجه الحاكم في الكنى عن صفوان بن عسال قال: قال
رسول الله ﷺ: ﴿إذا كان يوم القيامة: جاء الإيمان والشرك
يجثوان بين يدي الله سبحانه، فيقول الله للإيمان: انطلق أنت
وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار،
ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿من جاء بالحسنة فله خير
منها﴾ يعني: قول: لا إله إلا الله، ﴿ومن جاء بالسيسة﴾
يعني: الشرك ﴿فكبت وجوههم في النار﴾. وأخرج ابن
مروي عن حديث أبي هريرة، وأنس نحوه مرفوعاً. وأخرج
أبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي عن كعب بن عجرة، عن
النبي ﷺ: ﴿من جاء بالحسنة﴾ يعني: شهادة أن لا إله
إلا الله ﴿فله خير منها﴾ يعني: بالخير الجنة ﴿ومن جاء
بالسيسة﴾ يعني: الشرك ﴿فكبت وجوههم في النار﴾،
وقال: هذه تنجي، وهذه تردى. وأخرج عبد بن حميد، وابن
أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء
والصفات، والخراشي في مكارم الأخلاق عن ابن مسعود
﴿من جاء بالحسنة﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿من جاء
بالسيسة﴾ قال: بالشرك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن
أبي حاتم ﴿فله خير منها﴾ قال: له منها خير، يعني: من
جهتها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فله خير منها﴾
قال: ثواب. وأخرج أيضاً عنه أيضاً قال: البلدة مكة.

تفسير سورة القصص

وأخرج ابن الضريس، وابن النجار، وابن مروي،
والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة
القصص بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثل ذلك:
قال القرطبي، قال ابن عباس، وقتادة: إنها نزلت بين مكة
والمدينة. وقال ابن سلام: بالجحفة وقت هجرة رسول الله
ﷺ، وهي قوله عز وجل: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن
لرأك إلى معاد﴾ [القصص: 85] وقال مقاتل: فيها من
المدني ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿لا نبغى
الجاهلين﴾ [القصص: 52 - 55]. وأخرج أحمد، والطبراني،
وابن مروي: قال السيوطي: سنده جيد عن معد يكره قال:
آتيناه عبد الله بن مسعود، فسلأناه أن يقرأ علينا طسم
المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم بمن أخذها من
رسول الله ﷺ خباب بن الارت، فأتيت خباباً، فقلت: كيف
كان رسول الله ﷺ يقرأ طسم أو طس؟ فقال: كل كان

منهم، ويجوز أن تكون صفة لطائفة، والطائفة هم بنو إسرائيل، وجملة ﴿يُنْبِغُ إِبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ بدل من الجملة الأولى، ويجوز أن تكون مستأنفة للبيان، أو حالاً، أو صفة كالتى قبلها على تقدير عدم كونها بدلاً منها، وإنما كان فرعون ينبغ إبناءهم، ويترك النساء، لأن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل. قال الزجاج: والعجب من حمق فرعون، فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقاً عنده فما ينفع القتل، وإن كان كاذباً فلا معنى للقتل ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَفْسُودِينَ﴾ في الأرض بالمعاصي والتجبر، وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية، واستحضار صورتها أي: نريد أن نتفضل عليهم بعد استضعافهم، والمراد بهؤلاء بنو إسرائيل، والواو في ﴿وَنُرِيدُ﴾ للعطف على جملة ﴿إِنْ فَرَعُونَ عَلَاءٌ﴾، وإن كانت الجملة المعطوف عليها اسمية، لأن بينهما تناسباً من حيث أن كل واحدة منهما للتفسير والبيان، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل يستضعف بتقدير مبتدأ أي: ونحن نريد أن نمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض كما في قول الشاعر:

نجرت وأرمنتهم مالكا

والأول أولى ﴿وَنَجْعَلُهُمُ أَئِمَّةً﴾ أي: قادة في الخير، ودعاة إليه، وولاة على الناس، وملوكاً فيهم ﴿وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لملك فرعون، ومساكين القبط، وأملاكهم، فيكون ملك فرعون فيهم، ويسكنون في مساكنه، ومساكين قومه، وينتفعون بأملكه، وأملكهم ﴿وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: نجعلهم مقتدرين عليها، وعلى أهلها مسططين على ذلك يتصرفون به كيف شاءوا. قرأ الجمهور (نمكّن) بدون لام، وقرأ الأعمش (لنمكّن) بلام العلة ﴿وَنُورِي فَرَعُونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ قرأ الجمهور (نرى) بنون مضمومة، وكسر الراء على أن الفاعل هو الله سبحانه. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي وخلف (ويرى) بفتح الياء التحتية، والراء، والفاعل فرعون. والقراءة الأولى الصق بالسياق؛ لأن قبلها نريد، ونجعل، ونمكّن بالنون. ولجاز الفراء (ويرى فرعون) بضم الياء التحتية، وكسر الراء أي: ويرى الله فرعون، ومعنى ﴿مَنْهُمْ﴾: من أولئك المستضعفين ﴿وَمَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ الموصول هو المفعول الثاني على القراءة الأولى، والمفعول الأوّل على القراءة الثانية، والمعنى: أن الله يريهم، أو يرون هم الذي كانوا يحذرون منه، ويجتهدون في دفعه من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد المولود من بني إسرائيل المستضعفين ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أي: ألهمناها، وقذفنا في قلبها، وليس ذلك هو الوحي الذي يوحى إلى الرسل، وقيل: كان ذلك رؤيا في منامها، وقيل: كان ذلك بملك أرسله الله يعلمها بذلك.

وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية، وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للأقرع،

والأبرص، والأعمى كما في الحديث الثابت في الصحيحين، وغيرهما، وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما في الحديث الثابت في الصحيح، فلم يكن بذلك نبياً، وإن في ﴿وَأَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ هي المفسرة، لأن في الوحي معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية أي: بأن أرضعيه، وقرأ عمر بن عبد العزيز بكسر نون أن، ووصل همزة أرضعيه فالكسر لالتقاء الساكنين، وحذف همزة الوصل على غير القياس ﴿فَإِذَا خَفْتُ عَلَيْهِ﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه ﴿فَالْقِيَّةِ فِي الْيَمِّ﴾، وهو بحر النيل، وقد تقدّم بيان الكيفية التي القته في اليَمِّ عليها في سورة طه ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ أي: لا تخافي عليه الغرق، أو الضيعة، ولا تحزني لفراقه ﴿إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته ﴿وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين نرسلهم إلى العباد، والفاء في قوله ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فَرَعُونَ﴾ هي الفصيحة، والالتقاط: إصابة الشيء من غير طلب، والمراد بآل فرعون هم الذين أخذوا التابوت الذي فيه موسى من البحر، وفي الكلام حذف، والتقدير: فالتقته في اليَمِّ بعد ما جعلته في التابوت، فالتقطه من وجهه من آل فرعون، واللام في ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لام العاقبة، ووجه ذلك أنهم إنما أخذوه؛ ليكون لهم ولداً، وقرّة عين لا ليكون عدوّاً فكان عاقبة ذلك إنه كان لهم عدوّاً وحزناً، ولما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم، وثمرة له شبهت بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، ومن هذا قول الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب

قول الآخر:

وللمنايا تربي كل مرضعة وورنا لخراب الدهر نبيينها
قرأ الجمهور (وحزناً) بفتح الحاء، والزاي، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف (وحزناً) بضم الحاء، وسكون الزاي، واختار القراءة الأولى أبو عبيدة، وأبو حاتم، وهما لغتان كالعدم، والعدم، والرشد، والرشد، والسقم، والسقم، وجملة ﴿إِنْ فَرَعُونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ لتعليل ما قبلها، أو للاعتراض لقصد التأكيد؛ ومعنى ﴿خَاطِئِينَ﴾: عاصين أئمين في كل أفعالهم، وأقوالهم، وهو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب، وقرئ (خاطين) بياء من دون همزة، فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور، ولكنها خففت بحذف الهمزة، ويحتمل أن تكون من خطأ يخطو: أي: تجاوز الصواب ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فَرَعُونَ قَرَّتْ عَيْنٌ لِي وَلَكَ﴾ أي: قالت امرأة فرعون لفرعون، وارتفاع قرّة على أنه خبر مبتدأ محذوف، قاله الكسائي، وغيره. وقيل: على أنه مبتدأ، وخبره ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ قاله الزجاج، والأوّل أولى. وكان قولها لهذا القول عند رؤيتها له لما وصل إليها، وأخرجته من التابوت، وخاطبت بقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فرعون، ومن عنده من قومه، أو فرعون وحده على طريقة التعظيم له. وقرأ عبد الله بن مسعود (وقالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرّة عين لي ولك)،

الربط على القلب: إلهام الصبر، وتقويته، وجواب لولا محنوف أي: لولا أن ربطنا على قلبها لأبنت، واللام في و «لنكون من المؤمنين» متعلق بربطنا، والمعنى: ربطنا على قلبها؛ لتكون من المصنفين بوعده الله، وهو قوله «إنا رآوه إليك» قيل: والباء في «لنبتدي به» زائدة للتأكيد، والمعنى: لتبدي كما تقول: أخذت الحب، وبالحبل. وقيل: والمعنى: لتبدي القول به «وقالت لاخته قصيه» أي: قالت أم موسى لاخت موسى، وهي مريم قصيه أي: تتبعي أثره، وأعرفي خبره، وانظري أين وقع، وإلى من صار؟ يقال: قصصت الشيء: إذا اتبعت أثره متعرفاً لحاله «فبصرت به عن جنب» أي: أبصرته عن بعد، وأصله عن مكان جنب، ومنه الأجنب. قال الشاعر:

فلا تحرميني نائلاً عن جنباً فلإني امرؤ وسط الديار غريب
وقيل: المراد بقوله «عن جنب» عن جانب، والمعنى: أنها أبصرت إليه متجانفة مخالطة، ويؤيد ذلك قراءة النعمان بن سالم (عن جانب)، ومحلّ عن جنب التنبص على الحال إما من الفاعل أي: بصرت به مستخفية كائنة عن جنب، وإما من المجرور أي: بعيداً منها. قرأ الجمهور: (بصرت) به بفتح الباء، وضم الصاد، وقرأ قتادة بفتح الصاد، وقرأ عيسى بن عمر بكسرهما. قال المبرد: أبصرته، وبصرت به بمعنى، وقرأ الجمهور (عن جنب) بضمين، وقرأ قتادة، والحسن، والأعرج، وزيد بن عليّ بفتح الجيم، وسكون النون، وروي عن قتادة أيضاً: أنه قرأ بفتحهما. وروي عن الحسن أيضاً أنه قرأ بضم الجيم، وسكون النون، وقال أبو عمرو بن العلاء: إن معنى «عن جنب»: عن شوق. قال: وهي لغة جذام يقولون: جنبت إليك أي: اشتقت إليك «وهم لا يشعرون» أنها تقصه، وتتبع خبره، وأنها اخته «وحزمنّا عليه المراضع» المراضع جمع مرضع أي: منعه أن يرضع من المرضعات. وقيل: المراضع جمع مرضع بفتح الضاد، وهو الرضاع، أو موضعه، وهو الثدي، ومعنى «من قبل»: من قبل أن نرذه إلى أمه، أو من قبل أن تأتيه أمه، أو من قبل قصصها لأثره، وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعه، فلم يرضع من واحدة منهم «ف» عند ذلك «قالت» أي: أخته لما رأت امتناعه من الرضاع «هل أنلكم على أهل بيت يكفلونه لكم» أي: يضمنون لكم القيام به، وإرضاعه «وهم له ناصحون» أي: مشفقون عليه لا يقصرون في إرضاعه، وتربيته، وفي الكلام حنف، والتقدير: فقالوا لها: من هم؟ فقالت: أمي، فقيل لها: وهل لأمك لبن؟ قالت: نعم لبن أخي هارون: فلبثتم على أم موسى، فدفعوه إليها، فقبل ثديها، ورضع منه، وذلك معنى قوله سبحانه «فرديناها إلى أمه كي تقر عينها» بولدها «ولا تحزن» على فراقه «ولتعلم أن وعد الله» أي: جميع وعده، ومن جملة ذلك ما وعدها بقوله «إنا رآوه إليك»، «حق» لا خلف فيه واقع لا محالة «ولكن أكثرهم لا يعلمون» أي: أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك، بل كانوا

ويجوز نصب قرّة بقوله «لا تقتلوه» على الاشتغال. وقيل: إنها قالت: لا تقتلوه فإن الله أتى به من أرض بعيدة، وليس من بني إسرائيل، ثم عللت ما قالت بالترجي منها لحصول النفع منه لهم، أو التنبي له، فقالت: «عسى أن ينفعنا» فنصيب منه خيراً «أو نتخذ ولدًا» وكانت لا تلد، فاستوحيته من فرعون، فوهبه لها، وجملة «وهم لا يشعرون» في محل نصب على الحال أي: وهم لا يشعرون أنهم على خطأ في التقاطه، ولا يشعرون أن هلاكهم على يده فتكون حالاً من آل فرعون، وهي من كلام الله سبحانه. وقيل: هي من كلام المرأة أي: وبني إسرائيل لا يدرون أنا التقطنا، وهم لا يشعرون، قال الكلبي، وهو بعيد جداً. وقد حكى الفراء عن السدي، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أن قوله «لا تقتلوه» من كلام فرعون، واعترضه بكلام يرجع إلى اللفظ، ويكفي في رده ضعف إسناد «وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً» قال المفسرون: معنى ذلك: أنه فارغ من كل شيء إلا من أمر موسى كأنها لم تهتم بشيء سواه. قال أبو عبيدة: خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى، وقال الحسن، وابن إسحاق، وابن زيد: فارغاً مما أوحى إليها من قوله «ولا تخافي ولا تحزني»، وذلك لما سؤل الشيطان لها من غرقه، وهلاكه. وقال الأخفش: فارغاً من الخوف، والغم، لعلمها أنه لم يفرق بسبب ما تقدّم من الوحي إليها، وروي مثله عن أبي عبيدة أيضاً. وقال الكسائي: ناسياً ذاهلاً، وقال العلاء بن زياد: نافراً. وقال سعيد بن جبير: والها كانت تقول: وإبناه من شدة الجزع، وقال مقاتل: كانت تصيح شفقة عليه من الغرق، وقيل: المعنى: أنها لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع، والدهش، قال النحاس: وأصح هذه الأقوال الأولى، والذين قالوه أعلم بكتاب الله، فإذا كان فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي، وقول من قال: فارغاً من الغم غلط قبيح؛ لأن بعده «إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها» وقرأ فضالة بن عبيد الأنصاري، ومحمد بن السمين، وأبو العالية، وابن محيصن (فزعا) بالفاء، والزاي، والعين المهملة من الفزع أي: خائفاً وجللاً، وقرأ ابن عباس (قرعا) بالقاف المفتوحة، والراء المهملة المكسورة، والعين المهملة من قرع رأسه: إذا انحسر شعره، ومعنى «وأصبح»: وصار، كما قال الشاعر:

مضى الخلفاء في أمر رشيد وأصبحت المدينة للوليد
«إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها» أن هي: المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محنوف أي: إنها كادت لتظهر أمر موسى، وأنه إبنا من فرط ما دهمها من الدهش، والخوف، والحزن، من بدا يبدي: إذا ظهر، وأبدي يبدي: إذا أظهر، وقيل: الضمير في به عائذ إلى الوحي الذي أوحى إليها، والأول أولى. وقال الفراء: إن كانت لتبدي باسمه لضيق صدرها لولا أن ربطنا على قلبها. قال الزجاج: ومعنى

في غفلة عن القدر، وسرّ القضاء، أو أكثر الناس لا يعلمون بذلك، أو لا يعلمون أن الله وعدهما بأن يردّه إليهما.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وجعل أهلها شيعاء﴾** قال: فرق بينهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة **﴿وجعل أهلها شيعاء﴾** قال: يستعيد طائفة منهم، ويدع طائفة، ويقتل طائفة، ويستحي طائفة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله **﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة﴾** قال: يوسف وولده. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله **﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض﴾** قال: هم: بنو إسرائيل **﴿ونجعلهم أئمة﴾** أي: ولاية الأمر **﴿ونجعلهم الوراثين﴾** أي: الذين يرثون الأرض بعد فرعون وقومه **﴿ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾** قال: ما كان القوم حذروه. وأخرج ابن أبي حاتم الهيثمي الذي صنعت بموسى. وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش قال: قال ابن عباس في قوله **﴿فإذا خفت عليه﴾** قال: أن يسمع جيرارك صوته. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله **﴿واصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾** قال: فرغ من نكر كل شيء من أمر الدنيا إلا من نكر موسى. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله **﴿واصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾** قال: خالياً من كل شيء غير نكر موسى. وفي قوله **﴿إن كادت لتبدي به﴾** قال: تقول: يا ابناء. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه في قوله **﴿وقالت لأخته قصيه﴾** أي: اتبعني أثره **﴿فبصرت به عن جنب﴾** قال: عن جانب. وأخرج الطبراني، وابن عساکر عن أبي أمامة: «أن رسول الله ﷺ قال لخبيجة: أما شعرت أن الله زوجني مريم بنت عمران، وكلثوم أخت موسى، وامرأة فرعون؟ قالت: هنيئاً لك يا رسول الله»، وأخرجه ابن عساکر عن ابن أبي رزاد مرفوعاً بأطول من هذا، وفي آخره: أنها قالت: بالرفاء، والبنين. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله **﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾** قال: لا يؤتى بمرضع فيقبلها.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ مَلَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٧﴾ وَخَلَّ الْمُوَيْدَةَ عَلَٰ جَيْنَ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ أَبِيهِ وَهَٰذَا مِنْ مَّوَدَّةِ فَاسْتَفَنَّهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿٨﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي مَلَكْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ

يَمَا أَمَمْتُ عَلَىٰ قَلْبٍ أَكُونُ لَهُمَا لَمُتَّيْنِ ﴿١٠﴾ فَاصْبَحَ فِي الْمُوَيْدَةِ حَافِيًا يَرْقُبُ فَإِنَّا الَّذِي اسْتَفَنَّهُ بِالْأَمْسِ بَصَرُهُ قَالَ لَمْ مَوْسَى إِنَّكَ لَنَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَيْ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَصَلِّينَ ﴿١٢﴾ وَكَأَنَّ رَجُلًا مِّنْ أَهْلِ الْمُوَيْدَةِ يَسْتَسْقِي قَالَ يَمْوَيْ إِنَّكَ أَمَلَكُ بَاتِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ الْمُتَصَلِّينَ ﴿١٣﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا حَافِيًا يَرْقُبُ قَالَ رَبِّ يَجْنِي مِنَ الْقَوَرِ الْفَلِيلِينَ ﴿١٤﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ يَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَنِّي رَبِّتَ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٥﴾ وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِّقَ الرِّجَاءَ وَأُوتَانَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿١٦﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿١٧﴾

قوله **﴿ولما بلغ أشده﴾** قد تقدّم الكلام في بلوغ الأشد في الأنعام، وقد قال ربيعه، ومالك: هو الحلم لقوله تعالى: **﴿حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا﴾** [النساء: 6] الآية، وأقصاه أربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد، وسفيان الثوري، وغيرهما. وقيل: الأشد ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين، والاستواء من الثلاثين إلى الأربعين، وقيل: الاستواء هو بلوغ الأربعين، وقيل: الاستواء إشارة إلى كمال الخلقة، وقيل: هو بمعنى واحد، وهو ضعيف؛ لأن العطف يشعر بالمغايرة **﴿آتيتناه حكماً وعلماً﴾** الحكم الحكمة على العموم، وقيل: النبوة، وقيل: الفقه في الدين، والعلم الفهم قاله السدي. وقال مجاهد: الفقه. وقال ابن إسحاق: العلم بدينه، ودين آبائه، وقيل: كان هذا قبل النبوة، وقد تقدّم بيان معنى ذلك في البقرة **﴿وكنكك نجزي للمحسنين﴾** أي: مثل ذلك الجزء الذي جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصنعت بوعد الله نجزي المحسنين على إحسانهم، والمراد العموم **﴿ويخل المدينة﴾** أي: ودخل موسى مدينة مصر الكبرى، وقيل: مدينة غيرها من مدائن مصر، ومحل قوله **﴿على حين غفلة من أهلها﴾** النصب على الحال إما من الفاعل أي: مستخفياً، وإما من المفعول. قيل: لما عرف موسى ما هو عليه من الحق في دينه عاب ما عليه قوم فرعون، وفشا ذلك منه، فآخافوه، فخافهم، فكان لا يدخل المدينة إلا مستخفياً. قيل: كان دخوله بين العشاء والعتمة، وقيل: وقت القائلة. قال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخل على حين علم منهم، فكان منه ما حكى الله سبحانه بقوله **﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته﴾** أي: ممن شايعه على دينه، وهم بنو إسرائيل **﴿وهذا من عدوه﴾** أي: من المعادين له على دينه، وهم قوم فرعون **﴿فاستغاثه الذي من شيعته﴾** أي: طلب منه أن ينصره، ويعينه على خصمه **﴿على الذي من عدوه﴾** فآغاثه؛ لأن نصر المظلوم واجب في جميع الملل. قيل: أراد القبطي أن يسخر الإسرائيلي؛ ليحمل حطباً لمطبخ فرعون، فأبى عليه، واستغاث بموسى **﴿فوكزه موسى﴾**

انعم به عليه: هو ما آتاه من الحكم، والعلم، أو بالمغفرة، أو بالجميع، وأراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون، والانتظام في جملة في ظاهر الأمر، أو مظهرته على ما فيه إثم. قال الكسائي، والفراء: ليس قوله **﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾** خبراً بل هو دعاء أي: فلا تجعلني يا رب ظهيراً لهم. قال الكسائي، وفي قراءة عبد الله (فلا تجعلني يا رب ظهيراً للمجرمين) وقال الفراء: المعنى: اللهم فلن أكون ظهيراً للمجرمين. وقال النحاس: إن جعله من باب الخبر أوفى وأشبه بنسق الكلام **﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب﴾** أي: دخل في وقت الصباح في المدينة التي قتل فيها القبطي، وخائفاً خبر أصبح، ويجوز أن يكون حالاً، والخبر في المدينة، ويتربح يجوز أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون حالاً ثانياً، وأن يكون بدلاً من خائفاً، ومفعول يترقب محذوف، والمعنى: يترقب المكروه، أو يترقب الفرح **﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾** «إذا» هي الفجائية، والموصول مبتدأ، وخبره يستصرخه أي: فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي استغاث بالأمس يقاتل قبطياً آخر، أراد أن يسخره ويظلمه كما أراد القبطي الذي قد قتله موسى بالأمس، والاستصرخ الاستغاثة، وهو من الصراخ، وذلك أن المستغيث يصوت، ويصرخ في طلب الغوث، ومنه قول الشاعر:

كنا إذا ما اتانا صارخ فزع كان الجواب له قرع الظناب
﴿قال له موسى إنك لغوي مبين﴾ أي: بين الغواية، وذلك أنك تقاتل من لا تقدر على مقاتلته، ولا تطيقه، وقيل: إنما قال له هذه المقالة؛ لأنه تسبب بالأمس لقتل رجل يريد اليوم أن يتسبب لقتل آخر **﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما﴾** أي: يبطش بالقبطي الذي هو عدو لموسى، وللإسرائيلي حيث لم يكن على بينهما، وقد تقدم معنى يبطش، واختلاف القراءة فيه **﴿قال يا موسى لتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾** القائل هو الإسرائيلي لما سمع موسى يقول له **﴿إنك لغوي مبين﴾** ورأه يريد أن يبطش بالقبطي ظن أنه يريد أن يبطش به، فقال لموسى **﴿اتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾** فلما سمع القبطي ذلك أقشاه، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس حتى أفضى عليه الإسرائيلي، هكذا قال جمهور المفسرين. وقيل: إن القائل **﴿اتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾** هو القبطي، وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلي، وهذا هو الظاهر، وقد سبق ذكر القبطي قبل هذا بلا فصل؛ لأنه هو المراد بقوله **﴿عدو لهما﴾**، ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم عنه أن المؤمن بموسى المستغيث به المرة الأولى، والمرة الأخرى هو الذي أفضى عليه، وأيضاً إن قوله **﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾** لا يليق صدور مثله إلا من كافر، وإن في قوله **﴿إن تريد﴾** هي النافية أي: ما تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض، قال الزجاج: الجبار في اللغة

الوكز الضرب بجمع الكف، وهكذا للوكز، واللهز. وقيل: للوكز على اللحى، والوكز على القلب. وقيل: ضربه بعصاه. وقرأ ابن مسعود (فلنكزه)، وحكى الثعلبي: أن في مصحف عثمان (فنكزه) بالنون، قال الأصمعي: نكزه بالنون: ضربه، وبغعه. قال الجوهري: للوكز الضرب على الصدر. وقال أبو زيد: في جميع الجسد يعني: أنه يقال له: لكز، واللهز الضرب بجميع اليدين في الصدر، ومثله عن أبي عبيدة **﴿ففضى عليه﴾** أي: قتله، وكل شيء أتيت عليه، وفرغت منه: فقد قضيت عليه، ومنه قول الشاعر:

قد عضه ففضى عليه الأشجع

قيل: لم يقصد موسى قتل القبطي، وإنما قصد دفعه، فاتى ذلك على نفسه، ولهذا قال **﴿هذا من عمل الشيطان﴾** وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل؛ لأنه لم يكن إذ ذاك مأموراً بقتل الكفار. وقيل: إن تلك الحالة حالة كف عن القتال لكونه مأموناً عندهم، فلم يكن له أن يقتلهم. ثم وصف الشيطان بقوله **﴿إنه عدو مضل مبين﴾** أي: عدو للإنسان يسعى في إضلاله، ظاهر العداوة والإضلال. وقيل: إن الإشارة بقوله **﴿هذا﴾** إلى عمل المقتول لكونه كافراً مخالفاً لما يريده الله. وقيل: إنه إشارة إلى المقتول نفسه يعني: أنه من جند الشيطان وحزبه. ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه **﴿قال رب إني ظلمت نفسي فأغفر لي فغفر﴾** الله **﴿له﴾** ذلك **﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾** ووجه استغفاره أنه لم يكن لنبي أن يقتل حتى يؤمر، وقيل: إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين، أو أراد إني ظلمت نفسي بقتل هذا الكافر، لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلني به، ومعنى **﴿فأغفر لي﴾**: فاستر ذلك علي لا تطلع عليه فرعون، وهذا خلاف الظاهر فإن موسى عليه السلام ما زال نائماً على ذلك خائفاً من العقوبة بسببه: حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول: إني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، كما ثبت ذلك في حديث الشفاعة الصحيح، وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوة، وقيل: كان ذلك قبل بلوغه سن التكليف، وإنه كان إذ ذاك في اثنتي عشرة سنة، وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء، ولا شك أنهم معصومون من الكبائر، والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة، لأن الوكزة في الغالب لا تقتل. ثم لما أجاب الله سؤاله، وغفر له ما طلب منه مغفرته **﴿قال رب بما أنعمت علي﴾** هذه الباء يجوز أن تكون باء القسم، والجواب مقدر أي: أقسم بإنعامك علي لا توين، وتكون جملة **﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾** كالتفسير للجواب وكأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرماً. ويجوز أن تكون هذه الباء هي باء السببية متعلقة بمحذوف أي: أعصمني بسبب ما أنعمت به علي، ويكون قوله **﴿فلن أكون ظهيراً﴾** مترتباً عليه، ويكون في ذلك استعطاف لله تعالى، وتوصل إلى إنعامه بإنعامه، و«ما» في قوله **﴿بما أنعمت﴾** إما موصولة، أو مصدرية، والمراد بما

أي: أحبس، وأمنع، وورد الذود بمعنى الطرد، ومنه قول الشاعر:

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدري بأي عصي تذود

أي: تطرد. ﴿قال ما خطبك﴾ أي: قال موسى للمراتين: ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس؟ والخطب الشأن، قيل: وإنما يقال: ما خطبك لمصاب، أو مضطهد؛ أو لمن يأتي بمنكر. ﴿قالاً لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ أي: إن عانتنا الثاني حتى يصدر الناس عن الماء، وينصرفوا منه حذراً من مخالطتهم، أو عجزاً عن السقي معهم. قرأ الجمهور (يصدر) بضم الياء، وكسر الدال مضارع أصدر المتعدي بالهمزة. وقرأ ابن عامر، وأبو عمرو، وأبو جعفر بفتح الياء، وضم الدال من صدر يصدر لازماً، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف أي: يرجعون مواشيهم، والرعاء جمع راع.. قرأ الجمهور (الرعاء) بكسر الراء. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بفتحها. قال أبو الفضل: هو مصدر أقيم مقام الصفة، فلذلك استوى فيه الواحد، والجمع. وقرأ (الرعاء) بالضم اسم جمع. وقرأ طلحة بن مصرف (نسقى) بضم النون من أسقى ﴿ولبونا شيخ كبير﴾ عالي السن، وهذا من تمام كلامهما أي: لا يقدر أن يسقي ماشيته من الكبر، فلذلك احتجنا، ونحن امرأتان ضعيفتان أن نسقي الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك فلما سمع موسى كلامهما سقى لهما رحمة لهما أي: سقى أغنامهما لأجلهما، ثم لما فرغ من السقي لهما ﴿تولى إلى الظل﴾ أي: انصرف إليه، فجلس فيه، قيل: كان هذا الظل ظل سمرة هنالك. ثم قال لما أصابه من الجهد، والتعب منادياً لربه ﴿إني لما أنزلت إلي من خير﴾ أي: خير كان ﴿فقير﴾ أي: محتاج إلى ذلك، قيل: أراد بذلك الطعام، واللام في ﴿لما أنزلت﴾ معناها: إلى. قال الأخفش: يقال: هو فقير له، وإليه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والمحامي في أماليه من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله ﴿ولما بلغ أشده﴾ قال: ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿واستوى﴾ قال: أربعين سنة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المعمرين من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه قال: الأشد ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين، والاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين، فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه أيضاً في قوله ﴿يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ قال: نصف النهار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء الخراساني، عنه أيضاً في الآية قال: ما بين المغرب والعشاء. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿هذا من شيعته﴾ قال: إسرائيلي ﴿وهذا من عدوه﴾ قال: قبطي ﴿فاستغاثه الذي من شيعته﴾ الإسرائيلي ﴿على الذي من عدوه﴾ القبطي ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ قال: فمات. قال: فكبر لك على موسى. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه

الذي لا يتواضع لأمر الله، والقاتل بغير حق جبار. وقيل: الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب، والقتل، ولا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن ﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ أي: الذين يصلحون بين الناس ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾ قيل: المراد بهذا الرجل حزقيل، وهو مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم موسى، وقيل: اسمه شمعون، وقيل: طالوت، وقيل: شمعان. والمراد بأقصى المدينة: آخرها وأبعد ما، ويسعى يجوز أن يكون في محل رفع صفة لرجل، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال، لأن لفظ رجل، وإن كان نكرة فقد تخصص بقوله: ﴿من أقصى المدينة﴾، ﴿قال يا موسى إن الملا ياتمرن بك ليقتلوك﴾ أي: يتشاورون في قتلك، ويتآمرون بسببك. قال الزجاج: يامر بعضهم بعضاً بقتلك، وقال أبو عبيد: يتشاورون فيك؛ ليقتلوك؛ يعني: أشرف قوم فرعون. قال الأزهرى: ائتمر القوم، وتآمروا أي: أمر بعضهم بعضاً، نظيره قوله: ﴿وائتمروا بينكم بمعروف﴾ [الطلاق: 6] قال النمر بن تولب:

أرى الناس قد أحتشوا شيمة وفي كل حائشة يؤتمر
﴿فأخرج إني لك من الناصحين﴾ في الأمر بالخروج، واللام للبيان؛ لأن معمول المجبور لا يتقدم عليه ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾ فخرج موسى من المدينة حال كونه خائفاً من الظالمين مترقباً لحوقهم به، وإدراكهم له، ثم دعا ربه بأن ينجيه مما خافه قائلاً ﴿رب نجني من القوم الظالمين﴾ أي: خلصني من القوم الكافرين، وانفعهم عني، وحلّ بيني وبينهم ﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي: نحو مدين قاصداً لها. قال الزجاج: أي: سلك في الطريق الذي تلقاء مدين فيها. انتهى. يقال: داره تلقاء دار فلان، وأصله من اللقاء، ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون، ولهذا خرج إليها ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي: يرشدني نحو الطريق المستوية إلى مدين ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ أي: وصل إليه، وهو الماء الذي يستقون منه ﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ أي: وجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون مواشيهم، ولفظ الورود قد يطلق على الدخول في المورد، وقد يطلق على البلوغ إليه، وإن لم يدخل فيه، وهو المراد هنا، ومنه قول زهير:

فلما وردنا الماء زرقا حمامه

وقد تقدم تحقيق معنى الورود في قوله: ﴿وإن منكم إلاّ واردها﴾ [مريم: 71] وقيل: مدين اسم للقبيلة لا للقرية، وهي غير منصرفة على كلا التقديرين ﴿ووجد من نوتهم﴾ أي: من نون الناس الذين يسقون ما بينهم وبين الجهة التي جاء منها، وقيل: معناها: في موضع أسفل منهم ﴿لمراتين تذودان﴾ أي: تحبسان أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس، ويخلو بينهما وبين الماء، ومعنى الذود: الدافع، والحبس، ومنه قول الشاعر:

أبيت على باب القوافي كأنما أئود بها سرباً من الوحش نزعاً

أيضاً في قوله ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ قال: هو صاحب موسى الذي استنصره بالأمس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: الذي استنصره هو الذي استصرخه. وأخرج ابن المنذر عن الشعبي قال: من قتل رجلين فهو جبار، ثم تلا هذه الآية ﴿إِنْ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ﴾، وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لا يكون الرجل جباراً حتى يقتل نفسين. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: خرج موسى خائفاً يترقب جائعاً ليس معه زاد حتى انتهى إلى ماء مدين، ﴿وَعَلَيْهِ أَمَةٌ مِنَ النَّاسِ يَقْسُونَ﴾، وامرأتان جالستان بشيأهما، فسألها ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ وَلَبِئْسَ شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ قال: فهل قربكما ماء؟ قالتا: لا، إلا بشر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطبقها نفر، قال: فانطلقتا، فاريانيها، فانطلقتا معه، فقال بالصخرة بيده، فتحاها، ثم استقى لهم سجلاً واحداً فسقى الغنم، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظَّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، فسمعنا، قال: فرجعنا إلى أبيهما، فاستنكر سرعة مجيئهما، فسألها، فأنشأته، فقال لإحدهما: انطلق، فادعيه، فأتت. ﴿فَقَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25] فمشت بين يديه، فقال لها: امشي خلفي، فإني امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحل لي أن أرى منك ما حرّم الله عليّ، وأرشدني الطريق ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ * قالت لإحدهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويّ الأمين [القصص: 25 - 26] قال لها أبوها: ما رأيت من قوته، وأمانته؟ فأخبرته بالامر الذي كان، قالت: أما قوته، فإنه قلب الحجر وحده، وكان لا يقلبه إلا النفر. وأما أمانته، فقال: امشي خلفي، وأرشدني الطريق؛ لأنني امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحل لي منك ما حرّم الله. قيل لابن عباس: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرهما، وأوفاهما. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب قال: إن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، فلما فرغوا أعلوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين، قال: ما خطبكما؟ فحدثته، فأتى الحجر، فرفعه وحده، ثم استقى، فلم يستق إلا نوباً واحداً حتى رويت الغنم، فرجعت المرأتان إلى أبيهما، فحدثته، وتولى موسى إلى الظل، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. قال: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: 25] واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلف من النساء خراجه ولاجة ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25] فقام معها موسى، فقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فإني أكره أن يصيب الريح ثيابك

فتصف لي جسدك، فلما انتهى إلى أبيها قص عليه، فقالت إحدهما: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويّ الأمين، قال: يا بنية ما علمك بأمانته، وقوته؟ قالت: أما قوته فرفعه الحجر، ولا يطيقه إلا عشرة رجال، وأما أمانته، فقال: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك، فتصف لي جسدك، فزاده تلك رغبة فيه. ﴿فَقَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتُكَلِّمَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿سُتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: 27] أي: في حسن الصحبة، والوفاء بما قلت ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ [القصص: 28] قال: نعم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: 28] فزوجه، وأقام معه يكفيه، ويعمل في رعاية غنمه، وما يحتاج إليه، وزوجه صفورا، واختها شرفاً، وهما اللتان كانتا تنودان. قال ابن كثير بعد إخراجها لطرق من هذا الحديث: إن إسناداه صحيح. والسلف من النساء الجريئة السليطة. وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ قال: ورد الماء حيث ورد، وإنه لتتراءى خضرة البقل في بطنه من الهزال. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: خرج موسى من مصر إلى مدين، وبينه وبينها ثمان ليال، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر، وخرج حافياً، فما وصل إليها حتى وقع خف قدمه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال ﴿تَنُودَانِ﴾ تحبسان غنمهما حتى ينزع الناس، ويخلو لهما البئر. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة عنه أيضاً قال: لقد قال موسى: ربّ إنني لما أنزلت إليّ من خير فقير، وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شق تمر، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ما سال إلا الطعام. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: سال فلاناً من الخبز يشد بها صلبه من الجوع.

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتِجْرَاءُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَيْمَنَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي إِنَّ ثَمَنَ عَسْرَةٍ فَوْقَ عَيْنِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الثَّوَرِ كَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلَّيْكُمْ مَالِكٌ مِنْهَا بَهِيرٌ أَوْ جَذْوَةٌ مِنَ النَّارِ لَكُمْ تَسْكُنُوتُمْ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَنْهَا نُورٌ مِنْ سَطَوِ الثَّوَرِ الْأَيْمَنِ فِي الْفَجْرِ الثَّوَرُ كَمَنْ أَلْفَنُوهُ أَنْ يَمُوتَ إِنَّ نَارَ اللَّهِ رَبُّ الْمَكِينِ ﴿٣٠﴾ وَأَنَّ إِلَهِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَمَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى مُعْتَبِئًا يَمْشِي

تجعل ثوابي أن ترعى غنمي ثمانين سنين، ومحل ﴿على أن تلجروني﴾ للنصب على الحال، وهو مضارع أجرته، ومفعوله الثاني محنوف أي نفسك ﴿ثمانين حجج﴾ ظرف. قال المبرد: يقال: أجرت داري ومملوكي غير ممنود وممنوداً، والأول أكثر ﴿فإن لتعمت عشرأ فمن عندك﴾ أي: إن أتممت ما استلجرتك عليه من الرعي عشر سنين فمن عندك أي: تفضلاً منك لا إلزاماً مني لك، جعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام، موكولاً إلى المروءة. ومحل ﴿فمن عندك﴾ الرفع على تقدير مبتدأ أي: فهي من عندك ﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ بالزمام إتمام العشرة الأعوام، واشتقاق المشقة من الشق أي: شق ظنه نصفين، فتارة يقول: لطيق، وتارة يقول: لا أطيق. ثم رغبه في قبول الإجارة، فقال ﴿ستجني إن شاء الله من الصالحين﴾ في حسن الصلبة والوفاء، وقيل: أراد الصلاح على العموم، فيدخل صلاح المعاملة في تلك الإجارة تحت الآية دخولاً أولياً، وقيد ذلك بالمشيئة تفويضاً للامر إلى توفيق الله ومعونته. ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى فـ ﴿قال ذلك بيني وبينك﴾ واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ما بعده، والإشارة إلى ما تعاقدنا عليه، وجملة ﴿أيما الأجلين قضيت﴾ شرطية، وجوابها ﴿فلا عدوان عليّ﴾، والمراد بالأجلين: الثمانية الأعوام، والعشرة الأعوام، ومعنى ﴿قضيت﴾: وفيت به، وأتممته، والأجلين مخفوض بإضافة أي إليه، وما زائدة. وقال ابن كيسان: «ما» في موضع خفض بإضافة أي إليها، وهـ الأجلين بدل منها، وقرأ الحسن (أيما) بسكون الياء، وقرأ ابن مسعود (أي الأجلين ما قضيت)، ومعنى ﴿فلا عدوان عليّ﴾: فلا ظلم عليّ بطلب الزيادة على ما قضيت من الأجلين أي: كما لا أطلب بالزيادة على الثمانية الأعوام لا أطلب بالنقصان على العشرة. وقيل: المعنى كما لا أطلب بالزيادة على العشرة الأعوام لا أطلب بالزيادة على الثمانية الأعوام، وهذا أظهر. وأصل العنوان تجاوز الحد في غير ما يجب. قال المبرد: وقد علم موسى أنه لا عدوان عليه إذا أتمهما، ولكنه جمعهما؛ ليجعل الأول كالآتم في الوفاء. قرأ الجمهور (عدوان) بضم العين. وقرأ أبو حنيفة بكسرهما ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ أي: على ما نقول من هذه الشروط الجارية بيننا شاهد وحفيظ، فلا سبيل لأحدنا إلى الخروج عن شيء من ذلك. قيل: هو من قول موسى، وقيل: من قول شعيب، والأول أولى لوقوعه في جملة كلام موسى ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ هو اكملهما، وأوفاهما، وهو العشرة الأعوام، كما سيأتي آخر البحث، والفاء فصيحة ﴿وسار باهله﴾ إلى مصر، وفيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء ﴿أنس من جانب للطور ناراً﴾ أي: أبصر من الجهة التي تلي الطور ناراً، وقد تقدم تفسير هذا في سورة طه مستوفى ﴿قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلني آتيكم منها بخبر﴾ وهذا تقدم تفسيره أيضاً في سورة طه، وفي سورة النمل

أَنبَل وَلَا تَغْفَ إِلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ ﴿٢٨﴾ أَسْأَلُكَ بِكَ فِي جَيْدِكَ عَزَّ بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ سُوٍّ وَأَسْأَلُكَ بِكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّحْمَةِ فَذَلِكَ بَرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٩﴾

قوله: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ في الكلام حنف يدل عليه السياق. قال الزجاج: تقديره، فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عانتها الإبطاء في السقي، فحننهما بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه، وقيل: الصغرى أن تدعوه له، فجاءته. وذهب أكثر المفسرين إلى أنهما ابنتا شعيب، وقيل: هما ابنتا أخي شعيب، وأن شعيباً كان قد مات. والأول أرجح، وهو ظاهر القرآن. ومحل ﴿تمشي﴾ النصب على الحال من فاعل جاءت، ﴿وعلى استحياء﴾ حال أخرى أي: كائنة على استحياء حالتي المشي والمجيء فقط، وجملة ﴿قالت إن نبي يدعوك﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قالت له لما جاءته ﴿ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ أي: جزاء سقيك لنا ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ القصص مصدر سمي به المفعول أي: المقصوص يعني: أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطي إلى عند وصوله إلى ماء مدين ﴿قال﴾ شعيب ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ أي: فرعون، وأصحابه، لأن فرعون لا سلطان له على مدين، وللرازي في هذا الموضع إشكالات باردة جداً لا تستحق أن تذكر في تفسير كلام الله عز وجل، والجواب عليها يظهر للمقصر فضلاً عن الكامل، وأشف ما جاء به أن موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقي. ويجاب عنه بأنه اتبع سنة الله في إجابة دعوة نبي من أنبياء الله، ولم تكن تلك الإجابة لأجل أخذ الأجر على هذا العمل، ولهذا ورد أنه لما قدم إليه الطعام قال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً ﴿قالت إحداهما يا أبت استاجرهم﴾ القائلة هي التي جاءت أي: استاجره ليرعى لنا الغنم، وفيه دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة. وقد اتفق على جوازها، ومشروعيتها جميع علماء الإسلام إلا الأصم فإنه عن سماع أدلتها أصم، وجملة ﴿إن خير من استلجرت للقي الامين﴾ تحليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى أي: إنه حقيق باستئجارك له لكونه جامعاً بين خصلتي القوة، والأمانة. وقد تقدم في المروي عن ابن عباس، وعمر: أن أباهما سألها عن وصفها له بالقوة، والأمانة، فاجابته بما تقدم قريباً ﴿قال إني أريد أن لنحكك إحدى ابنتي هاتين﴾ فيه مشروعية عرض ولي المرأة لها على الرجل، وهذه سنة ثابتة في الإسلام، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر، وعثمان، والقصة معروفة، وغير ذلك مما وقع في أيام الصحابة أيام النبوة، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ ﴿على أن تلجروني ثمانين حجج﴾ أي: على أن تكون أجيراً لي ثمانين سنين. قال الفراء: يقول: على أن

أراد بالجنح عصاه، وقال بعض أهل المعاني: الرهب الكم بلغة حمير، وبني حنيفة. قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول لأخر: أعطني ما في رهبك، فسألته عن الرهب، فقال: الكم. فعلى هذا يكون أضمم إليك يدك، وأخرجها من الكم ﴿فَذَانِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد ﴿يَرْهَانَانِ﴾ من ربك إلى فرعون وملائه ﴿أي: حجتان نيرتان، ودليان واضحان، قرأ الجمهور ﴿فَذَانِكَ﴾ بتخفيف النون، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بتشديدها، قيل: والتشديد لغة قريش. وقرأ ابن مسعود، وعيسى بن عمر، وشبل، وأبو نوفل بياء تحتية بعد نون مكسورة، والياء بدل من من إحدى النونين، وهي لغة هذيل، وقيل: لغة تميم، وقوله ﴿مَنْ رَبِّكَ﴾ متعلق بمحذوف أي: كائنان منه، وكذلك قوله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ متعلق بمحذوف أي: مرسلان، أو واصلان إليهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ متجاوزين الحد في الظلم خارجين عن الطاعة أبلغ خروج، والجملة تعليل لما قبلها.

﴿أو جنوة﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم، وقرأ حمزة، ويحيى بن وثاب بضمها، وقرأ عاصم، والسلمي، ونز بن حبيش بفتحها. قال الجوهري: الجنوة والجنوة، والجنوة الجمرة، والجمع جذى، وجذى، وجذى. قال مجاهد: في الآية أن الجنوة قطعة من الجمر في لغة جميع العرب. وقال أبو عبيدة: هي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها ناراً، ولم يكن، ومما يؤيد أن الجنوة الجمرة قول السلمي:

وبللت بعد المسك والبان شقرة بخان الجذا في رأس أشمط شاحب

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون بالنار ﴿فَلَمَّا قَاتَاهَا﴾ أي: أتى النار التي أبصرها، وقيل: أتى الشجرة، والأول أولى لعدم تقدم الذكر للشجرة ﴿نُودِيَ﴾ من شاطئ الواد الأيمن من لا ابتداء الغاية، والأيمن صفة للشاطئ، وهو من اليمن، وهو البركة، أو من جهة اليمن المقابل لليسار بالنسبة إلى موسى أي: الذي يلي يمينه نون يساره، وشاطئ الوادي طرفه، وكذا شطه. قال الراغب: وجمع الشاطئ أشطاء، وقوله ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ متعلق بنودي، أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ، ﴿وَمِنْ الشَّجَرَةِ﴾ بدل لشمال من شاطئ الواد، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ. وقال الجوهري: يقول: شاطئ الأودية، ولا يجمع. قرأ الجمهور (في البقعة) بضم الباء، وقرأ أبو سلمة، والأشهب العقيلي بفتحها، وهي لغة حكاها أبو زيد ﴿إِن يَأْمُرْهُمُ اللَّهُ﴾ أن هي المفسرة، ويجوز أن تكون هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وجملة النداء مفسرة له، والأول أولى. قرأ الجمهور بكسر همزة (إني) على إضمار القول، أو على تضمين النداء معناه. وقرئ بالفتح، وهي قراءة ضعيفة، وقوله ﴿وَأَن لِّقِ عَصَاكَ﴾ معطوف على ﴿إِن يَأْمُرْهُمُ اللَّهُ﴾ وقد تقدم تفسير هذا، وما بعده في طه، والنمل، وفي الكلام حذف، والتقدير: فإلقاهما، فصارت ثعباناً، فامتزت ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ في سرعة حركتها مع عظم جسمها ﴿وَأُولَىٰ مَبْرَأٍ﴾ أي: منهزماً، وانتصاب مبرأً على الحال وقوله ﴿وَلَمْ يَعْقِبْ﴾ في محل نصب أيضاً على الحال: أي: لم يرجع ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ قد تقدم تفسير جميع ما ذكر هنا مستوفى فلا نعيده، وكذلك قوله ﴿إِسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ جناح الإنسان عضده، ويقال لليد كلها: جناح أي: أضمم إليك يديك الميسورتين؛ لتتقي بهما الحية كالخائف الفرع، وقد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات: الأولى اسلك يدك في جيبك، والثانية: واضمم إليك جناحك، والثالثة: أدخل يدك في جيبك. ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعباناً، ومعنى ﴿مَنْ الرَّهْبِ﴾: من أجل الرهب، وهو الخوف. قرأ الجمهور (الرهب) بفتح الراء والهاء، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وقرأ حفص، والسلمي، وعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق بفتح الراء، وإسكان الهاء. وقرأ ابن عامر، والكوفيون إلأً حفصاً بضم الراء، وإسكان الهاء. وقال الفراء:

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب في قوله ﴿تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ﴾ قال: جاءت مستترة بكم درعها على وجهها. وأخرج ابن المنذر عن أبي الهذيل موقوفاً عليه. وأخرج ابن عساكر عن أبي حازم قال: لما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء، فقال له شعيب: كل، قال موسى: أعوذ بالله، قال: ولم؟ ألسنت بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً عما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً، قال: لا والله، ولكنها عادتني، وعادة آبائي، نكري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس موسى، فأكل. وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس: أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قصّ عليه القصص. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: كان صاحب موسى أثرون بن أخي شعيب النبي. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الذي استأجر موسى يثرب صاحب مدين. وأخرج ابن المنذر، وابن مربي عنه قال: كان اسم ختن موسى يثربي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: يقول أناس: إنه شعيب، وليس بشعيب، ولكنه سيد الماء يومئذ. وأخرج ابن ماجه، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مربي عن عتبة بن المنذر السلمي قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فقرأ سورة طسّم حتى إذا بلغ قصة موسى قال: إن موسى أجز نفسه ثمانين سنين، أو عشرأ على عفة فرجه وطعام بطنه، فلما وفى الأجل قيل: يا رسول الله أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أبزهما، وأوقاهما، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته: أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما ولدت غنمه»، الحديث بطوله. وفي إسناده مسلمة بن علي الحسني الدمشقي البلاطي، ضعفه الأئمة. وقد روي من وجه آخر، وفيه نظر. وإسناده عند ابن أبي

حاتم هكذا: حدثنا أبو زرعة عن يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن المنذر السلمي صاحب رسول الله ﷺ فنكره. وابن لهيعة ضعيف، وينظر في بقية رجال السند. وأخرج ابن جرير عن أنس طرفاً منه موقوفاً عليه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن المنذر، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس: أنه سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: قضى أكثرهما، وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. وأخرج البزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه نحوه، وقوله: إن رسول الله إذا قال فعل فيه نظر، فإن موسى لم يقل إنه سيقضي أكثر الأجلين بل قال: أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي. وقد روى عن رسول الله ﷺ: أن موسى قضى أتم الأجلين من طرق. وأخرج الخطيب في تاريخه عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما، وأبرهما، وإن سئلت أي المراتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت فقالت: يا أبت استأجره». وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: يا محمد إن سالك اليهود أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: أوفاهما، وإن سالوك أيهما تزوج؟ فقل: الصغرى منهما». وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، قال السيوطي بسند ضعيف عن أبي نر: «أن النبي ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرهما، وأوفاهما، قال: وإن سئلت أي المراتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما، قال البزار: لا نعلم يروي عن أبي نر إلا بهذا الإسناد، وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران، وهو ضعيف. وأما روايات أنه قضى أتم الأجلين فلها طرق يقوي بعضها بعضاً. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي قال: قال ابن عباس: لما قضى موسى الأجل سار بأهله، فضل الطريق، وكان في الشتاء فرفعت له نار، فلما رآها ظن أنها نار، وكانت من نور الله **﴿فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر﴾** فإن لم أجد خبراً آتيكم بشهاب قبس **﴿لعلكم تصطلون﴾** من البرد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه **﴿لعلي آتيكم منها بخبر﴾** لعلي أجد من يلني على الطريق، وكانوا قد ضلوا الطريق. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله **﴿أو جنوة﴾** قال: شهاب. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله **﴿نودي من شاطئ الواد﴾** قال: كان النداء من السماء الدنيا، وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضي الله عنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود قال: نكرت لي الشجرة التي أوى إليها موسى، فسرت إليها يومي وليلتي حتى صبحتها، فإذا هي سمرة خضراء ترف، فصليت على النبي ﷺ، وسلمت، فاهوى إليها بعيري وهو

جائع، فأخذ منها ملائكة فيه فلاكه فلم يستطع أن يسيفه، فللقطه، فصليت على النبي، وسلمت، ثم انصرفت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله **﴿واضمم إليك جناحك﴾** قال: يلك.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٠﴾ وَأَخِي هَارُونُ مِنْهُ لَأَنصَحَ لِي إِسْكَانًا فَأَرْسَلَهُ رَبِّي بِدَافِعٍ ﴿٣١﴾ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٢﴾ قَالَ سَنُنْذِرُكَ وَعَظْمُكَ بِأُخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ ﴿٣٣﴾ بِأَيِّنَّا أَتَيْنَا وَمَنْ أَتْبَعْنَا الْفٰلِغُونَ ﴿٣٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ أَلَّا يَسْمِعُوا نَفْعًا وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٤١﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٤٣﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٤٦﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٤٧﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٥١﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٥٢﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٥٤﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٥٨﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبِّي لَكَ الْغُلٰثِيُونَ ﴿٦٠﴾

لما سمع موسى قول الله سبحانه **﴿فذاذك برهانان إلى فرعون﴾** [القصص: 32] طلب منه سبحانه أن يقوي قلبه، **﴿فقال رب إني قتلته منهم نفساً﴾** يعني: القبطي الذي وكزه، فقضى عليه **﴿فأخاف أن يقتلون﴾** بها **﴿ولخي هرون هو أقصص مني لساناً﴾** لأنه كان في لسان موسى حبة كما تقدم بيانه، والفصاحة لغة الخلو، يقال: فصح البين، وأقصص فهو: فصيح أي: خلص من الرغوة، ومنه فصح الرجل: جانت لغته، وأقصص: تكلم بالعربية. وقيل: الفصيح الذي ينطق، والأعجم الذي لا ينطق. وأما في اصطلاح أهل البيان فالفصاحة: خلوص الكلمة عن تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس، وفصاحة الكلام: خلوصه من ضعف التأليف، والتعقيد. وانتصاب **﴿ردء﴾** على الحال، والردء المعين، من أرداته أي: أعنته، يقال: فلان ردء فلان: إذا كان ينصره، ويشد ظهره، ومنه قول الشاعر:

الم تر أن أصرم كان رديني وخير الناس في قل وما
وحذفت الهمزة تخفيفاً في قراءة نافع، وأبي جعفر، ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم: أردى على المائة: إذا زاد عليها، فكان المعنى: أرسله معي زيادة في تصديقي، ومنه قول الشاعر:

واسمر خطياً كان كعبه نوى القسب قد أزدى نراعاً على العشر
وروي البيت في الصحاح بلفظ قد أربي، والقسب الصلب، وهو الثمر اليابس الذي يتفتت في الفم، وهو صلب النواة **﴿يصدقني﴾** قرأ عاصم، وحمة (يصدقني) بالرفع

واحد، يقال: طلع الجبل، واطلع «واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق» المراد بالأرض أرض مصر، والإستكبار التعظم بغير استحقاق، بل بالعنوان؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات «وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون» أي: فرعون، وجنوده، والمراد بالرجوع البعث، والمعاد، قرأ نافع، وشيبة، وابن محيصن، وحميد، ويعقوب، وحمزة، والكسائي «لا يرجعون» بفتح الياء، وكسر الجيم مبنياً للفاعل. وقرأ الباقر بن بضم الياء، وفتح الجيم مبنياً للمفعول، واختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار القراءة الثانية أبو عبيد «فلخنناهم وجنوده» بعد أن عتوا في الكفر، وجاوزوا الحد فيه «فنبئناهم في اليوم» أي: طرحناهم في البحر، وقد تقدم بيان الكلام في هذا «فانظر كيف كان عاقبة الظالمين» الخطاب لنبيينا محمد ﷺ أي: انظر يا محمد كيف كان آخر أمر الكافرين حين صاروا إلى الهلاك «وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار» أي: صيرناهم رؤساء متبوعين مطاعين في الكافرين فكانهم بإصرارهم على الكفر، والتمادي فيه يدعون أتباعهم إلى النار؛ لأنهم اقتتوا، وسلخوا طريقتهم تقليداً لهم. وقيل: المعنى: إنه ياتم بهم أي: يعتبر بهم من جاء بعدهم، ويتعظ بما أصيبوا به، والأول أولى «ويوم القيامة لا ينصرون» لا ينصرهم أحد، ولا يمنعه مانع من عذاب الله «واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة» أي: طرداً وإبعاداً، أو أمرنا العباد بلعنهم، فكل من نكرهم لعنهم، والأول أولى «ويوم القيامة هم من المقبوحين» المقبوح المطرود المبعد. وقال أبو عبيدة، وابن كيسان: معناه من المهلكين الممقوتين. وقال أبو زيد: قبح الله فلاناً قبحاً، وقبوحاً أي: من كل خير. قال أبو عمرو: قبحت وجهه بالتخفيف بمعنى قبحت بالتشديد، ومثله قول الشاعر: لا تقبح الله السراجم كلها وقبح يربوعاً وقبح دارما وقيل: المقبوح المشوه الخلقة، والعامل في يوم محذوف يفسره من المقبوحين، والتقدير: وقبحوا يوم القيامة، أو هو معطوف على موضع في هذه الدنيا أي: واتبعناهم لعنة يوم القيامة، أو معطوف على لعنة على حذف مضاف أي: ولعنة يوم القيامة «ولقد آتينا موسى الكتاب» يعني: التوراة «ومن بعد ما أهلكنا للقرن الأولى» أي: قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، وقيل: من بعد ما أهلكنا فرعون، وقومه، وخسفنا بقارون، وانتصاب «ببصائر الناس» على أنه مفعول له، أو حال أي: آتينا الكتاب لأجل يتبصر به الناس، أو حال كونه بصائر الناس يبصرون به الحق، ويهتدون إليه، وينقون أنفسهم به من الضلالة بالإهداء به «ورحمته» لهم من الله رحمهم بها «لعلهم يتذكرون» هذه النعم، فيشكرون الله، ويؤمنون به، ويجيبون داعيه إلى ما فيه خير لهم.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «ردها يصدقني» كي يصدقني.

على الاستئناف، أو الصفة لردءه، أو الحال من مفعول أرسله، وقرأ الباقر بالجزم على جواب الأمر، وقرأ أبي، وزيد بن علي (يصدقون) أي: فرعون وملؤه «إني لأخاف أن يكتنبون» إذا لم يكن معي فرون لعدم انطلاق لساني بالمحاجة «قال سنشد عضدك بأخيك» أي: نقويك به، فشد العضد كناية عن التقوية، ويقال في دعاء الخير: شد الله عضدك، وفي ضده: فت الله في عضدك. قرأ الجمهور (عضدك) بفتح العين. وقرأ الحسين، وزيد بن علي بضمها. وروي عن الحسن أيضاً أنه قرأ بضممة وسكون. وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما «ونجعل لكما سلطاناً» أي: حجة، وبرهاناً، أو تسلطاً عليه، وعلى قومه «فلا يصلون إليكما» بالانزى، ولا يقدرن على غلبتكما بالحجة، و«بآياتنا» متعلق بمحذوف أي: تمتنعان منهم بآياتنا، أو اذهبا بآياتنا. وقيل: الباء للقسمة، وجوابه يصلون، وما أضعف هذا القول. وقال الأخفش، وابن جرير: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير «انتما ومن اتبعكما للغالبون» بآياتنا، وأول هذه الوجوه أولاهما، وفي «انتما ومن اتبعكما للغالبون» تبشير لهما، وتقوية لقلوبهما «فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات» البينات الواضحات الدالة، وقد تقدم وجه إطلاق الآيات، وهي جمع على العصا، واليد في سورة طه «قالوا ما هذا إلا سحر مفترى» أي: مختلق مكنوب اختلقته من قبل نفسك «وما سمعنا بهذا» الذي جئت به من دعوى النبوة، أو ما سمعنا بهذا السحر «في آياتنا الأولين» أي: كائنات، أو واقعاً في آياتنا الأولين «وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده» يريد نفسه، وإنما جاء بهذه العبارة لئلا يصرح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة، والله أعلم. قرأ الجمهور (وقال موسى) بالواو، وقرأ مجاهد، وابن كثير، وابن محيصن (قال موسى) بلا واو، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً (ومن يكون عاقبة الدار) بالتحية على أن اسم يكون عاقبة الدار. والتذكير لوقوع الفصل، ولأنه ثانيث مجازي، وقرأ الباقر (تكون) بالفوقية، وهي أوضح من القراءة الأولى، والمراد بالدار هنا الدنيا، وعاقبتها هي الدار الآخرة، والمعنى: لمن تكون له العاقبة المحمودة، والضمير في «إنه لا يفلح للظالمون» للشأن أي: إن الشأن أنه لا يفلح الظالمون أي: لا يفوزون بمطلب خير، ويجوز أن يكون المراد بعاقبة الدار خاتمة الخير، وقال فرعون: «يا ليها للعلا ما علمت لكم من إله غيري» تمسك اللعين بمجرد الدعوى الباطلة مغالطة لقومه منه، وقد كان يعلم أنه ربه الله عز وجل، ثم رجع إلى تكبره، وتجبره، وإيهام قومه بكمال اقتداره فقال «فاوقد لي يا هامان على الطين» أي: اطبخ لي الطين حتى يصير أجراً «فاجعل لي صرحاً» أي: اجعل لي من هذا الطين الذي توقد عليه حتى يصير أجراً صرحاً أي: قصرأ عالياً «لعلني أطلع إلى إله موسى» أي: أصعد إليه «واني لأظنه من الكاذبين» والطلوع، والإطلاع

من حنف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه، واختاره الزجاج. وقال الكلبي: بجانب الوادي الغربي أي: حيث ناجى موسى ربه ﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ أي: عهدنا إليه، وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون، وقومه ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ لذلك حتى تقف على حقيقته، وتحكيه من جهة نفسك. وإذا تقرر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أن يكون بالحضور عندها من نبينا محمد ﷺ، والمشاهدة لها منه، وانتفى بالادلة الصحيحة أنه لم يتلقَ ذلك من غيره من البشر، ولا علمه معلم منهم كما قدمنا تقريره تبين أنه من عند الله سبحانه يوحى منه إلى رسوله بواسطة الملك النازل بذلك، فهذا الكلام هو على طريقة ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ [آل عمران: 44] وقيل: معنى ﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾: إذ كلفناه، والزمناه، وقيل: أخبرناه أن أمة محمد خير الأمم، ولا يستلزم نفي كونه بجانب الغربي نفي كونه من الشاهدين، لأنه يجوز أن يحضر، ولا يشهد. قيل: المراد بالشاهدين السبعين الذين اختارهم موسى للميثاق ﴿ولكننا أنشأنا قروناً﴾ أي: خلقنا أمماً بين زمانك يا محمد، وزمان موسى ﴿فتطاول عليهم العمر﴾ طالت عليهم المهلة، وتمادى عليهم الامد، فتغيرت الشرائع، والأحكام، وتنوشت الأديان فتركوا أمر الله، ونسوا عهده، ومثله قوله سبحانه: ﴿فطال عليهم الامد فقست قلوبهم﴾ [الحديد: 16]، وقد استدل بهذا الكلام على أن الله سبحانه قد عهد إلى موسى عهداً في محمد ﷺ وفي الإيمان به، فلما طال عليهم العمر، ومضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود، وتركوا الوفاء بها ﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين﴾ أي: مقيماً بينهم كما أقام موسى حتى تقرا على أهل مكة خبرهم، وتقص عليهم من جهة نفسك يقال: ثوى يثوي ثواء، وثوى فهو ثاوي، قال نو الرمة: لقد كان في حول ثواء ثويته تقضي لبانك ويسلم سائم وقال العجاج:

فبكت حيث يدخل الثوي

يعني: الضيف المقيم، وقال آخر:

طال الثواء على رسول المنزل

﴿تتلوا عليهم آياتنا﴾ أي: تقرا على أهل مدين آياتنا، وتعلم منهم، وقيل: تذكرهم بالوعد، والوعيد، والجملة في محل نصب على الحال، أو خبر ثان، ويجوز أن تكون هذه الجملة هي الخبر، وثاوياً حال. وجعلها الفراء مستأنفة كأنه قيل: وما أنت تتلو على أمك ﴿ولكننا كنا موسى﴾ أي: أرسلناك إلى أهل مكة، وأنزلنا عليك هذه الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها. قال الزجاج: المعنى: أنك لم تشاهد قصص الانبياء، ولا تليت عليك، ولكننا أوحيناها إليك، وقصصناها عليك ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ أي: وما كنت يا محمد بجانب الجبل المسمى بالطور إذ نادينا موسى لما أتى إلى الميثاق مع السبعين. وقيل: المنادى هو أمة محمد ﷺ. قال وهب: وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد، وأمه

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: لما قال فرعون ﴿يا أيها الملا ما علمت لكم من إله غيري﴾ قال جبريل: يا رب طفى عبدك، فائذن لي في ملكه، فقال: يا جبريل هو عبدك، ولن يسبقني، له لجل يجيء ذلك الأجل، فلما قال ﴿إنا ربكم الأعلى﴾ قال الله: يا جبريل سبقت دعوتك في عبدك، وقد جاء أوان هلاكه. وأخرج ابن مروي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان قالهما فرعون ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ وقوله ﴿إنا ربكم الأعلى﴾ قال: كان بينهما أربعون عاماً فآخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ [النازعات: 25]. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: بلغني أن فرعون أول من طبخ الأجر. وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج. وأخرج البزار، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أهلك الله قوماً، ولا قرناً، ولا أمة، ولا أهل قرية بعدذب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قردة، ألم تر إلى قوله ﴿ولقد أتينا موسى للكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾. وأخرجه البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم من وجه آخر عن أبي سعيد موقوفاً.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرَاتِ إِذْ فَصَّلْنَا لَكَ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٠﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْمُدُّ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١١﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمْنَا مِنْ ذُنُوبِكَ لِشَنْدَرٍ قَوْمًا مَّا أَنْتُمْ مِنْ نَدِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَمَلَهُمْ يَنْكَرُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَبُغِلُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُذِيقَ نَارَ جَهَنَّمَ لَكُلِّ الْفَاسِقِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ نَبِيٌّ مِنْ آلِ مَوْسَى الْأَوَّلَ يُبْشِرُونَا بِمَا أَوْفَى مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا يَسْتَخَرْنَ تَظَاهِرًا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَذِبٍ كَبِيرٍ ﴿١٤﴾ قُلْ فَأَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ يَمُوتُ اللَّهُ هُوَ أَمَدٌ وَهَبًا أَتَيْتُهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ فَإِنْ لَرَّ سَتَجِيرُوا لَكَ فَاغْلَمَ أَنَا بِتَيْمُوتِ أَمْوَالِهِمْ وَمَنْ أَمْلَأُ مَعْنَى أَنَّهُ هَوْنَهُ يَسْتَحْزِرُ هُدًى مِنْ رَبِّكَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ رَسَلْنَا لَكُمْ لَمَلَهُمْ يَنْكَرُونَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ يَدُلُّ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿١٩﴾ أَوَلَيْكَ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِمْ مَرْثِيَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَوَدَّعُونَ بِالْحَسَنَةِ الْيَتِيمَ وَمَا رَفَعْتَهُمْ يُبْشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا سَكِرُوا اللَّخْوُ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَسْهَابُكُمْ وَلَكُمْ أَسْهَابُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا بُنْيَى الْجَاهِلِينَ ﴿٢١﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا إِنَّا نَجْعُ الْكُذْبَى مَكَاتٍ تَتَخَلَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُؤْمِنِ لَهُمْ حَرَمًا مَوَاسًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ وَفَقَا مِنْ لَنَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾

قوله ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ هذا شروع في بيان إنزال القرآن أي: وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي، فيكون

قال: يا رب أرنيهم، فقال الله: إنك لن تدرهم، وإن شئت نابيتهم فأسمعتك صوتهم، قال: بلى يا رب، فقال الله: يا أمة محمد، فاجابوا من اصلااب آياتهم، فيكون معنى الآية على هذا: ما كنت يا محمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى، فنابينا أمتك، وسيأتي ما يدل على هذا، ويقويه، ويرجح في آخر البحث إن شاء الله **﴿ولكن رحمة من ربك﴾** أي: ولكن فعلنا ذلك رحمة منا بكم، وقيل: ولكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم، وقيل: علمناك، وقيل: عرفناك، قال الأخفش: هو منصوب يعني: رحمة على المصدر أي: ولكن رحمتك رحمة. وقال الزجاج: هو مفعول من أجله زاي: فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة. قال النحاس: أي: لم تشهد قصص الأنبياء، ولا تليت عليك، ولكن بعثناك، وأوحيناها إليك للرحمة. وقال الكسائي: هو خبر لكان مقترنة أي: ولكن كان ذلك رحمة، وقرأ عيسى بن عمر، وأبو حيو (رحمة) بالرفع على تقدير: ولكن أنت رحمة. وقال الكسائي: الرفع على أنها اسم كان المقترنة، وهو بعيد إلا على تقدير أنها تامة، واللام في **﴿لتنذر قوماً ما اتاهم من نذير من قبلك﴾** متعلق بالفعل المقتر على الاختلاف في تقديره، والقوم هم أهل مكة، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله **﴿وما اتاهم﴾** عطف إلخ، صفة لقوماً **﴿لعلهم يتذكرون﴾** أي: يتعظون بلنذارك **﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾** لولا هذه هي الامتناعية، وإن وما في حيزها في موضع رفع بالابتداء، وجوابها محذوف. قال الزجاج: وتقديره ما أرسلنا إليهم رسلاً: يعني: أن الحامل على إرسال الرسل هو إزاحة عنهم، فهو كقوله سبحانه: **﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾** [النساء: 165] وقدره ابن عطية لعاجلناهم بالعقوبة، ووافق على هذا التقدير الواحدي فقال: والمعنى: لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم، وقوله **﴿فيقولوا﴾** عطف على تصيبهم، ومن جملة ما هو في حيز لولا أي: فيقولوا **﴿ربنا لولا أرسلت إلينا رسلاً﴾** ولولا هذه الثانية هي التحضيضية أي: هلا أرسلت إلينا رسلاً من عندك، وجوابها هو **﴿فتتبع آياتك﴾** وهو منصوب بإضمار أن لكونه جواباً للتحضيض، والمراد بالآيات: الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة، وإنما عطف القول على تصيبهم لكونه هو السبب للإرسال، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول، وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها هي السبب لإرسال الرسل بواسطة القول **﴿وتكون من المؤمنين﴾** بهذه الآيات، ومعنى الآية: أنا لو عذبناهم لقالوا: طال العهد بالرسل، ولم يرسل الله إلينا رسلاً، ويظنون أن ذلك عذر لهم، ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل، ولكننا أكملنا الحجة، وأزحنا العلة، وأتمنا البيان بإرسالك يا محمد إليهم **﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾** أي: فلما جاء أهل مكة الحق من عند الله، وهو محمد **﴿وما أنزل عليه من القرآن قالوا تعنتاً منهم وجدالاً بالباطل﴾** هلا أوتي

هذا الرسول مثل ما أوتي موسى من الآيات التي من جملتها التوراة المنزلة عليه جملة واحدة، فاجاب الله عليهم بقوله **﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾** أي: من قبل هذا القول، أو من قبل ظهور محمد؛ والمعنى: أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد، وجملة **﴿قالوا سحران تظاهرا﴾** مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم، وعنادهم، والمراد بقولهم **﴿ساحران﴾**: موسى، ومحمد، والتظاهر التعاون أي: تعاوننا على السحر، والضمير في قوله: **﴿أولم يكفروا﴾** لكفار قريش، وقيل: هو لليهود، والأول أولى، فإن اليهود لا يصفون موسى بالسحر إنما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم، إلا أن يراد من أنكر نبوة موسى كفرعون وقومه، فإنهم وصفوا موسى وهرون بالسحر. ولكنهم ليسوا من اليهود. ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى، ومن كفر بمحمد، فإن الذين كفروا بموسى وصفوه بالسحر، والذين كفروا بمحمد وصفوه أيضاً بالسحر. وقيل: المعنى: أولم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبله بالبشارة بعيسى ومحمد. قرأ الجمهور (ساحران)، وقرأ الكوفيون (سحران) يعنون: التوراة، والقرآن، وقيل: الإنجيل، والقرآن. قال بالأول الفراء. وقال بالثاني أبو زيد. وقيل: إن الضمير في **﴿أولم يكفروا﴾** لليهود، وأنهم عنوا بقولهم: «ساحران، عيسى، ومحمد» **﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾** أي: بكل من موسى، ومحمد، أو من موسى، وهرون، أو من موسى، وعيسى على اختلاف الأقوال، وهذا على قراءة الجمهور، وأما على القراءة الثانية فالمراد التوراة، والقرآن، أو الإنجيل، والقرآن. وفي هذه الجملة تقرير لما تقدمها من وصف النبيين بالسحر. أو من وصف الكتابين به، وتأكيد لذلك. ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يقول لهم قولاً يظهر به عجزهم، فقال **﴿قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما تتبعه﴾** أي: قل لهم يا محمد: فاتوا بكتاب هو أهدى من التوراة، والقرآن، وأتبعه جواب الأمر، وقد جزمه جمهور القراء لذلك. وقرأ زيد بن علي برفع **﴿تبعه﴾** على الاستئناف أي: فانا أتبعه. قال الفراء: إنه على هذه القراءة صفة للكتاب، وفي هذا الكلام تهكم به. وفيه أيضاً دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور؛ لأنه رجح الكلام إلى الكتابين لا إلى الرسولين، ومعنى **﴿إن كنتم صائقين﴾**: إن كنتم فيما وصفتم به الرسولين، أو الكتابين صائقين **﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾** أي: لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين، وجواب الشرط **﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾** أي: آراءهم الزائفة، واستحساناتهم الزائفة بلا حجة، ولا برهان، وقيل: المعنى: فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به، وتعدية يستجيبوا باللام هو أحد الجائزين **﴿ومن أضل ممن تتبع هواه بغير هدى من الله﴾** أي: لا أحد أضل منه، بل هو الفرد الكامل في الضلال **﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾** لأنفسهم بالكفر، وتكذيب الأنبياء، والإعراض عن آيات الله **﴿ولقد وصلنا لهم**

الجهل والسفه. وقال الكلبي: لا نحبّ دينكم الذي أنتم عليه **﴿إِنَّكَ لَا تَهْتَدِي مِنْ أُحْبِبْتَ﴾** من الناس، وليس ذلك إليك **﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾** هدايته **﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** أي: القابلين للهداية المستعنيين لها، وهذه الآية نزلت في أبي طالب كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما، وقد تقدّم ذلك في براءة. قال الزجاج: أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب، وقد تقرّر في الأصول: أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك أبو طالب بخولا أولياً **﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾** أي: قال مشركو قريش، ومن تابعهم: إن ندخل في دينك يا محمد نخطف من أرضنا أي: يتخطفنا العرب من أرضنا يعنون: مكة، ولا طاقة لنا بهم، وهذا من جملة أعارهم الباطلة، وتعللاتهم العاطلة، والتخطف في الأصل هو الانتزاع بسرعة. قرأ الجمهور (تخطف) بالجزم جواباً للشرط، وقرأ المنقري بالرفع على الاستئناف. ثم ردّ الله ذلك عليهم ردّاً مصدراً باستفهام التوبيخ، والتقريع، فقال **﴿أَوَلَمْ نَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾** أي: ألم نجعل لهم حرماً ذا أمن. قال أبو البقاء: عداه بنفسه؛ لأنه بمعنى جعل كما صرح بذلك في قوله: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا﴾** [العنكبوت: 67]، ثم وصف هذا الحرم بقوله **﴿يَجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾** أي: تجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة، وتحمل إليه. قرأ الجمهور (يجبي) بالتحنية اعتباراً بتكثير كل شيء، ووجود الحائل بين الفعل، وبين ثمرات، وأيضاً ليس تانيث ثمرات بحقيقي، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد لما ذكرنا، وقرأ نافع بالفوقية اعتباراً بثمرات. وقرأ الجمهور أيضاً (ثمرات) بفتحتين، وقرأ (إبان) بضميتين، جمع ثمر بضميتين، وقرئ بفتح الثاء، وسكون الميم **﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾** منتصب على المصدرية؛ لأن معنى **﴿يَجِبِي﴾**: نرزقهم، ويجوز أن ينتصب على أنه مفعول له لفعل محذوف أي: نسوقه إليهم رزقاً من لدنا، ويجوز أن ينتصب على الحال أي: رازقين **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** لفرط جهلهم، ومزيد غفلتهم، وعدم تفكيرهم في أمر معادهم ورشادهم، لكونهم ممن طبع الله على قلبه، وجعل على بصره غشاوة.

وقد أخرج الفريابي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي معاً في الدلائل عن أبي هريرة في قوله **﴿هُمَا كُنْتَ بجانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾** قال: نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني، واستجبت لكم قبل أن تدعوني. وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عساكر عنه من وجه آخر بنحوه. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، وأبو نصر السجزي في الإبانة، والديلمي عن عمرو بن عيسى قال: «سألت النبي ﷺ عن قوله **﴿هُمَا كُنْتَ بجانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾** ما كان النداء، وما كانت الرحمة؟ قال: كتبه الله قبل

للقول **﴿قرأ الجمهور (وصلنا) بتشديد الصاد، وقرأ الحسن بتخفيفها، ومعنى الآية: أتبعنا بعضه بعضاً، وبعثنا رسولا بعد رسول. وقال أبو عبيدة، والأخفش: معناه: أتمننا. وقال ابن عيينة، والسدي، بيذا. وقال ابن زيد: وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا، والأولى أولى، وهو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض، ومنه قول الشاعر:**

قل لبني مروان ما بال نمتي بحبل ضعيف لا تزال توصل
وقال امرؤ القيس:

يقلب كفيه بخيط موصل

والضمير في «لهم» عائذ إلى قريش، وقيل: إلى اليهود، وقيل: للجميع **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** فيكون التذكّر سبباً لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾** أي: من قبل القرآن، والموصول مبتدأ، وخبره **﴿هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾** أخبر سبحانه أن طائفة من بني إسرائيل آمنوا بالقرآن كعبد الله بن سلام، وسائر من أسلم من أهل الكتاب، وقيل: الضمير في **﴿مَنْ قَبْلِهِ﴾** يرجع إلى محمد ﷺ، والأول أولى. والضمير في «به» راجع إلى القرآن على القول الأول، وإلى محمد على القول الثاني **﴿وَإِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾** أي: وإذا يتلى القرآن عليهم قالوا: صدقنا به **﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾** أي: الحق الذي نعرفه المنزل من ربنا **﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾** أي: مخلصين لله بالتوحيد، أو مؤمنين بمحمد، وبما جاء به لما تعلمه من نكره في التوراة، والإنجيل من التبشير به، وأنه سيبعث آخر الزمان، وينزل عليه القرآن، والإشارة بقوله: **﴿أَوَلَيْكَ يَأْتُونَ لَجْرَهُمْ مُؤْتِينَ﴾** إلى الموصوفين بتلك الصفات، والباء في **﴿بِمَا صَبَرُوا﴾** للسببية أي: بسبب صبرهم، وثباتهم على الإيمان بالكتاب الأول، والكتاب الآخر، وبالنبي الأول، والنبي الآخر **﴿وَيُؤَدُّونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾** الدرء الدفع أي: يدفعون بالاحتمال، والكلام الحسن ما يلاقونه من الأذى. وقيل: يدفعون بالطاعة المعصية، وقيل: بالتوبة، والاستغفار من الذنوب، وقيل: بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك **﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾** أي: يتفقون أموالهم في الطاعات، وفيما أمر به الشرع. ثم منحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو، فقال: **﴿وَإِذَا سَمِعُوا لِلغوِ اعْرَضُوا عَنْهُ﴾** تركوا، وتذمروا، وتأنبوا بأدب الشرع، ومثله قوله سبحانه: **﴿وَإِذَا مَرُّوا بِالغوِ مَرًّا كِرَامًا﴾** [الفرقان: 172]، واللغو هنا هو ما يسمعون من المشركين من الشتم لهم ولدينهم، والاستهزاء بهم **﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾** لا يلحقنا من ضرر كفركم شيء، ولا يلحقكم من نفع إيماننا شيء **﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾** ليس المراد بهذا السلام سلام التحية، ولكن المراد به سلام التاركة، ومعناه: أمانة لكم منا، وسلامة لا نجاريكم، ولا نجاريكم فيما أنتم فيه. قال الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال **﴿لَا نَبْتَغِي لِلْجَاهِلِينَ﴾** أي: لا نطلب صحبتهم. وقال مقاتل: لا نريد أن نكون من أهل

إِلَّا وَأَهْلُهَا ظُلُمٌ ۖ ﴿١٥﴾ وَمَا أُرْسِيَتْ مِنْ تَحْتِهِ فَمَنْعَ الْجَنَّةِ الدُّنْيَا وَرَبُّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۖ ﴿١٦﴾ آمَنَ وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْهِ كُنَّ مُنْعَتُهُ مَنَعَ الْجَنَّةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۖ ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ يُبَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۖ ﴿١٨﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَشْعُرُونَ ۖ ﴿١٩﴾ وَقِيلَ أَذُنُوا شُرَكَاءُكُمْ فَذَعَبُوا فَأَرْجَبُوا لَمْ يَنْجِيهِمْ لَمْ يَرَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ۖ ﴿٢٠﴾ وَيَوْمَ يُبَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ۖ ﴿٢١﴾ فَمِمَّنْ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ الْآلِئَةَ يُوسِيهِ لَهُمْ لَا تَسْأَلُهُمْ ۖ ﴿٢٢﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَوْفَ أُنْزِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْمُغْشَىٰ ۖ ﴿٢٣﴾ وَذُنُوبُهُ يَغْشَىٰ مَا يَكُفِّرُ وَبَخِلَ ۖ ﴿٢٤﴾ وَمَا كَانَتْ لَمْ يُغْنِ عَنْهُ مَالُهُ وَسُئِلَ ۖ ﴿٢٥﴾ وَذُنُوبُهُ يَكُفِّرُ مَا كَانَتْ لَمْ يُغْنِ عَنْهُ مَالُهُ وَسُئِلَ ۖ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَئِنْ أَحْبَبْتُ الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةَ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۖ ﴿٢٧﴾

قوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: من أهل قرية كانوا في خفض عيش، ودعة، ورخاء، فوقع منهم البطر، فاهلكوا. قال الزجاج: البطر الطغيان عند النعمة. قال عطاء: عاشوا في البطر فلكلوا رزق الله، وعبدوا الأصنام. قال الزجاج، والمازني: معنى ﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتُهَا﴾ بطرت في معيشتها، فلما حذفت «في» تعدى الفعل كقوله: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: 155] وقال الفراء: هو منصوب على التفسير كما تقول: أبطرك مالك، وبطرت، ونظيره عنده قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130] ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين، لأن معنى التفسير: أن تكون النكرة دالة على الجنس. وقيل: إن معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى جهلت ﴿فَقَتْلَكَ مَسَاكِنَهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لم يسكنها أحد بعدهم إلا زمنًا قليلًا، كالذي يمر بها مسافرًا فإنه يلبث فيها يومًا أو بعض يوم، أو لم يبق من يسكنها فيها إلا أيامًا قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم. وقيل: إن الاستثناء يرجع إلى المساكين أي: لم تسكن بعد هلاك أهلها إلا قليلًا من المساكين، وأكثرها خراب، كذا قال الفراء، وهو قول ضعيف ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ منهم لأنهم لم يتركوا وراثًا يرث منازلهم، وأمواهم، ومحل جملة ﴿لَمْ تَسْكُنْ﴾ الرفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال ﴿وَمَا كَانَ رَيْكَ مَهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبِيعَتْ فِي أَمْهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: وما صح، ولا استقام أن يكون الله مهلك القرى الكافرة: أي: الكافر أهلها حتى يبيع في أمها رسولاً ينذرهم، ويتلوا عليهم آيات الله الناطقة بما أوجب الله عليهم، وما أعده من الثواب للطيع، والعقاب للعاصي، ومعنى ﴿أَمْهَا﴾: أكبرها، وأعظمها، وخص الأعظم منها بالبعثة إليها، لأن فيها أشراف القوم، وأهل الفهم، والرأي، وفيها الملوك والأكابر، فصارت بهذا الاعتبار كالأم لما حولها من القرى. وقال الحسن: أم القرى أولها. وقيل: المراد بأم القرى هنا مكة، كما في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ

أُنْخِلَ خَلْقَهُ بِالْفِي عَامٍ، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى عَرْشِهِ، ثُمَّ نَادَى: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي، أَعْطَيْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي، وَغَفَرْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُونِي، فَمَنْ لَقِيَنِي مِنْكُمْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدِي وَرَسُولِي صَادِقًا، أَخْلَجْتُهُ الْجَنَّةَ. وَأَخْرَجَ الْخُتْلَى فِي الدِّيْبِجِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ مَرْفُوعًا مِثْلَهُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ مَرْيُومَ، وَابُو نَعِيمٍ عَنْ حَزِيفَةَ فِي قَوْلِهِ ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَاقِبْنَا﴾ مَرْفُوعًا، قَالَ: «نُودُوا يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا دَعَوْتُمُونَا إِذْ اسْتَجَبْنَا لَكُمْ، وَلَا سَأَلْتُمُونَا إِذْ أَعْطَيْنَاكُمْ». وَأَخْرَجَ ابْنَ مَرْيُومَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ نَادَى: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ لُجِّيُوا رَيْكُم، قَالَ: فَأُجَابُوا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَارْحَمَ أَمَهَاتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالُوا: لَبَّيْكَ أَنْتَ رَبَّنَا حَقًّا، وَنَحْنُ عِبِيدُكَ حَقًّا، قَالَ: صَبَقْتُمْ أَنَا رَيْكُم، وَأَنْتُمْ عِبِيدِي حَقًّا، قَدْ غَفَرْتُ عَنْكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي، وَأَعْطَيْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي، فَمَنْ لَقِيَنِي مِنْكُمْ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَخِلَ الْجَنَّةَ». وَأَخْرَجَ ابْنَ مَرْيُومَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالْهَالِكُ فِي الْفِتْرَةِ يَقُولُ: رَبِّ لَمْ يَأْتَنِي كِتَابٌ، وَلَا رَسُولٌ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَرَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الْآيَةَ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنَ مَرْيُومَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾ يَعْنِي: بِالْكَتَابِينَ: التَّوْرَةِ، وَالْفِرْقَانِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ الْمُنْذِرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَابُو الْقَاسِمِ الْبَغَوِيُّ، وَابُو بَرْدٍ، وَابْنُ قَانِعِ الثَّلَاثَةِ فِي مَعْجَمِ الصَّحَابَةِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْيُومَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ رِفَاعَةَ الْقُرْظِيِّ قَالَ: نَزَلَتْ ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوَّلُكَ يَوْمَئِذٍ لَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ فِي عَشْرَةِ رَهْطٍ أَنَا أَحَدُهُمْ. وَأَخْرَجَ ابْنَ مَرْيُومَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ: يَعْنِي: مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَالْآخِرِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَّةٌ فَاتَّبَعَهَا، فَاحْسَنَ تَأْدِيبُهَا، ثُمَّ اعْتَقَهَا، وَتَزَوَّجَهَا، وَعَبَدَ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ». وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ الْمَسِيْبِ، وَمُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ لَمَّا امْتَنَعَ مِنَ الْإِسْلَامِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنَ مَرْيُومَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ نَاسًا مِنْ قُرَيْشٍ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنْ نَتَّبَعُكَ يَتَخَفَتُنَا النَّاسُ، فَنَزَلَتْ ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ الْآيَةَ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ ﴿يَجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قَالَ: ثَمَرَاتُ الْأَرْضِ.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَغَتْ مَسْكَنَهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكَفَّا عَنْ الْوَارِثِينَ ۖ ﴿٢٨﴾ وَمَا كَانَ رَيْكَ مَهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبِيعَتْ فِي أَمْهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مَهْلِكِي الْقُرَىٰ

القول أي: حقت عليهم كلمة العذاب، وهم رؤساء الضلال الذين اتخننهم أرباباً من دون الله، كذا قال الكلبي. وقال قتادة: هم الشياطين **«ربنا هؤلاء الذين أغويانا»** أي: دعوناهم إلى الغواية يعنون: الاتباع **«أغويناهم كما غوينا»** أي: أضللناهم كما ضللنا **«تبرأنا إليك»** منهم، والمعنى: أن رؤساء الضلال، أو الشياطين تبرؤوا ممن أطاعهم. قال الزجاج: برئ بعضهم من بعض، وصاروا أعداء كما قال الله تعالى: **«الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو»** [الزخرف: 67] وهؤلاء مبتدأ، والذين أغويانا صفة، والعائد محذوف أي: أغويناهم، والخبر أغويناهم، وكما أغويانا نعت مصدر محذوف. وقيل: إن خبر هؤلاء هو الذين أغويانا، وأما أغويناهم كما غوينا فكلام مستأنف لتقرير ما قبله، ورجح هذا أبو علي الفارسي، واعترض الوجه الأول، وردّ اعتراضه أبو البقاء **«ما كانوا إيانا يعبدون»** وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، وقيل: إن «ما» في ما كانوا مصدريّة أي: تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا، والأول أولى **«وقيل ادعوا شركاءكم»** أي: قيل للكفار من بني آدم هذا القول، والمعنى: استغيثوا باللهتم التي كنتم تعبدونها من دون الله في الدنيا؛ لينصروكم، وينفخوا عنكم **«فدعوههم»** عند ذلك **«فلم يستجيبوا لهم»** ولا نفعوهم بوجه من وجه النفع **«ورأوا العذاب»** أي: التابع، والمتبوع قد غشيهم **«لو أنهم كانوا يهتدون»** قال الزجاج: جواب لو محذوف، والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم ذلك، ولم يروا العذاب، وقيل: المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم، وقيل: المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا لعلموا أن العذاب حق. وقيل: المعنى: لو كانوا يهتدون لوجه من وجه الحيل لدفعوا به العذاب. وقيل: قد أن لهم أن يهتدوا لو كانوا يهتدون، وقيل: غير ذلك. والأول أولى، ويوم في قوله **«ويوم يناديهم فيقول ماذا لجبتكم المرسلين»** معطوف على ما قبله أي: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتي **«فعميت عليهم الأنباء يومئذ»** أي: خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمي الذين لا يهتدون، والأصل فعموا عن الأنباء، ولكنه عكس الكلام للمبالغة، والأنباء الأخبار، وإنما سمى حججهم أخباراً؛ لأنها لم تكن من الحجة في شيء، وإنما هي أقاصيص، وحكايات **«فهم لا يتساءلون»** لا يسأل بعضهم بعضاً، ولا ينطقون بحجة، ولا يدرون بما يجيبون، لأن الله قد أعذر إليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر، ولا حجة يوم القيامة. قرأ الجمهور (عميت) بفتح العين، وتخفيف الميم. وقرأ الأعمش، وجناح بن حبيش بضم العين وتشديد الميم **«فأما من تاب وأمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفّلحين»** أن تاب من الشرك، وصنّق بما جاء به الرسل، وأدى الفرائض، واجتنب المعاصي فعسى أن يكون من المفّلحين أي: الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين، وعسى وإن كانت في الأصل للرجاء فهو من الله واجب على ما هو عادة الكرام. وقيل: إن الترجي هو من التائب المذكور لا من

وضع للناس **«آل عمران: 96»** الآية، وقد تقدّم بيان ما تضمنته هذه الآية في آخر سورة يوسف، وجملة **«يقتلوا عليهم آياتنا»** في محل نصب على الحال أي: تالياً عليهم، ومخبراً لهم أن العذاب سينزل بهم إن لم يؤمنوا **«وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون»** هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث إلى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق إلا حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإذار إليهم، وتأكيد الحجة عليهم كما في قوله سبحانه: **«وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»** [هود: 117]، ثم قال سبحانه **«وما أوتيتهم من شيء فمتاع للحياة الدنيا وزينتها»** الخطاب لكفار مكة أي: وما أعطيتهم من شيء من الأشياء فهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به مدة حياتكم، أو بعض حياتكم، ثم تزولون عنه، أو يزول عنكم، وعلى كل حال فذلك إلى فناء، وانقضاء **«وما عند الله»** من ثوابه، وجزائه **«خير»** من تلك الزائل الفاني؛ لأنه لذة خالصة عن شوب الكدر **«وبقي»** لأنه يوم أبداً، وهذا ينقضي بسرعة **«أفلا تعقلون»** أن الباقي أفضل من الفاني، وما فيه لذة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر المنغصة بعوارض البدن، والقلب، وقرئ بنصب (متاع) على المصدريّة أي: فتمتعون متاع الحياة، قرأ أبو عمرو (يعقلون) بالتحية، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، وقراءتهم أرجح لقوله **«وما أوتيتهم»**. **«أقمّن وعدناه وعداً حسناً فهو لآفئيه»** أي: وعدناه بالجنة، وما فيها من النعم التي لا تحصى فهو لآفئيه أي: متركه لا محالة فإن الله لا يخلف الميعاد **«كمّن متعناه متاع الحياة الدنيا»** فاعطي منها بعض ما أراد مع سرعة زواله، وتنغيصه **«ثم هو يوم القيامة من المحضرين»** هذا معطوف على قوله: **«متعناه»** داخل معه في حيز الصلة مؤكداً لإنكار التشابه، ومقرّر له، والمعنى: ثم هذا الذي متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار، وتخصيص المحضرين بالذين أحضروا للعذاب اقتضاه المقام، والاستفهام للإنكار أي: ليس حالهما سواء، فإن الموعود بالجنة لا بد أن يظفر بما وعد به مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا، وهذا حال المؤمن. وأما حال الكافر فإنه لم يكن معه إلا مجرد التمتع بشيء من الدنيا يستوي فيه هو والمؤمن، وينال كل واحد منهما حظه منه، وهو صائر إلى النار، فهل يستويان؟ قرأ الجمهور (ثم هو) بضم الهاء، وقرأ الكسائي، وقالون بسكون الهاء إجراء لثم مجرى الواو، والفاء، وانتصاب «يوم» في قوله **«ويوم يناديهم»** بالعطف على يوم القيامة، أو بإضمار أنكر أي: يوم ينادي الله سبحانه هؤلاء المشركين **«فيقول»** لهم **«إني شركائي الذين كنتم تزعمون»** أنهم ينصرونكم، ويشفعون لكم، ومفعولاً يزعمون محذوفان أي: تزعمونهم شركائي لدلالة الكلام عليهما **«قال الذين حقّ عليهم**

ما كانوا، وأعطش ما كانوا، وأعزى ما كانوا، فمن أطعمه الله عز وجل أطعمه الله، ومن كسا الله عز وجل كساه الله، ومن سقى الله عز وجل سقاه الله، ومن كان في رضا الله كان الله على رضاه. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿فعميت عليهم الأنبياء﴾** قال: الحجج **﴿فهم لا يتساءلون﴾** قال: بالأنساب. وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح تعليم الاستخارة، وكيفية صلاتها، ودعائها، فلا تطول بذكره.

قُلْ أَتَيْتُمُوهَ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْقِلَافَةَ لِمَا كُنْتُمْ مِنَ الْيَوْمِ الْقِيَمَةِ مِن إِلَهِ غَيْرِ
أَنَّهُ يُطِيعُكُمْ بِضُلُومٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿١٦١﴾ قُلْ أَتَيْتُمُوهَ إِن جَعَلَ اللَّهُ
عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَكْنًا لِّإِلَهِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِن إِلَهِ غَيْرِ أَفَلَا يَتُوبُ عَلَيْكُمْ وَيَبْدَأُ
تَسْكُوتُمْ فِيهِ أَفَلَا تُبْعِثُونَ ﴿١٦٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتُبْشِرُوا بِهِ نَحْنُهُ وَتَسْكُرُونَ ﴿١٦٣﴾ وَيَوْمَ يَبْأُيْهِمْ قَبُولُ
إِن مَّا كُنْتُمْ إِلَّا رِجْزٌ كَثِيرٌ يُرْمَوْنَ ﴿١٦٤﴾ وَرَفَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَجَازَلُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٥﴾
﴿١٦٦﴾ إِن قُلْتُمْ كَانَ مِن قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ فَبَيِّنْ لَهُمْ دَلِيلًا مِّنَ الْكُتُبِ إِنَّا
إِنَّمَا نَقُولُ لِلَّذِينَ أَقْبَلُوا الْقَوْلَ مِنَّا أَن لَّكُم قَوْمٌ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنَّا لَنَعْلَمُ
الْغُيُوبَ ﴿١٦٨﴾ وَابْتَغِ فِيمَا مَأْتَلَكُمُ اللَّهُ الْبَارِ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ
مِنَ الدُّنْيَا وَمَن يُنْفِقْ مِمَّا رَزَقَهُ اللَّهُ فَقْرًا فَلَا يُغْنِ عَنْهُ الْقِسَافُ مِنَ الْأَرْضِ
إِنَّا لَنَعْلَمُ مَا يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٦٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَتَيْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَلَكِن لَّكُم
أَلَاءٌ مِّن قِبَلِي مِن الْفَرْدِ مَن هُوَ أَشَدُّ بِهِنَّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ حِمْلًا وَلَا
يُحْسِلُ عَنْ دُورِهِمْ الْمُحْشَرُونَ ﴿١٧٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي رِجْلَيْهِ قَالَ أَلَيْسَ
بِرِجْلَيْكَ الْحَبْوَةُ الْأُتْرَى بَيْنَكَ لَنَا وَقَدْ مَا أُولَى قَرْبُوهَ إِنَّمَا لَدُو حُلْ
عَلِيمٌ ﴿١٧١﴾ وَكَأَلِ الْيَتِيمَ أَتَوْهُا الْعِلْمَ وَلَكُمُ قَوْلُ اللَّهِ غَيْرَ لِمَن آمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿١٧٢﴾ فَخَفَعْنَا بِهِ وَبَدَأُوا الْأَرْضَ
فَمَا كَانَ لَهُ مِن يَفْوٍ يُضْرِبُوهَ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الشَّامِيِّينَ ﴿١٧٣﴾
وَأَصْبَحَ الْيَتِيمَ تَنْتَوَى مَكَاتِرَ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافِكَ اللَّهُ بِسُطِّ الْأَرْوَاقِ
لِمَن يَفْكَهُ بِنِ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَفَسَدَ بِنَا وَكَانَ لَكَ بِطُلُغِ
الْكُفْرَةِ ﴿١٧٤﴾ إِنَّكَ أَنْتَ الْآخِرَةُ جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا
فُسَادًا وَالْوَعْدُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ مَن جَاءَ بِالصَّوْفِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَن جَاءَ بِالصَّيْفِ
فَلَا يَجْزِ الْيَتِيمَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّا إِلَهِ قَرَضَ
عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِرَأْدِكَ إِذَا مَضَى قَدْ رَفَعْنَا أَعْلَمَ مَن جَاءَ بِالْحَقِّ وَمَن هُوَ فِي
حَكْلٍ مُّبِينٍ ﴿١٧٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن
رَّبِّكَ لَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿١٧٨﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مَّائِدَةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذِ
أُتِرَتْ إِلَيْكَ وَادْعَ إِلَى رَّبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِكِينَ ﴿١٧٩﴾ وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ
أَنَّهُ إِنَّمَا عَلَّمَهَا لَكَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ مَّالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفَتْحُ وَاللَّيْلُ وَاللَّيْلُ

قوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلُ سَرْمَدًا﴾ السرمد الدائم المستمر، من السرد، وهو

جهة الله سبحانه **﴿وربك يخلق ما يشاء﴾** أي: يخلقه **﴿ويختار﴾** ما يشاء أن يختاره **﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾** [الأنبياء: 23] وهذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم، واختاروهم أي: الاختيار إلى الله **﴿ما كان لهم الخيرة﴾** أي: التخير، وقيل: المراد من الآية: أنه ليس لأحد من خلق الله أن يختار، بل الاختيار هو إلى الله عز وجل. وقيل: إن هذه الآية جواب عن قوله: **﴿ولو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾** [الزخرف: 31] وقيل: هذه الآية جواب عن اليهود حيث قالوا: لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لأما به.

قال الزجاج: الوقف على «ويختار» تام على أن ما نافية. قال: ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصب بيختار، والمعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة. والصحيح الأول لإجماعهم على الوقف. وقال ابن جرير: إن تقدير الآية، ويختار لولايته الخيرة من خلقه، وهذا في غلبة من الضعف. وجوز ابن عطية أن تكون «كان» تامة، ويكون لهم الخيرة جملة مستأنفة. وهذا أيضاً بعيد جداً. وقيل: إن «ما» مصدرية أي: يختار اختيارهم، والمصدر واقع موقع المفعول به أي: ويختار مختارهم، وهذا كالتفسير لكلام ابن جرير، وللراجح أول هذه التفسيرات، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: 36] والخيرة التخير، كالطيرة فإنها التطير، اسمان يستعملان استعمال المصدر، ثم نزه سبحانه نفسه، فقال ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: تنزه تنزهاً خالصاً به من غير أن ينزعه منازع، ويشاركه مشارك ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن الذين يجعلونهم شركاء له، أو عن إشراركهم ﴿وَوَيْكَ يَلْمِزُ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ﴾ أي: تخفيه من الشرك، أو من عدواة رسول الله ﷺ، أو من جميع ما يخفونه مما يخالف الحق ﴿وَمَا يعلنون﴾ أي: يظهرونه من ذلك. قرأ الجمهور (تكن) بضم التاء الفوقية، وكسر الكاف. وقرأ ابن محيصن، وحמיד بفتح الفوقية، وضم الكاف. ثم تمدح سبحانه وتعالى بالوحدانية، والتفرد باستحقاق الحمد، فقال ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى﴾ أي: الدنيا ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي: الدار الآخرة ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ يقضي بين عباده بما شاء من غير مشارك ﴿وَالِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ بالبعث، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا ترجعون إلى غيره.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله ﴿وَمَا كُنَّا مَهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ قال: قال الله لم نهلك قرية بليمان، ولكنه أهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها، ولو كانت مكة أمنت لم يهلكوا مع من هلك، ولكنهم كذبوا، وظلموا فبذلك هلكوا. وأخرج مسلم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني» الحديث بطوله. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال: «يحشر الناس يوم القيامة لجرور

المتابعة، فالميم زائدة، ومنه قول طرفة:

لعمرك ما أمرى عليك بغمة نهارى ولا ليلي عليك بسرمد
وقيل: إن ميمه أصلية، ووزنه فعل لا فعل، وهو الظاهر،
بين لهم سبحانه أنه مهّد لهم أسباب المعيشة؛ ليقوموا
بشكر النعمة، فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلاً دائماً
إلى يوم القيامة لم يتمكنوا من الحركة فيه، وطلب ما لا بدّ
لهم منه مما يقوم به العيش من المطاعم، والمشارب،
والملابس، ثم امتنّ عليهم، فقال ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَتَّقِيكُمْ
بُضِيَاءً﴾ أي: هل لكم إله من الآلهة التي تعبدونها يقدر على
أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء أي: بنور تطلبون
فيه المعيشة، وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه، وتصلح به
ثماركم، وتنمو عنده زراعتكم، وتعيش فيه دوابكم ﴿إِفْلَا
تَسْمَعُونَ﴾ هذا الكلام سماع فهم وقبول، وتدبر وتفكر. ثم
لما فرغ من الامتنان عليهم بوجود النهار امتنّ عليهم بوجود
الليل، فقال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمِداً
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: جعل جميع الدهر الذي تعيشون فيه
نهاراً إلى يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ
تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستقرون فيه من النصب، والتعب،
وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش، والكسب ﴿إِفْلَا
تُبْصِرُونَ﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار متعظ متيقظ حتى
تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير الله، وإذا أقروا بأنه لا
يقدر على ذلك إلا الله عزّ وجلّ فقد لزمتهم الحجة، وبطل ما
يتمسكون به من الشبه الساقطة، وإنما قرن سبحانه بالضياء
قوله ﴿إِفْلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدرك البصر
من درك منافعه، ووصف فوائده، وقرن بالليل قوله ﴿إِفْلَا
تُبْصِرُونَ﴾ لأن البصر يدرك ما لا يدرك السمع من ذلك
﴿وَمَنْ رَحْمَتُهُ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي:
في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار بالسعي
في المكاسب ﴿وَلِتُشْكِرُوا﴾ أي: ولكي تشكروا نعمة
الله عليكم، وهذه الآية من باب اللف، والنشر، كما في قول
امرئ القيس:

كأنّ قلوب الطير رطباً وبأساً لدى وكرها الغناب والحشف البالي
واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكناً، وطلب الرزق
في الليل ممكناً، وذلك عند طلوع القمر على الأرض، أو عند
الاستضاءة بشيء بما له نور كالسراج، لكن ذلك قليل نادر
مخالف لما يالقه العباد فلا اعتبار به ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كرّر سبحانه هذا
لاختلاف الحالتين؛ لأنهم ينادون مرة، فيدعون الأصنام،
وينادون أخرى، فيسكتون، وفي هذا التكرير أيضاً تقريب بعد
تقريب، وتوبيخ بعد توبيخ، وقوله ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيداً﴾ عطف على ينادي، وجاء بصيغة الماضي للدلالة
على التحقق، والمعنى: وأخرجنا من كل أمة من الأمم شهيداً
يشهد عليهم. قال مجاهد: هم الأنبياء، وقيل: عدول كل أمة،
والأول أولى. ومثله قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: 41] ثم

بين سبحانه ما يقوله لكل أمة من هذه الأمم بقوله ﴿فَقُلْنَا
هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم، وليلكم بأن معي شركاء،
فعند ذلك اعترفوا، وخرسوا عن إقامة البرهان، ولذا قال
﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الإلهية، وأنه وحده لا شريك له
﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غاب عنهم وبطل،
وذهب ما كانوا يختلقونه من الكذب في الدنيا بأن الله شركاء
يستحقون العبادة، ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال
بقصة قارون لما اشتملت عليه من بديع القدرة، وعجيب
الصنع، فقال ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ قارون
على وزن فاعول اسم أعجمي ممتنع للعجمة، والعلمية،
وليس بعربي مشتق من قرنت. قال الزجاج: لو كان قارون
من قرنت الشيء لانصرف. قال النخعي، وقاتدة، وغيرهما:
كان ابن عم موسى، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن
لاوي بن يعقوب، وموسى هو ابن عمران بن قاهث. وقال
ابن إسحاق: كان عم موسى لأب وام، فجعله أخا لإمران،
وهما ابنا قاهث. وقيل: هو ابن خالة موسى، ولم يكن في
بني إسرائيل اقراً للتوراة منه، فنافق كما نافق السامري،
وخرج عن طاعة موسى، وهو معنى قوله: ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾
أي: جاوز الحد في التجبر والتكبر عليهم، وخرج عن طاعة
موسى، وكفر بالله. قال الضحاك: بغى على بني إسرائيل
استخفافه بهم لكثرة ماله، ولده، وقال قاتدة: بغى بنسبته
ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه، وحيلته. وقيل: كان
عاملاً لفرعون على بني إسرائيل، فتعدّى عليهم، وظلمهم،
وقيل: كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية
﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ جمع كنز، وهو المال المخزّن. قال
عطاء: أصاب كنزاً من كنوز يوسف. وقيل: كان يعمل
الكيمياء، وهما في قوله: ﴿مَا إِنْ مَفَاتِحُهُ﴾ موصولة صلتها
إِنَّ، وما في حيزها، ولهذا كسرت. ونقل الأخفش الصغير عن
الكوفيين منع جعل المكسورة، وما في حيزها صلة الذي،
واستقبح ذلك منهم لوروده في الكتاب العزيز في هذا
الموضع، والمفاتيح جمع مفتاح بالكسر، وهو ما يفتح به،
وقيل: المراد بالمفاتيح: الخزائن، فيكون واحدها مفتاح بفتح
الميم. قال الواحدي: إن المفاتيح الخزائن في قول أكثر
المفسرين كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: 59] قال:
وهو اختيار الزجاج، فإنه قال: الأشبه في التفسير أن مفاتيحه
خزائن ماله. وقال آخرون: هي جمع مفتاح، وهو ما يفتح به
الباب، وهذا قول قاتدة، ومجاهد ﴿لِتَنَافُوا بِالْعِصْبَةِ أُولِي
الْقُوَّةِ﴾ هذه الجملة خبر إن، وهي واسمها، وخبرها صلة ما
الموصولة، يقال: ناء بحمله: إذا نهض به مثقالاً، ويقال: ناء
بي الحمل: إذا أثقلني، والمعنى: يتقلهم حمل المفاتيح. قال أبو
عبيدة: هذا من المقلوب، والمعنى: لتنوء بها العصبة أي:
تنهض بها. قال أبو زيد: نؤت بالحمل: إذا نهضت به. قال
الشاعر:

إنّا وجننا خلفاً بأئس الخلف عبداً إذا ما ناء بالحمل وقف
وقال الفراء: معنى تنوء بالعصبة: تميلهم بثقلها كما يقال:

معرفة الكنوز، والدفائن، وقيل: علم الكيمياء، وقيل: المعنى: إن الله أتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقى إياها لفضل علمه مني. واختار هذا الزجاج، وإنكر ما عده. ثم ردَّ الله عليه قوله هذا، فقال ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدُّ منه قوَّةً وأكثر جمعاً﴾ المراد بالقرون الأمم الخالية، ومعنى أكثر جمعاً: أكثر منه جمعاً للمال، ولو كان المال، أو القوَّة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله. وقيل: القوَّة الآلات، والجمع الأعوان. وهذا الكلام خارج مخرج التقرُّيع والتوبيخ لقارون، لأنه قد قرأ التوراة، وعلم علم القرون الأولى، وإهلاك الله سبحانه لهم ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي: لا يسألون سؤال استعتاب كما في قوله: ﴿ولا هم يستعذبون﴾ [النحل: 84، الروم: 57] ﴿وما هم من المعتبين﴾ [فصلت: 24] وإنما يسألون سؤال تقرُّيع وتوبيخ، كما في قوله: ﴿فوريك لنساءلهم أجمعين﴾ [الحجر: 92] وقال مجاهد: لا تسأل الملائكة غداً عن المجرمين؛ لأنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العين. وقال قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها، وكثرتها، بل يدخلون النار. وقيل: لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ الفاء للعطف على «قال»، وما بينهما اعتراض، ﴿وفي زينته﴾ متعلق بخرج، أو بمحذوف هو حال من فاعل خرج. وقد نكر المفسرون في هذه الزينة التي خرج فيها رويات مختلفة، والمراد أنه خرج في زينة أنبهر لها من رآها، ولهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلاً كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ أي: نصيب وافر من الدنيا. واختلف في هؤلاء القائلين بهذه المقالة، فقيل: هم من مؤمني ذلك الوقت، وقيل: هم قوم من الكفار ﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ وهم: أحبار بني إسرائيل قالوا للذين تمنوا ﴿ويلكم ثواب الله خير﴾ أي: ثواب الله في الآخرة خير مما تمنونه ﴿ولمن آمن وعمل صالحاً﴾ فلا تمنوا عرض الدنيا الزائل الذي لا ينوم ﴿ولا يلقاها﴾ أي: هذه الكلمة التي تكلم بها الأحبار، وقيل: الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة، وقيل: إلى الجنة ﴿إلا الصابرون﴾ على طاعة الله، والمصابرون أنفسهم عن الشهوات ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ يقال: خسف المكان يخسف خسفاً، ذهب في الأرض. وخسف به الأرض خسفاً: أي: غاب به فيها، والمعنى: أن الله سبحانه غيبه، وغيب داره في الأرض ﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله﴾ أي: ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه ﴿وما كان﴾ هو في نفسه ﴿ومن المنتصرين﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ أي: منذ زمان قريب ﴿يقولون ويكان الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي: يقول كل واحد منهم منتنماً على ما

يذهب بالبؤس، ويذهب بالبؤس، وذهبت به، وأذهبت، وجئت به، وأجأت، ونؤت به، وإنأته، واختار هذا النحاس، وبه قال كثير من السلف. وقيل: هو مأخوذ من النأي، وهو البعد، وهو بعيد. وقرأ بديل بن ميسرة (لينوء) بالياء أي: لينوء الواحد منها، أو المذكور، فحمل على المعنى، والمراد بالعصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض. قيل: هي من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: من العشرة إلى الخمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة إلى العشرين، وقيل: من الخمسة إلى العشرة، وقيل: أربعون، وقيل: سبعون، وقيل: غير ذلك ﴿إذ قال له قومه لا تفرح﴾ الظرف منصوب بتنوء، وقيل: بآتيانه، وقيل: ببغى. وردَّهما أبو حبان بأن الإتياء، والبغي لم يكونا ذلك الوقت. وقال ابن جرير: هو متعلق بمحذوف، وهو أنكر، والمراد بقومه هنا: هم المؤمنون من بني إسرائيل. وقال الفراء: هو موسى، وهو جمع أريد به الولد، ومعنى لا تفرح: لا تبطر، ولا تاشر ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ البطرين الأشرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. قال الزجاج: المعنى: لا تفرح بالمال، فإن الفرح بالمال لا يؤدي حقه، وقيل: المعنى: لا تفسد كقول الشاعر: إذا أنت لم تبرح تؤذي أمانة وتحمل أخرى أفرحتك للودائع أي: أفسدتك. قال الزجاج: الفرحين، والفارحين سواء. وقال الفراء: معنى الفرحين: الذين هم في حال الفرح، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل. وقال مجاهد: معنى لا تفرح: لا تبغ إن الله لا يحب الفرحين الباغين. وقيل: معناه: لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين ﴿وليتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي: واطلب فيما أعطاك الله من الأموال الدار الآخرة، فأنفقه فيما يرضاه الله لا في التجبر، والبغي. وقرئ (واتبع). ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾. قال جمهور المفسرين: وهو أن يعمل في دنياه لأخرفته، ونصيب الإنسان عمره، وعمله الصالح. قال الزجاج: معناه: لا تنس أن تعمل لأخرتك، لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لأخرفته. وقال الحسن، وقتادة: معناه: لا تضع حظك من دنياك في تمتع بالحلال، وطلبك إياه، وهذا الصق بمعنى النظم القرآني ﴿ولحسن كما لحسن الله إليك﴾ أي: أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا، وقيل: أطع الله، واعبده كما أنعم عليك، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين، وغيرهما: «أن جبريل سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ﴿ولا تبغ للفساد في الأرض﴾ أي: لا تعمل فيها بمعاصي الله ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ في الأرض ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ قال قارون هذه المقالة ردّاً على من نصحه بما تقدّم أي: إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمي، فقوله: ﴿على علم﴾ في محل نصب على الحال، وعندي إما ظرف لأوتيته، وإما صلة للعلم، وهذا العلم الذي جعله سبباً لما ناله من الدنيا. قيل: هو علم التوراة، وقيل: علمه بوجوه المكاسب، والتجارا، وقيل:

فرط منه من التمني. قال النحاس: أحسن ما قيل في هذا ما قاله الخليل، وسيبويه، ويونس، والكسائي: أن القوم تنبهوا، فقالوا: وي. والمتنم من العرب يقول في خلال نومه: وي. قال الجوهري: وي كلمة تعجب، ويقال: ويك، وقد تدخل وي على كان المخففة، والمشبدة ويكان الله. قال الخليل: هي مفصولة تقول: وي، ثم تبدئ، فيقول كان. وقال الفراء: هي كلمة تقرير كقولك: أما ترى صنع الله، وإحسانه، وقيل: هي كلمة تنبيه بمنزلة إلا. وقال قطرب: إنما هو ويك، فأسقطت لامه، ومنه قول عنتر:

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها قول الفولس ويك عنتر أقدم
وقال ابن الأعرابي: معنى «ويكان الله»: أعلم أن الله. وقال القتيبي: معناها بلغة حمير: رحمة، وقيل: هي بمعنى ألم تر. وروي عن الكسائي أنه قال: هي كلمة تفجع «لولا أن من الله علينا» برحمته، وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر، والبيغي، ولم يؤاخذنا بما وقع منا من ذلك التمني «لخسف بنا» كما خسف به. قرأ حفص (لخسف) مبنياً للفاعل، وقرأ الباقون مبنياً للمفعول «ويكانه لا يفلح الكافرون» أي: لا يفوزون بمطلب من مطالبهم «تلك الدار الآخرة» أي: الجنة، والإشارة إليها لقصد التعظيم لها، والتفخيم لشأنها كأنه قال: تلك التي سمعت بخبرها، وبلغك شأنها «نجعلها للذين لا يربون علواً في الأرض» أي: رفعة، وتكبراً على المؤمنين «ولا فساداً» أي: عملاً بمعاصي الله سبحانه فيها، وذكر العلو، والفساد منكرين في حيز النفي يدل على شمولهما لكل ما يطلق عليه أنه علو، وأنه فساد من غير تخصيص بنوع خاص، أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شيء منه كائناً ما كان، وأما العلو فالممنوع منه ما كان على طريق التكبر على الغير، والتطاول على الناس، وليس منه طلب العلو في الحق، والرئاسة في الدين، ولا محبة اللباس الحسن، والمركوب الحسن، والمنزل الحسن «ومن جاء بالحسنة فله خير منها» وهو أن الله يجازيه بعشر أمثاله إلى سبعمائة ضعف «ومن جاء بالسيئة فلا يجزيه الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون» أي: إلا مثل ما كانوا يعملون، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وقد تقدم بيان معنى هذه الآية في سورة النمل «إن الذي فرض عليك القرآن» قال المفسرون: أي: أنزل عليك القرآن. وقال الزجاج: فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن، وتقدير الكلام: فرض عليك أحكام القرآن، وفرائضه «لرائك إلى معاد» قال جمهور المفسرين: أي: إلى مكة. وقال مجاهد، وعكرمة، والزهري، والحسن: إن المعنى: لرائك إلى يوم القيامة، وهو اختيار الزجاج، يقال: بيني وبينك المعاد أي: يوم القيامة، لأن الناس يعوبون فيه أحياء. وقال أبو مالك، وأبو صالح: لرائك إلى معاد إلى الجنة. وبه قال أبو سعيد الخدري، وروي عن مجاهد. وقيل: «إلى معاد» إلى الموت «قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين» هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي ﷺ: إنك في

ضلال، والمراد من جاء بالهدى هو النبي ﷺ، ومن هو في ضلال مبين المشركين، والأولى حمل الآية على العموم، وأن الله سبحانه يعلم حال كل طائفة من هاتين الطائفتين، ويجازيها بما تستحقه من خير وشر «وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب» أي: ما كنت ترجو أن نرسلك إلى العباد، وننزل عليك القرآن. وقيل: ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب بركك إلى معادك، والاستثناء في قوله «إلا رحمة من ربك» منقطع أي: لكن إلغاؤه عليك رحمة من ربك، ويجوز أن يكون متصلاً حملاً على المعنى، كأنه قيل: وما ألقى إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة من ربك. والأول أولى، وبه جزم الكسائي والفراء «فلا تكونن ظهيراً للكافرين» أي: عوناً لهم، وفيه تعريض بغيره من الأمة. وقيل: المراد لا تكونن ظهيراً لهم بمداراتهم «ولا يصننك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك» أي: لا يصدنك يا محمد الكافرون، وأقوالهم، وكذبهم، وأذاهم عن تلاوة آيات الله، والعمل بها بعد إذ أنزلها الله إليك، وفرضت عليك. قرأ الجمهور بفتح الياء، وضم الصاد من صده يصده. وقرأ عاصم⁽¹⁾ بضم الياء، وكسر الصاد، من أصده بمعنى صده «وإدع إلى ربك» أي: ادع الناس إلى الله، وإلى توحيده، والعمل بفرائضه، واجتناب معاصيه «ولا تكونن من المشركين» وفيه تعريض بغيره كما تقدم، لأنه لا يكون من المشركين بحال من الأحوال، وكذلك قوله «ولا تدع مع الله شيئاً آخر» فإنه تعريض لغيره. ثم وحد سبحانه نفسه، ووصفها بالبقاء والدوام، فقال «لا إله إلا هو كل شيء» من الأشياء كائناً ما كان «هالك إلا وجهه» أي: إلا ذاته. قال الزجاج: وجهه منصوب على الاستثناء، ولو كان في غير القرآن كان مرفوعاً بمعنى كل شيء غير وجهه هالك، كما قال الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا السفرقدان
والمعنى كل أخ غير الفردين مفارقه أخوه «وله الحكم» أي: القضاء النافذ يقضي بما شاء، ويحكم بما أراد «والإله ترجعون» عند البعث؛ ليجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا إله غيره سبحانه وتعالى.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله «سرمداً» قال: دائماً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه «ووضل عنهم» يوم القيامة «ما كانوا يفكرون» قال: يكذبون في الدنيا. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه عنه أيضاً «إن قارون كان من قوم موسى» قال: كان ابن عمه، وكان يتبع العلم حتى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى، وحسده، فقال له موسى: إن الله امرني أن أخذ الزكاة، فأبى، فقال: إن موسى يريد أن ياكل أموالكم

(1) قوله (وقرأ عاصم إلخ) أي غير المشهور عنه اهـ مصحح القرآن.

جاءكم بالصلاة، وجاءكم بأشياء، فاحتلمتموها، فتحتملون أن تعطوه أموالكم؟ فقالوا: لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلى يحيى من بغايا بني إسرائيل، فنرسلها إليه، فترمي به بأنه أرادها على نفسها، فأرسلوا إليها، فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك، قالت: نعم، فجاء قارون إلى موسى فقال: أجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك، قال: نعم، فجمعهم فقالوا له: ما أمرك ربك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله، ولا تشرکوا به شيئاً، وأن تصلوا الرحم وكذا، وأمرني إذا زنا، وقد أحصن أن يرجم، قالوا: وإن كنت أنت. قال: نعم، قالوا: فإنك قد زنت. قال: أنا؟ فأرسلوا للمرأة، فجاءت، فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى: أنشدك بالله إلا ما صدقت، قالت: أما إذا نشدتنني بالله فإنهم دعوني، وجعلوا لي جعلاً على أن أقنئك بنفسي، وأنا أشهد أنك بريء، وأنت رسول الله، فخر موسى ساجداً يبكي، فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطتك على الأرض، فمرها فتطيعك، فرفع رأسه، فقال: خذنيهم، فأخذتهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذنيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذنيهم، فأخذتهم إلى أعناقهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذنيهم، فأخذتهم، فغشيتهم، فأوحى الله: يا موسى سالك عبادي، وتخضعوا إليك، فلم تجبهم، وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم. قال ابن عباس: وذلك قوله ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ خسف به إلى الأرض السفلى. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن خيثمة قال: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الأصبع، كل مفتاح على خزانة على حدة، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغر محجل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه قال: وجدت في الإنجيل أن بغال مفاتيح خزائن قارون غر محجلة لا يزيد مفتاح منها على إصبع لكل مفتاح كنز. قلت: لم أجد في الإنجيل هذا الذي ذكره خيثمة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿فلقنوا بالعصبة﴾ قال: تنقل. وأخرج ابن المنذر عنه قال: لا يرفعها العصبة من الرجال أولو القوة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: العصبة أربعون رجلاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿إن الله لا يحب للفرحين﴾ قال: المرحين، وفي قوله ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال: أن تعمل فيها لأخرتك. وأخرج ابن مردويه عن أوس بن أوس الثقفي، عن النبي ﷺ في قوله ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ في أربعة آلاف بغل. وقد روي عن جماعة من التابعين أقوال في بيان ما خرج به على قومه من الزينة، ولا يصح منها شيء مرفوعاً، بل هي من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرة، ولا أدري كيف إسناد هذا الحديث الذي رفعه ابن مردويه، فمن ظفر بكتابه، فلينظر فيه. وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله ﴿فخسفنا به وبداره

الأرض﴾ قال: خسف به إلى الأرض السفلى. وأخرج المحاملي، والديمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ قال: التجبر في الأرض، والأخذ بغير الحق. وروي نحوه عن مسلم البطين، وابن جرير، وعكرمة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جببر ﴿لا يريدون علواً في الأرض﴾ قال: بغياً في الأرض. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: هو الشرف والعلو عند نوري سلطانهم. وأقول: إن كان ذلك للتقوى به على الحق، فهو من خصال الخير لا من خصال الشر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: إن الرجل ليحب أن يكون شمس نعله أفضل من شمس نعل صاحبه، فيدخل في هذه الآية ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ قال ابن كثير في تفسيره بعد نكر هذه الرواية عن علي رضي الله عنه: وهذا محمول على من أحب ذلك لا لمجرد التجميل، فهذا لا بأس به. فقد ثبت: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب أن يكون ثوبي حسناً، ونعلي حسنة، أتمن الكبر تلك؟ قال: لا، إن الله جميل يحب الجمال». وأخرج ابن مردويه، وابن عساكر عن علي بن أبي طالب: أنه قال: نزلت هذه الآية، يعني ﴿تلك الدار الآخرة﴾: إلخ في أهل العدل والتواضع من الولاة، وأهل القدرة من سائر الناس. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم قال: لما دخل علي النبي ﷺ ألقى إليه وسادة، فجلس على الأرض، فقال: أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض، ولا فساداً فأسلم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك. وأخرج أيضاً ابن مردويه عن علي بن الحسين بن واقد: أن قوله تعالى ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ الآية أنزلت على رسول ﷺ بالجحفة حين خرج النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ولأنك إلى معاد﴾ قال: إلى مكة، زاد ابن مردويه كما أخرجك منها. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري ﴿ولأنك إلى معاد﴾ قال الآخرة. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله ﴿ولأنك إلى معاد﴾ قال: معاده الجنة، وفي لفظ معاده آخرته. وأخرج الحاكم في التاريخ، والديمي عن علي بن أبي طالب قال: ﴿ولأنك إلى معاد﴾ الجنة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن مردويه عنه قال: لما نزلت ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن: 26] قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فلما نزلت ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ [آل عمران: 185] قالت الملائكة: هلك كل نفس، فلما نزلت ﴿كل شيء

على تقدير: لأن يقولوا، أو بأن يقولوا، أو على أن يقولوا، وقيل: هو بدل من أن يتركوا، ومعنى الآية: أن الناس لا يتركون بغير اختبار، ولا ابتلاء ﴿أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي: وهم لا يبتلون في أموالهم، وأنفسهم، وليس الأمر كما حسبوا، بل لابد أن يختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق، والصالح من الكاذب، فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان، واستبعاده، وبيان أنه لا بد من الامتحان بأنواع التكليف، وغيرها. قال الزجاج: المعنى: أحسبوا أن نقتنع منهم بأن يقولوا: إنا مؤمنون فقط، ولا يمتحنون بما تتبين به حقيقة إيمانهم، وهو قوله: ﴿أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾. قال السدي، وقتادة، ومجاهد: أي: لا يبتلون في أموالهم، وأنفسهم بالقتل، والتعذيب، وسيأتي في بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما نكرناه، وظاهرها شمول كل الناس من أهل الإيمان، وإن كان السبب خاصاً، فالاعتبار بعموم اللفظ كما قررناه غير مرة. قال ابن عطية: وهذه الآية، وإن كانت نازلة في سبب خاص، فهي باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله باقية في ثغور المسلمين بالأسر، ونكاية العدو، وغير ذلك ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: هذه سنة الله في عباده، وأنه يختبر مؤمني هذه الأمة كما اختبر من قبلهم، من الأمم كما جاء به القرآن في غير موضع من قصص الأنبياء، وما وقع مع قومهم من المحن، وما اختبر الله به اتباعهم، ومن آمن بهم من تلك الأمور التي نزلت بهم ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في قولهم: آمنا ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَافِينَ﴾ منهم في ذلك، قرأ الجمهور (فليعلمن) بفتح الياء، واللام في الموضعين: أي: ليظهرن الله الصادق، والكاذب في قولهم، ويميز بينهم، وقرأ علي بن أبي طالب في الموضعين بضم الياء، وكسر اللام. والمعنى: أي: يعلم الطائفتين في الآخرة بمنزلهم، أو يعلم الناس بصدق من صدق، ويفضح الكاذبين بكذبهم، أو يضع لكل طائفة علامة تشتهر بها، وتتميز عن غيرها ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا، ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون، وهو ساء مسد مفعولي حسب، وأم هي: المنقطعة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بش الذي يحكمونه حكمهم ذلك: وقال الزجاج: «ما» في موضع نصب بمعنى: ساء شيئاً، أو حكماً يحكمون. قال: ويجوز: أن تكون «ما» في موضع رفع بمعنى: ساء الشيء، أو الحكم حكمهم، وجعلها ابن كيسان مصدرية: أي: ساء حكمهم ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي: من كان يطمع، والرجاء بمعنى: الطمع. قاله سعيد بن جبير. وقيل: الرجاء هنا بمعنى: الخوف. قال القرطبي: وأجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت، ومنه قول الهذلي:

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها

قال الزجاج: معنى من كان يرجو لقاء الله: من كان يرجو ثواب لقاء الله: أي: ثواب المصير إليه، فالرجاء على هذا

هالك إلا وجهه ﴿قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: هَلْكَ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قَالَ: إِلَّا مَا أُرِيدُ بِهِ وَجْهَهُ.

تفسير سورة العنكبوت

وقد اختلف في كونها مكية، أو مدنية، أو بعضها مكية، وبعضها مدنية على ثلاثة أقوال: الأول: أنها مكية كلها، أخرجه ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، وبه قال الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر بن زيد. والقول الثاني: أنها مدنية كلها، قال القرطبي: وهو أحد قولي ابن عباس، وقتادة. والقول الثالث: أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، قال القرطبي: وهو أحد قولي ابن عباس، وقتادة، وهو قول يحيى بن سلام. وحكي عن علي بن أبي طالب: أنها نزلت بين مكة، والمدينة، وهذا قول رابع. وأخرج الدارقطني في السنن عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يصلي في كسوف الشمس والقمر أربع ركعات وأربع سجعات، يقرأ في الركعة الأولى العنكبوت أو الروم، وفي الثانية يس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١ أَحَبَّ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَافِينَ ٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٤ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّبِغُ الْبَاطِلُ ٥ وَمَنْ جَهِدَ فَإِنَّمَا يَجُهِدْ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٧ وَوَضِعْنَا إِلَيْنَا رَدْيَهُمْ سَخِرْنَا مِنْهُمْ لِنُشْرِكَ بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِنِّي مَرْحَمٌ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ٩ وَمِنَ الَّذِينَ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِلَهُ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ١١ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ قَبْلِ إِذْ هُمْ لَكَافِرُونَ ١٢ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَا لَا تَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَانُوا يَفْضَحُونَ ١٣

قد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى في سورة البقرة، والاستفهام في قوله: ﴿حَسِبَ النَّاسُ﴾ للتقريع، والتوبيخ، و﴿أَنْ يَتْرُكُوا﴾ في موضع نصب بحسب، وهي، وما دخلت عليه قائمة مقام المفعولين على قول سيبويه، والجمهور، و﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ في موضع نصب

معناه: الأمل ﴿فإن لجل الله لآت﴾ أي: الأجل المضروب للبعث آت لا محالة. قال مقاتل: يعني: يوم القيامة، والمعنى: فليعمل لذلك اليوم كما في قوله: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾ [الكهف: 110] ومن في الآية التي هنا يجوز أن تكون شرطية. والجزء فإن أجل الله لآت، ويجوز: أن تكون موصولة، وبخلت الفاء في جوابها تشبيهاً لها بالشرطية. وفي الآية من الوعد، والوعيد، والترهيب، والترغيب ما لا يخفى ﴿وهو للسميع﴾ لا أقوال عباده ﴿العليم﴾ بما يسرونه، وما يعلنونه ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾ أي: من جاهد الكفار، وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات، فإنما يجاهد لنفسه: أي: ثواب ذلك له لا لغيره، ولا يرجع إلى الله سبحانه من نفع ذلك شيء ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾ فلا يحتاج إلى طاعتهم كما لا تضره معاصيهم. وقيل: المعنى: ومن جاهد عدوه لنفسه لا يريد بذلك وجه الله، فليس له حاجة بجهاده، والأول أولى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم﴾ أي: لنغطيها عنهم بالمغفرة بسبب ما عملوا من الصالحات ﴿ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ أي: بأحسن جزاء أعمالهم، وقيل: بجزاء أحسن أعمالهم، والمراد بأحسن مجرد الوصف لا التفضيل لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتاً عنه، وقيل: يعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن منه كما في قوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام: 160] ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ انتصاب حسناً على أنه نعت مصدر محذوف: أي: إيصال حسناً على المبالغة، أو على حذف المضاف: أي: ذا حسن. هذا مذهب البصريين، وقال الكوفيون: تقديره. ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً، فهو مفعول لفعل مقتر، ومنه قول الشاعر:

عجبت من دهماء إذ تشكونا ومن أبي دهماء إذ يوصينا
خيراً أهما كأنما خافونا

أي: يوصينا أن نفعل بها خيراً، ومثله قول الحطيئة:

وصيت من بزة قلباً حراً بالكلب خيراً والحماة شراً

قال الزجاج: معناه: ووصينا الإنسان: أن يفعل بوالديه ما يحسن، وقيل: هو صفة لموصوف محذوف: أي: ووصيناها أمراً ذا حسن، وقيل: هو منتصب على أنه مفعول به على التضمين أي: الزمناه حسناً، وقيل: منصوب بنزع الخافض: أي: ووصيناها بحسن، وقيل: هو مصدر لفعل محذوف: أي: يحسن حسناً، ومعنى الآية: التوصية للإنسان بوالديه بالبر بهما، والعطف عليهما. قرأ الجمهور (حسناً) بضم الحاء، وإسكان السين، وقرأ أبو رجاء، وأبو العالية، والضحاك بفتحهما، وقرأ الجحدري (إحساناً) وكذا في مصحف أبي ﴿وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ أي: طلباً منك، والزمك أن تشرك بي إلهاً ليس لك به علم بكونه إلهاً، فلا تطعهما، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وعبر بنفي العلم عن نفي الإله: لأن ما لا

يعلم صحته لا يجوز اتباعه، فكيف بما علم بطلانه؟ وإذا لم تجز طاعة الأبوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له، فعدم جوازها مع مجرد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى، ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه، فلا طاعة لهما فيما هو معصية لله كما صحَّ ذلك عن رسول الله ﷺ ﴿إني مرجعكم فانبيكم بما كنتم تعملون﴾ أي: أخبركم بصالح أعمالكم وطالحها، فأجازي كلًا منكم بما يستحقه، والموصول في قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ في محل رفع على الإبتداء، وخبره ﴿لندخلنهم في الصالحين﴾ أي: في زمرة الراسخين في الصلاح، ويجوز أن يكون في محل نصب على الإستغفال، ويجوز أن يكون المعنى: لندخلنهم في مixel الصالحين، وهو: الجنة كذا قيل، والأول أولى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله﴾ أي: في شأن الله، ولأجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان، وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات من إيقاع الأذى عليهم لأجل الإيمان بالله، والعمل بما أمر به ﴿جعل فتنة الناس﴾ التي هي ما يقعونه عليه من الأذى ﴿كعذاب الله﴾ أي: جزع من أذاهم، فلم يصبر عليه، وجعله في الشدة، والعظم كعذاب الله، فاطاع الناس كما يطيع الله، وقيل: هو المناقق إذا أؤذي في الله رجع عن الدين، فكفر. قال الزجاج: ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله ﴿ولئن جاء نصر من ربك﴾ أي: نصر من الله للمؤمنين، وفتح، وغلبة للأعداء، وغنيمة يغنمونها منهم ﴿ليقولن إنا كنا معكم﴾ أي: داخلون معكم في دينكم، ومعاونون لكم على عدوكم، فكذبهم الله. وقال: ﴿أو ليس الله باعلم بما في صدور العالمين﴾ أي: هو سبحانه أعلم بما في صدورهم منهم من خير، وشر، فكيف يدعون هذه الدعوى الكاذبة. وهؤلاء هم قوم ممن كان في إيمانهم ضعف، كانوا إذا مسهم الأذى من الكفار وافقوهم. وإذا ظهرت قوة الإسلام، ونصر الله المؤمنين في موطن من المواطن ﴿قلوا إنا كنا معكم﴾ وقيل: المراد بهذا، وما قبله المنافقون. قال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بالله بالسنتهم. فإذا أصابهم بلاء من الله، أو مصيبة افتتنوا. وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون. فإذا أؤزوا رجعوا إلى الشرك، والظاهر أن هذا النظم من قوله: ﴿ومن الناس من يقول﴾ إلى قوله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ نازل في المنافقين لما يظهر من السياق، ولقوله: ﴿وليعلنن الله الذي آمنوا وليعلنن المنافقين﴾ فإنها لتقرير ما قبلها وتأكيد: أي: ليميزن الله بين الطائفتين، ويظهر إخلاص المخلصين، ونفاق المنافقين، فالخلص الذي لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى، ويصبر في الله حق الصبر، ولا يجعل فتنة الناس كعذاب الله. والمنافق الذي يميل هكذا، وهكذا، فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم، وتابعهم، وكفر بالله عز وجل، وإن خفقت ريح الإسلام؛ وطلع نصره، ولاح فتحه رجع إلى الإسلام، وزعم أنه من المسلمين ﴿وقال

الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا» اللام في «الذين آمنوا» هي: لام التبليغ: أي: قالوا مخاطبين لهم كما سبق بيانه في غير موضع: أي: قالوا لهم: اسلكوا طريقتنا، وادخلوا في ديننا «ولنحمل خطاياكم» أي: إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث، والنشور كما تقولون، فلنحمل ذلك عنكم، فنؤاخذ به بؤنكم، واللام في لنحمل لام الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك. وقال الفراء، والزجاج: هو أمر في تأويل الشرط، والجزاء: أي: إن اتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، ثم رد الله عليهم بقوله: «وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء» من الأولى ببيان، والثانية مزيدة للاستعراق: أي: وما هم بحاملين شيئاً من خطيئاتهم التي التزموا بها، وضمنوا لهم حملها، ثم وصفهم الله سبحانه بالكذب في هذا التحمل، فقال: «إنهم لكانبون» فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم. قال المهدي: هذا التكنيب لهم من الله عز وجل حمل على المعنى، لأن المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر أوقع عليه التكنيب كما يوقع على الخبر «وليحملن الثقالهم» أي: أوزارهم التي عملوها، والتعبير عنها بالاثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة «وإنقالاً مع أثقالهم» أي: أوزاراً مع أوزارهم. وهي: أوزار من أضلوه، وأخرجوهم عن الهدى إلى الضلالة، ومثله قوله سبحانه: «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم» [النحل: 25] ومثله قوله ﷺ: «من سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها» كما في حديث أبي هريرة الثابت في صحيح مسلم، وغيره «وليسألن يوم القيامة» تقريراً، وتوبيخاً «عما كانوا يفترون» أي: يختلقونه من الأكاذيب التي كانوا يأتون بها في الدنيا. وقال مقاتل: يعني: قولهم: نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: «لَمْ أَحْسِبْ للنَّاسِ أَنْ يَتْرَكُوا» الآية قال: أنزلت في ناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما أنزلت آية الهجرة: أنه لا يقبل منكم إقرار، ولا إسلام حتى تهجروا، قال: فخرجوا عامدين إلى المدينة، فاتبعهم المشركون، فردوهم، فنزلت فيهم هذه الآية. فكتبوا إليهم: أنه قد أنزل فيكم كذا، وكذا، فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قتلناه، فخرجوا، فاتبعهم المشركون، فقاتلوهم، فممنهم من قتل، وممنهم من نجا، فانزل الله فيهم: «ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم» [النحل: 110]. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة نحوه بأخصر منه. وأخرج ابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال: نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله «لَمْ أَحْسِبْ للنَّاسِ أَنْ يَتْرَكُوا» الآية. وأخرج ابن ماجه، وابن مريويه عن ابن مسعود قال: أول من أظهر الله إسلامه سبعة: رسول الله

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّيْفَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُ النَّفْسَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٨﴾ وَمَا أَشَدُّ بِمُجْرِمِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَهِيمُ مِنْ رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ

وَيَلْمِزُ بِمَعْصِيَتِكُمْ بَعْضًا مَّا وَتَكُمْ أَتَانَا وَمَا لَكُم مِّن تَعْمِيرٍ ﴿٣٠﴾
 ﴿فَأَمَّا لِمَ لُمْتُمْ لَوْ كُنْتُمْ عَادِلِينَ﴾ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾
 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَبْنَاءَ وَالْكَتَبَ وَأَيَّتَنَّا
 أَجْمَرُ فِي الْأَدْيَانِ وَلَئِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ ﴿٣٢﴾

اجمل سبحانه قصة نوح تصديقاً لقوله في أول السورة:
 ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ [العنكبوت: 3] وفيه تثبيت
 للنبي ﷺ، كانه قيل له: إن نوحاً لبث ألف سنة إلا خمسين
 عاماً يدعو قومه، ولم يؤمن منهم إلا قليل، فانت أولى
 بالصبر لقلة مدة لبثك، وكثرة عدد امتك. قيل: ووقع في
 النظم إلا خمسين عاماً، ولم يقل: تسعمائة سنة وخمسين،
 لأن في الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثاني، فقد يطلق
 على ما يقرب منه. وقد اختلف في مقدار عمر نوح، وسيأتي
 آخر البحث، وليس في الآية إلا أنه لبث فيهم هذه المدة،
 وهي لا تدل على أنها جميع عمره. فقد تلبث في غيرهم قبل
 اللبث فيهم، وقد تلبث في الأرض بعد هلاكهم بالطوفان.
 والفاء في ﴿فأخذهم الطوفان﴾ للتعقيب: أي: أخذهم عقب
 تمام المدة المذكورة، والطوفان يقال: لكل شيء كثير مطيف
 بجمع محيط بهم من مطر، أو قتل، أو موت قاله النحاس،
 وقال سعيد بن جبير، وقتادة، والسدي: هو: المطر، وقال
 الضحاك: الغرق، وقيل: الموت، ومنه قول الشاعر:

أقنأهم طوفان موت جارف

وجملة ﴿وهم ظالمون﴾ في محل نصب على الحال: أي:
 مستمرين على الظلم، ولم يتجع فيهم ما وعظهم به نوح،
 ونكرهم هذه المدة بطولها ﴿فأنجيناهم وأصحاب السفينة﴾
 أي: أنجيناً نوحاً، وأنجيناً من معه في السفينة من أولاده،
 وأتباعه. واختلف في عددهم على أقوال ﴿وجعلناهم﴾ أي:
 السفينة ﴿آية للعالمين﴾ أي: عبرة عظيمة لهم، وفي كونها
 آية وجوه: أحدها: أنها كانت باقية على الجودي مدة مديدة.
 وثانيها: أن الله سلم السفينة من الرياح المزعجة. وثالثها: أن
 الماء غيض قبل نفاذ الزاد. وهذا غير مناسب لوصف
 السفينة بأن الله جعلها آية، وقيل: إن الضمير راجع في
 جعلناها إلى الواقعة، أو إلى النجاة، أو إلى العقوبة بالغرق.
 ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه﴾ انتصاب إبراهيم بالعطف على
 ﴿نوحاً﴾. وقال النسائي: هو معطوف على البهاء في
 جعلناها، وقيل: منصوب بمقتّر: أي: وانكر إبراهيم. وإذ قال
 منصوب على الظرفية: أي: وأرسلنا إبراهيم وقت قوله لقومه:
 اعبدوا الله، أو جعلنا إبراهيم آية وقت قوله هذا: أو وانكر
 إبراهيم وقت قوله. على أن الظرف بدل اشتغال من إبراهيم
 ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾ أي: اقربوه بالعبادة، وخصوه بها،
 واتقوه أن تشركوا به شيئاً ﴿فإن كنتم تعلمون﴾ أي: عبادة الله
 وتقواه خير لكم من الشرك، ولا خير في الشرك أبداً، ولكنه
 خاطبهم باعتبار اعتقادهم ﴿إن كنتم تعلمون﴾ شيئاً من
 العلم، أو تعلمون علماً تميزون به بين ما هو خير، وما هو
 شر. قرأ الجمهور ﴿وإبراهيم﴾ بالنصب. ووجه ما قلّمنا.

وقرأ النخعي، وأبو جعفر، وأبو حنيفة بالرفع على الابتداء،
 والخبر مقتّر: أي: ومن المرسلين إبراهيم ﴿إنما تعبدون
 من دون الله لوثاناً﴾ بين لهم إبراهيم أنهم يعبدون ما لا
 ينفع، ولا يضر، ولا يسمع، ولا يبصر، والأوثان هي:
 الأصنام. وقال أبو عبيدة: الصنم ما يتخذ من ذهب، أو فضة،
 أو نحاس، والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة، وقال
 الجوهري: الوثن الصنم، والجمع أوثان ﴿وتخلقون إفكاً﴾،
 أي: وتكذبون كذباً على أن معنى تخلقون: تكذبون، ويجوز أن
 يكون معناه: تعملون، وتنتحون: أي: تعملونها، وتنتحونها
 للإفك. قال الحسن: معنى تخلقون: تنتحون: أي: إنما تعبدون
 أوثاناً، وأنتم تصنعونها. قرأ الجمهور (تخلقون) بفتح
 الفوقية، وسكون الخاء، وضم اللام مضارع خلق، وإفكاً
 بكسر الهمزة، وسكون الفاء. وقرأ علي بن أبي طالب،
 وزيد بن علي، والسلمي، وقتادة بفتح الخاء، واللام مشددة،
 والأصل تتخلقون. وروي عن زيد بن علي: أنه قرأ بضم
 التاء، وتشديد اللام مكسورة. وقرأ ابن الزبير، وفضيل بن
 ورقان (أفكاً) بفتح الهمزة، وكسر الفاء، وهو مصدر كالكذب،
 أو صفة لمصدر محذوف: أي: خلقاً أفكاً ﴿إن الذين
 تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾ أي: لا يقدرين
 على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ﴿فابتغوا عند الله
 الرزق﴾ أي: اصرفوا رغبتمكم في أرزاقكم إلى الله، فهو الذي
 عنده الرزق كله، فاسألوه من فضله، ووحده دون غيره
 ﴿واشكروا له﴾ أي: على نعمائه، فإن الشكر موجب لبقائها،
 وسبب للمزيد عليها، يقال: شكرته، وشكرت له ﴿إليه
 ترجعون﴾ بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره ﴿وإن تكذبوا
 فقد كذب أمم من قبلكم﴾ قيل: هذا من قول إبراهيم: أي:
 وإن تكذبوني، فقد وقع ذلك لغيري ممن قبلكم، وقيل: هو من
 قول الله سبحانه: أي: وإن تكذبوا محمداً، فنلك عادة الكفار
 مع من سلف ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ لقومه
 الذي أرسل إليهم، وليس عليه هدايتهم، وليس نلك في وسعه
 ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده﴾ قرأ
 الجمهور «أولم يروا» بالتحية على الخير، واختار هذه
 القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. قال أبو عبيد: كانه قال: أولم ير
 الاسم. وقرأ أبو بكر، والأعمش، وابن وثاب، وحزمة،
 والكسائي بالفوقية على الخطاب من إبراهيم لقومه، وقيل:
 هو خطاب من الله لقريش. قرأ الجمهور (كيف يبدئ) بضم
 التحتية من أبداً يبدئ. وقرأ الزبيري، وعيسى بن عمر، وأبو
 عمرو بفتحها من بدأ يبدأ. وقرأ الزهري «كيف بدأ» والمعنى:
 ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء نطفة، ثم علقه، ثم مضغه،
 ثم ينفخ فيه الروح، ثم يخرجهم إلى الدنيا، ثم يتوفاه بعد نلك،
 وكذلك سائر الحيوانات، وسائر النباتات، فإذا رأيت قدرة الله
 سبحانه على الابتداء، والإيجاد، فهو القادر على الإعادة،
 والهمزة إنكار عزم رؤيتهم، والواو للعطف على مقتّر ﴿إن
 نلك على الله يسير﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون.
 ثم أمر سبحانه إبراهيم أن يامر قومه بالمسير في الأرض،

ليتفكروا، ويعتبروا، فقال: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ على كثرتهم، واختلاف ألوانهم، وطبائعهم، والسننهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية، والأمم الخالية، وآثارهم؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله. وقيل: إن المعنى: قل لهم يا محمد سيروا، ومعنى قوله: ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ أن الله الذي بدأ النشأة الأولى، وخلقها على تلك الكيفية ينشئها نشأة ثانية عند البعث، والجملة عطف على جملة سيروا في الأرض داخلة معها في حيز القول، وجملة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ تعليل لما قبلها، قرأ الجمهور بـ (النشأة) بالقصر، وسكون الشين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالمدة، وفتح الشين، وهما لغتان كالرأفة، والرافة. وهي منتصبة على المصدرية بحذف الزوائد، والأصل الإنشاءة ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي: هو سبحانه بعد النشأة الآخرة يعذب من يشاء تعذيبه، وهم الكفار، والعصاة، ويرحم من يشاء رحمته، وهم المؤمنون به المصنفون لرسله العاملون بأوامره، ونواهيهم ﴿والإله تقلبون﴾ أي: ترجعون، وترتدون لا إلى غيره ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ قال الفراء: ولا من في السماء بمعجزين الله فيها. قال: وهو كما في قول حسان:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمسحه وينصره سواء
أي: ومن يمنحه، وينصره سواء. ومثله قوله تعالى: ﴿وما من إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: 164] أي: إلا من له مقام معلوم، والمعنى: أنه لا يعجزه سبحانه أهل الأرض، ولا أهل السماء في السماء إن عصوه. وقال قطرب: إن معنى الآية: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتني فلان ما هنا، ولا بالبصرة: يعني: ولا بالبصرة لو صار إليها. وقال المبرد: المعنى: ولا من في السماء. على أن من ليست موصولة بل نكرة، وفي السماء صفة لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف، ورد ذلك علي بن سليمان وقال: لا يجوز، ورجح ما قاله قطرب ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ من مزيدة للتأكيد: أي: ليس لكم، ولاي يواليك، ولا نصير ينصركم، وينفع عنكم عذاب الله ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقاؤه﴾ المراد بالآيات الآيات التنزيلية، أو التكوينية، أو جميعهما، وكفروا بقاء الله: أي: أنكروا البعث، وما بعده، ولم يعملوا بما أخبرتهم به رسل الله سبحانه، والإشارة بقوله: ﴿اولئك﴾ إلى الكافرين بالآيات، واللقاء، وهو مبتدأ، وخبره ﴿يئسوا من رحمتي﴾ أي: إنهم في الدنيا آيسون من رحمة الله لم ينجع فيهم ما نزل من كتب الله، ولا ما أخبرتهم به رسله. وقيل: المعنى: أنهم يئسون يوم القيامة من رحمة الله، وهي: الجنة. والمعنى: أنهم آيسوا من الرحمة ﴿اولئك لهم عذاب اليم﴾ كَرَّر سبحانه الإشارة للتأكيد، ووصف العذاب بكونه اليماً للدلالة على أنه في غاية الشدة ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرِّقوه﴾ هذا رجوع إلى خطاب إبراهيم بعد الاعتراض

بما تقدّم من خطاب محمد ﷺ على قول من قال: إن قوله: قل: سيروا في الأرض خطاب لمحمد ﷺ، وأما على قول من قال: إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام، فالكلام في سياقه سابقاً، ولاحقاً: أي: قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم: افعلوا بإبراهيم أحد الأمرين المذكورين، ثم اتفقوا على تحريقه ﴿فانجاه الله من النار﴾ وجعلها عليه برداً وسلاماً ﴿إن في ذلك﴾ أي: في إنجاء الله لإبراهيم ﴿آيات﴾ بيّنة: أي: دلالات واضحة، وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه: حيث أضرموا تلك النار العظيمة، وألقوه فيها، ولم تحرقه، ولا أثرت فيه أثراً، بل صارت إلى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها من الحرارة، والإحراق، وإنما خصّ المؤمنون، لأنهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه، وأما من عداهم، فهم عن ذلك غافلون. قرأ الجمهور بنصب «جواب قومه» على أنه خبر كان، وما بعده اسمها. وقرأ سالم الأفلطس، وعمرو بن دينار، والحسن برفعه على أنه اسم كان، وما بعده في محل نصب على الخبر ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله آياتاً مودةً بينكم في الحياة الدنيا﴾ أي: قال إبراهيم لقومه: أي: للتوابع بينكم، والتواصل لاجتماعكم على عبادتها، وللخشية من ذهاب المودة فيما بينكم إن تركتم عبادتها. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي «مودةً بينكم» برفع مودةً غير منونة، وإضافتها إلى بينكم. وقرأ الأعمش، وابن وثاب «مودةً» برفعها منونة. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر بنصب «مودةً» منونة، ونصب بينكم على الظرفية. وقرأ حمزة وحفص بنصب «مودةً» مضافة إلى بينكم. فاما قراءة الرفع، فنذكر الزجاج لها وجهين: الأول: أنها ارتفعت على خبر إن في ﴿إنما اتخذتم﴾، وجعل ما موصولة. والتقدير: إن الذي اتخذتموه من دون الله آياتاً مودةً بينكم. والوجه الثاني: أن تكون على إضمار مبتدأ: أي: هي مودة، أو تلك مودة. والمعنى: أن المودة هي التي جمعتكم على عبادة الأوثان، واتخاذها. قيل: ويجوز أن تكون مودة مرتفعة بالابتداء، وخبرها في الحياة الدنيا. ومن قرأ برفع مودةً منونة، فتوجيهه كالقراءة الأولى، ونصب بينكم على الظرفية. ومن قرأ بنصب مودةً، ولم ينوئنها جعلها مفعول اتخذتم، وجعل إنما حرفاً واحداً للحصر، وهكذا من نصبها، ونوئنها. ويجوز أن يكون النصب في هاتين القراءتين على أن المودة علّة، فهي مفعول لأجله، وعلى قراءة الرفع يكون مفعول اتخذتم الثاني محوفاً: أي: أوثاناً آلهة، وعلى تقدير أن ما في قوله: ﴿إنما اتخذتم﴾ موصولة يكون المفعول الأول ضميرها: أي: اتخذتموه، والمفعول الثاني أوثاناً ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ أي: يكفر بعض هؤلاء المتخذين للأوثان العابدين لها ببعض الآخر منهم، فيتبرأ القادة من الاتباع، والاتباع من القادة، وقيل: المعنى: يتبرأ العابدين للأوثان من الأوثان، وتتبرأ الأوثان من العابدين لها ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي: يلعن كل فريق الآخر على التفسيرين المذكورين ﴿وماواكم النار﴾ أي:

الكفار، وقيل: يدخل في ذلك الأوثنان: أي: هي منزلكم الذي تأوون إليه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها بنصرتهم لكم ﴿فَأَمِنْ لَهُ لوط﴾ أي: آمن لإبراهيم لوط، فصلقه في جميع ما جاء به، وقيل: إنه لم يؤمن به إلا حين رأى النار لا تحرقه، وكان لوط ابن أخي إبراهيم ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ قال النخعي، وقتادة: الذي قال: إني مهاجر إلى ربي هو: إبراهيم قال قتادة: هاجر من كوثى، وهي قرية من سواد الكوفة إلى حران، ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط، وامراته سارة. والمعنى: إني مهاجر عن دار قومي إلى حيث أعبد ربي ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب الذي أفعاله جارية على مقتضى الحكمة، وقيل: إن القائل: إني مهاجر إلى ربي هو: لوط، والأول أولى لرجوع الضمير في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إلى إبراهيم. وكذا في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ لِنَبُوءَةٍ وَالْكِتَابِ﴾، وكذا في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فإن هذه الضمائر كلها لإبراهيم بلا خلاف: أي: من الله عليه بالأولاد، فوهب له إسحاق ولدًا له، ويعقوب ولدًا لولده إسحاق، وجعل في ذريته النبوة، والكتاب، فلم يبعث الله نبيًا بعد إبراهيم إلا من صلبه، ووحد الكتاب: لأن الألف، واللام فيه للجنس الشامل للكتب، والمراد التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، ومعنى ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾: أنه أعطي في الدنيا الأولاد، وأخبره الله باستمرار النبوة فيهم، وذلك مما تقر به عينه، ويزداد به سروره، وقيل: أجره في الدنيا أن أهل الملل كلها تدعيه، وتقول: هم منهم. وقيل: أعطاه في الدنيا عملاً صالحاً، وعاقبة حسنة، وإنه في الآخرة لمن الصالحين: أي: الكاملين في الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة، وكثرة العطاء من الرب سبحانه. وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن عباس قال: بعث الله نوحاً، وهو ابن أربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس، وفشوا. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: كان عمر نوح قبل أن يبعث إلى قومه، وبعد ما بعث ألفاً وسبعمئة سنة. وأخرج ابن جرير عن عوف بن أبي شاذ قال: إن الله أرسل نوحاً إلى قومه، وهو ابن خمسين وثلاثمئة سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمئة سنة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب نوح الدنيا عن أنس بن مالك قال: جاء ملك الموت إلى نوح، فقال: يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولنتها؟ قال: كرجل دخل بيتاً له بابان، فقال في وسط البيت هنيهة، ثم خرج من الباب الآخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: أبقاما الله آية، فهي على الجودي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن

ابن عباس في قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَارَ﴾ قال: تقولون كذباً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿النَّشْأَةُ الْآخِرَةُ﴾ قال: هي: الحياة بعد الموت، وهو النشور. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿فَأَمِنْ لَهُ لوط﴾ قال: صثق لوط إبراهيم. وأخرج أبو يعلى، وابن مريويه عن أنس قال: «أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان، فقال النبي ﷺ: صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط». وأخرج ابن منده، وابن عساکر عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «هاجر عثمان إلى الحبشة، فقال النبي ﷺ: إنه أول من هاجر بعد إبراهيم ولوط». وأخرج ابن عساکر، والطبراني، والحاكم في الكنى عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان بين عثمان، وبين رقية، وبين لوط مهاجر». وأخرج ابن عساکر عن ابن عباس قال: أول من هاجر إلى رسول الله ﷺ عثمان بن عفان كما هاجر لوط إلى إبراهيم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال: هما ولدا إبراهيم، وفي قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ قال: إن الله وصى أهل الألبان ببنيه، فليس من أهل الألبان دين إلا وهم يقولون إبراهيم، ويرضون به. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ قال: الذكر الحسن. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الولد الصالح، والثناء، وقول ابن عباس: هما ولدا إبراهيم لعله يريد ولده، وولد ولده، لأن ولد الولد بمنزلة الولد، ومثل هذا لا يخفى على مثل ابن عباس، فهو حبر الأمة، وهذه الرواية عنه هي من رواية العوفي، وفي الصحيحين «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ النَّجْصَةَ مَا سَبَّحْتُمْ بِهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّيْلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الشُّكْرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِمَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْقَتِيلِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ لَا تَحْفَ وَلَا تُحَنِّنْ إِنَّا فَتْنُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ مِنْكَ الْقَتِيلِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا مُزِلُّوكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجُلًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ مِنْهَا مَا يَتَذَكَّرُ بِهِ لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِلَّا مَذَكَّرَ أَهْلَهُمْ شِعَابَ فَقَالَ يَنْفَرُوا أَغْدُوا اللَّهُ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَمْتَرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَاتَّخَذْتَهُمُ الرَّحْمَةُ قَانِصِينَ ﴿٢٧﴾ وَكَأَدَا وَتَكُونُوا وَقَدْ بُرِّتَ لَكُمْ مِنْ مَسْكُونِهِمْ وَزُرَّتْ لَهُمُ السَّيْلُتُنْ أَهْلَهُمْ

﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي: ريحاً تأتي بالحصباء، وهي الحصى الصغار فترجمهم بها، وهم قوم لوط ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهم ثمود وأهل مدين ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون وأصحابه ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهم قوم نوح وقوم فرعون ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ بما فعل بهم، لأنه قد أرسل إليهم رسلاً وأنزل عليهم كتبه ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ باستمرارهم على الكفر وتكذيبهم للرسل وعملهم بمعاصي الله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتَقْتُلُونَ فِي نَافَيْكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال: مجلسكم. وأخرج الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب، وابن عساكر عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه: ﴿وَتَقْتُلُونَ فِي نَافَيْكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال: كانوا يجلسون بالطريق، فيحذفون أبناء السبيل، ويسخرون منهم». قال الترمذي: بعد إخراجها، وتحسينه: ولا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سماك. وأخرج ابن مريويه عن جابر: أن النبي ﷺ نهى عن الحذف، وهو قول الله سبحانه: ﴿وَتَقْتُلُونَ فِي نَافَيْكُمُ الْمُنْكَرَ﴾. وأخرج ابن مريويه عن ابن عمر في الآية قال: هو الحذف. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عن عائشة في الآية قالت: الضراط. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ﴾ قال: الصيحة، وفي قوله: ﴿وَوَكُنَّا مَسْتَبْصِرِينَ﴾ قال: في الضلالة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ قال: قوم لوط ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ قال: ثمود ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ قال: قارون ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ قال: قوم نوح.

هذا الموضع، ومعنى كون الخسف من السماء: أن الأمر به نزل من السماء. قرأ ابن عامر «منزلون» بالتشديد. وبها قرأ ابن عباس. وقرأ الباقون بالتخفيف، والباء في ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ للسببية: أي: لسبب فسقهم ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي: أبقينا من القرية علامة، ودلالة بينة، وهي الآثار التي بها من الحجارة رجموا بها، وخراب الديار. وقال مجاهد: هو الماء الأسود الباقي على وجه أرضهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر، وخص من يعقل، لأنه الذي يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها ﴿وَالَّذِي مِيقِنُ لَخَاضِمِ شَعْبِي﴾ أي: وأرسلناه إليهم، وقد تقدم نكره، وذكر نسبه، ونكر قومه في سورة الأعراف، وسورة هود ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة، وخصوه بها ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: ترقعوه، وافعلوا اليوم من الأعمال ما يدفع عذابه عنكم. قال يونس النحوي: معناه: اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال ﴿وَلَا تَعْلَوْا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾ العُتُو، والعُتَى أشد الفساد. وقد تقدم تفسيره ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ﴾ أي: الزلزلة، وتقدم في سورة هود: ﴿وَإِذَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: 67] أي: صيحة جبريل، وهي سبب الرجفة ﴿فَصَاصِبُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ أي: أصبوا في بلدهم، أو منازلهم جائعين على الركب ميتين ﴿وَعَادًا وَثُمُودًا﴾ قال الكسائي: قال بعضهم: هو راجع إلى أول السورة: أي: ولقد فتنا الذين من قبلهم، وفتنا عادًا، وثمود، قال: وأحب إلي أن يكون على ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ﴾ أي: وأخذت عادًا، وثمود. وقال الزجاج: التقدير، وأهلكنا عادًا، وثمود، وقيل: المعنى: وذكر عادًا، وثمودًا إذ أرسلنا إليهم هودًا، وصالحاً ﴿وَوَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي: وقد ظهر لكم يا معشر الكفار من مساكنهم بالحجر، والأحاف آيات بينات تتعظون بها، وتتفكرون فيها، ففاعل تبين محذوف ﴿وَوُضِعَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ التي يعملونها من الكفر، ومعاصي الله ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ بهذا التزيين ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: الطريق الواضح الموصل إلى الحق ﴿وَوَكُنَّا مَسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال. قال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم، وقيل: المعنى: كانوا مستبصرين في كفرهم، وضلالتهم معجبين بها يحسبون أنهم على هدًى، ويرون أن أمرهم حق، فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ما عند أنفسهم ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ قال الكسائي: إن شئت كان محمولاً على «عادًا»، وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على «فصدهم عن السبيل» أي: وصد قارون وفرعون وهامان. وقيل التقدير: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عن عبادة الله ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي: فائتين، يقال: سبق طالبه: إذا فاته: وقيل: وما كانوا سابقين في الكفر، بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة، ﴿فَكَلَّا أَخْنَأُ بِنْتِي﴾ أي عاقبتنا بكفره وتكذيبه. قال الكسائي ﴿فَكَلَّا أَخْنَأُ﴾ أي فاختنا كلا بنتي

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الشَّكَرِيِّ اتَّخَذَتْ يَتِيمًا وَلَهُ أَرْحَمُ أَبْنَائِهِ لَيْتَ الشَّكَرِيُّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَكْفُلُ مَا دَّعَوْتَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمْعَوْنَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ أَتَى مَا أَرْجَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَمِيرُ الْمَلَائِكَةِ إِبْرَاهِيمُ نَذَرَ نَذْرًا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٥﴾ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِينَ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحْدٌ وَحْدٌ لَمْ يُولَدْ ﴿٦﴾

إليك من الكتاب أي: القرآن، وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن، والمحافظة على قراءته مع التبرير لآياته، والتفكر في معانيه **﴿واقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** أي: سم على إقامتها، واستمر على أدائها كما أمرت بذلك، وجملة **﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** تعليل لما قبلها، والفحشاء ما قبح من العمل، والمنكر ما لا يعرف في الشريعة: أي: تمنعه عن معاصي الله، وتبعده منها، ومعنى نهيا عن ذلك: أن فعلها يكون سبباً للانتهاك، والمراد هنا الصلوات المفروضة **﴿ولنذكر الله أكبر﴾** أي: أكبر من كل شيء: أي: أفضل من العبادات كلها بغير نكر. قال ابن عطية: وعندي أن المعنى: ولنذكر الله أكبر على الإطلاق: أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء، والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل ما لم يكن منه في الصلاة؛ لأن الإنتهاء لا يكون إلا من ذكر الله مراقب له. وقيل نكر الله أكبر من الصلاة في النهي عن الفحشاء، والمنكر مع مداومة عليه. قال الفراء، وابن قتيبة: المراد بالذكر في الآية التسبيح، والتهليل، يقول: هو أكبر، وأحرى بأن ينهى عن الفحشاء، والمنكر. وقيل: المراد بالذكر هنا الصلاة: أي: وللصلاة أكبر من سائر الطاعات، وعبر عنها بالذكر كما في قوله: **﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾** [الجمعة: 9] للدلالة على أن ما فيها من الذكر هو العمدة في تفضيلها على سائر الطاعات، وقيل: المعنى: ولنذكر الله لكم بالثواب، والثناء عليكم منه أكبر من نكركم له في عبادتكم، وصلواتكم، واختار هذا ابن جرير، ويؤيده حديث: «من نكرني في نفسه نكرته في نفسي، ومن نكرني في ماله نكرته في ماله خير منهم» **﴿وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ الصَّلَاةَ فَاعْلَمُوا أَنَّهَا لِلَّهِ وَلِلْيَوْمِ الْحَسِينِ﴾** لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشّرّ شراً **﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبية لهم على حجبهم، وبراهينهم رجاء إجابتهم إلى الإسلام، لا على طريق الإغلاظ، والمخاشنة **﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾** بأن أفرطوا في المجادلة، ولم يتأثروا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم، والتخشيش في مجادلهم، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بأن المراد بأهل الكتاب اليهود، والنصارى. وقيل: معنى الآية: لا تجادلوا من آمن بمحمد من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وسائر من آمن منهم إلا بالتي هي أحسن: يعني: بالموافقة فيما حثوكم به من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا القول هم الباقون على كفرهم. وقيل: هي الآية منسوخة بآيات القتال، وبذلك قال قتادة، ومقاتل. قال النحاس: من قال: هذه منسوخة احتج بأن الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. قال سعيد بن جبير، ومجاهد: إن المراد بالذين ظلموا منهم الذين نصبوا القتال للمسلمين، فجداهم بالسيف حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية **﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا﴾** من القرآن

قوله: **﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء﴾** يوالونهم، ويتكلمون عليهم في حاجاتهم من دون الله سواء كانوا من الجهاد، أو الحيوان، ومن الأحياء، أو من الأموات **﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾** فإن بيتها لا يغني عنها شيئاً لا في حر، ولا قر، ولا مطر، كذلك ما اتخذوه ولياً من دون الله، فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع، ولا يغني عنهم شيئاً. قال الفراء: هو مثل ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه، ولا تضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقيا حرّاً، ولا برداً. قال: ولا يحسن الوقف على العنكبوت؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيا من شيء شبهت الآلهة التي لا تنفع، ولا تضر به، وقد جوز الوقف على العنكبوت الاخفش، وغلطه ابن الأنباري قال: لأن اتخذت صلة للعنكبوت كأنه قال: كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً، فلا يحسن الوقف على الصلة بون الموصول، والعنكبوت تقع على الواحد، والجمع، والمنكر، والمؤنث، وتجمع على عنكب، وعنكبوتات، وهي: الدويبة الصغيرة التي تنسج نسجاً رقيقاً. وقد يقال لها: عنكب، ومنه قول الشاعر: كأنما يسقط من لغامها بيت عنكب على زمامها **﴿وإن لوهم للبيوت لبيت العنكبوت﴾** لا بيت أضعف منه مما يتخذ الهوام بيتاً، ولا يدانيه في الوهي، والوهن شيء من ذلك **﴿لو كانوا يعلمون﴾** أن اتخاذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتاً، أو لو كانوا يعلمون شيئاً من العلم لعلموا بهذا **﴿إن الله يعلم ما تدعون من دونه من شيء﴾** ما استفهامية، أو نافية، أو موصولة، ومن للتبعيض، أو مزيدة للتوكيد. وقيل: إن هذه الجملة على إضمار القول: أي: قل للكافرين: إن الله يعلم أي شيء يدعون من دونه. وحرم أبو علي الفارسي بأنها استفهامية، وعلى تقدير النفي كأنه قيل: إن الله يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شيء: يعني: ما تدعونه ليس بشيء، وعلى تقدير الموصولة: إن الله يعلم الذين تدعونهم من دونه، ويجوز أن تكون ما مصدرية، ومن شيء عبارة عن المصدر. قرأ عاصم، وأبو عمرو، ويعقوب (يدعون) بالتحية. واختار هذه القراءة أبو عبيد لنكر الأمم قبل هذه الآية. وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب **﴿وهو العزيز الحكيم﴾** الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام، والإتقان **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾** أي: هذا المثل، وغيره من الأمثال التي في القرآن نضربها للناس تنبيهاً لهم، وتقريباً لما بعد من أتهمهم **﴿وما يعقلها﴾** أي: يفهمها، ويتعقل الأمر الذي ضربناها لأجله **﴿إلا العالمون﴾** بالله الراسخون في العلم المتدبرون المتفكرون لما يتلى عليهم، وما يشاهدونه **﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾** أي: بالعدل، والقسط مراعيًا في خلقها مصالح عباد. وقيل: المراد بالحق كلامه، وقدرته، ومحل بالحق النصب على الحال **﴿إن في تلك آية للمؤمنين﴾** أي: لدلالة عظيمة، وعلامة ظاهرة على قدرته، وتفرده بالإلهية، وخص المؤمنين؛ لأنهم الذين ينتفعون بذلك **﴿اتل ما أوحى﴾**

﴿وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ﴾ من التوراة، والإنجيل: أي: آمنا بأنهما منزلان من عند الله، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، والبعثة المحمدية، ولا يدخل في ذلك ما حرّفوه، وببطلوه ﴿وَالِهَنَا وَالْهَكَمُ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له، ولا ضد، ولا ند ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: ونحن معاشر أمة محمد مطيعون له خاصة، لم نقل: عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا اتخذنا أحبارنا، ورهباننا أرباباً من دون الله، ويحتمل أن يراد، ونحن جميعاً منقادون له، ولا يقدر في هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتم من انقياد أهل الكتاب، وطاعتهم أبلغ من طاعتهم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية قال: ذاك مثل ضربه الله لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت. وأخرج أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد قال: قال رسول الله ﷺ: «العنكبوت شيطان مسخها الله، فمن وجدها، فليقتلها». وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن ميسرة قال: العنكبوت شيطان. وأخرج الخطيب عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت أنا، وأبو بكر الغار، فاجتمعت العنكبوت، فنسجت بالباب، فلا تقتلوها» وروى القرطبي في تفسيره عن عليّ أيضاً أنه قال: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه في البيت يورث الفقر. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني قال: نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود، والثانية على النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ لِلصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ قال: في الصلاة تنتهى ومزجر عن المعاصي. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عمران بن حصين قال: «سئل النبي ﷺ عن قول الله: ﴿إِنْ الصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فقال: من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له». وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بعداً». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي في الشعب عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»، وفي لفظ لم يزد بها من الله إلا بعداً. وأخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعاً نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مريويه عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه. قال السيوطي: وسنده ضعيف. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني في الشعب عنه نحوه موقوفاً. قال ابن كثير في تفسيره: والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وقتادة، والأعمش، وغيرهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَنْتُكَرَ اللَّهُ أَكْبَرَ﴾ يقول: ولذكر الله لعباده إذا نكروه أكبر من نكرهم إياه. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن

المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن ربيعة قال: سألتني ابن عباس عن قول الله: ﴿وَلَنْتُكَرَ اللَّهُ أَكْبَرَ﴾ فقلت: ذكر الله بالتسبيح، والتهليل، والتكبير قال: لنكر الله إياكم أكبر من نكركم إياه، ثم قال: أنكروني أنكركم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير عن ابن مسعود ﴿وَلَنْتُكَرَ اللَّهُ أَكْبَرَ﴾ قال: نكر الله العبد أكبر من نكر العبد لله. وأخرج ابن السني، وابن مريويه، والديلمي عن ابن عمر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: لها وجهان: نكر الله أكبر مما سواه، وفي لفظ: نكر الله عند ما حرّمه، ونكر الله إياكم أعظم من نكركم إياه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال: ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من نكر الله، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا أن يضرب بسيفه حتى يقطع، لأن الله يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلَنْتُكَرَ اللَّهُ أَكْبَرَ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والحاكم في الكنى، والبيهقي في الشعب عن عنترة قال: قلت لابن عباس: أي العمل أفضل؟ قال: نكر الله. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَا تَجَالُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: بلا إله إلا الله. وأخرج البخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصنّفوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلهنا، وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون». وأخرج البيهقي في الشعب، والديلمي، وأبو نصر السجزي في الإبانة عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوك، وقد ضلوا، إما أن تصنّفوا بباطل، أو تكذبوا بحق، والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعني». وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن ابن مسعود قال: لا تسألوا أهل الكتاب، وذكر نحو حديث جابر، ثم قال: فإن كنتم سألهم لا محالة، فانظروا ما واطأ كتاب الله، فخنوه، وما خالف كتاب الله، فدعوه.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالْيَوْمَ الْكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِسَبِيحٍ إِذَا لَرَأَى أَنْ يَخْلُوعَ ﴿٧٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنِّي أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٨٠﴾ أَوَلَمْ يَكُنْهُمْ أَتَى أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٨١﴾ قُلْ كُونُوا لِلَّهِ بَينِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

آيات من ربه أي: قال المشركون هذا القول، والمعنى: هلا أنزلت عليه آيات كآيات الأنبياء، وذلك كآيات موسى، وناقة صالح، وإحياء المسيح للموتى، ثم أمره الله سبحانه أن يجب عليهم، فقال: **﴿قل إنما الآيات عند الله﴾** ينزلها على من يشاء من عباده، ولا قدرة لأحد على ذلك **﴿وإنما أنا نذير مبين﴾** أنذركم كما أمرت، وأبين لكم كما ينبغي، ليس في قدرتي غير ذلك. قرأ ابن كثير، وأبو بكر، وحمزة، والكسائي (لولا أنزل عليه آية) بالإنفراد. وقرأ الباقون بالجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: (قل إنما الآيات) **﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾** هذه الجملة مستأنفة للرد على اقتراحهم، وبيان بطلانه: أي: أو لم يكف المشركين من الآيات التي اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذي قد تحذيتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه، فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى، وآيات غيره من الأنبياء لما آمنوا، كما لم يؤمنوا بالقرآن الذي يتلى عليهم في كل زمان، ومكان **﴿إن في ذلك﴾** الإشارة إلى الكتاب الموصوف بما نكر **﴿لرحمة﴾** عظيمة في الدنيا، والآخرة **﴿ونذكرى﴾** في الدنيا يتذكرون بها، وترشدكم إلى الحق **﴿لنقوم يؤمنون﴾** أي: لنقوم يصلقون بما جئت به من عند الله، فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك **﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾** أي: قل للمكذبين: كفى الله شهيداً بما وقع بيني، وبينكم **﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾** لا تخفى عليه من ذلك خافية، ومن جملته ما صدر بينكم، وبين رسوله **﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾** أي: آمنوا بما يعبدونه من دون الله، وكفروا بالحق، وهو: الله سبحانه، أولئك هم الجامعون بين خسران الدنيا، والآخرة **﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾** استهزاء، وتكنياً منهم بذلك كقولهم: **﴿أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾** [الأنفال: 32] **﴿ولولا لجل مسمى﴾** قد جعله الله لعذابهم، وعينه، وهو القيامة، وقال الضحاك: الأجل مدة أعمارهم؛ لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب **﴿لجاءهم العذاب﴾** أي: لولا ذلك الأجل المضروب لجاءهم العذاب الذي يستحقونه بذنوبهم. وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى، وقيل: الوقت الذي قدره الله لعذابهم في الدنيا بالقتل، والأسر يوم بدر. والحاصل أن لكل عذاب أجلاً لا يتقدم عليه، ولا يتأخر عنه كما في قوله سبحانه: **﴿لكل نيا مستقر﴾** [الأنعام: 67] وجملة **﴿وليأتينهم بغتة﴾** مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها، ومعنى بغتة: فجأة، وجملة **﴿وهم لا يشعرون﴾** في محل نصب على الحال: أي: حال كونهم لا يعلمون بآتيانه، ثم نكر سبحانه أن موعد عذابهم النار، فقال: **﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾** أي: يطلبون منك تعجيل عذابهم، والحال أن مكان العذاب محيط بهم: أي: سيحيط بهم عن قرب، فإن ما هو آت قريب، والمراد بالكافرين جنسهم، فيبخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولاً أولياً، فقوله:

﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ لَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ **﴿سَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ وَلَئِنْ جَهَنَّمُ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾** **﴿يَوْمَ يَشْفَعُ عَذَابُهُمْ بَيْنَهُمْ وَيَقُولُ دُوْعُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**

قوله: **﴿وكنك أنزلنا إليك الكتاب﴾** هذا خطاب لرسول الله ﷺ، والإشارة إلى مصدر الفعل كما بيناه في مواضع كثيرة: أي: ومثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا إليك الكتاب، وهو: القرآن، وقيل: المعنى: كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن **﴿فالنذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾** يعني: مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وخصهم بليتائهم الكتاب لكونهم العاملين به، وكان غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه، وجحدهم لصفات رسول الله ﷺ المذكورة فيه **﴿ومن هؤلاء من يؤمن به﴾** الإشارة إلى أهل مكة، والمراد أن منهم، وهو من قد أسلم من يؤمن به: أي: بالقرآن، وقيل: الإشارة إلى جميع العرب **﴿وما يجحد بآياتنا﴾** أي: آيات القرآن **﴿إلا الكافرون﴾** المصممون على كفرهم من المشركين، وأهل الكتاب **﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب﴾** الضمير في قبله راجع إلى القرآن؛ لأنه المراد بقوله: أنزلنا إليك الكتاب: أي: ما كنت يا محمد تقرأ قبل القرآن كتاباً، ولا تقدر على ذلك؛ لأنك أمي لا تقرأ، ولا تكتب **﴿ولا تخطه يمينك﴾** أي: ولا تكتبه؛ لأنك لا تقدر على الكتابة. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجنون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط، ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية. قال النحاس: وذلك دليل على نبوته؛ لأنه لا يكتب، ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل كتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء، والامم **﴿إذا لارتاب المبطلون﴾** أي: لو كنت ممن يقدر على التلاوة، والخط لقالوا: لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة، أو من الكتب المنوثة في أخبار الأمم، فلما كنت أمياً لا تقرأ، ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة، ولا محل للشك أبداً، بل إنكار من أنكر، وكفر من كفر مجرد عناد، وجود بلا شبهة، وسامم مبطلين؛ لأن ارتيابهم على تقدير أنه ﷺ يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور نزاهته، ووضوح معجزاته **﴿بل هو آيات بينات﴾** يعني: القرآن **﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾** يعني: المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهد ﷺ، وحفظوه بعده، وقال قتادة، ومقاتل: إن الضمير يرجع إلى النبي ﷺ: أي: بل محمد آيات بينات: أي: نو آيات. وقرأ ابن مسعود (بل هي آيات بينات) قال الفراء: معنى هذه القراءة: بل آيات القرآن آيات بينات.. واختار ابن جرير ما قاله قتادة، ومقاتل، وقد استدل لما قاله بقراءة ابن السميع (بل هذا آيات بينات) ولا دليل في هذه القراءة على ذلك، لأن الإشارة يجوز أن تكون إلى القرآن كما جاز أن تكون إلى النبي ﷺ، بل رجوعها إلى القرآن أظهر لعدم احتياج ذلك إلى التأويل، والتقدير **﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾** أي: المجاوزون للحد في الظلم **﴿وقالوا لولا أنزل عليه﴾**

أما ترى وجه رسول الله ﷺ، فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، فسرّي عن رسول الله ﷺ، وقال: لو نزل موسى فاتبعتموه، وتركتموني لضللتكم، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظي من الأمم». وأخرج نحوه عبد الرزاق، والبيهقي من طريق أبي قلابة عن عمر. وأخرج البيهقي، وصححه عن عمر بن الخطاب قال: «سألت رسول الله ﷺ عن تعلم التوراة، فقال: لا تتعلمها، وأمن بها، وتعلموا ما أنزل إليكم، وأمنوا به». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ قال: جهنم هو هذا البحر الأخضر تنتشر الكواكب فيه، وتكون فيه الشمس، والقمر، ثم يستوقد، فيكون هو: جهنم، وفي هذا نكارة شديدة، فإن الأحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بأن جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة.

يَعْبَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَرِسْمِي فَأَنَّى فَاعُدُّونَ ﴿٦٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْعَذَابِ ثُمَّ إِنَّهَا تُرْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا يُجْرُونَ فِيهَا الْأَنْهَارُ خَالِينَ فِيهَا يَمْشُونَ فِي الْأَعْلَاقِ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ سَبَّوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٩﴾ وَكَانَ مِنْ دَائِقَةٍ لَا تَحِيلُ رِزْقُهَا اللَّهُ رِزْقُهَا وَإِنَّا كَاشِفُوكَ السَّيْحِ السَّيْحُ ﴿٧٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَمَّرَ السَّنَنَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ زَلَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبِئْهُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَدْوٍ مَوْجِئًا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَئِبٌ وَالْآدَارُ الْآخِرَةُ لَئِي الْحَيَوةِ تَوْكَانُوا يَسْمُرُونَ ﴿٧٤﴾ فَلَمَّا رَكِبُوا فِي السَّمَاءِ دَعَا اللَّهُ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ قَالُوا جَنَّبْهُمْ إِلَى اللَّهِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٧٥﴾ يَكْفُرُوا بِمَا ءَامَنَتْهُمْ وَلَيَسْمَعَنَّ سَوْفَ يَسْمُرُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَأْمُورًا وَحَصَفْنَا النَّاسَ مِنْ حَوَائِجِهِمْ أَفَبَالِغِ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَنَنْ أَعْلَمُ مِمَّنْ أَفَرَّقَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَوْكُؤُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٩﴾

لما نكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب، ومن المشركين، وجمعهم في الإنذار، وجعلهم من أهل النار اشتدّ عنادهم، وزاد فسادهم، وسعوا في إيذاء المسلمين بكل وجه، فقال الله سبحانه: ﴿يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفاً، وتكريماً، والذين آمنوا صفة موصحة، أو مميزة ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان، وفي مكيدة للكفار، فآخروا منها؛ لتتيسر لكم عبادتي وحدي، وتسهل عليكم. قال الزجاج: أمروا بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله، وكذلك يجب على من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي، ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له أن يعبد الله حق عبادته. وقال

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ إخبار عنهم، وقوله ثانياً: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ تعجب منهم، وقيل: التكرير للتأكيد. ثم نكر سبحانه كيفية إحاطة العذاب بهم، فقال: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: من جميع جهاتهم، فإذا غشيهم العذاب على هذه الصفة، فقد أحاطت بهم جهنم ﴿وَنَقُولُ نُوَقِّوْا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ القائل: هو الله سبحانه، أو بعض ملائكته يأمره، أي: نوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر، والمعاصي. قرأ أهل المدينة^(١)، والكوفة (نقول) بالنون. وقرأ الباقر بالتحية، واختار القراءة الأخيرة أبو عبيد لقوله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عتبة (ويقال نوقوا).

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والإسماعيلي في معجمه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب كان أمياً، وفي قوله: ﴿جِبِلَّ﴾ هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، قال: كان الله أنزل شأن محمد في التوراة، والإنجيل لأهل العلم، وعلمه لهم، وجعله لهم آية، فقال لهم: إن آية نبوته أن يخرج حين يخرج، ولا يعلم كتاباً، ولا يخطه بيمينه، وهي الآيات البينات التي قال الله تعالى. وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من قبله من كتاب. الآية قال: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ، ولا يكتب. وأخرج الفريابي، والدارمي، وأبو داود في مراسيله، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة قال: جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: «كفى بقوم حقاً، أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الآية. وأخرجه الإسماعيلي في معجمه، وابن مروي من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة، فنكره بمعناه. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، والبيهقي في الشعب عن الزهري: «أن حفصة جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف، فجعلت تقرأه، والنبي ﷺ يتلون وجهه، فقال: والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف، وأنا نبيكم فاتبعتموه، وتركتموني لضللتكم». وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن الضريس، والحاكم في الكنى، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن الحارث الأنصاري قال: «دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة، فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب عرضها عليك، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً لم أر مثله قط، فقال عبد الله بن الحارث لعمر:

(١) (قوله قرأ أهل المدينة إلخ) هكذا بالأصل ولعله سهو أو سبق قام، والصواب أن أهل المدينة والكوفة يقرءون ويقولون بالياء التحية والباقر بالنون اهـ ع.

مطرف بن الشخير: المعنى: إن رحمتي واسعة، ورزقي لكم واسع، فابتغوه في الأرض. وقيل: المعنى: إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة، فاعبدون حتى أورثكموها. وانتصاب إياي بفعل مضمَر: أي: فاعبدوا إياي. ثم خوفهم سبحانه بالموت؛ ليهون عليهم أمر الهجرة، فقال: ﴿كُلْ نَفْسٌ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت لا محالة، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان، ومفارقة الإخوان، والخلان، ثم إلى الله المرجع بالموت، والبعث لا إلى غيره، فكل حي في سفر إلى دار القرار، وإن طال لبثه في هذه الدار ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ في هذا الترغيب إلى الهجرة، وإن جزاء من هاجر أن يكون في غرف الجنة، ومعنى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾: لننزلنهم غرف الجنة، وهي علاليها: فانتصاب غرفاً على أنه المفعول الثاني على تضمين نبوتهم معنى: ننزلنهم، أو على الظرفية مع عدم التضمين، لأن نبوتهم لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، وإما منصوب بنزع الخافض اتساعاً: أي: في غرف الجنة، وهو مأخوذ من المباءة، وهي: الإنزال. قرأ أبو عمرو، ويعقوب، والجحدري، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، والأعمش، وحزمة، والكسائي، وخلف (يا عبادي) بإسكان الياء، وفتحها الباقون. وقرأ ابن عامر (إن أرضي) بفتح الياء، وسكنها الباقون. وقرأ السلمي، وأبو بكر عن عاصم (يرجعون) بالتحية، وقرأ الباقون بالفوقية. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، ويحيى بن وثاب وحزمة، والكسائي (لننوينهم) بالياء المثناة مكان الياء الموحدة، وقرأ الباقون بالياء الموحدة، ومعنى لننوينهم بالمثناة: لنعطينهم غرماً يثوون فيها من الثوى، وهو: الإقامة. قال الزجاج، يقال: ثوى الرجل: إذا أقام، وثويته: إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه. قال الأخفش: لا تعجبني هذه القراءة، لأنك لا تقول: ثويته الدار، بل تقول: في الدار، وليس في الآية حرف جرٍّ في المفعول الثاني. قال أبو علي الفارسي: هو على إرادة حرف الجرِّ، ثم حذف كما تقول: أمرتك الخير: أي: بالخير. ثم وصف سبحانه تلك الغرف، فقال: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت الغرف ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الغرف لا يموتون أبداً، أو في الجنة، والأول أولى ﴿نَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف: أي: نعم أجر العاملين أجراً، والمعنى: العاملين للأعمال الصالحة. ثم وصف هؤلاء العاملين، فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على مشاق التكليف، وعلى آنية المشركين لهم، ويجوز أن يكون منصوباً على المدح ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يفوضون أمورهم إليه في كل إقدام، وإحجام. ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر، والتوكل، وهو النظر في حال الدواب، فقال: ﴿وَوَكَّائِنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ قد تقدم الكلام في كائين، وإن أصلها أي: دخلت عليه كاف التشبيه،

وصار فيها معنى: كم كما صرح به الخليل، وسيبويه، وتقديرها عندهما كشيء كثير من العدد من دابة. وقيل: المعنى: وكم من دابة. ومعنى «لا تحمل رزقها» لا تطيق حمل رزقها لضعفها، ولا تنخره، وإنما يرزقها الله من فضله، ويرزقكم، فكيف لا يتوكلون على الله مع قوتهم، وقدرتهم على أسباب العيش كتوكلها على الله مع ضعفها، وعجزها. قال الحسن: تاكل لوقتها، لا تنخر شيئاً. قال مجاهد: يعني: الطير، والبهائم تاكل بأفواهها، ولا تحمل شيئاً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ الذي يسمع كل مسموع ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم. ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة، وغيرهم، وعجب السامع من كونهم يقرّون بأنه خالقهم، ورازقهم، ولا يوحدونه، ويتركون عبادة غيره، فقال: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُوا اللَّهُ﴾ أي: خلقها، لا يقدرون على إنكار ذلك، ولا يتمكنون من جحوده ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرّده بالإلهية، وأنه وحده لا شريك له، والاستفهام للإنكار، والاستبعاد. ولما قال المشركون لبعض المؤمنين: لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع سبحانه ذلك بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: التوسيع في الرزق، والتقدير له هو من الله الباسط القابض يبسطه لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء على حسب ما تقتضيه حكمته، وما يليق بحال عباده من القبض، والبسط، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح عباده، وفسادهم ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُوا اللَّهُ﴾ أي: نزله، وأحيا به الأرض الله، يعترفون بذلك لا يجدون إلى إنكاره سبيلاً. ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف في هذه الآيات، وهو يقتضي بطلان ما هم عليه من الشرك، وعدم إفراد الله سبحانه بالعبادة، أمر رسوله ﷺ أن يحمد الله على إقرارهم، وعدم جحودهم مع تصلبهم في العناد، وتشددهم في رد كل ما جاء به رسول الله من التوحيد، فقال: ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أحمد الله على أن جعل الحق معك، وأظهر حجرك عليهم، ثم نهم فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأشياء التي يتعقلها العقلاء. فلذلك لا يعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ما هم عليه عند كل عاقل. ثم أشار سبحانه إلى تحقير الدنيا، وأنها من جنس اللعب، واللهو: وأن الدار على الحقيقة هي: دار الآخرة، فقال: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ من جنس ما يلهو به الصبيان، ويلعبون به ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾. قال ابن قتبية، وأبو عبيدة: إن الحيوان الحياة. قال الواحدي: وهو قول جميع المفسرين ذهبوا إلى أن معنى الحيوان هنا: الحياة، وأنه مصدر بمنزلة الحياة، فيكون كالنزوان، والغليان، ويكون التقدير: وإن الدار الآخرة

﴿وَالَّذِينَ جَاهَلُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: جاهلوا في شأن الله لطلب مرضاته، ورجاء ما عنده من الخير؛ لنهدينهم سبلنا: أي: الطريق الموصل إلينا. قال ابن عطية: هي مكينة نزلت قبل فرض الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله، وطلب مرضاته، وقيل: الآية هذه نزلت في العباد. وقال إبراهيم بن آدم: هي في الذين يعملون بما يعلمون ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر، والعون، ومن كان معه لم يخذل، وبخلت لام التوكيد على مع بتأويل كونها اسماً، أو على أنها حرف، وبخلت عليها لإفادة معنى الاستقرار كما تقول: إن زيذاً لفي الدار، والبحث مقرر في علم النحو.

قد أخرج ابن مريويه عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]؛ قلت: يا ربِّ أيموت الخلائق كلهم، ويبقى الأنبياء؟ فنزلت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 57]». وينظر كيف صفة هذا، فإن النبي ﷺ بعد أن يسمع قول الله سبحانه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ يعلم أنه ميت، وقد علم أن من قبله من الأنبياء قد ماتوا، وأنه خاتم الأنبياء، فكيف ينشأ عن هذه الآية ما سأل عنه علي رضي الله عنه من قوله: «أيموت الخلائق ويبقى الأنبياء»، فلعل هذه الرواية لا تصح مرفوعة، ولا موقوفة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي، وابن عساکر، قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عمر قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط التمر، ويأكل، فقال لي: مالك لا تأكل؟ قلت: لا أشتهي يا رسول الله، قال: لكنني أشتهيه، وهذه صبح رابعة منذ لم ألق طعماً، ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي، فأعطيني مثل ملك كسرى، وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يحبون رزق سنتهم، ويضعف اليقين. قال: فوالله ما برحنا، ولا رمنا حتى نزلت ﴿وَعَايَنَ مِنَ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، ألا وإنني لا أكنز ديناراً، ولا درهماً، ولا أخبأ رزقاً لخد». وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبي ﷺ، فقد كان يعطي نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتمدة. وفي إسناده أبو العطف الجوزي، وهو ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ قال: باقية. وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عجباً كل العجب للمصنق بدار الحيوان، وهو يسعى لدار الغرور»، وهو مرسل.

لهي دار الحيوان، أو ذات الحيوان: أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول، ولا ينقصها موت، ولا مرض، ولا هم، ولا غم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم لما آثروا عليها الدار الفانية المنقصة. ثم بين سبحانه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلا مجرد تأثير الحياة، فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَاُ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: إذا انقطع رجائهم من الحياة، وخافوا الغرق رجعوا إلى الفطرة، فدعوا الله وحده كائنين على صورة المخلصين له الذين يصدق نياتهم، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه ﴿فَلَمَّا نَجَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فاجتثوا المعاودة إلى الشرك، ودعوا غير الله سبحانه. والركوب هو: الاستعلاء، وهو متعد بنفسه، وإنما عدّي بكلمة في للإشعار بأن المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة، واللام في ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ للتعليل: أي: فاجتثوا الشرك بالله؛ ليكفروا بنعمة الله، وليتمتعوا بهما، فهما في الفعلين لام كي، وقيل: هما لاما الأمر تهديداً، ووعيداً: أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة، وتمتعوا، ويدل على هذه القراءة قراءة أبي (وتمتعوا) وهذا الاحتمال للامرين إنما هو على قراءة أبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وورش بكسر اللام، وأما على قراءة الجمهور بسكونها فلا خلاف أنها لام الأمر، وفي قوله: ﴿فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد عظيم لهم: أي: فسيعلمون عاقبة ذلك، وما فيه من الويلاء عليهم ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَأْمُورًا﴾ أي: ألم ينظروا: يعني: كفار قريش أننا جعلنا حرمهم هذا حرمًا آمناً يأمن فيه ساكنه من الغارة، والقتل، والسبي، والنهب، فصاروا في سلامة، وعافية مما صار فيه غيره من العرب، فإنهم في كل حين تطرقهم الغارات، وتجتاح أموالهم الغزاة، وتسفك دماءهم الجنود، وتستبيح حرمهم، وأموالهم شطار العرب، وشياطينها، وجملته ﴿وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ في محل نصب على الحال: أي: يختلسون من حولهم بالقتل والسبي، والنهب، والخطف: الأخذ بسرعة، وقد مضى تحقيق معناه في سورة القصص ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾، وهو: الشرك بعد ظهور حجة الله عليهم، وإقرارهم بما يوجب التوحيد ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ يجعلون كفرها مكان شكرها، وفي هذا الاستفهام من التقرير، والتوبيخ ما لا يقادر قدره ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كُتُبًا﴾ أي: لا أحد أظلم منه، وهو من زعم أن الله شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: كذب بالرسول الذي أرسل إليه، والكتاب الذي أنزله على رسوله. وقال السدي: كذب بالتوحيد، والظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حق. ثم هذ المكذبين، وتوعدهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي مكان يستقرّون فيه والاستفهام للتقرير، والمعنى: أليس يستحقون الاستقرار فيها، وقد فعلوا ما فعلوا. ثم لما ذكر حال المشركين الجاحدين للتوحيد الكافرين بنعم الله أرفده بحال عباداه الصالحين، فقال:

تفسير سورة الروم

وأخرج ابن الضريق، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة الروم بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، قال السيوطي بسند حسن عن رجل من الصحابة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ فيها سورة الروم. وأخرج البزار عن الأغرّ المدني مثله. وأخرج عبد الرزاق عن معمر، عن عبد الملك بن عمير: أن النبي ﷺ قرأ في الفجر يوم الجمعة بسورة الروم. وأخرج ابن أبي شيبه في المصنف، وأحمد، وابن قانع من طريق عبد الملك بن عمير مثل حديث الرجل الذي من الصحابة، وزاد: يتردد فيها، فلما انصرف قال: إنما يلبس علينا في صلاتنا قوم يحضرون الصلاة بغير طهور، من شهد الصلاة، فليحسن الطهور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَلَمْ يَغْلِبْ اَلرُّومُ ۝١ فِيْ اَدْنٰى اَلْاَرْضِ وَمِمَّ يَّمْدُ غَلَبُهُمْ سَبْعِلَاوَنَ ۝٢ فِيْ بَضْعِ سِنِيْنَ ۝٣ اِلَّا اَلْاَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَهِيَ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُوْنَ ۝٤ بَنَصَّرَ اللّٰهُ يَصْرُ مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ اَلْمَكِيْذُ الرَّحِيْمُ ۝٥ وَعَدَ اللّٰهُ لَا يَخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ ۝٦ يَعْلَمُوْنَ ظٰلِمًا مِّنَ الظّٰلِمَةِ اَلَّذِيْنَ وَهَمَّ عَنِ الْاٰخِرَةِ فَرَّغَتْ ۝٧ اَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوْا فِيْ اَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا اِلَّا يَوْمًا وَّجَدٍ مُّسَوًّى ۝٨ كَذٰلِكَ يَنْتَظِرُ النَّاسُ يَلْقَآءَ رَبِّهِمْ لَكٰثِرُوْنَ ۝٩ اَوَلَمْ يَسِيرُوْا فِيْ الْاَرْضِ فَيَنْظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عٰقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوْا اَمْدًا مِّنْهُمْ قُوًى وَّاتَّخَذُوْا اَلْاَرْضَ وِعٰرَةً وَمَا اَكْثَرُ مَا عَمَرُوْا وَمَا عَمْرُؤُكُمْ اِلَّا يَوْمًا مِّنْ لَّيْلٍ ۝١٠ لَّيْظِلُّهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوْا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ ۝١١ ثُمَّ كَانَ عٰقِبَةُ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اَلْاَشْرَآءُ اَنۡ كَذَّبُوْا بِعٰثَةِ اللّٰهِ وَكَانُوْا فِيْ سَبۜتِهٖزۜوَنَ ۝١٢

قد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة في فاتحة سورة البقرة، وتقدم الكلام على محلها من الإعراب، ومحل أمثالها في غير موضع من فواتح السور، قرأ الجمهور. غلبت الروم بضم الغين المعجمة، وكسر اللام مبنياً للمفعول، وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو سعيد الخدري، ومعاوية بن قرة، وابن عمر، وأهل الشام بفتح الغين، واللام مبنياً للفاعل. قال النحاس: قراءة أكثر الناس (غلبت) بضم الغين، وكسر اللام. قال أهل التفسير: غلبت فارس الروم، ففرح بذلك كفار مكة، وقالوا: الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب، واقتضوا على المسلمين، وقالوا: نحن أيضاً نغلبكم كما غلبت فارس الروم، وكان المسلمين يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب. ومعنى ﴿فِي أَنْتَى الْأَرْضِ﴾: في أقرب أرضهم من أرض العرب، أو في أقرب أرض العرب منهم، قيل: هي أرض الجزيرة، وقيل: أنرعات، وقيل: كسكر، وقيل:

الأدرن، وقيل: فلسطين، وهذه المواضع هي أقرب إلى بلاد العرب من غيرها، وإنما حملت الأرض على أرض العرب؛ لأنها المعهود في أسنتهم إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب، وقيل: إن الألف واللام عوض عن المضاف إليه، والتقدير: في أننى أرضهم، فيعود الضمير إلى الروم، ويكون المعنى: في أقرب أرض الروم من العرب. قال ابن عطية: إن كانت الوقعة بأنرعات، فهي من أننى الأرض بالقياس إلى مكة، وإن كانت الوقعة بالجزيرة، فهي أننى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأدرن، فهي أننى إلى أرض الروم ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَبْعِلَاوَنَ﴾ أي: والروم من بعد غلب فارس إياهم سبعمائة ألف فارس، والغلب والغلبة لغتان، والمصدر مضاف إلى المفعول على قراءة الجمهور، وإلى الفاعل على قراءة غيرهم. قرأ الجمهور (سبعمائة) مبنياً للفاعل، وقرأ علي، وأبو سعيد، ومعاوية بن قرة، وابن عمر، وأهل الشام على البناء للمفعول، وسيأتي في آخر البحث ما يقوي قراءة الجمهور في الموضعين. وقرأ أبو حيو الشامي، وابن السميع (من بعد غلبهم) بسكون اللام ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ متعلق بما قبله، وقد تقدم تفسير البضع، واشتقاقه في سورة يوسف، والمراد به هنا ما بين الثلاثة إلى العشرة ﴿لَهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: هو المنفرد بالقدرة، وإنقاذ الأحكام وقت مغلوبيتهم، ووقت غالبيتهم، فكل ذلك بأمر الله سبحانه، وقضائه، قرأ الجمهور (من قبل ومن بعد) بضمهما لكونهما مقطوعين عن الإضافة، والتقدير: من قبل الغلب، ومن بعده، أو من قبل كل أمر ومن بعده. وحكى الكسائي من قبل ومن بعد بكسر الأول منوناً، وضم الثاني بلا تنوين. وحكى الفراء من قبل ومن بعد بكسرهما من غير تنوين، وغلطه النحاس. قال شهاب الدين: قد قرئ بكسرهما منونين. قال الزجاج: ومعنى الآية: من متقدم، ومن متاخر ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * بنصر الله أي: يوم أن تغلب الروم على فارس في بضع سنين يفرح المؤمنون بنصر الله للروم لكونهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب، بخلاف فارس، فإنه لا كتاب لهم، ولهذا سراً المشركون بنصرهم على الروم، وقيل: نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس، والأول أولى. قال الزجاج: وهذه الآية من الآيات التي تدل على أن القرآن من عند الله؛ لأنه إنباء بما سيكون، وهذا لا يعلمه إلا الله سبحانه ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن ينصره ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر ﴿الرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة لعباده المؤمنين، وقيل: المراد بالرحمة هنا: اللينوبة، وهي شاملة للمسلم، والكافر ﴿وَعَدَ اللّٰهُ لَا يَخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ﴾ أي: وعد الله وعداً لا يخلفه، وهو ظهور الروم على فارس ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله لا يخلف وعده، وهم الكفار، وقيل: كفار مكة على الخصوص ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: يعلمون ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا، وملأها، وأمر معاشهم،

يظلمون» بالكفر، والتكذيب «ثم كان عاقبة الذين أساءوا» أي: عملوا السيئات من الشرك والمعاصي «للسوأى» هي فعلى من السوء ثانيث الأسوأ، وهو: الأقيح: أي: كان عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات، وقيل: هي اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة، ويجوز أن تكون مصدراً كالبحر، والذكرى، وصفت به العقوبة مبالغة. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاقبة بالرفع على أنها اسم كان، وتكثير الفعل لكون ثانيثها مجازياً. والخبر السوأى: أي: الفعلة، أو الخصلة، أو العقوبة السوأى، أو الخبر «أن كذبوا» أي: كان آخر أمرهم التكذيب، وقرأ الباقر «عاقبة» بالنصب على خبر كان، والاسم السوأى، أو أن كذبوا، ويكون التقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا، والسوأى مصدر أساءوا، أو صفة لمحتوف. وقال الكسائي: إن قوله: «أن كذبوا» في محل نصب على العلة: أي: لأن كذبوا بآيات الله التي أنزلها على رسله، أو بأن كذبوا، ومن القائلين بأن السوأى: جهنم، الفراء، والزجاج، وابن قتيبة، وأكثر المفسرين، وسميت: سوأى لكونها تسوء صاحبها. قال الزجاج: المعنى: ثم كان عاقبة الذين أشركوا النار بتكذيبهم آيات الله، واستهزأهم، وجملة «وكانوا بها يستهزءون» عطف على كذبوا داخلة معه في حكم العلية على أحد القولين، أو في حكم الاسمية لكان، أو الخبرية لها على القول الآخر.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، والحاكم، وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، والضياع في المختارة عن ابن عباس في قوله: «وَالْم * غلبت الروم» قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم كانوا أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أصحاب كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون»، فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل بينهم أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال: ألا جعلته أراه قال: دون العشر، فظهرت الروم بعد ذلك، فذلك قوله: «وَالْم * غلبت الروم» فغلبت، ثم غلبت بعد بقول الله: «لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله» قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مروي، وابن عساکر عن البراء بن عازب نحوه، وزاد: أنه لما مضى الأجل، ولم تغلب الروم فارساً، ساء النبي ما جعله أبو بكر من المدة، وكرهه وقال: ما دعاك إلى هذا؟ قال: تصديقاً لله ولرسوله، فقال: تعرض لهم، وأعظم الخطة، واجعله إلى بضع سنين، فأتاهم أبو بكر فقال: هل لكم في العود، فإن العود أحمد؟ قالوا: نعم، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارساً، وربطوا

وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية، وقيل: هو ما تلقية الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع، وقيل: الظاهر الباطل «وهم عن الآخرة» التي هي النعمة الدائمة، واللذة الخالصة «هم غافلون» لا يلتفتون إليها، ولا يعدون لها ما يحتاج إليه، أو غافلون عن الإيمان بها، والتصديق بمجيئها «وَأَوَّلَم يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا» الهمزة للإنكار عليهم، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره، وفي أنفسهم ظرف للتفكر، وليس مفعولاً للتفكر، والمعنى: أن أسباب التفكير حاصلة لهم، وهي أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانية الله، وصدق أنبيائه، وقيل: إنها مفعول للتفكر. والمعنى: أو لم يتفكروا في خلق الله إياهم، ولم يكونوا شيئاً، «وَمَا فِي مَا خَلَقَ اللَّهُ» نافية: أي: لم يخلقها إلا بالحق الثابت الذي يحق ثبوته، أو هي اسم في محل نصب على إسقاط الخافض: أي: مما خلق الله، والعامل فيها إما العلم الذي يؤدي إليه التفكير، وقال الزجاج في الكلام حذف: أي: فيعلموا، فجعل ما معموله للفعل المقدر لا للعلم المنلول عليه، والباء في «إِلَّا بِالْحَقِّ» إما للسببية، أو هي وجوبها في محل نصب على الحال: أي: ملتبسة بالحق. قال الفراء: معناه: إلا للحق: أي: للثواب، والعقاب، وقيل: بالحق بالعدل، وقيل: بالحكمة، وقيل: بالحق: أي: أنه هو الحق، وللحق خلقها «وَوَجَّلَ مَسْمَى» معطوف على الحق: أي: وبأجل مسمى للسماوات، والأرض، وما بينهما تنتهي إليه، وهو: يوم القيامة، وفي هذا تنبيه على الفناء، وأن لكل مخلوق أجلاً لا يجاوزه. وقيل: معنى «وَوَجَّلَ مَسْمَى»: أنه خلق ما خلق في وقت سماه لخلق ذلك الشيء «وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ» أي: لكافرون بالبعث بعد الموت، واللام هي: المؤكدة، والمراد بهؤلاء الكفار على الإطلاق، أو كفار مكة «وَأَوَّلَم يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» الاستفهام للتقريع، والتوبيخ لعدم تفكيرهم في الآثار، وتأملهم لمواقع الاعتبار، والفاء في «فَيَنْظُرُوا» للعطف على يسيروا داخل تحت ما تضمنه الاستفهام من التقريع، والتوبيخ، والمعنى: أنهم قد ساروا وشاهدوا «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من طوائف الكفار الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم بالله، وجودهم للحق، وتكذيبهم للرسول، وجملة «كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً» مبينة للكيفية التي كانوا عليها، وأنهم أقدر من كفار مكة، ومن تابعهم على الأمور الدنيوية، ومعنى «وَأَتَارَا الْأَرْضَ»: حرثوها، وقلبوها للزراعة، وزاولوا أسباب ذلك، ولم يكن أهل مكة أهل حرث «وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا» أي: عمروها عمارة أكثر مما عمرها هؤلاء، لأن أولئك كانوا أطول منهم أعماراً، وأقوى أجساماً، وأكثر تحصيلاً لأسباب المعاش، فعمروا الأرض بالابنية، والزراعة، والغرس «وَوَاعَدْتُمْ رَسُولَهُمْ بِالْأَيَّاتِ الْمَعْجَزَاتِ، وَقِيلَ: بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ» بتعذيبهم على غير ذنب «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ

خَبِلُوهُم بِالْمَدَائِنِ، وَبَنُوا رُومِيَّةً، فَقَمَر أَبُو بَكْرٍ، فَجَاءَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ يَحْمِلُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: هَذَا السَّحْتُ تَصَدَّقُ بِهِ. وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَالدَّارِقُطْنِيُّ فِي الْأَفْرَادِ، وَالطَّبْرَانِيُّ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الدَّلَائِلِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ عَنْ نَيْبَارِ بْنِ مَكْرَمٍ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَلَمْ * غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ الْآيَةُ كَانَتْ فَارَسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَاهِرِينَ الرُّومَ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَحْبُونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ وَإِيَاهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وَكَانَتْ قَرِيشٌ تَحَبُّ ظُهُورَ فَارَسٍ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَاهُمْ لَيْسُوا أَهْلُ كِتَابٍ، وَلَا إِيْمَانُ بِهِمْ، فَلَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ يَصْبِيحُ فِي تَوَلَّحِي مَكَّةَ ﴿وَلَمْ * غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ فِي أَنْبَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سَنَيْنٍ﴾ فَقَالَ نَاسٌ مِنْ قَرِيشٍ لِأَبِي بَكْرٍ: ذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ يَزْعُمُ صَاحِبُكَ: أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارَسَ فِي بَضْعِ سَنَيْنٍ، أَقْلًا نَرَاهُكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ، فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ، وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانِ، وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ: لَمْ تَجْعَلِ الْبَضْعَ ثَلَاثَ سَنِينَ إِلَى تِسْعِ سَنَيْنٍ، فَسَمِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا نَنْتَهِي إِلَيْهِ، قَالَ: فَسَمُوا بَيْنَهُمْ سِتَّ سَنَيْنٍ، فَمَضَتْ السَّتُّ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا، فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا نَخَلَتْ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الرُّومُ، فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَتِهِ سِتَّ سَنَيْنٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿فِي بَضْعِ سَنَيْنٍ﴾ فَاسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ. وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: «لَا احْتِطْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ الْبَضْعَ مَا بَيْنَ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ». وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ فِي تَارِيخِهِ نَحْوَهُ. وَأَخْرَجَ الْفَرِيَابِيُّ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدَأَ ظَهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارَسٍ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ، فَنَزَلَتْ ﴿وَلَمْ * غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ قَرَاهَا بِالنَّصَبِ، يَعْنِي: لِلْغَيْنِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾. قَالَ: فَفَرِحَ الْمُؤْمِنُونَ بِظُهُورِ الرُّومِ عَلَى فَارَسٍ، وَهَذِهِ الرُّوَايَةُ مَفْسُورَةٌ لِقِرَاءَةِ أَبِي سَعِيدٍ وَمَنْ مَعَهُ. وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ ﴿وَلَمْ * غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ يَعْنِي: بِفَتْحِ الْغَيْنِ، وَإِنَّمَا هِيَ غَلِبَتْ، يَعْنِي: بِضَمِّهَا، وَفِي الْبَابِ: رَوَايَاتٌ، وَمَا نَكْرَاهُ يَغْنِي عَمَّا سِوَاهُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَعْنِي: مَعَالِيَهُمْ مَتَى يَفْرُسُونَ، وَمَتَى يَزْرَعُونَ، وَمَتَى يَحْصُدُونَ، وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بَيْنَ مَنْكَبَيْهِ مِيلٌ.

قوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ﴾ أي: يخلقهم أولاً، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ إلى موقف الحساب، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيئ بإساءته، وأقرض الضمير في يعيده باعتبار لفظ الخلق، وجمعه في ترجعون باعتبار معناه. قرأ أبو بكر، وأبو عمرو (يرجعون) بالتحية. وقرأ الباقون بالقوية على الخطاب، والالتفات المؤذن بالمبالغة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قرأ الجمهور «يبلس» على البناء للفاعل. وقرأ السلمي على البناء للمفعول، يقال: أبلس الرجل: إذا سكت، وانقطعت حجتة. قال الفراء والزجاج: البليس الساكط المنقطع في حجتة الذي آيس أن يهتدي إليها، ومنه قول العجاج:

يا صاح هل تعرف رسماً مكروساً قال نعم اعرفه وأبلساً وقال الكلبي: أي: يئس المشركون من كل خير حين عاينوا العذاب، وقد قُتِمْنَا تفسير الإيلاس عند قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مِبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44] «ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء» أي: لم يكن للمشركين يوم تقوم الساعة من شركائهم الذين عبروهم من نون الله شفعاء يجيرونهم من عذاب الله «وكانوا» في ذلك الوقت «بشركائهم» أي: بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء لله «كافرين» أي: جاحدين لكونهم آلهة؛ لأنهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون، ولا يضررون، وقيل: إن معنى الآية: كانوا في الدنيا كافرين بسبب عبادتهم، والأول أولى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي: يتفرق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ والمراد بالتفرق أن كل طائفة تنفرد، فالْمُؤْمِنُونَ يصيرون إلى الجنة، والكافرون إلى النار، وليس المراد تفرق كل فرد منهم عن الآخر، ومثله قوله تعالى:

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٠٠﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٠١﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢٠٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ أَثَاقُهَا

تصبحون»، والمعنى: حيناً تمشون فيه، وحيناً تصبحون فيه، والعشي من صلاة المغرب إلى العتمة قاله الجوهري، وقال قوم: هو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، ومنه قول الشاعر:

غبونا غدوة سحرًا بليل عشيا بعد ما انتصف النهار
وقوله: ﴿عشياً﴾ معطوف على حين، وفي السموات متعلق بنفس الحمد: أي: الحمد له يكون في السموات، والأرض ﴿يخرج الحي من الميت﴾ كالإنسان من النطفة، والطير من البيضة ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ كالنطفة، والبيضة من الحيوان. وقد سبق بيان هذا في سورة آل عمران. قيل: وجه تعلق هذه الآية بالتي قبلها أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت، وهو: النوم إلى شبه الوجود، وهو: اليقظة، وعند العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ أي: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس، وهو شبهه بإخراج الحي من الميت ﴿وكنك تخرجون﴾ أي: ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم. قرا الجمهور: (تخرجون) على البناء للمفعول، وقرا حمزة، والكسائي على البناء للفاعل، فأسند الخروج إليهم كقوله: ﴿يوم يخرجون من الأبدان﴾ [المعارج: 43] ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ أي: من آياته الباهرة الدالة على البعث أن خلقكم: أي: خلق أبائكم آدم من تراب، وخلقكم في ضمن خلقه، لأن الفرع مستمد من الأصل، وماخوذ منه، وقد مضى تفسير هذا في الانعام، وأن في موضع رفع بالابتداء، ومن آياته خبره ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ إذا هي الفجائية: أي: ثم فاجأتكم بعد ذلك وقت كونكم بشرًا تنتشرون في الأرض، وإذا الفجائية، وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء، لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة، وهي أطوار الإنسان كما حكاه الله في مواضع: من كونه نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم عظمًا مكسوسًا لحمًا فاجأ البشرية، والانتشار، ومعنى تنتشرون: تنصرفون فيما هو قوام معاشكم ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا﴾ أي: ومن علاماته، ودلالاته الدالة على البعث أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا: أي: من جنسكم في البشرية، والإنسانية، وقيل: المراد حواء، فإنه خلقها من ضلع آدم ﴿لتسكنوا إليها﴾ أي: تألفوها، وتميلوا إليها، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر، ولا يميل قلبه إليه ﴿وجعل بينكم مودةً ورحمةً﴾ أي: ودادًا وتراحمًا بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم قبل تلك معرفة فضلًا عن مودة ورحمة. وقال مجاهد: المودة الجماع، والرحمة الولد، وبه قال الحسن. وقال السدي: المودة المحبة، والرحمة الشفقة. وقيل: المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها من أن يصيبها بسوء. وقوله: ﴿أن خلقة لكم﴾ في موضع رفع على الابتداء، ومن آياته خبره ﴿إن في ذلك لمنكر سابقاً﴾. ﴿لايات﴾ عظيمة الشأن بديعة البيان واضحة الدلالة على قدرته سبحانه على البعث، والنشور ﴿لنقوم يتفكرون﴾، لأنهم الذين يقتدرون

﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ [الشورى: 7] وذلك بعد تمام الحساب، فلا يجتمعون أبدًا. ثم بين سبحانه كيفية تفرقهم، فقال: ﴿فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون﴾، قال النحاس: سمعت الزجاج يقول: معنى «اما» دع ما كنا فيه، وخذ في غيره، وكذا قال سيوطي: إن معناها: مهما يكن من شيء، فخذ في غير ما كنا فيه، والروضة كل أرض ذات نبات. قال المفسرون: والمراد بها هنا الجنة، ومعنى يحبرون: يسرون، والحبور، والحبرة السرور: أي: فهم في رياض الجنة ينعمون، قال أبو عبيد: الروضة ما كان في سفلى، فإذا كان مرتفعًا فهو: ترعة، وقال غيره: أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في مكان مرتفع، ومنه قول الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل مطل
وقيل: معنى «يحبرون»: يكرمون. قال النحاس: حكى الكسائي خبرته: أي: أكرمه، ونعمته، والأولى تفسير يحبرون بالسرور كما هو المعنى العربي، ونفس دخول الجنة يستلزم الإكرام، والتعظيم، وفي السرور زيادة على ذلك. وقيل: التحبير التحسين، فمعنى يحبرون: يحسن إليهم، وقيل: هو السماع الذي يسمعون في الجنة، وقيل: غير ذلك، والوجه ما ذكرناه ﴿واما الذين كفروا﴾ باله ﴿وكنبوا بآياتنا﴾ و﴿كنبوا﴾ بـ ﴿لقاء الآخرة﴾ أي: البعث، والجنة والنار، والإشارة بقوله: ﴿فأولئك﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات، وهو مبتدأ، وخبره ﴿في العذاب محضرون﴾ أي: مقيمون فيه، وقيل: مجموعون، وقيل: نازلون، وقيل: معذبون، والمعاني متقاربة، والمراد بولم عذابهم. ثم لما بين عاقبة طائفة المؤمنين، وطائفة الكافرين أرشد المؤمنين إلى ما فيه الأجر الوافر، والخير العام، فقال: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي: فإذا علمتم ذلك، فسبحوا الله: أي: نزهوه عما لا يليق به في وقت الصباح، والمساء، وفي العشي، وفي وقت الظهيرة. وقيل: المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس، فقوله: ﴿حين تمسون﴾ صلاة المغرب، والعشاء، وقوله: ﴿وحين تصبحون﴾ صلاة الفجر، وقوله: ﴿وعشياً﴾ صلاة العصر، وقوله: ﴿وحين تظهرون﴾ صلاة الظهر، كذا قال الضحاك، وسعيد بن جبير، وغيرهما. قال الواحدي: قال المفسرون: إن معنى ﴿فسبحان الله﴾: فصلوا الله. قال النحاس: أهل التفسير على أن هذه الآية في الصلوات قال: وسمعت محمد بن يزيد يقول: حقيقته عندي، فسبحوا الله في الصلوات، لأن التسبيح يكون في الصلاة، وجملة ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد، والإيدان بمشروعية الجمع بينه، وبين التسبيح كما في قوله سبحانه: ﴿فسبح بحمد ربك﴾ [الحجر: 98]، وقوله: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ [البقرة: 30] وقيل: معنى، وله الحمد: أي: الاختصاص له بالصلاة التي يقرأ فيها الحمد، والأول أولى. وقرا عكرمة «حيناً تمسون وحيناً

للمسافر، وطمعاً للمقيم. وقال الضحاك: خوفاً من الصواعق، وطمعاً في الغيث، وقال يحيى بن سلام: خوفاً من البرد أن يهلك الزرع، وطمعاً في المطر أن يحيي الزرع. وقال ابن بحر: خوفاً أن يكون البرق برقاً خلباً لا يطر، وطمعاً أن يكون ممطراً، وأنشد:

لا يكن برقك برقاً خلباً إن خير البرق ما الغيث معه
وانتصاب خوفاً، وطمعاً على العلة ﴿وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإن من له نصيب من العقل يعلم أن تلك آية يستدل بها على القدرة الباهرة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي: قيامهما، واستمسكهما بإرادته سبحانه، وقدرته بلا عمد بعمدهما، ولا مستقرّ يستقران عليه. قال الفراء: يقول: أن تدوما قائمتين بأمره ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: ثم بعد موتكم، ومصيركم في القبور إذا دعاكم دعوة واحدة فاجاتم الخروج منها بسرعة من غير تلبث، ولا توقف، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعي المطاع. ومن الأرض متعلق بدعا: أي: دعاكم من الأرض التي أنتم فيها، كما يقال: دعوته من أسفل الوادي، فطلع إليّ، أو متعلق بمحذوف هو صفة لدعوة، أو متعلق بمحذوف يدل عليه تخرون: أي: خرجتم من الأرض، ولا يجوز أن يتعلق بتخرجون، لأن ما بعد إذ لا يعمل فيما قبلها، وهذه الدعوة هي نفخة إسرافيل الآخرة في الصور على ما تقدّم بيانه، وقد أجمع الفراء على فتح التاء في «تخرجون» هنا، وغلط من قال: إنه قرئ هنا بضمها على البناء للمفعول، وإنما قرئ بضمها في الأعراف ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من جميع المخلوقات ملكاً، وتصرفاً، وخلقاً، ليس لغيره في ذلك شيء ﴿كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي: مطيعون طاعة انقياد، وقيل: مقرّون بالعبودية، وقيل: مصلون، وقيل: قائمون يوم القيامة كقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 6] أي: للحساب، وقيل: بالشهادة أنهم عباده، وقيل: مخلصون ﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُحْيِي الْحَيَاةَ الدَّائِمَةَ ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: هين عليه لا يستصعبه، أو أهون عليه بالنسبة إلى قدرته، وعلى ما يقوله بعضكم لبعض، وإلا فلا شيء في قدرته بعضه أهون من بعض، بل كل الأشياء مستوية بوجودها بقوله: كن فتكون. قال أبو عبيد: من جعل أهون عبارة عن تفضيل شيء على شيء، فقوله مربود بقوله: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: 169]، ويقول: ﴿وَلَا يُؤْذِهِ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: 255]، والعرب تحمل أفعّل على فاعل كثيراً كما في قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول
أي: عريضة طويلة، وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك:
تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

على الاستدلال لكون التفكير مادة له يتحصل عنه، وأما الغافلون عن التفكير فما هم إلا كالأنعام ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة التي هي أجرام السموات والأرض، وجعلها باقية ما دامت هذه الدار، وخلق فيها من عجائب الصنع، وغرائب التكوين ما هو عبرة للمعتبرين قاصر على أن يخلقكم بعد موتكم، وينشركم من قبوركم ﴿وَلِخْتَلَاْفِ السِّنِّكُمْ﴾ أي: لغاتكم من عرب، وعجم، وترك، وروم، وغير ذلك من اللغات ﴿وَالْوَلَانِكُمْ﴾ من البياض، والسواد، والحمرة، والصفرة، والزرقة، والخضرة مع كونكم أولاد رجل واحد، وأم واحدة، ويجمعكم نوع واحد، وهو الإنسانية، وفصل واحد، وهو الناطقية، حتى صرتم متميزين في ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا، بل في كل فرد من أفرانكم ما يميزه عن غيره من الأفراد، وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون، ولا يفهمه إلا المتفكرون ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ الذين هم من جنس هذا العالم من غير فرق بين برّ وفاجر، قرأ الجمهور بفتح لام العالمين، وقرأ حفص وحده بكسرهما. قال الفراء: وله وجه جيد؛ لأنه قد قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 4] ﴿لَآيَاتٍ لَّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190] ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: 43] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قيل: في الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: ومن آياته منامكم بالليل، وابتغائكم من فضله بالنهار. وقيل: المعنى صحيح من نون تقديم، وتأخير: أي: ومن آياته العظيمة أنكم تنامون بالليل، وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة كوقت القيلولة، وابتغائكم من فضله فيهما، فإن كل واحد منهما يقع فيه ذلك، وإن كان ابتغاء الفضل في النهار أكثر. والأول هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى، والآخر هو المناسب للنظم القرآني ها هنا. ووجه نكر النوم، والابتغاء ها هنا، وجعلهما من جملة الأدلة على البعث أن النوم شبيه بالموت، والتصرف في الحاجات، والسعي في المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يسمعون الآيات والمواعظ سماع متفكر متدبر، فيستدلون بذلك على البعث ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يَرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ المعنى: أن يريكم، فحنف أن لدالة الكلام عليه كما قال طرفة:

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وإن أشهد للذات هل أنت مخلدي
والتقدير: أن أحضر، فلما حذف الحرف في الآية، والبيت بطل عمله، ومنه المثل المشهور «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»، وقيل: هو على التقديم، والتأخير: أي: ويريك البرق من آياته، فيكون من عطف جملة فعلية على جملة اسمية، ويجوز أن يكون ﴿يَرِيكُمْ﴾ صفة لموصوف محذوف: أي: ومن آياته آية يريكم بها، وفيها البرق، وقيل: التقدير، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً من آياته. قال الزجاج: فيكون من عطف جملة على جملة. قال قتادة: خوفاً

قال: «كل تسبيح في القرآن، فهو صلاة». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن أبي رزين قال: جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس، فقال: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، فقرأ ﴿فَسَبِّحْنا الله حين تمسون﴾ صلاة المغرب ﴿وحيث تصبحون﴾ صلاة الصبح ﴿وعشيا﴾ صلاة العصر ﴿وحيث تظهرون﴾ صلاة الظهر، وقرأ ﴿ومن بعد صلاة العشاء﴾ [النور: 58]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه قال: جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة، ﴿فَسَبِّحْنا الله حين تمسون﴾ قال: المغرب والعشاء ﴿وحيث تصبحون﴾ الفجر ﴿وعشيا﴾ العصر ﴿وحيث تظهرون﴾ الظهر. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن السني في عمل يوم وليلة، والطبراني، وابن مردويه والبيهقي في الدعوات عن معاذ بن أنس، عن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله الذي وقى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح، وأمسي: سبحان الله حين تمسون، وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض، وعشيا، وحين تظهرون، وفي إسناد ابن لهيعة. وأخرج أبو داود، والطبراني، وابن السني، وابن مردويه عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح: ﴿سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ * وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون * يخرج من الحيّ ويميت ويخرج الميت من الحيّ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾ أدرك ما فات في يومه، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فات في ليلته، وإسناده ضعيف. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلُّ له قانتون﴾ يقول مطيعون: يعني: الحياة، والنشور، والموت، وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ قال: أيسر. وأخرج ابن الأنباري عنه أيضاً في قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ قال: الإعادة أهون على المخلوق، لأنه يقول له يوم القيامة: كن فيكون، وابتدأ الخلق من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وله المثل الأعلى﴾ يقول: ليس كمثله شيء.

صَبَّحْنا لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ يٰٓأَنفُسُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَمْوَالَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ذٰلِكَ مِمَّا يَبْغِي مِنَ الظُّلُمِاتِ وَلَمَّا لَمْ يَنْصَرِفْ ﴿١٩﴾ فَأَوْدَعَ وَجْهَكَ لِلزَّيْنِ حَنِيفًا فَنُفِّرْ كَمْ اللَّهُ إِلَهِي فَنُفِّرْ النَّاسَ ظَهْرًا لَا يُدْرِي لِمَ لَفَىٰ اللَّهُ ذٰلِكَ الْبُرْجَ الْأَيْمَنُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ مُبِينٌ إِلَيْكَ وَاقِعُوا الْبَرَصَةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِيَنَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فُجِحُوا ﴿٢٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا

أي: لست بواحد، ومثله قول الآخر:

لعمرك إن الزبرقان لبائلا لمعرفه عند السنين وأفضل أي: وفاضل، وقرأ عبد الله بن مسعود (وهو عليه هين)، وقال مجاهد، وعكرمة، والضحاك: إن الإعادة أهون عليه: أي: على الله من البداية: أي: أيسر، وإن كان جميعه هيناً. وقيل: المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداية، وقيل: الضمير في عليه للخلق: أي: وهو أهون على الخلق؛ لأنه يصاح بهم صيحة واحدة، فيقومون، ويقال لهم: كونوا فيكونون، فلذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة، ثم علقه، ثم مضغة إلى آخر النشأة ﴿وله المثل الأعلى﴾ قال الخليل: المثل الصفة: أي: وله الوصف الأعلى ﴿في السموات والأرض﴾ كما قال: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ [الرعد: 35، ومحمد: 15] أي: صفتها. وقال مجاهد: المثل الأعلى قول: لا إله إلا الله، وبه قال قتادة. وقال الزجاج: ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض﴾ أي قوله: «وهو أهون عليه» قد ضرب له مثلاً فيما يصعب ويسهل. وقيل: المثل الأعلى هو أنه ليس كمثله شيء، وقيل: هو أن ما أراده كان بقول: كن، وفي السموات والأرض متعلق بمضمون الجملة المتقدمة، والمعنى: أنه سبحانه عرف بالمثل الأعلى، ووصف به في السموات والأرض، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الأعلى، أو من المثل، أو من الضمير في الأعلى ﴿وهو العزيز﴾ في ملكه القادر الذي لا يغالب ﴿الحكيم﴾ في أقوله، وأفعاله.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يبيس﴾ قال: يبتس. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ﴿يبيس﴾ قال: يكتب، وعنه الإبلان: الفضيحة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿يحبون﴾ قال: يكرمون. وأخرج الديلمي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة قال الله: أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم، وأبصارهم عن مزامير الشيطان ميزوهم، فيميزون في كذب المسك، والعنبر؛ ثم يقول للملائكة: اسمعوه من تسبيحي، وتحمدي، وتهليلي، قال: فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلاً قط». وأخرج الديلمي في المجالسة عن مجاهد قال: ينادي مناد يوم القيامة فنكر نحوه، ولم يسم من رواه له عن رسول الله. وأخرج ابن أبي الدنيا في نَمِّ الملاهي، والأصبهاني في الترغيب عن محمد بن المنكدر نحوه. وأخرج ابن أبي الدنيا، والضياء المقدسي كلاهما في صفة الجنة، قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال: «في الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف، وغيرهم، فيتحدثون في ظلها، فيشتهي بعضهم، ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله ريحاً من الجنة، فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا». وأخرج الحكيم الترمذي في نوانر الأصول عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج للفريابي، وابن مردويه عن ابن عباس

لا أحد يقدر على هدايته، لأن الرشاد، والهداية بتقدير الله وإرادته ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي: ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من ناصرين ينصرونهم، ويحولون بينهم، وبين عذاب الله سبحانه. ثم أمر رسوله ﷺ بتوحيده وعبادته كما أمره، فقال: ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهه إليه، وإقباله عليه، وانتصاب حنيفاً على الحال من فاعل اقم، أو من مفعوله: أي: مائلاً إليه مستقيماً عليه غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة ﴿فَطَرَتْ﴾ التي فطر الناس عليها الفطرة في الأصل: الخلق، والمراد بها هنا الملة: وهي: الإسلام، والتوحيد. قال الواحدي: هذا قول المفسرين في فطرة الله، والمراد بالناس هنا: الذين فطرهم الله على الإسلام، لأن المشرك لم يطر على الإسلام، وهذا الخطاب، وإن كان خاصاً برسول الله، فامتته داخلة معه فيه. قال القرطبي باتفاق من أهل التأويل: والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم، وكافرهم، وأنهم جميعاً مفلطرون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم، فيبقون بسببها على الكفر كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ، «ما من مولود إلا يولد على الفطرة». وفي رواية «على هذه الملة، ولكن أبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ﴿فَطَرَتْ﴾ التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله. وفي رواية «حتى تكونوا أنتم تجدونها». وسيأتي في آخر البحث ما ورد معاضداً لحديث أبي هريرة هذا، فكل فرد من أفراد الناس مفلطرون أي مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان، والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيين، وهذا قول جماعة من الصحابة، ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين، وهو: الحق. والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب جمهور السلف. وقال آخرون: هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها، فإنه ابتدأهم للحياة، والموت، والسعادة، والشقاوة. والفاطر في كلام العرب هو: المبتدئ، وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة، وإهمال معناها شرعاً. والمعنى الشرعي مقم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع، ولا يناقض ذلك ورود الفطرة في الكتاب أو السنة في بعض المواضع مراداً بها المعنى اللغوي كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1] أي: خالقهما، ومبتدئهما، وكقوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: 22] إذ لا نزاع في أن المعنى اللغوي هو هذا، ولكن النزاع في المعنى الشرعي للفطرة، وهو ما ذكره الأوّلون كما بيناه، وانتصاب فطرة على أنها مصدر مؤكد للجملة التي قبلها. وقال الزجاج: فطرة منصوب بمعنى: اتبع فطرة الله، قال: لأن معنى ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتبع الدين، واتبع فطرة الله. وقال ابن جرير: هي مصدر من معنى، ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ﴾، لأن معنى ذلك: فطرة الله الناس على الدين، وقيل:

رَبِّهِمْ مُبِينٌ إِلَيْهِمْ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَعْتَبُوا سَوَافٍ تَلْمِزُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سِنَةٌ أَوْ بَدَتْ لَهُمْ يَدُهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٢٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿ضَرْبَ لَكُمْ مَثَلًا﴾ قد تقدم تحقيق معنى المثل، ومن في ﴿مَنْ أَنْفَسَكُمْ﴾ لابتداء الغاية، وهي ومجورها في محل نصب صفة لمثلاً، أي: مثلاً منتزعاً، وماخوذاً من أنفسكم، فإنها أقرب شيء منكم، وأبين من غيرها عنكم، فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر دلالة، وأعظم وضوحاً. ثم بين المثل المذكور، فقال: ﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ «من» في «مما» ملكت، للتبعيض، وفي ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾ زائدة للتأكيد، والمعنى: هل لكم شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم، وهم: العبيد، والإماء، والاستفهام للإنكار، وجملة ﴿فَإِنَّكُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ جواب للاستفهام الذي بمعنى: النفي، ومحققه لمعنى الشراكة بينهم، وبين العبيد، والإماء المملوكين لهم في أموالهم: أي: هل ترضون لأنفسكم، والحال أن عبيدكم، وإماءكم أمثالكم في البشرية أن يساووكم في التصرف بما رزقناكم من الأموال، ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف: أي: تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم: أي: كما تخافون الأحرار المشابهين لكم في الحرية، وملك الأموال، وجواز التصرف، والمقصود نفي الأشياء الثلاثة الشراكة بينهم، وبين المملوكين، والاستواء معهم، وخوفهم إياهم. وليس المراد ثبوت الشراكة، ونفي الاستواء، والخوف كما قيل في قولهم: ما تاتينا، فتحثنا. والمراد: إقامة الحجة على المشركين، فإنهم لا بد أن يقولوا: لا نرضى بذلك، فيقال لهم: فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم، وهم أمثالكم في البشرية، وتجعلون عبيد الله شركاء له؟ فإذا بطلت الشراكة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة، بطلت الشراكة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد الله تعالى، ولم يبق إلا أنه الربّ وحده لا شريك له. قرأ الجمهور (أنفسكم) بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله، وقرأ ابن أبي عملة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله ﴿كَذَلِكَ نَفُضِّلُ الْآيَاتِ﴾ تفصيلاً واضحاً، وبياناً جلياً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم في تدبرها، والتفكير فيها. ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين، وإرشادهم إلى الحق بما ضربه لهم من المثل، فقال: ﴿بَلْ اتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائفة، وآراءهم الفاسدة الزائفة، ومحل «بغير علم» النصب على الحال: أي: جاهلين بانهم على ضلالة ﴿فَمَنْ يَهْدِي مِنَ أَضَلِّ اللَّهُ﴾ أي:

إذا قم منهم رحمة ﴿ بإجابة دعائهم، ورفع تلك الشدائد عنهم ﴿إذا فريق منهم يريهم يشركون ﴾ إذا هي: الفجائية وقعت جواب الشرط؛ لأنها كالفاء في إفادة التعقيب: أي: فاجأ فريق منهم الإشراف، وهم الذين دعوه، فخلصهم مما كانوا فيه. وهذا الكلام مسوق للتعجب من أحوالهم، وما صاروا عليه من الاعتراف بوحداية الله سبحانه عند نزول الشدائد، والرجوع إلى الشرك عند رفع تلك عنهم، واللام في ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ هي: لام كي، وقيل: لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد، وقيل: هي لام العاقبة، ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع، فقال: ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ ما يتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الأليم. قرأ الجمهور «فتمتعوا» على الخطاب. وقرأ أبو العالية بالتحية على البناء للمفعول، وفي مصحف ابن مسعود «فليتمتعوا» «أم أنزلنا عليهم سلطانا» أم هي: المنقطعة، والاستفهام للإنكار، والسلطان الحجة الظاهرة ﴿فهو يتكلم﴾ أي: يدل كما في قوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: 29] قال الفراء: إن العرب تؤنث السلطان، يقولون: قضت به عليك السلطان، فاما البصريون فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز؛ لأنه بمعنى: الحجة، وقيل: المراد بالسلطان هنا الملك ﴿بما كانوا به يشركون﴾ أي: ينطق بإشراكهم بالله سبحانه، ويجوز أن تكون الباء سببية: أي: بالامر الذي بسببه يشركون ﴿وإذا أنقنا للناس رحمة﴾ أي: خصبا، ونعمة، وسعة، وعافية ﴿فرحوا بها﴾ فرح بطر وأشر، لا فرح شكر بها، وابتهاج بوصولها إليهم ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ [يونس: 58] ثم قال سبحانه: ﴿وإن تصيبهم سئنة﴾ شدة على أي صفة ﴿بما قدمت أيديهم﴾ أي: بسبب تدبيرهم ﴿إذا هم يقنطون﴾ القنوط الإياس من الرحمة، كذا قال الجمهور. وقال الحسن: القنوط ترك فرائض الله سبحانه، قرأ الجمهور (يقنطون) بضم النون، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب بكسرهما ﴿اولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء﴾ من عباده، ويوسع له ﴿ويقدر﴾ أي: يضيق على من يشاء لمصلحة في التوسيع لمن وسع له، وفي التضيق على من ضيق عليه ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ فيستدلون على الحق لدلائلها على كمال القدرة، وبيع الصنع، وغريب الخلق.

وقد أخرج الطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس قال: كان يلي أهل الشرك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه، وما ملك، فأنزل الله ﴿هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال هي في الآلهة، وفيه يقول: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ قال: دين الله ﴿ذلك الدين القيم﴾ قال: القضاء القيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن

هي منصوبة على الإغراء: أي: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله، ورد هذا الوجه أبو حيان، وقال: إن كلمة الإغراء لا تضمز إذ هي عوض عن الفعل، فلو حذفها لزم حذف العوض، والمعوّض عنه وهو إجحاف. وأجيب بأن هذا رأي البصريين، وأما الكسائي، واتباعه، فيجيزون ذلك وجملة ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة: أي: هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه. وقيل: هو نفي معناه: النهي، أي: لا تبكوا خلق الله. قال مجاهد، وإبراهيم النخعي: معناه: لا تبديل لدين الله. قال قتادة، وابن جبير، والضحاك، وابن زيد: هذا في المعتقدات. وقال عكرمة: إن المعنى: لا تغيير لخلق في البهائم بأن تخصي، فحولها ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي: ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين القيم، أو لزوم الفطرة هو: الدين القيم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك حتى يفعلوه، ويعملوا به ﴿منيبين إليه﴾ أي: راجعين إليه بالتوبة، والإخلاص، ومطيعين له في أوامره، ونواهيه. ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

فإن تابوا فإن بني سليم وقومهم هوازن قد تابوا
قال الجوهري: أناب إلى الله: أقبل، وتاب، وانتصاه على الحال من فاعل أقم. قال المبرد: لأن معنى أقم وجهك: أقيموا وجوهكم. قال الفراء: المعنى: فاقم وجهك، ومن معك منيبين، وكذا قال الزجاج، وقال تقديره: فاقم وجهك وأمتك، فالحال من الجميع. وجاز حذف المعطوف لدلالة منيبين عليه. وقيل: هو منصوب على القطع، وقيل: على أنه خبر لكان محذوفة: أي: وكونوا منيبين إليه لدلالة ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ على ذلك، ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم بالإتابة، فقال: ﴿واتقوه﴾ أي: باجتناب معاصيه، وهو معطوف على الفعل المقدر ناصبا لمنيبين ﴿واقموا للصلاة﴾ التي أمرتم بها ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ بالله. وقوله: ﴿من الذين فرّقوا بينهم وكانوا شيعا﴾ هو بدل مما قبله بإعادة الجار، والشيع الفرق: أي: لا تكونوا من الذين تفرّقوا فرقا في الدين يشايح بعضهم بعضا من أهل البدع، والأهواء. وقيل: المراد بالذين فرّقوا بينهم شيعة اليهود والنصارى. وقرأ حمزة، والكسائي (فارقوا دينهم)، ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب: أي: فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه، وهو: التوحيد. وقد تقدّم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنعام ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي: كل فريق بما لديهم من الدين المبني على غير الصواب مسرورون مبتهجون يظنون أنهم على الحق، وليس بأيديهم منه شيء، وقال الفراء: يجوز أن يكون قوله: ﴿من الذين فرّقوا بينهم وكانوا شيعا﴾ مستأنفا كما يجوز أن يكون متصلا بما قبله ﴿وإذا مس الناس ضر﴾ أي: قحط وشدة ﴿دعوا ربهم﴾ أن يرفع ذلك عنهم، واستغاثوا به ﴿منيبين إليه﴾ أي: راجعين إليه ملتجئين به لا يعزلون على غيره، وقيل مقبلين عليه بكل قلوبهم ﴿ثم إذا

يتصل بالمدن من مزارعها، ومراعيها، والباء في بما كسبت للسببية، وما إما موصولة أو مصدرية ﴿لِينْيَقَهُمْ بَعْضُ الَّذِي عَمَلُوا﴾ اللام متعلقة بظهر، وهي: لام العلة: أي: لِينْيَقَهُمْ عقاب بعض عملهم، أو جزء بعض عملهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم فيه من المعاصي، ويتوبون إلى الله ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ لما بين سبحانه ظهور الفساد بما كسبت أيدي المشركين، والعصاة بَيِّنَ لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأول، وأمرهم بأن يسيروا لينظروا آثارهم، ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم، فإن منازلهم خاوية، وأراضيهم مقفرة موحشة كعاد، وثمود، ونحوهم من طوائف الكفار. وجملة ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ مستانفة لبيان الحالة التي كانوا عليها، وإيضاح السبب الذي صارت عاقبتهم به إلى ما صارت إليه ﴿فَاقْمْ وُجُوهَكُمْ لِلدِّينِ الْقِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ، وأُمته أسوته فيه، كان المعنى: إذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدم، فاقم وجهك يا محمد إلخ. قال الزجاج: اجعل جهتك اتباع الدين القيم، وهو: الإسلام المستقيم ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا مَرَدَ لَهُ﴾ لا يقدر أحد على رده، والمرد مصدر رده، وقيل: المعنى: أوضح الحق، وبالحق في الاعتذار، ﴿وَمَنْ اللَّهُ﴾ يتعلق بياتي. أو بمحذوف يدل عليه المصدر: أي: لا يردّه من الله أحد، وقيل: يجوز أن يكون المعنى: لا يردّه الله لتعلق إرابطته القديمة بمجيئه، وفيه من الضعف، وسوء الالئب مع الله ما لا يخفى ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدَعُونَ﴾ أصله يتصدعون، والتصدع التفرق، يقال: تصدع القوم إذا تفرقوا، ومنه قول الشاعر:

وكنا كننماني جنيمة برمة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
والمراد بتفرقهم هاهنا أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة، وأهل النار يصيرون إلى النار ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: جزاء كفره، وهو: النار ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلْأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يوطئون لأنفسهم منازل في الجنة بالعمل الصالح، والمهاد الفراش، وقد مهت الفراش مهداً: إذا بسطته، ووطأته، فجعل الأعمال الصالحة التي هي سبب لدخول الجنة كبناء المنازل في الجنة وفرشها. وقيل: المعنى: فعلى أنفسهم يشفقون، من قولهم في المشفق: أم فرشت، فانامت، وقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص. وقال مجاهد: ﴿فَلْأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ في القبر، واللام في ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ متعلقة بيمصدعون، أو يمهدون: أي: يتفرقون؛ ليجزي الله المؤمنين بما يستحقونه ﴿مَنْ قَضَاهُ﴾ أو يمهدون لأنفسهم بالأعمال الصالحة؛ ليجزيهم، وقيل: يتعلق بمحذوف. قال ابن عطية: تقديره ذلك ليجزي، وتكون الإشارة إلى ما تقدم من قوله: من عمل، ومن كفر. وجعل أبو حيان قسيم قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ محذوفاً لدلالة قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ لِلْكَافِرِينَ﴾ عليه، لأنه كناية عن بغضه لهم الموجب لغضبه سبحانه،

وما أعطيتهم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة، وإنما تقصدون بها ما عند الله ﴿فَقُولُوا لَهُمْ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ المضعف دون الأضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف. قال الفراء: هو نحو قولهم: مسمن، ومعطش، ومضعف إذا كانت له إبل سمان، أو عطاش، أو ضعيفة. وقرأ أبي (المضعفون) بفتح العين اسم مفعول ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ عاد سبحانه إلى الاحتجاج على المشركين، وأنه الخالق الرازق المميت المحيي، ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ ومعلوم أنهم يقولون ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك، فتقوم عليهم الحجة، ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: نزهوه تنزيهاً، وهو متعال عن أن يجوز عليه شيء من ذلك، وقوله: ﴿مَنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ خبر مقدم، ومن للتبعيض، والمبتدأ هو الموصول: أعني: من يفعل، ومن تِلْكَ متعلق بمحذوف: لأنه حال من شيء المذكور بعده، ومن في ﴿مَنْ شَيْءٍ﴾ مزيدة للتوكيد، وأضاف الشركاء إليهم؛ لأنهم كانوا يسمونهم آلهة، ويجعلون لهم نصيباً من أموالهم ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بَيِّنَ سبحانه: أن الشرك، والمعاصي سبب لظهور الفساد في العالم.

واختلف في معنى ظهور الفساد المذكور، فقيل: هو القحط، وعدم النبات، ونقصان الرزق، وكثرة الخوف ونحو ذلك، وقال مجاهد، وعكرمة: فساد البرّ قتل ابن آدم لخاصه: يعني: قتل قابيل لهابيل، وفي البحر الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً.

وليت شعري أي دليل لهما على هذا التخصيص البعيد، والتعيين الغريب، فإن الآية نزلت على محمد ﷺ، والتعريف في الفساد يدل على الجنس، فيعم كل فساد واقع في حيزي البرّ والبحر. وقال السدي: الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد. ويمكن أن يقال: إن الشرك، وإن كان الفرد الكامل في أنواع المعاصي، ولكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه. وقيل: الفساد كساد الأسعار، وقلة المعاش، وقيل: الفساد قطع السبل والظلم، وقيل: غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه. والظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقترافهم السيئات، وتقاطعهم، وتظالمهم، وتقاتلهم. أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب نزوبهم كالقحط، وكثرة الخوف، والموتان، ونقصان الزرائع، ونقصان الثمار، والبرّ، والبحر هما المعروفان المشهوران وقيل: البرّ الفيافي، والبحر القرى التي على ماء قاله عكرمة، والعرب تسمى الأمصار البحار. قال مجاهد: البرّ ما كان من المدن، والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شط نهر. والأول أولى. ويكون معنى البرّ: مدن البرّ، ومعنى البحر: مدن البحر، وما

أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ لِقَاءَ لُوطٍ فِي كِتَابٍ آتَيْنَاهُ إِيَّاهُ بِالْبَيِّنَاتِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَيِّنَاتِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَمْلِكُونَ ﴿٥٦﴾ قِيَوْمَ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ظُلْمُهُمْ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ
جَحَّتْهُمُ غَابِرَةُ لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْآيَاتِ لَا تَبْطُلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ
يَطِيعُ اللَّهُ عَنِ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ قَاصِرِينَ إِنْ يَرَوْا آيَةً وَيَذَرُونَ
بِخَتَلَتِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كما
أرسلناك إلى قومك ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات،
والحجج النيرات، فانتقمنا منهم: أي: فكفروا ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْ
الَّذِينَ لَجَرُوا﴾ أي: فعلوا الإجرام، وهي: الآثام ﴿وَوَكَانَ حَقًّا
عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه بأن
نصره لعباده المؤمنين حق عليه، وهو صادق الوعد لا
يخلف الميعاد، وفيه تشريف للمؤمنين، ومزيد تكريم لعباده
الصالحين، ووقف بعض القراء على حقاً، وجعل اسم كان
ضميراً فيها، وخبرها حقاً: أي: وكان الانتقام حقاً. قال ابن
عطية: وهذا ضعيف، والصحيح إن نصر المؤمنين اسمها،
وحقاً خبرها، وعليها متعلق بحقاً، أو بمحذوف هو صفة له
﴿الله الذي يرسل الرياح﴾ قرا حمزة، والكسائي، وابن
كثير، وابن محيصن يرسل (الريح) بالإقراء. وقرأ الباقون
«الرياح» قال أبو عمرو: كل ما كان بمعنى الرحمة، فهو
جمع، وما كان بمعنى العذاب، فهو موحد، وهذه الجملة
مستأنفة مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح، فتكون
على هذا جملة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَوَكَانَ حَقًّا
عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معترضة ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي:
تزعجه من حيث هو ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾
تارة سائراً، وتارة واقفاً، وتارة مطبقاً، وتارة غير مطبق،
وتارة إلى مسافة بعيدة، وتارة إلى مسافة قريبة، وقد تقدم
تفسير هذه الآية في سورة البقرة، وفي سورة النور
﴿وَيَجْعَلُهُ كَسُفًا﴾ تارة أخرى، أو يجعله بعد بسطه قطعاً
متفرقة، والكسف جمع كسفة، والكسفة القطعة من السحاب،
وقد تقدم تفسيره، واختلاف القراءة فيه ﴿فَتُفْرِغُ الْوُجُوهَ
يُخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ الودق المطر، ومن خلاله من وسطه،
وقرأ أبو العالية، والضحاك (يخرج من خلاله) ﴿فَإِذَا أَصَابَ
بِهِ﴾ أي: بالمطر ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: بلادهم
وأرضهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ إذا هي: الفجائية: أي:
فاجئوا الاستبشار بمجيء المطر، والاستبشار الفرح ﴿وَأَنْ
كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من قبل أن ينزل
عليهم المطر، وإن هي: المخففة، وفيها ضمير شأن مقدر هو
اسمها: أي: وإن الشأن كانوا من قبل أن ينزل عليهم، وقوله:
﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾ تكرير للتأكيد، قاله الأخفش، وأكثر النحويين
كما حكاه عنهم النحاس.. وقال قطرب: إن الضمير في قبله
راجع إلى المطر: أي: وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل
المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل
الزروع والمطر، وقيل: من قبل أن ينزل عليهم من قبل

وغضبه يستتبع عقوبته ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ يَرْسِلَ الرِّيحَ
مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي: ومن دلالات بديع قدرته إرسال الرياح
مبشرات بالمطر: لأنها تنقمة كما في قوله سبحانه: ﴿بَشِيرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: 57] قرا الجمهور (الرياح)،
وقرا الأعمش (الريح) بالإفراد على قصد الجنس لاجل قوله:
﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾، واللام في قوله: ﴿وَلِيُنذِرَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾
متعلقة بيرسل: أي: يرسل الرياح مبشرات، ويرسلها لينذركم
من رحمة: يعني: الغيث، والخصب، وقيل: هو متعلق
بمحذوف: أي: ولينذركم أرسلها، وقيل: الواو مزيدة على رأي
من يجوز ذلك، فتتعلق اللام بيرسل ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ
بِأَمْرِهِ﴾ معطوف على لينذركم من رحمة: أي: يرسل الرياح:
لتجري الفلك في البحر عند هبوبها، ولما أسند الجري إلى
الفلك عقبه بقوله: بأمره: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: تبتغوا
الرزق بالتجارة التي تحملها السفن ﴿وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
هذه النعم، فتقربون الله بالعبادة، وتستكثرون من الطاعة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا
آتَيْنَاكُمْ مِنْ رَبٍّ﴾ الآية قال: الربا ربوان: ربا لا بأس به، وربا
لا يصلح. فاما الربا الذي لا بأس به، فهدية الرجل إلى
الرجل يريد فضلها، وأضعافها. وأخرج البيهقي عنه قال: هذا
هو الربا الحلال أن يهدي يريد أكثر منه، وليس له أجر، ولا
وزر، ونهى النبي ﷺ خاصة فقال: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾
[المنذر: 6]. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم
عنه أيضاً ﴿وَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾ قال: هي: الصدقة. وأخرج
ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ﴾ قال: البر البرية التي ليس عندها نهر، والبحر ما
كان من المدائن، والقرى على شط نهر. وأخرج ابن المنذر،
وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: نقصان البركة
بأعمال العباد كي يتوبوا. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً
﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال: من الذنوب. وأخرج ابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿يُضْذَعُونَ﴾ قال:
يتفرقون.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِنْ قَوْمُهُ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْفَقْنَا مِنْ الْآيَاتِ
لَعِبْرَةً وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ
سَحَابًا يَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كَسُفًا فَفَرَقَ الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَنْ كَانُوا مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَنُذِيرُكُمْ ﴿٥٨﴾ فَانظُرْ إِلَى مَا تُكَذِّبُ رَحِمَ اللَّهُ
كَفَّ يَحْيَى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَقَدْ عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٥٩﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا بِهَا فَرَادًا مُصَفَّرًا لَطَمُوا بِأَنْفُسِهِمْ يَكْفُرُونَ ﴿٦٠﴾ إِنَّكَ
لَا تَشِيعُ الْآيَاتِ وَلَا تَشِيعُ الصَّغَرُ الْأَعْلَى إِذَا رُلُّوا مِنْ دُونِهَا ﴿٦١﴾ وَمَا أَنتَ بِمَدِينٍ
الَّتِي عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنْ شِيعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٦٢﴾ اللَّهُ
الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ
ضَعْفًا وَتَبَيَّنَ بِخَلْقِ مَا يَشَاءُ رَهُو الْكَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٦٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يُقَسِّرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَمْ يَشَأُوا مِنْ سَاعَةِ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْذَنُونَ ﴿٦٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ

من ضعف: من نطفة. قال الواحدي: قال المفسرون: من نطفة، والمعنى: من ذي ضعف. وقيل: المراد حال الطفولية، والصغر **﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾**، وهي قوة الشباب، فإنه إذ ذاك تستحكم القوة، وتشتد الخلق إلى بلوغ النهاية **﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا﴾** أي: عند الكبر، والهرم **﴿وشيبة﴾** الشيبة هي: تمام الضعف، ونهاية الكبر. قرأ الجمهور «ضعف» بضم الضاد في هذه المواضع. وقرأ عاصم، وحزمة بفتحها. وقرأ الجحدري بالفتح في الأولين، والضم في الثالث. قال الفراء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم. قال الجوهري: الضعف، والضعف خلاف القوة، وقيل: هو بالفتح في الرأي، وبالضم في الجسم **﴿يخلق ما يشاء﴾** يعني: من جميع الأشياء، ومن جعلتها القوة، والضعف في بني آدم **﴿وهو العليم﴾** بتدبيره **﴿القيصر﴾** على خلق ما يريد، وأجاز الكوفيون من ضعف بفتح الضاد والعين **﴿ويوم تقوم الساعة﴾** أي: القيامة، وسميت ساعة: لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا **﴿يقسم المعجمون ما لبثوا غير ساعة﴾** أي: يحلفون ما لبثوا في الدنيا، أو في قبورهم غير ساعة، فيمكن أن يكونوا استقلوا مدة لبثهم، واستقر ذلك في أذهانهم، فحلفوا عليه، وهم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع. وقال ابن قتيبة: إنهم كتبوا في هذا الوقت كما كانوا يكتبون من قبل، وهذا هو الظاهر، لأنهم إن أرادوا لبثهم في الدنيا، فقد علم كل واحد منهم مقداره، وإن أرادوا لبثهم في القبور فقد حلفوا على جهالة إن كانوا لا يعرفون الأوقات في البرزخ **﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾** يقال: أفك الرجل: إذا صرف عن الصدق، فالمعنى: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون. وقيل: المراد يصرفون عن الحق، وقيل: عن الخير، والأول أولى، وهو دليل على أن حلفهم كذب **﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾** اختلف في تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة، وقيل: الأنبياء، وقيل: علماء الأمم، وقيل: مؤمنو هذه الأمة، ولا مانع من الحمل على الجميع. ومعنى في كتاب الله: في علمه، وقضائه. قال الزجاج: في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ. قال الواحدي: والمفسرون حملوا هذا على التقديم، والتأخير على تقدير: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله، وكان رد الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد، أو للمقابلة لليمين باليمين، ثم نبههم على طريقة التبكيت بأن **﴿هذا﴾** الوقت الذي صاروا فيه هو **﴿يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾** أنه حق، بل كنتم تستعجلونه تكنياً، واستهزاء **﴿فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم﴾** أي: لا ينفعهم الاعتذار يومئذ، ولا يفيدهم علمهم بالقيامة. وقيل: لما رد عليهم المؤمنون سالوا الرجوع إلى الدنيا، واعتذروا، فلم يعذرنا. قرأ الجمهور «لا تنفع» بالفوقية، وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بالتحته **﴿ولا هم يستعتبون﴾** يقال: استعتبت، فأعتبني: أي: استرضيته، فارضاني، وذلك إذا كنت جانباً

السحاب: أي: من قبل رؤيته، واختار هذا النحلاس. وقيل: الضمير عائذ إلى الكسف، وقيل: إلى الإرسال، وقيل: إلى الاستبشار. والراجح الوجه الأول، وما بعده من هذه الوجوه كلها، ففي غاية التكلف، والتعسف، وخبر كان **﴿لمبلسين﴾** أي: آيسين أو بائسين. وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا **﴿فانظر إلى أثر رحمت الله﴾** الناشئة عن إنزال المطر من النبات، والثمار، والزراعت التي بها يكون الخصب، ورخاء العيش: أي: انظر نظر اعتبار، واستبصار؛ لتستدل بذلك على توحيد الله، وتفرد بهذا الصنع العجيب. قرأ الجمهور «أثر» بالتوحيد. وقرأ ابن عامر، وحفص، وحزمة، والكسائي آثار بالجمع **﴿كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾** فاعل الإحياء ضمير يعود إلى الله سبحانه، وقيل: ضمير يعود إلى الأثر، وهذه الجملة في محل نصب بانظر: أي: انظر إلى كيفية هذا الإحياء البينع للأرض. وقرأ الجحدري، وأبو حيوة (تحية) بالفوقية على أن فاعله ضمير يعود إلى الرحمة، أو إلى الآثار على قراءة من قرأ بالجمع، والإشارة بقوله: **﴿إن ذلك﴾** إلى الله سبحانه: أي: إن الله العظيم الشأن المخترع لهذه الأشياء المذكورة **﴿المحيي الموتى﴾** أي: لقادر على إحيائهم في الآخرة، وبعثهم، ومجازاتهم كما أحيا الأرض الميتة بالمطر **﴿وهو على كل شيء قدير﴾** أي: عظيم القدرة كثيرها **﴿ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرة﴾** الضمير في فرأوه يرجع إلى الزرع، والنبات الذي كان من أثر رحمة الله: أي: فرأوه مصفرة من البرد الناشئ عن الريح التي أرسلها الله بعد اخضرارها. وقيل: راجع إلى الريح، وهو يجوز تنكيره، وتانيثه. وقيل: راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار. وقيل: راجع إلى السحاب؛ لأنه إذا كان مصفرة لم يمطر، والأول أولى. واللام هي: الموطئة، وجواب القسم **﴿لظلوا من بعده يكفرون﴾**، وهو يسد مسد جواب الشرط. والمعنى: ولئن أرسلنا ريحاً حارة، أو باردة، فضربت زرعهم بالصفار لظلوا من بعد ذلك يكفرون بالله، ويجحدون نعمه، وفي هذا دليل على سرعة تقلبهم، وعدم صبرهم، وضعف قلوبهم، وليس كذا حال أهل الإيمان. ثم شبههم بالموتى، وبالصم، فقال: **﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾** إذا دعوتهم، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق، ومعرفةهم للصواب **﴿ولا تسمع الصم الدعاء﴾** إذا دعوتهم إلى الحق، ووعظتهم بمواعظ الله، وذكرتهم الآخرة، وما فيها، وقوله: **﴿إذا ولوا مديري﴾** بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات وكونهم صم الأذان، قد تقدم تفسير هذا في سورة النمل. ثم وصفهم بالعمى، فقال: **﴿وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم﴾** لفقدهم للانتفاع بالابصار كما ينبغي، أو لفقدهم للبصائر **﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا﴾** أي: ما تسمع إلا هؤلاء لكونهم أهل التفكير، والتدبر، والاستدلال بالآثار على المؤثر **﴿فهم مسلمون﴾** أي: منقادون للحق متبعون له **﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾** ذكر سبحانه استدلالاً آخر على كمال قدرته، وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة، ومعنى

تفسير سورة لقمان

وهي مكية إلا ثلاث آيات، وهي قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [لقمان: 27 - 29] إلى تمام الآيات الثلاث. قاله ابن عباس فيما أخرجه النحاس عنه. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عنه: أنها مكية، ولم يستثن، وحكى القرطبي عن قتادة: أنها مكية إلا آيتين. وأخرج النسائي، وابن ماجه عن البراء قال: كنا نصلي خلف النبي ﷺ الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان، والذاريات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[illegible]

قوله: ﴿لَمْ تَكْ أَيْاتِ الْكِتَابِ﴾ قد تقدم الكلام على أمثال فاتحة هذه السورة، ومحلها من الإعراب مستوفى فلا نعيده، وبيان مرجع الإشارة أيضاً، و﴿الْحَكِيمِ﴾ إما أن يكون بمعنى: مفعول، أو بمعنى: فاعل، أو بمعنى: ذي الحكمة، أو الحكيم قائله، و﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ منصوبان على الحال على قراءة الجمهور. قال الزجاج: المعنى تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة، وقرأ حمزة (ورحمة) بالرفع على أنهما خبر مبتدأ محذوف: أي: هو هدى ورحمة، ويجوز أن يكونا خبر تلك، والمحسن العامل للحسنات، أو من يعبد الله كأنه يراه كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح لما سأله جبريل عن الإحسان: فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، ثم بين عمل المحسنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْتُونَ﴾، والموصول في محل جر على الوصف للمحسنين، أو في محل رفع، أو نصب على المدح، أو القطع، وخص هذه العبادات الثلاث؛ لأنها عمدة العبادات ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قد تقدم تفسير هذا في أوائل سورة البقرة، والمعنى هنا: أن أولئك المتصفين بالإحسان وفعل تلك الطاعات التي هي أمهات العبادات هم على طريقة الهدى، وهم الفائزون بمطالبهم الظافرون بخيري الدارين ﴿وَمَنْ

عليه، وحقيقة اعتبته أزلت عتبه، والمعنى: أنهم لا يدعون إلى إزالة عتبتهم من التوبة، والطاعة كما دعوا إلى ذلك في الدنيا ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله، وصق رسله، واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك ﴿وَلَوْ أَنَّ جَنَّتْهُمْ آيَةٌ﴾ من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو لئن جنتهم بأية كالعصا، واليد ﴿لَيَقُولُنَّ لَنَنْتَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: ما أنت يا محمد، وأصحابك إلا مبطلون أصحاب أباطيل تتبعون السحر، وما هو مشاكل له في البطلان ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الفاقدين للعلم النافع الذي يهتدون به إلى الحق، وينجون به من الباطل، ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر معللاً لذلك بحقيقة وعد الله، وعدم الخلف فيه، فقال: ﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما تسمعه منهم من الأذى، وتتنظر من الأفعال الكفرية فإن الله قد وعدهك بالنصر عليهم، وإعلاء حجتك، وإظهار دعوتك، ووعدك حق لا خلف فيه ﴿وَلَا يَسْتَخَفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يحمِلُكَ على الخفة، ويستفزرك عن دينك، وما أنت عليه الذين لا يوقنون بالله، ولا يصقون أنبياءه، ولا يؤمنون بكتبه، والخطاب للنبي ﷺ، يقال: استخف فلان فلاناً أي: استجله حتى حمله على اتباعه في الغي. قرأ الجمهور «يستخفك» بالخاء المعجمة، والفاء، وقرأ يعقوب، وابن أبي إسحاق بخاء مهملة وقاف من الاستحقاق، والنهي في الآية من باب: لا يرتك هاهنا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مامن مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يردَّ عنه نار جهنم يوم القيامة»، ثم تلا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو من طريق شهر بن حوشب عن أمِّ الدرداء عن، أبي الدرداء. وأخرج أبو يعلى، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿وَيَجْعَلْهُ كَسْفًا﴾ قال: قطعاً بعضها فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَيْقَ﴾ قال: المطر ﴿يُخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ قال: من بينه. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ لِمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ لِلدَّعَاءِ﴾ في دعاء النبي ﷺ لاهل بدر، والإسناد ضعيف. والمشهور في الصحيحين، وغيرهما: أن عائشة استلبت بهذه الآية على ردِّ رواية من روى من الصحابة: أن النبي ﷺ نادى أهل قليب بدر، وهو من الاستدلال بالعام على ردِّ الخاص، فقد قال النبي ﷺ لما قيل له: إنك تنادي أجساداً بالية «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، وفي مسلم من حديث انس: «أن عمر بن الخطاب لما سمع النبي ﷺ يناديهم، فقال: يا رسول الله تناديهم بعد ثلاث، وهل يسمعون؟ يقول الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ لِمَوْتَى﴾، فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم، ولكنهم لا يطيقون أن يجيبوا».

من وقع عليه مهبناً ﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أي: وإذا تتلى آيات القرآن على هذا المستهزئ ﴿وَلَيْ مَسْكَرَاتُ﴾ أي: أعرض عنها حال كونه مبالغاً في التكبر، وجملة ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ في محل نصب على الحال: أي: كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها، ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع، وجملة ﴿كَأَن فِي أَنفِهِ وَقْرًا﴾ حال ثانية، أو بدل من التي قبلها، أو حال من ضمير يسمعها، ويجوز أن تكون مستأنفة، والوقر الثقل، وقد تقدم بيانه، وفيه مبالغة في إعراض ذلك المعرض ﴿فَيُبْشِرُهُ بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾ أي: أخبره بأن له العذاب البالغ في الألم، ثم لما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات بين حال من يقبل عليها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنوا بالله، وبآياته، ولم يعرضوا عنها بل قبلوها، وعملوا بها ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي: نعيم الجنات، فعكسه للمبالغة، جعل لهم جنات النعيم كما جعل للفريق الأول العذاب المهين، واننصاب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ على الحال، وقرأ زيد بن علي (خالدون فيها) على أنه خبر ثان؛ لأن ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ هما مصدران الأول مؤكد لنفسه: أي: وعد الله وعداً، والثاني مؤكد لغيره، وهو مضمون الجملة الأولى، وتقديره حق ذلك حقاً. والمعنى: أن وعده كائن لا محالة، ولا خلف فيه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه غالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل أفعاله، وأقواله، ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ العمد جمع عماد، وقد تقدم الكلام فيه في سورة الرعد، وترونها في محل جر صفة لعمد، فيمكن أن تكون ثم عمدة، ولكن لا ترى. ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال: أي: ولا عمد ألبتة. قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول: الأولى أن يكون مستأنفاً: أي: ولا عمد ثم ﴿وَاللَّهُ فِي الْأَرْضِ رَوسِي﴾ أي: جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في محل نصب على العلة: أي: كرامة أن تميد بكم، والكوفيون يقرئونها لثلاث تميد، والمعنى: أنها خلقها، وجعلها مستقرّة ثابتة لا تتحرك بجبال جعلها عليها، وأرساها على ظهرها ﴿وَبُيْتُ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: من كل نوع من أنواع الدواب، وقد تقدم بيان معنى البيت ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: أنزلنا من السماء مطراً، فأنبطنا فيها بسبب إنزاله من كل زوج: أي: من كل صنف، ووصفه بكونه كريماً لحسن لونه، وكثرة منافعه. وقيل: إن المراد بذلك الناس، فالكريم منهم من يصير إلى الجنة، والثليم من يصير إلى النار. قاله الشعبي، وغيره، والأول أولى. والإشارة بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى ما نكر في خلق السموات والأرض، وهو: مبتدأ، وخبره ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ أي: مخلوقه ﴿فَارُونِي مَاذَا خَلَقَ لِلنَّاسِ مِنْ دُونِهِ﴾ من آلهتهم التي تعبدونها، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: فاروني أي شيء خلقوا مما يحاكي خلق الله، أو يقاربه، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز، والتبكيك. ثم أضرب عن تبكيكهم بما نكر إلى الحكم عليهم بالضللال

للناس من يشتري لهو الحديث محل ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الرفع على الابتداء كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وخبره ﴿مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾، ومن إما موصولة، أو موصوفة، ولهو الحديث كل ما يلهي عن الخير، من الغناء، والملاهي، والأحاديث المكتوبة، وكل ما هو منكرو، والإضافة بيانية. وقيل: المراد شراء القينات المغنيات والمغنين، فيكون التقدير: ومن يشتري أهل لهو الحديث. قال الحسن: لهو الحديث المعازف والغناء. وروي عنه أنه قال: هو الكفر والشرك. قال القرطبي: إن أولى ما قيل في هذا الباب: هو تفسير لهو الحديث بالغناء، قال: وهو قول الصحابة، والتابعين. واللام في ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ للتعليل قرأ الجمهور بضم الياء من «ليضل» أي: ليضل غيره عن طريق الهدى، ومنهج الحق، وإذا أضل غيره، فقد ضل في نفسه. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، وحמיד، وورش، وابن أبي إسحاق بفتح الياء: أي: ليضل هو في نفسه. قال الزجاج: من قرأ بضم الياء، فمعناه: ليضل غيره، فإذا أضل غيره، فقد ضل هو، ومن قرأ بفتح الياء، فمعناه: ليصير أمره إلى الضلال، وهو وإن لم يكن يشتري للضلالة، فإنه يصير أمره إلى ذلك، فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشتري لهو الحديث لهذا المقصد، ويؤيد هذا سبب نزول الآية، وسيأتي. قال الطبري: قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد، وعبد الله العنبري. قال القاضي أبو بكر بن العربي: يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريتة إذ ليس شيء منها عليه حرام لا من ظاهرها، ولا من باطنها، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها؟

قلت: قد جمعت رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم في الغناء، وما استدلل به المحللون له، والمحرمون له، وحققت هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها، وتبدر معانيها إلى النظر في غيرها، وسميتها: [إبطال دعوى الإجماع، على تحريم مطلق السماع] فمن أحب تحقيق المقام كما ينبغي، فليرجع إليها.

ومحل قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ النصب على الحال: أي: حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه، أو بحال ما ينفع من التجارة، وما يضر، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض ﴿وَيَتَّخِذُهَا هُزْؤًا﴾ قرأ الجمهور برفع (يتخذها) عطفًا على يشتري فهو من جملة الصلة، وقيل: الرفع على الاستئناف، والضمير المنصوب في يتخذها يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها، والأول أولى. وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش «ويتخذها» بالنصب عطفًا على يضل، والضمير المنصوب راجع إلى السبيل، فتكون على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم، والمعنى: أنه يشتري لهو الحديث للضللال عن سبيل الله، واتخاذ السبيل هُزْؤًا: أي: مهزوءاً به، والسبيل ينكر ويؤنث، والإشارة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد في الفعلين باعتبار لفظها، والعذاب المهين: هو الشديد الذي يصير به

زماره، فوضع أصبعيه في أنفيه، ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع أسمع؟ قلت: لا، فأخرج أصبعيه من أنفيه، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع. وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف: أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نهيت عن صوتين أحققين فاجرين: صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة خمس وجوه، وشق جيوب، ورنه شيطان».

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَسِيدٌ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْكُرْ بِاللَّهِ إِنَّكَ أَتَرَكُ لَطْمَ عَظِيمٍ ﴿٨﴾ وَصَيَّا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَتَّىٰ أَثْمَرَهُمَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَصَلَّمْ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْعَصِيرِ ﴿٩﴾ وَلَنْ جَهْدَكَ عَلَيَّ أَنْ تَشْكُرَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ، عَلِمَ فَلَا تُلْمَهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ آتَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ يَبْنَىٰ إِنَّمَا تَنْفَعُ الْخَلْقَ حَتَّىٰ حَرَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَبْنَىٰ أَمِيرُ الْفَلَاسَةِ وَأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الشُّكْرِ وَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا آصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ الْأُمُورِ ﴿١٢﴾ وَلَا تَمُوتْ خَلْدًا لِلنَّاسِ وَلَا تَنْسَ فِي الْأَرْضِ مَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَالٍ فَخُورٍ ﴿١٣﴾ وَأَقْبِدْ فِي مَشِيدِكَ وَأَغْضُضْ عَنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْمُنِيرِ ﴿١٤﴾

اختلف في لقمان هل هو عجمي أم عربي؟ مشتق من اللقم، فمن قال: إنه عجمي منعه للتعريف والعجمة، ومن قال: إنه عربي منعه للتعريف، ولزيادة الألف، والنون. واختلفوا أيضاً هو نبي أم رجل صالح؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبي. وحكى الواحدي عن عكرمة، والسدي، والشعبي: أنه كان نبياً، والأول أرجح لما سيأتي في آخر البحث. وقيل: لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط، مع أن الراوي لذلك عنه جابر الجعفي، وهو ضعيف جداً. وهو: لقمان بن باعورا ابن ناحور بن تارخ، وهو: أزر أبو إبراهيم، وقيل: هو لقمان بن عنقا بن ميرون. وكان نوبياً من أهل أيلة نكره السهيلي. قال وهب: هو: ابن أخت أيوب. وقال مقاتل: هو: ابن خالته، عاش ألف سنة، وأخذ عنه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له؟ فقال: ألا اكتفي إذ كفيت. قال الواحدي: كان قاضياً في بني إسرائيل، والحكمة التي آتاه الله هي: الفقه، والعقل، والإصابة في القول، وفسر الحكمة من قال: بنبوته بالنبوّة «أن أشكر لي» أن: هي المفسرة، لأن في إتياء الحكمة معنى: القول، وقيل: التقدير قلنا له: أن أشكر لي. وقال الزجاج: المعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة: لأن أشكر لي. وقيل: بأن أشكر لي، فشكر فكان حكيماً بشكره، والشكر لله الثناء عليه في مقابلة النعمة، وطاعته فيما أمر به. ثم بين سبحانه: أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر، فقال: «ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه»، لأن نفع ذلك راجع إليه، وفائضه حاصلة له، إذ به تستيقى النعمة، ويسببه يستجلب المزيد لها من الله سبحانه «ومن كفر فإن

الظاهر، فقال: «ويل للظالمون في ضلال» فقرّر ظلمهم أولاً، وضلالهم ثانياً، ووصف ضلالهم بالوضوح، والظهور، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة، ولا يهتدي إلى الحق.

وقد أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث» يعني: باطل الحديث. وهو النضر بن الحارث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم، وصنعهم في دهرهم. وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام، ويكتب بالقرآن. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مريويه عنه في الآية قال: باطل الحديث، وهو: الغناء ونحوه «ليضل عن سبيل الله» قال: قراءة القرآن، وذكر الله، نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية. وأخرج البخاري في الأب المفرد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في السنن عنه أيضاً في الآية قال: هو الغناء وأشباؤه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عنه أيضاً في الآية قال: الجواري الضاريات. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي الصهباء قال: سألت عبد الله بن مسعود عن قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث» قال: هو والله الغناء. ولفظ ابن جرير: هو الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يردّها ثلاث مرات. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تتبعوا القينات، ولا تشتروهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمرتهن حرام» في مثل هذا أنزلت هذه الآية «ومن الناس من يشتري لهو الحديث» الآية، وفي إسناده عبيد بن زحر عن علي بن زيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، وفيهم ضعف. وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، وابن مريويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرّم القينة، وبيعهها، وثمرتها، وتعليمها، والاستماع إليها، ثم قرأ «ومن الناس من يشتري لهو الحديث»». وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في السنن عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل» ورواه عنه موقوفاً. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن مريويه عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسا». وفي الباب أحاديث في كل حديث منها مقال. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث» قال: الرجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً. وأخرج ابن مريويه، عن عبد الله بن عمر: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث»: إنما ذلك شراء الرجل للعب والباطل». وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي عن نافع قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر في طريق، فسمع

وقنادة، وأبو رجاء، والحسن، ويعقوب (وفصله)، وهما لغتان، يقال: انفصل عن كذا: أي: تميز، وبه سمي الفصل. وقد قلّمنا أن «أن» في قوله: «**إِنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**» هي: المفسرة. وقال الزجاج: هي: مصدرية. والمعنى: بأن اشكر لي. قال النحاس: وأجود منه أن تكون أن مفسرة، وجملة «**إِلَيَّ الْمَصِيرُ**» تعليل لوجوب امتثال الأمر: أي: الرجوع إليّ لا إلى غيري «**وَإِنْ جَاهِدَكَ عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**» أي: ما لا علم لك بشركته «**فَلَا تَطْعَمْهُمَا**» في ذلك. وقد قلّمنا تفسير الآية، وسبب نزولها في سورة العنكبوت. وانتصاب «**مَعْرُوفًا**» على أنه صفة لمصدر محذوف: أي: وصاحبهما صاحباً معروفاً، وقيل: هو منصوب بنزع الخافض، والتقدير بمعروف «**وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ**» أي: اتبع سبيل من رجع إليّ من عبادي الصالحين بالتوبة، والإخلاص «**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ**» جميعاً لا إلى غيري «**فَلَنَبْشُكَّنَّكُمْ**» أي: أخبركم عند رجوعكم «**بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**» من خير، وشرّ، فأجازي كلّ عامل بعمله. وقد قيل: إن هذا السياق من قوله: «**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ**» إلى هنا من كلام لقمان فلا يكون اعتراضاً، وفيه بعد. ثم شرع سبحانه في حكاية بقية كلام لقمان في وعظه لابنه، فقال: «**يَا بَنِي إِسْهَأْ إِنَّ تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ**» الضمير في إنها عائذ إلى الخطيئة لما روي: أن ابن لقمان قال لآبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد هل يعلمها الله؟ فقال: إنها: الخطيئة، والجملة الشرطية مفسرة للضمير: أي: إن الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل. قال الزجاج: التقدير: إن التي سألتني عنها إن تك مثقال حبة من خردل، وعبر بالخرلة: لأنها أصغر الحبوب، ولا يدرك بالحواس ثقلها، ولا ترجع ميزاناً. وقيل: إن الضمير في «إنهاء» راجع إلى الخصلة من الإساءة، والإحسان: أي: إن الخصلة من الإساءة، والإحسان إن تك مثقال حبة الخ، ثم زاد في بيان خفاء الحبة مع خفتها فقال: «**فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ**» فإن كونها في الصخرة قد صارت في أخفى مكان، وأحرزه «**أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ**» أي: أو حيث كانت من بقاع السموات، أو من بقاع الأرض «**يَبَاتُ بِهَا اللَّهُ**» أي: يحضرها، ويحاسب فاعلها عليها «**إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ**» لا تخفى عليه خافية، بل يصل علمه إلى كل خفي «**خَبِيرٌ**» بكل شيء لا يغيب عنه شيء. قرأ الجمهور (إن تك) بالفوقية على معنى: إن تك الخطيئة، أو المسئلة، أو الخصلة، أو القصة. وقرءوا (مثقال) بالنصب على أنه خبر كان، واسمها هو أحد تلك المقدرات. وقرأ نافع برفع مثقال على أنه اسم كان، وهي تامة. وأنت الفعل في هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث. وقرأ الجمهور (فتكن) بضم الكاف. وقرأ الجحدري بكسرها، وتشديد النون. من الكَرّ الذي هو الشيء المغطى. قال السدّي: هذه الصخرة هي صخرة ليست في السموات، ولا في الأرض. ثم حكى سبحانه عن لقمان: أنه أمر ابنه بإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن

الله غني حميد: أي: من جعل كفر النعم مكان شكرها، فإن الله غني عن شكره غير محتاج إليه حميد مستحق للحمد من خلقه لإنعامه عليهم بنعمه التي لا يحاط بقدرها، ولا يحصر عددها، وإن لم يحمد أحد من خلقه، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال. قال يحيى بن سلام: غني عن خلقه حميد في فعله «**وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لِابْنِهِ**» قال السهيلي: اسم ابنه ثارن في قول ابن جرير، والقتيبي. وقال الكلبي: مشكّم. وقال النقاش: أنعم. وقيل: ماتان. قال القشيري: كان ابنه، وأمراته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما، وهذه الجملة معطوفة على ما تقدّم، والتقدير: أتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه، وحين جعلناه واعظاً لغيره. قال الزجاج: إذ في موضع نصب بآتيانا. والمعنى: ولقد أتينا لقمان الحكمة إذ قال. قال النحاس: وأحسبه غلطاً: لأن في الكلام واو، وهي تمنع من ذلك، ومعنى «**وَهُوَ يَعِظُهُ**»: يخاطبه بالمواعظ التي ترغبه في التوحيد، وتصدّه عن الشرك «**يَا بَنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ**» قرأ الجمهور بكسر الياء. وقرأ ابن كثير بإسكانها. وقرأ حفص بفتحها، ونهيه عن الشرك يدلّ على أنه كان كافراً كما تقدّم، وجملة «**إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**» تعليل لما قبلها، وبدأ في وعظه بنهيه عن الشرك: لأنه أهم من غيره.

وقد اختلف في هذه الجملة، فقيل: هي من كلام لقمان، وقيل: هي من كلام الله، فتكون منقطعة عما قبلها، ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح: أنها لما نزلت «**وَلَمْ يَلْبِسُوا**» إيمانهم بظلم. [الأنعام: 82] شق ذلك على الصحابة، وقالوا: أينما لم يظلم نفسه. فأنزل الله «**إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**» فطابت أنفسهم «**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ**» هذه التوصية بالوالدين، وما بعدها إلى قوله: «**بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**» اعتراض بين كلام لقمان لقصد التأكيد لما فيها من النهي عن الشرك بالله، وتفسير التوصية هي: قوله: «**إِنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**»، وما بينهما اعتراض بين المفسر، والمفسر، وفي جعل الشكر لهما مقترناً بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد، وأكبرها، وأشدّها وجوباً، ومعنى «**حَمَلْتَهُ أُمَّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ**»: أنها حملته في بطنها، وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، وقيل: المعنى: إن المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل، وانتصاب، وهناً على المصدر. وقال النحاس على أنه مفعول ثان يسقط الحرف: أي: حملته بضعف على ضعف، وقال الزجاج: المعنى: لزمها بحملها إياه أن تضعف، مرّة بعد مرة، وقيل: انتصابه على الحال من أمه، «**وعلى وهن**» صفة لو هناً أي: وهناً كائناً على وهن، قرأ الجمهور بسكون الهاء في الموضعين. وقرأ عيسى الثقفي، وهي رواية عن أبي عمرو بفتحهما، وهما لغتان. قال قعنب:

هل للعوائل من ناه فيزجرها إن العوائل فيها الأين والوهن «**وفصله في عامين**» الفصل الطعام، وهو أن يفصل الولد عن الأم، وهو: مبتدأ، وخبره الظرف. وقرأ الجحدري،

على الكثرة، وهو مصدر صات يصوت صوتاً، فهو صاوت.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّبِعُونِي مَا كَانَ لِقَمَانُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: كَانَ حَبِشِيًّا». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا في كتاب المملوكين، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً. وأخرج الطبراني، وابن حبان في الضعفاء، وابن عساكر عنه: قال رسول الله ﷺ: «اتَّخَذُوا السُّودَانَ فِئَانِ ثَلَاثَةَ مِنْهُمْ سَادَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ: لِقَمَانُ الْحَكِيمُ، وَالتَّجَاشِيُّ، وَبِلَالُ الْمُؤْمِنِ». قال الطبراني: أراد الحبشة. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لِقَمَانَ الْحِكْمَةَ» يعني: العقل، والفهم، والفتنة في غير نبوة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن عكرمة: أنه كان نبياً، وقد قَدَّمْنَا أن الراوي عنه جابر الجعفي، وهو ضعيف جداً. وأخرج أحمد، والحكيم، والترمذي، والحاكم في الكنى، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِقَمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ إِذَا اسْتَدْرَعَ شَيْئاً حَفَظَهُ، وَقَدْ نَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ رَوَايَاتٍ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تَتَضَمَّنُ كَلِمَاتٍ مِنْ مَوَاعِظِ لِقَمَانَ وَحِكْمِهِ، وَلَمْ يَصِحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَلَا ثَبِتَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى لِقَمَانَ بِشَيْءٍ مِنْهَا حَتَّى نَقْبَلَهُ. وَقَدْ حَكَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنْ مَوَاعِظِهِ لِابْنِهِ مَا حَكَاهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَفِيهِ كِفَايَةٌ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يَصِحَّ فُلَيْسَ فِي ذِكْرِهِ إِلَّا شُغْلَةٌ لِلْحَزِينِ، وَقَطِيعَةٌ لِلوَقْتِ، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا حَتَّى يَكُونَ مَا نَقَلَ عَنْهُ مِنْ شَرَعٍ مِنْ قَبْلِنَا، وَلَا صَحَّ إِسْنَادٌ مَا رَوَى عَنْهُ مِنَ الْكَلِمَاتِ حَتَّى يَكُونَ ذِكْرُ ذَلِكَ مِنْ تَدْوِينِ كَلِمَاتِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ. وَأَخْرَجَ أَبُو يَعْلَى، وَالتَّطَبُّرِيُّ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ أَبِي عَثْمَانَ النَّهْدِيِّ: أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ: أَنْزَلَتْ فِي هَذِهِ آيَةِ ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُقْرِكَ بِي﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ هَذَا. وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةِ فِي سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُنَا عَلَى وَهْنٍ﴾ قَالَ: شِدَّةٌ بَعْدَ شِدَّةٍ، وَخَلْقٌ بَعْدَ خَلْقٍ. وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ، وَابْنُ عَدِيٍّ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي أَيُّوبٍ الْأَنْصَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَتَلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَلْقَكَ لِلنَّاسِ﴾، فَقَالَ: لِي الشُّلُقُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَلْقَكَ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: لَا تُتَكَبَّرُ، فَتُحْتَقَرُ عِبَادُ اللَّهِ، وَتُعْرَضُ عَنْهُمْ إِذَا كَلِمُوكَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ فِي آيَةِ قَالَ: هُوَ الَّذِي إِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِ لَوَى عُنُقَهُ كَالْمُسْتَكْبِرِ.

المنكر، والصبر على المصيبة، ووجه تخصيص هذه الطاعات أنها أمهات العبادات، وعماد الخير كله، والإشارة بقوله: ﴿إِنْ ذَلِكَ﴾ إلى الطاعات المذكورة، وخبر إن قوله: ﴿مَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ أي: مما جعله الله عزيمة، وأوجبه على عباده. وقيل: المعنى: من حق الأمور التي أمر الله بها. والعزم يجوز أن يكون بمعنى: المعزوم: أي: من معزومات الأمور، أو بمعنى: العازم كقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ [محمد: 21] قال المبرد: إن العين تبدل حاء. فيقال: عزم، وحزم. قال ابن جرير: ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق، وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، وصوب هذا القرطبي ﴿وَلَا تُصَاعِرْ خَلْقَكَ لِلنَّاسِ﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ (تَصَغَّرَ)، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَعَاصِمٌ (تُصَاعِرُ) وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ، وَالصَّعْرُ الْمِيلُ، يُقَالُ: صَعَرَ خَدَّهُ، وَصَاعَرَ خَدَّهُ إِذَا أَمَالَ وَجْهَهُ، وَأَعْرَضَ تَكْبَرًا. وَالْمَعْنَى: لَا تُعْرَضُ عَنِ النَّاسِ تَكْبَرًا عَلَيْهِمْ. وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ مَشِينًا إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ نَعَاتِبُهُ
وَيَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ هَكَذَا:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ أَتَمَّنَا لَهُ مِنْ مِيلِهِ فَتَقَوَّمَا
قَالَ الْهَرَوِيُّ ﴿وَلَا تُصَاعِرْ خَلْقَكَ لِلنَّاسِ﴾ أَي: لَا تُعْرَضُ عَنْهُمْ تَكْبَرًا، يُقَالُ: أَصَابَ الْبَعِيرَ صَعْرٌ إِذَا أَصَابَهُ دَاءٌ يُلَوِي عُنُقَهُ؛ وَقِيلَ: الْمَعْنَى: وَلَا تُلُوْ شِقْكَ إِذَا نَكَرَ الرَّجُلُ عِنْدَكَ كَأَنَّكَ تَحْتَقِرُهُ. وَقَالَ ابْنُ خُوَيْزِمَةَ: كَانَ نَهْيٌ أَنْ يَذُلَّ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَلَعَلَّهُ فُهِمَ مِنَ التَّصْغِيرِ التَّنْزِيلُ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أَي: خِيَلًا، وَفَرَحًا، وَالْمَعْنَى: النَّهْيُ عَنِ التَّكَبُّرِ، وَالتَّجَبُّرِ. وَالمختار يمرح في مشيه، وهو مصدر في موضع الحال، وقد تَقَدَّمَ تَحْقِيقُهُ، وَجُمْلَةُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ؛ لِأَنَّ الْاِخْتِيَالَ هُوَ الْمَرَحُ، وَالفُخُورُ هُوَ الَّذِي يَفْتَخِرُ عَلَى النَّاسِ بِمَا لَهُ مِنَ الْمَالِ، أَوْ الشَّرَفِ، أَوْ الْقُوَّةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ مِنْهُ التَّحَدُّثُ بِنِعْمِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَأَمَّا نِيعَةً رَبِّكَ فَحَنُوتٌ﴾ [الضحى: 11] ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أَي: تَوَسَّطْ فِيهِ، وَالْقَصْدُ مَا بَيْنَ الْإِسْرَاعِ، وَالْبَطْءِ. يُقَالُ: قَصَدَ فُلَانٌ فِي مَشْيِهِ: إِذَا مَشَى مُسْتَوِيًّا لَا يَدْبُ دِيبَ التَّمَاوُتَيْنِ، وَلَا يَثْبُثُ وَثُوبَ الشَّيَاطِينِ. وَقَدْ ثَبِتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا مَشَى أُسْرِعَ، فَلَا يَدُّ أَنْ يَحْمِلَ الْقَصْدَ هُنَا عَلَى مَا جَاوَزَ الْحَدَّ فِي السَّرْعَةِ. وَقَالَ مَقَاتِلُ: مَعْنَاهُ: لَا تَخْتَلْ فِي مَشْيِكَ. وَقَالَ عَطَاءٌ: امْشِ بِالْوَقَارِ، وَالسَّكِينَةِ، كَقَوْلِهِ: «يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» [الفرقان: 63] ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أَي: انْقُصْ مِنْهُ، وَخَفِّضْهُ، وَلَا تَتَكَلَّفْ رَفْعَهُ، فَإِنَّ الْجَهْرَ بِكَثْرٍ مِنَ الْحَاجَةِ يُوْذِي السَّمَاعَ، وَجُمْلَةُ ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِالْغَضِّ مِنَ الصَّوْتِ: أَي: أَوْحِشْهَا، وَأَقْبَحْهَا. قَالَ قَتَادَةُ: أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ صَوْتُ الْحَمِيرِ أَوَّلُهُ زَفِيرٌ، وَآخِرُهُ شَهيقٌ. قَالَ الْمَبْرَدُ: تَأْوِيلُهُ إِنَّ الْجَهْرَ بِالصَّوْتِ لَيْسَ بِمَحْمُودٍ، وَإِنَّ دَاخِلَ فِي بَابِ الصَّوْتِ الْمُنْكَرُ. وَاللَّامُ فِي لَصَوْتٍ لِلتَّكَايُفِ، وَوَحْدَ الصَّوْتِ مَعَ كَوْنِهِ مَضَافًا إِلَى الْجَمْعِ؛ لِأَنَّهُ مُصَدَّرٌ، وَهُوَ يَدُلُّ

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ
مُنِيرٍ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا آتَاكُمْ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبِّئُكُمْ مَّا جَدَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
أَوَّلُوا كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ إِلَى عَذَابِ النَّعِيرِ ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ
إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام، ونمشي في الطريق التي كانوا يمشون بها في دينهم، ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيك ﴿أَوَلَوْ كَانَ لِلشَّيْطَانِ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ لِّلسَّعِيرِ﴾ أي: يدعو آبائهم الذين اقتدوا بهم في دينهم: أي: يتبعونهم في الشرك، ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك، ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الاتباع إلى عذاب السعير، لأنه زين لهم اتباع آبائهم، والتدين بدينهم، ويجوز أن يراد أنه يدعو جميع التابعين، والمتبعين إلى العذاب. فدعاؤه للمتبعين بتزيينه لهم الشرك، ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم، وجواب لو محذوف أي: يدعوهم، فيتبعونهم، ومحل الجملة النصب على الحال. وما أقبح التقليد، وأكثر ضرره على صاحبه، وأوخم عاقبته، وأشام عائته على من وقع فيه. فإن الداعي له إلى ما أنزل الله على رسوله كمن يريد أن ينزود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق، فتأبى ذلك، وتتهافت في نار الحريق، وعذاب السعير ﴿وَمَنْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يفوض إليه أمره، ويخلص له عبادته، ويقبل عليه بكلية ﴿هُوَ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله، لأن العباداة من غير إحسان لها، ولا معرفة بما يحتاج إليه فيها لا تقع بالموقع الذي تقع به عبادة المحسنين. وقد صح عن الصادق المصنوق لما سأله جبريل عن الإحسان أنه قال له: «إن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي: اعتصم بالعهد الأوثق، وتعلق به، وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله بحال من أراد أن يترقى إلى شاطئ جبل فتمسك بأوثق عرى جبل متدلاً منه ﴿وَالِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: مصيرها إليه لا إلى غيره. وقرأ علي بن أبي طالب، والسلمي، وعبد الله بن مسلم بن يسار (ومن يسلم) بالتشديد قال النحاس: والتخفيف في هذا أعرف كما قال عز وجل: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 20] ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ أي: لا تحزن لذلك، فإن كفره لا يضر، بين سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين، ثم توعدهم بقوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: نخبرهم بقبائح أعمالهم، ونجازيهم عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تسره صدورهم لا تخفى عليه من ذلك خافية. فالسرّ عنده كالعلانية ﴿فَنُتَبِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نبقىهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها. فإن النعيم الزائل هو أقل قليل بالنسبة إلى النعيم الدائم. وانتصاب قليلًا على أنه صفة لمصدر محذوف: أي: تمتعًا قليلًا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: لنجئهم إلى عذاب النار. فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه، وأصيب به، فهذا استعير له الغلظ ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: يعترفون بالله خالق تلك لوضوح الأمر فيه عندهم. وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد، وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: قل يا محمد: الحمد

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢١﴾ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٢﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْمَلَأْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْغَلِيظُ ﴿٢٤﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَكَلَتْهُ الْوَابِغُرُ يُضْطَرُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ مِائَةِ أَمْثَلٍ مَا تَبَدَّدَتْ كُنُتُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٥﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَرًا وَإِنْ اللَّهَ تَبِعَ بَصِيرٌ ﴿٢٦﴾

لما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع إلى توبيخ المشركين، وتبكيتهم، وإقامة الحجج عليهم، فقال: ﴿قَالُوا تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: معنى تسخيرها للأمميين: الانتفاع بها انتهى، فمن مخلوقات السموات المسخرة لبني آدم: أي: التي ينتفعون بها الشمس، والقمر، والنجوم، ونحو ذلك. ومن جملة ذلك الملائكة فإنهم حفظة لبني آدم بأمر الله سبحانه، ومن مخلوقات الأرض المسخرة لبني آدم الأحجار، والتراب، والزرع، والشجر، والثمر، والحيوانات التي ينتفعون بها، والعشب الذي يرعون فيه دوابهم، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة، فالمراد بالتسخير جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له سواء كان منقاداً له، وداخلاً تحت تصرفه أم لا ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي: أتم، وأكمل عليكم نعمه، يقال: سبغت النعمة إذا تمت وكملت. قرأ الجمهور «أسبغ» بالسین، وقرأ ابن عباس، ويحيى بن عمار (أصبغ) بالصاد مكان السين. والنعم جمع نعمة على قراءة نافع، وأبي عمرو، وحفص، وقرأ الباقر (نعمة) بسكون العين على الإفراد، والتثنية اسم جنس يراد به الجمع، ويدل به على الكثرة، كقوله: ﴿وَإِنْ تَعْنُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34] وهي قراءة ابن عباس. والمراد بالنعم الظاهرة ما يدرك بالعقل، أو الحس، ويعرفه من يتعرفه، وبالباطنة ما لا يدرك للناس، ويخفى عليهم. وقيل: الظاهرة: الصحة، وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة، والعقل. وقيل: الظاهرة: ما يرى بالابصار من المال، والجاه، والجمال، وفعل الطاعات، والباطنة: ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله، وحسن اليقين، وما يدفعه الله عن البعد من الآفات. وقيل: الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة. وقيل: الظاهرة: الإسلام، والجمال، والباطنة: ما ستره الله على العبد من الأعمال السيئة ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: في شأن الله سبحانه في توحيده، وصفاته مكابرة، وعناداً بعد ظهور الحق له، وقيام الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿يُغَيِّرُ عِلْمَهُ﴾ من عقل ولا نقل ﴿وَلَا هُدًى يَهْدِي بِهِ إِلَىٰ طَرِيقِ الصَّوَابِ﴾ ﴿وَلَا كِتَابٌ مُنِيرٌ﴾ أنزله الله سبحانه، بل مجرد تعنت، ومحض عناد، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: إذا قيل لهؤلاء المجادلين، والجمع باعتبار معنى: من، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الكتاب تمسكوا بمجرد التقليد البحت،

إنها لما نزلت ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: 85] في اليهود، قالوا: كيف، وقد أوتينا التوراة فيها كلام الله، وأحكامه، فنزلت. قال أبو عبيدة: المراد بالبحر هنا الماء العذب الذي ينبت الأقالام، وأما الماء المالح، فلا ينبت الأقالام. قلت: ما أسقط هذا الكلام، وأقل جدواه ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي: غالب لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن حكمته، وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته ﴿وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ أي: إلا خلق نفس واحدة، وبعثها. قال النحاس: كذا قدره النحويون كخلق نفس مثل قوله: ﴿وراسل القرية﴾ [يوسف: 82]. قال الزجاج: أي: قدرة الله على بعث الخلق كله، وعلى خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة ﴿إن الله سميع﴾ لكل ما يسمع ﴿بصير﴾ بكل ما يبصر. وقد أخرج البيهقي في الشعب عن عطاء قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿واسبغ عليكم﴾ الآية، قال: هذه من كنوز علمي سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «أما الظاهرة فما سوى من خلقك، وأما الباطنة فما ستر من عورتك، ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم». وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والديلمي، وابن النجار عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ فقال: أما الظاهرة فالإسلام، وما سوى من خلقك، وما أسبغ عليك من رزقه، وأما الباطنة فما ستر من مساوي عملك». وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: النعمة الظاهرة الإسلام، والنعمة الباطنة كل ما يستر عليكم من الذنوب، والعيوب، والحدود. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: أنه قال في تفسير الآية: هي: لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ولو أنما في الأرض﴾ الآية «أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا محمد أرايت قولك: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: 85] إيانا تريد أم قومك؟ فقال: كلا، فقالوا: الست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة، وفيها تبين كل شيء؟ فقال: إنها في علم الله قليل، وأنزل الله ﴿ولو أنما في الأرض﴾ الآية». وأخرج ابن مردويه عنه بأطول منه. وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن مسعود نحوه.

له على اعترافكم، فكيف تعبodon غيره، وتجعلونه شريكاً له؟ أو المعنى: فقل: الحمد لله على ما هدانا له من دينه، ولا⁽¹⁾ حمد لغيره⁽²⁾، ثم أضرب عن ذلك، فقال: ﴿بيل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: لا ينتظرون، ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذي تجب له العبادة دون غيره ﴿الله ما في السموات والأرض﴾ ملكاً، وخلقاً فلا يستحق العبادة غيره ﴿إن الله هو الغني﴾ عن غيره ﴿الحميد﴾ أي: المستحق للحمد، أو المحمود من عباده بلسان المقال، أو بلسان الحال. ثم لما ذكر سبحانه أن له ما في السموات والأرض أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد، ولا يحصر بحد، فقال: ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام﴾ أي: لو أن جميع ما في الأرض من الشجرة أقلام. ووحد الشجرة لما تقرّر في علم المعاني أن استغراق المفرد اشمل، فكانه قال: كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد برئت أقلاماً، وجمع الأقلام لقصد التكثير: أي: لو أن يعد كل شجرة من الشجر أقلاماً. قال أبو حيان: وهو من وقوع المفرد موقع الجمع، والنكرة موقع المعرفة كقوله: ﴿ما ننسخ من آية﴾ [البقرة: 106]، ثم قال سبحانه: ﴿والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾ أي: يمده من بعد نفاده سبعة أبحر. قرأ الجمهور «والبحر» بالرفع على أنه مبتدأ، ويمده خبره. والجملة في محل الحال: أي: والحال أن البحر المحيط مع سعته يمده السبعة الأبحر مذ لا ينقطع، كذا قال سيبويه. وقال المبرد: إن البحر مرتفع بفعل مقتر تقديره ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر، وقيل: هو مرتفع بالعطف على أن، وما في حيزها. وقرأ أبو عمرو، وابن أبي إسحاق، والبحر بالنصب عطفاً على اسم أن، أو بفعل مضمّر يفسره يمده. وقرأ ابن هرمز، والحسن «يمده» بضم حرف المضارعة، وكسر الميم، من أمد. وقرأ جعفر بن محمد، والبحر (مداده)، وجواب لو ﴿ما نفدت كلمات الله﴾ أي: كلماته التي هي عبارة عن معلوماته. قال أبو علي الفارسي: المراد بالكلمات، والله أعلم ما في المقنن دون ما خرج منه إلى الوجود، ووافقه القفال، فقال: المعنى: أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مداداً، فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته، ووحدانيته لم تنفذ تلك العجائب. قال القشيري: رء القفال معنى الكلمات إلى المقننات. وحمل الآية على الكلام القنيم أولى. قال النحاس: قد تبين أن الكلمات هاهنا يراد بها العلم، وحقائق الأشياء، لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر، وعلم الأجناس كلها، وما فيها من شعرة، وعضو، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق. وقيل: إن قريشاً قالت: ما أكثر كلام محمد، فنزلت قاله السدي، وقيل:

(1 - 1) هكذا في الاصل ولعلها: ولا حمد لغيره.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُبْدِلُ الْإِلَّ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي الْإِلَّ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى أَلَمٍ مسمى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلَّ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ عَثِرَ مُوسَىٰ عَلَىٰ كَأْفُلٍ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْإِنِّ فَلَمَّا بَحْنَهُمْ إِلَى الْآخِرِ فَبَيْنَهُمْ مُّقْنَصٌ وَمَا يَحْمَدُ بِتَابِعَاتٍ إِلَّا كُلُّ حَسَّارٍ كَفُورٍ ﴿٢١﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَاٌ هُوَ جَايزٌ عَنْ وَلَدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٢٢﴾ إِنَّ

اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ رِيحًا مِّنَ الْأَعْنَافِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٦١﴾

الخطاب بقوله: ﴿هَلُم تَرَكْ﴾ لكل أحد يصلح لذلك، أو للرسول ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل كل واحد منهما في الآخر، وقد تقدّم تفسيره في سورة الحج والأنعام ﴿وَسَخَّرَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ أي: لذلّهما، وجعلهما متقائين بالطلوع والأفول تقديرًا للأجال، وتتميمًا للمنافع، والجملة معطوفة على ما قبلها مع اختلافها ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ لُجْلٍ مَّسْمُومٍ﴾ اختلف في الأجل المسمى ماذا هو؟ فقيل: هو يوم القيامة، وقيل: وقت الطلوع، ووقت الأفول، والأوّل أولى، وجملة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ معطوفة على أن الله يولج: أي: خبير بما تعملونه من الأعمال لا تخفى عليه منها خافية؛ لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة فقدرته على العلم بما تعملونه بالأولى. قرأ الجمهور (تعملون) بالفوقية، وقرأ السلمي، ونصر بن عامر، والدوري عن أبي عمرو بالتحتية على الخبر، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدّم ذكره، والباء في ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ للسببية: أي: ذلك بسبب أنه سبحانه ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ وغيره الباطل، أو متعلقة بمحذوف أي: فعل ذلك ليعلموا أنه الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ قال مجاهد: الذي يدعون من دونه هو الشيطان، وقيل: ما أشركوا به من صنم، أو غيره، وهذا أولى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ والمعنى: أن ذلك الصنع البديع الذي وصفه في الآيات المتقدمة للاستدلال به على حقّية الله، ويطلان ما سواه، وعلوه، وكبريائه: هو العليّ في مكانته، ذو الكبرياء في ربوبيته، وسلطانه. ثم ذكر من عجب صنعه، وبديع قدرته نوعاً آخر، فقال: ﴿هَلُم تَرَأَىٰ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ أي: بلفظه بكم، ورحمته لكم، وذلك من أعظم نعمه عليكم؛ لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم في البحر لطلب الرزق، وقرأ ابن هرمز (بنعمات الله) جمع نعمة ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ من للتبعيض: أي: ليرىكم بعض آياته. قال يحيى بن سلام: وهو جري السفن في البحر بالريح. وقال ابن شجرة: المراد بقوله: من آياته ما يشاهدونه من قدرة الله. وقال النقاش: ما يريظهم الله في البحر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها: أي: إن فيما نذكر لآيات عظيمة لكل من له صبر بليغ، وشكر كثير يصبر عن معاصي الله، ويشكر نعمه ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَظْلُمٍ﴾ شبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل، أو سحاب، أو غيرهما، وإنما شبه الموج، وهو واحد بالظلال. وهي جمع، لأن الموت يأتي شيئاً بعد شيء، ويركب بعضه بعضاً. وقيل: إن الموج في معنى الجمع؛ لأنه مصدر، وأصل الموج الحركة، والازدحام، ومنه يقال: ماج البحر، وماج الناس. وقرأ محمد بن الحنفية «موج كالظلال» جمع ظل ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: دعوا الله وحده لا

يعولون على غيره في خلاصهم؛ لأنهم يعلمون أنه لا يضر، ولا ينفع سواه، ولكنه تغلب على طبائعهم العادات، وتقليد الأموات، فإذا وقعوا في مثل هذه الحالة اعترفوا بوحداية الله، وأخلصوا بينهم له طلباً للخلاص، والسلامة مما وقعوا فيه ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ صاروا على قسمين: فقسم ﴿مُقْتَصِدٌ﴾ أي: موف بما عاهد عليه الله في البحر من إخلاص الدين له، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر، وأخرجه إلى البرّ سالمًا. قال الحسن: معنى مقتصد: مؤمن متمسك بالتوحيد، والطاعة. وقال مجاهد: مقتصد في القول مضمهر للكفر، والأولى ما ذكرناه، ويكون في الكلام حذف، والتقدير فمنهم مقتصد، ومنهم كافر، ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿هُوَ يَجِدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلَّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختر: أسوأ الغر، وأقبحه، ومنه قول الأعشى:

بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير ختار
قال الجوهري: الختر الغر، يقال: ختره، فهو: ختار. قال الماوردي: وهذا قول الجمهور. وقال ابن عطية: إنه الجاحد، وجدد الآيات: إنكارها، والكفور: عظيم الكفر بنعم الله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم وَلِخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي: لا يغني الوالد عن ولده شيئاً، ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه. وقد تقدّم بيان معناه في البقرة ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ نكر سبحانه فردين من القربات، وهو الوالد والولد، وهما الغاية في الحنوّ والشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القربات لا يجزي بالأولى فكيف بالأجانب. اللهم اجعلنا ممن لا يرجو سواك، ولا يعول على غيرك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ لا يتخلف فما وعد به من الخير، وأوعد به من الشر، فهو كائن لا محالة ﴿فَلَا تُغْرِكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وزخارفها فإنها زائلة ذاهبة ﴿وَلَا يَغْرِيكُمْ بَالُ الْغُرُورِ﴾ قرأ الجمهور «الغرور» بفتح الغين المعجمة، والغرور هو: الشيطان، لأن من شأنه أن يغتر الخلق، ويمنيهم بالأمانى الباطلة، ويلهيهم عن الآخرة، ويصدّهم عن طريق الحق. وقرأ سماك بن حرب، وأبو حيرة، وابن السميع بضم الغين مصدر غرّ يغرّ غروراً، ويجوز أن يكون مصدراً واقعا وصفاً للشيطان على المبالغة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علم وقتها الذي تقوم فيه. قال الفراء: إن معنى هذا الكلام: النفي: أي: ما يعلمه أحد إلا الله عزّ وجلّ. قال النحاس: وإنما صار فيه معنى: النفي لما ورد عن النبي ﷺ: أنه قال في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59] إنها هذه ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ في الأوقات التي جعلها معينة لإنزاله، ولا يعلم ذلك غيره ﴿وَيُعَلِّمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ من الذكور، والإناث، والصالح، والفاسد ﴿هُوَ تَدْرِي نَفْسٌ مِنَ النَّفْسِ كَائِنَةٌ مَا كَانَتْ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْبِيَاءِ، وَالْجَنِّ، وَالْإِنْسِ﴾ ماذا تكسب غداً؟ من كسب دين، أو كسب دنيا ﴿هُوَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: بأيّ مكان يقضي الله عليها بالموت. قرأ الجمهور «وينزل

مما تعنون ﴿أي: ثم يرجع ذلك الأمر، ويعود ذلك التدبير إليه سبحانه في يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، وذلك باعتبار مسافة النزول من السماء والطلوع من الأرض كما قمنّا. وقيل: إن المراد أنه يعرج إليه في يوم القيامة الذي مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، وذلك حين ينقطع أمر الدنيا ويموت من فيها. وقيل: هي أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع من يرسله إليها من الملائكة، والمعنى: أنه يثبت ذلك عنده، ويكتب في صحف ملائكته ما عمله أهل الأرض في كل وقت من الأوقات إلى أن تبلغ مدة الدنيا آخرها، وقيل: معنى يعرج إليه: يثبت في علمه موجوداً بالفعل في برهة من الزمان هي مقدار ألف سنة، والمراد طول امتداد ما بين تبير الحوادث وحوثها من الزمان. وقيل: يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها في اللوح المحفوظ، فتنزل بها الملائكة، ثم تعرج إليه في زمان هو كالف سنة من أيام الدنيا. وقيل: يقضي قضاء ألف سنة، فتنزل به الملائكة، ثم يعرج بعد الألف لآلف آخر. وقيل: المراد أن الأعمال التي هي طاعات يبرها الله سبحانه، وينزل بها ملائكته ثم لا يعرج إليها منها إلا الخالص بعد مدة متطاولة لقلّة المخلصين من عباده. وقيل الضمير في يعرج يعود إلى الملك وإن لم يجر له ذكر لأنه مفهوم من السياق. وقد جاء صريحاً في قوله: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ [المعارج: 4] والضمير في إليه يرجع إلى السماء على لغة من يذكرها، أو إلى مكان الملك الذي يرجع إليه، وهو الذي أقرّه الله فيه. وقيل: المعنى: يدبر أمر الشمس في طلوعها، وغروبها، ورجوعها إلى موضعها من الطلوع في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة، وقيل: المعنى: أن الملك يعرج إلى الله في يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة. لأن ما بين السماء والأرض مسافة خمسمائة عام، فمسافة النزول من السماء إلى الأرض، والرجوع من الأرض إلى السماء ألف عام، وقد رجّح هذا جماعة من المفسرين منهم ابن جرير. وقيل: مسافة النزول ألف سنة، ومسافة الطلوع ألف سنة، روي ذلك عن الضحّاك، وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة، وليس المراد به مسمى اليوم الذي هو مدة النهار بين ليلتين، والعرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر:

يومان يوم مقامات وأنسية ويوم سير إلى الأعداء تأديب
فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين، فعبّر عن كل واحد من الشطرين بيوم، قرأ الجمهور «يعرج» على البناء للفاعل. وقرأ ابن أبي عبيدة على البناء للمفعول، والأصل يعرج به، ثم حذف حرف الجار، فاستتر الضمير. وقد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج: 4] فقيل: في الجواب إن يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، ولكنه باعتبار صعوبته، وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة، والعرب تصف كثيراً يوم المكروه بالطول كما تصف

فاضرب عن الكلام الأول إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمن للتقريع، والتوبيخ، ومعنى ﴿افتراه﴾: افتعله، واختلقه، ثم اضرب عن معتقدهم إلى بيان ما هو الحق في شأن الكتاب، فقال: ﴿بيل هو الحق من ربك﴾ فكذبهم سبحانه في دعوى الافتراء، ثم بين العلة التي كان التنزيل لأجلها، فقال: ﴿لتنذر قوماً ما تاتاهم من نذير من قبلك﴾ وهم العرب، وكانوا أمة أمية لم يأتهم رسول، وقيل: قريش خاصة، والمفعول الثاني لتنذر محذوف: أي: لتنذر قوماً العقاب، وجملة ما تاتاهم من نذير في محل نصب على الحال، ومن قبلك صفة لتنذر، وجوز أبو حيان أن تكون ما موصولة، والتقدير: لتنذر قوماً العقاب الذي أتاهم من نذير من قبلك، وهو ضعيف جداً، فإن المراد تعليل الإنزال بالإنذار لقوم لم يأتهم نذير قبله، لا تعليله بالإنذار لقوم قد أنذروا بما أنذرهم به، وقيل: المراد بالقوم أهل الفترة ما بين عيسى، ومحمد ﷺ ﴿علّهم يهتدون﴾ رجاء أن يهتدوا، أو كي يهتدوا ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ قد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف، والمراد من نكرها هنا تعريفهم كمال قدرته، وعظيم صنعته؛ ليسمعوا القرآن، ويتأملوه، ومعنى خلق: أوجد، وأبدع. قال الحسن: الأيام هنا هي من أيام الدنيا، وقيل: مقدار اليوم، ألف سنة من سني الدنيا، قاله الضحّاك، فعلى هذا المراد بالأيام هنا هي من أيام الآخرة لا من أيام الدنيا، وليست ثم للترتيب في قوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾، وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى ﴿وما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ أي: ليس لكم من دونه الله، أو من دونه عذابه من ولي يواليكم ويردّ عنكم عذابه، ولا شفيع يشفع لكم عنده ﴿أفلا تتذكرون﴾ تنكر تدبر، وتفكر، وتسمعون هذه المواعظ سماع من يفهم، ويعقل حتى تنتفعوا بها ﴿ينبئ الأمر من السماء إلى الأرض﴾ لما بين سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما بين تدبيره لأمرها أي: يحكم الأمر بقضائه وقدره من السماء إلى الأرض، والمعنى: ينزل أمره من أعلا السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال سبحانه: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ يتنزل الأمر بينهنّ﴾ [الطلاق: 12] ومسافة ما بين سماء الدنيا والأرض التي تحتها نزولاً وطلوعاً ألف سنة من أيام الدنيا. وقيل: المراد بالأمور المأمور به من الأعمال: أي: ينزله مديراً من السماء إلى الأرض. وقيل: يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة أحكامها وأثارها إلى الأرض. وقيل: ينزل الوحي مع جبريل. وقيل: العرش موضع التدبير كما أن ما نون العرش موضع التفصيل كما في قوله: ﴿ثم استوى على العرش... يدبر الأمر يفصل الآيات﴾ [الرعد: 2] وما نون السموات موضع التصرف، قال الله: ﴿ولقد صرفناه بينهم لينذكروا﴾ [الفرقان: 50] ثم لما ذكر سبحانه تدبير الأمر قال: ﴿ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة

راجع إلى الله سبحانه؛ ومعنى أحسن: حسن، لأنه ما من شيء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة، فكل المخلوقات حسنة. الثالث أن يكون كل شيء هو المفعول الأول، وخلقه هو المفعول الثاني على تضمين أحسن معنى: أعطى، والمعنى: أعطى كل شيء خلقه الذي خصه به، وقيل: على تضمينه معنى: اللهم، قال الفراء: ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه. الرابع أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة أي: خلقه خلقاً كقوله: ﴿صنع الله﴾ [النمل: 88] وهذا قول سيبويه، والضمير يعود إلى الله سبحانه. والخامس أنه منصوب بنزع الخافض، والمعنى: أحسن كل شيء في خلقه، ومعنى الآية: أنه اتقن، وأحكم خلق مخلوقاته، فبعض المخلوقات، وإن لم تكن حسنة في نفسها، فهي متقنة محكمة، فتكون هذه الآية معناها معنى ﴿أعطى كل شيء خلقه﴾ أي: لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، وخلق لا البهيمة على خلق الإنسان، وقيل: هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى أي: أحسن خلق كل شيء حسن ﴿وبدا خلق الإنسان من طين﴾ يعني: آدم خلقه من طين، قصار على صورة بديعة، وشكل حسن ﴿جعل نسله﴾ أي: نريته ﴿ومن سلالة﴾ سميت للنزلة سلالة؛ لأنها تسل من الأصل، وتتفصل عنه، وقد تقدم تفسيرها في سورة المؤمنين؛ ومعنى ﴿من ماء مهين﴾ من ماء ممتن لا خطر له عند الناس، وهو المني. وقال الزجاج: من ماء ضعيف ﴿ثم سواه﴾ أي: الإنسان الذي بدأ خلقه من طين، وهو: آدم، أو جميع النور، والمراد أنه عدل خلقه، وسوّى شكله، وناسب بين أعضائه ﴿ونفخ فيه من روحه﴾ الإضافة للتشريف، والتكريم. وهذه الإضافة تقوي أن الكلام في آدم لا في نريته، وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع، ثم خاطب جميع النور، فقال: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي: خلق لكم هذه الأشياء تكميلاً لنعمته عليكم، وتتميماً لتسويته لخلقكم حتى تجتمع لكم النعم، فتسمعون كل مسموع، وتبصرون كل مبصر، وتتفعلون كل متفعل، وتفهمون كل ما يفهم، وأفرد السمع لكونه مصدراً يشمل القليل، والكثير، وخص السمع بذكر المصدر دون البصر، والفؤاد، فذكرهما بالاسم ولهذا جمعاً، لأن السمع قوة واحدة، ولها محل واحد، وهو: الأذن، ولا اختيار لها فيه، فإن الصوت يصل إليها، ولا تقدر على رده. ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض، بخلاف الأبصار، فمحلها العين، وله فيه اختيار، فإنها تتحرك إلى جانب المرئي دون غيره، وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشيء؛ وكذلك الفؤاد له نوع اختيار في إدراكه، فيتفعل هذا دون هذا، ويفهم هذا دون هذا. قرأ الجمهور: ﴿وبدا﴾ بالهمز، والزهرى بالغ خالصة بدون همز، وانتصاب ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ على أنه صفة مصدر محذوف: أي: شكراً قليلاً، أو صفة زمان محذوف: أي: زماناً قليلاً، وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله،

يوم السرور بالقصر كما قال الشاعر:
ويوم كظلم الرمح قصر طوله دم الزرق عنا واصطفاف المزاهر
وقول الآخر:

ويوم كلبهام القطاة قطعته

وقيل: إن يوم القيامة فيه أيام، فمنها ما مقداره ألف سنة، ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة. وقيل: هي أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة، ثم ينقل إلى نوع آخر، فيعذب به خمسين ألف سنة. وقيل: مواقف القيامة خمسون موقفاً كل موقف ألف سنة، فيكون معنى ﴿يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة﴾: أنه يعرج إليه في وقت من تلك الأوقات، أو موقف من تلك المواقف. وحكى الثعلبي عن مجاهد، وقتادة، والضحاك: أنه أراد سبحانه في قوله: ﴿نعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج: 4] المسافة من الأرض إلى سدة المنتهى التي هي مقام جبريل، والمراد أنه يسير جبريل، ومن معه من الملائكة في ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة في مقدار يوم واحد من أيام الدنيا، وأراد بقوله: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ المسافة التي بين الأرض، وبين سماء الدنيا هبوطاً، وصعوداً فإنها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا. وقيل: إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين، وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة، فقوله: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ يعني: يدبر الأمر في زمان يوم منه ألف سنة. فكم يكون الشهر منه؟ وكم تكون السنة منه؟ وعلى هذا فلا فرق بين ألف سنة، وبين خمسين ألف سنة. وقيل: غير ذلك. وقد وقف حبر الأمة ابن عباس لما سئل عن الآيتين كما سيأتي في آخر البحث إن شاء الله. قرأ الجمهور (مما تعنون) بالفوقية على الخطاب، وقرأ الحسن، والسلمي، وابن وثاب، والأعمش بالتحكية على الغيبة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى الله سبحانه باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف، وهو مبتدأ وخبره ﴿عالم للغيب والشهادة﴾ أي: العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم. وفي هذا معنى التهديد؛ لأنه سبحانه إذا علم بما يغيب وما يحضر، فهو مجاز لكل عامل يعمل، أو فهو يدبر الأمر بما تقتضيه حكمته ﴿العزیز﴾ القاهر الغالب ﴿الرحيم﴾ بعباده، وهذه أخبار لتلك المبتدأ، وكذلك قوله: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ هو خبر آخر، قرأ الجمهور مخلقه، بفتح اللام، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بإسكانها، فعلى القراءة الأولى هو فعل ماض نعتاً لشيء، فهو في محل جر. وقد اختار قراءة الجمهور أبو عبيدة، وأبو حاتم، ويجوز أن تكون صفة للمضاف، فيكون في محل نصب. وأما على القراءة الثانية ففي نصبه أوجه: الأول أن يكون بدلاً من كل شيء بدل اشتمال، والضمير عائد إلى كل شيء، وهذا هو الوجه المشهور عند النحاة، الثاني أنه بدل كل من كل، والضمير

وتركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال ﴿وقالوا أئذا ضللتنا في الأرض﴾ قد تقدم اختلاف القراء في هذه الهمزة، وفي الهمزة التي بعدها، والضلال الغيبوبة، يقال: ضل الميت في التراب إذا غاب وبطل، والعرب تقول للشيء إذا غلب عليه غيره حتى خفي أثره قد ضل، ومنه قول الأخطل:

كنت القذى في موج أكرم مزيد قذف الاتي بها فضل ضلالا

قال قطرب: معنى ضللتنا في الأرض: غبنا في الأرض. قرأ الجمهور «ضللتنا» بفتح ضاد معجمة، ولام مفتوحة بمعنى: ذهبنا وضعنا، وصرفنا تراباً، وغبنا عن الأعين، وقرأ يحيى بن يعمر، وابن محيصن، وأبو رجاء (ضللتنا) بكسر اللام، وهي لغة العالية من نجد، قال الجوهري: وأهل العالية يقولون: ضللت بالكسر، قال: وأصله: أي: أضاعه، وأهلكه، يقال: ضل الميت إذا نفن. وقرأ علي بن أبي طالب، والحسن، والأعمش، وأبان بن سعيد (ضللتنا) بصاد مهيمة، ولام مفتوحة: أي: أنتنا. قال النحاس: ولا يعرف في اللغة ضللتنا، ولكن يقال: صل اللحم إذا أنتن. قال الجوهري: صل اللحم يصل بالكسر صلواً إذا أنتن، مطبوخاً كان، أو نيئاً، ومنه قول الحطيئة:

ذاك فتى يبذل ذا قدرة لا يفسد اللحم لديه الصلول

﴿وإننا لفي خلق جديد﴾ أي: تبعث، ونصير أحياء، والاستفهام للاستنكار، وهذا قول منكري البعث من الكفار، فأضرب الله سبحانه من بيان كفرهم بإنكار البعث إلى بيان ما هو أبغ منه، وهو كفرهم ببقاء الله، فقال: ﴿بئس هم ببقاء ربهم كافرون﴾ أي: جاحلون له مكابرة، وعناداً، فإن اعترافهم بأنه المبتدئ للخلق يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة، ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يبين لهم الحق، ويرد عليهم ما زعموه من الباطل، فقال: ﴿قل يتوفاكم ملك للموت الذي وكل بكم﴾ يقال: توفاه الله، واستوفى روحه إذا قبضه إليه، وملك الموت هو: عزرائيل، ومعنى وكل بكم: وكل بقبض أرواحكم عند حضور أجالكم ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ أي: تصيرون إليه أحياء بالبعث والنشور لا إلى غيره، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿يَسْتَبْرَأُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم مقداره ألف سنة. وأخرج القرطبي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه في قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه عن عبد الله بن أبي مليكة قال: دخلت على عبد الله بن عباس أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان، فقال له ابن فيروز: يا

أبا عباس، قوله: ﴿يَسْتَبْرَأُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فكان ابن عباس اتهمه فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال: إنما سألته؛ لتخبرني، فقال ابن عباس: هما يومان نكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم، فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب، فسأله عنهما إنسان، فلم يخبره، ولم يدرك، فقلت: ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس؟ قال: بلى، فأخبرته فقال للسائل: هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيها، وهو أعلم مني. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: لا ينتصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا في ذلك اليوم حتى يقضي بين العباد، فينزل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ولو كان إلى غيره لم يفرغ في خمسين ألف سنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ من أيامكم هذه، ومسيرة ما بين السماء والأرض خمسمائة عام. وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس: أنه كان يقرأ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قال: أما رأيت القردة ليست بحسنة، ولكنه أحكم خلقها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية: أنه قال: أما إن است القردة ليست بحسنة، ولكنه أحكم خلقها، وقال: ﴿خَلَقَهُ﴾ صورته. وقال: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ القبيح، والحسن، والعقارب، والحيات، وكل شيء مما خلق، وغيره لا يحسن شيئاً من ذلك. وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ لقينا عمرو بن زرة الأنصاري في حلة قد أسبل، فأخذ النبي ﷺ بناحية ثوبه، فقال: يا رسول الله إني أحشم الساقين، فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو بن زرة إن الله عز وجل قد أحسن كل شيء خلقه، يا عمرو بن زرة إن الله لا يحب المسبلين». وأخرج أحمد، والطبراني عن الشريد بن سويد قال: «أبصر النبي ﷺ رجلاً قد أسبل إزاره، فقال: أرفع إزارك، فقال: يا رسول الله إني أحذف تصطك ركبتي، فقال: «أرفع إزارك كل خلق الله حسن».

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْغَرْنَا وَسِعَٰتَنَا فَاجْعَلْنَا تَعْمَلًا سَلِيحًا إِنَّا نَمُوتُ ﴿٧﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨﴾ فَذُوقُوا يَمَّا تَبِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٠﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١١﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٣﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَلَّمُوا الصَّلَاحِينَ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا

لمجرد سبق القول المنقّم، بل بذاك وهذا.

واختلف في النسيان المذكور هنا، فقيل: هو النسيان الحقيقي، وهو الذي يزول عنده الذكر؛ وقيل: هو الترك، والمعنى على الأول: أنهم لم يعملوا لذلك اليوم، فكانوا كالناسين له الذين لا ينكرونه. وعلى الثاني لا بدّ من تقدير مضاف قبل لقاء: أي: نوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا، ورجح الثاني المبرد وأشد:

كانه خارج من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتاد أي: تركوه، وكذا قال الضحّاك، ويحيى بن سلام: إن النسيان هنا بمعنى: الترك، قال يحيى بن سلام: والمعنى: بما تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم تركناكم من الخير، وكذا قال السّدي، وقال مجاهد: تركناكم في العذاب، وقال مقاتل: إذا دخلوا النار، قالت لهم الخزنة: نوقوا العذاب بما نسيتم، واستعار الذوق للإحساس، ومنه قول طفيل:

فنوقوا كما نقنا غداة محجة من الغيظ في أكبادنا والتحوب وقوله: ﴿ونوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ تكرير لقصد التأكيد أي: نوقوا العذاب الدائم الذي لا ينقطع أبداً بما كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي. قال الرازي في تفسيره: إن اسم الإشارة في قوله: ﴿بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون إشارة إلى اللقاء، وأن يكون إشارة إلى اليوم، وأن يكون إشارة إلى العذاب، وجملة ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ مستأنفة لبيان ما يستحق الهداية إلى الإيمان، ومن لا يستحقها؛ والمعنى: إنما يصدق بآياتنا، ويتنفع بها ﴿الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً﴾ لا غيرهم ممن ينكر بها أي: يوغظ بها، ولا يتذكر، ولا يؤمن بها، ومعنى ﴿خروا سجداً﴾: سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيماً لآيات الله، وخوفاً من سطوته، وعذابه ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾ أي: نزهوه عن كل ما لا يليق به ملتبسين بحمده على نعمه التي أجلها، وكمّلها الهداية إلى الإيمان، والمعنى: قالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، أو سبحان ربي الأعلى وبحمده، وقال سفيان: المعنى: صلوا حمداً لربهم، وجملة ﴿وهم لا يستكبرون﴾ في محل نصب على الحال: أي: حال كونهم خاضعين لله، متذلّلين له غير مستكبرين عليه ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ أي: ترتفع، وتنبري يقال: جفى الشيء عن الشيء، وتجافى عنه: إذا لم يلزمه، ونبا عنه، والمضاجع جمع المضجع، وهو الموضع الذي يضطجع فيه. قال الزجاج، والرماني: التجافي، والتجفي إلى جهة فوق، وكذلك هو في الصفح عن المخطئ في سبّ ونحوه، والجنوب جمع جنب، والجملة في محل نصب على الحال أي: متجافية جنوبهم عن مضاجعهم، وهم المتجهدون في الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعطاء، والجمهور، والمراد بالصلاة صلاة التنفل بالليل من غير تقييد. وقال قتادة، وعكرمة: هو التنفل ما

أرادوا أن يخرجوا منها أعيّداً فيها وقيل لهم: ﴿نوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ذوقاً من العذاب الأكبر﴾ ﴿لأنهم يرجعون﴾ ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه، ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منقسمون﴾

قوله: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ المراد بالمجرمين هم القائلون أنّا ضلّلنا، والخطاب هنا لكل من يصلح له، أو لرسول الله ﷺ، ويجوز أن يراد بالمجرمين كل مجرم، ويدخل فيه أولئك القائلون دخولاً أولياً، ومعنى ﴿ناكسوا رؤوسهم﴾: مطأطؤها حياء، وندماً على ما فرط منهم في الدنيا من الشرك بالله، والمعصيان له، ومعنى عند ربهم: عند محاسبته لهم. قال الزجاج: والمخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة لأمته، فالمعنى: ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب ﴿ربنا أبصرنا وبصرنا وسمعنا﴾ أي: يقولون: ربنا أبصرنا الآن ما كنا نكذب به، وسمعنا ما كنا ننكره، وقيل: أبصرنا صدق وعيك، وسمعنا تصديق رسلك، فهو لا أبصروا حين لم ينفعهم البصر، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع ﴿فارجعنا﴾ إلى الدنيا ﴿نعمل عملاً صالحاً﴾ كما أمرتنا ﴿إننا موقنون﴾ أي: مصدقون، وقيل: مصدقون بالذي جاء به محمد ﷺ، وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن طمعاً فيما يطلبونه من إرجاعهم إلى الدنيا، وأنّى لهم ذلك فقد حقت عليهم كلمة الله فإنهم ﴿لو ربوا لعابوا لما نهوا عنه وإنهم لكانيون﴾ [الأنعام: 28] وقيل: معنى ﴿إننا موقنون﴾: أنها قد زالت عنهم الشكوك التي كانت تخالطهم في الدنيا لما راوا ما راوا، وسمعوا ما سمعوا، ويجوز أن يكون معنى ﴿أبصرنا وسمعنا﴾: صرنا ممن يسمع ويبصر فلا يحتاج إلى تقدير مفعول، ويجوز أن يكون صالحاً مفعولاً لتعمل كما يجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، وجواب لو محذوف: أي: لرأيت أمراً فظيماً، وهو لا هائلاً ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ هذا ردّ عليهم لما طلبوا الرجعة: أي: لو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها، فهدينا الناس جميعاً فلم يكفر منهم أحد. قال النحاس: في معنى هذا قولان: أحدهما: أنه في الدنيا، والآخر أنه في الآخرة: أي: ولو شئنا لرديناهم إلى الدنيا ﴿ولكن حق القول مني لآملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ وجملة ولو شئنا مقدّرة بقول معطوف على المقدر قبل قبوله: ﴿أبصرنا﴾ أي: ونقول لو شئنا، ومعنى ﴿ولكن حق القول مني﴾ أي: نفذ قضائي وقدري، وسبقت كلمتي ﴿لآملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ هذا هو القول الذي وجب من الله، وحقّ على عباده، ونفذ فيه قضاؤه، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطي كلّ نفس هداها، وإنما قضى عليهم بهذا، لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة، وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى، والفاء في قوله: ﴿فذنقوا﴾ بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله، والباء في ﴿بما نسيتم﴾ للسببية، وفيه إشعار بأن تعذيبهم ليس

يصيرون إليه، ويستقرون فيه هو: النار ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيبوا فيها﴾ أي: إذا أرادوا الخروج منها ربوا إليها راغبين مكرهين، وقيل: إذ دفعهم اللهب إلى أعلاها ربوا إلى مواضعهم ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾، والقاتل لهم هذه المقالة هو: خزنة جهنم من الملائكة، أو القاتل لهم هو: الله عز وجل، وفي هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا في النار من الإغظة ما لا يخفى ﴿ولننقيقنهم من العذاب الأبدى﴾، وهو عذاب النيا، قال الحسن وأبو العالية، والضحاك، والنخعي: هو مصائب النيا، وإسقامها، وقيل: الحدود، وقيل: القتل بالسيف يوم بدر، وقيل: سنين الجوع بمكة، وقيل: عذاب القبر، ولا مانع من الحمل على الجميع ﴿ونون العذاب الأكبر﴾، وهو عذاب الآخرة ﴿لعلهم يرجعون﴾ مما هم فيه من الشرك، والمعاصي بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان والطاعة، ويتوبون عما كانوا فيه، وفي هذا التعليل لبلى على ضعف قول من قال: إن العذاب الأبدى هو عذاب القبر ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾ أي: لا أحد أظلم منه لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الإقبال على الإيمان والطاعة، فجعل الإعراض مكان ذلك، والمجيء بثم الدلالة على استبعاد ذلك، وأنه مما ينبغي أن لا يكون ﴿إننا من المجرمين منتقمون﴾ أي: من أهل الإجماع على العموم، فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولا أولياً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عيسى في قوله: ﴿إننا نسيناكم﴾ قال: تركناكم. وأخرج البيهقي في الشعب عنه قال: نزلت هذه الآية في شأن الصلوات الخمس ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا نكروا بها خرّوا سجداً﴾ أي: أتوها ﴿وسبحوا﴾ أي: صلوا بأمر ربهم ﴿وهم لا يستكبرون﴾ عن إتيان الصلاة في الجماعات. وأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن أنس بن مالك: أن هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن مردويه عنه قال: نزلت في صلاة العشاء. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء. وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال: كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن مردويه عنه أيضاً قال: ما رأيت رسول الله ﷺ راقداً قط قبل العشاء، ولا متحناً بعدها، فإن هذه الآية نزلت في ذلك ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: تتجافى جنوبهم عن المضاجع قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء، فأنشئ عليهم، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير، ويكسل الكبير.

بين المغرب والعشاء، وقيل: صلاة العشاء فقط، وهو رواية عن الحسن، وعطاء، وقال الضحاك: صلاة العشاء، والصبح في جماعة، وقيل: هم الذين يقومون للذكر الله سواء كان في صلاة أو غيرها ﴿يبدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال أيضاً من الضمير الذي في جنوبهم فهي حال بعد حال، ويجوز أن تكون الجملة الأولى مستأنفة لبيان نوع من أنواع طاعتهم، والمعنى: تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ربهم خوفاً من عذابه، وطمعاً في رحمته ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي: من الذي رزقناهم، أو من رزقهم، وذلك الصلقة الواجبة، وقيل: صدقة النفل، والأولى الحمل على العموم، وانتصاب خوفاً، وطمعاً على العلة، ويجوز أن يكونا مصدرين منتصبين بمقتضى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ النكرة في سياق النفي تفيد العموم أي: لا تعلم نفس من النفوس أي نفس كانت ما أخفاه الله سبحانه لأولئك الذين تقدم ذكرهم مما تقر به أعينهم. قرأ الجمهور قرة بالإفراد، وقرأ ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو الدرداء (من قرأت) بالجمع، وقرأ حمزة ما أخفى بسكون الياء على أنه فعل مضارع مسند إلى الله سبحانه، وقرأ الباقر بفتحها فعلاً ماضياً مبنيًا للمفعول، وقرأ ابن مسعود (ما أخفى) بالنون مضمومة، وقرأ الأعمش (يخفي) بالتحية مضمومة. قال الزجاج في معنى قراءة حمزة: أي: منه ما أخفى الله لهم، وهي قراءة محمد بن كعب، و«ما» في موضع نصب، ثم بين سبحانه: أن ذلك بسبب أعمالهم الصالحة، فقال: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي: لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه في النيا، أو جزوا جزاء بذلك ﴿أفمن كان مؤمناً كالفاسق، فقد ظهر ما بينهما من التفاوت، ولهذا قال: ﴿لا يستوون﴾ فيه زيادة تصريف لما أفاده الإنكار الذي أفاده الاستفهام. قال الزجاج: جعل الاثنين جماعة حيث قال: ﴿لا يستوون﴾ لأجل معنى: من، وقيل: لكون الاثنين أقل الجمع، وسيأتي بيان سبب نزولها آخر البحث. ثم بين سبحانه عاقبة حال الطائفتين، وبدأ بالمؤمنين، فقال: ﴿إما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى﴾ قرأ الجمهور «جنات» بالجمع، وقرأ طلحة بن مصرف (جنة المأوى) بالإفراد، والمأوى هو: الذي يأوون إليه، وأضاف الجنات إليه لكونه المأوى الحقيقي، وقيل: المأوى جنة من الجنات، وقد تقدم الكلام على هذا، ومعنى ﴿نزل﴾ أنها معدة لهم عند نزولهم، وهو في الأصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب كما بيّناه في آل عمران، وانتصابه على الحال، وقرأ أبو حية «نزل» بسكون الزاي، والياء في ﴿بما كانوا يعملون﴾ للسببية: أي: بسبب ما كانوا يعملونه، أو بسبب عملهم، ثم ذكر للفريق الآخر، فقال: ﴿وإما الذين فسقوا﴾ أي: خرجوا عن طاعة الله، وتمروا عليه، وعلى رسله ﴿فمأواهم النار﴾ أي: منزلهم الذي

لِقَائِهِ قال الواحدي: قال المفسرون: وعد رسول الله ﷺ أنه سيلقي موسى قبل أن يموت، ثم لقيه في السماء، أو في بيت المقدس حين أسري به. وهذا قول مجاهد، والكلبي، والسدي، وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة، وستلقاه فيها. وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى للكتاب قاله الزجاج. وقال الحسن: إن معناه: ولقد آتينا موسى الكتاب، فكُنْ، وأوْذِي، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب، والأذى، فيكون الضمير في لقائه على هذا عائداً على محذوف، والمعنى: من لقاء ما لاقى موسى. قال النحاس: وهذا قول غريب. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: قل: يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم، فلا تكن في مرية من لقائه، فجاء معترضاً بين **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾**، وبين **﴿وَجَعَلْنَاهُ هَدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** وقيل: الضمير راجع إلى الكتاب الذي هو الفرقان كقوله: **﴿وَوَيْلٌكَ لِّلَّذِينَ لَاقُوا الْقُرْآنَ﴾** [النمل: 6] والمعنى: أنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله، ونظيره، وما أبعد هذا، ولعلَّ الحامل لقائه عليه قوله: **﴿وَجَعَلْنَاهُ هَدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** فإن الضمير راجع إلى الكتاب، وقيل: إن الضمير في لقائه عائذ إلى الرجوع المفهوم من قوله: **﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾** [السجدة: 11] أي: لا تكن في مرية من لقاء الرجوع، وهذا بعيد أيضاً.

واختلف في الضمير في قوله: **﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾** فقيل: هو راجع إلى الكتاب: أي: جعلنا التوراة هدى لبني إسرائيل، قاله الحسن، وغيره. وقال قتادة: إنه راجع إلى موسى: أي: جعلنا موسى هدى لبني إسرائيل **﴿وَجَعَلْنَاهُ مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾** أي: قادة يقتدون به في دينهم، وقرأ الكوفيون «أئمة» قال النحاس: وهو لحن عند جميع النحويين، لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة، ومعنى **﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾** أي: يدعونهم إلى الهداية بما يلقونه إليه من أحكام التوراة، ومواعظها بأمرنا: أي: بأمرنا لهم بذلك، أو لأجل أمرنا. وقال قتادة: المراد بالأئمة الأنبياء منهم. وقيل: العلماء **﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾** قرأ الجمهور «لما» بفتح اللام، وتشديد الميم: أي: حين صبروا، والضمير للأئمة، وفي لما معنى: الجزء، والتقدير: لما صبروا جعلناهم أئمة. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وورش عن يعقوب، ويحيى بن وثاب بكسر اللام، وتخفيف الميم: أي: جعلناهم أئمة لصبرهم، واختار هذه القراءة أبو عبيد مستدلاً بقراءة ابن مسعود «بما صبروا» بالباء، وهذا الصبر هو صبرهم على مشاق التكليف، والهداية للناس، وقيل: صبروا عن الدنيا **﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾** التنزيلية **﴿يُوقِنُونَ﴾** أي: يصنفونها، ويعلمون أنها حق، وأنها من عند الله لمزيد تفكرهم، وكثرة تبرهم **﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾** أي: يقضي بينهم، ويحكم بين المؤمنين، والكفار **﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾** وقيل: يقضي بين الأنبياء، وأممهم، حكاه

النقاش **﴿أَوَّلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾** أي: أو لم يبين لهم، والهمزة للإنكار، والفاعل ما دل عليه **﴿حُكِّمَ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾** أي: أو لم نبين لهم كثرة إهلاكنا من قبلهم. قال الفراء: كم في موضع رفع بيهد. وقال المبرد: إن الفاعل الهدى الملول عليه بيهد: أي: أو لم يهد لهم الهدى. وقال الزجاج: كم في موضع نصب بأهلكنا، قرأ الجمهور «أو لم يهد» بالتحية، وقرأ السلمي، وقاتدة، وأبو زيد عن يعقوب بالنون، وهذه القراءة واضحة. قال النحاس: والقراءة بالياء التحتية فيها إشكال؛ لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل فإين الفاعل ليهد؟ ويجب عنه بأن الفاعل هو ما قدّمنا نكره، والمراد بالقرن: عاد، وثمود، ونحوهم، وجملة **﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾** في محل نصب على الحال من ضمير لهم: أي: والحال أنهم يمشون في مساكن المهلكين، ويشاهدونها، وينظرون ما فيها من العبر، وآثار العذاب، ولا يعتبرون بذلك، وقيل: يعود إلى المهلكين، والمعنى: أهلكناهم حال كونهم ماشين في مساكنهم، والأول أولى **﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾** المنكور **﴿آيَاتٌ﴾** عظيمة **﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾**، ويتعظون بها **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾** أي: أو لم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التي لا تنبت إلا بسوق الماء إليها، وقيل: هي اليابسة، وأصله من الجر، وهو القطع أي: التي قطع نباتها لعدم الماء، ولا يقال: للتي لا تنبت أصلاً كالسباخ جز لقوله: **﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زُرْعاً﴾** قيل: هي أرض اليمن، وقيل: أرض عدن. وقال الضحك: هي الأرض العطشى. وقال الفراء: هي الأرض التي لا نبات فيها. وقال الأصمعي: هي الأرض التي لا تنبت شيئاً. قال المبرد: يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام، وقيل: هي مشتقة من قولهم رجل جروز: إذا كان لا يبقى شيئاً إلا أكله، ومنه قول الراجز:

خب جروز وإذا جاع بكسى ويأكل التمر ولا يلقي النوى
وكذلك ناقة جروز: إذا كانت تأكل كل شيء تجده. وقال مجاهد: إنها أرض النيل، لأن الماء إنما يأتيها في كل عام **﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾** أي: بالماء **﴿زُرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾** أي: من الزرع كالتبن، والورق، ونحوهما مما لا يأكله الناس **﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾** أي: يأكلون الحبوب الخارجة في الزرع مما يقتاتونه، وجملة **﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾** في محل نصب على الحال **﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾** هذه النعم، ويشكرون المنعم، ويوحّدونه لكونه المنفرد بإيجاد ذلك **﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** القائلون هم الكفار على العموم، أو كفار مكة على الخصوص أي: متى الفتح الذي تعدونا به، يعنون بالفتح: القضاء، والفصل بين العباد، وهو يوم البعث الذي يقضي الله فيه بين عباده، قاله مجاهد وغيره. وقال الفراء، والقتبي: هو فتح مكة. قال قتادة: قال أصحاب النبي ﷺ للكفار: إن لنا يوماً ننعّم فيه ونستريح، ويحكم الله بيننا وبينكم يعنون: يوم القيامة، فقال الكفار: متى هذا الفتح؟ وقال السدي: هو يوم بدر، لأن أصحاب النبي ﷺ كانوا

تفسير سورة الأحزاب

أخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة الأحزاب بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وأخرج عبد الرزاق في المصنف، والطيالسي، وسعيد بن منصور، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن منيع، والنسائي، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، والدارقطني في الأفراد، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن زر قال: قال لي أبي بن كعب: كأي سورة الأحزاب، أو كأي تعدّها، قلت: ثلاثاً وسبعين آية، فقال: أقط لقد رأيتها، وإنها لتعادل سورة البقرة، أو أكثر من سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا﴾ من الله عزّيز حكيم ﴿فرغ فيما رفع﴾. قال ابن كثير: وإسناده حسن. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس: أن عمر بن الخطاب قام، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها، ووعيناها ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة﴾، ورجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشي أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. وقد روي عنه هذا من طرق. وأخرج ابن مردويه عن حذيفة قال: قال لي عمر بن الخطاب: كم تعدون سورة الأحزاب؟ قلت: ثنتين، أو ثلاثاً وسبعين؛ قال: إن كانت لتقارب سورة البقرة، وإن كان فيها لآية الرجم. وأخرج البخاري في تاريخه عن حذيفة قال: قرأت سورة الأحزاب على رسول الله ﷺ، فنسيت منها سبعين آية ما وجبتها. وأخرج أبو عبيد في الفضائل، وابن الأنباري، وابن مردويه عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي ﷺ، ما نثي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقرر منها إلا على ما هو الآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُشَفِّقِينَ إِنَّكَ اللَّهُ كَذَّابٌ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يَدْعُوكَ إِلَىٰ تِلْكَ مِنَ الرِّبَا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا
﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجَالٍ مِنَ قُلُوبِهِمْ
فِي جُودِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْزَاقَكُمْ إِلَهُي تَطْهَرُونَ مِنْهُمْ أَمْ هُمْ كَذَّابُونَ ﴿٤﴾ وَمَا جَعَلَ
أَرْزَاقَكُمْ أَسْبَاطَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي
السَّبِيلَ ﴿٥﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ
فَلْتَقُولُوا فِي الَّذِينَ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ
وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ إِلَهُي أَوَّلُ

يقولون للكفار: إن الله ناصرنا، ومظهرنا عليكم، ومتى في قوله: ﴿متى هذا الفتح﴾ في موضع رفع، أو في موضع نصب على الظرفية. ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يجيب عليهم، فقال: ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينجفون﴾ وفي هذا ليل على أن يوم الفتح هو يوم القيامة، لأن يوم فتح مكة، ويوم بدر هما مما ينفع فيه الإيمان، وقد أسلم أهل مكة يوم الفتح، وقبل ذلك منهم النبي ﷺ، ومعنى ﴿ولا هم ينتظرون﴾: لا يمهلون، ولا يؤخرون، ويوم في ﴿يوم الفتح﴾ منصوب على الظرفية، وإجاز الفراء الرفع ﴿فاعرض عنهم﴾ أي: عن سفهمهم، وتكذيبهم، ولا تجبهم إلا بما أمرت به ﴿ولنتظر إنهم منتظرون﴾ أي: وانتظر يوم الفتح، وهو: يوم القيامة، أو يوم إهلاكهم بالقتل إنهم منتظرون بك حوادث الزمان من موت، أو قتل، أو غلبة كقوله: ﴿فتربصوا إننا معكم متربصون﴾ [التوبة: 52] ويجوز أن يراد إنهم منتظرون لإهلاكهم، والآية منسوخة بآية السيف، وقيل: غير منسوخة، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال. وقرأ ابن السميع (إنهم منتظرون) بفتح الظاء مبنيًا للمفعول، ورويت هذه القراءة عن مجاهد، وابن محيصن. قال الفراء: لا يصح هذا إلا بإضمام: أي: إنهم منتظر بهم. قال أبو حاتم: الصحيح الكسر: أي: انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكهم.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طويلاً جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة، واللبياض سبط الرأس، ورأيت مالكا خازن جهنم، والدجال في آيات أراه الله إياه» قال: ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ فكان قتادة يفسرها: أن النبي ﷺ قد لقي موسى ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة بسند قال السيوطي: صحيح عن ابن عباس، عن النبي ﷺ ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ قال: من لقاء موسى، قيل: أو لقي موسى؟ قال: نعم، ألا ترى إلى قوله: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ [الزخرف: 45]. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أو لم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾ قال: الجرز التي لا تمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿إلى الأرض الجرز﴾ قال: أرض باليمن. قال القرطبي في تفسيره: والإسناد عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾ إن كنتم صادقين قال: يوم بدر فتح للنبي ﷺ، فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت.

الف محضة. قال أبو عمرو بن العلاء: إنها لغة قريش التي أمر الناس أن يقرعوا بها، وقرأ قنبل، وورش⁽¹⁾ بهمزة مكسورة بدون ياء. قرأ عاصم (تظاهرون) بضم الفوقية، وكسر الهاء بعد ألف مضارع ظاهر، وقرأ ابن عامر بفتح الفوقية، وتشديد الظاء مضارع تظاهر، والأصل تظاهرون⁽²⁾، وقرأ الباقر (تظهرون) بفتح الفوقية، وتشديد الظاء بدون ألف، والأصل تظهرون، والظهار مشتق من الظهر، وأصله أن يقول الرجل لامراته: أنت علي كظهر أمي، والمعنى: وما جعل الله نساءكم اللائي تقولن لهنّ هذا القول كماهاتكم في التحريم، ولكنه منكر من القول، وذوّر ﴿و﴾ كذلك ﴿ما جعل﴾ الادعاء الذين تدعون أنهم ﴿أبناءكم﴾ أبناء لكم، والادعاء جمع دعي، وهو الذي يدعي ابناً لغير أبيه، وسيأتي الكلام في الظهار في سورة المجادلة، والإشارة بقوله: ﴿نلكم﴾ إلى ما تقدم من ذكر الظهار والادعاء، وهو مبتدأ، وخبره ﴿قولكم بأفواهكم﴾ أي: ليس ذلك إلا مجرد قول بالأفواه، ولا تأثير له، فلا تصير المرأة به أمّاً، ولا ابن الغير به ابناً، ولا يترتب على ذلك شيء من أحكام الأمومة، والبنوة. وقيل: الإشارة راجعة إلى الادعاء أي: ادعواكم أن أبناء الغير أبناءكم لا حقيقة له، بل هو مجرد قول بالفم ﴿والله يقول الحق﴾ الذي يحقّ اتباعه لكونه حقاً في نفسه لا باطلاً، فيدخل تحته دعاء الأبناء لأبائهم ﴿وهو يهدي السبيل﴾ أي: يدلّ على الطريق الموصلة إلى الحق، وفي هذا إرشاد للعباد إلى قول الحق، وترك قول الباطل والزور. ثم صرح سبحانه بما يجب على العباد من دعاء الأبناء للأباء، فقال: ﴿ادعوهم لأبائهم﴾ للصلب، وانسبوهم إليهم، ولا تدعوهم إلى غيرهم، وجملة ﴿هو أقسط عند الله﴾ تعليل للأمر بدعاء الأبناء للأباء، والضمير راجع إلى مصدر ادعوهم. ومعنى أقسط: أعدل: أي: أعدل كلّ كلام يتعلق بذلك، فترك الإضافة للعموم كقوله: الله أكبر، وقد يكون المضاف إليه مقدراً خاصاً: أي: أعدل من قولكم: هو ابن فلان، ولم يكن ابنه لصلبه. ثم تم سبحانه الإرشاد للعباد، فقال: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، وهم مواليتكم، فقولوا: أخي، وموالي، ولا تقولوا: ابن فلان، حيث لم تعلموا آباءهم على الحقيقة. قال الزجاج: ويجوز: أن يكون مواليتكم أوليائكم في الدين. وقيل: المعنى: فإن كانوا محررين، ولم يكونوا أحراراً، فقولوا: موالي فلان ﴿وليس عليكم جناح

(1) قوله: وقرأ قنبل وورش (الخ) فيه مخالفة للمشهور، وبيانه أن قنبلا وقالون بقرآن بهمزة مكسورة بدون ياء، وأما ورش فقراسته بهمزة مكسورة مسهلة كالياء بدون ياء بعدها اهـ مصحح القرآن.

(2) هنا سقط ولعل: وقرأ حمزة والكسائي كذلك لكن مع تخفيف الهاء اهـ مصحح القرآن.

بالمؤمنين من أنفسهم وَأَرْزُقَهُمْ اللَّهُمَّ وَأَوْزِلُوا أَلْأَحْزَارَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَكُمْ أَوْلِيَاكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١١﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: دم على ذلك، وازدد منه ﴿ولا تطع الكافرين﴾ من أهل مكة، ومن هو على مثل كفرهم ﴿والمنافقين﴾ أي: الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر. قال الواحدي: إنه أراد سبحانه بالكافرين أبيا سفیان، وعكرمة، وأبيا الأعور السلمي، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: ارفض نكر آلهتنا، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها. قال: والمنافقين عبد الله بن أبي، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح. وسيأتي آخر البحث بيان سبب نزول الآية ﴿إن الله كان عليمًا حكيمًا﴾ أي: كثير العلم، والحكمة بليغهما، قال النحاس: يدلّ بقوله: ﴿إن الله كان عليمًا حكيمًا﴾ على أنه كان يميل إليهم: يعني: النبي ﷺ استدعاء لهم إلى الإسلام، والمعنى: أن الله عز وجل لو علم أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهك عنهم؛ لأنه حكيم، ولا يخفى بعد هذه الدلالة التي زعمها، ولكن هذه الجملة تحليل لجملة الأمر بالتقوى، والنهي عن طاعة الكافرين، والمنافقين، والمعنى: أنه لا يأمرك أو ينهك إلا بما علم فيه صلاحاً أو فساداً، لكثرة علمه وسعة حكمته ﴿ولاتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ من القرآن: أي: اتبع الوحي في كل أمورك، ولا تتبع شيئاً مما عداه من مشورات الكافرين، والمنافقين، ولا من الرأي البحث، فإن فيما أوحى إليك ما يغنيك عن ذلك، وجملة ﴿إن الله كان بما تعملون خبيرًا﴾ تعليل لأمره باتباع ما أوحى إليك، والأمر له ﷺ أمر لأمته، فهم مأمورون باتباع القرآن كما هو مأمور باتباعه، ولهذا جاء بخطابه، وخطابهم في قوله: ﴿بما تعملون﴾ على قراءة الجمهور بالفوقية للخطاب، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. وقرأ أبو عمرو، والسلمي، وابن أبي إسحاق بالتحية ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ أي: اعتمد عليه، وفوض أمورك إليه، وكفى به حافظاً يحفظ من توكل عليه. ثم نكر سبحانه مثلاً توطئة وتمهيداً لما يتعقبه من الأحكام القرآنية التي هي من الوحي الذي أمره الله باتباعه، فقال: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾.

وقد اختلف في سبب نزول هذه الآية كما سيأتي، وقيل: هي مثل ضربه الله للمظاهر أي: كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى يكون له أمّان، وكذلك لا يكون الدعي ابناً لرجلين. وقيل: كان الواحد من المنافقين يقول: لي قلب يأمرنني بكذا، وقلب يكذا، فنزلت الآية لردّ النفاق، وبيان أنه لا يجتمع مع الإسلام كما لا يجتمع قلبان، والقلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة خلقها الله، وجعلها محلاً للعلم ﴿وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنّ أمهاتكم﴾، وقرأ الكوفيون، وابن عامر (اللائي) بياء ساكنة بعد همزة، وقرأ أبو عمرو، واليزي بياء ساكنة بعد

قال غيره. وقيل: إن هذه الآية ناسخة للتوراث بالحلف، والمؤاخاة في الدين، وفي كتاب الله: يجوز أن يتعلق بأفعل التفضيل في قوله: ﴿أولى ببعض﴾؛ لأنه يعمل في الظرف، ويجوز: أن يتعلق بمحتوف هو حال من الضمير: أي: كائناً في كتاب الله، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، أو القرآن، أو آية الموارث، وقوله: ﴿من المؤمنين﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولوا الأرحام، والمعنى: أن ذوي القربايات من المؤمنين ﴿والمهاجرين﴾ بعضهم أولى ببعض، ويجوز أن يتعلق بأولى أي: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين، والمهاجرين الذين هم أجانب، وقيل: إن معنى الآية: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض: إلا ما يجوز لأزواج النبي ﷺ من كونهم كالأمهات في تحريم النكاح، وفي هذا من الضعف ما لا يخفى ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ هذا الاستثناء إما متصل من أعم العام، والتقدير: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كل شيء من الإرث، وغيره إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً من صدقة، أو وصية فإن ذلك جائز. قال قتادة، والحسن، وعطاء، ومحمد ابن الحنفية. قال محمد ابن الحنفية: نزلت في إجازة الوصية لليهودي، والنصراني، فالكافر ولي في النسب لا في الدين، فتجوز الوصية له، ويجوز أن يكون منقطعاً، والمعنى: لكن فعل المعروف للولياء لا بأس به، ومعنى الآية: أن الله سبحانه لما نسخ التوراث بالحلف والهجرة أباح أن يوصى لهم. وقال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة، وحفظ الحرمة بحق الإيمان، والهجرة، والإشارة بقوله: ﴿كان ذلك﴾ إلى ما تقدم ذكره أي: كان نسخ الميراث بالهجرة، والمخالفة، والمعاهدة، ورده إلى ذوي الأرحام من القربايات ﴿في الكتاب مسطوراً﴾ أي: في اللوح المحفوظ، أو في القرآن مكتوباً.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ يوماً يصلي، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين قلباً معكم، وقلماً معهم؟ فنزل ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾. وأخرج ابن مروي عنه من طريق أخرى بلفظ صلى الله النبي ﷺ صلاة، فسها فيها، فخطرت منه كلمة، فسمعها المنافقون، فقالوا: إن له قلبين، فنزلت. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عنه أيضاً قال: كان رجل من قريش يسمى من دهاثة ذا القلبين، فأنزل الله هذا في شأنه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ادعوهم لأبائهم﴾ الآية، فقال رسول الله: أنت زيد بن حارثة بن شراحيل. وأخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا، وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾

فيما أخطأتم به﴾ أي: لا إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأ من غير عمد، ﴿ولكن﴾ الإثم فيه ﴿ما تعمدت قلوبكم﴾ وهو ما قلمتموه على طريقة العمد من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم مع علمكم بذلك. قال قتادة: لو دعوت رجلاً لغير أبيه، وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يغفر للمخطئ، ويرحمه، ويتجاوز عنه، أو غفوراً للذنوب رحيماً بالعباد، ومن جملة من يغفر له، ويرحمه من دعا رجلاً لغير أبيه خطأ. أو قبل النهي عن ذلك. ثم ذكر سبحانه لرسوله مزية عظيمة، وخصوصية جلية لا يشاركه فيها أحد من العباد، فقال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أي: هو أحق بهم في كل أمور الدين والدنيا، وأولى بهم من أنفسهم فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم، وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم، ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمه لأنفسهم. وبالجملته فإذا دعاهم النبي ﷺ لشيء، ودعاهم أنفسهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم إليه، ويؤخروا ما دعاهم أنفسهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم، وتطلبه خواطرهم. وقيل: المراد بأنفسهم في الآية بعضهم، فيكون المعنى: أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض. وقيل: هي خاصة بالقضاء أي: هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى به بينهم. وقيل: أولى بهم في الجهاد بين يديه، وبذل النفس دونه، والأول أولى ﴿وآزواجه أمهاتهم﴾ أي: مثل أمهاتهم في الحكم بالتحريم، ومنزلات منزلتهن في استحقاق التعظيم، فلا يحل لأحد أن يتزوج بواحدة منهن كما لا يحل له أن يتزوج بأمه، فهذه الأمومة مختصة بتحريم النكاح لهن، وبالتعظيم لجنابهن، وتخصيص المؤمنين يدل على أنهن لسن أمهات نساء المؤمنين، ولا بناتهن أخوات المؤمنين، ولا أخوتهن أحوال المؤمنين. وقال القرطبي: الذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء تعظيماً لحقهن على الرجال، والنساء كما يدل عليه قوله: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة. قال: ثم إن في مصحف أبي بن كعب (وآزواجه أمهاتهم، وهو أب وآزواجه أمهاتهم)، ثم بين سبحانه: أن القربايات أولى ببعضهم البعض، فقال: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ المراد بأولى الأرحام القربايات: أي: هم أحق ببعضهم البعض في الميراث، وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنفال، وهي ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوراث بالهجرة، والموالة. قال قتادة: لما نزل قوله سبحانه في سورة الأنفال: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ [الأنفال: 72]، فتوراث المسلمون بالهجرة، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، وكذا

فأما مؤمن ترك مالا، فلقّره عصبته من كلوا، فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني، فانا مولاة». وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن مريويه من حديث جابر نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي عن بريدة قال: «غزوت مع عليّ إلى اليمن، فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ نكرت علياً، فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير، وقال: يا بريدة ألتست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولاة فعليّ مولاة» وقد ثبت في الصحيح: أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه، وماله، وولده، والناس أجمعين». وأخرج ابن سعد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن عائشة: أن امرأة قالت لها: يا أمه، فقالت: أنا أمّ رجالكم، ولست أمّ نسائكم. وأخرج ابن سعد عن أم سلمة قالت: أنا أمّ الرجال منكم، والنساء. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وإسحاق بن راهويه، وابن المنذر، والبيهقي في دلائله عن بجالة قال: مرّ عمر بن الخطاب بغلّام، وهو يقرأ في المصحف (النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم)، فقال: يا غلام حكها، فقال: هذا مصحف أبيّ، فذهب إليه، فسأله، فقال: إنه كان يلهيني القرآن، ويلهيك الصفق في الأسواق. وأخرج الغريابي، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس: أنه كان يقرأ (النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم).

وَلَا أَعْدَاكَ مِنَ الْغِيَّةِ يَشْفَعُونَمْ وَمَاكَ مِنْ نُجْ وَلَا إِلَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَىَّ أَنِّي
 مَعَهُمْ وَأَعْدَاكَ مِنْهُمْ يَشْفَعُ عَلَيْهِمْ ﴿١٧﴾ لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ يَدِهِمْ وَأَعْدَاكَ
 لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ
 جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَصْلَوْنَ بَعِيرًا
 ﴿١٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ وَهِنْ أَصْفَدَ بِكُمْ وَإِذْ رَاغَبَ الْأَكْبَصَرُ وَلَكَبَتِ
 الْقُلُوبُ الْحَنَاقِرُ وَتَصَلُّونَ بِاللَّهِ الظُّلُمَاتِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا أَجَلُ الْمُتَّقِينَ
 وَذَلَّلُوا وَلَا أَلَا مُدْبِكًا ﴿٢١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمَتَفَعِّلُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا
 وَعَدَنَا اللَّهُ وَرُسُلُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٢٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ خَلِيفَةٌ مِنْهُمْ يَبْتَغِلُ بَرَبٌ لَا مَقَامَ
 لَكُمْ فَاتَّجَمَعُوا وَاسْتَشْذَنَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُرُونَا عِزٌّ وَمَا يَكُونُ
 إِلَّا يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٢٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْفَارِهِمْ شُجْرَا الْفَيْسَةِ
 لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَثَّوْا بِهَا إِلَّا بِعِيرًا ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عِنْدَهُدَا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا
 يُؤَلِّمُ الْأَذْبَنُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْخُورًا ﴿٢٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ
 مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَسْعَوْنَ إِلَّا فِي لَبَالٍ ﴿٢٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي
 يَعْصِيكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ العامل في الظرف محذوف: أي، وإنكر، كأنه قال: يا أيها النبي اتق الله، وإنكر أن الله أخذ ميثاق النبيين. قال قتادة: أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصاً أن يصدق بعضهم بعضاً، ويتبع

بعضهم بعضاً. وقال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادة الله، وأن يصق بعضهم بعضاً، وأن ينصحوا لقومهم. والميثاق هو: اليمين، وقيل: هو: الإقرار بالله، والأول أولى، وقد سبق تحقيقه، ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم، ولغيرهم، فقال: ﴿وَمِنْكُمْ مِنْ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾، ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة، ومن أولي العزم من الرسل، وتقديم ذكر نبينا ﷺ مع تأخر زمانه فيه من التشريف له، والتعظيم ما لا يخفى. قال الزجاج: وأخذ الميثاق حيث أخرجوا من صلب آدم كالنذر، ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره، ووصفه بالغلظ، فقال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثاقاً غليظاً﴾ أي: عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا، وما أخذه الله عليهم، ويجوز: أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرتين، فأخذ عليهم في المرة الأولى مجرد الميثاق بدون تغليظ، ولا تشديد، ثم أخذه عليهم ثانياً مغلظاً مشدداً، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: 81]، واللام في قوله: ﴿لَيَسْأَلَنَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ يجوز أن تكون لام كي: أي: لكي يسأل الصادقين من النبيين عن صديقهم في تبليغ الرسالة إلى قومهم، وفي هذا وعيد لغيرهم، لأنهم إذا كانوا يسألون عن ذلك، فكيف غيرهم. وقيل: ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم كما في قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6] ويجوز أن تتعلق بمحذوف أي: فعل ذلك ليسأل ﴿وَأَعِدُّوا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أليماً﴾ معطوف على ما دل عليه ﴿لَيَسْأَلَنَّ الصَّادِقِينَ﴾ إذ التقدير: أثاب الصائقين، وأعد للكَافِرِينَ، ويجوز أن يكون معطوفاً على أخذنا، لأن المعنى: أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه، ليثيب المؤمنين، وأعد للكَافِرِينَ. وقيل: إنه قد حذف من الثاني ما أثبت مقابله في الأول، ومن الأول ما أثبت مقابله في الثاني، والتقدير: ليسأل الصائقين عن صديقهم، فاثابهم، ويسأل الكافرين عما أجابوا به رسلهم، وأعد لهم عذاباً أليماً. وقيل: إنه معطوف على المقدر عاملاً في ليسأل كما ذكرنا، ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿لَيَسْأَلَنَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾، وتكون جملة ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لهم، مستأنفة لبيان ما أعد للكَافِرِينَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تحقيق لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبق معها خوف من أحد، وقوله ﴿عليكم﴾ متعلق بالنعمة إن كانت مصدراً، أو بمحذوف هو حال: أي: كائنة عليكم، ومعنى ﴿إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ﴾: حين جاءتكم جنود، وهو ظرف للنعمة، أو للمقتر عاملاً في عليكم، أو لمحذوف هو أنكر، والمراد بالجنود: جنود الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، وغزوه إلى المدينة، وهي الغزوة المسماة «غزوة الخندق»، وهم: أبو سفيان بن حرب

الحنجرة، ولهذا يقال للجبان: انتفخ سحره ﴿وَتُظَنُّونَ بِأَلِهَ الظُّنُونِ﴾ أي: الظنون المختلفة، فبعضهم ظن النصر ورجا الظفر، وبعضهم ظن خلاف ذلك. وقال الحسن: ظن المنافقون: أنه يستأصل محمد وأصحابه، وظن المؤمنون أنه ينصر. وقيل: الآية خطاب للمنافقين، والأولى ما قاله الحسن. فيكون الخطاب لمن أظهر الإسلام على الإطلاق أعْمَ من أن يكون مؤمناً في الواقع أو منافقاً.

واختلف القراء في هذه الألف في ﴿الظُّنُونِ﴾ فاثبتتها وصلاً ووقفاً نافع، وابن عامر، وأبو بكر، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو، والكسائي، وتمسكوا بخط المصحف العثماني، وجميع المصاحف في جميع البلدان، فإن الألف فيها كلها ثابتة، واختار هذه القراءة أبو عبيد إلا أنه قال: لا ينبغي للقارئ أن يدرج القراءة بعدهن بل يقف عليهن، وتمسكوا أيضاً بما في أشعار العرب من مثل هذا. وقرأ أبو عمرو، وحمره، والجحدري، ويعقوب بحذفها في الوصل والوقف معاً، وقالوا: هي من زيادات الخط، فكتبت كذلك، ولا ينبغي النطق بها. وأما في الشعر، فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز في غيره. وقرأ ابن كثير، والكسائي، وابن محيصن بإثباتها وقفاً، وحذفها وصلاً، وهذه القراءة راجعة باعتبار اللغة العربية، وهذه الألف هي التي تسميها النحاة ألف الإطلاق، والكلام فيها معروف في علم النحو، وهكذا اختلف القراء في الألف التي في قوله: «الرسول، والسبيل»، كما سيأتي آخر هذه السورة ﴿هَٰذَا لَبِثَ الْيَوْمُ ثَلَاثًا﴾ الظرف منتصب بالفعل الذي بعده، وقيل: بتظنون، واستضعفه ابن عطية، وهو ظرف مكان يقال: للمكان البعيد هناك كما يقال: للمكان القريب هنا، وللمتوسط هناك. وقد يكون ظرف زمان أي: عند ذلك الوقت ابتلي المؤمنون، ومنه قول الشاعر:

وإذا الأمور تعاضمت وتشاكلت فهناك يعترفون أين المفزع
أي: في ذلك الوقت، والمعنى: أن في ذلك المكان، أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف، والقتال، والجوع، والحصر، والنزال؛ ليتبين المؤمن من المنافق ﴿وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ قرأ الجمهور (زلزلوا) بضم الزاي الأولى، وكسر الثانية على ما هو الأصل في المبني للمفعول، وروي عن أبي عمرو: أنه قرأ بكسر الأولى، وروى الزمخشري عنه أنه قرأ بإشمامها كسراً، وقرأ الجمهور (زلزالاً) بكسر الزاي الأولى، وقرأ عاصم، والجحدري، وعيسى بن عمر بفتحها. قال الزجاج: كل مصدر من المضاعف على فعال يجوز فيه الكسر والفتح: نحو قلقلته قلقالاً، وزلزلوا زلزالاً، والكسر أجود. قال ابن سلام: معنى زلزلوا: حركوا بالخوف تحريكاً شديداً، وقال الضحاك: هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق، وقيل: المعنى: أنهم اضطربوا اضطراباً مختلفاً، فمنهم من اضطرب في نفسه، ومنهم من اضطرب في بيته ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ معطوف على «إذ زأغت الأَبصار»، والمرض

بقريش، ومن معهم من الألفاف، وعيينة بن حصن الغزاري، ومن معه من قومه غطفان، وبنو قريظة، والنضير، فضايقوا المسلمين مضايقة شديدة كما وصف الله سبحانه في هذه الآيات، وكانت هذه الغزوة في شوال سنة خمس من الهجرة. قاله ابن إسحاق. وقال ابن وهب، وابن القاسم عن مالك: كانت في سنة أربع. وقد بسط أهل السير في هذه الواقعة ما هو معروف، فلا تطيل بنكرها ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا﴾ معطوف على جاءكم. قال مجاهد: هي: الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قنودهم، ونزعت فساطيطهم، ويدل على هذا ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالبور»، والمراد بقوله: ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ الملائكة. قال المفسرون: بعث الله عليهم الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطباق الفساطيط، وأطافت النيران، وأكفأت القنود، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه: يا بني فلان هلم إلي، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ قرأ الجمهور (تعملون) بالفوقية أي: بما تعملون أيها المسلمون من ترتيب الحرب، وحفر الخندق، واستنصاركم به، وتوكلكم عليه، وقرأ أبو عمرو بالتحية أي: بما يعمل الكفار من العناد لله، ولرسوله، والتحزب على المسلمين، واجتماعهم عليهم من كل جهة ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ إذ هذه، وما بعدها يدل من إذ الأولى، والعامل في هذه هو العامل في تلك، وقيل: منصوبة بمحنوف هو انكر، ومعنى ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من أعلى الوادي، وهو من جهة المشرق، والذين جاءوا من هذه الجهة هم غطفان، وسيدهم عيينة بن حصن، وهوازن، وسيدهم عوف بن مالك، وأهل نجد، وسيدهم طليحة بن خويلد الأسدي، وانضم إليهم عوف بن مالك، وبنو النضير، ومعنى ﴿وَمِن أَسْفَل مِّنكُمْ﴾ من أسفل الوادي من جهة المغرب من ناحية مكة، وهم قريش، ومن معهم من الأحابيش، وسيدهم أبو سفيان بن حرب، وجاء أبو الأعور السلمي، ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة من وجه الخندق، ومعهم عامر بن الطفيل، وجملة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ معطوفة على ما قبلها أي: مالت عن كل شيء، فلم تنظر إلا إلى عدوها مقبلاً من كل جانب، وقيل: شخصت دهشاً من فرط الهول والحيرة ﴿وَبُلِغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ جمع حنجرة، وهي جوف الحلقوم أي: ارتفعت القلوب عن مكانها، ووصلت من الفزع والخوف إلى الحناجر، فلولا أنه ضاق الحلقوم عنها، وهو الذي نهايته الحنجرة لخرجت، كذا قال قتادة. وقيل: هو على طريق المبالغة المعهودة في كلام العرب، وإن لم ترتفع القلوب إلى ذلك المكان، ولا خرجت عن موضعها، ولكنه مثل في اضطرابها، وجبنها. قال الفراء والمعنى: أنهم جبنوا، وجزع أكثرهم، وسبيل الجبان إذا اشتد خوفه أن تنتفخ رثته، فإذا انتفخت الرثة ارتفع القلب إلى

يعني: بيوتهم، أو المدينة، والأقطار: النواحي جمع قطر، وهو الجانب، والناحية، والمعنى: لو دخلت عليهم بيوتهم، أو المدينة من جوانبها جميعاً لا من بعضها، ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة، واستبيحت ديارهم، وهتكت حرهم، ومنازلهم ﴿ثُمَّ سَلُّوا الْفِتْنَةَ﴾ من جهة أخرى عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم ﴿لَاتُوهَا﴾ أي: لجأوها، أو أعطوها، ومعنى الفتنة هنا: إما القتال في العصبية كما قال الضحاك، أو الشرك بالله، والرجعة إلى الكفر الذي يبطنون، ويظهرون خلافه كما قال الحسن، قرأ الجمهور (لأتوها) بالمد أي: لأعطوها من أنفسهم، وقرأ نافع، وابن كثير بالقصر أي: لجأوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا سِيرًا﴾ أي: بالمدينة بعد أن اتوا الفتنة إلا تلبثاً سيراً حتى يهلكوا، كذا قال الحسن، والسدي، والفراء، والقتيبي. وقال أكثر المفسرين: إن المعنى: وما احتسبوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً، بل هم مسرعون إليها راغبون فيها لا يقفون عنها إلا مجرد وقوع السؤال لهم، ولا يتعللون عن الإجابة بأن بيوتهم في هذه الحالة عورة مع أنها قد صارت عورة على الحقيقة كما تعللوا عن إجابة الرسول والقتال معه بأنها عورة، ولم تكن إذ ذاك عورة. ثم حكى الله سبحانه عنهم ما قد كان وقع منهم من قبل من المعاهدة لله ولرسوله بالثبات في الحرب، وعدم الفرار عنه، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ الْبَيْتُ﴾ أي: من قبل غزوة الخندق، ومن بعد بدر قال قتادة: وذلك أنهم غابوا عن بدر، وأروا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، فقالوا: لأن شهدنا الله قتلاً لنقاتل، وهم: بنو حارثة، وبنو سلمة ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: مسؤولاً عنه، ومطلوباً صاحبه بالوفاء به، ومجازي على ترك الوفاء به ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ فإن من حضر أجله مات أو قتل فرأى لم يفر ﴿وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً بعد فرارهم إلى أن تنقضي آجالهم، وكل ما هو آت، فهو قريب قرأ الجمهور (تمتعون) بالفوقية، وقرأ يعقوب الحضرمي في رواية الساجي عنه بالتحتيّة. وفي بعض الروايات «لا تمتعوا» بحذف النون إعمالاً لإذن، وعلى قراءة الجمهور هي ملغاة ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أي: هلاكاً أو نقصاً في الأموال، وجنباً، ومرضاً ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ يرحمكم بها من خصب، ونصر، وعافية ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يواليهم، وينفع عنهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم من عذاب الله.

وقد أخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي مريم الغساني: أن أعرابياً قال: يا رسول الله أي شيء كان أول نبؤتك؟ قال: أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم، ثم تلا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، ودعوة إبراهيم قال: ﴿وَابْعَثْ

فِي الْقُلُوبِ هُوَ: الشك والريبة، والمراد بالمنافقون: عبد الله بن أبي، وأصحابه، وبالذين في قلوبهم مرض: أهل الشك، والاضطراب ﴿وَمَا وَعَدْنَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ من النصر، والظفر ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلاً من القول، وكان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلاً من أهل النفاق، والشك، وهذا القول المحكي عن هؤلاء هو كالتفسير للظنون المذكورة أي: كان ظن هؤلاء هذا الظن، كما كان ظن المؤمنين بالنصر، وإعلاء كلمة الله ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين. قال مقاتل: هم بنو سالم من المنافقين. وقال السدي: هم: عبد الله بن أبي وأصحابه، وقيل: هم أوس بن قبطي وأصحابه، والطائفة تقع على الواحد فما فوقه، والقول الذي قالته هذه الطائفة هو قوله: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي: لا موضع إقامة لكم، أو لا إقامة لكم ها هنا في العسكر. قال أبو عبيد: يثرب اسم الأرض، ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها، قال السهيلي: وسميت يثرب، لأن الذي نزلها من العمالة اسمه يثرب بن عميل، قرأ الجمهور (لا مقام لكم) بفتح الميم، وقرأ حفص، والسلمي، والجحدري، وأبو حيوة بضمها، على أنه مصدر من أقام يقيم، وعلى القراءة الأولى هو اسم مكان ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي: إلى منازلكم، أمرهم بالهرب من عسكر النبي ﷺ، وذلك «أن رسول الله ﷺ والمسلمين خرجوا عام الخندق حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، والخندق بينهم، وبين القوم، فقال هؤلاء المنافقون: ليس ها هنا موضع إقامة، وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة، ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ معطوف على ﴿قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: يستأذنون في الرجوع إلى منازلهم، وهم: بنو حارثة، وبنو سلمة، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل من قوله: «يستأذن» أو حال، أو استئناف جواباً لسؤال مقدر، والقول الذي قالوه هو قولهم: ﴿إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: ضائعة سائبة ليست بحصينة، ولا ممتنة من العدو. قال الزجاج: يقال: عور المكان يعور عوراً، وعورة، وبيوت عورة، وعورة، وهي مصدر. قال مجاهد، ومقاتل، والحسن: قالوا: ببيوتنا ضائعة نخشى عليها السراق. وقال قتادة: قالوا: ببيوتنا مما يلي العدو، ولا نأمن على أهلنا. قال الهروي: كل مكان ليس بممتنع، ولا مستور، فهو عورة، والعورة في الأصل: الخلل، فاطلقت على المختل، والمراد: ذات عورة، وقرأ ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وأبو رجاء العطاردي عورة بكسر الواو أي: قصيرة الجدران. قال الجوهري: العورة كل حال يتخوف منه في ثغر، أو حرب. قال النحاس: يقال: أعور المكان: إذا تبينت فيه عورة، وأعور الفارس: إذا تبين منه موضع الخلل، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ فكذبهم الله سبحانه فيما نكروه، والجملة في محل نصب على الحال، ثم بين سبب استئذانهم، وما يريدونه به، فقال: ﴿إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: ما يريدون إلا الهرب من القتال، وقيل: المراد: ما يريدون إلا الفرار من الدين ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾

ان الله كفاه القوم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم انني تركتهم يترحلون، وأنزل الله ﷻ ايها الذين آمنوا انكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ﴾ قال: كان يوم أبي سفيان يوم الأحزاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: لما كان ليلة الأحزاب جاءت الشمال إلى الجنوب، فقالت: انطلقى، فانصري الله ورسوله، فقالت الجنوب: إن الحرّة لا تسري بالليل، فغضب الله عليها، وجعلها عقيماً، فأرسل عليهم الصبا، فاطفأت نيرانهم، وقطعت أطنابهم، فقال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالبور»، فذلك قوله: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالبور». وأخرج البخاري، وغيره عن عائشة في قوله: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الآية قالت: كان ذلك يوم الخندق، وفي الباب: أحاديث في وصف هذه الغزوة، وما وقع فيها، وقد اشتملت عليها كتب الغزوات، والسير. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت بقرية تاكل القرى يقولون: يثرب، وهي: المدينة تنفي البأس كما ينفي الكير خبث الحديد». وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمي المدينة يثرب، فليستغفر الله، هي: طابة هي: طابة هي: طابة، ولفظ أحمد «إنما هي: طابة» وإسناده ضعيف. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ قال: هم بنو حارثة قالوا: ﴿يَبِيتُونَا عَوْرَةً﴾ أي: مختلة نخشى عليها السرق. وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه. وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة ﴿وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا لَلْفِتْنَةِ لَاتَوَاهَا﴾ قال: لاعطوها، يعني: إخال بني حارثة أهل الشام على المدينة.

﴿قَدْ يَمْلَأُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكَ وَنَاصِيحَتِهِمْ هَلَمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٦﴾ أَيْحَةَ عَلَيْهِمْ فَإِذَا جَاءَهُ الْكَوْثُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَدْوُ أَعْيُنُهُمْ كَأَنَّهُ يَمُشُّ عَلَى بَنِي الْأَوْتَرِ فَإِذَا ذَهَبَ الْكَوْثُ سَلَوُكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَيْحَةَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يَزُفُوا فَحَبَّطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٧﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَرُوكَ فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَأْذِنُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

ففيهم رسولاً منهم﴾ [البقرة: 129]، ويشري عيسى ابن مريم، ورات أم رسول الله ﷺ في منامها: أنه خرج من بين رجلها سراج أضاءت له قصور الشام. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «قيل: يا رسول الله متى أخذ ميثاقك؟ قال: وأدم بين الروح والجسد». وأخرج البزار، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عنه قال: «قيل: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: وأدم بين الروح والجسد». وفي الباب أحاديث قد صحح بعضها. وأخرج الحسن بن سفيان، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والديلمي، وابن عساكر من طريق قتادة عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ الآية قال: كنت أول النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث، فبدأ به قبلهم. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: «ميثاقهم» عهدهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ قال: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل، وابن عساكر من طرق عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبو سفيان، ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا؛ نخافهم على نزارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أشد ريحاً، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحد منا أصبعه، فجعل المنافقون يستأننون رسول الله ﷺ، ويقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأنن أحد منهم إلا أن له، فيتسللون، ونحن ثلثمائة، أو نحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً حتى مر علي، وما علي جنة من العدو ولا من البره إلا مرط لامراتي ما يجاوز ركبتي، فأتاني، وأنا جاث على ركبتي، فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة، قال: حذيفة، فتقاصرت إلى الأرض، فقلت: بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم، قال: قم، فقممت، فقال: إنه كان في القوم خير، فأتني بخبر القوم، قال: وأنا من أشد القوم فرعاً، وأشدهم قرأ، فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته؛ قال: فوالله ما خلق الله فرعاً ولا قرأ في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد منه شيئاً، فلما وليت قال: يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني، فخرجت حتى إذا نوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل، ثم دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز شبراً، فوالله إني لاسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم، ثم خرجت نحو النبي ﷺ، فلما انتصفت في الطريق، أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك

قال قتادة: معنى الآية: بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون: أعطنا فإننا قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لساناً، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم. قال النحاس: وهذا قول حسن، وانتصاب **«أشحة على الخير»** على الحالية من فاعل سلقوكم، ويجوز أن يكون نصبه على الذم. وقرأ ابن أبي عبيدة برفع أشحة، والمراد هنا أنهم أشحة على الغنيمة يشاحون المسلمين عند القسمة، قاله يحيى بن سلام، وقيل: على المال أن ينفقوه في سبيل الله. قاله السدي. ويمكن أن يقال معناه: أنهم قليلو الخير من غير تقييد بنوع من أنواعه، والإشارة بقوله: **«أولئك»** إلى الموصوفين بتلك الصفات **«لم يؤمنوا»** إيماناً خالصاً بل هم منافقون: يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر **«فاحبط الله أعمالهم»** أي: أبطلها بمعنى: أظهر بطلانها، لأنها لم تكن لهم أعمال تقتضي الثواب حتى يبطلها الله. قال مقاتل: أبطل جهادهم؛ لأنه لم يكن في إيمان **«وكان ذلك على الله يسيراً»** أي: وكان ذلك الإحباط لأعمالهم، أو كان نفاقهم على الله هيناً **«يحسبون الأحزاب لم يذهبوا»** أي: يحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم أن الأحزاب باقون في معسكرهم لم يذهبوا إلى نيارهم، وذلك لما نزل بهم من الفشل والذبح **«وإن يات الأحزاب»** مرة أخرى بعد هذه المرة **«يؤثوا لو أنهم بايئون في الأعراب»** أي: يتمنون أنهم في بادية الأعراب لما حل بهم من الرهبة، والبادي خلاف الحاضر، يقال: بدا يبدو بداوة إذا خرج إلى البادية **«يسألون عن أنبيائكم»** أي: عن أخباركم، وما جرى لكم، كل قادم عليهم من جهتكم، أو يسأل بعضهم بعضاً عن الأخبار التي بلغته من أخبار الأحزاب، ورسول الله ﷺ والمعنى: أنهم يتمنون أنهم بعيد عنكم يسألون عن أخباركم من غير مشاهدة للقتال لفرط جبنهم، وضعف نياتهم **«ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً»** أي: لو كانوا معكم في هذه الغزوة مشاهدين للقتال ما قاتلوا معكم إلا قتلاً قليلاً خوفاً من العار، وحماية على النيار **«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»** أي: قدوة صالحة، يقال: لي في فلانة أسوة أي: لي به، والأسوة من الائتساء، كالقدوة من الاقتداء: اسم يوضع موضع المصدر. قال الجوهري: والأسوة، والإسوة بالضم، والكسر، والجمع أسى، وأسى. قرأ الجمهور (أسوة) بالضم للهمزة، وقرأ عاصم بكسرها، وهما لغتان كما قال الفراء، وغيره.

وفي هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول الله ﷺ: لقد كان لكم في رسول الله حيث بذل نفسه للقتال، وخرج إلى الخندق لنصرة دين الله أسوة، وهذه الآية، وإن كان سببها خاصاً، فهي عامة في كل شيء، ومثلها **«ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»** [الحشر: 7]، وقوله: **«قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله»** [آل عمران: 31]، واللام في **«لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر»** متعلق بحسنة، أو بمحذوف هو صفة لحسنة أي:

وَعَدَا اللَّهُ رَسُولَهُ وَصَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَمَا رَادَّهُمْ إِلَّا إِيْمَانًا وَسَلَامًا ﴿١٩﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَتَلَ نَجْمَةً وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا بَيْدِيكَ ﴿٢٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْكَافِرِينَ إِنْ سَاءَ أَوْ يَرْبُحَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢١﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِحَبْطِهِمْ لَمْ يَبَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوَّيًّا عَزِيمًا ﴿٢٢﴾

قوله: **«قد يعلم الله المعوقين منكم»** يقال: عاقه، واعتاقه، وعوقه: إذا صرفه عن الوجه الذي يريده. قال الواحدي قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبوتون أنصار النبي ﷺ، وذلك أنهم قالوا لهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحماً لالتقمهم أبو سفيان، وحزبه، فخلوهم، وتعلوا إلينا، وقيل: إن القائل هذه المقالة اليهود قالوا: **«إخوانهم»** من المنافقين **«هلم إلينا»**، ومعنى هلم: أقبل، وأحضر، وأهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد، والجماعة، والمذكر، والمؤنث، وغيرهم من العرب يقولون: هلم للواحد الذكر، وهلمي للمؤنث، وهلما للثنتين، وهلموا للجماعة، وقد مر الكلام على هذا في سورة الأنعام **«ولا يأتون البأس»** أي: الحرب **«إلا قليلاً»** خوفاً من الموت، وقيل: المعنى: لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة من غير احتساب **«أشحة عليكم»** أي: بخلاء عليكم لا يعاونوكم بحفر الخندق، ولا بالنفقة في سبيل الله، قاله مجاهد، وقتادة. وقيل: أشحة بالقتال معكم وقيل: بالنفقة على فقرائكم، ومساكينكم، وقيل: أشحة بالفنائم إذا أصابوها. قاله السدي، وانتصابه على الحال من فاعل يأتون، أو من المعوقين. وقال الفراء: يجوز في نصبه أربعة أوجه: منها النصب على الذم، ومنها بتقدير فعل محذوف أي: يأتونه أشحة. قال النحاس: ولا يجوز أن يكون العامل فيه للمعوقين، ولا القائلين لثلا يفرق بين الصلة، والموصول **«فإذا جاء للخوف رأيته ينظرون إليك تدور أعينهم»** أي: تدور يميناً، وشمالاً، وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه **«كالذي يغشى عليه من الموت»** أي: كعين الذي يغشى عليه من الموت، وهو الذي نزل به الموت، وغشيت أسبابه، فيذهل، ويذهب عقله، ويشخص بصره، فلا يطرف، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف، ويقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه، ودارت حماليق عينيه، والكاف نعت مصدر محذوف **«فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد»** يقال: سلق فلان فلاناً بلسانه: إذا أغلظ له في القول مجاهراً. قال الفراء: أي: أنوهم بالكلام في الأمن بالسنة سليطة نربة، ويقال: خطيب مسلاق، ومصلاق إذا كان بليغاً، ومنه قول الأعشى:

فيهم المجد والسماحة والنجد
قال القتيبي: المعنى أنوكم بالكلام الشديد، والسلق الأذى، ومنه قول الشاعر:

ولقد سلقت هوازنا بنو أهل حتى انحنيانا

الإنسان، واعتقد الوفاء به، ومنه قول الشاعر:

عشية فرّ الحارثيون بعد ما قضى نحبه في ملتقى القوم هوبر
وقال الآخر:

بطخفة جالدنا الملوك وخيلنا عشية بسطام جرين على نحب
أي: على أمر عظيم، والنحب يطلق على النذر، والقتل، والموت. قال ابن قتيبة: قضى نحبه أي: قتل، وأصل النحب النذر. كانوا يوم بدر نذروا إن لقوا العدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا، أو يفتح الله لهم، فقتلوا، ف قيل: فلان قضى نحبه أي: قتل، والنحب أيضاً الحاجة، وإدراك الأمانة، يقول قائلهم: مالي عندهم نحب، والنحب العهد، ومنه قول الشاعر:

لقد نحبت كلب على الناس أنهم أحقّ بتاج الماجد المتكرم
وقال آخر:

قد نحب المجد علينا نحباً

ومن ورود النحب في الحاجة وإدراك الأمانة قول الشاعر:

أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

ومعنى الآية: أن من المؤمنين رجالاً أدركوا أمانيتهم، وقضوا حاجتهم، ووفوا بنذرهم، فقاتلوا حتى قتلوا، وذلك يوم أحد كحمة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر **﴿ومنها من ينتظر﴾** قضاء نحبه حتى يحضر أجله كعثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وأمثالهم فإنهم مستمرّون على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله **﴿والقتال لعنه﴾**، ومنتظرون لقضاء حاجتهم، وحصول أمانيتهم بالقتل، وإدراك فضل الشهادة، وجملة **﴿وما بذلوا تبديلاً﴾** معطوفة على صلّوا أي: ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم، بل ثبتوا عليه ثبوتاً مستمراً، أما الذين قضوا نحبهم، فظاهر، وأما الذين ينتظرون قضاء نحبهم، فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا، ولم يغيروا، ولا يكلوا، واللام في قوله: **﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم﴾** يجوز أن يتعلق بصدقوا، أو بزادهم، أو بما بذلوا، أو بمحذوف، كأنه قيل: وقع جميع ما وقع: ليجزي الله الصادقين بصدقهم **﴿ويعذب المنافقين إن شاء﴾** بما صدر عنهم من التغيير، والتبديل، جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء، وأرانوها بسبب تبديلهم، وتغييرهم كما قصد الصادقون عاقبة الصلح بوفائهم، فكل من الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب، والعقاب، فكانت استتوي في طلبها، والسعي لتحصيلها، ومفعول «إن شاء»، وجوابها محذوفان، أي: إن شاء تعذيبهم عذبهم، وذلك إذا أقاموا على النفاق، ولم يتركوه، ويتوبوا عنه **﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾** أي: لمن تاب منهم، وأقلع عما كان عليه من النفاق. ثم رجع سبحانه إلى حكاية بقية القصة، وما امتنّ به على رسوله والمؤمنين من النعمة، فقال: **﴿ورد الله الذين كفروا﴾**، وهم: الأحزاب، والجملة معطوفة على **﴿فأرسلنا عليهم ريحاً﴾** [الأحزاب: 9] أو على المقتر عاملاً في ليجزي الله الصادقين بصدقهم، كأنه قيل: وقع ما وقع من الحوادث، ورد الله الذين كفروا،

كائنة لمن يرجو الله. وقيل: إن الجملة بدل من الكاف في لكم، وردّه أبو حيان، وقال: إنه لا يبدل من ضمير المخاطب بإعادة الجار. ويجاب عنه بأنه قد أجاز تلك الكوفيين، والأخفش، وإن منعه البصريون، والمراد بمن كان يرجو الله: المؤمنون، فإنهم الذين يرجون الله، ويخافون عذابه، ومعنى يرجون الله: يرجون ثوابه، أو لقاءه، ومعنى يرجون اليوم الآخر: أنهم يرجون رحمة الله فيه، أو يصدقون بحصوله، وأنه كائن لا محالة، وهذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى **﴿ونكر الله كثيراً﴾** معطوف على كان أي: ولمن نكر الله في جميع أحواله نكراً كثيراً، وجمع بين الرجاء لله، والذكر له، فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول الله **﴿ثم بين سبحانه ما وقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب، ومشاهدتهم لتلك الجيوش التي أحاطت بهم كالبحر العباب، فقال: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾** الإشارة بقوله: «هذا» إلى ما راوه من الجيوش، أو إلى الخطب الذي نزل، والبلاء الذي دهم، وهذا القول منهم قالوه استبشاراً بحصول ما وعدهم الله ورسوله من مجيء هذه الجنود، وإنه يتعقب مجيئهم إليهم نزول النصر والظفر من عند الله، **﴿وما﴾** في **﴿وما وعدنا الله﴾** هي: الموصولة، أو المصدرية، ثم أرفقوا ما قالوه بقولهم: **﴿وصدق الله ورسوله﴾** أي: ظهر صدق خبر الله، ورسوله **﴿وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾** أي: ما زادهم ما راوه إلا إيماناً بالله، وتسليماً لأمره. قال الفراء: ما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيماناً وتسليماً. قال علي بن سليمان: **﴿رأى﴾** يدل على الرؤية، وتأنيت الرؤية غير حقيقي، والمعنى: ما زادهم الرؤية إلا إيماناً للرب، وتسليماً للقضاء، ولو قال: ما زادتكم لجاز **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾** أي: من المؤمنين المخلصين رجال صدقوا أتوا بالصلح، من صدقني إذا قال الصلح، ومحل **﴿ما عاهدوا الله عليه﴾** النصب بنزع الخافض، والمعنى: أنهم وفوا بما عاهدوا عليه رسول الله **﴿ليلة العقبه من الثبات معه، والمقاتلة لمن قاتله، بخلاف من كذب في عهده، وخان الله ورسوله، وهم: المنافقون، وقيل: هم الذين نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ثبتوا له ولم يغيروا، ووجه إظهار الاسم الشريف، والرسول في قوله: ﴿صدق الله ورسوله﴾** بعد قوله: **﴿وما وعدنا الله ورسوله﴾** هو قصد التعظيم كما في قول الشاعر:

أرى الموت لا يسبق الموت شيء

وأيضاً لو أضمهم، لجمع بين ضمير الله وضمير رسوله في لفظ واحد. وقال: صدقاً، وقد ورد النهي عن جمعها كما في حديث «بش خطيب القوم أنت» لمن قال: ومن يعصهما، فقد غوى. ثم فصل سبحانه حال الصادقين بما وعدوا الله ورسوله، وقسمهم إلى قسمين، فقال: **﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾** النحب: ما التزمه

فاتوهم، وزورهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا رُكِّبوا عليه، وقد تعقب الحاكم في تصحيحه الذهبي كما نكر ذلك السيوطي، ولكنه قد أخرج الحاكم حديثاً آخر، وصححه. وأخرجه أيضاً البيهقي في الدلائل عن أبي نر قال: لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد من على مصعب بن عمير مقتولاً على طريقه، فقرأ ﴿مَنْ لِلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية. وأخرج ابن مروي عن حديث خباب مثله، وهما يشهدان لحديث أبي هريرة. وأخرج الترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، والطبراني، وابن مروي عن طلحة: «أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سله عن قضي نحيه من هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته يوقرونه، ويهابونه، فسأله الأعرابي، فأعرض عنه، ثم سأله، فأعرض عنه، ثم إنني اطلعت من باب المسجد، فقال: أين السائل عن قضي نحيه؟ قال الأعرابي: أنا، قال: هذا ممن قضى نحيه». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي عن حديثه نحوه. وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نحيه». وأخرج سعيد بن منصور، وأبو يعلى، وأبو نعيم، وابن المنذر، وابن مروي عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض قد قضى نحيه، فلينظر إلى طلحة». وأخرج ابن مروي عن حديث جابر مثله. وأخرج ابن منده، وابن عساكر من حديث أسماء بنت أبي بكر نحوه. وأخرج أبو الشيخ، وابن عساكر عن علي: أن هذه الآية نزلت في طلحة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس «فمنهم من قضى نحيه» قال: الموت على ما عاهدوا الله عليه، ومنهم من ينتظر الموت على ذلك. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن مروي عن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن تغزوه، ولا يغزونا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله: «فمنهم من قضى نحيه» قال: مات على ما هو عليه من التصديق، والإيمان «ومنهم من ينتظر» ذلك «وما بئلو تبديلاً» لم يغيروا كما غير المنافقون.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: «سلفوكم» قال: استقبلوكم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه «وكان ذلك على الله يسيراً» قال: هيناً. وأخرج ابن مروي، والخطيب، وابن عساكر، وابن النجار عن عمر في قوله: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» قال: في جوع رسول الله، وقد استدلل بهذه الآية جماعة من الصحابة في مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة، وهي خارجة عما نحن بصدده. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: «ولما رأى المؤمنون الأحزاب» إلى آخر الآية قال: إن الله قال لهم في سورة البقرة: «فم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء» [البقرة: 214] فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق «قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله» فتأمل المسلمون ذلك، فلم يزداهم «إلا إيماناً وتسليماً». وأخرج البخاري، وغيره عن أنس قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» وأخرج ابن سعد، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والبيهقي في معجمه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن بدر، فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرين الله ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو وأين؟ قال: وأما لريح الجنة أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة، وطعنة ورمية، ونزلت هذه الآية «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» وكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه. وقد روي عنه نحوه من طريق أخرى عند الترمذي، وصححه، والنسائي، وغيرهما. وأخرج الحاكم، وصححه، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد من على مصعب بن عمير وهو مقتول، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ ﴿مَنْ لِلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية، ثم قال: أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله،

ومحل «بغيتهم» النصب على الحال، والباء للمصاحبة أي: حال كونهم متلبسين ببغيتهم، ومصاحبين له، ويجوز أن تكون للسببية، وجملة «لم ينالوا خيراً» في محل نصب على الحال أيضاً من الموصول، أو من الحال الأولى على التعاقب، أو التداخل. والمعنى: أن الله ردَّهم ببغيتهم لم يشف صدورهم، ولا نالوا خيراً في اعتقادهم، وهو الظفر بالمسلمين، أو لم ينالوا خيراً أي خيراً، بل رجعوا خاسرين لم يربحوا إلا عناء السفر، وغرم النفقة «وكفى الله للمؤمنين القتال» بما أرسله من الريح والجنود من الملائكة «وكان الله قوياً عزيزاً» على كل ما يريده إذا قال له كن، كان، عزيزاً غالباً قاهراً لا يغالبه أحد من خلقه، ولا يعارضه معارض في سلطانه وجبروته.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: «سلفوكم» قال: استقبلوكم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه «وكان ذلك على الله يسيراً» قال: هيناً. وأخرج ابن مروي، والخطيب، وابن عساكر، وابن النجار عن عمر في قوله: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» قال: في جوع رسول الله، وقد استدلل بهذه الآية جماعة من الصحابة في مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة، وهي خارجة عما نحن بصدده. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: «ولما رأى المؤمنون الأحزاب» إلى آخر الآية قال: إن الله قال لهم في سورة البقرة: «فم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء» [البقرة: 214] فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق «قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله» فتأمل المسلمون ذلك، فلم يزداهم «إلا إيماناً وتسليماً». وأخرج البخاري، وغيره عن أنس قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» وأخرج ابن سعد، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والبيهقي في معجمه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن بدر، فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرين الله ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو وأين؟ قال: وأما لريح الجنة أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة، وطعنة ورمية، ونزلت هذه الآية «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» وكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه. وقد روي عنه نحوه من طريق أخرى عند الترمذي، وصححه، والنسائي، وغيرهما. وأخرج الحاكم، وصححه، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد من على مصعب بن عمير وهو مقتول، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ ﴿مَنْ لِلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية، ثم قال: أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله،

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبِهِمْ وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْبِرُونَ فَرِيقًا ۖ وَرَبُّكُمْ أَزْهَمُ بَدْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْسَاءَهُمْ تَطَاوَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١٤﴾

قوله: «وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب» أي: عاضدوهم وعاونوهم على رسول الله ﷺ، وهم بنو قريظة، فإنهم عاونوا الأحزاب، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وصاروا يداً واحدة مع الأحزاب. والصياصي جمع صيصية: وهي الحصون، وكل شيء يتحصن به يقال له: صيصية، ومنه صيصية الديك، وهي الشوكة التي في رجله، وصياصي البقر قرونها؛ لأنها تمتنع

بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيصهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبة من آدم، فضربت على سعد في المسجد، قالت: فجاء جبريل، وإن على ثنياه لوقع الغبار، فقال: أوقد وضعت السلاح؟ لا، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح: أخرج إلى بني قريظة، فقاتلهم، فلبس رسول الله ﷺ لامته، وأثن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة، فلما اشتد حصرهم، واشتد البلاء عليهم، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله، قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فنزلوا، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، فأتي به على حمار، فقال رسول الله ﷺ: احكم فيهم، قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال: لقد حكمت فيهم بحكم الله، وحكم رسوله.

يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنَّ شَرِدْنَ الْخَيْرَ الَّذِي وَرِثْتَهُمَا فَتَنَازِلِكٌ أَمْتَعَكُنَّ وَأَمْسِكُنَّ سَرَكَامًا بَيْنَكُمَا ۖ وَإِن كُنَّ شَرِدْنَ فَتَنَازِلِكٌ وَرَسُولُهُ وَالَّذِي آخِرُهُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ يٰٓيَسَاةَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِمَكْرَهٍ فَتُنَزَّلْنَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۖ وَمَن يَفْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ بِرَسُولِهِ وَمَسَلْ مَسَلًا نَّهَىٰ عَنْهُمَا أَجْرًا مَّرَّتَيْنِ وَعَذَابًا لَّهَا رَذِيًّا ۖ يٰٓيَسَاةَ النَّبِيِّ كَأَنَّهُمْ مِنْ الْمَاءِ إِن أَفْقَيْتُمْ فَلَا تَحْصَمْنَ بِالْقَوْلِ يُقَطِّعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۖ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ تَطْهِيرًا ۖ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝

قوله: **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ** قيل: هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من المنع من إيذاء النبي ﷺ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات. قال الواحدي: قال المفسرون: إن أزواج النبي ﷺ سالننه شيئا من عرض الدنيا، وطلبن منه الزيادة في النفقة، وأنيته بغيرة بعضهن على بعض، فآلى رسول الله ﷺ منهن شهرا، وأنزل الله آية التخيير هذه، وكُن يومئذ تسعا: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وأم حبيبة، وسودة هؤلاء من نساء قريش، وصفية الخيرية، وميمونة الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية. ومعنى **«الحياة الدنيا وزينتها»**: سعتها، ونضارتها، وفهاميتها، والتنعيم فيها **«فتعالين»** أي: أقبلن إلي **«أمتعن»** بالجزم جوابا للأمر أي: أعطكن المتعة **«و»** كذا **«أسوحن»** بالجزم أي: أطلقكن وبالجزم في الفعلين قرأ الجمهور، وقرأ حميد الخراز بالرفع في الفعلين على الاستئناف، والمراد بالسراح الجميل: هو الواقع من غير ضرار على مقتضى السنة. وقيل: إن جزم الفعلين على أنهما جواب الشرط، وعلى هذا يكون قوله: **«فتعالين»** اعتراضاً بين الشرط، والجزاء **«وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار**

بها، ويقال: لشوكة الحائك التي يسوي بها السداة واللحمة صيصية، ومنه قول لريد بن الصمة: فجنث إليه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممد ومن إطلاقها على الحصون قول الشاعر:

فاصبحت الثيران صرعى وأصبحت نساء تميم يبتدن للصياصيا **«وقنف في قلوبهم الرعب»** أي: الخوف الشديد حتى سلموا أنفسهم للقتل، وأولادهم ونساءهم للسبي، وهي معنى قوله: **«فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً»** فالفريق الأول هم: الرجال، والفريق الثاني هم: النساء والذرية، وهذه الجملة مبنية، ومقررة لقذف الرعب في قلوبهم. قرأ الجمهور (تقتلون) بالفوقية على الخطاب، وكذلك قرءوا (تأسرون)، وقرأ ابن نكوان في رواية عنه بالتحية فيهما، وقرأ اليماني بالفوقية في الأول، والتحية في الثاني، وقرأ أبو حيوة (تأسرون) بضم السين، وقد حكى الفراء كسر السين، وضمها، فهما لغتان، ووجه تقديم مفعول الفعل الأول، وتأخير مفعول الفعل الثاني أن الرجال لما كانوا أهل الشوكة، وكان الوارد عليهم أشد الأمرين، وهو: القتل، كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام.

وقد اختلف في عدد القتولين، والمأسورين، فقيل: كان المقتولون من ستمائة إلى سبعمائة، وقيل: ستمائة، وقيل: سبعمائة، وقيل: ثمانمائة، وقيل: تسعمائة. وكان المأسورون سبعمائة، وقيل: سبعمائة وخمسين، وقيل: تسعمائة **«وآورثكم أرضهم وبيارهم وأموالهم»** المراد بالأرض العقار، والنخيل، والبنجار المنازل، والحصون، وبالأموال الحلبي، والأثاث، والمواشي، والسلاح، والدراهم، والنفائير **«وآورثا لهم تطووها»** أي: وآورثكم أرضاً لم تطووها، وجملة لم تطووها صفة لأرضاً. قرأ الجمهور (لم تطووها) بهمزة مضمومة، ثم وار ساكنة، وقرأ زيد بن علي (تطوها) بفتح الطاء، ووار ساكنة.

واختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض المنكورة، فقال يزيد بن رومان وابن زيد، ومقاتل: إنها خيبر، ولم يكونوا إذ ذاك قد نالوها، فوعدهم الله بها. وقال قتادة: كنا نتحدث أنها مكة. وقال الحسن: فارس، والروم. وقال عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة **«وكان الله على كل شيء قدير»** أي: هو سبحانه قدير على كل ما أراده من خير، وشر، ونعمة، ونقمة، وعلى إنجاز ما وعد به من الفتح للمسلمين.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **«من صياصيصهم»** قال: حصونهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن مريويه عن عائشة قالت: مخرجت يوم الخندق آتفو الناس، فإذا أنا بسعد بن معاذ، ورماء رجل من قريش يقال له: ابن الفرقة بسهم، فإصاب إكله فقطعه، فدعا الله سعداً، فقال: اللهم لا تمنني حتى تفر عيني من قريظة، فبعث الله الريح على المشركين **«وكفى الله المؤمنين القتال»**، ولحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه

الآخرة ﴿أي: الجنة، ونعيمها﴾ **﴿فإن الله أعد للمحسنات منكن﴾** أي: اللاتي عملن عملاً صالحاً **﴿لجراً عظيماً﴾** لا يمكن وصفه، ولا يقادر قدره، وذلك بسبب إحسانهن، وبمقابلة صالح عملهن.

وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه على قولين: القول الأول: أنه خيرهن بإذن الله في البقاء على الزوجية، أو الطلاق، فاخترن البقاء، وبهذا قالت عائشة، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والزهري، وربيعه. والقول الثاني: أنه إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكنهن، ولم يخيرهن في الطلاق، وبهذا قال علي، والحسن، وقتادة، والراجح الأول. واختلفوا أيضاً في المخيرة إذا اختارت زوجها هل يحسب مجرد ذلك التخيير على الزوج طلاقاً أم لا؟ فذهب الجمهور من السلف، والخلف إلى أنه لا يكون التخيير مع اختيار المرأة لزوجها طلاقاً لا واحدة، ولا أكثر. وقال علي، وزيد بن ثابت: إن اختارت زوجها، فواحدة بائنة، وبه قال الحسن، والليث: وحكاه الخطابي، والنقاش عن مالك. والراجح الأول لحديث عائشة الثابت في الصحيحين قالت: «خيرنا رسول الله ﷺ، فاخترناه، فلم يعدّه طلاقاً»، ولا وجه لجعل مجرد التخيير طلاقاً، ودعوى أنه كناية من كنايات الطلاق مدفوعة بأن المخير لم يرد الفرقة لمجرد التخيير، بل أراد تفويض المرأة، وجعل أمرها بيدها، فإن اختارت البقاء بقيت على ما كانت عليه من الزوجية، وإن اختارت الفرقة صارت مطلقة.

واختلفوا في اختيارها لنفسها هل يكون ذلك طلاقاً رجعية، أو بائنة. فقال بالأول عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وابن أبي ليلى، والثوري، والشافعي، وقال بالثاني علي، وأبو حنيفة، وأصحابه، وروي عن مالك. والراجح الأول، لأنه يبعد كل البعد أن يطلق رسول الله ﷺ نساءه على خلاف ما أمره الله به، وقد أمره بقوله: **﴿إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعتنهن﴾** [الطلاق: 1]، وروي عن زيد بن ثابت: أنها إذا اختارت نفسها، فثلاث طلاقات، وليس لهذا القول وجه. وقد روي عن علي: أنها إذا اختارت نفسها، فليس بشيء، وإذا اختارت زوجها، فواحدة رجعية. ثم لما اختار نساء رسول الله ﷺ رسول الله أنزل فيهن هذه الآيات تكرمة لهن، وتعظيماً لحقهن، فقال: **﴿يا نساء النبي من يات منكن بفاحشة مبينة﴾** أي: ظاهرة القبح واضحة الفحش، وقد عصمهن الله عن ذلك، وبرأهن، وطهرهن **﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾** أي: يعذبهن مثلي عذاب غيرهن من النساء إذا اتين بمثل تلك الفاحشة، وذلك لشرفهن، وعلو درجتهن، وارتفاع منزلتهن. وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع أن تضاعف الشرف، وارتفاع الدرجات يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات. وقر أبو عمرو (يضعف) على البناء للمفعول، وفرق هو، وأبو عبيد بين يضاعف، ويضعف، فقالا: يكون يضاعف ثلاثة عذابات، ويضعف عذابين. قال النحاس: هذه التفرقة التي جاء بها لا

يعرفها أحد من أهل اللغة، والمعنى في يضاعف ويضعف واحد أي: يجعل ضعفين، وهكذا ضعف ما قاله ابن جرير **﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾** لا يتعاطفه، ولا يصعب عليه **﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً﴾** قرأ الجمهور (يقنت) بالتحنية، وكذا قرءوا: (يات منكن) حملاً على لفظ من في الموضعين، وقرأ الجحدري، ويعقوب، وابن عامر في رواية، وأبو جعفر بالفوقية حملاً على المعنى، ومعنى «من يقنت»: من يطع، وكذا اختلف القراء في «مبينة»، فمنهم من قرأها بالكسر، ومنهم من قرأها بفتح الياء كما تقدم في النساء. وقرأ ابن كثير، وابن عامر (نضعف) بالنون، ونصب العذاب، وقرئ (نضاعف) بكسر العين على البناء للفاعل **﴿نؤتها لجرها مرتين﴾** قرأ حمزة، والكسائي بالتحنية، وكذا قرأ (يعمل) بالتحنية، وقرأ الباقر (تعمل) بالفوقية، ونؤت بالنون، ومعنى إتيانهن الأجر مرتين: أنه يكون لهن من الأجر على الطاعة مثلاً ما يستحقه غيرهن من النساء إذا فعلن تلك الطاعة. وفي هذا دليل قوي على أن معنى **﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾**: أنه يكون العذاب مرتين لا ثلاثاً، لأن المراد إظهار شرفهن، ومزيتهن في الطاعة والمعصية بكون حسنتهن كحسنتين، وسيئتهن كسيئتين، ولو كانت سيئتهن ثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهن كحسنتين، فإن الله أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهن مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرهن **﴿واعتننا لها﴾** زيادة على الأجر مرتين **﴿ورزقاً كريماً﴾**. قال المفسرون: الرزق الكريم هو نعيم الجنة، حكى ذلك عنهم النحاس. ثم أظهر سبحانه فضيلتهن على سائر النساء تصريحاً، فقال: **﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾** قال الزجاج: لم يقل: كواحدة من النساء، لأن أحد نفي عام للمنكر، والمؤنث، والواحد، والجماعة. وقد يقال: على ما ليس بآدمي كما يقال: ليس فيها أحد لا شاة، ولا بعير. والمعنى: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف. ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد، فقال: **﴿إن اتقيتن﴾** فبين سبحانه: أن هذه الفضيلة لهن إنما تكون بملازمتهم للتقوى، لا لمجرد اتصالهن بالنبي ﷺ. وقد وقعت منهنّ والله الحمد التقوى البينة، والإيمان الخالص، والمشي على طريقة رسول الله ﷺ في حياته، وبعد مماته. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: إن اتقيتن، فلستن كأحد من النساء. وقيل: إن جوابه **﴿فلا تخضعن﴾** والأول أولى. ومعنى **﴿فلا تخضعن بالقول﴾**: لا تلتن القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء، فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة، وهي قوله: **﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾** أي: فجور، وشك، ونفاق، وانتصاب يطمع لكونه جواب النهي. كذا قرأ الجمهور. وحكى أبو حاتم: أن الأعرج قرأ (فيطمع) بفتح الياء، وكسر الميم. قال النحاس: أحسب هذا غلطاً، ورويت هذه القراءة عن أبي السمال، وعيسى بن عمر، وابن محيصن، وروي عنهم: أنهم قرءوا

الجاهلية الجهلاء. قال: وكان نساء الجاهلية تظهر ما يقبح إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلتها، فينفرد خليلتها بما فوق الإزار إلى أعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل، وربما سال أحدهما صاحبه البذل. قال ابن عطية: والذي يظهر لي أنه أشار إلى الجاهلية التي لحقتها، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة، لأنهم كانوا لا غيرة عندهم، وليس المعنى: أن ثم جاهلية أخرى كذا قال، وهو قول حسن. ويمكن أن يراد بالجاهلية الأخرى ما يقع في الإسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل، فيكون المعنى: ولا تبرجن أيها المسلمات بعد إسلامكن تبرجاً مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتن عليها، وكان عليها من قبلكن أي: لا تحدثن بأفعالكن وأقوالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل **﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَاطْعَنِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** خص الصلاة والزكاة لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية. ثم عمم، فأمرهن بالطاعة لله ولرسوله في كل ما هو شرع **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾** أي: إنما أوصاكن الله بما أوصاكن من التقوى، وأن لا تخضعن بالقول، ومن قول المعروف، والسكون في البيوت، وعدم التبرج، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة؛ ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، والمراد بالرجس الإثم والذنب الممنان للأعراض الحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه، فيدخل تحت ذلك كل ما ليس فيه لله رضا، وانتصاب أهل البيت على المدح كما قال للزجاج، قال: وإن شئت على البذل. قال: ويجوز الرفع والخفض. قال النحاس: إن خفض فعلى أنه بدل من الكاف، والميم، واعترضه المبرد بأنه لا يجوز البدل من المخاطب، ويجوز أن يكون نصبه على النداء **﴿وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيرًا﴾** أي: يطهركم من الأرجاس والأدران تطهيراً كاملاً. وفي استعارة الرجس للمعصية والترشيح لها بالتطهير تغيير عنها بليغ، وزجر لفاعلهما شديد.

وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية، فقال ابن عباس، وعكرمة، وعطاء، والكلبي، ومقاتل، وسعيد بن جبير: إن أهل البيت المذكورين في الآية هن: زوجات النبي ﷺ خاصة. قالوا: والمراد بالبيت بيت النبي ﷺ، ومساكن زوجاته لقوله: **﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾** وإيضاً السياق في الزوجات من قوله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجُكُمْ﴾** إلى قوله: **﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾**. وقال أبو سعيد الخدري، ومجاهد، وقتادة، وروي عن الكلبي: أن أهل البيت المذكورين في الآية هم: علي، وفاطمة، والحسن، والحسين خاصة، ومن حججهما الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للإناث، وهو قوله: «عنكم وليطهركم»، ولو كان للنساء خاصة لقال عنكن، ويطهركن. وأجاب الأولون عن هذا أن التذكير باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه:

بالجزم عطفاً على محل فعل النهي **﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾** عند الناس بعيداً من الريبة على سنن الشرع، لا ينكر منه سامعه شيئاً، ولا يطعم فيه أهل الفسق، والفجور بسببه **﴿وَقُرْنِ فِي بَيْوتِكُنَّ﴾** قرأ الجمهور (وقرن) بكسر القاف من وقر يقر وقرأ أي: سكن، والأمر منه قر بكسر القاف، وللنساء قرن مثل عدن وزن. وقال المبرد: هو من القرار، لا من الوقار، تقول: قررت بالمكان بفتح الراء، والأصل اقررن بكسر الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفاً كما قالوا في: ظلت ظلت، ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغنى عن ألف الوصل بتحريك القاف. وقال أبو علي الفارسي: أبدلت الراء الأولى ياء كراهة التضعيف كما أبدلت في قيراط، ودينار، وصار للياء حركة الحرف الذي أبدلت منه، والتقدير اقرين، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحريك الياء بالكسر، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين، وتسقط همزة الوصل لتحريك ما بعدها، فيصير قرن. وقرأ نافع، وعاصم بفتح القاف وأصله قررت بالمكان: إذا أقمت فيه بكسر الراء، أقر بفتح القاف كحمد يحمد، وهي لغة أهل الحجاز، نكر ذلك أبو عبيد عن الكسائي، ونكرها الزجاج، وغيره. قال الفراء: هو كما تقول هل حسنت صاحبك أي: هل أحسسته؟ قال أبو عبيد: كان أشياخنا من أهل العربية ينكرون القراءة بالفتح للقاف، وذلك لأن قررت بالمكان أقر لا يجوز كثير من أهل العربية. والصحيح قررت أقر بالكسر، ومعناه: الأمر لهن بالتوقر والسكون في بيوتهن، وأن لا يخرجن، وهذا يخالف ما ذكرناه هنا عنه عن الكسائي، وهو من أجل مشايخه. وقد وافقه على الإنكار لهذه القراءة أبو حاتم، فقال: إن قرن بفتح القاف لا مذهب له في كلام العرب. قال النحاس: قد خولف أبو حاتم في قوله: إنه لا مذهب له في كلام العرب بل فيه مذهبان: أحدهما: حكاة الكسائي، والآخر عن علي بن سليمان. فأما المذهب الذي حكاة الكسائي، فهو ما قدمناه من رواية أبي عبيد عنه، وأما المذهب الذي حكاة علي بن سليمان، فقال: إنه من قررت به عينا أقر. والمعنى: واقررن به عينا في بيوتكن. قال النحاس: وهو وجه حسن.

وأقول: ليس بحسن، ولا هو معنى الآية، فإن المراد بها أمرهن بالسكون والاستقرار في بيوتهن، وليس من قرّة العين. وقرأ ابن أبي عبيدة (واقررن) بالفتح وصل ورايين الأولى مكسورة على الأصل **﴿وَلَا تَبْرُجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَى﴾** التبرج: أن تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعي به شهوة الرجل. وقد تقدم معنى التبرج في سورة النور. قال المبرد: هو مأخوذ من السعة، يقال: في أسنانه برج: إذا كانت مثقفة. وقيل: التبرج هو: التبخر في المشي، وهذا ضعيف جداً.

وقد اختلف في المراد بالجاهلية الأولى، فقيل: ما بين آدم ونوح، وقيل: ما بين نوح وإدريس، وقيل: ما بين نوح وإبراهيم، وقيل: ما بين موسى وعيسى، وقيل: ما بين عيسى ومحمد. وقال المبرد: الجاهلية الأولى كما تقول

«أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت؟» [هود: 73] وكما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؟ يريد زوجته، أو زوجاته، فيقول: هم بخير.

ولنذكر هنا ما تمسك به كل فريق: أما الأولون، فتمسكوا بالسباق، فإنه في الزوجات. كما نذكرنا، وبما أخرجه ابن أبي حاتم، وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة. وقال عكرمة: من شاء باهلهن أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ. وأخرج نحوه ابن مروييه من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير، وابن مروييه عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن سعد عن عروة نحوه.

وأما ما تمسك به الآخرون، فأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروييه، والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت: في بيتي نزلت «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» وفي البيت فاطمة، وعلي، والحسن، والحسين، فجعلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروييه عن أم سلمة أيضاً: أن النبي ﷺ كان في بيتها على منامة له عليه كساء خيبري، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فقال رسول الله ﷺ: «ادعي زوجك، وابنيك حسناً، وحسيناً، فدعتهن، فبينما هم ياكلون إذ نزلت على النبي ﷺ «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»، فاخذ النبي ﷺ بفضل كسائه، فغشاهم إياها، ثم أخرج يده من الكساء، والوى بها إلى السماء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، قالها ثلاث مرّات. قالت أم سلمة: فأدخلت رأسي في الستر، فقلت: يا رسول الله، وأنا معكم؟ فقال: إنك إلى خير مرّتين». وأخرجه أيضاً أحمد من حديثها قال: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح، حدثني من سمع أم سلمة تذكر: أن النبي ﷺ، فذكره. وفي إسناده مجهول، وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات. وقد أخرجه الطبراني عنها من طريقين بنحوه. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره لحديث أم سلمة طرقاً كثيرة في مسند أحمد، وغيره. وأخرج ابن مروييه، والخطيب من حديث أبي سعيد الخدري نحوه. وأخرج الترمذي وابن جرير، والطبراني، وابن مروييه عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت»، ونكر نحو حديث أم سلمة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم عن عائشة قالت: «خرج النبي ﷺ غداة، وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن والحسين، فأدخلهما معه، ثم جاءت فاطمة، فأدخلها معه، ثم

جاء علي، فأدخله معه، ثم قال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن وثالة بن الأسقع قال: «جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة، ومعه علي، وحسن، وحسين حتى نخل، فأدنى علياً وفاطمة، وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً، وحسيناً كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه، وأنا مستبهرهم، ثم تلا هذه الآية «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، قلت: يا رسول الله، وأنا من أهلك؟ قال: وأنت من أهلي. قال وثالة: إنه لأرجا ما أرجوه. وله طرق في مسند أحمد. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروييه عن أنس: «أن رسول الله ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت الصلاة «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً». وأخرج مسلم عن زيد بن أرقم: أن رسول الله ﷺ قال: «أنكركم الله في أهل بيتي» فقيل لزيد: ومن أهل بيته؟ ليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. وأخرج الحكيم الترمذي، والطبراني، وابن مروييه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم الخلق قسمين، فجعلني في خيرهما قسماً، فذلك قوله: «وأصحاب اليمين» [الواقعة: 7] «وأصحاب الشمال» [الواقعة: 41] فانا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين. ثم جعل القسمين اثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلاثاً، فذلك قوله: «فأصحاب الميمنة» [الواقعة: 8]، «وأصحاب المشأمة» [الواقعة: 9]، «والسابقون السابقون» [الواقعة: 10] فانا من السابقين، وأنا خير السابقين. ثم جعل الثلاث قبائل، فجعلني في خيرها قبيلة، وذلك قوله: «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» [الحجرات: 13] وأنا أتقى ولد آدم، وأكرمهم على الله، ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً، فذلك قوله: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» فانا، وأهل بيتي مطهرون من الذنوب». وأخرج ابن جرير، وابن مروييه عن أبي الحمراء قال: رابطة المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله، قال: «رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي، وفاطمة، فقال: الصلاة الصلاة «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً». وفي إسناده أبو داود الأعمى، وهو وضاع كذاب. وفي الباب لأحاديث، وآثار، وقد نكرنا هنا ما يصلح للتمسك به نون ما لا يصلح.

وقد توسط طائفة ثالثة بين الطائفتين، فجعلت هذه الآية

اخترت إلا أخبرتها. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة: «أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخبر أزواجه قالت: فبدأ بي، فقال: إني ذاك لك امرأة، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمر أبيك، وقد علم أن أبوي لم يكونا يامراني بفراقه، فقال: إن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إلى تمام الآية، فقلت له: ففي أي هذا استأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وفعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ قال: يقول: من يطع الله منكراً، وتعمل منكراً لله ورسوله بطاعته. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال: يقول: لا ترخصن بالقول، ولا تخضعن بالكلام. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال: مقارنة الرجال في القول حتى يطمع الذي في قلبه مرض. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن محمد بن سيرين قال: نبئت: أنه قيل لسودة زوج النبي ﷺ: مالك لا تحجين، ولا تعميرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت، واعتمرت، وأمرني الله أن أقر في بيتي، فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت؛ قال: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت بجنائزتها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن سعد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر عن مسروق قال: كانت عائشة إذا قرأت ﴿وَقُرْنِ فِي بَيْتِكَ﴾ بكت حتى تبل خمارها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب قال: كانت الجاهلية الأولى فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس: أن عمر بن الخطاب سأل، فقال: أرايت قول الله لأزواج النبي ﷺ: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبَرَّجَ لِلْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ هل كانت جاهلية غير واحدة، فقال ابن عباس: ما سمعت بأولى إلا ولها آخرة، فقال له عمر: فأتني من كتاب الله ما يصق ذلك، فقال: إن الله يقول: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: 78] أول مرة فقال عمر: من أمرنا أن نجاهد؟ قال: مخزوم، وعبد شمس. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أيضاً في الآية قال: تكون جاهلية أخرى. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة: أنها تلت هذه الآية فقالت: الجاهلية الأولى كانت على عهد إبراهيم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: الجاهلية الأولى ما بين عيسى ومحمد. وقد قمننا نكر الآثار الواردة في سبب نزول قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بَيْتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: القرآن والسنة يمتن بذلك عليهن. وأخرج ابن سعد عن أبي أمامة عن سهل في قوله: ﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بَيْتِكُنَّ﴾ الآية قال: كان رسول الله

شاملة للزوجات، ولعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، أما الزوجات، فلكنهن المرادات في سياق هذه الآيات كما قمننا، ولكونهن الساكنات في بيوته ﷺ النازلات في منازلهن، ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس، وغيره. وأما دخول علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، فلكنهن قرباتهن، وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين، فقد أعمل بعض ما يجب إعماله، وأهمل ما لا يجوز إهماله. وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي، وابن كثير، وغيرهما. وقال جماعة: هم بنو هاشم، واستدلوا بما تقدم من حديث ابن عباس، ويقول زيد بن أرقم المتقدم حيث قال: ولكن أله من حرم الصدقة بعده: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس، فهؤلاء ذهبوا إلى أن المراد بالبيت بيت النسب. قوله: ﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بَيْتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: انكرن موضع النعمة إذ صيركن الله في بيوت يتلى فيها آيات الله، والحكمة، أو انكرنها، وتفكرن فيها؛ لتعظن بمواعظ الله، أو انكرنها للناس؛ ليتعظوا بها، ويهتدوا بهدائها، أو انكرنها بالتلاوة لها؛ لتحفظنها، ولا تتركن الاستكثار من التلاوة. قال القرطبي: قال أهل التأويل: آيات الله هي: القرآن، والحكمة السنة. وقال مقاتل: المراد بالآيات، والحكمة أمره، ونهيه في القرآن. وقيل: إن القرآن جامع بين كونه آيات بينات دالة على التوحيد، وصق النبوة، وبين كونه حكمه مشتملة على فنون من العلوم، والشرائع ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: لطيفاً بأوليائه خبيراً بجميع خلقه، وجميع ما يصدر منهم من خير، وشر، وطاعة، ومعصية، فهو يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وقد أخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن مردويه عن طريق أبي الزبير عن جابر قال: «أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، والناس يباليه جلوس، والنبي ﷺ جالس، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر، فاستأذن، فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر، فدخلوا، والنبي ﷺ جالس، وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لا كلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألت النفقة أتفا فوجات في عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: هن حولي يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده، وأنزل الله الخيار، فنادى بعائشة، فقال: إني ذاك لك امرأة ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمر أبيك، قالت: ما هو؟ فتلا عليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ﴾ الآية، قالت عائشة: أفيك استأمر أبوي، بل أختار الله رسوله، وأسألك أن لا تذكر لنسائك ما اخترت، فقال: إن الله لن يبعثني متعنناً، ولكن بعثني معلماً مبشراً، لا تسألني امرأة منهن عما

الوطر في اللغة: بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء، يقال: قضى وطراً منه: إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

أيها الرائح المجد ابتكاراً قد قضى من تهامة الأوطار
أي: فرغ من أعمال الحج، وبلغ ما أراد منه، والمراد هنا: أنه قضى وطره منها بنكاحها، والخلول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، وقيل: المراد به الطلاق، لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة، وقال المبرد: الوطر الشهوة، والمحبة، وأنشد:

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما قضى وطراً منها جميل بن معمر
وقال أبو عبيدة: الوطر: الأرب، والحاجة، وأنشد قول الغزالي:

ودعنا قبل أن نودعه لما قضى من شبابنا وطرا
قرأ الجمهور ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وقرأ علي وابناه الحسن والحسين (زَوَّجْتُكَهَا) فلما أعلمه الله بذلك نخل عليها بغير إذن، ولا عقد، ولا تقدير صدق، ولا شيء مما هو معتبر في النكاح في حق أمته. وقيل: المراد به الأمر له بأن يتزوجها، والأول أولى، وبه جاءت الأخبار الصحيحة. ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿لَكَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي التَّزْوِجِ ضِيقٌ، وَمَشَقَّةٌ﴾ وفي أزواج أديعائهم أي: في التزويج بازواج من يجعلونه ابناً كما كانت تفعله العرب، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون، وكان النبي ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال: زيد بن محمد حتى نزل قوله سبحانه ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: 5] وكانت العرب تعتقد أنه يحرم عليه نساء من تبنيه كما تحرم عليه نساء أبنائهم حقيقة. والأدعياء جمع دعي، وهو الذي يدعي ابناً من غير أن يكون ابناً على الحقيقة، فآخبرهم الله أن نساء الأدعياء حلال لهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرَهُ﴾ بخلاف ابن الصلب، فإن امرأته تحرّم على أبيه بنفس العقد عليها ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ أي: كان قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ قضاء ماضياً مفعولاً لا محالة، ثم بين سبحانه: أنه لم يكن على رسول الله ﷺ حرج في هذا النكاح، فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: فيما أحل الله له وقتره وقضاه، يقال: فرض له كذا: أي: قدر له ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إن هذا هو السنن الأقدم في الأنبياء، والأمم الماضية أن ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح، وغيره ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْبُورًا﴾ أي: قضاء مقضياً. قال مقاتل: أخبر الله أن أمر زينب كان من حكم الله، وقدره، وانتصاب سنة على المصدر: أي: سنّ الله سنة الله، أو اسم وضع موضع المصدر، أو منصوب بجعل، أو بالإغراء. ورده أبو حبان بأن عامل الإغراء لا يحذف. ثم نكر سبحانه الأنبياء الماضين، وأثنى عليهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ﴾، والموصول في محل جر صفة للذين خلوا، أو منصوب على المدح، مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلى عبادته، وخشيته في كل فعل وقول،

لأفعل، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ يعني: زيداً ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني: زينب ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ يعني: النكاح في هذا الموضع ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ يقول: ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر الله به ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ قالت: قد أطعته، فاصنع ما شئت، فزوّجها زيداً، وبخل عليها وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت أول امرأة هاجرت، فوهبت نفسها للنبي ﷺ، فزوّجها زيد بن حارثة، فسخطت هي وأخوها وقالوا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوّجنا عبده.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْرًا وَزَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١٧﴾ مَا كَانَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُمْ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَ وَطْرَهُمْ وَلَا يَحْشُونَ لِمَا إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ يَأْتِيهِمْ حَبِيبًا ﴿١٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٠﴾

لما زوّج رسول الله ﷺ زيد بن حارثة بزینب بنت جحش كما مر في تفسير الآية التي قبل هذه أنزل الله سبحانه ﴿وَإِذَا تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: وانكر إذ تقول للذي أنعم الله عليه، وهو: زيد بن حارثة، أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم عليه رسول الله ﷺ بأن أعفاه من الرق، وكان من سبب الجاهلية اشتراه رسول الله ﷺ في الجاهلية، واعتقه، وتبناه، وسيأتي في بيان سبب نزول الآية في آخر البحث ما يوضح المراد منها. قال القرطبي: وقد اختلف في تأويل هذه الآية، فذهب قتادة، وابن زيد، وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير الطبري وغيره إلى أن النبي ﷺ وقع منه استحسان لزینب بنت جحش، وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد، فیتزوجها هو، ثم إن زیداً لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول، وعصيان أمر، وأذى باللسان، وتعظماً بالشرف قال له: اتق الله فيما تقول عنها، وأمسك عليك زوجك، وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف انتهى. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني: زینب ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ في أمرها، ولا تعجل بطلاقها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وهو: نكاحها إن طلقها زيد، وقيل: حبها ﴿وَتُخْفِي النَّاسَ﴾ أي: تستحييهم، أو تخاف من تعبيرهم بأن يقولوا أمر مولاه بطلاق امرأته، ثم تزوّجها ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ في كل حال، وتخاف منه، وتستحييه والواو للحال أي: تخفي في نفسك ذلك الأمر مخافة من الناس ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْرًا﴾ قضاء

ولا يخشون سواه، ولا يباليون بقول الناس، ولا بتعييرهم، بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَاسِبًا﴾ حاضرًا في كل مكان يكفي عباده كل ما يخافونه، أو محاسبًا لهم في كل شيء، ولما تزوج ﷺ زينب قال الناس: تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ أَتَىٰ لَيْسَ بِأَبٍ لِّزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ حَتَّىٰ تَحْرَمَ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ، وَلَا هُوَ أَبٌ لِأَحَدٍ لَّمْ يُلِدْهُ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: قَالَ الْمَفْسُورُونَ: لَمْ يَكُنْ أَبًا أَحَدٍ لَّمْ يُلِدْهُ، وَقَدْ وَلَدَ لَهُ مِنَ الذَّكَورِ إِبْرَاهِيمَ، وَالْقَاسِمَ، وَالطَّبِيَّ، وَالْمَطْهَرَ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَلَكِنْ لَمْ يَعِشْ لَهُ ابْنٌ حَتَّىٰ يَصِيرَ رَجُلًا. قَالَ: وَأَمَّا الْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ، فَكَانَا طِفْلَيْنِ، وَلَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ مُعَاصِرَيْنِ لَهُ﴾ ولكن رسول الله ﷺ قال الأخفش، والفراء: ولكن كان رسول الله، وأجازا الرفع. وكذا قرأ ابن أبي عبيدة بالرفع في رسول وفي خاتم على معنى: ولكن هو رسول الله وخاتم النبيين، وقرأ الجمهور بتخفيف لكن، ونصب رسول وخاتم، ووجه النصب على خبرية كان المقطرة كما تقدم، ويجوز أن يكون بالعطف على أبا أحد. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بتشديد لكن ونصب رسول على أنه اسمها، وخبرها محذوف: أي: ولكن رسول الله هو. وقرأ الجمهور (خاتم) بكسر التاء. وقرأ عاصم بفتحها. ومعنى القراءة الأولى: أنه ختمهم: أي: جاء آخرهم. ومعنى القراءة الثانية: أنه صار كالخاتم لهم الذي يتختمون به، ويتزينون بكونه منهم. وقيل: كسر التاء، وفتحها لغتان. قال أبو عبيد: الوجه الكسر؛ لأن التأويل: أنه ختمهم، فهو: خاتمهم، وأنه قال: «أنا خاتم النبيين»، وخاتم الشيء آخره، ومنه قولهم: خاتمة المسك. وقال الحسن: الخاتم هو: الذي ختم به ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ قد أحاط علمه بكل شيء، ومن جملة معلوماته هذه الأحكام المذكورة هنا.

وقد أخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، وغيرهم عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: اتق الله، وأمسك عليك زوجك، ففزلت «وتخفي في نفسك ما الله مبهيها» قال أنس: فلو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتّم هذه الآية، فترجّعها رسول الله ﷺ فما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها، نبيح شاة «فلما قضى زيد منها وطراً رَوَّجْنَاهَا» فكانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زَوَّجَكُنَّ أَهْلِيكُنَّ، وزَوَّجَنِي اللهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ. وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وغيرهم عن أنس قال: لما انقضت عدّة زينب، قال رسول الله ﷺ لزيد: «اذهب، فإنكروها عليّ، فانطلق، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، فقلت: يا زَيْنَبُ ابْشِرِي أُرْسِلَنِي رَسُولُ اللهِ يَنْكَرُكَ، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ، ودخل عليها بغير إنن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ اطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج للناس، وبقي رجال يتحشّون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ

وتابعت، فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن، ويقولون: يا رسول الله كيف وجدت أمك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر، فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أنخل معه، فالتقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿لَا تَخْلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: 53] الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن عائشة قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتباً شيئاً من الوحي لكتب هذه الآية ﴿وَأُذِنَ لَكُمْ﴾ يقول للذي أنعم الله عليه، يعني: بالإسلام ﴿وَأُذِنَ لَكُمْ﴾ يعني: بالعتق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ وإن رسول الله ﷺ لما تزوجها قالوا: تزوج حليّة ابنة، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، وكان رسول الله ﷺ تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلاً يقال له: زيد بن محمد، فأنزل الله ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: 5] يعني: أعدل عند الله. وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿هَسَنَةُ اللَّهِ فِي الذَّيْنِ خُلُوعًا مِنْ قَبْلِ﴾ قال: يعني: يتزوّج من النساء ما شاء هذا فريضة، وكان من قبل من الأنبياء هذا سنتهم، قد كان لسليمان بن داود ألف امرأة، وكان لداود مائة امرأة. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، عن ابن جريج في قوله: ﴿هَسَنَةُ اللَّهِ فِي الذَّيْنِ خُلُوعًا مِنْ قَبْلِ﴾ قال داود: والمرأة التي نكح، وزوجها، واسمها اليسية، فنلك سنة في محمد وزينب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْذُورًا﴾ كذلك من سنته في داود، والمرأة، والنبي، وزينب. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ قال: نزلت في زيد بن حارثة. وأخرج أحمد، ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل التبيين كمثل رجل بنى داراً، فانتهى إلّا لبنة واحدة، فجثت أنا، فأتت تلك اللبنة، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي، ومثل الأنبياء كمثل رجل ابتنى داراً، فأكملها وأحسنها إلّا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلّا موضع اللبنة، فأنا موضع اللبنة حتى ختم بي الأنبياء». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة نحوه. وأخرج أحمد، والترمذي وصححه من حديث أبي بن كعب نحوه أيضاً.

يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اذْكُرُوْا اللّٰهَ وَذِكْرَ كَبِيْرٍ ۝۱۱ وَسِعْهُمُ بَحْرُوْا وَاَسِيْلًا ۝۱۲
هُوَ الَّذِى يَصْعَلُ عَلَيْكُمْ وَلَيَبْكُنَّ لِيُغْشِيَكُمْ مِّنَ الظُّلُمٰتِ اِلَى النُّوْرِ
وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِيْنَ رَحِيْمًا ۝۱۳ فَيَسْأَلُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهٗ سَلٰمٌ وَّاعَدَهُمْ اَجْرًا
كَبِيْرًا ۝۱۴ يٰۤاَيُّهَا النَّبِىُّ اِنَّا اَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيْرًا ۝۱۵ وَرَاعِبًا
اِلَى اللّٰهِ بِاِذْنِهٖ وَسِرَاجًا مُّشِيْرًا ۝۱۶ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِيْنَ اِنَّ لَهُم مِّنَ اللّٰهِ فَضْلًا
كَبِيْرًا ۝۱۷ وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِيْنَ وَالتَّنٰزِلِيْنَ وَرَعَ اٰذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ
وَكَفَىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلًا ۝۱۸

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انكروا الله نكراً كثيراً﴾ أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره بالتهليل، والتحميد، والتسبيح، والتكبير، وكل ما هو نكر لله تعالى. قال مجاهد: هو أن لا ينساه أبداً، وقال الكلبي: ويقال: نكراً كثيراً بالصلوات الخمس، وقال مقاتل: هو التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير على كل حال ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي: نزهوه عما لا يليق به في وقت البكرة، ووقت الأصيل، وهما أول النهار، وآخره، وتخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما، وخَصَّ التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله: ﴿انكروا الله﴾ تنبيهاً على مزيد شرفه، وإنافة ثوابه على غيره من الإنكار. وقيل: المراد بالتسبيح بكرة صلاة الفجر، وبالتسبيح أصيلاً صلاة المغرب. وقال قتادة وابن جرير: والمراد صلاة الغداة، وصلاة العصر. وقال الكلبي: أما بكرة فصلاة الفجر، وأما أصيلاً فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء. قال الميزد: والأصيل العشي، وجمعه أصائل ﴿هُوَ الَّذِي يَصْلِي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ والصلاة من الله على العباد رحمته لهم وبركته عليهم، ومن الملائكة الدعاء لهم والاستغفار كما قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 7] قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حيان: المعنى: ويأمر ملائكتك بالاستغفار لكم، والجملة مستأنفة كالتعليل لما قبلها من الأمر بالذكر والتسبيح. وقيل: الصلاة من الله على العبد هي: إشاعة الذكر الجميل له في عباده، وقيل: الثناء عليه، وعطف ملائكتك على الضمير المستكن في يصلي لوقوع الفصل بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فأغنى ذلك عن التأكيد بالضمير المنفصل. والمراد بالصلاة هنا معنى مجازي يعم صلاة الله بمعنى: الرحمة، وصلاة الملائكة بمعنى: الدعاء لثلا يجمع بين حقيقة ومجاز في كلمة واحدة، واللام في ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ متعلق بيصلي: أي: يعتني بأمورك هو ملائكتك؛ ليخرجكم من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات، ومن ظلمة الضلالة إلى نور الهدى، ومعنى الآية: تثبيت المؤمنين على الهداية، ورواهم عليها؛ لأنهم كانوا وقت الخطاب على الهداية. ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنين تانياً لهم، وتثبيتاً فقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحيماً﴾ وفي هذه الجملة تقرير لمضمون ما تقدمها. ثم بين سبحانه: أن هذه الرحمة منه لا تخص السامعين وقت الخطاب بل هي عامة لهم، ولهم بعدهم، وفي الدار الآخرة، فقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاماً﴾ أي: تحية المؤمنين من الله سبحانه يوم لقائهم له عند الموت، أو عند البعث، أو عند دخول الجنة هي: التسليم عليهم منه عز وجل. وقيل: المراد تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربهم سلام، وذلك لأنه كان بالمؤمنين رحيماً فلما شملتهم رحمته، وأمنوا من عقابه حيا بعضهم بعضاً سروراً، واستبشاراً. والمعنى: سلامة لنا من عذاب النار. قال الزجاج: المعنى: فيسلمهم الله من الآفات، ويبشرهم بالأمن من المخافات يوم يلقونه. وقيل: الضمير في ﴿يلقونه﴾ راجع

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿انكروا الله نكراً كثيراً﴾ يقول: لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها أجلاً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله، فقال:

إلى ملك الموت، وهو الذي يحييهم كما ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه. وقال مقاتل: هو تسليم الملائكة عليهم يوم يلقون الرب كما في قوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ * سلام عليكم﴾ [الرعد: 23 - 24] ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ أي: أعد لهم في الجنة رزقاً حسناً ما تشتهي أنفسهم، وتلذذ أعينهم. ثم ذكر سبحانه صفات رسول الله ﷺ التي أرسله لها، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ أي: على أمته يشهد لمن صفيقه وأمن به، وعلى من كذبه وكفر به. قال مجاهد: شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم ﴿وَمُبَشِّراً﴾ للمؤمنين برحمة الله، وبما أعد له من جزيل الثواب، وعظيم الأجر ﴿وَنَذِيراً﴾ للكافرين والعصاة بالنار، وبما أعد الله لهم من عظيم العقاب ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ﴾ يدعو عباد الله إلى التوحيد والإيمان بما جاء به، والعمل بما شرعه لهم، ومعنى ﴿بِإِذْنِهِ﴾: بأمرة له بذلك وتقديره، وقيل: بتبشيرهم ﴿وَسِرْجاً مُنِيراً﴾، أي: يستضاء به في ظلم الضلالة كما يستضاء بالمصباح في الظلمة. قال الزجاج: ﴿وَسِرْجاً﴾ أي: ذا سراج منير أي: كتاب نير، وانتصاب شاهداً، وما بعده على الحال ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على مقرر يقتضيه المقام كأنه قال: فاشهد، وبشر، أو فبشر أحوال الناس ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أو هو من عطف جملة على جملة، وهي: المذكورة سابقاً، ولا يمنع من ذلك الاختلاف بين الجملتين بالإخبار، والإنشاء. أمره سبحانه بأن يبشرهم بأن لهم من الله فضلاً كبيراً على سائر الأمم، وقد بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رِوَضَاتِ الْجَنَّةِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: 22] ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين، فقال: ﴿وَلَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: لا تطعمهم فيما يشيرون عليك به من المداينة في الدين، وفي الآية تعريض لغيره من أمته، لأنه معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه، ويشيرون به عليه، وقد تقدم تفسير هذه الآية في أول السورة ﴿وَدُعِ إِذَا هُمْ﴾ أي: لا تبال بما يصدر منهم إليك من الأذى بسبب يصيبك في دين الله، وشئتك على أعدائه، أو دع أن تؤذيهم مجازاة لهم على ما يفعلونه من الأذى لك، فالمصدر على الأول مضاف إلى الفاعل، وعلى الثاني مضاف إلى المفعول، وهي منسوخة بآية السيف ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في كل شؤونك ﴿وَكُفَى بَالَهُ وَكِيلاً﴾ توكل إليه الأمور، وتفوض إليه الشؤون، فمن فوض إليه أموره كفاه، ومن وكل إليه أحواله لم يحتج فيها إلى سواه.

امر علياً، ومعاذاً أن يسيرا إلى اليمن، فقال: انطلقا فبشرا، ولا تنفرا ويسرا، ولا تمسرا، فإنها قد أنزلت علي ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ قال: شاهداً على أمتك، ومبشراً بالجنة، ونذيراً من النار، وداعياً إلى شهادة أن لا إله إلا الله ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وحزراً للاميين، أنت عبيد ورسولي، سميتك: المتوكل. ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا تجزي بالسيئة السيئة، ولكن تعفو، وتصفح»

زاد أحمد «ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بان يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عمياً، وأذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وقد نكر البخاري في صحيحه في البيوع هذا الحديث، فقال: وقال سعيد عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام، ولم يقل: عبد الله بن عمرو، وهذا أولى، فعبد الله بن سلام هو الذي كان يسال عن التوراة، فيخبر بما فيها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نَكْشُرُ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْأَلُوهُمْ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذْرٍ تَمْنُونَهَا فَمَتَّعُوهُمْ وَسَخَّرُوهُمْ سَرَّحًا جَبِيلًا ﴿١١﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا أَحْلَلْنَا لَكَ أَرْزَاقَكَ الَّتِي مَاتَتْ أَجُورُكُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ عَلَيْكَ وَتَنَاقَ عَمَلُكَ وَتَنَاقَ عَمَلُكَ خَالِكَ وَتَنَاقَ خَلِيلِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ وَآثَرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَبَّعْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْبِرَ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢﴾ تَرْجِي مَنْ نَفَاهُ مِنْهُمْ وَتَقْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَفَاهُ وَبِئْسَ عَزَلَتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَرَضُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ كُلُّهُمْ لِلَّهِ يَسْمَعُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿١٣﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَذَلَّ بَيْنَ مَنْ أَدْلَجَ وَلَوْ أَعَجَلَكَ حُسْنُ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَرِيبًا ﴿١٤﴾

لما ذكر سبحانه قصة زيد، وطلاقه لزيب، وكان قد دخل بها، وخطبها النبي ﷺ بعد انقضاء عدتها كما تقدم خاطب المؤمنين مبيناً لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل البخل، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات﴾ أي: عقدتم بهن عقد النكاح، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى: العقد كما قاله صاحب الكشاف، والقروطي، وغيرهما.

وقد اختلف في لفظ النكاح هل هو حقيقة في الوطء، أو في العقد، أو فيهما على طريقة الاشتراك، وكلام صاحب الكشاف في هذا الموضع يشعر بأنه حقيقة في الوطء، فإنه

أنكروا الله قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبكم، بالليل والنهار، في البر والبحر، في السفر والحضر، في الغنى والفقر، في الصحة والسقم، في السر والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسَبِّحْوهُ بِكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ إذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو، وملائكته قال الله: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾.

وقد ورد في فضل الذكر، والاستكثار منه لحديث كثيرة، وقد صنف في الإنكار المتعلقة بالليل والنهار، جماعة من الأئمة كالنسائي، والنووي، والجزي، وغيرهم، وقد نطقت الآيات القرآنية بفضل الذكور، وبفضيلة الذكر ﴿والذكر الله أكبر﴾ [العنكبوت: 45] وقد ورد أنه أفضل من الجهاد كما في حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد، والترمذي، والبيهقي: «أن رسول الله ﷺ سئل: أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذكورون الله كثير، قلت: يا رسول الله ومن الغازی في سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه في الكفار والمشرکین حتى ینکسر ویختضب دماً لکان الذکورون أفضل منه درجة» وأخرج أحمد عن أبي البرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أتبشركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليککم، وأرفعها فی درجاتکم، وخیر لکم من إعطاء الذهب والورق، وخیر لکم من أن تلقوا أعداءکم، فتضربوا أعناقهم ویضربوا أعناقکم؟ قالوا: وما هو یا رسول الله؟ قال: نکر الله عز وجل». وأخرجه أيضاً الترمذي، وابن ماجه. وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق المفردون، قالوا: وما المفردون یا رسول الله؟ قال: الذکورون الله كثير، وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «اكثرُوا نکر الله حتى يقولوا: مجنون». وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنكروا الله حتى يقول المنافقون: إنكم مراؤون».

ورود في فضل التسبب بخصوصه أحاديث ثابتة في الصحيحين، وغيرهما، فمن ذلك حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في يوم مائة مرة سبحان الله وبحمده حطت خطاياءه، ولو كانت مثل زيد البحر». وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فقال لنا: أيعجز أحدكم أن يكتسب في اليوم ألف حسنة؟ فقال رجل: كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: يسبح الله مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، ويحط عنه ألف خطيئة». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في نكر الموت، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن البراء بن عازب في قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ قال: يوم يلقون ملك الموت ليس من مؤمن يقبض روحه إلا سلم عليه. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وقد كان

الجمهور أنه قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فَعَقِبَ الطَّلَاقَ بِالنِّكَاحِ بِلَفْظٍ، ثُمَّ الْمَشْعُرَةُ بِالترتيب، والمهلة ﴿وَسَوْحُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: أخرجوهن من منازلكن: إذ ليس لكم عليهنَّ عُدَّةٌ، والسراح الجميل الذي لا ضرار فيه، وقيل: السراح الجميل أن لا يطالبها بما كان قد أعطاهما، وقيل: السراح الجميل هنا كناية عن الطلاق، وهو بعيد لأنه قد تقدّم ذكر الطلاق، ورتب عليه التمتع، وعطف عليه السراح الجميل، فلا بد أن يراد به معنى غير الطلاق ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ ذكر سبحانه في هذه الآية أنواع الأنكحة التي أحلها لرسوله، وبدأ بأزواجه اللاتي قد أعطاهنَّ أجورهنَّ: أي: مهورهنَّ، فإن المهور أجور الأرباض، وإيتاؤها: إما تسليمها معجلة، أو تسميتها في العقد.

واختلف في معنى قوله: ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ فقال ابن زيد، والضحاك: إن الله أحلَّ له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ما عدا نوات المحارم. وقال الجمهور: المراد أحللتنا لك أزواجك الكائنات عنك؛ لأنهنَّ قد اخترنك على الدنيا، وزينتهما، وهذا هو الظاهر، لأن قوله: ﴿أَحْلَلْنَا، وَآتَيْتَ مَاضِيَانِ، وَتَقْيِيدَ الإِحْلَالِ بِإِيتَاءِ الْأَجُورِ لَيْسَ لِقَوْفِ الْحَلِّ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ يَصِحُّ الْعَقْدُ بِلَا تَسْمِيَةٍ، وَيَجِبُ مَهْرُ الْمَثَلِ مَعَ الْوَطءِ وَالْمَتْعَةِ مَعَ عَدَمِهِ، فَكَانَ لِقَصْدِ الْإِرْشَادِ إِلَى مَا هُوَ أَفْضَلُ ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: السرايري اللاتي دخلن في ملكه بالغنيمة. ومعنى ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾، مما رده الله عليك من الكفار بالغنيمة لنسائهم المأخوذات على وجه القهر، والغلبة، وليس المراد بهذا القيد إخراج ما ملكه بغير الغنيمة، فإنها تحل له السرية المشتراة، والموهوبة، ونحوهما، ولكنه إشارة إلى ما هو أفضل كالقيد الأول المصرح بإيتاء الأجور، وهكذا قيد المهاجرة في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فإنه للإشارة إلى ما هو أفضل، وللايدان بشرف الهجرة، وشرف من هاجر، والمراد بالمعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها. وقيل: إن هذا القيد: أعني: المهاجرة معتبر، وأنها لا تحلَّ له من لم تهاجر من هؤلاء كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: 72] ويؤيد هذا حديث أم هانئ، وسيأتي آخر البحث هذا إن شاء الله تعالى، ووجه إفراغ العم والخال، وجمع العممة والخالة ما ذكره القرطبي: أن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر، والراجز، وليس كذلك العممة والخالة. قال: وهذا عرف لغوي، فجاء الكلام عليه بغاية البيان. وحكاه عن ابن العربي. وقال ابن كثير: إنه وحَّد لفظ الذكر لشرفه، وجمع الأنثى كقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: 48] وقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257] ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] وله نظائر كثيرة. انتهى. وقال النيسابوري، وإنما لم يجمع

قال: النكاح الوطء، وتسمية العقد نكاحاً لملايسته له من حيث أنه طريق إليه، ونظيره تسمية الخمر إثماً؛ لأنها سبب في اقتراف الإثم، ومعنى ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ من قبل أن تجامعوهُنَّ، فكُنِيَ عَنْ ذَلِكَ بِلَفْظِ الْمَسِّ ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عُدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ وهذا مجمع عليه كما حكى ذلك القرطبي، وابن كثير، ومعنى تعتدونها: تستوفون عددها، من عدت الدراهم، فأنا اعتدتها. وإسناد ذلك إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق لهم كما يفيدُه ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عُدَّةٍ﴾ قرأ الجمهور (تعتدونها) بتشديد الدال، وقرأ ابن كثير في رواية عنه، وأهل مكة بتخفيفها. وفي هذه القراءة وجهان: أحدهما: أن تكون بمعنى الأولى، مأخوذة من الاعتداد: أي: تستوفون عددها، ولكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف. قال الرازي: ولو كان من الاعتداء الذي هو الظلم لضعف، لأن الاعتداء يتعدى بعلًى. وقيل: يجوز أن يكون من الاعتداء بحذف حرف الجر: أي: تعتدون عليها: أي: على العدة مجازاً، ومثله قوله:

تَحَنَّنْ فِتْبَدِي مَا بَهَا مِنْ صَبَابَةٍ وَأَخْفِي الَّذِي لَوْلَا الْأَسَى لِقَضَائِي
أي: لقضى علي. والوجه الثاني: أن يكون المعنى: تعتدون فيها، والمراد بالاعتداء هذا هو ما في قوله: ﴿وَلَا تَمْسُكُوهُنَّ ضُرَارًا لَتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: 231] فيكون معنى الآية على القراءة الأخيرة: فما لكم عليهنَّ من عدة تعتدون عليهنَّ فيها بالمضارة. وقد انكر ابن عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير وقال: إن البزِّي غلط عليه، وهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228] ويقول: ﴿وَاللَّاتِي يَثْسِنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعُدَّتْ لَكُمْ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: 4] والمتعة المذكورة هنا قد تقدّم الكلام فيها في البقرة. وقال سعيد بن جبير: هذه المتعة المذكورة هنا منسوخة بالآية التي في البقرة، وهي قوله: ﴿وَأَنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: 237] وقيل: المتعة هنا هي أعم من أن تكون نصف الصداق، أو المتعة خاصة إن لم يكن قد سمي لها، فمع التسمية للصداق تستحق نصف المسمى عملاً بقوله: ﴿فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ﴾ لهنَّ، ومع عدم التسمية تستحق المتعة عملاً بهذه الآية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسَعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُ﴾ [البقرة: 236] وهذا الجمع لا بد منه، وهو مقدّم على الترجيح، وعلى دعوى النسخ، وتخصص من هذه الآية المتوفى عنها زوجها، فإنه إذا مات بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها كان الموت كالدخول، فتعدت أربعة أشهر وعشراً. قال ابن كثير بالإجماع، فيكون المخصص هو: الإجماع وقد استدلل بهذه الآية القائلون بأنه لا طلاق قبل النكاح، وهم الجمهور، وذهب مالك، وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح إذا قال: إن تزوجت فلانة، فهي طالق، فتطلق إذا تزوجها، ووجه الاستدلال بالآية لما قاله

يجوز سببه، وحربه، لا من كان لا يجوز سببه، أو كان له عهد من المسلمين **«لكيلا يكون عليك حرج»** قال المفسرون: هذا يرجع إلى أول الآية: أي: أحللتنا لك أزواجك، وما ملكت يمينك، والموهوبة لكيلا يكون عليك حرج، فتكون اللام متعلقة بأحللتنا، وقيل: هي متعلقة بخالصة، والأول أولى، والحرج الضيق: أي: وسعنا عليك في التحليل لك لثلا يضيق صدرك، فتظن أنك قد أثمت في بعض المنكوحات **«وكان الله غفوراً رحيماً»** يغفر الذنوب، ويرحم العباد، ولذلك وسع الأمر، ولم يضيقه **«ترجي من تشاء منهم»** قرئ **«ترجي»** مهموزاً، وغير مهموز، وهما لغتان، والإرجاء التأخير، يقال: أرجأت الأمر، وأرجيته: إذا أخرته **«وتؤوي إليك من تشاء»** أي: تضم إليك، يقال: أواه إليه بالمد: ضمه إليه، وأوى مقصوراً: أي: ضم إليه، والمعنى: أن الله وسع على رسوله، وجعل الخيار إليه في نسائه، فيؤخر من شاء منهم: ويؤخر نوبتها، ويتركها، ولا يأتيها من غير طلاق، ويضم إليه من شاء منهم، ويضاجعها، ويبيت عندها، وقد كان القسم واجباً عليه حتى نزلت هذه الآية، فارتفع الوجوب، وصار الخيار إليه، وكان ممن أوى إليه عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، ومن أرجأه سودة، وجويرية، وأم حبيبة، وميمونة، وصفية، فكان **«يسوي بين من أواه في القسم»** وكان يقسم لمن أرجأه ما شاء. هذا قول جمهور المفسرين في معنى الآية، وهو الذي نلت عليه الأدلة الثابتة في الصحيح، وغيره. وقيل: هذه الآية في الواهبات أنفسهن، لا في غيرهن من الزوجات، قاله الشعبي وغيره. وقيل: معنى الآية في الطلاق: أي: تطلق من تشاء منهم، وتمسك من تشاء. وقال الحسن: إن المعنى: تنكح من شئت من نساء أمك، وتترك نكاح من شئت منهم. وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: **«لا يحل لك النساء من بعد»** وسياي بيان ذلك **«ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك»** الابتغاء الطلب، والعزل الإزالة، والمعنى: أنه إن أراد أن يؤوي إليه امرأة ممن قد عزلهن من القسم، ويضمها إليه، فلا حرج عليه في ذلك، والحاصل أن الله سبحانه فوض الأمر إلى رسوله يصنع في زوجاته ما شاء من تقديم، وتأخير، وعزل، وإمسك، وضم من أرجأ، وإرجاء من ضم إليه، وما شاء في أمرهن فعل توسعة عليه، ونفياً للحرج عنه. وأصل الجناح الميل، يقال: جنحت السفينة: إذا مالت. والمعنى: لا ميل عليك بلوم، ولا عتب فيما فعلت، والإشارة بقوله: **«ذلك»** إلى ما تقدم من التفويض إلى مشيئته، وهو مبتدأ، وخبره **«أن تقر أعينهن»** أي: تلك التفويض الذي فوضناك أقرب إلى رضاهن؛ لأنه حكم الله سبحانه. قال قتادة: أي: ذلك التأخير الذي خيرتك في صحبتهن أنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا، لأنهن إذا علمن أنه من الله قررت أعينهن. قرأ الجمهور (تقر) على البناء للمفاعل مسنداً إلى أعينهن، وقرأ ابن محيصن «تقر» بضم التاء من أقرر، وفاعله ضمير المخاطب، ونصب أعينهن على المفعولية، وقرئ على البناء للمفعول.

العم والخال اكتفاء بجنسيتهما مع أن لجمع البنات دلالة على ذلك لامتناع اجتماع أختين تحت واحد، ولم يحسن هذا الاختصار في العم والخالة لإمكان سبق الوهم إلى أن التاء فيهما للوحدة. انتهى. وكل وجه من هذه الوجوه يحتمل المناقشة بالنقض، والمعارضة، وأحسنها تعليل جمع العم والخالة بسبق الوهم إلى أن التاء للوحدة، وليس في العم والخال ما يسبق الوهم إليه بأنه أريد به الوحدة إلا مجرد صيغة الأفراد، وهي لا تقتضي ذلك بعد إضافتها لما تقر من عموم أسماء الأجناس المضافة، على أن هذا الوجه الأحسن لا يصفو عن شوب المناقشة **«وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي»** هو معطوف على مفعول أحللتنا: أي: وأحللتنا لك امرأة مصدقة بالتوحيد إن وهبت نفسها منك بغير صداق، وأما من لم تكن مؤمنة، فلا تحل لك بمجرد هبتها نفسها لك، ولكن ليس لك بواجب عليك بحيث يلزمك قبول ذلك، بل مقيداً بإرائتك، ولهذا قال: **«إن أراد النبي أن يستنكحها»** أي: يصيرها منكحة له، ويتملك بضعها بتلك الهبة بلا مهر. وقد قيل: إنه لم ينكح النبي **«من الواهبات أنفسهن»** أحداً، ولم يكن عنده منهن شيء. وقيل: كان عنده منهن خولة بنت حكيم كما في صحيح البخاري عن عائشة. وقال قتادة: هي: ميمونة بنت الحارث. وقال الشعبي: هي: زينب بنت خزيمة الأنصارية أم المساكين. وقال علي بن الحسين، والضحاك، ومقاتل: هي: أم شريك بنت جابر الأسدية. وقال عروة بن الزبير: هي أم حكيم بنت الأوقص السلمية. ثم بين سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول الله **«لا يحل لغيره من أمته»** فقال: **«خالصة لك من دون المؤمنين»** أي: هذا الإحلال الخاص هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين. ولفظ خالصة إما حال من امرأة، قاله الزجاج: أو مصدر مؤكد كوعد الله: أي: خالصة لك خلوصاً. قرأ الجمهور (وامرأة) بالنصب. وقرأ أبو حيوة بالرفع على الابتداء. وقرأ الجمهور (إن وهبت) بكسر إن. وقرأ أبي، والحسن، وعيسى بن عمر بفتحها على أنه بدل من امرأة بدل اشتغال. أو على حذف لام العلة: أي: لأن وهبت. وقرأ الجمهور (خالصة) بالنصب، وقرئ بالرفع على أنها صفة لامرأة على قراءة من قرأ امرأة بالرفع، وقد أجمع العلماء على أن هذا خاص بالنبي **«وأنه لا يجوز لغيره»** ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها إلا ما روي عن أبي حنيفة، وصاحبيه أنه يصح النكاح إذا وهبت، وأشهد هو على نفسه بمهر. وأما بدون مهر فلا خلاف في أن ذلك خاص بالنبي **«وأنه لا يجوز لغيره»** وللهذا قال: **«قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم»** أي: ما فرضه الله سبحانه على المؤمنين في حق أزواجهم من شرائط العقد، وحقوقه، فإن ذلك حق عليهم مفروض لا يحل لهم الإخلال به، ولا الاقتداء برسول الله **«فيما خصه الله به توسعة عليه وتكريماً له»** فلا يتزوجوا إلا أربعاً بمهر وبينة وولي **«وما ملكت إيمانهم»** أي: وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت إيمانهم من كونهن ممن

وقد تقدم بيان معنى قرّة العين في سورة مريم، ﴿و﴾ معنى ﴿لَا يَحْزَنُ﴾: لا يحصل معهنّ حزن بتأثيرك بعضهنّ دون بعض ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ بما آتيتهنّ كلهنّ ﴿أي﴾ يرضين جميعاً بما أعطيتهنّ من تزيين، وإرجاء، وعزل، وإيواء. قرأ الجمهور ﴿كلهنّ﴾ بالرفع تأكيداً لفاعل يرضين. وقرأ أبو إياس بالنصب تأكيداً للضمير المفعول في آتيتهنّ ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ من كل ما تضمرونه، ومن ذلك ما تضمرونه من أمور النساء ﴿وكان الله عليماً﴾ بكل شيء لا تخفي عليه خافية ﴿حليماً﴾ لا يعاجل العصاة بالعقوبة ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ قرأ الجمهور ﴿لا يحل﴾ بالتحية للفصل بين الفعل، وفاعله المؤنث، وقرأ ابن كثير بالفوقية.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على أقوال: الأول أنها محكمة، وأنه حرّم على رسول الله ﷺ أن يتزوّد على نسائه مكافأة لهنّ بما فعلن من اختيار الله، ورسوله، والدار الآخرة لما خيرهنّ رسول الله ﷺ بأمر الله له بذلك، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والحسن، وابن سيرين، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وابن زيد، وابن جرير. وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما حرّم الله عليهنّ أن يتزوجن من بعده حرّم عليه أن يتزوّد غيرهن. وقال أبي بن كعب، وعكرمة، وأبو رزين: إن المعنى: لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التي سماها الله. قال القرطبي: وهو: اختيار ابن جرير. وقيل: لا يحل لك اليهوديات، ولا النصرانيات؛ لأنهنّ لا يصح أن يتصفن بأنهنّ أمهات المؤمنين. وهذا القول فيه بعد؛ لأنه يكون التقدير: لا يحل لك النساء من بعد المسلمات، ولم يجر للمسلمات ذكر. وقيل: هذه الآية منسوخة بالسنة، ويقول سبّاحه: ﴿ترجي من تشاء منهمنّ وتؤوي إليك من تشاء﴾ وبهذا قالت عائشة، وأم سلمة، وعلي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، وغيرهم. وهذا هو الراجح، وسيأتي في آخر البحث ما يدل عليه من الأدلة ﴿ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج﴾ أي: تتبدّل، فحفظت إحدى التائين: أي: ليس لك أن تطلق واحدة منهنّ، أو أكثر، وتتزوّد بدل من طلقت منهنّ، ومنه في قوله: ﴿من أزواج﴾ مزيدة للتأكيد. وقال ابن زيد: هذا شيء كانت العرب تفعله يقول: خذ زوجتي، وأعطني زوجتك، وقد أنكر النحاس، وابن جرير ما نكره ابن زيد. قال ابن جرير: ما فعلت العرب هذا قط. ويدفع هذا الإنكار منهما ما أخرجه الدارقطني عن أبي هريرة قال: كان البذل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ولا أن تبدّل بهنّ﴾، وأخرجه أيضاً عنه البزار، وابن مردويه، وجملة ﴿ولو أعجبك حسنهنّ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تبدّل، والمعنى: أنه لا يحل التبدّل بأزواجك، ولو أعجبك حسن غيرهنّ ممن أريت أن تجعلها بدلاً من إحداهنّ، وهذا التبدّل أيضاً من جملة ما نسخ الله في حق رسوله على القول الراجح، وقوله: ﴿إلا ما ملكت يميناك﴾ استثناء من النساء؛ لأنه يتناول الحرائر والإماء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إذا نكحتم المؤمنات﴾ قال: هذا في الرجل يتزوّد المرأة ثم يطلقها من قبل أن يمسه، فإذا طلقها واحدة بانت منه، ولا عدة عليها تتزوّد من شاءت، ثم قال: ﴿فتمتعوهنّ وسرحوهنّ سراحاً جميلاً﴾ يقول: إن كان سمي لها صداقاً، فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمي لها صداقاً متعها على قدر عسره ويسره، وهو: السراح الجميل. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهنّ﴾ منسوخة نسختها التي في البقرة: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ [البقرة: 237]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن سعيد بن المسيب نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن حميد عن الحسن وأبي العالية قال: ليست بمنسوخة، لها نصف الصداق، ولها المتاع. وأخرج عبد الرزاق عن ابن جريج قال: بلغ ابن عباس أن ابن مسعود يقول: إن طلق ما لم ينكح، فهو جائز، فقال ابن عباس: أخطأ في هذا، إن الله يقول: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ﴾، ولم يقل: إذا طلقتم المؤمنات، ثم نكحتموهنّ. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس: أنه تلا هذه الآية، وقال: لا يكون طلاق حتى يكون نكاح. وقد رويت أحاديث منها أنه «لا طلاق إلا بعد نكاح»، وهي معروفة. وأخرج ابن سعد، وابن راهويه، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب. قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه، فعذرني، فأنزل الله ﴿يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك﴾ إلى قوله: ﴿هاجرن معك﴾ قالت: فلم أكن أحلّ له، لأنني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت: نزلت في هذه الآية ﴿وبنات عمك وبنيات عماتك... اللاتي هاجرن معك﴾ أراد النبي أن يتزوّدني، فنهى عني إذ لم أهاجر. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إنا أحلنا لك أزواجك﴾ إلى قوله: ﴿خالصة لك﴾ قال: حرّم الله عليه سوى ذلك من النساء، وكان قبل ذلك ينكح في أيّ النساء شاء لم يحرم ذلك عليه، وكان نسائه يجدن

من ذلك وجداً شديداً أن ينكح في أي النساء أحب، فلما أنزل
إني حرمت عليك من النساء سوى ما قصصت عليك أعجب
ذلك نساءه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي
في السنن عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ
خولة بنت حكيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن أبي
شيبه، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، والبيهقي، وابن مردويه عن عروة: أن خولة
بنت حكيم كانت من اللاتي وهبت أنفسهن لرسول الله ﷺ.
وأخرج ابن أبي شيبه، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب،
وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله
ﷺ ثلاث عشرة امرأة: ست من قريش: خديجة، وعائشة،
وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وثلاث من بني
عامر بن صعصعة، وامراتين من بني هلال بن عامر:
ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ،
وزينب أم المساكين، والعامرية وهي التي اختارت الدنيا،
وأمرأة من بني الجون، وهي التي استعانت منه، وزينب بنت
جحش الأسدية، والسبيتين: صفية بنت حيي، وجويرية بنت
الحارث الخزاعية. وأخرج البخاري، وابن مردويه عن أنس
قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله هل لك
بي حاجة؟ فقالت ابنة أنس: ما كان أقل حياءها، فقال: هي
خير منك رغبت في النبي ﷺ، فعرضت نفسها عليه.
وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سهل بن سعد
الساعدي: أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، فوهبت نفسها له،
فصمت، الحديث بطوله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في
قوله: **«قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم»** قال:
فرض الله عليهم أنه لا نكاح إلا بولي، وشاهدين. وأخرج ابن
مردويه عن ابن عباس مثله، وزاد: ومهر. وأخرج ابن أبي
شيبه عن علي قال: نهى رسول الله ﷺ أن توطأ الحامل
حتى تضع، والحائل حتى تستبرأ بحيضة. وأخرج ابن جرير
عن ابن عباس **«ترجي من تشاء منهم»** قال: تؤخر.
وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه في قوله: **«ترجي من
تشاء منهم»** يقول: من شئت خلعت سبيله منهم، ومن
أحببت أمسكت منهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن
عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبت أنفسهن لرسول الله
ﷺ، وأقول: تهب المرأة نفسها، فلما أنزل الله **«ترجي من
تشاء منهم»** الآية قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هوك.
وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي رزين قال: هم
رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه، فلما رآين ذلك أتيتهن،
فقلن: لا تخلص سبيلنا، وأنت في حل فيما بيننا وبينك، افرض
لنا من نفسك ومالك ما شئت، فأنزل الله **«ترجي من تشاء
منهم»** يقول: تعزل من تشاء، فأرجأ منهن نسوة، وآوى
نسوة، وكان ممن أرجى ميمونة، وجويرية، وأم حبيبة،
وصفية، وسودة، وكان يقسم بينهن من نفسه وماله ما شاء،
وكان ممن آوى عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، فكانت

قسمته من نفسه وماله بينهن سواء. وأخرج البخاري،
ومسلم، وغيرهما عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان
يستأن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية **«ترجي
من تشاء منهم»** فقلت لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنت
أقول: إن كان ذلك إلي فإني لا أريد أن أؤثر عليك أحداً.
وأخرج الروياني، والدارمي، وابن سعد، وعبد الله بن أحمد
في زوائد المسند، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
وابن مردويه، والضياء في المختارة عن زياد رجل من
الأنصار قال: قلت لأبي بن كعب: أرايت لو أن أزواج النبي
ﷺ متن أما كان يحل له أن يتزوج؟ قال: وما يمنعه من
ذلك؟ قلت: قوله **«لا يحل لك النساء من بعد»** قال: إنما
أحل له ضرباً من النساء، ووصف له صفة، فقال: **«يا أيها
النبي إنا أحلنا لك أزواجك»** إلى قوله: **«وامرأة مؤمنة»**
ثم قال: لا يحل لك النساء من بعد هذه الصفة. وأخرج
عبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، والطبراني،
وابن مردويه عن ابن عباس قال: «نهى رسول الله ﷺ عن
أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات قال: **«لا
يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو
أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك»** فأحل له الفتيات
المؤمنات **«وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي»** وحرّم
كل ذات دين غير الإسلام، وقال: **«يا أيها النبي إنا أحلنا
لك أزواجك»** إلى قوله: **«خالصة لك من بون المؤمنين»**
وحرّم ما سوى ذلك من أصناف النساء». وأخرج ابن مردويه
عنه قال: «نهى النبي ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئاً».
وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: حبسه الله عليهن
كما حبسهن عليه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن مردويه،
والبيهقي في سننه عن أنس قال: لما خيرهن، فاخترن الله
ورسوله قصره عليهن، فقال: **«لا يحل لك النساء من
بعد»**. وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت:
لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من
النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله: **«ترجي من
تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء»**. وأخرج عبد الرزاق،
وسعيد بن منصور، وابن سعد، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو
داود في ناسخه، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير،
وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي من
طريق عطاء عن عائشة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى
أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم لقوله:
«ترجي من تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء». وأخرج
ابن سعد عن ابن عباس مثله. وأخرج سعيد بن منصور،
وابن سعد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي رزين **«لا يحل لك
لنساء من بعد»** قال: من المشركات إلا ما سبيت، فملكك
يمينك. وأخرج للبخاري، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: كان
البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلني امرأتك،
وابادلك امرأتي: أي: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن

بعد الطعام، وهو: التفريق، والمراد الإلزام بالخروج من المنزل الذي وقعت الدعوة إليه عند انقضاء المقصود من الاكل **﴿ولا مستأنسين لحديث﴾** عطف على قوله **﴿غير ناظرين﴾**، أو على مقترن: أي: ولا تدخلوا، ولا تمكثوا مستأنسين. والمعنى: النهي لهم عن أن يجلسوا بعد الطعام يتحدثون مستأنسين بالحديث. قال الرازي في قوله: **﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام﴾** إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره: ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم، فلا يكون منعاً من الدخول في غير وقت الطعام بغير إذن، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير، فيكون معناه: ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام، فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى طعام، فإن لم يؤذن إلى طعام، فلا يجوز الدخول، فلو أن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لاكل طعام، فلا يجوز، فنقول المراد هو الثاني: ليعم النهي عن الدخول. وأما كونه لا يجوز إلا بإذن إلى طعام فلما هو مذكور في سبب النزول أن الخطاب مع قوم كانوا يتحدثون حين الطعام، ويدخلون من غير إذن، فمنعوا من الدخول في وقتهم بغير إذن. وقال ابن عادل: الأولى أن يقال: المراد هو: الثاني، لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل، وقوله: **﴿إلى طعام﴾** من باب التخصيص بالذكر، فلا يدل على نفي ما عداه، لا سيما إذا علم مثله، فإن من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله بإذنه إلى غير الطعام. انتهى. والأولى في التعبير عن هذا المعنى الذي أراده أن يقال: قد بليت الأدلة على جواز دخول بيوته **﴿بأنه لغير الطعام﴾** وذلك معلوم لا شك فيه، فقد كان الصحابة وغيرهم يستأنسون عليه لغير الطعام، فيأذن لهم، وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذي نزلت فيه، وهو القوم الذين كانوا يتحدثون طعام النبي **﴿ﷺ﴾** فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه، وأمثالهم، فلا تدل على المنع من الدخول مع الإذن لغير ذلك، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه لغير الطعام، واللازم باطل، فالملزوم مثله. قال ابن عطية: وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة، أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله المؤمنين عن ذلك في بيت النبي **﴿ﷺ﴾**، وبخل في النهي سائر المؤمنين، والتزم الناس أبى الله لهم في ذلك، فممنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل لا قبله لانتظار نضج الطعام، والإشارة بقوله: **﴿إن نلکم﴾** إلى الانتظار، والاستئناس للحديث، وأشير إليهما بما يشار به إلى الواحد بتأويلهما بالملكور كما في قوله: **﴿عوان بين نلکم﴾** [البقرة: 68] أي: إن نلك المذكور من الأمرين **﴿كان يؤذي النبي﴾**: لأنهم كانوا يضيّقون المنزل عليه وعلى أهله، ويتحدثون بما لا يريده. قال الزجاج: كان النبي **﴿ﷺ﴾** يحتمل إظلالهم كرمًا منه، فيصبر على الأدنى في ذلك، فعلم الله من يحضره الأدب صار أنبأ لهم ولمن بعدهم **﴿فيستحيي منكم﴾** أي: يستحيي أن يقول لكم قوموا، أو أخرجوا **﴿وإلا لا يستحيي﴾**

أمراتي، فأنزل الله **﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾** قال: فدخل عبيدة بن حصن الفزاري إلى النبي **﴿ﷺ﴾** وعنده عائشة، فبخل بغير إذن، فقال له رسول الله **﴿ﷺ﴾**: «أين الاستئذان؟ قال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل من الأنصار منذ أدركت، ثم قال: من هذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله: هذه عائشة أم المؤمنين، قال: أقلأ أنزل لك عن أحسن خلق الله؟ قال: يا عبيدة إن الله حرم ذلك، فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: أحق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه».

يَتَأْتِيَا اللَّيْلَ مَأْمُولًا لَا تَدْعُلُوا يَوْمَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مُسْتَسْتَسِينَ لِجِدِّيتِ إِذْ نَزَّلَكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي وَيَكْهِنُ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي. مِنَ الْحَقِّ وَلَئِنْ سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ رِزْقِهِمْ حَتَّى يَسْأَلُوهُنَّ وَلَهُنَّ مَتَاعٌ مِمَّا فِي كَنْزِكُمْ أَطْلَعَهُنَّ لِقَائِكُمْ وَقُلُوهُنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنَاصِرُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۖ إِنْ تَدَاوَسْتُمْ أَوْ عُشِّرْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۖ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ أَرْوَاجَهُمْ وَلَا أَسْبَابَهُمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَيْنَهُمُ الْوَفَاءَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝

قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾** هذا نهى عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول الله **﴿ﷺ﴾** إلا بإذن منه. وسبب النزول ما وقع من بعض الصحابة في وليمة زينب، وسيأتي بيان ذلك آخر البحث إن شاء الله. وقوله: **﴿إلا أن يؤذن لكم﴾** استثناء مفرغ من أعم الأحوال: أي: لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا في حال كونكم مانوناً لكم، وهو في موضع نصب على الحال: أي: إلا مصحوبين بالإذن، أو بنزع الخافض: أي: إلا بأن يؤذن لكم، أو منصوب على الظرفية: أي: إلا وقت أن يؤذن لكم، وقوله: **﴿إلى طعام﴾** متعلق بيؤذن على تضمينه معنى: للدعاء: أي: إلا أن يؤذن لكم مدعوين إلى طعام، وانتصاب **﴿غير ناظرين﴾** إناءً على الحال، والعامل فيه يؤذن، أو مقترن: أي: ادخلوا غير ناظرين، ومعنى ناظرين: منتظرين، وإناء: نضجه، وإدراكه، يقال: أتى يأتى أتى: إذا حان، وأدرك. قرأ الجمهور (غير ناظرين) بالنصب. وقرأ ابن أبي عبيدة (غير) بالجر صفة لطعام، وضعف النحاة هذه القراءة لعدم بروز الضمير لكونه جارياً على غير من هو له، فكان حقه أن يقال: **﴿غير ناظرين﴾** إناء أنتم. ثم بيّن لهم سبحانه ما ينبغي في ذلك، فقال: **﴿ولكن إذا دعيتم فادخلوا﴾**، وفيه تأكيد للمنع، وبيان الوقت الذي يكون فيه الدخول، وهو عند الإذن. قال ابن العربي: وتقدير الكلام: ولكن إذا دعيتم، وأنتم لكم، فادخلوا، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إنناً كافياً في الدخول، وقيل: إن فيه دلالة بيّنة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه **﴿فإذا طعمتم فانتشروا﴾** أمرهم سبحانه بالانتشار

والأولى أن يقال: أنه سبحانه اقتصر ههنا على بعض ما نكره من المحارم في سورة النور اكتفاء بما تقدم ﴿ولا نسائهن﴾ هذه الإضافة تقتضي أن يكون المراد بالنساء للمؤمنات، لأن الكافرات غير مأمونات على العورات، والنساء كلهن عورة ﴿ولا ما ملكت أيمانهن﴾ من العبيد، والإماء، وقيل: الإماء خاصة، ومن لم يبلغ من العبيد، والخلاف في ذلك معروف. وقد تقدم في سورة النور ما فيه كفاية. ثم أمرهن سبحانه بالتقوى التي هي ملاك الأمر كله، ﴿ووهب المعنى﴾: ﴿التقوى﴾ الله في كل الأمور التي من جملتها ما هو منكر هنا ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ لم يغب عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان، فهو مجاز للمحسن بإحسانه، وللمسيء بإساءته.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البرء، والفاجر، فلو حببتهن، فأنزل الله آية الحجاب. وفي لفظ: أنه قال عمر: يا رسول الله يدخل عليك البرء، والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم، فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كانه يتهيا للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت، فحجبت، فأكبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت ادخل، فالتقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن عائشة: أن أزواج النبي ﷺ كنَّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناسع، وهو صعيد أفيح، وكان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله ﷺ: أحجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله الحجاب. قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ الآية. وأخرج ابن سعد عن أنس قال: نزل الحجاب مبتنى رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش، وذلك سنة خمس من الهجرة، وحجب نساءه من يومئذ، وأنا ابن خمس عشرة سنة. وكذا أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان، وقال: نزل الحجاب على نسائه في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، وبه قال قتادة، والواقدي. وزعم أبو عبيدة، وخليفة بن خياط: أن ذلك كان في سنة ثلاث. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده. قال سفيان: ونكروا أنها عائشة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أبحجبتنا محمد عن بنات عمناء. ويتزوج نساءنا من بعدنا؟ لأن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده، فنزلت هذه الآية. وأخرج

من الحق﴾ أي: لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق، ولا يمتنع من بيانه وإظهاره؛ والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشكلة. قرأ الجمهور (يستحي) بياءين، وروي عن ابن كثير: أنه قرأ بياء واحدة، وهي لغة تميم يقولون: استحي يستحي مثل استقى يستقي، ثم نكر سبحانه أنبا آخر متعلقاً بنساء النبي ﷺ، فقال: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً﴾ أي: شيئاً يتمتع به، من الماعون وغيره ﴿فاسألهن من وراء حجاب﴾ أي: من وراء ستر بينكم وبينهن. والمتاع يطلق على كل ما يتمتع به، فلا وجه لما قيل من أن المراد به العارية، أو الفتوى، أو المصحف، والإشارة بقوله: ﴿تلكم﴾ إلى سؤال المتاع من وراء حجاب، وقيل: الإشارة إلى جميع ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول، وسؤال المتاع، والأول أولى، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ﴿أظهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ أي: أكثر تطهيراً لها من الريبة، وخواطر السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال. وفي هذا أنب لكل مؤمن، وتحذير له من أن يقع بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له، والمكاملة من دون حجاب لمن تحرم عليه ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ أي: ما صح لكم، ولا استقام أن تؤذوه بشيء من الأشياء كائناً ما كان، ومن جملة ذلك دخول بيوته بغير إذن منه، واللبث فيها على غير الوجه الذي يريده، وتكليم نسائه من دون حجاب ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده إبدأ﴾ أي: ولا كان لكم بعد وفاته؛ لأنهن أمهات المؤمنين، ولا يحل للأولاد نكاح الأمهات، والإشارة بقوله: ﴿إن تلكم﴾ إلى نكاح أزواجه من بعده ﴿كان عند الله عظيماً﴾ أي: ذنباً عظيماً، وخطباً هائلاً شديداً. وكان سبب نزول الآية أنه قال قائل: لو قد مات محمد لتزوجنا نساءه، وسيأتي بيان ذلك ﴿إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾ يعلم كل شيء من الأشياء، ومن جملة ذلك ما تظهرونه في شأن أزواج رسوله، وما تكتُمونه في صلوركم. وفي هذا وعيد شديد، لأن إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها، وشرها. ثم بين سبحانه من لا يلزم الحجاب منه، فقال: ﴿لا جناح عليهن في لباسهن ولا فئاتهن ولا إخوانهن ولا إبناء إخوانهن ولا إبناء إخوانهن﴾ فهؤلاء لا يجب على نساء رسول الله ﷺ، ولا غيرهن من النساء الاحتجاب منهم، ولم ينكر العم والخال؛ لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقال الزجاج: العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما، فإن المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية، وهذا ضعيف جداً، فإن تجويز وصف المرأة لمن تحل له ممكن من غيرهما ممن يجوز له النظر إليها، لا سيما إبناء الإخوة، وإبناء الأخوات. واللازم باطل، فالملزوم مثله، وهكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الاجنبيات أن ينظرن إليها؛ لأنهن يصفنهن، واللازم باطل فالملزوم مثله. وهكذا لا وجه لما قاله الشعبي، وعكرمة من أنه يكره للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها،

أنه ليس لأحد أن يجمع نكر الله سبحانه مع غيره في ضمير واحد، وهذا الحديث ثابت في الصحيح. وثبت أيضاً في الصحيح: أن رسول الله ﷺ أمر منادياً ينادي يوم خيبر: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية. ولاهل العلم أبحاث في الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع نكرها، والآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها لله، ولملائكته واحداً، والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله في رسول الله ﷺ، ويحمل النعم لذلك الخطيب الجامع بينهما على أنه ﷺ فهم منه إرادة التسوية بين الله سبحانه، وبين رسوله، فيختص المنع بمثل ذلك، وهذا أحسن ما قيل في الجمع. وقالت طائفة: في هذه حنف، والتقدير: إن الله يصلي، وملائكته يصلون، وعلى هذا القول، فلا تكون الآية مما جمع فيه بين نكر الله، ونكر غيره في ضمير واحد، ولا يرد أيضاً ما قيل: إن الصلاة من الله الرحمة، ومن ملائكته الدعاء، فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين في لفظ يصلون، ويقال: على القول الأول: أنه أريد يصلون معنى مجازي يعم المعنيين، وذلك بأن يراد بقوله: يصلون يهتمون بإظهار شرفه، أو يعظمون شأنه، أو يعتنون بأمره. وحكى البخاري عن أبي العالية: أن صلاة الله سبحانه ثناؤه عليه عند ملائكته، وصلاة الملائكة الدعاء. وروى الترمذي في سننه عن سفيان الثوري، وغير واحد من أهل العلم: أنهم قالوا: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار. وحكى الواحدي عن مقاتل: أنه قال: أما صلاة الرب، فالمغفرة، وأما صلاة الملائكة، فالاستغفار. وقال عطاء بن أبي رباح: صلاته تبارك وتعالى: سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي. والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند ملائكته، وأن الملائكة تصلي عليه، وأمر عباده بأن يقتتوا بذلك، ويصلوا عليه.

وقد اختلف أهل العلم في الصلاة على النبي ﷺ هل هي واجبة أم مستحبة؟ بعد اتفاقهم على أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة. وقد حكى هذا الإجماع القرطبي في تفسيره، فقال قوم من أهل العلم: إنها واجبة عند نكره، وقال قوم: تجب في كل مجلس مرة، وقد وردت أحاديث مصرحة بنعم من سمع نكر النبي ﷺ، فلم يصل عليه.

واختلف العلماء في الصلاة على النبي ﷺ في تشهد الصلاة المفترضة هل هي واجبة أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنها فيها سنة مؤكدة غير واجبة. قال ابن المنذر: يستحب أن لا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله ﷺ، فإن ترك ذلك تارك، فصلاته مجزئة في مذهب مالك، وأهل المدينة، وسفيان الثوري، وأهل الكوفة من أصحاب الرأي، وغيرهم، وهو قول جمهور أهل العلم. قال: وشذ الشافعي، فأوجب على تاركها الإعادة مع تعدد تركها دون النسيان، وهذا القول عن الشافعي لم يروه عنه إلا حرمة بن يحيى، ولا يوجد عن الشافعي إلا من روايته. قال الطحاوي: لم يقل به أحد من أهل العلم غير الشافعي. وقال الخطابي، وهو من

عبد الرزاق، وعبد بن عبيد، وابن المنذر عن قتادة قال: قال طلحة بن عبيد الله: لو قبض النبي ﷺ لتزوجت عائشة. فنزلت. وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: نزلت في طلحة؛ لأنه قال: إذا توفي النبي ﷺ تزوجت عائشة. قال ابن عطية: وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله. قال القرطبي: قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة، وحاشاهم عن مثله، وإنما الكذب في نقله، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجاهل. وأخرج البيهقي في السنن عن ابن عباس قال: قال رجل من أصحاب النبي ﷺ: لو قد مات رسول الله ﷺ تزوجت عائشة، أو أم سلمة، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عنه: «أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي ﷺ، فكلما، وهو: ابن عمها، فقال النبي ﷺ: لا تقوم هذا المقام بعد يومك هذا، فقال: يا رسول الله إنها ابنة عمي، والله ما قلت لها منكراً، ولا قالت لي، قال النبي ﷺ: قد عرفت ذلك إنه ليس أحد أغبر من الله، وإنه ليس أحد أغبر مني، فمضى، ثم قال: ينعني من كلام ابنة عمي، لأنزولها من بعده، فأنزل الله هذه الآية، فاعتق ذلك الرجل رقبة، وحمل على عشرة أبعة في سبيل الله، حج ماشياً توبة من كلمته. وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس قالت: خطبني علي، فبلغ ذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إن أسماء متزوجة علياً، فقال لها النبي ﷺ: ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله. وأخرج ابن سعد عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئاً أَوْ تَخَفَوْهُ﴾ قال: أن تكلموا به، فتقولون: تتزوج فلانة لبعض أزواج النبي ﷺ، أو تخفوا ذلك في أنفسكم، فلا تنطقوا به يعلمه الله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخر الآية قال: أنزلت هذه في نساء النبي ﷺ خاصة، وقوله: نساء النبي يعني: نساء المسلمين ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من المماليك، والإماء، ورخص لهن: أن يروهن بعد ما ضرب الحجاب عليهن.

إِنَّ اللَّهَ وَكَانَ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَنَنَازِلُهُمُ فِي النَّارِ وَالْآخِرَةُ أَوَّلُهَا مَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا ظَاهِرًا فَذَرْهُمْ أَهْلَ مَذْهَبِهِمْ وَلَسْنَا مَعَهُمْ

قرأ الجمهور ﴿وملائكته﴾ بنصب الملائكة عطفاً على لفظ اسم إن. وقرأ ابن عباس ﴿وملائكته﴾ بالرفع عطفاً على محل اسم إن، والضمير في قوله: ﴿يصلون﴾ راجع إلى الله، وإلى الملائكة، وفيه تشريف للملائكة عظيم حيث جعل الضمير لهم والله سبحانه واحداً، فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه ﷺ لما سمع قول الخطيب يقول: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال: بشئ خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله، ووجه ذلك:

الشافعية: إنها ليست بواجبة في الصلاة. قال: وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعي، ولا أعلم له في ذلك قوة. انتهى. وقد قال بقول الشافعي: جماعة من أهل العلم منهم الشعبي، والباقر، ومقاتل بن حيان، وإليه ذهب أحمد بن حنبل أخيراً، كما حكاه أبو زرعة الدمشقي، وبه قال ابن راهويه، وابن الموزان من المالكية.

وقد جمعت في هذه المسألة رسالة مستقلة ذكرت فيها ما احتج به الموجبون لها، وما أجاب به الجمهور، وأشرف ما يستدل به على الوجوب الحديث الثابت بلفظ «إن الله أمرنا أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك في صلاتنا، فقال: قولوا» الحديث. فإن هذا الأمر يصلح للاستدلال به على الوجوب. وأما على بطلان الصلاة بالترك، ووجوب الإعادة لها، فلا، لأن الواجبات لا يستلزم عدمها العدم كما يستلزم تلك الشروط والأركان.

والمعروف أنه قد ورد في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة لو جمعت لجاءت في مصنف مستقل، ولو لم يكن منها إلا الأحاديث الثابتة في الصحيح من قوله ﷺ: «من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً»، فناهيك بهذه الفضيلة الجليلة، والمكرمة النبيلة. وأما صفة الصلاة عليه ﷺ، فقد وردت فيها صفات كثيرة بأحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما، منها ما هو مقيد بصفة الصلاة عليه في الصلاة، ومنها ما هو مطلق، وهي معروفة في كتب الحديث، فلا نطيل بذكرها. والذي يحصل به الامتثال لمطلق الأمر في هذه الآية هو: أن يقول القائل: اللهم صلّ، وسلم على رسولك، أو على محمد، أو على النبي، أو اللهم صلّ على محمد وسلم. ومن أراد أن يصلي عليه ويسلم عليه بصفة من الصفات التي ورد التعليم بها، والإرشاد إليها، فذلك أكمل، وهي صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة، وسيأتي بعضها آخر البحث، وسيأتي الكلام في الصلاة على الآل. وكان ظاهر هذا الأمر بالصلاة والتسليم في الآية أن يقول القائل: صليت عليه وسلمت عليه، أو الصلاة عليه والسلام عليه، أو عليه الصلاة والتسليم؛ لأن الله سبحانه أمرنا بإيقاع الصلاة عليه والتسليم منا، فالامتثال هو: أن يكون ذلك على ما ذكرنا، فكيف كان الامتثال لأمر الله لنا بذلك أن نقول: اللهم صلّ عليه وسلم، بمقابلة أمر الله لنا بأمرنا له بأن يصلي عليه، ويسلم عليه. وقد أجب عن هذا بأن هذه الصلاة والتسليم لما كانتا شعاراً عظيماً للنبي ﷺ وتشريفاً كريماً، وكلنا ذلك إلى الله عزّ وجلّ، وأرجعناه إليه، وهذا الجواب ضعيف جداً. وأحسن ما يجاب به: أن يقال: إن الصلاة والتسليم للمأمور بهما في الآية هما: أن نقول: اللهم صلّ عليه وسلم، أو نحو ذلك مما يؤدي معناه كما بينه رسول الله ﷺ لنا، فاقترضنا ذلك البيان في الأحاديث الكثيرة: أن هذه هي الصلاة الشرعية.

والمعروف أن هذه الصلاة من الله على رسوله، وإن كان معناها: الرحمة، فقد صارت شعاراً له يختص به دون غيره،

فلا يجوز لنا أن نصلي على غيره من أمته كما يجوز لنا أن نقول: اللهم ارحم فلاناً، أو رحم الله فلاناً، وبهذا قال جمهور العلماء مع اختلافهم هل هو محرم، أو مكروه كراهة شديدة، أو مكروه كراهة تنزيه على ثلاثة أقوال. وقد قال ابن عباس كما رواه عنه ابن أبي شيبه، والبيهقي في الشعب: لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار. وقال قوم: إن ذلك جائز لقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: 103]، ولقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 157]، ولقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يَصْلِي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: 43]، ولحديث عبد الله بن أبي، أوفى الثابت في الصحيحين، وغيرهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صلّ عليهم، فأتاه أبي بصدقته، فقال: اللهم صلّ على آل أبي أوفى»، ويجاب عن هذا بأن هذا الشعر الثابت لرسول الله ﷺ له أن يخص به من شاء، وليس لنا أن نطلقه على غيره. وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَصْلِي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: 43]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 157]، فهذا ليس فيه إلا أن الله سبحانه يصلي على طوائف من عبادته كما يصلي على من صلى على رسوله مرة واحدة عشر صلوات، وليس في ذلك أمر لنا، ولا شرع الله في حقنا، بل لم يشرع لنا إلا الصلاة والتسليم على رسوله. وكما أن لفظ الصلاة على رسول الله شعار له، فكذا لفظ السلام عليه. وقد جرت عادة جمهور هذه الأمة، والسواد الأعظم من سلفها وخلفها على الترضي عن الصحابة، والترحم على من بعدهم، والدعاء لهم بمغفرة الله وعفوه كما أُرشدنا إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: 10]، ثم لما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قيل: المراد بالآذى هنا هو: فعل ما يكرهه من المعاصي لاستحالة التآذي منه سبحانه. قال الواحدي: قال المفسرون هم: المشركون، واليهود، والنصارى وصفوا الله بالولد، فقالوا: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، والملائكة بنات الله، وكتبوا رسول الله، وشجوا وجهه، وكسروا رباعيته، وقالوا: مجنون شاعر كذاب ساحر. قال القرطبي: وبهذا قال جمهور العلماء. وقال عكرمة: الآية لله سبحانه بالتصوير، والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور، وغيرها. وقال جماعة: إن الآية على حذف مضاف، والتقدير: إن الذين يؤذون أولياء الله. وأما آية رسوله، فهي: كل ما يؤذيه من الأقوال، والأفعال. ومعنى اللعنة: الطرد، والإبعاد من رحمته، وجعل ذلك في الدنيا، والآخرة؛ لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات حياتهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم ومصاحبة لهم ﴿وَوَاعَدُ لَهُمْ﴾ مع ذلك اللعن ﴿عَذَاباً مِهيناً﴾

بعضها على آل إبراهيم فقط، وفي بعضها بالجمع بينهما كحديث طلحة هذا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي حميد الساعدي: أنهم قالوا: يا رسول الله «كيف نصلي عليك؟» فقال رسول الله ﷺ: قولوا: اللهم صل على محمد، وأزواجه، وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد، وأزواجه، وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً، وفي بعضها التقييد بالصلاة كما في حديث أبي مسعود عند ابن خزيمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه: أن رجلاً قال: يا رسول الله أما السلام عليك، فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا؟ الحديث، وأخرج الشافعي في مسنده من حديث أبي هريرة مثله، وجميع التعليمات الواردة عنه ﷺ في الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه إلا النادر اليسير من الأحاديث، فينبغي للمصلي عليه: أن يضم آله إليه في صلاته عليه، وقد قال بذلك جماعة، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي كما رواه عنهما ابن كثير في تفسيره، ولا حاجة إلى التمسك بقول قائل في مثل هذا مع تصريح الأحاديث الصحيحة به، ولا وجه لقول من قال: إن هذه التعليمات الواردة عنه ﷺ في صفة الصلاة عليه مقيدة بالصلاة في الصلاة حملاً لمطلق الأحاديث على المقيد منها بذلك القيد، لما في حديث كعب بن عجرة وغيره أن ذلك السؤال لرسول الله ﷺ كان عند نزول الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا على أنبياء الله، ورسله، فإن الله بعثهم كما بعثني» وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية قال: نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي، وروي عنه: أنها نزلت في الذين قذفوا عائشة.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَوْلَادِكَ وَنِسَائِكَ الْمُؤْمِنِينَ بِذُنُوبِهِمْ عَنِّي مَن جَلَبِيْبِهِمْ ذَلِكْ أَذْنُ أَنْ يَمُرُّوا فَلَا يُوْذَنُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٨٩﴾ لِّئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُتُفَوِّحُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَتُفْرِكَنَّ بِهِمْ أُمَّةٌ لَا يُكَادُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٩٠﴾ مَلْعُونَتٌ أَيْسَارًا يُتَفَوِّحُوا أَخْذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿٩١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٩٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَّا السَّاعَةُ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٩٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٤﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ فِيهَا وَلًا نَّصِيرًا ﴿٩٥﴾ يَوْمَ تَقُفُّ أَرْجُلُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَا اللَّهُ وَهَلَّلَنَا الرَّسُولَ ﴿٩٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا سَادَتَنَا كَذِبًا فَاغْلُظْنَا عَلَيْهِمْ ﴿٩٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا نَتَّبِعُكَ مِنْكَ الْغَلَابِ وَالْعَنَمَ لَمَّا كُنَّا كِبَرًا ﴿٩٨﴾

لما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذي رسوله، والمؤمنين، والمؤمنات من عباده أمر رسوله ﷺ: بأن يامر بعض من ناله الآذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه، فقال:

يصيرون به في الإهانة في الدار الآخرة لما يفيد معنى الإعداد من كونه في الدار الآخرة. ثم لما فرغ من الذم لمن آذى الله ورسوله ذكر الآذية لصالح عباده، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بوجه من وجوه الآذية من قول، أو فعل، ومعنى «بغير ما اكتسبوا»: أنه لم يكن ذلك لسبب فعلوه يوجب عليهم الآذية، ويستحقونها به، فأما الآذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبه مما يوجب عليه حدًا، أو تعزيرًا، أو نحوهما، فذلك حق أثبته الشرع، وأمرنا الله به، وندبنا إليه، وهكذا إذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتى لمؤمن، أو مؤمنة، أو ضرب، فإن القصاص من الفاعل ليس من الآذية المحرمة على أي وجه كان ما لم يجاوز ما شرعه الله. ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين، والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فقال: ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهِتَانًا وَإِنَّمَا مَبِينٌ﴾ أي: ظاهراً واضحاً لا شك في كونه من البهتان والإثم، وقد تقدم بيان حقيقة البهتان، وحقيقة الإثم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس «يصلون على النبي» يبركون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: هل يصلي ربك؟ فناداه ربه: يا موسى سأوك: هل يصلي ربك؟ فقل: نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي، فأنزل الله على نبيه ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية. وأخرج ابن مردويه عنه قال: إن صلاة الله على النبي هي: المغفرة، إن الله لا يصلي، ولكن يغفر، وأما صلاة الناس على النبي، فهي: الاستغفار له. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قرأ «صلوا عليه كما صلى الله عليه، وسلموا تسليماً». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن كعب بن عجرة قال: لما نزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية، قلنا: يا رسول الله قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وأخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديثه بلفظ: قال رجل: يا رسول الله: أما السلام عليك فقد علمناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأحمد، والنسائي من حديث طلحة بن عبيد الله قال: قلت: يا رسول الله كيف الصلاة عليك؟ قال: قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد. وفي الأحاديث اختلاف، ففي بعضها على إبراهيم فقط، وفي

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَجَكَ وَبَنَاتَكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ من للتبعيض، والجلابيب جمع جلباب، وهو: ثوب أكبر من الخمار. قال الجوهري: الجلباب الملحقة، وقيل: القناع، وقيل: هو ثوب يستر جميع بدن المرأة، كما ثبت في الصحيح من حديث لم عطية أنها قالت: يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب، فقال: لتلبسها اختها من جلبابها، قال الواحدي: قال المفسرون: يغطين وجوههن، ورووسهن إلا عيناً واحدة، فيعلم: أنهن حرائر، فلا يعرض لهن بائذٍ. وقال الحسن: تغطي نصف وجهها. وقال قتادة: تلويه فوق الجبين، وتشده، ثم تطفه على الأنف، وإن ظهرت عينها لكنه يستر الصدر، ومعظم الوجه، والإشارة بقوله: ﴿وَاللَّيْلِ﴾ إلى إنشاء الجلابيب، وهو مبتدأ، وخبره ﴿أَنْتِي أَنْ يَعْرِفْنَ﴾ أي: أقرب أن يعرفن، فيتميزن عن الإماء، ويظهر للناس أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْنِسْنَ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن مراقبة لهن، ولأهلهن، وليس المراد بقوله: ﴿وَاللَّيْلِ﴾ أن يعرفن، أن تعرف الواحدة منهن من هي، بل المراد: أن يعرفن أنهن حرائر لا إماء؛ لأنهن قد لبسن لبسة تختص بالحرائر ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من ترك إنشاء الجلابيب ﴿رَحِيمًا﴾ بهن، أو غفوراً للذنوب المذنبن رحيماً بهم، فيدخلن في ذلك دخولاً أولياً. ثم توعده سبحانه أهل النفاق، والإرجاف، فقال: ﴿لَنْ يَنْفَعَهُ الْمُنَافِقُونَ﴾ عما هم عليه من النفاق ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك وريبة عما هم عليه من الاضطراب ﴿وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ عما يصدر منهم من الإرجاف بنكر الأخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين، وظهور المشركين عليهم. قال القرطبي: أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد، والمعنى: أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق، ومرض القلوب، والإرجاف على المسلمين، فهو على هذا من باب قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزبح
أي: إلى الملك القرم بن الهمام ليث الكتبية. وقال عكرمة، وشهر بن حوشب: الذين في قلوبهم مرض هم: الزناة. والإرجاف في اللغة: إشاعة الكذب، والباطل، يقال: أرجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت، من الرجة، وهي: الزلزلة. يقال: رجفت الأرض: أي: تحركت، وتزلزلت ترجف رجفاً، والرجفان: الاضطراب الشديد، وسمي البحر: رجافاً لاضطرابه، ومنه قول الشاعر:
المطعمون اللحم كل عشية حتى تغيب الشمس في الرجاف
والإرجاف واحد الأرجاف، وأرجفوا في الشيء خاضوا فيه، ومنه قول شاعر:

فإننا وإن غيرتمونا بقله ولرجف بالإسلام باغ وحاسد
وقول الآخر:

أبوالارجيف يابن اللوم توعدني وفي الأرجاف خلت اللؤم والخور
وذلك بأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا، وتارة بأنهم قتلوا، وتارة بأنهم

غلبوا، ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار، فتوعدهم الله سبحانه بقوله: ﴿لَنُغْفِرَنَّ بِهِمْ﴾ أي: لنسلطنك عليهم، فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك. قال المبرد: قد أغراه الله بهم في قوله بعد هذه الآية ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا لُحْنُوا وَقَتْلُوا تَقْتِيلًا﴾ فهذا فيه معنى: الأمر بقتلهم، وأخذهم: أي: هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق، والإرجاف. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في الآية. وأقول ليس هذا بحسن، ولا أحسن، فإن قوله: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ إلخ، إنما هو لمجرد الدعاء عليهم لا أنه أمر لرسول الله ﷺ بقتلهم، ولا تسليط لهم عليهم، وقد قيل: إنهم انتهوا بعد نزول هذه الآية عن الإرجاف، فلم يفره الله بهم، وجملة ﴿لَنُغْفِرَنَّ بِهِمْ﴾ جواب القسم، وجملة ﴿ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوفة على جملة جواب القسم: أي: لا يجاورونك فيها إلا جواراً قليلاً حتى يهلكوا، وانتصاب ﴿مَلْعُونِينَ﴾ على الحال كما قال المبرد، وغيره، والمعنى: مطروين ﴿أَيْنَمَا﴾ وجداً، وأدركوا ﴿وَقَتْلُوا﴾ دعاء عليهم بأن يؤخروا ويقتلوا ﴿تَقْتِيلًا﴾ وقيل: إن هذا هو الحكم فيهم، وليس بدعاء عليهم، والأول أولى. وقيل: معنى الآية: أنهم إن أصرروا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون ﴿سَفَةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ساء الله ذلك في الأمم الماضية، وهو لعن المنافقين وأخذهم وتقتيلهم، وكذا حكم المرجفين، وهو منتصب على المصدر. قال الزجاج: بين الله في الذين ينافقون الأنبياء، ويرجعون بهم: أن يقتلوا جيئاً ثقفوا ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسْفَةَ اللَّهِ تَبْيِيلًا﴾ أي: تحويلاً، وتغييراً، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي: عن وقت قيامها، وحصولها؛ قيل: السائلون عن الساعة هم: أولئك المنافقون، والمرجعون لما توعوا بالعذاب سألوا عن الساعة استبعاداً، وتكديماً ﴿يَوْمَا يَدْرِكُ﴾ يا محمد: أي: ما يعلمك، ويخبرك ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: في زمان قريب، وانتصاب قريباً على الظرفية والتذكير لكون الساعة في معنى: اليوم، أو الوقت مع كون تأنيث الساعة ليس بحقيقي، والخطاب لرسول الله ﷺ لبيان أنها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها، وهو: رسول الله، فكيف بغيره من الناس؟ وفي هذا تهديد لهم عظيم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: طردهم، وأبعدهم من رحمته ﴿وَوَاعَدَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَعَ ذَلِكَ اللَّعْنُ مِنْهُ لَهَنَ فِي الدُّنْيَا﴾ ﴿سَعِيرًا﴾ أي: ناراً شديدة التسعر ﴿خَالِلِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ بلا انقطاع ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يواليهم، ويحفظهم من عذابها ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم، ويخلصهم منها، ويوم في قوله: ﴿يَوْمَ تَقْلَبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ ظرف لقوله: لا يجنون، وقيل: لخالين، وقيل: لنصيرها، وقيل: لفعل مقدر، وهو: انكسر. قرأ الجمهور (تقلب) بضم التاء، وفتح اللام على البناء للمفعول. وقرأ عيسى الهمداني، وابن أبي إسحاق (تقلب) بالنون، وكسر اللام على البناء للفاعل، وهو: الله سبحانه. وقرأ

وكان ناس من المنافقين يتعرّضون لهم، فيؤذنين، ف قيل: تلك للمنافقين، فقالوا: إنما نفعلهم بالإماء، فنزلت هذه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ الْآيَةَ. وَأُخْرِجَ ابْنَ سَعْدٍ عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَتَعَرَّضُ لِنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُؤْذِنُهُنَّ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ قَالَ: كُنْتُ أَحْسِبُهَا أُمَّةً، فَأَمْرَهُنَّ أَنَّ يَخْلَفْنَ زَيَّْ الْإِمَاءِ، وَيَنْدِينُ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيْبِهِنَّ تَخْمُرُ وَجْهَهَا إِلَّا أَحْدَى عَيْنَيْهَا ﴿تِلْكَ أُنثَى أَنْ يَعْرِفَنَّ﴾ يَقُولُ: تِلْكَ أُخْرَى أَنْ يَعْرِفَنَّ. وَأُخْرِجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنَ مَرْثُومٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: أَمَرَ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا خَرَجْنَ مِنْ بَيْوتِهِنَّ فِي حَاجَةٍ: أَنْ يَغْطِينَ وَجُوهَهُنَّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِنَّ بِالْجَلَابِيْبِ، وَيُبْدِينَ عَيْنًا وَاحِدَةً. وَأُخْرِجَ عَبْدَ الرَّزَاقِ، وَعَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَابْنَ الْمُنْذِرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنَ مَرْثُومٍ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿يُبْدِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيْبِهِنَّ﴾ خَرَجَ نِسَاءُ الْانصَارِ كَانَ رُؤُوسُهُنَّ الْغُرَبَانَ مِنَ السَّكِينَةِ، وَعَلَيْهِنَّ أَكْسِيَّةٌ سَوْدٌ يَلْبَسْنَهَا، هَكَذَا فِي الزَّوَادِ بِلَفْظٍ مِنَ السَّكِينَةِ، وَلَيْسَ لَهَا مَعْنَى، فَإِنَّ الْمُرَادَ تَشْبِيهِ الْأَكْسِيَّةِ السَّوْدِ بِالْغُرَبَانَ، لَا أَنَّ الْمُرَادَ وَصْفَهُنَّ بِالسَّكِينَةِ كَمَا يُقَالُ: كَانَ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرِ. وَأُخْرِجَ ابْنَ مَرْثُومٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: رَحِمَ اللَّهُ نِسَاءَ الْانصَارِ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ الْآيَةَ﴾ شَقَقْنَ مَرْوِطَهُنَّ، فَأَعْتَجَرْنَ بِهَا، وَصَلَيْنَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَمَا عَلَى رُؤُوسِهِنَّ الْغُرَبَانَ. وَأُخْرِجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ مَرْثُومٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: كَانَتْ الْحَرَّةُ تَلْبَسُ لِبَاسَ الْأَمَةِ، فَأَمَرَ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ: أَنْ يَنْدِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيْبِهِنَّ، وَإِنَاءَ الْجَلَابِيبِ: أَنْ تَقْنَعْنَ، وَتَشْدَهُ عَلَى جَبِينِهَا. وَأُخْرِجَ ابْنَ سَعْدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَنْ لَمْ يَنْتَهَ الْمُنَافِقُونَ﴾ يَعْنِي: الْمُنَافِقِينَ بِأَعْيَانِهِمْ ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شَكٌّ: يَعْنِي: الْمُنَافِقِينَ أَيْضًا. وَأُخْرِجَ ابْنَ سَعْدٍ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ بْنِ جَبْرِ قَالَ: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمَرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هُمُ: الْمُنَافِقُونَ جَمِيعًا. وَأُخْرِجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ الْمُنْذِرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَنُغْفِرَنَّ لَهُمْ﴾ قَالَ: لَنَسْلُطَنَّ عَلَيْهِمْ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكَلَّمُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى قَبْرَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿١٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴿١٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿١٨﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴿١٩﴾ لَعَذَابُ اللَّهِ أَكْثَرُ لِلْمُكَذِّبِينَ وَالْمُكَذِّبَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَةِ وَتَوَبَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ هو قولهم: إن به أثرة، أو برصاً، أو عيباً، وسيأتي بيان ذلك آخر البحث، وفيه تاليب للمؤمنين، وزجر لهم عن أن يخلوا في شيء من الأمور التي تؤذي رسول الله. قال مقاتل: وعظ الله

عيسى أيضاً بضم التاء، وكسر اللام على معنى: تقلب السعير وجوهمهم. وقرأ أبو حيو، وأبو جعفر، وشيبة بفتح التاء واللام على معنى: تتقلب، ومعنى هذا التقلب المنكور في الآية: هو: تقلبها تارة على جهة منها، وتارة على جهة أخرى ظهر لأبطن، أو تغير ألوانهم بلفح النار، فتسود تارة، وتخضر أخرى، أو تبديل جلودهم بجلود أخرى، فحينئذ يقولون ياليتنا اطعنا الله واطعنا للرسول! والجمله مستأنفة كأنه قيل: فما حالهم؟ فقيل: يقولون، ويجوز: أن يكون المعنى: يقولون يوم تقلب وجوهمهم في النار ياليتنا إلخ. تمنوا: أنهم أطاعوا الله والرسول، وأمنوا بما جاء به؛ لينجوا مما هم فيه من العذاب كما نجا المؤمنون، وهذه الألف في الرسول، والألف التي ستأتي في «السبيل» هي: الألف التي تقع في الفواصل، ويسمى النحاة ألف الإطلاق، وقد سبق بيان هذا في أول هذه السورة ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَابِقَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى، والمراد بالساداة والكبراء هم: الرؤساء والقادة الذين كانوا يمثلون أمرهم في الدنيا، ويقتدون بهم، وفي هذا زجر عن التقليد شديد، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، والتحذير منه، والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله، ويقتدي به، وينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم، ومزيد البِلادة، وشدة التعصب. وقرأ الحسن، وابن عامر (ساداتنا) بكسر التاء جمع سادة، فهو: جمع الجمع. وقال مقاتل: هم: المطعمون في غزوة بدر، والأول أبلى، ولا وجه للتخصيص بطائفة معينة ﴿فَافْضَلُونَا لِلْسَبِيلِ﴾ أي: عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر بالله، ورسوله، والسبيل هو: التوحيد، ثم دعوا عليهم في ذلك الموقف، فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَنْتُمْ ضَعُفْتُمْ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: مثل عذابنا مرتين. وقال قتادة: عذاب الدنيا، والآخرة، وقيل: عذاب الكفر، وعذاب الإضلال ﴿وَالْعَذَابُ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ الجمهور (كثيراً) بالمثلثة: أي: لعناً كثير العدد عظيم القدر شديد الموقع، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد، والنحاس، وقرأ ابن مسعود، وأصحابه، ويحيى بن وثاب، وعاصم بالباء الموحدة: أي: كبيراً في نفسه شديداً عليهم ثقیل الموقع.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قال: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرأها عمر، فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين؟ قال: فانكفات راجعة، ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عرق، فدخلت، وقالت: يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر: كذا وكذا، فأوحى إلي، ثم رفع عنه، وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أتت لكن: أن تخرجن لحاجتك، وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: كان نساء النبي ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن،

المؤمنين: أن لا يؤذوا محمداً ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى. وقد وقع الخلاف فيما أؤذي به نبينا محمد ﷺ حتى نزلت هذه الآية، فحكى النقاش: أن أنيتهم محمداً قولهم: زيد بن محمد. وقال أبو وائل: إنه ﷺ قسم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، وقيل: نزلت في قصة زيد بن ثابت، وزينب بنت جحش، وما سمع فيها من قالة الناس، ومعنى «وكان عند الله وجهها»: وكان عند الله عظيماً ذا وجهة، الوجهية عند الله العظيم القبر الرفيع المنزلة، وقيل: في تفسير الوجهية: إنه كلمه تكليماً. قرأ الجمهور (وكان عند الله) بالنون على الظرفية المجازية، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وأبو حيوة عبد الله بالباء الموحدة من العبودية، وما في قوله: «فبَرَّاهُ الله مما قالوا» هي: الموصولة، أو المصدرية: أي: من الذي قالوه، أو من قولهم: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله» أي: في كل أمر من الأمور «وقولوا قولاً سديداً» أي: قولاً صواباً، وحقاً. قال قتادة، ومقاتل: يعني: قولوا قولاً سديداً في شأن زيد، وزينب، ولا تنسبوا النبي ﷺ إلى ما لا يحل. وقال عكرمة: إن القول السديد: لا إله إلا الله. وقيل: هو الذي يوافق ظاهره باطنه، وقيل: هو ما أريد به وجه الله دون غيره، وقيل: هو الإصلاح بين الناس. والسديد مأخوذ من تسديد السهم: ليصاوب به الغرض، والظاهر من الآية: أنه أمرهم بأن يقولوا قولاً سديداً في جميع ما يأتونه، ويذرونه، فلا يخص ذلك نوعاً دون نوع، وإن لم يكن في اللفظ ما يقتضي العموم، فالمقام يفيد هذا المعنى، لأنه أرشد سبحانه عباده إلى أن يقولوا قولاً يخالف قول أهل الأذى. ثم نكر ما لهؤلاء الذين امتثلوا الأمر بالتقوى، والقول السديد من الأجر، فقال: «يصلح لكم أعمالكم» أي: يجعلها صالحة لا فاسدة بما يهنيهم إليه، ويوفقه في «ويغفر لكم ذنوبكم» أي: يجعلها مكفرة مغفورة «ومن يطع الله ورسوله» في فعل ما هو طاعة، واجتنب ما هو معصية «فقد فاز فوزاً عظيماً» أي: ظفر بالخير ظفراً عظيماً، ونال خير الدنيا والآخرة، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما سبقها، ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما لأهل الطاعة من الخير بعد بيان ما لأهل المعصية من العذاب بين عظم شأن التكليف الشرعية، وصعوبة أمرها، فقال: «إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها».

واختلف في تفسير هذه الأمانة المذكورة هنا، فقال الواحدي: معنى الأمانة ههنا في قول جميع المفسرين: الطاعة، والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب، وبتضييعها العقاب. قال القرطبي: والأمانة تعم جميع وصائص الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور.

وقد اختلف في تفاصيل بعضها، فقال ابن مسعود: هي في أمانة الأموال كالودائع، وغيرها، وروي عنه: أنها في كل الفرائض، وأشدّها أمانة المال. وقال أبي بن كعب: من

الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها. وقال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة، وإن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها. وقال ابن عمر: أول ما خلق الله من الإنسان فرجه، وقال: هذه أمانة استودعها، فلا تلبسها إلا بحق، فإن حفظتها حفظتكَ. فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له. وقال السدي: هي: ائتمان آدم لابنه قابيل على ولده هابيل، وخيانتة إياه في قتله. وما أبعد هذا القول، وليت شعري ما هو الذي سوغ للسدي تفسير هذه الآية بهذا، فإن كان ذلك لليل له على ذلك فلا ليل، وليست هذه الآية حكاية عن الماضين من العباد حتى يكون له في ذلك متمسك أبعد من كل بعيد، وأوهن من بيوت العنكبوت، وإن كان تفسير هذا عملاً بما تقتضيه اللغة العربية، فليس في لغة العرب ما يقتضي هذا، ويوجب حمل هذه الأمانة المطلقة على شيء كان في أول هذا العالم، وإن كان هذا تفسيراً منه بمحض الرأي، فليس الكتاب العزيز عرضة لتلاعب آراء الرجال به، ولهذا ورد الوعيد على من فسر القرآن براه، فاحذر أيها الطالب للحق عن قبول مثل هذه التفاسير، واشدد يدك في تفسير كتاب الله على ما تقتضيه اللغة العربية، فهو قرآن عربي كما وصفه الله، فإن جاءك التفسير عن رسول الله ﷺ، فلا تلتفت إلى غيره، وإذا جاء نهر الله بطل نهر مقل، وكذلك ما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم من جملة العرب، ومن أهل اللغة، ومن جمع إلى اللغة العربية العلم بالاصطلاحات الشرعية، ولكن إذا كان معنى اللفظ أوسع مما فسروه به في لغة العرب، فعليك أن تضم إلى ما ذكره الصحابي ما تقتضيه لغة العرب، وأسرارها، فخذ هذه كلية تنتفع بها، وقد ذكرنا في خطبة هذا التفسير ما يرشدك إلى هذا. قال الحسن: إن الأمانة عرضت على السموات والأرض، والجبال، فقالت: وما فيها؟ فقال لها: إن أحسنت أجرتك، وإن أسأت عذبتك، فقالت: لا. قال مجاهد: فلما خلق الله آدم عرضها عليه، وقيل له ذلك، فقال: قد تحملتها. وروي نحو هذا عن غير الحسن، ومجاهد. قال النحاس: وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير. وقيل: هذه الأمانة هي ما أودعه الله في السموات، والأرض، والجبال، وسائر المخلوقات من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها، فأظهروها، إلا الإنسان، فإنه كتمها، وجدها. كذا قال بعض المتكلمين مفسراً للقرآن براهيه الزائف، فيكون على هذا معنى عرضنا: أظهروا. قال جماعة من العلماء: ومن المعلوم أن الجما لا يفهم، ولا يجيب، فلا بد من تقدير الحياة فيها، وهذا العرض في الآية هو عرض تخيير لا عرض إلزام. وقال القفال، وغيره: العرض في هذه الآية ضرب مثل: أي إن السموات والأرض، والجبال على كبر أجزائها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لنقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب، والعقاب: أي: أن التكليف أمر عظيم حقه أن تعجز عنه السموات والأرض،

والجبال، وقد كلفه الإنسان، وهو ظلوم جهول لو عقل، وهذا كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ [الحشر: 21] وقيل: إن عرضنا بمعنى عارضنا: أي: عارضنا الأمانة بالسموات والأرض، والجبال، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة، ورجحت الأمانة بثقلها عليها، وقيل: إن عرض الأمانة على السموات والأرض، والجبال إنما كان من آدم عليه السلام، وأن الله أمره أن يعرض ذلك عليها، وهذا أيضاً تحريف لا تفسير، ومعنى ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: أي: التزم بحملها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه جهول لما يلزمه، أو جهول لقدر ما نخل فيه كما قال سعيد بن جبیر، أو جهول بربه كما قال الحسن، وقال الزجاج: معنى حملها: خان فيها، وجعل الآية في الكفار، والفساق، والعصاة، وقيل: معنى حملها: كلفها، وألزمها، أو صار مستعداً لها بالقطرة، أو حملها عند عرضها عليه في عالم الذر عند خروج نرية آدم من ظهره، وأخذ الميثاق عليهم، واللام في ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقَاتِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ متعلق بحملها أي: حملها الإنسان: ليعذب الله العاصي، ويثيب المطيع، وعلى هذا، فجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ معترضة بين الجملة، وغايتها للإيدان بعدم وفائه بما تحمله. قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حبان: ليعذبهم بما خانوا من الأمانة، وكتبوا من الرسل، ونقضوا من الميثاق الذي أقرؤا به حين أخرجوا من ظهر آدم. وقال الحسن، وقتادة: هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها، وهؤلاء الذين يتوب الله عليهم هم الذين أنوها، وقال ابن قتيبة: أي: عرضنا ذلك، ليظهر نفاق المنافق، وشرك المشرك، فيعذبهما الله، ويظهر إيمان المؤمن، فيتوب الله عليه: أي: يعود عليه بالمغفرة والرحمة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات، ولذلك نكر بلفظ التوبة، يدل على أن المؤمن العاصي خارج من العذاب ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة للمؤمنين من عباده إذا قصروا في شيء مما يجب عليهم. وقد قيل: إن المراد بالأمانة العقل، والراجع ما قدمنا عن الجمهور، وما عداه، فلا يخلو عن ضعف لعدم وروده على المعنى العربي، ولا انطباقه على ما يقتضيه الشرع، ولا موافقته لما يقتضيه تعريف الأمانة.

وقد أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فإذا من أذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما تستر هذا الستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئ موسى مما قالوا، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبراه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر

وقد أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فإذا من أذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما تستر هذا الستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئ موسى مما قالوا، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبراه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر

فيها، فما كان إلا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب النذب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً من طريق أخرى نحوه.

تفسير سورة سبأ

وهي مكية. قال القرطبي في قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها، وهي قوله: ﴿وَيُرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سبأ: 6]، فقلت فرقة: هي: مكية، وقالت فرقة: هي: مدنية، وسيأتي الخلاف في معنى هذه الآية إن شاء الله، وفيمن نزلت. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة سبأ بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمِثْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ
لَكُمُ الْكَافِرُ الْغَيْبُ ۝ يَلْعَلُ مَا يُلَاحِظُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ
السَّمَاءِ وَمَا يَصْعَدُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْقَهُورُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا
السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ ۝ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَجْلِيكَ لَمْ
تَغْفِرْ وَرَبُّكَ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُنْجِبِينَ أُولَٰئِكَ هُمُ
صَدَابُ مَنْ يَجْزِي أَلِيمٌ ۝ وَرَبِّي الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ
رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
هَلْ نَدُلُّكَ عَلَىٰ بَيْعَتِكُمْ إِنِذَا مَرَفَتْ كُلُّ مَرْفَةٍ إِنَّكُمْ لَعِنَّا عَاقِبَةُ
أَعْدَائِكُمْ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبٌ أَمْ بِهِ جُنَّةٌ بَلَىٰ الَّذِينَ لَا يُوَفُّونَ الْآخِرَةَ فِي الْعَذَابِ
وَالنَّارِ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ شَيْئًا خَفِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ شَقِيطٌ عَلَيْهِمْ كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝

قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعريف الحمد مع لام الاختصاص مشعران باختصاص جميع أقراد الحمد بالله سبحانه على ما تقدم تحقيقه في فاتحة الكتاب، والموصول في محل جر على النعت، أو البذل، أو النصب على الاختصاص، أو الرفع على تقدير مبتدأ، ومعنى ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: أن جميع ما هو فيها في ملكه، وتحت تصرفه يفعل به ما يشاء، ويحكم فيه بما يريد، وكل نعمة واصله إلى العبد، فهي مما خلقه له، ومن به عليه، فحمده على ما في السموات والأرض هو: حمد له على النعم التي أنعم بها على خلقه مما خلقه لهم. ولما بين: أن الحمد النبوي من عباده الحامدين له مختص به بين أن الحمد الأخروي مختص به كذلك، فقال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾، وقوله: ﴿لَهُ﴾ متعلق بنفس الحمد، أو بما تعلق به خبر الحمد أعني:

في الآخرة، فإنه متعلق بمتعلق عام هو: الاستقرار، أو نحوه، والمعنى: أن له سبحانه على الاختصاص حمد عباده الذين يحملونه في الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة كما في قوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَفَقَنَا وَعَدَهُ﴾ [الزمر: 74] وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: 43] وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: 34] وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: 35]، وقوله: ﴿وَأَخَّرَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 10]، فهو سبحانه المحمود في الآخرة كما أنه المحمود في الدنيا، وهو: المالك للآخرة كما أنه المالك للدنيا وهو الحكيم الذي أحكم أمر الدارين ﴿الْخَبِيرُ﴾ بامر خلقه فيهما، قيل: والفرق بين الحمين: أن الحمد في الدنيا عبادة، وفي الآخرة تلذذ، وابتهاج، لأنه قد انقطع التكليف فيها، ثم ذكر سبحانه بعض ما يحيط به علمه من أمور السموات والأرض، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يُلَاحِظُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها من مطر، أو كنز، أو نفين ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من ذرع، ونبات، وحيوان ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار، والثلوج، والبرد، والصواعق، والبركات، ومن ذلك ما ينزل منها من ملائكته، وكتبه إلى أنبيائه ﴿وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا﴾ من الملائكة، وأعمال العباد. قرأ الجمهور «ينزل» بفتح الباء، وتخفيف الزاي مسنداً إلى «ما»، وقرأ علي بن أبي طالب، والسلمي بضم الباء وتشديد الزاي مسنداً إلى الله سبحانه ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بعباده «الغفور» لذنوبهم ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِيَنَّ السَّاعَةُ﴾ المراد بهؤلاء القائلين جنس الكفرة على الإطلاق، أو كفار مكة على الخصوص، ومعنى لا تأتينا الساعة: أنها لا تأتي بحال من الأحوال، إنكاراً منهم لوجودها لا لمجرد إتيانها في حال تكلمهم، أو في حال حياتهم مع تحقق وجودها فيما بعد، فردَّ الله عليهم، وأمر رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وهذا القسم لتأكيد الإتيان، قرأ الجمهور «لتأتينكم» بالوقية: أي الساعة، وقرأ طلق المعلم بالتحية على تاويل الساعة باليوم، أو الوقت. قال طلق: سمعت أسيافنا يقرعون بالياء: يعني: التحية على المعنى، كأنه قال: ليأتينكم البعث، أو أمره كما قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: 33] قرأ نافع، وابن عامر (عالم الغيب) بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره لا يعزب، أو على تقدير مبتدأ، وقرأ عاصم، وابن كثير، وأبو عمرو بالجر على أنه نعت لربي، وقرأ حمزة، والكسائي (علام) بالجر مع صيغة المبالغة، ومعنى ﴿لَا يَعْزُبُ﴾: لا يغيب عنه، ولا يستتر عليه، ولا يبعد عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك المتقال ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ منه ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، وهو: اللوح المحفوظ. والمعنى: إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ الذي اشتمل على معلومات الله سبحانه، فهو مؤكد لنفي العزوب. قرأ الجمهور (يعزب) بضم الزاي، وقرأ يحيى بن

ويقبضن ﴿[الملك: 19] أي: وقابضات كأنه قيل: وهادياً، وقيل: إنه مستأنف، وفاعله ضمير يرجع إلى فاعل أنزل، وهو: القرآن. والصراط الطريق: أي: ويهدي إلى طريق ﴿العزیز﴾ في ملكه ﴿الحميد﴾ عند خلقه، والمراد: أنه يهدي إلى بين الله، وهو: التوحيد. ثم نكر سبحانه نوعاً آخر من كلام منكري البعث، فقال: ﴿وقال النين كفروا﴾ أي: قال بعض لبعض: ﴿هل ننبئكم على رجل﴾. يعنون: محمداً ﷺ أي: هل نرشدكم إلى رجل ﴿ينبئكم﴾ أي: يخبركم بأمر عجيب، ونبا غريب هو: أنكم ﴿إذا مررتم كل مرزق﴾ أي: فرقت كل فريق، وقطعتم كل تقطيع، وصرتم بعد موتكم رفاتاً وتراباً ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ أي: تخلقون خلقاً جديداً، وتبعثون من قبوركم أحياء، وتعودون إلى الصور التي كنتم عليها، قال هذا القول بعضهم لبعض استهزاء بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث، وأخرجوا الكلام مخرج التلهي به، والتضاحك مما يقوله من ذلك، وإنه في موضع نصب بقوله: ﴿مررتم﴾. قال النحاس: ولا يجوز: أن يكون العامل فيها ينبئكم، لأنه ليس خبرهم تلك الوقت. ولا يجوز: أن يكون العامل فيها ما بعد إن؛ لأنه لا يعمل فيما قبلها. وأجاز الزجاج: أن يكون العامل فيها محذوفاً، والتقدير: إذا مررتم كل مرزق بعثتم، أو نبئتم بأنكم تبعثون إذا مررتم، وقال الصنعوني: لا يجوز أن يعمل فيه مررتم؛ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف. وأصل المرزق خرق الأشياء، يقال: ثوب مزيق، وممزق، ومتمزق، وممزق. ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار: أنهم ردوا ما وعدهم به رسول الله ﷺ من البعث بين أمرين، فقالوا: ﴿افترى على الله كذباً لم به حجة﴾ أي: أهو كاذب فيما قاله أم به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله، والهمزة في افترى هي: همزة الاستفهام، وحذفت لأجلها همزة الوصل كما تقدم في قوله: ﴿أطلع الغيب﴾ [مريم: 78]، ثم رد عليهم سبحانه ما قالوه في رسوله، فقال: ﴿بل النين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، بل هم الذين ضلوا عن الفهم، وإبرك الحقائق، فكفروا بالآخرة، ولم يؤمنوا بما جاءهم به، فصاروا بسبب ذلك في العذاب الدائم في الآخرة، وهم اليوم في الضلال البعيد عن الحق غاية البعد. ثم وبخهم سبحانه بما اجترأ عليه من التكذيب مبيناً لهم أن ذلك لم يصدر منهم إلا لعدم التفكير، والتدبر في خلق السماء والأرض، وأن من قدر على هذا الخلق العظيم لا يعجزه أن يبعث من مخلوقاته ما هو دون ذلك، ويعيده إلى ما كان عليه من الذات والصفات، ومعنى ﴿إلى ما بين أيديهم وما خلفهم﴾: أنهم إذا نظروا رأوا السماء خلفهم، وقدامهم، وكذلك إذا نظروا في الأرض رأوها خلفهم، وقدامهم، فالسما والأرض محيطتان بهم، فهو: القادر على أن ينزل بهم ما شاء من العذاب بسبب كفرهم، وتكذيبهم لرسوله، وإنكارهم للبعث، فهذه الآية اشتملت على أمرين: أحدهما: أن هذا الخلق الذي خلقه الله

وثاب بكسرهما. قال الفراء: والكسر أحب إلي، وهما لغتان، يقال: عزب يعزب بالضم، ويعزب بالكسر إذا بعد، وغاب. وقرأ الجمهور «ولا أصغر، ولا أكبر» بالرفع على الابتداء، والخبر إلا في كتاب، أو على العطف على مثقال، وقرأ قتادة، والأعمش بنصبهما عطفاً على نزة، أو على أن لا هي لا التبرئة التي يبني اسمها على الفتح، واللام في ﴿ليجزى النين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ للتعليل لقوله: ﴿لنأتينكم﴾ أي: إتيان الساعة فائتته جزاء المؤمنين بالثواب، والكافرين بالعقاب، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الموصول: أي: أولئك الذين آمنوا، وعملوا الصالحات ﴿لهم مغفرة﴾ لنزوبهم ﴿ورزق كريم﴾، وهو الجنة بسبب إيمانهم، وعملهم الصالح مع التفضل عليهم من الله سبحانه. ثم نكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة، فقال: ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي: سعوا في إبطال آياتنا المنزلة على الرسل، وقدحوا فيها، وصنوا الناس عنها، ومعنى ﴿معاجزين﴾: مسابقين يحسبون: أنهم يفوتونها، ولا يدركون، وذلك باعتقادهم: أنهم لا يبعثون، يقال: عاجز، وأعجزه: إذا غلبه، وسبقه. قرأ الجمهور (معاجزين)، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحמיד، ومجاهد، وأبو عمرو «معجين» أي: مثبطين للناس عن الإيمان بالآيات ﴿أولئك﴾ أي: الذين سعوا ﴿لهم عذاب من رجز﴾ الرجز هو: العذاب، فمن للبيان، وقيل: الرجز هو: أسوأ العذاب، وأشده، والأول أولى. ومن ذلك قوله: ﴿فلنزلنا على النين ظلموا رجزاً من السماء﴾ [البقرة: 59] قرأ الجمهور (اليم) بالجر صفة لرجز. وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم بالرفع صفة لعذاب، والاليم الشديد الألم ﴿ويرى النين أوتوا للعلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ لما نكر الذين سعوا في إبطال آيات الله نكر الذين يؤمنون بها، ومعنى ﴿ويرى النين أوتوا للعلم﴾ أي: يعلمون، وهم الصحابة. وقال مقاتل: هم: مؤمنو أهل الكتاب، وقيل: جميع المسلمين، والموصول هو المفعول الأول ليرى، والمفعول الثاني الحق، والضمير هو: ضمير الفصل. وبالنصب قرأ الجمهور، وقرأ ابن أبي عبيدة بالرفع على أنه خبر الضمير، والجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني، وهي لغة تميم، فإنهم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، وزعم الفراء: أن الاختيار الرفع، وخالفه غيره، وقالوا: النصب أكثر، قيل: وقوله: ﴿يرى﴾ معطوف على ليجزي، وبه قال الزجاج، والفراء، واعترض عليهما بأن قوله: ﴿ليجزى﴾ متعلق بقوله ﴿لنأتينكم﴾ ولا يقال: لنأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق، والأولى أنه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا في الآيات: أي: إن ذلك السعي منهم يدل على جهلهم؛ لأنهم مخالفون لما يعلمه أهل العلم في شأن القرآن ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ معطوف على الحق عطف فعل على اسم، لأنه في تأويله كما في قوله: ﴿صافات

﴿وَلَمَّا جَنَّ النِّجْمُ عَدُوًّا مَثَرُ رَوَّاحِهَا مَثَرُ وَأَسْلَمَ لَمْ يَنْ أَطْلُقْ وَمِنْ
الْجَنِّ مَنْ يَمْلِكُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَذْنُ رِيْدَةً وَمِنْ بَرَجٍ مَثَرُ عَنْ أَمْرًا نَذَقَهُ مِنْ
عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾ يَمْلِكُونَ لَمْ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَمَنْ ثَمِيلٌ وَجَفَانٍ
كَالْمُكَاوِبِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا مَا لَكُمْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ
﴿١٨﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ
يَسَاءَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْإِنْسَانُ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ
الْمُهِينِ ﴿١٩﴾﴾

ثم نكر سبحانه من عباده المنيبين إليه داود، وسليمان
كما قال في داود: ﴿فاستغفر ربه وخر راكعاً واناب﴾ [ص: ٢٤]
وقال في سليمان: ﴿والقينا على كرسيه جسداً ثم
اناب﴾ [ص: ٣٤]، فقال: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً﴾ أي:
آتيناه بسبب إنابته فضلاً منا على سائر الأنبياء. واختلف في
هذا الفضل على أقوال: فقيل: النبوة، وقيل: الزبور، وقيل:
العلم، وقيل: القوة كما في قوله: ﴿وانكر عبيدا داود ذا
الأيدي﴾ [ص: ١٧] وقيل: تسخير الجبال كما في قوله: ﴿يا
جبال أوبي معه﴾ وقيل: التوبة، وقيل: الحكم بالعدل كما في
قوله: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين
الناس بالحق﴾ [ص: ٢٦] وقيل: هو: الأتة الحديد كما في
قوله: ﴿ولمَّا لَهُ الْحَيْدُ﴾، وقيل: حسن الصوت، والأولى أن
يقال: إن هذا الفضل المذكور هو ما نكره الله بعده من قوله:
﴿يا جبال﴾ إلى آخر الآية، وجملة ﴿يا جبال أوبي معه﴾
مقترة بالقول: أي: قلنا يا جبال. والتأويل: التسبيح كما في
قوله: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن﴾ [ص: ١٨]. قال أبو
ميسرة: هو: التسبيح بلسان الحبشة. وكان إذا سبح داود
سبحت معه، ومعنى تسبيح الجبال: أن الله يجعلها قادرة
على ذلك، أو يخلق فيها التسبيح معجزة لداود، وقيل: معنى
أوبي: سيرى معه، من التأويل الذي هو سير النهار أجمع،
ومنه قول ابن مقبل:

لحقنا بحي أوبوا السير بعده ما نفعنا شعاع الشمس والطرف منجن
قرأ الجمهور (أوبي) بفتح الهمزة، وتشديد الواو على
صيغة الأمر، من التأويل: وهو: الترجيع، أو التسبيح، أو
السير، أو النوح. وقرأ ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن أبي
إسحاق «أوبي» بضم الهمزة أمراً من آب يثوب إذا رجع: أي:
ارجعي معه. قرأ الجمهور (والطير) بالنصب عطفاً على
(فضلاً) على معنى: وسخرنا له الطير، لأن إيتاءه إياها
تسخيرها له، أو عطفاً على محل ﴿يا جبال﴾؛ لأنه منصوب
تقديره: إذ المعنى: تابنا الجبال، والطير. وقال سيبويه، وأبو
عمرو بن العلاء: انتصابه بفعل مضمع على معنى: وسخرنا
له الطير. وقال الزجاج، والنحاس: يجوز: أن يكون مفعولاً
معه كما تقول: استوى الماء، والخشب. وقال الكسائي: إنه
معطوف على فضلاً لكن على تقدير مضاف محذوف أي:
آتيناه فضلاً، وتسبيح الطير. وقرأ السلمي، والأعرج،
ويعقوب، وأبو نوفل، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم،
وابن هرمز، ومسلمة بن عبد الملك بالرفع عطفاً على لفظ

من السماء، والأرض يدل على كمال القدرة على ما هو بونه
من البعث كما في قوله: ﴿أوليس الذي خلق السموات
والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ [يس: ٨١]. والأمر
الأخر: التهديد لهم بأن من خلق السماء، والأرض على هذه
الهيئة التي قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما قادر على
تعجيل العذاب لهم ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض﴾ كما
خسف بقارون ﴿أو نسقط عليهم كسفاً﴾ أي: قطعاً ﴿من
السماء﴾ كما أسقطها على أصحاب الأيكة، فكيف يأمنون
ذلك. قرأ الجمهور (إن نشأ) بنون العظمة، وكذا (نخسف)،
(ونسقط). وقرأ حمزة، والكسائي بالياء التحتية في الأفعال
الثلاثة: أي: إن يشأ الله. وقرأ الكسائي وحده بإدغام الفاء في
الباء في «نخسف بهم». قال أبو علي الفارسي: وذلك غير
جائز؛ لأن الفاء من باطن الشفة السفلى، وأطراف الثنايا
العليا بخلاف الباء، وقرأ الجمهور (كسفاً) بسكون السين.
وقرأ حفص، والسلمي بفتحها ﴿إن في ذلك﴾ المذكور من
خلق السماء والأرض ﴿آية﴾ واضحة دلالة بينة ﴿لكل
عبد منيب﴾ أي: راجع إلى ربه بالتوبة، والإخلاص، وخص
المنيب؛ لأنه المنتفع بالتفكير.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿يعلم ما
يلج في الأرض﴾ قال: من المطر ﴿وما يخرج منها﴾ قال:
من النبات ﴿وما ينزل من السماء﴾ قال: من الملائكة ﴿وما
يعرج فيها﴾ قال: الملائكة، وأخرج عبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿من
رجز ليم﴾ قال: الرجز هو: العذاب الأليم الموجع، وفي
قوله: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ قال: أصحاب محمد.
وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال: يعني:
المؤمنين من أهل الكتاب. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن
حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في
قوله: ﴿وقال الذين كفروا هل ننلكم على رجل﴾ قال: قال
ذلك مشركو قريش ﴿إذا مررتم كل مرزق﴾ يقول: إذا
اكتلكم الأرض، وصرتم رفاتاً وعظاماً، وتقطعتم السباع،
والطير ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ إنكم ستحيون، وتبعثون،
قالوا ذلك تكديباً به ﴿افترى على الله كذباً أم به جنة﴾
قال: قالوا: إما أن يكون يكذب على الله، وإما أن يكون مجنوناً
﴿انقلهم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء
والأرض﴾ قالوا: إنك إن نظرت عن يمينك، وعن شمالك، ومن
بين يديك، ومن خلفك رأيت السماء والأرض ﴿إن نشأ
نخسف بهم الأرض﴾ كما خسفنا بمن كان قبلهم ﴿أو
نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي: قطعاً من السماء إن
يشأ أن يعذب بسماؤه فعل، وإن يشأ أن يعذب بأرضه فعل،
وكل خلقه له جند ﴿إن في ذلك آية لكل عبد منيب﴾ قال:
ثائب مقبل إلى الله.

﴿لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أَوْبَى مَمَرٍ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْخَبِيرُ
﴿١٩﴾ أَن أَعْلَى سَيِّغَتِ وَقَدَّرَ فِي أَلْتَرَةِ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

الجبال، أو على المضممر في أوبي لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه **﴿وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ﴾** معطوف على آتيناه: أي: جعلناه لنا؛ ليعمل به ما شاء. قال الحسن: صار الحديد كالشمع يعمل به من غير نار. وقال السدي: كان الحديد في يده كالطين المبلول، والعجين، والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار، ولا ضرب بمطرقة، وكذا قال مقاتل، وكان يفرغ من عمل الدرع في بعض يوم **﴿إِنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ﴾** في أن هذه وجهان: أحدهما: أنها مصدرية على حذف حرف الجر: أي: بأن يعمل، والثاني أنها المفسرة لقوله: **﴿وَالنَّارُ﴾**، وفيه نظر؛ لأنها لا تكون إلا بعد القول، أو ما هو في معناه. وقدّر بعضهم فعلاً فيه معنى القول، فقال التقدير: وأمرناه أن نعمل. وقوله: **﴿سَابِغَاتٍ﴾** صفة لموصوف محنوف: أي: دروعاً سابغات، والسابغات الكوامل الواسعات، يقال: سبغ الدرع، والثوب، وغيرهما: إذا غطي كل ما هو عليه، وفضل منه فضلة **﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾** السرد نسج الدروع، ويقال: السرد والزرّد كما يقال: السرد، والزراد لصانع الدروع، والسرد أيضاً الخرز، يقال: سرد يسرد: إذا خرز، ومنه سرد الكلام: إذا جاء به متوالياً، ومنه حديث عائشة: لم يكن النبي ﷺ يسرد الحديث كسرركم. قال سيبويه: ومنه سريد: أي: جري، ومعنى سرد الدروع: إحكامها، وأن يكون نظم حلقها ولاء غير مختلف، ومنه قول لبيد:

سرد الدروع مضاعفاً أسراده لينال طول العيش غير مروم
وقول أبي نؤيب الهنلي:

وعليهما مسروبتان قضاهما داود إذ صنع السوابغ تبع
قال قتادة: كانت الدروع قبل داود ثقلاً، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع الخفة والحصانة: أي: قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه، فلا تقصد الحصانة فيثقل، ولا الخفة فيزيل المنعة، وقال ابن زيد: التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة: أي: لا تعملها صغيرة فتضعف ولا يقوى الدرع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها. وقيل: إن التقدير هو في المسمار: أي: لا تجعل مسمار الدرع دقيقاً فيقلق، ولا غليظاً فيفصم الحلق. ثم خاطب داود، وأمله، فقال: **﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً﴾** أي: غملاً صالحاً كما في قوله: **﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾** ثم علل الأمر بالعمل الصالح بقوله: **﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** أي: لا يخفى علي شيء من ذلك **﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ﴾** قرأ الجمهور (الريح) بالنصب على تقدير: وسخرنا لسليمان الريح كما قال الزجاج، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه بالرفع على الابتداء، والخبر: أي: ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ ثابتة أو مسخرة، وقرأ الجمهور (الريح)، وقرأ الحسن، وأبو حيوة، وخالد بن إلياس (الرياح) بالجمع **﴿غَدَوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّلَهَا شَهْرٌ﴾** أي: تسير بالغداة مسيرة شهر، وتسير بالعشي كذلك، والجملة إما مستأنفة لبيان تسخير الريح، أو في محل نصب على الحال، والمعنى: أنها كانت تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين. قال

الحسن: كان يغدو من دمشق، فيقيل بإصطخر، وبينهما مسيرة شهر للمسرّع، ثم يروح من إصطخر، فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر **﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾** القطر: النحاس الذائب. قال الواحدي: قال المفسرون: أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام لبلياليهن كجري الماء، وإنما يعمل الناس اليوم بما أعطي سليمان، والمعنى: أسلنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود، وقال قتادة: أسأل الله له عيناً يستعملها فيما يريد **﴿وَمَنْ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾** من مبتدأ، ويعمل خبره، ومن الجنّ متعلق به، أو محنوف على أنه حال، أو من يعمل معطوف على الريح، ومن الجنّ حال، والمعنى: وسخرنا له من يعمل بين يديه حال كونه من الجنّ بإذن ربه: أي: بأمره. والإذن مصدر مضاف إلى فاعله، والجار والمجرور في محل نصب على الحال: أي: مسخراً أو ميسراً بأمر ربه **﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾** أي: ومن يعدل من الجنّ عن أمرنا الذي أمرناه به: وهو طاعة سليمان **﴿فَنَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾** قال أكثر المفسرين: وذلك في الآخرة، وقيل: في الدنيا. قال السدي: وكل الله بالجنّ ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاع عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة فتحرّقه، ثم ذكر سبحانه ما يعمله الجنّ لسليمان، فقال: **﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾**، ومن: أي: قوله: **﴿مَنْ مَحَارِبٍ﴾** للبيان، والمحارب في اللغة كل موضع مرتفع، وهي: الأبنية الرفيعة، والقصور العالية. قال المبرد: لا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرج، ومنه قيل: للذي يصلي فيه محراب؛ لأنه يرفع ويعظم. وقال مجاهد: المحارب نون القصور. وقال أبو عبيدة: المحراب أشرف بيوت الدار، ومنه قول الشاعر:

وماذا عليّ إن نكرت لوانسا كغزلان رمل في محارب أقبال
وقال الضحاك: المراد بالمحارب هنا المساجد، والتماثيل جمع تماثيل، وهو كل شيء مثله بشيء: أي: صورته بصورته من نحاس، أو زجاج، أو رخام، أو غير ذلك. قيل: كانت هذه التماثيل صور الأنبياء، والملائكة، والعلماء، والصالحاء، وكانوا يصوّرونها في المساجد؛ ليراها الناس، فيزدادوا عبادة واجتهاداً. وقيل: هي تماثيل أشياء ليست من الحيوان. وقد استدل بهذا على أن التصوير كان مباحاً في شرع سليمان، ونسخ ذلك بشرع نبينا محمد ﷺ. والجنان جمع جفنة، وهي: القصعة الكبيرة، والجواب جمع جابية، وهي: حفيرة كالحوض، وقيل: هي الحوض الكبير يجبي الماء: أي: يجمعه. قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: قصاعاً في العظم كحياض الإبل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل ياكلون منها. قال النحاس: الأولى إثبات الياء في الجوابي، ومن حذف الياء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا تغيرها عن حالها، فلما كان يقال جواب، وبخلت الألف واللام أقرّ على حاله، فحذف الياء. قال الكسائي: يقال: جبوت الماء، وجبيته في الحوض: أي: جمعته، والجابية الحوض الذي يجبي فيه الماء للإبل. وقال النحاس:

ويجوز: أن يكون تبينت الجن من تبين الشيء، لا من تبين الشيء: أي: ظهر، وتجلي، وأن وما في حيزها بدل اشتغال من الجن مع تقدير محذوف: أي: ظهر أمر الجن للناس أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، أو ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب إلخ. قرأ الجمهور (تبينت) على البناء للفاعل مستنداً إلى الجن. وقرأ ابن عباس ويعقوب (تبينت) على البناء للمفعول، ومعنى القراءتين يعرف مما قلنا.

وقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوَيْيَ مَعَهُ﴾ قال: سبحي معه، وروي مثله عن أبي ميسرة، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وابن زيد. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَلِّاْ لَهُ الْحَيِّدَ﴾ قال: كالعجين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه أيضاً في قوله: ﴿وَوَقَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ قال: حلق الحديد. وأخرج عبد الرزاق، والحاكم عنه أيضاً ﴿وَوَقَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ قال: لا تتق المسامير، وتوسع الحلق، فتسلس، ولا تغلظ المسامير، وتضيق الحلق، فتقصر، واجعله قدراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه أيضاً في قوله: ﴿وَوَاسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَاطِرِ﴾ قال النحاس. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: القطر النحاس لم يقدر عليها أحد بعد سليمان، وإنما يعمل الناس بعده فيما كان أعطي سليمان. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: القطر الصفر. وأخرج الحكيم الترمذي في نوارى الأصول عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَتَمَّائِلِ﴾ قال: اتخذ سليمان تمائيل من نحاس فقال: يا رب انفخ فيها الروح، فإنها أقوى على الخيمة، فنفخ الله فيها الروح، فكانت تخدمه، وكان اسفنديار من بقاياهم، فقبل لداود وسليان: ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿كَالْجَوَابِ﴾ قال: كالجوبة من الأرض ﴿وَقَدُورَ رَاسِيَاتٍ﴾ قال: أثافيها منها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَوَقَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ يقول: قليل من عبادي الموحدين توحيدهم. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً قال: لبث سليمان على عصاه حولا بعد ما مات، ثم خر على رأس الحول، فاخذت الجن عصاه حولا بعد ما مات، ودابة مثل دابته، فأسلوها عليها، فاكلتها في سنة، وكان ابن عباس يقرأ ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ الآية، قال سفيان: وفي قراءة ابن مسعود «وهم يدايون له حولا». وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن السني، وابن مردويه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال «كان سليمان إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا، وكذا، فيقول: لما أنت؟ فتقول: لكذا، وكذا، فإن كانت لغرس غرست، وإن كانت لدواء كتبت»، وصلى ذات يوم، فإذا شجرة نابتة بين يديه، فقال لها: ما

والجابية القدر العظيمة، والحوض العظيم الكبير الذي يجبي فيه الشيء: أي: يجمع، ومنه جبيت الخراج، وجبيت الجراد: جمعته في الكساء ﴿وَقَدُورَ رَاسِيَاتٍ﴾ قال قتادة: هي: قدور النحاس تكون بفارس، وقال الضحاك: هي: قدور تنحت من الجبال الصم عملتها له الشياطين. ومعنى راسيات: ثابتات لا تحمل، ولا تحرك لعظمتها. ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم: أي: سليمان وأهله، فقال: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ أي: وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما أتاكم، أو اعملوا عملاً شكراً على أنه صفة مصدر محذوف، أو اعملوا للشكر على أنه مفعول له، أو حال: أي: شاكرين، أو مفعول به، وسميت الطاعة شكراً لأنها من جملة أنواعه، أو منصوب على المصدرية بفعل مقتر من جنسه: أي: اشكروا شكراً. ثم بين بعد أمرهم بالشكر أن الشاكرين له من عبادته ليسوا بالكثير، فقال: ﴿وَوَقِّلِيلٍ مِنْ عِبَادِي لِلشُّكْرِ﴾ أي: العامل بطاعتي الشاكر لنعمتي قليل. وارتفاع قليل على أنه خبر مقمّم، ومن عبادي صفة له، والشكور مبتدأ ﴿فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ الْمَوْتُ﴾ أي: حكمنا عليه به، والزمناه إياه ﴿مَا نَلَهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ يعني: الأرض. وقرئ (الأرض) بفتح الراء: أي: الأكل، يقال: أرضت الخشبة أرضاً: إذا اكلتها الأرض. ومعنى تاكل منسلته: تاكل عصاه التي كان مكتأ عليها، والمنساة: العصا بلغة الحبشة، أو هي مأخوذة من نسات الغنم: أي: زجرتها. قال الزجاج: المنساة التي ينسا بها: أي: يطرد. قرأ الجمهور (منساة) بهمزة مفتوحة. وقرأ ابن نكوان بهمزة ساكنة. وقرأ نافع، وأبو عمرو بألف محضة. قال المبرد: بعض العرب يبذل من همزتها ألفاً، وانشد:

إذا دببت على المنساة من كبر فقد تباعد عنك اللهو والغزل
ومثل قراءة الجمهور قول الشاعر:
ضربنا بمنساة وجهه فصار بذاك مهيناً نليلاً
ومثله:

أمن أجل حبل لا أبك ضربته بمنساة قد جرّ حبلك أحبلاً
ومما يدل على قراءة ابن نكوان قول طرفة:
أمرن كالواح الأران نساتها على لاحب كانه ظهر برجد
﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ أي: ظهر لهم، من تبينت الشيء إذا علمته: أي: علمت الجن: ﴿وَأَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي: لو صح ما يزعمونه من أنهم يعلمون الغيب لعلوا بموته، ولم يلبثوا بعد موته مدة طويلة في العذاب المهين في العمل الذي أمرهم به، والطاعة له، وهو إذ ذاك ميت. قال مقاتل: العذاب المهين: الشقاء، والنصب في العمل. قال الواحدي: قال المفسرون: كانت الناس في زمان سليمان يقولون: إن الجن تعلم الغيب، فلما مكث سليمان قائماً على عصاه حولا ميتاً، والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة التي كانت تعمل في حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى اكلت الأرض عصاه، فخر ميتاً، فعملوا بموته، وعلم الناس: أن الجن لا تعلم الغيب،

اسم مكان، وأريد به معنى: الجمع، وهذه المساكن التي كانت لهم هي: التي يقال لها الآن: مارب، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال، ومعنى قوله: ﴿آيَةً﴾ أي: علامة دالة على كمال قدرة الله، وبيع صنعاء، ثم بين هذه الآية، فقال: ﴿جنتان﴾، وارتفاعهما على البذل من آية قاله الفراء، أو على أنهما خبر مبتدأ محذوف قاله الزجاج، أو على أنهما مبتدأ، وخبره ﴿عن يمين وشمال﴾، واختار هذا الوجه ابن عطية، وفيه أنه لا يجوز الابتداء بالنكرة من غير مسوغ، وقرأ ابن أبي عبيدة «جنتين» بالنصب على أنهما خبر ثان، واسمها: آية، وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله، قد أحاطتا به من جهتيه، وكانت مساكنهم في الوادي، والآية هي: الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما، وعلى رأسها المكل، فيمتلئ من أنواع الفواكه التي تتساقط من غير أن تمسها بيدها، وقال عبد الرحمن بن زيد: إن الآية التي كانت لأهل سبا في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة، ولا نبالاً، ولا برغوثاً، ولا قملة، ولا عقرباً، ولا حية، ولا غير ذلك من الهوام، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبئوتهم. قال القشيري: ولم يرد جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة في كل جهة بساتين كثيرة ﴿كلوا من رزق ربكم﴾ أي: قيل لهم ذلك، ولم يكن ثم أمر، ولكن المراد تمكينهم من تلك النعم، وقيل: إنها قالت لهم الملائكة، والمراد بالرزق هو: ثمار الجنتين، وقيل: إنهم خطبوا بذلك على لسان نبيهم ﴿واشكروا له﴾ على ما رزقكم من هذه النعم، واعملوا بطاعته، واجتنبوا معاصيه، وجملة ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ مستأنفة لبيان موجب الشكر. والمعنى: هذه بلدة طيبة لكثرة أشجارها، وطيب ثمارها. وقيل: معنى كونها طيبة: أنها غير سيخة، وقيل: ليس فيها هوام. وقال مجاهد: هي: صنعاء. ومعنى ﴿ورب غفور﴾: أن المنعم عليهم رب غفور لذنوبهم. قال مقاتل: المعنى: وربكم إن شكرتم فيما رزقكم رب غفور للذنوب. وقيل: إنما جمع لهم بين طيب البلدة والمغفرة للإشارة إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام. وقرأ ورش ⁽¹⁾ بنصب بلدة، ورب على المدح، أو على تقدير اسكنوا بلدة، واشكروا رباً. ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التي أنعم بها عليهم، فقال: ﴿فاعرضوا﴾ عن الشكر، وكفروا بالله، وكذبوا أنبياءهم قال السدي: بعث الله إلى أهل سبا ثلاثة عشر نبياً، فكذبوهم، وكذا قال وهب. ثم لما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل الله عليهم نعمة سلب بها ما أنعم به عليهم، فقال: ﴿فارسلنا عليهم سيل العرم﴾، وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبا من أودية اليمن، فدموا ردماً بين جبلين، وحبسوا الماء. وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، وكانوا يسقون من الباب الأعلى، ثم من الباب الثاني، ثم من الثالث، فأخصبوا،

(1) قوله: وقرأ ورش، يعني: في غير المشهور عنه الآن اه. ع.

اسمك؟ قالت: الخروب؟ قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان: اللهم عمّ عن الجنّ موتي حتى يعلم الإنسان أن الجنّ لا يعلمون الغيب، فهيا عصا، فتوكأ عليها، وقبضه الله، وهو متكئ عليها، فمكث حولاً ميتاً، والجنّ تعمل، فاكلتها الأرض، فسقطت، فعلموا عند ذلك بموته، فتبينت للإنس ﴿أن﴾ الجنّ ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾، وكان ابن عباس يقرأها كذلك، فشكرت الجنّ للأرض، فإينما كانت يأتونها بالماء. وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس موقوفاً، وأخرج البيهقي عن زيد بن أرقم مرفوعاً يقول الله عز وجل ﴿إني تفضلت على عبادي بثلاث: ألقيت الدابة على الحبة، ولولا ذلك لكنزها الملوك كما يكتزون الذهب، والفضة، والقيت النتن على الجسد، ولولا ذلك لم يغب حبيب حبيبه، واستلبت الحزن، ولولا ذلك لذهب النسل﴾.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَ بَلَدَتْ بَلَدَهُمْ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ يَجْزِيهِمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتِ أَكْمامٍ خَمْرٍ وَأَنْثَى وَنَقُونَ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿٢﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ وَهَلْ تَجْعَلُونَ إِلَّا الْكَفُورَ ﴿٣﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْوَادِيَّ الْفَرَى الَّذِي بَرَكْنَا فِيهَا فَرًى ظَهَرَ وَقَدَرْنَا فِيهَا أَسَيراً سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَلِيَالِماً ؕ آمِينَ ﴿٤﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَزَفَرْنَاهُمْ كُلَّ مَرْفَأٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ ظَنُّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَخِفاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾ وَمَا كَانَهُمْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَنَّ مِنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ مَوْ وَنَهَا فِي شَاكٍ وَرَبِّكَ عَلَّ كُلِّ نَفْسٍ حَافِظٌ ﴿٧﴾

لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال بعض الجاحدين لها، فقال: ﴿لقد كان لسبأ﴾ المراد بسبأ القبيلة التي هي من أولاد سبا، وهو: سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود. قرأ الجمهور (لسبأ) بالجر والتنوين على أنه اسم حي: أي: الحي الذين هم: أولاد سبا، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لسبأ) ممنوع الصرف بتأويل القبيلة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، ويقوي القراءة الأولى قوله: ﴿في مساكنهم﴾، ولو كان على تأويل القبيلة لقال: في مساكنها، فمما ورد على القراءة الأولى قول الشاعر:

الواربون وتيم في نرى سبا قد عض أعناقها جلد الجواميس
ومما ورد على القراءة الثانية قول الشاعر:

من سبا الحاضرين مارب إذ يبنون من لون مسيله العرما
وقرأ قنبل، وأبو حيوة، والجحدري (لبسا) بلسكان الهمزة، وقرأ بقلبيها ألفاً. وقرأ الجمهور ﴿في مساكنهم﴾ على الجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، ووجه الاختيار: أنها كانت لهم منازل كثيرة، ومساكن متعددة. وقرأ حمزة، وحفص بالإفراد مع فتح الكاف. وقرأ الكسائي بالإفراد مع كسرهما، وبهذه القراءة قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، ووجه الإفراد: أنه مصدر يشمل القليل، والكثير، أو

وكثر أموالهم، فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذاً، ففتقت ذلك الردم حتى انتقض، فدخل الماء جنتهم، ففرقها، ودفن السيل بيوتهم، فهذا هو سيل العرم، وهو جمع عرمة وهي السكر⁽¹⁾ التي تحبس الماء، وكذا قال قتادة، وغيره. وقال السدي: العرم اسم للسد. والمعنى: أرسلنا عليهم سيل السد العرم. وقال عطاء: العرم اسم الوادي. وقال الزجاج: العرم اسم الجرذ الذي نقب السد عليهم، وهو الذي يقال له: الخلد: فنسب السيل إليه لكونه سبب جريانه. قال ابن الأعرابي: العرم من أسماء الفار. وقال مجاهد، وابن أبي نجيح: العرم ماء أحمر أرسله الله في السد، فشقه، وهدمه. وقيل: إن العرم اسم المطر الشديد، وقيل: اسم للسيل الشديد، والعرامة في الأصل: الشدة، والشراسة، والصعوبة. يقال: عرم فلان: إذا تشدد، وتصعب، وروي عن ابن الأعرابي أنه قال: العرم السيل الذي لا يطاق. وقال المبرد: العرم كل شيء حاجز بين شيئين **﴿وَبَلَلْنَاهُمْ بِجُنَّتَيْهِمْ جُنَّتَيْنِ﴾** أي: أهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة، والأنواع الحسنة، وأعطيناهم ببلههما جنتين لا خير فيهما، ولا فائدة لهم فيما هو نابت فيهما، ولهذا قال: **﴿ثَوَلْتِي أَكُلْ خُمَطٌ﴾** قرأ الجمهور بتووين (اكل)، وعدم إضافته إلى (خمط)، وقرأ أبو عمرو بالإضافة. قال الخليل: الخمط الأراك، وكذا قال كثير من المفسرين. وقال أبو عبيدة: الخمط كل شجرة مرة ذات شوك. وقال الزجاج: كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله. وقال المبرد: كل شيء تغير إلى ما لا يشتهي يقال له: خمط، ومنه اللبن إذا تغير، وقرأ الجمهور أولى من قراءة أبي عمرو. والخمط نعت لاكل، أو بدل منه، لأن الأكل هو: الخمط بعينه. وقال الأخفش: الإضافة أحسن في كلام العرب: مثل ثوب خرّ، ودار أجزّ، والأولى تفسير الخمط بما ذكره الخليل ومن معه. قال الجوهري: الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل، وتسمية البذل جنتين للمشكلة، أو التهكم بهن، والأثل هو: الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء كذا قال الفراء وغيره قال: إلا أنه أعظم من الطرفاء طولاً، الواحدة أثلة، والجمع أثلاث. وقال الحسن: الأثل الخشب. وقال أبو عبيدة: هو: شجر النطار، والأول أولى، ولا ثمر للأثل. والسدر شجر معروف. قال الفراء: هو: السمر. قال الأزهري: السدر من الشجر سدران: بري لا ينتفع به، ولا يصلح للغسل، وله ثمر غصص لا يؤكل، وهو الذي يسمى: الضال. والثاني سدر ينبت على الماء، وثمره النبق، وورقه غسول يشبه شجر العناب، قيل: ووصف السدر بالقلّة لأن منه نوعاً يطيب أكله، وهو النوع الثاني الذي ذكره الأزهري. قال قتادة: بينما شجرهم من خير شجر إذ صيره الله من شرّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة، وأنبت ببلهها الأراك، والطرفاء والسدر. ويحتمل: أن يرجع قوله: **﴿قَلِيلٌ﴾** إلى

(1) السكر بالسكون: سدّ النهر اهـ قاموس.

لحايث، وذلك أن الله سبحانه لما أغرق مكانهم، وأذهب جنتهم، تفرقوا في البلاد، فصارت العرب تضرب بهم الأمثال. فتقول: تفرقوا أيدي سبا. قال الشعبي: فلحقت الأنصار بيثرب، وغسان بالشام، والأزد بعمان، وخزاعة بتهامة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي: فيما ذكر من قصتهم، وما فعل الله بهم آيات بينات، ودلالات واضحات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: لكل من هو كثير الصبر، والشكر، وخَصَّ الصَّابِرَ الشَّكُورَ، لأنهما المنتفعان بالمواعظ والآيات ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قرأ الجمهور صدق بالتخفيف، ورفع إبليس، ونصب ظنه. قال الزجاج: وهو على المصدر: أي: صدق عليهم ظناً ظنه، أو صدق في ظنه، أو على الظرف. والمعنى: أنه ظنَّ بهم: أنه إذا أغواهم اتبعوه، فوجدهم كذلك، ويجوز: أن يكون منتصباً على المفعولية، أو بإسقاط الخافض. وقرأ حمزة، والكسائي، ويحيى بن وثاب، والاعمش، وعاصم (صدق) بالتشديد، وظنه بالنصب على أنه مفعول به. قال أبو علي الفارسي: أي: صدَّقَ الظَّنَّ الذي ظنه. قال مجاهد: ظنَّ ظناً، فصدَّقَ ظنه، فكان كما ظنَّ، وقرأ أبو جعفر، وأبو الجهماء، والزُّهري، وزيد بن علي (صدق) بالتخفيف، و (إبليس) بالنصب (وظنه) بالرفع، قال أبو حاتم: لا وجه لهذه القراءة عندي، وقد أجاز هذه القراءة الفراء، ونكرها الزجاج، وجعل الظَّنَّ فاعل صدَّقَ، وإبليس مفعوله. والمعنى: أن إبليس سَوَّلَ له ظنه شيئاً فيهم، فصدَّقَ ظنه، فكأنه قال: ولقد صدَّقَ عليهم ظنَّ إبليس. وروي عن أبي عمرو: أنه قرأ برفعهما مع تخفيف صدق على أن يكون ظنه بدل اشتمال من إبليس. قيل: وهذه الآية خاصة بأهل سبا. والمعنى: أنهم غيروا، وبكوا بعد أن كانوا قد آمنوا بما جاءت به رسلكم، وقيل: هي عامة: أي: صدَّقَ إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله. قاله مجاهد، والحسن. قال الكلبي: إنه ظنَّ: أنه إن أغواهم أجابوه، وإن أضلهم أطاعوه، فصدَّقَ ظنه ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ قال الحسن: ما ضريهم بصوت، ولا بعصي، وإنما ظنَّ ظناً، فكان كما ظنَّ بوسوسته، وانتصاب ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على الاستثناء، وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد به بعض المؤمنين، لأن كثيراً من المؤمنين يذنب، وينقاد لإبليس في بعض المعاصي، ولم يسلم منه إلا فريق، وهم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42 والإسراء: 65] وقيل: المراد بفريقاً من المؤمنين: المؤمنون كلهم على أن تكون من بيانية ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان له تسلط عليهم: أي: لم يقهرهم على الكفر، وإنما كان منه الدعاء، والوسوسة، والتزيين، وقيل: السلطان القوة. وقيل: الحجة، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يَوْمُنَ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ منقطع، والمعنى: لا سلطان له عليهم، ولكن ابتليانهم بوسوسته لنعلم. وقيل: هو متصل مفرغ من أعم العام: أي: ما كان له عليهم تسلط بحال من الأحوال، ولا لعل من اللعل إلا ليمتيز من يؤمن، ومن لا يؤمن، لأنه

الظرفية، وانتصاب آمنين على الحال. قال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين، ولا جياح، ولا ظمأ، كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان لا يحرك بعضهم بعضاً، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لم يحركه. ثم ذكر سبحانه: أنهم لم يشكروا النعمة، بل طلبوا التعب والكد ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وكان هذا القول منهم بطراً وطفياًناً لما سئمو النعمة، ولم يصبروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار، والتباعد بين الديار، وسألوا الله تعالى: أن يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء، والشجر، والأمن، والمفاوز، والقفار، والبراري المتباعدة الاقطار، فأجابهم الله إلى ذلك، وخزَّب تلك القرى المتواصلة، وذهب بما فيها من الخير، والماء، والشجر، فكانت دعوتهم هذه كدعوة بني إسرائيل حيث قالوا: ﴿ادْعَ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتَبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ [البقرة: 61] الآية مكان المَنِّ والسلوى، وكقول النضر بن الحارث ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: 32] الآية. قرأ الجمهور (ربنا) بالنصب على أنه منادى مضاف، وقرءوا أيضاً (باعد) وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، وهشام عن ابن عامر (بعد) بتشديد العين، وقرأ ابن السميع بضم العين فعلاً ماضياً، فيكون معنى هذه القراءة: الشكوى من بعد الأسفار، وقرأ أبو صالح، ومحمد بن الحنفية، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، ويعقوب (ربنا) بالرفع (باعد) بفتح العين على أنه فعل ماض على الابتداء، والخبر. والمعنى: لقد باعد ربنا بين أسفارنا، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، واختارها أبو حاتم، قال: لأنهم ما طلبوا التباعد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذي كان بينهم وبين الشام بالقرى المتواصلة بطراً، وأشراً، وكفراً للنعمة. وقرأ يحيى بن يعمر، وعيسى بن عمر (ربنا) بالرفع (بعد) بفتح العين مشددة، فيكون معنى هذه القراءة: الشكوى بأن ربهم باعد بين أسفارهم مع كونها قريبة متصلة بالقرى، والشجر، والماء، فيكون هذا من جملة بطرهم، وقرأ أخو الحسن البصري كقراءة ابن السميع السابقة مع رفع بين على أنه الفاعل كما قيل: في قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 94]، وروى الفراء، والزجاج قراءة مثل هذه القراءة لكن مع نصب بين على أنه ظرف، والتقدير: بعد سيرنا بين أسفارنا. قال النحاس: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال: إحداها أجود من الأخرى كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن أخبر عنهم: أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم، فلما فعل ذلك بهم شكوا، وتضرروا، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَوُظِّلِمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث كفروا بالله، وبطروا نعمته، وتعرضوا لنقمته ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بأخبارهم. والمعنى: جعلناهم نوي أحاديث يتحدث بها من بعدهم تعجباً من فعلهم، واعتباراً بحالهم، وعاقبتهم ﴿وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾ أي: فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق، وهذه الجملة مبينة لجعلهم

يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا يَالْحَيُّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿١٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتَ
الَّذِينَ أَحَقُّنَا بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١﴾

قوله: ﴿قُلْ ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ هذا أمر للنبي ﷺ بأن يقول لكفار قريش، أو للكفار على الإطلاق هذا القول، ومفعولاً زعمتم محذوفان: أي: زعمتموهم آلهة لدلالة السياق عليهما. قال مقاتل: يقول: ادعوه ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سنين الجوع. ثم أجاب سبحانه عنهم، فقال: ﴿لَا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ أي: ليس لهم قدرة على خير، ولا شر، ولا على جلب نفع، ولا دفع ضرر في أمر من الأمور، وذكر السموات والأرض لقصد التعميم لكونهما ظرفاً للموجودات الخارجية ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾ أي: ليس للآلهة في السموات والأرض مشاركة بالخلق، ولا بالملك، ولا بالتصرف ﴿وما له منهم من ظهير﴾ أي: وما لله سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شيء من أمر السموات والأرض ومن فيهما ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده﴾ أي: شفاعته من يشفع عنده من الملائكة، وغيرهم، وقوله: ﴿إلا لمن أذن له﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال: أي: لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلا كائنه لمن أذن له أن يشفع من الملائكة، والأنبياء، ونحوهم من أهل العلم والعمل، ومعلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة، لا للكافرين، ويجوز: أن يكون المعنى: لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهلين لها في حال من الأحوال إلا كائنه لمن أذن له: أي: لأجله، وفي شأنه من المستحقين للشفاعة لهم، لا من عداهم من غير المستحقين لها، واللام في ﴿لمن﴾ يجوز: أن تتعلق بنفس الشفاعة. قال أبو البقاء: كما تقول: شفعت له، ويجوز: أن تتعلق بتنفع، والأولى أنها متعلقة بالمحذوف كما ذكرنا. قيل: والمراد بقوله: ﴿ولا تنفع للشفاعة﴾ أنها لا توجد أصلاً إلا لمن أذن له، وإنما علق النبي بنفعها لا بوقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها. قرأ الجمهور (أذن) بفتح الهمزة: أي: أذن له الله سبحانه، لأن اسمه سبحانه مذكور قبل هذا، وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي بضمها على البناء للمفعول، والأذن هو: الله سبحانه، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: 255]، وقوله: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: 28]، ثم أخبر سبحانه عن خوف هؤلاء الشفعاء، والمشفوع لهم، فقال: ﴿حتى إذا فرغ عن قلوبهم﴾ قرأ الجمهور (فرغ) مبنياً للمفعول، والفاعل هو: الله، والقائم مقام الفاعل هو: الجار والمجرور، وقرأ ابن عامر (فرغ) مبنياً للفاعل، وفاعله ضمير يرجع إلى الله سبحانه، وكلا القراءتين بتشديد الزاي، وفعل معناه: السلب، فالتفريع إزالة للفرغ. وقرأ الحسن مثل قراءة الجمهور إلا أنه خفف الزاي. قال قطرب: معنى فرغ عن قلوبهم: أخرج ما فيها من الفرغ، وهو: الخوف. وقال مجاهد: كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة. والمعنى: أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء

سبحانه قد علم ذلك علماً أزلياً. وقال الفراء: المعنى: إلا لنعلم ذلك عنديكم، وقيل: إلا لتعلموا انتم، وقيل: ليعلم أوليائنا، والملائكة. وقرأ الزهري (إلا ليعلم) على البناء للمفعول، والأولى حمل العلم هنا على التمييز، والإظهار كما ذكرنا ﴿ووربك على كل شيء حفيظ﴾ أي: محافظ عليه. قال مقاتل: علم كل شيء من الإيمان والشك.

وقد أخرج أحمد، والبخاري، والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وغيرهم عن فروة بن مسيك المرادي قال: «أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله ألا أقاتل من أكبر من قومي بمن أقبل منهم؟ فأنزلني في قتالهم، وأمرني، فلما خرجت من عنده أرسل في أثري فرئتني، فقال: ادع للقوم، فمن أسلم منهم، فاقبل منه، ومن لم يسلم، فلا تعجل حتى أحدث إليك، وأنزل في سبأ ما أنزل، فقال رجل يا رسول الله، وما سبأ: أرض أم امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة، وتشام منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا: فلخم، وجذام، وغسان، وعاملة؛ وأما الذين تيامنوا: فالأزد، والأشعريون، وحمير، وكندة، ومنجج، وأنمار، فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: الذي منهم خثعم، وبجيلة». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والطبراني، وابن عدي، والحاكم وصححه، وابن مروي عن ابن عباس نحوه بأخصر منه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يسيل العرم﴾ قال: الشديد. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿يسيل العرم﴾ وأد كان باليمن كان يسيل إلى مكة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿كل خمط﴾ قال: الأراك. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾ قال: تلك المناقشة. وأخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر عنه أيضاً في قوله: ﴿وجعلنا بينهم﴾ يعني: بين مساكنهم ﴿وبين القرى التي باركنا فيها﴾ يعني: الأرض المقدسة ﴿قرى ظاهرة﴾ يعني: عامرة مخصبة ﴿وقدرنا فيها للسير﴾ يعني: فيما بين مساكنهم وبين أرض الشام ﴿يسيروا فيها﴾ إذا ظعنوا من منازلهم إلى أرض الشام المقدسة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ قال إبليس: إن آدم خلق من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون خلقاً ضعيفاً، وإنني خلقت من نار، والنار تحرق كل شيء لأحتكنك ذريته إلا قليلاً. قال: فصلى ظنه عليهم ﴿فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾ قال: هم المؤمنون كلهم.

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿١٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن ثَوْبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِلَّا أَوْ لِيَاكُم لَمَّا هُنَّ أَوْ فِي سُلْبِكُم تُجِيرُ ﴿١٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا يُجْرَمُونَ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ

هذا الكلام: معنى قول المتبصر في الحجة لصاحبه: أحداً كاتب، وقد عرف: أنه الصابق المصيب، وصاحبه الكاتب المخطئ. قال: وأو: عند البصريين على بابها، وليست للشك، لكنها على ما تستعمله العرب في مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين، وهو عالم بالمعنى. وقال أبو عبيدة، والفراء: هي بمعنى: الواو، وتقديره: وإنا على هدى، وإياكم لفي ضلال مبين، ومنه قول جرير:

أشعلبة الفولرس أورياحاً علبت بهم طهية والربابا
أي: ثعلبة، ورباحاً، وكذا قول الآخر:

فلما اشتد بأس الحرب فينا تاملنا رباحاً أوزاماً
أي: وزاماً، وقوله: أو إياكم معطوف على اسم إن، وخبرها هو المنكور، وحذف خبر الثاني للدلالة عليه: أي: إنا لعللى هدى، أو في ضلال مبين، وإنكم لعللى هدى، أو في ضلال مبين، ويجوز العكس: وهو كون المنكور خبر الثاني، وخبر الأول محذوفاً كما تقدم في قوله: ﴿وإياهم﴾ ورسوله أحق أن يرضوه ﴿[التوبة: 62]، ثم أرفف سبحانه هذا الكلام المنصف بكلام أبلغ منه في الإنصاف، وأبعد من الجدل، والمشغبة، فقال: ﴿قل لا تسألون عما أجرنا ولا نسال عما تعملون﴾ أي: إنما ادعوك إلى ما فيه خير لكم، ونفع، ولا ينالني من كفركم، وتركم لإجابتي ضرر، وهذا كقوله سبحانه: ﴿لكنم دينكم ولي دين﴾ [الكافرون: 6]، وفي إسناد الجرم إلى المسلمين، ونسبة مطلق العمل إلى المخاطبين، مع كون أعمال المسلمين من البر الخالص، والطاعة المحضة، وأعمال الكفار من المعصية البينة، والإثم الواضح من الإنصاف ما لا يقار قدره. والمقصود: المهانة، والمشاركة، وقد نسخت هذه الآية، وأمثالها بآية السيف. ثم أمره سبحانه بأن يهتدهم بعذاب الآخرة، لكن على وجه لا تصريح فيه، فقال: ﴿قل يجمع بيننا وبينكم﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾ أي: يحكم، ويقضي بيننا بالحق، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي ﴿وهو للفتح﴾ أي: الحاكم بالحق القاضي بالصواب ﴿العليم﴾ بما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح. وهذه أيضاً منسوخة بآية السيف. ثم أمره سبحانه أن يورد عليهم حجة أخرى يظهر بها ما هم عليه من الخطأ، فقال: ﴿قل أروني الذين الحقتم به شركاء﴾ أي: أروني الذين الحقتموهم بالله شركاء له، وهذه الرؤية هي: القلبية، فيكون شركاء هو: المفعول الثالث، لأن الفعل تعدى بالهمزة إلى ثلاثة. الأول الياء في أروني، والثاني الموصول، والثالث شركاء، وعائد الموصول محذوف: أي: الحقتموهم، ويجوز: أن تكون هي البصرية، وتعدى الفعل بالهمزة إلى اثنين: الأول الياء، والثاني الموصول، ويكون شركاء منتصباً على الحال. ثم رد عليهم ما يدعونه من الشركاء، وأبطل ذلك، فقال: ﴿كلاً بل هو الله العزيز الحكيم﴾ أي: ارتدعوا عن دعوى المشاركة، بل المنفرد بالإلهية، هو: الله العزيز بالقهر والغلبة، الحكيم بالحكمة الباهرة.

المعبودين من دون الله من الملائكة، والأنبياء والأصنام، إلا أن الله سبحانه يأنث للملائكة والأنبياء، ونحوهم في الشفاعة لمن يستحقها، وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى: ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ [الأنبياء: 28]، فإذا أثن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقتربن تلك الحالة من الأمر الهائل، والخوف الشديد من أن يحدث شيء من أقدار الله، فإذا سري عليهم ﴿قالوا﴾ للملائكة فوقهم، وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإنث ﴿ماذا قال ربكم﴾ أي: ماذا أمر به، فيقولون لهم: قال: القول ﴿الحق﴾، وهو: قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم ﴿وهو العلي الكبير﴾ فله أن يحكم في عبادته بما يشاء، ويفعل ما يريد، وقيل: هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب. والمعنى: لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم مطيعون لله، دون الجمادات، والشياطين، وقيل: إن الذين يقولون: ماذا قال ربكم هم: المشفوع لهم، والذين أجابوهم: هم: الشفعاء من الملائكة، والأنبياء. وقال الحسن، وابن زيد، ومجاهد: معنى الآية: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين في الآخرة. قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقرؤا حين لا ينفعهم الإقرار. وقرأ ابن عمر، وقتادة: (فرغ) بالراء المهملة، والغين المعجمة من الفراغ. والمعنى: فرغ الله قلوبهم: أي: كشف عنها الخوف. وقرأ ابن مسعود (أفرقع) بعد الفاء راء مهملة، ثم نون، ثم قاف، ثم عين مهملة من الأفرقع، وهو: التفرق. ثم أمر الله سبحانه رسوله: أن يبيك المشركين، ويوبخهم، فقال: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ أي: من ينعم عليكم بهذه الرزاق التي تتمتعون بها، فإن ألهكم لا يملكون مثقال ذرة، والرزق من السماء هو: المطر، وما ينتفع به منها من الشمس، والقمر، والنجوم، والرزق من الأرض هو: النبات، والمعادن، ونحو ذلك، ولما كان الكفار لا يقدرون على جواب هذا الاستفهام، ولم تقبل عقولهم نسبة هذا الرزق إلى ألهتهم، وربما يتوقفون في نسبته إلى الله مخافة أن تقوم عليهم الحجة، فأمر الله رسوله: بأن يجيب عن ذلك، فقال: ﴿قل الله﴾ أي: هو الذي يرزقكم من السموات والأرض، ثم أمره سبحانه: أن يخبرهم بأنهم على ضلالة، لكن على وجه الإنصاف في الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى، ومن هو على الضلالة، فقال: ﴿وإننا أو إياكم لعللى هدى أو في ضلال مبين﴾ والمعنى: أن أحد الفريقين من الذين يوحنون الله للخالق الرزاق، ويخصونه بالعبادة، والذين يعبدون الجمادات التي لا تقدر على خلق، ولا رزق، ولا نفع، ولا ضرر لعللى أحد الأمرين من الهدى، والضلالة، ومعلوم لكل عاقل أن من عبد الذي يخلق، ويرزق، وينفع، ويضر هو: الذي على الهدى، ومن عبد الذي لا يقدر على خلق، ولا رزق، ولا نفع، ولا ضرر هو: الذي على الضلالة، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى، وهم: المسلمون، وفريق الضلالة، وهم: المشركون على وجه أبلغ من التصريح. قال المبرد: ومعنى

الكفر، ومنه الكفّ؛ لأنها تمنع من خروج ما فيه. وقيل: إنه منتصب على المصدرية، والهاء للمبالغة كالعاقبة، والعافية، والمراد: أنها صفة مصدر محنوف: أي: إلا رسالة كافة. وقيل: إنه حال من الناس، والتقدير: وما أرسلناك إلا للناس كافة، وردّ بأنه لا يتقدّم الحال من المجرور عليه كما هو مقرر في علم الإعراب. ويجاب عنه بأنه قد جوّز ذلك أبو عليّ الفارسي، وابن كيسان، وابن برهان، ومنه قول الشاعر:

إذا المرء أعيت له السيادة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه عسير

وقول الآخر:

تسلّيت طراً عنكم بعد بينكم بنكرامكم حتى كانكم عندي

وقول الآخر:

غافلاً تعرض المنية للمرء فبئس ما فات حين إياه

وممن رجع كونها حالاً من المجرور بعدها ابن عطية، وقال: قدمت للاهتمام، والتقوي. وقيل: المعنى: إلا إذا كافة: أي: ذا منع، فحذف المضاف. قيل: واللام في «لنّاس» بمعنى إلى: أي: وما أرسلناك إلى الناس إلا جامعاً لهم بالإنذار، والإبلاغ، أو مانعاً لهم من الكفر، والمعاصي، وانتصاب «بشيراً ونذيراً» على الحال: أي مبشراً لهم بالجنة، ومنذراً لهم من النار «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» ما عند الله، وما لهم من النفع في إرسال الرسل «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صائقين» أي: متى يكون هذا الوعد الذي تعدونا به، وهو: قيام الساعة أخبرونا به إن كنتم صائقين، قالوا: هذا على طريقة الاستهزاء برسول الله ﷺ، ومن معه من المؤمنين، فأمر الله رسوله ﷺ أن يجيب عنهم، فقال: «قل لكم ميعاد يوم» أي: ميقات يوم، وهو: يوم البعث. وقيل: وقت حضور الموت، وقيل: أراد يوم بدر؛ لأنه كان يوم عذابهم في الدنيا، وعلى كل تقدير، فهذه الإضافة للبيان، ويجوز في ميعاد: أن يكون مصدراً مراداً به الوعد، وأن يكون اسم زمان. قال أبو عبيدة: الوعد، والوعيد، والميعاد بمعنى. وقرأ ابن أبي عتبة بتنوين (ميعاد) ورفع، ونصب (يوم) على أن يكون ميعاد مبتدأ، ويوماً ظرف، والخبر لكم. وقرأ عيسى بن عمر برفع (ميعاد) منوناً، ونصب (يوم) مضافاً إلى الجملة بعده، وأجاز النحويون (ميعاد يوم) برفعها منونين على أن ميعاد مبتدأ، ويوم بدل منه، وجملة «لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون» صفة لميعاد: أي: هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه، ولا تتقدمون عليه، بل يكون لا محالة في الوقت الذي قد قدر الله وقوعه فيه. ثم نكر سبحانه طرفاً من قبائح الكفار، ونوعاً من أنواع كفرهم، فقال: «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه» وهي: الكتب القديمة، كالتهواة، والإنجيل، والرسل المتقدمون. وقيل: المراد بالذي بين يديه الدار الآخرة. ثم أخبر سبحانه عن حالهم في الآخرة، فقال: «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم» الخطاب لمحمد ﷺ، أو لكل من يصلح له، ومعنى موقوفون عند ربهم: محبوسون في موقف الحساب

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «فرّج عن قلوبهم» قال: جلى. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عنه قال: لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة: ليبعثه بالوحي، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي، فلما كشف عن قلوبهم سألوها عما قال الله، فقالوا: الحق، وعلموا: أن الله لا يقول إلا حقاً. قال ابن عباس: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا، فلما سمعوا خرواً سجداً، فلما رفعوا رؤوسهم «قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق» وهو العليّ الكبير. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ينزل الأمر إلى السماء الدنيا له وقعة كوقعة السلسلة على الصخرة، فيفرغ له جميع أهل السموات، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ ثم يرجعون إلى أنفسهم، فيقولون: الحق وهو العليّ الكبير. وأخرج البخاري، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم من حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله: كأنه سلسلة على صفوان ينغذهم ذلك، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال: الحق وهو العليّ الكبير» الحديث، وفي معناه أحاديث. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: «ولما أو أناكم لعلى هدى أو في ضلال مبين» قال: نحن على هدى، وإنكم لفي ضلال مبين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس قال: «للفتح» القاضي.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧١﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ ﴿١٧٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنُؤْتِيَنَّكَ يَهْدًا الْفَرْدَانِ وَلَا يَأْتِيَنَّكَ يَدِيهِ وَلَا تَرْفَعُ يَدُ الظَّالِمِينَ مَوْفُقَاتٍ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا إِنَّا مَكِيدُكُمْ عَنِ الْفَكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنْتُمْ مُخْرَجِينَ ﴿١٧٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ سَكْرَ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾

في انتصاب «كافة» وجوه، فقيل: إنه منتصب على الحال من الكاف في «أرسلناك» قال الزجاج: أي: وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار، والإبلاغ، والكافة بمعنى: الجامع، والهاء فيه للمبالغة كعلامة. قال أبو حيان: أما قول الزجاج: إن كافة بمعنى: جامعاً، والهاء فيه للمبالغة، فإن اللغة لا تساعد عليه؛ لأن كفّ ليس معناه: جمع، بل معناه: منع. يقال: كف يكف: أي: منع يمنع. والمعنى: إلا مانعاً لهم من

من الكفر، وأخفوها عن غيرهم، أو أخفأها كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة. وقيل: المراد بأسرؤا هنا أظهروا؛ لأنه من الأضداد يكون، تارة بمعنى: الإخفاء، وتارة بمعنى: الإظهار، ومنه قول امرئ القيس:

تجاوزت أحراساً وأموال معشر علي حراس لو يسرون مقتلي
وقيل: معنى أسروا الندامة: تبينت الندامة في أسرة وجوهمهم ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالِ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأغلال جمل غل، يقال: في رقبته غل من حديد: أي جعلت الأغلال من الحديد في أعناق هؤلاء في النار، والمراد بالذين كفروا: هم المذكورون سابقاً، والإظهار لمزيد الذم، أو للكفار على العموم، فيدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً ﴿هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا جزاء ما كانوا يعملونه من الشرك بالله، أو إلا بما كانوا يعملون على حذف الخافض.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: إلى الناس جميعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: أرسل الله محمداً إلى العرب، والعجم، فأكبرهم على الله أطوعهم له. وأخرج هؤلاء عنه في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ قال: هذا قول مشركي العرب كفروا بالقرآن، وبالذي بين يديه من الكتب، والأنبياء.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ إِلَّا مَنَ مَّانَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَمْ يَجْزِهِمْ بِمَا عَمِلُوا وَمَن فِي الْأَعْدَابِ مَعْصِرُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لِمَن يَشَاءُ مَن تَوَّعَدُوا فَنُحِشُهُمْ وَهُوَ أَخْبَرُ الْخَبَرِ ﴿٢٠﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُكُمَا إِنَّا كُنَّا عَاكِفَيْنِ عَلَى آلِكَ فَأَلَا تَسْمَعِينَ أَنَّهُ قَالَ سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ فَلَا يَمْلِكُ لِيَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ سُلْطَانًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾

لما قص سبحانه حال من تقدم من الكفار اتبعه بما فيه التسلية لرسوله، وبيان أن كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمر في العصر الأول، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ ينذرهم، ويحذرهم عقاب الله ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: رؤسأوها، وأغنيأوها، وجبابرتها، وقادة الشر لرسولهم ﴿إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: بما أرسلتم به من التوحيد، والإيمان، وجملة ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ في محل نصب على الحال. ثم نكر ما افتخروا به من الأموال، والأولاد، وقاسوا حالهم في الدار الآخرة على حالهم في هذه الدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل، فقال: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا

﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلِ﴾ أي: يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب، بعد أن كانوا في الدنيا متعارضين متناصرين متحابين. ثم بين سبحانه تلك المراجعة، فقال: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾، وهم: الاتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، وهم: الرؤساء المتبوعون ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ صَدَقْتُمُونَا عَنِ الْإِيمَانِ بِالله، والاتباع لرسوله ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بالله مصنفين لرسوله، وكتابه ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾ محييين عليهم مستنكرين لما قالوه: ﴿إِنَّا نَحْنُ صِدِّيقُكُمْ عَنِ الْهُدَى﴾ أي: منعناكم عن الإيمان ﴿يَعْبُدُ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ الهدى، قالوا هذا منكروين لما ادَّعوه عليهم من الصِّدِّق لهم، وجاحدين لما نسبوه إليهم من ذلك، ثم بينوا لهم: أنهم الصائون لأنفسهم، الممتنعون من الهدى بعد إذ جاءهم، فقالوا: ﴿بَلْ كُنْتُمْ مَّجْرُمِينَ﴾ أي: مصرين على الكفر، كثيري الإجماع، عظيمي الأثام ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ ردًا لما لجابوا به عليهم، وبفعلاً لما نسبوه إليهم من صدهم لأنفسهم ﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أصل المكر في كلام العرب: الخديعة، والحيلة، يقال: مكر به إذا خدعه، واحتال عليه. والمعنى: بل مكركم بنا الليل والنهار، فحذف المضاف إليه، وأقيم الظرف مقامه اتساعاً. وقال الأخفش: هو على تقدير هذا مكر الليل والنهار. قال النحاس: المعنى والله أعلم، بل مكركم في الليل والنهار، ودعاؤكم لنا إلى الكفر هو الذي حملنا على هذا. وقال سفيان الثوري: بل عملكم في الليل والنهار، ويجوز: أن يجعل الليل، والنهار مكرين على الإسناد المجازي كما تقدّر في علم المعاني. قال المبرّد كما تقول العرب: نهاره صائم، وليله قائم، وأنشد قول جرير:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم
وأنشد سيبويه:

قيام ليلي وتجلي همي

وقرأ قتادة، ويحيى بن يعمر برفع (مكر) منوَّناً، ونصب الليل والنهار، والتقدير: بل مكر كائن في الليل والنهار. وقرأ سعيد بن جبير، وأبو رزين بفتح الكاف، وتشديد الراء مضافاً بمعنى: الكرور، من كرّ يكرّ إذا جاء، وذهب، وارتفاع مكر على هذه القراءات على أنه مبتدأ، وخبره محنوف: أي: مكر الليل والنهار صدنا، أو على أنه فاعل لفعل محنوف: أي: صدنا مكر الليل والنهار، أو على أنه خبر مبتدأ محنوف كما تقدّم عن الأخفش. وقرأ طلحة بن راشد كما قرأ سعيد بن جبير، ولكنه نصب مكر على المصدرية: أي: بل تكررين الإغواء مكرًا دائماً لا تفترقون عنه، وانتصاب ﴿إِذْ تَامَرُونَنَا﴾ على أنه ظرف للمكر: أي: بل مكركم بنا وقت أمركم لنا ﴿إِن نَكْفُرْ بِالله وَنَجْعَلْ لَهُ عِندَادًا﴾ أي: أشبأها، وأمثالاً. قال المبرّد: يقال نذ فلان فلان: أي: مثله، وأنشد:

أتيما تجعلون إلي نذاً وما تيم بذى حسب نسيدي
والضمير في قوله: ﴿وَأَسْرُواْ النَّدَامَةَ﴾ لما رأوا العذاب راجع إلى الفريقين: أي: أضمر الفريقان الندامة على ما فعلوا

الضعف جزاء: أي: حال كونه جزاء. وقرأ الجمهور (في الغرفات) بالجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: ﴿لَنَبْؤُتَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: 58]، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحزمة، وخلف (في الغرفة) بالإنفراد لقوله: ﴿أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: 75] ولما ذكر سبحانه حال المؤمنين نكر حال الكافرين، فقال: ﴿وَالْبَظَائِرُ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالرد لها، والطعن فيها حال كونهم ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مسابقين لنا زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم، أو معاندين لنا بكفرهم ﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: في عذاب جهنم تحضرهم الزبانية إليها لا يجنون عنها محيصاً. ثم كرر سبحانه ما تقدم لقصد التأكيد للحجة، والرفع لما قاله الكفرة، فقال: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: يوسع له ما يشاء، ويضيقه على من يشاء، وليس في ذلك دلالة على سعادة، ولا شقاوة ﴿وَمَا تَنْفَقُ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ﴾ أي: يخلفه عليكم، يقال: أخلف له، وأخلف عليه: إذا أعطاه عوضه، وبذله، وذلك البذل إما في الدنيا، وإما في الآخرة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإن رزق العباد لبعضهم البعض إنما هو بتيسير الله، وتقديره، وليسوا برازقين على الحقيقة بل على طريق المجاز، كما يقال: في الرجل إنه يرزق عياله، وفي الأمير إنه يرزق جنده، والرازيق للأمير، والمامور، والكبير، والصغير هو: الخالق لهم، ومن أخرج من العباد إلى غيره شيئاً مما رزقه الله، فهو إنما تصرف في رزق الله له، فاستحق بما خرج منه الثواب عليه المضاعف لامثاله لأمر الله، وإنفاقه فيما أمره الله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر نحو أنكرو، أو هو متصل بقوله: ﴿هُوَ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [سبا: 31] أي: ولو تراه أيضاً يوم نحشرهم جميعاً للحساب العابد، والمعبود، والمستكبر، والمستضعف، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُؤْا إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ تقريعا للمشركين، وتوبيخاً لمن عبد غير الله عز وجل كما في قوله لعيسى: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 116]، وإنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين، والأصنام؛ لأنهم أشرف معبودات المشركين. قال النحاس: والمعنى: أن الملائكة إذا أكتبتهم كان في ذلك تبيك للمشركين، وجملة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر: أي: تنزيهاً لك أنت الذي نتولاه، ونطيعه، ونعبده من دونه، ما اتخذناه عابدين، ولا توليناهم، وليس لنا غيرك ولياً، ثم صرحوا بما كان المشركون يعبدونه، فقالوا: ﴿يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، وهم: إبليس، وجنوده، ويزعمون: أنهم يرونهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله، وقيل: كانوا يدخلون أجواف الأصنام، ويخاطبونهم منها ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: أكثر المشركين بالجنّ مؤمنون بهم مصنقون لهم، قيل: والأكثر في معنى: الكل ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ والمعنى: أن الله فضلنا عليكم بالأموال والأولاد في الدنيا، وذلك يدل على: أنه قد رضي ما نحن عليه من الدين، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ في الآخرة بعد إحسانه إلينا في الدنيا، ورضاه عنا، فأمر الله نبيه ﷺ بأن يجيب عنهم، وقال: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ أَنْ يَبْسُطَ لَهُ﴾ أي: يضيّق على من يشاء أن يضيقه عليه، فهو سبحانه قد يرزق الكافر، والعاصي استدراجاً له، وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير توفيراً لأجره، وليس مجرد بسط الرزق لمن بسطه له يدل على أنه قد رضي عنه، ورضي عمله، ولا قبضه عن قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه، ولا رضي عمله، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من الغلط البين، أو المغالطة الواضحة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا، ومن جملة هؤلاء الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى، ثم زاد هذا الجواب تاييداً، وتأكيداً ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ أي: ليسوا بالخصلة التي تقربكم عندي قريباً. قال مجاهد: الزلفى القريبى، والزلفة القرية. قال الأخفش: زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتي تقربكم عندينا تقربياً، فتكون زلفى منصوبة المحل. قال الفراء: إن التي تكون للأموال والأولاد جميعاً. وقال الزجاج: إن المعنى: وما أموالكم بالتي تقربكم عندينا زلفى، ولا أولادكم بالشيء يقربكم عندينا زلفى، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه، وأنشد:

نحن بما عندينا وانت بما عندك راضٍ والرأي مختلف
ويجوز في غير القرآن باللتين، واللاتي، وباللاتي، وبالندي للأولاد خاصة: أي: لا تزيدكم الأموال عندينا درجة ورفعة، ولا تقربكم قريباً ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ هو استثناء منقطع، فيكون محله النصب: أي: لكن من آمن، وعمل صالحاً، أو في محل جر بدلاً من الضمير في تقربكم، كذا قال الزجاج. قال النحاس: وهذا القول غلط، لأن الكاف والميم للمخاطب، فلا يجوز البذل، ولو جاز هذا لجاز رايتك زيدا. ويجاب عنه بأن الأخفش والكوفيين يجوزون ذلك، وقد قال بمثل قول الزجاج الفراء، وأجاز الفراء: أن يكون في موضع رفع بمعنى: ما هو إلا من آمن، والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناها، وهو مبتدأ، وخبره ﴿لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ﴾ أي: جزاء الزيادة، وهي المرادة بقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160]، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول: أي: جزاء التضعيف للحسنات، وقيل: لهم جزاء الإضعاف؛ لأن الضعف في معنى الجمع، والباء في ﴿بِمَا عَمَلُوا﴾ للسببية ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ من جميع ما يكرهون، والمراد غرفات الجنة، قرأ الجمهور (جزاء الضعف) بالإضافة، وقرأ الزهري، ويعقوب، ونصر بن عاصم، وقتادة برفعها على أن الضعف بدل من جزاء. وروي عن يعقوب: أنه قرأ (جزاء) بالنصب منوناً، و (الضعف) بالرفع على تقدير: فأولئك لهم

المعونة تنزل من السماء على قدر المنة.

وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارُ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٧﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿١٨﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا وَعْثًا مِمَّا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِرَحْمَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفَرَدَيْتُمْ لَكُمْ تَفْكَرُوا مَا يَصْلَحُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢١﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢٢﴾ قُلْ إِي رَبِّي يَقْذِرُ بِالنَّاسِ عِلْمَ الْغُيُوبِ ﴿٢٣﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُبَدِّلُ ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ مَلَكَتِ السَّاعَةُ لَبِئْسَ مَا تَكُونُونَ وَلَكِنْ آمَنَّا بِرَبِّنَا عَلَى النَّفْسِ وَلَكِنْ آمَنَّا بِرَبِّنَا عَلَى النَّفْسِ إِنَّمَا سَمِعَ قَرِيبٌ ﴿٢٥﴾

ثم نكر سبحانه نوعاً آخر من أنواع كفرهم، فقال: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: الآيات القرآنية حال كونها ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ واضحة الدلالات ظاهرات المعاني ﴿قَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون: التالي لها، وهو النبي ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: أسلافكم من الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿وَقَالُوا﴾ ثانياً ﴿مَا هَذَا﴾ يعنون: القرآن الكريم ﴿إِلَّا إِنْكَارُ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي: كذب مختلق ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثانياً ﴿لِأَنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الذي جاءهم به رسول الله ﷺ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وهذا الإنكار منهم خاص بالتحديد، وأما إنكار القرآن، والمعجزة، فكان متفقاً عليه بين أهل الكتاب، والمشركين، وقيل: أريد بالآول، وهو قولهم: ﴿إِلَّا إِنْكَارُ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾، وبالثاني، وهو قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ نظمه المعجز. وقيل: إن طائفة منهم قالوا: إنه إِنْكَارُ، وطائفة قالوا: إنه سحر، وقيل: إنهم جميعاً قالوا: تارة إنه إِنْكَارُ، وتارة إنه سحر، والاولى أولى ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: ما أنزلنا على العرب كتباً سماوية يدرسون فيها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يدعومهم إلى الحق، وينذرهم بالعذاب، فليس لتكنيبيهم بالقرآن وبالرسول وجه، ولا شبهة يتشبثون بها. قال قتادة: ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، قال الفراء: أي: من أين كنيتك، ولم يأتهم كتاب، ولا نذير بهذا الذي فعلوه. ثم خوفهم سبحانه، وأخبر عن عاقبتهم، وعاقبة من كان قبلهم، فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من القرون الخالية ﴿وَمَا بَلَّغُوا وَعْثًا مِمَّا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: ما بلغ أهل مكة من مشركي قريش، وغيرهم من العرب عشر ما آتينا من قبلهم من القوة، وكثرة المال، وطول العمر، فاهلكهم الله، كعاد، وثمود، وأمثالهم. والمعشار: هو: العشر. قال الجوهري: معشار الشيء عشروه. وقيل المعشار: عشر العشر، والاولى أولى. وقيل: إن المعنى: ما بلغ من قبلهم معشار ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى. وقيل: ما بلغ من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهاهم؛ وقيل: ما أعطى الله من قبلهم معشار ما

نفعاً ولا ضرراً يعني: العابدين، والمعبودين لا يملك بعضهم، وهم: المعبدون لبعض، وهم: العابدون ﴿نَفْعاً﴾ أي: شفاعته، ونجاة ﴿وَلَا ضَرَّ﴾ أي: عذابه، وهلاكه، وإنما قيل لهم: هذا القول إظهاراً لعجزهم، وقصورهم، وتبكيتهما لعابديهم، وقولهم: ﴿وَلَا ضَرَّ﴾ هو على حذف مضاف: أي: لا يملكون لهم نفع ضرر، وقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عطف على قوله: ﴿وَنَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي: للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله ﴿وَنَقُولُ عَذَابَ النَّارِ﴾ التي كنتم بها تكتبون في الدنيا.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي رزيق قال: كان رجلان شريكين، خرج أحدهما إلى الساحل، وبقي الآخر، فلما بعث الله النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم، فترك تجارته، ثم أتى صاحبه، فقال: بلني عليه، وكان يقرأ الكتب، فأتى النبي ﷺ، فقال: إلى ما تدعو؟ قال: إلى كذا، وكذا، قال: أشهد أنك رسول الله، قال: وما علمك بذلك؟ قال: إنه لم يبعث نبي إلا أتبعه رذالة الناس، ومساكينهم، فنزلت هذه الآيات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ الآيات، فأرسل إليه النبي ﷺ: إن الله قد أنزل تصديق ما قلت. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿حِزَاءَ الضَّعْفِ﴾ قال: تضعيف الحسنة. وأخرج الحكيم الترمذي في نوار الأصول، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال: إذا كان الرجل غنياً تقياً أتاه الله أجره مرتين، وتلا هذه الآية ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَاللَّيْلِ لَكُمْ حِزَاءَ الضَّعْفِ﴾ قال: تضعيف الحسنة. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب المفرد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ﴾ قال: في غير إسراف، ولا تقتير، وعن مجاهد مثله. وعن الحسن مثله. وأخرج الدارقطني، والبيهقي في الشعب عن جابر، عن النبي ﷺ قال: وكلما أنفق العبد من نفقة، فعلى الله خلفها ضامناً إلا نفقة في بيان، أو معصية. وأخرج نحوه ابن عدي في الكامل، والبيهقي من وجه آخر عنه مرفوعاً بأطول منه. وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنفق يا ابن آدم أنفق عليك» وثبت في الصحيح من حديثه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان؛ فيقول أحدهما: اللهم أعط متفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً». وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل يوم نجساً، فانفعوا نجس ذلك اليوم بالصدقة» ثم قال: اقرءوا مواضع الخلف، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وما أنفقتم من شيء، فهو يخلفه» إذا لم تنفقوا كيف يخلف. وأخرج الحكيم الترمذي في نوار الأصول عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن

وقيل: القرآن؛ لأنه يجمع المواعظ كلها، والأولى ما ذكرناه أولاً. وقال الزجاج: إن «أن» في قوله: ﴿إِنْ تَقُومُوا﴾ في موضع نصب بمعنى: لأن تقوموا. وقال السدي: معنى مثني وفردى: منفرداً برأيه، ومشاوراً لغيره. وقال القتيبي: منظاراً مع عشيرته، ومفكراً في نفسه. وقيل: المثني عمل النهار، والفردى عمل الليل، قاله الماوردي. وما أبرد هذا القول، وأقل جدواه. واختار أبو حاتم، وابن الأنباري الوقف على قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾، وعلى هذا تكون جملة ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ مستأنفة كما قدمنا، وقيل: ليس بوقف، لأن المعنى: ثم تتفكروا هل جربتم عليه كذباً، أو رأيتم منه جنة، أو في أحواله من فساد. ثم أمر سبحانه أن يخبرهم: أنه لم يكن له غرض في الدنيا، ولا رغبة فيها حتى تنقطع عندهم الشكوك، ويرتفع الريب، فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لي مقابل الرسالة، فهو لكم إن سألتموه، والمراد نفي السؤال بالكليّة، كما يقول القائل: ما أملك في هذا، فقد وهبته لك، يريد أنه لا ملك له فيه أصلاً، ومثل هذه الآية قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: 23]. وقوله: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [لقرآن: 57]. ثم بين لهم: أن أجره عند الله سبحانه، فقال: ﴿إِنْ لَجِئْتَ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ﴾ أي: ما أجري إلا على الله لا على غيره ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: مطلع لا يغيب عنه منه شيء ﴿قُلْ إِنْ رِئِي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ القذف الرمي بالسهم، والحصى، والكلام. قال الكلبي: يرمي على معنى: يأتي به، وقال مقاتل: يتكلم بالحق، وهو: القرآن، والوحي: أي: يلقيه إلى أنبيائه. وقال قتادة ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوحي، والمعنى: أنه يبين الحجة، ويظهرها للناس على السن رسله، وقيل: يرمي الباطل بالحق، فيدمغه ﴿عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ قرأ الجمهور برفع «علام» على أنه خبر ثانٍ لأنّ، أو خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من الضمير في يقذف، أو معطوف على محل اسم إن. قال الزجاج: الرفع من وجهين على الموضع، لأن الموضع موضع رفع، أو على البدل. وقرأ زيد بن علي، وعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق بالنصب نعتاً لاسم إن، أو بدلاً منه، أو على المدح. قال الفراء: والرفع في مثل هذا أكثر كقوله: ﴿إِنَّ لَكَ لَحَقَّ تَخَاصُمَ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: 64]، وقرأ الغيوب بالحركات الثلاث في الغين، وهو: جمع غيب، والغيب هو: الأمر الذي غاب وخفي جداً ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: الإسلام، والتوحيد. وقال قتادة: القرآن. وقال النحاس: التقدير صاحب الحق: أي: الكتاب الذي فيه البراهين، والحجج.

وأقول: لا وجه لتقدير المضاف، فإن القرآن قد جاء كما جاء صاحبه ﴿وَمَا يَبْدئُ لِلْبَاطِلِ وَمَا يَعِيدُ﴾ أي: ذهب الباطل ذهاباً لم يبق منه إقبال، ولا إبطاء، ولا إبداء، ولا إعادة. قال قتادة: الباطل هو: الشيطان: أي: ما يخلق لشيطان ابتداءً، ولا يبعث، وبه قال مقاتل، والكلبي. وقيل: يجوز أن

أعطاهم من العلم، والبيان، والحجة، والبرهان، والأول أولى. وقيل: المعشار عشر العشير، والعشير عشر العشر، فيكون جزءاً من ألف جزء. قال الماوردي: وهو الأظهر؛ لأن المراد به المبالغة في التقليل، قلت: مراعاة المبالغة في التقليل لا يسوغ لأجلها الخروج عن المعنى العربي، وقوله: ﴿فَكُنُّوا رُسُلِي﴾ عطف على ﴿كُذِّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ على طريقة التفسير، كقوله: ﴿كُذِّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكُنُّوا عَبِيدَنا﴾ [القمر: 9] الآية، والأولى: أن يكون من عطف الخاص على العام، لأن التكنيب الأول لما حذف منه المتعلق للتكنيب أقاد العموم، فمعناه: كذبوا الكتب المنزلة، والرسائل المرسلّة، والمعجزات الواضحة، وتكنيب الرسل لأخص منه، وإن كان مستلزماً له، فقد روعيت الدلالة اللفظية لا الدلالة الاتزامية ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري لهم بالعذاب، والعقوبة، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك، قيل: وفي الكلام حذف. والتقدير: فاهلكناهم، فكيف كان نكير، والنكير اسم بمعنى: الإنكار. ثم أمر سبحانه رسوله: أن يقيم عليهم حجة ينقطعون عندها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَلَحْدَةٍ﴾ أي: أحذركم، وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه، وأوصيكم بخصلة واحدة، وهي: ﴿إِنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَالِكُمْ﴾ هذا تفسير للخصلة الواحدة، أو بدل منها: أي: هي قيامكم وتشميركم في طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً، لأن الاجتماع يشوش الفكر. وليس المراد القيام على الرجلين، بل المراد القيام بطلب الحق، وإصداق الفكر فيه، كما يقال: قام فلان بأمر كذا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمر النبي، وما جاء به من الكتاب، فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾، وذلك؛ لأنهم كانوا يقولون: إن محمداً مجنون، فقال الله سبحانه: قل لهم: اعتبروا أمري بواحدة، وهي: أن تقوموا لله، وفي ذاته مجتمعين، فيقول الرجل لصاحبه: هلم، فلننتصاق، هل رأينا بهذا الرجل من جنة: أي: جنون، أو جربنا عليه كذباً، ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه، فيتفكر، وينظر، فإن في ذلك ما يدل على أن محمداً ﷺ صادق، وأنه رسول من عند الله، وأنه ليس بكاتب، ولا ساحر، ولا مجنون، وهو معنى قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ما هو إلا نذير لكم بين يدي الساعة، وقيل: إن جملة ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ مستأنفة من جهة الله سبحانه مسوقة للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن هذا الأمر العظيم، والدعوى الكبيرة لا يغرض نفسه له إلا مجنون لا يبالي بما يقال فيه، وما ينسب إليه من الكذب، وقد علموا: أنه أرجح الناس عقلاً، فوجب: أن يصنقوه في دعواه، لا سيما مع انضمام المعجزة الواضحة، وإجماعهم على أنه لم يكن ممن يفترى الكذب، ولا قد جربوا عليه كذباً مدة عمره، وعمرهم. وقيل: يجوز أن تكون «ما» في ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ استفهامية: أي: ثم تتفكروا أي شيء به من آثار الجنون، وقيل: المراد بقوله: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَلَحْدَةٍ﴾ هي: «لا إله إلا الله» كذا قال مجاهد، والسدي.

هو الفزع الذي بمعنى: الإجابة، يقال: فزع الرجل: إذا أجاب الصارخ الذي يستغيث به كفزعهم إلى الحرب يوم بدر ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي: بمحمد، قاله قتادة، أو بالقرآن. وقال مجاهد: بالله عز وجل. وقال الحسن: بالبعث ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ﴾ التناوش التناول، وهو تفاعل من التناوش الذي هو: التناول، والمعنى: كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد، يعني: في الآخرة، وقد تركوه في الدنيا، وهو معنى ﴿مَنْ مَكَانٌ بَعِيدٌ﴾: وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد ما فات عنهم. قال ابن السكيت: يقال: للرجل إذا تناول رجلاً لياخذ برأسه، أو بلحيته ناشه ينوشه نوشاً، وأنشد:

ففي تنوش الحوض نوشاً من علا نوشاً به تقطع أحواز الفلا
أي: تناول ماء الحوض من فوق، ومنه المناوشة في القتال، وقيل: التناوش الرجعة: أي: وأنى لهم الرجعة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا، ومنه قول الشاعر:

تمنى أن تشوب إليّ مَيٍّ وليس إلى تناوشها سبيل
وجملة: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ في محل نصب على الحال: أي: والحال أن قد كفروا بما آمنوا به الآن من قبل هذا الوقت، وذلك حال كونهم في الدنيا. قرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، والأعمش (التناوش) بالهمز، وقرأ الباقر بن الوليد، واستبعد أبو عبيد، والنحاس القراءة الأولى، ولا وجه للاستبعاد، فقد ثبت ذلك في لغة العرب، وأشعارها، ومنه قول الشاعر:

تعدت زماناً عن طلابك للعلا وجئت نثيباً بعد ما فاتك الخير
أي: وجئت أخيراً. قال الفراء: الهمز، وترك الهمز متقارب ﴿وَيَقْنَفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يرمون بالظن، فيقولون: لا بعث، ولا نشور، ولا جنة، ولا نار ﴿مَنْ مَكَانٌ بَعِيدٌ﴾ أي: من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل. وقيل: والمعنى: يقولون في القرآن أقوال باطلة: إنه سحر، وشعر، وأساطير الأركنين. وقيل: يقولون في محمد إنه ساحر شاعر كاهن مجنون. وقرأ أبو حيو، ومجاهد، ومحبوب عن أبي عمرو (يقنفون) مبنياً للمفعول: أي: يترجمون بما يسوؤهم من جراء أعمالهم من حيث لا يحتسبون، وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم في لحوقه، والجملة إما معطوفة على: وقد كفروا به على أنها حكاية للحال الماضية، واستحضار لصورتها، أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من النجاة من العذاب، ومنعوا من ذلك، وقيل: حيل بينهم، وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم، وأهلبيهم، أو حيل بينهم، وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا ﴿كَمَا فَعَلْ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بأموالهم، ونظراتهم من كفر الأمم الماضية، والأشياء جمع شيع، وشيع جمع شيعة، وجملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ تعليل لما قبلها: أي: في شك موقع في الريبة، أو ذي ريبة من أمر الرسل، والبعث، والجنة، والنار، أو في التوحيد، وما جاءتهم به الرسل من الدين، يقال: أرب الرجل إذا صار ذا ريبة، فهو مرِيب، وقيل: هو من

تكون ما استفهامية: أي: أي شيء يبديه، وأي شيء يعيده؟ والأول أولى ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ عن الطريق الحق الواضحة ﴿فإنما أضل على نفسي﴾ أي: إثم ضلالتني يكون على نفسي، وذلك أن الكفار قالوا له: تركت بين آبائك، فضلت، فأمره الله: أن يقول لهم هذا القول ﴿وَأَنْ اهْتَبِيتَ فِيمَا يُوْحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ من الحكمة، والموعظة، والبيان بالقرآن ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم يعلم الهدى والضلالة، قرأ الجمهور (ضللت) بفتح اللام، وقرأ الحسن، ويحيى بن وثاب بكسر اللام، وهي لغة أهل العالية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ يقول: من القوة في الدنيا. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي في الآية قال: يقوم الرجل مع الرجل، أو وحده، فيفكر ما يصاحبه من جنة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ يقول: إنه ليس بمجنون. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في قوله: ﴿وَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ جَرٍ﴾ أي: من جعل، فهو لكم، يقول: لم أسألكم على الإسلام جعلاً، وفي قوله: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ قال: بالرحي، وفي قوله: ﴿وَمَا يَبْدئُ الْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ﴾ قال: الشيطان لا يبدئ ولا يعبد إذا هلك. وأخرج هؤلاء عنه في قوله: ﴿وَمَا يَبْدئُ الْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ﴾ قال: ما يخلق إبليس شيئاً، ولا يبعثه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عمر بن سعد في قوله: ﴿إِنْ ضَلَلْتُ فإِنَّمَا أضل على نفسي﴾ قال: إنما أؤخذ بجنايتي.

وَلَوْ تَرَى إِذْ ذُكِّرُوا فَلَا تُؤْتِ وَيُذَكَّرُونَ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۝٢١ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ
وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۝٢٢ وَتَذَكَّرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ
وَيَقْذِفُونَ بِالْأَنفِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۝٢٣ وَجِئَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَأَن لَوْ
بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۝٢٤

ثم نكر سبحانه حالاً من أحوال الكفار، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ إذ فزعوا، والخطاب لرسول الله، أو لكل من يصلح له، قيل: المراد فزعهم عند نزول الموت بهم. وقال الحسن: هو: فزعهم في القبور من الصيحة، وقال قتادة: هو: فزعهم إذا خرجوا من قبورهم. وقال السدي: هو: فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيف الملائكة، فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة. وقال ابن مغفل: هو: فزعهم إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة. وقال سعيد بن جبير: هو: الخسف الذي يخسف بهم في البدياء، فيبقى رجل منهم، فيخبر الناس بما لقي أصحابه، فيفزعون. وجواب لو محذوف: أي: لرأيت أمراً هائلاً، ومعنى ﴿فلا فوت﴾: فلا يفوتني أحد منهم، ولا ينجو منهم ناج. قال مجاهد: فلا مهرب ﴿وَلِخْذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من ظهر الأرض، أو من القبور، أو من موقف الحساب وقيل: من حيث كانوا، فهم من الله قريب لا يبعدون عنه، ولا يفوتونه. قيل: ويجوز أن يكون هذا الفزع

الريب الذي هو الشك، فهو كما يقال عجب عجيب، وشعر شاعر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلا فَوْتَ﴾ قال: فلا نجاة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَلا فَوْتَ وَلِخُذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال: هو جيش السفيناني، قيل: من أين أخذوا؟ قال: من تحت أقدامهم. وقد ثبت في الصحيح: أنه يخسف بجيش في الببغاء من حديث حفصة، وعائشة، وخارج الصحيح من حديث أم سلمة، وصفية، وأبي هريرة، وابن مسعود، وليس في شيء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية، ولكنه أخرج ابن جرير من حديث حنيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة، وقال في آخرها: فلذلك قوله عز وجل في سورة سبأ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَلا فَوْتَ﴾ الآية. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ لَيْسَ لَكُمْ التَّنَافُوسُ﴾ قال: كيف لهم الرد؟ ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال: يسألون الرد، وليس بحين رد. وأخرج ابن المنذر عن التميمي قال: أتيت ابن عباس قلت: ما التنافوس؟ قال: تناول الشيء، وليس بحين ذلك.

تفسير سورة فاطر

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج البخاري، وابن الضريس، وابن مربي، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة فاطر بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمَّا دَعَا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مَتَنٌ وَكَانَتْ رُسُلُكَ بَرِيدًا فِي اللَّيْلِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ خَبِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِيٍّ وَمَا أَعْلَمُ النَّاسُ بِأَيِّهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكَ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَ تُؤْكِرُكُمْ ﴿٢﴾ وَلَهُ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجِزُّ الْأُمُورَ ﴿٣﴾ بَيَّأَتِ النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا تَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُودُ ﴿٤﴾ إِنَّ الْفَيْتَنَ لَكُنَّ عُدُوًّا فَأَعِذُّوهُ عُدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ حَتَّى تَمُوتَ وَأَنْتَ كَبِيرٌ ﴿٦﴾ أَمِنْ زَيْنٍ لَمْ يُوْهِ عَلَيْهِ فَرَادٌ حَسَبًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٧﴾

الفطر: الشق عن الشيء، يقال: فطرته فانفطر، ومنه فطر ناب البعير إذا طلع، فهو بعير فاطر، وتغفر الشيء تشقق، والفطر الابتداء والاختراع، وهو: المراد هنا، والمعنى: ﴿الحمد لله﴾ مبدع ﴿السموات والأرض﴾، ومخترعهما، والمقصود من هذا أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم،

فهو قادر على الإعادة. قرأ الجمهور (فاطر) على صيغة اسم الفاعل، وقرأ الزهري، والضحاك (فطر) على صيغة الفعل الماضي، فعلى القراءة الأولى هو نعت لله؛ لأن إضافته محضة لكونه بمعنى: الماضي، وإن كانت غير محضة كان بدلاً، ومثله ﴿جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يجوز فيه الوجهان، وانتصاب رسلاً بفعل مضمر على الوجه الأول، لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى: الماضي لا يعمل، وجوز الكسائي عمله. وأما على الوجه الثاني، فهو منصوب بجاعل، والرسول من الملائكة هم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل. وقرأ الحسن (جاعل) بالرفع، وقرأ خليل بن نشيط، ويحيى بن يعمر (جعل) على صيغة الماضي. وقرأ الحسن، وحמיד (رسلاً) بسكون السين، وهي لغة تميم ﴿أُولَى لُجْنَةٍ﴾ صفة لرسلاً، والأجنحة جمع جناح ﴿مُثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ صفة لأجنحة، وقد تقدم الكلام في مثني، وثلاث، ورباع في النساء. قال قتادة: بعضهم له جناح، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء. قال يحيى بن سلام: يرسلهم الله إلى الأنبياء. وقال السدي: إلى العباد بنعمه، أو نعمة، وجملة ﴿يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من تغاير أحوال الملائكة، والمعنى: أنه يزيد في خلق الملائكة ما يشاء، وهو: قول أكثر المفسرين، واختاره الفراء، والزجاج. وقيل: إن هذه الزيادة في الخلق غير خاصة بالملائكة، فقال الزهري، وابن جريج: إنها حسن الصوت. وقال قتادة: الملاحة في العينين، والحسن في الأنف، والحلاوة في الفم، وقيل: الوجه الحسن، وقيل: الخط الحسن، وقيل: الشعر الجعد، وقيل: العقل والتمييز، وقيل: العلوم والصنائع، ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كل زيادة، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما قبلها من أنه يزيد في الخلق ما يشاء ﴿وَمَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: ما ياتيهم الله به من مطر وندى لا يقدر أحد أن يمسكه ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ من ذلك لا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه، وقيل: المعنى: إن الرسل بعثوا رحمة للناس، فلا يقدر على إرسالهم غير الله، وقيل: هو الدعاء، وقيل: التوبة، وقيل: التوفيق، والهداية. ولا وجه لهذا التخصيص بل المعنى: كل ما يفتح الله للناس من خزائن رحمته، فيشمل كل نعمة يمنه الله بها على خلقه، وهكذا الإمساك يتناول كل شيء يمنه الله من نعمة، فهو سبحانه المعطي المانع القابض الباسط لا معطي سواه، ولا منعم غيره. ثم أمر الله سبحانه عباده أن يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التي لا تعد ولا تحصى ﴿وَلَنْ تَعْلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]، ومعنى هذا الأمر لهم بالذكر: هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها، وطلب المزيد منها ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ من زائدة، وخالق مبتدأ، وغير الله صفة له. قال الزجاج: ورفع غير على معنى هل خالق غير الله؛ لأن «من» زيادة مؤكدة، ومن خفض غير

يكونوا، أو النصب على البذل من حزيه، أو النعت له، أو إضمار فعل يدل على الذم، والجر على البذل من أصحاب، أو النعت له. والرفع على الابتداء أقوى هذه الوجوه، لانه سبحانه يعد نكر عداوة الشيطان ودعائه لحزيه، نكر حال الفريقين من المطيعين له، والعاصين عليه، فالفريق الأول قال: ﴿لهم عذاب شديد﴾، والفريق الآخر قال فيه: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾ أي يغفر الله لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، ويعطيهم أجراً كبيراً، وهو: الجنة ﴿أقمّن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما سبق من نكر التفاوت بين الفريقين، و «من» في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف. قال الكسائي: والتقدير ذهب نفسك عليهم حسرات. قال: ويدل عليه قوله: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ قال: وهذا كلام عربيّ ظريف لا يعرفه إلا القليل. وقال الزجاج: تقديره كمن هداه، وقدره غيرهما كمن لم يزين له، وهذا أولى لموافقة لفظاً، ومعنى، وقد وهم صاحب الكشاف، فحكي عن الزجاج ما قاله الكسائي. قال النحاس: والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية لما ذكره من الدلالة على المحذوف، والمعنى: أن الله عزّ وجلّ نهى نبيه ﷺ عن شدة الاعتماد بهم، والحزن عليهم كما قال: ﴿فلعلكم باخع نفسك﴾ [الكهف: 6] وجملة ﴿فإن الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾ مقترنة لما قبلها: أي يضلّ من يشاء أن يضلّه، ويهدي من يشاء أن يهديه ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ قرأ الجمهور بفتح الفوقية، والهاء مسنداً إلى النفس، فتكون من باب: لا أرىكها هنا. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، وابن محيصن، والأشهب بضم التاء، وكسر الهاء، ونصب «نفسك»، وانتصاب «حسرات» على أنه علة: أي: للحسرات، ويجوز: أن ينتصب على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر كما روي عن سيبويه. وقال المبرد: إنها تمييز. والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر ﴿إنّ الله عليم بما يصنعون﴾ لا يخفي عليه من أفعالهم وأقوالهم خافية، والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد.

وقد أخرج أبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس قال: كنت لا أنري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرته، يقول: ابتدأتها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال: ﴿فاطر السموات﴾ بديع السموات. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ قال: الصوت الحسن. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾ الآية قال: ما يفتح الله للناس من باب توبة ﴿فلا ممسك لها﴾ هم يتوبون إن شاءوا وإن أبوا، وما أمسك من باب توبة ﴿فلا مرسل له من بعده﴾، وهم لا يتوبون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم في الآية قال:

جعلها صفة على اللفظ. قرأ الجمهور برفع (غير)، وقرأ حمزة، والكسائي بخفضها، وقرأ الفضل بن إبراهيم بنصبها على الاستثناء، وجملة ﴿يرزقكم من السماء والأرض﴾ خبر المبتدأ، أو جملة مستأنفة، أو صفة أخرى لخالق، وخبره محذوف، والرزق من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات، وغير ذلك، وجملة ﴿لا إله إلا هو﴾ مستأنفة لتقرير النفي المستفاد من الاستفهام ﴿فأنّى تؤفكون﴾ من الأفك بالفتح، وهو الصرف، يقال: ما أفكك عن كذا: أي: ما صرفك: أي: فكيف تصرفون. وقيل: هو مأخوذ من الإفك بالكسر، وهو الكذب؛ لانه مصروف عن الصديق. قال الزجاج: أي: من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله، والبعث، وأنتم مقرّون بأن الله خلقكم ورزقكم. ثم عزى الله سبحانه نبيه ﷺ، فقال: ﴿وإن يكنّوبك فقد كذبت رسل من قبلك﴾ ليتأسى بمن قبله من الأنبياء، ويتسلى عن تكذيب كفار العرب له ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ لا إلى غيره، فيجازي كلّ بما يستحقه. قرأ الحسن، والأعرج، ويعقوب، وابن عامر، وأبو حيوة، وابن محيصن، وحميد، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف (ترجع) بفتح الفوقية على البناء للمفاعل، وقرأ الباقر بن ضمها على البناء للمفعول ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ أي: وعده بالبعث، والنشور، والحساب، والعقاب، والجنة، والنار، كما أشير إليه بقوله: ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بزخرفها، ونعيمها. قال سعيد بن جبيرة: غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها، ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول: ﴿يا ليتني قمت لحياتي﴾ [الفجر: 24] ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ قرأ الجمهور بفتح الغين: أي: المبالغ في الغرور، وهو: الشيطان. قال ابن السكيت، وأبو حاتم: الغرور الشيطان، ويجوز: أن يكون مصدرأ، واستبعده الزجاج، لأن غر به متعدي، ومصدر المتعدي إنما هو على فعل نحو ضربته ضرباً، إلا في أشياء يسيرة معروفة لا يقاس عليها، ومعنى الآية: لا يغرنكم الشيطان بالله، فيقول لكم: إن الله يتجاوز عنكم، ويغفر لكم لفضلكم، أو لسعة رحمته لكم. وقرأ أبو حيوة، وأبو سماء، ومحمد بن السميع بضم الغين، وهو: الباطل. قال ابن السكيت: والغرور بالضم ما يغرّ من متاع الدنيا. وقال الزجاج: يجوز: أن يكون الغرور جمع غار، مثل قاعد، وقعود، قيل: ويجوز أن يكون مصدر غرّه كاللزوم، والنهوك، وفيه ما تقدّم عن الزجاج من الاستبعاد. ثم حذر سبحانه عباده من الشيطان، فقال: ﴿إنّ الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ أي: فعانوه بطاعة الله، ولا تطيعوه في معاصي الله. ثم بيّن لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم، فقال: ﴿إنما يدعو حزيه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أي: إنما يدعو أشياءه، وأتباعه، والمطيعين له إلى معاصي الله سبحانه لأجل أن يكونوا من أهل النار، ومحل الموصول في قوله: ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد﴾ الرفع على الابتداء، ولهم عذاب شديد خبره، أو الرفع على البذل من فاعل

وقال قتادة: من كان يريد العزة، فليتعزز بطاعة الله، فجعل معنى قللة العزة: الدعاء إلى طاعة من له العزة، كما يقال: من أراد المال، فالمال لفلان: أي: فليطلبه من عنده. وقال الزجاج: تقديره من كان يريد بعبادة الله العزة، والعزة له سبحانه، فإن الله عز وجل يعزّه في الدنيا والآخرة. وقيل: المراد بقوله: «من كان يريد العزة» المشركون، فإنهم كانوا يتعزّزون بعبادة الأصنام: كقوله: «واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً» [مريم: 81] وقيل المراد: الذين كانوا يتعزّزون بهم من الذين آمنوا بالسنتهم «الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة» [النساء: 139] الآية «قللة العزة جميعاً» أي: فليطلبها منه لا من غيره، والظاهر في معنى الآية: أن من كان يريد العزة، ويطلبها، فليطلبها من الله عز وجل: قللة العزة جميعاً، ليس لغيره منها شيء، فتشمل الآية كل من طلب العزة، ويكون المقصود بها التنبيه لنوري الاقدار، والهمم من أين تنال العزة، ومن أي جهة تطلب: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» أي: إلى الله يصعد لا إلى غيره، ومعنى صعوده إليه: قبوله له، أو صعود الكتب من الملائكة بما يكتبونه من الصحف، وخصّ الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من ذكر الله، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتلاوة، وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد، والتمجيد. وقيل: المراد بصعوده صعوده إلى سماء الدنيا. وقيل: المراد بصعوده علم الله به، ومعنى «والعمل الصالح يرفعه» أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، كما قال الحسن، وشهر بن حوشب، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقاتدة، وأبو العالية، والضحاك، ووجهه: أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح. وقيل: إن فاعل يرفعه هو الكلم الطيب، ومفعوله العمل الصالح، ووجهه: أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد، والإيمان. وقيل: إن فاعل يرفعه ضمير يعود إلى الله عز وجل. والمعنى: أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب، لأن العمل يحقق الكلام. وقيل: والعمل الصالح يرفع صاحبه، وهو الذي أراد العزة. وقال قتادة: المعنى: أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه: أي: يقبله، فيكون قوله: «والعمل الصالح» على هذا مبتدأ خبره يرفعه، وكذا على قول من قال يرفع صاحبه. قرأ الجمهور (يصعد) من صعد الثلاثي، و(الكلم الطيب) بالرفع على الفاعلية. وقرأ علي، وابن مسعود (يصعد) بضم حرف المضارعة من أصدع، و(الكلم الطيب) بالنصب على المفعولية، وقرأ الضحاك على البناء للمفعول، وقرأ الجمهور (الكلم)، وقرأ أبو عبد الرحمن (الكلام)، وقرأ الجمهور (والعمل الصالح) بالرفع على العطف، أو على الابتداء. وقرأ ابن أبي عبيدة، وعيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال «والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد» انتصاب السيئات على أنها صفة لمصدر محذوف: أي: يمكرون المكرات السيئات، وذلك لأن «مكر»

يقول: ليس لك من الأمر شيء. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: «لهم مغفرة ولجر كبير» قال: كل شيء في القرآن لهم مغفرة، وأجر كبير، ودرج كبير، فهو: الجنة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة، والحسن في قوله: «أفمن زين له سوء عمله» قال: الشيطان زين لهم هي والله الضلالات «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» أي: لا تحزن عليهم.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُفْرِجَ حَمَاةً فَسَفَتْهُ إِلَى بَلَدٍ نَجِيٍّ فَاتَّبَعْنَاهُ بِدَعْوَاهُ كَذَلِكَ الْفُتُورُ ﴿١٦﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْوَرْدَ فَلْيَنْزِلْ الْوَرْدَ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَكَرَّ أَوَّلُكَ هُوَ يَوْمٌ ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْثَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاحاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمِرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا بِأَمْرٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا فَرَاتٌ سَالِحٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَلْحَقُ مِنْ كُلِّ نَاقِلُونَ لَحْمًا طَرِيحًا وَتَسْتَفْرِجُونَ حِلَّةً تَلْبَسُونَهَا وَرَى أَلْفَكَ فِيهِ مَوَافِرُ لَبَنَتَا مِنْ فَتَاهِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩﴾ يُؤْتِي الْبَلَدَ الْفُتُورَ وَالْهَارَ فِي الْبَلَدِ وَسَحَرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ شَيْءٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رُبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْنِهِ ﴿٢٠﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَكَوْضِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يَنْفَعُكُمْ مِثْلُ شَيْءٍ ﴿٢١﴾

ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بيع صنعه، وعظيم قدرته، ليتفكروا في ذلك، وليعتبروا به، فقال: «والله الذي أرسل الرياح» قرأ الجمهور: «الرياح»، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي (الريح) بالإنفراد «فتثير سحاباً» جاء بالمضارع بعد الماضي استحضاراً للصورة، لأن ذلك انحل في اعتبار المعتبرين، ومعنى كونها: تثير السحاب أنها تزججه من حيث هو «فسقناه إلى بلد ميت» قال أبو عبيدة: سبيله، فتسوقه، لأنه قال: فتثير سحاباً. قيل: النكتة في التعبير بالماضيين بعد المضارع: الدلالة على التحقق. قال المبرد: ميت وميت واحد، وقال: هذا قول البصريين، وأنشد:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء «فأحيينا به الأرض» أي: أحيينا بالمطر الأرض بإنبات ما ينبت فيها، وإن لم يتقدم ذكر المطر، فالسحاب يدل عليه، أو أحيينا بالسحاب، لأنه سبب المطر «بعد موتها» أي: بعد يبسها، استعار الإحياء للنبات، والموت لليبس «كذلك للنشور» أي: كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحياء الأرض بعد موتها، والنشور: البعث، من نشر الإنسان نشوراً، والكاف في محل رفع على الخيرية: أي: مثل إحياء موات الأرض إحياء الأموات، فكيف تنكرونه، وقد شاهدتم غير مرة ما هو مثله وشبيهه «من كان يريد العزة» قال الفراء: معناه: من كان علم العزة لمن هي؟ فإنها الله جميعاً.

لازم، ويجوز: أن يضمن يمكرون معنى: يكسبون، فتكون السيئات مفعولاً به. قال مجاهد، وقتادة: هم: أهل الرياء. وقال أبو العالية: هم الذين مكروا بالنبي ﷺ لما اجتمعوا في دار الندوة. وقال الكلبي: هم الذين يعملون السيئات في الدنيا. وقال مقاتل: هم: المشركون، ومعنى ﴿لهم عذاب شديد﴾: لهم عذاب بالغ الغاية في الشدة ﴿وَمَكَرَ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يبطل، ويهلك، ومنه ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: 12] والمكر في الأصل: الخديعة، والاحتيال، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الذين مكروا السيئات على اختلاف الأقوال في تفسير مكرهم، وجملة ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ خبر مكر أولئك. ثم ذكر سبحانه ليلاً آخر على البعث، والنشور، فقال: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي: خلقكم ابتداء في ضمن خلق أبيكم آدم من تراب. وقال قتادة: يعني: آدم، والتقدير على هذا: خلق أباكم الأول، وأصلكم الذي ترجعون إليه من تراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أخرجهما من ظهر آبائكم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: زَوْجَ بَعْضِكُمْ بَعْضٍ، فالذكر زوج الأنثى، أو جعلكم أصنافاً نكراً وإنثاً ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: لا يكون حمل، ولا وضع إلا والله عالم به، فلا يخرج شيء عن علمه وتبديره ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ مِنْ عَمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عَمَرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: ما يطول عمر أحد، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب: أي: في اللوح المحفوظ. قال الفراء: يريد آخر غير الأول، فكنتي عنه بالضمير كأنه الأول: لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول كأنه قال: ولا ينقص من عمر معمر، فالنكاح في عمره ترجع إلى آخر غير الأول، ومثله قولك: عندي درهم ونصفه: أي: نصف آخر. قيل: إنما سمي معمرًا باعتبار مصيره إليه. والمعنى: وما يمد في عمر أحد، ولا ينقص من عمر أحد، لكن لا على معنى: لا ينقص من عمره بعد كونه زائداً، بل على معنى: أنه لا يجعل من الابتداء ناقصاً إلا وهو في كتاب. قال سعيد بن جبير: وما يعمر من معمر إلا كتب عمره: كم هو سنة، كم هو شهراً، كم هو يوماً، كم هو ساعة، ثم يكتب في كتاب آخر نقص من عمره ساعة، نقص من عمره يوم، نقص من عمره شهر، نقص من عمره سنة حتى يستوفي أجله، فما مضى من أجله، فهو: النقصان، وما يستقبل، فهو: الذي يعمره. وقال قتادة: المعمر من بلغ ستين سنة، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة. وقيل: والمعنى: إن الله كتب عمر الإنسان كذا إن أطاع، وبنوه إن عصى، فأيهما بلغ، فهو في كتاب، والضمير على هذا يرجع إلى معمر. وقيل: والمعنى: وما يعمر من معمر إلى الهرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب: أي: بقضاء الله قاله الضحاک، واختاره النحاس. قال: وهو أشبهها بظاهر التنزيل، والأولى أن يقال: ظاهر النظم القرآني أن تطويل العمر وتقصيره: هما بقضاء الله، وقدره لأسباب تقتضي التطويل، وأسباب تقتضي التقصير.

فمن أسباب التطويل: ما ورد في صلة الرّحم عن النبي ﷺ، ونحو ذلك. ومن أسباب التقصير الاستكثار من

معاصي الله عز وجل، فإذا كان العمر المضروب للرجل مثلاً سبعين سنة، فقد يزيد الله له عليها إذا فعل أسباب الزيادة، وقد ينقصه منها إذا فعل أسباب النقصان، والكل في كتاب مبين، فلا تخالف بين هذه الآية، وبين قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]، ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿يُمَحِّمُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39]، وقد قَدَّمْنَا في تفسيرها ما يزيد ما نكرنا هنا وضوحاً وبياناً. قرأ الجمهور (ينقص) مبنياً للمفعول. وقرأ يعقوب، وسلام، وروي عن أبي عمرو (ينقص) مبنياً للمفاعل. وقرأ الجمهور (من عمره) بضم الميم. وقرأ الحسن، والأعرج، والزهري بسكونها، والإشارة بقوله: ﴿إِنْ نُلْكُ﴾ إلى ما سبق من الخلق، وما بعده ﴿وَعَلَى اللَّهِ يَسِيرُ﴾ لا يصعب عليه منه شيء، ولا يعجز عنه كثير، ولا قليل، ولا كبير، ولا صغير. ثم نكر سبحانه نوعاً آخر من بليع صنعه، وعجيب قدرته، فقال ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ مِنَ الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبَ فِرَاتٍ سَائِغٌ شَرِبُهُ هَذَا مِلْحَ لُجَاجٍ﴾ فالمراد بالبحران العذب، والمالح، فالعذب الفرات الحلوى والأجاج المر، والمراد به سائغ شربه الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته. وقرأ عيسى بن عمر (سيغ) بتشديد الياء، وروي تسكينها عنه. وقرأ طلحة، وأبو نهيك (ملح) بفتح الميم ﴿وَمِنْ كُلِّ مِنْهُمَا تَكَلُّونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل ﴿وَتُسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ الظاهر أن المعنى: وتستخرجون منهما حلية تلبسونها. وقال المبرّد: إنما تستخرج الحلية من المالح، وروي عن الزجاج: أنه قال: إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا، لا من كل واحد منهما على انفراده، ورجح النحاس قول المبرّد. ومعنى ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾: تلبسون كل شيء منها بحسبه، كالخاتم في الأصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق، والخلخال في الرجل، ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف، والدرع، ونحوهما ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ﴾ أي: في كل واحد من البحرين. وقال النحاس: الضمير يعود إلى الماء المالح خاصة، ولولا ذلك لقال: فيها ﴿مَوَاحِرُ﴾ يقال: مخرت السفينة تمخر: إذا شقت الماء. فالمعنى: وترى السفن في البحرين شواطئ للماء بعضها مقبلة، وبعضها مبدرة بريح واحدة، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة النحل، واللام في ﴿تَلْبَسُونَهَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ متعلقة بما يدل عليه الكلام السابق: أي: فعل ذلك: لتبتغوا، أو بمواخر. قال مجاهد: ابتغاء الفضل هو التجارة في البحر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة كما تقدم في البقرة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما أنعم عليكم به من ذلك. قال أكثر المفسرين: إن المراد من الآية ضرب المثل في حق المؤمنين والكافرين، والكفر والإيمان، فكما لا يستوي البحرين كذلك لا يستوي المؤمن والكافر، ولا الكفر والإيمان ﴿يُولَجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَيُولَجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يضيف بعض أجزائهما إلى بعض، فيزيد في

مررت بها مخصبة تهترّ خضرًا؟ قلت: بلى، قال: كذلك يحيي الله الموتى، وكذلك النشور». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود قال: إذا حنّناكم بحديث آتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله، وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله، قبض عليهنّ ملك يضمهنّ تحت جناحه، ثم يصعد بهنّ إلى السماء، فلا يمرّ بهنّ على جمع من الملائكة إلا استغفر لقائلهنّ حتى يجيء بهنّ وجه الرحمن، ثم قرأ ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ قال: أداء الفرائض، فمن ذكر الله في أداء فرائضه حمل عمله نكر الله، فصعد به إلى الله، ومن نكر الله، ولم يؤدّ فرائضه ردّ كلامه على عمله، وكان عمله أولى به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما يعترف من معترف﴾ الآية قال: يقول ليس أحد قضيت له طول العمر، والحياة إلا وهو بالغ ما قدرّت له من العمر وقد قضيت له ذلك، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرّت له لا يزداد عليه، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر، والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتب له، فنلك قوله: ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ يقول: كل نلك في كتاب عنده. وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو عوانة، وابن حبان، والطبراني، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حنيفة بن أسيد الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقرّ في الرحم باربعين، أو بخمسة وأربعين ليلة، فيقول: أي ربّ أشقي أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، ويكتبان، ثم يكتب عمله، ورزقه، وأجله، وأثره، ومصيبته، ثم تطوى الصحيفة، فلا يزداد فيها، ولا ينقص». وأخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، والنسائي، وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة: اللهمّ أمتعني بزوجي النبي، وبلي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال النبي ﷺ: «إنك سألت الله لأجل مضرورية، وأيام معنودة، وأرزاق مقسومة، ولن يجعل الله شيئاً قبل حله، أو يؤخر شيئاً، ولو كنت سألت الله: أن يعينك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل، وهذه الأحاديث مخصصة بما ورد من قبول الدعاء، وأنه يعتلج هو والقضاء، وبما ورد في صلة الرحم أنها تزيد في العمر، فلا معارضة بين الآلة كما قلّمنا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما يملكون من قطمير﴾ قال: القطمير القشر، وفي لفظ: الجلد الذي يكون على ظهر النواة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّزِفُوا لِلَّهِ إِلَى اللَّهِ وَكَأَنَّ هُوَ الْغَيْبُ الْحَمِيدُ﴾ ١٠٠
﴿بِأَنَّهُ يَذْهَبُكُمْ وَيَأْتِي بِكُمْ جَبْرِ﴾ ١٠١ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ١٠٢ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَلَئِنْ دَخَلْتُمْ مُقَلَّةً لَّيَنْجِلَنَّهَا لَكُمْ بِحِمْلٍ مِّمَّنْ هِيَ وَلَوْ كَانُوا قَرِبَةً إِلَّا نَذَرَ الْأَلْزَمَ بِحَبْرٍ رَّحِمٍ وَأَلَمَ أَفَلَا تُفَكِّرُونَ ١٠٣

أحدهما، بالنقص في الآخر، وقد تقدّم تفسيره في آل عمران، وفي مواضع من الكتاب العزيز ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ قدره الله لجريانهما، وهو: يوم القيامة. وقيل: هو المدة التي يقطعان في مثلها الفلك، وهو سنة للشمس، وشهر للقمر. وقيل: المراد به جري الشمس في اليوم، والقمر في الليلة. وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى في سورة لقمان، والإشارة بقوله: ﴿نلكم﴾ إلى الفاعل لهذه الأفعال، وهو: الله سبحانه، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ﴿الله ربكم له الملك﴾ أي: هذا الذي من صنعته ما تقدّم هو: الخالق المقدر، والقادر المقدر المالك للعالم، والمتصرف فيه، ويجوز: أن يكون قوله: له الملك جملة مستقلة في مقابلة قوله: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ أي: لا يقدرّون عليه، ولا على خلقه، والقطمير: القشرة الرقيقة التي تكون بين التمرة والنواة، وتصير على النواة كاللغافة لها. وقال المبرد: هو: شقّ النواة. وقال قتادة: هو: القمع الذي على رأس النواة. قال الجوهري: ويقال: هي: النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة. ثم بين سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا ينفعون ولا يضرّون، فقال: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ أي: إن تستغيثوا بهم في النوائب لا يسمعوا دعاءكم، لكونها جمادات لا تترك شيئاً من المبركات ﴿ولو سمعوا﴾ على طريقة الفرض، والتقدير: ﴿وما استجابوا لكم﴾ لعجزهم عن ذلك. قال قتادة: المعنى: لو سمعوا لم ينفعوك. وقيل المعنى: لو جعلنا لهم سماعاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتهم إليه من الكفر ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي: يتبرّون من عبادتكم لهم، ويقولون ﴿وما كنتم إيانا تعبدون﴾ [يونس: 28] ويجوز: أن يرجع ﴿والذين تدعون من دونه﴾ [الأعراف: 197] وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار، وهم: الملائكة، والجنّ، والشياطين. والمعنى: أنهم يحذرون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وينكرون: أنهم أمروكم بعبادتهم ﴿ولا ينبتك مثل خبير﴾ أي: لا يخبرك مثل من هو خبير بالأشياء عالم بها، وهو: الله سبحانه، فإنه لا أحد أخبر بخلقهم، وأقوالهم، وأفعالهم منه سبحانه، وهو الخبير بكنه الأمور، وحقائقها.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض، فينفخ فيه، فلا يبقى خلق الله في السموات والأرض إلا من شاء الله إلا مات، ثم يرسل الله من تحت العرش منياً كمني الرجال، فتنبئ أجسامهم ولحومهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى، ثم قرأ عبد الله ﴿الله الذي أرسل للرياح﴾ الآية. وأخرج أبو داود، والطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين العقيلي قال: «قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ قال: أما مررت بأرض مجيبة، ثم

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾ [التَّوَارِثَات: 45] وقوله: ﴿إِنَّمَا تَنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يَس: 11] ومعنى ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: أنهم احتفلوا بأمرها، ولم يشتغلوا عنها بشيء مما يليهم ﴿وَمَن تَرَكَّى فإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ التزكى: التطهر من انبساط الشر، والفواحش، والمعنى: أن من تطهر بترك المعاصي، واستكثر من العمل الصالح، فإنما يتطهر لنفسه، لأن نفع تلك مختص به كما أن وزر من تنس لا يكون إلا عليه لا على غيره. قرأ الجمهور (ومن تزكى فإنما يتزكى) وقرأ أبو عمرو⁽¹⁾ «فإنما يزكى» بإدغام التاء في الزاي، وقرأ ابن مسعود، وطلحة (ومن أزكى فإنما يزكى) ﴿وَالَى إِلَهَ الْمَصِيرِ﴾ لا إلى غيره، نكر سبحانه أولاً: أنه لا يحمل أحد نوب أحد، ثم نكر ثانياً: أن المذنوب إن دعا غيره، ولو كان من قرابته إلى حمل شيء من ذنوبه لا يحمله، ثم نكر ثالثاً: أن ثواب الطاعة مختص بفاعلها ليس لغيره منه شيء. ثم ضرب مثلاً للمؤمن، والكافر، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى﴾ أي: المسلوب حاسة البصر ﴿وَالْبَصِيرَ﴾ الذي له ملكة البصر، فشبه الكافر بالاعمى، وشبه المؤمن بالبصير ﴿وَالْظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ أي: ولا تستوي الظلمات ولا النور، فشبه الباطل بالظلمات، وشبه الحق بالنور. قال الأخفش: ولا في قوله: ﴿وَالنُّورِ﴾، ﴿وَالْحُرُورِ﴾ زائدة، والتقدير وما يستوي الظلمات والنور، ولا الظل والحرور، والحرور شدة حر الشمس. قال الأخفش: والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسموم يكون بالليل، وقيل: عكسه. وقال رؤبة بن العجاج: الحرور يكون بالليل خاصة، والسموم يكون بالنهار خاصة. وقال الفراء: السموم لا يكون إلا بالنهار، والحرور يكون فيها. قال النحاس: وهذا أصح. وقال قطرب: الحرور الحر، والظل البرد، والمعنى: أنه لا يستوي الظل الذي لا حر فيه، ولا أذى، والحر الذي يؤذي. قيل: أراد الثواب والعقاب، وسمى الحر حروراً مبالغة في شدة الحر، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى. وقال الكلبي: أراد بالظل الجنة، وبالحرور النار. وقال عطاء: يعني: ظل الليل، وشمس النهار. قيل: وإنما جمع الظلمات، وأفرد النور لتعدد فنون الباطل، واتحاد الحق. ثم نكر سبحانه تمثيلاً آخر للمؤمن، والكافر، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ﴾، فشبه المؤمنين بالأحياء، وشبه الكافرين بالأموات، وقيل: أراد تمثيل العلماء والجهلة. وقال ابن قتيبة: الأحياء العقلاء، والأموات الجاهل. قال قتادة: هذه كلها أمثال: أي: كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَن يَشَاءُ﴾ أن يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته، ووفقه لطاعته ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يعني: الكفار الذين أمات للكفر قلوبهم: أي: كما لا تسمع من مات كذلك لا تسمع

(1) يعني: في غير المشهور عنه اهـ. ع.

فَأَنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ. وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَةُ وَلَا الْأَخُوذُ إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴿٢٥﴾ وَالْكِتَابِ الْغَنِيِّ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٧﴾

ثم نكر سبحانه افتقار خلقه إليه، ومزيد حاجتهم إلى فضله، فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْبَنَاتِ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه في جميع أمور الدين والدنيا، فهم الفقراء إليه على الإطلاق، و﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ على الإطلاق ﴿وَالْحَمِيدُ﴾ أي: المستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم. ثم نكر سبحانه نوعاً من الأنواع التي يتحقق عندها افتقارهم إليه، واستغناؤه عنهم، فقال: ﴿إِن يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: إن يشاء يفتنكم، ويأت بخلق جديد بطيعونه، ولا يعصونه، أو يأت بنوع من أنواع الخلق، وعالم من العالم غير ما تعرفون ﴿وَمَا تُلْكُ﴾ إلا ذهاب لكم، والإتيان بأخرين ﴿عَلَى اللَّهِ بَعْرِيزُ﴾ أي: بممتنع، ولا متعسر، وقد مضى تفسير هذا في سورة إبراهيم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: نفس وازرة، فحذف الموصوف للعلم به، ومعنى تزر: تحمل. والمعنى: لا تحمل نفس حمل نفس أخرى: أي: إثمها بل كل نفس تحمل وزرها، ولا تخالف هذه الآية قوله: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَاتَّقَالُوا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13]؛ لأنهم إنما حملوا أثقالاً إضلالاً مع أثقال ضلالهم، والكل من أوزارهم، لا من أوزار غيرهم، ومثل هذا حديث «مَنْ سَرَّ سِتَّةَ سَيِّئَةٍ، فَعَلِيهِ وَزْرُهَا، وَوَزَرَ مِنْ عَمَلِ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، فإن الذين سَرَّ السِّتَّةَ السَّيِّئَةَ إنما حمل وزر سنته السيئة، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية مستوفى ﴿وَأَن تَدْعَ مَثْقَلَةً إِلَى حِمْلِهَا﴾ قال الفراء: أي: نفس مثقلة، قال: وهذا يقع للمذكر، والمؤنث. قال الأخفش: أي: وإن تدع مثقلة إنساناً إلى حملها، وهو: ذنوبها ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ﴾ أي: من حملها ﴿شَيْءٌ﴾ ولو كان ذا قرىبي: أي: ولو كان الذي تدعوه ذا قرابة لها، لم يحمل من حملها شيئاً. ومعنى الآية: وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانت قريبة لها في النسب، فكيف بغيرها مما لا قرابة بينها، وبين الداعية لها؟ وقرئ (نو قرىبي) على أن كان تامة، كقوله: ﴿وَأَن كَانَ نُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: 280] وجملة ﴿إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان من يتعظ بالإنذار، ومعنى ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾: أنه يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه، أو يخشونه عذابه، وهو غائب عنهم، أو يخشونه في الخلوات عن الناس. قال الزجاج: تأويله أن إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم، فكانك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار، كقوله:

تَجُورُ ﴿١٣﴾ يُؤْفِكُهُمْ أَجُورُهُمْ وَزَيَادُهُمْ مِّنَ فُضْلِهِ إِسْمٌ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿١٤﴾ وَالَّذِي آتَيْنَاكَ مِنَّا لَيْسَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا
مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ
إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ أَثِمًا لَّهُمْ
فِيهَا مِّنْ آسَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَلَوْ أَنَّ فِيهَا رَبًّا لَّفُتِنَتْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا لَئِمَّا ذُو
الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْخَزْنَ إِنْ كُنَّا لَنَعْفُو عَنْكُمْ وَكُنَّا لَنَافِلًا دَارَ
الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُوبٌ ﴿١٧﴾

ثم نكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته الباهرة، وخلقاً من مخلوقاته البديعة، فقال: ﴿هَلُم تَرَى﴾، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له ﴿وَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهذه الرؤية هي: القلبية: أي ألم تعلم، وأن واسمها وخبرها سئلت مسدّ المغفولين ﴿فَخَارَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء، والنكتة في هذا الالتفات إظهار كمال العناية بالفعل لما فيه من الصنع البديع، وانتصاب ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ على الوصف لثمرات، والمراد بالألوان الأجناس، والأصناف: أي: بعضها أبيض، وبعضها أحمر، وبعضها أصفر، وبعضها أخضر، وبعضها أسود ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ الجدد جمع جدة، وهي: الطريق. قال الأخفش: ولو كان جمع جديد لقال جدد يضم الجيم والدال، نحو سرير وسرر. قال زهير:

كانه أسفع الخدين لوجدد طار ويرتبع بعد الصيف أحياناً
وقيل: الجدد القطع، مأخوذ من جدت الشيء إذا قطعت، حكاه ابن بحر. قال الجوهري: الجدة: الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه، والجدة الطريقة، والجمع جدد، وجدائد، ومن ذلك قول أبي نؤيب:

جنون السراة له جدائد أربع

قال المبرد: جدد: طرائق وخطوط. قال الواحدي: ونحو هذا قال المفسرون في تفسير الجدد. وقال الفراء: هي: الطرق تكون في الجبال كالعروق بيض، وسود، وحمرة، ولحدها جدة. والمعنى: أن الله سبحانه أخبر عن جدد الجبال، وهي: طرائقها، أو الخطوط التي فيها بأن لون بعضها البياض، ولون بعضها الحمرة، وهو معنى قوله: ﴿بَيَاضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ قرأ الجمهور «جدد» بضم الجيم، وفتح الدال. وقرأ الزهري بضمهما جمع جديدة، وروي عنه: أنه قرأ بفتحهما، وردّها أبو حاتم وصححها غيره، وقال: الجدد الطريق الواضح البين ﴿وَوُجُرَايِبُ سُودٌ﴾ الغريب الشديد السواد الذي يشبه لونه لون الغراب. قال الجوهري: تقول هذا أسود غريب: أي: شديد السواد، وإذا قلت غرابيب سود جعلت السود بدلاً من غرابيب. قال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير تقديره: وسود غرابيب، لأنه يقال: أسود غريب، وقل ما يقال: غريب أسود، وقوله: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ صفة لجدد، وقوله: ﴿وَوُجُرَايِبُ﴾ معطوف على جدد على معنى: ومن الجبال جدد ببيض، وحمرة، ومن الجبال

من مات قلبه، قرأ الجمهور بتنوين (مسمع) وقطعه عن الإضافة. وقرأ الحسن، وعيسى الثقفي، وعمرو بن ميمون بإضافته ﴿وَإِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما أنت إلا رسول منذر ليس عليك إلا الإنذار، والتبليغ، والهدى، والضلالة بيد الله عز وجل ﴿وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يجوز: أن يكون بالحق في محل نصب على الحال من الفاعل: أي: محققين، أو من المفعول: أي: محققاً، أو نعت لمصدر محذوف: أي: إرسالاً ملتبساً بالحق، أو هو متعلق ببشيراً: أي: بشيراً بالوعد الحق، ونذيراً بالوعد الحق، والأولى: أن يكون نعتاً للمصدر المحذوف، ويكون معنى بشيراً: بشيراً لأهل الطاعة، ونذيراً لأهل المعصية ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: ما من أمة من الأمم الماضية إلا مضى فيها نذير من الأنبياء ينذرها، واقتصر على نكر النذير دون البشير، لأنه الصق بالمقام، ثم سلى نبيه ﷺ، وعزاه، فقال: ﴿وَإِن يَكْفُرْكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كذب من قبلهم من الأمم الماضية أنبياءهم ﴿جَاعَتُهُمْ رَسُولُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الواضحة، والدلالات الظاهرة ﴿وَبِالْزُبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ كالأنجيل، والإنجيل، قيل: الكتاب المنير داخل تحت الزبر، وتحت البينات، والعطف لتغاير المفهومات، وإن كانت متحدة في الصق، والأولى تخصيص البينات بالمعجزات، والزبر بالكتب التي فيها مواعظ، والكتاب بما فيه شرائع، وأحكام، ﴿ثُمَّ اخَذْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير يفيد التصريح بذهمهم بما في حيز الصلة، ويشعر بعة الأخذ ﴿فَكَفَىٰ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان نكيري عليهم، وعقوبي لهم، وقرأ ورش عن نافع وشيبة بإثبات الياء في (نكير) وصلأ ولا وقفاً، وقد مضى بيان معنى هذا قريباً.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص: أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «ألا لا يجني جانٍ إلا على نفسه، لا يجني والد على ولده، ولا مولود على والده» وأخرج سعيد بن منصور، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن مروي، والبيهقي في سننه عن أبي رمثة قال: انطلقت مع أبي نحو رسول الله ﷺ، فلما رأيته قال لأبي: ابنك هذا؟ قال: أي، ورب الكعبة، قال: أما أنه لا يجني عليك، ولا تجني عليه، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَلَا تَرَوْا زُرَّةَ وَزَرَ أَخْرَى﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مَلَائِكَةً إِلَىٰ حَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ قال: يكون عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئاً.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿١٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْأَثَرُ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتْلِكُونَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ

غرابيب على لون واحد، وهو: السواد، أو على حمر على معنى، ومن الجبال جند بيض، وحمر، وسود. وقيل: معطوف على بيض، ولا بدّ من تقدير مضاف محذوف قبل جند: أي: ومن الجبال نو جند، لأن الجند إنما هي في ألوان بعضها **﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾** قوله مختلف صفة لموصوف محذوف: أي: ومنهم صنف، أو نوع، أو بعض مختلف ألوانه بالحمرة، والسواد، والبياض، والخضرة، والصفرة. قال القراء: أي: خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات، والجبال، وإنما نكر سبحانه اختلاف الألوان في هذه الأشياء، لأن هذا الاختلاف من أعظم الآلة على قدرة الله، ويبيح صنعه، ومعنى **﴿كنك﴾** أي: مختلفاً مثل تلك الاختلاف، وهو صفة لمصدر محذوف، والتقدير مختلف ألوانه اختلافاً كائناً كذلك: أي: كاختلاف الجبال، والثمار. وقرأ الزهري «الدواب» بتخفيف الباء. وقرأ ابن السميع «الوانها». وقيل: إن قوله: **﴿كنك﴾** متعلق بما بعده: أي: مثل تلك المطر، والاعتبار في مخلوقات الله، واختلاف ألوانها يخشي الله من عباده العلماء، وهذا اختاره ابن عطية، وهو مردود بأن ما بعد إنما لا يعمل فيما قبلها. والراجح الوجه الأول، والوقف على كذلك تام. ثم استؤنف الكلام، وأخبر سبحانه بقوله: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** أو هو من تنمة قوله: **﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾** [فاطر: 18] على معنى إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به، وبما يليق به من صفاته الجليلة، وأفعاله الجميلة، وعلى كل تقدير، فهو: سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشيته، وهم: العلماء به، وتعظيم قدرته. قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل. وقال مسروق: كفى بخشية الله علماء، وكفى بالاغترار جهلاً، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له. قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله، فليس بعالم. وقال الشعبي: العالم من خاف الله، ووجه تقديم المفعول أن المقام مقام حصر الفاعلية، ولو أخر انعكس الأمر. وقرأ عمر بن عبد العزيز برفع الاسم الشريف، ونصب العلماء، ورويت هذه القراءة عن أبي حنيفة قال في الكشاف: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: أنه يجلبهم، ويعظمهم كما يجلب المهيب المخشي من الرجال بين الناس، وجملة **﴿إن الله عزيز غفور﴾** تعليل لوجوب الخشية لدلالة على أنه معاقب على معصيته غافر لمن تاب من عباده **﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾** أي: يستمرون على تلاوته، ويدومونها. والكتاب هو: القرآن الكريم، ولا وجه لما قيل: إن المراد به جنس كتب الله **﴿واقاموا الصلاة﴾** أي: فعلوها في أوقاتها مع كمال أركانها، وإنكارها **﴿وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾** فيه حثّ على الإنفاق كيف ما تها، فإن تها سراً، فهو أفضل، وإلا فعلاية، ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء، ويمكن أن يراد بالسّر صدقة النفل، وبالعلانية صدقة الفرض، وجملة **﴿يرجون تجارة لن تبور﴾** في محل رفع على خبرية إن كما قال ثعلب، وغيره، والمراد بالتجارة ثواب

الطاعة ومعنى **﴿لن تبور﴾**: لن تكسد، ولن تهلك، وهي صفة للتجارة، والإخبار برجائهم لثواب ما عملوا بمنزلة الوعد بحصول مرجوهم، واللام في **﴿ليوفّيهم أجورهم﴾** متعلق بن تبور، على معنى: أنها لن تكسد لأجل أن يوفّيهم أجور أعمالهم الصالحة، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: **﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾** [النساء: 173] وقيل: إن اللام متعلقة بمحذوف دل عليه السياق: أي: فعلوا ذلك ليوفّيهم، ومعنى **﴿ويزيدهم من فضله﴾** أنه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التي هي جزاء أعمالهم، وجملة **﴿إنه غفور شكور﴾** تعليل لما نكر من التوفية والزيادة: أي: غفور لذنوبهم شكور لطاعتهم، وقيل: إن هذه الجملة هي: خبر إن، وتكون جملة يرجون في محل نصب على الحال، والأول أولى **﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب﴾** يعني: القرآن، وقيل: اللوح المحفوظ على أن من تبعيضية، أو ابتدائية، وجملة **﴿هو الحق﴾** خبر الموصول **﴿مصنفاً لما بين يديه﴾** منتصب على الحال: أي: موافقاً لما تقدّمه من الكتب **﴿إن الله بعباده خبير بصير﴾** أي: محيط بجميع أمرهم **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾** المفعول الأول لأورثنا الموصول، والمفعول الثاني الكتاب، وإنما قتم المفعول الثاني لقصد التشريف، والتعظيم للكتاب، والمعنى: ثم أورثنا الذين اصطفيناهم من عبادنا الكتاب، وهو: القرآن: أي: قضينا، وقدرنا بأن نورث العلماء من أمك يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك، ومعنى اصطفائهم: اختيارهم، واستخلاصهم، ولا شك أن علماء هذه الأمة من الصحابة، فمن بعدهم قد شرفهم الله على سائر العباد، وجعلهم أمة وسطاً؛ ليكونوا شهداء على الناس، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء، وسيد ولد آدم. قال مقاتل: يعني: قرآن محمد جعلناه ينتهي إلى الذين اصطفينا من عبادنا. وقيل: إن المعنى: أورثناه من الأمم السالفة: أي: أخرجناه عنهم، وأعطيناه الذين اصطفينا، والأول أولى. ثم قسم سبحانه هؤلاء الذي أورثهم كتابه، واصطفاهم من عباده إلى ثلاثة أقسام، فقال: **﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾** قد استشكل كثير من أهل العلم معنى هذه الآية، لأنه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من ذلك المقسم، وهو من اصطفاهم من العباد، فكيف يكون من اصطفاه الله ظالماً لنفسه؟ فقيل: إن التقسيم هو راجع إلى العباد: أي: فمن عبادنا ظالم لنفسه، وهو: الكافر، ويكون ضمير يدخلونها عائداً إلى المقتصد والسابق. وقيل: المراد بالظالم لنفسه هو: المقصر في العمل به، وهو: المرجأ لأمر الله، وليس من ضرورة ورثة الكتاب مراعاته حق رعايته، لقوله: **﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب﴾** [الأعراف: 169]، وهذا فيه نظر، لأن ظلم النفس لا يناسب الاصطفاء. وقيل: الظالم لنفسه هو: الذي عمل الصغائر، وقد روي هذا القول عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، وأبي الدرداء، وعائشة، وهذا هو الراجح، لأن عمل الصغائر لا ينافي الاصطفاء، ولا يمنع

للتفريط، وهذا من أهل الجنة، وأما السابق، فهو: الذي سبق غيره في أمور الدين، وهو خير الثلاثة.

وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد، وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه، والسابق أفضل منهما، فقيل: إن التقديم لا يقتضي التشريف كما في قوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ الحشر: [20]، ونحوها من الآيات القرآنية التي فيها تقديم أهل الشر على أهل الخير، وتقديم المفضولين على الفاضلين. وقيل: وجه التقديم هنا: أن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصي قليل، والسابقين بالنسبة إلى الفريقين أقل قليل، فقام الأكثر على الأقل، والأول أولى، فإن الكثرة بمجرد ما لا تقتضي تقديم الذكر، وقد قيل: في وجه التقديم غير ما ذكرنا مما لا حاجة إلى التطويل به، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى توريث الكتاب، والاصطفاء، وقيل: إلى سبق بالخيرات، والأول أولى، وهو مبتدأ، وخبره ﴿هو للفضل الكبير﴾ أي: الفضل الذي لا يقار قدره، وارتفاع ﴿جنان عدن﴾ على أنها مبتدأ، وما بعدها خبرها، أو على البديل من الفضل، لأنه لما كان هو السبب في نيل الثواب نزل منزلة السبب، وعلى هذا، فتكون جملة ﴿يدخلونها﴾ مستأنفة، وقد قُدمنا: أن الضمير في يدخلونها يعود إلى الأصناف الثلاثة، فلا وجه لقصره على الصنف الأخير، وقرأ زر بن حبیش، والترمذي (جنة) بالإفراد، وقرأ الجحدري (جنان) بالنصب على الاشتغال، وجوز أبو البقاء: أن تكون جنات خيراً ثانياً لاسم الإشارة، وقرأ أبو عمرو (يدخلونها) على البناء للمفعول، وقوله: ﴿يحلون﴾ خبر ثان لجنان عدن، أو حال مقدرة، وهو من حلّيت المرأة، فهي: حال، وفيه إشارة إلى سرعة الدخول، فإن في تحليلهم خارج الجنة تأخيراً للدخول، فلما قال: ﴿يحلون فيها﴾ أشار أن دخولهم على وجه السرعة ﴿من أساور من ذهب﴾ من الأولى تبعية، والثانية بيانبة: أي: يحلون بعض أساور كائنة من ذهب، والأساور جمع أسورة جمع سوار، وانتصاب ﴿لؤلؤاً﴾ بالعطف على محل ﴿من أساور﴾ وقرأ بالجر عطفاً على ذهب ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ قد تقدم تفسير الآية مستوفى في سورة الحج ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ قرأ الجمهور (الحزن) بفتح الحين. وقرأ جناح بن حبیش بضم الحاء، وسكون الزاي، والمعنى: أنهم يقولون هذه المقالة إذا دخلوا الجنة. قال قتادة: حزن الموت. وقال عكرمة: حزن السيئات والنزوب، وخوف ردة الطاعات. وقال القاسم: حزن زوال النعم، وخوف العقابة. وقيل: حزن أهوال يوم القيامة. وقال الكلبي: ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة. وقال سعيد بن جبیر: هم الخبز في الدنيا، وقيل: هم المعيشة. وقال الزجاج: أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش، أو معاد. وهذا أرجح الأقوال، فإن الدنيا، وإن بلغ نعيمها أي بلغ لا تخلو من شوائب ونوائب تكثر لأجلها الأحزان، وخصوصاً أهل الإيمان، فإنهم لا يزالون وجلين من

من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور من ذهب إلى آخر ما سيأتي. ووجه كونه ظالماً لنفسه أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصفات المغفورة له، فإنه لو عمل مكان تلك الصفات طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظاً عظيماً، وقيل: الظالم لنفسه هو: صاحب الكبائر.

وقد اختلف السلف في تفسير السابق، والمقتصد، فقال عكرمة، وقتادة، والضحاك: إن المقتصد المؤمن المعاصي، والسابق التقى على الإطلاق، وبه قال الفراء، وقال مجاهد في تفسير الآية: ﴿فمنهم ظالم لنفسه أصحاب﴾ المشامة ﴿ومنهم مقتصد﴾ أصحاب الميمنة ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾ السابقون من الناس كلهم. وقال المبرد: إن المقتصد هو الذي يعطي الدنيا حقها، والآخرة حقها. وقال الحسن: الظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته، والمقتصد الذي استوت حسناته، وسيئاته، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته. وقال مقاتل: الظالم لنفسه أصحاب الكبائر من أهل التوحيد، والمقتصد الذي لم يصب كبيرة، والسابق الذي سبق إلى الأعمال الصالحة. وحكى النحاس: أن الظالم صاحب الكبائر، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته، فتكون جنات عدن يدخلونها للذين سبقوا بالخيرات لا غير، قال: وهذا قول جماعة من أهل النظر، لأن الضمير في حقيقة النظر لما يليه أولى. وقال الضحاك. فيهم ظالم لنفسه: أي: من ذرّيتهم ظالم لنفسه. وقال سهل بن عبد الله: السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم لنفسه الجاهل. وقال نو النون المصري: الظالم لنفسه الذّاكر لله بلسانه فقط، والمقتصد الذّاكر بقلبه، والسابق الذي لا ينساه. وقال الأنطاكي: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال. وقال ابن عطاء: الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يحب الله من أجل العقبى، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق. وقيل: الظالم الذي يعبد الله خوفاً من النار، والمقتصد الذي يعبد طمعاً في الجنة، والسابق الذي يعبد لا لسبب. وقيل: الظالم الذي يحب نفسه، والمقتصد الذي يحب نبيه، والسابق الذي يحب ربه. وقيل: الظالم الذي ينتصف ولا ينصف، والمقتصد الذي ينتصف، وينصف، والسابق الذي ينصف ولا ينتصف وقد ذكر الثعلبي، وغيره أقوالاً كثيرة، ولا شك أن المعاني اللغوية للظالم، والمقتصد، والسابق معروفة، وهو يصدق على الظلم للنفس بمجرد إحرامها للحظ، وتقويت ما هو خير لها، فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوتها من الثواب، وإن كان قائماً بما أوجب الله عليه تاركاً لما نهاه الله عنه، فهو من هذه الحيثية من اصطفاه الله، ومن أهل الجنة، فلا إشكال في الآية، ومن هذا قول آدم: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ [الأعراف: 23]، وقول يونس: ﴿إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء: 87]، ومعنى المقتصد: هو من يتوسط في أمر الدين، ولا يميل إلى جانب الإفراط، ولا إلى جانب

عذاب الله خائفين من عقابه، مضطربي القلوب في كل حين، هل تقبل أعمالهم أو ترد؟ حزينين من عاقبة السوء، وخائفة الشر، ثم لا تزال همومهم وأحزانهم حتى يدخلوا الجنة. وأما أهل العصيان: فهم، وإن نفس عن خناتهم قليلاً في حياة الدنيا التي هي دار الغرور، وتناسوا دار القرار يوماً من دهرهم، فلا بد أن يشتدّ وجلهم، وتعمم مصيبتهم، وتغلي مراحل أحزانهم إذا شارقوا الموت، وقربوا من منازل الآخرة، ثم إذا قبضت أرواحهم، ولاح لهم ما يسؤولهم من جزاء أعمالهم ازدادوا غماً، وحزناً، فإن تفضل الله عليهم بالمغفرة، وأنخلهم الجنة، فقد أذهب عنهم أحزانهم، وأزال غمومهم، وهمومهم ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غفور لمن عصاه، شكور لمن أطاعه ﴿الَّذِي لَحْنًا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: دار الإقامة التي يقام فيها أبداً، ولا ينتقل عنها تفضلاً منه ورحمة ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: لا يصيبنا في الجنة عناء، ولا تعب، ولا مشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، وهو: الإعياء من التعب، والكلال من النصب.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ رَمَتْ مِنْهُمُ الْوُحُوشُ﴾ قال: الأبيض، والأحمر، والأسود، وفي قوله: ﴿وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ قال: طرائق ﴿بَيْضٌ﴾ يعني: الألوان. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الغريبب الأسود الشديد السواد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ قال: طرائق تكون في الجبل بيض ﴿وَحُمْرٌ﴾ فتلك الجند ﴿وَوُحُوشٌ سَوْدٌ﴾ قال: جبال سود ﴿وَمِنْ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ﴾ قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ اختلاف الناس، والذوَاب، والأنعام كاختلاف الجبال، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: فصل لما قبلها. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: العلماء بالله الذين يخافونه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عدي عن ابن مسعود قال: ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والطبراني عنه قال: كفى بخشية الله علماً، وكفى باغترار بالله جهلاً. وأخرج أحمد في الزهد عنه أيضاً قال: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية. وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال: بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله. وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس: أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف نزلت فيه ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ كتاب الله وأقاموا الصلاة الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، ومقتصدهم يحاسب

حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. وأخرج الطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فممنهم ظالم لنفسه وممنهم مقتصد وممنهم سابق بالخيرات. قال: هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم يدخلون الجنة. وفي إسناده رجلان مجهولان. قال الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا شعبة عن الوليد بن العيزار: أنه سمع رجلاً من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة عن أبي سعيد. وأخرج الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فممنهم ظالم لنفسه وممنهم مقتصد وممنهم سابق بالخيرات بإذن الله» فأما الذين سبقوا، فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب. وأما الذين اقتصدوا، فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً. وأما الذين ظلموا أنفسهم، فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إلى آخر الآية. قال البيهقي: إذا كثرت روايات في حديث ظهر أن الحديث أصلاً هـ، وفي إسناده أحمد محمد بن إسحاق، وفي إسناده ابن أبي حاتم رجل مجهول، لأنه رواه من طريق الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء، ورواه ابن جرير، عن الأعمش قال: نكر أبو ثابت. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عن عوف بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «أمّتي ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، ثم يدخلون الجنة، وثلث يمحصون، ويكشفون، ثم تأتي الملائكة، فيقولون وجدهم يقولون: لا إله إلا الله وحده، فيقول الله: أنخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده، وأحملوا خطاياهم على أهل التكذيب، وهي: التي قال الله: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ وأثقالاً مع أثقالهم» [المنكبات: 13]، وتصديقها في التي نكر في الملائكة. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فجعلهم ثلاثة أفواج: فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذي يكشف، ويمحص، ومنهم مقتصد، وهو الذي يحاسب حساباً يسيراً. ومنهم سابق بالخيرات، فهو الذي يلج الجنة بغير حساب ولا عذاب، بإذن الله يدخلونها جميعاً. قال ابن كثير بعد نكر هذا الحديث: غريب جداً هـ وهذه الأحاديث يقوي بعضها بعضاً، ويجب المصير إليها، ويدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر، ويؤيدها ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أسامة بن زيد: «فممنهم ظالم لنفسه» الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة، وكلهم في الجنة، وما أخرجه الطيالسي، وعبد بن

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ رَمَتْ مِنْهُمُ الْوُحُوشُ﴾ قال: الأبيض، والأحمر، والأسود، وفي قوله: ﴿وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ قال: طرائق ﴿بَيْضٌ﴾ يعني: الألوان. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الغريبب الأسود الشديد السواد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ قال: طرائق تكون في الجبل بيض ﴿وَحُمْرٌ﴾ فتلك الجند ﴿وَوُحُوشٌ سَوْدٌ﴾ قال: جبال سود ﴿وَمِنْ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ﴾ قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ اختلاف الناس، والذوَاب، والأنعام كاختلاف الجبال، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: فصل لما قبلها. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: العلماء بالله الذين يخافونه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عدي عن ابن مسعود قال: ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والطبراني عنه قال: كفى بخشية الله علماً، وكفى باغترار بالله جهلاً. وأخرج أحمد في الزهد عنه أيضاً قال: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية. وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال: بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله. وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس: أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف نزلت فيه ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ كتاب الله وأقاموا الصلاة الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، ومقتصدهم يحاسب

يَحْتَوْنَ فِيهَا مِنْ نَسِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا»، فقال: إن عليهم التَّيْجَانَ، إن أُنْشِيَ لُؤْلُؤٌ مِنْهَا لَتَضِيءَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. وأُخْرِجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الْآيَةُ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ فِي الدُّنْيَا يَخَافُونَ اللَّهَ، وَيَجْتَهِدُونَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ سِرًّا، وَعَلَانِيَةً، وَفِي قُلُوبِهِمْ حُزْنٌ مِنْ ذُنُوبٍ قَدْ سَلَفَتْ مِنْهُمْ، فَهُمْ خَائِفُونَ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُمْ هَذَا الْجُحُودُ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي سَلَفَتْ، فَعِنْدَمَا ﴿قَالُوا لِلْحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحُزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ غَفَرَ لَنَا الْعَظِيمَ، وَشَكَرَ لَنَا الْقَلِيلَ مِنْ أَعْمَالِنَا. وَأُخْرِجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ: حُزْنُ النَّارِ.

حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني في الاوسط، والحاكم، وابن مريويه عن عقبة بن صهبان قال: قلت لعائشة: أرايت قول الله: ﴿ثم أوردنا للكتاب﴾ الآية، قالت: لما السابق، فمن مضى في حياة رسول الله ﷺ، فشهد له بالجنة. ولما المقتصد، فمن تبع آثارهم، فعمل بمثل علمهم حتى لحق بهم. وأما الظالم لنفسه، فمثلي، ومثلك، ومن اتبعنا، وكل في الجنة. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا، فيقول الرب: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، ثم قرأ ﴿ثم أوردنا للكتاب﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن عمر بن الخطاب: أنه كان إذا نزع بهذه الآية ﴿ثم أوردنا للكتاب﴾ قال: إلا إن سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له. وأخرجه العقيلي، وابن مريويه، والبيهقي في البعث من وجه آخر عنه مرفوعاً. وأخرج ابن النجار من حديث أنس مرفوعاً. وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه، وأصحاب الاعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عثمان بن عفان: أنه نزع بهذه الآية، ثم قال: إلا إن سابقنا أهل جهنم، إلا وإن مقتصدنا أهل حضرة، إلا وإن ظالمنا أهل بدونا. وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب في قوله: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ الآية قال: أشهد على الله أنه يدخلهم جميعاً الجنة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مريويه عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ثم أوردنا للكتاب للذين اصطفينا من عبادنا﴾ قال: كلهم ناج، وهي هذه الأمة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، عن ابن عباس في الآية قال: هي مثل التي في الواقعة أصحاب اليمين، وأصحاب المشامة. والسابقون: صنفان ناجيان، وصنف هالك. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه في قوله: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ قال: هو الكافر، والمقتصد أصحاب اليمين. وهذا المروي عنه رضي الله عنه لا يطابق ما هو الظاهر من للنظم القرآني، ولا يوافق ما قلّمنا من الروايات عن رسول الله ﷺ، وعن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث: أن ابن عباس سأل كعباً عن هذه الآية، فقال: نجوا كلهم، ثم قال: تحلكت مناكيهم، وربّ الكعبة، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم، وقد قلّمنا عن ابن عباس ما يفيد أن الظالم لنفسه من الناجين، فتعارضت الأقوال عنه. وأخرج الترمذي، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري: أن النبي ﷺ تلا قول الله: ﴿جنات عدن يدخلونها

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْنَفُوا
عَقَبَهُمُ مِنَ مَّوَدِّعَاتِهَا كَذَلِكَ يُجْزَىٰ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَهُمْ يُعَذِّبُهُمْ فِيهَا
رُوحًا أُخْرًى مَا تَعْمَلُ صُلُوحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا
بَيَّكُورًا يَوْمَ مَن تَذَكَّرُ وَمَا كُمْ إِلَّا نِدْرٌ فَذُوقُوا نَسَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿١٨﴾
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٩﴾
هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مَن كَرِهَ فَبَيَّهَ كَقَوْمٍ وَلَا يُبْدِي
الْكُفْرَيْنَ كَقَوْمٍ جَدَّ بَيْنَهُمْ إِلَّا مَقَاتًا وَلَا يُبْدِي الْكُفْرَيْنَ كَقَوْمٍ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٠﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ
شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَاهُمُ كِتَابٌ فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِن يَبْدُ الْفَالِشُونَ
بِعَتَمِهِمْ بَعْدَ إِلَّا غُرُوبًا ﴿٢١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَتْلِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَن تَرَوْهَا
وَلَكِنْ تَرَوْنَهَا إِن أَمْسَكُوهَا مِنْ لَمَعِنَ بَيِّنَةٍ إِنَّهُ كَانَ لِحِيسًا غَفُورًا ﴿٢٢﴾ وَأَنصَبُوا
يَا قَوْمُ جَهَنَّمَ لَيْسَ فِيهِمْ لَكُمْ جَلَّةٌ مِّنْ ذِكْرِ لَيْكُونُ أَهْدَىٰ مِنْ لَمَعِنَ الْأُمَمِ لَنَكُنَّا
جَلَّةً مِّنْ بَيْنِهِمْ مَا زَادَهُمْ إِلَّا غُورًا ﴿٢٣﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا
يُحِيطُ الشُّكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَعْيُنِهِمْ فَهَلْ يُبْظَوْرُكُ إِلَّا سُدَّتِ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَحْدِ
لِسَتَ اللَّهِ بَدِيلًا وَلَن تَحْدِ لِسَتَ اللَّهِ غَوْرًا ﴿٢٤﴾ أَوَلَمْ يَسْمِعُوا فِي الْأَرْضِ
يُفْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ بَيْنَهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُجْعِلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٢٥﴾
وَلَوْ تَوَخَّاهُ اللَّهُ النَّاسُ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ مِنْ ذَاتِهِ
وَلَكِنَّ يُؤْخِرُهُمْ إِنَّ لَكُم مَّوَدَّةَ شَيْءٍ فَإِذَا جَاءَ أَهْلُهُمْ فَلَاكُ اللَّهِ كَانَ
يَعْلَمُوه بِصِيرًا ﴿٢٦﴾

ثم لما فرغ سبحانه من نكر جزاء عباده الصالحين، نكر جزاء عباده الطالحين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا﴾ أي: لا يقضى عليهم بالموت، فيموتوا، ويستريحوا من العذاب ﴿وَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ بل ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدُخَانِهَا مَجِلُوا عَلَيْهَا لَيْسُوا بِرِفْقَاءَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: 56] وهذه الآية هي مثل قوله سبحانه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: 74] قرأ الجمهور (فيموتوا) بالنصب جواباً للنفي، وقرأ عيسى بن عمر، والحسن بإثبات النون. قال المازني: على العطف على يقضى. وقال ابن عطية: هي قراءة ضعيفة، ولا وجه لهذا

التضعيف بل هي كقوله: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتدون﴾ [المرسلات: 36] ﴿كنكك نجزي كل كفور﴾ أي: مثل تلك الجزء الفطيع نجزي كل من هو مباليغ في الكفر، وقرأ أبو عمرو (نجزي) على البناء للمفعول ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ من الصراخ، وهو: الصياح أي: وهم يستغيثون في النار رافعين أصواتهم، والصارخ: المستغيث، ومنه قول الشاعر:

كنا إذا ما اتانا صارخ فزع كان الصارخ له قرع الطنابيب
﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾

أي: وهم فيها يصطرخون يقولون: ربنا إلخ. قال مقاتل: هو: أنهم ينادون: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل: من الشرك والمعاصي، فنجعل الإيمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر، والطاعة بدل المعصية، وانتصاب صالحاً على أنه صفة لمصدر محذوف: أي: عملاً صالحاً، أو صفة لموصوف محذوف: أي: نعمل شيئاً صالحاً. قيل: وزيادة قوله: ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ للتحسر على ما عملوه من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم في الدنيا كانت غير صالحة، فأجاب الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿أو لم نعمركم ما يتنكر فيه من تنكر﴾ والاستهتام للتعجب، والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره، وما نكرة موصوفة: أي: أو لم نعمركم عمراً يتمكن من التنكر فيه من تنكر. فقيل: هو ستون سنة، وقيل: أربعون، وقيل: ثماني عشرة سنة. قال بالأول جماعة من الصحابة، وبالثاني الحسن، ومسروق، وغيرهما. وبالثالث عطاء، وقتادة، وقرأ الأعمش (ما يذكر) بالإغلام ﴿وجاءكم النذير﴾ قال الواحدي: قال جمهور المفسرين: هو النبي ﷺ وقال عكرمة، وسفيان بن عيينة، ووكيع، والحسن بن الفضل، والفراء، وابن جرير: هو: الشيب، ويكون معناه على هذا القول: أو لم نعمركم حتى شيبتم، وقيل: هو القرآن، وقيل: الحمى. قال الأزهري: معناه: أن الحمى رسول الموت: أي: كأنها تشعر بقومته، وتندّر بمجيئه، والشيب نذير أيضاً، لأنه يأتي في سنّ الاكتهال، وهو علامة لمفارقة سنّ الصبا الذي هو سنّ اللهو واللعب، وقيل: هو موت الأهل، والأقارب، وقيل: هو كمال العقل، وقيل: البلوغ ﴿فذنقوا فما للظالمين من نصير﴾ أي: فذنقوا عذاب جهنم، لأنكم لم تعتبروا، ولم تتعظوا، فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب الله، ويحول بينكم وبينه. قال مقاتل، فذنقوا العذاب، فما للمشركين من مانع يمنعهم ﴿إن الله عالم غيب السموات والأرض﴾ قرأ الجمهور بإضافة عالم إلى غيب، وقرأ جناح بن حبيش بالتثنية، ونصب غيب. والمعنى: أنه عالم بكل شيء، ومن ذلك أعمال لا تخفى عليه منها خافية، فلو رنكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال سبحانه: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: 28] ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ تحليل لما قبله، لأنه إذا علم مضمرات الصدور، وهي أخفى من كل شيء علم ما فوقها بالأولى، وقيل: هذه الجملة مفسرة للجملة الأولى ﴿هو الذي

جعلكم خلأف في الأرض﴾ أي: جعلكم أمة خالفة لمن قبلها. قال قتادة: خلأف بعد خلف، وقرناً بعد قرن، والخلف: هو التالي للمتقدم، وقيل: جعلكم خلفاء في أرضه ﴿فمن كفر﴾ منكم هذه النعمة ﴿فعليه كفرة﴾ أي: عليه ضرر كفرة، لا يتعذاه إلى غيره ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً﴾ أي: غضباً، وبغضاً ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ أي: نقصاً وهلاكاً، والمعنى: أن الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيدهم إلا المقت، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يزيدهم إلا الخسار. ثم أمره سبحانه أن يوبخهم، ويبكتهم، فقال: ﴿قل أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾ أي: أخبروني عن الشركاء الذين اتخنتموهم آلهة، وعبدتموهم من دون الله، وجملة ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ بدل اشتمال من أرايتم، والمعنى: أخبروني عن شركائكم، أروني أي شيء خلقوا من الأرض؟ وقيل: إن الفعلان، وهما أرايتم، وأروني من باب التنازع. وقد أعمل الثاني على ما هو اختيار البصريين ﴿أم لهم شرك في السموات﴾ أي: أم لهم شركة مع الله في خلقها، أو ملكها، أو التصرف فيها حتى يستحقوا بذلك الشركة في الإلهية ﴿أم آتيناهم كتاباً﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بالشركة ﴿فهم على بينات منه﴾ أي: على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وحفص عن عاصم (بينة) بالتوحيد، وقرأ الباقون بالجمع. قال مقاتل: يقول: هل أعطينا كفار مكة كتاباً، فهم على بيان منه بأن مع الله شريكاً. ثم أضرب سبحانه عن هذا إلى غيره، فقال: ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ أي: ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً كما يفعله الرؤساء، والقادة من المواعيد لاتباعهم إلا غروراً يغرونهم به، ويزينونه لهم، وهو الأباطيل التي تغر، ولا حقيقة لها، وذلك قولهم: إن هذه الآلهة تنفعهم، وتقربهم إلى الله، وتشفع لهم عنده. وقيل: إن الشياطين تعد للمشركين بذلك، وقيل: المراد بالوعد الذي يعد بعضهم بعضاً هو: أنهم ينصرون على المسلمين، ويغلبونهم، وجملة ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ مستأنفة لبيان قدرة الله سبحانه، وبيد صنعه بعد بيان ضعف الأصنام، وعدم قدرتها على شيء، وقيل: المعنى: إن شركهم يقتضي زوال السموات والأرض كقوله: ﴿تكاد السموات يفتطرن منه وتتشق الأرض وتخز الجبال هداً﴾ أن دعوا للرحمن ولداً [مريم: 90 - 91] ﴿ولئن زلنا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ أي: ما أمسكهما من أحد من بعد إمساكه، أو من بعد زوالهما، والجملة سائدة مسددة جواب القسم والشرط، ومعنى ﴿أن تزولا﴾: ثلاثاً تزولا، أو كراهة أن تزولا. قال الزجاج: المعنى: أن الله يمنع السموات والأرض من أن تزولا، فلا حاجة إلى التقدير. قال الفراء: أي: ولو زلنا ما أمسكهما من أحد، قال: وهو مثل قوله: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فراه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون﴾ [الروم: 51] وقيل: المراد زوالهما يوم القيامة،

قبلها، وتأكيده: أي: ألم يسيروا في الأرض، فينظروا ما أنزلنا بعد، وثمود، ومبين، وأمثالهم من العذاب لما كنوا الرسل، فإن ذلك هو من سنة الله في المكذبين التي لا تبدل، ولا تحول، وأثار عذابهم، وما أنزل الله بهم موجودة في مساكنهم ظاهرة في منازلهم ﴿وَوَيْلٌ لِلَّهِ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ كانوا أشد منهم قوة، وأطول أعماراً، وأكثر أموالاً، وأقوى أيدئاً ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما كان ليسبقه ويفوته من شيء من الأشياء كائن ما كان فيها ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا﴾ أي: كثير العلم، وكثير القدرة لا يخفى عليه شيء، ولا يصعب عليه أمر ﴿وَلَوْ يَوٰلٰذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب، وعملوا من الخطايا ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرهَا﴾ أي: الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من الدواب التي تدب كائنة ما كانت، أما بنو آدم فلننوبهم، وأما غيرهم فلنشؤم معاصي بني آدم. وقيل: المراد ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب من بني آدم والجن، وقد قال بالأول ابن مسعود، وقتادة، وقال بالثاني الكلبي. وقال ابن جريج، والأخفش، والحسين بن الفضل: أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم ﴿وَلٰكِنْ يُؤْخَرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو: يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ فإن الله كان بعباده بصيراً ﴿أَي: بمن يستحق منهم الثواب، ومن يستحق منهم العقاب، العامل في إذا هو جاء لا بصيراً، وفي هذا تسلية للمؤمنين، ووعيد للكافرين.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في السنن عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾ قال: ستين سنة. وأخرج الحكيم الترمذي في نوازل الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عنه: أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال الله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾ وفي إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومي، وفيه مقال. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله إلى امرئ آخر عمره حتى بلغ ستين سنة». وأخرج عبد بن حميد، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه عن سهل بن سعد مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، عن علي بن أبي طالب قال: العمر الذي عيروهم الله به ستون سنة. وأخرج الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وابن المنذر، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك». قال الترمذي بعد إخرجه: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ثم أخرجه في موضع آخر من كتاب الزهد، وقال: هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، وقد روي من غير وجه عنه.

وجملة «إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» تعليل لما قبلها من إمساكه تعالى للسفوات، والأرض «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ» المراد قريش، أقسموا قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ بهذا القسم حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، ومعنى «مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ» يعني: المكذبة للرسل، والنذير: التنبي، والهدى: الاستقامة، وكانت العرب تمنى: أن يكون منهم رسول كما كان الرسل في بني إسرائيل «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا تَمْنَوْهُ» وهو: رسول الله ﷺ الذي هو أشرف «نَذِيرٌ» وأكرم مرسل، وكان من أنفسهم «مَا زَادَهُمْ» مجيئه «إِلَّا نِفُورًا» منهم عنه، وتباعداً عن إجابته «لِاسْتِكْبَارٍ فِي الْأَرْضِ» أي: لأجل الاستكبار، والعتر «وَوَلَّجَ الْأَجَلِ» مكر للسيئ: أي: مكر العمل السيئ، أو مكروا المكر للسيئ، والمكر هو: الحيلة، والخداع، والعمل القبيح، وأضيف إلى صفة كقوله: مسجد الجامع، وصلاة الأولى، وأنت إحدى لكون أمة مؤنثة كما قال الأخفش. وقيل: المعنى: من إحدى الأمم على العموم، وقيل: من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها. قرأ الجمهور (ومكر السيئ) بخفض همزة السيئ، وقرأ الأعمش، وحزمة بسكونها وصلا. وقد غلط كثير من النحاة هذه القراءة، ونزهوا الأعمش على جلالته أن يقرأ بها، قالوا: وإنما كان يقرأ بالسكون، فغلط من روي عنه: أنه كان يقرأ بالسكون وصلا، وتوجيه هذه القراءة ممكن، بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف كما في قول الشاعر:

فاليوم اشرب غير مستحب إثم آمن الله ولا واصل
بسكون الباء من اشرب، ومثله قراءة من قرأ: ﴿وما
يشعركم﴾ [الأنعام: 109] بسكون الراء، ومثل ذلك قراءة أبي
عمرو ﴿إلى بارئكم﴾ [البقرة: 54] بسكون الهمزة، وغير ذلك
كثير. قال أبو علي الفارسي: هذا على إجراء الوصل مجرى
الوقف، وقرأ ابن مسعود (ومكراً سيئاً) ﴿ولا يحق للمكر
للسيئ إلا باهله﴾ أي: لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء.
قال الكلبي: يحق بمعنى: يحيط، والحق الإحاطة، يقال: حاق
به كذا إذا أحاط به، وهذا هو الظاهر من معنى يحق في لغة
العرب، ولكن قطرب فسره هنا ينزل، وأنشد:

وقد رفعوا المنية فاستقلت نراهم بعد ما كانت تحيق
 أي: تنزل ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين﴾ أي: فهل
 ينتظرون إلا سنة الأولين: أي: سنة الله فيهم بأن ينزل
 بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك ﴿فلن تجد لسنة الله
 تبديلاً﴾ أي: لا يقدر أحد أن يبدل سنة الله التي سنّها بالأمم
 المكنته من إنزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلا
 عنه ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ بأن يحول ما جرت به
 سنة الله من العذاب، فيبدعه عنهم، ويضعه على غيرهم،
 ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما
 ﴿اولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة
 الذين من قبلهم﴾ هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى ما

الزجاج: على طريقة الأنبياء الذين تقدموا، ويجوز: أن يكون في محل نصب على الحال ﴿تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر برفع (تنزيل) على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي: هو تنزيل، ويجوز: أن يكون خبراً لقوله يس إن جعل اسماً للمسورة، وقرأ الباقون بالنصب على المصدرية: أي: نزل الله ذلك تنزيل العزيز الرحيم، والمعنى: أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم، وقيل: المعنى: إنك يا محمد تنزيل العزيز الرحيم، والأول أولى، وقيل: هو منصوب على المدح على قراءة من قرأ بالنصب، وعبر سبحانه عن المنزل بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس التنزيل، وقرأ أبو حيوة، والترمذي، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع، وشيبة (تنزيل) بالجر على النعت للقرآن، أو البذل منه، واللام في ﴿لَتَنْزِيلٍ قَوْماً ما أَنْذَرُوا آبَاؤَهُمْ﴾ يجوز: أن تتعلق بتنزيل، أو بفعل مضمّر يدل عليه من المرسلين: أي: أرسلناك لتنذر، و «ما» في ﴿ما أَنْذَرُوا آبَاؤَهُمْ﴾ هي: النافية: أي: لم ينذر آبأؤهم، ويجوز: أن تكون موصولة، أو موصوفة: أي: لتنذر قوماً الذي أنذره آبأؤهم، أو لتنذرهم عذاباً أنذره آبأؤهم، ويجوز: أن تكون مصدرية: أي: إنذار آبأئهم، وعلى القول بأنها نافية يكون المعنى: ما أنذر آبأؤهم برسول من أنفسهم، ويجوز: أن يراد، ما أنذر آبأؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة، وقوله: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ متعلق بنفي الإنذار على الوجه الأول: أي: لم ينذر آبأؤهم، فهم بسبب ذلك غافلون، وعلى الوجه الآخر متعلق بقوله لتنذر: أي: فهم غافلون عما أنذرنا به آبأئهم، وقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المعنى على النفي، وهو الظاهر من النظم لترتيب فهم غافلون على ما قبله، واللام في قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ هي: الموطئة للقسم أي: والله لقد حق القول على أكثرهم، ومعنى حق: ثبت، ووجب القول: أي: العذاب على أكثرهم، أي: أكثر أهل مكة، أو أكثر الكفار على الإطلاق، أو أكثر كفار العرب، وهم من مات على الكفر، وأصر عليه طول حياته، فيتفرع قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على ما قبله بهذا الاعتبار: أي: لأن الله سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر، والموت عليه، وقيل: المراد بالقول المذكور هنا هو قوله سبحانه: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ﴾ [ص: 84 - 85] وجملة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً﴾ تقرير لما قبلها مثلت حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿فَهُمْ﴾ أي: الأغلال المنتهية ﴿إِلَى الْأَنْقَابِ﴾، فلا يقدرّون عند ذلك على الالتفات، ولا يتمكنون من عطفها، وهو معنى قوله: ﴿فَهُمْ مَقْحُونٌ﴾ أي: رافعون رءوسهم غاضون أبصارهم، قال الفراء، والزجاج: المقمح: الغاض بصره بعد رفع رأسه، ومعنى الإقماع: رفع الرأس، وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه، وقمح: إذا رفع رأسه، ولم يشرب الماء، قال الأزهري: أراد الله أن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال إلى أنقائهم، ورءوسهم صعداء، فهم مرفوعو الرءوس برفع الأغلال إياها، وقال قتادة: معنى مقحون: مغلولون والأول أولى، ومنه قول الشاعر:

ونحن على جوانبها تعود نغض الطرف كإبل القماح

خَلْفَهُمْ سَدًا فَأَعْيَيْنَهُمْ فَهُمْ لَا يُمِيزُونَ ﴿١٣١﴾ وَسَوْفَ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٢﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوَّى الرَّحْمَنَ بِالْقَيْبِ مُبْتَدِئَهُمْ يَمُوتُ وَآخِرُهُمْ كَيْدُكُمْ ﴿١٣٣﴾ إِنَّمَا تُحَنُّ نَفْسُ الْمَوْتِ وَتَنْكَبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ وَلَكِنْ مَتَى أَصْبَحْتُمْ فِي إِمَارَتِهِمْ ﴿١٣٤﴾

قوله: ﴿يَسْ﴾ قرأ الجمهور بسكون النون، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، وحفص، وقالون، وورش بإدغام النون في الواو الذي بعدها، وقرأ عيسى بن عمر بفتح النون، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم بكسرها، فالفتح على البناء، أو على أنه مفعول فعل مقدر تقديره: اتل يس، والكسر على البناء أيضاً كجبر، وقيل: الفتح، والكسر للفرار من التقاء الساكنين، وأما وجه قراءة الجمهور بالسكون للنون، فلكونها مسرودة على نمط التعديد، فلا حظ لها من الإعراب. وقرأ هارون الأعور، ومحمد بن السميع، والكلبي بضم النون على البناء كمنذ، وحيث، وقط، وقيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف: أي: هذه يس، ومنعت من الصرف للعلمية، والتانيث.

واختلف في معنى هذه اللفظة فقيل: معناها: يا رجل، أو يا إنسان. قال ابن الأنباري: الوقف على يس حسن لمن قال: هو افتتاح للسورة، ومن قال: معناها: يا رجل لم يقف عليه. وقال سعيد بن جببر، وغيره: هو اسم من أسماء محمد ﷺ دليله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ومنه قول السعد الحميري:

يا نفس لا تحضي بالنصح جاهدة على المودة إلا آل ياسين ومنه قوله: ﴿سلام على آل ياسين﴾ [الصفات: 130] أي: على آل محمد، وسيأتي في الصفات ما المراد بآل ياسين. قال الواحدي: قال ابن عباس، والمفسرون: يريد يا إنسان: يعني: محمداً ﷺ. وقال أبو بكر الوراق: معناها: يا سيد البشر. وقال مالك: هو: اسم من أسماء الله تعالى، روى ذلك عنه أشهب. وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق: أن معناها: يا سيد. وقال كعب: هو: قسم أقسم الله به، ورجع الزجاج أن معناها: يا محمد.

واختلفوا هل هو عربي أو غير عربي؟ فقال سعيد بن جببر، وعكرمة: حبشي. وقال الكلبي: سرياني تكلمت به العرب، فصار من لغتهم. وقال الشعبي: هو بلغة طي. وقال الحسن: هو بلغة كلب. وقد تقدم في طه، وفي مفتتح سورة البقرة ما يغني عن التطويل ها هنا ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ بالجر على أنه مقسم به ابتداء. وقيل: هو معطوف على يس على تقدير كونه مجروراً بإضمار القسم. قال النقيش: لم يقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا لمحمد ﷺ تعظيماً له وتمجيذاً، والحكيم المحكم الذي لا يتناقض، ولا يتخالف، أو الحكيم قائله، وجواب القسم ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وهذا رد على من أنكّر رسالته من الكفار بقولهم: ﴿لست مرسلًا﴾ [الرعد: 43] وقوله: ﴿على صراط مستقيم﴾ خبر آخر لأن: أي: إنك على صراط مستقيم، والصراط المستقيم: الطريق القيم الموصل إلى المطلوب. قال

والحسن، ويحيى بن يعمر، وأبو رجاء، وعكرمة بالعين المهملة من العشاء، وهو: ضعف البصر. ومنه ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: 36] ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنذارك إياهم، وعلمه سواء. قال الزجاج: أي: من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار، إنما ينتفع الإنذار من نكر في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ لِلذَّكَرِ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ أي: اتبع القرآن، وخشي الله في الدنيا، وجملة «لا يؤمنون» مستأنفة مبنية لما قبلها من الاستواء، أو في محل نصب على الحال، أو بدل، وبالغيب في محل نصب على الحال من الفاعل، أو المفعول ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: بشر هذا الذي اتبع الذكر، وخشي الرحمن بالغيب بمغفرة عظيمة، وأجر كريم: أي: حسن، وهو: الجنة. ثم أخبر سبحانه بإحيائه الموتى، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: نبعثهم بعد الموت. وقال الحسن، والضحاك: أي: نحْيِيهم بالإيمان بعد الجهل، والأول أولى. ثم توعدهم بكتب آثارهم، فقال: ﴿وَنُكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي: أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿وَأَنذَرُهم﴾ أي: ما أبقره من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت: كمن سنَّ سَنَةً حسنة، أو نحو ذلك، أو السيئات التي تبقى بعد موت فاعلها: كمن سنَّ سَنَةً سيئة. قال مجاهد، وابن زيد: ونظيره قوله: ﴿عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قُتِمَتْ وَأُخِّرَتْ﴾ [الانفطار: 5] وقوله: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] وقيل: المراد بالآية آثار المشائين إلى المساجد، وبه قال جماعة من الصحابة، والتابعين. قال النحاس: وهو أولى ما قيل في الآية؛ لأنها نزلت في ذلك. ويجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية لا بخصوص سببها، وعمومها يقتضي كتب جميع آثار الخير، والشر؛ ومن الخير تعليم العلم، وتصنيفه، والوقوف على القرب، وعمارة المساجد، والقناطر. ومن الشر ابتداء المظالم، وإحداث ما يضر بالناس، ويقتدي به أهل الجور، ويعملون عليه من مكس، أو غيره، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي: وكل شيء من أعمال العباد، وغيرها كأنها ما كان في إمام مبين: أي: كتاب مقتدى به موضح لكل شيء. قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: أراد اللوح المحفوظ، وقالت فرقة: أراد صحائف الأعمال. قرأ الجمهور (ونكتب) على البناء للفاعل. وقرأ زَرَّ، ومسروق على البناء للمفعول. وقرأ الجمهور (كل شيء أحصيناه) بنصب كل على الاشتغال. وقرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود، وابن عباس في قوله: ﴿يَسَّ﴾ قالوا: يا محمد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿يَسَّ﴾ قال: يا إنسان. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن، والضحاك، وعكرمة مثله. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في المسجد، فيجهر بالقراءة، حتى

قال الزجاج: قيل: للكانونين شهرا قماح، لأن الإبل إذا وربت الماء رفعت رعوها لشدة البرد، وأنشد قول أبي زيد الهنلي:

فتى ما ابن الأغر إذا استويينا وجب الزاد في شهري قماح
قال أبو عبيدة: قماح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض، ولم يشرب. وقال أبو عبيدة أيضاً: هو مثل ضربه الله لهم في امتناعهم عن الهدى كامتناع المغلول، كما يقال: فلان حمار: أي: لا يبصر الهدى، وكما قال الشاعر:
لهم عن الرشد أغلال وآتياد

وقال الفراء: هذا ضرب مثل: أي: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29] وبه قال الضحاك. وقيل: الآية إشارة إلى ما يفعل بقوم في النار من وضع الأغلال في أعناقهم كما قال تعالى: ﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [غافر: 71] وقرأ ابن عباس (إننا جعلنا في إيمانهم أغلالاً) قال الزجاج: أي: في أيديهم. قال النحاس: وهذه القراءة تفسير، ولا يقرأ بما خالف المصحف. قال: وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة، التقدير: إننا جعلنا في أعناقهم، وفي أيديهم أغلالاً فهي إلى الأنقان، فلفظ هي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، والعرب تحذف مثل هذا. ونظيره: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: 81] وتقديره: وسرابيل تقيكم البرد، لأن ما وقى من الحر، وقى من البرد، لأن الغل إذا كان في العنق، فلا بد أن يكون في اليد، ولا سيما، وقد قال الله ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَنْقَانِ﴾، فقد علم أنه يراد به الأيدي، فهم مقمحون: أي: رافعو رعوهم لا يستطيعون الإطراق، لأن من غلت يداه إلى نكته ارتفع رأسه. وروي عن ابن عباس: أنه قرأ (إننا جعلنا في أيديهم أغلالاً)، وعن ابن مسعود: أنه قرأ (إننا جعلنا في إيمانهم أغلالاً) كما روي سابقاً من قراءة ابن عباس ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: منعناهم عن الإيمان بموانع، فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان، كالمضروب أمامه، وخلفه بالأسداد، والسد بضم السين، وفتحها لغتان. ومن هذا المعنى في الآية قول الشاعر:

ومن الحوادث لا أبالك أنني ضربت علي الأرض بالأسداد
لا أهتدي فيها لوضع تلمعة بين العنيب وبين أرض مراد
﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: غطينا أبصارهم ﴿فَهَمَّ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَبْصُرُونَ﴾ أي: لا يقدرون على إِبْصَارِ شيء. قال الفراء: فالْبِسْنَا أبصارهم غشوة: أي: عمى فم لا يبصرون سبيل الهدى، وكذا قال قتادة: إن المعنى: لا يبصرون الهدى. وقال السدي: لا يبصرون محمداً حين ائتمروا على قتله. وقال الضحاك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ أي: الدنيا، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: الآخرة، فأغشيناهم، فهم لا يبصرون: أي: عموا عن البعث، وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا. وقيل: ما بين أيديهم الآخرة، وما خلفهم الدنيا، قرأ الجمهور بالغين المعجمة: أي: غطينا أبصارهم، فهو على حذف مضاف. وقرأ ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز،

قوله: ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية﴾ قد تقدم الكلام على نظير هذا في سورة البقرة، وسورة النمل، والمعنى: اضرب لأجلهم مثلاً، أو اضرب لأجل نفسك أصحاب القرية مثلاً، أي: مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية، فعلى الأول لما قال تعالى: ﴿إنك لمن المرسلين﴾ [يس: 3] وقال: ﴿لتنذر قوماً﴾ [يس: 6] قال: قل لهم: ما أنا بدعا من الرسل، فإن قبلي يقليل جاء أصحاب القرية مرسلون، وأنذروهم بما أنذرتكم، ونكروا التوحيد، وخوفوا بالقيامة، وبشروا بنعيم دار الإقامة. وعلى الثاني لما قال: إن الإنذار لا ينفع من أضله الله، وكتب عليه أنه لا يؤمن، قال النبي ﷺ: اضرب لنفسك، ولقومك مثلاً، أي: مثل لهم عند نفسك مثلاً بأصحاب القرية حيث جاءهم ثلاثة رسل، ولم يؤمنوا، وصبر الرسل على الإيذاء، وأنت جئت إليهم واحداً، وقومك أكثر من قوم الثلاثة، فإنهم جاءوا إلى أهل القرية، وأنت بعثتكم إلى الناس كافة. والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية: أي: انكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية، فترك المثل، وأقيم أصحاب القرية مقامه في الإعراب، وقيل: لا حاجة إلى الإضمار، بل المعنى: اجعل أصحاب القرية لهم مثلاً، على أن يكون مثلاً وأصحاب القرية مفعولين لاضرب، أو يكون أصحاب القرية بدلاً من مثلاً، وقد قُدمنا الكلام على المفعول الأول من هذين المفعولين هل هو: مثلاً، أو أصحاب القرية. وقد قيل: إن ضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلاً كما في قوله: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا أمرات نوح وأمرات لوط﴾ [التحريم: 10]، ويستعمل أخرى في ذكر حالة غريبة، وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيره لها كما في قوله: ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ [إبراهيم: 45] أي: بينا لكم أحوالاً بديعة غريبة، هي في الغرابة كالأمثال؛ فقلوه سبحانه هنا: ﴿واضرب لهم مثلاً﴾ يصح اعتبار الأمرين فيه. قال القرطبي: هذه القرية هي: انطاكية في قول جميع المفسرين، وقوله: ﴿إذ جاءهم المرسلون﴾ يدل اشتغال من أصحاب القرية، والمرسلون: هم أصحاب عيسى بعثهم إلى أهل انطاكية للدعاء إلى الله، فاضاف الله سبحانه الإرسال إلى نفسه في قوله: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين﴾، لأن عيسى أرسلهم بأمر الله سبحانه، ويجوز: أن يكون الله أرسلهم بعد رفع عيسى إلى السماء، فكذبوهما في الرسالة، وقيل: ضربوهما، وسجنوهما. قيل: واسم الاثنين يوحنا، وشمعون. وقيل: أسماء الثلاثة: صادق، ومصطوق، وشلوم قاله ابن جرير، وغيره. وقيل: سمعان، ويحيى، ويولس (فعرزنا بثالث) قرأ الجمهور بالتشديد، وقرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الزاي. قال الجوهري: ﴿فعرزنا﴾ يخفف، ويشدد: أي: قويننا، وشذنا، فالقراءتان على هذا بمعنى. وقيل: التخفيف بمعنى: غلبنا، وقهرنا، ومنه: ﴿وعزني في الخطاب﴾ [ص: 23] والتشديد بمعنى: قويننا، وكثرنا. قيل: وهذا الثالث هو شمعون، وقيل: غيره ﴿فقالوا إنا إليكم مرسلون﴾ أي: قال الثلاثة جميعاً، وجاءوا بكلامهم

تأذى به ناس من قريش، حتى قاموا؛ لياخذوه، وإذا أبيهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا هم عمي لا يبصرون، فجاءوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: ننشدك الله والرحم يا محمد، قال: ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة، فدعا النبي ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم، فنزلت ﴿يس﴾. ﴿والقرآن للحكيم﴾ إلى قوله: ﴿إلم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ قال: فلم يؤمن من ذلك نفر أحد، وفي الباب: روايات في سبب نزول تلك الرواية أحسنها، وأقربها إلى الصحة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الأغلال ما بين الصدر إلى النحن ﴿فهم مقمحون﴾ كما تقمح الدابة باللجام. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً﴾ الآية قال: كانوا يمزون على النبي ﷺ، فلا يرونه. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: اجتمعت قريش بباب النبي ﷺ ينتظرون خروجه؛ ليؤذوه، فشق ذلك عليه، فأتاه جبريل بسورة يس، وأمره بالخروج عليهم، فأخذ كفاً من تراب وخرج وهو يقرؤها، ويذر التراب على رؤوسهم، فما رآه حتى جاز، فجعل أحدهم يلمس رأسه، فيجد التراب، وجاء بعضهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: ننتظر محمداً، فقال: لقد رأيته داخل المسجد، قال: قوموا، فقد سحركم. وأخرج عبد البرزاق، والترمذي وحسنه، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري قال: كان بنو سلمة في ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فأنزل الله ﴿إنا نحن نحیی الموتى ونكتب ما قمتوا وأنارهم﴾، فدعاهم رسول الله ﷺ، فقال: إنه يكتب آثاركم، ثم قرأ عليهم الآية فتركوا. وأخرج الفريابي، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وفي صحيح مسلم، وغيره من حديث جابر قال: «إن بني سلمة أرادوا أن يبيعوا ديارهم، ويتحولوا قريباً من المسجد، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم».

واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴿١٧﴾ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزنا بحالهما فقالوا إنا إليكم مرسلون ﴿١٨﴾ قالوا ما أنشد إلا بشر ينشدنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنشد إلا تكذيباً ﴿١٩﴾ قالوا ربنا يمشي لنا إنك لم ترسلنا ﴿٢٠﴾ وما علينا إلا أنبلغ الأثر ﴿٢١﴾ قالوا إنا نظننا بكم لين لو تنهوا لتؤمننكم ولتؤمننكم ربنا عذاب الأليم ﴿٢٢﴾ قالوا ملئكم منكم أين ذكركم بل أنشد قوم مشرؤون ﴿٢٣﴾ وبه من أقصا المدينة رجل يسعى قال يفتور أنبيؤ المرسلين ﴿٢٤﴾ أنبيؤا من لا يتذكر أجراً وهم فهمتدون ﴿٢٥﴾ وما لي لا أعبد الذي فطرني وأني أنسى ﴿٢٦﴾ أنا أنسى من دوني ءالهة إن يرزئ الرحمن بضري لا تدني عوفي شئتمهم شيئاً ولا يؤثرون ﴿٢٧﴾ إني إنا لفي شك من شئين ﴿٢٨﴾ إني ءأست برأيكم فاستمعون ﴿٢٩﴾ قيل ادخل الجنة قال يأتيت قومي يعلمون ﴿٣٠﴾ بما عفر لي ربي وعلاني من الشكرين ﴿٣١﴾

يونس إلى أنه يجب الشرط، وعلى القولين، فالجواب هنا محذوف: أي: أثبت نكرتم، فطائركم معكم لدلالة ما تقدم عليه. وقرا الماجشون (إن نكرتم) بهزة مفتوحة: أي: لأن نكرتم. ثم أضربوا عما يقتضيه الاستفهام، والشرط من كون التذكير سبباً للشؤم، فقالوا: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، بل أنتم قوم عابثكم الإسراف في المعصية. قال قتادة: مسرفون في تطيركم. وقال يحيى بن سلام: مسرفون في كفركم، وقال ابن بحر: السرف هنا الفساد، والإسراف في الأصل مجاوزة الحاء في مخالفة الحق ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو: حبيب بن موسى النجار، وكان نجاراً، وقيل: إسكافاً، وقيل: قصاراً. وقال مجاهد، ومقاتل: هو: حبيب بن إسرائيل النجار، وكان ينحت الأصنام. وقال قتادة: كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى، وجملة ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر: كأنه قيل: فماذا قال لهم عند مجيئه؟ فقيل: قال: يا قوم اتبعوا المرسلين هؤلاء الذين أرسلوا إليكم، فإنهم جاءوا بحق. ثم أكد ذلك، وكثره، فقال: ﴿اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ لِحْرَافٍ﴾ أي: لا يسألونكم أجراً على ما جاءوكم به من الهدى ﴿وَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾ يعني: الرسل. ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَا تَعْبُدُوا الْفُطْرَنِي﴾ أي: أي مانع من جانبي يمنعي من عبادة الذي خلقني. ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه، بل أرادهم بكلامه، فقال: ﴿وَالْيَا تَرْجِعُونَ﴾ ولم يقل: إليه أرجع، وفيه مبالغة في التهديد، ثم عاد إلى المساق الأول لفصد التاكيد، ومزيد الإيضاح، فقال: ﴿اتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾، فجعل الإنكار متوجهاً إلى نفسه. وهم المرادون به: أي: لا اتخذ من دون الله آلهة، وأعيدها، وأترك عبادة من يستحق العبادة، وهو الذي فطرنى. ثم بين حال هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم، وبياناً لضلال عقولهم، وقصور إدراكهم، فقال: ﴿إِنْ يَرِدْ لِلرَّحْمَنِ بَضْرٌ لَا تَغْنِ عَنِّي شِفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ أي: شيئاً من النفع كأننا ما كان ﴿وَلَا يَنْقُذُونَ﴾ من تلك الضّر الذي أرادني الرحمن به. وهذه الجملة صفة لآلهة، أو مستأنفة لبيان حالها في عدم النفع، والدفع، وقوله: ﴿لَا تَغْنِ﴾ جواب الشرط، وقرا طلحة بن مصرف (إن يردني) بفتح الياء، قال: ﴿إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إنني إذا اتخذت من دونه آلهة لفي ضلال مبين واضح، وهذا تعريض بهم كما سبق، والضلال الخسران. ثم صرح بإيمانه تصريحاً لا يبقى بعده شك، فقال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ خاطب بهذا الكلام المرسلين. قال المفسرون: أرادوا القوم قتله، فأقبل هو على المرسلين، فقال: إنني آمنت بربكم أيها الرسل، فاسمعون: أي: اسمعوا إيماني، وأشهدوا لي به. وقيل: إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلياً في الدين، وتشدداً في الحق، فلما قال هذا القول، وصرح بالإيمان، وثبوا عليه، فقتلوه، وقيل:

هذا مؤكداً لسبق التكذيب للثنتين، والتكذيب لهما تكذيب للثالث، لأنهم أرسلوا جميعاً بشيء واحد، وهو: الدعاء إلى الله عز وجل، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر: كأنه قيل: ما قال هؤلاء الرسل بعد التعزيز لهم بثالث؟ وكذلك جملة ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فإنها مستأنفة جواب سؤال مقدر: كأنه قيل: فما قال لهم أهل انطاكية، فقيل: قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا: أي: مشاركون لنا في البشرية، فليس لكم مزية علينا تختصون بها. ثم صرحوا ببحرود إنزال الكتب السماوية، فقالوا: ﴿يُومًا نُنْزِلُ الرُّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما تدعونه أنتم، ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل، واتباعهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي: ما أنتم إلا تكذيبون في دعوى ما تدعون من ذلك، فأجابوهم بآيات رسالتهم بكلام مؤكد تأكيداً بليغاً لتكرار الإنكار من أهل انطاكية، وهو قولهم: ﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، فأكدوا الجواب بالقسم الذي يفهم من قولهم: ربنا يعلم، ويؤمن، وبالإلام ﴿يُومًا عَلَيْنَا إِلَّا لِلْبَلَاغِ الْمُبِينِ﴾ أي: ما يجب علينا من جهة ربنا إلا تبليغ رسالته على وجه الظهور، والوضوح، وليس علينا غير ذلك، وهذه الجملة مستأنفة كالتي قبلها، وكذلك جملة ﴿قَالُوا إِنَّا تَطِيرُنَا بِكُمْ﴾، فإنها مستأنفة جواباً عن سؤال مقدر: أي: إننا تشاءمنا بكم، لم تجدوا جواباً تجيبون به على الرسل إلا هذا الجواب المبني على الجهل المنبئ عن الغباوة العظيمة، وعدم وجود حجة تدفعون الرسل بها. قال مقاتل: حبس عنهم المطر ثلاث سنين. قيل: إنهم أقاموا ينزرونهم عشر سنين، ثم رجعوا إلى التجبر، والتكبر لما ضاقت صدورهم، واعتبهم العلل، فقالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ﴾ أي: لأن لم تتركوا هذه الدعوى، وتعرضوا عن هذه المقالة: لنرجمكم بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَ عَذَابِ الْيَمِّ﴾ أي: شديد قطيع. قال الفراء: علامة ما في القرآن من الرجم المراد به القتل. وقال قتادة: هو على باب من الرجم بالحجارة. قيل: ومعنى العذاب الاليم: القتل، وقيل: الشتم، وقيل: هو التعذيب المؤلم من غير تعذيب بنوع خاص، وهذا هو الظاهر. ثم أجاب عليهم الرسل دفعا لما زعموه من التطير بهم فـ ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: شؤمكم معكم من جهة أنفسكم، لازم في أعناقكم، وليس هو من شؤمنا. قال الفراء: طائركم معكم: أي: رزقكم وعملكم، وبه قال قتادة. قرأ الجمهور (طائركم) اسم فاعل: أي: ما طار لكم من الخير، والشر، وقرا الحسن (طيركم) أي: تطيركم ﴿لَئِنْ نَّكُرْتُمْ﴾. قرأ الجمهور من السبعة، وغيرهم بهزة استفهام بعدها إن الشرطية على الخلاف بينهم في التسهيل، والتحقيق، وإبخال ألف بين الهمزتين، وعدمه. وقرا أبو جعفر، وذر بن حبش، وابن السميغ، وطلحة بهمزتين مفتوحتين. وقرا الأعمش، وعيسى بن عمر، والحسن «أين» بفتح الهمزة، وسكون الياء على صيغة الظرف.

واختلف سيبويه، ويونس إذا اجتمع استفهام وشرط أيهما يجب؟ فذهب سيبويه إلى أنه يجب الاستفهام، وذهب

[illegible]

لما وقع ما وقع منهم مع حبيب النجار غضب الله له، وعجل لهم النعمة، وأهلكهم بالصيحة، ومعنى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له، أو من بعد رفع الله له إلى السموات على الاختلاف السابق ﴿مَنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لإهلاكهم، وللانتقام منهم: أي: لم تحتج إرسال جنود من السماء لإهلاكهم كما وقع ذلك للنبي ﷺ يوم بدر من إرسال الملائكة لنصرته، وحرب أعدائه ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي: وما صَحَّ في قضائنا، وحكمتنا أن ننزل لإهلاكهم جنداً لسبق قضائنا، وقد رنا بأن إهلاكهم بالصيحة لا بإنزال الجنود. وقال قتادة، ومجاهد، والحسن: أي: ما أنزلنا عليهم من رسالة من السماء، ولا نبي بعد قتله. وروي عن الحسن أنه قال: هم الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء، والظاهر أن معنى النظم القرآني تحقيق شأنهم، وتصغير أمرهم: أي: ليسوا بأحقاء بأن ننزل لإهلاكهم جنداً من السماء، بل أهلكناهم بصيحة واحدة كما يفيدُه قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: إن كانت العقوبة، أو النعمة، أو الأخذة إِلَّا صَيْحَةً واحدة صاح بها جبريل، فأهلكهم. قال المفسرون: أخذ جبريل بعضاتي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة، فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حسَّ كالنار إذا طفئت، وهو معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامُونَ﴾ أي: قوم خامدون ميتون، شبههم بالنار إذا طفئت، لأن الحياة كالنار الساطعة، والموت كخمودها. قرأ الجمهور (صيحة) بالنصب على أن كان ناقصة، واسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق كما قمنا. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج، ومعاذ القاري برفعها على أن كان تامة: أي: وقع، وحدث، وإنكر هذه القراءة أبو حاتم، وكثير من النحويين بسبب التانيث في قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال: (إِنْ كَانَ إِلَّا صَيْحَةً)، وقدّر الزجاج هذه القراءة بقوله: إِنْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ صَيْحَةٌ إِلَّا صَيْحَةً واحدة، وقدّرنا غيره: ما وقعت عليهم إِلَّا صَيْحَةً واحدة. وقرأ عبد الله بن مسعود ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا زُقْيَةً واحدة﴾، والزُقْيَةُ

وطئوه بأرجلهم، وقيل: حرقوه، وقيل: حرقوا له حفيرة، والقوه فيها، وقيل: إنهم لم يقتلوه بل رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة، وبه قال الحسن، وقيل: نشروه بالمنشار ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي: قيل له ذلك تكريماً له بدخولها بعد قتله كما هي سنة الله في شهداء عبادِهِ. وعلى قول من قال: إنه رفع إلى السماء، ولم يقتل يكون المعنى: أنهم لما أُرُوا قتلَهُ نجاه الله من القتل، وقيل: له ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فلما دخلها، وشاهدها ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴿وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ جَوَابُ سَوْأَلٍ مُقَدَّرٍ أَيْ: فَمَاذَا قَالَ بَعْدَ أَنْ قِيلَ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَدْخُلَهَا فَقِيلَ: قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي الْخَ، وَمَا فِي ﴿يَا لَيْتَ﴾ غَيْرُ لِي رُبِّي الْمَصْدُورَةُ: أَيِ بَغْفَرَانِ رُبِّي، وَقِيلَ: هِيَ الْمَوْصُولَةُ: أَيِ: بِالَّذِي غَفَرَ لِي رُبِّي، وَالْعَائِدُ مُحْذُوفٌ: أَيِ: غَفَرَهُ لِي رُبِّي، وَاسْتَضَعَفَ هَذَا؛ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِتَمَنِّيهِ أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ بِذُنُوبِهِ الْمَغْفُورَةِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ إِلَّا التَّمَنِّيَ مِنْهُ بِأَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ بِغَفْرَانِ رَبِّهِ لَهُ. وَقَالَ الْفَرَاءُ: إِنَّهَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ بِمَعْنَى: التَّعَجُّبِ، كَأَنَّهُ قَالَ: بِأَيِّ شَيْءٍ غَفَرَ لِي رُبِّي. قَالَ الْكَسَاوِيُّ: لَوْ صَحَّ هَذَا لَقَالَ بِمَنْ مِنْ غَيْرِ الْف. وَيَجَابُ عَنْهُ بِأَنَّهُ قَدْ وَرَدَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ إِثْبَاتُهَا، وَإِنْ كَانَ مَكْسُوراً بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَذْفِهَا، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

على ما قام يشتمني لئيم · كخنزير تمرغ في بمان
وفي معنى تمنيه قولان: أحدهما: أنه تمنى أن يعلموا
بحاله؛ ليعلموا حسن ماله، وحמיד عاقبته إرغاماً لهم. وقيل:
إنه تمنى أن يعلموا بذلك؛ ليؤمنوا مثل إيمانه، فيصيروا إلى
مثل حاله.

وقد أخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأُضْرِبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ قال: هي: انطاكية. وأخرج ابن أبي حاتم عن بريدة مثله. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان بين موسى بن عمران، وبين عيسى ابن مريم ألف سنة وتسعمائة سنة، ولم يكن بينهما فترة، وأنه أرسل بينهما ألف نبي من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، وكان بين ميلاد عيسى، والنبي ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة، بعث في أولها ثلاثة أنبياء، وهو قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾، والذي عَزَّزَ به شمعون، وكان من الحواريين، وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيها رسولا أربعمائة سنة وأربع وثلاثون سنة. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ﴾ قال: شوْكُمْ معكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمِينَةِ رَجُلٌ﴾ قال: هو: حبيب النجار. وأخرج ابن أبي حاتم عنه من وجه آخر، قال: اسم صاحب يس: حبيب، وكان الجذام قد أسرع فيه. وأخرج الحاكم عن ابن مسعود قال: لما قال صاحب يس ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ خنقوه؛ ليموت، فالتفت إلى الأنبياء، فقال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون﴾ أي: فاشهدوا لي.

الصيحة قال النحاس: وهذا مخالف للمصحف، وأيضاً. فإن اللغة المعروفة زقا يزقو إذا صاح، ومنه المثل «أثقل من الزواقى»، فكان يجب على هذا أن تكون زقوة، ويجب عنه بما ذكره الجوهري قال: الزقو والزقي مصدر، وقد زقا الصدا يزقو. زقا: أي صاح: وكل صائح زاق، والزقية الصيحة (يا حسرة على العباد) قرأ الجمهور بنصب حسرة، على أنها منادى منكر كأنه نادى الحسرة، وقال لها: هذا أوانك فاحضري. وقيل: إنها منصوبة على المصدرية، والمنادى محذوف، والتقدير: يا هؤلاء تحسروا حسرة. وقرأ قتادة، وأبي في رواية عنه بضم حسرة على النداء. قال الفراء: في توجيه هذه القراءة: إن الاختيار للنصب، وإنها لو رفعت النكرة لكان صواباً، واستشهد بأشياء نقلها عن العرب منها أنه سمع من العرب: يا مهتم بامرنا لا تهتم، وأنشد:

يا دار غيرها البلى تغييرا

قال النحاس: وفي هذا إبطال باب النداء، أو أكثره. قال: وتقدير ما ذكره: يا أيها المهتم لا تهتم بامرنا، وتقدير البيت: يا أيتها الدار. وحقيقة الحسرة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً. قال ابن جرير: المعنى: يا حسرة من العباد على أنفسهم، وتندما وتلهفا في استهزائهم برسول الله، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس، وعلي بن الحسين (يا حسرة العباد) على الإضافة، ورويت هذه القراءة عن أبي. وقال الضحك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل. وقيل: هي من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة. وقيل: إن القائل: يا حسرة على العباد هم: الكفار المكذبون، والعباد الرسل، وذلك أنهم لما رأوا العذاب تحسروا على قتلهم، وتمنوا الإيمان قاله أبو العالية، ومجاهد، وقيل: إن التحسر عليهم هو من الله عز وجل بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه. وقرأ ابن هرمز، ومسلم بن جنب، وعكرمة، وأبو الزناد (يا حسرة) بسكون الهاء إجراء للوصل مجرى الوقف. وقرئ (يا حسرتا) كما قرئ بذلك في سورة الزمر، وجملة **﴿فَمَا يَاتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** مستأنفة مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل، والاستهزاء بهم، وأن ذلك هو سبب التحسر عليهم. ثم عجب سبحانه من حالهم حيث لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية، فقال: **﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾** أي: ألم يعلموا كثرة من أهلكنا قبلهم من القرون التي أهلكناها من الأمم الخالية، وجملة **﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾** بدل من كم أهلكنا على المعنى. قال سيبويه: أن بدل من كم، وهي: الخبرية، فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام، والمعنى: ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون. وقال الفراء: كم في موضع نصب من وجهين: أحدهما: بيروا، واستشهد على هذا بأنه في قراءة ابن مسعود (ألم يروا من أهلكنا)، والوجه الآخر أن تكون كم في موضع نصب بأهلكنا. قال النحاس: القول الأول محال، لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها؛ لأنها استفهام، ومحال أن يبدل

الاستفهام في حين ما قبله، وكذا حكمها إذا كانت خبراً، وإن كان سيبويه قد أوما إلى بعض هذا، فجعل أنهم بدلاً من كم، وقد رد ذلك المبرد أشد رد **﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾** أي: محضرون لدينا يوم القيامة للجزاء. قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمره لما بتشديدها، وقرأ الباقون بتخفيفها. قال الفراء: من شدد جعل لما بمعنى: إلا، وإن بمعنى: ما: أي: ما كل إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى جميع مجموعون، فهو فعيل بمعنى: مفعول، ولدينا ظرف له، وأما على قراءة التخفيف، فإن هي المخففة من الثقيلة، وما بعدها مرفوع بالابتداء، وتثوين **﴿كُلٌّ﴾** عوض عن المضاف إليه، وما بعده للخبر، واللام هي: الفارقة بين المخففة والثاقفة. قال أبو عبيدة: وما على هذه القراءة زائدة، والتقدير عنده: وإن كل لجميع. وقيل: معنى محضرون: معذبون، والأولى أنه على معناه الحقيقي من الإحضار للحساب. ثم نكر سبحانه البرهان على التوحيد، والحشر مع تعداد النعم، وتذكيرها، فقال: **﴿وَأَيُّ لَهِمُ الْأَرْضِ الْمِيْتَةِ﴾**، فأية خبر مقدم، وتذكيرها للتخفيف، ولهم صفتها، أو متعلقة بآية؛ لأنها بمعنى: علامة، والارض مبتدأ، ويجوز: أن تكون آية مبتدأ لكونها قد تخصصت بالصفة، وما بعدها الخبر. قرأ أهل المدينة «الميتة» بالتشديد، وخففها الباقون، وجملة **﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾** مستأنفة مبينة لكيفية كونها آية، وقيل: هي صفة للأرض، فنبههم الله بهذا على إحياء الموتى، ونكرهم نعمة، وكمال قدرته، فإنه سبحانه أحيا الأرض بالنبات: وأخرج منها الحبوب التي ياكلونها، ويتغذون بها، وهو معنى قوله: **﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾**، وهو ما يقتاتونه من الحبوب، وتقديم منه للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل، وأكثر ما يقوم به المعاش **﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَابٍ﴾** أي: جعلنا في الأرض جنان من أنواع النخل، والعنب، وخصصهما بالذكر؛ لأنهما أعلى الثمار، وأنفعها للعباد **﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْنِ﴾** أي: فجّرنا في الأرض بعضاً من العين، فحطف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، أو المفعول العين، ومن مزيدة على رأي من جوز زيانتها في الإثبات، وهو الأخفش، ومن وافقه، والمراد بالعين عيون الماء. قرأ الجمهور (فجّرنا) بالتشديد، وقرأ جناح بن حبيش بالتخفيف، والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى، واللام في **﴿يَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾** متعلق بجعلنا، والضمير في **﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾** يعود إلى المذكور من الجنات، والنخيل، وقيل: هو راجع إلى ماء العين؛ لأن الثمر منه، قاله الجرجاني. قرأ الجمهور (ثمره) بفتح الثاء، والميم، وقرأ حمزة، والكسائي يضمهما، وقرأ الأعمش بضم الثاء، وإسكان الميم، وقد تقدم الكلام في هذا في الأنعام، وقوله: **﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾** معطوف على ثمره: أي: ليأكلوا من ثمره، ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير، واللبس، ونحوهما، وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن ما موصولة، وقيل: هي نافية؛ والمعنى: لم يعملوه، بل العامل له

هو الله: أي: وجدوها معمولة، ولا صنع لهم فيها، وهو قول الضحاك، ومقاتل. قرأ الجمهور (عملته) وقرأ الكوفيون «عملت» بحذف الضمير، والاستفهام في قوله: **﴿فلا يشكرون﴾** للتقريع، والتوبيخ لهم لعدم شكرهم للنعم، وجملة **﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها﴾** مستأنفة مسوقة لتزجيده سبحانه عما وقع منهم من ترك الشكر لنعمه المذكورة، والتعجب من إخلالهم بذلك. وقد تقدّم الكلام مستوفى في معنى: سبحان، وهو في تقدير الأمر للعباد بأن ينزهوه عما لا يليق به، والأزواج: الأنواع، والأصناف، لأن كل صنف مختلف الألوان، والطعوم، والأشكال، و**﴿مما تنبت الأرض﴾** بيان للأزواج، والمراد كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة، وغيرها **﴿ومن أنفسهم﴾** أي: خلق الأزواج من أنفسهم، وهم: الذكور، والإناث **﴿ومما لا يعلمون﴾** من أصناف خلقه في البرّ، والبحر، والسماء، والأرض **﴿آية لهم لليل نسلخ منه النهار﴾** الكلام في هذا كما قدّمنا في قوله: **﴿آية لهم الأرض للميتة لحبيناها﴾**، والمعنى: أن ذلك علامة دالة على توحيد الله، وقدرته، ووجوب إلهيته، والنسخ: الكشط، والنزع، يقال: سلخه الله من بدنه، ثم يستعمل بمعنى: الإخراج، فجعل سبحانه ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء، وهو استعارة بليغة **﴿فإذا هم مظلمون﴾** أي: دخلون في الظلام مفاجأة وبغتة، يقال: اظلمنا: أي: دخلنا في ظلام الليل، وأظهرنا دخلنا في وقت الظهر، وكذلك أصبحنا، وأمسينا، وقيل: **﴿منه﴾** بمعنى: عنه، والمعنى: نسلخ عنه ضياء النهار. قال الفراء: يرمى بالنهار على الليل، فيأتي بالظلمة، وذلك أن الأصل هي: الظلمة، والنار داخل عليه، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل: أي: كشط، وأزيل، فتظهر الظلمة **﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾** يحتمل: أن تكون الواو للعطف على الليل، والتقدير: آية لهم الشمس، ويجوز: أن تكون الواو ابتدائية، والشمس مبتدأ، وما بعدها الخبر، ويكون الكلام مستأنفاً مشتقاً على نكر آية مستقلة. قيل: وفي الكلام حذف، والتقدير: تجري لمجرى مستقر لها، فتكون اللام لليلة: أي: لأجل مستقر لها، وقيل: اللام بمعنى: إلى وقد قرئ بذلك. قيل: والمراد بالمستقر: يوم القيامة، فعنده تستقرّ، ولا يبقى لها حركة، وقيل: مستقرها هو أبعد ما تنتهي إليه، ولا تجاوزه، وقيل: نهاية ارتفاعها في الصيف، ونهاية هبوطها في الشتاء، وقيل: مستقرها تحت العرش، لأنها تذهب إلى هناك، فسجد، فستأن في الرجوع، فيؤذن لها، وهذا هو الزجاج. وقال الحسن: إن للشمس في السنة ثلاثمائة وستين مطلعاً تنزل في كل يوم مطلعاً، ثم لا تنزل إلى الحول، فهي تجري في تلك المنازل، وهو: مستقرها، وقيل: غير ذلك. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، وزين العابدين، وابنه الباقو، والصانق بن الباقو (لا مستقر لها) بلا التي لنفي الجنس، وبناء مستقرّ على الفتح. وقرأ ابن أبي عبلة: (لا مستقرّ) بلا التي بمعنى: ليس، ومستقرّ

اسمها، ولها خبرها، والإشارة بقوله: **﴿ذلك﴾** إلى جري الشمس: أي: ذلك الجري **﴿تقدير العزيز﴾** أي: الغالب القاهر **﴿العليم﴾** أي: المحيط علمه بكل شيء، ويحتمل: أن تكون الإشارة راجعة إلى المستقرّ: أي: ذلك المستقرّ: تقدير الله **﴿والقمر قدرناه منازل﴾**. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو برفع القمر على الابتداء. وقرأ الباقون بالنصب على الاشتغال، وانتصاب منازل على أنه مفعول ثانٍ، لأن قدرنا بمعنى صيرنا، ويجوز: أن يكون منتصباً على الحال: أي: قدرنا سيره حال كونه ذا منازل، ويجوز: أن يكون منتصباً على الظرفية: أي: في منازل. واختار أبو عبيد النصب في القمر، قال: لأن قبله فعلاً، وهو نسلخ، وبعده فعلاً، وهو قدرنا. قال النحاس: أهل العربية جميعاً فيما علمت على خلاف ما قال. منهم الفراء قال: الرفع أعجب إليّ، قال: وإنما كان الرفع عندهم أولى: لأنه معطوف على ما قبله، ومعناه: وآية لهم القمر. قال أبو حاتم: الرفع أولى، لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير، فرفعته بالابتداء، والمنازل: هي: الثمانية والعشرون التي ينزل القمر في كل ليلة في واحد منها، وهي معروفة، وسيأتي ذكرها، فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر ليلتين، ثم يطلع هلالاً، فيعود في قطع تلك المنازل من الفلك **﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾** قال الزجاج: العرجون هو عود العنق الذي فيه الشماريخ، وهو فعلون من الانعراج، وهو الانعطاف: أي: سار في منازلها، فإذا كان في آخرها نَقْ، واستقوس، وصغر حتى صار كالعرجون القديم، وعلى هذا فالنون زائدة. قال قتادة: وهو: العنق اليابس المنحني من النخلة. قال ثعلب: العرجون الذي يبقى في النخلة إذا قطعت، والقديم: البالي. وقال الخليل: العرجون أصل العنق، وهو أصفر عريض، يشبه به الهلال إذا انحني، وكذا قال الجوهري: إنه أصل العنق الذي يعوج، ويقطع منه الشماريخ، فيبقى على النخل يابساً، وعرجته: ضربته بالعرجون، وعلى هذا فالنون أصلية. قرأ الجمهور (العرجون) بضم العين، والجيم: وقرأ سليمان التيمي بكسر العين، وفتح الجيم، وهما لغتان، والقديم: العتيق **﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾** الشمس مرفوعة بالابتداء، لأنه لا يجوز أن تعمل لا في المعرفة: أي: لا يصح، ولا يمكن للشمس أن تدرك القمر في سرعة السير، وتنزل في المنزل الذي فيه القمر، لأن لكل واحد منهما سلطاناً على انفراد، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر، فيذهب سلطانه إلى أن يأنز الله بالقيامة، فتطلع الشمس من مغربها. وقال الضحاك: معناه: إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء. وقال مجاهد: أي: لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر. وقال الحسن: إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة، وكذا قال يحيى بن سلام. وقيل: معناه: إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منزل لا يشتركان فيه. وقيل: القمر في سماء الدنيا، والشمس في

وأربعة عشر منها يمانية، أولها الشرطين، والبطين، والثريا، والديبران، والهقعة، والهنة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والديرة، والصرقة، والعواء، والسماك، وهو آخر الشامية، والغفر، والزبانة، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعام، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعد، وسعد الأخبية، ومقدم اللؤلؤ، ومؤخر اللؤلؤ، والحوت، وهو آخر اليمانية، فإذا سار هذه الثمانية وعشرين منزلاً ﴿عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ كما كان في أول الشهر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾: يعني: أصل العلق العتيق.

وَأَيَّةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن نَّفْسِهِمْ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَئِن نَّشَأْ تَفَرَّقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿١٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَتَفَكَّرُوا لَا تَلَذُّوا أَمْوَالَكُمْ مِمَّا آتَاكُمْ أَنظُمُ مَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَخَسُمَ مِنْهُمُ الْإِنشَاءُ إِلَّا فِي سَاعِلٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿١٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٠﴾ وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمُ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَوَيْلًا مِّنَّا يَوْمَ هَذَا مَوْقِدًا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٢﴾ إِن كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ ﴿٢٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تَفْطَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُ وَلَا مَأْكَلٌ يَسْكُونُ ﴿٢٤﴾

ثم نكر سبحانه وتعالى نوعاً آخر مما امتن به على عباده من النعم، فقال: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي دلالة وعلامة، وقيل: معنى «آية» هنا: العبرة، وقيل: النعمة، وقيل: النذارة.

وقد اختلف في معنى ﴿إِنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وإلى من يرجع الضمير، لأن الضمير الأول، وهو قوله: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ﴾ لأهل مكة، أو لكفار العرب، أو للكفار على الإطلاق الكائنين في عصر محمد ﷺ، فقيل: الضمير يرجع إلى القرون الماضية، والمعنى: أن الله حمل ذرية القرون الماضية في الفلك المشحون، فالضميران مختلفان. وهذا حكاية النحاس عن علي بن سليمان الأخفش. وقيل: الضميران لكفار مكة، ونحوهم. والمعنى: أن الله حمل ذرياتهم من أولادهم، وضعفائهم على الفلك، فامتد الله عليهم بذلك: أي إنهم يحملونهم معهم في السفن إذا سافروا، أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها. وقيل: الذرية الآباء والأجداد، والفلك هو سفينة نوح: أي إن الله حمل آباء هؤلاء، وأجدادهم في سفينة نوح. قال الواحدي: والذرية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد. قال أبو عثمان: وسمي الآباء ذرية، لأن منهم ذرة الأبناء، وقيل: الذرية النطف الكائنة في بطون النساء، وشبه البطون بالفلك المشحون، والراجع القول الثاني، ثم

السماء الرابعة. نكره النحاس، والمهدي. قال النحاس: وأحسن ما قيل في معناه، وأبينه: أن سير القمر سير سريع، والشمس لا تدركه في السير. وأما قوله: ﴿وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ﴾ [القيامة: 9]، فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدم بيانه في الأنعام، ويأتي في سورة القيامة أيضاً، وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا، وقيام الساعة ﴿وَلَا لَيْلٌ سَابِقَ النَّهَارِ﴾ أي: لا يسبقه، فيقوته، ولكن يعاقبه، ويجيء كل واحد منهما في وقته، ولا يسبق صاحبه، وقيل: المراد من الليل، والنهار أيتاهما، وهما الشمس، والقمر، فيكون عكس قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي: ولا القمر سابق الشمس، وإيراد السبق مكان الإبراك لسرعة سير القمر ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ التناوب في كل عوض عن المضاف إليه: أي: وكل واحد منهما، والفلك: هو الجسم المستدير، أو السطح المستدير، أو الدائرة، والخلاف في كون السماء مبسطة، أو مستديرة معروف، والسبح: السير بانسباط، وسهولة، والجمع في قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ باعتبار اختلاف مطالعتهما، فكانتهما متعبدان بتعديدهما، أو المراد: الشمس، والقمر، والكواكب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية يقول: ما كابنهم بالجموع: أي، الأمر أيسر علينا من ذلك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ يقول: يا ويلاً للعباد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: يا حسرة على العباد قال: الندامة على العباد الذين ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يقول: الندامة عليهم يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَمَا عَمَلُهُمْ إِلَّا هَبْطٌ﴾ قال: وجدوه معمولاً لم تعمله أيديهم: يعني: الفرات، ونبلة، ونهر بلخ، وأشباهها ﴿إِنَّمَا يَشْكُرُونَ﴾ لهذا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال: مستقرها تحت العرش، وفي لفظ للبخاري، وغيره من حديثه قال: «كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾». وفي لفظ من حديثه أيضاً عند أحمد، والترمذي، والنسائي، وغيرهم قال: يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه؟ قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها، فستتان في الرجوع، فيأذن لها، وكانها قد قيل لها: اطلعي من حيث جئت، فطلع من مغربها. ثم قرأ (ذلك مستقر لها) وذلك قراءة عبد الله. وأخرج الترمذي، والنسائي، وغيرهما من قول ابن عمر نحوه. وأخرج الخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ الآية قال: هي: ثمانية وعشرون منزلاً ينزلها القمر في كل شهر: أربعة عشر منها شامية،

الأول، ثم الثالث، وأما الرابع ففي غاية البعد، والنكارة. وقد تقدّم الكلام في الذرية، واشتقاقها في سورة البقرة مستوفي، والمشحون المملوء الموقر، والفلك يطلق على الواحد والجمع كما تقدّم في يونس، وارتفاع آية على أنها خبر مقدّم، والمبتدأ **﴿إنا حملنا﴾**، أو العكس على ما قدّمنا. وقيل: إن الضمير في قوله: **﴿وآية لهم﴾** يرجع إلى العباد المنكورين في قوله: **﴿ها حسرة على العباد﴾** [يس: 30]؛ لأنه قال بعد ذلك: **﴿وآية لهم الأرض الميتة﴾** [يس: 33]، وقال: **﴿وآية لهم الليل﴾** [يس: 37]. ثم قال: **﴿وآية لهم إنا حملنا ذريّاتهم﴾**، فكانه قال: وآية للعباد إنا حملنا ذريات العباد، ولا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين البعض منهم، وبالضمير الآخر البعض الآخر، وهذا قول حسن **﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾** أي: وخلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونه على أن ما هي: الموصولة. قال مجاهد، وقتادة، وجماعة من أهل التفسير: وهي: الإبل خلقها لهم للركوب في البرّ مثل السفن المركوبة في البحر، والعرب تسمى الإبل سفائن البرّ، وقيل: المعنى: وخلقنا لهم سفناً أمثال تلك السفن يركبونها، قاله الحسن، والضحاك، وأبو مالك. قال النحاس: وهذا أصح؛ لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس، وقيل: هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح **﴿وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون﴾** هذا من تمام الآية التي امتنّ الله بها عليهم، ووجه الامتنان أنه لم يغرقهم في لجج البحار مع قدرته على ذلك، والضمير يرجع إما إلى أصحاب الذرية، أو إلى الذرية، أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال، والصريخ بمعنى: المصرخ، والمصرخ هو: المغيث أي: فلا مغيث لهم يغيثهم إن شئنا إغراقهم، وقيل: هو المنعة. ومعنى ينقذون: يخلصون، يقال: أنقذه، واستنقذه، إذا خلّصه من مكروه **﴿إلا رحمة منا﴾** استثناء مفرّغ من أعمّ العلل: أي: لا صريخ لهم، ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة منا، كذا قال الكسائي، والزجاج، وغيرهما، وقيل: هو استثناء منقطع: أي: لكن لرحمة منا. وقيل هو منصوب على المصدرية بفعل مقدر **﴿وإن انتصاب﴾** متاعاً على العطف على رحمة: أي: نمتعهم بالحياة الدنيا **﴿إلى حين﴾** وهو: الموت، قاله قتادة. وقال يحيى بن سلام: إلى القيامة **﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾** أي: ما بين أيديكم من الآفات، والنوازل، فإنها محيطة بكم، وما خلفكم منها. قال قتادة: معنى **﴿اتقوا ما بين أيديكم﴾** أي: من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم **﴿وما خلفكم﴾** في الآخرة. وقال سعيد بن جبیر، ومجاهد: **﴿ما بين أيديكم﴾** ما مضى من الذنوب **﴿وما خلفكم﴾** ما بقي منها. وقيل: **﴿ما بين أيديكم﴾** الدنيا **﴿وما خلفكم﴾** الآخرة، قاله سفيان. وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس. وقيل: **﴿ما بين أيديكم﴾** ما ظهر لكم **﴿وما خلفكم﴾** ما خفي عنكم، وجواب إذا محذوف، والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا كما يدلّ عليه **﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾**

﴿لعنكم ترحمون﴾ أي: رجاء أن ترحموا، أو كي ترحموا، أو راجين أن ترحموا **﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾** ما: هي النافية، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد، ومن الأولى مزيدة للتوكيد، والثانية للتبعية؛ والمعنى: ما تأتيهم من آية دالة على نبوة محمد ﷺ، وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد في حال من الأحوال إلا كانوا عنها معرضين. وظاهره يشمل الآيات التنزيلية، والآيات التكوينية، وجملة **﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾** في محلّ نصب على الحال كما مرّ تقريره في غير موضع. والمراد بالإعراض عدم الالتفات إليها، وترك النظر الصحيح فيها، وهذه الآية متعلقة بقوله: **﴿ها حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾** [يس: 30] أي: إذا جاءتهم الرسل كذبوا. وإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها **﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾** أي: تصدّقوا على الفقراء مما أعطاكم الله، وأنعم به عليكم من الأموال، قال الحسن: يعني: اليهود أمروا بإطعام الفقراء. وقال مقاتل: إن المؤمنين قالوا لكفار قريش: أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه الله من أموالكم من الحرث والأنعام كما في قوله سبحانه: **﴿وجعلوا الله ممّا نرا من الحرث والأنعام نصيباً﴾** [الأنعام: 136]، فكان جوابهم ما حكاه الله عنهم بقوله: **﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾** استهزاء بهم، وتهكماً بقولهم: **﴿انطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾** أي: من لو يشاء الله رزقه، وقد كانوا سمعوا المسلمين يقولون: إن الرزاق هو: الله، وأنه يغني من يشاء، ويفقر من يشاء، فكانهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين، وقالوا: نحن نوافق مشيئة الله، فلا نطعم من لم يطعمه الله، وهذا غلط منهم، ومكابرة، ومجالبة بالباطل، فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه، وأقر بعضاً، وأمر الغني أن يطعم الفقير، وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة. وقولهم: **﴿من لو يشاء الله أطعمه﴾** هو وإن كان كلاماً صحيحاً في نفسه، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله، أو إنكار جواز الأمر بالاتفاق مع قدرة الله كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلاً. وقوله: **﴿إن لنتم إلا في ضلال مبين﴾** من تمام كلام الكفار. والمعنى: أنكم أيها المسلمون في سؤال المال، وأمرنا بإطعام الفقراء لفي ضلال في غاية الوضوح والظهور. وقيل: هو من كلام الله سبحانه جواباً على هذه المقالة التي قالها الكفار. وقال القشيري، والماوردي: إن الآية نزلت في قوم من الزنادقة. وقد كان في كفار قريش وغيرهم من سائر العرب، قوم يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين، ومناقضة لهم. وحكى نحو هذا القرطبي عن ابن عباس **﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾** الذي تعدونا به من العذاب، والقيامة، والمصير إلى الجنة أو النار. **﴿إن كنتم صائقين﴾** فيما تقولون، وتعدونا به. قالوا ذلك استهزاء منهم، وسخرية بالمؤمنين. ومقصودهم إنكار ذلك بالمرة، ونفي تحققه، وجحد وقوعه، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله:

له احضر، فهذا اوان حضورك، وهؤلاء القائلون هم: الكفار. قال ابن الأنباري: الوقف على يا ويلنا وقف حسن. ثم يبتدئ الكلام بقوله: ﴿مَنْ يَعْتَنَّا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول، وما داخلهم من الفزع انهم كانوا نياماً. قرأ الجمهور (يا ويلنا)، وقرأ ابن أبي ليلى (يا ويلتنا) بزيادة التاء. وقرأ الجمهور (من يعتنا) بفتح ميم من على الاستفهام. وقرأ ابن عباس، والضحاك، وأبو نهيك بكسر الميم على أنها حرف جرّ، ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب. وعلى هذه القراءة تكون من متعلقة بالويل، وقرأ الجمهور (من يعتنا). وفي قراءة أبي (من أهبنا) من هب من نومه: إذا انتبه، وأنشد ثعلب على هذه القراءة:

وعائلة هبت لبلي تلومني ولم يعتمدني قبل ذاك غزل
وقيل: إنهم يقولون ذلك إذا عاينوا جهنم. وقال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور، وهجروا هجة إلى النفخة الثانية، وجملة ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ جواب عليهم من جهة الملائكة، أو من جهة المؤمنين. وقيل: هو من كلام الكفرة يجيب به بعضهم على بعض. قال بالآول الفراء، وبالثاني مجاهد. وقال قتادة: هي من قول الله سبحانه، و «ما» في قوله: ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ موصولة، وعائدها محذوف والمعنى: هذا الذي وعده الرحمن، وصدق فيه المرسلون قد حق عليكم، ونزل بكم، ومفعولا الوعد والصدق محذوفان أي: وعذكموه الرحمن، وصدقكموه المرسلون، والأصل وعذكم به، وصدقكم فيه، أو وعذناه الرحمن، وصدقناه المرسلون على أن هذا من قول المؤمنين، أو من قول الكفار ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: ما كانت تلك النفخة المذكورة إلا صيحة واحدة صاحبها إسرافيل بنفخه في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: فإذا هم مجموعون محضرون لدينا بسرعة للحساب، والعقاب ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ مِنْ النَّفُوسِ شَيْئًا﴾ مما تستحقه أي: لا ينقص من ثواب عملها شيئاً من النقص، ولا تظلم فيه بنوع من أنواع الظلم ﴿وَلَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا، أو إلا بما كنتم تعملونه أي: بسببه، أو في مقابلته.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية قال: في سفينة نوح حمل فيها من كل زوجين اثنين ﴿وَوَخَّلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: السفن التي في البحر والأنهار التي يركب الناس فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي صالح نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَخَّلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: يعني: الإبل خلقها الله كما رأيت، فهي: سفن البرّ يحملون عليها، ويركبونها. ومثله عن الحسن، وعكرمة، وعبد الله بن شدّاد، ومجاهد. وأخرج

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهي: نفخة إسرافيل في الصور ﴿تَأْخُذْهُمْ وَهُمْ يَخْصَمُونَ﴾ أي: ﴿يَخْصَمُونَ﴾ في ذات بينهم في البيع، والشراء، ونحوهما من أمور الدنيا، وهذه هي النفخة الأولى، وهي: نفخة الصعق.

وقد اختلف القراء في ﴿يَخْصَمُونَ﴾، فقرأ حمزة بسكون الخاء، وتخفيف الصاد من خصم يخصم، والمعنى: يخصم بعضهم بعضاً، فالمفعول محذوف. وقرأ أبو عمرو، وقالون بإخفاء فتحة الخاء، وتشديد الصاد. وقرأ نافع، وابن كثير، وهشام كذلك إلا أنهم أخلصوا فتحة الخاء، وقرأ الباقون بكسر الخاء، وتشديد الصاد. والأصل في القراءات الثلاث يخصمون، فأدغمت التاء في الصاد، فنافع، وابن كثير، وهشام نقلوا فتحة التاء إلى الساكن قبلها نقلاً كاملاً، وأبو عمرو، وقالون اختلصا حركتها تنبيهاً على أن الخاء أصلها السكون، والباقيون حذفوا حركتها، فالتقى ساكنان، فكسروا أولهما. وروي عن أبي عمرو، وقالون: أنهما قرءا بتسكين الخاء، وتشديد الصاد، وهي قراءة مشككة لاجتماع ساكنين فيها. وقرأ أبي (يخصمون) على ما هو الأصل ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بما له، وما عليه، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة، والإقلاع عن المعاصي، بل يموتون في أسواقهم، ومواقعهم ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إلى منازلهم التي ماتوا خارجين عنها، وقيل: المعنى: لا يرجعون إلى أهلهم قولا، وهذا إخبار عما ينزل بهم عند النفخة الأولى. ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وهي: النفخة التي يبعثون بها من قبورهم، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ أي: يسرعون، وبين النفختين أربعون سنة. وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي حيث قال: ﴿وَنُفِخَ﴾ تنبيهاً على تحقق وقوعه كما ذكره أهل البيان، وجعلوا هذه الآية مثالا له، والصور بإسكان الواو: هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل كما وردت بذلك السنة، وإطلاق هذا الاسم على القرن معروف في لغة العرب، ومنه قول الشاعر:

نحن نطحنهم غداة الغورين نطحاً شديداً لا كنطح الصورين
أي: القرنين. وقد مضى هذا مستوفى في سورة الأنعام. وقال قتادة: الصور جمع صورة أي: نفخ في الصور الأرواح، والأجدات جمع جدث، وهو: القبر. وقرئ «الأجداف» بالفاء، وهي لغة، واللغة الفصيحة بالثاء المثناة، والنسل والنسلان: الإسراع في السير، يقال: نسل ينسل كضرب يضرب، ويقال: ينسل بالضم، ومنه قول امرئ القيس:

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

وقول الآخر:

عسلان الذيب أمسى قارنا برد الليل عليه فنسل
قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ أي: قالوا عند بعثهم من القبور بالنفخة: يا ويلنا: نالوا ويلهم، كأنهم قالوا

بالسماع. وقال ابن كيسان: بزيارة بعضهم بعضاً، وقيل: شغلهم كونهم ذلك اليوم في ضيافة الله. قرأ الكوفيون وابن عامر: (شغل) بضمّتين. وقرأ الباقر بن بضمّ الشين، وسكون الغين: وهما لغتان كما قال الفراء. وقرأ مجاهد، وأبو السماك بفتحّتين. وقرأ يزيد النحوي، وابن هبيرة بفتحّ الشين، وسكون الغين. وقرأ الجمهور (فلكهون) بالرفع على أنه خبر إنّ، وفي شغل متعلق به، أو في محل نصب على الحال ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر إنّ، وفلكهون خبر ثانٍ. وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف (فلكهين) بالنصب على أنه حال، وفي شغل هو: الخبر. وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وأبو حيو، وأبو رجاء، وشيبة، وقتادة، ومجاهد (فكهون) قال الفراء: هما لغتان كالفارة، والفرة، والحاذر، والحذر. وقال الكسائي، وأبو عبيدة الفاكه: نو الفاكهة مثل تامر ولابن، والفكه: المتفكه، والمتنعم. وقال قتادة: الفكهون المعجبون. وقال أبو زيد: يقال: رجل فكه: إذا كان طيب النفس ضحوكاً. وقال مجاهد والضحاك كما قال قتادة. وقال السدي كما قال الكسائي ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية شغلهم، وتفكههم، وتكميلها بما يزيدهم سروراً، وبهجة من كون أزواجهم معهم على هذه الصفة من الاتكاء على الأرائك، فالضمير، وهو: هم مبتدأ، وأزواجهم معطوف عليه، والخبر متكئون، ويجوز أن يكون هم تأكيداً للضمير في (فلكهون)، وأزواجهم معطوف على ذلك الضمير، وارتفاع متكئون على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وفي ظلال متعلق به أو حال، وكذا على الأرائك، وجوز، أبو البقاء: أن يكون ﴿في ظلال﴾ هو: الخبر، و﴿على الأرائك﴾ مستأنف. قرأ الجمهور (في ظلال) بكسر الظاء، وبالألف، وهو: جمع ظل. وقرأ ابن مسعود، وعبيد بن عمير، والأعمش، ويحيى بن ثالب، وحمزة، والكسائي، وخلف (في ظلال) بضمّ الظاء من غير ألف جمع ظلة، وعلى القراءتين، فالمراد الفرش، والستور التي تظللهم كالخيام، والحجال، والأرائك جمع أريكة، كسفائن جمع سفينة، والمراد بها السرر التي في الحجال. قال أحمد بن يحيى ثعلب: الأريكة لا يكون إلا سريراً في قبة. وقال مقاتل: إن المراد بالظلال أكنان القصور، وجملة ﴿لهم فيها فاكهة﴾ مبنية لما يتمتعون به في الجنة من المأكّل، والمشارب، ونحوها. والمراد فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه ﴿ولهم ما يدعون﴾ ما هذه هي: الموصولة، والعائد محذوف، أو موصوفة، أو مصدرية، ويدعون مضارع ادعى. قال أبو عبيدة: يدعون يتمنون، والعرب تقول: ادع علي ما شئت: أي تمنّ، وفلان في خير ما يدعي أي: ما يتمنى. وقال الزجاج هو من الدعاء أي: ما يدعونه أهل الجنة يأتينهم من دعوت غلامي، فيكون الافتعال بمعنى: الفعل كالاختلال بمعنى: الحمل، والارتحال بمعنى: الرحل. وقيل: افتعل بمعنى: تفاعل أي: ما يتداعونه كقولهم: ارتموا، وتراموا. وقيل: المعنى: إن من ادعى منهم شيئاً، فهو له، لأن الله قد

عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مرونه عن أبي هريرة في قوله: ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ الآية قال: تقوم الساعة، والناس في أسواقهم يتبايعون، ويذرعون الثياب، ويحلبون اللقاح، وفي حوائجهم، فلا يستطيعون توصية ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾، وأخرج عبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر عن الزبير بن العوام قال: إن الساعة تقوم، والرجل يذرع الثوب، والرجل يحلب الناقة، ثم قرأ ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ الآية. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لتقوم الساعة، وقد نشر الرجلان ثوبهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقوم الساعة، وهو يليط حوضه، فلا يسقي فيه، ولتقوم الساعة، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته، فلا يطعمه، ولتقوم الساعة، وقد رفع أكلته إلى فيه، فلا يطعمها». وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب في قوله: ﴿ومن بعثنا من مرقننا﴾ قال: ينامون قبل البعث نومة.

إِنَّ أَحَدَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُعْلِ فَكْهُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ رَأَوْهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّئُونَ ﴿٥٦﴾ لَمْ يَمِنْهَا فَكْهَةٌ وَلَمْ تَأْ يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَنْتَرُوا الْيَوْمَ أَيَّامَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتِي مَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا السُّبُلَ إِنَّهُمْ لَكُورٌ عَذُّوا تُبِينَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ كِتَابًا كَثِيرًا أَقْلَمَ تَكُونُوا تَقُولُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَحُوا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنفُثُ فِي رُءُوسِهِمْ يَمَسُّوا كَلِمَاتٍ يُكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَكُنَّا عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَاسْتَمَعُوا السِّرَّ فَاتَّ بَصِيرَتُكَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَكُنْهُمْ عَلَى مَكَاتِبِهِمْ فَمَا اسْتَمَعُوا مَوْعِيًا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

لما ذكر الله سبحانه حال الكافرين اتبعه بحكاية حال عباده الصالحين. وجعله من جملة ما يقال للكفار يومئذ زيادة لحسرتهم، وتكميلاً لجزعهم، وتتميماً لما نزل بهم من البلاء، وما شاهدوه من الشقاء، فإذا راوا ما أعدّه الله لهم من أنواع العذاب، وما أعدّه لأولياته من أنواع النعيم، بلغ ذلك من قلوبهم مبلغاً عظيماً، وزاد في ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها. والمعنى: ﴿إن أصحاب الجنة﴾ في ذلك ﴿اليوم﴾ في شغلهم بما هم فيه من اللذات التي هي ما لا عين رأت، ولا أن سمعت، ولا خطر على قلب بشر عن الاهتمام بأمر الكفار، ومصيرهم إلى النار، وإن كانوا من قريباتهم. والأولى عدم تخصيص الشغل بشيء معين. وقال قتادة، ومجاهد: شغلهم ذلك اليوم بافتضاض العذارى. وقال وكيع: شغلهم

طبعهم على أن لا يدعى أحد منهم شيئاً إلا وهو يحسن ويحلم به أن يدعيه، وما مبتدأ، وخبرها لهم، والجملة معطوفة على ما قبلها. وقرئ (يدعون) بالتخفيف، ومعناها واضح. قال ابن الأنباري: والوقف على يدعون وقف حسن، ثم يبتدئ ﴿سلام﴾ على معنى: لهم سلام، وقيل: إن سلام هو خبر ما أي: مسلم خالص، أو ذو سلامة. وقال الزجاج: سلام مرفوع على البذل من ما أي: ولهم أن يسلم الله عليهم، وهذا مني أهل الجنة، والأولى أن يحمل قوله: ﴿ولهم ما يدعون﴾ على العموم، وهذا السلام يدخل تحته دخولاً أولياً، ولا وجه لقصره على نوع خاص، وإن كان أشرف أنواعه تحقيقاً لمعنى العموم، ورعاية لما يقتضيه النظم القرآني. وقيل: إن سلام مرتفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: سلام يقال لهم ﴿قولاً﴾، وقيل: إن سلام مبتدأ، وخبره الناصب لقولاً: أي سلام يقال لهم قولاً، وقيل: خبره من رب العالمين، وقيل: التقدير: سلام عليكم هذا على قراءة الجمهور، وقرأ أبي، وابن مسعود، وعيسى (سلاماً) بالنصب إما على المصدرية، أو على الحالية بمعنى: خالصاً، والسلام: إما من التحية، أو من السلامة. وقرأ محمد بن كعب القرظي (سلم) كأنه قال: سلم لهم لا يتنازعون فيه، وانتصاب قولاً على المصدرية بفعل محذوف على معنى: قال الله لهم ذلك قولاً، أو يقوله لهم قولاً، أو يقال لهم قولاً: ﴿ومن رب رحيم﴾ أي: من جهته. قيل: يرسل الله سبحانه إليهم بالسلام. وقال مقاتل: إن الملائكة تدخل على أهل الجنة من كل باب يقولون: سلام عليكم يا أهل الجنة من رب رحيم ﴿وامتازوا اليوم ليها المجرمون﴾ هو على إضمار القول مقابل ما قيل للمؤمنين أي: ويقال للمجرمين: امتازوا أي: انعزلوا، من مازة غيره، يقال: مزت الشيء من الشيء: إذا عزلته عنه، ونحيته. قال مقاتل: معناه اعتزلوا اليوم يعني: في الآخرة من الصالحين. وقال السدي: كونوا على حدة. وقال الزجاج: انفردوا عن المؤمنين. وقال قتادة: عزلوا عن كل خير. وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبد الأوثان فرقة. وقال داود بن الجراح: يمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء، فإنهم يكونون مع المجرمين. ثم ويخهم الله سبحانه، وقرعهم بقوله: ﴿الم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا للشيطان﴾، وهذا من جملة ما يقال لهم. والعهد: الوصية أي: ألم أوصيكم، وأبلغكم على السن رسلي: أن لا تعبدوا الشيطان أي: لا تطيعوه. قال الزجاج: المعنى: ألم أتقدم إليكم على لسان الرسل يا بني آدم. وقال مقاتل: يعني: الذين أمروا بالاعتزال. قال الكسائي: لا للنهي، وقيل: المراد بالعهد هنا: الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهر آدم. وقيل: هو ما نصبه الله لهم من الدلائل العقلية التي في سمواته وأرضه، وجملة ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ تحليل لما قبلها من النهي عن طاعة الشيطان، وقبول وسوسته، وجملة ﴿وأن

اعبدوني﴾ عطف على أن لا تعبدوا، وأن: في الموضعين هي المفسرة للعهد الذي فيه معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية فيهما أي: لم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا بأن اعبدوني، أو ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان، وفي عبادتي ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي: عبادة الله، وتوحيده، أو الإشارة إلى دين الإسلام. ثم نكر سبحانه عداوة الشيطان لبني آدم، فقال: ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ اللام هي: الموطئة للقسم، والجملة مستأنفة للتقريع والتوبيخ أي: والله لقد أضل الخ. قرأ نافع، وعاصم (جبلاً) بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر بضم الجيم، وسكون الباء، وقرأ الباقون بضميتين مع تخفيف اللام، وقرأ ابن أبي إسحاق، والزهري، وابن هرمز بضميتين مع تشديد اللام، وكذلك قرأ الحسن، وعيسى بن عمر، والنضر بن أنس، وقرأ أبو يحيى، وحمام بن سلمة، والأشهب العقيلي بكسر الجيم، وإسكان الباء، وتخفيف اللام قال النحاس: وأبينها القراءة الأولى. والليل على ذلك أنهم قد قرءوا جميعاً (والجبل الأولين) بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام. فيكون جبلاً جمع جبل، واشتقاق الكل من جبل الله الخلق أي: خلقهم، ومعنى الآية: أن الشيطان قد أغوى خلقاً كثيراً كما قال مجاهد. وقال قتادة: جموعاً كثيرة، وقال الكلبي: أمماً كثيرة. قال الثعلبي: والقراءات كلها بمعنى: الخلق، وقرئ (جبلاً) بالجيم، والياء التحتية. قال الضحاك: الجيل الواحد عشرة آلاف، والكثير ما لا يحصى إلا الله عز وجل، ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب، والهزمة في قوله: ﴿أقلم تكونوا تعقلون﴾ للتقريع، والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام كما تقدم في نظائره أي: أتشاهدون آثار العقوبات، أقلم تكونوا تعقلون، أو أقلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم، أو أقلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً. قرأ الجمهور (أقلم تكونوا تعقلون) بالخطاب. وقرأ طلحة، وعيسى بالغيبة ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ أي: ويقال لهم عند أن يدنوا من النار: هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا على السنة الرسل، والقائل لهم الملائكة، ثم يقولون لهم: ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ أي: قاسوا حرها اليوم، وادخلوها، وذوقوا أنواع العذاب فيها بما كنتم تكفرون أي: بسبب كفركم بالله في الدنيا، وطاعتكم للشيطان، وعبادتكم للأوثان، وهذا الأمر أمر تنكيل، وإمانة كقوله: ﴿نق إنك أنت العزيز الكريم﴾ [الدخان: 49] ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ اليوم ظرف لما بعده، وقرئ يختم على البناء للمفعول، والناثب الجار والمجرور بعده. قال المفسرون: إنهم ينكرون الشرك، وتكذيب الرسل كما في قولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: 23]، فيختم الله على أفواههم ختماً لا يقدرُونَ معه على الكلام، وفي هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم، ثم قال: ﴿وتكلمنا

يمضي مضياً: إذا ذهب في الأرض، ورجع يرجع رجوعاً: إذا عاد من حيث جاء ﴿ومن نعيمه ننكسه في الخلق﴾ قرأ الجمهور (ننكسه) بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وضم الكاف مخففة. وقرأ عاصم، وحزمة بضم النون الأولى، وفتح الثانية، وكسر الكاف مشددة. والمعنى: من نطل عمره نغير خلقه، ونجعله على عكس ما كان عليه أولاً من القوة والطراوة. قال الزجاج: المعنى: من أطلنا عمره نكسنا خلقه، فصار بدل القوة الضعف، وبدل الشباب الهرم، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ [الحج: 5]، وقوله: ﴿ثم ربدناه أسفل سافلين﴾ [التين: 5]، ومعنى ﴿أفلا تعقلون﴾: أفلا تعلمون بعقولكم أن من قدر على ذلك قدر على البعث، والنشور. قرأ الجمهور (يعقلون) بالتحية. وقرأ نافع، وابن نكوان بالفوقية على الخطاب. ولما قال كفار مكة: إن القرآن شعر، وإن محمداً شاعر رد الله عليهم بقوله: ﴿وما علمناه الشعر﴾، والمعنى: نفى كون القرآن شعراً، ثم نفى أن يكون النبي شاعراً، فقال: ﴿وما ينبغي له﴾ أي: لا يصح له الشعر، ولا يتأتى منه، ولا يسهل عليه لو طلبه، وأراد أن يقوله، بل كان ﷺ إذا أراد أن ينشد بيتاً قد قاله شاعر متمثلاً به كسر وزنه، فإنه لما أنشد بيت طرفة بن العبد المشهور، وهو قوله:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
قال: ويأتيك من لم تزوده بالأخبار، وأنشد مرة أخرى قول العباس بن مرداس السلمي:

أتجعل نهبي ونهب العبيد دبين عيينة والأقرع
فقال: بين الأقرع وعيينة، وأنشد أيضاً:

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً

فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما قال الشاعر:

كفى للشيب والإسلام للمرء ناهياً

فقال: أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ وقد وقع منه ﷺ كثير من مثل هذا. قال الخليل: كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، ولكن لا يتأتى منه أهـ. ووجه عدم تعليمه الشعر، وعدم قدرته عليه. التكميل للحجة، والبعض للشبهة، كما جعله الله أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وأما ما روي عنه من قوله ﷺ:

هل أنت إلا أصبع دमित وفي سبيل الله مألقيت
وقوله:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
ونحو ذلك، فمن الاتفاق الوارد من غير قصد كما يأتي ذلك في بعض آيات القرآن، وليس بشعر، ولا مراد به الشعر، بل اتفق ذلك اتفاقاً كما يقع في كثير من كلام الناس، فإنهم قد يتكلمون بما لو اعتبره معتبر لكان على وزن الشعر، ولا يعنونه شعراً، وذلك كقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: 92] وقوله: ﴿وجفان

أيديهم بما كانوا يفعلونه، وشهدت أرجلهم عليهم بما كانوا يعملون. قرأ الجمهور (تكلمنا وتشهد)، وقرأ طلحة بن مصرف (ولتكلمنا وتشهد) بلام كي. وقيل: سبب الختم على أفواههم ليعرفهم أهل الموقف. وقيل: ختم على أفواههم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم؛ لأن شهادة غير الناطق أبلغ في الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز. وقيل: ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم في معاصي الله صارت شهوداً عليهم، وجعل ما تنطق به الأيدي كلاماً، وإقراراً؛ لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصي، وجعل نطق الأرجل شهادة؛ لأنها حاضرة عند كل معصية، وكلام الفاعل إقرار، وكلام الحاضر شهادة، وهذا اعتبار بالغالب، وإلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدي مباشرة لها ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ أي: أذهبنا أعينهم، وجعلناها بحيث لا يبدو لها شيء، ولا جفن. قال الكسائي: طمس يطمس، ويطمس، والمطموس، والطميس عند أهل اللغة الذي ليس في عينه شيء كما في قوله: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ [البقرة: 20] ومفعول المشيئة محذوف أي: لو نشاء أن تطمس على أعينهم لطمسنا. قال السدي، والحسن: المعنى: لتركناهم عمياً يترددون لا يبصرون طريق الهدى، واختار هذا ابن جرير ﴿فاستبقوا الصراط﴾ معطوف على لطمسنا أي: تباينوا إلى الطريق ليجوزوه، ويمضوا فيه، والصراط منصوب بنزع الخافض أي: فاستبقوا إليه، وقال عطاء، ومقاتل، وقتادة: المعنى: لو نشاء لفقنا أعينهم، وأعميناهم عن غيهم، وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فأبصروا رشدهم، واهتدوا، وتباينوا إلى طريق الآخرة، ومعنى ﴿فأنى يبصرون﴾ أي: كيف يبصرون الطريق، ويحسنون سلوكه، ولا أبصار لهم. وقرأ عيسى بن عمر (فاستبقوا) على صيغة الأمر أي: فيقال لهم: استبقوا، وفي هذا تهديد لهم. ثم كرر التهديد لهم، فقال: ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ المسخ تبديل الخلقة إلى حجر، أو غيره من الجماد، أو بهيمة، والمكانة المكان أي: لو شئنا لبئنا خلقهم على المكان الذي هم فيه. قيل: والمكانة أخص من المكان كالمقامة، والمقام. قال الحسن: أي: لأقنعناهم ﴿فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون﴾ أي: لا يقدرّون على ذهب، ولا مجيء. قال الحسن: فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم؛ ولا يرجعوا وراءهم، وكذلك الجماد لا يتقدم، ولا يتأخر. وقيل: المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم، وقيل: لمسخناهم في المكان الذي فعلوا فيه المعصية. وقال يحيى بن سلام: هذا كله يوم القيامة. قرأ الجمهور (على مكانتهم) بالإنفراد. وقرأ الحسن، والسلمي، وزر بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم (مكاناتهم) بالجمع. وقرأ الجمهور (مضياً) بضم الميم، وقرأ أبو حيوة (مضياً) بفتحها، وروي عنه: أنه قرأ بكسرهما، ورويت هذه القراءة عن الكسائي. قيل: والمعنى: ولا يستطيعون رجوعاً، فوضع الفعل موضع المصدر لمرعاة الفاصلة، يقال: مضى

كالجواب وقدور راسيات ﴿سبأ: 13﴾ على أنه قد قال الأخفش إن قوله:

أنا النسبي لا كذب

ليس بشعر. وقال الخليل في كتاب العين: إن ما جاء من السجع على جزأين لا يكون شعراً. قال ابن العربي: والأظهر من حاله أنه قال: لا كذب برفع الباء من كذب، وبخفضها من عبد المطلب قال النحاس: قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً، لأنه إذا فتح الباء من الأول، أو ضمهما، أو نونها، وكسر الباء من الثاني خرج عن وزن الشعر. وقيل: إن الضمير في له عائد إلى القرآن أي: وما ينبغي للقرآن أن يكون شعراً ﴿إن هو إلا ذكر﴾ أي: ما القرآن إلا نكر من الإنكار، وموعظة من المواعظ ﴿وقرآن مبين﴾ أي: كتاب من كتب الله السماوية مشتمل على الأحكام الشرعية ﴿لينذر من كان حياً﴾ أي: لينذر القرآن من كان حياً أي: قلبه صحيح يقبل الحق، ويأبى الباطل، أو لينذر الرسول من كان حياً. قرأ الجمهور بالياء التحتية، وقرأ نافع، وابن عامر بالفوقية، فعلى القراءة الأولى المراد القرآن، وعلى الثانية المراد: النبي ﷺ ﴿ويحق القول على الكافرين﴾ أي: وتجب كلمة العذاب على المصزيين على الكفر الممتنعين من الإيمان بالله، وبرسله.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿في شغل فاكهون﴾ قال: في اقتضاض الأبكار. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود في الآية قال: شغلهم اقتضاض العذارى. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة، وقتادة مثله. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن عمر قال: إن المؤمن كلما أراد زوجة وجدها عذراء. وقد روي نحوه مرفوعاً عن أبي سعيد، مرفوعاً عند الطبراني في الصغير، وأبي الشيخ في العظمة. وروي أيضاً نحوه عن أبي هريرة مرفوعاً عند الضياء المقدسي في صفة الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿في شغل فاكهون﴾ قال: ضرب الأوتار. قال أبو حاتم: هذا لعله خطأ من المستمع، وإنما هو اقتضاض الأبكار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: ﴿فاكهون﴾ فرحون. وأخرج ابن ماجه، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، والبخاري، وابن أبي حاتم، والأجزي في الرؤية، وابن مردويه عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وذلك قول الله: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ قال: فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره، وبركته عليهم في نهارهم»، قال ابن كثير: في إسناده نظر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في

الآية قال: إن الله هو يسلم عليهم. وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، والبخاري، وابن أبي الدنيا في التوبة، واللفظ له، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس في قوله: ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ قال: «كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، قال: أتدرون مما ضحكتم؟ قلنا: لا يا رسول الله، قال: من مخاطبة العبد ربه يقول: يا ربِّ ألم تجرنني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إني لا أجيز عليّ إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنتطق بأعماله، ثم يخلى بينه، وبين الكلام، فيقول: بعداً لكُنْ، وسحقاً، فعنكن كنت أناضل». وأخرج مسلم، والترمذي، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سعيد، وأبي هريرة قالاً: قال رسول الله ﷺ: «يلقى العبد ربه، فيقول الله: قل: ألم أكرمك، وأسودك، وأزججك، وأسخر لك الخيل، والإبل، وأذكرك ترأس، وترتع؟ فيقول: بلى أي ربِّ، فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: إني أنساك كما نسيتني، ثم يلقي الثاني، فيقول مثل ذلك، ثم يلقي الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: أمنت بك، وبكتابك، وبرسولك، وصليت، وصمت، وتصنعت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ألا نبعث شاهداً عليك، فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليّ، فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي، فتنتطق فخذه، وفمه، وعظامه بعمله ما كان، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المناقق، وذلك الذي يسخط عليه». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث أبي موسى نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ قال: أعميائهم، وأضللناهم عن الهدى ﴿فأنى يبصرون﴾ فكيف يهتدون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ولو نشاء لمسخناهم﴾ قال: أهلكناهم ﴿على مكانتهم﴾ قال: في مساكنهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: بلغني أنه قيل لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فيجعل أوله آخره يقول: «ويأتيك من لم تزود بالأخبار، فقال أبو بكر: ليس هكذا، فقال رسول الله ﷺ: إني والله ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي»، وهذا يرد ما نقلناه عن الخليل سابقاً أن الشعر كان أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة قالت: ما جمع

رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً:
تفاعل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشيء كان إلا تحقق
قالت عائشة: ولم يقل تحقّقاً لثلاثا يعرّبه، فيصير شعراً،
وإسناده هكذا: قال: أخبرنا أبو عبيد الله الحافظ يعني: الحاكم
حنثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم، حنثنا أبو محمد
عبد الله بن هلال النحوي الضريّر، حنثنا علي بن عمرو
الأنصاري، حنثنا سفيان بن عيينة، عن الزّهرى، عن عروة،
عن عائشة، فنكره. وقد سئل المزي عن هذا الحديث فقال:
هو منكرو، ولم يعرف شيخ الحاكم، ولا الضريّر.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَاتٍ آيَاتِنَا أَنْتَسَا فَعَثَ لَهُمْ تِلْكَ الْآيَاتُ
وَلَكِنَّهَا كُنَّ فِيهِمْ رُكُوبًا وَمِنَآ يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنَّا فَعَثَ
وَمَسَارِبَ أَفْلَا يَسْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ
يُصَرُّونَ ﴿٧٩﴾ لَا يَسْتَخِيلُونَ صَرْفَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَحْشُرُوا خُضْرُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَا
يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُيْرُسُونَ وَمَا يُلْمُونَ ﴿٨١﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ
أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفُورٍ فَإِذَا هُوَ حَسْبُهُ يَوْمَ ﴿٨٢﴾ وَصَرَّبَ لَنَا مَثَلًا وَبَدَى
خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْيَقْلَمَ وَمَنْ رَبُّهُمْ ﴿٨٣﴾ قُلْ يُجِيبُكَ الَّذِي أَنْشَأَكَ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٨٤﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٥﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَقِيَّةً وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ إِنَّمَا
أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٧﴾ فَسَبِّحْ لِلَّذِي
يَدْبِرُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

ثم نكر سبحانه قدرته العظيمة، وإنعامه على عبده،
وجحد الكفار لنعمه، فقال: ﴿أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا
عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ والهزمة للإنكار، والتعجب من
حالهم، والواو للعطف على مقترن كما في نظائره، والرؤية هي
القلبية أي: أو لم يعلموا بالتفكر، والاعتبار ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾
أي: لأجلهم ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي: مما أبدعناه، وعملناه
من غير واسطة، ولا شركة، وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة
في الاختصاص، والتفرد بالخلق كما يقول الواحد منا: عملته
بيدي للدلالة على تفرده بعمله، وما بمعنى: الذي، وحذف
العائد لطول الصلة، ويجوز أن تكون مصدرية، والأنعام جمع
نعم، وهي: البقر، والغنم، والإبل، وقد سبق تحقيق الكلام
فيها. ثم نكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام،
فقال: ﴿فَفَهْمٌ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي: ضابطون قاهرون يتصرفون
بها كيف شاءوا، ولو خلقناها وحشية لنفرت عنهم، ولم
يقدروا على ضبطها، ويجوز أن يكون المراد: أنها صارت في
أملakهم، ومعبودة من جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة
الملك ﴿وَنُلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي: جعلناها لهم مسخرة لا تمتنع
مما يريدون منها من منافعهم حتى الذبح، ويقودها الصبي،
فتنقاد له، ويزجرها، فتزجر، والفاء في قوله: ﴿فَفَهْمٌ
رَكُوبُهُمْ﴾ لتقريع أحكام التنذيل عليه أي: فمنها مركوبهم
الذي يركبونه كما يقال: ناقه حلوب أي: مخلوبة. قرأ الجمهور

(ركوبهم) يفتح الرءاء. وقرأ الأعمش، والحسن، وابن السميع بضم الرءاء على المصدر. وقرأ أبي، وعائشة (ركوبتهم)، والركوب والركوبة واحد، مثل الحلوب والحلوبة، والحمول والحمولة. وقال أبو عبيدة: الركوبة تكون للواحدة والجماعة، والركوب لا يكون إلا للجماعة. وزعم أبو حاتم: أنه لا يجوز، فمئنا ركوبهم بضم الرءاء؛ لأنه مصدر، والركوب ما يركب، وأجاز ذلك الفراء كما يقال: فمئنا أكلمهم، ومئنا شربهم، ومعنى «ومئنا ياكلون»: ما ياكلونه من لحمها، ومن للتبعية «ولهم فيها نافع»: أي: لهم في الأتعام منافع غير الركوب لها، والأكل منها، وهي ما يتفنون به من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وما يتفنون من الأمان من شحومها، وكذلك الحمل عليها، والحراثة بها «ومشارب»: أي: ولهم فيها مشارب مما يحصل من البانها «أفلا يشكرون». الله على هذه النعم، ويوحىونه، ويخصونه بالعبادة. ثم ذكر سبحانه جهلهم، وأغترارهم، ووضعهم كفران النعم مكان شكرها، فقال: «واتخذوا من نون الله آلهة» من الأصنام، ونحوها يعبدونها، ولا قرة لها على شيء، ولم يحصل لهم منها فائدة، ولا عاد عليهم من عبادتها عائدة «لعلهم ينصرون». أي: رجاء أن ينصروا من جهتهم إن نزل بهم عذاب، أو دهمهم أمر من الأمور، وجملة «لا يستطيعون نصرهم». مستأنفة لبيان بطلان ما رجوه منها، وأملوه من نفعها، وجمعهم بالواو، والنون جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أنهم ينفعون، ويضرون، ويعقلون «وهو لهم جند محضرون». أي: والكفار جند للأصنام محضرون أي: يحضرونهم في الدنيا، قال الحسن: يمتنعون منهم، ويفعون عنهم، وقال قتادة: أي: يغضبون لهم في الدنيا. قال الزجاج: ينتصرون للأصنام، وهي لا تستطيع نصرهم. وقيل: المعنى يعبدون الآلهة، ويقومون بها، فهم لهم بمنزلة الجند، هذه الأقوال على جعل ضميرهم للمشركين، وضمير لهم للآلهة، وقيل: وهم أي: الآلهة لهم أي: للمشركين جند محضرون يعيهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض. وقيل: معناه وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم في جهنم؛ لأنهم يلعنونه، ويتبرعون منهم. وقيل: المعنى: إن الكفار يعتقدون أن الأصنام جند لهم يحضرون يوم القيامة لإعانتهم، ثم سلى سبحانه نبيه ﷺ فقال: «فلا يحزنك قولهم». هذا القول هو ما يفيد قوله: «واتخذوا من نون الله آلهة» فإنهم لا بد أن يقولوا هؤلاء آلهتنا، وإنها شركاء لله في المعبوبة، ونحو ذلك. وهو نهى للرسول ﷺ عن التأثير بذلك. وقيل: إنه نهى لهم عن الأسباب التي تحزن رسول الله ﷺ، وإن النهي لرسول الله ﷺ عن التأثير لما يصدر منهم هو من باب: «لا أرينك ها هنا» فإنه يراد به نهى من خاطبه عن الحضور لديه، لا نهى نفسه عن الرؤية، وهذا بعيد، والأول أولى، والكلام من باب التسلية كما ذكرنا، ويجوز أن يكون المراد بالقول المنكور هو: قولهم إنه ساحر، وشاعر، ومجنون. وجملة «إننا نعلم ما يسرون وما يعلنون»

عن باغية، كذا قال البغوي، والقريطي، وقال بالأول صاحب الكشاف. والأولى أن يقال: إنه فعل بمعنى: فاعل، أو مفعول، وهو يستوي فيه المنكر، والمؤنث كما قيل في جريح، وصبور. ثم أجاب سبحانه عن الضارب لهذا المثل، فقال: ﴿قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ابتدأها، وخلقها أول مرة من غير شيء، ومن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية، ولا يخرج عن علمه خارج كائن ما كان. وقد استدلل أبو حنيفة، وبعض أصحاب الشافعي بهذه الآية على أن العظام مما تحل الحياة. وقال الشافعي: لا تحل الحياة، وأن المراد بقوله: ﴿مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ﴾ من يحيي أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف، ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر ﴿لَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ هذا رجوع منه سبحانه إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم، فنبه سبحانه على وحدانيته، ودل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب، وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ، والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان، وضرب أحدهما على الآخر انفدحت منهما النار، وهما أخضران. قيل: المرخ هو: الذكر، والعفار هو: الأنثى، ويسمى الأول الزند، والثاني الزندة، وقال: الأخضر، ولم يقل: الخضراء اعتباراً باللفظ. وقرئ (الخضر) اعتباراً بالمعنى، وقد تقرر أنه يجوز تنكير اسم الجنس، وتانيته كما في قوله: ﴿نَحْلٌ مَنْقَعَرٌ﴾ [القم: 20] وقوله: ﴿نَحْلٌ خَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: 7] فبنو تميم، ونجد ينكرونه، وأهل الحجاز يؤثنونه إلا نادراً، والموصول بدل من الموصول الأول ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَفَّقُونَ﴾ أي: تتقبحون منه النار، وتوقعونها من ذلك الشجر الأخضر. ثم نكر سبحانه ما هو أعظم خلقاً من الإنسان، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ والهزمة للإنكار، والواو للعطف على مقدر كظائره، ومعنى الآية: إن من قدر على خلق السموات، والأرض، وهما في غاية العظم، وكبر الأجزاء يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير الشكل ضعيف القوة، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57] قرأ الجمهور (يقدر) بصيغة اسم الفاعل. وقرأ الجحدري، وابن أبي إسحاق، والأعرج، وسلام بن المنذر، وأبو يعقوب الحضرمي (يقدر) بصيغة الفعل المضارع. ثم أجاب سبحانه عما افتاده الاستفهام من الإنكار التقريري بقوله: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي: بلى هو قادر على ذلك، وهو المبالغ في الخلق، والعلم على أكمل وجه، وأتمه. وقرأ الحسن، والجحدري، ومالك بن دينار (وهو الخالق). ثم نكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته، وتيسر المبدأ، والإعادة عليه، فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: إنما شأنه سبحانه إذا تعلق إرادته بشيء من الأشياء أن يقول له: احدث، فيحدث من غير توقف على شيء آخر

لتعليل ما تقدم من النهي، فإن علمه سبحانه بما يظهرون، ويضمرّون مستلزم المجازاة لهم بذلك. وأن جميع ما صدر منهم لا يعزب عنه سواء كان خافياً، أو باهياً سرّاً، أو جهراً مظهرّاً، أو مضمراً. وتقديم السرّ على الجهر للمبالغة في شمول علمه لجميع المعلومات، وجملة ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث، وللتعجيب من جهله، فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام، وردّها كما كانت، والإنسان المنكور في الآية المراد به: جنس الإنسان كما في قوله: ﴿أَوَلَا يَنْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ [مریم: 67]، ولا وجه لتخصيصه بإنسان معين كما قيل: إنه عبد الله بن أبي، وأنه قيل له ذلك لما أنكر البعث. وقال الحسن: هو: أمية بن خلف. وقال سعيد بن جبیر: هو: العاص بن وائل السهمي. وقال قتادة، ومجاهد: هو: أبي بن خلف الجمحي، فإن أحد هؤلاء، وإن كان سبباً للنزول، فمعنى الآية: خطاب الإنسان من حيث هو، لا إنسان معين، ويدخل من كان سبباً للنزول تحت جنس الإنسان لظهور أولياء، والنطفة هي: اليسير من الماء، وقد تقدم تحقيق معناها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مَبِينٌ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة المنفية قبلها داخله معها في حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، وإذا هي: الفجائية أي: ألم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء، فجأ خصوصتنا في أمر قد قامت فيه عليه حجج الله، وبراهينه، والخصيم الشديد الخصومة الكثير الجدل، ومعنى المبين: المظهر لما يقوله الموضح له بقوة عارضته، وطلاقة لسانه، وهكذا جملة ﴿وَضَرْبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ معطوفة على الجملة المنفية داخله في حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، فهي تكميل للتعجيب من حال الإنسان، وبيان جهله بالحقائق، وإهماله للتفكير في نفسه فضلاً عن التفكير في سائر مخلوقات الله، ويجوز أن تكون جملة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ معطوفة على خلقنا، وهذه معطوفة عليها أي: أورد في شأننا قصة غريبة كالمثل: وهي إنكاره أحياناً للعظام، ونسي خلقه أي: خلقنا إياه، وهذه الجملة معطوفة على ضرب، أو في محل نصب على الحال بتقدير قد، وجملة ﴿قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ استئناف جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل: ما هذا المثل الذي ضربه؟ فقيل: قال: من يحيي العظام، وهي رميم، وهذا الاستفهام للإنكار؛ لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد، فأنكر أن الله يحيي العظام البالية حيث لم يكن ذلك في مقنور البشر، يقال: رمّ العظم يرمّ رمّاً إذا بلى، فهو رميم، ورمام، وإنما قال: رميم، ولم يقل: رمية مع كونه خبراً للمؤنث؛ لأنه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرمة والرفات. وقيل: لكونه معدولاً عن فاعلة، وكل معدول عن وجهه يكون مصروفاً عن إعرابه كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمْكُ بَغْيًا﴾ [مریم: 28]؛ لأنه مصروف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَاتِ صَفًا ۝ فَأَلْزَجْنَ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَهُنَّكَ
 لَئِيمٌ ۝ رَبُّ السَّكَوَاتِ وَالْأَنْصَابِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمُنْتَرِفِ ۝ إِنَّا زَمَنَّا أَسْمَاءَ
 الَّذِينَ يَنْتَهِي إِلَهُكُمُ الْكُوكُوبُ ۝ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝ لَا يَسْتَمِعُونَ إِلَى الثَّلَا
 الْاَغْطَلِ وَيَقْدُرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَقَدْ عَدَّابٌ وَأَمْسُ ۝ إِلَّا مَنْ خَلَفَ
 لِقُلُوبِهِمْ فَأَتْبَعَهُمْ شِهَابٌ ثَائِفٌ ۝ فَاسْتَفْتَيْنَهُمْ أَهَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا
 خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝ كُلَّ عَجَبَةٍ وَمَسْحُورٍ ۝ وَإِنَّا ذَكَّرُوهُمْ لَا يُذَكِّرُونَ
 ۝ وَإِنَّا رَأَيْنَا أَتَابَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝ وَقَالُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ هَذَا وَمَنَا وَكُنَّا
 زُكْرًا وَعَظْمًا هَؤُلَاءِ لَيَسْمُورُونَ ۝ أَوْ هَؤُلَاءِ الْأَوَّلُونَ ۝ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ۝
 فَإِنَّا بَيْنَ يَدَيْهِ زَجْرٌ وَجِدَةٌ فَإِنَّا نَمُ بَنُظُرُونَ ۝

قوله: ﴿والصافات صفا﴾ قرأ أبو عمرو، وحزمة، وقيل:
 حمزة فقط بإدغام التاء من الصافات في صاد صفا، وإدغام
 التاء من الزاجرات في زاي زجراً، وإدغام التاء من التاليات
 في ذال نكراً، وهذه القراءة قد أنكرها أحمد بن حنبل لما
 سمعها. قال النحاس: وهي بعيدة في العربية من ثلاثة
 جهات: الجهة الأولى أن التاء ليست من مخرج الصاد، ولا
 من مخرج الزاي، ولا من مخرج الدال، ولا من أخواتهن.
 الجهة الثانية أن التاء في كلمة، وما بعدها في كلمة أخرى.
 الثالثة أنك إذا ادغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين، وإنما
 يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة
 واحدة. وقال الواحدي: إدغام التاء في الصاد حسن لمقاربة
 الحرفين، ألا ترى أنهما من طرف اللسان. وقرأ الباقون
 بإظهار جميع ذلك، والواو للقسم، والمقسم به الملائكة:
 الصافات، والزاجرات، والتاليات. والمراد بالصافات: التي
 تصف في السماء من الملائكة كصفوف الخلق في الدنيا،
 قاله ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير،
 ومجاهد، وقتادة. وقيل: إنها تصف أجنحتها في الهواء واقفة
 فيه حتى يأمرها الله بما يريد. وقال الحسن: صفاً كصفوفهم
 عند ربهم في صلاتهم. وقيل: المراد بالصافات هنا الطير
 كما في قوله: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾
 [الملك: 19] والأول أولى، والصف: ترتيب الجمع على خط
 كالصف في الصلاة. وقيل: الصافات جماعة الناس المؤمنين
 إذا قاموا صفاً في الصلاة، أو في الجهاد، ذكره القشيري.
 والمراد بـ ﴿الزاجرات﴾ الفاعلات للزجر من الملائكة، إما
 لأنها تزجر السحاب كما قال السدي، وإما لأنها تزجر عن
 المعاصي بالمواعظ والنصائح. وقال قتادة: المراد بالزاجرات
 الزواجر من القرآن، وهي كل ما ينهى، ويذجر عن القبيح،
 والأول أولى. وانتصاب صفاً وزجراً على المصدرية لتأكيد
 ما قبلهما. وقيل: المراد بالزاجرات العلماء، لأنهم هم الذين
 يزجرون أهل المعاصي والزجر في الأصل: الدفع بقوة، وهو
 هنا قوة التصويت، ومنه قول الشاعر:

زجر أبي عروة السباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم
 ومنه زجرت الإبل، والغنم: إذا أقرعتها بصوتك، والمراد بـ

اصلاً، وقد تقدم تفسير هذا في سورة النحل، وفي البقرة.
 قرأ الجمهور (فيكون) بالرفع على الاستئناف. وقرأ الكسائي
 بالنصب عطفاً على يقول. ثم نزه سبحانه نفسه عن أن
 يوصف بغير القدرة، فقال: ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت
 كل شيء﴾، والملكوت في كلام العرب لفظ مبالغة في الملك
 كالجبروت، والرحموت كأنه قال: فسبحان الذي بيده ملكية
 الأشياء الكلية. قال قتادة: ملكوت كل شيء: مفاتيح كل شيء.
 قرأ الجمهور (ملكوت) وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف،
 وإبراهيم التيمي (ملكة) بزنة شجرة، وقرئ (ملكة) بزنة
 مفعلة، وقرئ (ملك)، والملكوت أبلغ من الجميع. وقرأ
 الجمهور (وليه ترجعون) بالفوقية على الخطاب مبنياً
 للمفعول. وقرأ السلمي، وزر بن جبيش، وأصحاب ابن
 مسعود بالتحتية على الغيبة مبنياً للمفعول أيضاً. وقرأ
 زيد بن علي على البناء للفاعل أي: ترجعون إليه لا إلى غيره
 وذلك في الدار الآخرة بعد البعث.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في
 معجمه، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث
 والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: جاء العاص بن
 وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففتحه بيده، فقال: يا
 محمد أحيي الله هذا بعد ما أرى؟ قال: «نعم يبعث الله هذا،
 ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يسلك نار جهنم»، فنزلت الآيات من
 آخر يس ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إلى
 آخر السورة. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عنه قال: جاء
 عبد الله بن أبي في يده عظم حائل إلى النبي ﷺ، وذكر
 مثل ما تقدم قال ابن كثير: وهذا منكر، لأن السورة مكية،
 وعبد الله بن أبي إنما كان بالمدينة. وأخرج ابن مروي عن
 ابن عباس قال: جاء أبي بن خلف الجمحي، وذكر نحو ما
 تقدم. وأخرج ابن مروي عنه أيضاً قال: نزلت في أبي جهل،
 وذكر نحو ما تقدم.

تفسير سورة الصافات

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن
 الضريس، وابن النحاس، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل
 عن ابن عباس قال: نزلت بمكة. وأخرج النسائي، والبيهقي
 في سننه عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا
 بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. قال ابن كثير: تفرد به النسائي.
 وأخرج ابن أبي داود في فضائل القرآن، وابن النجار في
 تاريخه من طريق نهشل بن سعد الورداني عن الضحاك، عن
 ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس، والصافات
 يوم الجمعة، ثم سأل الله أعطاه سؤاله». وأخرج أبو نعيم في
 الدلائل، والسلفي في الطيوريات عن ابن عباس: «أن النبي
 ﷺ لما سأل ملك حزموت عند قدمهم عليه أن يقرأ
 عليهم شيئاً مما أنزل الله قرأ (والصافات صفاً) حتى بلغ
 (رب المشارق والمغارب)» [أي: سورة الصافات] الحديث.

﴿التاليات نكراً﴾ الملائكة التي تتلو القرآن كما قال ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن جبير، والسدي. وقيل: المراد جبريل وحده، فنكر بلفظ الجمع تعظيماً له مع أنه لا يخلو من اتباع له من الملائكة. وقال قتادة: المراد كل من تلا ذكر الله، وكتبه. وقيل: المراد آيات القرآن، ووصفها بالتلاوة، وإن كانت مثولة كما في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [النمل: 76]، وقيل: لأن بعضها يتلو بعضاً، ويتبعه، وذكر الماوردي: أن التاليات هم الأنبياء يتلون الذكر على أممهم، وانتصاب نكراً على أنه مفعول به، ويجوز أن يكون مصدرأ كما قبله من قوله «صفاءً وزجراً». قيل: وهذه الغاء في قوله: «فالزجرات، فالتاليات» إما لترتب الصفات أنفسها في الوجود، أو لترتب موصوفاتها في الفضل، وفي الكل نظر، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب القسم أي: أقسم الله بهذه الأقسام إنه واحد ليس له شريك. وأجاز الكسائي فتح إن الواقعة في جواب القسم ﴿رب السّموات والأرض﴾ يجوز أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون بدلاً من «لواحد»، وأن يكون خبر مبتدا محذوف. قال ابن الأنباري: الوقف على لواحد وقف حسن، ثم يبتدئ ربّ السموات، والأرض على معنى: هو ربّ السموات، والأرض. قال النحاس: ويجوز أن يكون بدلاً من لواحد. والمعنى في الآية: أن وجود هذه المخلوقات على هذا الشكل البديع من أوضح الدلائل على وجود الصانع، وقدرته، وأنه ربّ ذلك كله أي: خالقه، ومالكة. والمراد بما بينهما: ما بين السموات والأرض من المخلوقات. والمراد بـ ﴿المشارك﴾ مشارق الشمس. قيل: إن الله سبحانه خلق للشمس كل يوم مشرقاً، ومغرباً بعد أيام السنة، تطلع كل يوم من واحد منها، وتغرب من واحد، كذا قال ابن الأنباري، وابن عبد البر. وأما قوله في سورة الرحمن: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: 17] فالمراد بالمشرقين: أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال، وأقصر يوم في الأيام القصار، وكذلك في المغربين. وأما ذكر المشرق، والمغرب بالإفراد، فالمراد به الجهة التي تشرق منها الشمس، والجهة التي تغرب منها، ولعله قد تقدّم لنا في هذا كلام أوسع من هذا ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ المراد بالسماء الدنيا: التي تلي الأرض، من الدنو، وهو: القرب، فهي أقرب السموات إلى الأرض. قرأ الجمهور (بزينة الكواكب) بإضافة زينة إلى الكواكب. والمعنى: زينناها بتزيين الكواكب أي: بحسنها. وقرأ مسروق، والأعمش، والنخعي، وحزمة بتنوين (زينة)، وخفض (الكواكب) على أنها بدل من الزينة على أن المراد بالزينة الاسم لا المصدر، والتقدير بعد طرح المبدل منه: إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ بِالْكَوَاكِبِ، فإن الكواكب في أنفسها زينة عظيمة، فإنها في أعين الناظرين لها كالجواهر المتألثة. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه بتنوين (زينة)، ونصب (الكواكب) على أن الزينة مصدر، وفاعله محذوف، والتقدير: بأن الله زين الكواكب بكونها مضيئة حسنة في أنفسها، أو

تكون الكواكب منصوبة بإضمار أعني، أو بدلاً من السماء بدل لشمسها، وانتصاب حفظاً على المصدرية بإضمار فعل أي: حفظناها حفظاً، أو على أنه مفعول لأجله أي: زينها بالكواكب للحفظ، أو بالعطف على محل زينة كأنه قال: إِنَّا خَلَقْنَا الْكَوَاكِبَ زِينَةً لِلسَّمَاءِ ﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ هَارِدٍ﴾ أي: متمرّد خارج عن الطاعة يرمى بالكواكب، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: 5] وجملة ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ مستأنفة لبيان حالهم بعد حفظ السماء منهم. وقال أبو حاتم: أي: لئلا يسمعون، ثم حذف إن فرفع الفعل، وكذا قال الكلبي، والملا الأعلى: أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمى الكل منهم أعلى بإضافته إلى ملا الأرض، والضمير في يسمعون إلى الشياطين. وقيل: إن جملة لا يسمعون صفة لكل شيطان، وقيل: جواباً عن سؤال مقدّر كأنه قيل: فما كان حالهم بعد حفظ السماء عنهم؟ فقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ قرأ الجمهور (يسمعون) بسكون السين، وتخفيف الميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص عنه بتشديد الميم، والسين، والأصل يتسمعون، فأدغم اللام في السين، فالقراءة الأولى تدلّ على انتفاء سماعهم نون استماعهم، والقراءة الثانية تدلّ على انتفاءها، وفي معنى القراءة الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: 212] قال مجاهد: كانوا يتسمعون، ولكن لا يسمعون. واختار أبو عبيدة القراءة الثانية، قال: لأن العرب لا تكاد تقول: سمعت إليه، وتقول: تسمعت إليه ﴿وَيَقْنَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ نحوراً، أي: يرمون من كل جانب من جوانب السماء بالشهب إذا أراوا الصعود لاستراق السمع، وانتصاب نحوراً على أنه مفعول لأجله، والنحور الطرد، تقول: نحرت دحراً، ودحوراً: طرّبه. قرأ الجمهور (نحوراً) بضم الدال، وقرأ علي، والسلمي، ويعقوب الحضرمي، وابن أبي عبيدة بفتحها، وروي عن أبي عمرو: أنه قرأ (يقنفون) مبنيًا للفاعل، وهي قراءة غير مطابقة لما هو المراد من النظم القرآني، وقيل: إن انتصاب نحوراً على الحال أي: منحورين، وقيل: هو جمع داحر نحو قاعد، وقعود، فيكون حالاً أيضاً، وقيل: إنه مصدر لمقدّر أي: يحرون نحوراً. وقال الفراء: إن المعنى: يقنفون بما يحرقهم أي: يحرق، ثم حذفت الباء، فانتصب بنزع الخافض.

واختلف هل كان هذا الرمي لهم بالشهب قبل المبعث، أو بعده؛ فقال بالأول طائفة. وبالأخر آخرون. وقالت طائفة بالجمع بين القولين: إن الشياطين لم تكن ترمي قبل المبعث رمياً يقطعها عن السمع، ولكن كانت ترمي وقتاً، ولا ترمي وقتاً آخر، وترمي من جانب، ولا ترمي من جانب آخر، ثم بعد المبعث رميت في كل وقت، ومن كل جانب حتى صارت لا تقدر على استراق شيء من السمع إلا من اختطف الخطفة، فاتبعه شهاب ثاقب، ومعنى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾: ولهم عذاب دائم لا ينقطع، والمراد به: العذاب في

أدري من قرأ بذلك. ثم أضرب سبحانه عن الكلام السابق، فقال: ﴿بل عجبت﴾ يا محمد من قدرة الله سبحانه **﴿ويسخرون﴾** منك بسبب تعجبك، أو ويسخرون منك بما تقوله من إثبات المعاد. قرأ الجمهور بفتح التاء من (عجبت) على الخطاب للنبي ﷺ. وقرأ حمزة، والكسائي بضمها. ورويت هذه القراءة عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، واختارها أبو عبيد، والفراء. قال الفراء: قراها الناس بنصب التاء، ورفعها، والرفع أحب إلي؛ لأنها عن علي، وعبد الله، وابن عباس. قال: والعجب أن أسند إلى الله، فليس معناه من الله كمعناه من العباد. قال الهروي: وقال بعض الأئمة: معنى قوله: ﴿بل عجبت﴾ بل جازيتهم على عجبهم، لأن الله أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الخلق كما قال: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ [ص: 4] وقالوا: ﴿إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص: 5] «إكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم» [يونس: 2] وقال علي بن سليمان: معنى القراءةين واحد، والتقدير: قل: يا محمد بل عجبت؛ لأن النبي ﷺ مخاطب بالقرآن. قال النحاس: وهذا قول حسن، وإضمار القول كثير. وقيل: إن معنى الإخبار من الله سبحانه عن نفسه بالعجب أنه ظهر من أمره، وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين. قال الهروي: ويقال: معنى عجب ربكم أي: رضي ربكم وأثاب، فسماه عجباً، وليس بعجب في الحقيقة، فيكون معنى عجبت هنا: عظم فعلهم عندي. وحكى النقاش: أن معنى بل عجبت: بل أنكرت. قال الحسن بن الفضل: التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه، وهو لغة العرب، وقيل: معناه: أنه بلغ في كمال قدرته، وكثرة مخلوقاته إلى حيث عجب منها، هؤلاء لجهلهم يسخرون منها، والواو في **﴿ويسخرون﴾** للحال أي: بل عجبت، والحال أنهم يسخرون، ويجوز أن تكون للاستئناف **﴿وإذا نكروا لا ينكرون﴾** أي: وإذا عظما بموعظة من مواظ الله، أو مواظ رسوله لا ينكرون أي: لا يتعظون بها ولا ينتفعون بما فيها. قال سعيد بن المسيب أي: إذا نكر لهم ما حل بالمكئبين ممن كان قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا **﴿وإذا رآوا آية﴾** أي: معجزة من معجزات رسول الله ﷺ **﴿يستسخرون﴾** أي: يبالغون في السخرية. قال قتادة: يسخرون، ويقولون: إنها سخرية، يقال: سخر، واستسخر بمعنى: مثل قر واستقر، وعجب واستعجب. والأول أولى، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى. وقيل: معنى يستسخرون: يستدعون السخري من غيرهم. وقال مجاهد: يستهزئون **﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾** أي: ما هذا الذي تأتينا به إلا سحر واضح ظاهر **﴿وإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً﴾** الاستفهام للإنكار أي: أتبعث إذا متنا؛ فالعامل في إذا هو ما دل عليه **﴿وإننا لمبعوثون﴾**، وهو أتبعث، لأنفس مبعوثين لتوسط ما يمنع من عمله فيه، وهذا الإنكار للبعث منهم هو السبب الذي لأجله كتبوا الرسل، وما نزل عليهم، واستهزؤا بما جاءوا به من المعجزات، وقد تقدم

الآخرة غير العذاب الذي لهم في الدنيا من الرمي بالشبه. وقال مقاتل: يعني: دائماً إلى النفخة الأولى، والأول أولى. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب الدائم. وقال السدي، وأبو صالح، والكلبي: هو الموجع الذي يصل وجعه إلى القلب، مأخوذ من الوصب، وهو: المرض، وقيل: هو الشديد، والاستثناء في قوله: **﴿إلا من خطف للخطفة﴾** هو من قوله: **﴿لا يسمعون﴾**، أو من قوله: **﴿ويقفنون﴾**. وقيل: الاستثناء راجع إلى غير الوحي لقوله: **﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾** [الشعراء: 212] بل يخطف الواحد منهم خطفة مما يتفاوض فيه الملائكة، ويدور بينهم مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض. والخطف الاختلاس مسارقة، وأخذ الشيء بسرعة. قرأ الجمهور (خطف) بفتح الخاء، وكسر الطاء مخففة، وقرأ قتادة، والحسن بكسرهما، وتشديد الطاء، وهي لغة تميم بن مر، ويكر بن وائل. وقرأ عيسى بن عمر بفتح الخاء، وكسر الطاء مشددة. وقرأ ابن عباس بكسرهما مع تخفيف الطاء، وقيل: إن الاستثناء منقطع **﴿فاتبه شهاب ثاقب﴾** أي: لحقه، وتبعه شهاب ثاقب: نجم مضيء، فيحرقه، وربما لا يحرقه فيلقى إلى إخوانه ما خطفه، وليست الشهب التي يرمج بها هي من الكواكب الثابتة بل من غير الثوابت، وأصل الثقب الثقوب الإضاءة. قال الكسائي: ثقيت النار تثقب ثقباً، وثقوباً: إذا انتقدت، وهذه الآية هي كقوله: **﴿إلا من استرق السمع فاتبه شهاب مبين﴾** [الحجر: 18] **﴿فاستفهمهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا﴾** أي: أسأل الكفار المنكرين للبعث أهم أشد خلقاً، وأقوى أجساماً، وأعظم أعضاء، أم من خلقنا من السموات، والأرض، والملائكة؟ قال الزجاج: المعنى: فأسألهم سؤال تقرير أهم أشد خلقاً أم من خلقنا؟ أم من خلقنا قبلهم من الأمم السالفة؟ يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بالتكذيب فما الذي يؤمنهم من العذاب؟ ثم ذكر خلق الإنسان، فقال: **﴿إننا خلقناهم من طين لازب﴾** أي: إننا خلقناهم في ضمن خلق أبيهم آدم من طين لازب أي: لاصق، يقال لازب يلزب لزوياً: إذا لاصق. وقال قتادة، وابن زيد: اللازب اللازق. وقال عكرمة: اللازب اللزج. وقال سعيد بن جبير: اللازب الجيد الذي يلصق باليد. وقال مجاهد: هو اللازم، والعرب تقول: طين لازب، ولازم تبذل الباء من الميم، واللازم الثابت كما يقال: صار الشيء ضربة لازب، ومنه قول النابغة: لا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب وحكى الفراء عن العرب: طين لاتب بمعنى: لازم، واللاتب الثابت. قال الأصمعي: واللاتب اللاصق مثل اللازب. والمعنى في الآية: أن هؤلاء كيف يستبعدون المعاد، وهم مخلوقون من هذا الخلق الضعيف، ولم يتكره من هو مخلوق خلقاً أقوى منهم، وأعظم، وأكمل، وأتم. وقيل: اللازب هو: المنتن قاله مجاهد، والضحاك. قرأ الجمهور (أم من خلقنا) بتشديد الميم، وهي: أم المتصلة، وقرأ الأعمش بالتخفيف، وهو استفهام ثان على قراءته. قيل: وقد قرئ لازم، ولاتب، ولا

تفسير معنى هذه الآية في مواضع «وَأَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ» هو مبتدأ، وخبره محذوف أي: أو آبائنا الأولون مبعوثون، وقيل: معطوف على محل إن واسمها، وقيل: على الضمير في مبعوثون لوقوع الفصل بينهما، والهمزة للإنكار داخلية على حرف العطف، ولهذا قرأ الجمهور بفتح الواو، وقرأ ابن عامر، وقالون بسكونها على أن، أو هي العاطفة، وليست الهمزة للاستفهام. ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عنهم تبكيئاً لهم، فقال: «قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ» أي: نعم تبعثون، وأنتم صاغرون نليلون. قال الواحدي: والبخور أشد الصغار، وجملة وأنتم داخرون في محل نصب على الحال. ثم ذكر سبحانه: أن يعثهم يقع بزجرة واحدة، فقال: «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ» الضمير للقصة، أو البعثة المفهومة مما قبلها أي: إنما قصة البعث، أو البعثة زجرة واحدة أي: صيحة واحدة من إسرافيل ينفخه في الصور عند البعث: «فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ» أي يبصرون ما يفعل الله بهم من العذاب. وقال الحسن: هي: النفخة الثانية، وسميت الصيحة زجرة، لأن المقصود منها الزجر، وقيل: معنى ينظرون: ينتظرون ما يفعل بهم، والأول أولى.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود «وَالصَّافَاتُ صَفَاءً» قال: الملائكة «فَالزَّجْرَاتُ زَجْرًا» قال: الملائكة «فَالْقَالِيَاتُ ذِكْرًا» قال: الملائكة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وعكرمة مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عنه أنه كان يقرأ «لَا يَسْمَعُونَ إِلَى اللَّامِ الْأَعْلَى» مخففة، وقال: إنهم كانوا يتسمعون، ولكن لا يسمعون. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: «عَذَابٌ وَأَصِيبٌ» قال: دائم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عنه أيضاً إذا رمي الشهاب لم يخط من رمي به، وتلا «فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً «فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ» قال: لا يقتلون بالشهاب، ولا يموتون، ولكنها تحرق وتخبل وتجرح في غير قتل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «مَنْ طَلَى لَازِبًا» قال: ملصق. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً «مَنْ طَلَى لَازِبًا» قال: اللزج الجيد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: اللازب، والحما، والطين واحد: كان أوله تراباً، ثم صار حمأ منتناً، ثم صار طيناً لازباً، فخلق الله منه آدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: اللازب الذي يلصق بعضه إلى بعض. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود: أنه كان يقرأ «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ» بالرفع للثناء من عجبته.

وَقَالُوا يُؤْتِنَا هَذَا يَوْمَ الْآزِينِ ﴿١٥﴾ هَذَا يَوْمَ الْقَسَلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

تَكْذِبُونَ ﴿١٦﴾ لَنَحْشُرَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَازْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاقْدُوتُمْ إِلَى صِرَاطٍ لَجِيمٍ ﴿١٨﴾ وَوَقُفُّوا لِمَنْهُمْ نَسْتَوْفُونَ ﴿١٩﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَلْذِنُونَ ﴿٢١﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٣﴾ قَالُوا بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ وَمَا كَانْ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِفِينَ ﴿٢٥﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَلْآيِقُونَ ﴿٢٦﴾ فَاقْبَضْتَكُمْ إِلَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا ﴿٢٧﴾ فَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي الْمَنَاقِبِ مُتَّبِعُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْجَنَّةِيِّينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَيَقُولُوا إِنَّا تَأْكُفُنَا إِلَى الْيَمِينِ ﴿٣١﴾ بَلْ جَاءَهُمُ الْبَاقِي وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّكَ لَنذَائِقُهُ أَلْمَنَاقِبِ الْأَلِيمِ ﴿٣٣﴾ وَمَا نَعْبُدُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ نَعْبُدُونَ ﴿٣٤﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْأَخْلَاقِيَّةِ ﴿٣٥﴾ أُولَئِكَ هُمْ رَذَقُوا مَلَكُومَ ﴿٣٦﴾ فَوَزَكَا وَهُمْ مَكْرُومُونَ ﴿٣٧﴾ فِي جَنَّتِ الْجَنَّةِ عَلَى نُزُلٍ مُتْقَلِينَ ﴿٣٨﴾ يُلَاقُوا عَلَيْهِمْ بِكُأْسٍ مِنْ مَّوْبِينٍ ﴿٣٩﴾ بَيِّنَةً لَدُنَّا لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٠﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَكُونَ ﴿٤١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٢﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٣﴾

قوله: «وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا» أي: قال أولئك المبعوثون لما عاينوا البعث الذي كانوا يكدبون به في الدنيا: يا ويلنا، دعوا بالويل على أنفسهم. قال الزجاج: الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة، وقال الفراء: إن أصله يا وي لنا، ووي بمعنى: الحزن كانه قال: يا حزن لنا. قال النحاس: ولو كان كما قال لكان منفصلاً، وهو في المصحف متصل، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا متصلاً، وجملة «هَذَا يَوْمَ الدِّينِ» تعليل لدعائهم بالويل على أنفسهم، والدين الجزاء، فكانتهم قالوا: هذا اليوم الذي نجازى فيه بأعمالنا من الكفر، والتكذيب للرسول، فأجاب عليهم الملائكة بقولهم: «هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْنُبُونَ»، ويجوز أن يكون هذا من قول بعضهم لبعض، والفصل الحكم، والقضاء؛ لأنه يفصل فيه بين المحسن، والمسيء، وقوله: «لَنَحْشُرَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَازْوَاجَهُمْ» هو أمر من الله سبحانه للملائكة بأن يحشروا المشركين، وازواجهم، وهم: أشباههم في الشرك، والمتابعون لهم في الكفر، والمشايعة لهم في تكذيب الرسل، كذا قال قتادة، وأبو العالية. وقال الحسن، ومجاهد: المراد بازواجهم: نسأؤهم المشركات الموافقات لهم على الكفر، والظلم. وقال الضحاك: أزواجهم قرناؤهم من الشياطين يحشر كل كافر مع شيطانه، وبه قال مقاتل «وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ» من الأصنام، والشياطين، وهذا العموم المستفاد من ما الموصولة، فإنها عبارة عن المعبودين، لا عن العابدین كما قيل مخصوص، لأن من طوائف الكفار من عبد المسيح، ومنهم من عبد الملائكة، فيخرجون بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ أُولَئِكَ عَنْهَا مُعَذَّبُونَ» [الأنبياء: 101]، ووجه حشر الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل هو زيادة التبيكيت لعابديها، وتخجيلهم، وإظهار أنها لا تنفع، ولا تضر «فَاهْبُتْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ» أي: عرفوا هؤلاء

حتى ننقلكم عن الإيمان إلى الكفر بل كنتم من الأصل على الكفر، فاقمتم عليه ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ من تسلط بقهر، وغلبة حتى نخلكم في الإيمان، ونخرجكم من الكفر ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ﴾ أي: متجاوزين الحد في الكفر، والضلال، وقوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاقُونَ﴾ من قول المتبوعين أي: وجب علينا، وعليكم، ولزمنا قول ربنا، يعنون قوله تعالى: ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ وَمِمَّنْ تَبِعَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 85] إِنَّا لَذَاقُوا الْعَذَابَ أَي: إِنَّا جَمِيعًا لَذَاقُوا الْعَذَابَ الَّذِي وَرَدَ بِهِ الْوَعِيدُ. قَالَ الزَّجَّاجُ: أَي: إِنْ الْمَضَلَّ، وَالضَّلَّالَ فِي النَّارِ ﴿فَاغْوَيْنَاكُمْ﴾ أَي: أَضَلَّلْنَاكُمْ عَنِ الْهَدْيِ، وَدَعَوْنَاكُمْ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنَ الْغَيِّ، وَزَيْنَا لَكُمْ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ فَلَا عِتْبَ عَلَيْنَا فِي تَعَرُّضِنَا لِإِغْوَاكُمْ، لَأَنَّا أَرَدْنَا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَنَا فِي الْغَاوِيَةِ؛ وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَقْبَمْنَا عَلَى إِغْوَاكُمْ لَأَنَّا كُنَّا مُوصُوفِينَ فِي أَنْفُسِنَا بِالْغَاوِيَةِ، فَاقْرَؤُوا هَا هُنَا بِأَنَّهُمْ تَسَبَّبُوا لِإِغْوَاكُمْ، لَكِنْ لَا بِطَرِيقِ الْقَهْرِ، وَالْغَلْبَةِ، وَنَفَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ فِيمَا سَبَقَ أَنَّكُمْ قَهَرْتُمْ، وَغَلَبْتُمْ، فَقَالُوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنِ الْإِتِّبَاعِ، وَالْمَتَّبَعِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كَمَا كَانُوا مُشْتَرَكِينَ فِي الْغَاوِيَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أَي: إِنَّا نَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ الْفِعْلِ بِالْمُجْرِمِينَ أَي: أَهْلَ الْإِجْرَامِ، وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ كَمَا يَفِيدُهُ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَي: إِذَا قِيلَ لَهُمْ: قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ الْقَبُولِ، وَمَحَلَّ يَسْتَكْبِرُونَ النَّصَبَ عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ كَانٍ، أَوْ الرِّفْعَ عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ إِنْ، وَكَانَ مَلْفَاةً ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارُكُوا آلِهَتُنَا لَشَاعِرٌ مَجْنُونٌ﴾ يَعْنُونَ: النَّبِيُّ ﷺ أَي: لَقَوْلِ شَاعِرٍ مَجْنُونٍ، فَرَّدَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ الْمَشْتَمِلَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْوَعْدِ، وَالْوَعْدِ ﴿وَوَصَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أَي: صَدَّقَهُمْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَالْوَعْدِ، وَإِثْبَاتِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَلَمْ يَخَالِفْهُمْ، وَلَا جَاءَ بِشَيْءٍ لَمْ تَأْتِ بِهِ الرِّسَالُ قَبْلَهُ ﴿إِنَّكُمْ لَذَاقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أَي: إِنَّكُمْ بِسَبَبِ شُرُكِكُمْ، وَتَكْذِيبِكُمْ لَذَاقُوا الْعَذَابَ الشَّدِيدَ الْأَلِيمَ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ (لَذَاقُوا) بِحَذَفِ النُّونِ، وَخَفْضِ الْعَذَابِ، وَقَرَأَ أَبَانُ بْنُ ثَعْلَبٍ عَنْ عَاصِمٍ، وَأَبُو السَّمَاكِ بِحَذَفِهَا، وَنَصَبِ الْعَذَابِ، وَأَنْشَدَ سِيبَوِيهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ بِالْحَذَفِ لِلنُّونِ، وَالنَّصَبِ لِلْعَذَابِ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

فَالْفَيْتُهُ غَيْرُ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا ذَاكَرُهَا إِلَّا قَلِيلًا
وَأَجَازُ سِيبَوِيهِ أَيْضًا ﴿وَالْمَقِيمِي الصَّلَاةَ﴾ [الحج: 35]
بِنَصَبِ الصَّلَاةِ عَلَى هَذَا التَّوْجِيهِ. وَقَدْ قَرِئَ بِإِثْبَاتِ النُّونِ، وَنَصَبِ الْعَذَابِ عَلَى الْأَصْلِ. ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ: أَنَّ مَا ذَاقُوهُ مِنَ الْعَذَابِ لَيْسَ إِلَّا بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي: إِلَّا جَزَاءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْمَعَاصِي، أَوْ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. ثُمَّ اسْتَدْنَى الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾. قَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَالْكُوفَةِ

المحشورين طريق النار، وسوقهم إليها، يقال: هديته الطريق، وهديته إليها أي: دللته عليها، وفي هذا تهكم بهم ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ أَي: لَحْبِسُوهُمْ، يُقَالُ: وَقَفْتُ الدَّابَّةَ أَقْفَهَا وَقْفًا، وَقَفْتُ هِيَ وَقُوفًا يَتَعَدَّى، وَلَا يَتَعَدَّى، وَهَذَا الْحَبْسُ لَهُمْ يَكُونُ قَبْلَ السُّوقِ إِلَى جَهَنَّمَ أَي: وَقَفَّوهُمْ لِلْحِسَابِ، ثُمَّ سَوَّقُوهُمْ إِلَى النَّارِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَجُمْلَةُ ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْجُمْلَةِ الْأُولَى. قَالَ الْكَلْبِيُّ: أَي: مَسْئُولُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: عَنْ خَطَايَاهُمْ، وَقِيلَ: عَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَقِيلَ: عَنْ ظُلْمِ الْعِبَادِ، وَقِيلَ: هَذَا السُّؤَالُ هُوَ الْمَذْكُورُ بَعْدَ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أَي: أَيُّ شَيْءٍ لَكُمْ لَا يَنْصُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا تَوْبِيخٌ لَهُمْ، وَتَقْرِيعٌ وَتَهْكَمٌ بِهِمْ، وَأَصْلُهُ تَنَاصَرُونَ فَطَرَحَتْ إِحْدَى اللَّتَائِينَ تَخْفِيفًا. قَرَأَ الْجُمْهُورُ (إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) بِكَسْرِ الهمزة، وَقَرَأَ عِيسَى بْنُ عَمْرِو بْنِ قَتَادَةَ. قَالَ الْكَسَايُ: أَي: لَأَنَّهُمْ، أَوْ بِأَنَّهُمْ، وَقِيلَ: الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ إِلَى قَوْلِ أَبِي جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ [القدر: 44]، ثُمَّ أَضْرَبَ سَبْحَانَهُ عَمَّا تَقَدَّمَ إِلَى بَيَانِ الْحَالَةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا هُنَاكَ، فَقَالَ: ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أَي: مُتَقَادُونَ لِعِزِّهِمْ عَنِ الْحِيلَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: مُسْتَسْلِمُونَ فِي عَذَابِ اللَّهِ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: مَلْقُونَ بِأَيْدِيهِمْ، يُقَالُ: اسْتَسْلِمَ لِلشَّيْءِ إِذَا انْقَادَ لَهُ وَخَضَعَ ﴿وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أَي: أَقْبِلْ بَعْضُ الْكُفَّارِ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قِيلَ: هُمُ الْإِتِّبَاعُ، وَالرُّؤْسَاءُ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُؤَالَ تَوْبِيخٍ وَتَقْرِيعٍ وَمَخَاصِمَةٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ قَوْلُ الْكُفَّارِ لِلْمُشَاطِطِينَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ قَوْلُ الْإِنْسِ لِلْجَنِّ، وَالْأَوَّلُ أَوَّلُ لِقَائِهِمْ. ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَنِ الْيَمِينِ﴾ أَي: كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الدُّنْيَا عَنِ الْيَمِينِ أَي: مِنْ جِهَةِ الْحَقِّ، وَالْيَمِينِ وَالطَّاعَةِ، وَتَصَدَّقْنَا بِهَا. قَالَ الزَّجَّاجُ: كُنْتُمْ تَقُولُونَ أَنَّ قَبْلَ الدِّينِ، فَتَرَوْنَا أَنَّ الدِّينَ، وَالْحَقَّ مَا تَضَلُّوْنَا بِهِ، وَالْيَمِينِ عِبَارَةٌ عَنِ الْحَقِّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿ثُمَّ لَا تَنبِتُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأعراف: 17] قَالَ الْوَالِاحِدِيُّ: قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: إِنَّ الرُّؤْسَاءَ كَانُوا قَدْ حَلَفُوا لَهُؤُلَاءِ الْإِتِّبَاعِ أَنْ مَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، فَوَثَّقُوا بِأَيْمَانِهِمْ؛ فَمَعْنَى ﴿تَقُولُونَ عَنِ الْيَمِينِ﴾ أَي: مِنْ نَاحِيَةِ الْإِيمَانِ الَّتِي كُنْتُمْ تَحْلِفُونَهَا، فَوَثَّقْنَا بِهَا. قَالَ: وَالْمُفَسِّرُونَ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: تَقُولُونَ عَنِ الْيَمِينِ الَّتِي نَحْبِئُهَا، وَنَتَفَاءَلُ بِهَا؛ لِتَغْرِؤْنَا بِذَلِكَ عَنْ جِهَةِ النَّصِيحِ، وَالْعَرَبُ تَتَفَاءَلُ بِمَا جَاءَ عَنِ الْيَمِينِ، وَتُسَمِّيهِ السَّانِحَ. وَقِيلَ: الْيَمِينُ بِمَعْنَى: الْقُوَّةُ؛ أَي: تَمْنَعُونَنَا بِقُوَّةٍ، وَغَلْبَةٍ، وَقَهْرٍ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفافات: 93] أَي: بِالْقُوَّةِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَانِفَةٌ جَوَابُ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، وَكَذَلِكَ جُمْلَةُ ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنَّهَا مُسْتَانِفَةٌ جَوَابُ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ؛ وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ قَالَ الرُّؤْسَاءُ، أَوْ الشَّيَاطِينُ لَهُؤُلَاءِ الْقَائِلِينَ: كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَنِ الْيَمِينِ بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَلَمْ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ قَطُّ

اللبن له لذة لنيذة، يقال: شراب لذّ، ولذيذ كما يقال: نبات غَضّ وغضيض، ومنه قول الشاعر:

بحديثها للذّ الذي لو كلمت أسد الفلاة به أتيت سرعاً
واللذيذ: كل شيء مستطاب، وقيل: البياض هي: التي لم
يعتصرها الرجال. ثم وصف هذه الكأس من الخمر بغير ما
يتصف به خمر الدنيا، فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال
عقولهم، فتذهب بها، ولا يصيبهم منها مرض، ولا صداع
﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ أي: يسكرون يقال: نزف الشارب،
فهو منزوف، ونزيف إذا سكر، ومنه قول امرئ القيس:
وإذا هي تمشي كمشي النزيه ف يصصره بالكثيب البهر
وقال أيضاً:

نزيف إذا قامت لوجه تمايلت

ومنه قول الآخر:

فلثمت فاهاً أخذاً بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
قال الفراء: العرب تقول: ليس فيها غيلة، وغائلة، وغول
سواء. وقال أبو عبيدة: الغول أن تغتال عقولهم، وأنشد قول
مطيع بن إياس:

وما زالت للكأس تغتالهم وتذهب بالأول الأول
وقال الواحدي: الغول حقيقته الإهلاك، يقال: غاله غولاً،
واغتاله أي: أهلكه، والغول كل ما اغتالك أي: أهلكك. قرأ
الجمهور (ينزفون) بضم الياء، وفتح الزاي مبنياً للمفعول.
وقرأ حمزة، والكسائي بضم الياء، وكسر الزاي من أنزف
الرجل: إذا ذهب عقله من السكر فهو: نزيف، ومنزوف،
ومنزف، يقال: أحصد الزرع: إذا حان حصاده، وأقطف الكرم:
إذا حان قطافه. قال الفراء: من كسر الزاي، فله معنيان، يقال:
أنزف الرجل: إذا فنيته خمره، وأنزف: إذا ذهب عقله من
السكر، وتحمل هذه القراءة على معنى: لا ينفذ شرايهم
لزيادة الفائدة. قال النحاس: والقراءة الأولى أبين، وأصح في
المعنى، لأن معنى لا ينزفون عند جمهور المفسرين: لا
تذهب عقولهم، فنفي الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات
التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداع، والسكر. وقال
الزجاج، وأبو علي الفارسي: معنى لا ينزفون بكسر الزاي: لا
يسكرون. قال المهدوي: لا يكون معنى ينزفون: يسكرون،
لأن قبله ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم، فيكون
تكريراً، وهذا يقوّي ما قاله قتادة: إن الغول وجع البطن، وكذا
روى ابن أبي نجيع عن مجاهد. وقال الحسن: إن الغول
الصداع. وقال ابن كيسان: هو: المغص، فيكون معنى الآية:
لا فيها نوع من أنواع الفساد المصاحبة لشرب الخمر في
الدنيا من مغص، أو وجع بطن، أو صداع، أو عريضة، أو لغو،
أو تأثيم، ولا هم يسكرون منها. ويؤيد هذا أن أصل الغول
الفساد الذي يلحق في خفاء، يقال: اغتاله اغتيالاً: إذا فسد
عليه أمره في خفية، ومنه الغول، والغيلة القتل خفية. وقرأ
ابن أبي إسحاق (ينزفون) بفتح الياء، وكسر الزاي. وقرأ
طلحة بن مصرف بفتح الياء بضم الزاي. ولما نكر سبحانه
صفة مشروبهم ذكر عقبه صفة منكرهم، فقال: ﴿وَعَنْدَهُمْ

(المخلصين) بفتح اللام أي: الذين أخلصهم الله لطاعته،
وتوحيده. وقرأ الباقون بكسرها أي: الذين أخلصوا الله
العبادة، والتوحيد، والاستثناء إما متصل على تقدير تعميم
الخطاب في تجزؤ لجميع المكلفين. أو منقطع أي: لكن عباد
الله المخلصين لا يذوقون العذاب، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾
إلى المخلصين، وهو: مبتدأ، وخبره قوله: ﴿لَهُمْ رِزْقٌ
مَعْلُومٌ﴾ أي: لهؤلاء المخلصين رزق يرزقهم الله إياه معلوم
في حسنه، وطيبه، وعدم انقطاعه. قال قتادة: يعني: الجنة،
وقيل: معلوم الوقت، وهو أن يعطوا منه بكرة، وعشية كما
في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيَةً﴾ [مريم: 62]
وقيل: هو المذكور في قوله بعده: ﴿فَوَاكِهِ﴾ فإنه بدل من
رزق، أو خبر مبتدأ محذوف أي: هو فواكه، وهذا هو الظاهر.
والفواكه جمع الفاكهة، وهي: الثمار كلها رطيبها، ويابسها،
وخصص الفواكه بالذكر: لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه
كذا قيل. والأولى أن يقال: إن تخصيصها بالذكر: لأنها أطيب
ما ياكلونه، والذّ ما تشتهيهم أنفسهم. وقيل: إن الفواكه من
اتباع سائر الأطعمة، فنذكرها يغني عن ذكر غيرها، وجملة
﴿وَهُمْ مَكْرُمُونَ﴾ في محل نصب على الحال أي: ولهم من
الله عز وجل إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده، وسماع
كلامه، ولقائه في الجنة. قرأ الجمهور (مكرمون) بتخفيف
الراء. وقرأ أبو مقسم بتشديدها، وقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ
لِّلْعِزِّ﴾ يجوز أن يتعلق بمكرمون، وأن يكون خبراً ثانياً،
وأن يكون حالاً، وقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ يحتمل أن يكون حالاً،
وأن يكون خبراً ثالثاً، وانتصاب ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ على الحالية
من الضمير في مكرمون، أو من الضمير في متعلق على
سُرر. قال عكرمة، ومجاهد: معنى التقابل: أنه لا ينظر
بعضهم في قفا بعض، وقيل: إنها تنور بهم الأسرة كيف
شاءوا، فلا يرى بعضهم قفا بعض. قرأ الجمهور (سرد)
بضم الراء. وقرأ أبو السماك بفتحها، وهي لغة بعض تميم.
ثم نكر سبحانه صفة أخرى لهم، فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ
بِكَاسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة
جواباً عن سؤال مقدّر، ويجوز أن تكون في محل نصب على
الحال من ضمير متقابلين، والكأس عند أهل اللغة اسم
شامل لكل إناء فيه الشراب، فإن كان فارغاً، فليس بكأس.
وقال الضحاك، والسدي: كل كأس في القرآن، فهي الخمر.
قال النحاس: وحكى من يوثق به من أهل اللغة: أن العرب
تقول للقدح إذا كان فيه خمر: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر،
فهو قدح كما يقال للخزان إذا كان عليه طعام: مائدة، فإذا لم
يكن عليه طعام: لم يقل له مائدة، ومن معين متعلق بمحذوف
هو: صفة لكأس. قال الزجاج: بكاس من معين أي: من خمر
تجري كما تجري العيون على وجه الأرض. والمعين الماء
الجاري، وقوله: ﴿بَيَاضاً لِّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ صفتان لكأس.
قال الزجاج: أي: ذات لذة، فحذف المضاف، ويجوز أن يكون
الوصف بالمصدر لقصد المبالغة في كونها لذة، فلا يحتاج
إلى تقدير المضاف. قال الحسن: خمر الجنة أشدّ بياضاً من

والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً معه يوم القيامة لازماً به لا يفارقه، وإن دعا رجل رجلاً، ثم قرأ ﴿وَقَوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَقْبِلْ بِعَظْمِهِمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال: ذلك إذا بعثوا في النفخة الثانية. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عنه في قوله: ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ قال: كانوا إذا لم يشرك بالله يستنكفون، ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَنا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ لا يعقل، قال: فحكى الله صيقه، فقال: ﴿بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَلَّى الْمُرْسَلِينَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله». وأنزل الله في كتابه، وذكر قوماً استكبروا، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقال: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: 26] وهي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» استكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿يُنَافِقُ عَلَيْهِمْ بَكَاسٌ مِنْ مَعِينٍ﴾ قال: الخمر «ولا فيها غول» قال: ليس فيها صداع «ولا هم عنها ينزفون» قال: لا تذهب عقولهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فنزله الله خمر الجنة عنها، فقال: ﴿ولا فيها غول﴾ لا تغول عقولهم من السكر «ولا هم عنها ينزفون» قال: يقيثون عنها كما يقيء صاحب خمر الدنيا عنها. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس «ولا فيها غول» قال: هي الخمر ليس فيها وجع بطن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عنه أيضاً في قوله: ﴿وَعندهم قاصرات الطرف﴾ يقول: من غير أزواجهن «كانهن بيض مكنون» قال: للؤلؤ المكنون. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿كانهن بيض مكنون﴾ قال: بياض البيضة ينزع عنها فوفها، وغشاؤها.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٧﴾ يَقُولُ أَهَؤُلَاءِ كُنِ الْمَرْبُوبِينَ ﴿٥٨﴾ أَوَلَمْ نَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْزَلْنَاهُ رِزْقًا وَأَعْلَمْنَا مَنْ لَمْ تَكُونُوا لَهُمْ عَالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطِيعُونَ ﴿٦٠﴾ فَأَطَعَتْ قَرْأَةٌ فِي سَوَاءِ الْخَبِيرِ ﴿٦١﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لَأَتَّيِبَنَّ ﴿٦٢﴾ وَلَوْ لَا يَسْمَعُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْخَضِرِينَ ﴿٦٣﴾ أَمَّا عَنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٤﴾ إِلَّا مَرَّتَنَا الْأَوَّلَىٰ وَبِمَا كُنَّا بِمَعْدَيْنِ ﴿٦٥﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ أَفْرَزَ الْقَطِمْ ﴿٦٦﴾ لِيُنْزِلَ هُنَا قَلِيلًا مِنَ الْمَمْلُوكِ ﴿٦٧﴾ أَوَلَيْكَ عِزٌّ تُزَلَا أَمْ

قاصرات الطرف﴾ أي: نساء قصصن طرفهن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم، والقصر معناه الحبس، ومنه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لودب محول من النذر فوق الأتب منها لأثرا والمحول الصغير من النذر، والأتب القميص، وقيل: القاصرات: المحبوسات على أزواجهن، والأول أولى؛ لأنه قال: قاصرات الطرف. ولم يقل: مقصورات. والعين عظام العيون جمع عيناء، وهي: الواسعة العين. قال الزجاج: معنى «عين» كبار الأعين حسناها. وقال مجاهد: العين حسان العيون. وقال الحسن: هن: الشديديات بياض العين الشديديات سوادها. والأول أولى «كانهن بيض مكنون» قال الحسن، وأبو زيد: شبههن ببيض النعام تكتمها النعامة بالريش من الريح، والغبار. فلوته أبيض في صفرة، وهو أحسن ألوان النساء. وقال سعيد بن جبير، والسدي: شبههن ببطن البيض قبل أن يقشر، وتمسه الأيدي، وبه قال ابن جرير، ومنه قول امرئ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خباثتها تمتعت من لهو بها غير معجل قال المبرد: وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن، والنظافة كأنه بيض النعام المغطى بالريش. وقيل: المكنون: المصون عن الكسر أي: إنهن عذاري. وقيل: المراد بالبيض اللؤلؤ كما في قوله: ﴿وحوير عين﴾ * كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ [الواقعة: 22، 23] ومثله قول الشاعر:

وهي بيضاء مثل لؤلؤة الغواص ميزات من جوهر مكنون والأول أولى، وإنما قال: مكنون، ولم يقل: مكنونات؛ لأنه وصف البيض باعتبار اللفظ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ قال: تقول الملائكة للزبانية هذا القول. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وابن منيع في مسنده، وعبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث من طريق النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ قال: أمثالهم الذين هم مثلهم: يجيء أصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج في الجنة، وأزواج في النار. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله:

﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ قال: أشباههم، وفي لفظ: نظراءهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿فأهبطوهم إلى صراط الجحيم﴾ قال: وجهوهم، وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: دلوهم «إلى صراط الجحيم» قال: طريق النار. وأخرج عنه أيضاً في قوله: ﴿وَقَوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ قال: أحبسوهم إنهم محاسبون. وأخرج البخاري في تاريخه، والدارمي،

صار يحدث أصحابه في الجنة بما قال له قرينه في الدنيا، فرأى قرينه في وسط الجحيم. قال الزجاج: سواء كل شيء وسطه. قرأ الجمهور (مطلعون) بتشديد الطاء مفتوحة، ويفتح النون، فاطلع ماضياً مبنياً للفاعل من الطلوع. وقرأ ابن عباس، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو مطلعون بسكون الطاء، وفتح النون (فاطلع) بقطع الهمزة مضمومة، وكسر اللام ماضياً مبنياً للمفعول. قال النحاس: فاطلع فيه قولان على هذه القراءة أحدهما: أن يكون فعلاً مستقبلاً أي: فاطلع أنا، ويكون منصوباً على أنه جواب الاستفهام، والقول الثاني: أن يكون فعلاً ماضياً، وقرأ حماد بن أبي عمار (مطلعون) بتخفيف الطاء، وكسر النون، فاطلع مبنياً للمفعول، وأنكر هذه القراءة أبو حاتم، وغيره. قال النحاس: هي: لحن، لأنه لا يجوز الجمع بين النون، والإضافة، ولو كان مضافاً لقال: هل أنتم مطلعي، وإن كان سيبويه، والفراء قد حكيا مثله، وأنشدا:

هم القائلون الخير والأمرونه إذا ما خشوا من محدث الدهر معظما
ولكنه شاذ خارج عن كلام العرب ﴿قال تالله إن كنت لترين﴾ أي: قال ذلك الذي من أهل الجنة لما أطلع على قرينه، ورآه في النار: تالله إن كنت لترين أي: لتهلكني بالإغواء. قال الكسائي: لترين لتهلكني، والردي الهلاك. قال المبرد: لو قيل: لتردين لتوقعني في النار لكان جائزاً. قال مقاتل: المعنى: والله لقد كنت أن تغويني، فأنزل منزلتك، والمعنى متقارب، فمن أغوى إنساناً، فقد أهلكه ﴿ولو لا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾ أي: لو لا رحمة ربي، وإنعامه عليّ بالإسلام، وهديتي إلى الحق، وعصمتي عن الضلال لكنت من المحضرين معك في النار. قال الفراء: أي: لكنت معك في النار محضراً. قال الماوردي: وأحضر لا يستعمل إلا في الشر. ولما تم كلامه مع ذلك القرين الذي هو في النار عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة، فقال: ﴿أفما نحن بميتين﴾، والهمزة للاستفهام التقريري، وفيها معنى: التعجب، والفاء للعطف على محذوف كما في نظائره أي: نحن مخلدون منعمون، فما نحن بميتين ﴿إلا موتنا الأولى﴾ التي كانت في الدنيا، وقوله هذا كان على طريقة الابتهاج، والسرور بما أنعم الله عليهم من نعيم الجنة الذي لا ينقطع، وأنهم مخلدون لا يموتون أبداً، وقوله: ﴿وما نحن بمعنيين﴾ هو من تمام كلامه أي: وما نحن بمعنيين كما يعذب الكفار. ثم قال مشيراً إلى ما هم فيه من النعيم: ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ أي: إن هذا الأمر العظيم، والنعيم المقيم، والخلود الدائم الذي نحن فيه لهو الفوز العظيم الذي لا يقارن قدره، ولا يمكن الإحاطة بوصفه، وقوله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ من تمام كلامه أي: لمثل هذا العطاء، والفضل العظيم، فليعمل العاملون، فإن هذه هي التجارة الربحية، لا العمل للدنيا الزائلة، فإنها صفقة خاسرة نعيمها منقطع، وخيرها زائل، وصاحبها عن قريب منها راحل. وقيل: إن هذا من قول الله سبحانه، وقيل: من قول الملائكة، والأول

سَجَرَةُ الزَّوْمِ ﴿١٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا نَشْئَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّهَا سَجَرَةٌ تُزْمَجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ طَلْحُهَا كَأَنَّ رُؤُوسَ الشَّجَرِينَ ﴿٢٠﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِيهَا فَأَلَوْنَ مَنَّا الْبُطُونَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَكَ بَيْنَ حَيْمٍ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجَمَهُمْ لِأَيِّ الْمَجِيمِ ﴿٢٣﴾ إِنَّهُمْ أَلَوْا عَابَةَ مُرْسَالَيْنِ ﴿٢٤﴾ فَهُمْ عَلَى مَتَرٍ مَّزْمُونٍ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذِيرِينَ ﴿٢٧﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذِيرِينَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٩﴾

قوله: ﴿فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ معطوف على يطاف أي: يسال هذا ذاك، وذاك هذا حال شربهم عن أحوالهم التي كانت في الدنيا، وذلك من تمام نعيم الجنة، والتقدير: فيقبل بعضهم على بعض، وإنما عبر عنه بالماضي للدلالة على تحقق وقوعه ﴿قال قائل منهم﴾ أي: قال قائل من أهل الجنة في حال إقبال بعضهم على بعض بالحديث، وسؤال بعضهم لبعض ﴿إني كان لي قرين﴾ أي: صاحب ملازم لي في الدنيا كافر بالبعث منكر له كما يدل عليه قوله: ﴿إنك لمن المصنفين﴾ يعني: بالبعث، والجزاء، وهذا الاستفهام من القرين لتوبيخ ذلك المؤمن، وتبكيته بإيمانه، وتصديقه بما وعد الله به من البعث، وكان هذا القول منه في الدنيا. ثم ذكر ما يدل على الاستبعاد للبعث عنده، وفي زعمه، فقال: ﴿عإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً﴾ أي: مجزيون بأعمالنا، ومحاسبون بها بعد أن صرنا تراباً، وعظاماً، وقيل: معنى مدينون: مسوسون، يقال دانه: إذا ساسه. قال سعيد بن جبير: قرينه شريكه، وقيل: أراد بالقرين الشيطان الذي يقارنه، وأنه كان يوسوس إليه بإنكار البعث، وقد مضى نكر قصتهما في سورة الكهف، والاختلاف في اسميهما، قرأ الجمهور (لمن المصنفين) بتخفيف الصاد من التصديق أي: لمن المصنفين بالبعث، وقرأ بتشديدها، ولا أدري من قرأ بها، ومعناها بعيد؛ لأنها من التصنق لا من التصديق، ويمكن تأويلها بأنه أنكر عليه التصنق بماله لطلب الثواب، وعلل ذلك باستبعاد البعث.

وقد اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة، فقرأ نافع الأولى، والثانية بالاستفهام بهمزة، والثالثة بكسر الألف من غير استفهام، ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين، وابن عامر الأولى، والثالثة بهمزتين، والثانية بكسر الألف من غير استفهام، والباقيون بالاستفهام في جميعها. ثم اختلفوا، فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة، وبعده ساكنة خفيفة، وأبو عمرو مطولة، وعاصم، وحمزة بهمزتين ﴿قال هل أنتم مطلعون﴾ القائل هو المؤمن الذي في الجنة بعد ما حكى جلسائه فيها ما قاله له قرينه في الدنيا أي: هل أنتم مطلعون إلى أهل النار؛ لأريكم ذلك القرين الذي قال لي تلك المقالة كيف منزلته في النار؟ قال ابن الأعرابي: والاستفهام هو: بمعنى الأمر أي: اطلعوا، وقيل القائل: هو الله سبحانه، وقيل: الملائكة، والأول أولى ﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم﴾ أي: فاطلع على النار ذلك المؤمن الذي

أولى. قرأ الجمهور (بميتين)، وقرأ زيد بن علي (بمايتين)، وانتصاب إلا موتتنا على المصدرية، والاستثناء مفرغ، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً. أي: لكن الموتة الأولى التي كانت في الدنيا ﴿أفلك خير نزلًا أم شجرة الزقوم﴾ الإشارة بقوله ذلك إلى ما ذكره من نعيم الجنة، وهو: مبتدأ، وخبره خير، ونزلًا تمييز، والنزل في اللغة الرزق الذي يصلح أن ينزلوا معه، ويقوموا فيه، والخيرية بالنسبة إلى ما اختاره الكفار على غيره. قال الزجاج: المعنى: أفلك خير في باب الإنزال التي يبقون بها نزلًا، أم نزل أهل النار، وهو قوله: ﴿إم شجرة الزقوم﴾، وهو ما يكره تناوله قال الواحدي: وهو شيء مكره يكره أهل النار على تناوله، فهم يتزقموه، وهي على هذا مشتقة من التزقم، وهو البلع على جهد لكرهاتها، وتنتها. واختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي يعرفها العرب أم لا على قولين: أحدهما: أنها معروفة من شجر الدنيا؛ فقال قطرب: إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر. وقال غيره: بل هو كل نبات قاتل. القول الثاني: أنها غير معروفة في شجر الدنيا. قال قتادة: لما ذكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة، فقالوا: كيف تكون في النار شجرة. فأنزل الله تعالى: ﴿إنا جعلناها فتنه للظالمين﴾ قال الزجاج: حين افتتنوا بها، وكنوا بوجودها. وقيل: معنى جعلها فتنه لهم: أنها محنة لهم لكونهم يعذبون بها، والمراد بالظالمين هنا: الكفار، أو أهل المعاصي الموجبة للنار، ثم بين سبحانه أوصاف هذه الشجرة ردًا على منكرها، فقال: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ أي: في قعرها، قال الحسن: أصلها في قعر جهنم، وأغصانها ترفع إلى دركاتهما، ثم قال: ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ أي: ثمرها، وما تحمله كأنه في تنامي قبجه، وشناعة منظره رؤوس الشياطين، فشبّه المحسوس بالمتخيل، وإن كان غير مرئي للدلالة على أنه غاية في القبح كما تقول في تشبيه من يستقبحونه: كأنه شيطان، وفي تشبيه من يستحسنونه: كأنه ملك، كما في قوله: ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾ [يوسف: 31]، ومنه قول امرئ القيس:

أيقنلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كانياب اغوال

وقال الزجاج، والفراء: الشياطين حيات لها رؤوس، وأعراف، وهي من أبقح الحيات، وأخبثها، وأخفها جسمًا. وقيل: إن رؤوس الشياطين اسم لئب قبيح معروف باليمن يقال له: الأسن، ويقال له: الشيطان. قال النحاس: وليس ذلك معروفًا عند العرب. وقيل: هو شجر خشن منتن ممر منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين ﴿فإنهم لاكلون منها﴾ أي: من الشجرة، أو من طلعها، والتأنيث لاكتساب الطلع التأنيث من إضافته إلى الشجرة ﴿فمائلون منها للبطون﴾ وذلك أنهم يكرهون على أكلها حتى تمتلئ بطونهم، فهذا طعامهم، وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة ﴿ثم إن لهم عليها﴾ بعد الأكل منها ﴿لشوباً من حميم﴾

الشوب الخلط. قال الفراء: يقال: شاب طعامه، وشرابه: إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوباً وشيابة، والحميم الماء الحار. فآخبر سبحانه: أنه يشاب لهم طعامهم من تلك الشجرة بالماء الحار، ليكون أقطع لعذابهم، وأشنع لحالهم كما في قوله: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ [محمد: 15] قرأ الجمهور (شوباً) بفتح الشين، وهو: مصدر، وقرأ شيبان النحوي بالضم. قال الزجاج: المفتوح مصدر، والمضموم اسم بمعنى: المشوب، كالنقص بمعنى: المنقوص ﴿ثم إن مرجعهم إلى الجحيم﴾ أي: مرجعهم بعد شرب الحميم، وكل الرقوم إلى الجحيم، وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه، وهو خارج الجحيم كما تورد الإبل، ثم يردون إلى الجحيم كما في قوله سبحانه: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن: 44]. وقيل: إن الرقوم، والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولها. قال أبو عبيدة: ثم بمعنى: الواو، وقرأ ابن مسعود (ثم إن مقيلهم لا إلى الجحيم)، وجملة ﴿إنهم الفوا﴾ أي: وجدوا ﴿آباءهم ضالين﴾ تعليل لاستحقاقهم ما تقدم ذكره أي: صافوهم كذلك، فاقتنوا بهم تقليداً، وضلالة لا لحجة أصلاً ﴿فهم على آثارهم يهرعون﴾ الإهرع الإسراع. قال الفراء: الإهرع الإسراع برعدة. وقال أبو عبيدة: يهرعون: يستحثون من خلفهم، يقال: جاء فلان يهرع إلى النار: إذا استحثه البرد إليها. وقال المفضل يزجعون من شدة الإسراع. قال الزجاج: هرع، وأهرع: إذا استحث، وانزعج، والمعنى: يتبعون آباءهم في سرعة كأنهم يزجعون إلى اتباع آباءهم ﴿ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين﴾ أي: ضل قبل هؤلاء المنكوريين أكثر الأولين من الأمم الماضية ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين﴾ أي: أرسلنا في هؤلاء الأولين رسلاً أنذروهم العذاب، وبينوا لهم الحق، فلم ينجع ذلك فيهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ أي: الذين أنذرهم الرسل، فإنهم صاروا إلى النار. قال مقاتل: يقول: كان عاقبتهم العذاب، يحذر كفار مكة، ثم استثنى عباده المؤمنين، فقال: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي: إلا من أخلصهم الله بتوفيقهم إلى الإيمان، والتوحيد، وقرئ (المخلصين) بكسر اللام أي: الذين أخلصوا لله طاعاتهم، ولم يشوبوها بشيء مما يغيرها.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: ﴿فاطلع فرأه في سواء الجحيم﴾ قال: اطلع، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: لقد رأيت جماجم القوم تغلي. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: قول الله لأهل الجنة: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾ [الطور: 19، والمرسلات: 43] قال هنيئاً أي: لا تموتون فيها، فعند ذلك قالوا: ﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعنيين * إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ قال: هذا قول الله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾. وأخرج ابن مريويه عن البراء بن عازب قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ يده في يدي، فرأى جنازة فأسرع المشي حتى أتى

إِزْهِيهِ ۖ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَنَجْزِيهِمْ بِإِسْحَاقَ يَحْيَىٰ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٨﴾ وَنَرْكَبُهُ عَلَىٰ وَهَجٍ وَإِسْحَاقَ وَنَجْزِيهِمَا حَسَنًا وَطَالِمًا لِّقَوْلِهِمْ هُيُوتَ ﴿٦٩﴾

لما نكر سبحانه أنه أرسل في الأمم الماضية منذرين: نكر تفصيل بعض ما أجمله، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ واللام هي: الموطئة للقسم، وكذا اللام في قوله: ﴿فَلَنُعْطِيَنَّ الْمُجِيبِينَ﴾ أي: نحن، والمراد أن نوحاً دعا ربه على قومه لما عصوه، فأجاب الله دعاءه، وأهلك قومه بالطوفان. فالنداء هنا هو: نداء الدعاء لله، والاستغاثة به، كقوله: ﴿وَرَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دِيَاراً﴾ [نوح: 26]، وقوله: ﴿إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: 10] قال الكسائي أي: فلنُعْطِيَنَّ المجيبون له كنا ﴿وَنَجْزِيَهُنَّ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ المراد بأهله: أهل دينه، وهم من آمن معه، وكانوا ثمانين، والكرْب العظيم هو: الفرق، وقيل: تكذيب قومه له، وما يصدر منهم إليه من أنواع الأذايا ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ وحدهم دون غيرهم كما يشعر به ضمير الفصل، وذلك لأن الله أهلك الكفرة بدعائه، ولم يبق منهم باقية، ومن كان معه في السفينة من المؤمنين ماتوا كما قيل، ولم يبق إلا أولاده. قال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح ثلاثة، والناس كلهم من ولد نوح، فسام أبو العرب، وفارس، والروم، واليهود، والنصارى. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند، والهند، والذئب، والزنج، والحبشة، والقط، والبربر وغيرهم. ويافث أبو الصقال، والترك، والخزر، وياجوج، وماجوج وغيرهم. وقيل: إنه كان لمن مع نوح ذرية كما يدل عليه قوله: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 3]، وقوله: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمْسَهُمْ مِنْ آعَابِ الْيَمِّ﴾ [هود: 48]، فيكون على هذا معنى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، وذُرِّيَّتَهُ وَذُرِّيَّةً مِنْ مَعَهُ دُونَ ذُرِّيَّةٍ مِنْ كُفْرٍ، فإن الله أغرقهم، فلم يبق لهم ذُرِّيَّةٌ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ يعني: في الذين ياتون بعده إلى يوم القيامة من الأمم، والمترك هذا هو قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ أي: تركنا هذا الكلام بعينه، وارتقاعه على الحكاية، والسلام هو: الثناء الحسن أي: يشنون عليه ثناءً حسناً، ويدعون له، ويترحمون عليه. قال الزجاج: تركنا عليه الذكر الجميل إلى يوم القيامة، وذلك الذكر هو قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾. قال الكسائي: في ارتفاع سلام، وجهان: أحدهما وتركنا عليه في الآخرين يقال: سلام على نوح. والوجه الثاني أن يكون المعنى: وأبقينا عليه، وتم الكلام، ثم ابتداء، فقال: سلام على نوح أي: سلامة له من أن ينكر بسوء في الآخرين. قال المبرد: أي: تركنا عليه هذه الكلمة باقية يعني: يسلمون عليه تسليمًا، ويدعون له، وهو من الكلام المحكي كقوله: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾ [النور: 1]، وقيل: إنه ضمن تركنا معنى: قلنا، قال الكوفيون: جملة سلام على نوح في العالمين في محل نصب مفعول تركنا، لانه

القبر، ثم جثى على ركبتيه، فجعل يبكي حتى بلّ الثرى، ثم قال: ﴿لَمَثَلٌ هَذَا فليعمل العاملون﴾. وأخرج ابن مريويه عن أنس قال: «دخلت مع النبي ﷺ على مريض يجود بنفسه، فقال: ﴿لَمَثَلٌ هَذَا فليعمل العاملون﴾». وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: «مر أبو جهل برسول الله ﷺ، وهو جالس، فلما بعد قال رسول الله ﷺ: ﴿أولى لك فالولى﴾ ثم أولى لك فالولى» [القيامة: 34، 35]، فلما سمع أبو جهل قال: من توعد يا محمد؟ قال: إليك، قال: بما توعدني؟ قال: أوعدك بالعزیز الكريم، فقال أبو جهل: ليس أنا العزيز الكريم؟ فانزل الله: ﴿إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومُ﴾ طعام الأتيم [النخان: 43، 44] إلى قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [النخان: 49] فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه جمع أصحابه، فأخرج إليهم زبداً، وتمراً، فقال: ترتقوا من هذا، فوالله ما يتوعدكم محمد إلا بهذا، فانزل الله: ﴿إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنْ لَهِمْ عَلَيْهَا لِشُوبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال: لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لأفسدت على الناس معاشهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ثُمَّ إِنْ لَهِمْ عَلَيْهَا لِشُوبًا﴾ قال: لمزجاً. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: في قوله: ﴿لِشُوبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ يخالط طعامهم، ويشاب بالحميم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيط هؤلاء، ويقيل هؤلاء أهل الجنة، وأهل النار، وقرا: ﴿ثُمَّ إِنْ مَقِيلُهُمْ لِأَلَى الْجَحِيمِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُمْ أَفْوَآءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ قال: وجدوا آباءهم.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٦٦﴾ وَنَجْزِيَهُمْ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٦٧﴾ وَنَجْزِيهِمْ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٦٨﴾ وَنَرْكَبُهُ عَلَىٰ وَهَجٍ وَإِسْحَاقَ وَنَجْزِيهِمْ بِإِسْحَاقَ يَحْيَىٰ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٩﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٠﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٧١﴾ وَكَانَ مِنْ شِيعَتِهِ لُوطُ بْنُ هَارِثٍ ﴿٧٢﴾ إِذْ جَاءَهُ بِقُلُوبِ سُلَيْمٍ ﴿٧٣﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَبِكَا إِلَهِتُمْ دُونَ اللَّهِ تَرْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ فَمَا عَلَيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ فَظَنَرَ ظَنْرَةً فِي الْخُبْرِ ﴿٧٧﴾ فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ قَوْلَهُمْ عَنْ ثَلَاثِينَ ﴿٧٨﴾ فَرَأَيْتُ إِلَهُ الْإِلَهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ مَا لَكُمْ لَا تَطِفُونَ ﴿٨٠﴾ فَرَأَيْتُ عَلَيْهِمْ تَرَابًا يَلْمِيزُ ﴿٨١﴾ فَأَتَيْنَا آلَ لُوطٍ بِرَبِّهِمْ ﴿٨٢﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُرُونَ ﴿٨٣﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا لَمْ يَكُنْ فَاكْفَرُوا فِي الْخُبْرِ ﴿٨٥﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْقَلِينَ ﴿٨٦﴾ وَقَالَ إِنِّي دَاوُدُ بْنُ رَبِّ سَبِّحِينَ ﴿٨٧﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾ فَنَجَّيْنَاهُ بِعُلْمٍ خَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ الْقِسْمَ قَالَ يَتَّبِعُنِي إِلَهِي فِي السَّجَادِ إِلَهِي أَذْهَبَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿٩٠﴾ قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمِرُ سَجْدَتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩١﴾ فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَكُنَّا لِلْجَنَّةِ لَاقِينَ ﴿٩٢﴾ وَتَدْنِيهِ أَنْ يَتَّيْبِعَهُ قَدْ سَدَّتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ إِنَّكَ هَذَا كَوْنُ الْبَلَاءِ الْيُسْرِ ﴿٩٤﴾ وَنَجْزِيَهُ بِذَنْجٍ عَظِيمٍ ﴿٩٥﴾ وَنَرْكَبُهُ عَلَىٰ وَهَجٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٩٦﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ

بكم؟ وهو تحذير مثل قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6] وقيل: المعنى: أي شيء توهمتوه بالله حتى أشركتم به غيره ﴿فَنَنْظُرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فقال إني سقيم ﴿قال الواحدي: قال المفسرون: كانوا يتعاطون علم النجوم، فعاملهم بذلك لئلا يتكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكليدهم في أصنامهم؛ لئلا تهمم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه، وأراد أن يتخلف عنهم، فاعتلَّ بالسقم؛ وذلك أنهم كلفوه أن يخرج معهم إلى عيدهم، فنظر إلى النجوم يريهم أنه مستدلُّ بها على حاله، فلما نظر إليها قال: إني سقيم أي: سأسقم. وقال الحسن: إنهم لما كلفوه أن يخرج معهم تفكر فيما يعمل، فالمعنى على هذا: أنه نظر فيما نجم له من الرأي أي: فيما طلع له منه، فعلم أن كل شيء يسقم ﴿فَقَالَ إني سقيم﴾. قال الخليل، والمبرد: يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره، نظر في النجوم. وقيل: كانت الساعة التي دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة اعتاده فيها الحمى. وقال الضحاك: معنى: إني سقيم: سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب، ثم يموت، وهذا تورية، وتعرض كما قال للملك لما سأل عن سارة: هي أختي يعني: أخوة الدين. وقال سعيد بن جبيرة: أشار لهم إلى مرض يسقم، ويعدي، وهو: الطاعون، وكانوا يهربون من ذلك، ولهذا قال: ﴿فَقَتُلُوا عَنْهُ مَبْجَرِينَ﴾ أي: تركوه، وذهبوا مخافة العدوى ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ﴾ يقال: راغ يروغ روغاً، وروغاً: إذا مال، ومنه طريق راغ أي: مائل. ومنه قول الشاعر:

فيريك من طرف اللسان حلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب
وقال السدي: ذهب إليهم، وقال أبو مالك: جاء إليهم، وقال الكلبي: أقبل عليهم، والمعنى متقارب ﴿فَقَالَ أَلَا تَتَكَلَّوْنَ﴾ أي: فقال إبراهيم للأصنام التي راغ إليها استهزاء، وسخرية: ألا تكلون من الطعام الذي كانوا يصنعونه لها، وخاطبها كما يخاطب من يعقل، لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة. وكذا قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾، فإنه خاطبهم خطاب من يعقل، والاستفهام للتهمك بهم؛ لأنه قد علم أنها جمادات لا تنطق. قيل: إنهم تركوا عند أصنامهم طعامهم للتبرك بها، وليأكلوه إذا رجعوا من عيدهم. وقيل: تركوه للسنة. وقيل: إن إبراهيم هو الذي قرب إليها الطعام مستهزئاً بها ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي: فمال عليهم يضربهم ضرباً باليمين، فانتصابه على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف، أو هو مصدر لراغ، لأنه بمعنى: ضرب. قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: بيده اليمين يضربهم بها. وقال السدي: بالقوة، والقدر؛ لأن اليمين أقوى اليدين. قال الفراء، وثعلب: ضرباً بالقوة، واليمين القوة. وقال الضحاك، والربيع بن أنس: المراد باليمين: اليمين التي حلفها حين قال: ﴿وَتَاللَّكِينِ أَصْنَامُكُمْ﴾ [الأنبياء: 57] وقيل: المراد باليمين هنا: العدل كما في قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ * لاخذنا منه باليمين [الحاقة: 44، 45] أي: بالعدل، واليمين كناية عن

ضمن معنى قلنا. قال الكسائي: وفي قراءة ابن مسعود (سلاماً) منصوب بتركنا أي: تركنا عليه ثناءً حسناً، وقيل: المراد بالآخرين: أمة محمد ﷺ. وفي العالمين متعلق بما تعلق به الجار والمجرور الواقع خبراً، وهو على نوح أي: سلام ثابت، أو مستمر، أو مستقر على نوح في العالمين من الملائكة، والجن، والإنس، وهذا يدل على عدم اختصاص ذلك بأمة محمد ﷺ كما قيل: ﴿إِنَّا كُنَّا نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها من التكرمة لنوح بإجابة دعائه، وبقاء الثناء من الله عليه، وبقاء نريته أي: إنا كنَّا نَجْزِي من كان محسناً في أقواله، وأفعاله راسخاً في الإحسان معروفاً به، والكاف في كنَّا نعت مصدر محذوف أي: جزاء كنَّا الجزاء ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيان لكونه من المحسنين، وتعليل له بأنه كان عبداً مؤمناً مخلصاً لله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي: الكفرة الذين لم يؤمنوا بالله، ولا صنفوا نوحاً. ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم، وبَيَّنَّ أنه ممن شايح نوحاً، فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: من أهل دينه، ومن شايحه، ووافقه على الدعاء إلى الله، وإلى توحيدهِ، والإيمان به. قال مجاهد: أي: على منهجهِ، وسُنَّتِهِ. قال الأصمعي: الشيعة الأعوان، وهو مأخوذ من الشياخ، وهو الحطب الصغار الذي يوقد مع الكبار حتى يستوقد، وقال الفراء: المعنى: وإن من شيعة محمد لإبراهيم، فالهاء في شيعته على هذا لمحمد ﷺ، وكذا قال الكلبي. ولا يخفى ما في هذا من الضعف، والمخالفة للسياق. والظرف في قوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ منصوب بفعل محذوف أي: انكر، بما في الشيعة من معنى المتابعة. قال أبو حيان: لا يجوز؛ لأن فيه الفصل بين العامل، والمعمول بأجنبي، وهو: إبراهيم، والأولى أن يقال: إن لام الابتداء تمنع ما بعدها من العمل فيما قبلها، والقلب السليم المخلص من الشرك، والشك. وقيل: هو الناصح لله في خلقه، وقيل: الذي يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. ومعنى مجيئه إلى ربه يحتمل وجهين: أحدهما: عند دعائه إلى توحيدهِ، وطاعته. الثاني: عند إلقائه في النار. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ يدل من الجملة الأولى، أو ظرف لسليم، أو ظرف لجاء، والمعنى: وقت قال لأبيه أزر، وقومه من الكفار: أي شيء تعبدون ﴿ثَانِفًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ انتصاب إفكاً على أنه مفعول لأجله، وانتصاب آلهة على أنه مفعول تريدون، والتقدير: أتريدون آلهة من دون الله للإفك، ودون ظرف لتريدون، وتقديم هذه المعمولات للفعل عليه للاهتمام. وقيل: انتصاب إفكاً على أنه مفعول به لتريدون، وآلهة بدل منه، جعلها نفس الإفك مبالغة، وهذا أولى من الوجه الأول. وقيل: انتصابه على الحال من فاعل تريدون أي: أتريدون آلهة أفكين، أو ذوي إفك. قال المبرد: الإفك أسوأ الكذب، وهو الذي لا يثبت ويضطرب، ومنه انتفكت بهم الأرض ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ما ظنكم به إذا لقيتموه، وقد عبثتم غيره، وما ترونه يصنع

الكيد: المكر، والحيلة أي: احتالوا لإهلاكه، فجعلناهم الأسفلين المقهورين المغلوبين، لأنها قامت له بذلك عليهم الحجة التي لا يقدرّون على دفعها، ولا يمكنهم جدها، فإن النار الشديدة الانتقاد العظيمة الاضطرام المتراكمة الجمار إذا صارت بعد إلقائه عليها برداً وسلاماً، ولم تؤثر فيه أقل تأثير كان ذلك من الحجة بمكان يفهمه كل من له عقل، وصار المنكر له سافلاً ساقط الحجة ظاهر التعصب واضح التعسف، وسبحان من يجعل المحن لمن يدعو إلى دينه منحاً، ويسوق إليهم الخير بما هو من صور الخير. ولما انقضت هذه الوقعة وأسفر الصبح لذي عينين، وظهرت حجة الله لإبراهيم، وقامت براهين نبوته، وسطعت أنوار معجزته **﴿وقال إني ذاهب إلى ربي﴾** أي: مهاجر من بلد قومي الذين فعلوا ما فعلوا تعصياً للأصنام، وكفراً بالله، وتكذيباً لرسله إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه، أو إلى حيث أتمكن من عبادته **﴿سيهدين﴾** أي: سيهديني إلى المكان الذي أمرني بالذهاب إليه، أو إلى مقصدي.

قيل: إن الله سبحانه أمره بالمسير إلى الشام، وقد سبق بيان هذا في سورة الكهف مستوفى، قال مقاتل: فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد، فقال: **﴿رب هب لي من الصالحين﴾** أي: ولداً صالحاً من الصالحين يعينني على طاعتك، ويؤنسني في الغربة هكذا قال المفسرون، وعللوا ذلك بأن الهبة قد غلب معناها في الولد، فتحمل عند الإطلاق عليه، وإذا ورثت مقيدة حملت على ما قيدت به كما في قوله: **﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾** [مريم: 53]، وعلى فرض أنها لم تغلب في طلب الولد، فقوله: **﴿فبشرناه بغلام حليم﴾** يدل على أنه ما أراد بقوله: **﴿رب هب لي من الصالحين﴾** إلا الولد، ومعنى حليم: أن يكون حليماً عند كبره، فكانه بشر ببقاء ذلك الغلام حتى يكبر، ويصير حليماً، لأن الصغير لا يوصف بالحلم. قال الزجاج: هذه البشارة تدل على أنه مبشر بابن ذكر، وأنه يبقى حتى ينتهي في السن، ويوصف بالحلم **﴿فلما بلغ معه السعي﴾** في الكلام حنف كما تشعر به هذه الفاء الفصيحة، والتقدير: فوهبنا له الغلام، فنشأ حتى صار إلى السن التي يسعى فيها مع أبيه في أمور دنياه. قال مجاهد: **﴿فلما بلغ معه السعي﴾** أي: شب، وأدرك سعيه سعي إبراهيم. وقال مقاتل: لما مشى معه. قال الفراء: كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة. وقال الحسن: هو سعي العقل الذي تقوم به الحجة. وقال ابن زيد: هو السعي في العبادة، وقيل: هو الاحتلام **﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أُنْبِئُكَ﴾** قال إبراهيم لابنه لما بلغ معه ذلك المبلغ: إني رأيت في المنام هذه الرؤيا. قال مقاتل: رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات. قال قتادة: رؤيا الأنبياء حق إذا راوا شيئاً فعلوه.

وقد اختلف أهل العلم في الذبيح؟ هل هو إسحاق، أو إسماعيل؟ قال القرطبي: فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق، ومن قال بذلك العباس بن عبيد المطلب، وابنه عبد الله، وهو

العدل كما أن الشمال كناية عن الجور، وأول هذه الأقوال أولاهما **﴿فأقبلوا إليه يزفون﴾** أي: أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون لما علموا بما صنعه بها، يزفون في محل نصب على الحال من فاعل أقبلوا. قرأ الجمهور (يزفون) بفتح الباء من زف الظليم يزف إذا عدا بسرعة، وقرأ حمزة بضم الباء من أزف يزف أي: دخل في الزفيف، أو يحملون غيرهم على الزفيف. قال الأصمعي: أزفت الإبل أي: حملتها على أن تزف، وقيل: هما لغتان، يقال: زف القوم، وأزفوا، وزفت العروس، وأزففتها، حكى ذلك عن الخليل. قال النحاس: زعم أبو حاتم: أنه لا يعرف هذه اللغة يعني: يزفون بضم الباء، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء، وشبهها بقولهم: أطربت الرجل أي: صيرته إلى ذلك، وقال المبرد: الزفيف الإسراع. وقال الزجاج: الزفيف أول عود النعام. وقال قتادة، والسدي: معنى يزفون: يمشون. وقال الضحاك: يسعون. وقال يحيى بن سلام: يرعدون غضباً. وقال مجاهد: يخاللون أي: يمشون مشي الخيلاء، وقيل: يتسللون تسلاً بين المشي، والعدو، والأولى تفسير يزفون بيسرعون، وقرئ (يزفون) على البناء للمفعول، وقرئ (يزفون) كيرمون. وحكى الثعلبي عن الحسن، ومجاهد، وابن السميع: أنهم قرءوا (يرفون) بالراء المهملة، وهي: ركض بين المشي والعدو **﴿قال تعبدون ما تحتون﴾** لما أنكروا على إبراهيم ما فعله بالأصنام، نكر لهم الليل الدال على فساد عبادتها، فقال ميكائلاً لهم، ومكرراً عليهم: **﴿تعبدون ما تحتون﴾** أي: تعبدون أصناماً أنتم تحتونها، والنحت النجر، والبري، نحته ينحته بالكسر نحاً أي: براه، والنحاة البرايا، وجملة **﴿واوه خلقكم وما تعملون﴾** في محل نصب على الحال من فاعل تعبدون، و «ما» في **﴿وما تعملون﴾** موصولة أي: وخلق الذي تصنعونه على العموم ويخل فيها الأصنام التي ينحتونها نخولاً أولاً، ويكون معنى العمل هنا: التصوير، والنحت، ونحوهما، ويجوز أن تكون مصدرية أي: خلقكم، وخلق عملكم، ويجوز أن تكون استفهامية، ومعنى الاستفهام: التوبيخ، والتقريع أي: وأي شيء تعملون، ويجوز أن تكون نافية أي: إن العمل في الحقيقة ليس لكم، فأنتم لا تعملون شيئاً، وقد طول صاحب الكشاف الكلام في رد قول من قال: إنها مصدرية، ولكن بما لا طائل تحته، وجعلها موصولة أولى بالمقام وأوفق بسياق الكلام، وجملة **﴿قالوا لبنا له بنياناً فالحقوه في الجحيم﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر كالجملية التي قبلها، قالوا هذه المقالة لما عجزوا عن جواب ما أورده عليهم من الحجة الواضحة، فتشاوروا فيما بينهم أن يبنا له حائطاً من حجارة، ويملؤوه حطباً ويضرموه، ثم يلقوه فيه، والجحيم: النار الشديدة الانتقاد قال الزجاج، وكل نار بعضها فوق بعض، فهي: جحيم، واللام في الجحيم عوض عن المضاف إليه أي: في جحيم ذلك البنين، ثم لما القوه فيها نجاه الله منها، وجعلها عليه برداً وسلاماً، وهو معنى قوله: **﴿فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾**

إنجاز الوعد في يعقوب، وأيضاً ورد في الأخبار تعليق قرن الكباش في الكعبة، فدل على أن النبيح إسماعيل، ولو كان إسحاق لكان النبيح واقعاً ببيت المقدس، وكل هذا أيضاً يحتمل المناقشة ﴿فانظر ماذا ترى﴾ قرأ حمزة، والكسائي (ترى) بضم الفوقية، وكسر الراء، والمفعولان محذوفان أي: انظر ماذا تريني إياه من صبرك، واحتمالك. وقرأ الباقون من السبعة بفتح التاء، والراء من الرأي، وهو: مضارع رأيت، وقرأ الضحاك، والأعمش، (ترى) بضم التاء، وفتح الراء مبنياً للمفعول أي: ماذا يخيل إليك، ويستح لخطارك. قال الفراء في بيان معنى القراءة الأولى: انظر ماذا ترى من صبرك، وجزعك. قال الزجاج: لم يقل هذا أحد غيره. وإنما قال العلماء ماذا تشير أي: ما تريك نفسك من الرأي، وقال أبو عبيد: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة، وكذا قال أبو حاتم، وغلطهما للنحاس وقال: هذا يكون من رؤية العين، وغيرها، ومعنى القراءة الثانية ظاهر واضح، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله، وإلا فروياً الأنبياء وحى، وامتنالها لازم لهم محتتم عليهم ﴿قال يا ابت أفعَل ما تؤمِّر﴾ أي: ما تؤمِّر به مما أوحى إليك من ذبحي، وما موصولة، وقيل: مصدرية على معنى: أفعَل أمرك، والمصدر مضاف إلى المفعول، وتسمية المأمور به أمراً، والأول أولى ﴿ستجديني إن شاء الله من الصابرين﴾ على ما ابتلاني به من الذبح، والتعليق بمشيئة الله سبحانه تبركاً بها منه ﴿فلما أسلما﴾ أي: استسلما لأمر الله، وأطاعاه، وانقادا له. قرأ الجمهور (أسلما)، وقرأ علي، وابن مسعود، وابن عباس (فلما سلما) أي: فوضا أمرهما إلى الله، وروي عن ابن عباس: أنه قرأ (استسلما) قال قتادة: أسلم أحدهما نفسه لله، وأسلم الآخر ابنة، يقال: سلم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد.

وقد اختلف في جواب لما ماذا هو؟ فقيل: هو محذوف، وتقديره ظهر صبرهما، أو أجزلنا لهما أجرهما، أو فديناه بكباش هكذا قال البصريون. وقال الكوفيون: الجواب هو: نابيناه، والواو زائدة مقحمة، واعترض عليهم النحاس بأن الواو من حروف المعاني، ولا يجوز أن تزداد، وقال الأخفش: الجواب ﴿وتله للجبين﴾، والواو زائدة، وروي هذا أيضاً عن الكوفيين، واعتراض النحاس يرد عليه كما ورد على الأول ﴿وتله للجبين﴾ التل: الصرع والدفع، يقال: تللت الرجل: إذا القيته، والمراد أنه أضجعه على جبينه على الأرض، والجبين أحد جانبي الجبهة، فللوجه جبينان، والجبهة بينهما، وقيل: كبه على وجهه كيلاً يرى منه ما يؤثر الرقة لقلبه.

واختلف في الموضع الذي أراد نبهه فيه، فقيل: هو مكة في المقام، وقيل: في المنحدر بمنى عند الجمار، وقيل: على الصخرة التي باصل جبل ثبير، وقيل: بالشام ﴿ونابينا﴾ أي: يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا﴾ أي: عزمتم على الإتيان بما رأيته. قال المفسرون: لما أضجعه للنبيح نودي من الجبل يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وجعله مصدقاً بمجرد العزم،

الصحيح عن عبد الله بن مسعود، ورواه أيضاً عن جابر، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعمر بن الخطاب، قال: فهؤلاء سبعة من الصحابة. قال: ومن التابعين، وغيرهم: علقمة، والشعبي، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وكعب الأحبار، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، والقاسم بن أبي برزة، وعطاء، ومقاتل، وعبد الرحمن بن سابط، والزهري، والسدي، وعبد الله بن أبي الهذيل، ومالك بن أنس كلهم قالوا: النبيح إسحاق، وعليه أهل الكتابين اليهود، والنصارى، واختاره غير واحد، منهم النحاس، وابن جرير الطبري، وغيرهما. قال، وقال آخرون: هو إسماعيل، ومن قال بذلك: أبو هريرة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وروي ذلك عن ابن عمر، وابن عباس أيضاً، ومن التابعين: سعيد بن المسيب، والشعبي، ويوسف بن مهران، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وعلقمة، وعن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن النبيح، فقال: يا أصمعي أين عذب عنك عقلك، ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة. قال ابن كثير في تفسيره: وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن النبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى يقال عن بعض الصحابة، وليس في ذلك كتاب، ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب، وأخذ مسلماً من غير حجة، وكتاب الله شاهد، ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، ونكر أنه النبيح، وقال بعد ذلك ﴿وبشروناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ ١ هـ.

واحتج القائلون بأنه إسحاق بأن الله عز وجل قد أخبرهم عن إبراهيم حين فارق قومه، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارة، وابن أخيه لوط، فقال: ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ أنه دعا، فقال: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾، فقال تعالى: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ [مريم: 49]؛ ولأن الله قال: ﴿وفديناه بنبيح عظيم﴾، فنكر أنه في الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم، وإنما بشر بإسحاق، لأنه قال: ﴿وبشروناه بإسحاق﴾، وقال هنا: ﴿بالغلام حليم﴾. وذلك قيل أن يعرف هاجر، وقيل أن يصير له إسماعيل، وليس في القرآن أنه بشر بولد إلا إسحاق. قال الزجاج الله أعلم أيهما النبيح ١ هـ، وما استدلل به الفريقان يمكن الجواب عنه، والمناقشة له.

ومن جملة ما احتج به من قال إنه إسماعيل بأن الله وصفه بالصبر دون إسحاق كما في قوله: ﴿وإسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين﴾ [الأنبياء: 85]، وهو: صبره على الذبح، ووصفه بصنق الوعد في قوله: ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ [مريم: 54]؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح، فوفى به، ولأن الله سبحانه قال: ﴿وبشروناه بإسحاق نبياً﴾ فكيف يأمره بنبيه، وقد وعده أن يكون نبياً، وأيضاً فإن الله قال: ﴿وبشرواها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ [هود: 71]، فكيف يؤمر بنبيح إسحاق قبل

﴿وَبَشِّرْهُمْ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: بشرنا إبراهيم بولد يولد له، ويصير نبياً بعد أن يبلغ السن التي يتأهل فيها لذلك، وانتصاب نبياً على الحال، وهي: حال مقدرة. قال الزجاج: إن كان الذبيح إسحاق، فيظهر كونها مقدرة، والأولى أن يقال: إن من فسر الذبيح بإسحاق جعل البشارة هنا خاصة بنبوته. وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه، ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة، فإن وجود ذي الحال ليس بشرط، وإنما الشرط المقارنة للفعل، و ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ كما يجوز أن يكون صفة لنبياً يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر فيه، فتكون أحوالاً متداخلة ﴿وَبَارِكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ أي: على إبراهيم، وعلى إسحاق بمرافقة نعم الله عليهما، وقيل: كثرتا ولدهما، وقيل: إن الضمير في عليه يعود إلى إسماعيل، وهو بعيد، وقيل: المراد بالبركة هنا هي: الثناء الحسن عليهما إلى يوم القيامة ﴿وَمَنْ ذَرِيَّتُهُمَا مَحْسَنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مَيِّمٌ﴾ أي: محسن في عمله بالإيمان، والتوحيد، وظالم لها بالكفر، والمعاصي لما ذكر سبحانه البركة في الذرية بين أن كون الذرية من هذا العنصر الشريف، والمحدث المبارك ليس بنافع لهم، بل إنما ينتفعون بأعمالهم لأبائهم، فإن اليهود، والنصارى، وإن كانوا من ولد إسحاق، فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال البين، والعرب، وإن كانوا من ولد إسماعيل، فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه الله بالإسلام.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ يقول: لم يبق إلا ذرية نوح ﴿وَوَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ يقول: يذكر بخير. وأخرج الترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: حام، وسام، ويافث. وأخرج ابن سعد، وأحمد، والترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن سمرة أيضاً: أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، حام أبو الحبش، ويافث أبو الروم»، والحديثان هما من سماع الحسن عن سمرة، وفي سماعه منه مقال معروف، وقد قيل: إنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة فقط، وما عداه فبواسطة. قال ابن عبد البر: وقد روي عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ مثله. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والخطيب في تالي التلخيص عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد نوح ثلاثة: سام، وحام، ويافث، فولد سام العرب، وفارس، والروم، والخير فيهم، وولد يافث يأجوج، ومأجوج، والترك، والصقالبة، ولا خير فيهم، وولد حام القبط، والبربر، والسودان»، وهو من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب عنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَن مِّن شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ﴾ قال: من أهل بيته. وأخرج عبد بن حميد عنه في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال: مريض.

وإن لم ينبح، لأنه قد أتى بما أمكنه، والمطلوب استسلامهما لأمر الله، وقد فعلا. قال القرطبي: قال أهل السنة: إن نفس الذبيح لم يقع، ولو وقع لم يتصور رفعه، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل، لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبيح ما تحقق الفداء. قال: ومعنى: ﴿صَدَقْتَ الرَّؤْيَا﴾ فعلت ما أمكنك ثم امتنعت لما منعك، هذا أصح ما قيل في هذا الباب. وقالت طائفة: ليس هذا مما ينسخ بوجه، لأن معنى ذبحت الشيء: قطعته، وقد كان إبراهيم يأخذ السكين، فيمِرُّ بها على حلقه، فتقلب كما قال مجاهد. وقال بعضهم: كان كلما قطع جزءاً التام، وقالت طائفة منهم السدي: ضرب الله على عنقه صفيحة نحاس، فجعل إبراهيم يحرق، ولا يقطع شيئاً. وقال بعضهم: إن إبراهيم ما أمر بالذبيح الحقيقي للذي هو فري الأوداج، وإنهار الدم، وإنما رأى أنه أضجعه للذبيح، فتوهم أنه أمر بالذبيح الحقيقي، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له: قد ﴿صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نجزيهم بالخالص من الشدائد، والسلامة من المحن، فالجملة كالتعليل لما قبلها. قال مقاتل: جزاه الله سبحانه بإحسانه في طاعته العفو عن ذنب ابنه ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ البلاء، والابتلاء: الاختبار، والمعنى: إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث نبتيره الله في طاعته بذبح ولده. وقيل: المعنى: إن هذا هو النعمة الظاهرة حيث سلم الله ولده من النبح، وفداه بالكبش، يقال: أبلأه الله إبلأه وبلاء: إذا أنعم عليه والأولى أولى، وإن كان الابتلاء يستعمل في الاختبار بالخير، والشر، ومنه ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]، ولكن المناسب للمقام المعنى الأول. قال أبو زيد: هذا في البلاء الذي نزل به في أن ينبح ولده. قال: وهذا من البلاء المكروه ﴿وَفِيذِيْنَاهُ بَنِيْعٌ عَظِيْمٌ﴾ الذبيح: اسم المذبح، وجمعه مذبح كالطحن اسم للمطحون، وبالفتح المصدر، ومعنى عظيم: عظيم القدر، ولم يرد عظم الجثة، وإنما عظم قدره؛ لأنه فدى به الذبيح، أو لأنه متقبل. قال النحاس: العظيم في اللغة يكون للكبير، وللشريف، وأهل التفسير على أنه ما هنا للشريف أي: للمتقبل. قال الولاحدي: قال أكثر المفسرين: أنزل عليه كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً. وقال الحسن: ما فدى إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير، فنبحه إبراهيم فداء عن ابنه. قال الزجاج: قد قيل: إنه فدى بوعل، والوعل التيس الجبلي، ومعنى الآية: جعلنا الذبيح فداء له، وخلصناه به من النبح ﴿وَوَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سلام على إبراهيم: أي: في الأمم الآخرة التي تأتي بعده، والسلام للثناء الجميل. وقال عكرمة: سلام منا، وقيل: سلامة من الآفات، والكلام في هذا كالسلام في قوله ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِيْنَ﴾ وقد تقدم في هذه السورة بيان معناه، ووجه إعرابه ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من أنقاد لأمر الله ﴿إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين أعطوا العبودية حقها، ورسخوا في الإيمان بالله، وتوحيده

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: مطعون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿فَاقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾ قال: يخرجون. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ قال: حين هاجر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ لِسْعَى﴾ قال: العمل. وأخرج الطبراني عنه أيضاً قال: لما أراد إبراهيم أن يذبح إسحاق قال لأبيه: إذا ذبحتني، فاعتزل لا اضطرب، فينتضح عليك نمي، فشده، فلما أخذ الشفرة، وأراد أن يذبحه نودي من خلفه ﴿إِن يَأْ بِرَاهِيمَ * قَدْ صَلَّيْتَ الرُّؤْيَا﴾ وأخرج أحمد عنه أيضاً مرفوعاً مثله مع زيادة، وأخرجه عنه موقوفاً. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه أيضاً في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ شَيْعَةٍ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ قال: من شيعة نوح على منهاجه، وسننه ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ لِسْعَى﴾ قال: شب حتى بلغ سعيه سعي أبيه في العمل ﴿فَلَمَّا اسْلَمَا﴾ سلما ما أمر به ﴿وَوْتَلَّهُ﴾ وضع وجهه إلى الأرض. فقال: لا تذبحني، وأنت تنظر عسى أن ترحمني، فلا تجهز علي. وإن أجزع، فأنكص، فامتنع منك. ولكن أربط يدي إلى رقبتي، ثم ضع وجهي إلى الأرض، فلما أسخل يده لينذبه، فلم تحل المدية حتى نودي: أن يا إبراهيم قد صلت الرؤيا، فأمسك يده، قوله: ﴿وَوَفَّيْنَاهُ بِنَبِيٍّ عَظِيمٍ﴾ بكبش عظيم متقبل. وزعم ابن عباس: أن النبيح إسماعيل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء وحي»، وأخرجه البخاري، وغيره من قول عبيد بن عمير، واستدل بهذه الآية. وأخرج ابن جرير، والحاكم من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: المفدى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق الشعبي، عن ابن عباس قال: النبيح إسماعيل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق مجاهد، ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال: النبيح إسماعيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير من طريق يوسف بن ماهك، وأبي الطفيل، عن ابن عباس قال: النبيح إسماعيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عمر في قوله: ﴿وَوَفَّيْنَاهُ بِنَبِيٍّ عَظِيمٍ﴾ قال: إسماعيل نبح عنه إبراهيم الكبش. وأخرج عبد بن حميد من طريق الفرزق الشاعر قال: رأيت أبا هريرة يخطب على منبر رسول الله ﷺ، ويقول: إن الذي أمر بذيحه إسماعيل. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مروي عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «قال نبي الله داود: يا رب اسمع الناس يقولون: رب إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فأجعلني رابعاً، قال: إن إبراهيم ألقى في النار، فصبر من أجلني، وإن إسحاق جاد لي بنفسه، وإن يعقوب غاب عنه يوسف، وتلك بلية لم تنلك»، وفي إسناده الحسن بن دينار البصري، وهو

مترك عن علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. وأخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه. وأخرج الدارقطني في الأفراد، والديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «النبيح إسحاق». وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن العباس بن عبد المطلب، عن النبي ﷺ قال: «النبيح إسحاق». وأخرج ابن مروي، عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مروي عن بهار، وكانت له صحبة، قال: إسحاق نبيح الله. وأخرج الطبراني، وابن مروي عن ابن مسعود قال: سئل النبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق نبيح الله». وأخرج عبد الرزاق، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: النبيح إسحاق. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن العباس بن عبد المطلب قال: النبيح إسحاق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: النبيح إسحاق. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوْتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ قال: اكبه على وجهه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: صرعه للنبيح. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَوَفَّيْنَاهُ بِنَبِيٍّ عَظِيمٍ﴾ قال: كبش أعين أبيض أقرن قد ربط بسمرة في أصل شبير. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَفَّيْنَاهُ بِنَبِيٍّ عَظِيمٍ﴾ قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً. وأخرج عبد بن حميد عنه قال: فدي إسماعيل بكبشين أملحين أقرنين أعينين. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مروي عن ابن عباس: أن رجلاً قال: نذرت لأنحر نفسي، فقال ابن عباس: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، ثم تلا ﴿وَوَفَّيْنَاهُ بِنَبِيٍّ عَظِيمٍ﴾، فأمره بكبش، فذبحه. وأخرج الطبراني من طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: إنما بشر به نبياً حين فداه الله من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده.

ويما سقناه من الاختلاف في النبيح هل هو إسحاق، أو إسماعيل، وما استدل به المختلفون في ذلك تعلم أنه لم يكن في المقام ما يوجب القطع، أو يتعين رجحانه تعيناً ظاهراً، وقد رجح كل قول طائفة من المحققين المنصفين كابن جرير، فإنه رجح أنه إسحاق، ولكنه لم يستدل على ذلك إلا ببعض مما سقناه ها هنا، وكابن كثير فإنه رجح أنه إسماعيل، وجعل الألة على ذلك أقوى، وأصح، وليس الأمر كما ذكره، فإنه إن لم تكن دون آلة القائلين بأن النبيح إسحاق لم تكن فوقها، ولا أرجح منها، ولم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء. وما روي عنه، فهو إما موضوع، أو ضعيف جداً، ولم يبق إلا مجرد استنباطات من القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق، وهي محتملة، ولا تقوم حجة

بمحتمل، فالوقف هو الذي لا ينبغي مجاوزته، وفيه السلامة من الترجيح، بلا مرجح، ومن الاستدلال بما هو محتمل.

وَلَقَدْ مَسَا عَلَى مَوْتَى وَكَذُوبَ ﴿١٥٠﴾ وَغَيَّبَتْهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ
الطَّيْبِ ﴿١٥١﴾ وَنَصَرْتَهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١٥٢﴾ وَآتَيْنَهُمَا الْكِتَابَ
الْمُتِينَ ﴿١٥٣﴾ وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٥٤﴾ وَزَكَّاهُمَا فِي
الْآخِرِينَ ﴿١٥٥﴾ سَلَّمَهُ عَلَى مَوْتَى وَكَذُوبَ ﴿١٥٦﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥٧﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَلَيْلَ الْإِنْسِ لَيْلَ الْمُرْسَلِينَ
﴿١٥٩﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٠﴾ أَتَعْبُدُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ
﴿١٦١﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٢﴾ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ لَمُحَضَّرِينَ ﴿١٦٣﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٤﴾ وَزَكَّاهُمْ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٦٥﴾ سَلَّمَ عَلَى آلِ يَأْقِينَ
﴿١٦٦﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٧﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَيْلَ لَوْلَا لَيْلَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٩﴾ إِذْ جِئْتَهُ وَأَعْلَاهُ أَجْمَعُونَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا جُحُورًا فِي الْغَيْفِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ
مَدَنَّا الْآخِرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَلَكِنَّ لَكُنْزَهُمْ عَلَيْهِمْ مُضَيَّعِينَ ﴿١٧٣﴾ وَبِأَيِّ آلَاءِ مَقُولُونَ
﴿١٧٤﴾ وَلَيْلَ يُؤْتِي لَيْلَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٥﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الشَّاعِرِينَ ﴿١٧٦﴾ فَاهَمَّ
فَكَانَ مِنَ الْمَضْحَكِينَ ﴿١٧٧﴾ فَالْقَمَّةَ لَمَّحَتْ وَهِيَ مُلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَ مِنْ
السَّامِعِينَ ﴿١٧٩﴾ لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٨٠﴾ قَبَّذْنَاهُ بِالْعَرَّةِ وَمَعَهُ
سِقْطُهُ ﴿١٨١﴾ وَأَلْبَسْنَاهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ بُنْيَافٍ ﴿١٨٢﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى رِاقَةِ أَدَى أَر
رَبِّدُونَ ﴿١٨٣﴾ فَجَاسُوا فَسَعَتْهُمْ إِلَى جَبِينِ ﴿١٨٤﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر إنجاء الذبيح من الذبح، وما من عليه بعد ذلك من التوبة ذكر ما منَّ به على موسى، وهارون، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ يعني: بالنبوة، وغيرها من النعم العظيمة التي أنعم الله بها عليهما ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ المراد بقومهما هم: المؤمنون من بني إسرائيل، والمراد بالكرْب العظيم هو: ما كانوا فيه من استعباد فرعون إياهم، وما كان نصيبهم من جهته من البلاء، وقيل: هو الغرق الذي أهلك فرعون، وقومه، والأوّل أولى ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ جاء بضمير الجماعة. قال الفراء: الضمير لموسى، وهارون، وقومهما، لأن قبله، ونجيناها، وقومهما، والمراد بالنصر: التأييد لهم على عَدُوِّهِمْ ﴿فَكَانُوا﴾ بسبب ذلك ﴿هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ على عَدُوِّهِمْ بعد أن كانوا تحت أسرهم، وقهرهم، وقيل: الضمير في نصرناهم عائد على الاثنين موسى، وهارون تعظيماً لهما، والأوّل أولى ﴿وَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ المراد بالكتاب: التوراة والمستبين: البين الظاهر، يقال: استبان كذا. أي: صار بيئاً ﴿وَهَيَّيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: التيم لا عوجاج فيه، وهو دين الإسلام، فإنه الطريق الموصلة إلى المطلوب ﴿وَوَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ * سلام على موسى وهرون ﴿أَي: أَبْقَيْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأُمَمِ الْمَتَاخِرَةِ الثَّناء الجميل، وقد قَدَّمْنَا الكلام في السلام، وفي وجه إعرابه بالرفع، وكذلك تقدّم تفسير ﴿إِنَّا كُنَّا حُزِّي الْمَحْسِنِينَ﴾ * إِنْهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذه السورة ﴿وَإِنِ الْإِنْسَانُ

للمن المرسلين﴾ قال المفسرون: هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقصته مشهورة مع قومه، قيل: وهو إلياس بن يسى من سبط هارون أخي موسى. قال ابن إسحاق، وغيره: كان إلياس هو القيم بامر بني إسرائيل بعد يوشع، وقيل: هو إدريس، والأوّل أولى. قرأ الجمهور (إلياس) بهمزة مكسورة مقطوعة، وقرأ ابن نكوان بوصلها، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، ويحيى بن وثاب (وإن إدريس لمن المرسلين)، وقرأ أبي (وإن إبليس) بهمزة مكسورة، ثم تحتية ساكنة، ثم لام مكسورة، ثم تحتية ساكنة، ثم سين مهملة مفتوحة **﴿إذ قال لقومه ألا تتقون﴾** هو ظرف لقوله من المرسلين، أو متعلق بمحذوف أي: أنكر يا محمد إذ قال، والمعنى: ألا تتقون عذاب الله، ثم أنكر عليهم بقوله: **﴿تدعون بعلاً﴾** هو: اسم لصنم كانوا يعبدونه أي: اتبعون صنماً، وتطلبون الخير منه.

قال ثعلب: اختلف الناس في قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ﴾ فقالت طائفة: البعل هنا الصنم، وقالت طائفة: البعل هنا ملك، وقال ابن إسحاق: امرأة كانوا يعبدونها. قال الواحدي: والمفسرون يقولون: رباً، وهو بلغة اليمن، يقولون للسيد، والرب: البعل. قال النحاس: القولان صحيحان أي: اتدعون صنماً عملتوه رباً ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي: وتتركون عبادة أحسن من يقال له خالق، وانتصاب الاسم الشريف في قوله: ﴿إِلَهِ رَبِّكُمْ رَبُّ الْأُولَئِينَ﴾ على أنه بدل من أحسن، هذا على قراءة حمزة، والكسائي، والريبع بن خثيم، وابن أبي إسحاق، ويحيى بن وثاب، والأعمش، فإنهم قرءوا ينصب الثلاثة الأسماء، وقيل: النصب على المدح، وقيل: على عطف البيان، وحكى أبو عبيد: أن النصب على النعت. قال النحاس: وهو غلط، وإنما هو بدل، ولا يجوز النعت؛ لأنه ليس بتحلية، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع بالرفع. قال أبو حاتم: بمعنى: هو الله ربكم. قال النحاس: وأولى ما قيل: إنه مبتدأ، وخبر بغير إضمار، ولا حذف. وحكي عن الأخفش: أن الرفع أولى وأحسن. قال ابن الأنباري: من رفع، أو نصب لم يقف على أحسن الخالقين على جهة التمام؛ لأن الله مترجم عن أحسن الخالقين على الوجهين جميعاً، والمعنى أنه خالقكم، وخالق من قبلكم، فهو الذي تحق له العبادة ﴿فَكُنْبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: فإنهم بسبب تكذيبه لمحضرون في العذاب، وقد تقدم أن الإحضار المطلق مخصوص بالشر ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: من كان مؤمناً به من قومه، قرئ بكسر اللام، وفتحها كما تقدم، والمعنى على قراءة الكسر: أنهم أخلصوا لله؛ وعلى قراءة الفتح: أن الله استخلصهم من عباده. وقد تقدم تفسير ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سلام على آل ياسين ﴿قُرْآنُ نَافِعٍ﴾ وابن عامر، والأعرج، وشيبة على آل ياسين بإضافة آل بمعنى: آل ياسين، وقرأ الباقر بكسر الهمزة، وسكون اللام موصولة

وهو: أن يخرج السهم على من غلب. قال المبرد: أي: فقارع. قال: وأصله من السهام التي تجال، ومعنى **﴿فكان من المحضين﴾**: فصار من المغلوبين. قال: يقال: نحضت حجتة، وأحضاها الله، وأصله من الزلق عن مقام الظفر، ومنه قول الشاعر:

قتلنا المحضين بكل فج فقد قرت بقتلهم العيون
أي: المغلوبين **﴿فالتقمة الحوت وهو مليم﴾** يقال: لقمتم اللقمة، والتقمتمها: إذا ابتلعتمها أي: فابتلعه الحوت، ومعنى **﴿وهو مليم﴾**: وهو مستحق للوم. يقال: رجل مليم إذا أتى بما يلام عليه، وأما الملووم، فهو: الذي يلام سواء أتى بما يستحق أن يلام عليه أم لا، وقيل: المليم المغيب، يقال: لام الرجل إذا عمل شيئاً صار به معيباً. ومعنى هذه المساهمة: أن يونس لما ركب السفينة احتبست، فقال الملاحون: ها هنا عبد أبق من سيده، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها أبق لا تجري، فافترعوا، فوقعت القرعة على يونس، فقال: أنا الأبق، وزج نفسه في الماء. قال سعيد بن جبير: لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربه حتى إذا ألقى نفسه في الماء أخذته الحوت **﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾** أي: الذاكرين لله، أو المصلين له **﴿للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾** أي: لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم البعث، وقيل: لبث في بطنه حياً.

واختلف المفسرون كم أقام في بطن الحوت؟ فقال السدي، والكلبي، ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً. وقال الضحاك: عشرين يوماً. وقال عطاء: سبعة أيام. وقال مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام، وقيل: ساعة واحدة، وفي هذه الآية ترغيب في ذكر الله، وتنشيط للذاكرين له **﴿فنبذناه بالعراء وهو سقيم﴾** النبذ الطرح، والعراء. قال ابن الأعرابي: هو: الصحراء، وقال الأخفش: الفضاء، وقال أبو عبيدة: الواسع من الأرض، وقال الفراء: المكان الخالي. وروي عن أبي عبيدة أيضاً أنه قال: هو وجه الأرض، وأنشد لرجل من خزاعة:

ورفعت رجلاً لأخاف عثارها ونبتت بالبلد العراء ثيابي
والمعنى: أن الله طرحه من بطن الحوت في الصحراء الواسعة التي لا نبات فيها، وهو عند إلقائه سقيم لما ناله في بطن الحوت من الضرر، قيل: صار بدنه كبطن الطفل حين يولد.

وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله: **﴿فنبذناه بالعراء﴾**، وقوله في موضع آخر: **﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾** [القلم: 49] فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبد بالعراء. وأجاب النحاس، وغيره بأن الله سبحانه أخبر ها هنا: أنه نبذ بالعراء، وهو غير مذموم، ولولا رحمته عز وجل لنبد بالعراء، وهو مذموم **﴿وانبتنا عليه شجرة من يقطين﴾** أي: شجرة فوقه تظلل عليه، وقيل: معنى عليه: عنده، وقيل: معنى عليه: له. واليقطين هي: شجرة الدباء. وقال المبرد:

بباسين إلا الحسن، فإنه قرأ (الياسين) بإبدال آلة التعريف على ياسين، قيل: المراد على هذه القراءات كلها إلياس، وعليه وقع التسليم، ولكنه اسم أعجمي، والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية، ويكثر تغييرهم لها. قال ابن جني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً؛ فياسين، وإلياس، والياسين شيء واحد. قال الأخفش: العرب تسمي قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون المهالبة على أنهم سمو كل رجل منهم بالمهلب. قال: فعلى هذا إنه سمي كل رجل منهم بالياسين. قال الفراء: يذهب بالياسين إلى أن يجعله جمعاً، فيجعل أصحابه داخلين معه في اسمه. قال أبو علي الفارسي: تقديره الياسيين إلا أن الياءين للنسبة حذفنا كما حذفنا في الأشعرين، والأعجمين. ورجح الفراء، وأبو عبيدة قراءة الجمهور قالوا: لأنه لم يقل في شيء من السور على آل فلان، إنما جاء بالاسم كذلك الياسين؛ لأنه إنما هو بمعنى: إلياس، أو بمعنى: إلياس، وإتباعه. وقال الكلبي: المراد بآل ياسين آل محمد. قال الواحدي: وهذا بعيد؛ لأن ما بعده من الكلام، وما قبله لا يدل عليه، وقد تقدم تفسير **﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾** * **﴿إنه من عبادنا للمؤمنين﴾** مستوفى **﴿وإن لوطاً لمن المرسلين﴾** قد تقدم ذكر قصة لوط مستوفاة **﴿إن نجيناها وأهلها لجمعين﴾** الظرف متعلق بمحذوف هو أنكر، ولا يصح تعلقه بالمرسلين، لأنه لم يرسل وقت تنجيته **﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾** قد تقدم أن الغابر يكون بمعنى: لماضي، ويكون بمعنى: الباقي، فالمعنى: إلا عجوزاً في الباقيين في العذاب، أو الماضيين الذين قد هلكوا **﴿ثم دمرنا الآخرين﴾** أي: أهلكناهم بالعقوبة، والمعنى: أن في نجاته، وأهلها جميعاً إلا العجوز، وتدمير الباقيين من قومه الذين لم يؤمنوا به دلالة بيّنة على ثبوت كونه من المرسلين **﴿وانكم لتمرّون عليهم مصبحين﴾** خاطب بهذا العرب، أو أهل مكة على الخصوص أي: تمرّون على منازلهم التي فيها آثار العذاب وقت الصباح **﴿وبالليل﴾**، والمعنى: تمرّون على منازلهم في ذهابكم إلى الشام، ورجوعكم منه نهراً، وليلاً **﴿أفلا تعقلون﴾** ما تشاهدونه في ديارهم من آثار عقوبة الله النازلة بهم، فإن في ذلك عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتبرين **﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾** يونس هو: ذو النون، وهو: ابن متى. قال المفسرون: وكان يونس قد وعد قومه العذاب، فلما تأخر عنهم العذاب خرج عنهم، وقصد البحر، وركب السفينة، فكان يذهبها إلى البحر كالغار من موله، فوصف بالإباق، وهو معنى قوله: **﴿إن أبق إلى الفلك المشحون﴾** وأصل الإباق الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه وصف به. وقال المبرد: تأويل أبق بعباد أي: ذهب إليه، ومن ذلك قولهم: عبد أبق.

وقد اختلف أهل العلم هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه، أو بعده؟ ومعنى المشحون: المملوء **﴿فساهم فكان من المحضين﴾** المساهمة أصلها المغالبة، وهي: الاقتراع،

أمة محمد ﷺ المرحومة المغفور المثاب لها، فأشرفت على الوادي، فإذا طوله ثمانون ذراعاً وأكثر، فقال: من أنت؟ فقلت: أنس خادم رسول الله ﷺ، فقال: أين هو؟ فقلت: هو ذا يسمع كلامك، قال: فاته، وأقرته مني السلام، وقل له: أخوك إلياس يقرئك السلام، فاتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فجاء حتى عانقه، وقعدا يتحدثان، فقال له: يا رسول الله إني إنما أكل في كل سنة يوماً، وهذا يوم فطري، فأكل أنا وأنت، فنزلت عليهما المائدة من السماء خبز، وحوت، وكرفس، فأكلا، وأطعماني، وصليا العصر، ثم ودّعه، ثم رأيته مرّ على السحاب نحو السماء. قال الذهبي متعباً لتصحيح الحاكم له: بل موضوع قبح الله من وضعه، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿اتدعون بعلاً﴾ قال: صنماً. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿سلام على إلياسين﴾ قال: نحن آل محمد آل ياسين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: بعث الله يونس إلى أهل قريته، فثروا عليه ما جاءهم به، فامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليهم إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا، وكذا. فأخرج من بين أظهرهم، فأعلم قومه الذي وعد الله من عذابه إياهم، فقالوا: ارمقوه، فإن خرج من بين أظهرهم، فهو والله كائن ما وعدهم، فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صبيحتها انلج، فراه القوم، فحذروا، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم، وفرقوا بين كل دابة، ولدها، ثم عجوا إلى الله، وإنابوا، واستقالوا، فاقالهم الله، وانتظر يونس الخبر عن القرية، وأهلها حتى مرّ به مارّ، فقال: ما فعل أهل القرية؟ قال: إن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرقوا بين كل ذات ولد ولدها، ثم عجوا إلى الله، وتابوا إليه، فتقبل منهم، وأخر عنهم العذاب، فقال يونس عند ذلك: لا أرجع إليهم كذاباً أبداً، ومضى على وجهه، وقد قدمنا الكلام على قصته، وما روي فيها في سورة يونس، فلا نكره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿فساهم﴾ قال: اقترع ﴿فكان من المدحضين﴾ قال: المقروعين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وهو مليم﴾ قال: مسيء. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿قلولا أنه كان من المسبحين﴾ قال: من المصلين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فتبيناه بالعراء﴾ قال: القيناه بالساحل. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً ﴿شجرة من يقطين﴾ قال: القرع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبيرة عنه أيضاً قال: الليقطين كل شيء يذهب على وجه الأرض. وأخرج أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه

اليقطين يقال: لكل شجرة ليس لها ساق، بل تمتد على وجه الأرض نحو الدباء، والبطيخ، والحنظل، فلن كان لها ساق يقلها، فيقال لها: شجرة فقط، وهذا قول الحسن، ومقاتل، وغيرهما. وقال سعيد بن جبيرة: هو كل شيء ينبت، ثم يموت من عامه. قال الجوهري: الليقطين ما لا ساق له من شجر كشجر القرع، ونحوه. قال الزجاج: اشتقاق الليقطين من قطن بالمكان أي: أقام به، فهو يفعل، وقيل: هو: اسم أعجمي. قال المفسرون: كان يستظل بظلها من الشمس، وقبض الله له أروية من الوحش تروح عليه بكرة، وعشية، فكان يشرب من لبنها حتى اشتد لحمه، ونبت شعره، ثم أرسله الله بعد ذلك. وهو معنى قوله: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر، وجرى له ما جرى بعد هربه كما قصه الله علينا في هذه السورة، وهم: أهل نينوى. قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل. وقد مر الكلام على قصته في سورة يونس مستوفى، «أو» في أو يزيدون قيل: هي بمعنى: الواو، والمعنى: ويزيدون. وقال الفراء: أو ما هنا بمعنى: بل، وهو قول مقاتل، والكلبي. وقال المبرد، والزجاج، والأخفش: أو هنا على أصله، والمعنى: أو يزيدون في تقديركم إذا رآهم الراي قال: هؤلاء مائة ألف، أو يزيدون، فالشك إنما دخل على حكاية قول المخلوقين. قال مقاتل، والكلبي: كانوا يزيدون عشرين ألفاً. وقال الحسن: بضعاً وثلاثين ألفاً. وقال سعيد بن جبيرة: سبعين ألفاً. وقرأ جعفر بن محمد، ويزيدون بدون ألف الشك.

وقد وقع الخلاف بين المفسرين هل هذا الإرسال المذكور هو الذي كان قبل التقام الحوت له، وتكون الواو في: وأرسلناه لمجرد الجمع بين ما وقع له مع الحوت، وبين إرساله إلى قومه من غير اعتبار تقديم ما تقدم في السياق، وتأخير ما تأخر، أو هو إرسال له بعد ما وقع له مع الحوت ما وقع على قولين؟ وقد قدمنا الإشارة إلى الاختلاف بين أهل العلم هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر، أو لم يرسل إلا بعد ذلك؟ والراجح: أنه كان رسولا قبل أن يذهب إلى البحر كما يدل عليه ما قدمنا في سورة يونس، وبقي مستمراً على الرسالة، وهذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته، ورسالته ﴿فأمنوا فمتعنهم إلى حين﴾ أي: وقع منهم الإيمان بعد ما شاهدوا أعلام نبوته، فمتعهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم، ومنتهى أعمارهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن ابن مسعود قال: إلياس هو: إدريس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة مثله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «الخضر هو: إلياس»، وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، وضعفه عن أنس قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزل منزلاً، فإذا رجل في الوادي يقول: اللهم اجعلني من

الحوث، ثم تلا ﴿فَنبِئْنَاهُ بِالعِراءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ﴾ وقد تقدّم عنه ما يدلّ على أن رسالته كانت من قبل ذلك، وليس في الآية: ما يدلّ على ما ذكره كما قدّمنا. وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال: يزيدون عشرين ألفاً. قال الترمذي: غريب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يزيدون ثلاثين ألفاً. وروي عنه أنهم يزيدون بضعة وثلاثين ألفاً. وروي عنه: أنهم يزيدون بضعة وأربعين ألفاً، ولا يتعلق بالخلاف في هذا كثير فائدة.

فَأَسْمِعْهُمْ أَلْوَنَ الْبَنَاتِ وَلَهُنَّ السُّرُورُ ۖ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْفِكُونَ يُقُولُونَ ۖ وَلَدَ اللَّهُ وَلَهُنَّ لَكِدُونُ ۚ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۚ مَا لَكُمْ كَيْتٌ تَعْمَلُونَ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ۚ فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَهَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْإِنثَاءَ إِتْمَنَهُنَّ لَمْ تَحْضُرُوهُنَّ ۚ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُعْمَلُونَ ۚ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۚ فَالْأَكْثَرُ وَمَا تَعْبُدُونَ ۚ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ۚ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ۚ وَمَا يَأْتِي إِلَّا لَمْ يَمَأْ مُعْلَمٌ ۚ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْعَاوَنُ ۚ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُنِيرُونَ ۚ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ۚ لَوْ أَنَّا عِدْنَا وَكِيلٌ ۚ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۚ فَكَلَّمُوا بَرِيءًا فَأَسْمِعُ الْغَافِلِينَ ۚ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَتَا إِيمَانِنَا الْمُرْسَلِينَ ۚ إِنَّهُمْ لَمُتَّصِرُونَ ۚ وَلَوْ جُنْدًا لَمْ يَلْحَقُوا ۚ وَلَوْ كُنَّا عَنْهُمْ حَقًّا جِئْنَا ۚ وَأَنْصَرِمُ سَوَاقُ بَيْمُوتٍ ۚ أَيْمَلَيْنَا يَسْتَجِيبُونَ ۚ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِرِهِمْ فَسَاحُ الْخَذِيرِ ۚ وَوَلَّكَ عَنْهُمْ حَقًّا جِئْنَا ۚ وَأَنْصَرِمُ سَوَاقُ بَيْمُوتٍ ۚ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۚ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۚ وَلَقَدْ يَدْرِي رَبُّ الْمَلَائِكَةِ

لما كانت قريش، وقبائل من العرب يزعمون: أن الملائكة بنات الله أمر الله سبحانه رسوله ﷺ باستفتائهم على طريقة التفرع، والتوبيخ، فقال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يا محمد أي: استخبرهم ﴿بِالرِّبِّكِ الْبَنَاتِ وَلَهُنَّ السُّرُورُ﴾ أي: كيف يجعلون الله على تقدير صبق ما زعموه من الكذب أنثى الجنسين، وأوضعهما، وهو: الإناث، ولهم أعلاهما، وأرفعهما، وهم: الذكور، وهل هذا إلا حيف في القسمة لضعف عقولهم، وسوء إدراكهم ومثله قوله: ﴿إِلَّا الْكَلْبُ وَالْإِنثَى﴾ * تلك إذا قسمة ضيزى ﴿[النجم: 21، 22]﴾ ثم زاد في توبيخهم، وتفرعهم. فقال: ﴿إِنَّمَا خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثَاءً وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ فأضرب عن الكلام الأوّل إلى ما هو أشد منه في التبيكيت، والتهكم بهم أي: كيف جعلوهم إناثاً، وهم لم يحضروا عند خلقنا لهم، وهذا كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْبَنَاتِ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: 19] فبين سبحانه: أن مثل ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة، ولم يشهدوا، ولا دلّ دليل على قولهم من السمع، ولا هو مما يدرك بالعقل حتى

ينسبوا إدراكه إلى عقولهم. ثم أخبر سبحانه عن كذبهم، فقال: ﴿إِنَّمَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكَهُمْ لَيَقُولُونَ﴾ * ولد الله وإنهم لكاذبون ﴿فَبَيْنَ سُبْحَانَهُ أَنْ قَوْلَهُمْ هَذَا هُوَ مِنَ الْإِنْفِ، والافتراء من دون دليل، ولا شبهة لدليل، فإنه لم يلد، ولم يولد. قرا الجمهور (ولد الله) فعلاً ماضياً مسنداً إلى الله. وقرأ بإضافة ولد إلى الله على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: يقولون الملائكة ولد الله، والولد بمعنى: مفعول يستوي فيه المفرد، والمثنى، والمجموع، والمنكر، والمؤنث. ثم كرر سبحانه تفرعهم، وتوبيخهم، فقال: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ قرا الجمهور بفتح الهمزة على أنها للاستفهام الإنكاري، وقد حذف معها همزة الوصل استغناء به عنها. وقرأ نافع في رواية عنه، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش بهمزة وصل تثبت ابتداء، وتسقط رجباً، ويكون الاستفهام منوياً قاله الفراء. وحذف حرفه للعلم به من المقام، أو على أن اصطفى، وما بعده بدل من الجملة المحكية بالقول. وعلى تقدير عدم الاستفهام، والبدل. فقد حكى جماعة من المحققين منهم الفراء: أن التوبيخ يكون باستفهام، وبغير استفهام كما في قوله: ﴿إِذْ هَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حِيَانِكُمُ النَّبِيَّ﴾ [الاحقاف: 20] وقيل: هو على إضمار القول ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ جملتان استفهاميتان ليس لأحدهما تعلق بالآخرى من حيث الإعراب: استفهامهم أولاً عما استقرّ لهم، وثبت استفهام بِنَاكِ، وثانياً استفهام تعجب من هذا الحكم الذي حكموا به، والمعنى: أي شيء ثبت لكم كيف تحكمون بالله البنات، وهم: القسم الذي تكروهونه، ولكم بالبنين، وهم: القسم الذي تحبونهم ﴿فَإِنَّمَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتذكرون، فحذفت إحدى التاءين، والمعنى: ألا تتدبرون، وتتفكرون، فتتذكرون بطلان قولكم ﴿إِنَّمَا لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حجة واضحة ظاهرة على هذا الذي تقولونه، وهو إضراب عن توبيخ إلى توبيخ، وانتقال من تفرع إلى تفرع. ﴿فَإِنَّمَا بَكْتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: فاتوا بحجتكم الواضحة على هذا إن كنتم صادقين فيما تقولونه، أو فاتوا بالكتاب الذي ينطق لكم بالحجة، ويشتمل عليها ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَهَبًا﴾ قال أكثر المفسرين: إن المراد بالجنة هنا: الملائكة، قيل لهم: جنة لأنهم لا يرون. وقال مجاهد: هم بطن من بطون الملائكة يقال لهم: الجنة. وقال أبو مالك: إنما قيل لهم: الجنة، لأنهم خزائن على الجنان. والنسب الصهر. قال قتادة، والكلبي: قالوا: لعنهم الله: إن الله صاهر الجن، فكانت الملائكة من أولادهم: قالوا: والقائل بهذه المقالة اليهود. وقال مجاهد، والسدي، ومقاتل: إن القائل بذلك كنانة، وخزاعة قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجن، فزوجوه من سرورات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سرورات بنات الجن. وقال الحسن: أشركوا الشيطان في عبادة الله، فهو النسب الذي جعلوه. ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْجَنَّةَ إِنَّهُمْ لَمَحْضَرُونَ﴾ أي: علموا أن هؤلاء الكفار الذين قالوا هذا القول يحضرون النار، ويعذبون فيها. وقيل: علمت الجنة إنهم

التقدير: وما منا إلا من له مقام معلوم، رجح البصريون التقدير الأول، ورجح الكوفيون الثاني. قال الزجاج: هذا قول الملائكة، وفيه مضمهر. المعنى: وما منا ملك إلا له مقام معلوم. ثم قالوا: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ أي: في مواقف الطاعة. قال قتادة: هم: الملائكة صفوا أقدامهم. وقال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ أي: المنزهون لله المقدسون له عما أضافه إليه المشركون، وقيل: المصلون، وقيل: المراد بقولهم المسبحون: مجموع التسبيح باللسان، وبالصلاة، والمقصود أن هذه الصفات هي: صفات الملائكة، وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم ينات الله ﴿وإن كانوا ليقولون﴾ هذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين أي: كانوا قبل المبعث المحمدي إذا عيروا بالجهل قالوا: ﴿ولو أن عننا نكراً من الأولين﴾ أي: كتاباً من كتب الأولين كالطوراة، والإنجيل ﴿لكننا عباد الله المخلصين﴾ أي: لأخلصنا العبادة له، ولم نكفر به، وإن في قوله: ﴿وإن كانوا﴾ هي: المخففة من الثقيلة، وفيها ضمير شان محذوف، واللام هي: الفارقة بينها، وبين النافية أي: وإن الشأن كان كفار العرب ليقولون إلخ، والفاء في قوله: ﴿فكفروا به﴾ هي: الفصيحة الدالة على محذوف مقدر في الكلام. قال الفراء: تقديره: فجاءهم محمد بالذكر، فكفروا به، وهذا على طريق التعجب منهم ﴿فسوف يعلمون﴾ أي: عاقبة كفرهم، ومغبته، وفي هذا تهديد لهم شديد، وجملة ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ مستأنفة مقررة للوعيد، والمراد بالكلمة: ما وعدهم الله به من النصر، والظفر على الكفار. قال مقاتل: عنى بالكلمة: قوله سبحانه: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: 21] وقال الفراء: سبقت كلمتنا بالسعادة لهم، والأولى تفسير هذه الكلمة بما هو منكر هنا، فإنه قال: ﴿إنهم لهم المنصورون﴾ * وإن جنننا لهم الغالبون ﴿فهذه هي الكلمة المذكورة سابقاً، وهذا تفسير لها، والمراد بجند الله حربه، وهم الرسل، وأتباعهم. قال الشيباني: جاء هنا على الجمع: يعني: قوله ﴿لهم الغالبون﴾ من أجل أنه رأس آية، وهذا الوعد لهم بالنصر، والغلبة لا ينافيه انهزامهم في بعض المواطن، وغلبة الكفار لهم، فإن الغالب في كل موطن هو: انتصارهم على الأعداء، وغلبتهم لهم، فخرج الكلام مخرج الغالب، على أن العاقبة المحمودة لهم على كل حال، وفي كل موطن كما قال سبحانه: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: 128]، ثم أمر الله سبحانه رسوله بالإعراض عنهم، والإغماض عما يصدر منهم من الجهالات، والضلالات، فقال: ﴿فتول عنهم حتى حين﴾ أي: أعرض عنهم إلى مدة معلومة عند الله سبحانه، وهي: مدة الكف عن القتال. قال السدي، ومجاهد: حتى نامرك بالقتال. وقال قتادة: إلى الموت، وقيل: إلى يوم بدر، وقيل: إلى يوم فتح مكة، وقيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿وابصرهم فسوف يبصرون﴾ أي: وأبصرهم إذا نزل بهم العذاب بالقتل،

أنفسهم يحضرون للحساب، والأول أولى، لأن الإحضار إذا أطلق، فالمراد العذاب. وقيل: المعنى: ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون إلى الجنة. ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أو هو حكاية لتزنية الملك الله عز وجل عما وصفه به المشركون، والاستثناء في قوله: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ منقطع، والتقدير: لكن عباد الله المخلصين يريثون عن أن يصفوا الله بشيء من ذلك. وقد قرئ بفتح اللام، وكسرهما، ومعناها ما بيناه قريباً. وقيل: هو استثناء من المحضرين أي: إنهم يحضرون النار إلا من أخلص، فيكون متصلاً لا منقطعاً، وعلى هذا تكون جملة التسبيح معترضة. ثم خاطب الكفار على العموم، أو كفار مكة على الخصوص، فقال: ﴿فإنكم وما تعبدون﴾ * ما أنتم عليه بفاتنين. أي: فإنكم، وألهتكم التي تعبدون من دون الله لستم بفاتنين على الله بإفساد عباده، وإضلالهم، وعلى متعلقة بفاتنين. والواو في وما تعبدون إما للعطف على اسم إن، أو هو بمعنى: مع، وما موصولة، أو مصدرية أي: فإنكم، والذي تعبدون، أو عبادتكم، ومعنى: فاتنين: مضلين، يقال: فتنت الرجل، وأفتنته، ويقال: فتته على الشيء، وبالشئ كما يقال: أضله على الشيء، وأضله به. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: فتنته، وأهل نجد يقولون: أفتنته، ويقال: فتنت فلان على فلان أمراته أي: أفسدها عليه، فالفتنه هنا بمعنى: الإضلال، والإفساد. قال مقاتل: يقول: ما أنتم بمضلين أحداً بآلهتكم إلا من قدر الله له أن يصلي الجحيم، وماء في ﴿وما أنتم﴾ نافية و ﴿أنتم﴾ خطاب لهم، ولمن يعبدونه على التغليب. قال الزجاج: أهل التفسير مجمعون فما علمت أن المعنى: ما أنتم بمضلين أحداً إلا من قدر الله عز وجل عليه أن يضل، ومنه قول الشاعر:

فردبفتنته كيداً عليه وكان لنا فاتناً
أي: مصلاً ﴿إلا من هو صال الجحيم﴾ قرأ الجمهور (صال) بكسر اللام؛ لأنه منقوص مضاف حذف الياء لالتقاء الساكنين، وحمل على لفظ من، وأقرد كما أقرد هو. وقرأ الحسن، وابن أبي عبيدة بضم اللام مع واو بعدها، وروي عنهما: أنهما قرأ بضم اللام بدون واو. فاما مع الواو فعلى أنه جمع سلامة بالواو حملاً على معنى: من، وحذفت نون الجمع للإضافة، وأما بدون الواو، فيحتمل أن يكون جمعاً، وإنما حذفت الواو خطأ كما حذفت لفظاً، ويحتمل أن يكون مفرداً، وحقه على هذا كسر اللام. قال النحاس: وجماعة أهل التفسير يقولون: إنه لحن؛ لأنه لا يجوز هذا قاض المدينة، والمعنى: أن الكفار وما يعبدونه لا يقدرّون على إضلال أحد من عباد الله إلا من هو من أهل النار، وهم المصرون على الكفر، وإنما يصّر على الكفر من سبق القضاء عليه بالشقاوة، وإنه ممن يصلي النار أي: يدخلها. ثم قال الملائكة مخبرين للنبي ﷺ كما حكاها الله سبحانه عنهم: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾، وفي الكلام حذف، والتقدير: وما منا أحد، أو وما منا ملك إلا له مقام معلوم في عبادة الله. وقيل:

الجحيم. وأخرج عبد بن حميد، وابن مروي عنه أيضاً في الآية قال: لا تفتنون إلا من هو صال الجحيم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ قال: الملائكة. ﴿وإِنَّا لَنَحْنُ لِلصَّافُونَ﴾ قال: الملائكة. وأخرج محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي عن عائشة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد، أو قائم، وذلك قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ * وإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ»». وأخرج محمد بن نصر، وابن عساکر عن العلاء بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أطت السماء، وحق لها أن تئط، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راکع، أو ساجد، ثم قرأ: ﴿وإِنَّا لَنَحْنُ لِلصَّافُونَ﴾ * وإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ»». وأخرج عبد الرزاق، والفریابی، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: «إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا، وعليه جهة ملك، أو قدماء قائماً، أو ساجداً، ثم قرأ: ﴿وإِنَّا لَنَحْنُ لِلصَّافُونَ﴾ * وإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ»». وأخرج الترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن مروي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، إن السماء أظمت، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله». وقد ثبت في الصحيح، وغيره: «أن النبي ﷺ أمر الصحابة أن يصفوا كما تصف الملائكة عند ربهم، فقالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يقيمون الصفوف المقامة، ويتراصون في الصف». وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿لَوْ أَن عَدْنَا نُكْرَ الْأَوَّلِينَ﴾ قال: لما جاء المشركين من أهل مكة نكر الأولين، وعلم الآخرين كفروا بالكتاب ﴿فسوف يعلمون﴾. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: «صبح رسول الله ﷺ خيبر، وقد خرجوا بالمساحي، فلما نظروا إليه قالوا: محمد، والحميس، فقال: الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين» الحديث. وأخرج ابن سعد، وابن مروي عن طريق سعيد، عن قتادة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلمتم على المرسلين، فسلموا علي، فإنما أنا بشر من المرسلين». وأخرج ابن مروي عن طريق أبي العوام، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً نحوه بأطول منه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن مروي، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أراد أن يسلم من صلاته قال: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين»». وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: كنا نعرف انصراف رسول الله ﷺ من الصلاة بقوله: «سبحان ربك» إلى

والأسر، فسوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار، وعبر بالإبصار عن قرب الأمر أي: فسوف يبصرون عن قريب. وقيل: المعنى: فسوف يبصرون العذاب يوم القيامة. ثم هدهم بقوله سبحانه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم: متى هذا العذاب؟ ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾ أي: إذا نزل عذاب الله لهم بفنائهم، والساحة في اللغة: فناء الدار الواسع. قال الفراء: نزل بساحتهم، ونزل بهم سواء. قال الزجاج: وكان عذاب هؤلاء بالقتل، قيل: المراد به نزول رسول الله ﷺ بساحتهم يوم فتح مكة. قرأ الجمهور (نزل) مبنياً للمفاعل. وقرأ عبد الله بن مسعود على البناء للمفعول، والجار والمجرور قائم مقام الفاعل ﴿فساء صباح المنذرين﴾ أي: بثس صباح الذين أنذروا بالعذاب، والمخصوص بالنم محذوف أي: صباحهم. وخص الصباح بالذكر؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيه. ثم كرر سبحانه ما سبق تأكيداً للوعد بالعذاب، فقال: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ وأبصر فسوف يبصرون، وحذف مفعول أبصر ما هنا، وذكره أولاً إما لدلالة الأول عليه، فتركه هنا اختصاراً، أو قصداً إلى التعميم للإيذان بأن ما يبصره من أنواع عذابهم لا يحيط به الوصف. وقيل: هذه الجملة المراد بها أحوال القيامة، والجملة الأولى المراد بها عذابهم في الدنيا، وعلى هذا فلا يكون من باب التأكيد، بل من باب التأسيس. ثم نزه سبحانه نفسه عن قبيح ما يصدر منهم، فقال: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ العزة: الغلبة، والقوة، والمراد: تنزيهه عن كل ما يصفونه به مما لا يليق بجنابه الشريف، ورب العزة بدل من ربك. ثم نكر ما يدل على تشريف رسله، وتكريمهم، فقال: ﴿وسلام على المرسلين﴾ أي: الذين أرسلهم إلى عباده، وبلغوا رسالاته، وهو من السلام الذي هو: التحية، وقيل: معناه: أمن لهم، وسلامة من المكاره ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ إرشاد لعباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين، ومنذرين، وتعليم لهم كيف يصنعون عند إنعامه عليهم، وما يثنون عليه به، وقيل: إنه الحمد على هلاك المشركين، ونصر الرسل عليهم، والأولى أنه حمد لله سبحانه على كل ما أنعم به على خلقه أجمعين كما يفيد حذف المحمود عليه، فإن حذفه مشعر بالتعميم كما تقرّر في علم المعاني، والحمد هو: الثناء الجميل بقصد التعظيم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿فإنكم وما تعبدون﴾ قال: فإنكم يا معشر المشركين، وما تعبدون يعني: الأتلة ﴿ما أنتم عليه بغاتنين﴾ قال: بمضلين ﴿إلا من هو صال الجحيم﴾ يقول: إلا من سبق في علمي أنه سيصلى الجحيم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية يقول: إنكم لا تزلون أنتم، ولا أضل منكم إلا من قضيت عليه أنه صال

ثيابهم، وهم يقولون: ﴿اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص: 5]، فنزل فيهم ﴿ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ لَمَّا يَبْلُغُوا عَذَابَ﴾ [ص: 1 - 8].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَيُثَاقِقُ ﴿٢﴾ كَرَّ اهْلَاكِكُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادُوا ذَلَّاتٍ مِنْ مَنَاسٍ ﴿٣﴾ وَجَعَلُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ النَّارُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْمُوا عَلَى الْإِلَهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا يَمَعًا يَكُنْ فِي الْيَلَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَيْطَلٌ ﴿٧﴾ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِئِذَا بَلَ ثَمَّ فِي سَكِّهِ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَذَابٍ ﴿٨﴾ أَرِ عِنْدَهُمْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْغَيْرِ الْوَعَائِ ﴿٩﴾ أَرِ لَهُمْ تِلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرَوْا فِي الْآسَنِيبِ ﴿١٠﴾ جَعَدْنَا مِثْلَكَ مَهْرُومٍ مِنَ الْأَحْرَابِ ﴿١١﴾

قوله: ﴿ص﴾ قرأ الجمهور بسكون الدال كسائر حروف التهجي في أوائل السور، فإنها ساكنة الأواخر على الوقف. وقرأ أبي بن كعب، والحسن، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم، وابن أبي عبيدة، وأبو السماك بكسر الدال من غير تنوين، ووجه الكسر أنه لا لتقاء الساكنين، وقيل: وجه الكسر أنه من صاды يصاды إذا عارض، والمعنى: صاد القرآن بعملك أي: عارضه بعملك، وقابله، فاعمل به، وهذا حكاية النحاس عن الحسن البصري، وقال: إنه فسر قراءته هذه بهذا، وعنه أن المعنى: آتله، وتعرض لقراءته. وقرأ عيسى بن عمر: صاد بفتح الدال، والفتح لا لتقاء الساكنين، وقيل: نصب على الإغراء. وقيل: معناه: صاد محمد قلوب الخلق، واستمالها حتى آمنوا به، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو، وروي عن ابن أبي إسحاق أيضاً: أنه قرأ (صاد) بالكسر، والتنوين تشبيهاً لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات. وقرأ هارون الأعور، وابن السميع (صاد) بالضم من غير تنوين على البناء نحو منذ، وحيث.

وقد اختلف في معنى «صاد»، فقال الضحاك: معناه: صدق الله. وقال عطاء: صدق محمد. وقال سعيد بن جبيرة: هو: بحر يحيي الله به الميؤتي بين النفختين. وقال محمد بن كعب: هو: مفتاح اسم الله. وقال قتادة: هو: اسم من أسماء الله. وروي عنه أنه قال: هو اسم من أسماء الرحمن. وقال مجاهد: هو: فاتحة السورة. وقيل: هو: مما استأثر الله بعلمه، وهذا هو الحق كما قدمنا في فاتحة سورة البقرة. قيل: وهو إما اسم للحروف مسروداً على نمط التعبد، أو اسم للسورة، أو خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب بإضمار اذكر، أو اقرا، والواو في قوله: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ هي: واو القسم، والإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره، وعلو محله، ومعنى ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: أنه مشتمل على الذكر الذي فيه بيان كل شيء. قال مقاتل: معنى ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: ذي البيان. وقال الضحاك: ذي الشرف كما في قوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا

آخر الآية». وأخرج الخطيب نحوه من حديث أبي سعيد. وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم، عن رسول الله ﷺ قال: «من قال برب كل صلاة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين﴾ ثلاث مرات، فقد أكتال بالمكيال الأوفى من الأجر». وأخرج حميد بن زنجويه في ترغيبه من طريق الأصبغ بن نباتة عن علي بن أبي طالب نحوه.

وإلى هنا انتهى الجزء الثالث^(١) من هذا التفسير المبارك بمعونة الله، المقبول بفضل الله، بقلم مصنفه الحقيقير محمد بن علي الشوكاني غفر الله لهما. في نهار الخميس الحادي والعشرين من شهر محرم الحرام من شهر سنة تسع وعشرين ومائتين وألف من الهجرة النبوية، حامداً لله شاكرًا له مصلياً مسلماً على رسوله وآله، ويتلوه إن شاء الله^(٢) تفسير سورة ص.

انتهى سماع هذا الجزء على مؤلفه حفظه الله في يوم الاثنين غرة شهر جمادي الآخرة سنة 1239 هـ.

كتبه

يحيى بن علي الشوكاني
غفر الله لهما

تفسير سورة ص

وهي: مكية قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة «ص» بمكة، وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: «لما مرض أبو طالب نخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل، فقال: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه، فنهيت، فبعثت إليه، فجاء النبي ﷺ، فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، فخشى أبو جهل أن يجلس إلى أبي طالب، ويكون أرقى عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، فلم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم. ويقولون، قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: يا عم إنني أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤذي إليهم بها العجم الجزية، ففزعوا لكلمته، ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة نعم، وأبيك عشراً، قالوا: فما هي؟ قال: لا إله إلا الله، فقاموا فرعين ينفضون

(١) من تجزئة المؤلف) اهـ مصححه.

(٢) (الجزء الرابع من تجزئة المؤلف وأوله) اهـ مصحح القرآن.

فيه نذكركم ﴿[الأنبياء: 10] أي: شرفكم، وقيل: أي: ذي الموعظة.

واختلف في جواب هذا القسم ما هو؟ فقال الزجاج، والكسائي، والكوفيون غير الفراء: إنه قوله: ﴿إِنَّ نَّكَ لِحَقَّ﴾ [ص: 64]، وقال الفراء: لا نجده مستقيماً لتأخره جداً عن قوله: ﴿وَالْقُرْآنُ﴾، ورجح هو، وعلب: أن الجواب قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، وقال الأخفش: الجواب هو: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كُتِبَ الرِّسْلَ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ [ص: 14]، وقيل: هو صاد، لأن معناه: حق، فهو: جواب لقوله: ﴿وَالْقُرْآنُ﴾ كما تقول: حقاً والله، وجب والله. نكره ابن الأنباري، وروي أيضاً عن ثعلب، والفراء، وهو مبني على أن جواب القسم يجوز تقبُّمه، وهو ضعيف. وقيل: الجواب محنوف، والتقدير: والقرآن ذي النكر لتبعث، ونحو ذلك. وقال ابن عطية: تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار، والقول بالحنف أولى. وقيل: إن قوله: ﴿ص﴾ مقسم به، وعلى هذا القول تكون الواو في ﴿وَالْقُرْآنُ﴾ للعطف عليه، ولما كان الإقسام بالقرآن دالاً على صدقه، وأنه حق، وأنه ليس بمحل للريب قال سبحانه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، فاضرب عن ذلك، وكأنه قال: لا ريب فيه قطعاً، ولم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه. بل هم في عِزَّةٍ عن قبول الحق أي: تكبر، وتجبر. وشقاق أي: وامتناع عن قبول الحق، والعِزَّة عند العرب: الغلبة، والقهر، يقال: من عزَّ بَرَّ أي: من غلب سلب، ومنه ﴿وعزَّني في الخطاب﴾ [ص: 23] أي: غلبني، ومنه قول الشاعر:

يعزُّ على الطريق بمنكبي كما انترك الخليع على القداح والشقاق: مأخوذ من الشق، وقد تقدَّم بيانه. ثم خُوفهم سبحانه، وهذهم بما فعله بمن قبلهم من الكفار، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ يعني: الأمم الخالية المهلكة بتكذيب الرسل أي: كم أهلكنا من الأمم الخالية الذين كانوا آمنع من هؤلاء، وأشدَّ قوة، وأكثر أموالاً، وكَم هي: الخيرية الدالة على التكثر، وهي في محل نصب بأهلكنا على أنها مفعول به، ومن قرن تمييز، «ومن» في ﴿مَنْ قَبْلِهِمْ﴾ هي لابتداء الغاية ﴿فَنَادُوا وَلاَتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ النداء هنا: هو نداء الاستغاثة منهم عند نزول العذاب بهم، وليس الحين حين مناص. قال الحسن: نادوا بالتوبة، وليس حين التوبة، ولا حين ينفع العمل. والمناص مصدر ناص ينوص، وهو الفوت، والتأخر. ولاَت بمعنى: ليس بلغة أهل اليمن. وقال النحويون: هي: لا التي بمعنى: ليس زينت عليها التاء كما في قولهم: رب، وربت، وثمَّ وثمَّ قال الفراء: النوص التأخر، وأنشد قول امرئ القيس:

أمن نذكر ليلى إذ نأتك تنوص

قال: يقال: ناص عن قرنه ينوص نوصاً أي: قر، وزاغ. قال الفراء: ويقال: ناص ينوص: إذا تقمَّ. وقيل: المعنى: أنه قال بعضهم لبعض مناص أي: عليكم بالفرار، والهزيمة، فلما اتاهم العذاب قالوا: مناص، فقال الله: ﴿وَلاَتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال سيبويه: لاَت مشبهة بليس، والاسم فيها مضمَر أي:

ليس حيننا حين مناص. قال الزجاج: التقدير وليس أوأنا. قال ابن كيسان: والقول كما قال سيبويه، والوقف عليها عند الكسائي باللهاء، وبه قال المبرد، والأخفش. قال الكسائي، والفراء، والخليل، وسيبويه، والأخفش: والتاء تكتب منقطعة عن حين، وكذلك هي في المصاحف. وقال أبو عبيد: تكتب متصلة بحين، فيقال: (ولا تحين)، ومنه قول أبي، وجرة السعدي:

العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان ما من مطعم وقد يستغنى بحين عن المضاف إليه كما قال الشاعر: تنكرب حب ليلى لاَت حيناً وأمسى الشيب قد قطع القرينا قال أبو عبيد: لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين، وأوان، والآن. قلت: بل قد يزيدونها في غير ذلك كما في قول الشاعر:

فلتعرفن خلائنا مشمولة ولتندمن ولاَت ساعة مندم وقد أنشد الفراء هذا البيت مستدلاً به على أن من العرب من يخفض بها، وجملة ﴿وَلاَتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير نادوا. قرأ الجمهور (لاَت) بفتح التاء، وقرئ (لاَت) بالكسر كجبر ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ أي: عجب الكفار الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم في عِزَّةٍ وشقاق أن جاءهم منذر منهم أي: رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمروا على الكفر، وأن وما في حيزها في محل نصب بنزع الخافض أي: من أن جاءهم، وهو كلام مستأنف مشتمل على نكر نوع من أنواع كفرهم ﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ قالوا هذا القول لما شاهدوا ما جاء به من المعجزات الخارجة عن قدرة البشر أي: هذا المذمعي للرسالة ساحر فيما يظهره من المعجزات كذاب فيما يدعيه من أن الله أرسله. قيل: ووضع الظاهر موضع المضمَر لإظهار الغضب عليهم وأن ما قالوه لا يتجاسر على مثله إلا المتوغلون في الكفر. ثم أنكروا ما جاء به ﷺ من التوحيد، وما نفاه من الشركاء لله، فقالوا: ﴿اجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ أي: صيرها إلهاً واحداً، وقصرها على الله سبحانه ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ أي: لأمر بالغ في العجب إلى الغاية. قال الجوهري: العجيب الأمر الذي يتعجب منه. وكذلك العجَاب بالضم، والعجَاب بالتشديد أكثر منه، قرأ الجمهور (عجَاب) مخففاً. وقرأ علي، والسلمي وعيسى بن عمر، وابن مقسم بتشديد الجيم. قال مقاتل: عَجَاب يعني: بالتخفيف لغة أزد شنوءة، قيل: والعجَاب بالتخفيف، والتشديد يدلان على أنه قد تجاوز الحد في العجب، كما يقال: الطويل الذي فيه طول. والطوال الذي قد تجاوز حدَّ الطول، وكلام الجوهري يفيد اختصاص المبالغة بعجَاب مشدَّد الجيم لا بالمخفف، وقد قَدَّمنا في صدر هذه السورة سبب نزول هذه الآيات ﴿وانطلق الملا منهم﴾ المراد بالملأ: الأشراف كما هو مقرر في غير موضع من تفسير الكتاب العزيز أي: انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب كما تقدم قائلين ﴿إِنْ امشوا﴾ أي: قائلين

لبعضهم بعضاً أمضوا على ما كنتم عليه، ولا تدخلوا في دينه ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ أي: اثبتوا على عبادتها، وقيل: المعنى: وانطلقوا بالاشراف منهم، فقالوا للعوام: امشوا، وأصبروا على آلِهَتكم، و «أن» في قوله: ﴿أَنْ لَمْشُوا﴾ هي: المفسرة للقول المقدر، أو لقوله: «وانطلق»، لأنه مضمن معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية معمولة للمقدر، أو للمذكور أي: بأن امشوا. وقيل: المراد بالانطلاق: الاندفاع في القول، وامشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولايتها أي: اجتمعوا، وأكثروا، وهو بعيد جداً، وخلاف ما يدل عليه الانطلاق، والمشي بحقيقتيهما، وخلاف ما تقدم في سبب النزول، وجملة ﴿أَنْ هَذَا لَشَيْءٍ يُرَادُ﴾ تعليل لما تقدمه من الأمر بالصبر أي: يريد محمد بناءً وبآلهتنا، ويودّ تمامه، ليعلو علينا، ونكون له أتباعاً، فيتحكم فينا بما يريد، فيكون هذا الكلام خارجاً مخرج التحذير منه، والتنفير عنه. وقيل: المعنى: إن هذا الأمر يريد الله سبحانه، وما أراده، فهو كائن لا محالة، فاصبروا على عبادة آلِهَتكم. وقيل: المعنى: إن دينكم لشيء يراد أي: يطلب، ليؤخذ منكم، وتغلبوا عليه، والأولى ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمد من التوحيد في الملة الآخرة. وهي: ملة النصرانية، فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام، كذا قال محمد بن كعب القرظي، وقتادة، ومقاتل، والكلبي، والسدي. وقال مجاهد: يعنون: ملة قريش، وروي مثله عن قتادة أيضاً. وقال الحسن: المعنى: ما سمعنا أن هذا يكون آخر الزمان. وقيل: المعنى: ما سمعنا من اليهود، والنصارى أن محمداً رسول ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقًا﴾ أي: ما هذا إلا كذب اختلقه محمد، وافتراه. ثم استنكروا أن يخص الله رسوله بمزية النبوة دونهم، فقالوا: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ والاستفهام للإنكار أي: كيف يكون ذلك، ونحن الرؤساء والاشراف. قال الزجاج: قالوا: كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا، ونحن أكبر سناً، وأعظم شرفاً منه، وهذا مثل قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31] فأنكروا أن يفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء. ولما نكر استنكارهم لنزول القرآن على رسول الله ﷺ دونهم بين السبب الذي لأجله تركوا تصديق رسول الله ﷺ فيما جاء به، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ نَكْرٍ﴾ أي: من القرآن، أو الوحي لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه، وإهمالهم للأدلة الدالة على أنه حق منزل من عند الله ﴿بَلْ لَمَّا يَبْلُغُوا عَذَابِ﴾ أي: بل السبب أنهم لم يبلّغوا عذابهم، فاعتزروا بطول المهلة، ولو ذاقوا عذابهم على ما هم عليه من الشرك، والشك لصنّفوا ما جئت به من القرآن، ولم يشكوا فيه ﴿لَمَّا عُنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أي: مفاتيح نعم ربك، وهي النبوة، وما هو بونها من النعم حتى يعطوها من شاءوا، فما لهم، وإنكار ما تفضل الله به على هذا النبي، واختاره له، واصطفاه لرسالته. والمعنى: بل أعندهم، لأن أم هي

المنقطعة المقنّرة ببل والهمزة. والعزیز الغالب القاهر. والوهاب: المعطي بغير حساب ﴿لَمَّا لَهُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: بل لهم ملك هذه الأشياء حتى يعطوا من شاءوا، ويمنعوا من شاءوا، ويعترضوا على إعطاء الله سبحانه ما شاء لمن شاء، وقوله: ﴿فَلْيَسِّرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ جواب شرط محذوف أي: إن كان لهم نلك، فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء، أو إلى العرش حتى يحكموا بما يريدون من عطاء، ومنع، ويديروا أمر العالم بما يشتهون، أو فليصعدوا، وليمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحي على محمد ﷺ. والأسباب: أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها، قاله مجاهد، وقتادة، ومنه قول زهير: ولورام أسباب السماء بسلم قال الربيع بن أنس: الأسباب أنق من الشعر، وأشد من الحديد، ولكن لا ترى. وقال السدي: ﴿فِي الْأَسْبَابِ﴾ في الفضل، والدين. وقيل: فليعملوا في أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة، وهو قول أبي عبيدة. وقيل: الأسباب الحبال يعني: إن وجدوا حبالاً يصعدون فيها إلى السماء فعلوا، والأسباب عند أهل اللغة كل شيء يتوصل به إلى المطلوب كائن ما كان. وفي هذا الكلام تهكم بكم، وتعجيز لهم ﴿جَنَدَ مَا هُنَاكَ مَهْزُومٍ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ هذا وعد من الله سبحانه لنبيه ﷺ بالنصر عليهم، والظفر بهم، وجند مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم جند، يعني: الكفار مهزوم مكسور عما قريب، فلا تبال بهم، ولا تظن أنهم يصلون إلى شيء مما يضرهم بك منا لكيد، و «ما» في قوله: ﴿مَا هُنَاكَ﴾ هي: صفة لجند لإفادة التعظيم، والتحقير أي: جند أي جند. وقيل: هي زائدة، يقال: هزمت الجيش كسرت، وتهزمت القرية: إذا تكسرت، وهذا الكلام متصل بما تقدم، وهو قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهم جند من الأحزاب مهزومون، فلا تحزن لعزتهم، وشقاقهم، فإني أسلب عزهم، وأهزم جمعهم، وقد وقع ذلك، والله الحمد في يوم بدر، وفيما بعده من مواطن الله.

وقد أخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال: سئل جابر بن عبد الله، وابن عباس عن ﴿ص﴾، فقال: لا ندري ما هو. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: ص محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عنه ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ قال: ذي الشرف. وأخرج أبو داود الطيالسي، وعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿فَنَابُوا وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال: ليس بحين نزو، ولا فرار. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عنه في الآية قال: نابوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تنكرت ليلى لات حين تنكر وقد بنت منها والمناص بعيد وأخرج عنه أيضاً في الآية قال: ليس هذا حين زوال. وأخرج ابن المنذر من طريق عطية عنه أيضاً قال: لا حين فرار. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في

قوله: ﴿وانطلق للملا منهم﴾ الآية قال: نزلت حين انطلق اشراف قريش إلى أبي طالب، فكلّموه في النبي ﷺ. وأخرج ابن مردويه عنه ﴿وانطلق للملا منهم﴾ قال: أبو جهل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ما سمعنا بهذا في الملّة الآخره﴾ قال: النصرانية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ قال: في السماء.

كَبَبَ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ تُجَّ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ ﴿١٧﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ الْأَنْبِيَاءِ الْأَحْزَابِ ﴿١٨﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴿١٩﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً لَهَا مِنْ فَرَقٍ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا وَقَتًا قَلِيلًا بِرَبِّ الْمَسَابِ ﴿٢١﴾ آمَنَّا عَلَى مَا يَفْتَرُونَ وَأَذْكُرُ عَبْدًا نَادَوْا الْأَكْبَرُ إِنَّهُ آوَابٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَخِّرُ بِالْحَقِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿٢٣﴾ وَالطَّبَرِ تَحْشُرُهُ كُلُّ لَهْ أَوَّابٍ ﴿٢٤﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُلَاطِ ﴿٢٥﴾ وَهَلْ أَنْتَكَ نَبْوُ الْحَصَمِ إِذْ سَخَرُوا الْيَحْرَابَ ﴿٢٦﴾ إِذْ دَسَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُمْ تَابًا وَقَالَ لَا تَخَفْ حَسَنًا بَيْنَ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فَامْكُرْ يَنْتَ بِالْحَقِّ وَلَا تُلْطِمْ وَأَعِدْنَا إِلَى سَرِّهِ الْغِيْطِ ﴿٢٧﴾ إِنَّ هَذَا آتَى لَمْ يَنْصَحْ وَمَعْنَى تَجَمُّدٍ وَلَيْ تَجَمُّدٍ وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيَا وَغَزَى فِي الْخُلَاطِ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَقَدْ طَلَّكَ بِسْوَالٍ تَهَيَّكُ إِلَى يَلَاغِيهِ وَإِنَّ كَيْدَ بَيْنَ الْخُلَاطَةِ بَيْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ مَأْسُوا وَصَلُوا أَلْفَلَحِيحٍ وَقِيلَ مَا هُمْ وَعَلَى دَاوُدَ أَنْتَ فَاسْتَفَرَّ رَبُّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٩﴾ فَتَقَرَّرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَمْ يَنْتَ لَرَكْنٍ وَسَخَّرْنَا مَحَاطَ ﴿٣٠﴾

لما نكر سبحانه أحوال الكفار المعاصرين لرسول الله ﷺ نكر أمثالهم ممن تقدّمهم، وعمل عملهم من الكفر والتكذيب، فقال: ﴿كُتِبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ قال المفسرون: كانت له أوتاد يعذب بها الناس، وذلك أنه كان إذا غضب على أحد، وتد يديه، ورجليه، ورأسه على الأرض. وقيل: المراد بالأوتاد: الجموع، والجنود الكثيرة، يعني: أنهم كانوا يقوون أمره، ويشدون سلطانه كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه، فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا. قال ابن قتيبة: العرب تقول: هم في عزّ ثابت الأوتاد، وملك ثابت الأوتاد، يربون ملكاً دائماً شديداً، وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت، ويقوم بالأوتاد. وقيل: المراد بالأوتاد هنا البناء المحكم أي: وفرعون ذو الأبنية المحكمة. قال الضحّاك: والبنيان يسمى أوتاداً، والأوتاد جمع وتد أقصحتها فتح الواد، وكسر التاء، ويقال: وقد بفتحهما، وودّ بإدغام التاء في الدال، وودت. قال الأصمعي: ويقال: وتد واتد مثل شغل شاغل، وأنشد:

لاقت عليّ المأجديلاً واتدا ولم يكن يخلّفها المواعدا
﴿وثمود وقوم لوط وإصحاب لا يكة﴾ الآية الغيضة، وقد تقدّم تفسيرها، واختلاف القراءة في قراءتها في سورة الشعراء، ومعنى ﴿أولئك الأحزاب﴾: أنهم الموصوفون بالقوّة، والكثرة كقولهم: فلان هو الرجل، وقريش، وإن كانوا حزباً كما قال الله سبحانه فيما تقدّم: ﴿جند ما هنالك مهزوم

من الأحزاب﴾ [ص: 11]؛ ولكن هؤلاء الذين قصهم الله علينا من الأمم السالفة هم أكثر منهم عدداً، وأقوى أيداناً، وأوسع أموالاً، وأعماراً، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة، ويجوز أن تكون خبراً، والمبتدأ قوله: ﴿وعاد﴾ كذا قال أبو البقاء، وهو ضعيف، بل الظاهر أن عاد، وما بعده معطوفات على قوم نوح، والأولى أن تكون هذه الجملة خبراً لمبتدأ محذوف، أو بدلاً من الأمم المذكورة ﴿إن كل إلا كذب الرسل﴾ إن هي: النافية، والمعنى: ما كل حزب من هذه الأحزاب إلا كذب الرسل، لأن تكذيب الحزب لرسوله المرسل إليه تكذيب لجميع الرسل، أو هو من مقابلة الجمع بالجمع، والمراد بتكذيب: كل حزب لرسوله، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: ما كل أحد من الأحزاب في جميع أحواله إلا وقع منه تكذيب الرسل ﴿فحقّ عقاب﴾ أي: فحقّ عليهم عقابي بتكذيبهم، ومعنى حقّ: ثبت، ووجب، وإن تأخر، فكانه واقع بهم، وكلّ ما هو آت قريب. قرأ يعقوب بإثبات الياء في (عقاب)، وحذفها الباقيون مطابقة لرؤوس الآي ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحة وهي: النفخة الكائنة عند قيام الساعة. وقيل: هي النفخة الثانية، وعلى الأوّل المراد: من عاصر نبينا ﷺ من الكفار، وعلى الثاني المراد كفار الأمم المذكورة أي: ليس بينهم، وبين حلول ما أعد الله لهم من عذاب النار إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية. وقيل: المراد بالصيحة: عذاب يفجؤهم في الدنيا كما قال الشاعر:

صاح الزمان بأل بركم صيحة خرداً الشدتها على الأنفان
وجملة ﴿وما لها من فواق﴾ في محل نصب صفة لصيحة. قال الزجاج: فواق، وفواق بفتح الفاء، وضمها أي: ما لها من رجوع، والفواق ما بين حلبتين الناقة، وهو مشتق من الرجوع أيضاً، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين، وأفاق من مرضه أي: رجع إلى الصحة، ولهذا قال مجاهد، ومقاتل: إن الفواق الرجوع. وقال قتادة: ما لها من مثوية. وقال السدّي: ما لها من إفاقة، وقيل: ما لها من مرد. قال الجوهري: ما لها من نظرة، وراحة وإفاقة، ومعنى الآية: أن تلك الصيحة هي ميعاد عذابهم، فإذا جاءت لم ترجع، ولا تردّ عنهم، ولا تصرف منهم، ولا تتوقف مقدار فواق ناقة، وهي ما بين حلبتين الحالب لها، ومنه قول الأعشى:

حتى إذا فاقة في ضرعها اجتمعت جاءت لترضع شقّ النفس لورضعها
والفيقة اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين، وجمعها فقيق، وأفواق. قرأ حمزة، والكسائي ما لها من فواق بضم الفاء، وقرأ الباقيون بفتحها. قال الفراء، وأبو عبيدة: الفواق بفتح الفاء الراحة أي: لا يفيقون فيها كما يفيق المريض، والمغشي عليه، وبالضم الانتظار ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قسطاً قبل يوم الحساب﴾ لما سمعوا ما توعدهم الله به من العذاب قالوا هذه المقالة استهزاء، وسخرية، والقط في اللغة: النصيب من القط، وهو: القطع، وبهذا قال قتادة، وسعيد بن جبير، قال الفراء: القط في كلام العرب: الحظ والنصيب،

ومنه قيل: للصك قط. قال أبو عبيدة، والكسائي: القط الكتاب بالجواز، والجمع القطوط، ومنه قول الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته
بغبطته يعطي القطوط ويقاق

ومعنى يقاق: يصلح، ومعنى الآية: سؤالهم لربهم أن يعجل لهم نصيبهم، وحظهم من العذاب، وهو مثل قوله: **﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾** [الحج: 47، والعنكبوت: 53]. وقال السدي: سألوا ربهم: أن يمثل لهم منازلهم من الجنة، ليعلموا حقيقة ما يوعدون به، وقال إسماعيل بن أبي خالد: المعنى: عجل لنا أرزاقنا، وبه قال سعيد بن جببر، والسدي. وقال أبو العالية، والكلبي، ومقاتل: لما نزل **﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾** [الحاقة: 19، والانشقاق: 7] **﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾** [الحاقة: 25] قالت قريش: زعمت يا محمد أننا نؤتي كتابنا بشمالنا، فعجل لنا قطنا قبل يوم الحساب. ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يصبر على ما يسمعه من أقوالهم فقال: **﴿اصبر على ما يقولون﴾** من أقوالهم الباطلة التي هذا القول المحكي عنهم من جملتها. وهذه الآية منسوخة بآية السيف **﴿وَأَنْزَكْنَا عَبِيدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾** لما فرغ من ذكر قرون الضلالة، وأمم الكفر، والتكذيب، وأمر نبيه ﷺ بالصبر على ما يسمعه زاد في تسليته، وتأسيته بذكر قصة داود، وما بعدها. ومعنى **﴿أَنْزَكْنَا عَبِيدَنَا دَاوُدَ﴾**: أنكر قصته، فإنك تجد فيها ما تتسلى به، والأيد: القوة، ومنه رجل أيد أي: قوي، وتأيد الشيء: تقوى، والمراد: ما كان فيه عليه السلام من القوة على العبادة. قال الزجاج: وكانت قوة داود على العبادة أتم قوة، ومن قوته ما أخبرنا به نبينا ﷺ أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يصلي نصف الليل، وكان لا يفر إذا لاقى العدو، وجملة **﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** تحليل لكونه ذا الأيد، والأواب: الرجاء عن كل ما يكرهه الله سبحانه إلى ما يحبه، ولا يستطيع ذلك إلا من كان قوياً في دينه. وقيل: معناه: كلما ذكر ذنبه استغفر منه، وناب عنه، وهذا داخل تحت المعنى الأول، يقال: آب يثوب: إذا رجع **﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾** أي: يقتسن الله سبحانه، وينزهنه عما لا يليق به. وجملة **﴿يُسَبِّحْنَ﴾** في محل نصب على الحال، وفي هذا بيان ما أعطاه الله من البرهان، والمعجزة، وهو: تسبيح الجبال معه. قال مقاتل: كان داود إذا ذكر الله ذكر الجبال معه، وكان يفقه تسبيح الجبال. وقال محمد بن إسحاق: أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال نوى حسن، فهذا معنى: تسبيح الجبال، والأول أولى. وقيل: معنى **﴿يُسَبِّحْنَ﴾**: يصلين، و**﴿مَعَهُ﴾** متعلق بسخرنا. ومعنى **﴿بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾** قال الكلبي: غداة وعشية، يقال: أشرقت الشمس: إذا أضاءت، وذلك وقت الضحى. وأما شروقها، فطلوعها. قال الزجاج: شرقت الشمس: إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت **﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾** معطوف على الجبال، وانتصاب محشورة على الحال من الطير أي: وسخرنا الطير حال كونها محشورة أي: مجموعة إليه تسبح الله معه. قيل:

كانت تجمعها إليه الملائكة. وقيل: كانت تجمعها الريح **﴿كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ﴾** أي: كل واحد من داود، والجبال، والطير رجاء إلى طاعة الله، وأمره، والضمير في له راجع إلى الله عز وجل. وقيل: الضمير لداود أي: لأجل تسبيح داود مسبح، فوضع أواب موضع مسبح، والأول أولى. وقد قدمنا أن الأواب: الكثير الرجوع إلى الله سبحانه **﴿وَوَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾** قُوَيْنَاهُ وَثَبَّتْنَاهُ بالنصر في المواطن على أعدائه وإلقاء الرعب منه في قلوبهم. وقيل: بكثرة الجنود **﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾** المراد بالحكمة: النبوة، والمعرفة بكل ما يحكم به. وقال مقاتل: الفهم، والعلم. وقال مجاهد: العدل. وقال أبو العالية: العلم بكتاب الله. وقال شريح: السنة. والمراد بفصل الخطاب: الفصل في القضاء، وبه قال الحسن، والكلبي، ومقاتل. وحكى الواحدي عن الأكثر: أن فصل الخطاب الشهود، والإيمان؛ لأنها إنما تنقطع الخصومة بهذا. وقيل: هو: الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل **﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسُوْرُوا الْمِحْرَابَ﴾** لما مدحه الله سبحانه بما تقدم ذكره أرفف ذلك بذكر هذه القصة الواقعة له لما فيها من الأخبار العجيبة. قال مقاتل: بعث الله إلى داود ملكين، جبريل، وميكائيل؛ لينبئه على التوبة، فأتياه، وهو في محرابه. قال النحاس: ولا خلاف بين أهل التفسير أن المراد بالخصم ها هنا الملكان، والخصم مصدر يقع على الواحد، والاثنيين، والجماعة. ومعنى **﴿تَسُوْرُوا الْمِحْرَابَ﴾**: أتوه من أعلى سورته، ونزلوا إليه، والسور: الحائط المرتفع، وجاء بلفظ الجمع في تسووروا مع كونهم اثنين نظراً إلى ما يحتمله لفظ الخصم من الجمع. ومنه قول الشاعر:

وخصم غضاب قد نفضت لحام
كنفض البراذين العراب المخاليا

والمحراب: الغرفة، لأنهم تسووروا عليه، وهو فيها، كذا قال يحيى بن سلام. وقال أبو عبيدة: إنه صدر المجلس، ومنه محراب المسجد. وقيل: إنما كانا إنسيين، ولم يكونا ملكين، والعامل في «إذ» في قوله: **﴿إِذْ نَخَلُوا عَلَيْهِ﴾** النبا أي: هل أتاك الخبر الواقع في وقت تسورهم، وبهذا قال ابن عطية، ومكي، وأبو البقاء. وقيل: العامل فيه أتاك. وقيل: معمول للخصم. وقيل: معمول لمحذوف أي: وهل أتاك نبا تحاكم الخصم. وقيل: هو معمول لتسووروا. وقيل: هو بدل مما قبله. وقال الفراء: إن أحد الطرفين المذكورين بمعنى: لما **﴿فَفَزَعَ مِنْهُمْ﴾**، وذلك لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم، ونخلوا عليه بغير إئنه، ولم يدخلوا من الباب الذي يدخل منه الناس. قال ابن الأعرابي: وكان محراب داود من الامتناع بالارتفاع بحيث لا يرتقي إليه أمني بحيلة، وجملة **﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالوا لداود لما فزع منهم، وارتفع **﴿خَصْمَانِ﴾**، على أنه خير مبتداً محذوف أي: نحن خصمان، وجاء فيما سبق بلفظ الجمع، وهنا بلفظ التثنية لما ذكرنا من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد، والمثنى، والمجموع، فالكل جائز. قال الخليل: هو كما تقول: نحن فعلنا كذا؛ إذا كنتم اثنين. وقال الكسائي:

مبتداً، وقليل خبره ﴿وَقُلْنَ دَاوُدَ إِنَّمَا فُتِنَاهُ﴾، قال أبو عمرو، والفراء: ظن يعني: أيقن. ومعنى ﴿فُتِنَاهُ﴾: ابتليناه، والمعنى: أنه عند أن تخلصنا إليه، وقال ما قال علم عند ذلك أنه المراد، وأن مقصودهما التعريض به، وبصاحبه الذي أراد أن ينزل له عن امرأته. قال الواحدي: قال المفسرون: فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه، فضحك، فعند ذلك علم داود بما أراده. قرأ الجمهور: (فتناه) بالتخفيف للتاء، وتشديد النون. وقرأ عمر بن الخطاب، والحسن، وأبو رجاء بالتشديد للتاء، والنون، وهي: مبالغة في الفتنة. وقرأ الضحاك (افتناه)، وقرأ قتادة، وعبيد بن عمير، وابن السميع (فتناه) بتخفيفهما، وإسناد الفعل إلى الملكين، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لذنبه ﴿وَوَجَرَ رَاكِعاً﴾ أي: ساجداً، وعبر بالركوع عن السجود، قال ابن العربي: لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هنا السجود، فإن السجود هو: الميل، والركوع هو: الانحناء، وأحدهما يدخل في الآخر، ولكنه قد يخص كل واحد منهما بهيئة. ثم جاء في هذا على تسمية أحدهما بالآخر. وقيل: المعنى للسجود راكعاً أي: مصلياً. وقيل: بل كان ركوعهم سجوداً. وقيل: بل كان سجودهم ركوعاً ﴿وَوَاتِبَ﴾ أي: رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه.

وقد اختلف المفسرون في ذنب داود الذي استغفر له، وتاب عنه على أقوال: الأول: أنه نظر إلى امرأة الرجل التي أراد أن تكون زوجة له، كذا قال سعيد بن جبير، وغيره. قال الزجاج: ولم يعتمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها، وصارت الأولى له، والثانية عليه. القول الثاني: أنه أرسل زوجها في جملة الغزاة. الثالث: أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها. الرابع: أن أوريا كان خطب تلك المرأة، فلما غاب خطبها داود، فزوجت منه لجلالته، فاغتم لذلك أوريا، فعتب الله عليه حيث لم يتركها لحاطبها. الخامس: أنه لم يجزع على قتل أوريا كما كان يجزع على من هلك من الجند، ثم تزوج امرأته، فعاتبه الله على ذلك، لأن ذنوب الأنبياء، وإن صغرت، فهي عظيمة. السادس: أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر كما قدما.

واقول: الظاهر من الخصومة التي وقعت بين الملكين تعريضاً لداود عليه السلام: أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها، ويضمرها إلى نسائه، ولا ينافي هذا العصمة الكائنة للأنبياء، فقد نبهه الله على ذلك، وعرض له بإرسال ملائكته إليه، ليتخاصموا في مثل قصته حتى يستغفر لذنبه، ويتوب منه، فاستغفر وتاب. وقد قال سبحانه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121] وهو أبو البشر، وأول الأنبياء، ووقع لغيره من الأنبياء ما قصه الله علينا في كتابه. ثم أخبر سبحانه: أنه قبل استغفاره، وتوبته قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الذنب الذي استغفر منه. قال عطاء الخراساني، وغيره: إن داود بقي ساجداً أربعين يوماً حتى نبت الرعي حول وجهه، وغمر رأسه. قال ابن الأنباري: الوقف على قوله:

جمع لما كان خبراً، فلما انقضى الخبر، وجاءت المخاطبة أخير الاثنان عن أنفسهما، فقالا: خصمان، وقوله: ﴿يُغْفَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ هو على سبيل الفرض، والتقدير، وعلى سبيل التعريض؛ لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان. ثم طلبا منه أن يحكم بينهما بالحق، ونهياه عن الجور، فقالا: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ﴾ أي: لا تجر في حكمك، يقال: شط الرجل، وأشط شططاً، وإشطاطاً: إذا جار في حكمه. قال أبو عبيد: شططت عليه، وأشططت أي: جرت. وقال الأخفش: معناه: لا تسرف، وقيل: لا تفرط، وقيل: لا تمل. والمعنى متقارب، والأصل فيه البعد، من شطت الدار: إذا بعثت. قال أبو عمرو: الشطط مجاوزة القدر في كل شيء ﴿وَوَاهِدْنَا إِلَى سِوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ سواء الصراط: وسطه. والمعنى: أرشدنا إلى الحق، واحملنا عليه. ثم لما أخبره عن الخصومة إجمالاً شرعاً في تفصيلهما، وشرحها، فقالا: ﴿إِنْ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ المراد بالأخوة هنا: أخوة الدين، أو الصحبة، والنعجة هي: الأنثى من الضأن، وقد يقال لبقر الوحش: نعجة ﴿وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ قال الواحدي: النعجة البقرة الوحشية، والعرب تكني عن المرأة بها، وتشبه النساء بالنساء من البقر. قرأ الجمهور (تسع وتسعون) بكسر التاء الفوقية. وقرأ الحسن، وزيد بن علي بفتحها. قال النحاس: وهي لغة شاذة، وإنما عنى بـ «هذا»: داود؛ لأنه كان له تسع وتسعون امرأة، وعن بقوله: «ولي نعجة واحدة» [أوريا] زوج المرأة التي أراد أن يتزوجها داود كما سيأتي بيان ذلك ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي: ضمها إلي، وانزل لي عنها حتى أكفلها، وأصير يعلأ لها. قال ابن كيسان: أكلها كفلي، ونصبي ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني، يقال: عزه يعزّه عزاً: إذا غلبه. وفي المثل «من عزَّ بَرٌّ» أي: من غلب سلب، والاسم العزة: وهي القوة. قال عطاء: المعنى: إن تكلم كان أفصح مني. وقرأ ابن مسعود، وعبيد بن عمير (وعازني في الخطاب) أي: غالبني من المعازة، وهي: المغالبة ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ﴾ أي: بسؤاله نعجتك؛ ليضمها إلى نعلجه التسع والتسعين إن كان الأمر على ما تقول، واللام هي: الموطئة للقسم، وهي وما بعدها جواب للقسم المقدر. وجاء بالقسم في كلامه مبالغة في إنكار ما سمعه من طلب صاحب التسع والتسعين النعجة أن يضم إليه النعجة الواحدة التي مع صاحبه، ولم يكن معه غيرها. ويمكن أنه إنما قال بهذا بعد أن سمع الاعتراف من الآخر. قال النحاس: ويقال: إن خطيئة داود هي: قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾؛ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت ﴿وَأَنْ كَثِيراً مِنَ الْخِلَاطِ﴾ وهم: الشركاء، وأحدهم خليط: وهو المخالط في المال ﴿لِيُغْفِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يتعدى بعضهم على بعض، ويظلمه غير مرأع لحقه ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فإنهم يتحامون ذلك، ولا يظلمون خليطاً، ولا غيره ﴿وَقُلْ لِيْلَهُمْ﴾ أي: وقليل هم، وما زائدة للتوكيد، والتعجيب. وقيل: هي موصولة، وهم

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ تَامَ، ثُمَّ يَبْتَدِئُ الْكَلَامَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ لَهُ عُنْدَنَا لِزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾ الزُّلْفَى: الْقُرْبَى، وَالْكِرَامَةُ بَعْدَ الْمَغْفَرَةِ لِلذَّنْبِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: الزُّلْفَى الدُّنُو مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمَرَادُ بِحَسَنِ الْمَآبِ: حَسَنَ الْمَرْجِعِ، وَهُوَ: الْجَنَّةُ.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوْقٍ﴾ قال: من رجعة. ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قُطْنَا﴾ قال: سألوا الله أن يعجل لهم. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الزبير ابن عدي عنه: ﴿عَجَلْ لَنَا قُطْنَا﴾ قال: نصيبنا من الجنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿هَذَا الْإِيدُ﴾ قال: القُرَّة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الأَوَابُ الْمَسْبُوح. وأخرج الديلمي عن مجاهد قال: سألت ابن عمر عن الأَوَابِ، فقال: سألت النبي ﷺ عنه، فقال: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلاه، فيستغفر الله. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: الأَوَابُ الموقن. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن عطاء الخراساني عنه قال: لم يزل في نفسي من صلاة الضحى حتى قرأت هذه الآية ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يَسْبِحنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عنه أيضاً قال: لقد أتى عليّ زمان، وما أدري وجه هذه الآية ﴿يَسْبِحنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ حتى رأيت الناس يصلون الضحى. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عنه قال: كنت أمرُ بهذه الآية ﴿يَسْبِحنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ فما أدري ما هي؟ حتى حدثتني أم هانئ بنت أبي طالب: «أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الفتح، فدعا بوضوء، فتوضأ، ثم صلى الضحى، ثم قال: يا أم هانئ هذه صلاة الإِشْرَاقِ». وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من وجه آخر عنه نحوه. والأحاديث في صلاة الضحى كثيرة جداً قد نكرناها في شرحنا للمنتقى. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: استعدي رجل من بني إسرائيل عند داود على رجل من عظمائهم، فقال: إن هذا غصيني بقرأ لي، فسال داود الرجل عن ذلك، فجدده، فسال الآخر البيعة، فلم يكن له بيعة، فقال لهما داود: قوماً حتى انظر في أمركما، فقاما من عنده، فأتى داود في منامه فقيل له: اقتل الرجل الذي استعدي، فقال: إن هذه رؤيا، ولست أعجل حتى أثبت، فأتى الليلة الثانية في منامه، فأمر أن يقتل الرجل، فلم يفعل، ثم أتى الليلة الثالثة، فقيل له: اقتل الرجل، أو تاتيكَ العقوبة من الله، فأرسل داود إلى الرجل، فقال: إن الله أمرني أن أقتلك، قال: تقتلني بغير بيعة، ولا تثبت؟ قال: نعم، والله لأنفذن أمر الله فيك، فقال الرجل: لا تعجل عليّ حتى أخبرك، إني والله ما أخذت بهذا الذنب، ولكنني كنت اغتلت والد هذا، فقتلته، فبذلك أخذت، فأمر به داود، فقتل، فاشتدت هيبته في بني إسرائيل، وشد به ملكه، فهو قول الله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال: أعطي الفهم. وأخرج ابن أبي حاتم، والديلمي عن أبي موسى الأشعري قال: أوّل من قال أما بعد داود عليه السلام ﴿وَوَ﴾ هو

﴿فَصَلِّ الْخُطَابَ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن الشعبي: أنه سمع زياد بن أبيه يقول: فصل الخطاب الذي أوتي داود: أما بعد. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن داود حدث نفسه إذا ابتلي أنه يعتصم، فقيل له: إنك ستبتلي، وستعلم اليوم الذي تبتلي فيه، فخذ حذرك، فقيل له: هذا اليوم الذي تبتلي فيه، فأخذ الزبور، ودخل المحراب، وأغلق باب المحراب، وأخذ الزبور في حجره، وأقعد منصفاً يعني: خادماً على الباب، وقال: لا تأذن لأحد عليّ اليوم، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كاحسن ما يكون للطير فيه من كل لون، فجعل يدور بين يديه، فدنا منه، فأمكن أن يأخذه، فتناوله بيده؛ ليأخذه، فاستوفز من خلفه، فاطبق الزبور، وقام إليه، ليأخذه، فطار، فوقع على كوة المحراب، فدنا منه؛ ليأخذه، فافضى، فوقع على خص، فاشرف عليه لينظر أين وقع؟ فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض، فلما رأت ظله حركت رأسها، فغطت جسدها أجمع بشعرها، وكان زوجها غائياً في سبيل الله، فكتب داود إلى رأس الغزاة: انظر أوريا، فاجعله في حملة التابوت، وكان حملة التابوت إما أن يفتح عليهم، وإما أن يقتلوا، فقدمه في حملة التابوت، فقتل، فلما انقضت عدتها خطبها داود، فاشتربت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة من بعده، وأشهدت عليه خمسين من بني إسرائيل، وكتب عليه بذلك كتاباً، فما شعر بفتنته أنه افتتن حتى ولدت سليمان، وشب، فتسور عليه الملكان المحراب، وكان شأنهما ما قص الله في كتابه، وخز داود ساجداً، فغفر الله له، وتاب عليه. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب قال: ما أصاب داود بعد ما أصابه بعد القدر إلا من عجب عجب بنفسه، وذلك أنه قال: يا رب ما من ساعة من ليل، ولا نهار إلا، وعابد من آل داود يعبدك يصلي لك، أو يسبح، أو يكبر، ونكر أشياء، فكره الله ذلك، فقال: يا داود إن ذلك لم يكن إلا بي، فلولا عوني ما قويت عليه، وعزّتي، وجلالي لأكلنك إلى نفسك يوماً، قال: يا رب فأخبرني به، فأخبر به، فأصابته الفتنة ذلك اليوم. وأخرج أصل القصة الحكيم الترمذي في نوار الأصول، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أنس مرفوعاً بإسناد ضعيف. وأخرج ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس مطوّلة. وأخرجها جماعة عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿إِنْ هَذَا لَخِي﴾ قال: على ديني. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأحمد في الزهد، وابن جرير، والطبراني عنه قال: ما زاد داود على أن ﴿فَقَالَ اكْفُلْنِيهَا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿اكْفُلْنِيهَا﴾ قال: ما زاد داود على أن قال: تحوّل لي عنها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ يقول: قليل الذي هم فيه، وفي قوله: ﴿وَوَلَّى دَاوُدُ إِنَّمَا فَتَنَاهُ﴾ قال: اختبرناه.

الجنة، وجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ تحليل للنهي عن اتباع الهوى، والوقوع في الضلال، والبلاء في ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ للسببية، ومعنى النسيان الترك أي: بسبب تركهم العمل لذلك اليوم قال الزجاج: أي: بتركهم العمل لذلك اليوم صاروا بمنزلة الناسين، وإن كانوا يذكرون، ويذكرون. وقال عكرمة، والسدي: في الآية تقديم، وتأخير، والتقدير: ولهم عذاب يوم الحساب بما نسوا أي: تركوا القضاء بالعدل، والأول أولى. وجملة ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من أمر البعث، والحساب أي: ما خلقنا هذه الأشياء خلقاً باطلاً خارجاً على الحكمة الباهرة، بل خلقناها للدلالة على قبرتنا، فانتصاب باطلاً على المصيرية، أو على الحالية، أو على أنه مفعول لأجله، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى المنفي قبله، وهو مبتدأ، وخبره ﴿ظُنُّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: مظلونهم، فإنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض، ويقولون: إنه لا قيامة، ولا بعث، ولا حساب، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلاً ﴿فَقِيلَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ والفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل أي: فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم، وكفرهم. ثم وبخهم، وبكتهم فقال: ﴿إِنَّمَا نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نعطي في الآخرة كما تعطون، فنزلت، وأم هي: المنقطعة المقترنة ببل، والهمزة أي: بل نجعل الذين آمنوا بالله، وصبقوا رسله، وعملوا بفرائضه كالمفسدين في الأرض بالمعاصي. ثم اضرب سبحانه إضراباً آخر، وانتقل عن الأول إلى ما هو أظهر استحالة منه، فقال: ﴿إِنَّمَا نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي: بل تجعل أتقياء المؤمنين كاشقياء الكافرين، والمنافقين، والمنهمكين في معاصي الله سبحانه من المسلمين، وقيل: إن الفجار هنا خاص بالكافرين، وقيل: المراد بالمتقين الصحابة، ولا وجه للتخصيص بغير مخصص، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ ارتفاع كتاب على أنه خبر مبتدأ محذوف، وأنزلناه إليك صفة له، ومبارك خبر ثانٍ للمبتدأ ولا يجوز أن يكون صفة أخرى لكتاب لما تقرر من أنه لا يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح، وقد جوزه بعض النحاة، والتقدير: القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد كثير الخير، والبركة. وقرأ (مباركاً) على الحال، وقوله: ﴿لِيُنذِرُوا﴾ أصله ليتنبؤوا، فادغمت التاء في الدال، وهو متعلق بأنزلناه. وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتنبير، والتفكير في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر. قرأ الجمهور (لينبؤوا) بالإدغام. وقرأ أبو جعفر، وشيبة (لتنبؤوا) بالتاء الفوقية على الخطاب، ورويت هذه القراءة عن عاصم، والكسائي، وهي قراءة علي رضي الله عنه، والأصل لتنبؤوا بتأين، فحذف إحداهما تخفيفاً ﴿وَلِيُنذِرُوا أُولَ الْأَبْلَابِ﴾ أي: ليتعظ أهل العقول،

وأخرج أحمد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عنه أيضاً: أنه قال في السجود في ص: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. وأخرج النسائي، وابن مردويه بسند جيد عنه أيضاً: «أن النبي ﷺ سجد في ص، وقال: سجدها داود، ونسجدها شكرًا». وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ سجد في ص». وأخرج ابن مردويه عن أنس مثله مرفوعاً. وأخرج الدارمي، وأبو داود، وابن خزيمة، وابن حبان، والدارقطني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال: «قرأ رسول الله ﷺ، وهو على المنبر ص، فلما بلغ السجدة نزل، فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قراها، فلما بلغ السجدة تهايا الناس للسجود، فقال: إنما هي توبة، ولكني رأيتكم تهياتم للسجود، فنزل، فسجد». وأخرج ابن مردويه، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ: «أنه ذكر يوم القيامة، فعظم شأنه، وشدته قال: ويقول الرحمن عز وجل لداود عليه السلام: مر بين يدي، فيقول داود: يا رب أخاف أن تنحضي خطيئتي، فيقول: خذ بقدمي، فيأخذ بقدمه عز وجل، فيمر، قال: فتلك الزلфи التي قال الله: ﴿وَإِنْ لَهُ عُنْدُنَا لَزَلْفَى وَحَسَنَ مَأْبٍ﴾»

يُنَادُوا إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاتَّبَعُوا النَّاسَ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿١٠١﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكُمْ عَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ ﴿١٠٢﴾ أَمْ يَحْسَبُ الَّذِينَ مَسَّوْا وَكَلِمَاتُ الصَّالِحِينَ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَحْسَبُ الْمُؤْمِنُونَ كَالْفُجَّارِ ﴿١٠٣﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَ مَا تَبَيَّنَ وَلِيُنذِرَ أُولَ الْأَلْبَابِ ﴿١٠٤﴾ وَهَذَا لِدَاوُدَ سَلِيمٌ نَعَمْ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْوَأْكُوبُ ﴿١٠٥﴾ إِذْ عُضِرَ عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ الصَّوْنَتُ لِيُكَادَ ﴿١٠٦﴾ فَقَالَ إِنَّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿١٠٧﴾ رُدُّوهُ إِلَى فُطُوقِ سَنَاءِ بِالشُّرَى وَالْأَفْكَانِ ﴿١٠٨﴾

لما تمم سبحانه قصة داود أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه، والجملة مقولة لقول مقدر معطوف على غفرنا أي: وقلنا له ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا﴾ استخلفناك على الأرض، أو ﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل الذي هو حكم الله بين عباده ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ أي: هوى النفس في الحكم بين العباد. وفيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذي عوتب عليه ليس بعدل، وأن فيه شائبة من اتباع هوى النفس ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بالنصب على أنه جواب للنهي، وفاعل يضللك هو الهوى، ويجوز أن يكون الفعل مجزوماً بالعطف على النهي، وإنما حرك لالتقاء الساكنين، فعلى الوجه الأول يكون المنهي عنه الجمع بينهما، وعلى الوجه الثاني يكون النهي عن كل واحد منهما على حدة. وسبيل الله: هو طريق الحق، أو طريق

والمنافع. «وعن» في ﴿عَنْ نُّكْرٍ رَبِّي﴾ بمعنى: على. والمعنى: أثرت حب الخيل على نكر ربي يعني: صلاة العصر ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني: الشمس، ولم يتقدم لها نكر، ولكن المقام يدل على ذلك. قال الزجاج: إنما يجوز الإضمار إذا جرى نكر الشيء، أو دليل الذكر، وقد جرى هنا الدليل، وهو قوله: بالعشي. والتواري: الاستتار عن الأبصار، والحجاب: ما يحجبها عن الأبصار. قال قتادة، وكعب: الحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق، وهو جبل قاف، وسمي الليل حجاباً، لأنه يستتر ما فيه، وقيل: الضمير في قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ للخيل أي: حتى توارت في المسابقة عن الأعين، والأول أولى، وقوله: ﴿رَدَّوْهَا عَلَيَّ﴾ من تمام قول سليمان: أي: أعيدوا عرضها عليّ مرة أخرى. قال الحسن: إن سليمان لما شغله عرض الخيل حتى فاتته صلاة العصر غضب لله، وقال: رُدَّوْهَا عَلَيَّ أي: أعيدوها. وقيل: الضمير في رُدَّوْهَا يعود إلى الشمس، ويكون ذلك معجزة له، وإنما أمر بإرجاعها بعد مغيبها لأجل أن يصلي العصر، والأول أولى، والفاء في قوله: ﴿فَطَفَّقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ هي: الفصيحة التي تدل على محذوف في الكلام، والتقدير هنا: فرُدَّوْهَا عليه. قال أبو عبيدة: طفق يفعل مثل ما زال يفعل، وهو مثل ظل، وبات، وانتصاب مسحاً على المصدرية بفعل مقدر أي: يمسح مسحاً؛ لأن خبر طفق لا يكون إلا فعلاً مضارعاً، وقيل: هو مصدر في موضع الحال، والأول أولى. والسوق جمع ساق، والأعناق جمع عنق، والمراد: أنه طفق يضرب أعناقها، وسوقها، يقال: مسح علاوته أي: ضرب عنقه. قال الفراء: المسح هنا القطع، قال: والمعنى: أنه أقبل يضرب سوقها، وأعناقها؛ لأنها كانت سبب قوت صلاته، وكذا قال أبو عبيدة. قال الزجاج: ولم يكن يفعل ذلك إلا وقد أباحه الله له، وجائز أن يباح لك لسليمان، ويحضر في هذا الوقت. وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية، فقال قوم: المراد بالمسح ما تقدم. وقال آخرون: منهم الزهري وقاتدة: إن المراد به المسح على سوقها، وأعناقها لكشف الغبار عنها حباً لها. والقول الأول أولى بسياق الكلام، فإنه نكر أنه آخرها على نكر ربه حتى فاتته صلاة العصر، ثم أمرهم برُدَّها عليه؛ ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك، وما صده عن عبادة ربه، وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه، ولا يناسب هذا أن يكون الغرض من رُدَّها عليه هو كشف الغبار عن سوقها، وأعناقها بالمسح عليها بيده، أو ثوبه، ولا متمسك لمن قال: إن إفساد المال لا يصدر عن النبي، فإن هذا مجرد استبعاد باعتبار ما هو المتقرر في شرعنا مع جواز أن يكون في شرع سليمان أن مثل هذا مباح على أن إفساد المال المنهى عنه في شرعنا إنما هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح، وأما لغرض صحيح، فقد جاز مثله في شرعنا كما وقع منه ﷺ من إكفاء القدر التي طبخت من الغنيمة قبل القسمة، ولهذا نظرنا كثيرة في الشريعة، ومن ذلك ما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر.

والألباب جمع لب وهو: العقل ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أخبر سبحانه: بأن من جملة نعمه على داود أنه وهب له سليمان ولداً، ثم مدح سليمان، فقال: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ والمخصوص بالمدح محذوف أي: نعم العبد سليمان، وقيل: إن المدح هنا بقوله: نعم العبد هو لداود، والأول أولى، وجملة ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تعليل لما قبلها من المدح، والأواب: الرجاء إلى الله بالتوبة كما تقدم بيانه، والظرف في قوله: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ﴾ متعلق بمحذوف وهو: أنكر أي: أنكر ما صدر عنه وقت عرض الصافنات الجياد عليه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وقيل: هو متعلق بنعم، وهو مع كونه غير متصرف لا وجه لتقييده بذلك الوقت، وقيل: متعلق بأواب، ولا وجه لتقييده كونه أواباً بذلك الوقت، والعشي من الظهر، أو العصر إلى آخر النهار، والصافنات جمع صافن.

وقد اختلف أهل اللغة في معناه، فقال القتيبي، والفراء: الصافن في كلام العرب: الواقف من الخيل، أو غيرها، وبه قال قتادة، ومنه الحديث: «من أحب أن يتمثل له الناس صفوفنا، فليتبوأ مقعده من النار»، أي: يديمون القيام له، واستلوا بقول النابغة:

لنأقبة مضروبة بفنائها عناق للمهاري والجياد الصوافن
ولا حجة لهم في هذا فإنه استدلال بمحل النزاع، وهو مصادرة؛ لأن النزاع في الصافن ماذا هو؟ وقال الزجاج: هو الذي يقف على إحدى اليدين، ويرفع الأخرى، ويجعل على الأرض طرف الحافر منها حتى كأنه يقوم على ثلاث، وهي: الرجلان، وإحدى اليدين، وقد يفعل ذلك بإحدى رجليه، وهي: علامة الفراهة. وأنشد الزجاج قول الشاعر:

ألف الصفون فما يزال كأنه ما يقوم على الثلاث كسير
ومن هذا قول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا
فإن قوله: صفونا لا بد أن يحمل على معنى غيز مجرد القيام، لأن مجرد القيام قد استفيد من قوله: عاكفة عليه. وقال أبو عبيد: الصافن هو: الذي يجمع يديه، ويسويهما، وأما الذي يقف على سنبكه، فاسمه: المتخيم، والجياد جمع جواد، يقال: للفرس إذا كان شديداً العدو. وقيل: إنها الطوال الأعناق، مأخوذ من الجيد، وهو: العنق. قيل: كانت مائة فرس، وقيل: كانت عشرين ألفاً، وقيل: كانت عشرين فرساً، وقيل: إنها خرجت له من البحر، وكانت لها أجنحة ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ نُّكْرٍ رَبِّي﴾ انتصاب حب الخير على أنه مفعول أحببت بعد تضمينه معنى: أثرت. قال الفراء: يقول: أثرت حب الخير، وكل من أحب شيئاً، فقد أثره. وقيل: انتصابه على المصدرية بحذف الزوائد، والناسب له أحببت، وقيل: هو مصدر تشبيهي أي: حباً مثل حب الخير، والأول أولى. والمراد بالخير هنا الخيل. قال الزجاج: الخير هنا الخيل. وقال الفراء: الخير، والخيل في كلام العرب واحد. قال النحاس: وفي الحديث: «الخيل معقود بئواصبيها الخير»، فكأنها سميت خيراً لهذا. وقيل: إنها سميت خيراً لما فيها من

وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمْ نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض﴾ قال: الذين آمنوا علي، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، والمفسدين في الأرض عتبة، وشيبة، والوليد. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: ﴿الصافنات الجياد﴾ خيل خلقت على ما شاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿الصافنات﴾ قال: صفون الفرس رفع إحدى يديه حتى يكون على أطراف الحافر، وفي قوله: ﴿الجياد﴾ السراع. وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله: ﴿حَبَّ الْخَيْرِ﴾ قال: الماء، وفي قوله: رُبُّهَا عَلِيٌّ قال: الخيل ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ قال: عقرًا بالسيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الصلاة التي فَرَطَ فيها سليمان صلاة العصر. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي في قوله: إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد قال: كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة، فعقرها. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عن ابن مسعود بقوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ قال: توارت من وراء ياقوتة خضراء، فخضرة السماء منها. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن عباس قال: كان سليمان لا يكلم أعظماً له، فلقد فاتته صلاة العصر، وما استطاع أحد أن يكلمه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿عَنْ نَكَرَ رَبِّي﴾ يقول: من نكر ربي ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بالسوق والأعناق﴾ قال: قطع سوقها، وأعناقها بالسيف.

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَاسًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَبِعْ لِي مَلِكًا لَا يَلْبِسُ لِحَافِي بَدِيعَ إِيَّكَ أَتَى الرَّهَابَ ﴿١٧﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفَاتًا حَيْثُ أَسَابَ ﴿١٨﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَرَّاسٍ ﴿١٩﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٠﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِرْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١﴾ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُكْلٌ وَصُنُّ مَنَابٍ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ أي: ابتليناه، واختبرناه. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين: تزوج سليمان امرأة من بنات الملوك، فعبدت الصنم في داره، ولم يعلم بذلك سليمان، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك. وقيل: إن سبب الفتنة: أنه تزوج سليمان امرأة يقال لها: جرادة، وكان يحبها حباً شديداً، فاختصم إليه فريقان: أحدهما: من أهل جرادة، فأحب أن يكون القضاء لهم، ثم قضى بينهم بالحق. وقيل: إن السبب: أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد. وقيل: إنه تزوج جرادة هذه، وهي مشركة؛ لأنه عرض عليها الإسلام، فقالت: اقتلني، ولا أسلم. وقال كعب الأحبار: إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه. وقال الحسن: إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره. وقيل: إنه أمر أن لا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوج امرأة من غيرهم. وقيل: إن سبب فتنته ما ثبت في الحديث الصحيح: أنه قال: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس

يقاتل في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله. وقيل غير ذلك. ثم بين سبحانه ما عاقبه به، فقال: ﴿والقينا على كرسيه جسدًا﴾ انتصاب جسدًا على أنه مفعول القينا، وقيل: انتصابه على الحال على تأويله بالمشتق أي: ضعيفاً، أو فارغاً، والأول أولى. قال أكثر المفسرين: هذا الجسد الذي ألقاه الله على كرسى سليمان هو شيطان اسمه: صخر، وكان متمرداً عليه غير داخل في طاعته، ألقى الله شبه سليمان عليه، وما زال يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان، وذلك عند دخول سليمان الكنيف؛ لأنه كان يلقيه إذا دخل الكنيف، فجاء صخر في صورة سليمان، فأخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان، فقعده على سرير سليمان، وأقام أربعين يوماً على ملكه، وسليمان هارب. وقال مجاهد: إن شيطاناً قال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر، فذهب ملكه، وقعد الشيطان على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان، فلم يقربهن، وكان سليمان يستطعم، فيقول: أتعرفونني أطعموني؟ فيكذبوه حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً، فشق بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، وهو معنى قوله: ﴿ثم أناب﴾ أي: رجع إلى ملكه بعد أربعين يوماً. وقيل: معنى أناب: رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه، وهذا هو الصواب، وتكون جملة ﴿قال رب اغفر لي﴾ بدلاً من جملة أناب، وتفسيراً له أي: اغفر لي ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله. ثم لما قدم التوبة، والاستغفار جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته، فقال: ﴿وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ قال أبو عبيدة: معنى لا ينبغي لأحد من بعده: لا يكون لأحد من بعدي. وقيل: المعنى: لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبة، أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمتي، وليس هذا من سؤال نبي الله سليمان عليه السلام للنبيا، وملكها، والشرف بين أهلها، بل المراد بسؤاله: الملك أن يتمكن به من إنفاذ أحكام الله سبحانه، والأخذ على يد المتمردين من عباده من الجن، والإنس، ولو لم يكن من المقتضيات لهذا السؤال منه إلا ما رآه عند قعود الشيطان على كرسيه من الأحكام الشيطانية الجارية في عباد الله، وجملة ﴿إنك أنت الوهاب﴾ تحليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة الله له وهبة الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده أي: فإنك كثير الهبات عظيم الموهوبات. ثم نكر سبحانه إجابته لدعوته، وإعطاءه لمسالته، فقال: ﴿فسخرنا له الريح﴾ أي: نلناها له، وجعلناها منقاداً لأمره. ثم بين كيفية التسخير لها بقوله: ﴿تجري بأمره رخاء﴾ أي: لينة الهبوب ليست بالعاصف، مأخوذ من الرخاوة، والمعنى: أنها ريح لينة لا تزعزع، ولا تعصف مع قوة هبوبها، وسرعة جريها، ولا ينافي هذا قوله في آية أخرى ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره﴾ [الأنبياء: 81] لأن المراد: أنها في قوة العاصفة، ولا تعصف. وقيل: إنها كانت تارة رخاء، وتارة عاصفة على ما يريد سليمان، ويشتبه، وهذا أولى في الجمع بين الآيتين ﴿حيث أصاب﴾

قال لها: هاتي خاتمي، فأعطته، فلما لبسه دانت له الإنس، والجن، والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال: هاتي خاتمي، قالت: قد أعطيتك سليمان. قال: أنا سليمان، قالت: كذبت لست سليمان، فجعل لا يأتي أحداً يقول: أنا سليمان إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله، وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ألقي في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، فأرسلوا إلى نساء سليمان، فقالوا لهن: تتكرن من أمر سليمان شيئاً؟ قلن: نعم إنه يأتينا، ونحن نحض، وما كان يأتينا قبل ذلك، فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتاباً فيها سحر، وكفر، فنفثوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها، وقرءوها على الناس، وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس، ويغلبهم، فأكفر الناس سليمان، فلم يزلوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم، فطرحه في البحر فتلقت سمكة، فأخذته، وكان سليمان يعمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل، فاشتري سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فدعا سليمان، فقال: تحمل لي هذا السمك؟ قال: نعم، قال: بكم، قال: بسمكة من هذا السمك، فحمل سليمان السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان، فشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه، فلبسه، فلما لبسه دانت له الجن، والإنس، والشياطين، وعاد إلى حاله، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه، ولا يقربون عليه حتى وجده يوماً نائماً، فجاءوا، فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ، فوثب، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا انبسط معه الرصاص، فأخذه، فأوثقوه، وجاءوا به إلى سليمان، فأمر به، فنقر له تخت من رخم، ثم أدخله في جوفه، ثم شد بالنحاس، ثم أمر به، فطرح في البحر، فلذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ يعني: الشيطان الذي كان سلط عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال: صخر الجنى تمثل على كرسيه على صورته. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عَفْرِتاً مِنَ الْجِنَّ يَتَقَلَّتْ عَلَى الْبَارِحَةِ: لِيَقْطَعَ عَلَى صَلَاتِي، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَكَّنَنِي مِنْهُ، فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَصْبَحُوا، فَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلَّكُمْ، فَتُكَرِتَ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِئاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإَمْنٌ﴾ يقول: اعق من الجن من شئت، وأمسك منهم من شئت.

أي: حيث أراد. قال الزجاج: إجماع أهل اللغة، والمفسرين أن معنى حيث أصاب: حيث أراد، وحقيقته حيث قعد. وقال الأصمعي، وابن الأعرابي: العرب تقول: أصاب الصواب، وأخطأ الجواب. وقيل: إن معنى أصاب بلغة حمير: أراد، وليس من لغة العرب، وقيل: هو بلسان هجر، والأول أولى، وهو مأخوذ من إصابة السهم للغرض ﴿وَالشَّيَاطِينُ﴾ معطوف على الريح أي: وسخرنا له الشياطين، وقوله: ﴿كُلْ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾ بدل من الشياطين أي: كل بناء منهم، وغواص منهم يبنون له ما يشاء من المباني، ويغوصون في البحر، فيستخرجون له الدر منه، ومن هذا قول الشاعر: إلا سليمان إذ قال الجليل له قم في البرية فلحدها عن الغند وخبر الجن أني قد أننت لهم يبنون تنمز بالصفاح والعمد ﴿وَأَخْرَجَ مَقْرِنَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ﴾ معطوف على كل داخل في حكم البذل، وهم مردة الشياطين سخرها له حتى قرنهم في الأصفا. يقال: قرنهم في الحبال إذا كانوا جماعة كثيرة، والأصفا: الأغلال واحدها صفا. قال الزجاج: هي السلاسل، فكل ما شدته شداً وثيقاً بالحديد، وغيره، فقد صفتته. قال أبو عبيدة: صفتت الرجل، فهو: مصفود، وصفوته، فهو: مصفد، ومن هذا قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

فأبوا بالنهب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفيننا
قال يحيى بن سلام: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم، ولم يسخرهم، والإشارة بقوله: «هذا» إلى ما تقدم من تسخير الريح، والشياطين له، وهو بتقدير القول أي: وقلنا له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ الذي أعطيناك من الملك العظيم الذي طلبته ﴿فَإَمْنٌ أَوْ أَمْسَكُ﴾ قال الحسن، والضحاك، وغيرهما أي: فأعط من شئت، وامنع من شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا حساب عليك في ذلك الإعطاء، أو الإمساك، أو عطاؤنا لك بغير حساب لكثرة، وعظمت. وقال قتادة: إن قوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ إشارة إلى ما أعطيه من قوة الجماع، وهذا وجه لقصر الآية عليه لو قدرنا أنه قد تقدم نكره من جملة تلك المنكورات، فكيف يدعي اختصاص الآية به مع عدم نكره ﴿وَإِنْ لَهُ عُنْدُنَا لَزُلْفَى﴾ أي: قربة في الآخرة ﴿وَحَسَنَ مَأْبٍ﴾، وحسن مرجع، وهو: الجنة.

وقد أخرج الفريابي، والحكيم الترمذي، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال: هو الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين الناس أربعين يوماً، وكان لسليمان امرأة يقال لها: جرادة، وكان بين بعض أهلها، وبين قوم خصومة، ففضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها، فأوحى الله إليه أن سيصيبك بلاء، فكان لا يدرى آيأتيه من السماء أم من الأرض؟ وأخرج التيساني، وابن جرير، وابن أبي حاتم، قال السيوطي بسند قوي: عن ابن عباس قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطى لجرادة خاتمه، وكانت جرادة امراته، وكانت أحب نسائه إليه، فجاء الشيطان في صورة سليمان،

وَأَذْكُرُ عَبْدًا أَبَوَيْ إِذْ تَأَذَّى رَبُّهُ إِلَى مَنَى الشَّيْطَانُ بِنَسَبٍ وَدَابِّ ۝
أَكْمَسَ رَجُلًا هَذَا مُنْشَلَّ بِأَرْوَاحٍ وَرَبَّ ۝ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَنْهُمْ مِمَّنْ رَحِمَهُ

عين، فقلنا له: هذا مغتسل إلخ، وأسند المس إلى الشيطان مع أن الله سبحانه هو الذي مسه بذلك: إما لكونه لما عمل بوسوسته عوقب على ذلك بذلك النصب، والعذاب. فقد قيل: إنه أعجب بكثرة ماله، وقيل: استغاثه مظلوم، فلم يغثه، وقيل: إنه قال لك على طريقة الأناب، وقيل: إنه قال لك: لأن الشيطان وسوس إلى اتباعه، فرفضوه، وأخرجوه من نيارهم، وقيل: المراد به. ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه، وابتلائه من تحسين الجزع، وعدم الصبر على المصيبة، وقيل غير ذلك. وقوله: ﴿ووهبنا له أهله﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل: فاغتسل، وشرب، فكشفنا بذلك ما به من ضرر، ووهبنا له أهله. قيل: أحياهم الله بعد أن ماتهم، وقيل: جمعهم بعد تفرقهم، وقيل: غيرهم مثلهم، ثم زاده مثلهم معهم، وهو معنى قوله: ﴿ومثلهم معهم﴾ فكانوا مثلي ما كانوا من قبل ابتلائه، وانتصاب قوله: ﴿رحمة منا ونكرى لأولي الألباب﴾ على أنه مفعول لأجله أي: وهبناهم له لأجل رحمتنا إياهم، وليتذكر بحاله أولو الألباب، فيصبروا على الشدائد كما صبر، وقد تقدم في سورة الأنبياء تفسير هذه الآية مستوفى، فلا نعيده ﴿ووخذ بيدك ضعفا﴾ معطوف على اركض، أو على وهبنا؛ أو التقدير وقلنا له: ﴿ووخذ بيدك ضعفا﴾، والضغث: عتكل النخل بشماريخه، وقيل: هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بيايسها، وقيل: الحزمة الكبيرة من القضبان، وأصل المادة تدل على جمع المختلطات. قال الواحدي: الضغث ملة الكف من الشجر، والحشيش، والشماريخ ﴿فاضرب به ولا تحنث﴾ أي: اضرب بذلك الضغث، ولا تحنث في يمينك، والحنث: الإثم، ويطلق على فعل ما حلف على تركه، وكان أيوب قد حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائة جلد.

واختلف في سبب ذلك، فقال سعيد بن المسيب: إنها جأته بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز، فخاف خيانتها، فحلف ليضربنها. وقال يحيى بن سلام، وغيره: إن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقرباً إليه، فإنه إذا فعل ذلك برئ، فحلف ليضربنها إن عوفي مائة جلدة. وقيل: باعت نوابتها برغيفين إذ لم تجد شيئاً، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام، فلهاذا حلف ليضربنها. وقيل: جاءها إبليس في صورة طبيب، فدعته لمدواة أيوب، فقال: أدأويه على أنه إذا برئ قال: أنت شفيتني، لا أريد جزاء سواء، قالت: نعم، فأشارت على أيوب بذلك، فحلف ليضربنها.

وقد اختلف العلماء هل هذا خاص بأيوب، أو عام للناس كلهم؟ وأن من حلف خرج من يمينه بمثل ذلك. قال الشافعي: إذا حلف ليضربن فلاناً مائة جلدة، أو ضرباً، ولم يقل: ضرباً شديداً، ولم ينو بقلبه، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية، كحكا ابن المنذر عنه، وعن أبي ثور، وأصحاب الرأي. وقال عطاء: هو خاص بأيوب، ورواه ابن القاسم عن مالك. ثم أثنى الله سبحانه على أيوب، فقال: ﴿إننا وجدناه صابراً﴾

يَنَّا وَذَكَرَ لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٧﴾ وَخَذَ يَدَكَ يَمِينًا فَأَضْرَبَ بِهٖ وَلَا نَحْنَتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٨﴾ وَذَكَرَ عِندَنَا إِنزِيمَ وَاسْتَحَقَّ وَسُئِبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ﴿١٩﴾ إِنَّا لَنَنْصِتُ لِمَا يُخَالِسُكُمْ بِخَالِصَةٍ وَكَرَى الدَّارِ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ عِندَنَا لَبَنٌ الْأَمْطَيْنِ الْخَبِيرِ ﴿٢١﴾ وَذَكَرَ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٢٢﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَلِلْمُتَّقِينَ لَحْزَنٌ مَّا كَانَ جَنَّتِ عَيْنٌ مُّفْتَنَةً لِّمَ الْأَبْرَارِ ﴿٢٣﴾ مُتَّقِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا يَنْكَبَهُمْ كَكَبِيرَةٍ وَتَرْكَبُ ﴿٢٤﴾ وَبَعْدَهُمْ قَبَرَتِ الْأَنْفُسُ الْزَّالِيَةُ ﴿٢٥﴾ هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ يُؤْتِرُ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَذَا لَرْزُقًا مَّا لَمْ يَنْفَادِ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿وانكر عينا أيوب﴾ معطوف على قوله: ﴿وانكر عينا داود﴾ [ص: 17] وأيوب عطف بيان، و ﴿إذ نادى ربه﴾ بدل اشتغال من عينا ﴿لني مسني الشيطان﴾ قرا الجمهور بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذي نادى ربه به، ولو لم يحكه لقال: إنه مسه. وقرا عيسى بن عمر بكسرهما على إضمار القول. وفي نكر قصة أيوب إرشاد لرسول الله ﷺ إلى الاقتداء به في الصبر على المكاره. قرا الجمهور بضم النون من قوله: (بنصب) وسكون الصاد، فقليل: هو جمع نصب بفتحيتين نحو أسد، وأسد، وقيل: هو لغة في النصب، نحو رشد، ورشد. وقرا أبو جعفر يزيد بن القعقاع، وشيبة، وحفص، ونافع في رواية عنه بضميتين، ورويت هذه القراءة عن الحسن. وقرا أبو حيوة، ويعقوب، وحفص في رواية بفتح، وسكون، وهذه القراءات كلها بمعنى واحد، وإنما اختلفت القراءات باختلاف اللغات. وقال أبو عبيدة: إن النصب بفتحيتين: التعب، والإعياء، وعلى بقية القراءات الشر، والبلاء، ومعنى قوله: ﴿وعذاب﴾ أي: ألم. قال قتادة، ومقاتل: النصب في الجسد، والعذاب في المال. قال النحاس: وفيه بعد كذا قال. والأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوي، وهو: التعب، والإعياء، وتفسير العذاب بما يصنق عليه مسمى العذاب، وهو: الألم، وكلاهما راجع إلى البدن ﴿اركض برجلك﴾ هو بتقدير القول أي: قلنا له: اركض برجلك كذا قال الكسائي والركض: الدفع بالرجل، يقال: ركض الدابة برجله: إذا ضربها بها. وقال المبرد: الركض التحريك. قال الأصمعي: يقال: ركضت الدابة، ولا يقال: ركضت هي، لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجله، ولا فعل لها في ذلك، وحكى سيبويه: ركضت الدابة، فركضت، مثل جبرت العظم، فجبر ﴿هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ هذا أيضاً من مقول القول المقدر: المغتسل هو: الماء الذي يغتسل به، والشراب الذي يشرب منه. وقيل: إن المغتسل هو: المكان الذي يغتسل فيه. قال قتادة: هما عيانا بأرض الشام في أرض يقال لها: الجابية، فاغتسل من إحداهما، فآذبه الله ظاهر دائه، وشرب من الأخرى فآذبه الله باطن دائه، وكذا قال الحسن. وقال مقاتل: نبعث عين جارية، فاغتسل فيها، فخرج صحيحاً، ثم نبعث عين أخرى، فشرب منها ماء عذبا بارداً. وفي الكلام حذف، والتقدير: فركض برجله، فنبعث

أي: على البلاء الذي ابتلينا به، فإنه ابتلي بالداء العظيم في جسده، وذهاب ماله، وأهله، وولده، فصبر ﴿نعم العبد﴾ أي: أيوب ﴿إنه أواب﴾ أي: رجاع إلى الله بالاستغفار، والتوبة ﴿وانكر عباننا إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ قرأ الجمهور (عباننا) بالجمع. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד، وابن محيصن، وابن كثير (عبنا) بالإنفراد. فعلى قراءة الجمهور يكون إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب عطف بيان، وعلى القراءة الأخرى يكون إبراهيم عطف بيان، وما بعده عطف على عبنا لا على إبراهيم. وقد يقال: لما كان المراد بعبنا الجنس جاز إبدال الجماعة منه. وقيل: إن إبراهيم، وما بعده بدل، أو النصب بإضمار أعني، وعطف البيان أظهر، وقراءة الجمهور أبين، وقد اختارها أبو عبيد، وأبو حاتم ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ الأيدي، جمع اليد التي بمعنى: القوة، والقدرة. قال قتادة: أعطوا قوة في العبادة، ونصراً في الدين. قال الواحدي: وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والمفسرون. قال النحاس: أما الأبصار، فمتفق على أنها البصائر في الدين، والعلم. وأما الأيدي، فمختلف في تأويلها، فاهل التفسير يقولون: إنها القوة في الدين، وقوم يقولون: الأيدي جمع يد، وهي النعمة أي: هم أصحاب النعم، أي: الذين أنعم الله عز وجل عليهم، وقيل: هم أصحاب النعم على الناس، والإحسان إليهم، لأنهم قد أحسنوا، وقدموا خيراً، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور (أولي الأيدي) بإثبات الياء في الأيدي. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، والحسن، وعيسى (الأيد) بغير ياء، فقيل معناها: معنى القراءة الأولى، وإنما حذفت الياء لدلالة كسرة الدال عليها، وقيل الأيد: القوة، وجملة ﴿إننا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾ تحليل لما وصفوا به. قرأ الجمهور (بخالصة) بالتثنية، وعدم الإضافة على أنها مصدر بمعنى: الإخلاص، فيكون ذكرى منصوباً به، أو بمعنى: الخلو، فيكون ذكرى مرفوعاً به، أو يكون خالصة اسم فاعل على بابيه، وذكرى بدل منها، أو بيان لها، أو بإضمار أعني، أو مرفوعة بإضمار مبتدأ، والدار يجوز أن تكون مفعولاً به لذكرى، وأن تكون ظرفاً: إما على الاتساع، أو على إسقاط الخافض، وعلى كل تقدير، فخالصة صفة لموصوف محذوف، والباء للسببية أي: بسبب خصلة خالصة. وقرأ نافع، وشيبة، وأبو جعفر، وهشام عن ابن عامر بإضافة خالصة إلى ذكرى على أن الإضافة للبيان، لأن الخالصة تكون ذكرى، وغير ذكرى، أو على أن خالصة مصدر مضاف إلى مفعوله، والفاعل محذوف. أي: بأن أخلصوا ذكرى الدار، أو مصدر بمعنى: الخلو مضافاً إلى فاعله. قال مجاهد: معنى الآية: استصفيناهم بذكر الآخرة، فأخلصناهم بذكرها، وقال قتادة: كانوا يدعون إلى الآخرة، وإلى الله. وقال السدي: أخلصوا بخوف الآخرة. قال الواحدي: فمن قرأ بالتثنية في خالصة كان المعنى: جعلناهم لنا خالسين بأن خلصت لهم ذكرى الدار، والخالصة مصدر بمعنى: الخلو، والذكرى بمعنى: التذكر أي: خلص لهم

تذكر الدار، وهو أنهم يذكرون التآهب لها، ويزهدون في الدنيا، وذلك من شأن الأنبياء. وأما من أضاف، فالمعنى: أخلصنا لهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار، والخالصة مصدر مضاف إلى الفاعل، والذكرى على هذا المعنى: الذكر ﴿وانهم عننا لمن المصطفين الأخيار﴾ الاصطفاء: الاختيار، والأخيار جمع خير بالتشديد، والتخفيف كاموات في جمع ميت مشدداً، ومخففاً؛ والمعنى: إنهم عننا لمن المختارين من أبناء جنسهم من الأخيار ﴿وانكر إسماعيل﴾ قيل: وجه إفراده بالذكر بعد ذكر أبيه، وأخيه، وابن أخيه للإشعار بأنه عريق في الصبر الذي هو المقصود بالذكر هنا ﴿واليسع وذا الكفل﴾ قد تقدم ذكر اليسع، والكلام فيه في الانعام، وتقدم ذكر ذا الكفل، والكلام فيه في سورة الأنبياء، والمراد من نكر هؤلاء: أنهم من جملة من صبر من الأنبياء، وتحملوا الشدائد في دين الله. أمر الله رسوله ﷺ بأن يذكرهم؛ ليسلك مسلكهم في الصبر ﴿وكل من الأخيار﴾ يعني: الذين اختارهم الله لنبوته، واصطفاهم من خلقه ﴿وهذا نكر﴾ الإشارة إلى ما تقدم من نكر أوصافهم أي: هذا نكر جميل في الدنيا، وشرف يذكرون به أبداً ﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾ أي: لهم مع هذا النكر الجميل حسن مآب في الآخرة، والمآب المرجع، والمعنى: أنهم يرجعون في الآخرة إلى مغفرة الله، ورضوانه، ونعيم جنته. ثم بين حسن المرجع، فقال: ﴿جنت عدن﴾ قرأ الجمهور (جنت) بالنصب بدلاً من حسن مآب، سواء كان جنت عدن معرفة، أو نكرة؛ لأن المعرفة تبدل من النكرة، وبالعكس، ويجوز أن يكون جنت عدن عطف بيان إن كانت نكرة، ولا يجوز ذلك فيها إن كانت معرفة على مذهب جمهور النحاة، وقد جوز بعضهم. ويجوز أن يكون نصب جنت عدن بإضمار فعل. والعدن في الأصل الإقامة، يقال: عدن بالمكان: إذا أقام فيه، وقيل: هو اسم لقصر في الجنة، وقرئ برفع جنت عدن على أنها مبتدأ، وخبرها مفتحة، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هي جنت عدن، وقوله: ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ حال من جنت، والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل، والأبواب مرتفعة باسم المفعول: كقوله: ﴿وفتحت أبوابها﴾ [الزمر: 73] والرباط بين الحال، وصاحبها ضمير مقدر، أي: منها، أو الألف، واللام لقيامه مقام الضمير، إذ الأصل أبوابها. وقيل: إن ارتفاع الأبواب على البذل من الضمير في مفتحة العائد على جنت، وبه قال أبو علي الفارسي أي: مفتحة هي الأبواب. قال الفراء: المعنى: مفتحة أبوابها، والعرب تجعل الألف، واللام خلفاً من الإضافة. وقال الزجاج: المعنى: مفتحة لهم الأبواب منها. قال الحسن: إن الأبواب يقال لها: انفتحت، فتفتحت انغلق، فتغلق، وقيل: تفتحت لهم الملائكة الأبواب، وانتصاب ﴿متكئين فيها﴾ على الحال من ضمير لهم، والعامل فيه مفتحة، وقيل: هو حال من ﴿يدعون﴾ قدمت على العامل ﴿فيها﴾ أي: يدعون في الجنت حال كونهم متكئين فيها ﴿بفأكهة كثيرة﴾ أي: بالوان متنوعة متكررة

امي، فقام، فحلق رأسه، وقام يصلي، فرنَّ إبليس رنة سمعها أهل السماء، وأهل الأرض، ثم عرج إلى السماء، فقال: أي رب إنه قد اعتصم، فسلطني عليه، فإني لا أستطيعه إلا بسلطانك، قال: قد سلطتك على جسده، ولم أسطك على قلبه، فنزل، فنفخ تحت قدمه نفخة قرح ما بين قدمه إلى قرنه، فصار قرحة واحدة، وألقي على الرماد حتى بدا حجاب قلبه، فكانت امرأته تسعى عليه، حتى قالت له: ألا ترى يا أيوب قد نزل، والله بي من الجهد، والفاقة ما إن بيعت قروني برغيف، فاطعمتك، فادع الله أن يشفيك، ويريحك قال: ويحك كنا في النعيم سبعين عاماً، فاصبري حتى نكون في الضراء سبعين عاماً، فكان في البلاء سبع سنين، ودعا، فجاء جبريل يوماً، فدعا بيده، ثم قال: قم، فقام، فنحاه عن مكانه، وقال: اركض برجلك هذا مغتسل بارداً، وشراب، فركض برجله، فنبتت عين، فقال: اغتسل، فاغتسل منها، ثم جاء أيضاً، فقال: اركض برجلك، فنبتت عين أخرى فقال له: اشرب منها، وهو قوله: «اركض برجلك هذا مغتسل بارداً وشراب»، والبسه الله حلة من الجنة، ففتحنى أيوب، فجلس في ناحية، وجاءت امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله أين المبتلى الذي كان ها هنا؟ لعل الكلاب قد ذهبت به، أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك أنا أيوب قد ردَّ الله علي جسدي، ورد عليه ماله، وولده عيانياً، ومثلهم معهم، وأمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ الجراد بيده، ثم يجعله في ثوبه، وينشر كساءه، ويأخذه، فيجعل فيه، فأوحى الله إليه: يا أيوب أما شبعْتَ؟ قال: يا رب من ذا الذي يشبع من فضلك، ورحمتك.

وفي هذا نكارة شديدة، فإن الله سبحانه لا يمكن الشيطان من نبي من أنبيائه، ويسلط عليه هذا التسليط العظيم. وأخرج أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن عساکر عن ابن عباس قال: إن إبليس قعد على الطريق، وأخذ تابوتاً يدأوي الناس، فقالت امرأة أيوب: يا عبد الله إن ها هنا مبتلى من أمره كذا وكذا، فهل لك أن تدأويه قال: نعم بشرط إن أنا شفيت أن يقول: أنت شفيتني لا أريد منه أجراً غيره. فأتت أيوب، فنكرت له ذلك، فقال: ويحك ذاك الشيطان، لله علي إن شفاني الله أن أجلك مائة جلدة، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثاً، فيضربها به، فأخذ عنقاً فيه مائة شمراخ، فضربها ضربة واحدة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: «يؤخذ بيك ضغثاً» قال: هو الأسل. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: الضغث القبضة من المرعى الرطب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: للضغث الحزمة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والطبراني، وابن عساکر من طريق أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: «حملت وليدة في بني ساعدة من زنا، فقيل لها: ممن حملك؟ قالت: من فلان المقعد، فسئل المقعد، فقال: صدقت. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: خنوا عنكوا في مائة شمراخ، فاضربوه به

من الفواكه «وشراب» كثير، فحذف كثيراً لدلالة الأول عليه، وعلى جعل «متكئين» حالاً من ضمير لهم، والعامل فيه مفتحة، فتكون جملة «يدعون» مستانفة لبيان حالهم. وقيل: إن يدعون في محل نصب على الحال من ضمير متكئين «وعندهم قاصرات الطرف أتراب» أي: قاصرات طرفهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، وقد مضى بيانه في سورة الصافات. والأتراب: المتحدثات في السن، أو المتساويات في الحسن. وقال مجاهد: معنى أتراب: أنهن متواخيات لا يتباغضن، ولا يتغلبن. وقيل: أتراباً للأزواج. والأتراب جمع ترب، واشتقاقه من التراب، لأنه يمسهن في وقت واحد لاتحاد مولدهن «هَذَا ما توعدون ليوم الحساب» أي: هذا الجزء الذي وعدتم به لأجل يوم الحساب، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزء، أو المعنى: في يوم الحساب. قرأ الجمهور (ما توعدون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، ويعقوب بالتحية على الخبر، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله: «وإن للمتقين»، فإنه خبر «إن هذا لرزقنا» أي: إن هذا المنكور من النعم، والكرامات لرزقنا الذي أنعمنا به عليكم «ما له من نقاد» أي: انقطاع، ولا يفنى أبداً، ومثله قوله: «عطاء غير مجنوذ» [هود: 108] فنعم الجنة لا تنقطع عن أهلها.

وقد أخرج أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، وابن عساکر عن ابن عباس قال: إن الشيطان عرج إلى السماء، فقال: يا رب سلطني على أيوب، قال الله: لقد سلطتك على ماله، وولده، ولم أسطك على جسده، فنزل، فجمع جنوده، فقال لهم: قد سلطت على أيوب، فأروني سلطانكم، فصاروا نيراناً، ثم صاروا ماء، فبينما هم في المشرق إذا هم بالمغرب، وبينما هم بالمغرب إذا هم بالمشرق. فأرسل طائفة منهم إلى زرعه، وطائفة إلى أهله، وطائفة إلى بقره، وطائفة إلى غنمه، وقال: إنه لا يعتصم منكم إلا بالمعروف، فاتوه بالمصائب بعضها على بعض، فجاء صاحب الزرع، فقال: يا أيوب ألم ترَ إلى ربك أرسل على زرعه ناراً، فأحرقت؟ ثم جاء صاحب الإبل، فقال: يا أيوب ألم ترَ إلى ربك أرسل إلى إبلك عدواً، فذهب بها؟ ثم جاء صاحب البقر فقال: يا أيوب ألم ترَ إلى ربك أرسل إلى بقرك عدواً، فذهب بها؟ ثم جاءه صاحب الغنم فقال: يا أيوب ألم ترَ إلى ربك أرسل على غنمك عدواً، فذهب بها؟ وتقرد هو لبنينه، فجمعهم في بيت أكبرهم، فبينما هم ياكلون، ويشربون إذ هبت ريح، فأخذت بأركان البيت، فالقته عليهم، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام بائنيه قرطان، فقال: يا أيوب ألم ترَ إلى ربك جمع بنيك في بيت أكبرهم، فبينما هم ياكلون، ويشربون إذ هبت ريح، فأخذت بأركان البيت، فالقته عليهم، فلو رأيتم حين اختلطت دماؤهم، ولحومهم بطعامهم، وشرابهم؟ فقال له أيوب: فإين كنت؟ قال: كنت معهم، قال: كيف انفلت؟ قال: انفلت، قال أيوب: أنت الشيطان؛ ثم قال أيوب: أنا اليوم كيوم ولدتنني

غسقت عينه إذا انصبت، والغسق انصباب. قال النحاس: ويجوز أن يكون للمعنى الأمر هذا، وارتفاع حميم، وغساق على أنهما خبران لمبتدأ محذوف أي: هو حميم، وغساق، ويجوز أن يكون هذا في موضع نصب بإضمار فعل يفسره ما بعده أي: لينوقوا هذا، فليذوقوه، ويجوز أن يكون حميم مرتفع على الابتداء، وخبره مقدر قبله، أي: منه حميم، ومنه غساق، ومثله قول الشاعر:

حتى ما إذا أضاء البرق في غلس - وغوير البقل ملوي ومخضود
أي: منه ملوي، ومنه مخضود، وقيل: الغساق ما قتل ببرده، ومنه قيل لليل غاسق، لأنه أبعد من النهار، وقيل: هو الزمهرير، وقيل: الغساق المنتن، وقيل: الغساق عين في جهنم يسيل منه كل نوب حية، وعقرب. وقال قتادة: هو ما يسيل من فروج النساء الزواني، ومن نتن لحوم الكفرة، وجلودهم. وقال محمد بن كعب: هو: عصارة أهل النار، وقال السدي: الغساق الذي يسيل من دموع أهل النار يسقونه مع الحميم، وكذا قال ابن زيد. وقال مجاهد، ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده، وتفسير الغساق بالبارد أنسب بما تقتضيه لغة العرب، ومنه قول الشاعر:

إذا ما تنكرت الحياة وطيبها - إلي جرى ندم من الليل غاسق
أي: بارد، وأنسب أيضاً بمقابلة الحميم. وقرأ أهل المدينة، وأهل البصرة، وبعض الكوفيين بتخفيف السين من (غساق)، وقرأ يحيى بن ثواب، والأعمش، وحمزة بالتشديد، وهما لغتان بمعنى واحد كما قال الأخفش. وقيل: معناهما مختلف: فمن خفف، فهو اسم مثل عذاب، وجواب، وصواب، ومن شدد قال: هو اسم فاعل للمبالغة نحو ضرب، وقتال «وآخر من شكله» قرأ الجمهور (وآخر) مفرد مذكر، وقرأ أبو عمرو (وآخر) بضم الهمزة على أنه جمع، وأنكر قراءة الجمهور لقوله أزواج، وأنكر عاصم الجحدري قراءة أبي عمرو، وقال: لو كانت كما قرأ لقال: من شكلها، وارتفاع آخر على أنه مبتدأ، وخبره أزواج، ويجوز أن يكون من شكله خبراً مقدماً، وأزواج مبتدأ مؤخر، والجملة خبر آخر، ويجوز أن يكون خبراً آخر مقدراً أي: وآخر لهم، و «من شكله أزواج» جملة مستقلة؛ ومعنى الآية على قراءة الجمهور: وعذاب آخر، أو منقوع آخر، أو نوع آخر من شكل العذاب، أو المنقوع، أو النوع الأول، والشكل المثل، وعلى القراءة الثانية يكون معنى الآية: ومنقوعات آخر، أو أنواع آخر من شكل ذلك المنقوع، أو النوع المتقدم، وإفراد الضمير في شكله على تأويل المذكر أي: من شكل المذكر، ومعنى «أزواج»: أجناس، وأنواع وأشباه. وحاصل معنى الآية: أن لأهل النار حميماً، وغساقاً، وأنواعاً من العذاب من مثل الحميم، والغساق. قال الواحدي: قال المفسرون: هو: الزمهرير، ولا يتم هذا الذي حكاه عن المفسرين إلا على تقدير أن الزمهرير أنواع مختلفة، وأجناس متفاوتة؛ ليطابق معنى أزواج، أو على تقدير أن لكل فرد من أهل النار زمهريراً

ضربة واحدة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والطبراني، وابن عساكر نحوه من طريق أخرى عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن سعيد بن سعد بن عبادة. وأخرج الطبراني عن سهل بن سعد نحوه. وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود قال: أيوب رأس الصابرين يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «أولي الأيدي» قال: القوة في العبادة «والأبصار» قال: الفقه في الدين. وأخرج ابن أبي حاتم عنه «أولي الأيدي» قال: النعمة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «إننا لخلصناهم بخالصة ذكرى الدار» قال: أخلصوا بذكر دار الآخرة أن يعملوا لها.

هَذَا وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَنُصْرَبَنَّ عَنْهُمُ الْمَصْرَفَ ﴿٥٦﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَكْسُوْنَهَا ﴿٥٧﴾ هَذَا قَوْلٌ مِّنْ مَّقْنَنِهِمْ ﴿٥٨﴾ هَذَا قَوْلٌ مِّنْ مَّقْنَنِهِمْ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَشْهَرُ لَا مَرَجَ لَِّكُمْ أَشْهَرُ قَدْ أَفْتَوْنَا أَن تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّ عَلَيْنَا رِجَالًا فِي السَّاعَةِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كَمَا نَعُدُّ مِنْ الْأَنْفَارِ ﴿٦١﴾ أَتَعَذَّلُ الْأَنْبَارِ ﴿٦٢﴾ قَالُوا لَمْ رَأَيْنَاهُمُ الْأَبْعَصَ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَمَقْصَدُكُمْ أَهْلَ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَإِلَّاهُ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَقْرَ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٦﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مَرْفُوضُونَ ﴿٦٧﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الْأَكْثَرُ إِذْ تُخَوِّصُونَ ﴿٦٨﴾ إِنْ رُوحِي إِلَىٰ آلِهَةٍ أَنَا تُبِيرُ شَيْئًا ﴿٦٩﴾

قوله: «هذا» قال الزجاج: هذا خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر هذا، فيوقف على هذا. قال ابن الأنباري: وهذا وقف حسن، ثم يتدنى «وإن للطاغين» ويجوز أن يكون هذا مبتدأ، وخبره محذوف أي: هذا كما نكر، أو هذا نكر. ثم نكر سبحانه ما لأهل الشر بعد أن نكر ما لأهل الخير، فقال: «وإن للطاغين لشر مآب» أي: الذين طغوا على الله، وكتبوا رسله «لشر مآب» لشر متقلب يتقلبون إليه، ثم بين ذلك، فقال: «جهنم يصلونها»، وانتصاب جهنم على أنها بدل من شر مآب، أو منصوبة بأعني، ويجوز أن يكون عطف بيان على قول البعض كما سلف قريباً، ويجوز أن يكون منصوباً على الاشتغال أي: يصلون جهنم يصلونها، ومعنى يصلونها: يخلونها، وهو في محل نصب على الحالية «فبئس المهاد» أي: بش ما مهدوا لأنفسهم، وهو الفراش، مأخوذ من مهد الصبي، ويجوز أن يكون المراد بالمهد الموضع، والمخصوص بالذم محذوف أي: بش المهاد هي كما في قوله: «لهم من جهنم مهاد» [الأعراف: 41] شبه الله سبحانه ما تحتهم من نار جهنم بالمهاد «هذا فليذوقوه حميم وغساق» هذا في موضع رفع بالابتداء، وخبره حميم، وغساق على التقديم، والتأخير أي: هذا حميم، وغساق، فليذوقوه. قال الفراء، والزجاج: تقدير الآية: هذا حميم، وغساق، فليذوقوه أو يقال لهم في ذلك اليوم: هذه المقالة. والحميم الماء الحار الذي قد انتهى حره، والغساق ما سال من جلود أهل النار من القيح، والصيد، من قولهم:

كل واحد من الأمرين. قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا: اتخنوهم سخرياً، وزاغت عنهم أبصارهم. قال الفراء: والاستفهام هنا بمعنى: التوبيخ، والتعجب. قرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وابن كثير⁽¹⁾، والأعمش بحذف همزة اتخنناهم في الوصل. وهذه القراءة تحتل أن يكون الكلام خبراً محضاً، وتكون الجملة في محل نصب صفة ثانية لرجالاً، وأن يكون المراد الاستفهام، وحذفت أداته لدلالة أم عليها، فتكون أم على الوجه الأول منقطعة بمعنى: بل، والهمزة أي: بل أزاعت عنهم الأبصار على معنى: توبيخ أنفسهم على الاستسغار، ثم الإضراب، والانتقال منه إلى التوبيخ على الإزراء، والتحقيق، وعلى الثاني أم هي المتصلة. وقرأ الباقر بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل، ولا محل للجملة حينئذٍ، وفيه التوبيخ لأنفسهم على الأمرين جميعاً، لأن أم على هذه القراءة هي للتسوية. وقرأ أبو جعفر، ونافع، وشيبة، والمفضل، وهبيرة، ويحيى بن وثاب، والأعمش، وحزمة، والكسائي (سخرياً) بضم السين، وقرأ الباقر بكسرها. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء، ومن ضم جعله من التسخير، والإشارة بقوله: ﴿إِنْ لَكَ﴾ إلى ما تقدم من حكاية حالهم، وخبر إن قوله: ﴿لِحَقِّ﴾ أي: لواقع ثابت في الدار الآخرة لا يتخلف البتة، و﴿تَخَاصُمَ أَهْلِ النَّارِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة بيان لذلك، وقيل: بيان لحق، وقيل: بدل منه، وقيل: بدل من محل ذلك، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وهذا على قراءة الجمهور برفع تخلصم. والمعنى: إن ذلك الذي حكاه الله عنهم لحق لا بد أن يتكلموا به، وهو تخاصم أهل النار فيها، وما قالته الرؤساء للاتباع، وما قالته الاتباع لهم. وقرأ ابن أبي عتبة بنصب «تخاصم» على أنه بدل من ذلك، أو بإضمار أعني. وقرأ ابن السميع «تخاصم» بصيغة الفعل الماضي، فتكون جملة مستأنفة. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول قولاً جامعاً بين التخويف، والإرشاد إلى التوحيد، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مَذْذَرٌ﴾ أي: مخوف لكم من عقاب الله، وعذابه ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ يستحق العبادة ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الذي لا شريك له ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء سواه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالبه مغالب ﴿الْغَفَّارُ﴾ لمن أطاعه، وقيل: معنى ﴿الْعَزِيزُ﴾: المنيع الذي لا مثل له، ومعنى ﴿الْغَفَّارُ﴾: الستار لذنوب خلقه. ثم أمره سبحانه أن يبالغ في إنذارهم، ويبين لهم عظم الأمر، وجلالته، فقال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ما أنذرتكم به من العقاب وما بينته لكم من التوحيد هو خبر عظيم، ونباً جليل، من شأنه العناية به، والتعظيم له،

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ الفوج الجماعة، والاقترام السخول، وهذا حكاية لقول الملائكة الذين هم خزنة النار، وذلك أن القادة، والرؤساء إذا دخلوا النار، ثم دخل بعدهم الاتباع. قالت الخزنة للقادة: هذا فوج، يعنون: الاتباع ﴿مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ أي: داخل معكم إلى النار، وقوله: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من قول القادة، والرؤساء لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا: لا مرحباً بهم أي: لا اتسعت منازلهم في النار، والرحب السعة، والمعنى: لا كرامة لهم، وهذا إخبار من الله سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار، وأن المودة التي كانت بينهم تصير عداوة. وجملة لا مرحباً بهم دعائية لا محل لها من الإعراب، أو صفة للفوج، أو حال منه، أو بتقدير القول أي: مقولاً في حقهم لا مرحباً بهم. وقيل: إنها من تمام قول الخزنة. والأول أولى كما يدل عليه جواب الاتباع الآتي، وجملة ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ تعليل من جهة الفاتلين لا مرحباً بهم أي: إنهم صالوا النار كما صليناها، ومستحقون لها كما استحقيناها. وجملة ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقتر أي: قال الاتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم: بل أنتم لا مرحباً بكم أي: لا كرامة لكم، ثم عللوا ذلك بقولهم: ﴿أَنْتُمْ قَدْ تَمَتَّعْتُمْوهُ لَنَا﴾ أي: أنتم قدتم العذاب، أو الصلي لنا، وأوقعتمونا فيه، ودعوتمونا إليه بما كنتم تقولون لنا من أن الحق ما أنتم عليه، وأن الأنبياء غير صائقين فيما جاءوا به ﴿بِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي: بئس المقر جهنم لنا، ولكم. ثم حكي عن الاتباع أيضاً: أنهم أرفقوا هذا القول بقول آخر، وهو ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ أي: زده عذاباً ذا ضعف، والضعف بأن يزيد عليه مثله، ومعنى من قدّم لنا هذا: من دعانا إليه، وسوّغ لنا، قال الفراء: المعنى: من سوّغ لنا هذا، وسنه، وقيل: معناه: قدّم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى الكفر، فزده عذاباً ضعفاً في النار أي: عذاباً بكفره، وعذاباً بدعائه إيانا، فصار ذلك ضعفاً، ومثله قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: 38] وقوله: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: 68] وقيل: المراد بالضعف هنا: الحيات، والعقارب ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ قيل: هو من قول الرؤساء، وقيل: من قول الطاغين المذكورين سابقاً. قال الكلبي: ينظرون في النار، فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين معهم فيها، فعند ذلك قالوا: ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدّهم من الأشرار. وقيل: يعنون: فقراء المؤمنين كعمار، وخباب، وصهيب، وبلال، وسالم، وسلمان، وقيل: أراونا أصحاب محمد على العموم ﴿تَخَنَّنَاهُمْ سُخْرِيًّا﴾ أم زاغت عنهم الأبصار قال مجاهد: المعنى: اتخنناهم سخرياً في الدنيا، فاختطانا، أم زاغت عنهم الأبصار، فلم نعلم مكانهم؟ والإنكار المفهوم من الاستفهام متوجه إلى

(1) (قوله: وابن كثير) يريد في غير المشهور عنه، اهـ. مصحح القرآن.

قال: أقاعي، وحيات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ قال: الملائكة حين شوروا في خلق آدم، فاختمصموا فيه، وقالوا: لا تجعل في الأرض خليفة. وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمِ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال: هي: الخصومة في شأن آدم حيث قالوا: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30]. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن نصر في كتاب الصلاة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني الليلة ربي في أحسن صورة، أحسبه قال في المنام، قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: لا، فوضع يده بين كفتي حتى وجدت بردها بين شديي، أو في نحري، فعلمت ما في السموات، والأرض، ثم قال لي: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: نعم في الكفارات، والكفارات: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، الحديث. وأخرج الترمذي وصححه، ومحمد بن نصر، والطبراني، والحاكم، وابن مروي عن حديث معاذ بن جبل نحوه بآطول منه، وقال: «وإسباغ الوضوء في السبرات». وأخرج الطبراني، وابن مروي عن حديث جابر بن سمرة نحوه بأخصر منه. وأخرج أيضاً من حديث أبي هريرة نحوه، وفي الباب أحاديث.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ الْأَعْلَى إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٦٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٦٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٦٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَسْكَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَتَسْتَكْبِرُ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ قَالَ فَاهْجُرْ بَيْنَهُمَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٢﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٣﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْآنَظِرِينَ ﴿٧٥﴾ لَكَ يَوْمَ الْوَعْدِ الْأَعْلَى ﴿٧٦﴾ قَالَ فَمَنْ رَيْكَ أَنْتَ وَمَنْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٧٨﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَمَكَرُ بَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٩﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالِينَ ﴿٨١﴾ وَلِتُكْمِلُنَّ نَبَأَ بَعْدِ جِبْرِيلَ ﴿٨٢﴾

لما نكر سبحانه خصومة الملائكة إجمالاً فيما تقدم نكرها هنا تفصيلاً، فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ إذ هذه هي بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: 69] لاشتغال ما في حيز هذه على الخصومة. وقيل: هي منصوبة بإضمار انكر، والأول أولى إذا كانت خصومة الملائكة في شأن من يستخلف في الأرض. وأما إذا كانت في غير ذلك مما تقدم نكره، فالثاني أولى ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ أي: خالق فيما سيأتي من الزمن ﴿بَشَرًا﴾ أي: جسماً من جنس البشر مأخوذاً من مباشرته للأرض، أو من كونه بادي البشرية. وقوله: ﴿مَنْ طِينٍ﴾ متعلق بمحذوف هو: صفة لبشر، أو بخالق، ومعنى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾: صوّرتة على صورة البشر،

وعدم الاستخفاف به، ومثل هذه الآية قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنْ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾ [النبا: 1، 2]، وقال مجاهد، وقتادة، ومقاتل: هو: القرآن، فإنه نبي عظيم؛ لأنه كلام الله. قال الزجاج: قل: النبا الذي أنبأكم به عن الله نبي عظيم: يعني: ما أنبأهم به من قصص الأولين، وذلك ليل على صدقه، ونبوته؛ لأنه لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله، وجملة ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مَعْرُضُونَ﴾ توبيخ لهم، وتقريع لكونهم أعرضوا عنه، ولم يتفكروا فيه، فاعلموا صدقه، ويستلوا به على ما أنكروه من البعث، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمِ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ استثناء مسوق لتقرير أنه نبي عظيم، والملا الأعلى هم: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: وقت اختصاصهم؛ فقوله: ﴿بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ متعلق بعلم على تضمينه معنى: الإحاطة، وقوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ متعلق بمحذوف أي: ما كان لي فيما سبق علم بوجه من الوجوه بحال الملا الأعلى وقت اختصاصهم، والضمير في يختصمون راجع إلى الملا الأعلى، والخصومة الكائنة بينهم هي في أمر آدم كما يفيد ما سيأتي قريباً، وجملة ﴿إِنْ يُوْحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ معترضة بين اختصاصهم المجل، وبين تفصيله بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ [ص: 71]. والمعنى: ما يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين. قال الفراء: المعنى ما يوحى إليّ إلا أنني نذير مبين أبين لكم ما تأتون من الفرائض، والسنن، وما تدعون من الحرام، والمعصية. قال: كأنك قلت: ما يوحى إليّ إلا الإنذار. قال النحاس: ويجوز أن تكون في محل نصب بمعنى: ما يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين. قرأ الجمهور بفتح همزة أنما على أنها، وما في حيزها في محل رفع لقيامها مقام الفاعل أي: ما يوحى إليّ إلا الإنذار، أو إلا كوني نذيراً مبيناً، أو في محل نصب، أو جر بعد إسقاط لام العلة، والقائم مقام الفاعل على هذا الجاز والمجور. وقرأ أبو جعفر بكسر الهمزة؛ لأن في الوحي معنى القول، وهي: القائمة مقام الفاعل على سبيل الحكاية، كأنه قيل: ما يوحى إليّ إلا هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار، وهو أن أقول لكم إنما أنا نذير مبين. وقيل: إن الضمير في يختصمون عائداً إلى قريش؛ يعني: قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، والمعنى: ما كان لي علم بالملائكة إذ تختصم فيهم قريش، والأول أولى.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَسَّاقٍ﴾ قال: الزمهرير ﴿وَوَآخِرَ مِنْ شَكْلِهِ﴾ قال: من نحوه ﴿أَزْوَاجٍ﴾ قال: ألوان من العذاب. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن ملأ من غساق يهرق في الدنيا لانتن أهل الدنيا». قال الترمذي بعد إخرجه: لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد. قلت: ورشدين فيه مقال معروف. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَرَزَدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾

وقول الآخر:

بسبع رمين الجمر أم بثمانيا
ويحتمل أن يكون خبراً محضاً من غير إرادة للاستفهام،
فتكون «أم» منقطعة، والمعنى: استكبرت عن السجود الذي
أمرت به بل ا «كنت من العالين» أي: المستحقين للترفع
عن طاعة أمر الله المتعالين عن ذلك، وقيل: المعنى: استكبرت
عن السجود الآن، أم لم تزل من القوم الذين يتكبرون عن
ذلك، وجملة «قال أنا خير منه» مستأنفة جواب سؤال
مقدر، ادّعى اللعين لنفسه: أنه خير من آدم، وفي ضمن
كلامه هذا: أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن. ثم علل
ما ادّعاه من كونه خيراً منه بقوله: «خلقتني من نار
وخلقتك من طين»، وفي زعمه أن عنصر النار أشرف من
عنصر الطين، وذهب عنه أن النار إنما هي بمنزلة الخادم
لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعيت كما يستدعي الخادم،
ولن استغنى عنها طربت، وأيضاً فالطين يستولي على النار،
فيطفئها، وأيضاً فهي لا توجد إلا بما أصله من عنصر
الأرض، وعلى كل حال، فقد شرف آدم بشرف، وكرم بكرامة
لا يوازيها شيء من شرف العناصر، وذلك أن الله خلقه
ببيده، ونفخ فيه من روحه، والجواهر في أنفسها متجانسة،
وإنما تشرف بعارض من عوارضها، وجملة «قال فأخرج
منها» مستأنفة كالتي قبلها أي: فأخرج من الجنة، أو من
زمرّة الملائكة، ثم علل أمره بالخروج بقوله: «فإنك رجيـم»
أي: مرجوم بالكواكب مطرود من كل خير «وإن عليك
لعنتي إلى يوم الدين» أي: طردى لك عن الرحمة، وإبعادي
لك منها، ويوم الدين يوم الجزاء، فأخبر سبحانه وتعالى: أن
تلك اللعنة مستمرة له دائمة عليه ما دامت الدنيا، ثم في
الآخرة يلقي من أنواع عذاب الله، وعقوبته، وسخطه ما هو
به حقيق، وليس المراد: أن اللعنة تزول عنه في الآخرة، بل
هو ملعون أبداً، ولكن لما كان له في الآخرة ما ينسى عنده
اللعنة، ويذهل عند الوقوع فيه منها صارت كأنها لم تكن
بجنب ما يكون فيه، وجملة «قال رب فانظرني إلى يوم
يبعثون» مستأنفة كما تقدّم فيما قبلها أي: أمهلني، ولا
تعاجلني إلى غاية هي يوم يبعثون: يعني: آدم، وذريته «قال
فإنك من المنظرين» أي: الممهلين «إلى يوم الوقت
المعلوم» الذي قدره الله لفناء الخلاق، وهو عند النفخة
الآخرة، وقيل: هو النفخة الأولى. قيل: إنما طلب إبليس
الإنظار إلى يوم البعث؛ ليتخلص من الموت، لأنه إذا أنظر
إلى يوم البعث لم يمت قبل البعث، وعند مجيء البعث لا
يموت، فحينئذ يتخلص من الموت. فأجيب بما يبطل مراده،
وينقض عليه مقصده، وهو الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم،
وهو الذي يعلمه الله، ولا يعلمه غيره، فلما سمع اللعين إنظار
الله له إلى ذلك الوقت «قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين»
فأقسم بعزة الله أنه يضلل بني آدم بتزيين الشهوات لهم،
وإخخال الشبه عليهم حتى يصيروا غاوين جميعاً. ثم لما علم
أن كيدته لا ينجح إلا في اتباعه، وأحزابه من أهل الكفر،

وصارت أجزاؤه مستوية «ونفخت فيه من روحي» أي:
من الروح الذي أملكه، ولا يملكه غيره. وقيل: هو تمثيل، ولا
نفخ، ولا منفوخ فيه. والمراد: جعله حياً بعد أن كان جماداً لا
حياة فيه. وقد مرّ الكلام في هذا في سورة النساء «فقعوا
له ساجدين» هو أمر من وقع يقع، وانتصاب ساجدين على
الحال، والسجود هنا هو سجود التحية لا سجود العبادة،
وقد مضى تحقيقه في سورة البقرة «فسجد للملائكة» في
الكلام حذف تدلّ عليه الفاء، والتقدير: فخلقه، فسواه، ونفخ
فيه من روحه، فسجد له الملائكة. وقوله: «كلهم» يفيد أنهم
سجدوا جميعاً، ولم يبق منهم أحد. وقوله: «لجمعون» يفيد
أنهم اجتمعوا على السجود في وقت واحد، فالأول: لقصد
الإحاطة، والثاني: لقصد الاجتماع. قال في الكشاف: فأقادا
معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد،
وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرقين في أوقات.
وقيل: إنه أكد بتاكيدين للمبالغة في التعميم «إلا إبليس»
الاستثناء متصل على تقدير: أنه كان متصفاً بصفات
الملائكة داخلاً في عدادهم، فغلبوا عليه، أو منقطع على ما
هو الظاهر من عدم دخوله فيهم أي: لكن إبليس «استكبر»
أي: أنف من السجود جهلاً منه بأنه طاعة الله، «وكان من الكافرين» أي:
صار منهم بمخالفته لأمر الله، واستكباره عن طاعته، أو كان
من الكافرين في علم الله سبحانه، وقد تقدّم الكلام على هذا
مستوفى في سورة البقرة، والأعراف، وبني إسرائيل،
والكهف، وطه. ثم إن الله سبحانه سأكه عن سبب تركه
للسجود الذي أمره به فـ «قال يا إبليس ما منعك أن
تسجد لما خلقت بيدي» أي: ما صرفك، وصنك عن
السجود لما توليت خلقه من غير واسطة؟ وأضاف خلقه إلى
نفسه تكريماً له، وتشريفاً، مع أنه سبحانه خالق كل شيء
كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، والمساجد. قال
مجاهد: اليد هنا بمعنى: التاكيد، والصلة مجازاً كقوله:
«ويبقى وجه ربك» [الرحمن: 27]. وقيل: أراد باليد القدرة،
يقال: ما لي بهذا الأمر يد، وما لي به يدان أي: قدرة، ومنه
قول الشاعر:

تحملت من لفاء ما ليس لي يد ولا للجبّال الراسيات يدان
وقيل: التثنية في اليد للدلالة على أنها ليس بمعنى: القوة،
والقدرة، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته
سبحانه، و «ما» في قوله: «لما خلقت» هي: المصدرية، أو
الموصولة. وقرأ الجحدري (لما) بالتشديد مع فتح اللام على
أنها ظرف بمعنى: حين كما قال أبو علي الفارسي. وقرئ
(بيدي) على الأفراد (استكبرت) قرأ الجمهور بهمزة
الاستفهام، وهو استفهام توبيخ، وتقريع و «أم» متصلة.
وقرأ ابن كثير في رواية عنه، وأهل مكة بالفتح وصل، ويجوز
أن يكون الاستفهام مراداً، فيوافق القراءة الأولى كما في قول
الشاعر:

تروح من الحيّ أم تبتكر

وتوحيده، والترغيب إلى الجنة، والتحذير من النار ﴿يُجِدْ حِينَ﴾ قال قتادة، والزجاج، والفراء: بعد الموت. وقال عكرمة، وابن زيد: يوم القيامة. وقال الكلبي: من بقي علم ذلك لما ظهر أمره، وعلاء، ومن مات علمه بعد الموت. وقال السدي: وذلك يوم بدر.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: أن الخصومة هي: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ إلخ. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي عن ابن عمر قال: خلق الله أربعاً بيده: العرش، وجنة عدن، والقلم، وأدم. وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده»، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ قال: أنا الحق أقول الحق. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قال: قل يا محمد: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ ما أدعوكم إليه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ عرض دنيا. وفي البخاري، ومسلم، وغيرهما عن مسروق قال: بينما رجل يحدث في المسجد، فقال فيما يقول: «يوم تأتي السماء بسخان مبين» [السخان: 10] قال: سخان يكون يوم القيامة يأخذ بأسماع المنافقين، وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام، قال: قمنا حتى نخلنا على عبد الله، وهو في بيته، وكان متكئاً، فاستوى قاعداً، فقال: يا أيها الناس من علم منكم علماً، فليقل به، ومن لم يعلم، فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول العالم لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. وأخرج البخاري عن عمر قال: نهينا عن التكلف. وأخرج الطبراني، والحاكم، والبيهقي عن سلمان قال: نهانا رسول الله ﷺ أن نتكلف للضيف.

تفسير سورة الزمر

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وجابر بن زيد. وأخرج ابن الضريس، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الزمر بمكة. وأخرج النحاس في ناسخه عنه قال: نزلت بمكة سورة الزمر سوى ثلاثة آيات نزلن بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53 - 55] الثلاث الآيات. وقال آخرون: إلى سبع آيات من قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53 - 59] إلى آخر السبع. وأخرج النسائي عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل، والزمر»، وأخرجه الترمذي عنها بلفظ: «كان رسول الله ﷺ

والمعاصي، استثنى من لا يقدر على إضلاله، ولا يجد السبيل إلى إغوائه، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ لِلْمُخْلِصِينَ﴾ أي: الذين أخلصتهم لطاعتك، وعصمتهم من الشيطان الرجيم، وقد تقدّم تفسير هذه الآيات في سورة الحجر، وغيرها. وقد أقسم ما هنا بعزة الله، وأقسم في موضع آخر بقوله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: 16] ولا تنافي بين القسمين، فإن إغواءه إياه من آثار عزته سبحانه، وجملته ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها. قرأ الجمهور بنصب الحق في الموضعين على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم، فانتصب، أو هما منصوبان على الإغراء أي: الزموا الحق، أو مصدران مؤكدان لمضمون قوله: ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والأعمش، وعاصم، وحمزة برفع الأول، ونصب الثاني، ورفع الأول على أنه مبتدأ، وخبره مقدر أي: فالحق مني، أو فالحق أنا، أو خبره: لا ملأنا، أو هو خبر مبتدأ محذوف، وأما نصب الثاني، فبالفعل المذكور بعده أي: وأنا أقول الحق، وإجاز الفراء، وأبو عبيد أن يكون منصوباً بمعنى: حقاً لا ملأنا جهنم. واعترض عليهما بأن ما بعد اللام مقطوع عما قبلها. وروي عن سيبويه، والفراء أيضاً: أن المعنى: فالحق لن إملأ جهنم. وروي عن ابن عباس، ومجاهد: أنهما قرأ برفعها، ورفع الأول على ما تقدّم، ورفع الثاني بالابتداء، وخبره الجملة المذكورة بعده، والعائد محذوف. وقرأ ابن السميع، وطلحة بن مصرف بخفضهما على تقدير حرف القسم. قال الفراء: كما يقول الله عز وجل: لا فعلن كذا، وغلطه أبو العباس ثعلب وقال: لا يجوز خفض بحرف مضمّر، وجملته ﴿وَالْحَقُّ جَهَنَّمَ﴾ جواب القسم على قراءة الجمهور، وجملته ﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ معترضة بين القسم، وجوابه، ومعنى ﴿مَنْكُ﴾ أي: من جنسك من الشياطين ﴿وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: من نوبة آدم، فاطاعوك إذ دعوتهم إلى الضلال، والغواية و﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للمعطوف، والمعطوف عليه أي: لا ملأنا من الشياطين، وإتباعهم أجمعين. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يخبرهم بأنه إنما يريد بالدعوة إلى الله امتثال أمره لا عرض الدنيا الزائل، فقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ والضمير في عليه راجع إلى تبليغ الوحي، ولم يتقدّم له نكر، ولكنه مفهوم من السياق. وقيل: هو عائد إلى ما تقدّم من قوله: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: 8] وقيل: الضمير راجع إلى القرآن، وقيل: إلى الدّعاء إلى الله على العموم، فيشمل القرآن، وغيره من الوحي، ومن قول الرسول ﷺ: والمعنى: ما أطلب منكم من جعل تعطوني عليه ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ حتى أقول ما لا أعلم إذ أدعوكم إلى غير ما أمرني الله بالدعوة إليه، والتكلف: التصنع ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: ما هذا القرآن، أو الوحي، أو ما أدعوكم إليه إلا نكر من الله عز وجل للمجر، والإتس. قال الأعمش: ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ﴿وَلِتَعْلَمَنَّ﴾ أيها الكفار ﴿نُبَاهُ﴾ أي: ما أنبا عنه، وأخبر به من الدّعاء إلى الله،

لا ينال حتى يقرأ الزمر، وبني إسرائيل..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْحَقَّ بِالنِّجَى فَاذْكُرِ اللَّهَ عَظِيمًا لَهُ الْيُسُوفُ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَقُّ يَكُونُ أَيْدٍ عَلَى السَّيِّئِ وَيُكَفِّرُ الْفَهَارَ عَلَى الْبَلِ الْبَلِّ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَمْرِ نُسُوبًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَلِيقٌ ﴿٦﴾ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ يَخْلُقُ مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ تِلْكَ دَلِيلُكُمْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ مُصْرِفُونَ ﴿٧﴾

قوله: ﴿تنزيل للكتاب﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف هو اسم إشارة أي: هذا تنزيل. وقال أبو حيان: إن المبتدأ المقدر لفظ هو ليعود على قوله: ﴿إن هو إلا نكر للعالمين﴾ [ص: 87]، كأنه قيل: وهذا النكر ما هو؟ فقيل: هو تنزيل الكتاب، وقيل: ارتفاعه على أنه مبتدأ، وخبره الجار والمجرور بعده أي: تنزيل كائن من الله، وإلى هذا ذهب الزجاج، والفراء. قال الفراء: ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى: هذا تنزيل، وإجاز الفراء، والكسائي النصب على أنه مفعول به لفعل مقدر أي: اتبعوا، أو اقرءوا تنزيل الكتاب. وقال الفراء: يجوز نصبه على الإغراء أي: الزموا، والكتاب هو: القرآن، وقوله: ﴿من الله العزيز الحكيم﴾ على الوجه الأول صلة للتنزيل، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، أو متعلق بمحذوف على أنه حال عمل فيه اسم الإشارة المقدر ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ الباء سببية متعلقة بالإنزال أي: أنزلناه بسبب الحق، ويجوز أن تتعلق بمحذوف هو: حال من الفاعل أي: ملتبسين بالحق، أو من المفعول أي: ملتبسين بالحق، والمراد كل ما فيه من إثبات التوحيد، والنبوّة، والمعاد، وأنواع التكليف. قال مقاتل: يقول: لم نزله باطلاً لغير شيء ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وانتصاب مخلصاً على الحال من فاعل اعبد، والإخلاص: أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه، والدين العباد، والطاعة، ورأسها توحيد الله، وأنه لا شريك له. قرأ الجمهور (الدين) بالنصب على أنه مفعول مخلصاً. وقرأ ابن أبي عملة برفعه على أن مخلصاً مسند إلى الدين على طريقة المجاز. قيل: وكان عليه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام. وفي الآية دليل على وجوب النية، وإخلاصها عن الشوائب؛ لأن الإخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب، وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال، والأفعال النية، كما في حديث: «إنما الأعمال

بالنيات»، وحديث: «لا قول ولا عمل إلا بنية»، وجملة ﴿إلا الله الدين الخالص﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإخلاص أي: إن الدين الخالص من شوائب الشرك، وغيره هو الله، وما سواه من الأديان، فليس بدين الله الخالص الذي أمر به. قال قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ لما أمر سبحانه بعبادته على وجه الإخلاص، وأن الدين الخالص له لا لغيره بين بطلان الشرك الذي هو مخالف للإخلاص، والموصول عبارة عن المشركين، ومحل الرفع على الابتداء، وخبره قوله: ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ وجملة ﴿ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول، والاستثناء مفرغ من أعم العلل، والمعنى: والذين لم يخلصوا العبادة لله، بل شابوها بعبادة غيره قائلين: ما نعبدكم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تقريباً، والضمير في نعبدكم راجع إلى الأشياء التي كانوا يعبدونها من الملائكة، وعيسى، والأصنام، وهم: المرادون بالأولياء، والمراد بقولهم: ﴿إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ الشفاعة، كما حكاها الواحدي عن المفسرين. قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم: من ربكم، وخالفكم، ومن خلق السموات، والأرض، وأنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم للأصنام؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده. قال الكلبي: جواب هذا الكلام قوله في سورة الأحقاف: ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾ [الأحقاف: 28]. والزلفى اسم أقيم مقام المصدر، كأنه قال: إلا ليقربونا إلى الله تقريباً. وفي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد (قالوا ما نعبدكم)، ومعنى ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ أي: بين أهل الأديان يوم القيامة، فيجازي كلا بما يستحقه. وقيل: بين المخلصين للدين، وبين الذين لم يخلصوا، وحذف الأول لدلالة الحال عليه، ومعنى ﴿في ما هم فيه يختلفون﴾ في الذي اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد، والشرك، فإن كل طائفة تدعي أن الحق معها ﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ أي: لا يرشد لدينه، ولا يوفق للاهتداء إلى الحق من هو كاذب في زعمه: أن الآلهة تقربه إلى الله، وكفر باتخاذها آلهة، وجعلها شركاء لله، والكفار صيغة مبالغة تدل على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية. وقرأ الحسن، والأعرج كذاب على صيغة المبالغة ككفار، ورويت هذه القراءة عن أنس ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى﴾ هذا مقرر لما سبق من إبطال قول المشركين: بأن الملائكة بنات الله لتضمنه استحالة الولد في حقه سبحانه على الإطلاق، فلو أراد أن يتخذ ولداً لامتنع اتخاذ الولد حقيقة، ولم يتأث ذلك إلا بأن يصطفى ﴿مما يخلق ما يشاء﴾ أي: يختار من جملة خلقه ما يشاء أن يصطفيه، إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له، ولا يصح أن يكون المخلوق ولداً للخالق لعدم المجانسة بينهما، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبداً كما يفيد التعبير بالاصطفاء مكان

على مقدر هو صفة لنفس. قال الفراء، والزجاج: التقدير خلقكم من نفس خلقها واحدة، ثم جعل منها زوجها. ويجوز أن يكون العطف على معنى واحدة أي: من نفس انفردت، ثم جعل إلخ، والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم أدخل في كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة، لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة في خلقه، وخلقها على الصفة المذكورة لم تجر به عادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الأعراف. ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته الباهرة، فقال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، وهو معطوف على خلقكم، وعبر بالإنزال لما يروى: أنه خلقها في الجنة، ثم أنزلها، فيكون الإنزال حقيقة، ويحتمل أن يكون مجازاً، لأنها لم تعش إلا بالنبات، والنبات إنما يعيش بالماء، والماء منزل من السماء، كانت الأنعام كأنها منزلة، لأن سبب سببها منزل كما أطلق على السبب في قوله:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيه وإن كانوا غصبا
وقيل: إن أنزل بمعنى: أنشأ، وجعل، أو بمعنى: أعطى، وقيل: جعل الخلق إنزالاً، لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء، والثمانية الأزواج هي ما في قوله: ﴿مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 143] و﴿مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 144] ويعني بالاثنتين في الأربعة المواضع: الذكر، والأنثى، وقد تقدم تفسير الآية في سورة الأنعام. ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته البهية، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، والجملة استثنائية لبيان ما تضمنته من الأطوار المختلفة في خلقهم، وخلقاً مصدر مؤكد للفعل المذكور، و﴿مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ صفة له أي: خلقاً كائناً من بعد خلق. قال قتادة، والسدي: نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم عظماً، ثم لحماً. وقال ابن زيد: خلقكم خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم، وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾، وهذه الظلمات الثلاث هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة قاله مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك. وقال سعيد بن جبیر: ظلمة المشيمة، وظلمة الرحم، وظلمة الليل. وقال أبو عبيدة: ظلمة صلب الرجل، وظلمة بطن المرأة، وظلمة الرحم، والإشارة بقوله: ﴿ثَلَاثٌ﴾ إلى سببها، باعتبار أفعاله السابقة، والاسم الشريف خبره ﴿وَبِكُمْ﴾ خبر آخر ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ الحقيقي في الدنيا، والآخرة لا شركة لغيره فيه، وهو: خبر ثالث، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر رابع ﴿فَأَنى تَصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تنصرفون عن عبادته، وتنقلبون عنها إلى عبادة غيره. قرأ حمزة (إمهاتكم) بكسر الهمزة، والميم. وقرأ الكسائي بكسر الهمزة، وفتح الميم. وقرأ الباقون بضم الهمزة، وفتح الميم.

وقد أخرج ابن مردويه، عن يزيد الرقاشي أن رجلاً قال: يا رسول الله إنا نعطي أموالنا التماس الذكر، فهل لنا في

الاتخاذ؛ فمعنى الآية: لو أراد أن يتخذ ولداً لوقع منه شيء ليس هو من اتخاذ الولد، بل إنما هو من الاصطفاء لبعض مخلوقاته، ولهذا نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً له عن ذلك، وجملة ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ مبنية لتنزهه بحسب الصفات بعد تنزهه بحسب الذات أي: هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد في ذاته، فلا مماثل له القهار لكل مخلوقاته، ومن كان متصفاً بهذه الصفات استحال وجود الولد في حقه، لأن الولد مماثل للوالد، ولا مماثل له سبحانه، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿لَوْ أَرَادْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوْاً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء: 17] ثم لما ذكر سبحانه كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً قهاراً ذكر ما يدل على ذلك من صفاته، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقهما باطلاً لغير شيء، ومن كان هذا الخلق العظيم خلقه استحال أن يكون له شريك، أو صاحبة، أو ولد. ثم بين كيفية تصرفه في السموات، والأرض، فقال: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ التكوير في اللغة: طرح الشيء بعضه على بعض. يقال: كَوَّرَ المتاع: إذا لقي بعضه على بعض، ومنه كَوَّرَ العمامة؛ فمعنى تكوير الليل على النهار: تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه، ومعنى تكوير النهار على الليل: تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ [الأعراف: 54] هكذا قال قتادة، وغيره. وقال الضحاك: أي: يلقي هذا على هذا، وهذا على هذا، وهو مقارب للقول الأول. وقيل: معنى الآية: أن ما نقص من الليل نخل في النهار، وما نقص من النهار نخل في الليل، وهو معنى قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: 13، والحديد: 6]، وقيل: المعنى: إن هذا يكرّ على هذا، وهذا يكرّ على هذا كروياً متتابعاً. قال الراغب: تكوير الشيء: إدراجه، وضم بعضه إلى بعض ككوير العمامة اهـ. والإشارة بهذا التكوير المذكور في الآية إلى جريان الشمس في مطالعها، وانتقاص الليل، والنهار، وإزديادهما. قال الرازي: إن النور، والظلمة عسكران عظيمان، وفي كل يوم يغلب هذا ذاك، وذلك هذا؛ ثم ذكر تسخيرهما لسلطان النهار، وسلطان الليل، وهما: الشمس، والقمر، فقال: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: جعلهما متقادين لأمره بالطول، والغروب لمنافع العباد، ثم بين كيفية هذا التسخير، فقال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يجري في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا، وذلك يوم القيامة، وقد تقدم الكلام على الأجل المسمى لجريهما مستوفى في سورة «يس» ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ إلا: حرف تنبيه، والمعنى: تنبهوا أيها العباد، فإله هو: الغالب الساتر لذنوب خلقه بالمغفرة. ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته، وبيد صنعه، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وهي نفس آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ جاء بثم للدلالة على ترتب خلق حواء على خلق آدم، وترأخيه عنه؛ لأنها خلقت منه، والعطف: إما

ذلك من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: لا، قال: يا رسول الله إنما نعطي التماس الأجر والذكر فهل لنا أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله لا يقبل إلا ما أخلص له، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ﴾ قال: يحمل الليل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قال: علقه، ثم مضغة، ثم عظاماً ﴿فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ البطن، والرحم، والمشيمة.

إِنْ تَكْفُرُوا فَلَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ ضَرَّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا وَإِنَّمَا إِذَا حَوْلَهُ يَتَمَتَّ مِنْهُ نَسَمًا مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَسَّحُ بِكَفِّكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمِنْ هُوَ فَنُتِ أَمَّا أَتَىٰ سَابِدًا رَقَابًا بِحَدَرٍ الْآخِرَةِ وَرَبُّوهُ رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُّونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَنْبِيَاءُ ﴿٩﴾ قُلْ يَجَادُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسًا رَيْبًا رَيْبًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقِينَ أَجْرَهُمْ بِحَسَبِ عَمَلِهِمْ قُلْ إِنْ أُرِيدُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَمْ أَكُنْ مِنَ الْإِنْسَانِ ﴿١٠﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١﴾

لما نكر سبحانه النعم التي انعم بها على عباده، وبيّن لهم من ببيع صنعه، وعجيب فعله ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به عقبه بقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ أي: غير محتاج إليكم، ولا إلى إيمانكم، ولا إلى عبادتكم له فإنه الغني المطلق، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾ مع كون كفر الكافر لا يضُرُّه كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن، فهو أيضاً ﴿لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: لا يرضى لأحد من عباده الكفر، ولا يحبه، ولا يأمر به، ومثل هذه الآية قوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8]، ومثلها ما ثبت في صحيح مسلم من قوله ﷺ: «يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً».

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية هل هي على عمومها، وإن الكفر غير مرضي لله سبحانه على كل حال كما هو الظاهر، أو هي خاصة؟ والمعنى: لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، وقد ذهب إلى التخصيص حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه كما سيأتي بيانه آخر البحث، وتابعه على ذلك عكرمة، والسدي، وغيرهما. ثم اختلفوا في الآية اختلافاً آخر. فقال قوم: إنه يريد كفر الكافر، ولا يرضاه، وقال آخرون: إنه لا يريده، ولا يرضاه، والكلام في تحقيق مثل هذا يطول جداً. وقد استدلل القائلون بتخصيص هذه الآية، والمثبتون للإرادة مع عدم الرضا بما ثبت في آيات كثيرة من الكتاب العزيز أنه سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾

[الرعد: 27] ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [يونس: 25] ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30، والتكوير: 29]، ونحو هذا مما يؤدي معناه كثير في الكتاب العزيز. ثم لما نكر سبحانه: أنه لا يرضى لعباده الكفر بيّن أنه يرضى لهم الشكر، فقال: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى لكم الشكر المندلول عليه بقوله، وإن تشكروا، ويثبكم عليه، وإنما رضي لهم سبحانه الشكر؛ لأنه سبب سعادتهم في الدنيا، والآخرة كما قال سبحانه: ﴿لَنْ نَشْكُرَكَ لَازِيْنَكُمْ﴾ [إبراهيم: 7] قرا أبو جعفر، وأبو عمرو، وشيبة، وهبيرة عن عاصم بإسكان الهاء من يرضه، واشتبع الضمة على الهاء ابن نكوان، وابن كثير، والكسائي، وابن محيصن، وورش عن نافع، واختلس الباقون ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى، وقد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير، وشر، وفيه تهديد شديد ﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تضرعه القلوب، وتستتره، فكيف بما تظهره، وتبنيه ﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ ضَرَّ﴾ أي: ضرر كان من مرض، أو فقر، أو خوف ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: راجعاً إليه مستغثاً به في دفع ما نزل به تاركاً لما كان يدعوه، ويستغث به من ميت، أو حي، أو صنم، أو غير ذلك ﴿ثُمَّ إِذَا حَوْلَهُ خَوْلَهُ نَعْمَةً مِنْهُ﴾ أي: أعطاه، وملكه، يقال: خوله الشيء أي: ملكه إياه، وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد:

هناك إن يستخولوا المال يخلوا
وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يفلوا
ومنه قول أبي النجم:

أعطى ولم يبخل ولم يبخل
كوم النرى من خول المخول
﴿نسي ما كان يدعوا إليه من قبل﴾ أي: نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه عنه من قبل أن يخوله ما خوله، وقيل: نسي الدعاء الذي كان يتضرع به، وتركه، أو نسي ربه الذي كان يدعوه، ويتضرع إليه، ثم جاوز ذلك إلى الشرك بالله، وهو معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: شركاء من الأصنام، أو غيرها يستغث بها، ويعبدها ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: ليضل الناس عن طريق الله التي هي الإسلام، والتوحيد. وقال السدي: يعني: أنداداً من الرجال يعتمد عليهم في جميع أموره، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ: أن يهتد من كان متصفاً بتلك الصفة، فقال: ﴿قُلْ تَمَسَّحُ بِكَفِّكَ قَلِيلًا﴾ أي: تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، فمتاع الدنيا قليل، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: مصيركم إليها عن قريب، وفيه من التهديد أمر عظيم. قال الزجاج: لفظه لفظ الأمر، ومعناه: التهديد، والوعيد. قرا الجمهور (ليضل) بضم الياء، وقرا ابن كثير، وأبو عمرو بفتحها. ثم لما نكر سبحانه صفات المشركين، وتمسكهم بغير الله عند انقفاع المكروهات عنهم نكر صفات المؤمنين، فقال: ﴿أَمِنْ هُوَ قَانَتْ أُنْأَمُ اللَّيْلِ﴾، وهذا إلى آخره من تمام الكلام المأمور به رسول الله ﷺ. والمعنى: ذلك الكافر

أحسن حالاً، ومآلاً، آمن هو قائم بطاعات الله في السراء، والضراء في ساعات الليل، مستمر على ذلك، غير مقتصر على دعاء الله سبحانه عند نزول الضرر به. قرأ الحسن، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والكسائي (أمن) بالتشديد، وقرأ نافع، وابن كثير، وحمره، ويحيى بن وثاب، والأعمش بالتخفيف، فعلى القراءة الأولى لم داخله على من الموصولة، وادغم الميم في الميم، ولم هي المتصلة، ومعالها محذوف تقديره: الكافر خير أم الذي هو قانت. وقيل: هي المنقطعة المقترنة ببيل، والهمزة أي: بل آمن هو قانت كالكافر، وأما على القراءة الثانية، فقيل: الهمزة للاستفهام دخلت على من، والاستفهام للتقرير، ومقابلها محذوف أي: لمن هو قانت كمن كفر. وقال الفراء: إن الهمزة في هذه القراءة للنداء، ومن منادى، وهي عبارة عن النبي ﷺ المأمور بقوله: ﴿قل تمتع﴾، والتقدير: يا من هو قانت، قل: كيت، وكيت، وقيل: التقدير: يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة. ومن القائلين بأن الهمزة للنداء الفراء، وضعف ذلك أبو حيان، وقال: هو أجنب عما قبله، وعما بعده، وقد سبقه إلى هذا التضعيف أبو علي الفارسي، واعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم، والأخفش، ولا وجه لذلك، فإننا إذا ثبتت الرواية بطلت الدرية.

وقد اختلف في تفسير القانت هنا، فقيل: المطيع، وقيل: الخاشع في صلاته، وقيل: القائم في صلاته، وقيل: الداعي لربه. قال النحاس: أصل القنوت الطاعة، فكل ما قيل فيه، فهو داخل في الطاعة، والمراد بآداء الليل: ساعاته، وقيل: جوفه، وقيل: ما بين المغرب، والعشاء، وانتصاب ﴿ساجداً وقائماً﴾ على الحال أي: جامعاً بين السجود، والقيام، وقدم السجود على القيام لكونه أدخل في العبادة، ومحل ﴿يحذر الآخرة﴾ النصب على الحال أيضاً أي: يحذر عذاب الآخرة قاله سعيد بن جبير، ومقاتل ﴿ويرجوا رحمة ربه﴾، فيجمع بين الرجاء، والخوف، وما اجتماعاً في قلب رجل إلا فاز. قيل: وفي الكلام حذف، والتقدير: كمن لا يفعل شيئاً من ذلك كما يدل عليه السياق. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم قولاً آخر يتبين به الحق من الباطل، فقال: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ أي: الذين يعلمون أن ما وعد الله به من البعث، والثواب، والعقاب حق، والذين لا يعلمون ذلك، أو الذين يعلمون ما أنزل الله على رسله، والذين لا يعلمون ذلك، أو المراد: العلماء والجهال، ومعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل، ولا بين العالم والجاهل. قال الزجاج: أي: كما لا يستوي الذين يعلمون، والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيع، والعاصي. وقيل: المراد بالذين يعلمون: هم: العاملون بعلمهم، فإنهم المنتفعون به، لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أي: إنما يتعظ، ويتدبر، ويتفكر أصحاب العقول، وهم المؤمنون لا الكفار، فإنهم، وإن زعموا أن لهم عقولاً، فهي كالعدم، وهذه الجملة ليست من جملة

الكلام المأمور به بل من جهة الله سبحانه ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم، ومن لا يعلم، وبين أنه ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أمر رسوله ﷺ بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه، والإيمان به. والمعنى: يا أيها الذين صلّوا بتوحيد الله اتقوا ربكم بطاعته، واجتناب معاصيه، وإخلاص الإيمان له، ونفي الشركاء عنه، والمراد: قل لهم قلني هذا بعينه. ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى بين لهم ما في هذه التقوى من الفوائد، فقال: ﴿الذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي: للذين عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة، وهي: الجنة، وقوله: ﴿في هذه الدنيا﴾ متعلق بأحسنوا، وقيل: هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها، فيكون المعنى: للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا بالصحة، والعافية، والظفر، والغنيمة، والأول أولى. ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات، والإحسان في وطنه أرشد الله سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة، فقال: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أي: فليهاجر إلى حيث يمكنه طاعة الله. والعمل بما أمر به، وترك لما نهى عنه، ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ [النساء: 97]، وقد مضى الكلام في الهجرة مستوفى في سورة النساء، وقيل: المراد بالأرض هنا: أرض الجنة، رغبهم في سعتها، وسعة نعيمها كما في قوله: ﴿جنة عرضها السموات والأرض﴾ [آل عمران: 133]، والأول أولى. ثم لما بين سبحانه ما للمحسنين إذا أحسنوا، وكان لا بد في ذلك من الصبر على فعل الطاعة، وعلى كنف النفس عن الشهوات، أشار إلى فضيلة الصبر، وعظيم مقدره، فقال: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أي: يوفيه الله أجرهم في مقابلة صبرهم بغير حساب أي: بما لا يقدر على حصره حاصر، ولا يستطيع حسابه حاسب. قال عطاء: بما لا يهتدي إليه عقل، ولا وصف. وقال مقاتل: أجرهم الجنة، وأرزاقهم فيها بغير حساب. والحاصل: أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين، وأجرهم لا نهاية له، لأن كل شيء يدخل تحت الحساب، فهو: غير متناه، وهذه فضيلة عظيمة، ومثوبة جلييلة تقتضي أن على كل راغب في ثواب الله، وطامع فيما عنده من الخير، أن يتوفر على الصبر، ويترك نفسه بزماته، ويقدها بقيده، فإن الجزع لا يرد قضاء قد نزل، ولا يجلب خيراً قد سلب، ولا يدفع مكروهاً قد وقع، وإذا تصوّر العاقل هذا حقّ تصويره، وتعلّقه حقّ تعلّقه علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم، وظفر بهذا الجزء الخطير، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى، ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره، ولا يبلغ مداه، فضمّ إلى مصيبيته مصيبة أخرى، ولم يظفر بغير الجزع، وما أحسن قول من قال:

لرى الصبر محموداً وعنه مذاهب فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب

فَيَسْأَلُونَكَ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُمُ اللَّهُ أَوْلَىٰ بِكَ مِنَ الْآلِئِ ۚ وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ كَذِبًا ۝

قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: بترك إخلاص العبادة له، وترك حيدته، والدعاء إلى ترك الشرك، وتضليل أهله ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وهو: يوم القيامة. قال أكثر المفسرين: المعنى: إني أخاف إن عصيت ربي بإجابة للمشركين إلى ما دعوني إليه من عبادة غير الله. قال أبو حمزة اليماني، وابن المسيب: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿يُغْفِرُ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2] وفي هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب، لأن قبله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَعِيبَ اللَّهُ﴾ [الزمر: 11]، فالمراد: عصيان هذا الأمر ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ﴾ التقديم مشعر بالاختصاص أي: لا أعبد غيره لا استقلالاً، ولا على جهة الشركة، ومعنى ﴿مُخْلِصاً لَهُ نَفْسِي﴾: أنه خالص لله غير مشوب بشرك، ولا رياء، ولا غيرهما، وقد تقدم تحقيقه في أول السورة. قال الرازي: فإن قيل: ما معنى التكرير في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ النَّفْسَ﴾ [الزمر: 11]، وقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصاً لَهُ نَفْسِي﴾ قلنا: ليس هذا بتكرير، لأن الأول: إخبار بانه مأمور من جهة الله بالإيمان، والعبادة، والثاني إخبار بانه أمر أن لا يعبد أحداً غير الله ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ﴾ أن تعبدوه ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ هذا الأمر للتهديد، والتقريع، والتوبيخ كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: 40]، وقيل: إن الأمر على حقيقته، وهو منسوخ بآية السيف، والأول أولى ﴿قُلْ إِنْ لِلْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَاهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: إن الكاملين في الخسران هم هؤلاء، لأن من سخل النار، فقد خسر نفسه، وأهله. قال الزجاج: وهذا يعني به الكفار، فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد في النار، وخسروا أهليهم، لأنهم لم يدخلوا مixel المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة، وجملة ﴿إِنَّكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ﴾ مستأنفة لتأكيد ما قبلها، وتصديرها بحرف التنبيه للإشعار بأن هذا الخسران الذي حل بهم قد بلغ من العظم إلى غاية ليس فوقها غاية، وكذلك تعريف الخسران، ووصفه بكونه مبيناً، فإنه يدل على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران؛ وأنه لا خسران يساويه، ولا عقوبة تدانيه. ثم بيّن سبحانه هذا الخسران الذي حل بهم، والبالء النازل عليهم بقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ الظلل عبارة عن أطباق النار أي: لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي: أطباق من النار، وسمي ما تحتهم ظلالاً؛ لأنها تنظر من تحتها من أهل النار، لأن طبقات النار صار في كل طبقة منها طائفة من طوائف الكفار، ومثل هذه الآية قوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: 41]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾

هناك يحق الصبر والصبر واجب وما كان منه للضرورة أوجب
ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يخبرهم بما أمر به
من التوحيد، والإخلاص، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ
مَخْلَصًا لَهُ السُّلْطَانِ﴾ أي: أعبد عبادة خالصة من الشرك،
والرياء، وغير ذلك؛ قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للنبي
ﷺ: ما يحملك على الذي أتيتنا به، ألا تنتظر إلى ملة أبيك،
وجنك، وسادات قومك يعبدون اللات، والعزى، فتلذذ بها؟
فأنزل الله الآية، وقد تقدم بيان معنى الآية في أول هذه
السورة ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه
الامة، وكذلك كان ﷺ، فإنه أول من خالف دين آبائه، ودعا
إلى التوحيد، واللام للتعليل أي: وأمرت بما أمرت به لأجل أن
أكون، وقيل: إنها مزيدة للتأكيد، والأول أولى.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله:
﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ يعني: الكفار الذين لم
يرد الله أن يطهر قلوبهم، فيقولون لا إله إلا الله، ثم قال:
﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾، وهم: عباده المخلصون الذين
قال: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42]،
فالزمهم شهادة أن لا إله إلا الله، وحببها إليهم. وأخرج
عبد بن حميد عن عكرمة ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ قال:
لا يرضى لعباده المسلمين الكفر. وأخرج عبد بن حميد، عن
قتادة قال: والله ما رضي الله لعبد ضلالة، ولا أمره بها، ولا
دعا إليها، ولكن رضي لكم طاعته، وأمركم بها، ونهاكم عن
معصيته. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه،
وابن نعيم في الحلية، وابن عساکر عن ابن عمر: أنه تلا هذه
الآية ﴿أَمِنْ هُوَ قَائِلٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ
الْآخِرَةَ﴾ قال: ذاك عثمان بن عفان، وفي لفظ: نزلت في
عثمان بن عفان. وأخرج ابن سعد في طبقاته، وابن مريويه،
وابن عساکر عن ابن عباس في قوله: ﴿أَمِنْ هُوَ قَائِلٌ﴾
الآية قال: نزلت في عمار بن ياسر. وأخرج ابن جرير، وابن
أبي حاتم عنه في قوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ يقول: يحذر عذاب
الآخرة. وأخرج الترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن أنس قال:
«دخل رسول الله ﷺ على رجل، وهو في الموت، فقال:
كيف تجبك؟ قال: أرجو الله، وأخاف نذوبه، فقال رسول الله
ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا
أعطاه الله الذي يرجو، وأمنه الذي يخاف»، أخرجه من
طريق سيار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن
أنس. قال الترمذي: غريب، وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن
النبي ﷺ مرسلًا.

قُلْ لِلَّهِ كُفَّاتٌ إِنَّ عَصِيَّتَ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عِطَمٍ ﴿١٧﴾ قُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَلَمْ يَدِينِ
 ﴿١٨﴾ فَاغْلِبُوا مَا بَيْنَهُمْ مِنْ دُوبِهِ قُلْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ خَرَعُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَعْلِيَهُمْ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ مِنْ قَوْمِهِمْ ثَلَاثٌ مِنَ النَّارِ وَهُمْ
 مُعَذِّبُونَ ثَلَاثٌ لِكُلِّ مِصْرَفٍ لَهُمْ عِبَادَةٌ رَكْعَاتٌ فَاتَّقُوا ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ
 أَنْ يعبُدُوهَا وَأَقْبَلُوا إِلَى اللَّهِ هُمْ الْبَرُّ قِيَّتْ عِبَادُ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ

أَحْسَنَ لَدَيْهِ كِتَابًا مُنَشِّئَهَا مَتَانِي تَقْشَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيَّنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٧﴾ آمَنَ بَنُو إِسْرَءِيلَ سُوْرَةَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ دُورًا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٨﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَيْنَهُمُ الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ فَأَذَانُ اللَّهِ لَعْنَتُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾

لما نكر سبحانه الآخرة، ووصفها بوصف يوجب الرغبة فيها، والشوق إليها أتبعه بذكر الدنيا، ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها، والنفرة منها، فنكر تمثيلاً لها في سرعة زوالها، وقرب اضمحلالها مع ما في ذلك من نكر نوع من أنواع قدرته الباهرة، وصنعه البديع، فقال: ﴿إِلَهُمَّ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من السحاب مطراً ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبَاعٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فأنخله، وأسكنه فيها، والينابيع جمع ينبوع من نبع الماء ينبع، والينبوع عين الماء، والأمكنة التي ينبع منها الماء، والمعنى: أنخل الماء النازل من السماء في الأرض، وجعله فيها عيوناً جارية، أو جعله في ينابيع أي: في أمكنة ينبع منها الماء، فهو على الوجه الثاني منصوب بنزع الخافض. قال مقاتل: فجعله عيوناً، وركايا في الأرض ﴿ثُمَّ يَخْرُجُ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي: يخرج بذلك الماء من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه من أصفر، وأخضر، وأبيض، وأحمر، أو من برّ، وشعير، وغيرهما إذا كان المراد بالالوان الأصناف ﴿ثُمَّ يَهْبِيجُ﴾ يقال: هاج النبات يهيج هيجاً إذا تم جفافه. قال الجوهري: يقال: هاج النبات هياجاً: إذا يبس، وأرض هائجة يبس بقلها، أو أصفر، وهاجت الريح النبات أيبسته. قال المبرد: قال الأصمعي: يقال: هاجت الأرض تهيج: إذا أوبر نباتها، وولى. قال: وكذلك هاج النبات ﴿فَتَرَاهُ مَصْفُورًا﴾ أي: تراه بعد خضرته، ونضارته، وحسن رونقه مصفراً قد ذهب خضرته، ونضارته ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حَطَامًا﴾ أي: متفتتاً منكسراً، من تحطم العود إذا تفتت من اليبس ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: فيما تقدم ذكره تنكير الأهل العقول الصحيحة، فإنهم الذين يتفكرون الأشياء على حقيقتها، يفكرون، ويعتبرون، ويعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرم، وقرب التقضي، وذهاب بهجتها، وزوال رونقها، ونضارتها، فإذا أنتج لهم التفكير، والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها، والميل إليها، وإيثارها على دار النعيم الدائم، والحياة المستمرة، واللذة الخالصة، ولم يبق معهم شك في أن الله قادر على البعث، والحشر، لأن من قدر على هذا قدر على ذلك، وقيل: هو مثل ضربه الله للقرآن، ولصنوعه من في الأرض. والمعنى: أنزل من السماء قرآنًا، فسلكه في قلوب المؤمنين، ثم يخرج به نبأً بعضه أفضل من بعض، فاما المؤمن، فيزداد إيماناً ويقيناً، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع، وهذا بالتغيير أشبه منه بالتفسير. قرأ الجمهور (ثم يجعله) بالرفع عطفاً على ما قبله، وقرأ أبو

بشر بالنصب بإضمار أن، ولا وجه لذلك. ثم لما نكر سبحانه أن في ذلك لذكرى لأولي الأبواب، نكر شرح الصدر للإسلام، لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به، فقال: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي: وسعه لقبول الحق، وفتحته للاهتداء إلى سبيل الخير. قال السدي: وسع صدره للإسلام للفرح به، والطمأنينة إليه، والكلام في الهمزة، والفاء كما تقدم في ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: 19]، ومن مبتدأ، وخبرها محذوف تقديره كمن قسا قلبه، وخرج صدره، وبل على هذا الخبر المحذوف قوله: ﴿فَقُوِيلَ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ﴾ والمعنى: أقمن وسع الله صدره للإسلام، فقبله، وامتدّى بهديه ﴿فَهُوَ﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ فيفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره، فصار في ظلمات الضلالة، وبلبات الجهالة. قال قتادة: النور كتاب الله به يؤخذ، وإليه ينتهي. قال الزجاج: تفسير الآية: أقمن شرح الله صدره كمن طبع على قلبه، فلم يهتد لقسوته ﴿فَقُوِيلَ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال الفراء، والزجاج: أي: عن ذكر الله كما تقول: اتخمت عن طعام أكلته، ومن طعام أكلته، والمعنى: أنه غلظ قلبه، وجفا عن قبول ذكر الله، يقال: قسا القلب إذا صلب، وقلب قاس أي: صلب لا يرق، ولا يلين، وقيل: معنى من نكر الله من أجل ذكره الذي حقه أن تشرح له الصدور، وتطمئن به القلوب. والمعنى: أنه إذا نكر الله إسمائاً، والأول أولى، ويؤيده قراءة من قرأ عن ذكر الله، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى القاسية قلوبهم، وهو: مبتدأ، وخبره ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: ظاهر واضح. ثم نكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، وسماه حديثاً؛ لأن النبي ﷺ كان يحدث به قومه، ويخبرهم بما ينزل عليه منه. وفيه بيان أن أحسن القول المنكور سابقاً هو: القرآن، وانتصاب ﴿كِتَابًا﴾ على البديل من أحسن الحديث، ويحتمل أن يكون حالاً منه ﴿مُتَشَابِهًا﴾ صفة لكتاباً أي: يشبه بعضه بعضاً في الحسن، والأحكام، وصحة المعاني، وقوة المباني، وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة، وقال قتادة: يشبه بعضه بعضاً في الآي، والحروف، وقيل: يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه، و﴿مُتَانِيًا﴾ صفة أخرى لكتاباً أي: تتنى فيه القصص، وتكرر فيه المواعظ، والأحكام. وقيل: يثنى في التلاوة، فلا يمل سامعه، ولا يسأم قارئه. قرأ الجمهور (مثنائي) يفتح الباء، وقرأ هشام عن ابن عامر، وبشر بسكونها تخفيفاً، واستغفلاً لتحريكها، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هو مثنائي، وقال الرازي: في تبين مثنائي أن أكثر الأشياء المذكورة في القرآن متكررة زوجين زوجين مثل الأمر والنهي، والعالم والخاص، والمجمل والمفصل، وأحوال السموات والأرض، والجنة والنار، والنور والظلمة، واللوح والقلم، والملائكة والشياطين، والعرش والكرسي، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف، والمقصود من ذلك البيان: بأن كل ما سوى الحق زوج، وأن الفرد الأحد الحق هو: الله، ولا يخفى ما في كلامه

معطوف على يتقي أي: ويقال لهم، وجاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق. قال عطاء: أي: جزاء ما كنتم تعملون، ومثل هذه الآية قوله: ﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: 35]، وقد تقدم الكلام على معنى النوق في غير موضع. ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار، فقال: ﴿كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ. والمعنى: أنهم كذبوا رسلهم ﴿فَقَاتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من جهة لا يحتسبون إتيان العذاب منها، وذلك عند أمنهم، وغفلتهم عن عقوبة الله لهم بتكذيبهم ﴿فَإِذَا قَامَهُمُ اللَّهُ لِلْخِزْيِ﴾ أي: الذل، والهوان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالمسخ، والخسف، والقتل، والأسر، وغير ذلك ﴿وَلِ الْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لكونه في غاية الشدة مع دوامه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا ممن يعلم الأشياء، ويتفكر فيها، ويعمل بمقتضى علمه. قال المبرد: يقال: لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته أي: وصل إليها كما تصل الحلاوة، والمرارة إلى الذائق لهما. قال: والخزي المكروه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الآية قال: ما في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله: ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبَايِعُ فِي الْأَرْضِ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذباً، فليصعده، وأخرج ابن مردويه عنه في قوله: ﴿وَأَقَمْنَا شَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قال: أبو بكر الصديق. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: «تلا النبي ﷺ هذه الآية ﴿وَأَقَمْنَا شَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ﴾ قلنا: يا نبي الله كيف انشراح صدره؟ قال: إذا دخل النور القلب انشراح، وانفسح. قلنا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ فقال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت». وأخرج ابن مردويه عن محمد بن كعب القرظي مرفوعاً مرسلاً. وأخرج الحكيم الترمذي في نوابر الأصول عن ابن عمر: «إن رجلاً قال: يا نبي الله أي المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم نكراً للموت وأحسنهم له استعداداً، وإذا دخل النور في القلب انفسح، واستوسع، فقالوا: ما آية ذلك يا نبي الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت». وأخرج عن أبي جعفر عبد الله بن المسور، عن رسول الله ﷺ بنحوه، وزاد فيه: «ثم قرأ ﴿وَأَقَمْنَا شَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾». وأخرج الترمذي، وابن مردويه، وابن شاهين في الترغيب في الذكر، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: «يا رسول الله لو حدثتنا، فنزل ﴿اللَّهُ نَزَلَ لِحَسَنِ الْحَبِيثِ﴾ الآية». وأخرج ابن مردويه عنه في قوله: ﴿مَثَانِي﴾ قال: القرآن كله مثاني. وأخرج ابن أبي حاتم عنه

هذا من التكلف، والبعد عن مقصود التنزيل ﴿تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ هذه الجملة يجوز أن تكون صفة لكتاباً، وأن تكون حالاً منه، لأنه وإن كان نكرة، فقد تخصص بالصفة، أو مستانفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثير لسامعيه، والاقشعرار التقبض، يقال: اقشعر جلد: إذا تقبض، وتجمع من الخوف. والمعنى: أنها تأخذهم منه قشعريرة. قال الزجاج: إذا نكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله ﴿ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ﴾ إذا نكرت آيات الرحمة. قال الواحدي: وهذا قول جميع المفسرين، ومن ذلك قول امرئ القيس:

فبنت أكابد ليليل التمام والقلب من خشية مقشعر وقيل: المعنى: أن القرآن لما كان في غاية الجزالة، والبلاغة، فكانوا إذا راوا عجزهم عن معارضته اقشعرت الجلود منه إعظاماً له، وتعجباً من حسنه، وبلاغته ثم تلين جلودهم، وقلوبهم ﴿إِلَى نَكْرِ اللَّهِ﴾ عذى تلين بإلى لتضمينه فعلاً يتعدى بها، كأنه قيل: سكنت، واطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة، ومفعول نكر الله محذوف، والتقدير: إلى نكر الله رحمته، وثوابه، وجنته، وحذف للعلم به. قال قتادة: هذا نعت أولياء الله نعتهم بأنهم تقشعروا جلودهم، وتطمئن قلوبهم إلى نكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو: من الشيطان، والإشارة بقوله: ﴿وَلَكَّ﴾ إلى الكتاب الموصوف بتلك الصفات، وهو: مبتدأ، و ﴿هُدًى اللَّهُ﴾ خبره أي: ذلك الكتاب هدى الله ﴿يَهْدِي بِهِ مِنْ يَشَاءُ﴾ أن يهديه من عباده، وقيل: إن الإشارة بقوله: ﴿وَلَكَّ﴾ إلى ما وهبه الله لهؤلاء من خشية عذابه، ورجاء ثوابه ﴿وَمَنْ يَضِلُّ اللَّهُ﴾ أي: يجعل قلبه قاسياً مظلماً غير قابل للحق ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحق، ويخلصه من الضلال. قرأ الجمهور (من هاد) بغير ياء. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بالياء. ثم لما حكم على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا، وهو: الضلال، حكم عليهم في الآخرة بحكم آخر، وهو: العذاب، فقال: ﴿وَأَقَمْنَا يَتَّقِي بَوَاجَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والاستفهام للإنكار، وقد تقدم الكلام فيه، وفي هذه الفاء الداخلة على من في قوله: ﴿وَأَقَمْنَا حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةَ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: 19]، ومن مبتدأ، وخبرها محذوف لدلالة المقام عليه، والمعنى: أقمن شأنه أن يقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه شيء من ذلك، ولا يحتاج إلى الاتقاء. قال الزجاج: المعنى: أقمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة. قال عطاء، وابن زيد: يرمى به مكتوفاً في النار، فأول شيء تمس منه وجهه. وقال مجاهد: يجز على وجهه في النار. قال الأخفش: المعنى: أقمن يتقي بوجهه سوء العذاب أقضل لم من سعد؟ مثل قوله: ﴿وَأَقَمْنَا يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مِنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: 40]، ثم أخبر سبحانه عما تقوله الخزنة للكفار، فقال: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ تَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وهو

الكسائي: نصب رجلاً؛ لأنه تفسير للمثل، وقيل: هو منصوب بنزع الخافض أي: ضرب الله مثلاً برجل، وقيل: إن رجلاً هو المفعول الأول، ومثلاً هو المفعول الثاني، وآخر المفعول الأول؛ ليتصل بما هو من تمامه، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة «يس»، وجملة «فيه شركاء» في محل نصب صفة لرجل، والتشاكس التخالف. قال الفراء: أي: مختلفون. وقال المبرد: أي: متعاسرون من شكس يشكس شكساً، فهو: شكس مثل عسر يعسر عسراً، فهو: عسر. قال الجوهري: التشاكس الاختلاف. قال: ويقال: رجل شكس بالتسكين أي: صعب الخلق، وهذا مثل من أشرك بالله، وعبد آلهة كثيرة. ثم قال: «ورجلاً سلماً لرجل» أي: خالصاً له، وهذا مثل من يعبد الله وحده. قرأ الجمهور (سلماً) بفتح السين، واللام، وقرأ سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو العالية بكسر السين، وسكون اللام. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والجدري، وأبو عمرو، وابن كثير، ويعقوب (سالماً) بالالف، وكسر اللام اسم فاعل من سلم له، فهو: سالم، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأن السالم الخالص ضد المشترك، والسلم ضد الحرب، ولا موضع للحرب هنا، وأجيب عنه بأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولهما، فالسلم، وإن كان ضد الحرب، فله معنى آخر بمعنى: سالم، من سلم له كذا: إذا خلص له. وأيضاً يلزمه في سالم ما ألزم به، لأنه يقال: شيء سالم أي: لا عاهة به، واختار أبو حاتم القراءة الأولى. والحاصل أن قراءة الجمهور هي على الوصف بالمصدر للمبالغة، أو على حذف مضاف أي: ذا سلم، ومثلها قراءة سعيد بن جبير، ومن معه. ثم جاء سبحانه بما يدل على التفات بين الرجلين، فقال: «هل يستويان مثلاً»، وهذا الاستفهام للإنكار، والاستبعاد، والمعنى: هل يستوي هذا الذي يخدم جماعة شركاء أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة يستخدمه كل واحد منهم، فيتعبد، وينصب مع كون كل واحد منهم غير راض بختمته، وهذا الذي يخدم واحداً لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضي عنه، وإذا عصاه عفا عنه. فإن بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما، لأن أحدهما: في أعلى المنازل، والآخر: في أنهارها، وانتصاب مثلاً على التمييز المحول عن الفاعل؛ لأن الأصل هل يستوي مثلهما، وأقرد التمييز، ولم يثن؛ لأن الأصل في التمييز الأفراد لكونه مبيناً للجنس، وجملة «الحمد لله» تقرير لما قبلها من نفي الاستواء، ولإيذان للموحدين بما في توحيدهم لله من النعمة العظيمة المستحقة لتخصيص الحمد به. ثم أضرِب سبحانه عن نفي الاستواء المفهوم من الاستفهام الإنكاري إلى بيان أن أكثر الناس لا يعلمون، فقال: «هل أكثرهم لا يعلمون»، وهم: المشركون، فإنهم لا يعلمون ذلك مع ظهوره، ووضوحه. قال الواحدي، والبيهقي: والمراد بالأكثر الكل، والظاهر خلاف ما قاله، فإن المؤمنين بالله يعلمون ما في التوحيد من رفعة شأنه، وعلو مكانه، وإن الشرك لا يماثله بوجه من الوجوه، ولا يساويه

أيضاً في الآية قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويرد بعضه إلى بعض. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عنه أيضاً في الآية قال: كتاب الله مثاني ثني فيه الأمر مناراً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن عسلكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجنتي أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرءوا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قلت: فإن ناساً ما هنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، قالت: أعوذ بالله من الشيطان. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: «إفمن يتقي بوجهه سوء العذاب» قال: ينطلق به إلى النار مكتوفاً، ثم يرمى به فيها، فأول ما تمس وجهه النار.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾
قُرْآنًا عَرَبِيًّا عَرِزَ عَنْ نَسْوٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٨﴾ صَرَفَ اللَّهُ مَثَلًا يَتَجَلَّى فِيهِ شَرْكَاءُ مُتَنَكِّرِينَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لَمَّا سَأَلَ عَنْ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ مِثٌّ وَلَهُمْ مِثٌّ ﴿٨٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِكُثْرَتِ هَؤُلَاءِ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٨٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهمَ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

قوله: «ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل» قد قدمنا تحقيق المثل، وكيفية ضربه في غير موضع، ومعنى: «من كل مثل»: ما يحتاجون إليه، وليس المراد ما هو أعم من ذلك، فهو هنا كما في قوله: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» [الأنعام: 38] أي: من شيء يحتاجون إليه في أمر دينهم، وقيل: المعنى: ما نكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء «لعلهم يتذكرون» يتعظّمون، فيعتبرون، وانتصاب «قرآنًا عربيًّا» على الحال من هذا، وهي حال مؤكدة، وتسمى هذه حالا موطئة، لأن الحال في الحقيقة هو: عربيًّا، وقرآنًا توطئة له، نحو جاءني زيد رجلاً صالحاً: كذا قال الأخفش، ويجوز أن ينتصب على المندح. قال الزجاج: عربيًّا منتصب على الحال، وقرآنًا توكيد، ومعنى «غير ذي عوج»: لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه. قال الضحاك: أي: غير مختلف. قال النحاس: أحسن ما قيل في معناه قول الضحاك، وقيل: غير متضاد. وقيل: غير ذي لبس، وقيل: غير ذي لحن، وقيل: غير ذي شك كما قال الشاعر:

وقد أتاك يمين غير ذي عوج من الإله وقول غير مكذوب
«لعلهم يتقون» علة أخرى بعد العلة الأولى. وهي «لعلهم يتذكرون» أي: لكي يتقوا الكفر، والكذب. ثم ذكر سبحانه مثلاً من الأمثال القرآنية للتذكير، والإيقاظ، فقال: «ضرب الله مثلاً» أي: تمثيل حالة عجيبه بأخرى مثلها. ثم بين المثل، فقال: «ورجلاً فيه شركاء متشاكسون» قال

وقع في قراءة الجمهور وإن كان مفرداً، فمعناه: الجمع، لأنه يراد به الجنس كما يفيد قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: المتصفون بالتقوى التي هي عنوان النجاة. وقرأ أبو صالح (وصدق به) مخففاً أي: صدق به الناس. ثم ذكر سبحانه ما لهؤلاء الصائقين المصلقين في الآخرة، فقال: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم كل ما يشاءونه من رفع الدرجات، ونفع المضرات، وتكفير السيئات، وفي هذا ترغيب عظيم، وتشويق بالغ، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم نكره من جزائهم، وهو: مبتدأ، وخبره قوله: ﴿حِزَاءَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الذين أحسنوا في أعمالهم. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ: «أن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك». ثم بين سبحانه ما هو الغاية مما لهم عند ربهم، فقال: ﴿لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، فإن ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم؛ لأن الله سبحانه إذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما بونه بطريقة الأولى، واللام متعلقة بيشاءون، أو بالمحسنين، أو بمحذوف. قرأ الجمهور (أسوأ) على أنه أفعل تفضيل. وقيل: ليست للتفضيل بل بمعنى: سيء الذي عملوا. وقرأ ابن كثير في رواية عنه أسوأ بالالف بين الهزمة، والواو بزنة أجمال جمع سوء، «ويجزئهم لجرهم بإحسان الذي كانوا يعملون» لما ذكر سبحانه ما يدل على دفع المضار عنهم ذكر ما يدل على جلب أعظم المنافع إليهم، وإضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه، بل من إضافة الشيء إلى بعضه قصداً إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل. قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم، ولا يجزيهم بالمساوئ.

وقد أخرج الأجرى، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿غَيْرِ ذِي عِوَجٍ﴾ قال: غير مخلوق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ الآية قال: الرجل يعبد آلهة شتى، فهذا مثل ضربه الله لأهل الأوثان «ورجلاً مسلماً» يعبد إلهاً واحداً ضرب لنفسه مثلاً. وأخرج عنه أيضاً في قوله: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ قال: ليس لأحد فيه شيء. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، عن ابن عمر قال: لقد لبثنا برهة من دهرنا، ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا، وفي أهل الكتابين من قبلنا «إنك ميت وإنهم ميتون» الآية، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها نزلت فينا. وأخرج نعيم بن حماد في الفتن، والحاكم وصححه، وابن مروي عنه نحوه باطول منه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مروي عنه أيضاً قال: نزلت علينا الآية «ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون»، وما ندري ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة، فقلنا: هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وابن منيع، وعبد بن حميد، والترمذي

في وصف من الأوصاف، ويعلمون أن الله سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة، وأن الحمد مختص به. ثم أخبر سبحانه رسوله ﷺ بأن الموت يدركه، ويذكرهم لا محالة، فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ قرأ الجمهور (ميت، وميتون) بالتشديد، وقرأ ابن محيصن، وابن أبي عمير، وعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق، واليماني (ماتت وماتون)، وبها قرأ عبد الله بن الزبير. وقد استحسن هذه القراءة بعض المفسرين لكون موته، وموتهم مستقبلاً، ولا وجه للاستحسان، فإن قراءة الجمهور تفيد هذا المعنى. قال الفراء: والكسائي: الميت بالتشديد من لم يموت، وسيموت، والميت بالتخفيف من قد مات، وفارقه الروح. قال قتادة: نعت إلى النبي ﷺ نفسه، ونعت إليهم أنفسهم. ووجه هذا الإخبار الإعلام للصحابة بأنه يموت، فقد كان بعضهم يعتقد، أنه لا يموت مع كونه توطئة، وتمهيداً لما بعده حيث قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي: تخاصمهم يا محمد، وتحتج عليهم بآئك قد بلغتهم، وانذرتهم، وهم يخاصمونك، أو يخاصم المؤمن الكافر، والظالم المظلوم. ثم بين سبحانه حال كل فريق من المختصمين، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فزعم أن له ولداً، أو شريكاً، أو صاحبة «وكذب بالصدق إذ جاءه»، وهو ما جاء به رسول الله ﷺ من دعاء الناس إلى التوحيد، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع، ونهيهم عن محرماته، وإخبارهم بالبعث، والنشور، وما أعد الله للمطيع، والعاصي. ثم استفهم سبحانه استفهاماً تقريرياً، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: ليس لهؤلاء المفترين المكذبين بالصدق، والمثوى: المقام، وهو مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به يثوى ثواءً، وثوياً، مثل مضى مضاءً، ومضياً. وحكى أبو عبيد أنه يقال: أثوى، وأنشد قول الأعشى:

أثوى واقصر ليله ليرودا فمضت وأخلف من قبيلة موعدا
وانكر ذلك الأصمعي، وقال: لا نعرف أثوى. ثم نكر سبحانه فريق المؤمنين المصدقين، فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ الموصول في موضع رفع بالابتداء، وهو: عبارة عن رسول الله ﷺ، ومن تابعه، وخبره «أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»، وقيل: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدق به أبو بكر. وقال مجاهد: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدق به علي بن أبي طالب. وقال السدي: الذي جاء بالصدق جبريل، والذي صدق به رسول الله ﷺ. وقال قتادة، ومقاتل، وابن زيد: الذي جاء بالصدق النبي ﷺ، والذي صدق به المؤمنون. وقال النخعي: الذي جاء بالصدق، وصدق به هم المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة. وقيل: إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله، وأرشد إلى ما شرعه لعباده، واختار هذا ابن جرير، وهو: الذي اختاره من هذه الأقوال، ويؤيده قراءة ابن مسعود (والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به). ولفظ الذي كما

وصححه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في البعث والنشور عن الزبير بن العوام قال: «لما نزلت **﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾** ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون» قلت: يا رسول الله أليكرز علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خلاص الذنوب؟ قال: نعم ليكرز عليكم ذلك حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه. قال الزبير: فوالله إن الأمر لشديد. وأخرج سعيد بن منصور، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت **﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾** كنا نقول: ربنا واحد، وبيننا واحد، وبيننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين، وشد بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: **﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ﴾** يعني: بلا إله إلا الله **﴿وَوَصِّقْ بِهِ﴾** يعني: برسول الله ﷺ **﴿أَوَّلُكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾** يعني: اتقوا الشرك. وأخرج ابن جرير، والباوردي في معرفة الصحابة، وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان، وله صحبة عن علي بن أبي طالب قال: الذي جاء بالصديق محمد ﷺ، وصنق به أبو بكر. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مثله.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُبْتَلٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٧٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٧٨﴾ قُلْ يَتَوَفَّوْا أَعْمَالَكُمْ عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فُسُوفَ تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُغْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثِيمٌ ﴿٨٠﴾ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ لَنَاسٍ بِالْحَقِّ فَمَنْ أَهْتَكُفَ لِنَفْسِهِ وَمَنْ سَأَلَ فَأَمَّا يَجِدَ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٨١﴾ اللَّهُ يَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَسَوْفَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِتْنَةً مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَتَقْتَرِبُوا إِلَى اللَّهِ قَرَابَةً كَثِيرَةً وَلِيُخْرِجَ إِلَيْكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ فِيهَا يَدْعُونَ لِلْخَمْرِ وَالْمَيْمُونِ وَفِيهَا يَنُكَّرُ وَيُتَخَفُونَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَكَبِّرُونَ ﴿٨٣﴾

قوله: **﴿أليس الله بكاف عبده﴾** قرأ الجمهور (عبده) بالإفراد. وقرأ حمزة، والكسائي (عباده) بالجمع، فعلى القراءة الأولى المراد: النبي ﷺ، أو الجنس، ويدخل فيه رسول الله ﷺ بخلاف أولياء، وعلى القراءة الأخرى المراد: الأنبياء أو المؤمنون أو الجميع، واختار أبو عبيد قراءة الجمهور، لقوله عقبه **﴿ويخوفونك﴾**، والاستفهام للإنكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره. وقيل: المراد بالعبد، والعباد: ما يعم المسلم، والكافر. قال الجرجاني: إن الله كاف عبده المؤمن، وعبده الكافر هذا بالشوا، وهذا بالعقاب. وقرئ (يكافي)

عباده) بالإضافة، وقرئ (يكافي) بصيغة المضارع، وقوله: **﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾** يجوز أن يكون في محل نصب على الحال، إذ المعنى: أليس كافيك حال تخويفهم إياك، ويجوز أن تكون مستأنفة، والذين من دونه عبارة عن المعبودات التي يعبدونها **﴿ومن يضل الله فما له من هادٍ﴾** أي: من حق عليه القضاء بضلاله، فما له من هاد يهديه إلى الرشد، ويخرجه من الضلالة، **﴿ومن يهد الله فما له من مضل﴾** يخرجه من الهداية، ويوقعه في الضلالة **﴿أليس الله بعزیز﴾** أي: غالب لكل شيء قاهر له **﴿ذي انتقام﴾** ينتقم من عصاته بما يصبه عليهم من عذابه، وما ينزله بهم من سوط عقابه **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾** نكر سبحانه اعترافهم إذا سئلوا عن الخالق بأن الله سبحانه مع عبادتهم للوثان، واتخاذهم الأكلة من دونه الله، وفي هذا أعظم دليل على أنهم كانوا في غفلة شديدة، وجهالة عظيمة؛ لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم، ولما يعبدون من دونه الله هو: الله سبحانه، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل، وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة؟ وقد كانوا ينكرون بحسن العقول، وكمال الإدراك، والفطنة التامة، ولكنهم لما قلدوا أسلافهم، وحسنوا الظن بهم هجروا ما يقتضيه العقل، وعملوا بما هو محض الجهل. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يبكتهم بعد هذا الاعتراف، ويوبخهم، فقال: **﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أراني الله بضراً هل هن كاشفات ضرره﴾** أي: أخبروني عن ألهكم هذه هل تقدر على كشف ما أراده الله بي من الضر، والضرر هو: الشدة، أو أعلى **﴿أو أراني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾** عني بحيث لا تصل إلي، والرحمة النعمة، والرخاء. قرأ الجمهور ممسكات، وكاشفات في الموضعين بالإضافة، وقرأهما أبو عمرو، بالتثنية. قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية سألهم النبي ﷺ، فسكتوا، وقال غيره: قالوا: لا تدفع شيئاً من قدر الله، ولكنها تشفع، فنزل: **﴿قل حسبي الله﴾** في جميع أموري في جلب النفع، و دفع الضر **﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾** أي: عليه، لا على غيره يعتمد المعتمدون، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم قراءة أبي عمرو، لأن كاشفات اسم فاعل في معنى: الاستقبال، وما كان كذلك، فتثنيته أجود، وبها قرأ الحسن، وعاصم، ثم أمره سبحانه أن يهدهم، ويتوعددهم، فقال: **﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾** أي: على حالتكم التي أنتم عليها، وتمكنت منها **﴿إني عامل﴾** أي: على حالتي التي أنا عليها، وتمكنت منها، وحذف ذلك للعلم به مما قبله **﴿فسوف تعلمون﴾** من يأتيه عذاب يخزيه **﴿أي: يهينه، ويذله في الدنيا، فيظهر عند ذلك أنه المبطل، وخصمه المحق، والمراد بهذا العذاب عذاب: الدنيا، وما حل بهم من القتل، والأسر، والتقه، والذلة. ثم ذكر عذاب الآخرة، فقال: ﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾** أي: دائم مستمر في الدار الآخرة، وهو: عذاب النار. ثم لما كان يعظم على رسول الله ﷺ إصرارهم على

قوله: **﴿أليس الله بكاف عبده﴾** قرأ الجمهور (عبده) بالإفراد. وقرأ حمزة، والكسائي (عباده) بالجمع، فعلى القراءة الأولى المراد: النبي ﷺ، أو الجنس، ويدخل فيه رسول الله ﷺ بخلاف أولياء، وعلى القراءة الأخرى المراد: الأنبياء أو المؤمنون أو الجميع، واختار أبو عبيد قراءة الجمهور، لقوله عقبه **﴿ويخوفونك﴾**، والاستفهام للإنكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره. وقيل: المراد بالعبد، والعباد: ما يعم المسلم، والكافر. قال الجرجاني: إن الله كاف عبده المؤمن، وعبده الكافر هذا بالشوا، وهذا بالعقاب. وقرئ (يكافي)

ذلك، ويتنبرونه، ويستتلون به على توحيد الله، وكمال قدرته. فإن في هذا التوفي، والإمسك، والإرسال موعظة للمتعتين، وتنكرة للمتكبرين.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ الآية قال: نفس، وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فيتوفى الله النفس في منامه، ويدع الروح في جوفه تنقلب، وتعيش، فإن بدا له أن يقبضه قبض الروح، فمات. وإن أخر أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه، والضياء في المختارة عنه في الآية قال: تلتقي أرواح الأحياء، وأرواح الأموات في المنام، فيتساءلون بينهم ما شاء الله، ثم يمسك الله أرواح الأموات، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها ﴿إلى أجل مسمى﴾ لا يغلط بشيء منها، فنلك قوله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً في الآية قال: كل نفس لها سبب تجري فيه، فإذا قضى عليها الموت نامت حتى ينقطع السبب، والتي لم تمت في منامها تترك. وأخرج البخاري، ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحكمك إلى فراشه، فلينبضه بدخله إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي، وباسمك أرفعه، إن أمسكت نفسي، فارحمها، وإن أرسلتها، فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

أَرِ أَتَحَذُّوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُعَاعًا قُلْ أَوَلَوْ كُنَّا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَمْلِكُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّعَاعُ جَمِيعًا لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٩﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَكُونُوا يَحْيَوْنَ ﴿٢١﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿إم اتخذوا من دون الله شفعاء﴾ أم هي المنقطعة المقطرة ببل، والهمزة أي: بل اتخذوا من دون الله آلهة شفعاء تشفع لهم عند الله ﴿قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون﴾ الهمزة للإنكار، والتوبيخ، والواو للعطف على محذوف مقدر أي: أيشفعون، ولو كانوا الخ، وجواب لو محذوف تقديره تتخذونهم أي: وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم، ومعنى لا يملكون شيئاً: أنهم غير مالكين لشيء من الأشياء، وتدخل الشفاعة في ذلك دخولاً أولياً، ولا يعقلون شيئاً من الأشياء؛ لأنها جمادات لا عقل لها، وجمعهم بالواو، والنون لاعتقاد الكفار فيهم أنهم يعقلون. ثم أمره سبحانه بأن يخبرهم: أن الشفاعة لله وحده، فقال: ﴿قل

الكفر أخبره بأنه لم يكلف إلا بالبيان، لا بأن يهدي من ضل، فقال: ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس﴾ أي: لأجلهم، ولبيان ما كلّفوا به، و﴿بالحق﴾ حال من الفاعل، أو المفعول أي: محقين، أو ملتبساً بالحق ﴿فمن اهتدى﴾ طريق الحق، وسلكها ﴿فلنفسه ومن ضل﴾ عنها ﴿فإنما يضل عليها﴾ أي: على نفسه، فضرر ذلك عليه لا يتعدى إلى غيره ﴿وما لنت عليهم بوكيل﴾ أي: بمكلف بهديتهم مخاطب بها، بل ليس عليك إلا البلاغ، وقد فعلت. وهذه الآيات هي منسوخة بأية السيف، فقد أمر الله رسوله بعد هذا أن يقتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويعملوا بأحكام الإسلام. ثم نكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته البالغة، وصنعتة العجيبة، فقال: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ أي: يقبضها عند حضور أجلها، ويخرجها من الأبدان ﴿ولتي لم تمت في منامها﴾ أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت أي: لم يحضر أجلها في منامها.

وقد اختلف في هذا، فقيل: يقبضها عن التصرف مع بقاء الروح في الجسد. وقال الفراء: المعنى: ويقبض التي لم تمت عند انقضاء أجلها قال: وقد يكون توفيتها نومها، فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمت، وفاتها نومها. قال الزجاج: لكل إنسان نفسان: أحدهما: نفس التمييز، وهي التي تفارقه إذا نام، فلا يعقل، والأخرى: نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس. قال القشيري: في هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة في الحالين شيء واحد، ولهذا قال: ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾ أي: النائمة ﴿إلى أجل مسمى﴾، وهو الوقت المضروب لموته، وقد قال بمثل قول الزجاج: ابن الأنباري. وقال سعيد بن جبير: إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾، فيعيدها، والأولى أن يقال: إن توفي الأنفس حال النوم بإزالة الإحساس، وحصول الآفة به في محل الحسن، فيمسك التي قضى عليها الموت، ولا يردها إلى الجسد الذي كانت فيه، ويرسل الأخرى بأن يعيد عليها إحساسها. قيل: ومعنى ﴿يتوفى الأنفس عند موتها﴾: هو على حنف أي: عند موت أجسادها.

وقد اختلف العقلاء في النفس، والروح هل هما شيء واحد، أو شيان؟ والكلام في ذلك يطول جداً، وهو معروف في الكتب الموضوعة لهذا الشأن. قرأ الجمهور (قضى) مبنياً للفعل أي: قضى الله عليها الموت، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب على البناء للمفعول، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الأولى لموافقتها لقوله: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾، والإشارة بقوله: ﴿إن في ذلك﴾ إلى ما تقدم من التوفي، والإمسك، والإرسال للنفوس ﴿لآيات﴾ أي: لآيات عجيبة بديعة دالة على القدرة الباهرة، ولكن ليس كون ذلك آيات يفهم كل أحد بل ﴿لقوم يتفكرون﴾ في

سفيان الثوري: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم، وقصتهم. وقال عكرمة بن عمار: جزع محمد بن المنكر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله ﴿وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ رِزْقِهِمْ وَمِنْ أَفْئِدَةٍ غَمْرَةٍ﴾ فانا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب ﴿وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ رِزْقِهِمْ وَمِنْ أَفْئِدَةٍ غَمْرَةٍ﴾ أي: مساوئ أعمالهم من الشرك، وظلم أولياء الله، و «ما» يحتمل أن تكون مصدرية أي: سيئات كسبهم، وأن تكون موصولة أي: سيئات الذي كسبوه ﴿وَوَاقِعَ بَعْثٍ﴾ أي: ما كانوا به يستهزئون، أي: أحاط بهم، ونزل بهم ما كانوا يستهزئون به من الإنذار الذي كان ينذرهم به رسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا نَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شِمَازَاتٍ﴾ الآية قال: قست، ونفرت ﴿قُلُوبٌ﴾ هؤلاء الأربعة ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أبو جهل بن هشام، والوليد بن عتبة، وصفوان، وأبي بن خلف ﴿وَإِذَا ذَكَرَ النَّبِيُّ مِنْ بُونِهِ﴾ اللات، والعزى ﴿وَإِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وأخرج مسلم، وأبو داود، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللَّهُمَّ رَبِّ جَبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تُهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ شَرُّ دَعَا تَمَّ إِذَا حَوْلَتْهُ رِيحَةٌ وَمَا قَالَ إِذَا أُرِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ مِنْ وَشْنَةٍ وَلَكِنْ أَكْذَرْتُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَدْ أَغْوَيْنَا عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُجْزَوْنَ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ قُلْ يَكْفُرُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْضُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَإِنِّي بِلَكُمْ وَاسْتَلِمُوا لَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٦﴾ وَإِنِّي بِلَكُمْ وَاسْتَلِمُوا لَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٧﴾ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٨﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَةٍ عَلَى مَا قَرَّرْتُ فِي حُبِّ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرُونَ ﴿٩﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٠﴾ أَوْ تَقُولَ لِمَنِ الذُّنُوبُ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْزَنِينَ ﴿١١﴾ بَلْ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾ وَبِمِ الْآيَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتٌ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَسْئَلُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَاتِلِهِمْ لَا يَنْسَهُمُ اللَّهُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿فَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ﴾ المراد بالإنسان هنا: الجنس باعتبار بعض أفراده، أو غالبها، وقيل: المراد به الكفار فقط، والأول أولى، ولا يمنع من حمله على الجنس خصوص

الله الشفاعة جميعاً، فليس لأحد منها شيء إلا أن يكون بإذنه لمن ارتضى، كما في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28]، وانتصاب جميعاً على الحال، وإنما أكد الشفاعة بما يؤكد به الاثنان، فصاعداً: لأنها مصدر يطلق على الواحد، والاثنين، والجماعة، ثم وصفه بسعة الملك، فقال: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يملكهما، ويملك ما فيهما، ويتصرف في ذلك كيف يشاء، ويفعل ما يريد ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره، وذلك بعد البعث ﴿وَإِذَا نَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شِمَازَاتٍ قُلُوبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ انتصاب وحده على الحال عند يونس، وعلى المصدر عند الخليل، وسيبويه، والاشمئزاز في اللغة: النفور. قال أبو عبيدة: اشمازت نفرت، وقال المبرد: انقبضت. وبالأول قال قتادة، وبالثاني قال مجاهد، والمعنى متقارب. وقال المؤرج: أنكرت، وقال أبو زيد: اشمازت الرجل زعر من الفزع، والمناسب للمقام تفسير اشمازت بانقبضت، وهو في الأصل: الأزوار، وكان المشركون إذا قيل لهم: لا إله إلا الله انقبضوا، كما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوِ عَلَى أَنْبَارِهِمْ نَفُورًا﴾ [الإسراء: 46]، ثم ذكر سبحانه استبشارهم بذكر أصنامهم، فقال: ﴿وَإِذَا نَكَرَ الَّذِينَ مِنْ بُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون بذلك، ويبتهجون به، والعامل في إذا في قوله: ﴿وَإِذَا نَكَرَ اللَّهُ﴾ الفعل الذي بعدهما، وهو: اشمازت، والعامل في إذا في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ بُونِهِ﴾ الفعل العامل في إذا الفجائية، والتقدير: فاجئوا الاستبشار وقت ذكر الذين من بونه. ولما لم يقبل المتمردين من الكفار ما جاءهم به ﷺ من الدعاء إلى الخير، وصمموا على كفرهم، أمره الله سبحانه: أَنْ يَرَدَّ الْأَمْرَ إِلَيْهِ، فقال: ﴿قُلْ لِلَّهِ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وقد تقدّم تفسير فاطر السموات، وتفسير عالم الغيب، والشهادة، وهما منصوبان على النداء، ومعنى ﴿تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾: تجازي المحسن بإحسانه، وتعاقب المسيء بإساءته، فإنه بذلك يظهر من هو المحق، ومن هو المبطل، ويرتفع عنده خلاف المختلفين، وتخاصم المتخاصمين. ثم لما حكي عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند ذكر الله، والاستبشار عند ذكر الأصنام نكر ما يدل على شدة عذابهم، وعظيم عقوبتهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: جميع ما في الدنيا من الأموال، والذخائر ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: منضمّاً إليه ﴿لَافْتَنُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: من سوء عذاب ذلك اليوم، وقد مضى تفسير هذا في آل عمران ﴿وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ رِزْقِهِمْ وَمِنْ أَفْئِدَةٍ غَمْرَةٍ﴾ أي: ظهر لهم من عقوبات الله، وسخطه، وشدة عذابه ما لم يكن في حسابهم، وفي هذا وعيد عظيم، وتهديد بالغ، وقال مجاهد: عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات، فإذا هي سيئات، وكذا قال السدي. وقال

الإفراط في المعاصي، والاستكثار منها، ومعنى لا تقنطوا: لا تيأسوا من رحمة الله من مغفرته، ثم لما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك، ويرفعه، ويجعل الرجاء مكان القنوط، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

واعلم أن هذه الآية أرجأ آية في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهاي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهاي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالف القلب عند سماعه ظن، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾، فالآلاف، واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفرادها، فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائن ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآني، وهو: الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48، 116]، ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فبإيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم الصادقين في رجائهم، الخالعين لثياب القنوط الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاضدهم ذنب ولا يبخل بمغفرته، ورحمته على عباده المتوجهين إليه في طلب العفو الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم، وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلاً: إنه هو الغفور الرحيم. أي: كثير المغفرة، والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما، فمن أبى هذا التفضل العظيم، والعطاء الجسيم، وظن أن تقنيط عباد الله، وتأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم الله به، فقد ركب أعظم الشطط، وغلط أقبح الغلط، فإن التبشير، وعدم التقنيط الذي جاءت به مواعيد الله في كتابه العزيز، والمسلوك الذي سلكه رسوله ﷺ كما صح عنه من قوله: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا».

وإذا تقرّر لك هذا، فاعلم أن الجمع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48، 116] هو: أن كل ذنب كائن ما عدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له، على أنه يمكن أن يقال: إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعاً يدل على أنه يشاء غفرانها جميعاً، وذلك يستلزم: أنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين، فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية. وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة، وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين، وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات. فهو: جمع بين الضب، والنون، وبين الملاح، والحادي، وعلى نفسها براقش تجني، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من الشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، وقد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

سببه، لأن الاعتبار بعموم اللفظ، وفاء بحق النظم القرآني، ووفاء بمطلوبه، والمعنى: أن شأن غالب نوع الإنسان أنه إذا مسه ضر من مرض، أو فقر، أو غيرهما دعا الله، وتضرع إليه في رفعه، ودفعه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي: أعطيناه نعمة كائنة من عندنا ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مني بوجوه المكاسب، أو على خير عندي، أو على علم من الله بفضلتي. وقال الحسن: على علم علمني الله إياه، وقيل: قد علمت أنني إذا أوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلة، وجاء بالضمير في أوتيته مذكراً مع كونه راجعاً إلى النعمة؛ لأنها بمعنى: الإنعام. وقيل: إن الضمير عائد إلى ما، وهي: موصولة، والأول أولى ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ هذا رد لما قاله أي: ليس ذلك الذي أعطيتك لما نكرت، بل هو محنة لك، واختبار لحالك أتشكر أم تكفر؟ قال الفراء: إنث الضمير في قوله: ﴿هِيَ﴾ لتأنيث الفتنة، ولو قال: بل هو فتنة لجاز. وقال النحاس: بل عطيته فتنة. وقيل: تأنيث الضمير باعتبار لفظ الفتنة، وتذكير الأول في قوله: ﴿أُوتِيتُهُ﴾ باعتبار معناها: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك استدراج لهم من الله، وامتحان لما عندهم من الشكر، أو الكفر ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قال هذه الكلمة التي قالوها، وهي قولهم: إنما أوتيته على علم الذين من قبلهم كقارون، وغيره، فإن قارون قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَنِّي﴾ [القصص: 78] ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن تكون ما هذه نافية أي: لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئاً، وأن تكون استفهامية أي: أي شيء أغنى عنهم ذلك ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئات كسبهم، أو أصابهم سيئات هي جزاء كسبهم، وسمي الجزاء سيئات لوقوعها في مقابلة سيئاتهم، فيكون ذلك من باب المشكلة كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، ثم أودع سبحانه الكفار في عصره، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الموجدون من الكفار ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب من قبلهم، وقد أصابهم في الدنيا ما أصابهم من القحط، والقتل، والأسر، والقهر ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بغائتين على الله بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما شاء من العقوبة ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسع له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبضه لمن يشاء أن يقبضه، ويضيقه عليه. قال مقاتل: وعظم الله، ليعتبروا في توحيدهم، وذلك حين مطروا بعد سبع سنين، فقال: أو لم يعلموا أن الله يوسع الرزق لمن يشاء، ويقتدر على من يشاء ﴿وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بالآيات المتفكرون فيها، ثم لما نكر سبحانه ما نكره من الوعيد عقبه بنكر سعة رحمته، وعظيم مغفرته، وأمر رسوله ﷺ: أن يبشرهم بذلك، فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ المراد بالإسراف:

أولى، لأن الذي يأتيهم بغتة هو: العذاب في الدنيا بالقتل، والأسر، والقهر، والخوف، والجذب، لا عذاب الآخرة، ولا الموت، لأنه لم يسند الإتيان إليه ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ قال البصريون: أي: حذراً أن تقول، وقال الكوفيون: لئلا تقول. قال المبرد: بادروا خوف أن تقول، أو حذراً من أن تقول نفس. وقال الزجاج: خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، قيل: والمراد بالنفس هنا: النفس الكافرة، وقيل: المراد به التكثير كما في قوله: ﴿عَلِمْتَ نَفْسُ مَا أَحْضَرْتَ﴾ [التكوير: 14] قرأ الجمهور (يا حسرتا) بالالف بدلاً من الياء المضاف إليها، والأصل يا حسرتي، وقرأ ابن كثير (يا حسرتاه) بهاء السكت وقفاً، وقرأ أبو جعفر (يا حسرتي) بالياء على الأصل. والحسرة: الندامة، ومعنى ﴿عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾: على ما فرطت في طاعة الله، قاله الحسن. وقال الضحاك: على ما فرطت في ذكر الله، ويعني به: القرآن، والعمل به. وقال أبو عبيدة: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: في قرب الله وجواره، ومنه قوله: ﴿وَالصَّاحِبُ بِالْجَنْبِ﴾ [النساء: 36]، والمعنى على هذا القول، على ما فرطت في طلب جنب الله أي: في طلب جواره، وقربه، وهو: الجنة، وبه قال ابن الأعرابي، وقال الزجاج: أي: فرطت في الطريق الذي هو: طريق الله من توحيده، والإقرار بنبوة رسول الله ﷺ، وعلى هذا، فالجنب بمعنى: الجانب أي: قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله، ومنه قول الشاعر:

للسناس جنب والأمير جنب

أي: الناس من جانب، والأمير من جانب ﴿وَأَنْ كُنْتَ لِمَنِ السَّاعِرِينَ﴾ أي: وما كنت إلا من المستهزئين بدين الله في الدنيا، ومحل الجملة النصب على الحال. قال قتادة: لم يفكه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: لو أن الله أرشدني إلى دينه لكنت ممن يتقي الشرك، والمعاصي، وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة، ويتعللون به من العلل الباطلة كما في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: 148]، فهي: كلمة حق يريدون بها باطلاً. ثم ذكر سبحانه مقالة أخرى مما قالوا، فقال: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرْةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين بالله الموحدين له، المحسنين في أعمالهم، وانتصاب أكون إما لكونه معطوفاً على كربة، فإنها مصدر، وأكون في تأويل المصدر كما في قول الشاعر:

لبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف
واتشد الفراء على هذا:

فما لك منها غير نكرى وخشية وتسال عن ركبائها أين يمموا
وما لكونه جواب التمني المفهوم من قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرْةً﴾. ثم نكر سبحانه جوابه على هذه النفس المتمنية

ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: 48، 116]، فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتخصيص على الشرك فائدة، وقد قال سبحانه: ﴿وَأَنْ رَّبِّكَ لَنُؤْمِرُ الْمُغْفِرَةَ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: 6] قال الواحدي: المفسرون كلهم قالوا: إن هذه الآية في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبي ﷺ.

قلت: هب أنها في هؤلاء القوم، فكان ماذا، فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب كما هو متفق عليه بين أهل العلم، ولو كانت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكالييف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، وللأمر بالإنجاء، فالملزوم مثله.

وفي السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة في الصحيحين، وغيرهما في هذا الباب ما إن عرفه المطلع عليه حق معرفته، وقدره حق قدره علم صحة ما نكرناه، وعرف حقيقة ما حررناه. قرأ الجمهور (يا عبادي) بإثبات الياء، وصلاً، ووقفاً، وروى أبو بكر عن عاصم: أنه يقف بغير ياء. وقرأ الجمهور (تقنطوا) بفتح النون، وقرأ أبو عمرو، والكسائي بكسرها ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ أي: أرجعوا إليه بالطاعة لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعاً، أمرهم بالرجوع إليه بفعل الطاعات، واجتنب المعاصي، وليس في هذا ما يدل على تقييد الآية الأولى بالتوبة لا بمطابقة، ولا تضمن، ولا التزام، بل غاية ما فيها: أنه بشرهم بتلك البشارة العظمى، ثم دعاهم إلى الخير، وخوفهم من الشر على أنه يمكن أن يقال: إن هذه الجملة مستأنفة خطاباً للكفار الذين لم يسلموا بنيل قوله: ﴿وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ جاء بها لتحذير الكفار، وإنذارهم بعد ترغيب المسلمين بالآية الأولى، وتبشيرهم، وهذا، وإن كان بعيداً، ولكنه يمكن أن يقال به، والمعنى على ما هو الظاهر: أن الله جمع لعباده بين التبشير العظيم، والأمر بالإتابة إليه، والإخلاص له، والاستسلام لأمره، والخضوع لحكمه. وقوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الدنيا كما يفيد قوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ﴾، فليس في ذلك ما يدل على ما زعمه الزاعمون، وتمسك به القانتون المقنطون، والحمد لله رب العالمين ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن، يقول: أحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، والقرآن كله حسن. قال الحسن: التزموا طاعته، واجتنبوا معاصيه. وقال السدي: الأحسن ما أمر الله به في كتابه. وقال ابن زيد: يعني: المحكمات، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه. وقيل: النسخ دون المنسوخ، وقيل: العفو دون الانتقام بما يحق فيه الانتقام، وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بِغَتَةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من قبل أن يفاجئكم العذاب، وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به، وقيل: أراد أنهم يموتون بغتة، فيقعون في العذاب. والأول

المتعلقة بغير علة، فقال: ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكنت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾. المراد بالآيات هي: الآيات التنزيلية، وهو: القرآن، ومعنى التكذيب بها قوله: إنها ليس من عند الله، وتكبر عن الإيمان بها، وكان مع ذلك التكذيب، والاستكبار من الكافرين بالله. وجاء سبحانه بكتاب المنكر في قوله: جاءتك، وكذبت، واستكبرت، وكنت، لأن النفس تطلق على المنكر، والمؤنث. قال المبرد: تقول العرب نفس واحد أي: إنسان واحد، وبفتح التاء في هذه المواضع قرأ الجمهور. وقرأ الجحدري، وأبو حيوة، ويحيى بن يعمر بكسرها في جميعها، وهي قراءة أبي بكر، وابنته عائشة، وأم سلمة، ورويت عن ابن كثير ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾، أي: ترى الذين كذبوا على الله بأن له شركاء، وصاحبة، ولولدا وجوههم مسودة لما أحاط بهم من العذاب، وشاهدوه من غضب الله، ونقمت، وجملة ﴿وجوههم مسودة﴾ في محل نصب على الحال. قال الأخفش: ترى غير عامل في وجوههم مسودة، إنما هو: مبتدأ وخبر، والاولى أن ترى إن كانت من الرؤية البصرية، فجملة ﴿وجوههم مسودة﴾ حالية، وإن كانت قلبية، فهي في محل نصب على أنها المفعول الثاني ل ترى، والاستفهام في قوله: ﴿ليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ للتعريب أي: ليس فيها مقام للمتكبرين عن طاعة الله، والكبر هو: بطر الحق، وغمط الناس كما ثبت في الحديث الصحيح ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ أي: اتقوا الشرك، ومعاصي الله، والباء في ﴿بمفازتهم﴾ متعلقة بمحذوف هو: حال من الموصول أي: ملتبسين بمفازتهم. قرأ الجمهور بمفازتهم بالإفراد على أنها مصدر ميمي، والفرز: الظفر بالخير، والنجاة من الشر. قال المبرد: المفازة مفعلة من الفوز، وهو: السعادة، وإن جمع، فحسن كقولك: السعادة، والسعادات. والمعنى: ينجيهم الله بفوزهم أي: بنجاتهم من النار، وفوزهم بالجنة. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر بمفازاتهم جمع مفازة، وجمعها مع كونها مصدراً لاختلاف الأنواع، وجملة ﴿لا يمسه﴾ في محل نصب على الحال من الموصول، وكذلك جملة ﴿ولا هم يحزنون﴾ في محل نصب على الحال أي: ينفي السوء، والحزن عنهم، ويجوز أن تكون الباء في بمفازتهم للسببية أي: بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم، وعدم وصول الحزن إلى قلوبهم؛ لأنهم رضوا بثواب الله، وأمنوا من عقابه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم قال السيوطي بسند صحيح، وابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا﴾ الآية في مشركي أهل مكة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال: كنا نقول ليس لمفتن توبة، وما الله بقابل منه شيئاً، عرفوا الله، وآمنوا به، وصدقوا رسوله، ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم، وكانوا يقولونه لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله

فيهم ﴿يا عبادي الذين أسرفوا﴾ الآيات، قال ابن عمر: فكتبت بها بيدي، ثم بعثت بها إلى هشام بن العاصي وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي سعد قال: لما أسلم وحشي أنزل الله: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ [الفرقان: 68] قال وحشي، وأصحابه: قد ارتكبنا هذا كله، فأنزل الله ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا﴾ الآية. وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة قال: «خرج النبي ﷺ على رطه من أصحابه، وهم يضحكون، ويتحذثون، فقال: والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ثم انصرف، وأبكى القوم، وأوحى الله إليه: يا محمد لم تقنط عبادي فرجع النبي ﷺ، فقال: أبشروا، وسدوا، وقاربوا». وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب: أنها نزلت، فيمن أفتن. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس: أنها نزلت في مشركي مكة لما قالوا: إن الله لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك، وقتل الأنفس، وغير ذلك. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ثوبان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا، وما فيها بهذه الآية ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: ومن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، قال: ألا، ومن أشرك ثلاث مرات». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم، وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً، ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود: أنه مر على قاض يذكر الناس، فقال: يا منكر الناس لا تقنط الناس، ثم قرأ ﴿يا عبادي الذين أسرفوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال: قال علي: أي آية أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن ﴿من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ [النساء: 11] الآية، ونحوها، فقال علي: ما في القرآن أوسع من ﴿يا عبادي﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ الآية قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغفولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول لهؤلاء: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾ [المائدة: 74] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء من ﴿قال أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: 24]، وقال: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: 38] قال ابن عباس: ومن آيس العباد من التوبة بعد هذا، فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن

يتوب حتى يتوب الله عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَقُولْ نَفْسٌ﴾ قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوا، وعلمهم قبل أن يعلموا.

اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿١٧﴾ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى تَعَالَى أَعْبُدُوا إِلَهًا لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَ لِيَجْعَلَ عَلَيْنَا عَمَلَكُمْ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢١﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَبِينُ ﴿٢٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُيْعَتْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَبْطِرُهُ ﴿٢٤﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالْأُنَبِيَّةِ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ فِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِمَا كُفَرْتُمْ تَصْلَوْنَ السَّمَكَاتِ ﴿٢٨﴾

قوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾ من الأشياء الموجودة في الدنيا، والآخرة كأنما ما كان من غير فرق بين شيء، وشيء، وقد تقدم تفسير هذه الآية في الانعام ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي: الأشياء كلها موكولة إليه، فهو: القائم بحفظها، وتبديلها من غير مشارك له ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ المقاليد، واحدا مقلد، ومقلد، أو لا واحد له من لفظه كإسطير، وهي: مفاتيح السموات، والأرض، والرزق، والرحمة. قاله مقاتل، وقتادة، وغيرهما. وقال الليث: المقلد الخزانة، ومعنى الآية: له خزائن السموات، والأرض، وبه قال الضحاك، والسدي. وقيل: خزائن السموات المطر، وخزائن الأرض النبات. وقيل: هي عبارة عن قدرته سبحانه، وحفظه لها، والأول أولى. قال الجوهري: الإقليد المفتاح، ثم قال: والجمع المقاليد. وقيل: هي لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقيل غير ذلك ﴿والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ أي: بالقرآن، وسائر الآيات الدالة على الله سبحانه، وتوحيده، ومعنى الخاسرون: الكاملون في الخسران؛ لأنهم صاروا بهذا الكفر إلى النار ﴿قل أغير الله تاملوني أعيد إليهم الجاهلون﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي، والفاء للعطف على مقدر كنظائره، وغير منصوب بأعبد، وأعبد معمول؛ لتاملوني على تقدير أن المصدرية، فلما حذفت بطل عملها، والاصل: اقتاملوني أن أعبد غير الله. قاله الكسائي، وغيره. ويجوز أن يكون غير منصوباً بتاملوني، وأعبد بدل منه بدل

اشتغال، وأن مضمره معه أيضاً. ويجوز أن يكون غير منصوب بفعل مقدر أي: اقتلزموني غير الله أي: عبادة غير الله، أو أعبد غير الله أعبد. أمره الله سبحانه أن يقول هذا للكفار لما دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، وقالوا: هو دين آبائكم. قرأ الجمهور (تاملوني) بإدغام نون الرفع في نون الوقاية على خلاف بينهم في فتح الياء، وتسكينها. وقرأ نافع (تاملوني) بنون خفيفة، وفتح الياء، وقرأ ابن عامر (تاملوني) بالفك، وسكون الياء ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾ أي: من الرسل ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكوننَّ من الخاسرين﴾ هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل، لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك، ووجه إيراده على هذا الوجه التحنير، والإنذار للعباد من الشرك، لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض، والتقدير، فهو محبط لعمل غيرهم من أمهم بطريق الأولى. قيل: وفي الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: ولقد أوحى إليك لئن أشركت، وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك. قال مقاتل: أي أوحى إليك وإلى الأنبياء قبل بالتوحيد والتوحيد محنوف، ثم قال: لئن أشركت يا محمد؛ ليحبطن عملك، وهو خطاب للنبي ﷺ خاصة. وقيل: أفراد الخطاب في قوله: ﴿لئن أشركت﴾ باعتبار كل واحد من الأنبياء كأنه قيل: أوحى إليك، وإلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام، وهو: لئن أشركت، وهذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما في الآية الأخرى ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ [البقرة: 217] وقيل: هذا خاص بالأنبياء؛ لأن الشرك منهم أعظم نكباً من الشرك من غيرهم، والأول أولى، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بتوحيده، فقال: ﴿هل الله فاعبد﴾، وفي هذا رد على المشركين حيث أمروهم بعبادة الأصنام. ووجه الرد ما يفيد التقييم من القصص. قال الزجاج: لفظ اسم الله منصوب بأعبد قال: ولا اختلاف في هذا بين البصريين، والكوفيين. وقال الفراء: هو منصوب بإضمار فعل، وروي مثله عن الكسائي، والأول أولى. قال الزجاج: والفاء في فاعبد للمجازاة. وقال الأخفش: زائدة. قال عطاء، ومقاتل: معنى فاعبد: وحد، لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده ﴿وكن من الشاكرين﴾ لإتمامه عليك بما هداك إليه من التوحيد، والدعاء إلى دينه، واختصك به من الرسالة ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ قال المبرد: أي: ما عظموه حق عظمتهم، من قولك فلان عظيم القدر، وإنما وصفهم بهذا؛ لأنهم عبدوا غير الله، وأمروا رسوله بأن يكون مثلهم في الشرك. وقرأ الحسن، وأبو حيو، وعيسى بن عمر قدروا بالتشديد ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ القبضة في اللغة ما قبضت عليه بجميع كفك، فأخبر سبحانه: عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمها، وكثافتها في مقدوره كالأشياء الذي يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون: هو في يد فلان، وفي قبضته للأشياء الذي يهون عليه التصرف فيه، وإن لم يقبض عليه، وكذا قوله: ﴿والسموات

الحال، وقرأ زيد بن علي بالنصب على أنه حال، والخبر يخطرون، والعامل في الحال ما عمل في إذا الفجائية. قال الكسائي: كما تقول خرجت، فإذا زيد جالساً ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ الإشراف الإضاءة، يقال: أشرقت الشمس: إذا أضاءت، وشرقت: إذا طلعت، ومعنى بنور ربها: بعدل ربها، قاله الحسن، وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربها، والمعنى: أن الأرض أضاءت، وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها، وما قضى به من الحق فيهم، فالعدل نور، والظلم ظلمات. وقيل: إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض، فتشرق به غير نور الشمس، والقمر، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي، فإن الله سبحانه هو: نور السموات، والأرض. قرأ الجمهور (أشرقت) مبنياً للفاعل، وقرأ ابن عباس، وأبو الجوزاء، وعبيد بن عمير على البناء للمفعول «وضع الكتاب» قيل: هو: اللوح المحفوظ. وقال قتادة: يعني: الكتب، والصحف التي فيها أعمال بني آدم، فأخذ بيمينه، وأخذ بشماله، وكذا قال مقاتل. وقيل: هو من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه أي: وضع الكتاب للحساب ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ أي: جيء بهم إلى الموقف، فستلوا عما أجابتهم به أمهم ﴿وَالشَّهَدَاءَ﴾ الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد ﷺ كما في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، وقيل: المراد بالشهداء: الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله. وقيل: هم الحفظة كما قال تعالى: ﴿رَجَعْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: 21] ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يظلمون﴾ أي: رضى بين العباد بالعدل، والصدق، والحال أنهم لا يظلمون أي: لا ينقصون من ثوابهم، ولا يزداد على ما يستحقونه من عقابهم ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ من خير، وشر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا لا يحتاج إلى كاتب، ولا حاسب، ولا شاهد، وإنما وضع الكتاب، وجيء بالنبيين، والشهداء لتكميل الحجة، وقطع المعذرة. ثم نكر سبحانه تفصيل ما نكره من توفية كل نفس ما كسبت، فقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي: سيق الكافرون إلى النار حال كونهم زمراً أي: جماعات متفرقة بعضها يتلو بعضاً. قال أبو عبيدة، والاختفش: زمراً جماعات متفرقة بعضها إثر بعض، ومنه قول الشاعر:

وترى الناس إلى أبوابه زمراً تنتابه بعد زمر
واشتقاقه من الزمر، وهو: الصوت، إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿حتى إذا جاءوها ففتحت أبوابها﴾ أي: فتحت أبواب النار، ليدخلوها، وهي: سبعة أبواب، وقد مضى بيان ذلك في سورة الحجر ﴿وَقَالَ لَهُمْ خُزِّنْهَا﴾ جمع خازن نحو سدة، وسائر ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رِسَالٌ﴾ أي: من أنفسكم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رِبِّكُمْ﴾ التي أنزلها عليهم ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: يخوفونكم لقاء هذا اليوم الذي صرتم فيه، قالوا لهم هذا القول تقريباً، وتوبيخاً، فأجابوا بالاعتراف، ولم

مطويات بيمينه، فإن نكر اليمين للمبالغة في كمال القدرة كما يطوي الواحد منا الشيء المقنور له طيه بيمينه، واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى: القدرة، والملك. قال الاختفش: بيمينه يقول: في قدرته، نحو قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: 3] أي: ما كانت لكم قدرة عليه، وليس الملك لليمين نون الشمال، وسائر الجسد، ومنه له سبحانه: ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: 45] أي: بالقوة، والقدرة، ومنه قول الشاعر:

إذا ما راية نصبت لمجد تلقاها عرابية باليمين
وقول الآخر:

ولما رایت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتي بيمين
وقول الآخر:

عطست بانف شامخ وتناولت بدای الثريا قاعداً غير قائم
وجملة ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبِضَتْهُ﴾ في محل نصب على الحال أي: ما عظمه حق تعظيمه، والحال أنه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة. قرأ الجمهور برفع (قبضته) على أنها خبر المبتدأ، وقرأ الحسن بنصبها، ووجه ابن خالويه بانه على الظرفية أي: في قبضته. وقرأ الجمهور (مطويات) بالرفع على أنها خبر المبتدأ، والجملة في محل نصب على الحال كالتي قبلها، وبيمينه متعلق بمطويات، أو حال من الضمير في مطويات، أو خبر ثان، وقرأ عيسى، والجحدري بنصب (مطويات)، ووجه ذلك: أن السموات معطوفة على الأرض، وتكون قبضته خبراً عن الأرض، والسموات، وتكون مطويات حالاً، أو تكون مطويات منصوبة بفعل مقدر، وبيمينه الخبر، وخصّ يوم القيامة بالذكر، وإن كانت قدرته شاملة، لأن الدعوى تنقطع فيه كما قال سبحانه: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾ [الحج: 56]، وقال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الافتحة: 4]، ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من المعبودات التي يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة، والحكمة الباهرة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ هذه هي: النفخة الأولى، والصور هو: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، وقد تقدّم غير مرة، ومعنى صعق: زالت عقولهم، فخرّوا مغشياً عليهم، وقيل: ماتوا. قال الواحدي: قال المفسرون: مات من الفزع، وشدة الصوت أهل السموات، والأرض. قرأ الجمهور (الصور) بسكون الواو، وقرأ قتادة، وزيد بن علي بفتحها جمع صورة، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ متصل، والمستثنى جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: رضوان، وجملة العرش، وخزنة الجنة، والنار ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ يجوز أن يكون أخرى في محل رفع على التأييد، وهي صفة لمصدر محذوف أي: نفخة أخرى، ويجوز أن يكون في محل نصب، والقائم مقام الفاعل فيه ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ يعني: الخلق كلهم قيام على أرجلهم ينظرون ما يقال لهم، أو ينتظرون ذلك. قرأ الجمهور (قيام) بالرفع على أنه خبر، وينظرون في محل نصب على

يقدرُوا عل الجدل الذي كانوا يتعللون به في الدنيا لانكشاف الامر، وظهوره، ولهذا ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: قد اتتنا الرسل بآيات الله، وأنزلنا بما سنلقاه ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وهي: ﴿لَا مَلَأَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119] فلما اعترفوا هذا الاعتراف ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ التي قد فتحت لكم؛ لتدخلوها، وانتصاب ﴿خَالِسِينَ﴾ على الحال أي: مقترنين الخلود ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ المخصوص بالنمّ محنوف أي: بشئ مثوأم جهنم، وقد تقدّم تحقيق المثنوى في غير موضع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَقَالِيدَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: مفاتيحها. وأخرج أبو يعلى، ويوسف القاضي في سننه، وأبو الحسن القطان، وابن السني، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عثمان بن عفان قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال لي: يا عثمان لقد سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك، مقاليد السموات، والأرض: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو، الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، يحيي، ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، ثم نكر فضل هذه الكلمات. وأخرجه ابن مريويه عن ابن عباس، عن عثمان قال: جاء إلى النبي ﷺ فقال له: أخبرني عن مقاليد السموات، والأرض، فنكره. وأخرجه الحارث بن أبي أسامة، وابن مريويه عن أبي هريرة، عن عثمان. وأخرجه ابن مريويه عن ابن عباس: أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ أن يعطوه مالا، فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجه ما أراد من النساء، ويطأون عقبه، فقالوا له: هذا لك يا محمد، وتكف عن شتم ألهتنا، ولا تنكرها بسوء. قال: حتى انظر ما يأتيني من ربي، فجاء بالوحي ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكاغرون: 1] إلى آخر السورة، وأنزل الله عليه ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَامِرُونِي أَعْبِدُ لَهَا الْجَاهِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ الْخَاسِرِينَ﴾. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟» وفي الباب أحاديث، وأثار تقتضي حمل الآية على ظاهرها من بون

تكلف لتأويل، ولا تعسف لقال وقيل، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رجل من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البشر، فرجع رجل من الانتصار يده، فطمه، فقال: أنقول هذا وفيما رسول الله ﷺ، فنكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «قال الله: ﴿وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فُصْعَقَ مِنْ فِي السَّمُوتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾، فاكون أول من يرفع رأسه، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أرفع رأسه قبلي، أو كان ممن استثنى الله. وأخرج أبو يعلى، والدارقطني في الإفراد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال: «هم الشهداء مقتلون أسياهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة»، الحديث. وأخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد من أقوال أبي هريرة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وأبو نصر السجزي في الإبانة، وابن مريويه عن انس: أنه سال رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، فقال: «جبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل، وحمة العرش». وأخرج ابن المنذر عن جابر في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال: موسى، لأنه كان صقع قبل. والأحاديث الواردة في كيفية نفخ الصور كثيرة. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ قال: النبيين الرسل، والشهداء الذين يشهدون لهم بالبلاغ ليس فيهم طعان، ولا لعان. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه عنه في الآية قال: يشهدون بتبليغ الرسالة، وتكذيب الأمم بإياهم.

وَسَيَقُالُ لِلَّذِينَ أَنْقَرُوا رُءُوسَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا حَقٌّ إِذَا جَاءَهَا وَنُفِخَتْ أُصْبُعُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لِخَيْرِ مَا قَدَّمْتُمْ عَلَيْكُمْ فَنُدُّوا بِهَا قَوْلًا مَعْلُومًا ﴿٧٦﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَمُّ بِأَجْرِ الْمَعْمُولِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾

لما نكر فيما تقدّم حال الذين كفروا، وسوقهم إلى جهنم، نكر هنا حال المتقين، وسوقهم إلى الجنة، فقال: ﴿وَسَيُقَالُ لِلَّذِينَ لَقُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا﴾ أي: ساقطتهم الملائكة سوق إعزاز، وتشريف، وتكريم. وقد سبق بيان معنى الزمر ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾ جواب إذا محذوف. قال المبرد تقديره: سعلوا، وفتحت، وأنشد قول الشاعر: فلواتها نفس تموت جميعا ولكنها نفس تساقط أنفاسا فحنف جواب لو، والتقدير: لكان أروح. وقال الزجاج: القول عندي: أن الجواب محذوف على تقدير: حتى إذا جاءوها، وكانت هذه الأشياء التي نكرت دخولها، فالجواب لدخولها، وحنف: لأن في الكلام ليلأ عليه. وقال الأخفش،

تعالى على عباده بالحق.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة». وأخرج، وغيرهما عن سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى باب الريان لا يدخله إلا الصائمون»، وقد ورد في كون أبواب الجنة ثمانية أبواب أحاديث في الصحيحين، وغيرهما. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: «وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ» قال: أرض الجنة. وأخرج هناك عن أبي العالية مثله.

تفسير سورة غافر

وهي مكية في قول الحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر. قال الحسن: إلا قوله: «وسبح بحمد ربك» [غافر: 55]، لأن الصلوات نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس، وقاتلة: إلا آيتين نزلتا بالمدينة، وهما: «إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ» [غافر: 56]، والتي بعدها، وهي خمس وثمانون آية، وقيل: اثنتان وثمانون آية. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة حم المؤمن بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت الحواميم السبع بمكة. وأخرج ابن مردويه، والديلمي عن سمرة بن جندب قال: نزلت الحواميم جميعاً بمكة. وأخرج محمد بن نصر، وابن مردويه عن أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني السبع الحواميم مكان التوراة، وأعطاني الرءات إلى الطواسين مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضلني بالحواميم، والمفصل ما قرأه نبي قبلي». وأخرج أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس قال: إن لكل شيء لباباً، وإن لباب القرآن آل حم. وأخرج أبو عبيد، وابن الضريس، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: الحواميم ديباج القرآن. وأخرج أبو عبيد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر عنه قال: إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات نملات أتانق فيهن. وأخرج أبو الشيخ، وأبو نعيم، والديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الحواميم ديباج القرآن». وأخرج البيهقي في الشعب عن خليل بن مرة: أن رسول الله ﷺ قال: «الحواميم سبع، وأبواب النار سبع، تجيء كل حم منها تقف على باب من هذه الأبواب تقول: اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي، ويقرؤني». وأخرج أبو عبيد، وابن سعد، ومحمد بن نصر، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم المؤمن أي: [غافر: 1 - 3]، وآية الكرسي [البقرة: 255] حين يصبح، حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين

والكوفيون: الجواب فتحت، والواو زائدة، وهو خطأ عند البصريين، لأن الواو من حروف المعاني، فلا تزداد. قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله، والتقدير: حتى إذا جاءوها، وأبوابها مفتحة بدليل قوله: «جَنَاتٍ عَدْنٍ مَفْتُحَةٍ لَهُمُ الْأَبْوَابُ» [ص: 50]، وحففت الواو في قصة أهل النار، لأنهم وقفوا على النار، وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً، وترويعاً. نكر معناه النحاس منسوباً إلى بعض أهل العلم، قال: ولا أعلم أنه سبقه إليه أحد. وعلى هذا القول تكون الواو وال حال بتقدير قد أي: جاءوها، وقد فتحت لهم الأبواب. وقيل: إنها واو الثمانية، وذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون في العدد: خمسة ستة سبعة، وثمانية، وقد مضى القول في هذا في سورة براءة مستوفى، وفي سورة الكهف أيضاً. ثم أخبر سبحانه: أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين، فقال: «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» أي: سلامة لكم من كل آفة «طَبِئْتُمْ» في الدنيا، فلم تتدنسوا بالشرك، والمعاصي. قال مجاهد: طبتم بطاعة الله، وقيل: بالعمل الصالح، والمعنى واحد. قال مقاتل: إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم حتى إذا هنيؤا، وطيبوا قال لهم رضوان، وأصحابه: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» الآية «فَانْخَلَوْهَا» أي: ادخلوا الجنة «خَالِدِينَ» أي: مقررين الخلود، فعند ذلك قال أهل الجنة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ» بالبعث، والثواب بالجنة «وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ» أي: أرض الجنة كأنها صارت من غيرهم إليهم، فملكوها، وتصرفوا فيها، وقيل: إنهم ورثوا الأرض التي كانت لأهل النار لو كانوا مؤمنين. قاله أكثر المفسرين. وقيل: إنها أرض الدنيا، وفي الكلام تقديم، وتأخير «فَنَنْتَبِهُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ» أي: نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء «فَنَنعَمُ لِحُجْرِ الْعَامِلِينَ» المخصوص بالمدح محذوف أي: فنعم أجر العاملين الجنة، وهذا من تمام قول أهل الجنة. وقيل: هو من قول الله سبحانه «وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ» أي: محيطين محدقين به، يقال: حَفَّ القوم بفلان إذا أطافوا به، و «من» مزيدة. قاله الأخفش، أو للابتداء، والمعنى: أن الرائي يراهم بهذه الصفة في ذلك اليوم، وجملة «يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» في محل نصب على الحال أي: حال كونهم مسبحين لله ملتبسين بحمده، وقيل: معنى يسبحون: يصلون حول العرش شكراً لربهم، والحافين جمع حاف، قاله الأخفش. وقال الفراء: لا واحد له إن لا يقع لهم هذا الاسم إلا مجتمعين «وَقَضَىٰ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ» أي: بين العباد بإدخال بعضهم الجنة، وبعضهم النار، وقيل: بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء، وبين أمهم بالحق، وقيل: بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب درجاتهم، والأول أولى «وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» القائلون هم: المؤمنون حمدوا الله على قضائه بينهم، وبين أهل النار بالحق، وقيل: القائلون هم: الملائكة حمدوا الله

يمسي، حفظ بهما حتى يصبح».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ مَا يُجَدِّلُ فِي عَائِدَةِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْزِلُ تَقَاتُلُكُمْ فِي الْبَلَدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَنْتَ كُلَّ أَتَمِّ رُسُلِهِمْ لِيُخْذَرُوا وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَلَمَ الْآخِرَةِ مِثْلُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِرَبِّهِمْ وَيَرْغَبُونَ فِيهِ وَيَسْتَكْبِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّجَنَاتِ وَمَنْ نَزَّ السَّجَنَاتِ يَوْمَئِذٍ فَتَذَرْتَهُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْأَوَّلُ الْمُطِيرُ ﴿٩﴾

قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ قرأ الجمهور بفتح الحاء مشبوعاً، وقرأ حمزة، والكسائي بإمالة إمالة محضة. وقرأ أبو عمرو بإمالة بين بين، وقرأ الجمهور حم بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة. وقرأ الزهري بضمها على أنها خبر مبتدأ مضمرة، أو مبتدأ، والخبر ما بعده. وقرأ عيسى بن عمر الثقفي بفتحها على أنها منصوبة بفعل مقدر، أو على أنها حركة بناء لا حركة إعراب. وقرأ ابن أبي إسحاق، وأبو السماك بكسرهما لالتقاء الساكنين، أو بتقدير القسم. وقرأ الجمهور بوصل الحاء بالميم. وقرأ أبو جعفر بقطعها.

وقد اختلف في معناه، ف قيل: هو اسم من أسماء الله، وقيل: اسم من أسماء القرآن. وقال الضحاک، والكسائي معناه: قضى، وجعله بمعنى حم أي: قضى، ووقع، وقيل: معناه حم أمر الله أي: قرب نصره لأوليائه، وانتقامه من أعدائه. وهذا كله تكلف لا موجب له، وتعسف لا ملجئ إليه، والحق أن هذه الفاتحة لهذه السورة، وأمثالها: من المتشابه الذي استأثر الله بعلم معناه كما قدمنا تحقيقه في فاتحة سورة البقرة ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ هو: خبر لحم على تقدير أنه مبتدأ، أو خبر لمبتدأ مضمرة، أو هو: مبتدأ، وخبره ﴿مَنْ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ قال الرازي: المراد بتنزيل المنزل، والمعنى: أن القرآن منزل من عند الله ليس بكذب عليه. والعزیز: الغالب القاهر، والعليم: الكثير العلم بخلقه، وما يقولونه، ويفعلونه ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ قال الفراء: جعلها كالنعت للمعرفة، وهي: نكرة، ووجه قوله هذا: أن إضافتها لفظية، ولكنه يجوز أن تجعل إضافتها معنوية كما قال سيبويه: إن كل ما إضافته غير محضة يجوز أن تجعل محضة، وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة. وأما الكوفيون، فلم يستثنوا شيئاً بل جعلوا الصفة المشبهة كاسم الفاعل في جواز جعلها إضافة

محضة، وذلك حيث لا يراد بها زمان مخصوص، فيجوزون في شديد هنا أن تكون إضافته محضة. وعلى قول سيبويه: لا بد من تأويله بمشدد. وقال الزجاج: إن هذه الصفات الثلاث مخفوضة على البذل. وروي عنه: أنه جعل غافر، وقابل مخفوضين على الوصف، وشديد مخفوض على البذل، والمعنى: غافر الذنب لأوليائه، وقابل توبتهم، وشديد العقاب لأعدائهم، والتوب مصدر بمعنى: التوبة من تاب يتوب توبة، وتوباً، وقيل: هو جمع توبة، وقيل: غافر الذنب لمن قال: لا إله إلا الله، وقابل التوب من الشرك، وشديد العقاب لمن لا يوحد، وقوله: ﴿ذِي الطُّلُوعِ﴾ يجوز أن يكون صفة، لأنه معرفة، وأن يكون بدلاً، وأصل الطول الإنعام، والتفضل أي: ذي الإنعام على عباده، والتفضل عليهم. وقال مجاهد: ذي الغنى، والسعة. ومنه قوله: ﴿مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ [النساء: 25] أي: غنى، وسعة، وقال عكرمة: ذي الطول ذي المن. قال الجوهري: وال طول بالفتح المن يقال منه: طال عليه، ويطول عليه إذا امتن عليه. وقال محمد بن كعب: ذي الطول ذي التفضل. قال الماورودي: والفرق بين المن، والتفضل: أن المن عفو عن ذنب، والتفضل إحسان غير مستحق. ثم نكر ما يدل على توحده، وأنه الحقيق بالعبادة، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ لا إلى غيره، وذلك في اليوم الآخر. ثم لما ذكر أن القرآن كتاب الله أنزله: ليهتدي به في الدين نكر أحوال من يجادل فيه لقصد إبطاله، فقال: ﴿مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ما يخاصم في نفع آيات الله، وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد: الجدل بالباطل، والقصد إلى حوض الحق كما في قوله: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُبْطِلُوا بِهِ الْحَقَّ﴾. فاما الجدل لاستيضاح الحق، ورفع اللبس، والبحث عن الراجح، والمرجوح، وعن المحكم، والمتشابه، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال إلى المحكم، فهو من أعظم ما يتقرب المتقربون، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: 187]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَوَاءً وَلَنُعَذِّبَنَّهُمْ بِالْعَذَابِ الْعَلِيمِ﴾ [البقرة: 159]، وقال: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المنكوت: 46] ﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ لما حكم سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر، نهى رسوله ﷺ عن أن يغتر بشيء من حظوظهم الدنيوية، فقال: فلا يغروك ما يفعلونه من التجارة في البلاد، وما يحصلونه من الأرباح، ويجمعونه من الأموال، فإنهم معاقبون عما قليل، وإن أسهلوا، فإنهم لا يهملون. قال الزجاج: لا يغروك سلامتهم بعد كفرهم، فإن عاقبتهم الهلاك. قرأ الجمهور (لا يغروك) بفك الإدغام. وقرأ زيد بن علي، وعبيد بن عمير بالإدغام. ثم بين حال من كان قبلهم، وأن هؤلاء سلكوا سبيل أولئك في التكذيب، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

والأحزاب من بعدهم» الضمير في من بعدهم يرجع إلى قوم نوح أي: وكذبت الأحزاب الذين تحزّبوا على الرسل من بعد قوم نوح كعاد، وثمود «ووهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه» أي: همت كل أمة من تلك الأمم المكتبة برسولهم الذي أرسل إليهم؛ ليأخذوه؛ ليتمكنوا منه، فيحبسوه، ويعذبوه، ويصيبوا منه ما أرادوا. وقال قتادة، والسدي: ليقتلوه، والأخذ قد يرد بمعنى: الإهلاك، كقوله: ف «أخذتهم فكيف كان نكير» [الحج: 44] والعرب تسمي الأسير الأخذ «وجادلوا بالباطل لِيُحضوا به الحق» أي: خاصموا رسولهم بالباطل من القول، لِيُحضوا به الحق؛ لِيزيلوه، ومنه مكان نحض أي: مزلة، ومزلة أقدام، والباطل داحض؛ لأنه يزلق، ويحول، فلا يستقر. قال يحيى بن سلام: جادلوا الأنبياء بالشرك؛ لِيُطلوا به الإيمان «فأخذتهم فكيف كان عقاب» أي: فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل، فكيف كان عقابي الذي عاقبتهم به، وحذف ياء المتكلم من عقاب اجتزاء بالكسرة عنها وصلا، ووقفا؛ لأنها رأس آية «وكنك حقت كلمت ربك على الذين كفروا» أي: وجبت، وثبتت، ولزمت، يقال: حق الشيء إذا لزم، وثبت، والمعنى: وكما حقت كلمة العذاب على الأمم المكتبة لرسلهم حقت على الذين كفروا به، وجادلوك بالباطل، وتحزّبوا عليك، وجملة «أنهم أصحاب النار» للتعليل أي: لأجل أنهم مستحقون للنار. قال الأخفش: أي: لأنهم، أو بأنهم. ويجوز أن تكون في محل رفع بدلاً من كلمة. قرأ الجمهور (كلمة) بالتحديد، وقرأ نافع، وابن عامر (كلمات) بالجمع. ثم نكر أحوال حملة العرش، ومن حوله، فقال: «الذين يحملون العرش ومن حوله»، والموصول مبتدأ، وخبره يسبحون بحمد ربهم، والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ، ببيان أن هذا الجنس من الملائكة الذين هم أعلى طبقاتهم يضمنون إلى تسبيحهم الله، والإيمان به الاستغفار للذين آمنوا بالله، ورسوله، وصنّوا، والمراد بمن حول العرش: هم: الملائكة الذين يطوفون به مهللين مكبرين، وهو في محل رفع عطفاً على الذين يحملون العرش، وهذا هو الظاهر. وقيل: يجوز أن تكون في محل نصب عطفاً على العرش، والأول أولى. والمعنى: أن الملائكة الذين يحملون العرش، وكذلك الملائكة الذين هم حول العرش ينزهون الله ملتبسين بحمده على نعمه، ويؤمنون بالله، ويستغفرون الله لعباده المؤمنين به. ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمؤمنين، فقال حاكياً عنهم: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً»، وهو بتقدير القول أي: يقولون ربنا، أو قائلين: ربنا وسعت كل شيء رحمة، وعلماً انتصاب رحمة، وعلماً على التمييز المحوّل عن الفاعل، والأصل وسعت رحمتك، وعلمك كل شيء «فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك» أي: أوقعوا التوبة عن الذنوب، واتبعوا سبيل الله، وهو دين الإسلام «وقهم عذاب الجحيم» أي: احفظهم منه «ربنا وأدخلهم جنات عدن» «وأدخلهم معطوف على قوله: «وقهم»، ووسط الجملة الندائية لقصد

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال: «حم» اسم من أسماء الله. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وأبو عبيد، وابن سعد، وابن أبي شيبه، وأبو داود، والترمذي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع النبي ﷺ يقول ليلة الخندق: «إن أتيت الليلة، فقولوا حم لا ينصرون». وأخرج ابن أبي شيبه، والنسائي، والحاكم، وابن مردويه عن البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم تلقون عدوكم، فليكن شعاركم حم لا ينصرون». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: «ذي الطول» قال: ذي السعة، والغنى. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن ابن عمر في قوله: «غافر الذنب» الآية قال: غافر الذنب لمن يقول: لا إله إلا الله «قبل للتوب» ممن يقول: لا إله إلا الله «شديد العقاب» لمن لا يقول: لا إله إلا الله «ذي الطول» ذي الغنى «لا إله إلا هو» كانت كفار قريش لا يوحونوه، فوجد نفسه «إليه المصير» مصير من يقول: لا إله إلا الله، فيدخله الجنة، ومصير من لا يقول: لا إله إلا الله، فيدخله النار. وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «إن جدلاً في القرآن كفر». وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مراء في القرآن كفر».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنَادُونَ لَمَنَّا اللَّهُ أَكْبَرُ مِن مَّعْنَكُم أَنَسُكُمْ إِذْ دُعِيتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَتَيْنَا نَبِيًّا وَأَمِينًا أُنْتَنِي فَاعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ

إِن صَارُوا فِي النَّارِ بِمَا كُتِبُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ حَاكِبًا عَنْهُمْ: **﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾** التي أسلفناها في الدنيا من تكذيب الرُّسل، والإشراك بالله، وترك توحيدِهِ، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدِّمة لقولهم: **﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾** أي: هل إلى خروج لنا من النار، ورجوع لنا إلى الدنيا من سبيل، ومثل هذا قولهم الذي حكاه الله عنهم: **﴿فَهَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾** [الشورى: 44]، وقوله: **﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾** [السجدة: 12]، وقوله: **﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾** [الأنعام: 27] الآية. ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم هذا بقوله: **﴿لَكُمْ بَأْسُهُ إِذَا دَعَىٰ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾** أي: ذلك الذي أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دعا الله في الدنيا وحده دون غيره كفرتم به، وتركتم توحيدِهِ **﴿وَإِنْ يَشْرِكْ بِهِ﴾** غيره من الأصنام، أو غيرها **﴿تُؤْمِنُوا﴾** بالإشراك به، وتجيَّبوا الدَّاعي إليه، فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار، وهو ما كانوا فيه من ترك توحيد الله، وإشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدُّعاء، ومحل ذلكم الرفق على أنه خير مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلكم، أو مبتدأ خبره محذوف أي: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بذلك السبب، وفي الكلام حذف، والتقدير: فأجيَّبوا بأن لا سبيل إلى الردِّ، وذلك لأنكم كنتم إذا دعا الله إلخ **﴿فَالْحَكْمُ لِلَّهِ﴾** وحده دون غيره، وهو الذي حكم عليكم بالخلود في النار، وعدم الخروج منها، و**﴿الْعَلِيَّ﴾** المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته، ولا صفاته، و**﴿الْكَبِيرُ﴾** الذي كبر عن أن يكون له مثل، أو صاحبة، أو ولد، أو شريك **﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾** أي: دلائل توحيدِهِ، وعلامات قدرته **﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾** يعني: المطر، فإنه سبب الأرزاق. جمع سبحانه بين إظهار الآيات، وإنزال الأرزاق، لأن بإظهار الآيات قوام الألبان، وبالأرزاق قوام الأبدان، وهذه الآيات هي: التكوينية التي جعلها الله سبحانه في سمواته، وأرضه، وما فيها، وما بينهما. قرأ الجمهور (ينزل) بالتشديد. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتخفيف **﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مِنْ يُنِيبٍ﴾** أي: ما يتذكر، ويتعظ بتلك الآيات الباهرة، فيستدل بها على التوحيد، وصديق الوعد، والوعيد إلا من ينيب أي: يرجع إلى طاعة الله بما يستفيده من النظر في آيات الله. ثم لما ذكر سبحانه ما نصبه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه، وإخلاص اللين له، فقال: **﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** أي: إذا كان الأمر كما ذكر من ذلك، فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التي أمركم بها **﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾** ذلك، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوهم يموتوا بغیظهم، ويهلكوا بحسرتهم **﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ﴾**، وارتفاع رفيع الدرجات على أنه خبر آخر عن المبتدأ المتقدم أي: هو الذي يريكم آياته، وهو رفيع الدرجات. وكذلك **﴿ذُو الْعَرْشِ﴾** خبر ثالث، ويجوز أن يكون رفيع الدرجات مبتدأ، وخبره **﴿ذُو الْعَرْشِ﴾**، ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف، ورفيع

إِنَّا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُزِيلُ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَيَذْكُرُ لَكُمْ وَلَمْ نَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا مِمَّنْ يُنِيبُ ﴿٢٩﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٣١﴾ يَوْمَ هُمْ كَبُودٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٣٢﴾ الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٣﴾ وَأَنْزَلْنَاهُ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ أَدْنَىٰ لِّلْخَنَازِيرِ كُلِّمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا لِلْمُؤْمِنِينَ رِزْقٌ يُغْنِي عَنْهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآخِرَةِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَهُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٣٤﴾

لما ذكر سبحانه حال أصحاب النار، وأنها حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم أصحاب النار ذكر أحوالهم بعد دخول النار، فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون﴾**. قال الواحدي: قال المفسرون: إنهم لما رأوا أعمالهم، ونظروا في كتابهم، وأدخلوا النار، ومقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم ناداهم حين عاينوا عذاب الله مناد **﴿لمقت الله﴾** إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان، فتكفرون **﴿أكبر من مقتكم أنفسكم﴾** اليوم. قال الاخفش: هذه اللام في لمقت هي: لام الابتداء أوقعت بعد ينادون؛ لأن معناه: يقال لهم، والنداء قول. قال الكلبي: يقول كل إنسان لنفسه من أهل النار: مقتك يا نفس، فتقول الملائكة لهم، وهم في النار: لمقت الله إياكم في الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم. وقال الحسن: يعطون كتابهم، فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم، فينادون: لمقت الله إياكم في الدنيا **﴿إذ تدعون إلى الإيمان﴾** أكبر من مقتكم أنفسكم إذ عاينتم النار، والظرف في **﴿إذ تدعون﴾** منصوب بمقتد محذوف دل عليه المذكور أي: مقتكم وقت دعائكم، وقيل: بمحذوف هو: أنكروا، وقيل: بالمقت المذكور، والمقت أشد البغض ثم أخبر سبحانه عما يقولون في النار، فقال: **﴿قلوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾** اثنتين في الموضعين نعتان لمصدر محذوف أي: أمتنا إمامتين اثنتين، وأحييتنا إحياءتين اثنتين، والمراد بالإمامتين: أنهم كانوا نطفاً لا حياة لهم في أصلاب آبائهم، ثم أماتهم بعد أن صاروا إحياء في الدنيا، والمراد بالإحياءتين: أنه أحياهم الحياة الأولى في الدنيا، ثم أحياهم عند البعث، ومثل هذه الآية قوله: **﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم﴾** [البقرة: 28]، وقيل: معنى الآية: أنهم أميتوا في الدنيا عند انقضاء آجالهم، ثم أحياهم الله في قبورهم للسؤال، ثم أميتوا، ثم أحياهم الله في الآخرة، ووجه هذا القول: أن الموت سلب الحياة، ولا حياة للنطفة. ووجه القول الأول: أن الموت قد يطلق على عدم الحياة من الأصل، وقد ذهب إلى تفسير الأول جمهور السلف. وقال ابن زيد: المراد بالآية: أنه خلقهم في ظهر آدم، واستخرجهم، وأحياهم، وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم، ثم أحياهم في الدنيا، ثم أماتهم. ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد

فيجيب نفسه، وقيل: إنه سبحانه يأمر منادياً ينادي بذلك، فيقول أهل المحشر مؤمنهم، وكافرهم: ﴿الله الواحد القهار﴾، وقيل: إنه يجيب المنادي بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار، وقيل: هو حكاية لما ينطق به لسان الحال في ذلك اليوم لانقطاع دعاوي المبطلين، كما في قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله [الانفطار: 17 - 19]، وقوله: ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم لليوم إن الله سريع الحساب﴾ من تمام الجواب على القول بأن المجيب هو: الله سبحانه، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم، أو بعضهم، فهو: مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم أي: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من خير وشر لا ظلم اليوم على أحد منهم بنقص من ثوابه، أو بزيادة في عقابه ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي: سريع حسابه، لأنه سبحانه لا يحتاج إلى تفكير في ذلك كما يحتاجه غيره لإحاطة علمه بكل شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة. ثم أمر الله سبحانه رسوله: بإبذار عباده، فقال: ﴿وانذرهم يوم الآزفة﴾ أي: يوم القيامة سميت بذلك لقربها، يقال: أزف فلان أي: قرب يازف أزفاً، ومنه قول النابغة:

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل بركابنا وكان قد ومنه قوله تعالى: ﴿أزفت الآزفة﴾ [النجم: 57] أي: قربت الساعة، وقيل: إن يوم الآزفة هو: يوم حضور الموت، والأوّل أولى. قال الزجاج: وقيل لها: أزفة؛ لأنها قريبة، وإن استبعد الناس أمرها، وما هو كائن، فهو: قريب ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ وذلك أنها تزل عن مواضعها من الخوف حتى تصير إلى الحجر كقوله: ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ [الأحزاب: 10] ﴿كاظمين﴾ مغمومين مكروبين ممثلثين غماً. قال الزجاج: المعنى: إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم. قال قتادة: وقعت قلوبهم في الحناجر من المخافة، فهي لا تخرج، ولا تعود في أمكنتها. وقيل: هو إخبار عن نهاية الجزع، وإنما قال كاظمين باعتبار أهل القلوب، لأن المعنى: إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، فيكون حالاً منهم. وقيل: حالاً من القلوب، وجمع الحال منها جمع العقلاء؛ لأنه أسند إليها ما يسند إلى العقلاء فجمعت جمعه. ثم بين سبحانه: أنه لا ينفع الكافرين في ذلك اليوم أحد، فقال: ﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي: قريب ينفعهم ﴿ولا شفيع يطاع﴾ في شفاعته لهم، ومحل يطاع الجر على أنه صفة لشفيع. ثم وصف سبحانه شمول علمه لكل شيء، وإن كان في غاية الخفاء فقال: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾، وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، والجملة خبر آخر لقوله: ﴿هو الذي يريكم﴾ قال المؤرخ: فيه تقديم، وتأخير أي: يعلم الأعين الخائنة. وقال قتادة: خائنة الأعين: الهمز بالأعين فيما لا يحب الله. وقال الضحاك: هو قول الإنسان ما رايت، وقد راى، ورايت، وما راى. وقال

صفة مشبهة، والمعنى: رفيع الصفات، أو رفيع درجات ملائكته أي: معارجهم، أو رفيع درجات أنبيائه، وأوليائه في الجنة. وقال الكلبي، وسعيد بن جبير: رفيع السموات السبع، وعلى هذا الوجه يكون رفيع بمعنى: رافع، ومعنى، نو العرش: ملكه، وخالقه، والمتصرف فيه، وذلك يقتضي علو شأنه، وعظم سلطانه، ومن كان كذلك، فهو الذي يحق له العبادة، ويجب له الإخلاص، وجملة ﴿يلقي الروح من أمره﴾ في محل رفع على أنها خبر آخر للمبتدأ المتقدم، أو للمقدر، ومعنى ذلك: أنه سبحانه يلقي الوحي ﴿على من يشاء من عباده﴾، وسمي الوحي: روحاً، لأن الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح، وقوله: ﴿من أمره﴾ متعلق بيلقي، و «من» لا ابتداء الغاية، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حال من الروح، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى: 52] وقيل: الروح جبريل كما في قوله: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ على قلبك [الشعراء: 193، 194]، وقوله: ﴿نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النمل: 102]، وقوله: ﴿على من يشاء من عباده﴾ هم: الأنبياء، ومعنى ﴿من أمره﴾: من قضائه ﴿لينذر يوم التلاق﴾ قرأ الجمهور (لينذر) مبنياً للفاعل، ونصب (اليوم)، والفاعل هو: الله سبحانه، أو الرسول، أو من يشاء، والمندر به محذوف تقديره: لينذر العذاب يوم التلاق. وقرأ أبي، وجماعة كذلك إلا أنه رفع (اليوم) على الفاعلية مجازاً. وقرأ ابن عباس، والحسن، وابن السميع (لتنذر) بالفوقية على أن الفاعل ضمير المخاطب، وهو: الرسول، أو ضمير يرجع إلى الروح؛ لأنه يجوز تانيثها. وقرأ اليماني (لينذر) على البناء للمفعول، ورفع (يوم) على التانيث، ومعنى ﴿يوم التلاق﴾: يوم يلتقي أهل السموات، والأرض في المحشر، وبه قال قتادة. وقال أبو العالية، ومقاتل: يوم يلتقي العابثون، والمعبوثون، وقيل: الظالم، والمظلوم، وقيل: الأولون، والآخرين، وقيل: جزاء الأعمال، والعاملون، وقوله: ﴿يوم هم بارزون﴾ بدل من يوم التلاق. وقال ابن عطية: هو منتصب بقوله: ﴿لا يخفى على الله﴾ وقيل: منتصب بإضمار انكر، والأوّل أولى، ومعنى بارزون: خارجون من قبورهم لا يستترهم شيء، وجملة ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ مستأنفة مبينة لبروزهم، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير بارزون، ويجوز أن تكون خبراً ثانياً للمبتدأ أي: لا يخفى عليه سبحانه شيء منهم، ولا من أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وجملة ﴿لمن الملك اليوم﴾ مستأنفة جواب عن سؤال مقدر كانه قيل: فماذا يقال عند بروز الخلاق في ذلك اليوم؟ فقيل: يقال: لمن الملك اليوم؟ قال المفسرون: إذا ملك كل من في السموات، والأرض، فيقول الربّ تبارك وتعالى: ﴿لمن الملك اليوم﴾ يعني: يوم القيامة، فلا يجيبه أحد، فيجيب تعالى نفسه، فيقول: ﴿الله الواحد القهار﴾ قال الحسن: هو السائل تعالى، وهو المجيب حين لا أحد يجيبه،

للصنوبر قال: إذا قدر عليها أيزني بها أم لا؟ ألا أخبركم بالتي تليها **«وإله يقضي بالحق»** قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنه، وبالسئئة السيئة. وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن مريويه عن سعد قال: ولما كان يوم فتح مكة آمن النبي ﷺ الناس إلا أربعة نفر، وامرأتين، وقال: اقتلوه، وإن وجبتهم متعلقين بأستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فاخبا عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به. فقال: يا رسول الله بايع عبد الله، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يابى بيعته، ثم بايعه، ثم أقبل على أصحابه، فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رأني كفت يدي عن بيعته، فيقتله؟ فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أرمأت إلينا بعينك؟ فقال: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين».

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ ﴿١٠٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَرِيدٌ الْوَقَابِ ﴿١٠١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠٢﴾ إِلَهُ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي سَكْنٍ ﴿١٠٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنَِّّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٠٥﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي رَسُولٌ إِلَيْ رَبِّ رَبِّكُمْ مَنْ كُلِّ مَثْكَرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٠٦﴾ وَقَالَ رَبُّكَ لِمَنْ آمَنَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِسْمَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿١٠٧﴾ يُنَوِّرُ لَكُمْ أَلْمَاسَ الْيَوْمَ ظُهُورَ فِي الْأَرْضِ مَنْ يَصْرَفْ مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَهُ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿١٠٨﴾﴾

لما خوفهم سبحانه بأحوال الآخرة أربفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا، فقال: **«أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم؟ أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار بغيرهم، فإن الذين مضوا من الكفار «كانوا هم أشد منهم قوة» من هؤلاء الحاضرين من الكفار، وأقوى «وآثاراً في الأرض» بما عمروا فيها من الحصون والقصور، وبما لهم من العدد والعدة، فلما كذبوا رسلهم أهلهم الله، وقوله: «فينظروا» إما مجزوم بالعطف على يسيروا، أو منصوب بجواب الاستفهام، وقوله: «كانوا أشد منهم قوة» بيان للتفاوت بين حال هؤلاء وأولئك، وقوله: «وآثاراً» عطف على قوة. قرأ الجمهور (أشد منهم)، وقرأ ابن عامر (أشد منكم) على الالتفات «فأخذهم الله**

سفيان: هي: النظرة بعد النظرة. والاول أولى، وبه قال مجاهد **«وما تخفي الصدور»** من الضمائر، وتسره من معاصي الله **«وإله يقضي بالحق»** فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير، وشر **«والذين تدعون من دونه»** أي: تعبدونهم من دون الله **«لا يقضون بشيء»**، لأنهم لا يعلمون شيئاً، ولا يقدرون على شيء. قرأ الجمهور (يدعون) بالتحية يعني: الظالمين، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وقرأ نافع، وشيبة، وهشام بالفوقية على الخطأ لهم **«إن الله هو السميع البصير»**، فلا يخفى عليه من المسموعات، والمبصرات خافية.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحكم وصححه عن ابن مسعود في قوله: **«أمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتان»** قال: هي مثل التي في البقرة **«كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميحكم ثم يحييكم»** [البقرة: 28] كانوا أمواتاً في صلب آبائهم، ثم أخرجهم، فأحياهم، ثم أماتهم، ثم يحييهم بعد الموت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في الآية قال: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم، فخلقكم، فهذه حياة، ثم يميحكم، فترجعون إلى القبور، فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة، فهذه حياة، فهما موتتان، وحياتان كقوله: **«كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم»** الآية. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **«يوم للتلاق»** قال: يوم القيامة يلتقي فيه آدم، وآخر ولده. وأخرج عنه أيضاً قال: **«يوم التلاق»** يوم الألفة، ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه الله، وحضره عباده. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، والحكم وصححه، وأبو نعيم في الحلية عنه أيضاً قال: «ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس أتتكم الساعة، فسمعها الأحياء، والأموات، وينزل الله إلى السماء الدنيا، فيقول: **«هل من الملك اليوم لله الواحد القهار»**». وأخرج ابن أبي الدنيا في البعث، والديلمي عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ مثله. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن مسعود قال: «يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط، فأول ما يتكلم أن ينادي مناد: **«هل من الملك اليوم لله الواحد القهار»** «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم لليوم إن الله سريع الحساب» فأول ما يبدا به من الخصومات النداء». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ»** قال: الرجل يكون في القوم، فتمر بهم المرأة، وإذا فريهم أنه يغض بصره عنها، وإذا غفلوا لحظ إليها، وإذا نظروا غض بصره عنها، وقد أطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال: إذا نظر إليها يريد الخيانة لم لا **«وما تخفي**

غير مؤمن بالبعث، والنشور، ويدخل فرعون في هذا العموم سخولاً أولياً ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ قال الحسن، ومقاتل، والسدي: كان قبطياً، وهو: ابن عم فرعون، وهو الذي نجا مع موسى، وهو المراد بقوله: ﴿وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى﴾ [القصص: 20] الآية، وقيل: كان من بني إسرائيل، ولم يكن من آل فرعون، وهو خلاف ما في الآية، وقد تمحل لذلك بأن في الآية تقديماً، وتأخيراً، والتقدير: وقال رجل مؤمن من بني إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون. قال القشيري: ومن جعله إسرائيلياً، ففيه بعد، لأنه يقال: كتمه أمر كذا، ولا يقال: كتم منه كما قال سبحانه: ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ [النساء: 42]، وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول.

وقد اختلف في اسم هذا الرجل، فقيل: حبيب، وقيل: حزقيل، وقيل غير ذلك، قرأ الجمهور (رجل) بضم الجيم، وقرأ الأعمش، وعبد الوارث بسكونها، وهي: لغة تميم، ونجد، والأولى هي: الفصيحة، وقرأ بكسر الجيم ﴿ومؤمن﴾ صفة لرجل، ﴿ومؤمن آل فرعون﴾ صفة أخرى، و﴿يكتم إيمانه﴾ صفة ثالثة، والاستفهام في ﴿اتقتلون رجلاً﴾ للإنكار، و﴿أن يقول ربي الله﴾ في موضع نصب بنزع الخافض أي: لأن يقول، أو كراهة أن يقول، وجملة ﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحات، والدلالات الظاهرات على نبوته، وصحة رسالته، ثم تلطف لهم في النفع عنه، فقال: ﴿وإن يك كاتباً فعليهِ كُذِبَ وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾، ولم يكن قوله هذا لشك منه، فإنه كان مؤمناً كما وصفه الله. ولا يشك المؤمن، ومعنى ﴿يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾ أنه إذا لم يصيبكم كله، فلا أقل من أن يصيبكم بعضه، وحذفت النون من يكن في الموضعين تخفيفاً لكثرة الاستعمال، كما قال سيبويه، وقال أبو عبيدة، وأبو الهيثم: بعض هنا بمعنى: كل أي: يصيبكم كل الذي يعدكم، وأنشد أبو عبيدة على هذا قول لبيد:

ترك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها
أي: كل النفوس، وقد اعترض عليه، وأجيب بأن البعض قد يستعمل في لغة العرب بمعنى: الكل كما في قول الشاعر:
قد يدرك المثاني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
وقول الآخر:

إن الأمور إذا الأحداث بمرها نون الشيوخ ترى في بعضها خلا
وليس في البيتين ما يدل على ما زعموه، وأما بيت لبيد، فقيل: إنه أراد ببعض النفوس نفسه، ولا ضرورة تلجئ إلى حمل ما في الآية على ذلك، لأنه أراد التنزل معهم، وإيهامهم: أنه لا يعتقد صحة نبوته كما يفيدته قوله: ﴿يكتم إيمانه﴾ قال أهل المعاني: وهذا على المظاهرة في الحجاج، كأنه قال لهم: أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم،

بننوبهم﴾ أي: بسبب ذنوبهم ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ أي: من دافع يدفع عنهم العذاب، وقد مر تفسير هذه الآية في مواضع، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم من الأخذ ﴿بأنهم كانت تاتيتهم رسلهم بالبينات﴾ أي: بالحجج الواضحة ﴿فكفروا﴾ بما جاءهم به ﴿فأخذهم الله إنه قوي﴾ يفعل كل ما يريد لا يعجزه شيء ﴿شديد العقاب﴾ لمن عصاه، ولم يرجع إليه، ثم نكر سبحانه قصة موسى، وفرعون؛ ليعتبروا، فقال: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ هي: التسع الآيات التي قد تقدم ذكرها في غير موضع ﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة بيّنة واضحة، وهي: التوراة ﴿إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا﴾ إنه ﴿ساحر كذاب﴾ أي: فيما جاء به، وخصهم بالذكر؛ لأنهم رؤساء المكذبين بموسى، وفرعون الملك، وهامان الوزير، وقارون صاحب الأموال، والكنوز ﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا﴾، وهي: معجزاته الظاهرة الواضحة ﴿فقالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾ قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأول، لأن فرعون قد كان أمسك عن قتل الولدان وقت ولادة موسى، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بني إسرائيل، فكان يأمر بقتل الذكور، وترك النساء، ومثل هذا قول فرعون: ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ [الأعراف: 127] ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: في خسران ووبال، لأنه يذهب باطلاً، ويحقيق بهم ما يريد الله عز وجل ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى﴾ إنما قال هذا؛ لأنه كان في خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل بهم العذاب، والمعنى: اتركوني أقتله ﴿وليدع ربه﴾ الذي يزعم: أنه أرسله إلينا، فلم يمنعه من القتل إن قدر على ذلك أي: لا يهولنكم ذلك، فإنه لا رب له حقيقة؛ بل أنا ربكم الأعلى، ثم نكر العلة التي لأجلها أراد أن يقتله، فقال: ﴿إني أخاف أن يبذل دينكم﴾ الذي أنتم عليه من عبادة غير الله، ويخلهم في بيته الذي هو: عبادة الله وحده ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ أي: يوقع بين الناس الخلاف، والفتنة، جعل اللعين ظهور ما دعا إليه موسى، وانتشاره في الأرض، واهتداء الناس به فساداً، وليس الفساد إلا ما هو عليه هو، ومن تابعه. قرأ الكوفيون، ويعقوب (أو أن يظهر) بأو التي للإبهام، والمعنى: أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين. وقرأ الباقون (وأن يظهر) بدون ألف على معنى: وقوع الأمرين جميعاً، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو يفتح الباء من (إني أخاف)، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص يظهر بضم الياء، وكسر الهاء من أظهر، وفاعله ضمير موسى، والفساد نصباً على أنه مفعول به، وقرأ الباقون بفتح الباء، والهاء، ورفع الفساد على الفاعلية ﴿وقال موسى إني عدتُ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ قرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي (عدت) بإدغام الذال، وقرأ الباقون بالإظهار، لما هذبه فرعون بالقتل استعاذ بالله عز وجل من كل متعظم عن الإيمان بالله

فمن؟ قال: أبو بكر، رأيت رسول الله ﷺ، وأخذته قريش، فهذا يجنبه، وهذا يثقله، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الأكلة إلهاً واحداً، قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا، ويجيء هذا، ويثقل هذا، وهو يقول: ويلكم انتقلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم رفع بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: انشسكم أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبون؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون، وذلك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه.

وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا بِتَقْوَى اللَّهِ إِذْ أَخَافَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْآحْزَابِ ﴿٢١﴾ يُثَلِّقُ دَابَّ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَالٍ وَمُؤْمِنِي آلِ الْكَافِرِينَ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدٍ ظُلُمًا لِّلْغِيَاذِ ﴿٢٢﴾ وَيَقُولُ اللَّهُ إِنَّا أَنَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاسِرٍ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلَّمْتُمْ فِي شَيْءٍ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٢٥﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِحَسَنَاتٍ سَلَفِي أَنَّهُمْ كَبَرُوا مَعَنَا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّكْبِرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْدِنِي آتِي بِ صَرْمًا لَّعَلَّيْ أَتُعَلِّمُ الْأَسْتَبَّ ﴿٢٧﴾ أَسْتَبَّ السَّمَكُوتِ فَأُطْلِعَ إِلَيَّ إِلَهُ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ مَاتُوا بِتَقْوَى اللَّهِ أَمْثَلُوهُمْ أَهْلَكُمُ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ يَقُولُ لِمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ رَبِّي الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْآلِ الْكَرِيمِ ﴿٣٠﴾ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِنهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَرَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِمِيزَانٍ ﴿٣١﴾

ثم كرر ذلك الرجل المؤمن تنكيرهم، وحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم، فقال الله حاكياً عنه: ﴿وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ أي: مثل يوم عذاب الأمم الماضية الذين تحزبوا على أنبيائهم، وأقرروا اليوم؛ لأن جمع الأحزاب قد أغنى عن جمعه، ثم فسر الأحزاب، فقال: ﴿مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم﴾ أي: مثل حالهم في العذاب، أو مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب، أو مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر، والتكذيب ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ أي: لا يعذبهم بغير ننب، ونفي الإرادة للظلم يستلزم نفي الظلم بفحوى الخطاب. ثم زاد في الوعظ، والتذكير، فقال: ﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ قرأ الجمهور (التناد) بتخفيف الدال، وحذف الياء، والأصل التنادي، وهو: التفاعل من النداء، وابن تنادى القوم أي: نادى بعضهم بعضاً، وقرأ الحسن، وابن السميع، ويعقوب، وابن كثير، ومجاهد بإثبات الياء على الأصل، وقرأ ابن عباس، والضحاك، وعكرمة بتشديد الدال. قال بعض أهل اللغة: هو: لحن، لأنه من نذ يند: إذا مر على

وفي بعض ذلك هلاككم، فكان الحاصل بالبعض هو الحاصل بالكل. وقال الليث: بعض ما هنا صلة يريد يصيبكم الذي يعذبكم، وقيل: يصيبكم هذا العذاب الذي يقوله في الدنيا، وهو بعض ما يتوعدكم به من العذاب وقيل: إنه وعدهم بالثواب، والعقاب، فإذا كفروا أصابهم العقاب، وهو بعض ما وعدهم به ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن، وهو: احتجاج آخر ذو وجهين: أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات، ولا أيداه بالمعجزات، وثانيهما: أنه إذا كان كذلك خذله الله، وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله، والمسرف المقيم على المعاصي المستكثر منها، والكذاب المفترى ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض﴾ نكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك، ليشكروا الله، ولا يتمادوا في كفرهم، ومعنى ظاهرين: الظهور على الناس، والغلبة لهم، والاستعلاء عليهم، والأرض أرض مصر، وانتصاب ظاهرين على الحال ﴿فمن ينصرنا من يأس الله إن جاءنا﴾ أي: من يمننا من عذابه، ويحول بيننا، وبينه عند مجيئه، وفي هذا تحذير منه لهم من نقمة الله بهم، وإنزال عذابه عليهم، فلما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصيح الصحيح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة، والرعاية بمكان مكين، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلماً يكون فيه جلب النفع لهم، ودفع الضرر عنهم، ولهذا قال: ﴿وما أريكم إلا ما أرى﴾ قال ابن زيد: أي: ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي، وقال الضحاك: ما أعلمكم إلا ما أعلم، والرؤية هنا هي القلبية لا البصرية، والمفعول الثاني هو إلا ما أرى ﴿وما أهيبكم إلا سبيل الرشاد﴾ أي: ما أهيبكم بهذا الرأي إلا طريق الحق. قرأ الجمهور (الرشاد) بتخفيف الشين، وقرأ معاذ بن جبل بتشديدها على أنها صيغة مبالغة كضراب. وقال النحاس: هي: لحن، ولا وجه لذلك.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون﴾ قال: لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره، وغير امرأة فرعون، وغير المؤمن الذي أنذر موسى الذي قال: ﴿إن الملأ ياتمرون بك ليقتلوك﴾ [القصص: 20] قال ابن المنذر: أخبرني أن اسمه حزقيل. وأخرج عبد بن حميد عن أبي إسحاق قال: اسمه حبيب. وأخرج البخاري، وغيره من طريق عروة قال: قيل لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنا بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: «بيننا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذا قبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فاقبل أبو بكر، فأخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي ﷺ، ثم قال: ﴿اتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾». وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة، والبخاري عن علي بن أبي طالب، أنه قال: أيها الناس أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا: أنت. قال: أما أني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس؟ قالوا: لا نعلم،

حاتم، وأبو عبيد، وفي الكلام حذف، وتقديره: كذلك يطبع الله على كل قلب كل متكبر، فحذف كل الثانية لدلالة الأولى عليها، والمعنى: أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين، وقرأ أبو عمرو، وابن محيصن، وابن نكوان عن أهل الشام بتنوين قلب على أن متكبر صفة له، فيكون القلب مراداً به الجملة، لأن القلب هو: محل التكبر، وسائر الأعضاء تبع له في ذلك، وقرأ ابن مسعود على قلب كل متكبر. ثم لما سمع فرعون هذا رجع إلى تكبره، وتجبره معرضاً عن الموعظة نافراً من قبولها، وقال: **﴿يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا﴾** أي: قصرًا مشيداً كما تقدّم بيان تفسيره **﴿لعلّي أبلغ الأسباب﴾** أي: الطرق. قال قتادة، والزهري، والسدي، والأخفش: هي: الأبواب. وقوله: **﴿أسباب السفوات﴾** بيان للأسباب، لأن الشيء إذا أبهم، ثم فسر كان أوقع في النفوس، وأشدّ الأخفش عند تفسيره للآية بيت زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رلم أسباب السماء يسلم
وقيل: أسباب السموات الأمور التي يستمسك بها **﴿فأطلع إلى إله موسى﴾** قرأ الجمهور بالرفع عطفاً على أبلغ، فهو على هذا داخل في حيز الترجي. وقرأ الأعرج، والسلمي، وعيسى بن عمر، وحفص بالنصب على جواب الأمر في قوله: **﴿إني لي﴾**، أو على جواب الترجي كما قال أبو عبيد، وغيره. قال النحاس: ومعنى النصب خلاف معنى الرفع، لأن معنى النصب: متى بلغت الأسباب اطلعت، ومعنى الرفع: لعلّي أبلغ الأسباب، ولعلّي أطلع بعد ذلك، وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جداً **﴿وإني لأظنه كاذباً﴾** أي: وإني لأظنّ موسى كاذباً في ادعائه بأن له إلهاً، أو فيما يدّعيه من الرسالة **﴿وكنكك زين لفرعون سوء عمله﴾** أي: ومثل تلك التزيين زين الشيطان لفرعون سوء عمله من الشرك، والتكذيب فتمادى في الغي، واستمرّ على الطغيان **﴿وصدّ عن السبيل﴾** أي: سبيل الرشاد. قرأ الجمهور (وصد) بفتح الصاد، والدال أي: صدّ فرعون الناس عن السبيل، وقرأ الكوفيون (وصد) بضم الصاد مبنياً للمفعول، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، ولعلّ وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه في زين من البناء للمفعول، وقرأ يحيى بن وثاب، وعلمقة (صد) بكسر الصاد، وقرأ ابن أبي إسحاق، وعبد الرحمن بن أبي بكرة بفتح الصاد، وضّم الدال متوناً على أنه مصدر معطوف على سوء عمله أي: زين له الشيطان سوء العمل، والصدّ **﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾** التباب: الخسارة، والهلاك، ومنه **﴿تبت يدا أبي لهب﴾** [المسد: 1]، ثم إن ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير، والتحذير كما حكى الله عنه بقوله: **﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون إهدكم سبيل الرشاد﴾** أي: اقتدوا بي في الدين إهدكم طريق الرشاد، وهو: الجنة، وقيل: هذا من قول موسى، والأوّل أولى. وقرأ معاذ بن جبل (الرشاد) بتشديد

وجهه هارباً. قال النحاس: وهذا غلط، والقراءة حسنة على معنى التنافي. قال الضحّاك: في معناه: إنهم إذا سمعوا بزفير جهنم ندوا هرباً، فلا يأتون قطراً من اقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله: **﴿يوم التناد﴾**، وعلى قراءة الجمهور المعنى: يوم ينادي بعضهم بعضاً، أو ينادي أهل النار أهل الجنة، وأهل الجنة أهل النار، أو ينادي فيه بسعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، أو يوم ينادي فيه كل أناس بإمامهم، ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني، وقوله: **﴿يوم تولون مبدلين﴾** بدل من يوم التناد أي: منصرفين عن الموقف إلى النار، أو فارين منها. قال قتادة، ومقاتل: المعنى: إلى النار بعد الحساب، وجملة **﴿ما لكم من الله من عاصم﴾** في محل نصب على الحال أي: ما لكم من يعصمكم من عذاب الله، ويمنعكم منه **﴿ومن يضل الله فما له من هادي﴾** يهديه إلى طريق الرشاد. ثم زاد في وعظهم، وتذكيرهم، فقال: **﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾** أي: يوسف بن يعقوب، والمعنى: أن يوسف بن يعقوب جاءهم بالمعجزات، والآيات الواضحات من قبل مجيء موسى إليهم أي: جاء إلى آبائكم، فجعل المجيء إلى الآباء مجيئاً إلى الأبناء. وقيل: المراد بيوسف هنا: يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب، وكان أقام فيهم نبياً عشرين سنة. وحكى النقاش، عن الضحّاك: أن الله بعث إليهم رسولاً من الجنّ يقال له: يوسف، والأوّل أولى. وقد قيل: إن فرعون موسى أدرك أيام يوسف بن يعقوب لطول عمره **﴿فما زلتم في شك مما جاءكم به﴾** من البينات، ولم تؤمنوا به **﴿حتى إذا هلك﴾** يوسف **﴿فلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾**، فكفروا به في حياته، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته **﴿كنكك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾** أي: مثل ذلك الضلال الواضح يضلّ الله من هو مسرف في معاصي الله مستكثر منها مرتاب في دين الله شكاً في وحدانيته، ووعده، ووعيده، والموصول في قوله: **﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾** بدل من «من»، والجمع باعتبار معناها، أو بيان لها، أو صفة، أو في محل نصب بإضمار أعني، أو خبر مبتدأ محذوف. أي: هم الذين، أو مبتدأ، وخبره يطبع، و **﴿بغير سلطان﴾** متعلق بيجادلون أي: يجادلون في آيات الله بغير حجة واضحة، و **﴿قاتهم﴾** صفة لسلطان **﴿كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا﴾** يحتمل أن يراد به التعجب، وأن يراد به الذمّ كبئس، وفاعل كبر ضمير يعود إلى الجدل المفهوم من يجادلون، وقيل: فاعله ضمير يعود إلى من في **﴿من هو مسرف﴾**، والأوّل أولى. وقوله: **﴿عند الله﴾** متعلق بكبر، وكنكك **﴿عند الذين آمنوا﴾** قيل: هذا من كلام الرجل المؤمن، وقيل: ابتداء كلام من الله سبحانه **﴿كنكك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾** أي: كما طبع على قلوب هؤلاء المجالين، فكذلك يطبع أي: يختم على كل قلب متكبر جبار. قرأ الجمهور بإضافة قلب إلى متكبر، واختار هذه القراءة أبو

إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعَثًا فَهَلْ أَتَاكُمْ مِّنْهُنَّ عَذَابٌ مُّبِينٌ ۚ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِ جَهَنَّمَ آدَعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۚ إِنَّا أَنْصَرُّ رُسُلَنَا وَالدِّينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۚ يَوْمَ لَا تَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّهُمَّةُ وَلَهُمْ مَوَدَّةُ النَّارِ ۚ

كرد ذلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى الله، وصرح بإيمانه، ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامهم لهم أنه منهم، وأنه إنما تصدى التنكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى كما يقوله الرجل المحب لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه، فقال: ﴿ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾ أي: أخبروني عنكم كيف هذه الحال: أدعوكم إلى النجاة من النار، ويدخل الجنة بالإيمان بالله، وإجابة رسله، وتدعونني إلى النار بما تريبونه مني من الشرك. قيل: معنى ﴿ما لي أدعوكم﴾: ما لكم أدعوكم كما تقول: ما لي أراك حزيناً أي: ما لك. ثم فسر الدعوتين، فقال: ﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم﴾، فقله: تدعونني بدل من تدعونني الأولى، أو بيان لها ﴿ما ليس لي به علم﴾ أي: ما لا علم لي بكونه شريكاً لله ﴿ولما أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ أي: إلى العزيز في انتقامه ممن كفر ﴿الغفار﴾ للذنوب من آمن به ﴿لا جرم﴾ قد تقدم تفسير هذا في سورة هود، وجرم فعل ماضٍ بمعنى: حق، ولا الداخلة عليه لنفي ما ادعوه، ورد ما زعموه، وفاعل هذا الفعل هو: قوله: ﴿إنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ أي: حق، ووجب بطلان دعوته. قال الزجاج: معناه: ليس له استجابة دعوة تنفع، وقيل: ليس له دعوة توجب له الألوهية في الدنيا، ولا في الآخرة. وقال الكلبي: ليس له شفاعة ﴿وإن مرتنا إلى الله﴾ أي: مرجعنا، ومصيرنا إليه بالموت أولاً، وبالبعث آخره، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير، وشر ﴿وإن المسرفين هم أصحاب النار﴾ أي: المستكثرين من معاصي الله. قال قتادة، وابن سيرين: يعني: المشركين. وقال مجاهد، والشعبي: هم السفهاء السفاكون للدماء بغير حقها. وقال عكرمة: الجبارون، والمتكبرون. وقيل: هم الذين تعلوا حدود الله، وإن في الموضوعين عطف على «إن» في قوله: ﴿إنما تدعونني إليه﴾ والمعنى: وحق أن مرتنا إلى الله، وحق أن المسرفين إلخ ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ إذا نزل بكم العذاب، وتعلمون أنني قد بلغت في نصحكم، وتنكيركم، وفي هذا الإبهام من التخويف، والتهديد ما لا يخفى ﴿واقض أمري إلى الله﴾ أي: أتوكل عليه، وأسلم أمري إليه. قيل: إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به. قال مقاتل: هرب هذا المؤمن إلى الجبل، فلم يقدروا عليه. وقيل: القائل هو: موسى، والأول أولى ﴿فوقاه الله سيئات ما

الذين كما تقدم قريباً في قول فرعون، ووقع في المصحف اتبعون بدون ياء، وكذلك قرأ أبو عمرو، ونافع بحذفها في الوقف، ولثباتها في الوصل، وقرأ يعقوب، وابن كثير بثباتها وصلًا، ووقفًا، وقرأ الباقون بحذفها وصلًا، ووقفًا، فمن أثبتها فعلى ما هو الأصل، ومن حذفها، فلكونها حذفت في المصحف ﴿ويا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ يتمتع بها إيماناً، ثم تنقطع، وتزول ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ أي: الاستقرار لكونها دائمة لا تنقطع، ومستمرة لا تزول ﴿ومن عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ أي: من عمل في دار الدنيا معصية من المعاصي كانت ما كانت، فلا يجزى إلا مثلها، ولا يعذب إلا بقدرها، والظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة، وقيل: هي خاصة بالشرك، ولا وجه لذلك ﴿ومن عمل صالحاً من نكر أو أنسى وهو مؤمن﴾ أي: من عمل عملاً صالحاً مع كونه مؤمناً بالله، وبما جاءت به رسله ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا بين العمل الصالح، والإيمان ﴿يدخلون الجنة يبرزون فيها بغير حساب﴾ أي: بغير تقدير، ومحاسبة. قال مقاتل: يقول: لا تبعة عليهم فيما يعطون في الجنة من الخير، وقيل: العمل الصالح، هو: لا إله إلا الله. قرأ الجمهور (يدخلون) بفتح التحتية مبنياً للفاعل. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وأبو عمرو، ويعقوب، وأبو بكر عن عاصم بضمها مبنياً للمفعول.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿مثل داب﴾ قال: مثل حال. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة ﴿مثل داب قوم نوح﴾ قال: هم الأحزاب: قوم نوح، وعاد، وثمود. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ قال: رؤيا يوسف، وفي قوله: ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ قال: يهود. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا في تباب﴾ قال: خسران. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة. وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الحياة الدنيا متاع، وليس من متاعها شيء أفضل من المرأة الصالحة، التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها وماله﴾.

﴿وَيَقُولُ مَا يَأْتِي دَعْوَكُمْ إِلَى الْخَيْرِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ تَدْعُونَنِي لِكُفْرٍ بِاللَّهِ وَأَشْرِكٍ بِهِ مَا لَيْسَ بِهِ بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا دَعْوَكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ۖ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَىٰ لَيْسَ لَمْ دَعْوَةٍ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ فَسَتَكُونُ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۖ وَأَوْفَىٰ أَثَرْتُ إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۖ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَمَكَفَ بِإِلَهِ فِرْعَوْنَ مَوَّءَ الْمَذَابِ ۖ النَّارُ يَمْزُجُونَ عَلَيْهَا عَذَابًا وَعَذَابًا وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ وَإِذْ يَتَحَاجَّرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّالُّونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

والجملة خبر إن، قاله الأخفش. وقرأ ابن السمين، وعيسى بن عمر (كلا) بالنصب. قال الكسائي، والفراء على التأكيد لاسم إن بمعنى: كلنا، وتنوينه عوض عن المضاف إليه، وقيل: على الحال، ورجحه ابن مالك ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي: قضى بينهم بأن فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ من الأمم الكافرة، مستكبرهم، وضعيفهم ﴿لَخَزَنَةٌ جَهَنَّمَ﴾ جمع خازن، وهو القوام بتعذيب أهل النار ﴿ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ يوماً ظرف؛ ليخفف، ومفعول يخفف محذوف أي: يخفف عنا شيئاً من العذاب مقدار يوم، أو في يوم، وجملة ﴿قَالُوا أَوْ لَمْ تَك تَاتِيكُم رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، والاستفهام للتوبيخ، والتقريع ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: أتونا بها، فكذبناهم، ولم نؤمن بهم، ولا بما جاءوا به من الحجج الواضحة، فلما اعترفوا ﴿قَالُوا﴾ أي: قال لهم الملائكة الذين هم: خزنة جهنم ﴿قَادِعُوا﴾ أي: إذا كان الأمر كذلك، فادعوا أنتم، فإننا لا ندعو لمن كفر بالله، وكذب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة. ثم أخبرهم: بأن دعاءهم لا يفيد شيئاً، فقالوا: ﴿يَوْمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: في ضياع، وبطلان، وخسار، وتبار، وجملة ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ مستأنفة من جهته سبحانه أي: نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم، والموصول في محل نصب عطفاً على رسلنا أي: لننصر رسلنا، وننصر الذين آمنوا معهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما عودهم الله من الانتقام منهم بالقتل، والسلب، والأسر، والفقر ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، وهو: يوم القيامة. قال زيد بن أسلم: الأشهاد هم: الملائكة، والنبيون، وقال مجاهد، والسدي: الأشهاد الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأمم بالتكذيب. قال الزجاج: الأشهاد جمع شاهد مثل صاحب، وأصحاب. قال النحاس: ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال، ولا يقاس عليه، ولكن ما جاء منه مسموعاً أي على ما يسمع، فهو على هذا جمع شهيد، مثل شريف، وأشرف، ومعنى نصرهم يوم يقوم الأشهاد: أن الله يجازيهم بأعمالهم، فيدخلهم الجنة، ويكرمهم بكرامته، ويجازي الكفار بأعمالهم، فيلعنهم، ويدخلهم النار، وهو معنى قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: البعد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَارِ﴾ أي: النار، ويوم بدل من يوم يقوم الأشهاد، وإنما لم تنفعهم المعذرة؛ لأنها معذرة باطلة، وتلع داحضة، وشبهة زائفة. قرأ الجمهور (تنفع) بالفوقية. وقرأ نافع، والكوفيون بالتحتيّة، والكل جائز في اللغة.

وقد أخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْرِقِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ قال: السفاكين للدماء بغير حقها. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ أَحْكَمَ إِذَا مَاتَ عَرَضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ، وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ

مَكْرَاهٍ﴾ أي: وقاه الله ما أراودوا به من المكر السيئ، وما أراودوه به من الشر. قال قتادة: نجاه الله مع بني إسرائيل ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: أحاط بهم، ونزل عليهم سوء العذاب. قال الكسائي: يقال: حاق يحيق حيقاً، وحيوقاً: إذا نزل، ولزم. قال الكلبي: غرقوا في البحر، ودخلوا النار، والمراد بآل فرعون: فرعون، وقومه، وترك التصريح به للاستغناء بنكرهم عن نكره لكونه أولى بذلك منهم، أو المراد بآل فرعون فرعون نفسه. والأول أولى؛ لأنهم قد عذبوا في الدنيا جميعاً بالغرق، وسيعذبون في الآخرة بالنار، ثم بين سبحانه ما أجمله من سوء العذاب، فقال: ﴿لَنَارٍ يَعْضُضُونَ عَلَيْهَا غَدَاً وَعَشِيًّا﴾، فارتفاع النار على أنها بدل من سوء العذاب، وقيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره يعرضون، والأول أولى، ورجحه الزجاج، وعلى الوجهين الآخرين تكون الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر. وقرئ بالنصب على تقدير فعل يفسره يعرضون من حيث المعنى أي: يصلون النار يعرضون عليها، أو على الاختصاص، وأجاز الفراء الخفض على البذل من العذاب. وذهب الجمهور أن هذا العرض هو في البرزخ، وقيل: هو في الآخرة. قال الفراء: ويكون في الآية تقديم، وتأخير أي: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب النار يعرضون عليها غداً، وعشيا، ولا ملجئ إلى هذا التكلف، فإن قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ لِسَاعَةِ أَنْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ يدل دلالة واضحة على أن ذلك العرض هو في البرزخ، وقوله: ﴿أَنْخَلُوا﴾ هو بتقدير القول أي: يقال للملائكة: أدخلوا آل فرعون، و﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ هو: عذاب النار. قرأ حمزة، والكسائي، ونافع، وحفص (أنخلوا) بفتح الهمزة، وكسر الخاء، وهو على تقدير القول كما نكر. وقرأ الباقر (أنخلوا) بهمزة وصل من نخل يدخل أمراً لآل فرعون بالدخول بتقدير حرف النداء أي: أنخلوا يا آل فرعون أشد العذاب ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ الظرف منصوب بإضمار أنكر. والمعنى: أنكر لقومك وقت تخاصمهم في النار، ثم بين سبحانه هذا التخاصم، فقال: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانقياد للأنبياء، والاتباع لهم، وهم: رؤساء الكفر ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جمع لتابع، كخدم، وخادم، أو مصدر واقع موقع اسم الفاعل أي: تابعين، أو على حذف مضاف أي: نوي تبع. قال البصريون: التابع يكون واحداً، ويكون جمعاً. وقال الكوفيون: هو جمع لا واحد له ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ أي: هل تدفعون عنا نصيباً منها، أو تحملونه معنا، وانتصاب نصيباً بفعل مقدر يدل عليه مغنون أي: هل تدفعون عنا نصيباً، أو تمنعون على تضمينه معنى حاملين أي: هل أنتم حاملون معنا نصيباً، أو على المصدرية ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والمعنى: إنا نحن، وأنتم جميعاً في جهنم، فكيف تغني عنكم. قرأ الجمهور (كل) بالرفع على الابتداء، وخبره ﴿فِيهَا﴾،

ونكرى في محل نصب على أنهما مفعول لأجله أي: لأجل الهدى، والذكر، أو على أنهما مصدران في موضع الحال أي: هادياً ومنكراً، والمراد بأولي الألباب: أهل العقول السليمة. ثم أمر الله، رسوله ﷺ بالصبر على الأذى، فقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك من الرسل إن وعد الله الذي وعد به رسله حق لا خلف فيه، ولا شك في وقوعه كما في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنْ جَنَّابُنَا لَهْمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: 171 - 173] قال الكلبي: نسخ هذا بأية السيف. ثم أمره سبحانه بالاستغفار لذنبه، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ قيل: المراد ذنب أمتك، فهو على حذف مضاف، وقيل: المراد الصغائر عند من يجوزها على الأنبياء، وقيل: هو مجرد تعبد له ﷺ بالاستغفار لزيادة الثواب، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر ﴿وَسِيحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي: دم على تنزيه الله ملتبساً بحمده، وقيل: المراد صل في الوقتين صلاة العصر، وصلاة الفجر. قاله الحسن، وقتادة، وقيل: هما صلاتان ركعتان غداة، وركعتان عشيّة، وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَجَانِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ قَاهِمٍ﴾ أي: بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة الله سبحانه ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي: ما في قلوبهم إلا تكبراً عن الحق يحملهم على تكذيبك، وجملته ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ صفة لكبر قال الزجاج: المعنى: ما في صدورهم إلا كبر - ما هم ببالغي إرادتهم فيه، فجعله على حذف المضاف. وقال غيره: ما هم ببالغي الكبر. وقال ابن قتيبة: المعنى: إن في صدورهم إلا كبر أي: تكبر على محمد ﷺ، وطمع أن يغلبوه، وما هم ببالغي ذلك، وقيل: المراد بالكبر: الأمر الكبير أي: يطلبون النبوة، أو يطلبون أمراً كبيراً يصلون به إليك من القتل، ونحوه، ولا يبلغون ذلك. وقال مجاهد: معناه: في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها. والمراد بهذه الآية: المشركون، وقيل: اليهود كما سيأتي بيانه آخر البحث إن شاء الله. ثم أمره الله سبحانه بأن يستعيز بالله من شرورهم، فقال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: فالتجئ إليه من شرهم، وكيدهم، وبغيهم عليك إنه السميع لاقوالهم البصير بأفعالهم لا تخفى عليه من تلك خافية. ثم بين سبحانه عظيم قدرته، فقال: ﴿وَالْخَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ أي: أعظم في النفوس، وأجل في الصدور، لعظم أجرامهما، واستقرارهما من غير عمد، وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب، فكيف ينكرون البعث، وإحياء ما هو لونهما من كل وجه كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: 81] قال أبو العالية: المعنى: لخلق السموات، والأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود. وقال يحيى بن سلام: هو احتجاج على منكري البعث أي: هما أكبر من إعادة خلق الناس ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ

النار، يقال له: هذا مقدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»، زاد ابن مرويّه: «ثم قرأ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾». وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مرويّه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «ما أحسن محسن مسلم، أو كافر إلا أثابه الله، قلنا: يا رسول الله ما إثابة الكافر؟ قال: المال، والولد، والصحة، وأشباه ذلك، قلنا: وما إثابته في الآخرة؟ قال: عذاباً دون العذاب، وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿انْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾». وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن أبي الدنيا، والطبراني، وابن مرويّه، والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه نار جهنم يوم القيامة، ثم تلا ﴿إِنَّا لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾». وأخرج ابن مرويّه من حديث أبي هريرة مثله.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿١٥٦﴾ هُدًى وَكَرِّمًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٥٧﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ آيَاتٌ بِلَا كِتَابٍ مَعَهُمْ يَسْلُبُونَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّكِينُ ﴿١٥٩﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ لَا يَزِلُّونَ وَلَا يَمُوتُونَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٦١﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَلِخِيَّتٍ ﴿١٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْيَلَّ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالْكَهَّارُ مُبِصِّرًا ﴿١٦٤﴾ إِنَّهُ لَدُوٌّ فَضِّلَ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦٥﴾ ذَلِكَ أَنَّ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا وَهُوَ فَالِقَ الْوُجُوهِ ﴿١٦٦﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿١٦٧﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَمَوَدَّةً بَيْنَكُمْ وَمَوْجِدَةً لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبُّكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٨﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى﴾ هذا من جملة ما قصه الله سبحانه قريباً من نصره لرسله أي: آتيناه التوراة، والنبوة، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ قال مقاتل: الهدى من الضلالة يعني: التوراة ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ * هدى وذكرى لأولي الألباب المراد بالكتاب: التوراة، ومعنى أورثنا: أن الله سبحانه لما أنزل التوراة على موسى بقيت بعده فيهم، وتوارثوها خلفاً عن سلف. وقيل: المراد بالكتاب: سائر الكتب المنزلة على أنبياء بني إسرائيل بعد موت موسى، وهدى،

﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ من الحركات في طلب الكسب لكونه جعله مظلاً بارداً تناسبه الراحة بالسكون، والنوم ﴿والنهار مبصراً﴾ أي: مضيئاً، لتبصروا فيه حوائجكم، وتتصرفوا في طلب معاشكم ﴿إن الله لئو فضل على الناس﴾ يفضل عليهم بنعمه التي لا تحصى ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ النعم، ولا يعترفون بها، إما لجهودهم لها، وكفرهم بها كما هو شأن الكفار، أو لإغفالهم للنظر، وإهمالهم لما يجب من شكر النعم، وهم: الجاهلون ﴿للكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ بين سبحانه في هذا كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده، قرأ الجمهور خالق بالرفع على أنه خبر بعد الخبر الأول عن المبتدأ، وقرأ زيد بن علي بنصبه على الاختصاص ﴿فأنى تؤفكون﴾ أي: فكيف تنقلبون عن عبادته، وتنصرفون عن توحيده ﴿كنك يوفك الذين كانوا بآيات الله يحدون﴾ أي: مثل الإفك يوفك الجاحدون آيات الله المنكرون لتوحيده، ثم ذكر لهم سبحانه نوعاً آخر من نعمه التي أنعم بها عليهم مع ما في ذلك من الدلالة على كمال قدرته، وتفردّه بالإلهية، فقال: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً﴾ أي: موضع قرار فيها تحبون، وفيها تموتون ﴿والسماء بناءً﴾ أي: سقفاً قائماً ثابتاً. ثم بين بعض نعمه المتعلقة بانفس العباد، فقال: ﴿وصوركم فاحسن صوركم﴾ أي: خلقكم في أحسن صورة. قال الزجاج: خلقكم أحسن الحيوان كله. قرأ الجمهور (صوركم) بضم الصاد، وقرأ الأعمش، وأبو رزين بكسرها. قال الجوهري: والصور بكسر الصاد لغة في الصور بضمها ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي: المستلذات ﴿للكم﴾ المبعوث بهذه النعوت الجليلة ﴿الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ أي: كثرة خيره، وبركته ﴿هو الحي لا إله إلا هو﴾ أي: الباقي الذي لا يفنى المنفرد بالالوهية ﴿فادعوه مخلصين له الدين﴾ أي: الطاعة، والعبادة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الفراء: هو خبر، وفيه إضمار أمر أي: لأمده.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم. قال السيوطي: بسند صحيح عن أبي العالية قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ، فقالوا: إن الدجال يكون منا في آخر الزمان، ويكون في أمره، فعظموا أمره، وقالوا: نصنع كذا، ونصنع كذا، فنزل الله ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ قال: لا يبلغ الذي يقول: ﴿فاستعذ بالله﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال لخلق السموات، والأرض أكبر من خلق الدجال. وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في الآية قال: هم: اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ قال: عظمة قريش. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن

الناس لا يعلمون﴾ بعظيم قدرة الله، وأنه لا يعجزه شيء. ثم لما ذكر سبحانه الجدل بالباطل نكر مثلاً للباطل، والحق، وأنهما لا يستويان، فقال: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ أي: الذي يجادل بالباطل، والذي يجادل بالحق ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾ أي: ولا يستوي المحسن بالإيمان، والعمل الصالح، والمسيء بالكفر، والمعاصي، وزيادة «لا» في، ولا المسيء للتأكيد ﴿قليلًا ما تتذكرون﴾ قرأ الجمهور (يتذكرون) بالتحية على الغيبة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، لأن قبلها، وبعدها على الغيبة لا على الخطاب، وقرأ الكوفيون بالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات أي: تذكر قليلًا ما تتذكرون ﴿إن الساعة لأتية لا ريب فيها﴾ أي: لا شك في مجيئها، وحصولها ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بذلك، ولا يصدقونه لقصور أفهامهم، وضعف عقولهم عن إدراك الحجة، والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث. ثم لما بين سبحانه أن قيام الساعة حق لا شك فيه، ولا شبهة، أرشد عباده إلى ما هو الوسيلة إلى السعادة في دار الخلود، فأمر رسوله ﷺ أن يحكي عنه ما أمره بإبلاغه، وهو: ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم﴾ قال أكثر المفسرين المعنى: وحدوني، وأعبدوني أتقبل عبادتكم، وأغفر لكم، وقيل: المراد بالدعاء: السؤال بجلب النفع، ودفع الضر. قيل: الأول؛ لأن الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو: العبادة. قلت: بل الثاني أولى؛ لأن معنى الدعاء حقيقة، وشرعاً هو: الطلب، فإن استعمل في غير ذلك، فهو: مجاز، على أن الدعاء في نفسه باعتبار معناه الحقيقي هو: عبادة، بل مخ العبادة كما ورد بذلك الحديث الصحيح، فأنه سبحانه قد أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، ووعده الحق، وما يبذل القول لديه، ولا يخلف الميعاد. ثم صرح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقي، وهو الطلب هو من عبادته، فقال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي: نذلين صاغرين، وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله، وفيه لطف بعباده عظيم، وإحسان إليهم جليل حيث توعد من ترك طلب الخير منه، واستنفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة، فإيا عباد الله وجهوا رغباتكم، وعولوا في كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه، وأرشدكم إلى التعويل عليه، وكفل لكم الإجابة به بإعطاء الطلبة، فهو الكريم المطلق الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم، وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا والدين، قيل: وهذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة أي: استجب لكم إن شئت كقوله سبحانه: ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ [الأنعام: 41] الله، قرأ الجمهور (سيدخلون) بفتح الياء، وضم الخاء مبنياً للفاعل، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وورش، وأبو جعفر بضم الياء، وفتح الخاء مبنياً للمفعول. ثم ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده، فقال:

يَسْمُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَنَهَاهُمْ عَنْ قَسَصِنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُرْ عَلَيْكَ وَنَاكَرَ لِرُسُلِهِ أَنْ يَأْتُوا بِآيَاتٍ إِلَّا يَأْذُونَ اللَّهَ فَإِذَا جَاءَهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فُجُوءَ إِلَهِهِ وَخَرَّ هُنَالِكَ التَّبَاطُلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ الْأَنْفَمَ لِيَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مِنْ مَنَافِعَ وَلَسْتُمْ لَهَا بِعَالِمِينَ فِي مَصْنُوعِهَا وَمِنْهَا وَكَلَّ اللَّهُ لِيُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيَكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِهِ اللَّهُ تُشْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَعَادُوا فِي الْأَرْضِ مِمَّا أَفْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْوَلَدِ وَكَفَّ بِيَهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَذَّبُوا بِرُسُلِهِمْ كَذَّبُوا بِمَا كَانُوا يُشْرِكُونَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَعْدَهُمْ إِلَهَاتٌ يُشْرِكُونَ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلَهُ الْوَلَدُ قَدَ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

أمر الله سبحانه رسوله أن يخبر المشركين بأن الله نهاه عن عبادة غيره، وأمره بالتوحيد، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهي: الأصنام. ثم بين وجه النهي، فقال: ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ وهي: الآلة العقلية والنقلية، فإنها توجب التوحيد ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: استسلم له بالانقياد، والخضوع. ثم أرفف هذا بذكر دليل من الآلة على التوحيد، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ أي: خلق أباكم الأول، وهو: آدم، وخلق من تراب يستلزم خلق نزيته منه ﴿وَمِنْ نطفة ثم من علقه﴾ قد تقدم تفسير هذا في غير موضع ﴿وَمِنْ نطفة ثم يخرجكم طفلاً﴾ أي: أطفالاً، وأفرده لكونه اسم جنس، أو على معنى: يخرج كل واحد منكم طفلاً ﴿وَمِنْ نطفة ثم لتبلغوا لشكم﴾ وهي: الحالة التي تجتمع فيها القوة، والعقل وقد سبق بيان الأشد مستوفى في الاعتام، واللام التعليلية في لتبلغوا معطوفة على علة أخرى، ليخرجكم مناسبة لها، والتقدير: لتكبروا شيئاً، فشيئاً، ثم لتبلغوا غاية الكمال، وقوله: ﴿وَمِنْ نطفة ثم لتبلغوا﴾ معطوف على لتبلغوا، قرأ نافع، وحفص، وأبو عمرو، وابن محيصن، وهشام (شيوخاً) بضم الشين، وقرأ الباقون بكسرهما، وقرأ شيوخاً على الإفراد لقوله طفلاً، والشيخ من جاوز أربعين سنة ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قبل الشيخوخة ﴿وَلَتُبْلَغُوا أَجْلاً مسمى﴾ أي: وقت الموت، أو يوم القيامة، واللام هي: لام العاقبة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعقلوا توحيد ربكم، وقدرته البالغة في خلقكم على هذه الأوطار المختلفة ﴿هُوَ الَّذِي يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يقدر على الإحياء، والإماتة ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ من الأمور التي يريد بها ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ من غير توقف، وهو: تمثيل لتأثير قدرته في المقدرات عند تعلق إرادته بها، وقد تقدم تحقيق معناه في البقرة، وفيما بعدها. ثم عجب سبحانه من أحوال المجالين في آيات الله، فقال: ﴿وَالَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجَالِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ وقد سبق بيان معنى المجاللة ﴿وَأَنَّى يَصْرَفُونَ﴾ أي:

المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو: العبادة، ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ قال: عن دعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾». قال الترمذي: حسن صحيح. وأخرج ابن مروي، والخطيب عن البراء: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدعاء هو العبادة، وقال ربكم: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾». وأخرج ابن جرير، وابن مروي، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال: وحولني أغفر لكم. وأخرج الحاكم وصححه، عن جرير بن عبد الله في الآية قال: لعبدوني. وأخرج ابن مروي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء الاستغفار». وأخرج ابن أبي شيبة، والحاكم، وأحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله يغضب عليه». وأخرج أحمد، والحاكم الترمذي، وأبو يعلى، والطبراني، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: «لا ينفع حذر من قدر، ولكن الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، فعليكم بالدعاء». وأخرج الترمذي، والحاكم الترمذي في نوابر الأصول عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء مع العبادة». وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: أفضل العبادة الدعاء، وقرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية. وأخرج البخاري في الأدب عن عائشة قالت: «سئل النبي ﷺ: أي العبادة أفضل؟ فقال: دعاء المرء لنفسه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: من قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين، وذلك قوله: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأَمَرْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّي الْعَالَمِينَ﴾ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أملاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴿هُوَ الَّذِي يَحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقُولُونَ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا مِمَّنْ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَاسْتَقِيمُوا﴾ في التفسير ثم في القرآن يستجرون ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ من دون الله قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا لَوْ كُنَّا نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فِي الْأَرْضِ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ كُفْرُهُمْ إِذْ فَتَحُوا بَابَ الْأَرْضِ مِنْكُمْ فَهُمْ لَا يَمْنَنَ فِيهَا عَلَيْهِمْ عَلَيْكُمْ فِيهَا يَكْتُمُونَ تَكْفُرُونَ فَاسْمِعُوا لَكُمْ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَمَّا نُبِئَكَ بِبَعْضِ الَّذِي وَعَدْنَاهُ أَوْ تَرَوَيْكَ فَإِنَّمَا

يعبدون ما لا يبصر، ولا يسمع، ولا يضر، ولا ينفع، وليس هذا إنكاراً منهم لوجود الأصنام التي كانوا يعبدونها، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مثل تلك الضلال يضلُّ الله الكافرين حيث عبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم إلى النار، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى الإضلال المملول عليه بالفعل أي: تلك الإضلال ﴿بِ﴾ سبب ﴿مَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بما كنتم تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله والسرور بمخالفة رسله، وكتبه، وقيل: بما كنتم تفرحون به من المال، والاتباع، والصحة، وقيل: بما كنتم تفرحون من إنكار البعث، وقيل: المراد بالفرح هنا: البطر، والتكبر، وبالمرح: الزيادة في البطر. وقال مجاهد، وغيره: تفرحون أي: تبطرون، وتأشرون. وقال الضحاك: الفرح السرور، والمرح العنوان. وقال مقاتل: المرح البطر، والخيلاء ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ حال كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقرين الخلود فيها ﴿فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قبول الحق جهنم. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر، فقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وعده بالانتقام منهم كائن لا محالة، إما في الدنيا، أو في الآخرة، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا نَرَيْنَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ من العذاب في الدنيا بالقتل، والأسر، والقهر، وما في «فَإِذَا» زائدة على مذهب المبرد، والزجاج، والأصل فإن نرك، ولحقت بالفعل نون التأكيد، وقوله: ﴿أَوْ تَتُوفِينَا﴾ معطوف على نرينك أي: أو نتوفيناك قبل إنزال العذاب بهم ﴿فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ يوم القيامة، فنعذبهم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي: أنبأناك بأخبارهم، وما لقوه من قومهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصِصْ عَلَيْكَ﴾ خبره، ولا أوصلنا إليك علم ما كان بينه، وبين قومه ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لا من قبل نفسه، والمراد بالآية: المعجزة الدالة على نبوته ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: إذا جاء الوقت المعين لعذابهم في الدنيا، أو في الآخرة ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فيما بينهم، فينجي الله بقضائه الحق عباده المحقين ﴿وَوُخِّسَ هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الوقت ﴿الْمُيْطَلُونَ﴾ الذين يتبعون الباطل، ويعملون به، ثم امتنَّ سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التي لا تحصى، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ أي: خلقها لأجلكم، قال الزجاج: الأنعام ها هنا الإبل، وقيل: الأزواج الثمانية ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ من للتبعيض، وكذلك في قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ويجوز أن تكون لابتداء الغاية في الموضعين، ومعناها: ابتداء الركوب، وابتداء الأكل، والأول أولى. والمعنى: لتركبوا بعضها، وتأكلوا بعضها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ آخر غير الركوب، والأكل من الوبر، والصوف، والشعر، والزبد، والسمن، والجبن، وغير ذلك ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد، ومقاتل، وقتادة: تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد، وقد تقدم بيان هذا مستوفى في سورة النحل ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ

كيف يصرفون عنها مع قيام الألة الدالة على صحتها، وأنها في أنفسها موجبة للتوحيد. قال ابن زيد: هم: المشركون بدليل قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ قال القرطبي: وقال أكثر المفسرين: نزلت في القدرة. قال ابن سيرين: إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرة، فلا أدري فيمن نزلت، ويجاب عن هذا بأن الله سبحانه قد وصف هؤلاء بصفة تدل على غير ما قالوه، فقال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي: بالقرآن، وهذا وصف لا يصح أن يطلق على فرقة من فرق الإسلام، والموصول إما في محل جر على أنه نعت للموصول الأول، أو بدل منه، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذم، والمراد بالكتاب: إما القرآن، أو جنس الكتب المنزلة من عند الله، وقوله: ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ معطوف على قوله بالكتاب، ويراد به ما يوحى إلى الرسل من غير كتاب إن كانت اللام في الكتاب للجنس، أو سائر الكتب إن كان المراد بالكتاب القرآن ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم، وبإل كفرهم، وفي هذا وعيد شديد، والظرف في قوله: ﴿إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ متعلق بيعلمون أي: فسوف يعلمون وقت كون الأغلال في أعناقهم ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ معطوف على الأغلال، والتقدير: إذ الأغلال، والسلاسل في أعناقهم، ويجوز أن يرتفع السلاسل على أنه مبتدأ وخبره محذوف لدلالة في أعناقهم عليه، ويجوز أن يكون خبره ﴿يَسْحَبُونَ﴾ في الحميم، بحذف العائد أي: يسحبون بها في الحميم، وهذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وأبو الجوزاء بنصبيها، وقرأوا (يسحبون) بفتح الياء مبنياً للمفاعل، فتكون السلاسل مفعولاً مقدماً، وقرأ بعضهم بجزء السلاسل. قال الفراء: وهذه القراءة محمولة على المعنى، إذ المعنى: أعناقهم في الأغلال، والسلاسل. وقال الزجاج: المعنى على هذه القراءة: وفي السلاسل يسحبون، واعترضه ابن الأنباري: بأن ذلك لا يجوز في العربية، ومحل يسحبون على تقدير عطف السلاسل على الأغلال، وعلى تقدير كونها مبتدأ، وخبرها في أعناقهم النصب على الحال، أو لا محل له، بل هو مستأنف جواب سؤال مقدر، والحميم هو: المتناهي في الحر، وقيل: الصديد، وقد تقدم تفسيره ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يَسْجَرُونَ﴾ يقال: سجرت التنور أي: أوقدته، وسجرت ملأته بالوقود، ومنه ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: 6] أي: المملوء، فالمعنى: توقد بهم النار، أو تملأ بهم. قال مجاهد، ومقاتل: توقد بهم النار، فصاروا وقودها ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله. هذا توبيخ، وتقريع لهم أي: أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا، وفقدناهم، فلا نراهم، ثم أضربوا عن ذلك، وانتقلوا إلى الإخبار بعدمهم، وأنه لا وجود لهم، فقالوا: ﴿بَلْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ أي: لم تكن نعبد شيئاً، قالوا هذا لما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة، والجهالة، وأنهم كانوا

راوا العذاب.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث والنشور، عن عبد الله بن عمرو قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَسْجُرُونَ﴾، فقال: لو أن رصاصة مثل هذه، وأشار إلى جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل، والنهار قبل أن تبلغ أصلها، أو قال قعرها. وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار، عن ابن عباس قال: يسحبون في الحميم، فينسلخ كل شيء عليهم من جلد، ولحم، وعرق حتى يصير في عقبه حتى إن لحمه قدر طوله، وطوله ستون ذراعاً، ثم يكسى جلد آخر، ثم يسجر في الحميم. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مروي عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ قال: بعث الله عبداً حبشياً، فهو ممن لم يقصص على محمد.

تفسير سورة فصلت

قال القرطبي: وهي مكية في قول الجميع. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس، وابن الزبير: أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل، وابن عساكر، عن جابر بن عبد الله قال: «اجتمع قريش يوماً، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر، والكهانة، والشعر، فليات هذا الرجل الذي قد فرّق جماعتنا، وشئت أمرنا، وعاب ديننا، فليكنه، ولينظر ماذا يردّ عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: اثبت يا أبا الوليد، فاتاه فقال: يا محمد اثبت خير أم عبد الله، أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك، أما والله ما رأينا سخله قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشئت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما تنتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيف، يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة، فاختر أي نساء قريش شئت، فلنزوجنك عشراً، فقال رسول الله ﷺ: فرغت؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حَمَّ * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْزَلْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 1 - 13]، فقال عتبة: حسبك حسبك ما عنك غير هذا؟ قال: لا، فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته، فقالوا:

تحملون﴾ أي: على الإبل في البر، وعلى السفن في البحر. وقيل: المراد بالحمل على الأنعام هنا: حمل ولدان، والنساء بالهوداج ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: دلالاته الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته ﴿فَإِيَّ آيَاتِ اللَّهِ تَتَكَبَّرُونَ﴾، فإنها كلها من الظهور، وعدم الخفاء بحيث لا ينكرها منكر، ولا يجحدُها جاحد، وفيه تقريع لهم، وتوبيخ عظيم، ونصب أي يتنكرون، وإنما قدم على العامل فيه، لأن له صدر الكلام. ثم أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار، والتفكير في آيات الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم التي عصت الله، وكذبت رسلاً، فإن الآثار الموجودة في ديارهم تدل على ما نزل بهم من العقوبة، وما صاروا إليه من سوء العاقبة. ثم بين سبحانه أن تلك الأمم كانوا فوق هؤلاء في الكثرة، والقوة، فقال: ﴿كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: أكثر منهم عدداً، وأقوى منهم أجساداً، وأوسع منهم أموالاً، ﴿وَوُجِدَ أَثَرُهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بالعائثر، والمصانع، والحرق ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن تكون ما الأولى استفهامية أي: أي شيء أغنى عنهم، أو نافية أي: لم يغن عنهم، وما الثانية يجوز أن تكون موصولة، وأن تكون مصدرية ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج الواضحات، والمعجزات الظاهرات ﴿فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: أظهروا الفرح بما عندهم مما يدعون أنه من العلم من الشبه الداحضة، والدعاوي الزائفة، وسماء علماء تهكم بهم، أو على ما يعتقدونه. وقال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم لن نعذب، ولن نبعث، وقيل: المراد من علم أحوال الدنيا لا الدين كما في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: 7]، وقيل: الذين فرحوا بما عندهم من العلم هم: الرسل، وذلك أنه لما كذبهم قومهم أعلمهم الله بأنه مهلك الكافرين، ومنجي المؤمنين، ففرحوا بذلك ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: أحاط بهم جزاء استهزائهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا عذابنا النازل بهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾، وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿فَلَمَّ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عند معاينة عذابنا، لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه، فإنه إنما ينفع الإيمان الاختياري لا الإيمان الاضطراري ﴿سَنَتَ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: التي قد مضت في عباده، والمعنى: أن الله سبحانه سن هذه السنة في الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان إذا راوا العذاب، وقد مضى بيان هذا في سورة النساء، وسورة التوبة، وانتصاب سنة على أنها مصدر مؤكد لفعل محذوف بمنزلة وعد الله، وما أشبهه من المصادر المؤكدة. وقيل: هو منصوب على التحذير: أي: احذروا يا أهل مكة سنة الله في الأمم الماضية، والأول أولى ﴿وَوَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: وقت رؤيتهم بأس الله، ومعاينتهم لعذابه. قال الزجاج: الكافر خاسر في كل وقت، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا

فهل أجابك؟ قال: والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أئذركم صاعقة مثل صاعقة عاد، وثمود، قالوا: وملك يكلمك الرجل بالعربية، وما تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير نكر الصاعقة. وأخرج أبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عمر قال: «لما قرأ النبي ﷺ على عتبة بن ربيعة ﴿حَمَّ﴾ تنزِيل من الرحمن الرحيم» [فصلت: 1، 2] أتى أصحابه فقال: يا قوم أطيعوني في هذا اليوم، وأعصوني بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذنّي قط كلاماً مثله، وما دريت ما أرد عليه. وفي هذا الباب روايات تدلّ على اجتماع قريش، وإرسالهم عتبة بن ربيعة، وتلاوته ﷺ أوّل هذه السورة عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ١ تنزِيل من الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كَتَبْتُ فَصَلْتُ ءَايَتُهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّهم يَعْلَمُونَ ٣ نَذِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعَزَّ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِهِمْ وَمَا نَسْمَعُ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَنَعملُ إِنَّا عَمِلُونَ ٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلِّمٌ يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ٦ وَإِنَّ لَكُمْ لَعَذَابًا أَلِيمًا ٧ لَآ يُوْثِقُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٨ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٩ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُوكُمْ وَإِلَى خَلْقِ الْاَرْضِ فِي يَوْمَيْنِ وَتَمْعَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١٠ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا مِنْ قَوْلِهِمَا وَبَكَرَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَوْقَافًا فِي أَيَّامٍ مَوْسَوًى لِّلْءَاثِلِينَ ١١ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْءَارِضِ انثَبَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١٢ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ مَسْكُونَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهُمَا وَذَرَفَ السَّيْلَةَ الَّتِي بَصْبِيجَ وَجَعَلَ تِلْكَ تَقْدِيرَ الرَّبِّ الْعَلِيِّ ١٣ فَإِنَّ أَغْرُسُوا فَقُلْ أَئِذْ تُنَزَّلُ صَوْفَةٌ فَمِنْ ذَلِكُمْ صَيْقَقٌ عَادٌ وَثَمُودُ ١٤ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ رَبِّهِمْ أَنذِرْتَهُمْ وَمَنْ عَلَفَهُمْ ءَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ١٥

قوله: ﴿حَمَّ﴾ قد تقدم الكلام على إعرابه، ومعناه في السورة التي قبل هذه السورة، فلا نعيده، وكذلك تقدم الكلام على معنى: ﴿تنزيل﴾، وإعرابه. قال الزجاج، والأخفش: تنزيل مرفوع بالابتداء، وخبره ﴿كتاب فصلت﴾ وقال الفراء: يجوز أن يكون على إضمار هذا، ويجوز أن يقال: كتاب بدل من قوله تنزيل، و﴿من الرحمن الرحيم﴾ متعلق بتنزيل، ومعنى: ﴿فصلت آياته﴾ بينت، أو جعلت أساليب مختلفة، قال قتادة: فصلت ببيان حاله من حرامه، وطاعته من معصيته. وقال الحسن: بالوعد، والوعيد. وقال سفيان: بالثواب، والعقاب، ولا مانع من الحمل على الكل. والجملة في محل نصب صفة لكتاب. وقرئ (فصلت) بالتخفيف أي: فرقت بين الحق، والباطل، وانتصاب ﴿قرآنًا عربيًّا﴾ على الحال أي: فصلت آياته حال كونه قرآنًا عربيًّا. وقال الأخفش:

نصب على المدح، وقيل: على المصدرية أي: يقرؤه قرآنًا، وقيل: مفعول ثانٍ لفصلت، وقيل: على إضمار فعل يدل عليه فصلت أي: فصلناه قرآنًا عربيًّا ﴿لَعَلَّهم يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون معانيه، ويفهمونها وهم: أهل اللسان العربي. قال الضحاك: أي: يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل، واللام متعلقة بمحذوف صفة أخرى لقرآن أي: كأننا لقوم، أو متعلق بفصلت، والأول أولى، وكذلك ﴿بشيرًا ونذيرًا﴾ صفتان أخريان لقرآن، أو حالان من كتاب، والمعنى: بشيرًا لأولياء الله، ونذيرًا لأعدائه. وقرئ (بشير ونذير) بالرفع على أنهما صفة لكتاب، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿فأعرض أكثرهم﴾ المراد بالأكثر هنا: الكفار أي: فأعرض الكفار عما اشتمل عليه من النذارة ﴿فهم لا يسمعون﴾ سماعًا ينتفعون به لإعراضهم عنه ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ أي: في أغشية مثل الكنانة التي فيها السهام، فهي لا تفقه ما تقول، ولا يصل إليها قولك، والأكنة جمع كنان، وهو: الغطاء، قال مجاهد: الكنان للقلب كالجنة للنبل، وقد تقدم بيان هذا في البقرة ﴿وفي آذاننا وقر﴾ أي: صمم، وأصل الوقر الثقل. وقرأ طلحة بن مصرف (وقر) بكسر الواو. وقرئ بفتح الواو والقاف، و﴿من﴾ في ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ لابتداء الغاية، والمعنى: أن الحجاب ابتداء منا، وابتداء منك، فالمسافة المتوسطة بين جهتنا، وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها، وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق، ومع اسماعهم له، وامتناع المواصله بينهم، وبين رسول الله ﷺ ﴿فأعمل إننا عاملون﴾ أي: اعمل على بينك إننا عاملون على ديننا. وقال الكلبي: اعمل في هلاكنا، فإننا عاملون في هلاكك. وقال مقاتل: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإننا نعمل لألهتنا التي نعبد، وقيل: اعمل لأخرك، فإننا عاملون لنينا. ثم أمره الله سبحانه أن يجب عن قولهم هذا، فقال: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد﴾ أي: إنما أنا كواحد منكم لولا الوحي، ولم أكن من جنس مغاير لكم حتى تكون قلوبكم في أكنة مما أدعوكم إليه، وفي آذانكم وقر، ومن بيني، وبينكم حجاب، ولم أدعكم إلى ما يخالف العقل، وإنما أدعوكم إلى التوحيد. قرأ الجمهور (يوحى) مبنيًا للمفعول. وقرأ الاعشى، والنخعي مبنيًا للفعل أي: يوحى الله إليّ. قيل: ومعنى الآية: إني لا أقدر على أن أحملك على الإيمان قسرًا، فإنني بشر مثلكم، ولا امتياز لي عنكم إلا أنني أوحى إليّ التوحيد، والأمر به، فعليّ البلاغ وحده، فإن قبلتم رشدتم، وإن أبيتم هلكتم. وقيل: المعنى: إني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم، وقد أوحى إليّ دونكم، فصرت بالوحي نبيا، ووجب عليكم اتباعي. وقال الحسن في معنى الآية: إن الله سبحانه علم رسوله ﷺ كيف يتواضع ﴿فاستقيموا إليه﴾ عذاه بآلى لتضمنه معنى: توجهوا، والمعنى: وجهوا استقامتكم إليه بالطاعة، ولا تميلوا عن سبيله ﴿واستغفروا﴾ لما فرط منكم من الذنوب. ثم هذ

قوله: ﴿حَمَّ﴾ قد تقدم الكلام على إعرابه، ومعناه في السورة التي قبل هذه السورة، فلا نعيده، وكذلك تقدم الكلام على معنى: ﴿تنزيل﴾، وإعرابه. قال الزجاج، والأخفش: تنزيل مرفوع بالابتداء، وخبره ﴿كتاب فصلت﴾ وقال الفراء: يجوز أن يكون على إضمار هذا، ويجوز أن يقال: كتاب بدل من قوله تنزيل، و﴿من الرحمن الرحيم﴾ متعلق بتنزيل، ومعنى: ﴿فصلت آياته﴾ بينت، أو جعلت أساليب مختلفة، قال قتادة: فصلت ببيان حاله من حرامه، وطاعته من معصيته. وقال الحسن: بالوعد، والوعيد. وقال سفيان: بالثواب، والعقاب، ولا مانع من الحمل على الكل. والجملة في محل نصب صفة لكتاب. وقرئ (فصلت) بالتخفيف أي: فرقت بين الحق، والباطل، وانتصاب ﴿قرآنًا عربيًّا﴾ على الحال أي: فصلت آياته حال كونه قرآنًا عربيًّا. وقال الأخفش:

نصب على المدح، وقيل: على المصدرية أي: يقرؤه قرآنًا، وقيل: مفعول ثانٍ لفصلت، وقيل: على إضمار فعل يدل عليه فصلت أي: فصلناه قرآنًا عربيًّا ﴿لَعَلَّهم يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون معانيه، ويفهمونها وهم: أهل اللسان العربي. قال الضحاك: أي: يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل، واللام متعلقة بمحذوف صفة أخرى لقرآن أي: كأننا لقوم، أو متعلق بفصلت، والأول أولى، وكذلك ﴿بشيرًا ونذيرًا﴾ صفتان أخريان لقرآن، أو حالان من كتاب، والمعنى: بشيرًا لأولياء الله، ونذيرًا لأعدائه. وقرئ (بشير ونذير) بالرفع على أنهما صفة لكتاب، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿فأعرض أكثرهم﴾ المراد بالأكثر هنا: الكفار أي: فأعرض الكفار عما اشتمل عليه من النذارة ﴿فهم لا يسمعون﴾ سماعًا ينتفعون به لإعراضهم عنه ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ أي: في أغشية مثل الكنانة التي فيها السهام، فهي لا تفقه ما تقول، ولا يصل إليها قولك، والأكنة جمع كنان، وهو: الغطاء، قال مجاهد: الكنان للقلب كالجنة للنبل، وقد تقدم بيان هذا في البقرة ﴿وفي آذاننا وقر﴾ أي: صمم، وأصل الوقر الثقل. وقرأ طلحة بن مصرف (وقر) بكسر الواو. وقرئ بفتح الواو والقاف، و﴿من﴾ في ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ لابتداء الغاية، والمعنى: أن الحجاب ابتداء منا، وابتداء منك، فالمسافة المتوسطة بين جهتنا، وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها، وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق، ومع اسماعهم له، وامتناع المواصله بينهم، وبين رسول الله ﷺ ﴿فأعمل إننا عاملون﴾ أي: اعمل على بينك إننا عاملون على ديننا. وقال الكلبي: اعمل في هلاكنا، فإننا عاملون في هلاكك. وقال مقاتل: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإننا نعمل لألهتنا التي نعبد، وقيل: اعمل لأخرك، فإننا عاملون لنينا. ثم أمره الله سبحانه أن يجب عن قولهم هذا، فقال: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد﴾ أي: إنما أنا كواحد منكم لولا الوحي، ولم أكن من جنس مغاير لكم حتى تكون قلوبكم في أكنة مما أدعوكم إليه، وفي آذانكم وقر، ومن بيني، وبينكم حجاب، ولم أدعكم إلى ما يخالف العقل، وإنما أدعوكم إلى التوحيد. قرأ الجمهور (يوحى) مبنيًا للمفعول. وقرأ الاعشى، والنخعي مبنيًا للفعل أي: يوحى الله إليّ. قيل: ومعنى الآية: إني لا أقدر على أن أحملك على الإيمان قسرًا، فإنني بشر مثلكم، ولا امتياز لي عنكم إلا أنني أوحى إليّ التوحيد، والأمر به، فعليّ البلاغ وحده، فإن قبلتم رشدتم، وإن أبيتم هلكتم. وقيل: المعنى: إني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم، وقد أوحى إليّ دونكم، فصرت بالوحي نبيا، ووجب عليكم اتباعي. وقال الحسن في معنى الآية: إن الله سبحانه علم رسوله ﷺ كيف يتواضع ﴿فاستقيموا إليه﴾ عذاه بآلى لتضمنه معنى: توجهوا، والمعنى: وجهوا استقامتكم إليه بالطاعة، ولا تميلوا عن سبيله ﴿واستغفروا﴾ لما فرط منكم من الذنوب. ثم هذ

انبت فيها شجرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ قال قتادة، ومجاهد: خلق فيها أنهارها، وأشجارها، وبوابها، وقال الحسن، وعكرمة، والضحاك: قَدَّرَ فيها أرزاق أهلها، وما يصلح لمعيشتهم من التجارات، والأشجار، والمنافع، جعل في كل بلد ما لم يجعله في الأخرى؛ ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة، والأسفار من بلد إلى بلد، ومعنى ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في تتمة أربعة أيام باليومين المتقدمين. قاله الزجاج، وغيره. قال ابن الأنباري: ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً أي: في تتمة خمسة عشر يوماً، فيكون المعنى: أن حصول جميع ما تقدّم من خلق الأرض، وما بعدها في أربعة أيام. وانتصاب ﴿سِوَاهُ﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محنوف هو صفة للأيام أي: استوت سواء بمعنى: استواء، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال من الأرض، أو من الضمائر الراجعة إليها. قرأ الجمهور بنصب (سواء)، وقرأ زيد بن علي، والحسن، وابن أبي إسحاق، وعيسى، ويعقوب، وعمرو بن عبيد بخفضه على أنه صفة لأيام. وقرأ أبو جعفر برفعه على أنه خبر مبتدأ محنوف. قال الحسن: المعنى في أربعة أيام مستوية تامة، وقوله: ﴿لِلنَّاسِ كُلِّينَ﴾ متعلق بسواء أي: مستويات للناس، أو بمحنوف كأنه قيل: هذا الحصر للناس في كم خلقت الأرض، وما فيها؟ أو متعلق بقدر أي: قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين المحتاجين إليها. قال الفراء: في الكلام تقديم، وتأخير، والمعنى: وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين في أربعة أيام، واختار هذا ابن جرير. ثم لما ذكر سبحانه خلق الأرض، وما فيها ذكر كيفية خلقه للسّموات، فقال: ﴿ثُمَّ لِنُسَوِّيَ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: عمد، وقصد نحوها قصداً سوياً. قال الرازي: هو من قولهم: استوى إلى مكان كذا: إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر، وهو من الاستواء الذي هو ضدّ الأعوجاج، ونظيره قولهم: استقام إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السموات بعد خلق الأرض، وما فيها. قال الحسن: معنى الآية: صعد أمره إلى السماء ﴿وَهِيَ بَخَانُ﴾ البخان ما ارتفع من لهب النار، ويستعار لما يرى من بخار الأرض. قال المفسرون: هذا البخان هو: بخار الماء، وخصّ سبحانه الاستواء إلى السماء مع كون الخطب المترتب على ذلك متوجهاً إليها، وإلى الأرض كما يفيد قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا تَقَدِيرُهَا، وَتَقْدِيرُ مَا فِيهَا، وَمَعْنَى اثْنَيْنِ: أفعلاً ما أمركما به، وجيئاً به، كما يقال: انت ما هو الأحسن أي: أفعله. قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله سبحانه قال: أما أنت يا أرض، سماء، فاطلعي شمسيك، وقمرك، ونجومك، وأما أنت يا أرض، فشقيقي أنهارك، وأخرجي ثمارك، ونباتك. قرأ الجمهور (اثني) أمراً من الإتيان. وقرأ ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد (آتياً) قالتا: آتينا بالمدّ فيهما، وهو إما من المؤاتاة، وهي: الموافقة

المشركين، وتوعدهم، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: يمنعونها، ولا يخرجونها إلى الفقراء. وقال الحسن، وقاتدة: لا يقرّون بوجوبها. وقال الضحاك، ومقاتل: لا يتصدقون، ولا ينفقون في الطاعة. وقيل: معنى الآية، لا يشهدون أن لا إله إلا الله لأنها زكاة الأنفس، وتطهيرها. وقال الفراء: كان المشركون ينفقون النفقات، ويسقون الحجيج، ويطعمونهم، فحرّموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ معطوف على لا يؤتون داخل معه في حيز الصلة أي: منكرون للآخرة جاحدون لها، والمجيء بضمير الفصل لقصد الحصر ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع عنهم، يقال: مننت الحبل: إذا قطعته، ومنه قول الأصمعي الأودي: إنني لعمرك ما أبى بذني علق على الصديق ولا خيري بممنون وقيل: الممنون المنقوص، قاله قطرب، وأنشد قول زهير: فضل الجواد على الخيل البطاقي يعطي بذلك ممنوناً ولا مرقاً قال الجوهري: المَنّ القطع، ويقال: النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، وقال لبيد: عنساكواسب لا يمنّ طعامها

وقال مجاهد: غير ممنون: غير محسوب، وقيل: معنى الآية: لا يمن عليهم به لأنه إنما يمنّ بالفضل، فأما الأجر، فحقّ أدأؤه. وقال السدي: نزلت في المرضي، والزمني، والهرمي إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كاصح ما كانوا يعملون فيه. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يوبخهم، ويقرعهم، فقال: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: لتكفروا بمن شأنه هذا الشأن العظيم، وقدرته هذه القدرة الباهرة. قيل: اليومان هما يوم الأحد، ويوم الاثنين، وقيل: المراد مقدار يومين، لأن اليوم الحقيقي إنما يتحقق بعد وجود الأرض، والسماء. قرأ الجمهور (أنتكم) بهمزتين الثانية بين بين، وقرأ ابن كثير بهمزة، وبعدها ياء خفيفة ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَاداً﴾ أي: أضداداً، وشركاء، والجملة معطوفة على تكفرون داخلّة تحت الاستفهام، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الموصول المتصف بما ذكر، وهو مبتدأ وخبره ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ومن جملة العالمين ما تجعلونها أنداداً لله، فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له في عبادته، وقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِي﴾ معطوف على خلق أي: كيف تكفرون بالذي خلق الأرض، وجعل فيها رواسي أي: جبلاً ثوابت من فوقها، وقيل: جملة، وجعل فيها رواسي مستأنفة غير معطوفة على خلق لوقوع الفصل بينهما بالاجنبي. والأول أولى لأن الجملة الفاصلة هي مقررة لمضمون ما قبلها، فكانت بمنزلة التأكيد، ومعنى ﴿مَنْ فَوْقَهَا﴾: أنها مرتفعة عليها لأنها من أجزاء الأرض، وإنما خالفها باعتبار الارتفاع، فكانت من هذه الحيثية كالمغايرة لها ﴿وَيُبَارِكُ فِيهَا﴾ أي: جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع للعباد. قال السدي:

متقدمة خلقاً متأخرة بحواً، وهذا ظاهر، ولعله يأتي عند تفسيرنا لقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاها﴾ زيادة إيضاح للمقام إن شاء الله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُصَاصِ﴾ أي: بكوراكب مضيئة متلألئة عليها كتلال المصابيح، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُصَاصِ﴾ أي: انتصاب ﴿حَفَظًا﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف أي: وحفظناها حفظاً، أو على أنه مفعول لأجله على تقدير: وحفظنا المصابيح زينة، وحفظاً، والأول أولى. قال أبو حبان: في الوجه الثاني هو: تكلف، وعدول عن السهل البين، والمراد بالحفظ: حفظها من الشياطين الذين يسترقون السمع، والإشارة بقوله: ﴿وَنُفُكٌ﴾ إلى ما تقدم ذكره ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: البليغ القدرة الكثير العلم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن التدبر والتفكر في هذه المخلوقات ﴿فَقُلْ أَنْزَلْتُمُوهَا﴾ أي: فقل لهم يا محمد أنزلتكم خوفتكم ﴿صَاعِقَةٍ مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ﴾ أي: عذاباً مثل عذابهم، والمراد بالصاعقة: العذاب المهلك من كل شيء. قال المبرد: الصاعقة المرأة المهلكة لأي شيء كان. قرأ الجمهور (صاعقة) في الموضعين بالالف، وقرأ ابن الزبير، والنخعي، والسلمي، وابن محيصن صعقة في الموضعين، وقد تقدم بيان معنى الصاعقة، والصعقة في البقرة، وقوله: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ﴾ ظرف لأنزلتكم، أو لصاعقة، لأنها بمعنى العذاب أي: أنزلتكم العذاب الواقع وقت مجيء الرسل، أو حال من صاعقة عاد. وهذا أولى من الوجهين الأولين، لأن الإنذار لم يقع وقت مجيء الرسل، فلا يصح أن يكون ظرفاً له، وكذلك الصاعقة لا يصح أن يكون الوقت ظرفاً لها، وقوله: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ متعلق بجاءتهم أي: جاءتهم من جميع جوانبهم وقيل: المعنى: جاءتهم الرسل المتقدمون، والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم منزلة مجيئهم أنفسهم، فكان الرسل قد جاءوهم، وخطبوهم بقولهم: ﴿إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: بأن لا تعبدوا على أنها المصدرية، ويجوز أن تكون التفسيرية، أو المخففة من الثقلية، واسمها ضمير شأن محذوف، ثم ذكر سبحانه ما أجابوا به على الرسل، فقال: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: لأرسلهم إلينا، ولم يرسل إلينا بشراً من جنسنا، ثم صرحوا بالكفر، ولم يتلعموا، فقالوا: ﴿فَلَمَّا بَايَعْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: كافرون بما تزعمونه من أن الله أرسلكم إلينا، لأنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا، فكيف اختصكم برسالته دوننا، وقد تقدم نفع هذه الشبهة الداحضة التي جاءوا بها في غير موضع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يَأْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وفي قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال: غير منقوص. وأخرج ابن جرير، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه: «أن اليهود أتت النبي ﷺ، فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: خلق

أي: لتوافق كل منكم الأخرى، أو من الإيتاء، وهو: الإعطاء، فوزنه على الأول فاعلاً كقاتلاً، وعلى الثاني فاعلاً ككفرماً ﴿طُوعاً أَوْ كَرْهاً﴾ مصدران في موضع الحال أي: طائعتين، أو مكرهتين، وقرأ الأعمش (كرهاً) بالضم. قال الزجاج: أطيعا طاعة أو كرهان كرهاً. قيل: ومعنى هذا الأمر لهما التسخير أي: كونه، فكانتا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَيْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40]، فالكلام من باب التمثيل لتأثير قدرته، واستحالة امتناعها ﴿قَالَتْ آتِينَا طَائِعِينَ﴾ أي: آتينا أمرك منقادين، وجمعهما جمع من يعقل لخطابهما بما يخاطب به العقلاء. قال القرطبي: قال أكثر أهل العلم: إن الله سبحانه خلق فيهما الكلام، فتكلمتا كما أراد سبحانه، وقيل: هو تمثيل لظهور الطاعة منهما، وتأثير القدرة الربانية فيهما ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أي: خلقهن، وأحكمهن، وفرغ منهن، كما في قول الشاعر:

وعليهما مسرودتان قضاها
داود إذ صبغ السوابغ تبع
والضمير في قضاهاً إما راجع إلى السماء على المعنى؛ لأنها سبع سموات، أو مبهم مفسر بسبع سموات، وانتصاب سبع سموات على التفسير، أو على البدل من الضمير. وقيل: إن انتصابه على أنه المفعول الثاني لقضاهاً؛ لأنه مضمن معنى صبرهن، وقيل: على الحال أي: قضاهاً حال كونهن معبودات بسبع، ويكون قضى بمعنى: صنع، وقيل: على التمييز، ومعنى ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ كما سبق في قوله: ﴿خُلِقَ الْأَرْضُ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فالجملة ستة أيام، كما في قوله سبحانه: ﴿خُلِقَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: 54، ويونس: 3]، وقد تقدم بيانه في سورة الأعراف. قال مجاهد: ويوم من الستة الأيام كالف سنة مما تعدون. قال عبد الله بن سلام: خلق الأرض في يوم الأحد، ويوم الاثنين، وقدر فيها أقواتها يوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، وخلق السموات في يوم الخميس، ويوم الجمعة، وقوله: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ عطف على قضاهاً. قال قتادة، والسدي: أي: خلق فيها شمسها، وقمرها، ونجومها، وأفلاكها، وما فيها من الملائكة، والبحار، والبر، والثلوج. وقيل: المعنى: أوحى فيها ما أراد به، والإيحاء قد يكون بمعنى: الأمر كما في قوله: ﴿بِأَن رَّبِّكَ أَوْحَى﴾ [الزلزلة: 5]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: 111] أي: أمرتهم.

وقد استشكل الجمع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاها﴾ [النازعات: 30]، فإن ما في هذه الآية من قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ مشعر بأن خلقها متأخر عن خلق الأرض، وظاهره يخالف قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاها﴾، فقول: «إن ثم» في ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ ليست للتراخي الزمني بل للتراخي الرتبتي، فينفع الإشكال من أصله. وعلى تقدير أنها للتراخي الزمني، فالجمع ممكن بأن الأرض خلقها متقدم على خلق السماء، وبحواها بمعنى: بسطها هو أمر زائد على مجرد خلقها، فهي

اللَّهُ لَا يَمْلِكُ كَثِيرًا وَلَا ضَعِيفًا ۖ وَلَئِكَ ظَنُّكَ الَّذِي ظَنَنْتَ بِرَبِّكَ أَزْدَكُ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٩﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْيِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ۖ ﴿٤٠﴾

لما ذكر سبحانه عادًا، وثمود إجمالاً نكر ما يختص بكل طائفة من الطائفتين تفصيلاً، فقال: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق﴾ أي: تكبروا عن الإيمان بالله، وتصديق رسله، واستعلوا على من في الأرض بغير الحق أي: بغير استحقاق ذلك الذي وقع منهم من التكبر، والتجبر. ثم نكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الأقوال الدالة على الاستكبار، فقال: ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾، وكانوا ذوي أجسام طوال، وقوة شديدة، فاغترؤا بأجسامهم حين تهددهم هود بالعباد، ومرادهم بهذا القول: أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾، والاستفهام للاستنكار عليهم، وللتوبيخ لهم أي: أو لم يعلموا بأن الله أشد منهم قدرة، فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء بقوله كن، فيكون ﴿وكانوا بآياتنا يجهلون﴾ أي: بمعجزات الرسل التي خصهم الله بها، وجعلها ليلياً على نبوتهم، أو بآياتنا التي أنزلناها على رسلنا، أو بآياتنا التكوينية التي نصبناها لهم، وجعلناها حجة عليهم، أو بجميع ذلك. ثم نكر سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه، فقال: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ الصرصر: الريح الشديدة الصوت من الصرّة، وهي: الصيحة. قال أبو عبيدة: معنى صرصر: شديدة عاصفة. وقال الفراء: هي: الباردة تحرق كما تحرق النار. وقال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة: هي: الباردة، وأنشد قطرب قول الحطيئة:

المطمعون إذا هبت بصرصرة والحاملون إذا استبدوا عن الناس أي: إذا سئلوا اللية. وقال مجاهد: هي: الشديدة السموم، والأولى تفسيرها بالبرد، لأن الصر في كلام العرب البرد، ومنه قول الشاعر:

لها غدر كقرون للنسا
ركبن في يوم ريع وصر
قال ابن السكيت: صرصر يجوز أن يكون من الصر، وهو: البرد، ويجوز أن يكون من صرصر الباب، ومن الصرة وهي: الصيحة، ومنه ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ [الذاريات: 29]. ثم بين سبحانه وقت نزول ذلك العذاب عليهم، فقال: ﴿في أيام نحسات﴾ أي: مشؤومات ذوات نحوس. قال مجاهد، وقتادة: كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء، وذلك سبع ليال، وثمانية أيام حسوماً، وقيل: نحسات باردات، وقيل: متتابعات، وقيل: شداد، وقيل: ذوات غبار. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (نحسات) بلسكان الحاء على أنه جمع نحس، وقرأ الباقون بكسرها، واختار أبو حاتم القراءة الأولى لقوله: ﴿في يوم نحس مستمر﴾ [القمر: 19] واختار أبو عبيد القراءة الثانية ﴿لننقيهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ أي: لكي ننقيهم، والخزي هو: الذل،

الله الأرض في يوم الأحد، والاثنتين، وخلق الجبال، وما فيها من منافع يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الشجر، والحجر، والماء، والمدائن، والعمران، والخراب، فهذه أربعة أيام، فقال تعالى: ﴿قل انتمم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له انداداً﴾ * ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم، والشمس، والقمر، والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق من أول ساعة من هذه الثلاث الأجل حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى فيها من كل شيء مما ينتفع به، وفي الثالثة خلق آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة، قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش، قالوا: قد أصبت لو اتهمت، قالوا: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ * فاصبر على ما يقولون﴾، [ق: 38، 39]. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وقدر فيها اقواتها﴾ قال: شق الأنهار، وغرس الأشجار، ووضع الجبال، وأجرى البحار، وجعل في هذه ما ليس في هذه، وفي هذه ما ليس في هذه. وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال: إن الله تعالى خلق يوماً، فسماه الأحد، ثم خلق ثانياً، فسماه الاثنين، ثم خلق ثالثاً، فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعاً، فسماه الأربعاء، ثم خلق خامساً، فسماه الخميس، ونكر نحو ما تقدم. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: وإن الله فرغ من خلقه في ستة أيام، ونكر نحو ما تقدم. وأخرج ابن جرير، عن أبي بكر نحو ما تقدم عن ابن عباس. وأخرج ابن المنذر، والحكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها﴾ قال: قال للسماء: أخرجي شمسك، وقمرك، ونجومك، وللأرض شقي أنهارك، وأخرجي ثمارك ﴿فالتتا طائعتين﴾، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ائتيا﴾ قال: أعطيا، وفي قوله: ﴿فالتتا طائعتين﴾ قال: أعطينا.

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْدِثُونَ ﴿٤١﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُلْهِقَهُمْ حَدَابِ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْكَفَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا فِي شُكٍّ ﴿٤٤﴾ يَوْمَ نُخَسِرُ أَصْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٤٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمَا نَسَخَرْنَا مِنْهُمُ الصَّعِيرَ وَأَبْصَرُوا هَمًّا وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَقَالُوا لِمَ جَاءَؤُنَا بِمِثْلِ مَا جَاءَ الْكَافِرِينَ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي أَنْزَلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُمْ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَوْلَا تَرْحُمَتُنَا ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمَكُومُ وَلَا بُرُودُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ

والهوان بسبب ذلك الاستكبار ﴿وَلْعَذَابُ الْآخِرَةِ لَظَرِيٌّ﴾ أي: أشد إهانة، وذلاً، ووصف العذاب بذلك، وهو في الحقيقة وصف للمعذبين، لأنهم الذين صاروا متصفين بالخزي ﴿وَهُمْ لَا يَنْصَرُونَ﴾ أي: لا يمتنعون من العذاب النازل بهم، ولا يدفعه عنهم دافع. ثم نكر حال الطائفة الأخرى، فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بينا لهم سبيل النجاة، وبللناهم على طريق الحق بإرسال الرسل إليهم، ونصب الدلالات لهم من مخلوقات الله، فإنها توجب على كل عاقل أن يؤمن بالله، ويصنق رسله. قال الفراء: معنى الآية: للثناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل. قرأ الجمهور (وأما ثمود) بالرفع، ومنع الصرف. وقرأ الأعمش، وابن وثاب بالرفع، والصرف، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحاق، وعاصم في رواية بالنصب، والصرف وقرأ الحسن، وابن هرمز، وعاصم في رواية بالنصب، والمنع، فأما الرفع، فعلى الابتداء والجملة بعده الخبر، وأما النصب فعلى الاشتغال، وأما الصرف فعلى تفسير الاسم بالآب، أو الحي، وأما المنع فعلى تأويله بالقبيلة ﴿فَاسْتَجَبُوا أَمْرِي عَلَى الْهَدْيِ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البين، وقال السدي: اختاروا المعصية على الطاعة ﴿فَلَاخْتَنَمُوا صَاعِقَةَ الْعَذَابِ الْهَوْنُ﴾ قد تقدم أن الصاعقة اسم للشيء المهلك لأي شيء كان، والهون الهوان والإهانة، فكانه قال: أصابهم مهلك العذاب ذي الهوان أو الإهانة، ويقال عذاب هون أي: مهين كقوله: ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمِهِينِ﴾ [سبأ: 14]، والباء في ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ للسببية أي: بسبب الذي كانوا يكسبونه، أو بسبب كسبهم ﴿وَوَجَّيْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، وهم: صالح ومن معه من المؤمنين، فإن الله نجاهم من ذلك العذاب، ثم لما نكر سبحانه ما عاقبهم به في الدنيا نكر ما عاقبهم به في الآخرة، فقال: ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾، وفي وصفهم بكونهم أعداء الله بمبالغة في زهمهم، والعامل في الظرف محذوف دل عليه ما بعده تقديره: يساق الناس يوم يحشر، أو بأنكر أي: انكر يوم يحشرهم. قرأ الجمهور (يحشر) بتجتيه مضمومة، ورفع أعداء على النيابة، وقرأ نافع (نحشر) بالنون، ونصب أعداء، ومعنى حشرهم إلى النار: سوقهم إليها، أو إلى موقف الحساب، لأنه يتبين عنده فريق الجنة، وفريق النار ﴿فَهُمْ يَوْزَعُونَ﴾ أي: يحبس أولهم على آخرهم، ليتلاحقوا ويجمعوا، كذا قال قتادة، والسدي، وغيرهما، وقد سبق تحقيق معناه في سورة النمل مستوفى ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءَهُمُ النَّارُ﴾ أي: جاءوا النار التي حشروا إليها، أو موقف الحساب، و «ما» مزيدة للتوكيد ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من المعاصي. قال مقاتل: تنطق جوارحهم بما كتمت اللسان من عملهم بالشرك، والمراد بالجلود هي: جلودهم المعروفة في قول أكثر المفسرين. وقال السدي، وعبيد الله بن أبي جعفر، والفراء: أراد بالجلود الفروج، والأول أولى ﴿وَقَالُوا

لجلودهم لم شهتكم علينا﴾ وجه تخصيص الثلاثة بالشهادة دون غيرها ما نكره الرازي أن الحواس الخمس هي: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس، وآلة المس هي الجلد، فالله سبحانه نكر هنا ثلاثة أنواع من الحواس، وهي: السمع، والبصر، واللمس، وأهمل ذكر نوعين، وهما: الذوق، والشم، فالذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه، لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسة لجرم الطعام، وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الحنك مماسة لجرم المشموم، فكانا داخليين في جنس اللمس، وإذا عرفت من كلامه هذا وجه تخصيص الثلاثة بالذكر عرفت منه وجه تخصيص الجلود بالسؤال، لأنها قد اشتملت على ثلاث حواس، فكان تأتي المعصية من جهتها أكثر وأما على قول من فسر الجلود بالفروج، فوجه تخصيصها بالسؤال ظاهر، لأنه ما يشهد به الفرج من الرضا أعظم قبحاً، وأجلب للخزي والعقوبة، وقد قدمنا وجه إفراء السمع، وجمع الأبصار ﴿قَالُوا انْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي انْطَقَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي: انطق كل شيء مما ينطق من مخلوقاته، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح، وقيل: المعنى: ما نطقنا باختيارنا، بل انطقنا الله، والأول أولى ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ قيل: هذا من تمام كلام الجلود، وقيل: مستأنف من كلام الله، والمعنى: أن من قدر على خلقكم، وإنشاءكم ابتداء قدر على إعادتكم، ورجعكم إليه ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَقِرُّونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ هذا تقرير لهم، وتوبيخ من جهة الله سبحانه، أو من كلام الجلود أي: ما كنتم تستخفون عند الأعمال القبيحة حذراً من شهادة الجوارح عليكم، ولما كان الإنسان لا يقدر على أن يستخفي من جوارحه عند مباشرة المعصية كان معنى الاستخفاء هنا: ترك المعصية. وقيل: معنى الاستتار: الاتقاء أي: ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة، فتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة و «أن» في قوله: ﴿أَنْ تَشْهَدَ﴾ في محل نصب على العلة أي: لأجل أن تشهد، أو مخافة أن تشهد. وقيل: منصوبة بنزع الخافض، وهو: الباء أو عن أو من. وقيل: إن الاستتار مضمن معنى الظن أي: وما كنتم تظنون أن تشهد، وهو: بعيد ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي، فاجترأتم على فعلها، قيل: كان الكفار يقولون: إن الله لا يعلم ما في أنفسنا، ولكن يعلم ما نظهر دون ما نسر. قال قتادة: الظن هنا بمعنى: العلم، وقيل: أريد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي، وما هو فوقه من العلم، ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى ما نكر من ظنهم، وهو: مبتدأ وخبره ﴿ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿أَرَادَكُمْ﴾ خبر آخر للمبتدأ وقيل: إن أَرَادَكُمْ في محل نصب على الحال المقدرة. وقيل: إن ظنكم بدل من ذلكم، والذي ظننتم خبره، وأَرَادَكُمْ خبر آخر، أو حال، وقيل: إن ظنكم خبر أول، والموصول وصلته خبر ثان، وأَرَادَكُمْ خبر ثالث، والمعنى: أن ظنكم بأن الله لا

يعلم كثيراً مما تعملون أهلكم، وطرحكم في النار ﴿فَاصْبِرْهُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخسران. ثم أخبر عن حالهم، فقال: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي: فإن يصبروا على النار، فالنار مثواهم أي: محل استقرارهم، وإقامتهم لا خروج لهم منها. وقيل: المعنى: فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار، فالنار مثوى لهم ﴿وَإِنْ يَسْتَعْثِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمَعْتَبِينَ﴾ يقال: اعتبني فلان أي: أرضاني بعد إسقاطه إياي، واستعثبته طلبت منه أن يرضى، والمعنى: أنهم إن يسألوا أن يرجع بهم إلى ما يحبون لم يرجع، لأنهم لا يستحقون ذلك. قال الخليل: تقول: استعثبه، فاعتبني أي: استرضيته، فأرضاني، ومعنى الآية: إن يطلبوا الرضى لم يقع الرضى عنهم، بل لا بد لهم من النار. قرا الجمهور (يستعثبوا) بفتح التحتية، وكسر التاء الفوقية الثانية مبنيا للفاعل، وقرءوا (من المعتبين) بفتح الفوقية اسم مفعول، وقرأ الحسن، وعبيد بن عمير، وأبو العالية (يستعثبوا) مبنياً للمفعول (فما هم من المعتبين) اسم فاعل أي: إنهم إن أقالهم الله، وردهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ﴾ [الأنعام: 8].

وقد أخرج الطبراني عن ابن عباس في قوله: ﴿فَهُمْ يَوَّعُونَ﴾ قال: يحبس أولهم على آخرهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: يدفعون. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: كنت أسترأ باستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر: قرشي وثقفان، أو ثقف وقرشيان، كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخران: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإنا إذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخران: إن سمع منه شيئاً سمعه كله؛ قال: فنكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ لِلْخَاسِرِينَ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحْشَرُونَ هَا هُنَا، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الشَّامِ، مَشَاءَ وَرُكْبَانًا، وَعَلَى وَجُوهِكُمْ، وَتَعْرَضُونَ عَلَى اللَّهِ، وَعَلَى أَفْوَاهِكُمُ الْقَدَامِ، وَأَوَّلُ مَا يَعْرَبُ عَنْ أَحَدِكُمْ، فَخَذَهُ وَكَتَفَهُ، وَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾». وأخرج أحمد، وأبو داود الطيالسي، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، وابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يَحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ قَوْمًا قَدْ أَرَادَهُمْ سُوءُ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَاصْبِحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾».

❁ وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنَى وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَبِيرِينَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَّا فِيهِ لَمَلَكُمُ تَقْلِيلٌ ﴿١٦﴾ فَتَلَيَعَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَتَجْزِيَنَّهُمْ أَثْمًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَائِهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِن الْغَنَى وَالْإِنْسِ جَعَلْنَاهُمْ فِيكُمْ أَفْقَانًا لِيَكُونَ مِنَ الْإِنْسَانِ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ الْأَقْبَانُ وَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ هُنَّ أَزْوَاجٌ مِّنَ الْجَنَّةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأُخْرَى وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ تَرْوَا مِنْ غُثِّهِمْ رِجِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَفِي أَحْسَنِ تَقْوَا وَلَا يَمْنَنَّ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعِجَلَ صَلَاحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي لِمَنْسَةُ وَلَا الْحَيْثُ أَذْفَعَ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا بِرَعْعِكَ مِنَ السَّاطِنِينَ نَزَرٌ فَأَسْجُدَ لِلَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾

قوله: ﴿وَقُضِيَنا لَهُمْ قُرْءاءُ﴾ أي: هيئنا قرءاناً من الشياطين. وقال الزجاج: سببنا لهم قرءاء حتى أضلّوهم، وقيل: سلطنا عليهم قرءاء. وقيل: قُترنا، والمعاني متقاربة، وأصل التقييض التيسير، والتهينة، والقرءاء جمع قرين، وهم: الشياطين، جعلهم بمنزلة الأخلاء لهم، وقيل: إن الله قيض لهم قرءاء في النار، والأولى أن ذلك في الدنيا لقوله: ﴿فَرِيقٌنا لَهُمْ ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ فإن المعنى: زينوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها، وحملوهم على الوقوع في معاصي الله بانهاكهم فيها، وزينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة، فقالوا: لا بعث، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار. وقال الزجاج: ما بين أيديهم ما عملوه، وما خلفهم ما عزموا على أن يعملوه. وروي عن الزجاج أيضاً، أنه قال: ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث، ولا جنة، ولا نار، وما خلفهم من أمر الدنيا ﴿وَحَقَّقْ عَلَيْهِم الْقَوْلَ﴾ أي: وجب، وثبت عليهم العذاب، وهو قوله سبحانه: ﴿لَا مَلْئُكَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمِيعِينَ﴾ [ص: 85] و ﴿فِي أَمَمٍ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم، والمعنى: كائنين في جملة أمم، وقيل: في بمعنى مع أي: مع أمم من الأمم الكافرة التي ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ على الكفر، وجملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: لا تسمعه، ولا تنصتوا له، وقيل: معنى لا تسمعوا: لا تطيعوا، يقال: سمعت لك أي: أطعك ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾ أي: عارضوه باللغو والباطل، أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارئ له. وقال مجاهد: الغوا فيه بالمكاء، والتصصية، والتصفيق، والتخليط في الكلام حتى يصير لغواً. وقال الضحاک: أكثروا الكلام؛ يختلط عليه ما يقول. وقال أبو العالية: عوبوه.

قرأ الجمهور (والغوا) بفتح الغين، من لغا إذا تكلم باللغو، وهو: ما لا فائدة فيه، أو من لغى بالفتح يلغى بالفتح أيضاً كما حكاه الأخفش، وقرأ عيسى بن عمر، والجحدري، وابن أبي إسحاق، وأبو حيوة، وبكر بن حبيب السهمي، وقتادة، والسماك، والزعفراني بضم الغين. وقد تقدم الكلام في اللغو في سورة البقرة ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: لكي تغلبوهم، فيسكتوا. ثم توعدهم سبحانه على ذلك، فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وهذا وعيد لجميع الكفار، ويدخل فيهم الذين السياق معهم دخولاً أولياً ﴿وَلَنُجْزِيَنَّهُمْ نَسْأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ولنجزينهم في الآخرة جزاء أقيح أعمالهم التي عملوها في الدنيا. قال مقاتل: وهو: الشرك. وقيل: المعنى: أنه يجازيهم بمساوئ أعمالهم لا بمحاسنها كما يقع منهم من صلة الأرحام، وإكرام الضيف، لأن ذلك باطل لا أجر له مع كفرهم، والإشارة بقوله: ﴿ثَلَاثًا﴾ إلى ما تقدم، وهو: مبتدأ وخبره جزاء أعداء الله، أو خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلك، وجملة ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ لِلنَّارِ﴾ مبينة للجملات التي قبلها، والأول أولى، وتكون النار عطف بيان للجزاء، أو بدلاً منه، أو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ والخبر ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾. وعلى الثالثة الوجوه الأولى تكون جملة لهم فيها دار الخلد مستأنفة مقررة لما قبلها، ومعنى دار الخلد: دار الإقامة المستمرة التي لا انقطاع لها ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: يجزون جزاء بسبب جحدهم بآيات الله. قال مقاتل: يعني: القرآن يجحدون أنه من عند الله، وعلى هذا يكون التعبير عن اللغو بالجهود لكونه سبباً له، إقامة للسبب مقام المسبب ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا لِلنَّارِ أَضْلاً مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ قالوا: هذا وهم في النار، ونكره بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، والمراد: أنهم طلبوا من الله سبحانه أن يريهم من أضلهم من فريق الجن، والإنس من الشياطين الذين كانوا يسولون لهم، ويحملونهم على المعاصي، ومن الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر. وقيل: المراد إبليس، وقابيل لأنهما سنا المعصية لبني آدم. قرأ الجمهور (أرنا) بكسر الراء. وقرأ ابن محيصن، والسوسني عن أبي عمرو، وابن عامر بسكون الراء، وبها قرأ أبو بكر، والمفضل، وهما لغتان بمعنى واحد. وقال الخليل: إذا قلت أرني ثوبك بالكسر، فمعناه بصريه، وبالسكون أعطنيه ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: ننسهما بأقدامنا، لنشتفي منهم، وقيل: نجعلهم أسفل منا في النار ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ فيها مكاناً، أو ليكونا من الأنلين المهانين، وقيل: ليكونوا أشد عذاباً منا، ثم لما ذكر عقاب الكافرين، وما أعد لهم نكر حال المؤمنين، وما أنعم عليهم به، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: وحده لا شريك له ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على التوحيد، ولم يلتفتوا إلى إله غير الله. قال جماعة من الصحابة، والتابعين: معنى الاستقامة: إخلاص العمل لله. وقال قتادة، وابن زيد: ثم استقاموا على طاعة الله. وقال الحسن: استقاموا على أمر

الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد، وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا. وقال الثوري: عملوا على وفاق ما قالوا. وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. وقال الفضيل بن عياض: زهدوا في الفانية، ورغبوا في الباقية ﴿تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ من عند الله سبحانه بالبشرى التي يريونها من جلب نفع، أو دفع ضرر، أو رفع حزن. قال ابن زيد، ومجاهد: تنزل عليهم عند الموت. وقال مقاتل، وقتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال وكيع: البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث ﴿إِنَّ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أن هي: المخففة، أو المفسرة، أو الناصبة، و «لا» على الوجهين الأولين ناهية، وعلى الثالث نافية، والمعنى: لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل، وولد، ومال. قال مجاهد: لا تخافوا الموت، ولا تحزنوا على أولادكم، فإن الله خليفتمكم عليهم. وقال عطاء: لا تخافوا ردّ ثوابكم، فإنه مقبول، ولا تحزنوا على نوبكم، فإني اغفرها لكم. والظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين، وعدم تقييد نفي الخوف، والحزن بحالة مخصوصة كما يشعر به حذف المتعلق في الجميع ﴿وَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تَوَعَدُونَ﴾ بها في الدنيا، فإنكم واصلون إليها مستقرّون بها خالدون في نعيمها. ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من ذلك كله، فقال: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: نحن المتولون لحفظكم، ومعونتكم في أمور الدنيا، وأمور الآخرة، ومن كان الله وليه فاز بكلّ مطلب، ونجا من كلّ مخافة. وقيل: إن هذا من قول الملائكة. قال مجاهد: يقولون لهم: نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قلوا: لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة. وقال السدي: نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا، وأوليائكم في الآخرة. وقيل: إنهم يشفعون لهم في الآخرة، ويتلقونهم بالكرامة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ﴾ من صنوف اللذات، وأنواع النعم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: ما تتمنون، افتعال من الدعاء بمعنى: الطلب، وقد تقدم بيان معنى هذا في قوله ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ [يس: 57] مستوفى، والفرق بين الجملتين: أن الأولى باعتبار شهوات أنفسهم، والثانية باعتبار ما يطلبونه أعم من أن يكون مما تشتهيه أنفسهم أولاً. وقال الرازي: الأقرب عندي أن قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ﴾ إشارة إلى الجنة الروحية المذكورة في قوله: ﴿دَعَاوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: 10] الآية، وانتصاب ﴿نَزَلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ على الحال من الموصول، أو من عائلته، أو من فاعل تدعون، أو هو مصدر مؤكد لفعل محذوف أي: أنزلناه نزالاً، والنزل: ما يعدّ لهم حال نزولهم من الرزق، والضيافة، وقد تقدم تحقيقه في سورة آل عمران ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى توحيد الله، وطاعته. قال الحسن: هو المؤمن أجاب الله دعوته، ودعا الناس إلى ما

أجاب الله فيه من طاعته **﴿وَعَمَلٌ صَالِحًا﴾** في إجابته **﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** لربي. وقال ابن سيرين، والسدي، وابن زيد: هو: رسول الله ﷺ، وروي هذا أيضاً عن الحسن. وقال عكرمة، وقيس بن أبي حازم، ومجاهد: نزلت في المؤننين. ويجاب عن هذا بأن الآية مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة. والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ، ويدخل فيها من كان سبباً لنزولها بخلاً أولاً، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه الله، وعمل عملاً صالحاً، وهو: ثابته ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرّمه عليه، وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم، فلا شيء أحسن منه، ولا أوضح من طريقته، ولا أكثر ثواباً من عمله. ثم بيّن سبحانه الفرق بين محاسن الأعمال، ومسؤوليها، فقال: **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾** أي: لا تستوي الحسنات التي يرضى الله بها، ويثيب عليها، ولا السيئة التي يكرهها الله، ويعاقب عليها، ولا وجه لتخصيص الحسنات بنوع من أنواع الطاعات، وتخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصي، فإن اللفظ أوسع من ذلك. وقيل: الحسنات التوحيد، والسيئة الشرك. وقيل: الحسنات المداراة، والسيئة الغلظة. وقيل: الحسنات العفو، والسيئة الانتصار. وقيل: الحسنات العلم، والسيئة الفحش. قال الفراء: «لا» في قوله، ولا السيئة زائدة **﴿إِنْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** أي: أنفع السيئة إذا جاءت من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر، والإغضاء عن الهفوات، والاحتمال للمكروهات. وقال مجاهد، وعطاء: بالتي هي أحسن يعني: بالسلام إذا لقي من يعاديه، وقيل: بالمصافحة عند التلاقي **﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** هذه هي الفائدة الحاصلة من الدفع بالتي هي أحسن، والمعنى: أنك إذا فعلت ذلك الدفع صار العدو كالصديق، والبعيد عنك كالقريب منك. وقال مقاتل: نزلت في أبي سفيان بن حرب كان معادياً للنبي ﷺ، فصار له ولياً بالمصاهرة التي وقعت بينه وبينه، ثم أسلم، فصار ولياً في الإسلام حميماً بالصهارة، وقيل غير ذلك، والأولى حمل الآية على العموم **﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾** قال الزجاج: ما يلقي هذه الفعلة، وهذه الحالة، وهي: نفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على كظم الغيظ، واحتمال المكروه **﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا نَوْحٌ عظيمٌ﴾** في الثواب والخير. وقال قتادة: الحظ العظيم: الجنة أي: ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة؛ وقيل: الضمير في يلقاها عائد إلى الجنة، وقيل: راجع إلى كلمة التوحيد. قرأ الجمهور (يلقاها) من التلقية، وقرأ طلحة بن مصرف، وابن كثير في رواية عنه (يلقاها) من الملاقة، ثم أمره سبحانه بالاستعاذة من الشيطان، فقال: **﴿وَمَا يَزِيدُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾** النزغ شبهه النخس شبه به الوسوسة، لأنها تبعث على الشر؛ والمعنى: وإن صرفك الشيطان عن شيء مما شرعه الله لك، أو عن

الدفع بالتي هي أحسن، فاستعذ بالله من شره، وجعل النزغ نازغاً على المجاز العقلي كقولهم: جدّ جدّه، وجملته **﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** تحليل لما قبلها أي: السميع لكل ما يسمع، والعليم بكل ما يعلم، ومن كان كذلك، فهو بعيد من استعاذ به.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان المشركون يطربون الناس عنه، ويقولون: **﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾** وكان إذا أخفى قراءته لم يسمع من يحب أن يسمع القرآن، فأنزل الله: **﴿لَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾** [الإسراء: 110]، وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، وابن عساكر عن علي بن أبي طالب: أنه سئل عن قوله: **﴿رَبَّنَا آتِنَا لِلَّذِينَ أُضِلُّوا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾** قال: هو: ابن آدم الذي قتل أخاه، وإبليس، وأخرج الترمذي، والنسائي، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مروي عن أنس قال: «قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: قد قالها ناس من الناس، ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حين يموت، فهو ممن استقام عليها». وأخرج ابن المبارك، وعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، ومسدد، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن عمران، عن أبي بكر الصديق في قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: الاستقامة أن لا يشركوا بالله شيئاً. وأخرج ابن راهويه، وعبد بن حميد، والحاكم الترمذي في نوارد الأصول، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية من طريق الأسود بن هلال عن أبي بكر الصديق أنه قال: ما تقولون في هاتين الآيتين: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾**، و**﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾** [الأنعام: 82]؟ قالوا: الذين قالوا: ربنا الله، ثم عملوا بها، واستقاموا على أمره، فلم يذبوا، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم لم يذبوا، قال: لقد حملتموهما على أمر شديد **﴿الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾** يقول: بشرك، **﴿وَالَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾**، فلم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وأخرج ابن مروي عن بعض الصحابة: ثم استقاموا على فرائض الله. وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس **﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: على شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والحاكم الترمذي، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: استقاموا بطاعة الله، ولم يروغوا روغان الثعلب. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والبخاري في تاريخه، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، عن

بأن يسجدوا لله عز وجل، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، لأنهما مخلوقان من مخلوقاته، فلا يصح أن يكونا شريكين له في ربوبيته ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي: خلق هذه الأربعة المذكورة، لأن جمع ما لا يعقل حكمه حكم جمع الإناث، أو الآيات، أو الشمس، والقمر، لأن الاثنين جمع عند جماعة من الأئمة ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ قيل: كان ناس يسجدون للشمس، والقمر كالصائبين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فنهوا عن ذلك، فهذا وجه تخصيص نكر السجود بالنهي عنه. وقيل: وجه تخصيصه أنه أقصى مراتب العبادة، وهذه الآية من آيات السجود بلا خلاف، وإنما اختلفوا في موضع السجدة، فقيل: موضعه عند قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، لأنه متصل بالامر، وقيل: عند قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾، لأنه تمام الكلام ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالْأَنزِيلُ فِي يَدَيْهِ﴾ يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴿إِي: إِنَّ اسْتَكْبَرَ هَؤُلَاءِ عَنِ الْإِمْتِنَانِ، فَاَلْمَلَأْتُهُ يَدِيمُونَ التَّسْبِيحَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُمْ لَا يَمَلُونَ، وَلَا يَفْتَرُونَ ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾، لأنك ترى الأرض خاشعة ﴿الخطاب هنا لكل من يصلح له، أو لرسول الله ﷺ، والخاشعة: اليابسة الجدية. وقيل: الغبراء التي لا تنبت. قال الأزهري: إذا بيست الأرض، ولم تمطر قيل: قد خشعت ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: ماء المطر، ومعنى اهتزت: تحركت بالنبات يقال: اهتز الإنسان: إذا تحرك، ومنه قول الشاعر:

تراه كنهصل السيف يهتز للندى إذا لم تجد عند امرئ السوء مطعما
ومعنى ربت: انتفخت، وعلت قبل أن تنبت: قاله مجاهد، وغيره، وعلى هذا ففي الكلام تقديم، وتأخير، وتقديره: ربت، واهتزت، وقيل: الاهتزاز، والربو قد يكونان قبل خروج النبات، وقد يكونان بعده، ومعنى الربو لغة: الارتفاع، كما يقال للموضع المرتفع: ربوة، وراوية، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الحج، وقيل: اهتزت استبشرت بالمطر، وربت انتفخت بالنبات، وقرأ أبو جعفر، وخالد (وربات) ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ بالبعث، والنشور ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء كائناً ما كان ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: يميلون عن الحق، والإلحاد الميل، والعدول، ومنه اللحد في القبر، لأنه أميل إلى ناحية منه، يقال: ألحد في دين الله أي: مال، وعدل عنه، ويقال: ألحد، وقد تقدم تفسير الإلحاد. قال مجاهد: معنى الآية: يميلون عن الإيمان بالقرآن. وقال مجاهد: يميلون عند تلاوة القرآن بالمكاء، والتصفيق، واللغو، والغناء. وقال قتادة: يكنبون في آياتنا، وقال السدي: يعاندون، ويشاقون. وقال ابن زيد يشركون ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ بل نحن نعلمهم، فنجازيهم بما يعملون. ثم بين كيفية الجزاء، والتفاوت بين المؤمن، والكافر، فقال: ﴿أَفَمَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ مَا يَأْتِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هذا الاستفهام للتقرير، والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار، وأن

سفيان الثقفى، أن رجلاً قال: يا رسول الله مررتي بامرئ في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: قل آمنت بالله، ثم استقم، قلت: فما اتقي؟ فأوى إلى لسانه. قال الترمذي: حسن صحيح. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عائشة في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ قالت: المؤذن ﴿وَعَمَلُ صَالِحٍ﴾ قالت: ركعتان فيما بين الأذان، والإقامة. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر، وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت: ما أرى هذه الآية نزلت إلا في المؤذنين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ انفع بالتي هي أحسن. قال: أمر المسلمين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم ﴿وَكَانَ وَلِيَّ حَمِيمٍ﴾. وأخرج ابن مردويه عنه ﴿انفع بالتي هي أحسن﴾ قال: ألقه بالسلام، فإذا الذي بينك، وبينه عداوة كانه ولي حميم. وأخرج ابن المنذر عن أنس في قوله: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ قال: الرجل يشتمه أخوه، فيقول: إن كنت صادقاً، فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً، فغفر الله لك. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سليمان بن صرد قال: «استب رجلان عند النبي ﷺ، فاشتد غضب أحدهما، فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال الرجل: أمجنون تراني؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿وَمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾».

وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْقَىٰ أَلْقَمًا وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٧٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِينَ أُحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا آمَنَ بَلَقَ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا يَشْتُمُونَ بِمَا تَمَلُّونَ بَعْثُ ﴿٨٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ أَمَّا جَاءَهُمْ وَأَنَّهُمْ لَكِنَّهُمْ خَيْرٌ ﴿٨١﴾ لَا يَأْتِيهِمُ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٨٢﴾ مَا قَالَتْ لَكَ إِلَّا مَا قَدِيلٌ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُونُ مَقُورٍ وَذُرْ عِقَابَ آلِ إِمْرٍ ﴿٨٣﴾ وَلَوْ جَعَلْتَهُ قُرْآنًا نَّجِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتِ آيَاتُهُ أَتَجْعَلُ مِنْ دُونِ الْقَوْلِ لَازِمًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا هَذَا وَمَكَّاءُ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُبَادِلُونَ مَكَانَ بَعْثٍ ﴿٨٤﴾

شرح سبحانه في بيان بعض آياته البديعة الدالة على كمال قدرته، وقوة تصرفه للاستدلال بها على توحيده، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، ثم لما بين أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس، والقمر، وأمرهم

المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة. وظاهر الآية العموم اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: المراد بمن يلقي في النار: أبو جهل، ومن يأتي أمناً: النبي ﷺ، وقيل: حمزة، وقيل: عمر بن الخطاب، وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي **﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾** هذا أمر تهديد أي: اعملوا من أعمالكم التي تلقىكم في النار ما شئتم إنه بما تعملون بصير، فهو مجازيكم على كل ما تعملون. قال الزجاج: لفظه لفظ الأمر، ومعناه: الوعيد **﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾** الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وخبر إن محذوف أي: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم، أو هالكون، أو يعذبون، وقيل: هو قوله: **﴿ينابون من مكان بعيد﴾**، وهذا بعيد، وإن رجحه أبو عمرو بن العلاء. وقال الكسائي: إنه سد مسده الخبر السابق، وهو: **﴿لا يخفون علينا﴾**. وقيل: إن الجملة بدل من الجملة الأولى، وهي: الذين يلحدون في آياتنا، وخبر إن هو: الخبر السابق **﴿وإنه لكتاب عزيز﴾** أي: القرآن الذي كانوا يلحدون فيه أي: عزيز عن أن يعارض، أو يطعن فيه الطاعنون، منيع عن كل عيب. ثم وصفه بأنه حق لا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه، فقال: **﴿لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾**. قال الزجاج: معناه: أنه محفوظ من أن ينقص منه، فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزداد فيه، فيأتيه الباطل من خلفه، وبه قال قتادة، والسدي. ومعنى الباطل على هذا: الزيادة، والنقصان. وقال مقاتل: لا ياتيه التكنيب من الكتب التي قبله، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله، وبه قال الكلبي، وسعيد بن جبير. وقيل: الباطل هو: الشيطان أي: لا يستطيع أن يزيد فيه، ولا ينقص منه. وقيل: لا يزداد فيه، ولا ينقص منه، لا من جبريل، ولا من محمد ﷺ **﴿تنزيل من حكيم حميد﴾** هو خبر مبتدأ محذوف، أو صفة أخرى لكتاب عند من يجوز تقويم غير الصريح من الصفات على الصريح، وقيل: إنه الصفة لكتاب، وجملة لا ياتيه معترضة بين الموصوف، والصفة. ثم سلى سبحانه رسوله ﷺ عن ما كان يتأثر له من أذية الكفار، فقال: **﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾** أي: ما يقال لك من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر، والكنب، والجنون إلا مثل ما قيل للرسل من قبلك، فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل ما يقول لك هؤلاء، وقيل: المعنى: ما يقال لك من التوحيد، وإخلاص العبادة لله إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك، وقيل: هو استفهام أي: أي شيء يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك **﴿إن ربك ل ذو مغفرة﴾** لمن يستحق مغفرته من الموحدين الذين بايعوك، وبايعوا من قبلك من الأنبياء **﴿ونو عقاب لئيم﴾** للكفار المكذبين المعادين لرسل الله، وقيل: لنو مغفرة للأنبياء، ونو عقاب لعدائهم **﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً﴾** أي: لو جعلناه هذا القرآن الذي تقرأه على الناس بغير لغة العرب **﴿لقالوا لولا فصلت آياته﴾** أي: بينت بلغتنا، فإننا

عرب لا نفهم لغة العجم، والاستفهام في قوله: **﴿عأعجمي وعريبي﴾** للإنكار، وهو من جملة قول المشركين أي: لقالوا لكلام أعجمي، ورسول عربي. والأعجمي: الذي لا يفصح سواء كان من العرب، أو من العجم. والأعجم ضد الفصح وهو: الذي لا يبين كلامه، ويقال للحيوان غير الناطق: أعجم. قرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائي (أعجمي) بهمزتين محقتين. وقرأ الحسن، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، وهشام بهمزة واحدة على الخبر، وقرأ الباقون بتسهيل الثانية بين بين، وقيل: المراد: هلا فصلت آياته، فجعل بعضها أعجمياً لإنهاف العجم، وبعضها عربياً لإنهاف العرب. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيبهم، فقال: **﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾** أي: يهتدون به إلى الحق، ويستفتون به من كل شك، وشبهة، ومن الأسقام، والآلام **﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾** أي: صمم عن سماعه، وفهم معانيه، ولهذا تواصوا باللغو فيه **﴿وهو عليهم عمى﴾** قال قتادة: عموا عن القرآن، وصموا عنه. وقال السدي: عميت قلوبهم عنه، والمعنى: وهو عليهم ذو عمى، أو وصف بالمصدر للمبالغة، والموصول في قوله: **﴿والذين لا يؤمنون﴾** مبتدأ، وخبره **﴿في آذانهم وقر﴾**، أو الموصول الثاني عطف على الموصول الأول، وقر عطف على هدى عند من جوز العطف على عاملين مختلفين، والتقدير: هو للأولين هدى، وشفاء، وللآخرين، وقر في آذانهم. قرأ الجمهور (عمى) بفتح الميم منونة على أنه مصدر، وقرأ ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعمرو بن العاص، وابن عمر بكسر الميم منونة على أنه اسم منقوص على أنه وصف به مجازاً. وقرأ عمرو بن دينار بكسر الميم، وفتح الياء على أنه فعل ماض، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى لقوله **﴿أولاً هدى وشفاء﴾**، ولم يقل هاد، وشاف، وقيل: المعنى: والوقر عليهم عمى، والإشارة بقوله: **﴿أولئك﴾** إلى الذين لا يؤمنون، وما في حيزه، وخبره **﴿ينابون من مكان بعيد﴾** مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادي من مسافة بعيدة لا يسمع صوت من يناديه منها. قال الفراء: تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك: أنت تنادي من مكان بعيد. وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم من مكان بعيد. وقال مجاهد: من مكان بعيد من قلوبهم.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنه كان يسجد بأخر الآيتين من حم السجدة، وكان ابن مسعود يسجد بالأولى منهما. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة من طريق نافع عن ابن عمر: أنه كان يسجد بالأولى. وأخرج سعيد بن منصور عنه: أنه كان يسجد في الآية الأخيرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿إن الذين يلحدون في آياتنا﴾** قال: هو: أن يضع الكلام على غير موضعه. وأخرج ابن مردويه عنه في قوله: **﴿أفمن يلقي في**

لنار قال: أبو جهل بن هشام «لم من يأتي أمنا يوم القيامة» قال: أبو بكر الصديق. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عساكر عن بشير بن تميم قال: نزلت هذه الآية في أبي جهم، وعمار بن ياسر. وأخرج ابن عساكر عن عكرمة مثله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: «اعملوا ما شئتم» قال: هذا لأهل بدر خاصة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: «ولو جعلناه قرآناً أعجمياً» الآية يقول: لو جعلنا القرآن أعجمياً، ولسانك يا محمد عربي لقالوا: أعجمي، وعربي تاتينا به مختلفاً، أو مختلطاً «ولو فصلت آياته» هلا بينت آياته، فكان القرآن مثل اللسان. يقول: فلم تفعل لئلا يقولوا، فكانت حجة عليهم.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿٦٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ ﴿٦٧﴾ إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ شَمْرَةٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا مَا أَذْنَكُ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٦٨﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ تَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيِّسٍ ﴿٦٩﴾ لَا يَسْتَعِزُّ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَايِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ أَلْسُنُ قَوْمٍ مُقْتَدِرِينَ ﴿٧٠﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبِهِ مَسَّتُهُ لِيُقَرَّرَ هَذَا لِي وَمَا أَطْعَمُ السَّاعَةَ قَابَهُمْ وَلَكِنْ رُجِعَتْ إِلَيْكَ رِجَّتِي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَشِيِّ فَلَنَلْتَنِيزَ الْإِنْسَانَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٧١﴾ وَلَا أَتَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَاضَهُ وَتَنَّا بِجَارِيهِ. وَإِذَا مَسَّهُ الْإِلَهَاءُ فَقَدْ دَعَا عَرِيضٍ ﴿٧٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٧٣﴾ سَرُّهُمْ بِآيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ مِرْيَةٍ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِمْ أَلَّا يَنْتَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٧٥﴾

قوله: «ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه» هذا كلام مستأنف يتضمن تسليية رسول الله ﷺ عما كان يحصل له من الاغتمام بكفر قومه، وطعنهم في القرآن، فأخبره أن هذا عادة قديمة في أمم الرسل، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة إليهم، والمراد بالكتاب: التوراة، والضمير من قوله: «فيه» راجع إليه، وقيل: يرجع إلى موسى، والأول أولى «ولو لا كلمة سبقت من ربك» في تأخير العذاب عن المكذبين من أمك كما في قوله: «ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى» [الزلزال: 61، وفاطر: 45] «لنقضيب بينهم» بتعجيل العذاب لمن كذب منهم «وانهم لفي شك منه مريب» أي: من كتابك المنزل عليك، وهو: القرآن، ومعنى الشك المريب: الموقع في الريبة، أو الشديد الريبة. وقيل: إن المراد اليهود، وإنهم في شك من التوراة مريب، والأول أولى «من عمل صالحاً فلنفسه» أي: من أطاع الله، وآمن برسوله، ولم يكذبهم، فتواب ذلك راجع إليه، ونفعه خاص به «ومن أساء

فعلها» أي: عقاب إساءته عليه لا على غيره «وما ربك بظلام للعبيد» فلا يعذب أحداً إلا بذنبه، ولا يقع منه الظلم لأحد كما في قوله سبحانه: «إن الله لا يظلم الناس شيئاً» [يونس: 44] وقد تقدم الكلام على معنى هذه الآية في سورة عمران: [182]، وفي سورة الأنفال أيضاً. ثم أخبر سبحانه: أن علم الساعة، ووقت قيامها لا يعلمه غيره، فقال: «إليه يرد علم الساعة»، فإذا وقع السؤال عنها وجب على المسؤول أن يرد علمها إليه لا إلى غيره، وقد روي أن المشركين قالوا: يا محمد إن كنت نبياً، فخيرنا متى تقوم الساعة؟ فنزلت و «ما» في قوله: «وما تخرج من ثمرات من أكمامها» نافية، ومن الأولى للاستعراق، ومن الثانية لابتداء الغاية، وقيل: هي موصولة في محل جر عطفاً على الساعة أي: علم الساعة، وعلم التي تخرج، والأول أولى. والأكمام جمع كم بكسر الكاف، وهو: وعاء الثمرة، ويطلق على كل ظرف لمال، أو غيره. قال أبو عبيدة: أكمامها أوعيتها، وهي ما كانت فيه الثمرة، واحداً كم، وكمة. قال الراغب: الكم ما يغطي اليد من القميص، وما يغطي الثمرة، وجمعه أكمام، وهذا يدل على أن الكم بضم الكاف، لأنه جعله مشتركاً بين كم القميص، وكم الثمرة، ولا خلاف في كم القميص أنه بالضم. ويمكن أن يقال: إن في الكم الذي هو وعاء الثمر لغتين. قرأ الجمهور (من ثمرة) بالإفراء، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص بالجمع «وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه» أي: ما تحمل أنثى حملاً في بطنها، ولا تضع نكاح الحمل إلا بعلم الله سبحانه، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع في حال من الأحوال إلا كما نبت بعلم الله، وإليه يرد علم الساعة كما إليه يرد علم هذه الأمور «ويوم يناديهم» أي: ينادي الله سبحانه المشركين، وذلك يوم القيامة، فيقول لهم: «أين شركائكم» الذين كنتم تزعمون أنهم شركائكم في الدنيا من الأصنام، وغيرها، فادعوه الآن، فليشهدوا لكم، أو يدفخوا عنكم العذاب، وهذا على طريقة التهكم بهم. قرأ الجمهور (شركائكم)، بسكون الباء، وقرأ ابن كثير بفتحها، والعامل في يوم محذوف أي: أنكر «قالوا أننا ما منا من شهيد»

يقال: أنن يائن: إذا أعلم، ومنه قول الشاعر:

أَنْتَنَّا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ شَاوٍ يَمَلُّ مِنْهُ الشَّوَاءُ
وَالْمَعْنَى: أَعْلَمْنَاكَ مَا مِنَّا أَحَدٌ يَشْهَدُ بِأَنَّكَ شَرِيكٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا عَانُوا الْقِيَامَةَ تَبَرَّعُوا مِنَ الشُّرَكَاءِ، وَتَبَرَّاتْ مِنْهُمْ تِلْكَ الْأَصْنَامُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا. وَقِيلَ: إِنَّ الْقَائِلَ بِهَذَا هِيَ: الْمَعْبُودَاتُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا أَي: مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ يَشْهَدُ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُحَقِّقِينَ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى «ووصل عنهم ما كانوا يدعون من قبل» أي: زال، وبطل في الآخرة ما كانوا يعبدون في الدنيا من الأصنام، ونحوها «وظنوا ما لهم من محيص» أي: ايقنوا، وعلموا أنه لا محيص لهم، يقال: حاص يحيص حيصاً: إذا هرب. وقيل: الظن على معناه

قوله: «ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه» هذا كلام مستأنف يتضمن تسليية رسول الله ﷺ عما كان يحصل له من الاغتمام بكفر قومه، وطعنهم في القرآن، فأخبره أن هذا عادة قديمة في أمم الرسل، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة إليهم، والمراد بالكتاب: التوراة، والضمير من قوله: «فيه» راجع إليه، وقيل: يرجع إلى موسى، والأول أولى «ولو لا كلمة سبقت من ربك» في تأخير العذاب عن المكذبين من أمك كما في قوله: «ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى» [الزلزال: 61، وفاطر: 45] «لنقضيب بينهم» بتعجيل العذاب لمن كذب منهم «وانهم لفي شك منه مريب» أي: من كتابك المنزل عليك، وهو: القرآن، ومعنى الشك المريب: الموقع في الريبة، أو الشديد الريبة. وقيل: إن المراد اليهود، وإنهم في شك من التوراة مريب، والأول أولى «من عمل صالحاً فلنفسه» أي: من أطاع الله، وآمن برسوله، ولم يكذبهم، فتواب ذلك راجع إليه، ونفعه خاص به «ومن أساء

والحقيقي؛ لأنه بقي لهم في تلك الحال ظنّ، ورجاء، والأول أولى. ثم نكر سبحانه بعض أحوال الإنسان، فقال: ﴿لَا يَسَامُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أي: لا يملّ من دعاء الخير لنفسه، وجلبه إليه، والخير هنا: المال، والصحة، والسلطان، والرفعة. قال السدّي: والإنسان هنا يراد به الكافر، وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأمّية بن خلف. والأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب، فلا ينافيه خروج خالص العباد. وقرأ عبد الله بن مسعود (لا يسام الإنسان من دعاء المال) ﴿وَأَنْ مَسَّهُ لَشْرٌ فَيَتُوسُ قَنُوطٌ﴾ أي: وإن مسه البلاء، والشدة، والفقر، والمرض، فيتوس من روح الله قنوط من رحمته. وقيل: يتوس من إجابة دعائه قنوط بسوء الظنّ بربه. وقيل: يتوس من زوال ما به من المكروه قنوط بما يحصل له من ظنّ نومه، وهما صيغتا مبالغة يدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط ﴿وَلَوْ أَنَّ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأٍ مِّسْتَهْ﴾ أي: ولئن آتيناه خيراً، وعافية، وغنى من بعد شدة، ومرض، وفقر ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: هذا شيء استحقته على الله لرضاه بعملتي، فظنّ أن تلك النعمة التي صار فيها، وصلت إليه باستحقاقه لها، ولم يعلم أن الله يبتلي عباده بالخير والشرّ، ليتبين له الشاكر من الجاحد، والصابر من الجزع. قال مجاهد: معناه: هذا بعملتي، وأنا محقّق به ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: ما أظنّها تقوم كما يخبرنا به الأنبياء، أو لست على يقين من البعث، وهذا خاص بالكافرين، والمنافقين، فيكون المراد بالإنسان المذكور في صدر الآية: الجنس باعتبار غالب أفرادها، لأن اليأس من رحمة الله، والقنوط من خيره، والشك في البعث لا يكون إلا من الكافرين، أو المتردّلين في الدين المتطهرين بالإسلام المبطنين للكفر ﴿وَلَوْ أَنَّ رَجَعْتَ إِلَى رَبِّي﴾ على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء: من قيام الساعة، وحصول البعث، والنشور ﴿إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ﴾ أي: للحالة الحسنى من الكرامة، فظنّ أنه استحق خير الدنيا بما فيه من الخير، واستحق خير الآخرة بذلك الذي اعتقده في نفسه، وثابته لها، وهو: اعتقاد باطل، وظنّ فاسد ﴿فَلَنَنْبِئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: لنخبرنهم بها يوم القيامة ﴿وَلَنُنْفِيقَنَّ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد بسبب ذنوبهم، واللام هذه، والتي قبلها هي الموطئة للقسم ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ أي: على هذا الجنس باعتبار غالب أفرادها ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَآى بَجَانِبِهِ﴾ أي: ترفع عن الانقياد للحق، وتكبر، وتجبر، والجانب هنا مجاز عن النفس، ويقال: نايت، وتنايت أي: بعدت وتباعدت، والمنئى: الموضع البعيد. ومنه قول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنئى عنك واسع
وقرأ يزيد بن القعقاع (وئاء بجانبه) بالالف قبل الهمزة ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: البلاء، والجهد، والفقر، والمرض ﴿فَقَنُوْا دَعَاءَ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير، والعرب تستعمل الطول، والعرض في الكثرة مجازاً، يقال: أطال فلان في الكلام،

وأعرض في الدعاء: إذا أكثر، والمعنى: أنه إذا مسه الشرّ تضرّع إلى الله، واستغاث به أن يكشف عنه ما نزل به، واستكثر من ذلك، فنكره في الشدة، ونسيه في الرخاء، واستغاث به عند نزول النعمة، وتركه عند حصول النعمة، وهذا صنيع الكافرين، ومن كان غير ثابت القدم من المسلمين، ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة الكفار، وم حاجتهم، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: كذبتُم به، ولم تقبلوه، ولا عملتم بما فيه ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: لا أحد أضلّ منكم لفرط شقاوتكم، وشدة عداوتكم، والأصل: أَي شَيْءٍ أَضَلُّ مِنْكُمْ، فوضع ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ﴾ موضع الضمير لبيان حالهم في المشاقّة، وأنها السبب الأعظم في ضلالهم ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ أي: سنريهم دلالات صلق القرآن، وعلامات كونه من عند الله في الآفاق ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الآفاق جمع أفق، وهو: الناحية. والآق يضم الهمزة، والفاء، كذا قال أهل اللغة. ونقل الراغب أنه يقال: أفق بفتحهما، والمعنى: سنريهم آياتنا في النواحي، وفي أنفسهم. قال ابن زيد: في الآفاق آيات السماء، وفي أنفسهم حوائث الأرض. وقال مجاهد: في الآفاق فتح القرى التي يسر الله فتحها لرسوله، وللخلفاء من بعده، ونصار دينه في آفاق الدنيا شرقاً، وغرباً، ومن الظهور على الجبابة، والأكاسرة، وفي أنفسهم فتح مكة، ورجح هذا ابن جرير. وقال قتادة، والضحاك: في الآفاق وقائع الله في الأمم، وفي أنفسهم في يوم بدر. وقال عطاء: في الآفاق يعني: أقطار السموات، والأرض من الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد، والبرق، والصواعق، والنبات، والأشجار، والجبال، والبحار، وغير ذلك، وفي أنفسهم من لطيف الصنعة، وبيع الحكمة، كما في قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21] ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الضمير راجع إلى القرآن، وقيل: إلى الإسلام الذي جاءهم به رسول الله، وقيل: إلى ما يريهم الله، ويفعل من ذلك، وقيل: إلى محمد ﷺ، أنه الرسول الحق من عند الله، والأول أولى ﴿أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ الجملة مسوقة لتوبيخهم، وتقريعهم، و «بربك» في موضع رفع على أنه الفاعل، ليكف، والباء زائدة، و «أنه» بدل من ربك، والهمزة للإنكار. والمعنى: ألم يغنهم عن الآيات الموعودة المبينة لحقّة القرآن أنه سبحانه شهيد على جميع الأشياء. وقيل: المعنى: أو لم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار. وقيل: أو لم يكف بربك شاهداً على أن القرآن منزل من عنده. والشهيد بمعنى: العالم، أو هو بمعنى: الشهادة التي هي: الحضور. قال الزجاج: ومعنى الكناية ها هنا: أن الله عز وجل قد بين لهم ما فيه كفاية في الدلالة، والمعنى: أو لم يكف ربك أنه على كل شيء شهيد شاهد للأشياء لا يغيب عنه شيء ﴿إِلَّا إِنْهُمْ فِي مَرِيةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شك من البعث، والحساب، والثواب، والعقاب

المدينيتين. أقول: هذا الحديث لا يصح، ولا يثبت، وما اظنه إلا من الموضوعات المكنوبات، والحامل لواضعه عليه ما يقع لكثير من الناس من عداوة الدول، والحق من شأنهم، والإضرار عليهم. وأخرج أبو يعلى، وابن عساکر قال السيوطي بسند ضعيف: قلت بل بسند موضوع، ومتن مكنوب عن أبي معاوية قال: سعد عمر بن الخطاب المنبر، فقال: أيها الناس هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر حمّ عسق، فوثب ابن عباس فقال: إن حمّ اسم من أسماء الله، قال: فعين قال: عابن المنكور عذاب يوم بدر، قال: فسين، قال: «وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون» [الشعراء: 227] قال: ففاف، فسكت، فقام أبو نر، ففسر كما قال ابن عباس، وقال: قاف: قارعة من السماء تصيب الناس. قال ابن كثير في الحديث الأول: إنه غريب عجيب منكر، وفي الحديث الثاني: إنه أغرب من الحديث الأول. وعندي أنهما موضوعان مكنوبان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ عَسَى ۝ كَذَلِكَ يُرْسِلُ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ بَيْنِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ ۝ الْكَرِيمُ ۝ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ عَنْ قَرْنِهِنَّ وَالْكَوْكَبُ يُسْحَرُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَتَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَوَكِّلُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْبَلْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فِرْقٌ فِي الْفِتْنَةِ وَكَافِرٌ فِي السَّيْرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَةٍ ۝ وَالْقَلْبُ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ أَرَأَيْتُمْ إِنْ دُوبِهُ أَوْلِيَاءُ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَيُؤْتِي كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرْكُمْ فِيهِ لَأَسْ كَيْفَ لَكُمْ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ لَمْ يَمْلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسُّطُ الْأَرْزَاقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝

قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ قد تقدم الكلام في أمثال هذه الفواتح، وسئل الحسن بن الفضل لم قطع ﴿حَمْدٌ﴾ ﴿عَسَى﴾، ولم يقطع كهيعص، فقال: لأنها سور أولها حم، فجرت مجرى نظائرها، فكان حم مبتدأ، وعَسَى خبره، ولأنهما عدا آيتين. وأخواتها مثل: كهيعص، والمَرء، والمَصّ آية واحدة. وقيل: لأن أهل التأويل لم يختلفوا في كهيعص، وأخواتها أنها حروف التهجى لا غير، واختلفوا في حم، فقيل معناها: حم أي: قضى كما تقدم. وقيل: إن ح حلمه، وم مجده، وع علمه، وس سناه، وق قدرته، أقسم الله بها. وقيل غير ذلك مما هو متكلف متعسف لم يدل عليه دليل، ولا جاءت به حجة، ولا شبهة حجة، وقد نكرنا قبل هذا ما روي في ذلك مما لا أصل له، والحق ما قدمناه لك في فاتحة سورة البقرة. وقيل: هما اسمان للسورة، وقيل: اسم واحد

﴿إلا إنه بكل شيء محيط﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات، وأحاطت قدرته بجميع المقدورات، يقال: أحاط يحيط إحاطة، وحيطه، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن من أحاط بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء جازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: في قوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ سبق لهم من الله حين، وأجل هم بالغوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ قال: حين تطلع. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أنفك﴾ قال: أعلمناك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿لا يسام الإنسان﴾ قال: لا يمل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عنه في الآية قال: ما يفتح الله من القرى ﴿وفي أنفسهم﴾ قال: فتح مكة. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: أمسك المطر عن الأرض كلها ﴿وفي أنفسهم﴾ قال: البلى التي تكون في أجسامهم. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال: كانوا يسافرون، فيرون آثار عاد، وثمود، فيقولون: والله لقد صدق محمد، وما أراهم في أنفسهم قال: الأمراض.

تفسير سورة الشورى

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت ﴿حَمْدٌ﴾ ﴿عَسَى﴾ [أي سورة الشورى] بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وكذا قال الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. وروي عن ابن عباس، وقتادة: أنها مكية إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ [الشورى: 23 - 26] إلى آخرها. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، ونعيم بن حماد، والخطيب عن أرطاة بن المنذر قال: جاء رجل إلى ابن عباس، وعنده حذيفة بن اليمان فقال: أخبرني عن تفسير حمّ عسق، فأعرض عنه، ثم كرر مقالته، فأعرض عنه، وكرر مقالته، ثم كررها الثالثة، فلم يجبه، فقال له حذيفة: أنا أنبئك بها لم كرهها؟ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له: عبد إله، أو عبد الله تنزل على نهر من أنهار المشرق، يبنى عليه مدينتين يشقّ النهر بينهما شقاً، يجتمع فيهما كل جبار عنيد، فإذا أتى الله في زوال ملكهم، وانقطع بولتهم، ومدتهم بعث الله على إحداها ناراً ليلاً، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبتها متعجبة كيف افتلتت، فما هو إلا بياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها، وبهم جميعاً، فذلك قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ ﴿عَسَى﴾ يعني: عزيمة من الله، وقتنة، وقضاء جمع يعني: عدلاً منه، سين يعني: سيكون، ق: لهاتين

لها، فعلى الأول يكونان خبرين لمبتدأ محذوف، وعلى الثاني يكون خبراً لذلك المبتدأ المحذوف. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس (حَمَّ * سَقَ) ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذا كلام مستأنف غير متعلق بما قبله أي: مثل ذلك الإحياء الذي أوحى إلى سائر الأنبياء من كتب الله المنزل عليهم المشتملة على الدعوة إلى التوحيد، والبعث يوحى إليك يا محمد في هذه السورة. وقيل: إن حَمَّ عَسَقَ، أوحيت إلى من قبله من الأنبياء، فتكون الإشارة بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ إليها. قرأ الجمهور (يُوحِي) بكسر الحاء مبنياً للفاعل، وهو: الله. وقرأ مجاهد، وابن كثير، وابن محيصن بفتحها مبنياً للمفعول، والقائم مقام الفاعل ضمير مستتر يعود على كذلك، والتقدير: مثل ذلك الإحياء يوحى هو إليك، أو القائم مقام الفاعل إليك، أو الجملة المنكورة أي: يوحى إليك هذا اللفظ، أو القرآن، أو مصدر يوحى، وارتفاع الاسم الشريف على أنه فاعل لفعل محذوف كأنه قيل: من يوحى؟ فقيل: الله العزيز الحكيم. وأما قراءة الجمهور فهي واضحة اللفظ، والمعنى، وقد تقدّم مثل هذا في قوله: ﴿يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ رجال [النور: 36، 37]، وقرأ أبو حيوة، والأعمش، وأبان «نوحى» بالنون، فيكون قوله: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في محل نصب، والمعنى: نوحى إليك هذا اللفظ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ نكر سبحانه لنفسه هذا الوصف، وهو ملك جميع ما في السموات، والأرض لدلالته على كمال قدرته، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُّنَ مِنْ فَوْقَهُنَّ﴾ قرأ الجمهور (تكاد) بالفوقية، وكذلك (تتفطرن) قرءوه بالفوقية مع تشديد الطاء. وقرأ نافع، والكسائي، وابن وثاب يكاد (يتفطرن) بالتحتيه فيهما، وقرأ أبو عمرو، والمفضل، وأبو بكر، وأبو عبيد (يتفطرن) بالتحتيه، والنون من الانفطار كقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1] والتفطر: التشقق. قال الضحاك، والسدّي: يتفطرن يتشققن من عظمة الله، وجلاله من فوقهن، وقيل: المعنى: تكاد كل واحدة منها تتفطر فوق التي تليها من قول المشركين اتخذ الله ولداً، وقيل: من فوقهن: من فوق الأرضين، والأول أولى. «ومن» في ﴿مَنْ فَوْقَهُنَّ﴾ لا ابتداء الغاية أي: يبتدئ التفطر من جهة الفوق. وقال الأخفش الصغير: إن الضمير يعود إلى جماعات الكفار أي: من فوق جماعات الكفار، وهو بعيد جداً، ووجه تخصيص جهة الفوق: أنها أقرب إلى الآيات العظيمة، والمصنوعات الباهرة، أو على طريق المبالغة كان كلمة الكفار مع كونها جاءت من جهة التحت أثرت في جهة الفوق، فتأثيرها في جهة التحت بالأولى ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزهونه عما لا يليق به، ولا يجوز عليه متلبسين بحمده. وقيل: إن التسبيح موضوع موضع التعجب أي: يتعجبون من جراءة المشركين على الله. وقيل: معنى ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: بأمر ربهم قاله السدّي ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من عباد الله

المؤمنين كما في قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 7]، وقيل: الاستغفار منهم بمعنى: السعي فيما يستدعي المغفرة لهم، وتأخير عقوبتهم طمعاً في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق، فتكون الآية عامة كما هو ظاهر اللفظ غير خاصة بالمؤمنين، وإن كانوا داخلين فيها بخلاً أولياً ﴿إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لأهل طاعته، وأوليائه، أو لجميع عباده، فإن تأخير عقوبة الكفار، والعصاة نوع من أنواع مغفرته، ورحمته ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: أصناماً يعبدونها ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحفظ أعمالهم، ليجازيهم بها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: لم يوكلك بهم حتى تؤاخذ بذنوبهم، ولا وكل إليك هدايتهم، وإنما عليك البلاغ قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿وَكُنْ لَكَ أَوْحِينَ إِلَيْكَ قِرَاءَةً عَرَبِيًّا﴾ أي: مثل تلك الإحياء أوحينا إليك، وقرأنا مفعول أوحينا؛ والمعنى: أنزلنا عليك قرأناً عربياً بلسان قومك كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ﴿لَتَنْزِيلُ آتَمَ الْقُرْآنِ﴾، وهي: مكة، والمراد أهلها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من الناس، والمفعول الثاني محذوف أي: لتنزلهم العذاب ﴿وَتَنْزِيلُ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي: ولتنزل بيوم الجمع وهو: يوم القيامة، لأنه مجمع الخلائق. وقيل: المراد جمع الأرواح بالأجساد، وقيل: جمع الظالم، والمظلوم، وقيل: جمع العامل، والعمل ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه، والجملة معترضة مقررة لما قبلها، أو صفة ليوم الجمع، أو حال منه ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ قرأ الجمهور برفع (فريق) في الموضعين، إما على أنه مبتدأ، وخبره الجار والمجرور، وشاع الابتداء بالنكرة، لأن المقام مقام تفصيل، أو على أن الخبر مقدر قبله أي: منهم فريق في الجنة، ومنهم فريق في السعير، أو أنه خبر مبتدأ محذوف، وهو ضمير عائد إلى المجموعين المدلول عليهم بذكر الجمع أي: هم فريق في الجنة، وفريق في السعير. وقرأ زيد بن علي (فريقاً) بالنصب في الموضعين على الحال من جملة محذوفة أي: افترقوا حال كونهم كذلك، وإجاز الفراء، والكسائي النصب على تقدير: لتنزل فريقاً ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال الضحاك: أهل دين واحد، إما على هدى، وإما على ضلالة، ولكنهم افترقوا على أبنان مختلفة بالمشيئة الأزلية، وهو معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ يَنْخَلُ مِنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ في الدين الحق وهو: الإسلام ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: المشركون ما لهم من ولي يرفع عنهم العذاب، ولا نصير ينصرهم في تلك المقام، ومثل هذا قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: 35]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا﴾ [السجدة: 13]، وإما هنا مخاصمات بين المتمذهبين المحامين على ما درج عليه أسلافهم، فبدوا عليه من بعدهم، وليس بنا إلى نكر شيء من تلك فائدة كما هو عادتنا في تفسيرنا هذا، فهو تفسير سلفي يمضي مع الحق، ويدور مع مدلولات النظم الشريف، وإنما يعرف ذلك من رسخ قدمه،

وتبرأ من التعصب قلبه، ولحمه، ودمه، وجملته ﴿وَأَمْ تَتَذَكَّرُونَ﴾ من دونه أولياء ﴿مستأنفة مقررّة لما قبلها من انتفاء كون للظالمين، ولياً، ونصيراً، وأم هذه هي المنقطعة المقررة ببل المفيدة للانتقال، وبالهمزة المفيدة للإنكار أي: بل ألتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها؟﴾ قاله هو الولي ﴿أي: هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً، فإنه الخالق الرازق الضار النافع، وقيل: الفاء جواب شرط محذوف أي: إن أرباباً أن يتخذوا ولياً في الحقيقة فاش هو الولي ﴿وهو﴾ أي: ومن شأنه أنه ﴿يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ أي: يقدر على كل مقدور، فهو: الحقيق بتخصيصه بالالوهية، وإفراده بالعبادة ﴿وَمَا لَكُمْ لاختلغتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾ هذا عام في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين، فإن حكمه، ومرجه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بحكمه، ويفصل خصومة المختصمين فيه، وعند ذلك يظهر المحق من المبطل، ويتميز فريق الجنة، وفريق النار. قال الكلبى: وما اختلفتم فيه من شيء أي: من أمر الدين، فحكمه إلى الله يقضي فيه. وقال مقاتل: إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن، وأمن به بعضهم، فنزلت، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ويمكن أن يقال: معنى حكمه إلى الله: أنه مردود إلى كتابه، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه، فتكون الآية عامة في كل اختلاف يتعلق بأمر الدين أنه يرد إلى كتاب الله. ومثله قوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ [النساء: 59]، وقد حكم سبحانه بأن الدين هو: الإسلام، وأن القرآن حق، وأن المؤمنين في الجنة، والكافرين في النار، ولكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقاً إلا في الدار الآخرة، وعدهم الله بذلك يوم القيامة ﴿فإنكم﴾ الحاكم بهذا الحكم ﴿الله ربي عليه توكلت﴾ اعتمدت عليه في جميع أموري، لا على غيره، وفوضته في كل شؤني ﴿والله أنيب﴾ أي: أرجع في كل شيء يعرض لي لا إلى غيره ﴿فأطاع السّموات والأرض﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر آخر لذلّكم، أو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ وخبره ما بعده، أو نعت لربي؛ لأن الإضافة محضة، ويكون ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ معترضاً بين الصفة، والموصوف. وقرأ زيد بن علي (فاطر) بالجرّ على أنه نعت للاسم الشريف في قوله: ﴿إلى الله﴾، وما بينهما اعتراض، أو بدل من الهاء في عليه أو إليه، وأجاز الكسائي النصب على النداء، وأجازه غيره على الممدح. والفاطر: الخالق المبدع، وقد تقدّم تحقيقه ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي: خلق لكم من جنسكم نساء، أو المراد: حواء لكونها خلقت من ضلع آدم. وقال مجاهد: نسلاً بعد نسل ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي: وخلق للأنعام من جنسها إناثاً، أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور، والإناث، وهي: الثمانية التي ذكرها في الأنعام ﴿يذروكم فيه﴾ أي: يبتكم، من الذرة وهو: البث، أو يخلقكم، وينشئكم، والضمير في يذروكم للمخاطبين، والأنعام إلا أنه غلب فيه العقلاء،

وضمير فيه راجع إلى الجعل المملول عليه بالفعل، وقيل: راجع إلى ما ذكر من التبدير، وقال الفراء، والزجاج، وابن كيسان: معنى ﴿يذروكم فيه﴾: يكثركم به أي: يكثركم بجعلكم أزواجاً؛ لأن ذلك سبب النسل. وقال ابن قتيبة: ﴿يذروكم فيه﴾ أي: في الزوج، وقيل: في البطن، وقيل: في الرحم ﴿ليس كمثله شيء﴾ المراد بذكر المثل هنا: المبالغة في النفي بطريق الكناية، فإنه إذا نفى عن يناسبه كان نفيه عنه أولى كقولهم: مثلك لا يبخل، وغيره لا يوجد، وقيل: إن الكاف زائدة للتوكيد أي: ليس مثله شيء، وقيل: إن مثل زائدة قاله ثعلب، وغيره كما في قوله: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ [البقرة: 137] أي: بما آمنتم به، ومنه قول أوس بن حجر:

وقتل كمثل جنوح النخيد - ل يغشاهم مطر منهمر

أي: كجنوح، والأول أولى، فإن الكناية باب مسلوب للعرب، ومهيع مألوف لهم، ومنه قول الشاعر:

ليس كمثّل الفتى زهير - خلق يوازيه في الفضائل

وقال آخر:

على مثل ليلي يقتل المرء نفسه - وإن بات من ليلي على اليأس طويلاً

وقال آخر:

سعد بن زيد إذا بصرت فضلهم - فما كمثّلهم في الناس من أحد

قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول:

مثلي لا يقال له هذا أي: أنا لا يقال لي. وقال أبو البقاء

مرجحاً لزيادة الكاف: إنها لو لم تكن زائدة، لافضى ذلك إلى

المحال، إذ يكون المعنى: أن له مثلاً، وليس لمثله مثل، وفي

ذلك تناقض، لأنه إذا كان له مثل، فلمثله مثل، وهو: هو مع

أن إثبات المثل لله سبحانه محال، وهذا تقرير حسن، ولكنه

يندفع ما أورده بما نكرنا من كون الكلام خارجاً مخرج

الكناية، ومن فهم هذه الآية الكريمة حقّ فهمها، وتدبرها حق

تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على

طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله:

﴿وهو السميع البصير﴾، فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي

للمائل قد اشتمل على برد اليقين، وشفاء الصدور، وانثلاج

القلوب، فاقدر يا طالب الحقّ قدر هذه الحجة النيرة،

والبرهان القوي، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع، وتهشم بها

رءوساً من الضلالة، وترغم بها آثاف طوائف من المتكلفين،

ولا سيما إذا ضمنت إليه قول الله سبحانه: ﴿ولا يحيطون به

علماً﴾ [طه: 110]، فإنك حينئذ قد أخذت بطرفي حبل ما

يسمونه علم الكلام، وعلم أصول الدين:

ودع عنك نهبا صيح في حجراته - ولكن حديث ما حديث الرواحل

﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي: خزائنها، أو

مفاتيحها، وقد تقدّم تحقيقه في سورة الزمر، وهي: جمع

إقليد، وهو: المفتاح جمع على خلاف القياس. قال النحاس:

والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن. ثم لما ذكر سبحانه أن

بيده مقاليد السموات، والأرض نكر بعده البسط، والقبض،

فقال: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي: يوسعه لمن

يشاء من خلقه، ويضيقه على من يشاء ﴿إنه بكل شيء﴾ من الأشياء ﴿عليم﴾ فلا تخفى عليه خافية، ولحاطه علمه بكل شيء يندرج تحتها علمه بطاعة المطيع، ومعصية العاصي. فهو يجازي كلا بما يستحقه من خير، وشر.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو، قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ، وفي يده كتابان، فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله، قال: للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين باسماء أهل الجنة، واسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزداد فيهم، ولا ينقص منهم، ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين باسماء أهل النار، واسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزداد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً، فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سنؤا، وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار، وإن عمل أي عمل له. قال رسول الله ﷺ بيديه، فنبذهما، ثم قال: فرغ ربكم من العباد «فريق في الجنة، وفريق في السعير». قال الترمذي بعد إخراجه: حديث حسن صحيح غريب. وروى ابن جرير طرفاً منه عن ابن عمرو موقوفاً عليه. قال ابن جرير: وهذا الموقوف أشبه بالصواب، قلت: بل المرفوع أشبه بالصواب. فقد رفعه الثقة، ورفعه زيادة ثابتة من وجه صحيح، ويقوي الرفع ما أخرجه ابن مردويه عن البراء. قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ في يده كتاب ينظر فيه قالوا: انظروا إليه كيف، وهو أمي لا يقرأ، قال: فعلمها رسول الله ﷺ، فقال: هذا كتاب من رب العالمين باسماء أهل الجنة، واسماء قبائلهم لا يزداد منهم، ولا ينقص منهم، وقال: «فريق في الجنة، وفريق في السعير» فرغ ربكم من أعمال العباد».

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَهُهُ اللَّهُ يَجْتَنِي إِلَهُهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَهُهُ مَنْ يُنِيبُ ۚ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٍ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنَ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُوسَ بَيْنَهُمْ وَلَئِنْ لَذُنُورُ أَلْكَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ ۚ فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَجِبْ ۚ كَمَا أَمَرْتَ وَلَا تَنْجُ أَمْوَالَهُمْ وَقُلْ مَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ كُتُبٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَا أَعْنَاكُمْ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ النُّصِيرُ ۝ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَهَنَّمُ دَارُ جَهَنَّمَ بَاطِنٌ لَكُمْ وَعَلَيْكُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الْيَاقُوتِي وَالْزَبُورَ وَمَا يَدْرِيكُمْ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝ يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ بِهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَُا الْحَقُّ إِلَّا إِنْ لَذُنُورُكُمْ فِي السَّاعَةِ لَمَنْ شَاءَ يَسْجِدُ ۝

الخطاب في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ لامة محمد ﷺ أي: بين، وأوضح لكم من الدين ﴿وما وصى به نوحاً﴾ من التوحيد، وبين الإسلام، وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل، وتوافقت عليها الكتب ﴿والذي أوحينا إليك﴾ من القرآن، وشرائع الإسلام، والبراءة من الشرك، والتعبير عنه بالموصول لتفخيم شأنه، وخص ما شرعه لنبينا ﷺ بالإحياء مع كون ما بعده، وما قبله منكروراً بالتوصية للتصريح برسالته ﴿وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ مما تطابقت عليه الشرائع. ثم بين ما وصى به هؤلاء، فقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي: توحيد الله، والإيمان به، وطاعة رسله، وقبول شرائعه، وأن هي: المصدرة، وهي وما بعدها في محل رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، كأنه قيل: ما ذلك الذي شرعه الله؟ فقيل: هو إقامة الدين، أو هي: في محل نصب بدلاً من الموصول، أو في محل جر بدلاً من الدين، أو هي المفسرة، لأنه قد تقدم ما فيه معنى القول. قال مقاتل: يعني: أنه شرع لكم، ولمن قبلكم من الأنبياء ديناً واحداً. قال مقاتل: يعني: التوحيد. قال مجاهد: لم يبعث الله نبياً قط إلا وصاه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم. وقال قتادة: يعني: تحليل الحلال، وتحريم الحرام، وخص إبراهيم، وموسى، وعيسى بالذكر مع نبينا ﷺ؛ لأنهم أرباب الشرائع، ثم لما أمرهم سبحانه بإقامة الدين، نهامهم عن الاختلاف فيه، فقال: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: لا تختلفوا في التوحيد، والإيمان بالله، وطاعة رسله، وقبول شرائعه، فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع، وتوافقت فيها الأديان، فلا ينبغي الخلاف في مثلها، وليس من هذا فروع المسائل التي تختلف فيها الأديان، وتتعارض فيها الأمارات، وتتباين فيها الأفهام، فإنها من مطارح الاجتهاد، ومواطن الخلاف. ثم ذكر سبحانه أن ما شرعه من الدين شق على المشركين، فقال: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: عظم، وشق عليهم ما تدعوهم إليه من التوحيد، ورفض الأوثان. قال قتادة: كبر على المشركين، واشتد عليهم شهادة أن لا إله إلا الله وحده، وضاق بها إبليس، وجنوده، فأبى الله إلا أن ينصرها، ويعليها، ويظهرها، ويظفرها على من ناوها. ثم خص أوليائه، فقال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يختار، والاجتباء الاختيار، والمعنى: يختار لتوحيده، والدخول في دينه من يشاء من عباده ﴿ويهدي إليه من ينيب﴾ أي: يوفق لدينه، ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته، ويقبل إلى عبادته. ثم لما ذكر سبحانه ما شرعه لهم من إقامة الدين، وعدم التفرق فيه ذكر ما وقع من التفرق، والاختلاف، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: ما تفرقوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة، ففعلوا ذلك التفرق للبغي بينهم بطلب الرياسة، وشدة الحمية، قيل: المراد قريش هم الذين تفرقوا بعد ما جاءهم العلم، وهو: محمد ﷺ «بغيا»، منهم عليه، وقد كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم

ظهر، ووضح **«الله يجمع بيننا»** في المحشر **«واليه المصير»** أي: المرجع يوم القيامة، فيجازي كلا بعمله: وهذا منسوخ بآية السيف. قيل: الخطاب لليهود، وقيل: للكفار على العموم **«والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له»** أي: يخاصمون في دين الله من بعد ما استجاب الناس له، وبخلوا فيه. قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس. قال: هؤلاء قوم تروهم أن الجاهلية تعود. وقال قتادة: هم اليهود، والنصارى، ومحاجتهم قولهم: نينا قبل نبينا، وكتابتنا قبل كتابكم، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب، وأنهم أولاد الأنبياء، وكان المشركون يقولون: **«أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً»** [مريم: 73]، فنزلت هذه الآية، والموصول مبتدأ، وخبره الجملة بعده، وهي: **«حجبتهم دلحضة عند ربهم»** أي: لا ثبات لها كالشيء الذي يزول عن موضعه، يقال: بحضت حجته دحوضاً: بطلت، والإحاض: الإزلاق، ومكان دحض أي: زلق، وبحضت رجله: زلقت. وقيل: الضمير في له راجع إلى الله. وقيل: راجع إلى محمد ﷺ. والأول أولى **«وعليهم غضب»** أي: غضب عظيم من الله لمجانلتهم بالباطل **«ولهم عذاب شديد»** في الآخرة **«الله الذي أنزل الكتاب بالحق»** المراد بالكتاب: الجنس، فيشمل جميع الكتب المنزلة على الرسل. وقيل: المراد به القرآن خاصة، وبالحق متعلق بمحذوف أي: ملتبساً بالحق، وهو: الصدق **«و»** المراد بـ **«الميزان»** العدل، كذا قال أكثر المفسرين، قالوا: وسمي العدل ميزاناً؛ لأن الميزان آلة الإنصاف، والتسوية بين الخلق. وقيل: الميزان ما بين في الكتب المنزلة مما يجب على كل إنسان أن يعمل به. وقيل: هو: الجزء على الطاعة بالثواب، وعلى المعصية بالعقاب، وقيل: إنه الميزان نفسه أنزله الله من السماء، وعلم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم، وتباخس كما في قوله: **«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»** [الحديد: 25] وقيل: هو محمد ﷺ **«وما يدريك لعل الساعة قريب»** أي: أي شيء يجعلك دارياً بها، عالماً بوقتها لعلها شيء قريب، أو قريب مجيئها، أو ذات قرب. وقال: قريب، ولم يقل: قريبة لأن تانيئها غير حقيقي. قال الزجاج: المعنى: لعل البعث، أو لعل مجيء الساعة قريب. وقال الكسائي: قريب نعت ينعت به المؤنث، والمذكر كما في قوله: **«إن رحمت الله قريب من المحسنين»** [الأعراف: 56] ومنه قول الشاعر:

وكنا قريباً والديار بعيدة فلما وصلنا نصب أعينهم غبنا

قيل: إن النبي ﷺ نكر الساعة، وعنده قوم من المشركين، فقالوا: متى تكون الساعة؟ تكتيباً لها، فانزل الله الآية، ويدل على هذا قوله: **«يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها»** استعجال: استهزاء منهم بها، وتكتيباً بمجيئها **«والذين آمنوا مشفقون منها»** أي: خائفون وجلون من مجيئها. قال مقاتل: لأنهم لا يدرون على ما يهجمون عليه. وقال الزجاج: لأنهم يعلمون أنهم محاسبون،

بقوله: **«واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير»** [فاطر: 42] الآية، ويقول: **«فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به»** [البقرة: 89] وقيل: المراد أمم الأنبياء المتقدمين، وأنهم فيما **«بينهم»** اختلفوا لما طال بهم المدى، فأمن قوم، وكفر قوم، وقيل: اليهود، والنصارى خاصة كما في قوله: **«وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة»** [البينة: 4] **«ولولا كلمة سبقت من ربك»**، وهي: تأخير العقوبة **«إلى أجل مسمى»**، وهو: يوم القيامة كما في قوله: **«بل الساعة موعدهم»** [القمر: 46]، وقيل: إلى الأجل الذي قضاه الله لعبادهم في الدنيا بالقتل، والأسر، والذل، والقهر **«لنقضي بينهم»** أي: لوقع القضاء بينهم بإنزال العقوبة بهم معجلة، وقيل: لنقضي بين من آمن منهم، ومن كفر بنزول العذاب بالكافرين، ونجاة المؤمنين **«وإن الذين أوتوا الكتاب»** من اليهود، والنصارى **«من بعدهم»** من بعد من قبلهم من اليهود، والنصارى **«لغي شك منه»** أي: من القرآن، أو من محمد **«مريب»** موقع في الريب، ولذلك لم يؤمنوا. وقال مجاهد: معنى من بعدهم من قبلهم يعني: من قبل مشركي مكة، وهم اليهود، والنصارى. وقيل: المراد كفار المشركين من العرب الذين أوتوا القرآن من بعد ما أوتى أهل الكتاب كتابهم، وصفهم بأنه في شك من القرآن مريب. قرأ الجمهور (أوتوا) وقرأ زيد بن علي (ووتوا) بالتشديد **«فلنلك فادع واستقم»** أي: فلاجل ما نكر من التفرق، والشك، أو فلاجل أنه شرع من الدين ما شرع، فادع، واستقم؛ أي: فادع إلى الله، وإلى توحيد، واستقم على ما دعوت إليه. قال الفراء، والزجاج: المعنى: فإلى ذلك، فادع كما تقول: دعوت إلى فلان، ولفلان، وذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد. وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير. والمعنى: كبر على المشركين ما ندعوهم إليه، فلنلك فادع. قال قتادة: استقم على أمر الله. وقال سفيان: استقم على القرآن. وقال الضحاك: استقم على تبليغ الرسالة **«كما أمرت»** بذلك من جهة الله **«ولا تتبع أهواءهم»** للباطلة، وتعصباتهم الزائفة، ولا تنظر إلى خلاف من خالفك في نكر الله **«وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب»** أي: بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله، لا كالذين آمنوا ببعض منها، وكفروا ببعض **«وامرت لأعدل بينكم»** في أحكام الله إذا ترافعت إلي، ولا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه الله، أو بتقصان منه. وأبلغ إليكم ما أمرني الله بتبليغه كما هو، واللام لام كي أي: أمرت بذلك الذي أمرت به، لكي أعدل بينكم، وقيل: هي زائدة، والمعنى: أمرت أن أعدل؛ والأول أولى. قال أبو العالية: أمرت، لأسوي بينكم في الدين، فأومن بكل كتاب، وبكل رسول. والظاهر: أن الآية عامة في كل شيء، والمعنى: أمرت؛ لأعدل بينكم في كل شيء **«الله ربنا وربكم»** أي: إلهنا، وإلهكم، وخالقنا، وخالقكم **«لنا أعمالنا»** أي: ثوابها، وعقابها خاص بنا **«ولكم أعمالكم»** أي: ثوابها، وعقابها خاص بكم **«لا حجة بيننا وبينكم»** أي: لا خصومة بيننا، وبينكم. لأن الحق قد

وَالْكَاذِبُونَ لَمْ يُدْعَوْا بِعَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿١٧﴾ وَلَوْ سَأَلَ أَنَّهُ ارْزُقْ لِبَابُوهُ لَبَتُوا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَرْزُقُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِبَابُوهِمْ خَبِيرٌ بِصِيرٍ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْفَيْتَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿الله لطيف بعباده﴾ أي: كثير اللطف بهم بالغ الرأفة لهم. قال مقاتل: لطيف بالبار، والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم. قال عكرمة: بارٌ بهم. وقال السدي: رفيق بهم، وقيل: حفي بهم. وقال القرطبي: لطيف بهم في العرض، والمحاسبة، وقيل غير ذلك. والمعنى: أنه يجري لطفه على عباده في كل أمورهم، ومن جملة تلك الرزق الذي يعيشون به في الدنيا، وهو: معنى قوله: ﴿يرزق من يشاء﴾ منهم كيف يشاء، فيوسع على هذا، ويضيق على هذا ﴿وهو القوي﴾ العظيم القوة الباهرة القادرة ﴿العزیز﴾ الذي يغلب كل شيء، ولا يغلبه شيء ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ الحرث في اللغة: الكسب، يقال: هو يحرث لعياله، ويحترث أي: يكتسب. ومنه سمي الرجل حارثاً، وأصل معنى الحرث: إلقاء البذر في الأرض، فاطلق على ثمرات الأعمال، وفوائدها بطريق الاستعارة والمعنى: من كان يريد بأعماله، وكسبه ثواب الآخرة يضاعف الله له تلك الحسنات بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف. وقيل: معناه: يزيد في توفيقه، وإعانتة، وتسهيل سبل الخير له ﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نؤثته منها﴾ أي: من كان يريد بأعماله، وكسبه ثواب الدنيا، وهو: متاعها، وما يرزق الله به عباده منها نعطه منها ما قضت به مشيئتنا، وقسم له في قضائنا. قال قتادة: معنى ﴿نؤثته منها﴾: نقتل له ما قسم له كما قال: ﴿عجلنا له فيها ما نشاء﴾ [الإسراء: 18]، وقال قتادة أيضاً: إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا. قال القشيري: والظاهر أن الآية في الكافر، وهو: تخصيص بغير مخصص. ثم بين سبحانه أن هذا الذي يريد بعمله الدنيا لا نصيب له في الآخرة، فقال: ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾؛ لأنه لم يعمل للآخرة، فلا نصيب له فيها، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الإسراء ﴿أم لهم شركاء لهم من الدين ما لم يأنز به الله﴾ لما بين سبحانه القانون في أمر الدنيا، والآخرة أرفه ببيان ما هو الذنب العظيم الموجب للنار، والهمزة لاستفهام التقرير والتقريع، وضمير شرعوا عائد إلى الشركاء، وضمير لهم إلى الكفار، وقيل: العكس، والاول أولى. ومعنى ﴿ما لم يأنز به الله﴾: ما لم يأنز به من الشرك، والمعاصي ﴿ولولا كلمة الفصل﴾، وهي: تأخير عذابهم حيث قال: ﴿بل الساعة موعدهم﴾ [القمر: 46] ﴿لقضي بينهم﴾ في الدنيا، فعولجوا بالعقوبة، والضمير في بينهم راجع إلى المؤمنين، والمشركون، أو إلى المشركون، وشركائهم ﴿وان الظالمين لهم عذاب اليم﴾ أي: المشركون، والمكذبين لهم عذاب اليم في الدنيا، والآخرة. قرأ الجمهور (وان الظالمين) بكسر الهمزة على الاستئناف. وقرأ

ومجزيون ﴿ويعلمون أنها الحق﴾ أي: أنها آتية لا ريب فيها، ومثل هذا قوله: ﴿والذين يؤمنون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ [المؤمنون: 60]. ثم بين ضلال الممارين فيها، فقال: ﴿الا إن الذين يمارون في الساعة﴾ أي: يخاصمون فيها مخاصمة شك، وريبة، من المماراة، وهي: المخاصمة، والمجادلة، أو من المرية، وهي: الشك، والريبة ﴿لغي ضلال بعيد﴾ عن الحق؛ لأنهم لم يتفكروا في الموجبات للإيمان بها من الدلائل التي هي: مشاهدة لهم منصوبة لأعينهم مفهومة لعقولهم، ولو تفكروا لعلموا أن الذين خلقهم ابتداء قادر على إعادة.

وقد أخرج ابن جرير عن السدي ﴿أن اقيموا الدين﴾ قال: اعملوا به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ قال: الا تعلموا أن الفرقة ملكة، وأن الجماعة ثقة ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾، قال: استكبر المشركون أن قيل لهم: لا إله إلا الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿الله يجتبي إليه من يشاء﴾ قال: يخلص لنفسه من يشاء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له﴾ قال: هم أهل الكتاب كانوا يجاللون المسلمين، ويصدونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا لله. وقال: هم: قوم من أهل الضلالة، وكانوا يتربصون بأن تاتيهم الجاهلية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿والذين يحاجون في الله﴾ الآية، قال: هم اليهود، والنصارى. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ [النصر: 1] قال المشركون لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد نخل الناس في دين الله أفواجاً، فاخرجوا من بين أظهرنا، فنزلت ﴿والذين يحاجون في الله﴾ الآية.

الله لطيف بعباده، يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤثته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ ترى الظالمين مشفقين بما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ﴿ذلك الذي ينزل الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسئلكم عليه أجر إلا النعمة في القرآن ومن يفرق حسنة زد له فيها حسناً إن الله غفور شكور﴾ أم يقولون افترن على الله كذباً فإن ينزل الله بآية قل تلك آية الله ونعم الله المبطل ونحو ذلك يكلمته إنه عليه يداتي الشكور ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويصم ما فعلون﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله

الله بموئته، فلما هاجر أوته الأنصار ونصروه، فأنزل الله عليه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 109]، وأنزل عليه ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ أَنْ أَجَرَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبا: 47]. وسيأتي في آخر البحث ما يتضح به الثواب، ويظهر به معنى الآية إن شاء الله ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا﴾ أصل القرف الكسب، يقال: فلان يقرف لعياله أي: يكتسب. والافتراق: الاكتساب، مأخوذ من قولهم رجل قرفة: إذا كان محتالاً. والمعنى: من يكتسب حسنة نزد له هذه الحسنة حسناً بمضاعفة ثوابها. قال مقاتل: المعنى: من يكتسب حسنة واحدة نزد له فيها حسناً تضاعفها بلواحدة عشرًا فصاعداً. وقيل: المراد بهذه الحسنة هي: المودة في القربى، والحمل على العموم أولى، ويدخل تحته المودة في القربى دخولاً أولياً ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة للمذنبين كثير الشكر للمطيعين. قال قتادة: غفور للذنوب شكور للحسنات. وقال السدي: غفور للذنوب آل محمد ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كُتُبًا﴾ أم هي المنقطعة أي: بل أيقولون: افترى محمد على الله كتباً بدعى النبوة، والإنكار للتوبيخ. ومعنى افتراء الكتب: اختلاقه. ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا، فقال: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: لو افترى على الله الكتب لشاء عدم صدوره منه، وختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله شيئاً مما كذب فيه كما تزعمون. قال قتادة: يختم على قلبك، فينسيك القرآن، فأخبرهم أنه لو افترى عليه لفعل به ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد، ومقاتل: إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم. وقيل: الخطاب له، والمراد الكفار أي: إن يشأ يختم على قلوب الكفار، ويعاجلهم بالعقوبة، ذكره القشيري. وقيل: المعنى: لو حدثتك نفسك أن تفترى على الله كذباً لطبع على قلبك، فإنه لا يجترئ على الكذب إلا من كان مطبوعاً على قلبه، والأول أولى، وقوله: ﴿وَيُمِحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ استثناء مقرر لما قبله من نفي الافتراء. قال ابن الأنباري: يختم على قلبك تام، يعني: وما بعده مستأنف. وقال الكسائي: فيه تقديم، وتأخير أي: والله يمحو الباطل. وقال الزجاج: أم يقولون: افترى على الله كذباً تام، وقوله: ﴿وَيُمِحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ احتجاج على من أنكر ما أتى به النبي ﷺ أي: لو كان ما أتى به النبي ﷺ باطلاً لمحاه كما جرت به عاتقه في المفترين ﴿وَيُحِقُّ الْحَقُّ﴾ أي: الإسلام، فيبينه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: بما أنزل من القرآن ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عالم بما في قلوب العباد، وقد سقطت الواو من، ويمحو في بعض المصاحف كما حكاه الكسائي ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يقبل من المذنبين من عباده توبتهم إليه مما عملوا من المعاصي، واقتربوا من السيئات، والتوبة: الندم على المعصية، والعزم على عدم المعاودة لها. وقيل: يقبل التوبة عن أوليائه، وأهل طاعته. والأول أولى، فإن التوبة مقبولة من جميع العباد

مسلم، والأعرج، وابن هرمز بفتحها عطفاً على كلمة الفصل ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: خائفين وجلين مما كسبوا من السيئات، وذلك الخوف، والوجل يوم القيامة ﴿وَهُوَ وَقَعَ بِهِمْ﴾ الضمير راجع إلى ما كسبوا بتقدير مضاف قاله الزجاج أي: وجزاء ما كسبوا واقع منهم نازل عليهم لا محالة أشفقوا، أو لم يشفقوا، والجملة في محل نصب على الحال. ولما نكر حال الظالمين نكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ روضات جمع روضة. قال أبو حيان: اللغة الكثيرة تسكين الواو، ولغة هذيل فتحها، والروضة: الموضع النزه الكثير الخضرة، وقد مضى بيان هذا في سورة الروم، وروضة الجنة: أطيب مساكنها كما أنها في الدنيا لأحسن أمكنتها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من صنوف النعم، وأنواع المستلذات، والعامل في عند ربهم يشاءون، أو العامل في روضات الجنات، وهو: الاستقرار، والإشارة بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ إلى ما ذكر للمؤمنين قبله، وخبره الجملة المنكورة بعده، وهي ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: الذي لا يوصف، ولا تهتدي العقول إلى معرفة حقيقته، والإشارة بقوله: ﴿لَكُمْ الَّذِي يَبْشُرُ اللَّهَ عِبَادَهُ﴾ إلى الفضل الكبير أي: يبشرهم به. ثم وصف العباد بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فهؤلاء الجامعون بين الإيمان، والعمل بما أمر الله به، وترك ما نهى عنه هم: المبشرون بتلك البشارة. قرأ الجمهور (يبشر) مشدداً من بشر. وقرأ مجاهد، وحמיד بن قيس بضم التحتية، وسكون الموحدة، وكسر الشين من ابشر. وقرأ بفتح التحتية، وضم الشين بعض السبعة، وقد تقدم بيان القراءات في هذه اللفظة. ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه ﷺ من هذه الأحكام الشريفة التي اشتمل عليها كتابه، أمره بأنه يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثواباً منهم، فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ لَاجِرًا﴾ أي: قل يا محمد: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلاً، ولا نفعاً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ هذا الاستثناء يجوز أن يكون متصلاً أي: إلا أن تودوني لقرايتي بينكم، أو تودوا أهل قرايتي. ويجوز أن يكون منقطعاً. قال الزجاج: إلا المودة استثناء ليس من الأول أي: إلا أن تودوني لقرايتي، فتحفظوني، والخطاب لقريش. وهذا قول عكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والشعبي، فيكون المعنى على الانقطاع: لا أسألكم أجراً قط، ولكن أسألكم المودة في القربى التي بيني وبينكم، أرقبوني فيها، ولا تعجلوا إلي، ودعوني والناس، وبه قال قتادة، ومقاتل، والسدي، والضحاك، وابن زيد، وغيرهم، وهو الثابت عن ابن عباس كما سيأتي. وقال سعيد بن جبير، وغيره: هم: آل محمد، وسيأتي ما استدلل به القائلون بهذا. وقال الحسن، وغيره: معنى الآية: إلا التودد إلى الله عز وجل، والتقرب بطاعته. وقال الحسن بن الفضل: ورواه ابن جرير عن الضحاك: إن هذه الآية منسوخة، وإنما نزلت بمكة، وكان المشركون يؤنون رسول الله ﷺ، فأمرهم

هذه الأمة بالسناء، والرفعة، والنصر، والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب». وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: «تلا رسول الله ﷺ: **«مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ»** الآية، ثم قال: يقول الله: ابن آدم تفرغ لعبادتي أملاً صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك». وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساكر عن علي قال: الحرت حرتان، فحرت الدنيا المال، والبئون، وحرت الآخرة الباقيات الصالحات. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله: **«إِلَّا الْمَوْدَةَ فِي الْقُرْبَى»** قال سعيد بن جبيرة: قربي آل محمد. قال ابن عباس: عجبت أن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيه قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني، وبينكم من القرابة. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من طريق سعيد بن جبيرة عنه قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تولدوني في نفسي لقرباتي، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم». وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وعبد بن حميد، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن الشعبي قال: أكثر الناس علينا في هذه الآية **«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوْدَةَ فِي الْقُرْبَى»**، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك، فقال: إن رسول الله ﷺ كان واسط النسب في قريش ليس بطن من بطونهم إلا، وله فيه قرابة، فقال الله: **«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً»** على ما ادعوكم إليه **«إِلَّا الْمَوْدَةَ فِي الْقُرْبَى»** أن تولدوني لقرباتي منكم، وتحفظوني بها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية قال: كان لرسول الله ﷺ قرابة من جميع قريش، فلما كذبوه، وأبوا أن يبايعوه قال: «يا قوم إذا أبيتم أن تبايعوني، فاحفظوا قرباتي فيكم، ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي، ونصرتي منكم». وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه عنه نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً من طريق أخرى نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق مقسم عن ابن عباس قال: «قالت الأنصار: فعلنا، وفعلنا، وكانهم فخرُوا، فقال العباس: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاتاهم في مجالسهم، فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أئمة، فأعزكم الله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أئمة تجيئون؟ قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: ألا تقولون: ألم يخرجك قومك، فأريناك؟ ألم يكذبوك، فصنقناك؟ ألم يخذلوك، فنصرتناك؟ فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا، وما في أيدينا لله، ورسوله، فنزلت **«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوْدَةَ فِي الْقُرْبَى»**، وفي

مسلمهم، وكافرهم إذا كانت صحيحة صادرة عن خلوص نية، وعزيمة صحيحة **«ويعفوا عن السيئات»** على العموم لمن تاب عن سيئته **«ويعلم ما تفعلون»** من خير، وشر، فيجازي كلا بما يستحقه. قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف (تفعلون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الباقر بالتحتية على الخبر، واختار القراءة الثانية أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأن هذا الفعل وقع بين خبرين **«ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات»** الموصول في موضع نصب أي: يستجيب الله الذين آمنوا، ويعطيهم ما طلبوه منه، يقال: أجاب، واستجاب بمعنى. وقيل المعنى: يقبل عبادة المخلصين. وقيل: التقدير، ويستجيب لهم، فحذف اللام كما حذف في قوله: **«وإذا كالروم»** [المطففين: 3] أي: كالوا لهم، وقيل: إن الموصول في محل رفع أي: يجيبون ربهم إذا دعاهم كقوله: **«استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم»** [الأنفال: 24] قال المبرد: معنى **«ويستجيب الذين آمنوا»**: ويستدعي الذين آمنوا الإجابة، هكذا حقيقة معنى استفعل، فالذين في موضع رفع، والأول أولى **«ويزيدهم من فضله»** أي: يزيدهم على ما طلبوه منه، أو على ما يستحقونه من الثواب تفضلاً منه، وقيل: يشفعهم في إخوانهم **«والكافرون لهم عذاب شديد»** هذا للكافرين مقابلاً ما ذكره للمؤمنين فيما قبله **«ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض»** أي: لو وسع الله لهم رزقهم لبغوا في الأرض لعصوا فيها، ويطروا النعمة، وتكبروا، وطلبوا ما ليس لهم طلبة، وقيل: المعنى: لو جعلهم سواء في الرزق لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع، والأول أولى. والظاهر عموم أنواع الرزق، وقيل: هو: المطر خاصة **«ولكن ينزل بقدر ما يشاء»** أي: ينزل من الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته، وما تقتضيه حكمته البالغة **«إنه بعباده خبير»** بأحوالهم **«بصير»** بما يصلحهم من توسيع الرزق، وتضييقه، فيقدر لكل أحد منهم ما يصلحه، ويكفه عن الفساد بالبنى في الأرض **«وهو الذي ينزل الغيث»** أي: المطر الذي هو أنفع أنواع الرزق، وأعمها فائدة، وأكثرها مصلحة **«من بعد ما قطنوا»** أي: من بعد ما أيسوا عن ذلك، فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم، ويشكرون له ما يجب الشكر عليه **«وهو اللوي»** للصالحين من عباده بالإحسان إليهم، وجلب المنافع لهم، ورفع الشرور عنهم **«الحميد»** المستحق للحمد منهم على إنعامه خصوصاً وعموماً.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **«مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ»** قال: عيش الآخرة **«يُنْزَلُ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا»** الآية. قال: من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار، ولم يزيد بذلك من الدنيا شيئاً إلا رزقاً فرغ منه، وقسم له. وأخرج أحمد، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن حبان عن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: «بشر

فذكره. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قزعة به. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب، قال السيوطي: بسند صحيح عن أبي هانئ الخولاني قال: سمعت عمر بن حريث، وغيره يقولون: إنما نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة ﴿وَلَوْ يَسْطُ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبِغُوا فِي الْأَرْضِ﴾، وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا الدنيا. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عليّ مثله.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَمَوْعِدَ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا أَمْسَكُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ وَيَعْمَلُونَ عَنْ كَيْبَرٍ ﴿١٢﴾ وَمَا أَشْرَ بِمُجْرِمٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجُمُاعُ فِي الْبَحْرِ كَالْأُنْدُلِيِّ ﴿١٤﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلَنَّ رُكُودًا عَلَى ظُهُورِهِمْ ذَرْأَةً ذَاتِ لَازِبَةٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٥﴾ أَوْ يُوقِعَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَيْبَرٍ ﴿١٦﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُخَيَّلُونَ فِيهِ مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنْ رَحْمَةٍ ﴿١٧﴾ فَمَا أُوْنِيَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ فَفَنَعَ الْخَيْبَةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رُبِّهِمْ يُتَوَكَّلُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ يُخَيَّلُونَ كَثِيرٌ أَلْزَمُوا وَالْفَوْحُشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَلْزَمُوا شَرِيكَ يَتَنَزَّلُ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنَاهُمْ بِالْأَيْمِ مُمْ يَنْتَبِهُونَ ﴿٢١﴾ وَخَرُودًا سِنِينَ سِنِينَ يَنْتَلِفُ مَا مَنَ عَسَا وَاسْتَحْ فَاجْعَلْ عَلَى اللَّهِ لَكُمْ إِيمًا لِكُلِّ فَخْرٍ الْفَلِيلِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَكِنْ انْتَصَرَ بَدَءُ غَلِيْبِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٢٣﴾ إِنَّا السَّبِيلَ عَلَى الَّذِينَ يَنْتَلِفُونَ النَّاسَ وَيَرْثُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَلَكِنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزَائِرِ الْأُمُورِ ﴿٢٥﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمِنْ بَعْدِهِ وَزَى الْفَلِيلِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَى مَرَوْءٍ

نكر سبحانه بعض آياته الدالة على كمال قدرته الموجبة لتوحيده، وصق ما وعد به من البعث، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خلقهما على هذه الكيفية العجيبة، والصنعة الغريبة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ يجوز عطفه على خلق، ويجوز عطفه على السموات، والدابة اسم لكل ما دب. قال الفراء: أراد ما دب في الأرض دون السماء كقوله: ﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا لِلزُّلُومِ وَالْمَرْجَانِ﴾ [الرحمن: 22]. وإنما يخرج من الملح دون العنب. وقال أبو علي الفارسي: تقديره: وما دب في أحدهما، فحنف المضاف. قال مجاهد: يدخل في هذا الملائكة، والناس، وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النمل: 8] ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ أي: حشرهم يوم القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾، النطرف متعلق بجمعهم لا بقدير قال أبو البقاء: لأن ذلك يؤدي، وهو على جمعهم قدير إذا يشاء، فتعلق القدرة بالمشيئة، وهو محال، قال شهاب الدين: ولا نري ما وجه كونه محالاً على مذهب أهل السنة. فإن كان يقول بقول المعتزلة، وهو: أن القدرة تتعلق بما لم

إسناده يزيد بن أبي زياد، وهو: ضعيف، والأولى أن الآية مكية لا مدنية، وقد أشرنا في أول السورة إلى قول من قال: إن هذه الآية، وما بعدها مدنية، وهذا متمسكهم. وأخرج أبو نعيم، والبيهقي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرٌ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي: تحفظوني في أهل بيتي، وتودونهم بي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرٌ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي، وفاطمة، ولداهما»، وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية بمكة، وكان المشركون يؤثرون رسول الله ﷺ، فأنزل الله: قل لهم يا محمد ﴿لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: على ما ادعوكم إليه ﴿لِأَجْرٍ﴾ عرضاً من الدنيا ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ إلا الحفظ لي في قرابتي فيكم، فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يلحقه بإخوته من الأنبياء، فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: 47] يعني: ثوابه، وكرامته في الآخرة كما قال نوح: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 109]، وكما قال هود، وصالح، وشعيب لم يستثنوا أجراً كما استثنى النبي ﷺ، فردّه عليهم، وهي: منسوخة. وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طريق مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في الآية: قل: لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات، والهدى أجراً إلا أن توبوا الله، وأن تتقربوا إليه بطاعته. هذا حاصل ما روي عن جبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية. والمعنى الأول هو: الذي صح عنه، ورواه عنه الجمع الجَمُّ من تلامذته، فمن بعدهم، ولا ينافيه ما روي عنه من النسخ، فلا مانع من أن يكون قد نزل القرآن في مكة بأن يؤده كفار قريش لما بينه، وبينهم من القربى، ويحفظوه بها، ثم ينسخ ذلك، ويذهب هذا الاستثناء من أصله كما يدل عليه ما نكرنا مما يدل على أنه لم يسأل على التبليغ أجراً على الإطلاق، ولا يقوي ما روي من حملها على آل محمد ﷺ على معارضة ما صح عن ابن عباس من تلك الطرق الكثيرة، وقد أغنى الله آل محمد عن هذا بما لهم من الفضائل الجليلة، والمزايا الجميلة، وقد بينا بعض ذلك عند تفسيرنا لقوله: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: 33]، وكما لا يقوي هذا على المعارضة، فكذلك لا يقوي ما روي عنه أن المراد بالموَدَّة في القربى: أن يوبوا الله، وأن يتقربوا إليه بطاعته، ولكنه يشد من عضد هذا أنه تفسير مرفوع إلى رسول الله ﷺ وإسناده عند أحمد في المسند هكذا: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا قزعة بن سويد، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد عن ابن عباس: أن النبي ﷺ،

يشأ الله مشى كلامه، ولكنه مذهب رديء لا يجوز اعتقاده **﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم﴾** أي: ما أصابكم من المصائب كائنة ما كانت، فبسبب ما كسبت أيديكم من المعاصي. قرأ نافع، وابن عامر (بما كسبت) بغير فاء، وقرأ الباقون بالفاء. «وما» في **﴿وما أصابكم﴾** هي: الشرطية، ولهذا دخلت الفاء في جوابها على قراءة الجمهور، ولا يجوز حذفها عند سيبويه، والجمهور، وجوز الأخفش الحذف كما في قوله: **﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾** [الأنعام: 121]، وقول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشّر بالشّر عند الله مثلاًن
وقيل: هي الموصولة، فيكون الحذف، والإثبات جائزين، والأول أولى. قال الزجاج: إثبات الفاء أجود؛ لأن الفاء مجازاة جواب الشرط، ومن حذف الفاء فعلى أن ما في معنى: الذي، والمعنى: الذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم. قال الحسن: المصيبة هنا الحدود على المعاصي، والأولى الحمل على العموم كما يفيدُه وقوع النكرة في سياق النفي، وبخول من الاستغراقية عليها **﴿ويعفوا عن كثير﴾** من المعاصي التي يفعلها العباد، فلا يعاقب عليها، فمعنى الآية: أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب، ويعفو عن كثير من الذنوب. وقد ثبتت الألة الصحيحة أن جميع ما يصاب به الإنسان في الدنيا يؤجر عليه، أو يكفر عنه من ذنوبه. وقيل: هذه الآية مختصة بالكافرين على معنى: أن ما يصابون به بسبب ذنوبهم من غير أن يكون ذلك مكفراً عنهم لذنب، ولا محصلاً لثواب، ويترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم، فلا يعالجهم في الدنيا بل يمهّلهم إلى الدار الآخرة. والأولى حمل الآية على العموم، والعفو يصدق على تأخير العقوبة كما يصدق على محو الذنب، ورفع الخطاب به. قال الواحدي: وهذه أرجى آية في كتاب الله؛ لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كفره عنهم بالمصائب، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، فهذه سنة الله مع المؤمنين. وأما الكافر، فإنه لا يجعل له عقوبة نذبه حتى يوافي به يوم القيامة **﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾** أي: بفائتين عليه هرباً في الأرض، ولا في السماء لو كانوا فيها بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم نازل بهم **﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾** أي: يواليك، فيمنع عنكم ما قضاه الله **﴿ولا نصير﴾** ينصركم من عذاب الله في الدنيا، ولا في الآخرة. ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آياته العظيمة الدالة على توحيده، وصلى ما وعد به، فقال: **﴿ومن آياته الجوار﴾** قرأ نافع، وأبو عمرو (الجواري) بإثبات الياء في الوصل، وأما في الوقف، فإثباتها على الأصل، وحذفها للتخفيف، وهي: السفن واحتدتها جارية أي: سائرة **﴿في البحر كالاعلام﴾** أي: الجبال جمع علم، وهو الجبل، ومنه قول الخنساء:

وإن صخرًا لتأت الهداة به كأنه علم في رأسه نار
قال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب، فهو علم. وقال مجاهد: الاعلام القصور واحدها علم **﴿إن يشأ**

يسكن الريح﴾ قرأ الجمهور بهمز (يشأ)، وقرأ ورش عن نافع بلا همز. وقرأ الجمهور (الريح) بالإفراد، وقرأ نافع (الرياح) على الجمع أي: يسكن الريح التي تجري بها السفن **﴿فيظللن﴾** أي: السفن **﴿رواكده﴾** أي: سواكن ثوابت **﴿على ظهره﴾** البحر، يقال: ركد الماء ركوداً: سكن، وكذلك ركبت الريح، وركبت السفينة، وكل ثابت في مكان، فهو راكد. قرأ الجمهور (فيظللن) بفتح اللام الأولى، وقرأ قتادة بكسرهما، وهي لغة قليلة **﴿إن في ذلك﴾** الذي نكر من أمر السفن **﴿آيات﴾** دلالات عظيمة **﴿لكل صبار شكور﴾** أي: لكل من كان كثير الصبر على البلوى كثير الشكر على النعماء. قال قطرب: الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر. قال عون بن عبد الله:

فكم من منعم عليه غير شاكر وكم من مبتلي غير صابر
﴿أو يوبقهن بما كسبوا﴾ معطوف على يسكن أي: يهلكهن بالغرق، والمراد أهلهن بما كسبوا من الذنوب، وقيل: بما أشركوا. والأول أولى، فإنه يهلك في البحر المشرك وغير المشرك، يقال: أوبقه أي: أهلكه **﴿ويعف عن كثير﴾** من أهلها بالتجاوز عن ذنوبهم، فينجيهم من الغرق. قرأ الجمهور (يعف) بالجزم عطفاً على جواب الشرط. قال القشيري: وفي هذه القراءة إشكال؛ لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح، فتبقي تلك السفن رواكده، أو يهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف **﴿يعف﴾** على هذا، لأنه يصير المعنى: إن يشأ يعف، وليس المعنى ذلك، بل المعنى: الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو: إن عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى، وقد قرأ قوم (ويعفو) بالرفع، وهي جيدة في المعنى. قال أبو حيان: وما قاله ليس بجيد إذ لم يفهم ملول التركيب، والمعنى: إلا أنه تعالى أهلك ناساً، وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم، وقرأ الأعمش (ويعفو) بالرفع، وقرأ بعض أهل المدينة بالنصب بإضمار أن بعد الواو كما في قول النابغة:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام
ونأخذ: بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام
بنصب ونأخذ **﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾** قرأ الجمهور بنصب (يعلم) قال الزجاج: على الصرف، قال: ومعنى الصرف: صرف العطف على اللفظ إلى العطف على المعنى، قال: وذلك أنه لما لم يحسن عطف ويعلم مجزوماً على ما قبله إذ يكون المعنى: إن يشأ يعلم عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذي قبله، ولا يتأتى ذلك إلا بإضمار أن، لتكون مع الفعل في تأويل اسم، ومن هذا بيتا النابغة المذكوران قريباً، وكما قال الزجاج. قال المبرد، وأبو علي الفارسي: واعترض على هذا الوجه بما لا طائل تحته. وقيل: النصب على العطف على تعليل محذوف، والتقدير: لينتقم منهم، ويعلم. واعترضه أبو حيان بأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم، ونجاة قوم، فلا يحسن تقدير لينتقم

وورود النقباء إليهم حين اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به، والنصرة له. وقيل: المراد تشاورهم في كل أمر يعرض لهم، فلا يستأثر بعضهم على بعض برأي، وما أحسن ما قاله بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غصاصة فريش الخوافي قوة للقوام
وقد كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في أموره، وأمره الله سبحانه بذلك، فقال: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: 159]، وقد قدمنا في آل عمران كلاماً في الشورى ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي: ينفقونه في سبيل الخير، ويتصدقون به على المحاييج. ثم ذكر سبحانه الطائفة التي تنتصر ممن ظلمها، فقال: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ أي: أصابهم بغير من بغى عليهم بغير الحق، ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح؛ لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة حيث قال: ﴿له العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون: 8]، فالانتصار عند البغي فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة. قال النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم، فيجتري عليهم السفهاء، ولكن هذا الانتصار مشروط بالاعتصار على ما جعله الله له وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾، فبين سبحانه أن العدل في الانتصار هو: الاعتصار على المساواة، وظاهر هذا العموم. وقال مقاتل، والشافعي، وأبو حنيفة، وسفيان: إن هذا خاص بالمجروح ينتقم من الجارح بالقصاص بون غيره. وقال مجاهد، والسدي: هو جواب القبيح إذا قال: أخذك الله يقول: أخذك الله من غير أن يعتدي، وتسمية الجزاء سيئة إما لكونها سوء من وقعت عليه، أو على طريق المشكلة لتشابهها في الصورة. ثم لما بين سبحانه أن جزاء السيئة بمثلها حق جائز بين فضيلة العفو، فقال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ أي: من عفا عن ظلمه، وأصلح بالعفو بينه، وبين ظالمه أي: أن الله سبحانه يأجره على ذلك، وأبهم الأجر تعظيماً لشانه، وتنبيهاً على جلالته. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة، وقد بينا هذا في سورة آل عمران. ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته التي هي سبب الفوز، والنجاة، فقال: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ أي: المبتدئين بالظلم قال مقاتل: يعني: من يبدأ بالظلم، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: لا يحب من يتعدى في الاقتصاص، ويجاوز الحد فيه؛ لأن المجاوزة ظلم ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ مصدر مضاف إلى المفعول أي: بعد أن ظلمه الظالم له، واللام هي: لام الابتداء. وقال ابن عطية: هي: لام القسم، والأول أولى. ومن هي الشرطية، وجوابه ﴿فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ بمؤاخذه، وعقوبة، ويجوز أن تكون من هي الموصولة، وبخلت الفاء في جوابها تشبيهاً للموصولة بالشرطية، والأول أولى. ولما نفى سبحانه السبيل على من

منهم. وقرأ نافع، وابن عامر برفع (يعلم) على الاستئناف، وهي قراءة ظاهرة المعنى واضحة اللفظ. وقرئ بالجزم عطفاً على المجزوم قبله على معنى: وإن يشأ يجمع بين الإهلاك، والنجاة، والتحذير، ومعنى ﴿وما لهم من محيص﴾: ما لهم من فرار، ولا مهرب، قاله قطرب. وقال السدي: ما لهم من ملجأ، وهو مأخوذ من قولهم: حاص به البعير حيصة: إذا رمى به، ومنه قولهم: فلان يحيص عن الحق أي: يميل عنه ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد ذكر التنفير عن الدنيا أي: ما أعطيت من الغنى، والسعة في الرزق، فإنما هو متاع قليل في أيام قليلة ينقضي، ويذهب. ثم رغبهم في ثواب الآخرة، وما عند الله من النعيم المقيم، فقال: ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ أي: ما عند الله من ثواب الطاعات، والجزاء عليها بالجنات خير من متاع الدنيا، وأبقى؛ لأنه دائم لا ينقطع، ومتاع الدنيا ينقطع بسرعة. ثم بين سبحانه لمن هذا، فقال: ﴿الذين آمنوا﴾ أي: صدقوا، وعملوا على ما يوجبه الإيمان ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي: يفوضون إليه أمورهم، ويعتمدون عليه في كل شؤونهم لا على غيره ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ الموصول في محل جر معطوف على الذين آمنوا، أو بدلاً منه، أو في محل نصب بإضمار: أعني والأول أولى، والمعنى: أن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وللذين يجتنبون. والمراد بكبائر الإثم: الكبائر من الذنوب، وقد قدمنا تحقيقها في سورة النساء. قرأ الجمهور (كبائر) بالجمع، وقرأ حمزة، والكسائي (كبير) بالإنفراد، وهو يفيد مفاد الكبائر، لأن الإضافة للجنس كاللام. والفواحش هي من الكبائر، ولكنها مع وصف كونها فاحشة كأنها فوقها، وذلك كالقتل، والزنا، ونحو ذلك. وقال مقاتل: الفواحش موجبات الحدود. وقال السدي: هي: الزنا ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ أي: يتجاوزون عن الذنب الذي أغضبهم، ويكظمون الغيظ، ويحلمون على من ظلمهم، وخص الغضب بالغفران؛ لأن استيلاءه على طبع الإنسان، وغلبته عليه شديدة، فلا يغفر عند سورة الغضب إلا من شرح الله صدره، وخصه بمزية الحلم، ولهذا أثني الله سبحانه عليهم بقوله في آل عمران ﴿والكاظمين الغيظ﴾ [آل عمران: 134] قال ابن زيد: جعل الله المؤمنين صنفين: صنفاً يعفون عن ظالمهم، فبدأ بذكرهم، وصنفاً ينتصرون من ظالمهم، وهم الذين سيأتي ذكرهم ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾ أي: أجابوه إلى ما دعاهم إليه، وأقاموا ما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة. قال ابن زيد: هم: الانتصار بالمينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة، وأقاموا الصلاة لمواقيتها بشروطها، وهيئاتها ﴿وامرهم شورى بينهم﴾ أي: يتشاورون فيما بينهم، ولا يعجلون، ولا ينفردون بالرأي، والشورى مصدر شاورته مثل البشرى، والذكرى. قال الضحاك: هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله ﷺ،

انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل، فقال ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ أي: يتعنون عليهم ابتداء كذا قال الأكثر. وقال ابن جريج: أي: يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم ﴿ويبيعون في الأرض بغير الحق﴾ أي: يعملون في النفوس، والأموال بغير الحق كذا قال الأكثر. وقال مقاتل: بغيرهم عملهم بالمعاصي، وقيل: يتكبرون، ويتجبرون. وقال أبو مالك: هو ما يرجوه أهل مكة أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الذين يظلمون الناس، وهو مبتدأ، وخبره ﴿لهم عذاب اليم﴾ أي: لهم بهذا السبب عذاب شديد الألم. ثم رغب سبحانه في الصبر، والعفو، فقال: ﴿ولمن صبر وغفر﴾ أي: صبر على الآذى، وغفر لمن ظلمه، ولم ينتصر، والكلام في هذه اللام، ومن كالكلام في، ولمن انتصر ﴿إن تلك﴾ الصبر، والمغفرة ﴿لن عزم الأمور﴾ أي: أن تلك منه، فحذف لظهوره، كما في قولهم:

السمن منون بدرهم

قال مقاتل: من الأمور التي أمر الله بها. وقال الزجاج: الصابر يؤتى بصبره ثواباً، فالرغبة في الثواب أتم عزماً. قال ابن زيد: إن هذا كله منسوخ بالجهاد، وأنه خاص بالمشركين. وقال قتادة: إنه عام، وهو ظاهر النظم القرآني ﴿ومن يضل الله فما له من ولي من بعده﴾ أي: فماله من أحد يلي هدايته، وينصره، وظاهر الآية العموم، وقيل: هي خاصة بمن أعرض عن النبي ﷺ، ولم يعمل بما نجاه إليه من الإيمان بالله، والعمل بما شرعه، والأول أولى.

وقد أخرج أحمد، وابن راهويه، وابن منيع، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم عن علي بن أبي طالب قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حثنا بها رسول الله ﷺ: «وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير»، وسافسرها لك يا علي: ما أصابكم من مرض، أو عقوبة، أو بلاء في الدنيا فيما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا، فإله أكرم من أن يعود بعد عفوهِ». وأخرج عبد بن حميد، والترمذي عن أبي موسى، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصيب عبداً نكبة، فما فوقها أو دونها إلا بنّنب، وما يعفو الله عنه أكثر، وقرا «وما أصابكم» الآية». وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في الكفارات، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عمران بن حصين: أنه دخل عليه بعض أصحابه، وكان قد ابتلي في جسده، فقال: إنا لنبتش لك لما نرى فيك، قال: فلا تبتش لما ترى، فإن ما ترى بنّنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية «وما أصابكم من مصيبة» إلى آخرها. وأخرج أحمد عن معاوية بن أبي سفيان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته». وأخرج ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما

عثرة قدم، ولا اختلاج عرق، ولا خيش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر». وأخرج ابن المنذر من طريق عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿فيظللن رواكد على ظهره﴾ قال: يتحرّكن، ولا يجريان في البحر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: رواكد قال: وقرفاً ﴿أو يوبقهن﴾ قال: يهلكهن. وأخرج النسائي، وابن ماجه، وابن مردويه عن عائشة، قالت: «دخلت علي زينب، وعندي رسول الله ﷺ، فاقبلت علي، فسببتني، فردعها النبي ﷺ، فلم تنته، فقال لي: سببها، فسببتها حتى جف ريقها في فمها، ووجه رسول الله ﷺ يتهلل سروراً». وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قالا من شيء، فعلى البائى حتى يعتدي المظلوم»، ثم قرأ ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي: ألا ليقيم من كان له على الله أجر، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا». وذلك قوله: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾. وأخرج البيهقي عن انس، عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: من كان له أجر على الله، فليدخل الجنة مرتين، فيقوم من عفا عن أخيه، قال الله: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾».

وَرَأَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِّن سَبِيلِ اللَّهِ وَمَن يَعْرِضُونَ عَلَيْهَا غُصُوبِينَ مِّنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِّن طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْغُصُوبَ الَّذِينَ حِمِزُوا أَنفُسَهُمْ وَأَقْلَبَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّثَبِّتٍ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنَ أُولِيَاءٍ يُنصِرُونَهُمْ ذُرِّيَّةُ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ بَلًا مَّرَدًّا لَّكُمْ يَوْمَ آتَاكُمْ مِّن لَّحْمٍ يَّوْمِيٍّ وَمَا لَكُم مِّن تَكْبِيرٍ ﴿١٢﴾ فَإِن أَعْرَضُوا فَأَنزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ حَيْطًا إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْإِلْقَافُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَذَهِقَ بِهَا وَرَانَ نُصُوبَهُمْ سَيِّئَةً يَمَا فَدَّتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿١٣﴾ اللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكْرَ ﴿١٤﴾ أَوْ يُؤْخِضُهُمْ ذُكْرًا وَرَأَيْنَاهُ يَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿١٥﴾ وَمَا كَانَ لَشَيْءٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِّن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رُسُلًا فَيُخَوِّجُ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ ﴿١٦﴾ وَكَذَلِكَ أَرْجَيْنَا إِلَيْكَ رُحْمًا مِّن أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَنَافِلَةً لَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿وترى للظالمين﴾ أي: المشركين المكذبين بالبعث ﴿لما راوا العذاب﴾ أي: حين نظروا النار، وقيل: نظروا ما أعد الله لهم عند الموت ﴿يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ أي: هل إلى الرجعة إلى الدنيا من طريق ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل﴾ أي:

ساكنين متواضعين عند أن يعرضوا على النار لما لحقهم من الذل، والهوان، والضمير في عليها راجع إلى العذاب، وأنته، لأن العذاب هو: النار، وقوله: ﴿يَعْرَضُونَ﴾ في محل نصب على الحال، لأن الرؤية بصرية، وكذلك خاشعين، ومن الذل يتعلّق بخاشعين أي: من أجله ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ من هي التي لا ابتداء الغاية أي: يبتدئ نظره إلى النار، ويجوز أن تكون تبعية، والطرف الخفي الذي يخفي نظره كالمصبور ينظر إلى السيف لما لحقهم من الذل، والخوف، والوجل. قال مجاهد: ﴿مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: ذليل قال: وإنما ينظرون بقلوبهم؛ لأنهم يحشرون عمياً، وعين القلب طرف خفي. وقال قتادة، وسعيد بن جبير، والسدي، والقرظي: يسارقون النظر من شدة الخوف. وقال يونس: إن «من» في ﴿مِنْ طَرَفٍ﴾ بمعنى الباء أي: ينظرون بطرف ضعيف من الذل، والخوف، وبه قال الأخفش ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أن الكاملين في الخسران هم: هؤلاء الذين جمعوا بين خسران النفس، والأهلين في يوم القيامة. أما خسارتهم لأنفسهم، فلكونهم صاروا في النار معذبين بها، وأما خسارتهم لأهلهم، فلأنهم إن كانوا معهم في النار، فلا ينتفعون بهم، وإن كانوا في الجنة، فقد حيل بينهم، وبينهم، وقيل: خسران الأهل: أنهم لو آمنوا لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين ﴿إِلَّا إِنْ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ هذا يجوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين. ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه أي: هم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب، وأنصار ينصرونهم في ذلك الموطن من دون الله، بل هو المتصرف سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿وَمَنْ يَضِللِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: من طريق يسلكها إلى النجاة. ثم أمر سبحانه عباده بالاستجابة له، وحذرهم، فقال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: استجيبوا دعوته لكم إلى الإيمان به، وبكتبه، ورسله من قبل أن يأتي يوم لا يقدر أحد على رده، وبغعه، على معنى: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد، أو لا يرده الله بعد أن حكم به على عباده، ووعدهم به، والمراد به: يوم القيامة، أو يوم الموت ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ مُلْجَا يَوْمٍ﴾ تلجئون إليه، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي: إنكار، والمعنى: ما لكم من إنكار يومئذ، بل تعرفون بذنوبكم. وقال مجاهد ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي: ناصر ينصركم، وقيل: النكير بمعنى: المنكر، كالإليم بمعنى: المؤلم أي: لا تجدون يومئذ منكراً لما ينزل بكم من العذاب قاله الكلبي، وغيره، والأول أولى. قال الزجاج: معناه: أنهم لا يقدرُونَ أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ أي: حافظاً تحفظ أعمالهم حتى تحاسبهم عليها، ولا موكلاً بهم رقيباً عليهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: ما عليك إلا البلاغ لما أمرت بالبلاغ، وليس

عليك غير ذلك، وهذا منسوخ بآية السيف ﴿وَإِنَّا إِذَا أَنْقَضْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ رَحْمَةِ فَرحٍ بِهِ﴾ أي: إذا أعطيناه رخاء، وصحة، وغنى فرح بها بطراً، والمراد بالإنسان: الجنس، ولهذا قال ﴿وَإِنْ تَصْبِهِمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بلاء، وشدة، ومرض ﴿بِمَا قَسَمْتَ لِي فِيهِمْ﴾ من الذنوب ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه، غير شكور له عليها، وهذا باعتبار غالب جنس الإنسان، ثم ذكر سبحانه سعة ملكه، ونفاذ تصرفه، فقال: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف فيهما بما يريد، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق ﴿يَهْبِ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً﴾ ويهب لمن يشاء الذكور. قال مجاهد، والحسن، والضحاك، وأبو مالك، وأبو عبيدة: يهب لمن يشاء إناءً لا تذكور معهم، ويهب لمن يشاء ذكوراً لا إنثاء معهم. قيل: وتعريف الذكور بالآلف، واللام للدلالة على شرفهم على الإنثاء، ويمكن أن يقال: إن التقديم للإنثاء قد عارض ذلك، فلا دلالة في الآية على المفاضلة بل هي مسوقة لمعنى آخر. وقد دل على شرف الذكور قوله سبحانه: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ بما فضل الله [النساء: 34]، وغير ذلك من الأدلة الدالة على شرف الذكور على الإنثاء، وقيل: تقديم الإنثاء لكثرة نسلها بالنسبة إلى الذكور، وقيل: لتطبيب قلوب آبائهم، وقيل لغرض ذلك مما لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿وَإِنْ يَرَوْهُ كُفْرًا﴾ أي: يقن بين الإنثاء، والذكور، ويجعلهم أزواجاً فيهبهما جميعاً لبعض خلقه. قال مجاهد: هو أن تلد المرأة غلاماً، ثم تلد جارية، ثم تلد غلاماً، ثم تلد جارية. وقال محمد ابن الحنفية: هو: أن تلد توءماً غلاماً، وجارية. وقال القتيبي: التزويج هنا هو الجمع بين البنين، والبنات تقول العرب: زُوِّجَتْ إبلي: إذا جمعت بين الصغار، والكبار، ومعنى الآية أوضح من أن يختلف في مثله، فإنه سبحانه أخبر أنه يهب لبعض خلقه إنثاءً، ويهب لبعض ذكوراً، ويجمع لبعض بين الذكور، والإنثاء ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لا يولد له ذكر، ولا أنثى، والعقيم الذي لا يولد له، يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم، وعقمت المرأة تعقم عقماً، وأصله اللقطع، ويقال: نساء عقم، ومنه قول الشاعر: عقم النساء فما يلدن شبابه إن النساء بمثله عقم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَبِيرٌ﴾ أي: بليغ العلم عظيم القدرة ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: ما صح لفرد من أقراد البشر أن يكلمه الله بوجه من الوجوه إلا بأن يوحي إليه، فيلهمه، ويقف ذلك في قلبه قال مجاهد: نفث نفث في قلبه، فيكون إلهاماً منه كما أوحى إلى أم موسى، وإلى إبراهيم في نبح ولده ﴿وَإِنْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى، يريد أن كلامه يسمع من حيث لا يرى، وهو: تمثيل بحال الملك المحتجب الذي يكلم خواصه من وراء حجاب ﴿وَإِنْ يَرْسَلْ رَسُولًا فَيُوحِي بِلَاغِهِ﴾ أي: يرسل ملكاً، فيوحي ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله، وتيسيره ما يشاء أن يوحي إليه. قال الزجاج: المعنى: أن

بضمّ التاء، وكسر الدالّ من أهدي، وفي قراءة أبي (وإنك لتدعو)، ثم بيّن الصراط المستقيم بقوله: ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾، وفي هذه الإضافة للصراط إلى الاسم الشريف من التعظيم له، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى، ومعنى: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾: أنه المالك لذلك، والمتصرف فيه ﴿إلا إلى الله تصير الأمور﴾ أي: تصير إليه يوم القيامة لا إلى غيره جميع أمور الخلائق، وفيه وعيد بالبعث المستلزم للمجازاة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ قال: نليل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن محمد بن كعب قال: يسارقون النظر إلى النار. وأخرج ابن مردويه، وابن عساكر عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ قال: «من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى، لأن الله قال: ﴿يهب لمن يشاء إنثاء﴾ ويهب لمن يشاء الذكور». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ قال: الذي لا يولد له. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ قال: إلا أن يبعث ملكاً يوحي إليه من عنده، أو يلهمه، فيخفف في قلبه، أو يكلمه من وراء حجاب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وكنكلاً أوحيناً إليك روحاً من أمرنا﴾ قال: القرآن. وأخرج أبو نعيم في الدلائل، وابن عساكر عن عليّ قال: «قيل لمحمد ﷺ: هل عبت وثناً قط؟ قال: لا، قالوا: فهل شربت خمرًا قط؟ قال: لا، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب، ولا الإيمان، وبذلك نزل القرآن ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾».

تفسير سورة الزخرف

قال القرطبي: هي: مكية بالإجماع. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة حمّ الزخرف بمكة. قال مقاتل: إلا قوله: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ [الزخرف: 45] يعني: فإنها نزلت بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْكَبِيرِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبِيَاءِ لَدِينًا لَمَعْلَمٍ حَكِيمٌ ۝ أَفَنُضِرُّبُكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ۝ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَسَدًا مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ حَقَّقَهُنَّ الْمُرِيدُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ

كلام الله للبشر: إما أن يكون بإلهام يلهمهم، أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم. وتقدير الكلام: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي وحياً، أو يكلمه من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً. ومن قرأ ﴿يرسل﴾ رفعاً أراد، وهو يرسل، فهو ابتداء، واستئناف اهـ قرأ الجمهور بنصب (أو يرسل)، وينصب (فيوحي) على تقدير أن، وتكون أن، وما دخلت عليه معطوفين على وحياً، ووحياً في محل الحال، والتقدير: إلا موحياً، أو مرسلًا، ولا يصح عطف، أو يرسل على أن يكلمه لأنه يصير التقدير: وما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً، وهو فاسد لفظاً، ومعنى. وقد قيل: في توجيه قراءة الجمهور غير هذا مما لا يخلو عن ضعف، وقرأ نافع (أو يرسل) بالرفع، وكذلك (فيوحي) بإسكان الياء على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أو هو يرسل كما قال الزجاج، وغيره، وجملة ﴿إنه عليّ حكيم﴾ تعليل لما قبلها أي: متعال عن صفات النقص، حكيم في كل أحكامه.

قال المفسرون: سبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: لا تكلم الله، وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى، فنزلت ﴿وكنكلاً أوحيناً إليك روحاً من أمرنا﴾ أي: وكالوحي الذي أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحيناً إليك روحاً من أمرنا، المراد به: القرآن، وقيل: النبوة. قال مقاتل: يعني: الوحي بأمراءنا، ومعناه: القرآن، لأنه يهتدى به، ففيه حياة من موت الكفر. ثم نكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحي إليه، فقال: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب﴾ أي: أي شيء هو، لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ، ولا يكتب، وذلك ادخل في الإعجاز، وادلّ على صحة نبوته، ومعنى: ﴿ولا الإيمان﴾: أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع، ولا يهتدي إلى معالمها، وخص الإيمان؛ لأنه رأسها، وأساسها، وقيل: أراد بالإيمان هنا: الصلاة. قال بهذا: جماعة من أهل العلم منهم: إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة، واحتج بقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة: 143] يعني: الصلاة، فسمّاها إيماناً. وذهب جماعة إلى أن الله سبحانه لم يبعث نبياً إلا وقد كان مؤمناً به، وقالوا: معنى الآية: ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، وقيل: كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلاً، وفي المهد. وقال الحسين بن الفضل: إنه على حذف مضاف أي: ولا أهل الإيمان، وقيل: المراد بالإيمان دين الإسلام، وقيل: الإيمان هنا عبارة عن الإقرار بكل ما كلف الله به العباد ﴿ولوكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء﴾ أي: ولكن جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك ضياءً، ولبليلاً على التوحيد، والإيمان نهدي به من نشاء هدايته ﴿ومن عباننا﴾ ونرشده إلى الدين الحق ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ قال قتادة، والسدي، ومقاتل: وإنك لتدعو إلى الإسلام، فهو: الصراط المستقيم. قرأ الجمهور (لتهدي) على البناء للفاعل. وقرأ ابن حوشب على البناء للمفعول. وقرأ ابن السميع

وَمَكَ السَّمَاءُ مَاءً يُدْرَى فَاتِّسَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مِيَّاتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ﴿٦٠﴾
وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا رَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ فَالِكِ وَالْأَنْثَى مَا تَرْكَبُونَ ﴿٦١﴾
لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَإِنَّا لَإِنَّا لَنَسْفِكُونَ ﴿٦٣﴾
وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّا لِلْإِنْسَانِ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿٦٤﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنَّمَا
يَخْلُقُ النَّبَاتَ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَاسِ ﴿٦٥﴾ وَإِذَا بَرَأَ أَحَدَهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ
مَلَأَ طَلَّ رَجْهَهُمْ مَسُودًا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴿٦٦﴾ أَوْ مَن يَنْشَوُوا فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي
الْخِصَالِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلُوا الْكَلْبَ الْإِنْسَانِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْتَاءً
أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَنَتْهُمْ سَهْدَتُهُمْ وَتَسْلَوْنَ ﴿٦٨﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا
عَبَدْتُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٩﴾

قوله: ﴿حَمَّ﴾ والكتاب المبين ﴿الكلام﴾ الكلام ها هنا في الإعراب كالكلام الذي قدّمناه في ﴿يَسَّ﴾ والقرآن الحكيم ﴿يس: 1، 2﴾، فإن جعلت حمّ قسماً كانت الواو عاطفة، وإن لم تجعل قسماً، فالواو للقسمة، وجواب القسم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾، وقال ابن الأنباري: من جعل جواب، والكتاب حمّ كما تقول: نزل، والله، وجب والله وقف على الكتاب المبين، ومعنى جعلناه أي: سميناه، ووصفناه، ولذلك تعدى إلى مفعولين. وقال السدي: المعنى: أنزلناه ﴿قُرْآنًا﴾. وقال مجاهد: قلناه. وقال سفيان الثوري: بيناه ﴿عَرِيًّا﴾، وكذا قال الزجاج أي: أنزل بلسان العرب، لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه. وقال مقاتل: لأن لسان أهل الجنة عربي ﴿لِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: جعلنا ذلك الكتاب قرآنًا عربيًا لكي تفهموه، وتتعلّقوا معانيه، وتحيطوا بما فيه. قال ابن زيد: لعلكم تتفكرون ﴿وَإِنهٗ فِي لَمْ الْكِتَابِ﴾ أي: وإن القرآن في اللوح المحفوظ ﴿لِبَيِّنَاتٍ﴾ أي: عنينا ﴿لِعَلَّيْ حَكِيمٍ﴾ رفيع القدر محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف، ولا تناقض، والجملة عطف على الجملة المقسم بها داخلة تحت معنى القسم، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها. قال الزجاج: أم الكتاب أصل الكتاب، وأصل كل شيء أمه، والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ كما قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: 21، 22] وقال ابن جريج: المراد بقوله: ﴿وَإِنهٗ﴾ أعمال الخلق من إيمان، وكفر، وطاعة، ومعصية. قال قتادة: أخبر عن منزلته، وشرفه، وفضله أي: إن كنتم به يا أهل مكة، فإنه عندنا شريف رفيع محكم من الباطل ﴿فَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ يقال: ضربت عنه، وأضربت عنه: إذا تركته، وأمست عنه، كذا قال الفراء، والزجاج، وغيرهما، وانتصاب صفحاً على المصدرية، وقيل: على الحال على معنى: اقتضرب عنكم الذكر صافحين، والصفح مصدر قولهم: صفحت عنه إذا عرضت عنه، وذلك أنك توليه صفحة وجهك، وعنقك، والمراد بالذكر هنا: القرآن، والاستفهام للإنكار، والتوبيخ. قال الكسائي: المعنى: اقتضرب عنكم الذكر طياً فلا توعظون، ولا تؤمرون. وقال مجاهد، وأبو صالح، والسدي: اقتضرب عنكم العذاب، ولا تعاقبكم على

إسرافكم، وكفركم. وقال قتادة: المعنى: أفتهلكم، ولا نأمركم، ولا ننهاكم. وروي عنه: أنه قال: المعنى: أفتمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به. وقيل: الذكر التنكير، كأنه قال: أنترك تنكيركم ﴿إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾، قرأ نافع، وحزمة، والكسائي: إن كنتم بكسر إن على أنها الشرطية، والجزء محذوف لدلالة ما قبله عليه. وقرأ الباقون بفتحها على التعليل أي: لأن كنتم قوماً منتهكين في الإسراف مصرّين عليه، واختار أبو عبيد قراءة الفتح. ثم سلى سبحانه رسوله ﷺ فقال: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ كم هي: الخبرية التي معناها التنكير، والمعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كاستهزاء قومك بك ﴿فَاهْلِكُنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي: أهلكنا قوماً أشدّ قوّة من هؤلاء القوم، وانتصاب بطشاً على التمييز أو الحال أي: باطشين ﴿وَمَضَىٰ مِثْلَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سلف في القرآن ذكرهم غير مرة. وقال قتادة: عقوبتهم، وقيل: صفتهم، والمثل: الوصف والخبر. وفي هذا تهديد شديد، لأنه يتضمن أن الأولين أهلكوا بتكذيب الرسل، وهؤلاء إن استمروا على تكذيبك والكفر بما جئت به هلكوا مثلهم ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي: لئن سألت هؤلاء الكفار من قومك من خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية؟ أقروا بأن الله خالقهنّ ولم ينكروا، وذلك أسوأ لحالهم وأشدّ لعقوبتهم، لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله وجعلوه شريكاً له، بل عمدوا إلى ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضرّ من المخلوقات وهي: الأصنام فجعلوها شركاء لله. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على عظيم نعمته على عباده وكمال قدرته في مخلوقاته فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهَادًا﴾ وهذا كلام مبتدأ غير متصل بما قبله، ولو كان متصلاً بما قبله من جملة مقول الكفار لقالوا: الذي جعل لنا الأرض مهاداً، والمهاد الفراش والبساط، وقد تقدّم بيانه، قرأ الجمهور (مهاداً) وقرأ الكوفيون (مهداً) ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طرقاً تسلكونها إلى حيث تريدون، وقيل: معاش تعيشون بها ﴿لِعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بسلوكها إلى مقاصدكم ومنافعكم ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي: بقدر الحاجة وحسباً تقتضيه المصلحة ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زراعتكم ويهدم منازلكم ويهلككم بالغرق، ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة، وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتوسيع تارة والتقتير أخرى ﴿فَنَنْشُرُهُمْ فِي بَلَدَةٍ مِّثْيَا﴾ أي: أحيينا بذلك الماء بلدة مقفرة من النبات. قرأ الجمهور (ميتاً) بالتخفيف. وقرأ عيسى وأبو جعفر بالتشديد ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ من قبوركم أي: مثل ذلك الإحياء للأرض بإخراج نباتها بعد أن كانت لا نبات بها تبعثون من قبوركم أحياء، فإن من قدر على هذا قدر على ذلك، وقد مضى بيان هذا في آل عمران والأعراف. قرأ الجمهور (تخرجون) مبنياً

بالجزاء هنا: الملائكة فإنهم جعلوهم أولاداً لله سبحانه قاله مجاهد والحسن. قال الأزهرى: ومعنى الآية: أنهم جعلوا الله من عباده نصيباً على معنى: أنهم جعلوا نصيب الله من الولدان ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر الكفران مبالغ فيه، قيل: المراد بالإنسان هنا: الكافر، فإنه الذي يجحد نعم الله عليه جحوداً بيناً. ثم أنكر عليهم هذا فقال: ﴿أَمْ لَتَأْخُذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ﴾ وهذا استفهام تقريع وتوبيخ. وأم هي: المنقطعة، والمعنى: آتخذ ربكم لنفسه البنات ﴿وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ فجعل لنفسه المفضل من الصنفين ولكم الفاضل منهما، يقال: أصفيت بكذا أي: أثرته به، وأصفيت الوث: أخلصته له، ومثل هذه الآية قوله: ﴿الْكَمِ الذَّكَرُ وَلَهُ الْإِنْثَى﴾ * تلك إذا قسمة ضيزى [النجم: 21] وقوله: ﴿أَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الإسراء: 40] وجملة وأصفاكم معطوفة على آتخذ داخلة معها تحت الإنكار. ثم زاد في تقريعهم وتوبيخهم فقال: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي بما جعله للرحمن سبحانه من كونه جعل لنفسه البنات، والمعنى: أنه إذا بشر أحدهم بأنها ولدت له بنت اغتم لذلك وظهر عليه أثره، وهو معنى قوله: ﴿ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوًى﴾ أي: صار وجهه مسوياً بسبب حنث الأنثى له حيث لم يكن الحادث له نكراً مكانها ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: شديد الحزن كثير الكرب ملوء منه. قال قتادة: حزين. وقال عكرمة: مكروب، وقيل: ساكت، وجملة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ في محل نصب على الحال. ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم فقال: ﴿أَوْمَنَ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾ معنى ينشأ: يربى، والنشوء: التربية، والحلية: الزينة، ومن في محل نصب بتقدير مقدّر معطوف على جعلوا؛ والمعنى: أو جعلوا له سبحانه من شأنه أن يربى في الزينة وهو عاجز عن أن يقوم بأمر نفسه، وإذا خوصم لا يقدر على إقامة حجته وبلغ ما يجالده به خصمه لنقصان عقله وضعف رأيه. قال المبرد: تقدير الآية: أو يجعلون له من ينشأ في الحلية أي: ينبت في الزينة. قرأ الجمهور (ينشأ) بفتح الياء وإسكان النون، وقرأ ابن عباس والضحاك، وابن وثاب، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين. واختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار الثانية أبو عبيد. قال الهروي: الفعل على القراءة الأولى لازم، وعلى الثانية متعذر. والمعنى: يربى ويكبر في الحلية. قال قتادة: قلما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. وقال ابن زيد والضحاك: الذي ينشأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة ﴿وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً﴾ الجعل هنا بمعنى القول، والحكم على الشيء كما تقول: جعلت زيداً أفضل الناس أي: قلت بذلك، وحكمت له به. قرأ الكوفيون (عباد) بالجمع، وبها قرأ ابن عباس. وقرأ الباقر (عند الرحمن) بنون ساكنة، واختار القراءة الأولى أبو عبيد، لأن الإسناد فيها أعلى، ولأن الله إنما كذبهم في قوله: إنهم بنات الله،

للمفعول، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وابن نكوان عن ابن عامر مبنياً للفاعل ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ المراد بالأزواج هنا: الأصناف، قال سعيد بن جبير: الأصناف كلها. وقال الحسن: الشتاء والصيف، والليل والنهار، والسموات والأرض، والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوان من ذكر وأنثى، وقيل: أزواج النبات، كقوله: ﴿وَأَنْثَيْتُنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: 7] و: ﴿مَنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: 7، ولقمان: 10] وقيل: ما يتقلب فيه الإنسان من خير وشر، وإيمان وكفر، والأول أولى ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البحر والبر أي: ما تركبونه ﴿لَتَسْتَوتُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ الضمير راجع إلى ما قاله أبو عبيد. وقال الفراء: أضاف الظهور إلى واحد، لأن المراد به: الجنس، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجنس فلذلك نكر، وجمع الظهور لأن المراد: ظهور هذا الجنس والاستواء: الاستعلاء أي: لتستعلوا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام ﴿ثُمَّ تَنْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا لَسْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هذه النعمة التي أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب في البحر والبر. وقال مقاتل والكلبي: هو أن يقول: الحمد لله الذي رزقني هذا وحملني عليه ﴿وَيَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أي: نلل لنا هذا المركب، وقرأ علي بن أبي طالب (سبحان من سخر لنا هذا) قال قتادة: قد علمكم كيف تقولون إذا ركبتكم، ومعنى ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مَقْرِنِينَ﴾ ما كنا له مطيقين، يقال: أقرن هذا البعير: إذا أطلقه. وقال الأخفش وأبو عبيدة: مقرنين ضابطين، وقيل: مماثلين له في القوة، من قولهم هو: قرن فلان إذا كان مثله في القوة، وأشد قطرب قول عمرو بن معديكرب: لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائيث بمقرنيننا وقال آخر:

ركبتكم صعبتي أشروحين ولستم للصعاب بمقرنيننا والمراد بالأنعام هنا الإبل خاصة، وقيل الإبل والبقرة، والأول أولى ﴿وَأَنَا إِلَى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون إليه، وهذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة. ثم رجع سبحانه إلى نكر الكفار الذين تقدّم نكرهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ قال قتادة: أي: عدلاً، يعني: ما عبد من دون الله. وقال الزجاج والمبرد: الجزء هنا البنات، والجزء عند أهل العربية البنات، يقال: قد أجزأت المرأة: إذا ولدت البنات، ومنه قول الشاعر:

إن أجزأت حزة يوماً فلا عجب قد تجزئ الحزة المنكار لحيناً وقد جعل صاحب الكشف تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير، وصرح بأنه مكتوب على العرب. ويجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج والمبرد، وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتي من قوله: ﴿أَمْ لَتَأْخُذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً﴾ وقيل: المراد

فإنها في مصحفى (عند الرحمن) قال: فامحها، واكتبها ﴿عباد الرحمن﴾.

أَمْ أَلَيْسَ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَمِمْ بِهِ سُبْحَانَ ﴿١٦﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا
ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أَثَرٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٧﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي
قَرْنٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُنْزَوِّمًا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أَثَرٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ
مُفْتَدُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ أَوَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِتْنَةً بَأْهَذَا إِذَا جَاءَ لَكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ
بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كُفْرًا ﴿١٩﴾ فَانْقَضَتْ مِنْهُمْ فَاتُزَرَ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَأةٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢١﴾
إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيُجِيبُنِي ﴿٢٢﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٢٣﴾ بَلْ سَمِعَتْ حَلَقًا شَرًّا إِذْ جَاءَهُمُ الْخَبْرُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﴿٢٤﴾
وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْخَبْرُ قَالُوا هَذَا يَسِيرٌ وَإِنَّا بِهَذَا كُفْرًا ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا
الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَالِمٍ ﴿٢٦﴾ أَفَرَأَيْتُمْ رَحِمَتَ رَبِّكَ إِذْ أَنْزَلَ
بَيْنَهُمْ مِيثَاقَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفَعَلْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَسَخَّذَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُلْطَانًا وَرَحِمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ
النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُشِيرَ إِلَيْهِمْ سُقُفًا مِّنْ فَضَاءٍ
وَمَنَازِلَ عَلَيْهِمْ ظُلُمُورٌ ﴿٢٨﴾ وَلِيُشِيرَ إِلَيْهِمْ أَنْوَارًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يُتَكَلَّمُونَ ﴿٢٩﴾
وَرُحْرُقًا وَإِنْ كُنَّ لَكُمْ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ
لِنَتَقِينَ ﴿٣٠﴾

قوله: ﴿إِنَّمَا آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أم هي المنقطعة أي: بل أعطيناهم كتاباً من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله ﴿فهم به مستمسكون﴾ يأخذون بما فيه، ويحتجون به، ويجعلونه لهم دليلاً، ويحتمل: أن تكون أم معاملة لقوله: ﴿أشهدوا﴾ [الزخرف: 19]، فتكون متصلة، والمعنى: أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتاباً إلخ. وقيل: إن الضمير في ﴿مَنْ قَبْلِهِ﴾ يعود إلى آتيناهم أي: أم آتيناهم كتاباً من قبل آتيناهم ينطق بصحة ما يدعونه، والأول أولى. ثم بين سبحانه: أنه لا حجة بأيديهم، ولا شبهة، ولكنهم اتبعوا آباءهم في الضلالة، فقال: ﴿هَبِلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾، فاعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم، ومعنى على أمة: على طريقة، ومذهب، قال أبو عبيد: هي الطريقة، والدين، وبه قال قتادة، وغيره. قال الجوهري: والأمة: الطريقة، والدين، يقال: فلان لا أمة له أي: لا دين له، ولا نحلة، ومنه قول قيس بن الخطيم:

كنا على أمة أبائنا ونقتدي بالأول الأول
وقول الآخر:

وهل يستوي ذا أمة وكفور

وقال الفراء، وقطرب: على قبلة. وقال الأخفش: على استقامة، وأنشد قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يائمن ذرأته وهوطائع
قرأ الجمهور (أمة) بضم الهمزة، وقرأ مجاهد، وقاتدة، وعمر بن عبد العزيز بكسرهما. قال الجوهري: والإمة

فأخبرهم أنهم عباد، ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿هَبِلْ عباد مكرمون﴾ [الأنبياء: 26]، واختار أبو حاتم القراءة الثانية، قال: وتصديق هذه القراءة قوله: ﴿إِنَّ الذِّنِّينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: 206]، ثم وبخهم، وقرعهم، فقال: ﴿أشهدوا خلقهم﴾ أي: أحضروا خلق الله إليهم، فهو من الشهادة التي هي: الحضور، وفي هذا تهكم بهم، وتجهيل لهم. قرأ الجمهور (أشهدوا) على الاستفهام بدون واو. وقرأ نافع (أو أشهدوا). وقرأ الجمهور (ستكتب شهادتهم) بضم التاء الفوقية، وبناء الفعل للمفعول، ورفع شهادتهم، وقرأ السلمي، وابن السميع، وهبيرة عن حفص بالنون، وبناء الفعل للمفاعل، ونصب شهادتهم، وقرأ أبو رجاء (شهاداتهم) بالجمع، والمعنى: سنكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في ديوان أعمالهم، لنجازيهم على ذلك ﴿ويسالون﴾ عنها يوم القيامة ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبادناهم﴾ هذا فن آخر من فنون كفرهم بالله جاءوا به للاستهزاء، والسخرية، ومعناه: لو شاء الرحمن في زعمكم ما عبادنا هذه الملائكة، وهذا كلام حق يراد به باطل، وقد مضى بيانه في الأنعام، فبين سبحانه جهلهم بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما لهم بما قالوه من أن الله لو شاء عدم عبادتهم للملائكة ما عبدوهم من علم، بل تكلموا بذلك جهلاً، وأرسلوا بما صورته صورة الحق باطلاً، وزعموا أنه إذا شاء، فقد رضي. ثم بين انتفاء علمهم بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما هم إلا يكذبون، فيما قالوا، ويتمحلون تحلاً باطلاً. وقيل: الإشارة بقوله: ﴿لذلك﴾ إلى قوله: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾. قاله قتادة، ومقاتل، والكلبي، وقال مجاهد، وابن جريج أي: ما لهم بعبادة الأوثان من علم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إن أول ما خلق الله من شيء القلم، وأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، والكتاب عنده، ثم قرأ ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾. وأخرج ابن مردويه نحوه عن أنس مرفوعاً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿افْتَضَرَبَ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ قال: أحببتم أن يصفح عنكم، ولم تفعلوا ما أمرتم به. وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر ركب راحلته، ثم كبر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ قال: مطيقين. وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿وَأَوْفَىٰ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيقَةِ﴾ قال: هو: النساء فرق بين زيهن، وزِي الرجال، ونقصهن من الميراث، وبالشهادة، وأمرهن بالقعدة، وسماهن الخوالف. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن سعيد بن جببر قال: كنت أقرأ هذا الحرف (الذين هم عباد الرحمن إناثاً)، فسألت ابن عباس فقال: عباد الرحمن؟ قلت:

رخصة له لا يحل أن يتبعه غيره عليها، ولا يجوز له العمل بها، وقد وجدوا الدليل الذي لم يجده، وما أنا أوجنكموه في كتاب الله، أو فيما صحَّ من سنة رسوله، وذلك أهدى لكم مما وجبتم عليه آبائكم، قالوا: لا نعمل بهذا، ولا نسمع لك، ولا طاعة، ووجدوا في صدورهم أعظم الحرج من حكم الكتاب، والسنة، ولم يسلموا ذلك، ولا أذعنوا له، وقد وهب لهم الشيطان عصي يتوكلون عليها عند أن يسمعو من يدعوهم إلى الكتاب، والسنة، وهي: أنهم يقولون: إن إمامنا الذي قلناه، واقتنينا به أعلم منك بكتاب الله، وسنة رسوله، وذلك لأن أذهانهم قد تصوّرت من يقتنون به تصوّراً عظيماً بسبب تقدّم العصر، وكثرة الاتباع، وما علموا أن هذا منقوض عليهم منقوض به في وجوههم، فإنه لو قيل لهم: إن في التابعين من هو أعظم قدراً، وأقدم عصراً من صاحبكم، فإن كان لتقدم العصر، وجلالة القدر مزية حتى توجب الاقتداء، فتعالوا حتى أريكم من هو أقدم عصراً، وأجل قدراً، فإن أبيتم ذلك، ففي الصحابة رضي الله عنهم من هو أعظم قدراً من صاحبكم علماً، وفضلاً، وجلالة قدر، فإن أبيتم ذلك، فما أنا أهلكم على من هو أعظم قدراً، وأجل خطراً، وأكثر أتباعاً، وأقدم عصراً، وهو: محمد بن عبد الله نبينا، ونبيكم، ورسول الله إلينا، وإليكم، فتعالوا، فهذه سنته موجودة في دفاتر الإسلام، وبواوينه التي تلقفتها جميع هذه الأمة قرناً بعد قرن، وعصراً بعد عصر، وهذا كتاب ربنا خالق الكل، ورازق الكل، وموجد الكل بين أظهرنا موجود في كل بيت، وبيد كل مسلم لم يلحقه تغيير، ولا تبديل، ولا زيادة، ولا نقص، ولا تحريف، ولا تصحيف، ونحن، وأنتم ممن يفهم الفاظه، ويتعقل معانيه، فتعالوا لناخذ الحق من معننه، ونشرب صفو الماء من منبعه، فهو أهدى مما وجبتم عليه آبائكم، قالوا: لا نسمع، ولا طاعة، إما بلسان المقال، أو بلسان الحال، فتبهر هذا، وتامله إن بقي فيك بقية من إنصاف، وشعبة من خير، ومزعة من حياء، وحصّة من لين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقد أوضحت هذا غاية الإيضاح في كتابي الذي سميت «أدب الطلب ومنتهى الأرب»، فأرجع إليه إن رمت أن تنجلي عنك ظلمات التعصب، وتتقشع لك سحائب التقليد **﴿فانتقمنا منهم﴾** وذلك الانتقام ما أوقعه الله بقوم نوح، وعاد، وثمود **﴿فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾** من تلك الأمم، فإن آثارهم موجودة **﴿وإن قال إبراهيم لأبيه وقومه﴾** أي: وانكر لهم وقت قوله لأبيه، وقومه الذين قلدوا آبائهم، وعبوا الأصنام **﴿إنني براء مما تعبدون﴾** البراء مصدر نعت به للمبالغة، وهو يستعمل للواحد، والمثنى، والمجموع، والمنكر، والمؤنث، قال الجوهري: وتبرأت من كذا، وأنا منه براء، وخلاء، لا يثنى، ولا يجمع لأنه مصدر في الأصل، ثم استثنى خالقه من البراءة، فقال: **﴿إلا الذي فطرني﴾** أي: خلقتني **﴿فإنه سيهدين﴾** سيرشدني لدينه، ويثبتني على الحق، والاستثناء إما منقطع أي: لكن الذي فطرني، أو متصل من عموم ما، لأنهم كانوا يعبدون الله،

بالكسر: النعمة، والإمة: أيضاً لغة في الأمة. ومنه قول عدي بن زيد:

ثم بعد الفلاح والملك والأمة
وارتهم هناك قبور

ثم أخبر سبحانه أن غير هؤلاء من الكفار قد سبقهم إلى هذه المقالة، وقال بها، فقال: **﴿وكنك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾** مترفوها: أغنياؤها، ورؤساؤها، قال قتادة: مقتدون متبعون، ومعنى الاهتداء، والاقتداء متقارب، وخصص المترفين تنبيهاً على أن التمتع هو سبب إهمال النظر. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يردّ عليهم، فقال: **﴿قل أولو جئتمكم بأهدى مما وجبتم عليه آبائكم﴾** أي: اتتبعون آبائكم، ولو جئتمكم بدين أهدى من دين آبائكم، قال الزجاج: المعنى: قل لهم اتتبعون ما وجبتم عليه آبائكم، وإن جئتمكم بأهدى منه. قرأ الجمهور (قل أولو جئتمكم)، وقرأ ابن عامر، وحفص (قال أو لو جئتمكم)، وهو حكاية لما جرى بين المنذرين، وقومهم أي: قال كل منذر من أولئك المنذرين لأمته، وقيل: إن كلا القراءتين حكاية لما جرى بين الأنبياء، وقومهم، كأنه قال: لكل نبي قل، بدليل قوله: **﴿قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾**، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد، وقبحه، فإن هؤلاء المقلدة في الإسلام إنما يعملون بقول أسلافهم، ويتبعون آثارهم، ويقتنون بهم، فإذا رام الداعي إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة، أو يدفعهم عن بدعة قد تمسكوا بها، وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير، ولا حجة واضحة، بل بمجرد قال، وقيل لشبهة داحضة، وحجة زائفة، ومقالة باطلة، قالوا: بما قاله المترفون من هذه الملل: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون، أو بما يلاقي معناه معنى ذلك، فإن قال لهم الداعي إلى الحق: قد جمعنا الملة الإسلامية، وشملنا هذا الدين المحمدي، ولم يتعبدنا الله، ولا تعبدكم، وتعبد آبائكم من قبلكم إلا بكتابه الذي أنزله على رسوله، وبما صحَّ عن رسوله، فإنه المبين لكتاب الله الموضح لمعانيه، الفارق بين محكمه، ومتشابهه، فتعالوا ردّ ما تنازعنا فيه إلى كتاب الله، وسنة رسوله كما أمرنا الله بذلك في كتابه بقوله: **﴿فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول﴾** [النساء: 59]، فإن الردّ إليهما أهدى لنا، ولكم من الردّ إلى ما قاله أسلافكم، ودرج عليه آبائكم، نفروا نفور الوحوش، ورموا الداعي لهم إلى ذلك بكل حجر، ومنر، كأنهم لم يسمعوا قول الله سبحانه: **﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾** [النور: 51]، ولا قوله: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾** [النساء: 65]، فإن قال لهم القائل: هذا العالم الذي تقتنون به، وتتبعون أقواله هو مثلكم في كونه متعبداً بكتاب الله، وسنة رسوله، مطلوباً منه ما هو مطلوب منكم، وإذا عمل برأيه عند عدم وجدانه للدليل، فذلك

ورفع درجات بعضهم على بعض، فكيف لا يقتنعون بقسمته في أمر النبوة، وتفويضها إلى من يشاء من خلقه. قال مقاتل: يقول: أبائهم مفاتيح الرسالة، فيضعونها حيث شاءوا؟ قرأ الجمهور (معيشتهم) بالإفراد، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن (معاشهم) بالجمع ﴿و﴾ معنى ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾: أنه فاضل بينهم، فجعل بعضهم أفضل من بعض في الدنيا بالرزق، والرياسة، والقوة، والحرية، والعقل، والعلم، ثم نكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض، فقال: ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ أي: ليستخدم بعضهم بعضاً، فيستخدم الغني الفقير، والرئيس المرعوس، والقوي الضعيف، والحر العبد، والعقل من هو بونه في العقل، والعالم الجاهل، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا، وبه تتم مصالحهم، وينتظم معاشهم، ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين، فجعل البعض محتاجاً إلى البعض، لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا هذا. قال السدي، وابن زيد: سخرنا خولنا، وخدمنا يسخر الأغنياء الفقراء، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض. وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضاً، وقيل: هو من السخرية التي بمعنى: الاستهزاء، وهذا، وإن كان مطابقاً للمعنى اللغوي، ولكنه بعيد من معنى القرآن، ومنافٍ لما هو مقصود السياق ﴿ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾ يعني بالرحمة: ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة، وقيل: هي النبوة لأنها المراد بالرحمة المتقدمة في قوله: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ ولا مانع من أن يراد كل ما يطلق عليه اسم الرحمة إما شمولاً أو بدلاً، ومعنى ﴿مما يجمعون﴾: ما يجمعونه من الأموال، وسائر متاع الدنيا. ثم بين سبحانه حقارة الدنيا عنده، فقال: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ أي: لولا أن يجتمعوا على الكفر ميلاً إلى الدنيا، وزخرفها ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة﴾ جمع الضمير في بيوتهم، وأفرده في يكفر باعتبار معنى من لفظها، ولبيوتهم بدل اشتغال من الموصول، والسقف جمع سقف، قرأ الجمهور بضم السين، والقاف كرهن، ورهن. قال أبو عبيدة: ولا ثالث لهما. وقال الفراء: هو جمع سقيف نحو كتيب، وكتب، ورغيف، ورغف، وقيل: هو جمع سقوف، فيكون جمعاً للجمع. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بفتح السين، وإسكان القاف على الإفراد، ومعناه الجمع لكونه للجنس. قال الحسن: معنى الآية: لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا، وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عند الله، وقال بهذا أكثر المفسرين. وقال ابن زيد: لولا أن يكون الناس أمة واحدة في طلب الدنيا، واختيارهم لها على الآخرة. وقال الكسائي: المعنى: لولا أن يكون في الكفار غني، وفقير، وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها ﴿ومعارج عليها

والأصنام، وإخباره بأنه سيهنيه جزماً لثقتة بالله سبحانه، وقوة يقينه ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ الضمير في جعلها عائذ إلى قوله: ﴿إلا الذي فطرني﴾، وهي بمعنى التوحيد كأنه قال: وجعل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم، وهم: ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله سبحانه، وفاعل جعلها إبراهيم، وذلك حيث وصاهم بالتوحيد، وأمرهم بأن يدينوا به كما في قوله: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ [البقرة: 132] الآية، وقيل: الفاعل هو الله عز وجل أي: وجعل الله عز وجل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم، والعقب من بعد. قال مجاهد، وقتادة: الكلمة لا إله إلا الله لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة. وقال عكرمة: هي: الإسلام. قال ابن زيد: الكلمة هي: قوله: ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ [البقرة: 131]، وجملة ﴿لعلهم يرجعون﴾ تحليل للجعل أي: جعلها باقية رجاء أن يرجع إليها من يشرك منهم بدعاء من يوحد. وقيل: الضمير في لعلهم راجع إلى أهل مكة أي: لعل أهل مكة يرجعون إلى دينك الذي هو: دين إبراهيم. وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: فإنه سيهدين لعلهم يرجعون، وجعلها إلخ. قال السدي: لعلهم يتوبون، فيرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله. ثم نكر سبحانه نعمته على قريش، ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم، فقال: ﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم﴾ أضرب عن الكلام الأول إلى نكر ما متعهم به من الأنفس، والأهل، والأموال، وأنواع النعم، وما متع به آباءهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة، فاغترؤا بالمهلة، واكبوا على الشهوات ﴿حتى جاءهم الحق﴾ يعني: القرآن ﴿ورسول مبين﴾ يعني: محمداً ﷺ، ومعنى مبين: ظاهر الرسالة واضحا، أو مبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فلم يجيبوه، ولم يعملوا بما أنزل عليه. ثم بين سبحانه ما صنعه عند مجيء الحق، فقال: ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإننا به كافرون﴾ أي: جاحدون، فسموا القرآن سحراً، وجحدوه. واستحقروا رسول الله ﷺ ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ المراد بالقريتين: مكة، والطائف، وبالرجلين: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف كذا قال قتادة، وغيره. وقال مجاهد، وغيره: عتبة بن ربيعة من مكة، وعمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف، وقيل غير ذلك. وظاهر النظم أن المراد: رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه واسع المال مسود في قومه والمعنى: أنه لو كان قرأناً لنزل على رجل عظيم من عظماء القريتين، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ يعني: النبوة، أو ما هو أعم منها، والاستفهام للإنكار. ثم بين أنه سبحانه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا، فقال: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾، ولم نفوض ذلك إليهم، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء بل الحكم لله وحده، وإذا كان الله سبحانه هو الذي قسم بينهم أرزاقهم،

وسرر فضة، وزخرفاً وهو: الذهب. وأخرج الترمذي وصححه، وابن ماجه، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء».

وَمَنْ يَمْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيصٌ لَمْ يَسْطِنَا فَهُوَ لَمْ يَرَيْنِ ﴿١٧﴾ وَإِنَّهُمْ لِمُصَدِّقُونَ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَرْثَةِ قِيْلَ الْقَرِيْنِ ﴿١٩﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَيْوَمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْمَنَاقِبِ مُتَشَارِكُونَ ﴿٢٠﴾ أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُونَ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي السُّبُلَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ هَٰذِهِ يَكُفًا فَإِنَّهُم مُّثْقَلُونَ ﴿٢١﴾ أَوْ قُرْبَىٰكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّثَوَّرُونَ ﴿٢٢﴾ فَاسْتَسْقِ بِالَّذِي أُوتِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَبِيرٍ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَاكَ وَسَوْفَ تُنَادُونَ ﴿٢٤﴾ وَرَسُولٌ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولِنَا أَجْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُبَدِّلُونَ ﴿٢٥﴾

قوله: ﴿وَمَنْ يَعِشُ عَنْ نَكَرِ الرَّحْمَنِ﴾ يقال: عشوت إلى النار: قصديتها، وعشوت عنها أعرضت عنها، كما تقول: عدلت إلى فلان، وعدلت عنه، وملت إليه، وملت عنه، كذا قال الفراء، والزجاج، وأبو الهيثم، والأزهري. فالمعنى: ومن يعرض عن نكر الرحمن. قال الزجاج: معنى الآية: أن من أعرض عن القرآن، وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلين يعاقبه الله بشيطان يقبضه له حتى يضلّه، ويلازمه قريباً له، فلا يهتدي مجازاة له حين أثر الباطل على الحق البين. وقال الخليل: العشو النظر الضعيف، ومنه:

لنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره إذا الريح هبت والمكان جنيب والظاهر أن معنى البيت: القصد إلى النار لا النظر إليها ببصر ضعيف كما قال الخليل، فيكون دليلاً على ما قدّمنا من أنه يأتي بمعنى: القصد، وبمعنى: الإعراض، وهكذا ما أنشده الخليل مستشهداً به على ما قاله من قول الحطيئة:

متى تآتت تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد فإن الظاهر أن معناه: تقصد إلى ضوء ناره، لا تنظر إليها ببصر ضعيف. ويمكن أن يقال: إن المعنى في البيتين: المبالغة في ضوء النهار، وسطوعها، بحيث لا ينظرها الناظر إلا كما ينظر من هو معشي البصر لما يلحق بصره من الضعف عند ما يشاهده من عظم وقودها. وقال أبو عبيدة، والأخفش: إن معنى: ﴿وَمَنْ يَعِشُ﴾، ومن تظلم عينه، وهو نحو قول الخليل، وهذا على قراءة الجمهور (من يعش) بضم الشين من عشا يعشو. وقرأ ابن عباس، وعكرمة (ومن يعش) بفتح الشين، يقال: عشي الرجل يعشى عشيًا إذا عمى، ومنه قول الأعشى:

رأت رجالاً غايب السوافسين ومختلف الخلق أعشى ضريرا وقال الجوهري: والعشا مقصور مصدر الأعشى وهو: الذي لا يبصر بالليل، ويبصر بالنهار، والمرأة عشواء. وقرئ (يعشو) بالواو على أن «من» موصولة غير متضمنة معنى الشرط. قرأ الجمهور (نقيض له شيطاناً) بالنون وقرأ

يظهرون ﴿المعارج: الدرج جمع معراج، والمعراج السلم. قال الأخفش: إن شئت جعلت الواحدة معرج، ومعرج مثل: مرقاة، ومرقاة، والمعنى: فجعلنا لهم معارج من فضة عليها يظهرون أي: على المعارج يرتقون، ويصعدون، يقال ظهرت على البيت أي: علوت سطحه، ومنه قول النابغة:

بلغنا السماء مجداً وفخراً وسودداً وإننا لنرجون فوق ذلك مظهرها أي: مصعداً ﴿وليبيتهم أبواباً وسرراً﴾ أي: وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة، وسرراً من فضة ﴿عليها يتكئون﴾ أي: على السرر، وهو جمع سرير، وقيل: جمع أسرة، فيكون جمعاً للجمع، والاتكاء، والتوكؤ: التحامل على الشيء، ومنه ﴿اتوكأ عليها﴾ [طه: 18] واتكأ على الشيء، فهو: متكئ، والموضع متكئ، والزخرف: الذهب. وقيل: الزينة أعم من أن تكون ذهباً، أو غيره. قال ابن زيد: هو: ما يتخذ الناس في منازلهم من الأمتعة، والأثاث. وقال الحسن: النقوش، وأصله الزينة، يقال: زخرفت الدار أي: زينتها، ﴿ووه﴾ انتصاب ﴿زخرفاً﴾ بفعل مقتر أي: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً، أو بنزع الخافض أي: أبواباً، وسرراً من فضة، ومن ذهب، فلما حنف الخافض انتصب. ثم أخبر سبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به في الدنيا، فقال: ﴿وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا﴾ قرأ الجمهور (لما) بالتخفيف، وقرأ عاصم، وحزمة، وهاشم عن ابن عامر بالتشديد. فعلى القراءة الأولى تكون إن هي المخففة من الثقيلة، وعلى القراءة الثانية هي النافية، ولما بمعنى إلا أي: ما كل ذلك إلا شيء يتمتع به في الدنيا. وقرأ أبو رجاء بكسر اللام من (لما) على أن اللام للعلة، وما موصولة، والعائد محذوف أي: للذي هو متاع ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ أي: لمن اتقى الشرك، والمعاصي، وآمن بالله وحده، وعمل بطاعته، فإنها الباقية التي لا تفسى، ونعيمها الدائم الذي لا يزول.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس ﴿إننا وجينا آباءنا على أمة﴾ قال: على نين. وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿وجعلها كلمة باقية﴾ قال: لا إله إلا الله ﴿في عقبه﴾ قال: عقب إبراهيم ولده. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عنه أيضاً: أنه سئل عن قول الله: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ ما القريتان؟ قال: الطائف، ومكة، قيل: فمن الرجلان؟ قال: عمير بن مسعود، وخيار قريش. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً قال: يعني بالقريتين: مكة والطائف، والعظيم: الوليد بن المغيرة القرشي، وحبيب بن عمير الثقفي. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: يعنون أشرف من محمد: الوليد بن المغيرة من أهل مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من أهل الطائف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿لولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ الآية يقول: لولا أن نفعل الناس كلهم كفاراً لجعلت لبيوت الكفار سقفاً من فضة، ومعارج من فضة، وهي: درج عليها يصعدون إلى الغرف،

كثير من المفسرين: قد أراه الله ذلك يوم بدر. وقال الحسن، وقتادة: هي: في أهل الإسلام يريد ما كان بعد النبي ﷺ من الفتن، وقد كان بعد النبي ﷺ فتنة شديدة، فأكرم الله نبيه ﷺ، وذهب به، فلم يره في أمته شيئاً من ذلك، والأول أولى **﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك﴾** أي: من القرآن، وإن كُتِبَ به من كُتِبَ **﴿إنك على صراط مستقيم﴾** أي: طريق واضح، والجملة تعليل لقوله **﴿فاستمسك﴾** **﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾** أي: وإن القرآن لشرف لك، ولقومك من قريش إذ نزل عليك، وأنت منهم بلغتك، ولغتهم، ومثله قوله: **﴿لقد أنزلنا إليك كتاباً فيه نكرمك﴾** [الأنبياء: 10]، وقيل: بيان لك، ولأمتك فيما لكم إليه حاجة. وقيل: تذكرة تذكرون بها أمر الدين، وتعملون به **﴿وسوف تسئلون﴾** عما جعله الله لكم من الشرف، كذا قال الزجاج، والكليبي، وغيرهما. وقيل: يسئلون عما يلزمهم من القيام بما فيه، والعمل به **﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا لجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾** قال الزهري، وسعيد بن جبير، وابن زيد: إن جبriel قال ذلك للنبي ﷺ لما أسري به. فالمراد: سؤال الأنبياء في ذلك الوقت عند ملاقاته لهم، وبه قال جماعة من السلف. وقال المبرد، والزجاج، وجماعة من العلماء: إن المعنى: وأسأل أمم من قد أرسلنا. وبه قال مجاهد، والسدي، والضحاك، وقتادة، وعطاء، والحسن ومعنى الآية على القولين: سؤالهم هل أذن الله بعبادة الأوثان في ملة من الملل، وهل سوغ ذلك لأحد منهم؟ والمقصود: تقرير مشركي قريش بأن ما هم عليه لم يأت في شريعة من الشرائع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشاً قالت: قيسوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه، فقيضوا لابي بكر طلحة بن عبيد الله، فاتاه، وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلام تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللات، والعزى، قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: أولاد الله. قال: وما العزى؟ قال: بنات الله. قال أبو بكر: فمن أهمهم؟ فسكت طلحة، فلم يجبه، فقال لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأنزل الله **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾** الآية. وثبت في صحيح مسلم، وغيره أن مع كل إنسان قريناً من الجن. وأخرج ابن مردويه عن علي في قوله: **﴿إما نذهبن بك﴾** قال: ذهب نبيه ﷺ، وبقيت نغمته في عذوه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿أو نرينك الذي وعدناهم﴾** قال: يوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طرق عنه في قوله: **﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾** قال: شرف لك، ولقومك. وأخرج ابن عدي، وابن مردويه عن علي، وابن عباس قالا: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل بمكة، ويعددهم الظهور، فإذا قالوا: لمن الملك بعنك؟ أمسك، فلم يجبه بشيء؛ لأنه لم يؤمر في

السلمي، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، وعصمة عن عاصم، والأعمش بالتحية مبنياً للفاعل، وقرأ ابن عباس بالتحية مبنياً للمفعول ورفع شيطان على النياية **﴿فهو له قرين﴾** أي: ملازم لا يفارقه، أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه، بل يتبعه في جميع أموره، ويطيعه في كل ما يوسوس به إليه **﴿وإنهم ليسونهم عن السبيل﴾** أي: وإن الشياطين الذين يقضهم الله لكل أحد ممن يعشو عن نكر الرحمن كما هو معنى من ليسونهم أي: يحولون بينهم، وبين سبيل الحق، ويمنعونهم منه، ويوسوسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنون صدق ما يوسوسون به، وهو معنى قوله: **﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾** أي: يحسب الكفار أن الشياطين مهتدون، فيطيعونهم، أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم في انفسهم مهتدون **﴿حتى إذا جاءنا﴾** قرأ الجمهور بالتثنية أي: الكافر، والشيطان المقارن له، وقرأ أبو عمرو، وحمره، والكسائي، وحفص بالافراد أي: الكافر، أو جاء كل واحد منها **﴿قال﴾** الكافر مخاطباً للشيطان **﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾** أي: بعد ما بين المشرق، والمغرب، فغلب المشرق على المغرب. قال مقاتل: يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة من مشرق أقصر يوم في السنة، والأول أولى، وبه قال الفراء **﴿فبئس القرين﴾** المخصوص بالذم محذوف أي: أنت أيها الشيطان **﴿ولن ينفعكم اليوم﴾** هذا حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة **﴿إذ ظلمتم﴾** أي: لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، وقيل: إن «إذ» بدل من اليوم؛ لأنه تبين في ذلك اليوم أنهم ظلموا أنفسهم في الدنيا. قرأ الجمهور (أنكم في العذاب مشتركون) بفتح أن على أنها، وما بعدها في محل رفع على الفاعلية أي: لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب. قال المفسرون: لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب؛ لأن لكل أحد من الكفار، والشياطين الحظ الأوفر منه. وقيل: إنها للتعليل لنفي النفع أي: لأن حَقَّكم أن تشاركوا أنتم، وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا، ويقوي هذا المعنى قراءة ابن عامر على اختلاف عليه فيها بكسر إن. ثم نكر سبحانه أنها لا تنفع الدعوة، والوعظ من سبقت له الشقاوة، فقال: **﴿فأنت تسمع الصم أو تهدي العمي﴾** الهمزة لإتكار التعجب أي: ليس لك ذلك، فلا يضيق صدرك إن كفروا، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، وإخباره أنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، وقوله: **﴿ومن كان في ضلال مبين﴾** عطف على العمي أي: إنك لا تهدي من كان كذلك، ومعنى الآية: أن هؤلاء الكفار بمنزلة الصم الذين لا يعقلون ما جئت به، وبمنزلة العمي الذين لا يبصرونه لإفراطهم في الضلالة، وتمكنهم من الجهالة **﴿فإما نذهبن بك﴾** بالموت قيل أن ينزل العذاب بهم **﴿فإنا منهم منتقمون﴾** إما في الدنيا، أو في الآخرة، وقيل: المعنى: نخرجنك من مكة **﴿أو نرينك الذي وعدناهم﴾** من العذاب قبل موتك **﴿فإنا عليهم مقتدرون﴾** متى شئنا عذابهم. قال

﴿ادع لنا ربك بما عهد عنك﴾ أي: بما أخبرتنا من عهده إليك إنا إذا أمانا كشف عنا العذاب، وقيل: المراد بالعهد: النبوة، وقيل: استجابة الدعوة على العموم ﴿إننا لمهتدون﴾ أي: إذا كشف عنا العذاب الذي نزل بنا، فنحن مهتدون فيما يستقبل من الزمان، ومؤمنون بما جئت به ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فدعا موسى ربه، فكشف عنهم العذاب، فلما كشف عنهم العذاب، فاجتوا وقت نكثهم للعهد الذي جعلوه على أنفسهم من الاهتداء، والنكث: النقض ﴿ونادى فرعون في قومه﴾ قيل: لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إلى موسى، فجمعهم، ونادى بصوته فيما بينهم، أو أمر منادياً ينادي بقوله: ﴿يا قوم ليس لي ملك مصر﴾ لا ينازعني فيه أحد، ولا يخالفني مخالف ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ أي: من تحت قصري، والمراد: أنهار النيل، وقال قتادة: المعنى تجري بين يدي، وقال الحسن: تجري بأمرى أي: تجري تحت أمري. وقال الضحاك: أراد بالأنهار: القواد، والرؤساء، والجبابة، وأنهم يسرون تحت لوائه. وقيل: أراد بالأنهار: الأموال، والأول أولى. والواو في «وهذه» عاطفة على ملك مصر، و﴿تجري﴾ في محل نصب على الحال، أو هي واو الحال، واسم الإشارة مبتدأ، والأنهار صفة له، وتجري خبره، والجملة في محل نصب ﴿أفلا تبصرون﴾ ذلك، وتستدلون به على قوة ملكي، وعظيم قدري، وضعف موسى عن مقارمتي ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين﴾ أم هي المنقطعة المقترنة ببل التي للإضراب دون الهمة التي للإنكار أي: بل أنا خير قال أبو عبيدة: أم بمعنى بل، والمعنى: قال فرعون لقومه: بل أنا خير. وقال الفراء: إن شئت جعلتها من الاستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله، وقيل: هي زائدة، وحكى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون أم زائدة، والمعنى: أنا خير من هذا. وقال الأخفش: في الكلام حذف، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؟ ثم ابتداءً فقال: ﴿أنا خير﴾، وروي عن الخليل، وسيبويه نحو قول الأخفش، ويؤيد هذا: أن عيسى الثقفي، ويعقوب الحضرمي وقفا على ﴿أم﴾ على تقدير أم تبصرون، فحذف لدلالة الأول عليه، وعلى هذا، فتكون أم متصلة لا منقطعة، والأول أولى، ومثله قول الشاعر الذي أنشده الفراء:

بنت مثل قرن الشمس في ريق الضحى وصورتها أم أنت في العين أملح
أي: بل أنت. وحكى الفراء أن بعض القراء قرأ (أما أنا خير) أي: الست خيراً من هذا الذي هو مهين أي: ضعيف حقير ممتهن في نفسه لا عز له ﴿ولا يكاد يبين﴾ الكلام لما في لسانه من العقدة، وقد تقدم بيانه في سورة طه ﴿قلولا ألقى عليه أسورة من ذهب﴾ أي: فهلا حلى بأسورة الذهب إن كان عظيماً، وكان الرجل فيهم إذا سَوَّوْهُ سَوَّوْهُ يسوار من ذهب، وطَوَّقُوْهُ بطوق من ذهب. قرأ الجمهور (أسورة) جمع أسورة جمع سوار. وقال أبو عمرو بن العلاء: واحد الأسورة، والأساور، والأساوير

نلك بشيء حتى نزلت ﴿ولنه لذكر لك ولقومك﴾، فكان بعد إذا سئل قال: قریش، فلا يجيبونه حتى قبلته الانتصار على ذلك. وأخرج عبد بن حميد عن طريق الكلبي عن ابن عباس في قوله: ﴿ولسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ قال: أسال الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنَّا بِصُكُونٍ ﴿١٦٢﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَأَعْلَمَنَّ بِرُجُومِهِمْ ﴿١٦٣﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الْكَاذِبُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٦٥﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْعُرُونِي أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّمَّنْهُمْ وَهَٰؤُلَاءِ أَتُفَرِّقُونَنِي عَنْ قَوْمِي هَٰؤُلَاءِ هُم مَّهِينٌ وَلَا يَكَادُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ إِلَّا نَقِيرٌ أَنَا أَتُفَرِّقُونَ ﴿١٦٦﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلِي وَلَا يُكَادُّ بَيْنِي قُلُوبًا أَلَيْكَ أَسْرُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٍ مِمَّا الْكَافِرِينَ ﴿١٦٧﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ فَاتَّخَذُوا لَهُمْ سُلُوكًا مِّمَّنْ يُفَرِّقُونَ ﴿١٦٨﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٩﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَنَكَلًا لِّلْآخَرِينَ ﴿١٧٠﴾

لما أعلم الله سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عدوه، وذكر اتفاق الأنبياء على التوحيد اتبعه بذكر قصة موسى، وفرعون، وبيان ما نزل بفرعون وقومه من النعمة، فقال: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾، وهي: التسع التي تقدم بيانها ﴿إلى فرعون وملائته﴾ الملا: الأشراف ﴿فقال إني رسول رب العالمين﴾ أرسلني إليكم ﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ استهزاء وسخرية، وجواب لما هو إذا الفجائية، لأن التقدير: فاجتوا وقت ضحكهم ﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ أي: كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها، وأعظم قدراً مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها، وقيل: المعنى: إن الأولى تقتضي علماً، والثانية تقتضي علماً، فإذا ضمت الثانية إلى الأولى ازداد الوضوح، ومعنى الآخرة بين الآيات: أنها متشاكلة متناسبة في دلالتها على صحة نبوة موسى كما يقال: هذه صاحبة هذه أي: هما قرينتان في المعنى. وجملة ﴿إلا هي أكبر من أختها﴾ في محل جر صفة لآية، وقيل: المعنى: أن كل واحدة من الآيات إذا انفردت ظن الظان أنها أكبر من سائر الآيات، ومثل هذا قول الفائل:

من تلق منهم نقل لا قيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري
﴿ولخنتاهم بالعذاب لعلمهم يرجعون﴾ أي: بسبب تكذيبهم بتلك الآيات، والعذاب هو المذكور في قوله: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات﴾ [الأعراف: 130] الآية، وبين سبحانه أن العلة في أخذه لهم بالعذاب هو: رجاء رجوعهم، ولما عاينوا مجاءهم به من الآيات البينات، والدلالات الواضحات ظنوا أن ذلك من قبيل السحر ﴿وقالوا يا أيه الساحر﴾، وكانوا يسمون العلماء سحرة، ويوقرون السحرة، ويعظمونهم، ولم يكن السحر صفة ذم عندهم. قال الزجاج: خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالساحر

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ سَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا
الْأَمْثَلُ خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ
إِلَّا عَبْدٌ أُتِمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ
مَلَكًا فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُوكَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّمَا لِمَكِّ لَسَاعَةً فَلَا مَمْتَرٌ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ
هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾
وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي
تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعِذُّوهُ هَذَا
صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٤﴾ فَاتَّخَذَ الْأَعْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوِيلَ لَلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ الْبُرْءِ هَلْ يُنْظَرُونَ ﴿٦٥﴾ إِلَّا لَسَاعَةً أَلَيَّهِمْ بَنَاءٌ وَمَنْ لَا
يُنْصَرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِغَضَبٍ لِّبَعْضِ عَدُوِّ إِلَّا الْمُتُوبِينَ ﴿٦٧﴾
يَوْمَئِذٍ لَا حَاقَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنتَ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ اتَّخَذُوا الْجِنَّةَ أَشْرًا وَآزَوَجَهُمْ شَجَرَاتُ
يُطَاكٍ عَلَيْهِمْ بِمِصَاكٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابُ وَفِيهَا مَا شَتَّى الْجَنَّةِ الْأُخْرَى وَلَكِنَّ
الْأَعْيُنَ رَأَتْهَا وَأَشْرَ فِيهَا خَيْلُوتٌ ﴿٧٠﴾ وَلَئِكَ الْجِنَّةُ الَّتِي أَوْفَرْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَمْلُكُونَ ﴿٧١﴾ لَكُمْ فِيهَا فَنَافِئُهُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾

لما قال سبحانه: ﴿وَأَسْأَلُ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا
أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45] تعلق
المشركون بامر عيسى، وقالوا: ما يريد محمد إلا أن نتخذ
إلهاً كما اتخذ النصارى عيسى ابن مريم، فأنزل الله:
﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ كذا قال قتادة، ومجاهد.
وقال الواحدي: أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في
مجادلة ابن الزبيري مع النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى:
﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:
98]، فقال ابن الزبيري: خصمتك، ورب الكعبة، اليس
النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيزاً، وبنو ملبح
الملائكة؟ ففرح بذلك من قوله، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ
لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 101]،
ونزلت هذه الآية المذكورة هنا، وقد مضى هذا في سورة
الأنبياء. ولا يخفك أن ما قاله ابن الزبيري من دفع من أصله،
وباطل برمته، فإن الله سبحانه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾
[الأنبياء: 98]، ولم يقل: ومن تعبدون حتى يدخل في ذلك
العقلاء كالنصارى، وعزير، والملائكة ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ
يَصُدُّونَ﴾ أي: إذا قومك يا محمد من تلك المثل المضروب
يصدون أي: يضجون، ويصيحون فرحاً بذلك المثل
المضروب، والمراد بقومه هنا: كفار قريش. قرأ الجمهور
(يصدون) يكسر الصاد، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي
بضمها. قال الكسائي، والفراء، والزجاج، والأخفش: هما
لغتان، ومعناها: يضجون قال الجوهري: صَدَّ يَصْدُ صَدِيداً
أي: ضج. وقيل: إنه بالضم الإعراض، وبالكسر من الضجيج،
قاله قطرب. قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحق
لقال: إذا قومك عنه يصدون. وقال الفراء: هما سواء منه،
وعنه. وقال أبو عبيدة: من ضم، فمعناه: يعدلون، ومن كسر،

أسوار، وهي لغة في سوار. وقرأ حفص (أسورة) جمع
سوار، وقرأ أبي: أساور، وابن مسعود أساور. قال مجاهد:
كانوا إذا سَوَّوْا رجلاً سَوَّوْهُ بسوارين، وطوقوه بطوق
ذهب علامة لسيادته ﴿وَإِذَا جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾
معطوف على القي، والمعنى: هلا جاء معه الملائكة متتابعين
مقتارين إن كان صادقاً يعينونه على أمره، ويشهدون له
بالنبوة، فأوهم اللعين قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على
هيئة الجبابرة، ومحفوفين بالملائكة ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ
فَاطَاعُوهُ﴾ أي: حملهم على خفة الجهل، والسفه بقوله،
وكيده، وغروره، فاطاعوه فيما أمرهم به، وقبلوا قوله، وكنبوا
موسى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة
الله. قال ابن الأعرابي: المعنى: فاستجمل قومه، فاطاعوه
بخفة أحلامهم، وقلة عقولهم، يقال: استخفه الفرح أي:
أزعجه، واستخفه أي: حمله، ومنه: ﴿وَلَا يَسْتَخْفِكَ الَّذِينَ لَا
يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60]، وقيل: استخف قومه أي: وجدهم
خفاف العقول، وقد استخف بقومه، وقهرهم حتى اتبعوه
﴿فَلَمَّا أَسْفَوْنَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ قال المفسرون: أغضبونا،
والأسف الغضب، وقيل: أشد الغضب، وقيل: السخط، وقيل:
المعنى: أغضبوا رسلنا. ثم بين العذاب الذي وقع به الانتقام،
فقال: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في البحر ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ
سُلْفًا﴾ أي: قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار في استحقاق
العذاب. قرأ الجمهور (سُلْفًا) بفتح السين، واللام جمع سالف
كخدم، وخادم، ورصد، وراصد، وحرس، وحارس، يقال:
سلف يسلف: إذا تقدّم، ومضى. قال الفراء، والزجاج:
جعلناهم متقدّمين؛ ليتعظ بهم الآخرون، وقرأ حمزة،
والكسائي (سُلْفًا) بضم السين، واللام. قال الفراء: هو: جمع
سليف، نحو سرر، وسرير. وقال أبو حاتم: هو: جمع سلف
نحو خشب، وخشب. وقرأ علي، وابن مسعود، وعلقمة، وأبو
واثل، والنخعي، وحמיד بن قيس بضم السين، وفتح اللام
جمع سلفة، وهي: الفرقة المتقدمة نحو غرف، وغرفة، كذا
قال النضر بن شميل ﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ أي: عبرة،
وموعظة لمن يأتي بعدهم، أو قصة عجيبة تجري مجرى
الأمثال.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَكادُ
يُبَيِّنُ﴾ قال: كانت بموسى لغة في لسانه. وأخرج ابن
جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿فَلَمَّا أَسْفَوْنَا﴾ قال: أسخطونا.
وأخرج عنه أيضاً أسفونا قال: أغضبونا، وفي قوله:
﴿سُلْفًا﴾ قال: أهواء مختلفة. وأخرج أحمد، والطبراني،
والبيهقي في الشعب، وابن أبي حاتم عن عتبة بن عامر: أن
رسول الله ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا شَاءَ، وَهُوَ
مَقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ لَهُ، وَقَرَأَ ﴿فَلَمَّا
أَسْفَوْنَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾». وأخرج ابن
المنذر، وابن أبي حاتم عن طارق بن شهاب قال: كنت عند
عبد الله، فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن،
وحسرة على الكافر، فلما أسفونا انتقمنا منهم.

فمعناه: **«وقالوا ءآلهتنا خير أم هو؟ أي: ءآلهتنا خير أم المسيح؟ قال السدي، وابن زيد: خاصموه، وقالوا: إن كان كل من عبد غير الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى، وعزير، والملائكة. وقال قتادة: يعنون محمداً أي: ءآلهتنا خير أم محمد؟ ويقوي هذا قراءة ابن مسعود: ءآلهتنا خير أم هذا. قرأ الجمهور بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، وقرأ الكوفيون، ويعقوب بتحقيقها **«ها ضربوه لك إلا جدلاً»** أي: ما ضربوا لك هذا المثل في عيسى إلا ليجالوك، على أن جدلاً منتصب على العلة، أو مجالين على أنه مصدر في موضع الحال، وقرأ ابن مقسم (جدلاً) **«بل هم قوم خصمون»** أي: شديداً الخصومة كثير اللد عظيمو الجدل. ثم بين سبحانه أن عيسى ليس رباً، وإنما هو عبد من عباده اختصه بنبوته، فقال: **«إن هو إلا عبد أنعمنا عليه»** بما أكرمناه به **«وجعلناه مثلاً لبيئ إسرائيل»** أي: آية، وعبرة لهم يعرفون به قدرة الله سبحانه، فإنه كان من غير أب، وكان يحيي الموتى، ويبري الأكمه والابرس، وكل مريض **«ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون»** أي: لو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة في الأرض يخلفون أي: يخلفونكم فيها. قال الأزهرى: ومن قد تكون للبدل كقوله: **«لجعلنا منكم»** يريد بدلاً منكم. وقيل: المعنى: لو نشاء لجعلنا من بني آدم ملائكة، والأول أولى. ومقصود الآية: أنا لو نشاء لاسكننا الملائكة الأرض وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا. وقيل: معنى **«يخلفون»**: يخلف بعضهم بعضاً **«وإنه لعلم للساعة»** قال مجاهد، والضحاك، والسدي، وقاتادة: إن المراد المسيح، وإن خروجه مما يعلم به قيام الساعة لكونه شرطاً من أشراطها، لأن الله سبحانه ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج النجاش من أعلام الساعة. وقال الحسن وسعيد بن جبير: المراد القرآن، لأنه يدل على قرب مجيء الساعة، وبه يعلم وقتها وأحوالها وأحوالها، وقيل المعنى: أن حدوث المسيح من غير أب وإحياء للموتى دليل على صحة البعث. وقيل: الضمير لمحمد ﷺ، والأول أولى. قرأ الجمهور (لعلم) بصيغة المصدر جعل المسيح علماً مبالغة لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله، وقرأ ابن عباس، وأبو هريرة، وأبو مالك النخعي، وقاتادة، ومالك بن دينار، والضحاك، وزيد بن علي بفتح العين واللام أي: خروجه علم من أعلامها، وشرط من شروطها، وقرأ أبو نضرة وعكرمة: (وإنه للعلم) بلامين مع فتح العين واللام أي: للعلامة التي يعرف بها قيام الساعة **«فلا تمترن بها»** أي: فلا تشكن في وقوعها ولا تكذب بها، فإنها كائنة لا محالة **«ولتبعون هذا صراط مستقيم»** أي: اتبعوني فيما أمركم به من التوحيد وبطالن الشرك، وفرائض الله التي فرضها عليكم، هذا الذي أمركم به وأدعوكم إليه طريق قيم موصل إلى الحق. قرأ الجمهور بحذف الياء من (اتبعون) وصلاً ووقفاً، وكذلك قرءوا بحذفها**

في الحالين في (اطيعون)، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلاً ووقفاً فيهما، وقرأ أبو عمرو وهي: رواية عن نافع بحذفها في الوصل دون الوقف **«ولا يصتنكم الشيطان»** أي: لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم فيمنعكم تلك من اتباعي، فإن الذي دعوتكم إليه هو دين الله الذي اتفق عليه رسله وكتبه. ثم علل نهيمهم عن أن يصدهم شيطان ببيان عداوته لهم فقال: **«إنه لكم عدو مبين»** أي: مظهر لعداوته لكم غير متحاش عن ذلك ولا متكتم به كما يدل على ذلك ما وقع بينه وبين آدم وما ألزم به نفسه من إغواء جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين **«ولما جاء عيسى بالبينات»** أي: جاء إلى بني إسرائيل بالمعجزات الواضحة والشرائع. قال قتادة: البينات هنا: الإنجيل **«قال قد جئكم بالحكمة»** أي النبوة، وقيل: الإنجيل، وقيل: ما يرغب في الجميل ويكف عن القبيح **«ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه»** من أحكام التوراة. وقال قتادة: يعني: اختلاف الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى. قال الزجاج: الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه، فبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم. وقال أبو عبيدة: إن البعض هنا بمعنى الكل كما في قوله: **«يصبكم بعض الذي ينعكم»** [غافر: 28] وقال مقاتل: هو كقوله: **«ولاحل لكم بعض الذي حرّم عليكم»** [آل عمران: 50] يعني: ما أحل في الإنجيل مما كان محرماً في التوراة كلحم الإبل والشحم من كل حيوان، وصيد السمك يوم السبت واللام في **«ولأبين لكم»** معطوفة على مقدر كانه قال: قد جئكم بالحكمة لأعلمكم إياها ولأبين لكم. ثم أمرهم بالتقوى والطاعة فقال: **«فاتقوا الله»** أي: اتقوا معاصيه **«واطيعون»** فيما أمركم به من التوحيد والشرائع **«إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه»** هذا بيان لما أمرهم بأن يطيعوه فيه **«هذا صراط مستقيم»** أي: عبادة الله وحده والعمل بشرائعه **«فلا تختلف الأحزاب من بينهم»**. قال مجاهد، والسدي: الأحزاب هم: أهل الكتاب من اليهود، والنصارى. وقال الكلبي، ومقاتل: هم فرق النصارى اختلفوا في أمر عيسى. قال قتادة: ومعنى **«من بينهم»**: أنهم اختلفوا فيما بينهم، وقيل: اختلفوا من بين من بعث إليهم من اليهود والنصارى، والأحزاب هي: الفرق المتحزبة **«فويل للذين ظلموا»** من هؤلاء المختلفين، وهم الذين أشركوا بالله ولم يعملوا بشرائعه **«من عذاب يوم اليم»** أي: اليم عذابه وهو يوم القيامة **«هل ينظرون إلا الساعة»** أي: هل يرتقب هؤلاء الأحزاب وينتظرون إلا الساعة **«أن تأتيهم بغتة»** أي: فجأة **«وهم لا يشعرون»** أي: لا يفتنون بذلك، وقيل: المراد بالأحزاب: الذين تحزبوا على النبي ﷺ وكتبوه، وهم المرابون بقوله: **«هل ينظرون إلا الساعة»** والأول أولى **«الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو»** أي: الأخلاء في الدنيا المتحابون فيها يوم تأتيهم الساعة بعضهم

مشاهدتها، تقول لَدَ الشيء يلدُ لِدَانًا، ولِدَانَةً، إذا وجده لِنِدَاءٍ والتَّأَنَّى به، وفي مصحف عبد الله بن مسعود (تشتبهه الأنفس وتلذذه الأعين) ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا تموتون، ولا تخرجون منها ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم يوم القيامة هذه المقالة أي: صارت إليكم كما يصير الميراث إلى الورث بما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة، واسم الإشارة مبتدأ، والجنة صفتها، والتي أورثتموها صفة للجنة، والخبر بما كنتم تعملون، وقيل: الخبر الموصول مع صلته، والأول أولى ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ الفاكهة معروفة، وهي: الثمار كلها رطبها، ويابسها أي: لهم في الجنة سوى الطعام، والشراب فاكهة كثيرة الأنواع، والأصناف ﴿مِنْهَا تَكُلُونَ﴾ من تبعيضية، أو ابتدائية، وقَدَمَ الجار لأجل الفاصلة.

وقد أخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ قال لقريش: إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير، قالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً، وعبداً من عباد الله صالحاً، وقد عبثته النصراني؟ فإن كنت صادقاً، فإنه كآلهتهم، فأنزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصْنَتُونَ﴾ قلت: وما يصنئون؟ قال: يضجون ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلْمَسَاعَةِ﴾ قال: خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: 58]. وقد ورد في ذم الجدل بالباطل أحاديث كثيرة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: «أن المشركين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: أرايت ما نعبد من دون الله أين هم؟ قال: في النار، قالوا: والشمس، والقمر؟ قال: والشمس، والقمر قالوا: فعيسى ابن مريم قال: قال الله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾». وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، ومسند، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني من طرق عنه في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلْمَسَاعَةِ﴾ قال: خروج عيسى قبل يوم القيامة. وأخرجه الحاكم، وابن مردويه عنه مرفوعاً. وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام، وقلت الأنساب، وذمت الأخوة إلا الأخوة في الله، وذلك قوله: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وحמיד بن زنجويه في ترمغيه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ قال: خليلان مؤمنان، وخليتان كافران توفي أحد المؤمنين، فبشر بالجنة،

لبعض عدو أي: يعادي بعضهم بعضاً، لأنها قد انقطعت بينهم العلائق واشتغل كل واحد منهم بنفسه، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخلاء أسباباً للعذاب فصاروا أعداء. ثم استثنى المتقين فقال: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة، لأنهم وجدوا تلك الخلقة التي كانت بينهم من أسباب الخير والثواب فبقيت خلقتهم على حالها ﴿يَا عِبَادَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله بهذه المقالة فيذهب عند ذلك خوفهم ويرتفع حزنهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الموصول يجوز أن يكون نعتاً لعبادي، أو بدلاً منه، أو عطف بيان له، أو مقطوعاً عنه في محل نصب على المدح، أو في محل رفع بالابتداء وخبره ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ على تقدير: يقال لهم ادخلوا الجنة. والأول أولى، وبه قال الزجاج. قال مقاتل: إذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد: يا عبادي لا خوف عليكم، فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم، فيقال: الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فينكس أهل الأوثان رؤوسهم غير المسلمين. قرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو (يا عبادي) بإثبات الياء ساكنة وصلًا ووقفًا، وقرأ أبو بكر وزر بن حبيش بإثباتها وفتحها في الحالين، وقرأ الباقر بحذفها في الحالين ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَازْوَاجُكُمْ﴾ المراد بالازواج: نسائهم المؤمنات، وقيل: قرناؤهم من المؤمنين، وقيل: زوجاتهم من الحور العين ﴿تَحْبِرُونَ﴾ تكرمون، وقيل: تنعمون، وقيل: تفرحون، وقيل: تسرّون، وقيل: تعجبون، وقيل: تلتذذون بالسماع، والأولى تفسير ذلك بالفرح والسرور الناشئين عن الكرامة والنعمة ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ الصحف جمع صحيفة وهي: القصعة الواسعة العريضة. قال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة، وهي تشعب عشرة، ثم الصحيفة، وهي تشعب خمسة، ثم المكيلة وهي تشعب الرجلين والثلاثة، والمعنى: أن لهم في الجنة أطعمة يطاف عليهم بها في صحاف الذهب ﴿وَوَلَّهُمْ فِيهَا أَنْشُرَةٌ يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِهَا فِي الدِّهَانِ﴾ وهي جمع كوب. قال الجوهري: الكوب كوز لا عروة له، والجمع: أكواب. قال الأعشى:

صريفية طيب طعمها لها زبد يسين كوب وإن
وقال آخر:

متكئاً تصفق أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب
قال قتادة: الكوب المنور القصير العنق القصير العروة، والإبريق المستطيل العنق الطويل العروة. وقال الأخفش: الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها. وقال قطرب: هي الأباريق التي ليست لها عرى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَبِهُهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ قرأ الجمهور (تشتبه) (تشتبه) (تشتبه) (تشتبه) بإثبات الضمير العائد على الموصول، والمعنى: ما تشتهيه أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة والأشربة ونحوهما مما تطلبه النفس وتهواه كائنًا ما كان، وتلذذ الأعين من كل المستلذذات التي تستلذ بها وتطلب

على انه خبر كان، والضمير ضمير فصل. وقرأ أبو زيد النحوي (الظالمون) بالرفع على أن الضمير مبتدأ، وما بعده خبره، والجملة خبر كان ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ﴾ أي: نادى المجرمون هذا النداء، ومالك هو: خازن النار. قرأ الجمهور (يا مالِك) بدون ترخيم. وقرأ عليّ، وابن مسعود، ويحيى بن وثاب، والأعمش (يا مال) بالترخيم ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ بالموت توسلوا بمالك إلى الله سبحانه؛ ليسأله لهم أن يقضي عليهم بالموت؛ ليستريحوا من العذاب ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُونُونَ﴾ أي: مقيمون في العذاب، قيل: سكت عن إجابته ثمانين سنة، ثم أجابه بهذا الجواب، وقيل: سكت عنهم ألف عام، وقيل: مائة سنة، وقيل: أربعين سنة ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام الله سبحانه، ويحتمل أن يكون من كلام مالك، والأوّل أظهر؛ والمعنى: إنا أرسلنا إليكم الرسل، وأنزلنا عليهم الكتب، فدعوكم، فلم تقبلوا، ولم تصفّقوا، وهو معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لا يقبلونه، والمراد بالحق: كل ما أمر الله به على السنن رسله، وأنزله في كتبه. وقيل: هو خاص بالقرآن. قيل: ومعنى أكثركم: كلكم. وقيل: أراد الرؤساء، والقادة، ومن عداهم أتباع لهم ﴿إِذَا أُبْرِمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مَبْرُمُونَ﴾ أم هي: المنقطعة التي بمعنى بل، والهمزة أي: بل أبرموا أمراً. وفي ذلك انتقال من توجع أهل النار إلى حكاية ما يقع من هؤلاء، والإبرام: الإتيان، والإحكام، يقال: أبرمت الشيء: أحكمته، واتقنته، وأبرم الحبل: إذا أحكم فتلته، والمعنى: بل أحكموا كيداً للنبي ﷺ، فإننا محكمون لهم كيداً قالة مجاهد، وقتادة، وابن زيد، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِذَا يَرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: 42] وقيل: المعنى: أم قضاوا أمراً، فإننا قاضون عليهم أمرنا بالعذاب قاله الكلبي ﴿إِذَا يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سُرَهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: بل أيسمبون أننا لا نسمع ما يسرون به في أنفسهم، أو ما يتحادثون به سرّاً في مكان خالٍ، وما يتناجون به فيما بينهم ﴿بَلَى﴾ نسمع ذلك، ونعمل به ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْيَكْتُبُونَ﴾ أي: الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول، أو فعل، والجملة في محل نصب على الحال، أو معطوفة على الجملة التي تدل عليها بلى. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار قولاً يلزمهم به الحجة، ويقطع ما يورثونه من الشبهة، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: إن كان له ولد في قولكم، وعلى زعمكم، فإننا أوّل من عبد الله وحده، لأن من عبد الله وحده، فقد دفع أن يكون له ولد، كذا قال ابن قتيبة. وقال الحسن، والسدي: إن المعنى: ما كان للرحمن ولد، ويكون قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ابتداء كلام، وقيل: المعنى: قل يا محمد إن ثبت لله ولد، فإننا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد. وفيه نفي للولد على أبلغ وجه، واتمّ عبارة، وأحسن أسلوب، وهذا هو الظاهر من النظم القرآني، ومن هذا القبيل قوله

فذكر خليله، وقال: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمري بطاعتك، وطاعة رسولك، ويأمري بالخير، وينهاني عن الشرّ، وبينتني أني ملائكتك، اللهم لا تضلّه بعدي حتى تريبه مثل ما أريتنني، وترضى عنه كما رضيت عني، فيقال له: انهب؛ فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً، ولبكيت قليلاً، ثم يموت الآخر، فيجمع بين أرواحهما، فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعمل الخليل؛ وإذا مات أحد الكافرين بشر بالنار، فيذكر خليله، فيقول: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمري بمعصيتك، ومعصية رسولك، ويأمري بالشرّ، وينهاني عن الخير، وبينتني أني غير ملائكتك، اللهم فلا تهد بهدي حتى تريبه مثل ما أريتنني، وتسخط عليه كما سخطت عليّ، فيموت الآخر، فيجمع بين أرواحهما، فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل منهما لصاحبه: بش الأخ، وبش الصاحب، وبش الخليل. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الأكواب الجرار من الفضة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلّا وله منزل في الجنة، ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة، وذلك قوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾».

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّتَخِلِفِينَ ﴿٧١﴾ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ فِيهِ مِيلُونَ ﴿٧٢﴾ وَمَا عَلَّمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَفْطُلِينَ ﴿٧٣﴾ وَنَادَا يَكُنْ لِقَبْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ مُخْذِلُكُمْ ﴿٧٤﴾ لَقَدْ خَشِنْتَ الْيَمِينَ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٥﴾ أَمْ أُبْرِمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مَبْرُمُونَ ﴿٧٦﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سُرَهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَيْنَ زُرُوعِنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ ﴿٧٧﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴿٧٨﴾ سُبْحَنَ رَبِّيَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمُونَ ﴿٧٩﴾ ذَرَهُمْ يَمْشُوا وَيَلْمِزُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٠﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٢﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَاءَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٣﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَن ظَلَمَهُمْ يَقُولُوا اللَّهُ فَأَنَّى يُمِزُّهُمْ ﴿٨٤﴾ وَيَبْلُو. يَرْبِ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٥﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: أهل الإجمام الكفرية، كما يدل عليه إيرادهم في مقابلة المؤمنين الذين لهم ما نكره الله سبحانه قبل هذا ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا ينقطع عنهم العذاب أبداً ﴿لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يخفف عنهم ذلك العذاب، والجملة في محل نصب على الحال ﴿وَهُمْ فِيهِ مَبْلُسُونَ﴾ أي: أيسون من النجاة، وقيل: ساكتون سكوت يأس، وقد مضى تحقيق معناه في الانعام ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: ما عذبناهم بغير ذنب، ولا بزيادة على ما يستحقونه ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بما فعلوا من الذنوب. قرأ الجمهور (الظالمين) بالنصب

تعالى: ﴿إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24]، ومثل هذا قول الرجل لمن يناظره: إن ثبت ما تقوله بالدليل، فإنا أول من يعتقده، ويقول به، فتكون «إن» في ﴿إِن كَانَ﴾ شرطية، ورجح هذا ابن جرير، وغيره. وقيل: معنى العابدين: الأنفين من العبادة، وهو تكلف لا ملجئ إليه، ولكن قرأ أبو عبد الرحمن اليماني (العبيدين) بغير ألف، يقال: عبد يعبد عبداً بالتحريك: إذا أنف، وغضب، فهو: عبد، والاسم العبد مثل الأنفة، ولعل الحامل لمن قرأ هذه القراءة الشاذة البعيدة هو استبعاد معنى ﴿فإنا أول العابدين﴾، وليس بمستبعد، ولا مستنكر. وقد حكى الجوهرى عن أبي عمرو في قوله: ﴿فإنا أول العابدين﴾ أنه من الأنف، والغضب. وحكاها الماوردي عن الكسائي، والقتيبي، وبه قال الغراء. وكذا قال ابن الأعرابي: إن معنى العابدين: الغضاب الأنفين. وقال أبو عبيدة: معناه: الجاحدين، وحكى عبيدني حقي أي: جحدي، وقد أنشدوا على هذا المعنى الذي قالوه قول الفرزدق:

أولئك أحلاسي فجئني بمثلهم وأعبد أن أهجو كليلاً بدارم
وقوله أيضاً:

أولاً أناس لو هجوني هجوتهم وأعبد أن يهجي كليلاً بدارم
ولا شك أن عبد، وأعبد بمعنى: أنف، أو غضب ثابت في لغة العرب، وكفى بنقل هؤلاء الأئمة حجة، ولكن جعل ما في القرآن من هذا من التكلف الذي لا ملجئ إليه، ومن التعسف الواضح. وقد رد ابن عرفة ما قالوه فقال: إنما يقال عبد يعبد، فهو: عبد، وقُلْ ما يقال: عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة، ولا الشاذ. قرأ الجمهور (ولد) بالإنفراد، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً (ولد) بضم الواو، وسكون اللام ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزيهاً له، وتقديساً عما يقولون من الكذب بأن له ولداً، ويفترون عليه سبحانه ما لا يليق بجناحه، وهذا إن كان من كلام الله سبحانه، فقد نزه نفسه عما قالوه، وإن كان من تمام كلام رسوله الذي أمره بأن يقوله، فقد أمره بأن يضم إلى ما حكاها عنهم بزعمهم الباطل تنزيه ربه، وتقديسه ﴿فَذَرِهِمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: اترك الكفار حيث لم يهتوا بما هديتهم به، ولا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا في أباطيلهم، ويلهو في نياهم ﴿حَتَّى يَلْقَاوَا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو: يوم القيامة، وقيل: العذاب في الدنيا، قيل: وهذا منسوخ بأية السيف، وقيل: هو غير منسوخ، وإنما أخرج مخرج التهديد. قرأ الجمهور (يلاقوا)، وقرأ مجاهد، وابن محيصن، وحמיד، وابن السميع (حتى يلقوا) بفتح الباء، وإسكان اللام من غير ألف، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ الجار، والمجرور في الموضعين متعلق بإله؛ لأنه بمعنى: معبود، أو مستحق للعبادة، والمعنى: وهو الذي معبود في السماء، ومعبود في

الأرض، أو مستحق للعبادة في السماء، والعبادة في الأرض. قال أبو علي الفارسي: وإله في الموضعين مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: وهو الذي في السماء هو إله، وفي الأرض هو إله، وحسن حذفه لطول الكلام، قال: والمعنى: على الإخبار بإلهيته، لا على الكون فيهما. قال قتادة: يعبد في السماء، والأرض، وقيل: في بمعنى على أي: هو القادر على السماء، والأرض كما في قوله: ﴿وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: 71] وقرأ عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود: (وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله) على تضمين العلم معنى المشتق، فيتعلق به الجار والمجرور من هذه الحثية ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي: البليغ الحكمة الكثير العلم ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تبارك تفاعل من البركة، وهي: كثرة الخيرات، والمراد بما بينهما: الهواء، وما فيه من الحيوانات ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علم الوقت الذي يكون قيامها فيه ﴿وَالِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير، وشر، وفيه وعيد شديد. قرأ الجمهور (ترجعون) بالفوقية، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، بالتحثية ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ أي: لا يملك من يدعونه من دون الله من الأصنام، ونحوها الشفاعة عند الله كما يزعمون أنهم يشفعون لهم. قرأ الجمهور (يدعون) بالتحثية، وقرأ السلمي، وابن وثاب بالفوقية ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي: التوحيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: هم على علم، وبصيرة بما شهدوا به، والاستثناء يحتمل: أن يكون متصلاً، والمعنى: إلا من شهد بالحق، وهم: المسيح، وعزير، والملائكة، فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها. وقيل: هو منقطع، والمعنى: لكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء، ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفاً أي: لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق. قال سعيد بن جببر، وغيره: معنى الآية: أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق، وأمن على علم، وبصيرة. وقال قتادة: لا يشفعون لعباديتها، بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية. وقيل: مدار الاتصال في هذا الاستثناء على جعل الذين يدعون عاماً لكل ما يعبد من دون الله، ومدار الانقطاع على جعله خاصاً بالأصنام ﴿وَلِئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ اللام هي: الموطئة للقسمة، والمعنى: لئن سألت هؤلاء المشركين العابدين للأصنام من خلقهم أقروا واعترفوا بأن خالقهم الله، ولا يقدرون على الإنكار، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر، وجلائه ﴿فَأَنى يُوَفَّوْنَ﴾ أي: فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف، فإن المعترف بأن الله خالقه إذا عمد إلى صنم، أو حيوان، وعيده مع الله، أو عبده وحده، فقد عبد بعض مخلوقات الله، وفي هذا من الجهل ما لا يقار قدره. يقال: أفكه يافكه إنكأ: إذا قلبه، وصرفه عن الشيء، وقيل: المعنى:

وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ يقول: إن يكن للرحمن ولد ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ قال: الشاهدين. وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ قال: هذا معروف من كلام العرب إن كان هذا الأمر قط أي: ما كان. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه.

تفسير سورة الدخان

قال القرطبي: هي مكية باتفاق إلا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ [الدخان: 15]. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير: أن سورة الدخان نزلت بمكة. وأخرج الترمذي، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حَمَّ الدَّخَانِ في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك». قال الترمذي بعد إخرجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خثعم ضعيف. قال البخاري: منكر الحديث. وأخرج الترمذي، ومحمد بن نصر، وابن مريويه، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حَمَّ الدَّخَانِ في ليلة جمعة أصبح مغفوراً له». قال الترمذي بعد إخرجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام بن المقدام يضعف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، كذا قال أيوب، ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد، ويشهد له ما أخرجه ابن الضريس، والبيهقي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حَمَّ الدَّخَانِ في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له، وزوج من الحور العين». وأخرج ابن مريويه، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة حَمَّ الدَّخَانِ في ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة بنى الله له بها بيتاً في الجنة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ① وَالْكَتَبَ الْكَبِيرَ ② إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَ ③ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ④ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ⑤ أَمْرٌ مِنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُنْزِلِينَ ⑥ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑦ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ⑧ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ⑨ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ مَآبِكُمْ ⑩ الْأُولَى ⑪ تِلْكَ هِيَ سَجَّاتُ الْمُبِينِ ⑫ يَتَخَوَّى النَّاسُ هَذَا عَذَابَ إِلَهٍ ⑬ زُجَّاتٌ ⑭ أَكْبَفَ عَنَّا الْمَلَائِكَةَ إِنَّا مُنْذِرُونَ ⑮ أَتَى لَكُمْ الْوَعْدُ وَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ⑯ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُدَّ مِثْلَهُ حَتَّى نُنَاجِيَ إِلَهُاتِنَا ⑰ كَافِرُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ ⑱ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَنْفُسُ إِلَى رَبِّهَا ⑲

قوله: ﴿حَمَّ * وَالْكَتَابَ الْمَعِينِ﴾ قد تقدّم في السورتين المتقدمتين قبل هذه السورة الكلام على هذا معنى، وإعراباً،

ولئن سألت المسيح، وعزيراً، والملائكة من خلقهم ليقولنّ الله، فأنى يؤفك هؤلاء الكفار في اتخاذهم لها آلهة. وقيل: المعنى: ولئن سألت العابدين، والمعبوبين جميعاً. قرأ الجمهور (وقيله) بالنصب عطفاً على محل الساعة، كأنه قيل: إنه يعلم الساعة، ويعلم قبيله، أو عطفاً على سرهم، ونجواهم أي: يعلم سرهم، ونجواهم، ويعلم قبيله، أو عطفاً على مفعول يكتبون المحذوف أي: يكتبون ذلك، ويكتبون قبيله، أو عطفاً على مفعول يعلمون المحذوف أي: يعلمون ذلك، ويعلمون قبيله، أو هو مصدر أي: قال قبيله، أو منصوب بإضمار فعل أي: الله يعلم قيل: رسوله، أو هو معطوف على محل بالحق أي: شهد بالحق، وبقبيله، أو منصوب على حذف حرف القسم. ومن المجوزين للوجه الأول: المبرد، وابن الأنباري، ومن المجوزين للثاني الفراء، والأخفش، ومن المجوزين للنصب على المصدرية الفراء، والأخفش أيضاً. وقرأ حمزة، وعاصم (وقيله) بالجر عطفاً على لفظ الساعة أي: وعنده علم الساعة، وعلم قبيله، والقول والقال، والقليل بمعنى واحد، أو على أن الواو للقسم. وقرأ قتادة، ومجاهد، والحسن، وأبو قلابه، والأعرج، وابن هرمز، ومسلم بن جنب (وقيله) بالرفع عطفاً على علم الساعة أي: وعنده علم الساعة، وعنده قبيله، أو على الابتداء، وخبره الجملة المذكورة بعده، أو خبره محذوف تقديره، وقيله كيت، وكيت، أو وقيله مسموع. قال أبو عبيد: يقال: قلت قولاً، وقيلاً، وقالاً، والضمير في وقيله راجع إلى النبي ﷺ. قال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه، وقيل: الضمير عائد إلى المسيح، وعلى الوجهين، فالمعنى: أنه قال منادياً لربه: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الذين أرسلتني إليهم ﴿قَوْمٌ لَا يَؤْمِنُونَ﴾. ثم لما نادى ربه بهذا أجابه بقوله: ﴿فاصفح عنهم﴾ أي: أعرض عن دعوتهم ﴿وقل سلام﴾ أي: أمري تسليم منكم، ومتاركة لكم. قال عطاء: يريد مداراة حتى ينزل حكمي، ومعناه: المتاركة كقوله: ﴿سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ [القصص: 55]. وقال قتادة: أمره بالصفح عنهم، ثم أمره بقتالهم، فصار الصفح منسوخاً بالسيف، وقيل: هي محكمة لم تنسخ ﴿فسوف يعلمون﴾ فيه تهديد شديد، ووعد عظيم من الله عز وجل. قرأ الجمهور (يعلمون) بالتحية، وقرأ نافع، وابن عامر بالفوقية. قال الفراء: إن سلام مرفوع بإضمار عليكم.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ﴾ قال: يمكث عنهم ألف سنة، ثم يجيبهم ﴿إِنكُمْ مَكْنُونُونَ﴾. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها، قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون أن الله يسمع كلامنا؟ فقال واحد منهم: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع، فنزلت ﴿لَمْ يَحْشَبُوا أَنَّا لَا نَسْمَعُ سَرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ﴾ جواب القسم، وإن جعلت الجواب حم كانت هذه الجملة مستأنفة، وقد أنكر بعض النحويين أن تكون هذه الجملة جواباً للقسم، لأنها صفة للمقسم به، ولا تكون صفة المقسم به جواباً للقسم، وقال: الجواب ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾، واختاره ابن عطية، وقيل: إن قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ جواب ثانٍ، أو جملة مستأنفة مقررة للإنزال، وفي حكم العلة له كانه قال: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ لَأَن من شأننا الإنذار، والضمير في أنزلناه راجع إلى الكتاب المبين، وهو: القرآن. وقيل: المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة والضمير في أنزلناه راجع إلى القرآن على معنى: إنه سبحانه أقسم بسائر الكتب المنزلة: أنه أنزل القرآن، والأول أولى. والليلة المباركة: ليلة القدر كما في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [الفجر: 1] ولها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصك، وليلة القدر. قال عكرمة: الليلة المباركة هنا ليلة النصف من شعبان. وقال قتادة: أنزل القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب، وهو: اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله سبحانه على نبيه ﷺ في الليالي، والأيام في ثلاث وعشرين سنة، وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا في البقرة عند قوله: ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185] وقال مقاتل: كان ينزل من اللوح كل ليلة قدر من الوحي على مقدار ما ينزل به جبريل في السنة إلى مثله من العام، ووصف الله سبحانه هذه الليلة، بأنها مباركة لنزول القرآن فيها، وهو مشتمل على مصالح الدين والدنيا، ولكونها تنزل فيها الملائكة، والروح كما سيأتي في سورة القدر، ومن جملة بركاتها ما ذكره الله سبحانه ها هنا بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، ومعنى يفرق: يفصل، ويبين من قولهم: فرقت الشيء أفرقه فرقاً، والأمر الحكيم: المحكم، وذلك أن الله سبحانه يكتب فيها ما يكون في السنة من حياة وموت، وبسط وقبض، وخير وشر، وغير ذلك، كذا قال مجاهد، وقتادة، والحسن، وغيرهم: وهذه الجملة إما صفة أخرى لليلة، وما بينهما اعتراض، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها. قرأ الجمهور (يفرق) بضم الياء، وفتح الراء مخففاً، وقرأ الحسن، والأعمش، والأعرج بفتح الياء وضم الراء، ونصب (كل أمر)، ورفع (حكيم) على أنه الفاعل. والحق ما ذهب إليه الجمهور من أن هذه الليلة المباركة هي: ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان، لأن الله سبحانه أجملها هنا، وبينها في سورة البقرة بقوله: ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185] وبقوله في سورة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]، فلم يبق بعد هذا البيان الواضح ما يوجب الخلاف، ولا ما يقتضي الاشتباه ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ قال الزجاج، والفراء: انتصاب أمراً بيفرق أي: يفرق فرقاً، لأن أمراً بمعنى: فرقاً. والمعنى: إِنَّا نَأْمُرُ بِبَيَانِ ذَلِكَ، ونسخه من اللوح المحفوظ، فهو على هذا منتصب على المصدرية مثل قولك: يضرب ضرباً. قال المبرد: أمراً في موضع المصدر، والتقدير: أنزلناه

إنزالاً. وقال الأخفش: انتصابه على الحال أي: أمرين. وقيل: هو منصوب على الاختصاص أي: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا، وفيه تفخيم لشأن القرآن، وتعظيم له. وقد ذكر بعض أهل العلم في انتصاب أمراً اثني عشر وجهاً أظهرها ما ذكرناه، وقرأ زيد بن علي (أمر) بالرفع أي: هو أمر ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ هذه الجملة إما بدل من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾، أو جواب ثالث للقسم، أو مستأنفة. قال الرازي: المعنى: إِنَّا فَعَلْنَا ذَلِكَ الْإِنْدَارَ لِأَجْلِ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ لِلنَّبِيِّينَ ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ انتصاب رحمة على العلة أي: أنزلناه للرحمة، قاله الزجاج. وقال المبرد: إنها منتصبة على أنها مفعول لمرسلين أي: إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً. وقيل: هي مصدر في موضع الحال أي: راحمين، قاله الأخفش. وقرأ الحسن (رحمة) بالرفع على تقدير هي رحمة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمن دعاه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم قدرته الباهرة، فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قرأ الجمهور (رَبِّ) بالرفع عطفاً على السميع العليم، أو على أنه مبتدأ، وخبره لا إله إلا هو، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: هو رَبُّ، وقرأ الكوفيون (رَبِّ) بالجر على أنه بدل من ربك، أو بيان له، أو نعت ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بانه رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وما بينهما، وقد أقرأ بذلك كما حكاه الله عنهم في غير موضع، وجملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها، أو خبر رَبِّ السَّمَوَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وكذلك جملة ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فإنها مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿رَبِّكُمْ وَرَبِّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الاستئناف بتقدير مبتدأ أي: هو ربكم، أو على أنه بدل من رَبِّ السَّمَوَاتِ، أو بيان، أو نعت له، وقرأ الكسائي في رواية الشيرازي عنه، وابن محيصن، وابن أبي إسحاق، وأبو حنيفة، والحسن بالجر، ووجه الجر ما ذكرناه في قراءة من قرأ بالجر في رَبِّ السَّمَوَاتِ ﴿يُجِبُ لَهُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ﴾ أضرب عن كونهم موقنين إلى كونهم في شك من التوحيد والبعث، وفي إقرارهم بأن الله خالقهم، وخالق سائر المخلوقات، وإن ذلك منهم على طريقة اللعب والهز، ومحل يلعبون الرفع على أنه خبر ثان، أو النصب على الحال ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لأن كونهم في شك، ولعب يقتضي ذلك؛ والمعنى: فانتظر لهم يا محمد يوم تأتي السماء بدخان مبين، وقيل المعنى: احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين.

وقد اختلف في هذا الدخان المذكور في الآية متى يأتي؟ فقيل: إنه من أشرار الساعة، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً. وقد ثبت في الصحيح: أنه من جملة العشر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة، وقيل: إنه أمر قد مضى، وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي ﷺ حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً، وهذا ثابت في الصحيحين، وغيرهما: وذلك حين دعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسني

يفرق كل أمر حكيم قال: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق وموت، وحياة، ومطر، حتى يكتب الحاج: يحج فلان، ويحج فلان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ قال: أمر السنة إلى السنة إلا الشقاء والسعادة، فإنه في كتاب الله لا يبدل، ولا يغير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب قال: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى، ثم قرأ: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ الآية، يعني: ليلة القدر، قال: ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل من موت، أو حياة، أو رزق، كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها. وأخرج ابن زنجويه، والديلمي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقطع الأجل من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح، ويولد له، وقد خرج اسمه في الموتى». وأخرجه ابن أبي الدنيا، وابن جرير، عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس، وهذا مرسل، ولا تقوم به حجة، ولا تعارض بمثله صرائح القرآن. وما روي في هذا، فهو إما مرسل، أو غير صحيح. وقد أورد ذلك صاحب الدر المنثور، وأورد ما ورد في فضل ليلة النصف من شعبان، وذلك لا يستلزم أنها المراد بقوله: في ليلة مباركة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن مسعود: «أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ، وأبطأوا عن الإسلام قال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابهم قحط، وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه، وبينها كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ الآية، فأتى النبي ﷺ فقيل: يا رسول الله استسق الله لعضر، فاستسقى لهم، فسقوا، فأنزل الله: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾، فانتقم الله منهم يوم بدر، فقد مضى البطشة، والدخان، والزام». وقد روي عن ابن مسعود، نحو هذا من غير وجه، وروي نحوه عن جماعة من التابعين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن أبي مليكة قال: دخلت على ابن عباس فقال: لم أتم هذه الليلة، فقلت: لم؟ قال: طلع الكوكب، فخشيت أن يطرق الدخان. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، وكذا صححه السيوطي، ولكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية. وقد عرفت أنه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدخان الذي كان يترأى لقريش من الجوع، وبين كون الدخان من آيات الساعة، وعلاماتها، وأشراتها، فقد وردت أحاديث صحاح، وحسان، وضعاف بذلك، وليس فيها أنه سبب نزول الآية، فلا حاجة بنا إلى التطويل بذكرها، والواجب التمسك بما ثبت في الصحيحين، وغيرهما: أن دخان قريش عند الجهد، والجوع هو سبب النزول، وبهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان

يوسف، فأصابهم قحط، وجهد حتى أكلوا العظام، وكان الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه، وبينها كهيئة الدخان من الجهد، وقيل: إنه يوم فتح مكة، وسيأتي في آخر البحث بيان ما يدل على هذه الأقوال، وقوله: ﴿يغشى للناس﴾ صفة ثانية لدخان أي: يشملهم، ويحيط بهم ﴿هذا عذاب لليم﴾ أي: يقولون هذا عذاب اليم، أو قائلين ذلك، أو يقول الله لهم ذلك ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ أي: يقولون ذلك، وقد روي أنهم أتوا النبي ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا، والمراد بالعذاب: الجوع الذي كان بسببه ما يرونه من الدخان، أو يقولونه إذا رأوا الدخان الذي هو: من آيات الساعة، أو إذا رأوه يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال. والراجح منها: أنه الدخان الذي كانوا يتخيلونه مما نزل بهم من الجهد، وشدة الجوع، ولا ينافي ترجيح هذا ما ورد أن الدخان من آيات الساعة، فإن ذلك دخان آخر، ولا ينافيه أيضاً ما قيل: إنه الذي كان يوم فتح مكة، فإنه دخان آخر على تقدير صحة وقوعه ﴿أنى لهم الذكرى﴾ أي: كيف يتذكرون، ويتعظون بما نزل بهم ﴿و﴾ الحال أن ﴿قد جاءهم رسول مبين﴾ يبين لهم كل شيء يحتاجون إليه من أمر الدين، والدنيا ﴿ثم تولوا عنه﴾ أي: أعرضوا عن ذلك الرسول الذي جاءهم، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل جاوزوه ﴿وقالوا معلم مجنون﴾ أي قالوا: إنما يعلمه القرآن بشر، وقالوا: إنه مجنون، فكيف يتذكر هؤلاء، وأنى لهم الذكرى. ثم لما دعا الله بأن يكشف عنهم العذاب، وأنه إذا كشفه عنهم آمنوا أجاب سبحانه عليهم بقوله: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً﴾ أي: إنا نكشفه عنهم كشافاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، ثم أخبر الله سبحانه عنهم أنهم لا ينزجرون عما كانوا عليه من الشرك، ولا يفون بما وعدوا به من الإيمان، فقال: ﴿إنكم عائدون﴾ أي: إلى ما كنتم عليه من الشرك، وقد كان الأمر هكذا، فإن الله سبحانه لما كشف عنهم ذلك العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، والعناد، وقيل المعنى: إنكم عائدون إلينا بالبعث، والنشور، والأول أولى ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ الظرف منصوب بإضمار أنكر، وقيل: هو بدل من يوم تأتي السماء، وقيل: هو متعلق بمننتقمون، وقيل: بما دل عليه منتقمون، وهو ننتقم. والبطشة الكبرى: هي: يوم بدر، قاله الأكثر. والمعنى: أنهم لما عادوا إلى التكذيب، والكفر بعد رفع العذاب عنهم انتقم الله منهم بوقعة بدر. وقال الحسن، وعكرمة: المراد بها: عذاب النار، واختار هذا الزجاج، والأول أولى. قرأ الجمهور (نبطش) بفتح النون، وكسر الطاء أي: نبطش بهم، وقرأ الحسن، وأبو جعفر بضم الطاء وهي: لغة، وقرأ أبو رجاء، وطلحة بضم النون، وكسر الطاء.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس ﴿في ليلة مباركة﴾ قال: أنزل القرآن في ليلة القدر، ونزل به جبريل على رسول الله ﷺ نجوماً لجواب الناس. وأخرج محمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿فيها

الذي هو من أشرط الساعة كابن كثير في تفسيره، وغيره، وهكذا ينفع قول من قال: إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة متمسكا بما أخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال: كان يوم فتح مكة دخان، وهو قول الله ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ فإن هذا لا يعارض ما في الصحيحين على تقدير صحة إسناده مع احتمال أن يكون أبو هريرة رضي الله عنه ظن من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية، ولهذا لم يصرح بأنه سبب نزولها. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة. قال ابن كثير: وهذا إسناده صحيح. وقال ابن كثير قبل هذا: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروي أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفي عنه، وعن أبي بن كعب، وجماعة، وهو محتمل. والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة كبرى أيضاً. انتهى.

قلت: بل الظاهر أنه يوم بدر، وإن كان يوم القيامة يوم بطشة أكبر من كل بطشة، فإن السياق مع قریش، فتفسيره بالبطشة الخاصة بهم أولى من تفسيره بالبطشة التي تكون يوم القيامة لكل عاص من الإنس والجن.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَكَانَ رَسُولُكُمْ كَرِيمًا ۝ أَنْ أَدْرَأَ إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّ لِكُلِّ رَسُولٍ أَمِينٌ ۝ وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝ وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجِعُونِ ۝ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُوهُ ۝ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ۝ فَأَسْرَبَ إِلَى بَنَاتِهِمَا نُفُوسُهُنَّ فَأَنْشَأَ لَهَا تَزْوِجًا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ كَذَلِكَ وَأَوْفَقْنَاهَا قَوْمًا وَرَدُّوعًا وَمَقَامًا كَرِيمًا ۝ وَتَسْمَعُ أَلْوَنًا بِمَا لَمْ يَحْضُرُوا ۝ كَذَلِكَ وَأَوْفَقْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ۝ وَلَقَدْ جِئْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الذَّلَالِ الْمُهْلِكِينَ ۝ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الشَّرِيفِينَ ۝ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ مَلَائِكَةً عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَأَعْيَيْنَاهُمْ فِي الْأَيَاتِ مَا فِيهِ بَلَلٌ مُبِينٌ ۝ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ۝ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوَظِنًا لِلْأُكُوفِ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ۝ فَأَنَّا يَا بَنَاتِي إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ أَهَمْ حَرَّمَ قَوْمٌ تَبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَفْلَكُنَّاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۝﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ابتليناهم، ومعنى الفتنة هنا: أن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأمروهم بما شرعه لهم، فكنبوهم، أو وسع عليهم الأرزاق، فطفوا وبغوا. قال الزجاج: بلوناهم، والمعنى: عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسل إليهم، وقرئ (فتنا) بالتشديد ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي: كريم على الله كريم في قومه، وقال مقاتل: حسن الخلق بالتجاوز، والصفح. وقال الفراء: كريم على ربه إذا اقتص به بالنبوة ﴿إِنْ أَدْرَأَ إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أن هذه هي المفسرة لتقدم ما هو بمعنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، والمعنى: أن الشأن، والحديث أدوا

إلي عباد الله، ويجوز أن تكون مصدرية أي: بأن أدوا؛ والمعنى: أنه طلب منهم أن يسلموا إليه بني إسرائيل. قال مجاهد: المعنى: أرسلوا معي عباد الله، وأطلقوهم من العذاب، فعباد الله على هذا مفعول به. وقيل المعنى: أدوا إلي عباد الله ما وجب عليكم من حقوق الله، فيكون منصوباً على أنه منادى مضاف. وقيل: أدوا إلي سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربكم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ هو: تعليل لما تقدم أي: رسول من الله إليكم أمين على الرسالة غير متهم ﴿وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ تعليل لما قبله من النهي أي: بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها. وقال قتادة: بعذر بين. والأول أولى، وبه قال يحيى بن سلام. قرأ الجمهور بكسر همزة ﴿إِنِّي﴾، وقرئ بالفتح بتقدير اللام ﴿وَأِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجِعُونِ﴾ استعاذ بالله سبحانه لما تورعده بالقتل، والمعنى: من أن ترجعوني. قال قتادة: ترجموني بالحجارة، وقيل: تشتمون، وقيل: تقتلون ﴿وَأَنْ لَمْ تَأْمَنُوا لِي فَأَعْتَزَلُوهُ﴾ أي: إن لم تصفوني، وتقرؤوا بنبوتي، فاتركوني، ولا تعترضوا لي بأذى. قال مقاتل: دعوني كفافاً لا علي، ولا لي. وقيل: كونوا بمعزل عني، وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا، وقيل: فخلوا سبيلي، والمعنى متقارب. ثم لما لم يصدقوه، ولم يجيبوا دعوته، رجع إلى ربه بالدعاء كما حكى الله عنه بقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على إضمار حرف الجر أي: دعاه بأن هؤلاء، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر بكسرها على إضمار القول، وفي الكلام حذف أي: فكفروا فدعا ربه، والمجرمون الكافرون، وسماه دعاء مع أنه لم يذكر إلا مجرد كونهم مجرمين، لأنهم قد استحقوا بذلك الدعاء عليهم ﴿فَأَسْرَبَ بِعَبَادِي لَيْلًا﴾ أجاب الله سبحانه دعاءه، فأمره أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، يقال: سرى، وأسر لغتان، قرأ الجمهور (فأسر) بالقطع. وقرأ أهل الحجاز بالوصل، ووافقهم ابن كثير، فالقراءة الأولى من أسرى، والثانية من سرى، والجملة بتقدير القول أي: فقال الله لموسى أسر بعبادي ﴿إِنكُمْ مُقْبِعُونَ﴾ أي: يتبعكم فرعون، وجنوده، وقد تقدم في غير موضع خروج فرعون بعدهم ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ أي: ساكنًا، يقال: رها يرهو رهوا: إذا سكن لا يتحرك. قال الجوهري: يقال: افعل ذلك رهواً أي: ساكناً على هيئتك، وعيش راه أي: ساكن، ورها البحر سكن، وكذا قال الهروي، وغيره، وهو المعروف في اللغة، ومنه قول الشاعر:

والخيل ترحم رهواً في أعنتها كالطير تنجو من الشرنوب ذي الوبر
أي: والخيل ترحم في أعنتها ساكنة، والمعنى: أترك البحر ساكناً على صفته بعد أن ضربته بعصاك، ولا تأمره أن يرجع كما كان ليخله آل فرعون بعلك، وبعد بني إسرائيل،

يصعد لهم إلى السماء عمل طيب يبكي عليهم به، والمعنى: أنه لم يصب بقدومهم، وهلاكهم أحد من أهل السماء، ولا من أهل الأرض، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء، والأرض أي: عمت مصيبتهم، ومن ذلك قول جرير: لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع ومنه قول النابغة:

بكى حارث الحولان من فقد ربه وحران منه خاشع متضائل
وقال الحسن: في الكلام مضاف محذوف أي: ما يبكي عليهم أهل السماء، والأرض من الملائكة، والناس. وقال مجاهد: إن السماء، والأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحاً، وقيل: إنه يبكي على المؤمن مواضع صلاته، ومساعد عمله ﴿وَمَا كَانُوا مِنْظَرِينَ﴾ أي: مهلين إلى وقت آخر بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم، وشدة عنادهم ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي: خلاصناهم بإهلاك عبثهم مما كانوا فيه من الاستعباد، وقتل الأبناء واستحياء النساء، وتكليفهم للأعمال الشاقة، وقوله: ﴿مَنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب إما على حذف مضاف أي: من عذاب فرعون، وإما على المبالغة كأنه نفس العذاب، فأبدل منه، أو على أنه حال من العذاب تقديره صائراً من فرعون، وقرأ ابن عباس (من فرعون) بفتح الميم على الاستفهام التحقيري كما يقال لمن افتخر بحسبه، أو نسبه: من أنت؟ ثم بين سبحانه حاله، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: عالياً في التكبر، والتجبر من المسرفين في الكفر بالله، وارتكاب معاصيه كما في قوله: ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 4]، ولما بين سبحانه كيفية بفعه للضرر عن بني إسرائيل بين ما أكرمهم به، فقال: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: اختارهم الله على عالمي زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك، وليس المراد: أنه اختارهم على جميع العالمين بدليل قوله في هذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] وقيل: على كل العالمين لكثرة الأنبياء فيهم، ومحل على علم النصب على الحال من فاعل اخترناهم أي: حال كون اختيارنا لهم على علم منا، وعلى العالمين متعلق باختيارناهم ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي: معجزات موسى ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ أي: اختبار ظاهر، وامتحان واضح لننظر كيف يعملون. وقال قتادة: الآيات إنجائهم من الغرق، وقلق البحر لهم، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المنّ، والسلوى لهم. وقال ابن زيد: الآيات هي: الشّر الذي كفهم عنه، والخير الذي أمرهم به. وقال الحسن، وقتادة: البلاء المبين: النعمة الظاهرة كما في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ [الأنفال: 17]، ومنه قول زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلى

والإشارة بقوله: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ إلى كفار قريش، لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على استوائهم في الإصرار على الكفر ﴿لِيَقُولُوا * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا

فينطبق عليهم، فيفترقون. وقال أبو عبيدة: رها بين رجلية يرهو رهواً أي: فتح.. قال: ومنه قوله: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾، والمعنى: أتركه متفرجاً كما كان بعد بخولكم فيه، وكذا قال أبو عبيد: وبه قال مجاهد، وغيره. قال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف لفظاهما، لأن البحر إذا سكن جريه انفرج. قال الهروي: ويجوز أن يكون رهواً نعتاً لموسى أي: سر ساكناً على هيئتكم. وقال كعب، والحسن: رهواً: طريقاً. وقال الضحاك، والربيع: سهلاً. وقال عكرمة: يسهأ كقوله: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: 77] وعلى كل تقدير، فالمعنى: أتركه ذا رهو، أو أتركه رهواً على المبالغة في الوصف بالمصدر ﴿إِنَّهُمْ جَنَدُ مُغْرَقُونَ﴾ أي: إن فرعون، وقومه مغرقون. أخبر سبحانه موسى بذلك ليسكن قلبه، ويطمئن جاشه. قرأ الجمهور بكسر إن على الاستئناف لقصد الإخبار بذلك، وقرئ بالفتح على تقدير لأنهم ﴿كَمْ﴾ هي الخبرية المفيدة للتكثير، وقد مضى الكلام في معنى الآية في سورة الشعراء. قرأ الجمهور: (ومقام) بفتح الميم على أنه اسم مكان للقيام، وقرأ ابن هرمز، وقتادة، وابن السميّغ، وروى عن نافع بضمها اسم مكان الإقامة ﴿وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ﴾ النعمة بالفتح التمتع يقال: نعمه الله، وناعمه، فتنعم، وبالكسر المنة، وما أنعم به عليك، وفلان واسع النعمة أي: واسع المال ذكر معنى هذا الجوهري. قرأ الجمهور (فكاهين) بالالف. وقرأ أبو رجاء، والحسن، وأبو الأشهب، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة (فكهين) بغير ألف، والمعنى على القراءة الأولى: متنعمين طيبة أنفسهم، وعلى القراءة الثانية: أشربين بطرين. قال الجوهري: فكاه الرجل بالكسر، فهو فكاه إذا كان طيب النفس مزاجاً، والفكه أيضاً: الأشر البطر. قال: وفكاهين أي: ناعمين. وقال الثعلبي: هما لغتان كالخائر، والحذر، والفاره والفره. وقيل: إن الفكاهة هو: المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفكاهة ﴿كُنْكَلٌ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ الكاف في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف. قال الزجاج: أي: الأمر كذلك، ويجوز أن تكون في محل نصب، والإشارة إلى مصدر فعل يدل عليه تركوا أي: مثل ذلك السلب سلبناهم إياها، وقيل: مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم. فعلى الوجه الأوّل يكون قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ معطوفاً على ﴿تَرْكُوا﴾، وعلى الوجوه الآخرة يكون معطوفاً على الفعل المقدّر. والمراد بالقوم الآخرين: بنو إسرائيل، فإن الله سبحانه ملكهم أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وراثين أي: أنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث، ومثل هذا قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف: 137] ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ هذا بيان لعدم الاكتراث بهلاكهم. قال المفسرون: أي: إنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم به، ولم

والأرض ﴿١﴾ ونكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم، ولا من عملهم كلام صالح، فتقدمهم فتبكي عليهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب نحوه من قول ابن عباس. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: يقال: الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلًا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه، إلا بكت عليه السماء والأرض، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال: إنهما لا يبكيان على كافر». وأخرج ابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع، عن علي بن أبي طالب قال: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء، ثم تلا الآية. وأخرج ابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: إن الأرض لتبكي على ابن آدم أربعين صباحاً، ثم قرأ الآية. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم». وأخرجه أحمد، والطبراني، وابن ماجه، وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ فنكر مثله، وروي نحو هذا عن غيرهما من الصحابة، والتابعين.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِيَجِدَكِ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَتْحِ يَقْتَنُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٠﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَوْلَى مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣١﴾ إِلَّا مَنْ رَجَعَ إِلَىٰ رَبِّهِ هُوَ الْمَرْزُوقُ الرَّجِيءُ ﴿٣٢﴾ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّلْفُمِ ﴿٣٣﴾ لَطَمَامُ الْإِثِيرِ ﴿٣٤﴾ كَالْمُهَلِّ بِقِي فِي الْبَطْنِ ﴿٣٥﴾ كَعَلِّ الْحَمِيرِ ﴿٣٦﴾ خُذْهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَمِيرِ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ سُبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيرِ ﴿٣٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٣٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُنَفِّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٤١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَنَكِّلِينَ ﴿٤٣﴾ كَذَلِكَ وَوَدَّعْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٤٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فِتْنَةٍ مُمَيَّنَةٍ ﴿٤٥﴾ لَا يَدْخُلُونَهَا فِيهَا السَّوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ وَوَدَّعْنَاهُمْ عَذَابَ الْحَمِيرِ ﴿٤٦﴾ ضَلَّاهُمْ فِي ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمَطْلُوبُ ﴿٤٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِي إِلَاسُكَ لِمَأْتُهُمْ يَتَكَبَّرُونَ ﴿٤٨﴾ فَأَرْثَبَ إِنَّهُمْ مُرْتَبِطُونَ ﴿٤٩﴾

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين جنسي السماء والأرض ﴿لَا عَيْنِينَ﴾ أي: لغير غرض صحيح. قال مقاتل: لم نخلقهما عابثين لغير شيء. وقال الكلبي: لاهين، وقيل: غافلين. قرأ الجمهور (وما بينهما) وقرأ عمرو بن عبيد (وما بينهما) لأن السموات والأرض جمع، وانتصاب لاهيين على الحال ﴿وَمَا خَلَقْنَاهُمَا﴾ أي: وما بينهما ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا بالأمر الحق، والاستثناء مفرغ

الأولى ﴿أي: ما هي إلا موتتنا الأولى التي نموتها في الدنيا، ولا حياة بعدها، ولا بعث، وهو معنى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشِرِينَ﴾ أي: بمبعوثين، وليس في الكلام قصد إلى إثبات مorte أخرى، بل المراد: ما العاقبة، ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية، قال الرازي: المعنى: أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى، ثم أوردوا على من وعدهم بالبعث ما ظنوه بليلاً، وهو: حجة داحضة، فقالوا: ﴿فَاتُوا بِأَبَائِنَا﴾ أي: أرجعهم بعد موتهم إلى الدنيا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولونه، وتختبرونا به من البعث. ثم ردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿أَهْمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبِعَ﴾ أي: أهم خير في القوة، والمنعة، أم قوم تبع الحميري الذي دار في الدنيا بجيوشه، وغلب أهلها، وقهرهم، وفيه وعيد شديد. وقيل: المراد بقوم تبع: جميع أتباعه لا واحد بعينه. وقال الفراء: الخطاب في قوله: ﴿فَاتُوا بِأَبَائِنَا﴾ لرسول الله ﷺ وحده كقوله: ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: 99]، والأولى أنه خطاب له، ولأتباعه من المسلمين ﴿وَوَ﴾ المراد بـ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ عاد، وثمود، ونحوهم، وقوله: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ جملة مستأنفة لبيان حالهم، وعاقبة أمرهم، وجملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم، والمعنى: إن الله سبحانه قد أهلك هؤلاء بسبب كونهم مجرمين، فإهلاكه لمن هو دونهم بسبب كونه مجرماً مع ضعفه، وقصور قدرته بالأولى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ قال: ابتلينا ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولُ كَرِيمٍ﴾ قال: هو: موسى ﴿أَن آتُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أرسلوا معي بني إسرائيل ﴿وَأَن لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ قال: لا تعثوا ﴿إِنِّي أَنَا أَنَا بِلِسَانٍ مَّبِينٍ﴾ قال: بغز مبين ﴿وَأَنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ قال: بالحجارة ﴿وَأَن لَّمْ تَوْتُمُوا لِي فَأَعْزِلُونِ﴾ أي: خلوا سبيلي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿أَن آتُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ قال: يقول: اتبعوني إلى ما ادعوك إليه من الحق، وفي قوله: ﴿وَأَن لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ قال: لا تفتروا وفي قوله: ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ قال: تشتمون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: ﴿رَهْوَاهُ﴾ قال: سمنا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿رَهْوَاهُ﴾ قال: كهيشته، وامضه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً: أنه سال كعباً عن قوله: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَاهُ﴾ قال: طريقاً. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس أيضاً قال: الرهو: أن يترك كما كان. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: ﴿وَمَقَامُ كَرِيمٍ﴾ قال: المنابر. وأخرج ابن مردويه، عن جابر مثله. وأخرج الترمذي، وابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد إلا وله بايان: باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات، فقداه، وبكى عليه، وتلا هذه الآية ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ

وقيل العتل: أن يأخذ بتلابيب الرجل، ومجامعه، فيجره، ومنه قول الشاعر يصف فرساً:

نقرعه قرعاً ولسنا نعتله

ومنه قول الفرزدق يهجو جريراً:

حتى ترد إلى عطية تعتل

قرأ الجمهور **﴿فَاعْتَلَوْهُ﴾** بكسر التاء. وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر بضمها، وهما: لغتان **﴿إلى سواء الحميم﴾** أي: إلى وسطه، كقوله: **﴿فَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْحَمِيمِ﴾** [الصافات: 55] **﴿ثُمَّ صَبَوْا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾** من هي التبعية أي: صبوا فوق رأسه بعض هذا النوع، وإضافة العذاب إلى الحميم للبيان أي: عذاب هو الحميم، وهو: الماء الشديد الحرارة كما تقدّم **﴿ثُمَّ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾** أي: وقولوا له تهكماً، وتقريعاً، وتوبيخاً: نَقِ العذاب إنك أنت العزيز الكريم. وقيل: إن أبا جهل كان يزعم أنه أعز أهل الوادي، وأكرمهم، فيقولون له: نَقِ العذاب أيها المتعز المتكبر في زعمك، وفيما كنت تقول. قرأ الجمهور (إنك) بكسر الهمزة، وقرأ الكسائي، وروي ذلك عن عليّ بفتحها أي لأنك. قال الفراء: أي: بهذا القول الذي قلته في الدنيا، والإشارة بقوله: **﴿إِنَّ هَذَا﴾** إلى العذاب **﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾** أي: تشكون فيه حين كنتم في الدنيا، والجمع باعتبار جنس الأثيم. ثم ذكر سبحانه مستقرّ المتقين، فقال: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾** أي: الذين اتقوا الكفر، والمعاصي. قرأ الجمهور (مقام) بفتح الميم، وقرأ نافع، وابن عامر بضمها. فعلى القراءة الأولى هو: موضع القيام، وعلى القراءة الثانية هو: موضع الإقامة قاله الكسائي، وغيره. وقال الجوهري: قد يكون كل واحد منهما بمعنى: الإقامة، وقد يكون بمعنى: موضع القيام. ثم وصف المقام بأنه أمين يأمن صاحبه من جميع المخاوف **﴿فِي جَنَّاتٍ وَعِیُونٍ﴾** بدل من مقام أمين، أو بيان له، أو خبر ثانٍ **﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾** خبر ثانٍ، أو ثالث، أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، والسُنُس: ما رقّ من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه، وقد تقدّم بيانه في سورة الكهف، وانتصاب **﴿مُتَقَابِلِينَ﴾** على الحال من فاعل يلبسون أي: متقابلين في مجالسهم ينظر بعضهم إلى بعض، والكاف في قوله: **﴿كَذَلِكَ﴾** إما نعت مصدر محذوف أي: نفعل بالمتقين فعلاً كذلك. أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: الأمر كذلك **﴿وَزُجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾** أي: أكرمناهم بأن زوجناهم بحور عين، والحدود جمع حوراء وهي: البيضاء، والعين جمع عيناء وهي: الواسعة العينين. وقال مجاهد: إنما سميت الحوراء حوراء، لأنه يحار الطرف في حسنهن، وقيل: هو من حور العين وهو: شدة بياض العين في شدة سوادها كذا قال أبو عبيدة. وقال الأصمعي: ما أدري ما الحور في العين. قال أبو عمرو: الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء، والبقر، قال: وليس في بني آدم حور،

من أعم الأحوال. وقال الكلبي: إلا للحق، وكذا قال الحسن، وقيل: إلا لإقامة الحق، وإظهاره **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** أن الأمر كذلك، وهم المشركون **﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾** ميقاتهم أجمعين أي: إن يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق عن الباطل ميقاتهم أي: الوقت المجعل لتمييز المحسن من المسيء، والمحق من المبطل، أجمعين لا يخرج عنهم أحد من ذلك. وقد اتفق القراء على رفع ميقاتهم على أنه خبر إن، واسمها يوم الفصل. وأجاز الكسائي، والفراء نصبه على أنه اسمها، ويوم الفصل خبرها. ثم وصف سبحانه ذلك اليوم، فقال: **﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً﴾** يوم بدل من يوم الفصل، أو منتصب بفعل مضمر يدل عليه الفصل أي: يفصل بينهم يوم لا يغني، ولا يجوز أن يكون معمولاً للفصل؛ لأنه قد وقع الفصل بينهما بأجنبي، والمعنى: أنه لا ينفع في ذلك اليوم قريب قريباً، ولا ينفع عنه شيئاً، ويطلق المولى على الولي، وهو: القريب، والناصر **﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾** الضمير راجع إلى المولى باعتبار المعنى؛ لأنه نكرة في سياق النفي، وهي من صيغ العموم أي: ولا هم يمنعون من عذاب الله **﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾** قال الكسائي: الاستثناء منقطع أي: لكن من رحم الله، وكذا قال الفراء. وقيل: هو متصل، والمعنى: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنهم يؤثرون لهم في الشفاعة، فيشفعون، ويجوز أن يكون مرفوعاً على البدل من مولى الأول، أو من الضمير في ينصرون **﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾** أي: الغالب الذي لا ينصر من أراد عذابه الرحيم لعباده المؤمنين. ثم لما وصف اليوم نكر بعده، وعيد الكفار، فقال: **﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُومِ * طَعَامَ الْأَثِيمِ﴾** شجرة الزقوم هي: الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجأوا إليها، فاكلوا منها، وقد مضى الكلام على شجرة الزقوم في سورة الصافات، والأثيم الكثير الإثم. قال في الصحاح: أثم الرجل بالكسر إثماً، ومائماً: إذا وقع في الإثم، فهو: أثم، وأثيم، وأثوم. فمعنى طعام الأثيم: ذي الإثم **﴿كَالْمُهْلِ﴾** وهو: دردي الزيت، وعكر القطران. وقيل: هو النحاس المذاب. وقيل: كل ما ينوب في النار **﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ﴾** قرأ الجمهور تغلي بالفوقية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الشجرة، والجملة خبر ثانٍ، أو حال، أو خبر مبتدأ محذوف أي: تغلي غلياً مثل غلي الحميم، وهو: الماء الشديد الحرارة. وقرأ ابن كثير، وحفص، وابن محيصن، وورش، عن يعقوب (يغلي) بالتحية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الطعام، وهو: في معنى الشجرة، ولا يصح أن يكون الضمير عائداً إلى المهل؛ لأنه مشبه به، وإنما يغلي ما يشبه بالمهل، وقوله: **﴿كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ﴾** صفة مصدر محذوف أي: غلياً كغلي الحميم **﴿خُذُوهُ فَاغْتَلَوْهُ إِلَى سَوَاءِ الْحَمِيمِ﴾** أي: يقال للملائكة الذين هم خزنة النار: خذوه أي: الأثيم، فاعتلوه، العتل: القود بالعنف، يقال: عتله يعتله، إذا جرّه، وذهب به إلى مكروه،

محل نصب على الحال، وقيل: استئناف، والأول أولى، وقوله: **﴿تَتَلَّى عَلَيْهِ﴾** في محل نصب على الحال **﴿ثُمَّ يَصْرُخُ﴾** على كفره، ويقيم على ما كان عليه حال كونه **﴿مُسْتَكْبِرًا﴾** أي: يتماذى على كفره متعظماً في نفسه عن الانقياد للحق، والإصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانة وهو أن ينحني عليها صاراً أنثياً. قال مقاتل: إذا سمع من آيات القرآن شيئاً اتخذها هزواً، وجملة **﴿كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾** في محل نصب على الحال، أو مستأنفة؛ وإن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف **﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** هذا من باب التهكم أي: فبشره على إصراره واستكباره، وعدم استماعه إلى الآيات بعذاب شديد الألم **﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شيئاً﴾** قرأ الجمهور (علم) بفتح العين، وكسر اللام مخففة على البناء للفاعل. وقرأ قتادة، ومطر اللؤلؤ على البناء للمفعول. والمعنى: أنه إذا وصل إليه علم شيء من آيات الله **﴿اتَّخَذَهَا﴾** أي: الآيات **﴿هَزْوَاً﴾** وقيل: الضمير في اتخذها عائد إلى شيئاً؛ لأنه عبارة عن الآيات والأول أولى. والإشارة بقوله: **﴿أَوَّلُكَ﴾** إلى كل أفاك متصف بتلك الصفات **﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** بسبب ما فعلوا من الإصرار، والاستكبار عن سماع آيات الله، واتخاذها هزواً، والعذاب المهين هو المشتمل على الإذلال، والفضيحة **﴿مَنْ وَرَآهُمْ جَهَنَّمَ﴾** أي: من وراء ما هم فيه من التعزز بالندى، والتكبر عن الحق جهنم؛ فإنها من قدامهم؛ لأنهم متوجهون إليها، وعبر بالوراء عن القدام، كقوله: **﴿مَنْ وَرَآهُ جَهَنَّمَ﴾** [إبراهيم: 16] وقول الشاعر:

ليس ورائي إن تراخت منيتي

وقيل: جعلها باعتبار إعراضهم عنها، كأنها خلفهم **﴿وَلَا يَغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شيئاً﴾** أي: لا يفيغ عنهم ما كسبوا من أموالهم، وأولادهم شيئاً من عذاب الله، ولا ينفهم بوجه من وجوه النفع **﴿وَلَا لَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أولياء﴾** معطوف على ما كسبوا أي: ولا يغني عنهم ما اتخذوا من دُونِ اللَّهِ أولياء من الأصنام، و «ها» في الموضعين إما مصدرية، أو موصولة، وزيادة لا في الجملة الثانية للتأكيد **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** في جهنم التي هي من ورثتهم **﴿هَذَا هَؤُلَاءِ﴾** جملة مستأنفة من مبتدأ، وخبر يعني: هذا القرآن هدى للمهتدين به **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾** القرآنية **﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ﴾** الرجز أشد العذاب. قرأ الجمهور (اليم) بالجرّ صفة للرجز. وقرأ ابن كثير، وحفص، وابن محيصن بالرفع صفة لعذاب **﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ﴾** أي: جعله على صفة تتمكنون بها من الركوب عليه **﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾** أي: بإذنه وإقداره لكم **﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾** بالتجارة تارة، والغوص للدرّ، والمعالجة للصيد وغير ذلك **﴿وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** أي: لكي تشكروا النعم التي تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر **﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾** أي: سخر لعباده جميع ما خلقه في سماواته، وأرضه

الآيات، أو في خلقها. قال الزجاج: ويدلّ على أن المعنى في خلق السموات والأرض قوله: **﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾** أي: في خلقكم أنفسكم على أطوار مختلفة. قال مقاتل: من تراب، ثم من نطفة إلى أن يصير إنساناً، **﴿وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ﴾** أي: وفي خلق ما يبتُّ من دابة، وارتفاع آيات على أنها مبتدأ مؤخر، وخبره الظرف قبله، وبالرفع قرأ الجمهور، وقرأ حمزة، والكسائي (آيات) بالنصب عطفًا على اسم إن، والخبر قوله: **﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾** كأنه قيل: وإن في خلقكم وما يبتُّ من دابة آيات، أو على أنها تأكيد لآيات الأولى. وقرأ الجمهور أيضاً (آيات لقوم يعقلون) بالرفع، وقرأ حمزة، والكسائي بنصبها مع اتفاقهم على الجرّ في اختلاف، أما جرّ اختلاف، فهو على تقدير حرف الجرّ أي: **﴿وَفِي﴾** في **﴿لِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾** آيات، فمن رفع آيات، فعلى أنها مبتدأ، وخبرها في اختلاف، وأما النصب فهو من باب العطف على معمولي عاملين مختلفين. قال الفراء: الرفع على الاستئناف بعد إن، تقول العرب: إن لي عليك مالاً، وعلى أخيك مال، ينصبون الثاني ويرفعونه، وللنحاة في هذا الموضوع كلام طويل. والبحث في مسألة العطف على معمولي عاملين مختلفين، وحجج المجوّزين له، وجوابات المانعين له مقرر في علم النحو مبسوط في مطولاته. ومعنى: **﴿وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾** ما يفرقه وينشره **﴿وَلِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾** تعاقبهما، أو تفاوتهما في الطول والقصر، وقوله: **﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾** معطوف على اختلاف، والرزق المطر؛ لأنه سبب لكل ما يرزق الله العباد به، وإحياء الأرض: إخراج نباتها، و **﴿مَوْتَهَا﴾** خلّوها عن النبات **﴿وَفِي﴾** معنى **﴿تَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾**: أنها تهب تارة من جهة وتارة من أخرى، وتارة تكون حارّة وتارة تكون باردة، وتارة نافعة، وتارة ضارّة **﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾** أي: هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه، ومحل نتلوها عليك النصب على الحال، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر اسم الإشارة، وآيات الله بيان له، أو بدل منه، وقوله: **﴿بِالْحَقِّ﴾** حال من فاعل نتلو، أو من مفعوله أي: محقين، أو ملتبسة بالحق، ويجوز أن تكون الباء للسببية، فتتعلق بنفس الفعل **﴿فَبَيَّأَ حَيْثُ بَعَدَ اللَّهُ وَآيَاتِهِ يَوْمُنُونَ﴾** أي: بعد حديث الله وبعد آياته، وقيل إن المقصود: فبأي حديث بعد آيات الله، وذكر الاسم الشريف ليس إلا لقصد تعظيم الآيات، فيكون من باب: أعجبني زيد، وكرمه. وقيل المراد: بعد حديث الله، وهو القرآن كما في قوله: **﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾** [الزمر: 23]، وهو المراد بالآيات، والعطف لمجرّد التغاير العنواني. قرأ الجمهور (يؤمنون) بالفوقية، وقرأ حمزة، والكسائي بالتحية. والمعنى: يؤمنون بأيّ حديث، وإنما قدّم عليه؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام **﴿وَيُلِ كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ﴾** أي: لكل كذاب كثير الإثم مرتكب لما يوجب، والويل: واد في جهنم. ثم وصف هذا الأفّاك بصفة أخرى، فقال: **﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتَلَّى عَلَيْهِ﴾** وقيل: إن يسمع في

زوال الخلاف موجباً لثبوته، وقيل المراد بالعلم: يوشع بن نون، فإنه آمن به بعضهم وكفر بعضهم، وقيل: نبوة محمد ﷺ، فاختلَفوا فيها حسداً وغبياً، وقيل: «غبياً» من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة «إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» من أمر الدين، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته «ثم جعلناك على شريعة من الأمر» الشريعة في اللغة: المذهب والملة والمنهاج ويقال: لمرشعة الماء وهي مورد شاربيه شريعة، ومنه الشارع؛ لأنه طريق إلى المقصد، فالمراد بالشريعة هنا: ما شرعه الله لعباده من الدين، والجمع شرائع أي: جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق «فاتبعوها» فاعمل بأحكامها في أمك «ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون» توحيد الله وشرائعه لعباده، وهم كفار قريش ومن وافقهم «إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً» أي: لا يدفعون عنك شيئاً مما أراد الله بك إن اتبعت أهواءهم «وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض» أي: أنصار ينصر بعضهم بعضاً قال ابن زيد: إن المنافقين أولياء اليهود «والله ولي المتقين» أي: ناصرهم، والمراد بالمتقين: الذين اتقوا الشر والمعاصي، والإشارة بقوله: «هَذَا» إلى القرآن، أو إلى اتباع الشريعة، وهو مبتدأ وخبره «بصائر للناس» أي: براهين ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين، جعل ذلك بمنزلة البصائر في القلوب، وقرئ (هذه بصائر) أي: هذه الآيات؛ لأن القرآن بمعناها، كما قال الشاعر:

سائل بني أسد ما هذه الصوت

لأن الصوت بمعنى الصيحة «وهذه» أي: رشد، وطريق يؤدي إلى الجنة لمن عمل به «ورحمة» من الله في الآخرة «للقوم يوقنون» أي: من شأنهم الإيقان، وعدم الشك، والتزلزل بالشبه «أم حسب الذين اجترحوا السيئات» أم هي المنقطعة المقدرة ببل، والهزمة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني، والهزمة لإنكار الحسبان، والاجترار الاكتساب، ومنه الجوارح، وقد تقدّم في المائدة، والجملة مستأنفة؛ لبيان تباين حالي المسيئين والمحسنين، وهو معنى قوله: «إن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات» أي: نسوي بينهم مع اجتراحهم السيئات، وبين أهل الحسنات «سواء محياهم ومماتهم» في دار الدنيا وفي الآخرة، كلا لا يستورن، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة. وقيل للمراد: إنكار أن يستوروا في الممات، كما استوروا في الحياة. قرأ الجمهور (سواء) بالرفع على أنه خبر مقدم، والمبتدأ محياهم ومماتهم والمعنى: إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص (سواء) بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور في قوله: «والذين آمنوا» أو على أنه مفعول ثان لحسب، واختار قراءة النصب أبو عبيد، وقال معناه: نجعلهم

سواء، وقرأ الأعمش، وعيسى بن عمر (مماتهم) بالنصب على معنى سواء في محياهم ومماتهم، فلما سقط الخافض انتصب، أو على البذل من مفعول نجعلهم بدل اشتغال «سواء ما يحكمون» أي: سواء حكمهم هذا الذي حكموا به «وخلق الله السموات والأرض بالحق» أي: بالحق المقتضي للعدل بين العباد، ومحل بالحق النصب على الحال من الفاعل، أو من المفعول، أو الباء للسببية، وقوله: «ولتجزى كل نفس بما كسبت» يجوز أن يكون على الحق؛ لأن كلا منهما سبب، فعطف السبب على السبب، ويجوز أن يكون معطوفاً على محذوف، والتقدير: خلق الله السموات والأرض؛ ليدل بهما على قدرته ولتجزى، ويجوز أن تكون اللام للضرورة «وهم لا يظلمون» أي: النفوس المملول عليها بكل نفس لا يظلمون بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، ثم عجب سبحانه من حال الكفار، فقال: «إقرايت من اتخذ إلهه هواه» قال الحسن، وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبته، وقال عكرمة: يعبد ما يهواه، أو يستحسنه، فإذا استحسن شيئاً، وهواه اتخذه إلهاً. قال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر «واضله الله على علم» أي: على علم قد علمه، وقيل المعنى: أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه، وقال مقاتل: على علم منه أنه ضال؛ لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع ولا يضر. قال الزجاج: على سوء في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، ومحل على علم النصب على الحال من الفاعل، أو المفعول «ووختم على سمعه وقلبه» أي: طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى «وجعل على بصره غشاوة» أي: غطاء حتى لا يبصر الرشيد. قرأ الجمهور (غشاوة) بالالف مع كسر الغين، وقرأ حمزة، والكسائي (غشوة) بغير ألف مع فتح الغين، ومنه قول الشاعر:

لئن كنت البستني غشوة لقد كنت أصفنيك الودحينا

وقرأ ابن مسعود، والأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين وهي لغة ربيعة، وقرأ الحسن، وعكرمة بضمها وهي لغة عكل «فمن يهديه من بعد الله» أي: من بعد إضلال الله له «أفلا تذكرون» تذكر اعتبار حتى تعلموا حقيقة الحال، ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم وضلالاتهم فقال: «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا» أي: ما الحياة إلا الحياة التي نحن فيها «نموت ونحيا» أي: يصبينا الموت والحياة فيها، وليس وراء ذلك حياة، وقيل: نموت نحن، ونحيا فيها أولادنا، وقيل: نكون نطفاً ميتة، ثم نصير أحياء. وقيل: في الآية تقديم وتأخير أي: نحيا ونموت، وكذا قرأ ابن مسعود، وعلى كل تقدير، فمرادهم بهذه المقالة: إنكار البعث وتكذيب الآخرة «وما يهلكنا إلا الدهر» أي: إلا مرور الأيام والليالي قال مجاهد: يعني: السنين والأيام. وقال قتادة: إلا العمر، والمعنى واحد. وقال قطرب: المعنى: وما يهلكنا إلا الموت. وقال عكرمة: وما يهلكنا إلا الله «وما لهم بذلك من

عَلِمَ أَي: ما قالوا هذه المقالة إلا شاكين غير عالمين بالحقيقة، ثم بيّن كون ذلك صادراً منهم لا عن علم، فقال: **﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾** أي: ما هم إلا قوم غاية ما عندهم الظن، فما يتكلمون إلا به، ولا يستندون إلا إليه **﴿وَإِذَا تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾** أي: إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها بينات واضحات ظاهرة المعنى، والدلالة على البعث **﴿مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّقُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** أنا نبعت بعد الموت أي: ما كان لهم حجة، ولا متمسك إلا هذا القول الباطل الذي ليس من الحجة في شيء، وإنما سماه حجة تهكمًا بهم. قرأ الجمهور بنصب حجتهم على أنه خبر كان، واسمها **﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾** وقرأ زيد بن علي، وعمرو بن عبيد، وعبيد بن عمرو برفع حجتهم على أنها اسم كان، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يردّ عليهم، فقال: **﴿قُلْ اللَّهُ يَحْيِيكُمْ﴾** أي: في الدنيا **﴿ثُمَّ يَمِيتُكُمْ﴾** عند انقضاء آجالكم **﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** بالبعث والنشور **﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾** أي: في جمعكم؛ لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** بذلك، فلهذا حصل معهم الشك في البعث، وجاعوا في دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت، ولو نظروا حق النظر لحصلوا على العلم اليقين، واندفع عنهم الرّيب وأراحوا أنفسهم من ورطة الشك والحيرة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾** يقول: على هدى من أمر دينه. وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: **﴿سِوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ﴾** قال: المؤمن في الدنيا والآخرة مؤمن، والكافر في الدنيا والآخرة كافر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾** قال: ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله، ولا برهان **﴿وَإِضْلَالَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾** يقول: اضله في سابق علمه. وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه قال: كان الرجل من العرب يعبد الحجر، فإذا وجد أحسن منه أخذَه وألقى الآخر، فأنزل الله: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾** وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، فقال الله في كتابه: **﴿قُولُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾** قال الله: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: **﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُوْذِنُنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾**.

وَلَهُ مَلِكُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٧﴾ وَرَبِّ كُلِّ آتَمَةٍ جَانِيَةٌ كُلُّ آتَمَةٍ دَعْوَى إِلَى كَيْبَتِهَا آتَمَةٌ تَجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾ هَذَا كَيْبَتًا يَبْطُرُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِجُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ

لما نكر سبحانه ما احتج به المشركون، وما أجاب به عليهم نكر اختصاصه بالملك، فقال: **﴿لِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أي: هو المتصرف فيهما وحده لا يشاركه أحد من عباده، ثم توعد أهل الباطل، فقال: **﴿يَوْمَ يَتَقَوَّمُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾** أي: المكذبون الكافرون المتعلقون بالباطل يظهر في ذلك اليوم خسارتهم؛ لأنهم يصيرون إلى النار، والعامل في يوم هو يخسر، ويومئذ بدل منه، والتكوين للعرض عن المضاف إليه المملول عليه بما أضيف إليه المبدل منه، فيكون التقدير: ويوم تقوم الساعة يوم تقوم الساعة، فيكون بدلاً توكيدياً، والأولى أن يكون العامل في يوم هو ملك أي: لله ملك يوم تقوم الساعة، ويكون يومئذ معمولاً؛ ليخسر **﴿وَوَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جاثية﴾** الخطاب لكل من يصلح له، أو للنبي ﷺ، والأمة الملة، ومعنى جاثية: مستوفزة، والمستوفز: الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله، وذلك عند الحساب. وقيل معنى جاثية: مجتمعة قال الفراء: المعنى وتري أهل كل ذي دين مجتمعين. وقال عكرمة: متميزة عن غيرها، وقال مؤرج: معناه بلغة قريش: خاضعة. وقال الحسن: باركة على الركب، والجثو الجلوس على الركب، تقول: جثا يجثو ويجثي جثواً وجثياً؛ إذا جلس على ركبته، والأول أولى. ولا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر في لسان العرب، وقد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شيء في لغة العرب، ومنه قول طرفة يصف قبرين:

تري جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفائح منضد وظاهر الآية أن هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسل، وغيرهم من أهل الشرك. وقال يحيى بن سلام: هو خاص بالكفار، والأول أولى. ويؤيده قوله: **﴿كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعِي إِلَى كِتَابِهَا﴾** ولقوله فيما سيأتي **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** ومعنى إلى كتابها: إلى الكتاب المنزل عليها، وقيل: إلى صحيفة أعمالها، وقيل: إلى حسابها، وقيل: اللوح المحفوظ، والأول أولى. قرأ الجمهور (كل أمة) بالرفع على الابتداء، وخبره: تدعى، وقرأ يعقوب الحضرمي بالنصب على البدل من كل أمة **﴿الْيَوْمَ تَجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** أي يقال لهم: اليوم تجزون ما كنتم تعملون من خير وشر **﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾**

وَلَهُ مَلِكُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٧﴾ وَرَبِّ كُلِّ آتَمَةٍ جَانِيَةٌ كُلُّ آتَمَةٍ دَعْوَى إِلَى كَيْبَتِهَا آتَمَةٌ تَجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾ هَذَا كَيْبَتًا يَبْطُرُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِجُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ

هذا من تمام ما يقال لهم، والقائل بهذا: هم الملائكة وقيل: هو من قول الله سبحانه أي: يشهد عليكم، وهو استعارة، يقال: نطق الكتاب بكذا أي: بين، وقيل: إنهم يقرءونه فيذكرون ما عملوا، فكانه ينطق عليهم بالحق الذي لا زيادة فيه، ولا نقصان، ومحل ينطق النصب على الحال، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة، وجملة: **﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾** تعليل للنطق بالحق أي: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم أي: بكتبها، وتثبيتها عليكم. قال الواحدي: وكثير المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، فيجدون ذلك موافقاً لما يعملونه قالوا: لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل. وقيل المعنى: نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون. وقيل: إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات، وتركوا المباحات. وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عز وجل أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب **﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته﴾** أي: الجنة، وهذا تفصيل لحال الفريقين، فالؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة **﴿ذلك﴾** أي: الإبدال في رحمته **﴿هو الفوز المبين﴾** أي: الظاهر الواضح **﴿وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾** أي: فيقال لهم ذلك، وهو استفهام توبيخ: لأن الرسل قد أتتهم وتلى عليهم آيات الله، فكذبوها ولم يعملوا بها **﴿فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين﴾** أي: تكبرتم عن قبولها، وعن الإيمان بها، وكنتم من أهل الإجرام، وهي الآثام، والاجترام الاكتساب، يقال: فلان جريمة أهله: إذا كان كاسبهم، فالمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصي **﴿وإذا قيل إن وعد الله حق﴾** أي: وعده بالبعث والحساب، أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلية واقع لا محالة **﴿والساعة﴾** أي: القيامة **﴿لا ريب فيها﴾** أي: في وقوعها. قرأ الجمهور (والساعة) بالرفع على الابتداء، أو العطف على موضع اسم إن، وقرأ حمزة بالنصب عطفاً على اسم إن **﴿قلتم ما ندري ما الساعة﴾** أي: أي شيء هي؟ **﴿إن نظن إلا ظناً﴾** أي: نحس حسناً ونتوهم توهماً. قال المبرد: تقديره: إن نحن إلا نظن ظناً، وقيل: إن نظن مضمن معنى نعتقد أي: ما نعتقد إلا ظناً لا علماً، وقيل: إن ظناً له صفة مقدرة أي: إلا ظناً بيناً، وقيل: إن الظن يكون بمعنى العلم والشك، فكانهم قالوا: ما لنا اعتقاد إلا الشك **﴿وما نحن بمستيقنين﴾** أي: لم يكن لنا يقين بذلك، ولم يكن معنا إلا مجرّد الظن أن الساعة آتية **﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾** أي: ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التي هي عليها **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** أي: لحاط بهم، ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار **﴿وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾** أي: نترككم في النار

كما تركتم العمل لهذا اليوم، وأضاف اللقاء إلى اليوم توسعاً؛ لأنه أضاف إلى الشيء ما هو واقع فيه **﴿وماواكم النار﴾** أي: مسكنكم ومستقركم الذين تأوّن إليه **﴿وما لكم من ناصرين﴾** ينصرونكم فيمتعون عنكم العذاب **﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾** أي: نلكم العذاب بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزواً ولعباً **﴿وغرّكم الحياة الدنيا﴾** أي: خدعتكم بزخارفها وأباطيلها، فظننتم أنه لا دار غيرها، ولا بعث ولا نشور **﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾** أي: من النار. قرأ الجمهور (يخرجون) بضم الياء، وفتح الراء مبنياً للمفعول وقرأ حمزة، والكسائي بفتح الياء وضم الراء مبنياً للفاعل، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم **﴿ولا هم يستعتبون﴾** أي: لا يسترضون، ويطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله؛ لأنه يوم لا تقبل فيه توبة، ولا تنفع فيه معذرة **﴿قلله الحمد ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العالمين﴾** لا يستحقّ الحمد سواه. قرأ الجمهور (ربّ) في المواضع الثلاثة بالجرّ على الصفة للاسم الشريف. وقرأ مجاهد، وحמיד، وابن محيصن بالرفع في الثلاثة على تقدير مبتدأ أي: هو ربّ السموات إلخ **﴿وله الكبرياء في السموات والأرض﴾** أي: الجلال والعظمة والسلطان، وخصّ السموات والأرض لظهور ذلك فيهما **﴿وهو العزيز الحكيم﴾** أي: العزيز في سلطانه، فلا يغالبه مغالب، الحكيم في كل أفعاله وأقواله وجميع أفضيته.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن باباه قال: قال رسول الله ﷺ: «كأنّي أراكم بالكوم يوم جهنم جائئين، ثم قرأ سفيان (ويرى كل أمة جاثية)». وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في قوله: **﴿وترى كل أمة جاثية﴾** قال: كل أمة مع نبيها حتى يجيء رسول الله ﷺ على كرم قد علا الخلاق، فذلك المقام المحمود. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾** قال: هو أم الكتاب فيه أعمال بني آدم **﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾** قال: هم الملائكة يستنسخون أعمال بني آدم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه بمعناه مطوّلاً، فقام رجل فقال: يا ابن عباس، ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة في كل يوم وليلة، فقال ابن عباس: إنكم لستم قوماً عرباً **﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾** هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب. وأخرج ابن جرير عنه نحوه أيضاً، وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب قال: إن لله ملائكة ينزلون في كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر نحوه ما روي، عن ابن عباس. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: يستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أم الكتاب، وأخرج نحوه للحاكم عنه وصححه. وأخرج الطبراني عنه أيضاً في الآية قال: إن الله وكل ملائكته ينسخون من ذلك العام في

الإلهية، وقوله: ﴿وَلَجَل مَسْمًى﴾ معطوف على الحقّ أي: إلّا بالحقّ، ولجل مسمى على تقدير مضاف محذوف أي: ويتقدير أجل مسمى، وهذا الأجل هو يوم القيامة، فإنها تنتهي فيه السموات والأرض وما بينهما، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات. وقيل: المراد بالأجل المسمى هو: انتهاء أجل كل فرد من أفراد المخلوقات، والأول أولى، وهذا إشارة إلى قيام الساعة، وانقضاء مدّة الدنيا، وأن الله لم يخلق خلقه باطلاً وعبثاً لغير شيء، بل خلقه للثواب والعقاب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مَعْزُونُونَ﴾ أي: عما أنذروا وخوفوا به في القرآن من البعث والحساب، والجزاء معرضون مولون غير مستعنيين له، والجملة في محل نصب على الحال أي: والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به، وهما في قوله: ﴿مَا أُذِرُوا﴾ يجوز أن تكون الموصولة، ويجوز أن تكون المصدرية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أخبروني ما تعبئون من دون الله من الأصنام ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أي شيء خلقوا منها، وقوله: ﴿أَرُونِي﴾ يحتمل أن يكون تأكيداً لقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني أروني، والمفعول الثاني لأرأيتكم ماذا خلقوا، ويحتمل أن لا يكون تأكيداً، بل يكون هذا من باب التنازع؛ لأن أرايتكم يطلب مفعولاً ثانياً، وأروني كذلك ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أم هذه هي المنقطعة المقنطرة ببل والهمزة، والمعنى: بل لهم شركة مع الله فيها، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿أَلَنْتَوْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ هذا تيكيت لهم، وإظهار لعجزهم، وقصورهم عن الإتيان بذلك، والإشارة بقوله هذا إلى القرآن، فإنه قد صرح ببطلان الشرك، وأن الله واحد لا شريك له، وأن الساعة حق لا ريب فيها، فهل للمشركين من كتاب يخالف هذا الكتاب، أو حجة تنافي هذه الحجة ﴿أَوْ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ﴾ قال في الصحاح: أو إثارة من علم بقية منه، وكذا الأثرية بالتحريك. قال ابن قتيبة: أي: بقية من علم الأولين. وقال الفراء، والمبرد: يعني: ما يؤثر عن كتب الأولين. قال الواحدي: وهو معنى قول المفسرين. قال عطاء: أو شيء تأثروا به عن نبي كان قبل محمد ﷺ. قال مقاتل: أو رواية من علم عن الأنبياء. وقال الزجاج: أو إثارة أي: علامة، والأثرية مصدر كالسماحة والشجاعة، وأصل الكلمة من الأثر، وهي الرواية يقال: أثرت الحديث أثره أثره وأثارة وأثراً: إذا نكرته عن غيرك. قرأ الجمهور (أثارة) على المصدر كالسماحة والغواية. وقرأ ابن عباس، وزيد بن علي، وعكرمة، والسلمي، والحسن، وأبو رجاء بفتح الهمزة والياء من غير ألف. وقرأ الكسائي (أثرة) بضم الهمزة وسكون الياء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوكم التي تدعونها، وهي قولكم إن الله شريكاً، ولم تأتوا بشيء من ذلك، فتبين بطلان قولهم لقيام البرهان العقلي، والتقلي على خلافه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ أي: لا أحد أضل منه ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فكيف يطمع في الإجابة فضلاً عن جلب نفع، أو دفع ضرر؟ فتبين بهذا أنه

رمضان ليلة القدر ما يكون في الأرض من حدث إلى مثلهما من السنة المقبلة، فيتعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس، فيجدون ما رفع الحفظة موافقاً لما في كتابهم ذلك ليس فيه زيادة ولا نقصان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿الْيَوْمَ نَنسَأُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ قال: نترككم. وأخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: الكبرياء رداشي، والعظمة إزاراي، فمن نازعني واحداً منهما لقيته في النار».

تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية. قال القرطبي: في قول جميعهم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وابن الزبير قالاً: نزلت سورة حمّ الأحقاف بمكة. وأخرج ابن الضريس، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: «أقراني رسول الله ﷺ سورة الأحقاف وأقرأها آخر، فخالف قراءته، فقلت: من أقرأها؟ قال: رسول الله ﷺ، فقلت: والله لقد أقراني رسول الله ﷺ غير ذا، فاتينا رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله ألم تقرني كذا وكذا؟ قال: بلى، وقال الآخر: ألم تقرني كذا وكذا؟ قال: بلى، فتمعر وجه رسول الله ﷺ، فقال: ليقرا كل واحد منكما ما سمع، فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۚ أَنْتَرُونِي يَكْتُمُونَ بَيْنَ قَبْلٍ هَذَا أَوْ أَثَرُوا مِتَّ عَلَيْهِمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الدِّعَاءِ ۚ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ نَايَلُنَا يَنْتَوِي إِلَيْنَا يَدْعُوا ۚ قُلْ أَرَأَيْتُمْ فَلَا تَلِكُوتُ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ ۚ يَبْدَأُ مَا يَشَاءُ وَيَنْتَهِي ۚ وَهُوَ الْعَفُوُّ الرَّحِيمُ ۝ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعَاةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يُفْعَلُ فِي وَلَا يَكُنْ مِنْ أَتْبَعٍ إِلَّا مَا يُؤْتَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝

قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿قد تقدّم الكلام على هذا في سورة غافر وما بعدها مستوفى، ونكرنا وجه الإعراب، وبيان ما هو الحقّ من أن فواتح السور من المتشابه الذي يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات بأسرها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ هو استثناء مفرغ من أعَمّ الأحوال أي: إلا خلقاً ملتبساً بالحقّ الذي تقتضيه المشيئة

كذا قال الأخفش، وأنشد قطرب:

فما أنا بدع من حوائث تعترى رجلاً غث من بعد موسى وأسعدا
وقرأ عكرمة، وأبو حيوة، وابن أبي عبيدة (بدعاً) بفتح
الدال على تقدير حذف المضاف أي: ما كنت ذا بدع، وقرأ
مجاهد بفتح الباء، وكسر الدال على الوصف ﴿وَمَا أَدْرِ مَا
يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: ما يفعل بي فيما يستقبل من
الزمان هل أبقي في مكة، أو أخرج منها؟ وهل أموت أو
أقتل؟ وهل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون؟ وهذا إنما هو في
الدنيا. وأما في الآخرة، فقد علم أنه وأمثه في الجنة، وإن
الكافرين في النار. وقيل: إن المعنى: ما أدري ما يفعل بي
ولا بكم يوم القيامة، وإنها لما نزلت فرح المشركون، وقالوا:
كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل له
علينا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2] والأول أولى ﴿إِنْ اتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوْحِي
إِلَيْكَ﴾ قرأ الجمهور (يوحى) مبنياً للمفعول أي: ما اتبع إلا
القرآن، ولا أبتدع من عندي شيئاً، والمعنى: قصر أفعاله ﴿وَمَا
عَلَى الْوَحْيِ لَا قَصْرَ لِمَنْ يَتَّبِعُهُ الْوَحْيُ﴾ ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
مُبِينٌ﴾ أي: أنذركم عقاب الله، وأخوفكم عذابه على وجه
الإيضاح.

وقد أخرج أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني،
وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن
عباس ﴿أَوْ إِثَارَةً مِنْ عِلْمٍ﴾ قال: الخط. قال سفيان: لا أعلم
إلا عن النبي ﷺ، يعني: أن الحديث مرفوع لا موقوف على
ابن عباس. وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه عن أبي
هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخْطُ،
فَمَنْ صَافٍ مِثْلَ خَطِّهِ عِلْمٌ وَمَعْنَى هَذَا ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحِ
وَلَا هَلْ الْعِلْمُ فِيهِ تَفَاسِيرٌ مُخْتَلِفَةٌ. وَمَنْ أَيْنَ لَنَا أَنْ هَذِهِ
الْخُطُوطُ الرَّمْلِيَّةُ مُوَافِقَةٌ لِنَاكَ الْخَطِّ، وَإِنْ السَّنَدُ الصَّحِيحُ إِلَى
نَاكَ النَّبِيِّ، أَوْ إِلَى نَبِيِّنَا ﷺ أَنْ هَذَا الْخَطُّ هُوَ عَلَى صُورَةِ
كَذَا، فَلَيْسَ مَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الرَّمْلِ إِلَّا جَهَالَاتٌ وَضَلَالَاتٌ.
وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَوْ
إِثَارَةً مِنْ عِلْمٍ» قال: حسن الخط. وأخرج الطبراني في
الأوسط، والحاكم من طريق الشعبي، عن ابن عباس ﴿أَوْ
إِثَارَةً مِنْ عِلْمٍ﴾ قال: خط كان يخطه العرب في الأرض.
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿أَوْ إِثَارَةً
مِنْ عِلْمٍ﴾ يقول: بينة من الأمر. وأخرج ابن جرير، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿قُلْ مَا
كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ يقول: لست بأول الرسل ﴿وَمَا
أَدْرِ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ فانزل الله بعد هذا ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ
اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2] وقوله: ﴿لِيَدْخُلَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: 5] الآية، فأعلم سبحانه
نبيه ما يفعل به، وبالمؤمنين جميعاً. وأخرج أبو داود في
نسخه عنه أيضاً أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ
اللَّهُ﴾ وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أم
العلاء قالت: لما مات عثمان بن مظعون قلت: رحمك الله أبا

أجهل الجاهلين وأضل الضالين، والاستفهام للتقرير
والتوبيخ، وقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ غاية لعدم الاستجابة
﴿وَهُمْ عَنْ دَعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ والضمير الأول للأصنام،
والثاني لعابديها، والمعنى: والأصنام التي يدعونها عن
دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسمعون ولا يعقلون
لكونهم جمادات، والجمع في الضميرين باعتبار معنى من،
وأجري على الأصنام ما هو للعقلاء لاعتقاد المشركين فيها
أنها تعقل ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ﴾ أي: إذا
حشر الناس العابدين للأصنام كان الأصنام لهم أعداء يتبرأ
بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضاً وقد قيل: إن الله
يخلق الحياة في الأصنام، فتكذبهم. وقيل المراد: أنها تكذبهم،
وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال. وأما الملائكة،
والمسيح، وعزير، والشياطين، فإنهم يتبرءون ممن عبدتهم
يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: 63] ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي:
كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين أي: جاحدين
مكذبين وقيل: الضمير في كانوا للعابدين، كما في قوله:
﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23]، والأول أولى
﴿وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: آيات القرآن حال كونها
﴿هَيِّنَاتٌ﴾ واضحات المعاني ظاهرات الدلالات ﴿قَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي: لأجله وفي شأنه، وهو عبارة عن الآيات
﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: وقت أن جاءهم ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾
أي: ظاهر السحرية ﴿وَمَا يَقُولُونَ إِفْتِرَاءً﴾ أم هي المنقطعة
أي: بل يقولون افتراءه، والاستفهام للإنكار والتعجب من
صنيعهم، وبإل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحراً إلى
قولهم: إن رسول الله افتري ما جاء به، وفي ذلك من التوبيخ
والتقريع ما لا يخفى، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم
فقال: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتَهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي:
قل إن افتريته على سبيل الفرض، والتقدير: كما تدعون، فلا
تقدرون على أن تترؤا عني عقاب الله، فكيف افتري على الله
لأجلكم، وأنتم لا تقدرون على نفع عقابه عني ﴿هُوَ أَعْلَمُ
بِمَا تَفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تخوضون فيه من التكذيب،
والإفاضة في الشيء الخوض فيه، والاندفاع فيه، يقال:
أفاضوا في الحديث أي: اندفعوا فيه، وأفاض البعير: إذا نفع
جرته من كرشه والمعنى: الله أعلم بما تقولون في القرآن،
وتخوضون فيه من التكذيب له، والقول بأنه سحر وكهانة
﴿كُفِيَ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه يشهد لي بأن القرآن
من عنده، وأني قد بلغتكم، ويشهد عليكم بالتكذيب والجدود،
وفي هذا وعيد شديد ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب
وآمن، وصلى بالقرآن وعمل بما فيه أي: كثير المغفرة
والرحمة بليغهما ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ البدع من
كل شيء المبدأ أي: ما أنا بأول رسول، قد بعث الله قبلي
كثيراً من الرسل. قيل: البدع بمعنى البديع كالخف والخفيف،
والبديع ما لم ير له مثل، من الابتداء وهو الاختراع، وشيء
بدع بالكسر أي: مبتدع، وفلان بدع في هذا الأمر أي: بديع

وقد اختلف في جواب الشرط ماذا هو؟ فقال الزجاج: محذوف تقديره أتؤمنون، وقيل قوله: ﴿فَأَمَّنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وقيل محذوف تقديره: فقد ظلمتم لدلالة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ عليه، وقيل تقديره: فمن أضل منكم، كما في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ أَعْيُنَ النَّاسِ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ السَّاعَةُ﴾ [فصلت: 52] الآية. وقال أبو علي الفارسي: تقديره أتؤمنون عقوبة الله، وقيل التقدير: الستم ظالمين، ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من أقاويلهم الباطلة فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأجلهم، ويجوز أن تكون هذه اللام هي لام التبليغ ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: لو كان ما جاء به محمد من القرآن والنبوة خيراً ما سبقونا إليه؛ لأنهم عند أنفسهم المستحقون للسبق إلى كل مكربة، ولم يعلموا أن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويصطفى لدينه من يشاء. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، وقيل: بالإيمان ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾، فجاوزوا نفي خيرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم، كما قالوا أساطير الأولين، والعامل في إذ مقدر أي: ظهر عندهم، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ لتضاض الزمانين أعني: المضى والاستقبال ولأجل الفاء أيضاً، وقيل: إن العامل فيه فعل مقتر من جنس المنكور أي: لم يهتدوا به، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى﴾ قرأ الجمهور بكسر الميم من (من) على أنها حرف جر، وهي مع مجرورها خبر مقدم، وكتاب موسى مبتدأ مؤخر، والجملة في محل نصب على الحال، أو هي مستأنفة، والكلام مسوق لرد قولهم: ﴿هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾ فإن كونه قد تقدم القرآن كتاب موسى، وهو التوراة وتوافقاً في أصول الشرائع يدل على أنه حق، وأنه من عند الله، ويقتضي بطلان قولهم. وقرئ بفتح ميم من على أنها موصولة ونصب كتاب أي: وآتيناه من قبله كتاب موسى، ورويت هذه القراءة عن الكلبي ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ أي: يقتدى به في الدين، ورحمة من الله لمن آمن به، وهما منتصبان على الحال، قاله الزجاج وغيره. وقال الأخفش على القطع، وقال أبو عبيدة: أي: جعلناه إماماً ورحمة. ﴿وَهَذَا كِتَابُ مُصَدِّقٍ﴾ يعني: القرآن فإنه مصدق لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة، ولغيره من كتب الله، وقيل: مصدق للنبي ﷺ، وانتصاب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ على الحال الموطئة، وصاحبها الضمير في مصدق العائد إلى كتاب، وجوز أبو البقاء أن يكون مفعولاً لمصدق، والأول أولى، وقيل: هو على حذف مضاف أي: ذا لسان عربي، وهو النبي ﷺ ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قرأ الجمهور (لينذر) بالتحية على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب أي: لينذر الكتاب الذين ظلموا، وقيل: الضمير راجع إلى الله، وقيل: إلى الرسول، والأول أولى. وقرأ نافع، وابن عامر، والبيزي بالفوقية على أن فاعله النبي ﷺ، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد، وقوله: ﴿وَيُشِيرُ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في محل نصب عطفاً على محل لينذر. وقال

السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمك؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، وإنما أنا أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم، قالت أم العلاء: فوالله لا أذكى بعده أحداً.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَنَحَدُّ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى نَفْسِهِ فَأَمَّا وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابُ مُصَدِّقٍ لِسَانًا عَرَبِيًّا يُنْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشِيرُ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا مَا حَوْثٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥٩﴾ أُولَئِكَ أَحَبُّ الْخَلْقِ خَلِيلِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَوَعَدْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْنِهِ إِسْحَاقَ حَمَلَةً أُمَّهُ كَرِيمًا وَوَعَدْنَاهُ كَرِيمًا وَوَعَدْنَاهُ نَحْنُ نَحْنُ كَرِيمًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَنَعَّمْ بِنِعْمِ آيَاتِنَا سَمِعَ قَالَ رَبِّ أَوْصِنِّي نَحْنُ أَشْكُرُ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالدَّيِّ وَأَنْ أَعْمَلَ سَلَامًا رَبَّنَا وَاصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُشْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ آمَنُوا مَا عَمِلُوا وَتَجَارَوْا عَنْ سَعَاتِهِمْ فِي أَحَبِّ الْخَلْقِ وَعَدَ الْمُصَدِّقُ الَّذِينَ كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٦٢﴾

قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني: ما يوحى إليه من القرآن، وقيل المراد: محمد ﷺ، والمعنى: إن كان مرسلًا من عند غير الله، وقوله: ﴿وَكُفَرْتُمْ بِهِ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير قد، وكذلك قوله: ﴿وَوَشَّهَدُ شَاهِدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ والمعنى: أخبروني إن كان ذلك في الحقيقة من عند الله والحال أنكم قد كفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل العالمين بما أنزل الله في التوراة على مثله أي: القرآن من المعاني الموجودة في التوراة المطابقة له من إثبات التوحيد، والبعث والنشور وغير ذلك، وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعاني، وإن اختلفت اللفاظ. وقال الجرجاني: مثل صلة، والمعنى: وشهد شاهد عليه أنه من عند الله، وكذا قال الواحدي، ﴿فَأَمَّنْ﴾ الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله، ومن جنس ما ينزل على رسله، وهذا الشاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام، كما قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة وغيرهم، وفي هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع، وعبد الله بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة، فيكون المراد بالشاهد: رجلاً من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن في مكة وصدقه، واختار هذا ابن جرير، وسيأتي في آخر البحث ما يترجح به أنه عبد الله بن سلام، وإن هذه الآية مدنية لا مكية. وروي عن مسروق أن المراد بالرجل: موسى عليه السلام، وقوله: ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ معطوف على شهد أي: آمن الشاهد، واستكبرتم أنتم عن الإيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فحرمهم الله سبحانه الهداية؛ لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان، ومن فقد هداية الله له ضل.

بالألف، وقرأ الحسن، ويعقوب، وقتادة، والجحدري (وفصله) بفتح الفاء، وسكون الصاد بغير ألف، والفصل والفصال بمعنى: كالفطم والفطام، والقطف والقطاف **﴿حتى إذا بلغ أشده﴾** أي: بلغ استحكام قوته وعقله، وقد مضى تحقيق الأشد مستوفى، ولا بد من تقدير جملة تكون حتى غاية لها أي: عاش واستمرت حياته حتى بلغ أشده، قيل: بلغ عمره ثمانين عشرة سنة، وقيل: الأشد الحلم قاله الشعبي، وابن زيد. وقال الحسن: هو بلوغ الأربعين، والأول أولى لقوله: **﴿وبلغ أربعين سنة﴾**، فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شيء وراء بلوغ الأشد. قال المفسرون: لم يبعث الله نبياً قط إلا بعد أربعين سنة **﴿قال رب أوزعني﴾** أي: الهمني. قال الجوهري: استوزعت الله فأوزعني أي: استلهمته فألهمني **﴿إن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾** أي: الهمني شكر ما أنعمت به علي من الهداية، وعلى والدي من التحنن عليّ منهما حين ربياني صغيراً. وقيل: أنعمت علي بالصحة والعافية، وعلى والدي بالغنى والثروة، والأولى عدم تقييد النعمة عليه، وعلى أبيه بنعمة مخصوصة **﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾** أي: والهمني أن أعمل عملاً صالحاً ترضاه مني **﴿وأصلح لي في ذريتي﴾** أي: اجعل ذريتي صالحين راسخين في الصلاح متمكنين منه. وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات، وقد روي أنها نزلت في أبي بكر، كما سيأتي في آخر البحث **﴿إني تبت إليك﴾** من ذنوبي **﴿وإني من المسلمين﴾** أي: المستسلمين لك المتقائين لطاعتك المخلصين لتوجيهك، والإشارة بقوله **﴿أولئك﴾** إلى الإنسان المذكور، والجمع لأنه يراد به الجنس، وهو مبتدأ، وخبره **﴿الذين تنقبّل عنهم لحسن ما عملوا﴾** من أعمال الخير في الدنيا، والمراد بالأحسن الحسن، كقوله: **﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم﴾** [الزمر: 55] وقيل: إن اسم التفضيل على معناه، ويراد به ما يثاب العبد عليه من الأعمال، لا ما لا يثاب عليه كالمباح فإنه حسن، وليس بأحسن **﴿ونتجاوز عن سيئاتهم﴾** فلا نعاقبهم عليها. قرأ الجمهور (يتقبل، ويتجاوز) على بناء الفعلين للمفعول. وقرأ حمزة، والكسائي بالنون فيهما على إسنادهما إلى الله سبحانه، والتجاوز الغفران، وأصله من جزت الشيء: إذا لم تقف عليه، ومعنى **﴿في أصحاب الجنة﴾**: أنهم كانوا في عدادهم منتظمون في سلوكهم، فألجأ والمجرور في محل نصب على الحال كقولك: أكرمني الأمير في أصحابه أي: كأثنا في جملتهم، وقيل: إن في بمعنى مع أي: مع أصحاب الجنة، وقيل: إنهما خبر مبتدأ محذوف أي: هم في أصحاب الجنة **﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾** وعد الصدق مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة؛ لأن قوله: **﴿أولئك الذين تنقبّل عنهم﴾** إلخ في معنى الوعد بالتقبل والتجاوز، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف أي: وعدهم الله وعد الصدق الذي كانوا يوعدون به على ألسن الرسل في الدنيا.

الزجاج: الأجود أن يكون في محل رفع أي: وهو بشري، وقيل: على المصدرية لفعل محذوف أي: وتبشر بشري، وقوله: **﴿للمحسنين﴾** متعلق ببشري **﴿إن للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾** أي: جمعوا بين التوحيد والاستقامة على الشريعة، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة السجدة **﴿فلا خوف عليهم﴾** الفاء زائدة في خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط **﴿ولا هم يحزنون﴾** المعنى: أنهم لا يخافون من وقوع مكروه بهم، ولا يحزنون من فوات محبوب، وإن ذلك مستمر دائم **﴿أولئك أصحاب الجنة﴾** أي: أولئك الموصوفون بما نكر أصحاب الجنة التي هي دار المؤمنين حال كونهم **﴿خالسين فيها﴾** وفي هذه الآية من الترغيب أمر عظيم، فإن نفي الخوف والحزن على الدوام، والاستقرار في الجنة على الأبد مما لا تطلب الأنفس سواء، ولا تتشوّف إلى ما عداه **﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾** أي: يجزون جزاء بسبب أعمالهم التي عملوها من الطاعات لله، وترك معاصيه **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾** قرأ الجمهور (حسناً) بضم الحاء، وسكون السين. وقرأ عليّ، والسلمي بفتحهما، وقرأ ابن عباس، والكوفيون (إحساناً) وقد تقدّم في سورة العنكبوت **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾** من غير اختلاف بين القراء، وتقدّم في سورة الأنعام، وسورة بني إسرائيل **﴿وبالوالدين إحساناً﴾** [الإسراء: 23] فلعل هذا هو وجه اختلاف القراء في هذه الآية، وعلى جميع هذه القراءات، فانتصابه على المصدرية أي: وصيناه أن يحسن إليهما حسناً، أو إحساناً، وقيل: على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى: الزمنا، وقيل: على أنه مفعول له **﴿حملته أمه﴾** كرهاً ووضعته كرهاً قرأ الجمهور (كرهاً) في الموضعين بضم الكاف. وقرأ أبو عمرو، وأهل الحجاز بفتحهما. قال الكسائي: وهما لغتان بمعنى واحد. قال أبو حاتم: الكره بالفتح لا يحسن؛ لأنه الغضب والغلبة، واختار أبو عبيد قراءة الفتح قال: لأن لفظ الكره في القرآن كله بالفتح إلا التي في سورة البقرة: **﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾** [البقرة: 216] وقيل: إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه، وبالفتح ما حمل على غيره. وإنما نكر سبحانه حمل الأم ووضعها تأكيداً لوجوب الإحسان إليها الذي وصى الله به، والمعنى: أنها حملته ذات كره، ووضعته ذات كره، ثم بيّن سبحانه مدة حمله وفصاله فقال: **﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾** أي: مدتّ هذه المدة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع أي: يقطع عنه، وقد استدلّ بهذه الآية على أن أقل الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع سنتان أي: مدة الرضاع الكامل، كما في قوله: **﴿حولين كاملين﴾** لمن أراد أن يتمّ الرضاعة [البقرة: 233] فنكر سبحانه في هذه الآية أقل مدة الحمل، وأكثر مدة الرضاع. وفي هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم أكد من حق الأب؛ لأنها حملته بمشقة، ووضعته بمشقة وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب، ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك. قرأ الجمهور (وفصاله)

نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال: إني لصاحب المرأة التي أتى بها عمر وضعت لسته أشهر، فأنكر الناس ذلك، فقلت لعمر: لم تظلم؟ قال: كيف؟ قلت اقرا: ﴿وَحَمَلْهُ وَفَصَلَّاهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين [البقرة: 233] كم الحول؟ قال: سنة، قلت: كم السنة؟ قال: اثنا عشر شهراً، قلت: فأربعة وعشرون شهراً حولان كاملاً، ويؤخر الله من الحمل ما شاء، ويقدم ما شاء، فاستراح عمر إلى قولي. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفأها من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفأها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسته أشهر، فحولان كاملاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَحَمَلْهُ وَفَصَلَّاهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وأخرج ابن مريويه عنه أيضاً قال: أنزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ لُسْمَهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ الآية، فاستجاب الله له، فأسلم والداه جميعاً وإخوته وولده كلهم، ونزلت فيه أيضاً ﴿فَمَا مِنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [الليل: 5] إلى آخر السورة.

وَالَّذِي قَالَ لِلرَّحْمَةِ رَبِّهِ أَفِي كَيْفَ تَقْدِيرِهِ أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَيْتُ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِي
وَهُمَا يَسْتَفْتِيَانِ اللَّهَ وَتِلْكَ مَآئِينَ إِنْ عَزَّ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطُورٌ
الْأَوَّلِينَ ﴿٧٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْنٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ
الْبَرِّ وَالْإِنْسِ أَنْبَاءٌ كَانُوا حَافِيَيْنَ ﴿٧٨﴾ وَلَكِنْ دَرَسَتْ بَيْنَا عَمَلُوا وَلِيُفْقَهُمْ
أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ وَيَوْمَ نَعْرِضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْقَمْتُمْ لِيُنْذِرَكُمْ
حَاذِرُكَ الدُّنْيَا وَاسْتَعْتَمْتُمْ بِهَا قَالُوا نَحْنُ نَحْنُ نَحْنُ نَحْنُ نَحْنُ نَحْنُ نَحْنُ نَحْنُ نَحْنُ نَحْنُ
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٨٠﴾

لما ذكر سبحانه من شكر نعمة الله سبحانه عليه، وعلى والديه ذكر من قال لهما قولاً يدل على التضجر منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفْ لَكُمْ﴾ الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول، ولهذا أخبر عنه بالجمع، وأف كلمة تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه. قرأ نافع وحفص (أف) بكسر الفاء مع التنوين. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وابن محيصن بفتحها من غير تنوين، وقرأ الباقون بكسر من غير تنوين وهي لغات. وقد مضى بيان الكلام في هذا في سورة بني إسرائيل [أي: سورة الإسراء]، واللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لبيان التأقيف أي: التأقيف لكما، كما في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23] قرأ الجمهور (أتعدانني) بنونين مخففتين وفتح ياءه أهل المدينة ومكة، وأسكنها الباقون. وقرأ أبو حيو، والمغيرة، وهشام بإدغام إحدى النونين في الأخرى، ورويت هذه القراءة عن نافع. وقرأ الحسن، وشيبة، وأبو جعفر، وعبد الوارث عن أبي عمرو بفتح النون الأولى، كأنهم قرأوا من توالي مثليين مكسورين. وقرأ الجمهور (إن أخرج) بضم الهمزة وفتح الراء مبنياً للمفعول. وقرأ الحسن، ونصر، وأبو

وقد أخرج أبو يعلى، وابن جرير، والطبراني، والحاكم، وصححه عن عوف بن مالك الأشجعي: «انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فتركوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط الله تعالى عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا، فما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثالثاً، فقال: أبيتم فواش لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفى أنتم أو كنبتم، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج، فإذا رجل من خلفه، فقال: كما أنت يا محمد فأقبل، فقال تلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ فقالوا: والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله، ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جئك، قال: فلأني أشهد بالله أنه النبي الذي تجسونه مكتوباً في التوراة والإنجيل، قالوا: كنبت، ثم رثوا عليه وقالوا شراً، فقال رسول الله ﷺ: كنبتم لن يقبل منكم قولكم، فخرجنا ونحن ثلاثة، رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وَصَحَّهِ السِّيَوطِيُّ. وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُمَا عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَفِيهِ نَزَلَتْ: ﴿وَشَهِدْ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾. وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ: نَزَلَ فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ نَزَلَتْ فِي: ﴿وَشَهِدْ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وَنَزَلَ فِي: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 43]. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَشَهِدْ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قَالَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وَقَدْ رَوَى نَحْوَ هَذَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ. وَفِيهِ لَدِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذِهِ آيَةً مَدْنِيَّةً، فَيُخَصَّصُ بِهَا عُمُومُ قَوْلِهِمْ إِنْ سُورَةُ الْأَحْقَافِ كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ نَاسٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: نَحْنُ أَعَزُّ وَنَحْنُ وَنَحْنُ فُلُو كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَنَزَلَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي شَدَادٍ قَالَ: كَانَتْ لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ أُمَةٌ اسْمُهَا زَيْنَبُ، وَكَانَ عَمْرٌ يَضْرِبُهَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ كَفَّارٌ قَرِيشِي يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ زَيْنَبُ، فَانْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِهَا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الْآيَةَ. وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَبْنُو غِفَارٌ وَأَسْلَمَ كَانُوا لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِتْنَةٌ، يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا جَعَلَهُمُ اللَّهُ أَوَّلَ النَّاسِ فِيهِ». وَأَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرٍ مِنْ طَرِيقِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ الْآيَةَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقَ الَّذِي كَانُوا يَوْعِدُونَ﴾ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ عَنْ

(أنهيتهم) بهمة واحدة، وقرأ الحسن، ونصر، وأبو العالية، ويعقوب، وابن كثير بهمزةين مخففتين. ومعنى الاستفهام: التقرير والتوبيخ. قال الفراء، والزجاج: العرب توبخ بالاستفهام وبغيره، فالتوبيخ كائن على القراءتين. قال الكلبي: المراد بالطيبات اللذات، وما كانوا فيه من المعاش **«واستمتعتم بها»** أي: بالطيبات، والمعنى: أنهم اتبعوا الشهوات، واللذات التي في معاصي الله سبحانه، ولم يبالوا بالذنوب تكنيباً منهم لما جاءت به الرسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب **«فاليوم تجزون عذاب الهون»** أي: العذاب الذي فيه ذل لكم، وخزي عليكم. قال مجاهد، وقتادة: الهون الهوان بلغة قريش **«بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق»** أي: بسبب تكبركم عن عبادة الله، والإيمان به وتوحيده **«وبما كنتم تفسقون»** أي: تخرجون عن طاعة الله، وتعملون بمعاصيه، فجعل السبب في عذابهم أمرين: التكبر عن اتباع الحق، والعمل بمعاصي الله سبحانه وتعالى، وهذا شأن الكفرة، فإنهم قد جمعوا بينهما.

وقد أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية؛ لكي يبايع له بعد أبيه، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا أنزل فيه: **«والذي قال لوالديه أف لكما»** فقالت عائشة: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سنة أبي بكر، وعمر، فقال عبد الرحمن: سنة هرقل، وقيصر، فقال مروان: هذا الذي قال الله فيه: **«والذي قال لوالديه أف لكما»** الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان، والله ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي نزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أباً مروان، ومروان في صلبه، فمروان من لعنه الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: هذا ابن لابي بكر. وأخرج نحوه أبو حاتم عن السدي، ولا يصح هذا كما قدمنا.

✽ **وَأَذْكُرُ مَا كَانَ إِذْ أُنْزِلَ قَوْمٌ بِالْأَخْطَانِ وَقَدْ خَلَّتِ الْأُذُنُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَتَذَكَّرُوا أَنَّ اللَّهَ إِذَا لَمَسَ عَلَيْكَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١١﴾** قَالُوا أَجِئْنَا بِبَاطِلٍ كَاذِبٍ أَمْ لَمْ يَأْتِنَا بِمَا يَمُنُّونَ إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلَمْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَلَيْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ. وَلَكِنْ أَتَيْتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ تُدِيرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهِ فَأَرْسَلْنَا مِنْهُ لَأَرْبَحَ الْفُلَ وَنُجِيتُ الْبَارِئِينَ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْجَمِينَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن كُنْتُمْ فِيهِ وَجَلَلْنَا لَهُمْ سَمًا وَابْشَرْنَا وَأَفْقِدْنَا فَمَا آتَيْنَا عَنْهُمْ سَمْعَهُمْ وَلَا أَفُودَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْعَلُونَ بَيْنَ اللَّهِ وَحَقِّ رَبِّهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ مِنَ الْفَرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ

العالية، والأعمش، وأبو معمر بفتح الهمزة وضم الراء مبتدأً للفاعل. والمعنى: أتعداني أن أبعث بعد الموت، وجملة **«وقد خلت القرون من قبلي»** في محل نصب على الحال أي: والحال أن قد مضت القرون من قبلي فماتوا، ولم يبعث منهم أحد، وهكذا جملة: **«وهما يستغيثان الله»** في محل نصب على الحال أي: والحال أنهما يستغيثان الله له، ويطلبان منه التوفيق إلى الإيمان، واستغاث يتعدى بنفسه وبالباء يقال: استغاث الله، واستغاث به. وقال الرازي: معناه يستغيثان بالله من كفره، فلما حذف الجار وصل الفعل، وقيل: الاستغاث الدعاء، فلا حاجة إلى الباء. قال الفراء: يقال: أجاب الله دعاءه وغواثه، وقوله: **«ويلك»** هو بتقدير القول أي: يقولان له: ويلك، وليس المراد به الدعاء عليه، بل الحث له على الإيمان، ولهذا قال له: **«أمن إن وعد الله حق»** أي: أمن بالبعث إن وعد الله حق لا خلف فيه **«فسيقول»** عند ذلك مكذباً لما قاله: **«ما هذا إلا أساطير الأولين»** أي: ما هذا الذي تقولانه من البعث إلا أحاديث الأولين، وباطليهم التي سطورها في الكتب. قرأ الجمهور (إن وعد الله) بكسر إن على الاستئناف، أو التعليل وقرأ عمر بن فايد، والأعرج بفتحها على أنها معمولة لأمن بتقدير الباء. أي: أمن بأن وعد الله بالبعث حق **«أولئك الذين حق عليهم القول»** أي: أولئك القائلون هذه المقالات هم الذين حق عليهم القول أي: وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس: **«لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين»** [ص: 85] كما يفيد قوله: **«في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس»**، وجملة: **«إنهم كانوا خاسرين»** تعليل لما قبله، وهذا يدفع كون سبب نزول الآية عبد الرحمن بن أبي بكر، وأنه الذي قال لوالديه ما قال، فإنه من أفاضل المؤمنين، وليس ممن حقت عليه كلمة العذاب، وسيأتي بيان سبب النزول في آخر البحث إن شاء الله **«ولكل درجات مما عملوا»** أي: لكل فريق من الفريقين المؤمنين، والكافرين من الجن، والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم. قال ابن زيد: درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفلاً، ودرجات أهل الجنة تذهب علواً **«وليوفيهم أعمالهم»** أي: جزاء أعمالهم. قرأ الجمهور (لنوفيههم) بالنون. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وعاصم، وأبو عمرو، ويعقوب بالياء التحتية. واختار أبو عبيد القراءة الأولى، واختار الثانية أبو حاتم **«وهم لا يظلمون»** أي: لا يزداد مسيء، ولا ينقص محسن، بل يوفى كل فريق ما يستحقه من خير وشر. والجملة في محل نصب على الحال، أو مستأنفة مقررة لما قبلها **«ويوم يعرض الذين كفروا على النار»** الظرف متعلق بمحذوف أي: أنكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء، فينظرون إلى النار ويقربون منها، وقيل: معنى يعرضون يعذبون من قولهم: عرضه على السيف، وقيل: في الكلام قلب. والمعنى: تعرض النار عليهم **«أنهيتهم طيباتكم في حياتكم الدنيا»** أي: يقال لهم ذلك، قيل: وهذا المقدر هو الناصب للظرف، والأول أولى قرأ الجمهور

يَرْجُونَ ﴿٧٦﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلُّوا عَلَيْهِمْ وَذَكَرَ الْإِنكِبُ مَا كَانُوا بِفِتْرَةٍ ﴿٧٧﴾

قوله: ﴿وَأَنذِرْ لَخَا عَادَ﴾ أي: وأذكر يا محمد لقومك أخا عاد، وهو هود بن عبد الله بن رباح كان أخاهم في النسب، لا في الدين، وقوله: ﴿إِذَا أَنذَرْتَهُمْ قَوْمَهُ﴾ بدل اشتمال منه أي: وقت إنذاره إياهم ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ وهي ديار عاد جمع حقف، وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج قاله الخليل وغيره، وكانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم، والمعنى: أن الله سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم؛ ليعتظوا ويخافوا، وقيل: أمره بأن يتذكر في نفسه قصتهم مع هود؛ ليعتدي به ويهون عليه تكذيب قومه. قال عطاء: الأحقاف رمال بلاد الشحر. وقال مقاتل: هي باليمن في حضرموت، وقال ابن زيد: هي رمال مبسوطة مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبلاً ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ﴾ أي: وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده، كذا قال الفراء وغيره. وفي قراءة ابن مسعود (من بين يديه ومن بعده) والجملة في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود، وبين قوله لقومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ والوَلَّى أولى. والمعنى: أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله، والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره، ثم رجع إلى كلام هود لقومه، فقال حاكياً عنه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقيل: إن جعل تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام، وأوفق بالمعنى ﴿قَالُوا لَجِئْنَا لِنَتَأَكَّفَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي: لتصرفنا عن عبادتها، وقيل: لتزينا، وقيل: لثمنعنا والمعنى متقارب، ومنه قول عروة بن أتيبة:

إِنْ تَكُ عَنْ حَسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْمُورٌ كَأَنفِي آخِرِينَ قَدِ افْتَكُوا
يقول: إن لم توفق للإحسان، فانت في قوم قد صرفوا عن ذلك ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعْنَانَا﴾ من العذاب العظيم ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعك لنا به ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إنما العلم بوقت مجيئه عند الله لا عندي ﴿وَأَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار، فأما العلم بوقت مجيء العذاب، فما أوحاه إلي ﴿وَلَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث بقيتم مصرين على كفركم، ولم تهتدوا بما جئكم به، بل اقترحت علي ما ليس من وظائف الرسل ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ الضمير يرجع إلى «ما» في قوله: ﴿بِمَا تَعْنَانَا﴾. وقال المبرد، والزجاج: الضمير في ﴿رَأَوْهُ﴾ يعود إلى غير منكور، وبينه قوله: ﴿عَارِضًا﴾، فالضمير يعود إلى السحاب أي: فلما رأوا السحاب عارضاً، فعارضاً نصب على التكرير يعني: التفسير، وسمي السحاب عارضاً لأنه يبدو في عرض السماء. قال الجوهري: العارض السحاب يعترض في الأفق، ومنه قوله: ﴿هَذَا عَارِضٌ مَمْطَرٌ﴾ وانتصاب عارضاً على الحال، أو التمييز ﴿مُسْتَقْبَلُ أُولَئِكَ﴾ أي: متوجهاً نحو

أوليتهم. قال المفسرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً، فساق الله إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد لهم يقال له: المعتب، فلما رآه مستقبل أوليتهم استبشروا، و﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مَمْطَرٌ﴾ أي: غيم فيه مطر، وقوله: ﴿مُسْتَقْبَلُ أُولَئِكَ﴾ صفة لعارض؛ لأن إضافته لفظية لا معنوية، فصع وصف النكرة به، ومكذا ممطرنا، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود، فقال: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ يعني: من العذاب حيث قالوا: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعْنَانَا﴾ وقوله: ﴿رِيحٌ﴾ بدل من ماء، أو خبر مبتدأ محذوف، وجملة: ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفة لريح، والريح التي عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رآه ﴿قَدَّمَ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ هذه الجملة صفة ثانية لريح أي: تهلك كل شيء مَرَّتْ به من نفوس عاد وأموالها، والتدمير: الإهلاك، وكذا الدمار، وقرئ (يلمر) بالتحية مفتوحة وسكون الدال وضم الميم، ورفع (كل) على الفاعلية من دمر دماراً، ومعنى ﴿بِمَا تَعْنَانَا﴾: أن تلك بقضائه وقدره ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾ أي: لا ترى أنت يا محمد، أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد زهاب أنفسهم وأموالهم. قرأ الجمهور (لا تَرَى) بالفوقية على الخطاب، ونصب مساكنهم. وقرأ حمزة، وعاصم بالتحية مضمومة مبنياً للمفعول، ورفع مساكنهم. قال سيبويه: معناه لا يرى أشخاصهم إلا مساكنهم، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الثانية. قال الكسائي، والزجاج: معناها لا يرى شيء إلا مساكنهم، فهي محمولة على المعنى كما تقول: ما قام إلا هند، والمعنى: ما قام أحد إلا هند، وفي الكلام حذف، والتقدير: فجاءتهم الريح فدمرتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴿كُنْكَالُ نَجْزِي الْقَوْمِ الْمَجْرُمِينَ﴾ أي: مثل تلك الجزاء نجزي هؤلاء، وقد مر بيان هذه القصة في سورة الأعراف ﴿وَلَقَدْ مَكَانَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَانَكُمْ فِيهِ﴾ قال المبرد: ما في قوله فيما فيما بمنزلة الذي، وإن بمنزلة ما يعني: النافية، وتقديره: ولقد مكانهم في الذي ما مكانكم فيه من المال وطول العمر وقوة الأبدان، وقيل: «إن» زائدة وتقديره: ولقد مكانهم فيما مكانكم فيه، وبه قال القتيبي، ومثله قول الشاعر:

فَمَا إِنْ طَبِينِ جَبِينٍ وَلَكِنْ مَنَابِيَنَا وَدَوْلَةَ أَضْرِينَا
والوَلَّى أولى؛ لأنه أبلغ في التوبيخ لكفار قريش، وأمثالهم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفُتْدَةً﴾ أي: إنهم أعرضوا عن قبول الحجة، والتنكر مع ما أعطاهم الله من الحواس التي بها تترك الأدلة، ولهذا قال: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْتَدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: فما نفعهم ما أعطاهم الله من ذلك حيث لم يتوصلوا به إلى التوحيد، وصحة الوعد والوعيد، وقد قَدَّمْنَا من الكلام على وجه أفراد السمع، وجمع البصر ما يغني عن الإعادة، و«من» في ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ زائدة، والتقدير: فما أغنى عنهم شيء من الإغناء، ولا نفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿إِذَا

الكرامية، قال: «يا عائشة: وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مِّمَطْرُنَا﴾». وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسالك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به، فإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج وبخل وأقبل وأبصر، فإذا مطرت سرى عنه، فسألته فقال: لا أدري، لعله كما قال قوم عاد: ﴿هَذَا عَارِضٌ مِّمَطْرُنَا﴾». وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْبَيْتِهِمْ﴾ قالوا: غيم فيه مطر، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من رجالهم، ومواشيهم تطير بين السماء والأرض مثل الريش نخلوا بيوتهم، وغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم، ومالت عليهم بالرمل، فكانوا تحت الرمل سبع ليال، وثمانية أيام حسوماً لهم أنين، ثم أمر الله الريح، فكشفت عنهم الرمل وطرحتهم في البحر، فهو قوله: ﴿فَاصْبِحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قدر خاتمي هذا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَانَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَانَكُمْ فِيهِ﴾ يقول: لم نمكنكم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: عاد مكثوا في الأرض أفضل مما مكثت فيه هذه الأمة، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأطول أعماراً.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُيِّضُوا رَوُّوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٧٠﴾ قَالُوا يَنْتَوِينَا إِنَّا سَمِعْنَا حِكْمَةً أُنزِلَ مِنَّا بِعَدُوِّنَا مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَدْعُو إِلَى الْوَحْيِ ذَٰلِكَ طَرِيقُ شَيْعِمٍ ﴿١٧١﴾ يَنْتَوِينَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَدَاعِيَ الْيَوْمِ يَبْعَثُ لَكُمْ مِّنْ دُونِكُمْ مَّجْرَمًا مِّنْ عَذَابِ آيَةٍ ﴿١٧٢﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي سُلَكٍ مِّثْلٍ ﴿١٧٣﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُنَّ بَدِيلًا يَدْعُو إِلَى الْوَحْيِ لَمَّا رَأَوْا الْآيَةَ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٧٤﴾ فَاسْتَجَبَ كَمَا صَبَرُوا أُولَٰئِكَ الْعَرَبُ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لََّا يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغْ هَٰذَا إِلَيْكَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ الْفِتْنَةُ ﴿١٧٥﴾

لما بين سبحانه أن في الإنس من آمن، وفيهم من كفر بين أيضاً أن في الجن كذلك، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ العامل في الظرف مقدر أي: وإنكر إذ صرّفنا، أي: وجهنا إليك نفرًا من الجن، وبعثناهم إليك، وقوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ في محل نصب صفة ثانية لنفراً أو حال، لأن النكرة قد تخصصت بالصفة الأولى

كانوا يحددون بآيات الله ﷻ الظرف متعلق بأغنى، وفيها معنى التعليل أي: لأنهم كانوا يحددون ﴿وَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾ أي: لحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء حيث قالوا: ﴿فَإِذَا تَنَا بِنَا تَعَبْنَا﴾. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﷻ الخطاب لأهل مكة، والمراد بما حولهم من القرى: قرى ثمود، وقرى لوط، ونحوهما مما كان مجاوراً لبلاد الحجاز، وكانت أخبارهم متواترة عندهم ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: بينا الحجج ونوعناها؛ لكي يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا، ثم نكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر، فقال: ﴿فَقُلُوا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: فهلا نصرهم آلهتهم التي تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا: ﴿هُؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: 18] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم. قال الكسائي: القربان كل ما يتقرب به إلى الله من طاعة ونسيكة والجمع قربانين كالرهبان والراهبين، وأحد مفعولي اتخذوا ضمير راجع إلى الموصول، والثاني آلهة، وقرباناً حال، ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً، وآلهة بدلاً منه لفساد المعنى، وقيل: يصح ذلك ولا يفسد المعنى، ورجحه ابن عطية، وأبو البقاء، وأبو حيان، وإنكر أن يكون في المعنى فساد على هذا الوجه ﴿يَبْلُ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: غابوا عن نصرهم، ولم يحضروا عند الحاجة إليهم، وقيل: بل هلكوا، وقيل: الضمير في ضلوا راجع إلى الكفار أي: تركوا الأصنام وتبرعوا منها، والأول أولى، والإشارة بقوله: ﴿وَنُفُكُ﴾ إلى ضلال آلهتهم. والمعنى: وذلك الضلال والضياح أثر ﴿إفكهم﴾ الذي هو اتخاذهم إياها آلهة وزعمهم أنها تقربهم إلى الله. قرأ الجمهور ﴿إفكهم﴾ بكسر الهمزة، وسكون الفاء مصدر أفك يافك أفكاً أي: كذبهم. وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد بفتح الهمزة والفاء والكاف على أنه فعل أي: ذلك القول صرفهم عن التوحيد. وقرأ عكرمة بفتح الهمزة وتشديد الفاء أي: صيرهم أفكين. قال أبو حاتم: يعني: قلبهم عما كانوا عليه من النعيم، وروي عن ابن عباس أنه قرأ بالمد، وكسر الفاء بمعنى صارفهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ معطوف على إفكهم أي: وأثر افتراءهم، أو أثر الذي كانوا يفترونه. والمعنى: وذلك إفكهم أي: كذبهم الذي كانوا يقولون إنها تقربهم إلى الله، وتشفع لهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون أنها آلهة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأحقاف جبل بالشام. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه في قوله: ﴿هَذَا عَارِضٌ مِّمَطْرُنَا﴾ قال: هو السحاب. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسّم، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، قلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر. وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك

من أهل القرى ﴿يوسف: 109﴾. وقال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ [الفرقان: 20] وقال سبحانه في إبراهيم الخليل: ﴿وجعلنا في ذريته النبوّة والكتاب﴾ [العنكبوت: 27]، فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم، فهو من ذريته، وأما قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام: 130] فقيل: المراد من مجموع الجنسين، وصنق على أحدهما، وهم الإنس: كقوله: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ [الرحمن: 22] أي: من أحدهما ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ أي: لا يفوت الله، ولا يسبقه، ولا يقدر على الهرب منه؛ لأنه وإن هرب كل مهرب، فهو في الأرض لا سبيل له إلى الخروج منها، وفي هذا ترهيب شديد ﴿وليس له من دونه أولياء﴾ أي: أنصار يمتنعونه من عذاب الله. بيّن سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه استحالة نجاته بواسطة غيره، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى من لا يجب داعي الله، وأخبر أنهم ﴿في ضلال مبين﴾ أي: ظاهر واضح، ثم ذكر سبحانه دليلاً على البعث، فقال: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض، الرؤية هنا هي القلبية التي بمعنى العلم، والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر أي: ألم يتفكروا، ولم يعلموا أن الذي خلق هذه الأجرام العظام من السموات والأرض ابتداءً ﴿ولم يعي بخلقهن﴾ أي: لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه، يقال عي بالامر وعي: إذا لم يهتد لوجهه، ومنه قول الشاعر:

عيوا بامرهم كما عيت ببيضتها الحماهم

قرأ الجمهور (ولم يعي) بسكون العين، وفتح الياء مضارع عي. وقرأ الحسن بكسر العين وسكون الياء ﴿يقادر على أن يحيي الموتى﴾. قال أبو عبيدة، والافخش: الباء زائدة للتوكيد، كما في قوله: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [النساء: 79]. قال الكسائي، والفراء، والزجاج: العرب تدخل الباء مع الجحد والاستفهام، فتقول: ما أظنك بقاتم، والجار والمجرور في محل رفع على أنهما خبر لأن، وقرأ ابن مسعود، وعيسى بن عمر، والأعرج، والجحدري، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، وزيد بن علي (يقدر) على صيغة المضارع، واختار أبو عبيد القراءة الأولى، واختار أبو حاتم القراءة الثانية قال: لأن دخول الباء في خبر أن قبيح ﴿بلى إنه على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ الظرف متعلق بقول مقدر أي: يقال ذلك اليوم للذين كفروا ﴿اليس هذا بالحق﴾ وهذه الجملة هي المحكية بالقول، والإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار، وفي الاكتفاء بمجرد الإشارة من التحويل للمشار إليه، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى؛ كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدل عليه ﴿قالوا بلى وربنا﴾ اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف، واكدوا هذا الاعتراف بالقسم؛ لأن المشاهدة هي

﴿فلما حضروه﴾ أي: حضروا القرآن عند تلاوته، وقيل: حضروا النبي ﷺ، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، والأول أولى ﴿قالوا انصتوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض استكثوا، أمروا بعضهم بعضاً بذلك؛ لأجل أن يسمعوا ﴿فلما قضى﴾ قرأ الجمهور (قضى) مبنياً للمفعول أي: فرغ من تلاوته. وقرأ حبيب بن عبيد الله بن الزبير، ولحق بن حميد، وأبو مجلز على البناء للفاعل أي: فرغ النبي ﷺ من تلاوته، والقراءة الأولى تؤيد أن الضمير في ﴿حضره﴾ للقرآن، والقراءة الثانية تؤيد أنه للنبي ﷺ ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ أي: انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن، ومحذرين لهم، وانتصاب: منذرين على الحال المقدرة أي: مقررّين الإنذار، وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبي ﷺ، وسيأتي في آخر البحث بيان ذلك ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾ يعنون: القرآن؛ وفي الكلام حذف، والتقدير: فوصلوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا. قال عطاء: كانوا يهوداً فأسلموا ﴿مصنفاً لما بين يديه﴾ أي: لما قبله من الكتب المنزلة ﴿يهدي إلى الحق﴾ أي: إلى الدين الحق ﴿والى طريق مستقيم﴾ أي: إلى طريق الله القويم. قال مقاتل: لم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ ﴿يا قومنا لجيبوا داعي الله وآمنوا به﴾ يعنون: محمداً ﷺ، أو القرآن ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي: بعضها، وهو ما عدا حق العباد، وقيل: إن من هنا لا ابتداء الغاية. والمعنى: أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب، ثم ينتهي إلى غفران ترك ما هو الأولى، وقيل: هي زائدة ﴿ويجركم من عذاب اليم﴾ وهو عذاب النار، وفي هذه الآية دليل على أن حكم الجن حكم الإنس في الثواب والعقاب، والتعبد بالأوامر والنواهي. وقال الحسن: ليس لمؤمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار، وبه قال أبو حنيفة. والأول أولى، وبه قال مالك، والشافعي، وابن أبي ليلى. وعلى القول الأول، فقال القائلون به أنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم: كونوا تراباً، كما يقال للبهائم والثاني أرجح. وقد قال الله سبحانه في مخاطبة الجن والإنس: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان [الرحمن: 46، 47] فامتدّ سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، ولا ينافي هذا الاقتصار ها هنا على ذكر إيجابهم من عذاب اليم، ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار، وهو مقام عدل، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة، وهو مقام فضل، ومما يؤيد هذا أيضاً ما في القرآن الكريم في غير موضع أن جزاء المؤمنين الجنة، وجزاء من عمل الصالحات الجنة، وجزاء من قال لا إله إلا الله الجنة، وغير ذلك مما هو كثير في الكتاب والسنة.

وقد اختلف أهل العلم هل أرسل الله إلى الجن رسلاً منهم أم لا، وظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس فقط، كما في قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾

حق اليقين الذي لا يمكن جرده ولا إنكاره ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي: بسبب كفركم بهذا في الدنيا، وإنكاركم له، وفي هذا الأمر لهم بذوق العذاب توبيخ بالغ، وتهكم عظيم. لما قرّر سبحانه الآية على النبوة والتوحيد، والمعاد أمر رسوله بالصبر فقال: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ والفاء جواب شرط محذوف أي: إذا عرفت ذلك، وقامت عليه البراهين، ولم ينجع في الكافرين، فاصبر كما صبر أولو العزم أي: أرباب الثبات والحزم، فإنك منهم. قال مجاهد: أولو العزم من الرسل خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ، وهم أصحاب الشرائع. وقال أبو العالية: هم نوح، وهود، وإبراهيم، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم. وقال السدي: هم ستة إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمد ﷺ، وقيل: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى. وقال ابن جريج: إن منهم إسماعيل، ويعقوب، وأيوب، وليس منهم يونس. وقال الشعبي، والكلبي: هم الذين أمروا بالقتال، فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة، وقيل: هم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط. واختار هذا الحسين بن الفضل لقوله بعد ذكرهم: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: 90] وقيل: إن الرسل كلهم أولوا عزم، وقيل: هم اثنا عشر نبياً أرسلوا إلى بني إسرائيل. وقال الحسن: هم أربعة: إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى ﴿ولا تستعجل لهم﴾ أي: لا تستعجل العذاب يا محمد للكفار. لما أمره سبحانه بالصبر، ونهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال: ﴿كانهم يوم يرون ما يوعدون﴾ من العذاب ﴿لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ أي: كأنهم يوم يشاهدونه في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم. قرأ الجمهور (بلاغ) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هذا الذي وعظتهم به بلاغ، أو تلك الساعة بلاغ، أو هذا القرآن بلاغ، أو هو مبتدأ، والخبر لهم الواقع بعد قوله: ﴿ولا تستعجل﴾ أي: لهم بلاغ. وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، وزيد بن علي بلاغاً بالنصب على المصدر أي: بلغ بلاغاً، وقرأ أبو مجلز (بلغ) بصيغة الأمر. وقرئ (بلغ) بصيغة الماضي ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ قرأ الجمهور (فهل يهلك) على البناء للمفعول. وقرأ ابن محيصن على البناء للفاعل، والمعنى: أنه لا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة الواقعون في معاصي الله. قال قتادة: لا يهلك على الله إلا هالك مشرك. قيل: وهذه الآية أقوى آية في الرجاء. قال الزجاج: تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن منيع، والحاكم وصححه،

وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن مسعود قال: هبطوا، يعني: الجن على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، قالوا: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾ إلى قوله: ﴿ضلال مبين﴾. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن مردويه عن الزبير ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ قال: بنخلة ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ﴿كانوا يكونون عليه لبد﴾ [الجن: 19]. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾ الآية، قال: كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم عنه نحوه وقال: أتوه ببطن نخلة. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عنه أيضاً قال: صرفت الجن إلى رسول الله ﷺ مرتين، وكانوا أشرف الجن بنصيبين. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن مسروق قال: سألت ابن مسعود من أذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ قال: أنذنته بهم شجرة. وأخرج عبد بن حميد، وأحمد، ومسلم، والترمذي عن علقمة قال: قلت لابن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ منكم أحداً ليلة الجن؟ قال: ما صحبه منا أحد، ولكننا فقمناه ذات ليلة، فقلنا: اغتيل استطير ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح إذا نحن به يجيء من قبل حراء، فأخبرناه فقال: إنه أتاني داعي الجن، فاتيتهم فقرأت عليهم القرآن، فانطلق، فأرانا آثارهم وأثار نيرانهم. وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن. وقد روي نحو هذا من طرق. والجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعت منه ﷺ مع الجن حضر إحداهما ابن مسعود، ولم يحضر في الأخرى. وقد رويت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرة بعد مرة، وأخذوا عنه الشرائع. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: ﴿أولوا العزم من الرسل﴾ النبي ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى. وأخرج ابن مردويه عنه قال: هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك نوح، وهود، وصالح، وموسى، وداود، وسليمان. وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: بلغني أن أولي العزم من الرسل كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر. وأخرج ابن أبي حاتم، والديلمي عن عائشة قالت: «ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طوى، ثم ظل صائماً ثم طوى، ثم ظل صائماً قال: يا عائشة إن الدين لا ينبغي لمحمد، ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهاها، والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال: ﴿اصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ وإنني والله لأصبرن كما صبروا جهدي، ولا قوة إلا بالله».

تفسير سورة محمد

وتسمى سورة القتال، وسورة الذين كفروا. وهي تسع وثلاثون آية، وقيل: ثمان وثلاثون.

وهي مدنية. قال الماوردي: في قول الجميع؛ إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً عليه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قُرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةَ مِنْ قُرَيْتِكَ﴾ [محمد: 13] وقال الثعلبي: إنها مكية. وحكاها ابن هبة الله عن الضحاک، وسعيد بن جبیر وهو غلط من القول، فالسورة مدنية كما لا يخفى. وقد أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: نزلت سورة القتال بالمدينة. وأخرج النحاس، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا. وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر: أن النبي ﷺ كان يقرأ بهم في المغرب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [محمد: 1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصْلَ أَعْمَالِهِمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ حَقِّهِمْ وَهُمْ لَمْ يُكْفَرُوا عَنْهُمُ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ يَأْتِي الَّذِينَ كَفَرُوا وَنَبَأُ الْبَاطِلِ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَغْنَمْتُمُوهُم مِمَّا بَدَدُوا قِيَامًا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَهْتَكُونَ فَذَلِكُمْ أَصْلُ أَعْمَالِهِمْ وَلَكِنْ لَيْسَ أَمْثَلُ مِنْكُمْ بِمَعْنَى رَبِّكُمْ وَلَكِنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ يُضِلُّ أَعْمَالَكُمْ ﴿٤﴾ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُضِلُّهُمْ لِيُتَبَّعَ مِنْهُمُ الْيَقِينُ أَمْثَلُ إِنْ تَصْرَفُوا فِي بَعْضِكُمْ وَبَيْتِ أَقْسَامِكُمْ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلْتُمْ أَصْلَ أَعْمَالِهِمْ ﴿٧﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿٩﴾ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١٠﴾ إِنْ اللَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهُونَ وَيُؤْمَرُونَ كَمَا تَأْمُرُ الْأَنْهَارُ وَكَانَ مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾

قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم كفار قريش كفروا بالله، وصدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو دين الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه، كذا قال مجاهد، والسدي. وقال الضحاک: معنى عن سبيل الله: عن بيت الله بمنع قاصديه. وقيل: هم أهل الكتاب، والموصول مبتدأ، وخبره ﴿أَصْلَ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: أبطلها وجعلها ضائعة. قال الضحاک: معنى ﴿أَصْلَ أَعْمَالِهِمْ﴾: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ، وجعل الدائرة عليهم في كفرهم. وقيل: أبطل ما عملوه في الكفر مما كانوا يسمونه مكارم أخلاق، من صلة

الأرحام، وفك الأسارى وقري الأضياف، وهذه وإن كانت باطلة من أصلها، لكن المعنى أنه سبحانه حكم بطلانها. ولما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ ظاهر هذا العموم، فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ولا يمنع من ذلك خصوص سببها؛ فقد قيل: إنها نزلت في الأنصار، وقيل: في ناس من قريش، وقيل: في مؤمني أهل الكتاب، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وخص سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ بالذكر مع اندراج تحت مطلق الإيمان المذكور قبله تنبيهاً على شرفه وعلو مكانه، وجملة: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ معترضة بين المبتدأ، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، وبين خبره، وهو قوله: ﴿كُفِرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتُهُمْ﴾ ومعنى كونه الحق: أنه الناسخ لما قبله وقوله: ﴿مَنْ رَبِّهِمْ﴾ في محل نصب على الحال، ومعنى ﴿كُفِرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتُهُمْ﴾ أي: السيئات التي عملوها فيما مضى فإنه غفرها لهم بالإيمان، والعمل الصالح ﴿وَأَصْلَحَ بِأَعْمَالِهِمْ﴾ أي: شأنهم وحالهم. قال مجاهد: شأنهم، وقال قتادة: حالهم. وقيل: أمرهم، والمعاني متقاربة. قال المبرد: البال الحال ها هنا. قيل والمعنى: أنه عصمهم عن المعاصي في حياتهم، وأرشدهم إلى أعمال الخير، وليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال، ونحو ذلك، وقال النقاش: إن المعنى أصلح نياتهم، ومنه قول الشاعر:

فإن تقبلي بالود أقبل بمثله وإن تدبري أذهب إلى حال بالياً
والإشارة بقوله: ﴿نُكِّلَ﴾ إشارة إلى ما مر مما أوعده به الكفار، ووعده به المؤمنين، وهو مبتدأ خبره ما بعده، وقيل: إنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلك ﴿بِهِ سَبَبُ﴾ أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم. فالباطل الشرك، والحق التوحيد والإيمان، والمعنى: أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين، وإصلاح بالهم بسبب اتباعهم للحق الذي أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان، وعمل الطاعات ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي: مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم أي: أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال في الغرابة. قال الزجاج: كذلك يضرب يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين، وإضلال أعمال الكافرين يعني: أن من كان كافراً أضل الله عمله، ومن كان مؤمناً كفر الله سيئاته ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ لما بين سبحانه حال الفريقين أمر بجهاد الكفار، والمراد بالذين كفروا: المشركين ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب، وانتصاب ضرب على أنه مصدر لفعل محذوف. قال الزجاج: أي: فاضربوا الرقاب ضرباً، وخص الرقاب بالذكر؛ لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها، وقيل: هو منصوب على الإغراء. قال أبو عبيدة: هو كقولهم: يا نفس

صبراً، وقيل التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب. وقيل: إنما خصَّ ضرب الرقاب؛ لأن في التعبير عنه من الغلظة، والشدة ما ليس في نفس القتل، وهي حرَّ العنق، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه، وأحسن أعضائه **﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾** أي: بالغتم في قتلهم، وكثرتهم القتل فيهم، وهذه غاية للأمر بضرب الرقاب، لا لبيان غاية القتل، وهو مأخوذ من الشيء الثخين أي: الغليظ، وقد مضى تحقيق معناه في سورة الأنفال **﴿فشنوا الوثاق﴾** الوثاق بالفتح ويجيء بالكسر: اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط. قال الجوهري: وأوثقه في الوثاق أي: شدّه، قال: والوثاق بكسر الواو لغة فيه. قرأ الجمهور **﴿فشنوا﴾** بضم الشين، وقرأ السلمي بكسرهما. وإنما أمر سبحانه بشدّ الوثاق؛ لئلا ينفلتوا، والمعنى: إذا بالغتم في قتلهم فأسروهم، وأحيطوهم بالوثاق **﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾** أي: إما أن تمنوا عليهم بعد الأسر منا، أو تغدوا فداءً، والممن: الإطلاق بغير عوض، والفداء: ما يفدي به الأسير نفسه من الأسر، ولم يذكر القتل هنا اكتفاءً بما تقدّم. قرأ الجمهور **﴿فداء﴾** بالمد. وقرأ ابن كثير **﴿فدى﴾** بالقصر، وإنما قدّم الممنّ على الفداء، لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تتفخر به، كما قال شاعرهم:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المفارم
ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك، فقال: **﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾** أوزار الحرب التي لا تقوم إلا بها من السلاح والكرار، أسند الوضع إليها، وهو لاهلها على طريق المجاز، والمعنى: أن المسلمين مخيروا بين تلك الأمور إلى غاية هي أن لا يكون حرب مع الكفار. قال مجاهد: المعنى حتى لا يكون دين غير دين الإسلام، وبه قال الحسن، والكلبي. قال الكسائي: حتى يسلم الخلق. قال الفراء: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقيل المعنى: حتى يضع الأعداء للمحاربين أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة، أو المودة. وروي عن الحسن، وعطاء أنهما قالاً: في الآية تقديم وتأخير، والمعنى: فاضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها، فإذا أثخنتموهم، فشنوا الوثاق.

وقد اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ فقيل: إنها منسوخة في أهل الأوثان، وإنه لا يجوز أن يفانوا، ولا يمنّ عليهم، والناسخ لها قوله: **﴿فأقتلوا المشركين حيث وجبتهم﴾** [التوبة: 5]، وقوله: **﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشردّ بهم من خلفهم﴾** [الأنفال: 57]، وقوله: **﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾** [التوبة: 36] وبهذا قال قتادة، والضحاك، والسدي، وابن جريج، وكثير من الكوفيين، قالوا: والمائدة آخر ما نزل، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان، ومن تؤخذ منه الجزية، وهذا هو المشهور من مذهب أبي حنيفة، وقيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: **﴿فأقتلوا المشركين حيث وجبتهم﴾** [التوبة: 5] روي ذلك عن عطاء وغيره. وقال

كثير من العلماء: إن الآية محكمة، والإمام مخير بين القتل والأسر، وبعد الأسر مخير بين الممنّ والفداء. وبه قال مالك، والشافعي، والثوري، والأوزاعي، وأبو عبيد وغيرهم. وهذا هو الراجح؛ لأن النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك. وقال سعيد بن جبير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان، والقتل بالسيف لقوله: **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾** [الأنفال: 67] فإذا أسر بعد ذلك، فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل، أو غيره **﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾** محل ذلك الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلك، وقيل: في محل نصب على المفعولية بتقدير فعل أي: افعلوا ذلك، ويجوز أن يكون مبتدأ، وخبره محذوف يدل عليه ما تقدّم أي: ذلك حكم الكفار، ومعنى **﴿لو يشاء الله لانتصر منهم﴾** أي: قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم وإهلاكهم، وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب **﴿ولكن﴾** أمرهم بحربهم **﴿ليبلا بعضهم ببعض﴾** أي: ليختبر بعضهم ببعض، فيعلم المجاهدين في سبيله، والصابرين على ابتلائه ويجزل ثوابهم، ويعذب الكفار بأيديهم **﴿والذين قتلوا في سبيل الله﴾** قرأ الجمهور **﴿قاتلوا﴾** مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو، وحفص **﴿قتلوا﴾** مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن بالتشديد مبنياً للمفعول أيضاً. وقرأ الجندري، وعيسى بن عمر، وأبو حيو (قتلوا) على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف، والمعنى على القراءة الأولى، والرابعة: أن المجاهدين في سبيل الله ثوابهم غير ضائع، وعلى القراءة الثانية، والثالثة: أن القتولين في سبيل الله كذلك لا يضيع الله سبحانه أجرهم. قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد. ثم ذكر سبحانه ما لهم عنده من جزيل الثواب فقال: **﴿سيهديهم﴾** أي: سيهديهم الله سبحانه إلى الرشاد في الدنيا، ويعطيهم الثواب في الآخرة **﴿ويصلح بهم﴾** أي: حالهم وشأنهم وأمرهم. قال أبو العالية: قد ترد الهداية، والمراد بها: إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان، والطريق المفضية إليها، وقال ابن زيد: يهديهم إلى محاجة منكر ونكير **﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾** أي: بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، وذلك أنهم إذا دخلوا الجنة تفرّقوا إلى منازلهم. قال الواحدي: هذا قول عامة المفسرين. وقال الحسن: وصف الله لهم الجنة في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفاتها. وقيل: فيه حذف أي: عرفوا طرقها ومسكنها وبيوتها. وقيل: هذا التعريف بليل يلهم عليها، وهو الملك الموكل بالعيد يسير بين يديه حتى يدخله منزله، كذا قال مقاتل. وقيل: معنى **﴿عرفها لهم﴾**: طيبها بأنواع الملائكة، مأخوذ من العرف، وهو الرائحة. ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾** أي: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار، ويفتح لكم، ومثله قوله: **﴿ولينصرن الله من ينصره﴾** [الحج: 40]. قال قطرب: إن تنصروا نبي الله ينصركم **﴿ويثبت أقدامكم﴾** أي: عند القتال، وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر،

جري الأنهار من تحت الجنات، والجملة مسوقة لبيان ولاية الله للمؤمنين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي: يتمتعون بمتاع الدنيا ويتنفعون به؛ كأنهم أنعام ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عن العقوبة لاهون بما هم فيه ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مقام يقيمون به، ومنزل ينزلونه ويستقرون فيه، والجملة في محل نصب على الحال، أو مستأنفة.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هم أهل مكة قريش نزلت فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: هم أهل المدينة الأنصار ﴿وَأَصْلَحَ بِالنَّارِ﴾ قال: أمرهم. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ قال: كانت لهم أعمال فاضلة لا يقبل الله مع الكفر عملاً. وأخرج النحاس عنه أيضاً في قوله: ﴿فَإِذَا مَنَّا بَعْدَ إِمَّا فِدَاءً﴾ قال: فجعل الله النبي، والمؤمنين بالخيار في الأسارى، إن شاءوا قتلهم، وإن شاءوا استعبدوهم، وإن شاءوا فادوهم. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: هذا منسوخ نسختها ﴿فَإِذَا أُنْصَلِ الْأَشْهُرَ الْحَرَمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن الحسن قال: أتى الحجاج بأسارى، فدفع إلى ابن عمر رجلاً يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا إنما قال الله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمَوْهُمْ فَشَتُّوا الْوُثَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدَ إِمَّا فِدَاءً﴾. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن المنذر، وابن مردويه عن ليث قال: قلت لمجاهد: بلغني أن ابن عباس قال: لا يحل قتل الأسارى؛ لأن الله قال: ﴿فَإِذَا مَنَّا بَعْدَ إِمَّا فِدَاءً﴾ فقال مجاهد: لا تعباً بهذا شيئاً أركت أصحاب رسول الله ﷺ، وكلهم ينكر هذا، ويقول: هذه منسوخة إنما كانت في الهدنة التي كانت بين النبي ﷺ وبين المشركين، فاما اليوم فلا، يقول الله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5] ويقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ﴾ فإن كان من مشركي العرب لم يقبل شيء منهم إلا الإسلام، فإن لم يسلموا فالقتل، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا، فالمسلمون فيهم بالخيار إن شاءوا قتلهم، وإن شاءوا استحيوهم، وإن شاءوا فادوهم إذا لم يتحولوا عن دينهم، فإن أظهروا الإسلام لم ينفوا. ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الصغير، والمرأة، والشيخ الفاني. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يوشك من عاش منكم أن يلقي عيسى ابن مريم إماماً مهدياً وحكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخزير، وتوضع الجزية، وتضع الحرب أوزارها». وأخرج ابن سعد، وأحمد، والنسائي، والبيهقي، والطبراني، وابن مردويه عن سلمة بن نفيل، عن النبي ﷺ من حديث قال: «لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج، ومأجوج». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس

والمعونة في مواطن الحرب، وقيل: على الإسلام، وقيل: على الصراط ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ﴾ الموصول في محل رفع على أنه مبتدأ، وخبره محذوف تقديره: فتعسوا ببليل ما بعده، ودخلت الفاء تشبيهاً للمبتدأ بالشرط، وانتصاب تعساً على المصدر للفعل المقدر خبراً. قال الفراء: مثل سقياً لهم ورعياء، وأصل التعس الانحطاط والعتار. قال ابن السكيت: التعس أن يجزّ على وجهه، والتعس أن يجزّ على رأسه، قال: والتعس أيضاً الهلاك. قال الجوهري: وأصله الكبّ، وهو ضد الانتعاش، ومنه قول مجمع بن هلال:

تقول وقد أقرنتها من حليلها تعست كما اتعستني يا مجمع قال المبرد: أي: فمكروهاً لهم، قال ابن جرير: بعداً لهم، وقال السدي: خزيًا لهم. وقال ابن زيد: شقاء لهم، وقال الحسن: شتاً لهم. وقال ثعلب: هلاكاً لهم، وقال الضحاك: خيبة لهم، وقيل: قبحاً لهم، حكاه النقاش. وقال الضحاك: رغماً لهم. وقال ثعلب أيضاً: شراً لهم. وقال أبو العالية: شقوة لهم. واللام في لهم للبيان، كما في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23] وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ معطوف على ما قبله داخل معه في خبرية الموصول. والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تقدّم مما ذكره الله من التعس والإضلال أي: الأمر ذلك، أو تلك الأمر ﴿بِإِنِّهِمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على رسوله من القرآن، أو ما أنزل على رسله من كتبه لاشتغالها على ما في القرآن من التوحيد والبعث ﴿فَاحْبِطْ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ بذلك السبب، والمراد بالأعمال: ما كانوا يعملوا من أعمال الخير في الصورة، وإن كانت باطلة من الأصل؛ لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه. ثم خوف سبحانه الكفار، وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألم يسيروا في أرض عاد، وثمود، وقوم لوط وغيرهم؛ ليعتبروا ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: آخر أمر الكافرين قبلهم، فإن آثار العذاب في ديارهم باقية. ثم بين سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال: ﴿يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والتدمير الإهلاك أي: أهلكهم واستأصلهم، يقال: دمره ودمر عليه بمعنى، ثم توعد مشركي مكة فقال: ﴿وَاللَّكَافِرِينَ أَهْمَالُهَا﴾ أي: لهؤلاء الكافرين أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة. قال الزجاج، وابن جرير: الضمير في أمثالها يرجع إلى عاقبة الذين من قبلهم، وإنما جمع لأن العواقب متعدّدة بحسب تعدّد الأمم المعذبة، وقيل: أمثال العقوبة، وقيل: الهلكة، وقيل: التدمير، والأول أولى لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما ذكر من أن للكافرين أمثالها ﴿بِإِنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بسبب أن الله ناصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي: لا ناصر يدفع عنهم. وقرأ ابن مسعود (تلك بأن الله ولي الذين آمنوا) قال قتادة: نزلت يوم أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَخْلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قد تقدّم تفسير الآية في غير موضع، وتقدّم كيفية

﴿وَالْكَافِرِينَ أَهْمَالُهَا﴾ قال: لكفار قومك يا محمد مثل ما دمرت به القرى، فاهلكوا بالسيف.

وَكَانَ مِنْ قَرَبِهِ مِنْ أَشَدِّ قُوَّةٍ مِنْ قَرَبِكَ إِلَيَّ أَرْحَمَكَ أَهْلَكَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ
 أَفَنَ كَانَ عَلَى بَيْتٍ مِنْ زَيْدٍ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سَوْءُ عَلَيْهِ وَأَتَّبَعُوا أَهْلَهُمْ
 مَثَلُ الْجَنَّةِ إِلَيَّ وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ
 طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ
 الثَّمَرَيْنِ وَتَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَارٌ مِنْ عَذَابٍ فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَبُذِبُوا
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا
 قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْلَهُمْ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
 زَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ يَقُولُونَ لَهُمْ مَكَانًا وَسِعًا وَمَنْ يَتْلُ الْآيَاتِ مِنْهَا يَسْتَفْهِمُ
 بَشَتَهُ فَمَنْ يَذَّكَّرْ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ وَكَرِهَتْ ﴿١٨﴾ قَالُوا أَنَّمَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 وَاسْتَفْهِمُوا لِيُذَكَّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهِ يَعْلَمُ مُتَبَلِّغَكُمْ وَمُتَوَكِّلَكُمْ ﴿١٩﴾

خوف سبحانه الكفار، بأنه قد أهلك من هو أشد منهم فقال: ﴿وكاين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم﴾ قد قدمنا أن كاين مركبة من الكاف وأي، وأنها بمعنى كم الخبرية أي: وكمن من قرية، واتشد الأخفش قول الوليد:

وكاين راينا من ملوك وسوقه ومفتاح قيد للأسير المكبل ومعنى الآية: وكمن من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك التي أخرجوك منها أهلكناهم ﴿فلا ناصر لهم﴾ فبالأولى من هو أضعف منهم وهم قريش الذين هم أهل قرية النبي ﷺ وهي مكة، فالكلام على حذف المضاف، كما في قوله: ﴿وراسل القرية﴾ [يوسف: 82] قال مقاتل: أي: أهلكناهم بالعذاب حين كذبوا رسولهم. ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمن، وحال الكافر فقال: ﴿أقمن كان على بيته من ربه﴾ والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقتر كظائره، ومن مبتدأ، والخبر ﴿كمن زين له سوء عمله﴾ وأقر في هذا باعتبار لفظ من، وجمع في قوله: ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ باعتبار معناها، والمعنى: أنه لا يستوي من كان على يقين من ربه، ولا يكون كمن زين له سوء عمله، وهو عبادة الأوثان، والإشراك بالله، والعمل بمعاصي الله، واتبعوا أهواءهم في عبادتها، وأنهمكوا في أنواع الضلالات بلا شبهة توجب الشك فضلاً عن حجة نيرة. ثم لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء، والضلال بين الفرق في مرجعها ومآلها فقال: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ والجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة، وبيان ما فيها؛ ومعنى ﴿مثل الجنة﴾: وصفها العجيب الشأن، وهو مبتدأ، وخبره محذوف. قال النضر بن شميل: تقديره: ما يسمعون، وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة، قال: والمثل هو الوصف، ومعناه: وصف الجنة، وجملة ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ إلخ مفسرة للمثل. وقيل: إن مثل زائدة، وقيل: إن مثل الجنة مبتدأ، والخبر فيها أنهار، وقيل: خبره كمن هو خالد، والآسن المتغير، يقال: آسن الماء يأسن

أسوئاً: إذا تغيرت رائحته، ومثله الآسن، ومنه قول زهير: قد أترك القرن مصفراً أنامله يميم في الرمح ميد المالح الأسن قرأ الجمهور (أسن) بالمد. وقرأ حميد، وابن كثير بالقصر، وهما لغتان كحاذر وحذر. وقال الأخفش: إن المملود يراد به الاستقبال، والمقصود يراد به الحال ﴿وانهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ أي: لم يحمض، كما تغير اللبن الدنيا؛ لأنها لم تخرج من ضرع الإبل والغنم والبقر ﴿وانهار من خمر لذة للشاربين﴾ أي: لنبيذة لهم طيبة الشرب لا يكرهها الشاربون، يقال: شراب لذ ولذيذ وفيه لذة بمعنى، ومثل هذه الآية قوله: ﴿بيضاء لذة للشاربين﴾ [الصفات: 46] قرأ الجمهور (لذة) بالجر صفة لخم، وقرأ بالنصب على أنه مصدر، أو مفعول له. وقرأ بالرفع صفة لانهار ﴿وانهار من عسل مصفى﴾ أي: مصفى مما يخالطه من الشمع والقذى والعكر والكبر ﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾ أي: لاهل الجنة في الجنة مع ما نكر من الأشربة من كل الثمرات أي: من كل صنف من أصنافها، و«من» زائدة للتوكيد ﴿ومغفرة من ربهم﴾ للذنوبهم، وتنكير مغفرة للتعظيم أي: ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم ﴿كمن هو خالد في النار﴾ هو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: أم من هو في نعيم الجنة على هذه الصفة خالداً فيها كمن هو خالد في النار، أو خبر لقوله: مثل الجنة كما تقدم، ورجح الأول الفراء، فقال: أراد أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار. وقال الزجاج: أي: أقمن كان على بيته من ربه، وأعطى هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله، وهو خالد في النار، فقوله: ﴿كمن﴾ بدل من قوله: ﴿أقمن زين له سوء عمله﴾ وقال ابن كيسان: ليس مثل الجنة التي فيها الثمار والأنهار، كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم، وليس مثل أهل الجنة في النعيم، كمثل أهل النار في العذاب الأليم، وقوله: ﴿وسقوا ماء حميمًا﴾ عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية لكنه راعى في الأولى لفظ من، وفي الثانية معناها، والحميم: الماء الحار الشديد الغليان، فإذا شربه قطع أمعاءهم، وهو معنى قوله: ﴿فقطع أمعاءهم﴾ لفرط حرارته، والأمعاء جمع معى، وهي ما في البطن من الحوايا ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ أي: من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون ويكلمون، كما تاكل الأنعام من يستمع إليك وهم المنافقون، أقر الضمير باعتبار لفظ من، وجمع في قوله: ﴿حتى إذا خرجوا من عندك﴾ باعتبار معناها، والمعنى: أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله ﷺ، ومواطن خطبه التي يملئها على المسلمين حتى إذا خرجوا من عنده ﴿قالوا للذين أوتوا العلم﴾ وهم علماء الصحابة، وقيل: عبد الله بن عباس، وقيل: عبد الله بن مسعود، وقيل: أبو الدرداء، والأول أولى أي: سألوا أهل العلم فقالوا لهم: ﴿ماذا قال آنفًا﴾ أي: ماذا قال النبي الساعة على طريقة الاستهزاء، والمعنى: أنا لم نلتفت إلى قوله، وأنفأ يراد به الساعة التي هي أقرب الأوقات، ومنه أمر آنف أي:

والمؤمنات فإن المراد به: استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم **﴿وإله يعلم متقلبكم﴾** في أعمالكم **﴿ومثواكم﴾** في الدار الآخرة، وقيل: متقلبكم في أعمالكم نهراً، ومثواكم في ليلكم نياماً، وقيل: متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، ومثواكم في الأرض أي: مقامكم فيها. قال ابن كيسان: متقلبكم من ظهر إلى بطن في الدنيا، ومثواكم في القبور.

وقد أخرج عبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: أنت أحب بلاد الله إلي، ولو لا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج، فأعشى الأعداء من عتا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بنخل الجاهلية، فأنزل الله: **﴿وكانين من قرية﴾** الآية». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿أنهار من ماء غير آسن﴾** قال: غير متغير. وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللين، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها». وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده، والبيهقي عن كعب قال: نهر النيل نهر العسل في الجنة، ونهر نجلة نهر اللين في الجنة، ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة، ونهر سيحان نهر الماء في الجنة. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جببر، عن ابن عباس في قوله: **﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا﴾** قال: كنت فيمن يسأل. وأخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه في الآية قال: أنا منهم. وفي هذا منقبة لابن عباس جليلة؛ لأنه كان إذ ذاك صبياً غير بالغ، فإن النبي ﷺ مات وهو في سن البلوغ، فسؤال الناس له عن معاني القرآن في حياة النبي ﷺ، ووصف الله سبحانه للمسؤولين بأنهم الذين أوتوا العلم وهو منهم، من أعظم الأدلة على سعة علمه، ومزيد فقهه في كتاب الله، وسنة رسوله، مع كون اثرا به أهل سنة إذ ذاك يلعبون مع الصبيان. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس: ماذا قال آنفا؟ فيقول: كذا وكذا، وكان ابن عباس يصغر القوم، فأنزل الله الآية، فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن عسكرك عن ابن بريده في الآية قال: هو عبد الله بن مسعود. وأخرج ابن عسكرك من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: هو عبد الله بن مسعود. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾** قال: لما أنزل القرآن آمنوا به، فكان هدى، فلما تبين الناس من المنسوخ زادهم هدى. وأخرج ابن المنذر عنه: **﴿فقد جاء أشرطها﴾** قال: أول الساعات، وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله

مستأنف، وروضة أنف أي: لم يرعها أحد، وانتصابه على الظرفية أي: وقتاً مؤتلفاً، أو حال من الضمير في قال. قال الزجاج: هو من استأنفت الشيء: إذا ابتدأته، وأصله مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه، مستعار من الجارحة، ومنه قول الشاعر:

ويحرم سرّ جارتهم عليهم ويأكل جاره من أنف القصاع
والإشارة بقوله: **﴿أولئك﴾** إلى المذكورين من المنافقين **﴿الذين طبع الله على قلوبهم﴾** فلم يؤمنوا، ولا توجهت قلوبهم إلى شيء من الخير **﴿واتبعوا أهواءهم﴾** في الكفر والعناد. ثم ذكر حال أضدادهم فقال: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾** أي: والذين اهتدوا إلى طريق الخير، فآمنوا بالله، وعملوا بما أمرهم به زادهم هدى بالتوفيق، وقيل: زادهم النبي ﷺ، وقيل: زادهم القرآن، وقال الفراء: زادهم إعراض المنافقين واستهزأؤهم هدى، وقيل: زادهم نزول الناسخ هدى، وعلى كل تقدير، فالمراد: أنه زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة في الدين **﴿وآتاهم تقواهم﴾** أي: ألهمهم إياها وأعانهم عليها، والتقوى قال الربيع: هي خشية، وقال السدي: هي ثواب الآخرة، وقال مقاتل: هي التوفيق للعمل الذي يرضاه، وقيل: العمل بالناسخ وترك المنسوخ، وقيل: ترك الرخص والخذ بالعزائم **﴿فهل ينظرون إلا الساعة﴾** أي: القيامة **﴿أن تأتيهم بغتة﴾** أي: فجأة، وفي هذا وعيد للكفار شديد، وقوله: **﴿أن تأتيهم بغتة﴾** بدل من الساعة بدل اشتغالهم. وقرأ أبو جعفر الرواسي (إن تأتيهم) بيان الشرطية **﴿فقد جاء أشرطها﴾** أي: أماراتها وعلاماتها، وكانوا قد قرءوا في كتبهم أن النبي ﷺ آخر الأنبياء، فبعثته من أشرطها، قاله الحسن، والضحاك، والأشراط جمع شرط بسكون الراء وفتحها. وقيل: المراد بأشرطها هنا: أسبابها التي هي بون معظمها. وقيل: أراد بعلامات الساعة انشقاق القمر والدخان، كذا قال الحسن. وقال الكلبي: كثرة المال، والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللثام، ومنه قول أبي زيد الأسود:

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا فقد جعلت لأشرط أوله تبسو
﴿فأنى لهم إذا جاءتهم نكراهم﴾ نكراهم مبتدأ، وخبره فأنى لهم أي: أنى لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة كقوله: **﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾** [الفجر: 23] وإذا جاءتهم اعتراض بين المبتدأ والخبر **﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾** أي: إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة، ومدار الشر هو الشرك والعمل بمعاصي الله، فاعلم أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، والمعنى: أثبت على ذلك واستمر عليه؛ لأنه ﷺ قد كان عالماً بأنه لا إله إلا الله قبل هذا، وقيل: ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً. وقيل المعنى: فأنكر أنه لا إله إلا الله، فعبّر عن الذكر بالعلم **﴿واستغفر للذين﴾** أي: استغفر الله أن يقع منك ذنب، أو استغفر الله ليعصمك، أو استغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى. وقيل: الخطاب له، والمراد: الأمة، ويأبى هذا قوله: **﴿وللمؤمنين﴾**

﴿...﴾: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالوسطى والسبابة»، ومثله عند البخاري من حديث سهل بن سعد. وفي الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشرار الساعة، وبيان ما قد وقع منها، وما لم يكن قد وقع، وهي تأتي في مصنف مستقل فلا نطيل بذكرها. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «أفضل النكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الاستغفار، ثم قرأ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة». وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الله بن سرجس قال: «أتيت النبي ﷺ، فكلت معه من طعام، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، قال: ولك، فقلت: أتستغفر لك يا رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، ولكم وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾». وقد ورد أحاديث في استغفاره ﷺ لنفسه وألمته، وترغيبه في الاستغفار. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمُومًا﴾ في الآخرة.

يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّا أَنْزَلْنَا سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذَكَّرَ فِيهَا الْآيَاتِ لَرَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُظْهِرُونَ إِلَيْكَ نُظْرَ الْمَغْيِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿١﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلَهُ مَرْبُوفٌ إِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْتُلُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّهُمْ أَصْرَهُمْ ﴿٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا الْفَرَائِدُ أَدْرَأَ عَلَى قُلُوبِ أَهْلَائِهِمْ ﴿٥﴾ إِنَّ إِلَهَ الْأَزَلِ أَزْدَرَأَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَدَى مَا بَيْنَ لَهُمْ الْهُدَى الْفَجَلَنَ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ ﴿٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سُلَيْمٌ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ بِمَاكُمُ إِيَّارَهُمْ ﴿٧﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَتَرَوْنَ رُجُومَهُمْ وَأَذْنَ بَرَقَ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَشْقَانَهُمْ ﴿١٠﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَنزَلْنَاهُمْ قُرْآنَهُمْ يَرِيعَهُمْ وَلَتَرْجِلُنَّهُمْ فِي حَرْبِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿١١﴾ وَلَتَبْلُوَنَّهُمْ حَقَّ سَاءِ الْمُجْهِدِينَ يَمُكُّوهُمُ وَالْمَغْيِيِّينَ وَيَتَلَوَّنَهُمُ الْأَعْيَارُ ﴿١٢﴾

سال المؤمنون ربهم عز وجل أن ينزل على رسوله ﷺ سورة يأمرهم فيها بقتال الكفار حرصاً منهم على الجهاد، ونيل ما أعد الله للمجاهدين من جزيل الثواب، فحكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلاً نزلت ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةً﴾ أي: غير منسوخة ﴿وَنُكِّرَ فِيهَا لِلْقَاتِلِ﴾ أي: فرض الجهاد قال قتادة:

كل سورة نكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين، وفي قراءة ابن مسعود (فإذا أنزلت سورة محدثة) أي: محدثة النزول، قرأ الجمهور (فإذا أنزلت) وذكر على بناء الفعلين للمفعول، وقرأ زيد بن علي، وابن عمير (نزلت) وذكر على بناء الفعلين للفاعل، ونصب القتال ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك، وهم المنافقون ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نُظْرَ الْمَغْيِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجنبهم عن القتال، وميلهم إلى الكفار. قال ابن قتبية، والزجاج: يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون إليك نظراً شديداً، كما ينظر الشاخص بصره عند الوت ﴿فَأُولَى لَهُمْ﴾ قال الجوهري: وقولهم أولى لك: تهديد ووعيد، وكذا قال مقاتل، والكلبي، وقتادة. قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد أولى لك أي: وليك، وقاربك ما تكره، وأنشد قول الشاعر:

فعداى بين هاتيتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث
أي: قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل في أولى أحسن مما قاله الأصمعي. وقال المبرد: يقال لمن هم بالغضب ثم أقلت: أولى لك أي: قاربت الغضب. وقال الجرجاني: هو مأخوذ من الويل أي: فويل لهم، وكذا قال في الكشاف، قال قتادة أيضاً: كأنه قال العقاب أولى لهم، وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف أي: أمرهم طاعة، أو طاعة وقول معروف خير لكم. قال الخليل، وسيبويه: إن التقدير طاعة وقول معروف أحسن، وأمثل لكم من غيرهما. وقيل: إن طاعة خير أولى، وقيل: إن طاعة صفة لسورة، وقيل: إن لهم خير مقدم، وطاعة مبتدأ مؤخر، والأول أولى ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ﴾ عزم الأمر جد الأمر أي: جد القتال ووجب وفرض، وأسند العزم إلى الأمر، وهو لأصحابه مجازاً، وجواب إذا قيل: هو ﴿فَلَوْ صَنِقُوا اللَّهَ﴾ وقيل: محنوف تقديره كرهوه. قال المفسرون: معناه إذا جد الأمر، ولزم فرض القتال خالفوا وتخلفوا ﴿فَلَوْ صَنِقُوا اللَّهَ﴾ في إظهار الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ من المعصية والمخالفة ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْتُلُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ هذا خطاب للذين في قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتقريع. قال الكلبي: أي: فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم. وقال كعب: ﴿إِنْ تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضاً، وقال قتادة: إن توليتم عن طاعة كتاب الله عز وجل أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء، وتقطعوا أرحامكم. وقال ابن جرير: إن توليتم عن الطاعة، وقيل: أعرضتم عن القتال، وفارقتم أحكامه. قرأ الجمهور (توليتم) مبنياً للفاعل، وقرأ علي بن أبي طالب بضم التاء والواو وكسر اللام مبنياً للمفعول، وبها قرأ ابن أبي إسحاق، وورش عن يعقوب، ومعناها: فهل عسيتم إن ولي عليكم ولاة جائرين أن تخرجوا عليهم في الفتنة، وتحاربوهم وتقطعوا أرحامكم بالبغي، والظلم، والقتل. وقرأ للجمهور (وتقطعوا) بالتشديد على التكثير، وقرأ أبو

﴿تلك﴾ إلى الإملاء، وقيل: إلى التسويل، والأول أولى. ويؤيد كون القائلين المنافقين، والكافرين اليهود قوله تعالى: ﴿الم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً وإن قوتلتهم لننصركم﴾ [الحشر: 11] ولما كان قولهم المنكور للذين كرهوا ما أنزل الله بطريقة السر بينهم، قال الله سبحانه: ﴿والله يعلم أسرارهم﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة جمع سر، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. وقرأ الكوفيون، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن وثاب، والأعمش بكسر الهمزة على المصدر أي: إخفاءهم ﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وكيف في محل رفع على أنها خبر مقدم، والتقدير: فكيف علمه بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة، أو في محل نصب بفعل محذوف أي: فكيف يصنعون، أو خبر لكان مقدر أي: فكيف يكونون، والظرف معمول للمقدر، قرأ الجمهور (توفتهم) وقرأ الأعمش (توفاهم)، وجملة ﴿يضرّبون وجوههم وأبصارهم﴾ في محل نصب على الحال من فاعل توفتهم، أو من مفعوله أي: ضاربين وجوههم وضاربين أبصارهم، وفي الكلام تخويف وتشديد، والمعنى: أنه إذا تأخر عنهم العذاب، فسيكون حالهم هذا، وهو تصوير لتوفيتهم على أقبح حال وأشنعه. وقيل ذلك: عند القتال نصرة من الملائكة لرسول الله ﷺ، وقيل ذلك: يوم القيامة، والأول أولى، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى التوفي المنكور على الصفة المنكورة، وهو مبتدأ وخبره ﴿بأنهم اتبعوا ما أسخط الله﴾ أي: بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصي، وقيل: كتمانهم ما في التوراة من نعت نبينا ﷺ، والأول أولى لما في الصيغة من العموم ﴿وكرهوا رضوانه﴾ أي: كرهوا ما يرضاه الله من الإيمان والتوحيد والطاعة ﴿فأحبط الله﴾ أي: أعمالههم بهذا السبب، والمراد بأعمالهم: الأعمال التي صورتها صورة الطاعة وإلا فلا عمل لكافر، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردة ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض﴾ يعني: المنافقين المنكورين سابقاً، وأم هي المنقطعة أي: بل أحسب المنافقون ﴿أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ الإخراج بمعنى الإظهار، والأضغان جمع ضغن، وهو ما يضر من المكروه، واختلف في معناه، فقيل: هو الغش، وقيل: الحسد وقيل: الحقد. قال الجوهري: الضغن والضغينة الحقد، وقال قطرب: هو في الآية العداوة، وإن هي المخفة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن مقدر ﴿ولو نشاء لآريناكم﴾ أي: لأعلمناكم، وعرفناكم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية، تقول العرب: ساريك ما أصنع أي: سأعلمك ﴿فلعرفتهم بسيماهم﴾ أي: بعلامتهم الخاصة بهم التي يتميزون بها. قال الزجاج: المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة، وهي السيمة، فلعرفتهم بتلك العلامة، والفاء لترتيب المعرفة على الإرادة، وما بعدها معطوف على جواب لو، وكررت في المعطوف

عمرو في رواية عنه، وسلام، وعيسى، ويعقوب بالتخفيف من القطع يقال: عسيت أن أفعل كذا، وعسيت بالفتح والكسر لغتان، نكره الجوهري وغيره، وخبر عسيتم هو ﴿أن تفسدوا﴾، والجملة الشرطية بينهما اعتراض، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى المخاطبين بما تقدم وهو مبتدأ، وخبره ﴿الذين لعنهم الله﴾ أي: أبعدهم من رحمته، وطردهم عنها ﴿فأصمهم﴾ عن استماع الحق ﴿واعمى أبصارهم﴾ عن مشاهدة ما يستلون به على التوحيد والبعث، وحقية سائر ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ، والاستفهام في قوله: ﴿أفلا يتنبرون القرآن﴾ للإنكار، والمعنى: أفلا يتفهمونه، فيعلمون بما اشتمل عليه من المواظب الزاجرة، والحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة التي تكفي من له فهم وعقل، وتزجره عن الكفر بالله، والإشراك به، والعمل بمعاصيه ﴿أم على قلوب أفعالها﴾ أم هي المنقطعة أي: بل أعلى قلوب أفعالها، فهم لا يفهمون ولا يعقلون. قال مقاتل: يعني الطبع على القلوب، والأفعال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق، وإضافة الأفعال إلى القلوب للتنبيه على أن المراد بها: ما هو للقلوب بمنزلة الأفعال للأبواب، ومعنى الآية: أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان، ولا يخرج منها الكفر والشرك، لأن الله سبحانه قد طبع عليها، والمراد بهذه القلوب: قلوب هؤلاء المخاطبين. قرأ الجمهور (أفعالها) بالجمع، وقرئ (أفعالها) بكسر الهمزة على أنه مصدر كالإقبال ﴿إن الذين ارتدوا على أعقابهم﴾ أي: رجعوا كفاراً كما كانوا. قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبي ﷺ بعد ما عرفوا نعته عندهم، وبه قال ابن جرير. وقال الضحاک، والسدي: هم المنافقون قعدوا عن القتال، وهذا أولى؛ لأن السياق في المنافقين ﴿من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ بما جاءهم به رسول الله ﷺ من المعجزات الظاهرة، والدلائل الواضحة ﴿الشيطان سؤل لهم﴾ أي: زين لهم خطاياهم، وسهل لهم الوقوع فيها، وهذه الجملة خبر إن، ومعنى ﴿وأملى لهم﴾: أن الشيطان مد لهم في الأمل، ووعدهم طول العمر، وقيل: إن الذي أملى لهم هو الله عز وجل على معنى: أنه لم يعاجلهم بالعقوبة. قرأ الجمهور (أملى) مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو جعفر، وشيبة على البناء للمفعول قيل: وعلى هذه القراءة يكون الفاعل هو الله، أو الشيطان كالقراءة الأولى، وقد اختار القول بأن الفاعل الله الفراء، والمفضل، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدم نكره قريباً، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى ما تقدم من ارتدادهم، وهو مبتدأ، وخبره ﴿بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله﴾ أي: بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدوا على أعقابهم قالوا للذين كرهوا: ما نزل الله، وهم المشركون ﴿سنطيعكم في بعض الأمر﴾ وهذا البعض هو عداوة رسول الله ﷺ، ومخالفة ما جاء به. وقيل المعنى: إن المنافقين قالوا لليهود: سنطيعكم في بعض الأمر، وقيل: إن القائلين اليهود، والذين كرهوا ما أنزل الله المنافقون، وقيل: إن الإشارة بقوله:

لِيُشْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُوا مِن بَنِيهِمْ وَمَن يَبْتَغِ الْإِنَّمَا يَبْتَغِ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنَّهُ الْفَرَّارُ وَلَئِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المراد بهؤلاء: هم المنافقون، وقيل: أهل الكتاب، وقيل: هم المطعمون يوم بدر من المشركين، ومعنى صدّهم عن سبيل الله: منعهم للناس عن الإسلام، واتباع الرسول ﷺ ﴿وَوَلَّوْا﴾ معنى ﴿شاقوا للرسول﴾: عانوه وخالفوه ﴿وَمَن يَبْتَغِ الْإِنَّمَا يَبْتَغِ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: علموا أنه ﷺ نبي من عند الله بما شاهدوا من المعجزات الواضحة، والحجج القاطعة ﴿لَئِن يَضُرُّوْا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر، وما ضرّوا إلا أنفسهم ﴿وَيُضَيِّقُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: يبطلها، والمراد بهذه الأعمال: ما صورته صورة أعمال الخير كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير، وإن كانت باطلة من الأصل، لأن الكفر مانع، وقيل: المراد بالأعمال المكائد التي نصبوها لإبطال دين الله، والغوائل التي كانوا يبعثونها برسول الله ﷺ، ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أمرتم به من الشرائع المذكورة في كتاب الله وسنة رسوله، ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم، كما أبطلت الكفار أعمالها بالإصرار على الكفر، فقال: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ قال الحسن أي: لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي. وقال الزهري: بالكباش. وقال الكلبي: وابن جريج: بالرياء والسمة. وقال مقاتل: بالمن. والظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال كائنًا ما كان من غير تخصيص بنوع معين. ثم بيّن سبحانه أنه لا يغفر للمصّرّين على الكفر، والصدّ عن سبيل الله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فقيّد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر؛ لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حيًّا، وظاهر الآية العموم وإن كان السبب خاصًا، ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن والضعف، فقال: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي: تضعفوا عن القتال، والوهن الضعف ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ أي: ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداءً منكم، فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف. قال الزجاج: منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح، وأمرهم بحربهم حتى يسلموا. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (وتدعوا) بتشديد الدال من ادعى القوم وتدعوا. قال قتادة: معنى الآية: لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتيها.

واختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ فقيل: إنها محكمة، وإنها ناسخة لقوله: ﴿وَلَوْ جُنَحُوا لِلْإِسْلَامِ فَاجْتَنَحُوا﴾ [الأنفال: 61] وقيل: منسوخة بهذه الآية. ولا يخفak أنه لا مقتضى للقول بالنسخ، فإن الله

للتاكيد، وأما اللام في قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فهي جواب قسم محذوف. قال المفسرون: لحن القول فحواه ومقصده ومغزاه، وما يعرضون به من تهجين أمرهم وأمر المسلمين، وكان بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلا عرفه. قال أبو زيد: لحن له اللحن: إذا قلت له قولاً يفقهه عنك، ويخفى على غيره، ومنه قول الشاعر:

منطق صائب وتلحن أحياناً وخير الكلام ما كان لحناً
أي: أحسنه ما كان تعريضاً يفهمه المخاطب، ولا يفهمه غيره لفظته ونكاته، وأصل اللحن إمالة الكلام إلى نحو من الانحاء لغرض من الأغراض ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها، وفيه وعيد شديد ﴿وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ لِمَجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أي: لنعاملنكم معاملة المختبر، وذلك بأن نامركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد، وصبر على دينه، ومشاق ما كلف به. قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بالنون، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالتحية فيها كلها، ومعنى ﴿وَنُبَلِّغَنَّكُمْ لِمَجَاهِدِينَ﴾ أي: لنعاملنكم معاملة المختبر، ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به، ومن عصي، ومن لم يمتثل. وقرأ الجمهور (ونبلو) بنصب الوار عطفًا على قوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾. وروى ورش عن يعقوب إسكانها على القطع عما قبله.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحْمَةُ بِحَقِّ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ أَتَرْضَى أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ، وَأَقْطَعَ مِنْ قَطْعِكَ؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ؛ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ الآية إلى قوله: ﴿إِنَّمَا عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَآ﴾. والأحاديث في صلة الرحم كثيرة جداً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَنبِيَآرِهِمْ﴾ قال: هم أهل النفاق. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿إِنَّمَا حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ قال: أعمالهم خبثهم، والحسد الذي في قلوبهم، ثم دل الله تعالى النبي ﷺ بعد على المنافقين، فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق. وأخرج ابن مردويه، وابن عسكرك عن أبي سعيد الخدري في قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ قال: يبغضهم علي بن أبي طالب.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَآؤُوا الرَّسُولَ يَرَىٰ مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ أَمَّا كُنْتُمْ لَن تَصُدُّوا عَنْ اللَّهِ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ بِكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٨﴾ يَكَايَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِأَعْمَالِكُمْ وَلَا يُلْهِمُوا الرَّسُولَ وَلَا يُلْهِمُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٤٠﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَىٰ أَسْتَبْرَءَ الْأَعْتَابِ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَا يَزِيدُكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا لِكَيْدِ الَّذِينَ لَكُمْ لَبٌ وَكُفٌ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَنْتَقِبُوا إِلَيْكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٤٢﴾ إِنْ يَسْتَلِكُمْ فَيُخَوِّعْكُمْ فَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٤٣﴾ هَآؤُنَّ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ

في سبيل الله، وإذا كان منكم من يبخل باليسير من المال، فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال، ثم بين سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس فقال: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: يمنعه الأجر والثواب ببخله، وبخل يتعدى بعلى تارة وبعن أخرى. وقيل: إن أصله أن يتعدى بعلى، ولا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى الإمساك ﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ﴾ المطلق المتنزه عن الحاجة إلى أموالكم ﴿وَأَنْتُمْ لِلْفُقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ﴾ وإلى ما عنده من الخير والرحمة، وجملة ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ معطوفة على الشرطية المتقدمة، وهي وإن تؤمنوا، والمعنى: وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى، يستبدل قوماً آخرين يكونون مكانكم هم أطوع لله منكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا امْتَالِكُمْ﴾ في التولي عن الإيمان والتقوى. قال عكرمة: هم فارس، والروم. وقال الحسن: هم العجم. وقال شريح بن عبيد: هم أهل اليمن، وقيل: الأنصار، وقيل: الملائكة، وقيل: التابعون. وقال مجاهد: هم من شاء الله من سائر الناس. قال ابن جرير: والمعنى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا امْتَالِكُمْ﴾ في البخل بالإتفاق في سبيل الله.

وقد أخرج عبد بن حميد، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضُرُّ مع لا إله إلا الله نذب، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْغُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل، ولفظ عبد بن حميد: فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم. وأخرج ابن نصر، وابن جرير، وابن مروي عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب النبي ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْغُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ قلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، فكننا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا قد هلك، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48، 116] فلما نزلت كفنا عن القول في ذلك. وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه، وإن لم يصب منها شيئاً رجونا، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿يَتَرَكُمُ﴾ قال: يظلمكم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قالوا: من هؤلاء، وسلمان إلى جانب النبي ﷺ؟ فقال: هم الفرس، هذا وقومه». وفي مقال معروف. وأخرجه عنه الزنجي وقد تفرَّد به، وفيه مقال معروف. وأخرجه عنه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان، ثم قال: هذا

سبحانه نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداءً، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، فالأيتان محكمتان، ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ، أو التخصيص، وجملة ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة مقررّة لما قبلها من النهي أي: وأنتم الغالبون بالسيف والحجة. قال الكلبي: أي: آخر الأمر لكم، وإن غلبوكم في بعض الأوقات، وكذا جملة قوله: ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ في محل نصب على الحال أي: معكم بالنصر، والمعونة عليهم ﴿وَلَنْ يَتْرَكَ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم، يقال: وتره يتره وترًا، إذا نقصه حقه، وأصله من وترت الرجل: إذا قتلت له قريباً، أو نهبت له مالاً، ويقال فلان ماتور: إذا قتل له قاتل، ولم يؤخذ بدمه. قال الجوهرى: أي: لن ينقصكم في أعمالكم، كما تقول بخلت البيت وأنت تريد في البيت. قال الفراء: هو مشتق من الوتر وهو البخل، وقيل: مشتق من الوتر وهو الفرد، فكان المعنى: ولن يفركم بغير ثواب ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: باطل وغرور لا أصل لشيء منها، ولا ثبات له ولا اعتداد به ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: إن تؤمنوا بالله، وتتقوا الكفر والمعاصي يؤتكم جزاء ذلك في الآخرة، والأجر الثواب على الطاعة ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: لا يأمركم بإخراجها جميعها في الزكاة وسائر وجوه الطاعات، بل أمركم بإخراج القليل منها، وهو الزكاة. وقيل المعنى: لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله؛ لأنه أملك لها، وهو المنعم عليكم بإعطائها. وقيل: لا يسألكم أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة، كما في قوله: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: 57] والأول أولى ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْ مَوَالَهُمْ﴾ أي: أموالكم كلها ﴿فِيحِفِّكُمْ﴾ قال المفسرون: يجهلكم، ويلحف عليكم بمسألة جميعها، يقال: أحفى بالمسألة والحف والحق بمعنى واحد، والمحفي المستقصي في السؤال، والإحفاء الاستقصاء في الكلام، ومنه إحفاء الشارب أي: استقصاه، وجواب الشرط قوله: ﴿تَبْخُلُوا﴾ أي: إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها، وتمتنعوا من الامتثال ﴿وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ﴾ معطوف على جواب الشرط، ولهذا قرأ الجمهور (يخرج) بالجزم، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بالرفع على الاستئناف، وروي عنه أنه قرأ بفتح الياء وضم الراء، ورفع أضغانكم، وروي عن يعقوب الحضرمي أنه قرأ بالنون، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن، وحמיד بالقافية المفتوحة مع ضم الراء، وعلى قراءة الجمهور، فالفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه، أو إلى البخل المدلول عليه بتبخلوا. والأضغان: الأحقاد، والمعنى: أنها تظهر عند ذلك. قال قتادة: قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون: لتتفقوا في الجهاد وفي طريق الخير ﴿فَمَنْكُمْ مَنِ يَبْخُلُ﴾ بما يطلب منه، ويدعى إليه من الإتفاق

وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثرية لتناولوه رجال من فارس»، وفي إسناده أيضاً مسلم بن خالد الزنجي. وأخرج ابن مريويه من حديث جابر نحوه.

تفسير سورة الفتح

قال القرطبي: بالإجماع. وقد أخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الفتح بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن إسحاق، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة ومروان قالوا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها، وهذا لا ينافي الإجماع على كونها مدنية؛ لأن المراد بالسور المدنية: النازلة بعد الهجرة من مكة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عبد الله بن مغفل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته، فرجع فيها. وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم، عن أبيه: «أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب: هلكت أم عمر نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، فقال عمر: فحركات بعيري، ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل في قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون قد نزل في قرآن، فبحث رسول الله ﷺ، فسلمت عليه، فقال: لقد أنزلت علي سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ [أي: سورة الفتح]. وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ الآية إلى قوله: ﴿فوزاً عظيماً﴾ [الفتح: 1، 5] مرجعه من الحديبية وهم مخالطهم الحزن والكآبة، وقد نَحروا الهدي بالحديبية، فقال: «لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَهْدِيَنَّ سَبِيلَكَ وَيُؤَيِّدْ بِكَ بِرْمَا أَرْغَبَ ۗ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَإِذَا دُؤِيَ لِمَنَ مَعَهُمْ يُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ رَسُولِهِ لَقَدْ خَلَعُوا أَثَابَهُمْ وَكَانُوا مَعَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا ﴿٣﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ طَرَفَ الْأَنفُسِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٤﴾ وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥﴾

قوله: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ اختلف في تعيين هذا اللفظ، فقال الأكثر: هو صلح الحديبية، والصلح قد يسمى فتحاً. قال الفراء: والفتح قد يكون صلحاً، ومعنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق، والصلح الذي كان مع المشركين بالحديبية كان مسوداً متعذراً حتى فتحه الله. قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام. قال الشعبي: لقد أصاب رسول الله ﷺ في الحديبية ما لم يصب في غزوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، وبويع بيعة الرضوان، وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهدي محله، وظهرت الروم على فارس، وفرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. وقال قوم: إنه فتح مكة. وقال آخرون: إنه فتح خيبر. والأول أرجح، ويؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت في شأن الحديبية. وقيل: هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتح، وقيل: فتح الروم، وقيل: من النبوة، والدعوة إلى الإسلام، وقيل: فتح الروم، وقيل: المراد بالفتح في هذه الآية: الحكم والقضاء. كما في قوله: ﴿افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ [الأعراف: 89] فكانه قال: إنا قضينا لك قضاءً مبيناً أي: ظاهراً واضحاً مكشوفاً ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ اللام متعلقة بفتحنا، وهي لام العلة. قال ابن الأنباري: سألت أبا العباس: يعني: المبرد عن اللام في قوله: ﴿ليغفر لك الله﴾ فقال: هي لام كي معناها: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً؛ لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح، فلما انضم إلى المغفرة شيء حادث واقع حسن معنى كي، وغلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة. وقال صاحب الكشف: إن اللام لم تكن علة للمغفرة؛ ولكن لاجتماع ما عند من الأمور الأربعة وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز. كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة، ونصرك على عدوك؛ لنجمع لك بين عز الدارين، وأعراض العاجل والأجل. وهذا كلام غير جيد، فإن اللام داخل على المغفرة فهي علة للفتح، فكيف يصح أن تكون معللة. وقال الرازي في توجيه التعليل: إن المراد بقوله: ﴿ليغفر لك الله﴾ التعريف بالمغفرة تقديره: إنا فتحنا لك؛ لتعرف أنك مغفور لك معصوم. وقال ابن عطية: المراد أن الله فتح لك؛ لكي يجعل الفتح علامة لغفرانه لك، فكانها لام الصيرورة. وقال أبو حاتم: هي لام القسم وهو خطأ، فإن لام القسم لا تكسر، ولا ينصب بها.

اختلف في معنى قوله: ﴿ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ فقيل: ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة، وما تأخر بعدها قاله مجاهد، وسفيان الثوري، وابن جرير، والواحدي، وغيرهم. وقال عطاء: ما تقدم من ذنبك يعني: ذنب أبويك آدم وحواء، وما تأخر من ذنوب أمتك. وما أبعد هذا عن معنى القرآن. وقيل: ما تقدم من ذنب أبويك إبراهيم، وما تأخر من ذنوب النبيين من بعده، وهذا كالذي قبله. وقيل: ما تقدم من ذنب

المشركين دلالة على أنهم أشدّ منهم عذاباً، وأحقّ منهم بما وعدهم الله به، ثم وصف الفريقين، فقال: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللهِ ظُنُّنَ السَّوْءِ﴾ وهو ظنهم أن النبي ﷺ يغلب، وأن كلمة للكفر تملو كلمة الإسلام.

ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: 12] ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: ما يظنونه، ويتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم حائق بهم، والمعنى: أن العذاب، والهلاك الذي يتوقعونه للمؤمنين وأقناع عليهم نازلان بهم. قال الخليل، وسيبويه: السوء هنا الفساد. قرأ الجمهور (السوء) بفتح السين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بضمها ﴿وَوَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ لما بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم في الدنيا بين ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعة، وعذاب جهنم ﴿وَوُشَّ جَنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الملائكة، والإنس، والجنّ، والشياطين ﴿وَوَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كرر هذه الآية؛ لقصد التأكيد، وقيل: المراد بالجنود هنا جنود العذاب، كما يفيد التعبير بالعرّة هنا مكان العلم هناك.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن مجمع بن حارثة الأنصاري قال: «شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم إذ الناس يوجفون الأباغر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ فقالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، فقال رجل: إي رسول الله أو فتح هو؟ قال: إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح، فقسمت خبير على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفاً وخمسائة منهم ثلثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الرّاجل سهماً، وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي، وكان إذا أتاه اشتدّ عليه، فسري عنه، وبه من السرور ما شاء الله، فأخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾. وأخرج البخاري وغيره عن انس في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قال: الحديبية. وأخرج البخاري، وغيره عن البراء قال: تعنون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قال: فتح مكة». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال: «كان النبي ﷺ يصلي حتى تتورم قدماه، فقيل

يوم بدر، وما تأخر من ذنب يوم حنين، وهذا كالكولين الأولين في البعد. وقيل: لو كان ذنب قديم، أو حديث؛ لغفرناه لك، وقيل غير ذلك مما لا وجه له، والأوّل أولى. ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة: ترك ما هو الأوّل، وسمي ذنباً في حقه لجلالة قدره، وإن لم يكن ذنباً في حق غيره ﴿وَيَوْمَ نَعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ بإظهار دينك على الدين كله، وقيل: بالجنة، وقيل: بالنبوة والحكمة، وقيل: بفتح مكة، والطائف، وخيبر، والأولى أن يكون المعنى: ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة، والهداية إلى صراط مستقيم، وهو الإسلام. ومعنى يهديك: يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه ﴿وَيُنْصِرُكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: غالباً منيعاً لا يتبعه ذل ﴿وهو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ أي: السكون والطمأنينة بما يسره لهم من الفتح؛ لئلا تزعج نفوسهم لما يرد عليهم ﴿لِيُزَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ أي: ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيماناً منضماً إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل. قال الكلبي: كلما نزلت آية من السماء، فصدّقوا بها ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم، وقال الربيع بن أنس: خشية مع خشيتهم. وقال الضحّاك: يقيناً مع يقينهم ﴿وَوُشَّ جَنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين يدبر أمرهم كيف يشاء، ويسلط بعضهم على بعض، ويحوط بعضهم ببعض ﴿وَوَكَانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ كثير العلم بليغ، ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله وأقواله ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذه اللام متعلقة بمحذوف يدلّ عليه ما قبله تقديره يبتلي بتلك الجنود من يشاء، فيقبل الخير من أهله، والشرّ ممن قضى له به؛ ليدخل ويعذب. وقيل: متعلقة بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ كانه قال: إنا فتحنا لك ما فتحنا؛ ليدخل ويعذب، وقيل: متعلقة بـنصرِكَ اللهُ بالمؤمنين؛ ليدخل ويعذب، وقيل: متعلقة بيزدادوا أي: يزدادوا، ليدخل ويعذب، والأوّل أولى ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: يسترهما، ولا يظهرهما ولا يعذبهما بها، وقدم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى، والمقصود الأسنى ﴿وَوَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: وكان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة، وتكفير سيئاتهم عند الله، وفي حكمه فوزاً عظيماً أي: ظفراً بكل مطلوب، ونجاة من كل غمّ، وجلباً لكل نفع ونفعا لكل ضرر، وقوله: ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من فوزاً؛ لأنه صفة في الأصل، فلما قدم صار حالاً أي: كائناً عند الله، والجملة معترضة بين جزاء المؤمنين، وجزاء المنافقين والمشركين، ثم لما فرغ مما وعد به صالحى عباده نكر ما يستحقه غيرهم، فقال: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتُ﴾ وهو معطوف على يدخل أي: يعذبهم في الدنيا بما يصل إليهم من الهموم، والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام، وقهر المخالفين له، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب جهنم. وفي تقديم المنافقين على

وتسبحوه» الخلاف بين القراء في هذه الثلاثة الأفعال كالخلاف في «لتؤمنوا» كما سلف، ومعنى تعزروه: تعظموه وتقضوه؛ قاله الحسن، والكلبي، والتعزير: التعظيم والتوقير. وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه. وقال عكرمة: تقاثلون معه بالسيف، ومعنى توقروه: تعظموه. وقال السدي: تسووه، قيل: والضميران في الفعلين للنبي ﷺ وهنا وقف تام، ثم يبتدئ وتسبحوه أي: تسبحوا الله عز وجل «بكرة واصيلاً» أي: غداة وعشية، وقيل: الضمائر كلها في الأفعال الثلاثة لله عز وجل، فيكون معنى تعزروه وتوقروه: تثبتون له التوحيد، وتتفون عنه الشركاء، وقيل: تنصروا دينه وتجاهروا مع رسوله، وفي التسبيح وجهان، أحدهما: التنزيه له سبحانه من كل قبيح، والثاني: الصلاة «إن الذين يبايعونك» يعني: بيعة الرضوان بالحديبية، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش «إنما يبايعون الله» أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله ﷺ هي بيعة له كما قال: «من يطع الرسول فقد أطاع الله» [النساء: 80] وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، وجملة «يهد الله فوق أيديهم» مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التخييل، في محل نصب على الحال، والمعنى: أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله سبحانه من غير تفاوت. وقال الكلبي: المعنى: إن نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة. وقيل: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء. وقال ابن كيسان: قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه» أي: فمن نقض ما عقد من البيعة، فإنما ينقض على نفسه؛ لأن ضرر نكاح راجع إليه لا يجاوزه إلى غيره «ومن أوفى بما عاهد عليه الله» أي: ثبت على الوفاء بما عاهد الله عليه في البيعة لرسوله. قرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء وقرأ حفص، والزهري بضمها «فسيؤتيه أجراً عظيماً» وهو الجنة. قرأ الجمهور (فسيؤتيه) بالتحنية، وقرأ نافع، وقرأ كثير، وابن عامر بالنون، واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم، واختار القراءة الثانية الفراء «سيقول لك المخلفون من الأعراب» هم الذين خلفهم الله عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية. قال مجاهد، وغيره يعني: أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، والنمل، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة. وقيل: تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين سافر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان قد استغفرهم ليخرجوا معه، والمخلف المتروك «شغلنا أموالنا وأهلونا» أي: منعنا عن الخروج معك ما لنا من الأموال، والنساء، والذراري، وليس لنا من يقوم بهم، ويخلفنا عليهم «فاستغفر لنا» ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب، ولما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء، وكانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم، فضحهم الله سبحانه بقوله: «يقولون بالاستغفار ما ليس في قلوبهم» وهذا هو صنيع المنافقين، والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوي

له: ليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين» قال: السكينة هي الرحمة وفي قوله: «ليزادوا إيماناً مع إيمانهم» قال: إن الله بعث نبيه ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الحج، فلما صدقوا به زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينهم، فقال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» [المائدة: 3]. قال ابن عباس: «فاوثق إيمان أهل السماء، وأهل الأرض، وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله». وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود «ليزادوا إيماناً مع إيمانهم» قال: تصديقاً مع تصديقهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن انس قال: لما أنزل على النبي ﷺ: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» مرجعه من الحديبية. قال: «لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي مما على الأرض، ثم قرأها عليهم، فقالوا: منيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بين الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: «ليدخل للمؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار» حتى بلغ: «فوزاً عظيماً».

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّوْهُ وَتُقِرُّوهُ وَتَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الْآيَةَ لَبَيِّنَاتٌ لِّبِائِمٍكُمْ إِنَّمَا يُبَاطِلُكَ اللَّهُ بِذَلِكَ قَوْلَ آبِيهِمْ مَن لَّكَ لَئِنَّمَا يَكُفُّ عَنْ نَفْسِهِ وَتَنَ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ سَبِّحْتَهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَعْلَلْنَا قُلُوبَنَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ يَوْمَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْفَكُ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَعْيُنِهِمْ أَبَدًا وَرُبَّمَا ذَلِكُ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَكُفُّوا قَوْلًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّنْ يُمْرِنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ الْمَلَكُوتُ وَالْأَرْضُ يَتَوَفَّى لِمَن يَشَاءُ وَهُوَ ذُو مَنَّةٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَنَازِرِ لِّتَأْخُذُوا ذُرُوعًا وَنَعِيْمًا يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فَلَئِنْ تَقِيْمُوا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ يَن قَبْلَ فَيَقُولُوا بَلْ عَصَيْنَاكَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا كَيْدًا ﴿١٥﴾

قوله: «إنا أرسلناك شاهداً» أي: على امتك بتبليغ الرسالة إليهم «ومبشراً» بالجنة للمطيعين «ونذيراً» لأهل المعصية «لتؤمنوا بالله ورسوله» قرأ الجمهور (لتؤمنوا) بالوقية. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتحنية، فعلى القراءة الأولى: الخطاب لرسول الله ﷺ ولأمته، وعلى القراءة الثانية المراد: المبشرين والمنذرين، وانتصاب شاهداً ومبشراً ونذيراً على الحال المقدرة «وتعزروه وتوقروه

﴿نُرَوْنَا نَتَّبِعُكُمْ﴾ أي: اتركونا نتبعكم ونشهد معكم غزوة خيبر. وأصل القصة أنه لما انصرف النبي ﷺ ومن معه من المسلمين من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر، وخص بغنائمها من شهد الحديبية، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون: نرؤنا نتبعكم، فقال الله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي: يغيروا كلام الله، والمراد بهذا الكلام الذي أرأوا أن يبطلوه، هو مواعيد الله لاهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر.

وقال مقاتل: يعني: أمر الله لرسوله أن لا يسير معه أحد منهم. وقال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَاسْتَأْنُوكَ لِلخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: 83] واعترض هذا ابن جرير، وغيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر، وبعد فتح مكة، والأول أولى، وبه قال مجاهد، وقتادة، ورجحه ابن جرير، وغيره. قرأ الجمهور (كلام الله) وقرأ حمزة، والكسائي (كلم الله) قال الجوهري: الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير، والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات؛ لأنه جمع كلمة مثل نيقة ونبق، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يمنعه من الخروج معه، فقال: ﴿قُلْ لَّنْ تَتَّبِعُونَا﴾ هذا النفي هو في معنى النهي، والمعنى: لا تتبعونا ﴿كَلِمَاتُكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قبل رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ يعني: المنافيين عند سماع هذا القول، وهو قوله: ﴿لَّنْ تَتَّبِعُونَا﴾ ﴿بَلْ تَحْسَبُونَنَا﴾ أي: بل ما يمنعه من خروجنا معكم إلا الحسد؛ لئلا تشارككم في الغنيمة، وليس ذلك بقول الله كما تزعمون، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يعلمون إلا علما قليلا، وهو علمهم بأمر الدنيا، وقيل: لا يفقهون من أمر الدين إلا فقها قليلا، وهو ما يصنعونه نفاقا بظواهرهم دون بواطنهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتَعَزَّوهُ﴾ يعني: الإجلال ﴿وَتَوْقَرُوهُ﴾ يعني: التعظيم، يعني: محمدا ﷺ. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والضياء في المختارة عنه في قوله: ﴿وَتَعَزَّوهُ﴾ قال: تضربوا بين يديه بالسيف. وأخرج ابن عدي، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله قال: «لما أنزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَتَعَزَّوهُ﴾ قال لأصحابه: ما ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: لتنصروه. وأخرج أحمد، وابن مردويه عن عباد بن الصامت قال: «بابعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب، فتمنعه مما تمنع منه أنفسنا، وأزواجنا، وأبنائنا، ولنا الجنة، فمن وفى وفى الله له، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه». وفي الصحيحين من حديث جابر: «أنهم

عليه بواطنهم، ويجوز أن تكون بدلا من الجملة الأولى، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عنهم، فقال: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فمن يمنعه مما أراد الله بكم من خير وشر، ثم بين ذلك، فقال: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضُرًّا﴾ أي: إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل. قرأ الجمهور (ضرًا) بفتح الضاد، وهو مصدر ضررته ضرًا. وقرأ حمزة، والكسائي بضمها وهو اسم ما يضر، وقيل: هما لغتان ﴿وَإِنْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: نصرا وغنيمة، وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله ﷺ يدفع عنه الضر، ويجلب لهم النفع، ثم أضرب سبحانه عن ذلك، وقال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: إن تخلفكم ليس لما زعمتم، بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التي من جملتها تخلفكم، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك، بل للشك والتفاق، وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله، ولهذا قال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وهذه الجملة مفسرة لقوله: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لما فيها من الإبهام أي: بل ظننتم أن العبر يستأصل المؤمنين بالمرة، فلا يرجع منهم أحد إلى أهله، فلجل ذلك تخلفتم لا ما نكرتم من المعانير الباطلة ﴿وَزَيْنَ﴾ أي: زين في قلوبكم ﴿أَي: زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فقبلتموه. قرأ الجمهور (وزين) مبنيًا للمفعول، وقرأ مبنيًا للفاعل ﴿وَوَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أن الله سبحانه لا ينصر رسوله، وهذا الظن إما هو الظن الأول، والتكرير للتأكيد والتوبيخ، والمراد به ما هو أعم من الأول، فيبخل الظن الأول تحتة دخولا أوليا ﴿وَوَكَنْتُمْ قَوْمًا بِوِرًّا﴾ أي: ملكي، قال الزجاج: هالكين عند الله، وكذا قال مجاهد. قال الجوهري: البور الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه. قال أبو عبيد ﴿قَوْمًا بِوِرًّا﴾ ملكي، وهو جمع بائر، مثل حائل وحول، وقد بار فلان أي: هلك، وأبأه الله أهلكه ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ هذا الكلام مستأنف من جهة الله سبحانه غير داخل تحت ما أمر الله سبحانه رسوله أن يقوله أي: ومن لم يؤمن بهما، كما صنع هؤلاء المخلفون، فجزاؤهم ما أعد الله لهم من عذاب السعير ﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيه كيف يشاء لا يحتاج إلى أحد من خلقه، وإنما تعبدكم بما تعبدكم لئيب من أحسن ويعاقب من أساء، ولهذا قال: ﴿يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يغفر له ﴿وَيُعَذِّبْ مَن يَشَاءُ﴾ أن يعذبه ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة بليغها يخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده ﴿سَيَقُولُ الْمَخْلَفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ المخلفون هؤلاء المذكورون سابقا، والظرف متعلق بقوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ والمعنى: سيقولون عند انطلاقتكم أيها المسلمون ﴿إِلَى مَغَانِمَ﴾ يعني: مغنم خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ لتحوزوها

فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت، ونحن ها هنا، فقال رسول الله ﷺ: لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن نافع قال: بلغ عمر بن الخطاب أن ناساً يأتون الشجرة التي ببيع تحتها، فأمر بها فقطعت. وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قيل: على أي شيء كنتم تبايعونه يومئذ؟ قال: على الموت. وأخرج مسلم، وغيره عن جابر قال: بايعناه على أن لا نفر، ولم نبايعه على الموت. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». وأخرج مسلم من حديثه مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فَانْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: الفتح. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: خير ﴿وَوَكَّفَ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يعني: أهل مكة أن يستحلوا حرم الله، ويستحل بكم وأنتم حرم مكة ﴿وَلَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: سنة لمن بعديكم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً في قوله: ﴿وَلَاخِرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً ﴿وَلَاخِرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا﴾ قال: هي خيبر. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية، هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبال التنعيم يريدون غزوة رسول الله، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَلِأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بَبْطَنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كف أيدي المشركين عن المسلمين، وأيدي المسلمين عن المشركين لما جاءوا يصنون رسول الله ﷺ ومن معه عن البيت عام الحديبية، وهي المراد ببطن مكة. وقيل: إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من قبل جبل التنعيم متسلحين يريدون غزوة النبي ﷺ، فأخذهم المسلمون، ثم تركهم. وفي الرواية اختلاف سياطي بيانه آخر البحث إن شاء الله ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿أُولَى بَاسٍ شَدِيدٍ﴾ يقول: فارس. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنهم الأكراد. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: فارس، والروم. وأخرج الفريابي، وابن مردويه عنه قال: هوازن، وبني حنيفة. وأخرج الطبراني، قال السيوطي: بسند حسن عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، وإني لو اضع القلم على أنفي إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى، فقال: «كيف لي وأنا ذاهب البصر؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ﴾ الآية». قال: هذا في الجهاد، وليس عليهم من جهاد إذا لم يطبقوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال: «بيننا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سمرة،

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ آلِ سَيْدِ الْحَرَارِ وَالْمَدَى مَكْرُوهًا أَنْ يَبْلُغَ مَجْلَهُ وَلَوْلَا رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَرَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَرَّةٌ يَغْرِبُ عِلْمُ لَيْلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَأْ لَرَّ

﴿مَعْرَةٌ﴾ أي: مشقة بما يلزمهم في قتلهم من كفارة وعيب، وأصل المعرة: العيب مأخوذة من العر، وهو الجرب، وذلك أن المشركين سيقولون: إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم. قال الزجاج: لولا أن تقتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات، فتصيبكم منهم معرة أي: إثم، وكذا قال الجوهري، وبه قال ابن زيد. وقال الكلبي، ومقاتل، وغيرهما: المعرة كفارة قتل الخطأ، كما في قوله: **﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾** [النساء: 92] وقال ابن إسحاق: المعرة، غرم الدية. وقال قطرب: المعرة الشدة، وقيل: الغم، و**﴿بغير علم﴾** متعلق بأن تطئوهم أي: غير عالمين، وجواب لولا محنوف، والتقدير: لأن الله لكم، أو لما كف أيديكم عنهم، واللام في **﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾** متعلقة بما يدل عليه الجواب المقدر أي: ولكن لم يأنزلكم أو كف أيديكم؛ ليدخل الله في رحمته بذلك من يشاء من عباده وهم المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا في مكة، فيتم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهراني الكفار، ويفك أسرهم، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب. وقيل: اللام متعلقة بمحنوف غير ما ذكر، وتقديره: لو قتلتموهم لآخذه الله في رحمته، والأول أولى. وقيل: إن من يشاء عباده ممن رغب في الإسلام من المشركين **﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾** التزييل: التمييز أي: لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم؛ لعذبنا الذين كفروا، وقيل التزييل: التفريق أي: لو تفرق هؤلاء من هؤلاء، وقيل: لو زال المؤمنون من بين أظهرهم، والمعاني متقاربة، والعذاب الأليم هو القتل والأسر والقهر، والظرف في قوله: **﴿إذ جعل الذين كفروا﴾** منصوب بفعل مقدر أي: أذكر وقت جعل الذين كفروا **﴿في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾** وقيل: متعلق بعذبنا، والحمية: الأنفة، يقال: فلان ذو حمية أي: ذو أنفة وغضب أي: جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم، والجعل بمعنى: الإلقاء، وحمية الجاهلية بدل من الحمية. قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حيان: قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا، وإخواننا، ويخلون علينا في منازلنا، فتحدث العرب أنهم قد نخلوا علينا على رغم أنفنا، واللالت والعزى لا يدخلونها علينا، فهذه الحمية هي حمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم. وقال الزهري: حميتهم أنفتحت من الإقرار للنبى ﷺ بالرسالة. قرأ الجمهور (لو تزيلوا) وقرأ ابن أبي عبيدة، وأبو حيوة، وابن عوف (لو تزيلا) والتزيال التباين **﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾** أي: أنزل الطمانينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين حيث لم يدخلهم ما نخل أهل الكفر من الحمية، وقيل: ثبتهم على الرضى والتسليم **﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾** وهي: «لا إله إلا الله» كذا قال الجمهور، وزاد بعضهم: «محمد رسول الله» وزاد بعضهم: «وحده لا شريك له». وقال الزهري هي: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾** وذلك أن الكفار لم يقرؤا بها، وامتنعوا من كتابتها في كتاب الصلح الذي كان بينهم، وبين رسول الله

تَزِيلُوا لَعَذْبَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ۖ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ۝ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْأَسْجِدُ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِيَّتَ خُمَلَيْنِ رُءُوسَكُمْ وَمُصْرِيْنَ لَا تَحْفَافُونَ قُلْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَانَ يَلْفُ اللَّهُ سَهِيحاً ۝ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّاداً سَاجِداً يَسْتَغْفِرُونَ فَغَلَّ مِنْ اللَّهِ رِيضُونًا سِيمَاهُمْ فِي رُءُوسِهِمْ مِنْ أَفْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَجٍ أُخْرِجَ سَهْلُهُمْ فَأَنْزَلَهُ فَاسْتَفْظَلُوا فَاسْتَوَى عَلَى سُرْقَةٍ يُنَجِّبُ الرُّزْقَ يَعِظُ يَوْمَ الْكُفَّارِ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ تَمْوِئَةً وَأَبْجَراً عَظِيماً ۝

قوله: **﴿هم الذين كفروا وصنوكم عن المسجد الحرام﴾** يعني: كفار مكة، ومعنى: صدَّهم عن المسجد الحرام: أنهم منعوهم أن يطوفوا به، ويحلوا عن عمرتهم **﴿واللهي معكوفاً﴾** قرأ الجمهور بنصب (الهدى) عطفاً على الضمير المنصوب في صنوكم، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بالجر عطفاً على المسجد، ولا بد من تقدير مضاف أي: عن نحر الهدى، وقرئ بالرفع على تقدير، وصد الهدى، وقرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدى وسكون الدال، وروي عن أبي عمرو، وعاصم يكسر الدال وتشديد الياء، وانتصاب معكوفاً على الحال من الهدى أي: محبوساً. قال الجوهري: عكفه أي: حبسه ووقفه، ومنه **﴿واللهدي معكوفاً﴾** ومنه الاعتكاف في المسجد، وهو الاحتباس. وقال أبو عمرو بن العلاء: معكوفاً مجموعاً، وقوله: **﴿أن يبلغ محله﴾** أي: عن أن يبلغ محله، أو هو مفعول لأجله، والمعنى: صدوا الهدى كراهة أن يبلغ محله، أو هو بدل من الهدى بدل اشتمال، ومحله منحره، وهو حيث يحل نحره من الحرم، وكان الهدى سبعين بنة، ورخص الله سبحانه لهم بجعل تلك الموضع الذي وصلوا إليه، وهو الحبيبية محلاً للنحر. وللعلماء في هذا كلام معروف في كتب الفروع **﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم﴾** يعني: المستضعفين من المؤمنين بمكة، ومعنى **﴿لم تعلموهم﴾**: لم تعرفوهم وقيل: لم تعلموا أنهم مؤمنون **﴿أن تطئوهم﴾** يجوز أن يكون بدلاً من رجال ونساء، ولكنه غلب الذكور، وأن يكون بدلاً من مفعول تعلموهم، والمعنى: أن تطئوهم بالقتل والإيقاع بهم، يقال: وطئت القوم أي: أوقعت بهم، وذلك أنهم لو كسبوا مكة، وأخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم فيها من الكفار، وعند ذلك لا يامنوا أن يقتلوا المؤمنين، فتلزمهم الكفارة، وتلحقهم سبة، وهو معنى قوله: **﴿فتصيبكم منهم﴾** أي: من جهتهم

﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي: يعليه على كل الأديان، كما يفيد توكيد الجنس، وقيل: ليظهر رسوله، والأول أولى. وقد كان ذلك بحمد الله، فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان، وانقهر له كل أهل الملل ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ الباء زائدة كما تقدم في غير موضع أي: كفى الله شهيداً على هذا الإظهار الذي وعد المسلمين به، وعلى صحة نبوة نبيه ﷺ ﴿محمد رسول الله﴾ محمد مبتدأ، ورسول الله خبره، أو هو خبر مبتدأ محذوف، ورسول الله بدل منه، وقيل: محمد مبتدأ ورسول الله نعت له ﴿والذين معه﴾ معطوف على المبتدأ وما بعده الخبر، والأول أولى، والجملة مبينة لما هو من جملة المشهود به. ﴿والذين معه﴾ قيل: هم أصحاب الحديبية، والأولى الحمل على العموم ﴿أنشء على الكفار﴾ أي: غلاظ عليهم، كما يغلظ الأسد على فريسته، وهو جمع شديد ﴿رحماء بينهم﴾ أي: متوائمون متعاطفون، وهو جمع رحيم، والمعنى: أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقه الرحمة والرافة. قرا الجمهور برفع (أنشء)، و(رحماء) على أنه خبر للموصول، أو خبر لمحمد، وما عطف عليه، كما تقدم. وقرا الحسن بنصبهما على الحال، أو المدح، ويكون الخبر على هذه القراءة ﴿تراهم ركعاً سجداً﴾ أي: تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، وعلى قراءة الجمهور هو خبر آخر، أو استئناف أعني قوله: ﴿تراهم﴾ و ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ أي: يطلبون ثواب الله لهم ورضاه عنهم، وهذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور، أو في محل نصب على الحال من ضمير تراهم، وهكذا ﴿سيعلمهم في وجوههم من أثر السجود﴾ السيماء العلامة، وفيها لغتان المد والقصر أي: تظهر علامتهم في جباههم من أثر السجود في الصلاة، وكثرة التعبد بالليل والنهار. وقال الضحاك: إذا سهر الرجل أصبح مصفراً، فجعل هذا هو السيماء. وقال الزهري: مواضع السجود أشد وجوههم بياضاً يوم القيامة. وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع، وبالأول أعني: كونه ما يظهر في الجباه من كثرة السجود قال سعيد بن جببر، ومالك. وقال ابن جرير: هو الوقار. وقال الحسن: إذا رأيتهم مرضى وما هم بمرضى، وقيل: هو البهاء في الوجه وظهور الأنوار عليه، وبه قال سفيان الثوري، والإشارة بقوله: ﴿لذلك﴾ إلى ما تقدم من هذه الصفات الجليلة، وهو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿مثلهم في التوراة﴾ أي: وصفهم الذي وصفوا به في التوراة، ووصفهم الذي وصفوا به ﴿في الإنجيل﴾ وتكرير ذكر المثل لزيادة تقريره، وللتنبية على غرابته، وأنه جار مجرى الأمثال في الغرابة ﴿كزرع أخرج شطاه﴾ إلخ كلام مستأنف أي: هم كزرع إلخ، وقيل: هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدم من الأوصاف، وقيل: هو خبر لقوله: ﴿ومثلهم في الإنجيل﴾ أي: ومثلهم في الإنجيل كزرع قال الفراء: فيه وجهان: إن شئت قلت ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل يعني: كمثلهم في القرآن، فيكون

كما ثبت ذلك في كتب الحديث والسير، فخص الله بهذه الكلمة المؤمنين والزمهم بها. والأول أولى؛ لأن كلمة التوحيد هي التي يتقى بها الشرك بالله، وقيل: كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد والثبات عليه ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ أي: وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار والمستأهلين لها دونهم؛ لأن الله سبحانه أهلهم لدينه، وصحبة رسوله ﷺ ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية، كأنه هو وأصحابه حلّقوا وقصروا، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك، فلما رجعوا من الحديبية، ولم يدخلوا مكة قال المنافقون: والله ما حلّقنا ولا قصرنا، ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله هذه الآية، وقيل: إن الرؤيا كانت بالحديبية، وقوله: ﴿بالحق﴾ صفة لمصدر محذوف أي: صدقاً ملتبساً بالحق، وجواب القسم المحذوف المدلول عليه بالألام الموطئة هو قوله: ﴿لندخلن المسجد الحرام﴾ أي: في العام القابل، وقوله: ﴿إن شاء الله﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه، كما في قوله: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً﴾ إلا أن يشاء الله [الكهف: 23، 24] قال ثعلب: إن الله استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون. وقيل: كان الله سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه في الحديبية، فوقع الاستثناء لهذا المعنى، قاله الحسن بن الفضل. وقيل: معنى إن شاء الله: كما شاء الله. وقال أبو عبيدة: إن بمعنى إذ يعني: إذ شاء الله حيث أرى رسوله ذلك، وانتصاب ﴿أمنين﴾ على الحال من فاعل لتدخلن، وكذا ﴿محلقين رءوسكم ومقصرين﴾ أي: أمنين من العدو، ومحلقاً بعضكم ومقصرأ بعضكم، والحلق والتقصير خاص بالرجال، والحلق أفضل من التقصير، كما يدل على ذلك الحديث الصحيح في استغفاره ﷺ للمحلقين في المرة الأولى والثانية، والقاتل يقول له وللمقصرين، فقال في الثالثة: وللمقصرين، وقوله: ﴿لا تخافون﴾ في محل نصب على الحال أو مستأنف، وفيه زيادة تأكيد لما قد فهم من قوله: ﴿أمنين﴾ ﴿فعلم ما لم تعلموا﴾ أي: ما لم تعلموا من المصلحة في الصلح لما في دخولكم في عام الحديبية من الضرر على المستضعفين من المؤمنين، وهو معطوف على صدق أي: صدق رسوله الرؤيا، فعلم ما لم تعلموا به ﴿فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ أي: فجعل من دون دخولكم مكة كما أرى رسوله، فتحاً قريباً. قال أكثر المفسرين: هو صلح الحديبية. وقال ابن زيد، والضحاك: فتح خيبر. وقال الزهري: لا فتح في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية، ولقد دخل في تلك السنتين في الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل أكثر، فإن المسلمين كانوا في سنة ست، وهي سنة الحديبية ألفاً وأربعمائة وكانوا في سنة ثمان عشرة آلاف ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ أي: إرسالاً ملتبساً بالهدى ﴿ودين الحق﴾ وهو الإسلام

ابن عباس **«لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم»** قال: حين رآه النبي ﷺ **«أن تطنؤهم»** بقتلكم إياهم **«لو تزيلوا»** يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلكم إياهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين: «اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله السنا على الحق، وهم على الباطل؟ ليس قتالنا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنيا في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولم يضيعني الله أبداً، فرجع متغيظاً، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر السنا على الحق، وهم على الباطل؟ قال: بلى، ليس قتالنا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنيا في ديننا؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله، ولم يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر، فأقرأه إياها، قال: يا رسول الله افتح هو؟ قال: نعم». وأخرج الترمذي، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن جرير، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ **«والزهم كلمة للفقوى»** قال: «لا إله إلا الله» وفي إسناده الحسن بن قزعة، قال الترمذي بعد إخراجها: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وكذا قال أبو زرعة. وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً مثله. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن علي بن أبي طالب مثله من قوله. وأخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم من قول عمر بن الخطاب نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والدارقطني في الأفراد عن المسور بن مخرمة، ومروان نحوه، وروي عن جماعة من التابعين نحو ذلك. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس **«لقد صلح الله رسوله الرؤيا بالحق»** قال: هو دخول محمد البيت، والمؤمنين محلقين ومقصرين، وقد ورد في الدعاء للمحلقين والمقصرين في الصحيحين، وغيرهما أحاديث منها ما قُتِمنا الإشارة إليه، وهو في الصحيحين من حديث ابن عمر، وفيهما من حديث أبي هريرة أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: **«سيماهم في وجوههم»** قال: أما إنه ليس الذي يروونه، ولكنه سيما الإسلام، وسمته وخشوعه. وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في الآية قال: هو السميت الحسن. وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند حسن عن أبي بن كعب

الوقف على الإنجيل، وإن شئت قلت ذلك مثلهم في التوراة، ثم تبدئ ومثلهم في الإنجيل كزرع. قرأ الجمهور (شطاه) بسكون الطاء، وقرأ ابن كثير، وابن نكوان بفتحها، وقرأ انس، ونصر بن عاصم، ويحيى بن وثاب (شطاه) كعصاه. وقرأ الجحدري، وابن أبي إسحاق (شطه) بغير همزة، وكلها لغات قال الأخفش والكسائي: شطاه أي: طرفه. قال الفراء: شطا الزرع فهو مشطى إذا خرج. قال الزجاج: **«لخرج شطاه»** أي: نباته. وقال قطرب: الشطا سوى السنبل، وروي عن الفراء أيضاً أنه قال: هو السنبل، وقال الجوهري: شطا الزرع والنبات، والجمع اشطاء، وقد أشطا الزرع خرج شطوه **«فأزره»** أي: قواه وأعانه وشده، قيل المعنى: إن الشطا قوى الزرع، وقيل: إن الزرع قوى الشطا، ومما يدل على أن الشطا خروج النبات. قول الشاعر:

أخرج الشطا على وجه الثرى ومن الأشجار أقنان الثمر
قرأ الجمهور (فأزره) بالمد. وقرأ ابن نكوان، وأبو حيوة، وحميد بن قيس بالقصر، وعلى قراءة الجمهور قول امرئ القيس:

بمحنية قد أزر الضال نبتها بجزجوش غانمين وخيب
قال الفراء: أزر فلاناً أزره أزرأ إذا قوىته **«فاستغلظ»** أي: صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان نقيقاً **«فاستوى على سوقه»** أي: فاستقام على أعواده، والسوق جمع ساق. وقرأ قنبل (سؤقه) بالهمزة الساكنة **«يعجب للزراع»** أي: يعجب هذا الزرع زارعه لقوته وحسن منظره، وهذا مثل ضرب به الله سبحانه لأصحاب النبي ﷺ، وأنهم يكونون في الابتداء قليلاً، ثم يزدادون ويكثرُونَ ويقوون كالزراع، فإنه يكون في الابتداء ضعيفاً ثم يقوى حالاً بعد حال حتى يغلب ساقه. قال قتادة: مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل أنه سيخرج من قوم ينتبون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم نكر سبحانه علة تكثيره لأصحاب نبيه ﷺ، وتقويته لهم فقال: **«ليغظ بهم الكفار»** أي: كثرة قواهم، ليكونوا غيظاً للكافرين، واللام متعلقة بمحذوف أي: فعل ذلك ليغظ **«وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وإجراً عظيماً»** أي: وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد ﷺ أن يغفر ذنوبهم، ويجزل أجرهم بإبخالهم الجنة التي هي أكبر نعمة وأعظم منة.

وقد أخرج أحمد، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نحروا يوم الحديبية سبعين بنته، فلما صدت عن البيت حنّت، كما تحنّ إلى أولادها. وأخرج الحسن بن سفيان، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن قانع، والباوردي، والطبراني، وابن مردويه. قال السيوطي: بسند جيد عن أبي جمعة حنيد بن سبيع قال: «قابلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً، وقابلت معه آخر النهار مسلماً وفيما نزلت: **«ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات»** وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتان»، وفي رواية عند ابن أبي حاتم: «كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن

أولياً، ثم علل ما أمر به من التقوى بقوله: ﴿إِنْ أَلَّهِ سَمِيعٌ﴾ لكل مسموع ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل معلوم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت؛ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام؛ لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير. ويحتمل أن يكون المراد: المنع من كثرة الكلام ومزيد اللغط، والأول أولى. والمعنى: لا ترفعوا أصواتكم إلى حد يكون فوق ما يبلغه صوت النبي ﷺ. قال المفسرون: المراد من الآية: تعظيم النبي ﷺ وتوقيره، وإن لا ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تجهروا بالقول إذا كلمتموه، كما تعتادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضكم بعضاً. قال الزجاج: أمرهم الله بتجليل نبيه، وأن يغضوا أصواتهم، ويخاطبوه بالسكينة والوقار، وقيل: المراد بقوله ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾: لا تقولوا يا محمد يا أحمد؛ ولكن يا نبي الله ويا رسول الله توقيراً له، والكاف في محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف أي: جهراً مثل جهر بعضكم لبعض، وليس المراد برفع الصوت وبالجهر في القول هو ما يقع على طريقة الاستخفاف، فإن ذلك كفر، وإنما المراد أن يكون الصوت في نفسه غير مناسب لما يقع في مواقف من يجب تعظيمه وتوقيره. والحاصل أن النهي هنا وقع عن أمور، الأول: عن التقدم بين يديه بما لا يان به من الكلام. والثاني: عن رفع الصوت البالغ إلى حد يكون فوق صوته سواء كان في خطابه، أو في خطاب غيره. والثالث: ترك الجفاء في مخاطبته، ولزوم الأدب في مجاورته؛ لأن المقابلة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه وتوقيره. ثم علل سبحانه ما نكره بقوله: ﴿أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ قال الزجاج: أن تحبط أعمالكم التقدير؛ لأن تحبط أعمالكم أي: فتحبط، فاللام المقدره لام الصيرورة كذا قال، وهذه العلة يصح أن تكون للنهي أي: نهاكم الله عن الجهر خشية أن تحبط، أو كراهة أن تحبط، أو علة للمنهى أي: لا تفعلوا الجهر فإنه يؤدي إلى الحبوط، فكلام الزجاج ينظر إلى الوجه الثاني لا إلى الوجه الأول، وجملة: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال، وفيه تحذير شديد ووعيد عظيم. قال الزجاج: وليس المراد ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ يوجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم، ثم رغب سبحانه في امتثال ما أمر به، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أصل الغض النقص من كل شيء. ومنه نقص الصوت ﴿أَوَّلُكَ السَّيِّئِينَ﴾ امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴿قَالَ الْفَرَاءُ﴾ أخلص قلوبهم للتقوى، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده من رديته، ويسقط خبثه. وبه قال مقاتل، ومجاهد وقتادة. وقال الأخفش: اختصها للتقوى، وقيل: طهرها من كل قبيح، وقيل: وسعها وسرحها،

قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: النور يوم القيامة. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن نصر عن ابن عباس في الآية قال: بياض يغشى وجوههم يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿تِلْكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ يعني: نعتهم مكتوب في التوراة والإنجيل قبل أن يخلق الله السموات والأرض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أنس ﴿كَزَرَعٍ لَخْرَجَ شَطَاهُ﴾ قال: نباته فروخه.

تفسير سورة الحجرات

قال القرطبي: بالإجماع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَفْزَعٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاقٌ بَيْنَ تَنَبُّؤٍ أَنْ تَنْبِئُوا قَوْمًا بِهِمْ نَبَأٌ فَخَبِّرُوا عَلَى مَا تَمَثَّلْتُمْ تَدْوِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَوَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ جَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَرَزَقَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَصَلَّيْنِ اللَّهُ وَرِسْمَهُ وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ الجمهور (تقدموا) بضم المثناة الفوقية، وتشديد الدال مكسورة، وفيه وجهان: أحدهما أنه متعذر، وحذف مفعوله لقصد التعميم، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل كقولهم: هو يعطي ويمنع، والثاني أنه لازم نحو وجه وتوجه، ويعضده قراءة ابن عباس، والضحاك، ويعقوب (تقدموا) بفتح التاء والقاف والدال. قال الواحدي: قدم ها هنا بمعنى تقدم، وهو لازم. قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب أي: لا تعجل بالأمر دونه والنهي؛ لأن المعنى: لا تقدموا قبل أمرهما ونهيهما، وبين يدي الإمام عبارة عن الإمام لا ما بين يدي الإنسان، ومعنى الآية: لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله، ولا تعجلوا به. وقيل: المراد معنى بين يدي فلان بحضرته؛ لأن ما يحضره الإنسان، فهو بين يديه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في كل أموركم، ويدخل تحتها الترك للتقدم بين يدي الله ورسوله بخلاً

بصواب؛ لوقعتهم في العنت، وهو التعب والجهد والإثم والهلاك، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾** أي: جعله أحب الأشياء إليكم، أو محبوباً لديكم، فلا يقع منكم إلا ما يوافقه، ويقتضيه من الأمور الصالحة، وترك التسرع في الأخبار، وعدم التثبت فيها، قيل: والمراد بهؤلاء من عدا الأولين؛ لبيان براءتهم عن أوصاف الأولين، والظاهر أنه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان، وتوجيه محبته التي جعلها الله في قلوبهم **﴿وزينه في قلوبكم﴾** أي: حسنه بتوفيقه حتى جروا على ما يقتضيه في الأقوال والأفعال **﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾** أي: جعل كل ما هو من جنس الفسوق، ومن جنس العصيان مكروهاً عنكم، وأصل الفسق الخروج عن الطاعة، والعصيان جنس ما يعصى الله به، وقيل: أراد بذلك الكذب خاصة، والأول أولى **﴿وأولئك هم الراشدون﴾** أي: الموصوفون بما نكرهم الراشدون. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب، من الرشادة: وهي الصخرة **﴿فضلاً من الله ونعمة﴾** أي: لأجل فضله وإنعامه، والمعنى: أنه حبب إليكم ما حبب، وكره ما كره؛ لأجل فضله وإنعامه، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك، وقيل: النصب بتقدير فعل أي: تبتغون فضلاً ونعمة **﴿والله عليم﴾** بكل معلوم **﴿حكيم﴾** في كل ما يقضي به بين عباده ويقدره لهم.

وقد أخرج البخاري وغيره، عن عبد الله بن الزبير قال: قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقموا بين يدي الله ورسوله﴾** حتى انقضت الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿لا تقموا بين يدي الله ورسوله﴾** قال: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه. وأخرج ابن مردويه عن عائشة في الآية قالت: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم، وأخرج البخاري في تاريخه عنها قالت: كان أناس يتقدمون بين يدي رمضان بصيام يعني: يوماً أو يومين، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقموا بين يدي الله ورسوله﴾**. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنها أيضاً: أن ناساً كانوا يتقدمون الشهر، فيصومون قبل النبي ﷺ، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** الآية. وأخرج البزار، وابن عدي، والحاكم، وابن مردويه عن أبي بكر الصديق قال: أنزلت هذه الآية **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾** قلت: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا كأخي السرار، وفي إسناده حصين بن عمر، وهو ضعيف؛ ولكنه يؤيده ما أخرجه عبد بن حميد، والحاكم وصححه من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: لما نزلت: **﴿إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله﴾** قال أبو بكر: والذي أنزل عليك

من محنت الأليم: إذا وسعته. وقال أبو عمرو: كل شيء جهده فقد محنته، واللام في اللقوى متعلقة بمحذوف أي: صالحة لللقوى كقولك أنت صالح لكذا، أو للتعليل الجاري مجرى بيان السبب، كقولك جئتكم؛ لأداء الواجب أي: ليكون مجيئي سبباً لأداء الواجب **﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾** أي: أولئك لهم، فهو خبر آخر لاسم الإشارة، ويجوز أن يكون مستأنفاً لبيان ما أعد الله لهم في الآخرة **﴿إن للذين ينافونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾** هم جفاة بني تميم كما سيأتي بيانه، ووراء الحجرات خارجها وخلفها، والحجرات جمع حجرة، كالحجرات جمع غرفة، والظلمات جمع ظلمة، وقيل: الحجرات جمع حجرة، والحجر جمع حجرة، فهو جمع الجمع والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. قرأ الجمهور (الحجرات) بضم الجيم، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بفتحها تخفيفاً، وقرأ ابن أبي عتبة بإسكانها، وهي لغات، و «من» في «من وراء» ابتداء الغاية، ولا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى **﴿أكثرهم لا يعقلون﴾** لغلبة الجهل عليهم، وكثرة الجفاء في طبائعهم **﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾** أي: لو انتظروا خروجك، ولم يعملوا بالمناداة لكان أصلح لهم في دينهم وديناهم، لما في ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، ورعاية جانبه الشريف والعمل بما يستحقه من التتبع والتجليل. وقيل: إنهم جاءوا شفعاء في أسارى، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى نصفهم، ولو صبروا لأعتق الجميع، نكر معناه مقاتل **﴿والله غفور رحيم﴾** كثير المغفرة، والرحمة بليغهما لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾** قرأ الجمهور (فتبينوا) من التبين، وقرأ حمزة، والكسائي (فتثبتوا) من التثبت، والمراد من التبين التعرّف والتفحص، ومن التثبت الأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر. قال المفسرون: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، كما سيأتي بيانه إن شاء الله. وقوله: **﴿إن تصيبوا قوماً بجهالة﴾** مفعول له أي: كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا؛ لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر، ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة؛ لأنه لم يصدر عن علم، والمعنى: ملتبس بجهالة بحالهم **﴿فتصحبوا على ما فعلتم﴾** بهم من إصابتهم بالخطأ **﴿فنامين﴾** على ذلك مغتمين له مهتمين به، ثم وعظهم الله سبحانه، فقال: **﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾** فلا تقولوا قولاً باطلاً، ولا تتسرعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبين، وأن وما في حيزها سادة مسد مفعولي أعلموا، وجملة **﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾** في محل نصب على الحال من ضمير فيكم، أو مستأنفة، والمعنى: لو يطيعكم في كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة، وتشيرون به عليه من الآراء التي ليست

الإيمان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس الرسول، فلم يأت، فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله، فدعا سروات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتاً يرسل إلي رسول الله ﷺ ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله الخلف، ولا أرى حبس رسول الله ﷺ إلا من سخطة، فانطلقوا فناتى رسول الله، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقل البعث، وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث؟ فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعت الزكاة، وأردت قتله، قال: لا، والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بته، ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعت الزكاة، وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته، ولا رأيته، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله ﷺ خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ورسوله، فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ إلى قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ قال ابن كثير: هذا من أحسن ما روي في سبب نزول الآية. وقد رويت روايات كثيرة متفقة على أنه سبب نزول الآية، وأنه المراد بها وإن اختلفت القصص.

وَلَنْ يَكْفُرَ بِنَبَأٍ مِنْهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفَنُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاذْكُرُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الطَّائِفَةُ ﴿٢٠﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله: ﴿وَأَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ قرأ الجمهور (اقتتلوا) باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين كقوله: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمَا﴾ [الحج: 19] والضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ عائد إلى الطائفتين باعتبار اللفظ. وقرأ ابن أبي عتبة (اقتتلتا) اعتباراً بلفظ طائفتان، وقرأ زيد بن علي، وعبيد بن عمير (اقتتلا) وتذكير الفعل في هذه القراءة باعتبار الفريقين، أو الرهطين. والبغوي: التحدي بغير حق، والامتناع من الصلح الموافق للمصواب، والفهي: الرجوع. والمعنى: أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين، فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم، ويدعوهم إلى حكم الله، فإن حصل

الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أنس قال: «لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ، حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في بيته حزينا، ففقد رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه، فقالوا: فقدك رسول الله ﷺ، ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي، وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار، فاتوا النبي ﷺ، فأخبروه بذلك، فقال: لا، بل هو من أهل الجنة؛ فلما كان يوم اليمامة قتل. وفي الباب أحاديث بمعناه. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «منهم ثابت بن قيس بن شماس». وأخرج أحمد، وابن جرير، وأبو القاسم البغوي، والطبراني، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند صحيح من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس، «أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد أخرج إلينا، فلم يجبه، فقال: يا محمد إن حمدي زين، وإن نمي شين، فقال: ذاك الله، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات﴾»، قال ابن منيع: لا أعلم روى الأقرع مسنداً غير هذا. وأخرج الترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن البراء بن عازب في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات﴾ قال: «جاء رجل فقال: يا محمد إن حمدي زين، وإن نمي شين، فقال النبي ﷺ: ذاك الله. وأخرج ابن راهويه، ومسدد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه قال السيوطي: بإسناد حسن عن زيد بن أرقم قال: «اجتمع ناس من العرب فقالوا: انطلقوا إلى هذا الرجل فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً نعش بجناحه، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بما قالوا، فجاءوا إلى حجرته، فجعلوا ينادونه: يا محمد يا محمد فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ فأخذ رسول الله ﷺ بأنني، وجعل يقول: لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد». وفي الباب أحاديث. وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال: «قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي، فادعهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، وترسل إلي يا رسول الله رسولا لإبان كذا وكذا؛ لياتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ

يقوله: «تقتل عماراً الفئة الباغية»، وقوله ﷺ في شأن الخوارج: «يخرجون على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق». **﴿ها أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾** السخرية: الاستهزاء. وحكى أبو زيد: سخرت به، وضحكت به، وهزأت به. وقال الأخفش: سخرت منه وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به، وهزأت منه وهزأت به، كل ذلك يقال، والاسم السخرية والسخرى، وقرئ بهما في: **﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾** [الزخرف: 32]، ومعنى الآية: النهي للمؤمنين عن أن يستهزئ بعضهم ببعض، وعلل هذا النهي بقوله: **﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾** أي: أن يكون المسخور بهم عند الله خيراً من الساخريين بهم، ولما كان لفظ قوم مختصاً بالرجال؛ لأنهم القوم على النساء أفرد النساء بالذكر فقال: **﴿ولا نساء من نساء﴾** أي: ولا يسخر نساء من نساء **﴿عسى أن يكن﴾** المسخور بهن **﴿خيراً منهن﴾** يعني: خيراً من الساخرات منهن، وقيل: أفرد النساء بالذكر؛ لأن السخرية منهن أكثر **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾** اللمز العيب، وقد مضى تحقيقه في سورة براءة عند قوله: **﴿ومنهم من يلزمك في الصنقات﴾** [التوبة: 58] قال ابن جرير: اللزم باليد والعين واللسان والإشارة، والهزم لا يكون إلا باللسان، ومعنى: **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾** لا يلزم بعضكم بعضاً، كما في قوله: **﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾** [النساء: 29] وقوله: **﴿فسلموا على أنفسكم﴾** [النور: 61]. قال مجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبيرة: لا يطعن بعضكم على بعض. وقال الضحاك: لا يلعن بعضكم بعضاً **﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾** التنابز: التفاعل من النبز بالتسكين، وهو المصير، والنبز بالتحريك اللقب، والجمع أنباز، والألقاب جمع لقب، وهو اسم غير الذي سمي به الإنسان، والمراد هنا لقب السوء، والتنابز بالألقاب أن يلقب بعضهم بعضاً. قال الواحدي: قال المفسرون: هو أن يقول لأخيه المسلم: يا فاسق يا منافق، أو يقول لمن أسلم: يا يهودي يا نصراني، قال عطاء: هو كل شيء أخرجت به أخاك من الإسلام، كقولك: يا كلب يا حمار يا خنزير. قال الحسن، ومجاهد: كان الرجل يعير بكفره، فيقال له: يا يهودي يا نصراني فنزلت، وبه قال قتادة، وأبو العالية، وعكرمة **﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾** أي: بئس الاسم الذي ينكروا بالفسق بعد دخولهم في الإيمان، والاسم هنا بمعنى النكر. قال ابن زيد: أي: بئس أن يسمى الرجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته. وقيل المعنى: أن من فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز والنبد، فهو فاسق. قال القرطبي: إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحلب، ولم يكن له سبب يجد في نفسه منه عليه، فجوزته الأئمة، واتفق على قوله أهل اللغة اهـ **﴿ومن لم يتب﴾** عما نهى الله عنه **﴿فأولئك هم الظالمون﴾** لارتكابهم ما نهى الله عنه، وامتناعهم من التوبة، فظلموا من لقبوه، وظلمهم أنفسهم بما لزمها من الإثم **﴿ها أيها الذين**

بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح، ولا بخلت فيه كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيتها، واجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحزوا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى. ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتلتين فقال: **﴿واقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾** أي: واعملوا إن الله يحب العادلين، ومحبتة لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء. قال الحسن، وقتادة، والسدي: **﴿فاصلحوا بينهما﴾** بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضى بما فيه لهما وعليهما **﴿فإن بغت إحداهما﴾** وطلبت ما ليس لها، ولم ترجع إلى الصلح **﴿فقاتلوا التي تبغي﴾** حتى ترجع إلى طاعة الله، والصلح الذي أمر الله به، وجملة: **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾** مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح، والمعنى: أنهم راجعون إلى أصل واحد، وهو الإيمان. قال الزجاج: الذين يجمعهم، فهم إخوة إذا كانوا متفقين في دينهم، فرجعوا بالاتفاق في الدين إلى أصل النسب؛ لأنهم لآدم وحواء **﴿فاصلحوا بين أخويكم﴾** يعني: كل مسلمين تخاصما وتقاتلا، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى. قرأ الجمهور (بين أخويكم) على التثنية، وقرأ زيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، والحسن، وحماد بن سلمة، وابن سيرين (إخوانكم) بالجمع، وروى عن أبي عمرو، ونصر بن عاصم، وأبي العالية، والجحدري، ويعقوب أنهم قرءوا (بين إخوانكم) بالفوقية على الجمع أيضاً. قال أبو علي الفارسي في توجيه قراءة الجمهور: أراد بالأخوين الطائفتين؛ لأن لفظ التثنية قد يرد، ويراد به الكثرة. وقال أبو عبيدة: أي: أصلحوا بين كل أخوين **﴿واتقوا الله﴾** في كل أموركم **﴿لعنكم ترحمون﴾** بسبب التقوى، والترجي باعتبار المخاطبين أي: راجين أن ترحموا، وفي هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرر بغيتها على الإمام، أو على أحد من المسلمين، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستنداً بقوله ﷺ: «قتال المسلم كفره»، فإن المراد بهذا الحديث، وما ورد في معناه قتال المسلم الذي لم يبع. قال ابن جرير: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه، ولزوم المنازل لما أقيم حق، ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبباً إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دماهم بأن يتحزبوا عليهم، ولكف المسلمين أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله ﷺ: «خذوا على أيدي سفهائكم». قال ابن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، وعمدة في حرب المتأولين، وعليها عول الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي ﷺ

إشارة إلى أن عرض الإنسان كلعمة، وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة في عرضه، وفي هذا من التنفير عن الغيبة، والتوبيخ لها، والتوبيخ لفاعليها، والتشجيع عليه ما لا يخفى، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، وتستكرهه الجبلة البشرية، فضلاً عن كونه محرماً شرعاً **﴿فكرهتموه﴾** قال الفراء: تقديره: فقد كرهتموه فلا تفعلوا، والمعنى: فكما كرهتم هذا، فاجتنبوا نكره بالسوء غائباً. قال الرّازي: الفاء في تقدير جواب كلام: كأنه قال: لا يحبّ أحدكم أن يكل لحم أخيه، فكرهتموه إن. وقال أبو البقاء: هو معطوف على محنوف تقديره: عرض عليكم ذلك، فكرهتموه **﴿واتقوا الله﴾** بترك ما أمركم باجتنابه **﴿إن الله تواب رحيم﴾** لمن اتقاه، وتاب عما فرط منه من الذنب ومخالفة الأمر.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ: «لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وفي أرض سبخة، فلما انطلق إليه قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الانصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فنزلت فيهم: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾** الآية. وقد روي نحو هذا من وجوه آخر. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عمر قال: ما رجيت في نفسي من شيء ما رجيت في نفسي من هذه الآية، إنني لم أقاتل هذه الفئة الباغية، كما أمرني الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: إن الله أمر النبي ﷺ، والمؤمنين إذا اقتتل طائفة من المؤمنين أن يدعوه إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإذا أجابوا حكم فيهم بحكم كتاب الله حتى ينصف المظلوم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، وحق على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقروا بحكم الله. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾** الآية قال: كان قتال بالنعال والعصي، فأمرهم أن يصلحوا بينهم. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي عن عائشة قالت: ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة في هذه الآية: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم﴾** قال: نزلت في قوم من بني تميم استهزؤا من بلال، وسلمان، وعمار، وخباب، وصهيب، وابن فهيرة، وسالم مولى أبي حذيفة. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في الأدب، وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾** قال: لا يطعن بعضكم على بعض. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب وأهل السنن

أمّنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ: الظنّ هنا: هو مجرد التهمة التي لا سبب لها كمن يتهم غيره بشيء من الفواحش، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، وأمر سبحانه باجتناب الكثير؛ ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنه حتى يعلم وجهه؛ لأن من الظنّ ما يجب اتباعه، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظنّ، كالقياس وخبر الواحد ودلالة العموم؛ ولكن هذا الظنّ الذي يجب العمل به قد قوي بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به، فارتفع عن الشك والتهمة. قال الزجاج: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءاً، فأما أهل السوء والفسوق، فلنا أن نظنّ بهم مثل الذي ظهر منهم. قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حيان: هو أن يظنّ بأخيه المسلم سوءاً، ولا بأس به ما لم يتكلم به، فإن تكلم بذلك الظنّ وأبداه أثم. وحكى القرطبي عن أكثر العلماء: أن الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظنّ القبيح بمن ظاهره القبيح، وجملة **﴿إنّ بعض الظنّ إثم﴾**: تحليل لما قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظنّ، وهذا البعض هو ظنّ السوء بأهل الخير، والإثم هو ما يستحقه الظنّ من العقوبة. ومما يدل على تقييد هذا الظنّ المأمور باجتنابه بظنّ السوء قوله تعالى: **﴿وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوماً بوراً﴾** [الفتح: 12] فلا يدخل في الظنّ المأمور باجتنابه شيء من الظنّ المأمور باتباعه في مسائل الدين، فإن الله قد تعبد عباده باتباعه، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم، ولم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة كياناً للدين، وشنوئاً عن جمهور المسلمين، وقد جاء التعبد بالظنّ في كثير من الشريعة المطهرة بل في أكثرها. ثم لما أمرهم الله سبحانه باجتناب كثير من الظنّ نهاهم عن التجسس فقال: **﴿ولا تجسسوا﴾** التجسس: البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معائب الناس ومثالبهم. قرأ الجمهور (تجسسوا) بالجيم، ومعناه ما نكرنا. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وابن سيرين بالحاء. قال الأخفش: ليس يبعد أحدهما من الآخر؛ لأن التجسس بالجيم: البحث عما يكتم عنك، والتجسس بالحاء: طلب الأخبار، والبحث عنها. وقيل: إن التجسس بالجيم هو البحث، ومنه قيل: رجل جاسوس: إذا كان يبحث عن الأمور، وبالحاء ما أدركه الإنسان ببعض حواسه. وقيل: إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه، وبالجيم أن يكون رسولاً لغيره، قاله ثعلب **﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾** أي: لا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوءه، والغيبة: أن تذكر الرجل بما يكرهه، كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: نكر أخاك بما يكره، فقيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبتّه، وإن لم يكن فيه، فقد بهتّه»، **﴿أحبب لأحدكم أن ياكل لحم أخيه ميتاً﴾** مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، نكر معناه الزجاج. وفيه

كَتَبَ صَدِيقَيْنِ ۖ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُ بَصِيرٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۖ

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ هما أُمٌّ وَحَوَاءٌ، والمقصود أنهم متساوون؛ لاتصالهم بنسب واحد، وكونه يجمعهم أب واحد وأُم واحدة، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالانساب، وقيل المعنى: أن كل واحد منكم من أب وأُمٍّ، فالكل سواء ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين، وهو الحي العظيم: مثل مضر، وربيعة، والقبائل دونها كبنى بكر من ربيعة، وبني تميم من مضر. قال الواحدي: هذا قول جماعة من المفسرين، سمو شعباً لتشعبهم، واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة، والشعب من أسماء الأضداد، يقال شعبته: إذا جمعته، وشعبته إذا فرقته، ومنه سميت المنية شعباً لأنها مفترقة، فأما الشعب بالكسر: فهو الطريق في الجبل. قال الجوهري: الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم، والجمع الشعوب. وقال مجاهد: الشعوب البعيد من النسب، والقبائل دون ذلك. وقال قتادة: الشعوب النسب الأقرب. وقيل: إن الشعوب عرب اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة، ومضر، وسائر عدنان. وقيل: الشعوب بطون العجم، والقبائل بطون العرب. وحكى أبو عبيد أن الشعب أكثر من القبيلة، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، ثم العشيرة. ومما يؤيد ما قلناه الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر:

قبائل من شعوب ليس فيهم كريمة قديع ولا نجيب
قرأ الجمهور (لتعارفوا) بتخفيف التاء، وأصله: لتتعارفوا، فحذفت إحدى التائين. وقرأ البزري بتشديدها على الإدغام. وقرأ الأعمش بتأيين واللام متعلقة بخلقناكم أي: خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً. وقرأ ابن عباس (لتعرفوا) مضارع عرف. والفائدة في التعارف أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه، ولا يعتري إلى غيره. والمقصود من هذا أن الله سبحانه خلقهم كذلك؛ لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب، وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة، وهذا البطن أشرف من هذا البطن. ثم علل سبحانه ما يدل عليه الكلام من النهي عن التفاخر، فقال: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاتُكُمْ﴾ أي: إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى، فمن تلبس بها فهو المستحق؛ لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها، وأشرف وأفضل، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالانساب، فإن ذلك لا يوجب كرمًا، ولا يثبت شرفًا، ولا يقتضي فضلاً. قرأ الجمهور (إن أكرمكم) بكسر إن. وقرأ ابن عباس بفتحها أي: لأن أكرمكم ﴿إِنْ أَلَّفَكُمْ اللَّهُ﴾ بكل معلوم، ومن ذلك أعمالكم ﴿خَيْرٌ﴾ بما تسرون، وما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك خافية. ولما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند الله اتقاهم له، وكان أصل التقوى الإيمان نكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان؛ ليثبت لهم الشرف والفضل، فقال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ وهو بنو أسد أظهروا الإسلام في سنة مجدية يريون الصدقة، فأمر الله

الأربع، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والشيرازي في الألقاب، والطبراني، وابن السني في عمل يوم ليلة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي جبير بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان، أو ثلاثة، فكان إذا دعا واحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله إنه يكرهه، فنزلت: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: التتابع بالألقاب: أن يكون الرجل عمل السيئات، ثم تاب منها وراجع الحق، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في الآية قال: إذا كان الرجل يهودياً، فأسلم، فيقول: يا يهودي يا نصراني يا مجوسي، ويقول للرجل المسلم: يا فاسق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ أَجْمَعُ﴾ قال: نهى الله المؤمنين أن يظنّ بالمؤمن سوءاً. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظنّ، فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح، أو يترك». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ قال: نهى الله المؤمنين أن يتتبع عورات المؤمنين. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن زيد بن وهب قال: أتى ابن مسعود، فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال ابن مسعود: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذه. وقد رويت أحاديث في النهي عن تتبع عورات المسلمين، والتجسس عن عيوبهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُمُ بَعْضًا﴾ الآية قال: حرم الله أن يغتاب المؤمن بشيء، كما حرم الميتة. والأحاديث في تحريم الغيبة كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث.

يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣٦﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَزِمُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُبْغُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٧﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ بِرِسَالَتِهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ يَتُوءُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَتُوءُوا عَلَيَّ إِلَّا تَتُوءُوا عَلَيَّ إِنْ أَسْلَمْتُكُمْ بَلَى اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ

سبحانه رسوله ﷺ أن يردّ عليهم، فقال: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ أي: لم تصدقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب، وخلوص نية، وطمانينة ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسبي، أو للطمع في الصدقة، وهذه صفة المنافقين؛ لأنهم أسلموا في ظاهر الأمر، ولم تؤمن قلوبهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي: لم يكن ما أظهرتموه بالسننكم عن مواطاة قلوبكم، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح، ولا نية خالصة، والجملة إما مستأنفة لتقرير ما قبلها، أو في محل نصب على الحال، وفي «لما» معنى التوقع. قال الزجاج: الإسلام إظهار الخضوع، وقبول ما أتى به النبي ﷺ، وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب، فنلك الإيمان وصاحبه المؤمن. وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله: ﴿ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي: لم تصدّقوا، وإنما أسلمتم تعوذاً من القتل ﴿وإن طغيعوا الله ورسوله﴾ طاعة صحيح صادرة عن نيات خالصة، وقلوب مصدقة غير منافقة ﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ يقال لا يلت: إذا نقص، ولاته يليته ويلوته؛ إذا نقصه، والمعنى: لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً. قرأ الجمهور (يلتكم) من لاته يليته كباع يبيعه. وقرأ أبو عمرو (لا يالتكم) بالهمز من ألت يالت بالفتح في الماضي، والكسر في المضارع، واختار قراءة أبي عمرو، أبو حاتم لقوله: ﴿وما آلتناهم من عملهم من شيء﴾ [الطور: 21] وعليها قول الشاعر:

أبلغ بني أسد عني مغلفة جهر الرسالة لا ألتا ولا كذبا
واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور، وعليها قول روبة بن العجاج:

وليلة ذات ندى سرريت ولم يلتني عن سراها ليت

وهما لغتان فصيحتان ﴿إن الله غفور﴾ أي: بليغ المغفرة؛ لمن فرط منه ذنب ﴿رحيم﴾ بليغ الرحمة لهم. ثم لما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا، ولا دخل الإيمان في قلوبهم، بين المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم، فقال: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ يعني: إيماناً صحيحاً خالصاً عن مواطاة القلب واللسان ﴿ثم لم يرتابوا﴾ أي: لم يدخل قلوبهم شيء من الريب، ولا خالطهم شك من الشكوك ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي: في طاعته وابتغاء مرضاته، ويدخل في الجهاد الأعمال الصالحة التي أمر الله بها، فإنها من جملة ما يجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به ويؤتيه، كما أمر الله سبحانه، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الجامعين بين الأمور المذكورة، وهو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿هم الصادقون﴾ أي: الصادقون في الاتصاف بصفة الإيمان، والدخول في عداد أهله، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه، وأدعى أنه مؤمن، ولم يطمئن بالإيمان قلبه، ولا وصل إليه معناه، ولا عمل بأعمال أهله، وهم الأعراب الذين تقدّم ذكرهم، وسائر أهل النفاق. ثم أمر الله سبحانه رسوله

أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولاً آخر لما ادّعوا أنهم مؤمنون، فقال: ﴿قل تعلمون الله بينكم﴾ التعليم ما هنا بمعنى الإعلام، ولهذا نخلت الباء في بينكم أي: أخبرونه بذلك حيث قلت آمنا ﴿والله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ فكيف يخفى عليه بطلان ما تدّعون من الإيمان، والجملة في محل نصب على الحال من مفعول تعلمون ﴿والله بكل شيء عليم﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، وقد علم ما تبطنونه من الكفر، وتظهرونه من الإسلام؛ لخوف الضراء ورجاء النفع. ثم أخبر الله سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المنّ عليه منهم بما يدّعون من الإسلام فقال: ﴿يؤمنون عليك أن أسلموا﴾ أي: يعنون إسلامهم منّة عليك حيث قالوا: جفناك بالأنثقال والعيال، ولم نقاتك كما قاتك بنو فلان وبنو فلان ﴿قل لا تمضوا عليّ إسلامكم﴾ أي: لا تعنوه منّة عليّ، فإن الإسلام هو المنّة التي لا يطلب موليتها ثواباً لمن أنعم بها عليه، ولهذا قال: ﴿يل الله يمين عليكم أن هداكم للإيمان﴾ أي: أرشدكم إليه، وأراكم طريقه سواء وصلتكم إلى المطلوب أم لم تصلوا إليه، وانتصاب إسلامكم إما على أنه مفعول به على تضمين يؤمن معنى يعنون، أو بنزع الخافض أي: لأن أسلموا، وهكذا قوله: ﴿أن هداكم للإيمان﴾ فإنه يحتمل الوجهين ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تدّعون، والجواب محنوف يدلّ عليه ما قبله أي: إن كنتم صادقين، فله المنّة عليكم. قرأ الجمهور (أن هداكم) بفتح ان، وقرأ عاصم بكسرها ﴿إن الله يعلم غيب السموات والأرض﴾ أي: ما غاب فيهما ﴿والله بصير بما تعملون﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء، فهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشّرّ شراً. قرأ الجمهور (تعملون) على الخطاب، وقرأ ابن كثير على الغيبة.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقي بلال فأتى على الكعبة، فقال بعض الناس: أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة. وقال بعضهم: إن يسخط الله هذا بغيره، فنزلت: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج أبو داود في مراسيله، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن الزهري قال: أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوّجا أبا هند امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله، أنزّج بناتنا موالينا؟ فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ هي مكية، وهي للعرب خاصة الموالى أي: قبيلة لهم، وأي شعاب، وقوله: ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ فقال: اتقاكم للشرك. وأخرج البخاري، وابن جرير عن ابن عباس قال: الشعوب القبائل العظام، والقبائل البطون. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: الشعوب الجماع، والقبائل الافخاذ التي يتعارفون بها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً قال: القبائل الافخاذ، والشعوب الجمهور

يَوْمَ جَنَّتْ رَحَبَ الْمَجِيدِ ① وَالنَّحْلَ بِاسْقَنْتِ لَمَّا طَلَعَ نَضِيدُ ② رَزَقًا لِقَيْدًا وَأَحْيَا يَوْمَ بِلْدَةِ مَيْثَا كَذَلِكَ لَمْ يَوْجِ ③ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نَوْجٌ وَأَحْبَبُ الرِّقَى وَنَمُوهُ ④ وَهَادَ وَرَعَوَ وَارْحَوَ لَوْحُ ⑤ وَأَحْبَبُ الْآيَةِ قَوْمٌ يَبْجُ كُلُّ كَذَبٍ أَرْسَلَ عَنْ رَوَيْدٍ ⑥ أَتَيْنَا بِالْحَلَقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُرَ فِي لَيْسَ يَنْ حَلَقِي جَبِيرٍ ⑦

قوله: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ الكلام في إعراب هذا الكلام الذي قدّمنا في قوله: ﴿ق وَالْقُرْآنَ ذِي النُّكْرِ﴾ [ص: 1] وفي قوله: ﴿حَمَّ * وَالْكِتَابَ الْمُبِينِ﴾ [الرَّخْفَ، والدخان: 1] 2] واختلف في معنى ق، فقال الواحدي: قال المفسرون: هو اسم جبل يحيط بالنديا من زبرجد، والسماء مقببة عليه، وهو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة. قال الفراء: كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في ق لأنه اسم، وليس بهجاء. قال: ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كقول القائل: قلت لها قفي، فقالت: قاف، أي: أنا واقفة. وحكى الفراء، والزجاج: أن قوما قالوا: معنى ق: قضي الأمر، وقضي ما هو كائن، كما قيل في حم: حم الأمر. وقيل: هو اسم من أسماء الله اتقسم به. وقال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن. وقال الشعبي: فاتحة السورة. وقال أبو بكر الوراق معناه: قف عند أمرنا ونهينا ولا تعدهما، وقيل غير ذلك مما هو أضعف منه، والحق أنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، كما حققنا ذلك في فاتحة سورة البقرة، ومعنى المجيد: أنه ذو مجد وشرف على سائر الكتب المنزل. وقال الحسن: الكريم، وقيل: الرفيع القدر، وقيل: الكبير القدر، وجواب القسم قال الكوفيون: هو قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ وقال الاخفش: جوابه محذوف كأنه قال: ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ لتبعث، يدل عليه ﴿إِذَا مَتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ وقال ابن كيسان جوابه: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ [ق: 18] وقيل: هو ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ بتقدير اللام أي: لقد علمنا، وقيل: هو محذوف وتقديره أنزلناه إليك لتتذكر، كأنه قيل: ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ أنزلناه إليك؛ لتتذكر به الناس. قرأ الجمهور قاف بالسكون. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم بكسر الفاء. وقرأ عيسى الثقفي بفتح الفاء. وقرأ هارون، ومحمد بن السميع بالضم ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ أن جاءهم منذر منهم ﴿بَلْ لِلْإِضْرَابِ﴾ عن الجواب على اختلاف الأقوال، وأن في موضع نصب على تقدير: لأن جاءهم. والمعنى: بل عجب الكفار؛ لأن جاءهم منذر منهم، وهو محمد ﷺ، ولم يكتفوا بمجرد الشك والرد، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، وقيل: هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيداً، وقد تقدم تفسير هذا في سورة ص. ثم فسّر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، قال قتادة: عجبهم أن دعوا إلى إله واحد، وقيل: تعجبهم من البعث، فيكون لفظ «هذا» إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من قوله: ﴿إِذَا مَتْنَا﴾ إلخ، والأول أولى. قال الرازي: الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجيء المنذر،

مثل مضر. وأخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله اتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسالك، قال: فلكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسالك، قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم، قال: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. وقد وردت أحاديث في الصحيح، وغيره أن التقوى هي التي يتفاضل بها العباد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ قال: أعراب بني أسد، وخزيمة، وفي قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ مخافة القتل والسبي. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه قال السيوطي: بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى: أن ناساً من العرب قالوا: يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فانزل الله ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾. وأخرج النسائي، والبزار، وابن مريويه عن ابن عباس نحوه، وذكر أنهم بنو أسد.

تفسير سورة ق

وهي مكية كلها في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. وروي عن ابن عباس، وقاتدة أنها مكية إلا آية، وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: 38] وهي أول المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ق بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وقد أخرج مسلم، وغيره عن قطبة بن مالك قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر في الركعة الأولى ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [أي: سورة ق]». وأخرج أحمد، ومسلم، وأهل السنن عن أبي واقد الليثي قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد بقاف، و ﴿اقتربت﴾ [أي: سورة القمر]. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن ماجه، والبيهقي عن أم هشام ابنة حارثة قالت: ما أخذت ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ إلا من في رسول الله ﷺ، كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس، وهو في صحيح مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ① بَلْ عَجِبَرَأَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكَ لَوْزًا ذَاكَ رَجَعٌ بِيْعِدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَاطٌّ ④ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ⑤ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ⑥ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَاهَا فِي كُلِّ دَجٍّ رَاجِحٍ ⑦ بَصِيرَةً وَكَوْنٍ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ⑧ وَرَزَقْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا

الزجاج، وغيره. وقال قتادة: مختلف. وقال الحسن: ملتبس، والمعنى متقارب، وقيل: فاسد، والمعاني متقاربة، ومنه قولهم: مرجت أمانات الناس أي: فسدت، ومرج الدين، والأمر اختلط **﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾** الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم **﴿كيف بنيناها﴾**، وجعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه **﴿ووزيناها﴾** بما جعلنا فيها من المصابيح **﴿وما لها من فروج﴾** أي: فتوق وشقوق وصدوع، وهو جمع فرج، ومنه قول امرئ القيس: يسد به فرجاً من ببر

قال الكسائي: ليس فيها تفاوت، ولا اختلاف، ولا فتوق **﴿والأرض مدناها﴾** أي: بسطانها **﴿والقينا فيها رولسي﴾** أي: جبالاً ثوابت، وقد تقدم تفسير هذا في سورة الرعد **﴿وانبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾** أي: من كل صنف حسن، وقد تقدم تفسير هذا في سورة الحج **﴿تبصرة ونكري لكل عبد منيب﴾** هما علتان لما تقدم منتصبان بالفعل الأخير منها، أو بمقتضى أي: فعلنا ما فعلنا للتبصير والتذكير، قاله الزجاج. وقال أبو حاتم: انتصبا على المصدرية أي: جعلنا تلك تبصرة ونكري، والمنيب الراجع إلى الله بالتوبة المتدبر في بديع صنعه، وعجائب مخلوقاته. وفي سياق هذه الآيات تذكير لمنكري البعث، وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة، وبيان لإمكان ذلك وعدم امتناعه، فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه، وهكذا قوله: **﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا﴾** أي: نزلنا من السحاب ماء كثير البركة؛ لانتفاع الناس به في غالب أمورهم **﴿فانبتنا به جنات﴾** أي: انبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة **﴿وحب الحصيد﴾** أي: ما يقات ويحصد من الحبوب، والمعنى: وحب الزرع الحصيد، وخص الحب لأنه المقصود، كذا قال البصريون. وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه كمسجد الجامع، حكاة الفراء. قال الضحاك: حب الحصيد البر والشعير، وقيل: كل حب يحصد وينخر ويقتات **﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾** هو معطوف على جنات أي: وأنبتنا به النخل، وتخصيصها بالذكر مع دخولها في الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار، وانتصاب باسقات على الحال، وهي حال مقترنة؛ لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة. قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: الباسقات الطوال، وقال سعيد بن جبير: مستويات. وقال الحسن، وعكرمة، والفراء: مواقير حوامل، يقال للمشاة إذا بسقت: ولنت، والأشهر في لغة العرب الأول، يقال: بسقت النخلة بسوقاً: إذا طالت، ومنه قول الشاعر:

لناخمر وليست خمر كرم ولكن من نتاج الباسقات
كرام في السماء ذهب طولا وفات ثمارها أيدي الجنات
وجملة **﴿لها طلع نضيد﴾**: في محل نصب على الحال من النخل، الطلع هو أول ما يخرج من ثمر النخل، يقال: طلع الطلع طلوعاً، والنضيد المترابك الذي نضد بعضه على

ثم قالوا: **﴿إنذا متنا﴾** أيضاً قد وجدها هنا بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدي معنى التعجب، وهو قولهم: **﴿ذلك رجع بعيد﴾** فإنه استبعاد وهو كالتعجب، فلو كان التعجب بقولهم: **﴿هذا شيء عجيب﴾** عائداً إلى قولهم: إنذا لكان كالتكرار، فإن قيل: التكرار الصريح يلزم من قولك هذا شيء عجيب أنه يعود إلى مجيء المنذر، فإن تعجبهم منه علم من قولهم: وعجبوا أن جاءهم، فقوله: **﴿هذا شيء عجيب﴾** يكون تكراراً، فنقول ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير؛ لأنه لما قال: بل عجبوا بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجباً كقوله: **﴿أتعجبين من أمر الله﴾** [هود: 73] ويقال في العرف: لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب، فكانهم لما عجبوا قيل لهم: لا معنى لتعجبكم، فقالوا: **﴿هذا شيء عجيب﴾** فكيف لا تعجب منه، ويدل على ذلك قوله ها هنا: **﴿فقال الكافرون﴾** بالفاء، فإنها تدل على أنه مترتب على ما تقدم، قرا الجمهور (إنذا متنا) بالاستفهام. وقرا ابن عامر في رواية عنه، وأبو جعفر، والأعمش، والأعرج بهمزة واحدة، فيحتمل الاستفهام كقراءة الجمهور، وهمزة الاستفهام مقترنة، ويحتمل أن معناه الإخبار، والعامل في الظرف مقتر أي: أليبعثنا، أو أنرجع إذا متنا لدلالة ما بعده عليه، هذا على قراءة الجمهور، وأما على القراءة الثانية، فجواب إذا محذوف أي: رجعنا، وقيل: ذلك رجع، والمعنى: استنكارهم للبعث بعد موتهم ومصيرهم تراباً. ثم جزموا باستبعادهم للبعث، فقالوا: **﴿ذلك﴾** أي: البعث **﴿رجع بعيد﴾** أي: بعيد عن العقول، أو الأفهام، أو العادة، أو الإمكان، يقال: رجعت أرجعه رجعاً، ورجع هو يرجع رجوعاً. ثم رد سبحانه ما قالوه، فقال: **﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾** أي: ما تاكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء من ذلك، ومن أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور لا يصعب عليه البعث، ولا يستبعد منه، وقال السدي: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا من يموت منهم، ومن يبقى؛ لأن من مات دفن، فكان الأرض تنقص من الأموات، وقيل المعنى: من يخل في الإسلام من المشركين، والأول أولى **﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾** أي: حافظ لعدتهم وأسمائهم ولكل شيء من الأشياء، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: المراد بالكتاب هنا: العلم والإحصاء، والأول أولى. وقيل: حفيظ بمعنى محفوظ أي: محفوظ من الشياطين، أو محفوظ فيه كل شيء، ثم أضرب سبحانه عن كلامهم الأول وانتقل إلى ما هو أشنع منه فقال: **﴿بل كتبوا بالحق﴾** فإنه تصريح منهم بالتكذيب بعد ما تقدم عنهم من الاستبعاد، والمراد بالحق هنا: القرآن. قال الماوردي في قول الجميع، وقيل: هو الإسلام، وقيل: محمد، وقيل: النبوة الثابتة بالمعجزات **﴿لما جاءهم﴾** أي: وقت مجيئه إليهم من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر، قرا الجمهور بفتح اللام وتشديد الميم. وقرا الجندري بكسر اللام وتخفيف الميم **﴿فهم في أمر مريج﴾** أي: مختلط مضطرب، يقولون مرة ساحر، ومرة شاعر، ومرة كاهن، قاله

ثم خلق وراء ذلك جبلاً يقال له: قَ السَّمَاء الدنيا مرفرفة عليه، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها، ثم خلق وراء ذلك جبلاً يقال له: قاف السَّمَاء الثانية مرفرفة عليه، حتى عد سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجبل، وسبع سموات، قال: وذلك قوله: ﴿والبحر يمدد من بعده سبعة أبحر﴾ [لقمان: 27] قال ابن كثير: لا يصح سنده عن ابن عباس. وقال أيضاً: وفيه انقطاع. وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عنه أيضاً قال: هو جبل وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر تلك الجبل، فحرك تلك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها، فممن ثم يحرك القرية بون القرية. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿والقرآن المجيد﴾ قال: الكريم، وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: القرآن المجيد ليس شيء أحسن منه ولا أفضل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً و﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ قال: أجسادهم وما يذهب منها. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: ما تأكل من لحومهم وعظامهم وأشعارهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: المريج الشيء المتغير. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه عن قطبة قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في الصباح قَ، فلما أتى على هذه الآية: ﴿والنخل باسقات﴾ فجعلت أقول: ما يسوقها؟ قال: طولها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿والنخل باسقات﴾ قال: الطول. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لها طلع نضيد﴾ قال: متراكم ببعضه على بعض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿افعينا بالخلق الأول﴾ يقول: لم يعيننا بالخلق الأول، وفي قوله: ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾ في شك من البعث.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْأَرْدِ
 (١) إِذْ يَتَلَكَّى الْتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ﴿٧﴾ مَا يُلْقِيْنَ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ
 رِجْبٌ عَبْدٌ ﴿٨﴾ وَسَعَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَاكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَعِيدُ ﴿٩﴾ وَفِيهِ فِي
 الْمَوْتِ ذَاكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿١٥﴾ سَعَلَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَرَمِيدٌ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كُنْتَ
 فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَفَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا
 لَدَىٰ عَبْدٍ ﴿١٨﴾ أَلْيَا فِيْ جَهَنَّمَ كُلَّ صَفَّارٍ عَبْدٍ ﴿١٩﴾ مُتَّاعٍ لِلنَّعِيمِ مُتَّقٍ رَبٍّ ﴿٢٥﴾
 الَّذِي جَمَعَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَالْقِيَاءُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا
 أَفْتَيْتُمُوهُ وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّْ وَقَدْ كُنْتُمْ إِلَيَّ
 بِالْعَرِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبْدِلُ الْقَوْلَ لَنَا وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِلَّذِينَ هَلْ
 آمَنَّا بِكُمْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأَرْزَقْنِي الْجَنَّةَ الْخَالِدَةَ عَنِ عَمِيٍّ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا
 تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ آوَابٍ حَافِظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾
 ادْخُلُوا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخَالِقِينَ ﴿٣٤﴾ لَمْ يَأْتِكُمْ دِينًا وَبَدَّلْنَاهُ بِمَنْبِئٍ ﴿٣٥﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ

بعض، وذلك قبل أن يفتح فهو نصيد في اكمامه فإذا خرج من اكمامه، فليس بنصيد ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ انتصابه على المصدرية أي: رزقناهم رزقاً، أو على العلة أي: اثبتنا هذه الأشياء للرزق ﴿وَلَحْمِينَا بِهِ بِلَدَةِ مِيتَا﴾ أي: لحيننا بذلك الماء بلدة مجيبة لا ثمار فيها ولا زرع، وجملة ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذي أحيا الله به الأرض الميتة، قرأ الجمهور (ميتاً) على التخفيف، وقرأ أبو جعفر، وخالد بالتثنية. ثم نكر سبحانه الأمم المكذبة، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ هم قوم شعيب كما تقدّم بيانه، وقيل: هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى، وهم من قوم عيسى وقيل: هم أصحاب الأخدود. والرس: إما موضع نسبوا إليه، أو فعل، وهو حفر البئر، يقال رس: إذا حفر بئراً ﴿وَتُؤْمَدُ * وَعَادُ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿وَأَخْوَانَ لُوطَ﴾ جعلهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره، وقيل: هم من قوم إبراهيم، وكانوا من معارف لوط ﴿وَأَصْحَابُ الْاَيْكَةِ﴾ تقدّم الكلام على الايكة، واختلاف القراءة فيها في سورة الشعراء مستوفى، ونبيهم الذي بعثه الله إليهم شعيب ﴿وَقَوْمُ تَبِعَ﴾ هو تبع الحميري الذي تقدّم ذكره في قوله: ﴿أَمَّ خَيْرَ أُمَّ قَوْمِ تَبِعَ﴾ [البخا: 37] واسمه سعد أبو كرب، وقيل: أسعد؟ قال قتادة: نَمَّ الله قوم تبع، ولم ينمه ﴿كُلَّ كَذِبِ الرَّسْلِ﴾ التثنية عوض عن المضاف إليه أي: كل واحد من هؤلاء كذب رسوله الذي أرسله الله إليه، وكذب ما جاء به من الشرع، واللام في الرسل تكون للعهد، ويجوز أن تكون للجنس أي: كل طائفة من هذه الطوائف كذبت جميع الرسل، وإفراد الضمير في كذب باعتبار لفظ كل، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ، كأنه قيل له: لا تحزن، ولا تكثر غمك لتكذيب هؤلاء لك، فهذا شأن من تقدّمك من الأنبياء، فإن قومهم كذبوهم، ولم يصنّفهم إلا القليل منهم ﴿فَحق وَعِيدُ﴾ أي: وجب عليهم وعيدي، وحقّت عليهم كلمة العذاب، وحل بهم ما قرّره الله عليهم من الخسف، والمسح، والإهلاك بالأنواع التي أنزلها الله بهم من عذابه ﴿أَفَعِيبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الذي أنكرته الأمم أي: أفعجزنا بالخلق حين خلقناهم أولاً ولم يكونوا شيئاً، فكيف نعجز عن بعثهم، يقال: عيبت بالامر: إذا عجزت عنه، ولم أعرف وجهه. قرأ الجمهور بكسر الياء الأولى بعدها ياء ساكنة. وقرأ ابن أبي عبة بتشديد الياء من غير إشباع. ثم نكر أنهم في شك من البعث، فقال: ﴿يَهِلْ هُمْ فِي لِبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: في شك وحيرة واختلاط من خلق مستأنف، وهو بعث الأموات، ومعنى الإضراب: أنهم غير منكرين لقدرة الله على الخلق الأول ﴿يَهِلْ هُمْ فِي لِبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ﴾ قال: هو اسم من أسماء الله. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً،

أعمالهم محفوظة مكتوبة نكر بعده ما ينزل بهم من الموت، والمراد بسكرة الموت: شتته وغمرته التي تغشى الإنسان، وتغلب على عقله، ومعنى بالحق: أنه عند الموت يتضح له الحق، ويظهر له صلق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والوعد والوعيد، وقيل: الحق هو الموت، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير أي: وجاءت سكرة الحق بالموت، وكذا قرأ أبو بكر الصديق، وابن مسعود، والسكرة هي الحق، فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين، وقيل: الباء للملابسة كالتي في قوله: ﴿تَنْتَبِهُ بِالذَّهْنِ﴾ [المؤمنون: 20] أي: ملتبسة بالحق أي: بحقيقة الحال، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الموت، والحيد الميل أي: ذلك الموت الذي كنت تميل عنه، وتفَرَّ منه، يقال: حاد عن الشيء يحيد حيوداً، وحيدة وحيودة: مال عنه وعدل، ومنه قول طرفة:

أبو مننر رمت الوفاء فهبته وحت كما حاد البعير عن النحض
وقال الحسن: تحيد تهرب ﴿ونفخ في الصور﴾ عبَّر عنه بالماضي؛ لتحقيق وقوعه، وهذه هي النفخة الأخيرة للبعث ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ أي: ذلك الوقت الذي يكون فيه النفخ في الصور يوم الوعيد الذي أوعد الله به الكفار. قال مقاتل: يعني بالوعيد: العذاب في الآخرة، وخصَّص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعاً لتحويله ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها، ومن يشهد لها، أو عليها.

اختلف في السائق والشهيد، فقال الضحاك: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم يعني: الأيدي والأرجل. وقال الحسن، وقتادة: سائق يسوقها، وشاهد يشهد عليها بعملها، وقال ابن مسلم: السائق قرينها من الشياطين، سمي سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثها. وقال مجاهد: السائق والشهيد ملكان. وقيل: السائق الملك، والشهيد العمل، وقيل: السائق كاتب السيئات، والشهيد كاتب الحسنات، ومحل الجملة النصب على الحال ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي: يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا، والجملة في محل نصب على الحال من نفس، أو مستأنفة كأنه قيل: ما يقال له، قال الضحاك: المراد بهذا: المشركون لأنهم كانوا في غفلة من عواقب أمورهم. وقال ابن زيد: الخطاب للنبي ﷺ أي: لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة. وقال أكثر المفسرين: المراد به جميع الخلق برَّهم، وفاجرهم، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور بفتح التاء من (كنت)، وفتح الكاف في غطاءك، وبصرك حملاً على ما في لفظ كل من التذكير. وقرأ الجحدري، وطلحة بن مصرف بالكسر في الجميع على أن المراد النفس ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ الذي كان في الدنيا يعني: رفعنا الحجاب الذي كان بينك، وبين أمور الآخرة، ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك ﴿فَبَصُرَكَ الْيَوْمَ حَنِيدٌ﴾ أي: نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك في الدنيا. قال السدي: المراد بالغطاء أنه كان في بطن أمه فولد، وقيل: إنه كان في القبر فنشُر، والأول أولى. والبصر قيل: هو بصر

نفسه ﴿هذا كلام مبتدأ يتضمن نكر بعض القدرة الربانية، والمراد بالإنسان: الجنس، وقيل: آدم، والوسوسة هي في الأصل الصوت الخفي، والمراد بها هنا: ما يختلج في سره وقلبه وضميره أي: تعلم ما يخفي، ويكن في نفسه، ومن استعمال الوسوسة في الصوت الخفي قول الأعشى: تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت

فاستعمل لما خفي من حديث النفس ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هو حبل العاتق، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان من عن يمين وشمال. وقال الحسن: الوريد الودتين، وهو عرق معلق بالقلب، وهو تمثيل للقرب بقرب تلك العرق من الإنسان أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده، والإضافة بيانية أي: حبل هو الوريد. وقيل: الحبل هو نفس الوريد، فهو من باب مسجد الجامع. ثم نكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان، ويحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة فقال: ﴿إِذْ يَتْلَقَى الْمُتَلَقَيْنِ﴾ الظرف منتصب بما في ﴿أَقْرَبُ﴾ من معنى الفعل، ويجوز أن يكون منصوباً بمقتدر هو انكر، والمعنى: أنه أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان، وهما الملكان الموكلان به ما يلفظ به، وما يعمل به أي: يأخذان ذلك ويثبتانه، والتلقي الأخذ أي: نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحفظ الموكلين به، وإنما جعلنا ذلك إلزاماً للحجة، وتوكيداً للأمر. قال الحسن، وقتادة، ومجاهد: المتلقيان ملكان يتلقيان عملك أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. وقال مجاهد أيضاً: وكل الله بالإنسان ملكين بالليل، وملكين بالنهار يحفظان عمله، ويكتبان أثره ﴿عَنْ اليمين وعن الشمال قعيد﴾ إنما قال قعيد، ولم يقل قعيدان وهما اثنان؛ لأن المراد: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، كذا قال سيبويه كقول الشاعر: نحن بما عنينا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف وقول الفرزدق:

وأتى وكان وكنت غير عنور

أي: وكان غير عنور، وكنت غير عنور، وقال الأخفش، والفراء: إن لفظ قعيد يصلح للواحد والاثنتين والجمع ولا يحتاج إلى تقدير في الأول. قال الجوهري، وغيره من أئمة اللغة والنحو: فاعيل وفعل مما يستوي فيه الواحد والاثنتان والجمع، والقعيد المقاعد كالجليس بمعنى المجالس ﴿وَمَا يَلْفَظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لِنَبِيِّهِ رَقِيبٌ عَقِيدٌ﴾ أي: ما يتكلم من كلام، فيلفظه ويرميه من فيه إلا لنبيه أي: لدى ذلك اللافظ رقيب أي: ملك يرقب قوله ويكتبه، والرقيب: الحافظ المتتبع لأمر الإنسان الذي يكتب ما يقوله من خير وشر، فكتاب الخير هو ملك اليمين، وكتاب الشر ملك الشمال. والعقيد: الحاضر المهيأ. قال الجوهري: العقيد الحاضر المهيأ، يقال: عتده تعتيدياً واعتده اعتداداً أي: أعدّه، ومنه ﴿واعتدت لهن متكأ﴾ [يوسف: 31] والمراد هنا: أنه معد للكتابة مهيئ لها ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ لما بين سبحانه أن جميع

هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر؛ كأنه قيل: فماذا قال الله؟ فقيل: ﴿قال لا تختصموا لدي﴾ يعني: الكافرين وقرءاءهم، نهامهم سبحانه عن الاختصاص في موقف الحساب، وجملة ﴿وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن قد قدمت إليكم بالوعيد بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، والباء في ﴿بالوعيد﴾ مزيعة للتأكيد، أو على تضمين قَمَمَ معنى تَقَدَّمَ ﴿ما يبذل القول لدي﴾ أي: لا خلف لوعدي، بل هو كائن لا محالة، وقد قضيت عليكم بالعذاب، فلا تبديل له، وقيل: هذا القول هو قوله: ﴿ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثله﴾ [الأنعام: 160] وقيل: هو قوله: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [هود: 119] وقال الفراء، وابن قتيبة: معنى الآية: أنه ما يكذب عندي بزيادة في القول، ولا ينقص منه لعلمي بالغيب، وهو قول الكلبي. واختاره الواحدي، لأنه قال: ﴿لدي﴾ ولم يقل وما يبذل قلبي، والأول أولى. وقيل: إن مفعول قَمَمْتُ إليكم هو ما يبذل أي: وقد قدمت إليكم هذا القول ملتبساً بالوعيد، وهذا بعيد جداً ﴿وما لنا بظلام للعبيد﴾ أي: لا أعنبهم ظلماً بغير جرم اجترموه، ولا ننب اتنبوه. ولما كان نفي الظلام لا يستلزم نفي مجرد الظلم قيل: إنه هنا بمعنى الظالم كالتَّامَرُ بمعنى التامر. وقيل: إن صيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير نيب في معرض المبالغة في الظلم. وقيل: صيغة المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده، وظلام لعبيده، وقيل غير ذلك، وقد تقدّم الكلام على هذا في سورة آل عمران، وفي سورة الحج ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ قرأ الجمهور (نقول) بالنون، وقرأ نافع وأبو بكر بالياء، وقرأ الحسن (أقول). وقرأ الأعمش (يقال)، والعامر في الظرف ﴿ما يبذل القول لدي﴾، أو محذوف أي: انكر، أو أنذرهم، وهذا الكلام على طريقة التمثيل والتخييل، ولا سؤال ولا جواب، كذا قيل، والأولى أنه على طريقة التحقيق، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع. قال الواحدي: قال المفسرون: أراها الله تصديق قوله: ﴿لأملأن جهنم﴾ [هود: 119] فلما امتلأت قال لها: ﴿هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ أي: قد امتلأت ولم يبق في موضع لم يمتلئ، وبهذا قال عطاء، ومجاهد، ومقاتل بن سليمان. وقيل: إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة أي: إنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها. وقيل: إن المعنى أنها طلبت أن يزداد في سعتها؛ لتضايقها بأهلها، والمزيد إما مصدر كالمحيد، أو اسم مفعول كالمنيع، فالأول بمعنى هل من زيادة، والثاني بمعنى هل من شيء تزيوني به، ثم لما فرغ من بيان حال الكافرين شرع في بيان حال المؤمنين، فقال: ﴿وازيلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ أي: قربت للمتقين تقريباً غير بعيد، أو مكان غير بعيد منهم بحيث يشاهدونها في الموقف، وينظرون ما فيها مما لا عين رأت، ولا أدن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ويجوز أن يكون انتصاب

القلب، وقيل: بصر العين، وقال مجاهد: بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك، وبه قال الضحاک ﴿وقال قرينه هذا ما لدي عتيد﴾ أي قال الملك الموكل به: هذا ما عندي من كتاب عملك عتيد حاضر قد هيأته، كذا قال الحسن، وقتادة، والضحاک. وقال مجاهد: إن الملك يقول للرب سبحانه: هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته، وأحضرت ديوان عمله. وروي عنه أنه قال: إن قرينه من الشياطين يقول ذلك أي: هذا ما قد هيأته لك بإغوائتي وإضلالتي. وقال ابن زيد: إن المراد هنا قرينه من الإنس، وعتيد مرفوع على أنه صفة لما إن كانت موصوفة، وإن كانت موصولة فهو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿القياً في جهنم كل كفار عنيد﴾ هذا خطاب من الله عز وجل للسائق والشهيد. قال الزجاج: هذا أمر للملكين الموكلين به وهما السائق، والشاهد: كل كفار للنعم عنيد مجانب للإيمان ﴿متاع للخير﴾ لا يبذل خيراً ﴿معتد﴾ ظالم لا يقر بتوحيد الله ﴿مريب﴾ شك في الحق، من قولهم أرب الرجل: إذا صار ذا ريب. وقيل: هو خطاب للملكين من خزنة النار، وقيل: هو خطاب لواحد على تنزيل ثنية الفاعل منزلة ثنية الفعل وتكريره. قال الخليل، والأخفش: هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين يقولون: ارحلها وأزجرها وخذها وأطلقها للواحد. قال الفراء: العرب تقول للواحد: قوما عنا. وأصل ذلك أن أنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنين، فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك، ومنه قولهم للواحد في الشعر: خليلي كما قال امرؤ القيس:

خليلي مرأبي على أم جنبب نقض لبانات الفؤاد المعنب
وقوله:

قفانك من نكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وقول الآخر:

فإن تزجراني يابن عفان أنزجر وإن تدعواني لحم عرضاً ممنعا
قال المازني: قوله: ﴿القياً﴾ يدل على ألق الق. قال المبرد: هي ثنية على التوكيد، فتاب القيا مناب ألق الق. قال مجاهد، وعكرمة: العنيد المعاند للحق، وقيل: المعرض عن الحق، يقال: عند يعند بالكسر عنوداً: إذا خالف الحق ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾ يجوز أن يكون بدلاً من كل، أو منصوباً على الذم، أو بدلاً من كفار، أو مرفوعاً بالإبتداء، أو الخبر ﴿فالقياه في العذاب الشديد﴾ تأكيد للأمر الأول، أو بدل منه ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان ما يقوله القرين، والمراد بالقرين هنا: الشيطان الذي قبيض لهذا الكافر، انكر أن يكون أطفاه، ثم قال: ﴿ولوكن كان في ضلال بعيد﴾ أي: عن الحق فدعوته، فاستجاب لي، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه، وقيل: إن قرينه الملك الذي كان يكتب سيئاته، وإن الكافر يقول: رب إنه أعجلني فيجيبه بهذا، كذا قال مقاتل، وسعيد بن جبير، والأول أولى، وبه قال الجمهور، ﴿قال لا تختصموا لدي﴾

﴿غير بعيد﴾ على الحال. وقيل المعنى: أنها زينت قلوبهم في الدنيا بالترغيب والترهيب، فصارت قريبة من قلوبهم، والأول أولى. والإشارة بقوله: ﴿هَذَا مَا تَوْعَدُونَ﴾ إلى الجنة التي أزلت لهم على معنى: هذا الذي تروونه من فنون نعيمها ما توعدون، والجملة بتقدير القول: أي: ويقال لهم: هذا ما توعدون. قرأ الجمهور (توعدون) بالفوقية، وقرأ ابن كثير بالتحية ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٌ﴾ هو بدل من للمتقين بإعادة الخافض، أو متعلق بقول محذوف هو حال أي: مقولاً لهم لكل أَوَّابٍ، والأَوَّاب الرجاء إلى الله تعالى بالتوبة عن المعصية، وقيل: هو المسبح، وقيل: هو الذكر لله في الخلوة، قال الشعبي، ومجاهد: هو الذي ينكر ذنوبه في الخلوة، فيستغفر الله منها. وقال عبيد بن عمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله فيه، والحفيظ: هو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها. وقال قتادة: هو الحافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته، قاله مجاهد. وقيل: هو الحافظ لأمر الله. وقال الضحاك: هو الحافظ لوصية الله له بالقبول ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ الموصول في محل جر بدلاً، أو بياناً لكل أَوَّابٍ، وقيل: يجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من المتقين، وفيه نظر؛ لأنه لا يتكرر البذل والمبذل منه واحد، ويجوز أن يكون في محل رفع على الاستئناف، والخبر ادخلوها بتقدير يقال لهم: ادخلوها، والخشية بالغيب أن يخاف الله ولم يكن رآه. وقال الضحاك، والسدي: يعني: في الخلوة حيث لا يراه أحد. قال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب، وبالغيب متعلق بمحذوف هو حال، أو صفة لمصدر خشي ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي: راجع إلى الله مخلص لطاعته، وقيل: المنيب المقبل على الطاعة، وقيل: السليم ﴿ادْخُلُوهَا﴾ هو بتقدير القول أي: يقال لهم: ادخلوها، والجمع باعتبار معنى من أي: ادخلوا الجنة ﴿بِإِسْلَامٍ﴾ أي: بسلامة من العذاب. وقيل: بسلام من الله وملائكته، وقيل: بسلامة من زوال النعم، وهو متعلق بمحذوف هو حال أي: ملتبسين بسلام، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى زمن ذلك اليوم، كما قال أبو البقاء، وخبره ﴿يَوْمَ الْخُلُودِ﴾ وسماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له، بل هو دائم أبداً ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ما تشتهي أنفسهم، وتلذ أعينهم من فنون النعم وأنواع الخير ﴿وَلَدِينَا مَزِيدٌ﴾ من النعم التي لم تخطر لهم على بال، ولا مرت لهم في خيال.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «نزل الله من ابن آدم أربع منازل: هو اقرب إليه من حبل الوريد، وهو يحول بين المرء وقلبه، وهو أخذ بनावية كل دابة، وهو معهم أينما كانوا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ حَبِلَ لِلْوَرِيدِ﴾ قال: عروق العنق. وأخرج ابن المنذر عنه قال: هو نياط القلب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً، في قوله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لِنَبِيِّهِ رَقِيبٌ عْتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما

تكلم به من خير، أو شر حتى إنه ليكتب قوله: أكلت وشربت ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله، وعمله فأقر منه ما كان من خير أو شر وألقى سائرته، فلذلك قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: 39]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال: إنما يكتب للخير والشر، لا يكتب يا غلام اسرج الفرس يا غلام اسقني الماء. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به نفسها ما لم تعمل، أو تكلم». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، والحكيم الترمذي، وأبو نعيم، والبيهقي في الشعب عن عمرو بن نر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عند لسان كل قائل، فليتيق الله عبد، ولينظر ما يقول». وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً مثله. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، وابن عساکر عن عثمان بن عفان أنه قرأ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ قال: سائِق يسوقها إلى أمر الله، وشَهِيد يشهد عليها بما عملت. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة في الآية قال: السائق الملك، والشاهد العمل. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: السائق من الملائكة، والشاهد شاهد عليه من نفسه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ قال: هو الكافر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ قال: الحياة بعد الموت. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً، و ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ قال شيطانه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدُنِي﴾ قال: إنهم اعترضوا بغير عذر، فأبطل الله حجتهم، ورد عليهم قولهم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً، في قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾ قال: ما أنا بمعجز من لم يجترم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً، في قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ قال: وهل في من مكان يزاد في. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر، فيسكنهم في فضول الجنة». وأخرج أيضاً من حديث أبي هريرة نحوه، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٌ﴾ قال: حفظ ذنوبه حتى رجع عنها. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور عن أنس، في قوله: ﴿وَلَدِينَا مَزِيدٌ﴾ قال:

سمعتك إلي أي: استمع مني، والمعنى: أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحي الحاكي لما جرى على تلك الأمم. قرأ الجمهور (ألقى) مبنياً للفعل. وقرأ السلمي، وطلحة، والسدي على البناء للمفعول، ورفع السمع ﴿وهو شهيد﴾ أي: حاضر الفهم، أو حاضر القلب؛ لأن من لا يفهم في حكم الغائب وإن حضر بجسمه، فهو لم يحضر بفهمه. قال الزجاج: أي: وقلبه حاضر فيما يسمع. قال سفيان: أي: لا يكون حاضراً وقلبه غائب. قال مجاهد، وقتادة: هذه الآية في أهل الكتاب، وكذا قال الحسن. وقال محمد بن كعب، وأبو صالح: إنها في أهل القرآن خاصة ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف، وغيرها ﴿وما مسنا من لغوب﴾ اللغوب: التعب والإعياء، تقول: لغب يلغب بالضم لغوباً، قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: إن اليهود قالوا: خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، أولها الأحد وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، فأكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وما مسنا من لغوب﴾ فاصبر على ما يقولون ﴿هذه تسلية للنبي ﷺ وأمر لهم بالصبر على ما يقوله المشركون أي: هون عليك، ولا تحزن لقولهم، وتلق ما يرد عليك منه بالصبر﴾ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴿أي: نزه الله عما لا يليق بجناحه العالي ملتبساً بحمده وقت الفجر ووقت العصر، وقيل: المراد: صلاة الفجر وصلاة العصر، وقيل: الصلوات الخمس، وقيل: صل ركعتين قبل طلوع الشمس، وركعتين قبل غروبها، والأول أولى ﴿ومن الليل فسبحه﴾ من للتبعيض أي: سبحه بعض الليل، وقيل: هي صلاة الليل، وقيل: ركعتا الفجر، وقيل: صلاة العشاء، والأول أولى ﴿وابسبغ السجود﴾ أي: وسبغه أعقاب الصلوات. قرأ الجمهور (البار) بفتح الهمزة جمع دبر. وقرأ نافع، وابن كثير، وحزمة بكسرها على المصدر، من أدر الشيء إيداراً: إذا ولى، وقال جماعة من الصحابة والتابعين: إibar السجود الركعتان بعد المغرب، وإibar النجوم الركعتان قبل الفجر، وقد اتفق القراء السبعة في إibar النجوم أنه بكسر الهمزة، كما سيأتي ﴿واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب﴾ أي: استمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة: يوم ينادي المناد، وهو إسرافيل، أو جبريل، وقيل: استمع النداء، أو الصوت، أو الصيحة، وهي صيحة القيامة أعني: النفخة الثانية في الصور من إسرافيل، وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل ينادي أهل المحشر، ويقول: هلموا للحساب، فالنداء على هذا في المحشر، قال مقاتل: هو إسرافيل ينادي بالمحشر فيقول: يا أيها الناس هلموا للحساب ﴿من مكان قريب﴾ بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر. قال قتادة: كنا نحدث أنه ينادي من صخرة بيت المقدس. قال الكلبي: وهي أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً، وقال كعب: بثمانية عشر ميلاً ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ هو

يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة. وأخرج البيهقي في الروية، والديلمي عن علي في الآية قال: يتجلى لهم الرب عز وجل، وفي الباب أحاديث.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا بَنَاهُمْ مِنْ فَرْدٍ هُمْ أَنْدُ مِنْهُمْ طَغَا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ نَجِيٍّ ﴿١٦١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿١٦٢﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿١٦٣﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿١٦٥﴾ وَاسْتَغِمْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿١٦٦﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْقُرْءَانِ ﴿١٦٧﴾ إِنَّكَ مَعَهُ رَبُّهُ وَنُفِثَ وَإِنَّا لَمَعِيبٌ ﴿١٦٨﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿١٦٩﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَخَافُ وَيَعِيبُ ﴿١٧٠﴾

خوف سبحانه أهل مكة بما اتفق للقرون الماضية ﴿قبلهم﴾ أي: قبل قريش ومن وافقهم ﴿من قرن﴾ أي: من أمة ﴿هم أشد منهم بطشاً﴾ أي: قوة كعاد، وشمود، وغيرها ﴿فنفقوا في البلاد﴾ أي: ساروا وتقلبوا فيها وطافوا بقاعها وأصله من النقب، وهو الطريق. قال مجاهد: ضربوا وطاقوا. وقال النضر بن شميل: دُوروا، وقال المؤرج: تابعدوا. والأول أولى، ومنه قول امرئ القيس: وقد نقتبت في الأفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب ومنه قول الحارث بن حلزة:

نقبتوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كل مجال وقرأ ابن عباس، والحسن، وأبو العالية، وأبو عمرو في رواية (نقبوا) بفتح القاف مخففة، والنقب هو الخرق والطريق في الجبل، وكذا المنقب والمنقبة، كذا قال ابن السكيت، وجمع النقب نقوب. وقرأ السلمي، ويحيى بن يعمر بكسر القاف مشددة على الأمر للتهديد أي: طوفوا فيها وسيروا في جوانبها. وقرأ الباقر بن بفتح القاف مشددة على الماضي ﴿هل من محيص﴾ أي: هل لهم من مهرب يهربون إليه، أو مخلص يتخلصون به من العذاب. قال الزجاج: لم يروا محيصاً من الموت، والمحيص مصدر حاص عنه يحيص حيصاً وحيوصاً ومحيصاً ومحاصاً وحيصاناً أي: عدل وحاد، والجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم، وفي هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لا يجنون من الموت والعذاب مفراً ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ أي: فيما نذكر من قصتهم تنكرة وموعظة ﴿لمن كان له قلب﴾ أي: عقل. قال الفراء: وهذا جائز في العربية، تقول: ما لك قلب وما قلبك معك، أي: ما لك عقل وما عقلك معك، وقيل: المراد القلب نفسه؛ لأنه إذا كان سليماً أترك الحقائق وتفكر كما ينبغي. وقيل: لمن كان له حياة ونفس مميزة فعبر عن ذلك بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها، ومنه قول امرئ القيس:

أغرك مني أن حبيب قاتلي وأنتك مهما تأمري النفس تفعل ﴿أو ألقى السمع﴾ أي: استمع ما يقال له، يقال: ألقى

فإنها توصف بجميع ذلك؛ لأنها تنزو التراب، وتحمل السحاب، وتجري في الهواء، وتقسم الأمطار، وهو ضعيف جداً. وانتصاب أمراً على المفعول به، وقيل: على الحال أي: مأمورة، والأول أولى **﴿إنما توعدون لصديق﴾** هذا جواب القسم أي: إنما توعدون من الثواب والعقاب، لكأن لا محالة. **﴿وما﴾** يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف، وأن تكون مصدرية. ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها كونها أموراً بديعة مخالفة لمقتضى العادة، فمن قدر عليها، فهو قادر على البعث الموعود به **﴿والسماوات للحبك﴾** قرأ الجمهور (الحبك) بضم الحاء والباء، وقرأ بضم الحاء وسكون الباء، وبكسر الحاء وفتح الباء، وبكسر الحاء وضم الباء. قال ابن عطية: هي لغات، والمراد بالسماوات هنا: هي المعروفة، وقيل: المراد بها السحاب، والأول أولى.

واختلف المفسرون في تفسير الحبك؛ فقال مجاهد، وقتادة، والربيع، وغيرهم: المعنى ذات الخلق المستوي الحسن. قال ابن الأعرابي: كل شيء أحكمته وأحسنه عمله، فقد حبكته واحتبكته. وقال الحسن، وسعيد بن جبيرة: ذات الزينة. وروي عن الحسن أيضاً أنه قال: ذات النجوم. وقال الضحاک: ذات الطرائق، وبه قال الفراء. حبك. قال الفراء: الحبك الماء والرمل إذا أصابته الريح: حبك. قال الفراء: الحبك بكسر: كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة، والماء إذا مرت به الريح، ويقال لدرع الحديد: حبك، ومنه قول الشاعر:

كانما جلجلها الحواك طنفسة في وشيها حبك
أي: طرق، وقيل: الحبك الشدة، والمعنى: والسماوات ذات الشدة، والمحبوك الشديد الخلق من فرس أو غيره، ومنه قول الشاعر:

قد غدا يحملني في أنفه لاحق الأطلين محبوك ممر
وقول الآخر:

مرج الدين فاعسنت له مشرف الحارك محبوك الكند
قال الواحدي بعد حكاية القول الأول: هذا قول الأكثرين **﴿إنكم لفي قول مختلف﴾** هذا جواب القسم بالسماوات ذات الحبك أي: إنكم يا أهل مكة لفي قول مختلف متناقض في محمد ﷺ. بعضكم يقول: إنه شاعر. وبعضكم يقول: إنه ساحر، وبعضكم يقول: إنه مجنون. ووجه تخصيص القسم بالسماوات المتصفة بتلك الصفة تشبيه أقوالهم في اختلافها باختلاف طرائق السماء، واستعمال الحبك في الطرائق هو الذي عليه أهل اللغة، وإن كان الأكثر من المفسرين على خلافه. على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال في تفسير الحبك إلى هذا، وذلك بأن يقال: إن ما في السماء من الطرائق يصح أن يكون سبباً لمزيد حسننها، واستواء خلقها، وحصول الزينة فيها، ومزيد القوة لها. وقيل: إن المراد بكونهم في قول مختلف أن بعضهم ينفي الحشر، وبعضهم يشك فيه، وقيل: كونهم يقرّون أن الله خالقهم، ويعبدون الأصنام **﴿يؤفك عنه من أفك﴾** أي: يصرف عن الإيمان برسول الله

﴿وما جاء به، أو عن الحق، وهو البعث والتوحيد من صرف. وقيل: يصرف عن ذلك الاختلاف من صرفه الله عنه بالعصمة والتوفيق، يقال: أفك يافكه إفكاً أي: قلبه عن الشيء وصرفه عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا اجثثنا لتأفكنا﴾ [الأحقاف: 22] وقال مجاهد: يؤفك عنه من أفن، والأفن فساد العقل، وقيل: يحرمه من حرم. وقال قطرب: يجده عنه من جدع. وقال اليزيدي: يدفع عنه من دفع **﴿قتل الخراصون﴾** هذا دعاء عليهم. وحكى الواحدي عن المفسرين جميعاً أن المعنى: لعن الكذابين. قال ابن الأنباري: والقتل إذا أخبر به عن الله كأن بمعنى اللعن؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك. قال الفراء: معنى قتل لعن. والخراصون الكذابين الذين يتخرصون فيما لا يعلمون، فيقولون: إن محمداً مجنون كذاب شاعر ساحر. قال الزجاج: الخراصون هم الكذابين، والخرص: حزر ما على النخل من الرطب ترمأ، والخراص: الذي يخرصها، وليس هو المراد هنا، ثم قال: **﴿الذين هم في غمرة ساهون﴾** أي: في غفلة، وعمى جهالة عن أمور الآخرة، ومعنى ساهون: لاهون غافلون، والسهو: الغفلة عن الشيء وذهابه عن القلب، وأصل الغمرة ما ستر الشيء وغطاه، ومنها غمرات الموت **﴿يسألون إيان يوم الدين﴾** أي: يقولون متى يوم الجزاء تكتيباً منهم واستهزاء، ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم، فقال: **﴿يوم هم على النار يفتنون﴾** أي: يحرقون ويعذبون، يقال: فتنت الذهب: إذا أحرقت لتختبره، وأصل الفتنة الاختبار. قال عكرمة: ألم تر أن الذهب إذا أدخل النار قيل: فتن. وانتصاب يوم بمضمر أي: الجزاء يوم هم على النار، ويجوز أن يكون بدلاً من يوم الدين، والفتح للبناء لكونه مضافاً إلى الجملة، وقيل: هو منصوب بتقدير أعني. وقرأ ابن أبي عبيدة برفع (يوم) على البدل من يوم الدين، وجملة **﴿نوقوا فتنتكم﴾** هي بتقدير القول أي: يقال لهم: نوقوا عذابكم، قاله ابن زيد. وقال مجاهد: حريقكم، ورجع الأول الفراء، وجملة: **﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾** من جملة ما هو محكي بالقول أي: هذا ما كنتم تطلبون تعجيله استهزاء منكم، وقيل: هي بدل من فتنتكم **﴿إن للمتقين في جنات وعيون﴾** لما ذكر سبحانه حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة أي: هم في بستانين فيها عيون جارية لا يبلغ وصفها الواسفون **﴿أخنين ما آتاهم ربهم﴾** أي: قائلين ما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة. وجملة: **﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾** تعليل لما قبلها أي: لأنهم كانوا في الدنيا محسنين في أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به، وترك ما نهوا عنه. ثم بين إحسانهم الذي وصفهم به، فقال: **﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾** الهجوع: النوم بالليل دون النهار، والمعنى: كانوا قليلاً ما ينامون من الليل، وما زائدة، ويجوز أن تكون مصدرية، أو موصولة أي: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه، ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت:

الرَّسَل، فإنه خلقهم نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظمًا إلى أن ينفخ فيه الروح. ثم تختلف بعد ذلك صورهم والوانهم وطبائعهم والسننهم، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم ودم، وعظم وأعضاء، وحواس ومجاري ومنافس. ومعنى ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾: أفلا تنظرون بعين البصيرة، فتستلون بذلك على الخالق الرَّازِق المتفرد بالالوهية، وأنه لا شريك له ولا ضد ولا ند، وأن وعده الحق، وقوله الحق، وأن ما جاءت إليكم به رسله هو الحق الذي لا شك فيه، ولا شبهة تعتريه. وقيل: المراد بالأنفس: الأرواح أي: وفي نفوسكم التي بها حياتكم آيات ﴿وفي السماء رزقكم﴾ أي: سبب رزقكم، وهو المطر، فإنه سبب الأرزاق. قال سعيد بن جبير، والضحاك: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج. وقيل: المراد بالسماء السحاب أي: وفي السحاب رزقكم، وقيل: المراد بالسماء المطر، وسماء سماء؛ لأنه ينزل من جهتها، ومنه قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
وقال ابن كيسان: يعني: وعلى رب السماء رزقكم، قال: ونظيره: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود: 6] وهو بعيد. وقال سفيان الثوري: أي: عند الله في السماء رزقكم. وقيل المعنى: وفي السماء تقدير رزقكم. قرأ الجمهور (رزقكم) بالإنفراد، وقرأ يعقوب، وابن محيصن، ومجاهد (أرزاقكم) بالجمع ﴿وما توعدون﴾ من الجنة والنار، قاله مجاهد. قال عطاء: من الثواب والعقاب، وقال الكلبي: من الخير والشر، قال ابن سيرين: ما توعدون من أمر الساعة، وبه قال الربيع. والأولى الحمل على ما هو أعم من هذه الأقوال، فإن جزاء الأعمال مكتوب في السماء، والقضاء والقدر ينزل منها، والجنة والنار فيها. ثم أقسم سبحانه بنفسه، فقال: ﴿فَوربِّ السماء والأرض إنه لحق﴾ أي: ما أخبركم به في هذه الآيات. قال الزجاج: هو ما ذكر من أمر الرزق والآيات. قال الكلبي: يعني: ما قص في الكتاب. وقال مقاتل: يعني: من أمر الساعة. وقيل: إن ﴿ما﴾ في قوله ﴿وما توعدون﴾ مبتدأ، وخبره ﴿فوربِّ السماء والأرض إنه لحق﴾، فيكون الضمير لما. ثم قال سبحانه: ﴿مثل ما أنكم تنطقون﴾ قرأ الجمهور بنصب (مثل) على تقدير: كمثل نطقكم وما زائدة، كذا قال بعض الكوفيين إنه منصوب بنزع الخافض. وقال الزجاج، والفراء: يجوز أن ينصب على التوكيد أي: لحق حقًا مثل نطقكم. وقال المازني: إن «مثل» مع «ما» بمنزلة شيء واحد فبني على الفتح. وقال سيبويه: هو مبني لإضافته إلى غير متمكن، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، والأعشى (مثل) بالرفع على أنه صفة لحق لأن مثل نكرة وإن أضيفت، فهي لا تتعرف بالإضافة كغير. ورجح قول المازني أبو علي الفارسي قال: ومثله قول حميد:

وويحاً لمن لم يتر ما هن ربيحما

فبني ويح مع ما ولم يلحقه التثنية، ومعنى الآية تشبيه

قد حصلت البيضة رأسي فما أطعم نوماً غير تهجاء
والتهجاء: القليل من النوم، ومن ذلك قول عمرو بن معدى كرب.

أمن ربحانة الداعي السميع يهيجني وأصحابي هجوع
وقيل: ما نافية أي: ما كانوا ينامون قليلاً من الليل، فكيف بالكثير منه، وهذا ضعيف جداً. وهذا قول من قال: إن المعنى كان عددهم قليلاً. ثم ابتداء فقال: ﴿ما يهجعون﴾ وبه قال ابن الأنباري، وهو أضعف مما قبله. وقال قتادة في تفسير هذه الآية: كانوا يصلون بين العشاءين، وبه قال أبو العالية، وابن وهب ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ أي: يطلبون في أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم. قال الحسن: منوا الصلاة إلى الأسحار. ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار. وقال الكلبي، ومقاتل، ومجاهد: هم بالأسحار يصلون، وذلك أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة. وقال الضحاك: هي صلاة الفجر. ثم نكر سبحانه صدقاتهم فقال: ﴿والذين في أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ أي: يجعلون في أموالهم على أنفسهم حقاً للسائل والمحروم تقريباً إلى الله عز وجل. وقال محمد بن سيرين، وقاتل: الحق هنا الزكاة المفروضة، والأول أولى، فيحمل على صدقة النفل، وصلة الرحم، وقري الضيف؛ لأن السورة مكية، والزكاة لم تفرض إلا بالمدينة، وسيأتي في سورة سائل: ﴿وفي أموالهم حق معلوم﴾ للسائل والمحروم [المعارج: 24، 25] بزيادة معلوم، والسائل هو الذي يسأل الناس لفاقة.

واختلف في تفسير المحروم، فقيل: هو الذي يتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنياً، فلا يتصدقون عليه، وبه قال قتادة، والزهري، وقال الحسن، ومحمد ابن الحنفية: هو الذي لا سهم له في الغنيمة، ولا يجري عليه من الفداء شيء. وقال زيد بن أسلم: هو الذي أصيب ثمره، أو زرعه، أو ماشيته. قال القرطبي: هو الذي أصابته الجائحة. وقيل: الذي لا يكتسب. وقيل: هو الذي لا يجد غنى يغنيه، وقيل: هو الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه. وقيل: هو المملوك. وقيل: الكلب. وقيل غير ذلك. قال الشعبي: لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم، فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ، والذي ينبغي التعويل عليه ما يدل عليه المعنى اللغوي، والمحروم في اللغة الممنوع من الحرمان وهو المنع، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل، ومن أصيب ماله بجائحة أذهبت، ومن حرم العطاء، ومن حرم الصدقة لتعففه. ثم نكر سبحانه ما نصبه من الدلائل الدالة على توحيد، وصلح وعده ووعيده، فقال: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ أي: دلائل واضحة، وعلامات ظاهرة من الجبال والبر والبحر والأشجار والأنهار والثمار، وفيها آثار الهلاك للآدم الكافرة المكينة لما جاءت به رسل الله ودعتهم إليه، وخص الموقنين بالله لأنهم الذين يعترفون بذلك ويتدبرون فيه، فينتفعون به ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ أي: وفي أنفسكم آيات تدل على توحيد الله وصدق ما جاءت به

تحقيق ما أخبر الله عنه بتحقيق نطق الأنبياء ووجوده، وهذا كما تقول: إنه لحق كما أنك ما هنا، وإنه لحق كما أنك تتكلم، والمعنى: أنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، والدارقطني في الأفراد، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَالذَّارِيَاتُ ذُرُوءًا﴾ قال: الرياح ﴿فَالْحَامِلَاتُ وِقْرًا﴾ قال: السحاب ﴿فَالْجَارِيَاتُ يُسْرًا﴾ قال: السفن ﴿فَالْمَقْسِمَاتُ أَمْرًا﴾ قال: الملائكة. وأخرج البزار، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه، وابن عساكر عن عمر بن الخطاب مثله، ورفعته إلى رسول الله ﷺ، وفي إسناده أبو بكر بن سبرة، وهو لين الحديث، وسعيد بن سلام، وليس من أصحاب الحديث، كذا قال البزار. قال ابن كثير: فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر. وأخرج الفريابي، وابن مردويه عن ابن عباس مثل قول علي. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْحُبُكِ﴾ قال: حسننها واستواؤها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عنه في الآية قال: ذات البهاء والجمال، وإن بنيانها كالبرد المسلسل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: ذات الخلق الحسن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن منيع عن علي قال: هي السماء السابعة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ﴾ قال: يضل عنه من ضل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿قَتْلُ الْفَرَاصِدِ﴾ قال: لعن المرتابون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هم الكهنة ﴿الْبَيْنِ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال: في غفلة لاهون. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الغمرة الكفر والشك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: في ضلالتهم يتمامون، وفي قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قال: يعذبون. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في قوله: ﴿أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَيْبُهُمْ﴾ قال: الفرائض ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ قال: قبل أن تنزل الفرائض يعملون. وأخرج هؤلاء أيضاً، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الاستيعاب، والصفات عنه أيضاً ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ قال: ما تأتي عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها. وأخرج ابن نصر، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في الآية يقول: قليلاً ما كانوا ينامون. وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أنس في الآية قال: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عمر ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ

يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: يصلون. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ قال: سوى الزكاة يصل بها رحماً، أو يقري بها ضيفاً، أو يعين بها محروماً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: السائل الذي يسأل الناس، والمحروم الذي ليس له سهم من فيء المسلمين. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: المحروم هو المحارف الذي يطلب الدنيا وتبذره عنه، ولا يسأل الناس، فأمر الله المؤمنين برفده. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في الآية قالت: هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. وأخرج الترمذي، والبيهقي في سننه عن فاطمة بنت قيس، «أنها سألت النبي ﷺ عن هذه الآية قال: إن في المال حقاً سوى الزكاة، وتلا هذه الآية ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامُ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 177]. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن الزبير في قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال: سبيل الغايط والبول.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴿١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢﴾ فَأَنَّ لَكَ أَعْلَى فَجَاءَ بِعَبْلِ سِينَ ﴿٣﴾ فَفَرَّغَهُ إِتْمَامًا قَالَ أَلَا نَأْكُلُ ﴿٤﴾ فَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا نَحْفَ وَنَشْرُو بِعَلْمِ كَلْبٍ ﴿٥﴾ فَأَقْبَرِ أَرْثَهُ فِي صَرَّرَ فَصَكَتَ رَحْمَةً وَقَاتَ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٦﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾ ﴿٨﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٩﴾ قَالُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِنْ قَوْمٌ مُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾ لِتَرْبِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ ﴿١١﴾ مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلشَّرِّينَ ﴿١٢﴾ فَأَنْفَرَحْنَا مِنْ كَانِ يَهْدِي مِنَ الْغُورِيِّينَ ﴿١٣﴾ فَا رَمَدًا يَهْدِي غَيْرَ بَيْنٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٤﴾ وَرَزَّكَانَا يَهَايَةَ الْغَايَةِ يُخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٥﴾

قوله: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ ذكر سبحانه قصة إبراهيم: ليبين أنه أهلك بسبب التكذيب من أهلك. وفي الاستفهام تنبيه على أن هذا الحديث ليس مما قد علم به رسول الله ﷺ، وأنه إنما علمه بطريق الوحي. وقيل: إن هل بمعنى قد، كما في قوله: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ [الإنسان: 1] والضيف مصدر يطلق على الواحد والاثنتين والجماعة، وقد تقدم الكلام على قصة ضيف إبراهيم في سورة هود، وسورة الحجر، والمراد بكونهم مكرمين: أنهم مكرمون عند الله سبحانه؛ لأنهم ملائكة جاءوا إليه في صورة بني آدم، كما قال تعالى في وصفهم في آية أخرى: ﴿هَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: 26] وقيل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل. وقال مقاتل، ومجاهد: أكرمهم إبراهيم وأحسن إليهم وقام على رؤوسهم، وكان لا يقوم على رؤوس الضيف، وأمر امرأته أن تخدمهم. وقال الكلبي: أكرمهم بالعجل ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ العامل في الظرف حديث أي: هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه، أو العامل فيه ضيف لأنه مصدر، أو العامل فيه المكرمين، أو العامل فيه فعل مضمر أي: أنكر ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: نسلم عليك

والصيحة، والصرّة: الجماعة، والصرّة: الشدة من كرب أو غيره، والمعنى: أنها أقبلت في صيحة، أو في ضجة، أو في جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة، ومن هذا قول امرئ القيس:

فألحقه بالهيايات وبونه جراجرها في صرّة لم تزيل
وقوله: ﴿ففي صرّة﴾ في محل نصب على الحال
﴿فصكت وجهها﴾ أي: ضربت بيدها على وجهها، كما جرت
بذلك عادة النساء عند التعجب. قال مقاتل، والكلبي: جمعت
أصابعها، فضربت جبينها تعجباً. ومعنى الصك: ضرب
الشيء بالشيء العريض، يقال: صكه أي: ضربه. وقالت
عجوز عقيم: أي: كيف ألد وأنا عجوز عقيم. استبعت ذلك
لكبر سنّها؛ ولكونها عقيماً لا تلد. ﴿قالوا كذلك قال ربك﴾
أي: كما قلنا لك وأخبرناك قال ربك، فلا تشكي في ذلك ولا
تعجبي منه، فإن ما أراه الله كائن لا محالة، ولم نقل ذلك
من جهة أنفسنا، وقد كانت إذ ذاك بنت تسع وتسعين سنة،
وإبراهيم ابن مائة سنة، وقد سبق بيان هذا مستوفى،
وجملة: ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ تعليل لما قبلها أي:
حكيم في أفعاله وأقواله، عليم بكل شيء، وجملة: ﴿قال فما
خطبكم أيها المرسلون﴾ مستأنفة جواباً عن سؤال مقتر،
كانه قيل: فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة؟
والخطب الشأن والقصة، والمعنى: فما شأنكم وما قصتكم
أيها المرسلون من جهة الله، وما ذاك الأمر الذي لأجله
أرسلكم سوى هذه البشارة؟ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم
مجرمين﴾ يريون قوم لوط ﴿لنرسل عليهم حجارة من
طين﴾ أي: لنرجمهم بحجارة من طين متحجر، وانتصاب
﴿مسومة﴾ على الصفة لحجارة، أو على الحال في الضمير
المستكن في الجار والمجرور، أو من الحجارة: لكونها قد
وصفت بالحجار والمجرور، ومعنى ﴿مسومة﴾: معلمة
بعلامات تعرف بها، قيل: كانت مخططة بسواد وبياض، وقيل:
بسواد وحمرة، وقيل: معروفة بأنها حجارة العذاب، وقيل:
مكتوب على كل حجر من يهلك بها، وقوله: ﴿عند ربك﴾
ظرف لمسومة أي: معلمة عنده ﴿للمسرفين﴾ المتمايين في
الضلالة المجاوزين الحد في الفجور. وقال مقاتل: للمشركين،
والشرك أسرف الذنوب وأعظمها ﴿فأخرجنا من كان فيها
من المؤمنين﴾ هذا كلام من جهة الله سبحانه أي: لما أردنا
إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قري قوم لوط من قومه
المؤمنين به ﴿فما وجئنا فيها غير بيت من المسلمين﴾
أي: غير أهل بيت. يقال: بيت شريف ويراد به أهله، قيل:
وهم أهل بيت لوط، والإسلام: الانقياد والاستسلام لأمر الله
سبحانه، فكل مؤمن مسلم، ومن ذلك قوله: ﴿قالت الأعراب
أما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ [الحجرات: 14] وقد
أوضح الفرق رسول الله ﷺ بين الإسلام، والإيمان في
الحديث في الصحيحين، وغيرهما الثابت من طرق أنه سئل
عن الإسلام، فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وتقيم الصلاة،
وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان»، وسئل عن

سلاماً ﴿قال سلام﴾ أي: قال إبراهيم سلام. قرأ الجمهور
بنصب (سلاماً) الأول، ورفع الثاني فنصب الأول على
المصدرية بتقدير الفعل كما ذكرنا، والمراد به التحية،
ويحتمل أن يكون المعنى: فقالوا كلاماً حسناً؛ لأنه كلام سلم
به المتكلم من أن يلغو، فيكون على هذا مفعولاً به. وأما
الثاني: فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر أي: عليكم سلام،
وعدل به إلى الرفع لقصد إفادة الجملة الاسمية للدوام
والثبات، بخلاف الفعلية فإنها لمجرد التجدد والحدوث، ولهذا
قال أهل المعاني: إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة،
وقرئ بالرفع في الموضعين، وقرئ بالنصب فيهما. وقرأ
أهل الكوفة إلا عاصماً بكسر السين، وقرئ (سلم) فيهما،
﴿قوم منكرون﴾ ارتفاع قوم على أنه خبر مبتدأ محذوف
أي: أنتم قوم منكرون. قيل: إنه قال هذا في نفسه ولم
يخاطبهم به؛ لأن ذلك يخالف الإكرام. قيل: إنه أنكرهم
لكونهم ابتدءوا بالسلام، ولم يكن ذلك معهوداً عند قومه،
وقيل: لأنه رأى فيهم ما يخالف بعض الصور البشرية، وقيل:
لأنه رآهم على غير صورة الملائكة الذين يعرفهم، وقيل غير
ذلك ﴿فراغ إلى أهله﴾ قال الزجاج: أي: عدل إلى أهله،
وقيل: ذهب إليهم في خفية من ضيوفه، والمعنى متقارب
وقد تقدم تفسيره في سورة الصافات. يقال: راغ وأراغ إلى كذا: مال
بمعنى طلب، وماذا يريغ أي: يريد ويطلب، وأراغ إلى كذا: مال
إليه سرّاً وحاد ﴿فجاء بعجل سمين﴾ أي: فجاء ضيفه
بعجل قد شواه لهم، كما في سورة هود ﴿بعجل حنيذ﴾
[هود: 69] وفي الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة أي:
فذبح عجلاً فحنّذه فجاء به ﴿فقرّبه إليهم﴾ أي: قرّب العجل
إليهم ووضع بين أيديهم ﴿فقال ألا تاكلون﴾ الاستفهام
لإنكار، وذلك أنه لما قرّبه إليهم لم ياكلوا منه. قال في
الصحاح: العجل ولد البقر والعجول مثله، والجمع العجاجيل،
والأنثى عجلة، وقيل: العجل في بعض اللغات الشاة
﴿فأوجس منهم خيفة﴾ أي: أحسّ في نفسه خوفاً منهم لما
لم ياكلوا مما قرّبه إليهم. وقيل: معنى أوجس أضمر، وإنما
وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه. ومن لخلق الناس أن
من أكل من طعام إنسان صار آمناً منه، فظن إبراهيم أنهم
جاءوا للشر، ولم يأتوا للخير. وقيل: إنه وقع في قلبه أنهم
ملائكة، فلما رآوا ما ظهر عليه من أمارات الخوف ﴿قالوا لا
تخف﴾ وأعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة الله
سبحانه ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ أي: بشروه بغلام يولد له
كثير العلم عند أن يبلغ مبالغ الرجال، والمبشر به عند
الجمهور هو إسحاق. وقال مجاهد وحده: إنه إسماعيل، وهو
مردود بقوله: ﴿وبشرناه بإسحاق﴾ [الصافات: 112] وقد
قمنا تحقيق هذا المقام بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره
﴿فأقبلت امرأته في صرّة﴾ لم يكن هذا الإقبال من مكان
إلى مكان، وإنما هو كقولك: أقبل يشتمني أي: أخذ في
شتمي، كذا قال الفراء، وغيره. والصرّة: الصيحة والضجة،
وقيل: الجماعة من الناس. قال الجوهري: الصرّة: الضجة

يكون متعلقاً بجعلنا مقدرًا لدلالة «وتركنا عليه» قيل: ويجوز أن يعطف على «وتركنا» [الذاريات: 37] على طريقة قول القائل:

علفتها تبناً وماء بارداً

والتقدير: وتركنا فيها آية، وجعلنا في موسى آية. قال أبو حيان: ولا حاجة إلى إضمار، وجعلنا لأنه قد أمكن أن يكون العامل في المجزوء، وتركنا. والوجه الأول هو الأول، وما عداه متكلف متعسف لم تلجئ إليه حاجة، ولا دعت إليه ضرورة [إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين] الظرف متعلق بمحذوف هو نعت لآية أي: كائنة وقت أرسلناه، أو بآية نفسها، والأول أولى. والسلطان المبين: الحجة الظاهرة الواضحة، وهي العصا، وما معها من الآيات «فتولى بركته» التولي: الإعراض، والركن: الجانب، قاله الأخفش. والمعنى: أعرض بجانبه، كما في قوله: «أعرض ونأى بجانبه» [الإسراء: 83] قال الجوهري: ركن الشيء جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد أي: عزّ ومنعة. وقال ابن زيد، ومجاهد، وغيرهما: الركن جمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم، ومنه قوله تعالى: «أو آوي إلى ركن شديد» [هود: 80] أي: عشيرة ومنعة، وقيل: الركن: نفس القوة، وبه قال قتادة وغيره، ومنه قول عنترة:

فما أوى مراس الحرب ركني ولكن ما تقادم من زماني
«وقال ساحر أو مجنون» أي: قال فرعون في حق موسى: هو ساحر، أو مجنون، فردد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحراً، أو مجنوناً، وهذا من اللعين مغالطة وإيهام لقومه، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسر على يد ساحر، ولا يفعله من به جنون. وقيل: إن أو بمعنى الواو؛ لأنه قد قال ذلك جميعاً ولم يتردد، قاله المؤرج، والفراء، كقوله: «ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً» [الإنسان: 24] «فلحنناهم وجنوده فلبثناهم في اليم» أي: طرحناهم في البحر، وجملة: «وهو مليك» في محل نصب على الحال أي: أت بما يلام عليه حين ادعى الربوبية، وكفر بالله وطفى في عصيانه «وفي عاد» أي: وتركنا في قصة عاد آية [إذ أرسلنا عليهم للريح العقيم] وهي التي لا خير فيها ولا بركة، لا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً، إنما هي ريح الإهلاك والعذاب. ثم وصف سبحانه هذه الريح فقال: «وما تذر من شيء أثت عليه إلا جعلته كالرميم» أي: ما تذر من شيء مَرَّت عليه من أنفسهم، وأنعامهم، وأموالهم إلا جعلته كالشيء الهالك البالي. قال الشاعر:

تركتني حين كف الدهر من بصري وإذ بقيت كعظم الرمة البالي
وقال قتادة: إنه الذي ديس من يابس النبات، وقال السدي، وأبو العالية: إنه التراب المدقوق، وقال قطرب: إنه الرماد، وأصل الكلمة من رمّ العظم: إذا بلي فهو رميم، والرمة: العظام البالية «وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين» أي: وتركنا في قصة ثمود آية وقت قلنا لهم: عيشوا متمتعين بالدنيا إلى حين وقت الهلاك، وهو ثلاثة أيام، كما في قوله:

الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله، وملأته وكتبه ورسله، والقدر خير به وشراً»، فالمرجع في الفرق بينهما هو هذا الذي قاله الصابق المصدق، ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم في رسم كل واحد منهما برسم مضطربة مختلفة مختلفة متناقضة، وأما ما في الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان، فذلك باعتبار المعاني اللغوية والاستعمالات العربية، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية، والحقيقة الشرعية هي هذه التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، وأجاب سؤال السائل له عن ذلك بها «وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم» أي: وتركنا في تلك القرى علامة، ودلالة تدل على ما أصابهم من العذاب، كل من يخاف عذاب الله، ويخشاه من أهل ذلك الزمان ومن بعدهم، وهذه الآية هي آثار العذاب في تلك القرى، فإنها ظاهرة بينة، وقيل: هي الحجارة التي رجموا بها، وإنما خصّ الذين يخافون العذاب الأليم؛ لأنهم الذين يتعظون بالمواعظ، ويتفكرون في الآيات دون غيرهم ممن لا يخاف ذلك وهم المشركون المكذبون بالبعث، والوعد والوعيد.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «وفي صرة» قال: في صيحة «فصكت وجهها» قال: لطمت. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: «فما وجئنا فيها غير بيت من المسلمين» قال: لوط وابنتيه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانوا ثلاثة عشر.

وَلَوْ مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْتَهُ إِذْ رِصَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٨﴾ تَوَكَّلْ بِرَبِّكَ ۖ وَكَانَ سَبِيلُكَ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿١٩﴾ فَأَخَذَهُ مَلَكُهُ مَخْرُوجًا فَجَدَّدَهُمْ فِي آيَةٍ وَهُوَ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ وَكَانَ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٢١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْأَرِيمِ ﴿٢٢﴾ وَكَانَ ثَمُودٌ إِذْ قِيلَ لَهُمُ تَسْبَحُوا حَتَّىٰ يَذْهَبَ الْفُجَاءُ عَنْ أَثَرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَمْزُجُونَ ﴿٢٣﴾ فَمَا أَنتَبَحُونَّ وَلَا كَانُوا مُشْعِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَوْمٌ نُّوحٌ مِنْ قَبْلُ مِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ وَأَتَيْنَاهُم بِبَنَاتٍ لَّيْسَ لَهُنَّ زَوْجَاتٌ وَلَنَا لَكُمُوعُونَ ﴿٢٦﴾ وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّيُونَ ﴿٢٧﴾ وَنَحْنُ كُلُّنَا رَزَقْنِي لَمَلَكُوكَ نَذْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ فَنُفِّرُوا إِلَى اللَّهِ إِنْ لَكَ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَا تَحْمِلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنْ لَكَ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٣٠﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣١﴾ أَوَاصِرًا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ فَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَّ وَأَتَتْ بِمَلَأَةٍ ﴿٣٣﴾ وَذَكَرْنَا لِلْأَعْيُنِ نَعْمَ الْفُتُورِينَ ﴿٣٤﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٣٥﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُعْبُدُونِي ﴿٣٦﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَمِيمِ ﴿٣٧﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنْبًا بِمَا عَصَوْهُمْ فَمَا يَسْتَمْتُونَ ﴿٣٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٣٩﴾

قوله: «وفي موسى» معطوف على قوله فيها بإعادة الخافض، والتقدير: وتركنا في قصة موسى آية، أو معطوف على «وفي الأرض» [الذاريات: 20] والتقدير: وفي الأرض، وفي موسى آيات، قاله الفراء، وابن عطية، والزمخشري. قال أبو حيان: وهو بعيد جداً ينزه القرآن عن مثله، ويجوز أن

﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: 65] ﴿فَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: تكبروا عن امتثال أمر الله ﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ﴾ وهي كل عذاب مهلك. قرأ الجمهور (الصاعقة) وقرأ عمر بن الخطاب، وحמיד، وابن محيصن، ومجاهد، والكسائي (الصعقة)، وقد مرَّ الكلام على الصاعقة في البقرة، وفي مواضع ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: يرونها عياناً، والجملة في محل نصب على الحال، وقيل: إن المعنى: ينتظرون ما وعدوه من العذاب، والأول أولى ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أي: لم يقدرُوا على القيام. قال قتادة: من نهوض يعني: لم ينهضوا من تلك السرعة، والمعنى: أنهم عجزوا عن القيام فضلاً عن الهرب. ومثله قوله: ﴿فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: 78] ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أي: ممتنعين من عذاب الله بغيرهم ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء المهلكين، فإن زمانهم متقدّم على زمن فرعون، وعاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله. قرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو بخفض (قوم) أي: وفي قوم نوح آية. وقرأ الباقون بالنصب. أي: وأهلكنا قوم نوح، أو هو معطوف على مفعول أخذتهم الصاعقة، أو على مفعول نبذناهم أي: نبذناهم ونبذنا قوم نوح، أو يكون العامل فيه انكر ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة وقدرة، قرأ الجمهور بنصب (السما) على الاشتغال، والتقدير: وبنينا السماء بنيناها. وقرأ أبو السماك، وابن مقسم برفعها على الابتداء ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الموسع ذو الوسع والسعة، والمعنى: إنا لنو سعة بخلقها، وخلق غيرها لا نعجز عن ذلك، وقيل: لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة والقدرة، وقيل: إنا لموسعون الرزق بالمطر. قال الجوهري: وأوسع الرجل: صار ذا سعة وغنى ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ قرأ الجمهور بنصب (الأرض) على الاشتغال. وقرأ أبو السماك، وابن مقسم برفعها، كما تقدّم في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ [الذاريات: 47] ومعنى فرشناها: بسطانها كالفرش ﴿فَنَعَمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي: نحن، يقال مهدت الفراش: بسطته ووطأته، وتمهيد الأمور: تسويتها وإصلاحها ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: صنفين، ونوعين من ذكر وأنثى، وبرّ وبحر، وشمس وقمر، وحلو ومرّ، وسما وأرض، وليل ونهار، ونور وظلمة، وجنّ وإنس، وخير وشرّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: خلقنا ذلك هكذا لتتذكروا، فتعرفوا أنه خالق كل شيء، وتستدلوا بذلك على توحيده، وصديق وعده ووعيده ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ففرّوا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم عن الكفر والمعاصي، وجملة: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ تعليل للأمر بالفرار، وقيل: معنى ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ اخرجوا من مكة. وقال الحسين بن الفضل: احتزّروا من كل شيء غير الله، فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه. وقيل: فرّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن، وقيل: فرّوا من الجهل إلى العلم، ومعنى: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي: من جهته منذر بين

الإنذار ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ نهاهم عن الشرك بالله بعد أمرهم بالفرار إلى الله، وجملة: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: تعليل للنهي ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ في هذا تسليّة لرسول الله ﷺ ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمة وأن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله، ووصفه بالسحر، والجنون قد كان ممن قبلهم لرسولهم، و﴿كَذَلِكَ﴾ في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر كذلك. ثم قسر ما أجمله بقوله: ﴿مَا أَتَى﴾ إلخ، أو في محل نصب نعتاً لمصدر محذوف أي: أنذرهم إنذاراً كإنذار من تقدّمني من الرسل الذين أنذروا قومهم، والأول أولى ﴿وَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والتعجب من حالهم أي: هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب، وتواطؤوا عليه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن التواصي إلى ما جمعهم من الطغيان أي: لم يتواصوا بذلك، بل جمعهم الطغيان وهو مجاوزة الحد في الكفر. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالإعراض عنهم، فقال: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم، وكفّ عن جدالهم، ودعائهم إلى الحق، فقد فعلت ما أمرك الله به وبلغت رسالته ﴿فَمَا أَنْتَ بِمُلُومٌ﴾ عند الله بعد هذا لأنك قد أنيت ما عليك، وهذا منسوخ بآية السيف. ثم لما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التكذيب، والموعظة بالتي هي أحسن فقال: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الكلبي: المعنى عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم. وقال مقاتل: عظ كفار مكة فإن الذكرى تنفع من كان في علم الله أنه يؤمن. وقيل: نكرهم بالعقوبة وأيام الله، وخصّ المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به، وجملة: ﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجَنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَهُ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها؛ لأن كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله ﷺ للتذكير، وينشطهم للإجابة. قيل: هذا خاصّ في من سبق في علم الله سبحانه أنه يعبد، فهو عموم مراد به الخصوص. قال الواحدي: قال المفسرون: هذا خاصّ لأهل طاعته، يعني: من أهل من الفريقين. قال: وهذا قول الكلبي، والضحاك، واختيار الفراء، وابن قتيبة. قال القشيري: والآية دخلها التخصيص بالقطع؛ لأن المجانين لم يؤمروا بالعبادة، ولا أرادها منهم، وقد قال: ﴿وَلَقَدْ نَرَأَا لَهُنَّ كَثِيرًا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: 179] ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة. فالآية محمولة على المؤمنين منهم، ويدل عليه قراءة ابن مسعود، وأبي بن كعب: ﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجَنَّ وَالْإِنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَهُ﴾. وقال مجاهد: إن المعنى: إلا ليعرفوني. قال الثعلبي: وهذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده. وروي عن مجاهد أنه قال: المعنى إلا لأمرهم وإنهاهم، ويدل عليه قوله: ﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سبحانه عما يشركون﴾ [التوبة: 31] واختار هذا الزجاج. وقال زيد بن أسلم: هو ما جبلا عليه من السعادة والشقاوة، فخلق السعداء من الجن

والإنس للعبادة، وخلق الأشقياء للمعصية. وقال الكلبي: المعنى إلا ليوحدون، فأما المؤمن، فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر، فيوحده في الشدة بون النعمة، كما في قوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: 32] وقال جماعة: إلا ليخضعوا لي ويتلوا، ومعنى العبادة في اللغة: الذل والخضوع والانقياد، وكل مخلوق من الإنس والجن، خاضع لقضاء الله مثلث لمشيئته منقاد لما قَرَّره عليه. خلقهم على ما أراد، ورزقهم كما قضى، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعاً، ولا ضرراً. ووجه تقديم الجن على الإنس ما هنا تقدم وجودهم ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ هذه الجملة فيها بيان استغنائهم سبحانه عن عباده، وأنه لا يريد منهم منفعة، كما تريده السادة من عبيدهم، بل هو الغني المطلق الرائق المعطي. وقيل المعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا أحداً من خلقي، ولا أن يرزقوا أنفسهم، ولا يطعموا أحداً من خلقي، ولا يطعموا أنفسهم، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال الله، فمن أطعم عيال الله، فهو كمن أطعمه. وهذا كما ورد في قوله ﷺ: «يقول الله: عبدي استطعمتك فلم تطعمني»، أي: لم تطعم عبادي، ومن في قوله: ﴿مَنْ رَزَقَهُ﴾ زائدة لتأكيد العموم. ثم بين سبحانه أنه هو الرزاق لا غيره، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ لا رزاق سواه، ولا معطي غيره، فهو الذي يرزق مخلوقاته، ويقوم بما يصلحهم فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادة ﴿هُوَ الْقُوَّةُ الْمَتِينُ﴾ ارتفاع المتين على أنه وصف للرزاق، أو لنو، أو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر. قرأ الجمهور (الرزاق) وقرأ ابن محيصة (الرائق) وقرأ الجمهور (المتين) بالرفع، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش بالجرّ صفة للقوة، والتذكير لكون ثانيها غير حقيقي. قال الفراء: كان حقه المتينة فنكرها؛ لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل، يقال: حبل متين أي: محكم الفتل، ومعنى المتين: الشئيد القوة هنا ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوباً مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: ظلّموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، فإن لهم ذنوباً أي: نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة. قال ابن الأعرابي: يقال: يوم ذنوب أي: طويل الشر لا ينقضي، وأصل الذنوب في اللغة الدلو العظيمة، ومن استعمال الذنوب في النصيب من الشيء قول الشاعر:

لعمرك والمنايا طارقات لكل بني اب منها نوب
وما في الآية مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالبلو الكبير، فهو تمثيل جعل الذنوب مكان الحظ والنصيب، قاله ابن قتبية ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: لا يطلبوا مني أن أعجل لهم العذاب، كما في قولهم: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: 70] ﴿قَوْلٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ قيل: هو يوم القيامة وقيل: يوم بدر، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر في قوله: ﴿فَتَوَلَّى﴾

بركنه عن ابن عباس قال: يقومه. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه في قوله: ﴿الرَّيْحَ الْعَقِيمَ﴾ قال: الشديدة التي لا تلقح شيئاً. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب، وفي قوله: ﴿إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالرِّمِيمِ﴾ قال: كالشيء الهالك. وأخرج الفريابي، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الريح العقيم النكباء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ قال: بقوة. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ قال: امره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم، وعذر محمداً ﷺ، ثم قال: ﴿وَنُكَرَ فَإِنْ لَنُكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فنسختها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿هُمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيُعْبَدُوا﴾ قال: ليقروا بالعبودية طوعاً أو كرها. وأخرج ابن المنذر عنه في الآية قال: على ما خلقتهم عليه من طاعتي ومعصيتي، وشقوتي وسعادتي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً في قوله: ﴿الْمَتِينِ﴾ يقول: الشديد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ذُنُوباً﴾ قال: دلوأ.

تفسير سورة الطور

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت الطور بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور. وأخرج البخاري، وغيره عن أم سلمة: «أنها سمعت رسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت بـ﴿الطور﴾ وكتاب مسطور» [أي: سورة الطور].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورُ ① رَكَّتِ مَسْطُورٌ ② فِي رَفٍّ مَشُورٍ ③ وَاللَّيْلُ الْمَعْمُورُ ④ وَالنَّفِثُ الْمَرْمُورُ ⑤ وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقٍ ⑦ مَا لَمْ يَنْزِلْ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ أَسْمَةٌ مَوْرٌ ⑨ وَبَسِيرٌ أَلِجَالٌ سَبْرٌ ⑩ قَوْلٌ بَوْمِيذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑪ الَّذِينَ هُمْ فِي حُوزٍ يَلْعَنُونَ ⑫ يَوْمَ نَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ⑬ هَئِذَا أُنْشِرَ النَّارُ الْآتَى كُتُبَهُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭ أَفَبِعَذَابِنَا أَسْتَفْتَى ⑮ أَفَبِعَذَابِنَا أَسْتَفْتَى ⑯ لَا تَجِزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑰ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَبِئْسَ فَكُوهٌ بِمَا ءَانَهُمْ رَعُومٌ ⑱ وَرَوَّاهُمْ رَجِيمٌ عَذَابُ الْجَحِيمِ ⑲ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑳ مُتَكَبِّرِينَ ㉑ عَلَى سُرُرٍ مَتَشَوْا فِيهَا وَرَوَّاهُمْ رَجِيمٌ عَذَابُ الْجَحِيمِ ㉒

قوله: ﴿وَالطُّورُ﴾ قال الجوهري: هو الجبل الذي كلم الله

وأبو عبيدة: وأنشدا بيت الأعشى:

كان مشيها من بيت جارتها مشي السحابة لاريث ولا عجل
وليس في البيت ما يدل على ما قاله إلا إذا كانت هذه
المشيئة المذكورة في البيت يطلق المور عليها لغة. وقال
الضحاك: يمجج بعضها في بعض، وقال مجاهد: تدور دوراً،
وقيل: تجرى جرياً، ومنه قول الشاعر:

وما زالت القتلى تمور دماؤها ببجلة حتى ماء بجلة أشكل
ويطلق المور على المروج، ومنه ناقة مواراة اليد أي:

سريعة تموج في مشيها موجاً، ومعنى الآية: إن العذاب يقع
بالعصاة، ولا يدفعه عنهم دافع في هذا اليوم الذي تكون فيه
السماء هكذا، وهو يوم القيامة. وقيل: إن السماء ها هنا
الفلك، وموره: اضطراب نظمها واختلاف سيره ﴿وتسير
الجبال سيراً﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير عن مواضعها
كسير السحاب، وتكون هباءً منبثاً، قيل: وجه تأكيد الفعلين
بالمصدر الدالة على غرابتهما، وخروجهما عن المعهود، وقد
تقدم تفسير مثل هذا في سورة الكهف ﴿فويل يومئذ
للمكذبين﴾ ويل كلمة تقال للمهلك، واسم واد في جهنم،

وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة أي: إذا وقع
ما نكر من مور السماء، وسير الجبال فويل لهم. ثم وصف
المكذبين بقوله: ﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾ أي: في
تردد في الباطل، واندفاع فيه يلهون لا يذكرون حساباً، ولا
يخافون عقاباً. والمعنى: أنهم يخوضون في أمر محمد ﷺ
بالتكذيب والاستهزاء، وقيل: يخوضون في أسباب الدنيا،
ويعرضون عن الآخرة ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾
الدع الدع بعنف وجفوة يقال: دعتني ادعني دعاً أي: دفعته،
والمعنى: أنهم يدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً شديداً. قال
مقاتل: تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى
أقدامهم، ثم يدفعون إلى جهنم دفعاً على وجوههم. قرأ
الجمهور بفتح الدال وتشديد العين. وقرأ علي والسلمي، وأبو
رجاء، وزيد بن علي، وابن السميعف بسكون الدال وتخفيف
العين مفتوحة أي: يدفعون إلى النار من الدعاء. ويوم إما بدل
من يوم تمور، أو متعلق بالقول المقدر في الجملة التي بعد
هذه، وهي ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي: يقال
لهم تلك يوم يدفعون إلى نار جهنم دعاً أي: هذه النار التي
تشاهدونها، هي النار التي كنتم تكذبون بها في الدنيا،
والقاتل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار، ثم ويخهم سبحانه،
أو أمر ملائكتهم بتوبيخهم، فقال: ﴿افسحوا لهذا﴾ الذي ترون
وتشاهدون، كما كنتم تقولون لرسول الله المرسل، ولكتبته
المنزلة، وقدم الخبر هنا على المبتدأ لأنه الذي وقع
الاستفهام عنه، وتوجه التوبيخ إليه ﴿أم أنتم لا تبصرون﴾
أي: أم أنتم عمي عن هذا، كما كنتم عمياً عن الحق في الدنيا
﴿افصلوها فاصبروا أو لا تبصروا﴾ أي: إذا لم يمكنكم
إنكارها، وتحققتم أن تلك ليس بسحر، ولم يكن في أبصاركم
خلل، فالآن اسخوها وقاسوا شنتها، فاصبروا على العذاب أو
لا تبصروا، وافعلوا ما شئتم، فالأمران ﴿سواء عليكم﴾ في

عليه موسى. قال مجاهد، والسدي: الطور بالسريانية الجبل،
والمراد به طور سيناء. قال مقاتل بن حيان: هما طوران،
يقال لأحدهما: طور سيناء، وللآخر: طور زيتا؛ لأنهما ينبتان
التين والزيتون. وقيل: هو جبل مدين، وقيل: إن الطور كل
جبل ينبت، وما لا ينبت فليس بطور، أقسم الله سبحانه بهذا
الجبل تشريفاً له وتكريماً ﴿وكتاب مسطور﴾ المسطور:
المكتوب، والمراد بالكتاب: القرآن، وقيل: هو اللوح المحفوظ،
وقيل: جميع الكتب المنزلة، وقيل: الواح موسى، وقيل: ما
تكتبه الحفظة قاله الفراء، وغيره، ومثله: ﴿ونخرج له يوم
القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ [الإسراء: 13] وقوله: ﴿وإذا
الصحف نشرت﴾ [التكوير: 10] ﴿في رق منشور﴾ متعلق
بمسطور أي: مكتوب في رق. قرأ الجمهور (في رق) بفتح
الراء، وقرأ أبو السماك بكسرها. قال الجوهري: الرق بالفتح
ما يكتب فيه، وهو جلد رقيق، ومنه قوله تعالى: ﴿في رق
منشور﴾ قال المبرد: الرق ما رق من الجلد ليكتب فيه،
والمنشور المبسوط. قال أبو عبيدة: وجمعه رقوق، ومن هذا
قول المتلمس:

فكانما هي من تقادم عهدا رقى أتبع كتابها مسطور
وأما الرق بالكسر، فهو المملوك، يقال: عبد رقى، وعبد
مرقوق ﴿والبيت المعمور﴾ في السماء السابعة. وقيل: في
سما الدنيا، وقيل: هو الكعبة، فعلى القولين الأولين يكون
وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة، ويعبد
الله فيه. وعلى القول الثالث، يكون وصفه بالعمارة حقيقة، أو
مجازاً باعتبار كثرة من يتعبد فيه من بني آدم ﴿والسقف
المرفوع﴾ يعني: السماء، سماها سقفاً لكونها كالسقف
للأرض، ومنه قوله: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾
[الأنبياء: 32] وقيل: هو العرش ﴿والبحر المسجور﴾ أي:
الموقد، من السجر: وهو إيقاد النار في التنور، ومنه قوله:
﴿وإذا البحار سجرت﴾ [التكوير: 6] وقد روي أن البحار
تسجر يوم القيامة فتكون نارا، وقيل: المسجور المملوء، قيل:
إنه من أسماء الأضداد، يقال: بحر مسجور أي: مملوء، وبحر
مسجور أي: فارغ، وقيل: المسجور الممسوك، ومنه ساجور
الكلب لأنه يمسكه. وقال أبو العالية: المسجور الذي ذهب
ماؤه، وقيل: المسجور المفجور، ومنه: ﴿وإذا البحار فجرت﴾
[الإنفطار: 3] وقال الربيع بن أنس: هو الذي يختلط فيه
العذب بالمالح. والأول أولى، وبه قال مجاهد، والضحاك،
ومحمد بن كعب، والآخر، وغيرهم ﴿إن عذاب ربك
لواقع﴾ هذا جواب القسم أي: كائن لا محالة لمن يستحقه
﴿ما له من دافع﴾ يدفعه ويرده عن أهل النار، وهذه الجملة
خبر ثانٍ لإن، أو صفة لواقع، ومن مزيدة للتأكيد. ووجه
تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها أنها عظيمة دالة على
كمال القدرة الربانية ﴿يوم تمور للسماء مورا﴾ العامل في
الظرف لواقع أي: إنه لواقع في هذا اليوم، ويجوز أن يكون
العامل فيه دافع. والمور: الاضطراب والحركة. قال أهل اللغة:
مار الشيء يمر مورا: إذا تحرك وجاء وذهب، قاله الآخر،

السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة»، وفي الصحيحين وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة، ثم رفع إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه». وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً عن البيت المعمور فقال: ذلك الضراح⁽¹⁾ بيت فوق سبع سموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه أبداً إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير نحوه عن ابن عباس. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر ورفعه، قال: «إن البيت المعمور لبحيال الكعبة لو سقط منه شيء لسقط عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً، ثم لا يعودون إليه». وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه، وضعف إسناداه السيوطي. وأخرج ابن راهويه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب في قوله: «والسقف للمرفوع» قال: السماء. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: «والبحر المسجور» قال: بحر في السماء تحت العرش. وأخرج ابن جرير عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: المسجور المحبوس. وأخرج ابن المنذر عنه قال: المسجور المرسل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً «يوم تمور السماء موراً» قال: تحرك، وفي قوله: «يوم يدعون» قال: يدفعون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: يوم يدعون «إلى نار جهنم دعا» قال: يدفع في أعناقهم حتى يردوا النار. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «كلوا واشربوا هنيئاً» أي: لا تموتون فيها، فعندما قالوا: «أما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعنيين» [الصفات: 58، 59].

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَلْتَمَهُ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلٌّ لَشَرِّ مَا كَسَبَ رَوَيْتُ ① وَأَمَّا ذُرِّيَّتُهُمْ بِفِكَهْمُ وَلَحَرٍ وَمَا يَنْتَبِهُونَ ② يَنْتَبِهُونَ فِيهَا كَأَنَّ لَا تَرَى فِيهَا وَلَا تَأْتِي ③ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ④ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَلَّلُونَ ⑤ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلَانَا مُتَفَيِّضِينَ ⑥ قَرَّبَ اللَّهُ عَلَيْنَا رُوحَنَا عَذَابَ السَّمُورِ ⑦ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ⑧ فَذَكَّرَ قَسَا أَنْ يَمَسَّ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا يَحْمِلُونَ ⑨ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنَاهُ رِيبَ السَّمُورِ ⑩ قُلْ رَتَّبْنَا كَأَنِّي مَعَكُمْ تَرَكُ الْمُتَرَتِّبِينَ ⑪ أَمْ نَأْمُرُهُمْ أَنْتَهُمُ

عدم النفع، وقيل: أيضاً تقول لهم الملائكة هذا القول، «وسواء» خبر مبتدأ محذوف أي: الأمران سواء، ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف أي: سواء عليكم الصبر وعدمه، وجملة «إنما تجزؤون ما كنتم تعملون» تعليل للاستواء، فإن الجزاء بالعمل إذا كان واقعاً حتماً كان الصبر، وعدمه سواء «إن المتقين في جنات ونعيم» لما فرغ سبحانه من نكر حال المجرمين نكر حال المتقين، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة، ويجوز أن تكون من جملة ما يقال للكفار زيادة في غمهم وحسرتهم، والتونين «في جنات ونعيم» للتفخيم «فاكهين بما آتاهم ربهم» يقال: رجل فاكه أي: نو فأكهة، كما قيل: لابن وتامر. والمعنى: أنهم نوو فأكهة من فواكه الجنة، وقيل: نوو نعمة وتلذذ بما صاروا فيه مما أعطاهم الله عز وجل مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وقد تقدم بيان معنى هذا. قرأ الجمهور (فاكهين) بالالف والنصب على الحال. وقرأ خالد (فاكهون) بالرفع على أنه خبر بعد خبر. وقرأ ابن عباس (فكهين) بغير الف، والفتحة: طيب النفس، كما تقدم في الدخان، ويقال: للأشر والبطر، ولا يناسب التفسير به هنا «ووقاهم ربهم عذاب الجحيم» معطوف على آتاهم، أو على خبر إن، أو الجملة في محل نصب على الحال بإضمار قد «كلوا واشربوا هنيئاً» أي: يقال لهم ذلك، والهنيء: ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر. قال الزجاج: أي: ليهنئكم ما صرتم إليه هناء، والمعنى: كلوا طعاماً هنيئاً، واشربوا شرباً هنيئاً، وقد تقدم تفسير هنيئاً في سورة النساء، وقيل: معنى هنيئاً: أنكم لا تموتون «متكئين على سرر مصفوفة» انتصابه على الحال من فاعل كلوا، أو من مفعول آتاهم، أو من مفعول وقاهم، أو من الضمير المستكن في الظرف، أو من الضمير في فاكهين. قرأ الجمهور (على سرر) بضم الراء الأولى. وقرأ أبو السماك بفتحها، والسر جمع سرير. والمصفوفة المتصل بعضها ببعض حتى تصير صفاً «وزوجناهم بحور عين» أي: قرناهم بها. قال يونس بن حبيب: تقول العرب: زوجت امرأة، وتزوجت بامرأة، وليس من كلام العرب زوجت بامرأة. قال: وقول الله تعالى: «وزوجناهم بحور عين» أي: قرناهم بهن. وقال الفراء: زوجته بامرأة لغة أريش، وقد تقدم تفسير الحور العين في سورة الدخان. قرأ الجمهور (بحور عين) من غير إضافة. وقرأ عكرمة بإضافة الحور إلى العين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس «والطور» قال: جبل. وأخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «الطور جبل من جبال الجنة» وكثير ضعيف جداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس «في رقى منشور» قال: في الكتاب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «البيت المعمور في السماء

(1) الضراح: بالضم بيت في السماء، وهو البيت المعمور اه. صحاح الجوهري.

يَهْدَىٰ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَزَّلَهُ بِنَا لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٣٨﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم نكر حال طائفة منهم على الخصوص، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ والموصول مبتدأ، وخبره ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مقدر أي: وأكرمنا الذين آمنوا، ويكون أَلْحَقْنَا مفسراً لهذا الفعل المقدر. قرأ الجمهور (واتبعتهم) بإسناد الفعل إلى الذرية. وقرأ أبو عمرو (اتبعتهم) بإسناد الفعل إلى المتكلم، كقوله أَلْحَقْنَا. وقرأ الجمهور (ذُرِّيَّتَهُمْ) بالإفراد. وقرأ ابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب بالجمع، إلا أن أبا عمرو قرأ بالنصب على المفعولية لكونه قرأ (واتبعتهم)، ورويت قراءة الجمع هذه عن نافع، والمشهور عنه كقراءة الجمهور. وقرأ الجمهور (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) بالإفراد. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب على الجمع، وجملة: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ معطوف على آمنوا أو معترضة، وبإيمان متعلق بالاتباع، ومعنى هذه الآية: أن الله سبحانه يرفع ذرية المؤمن إليه، وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقر عينه، وتطيب نفسه بشرط أن يكونوا مؤمنين، فيختص ذلك بمن يتصف بالإيمان من الذرية وهم البالغون دون الصغار، فإنهم وإن كانوا لاحقين بأبائهم، فببطل آخر غير هذه الآية. وقيل: إن الذرية تطلق على الكبار والصغار، كما هو المعنى اللغوي، فيلحق بالأباء المؤمنين صغار ذُرِّيَّتَهُمْ وكبارهم، ويكون قوله: ﴿بِإِيمَانٍ﴾ في محل نصب على الحال أي: بإيمان من الآباء. وقيل: إن الضمير في ﴿بِهِمْ﴾ راجع إلى الذرية المذكورة أولاً أي: أَلْحَقْنَا بِالذَّرِّيَّةِ الْمُتَّبِعَةِ لِأَبَائِهِمْ بِإِيمَانٍ ذُرِّيَّتَهُمْ. وقيل: المراد بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المهاجرون والأنصار فقط، وظاهر الآية العموم، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار كونهم السبب في نزولها إن صحَّ ذلك، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿وَمَا أَلْحَقْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام من (التنا) وقرأ ابن كثير بكسرها أي: وما نقصنا الآباء بالحق ذُرِّيَّتَهُمْ بهم من ثواب أعمالهم شيئاً، فضمير المفعول عائد إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وقيل المعنى: وما نقصنا الذرية من أعمالهم شيئاً لقصر أعمارهم، والأول أولى، وقد قدمنا تحقيق معنى لاته، وآلاته في سورة الحجرات. وقرأ ابن هرمز (أَلْحَقْنَاهُمْ) بالمد، وهو لغة. قال في الصحاح: يقال: ما أَلَّته من عمله شيئاً أي: ما نقصه ﴿كُلَّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ رهيْن بمعنى مرهون، والظاهر أنه عام، وأن كل إنسان مرتهن بعمله، فإن قام به على الوجه الذي أمره الله به فكه، وإلا أهلكه. وقيل: هو بمعنى رهن، والمعنى: كل امرئ بما كسب دائم ثابت. وقيل: هذا خاص بالكفار لقوله: ﴿كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾ إلا أصحاب اليمين [المائدة: 38، 39] ثم نكر سبحانه ما أمدَّهم به من الخير، فقال: ﴿وَمَا مِدْنَاهُمْ بِفَاكِهِةٍ وَلِحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: زدناهم على ما كان لهم من النعيم بفاكهة

متنوعة، ولحم من أنواع اللحمان مما تشتهيهم أنفسهم، ويستطيبونه ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتعاطون ويتناولون كأساً، والكأس إناء الخمر، ويطلق على كل إناء مملوء من خمر، أو غيره، فإذا فرغ لم يسم كأساً ﴿لَا لُغُو فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ قال الزجاج: لا يجري بينهم ما يلغي، ولا ما فيه إثم، كما يجري بين من يشرب الخمر في الدنيا، والتأثير تفصيل من الإثم، والضمير في ﴿فِيهَا﴾ راجع إلى الكأس، وقيل: لا لغو فيها أي: في الجنة، ولا يجري فيها ما فيه إثم، والأول أولى. قال ابن قتيبة: لا تذهب بعقولهم فيلغوا، كما يكون من خمر الدنيا، ولا يكون منهم ما يؤثمهم. وقال الضحاك: لا تأثم أي: لا كذب. قرأ الجمهور (لا لغو فيها ولا تأثم) بالرفع، والتثنية فيهما. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بفتحهما من غير تنوين. قال قتادة: اللغو الباطل. وقال مقاتل بن حيان: لا فضول فيها. وقال سعيد بن المسيب: لا رفث فيها. وقال ابن زيد: لا سباب ولا تخاصم فيها. والجملة في محل نصب على الحال صفة لكأسا ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَمَانٌ لَهُمْ﴾ أي: يطوف عليهم بالكأس، والفواكه، والطعام، وغير ذلك مما يليك لهم، وقيل: أولاهم ﴿وَكُنَانُهُمْ﴾ في الحسن والبهاء ﴿لَوْلُؤُا مَكْنُونٌ﴾ أي: مستور مصون في الصنف لم تمسه الأيدي. قال الكسائي: كننت الشيء: سترته وصننته من الشمس، واكننته: جعلته في الكن، ومنه كننت الجارية، واكننتها فهي مكنونة ﴿وَأَقْبِلْ بِعَضْمٍ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: يسال بعضهم بعضاً في الجنة عن حاله، وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العقاب، فيحمدون الله الذي أذهب عنهم الحزن والخوف والهَمَّ، وما كانوا فيه من الكد، والنكد بطلب المعاش، وتحصيل ما لا بد منه من الرزق. وقيل: يقول بعضهم لبعض: بـم صرتم في هذه المنزلة الرفيعة؟ وقيل: إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور. والأول أولى، لدلالة السياق على أنهم قد صاروا في الجنة، وجملة ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل؟ فقيل: قالوا: إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ، وذلك في الدنيا في أهلنا خائفين وجلين من عذاب الله، أو كنا خائفين من عصيان الله ﴿فَمَنْ أَتَى اللَّهَ بِمَغْفِرَةٍ أَوْ بِرَحْمَةٍ، أَوْ بِالتَّوْفِيقِ لَطَاعَتِهِ﴾ ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ يعني: عذاب جهنم، والسوم من أسماء جهنم، كذا قال الحسن، ومقاتل. وقال الكلبي، وأبو عبيدة: هو عذاب النار. وقال الزجاج: سموم جهنم ما يوجد من حرها. قال أبو عبيدة: السموم بالنهار، وقد يكون بالليل، والحرور بالليل، وقد يكون بالنهار، وقد يستعمل السموم في لفح البرد، وفي لفح الشمس، والحر أكثر، ومنه قول الشاعر:

اليوم يوم بارد سمومه من جزع اليوم فلا يومه
وقيل: سميت الريح سموماً؛ لأنها تدخل المسام: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نوحده الله ونعبده، أو نسأله أن يمن علينا بالمغفرة والرحمة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ قرأ

تَقَمَّهَ، وأكثر جرأةً وعناداً **﴿إِذْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾** أي: اختلق القرآن من جهة نفسه وافترعه، والتَقَوَّلَ لا يستعمل إلا في الكذب في الغالب، وإن كان أصله تكلف القول، ومنه اقتال عليه، ويقال: اقتال عليه بمعنى: تحكَّم عليه، ومنه قول الشاعر:

ومنزلة في دار صدق وغبطة وما اقتال في حكم علي طيب
ثم أضرب سبحانه عن قولهم: **﴿تَقَوَّلَهُ﴾** وانتقل إلى ما هو أشدَّ شناعةً عليهم فقال: **﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** أي: سبب صدور هذه الأقوال المناقضة عنهم كونهم كفاراً لا يؤمنون بالله، ولا يصنفون ما جاء به رسوله ﷺ. ثم تحدَّاهم سبحانه، وألزمهم الحجة فقال: **﴿فَلْيَاتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾** أي: مثل القرآن في نظمه، وحسن بيانه، وبنيع أسلوبه **﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾** فيما زعموا من قولهم: إن محمداً ﷺ تقوله، وجاء به من جهة نفسه مع أنه كلام عربي، وهم رؤوس العرب وفصحاءهم، والممارسون لجميع الأوضاع العربية من نظم ونثر.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي عن ابن عباس قال: «إن الله ليرفع نزية المؤمن معه في درجاته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل، لتقرَّ به عينه ثم قرأ: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾** الآية. وأخرجه البزار، وابن مريويه عنه مرفوعاً، وأخرج الطبراني، وابن مريويه عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سال عن أبيه، وزوجته، وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجاتك وعملك، فيقول: يا ربِّ قد عملت لي ولهم، فيؤمر بالحاقهم به، وقرأ ابن عباس **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾** الآية. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار، ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية وإسناده هكذا. قال عبد الله بن أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فضيل، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي بن أبي طالب قال: «سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: هما في النار، فلما رأى الكراهة في وجهها قال: لو رأيت مكانهما لا بغضتهما، قالت: يا رسول الله فولدي منك. قال: في الجنة، قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار، ثم قرأ: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية. وقال الإمام أحمد في المسند: حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا ربِّ من أين لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولك لك، وإسناده صحيح. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، والحاكم عن ابن عباس **﴿وَمَا التَّائِبُ﴾** قال: ما نقصناهم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه **﴿لَا لَغْوَ فِيهَا﴾** يقول:

الجمهور بكسر الهمزة على الاستئناف، وقرأ نافع، والكسائي بفتحها أي: لأنه والبرّ كثير الإحسان، وقيل: اللطيف، والرحيم كثير الرحمة لعباده **﴿فَفَكَرَ﴾** فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون؟ أي: أثبت على ما أنت عليه من الوعظ والتذكير، والباء متعلقة بمحذوف هو حال أي: ما أنت متلبساً بنعمة ربك التي أنعم بها عليك من رجاحة العقل والنبوة بكاهن، ولا مجنون، وقيل: متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام أي: ما أنت في حال إنكارك بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون، وقيل: الباء سببية متعلقة بمضمون الجملة المنفية، والمعنى: انتفى عنك الكهانة والمجون بسبب نعمة الله عليك، كما تقول: ما أنا بمعسر بحمد الله. وقيل: الباء للقسم متوسطة بين اسم ما وخبرها، والتقدير: ما أنت ونعمة الله بكاهن ولا مجنون، والكاهن هو الذي يومه أنه يعلم الغيب من نون وحي أي: ليس ما تقوله كهانة، فإنك إنما تنطق بالوحي الذي أمرك الله بإبلاغه. والمقصود من الآية ردُّ ما كان يقوله المشركون: إنه كاهن، أو مجنون **﴿إِذْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرِيبُ﴾** به ريب للمنون؟ أم هي المنقطعة، وقد تقدَّم الخلاف هل هي مقفلة ببل والهمزة، أو ببِل وحدها؟ قال الخليل: هي هنا للاستفهام. قال سيدي: خوطب العباد بما جرى في كلامهم. قال النحاس: يريد سيدي أن أم في كلام العرب للخروج من حديث إلى حديث، ونتريب في محل رفع صفة لشاعر، وريب المنون: صروف الدهر، والمعنى: ننتظر به حوادث الأيام فيموت كما مات غيره، أو يهلك كما هلك من قبله، والمنون يكون بمعنى الدهر، ويكون بمعنى المنية. قال الأخفش: المعنى نتريبص إلي ريب المنون، فحذف حرف الجرِّ، كما تقول: قصدت زيدا، وقصصت إلى زيد، ومن هذا قول الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت خليلها
وقول أبي نؤيب الهذلي:

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
قال الأصمعي: المنون واحد لا جمع له. قال الفرّاء: يكون واحداً وجمعاً. وقال الأخفش: هو جمع لا واحد له. ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم، فقال: **﴿قُلْ تَرِيبُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرِيبِينَ﴾** أي: انتظروا موتي، أو هلاكي، فإنني معكم من المتريبين لموتكم، أو هلاككم. قرأ الجمهور (نتريبص) بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين. وقرأ زيد بن عليّ على البناء للمفعول **﴿إِذْ تَأْمُرُهُمْ إِحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾** أي: بل تأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض، فإن الكاهن هو المفرد في الفطنة والذكاء، والمجنون: هو ذاهب للعقل فضلاً عن أن يكون له فطنة وذكاء. قال الواحدي: قال المفسرون: كانت عظماء قريش توصف بالأحلام والعقول، فازراً الله بحلومهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل **﴿إِذْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾** أي: بل أطغوا وجاوزوا الحد في العناد، فقالوا ما قالوا، وهذه الإضرابات من شيء إلى شيء مع الاستفهام، كما هو مدلول أم المنقطعة تدل على أن ما تعقبها أشنع مما

الفجر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أمره الله سبحانه أن يسبحه في بعض الليل. قال مقاتل: أي: صل المغرب والعشاء، وقيل: ركعتي الفجر ﴿وَإِذَا جَاءَ النَّجْمُ﴾ أي: وقت إنبائها من آخر الليل، وقيل: صلاة الفجر، واختاره ابن جرير، وقيل: هو التسبيح في إنبار الصلوات، قرأ الجمهور (إنبار) بكسر الهمزة على أنه مصدر، وقرأ سالم بن أبي الجعد، ومحمد بن السميع، ويعقوب، والمنهال بن عمر بفتحها على الجمع أي: أعقاب النجوم وإنبارها: إذا غربت، ودبر الأمر: آخره، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة «ق».

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ قال: المضطرون، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: لم هم المنزلون. وأخرج عنه أيضاً ﴿عَذَاباً نُّؤْنُكَ﴾ قال: عذاب القبر قبل يوم القيامة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، والحاكم، وابن مريويه عن أبي هريرة الأسلمي قال: «كان رسول الله ﷺ بأخرة إذا قام من المجلس يقول: سبحانك اللهم وبحمك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. فقال رجل: يا رسول الله إنك لتقول قولاً ما كنت تقول فيما مضى، قال: كفارة لما يكون في المجلس». وأخرجه النسائي، والحاكم من حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية، عن رافع بن خنيج، عن النبي ﷺ. وأخرج الترمذي، وابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس، فكثّر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك». قال الترمذي: حسن صحيح. وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة. وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ قال: الركعتان قبل صلاة الصبح. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَإِذَا جَاءَ النَّجْمُ﴾ قال: ركعتي الفجر.

تفسير سورة النجم

وهي مكية جميعها في قول الجمهور. وروي عن ابن عباس، وعكرمة أنها مكية إلا آية منها، وهي قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَاشَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم: 32] الآية. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النجم بمكة، وأخرج أيضاً عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة، ﴿وَالنَّجْمِ﴾ [أي: سورة النجم] فسجد رسول الله ﷺ، وسجد الناس كلهم، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب، فسجد عليه، فرأيت بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف. وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود قال: أول سورة استعلن بها

الذين يجعلونهم شركاء له. ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم، فقال: ﴿وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ الكسف جمع كسفة: وهي القطعة من الشيء، وانتصاب ساقطاً على الحال، أو على أنه المفعول الثاني، والمركوم: المجعل بعضه على بعض. والمعنى: أنهم إن يروا كسفاً من السماء ساقطاً عليهم لعذابهم، لم ينتهوا عن كفرهم بل يقولون: هو سحب متراكم بعضه على بعض، وقد تقدم اختلاف القراء في كسفاً، قال الأخفش: من قرأ كسفاً، يعني: بكسر الكاف وسكون السين جعله واحداً، ومن قرأ كسفاً، يعني: بكسر الكاف وفتح السين جعله جمعاً. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يتركهم، فقال: ﴿فَذَرِهِمْ حَتَّى يَلْقَاوَا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي: اتركهم وخلّ عنهم حتى يلاقوا يوم موتهم، أو يوم قتلهم ببدر، أو يوم القيامة. قرأ الجمهور (يلاقوا) وقرأ أبو حية (يلقوا) وقرأ الجمهور يصعقون على البناء للمفاعل، وقرأ ابن عامر، وعاصم على البناء للمفعول، والصعقة: الهلاك على ما تقدم بيانه ﴿يَوْمَ لَا يَغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ هو بدل من يومهم أي: لا ينفعهم في ذلك اليوم كيدهم الذي كانوا به رسول الله ﷺ في الدنيا ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي: ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع، بل هو واقع بهم لا محالة ﴿وَأَن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً نُّؤْنُكَ﴾ أي: لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، والمعاصي عذاباً في الدنيا دون عذاب يوم القيامة أي: قبله، وهو قتلهم يوم بدر. وقال ابن زيد: هو مصائب الدنيا من الأوجاع، والأسقام، والبلايا، وذهاب الأموال والأولاد. وقال مجاهد: هو الجوع، والجهد سبع سنين، وقيل: عذاب القبر، وقيل: المراد بالعذاب: هو القحط، وبالعذاب الذي يأتي بعده: هو قتلهم يوم بدر ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه من عذاب الله، وما أعدّه لهم في الدنيا والآخرة ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إلى أن يقع لهم العذاب الذي وعدناهم به ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى ومنظر منا وفي حفظنا وحمايتنا، فلا تبال بهم. قال الزجاج: إنك بحيث نراك ونحفظك، ونرعاك فلا يصلون إليك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: نزه ربك عما لا يليق به متلبساً بحمد ربك على إتعامه عليك حين تقوم من مجلسك. قال عطاء، وسعيد بن جبیر، وسفيان الثوري، وأبو الأحوص: يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول: سبحان الله وبحمده، أو سبحانك اللهم وبحمك عند قيامه من كل مجلس يجلسه. وقال محمد بن كعب، والضحاك، والربيع بن أنس: حين تقوم إلى الصلاة. قال الضحاك: يقول: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، وفيه نظر: لأن التكبير يكون بعد القيام لا حال القيام، ويكون التسبيح بعد التكبير، وهذا غير معنى الآية، فالأول أولى. وقيل المعنى: صلّ الله حين تقوم من منامك، وبه قال أبو الجوزاء، وحسان بن عطية. وقال الكلبي: وإنكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة، وهي صلاة

تسبح بها الأباغروهي تهوى هوى النبلو أسلمها الرشاء
ويقال: هوى في السير: إذا مضى؛ ومنه قول الشاعر:

بينما نحن بالبلاكت فالفقا ع سراعاً والعيس تهوى هوى
خطرت خطرة على القلب من نكراك وهنا فما استطعت مضيا
ومعنى الهوى على قول من فسر النجم بالقرآن: أنه نزل
من أعلا إلى أسفل، وأما على قول من قال إنه الشجر الذي
لا ساق له، أو أنه محمد ﷺ، فلا يظهر للهوى معنى
صحيح، والعامل في الظرف فعل القسم المقدر، وجواب
القسم قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ أي: ما ضل
محمد ﷺ عن الحق والهدى، ولا عدل عنه، والغى: ضد
الرشد، أي: ما صار غاوباً ولا تكلم بالباطل، وقيل: ما خاب
فيما طلب، والغى: الخيبة، ومنه قول الشاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً
وفي قوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارة بأنهم المطلعون على
حقيقة حاله، والخطاب لقريش ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾
أي: ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن، ولا بغيره، فعن
على بابها. وقال أبو عبيدة: إن عن بمعنى الباء أي: بالهوى.
قال قتادة: أي: ما ينطق بالقراءة عن هواه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ
يُوحَى﴾ أي: ما هو الذي ينطق به إلا وحى من الله يوحى
إليه. وقوله: ﴿يُوحَى﴾ صفة لوحى تفيد الاستمرار التجديدي،
وتفيد نفي المجاز أي: هو وحى حقيقة لا لمجرد التسمية
﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ القوى جمع قوة، والمعنى: أنه علمه
جبريل الذي هو شديد قواه، هكذا قال أكثر المفسرين إن
المراد: جبريل. وقال الحسن: هو الله عز وجل، والأول أولى،
وهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿ذُو مِرَّةٍ
فَاسْتَوَى﴾ المرة: القوة والشدة في الخلق، وقيل: ذو صفة
جسم وسلامة من الآفات، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تحل
الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي». وقيل: ذو حصانة عقل،
ومتانة رأي. قال قطرب: العرب تقول لكل من هو جزل
الرأي: حصيف العقل ذو مرة، ومنه قول الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذامرةً عندي لكل مخاصم ميزانه
والتفسير للمرة بهذا أولى؛ لأن القوة والشدة قد أفادها
قوله: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ قال الجوهري: المرة إحدى الطبائع
الأربع، والمرة: القوة وشدة العقل، والفاء في قوله:
﴿فَاسْتَوَى﴾ للمعطف على علمه، يعني جبريل أي: ارتفع
وعاد إلى مكانه في السماء بعد أن علم محمداً ﷺ، قاله
سعيد بن المسيب، وسعيد بن جببر، وقيل: معنى استوى:
قام في صورته التي خلقه الله عليها؛ لأنه كان يأتي النبي
ﷺ في صورة الأكمين، وقيل المعنى: فاستوى القرآن في
صدره ﷺ. وقال الحسن: فاستوى يعني: الله عز وجل على
العرش ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ هذه الجملة في محل نصب
على الحال أي: فاستوى جبريل حال كونه بالأفق الأعلى،
والمراد بالأفق الأعلى: جانب المشرق، وهو فوق جانب
المغرب، وقيل المعنى: فاستوى عالياً، والأفق: ناحية السماء،
وجمعه أفاق، قال قتادة، ومجاهد: هو الموضع الذي تطلع

النبي ﷺ يقرؤها، ﴿وَالنَّجْمِ﴾. وأخرج ابن مريويه،
والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال: «صلى بنا رسول الله
ﷺ، فقرأ النجم، فسجد بنا، فاطل السجود». وأخرج ابن
مريويه عن عائشة: «أن النبي ﷺ قرأ النجم، فلما بلغ
السجدة سجد فيها». وأخرج الطيالسي، وابن أبي شيبة،
وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي،
والطبراني، وابن مريويه عن زيد بن ثابت قال: قرأت النجم
عند النبي ﷺ، فلم يسجد فيها. وأخرج ابن مريويه عن ابن
عباس قال: كان رسول الله ﷺ يسجد في النجم بمكة، فلما
هاجر إلى المدينة تركها. وأخرج أيضاً عنه أن رسول الله
ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾
وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ لَمَّا دَنَا بِالنَّجْمِ ﴿٨﴾ فَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْوَجْهُ ﴿٩﴾ فَكَرِهَ
إِلَىٰ عَبْدِهِ ﴿١٠﴾ مَا أَوْحَىٰ ﴿١١﴾ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١٢﴾ أَفَتُحْصِرُونَ عَلَّامَ الْغُيُوبِ ﴿١٣﴾
وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٥﴾ عِنْدَمَا جَنَّ لِلْأَوَّلَىٰ ﴿١٦﴾ إِذْ
يَتَنَبَّأُ الْمَلَائِكَةُ ﴿١٧﴾ مَا يَفْقَهُ ﴿١٨﴾ مَا رَأَىٰ الْبَصَرُ وَمَا كَلَّمَ ﴿١٩﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ
الْكَوْثَىٰ ﴿٢٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَنَّىٰ ﴿٢١﴾ وَنَزْلَةَ الْغَالِغَةِ الْأَخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ أَتَكْتُمُ
الذِّكْرَ وَلَكِنَّ الْأُنثَىٰ ﴿٢٣﴾ عَلَيْهَا إِذَا يُنْفَخُ صَبْرُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُهَا ﴿٢٥﴾
أَسْمَاءُ وَهَآؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِن يَبْعَثْ إِلَّا نَفْلًا ﴿٢٦﴾ وَمَا تَهْوَى
الْأُنْثَىٰ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٧﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٨﴾ فَلِلْآخِرَةِ
وَالْأُولَىٰ ﴿٢٩﴾ رَكَرَكَ مِنْ مَّالِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَتَّبِعُ شَفَعَتَهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَدَىٰ
أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَحْمَةً ﴿٣٠﴾

قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ التعريف للجنس، والمراد به:
جنس النجوم، وبه قال جماعة من المفسرين، ومنه قول
عمر بن أبي ربيعة:

لحسن النجم في السماء الثريا والثريا في الأرض زين للنساء
وقيل: المراد به الثريا، وهو اسم غلب فيها، تقول العرب:
النجم وتريد به الثريا، وبه قال مجاهد، وغيره، وقال السدي:
النجم هنا هو الزهرة؛ لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها،
وقيل: النجم هنا: الثبت الذي لا ساق له، كما في قوله:
﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: 6] قاله الأخفش.
وقيل: النجم محمد ﷺ، وقيل: النجم القرآن، وسمي نجماً
لكونه نزل منجماً مفزقاً، والعرب تسمي التفريق تنجيماً،
والمفروق: المنجم، وبه قال مجاهد، والفراء، وغيرهما، والأول
أولى. قال الحسن: المراد بالنجم: النجوم إذا سقطت يوم
القيامة. وقيل المراد بها: النجوم التي ترجم بها الشياطين،
ومعنى هوية: سقوطه من علو، يقال: هوى النجم يهوي
هويًا: إذا سقط من علو إلى أسفل، وقيل: غرويه، وقيل:
طلوعه، والأول أولى، وبه قال الأصمعي وغيره، ومنه قول
زهير:

منه الشمس، وقيل: هو يعني جبريل، والنبي ﷺ بالافق الأعلى ليلة المعراج، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة **﴿ثم بنا فتلى﴾** أي: دنا جبريل بعد استوائه بالافق الأعلى أي: قرب من الأرض فتلى، فنزل على النبي ﷺ بالوحي، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: ثم تلى فدى، قاله ابن الأنباري، وغيره. قال الزجاج: معنى **﴿بنا فتلى﴾** واحد أي: قرب وزاد في القرب؛ كما تقول: فدنا مني فلان وقرب، ولو قلت: قرب مني وبنا جاز. قال الفراء: الفاء في **﴿فتلى﴾** بمعنى الواو، والتقدير: ثم تلى جبريل وبنا، ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً أن تقدم أيهما شئت. قال الجمهور: والذي بنا فتلى هو جبريل، وقيل: هو النبي ﷺ والمعنى: دنا منه أمره وحكمه، والأول أولى. قيل: ومن قال: إن الذي استوى هو جبريل، ومحمد فالمعنى عنده: ثم بنا محمد من ربه دنوا كرامة، فتلى أي: هوى للسجود، وبه قال الضحاك **﴿فكان قاب قوسين أو أنسى﴾** أي: فكان مقدار ما بين جبريل ومحمد ﷺ، أو ما بين محمد وربه قاب قوسين أي: قدر قوسين عربيين. والقاب والقيب، والقاد والقيد: المقدار، ذكر معناه في الصحاح. قال الزجاج: أي: فيما تقدرون أنتم، والله سبحانه عالم بمقايير الأشياء، ولكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا. وقيل: أو بمعنى الواو أي: وأنسى، وقيل: بمعنى بل أي: بل أنسى. وقال سعيد بن جبيرة، وعطاء، وأبو إسحاق الهمداني، وأبو وائل شقيق بن سلمة **﴿فكان قاب قوسين﴾**: قدر زراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، وهي لغة بعض الحجازيين، وقيل: هي لغة أزد شنوءة. وقال الكسائي: فكان قاب قوسين أراد قوساً واحدة **﴿فاوحى إلى عبده ما أوحى﴾** أي: فأوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى، وفيه تفخيم للوحي الذي أوحى إليه، والوحي: إلقاء الشيء بسرعة، ومنه الوحا وهو السرعة، والضمير في عبده يرجع إلى الله، كما في قوله: **﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾** [فاطر: 45] وقيل المعنى: فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى، وبالأول قال الربيع، والحسن، وابن زيد، وقتادة. وقيل: فأوحى الله إلى عبده محمد. قيل: وقد أبهم الله سبحانه ما أوحاه جبريل إلى محمد، أو ما أوحاه الله إلى عبده جبريل، أو إلى محمد ولم يبينه لنا، فليس لنا أن نتعرض لتفسيره. وقال سعيد بن جبيرة: الذي أوحى إليه هو **﴿إلم نشرح لك صدرك﴾** [الشرح: 1] إلخ، و **﴿إلم يديك يتما فآرى﴾** [الضحى: 6] إلخ. وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمك. وقيل: إن ما للعموم لا للإبهام، والمراد: كل ما أوحى به إليه، والحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم **﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾** أي: ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه بصره ليلة المعراج، يقال: كذب إذا قال له الكذب، ولم يصدق. قال المبرد: معنى الآية: أنه رأى شيئاً فصنق فيه، قرأ الجمهور (ما كذب) مخففاً، وقرأ هشام، وأبو جعفر بالتشديد **﴿وما﴾** في **﴿ما رأى﴾** موصولة أو مصدرية في

محل نصب بكذب مخففاً ومشدداً **﴿اقتمارونه على ما يرى﴾**. قرأ الجمهور (اقتمارونه) بالالف من المماراة، وهي المجالبة والملاحاة، وقرأ حمزة، والكسائي (اقتمرونه) بفتح التاء وسكون الميم أي: اقتجبنوه، واختار أبو عبيد القراءة الثانية. قال: لأنهم لم يماروه، وإنما جحدوه، يقال: مراه حقه أي: جحده، ومريته أنا: جحدته، قال: ومنه قول الشاعر: لأن هجوت لأصنق ومكرمة لقد مريت أخاً ما كان يمرىكا أي: جحدته. قال المبرد: يقال: أمراه عن حقه، وعلى حقه: إذا منعه منه وبقعه. وقيل: على بمعنى عن، وقرأ ابن مسعود، والشعبي، ومجاهد، والأعرج (اقتمرونه) بضم التاء من أمرت أي: اتريبونوه وتشككون فيه، قال جماعة من المفسرين: المعنى على قراءة الجمهور اقتجالبونه، وذلك أنهم جالبوه حين أسري به، فقالوا: صف لنا مسجد بيت المقدس، أي: اقتجالبونه جداً ترومون به دفعه عما شاهده وعلمه، واللام في قوله: **﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾** هي الموطئة للقسم أي: والله لقد رآه نزلة أخرى، والنزلة المرة من النزول، فانتصابها على الظرفية، أو منتصبة على المصدر الواقع موقع الحال أي: رأى جبريل نازلاً نزلة أخرى، أو على أنه صفة مصدر مؤكد محذوف أي: رآه رؤية أخرى. قال جمهور المفسرين: المعنى أنه رأى محمد جبريل مرة أخرى، وقيل: رأى محمد ربه مرة أخرى بفؤاده **﴿عند سدرة المنتهى﴾** الظرف منتصب برأه، والسر: هو شجر النبق، وهذه السدرة هي في السماء السادسة، كما في الصحيح، وروي أنها في السماء السابعة، والمنتهى: مكان الانتهاء، أو هو مصدر ميمي، والمراد به الانتهاء نفسه، قيل: إليها ينتهي علم الخلائق، ولا يعلم أحد منهم ما وراءها، وقيل: ينتهي إليها ما يعرج به في الأرض، وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء، وقيل غير ذلك. وإضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشيء إلى مكانه **﴿عندها جنة المأوى﴾** أي: عند تلك السدرة جنة تعرف بجنة المأوى، وسميت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم، وقيل: إن أرواح المؤمنين تأوي إليها. قرأ الجمهور (جنة) برفع جنة على أنها مبتدأ، وخبرها الظرف المتقدم. وقرأ علي، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وابن الزبير، وأنس، وزر بن حبيش، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وأبو سبرة الجهني (جنة) فعلاً ماضياً من جنّ يجنّ أي: ضمه المبيت، أو ستره إيواء الله له، قال الأخفش: أدركه، كما تقول: جنة الليل أي: ستره وأدركه، والجملة في محل نصب على الحال **﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾** العامل في الظرف رآه أيضاً، وهو ظرف زمان، والذي قبله ظرف مكان، والغشيان بمعنى التغطية والستر، وبمعنى الإتيان يقال: فلان يغشاني كل حين أي: يأتيني، وفي الإبهام في قوله: **﴿ما يغشى﴾** من التفخيم ما لا يخفى، وقيل: يغشاه جراد من ذهب، وقيل: طوائف من الملائكة. وقال مجاهد: رفرف أخضر، وقيل: رفرف من طيور خضر، وقيل: غشبهها أمر الله، والمجيء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً

سمرات ببطن نخلة. وقال سعيد بن جببر: العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه. وقال قتادة: هي بيت كان ببطن نخلة ﴿ومناة﴾ صنم بني هلال. وقال ابن هشام: صنم هذيل وخزاعة. وقال قتادة: كانت للأنصار. قرأ الجمهور (مناة) بالغ من نون همزة، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحמיד، ومجاهد، والسلمي بالمد والهمز. فأما قراءة الجمهور، فاشتقاقها من منى يمنى، أي: صب؛ لأن دماء النساء كانت تصب عندها يتقربون بذلك إليها. وأما على القراءة الثانية، فاشتقاقها من النوء، وهو المطر؛ لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء، وقيل: هما لغتان للعرب، ومما جاء على القراءة الأولى قول جرير:

أزيد مناة توعديا بن تميم تامل ابن تاه بك الوعيد
ومما جاء على القراءة الأخرى قول الحارثي:
أهل أتى التيم بن عبد مناة - على السرفيما بيننا ابن تميم
وقف جمهور القراء عليها بالتاء اتباعاً لرسم المصحف،
ووقف ابن كثير، وابن محيصن عليها بالهاء. قال في
الصحاح: ومناة اسم صنم كان بين مكة والمدينة، والهاء
للتانيث، ويسكت عليها بالتاء، وهي لغة، قوله: ﴿الثالثة
الأخرى﴾ هذا وصف لمناة، وصفها بأنها ثالثة، وبأنها
أخرى، والثالثة لا تكون إلا أخرى. قال أبو البقاء: فالوصف
بالأخرى للتأكيد، وقد استشكل وصف الثالثة بالأخرى،
والعرب إنما تصف به الثانية، فقال الخليل: إنما قال ذلك
لوفاق رموس الآي كقوله: ﴿مأرب أخرى﴾ [طه: 18] وقال
الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: أنرايتم
اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة. وقيل: إن وصفها
بالأخرى لقصد التعظيم؛ لأنها كانت عند المشركين عظيمة،
وقيل: إن ذلك للتحقير والذم، وإن المراد المتأخرة الوضعية،
كما في قوله: ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ [الأعراف: 38] أي:
وضعاؤهم لرؤسائهم. ثم كثر سبحانه توبيخهم وتقريعهم
بمقالة شتعا قالوها، فقال: ﴿الحكم الذكر وله الأنثى﴾ أي:
كيف تجعلون لله ما تكرهون من الإناث، وتجعلون لأنفسكم
ما تحبون من الذكور، قيل: وذلك قولهم إن الملائكة بنات الله،
وقيل المراد: كيف تجعلون اللات والعزى ومناة، وهي إناث
في زعمكم شركاء لله، ومن شأنهم أن يحتقروا الإناث. ثم
ذكر سبحانه أن هذه التسمية، والقسمة المفهومة من
الاستفهام قسمة جائرة، فقال: ﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾
قرأ الجمهور (ضيزى) بياء ساكنة بغير همزة، وقرأ ابن
كثير بهمزة ساكنة، والمعنى: أنها قسمة خارجة عن الصواب
جائرة عن العدل مائلة عن الحق. قال الاخفش: يقال: ضان
في الحكم أي: جار، وضاره حقه يضيئه ضيزاً أي: نقصه
ويخسه، قال: وقد يهزم، وأنشد:

فلن تناء عنا ننتقصك وإن تغب فحقت مضنوز وانفك راغم
وقال الكسائي: ضان يضيئ ضيزاً، وضان يضوز ضوزاً:
إذا تعدى وظلم ويخس وانتقص، ومنه قول الشاعر:
ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

للصورة البديعة، أو للدلالة على الاستمرار التجديدي ﴿ما
زأغ البصر﴾ أي: ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه ﴿وما
طغى﴾ أي: ما جاوز ما رأى، وفي هذا وصف أئب النبي
ﷺ في ذلك المقام، حيث لم يلتفت، ولم يمل بصره، ولم
يمده إلى غير ما رأى، وقيل: ما جاوز ما أمر به ﴿لقد رأى
من آيات ربه الكبرى﴾ أي: والله لقد رأى تلك الليلة من
آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف، قيل: رأى رفقاً سد
الافق، وقيل: رأى جبريل في حلة خضراء قد ملأ ما بين
السماء والأرض له ستمائة جناح، كذا في صحيح مسلم،
وغیره، وقال الضحاك: رأى سدره المنتهى، وقيل: هو كل ما
رآه تلك الليلة في مسراه وعوده، ومن للتبعيض، ومفعول
رأى الكبرى، ويجوز أن يكون المفعول محلوفاً أي: رأى
شيئاً عظيماً من آيات ربه، ويجوز أن تكون من زائدة
﴿أفرايتم اللات والعزى﴾ ومناة الثالثة الأخرى ﴿لما
قص الله سبحانه هذه الأفاصيص قال للمشركين: موبخاً لهم
ومقرعاً ﴿أفرايتم﴾ أي: أخبروني عن الأكله التي تعبدونها
من دون الله هل لها قدرة توصف بها، وهل أوحى إليكم
شيئاً، كما أوحى الله إلى محمد، أم هي جمادات لا تعقل ولا
تنفع. ثم نكر هذه الأصنام الثلاثة التي اشتهرت في العرب،
وعظم اعتقادهم فيها. قال الواحدي وغيره: وكانوا يشتقون
لها أسماء من أسماء الله تعالى، فقالوا: من الله اللات، ومن
العزیز العزى، وهي تأنث الأعرى بمعنى العزیزة، ومناة من
منى الله الشيء إذا قدره. قرأ الجمهور (اللات) بتخفيف التاء،
فقيل: هو مأخوذ من اسم الله سبحانه كما تقدم، وقيل: أصله
لات يليت فالتاء أصلية، وقيل: هي زائدة، وأصله لوى يلوي؛
لأنهم كانوا يلون أعتاقهم إليها، أو يلتون عليها، ويطوفون
بها. واختلف القراء هل يوقف عليها بالتاء، أو بالهاء؟ فوقف
عليها الجمهور بالتاء، ووقف عليها الكسائي بالهاء، واختار
الزجاج، والفراء الوقف بالتاء؛ لاتباع رسم المصحف، فإنها
تكتب بالتاء، وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد،
ومنصور بن المعتمر، وأبو الجوزاء، وأبو صالح، وحמיד
(اللات) بتشديد التاء، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير،
فقيل: هو اسم رجل كان يلت السويق، ويطعمه الحاج، فلما
مات عكفوا على قبره يعبدونه، فهو اسم فاعل في الأصل
غلب على هذا الرجل. قال مجاهد: كان رجلاً في رأس جبل
يتخذ من لبنها وسمنها حيساً، ويطعم الحاج، وكان ببطن
نخلة فلما مات عبده. وقال الكلبي: كان رجلاً من ثقيف له
صرمة غنم، وقيل: إنه عامر بن الظرب العدوانى، وكان هذا
الصنم لثقيف، وفيه يقول الشاعر:

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف ينصركم من ليس ينتصر
قال في الصحاح: واللات اسم صنم لثقيف، وكان
بالطائف، وبعض العرب يقف عليها بالتاء، وبعضهم بالهاء
﴿والعزى﴾ صنم قريش، وبني كنانة. قال مجاهد: هي
شجرة كانت بغطفان، وكانوا يعبدونها، فبعث إليها النبي ﷺ
خالد بن الوليد، فقطعها، وقيل: كانت شيطانة تأتي ثلاث

جملة تلك أمنياتهم الباطلة، وأطماعهم الفارغة، ثم أكد ذلك، وزاد في إبطال ما يتمنون، فقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ وكَم هنا هي الخبرية المفيدة للتكثير ومحلها الرفع على الابتداء، والجملة بعدها خبرها، ولما في كم من معنى التكثير جمع الضمير في شفاعتهم مع أفراد الملك، والمعنى: التوبيخ لهم بما يتمنون، ويطمعون فيه من شفاعاة الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها، وكرامتها على الله لا تشفع إلا لمن أنن أن يشفع له، فكيف بهذه الجمادات الفاقدة للعقل والفهم، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُمْ بِالشَّفَاعَةِ﴾ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَى﴾ بالشَّفَاعَةِ له لكونه من أهل التوحيد، وليس للمشركين في ذلك حظ، ولا يائنان الله بالشَّفَاعَةِ لهم ولا يرضاهما؛ لكونهم ليسوا من المستحقين لها.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى﴾ قال: إذا انصب. وأخرج ابن المنذر عنه قال: هو الثريا إذا تلت. وأخرج عنه أيضاً قال: أقسم الله أن ما ضل محمد، ولا غوي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قال: ذو خلق حسن. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود: «أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما واحدة: فإنه سأل أن يراه في صورته فأراه صورته، فسد الأفق، وأما الثانية: فإنه كان معه حيث سعد، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾»، ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال: خلق جبريل. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أن النبي ﷺ قال: «رأيت جبريل عند سكرة المنتهى له ستمائة جناح»، وأخرجه أحمد عنه أيضاً. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ قال: مطلع الشمس. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ قال: «رأى النبي ﷺ جبريل له ستمائة جناح». وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عنه في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلقاً رفرف أخضر قد ملا ما بين السماء والأرض». وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَاقِلُنِي﴾ قال: هو محمد ﷺ ننا نقلنا إلى ربه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عنه قال: ننا ربه نقلنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قال: ننا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: القاب القيد، والقوسين الذراعين. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما أسري بالنبي ﷺ اقترب

قال الفراء: وبعض العرب يقول: ضئزى بالهمز، وحكى أبو حاتم عن أبي زيد أنه سمع العرب تهمز ضيزى، قال البغوي: ليس في كلام العرب فعلى بكسر الفاء في النعوت إنما تكون في الأسماء مثل نكزى، قال المؤرج: كرهوا ضم الضاد في ضيزى، وخافوا انقلاب الياء وأواً وهي من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلة، كما قالوا في جمع أبيض بيض، وكذا قال الزجاج: وقيل: هي مصدر كنكزى، فيكون المعنى: قسمة ذات جور وظلم، ثم رد سبحانه عليهم بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: ما الأوثان، أو الأصنام باعتبار ما تدعونه من كونها آلهة إلا أسماء محضة، ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها؛ لأنها لا تبصر ولا تسمع، ولا تعقل ولا تفهم، ولا تضر ولا تنفع، فليست إلا مجرد أسماء سميتوها أنتم وآبائكم، قلد الآخر فيها الأول، وتبع في ذلك الأبناء الآباء، وفي هذا من التحقير لشأنها ما لا يخفى، كما تقول في تحقير رجل: ما هو إلا أسم إذا لم يكن مشتملاً على صفة معتبرة، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا﴾ [يوسف: 40] يقال: سميته زيداً وسميته بزيد، فقوله: سميتوها صفة لأصنام، والضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام أي: جعلتموها أسماء لا جعلتم لها أسماء. وقيل: إن قوله: ﴿هِيَ﴾ راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة، والأول أولى ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما أنزل بها من حجة ولا برهان. قال مقاتل: لم ينزل لنا كتاباً لكم فيه حجة، كما تقولون إنها آلهة، ثم أخبر عنهم بقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون فيما نكر من التسمية، والعمل بموجبها إلا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، والتفت من الخطاب إلى الغيبة إعرافاً عنهم وتحقيراً لشأنهم، فقال: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أي: تميل إليه، وتشتهيه من غير التفات إلى ما هو الحق الذي يجب الاتباع له. قرأ الجمهور (يتبعون) بالتحية على الغيبة، وقرأ عيسى بن عمر، وأيوب، وابن مسعود، وابن عباس، والخطاب، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود، وابن عباس، وطلحة، وابن وثاب ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ أي: البيان الواضح الظاهر بأنها ليست بآلهة، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يتبعون، ويجوز أن يكون اعتراضاً، والأول أولى. والمعنى: كيف يتبعون ذلك، والحال أن قد جاءهم ما فيه هدى لهم من عند الله على لسان رسوله الذي بعث الله بين ظهرانيهم، وجعله من أنفسهم ﴿وَمَا لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَى﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل، والهمزة التي للإنكار، فاضرب عن اتباعهم الظن الذي هو مجرد التوهم، وعن اتباعهم هوى الأنفس، وما تميل إليه، وانتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم، وتشفع لهم. ثم علل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله: ﴿فَلْيَلْهُمُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي: أن أمور الآخرة والندنيا بأسرها لله عز وجل، فليس لهم معه أمر من الأمور، ومن

أَعْلَمُ بِشَيْءٍ آتٍ ۖ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۖ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثًا ۚ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ۚ ۝١٥ أَمْ لَمْ يَلِدْ يَمًا فِي مَحْجَبٍ مَوْحٍ ۚ ۝١٦ زَايِرُكُمْ الَّذِي يَأْتِيهِم بِالْحَيَاةِ ۖ وَكَانَ الْآخِرُ يَزِيدُ ۚ ۝١٧ وَالَّذِي يُنَزِّلُ الْغَوَاثِرَ ۖ مَا رَأَىٰ ۚ ۝١٨ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۚ ۝١٩ قَالَ: رَأَىٰ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ بِقَلْبِهِ مَرَّتَيْنِ. وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الاسماء والصفات عنه في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْغَوَاثِرَ مَا رَأَىٰ﴾. ولقد رآه نزلة أخرى. قال: رأى محمد ربه بقلبه مرتين. وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الطبراني، وابن مردويه. وأخرج ابن مردويه عن انس قال: رأى محمد ربه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ رأى ربه بعينه. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنه قال: رأى محمد ربه مرتين مرة ببصره، ومرة بفؤاده. وأخرج الترمذي وحسنه، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي عنه أيضاً قال: لقد رأى النبي ﷺ ربه عز وجل. وأخرج النسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه أيضاً قال: اتعجبون أن تكون الخلعة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد؟ وقد روي نحو هذا عنه من طرق. وأخرج مسلم، والترمذي، وابن مردويه عن أبي نذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيته ربك؟ قال: نور أنى أراه؟. وأخرج مسلم، وابن مردويه عنه: «أنه سأل رسول الله ﷺ هل رأيته ربك؟ قال: رأيته نوراً». وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره. وأخرج مسلم عن أبي هريرة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: جبريل. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى إلى سكرة المنتهى، وهي في السماء السادسة ينتهي ما يعرج من الأرواح، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها. ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدُورَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراش من ذهب. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود قال: «الجنة في السماء السابعة العليا، والنار في الأرض السابعة السفلى». وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: كان اللات رجلاً يلت السويق للحاج. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنه أن العزى كانت بطن نخلة، وأن اللات كانت بالطائف، وأن مناة كانت بقليد. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿مُضْمِرٌ﴾ قال: جاثرة لا حق لها.

من ربه، فكان قاب قوسين أو أدنى، ألم ترى إلى القوس ما أقربها من الوتر. وأخرج النسائي، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قال: عبده محمد ﷺ. وأخرج مسلم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الاسماء والصفات عنه في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْغَوَاثِرَ مَا رَأَىٰ﴾. ولقد رآه نزلة أخرى. قال: رأى محمد ربه بقلبه مرتين. وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الطبراني، وابن مردويه. وأخرج ابن مردويه عن انس قال: رأى محمد ربه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ رأى ربه بعينه. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنه قال: رأى محمد ربه مرتين مرة ببصره، ومرة بفؤاده. وأخرج الترمذي وحسنه، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي عنه أيضاً قال: لقد رأى النبي ﷺ ربه عز وجل. وأخرج النسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه أيضاً قال: اتعجبون أن تكون الخلعة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد؟ وقد روي نحو هذا عنه من طرق. وأخرج مسلم، والترمذي، وابن مردويه عن أبي نذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيته ربك؟ قال: نور أنى أراه؟. وأخرج مسلم، وابن مردويه عنه: «أنه سأل رسول الله ﷺ هل رأيته ربك؟ قال: رأيته نوراً». وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره. وأخرج مسلم عن أبي هريرة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: جبريل. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى إلى سكرة المنتهى، وهي في السماء السادسة ينتهي ما يعرج من الأرواح، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها. ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدُورَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراش من ذهب. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود قال: «الجنة في السماء السابعة العليا، والنار في الأرض السابعة السفلى». وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: كان اللات رجلاً يلت السويق للحاج. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنه أن العزى كانت بطن نخلة، وأن اللات كانت بالطائف، وأن مناة كانت بقليد. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿مُضْمِرٌ﴾ قال: جاثرة لا حق لها.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسَمُّونَكَ سَيِّئَ الْأَنْثَىٰ ۖ وَيَأْمُرُونَكَ بِأَنْ يَكُونَ لَكَ نَارٌ ۖ وَإِلَّا تَقُولُ لَكَ نَارٌ ۖ وَإِلَّا تَقُولُ لَكَ نَارٌ ۖ لَا يَخْفَىٰ مِنْ اللَّهِ شَيْءٌ ۚ ۝١٥ فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَا نُرِيدُ إِلَّا الْآخِرَةَ ۚ ۝١٦ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْغَيْثِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن مَّزَلَ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِشَيْءٍ آتٍ ۚ وَلَوْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَيَجْعَلَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْعَلَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝١٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝١٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝١٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٢٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٢١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٢٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٢٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٢٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٢٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٢٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٢٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٢٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٢٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٣٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٣١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٣٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٣٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٣٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٣٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٣٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٣٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٣٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٣٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٤٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٤١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٤٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٤٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٤٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٤٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٤٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٤٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٤٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٤٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٥٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٥١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٥٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٥٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٥٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٥٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٥٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٥٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٥٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٥٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٦٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٦١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٦٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٦٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٦٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٦٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٦٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٦٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٦٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٦٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٧٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٧١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٧٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٧٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٧٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٧٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٧٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٧٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٧٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٧٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٨٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٨١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٨٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٨٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٨٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٨٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٨٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٨٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٨٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٨٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٩٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٩١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٩٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٩٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٩٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٩٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٩٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٩٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٩٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝٩٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا ۚ ۝١٠٠

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسَمُّونَكَ سَيِّئَ الْمَلَائِكَةِ﴾ تسمية الأنثى. أي: أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث، وما بعده من الدار الآخرة، وهم الكفار يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء، وجهالة جهلاء، وهي أنهم يسمون الملائكة المنزهين عن كل نقص تسمية الأنثى، وذلك أنهم زعموا أنها بنات الله، فجعلوهم إناثاً، وسموهم بنات ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال أي: يسمونهم هذه التسمية، والحال أنهم غير عالمين بما يقولون، فإنهم لم يعرفوهم، ولا شأموهم، ولا بلغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التي يخبر المخبرون عنها، بل قالوا ذلك جهلاً وضلالةً وجراً، وقرئ (يا لهم بها) أي: بالملائكة، أو التسمية ﴿إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون في هذه المقالة إلا مجرد الظن، والتوهم، ثم أخبر سبحانه عن الظن وحكمه، فقال: ﴿وَأَنَّ لِلظَّنِّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: إن جنس الظن لا يغني من الحق شيئاً من الإغناء، والحق هنا العلم، وفيه دليل على أن مجرد الظن لا يقوم مقام العلم، وأن الظن غير عالم. وهذا في الأمور التي يحتاج فيها إلى العلم، وهي المسائل العلمية؛ لا فيما يكتفي فيه بالظن، وهي المسائل العملية، وقد قدمنا تحقيق هذا. ولا بد من هذا التخصيص، فإن دلالة العموم والقياس وخبر الواحد، ونحو ذلك ظنية، فالعمل بها عمل بالظن، وقد وجب علينا العمل به في مثل هذه الأمور، فكانت ألة وجوب العمل به فيها مخصصة لهذا العموم، وما ورد في معناه من الذم؛ لمن عمل بالظن؛ والنهي عن اتباعه ﴿فَاعْرِضْ عَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: أعرض عن ذكرنا، والمراد بالذكر هنا القرآن، أو نكر الآخرة، أو نكر الله على العموم، وقيل: المراد بالذكر هنا الإيمان، والمعنى: اترك مجالستهم، فقد بلغت إليهم ما أمرت به، وليس عليك إلا البلاغ، وهذا منسوخ بآية السيف ﴿وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: لم يرد سواها، ولا طلب غيرها بل قصر نظره عليها، فإنه غير متأمل للخير، ولا مستحق للاعتناء بشأنه. ثم صغر سبحانه شأنهم وحقر أمرهم، فقال: ﴿تِلْكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: إن ذلك التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم ليس لهم غيره، ولا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين. قال الفراء: أي: تلك قدر عقولهم، ونهاية علمهم أن أتروا الدنيا على الآخرة، وقيل: الإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى جعلهم للملائكة بنات الله، وتسميتهم لهم تسمية الأنثى، والأول أولى. والمراد بالعلم هنا. مطلق الإدراك الذي يندرج تحته الظن الفاسد، والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم،

وقول الآخر:

متى تاتنا تلمع بنا في بيارنا تجد حطبا جزلاً وناراً تاجحاً
قال الزجاج: أصل اللمع والإلمام ما يعمل به الإنسان المرة
بعد المرة، ولا يتعمق فيه، ولا يقيم عليه، يقال: ألممت به إذا
زرت، وانصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لماماً وإلماماً أي:
الحين بعد الحين، ومنه إلمام الخيال. قال الأعشى:
لَمْ خيال من قبيلة بعد ما رعى حبلاً من حبلاً فتصرماً
قال في الصحاح: ألم الرجل من المم وهو صفائر
الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير واقعة، وأنشد
غيره:

بزينب ألم قبل أن يرحل الربك وقل أن تملينا فما ملك القلب
وقد اختلفت أقوال أهل العلم في تفسير هذا اللمع
المنكر في الآية، فالجمهور على أنه صفائر الذنوب، وقيل:
هو ما كان دون الزنا من القبلة، والغمرة، والنظرة، وقيل: هو
الرجل يلم بذنوب، ثم يتوب، وبه قال مجاهد، والحسن،
والزهري، وغيرهم، ومنه:

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأني عبد لك إلا ألسماً
اختار هذا القول الزجاج، والنحاس، وقيل: هو ذنوب
الجاهلية، فإن الله لا يؤاخذ بها في الإسلام، وقال نبطويه:
هو أن يأتي بذنوب لم يكن له بعادة. قال: والعرب تقول: ما
تاتينا إلا إلماماً أي: في الحين بعد الحين، قال: ولا يكون أن
يلم ولا يفعل؛ لأن العرب لا تقول ألم بنا إلا إذا فعل، لا إذا
هم ولم يفعل، والراجح الأول، وجملة: «إن ربك واسع
المغفرة» تعليل لما تضمنته الاستثناء أي: إن ذلك وإن خرج
عن حكم المؤاخذه، فليس يخلو عن كونه ذنباً يفتقر إلى
مغفرة الله، ويحتاج إلى رحمته، وقيل: إنه سبحانه يغفر لمن
تاب عن ذنبه. ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده،
فقال: «هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض» أي: خلقكم
منها في ضمن خلق أبيكم آدم. وقيل: المراد آدم، فإنه خلقه
من طين «وإذ أنتم أجنة» أي: هو أعلم بأحوالكم وقت
كونكم أجنة، والأجنة جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن
سمي بذلك لأجنتانه أي: استتاره، ولهذا قال: «في بطون
أمهاتكم» فلا يسمى من خرج عن البطن جنيناً، والجملة
مستأنفة؛ لتقرير ما قبلها «فلا تزكوا أنفسكم» أي: لا
تمسحوها ولا تبرئوها عن الآثام ولا تثنوا عليها، فإن ترك
تزكية النفس أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع، وجملة
«هو أعلم بمن اتقى»: مستأنفة مقررة للنهي أي: هو أعلم
بمن اتقى عقوبة الله، وأخلص العمل له. قال الحسن: وقد علم
سبحانه من كل نفس ما هي عاملة، وما هي صانعة، وإلى ما
هي صائرة. ثم لما بين سبحانه جهالة المشركين على
العموم خصّ بالنعم بعضهم فقال: «الفرأيت الذي تولى»
أي: تولى عن الخير، وأعرض عن اتباع الحق «وواعطى
قليلاً وكدي» أي: أعطى عطاءً قليلاً، أو أعطى شيئاً قليلاً،
وقطع ذلك وأمسك عنه، وأصل اكدي من الكدية وهي
الصلاية، يقال لمن حفر بئراً ثم بلغ فيها إلى حجر لا يتهيا

واتباعهم مجرد الظن، وقيل: معترضة بين المعلل والعلة
وهي قوله: «إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو
أعلم بمن اهتدى»، فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض،
والمعنى: أنه سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق، وأعرض عنه،
ولم يهتد إليه، وأعلم بمن اهتدى، فقبل الحق، وأقبل إليه،
وعمل به، فهو مجاز كل عامل بعمله، إن خيراً، فخير وإن
شراً فشر. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وإرشاد له بأن لا
يتعب نفسه في دعوة من أصرّ على الضلالة، وسبقت له
الشقاوة، فإن الله قد علم حال هذا الفريق الضال، كما علم
حال الفريق الراشد، ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته،
وعظيم ملكه، فقال: «هو ما في السموات وما في
الأرض» أي: هو المالك لذلك، والمتصرف فيه لا يشاركه
فيه أحد، واللام في: «ليجزى الذين أساءوا بما عملوا»
متعلقة بما دلّ عليه الكلام، كنهه قال: هو مالك ذلك يضل من
يشاء، ويهدي من يشاء ليجزي المسيء بإساءته، والمحسن
بإحسانه. وقيل: إن قوله: «هو ما في السموات وما في
الأرض» معترضة، والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن
سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي، وقيل: هي لام العاقبة
أي: وعاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن، والمسيء أن
يجزي الله كلا منهما بعمله. وقال مكي: إن اللام متعلقة
بقوله: «لا تغني شفاعتهم» [النجم: 26] وهو بعيد من حيث
اللفظ، ومن حيث المعنى. قرأ الجمهور (ليجزى) بالتحية.
وقرأ زيد بن علي بالنون، ومعنى «بالحسن» أي: بالمثوبة
الحسنى، وهي الجنة، أو بسبب أعمالهم الحسنى، ثم وصف
هؤلاء المحسنين، فقال: «الذين يجتنبون كبائر الإثم
والفواحش» فهذا الموصول في محل نصب على أنه نعت
للموصول الأول في قوله: «الذين أحسنوا» وقيل: بدل
منه، وقيل: بيان له، وقيل: منصوب على المدح بإضمار
أعني، أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم
الذين يجتنبون كبائر الإثم. قرأ الجمهور (كبائر) على الجمع.
وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب (كبير)
على الإفراد، والكبائر: كل ذنب توعده الله عليه بالنار، أو نمّ
فاعله نمّاً شديداً، ولأهل العلم في تحقيق الكبائر كلام طويل.
وكما اختلفوا في تحقيق معناها، وماهيتها، اختلفوا في
عندها، والفواحش جمع فاحشة: وهي ما فحش من كبائر
الذنوب كالزنا ونحوه. وقال مقاتل: كبائر الإثم كل ذنب ختم
بالنار، والفواحش كل ذنب فيه الحد، وقيل: الكبائر الشرك،
والفواحش الزنا، وقد قُسمنا في سورة النساء ما هو أبسط
من هذا، وأكثر فائدة، والاستثناء بقوله: «إلا اللعم» منقطع،
وأصل اللعم في اللغة ما قلّ وصغر، ومنه ألم بالمكان قلّ
لبث فيه، وألم بالطعام قلّ أكله منه. قال المبرد: أصل اللعم
أن تلم بالشيء من غير أن تركبه يقال: ألم بكذا إذا قاربته ولم
يخالطه. قال الأزهري: العرب تستعمل الإلمام في معنى الدنو
والقرب، ومنه قول جرير:

بنفسي من تجنّب عزيّ عليّ ومن زيارته لمام

له فيه حفر: قد اكدى، ثم استعملته العرب لمن أعطى فلم يتم، ولمن طلب شيئاً فلم يبلغ آخره، ومنه قول الحطيئة: فاعطى قليلاً ثم اكدى عطاؤه ومن يبذل المعروف في الناس يحمده قال الكسائي، وأبو زيد، ويقال: كديت أصابعه، إذا محلت من الحفر، وكدت يده، إذا كلت، فلم تعمل شيئاً، وكدت الأرض: إذا قل نباتها، وكديت الرجل عن الشيء رديته، وكدى الرجل: إذا قل خير، قال الفراء: معنى الآية: أمسك من العطية وقطع. وقال المبرد: منع منعاً شديداً. قال مجاهد، وابن زيد، ومقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه، فعيره بعض المشركين، فترك ورجع إلى شركه. قال مقاتل: كان الوليد مدح القرآن، ثم أمسك عنه، فاعطى قليلاً من لسانه من الخير ثم قطعه. وقال الضحاك: نزلت في النضر بن الحارث. وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت في أبي جهل **﴿اعنده علم للغيب فهو يرى﴾** الاستفهام للتقريب والتوبيخ، والمعنى: أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه من أمر العذاب، فهو يعلم ذلك **﴿لم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى﴾** أي: ألم يخبر، ولم يحدث بما في صحف موسى يعني: أسفاره، وهي التوراة، وبما في صحف إبراهيم الذي وفى أي: تم واكمل ما أمر به. قال المفسرون: أي: بلغ قومه ما أمر به وأذاه إليهم، وقيل: بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه، ثم بين سبحانه ما في صحفهما، فقال: **﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾** أي: لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى، ومعناه: لا تؤخذ نفس بئب غيرها، وأن هي المخففة من الثقلية، واسمها ضمير شأن مقتر، وخبرها الجملة بعدها، ومحل الجملة الجزر على أنها بدل من صحف موسى، وصحف إبراهيم، أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، وقد مضى تفسير هذه الآية في سورة الأنعام **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** عطف على قوله: **﴿ألا تزر﴾** وهذا أيضاً مما في صحف موسى، والمعنى: ليس له إلا أجر سعيه، وجزاء عمله، ولا ينفع أحداً عمل أحد، وهذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه: **﴿الحقنا بهم نزياتهم﴾** [الطور: 21]، ويمثل ما ورد في شفاعة الأنبياء، والملائكة للعباد، ومشروعية دعاء الأحياء للأموات، ونحو ذلك، ولم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور، فإن الخاص لا ينسخ العام بل يخصه، فكل ما قام الليل على أن الإنسان ينتفع به، وهو من غير سعيه كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم **﴿وأن سعيه سوف يرى﴾** أي: يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة **﴿ثم يجزاه﴾** أي: يجزى الإنسان سعيه، يقال: جزاه الله بعمله، وجزاء على عمله، فالضمير المرفوع علته إلى الإنسان، والمنصوب إلى سعيه. وقيل: إن الضمير المنصوب راجع إلى الجزاء المتأخر وهو قوله: **﴿الجزء الأوفى﴾** فيكون الضمير راجعاً إلى متأخر عنه هو مفسر له، ويجوز أن يكون الضمير المنصوب راجعاً إلى الجزاء الذي هو مصدر يجزاه، ويجعل الجزاء

الأوفى تفسيراً للجزاء الملل عليه بالفعل، كما في قوله: **﴿اعملوا هو أقرب﴾** [المائدة: 8] قال الأخفش: يقال: جزيته الجزاء، وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما **﴿وأن إلى ربك للمنتهى﴾** أي: المرجع والمصير إليه سبحانه لا إلى غيره، فيجازيهم بأعمالهم. وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: **﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾** قال: الكبائر ما سمى الله فيه النار، والفواحش: ما كان فيه حد الدنيا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: **﴿إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصنق ذلك، أو يكذبه، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله: **﴿إلا للمم﴾** قال: زنا العينين: النظر، وزنا الشفتين: التقبيل، وزنا اللبدين: البش، وزنا الرجلين: المشي، ويصنق ذلك الفرج، أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللمم. وأخرج مسدد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه سئل عن قوله: **﴿إلا للمم﴾** قال: هي: النظرة، والغمزة، والقبلة، والمباشرة، فإذا مس الختان الختان، فقد وجب الفسل، وهو الزنا. وأخرج سعيد بن منصور، والترمذي وصححه، والبراز، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال في قوله: **﴿إلا للمم﴾** هو: الرجل يلم بالفاحشة، ثم يتوب منها. قال: وقال رسول الله ﷺ:**

﴿إن تغفر اللهم تغفر رجماً وأني عبد لك لا أملك﴾ وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿إلا للمم﴾** يقول: إلا ما قد سلف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة في قوله: **﴿إلا للمم﴾** قال: للمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود، فذلك الإلمام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس قال: اللمم كل شيء بين الحدين: حد الدنيا، وحد الآخرة يكفره الصلاة، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا، فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا؛ وأما حد الآخرة، فكل شيء ختمه الله بالنار، وأخر عقوبته إلى الآخرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم في المعرفة عن ثابت بن الحارث الانصاري قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صديق، فيبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: **﴿كذبت يهود ما من نسمة يخلقها في بطن أمها إلا أنه شقي، أو سعيد، فأنزل الله عند ذلك **﴿هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض﴾** الآية كلها، وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت برة، فقال رسول الله ﷺ: **﴿لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر﴾****

والقاضي بسببه. قال الحسن، والكلي: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار. وقال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر، وقيل: أضحك من شاء في الدنيا بأن سره، وأبكى من شاء بأن غمه. وقال سهل بن عبد الله: أضحك المطيعين بالرحمة، وأبكى العاصين بالسخط **﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾** أي: قضى أسباب الموت والحياة، ولا يقدر على ذلك غيره، وقيل: خلق نفس الموت والحياة، كما في قوله: **﴿خلق الموت والحياة﴾** [الملك: 2] وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء، وقيل: أمات في الدنيا وأحيا للبعث، وقيل: المراد بهما النوم واليقظة. وقال عطاء: أمات بعدله وأحيا بفضل، وقيل: أمات الكافر وأحيا المؤمن، كما في قوله: **﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾** [الأنعام: 122] **﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾** من نطفة إذا تمنى المراد: بالزوجين الذكر، والأنثى من كل حيوان، ولا يدخل في ذلك أم، وحواء، فإنهما لم يخلقا من النطفة والنطفة الماء القليل، ومعنى **﴿إذا تمنى﴾** إذ تصب في الرحم وتدفق فيه، كذا قال الكلي، والضحاك، وعطاء بن أبي رباح، وغيرهم، يقال: مني الرجل وأمنى أي: صب المنى. وقال أبو عبيدة **﴿إذا تمنى﴾** إذا تفرغ، يقال: منيت الشيء: إذا قدرته ومنى له أي: قدر له، ومنه قول الشاعر:

حتى تلاقي ما يمني لك الماني

والمعنى: أنه يقدر منها الولد **﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾** أي: إعادة الأرواح إلى الأجسام عند البعث وفاء بوعده. قرأ الجمهور (النشأة) بالقصر بوزن الضربة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالمد بوزن الكفالة، وهما على القراءتين مصلدان **﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾** أي: أغنى من شاء وأقنى من شاء، ومثله قوله: **﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾** [الرعد: 26] وقوله: **﴿يقبض ويبسط﴾** [البقرة: 245] قاله ابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال مجاهد، وقتادة، والحسن: أغنى: مؤل، وأقنى: أخم، وقيل: معنى أقنى: أعطى القنية، وهي ما يتأكل من الأموال، وقيل: معنى أقنى: أرضى بما أعطى أي: أغناه ثم رضاه بما أعطاه. قال الجوهري: قنى الرجل قنًى، مثل غني غنى أي: أعطاه ما يقتني، وأقناه أرضاه، والقنى الرضى. قال أبو زيد: تقول العرب: من أعطى مائة من البقر فقد أعطى القنى، ومن أعطى مائة من الضأن فقد أعطى الغنى، ومن أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى. قال الأخفش، وابن كيسان: أقنى أققر، وهو يؤيد القول الأول **﴿وأنه هو رب الشعري﴾** هي كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعيدها، والمراد بها: الشعري التي يقال لها العبور، وهي أشد ضياء من الشعري التي يقال لها الغميصاء، وإنما نكر سبحانه أنه رب الشعري مع كونه رباً لكل الأشياء للرد على من كان يعبد، وأول من عبده أبو كبشة، وكان من اشراف العرب، وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ: ابن أبي كبشة تشبهاً به لمخالفته دينهم، كما خالفهم أبو كبشة، ومن ذلك قول أبي سفيان يوم الفتح: لقد أمر امر ابن أبي

منكم سموها زينب. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿وأنه هو رب الشعري﴾** قال: قطع، نزلت في العاص بن وائل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: أطاع قليلاً ثم انقطع. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والشيرازي في اللقب، والديلمي قال السيوطي: بسند ضعيف عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما قوله: **﴿وإبراهيم الذي وقى﴾**؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: وفي عمل يومه بأربع ركعات كان يصليهن، وزعم أنها صلاة الضحى، وفي إسناد جعفر بن الزبير، وهو ضعيف. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: سهاً الإسلام ثلاثون سهاً لم يتمها أحد قبل إبراهيم عليه السلام قال الله: **﴿وإبراهيم الذي وقى﴾**. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: يقول إبراهيم الذي استكمل الطاعة فيما فعل بآبائه حين رأى الرؤيا، والذي في صحف موسى: **﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾** إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وقى؟ إنه كان يقول كلما أصبح، وأمسى: **﴿فسيحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾** [الروم: 17] إلى آخر الآية»، وفي إسناد ابن لهيعة. وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس، قال: لما نزلت **﴿والنجم﴾** قبل **﴿وإبراهيم الذي وقى﴾** قال: وفي **﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾** إلى قوله **﴿ومن لنذر الأولى﴾**. وأخرج أبو داود، والنحاس كلاهما في الناسخ، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عنه قال: **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** فأنزل الله بعد ذلك: **﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان أحققنا بهم ذريتهم﴾** [الطور: 21]، فادخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ: **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى استرجع واستكان. وأخرج الدارقطني في الأفراد، والبيهقي في تفسيره عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله: **﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾** قال: لا فكرة في الرب.

وَأَنَّهُ هُوَ أَشَدُّ وَبَئِى ۖ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ۖ وَأَنَّهُ عَلَى الرَّزَاقِينَ
الْأَكْثَرِ وَالْأَقْنَى ۖ يَنْ تُلَقُّوهُ إِذَا شِئْتُمْ ۖ وَأَنَّ مَعَهُ نُشُوءَ الْآخِرِينَ ۖ وَأَنَّهُ هُوَ
أَقْنَى وَأَقْنَى ۖ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الْبَرِّ ۖ وَأَنَّهُ أَمَلَكٌ عَادَا الْأَوَّلَ ۖ وَنُورًا
قَا أَفَى ۖ وَنَوْمٌ نَوَجٌ بَيْنَ جَلِّ ۖ وَنَوْمٌ كَانُوا هُمْ أَعْلَمُ وَأَكْلَمُ ۖ وَالْمَوَافِقَةُ أَعْوَى
ۖ فَشَدَّهَا مَا عَشَى ۖ فَيَايَ مَالَهُ رَبِّكَ تَسْمَاةُ ۖ هَذَا نَزِيرٌ مِّنَ الْأَنْذَرِ
الْأَوَّلِ ۖ أَوَّلُ الْآلَةِ ۖ لَيْسَ لَهَا بَيْنَ دُونِ اللَّهِ كَافَّةٌ ۖ إِنَّ هَذَا
لِلْكَرِيمِ سَجُونٌ ۖ وَتَحْمَكُونُ وَلَا تَكُونُ ۖ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ۖ فَاصْبِرُوا ۖ وَأَصْبِرُوا ۖ

قوله: **﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾** أي: هو الخالق لذلك

ليستعملوا لها. قال في الصحاح: أزفت الأزفة: يعني: القيامة، وأزف الرجل عجل، ومنه قول الشاعر:

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكان قد

﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي: ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا الله سبحانه، وقيل: كاشفة بمعنى انكشاف، والهاء فيها كالهاء في العاقبة والداهية، وقيل: كاشفة بمعنى كاشف، والهاء للمبالغة كراوية، والأول أولى. وكاشفة صفة لموصوف محذوف، كما ذكرنا، والمعنى: أنه لا يقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدايدها، وأهوالها أحد غير الله، كذا قال عطاء، والضحاك، وقتادة، وغيرهم. ثم ويختم سبحانه، فقال: ﴿اقمن هذا الحديث تعجبون﴾ المراد بالحديث: القرآن أي: كيف تعجبون منه تكذيباً ﴿وتضحكون﴾ منه استهزاءً مع كونه غير محلٍ للتكذيب، ولا موضع للاستهزاء ﴿ولا تكون﴾ خوفاً وانزعاجاً لما فيه من الوعيد الشديد، وجملة ﴿وانتم سامعون﴾ في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون مستأنفة لتقرير ما فيها، والسمود: الغفلة والسهو عن الشيء، وقال في الصحاح: سمّد سموداً رفع رأسه تكبراً، فهو سامد قال الشاعر:

سوامد الليل خفاف الأزواد

وقال ابن الأعرابي: السمود اللهو، والسامد اللاهي، يقال للقينة أسمدينا أي: ألهيها بالغناء، وقال المبرد: سامدون خامنون، قال الشاعر:

رمى الحدثنان نسوة آل عمرو بمقدار سمن له سمودا فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ لما وبّخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن، والضحك منه، والسخرية به، وعدم الانتفاع بمواعظه، وزوجه أمر عباده المؤمنين بالسجود لله، والعبادة له، والفاء جواب شرط محذوف أي: إذا كان الأمر من الكفار كذلك، فاسجدوا لله واعبدوا، فإنه المستحق لذلك منكم، وقد تقدم في فاتحة السورة أن النبي ﷺ سجد عند تلاوة هذه الآية، وسجد معه الكفار، فيكون المراد بها سجد التلاوة، وقيل: سجد الفرض.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وانه هو أغنى وأقنى﴾ قال: أعطى وأرضى. وأخرج ابن جرير عنه ﴿وانه هو رب الشعري﴾ قال: هو الكوكب الذي يدعى الشعري، وأخرج الفاكهي عنه أيضاً قال: نزلت هذه الآية في خزاعة، وكانوا يعبدون الشعري، وهو الكوكب الذي يتبع الجوزاء. وأخرج ابن مريويه عنه أيضاً في قوله: ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ قال: محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الأزفة من أسماء القيامة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن صالح أبي الخليل قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿اقمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون﴾ فما ضحك النبي ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسّم.

كبشة ﴿وانه اهلك عاداً الأولى﴾ وصف عاداً بالأولى لكونهم كانوا من قبل ثمود. قال ابن زيد: قيل لها عاداً الأولى: لأنهم أول أمة أهلكت بعد نوح. وقال ابن إسحاق: هما عادان، فالأولى أهلكت بالصرصر، والآخرى أهلكت بالصيحة. وقيل: عاد الأولى قوم هود، وعاد الآخرى إرم. قرأ الجمهور (عاداً الأولى) بالتثنية والهمز، وقرأ نافع، وابن كثير، وابن محيصن بنقل حركة الهمزة على اللام، وإدغام التثنية فيها ﴿وثموداً فما أبقى﴾ أي: وأهلك ثموداً كما أهلك عاداً، فما أبقى أحداً من الفريقين، وثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة، وقد تقدم الكلام على عاد، وثمود في غير موضع ﴿وقوم نوح من قبل﴾ أي: وأهلك قوم نوح من قبل إهلاك عاد، وثمود ﴿إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ أي: أظلم من عاد وثمود وأطغى منهم، أو أظلم وأطغى من جميع الفرق الكفرية أو أظلم وأطغى من مشركي العرب، وإنما كانوا كذلك لأنهم عتوا على الله بالمعاصي مع طول مدة دعوة نوح لهم، كما في قوله: ﴿قلب فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ [العنكبوت: 14] ﴿والمؤتفة أهوى﴾ الاستفك الانقلاب، والمؤتفة مدائن قوم لوط، وسميت المؤتفة لأنها انقلبت بهم وصار عاليها سافلها، تقول: افكته إذا قلبته، ومعنى أهوى أسقط أي: أهواها جبريل بعد أن رفعها. قال المبرد: جعلها تهوي ﴿فغشاهما ما غشى﴾ أي: البسها ما البسها من التجارة التي وقعت عليها، كما في قوله: ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ [الحجر: 74] وفي هذه العبارة تهويل للأمر الذي غشاهما به، وتعظيم له، وقيل: إن الضمير راجع إلى جميع الأمم المذكورة أي: فغشاهما من العذاب ما غشى على اختلاف أنواعه ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ هذا خطاب للإنسان المكذب أي: فبأي نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك وتمترى، وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لغيره، وقيل: لكل من يصلح له، وإسناد فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه، وسمى هذه الأمور المذكورة آلاء أي: نعماً مع كون بعضها نعماً لا نعماً؛ لأنها مشتملة على العبر والمواعظ، ولكون فيها انتقام من العصاة، وفي ذلك نصرة للأنبياء والصالحين. قرأ الجمهور (تتمارى) من غير إدغام، وقرأ يعقوب، وابن محيصن بإدغام إحدى التاءين في الأخرى ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي: هذا محمد رسول إليكم من الرسل المتتبعين قبله، فإنه أنذركم، كما أنذروا قومهم، كذا قال ابن جريج، ومحمد بن كعب، وغيرهما. وقال قتادة: يريد القرآن، وأنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى، وقيل: هذا الذي أخبرنا به عن أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك، كذا قال أبو مالك. وقال أبو صالح: إن الإشارة بقوله: ﴿هذا﴾ إلى ما في صحف موسى، وإبراهيم، والأول أولى ﴿أزفت الأزفة﴾ أي: قربت الساعة وندت، سماها أزفة لقرب قيامها، وقيل: لندوها من الناس، كما في قوله: ﴿اقتربت الساعة﴾ [القمر: 1] أخبرهم بذلك

الْوَجْدُ دُوسِرٌ ﴿١٠﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِ جَزَاءٍ لَمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴿١١﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٢﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابٌ وَعَذَابٌ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ بَرَأْنَا الْفَرَزْدَانَ لِدِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿اقتربت للساعة وانشق القمر﴾ أي: قربت، ولا شك أنها قد صارت باعتبار نسبة ما بقي بعد قيام النبوة المحمدية إلى ما مضى من الدنيا قريبة. ويمكن أن يقال: إنها لما كانت متحققة الوقوع لا محالة كانت قريبة، فكل آت قريب ﴿وانشق القمر﴾ أي: وقد انشق القمر، وكذا قرأ حنيفة بزيادة قد، والمراد الانشقاق الواقع في أيام النبوة معجزة لرسول الله ﷺ، وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف. قال الواحدي: وجماعة المفسرين على هذا إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: المعنى سينشق القمر، والعلماء كلهم على خلافه. قال: وإنما نكر اقترب لأنه الانشقاق الكائن يوم القيامة. وقيل: معنى وانشق القمر: وضح الأمر وظهر، والعرب تضرب بالقمر المثل فيما وضح وقيل: انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه، وطلوعه في اثنائها، كما يسمى الصبح فلحاً لانفلاق الظلمة عنه. قال ابن كثير: قد كان الانشقاق في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. قال: وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. قال الزجاج: زعم قوم عناووا عن القصد، وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر ينشق يوم القيامة، والأمر بين في اللفظ، واجماع أهل العلم، لأن قوله: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ يدل على أن هذا كان في الدنيا لا في القيامة انتهى، ولم يأت من خالف الجمهور، وقال إن الانشقاق سيكون يوم القيامة إلا بمجرد استبعاد، فقال: لأنه لو انشق في زمن النبوة لم يبق أحد إلا رآه؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء. ويجب عنه بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلاً، ولا شرعاً، ولا عادة، ومع هذا، فقد نقل إلينا بطريق التواتر، وهذا بمجرد ينفع الاستبعاد، ويضرب به في وجه قائله.

والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله، فقد أخبرنا بأنه انشق، ولم يخبرنا بأنه سينشق، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ، فقد ثبت في الصحيح، وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوة، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم، فقد اتفقوا على هذا، ولا يلتفت إلى شنود من شذ، واستبعاد من استبعد، وسيأتي ذكر بعض ما ورد في ذلك إن شاء الله ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: لما انشق القمر قال المشركون:

ولفظ عبد بن حميد: فما روي النبي ﷺ ضاحكاً، ولا متبسماً حتى ذهب من الدنيا. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروييه عن ابن عباس في قوله: ﴿سامدون﴾ قال: لا همون معرضون عنه. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في ذم الملاحي، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عنه ﴿وانتم سامدون﴾ قال: الغناء باليمانية، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا. وأخرج الفريابي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروييه عنه أيضاً في قوله: ﴿سامدون﴾ قال: كانوا يمزون على النبي ﷺ شامخين، ألم تر إلى البعير كيف يخطر شامخاً. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن أبي خالد الوالبي قال: خرج علي بن أبي طالب علينا، وقد أقيمت الصلاة، ونحن قيام ننظره ليتقدم، فقال: ما لكم سامدون لا أنتم في صلاة ولا أنتم في جلوس تنتظرون؟

تفسير سورة القمر

وهي مكية كلها في قول الجمهور. وقال مقاتل: هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿إم يقولون نحن جميع منتصر﴾ إلى قوله: ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ [القمر: 44 - 46] قال القرطبي: ولا يصح. وأخرج: ابن الضريس، وابن مروييه، والنحاس، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن مروييه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: اقتربت تدعى في التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه. قال البيهقي: منكر. وأخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة رفعه: «من قرأ ﴿اقتربت الساعة﴾ [أي: سورة القمر] في كل ليلتين بعثه الله يوم القيامة، ووجهه كالقمر ليلة البدر». وأخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه، وقد تقدم: «أن النبي ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة في الأضحية، والقطر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيُعْرَضُ عَنْهُمْ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ مُسْتَعِرَّةٌ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِيَّةٌ فَمَا تَنْتَبِهُونَ ﴿٥﴾ قَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّالِعُ إِلَّا نَعْتَهُمْ لُكْرٌ ﴿٦﴾ خُسْفًا ﴿٧﴾ أَنْصَرُهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ الْجَنَّةِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَبِرٌ ﴿٨﴾ مُهْلِكِينَ إِلَى الدَّالِعِ يَقُولُ الْكُفُورُ إِنَّا لَمَعِدٌ يَوْمَ يُعْرَضُ ﴿٩﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ كَذَّبُوا عَبْدًا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ﴿١٠﴾ فَنَذَرْنَاهُ فِي مَلَأَةٍ فَلَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى سَوْءًا ﴿١١﴾ فَذَكَرْنَا الْأَرْضَ عَنْهُمْ فَأَسْفَرْنَا وَلَوْلَا ذَلِكَ لَفَتِ الْأَرْضُ كَلْبًا ﴿١٢﴾ فَقَدْ دَرَدَ ﴿١٣﴾ وَحَلَّتْهُ عَلَى ذَاتِ

محذوف، أو بديل من ما بديل كل من كل، أو بديل اشتغال، والمعنى: أن القرآن حكمة قد بلغت الغاية ليس فيها نقص ولا خلل، وقرأ بالنصب على أنها حال من ما أي: حال كون ما فيه مزيج حكمة بالغة ﴿فَمَا تَعْنِ النَّذْرُ﴾ ما يجوز أن تكون استفهامية، وأن تكون نافية أي: أي شيء تعني النذر، أو لم تعن النذر شيئاً، والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر، أو بمعنى الإنذار على أنه مصدر. ثم أمره الله سبحانه بالإعراض عنهم، فقال: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار، وهي منسوخة بآية السيف ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرَ﴾ انتصاب الظرف إما بفعل مقترن أي: انكر، وإما بيجرجون المنكور بعده، وإما بقوله: ﴿فَمَا تَعْنِ﴾، ويكون قوله: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ اعتراض، أو بقوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ أو بقوله: ﴿خَشَعًا﴾ وسقطت الروا من يدع اتباعاً للفظ، وقد وقعت في الرسم هكذا، وحذفت الياء من الداع للتخفيف، واكتفاء بالكسرة، والداع هو إسرائيلي، والشئ النكر: الأمر الفظيع الذي ينكرونه استعظاماً له لعدم تقدم العهد لهم بمثله. قرأ الجمهور بضم الكاف. وقرأ ابن كثير بسكونها تخفيفاً. وقرأ مجاهد، وقتادة بكسر الكاف، وفتح الراء على صيغة الفعل المجهول ﴿خَشَعًا لِبُصَارِهِمْ﴾ قرأ الجمهور (خشعاً) جمع خاشع. وقرأ حمزة، والكسائي وأبو عمرو (خاشعاً) على الإفراد، ومنه قول الشاعر:

وشباب حسن أوجههم من إيراد بن نزار بن معد
وقرأ ابن مسعود (خاشعة) قال الفراء: الصفة إذا تقدمت على الجماعة جاز فيها التنكير، والتانيث، والجمع يعني: جمع التكسير لا جمع السلامة؛ لأنه يكون من الجمع بين فاعلين، ومثل قراءة الجمهور قول امرئ القيس:

وقفاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلد
وانتصاب خشعاً على الحال من فاعل يخرجون، أو من الضمير في عنهم، والخشوع في البصر الخضوع والذلة، وإضافة الخشوع إلى الابصار؛ لأن العز والذل يتبين فيها ﴿يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جُرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ أي: يخرجون من القبور، وواحد الأجداث جنث، وهو القبر، كأنهم لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض جراد منتشر أي: منبث في الأقطار مختلط بعضهم ببعض ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ الإطاع: الإسراع أي: قال كونهم مسرعين إلى الداعي، وهو إسرائيلي، ومنه قول الشاعر:

بجيلة دارهم ولقد أراهم بجيلة مهطعين إلى السماع
أي: مسرعين إليه، وقال الضحاك: مقبلين، وقال قتادة: عاملين. وقال عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت، والأول أولى، وبه قال أبو عبيدة، وغيره، وجملة: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسْرٍ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿مُهْطِعِينَ﴾، والرابط مقترن، أو مستأنفة جواب سؤال مقترن: كأنه قيل: فماذا يكون حينئذ، والعسر: الصعب الشديد، وفي إسناد هذا القول إلى الكفار دليل على أن اليوم ليس بشديد

سحرنا محمد، فقال الله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ يعني: انشقاق القمر يعرضوا عن التصديق والإيمان بها، ويقولوا: سحر قوي شديد يعلو كل سحر، من قولهم استمر الشيء: إذا قوي واستحكم، وقد قال بأن معنى مستمر: قوي شديد جماعة من أهل العلم. قال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل، وهو شدة قتله، وبه قال أبو العالية، والضحاك، واختاره النحاس، ومنه قول لقيط:

حتى استمر على شر لا يزنه صدق العزيمة لا رثاً ولا ضرعاً
وقال الفراء، والكسائي، وأبو عبيدة: ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهب، من قولهم مر الشيء، واستمر: إذا ذهب، وبه قال قتادة، ومجاهد، وغيرهما، واختاره النحاس. وقيل: معنى ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾: دائم مطرد، ومنه قول الشاعر:

ألا إنما الدنيا ليالٍ وأعصر وليس على شيء قديم بمستم
أي: بدائم باق، وقيل: مستمر باطل، روي هذا عن أبي عبيدة أيضاً. وقيل: يشبه بعضه بعضاً، وقيل: قد مر من الأرض إلى السماء، وقيل: هو من المرارة يقال: مر الشيء صار مرا أي: مستبشع عندهم. وفي هذه الآية أعظم دليل على أن الانشقاق قد كان، كما قرناه سابقاً. ثم نكر سبحانه تكذيبهم، فقال: ﴿وَكُذِّبُوا وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: وكذبوا رسول الله، وما عابوا من قدرة الله، واتبعوا أهواءهم، وما زينه لهم الشيطان الرجيم، وجملة: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ مستأنفة لتقرير بطلان ما قالوه من التكذيب، واتباع الأهواء أي: وكل أمر من الأمور منته إلى غاية، فالخير يستقر بالحل الخير، والشر يستقر بالحل الشر. قال الفراء: يقول يستقر قرار تكذيبهم، وقرار قول المصنفين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب. قال الكلبي: المعنى لكل أمر حقيقة ما كان منه في الدنيا فسيظهر، وما كان منه في الآخرة فسيعرف. قرأ الجمهور (مستقر) بكسر القاف، وهو مرتفع على أنه خبر المبتدأ وهو ﴿كُلُّ﴾. وقرأ أبو جعفر، وزيد بن علي بجر (مستقر) على أنه صفة لأمر، وقرأ شيبه بفتح القاف، ورويت هذه القراءة عن نافع. قال أبو حاتم: ولا وجه لها، وقيل: لها وجه بتقدير مضاف محذوف أي: وكل أمر نو استقرار، أو زمان استقرار، أو مكان استقرار، على أنه مصدر، أو ظرف زمان، أو ظرف مكان ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْجَرٌ﴾ أي: ولقد جاء كفار مكة، أو الكفار على العموم من الأنباء، وهي أخبار الأمم المكذبة المقصودة علينا في القرآن ﴿مَا فِيهِ مُزْجَرٌ﴾ أي: ازجار على أنه مصدر ميمي، يقال زجرت: إذا نهيت عن السوء ووعظته، ويجوز أن يكون اسم مكان، والمعنى: جاءهم ما فيه موضع ازجار أي: أنه في نفسه موضع لذلك، وأصله مزجرج، وتاء الافتعال تقلب دالاً مع الزاي والدال والذال، كما تقرر في موضعه، وقرأ زيد بن علي (مزجرج) بقلب تاء الافتعال زايًا وإدغام الزاي في الزاي، ومنه في قوله: ﴿مَنْ الْأَنْبَاءِ﴾ للتبعيض وهي وما نخلت عليه في محل نصب على الحال، وارتفاع ﴿حِكْمَةً بِالْغَايَةِ﴾ على أنها خبر مبتدأ

على المؤمنين. ثم نكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدم من الانبياء المجملة فقال: **﴿كُنِيتَ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ﴾** أي: كننوا نبينهم، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ، وقوله: **﴿فَكُنِيبُوا عِبْنَانَا﴾** تفسير لما قبله من التكنيب المبهم، وفيه مزيد تقرير، وتأكيد أي: فكُنِيبُوا عِبْنَانَا نُوحًا، وقيل المعنى: كنيت قوم نوح الرسل، فكُنِيبُوا عِبْنَانَا نُوحًا بتكنيبهم للرسل فإنه منهم. ثم بين سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرد التكنيب، فقال: **﴿وَوَلَّيْنَاهُم مَّجْنُونًا﴾** أي: نسبوا نُوحًا إلى الجنون، وقوله: **﴿وَوَلَّيْنَاهُم مَّعْطُوفًا﴾** على **﴿قُلُوبِهِمْ﴾** أي: وزجر عن دعوى النبوة، وعن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر، والدال بدل من تاء الافتعال، كما تقدم قريباً، وقيل: إنه معطوف على **﴿مَجْنُونًا﴾** أي: وقالوا إنه أذنب أي: أذنبته الجن، وذهبت بلبه، والأول أولى. قال مجاهد: هو من كلام الله سبحانه أخبر عنه بأنه انتهر وزجر بالسب وأنواع الأذى. قال الرازي: وهذا أصح؛ لأن المقصود تقوية قلب النبي ﷺ بذكر من تقممه **﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾** أي: دعا نوح ربه على قومه بأنني مغلوب من جهة قومي، لتمردهم عن الطاعة، وزجرهم لي عن تبليغ الرسالة، فانتصر لي أي: انتقم لي منهم. طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم لما آيس من إجابتهم، وعلم تمردهم وعتوهم، وإصرارهم على ضلالتهم. قرأ الجمهور (أنني) بفتح الهمزة أي: بأنني. وقرأ ابن أبي إسحاق، والأعمش بكسر الهمزة، ورويت هذه القراءة عن عاصم على تقدير إضمار القول أي: فقال. ثم نكر سبحانه ما عاقبهم به فقال: **﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾** أي منصّب انصباباً شديداً، والهمر: الصبّ بكثرة، يقال: همر الماء والدمع يهمر همرأً، وهموراً؛ إذا كثر، ومنه قول الشاعر: أعينني جوداً بالدموع الهوامر على خير باد من معدّ وحاضر ومنه قول امرئ القيس يصف عينا:

راح تمرّ به الصبا ثم انتحى فيه بشؤبوب جنوب منهمر
قرأ الجمهور (فتحنّا) مخففاً. وقرأ ابن عامر، ويعقوب بالتشديد **﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عَيْونًا﴾** أي: جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة، والأصل فجّرنا عيون الأرض. قرأ الجمهور (فجرنا) بالتشديد. وقرأ ابن مسعود، وأبو حيوة، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف. قال عبيد بن عمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها، فتفجرت بالعيون **﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾** أي: التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضى عليهم أي: كأننا على حال قدرها الله وقضى بها. وحكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يرد أحدهما على الآخر، بل كان ماء السماء وماء الأرض على سواء. قال قتادة: قدر لهم إذا كفروا أن يغرقوا. وقرأ الجحدري (فالتقى المأان) وقرأ الحسن (فالتقى الماوان) ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب، ومحمد بن كعب **﴿وَحَمَلْنَاهَا عَلَى ذَاتِ الْوُحَا﴾** و**﴿وَدَسَّرَ﴾** أي: وحملنا نُوحًا على سفينة ذات الواح، وهي الأخشاب العريضة **﴿وَدَسَّرَ﴾** قال الزجاج: هي المسامير

التي تشدّ بها الألواح واحدها دسار، وكل شيء أدخل في شيء يشدّه فهو الدسر، وكذا قال قتادة، ومحمد بن كعب، وابن زيد، وسعيد بن جببر، وغيرهم. وقال الحسن، وشهر بن حوشب، وعكرمة: الدسر ظهر السفينة التي يضرّ بها الموج، سميت بذلك لأنها تسر الماء أي: تدفعه، والدسر الرفع. وقال الليث: الدسر خيط تشدّ به الواح السفينة. قال في الصحاح: الدسر واحد الدسر وفي خيوط تشدّ بها الواح السفينة، ويقال: هي المسامير **﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾** أي: بمنظر ومرأى منا وحفظ لها، كما في قوله: **﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾** [هود: 37] وقيل: بأمرا وقيل: بوحينا، وقيل: بالأعين النابعة من الأرض، وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها **﴿حِزَابٌ لِمَن كَانَ كُفْرًا﴾** قال الفراء: فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه، وإغراقهم ثواباً لمن كفر به وجحد أمره، وهو نوح عليه السلام، فإنه كان لهم نعمة كفروها، فانتصاب جزاء على العلة، وقيل: على المصدرية بفعل مقتر أي: جازيناهم جزاء. قرأ الجمهور (كفر) مبنياً للمفعول، والمراد به نوح. وقيل: هو الله سبحانه، فإنهم كفروا به، وجحدوا نعمته. وقرأ يزيد بن رومان، وقاتدة، ومجاهد، وحמיד، وعيسى (كفر) بفتح الكاف، والغاء مبنياً للفاعل أي: جزاء وعقاباً لمن كفر بالله **﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾** أي: السفينة تركها الله عبرة للمعتبرين، وقيل المعنى: ولقد تركنا هذه الفعلة التي فعلناها بهم عبرة، وموعظة **﴿فَهَلْ مِنْ مُّكْرٍ﴾** أصله منكر، فأبيلت التاء دالاً مهملة، ثم أبيلت المعجمة مهملة لتقاربهما، وأدغمت الدال في الذال، والمعنى: هل من متعظ ومعتبر يتعظ بهذه الآية، ويعتبر بها **﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾** أي: إنذارني. قال الفراء: الإنذار والنذر مصدران، والاستفهام للتهويل والتعجيب أي: كنا على كيفية هائلة عجيب لا يحيط بها الوصف، وقيل: نذر جمع نذير، ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار **﴿وَلَقَدْ يَمْرُنَا الْقُرْآنُ لِلْمُذَكَّرِ﴾** أي: سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه، وقيل: هيأناه للتذكر والاتعاظ **﴿فَهَلْ مِنْ مُّكْرٍ﴾** أي: متعظ بمواعظه ومعتبر بعبره، وفي الآية الحث على درس القرآن، والاستكثار من تلاوته، والمسارة في تعلمه، و**﴿مُذَكَّرٍ﴾** أصله منكر، كما تقدم قريباً.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقيتين حتى راوا حراء بينهما، وروي عنه من طريق أخرى عند مسلم، والترمذي، وغيرهم وقال: فنزلت: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾** وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: أشهدوا». وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عنه قال: رأيت القمر منشقاً شقيتين مرتين: مرة بمكة قبل أن يخرج النبي ﷺ: شقة على

حَضَرَ ﴿١٥﴾ قَادِرًا سَالِمًا فَمَلَأَ صَفَرًا ﴿١٦﴾ كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرًا ﴿١٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً رَّجِيَّةً فَكَانُوا كَهَيْبَةِ اللَّحْظِ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ قَهْلًا مِنْ مُنْكَرٍ ﴿١٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿٢٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاسِبًا إِلَّا نَالَ لُوطٌ حَيْثُ لَهُمْ يَسْرٌ ﴿٢١﴾ تَمَنَّيَ مِنْ عَيْنِنَا كَذَلِكَ تَجْرَى مِنْ شَكْرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلَهُمْ بِطُسْتًا فَنَسَارًا بِالنَّذْرِ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَكَسَا أُنْثَاهُمْ فَنَزَلُوا عَلَيْكَ وَنَذِيرًا ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٢٥﴾ فَذَرَوْا عَلَيْكَ وَنَذِيرًا ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ قَهْلًا مِنْ مُنْكَرٍ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هم: قوم عاد ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ وفنذر ﴿أي: فاسمعوا كيف كان عذابي لهم وإنذارى إياهم، ونذر مصدر بمعنى إنذار، كما تقدم تحقيقه، والاستفهام للتوبيخ، والتعظيم﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ هذه الجملة مبينة لما أجمله سابقاً من العذاب، والصرصر شدة البرد أي: ريح شديدة البرد، وقيل: الصرصر شدة الصوت، وقد تقدم بيانه في سورة حم السجدة ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمَرٍّ﴾ أي: دائم الشؤم استمر عليهم بنحوه، وقد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم، قال الزجاج: قيل: في يوم الأربعاء في آخر الشهر، قرأ الجمهور (في يوم نحس) بإضافة يوم إلى نحس مع سكون الحاء، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، أو على تقدير مضاف أي: في يوم عذاب نحس، وقرأ الحسن بتونين (يوم) على أن نحس صفة له. وقرأ هارون بكسر الحاء. قال الضحاك: كان ذلك اليوم مرأً عليهم. وكذا حكى الكسائي عن قوم أنهم قالوا: هو من المرارة، وقيل: هو من المرة بمعنى القوة أي: في يوم قوي الشؤم مستحكمه كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطلق نقضه، والظاهر أنه من الاستمرار، لا من المرارة، ولا من المرة أي: دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكهم، وشمل بهلاكه كبيرهم وصغيرهم، وجملة ﴿فَنَزَعَ النَّاسُ﴾: في محل نصب على أنها صفة لريحاً، أو حال منها، ويجوز أن يكون استثناءً أي: قلّعتهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها. قال مجاهد: كانت قلّعتهم من الأرض، فترمي بهم على رؤوسهم فتدق أعناقهم، وتبين رؤوسهم من أجسادهم، وقيل: تنزع الناس من البيوت، وقيل: من قبورهم؛ لأنهم حفروا حفائر ودخلوها ﴿كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَنْقَعَرٍ﴾ الأعجاز جمع عجز، وهو مؤخر الشيء، والمنقعر: المنقطع المنقلع من أصله، يقال: قعرت النخلة: إذا قلّعتها من أصلها حتى تسقط، شبههم في طول قاماتهم حين صرعتهم الريح، وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليست لها رؤوس، وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولاً، ثم كتبتهم على وجوههم، وتذكير منقعر مع كونه صفة لأعجاز نخل وهي: مؤنثة اعتباراً باللفظ، ويجوز تأنيثه اعتباراً بالمعنى، كما قال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 7] قال المبرد: كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً، أو إلى المعنى تأنيثاً. وقيل: إن النخل والنخيل ينكر ويؤنث ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرًا﴾ قد تقدم تفسيره

أبي قبيس، وشقة على السويداء. ونكر أن هذا سبب نزول الآية. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم عنه أيضاً قال: رأيت القمر وقد انشق، وأبصرت الجبل بين فرجتي القمر. وله طرق عنه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمن النبي ﷺ. وله طرق عنه. وأخرج مسلم، والترمذي، وغيرهما عن ابن عمر في قوله: ﴿فَقُتِرَتِ السَّاعَةُ﴾ قال: كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فرقتين: فرقة من نون الجبل، وفرقة خلفه، فقال النبي ﷺ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي عن جبير بن مطعم عن أبيه في قوله: ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: انشق القمر، ونحن بمكة على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن مروي، وأبو نعيم عن عبد الرحمن السلمي قال: «خطبنا حنيفة بن اليمان بالمذاهب، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ﴿فَقُتِرَتِ السَّاعَةُ﴾ وانشق القمر، إلا وإن الساعة قد اقتربت، إلا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله ﷺ، إلا وإن الدنيا قد أمنت بفراق، اليوم المضمار وغداً السباق». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال: ناظرين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿فَقُتِرَتِ السَّاعَةُ﴾ قال كثير: لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم، ولا بعده إلا من السحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى المأذن. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿عَلَى ذَاتِ الْوُحَا وَيُسْرٍ﴾ قال: الألواح السفينة، والنسر: معارضها التي تشد بها السفينة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿وَيُسْرٍ﴾ قال: المسامير. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: النسر كل كل السفينة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي عنه أيضاً في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ قال: لولا أن الله يسره على لسان الأميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلموا بكلام الله. وأخرج البيهقي عن انس مرفوعاً مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿قَهْلًا مِنْ مُنْكَرٍ﴾ قال: هل من منكر.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمَرٍّ ﴿١٦﴾ تَنَزَّعَتِ النَّاسُ أَعْجَازًا نَخْلٍ مُنْقَعَرٍ ﴿١٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرًا ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ قَهْلًا مِنْ مُنْكَرٍ ﴿١٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿٢٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاسِبًا إِلَّا نَالَ لُوطٌ حَيْثُ لَهُمْ يَسْرٌ ﴿٢١﴾ تَمَنَّيَ مِنْ عَيْنِنَا كَذَلِكَ تَجْرَى مِنْ شَكْرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلَهُمْ بِطُسْتًا فَنَسَارًا بِالنَّذْرِ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَكَسَا أُنْثَاهُمْ فَنَزَلُوا عَلَيْكَ وَنَذِيرًا ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٢٥﴾ فَذَرَوْا عَلَيْكَ وَنَذِيرًا ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ قَهْلًا مِنْ مُنْكَرٍ ﴿٢٧﴾

لقومه، وجملة: ﴿إنا مرسلوا الناقة﴾ مستأنفة لبيان ما تقدم إجماله من الوعيد أي: إنا مخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه ﴿فتنة لهم﴾ أي: ابتلاء وامتحاناً، وانتصاب فتنة على العلة ﴿فارتقبهم﴾ أي: انتظر ما يصنعون ﴿واضطرب﴾ على ما يصيبك من الأذى منهم ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ أي: بين ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما في قوله: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ [الشعراء: 155] وقال: ﴿نبئهم﴾ بضمير العقلاء تغليبا ﴿كل شرب محتضر﴾ الشرب بكسر الشين الحظ من الماء. ومعنى ﴿محتضر﴾: أنه يحضره من هو له، فالناقة تحضره يوماً، وهم يحضرونه يوماً. قال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم فيشربون، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون. قرأ الجمهور (قسمة) بكسر القاف بمعنى مقسوم، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بفتحها ﴿فنادوا صاحبهم﴾ أي: نادى ثمود صاحبهم وهو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضونه على عقرها ﴿فتعاطى فعقر﴾ أي: تناول الناقة بالعقر فعقرها، أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر فعقر. قال محمد بن إسحاق: كمن لها في أصل شجرة على طريقها، فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها، ثم شد عليها بالسيف، فكسر عرقوبها، ثم نحرها، والتعاطي: تناول الشيء بتكلف ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ قد تقدم تفسيره في هذه السورة. ثم بين ما أجمله من العذاب فقال: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة﴾ قال عطاء: يريد صيحة جبريل، وقد مضى بيان هذا في سورة هود، وفي الأعراف ﴿فكانوا كهشيم المحطّر﴾ قرأ الجمهور بكسر الظاء، والهشيم: حطام الشجر ويابس، والمحطّر: صاحب الحظيرة، وهو الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الريح، يقال: احتظر على غنمه: إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض. قال في الصحاح: والمحطّر: الذي يعمل الحظيرة. وقرأ الحسن، وقتادة، وأبو العالية بفتح الظاء أي: كهشيم الحيرة، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار، ومن قرأ بالفتح أراد الحظيرة، وهي فعيلة بمعنى مفعولة ومعنى الآية: أنهم صاروا كالشجر إذا يبس في الحظيرة، وداسته الغنم بعد سقوطه، ومنه قول الشاعر:

أثرن عجلابه كخضان نار تشب بغرقد بال هشيم
وقال قتادة: هو العظام النخرة المحترقة. وقال سعيد بن جبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح. وقال سفيان الثوري: هو ما يتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصي. قال ابن زيد: العرب تسمي كل شيء كان رطباً فبیس هشيماً، ومنه قول الشاعر:

ترى جيف المطي بجانيبه كان عظامها خشب الهشيم
﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ قد تقدم تفسير هذا في هذه السورة. ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كتبوا رسل الله، كما كتبهم غيرهم، فقال: ﴿كنيت قوم لوط بالأنذر﴾ وقد تقدم تفسير الأنذر قريباً. ثم بين سبحانه

قريباً، وكذلك قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾، ثم لما نكر سبحانه تكذيب عاد أتبعه بتكذيب ثمود، فقال: ﴿كنيت ثمود بالأنذر﴾ يجوز أن يكون جمع نذير أي: كذبت بالرسول المرسلين إليهم، ويجوز أن يكون مصدرًا بمعنى الإنذار أي: كذبت بالإنذار الذي أنذروا به، وإنما كان تكذيبهم لرسولهم وهو صالح تكذيباً للرسول؛ لأن من كذب واحداً من الأنبياء فقد كذب سائرهم؛ لاتفاقهم في الدعوة إلى كليات الشرائع ﴿فقلوا أنشأ منا واحداً نتبعه﴾ الاستفهام للإنكار أي: كيف نتبع بشراً كائناً من جنسنا منفرداً وحده لا متابع له على ما يدعو إليه. قرأ الجمهور بنصب (بشراً) على الاشتغال أي: انتبّع بشراً واحداً. وقرأ أبو السماك، والداني، وأبو الأشهب، وابن السميع بالرفع على الابتداء، وواحداً صفته، واتبع خبره. وروي عن أبي السماك أنه قرأ برفع (بشراً) ونصب (واحداً) على الحال ﴿إنا إذا لفي ضلال﴾ أي: إنا إذا اتبعناه لفي خطأ، وذهب عن الحق ﴿وسعر﴾ أي: عذاب وعناء وشدة كذا قال الفراء، وغيره. وقال أبو عبيدة: هو جمع سعير، وهو لهب النار، والسعر: الجنون يذهب كذا وكذا لما يلتهب به من الحدة. وقال مجاهد: وسعر وبعد عن الحق. وقال السدي: في احتراق، وقيل المراد به هنا: الجنون، من قولهم: ناقة مسعورة أي: كأنها من شدة نشاطها مجنونة، ومنه قول الشاعر يصف ناقة:

تخال بها سمرأ إذ السمر هزها نميل وإيقاع من السير متعب
ثم كبروا الإنكار والاستبعاد فقالوا: ﴿القي للذكر عليه من بيننا﴾ أي: كيف خص من بيننا بالوحي والنبوة، وفيما من هو أحق بذلك منه؟ ثم أضربوا عن الاستنكار، وانتقلوا إلى الجزم بكونه كذاباً أنشأ فقالوا: ﴿ويل هو كذاب أنشأ﴾ والأشعر: المرح والنشاط، أو البطر والتكبر، وتفسيره بالبطر والتكبر أنسب بالمقام، ومنه قول الشاعر:

أشرم بليس الخز لما لبستم ومن قبل لا تدرين من فتح القرى
قرأ الجمهور (أنشأ) كفرح. وقرأ أبو قلاب، وأبو جعفر بفتح الشين، وتشديد الراء على أنه أفعل تفضيل، ونقل الكسائي عن مجاهد أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة. ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله: ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ والمراد بقوله ﴿غداً﴾: وقت نزول العذاب بهم في الدنيا، أو في يوم القيامة جرياً على عادة الناس في التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر وإن بعد، كما في قولهم: إن مع اليوم غداً، وكما في قول الحطيئة:

للموت فيها سهام غير مخطئة من لم يكن ميتاً في اليوم مات غداً
ومنه قول أبي الطماح:

ألا عللاني قبل نوح النوائح وقبل اضطراب النفس بين الجوائح
وقيل غدا يالهف نفسي على غد إذا راح أصحابي ولست برائح
قرأ الجمهور (سيعلمون) بالتحية إخبار من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحزمة بالفوقية على أنه خطاب من صالح

المنذر عنه **﴿كانهم أعجاز نخل﴾** قال: أصول النخل **﴿منقعر﴾** قال: منقلع. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: أعجاز سواد النخل. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً **﴿وسعر﴾** قال شقاء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: **﴿كهشيم المحتظر﴾** قال: كحظائر من الشجر محترقة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: كالعظام المحترقة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه قال: كالخشيش تاكله الغنم.

وَلَقَدْ جَاءَ بِأَلْ رَعُونَ النَّذْرُ ۝ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّبَتْكُمْ أَنْتُمْ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ۝ أَكَاذِبُ خِرَينَ أُولَئِكَ أَزْ لَكَ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ ۝ سَيَرْجِعُ الْمُنتَعَمُونَ وَاللَّهُ الَّذِي بِي السَّاعَةِ مَوَدَّتُهُمْ وَالسَّاعَةُ آتِيَةٌ وَأَمْرٌ ۝ إِنَّ الْأَعْرَينَ فِي ضَلَالٍ وَسُورٍ ۝ يَوْمَ يُسَبِّحُونَ فِي الثَّارِ عَلَى رُجُومِهِمْ ذُرُوءًا وَسَاقٍ ۝ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِدَرٍّ ۝ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَنْبِيَاءَكُمْ نَهْلٍ مِنْ مَذَكِرٍ ۝ وَكُلُّ شَيْءٍ نَعْمَلُهُ فِي الزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ شَيْءٍ وَكَبِيرٌ مُسْتَطَرٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ وَهَبَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ۝

﴿النذر﴾ يجوز أن يكون جمع نذير، ويجوز أن يكون مصدر بمعنى الإنذار كما تقدم، وهي الآيات التي أنذرهم بها موسى، وهذا أولى لقوله: **﴿كذبوا بآياتنا كلها﴾** فإنه بيان لذلك، والمراد بها: الآيات التسع التي تقدم نكرها **﴿فأخفناهم أخذ عزيز مقتدر﴾** أي: أخذناهم بالعذاب أخذ غالب في انتقامه قاتر على إهلاكهم لا يعجزه شيء، ثم خوف سبحانه كفار مكة فقال: **﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾** والاستفهام للإنكار، والمعنى النفي أي: ليس كفاركم يا أهل مكة، أو يا معشر العرب خير من كفار من تقدمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم، فكيف تطعمون في السلامة من العذاب، وأنتم شر منهم. ثم أضرب سبحانه عن ذلك، وانتقل إلى تبكيتهم بوجه آخر هو أشد من التبكيته بالوجه الأول، فقال: **﴿والم لكم براءة في الزبُر﴾** والزبر هي الكتب المنزلة على الأنبياء، والمعنى: إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله في شيء من كتب الأنبياء. ثم أضرب عن هذا التبكيته، وانتقل إلى التبكيته لهم بوجه آخر، فقال: **﴿والم يقولون نحن جميع منتصر﴾** أي: جماعة لا تطاق لكثرة عدنا وقوتنا، أو أمرنا مجتمع لا تغلب، وأفرد منتصراً اعتباراً بلفظ جميع. قال الكلبي: المعنى نحن جميع أمرنا ننتصر من أعدائنا، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: **﴿سيهزم الجمع﴾** أي: جمع كفار مكة، أو كفار العرب على العموم. قرأ الجمهور (سيهزم) بالتحية مبنياً للمفعول. وقرأ ورش عن يعقوب (سنهزم) بالنون وكسر الزاي ونصب (الجمع). وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبيدة بالتحية مبنياً للفعل، وقرأ بالفوقية مبنياً للفعل **﴿ويولون النبر﴾** قرأ الجمهور (يولون) بالتحية، وقرأ عيسى، وابن أبي إسحاق، وورش عن يعقوب بالفوقية على الخطاب، والمراد بـ **﴿النبر﴾** الجنس، وهو في معنى الإنباء،

ما عنهم به، فقال: **﴿إننا أرسلنا عليهم حصائباً﴾** أي: ريحاً ترميهم بالحصائب، وهي الحصى. قال أبو عبيدة، والنضر بن شميل: الحاصب الحجارة في الريح. قال في الصحاح: الحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصائب، ومنه قول الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربها بحاصب كنديف القطن منثور
﴿إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾ يعني: لوطاً ومن تبعه، والسحر آخر الليل، وقيل: هو في كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أول النهار، وانصرف سحر لأنه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة، ولو قصد معيناً لامتنع. كذا قال: الزجاج، والأخفش، وغيرهما. وانتصاب **﴿نعمة من عذابنا﴾** على العلة، أو على المصدرية أي: إنعاماً منا على لوط، ومن تبعه **﴿كنكلكم نجزي من شكر﴾** أي: مثل ذلك الجزاء نجزي من شكر نعمتنا، ولم يكفرها **﴿ولقد أنذرهم بطشتنا﴾** أي: أنذر لوط قومه بطشة الله بهم، وهي عذاب الشديدة، وعقوبته البالغة **﴿فتमारوا بالنذر﴾** أي: شكوا في الإنذار ولم يصدقوه، وهو تفاعلوا من المرية، وهي الشك **﴿ولقد راووه عن ضيفه﴾** أي: أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة ليفجروا بهم، كما هو دأبهم، يقال راووته عن كذا مراودة ورواداً أي: أربته، وراد الكلام يروده رواداً أي: طلبه، وقد تقدم تفسير المراودة مستوفى في سورة هود **﴿فطمسنا أعينهم﴾** أي: صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شئ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب. وقيل: أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء العين على صورتها. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم، فلم يروا الرسل، فرجعوا **﴿فأنوقوا عذابي ونذر﴾** قد تقدم تفسيره في هذه السورة **﴿ولقد أصبحهم بكرة عذاب مستقر﴾** أي: أتاهم صباحاً عذاب مستقر بهم نازل عليهم لا يفارقهم ولا ينفك عنهم. قال مقاتل: استقر بهم العذاب بكرة، وانصرف (بكرة) لكونه لم يرد بها وقتاً بعينه، كما سبق في (بسحر). **﴿فأنوقوا عذابي ونذر﴾** ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من منكركم قد تقدم تفسير هذا في هذه السورة، ولعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿إننا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾** قال: باردة **﴿في يوم نحس﴾** قال: أيام شداد. وأخرج ابن المنذر، وابن مروي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم الأربعاء يوم نحس مستمر»، وأخرجه عنه ابن مروي عن وجه آخر مرفوعاً. وأخرجه ابن مروي عن علي مرفوعاً. وأخرجه ابن مروي أيضاً عن أنس مرفوعاً، وفيه «قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: أغرق الله فيه فرعون وقومه، وأهلك فيه عاداً، وثموداً». وأخرج ابن مروي، والخطيب بسند. قال السيوطي: ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر». وأخرج ابن

عثمان البتي (في مقاعد صنف).

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس «كفاركم خير من أولئكم» يقول: ليس كفاركم خير من قوم نوح، وقوم لوط. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عنه في قوله: «سيهزم الجمع ويولون السبر» قال: كان ذلك يوم بدر قالوا: «نحن جميع منتصر» فنزلت هذه الآية. وفي البخاري، وغيره عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال، وهو في قبة له يوم بدر: «اتشكك عهك ووعك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً، فاخذ أبو بكر بيده، وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك، فخرج، وهو يثب في الدرع، ويقول: «سيهزم للجمع ويولون السبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر»». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاضمون في القدر، فنزلت: «يوم يسحبون في النار على وجوههم». وأخرج مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز، والكيس». وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: «وكل صغير وكبير مستطر» قال: مسطور في الكتاب اهـ.

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية. قال القرطبي: كلها في قول الحسن، وعروة بن الزبير، وعكرمة، وعطاء، وجابر قال: قال ابن عباس: «لا آية منها، وهي قوله: «يسأله من في السموات والأرض» [الرحمن: 29] الآية. وقال ابن مسعود، ومقاتل: هي منية كلها، والأول أصح، ويدل عليه ما أخرجه النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرحمن بمكة. وأخرج ابن مريويه عن عبد الله بن الزبير قال: أنزل بمكة سورة الرحمن. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: نزلت سورة «الرحمن» * علم القرآن بمكة. وأخرج أحمد، وابن مريويه، قال السيوطي: بسند حسن عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ، وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصعد بما يؤمر، والمشركون يسمعون: «فبأي آلاء ربكما تكذبان» ويؤيد القول الثاني ما أخرجه ابن الضريس، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرحمن بالمدينة، ويمكن الجمع بين القولين بأنه نزل بعضها بمكة، وبعضها بالمدينة. وأخرج الترمذي، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه. فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: ما لي أراكم سكوتاً لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم كلما أتيت على قوله: «فبأي آلاء ربكما تكذبان» قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكتب فلك الحمد». قال الترمذي بعد

وقد هزمهم الله يوم بدر، ولولا الأديار، وقتل رؤساء الشرك، وأساطين الكفر، فله الحمد «بل الساعة موعدهم» أي: موعدهم عذابهم الآخروي، وليس هذا العذاب الكائن في الدنيا بالقتل والأسر والقهر، وهو تمام ما وعدوا به من العذاب، وإنما هو مقدمة من مقدماته وطلبة من طلائعه، ولهذا قال: «والساعة أدهى وأمر» أي: وعذاب الساعة أعظم في الضرر وأفظم، مأخوذ من الدهاء، وهو النكر والفظاعة، ومعنى أمر: أشد مرارة من عذاب الدنيا، يقال: دهاه أمر كذا أي: أصابه دهواً ودهياً «إن المجرمين في ضلال وسعر» أي: في ذهاب عن الحق وبعد عنه، وقد تقدم في هذه السورة تفسير «وسعر» فلا نعيده «يوم يسحبون في النار على وجوههم» والنظر منتصب بما قبله أي: كائنون في ضلال، وسعر يوم يسحبون، أو بقول مقتر بعده أي: يوم يسحبون يقال لهم: «نوقوا من سقر» أي: قاسوا حرماً وشدة عذابها، وسقر علم لجهم. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بإدغام سين (من) في سين (سقر) «إننا كل شيء خلقناه بقدر» قرأ الجمهور بنصب (كل) على الاشتغال. وقرأ أبو السماك بالرفع، والمعنى: أن كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه ملتبساً بقدر قدره، وقضاء قضاءه سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، والقدر التقدير، وقد قدمنا الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» أي: إلا مرة واحدة، أو كلمة واحدة كلمح بالبصر في سرعته، واللمح: النظر على العجلة والسرعة. وفي الصحاح لمحه واللمح: إذا أبصره بنظر خفيف، والاسم لللمحة. قال الكلبي: وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر «ولقد أهلكنا أشياء عكم» أي: أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم، وقيل: أتباعكم وأعاونكم «فهل من منكر» يتنكر ويتعظ بالمواعظ، ويعلم أن ذلك حق، فيخاف العقوبة، وأن يحل به ما حل بالأمم السالفة «وكل شيء فعلوه في الزبر» أي: جميع ما فعلته الأمم من خير أو شر مكتوب في اللوح المحفوظ، وقيل: في كتب الحفظة «وكل صغير وكبير مستطر» أي: كل شيء من أعمال الخلق وأقوالهم وأفعالهم مسطور في اللوح المحفوظ صغيره وكبيره، وجليله وحقيقه يقال: سطر يسطر سطرأ كتب، وأسطر مثله. ثم لما فرغ سبحانه من نكر حال الأشياء نكر حال السعداء فقال: «إن للمتقين في جنات ونهر» أي: في بساتين مختلفتين، وجنان متنوعة، وأنهار متنفقة. قرأ الجمهور (ونهر) بفتح الهاء على الأفراد، وهو جنس يشمل أنهار الجنة، وقرأ مجاهد، والأعرج، وأبو السماك بسكون الهاء وهما لغتان، وقرأ أبو مجلز، وأبو نهشل، والأعرج، وطلحة بن مصرف، وقاتدة (نهر) بضم النون، والهاء على الجمع «في مقعد صدق» أي: في مجلس حق لا لغو فيه ولا تائب، وهو الجنة «عند ملك مقدر» أي قادر على ما يشاء لا يعجزه شيء، و «عند» هاهنا كناية عن الكرامة، وشرف المنزلة، وقرأ

بالقلم. والاولى حمل الإنسان على الجنس، وحمل البيان على تعليم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ أي: يجريان بحساب، ومنازل لا يعدونها، ويدلان بذلك على عدد الشهور والسنين. قال قتادة، وأبو مالك: يجريان بحسبان في منازل لا يعنوانها، ولا يحيدان عنها. وقال ابن زيد، وابن كيسان: يعني: أن بهما تحسب الاوقات، والأجال والأعمار، ولولا الليل والنهار، والشمس والقمر لم يدرك أحد كيف يحسب؛ لأن الدهر يكون كله ليلاً أو نهاراً. وقال الضحاك: معنى ﴿بحسبان﴾: يقدر. وقال مجاهد: بحسبان كحسبان الرحي يعني: قطبهما الذي يدوران عليه. قال الأخفش: الحسبان جماعة الحساب، مثل شهب وشهبان. وأما الحسبان بالضم فهو العذاب، كما مضى في سورة الكهف ﴿ولنجم والشجر يسجدان﴾ النجم ما لا ساق له من النبات، والشجر ما له ساق. قال الشاعر:

لقد أنجم القاع الكثير عضاهه وتم به حيا تميم وائل

وقال زهير:

مكلل بالصول النجم تنسجه ريح الجنوب لضاحي ما به حبك والمراد: بسجودهما انقيادهما لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين. وقال الفراء: سجودهما: أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يعيلان معها حين ينكسر الفجر. وقال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما في قوله: ﴿يتقيوا ظلاله﴾ [النحل: 48] وقال الحسن، ومجاهد: المراد بالنجم نجم السماء، وسجوده طلوعه، ورجح هذا ابن جرير. وقيل: سجوده أقوله، وسجود الشجر: تمكينها من الاجتناء لثمارها. قال النحاس: أصل السجود الاستسلام والانقياد لله، وهذه الجملة والتي قبلها خبران آخران للرحمن، وترك الرابط فيهما لظهوره كأنه قيل: الشمس والقمر بحسبانه، والنجم والشجر يسجدان له ﴿والسما رفعها﴾ قرأ الجمهور بنصب (السما) على الاشتغال. وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء، والمعنى: أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض ﴿ووضع الميزان﴾ المراد بالميزان العدل أي: وضع في الأرض العدل الذي أمر به، كذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي، وغيرهم. قال الزجاج: المعنى: أنه أمرنا بالعدل، ويدل عليه قوله: ﴿الآن تطفوا في الميزان﴾ أي: لا تجاوزوا العدل. وقال الحسن، والضحاك: المراد به: آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف والانتصاف. وقيل: الميزان القرآن لأن فيه بيان ما يحتاج إليه، وبه قال الحسين بن الفضل، والأول أولى. ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضع لهم، فقال: ﴿واقموا الوزن بالقسط﴾ أي: قوموا وزنكم بالعدل وقيل المعنى: أقيموا لسان الميزان بالعدل، وقيل المعنى: أنه وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال، و «أن» في قوله: ﴿الآن تطفوا﴾ مصدرية أي: لتلا تطفوا، ولا نافية أي: وضع الميزان لتلا تطفوا، وقيل هي مفسرة: لأن في الوضع معنى القول، والطغيان مجاوزة الحد، فمن قال الميزان العدل، قال: طغيانه الجور ومن قال: الميزان الآلة التي يوزن بها، قال:

إخراجه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد. وحكي عن الإمام أحمد أنه كان يستنكر روايته عن زهير، وقال البزار: لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه. وأخرجه البزار، وابن جرير، وابن المنذر، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه، والخطيب في تاريخه من حديث ابن عمر، وصحح السيوطي إسناده. وقال البزار: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. وأخرج البيهقي في الشعب عن علي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن الرحمن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضُ وَحَمَلَهَا الْأَكْبَارُ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ ۝ وَلَهُ ذُو الْعَرْشِ وَالرَّحْمَنُ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَوَضَعَ الْإِنْسَانَ مِنْ نَارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ ۝ رَبَّ الْغَرَقِينَ ۝ وَرَبُّ الْغَرَقِينَ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ ۝ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِيانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْجٌ لَا يَبْيِيانُ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ ۝ مَرَجَ مِنْهُمُ الذُّلُومُ وَالْمَرَكُ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ ۝ وَلَهُ الْكِبَرُ الْمُنْكَتُ فِي الْبَحْرِ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ ۝

قوله: ﴿الرحمن﴾ * علم القرآن ارتقاء الرحمن على أنه مبتدأ، وما بعده من الأفعال أخبار له، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: الله الرحمن. قال الزجاج: معنى: ﴿علم القرآن﴾ يسره. قال الكلبي: علم القرآن محمداً، وعلمه محمد أمته، وقيل: جعله علامة لما يعبد الناس به، قيل: نزلت هذه الآية جواباً لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلمه بشر، وقيل: جواباً لقولهم: وما الرحمن؟ ولما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التي أنعم بها على عباده قدم النعمة التي هي أجلها قدراً، وأكثرها نفعا، وأتمها فائدة، وأعظمها عائدة، وهي نعمة تعليم القرآن، فإنها مدار سعادة الدارين، وقطب رحي الخيرين، وعماد الأمرين. ثم امتن بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التي هي مناط كل الأمور، ومرجع جميع الأشياء، فقال: ﴿خلق الإنسان﴾ ثم امتن ثالثاً بتعليمه البيان الذي يكون به التفاهم، ويدور عليه التخاطب، وتتوقف عليه مصالح المعاش والمعاد؛ لأنه لا يمكن إبراز ما في الضمائر، ولا إظهار ما يدور في الخلد إلا به. قال قتادة، والحسن: المراد بالإنسان: آدم، والمراد بالبيان: أسماء كل شيء، وقيل: المراد به: اللغات. وقال ابن كيسان: المراد بالإنسان ما هنا محمد ﷺ، وبالبيان: بيان الحلال من الحرام، والهدى من الضلال، وهو بعيد. وقال الضحاك: البيان الخير والشر. وقال الربيع بن أنس: هو ما ينفعه مما يضره، وقيل: البيان الكتابة

الجمهور (والحبّ ذو العصف والريحان) برفع الثلاثة عطفًا على فاكهة. وقرأ ابن عامر، وأبو حيوة، والمغيرة بنصيبهما عطفًا على (الأرض)، أو على إضمار فعل أي: وخلق الحبّ ذا العصف والريحان. وقرأ حمزة، والكسائي، (والريحان) بالجرّ عطفًا على العصف ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ الخطاب للجنّ والإنس؛ لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما، ثم خصّص بهذا الخطاب من يعقل. وبهذا قال: الجمهور من المفسرين، ويدلّ عليه قوله فيما سيأتي: ﴿سنفرغ لكم آية الثقلان﴾ [الرحمن: 31] ويدلّ على هذا ما قلّمنا في فاتحة هذه السورة أن النبي ﷺ قرأها على الجنّ والإنس، وقيل: الخطاب للإنس، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية، كما قلّمنا في قوله: ﴿ألقيا في جهنم﴾ [ق: 24] والآء النعم. قال القرطبي: وهو قول جميع المفسرين، واحدهما: إلى مثل معى وعصى. وقال ابن زيد: إنها القدرة أي: فبأي قدرة ربكما تكذبان، وبه قال الكلبي. وكرّر سبحانه هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة، وتأكيداً للتذكير بها على عادة العرب في الاتساع. قال القتيبي: إن الله عند في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين، لينبّههم على النعم ويقرّروهم بها، كما تقول لمن تتابع له إحسانك، وهو يكفره: ألم تكن فقيراً فاعزيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملاً فعزّرتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلاً فحملتك؟ أفتنكر هذا؟ والتكرير حسن في مثل هذا، ومنه قول الشاعر:

لا تقتلي رجلاً إن كنت مسلمة إياك من نعم إياك

قال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير، وهو السماء والأرض وما فيهما، ذكر خلق العالم الصغير، والمراد بالإنسان هنا: آدم. قال القرطبي: باتفاق من أهل التأويل، ولا يبعد أن يراد الجنس؛ لأن بني آدم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم، والصلصال: الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة، وقيل: هو طين خلط برمل، وقيل: هو الطين المنتن يقال: صلّ اللحم وأصل: إذا أنتن، وقد تقدّم بيانه في سورة الحجر، والفخار الخزف الذي طبخ بالنار، والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه في ييسه الخزف ﴿وخلق الجنّ من مارج من نار﴾ يعني: خلق أبا الجنّ، أو جنس الجنّ من مارج من نار، والمارج: اللهب الصافي من النار، وقيل: الخالص منها، وقيل: لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت، وقال الليث: المارج الشعلة الصاعدة ذات اللهب الشديد. قال المبرد: المارج النار المرسلّة التي لا تمنع، وقال أبو عبيدة: المارج خلط النار، من مرج إذا اختلط واضطرب. قال الجوهري: ﴿مارج من نار﴾، نار لا سخان لها خلق منها الجنّ ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإنه أنعم عليكم في تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى ﴿ربّ المشرقين وربّ المغربين﴾ قرأ الجمهور (ربّ)

طفغيانه البخس ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ أي: لا تنقصوه أمر سبحانه أولاً بالتسوية، ثم نهى عن الطفغيان الذي هو المجاوزة للحد بالزيادة، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص والبخس. قرأ الجمهور (تخسروا) بضم التاء، وكسر السين من أخسر، وقرأ بلال بن أبي برزة، وإبان بن عثمان، وزيد بن علي بفتح التاء، والسين من خسر، وهما لغتان، يقال: أخسرت الميزان وخسرته. ثم لما ذكر سبحانه أنه رفع السماء نكر أنه وضع الأرض، فقال: ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ أي: بسطها على الماء لجميع الخلق مما له روح وحياة، ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجنّ. قرأ الجمهور بنصب (الأرض) على الاشتغال، وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء وجملة ﴿ففيها فاكهة﴾: في محل نصب على أنها حال من الأرض مقنّرة، وقيل: مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التي قبلها، والمراد بها: كل ما يتفكه به من أنواع الثمار. ثم أقرّد سبحانه النخل بالذكر لشرفه، ومزيد فائدته على سائر الفواكه فقال: ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ الأكمام جمع كم بالكسر، وهو وعاء التمر. قال الجوهري: والكم بالكسر، والكمّامة وعاء الطلع، وغطاء التنور، والجمع كمّام وكمة واكمام. قال الحسن: ذات الأكمام أي: ذات الليف، فإن النخلة تكمم بالليف، وكمامها ليفها، وقال ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفقق. وقال عكرمة: ذات الأحمال ﴿والحبّ ذو العصف والريحان﴾ الحبّ هو جميع ما يقتات من الحبوب والعصف. قال السدي، والفراء: هو بقل الزرع، وهو أول ما ينبت به. قال ابن كيسان: يبنو أولاً ورقاً، وهو العصف، ثم يبنو له ساق، ثم يحدث الله فيه اكماماً، ثم يحدث في الأكمام الحبّ. قال الفراء: والعرب تقول: خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك، وكذا قال في الصحاح. وقال الحسن: العصف التبن، وقال مجاهد: هو ورق الشجر والزرع. وقيل: هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه ويبس، ومنه قوله: ﴿كعصف ماكول﴾ [الفيل: 5]، وقيل: هو الزرع الكثير، يقال: قد أعصف الزرع، ومكان معصف أي: كثير الزرع، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

إذا جمادى منعت قطرها إن جنّاني عطش معصف
والريحان: الورق في قول الأكثر. وقال الحسن، وقتادة، والضحاك، وابن زيد: إنه الريحان الذي يشم. وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق. وقال الكلبي: إن العصف هو الورق الذي لا يؤكل، والريحان هو الحب الماكول. وقال الفراء أيضاً: العصف الماكول من الزرع، والريحان ما لا يؤكل، وقيل: الريحان كل بقلة طيبة الريح. قال ابن الأعرابي: يقال: شيء ريحاني وروحاني أي: له روح. وقال في الصحاح: الريحان نبت معروف، والريحان الرزق، تقول: خرجت أبغني ريحان الله. قال النمر بن تولب:

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماءه
وقيل: العصف رزق البهائم، والريحان رزق الناس. قرأ

الساكنين، وقرأ ابن مسعود، والحسن، وأبو عمرو في رواية عنه برفع الراء تناسياً للحذف، وقرأ يعقوب بإثبات الياء، وقرأ الجمهور (المنشآت) بفتح الشين، وقرأ حمزة، وأبو بكر في رواية عنه بكسر الشين ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن ذلك من الوضوح والظهور بحيث لا يمكن تكنييه، ولا إنكاره.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ قال: بحساب ومنازل يرسلان. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم عنه ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ قال: للناس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: للمخلوق. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: كل شيء فيه روح. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وَاللَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ﴾ قال: أوعية الطلع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَالْحَبُّ نُورٌ الْعَصْفِ﴾ قال: التبن. ﴿وَالرِّيحَانُ﴾ قال: خضرة الزرع. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: ﴿العصف﴾ ورق الزرع إذا يبس. ﴿وَالرِّيحَانُ﴾ ما انبتت الأرض من الريحان الذي يشم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ﴿العصف﴾ الزرع أول ما يخرج بقلًا ﴿وَالرِّيحَانُ﴾ حين يستوي على سوقه، ولم يستنبل. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: كل ريحان في القرن فهو رزق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال: يعني: بأي نعمة الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: يعني الجن والإنس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿مَنْ مَارَجَ مِنْ نَارٍ﴾ قال: من لهب النار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: خالص النار. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ قال: للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الصيف، ومطلع في الصيف ومغرب في الشتاء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: مشرق الفجر ومشرق الشفق، ومغرب الشمس ومغرب الشفق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قال: أرسل البحرين ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ قال: حاجز ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لا يختلطان. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: بحر السماء وبحر الأرض. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ قال: بينهما من البعد ما لا يبغي كل واحد منهما على صاحبه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال: إذا مطرت السماء فتحت الأصداف في البحر اقوامها، فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ.

بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو ربّ المشرقين والمغربين، وقيل: مبتدأ، وخبره ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ وما بينهما اعتراض، والأول أولى، والمراد بالمشرقين: مشرقا الشتاء والصيف، وبالمغربين: مغرباهما ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن في ذلك من النعم ما لا يحصى، ولا يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفرادها ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ المرج التخلية والإرسال، يقال: مرجت الدابة: إذا أرسلتها، وأصله الإهمال، كما تخرج الدابة في المرعى، والمعنى: أنه أرسل كل واحد منهما، ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يتجاوزان لا فصل بينهما في مرأى العين، ومع ذلك فلم يخطئا، ولهذا قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز يحجز بينهما ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر بأن يسخر فيه ويختلط به. قال الحسن، وقتادة: هما بحر فارس والروم. وقال ابن جريج: هما البحر المالح، والأنهار العذبة، وقيل: بحر المشرق والمغرب، وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان، وقيل: بحر السماء وبحر الأرض. قال سعيد بن جبيرة: يلتقيان في كل علم، وقيل: يلتقي طرفاهما. وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ في محل نصب على الحال من البحرين، وجملة: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ يجوز أن تكون مستأنفة، وأن تكون حالا ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن هذه الآية وأمثالها لا يتيسر تكنيها بحال ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾. قرأ الجمهور (يخرج) بفتح الياء، وضم الراء مبنياً للفاعل، وقرأ نافع، وأبو عمرو بضم الياء، وفتح الراء مبنياً للمفعول، واللؤلؤ: الدرّ، والمرجان: الخرز الأحمر المعروف. وقال الفراء: اللؤلؤ العظام، والمرجان ما صغر. قال الواحدي: وهو قول جميع أهل اللغة. وقال مقاتل، والسدي، ومجاهد: اللؤلؤ صغاره، والمرجان كبارها، وقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب؛ لأنه إذا خرج من أحدهما، فقد خرج منهما، كذا قال الزجاج، وغيره. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب حذف المضاف أي: من أحدهما كقوله: ﴿على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: 31] وقال الاخفش: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب، وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ، ومن الآخر المرجان، وقيل: هما بحر السماء وبحر الأرض، فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤاً، فصار خارجاً منهما ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن في ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد تكنييه، ولا يقدر على إنكاره ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ المراد بـ ﴿الجوار﴾: السفن الجارية في البحر، و﴿المنشآت﴾: المرفوعات التي رفع بعض خشبها على بعض وركب حتى ارتفعت، وطالت حتى صارت في البحر كالأعلام وهي الجبال، والعلم: الجبل الطويل. وقال قتادة: المنشآت المخلوقات للجري. وقال الاخفش: المنشآت المجريات، وقد مضى بيان الكلام في هذا في سورة الشورى. قرأ الجمهور (الجوار) بكسر الراء وحذف الياء لالتقاء

الذي تضمنه الخبر، والتقدير: استقر سبحانه في شأن كل وقت من الأوقات، واليوم عبارة عن الوقت، والشأن هو الأمر، ومن جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبونه منه على اختلاف حاجاتهم، وتبيان أغراضهم. قال المفسرون: من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق ويفقر. ويعزّز ويذلّ، ويمرض ويشفي، ويعطي ويمنع. ويغفر ويعاقب إلى غير ذلك مما لا يحصى. وقيل: المراد باليوم المذكور هو يوم الدنيا ويوم الآخرة، قال ابن بحر: الدهر كله يومان: أحدهما مدة أيام الدنيا، والآخر يوم القيامة، وقيل: المراد كل يوم من أيام الدنيا ﴿فَبَيَّ آيَاتُ رَبِّكَمَا تَكْتَبَانِ﴾ فإن اختلاف شؤونه سبحانه في تبدير عباده نعمة لا يمكن جردها، ولا يتيسر لمكتّبي تكتيبها ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ﴾ وهذا وعيد شديد من الله سبحانه للجن والإنس. قال الزجاج، والكسائي، وابن الأعرابي، وأبو علي الفارسي: إن الفراغ ها هنا ليس هو الفراغ من شغل، ولكن تأويله القصد أي: سنقصّد لحسابكم. قال الواحدي حاكياً عن المفسرين: إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده، ومن هذا قول القائل لمن يريد تهديده: إن اتفرغ لك أي: أقصد قصصك، وفرغ يجيء بمعنى قصد، وأنشد ابن الأتباري قول الشاعر:

الآن وقد فرغت إلى نمير - فهذا حين كنت له عذاباً
يريد وقد قصدت، وأنشد النحاس قول الشاعر:

فرغت إلى العبد المقيد في الحجل

أي: قصدت، وقيل: إن الله سبحانه وعد على التقوى، وأوعد على المعصية، ثم قال: سنفرغ لكم مما وعدناكم، ونوصل كلاً إلى ما وعدناه، وبه قال الحسن، ومقاتل، وابن زيد، ويكون الكلام على طريق التمثيل. قرأ الجمهور (سنفرغ) بالنون وضّم الراء، وقرأ حمزة، والكسائي بالتحية مفتوحة مع ضم الراء، أي: سيفرغ الله، وقرأ الأعرج بالنون مع فتح الراء. قال الكسائي: هي لغة تميم، وقرأ عيسى الثقفي بكسر النون وفتح الراء، وقرأ الأعمش، وإبراهيم بضمّ الياء وفتح الراء على البناء للمفعول، وسمي الجن والإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض، وقيل: سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياناً، وأماناً كما في قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2] وقال جعفر الصائق: سميا ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب، وجمع في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿أَيَّهَ الثَّقَلَانِ﴾: لأنهما فريقان، وكل فريق جمع. قرأ الجمهور (أيه الثقلان) بفتح الهاء، وقرأ أهل الشام بضمها ﴿فَبَيَّ آيَاتُ رَبِّكَمَا تَكْتَبَانِ﴾ فإن من جعلتها ما في هذا التهديد من النعم، فمن ذلك أنه ينزجر به المسيء عن إساءته، ويزداد به المحسن إحساناً، فيكون ذلك سبباً للفوز بنعيم الدار الآخرة الذي هو النعيم في الحقيقة ﴿يَا مَعْشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ قدم الجن هنا لكون خلق أبيهم متقدماً على خلق آدم، ولوجود جنسهم قبل جنس الإنسان ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُتُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن علي بن أبي طالب قال: المرجان عظام اللؤلؤ. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: اللؤلؤ: ما عظم منه، والمرجان: اللؤلؤ الصغار. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن ابن مسعود قال: المرجان الخرز الأحمر.

كُلٌّ مِّنْ عِلِّيَّاتٍ ۚ وَبَيَّنَّا رَحْمَتَهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٧﴾ يَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَكَ تَكْذِبَانِ ﴿١٨﴾ يَسْتَكْبِرُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿١٩﴾ يَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٠﴾ سَنَعَزُّ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٢١﴾ يَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٢﴾ يَسْتَعِزُّ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ إِنْ اسْتَعْظَمُوا أَن تَنْفُتُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَا تَنْفُذُوا لَهُ إِلَّا سُلْطَانٌ ﴿٢٣﴾ يَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٤﴾ يَرْسُلُ عَلَيْكُمَا سُورَاتٍ مِّنْ قَارِ وَهَاسٍ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٢٥﴾ يَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ كَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٢٧﴾ يَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْفَعُ عَنْ دُيُوءِهِمْ أَحَدٌ ۚ لَّآ جَنَّةٌ لَّآ يَدْخُلُهَا ءَالَآءُ رَبِّكَكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٩﴾ يَمُرُّ الْمَجْرُمُونَ بِسَيْنِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْلَامِ ﴿٣٠﴾ يَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَكَ تَكْذِبَانِ ﴿٣١﴾ خُذُوا جَهَنَّمَ إِنِّي يَكْتُبُ فِيهَا لِلْمُتَّبِعِينَ ﴿٣٢﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَيَبْكُ وَيَبْكُ يَوْمَئِذٍ يَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَكَ تَكْذِبَانِ ﴿٣٣﴾

قوله: ﴿كل من عليها فان﴾ أي: كل من على الأرض من الحيوانات هالك، وغلب العقلاء على غيرهم، فعبر عن الجميع بلفظ من، وقيل: أراد من عليها من الجن والإنس ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده، وقد تقدم في سورة البقرة بيان معنى هذا، وقيل: معنى ﴿يَبْقَى وجه ربك﴾ تبقى حجة التي يتقرب بها إليه، والجلال: العظمة والكبرياء، واستحقاق صفات المدح، يقال: جُلَّ الشيء أي: عظم، وأجللته أي: أعظمته، وهو اسم من جُلَّ. ومعنى ذو الإكرام: أنه يكرم عن كل شيء لا يليق به، وقيل: إنه ذو الإكرام لأوليائه، والخطاب في قوله: ﴿ربك﴾ للنبِيِّ ﷺ، أو لكل من يصلح له، قرأ الجمهور (ذو الجلال) على أنه صفة لوجه، وقرأ أبي، وابن مسعود (ذي الجلال) على أنه صفة لرب ﴿فَبَيَّ آيَاتُ رَبِّكَمَا تَكْتَبَانِ﴾ وجه النعمة في فناء الخلق أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء والثواب. وقال مقاتل: وجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت، ومع الموت تستوي الأقدام ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾ أي: يسألونه جميعاً؛ لأنهم محتاجون إليه لا يستغني عنه أحد منهم. قال أبو صالح: يسأله أهل السموات المغفرة، ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونه الأمرين جميعاً. وقال مقاتل: يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة، وتسال لهم الملائكة أيضاً الرزق والمغفرة، وكذا قال ابن جريج. وقيل: يسألونه الرحمة. قال قتادة: لا يستغني عنه أهل السماء، ولا أهل الأرض. والحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال، أو لسان الحال ما يطلبونه من خيري الدارين، أو من خيري إحداهما ﴿كل يوم هو في شأن﴾ انتصاب كل بالاستقرار

السموات والأرض، ونواحيهما هرباً من قضاء الله وقدره ﴿فَانفِذُوا﴾ منها، وخلصوا أنفسكم، يقال: نفذ الشيء من الشيء، إذا خُص منه، كما يخلص السهم ﴿لَا تَتَفَنُّونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر، ولا قوة لكم على ذلك، ولا قدرة، والسلطان: القوة التي يتسلط بها صاحبها على الأمر، والأمر بالنفوذ: أمر تعجيز. قال الضحاك: بينما الناس في أسواقهم إذ انفتحت السماء، ونزلت الملائكة فهرب الجن، والإنس، فتحلق بهم للملائكة، فنلك قوله: ﴿لَا تَتَفَنُّونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. قال ابن المبارك: إن نلك يكون في الآخرة. وقال الضحاك أيضاً: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا من الموت، فامروا. وقيل: إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض، فاعلموه ولن تعلموه إلا بسلطان أي: ببينة من الله. وقال قتادة: معناها لا تنفثوا إلا بملك، وليس لكم ملك. وقيل: الباء بمعنى إلى أي: لا تنفثون إلا إلى سلطان ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ومن جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد، فإنها تزيد المحسن إحساناً، وتكف المسيء عن إساءته، مع أن من حذركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم من نون مهلة ﴿يُرْسِلْ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ﴾ قرأ الجمهور (يرسل) بالتحتيه مبنياً للمفعول، وقرأ زيد بن علي بالنون ونصب (شواط) والشواط: اللهب الذي لا دخان معه. وقال مجاهد: الشواط اللهب الأخضر المتقطع من النار. وقال الضحاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب. وقال الأخفش، وأبو عمرو: هو النار، والدخان جميعاً. قرأ الجمهور (شواط) بضم الشين، وقرأ ابن كثير بكسرهما وهما لغتان، وقرأ الجمهور (ونحاس) بالرفع عطفاً على شواط، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، ومجاهد، وأبو عمرو بخفضه عطفاً على نار، وقرأ الجمهور (نحاس) بضم النون، وقرأ مجاهد، وعكرمة، وحמיד، وأبو العالية بكسرهما. وقرأ مسلم بن جندب، والحسن (ونحاس)، والنحاس: الصفر المذاب يصب على رؤوسهم، قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما. وقال سعيد بن جبير: هو الدخان الذي لا لهب له، وبه قال الخليل. وقال الضحاك: هو ردي الزيت المغلي. وقال الكسائي هو النار التي لها ربح شديدة، وقيل: هو المهل ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ أي: لا تقدران على الامتناع من عذاب الله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الذي يكون به الانزجار عن الشر، والرغوب في الخير ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ لِلسَّمَاءِ﴾ أي: انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالذَّهَانِ﴾ أي: كوردة حمراء. قال: سعيد بن جبير، وقتادة: المعنى فكانت حمراء، وقيل: فكانت كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصفرة. قال الفراء، وأبو عبيدة: تصير السماء كالإديم لشدة حر النار. وقال الفراء أيضاً: شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل، وشبه الورد في ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، والدهان جمع دهن، وقيل: المعنى تصير السماء في حمرة الورد، وجريان الدهن

أي: تنوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدهن لنوبانها، وقيل: الدهان الجلد الأحمر. وقال الحسن كالدهان أي: كصبيب الدهن، فإنك إذا صبيبته ترى فيه ألواناً. وقال زيد بن أسلم: إنها تصير كصير الزيت. قال الزجاج: إنها اليوم خضراء، وسيكون لها لون أحمر. قال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فإن من جملتها ما في هذا التهديد، والتخويف من حسن العقابة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشر ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: يوم تنشق السماء لا يسأل أحد من الإنس ولا من الجن عن ذنبه؛ لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم، والجمع بين هذه الآية، وبين مثل قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ لِمَا هُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: 92] أن ما هنا يكون في موقف، والسؤال في موقف آخر من مواقف القيامة، وقيل: إنهم لا يسألون هنا سؤال استفهام عن ذنوبهم؛ لأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال، وحفظها على العباد، ولكن يسألون سؤال توبيخ وتقريع، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: 78] قال أبو العالية: المعنى: لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم. وقيل: إن عدم السؤال هو عند البعث، والسؤال هو في موقف الحساب ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الشديد؛ لكثرة ما يترتب عليه من الفوائد يعرف المجرمون بسيماهم هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال. السيماء: العلامة. قال الحسن: سيماء سواد الوجوه وزرقة الأعين، كما في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: 102] وقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106] وقيل: سيماء ما يعلمهم من الحزن والكآبة ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ الجار والمجرور في محل رفع على أنه النائب، والنواصي شعور مقدم الرؤوس، والمعنى: أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي، وتلقيهم الملائكة في النار. قال الضحاك: يجمع بين ناصيته، وقدمه في سلسلة من وراء ظهره، وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النار، تارة تأخذ بنواصيهم وتجزهم على وجوههم، وتارة تأخذ بأقدامهم، وتجزهم على رؤوسهم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملتها هذا التهديد الشديد، والوعيد البالغ الذي ترجف له القلوب، وتضطرب لهولة الأحشاء ﴿هَؤُلَاءِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يقال لهم عند نلك: هذه جهنم التي تشاهدونها، وتنتظرون إليها مع أنكم كنتم تكذبون بها وتقولون إنها لا تكون، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصي والأقدام. فقيل: يقال لهم: هذه جهنم تقريباً لهم وتوبيخاً ﴿يُطَوَّفُونَ فِيهَا﴾ أي: بين جهنم فتحرقهم ﴿وَيَبِينُ حَمِيمٌ أَنَّهَا فَتَصَبُّ عَلَى وَجُوهِهِمْ، وَالْحَمِيمُ: الماء الحار، والآن: الذي قد انتهى حره وبلغ غايته،

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ أَنْ﴾ قال: هو الذي انتهى حره.

وَلَمَّا عَافَ مَتَّامَ رَبِّهِ جَنَّانٌ ﴿١١﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿١٢﴾ ذَرَانَا أَفْئَانِ ﴿١٣﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿١٤﴾ فِيمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿١٥﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿١٦﴾ فِيمَا مِنْ كُلِّ فِكْهَةٍ زَنْبَانِ ﴿١٧﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿١٨﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرْطٍ بَلَائِيهَا مِنْ إِسْتَبْرَافٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿١٩﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٠﴾ فِيمَنْ قَمَرَتْ أَلْفَرَبُ لَمْ يَلَيْتَنِي إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٢١﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٢﴾ كَانَتِ الْيَاوُثُ وَالْمَرْسَانُ ﴿٢٣﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٤﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٢٥﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ دُونِهَا جَنَّانٌ ﴿٢٧﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾ تَكْذِبَانِ مُتَدَاهَتَانِ ﴿٢٩﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٠﴾ فِيمَا عَيْنَانِ مَسَّخَتَانِ ﴿٣١﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٢﴾ فِيمَا فِكْهَةٍ وَغُلٌّ وَرَمَانٌ ﴿٣٣﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ فِيمَنْ حَبَرَتْ جِسَانٌ ﴿٣٥﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾ حُرٌّ مَقْصُورٌ فِي لَيْلِيَارٍ ﴿٣٧﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾ لَمْ يَلَيْتَنِي إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٤٠﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَقَرِي حُمَرٍ وَبَقَرِي جِسَانِ ﴿٤١﴾ فَأَيُّ مَالَةٍ رَزَكْنَا تَكْذِبَانِ ﴿٤٢﴾ بَرَكَ أَسْمُ تَمَّ وَكَى لَمَلَّيْ وَالْأَكْرَمِ ﴿٤٣﴾

لما فرغ سبحانه من تعداد النعم النبوية على الثقيلين نكر نعمه الآخورية التي أنعم بها عليهم، فقال: ﴿وَلَمَّا خَافَ مقام ربه جنتان﴾ مقامه سبحانه: هو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب، كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 6] فالمراد مصدر بمعنى القيام، وقيل: المعنى خاف قيام ربه عليه، وهو إشرافه على أحواله، وإطلاعه على أفعاله وأقواله، كما في قوله: ﴿وَأَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33] قال مجاهد، والنخعي: هو الرجل يهمل بالمعصية فينكر الله، فيدعها من خوفه.

واختلف في الجنتين، فقال مقاتل: يعني: جنة عدن وجنة النعيم، وقيل: إحداهما التي خلقت له والأخرى ورثها. وقيل: إحداهما منزله والأخرى منزل أزواجه. وقيل: إحداهما أسافل القصور والأخرى أعاليها. وقيل: جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجنني، وقيل: جنة لفعل الطاعة وأخرى لترك المعصية، وقيل: جنة للعقيدة التي يعتقدونها وأخرى للعمل الذي يعملونه، وقيل: جنة بالعمل وجنة بالتفضل، وقيل: جنة روحانية وجنة جسمانية، وقيل: جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته، وقال الفراء: إنما هي جنة واحدة، والتثنية لأجل موافقة رؤوس الآي. قال النحاس: وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله، فإن الله يقول: ﴿جَنَّاتُ﴾ ويصفها بقوله فيها إلخ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جعلتها من هذه النعم العظيمة، وهي إعطاء الخائف من مقام ربه جنتين متصفتين بالصفات الجليلة العظيمة ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ هذه صفة للجنتان، وما بينهما اعتراض، والأفنان

كذا قال الفراء، قال الزجاج: أنى يأتي أنى، فهو أن: إذا انتهى في النضج والحرارة، ومنه قول النابغة النيباني:

وتخضب لحية غدوت وخانت بأحمر من نجيع الجوف أن وقيل: هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون فيه. قال قتادة: يطوفون مرة في الحميم، ومرة بين الحميم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جعلتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف، وما يحصل به من الترغيب في الخير والترهيب عن الشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ﴾ قال: ذو الكبرياء والعظمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ قال: مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة كل يوم هو في ذلك. وأخرج الحسن بن سفيان في مسنده، والبزار، وابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، وابن منده، وابن مردويه، وأبو نعيم، وابن عساكر عن عبد الله بن منيب قال: «تلا علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فقلنا: يا رسول الله، وما ذلك الشأن؟ قال: أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين». وأخرج البخاري في تاريخه، وابن ماجه، وابن أبي عاصم، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، وابن عساكر، والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في الآية قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين»، زاد البزار: «ويجيب داعيا» وقد رواه البخاري تعليقا، وجعله من كلام أبي الدرداء وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿سُفَّرَ لَكُمْ بِهِ الْغُلَّانُ﴾ قال: هذا وعيد من الله لعباده، وليس بأش شغل، وفي قوله: ﴿لَا تَنْفَعُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ يقول: لا تخرجون من سلطانني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظُ مِنْ نَارٍ﴾ قال: لهب النار ﴿وَنَحَاسٌ﴾ قال: نخان النار. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً، ونحاس: قال الصفر يعذبون به. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ يقول: حمراء ﴿كَالدَّهَانِ﴾ قال: هو الانيم الأحمر. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدَّهَانِ﴾ قال: مثل لون الفرس الورد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لهم: لم عملتم كذا وكذا. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور عنه أيضاً في قوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ﴾ قال: تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه، ويجمع فيكسر، كما يكسر الحطب في التنوير.

والجنى: ما يجتنى من الثمار، قيل: إن الشجرة تدنو حتى يجنيها من يريد جناها، ومنه قول الشاعر:

هنا جنناي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه
قرأ الجمهور (فرش) بضمّتين، وقرأ أبو حيوة بضمّة
وسكون، وقرأ الجمهور (جنى) بفتح الجيم، وقرأ عيسى بن
عمر بكسرهما، وقرأ عيسى أيضاً بكسر النون على الإمالة
﴿فَبَإْيَ آيَةٍ رَّبِّكَما تَكْذِبَانِ﴾ فإنها كلها بموضع لا يتيسر
لمكذب أن يكذب بشيء منها لما تشتمل عليه من الفوائد
العاجلة والآجلة ﴿فَإِنَّهُنَّ قاصرات الطرف﴾ أي: في الجنّتين
المنكورتين، قال الزجاج: وإنما قال: فيهنّ لأنه عنى الجنّتين،
وما أعد لصاحبهما فيهما من النعيم، وقيل: فيهنّ أي: في
الفرش التي بطائنها من استبرق، ومعنى ﴿قاصرات
الطرف﴾: أنهنّ يقصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن
إلى غيرهم، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة الصافات ﴿لم
يطمئنّهنّ إنس قبلهم ولا جان﴾ قال الفراء: الطمئ
الافتضاء وهو النكاح بالتدمية، يقال: طمئ الجارية: إذا
افترعها. قال الواحدي: قال المفسرون: لم يطأهن ولم
يغشهنّ ولم يجامهنّ قبلهم أحد. قال مقاتل: لأنهن خلقن
في الجنة، والضمير في قبلهم يعود إلى الأزواج المملول
عليه بقاصرات الطرف، وقيل: يعود إلى متكئين، والجملة في
محل رفع صفة لقاصرات لأن إضافتها لفظية، وقيل: الطمئ
المسّ أي: لم يمسسهنّ، قاله أبو عمرو. وقال المبرد: أي: لم
يذلّلنّ، والطمئ التذليل، ومن استعمال الطمئ فيما نكره
الفراء قول الفرزقي:

نفعن إليّ لم يطمئنّ قبلي وهنّ أصحّ من بيض النعام
وقرأ الجمهور (يطمئنّ) بكسر الميم، وقرأ الكسائي
بضمّها، وقرأ الجحدري، وطلحة بن مصرف بفتحها، وفي
هذه الآية بل في كثير من آيات هذه السورة دليل أن الجنّ
يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه، وعملوا بفرائضه،
وانتهوا عن مناهيه ﴿فَبَإْيَ آيَةٍ رَّبِّكَما تَكْذِبَانِ﴾ فإن في
مجرد هذا الترغيب في هذه النعم جملة عظيمة، ومنه عظمة،
لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة، والفرار من
الأعمال الطالحة، فكيف بالوصول إلى هذه النعم، والتنعّم بها
في جنات النعيم بلا انقطاع، ولا زوال ﴿كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ
وَالْمَرْجَانُ﴾ هذا صفة لقاصرات، أو حال منهنّ، شبههنّ
سبحانه في صفاء اللون مع حمرة الياقوت والمرجان،
والياقوت: هو الحجر المعروف، والمرجان قد قدّمنا الكلام
فيه في هذه السورة على الخلاف في كونه صفار الدرّ، أو
الأحمر المعروف. قال الحسن: هنّ في صفاء الياقوت،
وبياض المرجان، وإنما خصّ المرجان على القول بأنه صفار
الدرّ؛ لأن صفاءها أشدّ من صفاء كبار الدرّ ﴿فَبَإْيَ آيَةٍ
رَّبِّكَما تَكْذِبَانِ﴾ فإن نعمه كلها لا يتيسر تكذيب شيء منها
كأنّ ما كانت، فكيف بهذه النعم الجليلة والمنن الجزيلة
﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ هذه الجملة مقرّرة

الأغصان، واحدها فنّ، وهو الغصن المستقيم طولاً، وبهذا
قال مجاهد، وعكرمة، وعطية، وغيرهم. وقال الزجاج: الأفنان
الألوان واحدها فنّ، وهو الضرب من كل شيء، وبه قال
عطاء، وسعيد بن جبير، وجمع عطاء بين القولين، فقال: في
كلّ غصن فنون من الفكاهة، ومن إطلاق الفنّ على الغصن
قول النابغة:

دعاء حمامة تدعو هيبلا مفجعة على فنن تغني
وقول الآخر:

ما هاج شوقك من هيب حمامة تدعو على فنن الغصن حماما
وقيل: معنى ﴿ذواتا أفنان﴾: ذواتا فضل وسعة على ما
سواهما، قاله قتادة، وقيل: الأفنان: ظلّ الأغصان على
الحيطان، روي هذا عن مجاهد، وعكرمة ﴿فَبَإْيَ آيَةٍ رَّبِّكَما
تَكْذِبَانِ﴾ فإن كل واحد منها ليس بمحل للتكذيب، ولا
بموضع للإنكار ﴿فَإِنَّهُمَا عَيْنَانِ تجريان﴾ هذا أيضاً صفة
أخرى لجنّتان أي: في كل واحدة منهما عين جارية. قال
الحسن: إحداهما السلسبيل والأخرى التسنيم. وقال عطية:
إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين،
قيل: كلّ واحدة منهما مثل الدنيا أضعافاً مضاعفة ﴿فَبَإْيَ
آيَةٍ رَّبِّكَما تَكْذِبَانِ﴾ فإن من جملة هذه النعمة الكائنة في
الجنة لأهل السعادة ﴿فَإِنَّهُمَا مِنْ كُلِّ فاكهة زوجان﴾ هذا
صفة ثالثة لجنّتان، والزوجان الصنفان والنوعان، والمعنى:
أن في الجنّتين من كلّ نوع يتفكه به ضربين يستلذّ بكلّ
نوع من أنواعه، قيل: أحد الصنفين رطب، والآخر يابس لا
يقصر أحدهما عن الآخر في الفضل والطيب ﴿فَبَإْيَ آيَةٍ
رَّبِّكَما تَكْذِبَانِ﴾ فإن في مجرّد تعداد هذه النعم، ووصفها
في هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير، والترهيب
عن فعل الشرّ ما لا يخفى على من يفهم، وذلك نعمة عظيمة،
ومنّة كبرى، فكيف بالنعمة به عند الوصول إليه ﴿مُتَكِّئِينَ
على فرش بطائنها من استبرق﴾ انتصاب متكئين على
الحال من فاعل قوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ﴾ وإنما جمع حملاً على
معنى من، وقيل: عاملها محنوف، والتقدير: يتنعّمون متكئين،
وقيل: منصوب على المدح، والفرش جمع فرش، والبطائن:
هي التي تحت الظهائر، وهي جمع بطانة. قال الزجاج: هي
ما يلي الأرض، والاستبرق: ما غلظ من الديباج، وإذا كانت
البطائن من استبرق، فكيف تكون الظهائر؟ قيل لسعيد بن
جبير: البطائن من استبرق فما الظواهر؟ قال: هذا بما قال الله
فيه: ﴿فَإِنَّمَا تَعْلَمُ نَفْسُ ما أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قَرّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:
17] قيل: إنما اقتصر على ذكر البطائن لأنه لم يكن أحد في
الأرض يعرف ما في الظهائر. وقال الحسن: بطائنها من
استبرق، وظهائرها من نور جامد. وقال الحسن: البطائن هي
الظهائر، وبه قال الفراء وقال: قد تكون البطانة الظهارة،
والظهارة البطانة لأن كلّ واحد منهما يكون وجهاً، والعرب
تقول هذا: ظهر السماء، وهذا بطن السماء لظاهرها الذي
نراه، وإنكر ابن قتيبة هذا، وقال: لا يكون هذا إلا في
الوجهين المتساويين ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ مبتدا وخبر،

أهل العلم، ولم يخالف في ذلك إلا أبو حنيفة، وقد خالفه أصحابه أبو يوسف، ومحمد ﴿فَبَيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْنُبَانِ﴾ فإن من جملتها هذه النعم التي في جنات النعيم، ومجرد الحكاية لها تأثير في نفوس السامعين، وتجذبهم إلى طاعة رب العالمين ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ قرأ الجمهور (خيرات) بالتخفيف، وقرأ قتادة، وابن السميع، وأبو رجاء العطاردي، وبكر بن حبيب السهمي، وابن مقسم، والنهدي بالتشديد، فعلى القراءة الأولى هي جمع خيرة بزنة فعلة يسكون العين، يقال: امرأة خيرة وأخرى شرّة، أو جمع خيرة مخففة خيرة، وعلى القراءة الثانية جمع خيرة بالتشديد. قال الواحدي: قال المفسرون: الخيرات النساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه. قيل: وهذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع، ولا وجه لهذا، فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهن قاصرات الطرف ﴿كَانَهُنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾ وبين الصفتين بون بعيد ﴿فَبَيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْنُبَانِ﴾ فإن شيئاً منها كائن ما كان لا يقبل التكذيب ﴿حُجُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ أي: محبوسات، ومنه القصر لأنه يحبس من فيه، والحدود جمع حوراء وهي شديدة بياض العين شديدة سوادها، وقد تقدّم بيان معنى الحوراء، والخلاف فيه. وقيل: معنى ﴿مَقْصُورَاتٌ﴾: أنهنّ قصرن على أزواجهنّ، فلا يربن غيرهم، وحكاها الواحدي عن المفسرين. والأول أولى، وبه قال أبو عبيدة، ومقاتل، وغيرهما. قال في الصحاح: قصرت الشيء أقصره قصرأ حبسته، والمعنى: أنهنّ خُذِرْنَ في الخيام، والخيام جمع خيمة، وقيل: جمع خيم، والخيم جمع خيمة، وهي أعواد تنصب وتظل بالثياب، فتكون أبرد من الأخبية، قيل: الخيمة من خيام الجنة بزة مجوفة، فرسخ في فرسخ، وارتفاع حور على البلية من خيرات ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْهَا قُلُوبُهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ قد تقدّم تفسيره في صفة الجنتين الأوليين ﴿فَبَيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْنُبَانِ﴾ فإنها كلها نعم لا تكفر، ومن لا تجحد ﴿مَتَكَبِّينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ﴾ انتصاب متكئين على الحال، أو المدح كما سبق، قال أبو عبيدة: الرُفُوف البسط، وبه قال الحسن، ومقاتل، والضحاك، وغيرهم. وقال ابن عيينة: هي الزرابي. وقال ابن كيسان: هي المرافق. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: هي حاشية الثوب. وقال الليث: ضرب من الثياب الخضراء، وقيل: الفرش المرتفعة، وقيل: كل ثوب عريض. قال في الصحاح: والرُفُوف ثياب خضر يتخذ منها المحابس، الواحدة رُفُوفَة. وقال الزجاج: قالوا الرُفُوف هنا: رياض الجنة، وقالوا الرُفُوف: الوسائد، وقالوا الرُفُوف: المحابس هـ. ومن القائلين بأنها رياض الجنة: سعيد بن جبيرة، واشتقاق الرُفُوف من رف يرف: إذا ارتفع، ومنه رُفُوفَة الطائر، وهي تحريك جناحيه في الهواء. قرأ الجمهور (رُفُوف) على الأفراد. وقرأ عثمان بن عفان، والحسن، والجحدري (رُفُوف) على الجمع ﴿وَعَبْقَرِيَّ حَسَنَاتٍ﴾ العبقريّ الزرابي، والطنافس الموشية. قال أبو عبيدة: كل وشي من البسط عبقرى، وهو منسوب إلى أرض

لمضمون ما قبلها، والمعنى: ما جزء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة، كذا قال ابن زيد، وغيره. قال عكرمة: هل جزء من قال: لا إله إلا الله إلا الجنة، وقال الصائغ: هل جزء من أحسن إلى الله في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد. قال الرازي: في هذه الآية وجوه كثيرة حتى قيل: إن في القرآن ثلاث آيات في كل واحدة منها مائة قول: إحداها قوله تعالى: ﴿فَنُكْرُونِي أَذْكَرَكُم﴾ [البقرة: 152] وثانيها: ﴿وَإِنْ عَدِمْنَا عَنْكَ﴾ [الإسراء: 8] وثالثها: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾. قال محمد بن الحنفية: هي للبرّ والفاجر: البرّ في الآخرة، والفاجر في الدنيا ﴿فَبَيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْنُبَانِ﴾ فإن من جملتها الإحسان إليكم في الدنيا والآخرة بالخلق والرزق والإرشاد إلى العمل الصالح، والجزر عن العمل الذي لا يرضاه ﴿وَمَنْ نُوْنِهُمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: ومن نون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدمة جنتان أخريان، لمن نون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة، ومعنى من نونهما أي: من أمامهما، ومن قبلهما أي: هما أقرب منهما، وإنني إلى العرش، وقيل: الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى. قال ابن جريج: هي أربع جنتان: جنتان منهما للسابقين المقربين ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ﴿وَعَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وجنتان لأصحاب اليمين ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾ و ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاجَتَانِ﴾ قال ابن زيد: إن الأوليين من ذهب للمقربين، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين ﴿فَبَيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْنُبَانِ﴾ فإنها كلها حق، ونعم لا يمكن جحدها، ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين، فقال: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ وما بينهما اعتراض. قال أبو عبيدة والزجاج: من خضرتهما قد أسوتنا من البري، وكل ما علاه السواد رياً فهو مدهم. قال مجاهد: مسوّتان، والذهمة في اللغة: السواد، يقال: فرس أدهم، وبغير أدهم: إذا اشتدّت ورقته حتى ذهب البياض الذي فيه ﴿فَبَيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْنُبَانِ﴾ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد ولا تنكر ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاجَتَانِ﴾ النضج فوران الماء من العين، والمعنى: أن في الجنتين المذكورتين عينين فوّارتين. قال أهل اللغة: والنضج بالحاء المعجمة أكثر من النضج بالحاء المهملة. قال الحسن، ومجاهد: تنضج على أولياء الله بالمسك، والعنبر، والكافور في نور أهل الجنة. كما ينضج رش المطر. وقال سعيد بن جبيرة: إنها تنضج بأنواع الفواكه، والماء ﴿فَبَيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْنُبَانِ﴾ فإنها ليست بموضع للتكذيب، ولا بمكان للجحد ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾ هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريباً، والنخل والرمان وإن كانا من الفاكهة لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما، وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه، كما حكاها الزجاج، والأزهري، وغيرهما. وقيل: إنما خصهما لكثرةهما في أرض العرب، وقيل: خصهما لأن النخل فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء. وقد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور

يعمل فيها الوشي. قال الفراء: العبقريّ الطنافس الثمان، وقيل: الزرابي، وقيل: البسط، وقيل: الديباج. قال ابن الأنباري: الأصل فيه أن عبقر قرية تسكنها الجن ينسب إليها كل فائق. قال الخليل: العبقريّ عند العرب كل جليل فاضل فآخر من الرجال والنساء، ومنه قول زهير:

تخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوماً أن ينالوا فيستملوا
قال الجوهرى: العبقريّ موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن. قال لبيد:

كهول وشبان كجنة عبقرى

ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من خلقه وجودة صنعته وقوته، فقالوا: عبقرى، وهو واحد وجمع. قرأ الجمهور (عبقرى) وقرأ عثمان بن عفان، والحسن، والجحدري (عباقرى) وقرأ (عباقر) وهما نسبة إلى عباقر اسم بلد. وقال قطرب: ليس بمنسوب، وهو مثل كرسى وكراسى، وبختى وبختاني. قرأ الجمهور (خضر) بضم الخاء وسكون الضاد، وقرأ بضمهما، وهي لغة قليلة «فباي آلاء ربكما تكذبان» فإن كل واحد منها أجل من أن يتطرق إليه التكذيب، وأعظم من أن يحجده جاحد، أو ينكره منك، وقد قدمنا في أول هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده «تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام» تبارك تفاعل من البركة. قال الرازي: وأصل التبارك من التبرك، وهو الدوام والثبات، ومنه برك البعير، وبركه الماء فإن الماء يكون دائماً، والمعنى: دام اسمه وثبت أو دام الخير عنده؛ لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل في الخير، أو يكون معناه: علا وارتفع شأنه. وقيل معناه: تنزيه الله سبحانه وتقديسه، وإذا كان هذا التبارك منسوباً إلى اسمه عز وجل، فما ظنك بذاته سبحانه؟ وقيل: الاسم بمعنى الصفة، وقيل: هو مقحم كما في قول الشاعر:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر
وقد تقدم تفسير ذي الجلال، والإكرام في هذه السورة. قرأ الجمهور (ذي الجلال) على أنه صفة للرب سبحانه. وقرأ ابن عامر (نو الجلال) على أنه صفة لاسم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» قال: وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه، فأنوا فرائضه الجنة. وأخرج ابن جرير عنه في الآية يقول: خاف ثم اتقى، والخائف: من ركب طاعة الله وترك معصيته. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء أنها نزلت في أبي بكر. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شونب مثله. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في الآية قال: لمن خافه في الدنيا. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن منيع، والحاكم، والترمذي، والنسائي، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أبي الدرداء «أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: «ولمن خاف مقام ربه

جنتان» فقلت: وإن زنى، وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» فقلت: وإن زنى، وإن سرق؟ فقال الثالثة: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» فقلت: وإن زنى، وإن سرق؟ قال: نعم، وإن رغم أنف أبي الدرداء. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» فقال أبو الدرداء: وإن زنى، وإن سرق يا رسول الله؟ قال: وإن زنى، وإن سرق، وإن رغم أنف أبي الدرداء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبي الدرداء في قوله: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» قال: قيل: لأبي الدرداء: وإن زنى، وإن سرق؟ قال: من خاف مقام ربه لم يذن، ولم يسرق. وأخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال: كنت عند هشام بن عبد الملك، فقال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» قال أبو هريرة: وإن زنى، وإن سرق؟ فقلت: إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «جنان الفردوس أربع جنان: جنتان من ذهب حليتهما وإبنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة حليتهما وإبنيتهما وما فيهما، وما بين القوم، وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي موسى عن النبي ﷺ في قوله: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» وفي قوله: «ومن دونهما جنتان» قال: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي موسى في قوله: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» قال: جنتان من ذهب للمسابقين، وجنتان من فضة للتابعين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «نواتا أفنان» قال: نواتا ألوان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: فن غصونها يمس بعضها بعضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً قال: الفن الغصن. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله: «مكتئين على فرش بطائنتها من استبرق» قال: أخبرتم بالبطائن، فكيف بالظواهر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس أنه قيل: له بطائنتها من استبرق، فما الظواهر؟ قال: ذلك مما قال الله «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين» [السجدة: 17]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عنه في قوله: «وجنى الجنتين دان» قال: جناها ثمرها، والداني: القريب منك يناله القائم والقاعد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عنه أيضاً

قوله: ﴿خيرات حسان﴾ قال: لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من الله كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك، لا مراحات ولا طماحات، ولا بخرات ولا نفرات، حور عين كأنهن بيض مكنون. وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿حور﴾ قال: بيض ﴿مقصورات﴾ قال: محبوسات ﴿في الخيام﴾ قال: في بيوت اللؤلؤ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: الحور سود الحنق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الخيام بُرَّ مجوَّف». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «الخيمة بُرَّة مجوَّف طولها في السماء ستون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن». وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿مكتئين على رفرف﴾ قال: فضول المحابس والفرش والبسط. وأخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب قال: هي فضول المحابس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والبيهقي في البعث من طرق عن ابن عباس ﴿رفرف خضر﴾ قال: المحابس ﴿وعبقري حسان﴾ قال: الزرابي. وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال: الزُفَرَفُ الرِّياض، والعبقري الزرابي.

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وجابر، وعطاء. وقال ابن عباس، وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [الواقعة: 82]، وقال الكلبي: إنها مكية إلا أربع آيات منها، وهي: ﴿أقبل هذا الحديث أنتم مدنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [الواقعة: 81، 82] وقوله: ﴿ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين﴾ [الواقعة: 13، 14]. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة الواقعة بمكة. وأخرج ابن مردويه، عن ابن الزبير مثله. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الضريس، والحارث بن أبي أسامة، وأبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً». وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «سورة الواقعة سورة الغنى، فاقترعوها، وعلموها أولادكم». وأخرج اليلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا نساءكم سورة الواقعة، فإنها سورة الغنى»، وقد تقدم قوله ﷺ: «شيتني هود، والواقعة» ١ هـ.

في قوله: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ يقول: عن غير أزواجهن ﴿لم يطمئنهن﴾ يقول: لم يئن منهن، أو لم يطمئن. وأخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «في قوله: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ قال: تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرأة، وإن أنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب، وإنه يكون عليها سبعون ثوباً، وينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك». وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد بن السري، والترمذي، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها، وذلك أن الله يقول: كأنهن الياقوت والمرجان، فاما الياقوت، فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيت من ورائه»، وقد رواه الترمذي موقوفاً وقال: هو أصح. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب وضعفه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «في قوله: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ قال: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة». وأخرج الحكيم الترمذي في نواير الأصول، والبيهقي في تفسيره، واليلمي في مسند الفردوس، وابن النجار في تاريخه عن أنس مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعاً في الآية قال: «هل جزاء من أنعمنا عليه بالإسلام إلا أن أدخله الجنة». وأخرج ابن النجار في تاريخه عن علي بن أبي طالب مرفوعاً مثل حديث ابن عمر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ قال: هل جزاء من قال لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة. وأخرج ابن عدي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، واليلمي، والبيهقي في الشعب، وضعفه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله علي هذه الآية في سورة الرحمن للكافر والمسلم: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾». وأخرجه ابن مردويه موقوفاً على ابن عباس. وأخرج هناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿مدهامتان﴾ قال: هما خضران. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: قد اسودتا من الخضرة من الرِّي من الماء. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عبد الله بن الزبير نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿مدهامتان﴾ قال: خضراوان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿نضاختان﴾ قال: فائضتان. وأخرج عبد بن حميد عنه قال: ينضخان بالماء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن مسعود في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الزَّالِقَةُ ۖ لَيْسَ لَوْفِقَهَا كَذِبَةٌ ۖ خَاضِعَةٌ رَافِعَةٌ ۖ إِذَا رَمَتْ
الْأَرْضُ رَبَّهَا ۖ وَنَسَتْ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ وَكُنْهُمْ أَرْدَابًا
نَّازِلَةً ۖ فَاصْحَبْهُمُ الَّتِي نَسَتْ مَا أَصْحَبَ الَّتِي نَسَتْ ۖ وَأَصْحَبْهُمُ الَّتِي نَسَتْ مَا
أَصْحَبَ الَّتِي نَسَتْ ۖ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ۖ أُولَئِكَ الْمَفْرُوقُونَ ۖ فِي جَنَّتِ
الَّتِي نَسَتْ ۖ نَلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ۖ عَلَى سُرُرٍ مَوْشَوْنَ ۖ
مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۖ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۖ يَأْكُوبُ وَيُكْرِى
وَيُكَاسِي وَيُنَاعِمُونَ ۖ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَرْفَعُونَ ۖ وَنَكَحَهُنَّ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۖ
وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۖ وَرَحُورٌ عَلَيْهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ الْأَوَّلُونَ ۖ الْكَفَرُونَ ۖ جَزَاءُ
بِمَا كَانُوا يَسْعَوْنَ ۖ لَا يَسْمُونَ بِهَا لَوْ لَا تَأْلَمُوا ۖ إِلَّا قَلِيلًا سَلَكْنَا

قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الزَّالِقَةُ﴾ الواقعة اسم للقيامة كالآزفة وغيرها، وسميت واقعة لأنها كائنة لا محالة، أو لقرب وقوعها، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد، وانتصاب إذا بمضمر أي: انكر وقت وقوع الواقعة، أو بالنفي المفهوم من قوله: ﴿لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَائِبَةٌ﴾ أي: لا يكون عند وقوعها تكذيب، والكائبة مصغر كالعاقبة أي: ليس لمجيئها وظهورها كذب أصلاً، وقيل: إذا شرطية، وجوابها مقدر أي: إذا وقعت كان كيت وكيت، والجواب هذا هو العامل فيها، وقيل: إنها شرطية، والعامل فيها الفعل الذي بعدها، واختار هذا أبو حيان، وقد سبقه إلى هذا مكي فقال: والعامل وقعت. قال المفسرون: والواقعة هنا هي النفخة الآخرة، ومعنى الآية: أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلاً، أو لا يكون هناك نفس تكذب على الله، وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة. قال الزجاج: ليس لوقعها كائبة أي: لا يردّها شيء، وبه قال الحسن، وقائدة. وقال الثوري: ليس لوقعها أحد يكتب بها، وقال الكسائي: ليس لها تكذيب أي: لا ينبغي أن يكتب بها أحد ﴿خَاضِعَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قرأ الجمهور برفعها على إضمار مبتدأ أي: هي خاضعة رافعة. وقرأ الحسن وعيسى الثقفي بنصبهما على الحال. قال عكرمة، والسدي، ومقاتل: خفضت الصوت فاسمعت من ننا، ورفعت الصوت فاسمعت من ناي أي: أسمعت القريب والبعيد. وقال قتادة: خفضت أقواماً في عذاب الله، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله. وقال: محمد بن كعب: خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين، والعرب تستعمل الخفض والرفع في المكان والمكانة، والعز والإمانة، ونسبة الخفض والرفع إليها على طريق المجاز، والخافض والرافع في الحقيقة، هو الله سبحانه ﴿إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أي: إذا حركت حركة شديدة، يقال رَجَّه يَرْجُّه رَجًّا إذا حركه، والرجة الاضطراب، وارتج البحر اضطرب. قال المفسرون: ترتج، كما يرتج الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها، وينكسر كل شيء من الجبال وغيرها. قال قتادة، ومقاتل، ومجاهد: معنى رجت زلزلت، والظرف متعلق بقوله: ﴿خَاضِعَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أي:

تخفض وترفع وقت رج الأرض ويس الجبال؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض، وينخفض ما هو مرتفع. وقيل: إنه بدل من الظرف الأول نكره الزجاج، فيكون معنى وقوع الواقعة هو رج الأرض ويس الجبال ﴿وَبُسْتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ البس: الفت، يقال: بس الشيء إذا فته حتى يصير فتاتاً، ويقال بس السويق: إذا لته بالسمن، أو بالزيت. قال مجاهد، ومقاتل: المعنى أن الجبال قتت فتاً. وقال السدي: كسرت كسراً. وقال الحسن: قلعت من أصلها. وقال مجاهد أيضاً: بست كما يبس البقيق بالسمن، أو بالزيت، والمعنى: أنها خلطت فصارت كاللبيق الملتوث. وقال أبو زيد: البس السوق، والمعنى على هذا: سبقت الجبال سوقاً، قال أبو عبيد: بس الإبل، وابسها لغتان: إذا زجرها. وقال عكرمة: المعنى هبت هذا ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ أي: غباراً متفرقاً منتشراً. قال مجاهد: الهباء الشعاع الذي يكون في الكوة كهيئة الغبار، وقيل: هو الزهج الذي يسلمع من حوافر الدواب، ثم يذهب، وقيل: ما تطاير من النار إذا اضطربت على سورة الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً، وقد تقدم بيانه في الفرقان عند تفسير قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23] قرأ الجمهور (منبثاً) بالمثلثة. وقرأ مسروق، والنخعي، وأبو حيوه بالتاء المثناة من فوق أي: منقطعة، من قولهم بته الله أي: قطعه. ثم ذكر سبحانه أحوال الناس واختلافهم فقال: ﴿وَوَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ والخطاب لجميع الناس، أو للامة الحاضرة، والأزواج الأصناف، والمعنى: وكنتم في ذلك اليوم اصنافاً ثلاثة. ثم فسّر سبحانه هذه الأصناف فقال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمِيْمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمِيْمَةِ﴾ أي: أصحاب اليمين، وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، ﴿وَأَصْحَابُ الْمِيْمَةِ﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿مَا أَصْحَابُ الْمِيْمَةِ﴾ أي: أي شيء هم في حالهم، وصفتهم، والاستفهام للتعظيم والتفخيم، وتكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير الزابط، كما في قوله: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ [ما الحاققة] [الحاققة: 1، 2] ﴿الْقَارِعَةُ﴾ [ما القارعة] [القارعة: 1، 2] ولا يجوز مثل هذا إلا في مواضع التفخيم، والتعظيم ﴿وَالْأَكْلَامُ﴾ في أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، والمراد: الذي يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، أو يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم، والمراد: تعجب السامع من حال الفريقين في الفخامة والظفاعة؛ كانه قيل: فأصحاب الميمنة في نهاية السعادة وحسن الحال، وأصحاب المشامة في نهاية الشقاوة وسوء الحال. وقال السدي: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه، وأصحاب المشامة هم الذين كانوا عن شماله. وقال زيد بن أسلم: أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن، وأصحاب المشامة هم الذين أخذوا من شقه الأيسر. وقال ابن جريج: أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات، وأصحاب المشامة هم أهل السيئات. وقال الحسن، والربيع:

يكون في أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم، فيجتمع من قليل سابقى هذه الأمة، ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة، والمقابلة بين الثنتين في أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال: هذه الثلة أكثر من هذه الثلة، كما يقال: هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة، وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة. وبهذا تعرف أنه لم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بالحديث المنكور. ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين، فقال: ﴿على سرر موضونة﴾ قرأ الجمهور (سرر) بضم السين والراء الأولى، وقرأ أبو السماك، وزيد بن علي بفتح الراء، وهي لغة كما تقدم، والموضونة المنسوجة، والوضن: النسج المضاعف. قال الواحدي: قال المفسرون: منسوجة بقضبان الذهب، وقيل: مشبكة بالدر، والياقوت، والزبرجد، وقيل: إن الموضونة المصفوفة. وقال مجاهد: الموضونة المرمولة بالذهب، وانتصاب ﴿متكئين عليها﴾ على الحال، وكذا انتصاب ﴿مقابلين﴾ والمعنى: مستقرين على سرر متكئين عليها مقابلين لا ينظر بعضهم قفا بعض ﴿يطوف عليهم ولدان مخلون﴾ الجملة في محل نصب على الحال من المقربين، أو مستأنفة لبيان بعض ما أعد الله لهم من النعيم، والمعنى: يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون، ولا يتغيرون، بل شكلهم شكل الولدان دائماً. قال مجاهد: المعنى لا يموتون. وقال الحسن، والكلبي: لا يهرمون، ولا يتغيرون. قال الفراء: والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط: إنه لمخلد. وقال سعيد بن جبيرة: مخلون مقرطون. قال الفراء: ويقال: مخلون مقرطون، يقال: خلد جاريته: إذا حلاها بالخلد، وهي القرطة. وقال عكرمة: مخلون منعمون، ومنه قول امرئ القيس:

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال
وقيل: مستورون بالحلية، وروي نحوه عن الفراء، ومنه قول الشاعر:

ومخلدات باللعين كأنما أعجازهن أقارص الكشبان
وقيل: مخلون مننطقون، قيل: وهم ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة، وقيل: هم أطفال المشركين، ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين في الجنة للقيام بهذه الخدمة، والأكواب: هي الاقداح المستديرة الأفواه التي لا أذان لها ولا عرى، وقد مضى بيان معناها في سورة الزخرف، والأباريق: هي ذات العرى والخراطيم، واحداها إبريق، وهو الذي يبرق لونه من صفائه ﴿وكاس من معين﴾ أي: من خمر جارية، أو من ماء جار، والمراد به ها هنا: الخمر الجارية من العيون، وقد تقدم بيان معنى الكاس في سورة الصافات ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي: لا تتصدع رؤوسهم من شربها، كما تتصدع من شرب خمر الدنيا. والصداع: هو الداء المعروف الذي يلحق الإنسان في رأسه، وقيل: معنى لا يصدعون لا يتفرون كما يتفرك الشراب،

أصحاب الميمنة هم الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، وأصحاب المشامة هم المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة. وقال المبرد: أصحاب الميمنة أصحاب التقدم، وأصحاب المشامة أصحاب التأخر، والعرب تقول: اجعلني في يمينك، ولا تجعلني في شمالك أي: اجعلني من المتقدمين، ولا تجعلني من المتأخرين، ومنه قول ابن الميمنة: أبنيته أي يميني يدك جعلتني فافرح أم صيرتني في شمالك ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث، فقال: ﴿والسابقون السابقون﴾ والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم، كما مر في القسمين الأولين، كما تقول أنت أنت، وزيد زيد، والسابقون مبتدأ، وخبره السابقون. وفيه تأويلان أحدهما: أنه بمعنى السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بذلك. والثاني: أن متعلق السابقين مختلف، والتقدير: والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة. والأول أولى لما فيه من الدلالة على التفخيم والتعظيم. قال الحسن، وقتادة: هم السابقون إلى الإيمان من كلامه. وقال محمد بن كعب: إنهم الأنبياء. وقال ابن سيرين: هم الذين صلوا إلى القبليتين. وقال مجاهد: هم الذين سبقوا إلى الجهاد، وبه قال الضحاك. وقال سعيد بن جبيرة: هم السابقون إلى التوبة وأعمال البر. وقال الزجاج: المعنى: والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله. قيل: ووجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأولين هو أن يقترب به ما بعده، وهو قوله: ﴿أولئك المقربون﴾ في جنات النعيم، فالإشارة هي إليهم أي: المقربون إلى جزيث ثواب الله، وعظيم كرامته، أو الذين قربت درجاتهم، وأعليت مراتبهم عند الله. وقوله: ﴿في جنات النعيم﴾ متعلق بالمقربون أي: مقربون عند الله في جنات النعيم. ويجوز أن يكون خبراً ثانياً لأولئك، وأن يكون حالاً من الضمير في المقربون أي كائنين فيها. قرأ الجمهور (في جنات) بالجمع، وقرأ طلحة بن مصرف (في جنة) بالإنفراد، وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه، كما يقال: دار الضيافة، ودار الدعوة، ودار العدل، وارتفاع ﴿ثلة من الأولين﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم ثلة، والثلة الجماعة التي لا يحصر عددها. قال الزجاج: معنى ثلة معنى فرقة، ومن ثلث الشيء: إذا قطعته، والمراد بالأوليين: هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا ﷺ ﴿وقليل من الآخرين﴾ أي: من هذه الأمة، وسموا قليلاً بالنسبة إلى من كان قبلهم، وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم، وكثرة من أجابهم. قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا. قال الزجاج: الذين عابونا جميع الأنبياء وصنقوا بهم أكثر ممن عابن النبي ﷺ، ولا يخالف هذا ما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة، ثم قال: ثلث أهل الجنة، ثم قال: نصف أهل الجنة»، لأن قوله: ﴿ثلة من الأولين﴾ و﴿قليل من الآخرين﴾ إنما هو تفصيل للسابقين فقط، كما سيأتي في ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين، فلا يمتنع أن

يتكلمون بما فيه إثم ﴿إِلَّا قَلِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ القيل القول، والاستثناء منقطع أي: لكن يقولون قتيلاً، أو يسمعون قتيلاً، وانتصاب سلاماً سلاماً علي أنه بدل من قتيلاً، أو صفة له، أو هو مفعول به قليلاً أي: إلا أن يقولوا سلاماً سلاماً، واختار هذا الزجاج، أو على أنه منصوب بفعل هو محكي بقية أي: إلا قتيلاً سلموا سلاماً سلاماً، والمعنى في الآية: أنهم لا يسمعون إلا تحية بعضهم لبعض. قال عطاء: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، وقيل: إن الاستثناء متصل وهو بعيد؛ لأن التحية ليست مما يندرج تحت اللغو والتأنيث، قرئ (سلام سلام) بالرفع. قال مكي: ويجوز الرفع على معنى سلام عليكم مبتدأ وخبر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قال: يوم القيامة ﴿لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَانِيَةً﴾ قال: ليس لها مرد يرد ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال: تخفض ناساً وترفع آخرين. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال: اسمعت القريب والبعيد. وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا رَجَعتِ الْأَرْضُ رُجَاءً﴾ قال: زلزلت ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بُسًّا﴾ قال: فتنت ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ قال: شعاع الشمس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ قال: الهباء الذي يطير من النار إذا أضرمت يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: الهباء ما يثور مع شعاع الشمس، وأنبثائه تفرقه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الهباء المنبث ريج الدواب، والهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوّة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿وَوَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ قال: أصنافاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَوَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: 32]. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال: يوشع بن نون سبق إلى موسى، ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى، وعلي بن أبي طالب سبق إلى رسول الله ﷺ. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون؛ وحبيب التجار الذي نكر في يس، وعلي بن أبي طالب، وكل رجل منهم سابق أمته، وعلي أفضلهم سبقاً. وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِصْحَابِ الْيَمِينِ - وَإِصْحَابِ الشَّمَالِ﴾ فقبض بيديه قبضتين، فقال: هذه في الجنة ولا أبالي، وهذه في النار ولا أبالي. وأخرج أحمد أيضاً عن عائشة عن رسول الله ﷺ

ويقوي هذا المعنى قراءة مجاهد (يصعدون) بفتح الياء وتشديد الصاد، والأصل يتصعدون أي: يفرقون، والجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم، أو في محل نصب على الحال، وجملة: ﴿وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، وقد تقدم اختلاف القراءة في هذا الحرف في سورة الصافات، وكذلك تقدم تفسيره أي: لا يسكرون فتذهب عقولهم، من أنزف الشارب: إذا نفذ عقله، أو شربه، ومنه قول الشاعر:

لعمري لئن أنزفتم أو صحتم لبئس الندامي كنتم آل أبجرا
﴿وَفَاكِهِةٌ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: يختارونه، يقال: تخيرت الشيء: إذا أخذت خيره. قرأ الجمهور (وفاكهة) بالجر ﴿وَوُكِّلَ لَهُمُ الْكُحْلُ﴾ عطفاً على أكوأب أي: يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول والمشروب والمتفكه به. وقرأ زيد بن علي، وأبو عبد الرحمن برفعهما على الابتداء، والخبر مقتر أي: ولهم فاكهة ولحم، ومعنى: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مما يتمنونه وتشتهي أنفسهم ﴿وَوُحُورٍ عَيْنٍ * كَامِنَاتِ الْوُجُوهِ الْمَكْنُونِ﴾ قرأ الجمهور (حور عين) برفعهما عطفاً على ولدان أو على تقدير مبتدأ أي: نسألهم حور عين، أو على تقدير خبر أي: ولهم حور عين، وقرأ حمزة، والكسائي بجرهما عطفاً على أكوأب. قال الزجاج: وجائز أن يكون معطوفاً على جنات أي: هم في جنات وفي حور على تقدير مضاف محذوف أي: وفي معاشرة حور. قال الفراء: في توجيه العطف على أكوأب إنه يجوز الجر على الاتباع في اللفظ، وإن اختلفا في المعنى؛ لأن الحور لا يطاق بهن، كما في قول الشاعر:

إذا ما السفانيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيونا
والعين لا تزجج، وإنما تكحل، ومن هذا قول الشاعر:

علفتها تبناً وماء بارداً

وقول الآخر:

منقلداً سيفاً ورماً

قال قطرب: هو معطوف على الأكوأب والأباريق من غير حمل على المعنى. قال: ولا ينكر أن يطاق عليهم بالحور: ويكون لهم في ذلك لذة. وقرأ الأشهب العقيلي، والنخعي، وعيسى بن عمر بنصيهما على تقدير إضمار فعل، كأنه قيل: ويزوجون حوراً عيناً، أو يعطون، ورجح أبو عبيد، وأبو حاتم قراءة الجمهور. ثم شبههن سبحانه بالؤلؤ المكنون، وهو الذي لم تمسه الأيدي، ولا وقع عليه الغبار، فهو أشد ما يكون صفاء، وانتصاب جزاء في قوله: ﴿حِزَابٌ بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ على أنه مفعول له أي: يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم. ويجوز أن يكون مصدرًا مؤكداً لفعل محذوف أي: يجزون جزاء، وقد تقدم تفسير الحور العين في سورة الطور وغيرها ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ اللغو: الباطل من الكلام، والتأنيث: النسبة إلى الإثم. قال محمد بن كعب: لا يؤثم بعضهم بعضاً، وقال مجاهد: لا يسمعون شتماً، ولا ماثماً، والمعنى: أنه لا يقول بعضهم لبعضهم أثم؛ لأنهم لا

والمخضود الذي خضد شوكه أي: قطع فلا شوك فيه. قال أمية بن أبي الصلت يصف الجنة:

إن الحقائق في الجنان ظليلا فيها الكواكب سدرها مخضود
وقال الضحاك، ومجاهد، ومقاتل بن حيان: إن السدر المخضود الموقر حملاً **«وطلح منضود»** قال أكثر المفسرين: إن الطلح في الآية هو شجر الموز. وقال جماعة: ليس هو شجر الموز، ولكنه الطلح المعروف وهو أعظم أشجار العرب. قال الفراء، وأبو عبيدة: هو شجر عظام لها شوك. قال الزجاج: الطلح هو أم غيلان، ولها نور طيب، فخطبوا ووعوا ما يحبون، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا. قال: ويجوز أن يكون في الجنة، وقد أزيل شوكه. قال السدي: طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل، والمنضود: المترابك الذي قد نضد أوله وآخره بالحمل ليس له سوق بارزة. قال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفتانها نضيد ثمر كله، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها **«وظل ممدود»** أي: دائم باق لا يزول، ولا تتسخر الشمس. قال أبو عبيدة: والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع: ممدود، ومنه قوله: **«الم تر إلى ربك كيف مد الظل»** [الفرقان: 45] والجنة كلها ضل لا شمس معه. قال الربيع بن أنس: يعني ظل العرش، ومن استعمال العرب للممدود في الدائم الذي لا ينقطع قول لبيد:

غلب العزاء وكان غير مغلب دهر طويل دائم ممدود
«وماء مسكوب» أي: منصّب يجري بالليل، والنهار أينما شاءوا لا ينقطع عنهم، فهو مسكوب يسكب الله في مجاريه، وأصل السكب الصب، يقال: سكب سكباً أي: صبه **«وفواكه كثيرة»** أي: ألوان متنوعة متكررة **«لا مقطوعة»** في وقت من الأوقات، كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الأوقات **«ولا ممنوعة»** أي: لا تمتنع على من أرادها في أي وقت على أي صفة، بل هي معدة لمن أرادها لا يحول بينه وبينها حائل. قال ابن قتيبة: يعني: أنها غير محظورة عليها كما يحظر على بساتين الدنيا **«وفرش مرفوعة»** أي: مرفوع بعضها فوق بعض، أو مرفوعة على الأسرة. وقيل: إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتي في الجنة، وارتفاعها كونها على الأرائك، أو كونها مرتفعات الأقدار في الحسن والكمال **«إننا أنشأناهن إنشاء»** أي: خلقناهن خلقاً جديداً من غير تولد، وقيل: المراد نساء بني آدم. والمعنى: أن الله سبحانه أعادهن بعد الموت إلى حال الشباب، والنساء، وإن لم يتقدم لهن نكر لكنهن قد دخلن في أصحاب اليمين، وأما على قول من قال: إن الفرش المرفوعة عين النساء، فمرجع الضمير ظاهر **«فجعلناهن إيكاراً»** **«لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان»** [الرحمن: 56] **«عرباً اقتراباً»** العرب جمع عروب، وهي المتحبة إلى زوجها. قال المبرد: هي العاشقة لزوجها، ومنه قول لبيد:

أنه قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوا بذلوا، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم». وأخرج أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي هريرة قال: «لما نزلت: **«ثلاثة من الأولين * وثلاثة من الآخرين»** شق على أصحاب رسول الله ﷺ، فنزلت: **«ثلاثة من الأولين * وثلاثة من الآخرين»** [الواقعة: 39، 40] فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة، أو شطر أهل الجنة، وتقاسمونهم النصف الثاني». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن عباس **«على سرر موضونة»** قال: مصفوفة. وأخرج سعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عنه. قال: مرمولة بالذهب. وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، والبخاري، وابن مريويه، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتتظر إلى الطير في الجنة، فتشتيه فيخرب بين يديك مشويهاً». وأخرج أحمد، والترمذي، والضياء عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كامثال البخت ترعى في شجر الجنة، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن هذه الطير لناعمة، قال: أكلها أنعم منها، وإنني لأرجو أن تكون ممن ياكل منها، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **«كامثال اللؤلؤ المكنون»** قال: الذي في الصدف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **«لا يسمعون فيها لغواً»** قال: باطلاً **«ولا تالياً»** قال: كذباً.

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٧٧﴾ فِي يَمِينِهِمْ عَشِيرٌ ﴿٧٨﴾ وَطَلْحٌ مَنُورٌ ﴿٧٩﴾ زَيْلٌ مَّعْدُونٌ ﴿٨٠﴾ مَلَأُوا سَكْرَبٌ ﴿٨١﴾ وَكَيْفَ كَيْفَ ﴿٨٢﴾ لَا مَقْطُوعٌ وَلَا مَمْنُوعٌ ﴿٨٣﴾ وَفُرشٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿٨٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴿٨٥﴾ فَجَعَلْنَهُنَّ أَيكَارًا ﴿٨٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٨٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٨٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأُولَى ﴿٨٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٩٠﴾ وَأَصْحَابُ الْإِسْأَلِ مَا أَصْحَابُ الْإِسْأَلِ ﴿٩١﴾ فِي سَمَائِهِمْ وَكَيْفَ ﴿٩٢﴾ طَلْحٌ مِنْ يَمِينِهِ ﴿٩٣﴾ لَا يَأْوِي وَلَا كَرِيمٌ ﴿٩٤﴾ إِنَّمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَكِينَ ﴿٩٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِسْبِ الْمَلِيهِ ﴿٩٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَهَذَا مَتْنَبٌ وَكُنَّا شُرَكَاءَ وَعَظَمَاءَ أَوَلَمْ يَكْبَرُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ مَا بَأْسُ الْأَوَّلِينَ ﴿٩٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٩٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ يَوْمِ بَئْذٍ يَوْمِ نَبُوءٍ ﴿١٠٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ إِنَّا أَلْتَأَلُّوا الْكَكُودَ ﴿١٠١﴾ لَّا تَكُونُ مِنْ شَجَرٍ بَيْنَ زُفُورٍ ﴿١٠٢﴾ قَائِلُونَ إِنَّمَا أَطْلَقُوا ﴿١٠٣﴾ تَنْزِيلُونَ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّعِيمِ ﴿١٠٤﴾ فَتَنَزَّلُ عَنْ شَرْبِ الْكَلْبِ ﴿١٠٥﴾ هَذَا نَزْلُهُمْ يَوْمَ الْيَمِينِ ﴿١٠٦﴾

لما فرغ سبحانه من نكر أحوال السابقين، وما أعدّه لهم من النعيم المقيم، نكر أحوال أصحاب اليمين، فقال: **«وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين»** قد قدمنا وجه إعراب هذا الكلام، وما في هذه الجملة الاستفهامية من التخييم والتعظيم، وهي خبر المبتدأ، وهو أصحاب اليمين، وقوله: **«في سدر مخضود»** خبر ثان، أو خبر مبتدأ محذوف أي: هم في سدر مخضود، والسدر نوع من الشجر،

وفي الخباء عروب غير فاحشة ربا الرواف يعشي ضوءها البصرا

الشرك أي: كانوا لا يتوبون عن الشرك. وبه قال الحسن، والضحاك، وابن زيد. وقال قتادة، ومجاهد: هو الذنب العظيم الذي لا يتوبون عنه. وقال الشعبي: هو اليمين الغموس، ﴿وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئذا لمبعوثون﴾ الهمزة في الموضعين للإنكار والاستبعاد، وقد تقدم الكلام على هذا في الصفات، وفي سورة الرعد، والمعنى: أنهم أنكروا واستبعدوا أن يبعثوا بعد الموت، وقد صاروا عظاماً وتراباً، والمراد: أنه صار لحمتهم وجلودهم تراباً، وصارت عظامهم نخرة بالية، والعامل في الظرف ما يدل عليه مبعوثون؛ لأن ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله أي: أتبعث إذا متنا؟ إلخ ﴿وَأَبْأُونا الْأَوَّلُونَ﴾ معطوف على الضمير في لمبعوثون؛ لوقوع الفصل بينهما بالهمزة. والمعنى: أن بعث آباؤهم الأولين أبعد؛ لتقدم موتهم، وقرئ: (وَأَبْأُونا). ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم ويرد استبعادهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ﴾ أي: قل لهم يا محمد: إن الأولين من الأمم، والآخرين منهم الذين أنتم من جملتهم لمجموعون بعد البعث إلى ميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة ﴿فَمِنْكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمَكْنُونُونَ﴾ هذا وما بعده من جملة ما هو داخل تحت القول، وهو معطوف على ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ﴾ ووصفهم سبحانه بوصفين قبيحين، وهما الضلال عن الحق والتكذيب له ﴿لَاكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقومٍ﴾ أي: لاكلون في الآخرة من شجر كرية المنظر كرية الطعم. وقد تقدم تفسيره في سورة الصفات، ومن الأولى لابتداء الغاية والثانية بيانية، ويجوز أن تكون الأولى مزيدة والثانية بيانية، وأن تكون الثانية مزيدة والأولى للابتداء ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي: مائلون من شجر الزقوم بطونكم؛ لما يلحقكم من شدة الجوع ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ الضمير في عليه عائذ إلى الزقوم، والحميم الماء الذي قد بلغ حره إلى الغاية، والمعنى: فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحار، ويجوز أن يعود الضمير إلى شجر؛ لأنه يذكر ويؤنث. ويجوز أن يعود إلى الأكل المملول عليه بقوله: ﴿لَاكُلُونَ﴾ وقرئ (من شجرة) بالإنفراد ﴿فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهِيمِ﴾ قرأ الجمهور (شرب الهيم) بفتح الشين، وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة بضمها. وقرأ مجاهد، وأبو عثمان النهدي بكسرهما، وهي لغات. قال أبو زيد: سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرهما. قال المبرد: الفتح على أصل المصدر، والضم اسم المصدر، والهيم: الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها. وهذه الجملة بيان لما قبلها أي: لا يكون شريكاً شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم التي تعطش ولا تروى بشرب الماء، ومفرد الهيم أهيم، والانثى هيماء. قال قيس بن الملوّح:

يقال به داء الهيام أصابه وقد علمت نفسي مكان شفاثيا
وقال الضحاك، وابن عيينة، والأخفش، وابن كيسان: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل، والمعنى: أنهم يشربون، كما

وقال زيد بن أسلم: هي الحسنة الكلام. قرأ الجمهور بضم العين والراء. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء، وهما لغتان في جمع فعول، والأتراب: من اللواتي علي ميلاد واحد، وسن واحد. وقال مجاهد: أترباً أمثالا وأشكالا. وقال السدي: أترباً في الأخلاق لا تبغض بينهم ولا تحاسد. قوله: ﴿لِلْأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلق بأنشائهم، أو بجعلنا، أو باترباً، والمعنى: أن الله أنشأهم لأجلهم، أو خلقهم لأجلهم، أو من مساويات لأصحاب اليمين في السن، أو هو خبر لمبتدأ محذوف أي: من الأصحاب اليمين ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ هذا راجع إلى قوله: ﴿وَأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: هم ثلثة من الأولين، وثلثة من الآخرين، وقد تقدم تفسير الثلثة عند ذكر السابقين، والمعنى: أنهم جماعة، أو أمة، أو فرقة، أو قطعة من الأولين، وهم من لدن آدم إلى نبينا ﷺ، وجماعة، أو أمة، أو فرقة، أو قطعة من الآخرين، وهم أمة محمد ﷺ. وقال أبو العالية، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: من سابقي هذه الأمة، ﴿وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ من هذه الأمة من آخرها. ثم لما فرغ سبحانه مما أعدّه لأصحاب اليمين شرع في ذكر أصحاب الشمال، وما أعدّه لهم، فقال: ﴿وَأَصْحَابِ الشَّامِلِ﴾ ما أصحاب الشمال؟ الكلام في إعراب هذا وما فيه من التفخيم، كما سبق في أصحاب اليمين، وقوله: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ إما خبر ثان لأصحاب الشمال، أو خبر مبتدأ محذوف، والسوموم: حر النار، والحميم: الماء الحار الشديد الحرارة، وقد سبق بيان معناه. وقيل: السوموم: الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن ﴿وَوَظَلٌ مِّنْ يَّحْمُومٍ﴾ اليموم يفعل من الأحم: وهو الأسود، والعرب تقول: أسود يحموم؛ إذا كان شديد السواد، والمعنى: أنهم يفزعون إلى الظل، فيجربونه ظلاً من سخان جهنم شديد السواد. وقيل: وهو مأخوذ من الحم، وهو الشحم المسودّ بالاحتراق النار. وقيل: مأخوذ من الحمم، وهو الفحم. قال الضحاك: النار سوداء، وأهلها سود، وكل ما فيها أسود. ثم وصف هذا الظل بقوله: ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ ليس كغيره من الظلال التي تكون باردة، بل هو حار لأنه من دخان نار جهنم. قال سعيد بن المسيب: ﴿لَا كَرِيمٌ﴾ أي: ليس فيه حسن منظر، وكل ما لا خير فيه، فليس بكريم، وقال الضحاك: ولا كريم، ولا عذب. قال الفراء: العرب تجعل الكريم تابعاً لكل شيء نفت عنه وصفاً تنوي به الذم، تقول: ما هو بسمين ولا بكريم، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة. ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ وهذه الجملة تعليل لما قبلها أي: إنهم كانوا قبل هذا العذاب النازل بهم مترفين في الدنيا أي: منعمين بما لا يحل لهم، والمترف المتنعم. وقال السدي: مشركين، وقيل: متكبرين، والأول أولى ﴿وَوَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحَنثِ الْعَظِيمِ﴾ الحنث الذنب أي: يصرون على الذنب العظيم. قال الواحدي: قال أهل التفسير: عني به

له: يا أمير المؤمنين أنحكها في المصحف؟ قال: لا يهاج القرآن اليوم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿منضود﴾ قال: بعضه على بعض. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرءوا إن شئتم ﴿وُظِلَّ مَمْدُودٌ﴾». وأخرج البخاري، وغيره نحوه من حديث أنس. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما نحوه من حديث أبي سعيد. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وغيرهم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: «﴿وُفِرْشَ مَرْفُوعَةٌ﴾» قال: ارتفاعها، كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام. قال الترمذي بعد إخرجه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد انتهى، ورشدين ضعيف. وأخرج الفريابي، وهناد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في البعث عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: «﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾» قال: إن المنشئات التي كن في الدنيا عجائز عمشاً رمصاً. قال الترمذي بعد إخرجه: غريب، وموسى ويزيد ضعيفان. وأخرج الطيالسي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، وابن قانع، والبيهقي في البعث عن سلمة بن يزيد الجعفي سمعت النبي ﷺ يقول في قوله: «﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾» قال: الشيب والابكار اللاتي كن في الدنيا. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: خلقهن غير خلقهن الأول. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: «﴿فِكَارٌ﴾» قال: عذارى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «﴿عَرِيَاءٌ﴾» قال: عواشق. «﴿اتَرَلِيًّا﴾» يقول: مستويات. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: «﴿عَرِيَاءٌ﴾» قال: عواشق لأزواجهن وأزواجهن لهن عاشقون. «﴿اتَرَلِيًّا﴾» قال: في سن واحد ثلاثاً وثلاثين سنة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: العروب الملقاة لأزواجهن. وأخرج مسدد في مسنده، وابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه بسند حسن عن أبي بكرة عن النبي ﷺ في قوله: «﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾» قال: جميعهما من هذه الأمة. وأخرج أبو داود الطيالسي، ومسدد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مريويه عن أبي بكرة في قوله: «﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾» قال: هما جميعاً من هذه الأمة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن عدي، وابن مريويه، قال السيوطي: بسند ضعيف عن ابن عباس في قوله: «﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾» قال: قال رسول الله ﷺ: هما جميعاً من أمتي. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن مريويه عن ابن عباس قال: الثلثتان جميعاً من هذه الأمة. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن

تشرّب هذه الأرض الماء، ولا يظهر له فيها أثر. قال في الصحاح: الهيام بالضم: أشد العطش، والهيام كالجنون من العشق، والهيام: داء يأخذ الإبل تهيم في الأرض لا ترعى، يقال: ناقة هيماء، والهيماء أيضاً: المفازة لا ماء بها، والهيام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك في اليد للينه، والجمع هيم مثل قذال وقذل، والهيام بالكسر الإبل العطاش ﴿هَذَا نَزْلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ قرأ الجمهور (نزلهم) بضم نون، ودوي عن أبي عمرو، وابن محيصن بضمه وسكون، وقد تقدم أن النزل ما يعد للضيف، ويكون أول ما ياكله، ويوم الدين يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، والمعنى: أن ما نكر من شجر الرزق، وشراب الحميم هو الذي يعد لهم ويأكلونه يوم القيامة، وفي هذا تهكم بهم؛ لأن النزل هو ما يعد للأضياف تكرمة لهم، ومثل هذا قوله: «﴿فَبِشْرِهِمْ بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾» [آل عمران: 21].

وقد أخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي أمامة قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله ينفعنا بالأعراب ومساثلهم، أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله ذكر في القرآن شجرة مؤنثة، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها قال: وما هي؟ قال: السدر، فإن لها شوكة، فقال رسول الله ﷺ: ليس الله يقول: ﴿فِي سَدْرٍ مَخْضُودٍ﴾؟ يخضد الله شوكة، فيجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها تنبت ثمرًا يتفقت الثمر منها عن اثنين وسبعين لونًا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر. وأخرج ابن أبي داود، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، وابن مريويه عن عيينة بن عبد السلامي قال: «كنت جالساً مع النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكةً منها يعني: الطلع، فقال رسول الله ﷺ: إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية التيس الملبود يعني: الخصي منها، فيها سبعون لونًا من الطعام لا يشبه لون آخر. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: «﴿سَدْرٍ مَخْضُودٍ﴾» قال: خضده وقره من الحمل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عنه قال: المَخْضُود الذي لا شوكة فيه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن علي بن أبي طالب في قوله: «﴿وُطِّلَحَ مَنْضُودٌ﴾» قال: هو الموز. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أنه قرأ (وطلع منضود). وأخرج ابن جرير، وابن الانباري في المصاحف عن قيس بن عباد قال: قرأت على علي بن أبي طالب «﴿وُطِّلَحَ مَنْضُودٌ﴾» فقال علي: ما بال طلع، أما تقرأ وطلع؟ ثم قال: «﴿طَلَعَ نَضِيدٌ﴾» [ق: 10]، فقيل

عباس في قوله: ﴿وَوَلَّيْنَا مِنْ يَحْمُومٍ﴾ قال: من بخان أسود، وفي لفظ: من بخان جهنم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿شَرِبَ الْهَيْمُ﴾ قال: الإبل العطاش.

عَنْ خَلْقَنَّاكُمْ فَلَوْلَا نَصِيحَةُ ﴿٧٦﴾ أَرَوَيْتُمْ مَا مَثُورٌ ﴿٧٧﴾ مَا أَنتُمْ بِمُعْجِزُونَ ﴿٧٨﴾ عَنِ الْقَائِلُونَ ﴿٧٩﴾ عَنْ قَدَرْنَا بَيْنَهُ الْمَوْتِ وَمَا عَنْ يَسْمُورِينَ ﴿٨٠﴾ عَلَّ أَنْ يُبَدَّلَ آمَنَّاكُمْ وَنُفِثَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ وَلَقَدْ عِثَّرْنَا النَّشَاءَ الْأَوَّلَ فَلَوْلَا نَذْرُونَ ﴿٨٢﴾ أَرَوَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ ﴿٨٣﴾ مَا أَنتُمْ بَرَزَعُونَ ﴿٨٤﴾ أَمْ عَنْ أَرْزَعُونَ ﴿٨٥﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٨٦﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿٨٧﴾ بَلْ عَنْ عَحْوَرُونَ ﴿٨٨﴾ أَرَوَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٨٩﴾ مَا أَنتُمْ بَرَزَعُونَ ﴿٩٠﴾ أَمْ عَنْ الشَّيْءِ الَّذِي تَلْعَلُونَ ﴿٩١﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَهْلًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٩٢﴾ أَرَوَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٩٣﴾ مَا أَنتُمْ أَتَانَتْمْ شَجَرَةٌ أَرْ عَنْ الْمُنِيرُونَ ﴿٩٤﴾ عَنْ جَمَلَتِهَا نَذْرَةٌ وَمَتْنًا لِّلْمُغْرَمِينَ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

قوله: ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾ التفت سبحانه إلى خطاب الكفرة تبكيئاً لهم، والزاماً للحجة أي: فهلا تصدقون بالبعث، أو بالخلق. قال مقاتل: خلقناكم ولم تكونوا شيئاً، وأنتم تعلمون ذلك، فهلا تصدقون بالبعث؟ ﴿أفأرأيتم ما تمفنون﴾ أي: ما تقفنون وتصيبون في أرحام النساء من النطف، ومعنى ﴿أفأرأيتم﴾: أخبروني، ومفعولها الأول ما تمنون، والثاني الجملة الاستفهامية، وهي ﴿أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ أي: تقدرونه وتصورونه بشراً سوا أم نحن المقدرون المصورون له، وأم هي المتصلة، وقيل: هي المنقطعة، والأول أولى. قرأ الجمهور (تمنون) بضم الفوقية من أمنى يمني. وقرأ ابن عباس، وأبو السماك، ومحمد بن السميع، والأشهب العقيلي بفتحها من منى يمني، وهما لغتان، وقيل: معناهما مختلف، يقال: أمنى إذا أنزل عن جماع، ومنى إذا أنزل عن احتلام، وسمي المنى منياً؛ لأنه يمني أي: يراق ﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين﴾ قرأ الجمهور (قدرنا) بالتشديد، وقرأ مجاهد، وحמיד، وابن محيصن، وابن كثير بالتخفيف، وهما لغتان، يقال: قدرت الشيء وقدرته أي: قسمناه عليكم، ووقتنا لكل فرد من أفرانكم، وقيل: قضينا، وقيل: كتبنا، والمعنى متقارب. قال مقاتل: فمنكم من يموت كبيراً، ومنكم من يموت صغيراً. وقال الضحاك: معناه أنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ بمغلوبين، بل قادرين: ﴿على أن نبذل أمثالكم﴾ أي: نأتي بخلق مثلكم. قال الزجاج: إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا. قال ابن جرير: المعنى نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبذل أمثالكم بعد موتكم بأخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين في أجالكم أي: لا يتقدم متأخر، ولا يتأخر متقدم ﴿وننشدكم فيما لا تعلمون﴾ من الصور والهيئات. قال الحسن أي: نجعلكم قردة وخنازير، كما فعلنا بأقوام قبلكم، وقيل المعنى: ننشدكم في البعث على غير صوركم في الدنيا.

وقال سعيد بن المسيب: ﴿فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: في حواصل طيور سود تكون يبرهوت كأنها الخطاطيف، وبرهوت واد باليمن. وقال مجاهد: ﴿فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: في أي خلق شئنا، ومن كان قادراً على هذا فهو قادر على البعث ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى﴾ وهي ابتداء الخلق من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، ولم تكونوا قبل ذلك شيئاً. وقال قتادة، والضحاك: يعني: خلق آدم من تراب ﴿فلولا تذكرون﴾ أي: فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة، وتقيسونها على النشأة الأولى. قرأ الجمهور (النشأة) بالقصر، وقرأ مجاهد، والحسن، وابن كثير، وأبو عمرو بالممد، وقد مضى تفسير هذا في سورة العنكبوت ﴿أفأرأيتم ما تحرثون﴾ أي: أخبروني ما تحرثون من أرضكم، فتطرحون فيه البثر ﴿أنتم تزرعونه﴾ أي: تنبتونه وتجعلونه زرعاً، فيكون فيه السنبل والحب ﴿أم نحن الزارعون﴾ أي: المنبتون له الجاعلون له زرعاً لا أنتم. قال المبرد: يقال زرع الله أي: أنماه، فإذا أقرتكم بهذا، فكيف تذكرون البعث ﴿ولو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ أي: لو نشاء لجعلنا ما تحرثون حطاماً أي: متحطماً متكسراً، والحطام: الهشم الذي لا ينتفع به، ولا يحصل منه حب، ولا شيء مما يطلب من الحرث ﴿فظلتم تفتكهن﴾ أي: صرتم تعجبون. قال الفراء: تفتكهن تعجبون فيما نزل بكم في زرعكم. قال في الصحاح: وتفتك تعجب، ويقال: تندم. قال الحسن، وقاتادة، وغيرهما: معنى الآية: تعجبون من ذهابها، وتندمون مما حل بكم. وقال عكرمة: تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله. وقال أبو عمرو، والكسائي: هو التلهف على ما فات. قرأ الجمهور (فظلتم) بفتح الظاء مع لام واحدة. وقرأ أبو حيوة، وأبو بكر في رواية عنه بكسر الظاء. وقرأ ابن عباس، والجحدري (فظلتم) بلامين: أولهما مكسورة على الأصل، وروي عن الجحدري فتحها، وهي لغة. وقرأ الجمهور (تفتكهن) وقرأ أبو حزام العكلي (تفتكن) بالنون مكان الهاء أي: تندمون. قال ابن خالويه: تفتك تعجب، وتفتكن تندم. وفي الصحاح التفتكن التندم ﴿إننا لمغرمون﴾ قرأ الجمهور بهمزة واحدة على الخير، وقرأ أبو بكر، والمفضل، وزر بن حبيش بهمزتين على الاستفهام، والجملة بتقدير القول أي: تقولون إننا لمغرمون أي: ملزمون غرماً بما هلك من زرعنا، والمغرم: الذي ذهب ماله بغير عوض، قاله الضحاك، وابن كيسان. وقيل المعنى: إننا لمعذبون، قاله قتادة، وغيره. وقال مجاهد، وعكرمة: لمولع بنا، ومنه قول النمر بن تولب:

سلا عن تذكره تكتماً وكان رهيناً بها مغرمأ
يقال: أغرم فلان بفلان أي: أوقع. وقال مقاتل: مهلكون. قال النحاس: مأخوذ من الغرام، وهو الهلاك، ومنه قول الشاعر:

يوم النصار يوم الجبا ركان عليكم عذاباً مقيماً
والظاهر من السياق المعنى الأول أي: إننا لمغرمون

وكذا أي: ما أكلت شيئاً، وبات فلان القوي أي: بات جائعاً، ومنه قول الشاعر:

وإني لأختار القوي طلوي الحشا محافظة من أن يقال لثيم
وقال قطرب: القوي من الأضداد يكون بمعنى الفقر، ويكون بمعنى الغنى؛ يقال: أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد، وأقوى: إذا قويت دوابه وكثر ماله. وحكى الثعلبي عن أكثر المفسرين القول الأول، وهو الظاهر ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها من نكر الله سبحانه، وتنزيهه على ما قبلها مما عنده من النعم التي أنعم بها على عباده، وجود المشركين لها، وتكذيبهم بها.

وقد أخرج البزار، وابن جرير، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي في الشعب، وضعفه عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقول أحدكم أهلكم زرع، ولكن يقول حرث». قال أبو هريرة: ألم تسمعوا الله يقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرثُونَ﴾ * «أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿تَفْكُهُونَ﴾ قال: تعجبون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس. قال: ﴿الْمَزْنُ﴾ السحاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن طرق عن ابن عباس ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَنْكِرَةً﴾ قال: تنكرة للنار الكبرى ﴿وَمُتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ قال: للمسافرين.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَرْجِعِ الْجُودِ﴾ وَإِنَّ لِقَاسٍ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿إِنَّ لِقَاءَ رَبِّكَ كَرِيمٌ﴾ فِي كِتَابٍ مَكْتُوبٍ ﴿لَا يَسْأَلُ إِلَّا الْمُطَهَّرِينَ﴾ تَزِيلُ بَيْنَ رَبِّكَ وَالْعَالَمِينَ ﴿أَفَبِهَذَا تُؤْذِنُونَ﴾ وَتَعْلَمُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴿قُلُوا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُ وَاسْتَشَرَ جَيْشَ تَطْرُونَ﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿قُلُوا إِنْ كُنْتُمْ عِبَادَ رَبِّكُمْ﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَرَبِّينَ﴾ فَرَجَّ وَرَحَّانَ رَحَّتْ بَيْتِ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فَسَلَّكَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الْعَالِينَ﴾ فَزَلَّ مِنْ جِبرِ ﴿وَتَصْلِيَةُ جِبرِ﴾ إِنَّ هَذَا مَرْحُ الْيَمِينِ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

قوله: ﴿فَلا أقسم﴾ ذهب جمهور المفسرين إلى أن لا مزيدة للتوكيد، والمعنى: فأقسم، ويؤيد هذا قوله بعد: ﴿وَإِنَّه لقسم﴾ وقال جماعة من المفسرين: إنها للنفي، وإن المنفي بها محذوف، وهو كلام الكفار الجاحدين. قال الفراء: هي نفي، والمعنى: ليس الأمر كما تقولون. ثم استأنف، فقال: أقسم، وضعف هذا بأن حذف اسم لا، وخبرها غير جائز، كما قال أبو حيان، وغيره. وقيل: إنها لام الابتداء، والأصل: فلا أقسم، فاشبعت الفتحة، فتولد منها ألف، كقول الشاعر:

أعوذ بالله من العقارب

وقد قرأ هكذا (فلاقسم) بدون ألف، الحسن، وحמיד، وعيسى بن عمر، وعلى هذا القول، وهذه القراءة يقدّر مبتدأ محذوف، والتقدير: فلأنا أقسم بذلك. وقيل: إن لا هنا بمعنى

بذهاب ما حرثناه، ومصيره حطاماً، ثم أضربوا عن قولهم هذا، وانتقلوا فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ أي: حرماناً رزقنا بهلاك زرعنا، والمحروم الممنوع من الرزق الذي لا حظ له فيه، وهو المحارف ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾، فتسكنون به ما يلحقكم من العطش، وتدفعون به ما ينزل بكم من الظما. واقتصر سبحانه على نكر الشرب مع كثرة فوائد الماء ومنافعه؛ لأنه أعظم فوائده، وأجل منافعه ﴿فَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ أي: السحاب. قال في الصحاح: قال أبو زيد: المزنة السحابة البيضاء، والجمع مزن، والمزنة المطر. قال الشاعر:

ألم تر أن الله أنزل مزنة وعفر الظبا في الكنائس تغمع
ومما يدل على أنه السحاب قول الشاعر:

فنحن كماء المزن مافي نصابنا كهام ولا فينا بعد بخیل
وقول الآخر:

فلا مزنة وبقت ونقها ولا أرض أبقل إقبالها
﴿إِنَّا نَحْنُ الْمُغْزِلُونَ﴾ له بقدرتنا دون غيرنا، فإذا عرفتم ذلك، فكيف لا تقرّون بالتوحيد، وتصدّقون بالبعث. ثم بين لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة فقال: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ لِحِجَابٍ﴾ الأجاج الماء الشديد الملوحة الذي لا يمكن شربه، وقال الحسن: هو الماء المر الذي لا ينتفعون به في شرب، ولا زرع، ولا غيرهما ﴿فَلَوْ لَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلا تشكرون نعمة الله الذي خلق لكم ماء عذباً تشربون منه وتنتفعون به ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي: أخبروني عنها، ومعنى ﴿تُورُونَ﴾: تستخرجونها بالقدر من الشجر الرطب، يقال: أوريته النار إذا قدحتها ﴿فَأَنْتُمْ أَنْتُمْ شَجَرْتَهَا﴾ التي يكون منها الزنود، وهي المرخ والعفار، تقول العرب: في كل شجر نار، واستجد المرخ والعفار ﴿إِنَّا نَحْنُ الْمُغْشَوُونَ﴾ لها بقدرتنا دونكم، ومعنى الإنشاء: الخلق، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما في ذلك من ببيع الصنعة، وعجيب القدرة ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَنْكِرَةً﴾ أي: جعلنا هذه النار التي في الدنيا تنكرة لنار جهنم الكبرى. قال مجاهد، وقتادة: تبصرة للناس في الظلام، وقال عطاء موعظة ليتعظ بها المؤمن ﴿وَمُتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ أي: منفعة للذين ينزلون بالقواء، وهي الأرض القفر كالمسافرين، وأهل البوادي النازلين في الأراضي المقفرة، يقال: أرض قواء بالمد والقصر أي: مقفرة، ومنه قول النابغة:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقال عنتر:

حييت من طلل تقام عهد أتوى واقفر بعد لم الهيثم
وقول الآخر:

ألم تسال الربيع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم ببداء سملق
ويقال: أقوى إذا سافر أي: نزل القوى. وقال مجاهد: المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ، والخبز، والاصطلاء، والاستضاءة، وتذكر نار جهنم. وقال ابن زيد: للجائعين في إصلاح طعامهم، يقال: أقوى منذ كذا

المطهرون من الشرك. وقال الربيع بن أنس: المطهرون من الذنوب والخطايا. وقال محمد بن الفضل وغيره: معنى ﴿لَا يَمْسُهُ﴾: لا يقرؤه إلا المطهرون أي: إلا الموحدون. وقال الفراء: لا يجد نفعه وبركته إلا المطهرون أي: المؤمنون. وقال الحسين بن الفضل: لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق. وقد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مس المصحف، وبه قال علي، وابن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعطاء، والزهرى، والنخعي، والحكم، وحمام وجماعة من الفقهاء منهم مالك، والشافعي. وروي عن ابن عباس، والشعبي، وجماعة منهم أبو حنيفة، أنه يجوز للمحدث مسه، وقد أوضحنا ما هو الحق في هذا في شرحنا للمتقي، فليرجع إليه. قرأ الجمهور (المطهرون) بتخفيف الطاء وتشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول. وقرأ سلمان الفارسي بكسر الهاء على أنه اسم فاعل أي: المطهرون أنفسهم. وقرأ شافع، وابن عمر في رواية عنهما، عيسى بن عمر بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة، اسم مفعول من أظهر، وقرأ الحسن، وزيد بن علي، وعبد الله بن عوف بتشديد الطاء وكسر الهاء، وأصله المتطهرون ﴿تَنْزِيلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قرأ الجمهور بالرفع، وقرأ بالنصب، فالرفع على أنه صفة أخرى لقرآن، أو خبر مبتدأ محذوف، والنصب على الحال ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهَنُونَ﴾ الإشارة إلى القرآن المنعوت بالتنوع السابقة، والمدهن والمداهن المنافق. كذا قال الزجاج وغيره. وقال عطاء وغيره: هو الكذاب. وقال مقاتل بن سليمان، وقتادة: مدهنون كافرون، كما في قوله: ﴿وَوُتُوا لَوْ تَدْنُ فَيَدْنُونَ﴾ [القلم: 9] وقال الضحاک: مدهنون معرضون، وقال مجاهد: ممالئون للكفر على الكفر، وقال أبو كيسان: المدمن الذي لا يعقل حق الله عليه، ويدفعه بالعلل، والأول أولى؛ لأن أصل المدمن الذي ظاهره خلاف باطنه؛ كانه يشبه الدهن في سهولته. قال المؤرج: المدمن المنافق الذي يلين جانبه؛ ليخفي كفره، والإدهان والمداهنة: التكنيب، والكفر، والنفاق؛ وأصله اللين، وأن يسر خلاف ما يظهر، وقال في الكشف: مدهنون أي: متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي: يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به انتهى. قال الراغب: والإدهان في الأصل مثل التدهين؛ لكن جعل عبارة عن المداراة والملاينة، وترك الجذ: كما جعل التقرید، وهو نزع القراد عبارة عن ذلك، ويؤيد ما ذكره قول أبي قيس بن الأسلت:

الحزم والقوة خير من الـ إدهان والسعه والسهاع
﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ في الكلام مضاف محذوف، كما حكاه الواحدي عن المفسرين أي: تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة الله، فتضعون التكنيب موضع الشكر. وقال الهيثم: إن أژشنوة يقولون: ما رزق فلان أي: ما شكر؛ وعلى هذه اللغة لا يكون في الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق الشكر. ووجه التعبير بالرزق عن الشكر أن الشكر يفيض زيادة الرزق، فيكون

ألا التي للتنبيه، وهو بعيد. وقيل: لا هنا على ظاهرها، وإنما لنفي القسم أي: فلا أقسم على هذا؛ لأن الأمر أوضح من ذلك، وهذا مدفوع بقوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ مع تعيين المقسم به، والمقسم عليه، ومعنى قوله: ﴿بمواقع النجوم﴾ مساقطها، وهي مغاربها كذا قال قتادة، وغيره. وقال عطاء بن أبي رباح: منازلها. وقال الحسن: انكدارها وانتثارها يوم القيامة، وقال الضحاک: هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون مطرنا بنوء كذا. وقيل: المراد بمواقع النجوم: نزول القرآن نجوماً من اللوح المحفوظ، وبه قال السدي، وغيره، وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن. قرأ الجمهور (مواقع) على الجمع، وقرأ ابن مسعود، والنخعي، وحمزة، والكسائي، وابن محيصن⁽¹⁾ وورش عن يعقوب (بموقع) على الأفراد. قال المبرد: موقع هاهنا مصدر، فهو يصلح للواحد والجمع. ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم وتقظيمه، فقال: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ هذه الجملة معترضة بين المقسم به، والمقسم عليه، وقوله: ﴿لو تعلمون﴾ جملة معترضة بين جزأي الجملة المعترضة، فهو اعتراض في اعتراض. قال الفراء، والزجاج: هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن، والضمير في إنه على القسم الذي يدل عليه أقسم، والمعنى أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون. ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: ﴿إنه لقرآن كريم﴾ أي: كرمه الله وأعزه، ورفع قدره على جميع الكتب، وكرمه عن أن يكون سحراً أو كهانة أو كذبا، وقيل: إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق ومعالي الأمور، وقيل: لأنه يكرم حافظه، ويعظم قارئه. وحكى الواحدي عن أهل المعاني أن وصف القرآن بالكريم لأن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالدلائل التي تؤدي إلى الحق في الدين. قال الأزهرى: الكريم اسم جامع لما يحمد، والقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة ﴿في كتاب مكنون﴾ أي: مستور مصون، وقيل: محفوظ عن الباطل، وهو اللوح المحفوظ قاله جماعة، وقيل: هو كتاب. وقال عكرمة: هو التوراة والإنجيل فهما ذكر القرآن، ومن ينزل عليه، وقال السدي: هو الزبور. وقال مجاهد، وقتادة: هو المصحف الذي في أيدينا ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون أي: لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون، وهم الملائكة وقيل: هم الملائكة والرسل من بني آدم، ومعنى ﴿لَا يَمْسُهُ﴾ المسس الحقيقي، وقيل: معناه لا يقرؤه إلا المطهرون، وقيل: معناه لا يقرؤه، وعلى كون المراد بالكتاب المكنون هو القرآن، فقيل: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث والأنجاس. كذا قال قتادة، وغيره: وقال الكلبي:

(1) هكذا بالأصل، وصوابه ورويس اهـ ع.

للمرحوم، والريحان: الرزق في الجنة، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، ومقاتل. قال مقاتل: هو الرزق بلغة حمير، يقال: خرجت أطلب ريحان الله أي: رزقه، ومنه قول النمر بن تولب:

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماءه

وقال قتادة: إنه الجنة، وقال الضحاك: هو الرحمة. وقال الحسن: هو الريحان المعروف الذي يشم. قال قتادة، والربيع بن خيثم: هذا عند الموت، والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث، وكذا قال أبو الجوزاء، وأبو العالية، ومعنى وجنة نعيم أنها ذات تنعم، وارتفاع روح، وما بعده على الابتداء، والخبر محذوف أي: فله روح ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ ذلك المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وقد تقدّم نكرهم، وتفصيل أحوالهم، وما أعدّه الله لهم من الجزاء ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: لست ترى فيهم إلا ما تحب من السلامة، فلا تهتم بهم، فإنه يسلمون من عذاب الله، وقيل: المعنى: سلام لك منهم أي: أنت سالم من الاغتمام بهم، وقيل المعنى: إنهم يدعون لك، ويسلمون عليك، وقيل: إنه يحيي بالسلام إكراماً، وقيل: هو إخبار من الله سبحانه بتسليم بعضهم على بعض، وقيل المعنى: سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكِينِ لِلضَّالِّينَ﴾ أي: المكين بالبعث الضالين عن الهدى، وهم أصحاب الشمال المتقدم نكرهم، وتفصيل أحوالهم ﴿فَنَزَلَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: فله نزل يعدّ لنزوله من حميم، وهو الماء الذي قد تناهت حرارته، وذلك بعد أن ياكل من الزقوم كما تقدم بيانه: ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ﴾ يقال أصلاه النار وصلاه أي: إذا جعله في النار، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أو إلى المكان. قال المبرد: وجواب الشرط في هذه الثلاثة المواضع محذوف، والتقدير: مهما يكن من شيء فروح إلخ، وقال الأخفش: إن الفاء في المواضع الثلاثة هي جواب أمّا، وجواب حرف الشرط. قرأ الجمهور (وتصلية) بالرفع عطفاً على فنزل. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بالجر عطفاً على حميم أي: فنزل من حميم، ومن تصلية جحيم ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر في هذه السورة، أو إلى المنكر قريباً من أحوال المتفرقين لهو حق اليقين أي: محض اليقين وخالصه، وإضافة حق إلى اليقين من باب إضافة الشيء إلى نفسه. قال المبرد: هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين، هذا عند الكوفيين وجوزوا ذلك؛ لاختلاف اللفظ؛ وأما البصريون، فيجعلون المضاف إليه محذوفاً، والتقدير: حق الأمر اليقين، أو الخبر اليقين، والفاء في ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي: نزهه عما لا يليق بشانه، والباء متعلقة بمحذوف أي: فسبح ملتبساً باسم ربك للتبرك به، وقيل المعنى: فصل بذكر ربك، وقيل: الباء زائدة، والاسم بمعنى الذات. وقيل: هي للتعبية؛ لأن سبّح يتعدى بنفسه تارة، ويتعدى بالحرف أخرى، والأول أولى.

الشكر رزقاً تعبيراً بالسبب عن المسبب، ومما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقاهم الله، وأنزل عليهم المطر: سقيناً بنوء كذا، ومطرنا بنوء كذا. قال الأزهري: معنى الآية: وتجعلون بدل شكركم رزقكم الذي رزقكم الله التكنيز بأنه من عند الله الرزاق. وقرأ علي وابن عباس (وتجعلون شكركم) وقرأ الجمهور (أنكم تكنزون) بالتشديد من التكنيز، وقرأ علي، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف من الكذب ﴿فَقُلُوا إِذَا بُلِغْتَ الْحُلُقُومِ﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح، أو النفس الحلقوم عند الموت، ولم يتقنم لها نكر؛ لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاءوا بمثل هذه العبارة، ومنه قول حاتم طي:

أماي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرت يوماً وضاق بها الصدر
﴿وَأَنْتُمْ حِينُثُ تَنْظُرُونَ﴾ إلى ما هو فيه ذلك الذي بلغت نفسه أو روحه الحلقوم. قال الزجاج: وأنتم يا أهل الميت في تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه، والمعنى: أنهم في تلك الحال لا يمكنهم الدفع عنه، ولا يستطيعون شيئاً ينفعه، أو يخفف عنه ما هو فيه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي: بالعلم، والقدرة، والرؤية، وقيل: أراد ورسلا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم ﴿وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ أي: لا ترون ذلك؛ لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت ويتولون قبضه ﴿فَقُلُوا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ترجعونها، يقال: دان السلطان رعيته: إذا ساسهم واستعبدهم. قال الفراء: ذنته ملكته، وأنشد للحطية:

لقد ننت أمر بنيك حتى تركتهم أبق من الطحين
أي: ملكت، ويقال: دانه إذا أنله واستعبده، وقيل: معنى ﴿مَدِينِينَ﴾ محاسبين، وقيل: مجزيين، ومنه قول الشاعر:

ولم يبق سوى العدو ن ناهم كما دانوا
والمعنى الأوّل الصق بمعنى الآية أي: فهلا إن كنتم غير مربوبين ومملوكين ترجعونها أي: النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مقرها الذي كانت فيه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإن ترجعوها، فبطل زعمكم إنكم غير مربوبين ولا مملوكين، والعامل في قوله: ﴿إِذَا بُلِغْتَ﴾ هو قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾، ولولا الثانية تأكيد للأولى قال الفراء: وربما أعانت العرب الحرفين ومعناها واحد. ثم ذكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت وبعده فقال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدم تفصيل أحوالهم ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ قرأ الجمهور (روح) بفتح الراء، ومعناه: الراحة من الدنيا، والاستراحة من أحوالها. وقال الحسن: الروح: الرحمة. وقال مجاهد: الروح: الفرح. وقرأ ابن عباس، وعائشة، والحسن، وقاتدة، ونصر بن عاصم، والجحدري (فروح) بضم الراء، ورويت هذه القراءة عن يعقوب، قيل: ومعنى هذه القراءة: الرحمة لأنها كالحياة

وقد أخرج النسائي، وابن جرير، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فرق في السنين، وفي لفظ: ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوماً، ثم قرأ: ﴿قُلْ أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عنه ﴿قُلْ أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ قال: القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال: القرآن. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: نجوم القرآن حين ينزل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في المعرفة من طرق عن ابن عباس أيضاً ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: الكتاب المنزل في السماء لا يمس إلا الملائكة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن انس ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: الملائكة. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن علقمة قال: أتينا سلمان الفارسي، فخرج علينا من كنف، فقلنا له: لو توضأت يا أبا عبد الله، ثم قرأت علينا سورة كذا، وكذا، قال: إنما قال الله: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وهو الذي في السماء لا يمس إلا الملائكة، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي داود، وابن المنذر، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن أبيه قال: في كتاب النبي ﷺ لعمر بن حزم: «لا تمس القرآن إلا على طهر». وأخرجه مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر. وأخرجه أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يمس القرآن إلا طاهر» وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم، وعبد الله بن عمر، وعثمان بن أبي العاص، وفي أسانيدنا نظر. وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان لا يمس المصحف إلا متوضئاً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال: كنا مع سلمان فأنطلق إلى حاجة، فتواري عنا، ثم خرج إلينا، فقلنا: لو توضأت، فسالناك عن أشياء من القرآن، فقال: سلوني، فإني لست أمس إلا يمس المطهرون، ثم تلا: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمس القرآن إلا طاهر» وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل: «أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن كتب له في عهده: أن لا يمس القرآن إلا طاهر». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنْتُمْ مَدْهُونُونَ﴾ قال: مكتوبون. وأخرج مسلم، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «مطر للناس على عهد رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: أصبح من الناس شاكراً ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها الله. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، وكذا، فنزلت هذه الآية: ﴿قُلْ

أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْتَبُونَ﴾ وأصل الحديث بكون نكر أنه سبب نزول الآية ثابت في الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني، ومن حديث أبي سعيد الخدري، وفي الباب أحاديث. وأخرج أحمد، وابن منيع، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن علي بن النبي ﷺ في قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْتَبُونَ﴾ قال: «شكركم، تقولون مطرنا بنوء كذا، وكذا، وينجم كذا وكذا». وأخرج ابن عساکر في تاريخه عن عائشة قالت: ما فسر رسول الله ﷺ من القرآن إلا آيات يسيرة قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْتَبُونَ﴾ قال: «شكركم». وأخرج ابن مردويه عن علي «أن رسول الله ﷺ قرأ: (وتجعلون شكركم)». وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ (وتجعلون شكركم) قال: يعني الأنواء، وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا، وكذا، فأنزل الله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْتَبُونَ﴾. وأخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي أنه قرأ: (وتجعلون شكركم) وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأها كذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿غَيْرِ مَبِينِينَ﴾ قال: غير محاسبين. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن الربيع بن خيثم ﴿فَإِذَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ الآية قال: هذا له عند الموت ﴿وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث ﴿وَإِذَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَنَّبِينَ لِلضَّالِّينَ﴾ فنزل من حميم. قال: هذا عند الموت ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٌ﴾ قال: تخبأ له الجحيم إلى يوم يبعث. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فُرُوجٌ﴾ قال: رائحة ﴿وَرِيحَانٌ﴾ قال: استراحة. وأخرج ابن جرير عنه قال: يعني بالريحان المستريح من الدنيا ﴿وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ يقول: مغفرة ورحمة. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: الريحان الرزق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ قال: تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه، وتخبره أنه من أصحاب اليمين. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿إِنْ هَذَا لَهْوٌ حَقٌّ لِلْيَقِينِ﴾ قال: ما قصصنا عليك في هذه السورة. وأخرج عنه أيضاً ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: فصل لربك. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عقبه بن عامر الجهني قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] قال: اجعلوها في سجودكم».

تفسير سورة الحديد

وهي مندية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحديد بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج الطبراني، وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء، وخلق الله الحديد يوم الثلاثاء، وقتل ابن آدم أخاه يوم الثلاثاء، ونهى رسول الله ﷺ عن الحجامه يوم الثلاثاء». وأخرج الديلمي عن جابر مرفوعاً «لا تحتجموا يوم الثلاثاء، فإن سورة الحديد أنزلت عليّ يوم الثلاثاء». وأخرج أحمد، والترمذي، وحسنه، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن العرياض بن سارية: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: إن فيهن آية أفضل من ألف آية»، وفي إسناده بقية بن الوليد، وفيه مقال معروف. وقد أخرجه النسائي عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ﷺ، ولم ينكر العرياض بن سارية، فهو مرسل. وأخرج ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير قال: «كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ المسبحات، وكان يقول: إن فيهن آية أفضل من ألف آية، قال يحيى: فزأها الآية التي في آخر الحشر. وقال ابن كثير في تفسيره: والآية المشار إليها، والله أعلم هي قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3] الآية. والمسبحات المذكورة هي: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرُوِّدْ لِلَّهِ ① لَمْ تَكُنْ أَشْأَرُ
وَالْأَرْضِ يُمَى. وَبَيَّتَ رُوِّدَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَبَيَّتَ ② هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ وَرُوِّدَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ③ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَلْعَلُ مَا يَلْعَلُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ
السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَمْ
تَكُنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَاللَّهُ شَيْخُ الْأُمُورِ ⑤ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥

قوله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: نزهه ومجده. قال المقاتلان: يعني كل شيء من ذي روح وغيره، وقد تقدّم الكلام في تسبيح الجمادات عند تفسير قوله: ﴿وَأَن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44] والمراد بالتسبيح المسند إلى ما في السموات والأرض من العقلاء وغيرهم، والحيوانات والجمادات هو ما يعم التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجن، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم، فإن

كل موجود يدل على الصانع. وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة، وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة، فلم قال: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وإنما هو تسبيح مقال، واستدل بقوله: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالِ يَسْبِحْنَ﴾ [الأنبياء: 79] فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة، وفعل التسبيح قد يتعدى بنفسه تارة، كما في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ [الأحزاب: 42] وباللام أخرى كهذه الآية، وأصله أن يكون متعدياً بنفسه؛ لأن معنى سبحته: بعثته عن السوء، فإذا استعمل باللام، فهي إما مزينة للتأكيد، كما في شكرته، وشكرت له، أو هي للتعليل أي: افعل التسبيح؛ لأجل الله سبحانه خالصاً له، وجاء هذا الفعل في بعض الفواتح ماضياً كهذه الفاتحة، وفي بعضها مضارعاً، وفي بعضها أمراً للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل الأوقات لا يختص تسبيحها بوقت لون وقت، بل هي مسبحة أبداً في الماضي، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: القادر الغالب الذي لا ينازعه أحد، ولا يمانعه ممانع كائن ما كان ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل أفعال الحكمة والصواب ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيه وحده، ولا ينفذ غير تصرفه وأمره، وقيل: أراد خزائن المطر والنبات، وسائر الأرزاق ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ الفعلان في محل رفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف، أو في محل نصب على الحال من ضمير له، أو كلام مستأنف، لبيان بعض أحكام الملك، والمعنى: أنه يحيي في الدنيا ويميت الأحياء، وقيل: يحيي اللطف وهي موات، ويميت الأحياء، وقيل: يحيي للبعث ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء كائن ما كان ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء ﴿وَالْآخِرُ﴾ بعد كل شيء أي: الباقي بعد فناء خلقه ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ العالي الغالب على كل شيء، أو الظاهر وجوده بالادلة الواضحة ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ أي: العالم بما بطن، من قولهم: فلان يبطن أمر فلان أي: يعلم داخلته أمره، ويجوز أن يكون المعنى المحتجب عن الأبصار، والعقول، وقد فسّر هذه الأسماء الأربعة رسول الله ﷺ، كما سيأتي، فبتعين المصير إلى ذلك ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن علمه شيء من المعلومات ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض. وقد تقدّم تفسيره في سورة الأعراف وفي غيرها مستوفى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يدخل فيها من مطر وغيره ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من مطر وغيره ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: يصعد إليها من الملائكة، وأعمال العباد، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة سبا ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ أي: بقدرته، وسلطانه، وعلمه، وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا في الأرض من برّ وبحر ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه من

أعمالكم شيء ﴿إله ملك السموات والأرض﴾ هذا التكرير للتأكيد ﴿والإله ترجع الأمور﴾ لا إلى غيره. قرأ الجمهور (ترجع) مبنياً للمفعول. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر على البناء للفاعل ﴿ويولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ قد تقدم تفسير هذا في سورة آل عمران، وفي مواضع ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ أي: بضمائر الصدور ومكنوناتها، لا يخفى عليه من ذلك خافية.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، والترمذي، والبيهقي، عن أبي هريرة قال: «جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ تسأله خائفاً، فقال: قلني: اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، وربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، قال: الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر». وأخرج أحمد، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً مثل هذا في الأربعة الأسماء المذكورة، وتفسيرها. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا: هذا الله كان قبل كل شيء، فمأذا كان قبل الله؟ فإن قالوا لكم ذلك، فقولوا: هو الأول قبل كل شيء، والآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فوق كل شيء، وهو الباطن دون كل شيء، وهو بكل شيء عليم». وأخرج أبو داود عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس، فقلت: ما شيء أجده في صدري، قال ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به، قال: فقال لي: شيء من شك؟ قال، وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال حتى أنزل الله: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ [يونس: 94] الآية قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ قال: عالم بكم أينما كنتم.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمِنُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ شُرَكَاءَ فِيهِ فَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا مِنْكُمْ مَعْثَةً فَاتَّبِعُوهُمْ لِيُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُؤْمِنُوا بِآيَاتِهِ وَأَمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ آمَنَّا بِمَا نَبُوءُ بِاللَّهِ وَأَلَّيْنَا بِرَبِّنَا عِلْقًا شَدِيدًا وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا كَافِرُونَ﴾

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بما أخذ عليكم من الميثاق، أو بالحجج والدلائل، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب، فهذا من أعظم أسبابه وأوضح موجباته ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بيّنات﴾ أي: واضحات ظاهرات، وهي الآيات القرآنية، وقيل: المعجزات والقرآن أعظمها ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي: ليخرجكم الله بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات، أو بالدعوة ﴿وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾ أي: لكثير الرأفة والرحمة بليخها حيث أنزل كتبه، وبعث رسله لهداية عباده، فلا رافة ولا رحمة أبلغ من هذه، والاستفهام في قوله: ﴿وما لكم لا تنفقوا في سبيل الله﴾ للتقريع والتوبيخ، والكلام في إعراب هذا كالكلام في إعراب قوله ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله﴾ وفي هذه الآية دليل على أن الإنفاق المأمور به في قوله ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ هو الإنفاق في سبيل الله، كما بينا ذلك، والمعنى: أي عذر لكم، وأي شيء يمنكم من ذلك، والأصل في أن لا تنفقوا، وقيل:

وقد أخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، والترمذي، والبيهقي، عن أبي هريرة قال: «جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ تسأله خائفاً، فقال: قلني: اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، وربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، قال: الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر». وأخرج أحمد، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً مثل هذا في الأربعة الأسماء المذكورة، وتفسيرها. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا: هذا الله كان قبل كل شيء، فمأذا كان قبل الله؟ فإن قالوا لكم ذلك، فقولوا: هو الأول قبل كل شيء، والآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فوق كل شيء، وهو الباطن دون كل شيء، وهو بكل شيء عليم». وأخرج أبو داود عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس، فقلت: ما شيء أجده في صدري، قال ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به، قال: فقال لي: شيء من شك؟ قال، وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال حتى أنزل الله: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ [يونس: 94] الآية قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ قال: عالم بكم أينما كنتم.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمِنُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ شُرَكَاءَ فِيهِ فَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا مِنْكُمْ مَعْثَةً فَاتَّبِعُوهُمْ لِيُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُؤْمِنُوا بِآيَاتِهِ وَأَمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ آمَنَّا بِمَا نَبُوءُ بِاللَّهِ وَأَلَّيْنَا بِرَبِّنَا عِلْقًا شَدِيدًا وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا كَافِرُونَ﴾

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بما أخذ عليكم من الميثاق، أو بالحجج والدلائل، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب، فهذا من أعظم أسبابه وأوضح موجباته ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بيّنات﴾ أي: واضحات ظاهرات، وهي الآيات القرآنية، وقيل: المعجزات والقرآن أعظمها ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي: ليخرجكم الله بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات، أو بالدعوة ﴿وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾ أي: لكثير الرأفة والرحمة بليخها حيث أنزل كتبه، وبعث رسله لهداية عباده، فلا رافة ولا رحمة أبلغ من هذه، والاستفهام في قوله: ﴿وما لكم لا تنفقوا في سبيل الله﴾ للتقريع والتوبيخ، والكلام في إعراب هذا كالكلام في إعراب قوله ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله﴾ وفي هذه الآية دليل على أن الإنفاق المأمور به في قوله ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ هو الإنفاق في سبيل الله، كما بينا ذلك، والمعنى: أي عذر لكم، وأي شيء يمنكم من ذلك، والأصل في أن لا تنفقوا، وقيل:

وقوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: صدقوا بالتوحيد، وبصحة الرسالة، وهذا خطاب لكفار العرب. ويجوز أن يكون خطاباً للجميع، ويكون المراد بالآمر بالإيمان في حق

سبيل الله، فإنه كمن يقرضه، والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً قد أقرض، ومنه قول الشاعر:

وإذا جوزيت قرضاً فأجزه إنما يجزى الفتى ليس الجمل
قال: الكلبي **«قرضاً»** أي: صدقة **«حسناً»** أي: محتسباً من قلبه بلا من ولا أذى. قال مقاتل: حسناً طيبة به نفسه، وقد تقدم تفسير الآية في سورة البقرة **«فيضاعفه له»** قرأ ابن عامر، وابن كثير (فيضعفه) بإسقاط الالف إلا أن ابن عامر، ويعقوب نصبوا الفاء، وقرأ نافع، وأهل الكوفة، والبصرة، (فيضاعفه) بالالف وتخفيف العين إلا أن عاصماً نصب الفاء، ورفع الباقون. قال ابن عطية: الرفع على العطف على يقرض، أو الاستئناف والنصب لكون الفاء في جواب الاستفهام. وضعف النصب أبو علي الفارسي قال: لأن السؤال لم يقع عن القرض، وإنما وقع عن فاعل القرض، وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى، كان قوله: **«من ذا الذي يقرض الله»** بمنزلة قوله أيقرض الله أحد **«وله اجر كريم»** وهو الجنة، والمضاعفة هنا هي كون الحسنه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف على اختلاف الاحوال والأشخاص والأوقات.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ: يوشك أن يأتي قوم يحرقون أعمالكم مع أعمالهم، قلنا من هم يا رسول الله؟ أقريش؟ قال: لا، ولكنهم أهل اليمن هم: أرق، أقنعة، والذين قلوباً فقلنا: أهم خير منا يا رسول الله؟ قال: لو كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مد أحكم، ولا نصيفه، إلا أن هذا فصل ما بيننا وبين الناس **«لا يستوي منكم من أنفق من قبل للفتح وقاتل»**، الآية وهذا الحديث قال ابن كثير: هو غريب بهذا الإسناد، وقد رواه ابن جرير، ولم يذكر فيه الحديبية. وأخرج أحمد عن أنس قال: «كان بين خالد بن الوليد، وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتونا بها؟ فبلغ النبي ﷺ فقال: دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم» والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ بلفظ «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» وفي لفظ «ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» أخرج هذا الحديث البخاري، ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال: لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحكم عمره.

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسَرُّوْنَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَنْتَهِرُ مِنْكُمْ

إن أن زائدة، وجملة **«ووه ميراث السموات والأرض»** في محل نصب على الحال من فاعل **«لا تنفقوا»** أو من مفعوله، والمعنى: أي شيء يمنعكم من الإنفاق في ذلك الوجه، والحال أن كل ما في السموات والأرض راجع إلى الله سبحانه بانقراض العالم كرجوع الميراث إلى الوارث، ولا يبقى لهم منه شيء، وهذا أدخل في التوبيخ، وإكمال في التقرير، فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها، وتصير لله سبحانه، ولا يبقى أحد من مالكيها أقوى في إيجاب الإنفاق عليهم من كونها لله في الحقيقة، وهم: خلفاؤه في التصرف فيها. ثم بين سبحانه فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله، فقال: **«لا يستوي منكم من أنفق من قبل للفتح»** قيل: المراد بالفتح فتح مكة، وبه قال أكثر المفسرين. وقال الشعبي، والزهري: فتح الحديبية، قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك، وكذا قال مقاتل وغيره، وفي الكلام حذف، والتقدير: لا يستوي من أنفق من قبل الفتح **«وقاتل»** ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، فحذف لظهوره، ولدلالة ما سيأتي عليه، وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح؛ لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر، وهم أقل وأضعف، وتقديم الإنفاق على القتال للإيدان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة، فإنهم كانوا يجوبون بأنفسهم، ولا يجنون ما يجوبون به من الأموال. والوجود بالنفس أقصى غاية الجود، والإشارة بقوله: **«لؤلؤك»** إلى «من» باعتبار معناها، وهو مبتدأ وخبره **«أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا»** أي: أرفع منزلة، وأعلى رتبة من الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله من بعد الفتح، وقاتلوا مع رسول الله ﷺ، قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها، قال الزجاج: لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ.

وقد أرشد ﷺ إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صح عنه: «لو أنفق أحكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» وهذا خطاب منه ﷺ للمتأخرين وصحبه، كما يرشد إلى ذلك السبب الذي ورد فيه هذا الحديث **«وكلاً وعد الله الحسنى»** أي: وكل واحد من الفريقين وعد الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها. قرأ الجمهور (وكلاً) بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر. وقرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء، والجملة بعده خبره، والعائد محذوف، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، ومثل هذا قول الشاعر:

قد أصبحت لم الخيار تدعي عليّ ننبأكله لم أصنع

«والله بما تعملون خبير» لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم رغب سبحانه في الصدقة فقال: **«من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً»** أي: من ذا الذي ينفق ماله في

وقيل: معنى انظرونا: انظروا إلينا؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، فيستضيئون بنورهم ﴿نَنْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي: نستضيء منه، والقبس: الشعلة من النار والسراج، فلما قالوا ذلك ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ أي: قال لهم المؤمنون، أو الملائكة زجراً لهم، وتبكاً بهم أي: ارجعوا وراكم إلى الموضع الذي أخذنا منه النور ﴿فَالْتَمَسُوا نَوْراً﴾ أي: اطلبوا هنالك نوراً لأنفسكم، فإنه من هنالك يقتبس، وقيل المعنى: ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان، والأعمال الصالحة، وقيل: أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تبهكاً بهم ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمُ بِسُوراً﴾ السور: هو الحاجز بين الشيئين، والمراد به هنا الحاجز بين الجنة والنار، أو بين أهل الجنة وأهل النار. قال الكسائي: والباء في بسور زائدة، ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال: ﴿لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: باطن ذلك السور. وهو الجانب الذي يلي أهل الجنة فيه الرحمة: وهي الجنة ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ وهو الجانب الذي يلي أهل النار ﴿مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي: من جهته عذاب جهنم، وقيل: إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة، والمنافقون يحصلون في العذاب وبينهم السور، وقيل: إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين، ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك، فقال: ﴿يَبْئُوتُنَهُمُ الْعَذَابُ مَعَكُمْ﴾ أي: موافقين لكم في الظاهر نصلي بصلاتكم في مساجدكم، ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم، والجملة مستأنفة كأنه قيل: فماذا قال المنافقون بعد ضرب السور بينهم وبين المؤمنين؟ فقال: ﴿يَبْئُوتُنَهُمُ﴾، ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: كنتم معنا في الظاهر ﴿وَلَكِن كُنْتُمْ تَنْتَهُمُ أَنْفُسَكُمْ﴾ بالنفاق وإبطان الكفر، قال مجاهد: أمكنتموها بالنفاق، وقيل: بالشهوات واللذات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ بِمُحَمَّدٍ﴾، وبمن معه من المؤمنين حوادث الدهر، وقيل: تربصتم بالتوبة، والأول أولى ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم في أمر الدين ولم تصنفوا ما نزل من القرآن، ولا بالمعجزات الظاهرة ﴿وَعَزَّيْتُمُ الْإِيمَانِيَّ﴾ الباطلة التي من جملتها ما كنتم فيه من التريص، وقيل: هو طول الأمل، وقيل: ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين وقال قتادة: الإيماني هنا غرور الشيطان، وقيل: الدنيا، وقيل: هو طمعهم في المغفرة، وكل هذه الأشياء تدخل في مسمى الإيماني ﴿وَحَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت، وقيل: نصره سبحانه لنبيه ﷺ، وقال قتادة: هو إلقاءهم في النار ﴿وَعَزَّيْتُمُ الْإِيمَانِيَّ بِاللَّغْوِ﴾ قرأ الجمهور (الغور) بفتح الغين، وهو صفة على فعل، والمراد به للشيطان: أي خدعكم بحلم الله، وإمهاله الشيطان. وقرأ أبو حيو، ومحمد بن السميع، وسمك بن حرب بضمها، وهو مصدر ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ تفدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ظاهراً وباطناً ﴿وَمَا وَكُمُ النَّارُ﴾ أي: منزلكم الذي تأبون

الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ نَفَقُوا لِمَ لَمْ يَأْتِنَا نَذِيرٌ مِمَّنْ نَقِيسُ مِنْ قَوْمِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمُ بَسُورًا لَمْ يَبْطِنُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَلَظْهُرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٢﴾ يَبْأُوتُهُمْ آلَمٌ نَكَنَ مِنْكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ كَرِهْتَ فَنَنْتَهُ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَعَزَّيْتُمْ الْإِيمَانِيَّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّيْتُمُ الْإِيمَانِيَّ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ مِنْ مَوْلَانِكُمْ بِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ العامل في الظرف مضمَر وهو أنكر، أو كريم، أو فيضاعفه، أو العامل في لهم، وهو الاستقرار، والخطاب لكل من يصلح له، وقوله ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ في محل نصب على الحال من مفعول ترى، والنور هو الضياء الذي يرى ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ وذلك على الصراط يوم القيامة، وهو دليلهم إلى الجنة. قال قتادة: إن المؤمن يضيء له نور كما بين عن إلى صنعاء، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه. وقال الضحاك، ومقاتل: وبأيمانهم كتبهم التي أعطوها، فكتبهم بأيمانهم، ونورهم بين أيديهم، قال الفراء: الباء بمعنى في: أي في إيمانهم، أو بمعنى عن، قال الضحاك أيضاً: نورهم هداهم، وبأيمانهم كتبهم، واختار هذا ابن جرير الطبري أي: يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي إيمانهم كتب أعمالهم. قرأ الجمهور (بأيمانهم) جمع يمين. وقرأ سهل بن سعد الساعدي، وأبو حيو (بأيمانهم) بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضد الكفر، وقيل: هو القرآن، والجار والمجرور في الموضعين في محل نصب على الحال من نورهم أي: كأننا بين أيديهم وبأيمانهم ﴿يُشْرَاكُمُ لِلْيَوْمِ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بشراكم مبتدأ، وخبره جنات على تقدير مضاف أي: نخول جنات، والجملة مقول قول مقدر أي: يقال لهم هذا، والقائل لهم هم الملائكة. قال مكي: وأجاز الفراء نصب جنات على الحال، ويكون اليوم خبر بشراكم، وهذا بعيد جداً ﴿وَالَّذِينَ فِيهَا﴾ حال مقترنة، والإشارة بقوله ﴿ذَلِكَ﴾ إلى النور والبشرى، وهو مبتدأ، وخبره ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: لا يقادر قدره حتى كأنه لا فوز غيره، ولا اعتداد بما سواه ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ يوم بدل من يوم الأول، ويجوز أن يكون العامل فيه الفوز العظيم، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مقدر أي: أنكر ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ اللام للتبليغ كمنظارتها. قرأ الجمهور (انظرونا) أمراً بوصل الهمزة وضم اللطاء من النظر بمعنى الانتظار أي: انتظرونا. يقولون ذلك لما راوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة. وقرأ الأعمش، وحمزة، ويحيى بن وثاب بقطع الهمزة وكسر اللطاء من الإنظار أي: أمهلونا، وأخرونا، يقال أنظرته واستنظرته أي: أمهلتها واستمهلته. قال الفراء: تقول العرب أنظرني أي: انتظرني، وأنشد قول عمرو بن كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علينا ، وأنظرنا نخبرك اليقيناً

سوراً مضرراً بين المؤمنين والمنافقين، فما معنى تفسير باطن السور، وما فيه من الرحمة بالمسجد، وإن كان المراد أن الله يسوق فريقَي المؤمنين والمنافقين إلى بيت المقدس، فيجعل المؤمنين داخل السور في المسجد، ويجعل المنافقين خارجه، فهم إذ ذاك على الصراط وفي طريق الجنة، وليسوا ببيت المقدس، فإن كان مثل هذا التفسير ثابتاً عن رسول الله ﷺ قبلناه، وأما به، وإلا فلا كرامة ولا قبول. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِتْنَةٌ أَنْفُسُكُمْ﴾ قال: بالشهوات واللذات ﴿وَتُرَبِّصْتُمْ﴾ قال: بالتوبة ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قال: الموت ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّغُورِ﴾ قال: الشيطان.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿١٧﴾ آمَنُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الْمَصْدُورَ وَالْمَصْدُورَ وَأَفْضَلُ اللَّهُ قَرِصًا حَسَنًا يُعْطَى لَهُمْ وَكَهْرُ أَجَرٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَرِيرِ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿قَدْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقال: أنى لك يأتي أنى: إذا حان. قرأ الجمهور (الم يأن) وقرأ الحسن، وأبو السمك (الما يأن)، وأشد ابن السكيت:

الما يأن لي أن تجلي عمائتي واقصر عن ليلي بلى قد أنى ليا و﴿أن تخشع قلوبهم﴾ فاعل يأن أي: ألم يحضر خشوع قلوبهم ووجيء وقته، ومنه قول الشاعر:

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلاً وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلاً
هذه الآية نزلت في المؤمنين. قال الحسن: يستبطئهم، وهم أحب خلقه إليه. وقيل: إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى بنون محمد. قال الزجاج: نزلت في طائفة من المؤمنين، حثوا على الرقة والخشوع، فأما من وصفهم الله بالرقة والخشوع، فطبقة فوق هؤلاء. وقال السدي وغيره: المعنى ألم يأن للذين آمنوا في الظاهر، وأسروا الكفر أن تخشع قلوبهم ﴿لنذكر الله﴾، وسيأتي في آخر البحث ما يقوي قول من قال إنها نزلت في المسلمين، والخشوع لين القلب ورقته. والمعنى: أنه ينبغي أن يورثهم الذكر خشوعاً ورقة، ولا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر ولا يخشع له ﴿وما نزل من الحق﴾ معطوف على ذكر الله، والمراد بما نزل من الحق القرآن، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عده مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان، أو خطور بالقلب، وقيل: المراد بالذكر هو القرآن، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير، أو باعتبار تغاير المفهومين. قرأ الجمهور (نزل) مشدداً مبنياً للفعل. وقرأ نافع، وحفص بالتخفيف مبنياً للفعل. وقرأ الجحدري، وأبو جعفر، والأعمش، وأبو عمرو في رواية عنه مشدداً مبنياً للمفعول. وقرأ ابن مسعود

إليه النار ﴿هي مولاكم﴾ أي: هي أولى بكم، والمولى في الأصل من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن يلازمه، وقيل: معنى ﴿مولاكم﴾: مكانكم عن قرب، من الولي، وهو القرب. وقيل: إن الله يركب في النار الحياة والعقل، فهي تتميز غيظاً على الكفار، وقيل المعنى: هي ناصركم على طريقة قول الشاعر:

تحية بينهم ضرب وجيع

﴿وبئس المصير﴾ الذي تصيرون إليه وهو النار.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾ قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأنهم نوراً من نوره على إبهامه يطفأ مرة، ويوقد أخرى. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور ليلهم من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم، فاظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: ﴿انظرونا نقبض من نوركم﴾ فلما كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون: ﴿ارجعوا وراءكم﴾ من حيث جئتم من الظلمة ﴿فالتمسوا﴾ هنالك النور. وأخرج الطبراني، وابن مروي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترأ منه على عباده، وأما عند الصراط، فلن الله يعطي كل مؤمن نوراً، وكل منافق نوراً، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: ﴿انظرونا نقبض من نوركم﴾ وقال المؤمنون: ﴿ربنا أتم لنا نورنا﴾ [التحريم: 8] فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً، وفي الباب أحاديث، وأثار. وأخرج عبد بن حميد عن عبادة بن الصامت: أنه كان على سور بيت المقدس، فبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ها هنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن السور الذي نكره الله في القرآن ﴿فصرب بينهم بسور﴾ هو: السور الذي ببيت المقدس الشرقي ﴿باطنه فيه الرحمة﴾ المسجد ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ يعني: وادي جهنم، وما يليه.

ولا يخف أن تفسير السور المذكور في القرآن في هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الإشكال ما لا يدفعه مقال، ولا سيما بعد زيادة قوله: ﴿باطنه فيه الرحمة المسجد﴾، فإن هذا غير ما سيقّت له الآية، وغير ما دلت عليه، وأين يقع بيت المقدس، أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقَي المؤمنين والمنافقين، وأي معنى لنكر مسجد بيت المقدس ها هنا، فإن كان المراد أن الله سبحانه ينزع سور بيت المقدس، ويجعله في الدار الآخرة

يكتبوهم. وقال مجاهد: هذه الآية للشهداء خاصة، وهم الأنبياء الذين يشهدون للأمم وعليهم، واختار هذا الفراء، والزجاج. وقال مقاتل بن سليمان: هم الذين استشهدوا في سبيل الله، وكذا قال ابن جرير، وقيل: هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ، والظاهر أن معنى الآية: إن الذين آمنوا بالله ورسله جميعاً بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الدرجة عند الله، وقيل: إن الصديقين هم المبالغون في الصديق حيث آمنوا بالله، وصنفوا جميع رسله، والقائمون لله سبحانه بالتوحيد. ثم بين سبحانه ما لهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسله فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ والضمير الأول راجع إلى الموصول، والضميران الآخرين راجعان إلى الصديقين والشهداء أي: لهم مثل أجرهم ونورهم، وأما على قول من قال: إن الذين آمنوا بالله ورسله هم نفس الصديقين والشهداء، فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شيء واحد، والمعنى: لهم الأجر والنور الموعودان لهم، ثم لما ذكر حال المؤمنين وثوابهم، ذكر حال الكافرين وعقابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جمعوا بين الكفر وتكذيب الآيات، والإشارة بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الموصول باعتبار ما في صلته من اتصافهم بالكفر والتكذيب، وهذا مبتدأ، وخبره ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعذبون بها، ولا أجر لهم ولا نور، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة.

وقد أخرج ابن مريويه عن أنس عن النبي ﷺ قال: «استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن، فأنزل الله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾» الآية. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: «خرج رسول الله ﷺ على نفر من أصحابه في المسجد، وهم يضحكون، فسحب رداءه محمراً وجهه فقال: أتضحكون، ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم، ولقد أنزل علي في ضحككم آية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قالوا: يا رسول الله، فما كفارة ذلك؟ قال: تبكون بقدر ما ضحكتم». وأخرج مسلم، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مريويه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا أربع سنين. وأخرج نحوه عنه ابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه من طريق أخرى. وأخرج أبو يعلى، وابن مريويه عنه أيضاً قال: لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض أي شيء أحدثنا أي شيء صنعنا؟ وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد العزيز بن أبي رواد أن أصحاب النبي ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك، فنزلت هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. وأخرج ابن المبارك عن ابن عباس

(أنزل) مبنياً للفاعل ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ لَوَتْوا﴾ الكتاب من قبل ﴿قُرْأَ الْجُمُورُ﴾ بالتحية على الغيبة جرياً على ما تقدم. وقرأ أبو حيو، وابن أبي عبله بالفوقية على الخطب التفاتاً، وبها قرأ عيسى، وابن إسحاق، والجملة معطوفة على تخشع أي: ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم، ولا يكونوا، والمعنى: النهي لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي: طال عليهم الزمان بينهم وبين انبيائهم. قرأ الجمهور (الأمدة) بتخفيف الدال، وقرأ ابن كثير في رواية عنه بتشديدها أي: الزمن الطويل، وقيل: المراد بالأمدة على القراءة الأولى الأجل والغاية، يقال أمد فلان كذا أي: غايته ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بذلك السبب، فلذلك حرّفوا وبكّلوا، فنهى الله سبحانه أمة محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله؛ لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم، وحرّفوا وبكّلوا، ولم يؤمنوا بما نزل على محمد ﷺ، وقيل: هم الذين تركوا الإيمان بعيسى، ومحمد ﷺ، وقيل: هم الذين ابتدعوا الرهبانية، وهم أصحاب الصوامع ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها، ويلين القلوب بعد قسوتها ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ التي من جملتها هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: كي تعقلوا ما تضمنته من المواعظ، وتعملوا بموجب ذلك ﴿إِنَّ الْمَصْنُوقِينَ وَالْمَصْنُوقَاتِ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الصاد في الموضعين من الصنقة، وأصله المصنّوقين والمصنّوقات، فأدغمت التاء في الصاد. وقرأ أبي (المصنّوقين والمصنّوقات) بثبوت التاء على الأصل. وقرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق أي: صنّقا رسول الله ﷺ فيما جاء به ﴿وَاقْرَءُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ معطوف على اسم الفاعل في المصنّوقين؛ لأنه لما وقع صلة للالف واللام الموصولة حل محل الفعل، فكانه قال: إن الذين تصنّقا وقرءوا، كذا قال أبو علي الفارسي وغيره. وقيل: جملة، وقرءوا معترضة بين اسم إن وخبرها، وهو ﴿يُضَاعَفُ﴾ وقيل: هي صلة لموصول محذوف أي: والذين أقرءوا، والقرض الحسن عبارة عن التصنق والإنفاق في سبيل الله مع خلوص نية، وصحة قصد، واحتساب أجر. قرأ الجمهور (يضاعف لهم) بفتح العين على البناء للمفعول، والقائم مقام الفاعل إما الجار والمجرور، أو ضمير يرجع إلى المصنّوقين على حذف مضاف أي: ثوابهم، وقرأ الأعمش (يضاعفه) بكسر العين وزيادة الهاء. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب (يضعف) بتشديد العين وفتحها ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة، والمضاعفة هنا أن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ جميعاً، والإشارة بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الموصول، وخبره قوله: ﴿هُمْ الصَّيِّقُونَ وَالشَّهَدَاءُ﴾ والجملة خبر الموصول. قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صنيق. قال مقاتلان: هم الذين لم يشكوا في الرسل حين أخبروهم ولم

يغطونه بالتراب، ومعنى ﴿نباته﴾: النبات الحاصل به ﴿ثم يهيج﴾ أي: يجف بعد خضرته ويبيض ﴿فقرأه مصفراً﴾ أي: متغيراً عما كان عليه من الخضرة والروني إلى لون الصفرة والذبول ﴿ثم يكون حطاماً﴾ أي: قتاتاً هشياً متكسراً متحطماً بعد بيبسه، وقد تقدم تفسير هذا المثل في سورة يونس والكهف، والمعنى: أن الحياة الدنيا كالزروع يعجب الناظرين إليه، لخضرته وكثرة نضارته. ثم لا يلبث أن يصير هشياً تبنياً كان لم يكن. وقرئ (مصفراً) والكاف في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف. ثم لما نكر سبحانه حقارة الدنيا، وسرعة زوالها، نكر ما أعدّه للعصاة في الدار الآخرة فقال: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد﴾ وأتبعه بما أعدّه لأهل الطاعة، فقال: ﴿ومغفرة من الله ورضوان﴾. والتذكير فيهما للتعظيم. قال قتادة: عذاب شديد لأعداء الله، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته. قال الفراء: التقدير في الآية إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يوقف على شديد. ثم نكر سبحانه بعد التهريب والترغيب حقارة الدنيا، فقال: ﴿وما للحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ لمن اغتر بها ولم يعمل لآخرته. قال سعيد بن جببر: متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه. وهذه الجملة مقررّة للمثل المتقدم ومؤكدة له، ثم نذب عبيده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح، فإن ذلك سبب إلى الجنة، فقال: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ أي: سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم، وتوبوا مما وقع منكم من المعاصي، وقيل: المراد بالآية التكبيرة الأولى مع الإمام قاله مكحول، وقيل: المراد الصف الأول، ولا وجه لتخصيص ما في الآية بمثل هذا، بل هو من جملة ما تصدق عليه صديقاً شمولياً أو بلياً ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ أي: كعرضهما، وإذا كان هذا قدر عرضها، فما ظنك بطولها. قال الحسن: يعني جميع السموات والأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبته، وقيل: المراد بالجنة التي عرضها هذا العرض هي جنة كل واحد من أهل الجنة. وقال ابن كيسان: عني به جنة واحدة من الجنات، والعرض أقل من الطول، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشيء بعرضه دون طوله، ومن ذلك قول الشاعر:

كان بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل
وقد مضى تفسير هذا في سورة آل عمران. ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى، فقال: ﴿أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة. وفي هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرد الإيمان بالله ورسله، ولكن هذا مقيد بالدالة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه، واجتنب ما نهاه الله عنه، وهي آلة كثيرة في الكتاب والسنة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما وعد به سبحانه من المغفرة والجنة، وهو مبتدأ وخبره

يلين القلوب بعد قسوتها. وأخرج ابن جرير عن البراء بن عازب سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مؤمنو أمي شهداء ثم تلا النبي ﷺ ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾». وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال: كل مؤمن صديق وشهيد. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: «إن الرجل ليموت على فراشه، وهو شهيد، ثم تلا هذه الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون﴾ قال: هذه مفصلة ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾. وأخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهني قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وأديت الزكاة، وصمت رمضان، وقمته فممن أنا؟ قال: من الصديقين والشهداء».

اتْلَوْا أَنَا لِمَيَّةُ الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ وَرَيْتُ وَتَفَاخَرُ بَيْنَكُمْ وَكَثَاثُ فِي الْأُمُورِ وَالْأَوَّلِيَّةُ كَثَلُ عَيْبٍ أَجَبَ الْكَفَّارَ بَنَاهُ ثُمَّ يَجِبُ نَزْرُهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حَطْمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا لِمَيَّةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٠٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠١﴾ مَا آتَاكَ مِن شَيْءٍ فَيُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٢﴾ مَا آتَاكَ مِن شَيْءٍ فَيُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٣﴾ لَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كُتُبٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَ مَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٠٤﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٠٥﴾ الَّذِينَ يَبْتَغُلُونَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَالنَّاسَ بِالْبُغْلِ وَمَن يُؤْكَلْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ﴿١٠٦﴾

قوله: ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ لما نكر سبحانه حال الفريق الثاني، وما وقع منهم من الكفر والتكذيب، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وتأثيرها، بين لهم حقارتها وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة، واللعب هو الباطل، اللهو كل شيء يتلوه به ثم يذهب. قال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب. قال مجاهد: كل لعب لهو، وقيل: اللعب ما رغب في الدنيا، واللهو ما الهى عن الآخرة وشغل عنها، وقيل: اللعب الاقتناء، واللهو النساء، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة الأنعام، والزينة التزين بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة ﴿وتفاحش بينهم﴾ قرأ الجمهور بتنوين (تفاحش) والظرف صفة له، أو معمول له، وقرأ السلمي بالإضافة أي: يتفاخر به بعضكم على بعض، وقيل: يتفاخرون بالخلقة والقوة، وقيل: بالأنساب والأحساب، كما كانت عليه العرب ﴿وتكاثروا في الأموال والأولاد﴾ أي: يتكاثرون بأموالهم وأولادهم، ويتطاولون بذلك على الفقراء، ثم بين سبحانه لهذه الحياة شبيهاً، وضرب لها مثلاً فقال: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾ أي: كمثل مطر أعجب الزراع نباته، والمراد بالكفار هنا الزراع لأنهم يكفرون البذر أي:

الجنس، فيدخل فيه كتاب كل رسول **﴿والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾** قال قتادة، ومقاتل بن حيان: الميزان العدل، والمعنى: أمرناهم بالعدل، كما في قوله: **﴿والسما رفعها ووضع الميزان﴾** [الرحمن: 7] وقوله: **﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾** [الشورى: 17] وقال ابن زيد: هو ما يوزن به ويتعامل به، ومعنى: **﴿ليقوم الناس بالقسط﴾**: ليتبعوا ما أمروا به من العدل، فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة، والقسط العدل، وهو يدل على أن المراد بالميزان العدل، ومعنى إنزاله: إنزال أسبابه وموجباته. وعلى القول بأن المراد به الآلة التي يوزن بها، فيكون إنزاله بمعنى إرشاد الناس إليه، وإلهامهم الوزن به، ويكون الكلام من باب: علفتها تبناً وماء بارداً

﴿وانزلنا الحديد﴾ أي: خلقناه، كما في قوله: **﴿وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾** [الزمر: 6] والمعنى: أنه خلقه من المعادن، وعلم الناس صنعته، وقيل: إنه نزل مع آدم **﴿فيه باس شديد﴾** لأنه تتخذ منه آلات الحرب. قال الزجاج: يمتنع به ويحارب، والمعنى: أنه تتخذ منه آلة للبلغ، وآلة للضرب. قال مجاهد: فيه جنة وسلاح، ومعنى **﴿ومنافع للناس﴾**: أنهم ينتفعون به في كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين، والفأس، والإبرة، وآلات الزراعة، والنجارة، والعمارة **﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾** معطوف على قوله: ليقوم الناس أي: لقد أرسلنا رسلنا، وفعلنا كيت وكيت، ليقوم الناس وليعلم، وقيل: معطوف على علة مقترنة، كأنه قيل: ليستعملوه وليعلم الله، والأول أولى. والمعنى: إن الله أمر في الكتاب الذي أنزل بنصره دينه ورسله، فمن نصر دينه ورسله علمه ناصراً، ومن عصى علمه بخلاف ذلك، وبالغيب في محل نصب على الحال من فاعل ينصره، أو من مفعوله أي: غائباً عنهم، أو غائبين عنه **﴿إن الله قوي عزيز﴾** أي: قادر على كل شيء غالب لكل شيء، وليس له حاجة في أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله، بل كلفهم بذلك؛ لينتفعوا به إذا امتثلوا، ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين **﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم﴾** لما نكر سبحانه إرسال الرسل إجمالاً أشار هنا إلى نوع تفصيل، فنذكر رسالته لنوح وإبراهيم، وكّرر القسم للتوكيد **﴿وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾** أي: جعلنا فيهما النبوة والكتب المنزلة على الأنبياء منهم، وقيل: جعل بعضهم أنبياء، وبعضهم يتلون الكتاب **﴿فمنهم مهتدي﴾** أي: فمن الذرية من اهتدى بهدي نوح وإبراهيم، وقيل: المعنى فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى **﴿وكثير منهم فاسقون﴾** خارجون عن الطاعة **﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا﴾** أي: اتبعنا على آثار الذرية، أو على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى، وإلياس، ودلود، وسليمان، وغيرهم **﴿وقفينا بعيسى ابن مريم﴾** أي: أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، وهو من ذرية إبراهيم من جهة

أمه **﴿وأتيناه الإنجيل﴾** وهو الكتاب الذي أنزله الله عليه، وقد تقدم نكر اشتقاقه في سورة آل عمران. قرأ الجمهور (الإنجيل) بكسر الهمزة، وقرأ الحسن بفتحها **﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة﴾** الذين اتبعوه هم الحواريون جعل الله في قلوبهم مودة لبعضهم البعض، ورحمة يتراحمون بها، بخلاف اليهود، فإنهم ليسوا كذلك، وأصل الرافة اللين، والرحمة الشفقة، وقيل: الرافة أشد الرحمة **﴿ورهبانية ابتدعوها﴾** انتصاب رهبانية على الاشتغال أي: وابتدعوا رهبانية ابتدعوها، وليس بمعطوفة على ما قبلها، وقيل: معطوفة على ما قبلها أي: وجعلنا في قلوبهم رافة ورحمة، ورهبانية مبتدعة من عند أنفسهم. والأول أولى، ورجحه أبو علي الفارسي وغيره، وجمله **﴿ما كتبناها عليهم﴾** صفة ثانية لرهبانية، أو مستأنفة مقررة؛ لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم، والمعنى: ما فرضناها عليهم، والرهبانية بفتح الراء وضمها، وقد قرئ بهما، وهي بالفتح الخوف من الرب، وبالضم منسوبة إلى الرهبان، وذلك لأنهم غلوا في العبادة، وحملوا على أنفسهم المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والمنكح، وتعلقوا بالكهوف والصوامع؛ لأن ملوكهم غيروا وبدلوا، وبقي منهم نفر قليل، فترهبوا وتبتلوا، نكر معناه الضحك، وقاتدة، وغيرهما **﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾** الاستثناء منقطع أي: ما كتبناها نحن عليهم رأساً، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. وقال الزجاج: ما كتبناها عليهم معناه لم نكتب عليهم شيئاً لئلا، ويكون **﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾** بدلاً من الهاء الألف في كتبناها، والمعنى: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله **﴿فما رعوها حق رعايتها﴾** أي: لم يراعوا هذه الرهبانية التي ابتدعوها من جهة أنفسهم، بل صنعوها وكفروا بدين عيسى، ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا وبدلوا، وتركوا الترهّب، ولم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم، وهم المرانون بقوله: **﴿فأتينا الذين آمنوا منهم لجرهم﴾** الذي يستحقونه بالإيمان، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى، وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد ﷺ لما بعثه الله **﴿وكثير منهم فاسقون﴾** خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به، ووجه الذم لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة، وأن الله يرضاهم، فكان تركها وعدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم ميلاتهم بما يعتقدونه ديناً. وأما على القول بأن الاستثناء متصل، وأن التقدير: ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا لبيتغوا بها رضوان الله بعد أن وفقناهم لابتداعها، فوجه الذم ظاهر، ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسول المتقدمين بالتقوى والإيمان بمحمد ﷺ، فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾** بترك ما نهاكم عنه **﴿وآمنوا برسوله﴾** محمد ﷺ **﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾** أي: نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل، وأصل الكفل الحظ والنصيب، وقد تقدم

الكلام على تفسيره في سورة النساء ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ يعني: على الصراط كما قال: ﴿نورهم يسعى بين أيديهم﴾ [التحریم: 8] وقيل: المعنى ويجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به ﴿ويغفر لكم﴾ ما سلف من ذنوبكم ﴿والله غفور رحيم﴾ أي: بليغ للمغفرة والرحمة ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ اللام متعلقة بما تقدم من الأمر بالإيمان والتقوى، والتقدير: اتقوا وأمنوا يؤتكم كذا وكذا؛ ليعلم الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب ﴿أن لا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ ولا في قوله: ﴿لئلا﴾ زائدة للتوكيد، قاله الفراء، والأخفش، وغيرهما، وإن في قوله: ﴿أن لا يقدرون﴾ هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف، وخبرها ما بعدها، والجملة في محل نصب على أنها مفعول يعلم، والمعنى: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئاً من فضل الله الذي تفضل به على من آمن بمحمد ﷺ، ولا يقدرون على دفع تلك الفضل الذي تفضل الله به على المستحقين له، وجملة ﴿وأن الفضل بيد الله﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها أي: ليعلموا أنهم لا يقدرون، وليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه، وقوله: ﴿يؤتيه من يشاء﴾ خبر ثان لأن، أو هو الخبر، والجازر والمجورور في محل نصب على الحال ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ هذه الجملة مقرزة لمضمون ما قبلها، والمراد بالفضل هنا ما تفضل به على الذين اتقوا وآمنوا برسوله من الأجر المضاعف. وقال الكلبي: هو رزق الله، وقيل: نعم الله التي لا تحصى، وقيل: هو الإسلام، وقد قيل: إن «لا» في لئلا غير مزيدة، وضمير لا يقدرون للنبي ﷺ وأصحابه. والمعنى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون على شيء من فضل الله الذي هو عبارة عما أوتوه، والأول أولى. وقرأ ابن مسعود (لكيلا يعلم) وقرأ خطاب بن عبد الله (لأن يعلم) وقرأ عكرمة (ليعلم) وقرأ (ليلا) بقلب الهمزة ياء، وقرأ بفتح اللام.

وقد أخرج عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوارير الأصول، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب من طرق ابن مسعود قال: «قال لي رسول الله ﷺ: يا عبد الله، قلت: لبيك يا رسول الله ثلاث مرات، قال: هل تدري أي عرى الإسلام أوثق؟ قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: أفضل الناس أفضلهم عملاً إذ فقهوا في دينهم؛ يا عبد الله هل تدري أي الناس أعلم؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس، وإن كان مقصراً بالعمل، وإن كان يزحف على استه، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهما: فرقة وازرت الملوك وقتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك، فاقاموا بين ظهرائي قومهم فدعوه إلى دين الله ودين عيسى، فقتلهم الملوك ونشروهم بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ولا

بالمقام معهم، فساخوا في الجبال وترهبوا فيها، وهم الذين قال الله: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم لجرهم﴾ هم الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ الذين جحدوني وكفروا بي». وأخرج النسائي، والحكيم الترمذي في نوارير الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عن ابن عباس قال: كانت ملوك بعد عيسى بنلت التوراة والإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل، فقيل لملوكهم: ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمنا هؤلاء إنهم يقرءون ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: 44] ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة: 45] ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ [المائدة: 47] مع ما يعيبننا به من أعمالنا في قراءتهم، فادعوهم فليقرءوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمناء، فدعاهم فجمعهم، وعرض عليهم القتل، أو ليتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منهما، فقالوا: ما تريبن إلى ذلك؟ دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم اعطونا شيئاً نرفع به طعمانا وشرابنا، ولا نرد عليكم، وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم وناكل مما تاكل منه الوحوش، ونشرب مما تشرب، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في القياقي، ونحتفر الآبار، ونحرق البقول، فلا نرد عليكم ولا نمر بكم، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم، ففعلوا ذلك، فأنزل الله ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾ وقال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك، وفني من فني منهم قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساج فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتنوا بهم، فلما بعث النبي ﷺ، ولم يبق منهم إلا القليل انحط صاحب الصومعة من صومعته، وجاء السياح من سياحته، وصاحب الدير من دير، فأمنوا به وصدقوه، فقال الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته﴾ أجربن بإيمانهم بعيسى، ونصب أنفسهم، والتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمد وتصديقهم ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ القرآن واتباعهم النبي ﷺ. وأخرج أحمد، والحكيم الترمذي، وأبو يعلى، والبيهقي في الشعب عن أنس أن النبي ﷺ قال: «إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله». وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري في قوله: ﴿كفلين﴾ قال: ضعفين وهي بلسان الحبشة. وأخرج الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عمر في قوله: ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ قال: الكفل ثلثمائة جزء وخمسون جزءاً من رحمة الله.

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدني، وباقيها مكِّي. وقال الكلبي: نزلت جميعها بالمدينة غير قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7] نزلت بمكة. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المجادلة بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَطَّهَّرُونَ مِنْكُمْ مِنْ سَائِبِهِمْ مَا هُنَّ أَهْنُهُمْ إِنْ أُنْهَضْتُمْ إِلَّا أُنْهَضْتُمْ وَلَا أَلَى وَلَدَنَهُمْ وَرَبُّهُمْ يَقُولُونَ شُكْرًا يَنْ أَلْقَوْلِ وَزُورًا ﴿٢﴾ وَلَيْتَ اللَّهُ لَمَمُو عُنُورٌ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَطَّهَّرُونَ مِنْ سَائِبِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ ذَلِكَ تُنْقَضُوا بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٤﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَيَسْأَلْهُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامَ سِتِّينَ سِكِينًا ذَلِكَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَيَكُنَّ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ قرأ أبو عمرو، وحمة، والكسائي بإدغام الدال في السين، وقرأ الباقون بالإظهار. قال الكسائي: من بين الدال عند السين، فلسانه أعجمي وليس بعربي ﴿قَوْلِ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي: تراجعك الكلام في شأنه ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ معطوف على تجادل. والمجادلة هذه الكائنة منها مع رسول الله أنه كان كلما قال لها: قد حرمت عليه، قالت: والله ما نكر طلاقاً، ثم تقول أشكو إلى الله فافتني ووجدني، وإن لي صبية صغاراً إن ضمنتهم إليه ضاعوا، وإن ضمنتهم إلي جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء، وتقول: اللهم إني أشكو إليك، فهذا معنى قوله: ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: نزلت هذه الآية في خولة بنت ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت، وكان به لعم، فاشتد به لعمه ذات يوم، فظاهر منها، ثم ندم على ذلك، وكان الظهار طلاقاً في الجاهلية، وقيل: هي خولة بنت حكيم، وقيل: اسمها جميلة، والأول أصح، وقيل: هي بنت خويلد، وقال الماوردي: إنها نسبت تارة إلى أبيها، وتارة إلى جدها، وأحدهما أبوها، والآخر جدها، فهي: خولة بنت ثعلبة بن خويلد، وجملة ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها أي: والله يعلم تراجعكما في الكلام ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع كل مسموع، ويبصر كل مبصر، ومن جملة ذلك ما جالبتك به هذه المرأة. ثم بين سبحانه شأن الظهار في نفسه، ونكر حكمه، فقال: ﴿لِلَّذِينَ يَطَّهَّرُونَ مِنْكُمْ مِنْ سَائِبِهِمْ مَا هُنَّ أَهْنُهُمْ إِنْ أُنْهَضْتُمْ إِلَّا أُنْهَضْتُمْ وَلَا أَلَى وَلَدَنَهُمْ وَرَبُّهُمْ يَقُولُونَ شُكْرًا يَنْ أَلْقَوْلِ وَزُورًا﴾

نسائهم ﴿قرأ الجمهور﴾ (يظهرون) بالتشديد مع فتح حرف المضارعة. وقرأ ابن عامر، وحمة، والكسائي (يظاهرون) بفتح الياء، وتشديد الظاء، وزيادة ألف، وقرأ أبو العالية، وعاصم، وزد بن حبش (يظاهرون) بضم الياء، وتخفيف الظاء، وكسر الهاء، وقد تقدم مثل هذا في سورة الأحزاب. وقرأ لبي (يتظاهرون) بفك الإدغام، ومعنى الظهار أن يقول لامراته: أنت علي كظهر أمي أي: ولا خلاف في كون هذا ظهاراً. واختلفوا إذا قال: أنت علي كظهر ابنتي، أو اختي، أو غير ذلك من نوات المحارم، فذهب جماعة منهم أبو حنيفة ومالك إلى أنه ظهار، وبه قال الحسن، والنخعي، والزهرري، والأوزاعي، والثوري. وقال جماعة منهم قتادة والشعبي: إنه لا يكون ظهاراً بل يختص الظهار بالأم وحدها. واختلفت الرواية عن الشافعي، فروي عنه كالقول الأول، وروي عنه كالقول الثاني، وأصل الظهار مشتق من الظهر.

واختلفوا إذا قال لامراته: أنت علي كراس أمي، أو يدها، أو رجلها، أو نحو ذلك؟ هل يكون ظهاراً أم لا وهكذا إذا قال: أنت علي كأمي ولم يذكر الظهر، والظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهاراً. وروي عن أبي حنيفة أنه إذا شبهها بعضو من أمه يحل له النظر إليه لم يكن ظهاراً، وروي عن الشافعي أنه لا يكون الظهار إلا في الظهر وحده.

واختلفوا إذا شبه امراته بأجنبية فقيل: يكون ظهاراً وقيل: لا، والكلام في هذا مبسوط في كتب الفروع، وجملة ﴿هَنْ أَمِهَاتِهِمْ﴾ في محل رفع على أنها خبر الموصول أي: ما نسأهم بأمهاتهم، فذلك كذب منهم، وفي هذا توبيخ للمظاهرين وتبكيك لهم. قرأ الجمهور (أمهاتهم) بالنصب على اللغة الحجازية في إعمال «ه» عمل ليس. وقرأ أبو عمرو، والسلمي بالرفع على عدم الإعمال، وهي لغة نجد، وبني أسد. ثم بين سبحانه لهم أمهاتهم على الحقيقة فقال: ﴿إِنْ أَمِهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي: ما أمهاتهم إلا النساء اللاتي ولدنهم، ثم زاد سبحانه في توبيخهم وتقريعهم، فقال: ﴿وَأِنْهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: وإن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منكرًا من القول أي: فظيلاً من القول ينكره الشرع، والزور الكذب، وانتصاب منكرًا وزوراً على أنهما صفة لمصدر محذوف أي: قولاً منكراً وزوراً ﴿وَأِنْ لَعَفُو غَفُورٌ﴾ أي: بليغ العفو والمغفرة إذ جعل الكفارة عليهم مخلصاً لهم عن هذا القول المنكر ﴿وَالَّذِينَ يَطَّهَّرُونَ مِنْ سَائِبِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ لما نكر سبحانه الظهار إجمالاً وبوخ فاعليه شرع في تفصيل أحكامه، والمعنى: والذين يقولون ذلك القول المنكر الزور، ثم يعيدون لما قالوا أي: إلى ما قالوا بالتدراك والتلافي، كما في قوله: ﴿إِنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ [النور: 17] أي: إلى مثله، قال الأخفش: ﴿لَمَّا قَالُوا﴾ وإلى ما قالوا يتعاقبان. قال ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: 43] وقال: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 23] وقال: ﴿بِأَن رَّبِّكَ أَوْحَى إِلَيْهَا﴾ [الزلزلة: 5] وقال: ﴿وَأَوْحَى إِلَى

﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ يعني: صيام شهرين متتابعين **﴿فَإِطْعَامَ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾** أي: فعليه أن يطعم ستين مسكيناً، لكل مسكين مِذَان، وهما نصف صاع، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه. وقال الشافعي وغيره: لكل مسكين مِذَان واحد، والظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مَرَّةً واحدة، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، ولا يلزمه أن يجمعهم مَرَّةً واحدة، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين في يوم، وبعضهم في يوم آخر، والإشارة بقوله: **﴿لَكَ﴾** إلى ما تقدّم نكره من الأحكام، وهو مبتدأ، وخبره مَقْدَرُ أي: ذلك واقع **﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** ويجوز أن يكون اسم الإشارة في محل نصب، والتقدير: فعلنا ذلك لتؤمنوا أي: لتصدقوا أن الله أمر به وشرعه، أو لتطيعوا الله ورسوله في الأوامر والنواهي، وتقفوا عند حدود الشرع ولا تتعدوها، ولا تعودوا إلى الظهار الذي هو منكر من القول وزور، والإشارة بقوله: **﴿وَتِلْكَ﴾** إلى الأحكام المذكورة، وهو مبتدأ، وخبره **﴿حُدُودِ اللَّهِ﴾** فلا تجاوزوا حدوده التي حدّها لكم، فإنه قد بيّن لكم أن الظهار معصية، وأن كفرته المذكورة توجب العفو والمغفرة **﴿وَالْكَافِرِينَ﴾** الذين لا يقفون عند حدود الله، ولا يعملون بما حدّه الله لعباده **﴿عَذَابَ الْيَمِّ﴾** وهو عذاب جهنم، وسماه كفراً تغليظاً وتشديداً.

وقد أخرج ابن ماجه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات **﴿وَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَانِكُ فِي زَوْجِهَا﴾** وهو أوس بن الصامت. وأخرج النحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: كان أوّل من ظاهر في الإسلام أوس، وكانت تحته ابنة عمّ له يقال لها: خولة بنت خويلد، فظاهر منها، فأسقط في يده وقال: ما أراك إلا قد حرمت علي، فانطلقى إلى النبي ﷺ، فأسأله، فأثت النبي ﷺ، فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه، فأخبرته، فقال: «يا خولة ما أمرنا في أمرك بشيء»، فانزل الله على النبي ﷺ فقال: «يا خولة أبشري؟» قالت: خيراً. قال: خيراً، فقرأ عليها **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَانِكُ فِي زَوْجِهَا﴾**، الآيات. وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال: «حدثتني خولة بنت ثعلبة قالت: في، والله، وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، فدخل علي يوماً فراجعته بشيء، فغضب فقال: أنت علي كظهر أمي، ثم رجع، فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي، فإذا هو يرينني عن نفسي، قلت: كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل إليّ، وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله

نوح» [هود: 36] وقال الفراء: اللام بمعنى عن، والمعنى: ثم يرجعون عما قالوا، ويريدون الوطء. وقال الزجاج: المعنى: ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. قال الأخفش أيضاً: الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى: والذين يظهرون من نسائهم، ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع **﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾** لما قالوا أي: فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا. فالجار في قوله: **﴿لَمَّا قَالُوا﴾** متعلق بالمحنوف الذي هو خبر المبتدأ، وهو فعليهم.

واختلف أهل العلم في تفسير العود المذكور على أقوال: الأوّل أنه العزم على الوطء، وبه قال العراقيون أبو حنيفة وأصحابه، وروي عن مالك. وقيل: هو الوطء نفسه، وبه قال الحسن، وروي أيضاً عن مالك. وقيل: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق، وبه قال الشافعي. وقيل: هو الكفارة، والمعنى: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة، وبه قال الليث بن سعد، وروي عن أبي حنيفة. وقيل: هو تكرير الظهار بلفظه، وبه قال أهل الظاهر. وروي عن بكير بن الأشبح، وأبي العالية، والفراء. والمعنى: ثم يعودون إلى قول ما قالوا. والموصول مبتدأ، وخبره **﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾** على تقدير، فعليهم تحرير رقبة، كما تقدّم، أو قالوا وجب عليهم إعتاق رقبة، يقال: حررت أي: جعلته حراً، والظاهر أنها تجزئ أي رقبة كانت، وقيل: يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة في كفارة القتل، وبالأول قال أبو حنيفة وأصحابه، وبالثاني قال: مالك، والشافعي، واشترطا أيضاً سلامتها من كل عيب **﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّاسَا﴾** المراد بالتماس هنا الجماع، وبه قال الجمهور، فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يُكَمَّرَ، وقيل: إن المراد به الاستمتاع بالجماع، أو اللمس، أو النظر إلى الفرج بشهوة، وبه قال مالك، وهو أحد قول الشافعي، والإشارة بقوله: **﴿تِلْكَ﴾** إلى الحكم المذكور وهو مبتدأ، وخبره **﴿وَتَوْعُظُونَ بِهِ﴾** أي: تؤمرون به، أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار، وفيه بيان لما هو المقصود من شرع الكفارة. قال الزجاج: معنى الآية تلزمك التغليظ في الكفارة توعظون به أي: إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار **﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فهو مجازيكم عليها. ثم نكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة، فقال: **﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فُصِيامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّاسَا﴾** أي: فمن لم يجد الرقبة في ملكه، ولا تمكن من قيمتها، فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما، فإن أقطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر، وإن كان لعذر من سفر؛ أو مرض، فقال سعيد بن المسيب، والحسن، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، والشعبي، والشافعي، ومالك: إنه يبني، ولا يستأنف. وقال أبو حنيفة: إنه يستأنف، وهو مروى عن الشافعي؛ ومعنى **﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّاسَا﴾** هو ما تقدّم قريباً، فلو وطئ ليلاً أو نهاراً عمداً أو خطأ استأنف، وبه قال أبو حنيفة، ومالك. وقال الشافعي: لا يستأنف إذا وطئ ليلاً؛ لأنه ليس محلاً للصوم، والأول أولى

فأخبرته خبري، فقال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك، وأنا أنا ذا، فامض في حكم الله، فإنني صابر لذلك، قال: اعتق رقبة، ففرضت عنقي ببدي، فقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها، قال: فصم شهرين متتابعين، فقلت: هل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال: «فأطعم ستين مسكيناً»، قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشاً ما لنا عشاء، قال: اذهب إلى صاحب صيقة بني زريق، فقل له: فليبعها إليك، فأطعم عنك منها وسقاً ستين مسكيناً، ثم استعن بسائرهما عليك، وعلى عيالك، فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق، وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، أمر لي بصدقتكم، فأنفعوها لي، فأنفعوها إليه.

إِنَّ الَّذِينَ يُخَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوزًا كَمَا حُبَّتِ الْيَلِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَقَدْ أَرْسَلْنَا
مَائِكَتَ بْنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١﴾ يَوْمَ يَجْعَلُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُلْقِيَهُمْ
بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسَوَاءٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يَقْتُلُ مَا فِي السَّمَكِ وَيَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى لشيءٍ إِلَّا هُوَ رَاقِبُهُمْ
وَلَا خَشْيَةَ إِلَّا هُوَ سَادِمُهُمْ وَلَا أَذَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْفَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا
كَانُوا ثُمَّ يُنْفِثُهُمْ فَمَا يَعْمَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
هَوَّنُوا عَلَى النَّجْوَى ثُمَّ يَهْدُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَيَنْتَحِرُونَ بِالْأَثِيرِ وَالْمُدْرِينِ وَمَعْصِدَتِ
الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَزْبُكَ بَدَأُوا بِحَيْكَةٍ بِدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ
بِمَا نَقُولُ حَسِبْنَاهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَكْسُ الْمَصِيدُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
تَخَضَّعْتُمْ فَلَا تَنْتَحِرُوا بِالْأَثِيرِ وَالْمُدْرِينِ وَمَعْصِدَتِ الرَّسُولِ وَتَنْجَرُوا بِالْأَيْدِ وَالشَّقَوَى وَأَتَوْا
اللَّهَ الذِّكْرَ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ ﴿٥﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ يَحْزُقُ الَّذِينَ آمَنُوا
فَلَيْسَ بِهِمْ عَارٌ شَيْئًا إِلَّا بِآذَنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَالِقُ الْغَابِغِيِّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يَحَانُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لما نكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده نكر المحائين، والمحادة المشاقة، والمعبادة، والمخالفة، ومثله قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحَانُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قال الزجاج: المحادة أن تكون في حدٍ يخالف صاحبك، وأصلها الممانعة، ومنه الحديد، ومنه الحداد للوَباء ﴿كَبِتُوا﴾ كما كبت النين من قبلهم ﴿أَي: أَتَلُوا وَأَخْرُوا﴾ يقال: كبت الله فلاناً إذا أنزله، والمريد بالذلّ يقال له: مكبوت. قال المقاتلان: أَخْرُوا، كما أَخْرَى الذين من قبلهم من أهل الشرك، وكذا قال قتادة، وقال أبو عبيدة، والأخفش: اهلكوا. وقال ابن زيد: عذبوا. وقال السدي: لعنوا. وقال الفراء: اغيظوا، والمراد بمن قبلهم: كفار الأمم الماضية المعانين لرسل الله، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، وقيل المعنى: على الماضي، وذلك ما وقع للمشركين يوم بدر، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر، والقهر، وجملة ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِ بَيِّنَاتٍ﴾ في محل نصب على الحال من الواو في كَبِتُوا أَي: والحال أننا قد أنزلنا آيات واضحة فيمن حادَّ الله ورسله من الأمم

فينا، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ، فنكرت ذلك له، فما برحت حتى نزل القرآن، فتفتشى رسول الله ﷺ ما كان يتقشاه، ثم سري عنه، فقال لي: «يا خولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ علي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَالِسُكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: مريه، فليعتق رقبة، قلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: فليصم شهرين متتابعين، قلت: والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام، قال: فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر، قلت: والله ما ذاك عنده، قال رسول الله ﷺ: فانا ساعينه بعرق من تمر، فقلت: وأنا يا رسول الله ساعينه بعرق آخر، فقال: قد أصبت، وأحسن، فاذهبي، فتصدقي به عنه، ثم استوصي بأبن عمك خيراً، قالت، ففعلت» وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ يَعْبُدُونِ لَمَا قَالَ﴾ قال: هو الرجل يقول لامراته: أنت علي كظهر أمي، فإذا قال ذلك فليس يحل له أن يقربها بكناح، ولا غيره حتى يُكفّر بعرق رقبة ﴿فَمَنْ﴾ فإن ﴿لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّاسَا﴾ والمَسَّ النكاح ﴿فَمَنْ﴾ فإن ﴿لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامَ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾ وإن هو قال لها: أنت علي كظهر أمي إن فعلت كذا، فليس يقع في ذلك ظهار حتى يحنث، فإن حنث، فلا يقربها حتى يُكفّر، ولا يقع في الظهار طلاق. وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال ثلاث: فيه مدّ كفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارة الصيام. وأخرج البزار، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: «أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني ظاهرت من امرأتي، فرأيت بياض خلخالها في ضوء القمر، فوقعت عليها قبل أن أكفر، فقال النبي ﷺ: ألم يقل الله ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتِمَّاسَا﴾، قال: قد فعلت يا رسول الله، قال: أمسك عنها حتى تُكفّر». وأخرج عبد الرزاق، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي عن ابن عباس «أن رجلاً قال: يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي، فوقعت عليها من قبل أن أكفر، فقال: وما حملك على ذلك؟ قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر، قال: فلا تقربها حتى تغفر ما أمرك الله». وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، والطبراني، والبخاري في معجمه، والحاكم وصححه عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما بخل رمضان ظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقاً من أن أصيب منها في ليلي، فاتتبع في ذلك، ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركني الصبح، فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحت غدت على قومي، فأخبرتهم خبري، فقلت: انطلقوا معي إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بأمري، فقالوا: لا، والله لا نفعل نتخوف أن ينزل فينا القرآن، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقي علينا عارها؛ ولكن اذهب أنت، فاصنم ما بدا لك قال: «فخرجت، فاتيت رسول الله ﷺ،

المتقدمة، وقيل: المراد الفرائض التي أنزلها الله سبحانه، وقيل: هي المعجزات **﴿ولللكافرين عذاب مهين﴾** أي: للكافرين بكل ما يجب الإيمان به. فتدخل الآيات المنكورة هنا دخولاً أولياً، والعذاب المهين: الذي يهين صاحبه، وينله، ويذهب بعزه **﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾** الظرف منتصب بإضمار انكر، أو بمهين، أو بما تعلق به اللام من الاستقرار، أو بأحصاء المنكور بعده، وانتصاب جميعاً على الحال أي: مجتمعين في حالة واحدة، أو يبعثهم كلهم لا يبقئ منهم أحد غير مبعوث **﴿فينبئهم بما عملوا﴾** أي: يخبرهم بما عملوه في الدنيا من الأعمال القبيحة توبيخاً لهم وتبكيكاً، ولتكميل الحجة عليهم، وجملة **﴿أحصاء الله ونسوه﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل كيف ينبئهم بذلك على كثرتهم واختلاف أنواعه، فقيل: أحصاء الله جميعاً، ولم يفته منه شيء، والحال أنهم قد نسوه ولم يحفظوه، بل وجدوه حاضراً مكتوباً في صحائفهم **﴿وإنه على كل شيء شهيد﴾** لا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل هو مطلع وناظر، ثم أكد سبحانه بيان كونه عالماً بكل شيء، فقال: **﴿إن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾** أي: ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما بحيث لا يخفى عليه شيء مما فيهما، وجملة **﴿ما يكون من نجوى ثلاثة﴾** إلخ مستأنفة؛ لتقرير شمول علمه وإحاطته بكل المعلومات. قرأ الجمهور (يكون) بالتحية. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، والأعرج، وأبو حيوه بالفوقية، وكان على القراءتين تامة، ومن مزيدة للتأكيد، ونجوى فاعل كان، والنجوى السرار، يقال: قوم نجوى أي: ذو نجوى، وهي مصدر. والمعنى: ما يوجد من تناجي ثلاثة، أو من نوي نجوى، ويجوز أن تطلق النجوى على الأشخاص المتناجين، فعلى الوجه الأول انخفاض ثلاثة بإضافة نجوى إليه، وعلى الوجهين الآخرين يكون انخفاضها على البديل من نجوى، أو الصفة لها. قال الفراء: ثلاثة نعت للنجوى، فانخفضت، وإن شئت أضفت نجوى إليها، ولو نصبت على إضمار فعل جاز، وهي قراءة ابن أبي عبيدة، ويجوز رفع ثلاثة على البديل من موضع نجوى **﴿إلا هو رابعهم﴾** هذه الجملة في موضع نصب على الحال، وكذا قوله: **﴿إلا هو سادسهم﴾** **﴿إلا هو معهم﴾** أي: ما يوجد شيء من هذه الأشياء إلا في حال من هذه الأحوال، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، ومعنى: رابعهم جاعلهم أربعة، وكذا سادسهم جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم في الإطلاع على تلك النجوى **﴿ولا خمسة﴾** أي: ولا نجوى خمسة، وتخصيص العديدين بالذكر؛ لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة، أو خمسة؛ أو كانت الواقعة التي هي سبب النزول في متناجين كانوا ثلاثة في موضع، وخمسة في موضع. قال الفراء: العدد غير مقصود؛ لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر، يعلم السر والجهر، لا تخفى عليه خافية **﴿ولا أنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم﴾** أي: ولا أقل من العدد المنكور؛ كالواحد والاثنتين، ولا أكثر

منه كالسنة والسبعة إلا هو معهم يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه منه شيء. قرأ الجمهور، (ولا أكثر) بالجر بالفتحة عطفاً على لفظ نجوى. وقرأ الحسن، والأعشى، وابن أبي إسحاق، وأبو حيوه، ويعقوب، وأبو العالية، ونصر، وعيسى بن عمر، وسلام بالرفع عطفاً على محل نجوى. وقرأ الجمهور، (ولا أكثر) بالمثلثة. وقرأ الزهري، وعكرمة بالموحدة. قال الواحدي: قال المفسرون: إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم، ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم، فيحزنون لذلك، فلما طال ذلك وكثر شكواهم إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله هذه الآيات، ومعنى **﴿أينما كانوا﴾** إحاطة علمه بكل تناج يكون منهم في أي مكان من الأمكنة **﴿ثم ينبئهم﴾** أي: يخبرهم **﴿بما عملوا يوم القيامة﴾** توبيخاً لهم، وتبكيكاً، وإلزاماً للحجة **﴿إن الله بكل شيء عليم﴾** لا يخفى عليه شيء كائناً ما كان **﴿إنهم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعيدون لما نهوا عنه﴾** هؤلاء الذين نهوا، ثم عادوا لما نهوا عنه، هم من تقدم ذكره من المنافقين واليهود. قال مقاتل: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مواعدة، فإذا مر بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شراً، فنهاهم الله، فلم ينتهوا، فنزلت. وقال ابن زيد: كان الرجل يأتي النبي ﷺ، فيسأله الحاجة، ويناجيه، والأرض يومئذ حرب، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب، أو بلية، أو أمر مهم، فيفزعون لذلك **﴿ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول﴾** قرأ الجمهور (يتناجون) بوزن يتفاعلون، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، لقوله فيما بعد: **﴿إذا تناجيتم فلا تتناجوا﴾**. وقرأ حمزة، وخلف، وورش عن يعقوب، (ويتنجون) بوزن يفتعلون، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه، وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد نحو تخاصموا واختصموا، وتقاتلوا واقتتلوا، ومعنى الإثم ما هو إثم في نفسه كالكنب والظلم، والعدوان ما فيه عدوان على المؤمنين، ومعصية الرسول مخالفته. قرأ الجمهور (ومعصية) بالإفراد. وقرأ الضحاك، وحميد، ومجاهد (ومعصيات) بالجمع **﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾** قال القرطبي: إن المراد بها اليهود كانوا يأتون النبي ﷺ، فيقولون: السام عليك يريدون بذلك السلام ظاهراً، وهم يعنون الموت باطناً، فيقول النبي ﷺ: عليكم. وفي رواية أخرى، وعليكم **﴿ويقولون في أنفسهم﴾** أي: فيما بينهم **﴿ولا يعنينا الله بما نقول﴾** أي: هلا يعنينا بذلك، ولو كان محمد نبياً لعنينا بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به. وقيل المعنى: لو كان نبياً لاستجيب له فينا حيث يقول: وعليكم، ووقع علينا الموت عند ذلك **﴿حسبهم جهنم﴾** عذاباً **﴿يصلونها﴾** يخلونها **﴿فبئس المصير﴾** أي: المرجع، وهو جهنم **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾** لما فرغ

يناجون النبي ﷺ، ويقولون: إنه أنن يسمع كل ما قيل له، وكان لا يمنع أحداً من مناجاته، وكان ذلك يشقّ على المسلمين؛ لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعاً اجتمعت لقتاله، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعَوْنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: 9]، فلم ينتهوا، فأنزل الله هذه الآية، فانتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقدّموا بين يدي نجواهم صدقة، وشقّ ذلك على أهل الإيمان، وامتنعوا عن النجوى لضعف كثير منهم عن الصدقة، فخفف الله عنهم بالآية التي بعد هذه، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تقدّم من تقديم الصدقة بين يدي النجوى، وهو مبتدأ وخبره ﴿خَيْرَ لَكُمْ وَأَطْرَ﴾ لما فيه من طاعة الله، وتقيد الأمر بكون أمثاله خيراً لهم من عدم الامتثال، وأطهر لنفوسهم يدل على أنه أمر ننب لا أمر وجوب ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني: من كان منهم لا يجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدي النجوى، فلا حرج عليه في النجوى بدون صدقة ﴿وَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٌ﴾ أي: أخفتم الفقر والعيلة؛ لأن تقدّموا ذلك، والإشفاق: الخوف من المكروه، والاستفهام للتقرير. وقيل المعنى: أبخلتم، وجمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين. قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليالٍ، ثم نسخ، وقال الكلبي: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة. وقال قتادة: ما كان إلا ساعة من النهار ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به من الصدقة بين يدي النجوى، وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به، ولم يفعل، وأما من لم يجد، فقد تقدّم الترخيص له بقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم في الترك، ﴿وَإِذْ عَلَى بَابِهَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَضِيِّ﴾ وقيل: هي بمعنى إذا، وقيل: بمعنى إن، وتاب معطوف على لم تفعلوا أي: وإذا لم تفعلوا، وإذ تاب عليكم ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ والمعنى: إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى، فاثبتوا على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء، فهو مجازيكم، وليس في الآية ما يدل على تقصير المؤمنين في امتثال هذا الأمر، أما الفقراء منهم، فالأمر واضح، وأما من عداهم من المؤمنين، فإنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة فمن ترك المناجاة، فلا يكون مقصراً في امتثال الأمر بالصدقة، على أن في الآية ما يدل على أن الأمر للنّيب، كما قدّمنا. وقد استدلل بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل، وليس هذا الاستدلال بصحيح، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل، وأيضاً قد فعل ذلك البعض، فتصنّق بين يدي نجواه، كما سيأتي.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: أنزلت هذه الآية ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ يوم

يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا. ﴿وَإِذَا قِيلَ لِنَشْرُوا فَأَنْشُرُوا﴾ قرأ الجمهور بكسر الشين فيها، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم بضمها فيهما، وهما لغتان بمعنى واحد، يقال: نشز أي: ارتفع، ينشز وينشز كعكف يعكف ويعكف، والمعنى: إذا قيل لكم: انهضوا، فانهضوا. قال جمهور المفسرين أي: انهضوا إلى الصلاة، والجهد، وعمل الخير. وقال مجاهد، والضحك، وعكرمة: كان رجال يتثاقلون عن الصلاة، فقليل لهم: إذا نودي للصلاة، فانهضوا. وقال الحسن: انهضوا إلى الحرب. وقال ابن زيد: هذا في بيت النبي ﷺ، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبي ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لِنَشْرُوا﴾ عن النبي ﷺ ﴿فَانْشُرُوا﴾ فإن له حواشٍ، فلا تمكثوا. وقال قتادة: المعنى اجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف، والظاهر حمل الآية على العموم؛ والمعنى: إذا قيل لكم: انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية، فانهضوا ولا تتثاقلوا، ولا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصاً، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو الحق، ويندرج ما هو سبب النزول فيها اندراجاً أولياً، وهكذا يندرج ما فيه السياق، وهو التفسير في المجلس اندراجاً أولياً، وقد قدّمنا أن معنى نشز ارتفع، وهكذا يقال: نشز ينشز: إذا تنحى عن موضعه، ومنه امرأة ناشز أي: متنحية عن زوجها، وأصله مأخوذ من النشز، وهو ما ارتفع من الأرض وتنحى، نكر معناه النحاس ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أي: ويرفع الذين أُوتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، ومعنى الآية أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أُوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات، وقيل: المراد بالذين آمنوا من الصحابة، وكذلك الذين أُوتوا العلم، وقيل: المراد بالذين أُوتوا العلم الذين قرءوا القرآن. والأولى حمل الآية على العموم في كل مؤمن، وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة، ولا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون البعض، وفي هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله، وقد دلّ على فضله وفصلهم آيات قرآنية وأحاديث نبوية ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم من خير وشر، فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ المناجاة المساررة، والمعنى: إذا أردتم مساررة الرسول في أمر من أموركم، فقدموا بين يدي مساررتكم له صدقة. قال الحسن: نزلت بسبب أن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون النبي ﷺ يناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى، فشقّ عليهم ذلك، فأمرهم الله بالصدقة عند النجوى؛ لتقطعهم عن استخلائه. وقال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا

نجواكم صدقة ﴿ كان عندي دينار، فبعته بعشرة دراهم، فكننت كلما ناجيت رسول الله ﷺ قَدِمْتُ بين يدي نجواي درهماً، ثم نسخت، فلم يعمل بها أحد، فنزلت: ﴿الْأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ الآية. وأخرج الطبراني، وابن مردويه. قال السيوطي: بسند ضعيف عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾، فقدمت شعيرة، فقال رسول الله ﷺ: إنك لزهيد، فنزلت الآية الأخرى ﴿الْأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾. »

﴿أَوْ تَرَى إِلَى اللَّهِ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمُ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ﴿عَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَمْكُمُونَ﴾ ﴿أَفَعَدَّوْا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿لَنْ تَنفَيْ عَنْهُمْ أَنْفُسَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿يَوْمَ يَتَّبِعُهُمُ اللَّهُ جَيْمًا يَخْرُجُونَ لَهُمْ كَمَا يُخْرِجُونَ لَكَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ آيَاتِهِمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿أَسْمَعُوهَا عَلَيْهِمُ النَّجِيلَيْنِ فَاسْمَعَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حَرْبُ النَّجِيلَيْنِ آيَةً إِنَّ حَرْبَ النَّجِيلَيْنِ هُمُ النَّجِيلَيْنِ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْيَانِ﴾ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرَسُولِي إِنْ كُنَّا قَوْمًا عَرَبٍ﴾ ﴿لَا يَغْنَدُ قَوْمًا يُؤْمَرُونَ بِأَلْفِهِمْ وَالْبَرَاءَةِ الْآخِرَةِ يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حَرْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٧﴾

قوله: ﴿هَلْ تَرَى إِلَى اللَّهِ تَوَلَّوْا قَوْمًا﴾ أي: والوهم. قال قتادة: هم المنافقون تولوا اليهود. وقال السدي، ومقاتل: هم اليهود تولوا المنافقين، ويدل على الأول قوله: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فإن المغضوب عليهم هم اليهود، ويدل على الثاني قوله: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ فإن هذه صفة المنافقين، كما قال الله فيهم: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: 143] وجملة ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ في محل نصب على الحال، أو هي مستأنفة ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ أي: يحلفون أنهم مسلمون، أو يحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود، والجملة عطف على تولوا داخلة في حكم التعجب من فعلهم، وجملة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بسبب هذا التولي والحلف على الباطل ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿وَاتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ قرأ الجمهور (إيمانهم) بفتح الهمزة جمع يمين، وهي ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين توقيا من القتل، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمايتهم، كما يجعل المقاتل الجنة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو

جمعة، ورسول الله ﷺ يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر، وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فردَّ النبي ﷺ عليهم، ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فركبوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام، فلم يفسح لهم، فشق ذلك عليه، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: «قم يا فلان، وأنت يا فلان، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، فنزلت هذه الآية». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: ذلك في مجلس القتال ﴿وَإِذَا قِيلَ لِنَاشِئُوهُمْ﴾ قال: إلى الخير والصلاة. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في المنخل عن ابن عباس في قوله: ﴿يُرفِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ قال: يرفع الله الذين أُوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا درجات. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في تفسير هذه الآية قال: يرفع الله الذين آمنوا منكم، وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات. وأخرج ابن المنذر عنه قال: ما خصَّ الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ الآية قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه، فلما قال ذلك ظنَّ كثير من الناس، وكفوا عن المسألة، فانزل الله بعد هذا ﴿الْأَشْفَقْتُمْ﴾ الآية، فوسع الله عليهم ولم يضيق. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس، وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ قال لي النبي ﷺ: ما ترى دينار؟ قلت: لا يطيقونه. قال: فنصف دينار؟ قلت: لا يطيقونه، قال، فكم؟ قلت: شعيرة، قال: إنك لزهيد، قال: فنزلت ﴿الْأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ الآية، فبني خفف الله عن هذه الأمة، والمراد بالشعيرة هنا وزن شعيرة من ذهب، وليس المراد واحدة من حب الشعير. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه قال: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت، وما كانت إلا ساعة يعني: آية النجوى. وأخرج سعيد بن منصور، وابن راهويه، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه أيضاً قال: إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ

السورة، والجملة تعليل لما قبلها ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَنْلِينِ﴾ أي: أولئك المحادون لله ورسوله، المتصفون بتلك الصفات المتقدمة من جملة من آتاه الله من الأمم السابقة واللاحقة؛ لأنهم لما حادوا الله ورسوله صاروا من الذل بهذا المكان. قال عطاء: يريد الذل في الدنيا، والخزي في الآخرة ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها مع كونهم في الأنلين أي: كتب في اللوح المحفوظ، وقضى في سابق علمه: لأغلب أنا ورسلي بالحجة والسيف. قال الزجاج: معنى غلبة الرسل على نوعين: من بعث منهم بالحرب، فهو غالب في الحرب، ومن بعث منهم بغير الحرب، فهو غالب بالحجة. قال الفراء: كتب بمعنى قال، وقوله: ﴿إِنَّا﴾ تأكيد، ثم نكر مثل قول الزجاج ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو قَوِيٌّ على نصر أوليائه غالب لأعدائه لا يغلبه أحد ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له أي: يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما، وجملة ﴿يُوَادُّونَ﴾ في محل نصب على أنها المفعول الثاني لتجد إن كان متعنياً إلى مفعولين، أو في محل نصب على الحال إن كان متعنياً إلى مفعول واحد، أو صفة أخرى لقوماً أي: جامعون بين الإيمان والموادّة لمن حادّ الله ورسوله ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: ولو كان المحادون لله ورسوله آباء المؤمنين، إخ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك، ويمنع منه، ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والبنوة والأخوة والعشيرة ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ يعني: الذين لا يوادون من حادّ الله ورسوله، ومعنى ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾: خلقه، وقيل: أثبتته، وقيل: جعله، وقيل: جمعه، والمعاني متقاربة ﴿وَأَوْدَاهُم بَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قوامهم بنصرته على عدوهم في الدنيا، وسمى نصرته لهم روحاً لأن به حياة أمرهم، وقيل: هو نور القلب. وقال الربيع بن أنس: بالقرآن والحجة، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإيمان، وقيل: برحمة. قرأ الجمهور (كتب) مبنياً للفاعل، ونصب الإيمان على المفعولية. وقرأ زُرَّ بن حبيش، والمفضل عن عاصم على البناء للمفعول، ورفع الإيمان على النياية. وقرأ زُرَّ بن حبيش: (عشيراتهم) بالجمع، ورويت هذه القراءة عن عاصم ﴿وَيُخْلِصُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ على الأبد ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: قبل أعمالهم، وأقاض عليهم آثار رحمته العاجلة والأجلّة ﴿وَوَرِّضُوا عَنْهُ﴾ أي: فرحوا بما أعطاهم عاجلاً وأجلاً ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي: جنده الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أوليائه، وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم، وتكريم فخم ﴿إِلَّا إِنْ حِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، الكاملون في الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل، حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كلا فلاح.

سهم. وقرأ الحسن، وأبو العالية (إيمانهم) بكسر الهمزة أي: جعلوها تصديقهم جنة من القتل، فأمنت ألسنتهم من خوف القتل، ولم تؤمن قلوبهم ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط، وتهوين أمر المسلمين، وتضعيف شوكتهم، وقيل المعنى: فصَدُّوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام ﴿قُلُوبُهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: يهينهم ويخزيهم، قيل: هو تكرير لقوله: ﴿عَذَّبَ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ للتأكيد، وقيل: الأول عذاب القبر، وهذا عذاب الآخرة، ولا وجه للقول بالتكرار، فإن العذاب الموصوف بالشدة غير العذاب الموصوف بالإهانة ﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي: لن تغني عنهم من عذابه شيئاً من الإغناء قال مقاتل. قال المنافقون: إن محمداً يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إن، فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا، وأموالنا، وأولادنا إن كان قيامة، فنزلت الآية ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما نكر ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ لا يفارقونها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ الظرف منصوب بقوله: ﴿مُهِينٌ﴾، أو بمقدّر أي: انكر ﴿فَيُحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا مِنْ شِدَّةِ شَقَاوَتِهِمْ وَمَزِيدِ الطَّبْعِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَإِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَدْ انْكَشَفَتِ الْحَقَائِقُ وَصَارَتِ الْأُمُورُ مَعْلُومَةً بِضُرُورَةِ الْمَشَاهِدَةِ، فَكَيْفَ يَجْتَرِثُونَ عَلَى أَنْ يَكْذِبُوا فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذْبِ وَيُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: يحسبون في الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يجلب نفعاً، أو يدفع ضرراً، كما كانوا يحسبون ذلك في الدنيا ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي: الكاملون في الكذب المتهاكئون عليه البالغون فيه إلى حد لم يبلغ غيرهم إليه بإقدامهم عليه، وعلى الأيمان الفاجرة في موقف القيامة بين يدي الرحمن ﴿اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ﴾ أي: غلب عليهم واستعلى واستولى. قال المبرّد: استحوذ على الشيء حواه وأحاط به، وقيل: قوي عليهم، وقيل: جمعهم، يقال: أحوذ الشيء أي: جمعه وضّم بعضه إلى بعض، والمعاني متقاربة؛ لأنه إذا جمعهم فقد قوي عليهم وغلبهم واستعلى عليهم واستولى، وأحاط بهم ﴿فَانْصَاهُمْ نَكَرَ اللَّهُ﴾ أي: أوامره والعمل بطاعته، فلم يذكر شيئاً من ذلك، وقيل: زوجه في النهي عن معاصيه، وقيل: لم ينكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات، وهو مبتدأ، وخبره ﴿حِزْبُ الشَّيْطَانَ﴾ أي: جنوده، وأتباعه، ورهطه ﴿إِلَّا إِنْ حِزْبُ الشَّيْطَانَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران حتى كان خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة، وكذبوا على الله وعلى نبيه، وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ﴾ تقدّم معنى المحادّة لله ولرسوله في أول هذه

ليأرهم **لأَوَّلِ الْحَشْرِ** هم بنو النضير، وهم: رهط من اليهود من نرية هارون، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظاراً منهم لمحمد ﷺ، فغدروا بالنبي ﷺ بعد أن عاهدوه، وصاروا عليه مع المشركين، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجلاء. قال الكلبي: كانوا أول من أجلي من أهل الذمة من جزيرة العرب، ثم أجلي آخرهم في زمن عمر بن الخطاب، فكان جلاؤهم أول حشر من المدينة، وآخر حشر إجلاء عمر لهم. وقيل: إن أول الحشر إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام، وقيل: آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر، وهي الشام. قال عكرمة: من شك أن المحشر يوم القيامة في الشام، فليقرأ هذه الآية، وأن النبي ﷺ قال لهم: «لخرجوا قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر». قال ابن العربي: الحشر أول وأوسط وآخر، فالأول إجلاء بني النضير، والأوسط إجلاء أهل خيبر، والآخر يوم القيامة.

وقد أخرج أحمد، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل حجرة من حجره، وعنده نفر من المسلمين، فقال: إنه سيأتيكم إنسان، فينظر إليكم بعين شيطان، فإذا جاءكم، فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق، فقال حين رآه: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فقال: نرني أتيتك بهم، فحلفوا، واعتذروا، فأنزل الله: **«يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ»** الآية والتي بعدها. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في سننه عن عبد الله بن شونب قال: جعل والد أبي عبيدة بن الجراح ينقصد لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصده أبو عبيدة، فقتله، فنزلت: **«لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»** الآية.

تفسير سورة الحشر

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحشر بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: سورة النضير يعني: أنها نزلت في بني النضير، كما صرح بذلك في بعض الروايات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ النَّبِيَّ كُفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دَكِّهِمْ لِأَوَّلِ لَحْزَةٍ مَا عَلَنَتْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَقَالُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُوا بِهِمْ وَيُذِخُّهُمْ وَيُفْزِزُهُمْ فَاغْتَبَرُوا يَتَأَوَّلُ الْمُخَوَّبُونَ ﴿٢﴾ وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَمَذَّبَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَقَدْ شَاقَّ اللَّهَ شَيْدَ الْيَقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِمَنَةٍ أَوْ رَكَّبْتُمْ قَائِمَةً عَلَى أَرْسُلِهَا فَإِنِّي أَنَا اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ بِغَيْرِ قَدَرٍ أَوْفَعْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ حَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلْيَبْزُوا لَلَّهِ الْفِتْنَةَ وَلْيَكُنْ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَةِ وَبَيْنَ الْفُقَرَاءِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَنْ لَا يَكُنْ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَةِ وَبَيْنَ الْفُقَرَاءِ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ مَعَهُ فَأَنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾

قوله: **«سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»** قد تقدم تفسير هذا في سورة الحديد وهو الذي أخرج النبي كُفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دَكِّهِمْ لِأَوَّلِ لَحْزَةٍ مَا عَلَنَتْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا

وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين في الآية هم بنو النضير، ولم يخالف في ذلك إلا الحسن البصري فقال: هم بنو قريظة، وهو غلط، فإن بني قريظة ما حشروا، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتغنم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ لسعد: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. واللام في لأَوَّلِ الحشر متعلقة بأخرج، وهي لام التوقيف كقوله: **«لِللَّوْكِ الشَّمْسُ»** [الإسراء: 78]. **«مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا»** هذا خطاب للمسلمين أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن بني النضير يخرجون من بيأرهم؛ لعزتهم، ومنعتهم، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة، وعقار، ونخيل واسعة، وأهل عدد وعدة **«ووظفوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله»** أي: وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وقوله: **«مانعتهم»** خبر مقدم، **«وحصونهم»** مبتدأ مؤخر، والجملة خبر أنهم، ويجوز أن يكون مانعتهم خبر أنهم، وحصونهم فاعل مانعتهم، ورجح الثاني أبو حيان، والأول أولى **«فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا»** أي: أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة، وهو أنه سبحانه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك، وقيل: هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف، قاله ابن جريج، والسدي، وأبو صالح، فإن قتله أضعف شوكتهم. وقيل: إن الضمير في أتاهم، ولم يحتسبوا للمؤمنين أي: فاتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا، والأول أولى لقوله: **«وقذف في قلوبهم الرعب»** فإن قذف الرعب كان في قلوب بني النضير، لا في قلوب المسلمين. قال أهل اللغة: الرعب الخوف الذي يرعب الصدر أي: يملؤه، وقنفه إثباته فيه. وقيل: كان قذف الرعب في قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، والأولى عدم تقييده بذلك، وتفسيره به، بل المراد بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو الذي ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر».

للمسلمين، وقال الذين قطعوا: بل هو غيظ للعنود؛ فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل، وتحليل من قطعه من الإثم فقال: ﴿مَا قُطِعَ مِنْ لِينَةٍ﴾ قال قتادة، والضحاك: إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات. وقال محمد بن إسحاق: إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة، فقال بنو النضير، وهم أهل كتاب: يا محمد الست تزعم أنك نبي تريد الصلاح، أقمن الصلاح قطع النخل، وحرق الشجر؛ وهل وجدت، فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض، فشقق ذلك على رسول الله ﷺ، ووجد المسلمون في أنفسهم، فنزلت الآية، ومعنى الآية: أي شيء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله، والضمير في تركتموها عائذ إلى «ما» لتفسيرها باللين، وكذا في قوله: ﴿قَائِمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا﴾ ومعنى ﴿عَلَى أَصُولِهَا﴾ أنها باقية على ما هي عليه.

واختلف المفسرون في تفسير اللينة، فقال الزهري، ومالك، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والخليل: إنها النخل كله إلا العجوة. وقال مجاهد: إنها النخل كله، ولم يستثن عجوة ولا غيرها. وقال الثوري: هي كرام النخل. وقال أبو عبيدة: إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة والبرني. وقال جعفر بن محمد: إنها العجوة خاصة، وقيل: هي ضرب من النخل، يقال لتمره اللون: تمره أجود التمر. وقال الأصمعي: هي النقل، وأصل اللينة لونة، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وجمع اللينة لين، وقيل: ليان. وقرأ ابن مسعود (ما قطعتم من لينة ولا تركتموها على أصولها) أي: قائمة على سوقها، وقرئ: (على أصلها)، وقرئ: (قائمة على أصولها) ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: ليدل الخارجين عن الطاعة، وهم اليهود، ويغيبهم في قطعها وتركها، لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف شاءوا من القطع والترك ازدادوا غيظاً. قال الزجاج: وليخزي الفاسقين بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع وترك، والتقدير: وليخزي الفاسقين أن في ذلك، يدل على المحذوف قوله: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وقد استدلل بهذه الآية على جواز الاجتهاد، وعلى تصويب المجتهدين، والبحث مستوفى في كتب الأصول ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: ما رده عليه من أموال الكفار، يقال: فاء يفيء إذا رجع، والضمير في منهم عائذ إلى بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يقال: وجف الفرس والبيعر يجف وجفاً، وهو سرعة السير، وأوجفه صاحبه: إذا حملة على السير السريع، ومنه قول تميم بن مقبل:

مذ لو بد بالبيض الحديد صفالها عن الركب أحياناً إذا الركب أوجفوا وقال نصيب:

ألا رب ركب قد قطعت وجيفهم إليك ولولا أنت لم يوجف الركب و«ما» في ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ﴾ نافية، والفاء جواب الشرط إن كانت «ما» في قوله: ﴿فَمَا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ شرطية، وإن موصولة، فالفاء زائدة، «ومن» في قوله: ﴿مَنْ خَيْلٍ﴾ زائدة للتأكيد، والركاب ما يركب من الإبل خاصة، والمعنى: أن ما

﴿يُخْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فعملوا يخربونها من داخل، والمسلمون من خارج. قال قتادة والضحاك: كان المؤمنون يخربون من خارج، ليدخلوا، واليهود من داخل ليعتدوا به ما خرب من حصنهم. قال الزجاج: معنى تخريبها بأيدي المؤمنين أنهم عرضوها لذلك. قرأ الجمهور (يخربون) بالتخفيف، وقرأ الحسن، والسلمي، ونصر بن عاصم، وأبو العالية، وأبو عمرو بالتشديد. قال أبو عمرو: إنما اخترت القراءة بالتشديد، لأن الإخرا بترك الشيء خراباً، وإنما خربوها بالهم. وليس ما قاله بمسلم، فإن التخريب والإخرا ب عند أهل اللغة بمعنى واحد. قال سيبويه: إن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان نحو أخربته وخربته، وأفرحته وأفرحته. واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم. قال الزهري، وابن زيد، وعروة بن الزبير: لما صالحهم النبي ﷺ على أن لهم ما أقلت الإبل كانوا يستحسنون الخشبة، أو العمود، فيهدمون بيوتهم، ويحملون ذلك على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها. وقال الزهري أيضاً: يخربون بيوتهم بنقض المعاهدة، وأيدي المؤمنين بالمقاتلة، وقال أبو عمرو: بأيديهم في تركهم لها، وبأيدي المؤمنين في إجلالهم عنها، والجملة إما مستأنفة لبيان ما فعلوه، أو في محل نصب على الحال ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: اتعظوا وتدبروا، وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر. قال الواحدي: ومعنى الاعتبار النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها ﴿وَلَوْلَا أَنْ كُتِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ لَعَذَّبْنَا فِي الدُّنْيَا﴾ أي: لولا أن كتب الله عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه، وقضى به عليهم لعذبهم بالقتل والسبي في الدنيا، كما فعل ببني قريظة. والجلاء مفارقة الوطن، يقال: جلا بنفسه جلاء، وأجلاه غيره إجلاء، والفرق بين الجلاء والإخراج، وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً من جهتين: إحداهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. الثاني أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لجماعة ولواحد، كذا قال الماوردي ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ﴾ هذه الجملة مستأنفة غير متعلقة بجواب لولا متضمنة لبيان ما يحصل لهم في الآخرة من العذاب، وإن نجوا من عذاب الدنيا، والإشارة بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ إلى ما تقدم ذكره من الجلاء في الدنيا، والعذاب في الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: بسبب المشاقة منهم لله ولرسوله بعدم الطاعة، والميل مع الكفار، ونقض العهد ﴿وَمَنْ يَشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ اقتصر هاهنا على مشاقة الله؛ لأن مشاقته مشاقة لرسوله. قرأ الجمهور (يشاق) بالإنغام، وقرأ طلحة بن مصرف، ومحمد بن السميع: (يشاقق) بالفاء، ﴿فَمَا قُطِعَ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال مجاهد: إن بعض المهاجرين وقوا في قطع النخل، فنهاهم بعضهم، وقالوا: إنما هي مغنم

المطلب لأنهم قد منعوا من الصدقة، فجعل لهم حقاً في الفيء. قيل: تكون القسمة في هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول الله ﷺ، وخمسه يقسم أخماساً. للرسول خمس، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس، وقيل: يقسم أسداساً. السادس سهم الله سبحانه، ويصرف إلى وجوه القرب، كعمارة المساجد، ونحو ذلك ﴿كَيْلًا يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي: كيلاً يكون الفيء دولة بين الأغنياء دون الفقراء، والدولة اسم للشيء يتداوله القوم بينهم، يكون لهذا مرةً ولهذا مرةً. قال مقاتل: المعنى: أنه يغلب الأغنياء الفقراء، فيقسمونه بينهم. قرأ الجمهور (يكون) بالتحية دولة بالنصب أي: كيلاً يكون الفيء دولة. وقرأ أبو جعفر، والأعرج، وهشام، وأبو حيان: (تكون) بالفوقية دولة بالرفع أي: كيلاً تقع، أو توجد دولة، وكان تامة. وقرأ الجمهور (دولة) بضم الدال. وقرأ أبو حيوة، والسلمي بفتحها. قال عيسى بن عمر، ويونس، والأصمعي: هما لغتان بمعنى واحد. وقال أبو عمرو بن العلاء: الدولة بالفتح الذي يتداول من الأموال، وبالنصب الفعل، وكذا قال أبو عبيدة. ثم لما بين لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاعتداء برسوله ﷺ فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ أي: ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه، وما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه، ولا تأخذوه. قال الحسن، والسدي: ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه، وما منعكم منه فلا تأخذوه. وقال ابن جريج: ما آتاكم من طاعتي فافعلوا، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه. والحق أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول الله ﷺ من أمر أو نهي، أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصاً، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكل شيء آتانا به من الشرع، فقد أعطانا إياه، وأوصله إلينا، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها. ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرسول، وترك ما نهاهم عنه أمرهم بتقواه، وخوفهم شدة عقوبته، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فهو معاقب من لم يأخذها ما آتاه الرسول، ولم يترك ما نهاه عنه.

وقد أخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت: كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم، ونخلهم في ناحية المدينة، فحاصروهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمثلة، والأموال إلا الحلقة يعني: السلاح، فانزل الله فيهم ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا أُولَ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الإجماع، وجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصحبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، وأما قوله: ﴿لَا أُولَ الْحَشْرِ﴾ فكان إجماعهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

رد الله على رسوله من أموال بني النضير لم تركبوا لتحصيله خيلاً، ولا إبلًا، ولا تجشمت لها شقة، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين، فجعل الله سبحانه أموال بني النضير لرسوله ﷺ، خاصة لهذا السبب، فإنه افتتحها صلحاً، وأخذ أموالها، وقد كان سألهم المسلمون أن يقسم لهم، فنزلت الآية: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من أعدائه، وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله ﷺ، دون أصحابه لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل، ولا ركاب، بل مشوا إليها مشياً، ولم يقاسوا فيها شيئاً من شدائد الحروب ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يسقط من يشاء على من أراد، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء ﴿لَا يَسَالُ عَمَّا يَقُولُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ هذا بيان لمصارف الفيء بعد بيان أنه لرسول الله ﷺ خاصة، والتكرير لقصد التأكيد، ووضع أهل القرى موضع قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله ﷺ صلحاً، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب. قيل: والمراد بالقرى بنو النضير، وقريظة، وفك، وخيبر. وقد تكلم أهل العلم في هذه الآية والتي قبلها؟ هل معناهما متفق، أو مختلف؟ فقيل: معناهما متفق كما نكرنا، وقيل: مختلف وفي ذلك كلام لأهل العلم طويل. قال ابن العربي: لا إشكال أنها ثلاثة معاني في ثلاث آيات. أما الآية الأولى، وهي قوله: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ فهي خاصة برسول الله ﷺ خالصة له، وهي أموال بني النضير وما كان مثلها. وأما الآية الثانية، وهي قوله: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ فهذا كلام مبتدأ غير الأول بمسحوق غير الأول، وإن اشتركت هي، والأولى في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئاً آفاه الله على رسوله، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال، وهي الآية الثالثة أنه حاصل بقتال، وعريت الآية الثانية، وهي قوله: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ عن نكر حصوله بقتال، أو بغير قتال، فنشأ الخلاف من ها هنا؛ فطائفة قالت: هي ملحقة بالأولى، وهي مال الصلح، وطائفة قالت: هي ملحقة بالثالثة، وهي آية الأنفال. والذين قالوا: إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا هل هي منسوخة، أو محكمة؟ هذا معنى حاصل كلامه. وقال مالك: إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول الله ﷺ، والآية الثانية: هي في بني قريظة، ويعني: أن معناها يعود إلى آية الأنفال. ومذهب الشافعي أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة، وأن أربعة أخماسه كانت للنبي ﷺ وهي بعده لمصالح المسلمين ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَلِأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ المراد بقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ أنه يحكم فيه بما يشاء ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ يكون ملكاً له ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهو بنو هاشم، وبنو

صفايا في النضير، وخيبر، وفك، فأما بنو النضير فكانت حبساً لنوابه، وأما فك فكانت لابن السبيل، وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء: قسم منها جزعين بين المسلمين، وحبس جزءاً لنفسه ولنفقة أهله، فما فضل عن نفقة أهله ردها على فقراء المهاجرين. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن أبي شيبه، وابن زنجويه في الأموال، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: ما على وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيماكم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنصصات، والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله»، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، فجاءت ابن مسعود، فقالت: بلغني أنك لعنت كيت وكيت، قال: وما لي لا لعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله؟ قالت: لقد قرأت ما بين النقيتين، فما وجدت فيه شيئاً من هذا، قال: لأن كنت قرأته لقد وجنته، أما قرأت «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه.

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُتَنَوَّنُ فَضْلًا مِنْ أَفْوٍ وَرِثَتَا وَبَصُرَتَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۖ وَالَّذِينَ يَبُوءُونَ بِالْأَمَانِ مِنَ قَبْلِهمُ يُحْثُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُحْدِثُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۖ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ۝

قوله: «لِلْفُقَرَاءِ» قيل: هو بدل من «الذي القريب» [الحشر: 7] وما عطف عليه، ولا يصح أن يكون بدلاً من الرسول، وما بعده لثلاث يستلزم وصف رسول الله ﷺ بالفقر، وقيل التقدير: «كي لا يكون دولة» [الحشر: 59] ولكن يكون للفقراء، وقيل التقدير: اعجبوا للفقراء، وقيل التقدير: والله شديد العقاب للفقراء أي: شديد العقاب للكفار بسبب الفقر، وقيل: هو عطف على ما مضى بتقدير الواو، كما تقول المال لزيد لعمرى ليكر، والمراد بـ «المهاجرين» الذين هاجروا إلى رسول الله ﷺ رغبة في الدين ونصرة له. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار والأموال، والأهلين، ومعنى «أخرجوا من ديارهم»: أن كفار مكة أخرجوهم منها، واضطروهم إلى الخروج، وكانوا مائة رجل «يبيتون فضلاً من الله ورضواناً» أي: يطلبون منه أن يتفضل عليهم بالرزق في الدنيا، وبالرضوان في الآخرة «وينصرون الله ورسوله» بالجهاد للكفار، وهذه الجملة معطوفة على يبيتون، ومحل الجمليتين النصب على الحال، الأولى مقارنة، والثانية مقدرة أي: ناوين لذلك، ويجوز أن تكون حالا مقارنة: لأن خروجهم على تلك الصفة نصرة لله ورسوله، والإشارة بقوله: «أولئك» إليهم من حيث اتصافهم بتلك الصفات، وهو مبتدأ، وخبره هم

والبهيقي في البعث عن ابن عباس قال: «من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية «هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر» قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ: أخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، والبهيقي في الدلائل، وابن عساكر عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فاعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم، وأن يسيروا إلى أذرع الشام، وجعل لكل ثلاثة منهم بغيراً وسقاء. وفي البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير، وقطع وهي البويرة، ولها يقول حسان:

لها ن على سرة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير
فأنزل الله: «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين». وأخرج الترمذي وحسنه، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: اللينة النخلة «وليخزي الفاسقين» قال: استنزلوهم من حصونهم، وأمرؤا بقطع النخل، فحك في صدورهم، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، فلنسالن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر، وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: «ما قطعتم من لينة» الآية، وفي الباب أحاديث، والكلام في صلح بني النضير مبسوط في كتب السير. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال: كانت أموال بني النضير مما آفاه الله على رسوله، ومما لم يوجب للمسلمين عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: «فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب» فجعل ما أصاب رسول الله ﷺ يحكم فيه ما أراد، ولم يكن يومئذ خيل ولا ركاب يوجب بها. قال: والإيجاف أو يوضعوا السير، وهي لرسول الله ﷺ، فكان من ذلك خير، وفك، وقرى عرينة. وأمر رسول الله ﷺ أن يعمد لينبع، فأتاها رسول الله ﷺ، فاحتواها كلها، فقال ناس: هلا قسمها الله، فأنزل الله عذره فقال: «ما آفاه الله على رسوله من أهل القرى» الآية. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: كان ما آفاه الله على رسوله من خير نصف لله ورسوله، والنصف الآخر للمسلمين، فكان الذي لله ورسوله من ذلك الكثيرة، والوطيح، وسالام، ووحوده، وكان الذي للمسلمين الشق، والشق ثلاثة عشر سهماً، ونطاة خمسة أسهم، ولم يقسم رسول الله ﷺ من خير لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية، ولم يأت رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين تخلف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خير إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري. وأخرج أبو داود، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: كان لرسول الله

الصائقون أي: الكاملون في الصدق الراسخون فيه. ثم لما فرغ من مدح المهاجرين مدح الانتصار فقال: **«وَالَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ»** المراد بالدار المدينة، وهي دار الهجرة، ومعنى تبوَّعهم الدار والإيمان أنهم اتخذوها مباءة أي: تمكنوا منها تمكناً شديداً، والتبَّوَّأ في الأصل إنما يكون للمكان، ولكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلاً للحال منزلة المحل، وقيل: إن الإيمان منصوب بفعل غير الفعل المنكور، والتقدير: واعتقدوا الإيمان، أو وأخلصوا الإيمان كذا قال أبو علي الفارسي. ويجوز أن يكون على حنف مضاف أي: تبَّوعوا الدار وموضع الإيمان، ويجوز أن يكون تبَّوَّعوا مضمناً لمعنى لزموا، والتقدير: لزمو الدار والإيمان، ومعنى **«مَنْ قَبْلِهِمْ»**: من قبل هجرة المهاجرين، فلا بد من تقدير مضاف، لأن الانتصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين، والموصول مبتدأ، وخبره **«يُحِبُّونَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِمْ»** وذلك لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين، وأشركوهم في أموالهم ومساكنهم **«وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً»** أي: لا يجد الانتصار في صدورهم حسداً، وغيظاً، وحرارة **«فَإِذَا أُوْتُوا»** أي: مما أوتي المهاجرون نونهم من الفاء، بل طابت أنفسهم بذلك. وفي الكلام مضاف محذوف أي: لا يجدون في صدورهم من حاجة، أو أثر حاجة، وكل ما يجده الإنسان في صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة. وكان المهاجرون في نور الانتصار فلما غنم النبي ﷺ بني النضير دعا الانتصار، وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم، ثم قال: **«إِنْ أَحْبَبْتُمْ قَسَمْتُ مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ السَّكْنَى فِي مَسَاكِنِكُمْ، وَالْمِشَارِكَةَ لَكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أُعْطَيْتُهُمْ ذَلِكَ، وَخَرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ، فَرَضُوا بِقِسْمَةِ ذَلِكَ فِي الْمُهَاجِرِينَ، وَطَابَتْ أَنْفُسُهُمْ «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ»** الإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة، يقال: أثرته بكذا أي: خصصته به، والمعنى: ويقدمون المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا **«وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ»** أي: حاجة وفقير، والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت، وهي الفرج التي تكون فيه، وجملة **«وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ»** في محل نصب على الحال، وقيل: إن الخصاصة مأخوذة من الاختصاص، وهو الانفراد بالأمر، فالخصاصة الانفراد بالحاجة، ومنه قول الشاعر:

إِنْ الرِّبْعِ إِذَا يَكُونُ خَصَاصَةً عَاشَ السَّقِيمُ بِهِ وَائْتَرَى الْمُقْتَرُ
«وَمَنْ يُوَقِّ شَخَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» قرأ الجمهور (يوق) بسكون الواو، وتخفيف القاف من الوقاية، وقرأ ابن أبي عتبة، وأبو حيوة بفتح الواو، وتشديد القاف. وقرأ الجمهور (شَخَّ نفسه) بضم الشين. وقرأ ابن عمر، وابن أبي عتبة بكسرها. والشَخَّ: البخل مع حرص، كذا في الصحاح، وقيل: الشَخَّ أشدُّ من البخل. قال مقاتل: شَخَّ نفسه

حرص نفسه. قال سعيد بن جبيرة: شَخَّ النفس هو أخذ الحرام، ومنع الزكاة. قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه، ولم يمنع شيئاً أمره الله بأدائه، فقد وقى شَخَّ نفسه. قال طاووس: البخل أن يبخل الإنسان بما في يده، والشَخَّ أن يشخَّ بما في أيدي الناس، يحب أن يكون له ما في أيديهم بالحلال والحرام لا يقنع. وقال ابن عيينة: الشَخَّ الظلم. وقال الليث: ترك الفرائض وانتهاك المحارم. والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شَخَّ النفس بشيء من الأشياء التي يقبح الشَخَّ بها شرعاً من زكاة، أو صدقة، أو صلة رحم، أو نحو ذلك، كما تفيد إضافة الشَخَّ إلى النفس، والإشارة بقوله: **«فَأُولَئِكَ»** إلى «مَنْ» باعتبار معناها، وهو مبتدأ، وخبره **«هُمُ الْمُفْلِحُونَ»** والفلاح الفوز والظفر بكل مطلوب. ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين والانتصار، نكر ما ينبغي أن يقوله من جاء بعدهم، فقال: **«وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ»** وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، وقيل: هم الذين هاجروا بعد ما قري الإسلام، والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم في عصر النبوة، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة؛ لأنه يصق على الكل أنهم جاءوا بعد المهاجرين الأولين والانتصار، والموصول مبتدأ، وخبره **«يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ»** ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على قوله: **«وَالَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ»**، فيكون يقولون في محل نصب على الحال، أو مستأنف لا محل له، والمراد بالأخوة هنا أخوة اللين، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم، ولمن تقدّمهم من المهاجرين والانتصار **«وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا»** أي: غشاً وبغضاً وحسداً. أمرهم الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والانتصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل في تلك الصحابة دخولاً أولياً لكونهم أشرف المؤمنين، ولكون السياق فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم، ويطلب رضوان الله لهم، فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية، فإن وجد في قلبه غلاً لهم، فقد أصابه نزغ من الشيطان، وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه، وخير أمة نبيه ﷺ، وانفتح له باب من الخذلان يقد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه بالجلأ إلى الله سبحانه، والاستغاث به، بأن ينزع عن قلبه ما طرده من الغل لخير القرون، وأشرف هذه الأمة، فإن جاوز ما يجده من الغل إلى شتم أحد منهم، فقد انقاد للشيطان بزماء، ووقع في غضب الله وسخطه، وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلي بمعلم من الرافضة، أو صاحب من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان، وزين لهم الأكاذيب المختلفة، والأقاويص المفترة، والخرافات الموضوعة، وصرفهم عن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وعن سنة رسول الله ﷺ، المنقولة إلينا

على الاستمرار، وجعلهم إخواناً لهم لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوان في الكفر، واللام في إخوانهم هي لام التبليغ، وقيل: هو من قول بني النضير لبني قريظة، والأول أولى؛ لأن بني النضير، وبني قريظة هم يهود، والمنافقون غيرهم، واللام في قوله: ﴿لئن أخرجتم﴾ هي الموطئة للقسم أي: والله لئن أخرجتم من دياركم ﴿لنخرجن معكم﴾ هذا جواب القسم أي: لنخرجن من ديارنا في صحبتكم ﴿ولا نطيع فيكم﴾ أي: في شأنكم، ومن أجلكم ﴿أحدًا﴾ ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم، وإن طال الزمان، وهو معنى قوله: ﴿لبدا﴾ ثم لما وعدوهم بالخروج معهم، وعدوهم بالنصرة لهم، فقالوا: ﴿وإن قوتلتهم لننصرنكم﴾ على عدوكم، ثم كتبهم سبحانه فقال: ﴿وإله يشهد إنهم لكانبون﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصرة لهم. ثم لما أجمل كتبهم فيما وعدوا به فصل ما كتبوا فيه فقال: ﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ وقد كان الأمر كذلك، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود، وهم بنو النضير ومن معهم، ولم ينصروا من قاتل من اليهود، وهم بنو قريظة وأهل خيبر ﴿ولئن نصروهم﴾ أي: لو قدر وجود نصرهم إياهم؛ لأن ما نفاه الله لا يجوز وجوده. قال الزجاج: معناه لو قصدوا نصر اليهود ﴿ليولن الأنبار﴾ منهزمين ﴿ثم لا ينصرون﴾ يعني: اليهود لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم، وهم المنافقون، وقيل: يعني لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك، بل يذلهم الله، ولا ينفعهم نفاقهم، وقيل معنى الآية: لا ينصرونهم طائفتين، ولئن نصروهم مكرهين ليولن الأنبار، وقيل: معنى ﴿لا ينصرونهم﴾ لا يومون على نصرهم، والأول أولى، ويكون من باب قوله: ﴿ولو رتوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: 28] ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ أي: لأنتم يا معشر المسلمين أشد خوفاً وخشية في صدور المنافقين، أو صدور اليهود، أو صدور الجميع من الله أي: من رهبة الله، والرهبة هنا بمعنى المرهوبة؛ لأنها مصدر من المبني للمفعول، وانتصابها على التمييز ﴿لأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي: ما نكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشيء من الأشياء، ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم، فهو أحق بالرهبة منه دونكم، ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم، وضعف نكايتهم فقال: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً﴾ يعني: لا يبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ولا يقدرن على ذلك ﴿إلا في قرى محصنة﴾ بالدروب والدور ﴿أو من وراء جدر﴾ أي: من خلف الحيطان التي يستترون بها لجبنهم ورهبتهم. قرأ الجمهور (جدر) بالجمع، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن، وابن كثير، وأبو عمرو (جدار) بالإنفراد. واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأنها موافقة لقوله: ﴿قرى محصنة﴾. وقرأ بعض المكيين (جدر) بفتح الجيم، وإسكان الدال، وهي لغة في الجدار

﴿باسمهم بينهم شديد﴾ أي: بعضهم غليظ فظ على بعض، وقلوبهم مختلفة، ونياتهم متباينة. قال السدي: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد. وقال مجاهد: باسمهم بينهم شديد بالكلام والوعيد ليفعلن كذا، والمعنى: أنهم إذا انغردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس، وإذا لاقوا عدواً نلوا وخضعوا، وانهزموا، وقيل: المعنى أن باسمهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله في قلوبهم من الرعب، والأول أولى لقوله: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ فإنه يدل على أن اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن، وهذا التخالف هو البأس الذي بينهم الموصوف بالشدة، ومعنى ﴿شتى﴾ متفرقة، قال مجاهد: يعني اليهود والمنافقين تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى. وروي عنه أيضاً أنه قال: المراد المنافقون. وقال الثوري: هم المشركون، وأهل الكتاب. قال قتادة: تحسبهم جميعاً أي: مجتمعين على أمر ورأي، وقلوبهم شتى متفرقة، فأهل الباطل مختلفة آراؤهم مختلفة شهادتهم مختلفة أمراؤهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق. وقرأ ابن مسعود: (وقلوبهم أشت) أي: أشد اختلافاً ﴿لأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي: تلك الاختلاف والتشتت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئاً، ولو عقلوا؛ لعرفوا الحق واتبعوه ﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ أي: مثلهم كمثل الذين من قبلهم، والمعنى: أن مثل المنافقين واليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين ﴿قريباً﴾ يعني: في زمان قريب، وانتصاب قريباً على الظرفية أي: يشبهونهم في زمن قريب، وقيل: العامل فيه ذاقوا أي: ذاقوا في زمن قريب، ومعنى ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ أي: سوء عاقبة كفرهم في الدنيا بقتلهم يوم بدر، وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر، قاله مجاهد، وغيره، وقيل: المراد بنو النضير حيث أمكن الله منهم، قاله قتادة. وقيل: قتل بني قريظة، قاله الضحاک. وقيل: هو عام في كل من انتقم الله منه بسبب كفره، والأول أولى ﴿ولهم عذاب اليم﴾ أي: في الآخرة. ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً آخر فقال: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: مثلهم في تخانلهم وعدم تناصرهم، فهو إما خير مبتدأ محذوف، أو خير آخر للمبتدأ المقتر قبل قوله: ﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ على تقدير حذف حرف العطف، كما تقول: أنت عاقل، أنت عالم، أنت كريم. وقيل: المثل الأول خاص باليهود، والثاني خاص بالمنافقين، وقيل: المثل الثاني بيان للمثل الأول، ثم بين سبحانه وجه الشبه فقال: ﴿إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: أغراه بالكفر، وزينه له، وحمله عليه، والمراد بالإنسان هنا جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان، وقيل: هو عابد كان في بني إسرائيل حمله الشيطان على الكفر، فاطاعه ﴿فلما كفر قال إني بريء منك﴾ أي: فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان، وقبلوا لتزيينه قال الشيطان: إني بريء منك، وهذا يكون منه يوم القيامة، وجملة ﴿إني لخاف الله رب العالمين﴾ تعليل

لبراءته من الإنسان بعد كفره، وقيل: المراد بالإنسان هنا أبو جهل، والأوّل أولى. قال مجاهد: المراد بالإنسان هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم، قيل: وليس قول الشيطان: ﴿إِنِّي لَخَافُ اللَّهَ﴾ على حقيقته، إنما هو على وجه التبرّي من الإنسان، فهو تأكيد لقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ قرأ الجمهور (إني) بإسكان الياء. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو بفتحها ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ قرأ الجمهور (عاقبتهم) بالنصب على أنه خبر كان، واسمها أنهما في النار. وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان، والخبر ما بعده، والمعنى: فكان عاقبة الشيطان، وبذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قرأ الجمهور (خالدين) بالنصب على الحال، وقرأ ابن مسعود، والأعشى، وزيد بن علي، وابن أبي عبلة (خالدان) على أنه خبر أن، والظرف متعلق به ﴿وَأُولَئِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الخلود في النار جزاء الظالمين، ويدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولاً، ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: لتنظر أي شيء قدّمت من الأعمال ليوم القيامة، والعرب تكني عن المستقبل بالغد، وقيل: ذكر الغد تنبيهاً على قرب الساعة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كرّر الأمر بالقوى للتأكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: تركوا أمره، أو ما قدره حق قدره، أو لم يخافوه، أو جميع ذلك ﴿فَانْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له، فلم يشغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب، ولم يكفوا عن المعاصي التي توقعهم فيه، ففي الكلام مضاف محذوف أي: أنساهم حظوظ أنفسهم. قال سفيان: نسوا حق الله، فأنساهم حق أنفسهم، وقيل: نسوا الله في الرخاء، فأنساهم أنفسهم في الشدائد ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الكاملون في الخروج عن طاعة الله ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ في الفضل، والرتبة، والمراد الفريقان على العموم، فيدخل في فريق أهل النار من نسي الله منهم دخولاً أولاً، ويدخل في فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولاً أولاً؛ لأن السياق فيهم، وقد تقدّم الكلام في معنى مثل هذه الآية في سورة المائدة، وفي سورة السجدة، وفي سورة ص، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفي التساوي بينهم، وبين أهل النار فقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الظافرون بكلّ مطلوب الناجون من كلّ مكروه.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿كَلِمَ تر إلى الذين نافقوا﴾ قال: عبد الله بن أبي بن سلول، ورفاعة بن تابوت، وعبد الله بن نبيل، وأوس بن قيطي، وإخوانهم بنو النضير. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وأبو

لَرَأَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشْيَةً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُصَرِّفُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٦٠﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَيْكَ الْغَدُورُ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْهَيِّجُ الْمَزِيْرُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦١﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار، وبين عزم استوائهم في شيء من الأشياء ذكر تعظيم كتابه الكريم، وأخبر عن جلالته، وأنه حقيق بأن تخضع له القلوب، وترقّ له الأفئدة، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مَّتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: من شأنه، وعظمته، وجودة الفاظه، وقوة مبادئه، وبلاغته، واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيناه مع كونه في غاية القسوة،

وشدة الصلابة، وضخامة الجرم خاشعاً متصدعاً أي: متشققاً من خشية الله سبحانه خذراً من عقابه، وخوفاً من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وهذا تمثيل وتخيل يقتضي علو شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب، ويدل على هذا قوله: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ فيما يجب عليهم التفكير فيه؛ ليتعظوا بالمواعظ، وينزجروا بالزواجر، وفيه توبيخ، وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن، ولا اتعظوا بمواعظه، ولا انزجروا بزواجره، والخاشع: النذل المتواضع. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ أي: لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت، ولتصدع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك، وثبتناك له، وقويتناك عليه، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي ﷺ، لأن الله سبحانه ثبت له لا تثبت له الجبال الرواسي. ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته، فقال: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾ وفي هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي: عالم ما غاب من الإحساس وما حضر، وقيل: عالم السر والعلانية، وقيل: ما كان وما يكون، وقيل: الآخرة والندى، وقدم الغيب على الشهادة لكونه متقدماً وجوداً ﴿هو الرحمن الرحيم﴾ قد تقدم تفسير هذين الاسمين ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾ كرره للتأكيد والتقرير لكون التوحيد حقيقةً بذلك ﴿الملك القدوس﴾ أي: الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص، والقدس بالتحريك في لغة أهل الحجاز السطل؛ لأنه يتطهر به، ومنه القدوس لواحد الأواني التي يستخرج بها الماء. قرأ الجمهور (القدوس) بضم القاف. وقرأ أبو ذر، وأبو السماك بفتحها، وكان سيبويه يقول: سبوح قدوس بفتح أولهما، وحكي أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائي أعرابياً فصيحاً يقرأ (القدوس) بفتح القاف. قال ثعلب: كل اسم على فعول فهو مفتوح الأول إلا السبوح والقدوس، فإن الضم فيهما أكثر، وقد يفتحان ﴿السلام﴾ أي: الذي سلم من كل نقص وعيب، وقيل: المسلم على عباده في الجنة، كما قال: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ [يس: 58] وقيل: الذي سلم الخلق من ظلمه، وبه قال الأكثر، وقيل: المسلم لعباده، وهو مصدر وصف به للمبالغة ﴿المؤمن﴾ أي: الذي وهب لعباده الأمن من عذابه، وقيل: المصنق لرسله بإظهار المعجزات، وقيل: المصنق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، والمصنق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب، يقال: أمته من الأمن وهو ضد الخوف، ومنه قول النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركباًن مكة بين الغيل والسند
وقال مجاهد: المؤمن الذي وحد نفسه بقوله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ [آل عمران: 18]. قرأ الجمهور (المؤمن) بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى آمن. وقرأ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بفتحها بمعنى المؤمن به على الحذف كقوله: ﴿واختار موسى قومه﴾ [الأعراف: 155] وقال أبو حاتم: لا تجوز هذه القراءة؛ لأن معناه أنه كان

خائفاً فأمته غيره ﴿المهيمن﴾ أي: الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم. كذا قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل. يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن: إذا كان رقيباً على الشيء. قال الواحدي: وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤمن من آمن يؤمن، فيكون بمعنى المؤمن، والأول أولى، وقد قئمنا الكلام على المهيمن في سورة المائدة ﴿العزیز﴾ الذي لا يوجد له نظير، وقيل: القاهر، وقيل: الغالب غير المغلوب، وقيل: القوي ﴿الجبار﴾ جبروت الله عظمته، والعرب تسمى الملك الجبار، ويجوز أن يكون من جبر إذا أغنى الفقير وأصلح الكسير، ويجوز أن يكون من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراد، فهو الذي جبر خلقه على ما أراد منهم، وبه قال السدي، ومقاتل، واختاره الزجاج، والفراء، قال: هو من أجبره على الأمر أي: قهره. قال: ولم أسمع فعلاً من أفعّل إلا في جبار من أجبر، ودرّك من أدرك، وقيل: الجبار الذي لا تطاق سطوته ﴿المعكبر﴾ أي: الذي تكبر عن كل نقص، وتعظم عما لا يليق به، وأصل التكبر الامتناع وعدم الانقياد، ومنه قول حميد بن ثور:

عفت مثل ما يعفو للفصيل فاصبحت بها كبرياء الصعب وهي تلول
والكبر في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذم. قال قتادة: هو الذي تكبر عن كل سوء. قال ابن الأنباري: المتكبر ذو الكبرياء، وهو الملك، ثم نزه سبحانه نفسه عن شرك المشركين، فقال: ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ أي: عما يشركونه، أو عن إشراكهم به ﴿هو الله الخالق﴾ أي: المقتدر للأشياء على مقتضى إرادته ومشئته ﴿البارئ﴾ أي: المنشئ الماخترع للأشياء الموجد لها. وقيل: المميز لبعضها من بعض ﴿المصور﴾ أي: الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة، فالتمصير مترتب على الخلق والبرائة وتابع لهما، ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل، قال النابغة:

الخالق البارئ المصور في الدار أرحام ماء حتى يصير دما
وقرأ حاطب بن أبي بلتعة الصحابي (المصور) بفتح الواو ونصب الراء على أنه مفعول به للبارئ أي: الذي برأ المصور أي: ميزه ﴿له الأسماء الحسنى﴾ قد تقدم بيانها، والكلام فيها عند تفسير قوله: ﴿وه الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ [الأعراف: 180] ﴿يسبح له ما في السموات والأرض﴾ أي: ينطق بتنزيهه بلسان الحال أو المقال كل ما فيهما ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: الغالب لغيره الذي لا يغالبه مغالب، الحكيم في كل الأمور التي يقضي بها.

وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس، في قوله: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾ قال: يقول لو إني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدع، وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخونه بالخشية الشديدة والتخشع. قال: كذلك يضرب الله

بإيمانهم ﴿[الممتحنة: 10].﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَتِي مَرْحَلًا يُخْرِجُونَكُمْ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْ مَعَكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَفَقَّهُوا يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْأَلُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ وَوَدُّوا أَنْ يَكْفُرُوا ﴿٢﴾ إِنْ تَنَفَّعْتُمْ أَرْسَالَهُمْ فَلَا يُؤْتِكُمْ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهِ بِمَا تَمَلُّونَ بَصِيرَةٌ ﴿٣﴾

قال المفسرون: نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى مشركي قريش يخبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم، وسيأتي ذكر القصة آخر البحث إن شاء الله، وقوله: ﴿عَدُوِّي﴾ هو المفعول الأول ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ معطوف عليه، والمفعول الثاني أولياء، وأضاف سبحانه العدو إلى نفسه تعظيماً لجرمهم، والعدو مصدر يطلق على الواحد، والاثنتين، والجماعة، والآية تدل على النهي عن موالة الكفار بوجه من الوجوه ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي: توصلون إليهم المودة على أن البلاء زائدة، أو هي سببية، والمعنى: تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ بسبب المودة التي بينكم وبينهم. قال الزجاج: تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ، وسره بالمودة التي بينكم وبينهم، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا؛ ويجوز أن تكون مستأنفة؛ لقصد الإخبار بما تضمنته، أو لتفسير موالاتهم إياهم، ويجوز أن تكون في محل نصب صفة لأولياء، وجملة ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تلقون، أو من فاعل لا تتخذوا، ويجوز أن تكون مستأنفة؛ لبيان حال الكفار. قرأ الجمهور (بما جاءكم) بالباء الموحدة، وقرأ الجحدري، وعاصم في رواية عنه: (لما جاءكم) باللام أي: لأجل ما جاءكم من الحق على حذف المكثور به أي: كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سبباً للكفر توبيخاً لهم ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ الجملة مستأنفة لبيان كفرهم، أو في محل نصب على الحال، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَمُنُّونَ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليل للإخراج أي: يخرجونكم لأجل إيمانكم، أو كراهة أن تؤمنوا ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ جواب الشرط محذوف أي: إن كنتم كذلك، فلا تلقوا إليهم بالمودة، أو إن كنتم كذلك، فلا تتخذوا عدوِّي وعدوكم أولياء، وانتصاب جهاداً وابتغاء على العلة أي: إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد في سبيلي، ولأجل ابتغاء مرضاتي، وجملة ﴿تَسْرَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ مستأنفة للتقريب والتوبيخ أي: تسرون إليهم الأخبار بسبب المودة، وقيل: هي بدل من قوله: ﴿تَلْقَوْنَ﴾. ثم أخبر سبحانه بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم

الأمثال للناس لعلهم يتفكرون. وأخرج الديلمي عن ابن مسعود وعليّ مرفوعاً في قوله: ﴿هُوَ أَنزَلَنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ إلى آخر السورة قال: هي «رقية الصداق». رواه الديلمي بإسنادين لا ندرى كيف حال رجالهما. وأخرج الخطيب في تاريخه بإسناده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأت على خلف، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فلاني قرأت على حمزة، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فلاني قرأت على الأعمش ثم ساق الإسناد مسلسل هكذا إلى ابن مسعود فقال: فلاني قرأت على النبي ﷺ، فلما بلغت هذه الآية قال لي: «ضع يدك على رأسك، فلان جبريل لما نزل بها قال لي: ضع يدك على رأسك، فلانها شفاء من كل داء إلا السام»، والسام الموت. قال الذهبي: هو باطل. وأخرجه ابن السني في عمل يوم وليلة، وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً إذا أوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر وقال: «إِنْ مِتَّ مِتَّ شَهِيداً». وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَرَأَ آخِرَ سُورَةِ الْحَشْرِ بَعَثَ اللَّهُ سَبْعِينَ مَلَكًا يُطْرِبُونَ عَنْهُ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ إِنْ كَانَ لَيْلًا حَتَّى يَصْبَحَ، وَإِنْ كَانَ نَهَارًا حَتَّى يَمْسِيَ». وأخرج أحمد، والدارمي، والترمذي وحسنه، والطبراني، وابن الضريس، والبيهقي في الشعب عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَصْبَحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ الثَّلَاثَ آيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ وَكُلَّ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يَمْسِيَ، وَإِنْ مَاتَ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يَمْسِيَ كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ». قال الترمذي بعد إخراجها: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأخرج ابن عدي، وابن مردويه، والخطيب، والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ خَوَاتِيمَ الْحَشْرِ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ لَيْلَتِهِ أُرِجِبَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿عَالَمٌ لِلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قال: السر والعلانية. وفي قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: المؤمن خلقه من أن يظلمهم، وفي قوله: ﴿وَالْمُهَيْمِينَ﴾ قال: الشاهد.

تفسير سورة الممتحنة

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الممتحنة بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. والممتحنة بكسر الحاء اسم فاعل أضيف الفعل إليها مجازاً، كما سميت سورة براءة الفاضحة لكشفها عن عيوب المنافقين، وقيل: الممتحنة بفتح الحاء اسم مفعول إضافة إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، لقوله سبحانه: ﴿فَاصْحَوْهُمْ﴾ الله أعلم

حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: ما هذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت أمراً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم، وأموالهم بمكة، فاحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً، ولا ارتداداً عن ديني، فقال النبي ﷺ: صدق، فقال عمر: دعني أضرب عنقه. فقال: إنه شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم. ونزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾. وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة متضمنة لبيان هذه القصة، وإن هذه الآيات إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرًا مُبِينًا وَيَتَذَكَّرُ آلُكُمْ﴾. وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة متضمنة لبيان هذه القصة، وإن هذه الآيات إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرًا مُبِينًا وَيَتَذَكَّرُ آلُكُمْ﴾.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرًا مُبِينًا وَيَتَذَكَّرُ آلُكُمْ. وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة متضمنة لبيان هذه القصة، وإن هذه الآيات إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرًا مُبِينًا وَيَتَذَكَّرُ آلُكُمْ﴾.

لما فرغ سبحانه من النهي عن موالاة المشركين، والذم لمن وقع منه ذلك ضرب لهم إبراهيم مثلاً حين تبرأ من قومه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: خصلة حميدة تقتلون بها، يقال: لي به أسوة في هذا الأمر أي: اقتداء، فأرشدهم سبحانه إلى الاقتداء به في ذلك إلا في استغفاره لأبيه. قرأ الجمهور (أسوة) بكسر الهمزة، وقرأ عاصم بضمها وهما لغتان، وأصل الأسوة: بالضم والكسر القوة، ويقال: هو أسوتك أي: مثلك، وأنت مثله وقوله: ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ متعلق بأسوة، أو بحسنة، أو هو نعت لأسوة، أو حال من الضمير المستتر من حسنة، أو خبر كان، ولكم للبيان، والذين معه هم أصحابه المؤمنون. وقال ابن زيد: هم الأنبياء. قال الفراء: يقول أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم، فتتبرأ من أهلك، كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه، والظرف في قوله: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ هو خبر كان، أو متعلق به أي: وقت قولهم لقومهم الكفار ﴿إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ﴾ جمع بريء، مثل شركاء وشريك، وظرفاء وظريف. قرأ الجمهور (براء) بضم الباء وفتح الراء وألف بين

شيء، فقال: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا لَخِفْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ والجمل في محل نصب على الحال أي: بما أضمرتم وما أظهرتم، والباء في بما زائدة يقال: علمت كذا، وعلمت بكذا، هذا على أن أعلم مضارع، وقيل: هو أقبل تفضيل أي: أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: من يفعل ذلك الاتخاذ لعنوي وعدوك أولياء، ويلقي إليهم بالمودة، فقد أخطأ طريق الحق والصواب، وضل عن قصد السبيل ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: إن يلقوكم ويصانفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة، ومنه المثاقفة، وهي طلب مصانفة الغرة في المسابقة، وقيل المعنى: إن يظفروا بكم، ويتمكنوا منكم، والمعنيان متقاربان ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسِّنْهُم بِالسُّوءِ﴾ أي: يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب ونحوه، والسنتهم بالشتم ونحوه ﴿وَوُتُوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ هذا معطوف على جواب الشرط أو على جملة الشرط والجزاء، ورجح هذا أبو حيان، والمعنى: أنهم تمنوا ارتدادهم، ووتوا رجوعهم إلى الكفر ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ أي: لا تنفعكم القرابات على عمومها، ولا الأولاد، وخصهم بالذكر مع دخولهم في الأرحام لمزيد المحبة لهم، والحنو عليهم، والمعنى: أن هؤلاء لا ينفعونكم حتى توالوا الكفار لأجلهم، كما وقع في قصة حاطب بن أبي بلتعة، بل الذي ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار، وترك موالاتهم، وجملة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد في ذلك اليوم ومعنى ﴿يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾: يفرق بينكم، فيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار. وقيل: المراد بالفصل بينهم أنه يفر كل منهم من الآخر من شدة الهول، كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: 34] الآية. قيل: ويجوز أن يتعلق يوم القيامة بما قبله أي: لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة فيوقف عليه. ويبدأ بقوله: ﴿يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ والأولى أن يتعلق بما بعده، كما ذكرنا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أفعالكم وأفعالكم، فهو مجازيكم على ذلك. قرأ الجمهور (يفصل) بضم الياء، وتخفيف الفاء، وفتح الصاد مبنياً للمفعول، واختار هذه القراءة أبو عبيدة. وقرأ عاصم بفتح الياء، وكسر الصاد مبنياً للفعل. وقرأ حمزة، والكسائي بضم الياء، وفتح الفاء، وكسر الصاد مشددة. وقرأ علقمة بالنون. وقرأ قتادة، وأبو حيوة بضم الياء، وكسر الصاد مخففة.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن علي بن أبي طالب قال: «دعني رسول الله ﷺ، أنا، والزبير، والمقداد، فقال رسول الله ﷺ: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخلوه منها فاتوني به، فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا أخرجي الكتاب، قالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجي الكتاب، أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فاتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه: من

همزتين، ككرماء في كريم. وقرأ عيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق بكسر الباء وهمزة واحدة بعد ألف، ككرام في جمع كريم. وقرأ أبو جعفر بضم الباء وهمزة بعد ألف ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهي الأصنام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بما أنتمم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ أي: هذا دأبنا معكم ما دمت على كفركم ﴿حَتَّى تَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك، فإذا فعلتم ذلك صارت تلك العدواة موالاة، والبغضاء محبة ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ﴾ هو استثناء متصل من قوله: ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ بتقدير مضاف محذوف؛ ليصح الاستثناء أي: قد كانت لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم إلا قوله لأبيه، أو من أسوة حسنة، وصح ذلك؛ لأن القول من جملة الأسوة، كأنه قيل: قد كانت أسوة حسنة في إبراهيم في جميع أقواله، وأفعاله إلا قوله لأبيه، أو من التبزي والقطيع التي نكرت أي: لم يواصله إلا قوله، نكر هذا ابن عطية، أو هو منقطع أي: لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، فلا تأتسوا به، فتستغفرون للمشركين، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه، أو أن ذلك إنما وقع منه؛ لأنه ظن أنه قد أسلم ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114] وقد تقدم تحقيق هذا في سورة براءة ﴿وَمَا أَمَلَكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هذا من تمام القول المستثنى يعني: ما أغني عنك، وما أذفع عنك من عذاب الله شيئاً، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل لأستغفرن، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا القيد، فإنه إظهار للعجز، وتفويض للأمر إلى الله، وذلك من خصال الخير ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ هذا من دعاء إبراهيم وأصحابه، ومما فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها، وقيل: هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول، والتوكل هو تفويض الأمور إلى الله، والإنابة الرجوع، والمصير المرجع، وتقديم الجاز والمجور لقصص التوكل والإنابة، والمصير على الله ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال الزجاج: لا تظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حق، فيفتنوا بذلك، وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ ذو الحكمة البالغة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: لقد كان لكم في إبراهيم والذين معه قوة حسنة، وكرر هذا للمبالغة والتأكيد، وقيل: إن هذا نزل بعد الأول بمدة ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ بدل من قوله: ﴿لَكُمْ﴾ بدل بعض من كل، والمعنى: أن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف الله، ويخاف عقاب الآخرة، أو يطمع في الخير من الله في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَمَنْ يَقُولُ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: يعرض عن ذلك، فإن الله هو الغني عن خلقه الحميد إلى أوليائه ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَابَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾ وذلك بأن

يسلموا، فيصيروا من أهل دينكم، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وحسن إسلامهم، ووقعت بينهم وبين من تقدمهم في الإسلام مودة، وجاهدوا، وفعلوا الأفعال المقررة إلى الله. وقيل: المراد بالمودة هنا تزويج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان. ولا وجه لهذا التخصيص، وإن كان من جملة ما صار سبباً إلى المودة، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العدواة لرسول الله ﷺ، ولكنها لم تحصل المودة إلا بإسلامه يوم الفتح وما بعده ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: بليغ القدرة كثيرها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: بليغهما كثيرهما. ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغي للمؤمنين من معاداة الكفار وترك موالاتهم، فصل القول فيمن يجوز برّه منهم ومن لا يجوز، فقال: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا ينهاكم عن هؤلاء ﴿أَنْ تَبْرَهُهُمْ﴾ هذا بدل من الموصول بدل اشتغال، وكذا قوله: ﴿وَتَقْسَمُوا لِيَهُمْ﴾ يقال: أقسمت إلى الرجل: إذا عاملته بالعدل. قال الزجاج: المعنى، وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين؛ ومعنى الآية: أن الله سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل. قال ابن زيد: كان هذا في أول الإسلام عند المودعة؛ وترك الأمر بالقتال، ثم نسخ. قال قتادة: نسختها ﴿فَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5] وقيل: هذا الحكم كان ثابتاً في الصلح بين النبي ﷺ وبين قريش، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم. وقيل: هي خاصة في حلفاء النبي ﷺ، ومن بينه وبينه عهد، قاله الحسن. وقال الكلبي: هم خزاعة، وبنو الحارث بن عبد مناف. وقال مجاهد: هي خاصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا، وقيل: هي خاصة بالنساء والصبيان. وحكى القرطبي عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة. ثم بين سبحانه من لا يحل برّه، ولا العدل في معاملته فقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ وهم صناديد الكفر من قريش ﴿وَوَظَّاهِرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي: عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك، وهم سائر أهل مكة، ومن نخل معهم في عهدهم، وقوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا لَهُمْ﴾ بدل اشتغال من الموصول، كما سلف ﴿وَمَنْ يَقُولُ فَاوْلُوكُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: الكاملون في الظلم؛ لأنهم تولوا من يستحق العدواة لكونه عنواً لله ولرسوله ولكتابه، وجعلوهم أولياء لهم.

وقد أخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عباس ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ قال: نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه، وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندكم، فيقولون لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال: في صنع إبراهيم كله إلا في الاستغفار لأبيه،

وَأَرْجِيهِمْ وَلَا تَجْعَلْنِي فِي مَرْمَرٍ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَشْعُرُونَ وَلَا يَأْتِيهِمْ الْإِيمَانُ أَتَمْنَوْنَ أَنْ تُنَادُوا بِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا؟ قَالُوا لَا تَنْتَهِزْ عَلَيْهِمْ قَدِ بَيَّنَّا بِرَ الْآخِرَةِ كَمَا يَكُونُ الْكُفَّارُ مِنَ أَحْصَى الْقَبْرِ ﴿٢٧﴾

لما ذكر سبحانه حكم فريق الكافرين في جواز البر، والإقساط للفريق الأول من الفريق الثاني ذكر حكم من يظهر الإيمان، فقال: ﴿هِيَ أَيُّهَا النَّبِيُّ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجُرَاتٍ﴾ من بين الكفار، وذلك أن النبي ﷺ لما صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاءهم من المسلمين، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يردن إلى المشركين، وأمر بامتحانهن فقال: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: فاختبروهن. وقد اختلف فيما كان يمتحن به، فقيل: كان يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا لالتماس دنيا بل حباً لله ولرسوله، ورغبة في دينه، فإذا حلفت كذلك أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها، وما اتفق عليها، ولم يردّها إليه، وقيل: الامتحان هو أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وقيل: ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله ﷺ الآية، وهي ﴿هِيَ أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ إلى آخرها.

واختلف أهل العلم هل نخل النساء في عهد الهبة أم لا؟ على قولين، فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد، وبه قال الأكثر. وعلى القول بعدمه لا نسخ، ولا تخصيص. والله أعلم بإيمانهن. هذه الجملة معترضة لبيان أن حقيقة حالهن لا يعلمها إلا الله سبحانه، ولم يتعبدكم بذلك، وإنما تعبدكم بامتحانهن حتى يظهر لكم ما يدل على صدق دعواهن في الرغوب في الإسلام. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ أي: علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الذي أمرتم به ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي: إلى أزواجهن الكافرين، وجملة ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ تعليل للنهي عن إرجاعهن. وفيه دليل على أن المؤمنة لا تحل للكفار، وإن إسلام المرأة يوجب فرقتهما من زوجها لا مجرد هجرتها، والتكرير لتأكيد الحرمة، أو الأول لبيان زوال النكاح، والثاني لامتناع النكاح الجديد ﴿وَأَتَوْهُمْ مَا انْفَقَوْا﴾ أي: وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتي هاجرن وأسلمن مثل ما انفقوا عليهن من المهور. قال الشافعي: وإذا طلبها غير الزوج من قراباتها منع منها بلا عوض ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لأنهن قد صرن من أهل دينكم ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ لِجَوْرِهِنَّ﴾ أي: مهورهن، وذلك بعد انقضاء عتتهن، كما تدل عليه أدلة وجوب العدة ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ﴾ قرأ الجمهور (تمسكوا) بالتخفيف من الإمساك، واختار هذه القراءة أبو عبيد، لقوله: ﴿فَامْسُكُوهُنَّ﴾ بمعروف [الطلاق: 2] وقرأ الحسن، وأبو العالية، وأبو عمرو بالتشديد من التمسك، والعصم جمع عصمة، وهي ما يعتصم به، والمراد هنا عصمة عقد النكاح. والمعنى أن من كانت له امرأة كافرة، فليست له بامراة لانقطاع عصمتها

وهو مشرك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿لَا تَجْعَلْنَا قِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: لا تسلطهم علينا، فيفتنوننا. وأخرج ابن مريويه عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: أول من قاتل أهل الردة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب، وفيه نزلت هذه الآية ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن الزهري أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن، فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل، فلقي ذا الخمار مرتدّاً، فكان أول من قاتل في الردة، وجاهد عن النبي. قال: وهو فيمن قال الله فيه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عدي، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في الآية قال: كانت المودة التي جعل بينهم تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أم المؤمنين، فصار معاوية خال المؤمنين. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس «أن أبا سفيان قال: يا رسول الله ثلاث أعطيني»، قال: نعم، قال: تؤمّني حتى أقاتل الكفار، كما كنت أقاتل المسلمين، قال: نعم، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: نعم، قال: وعندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجهما الحديث. وأخرج الطيالسي، وأحمد، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، ضباب، واقط، وسمن، وهي مشركة، فابت أسماء أن تقبل هديتها، أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله ﷺ، فسألته، فأنزل الله ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الآية، فأمرها أن تقبل هديتها، وتدخلها بيتها، وزاد ابن أبي حاتم في المدة التي كانت بين قريش ورسول الله ﷺ، وفي البخاري وغيره، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «أنتنني أمي راغبة، وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فسألت النبي ﷺ الصلها؟ فأنزل الله ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، فقال: نعم صلي أمك».

يَأْتِيهِمُ الْإِيمَانُ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجُرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ وَلَا مِنْ بَعْلٍ وَلَا مِنْ وَالِدٍ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ وَأَتَوْهُمْ مَا انْفَقَوْا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ وَاسْتَلُوا مَا انْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ آسَرَاءُ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ يَسْمَعُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ غَمٌّ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا تَقَاتِمُ قَاتُوا الذِّمَّةَ ذَهَبَتْ أَرْزَاقُهُمْ يَنْتَلِ مَا انْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ أَلَيْسَ أَنْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ يَأْتِيهِمُ الْإِيمَانُ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بِإِيمَانِكُمْ عَلَ أَنْ لَا يَشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَشْرَفَ وَلَا يَنْفَرُ وَلَا يَنْفَلُ وَلَا يَنْفَلُ وَلَا يَأْتِي بِهِنَّ يَفْرِيَهُنَّ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ

باختلاف الدين. قال النخعي: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر، وكان الكفار يزوجون المسلمين، والمسلمون يتزوجون المشركات، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، وهذا خاص بالكافرين المشركات دون الكافرين من أهل الكتاب. وقيل: عامة في جميع الكافرين مخصصة بإخراج الكتابيات منها. وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثني أو كتابي لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدة، وقال بعض أهل العلم: يفرق بينهما بمجرد إسلام الزوج، وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مخدولة بها، وأما إذا كانت غير مخدولة بها، فلا خلاف بين أهل العلم في انقطاع العصمة بينهما بالإسلام إذ لا عدة عليها **﴿وأسألوها ما أنفقتم﴾** أي: اطلبوا مهر نسائكم اللاحقات بالكفار **﴿وليسألوها ما أنفقوا﴾** قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدة إلى الكفار من أهل العهد، يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين، وأسلمت: رثوا مهرها على زوجها الكافر **﴿فلنكمحكم الله﴾** أي: لنكممكم الله المذكور من إرجاع المهر من الجهتين حكم الله، وقوله: **﴿يحكم بينكم﴾** في محل نصب على الحال. أو مستأنفة **﴿وإله عليم حكيم﴾** أي: بليغ العلم لا تخفى عليه خافية بليغ الحكمة في أقواله وأفعاله، قال القرطبي: وكان هذا مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين **﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾** لما نزلت الآية المتقدمة، قال المسلمون: رضينا بحكم الله، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا، فنزل قوله: **﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾** مما دفعتم إليهم من مهر النساء المسلمات، وقيل المعنى: وإن انفلت منكم أحد من نسائكم إلى الكفار بأن ارتدت المسلمة **﴿فعاقبتم﴾** قال الواحدي: قال المفسرون: فعاقبتم فغنمتم. قال الزجاج: تأويله، وكانت العقبى لكم أي: كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم **﴿فأتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾** من مهر المهاجرة التي تزوجوها، ونفعوه إلى الكفار، ولا تؤتوه زوجها الكافر. قال قتادة، ومجاهد: إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفداء والغنيمة، وهذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها بعد الفتح. وحاصل معناها أن **﴿من أزواجكم﴾** يجوز أن يتعلق بفاتكم أي: من جهة أزواجكم، ويراد بالشيء المهر الذي غرمه الزوج، ويجوز أن يتعلق بمخدوف على أنه صفة لشيء. ثم يجوز في شيء أن يراد به المهر، ولكن لا بد على هذا من مضاف مخدوف أي: من مهر أزواجكم، ليتطابق الموصوف وصفته، ويجوز أن يراد بشيء النساء أي نوع وصنف منهن، وهو ظاهر قوله: **﴿من أزواجكم﴾** وقوله: **﴿فأتوا الذين ذهب أزواجهم﴾** والمعنى: أنهم يعطون من ذهب زوجته إلى المشركين، فكفرت، ولم يرد عليه المشركون مهرها، كما حكم الله مثل ذلك المهر الذي أنفق عليها من الغنيمة **﴿ولتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾** أي: احذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم، فإن

الإيمان الذي أنتم متصفون به يوجب على صاحبه ذلك **﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك﴾** أي: قاصدات لمبايعتك على الإسلام، و**﴿على أن لا يشركن بالله شيئاً﴾** من الأشياء كائنات ما كان، هذا كان يوم فتح مكة، فإن نساء أهل مكة اتين رسول الله ﷺ يبایعن، فأمره الله أن يأخذ عليهن **﴿أن لا يشركن ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن﴾** وهو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات **﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾** أي: لا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهم. قال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود، فتقول لأزوها: هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن، وذلك أن الولد إذا وضعت الأم سقط بين يديها ورجليها، وليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها، لأن ذلك قد دخل تحت النبي عن الزنا **﴿ولا يعصينك في معروف﴾** أي: في كل أمر هو طاعة الله. قال عطاء: في كل بر وتقوى، وقال مقاتلان: عني بالمعروف النهي عن التوح وتزيق الثياب، وجز الشعر، وشق الجيب، وخمش الوجوه، والدعاء بالويل، وكذا قال قتادة، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن السائب، وزيد بن أسلم، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه. قيل: ووجه التقييد بالمعروف، مع كونه ﷺ لا يأمر إلا به التنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق **﴿فبایعهن﴾** هذا جواب «إذا»، والمعنى إذا بايعنك على هذه الأمور، فبایعهن، ولم يذكر في بيعتهن الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين، وشعائر الإسلام، وإنما خص الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء **﴿واستغفر لهن الله﴾** أي: اطلب من الله المغفرة لهن بعد هذه المبايعات لهن منك **﴿إن الله غفور رحيم﴾** أي: بليغ المغفرة والرحمة لعباده **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾** هم جميع طوائف الكفر، وقيل: اليهود خاصة وقيل: المنافقون خاصة وقال الحسن: اليهود والنصارى. والأول أولى؛ لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها **﴿قد يئسوا من الآخرة﴾** «من» لا ابتداء الغاية أي: أنهم لا يوقنون بالآخرة لئبته بسبب كفرهم **﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾** أي: كياسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث، وقيل: كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة، لأنه قد وقفوا على الحقيقة، وعلموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة، فتكون «من» على الوجه الأول ابتدائية، وعلى الثاني بيانية، والأول أولى.

وقد أخرج البخاري عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات، فأنزل الله **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾** حتى بلغ **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾** فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. وأخرجه أيضاً من حديثهما بأطول من هذا، وفيه، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى

فتجعل مكانها غلاماً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في الآية. قال: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكُمْ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أم سلمة الأنصارية قالت: «قالت امرأة من النسوة ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه؟ قال: لا تنحن، قلت: يا رسول الله إن بني فلان أسعدوني على عمي لا بد لي من قضائهن، فأبى عليّ فعاودته مراراً فأنزني لي في قضائهن» فلم أتح بعد، ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيري». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أم عطية قالت: «بايعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا أن لا نشرك بالله شيئاً، ونهانا عن النجاسة، فقبضت امرأة منا يدها، فقالت: يا رسول الله إن فلانة أسعدتني وأنا أريد أن أجزيها، فلم يقل لها شيئاً، فذهبت، ثم رجعت، فقالت: ما ففت منا وامرأة إلا لم سليم، وأمّ العللاء، وبنت أبي سبرة امرأة معاذ، أو بنت أبي سبرة، وامرأة معاذ. وقد روت أحاديث كثيرة في النبي عن النوح. وأخرج أبو إسحاق، وابن المنذر عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن عمرو، وزيد بن الحارث يودان رجلاً من اليهود، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. وأخرج القرطبي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿قَدْ يَتَّبِعُونَ مِنَ الْآخِرَةِ﴾ قال: فلا يؤمنون بها، ولا يرجونها، كما يتبع الكافر إذا مات، وعائين ثوابه وأطلع عليه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: هم الكفار أصحاب القبور الذين يتسوا من الآخرة. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: من مات من الذين كفروا، فقد يتس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم، أو يبعثهم الله.

تفسير سورة الصف

وهي مدنية. قال الماوردي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بمكة، ولعل هذا لا يصح عنه، ويؤيد كونها مدنية ما أخرجه أحمد عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ، فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يبق أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً رجلاً، فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة يعني: سورة الصف كلها. وأخرج ابن أبي حاتم، وقال في آخره: فنزلت فيهم هذه السورة. وأخرج أيضاً الترمذي، وابن حبان، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي في الشعب والسنن.

رسول الله ﷺ، وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون رسول الله ﷺ يرجعها إليهم حتى أنزل الله في المؤمنين ما أنزل. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَامْتَحِنُوهُمْ﴾ قال: كان امتحانهم أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فإذا علموا أن ذلك حقاً منهم لم يرجعوا إلى الكفار، وأعطى بعلمها في الكفار الذين عقد لهم رسول الله ﷺ صداقتها الذي أصبقها، وأحلهم للمؤمنين إذا أتوهن أجورهن. وأخرج ابن مردويه عنه قال: نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح، فكان من أسلم من نسائهم، فستلت ما أخرجك؟ فإن كانت خرجت فراراً من زوجها، ورغبة عنه رئت، وإن كانت خرجت رغبة في الإسلام أمسكت، وردت على زوجها مثل ما أتفق، وأخرج ابن أبي أسامة، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، وابن مردويه بسنن حسن، كما قال السيوطي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجُرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ قال: كان إذا جاءت المرأة النبي ﷺ حلفها عمر بن الخطاب بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت بغض زوج، وبالله ما خرجت التماس نكاح، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله. وأخرج ابن منيع عن طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: أسلم عمر بن الخطاب، وتأخرت امرأته في المشركين، فأنزل الله ﴿وَلَا تَمْسُكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، والترمذي، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنين بهذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ﴾ إلى قوله: ﴿غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتكم» كلاماً، والله ما مسّت يده يد امرأة قط من المبايعات ما بايعهن إلا بقوله: «قد بايعتكم على ذلك». وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن سعد، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن أميمة بنت رقيقة قالت: «أبى النبي ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً حتى بلغ: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكُمْ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقال: فيما استطعتن، وأطقتن، فقلنا: الله، ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: إني لا أصافح النساء، إنما قولني لأمأة امرأة كقولني لامرأة واحدة» وفي الباب أحاديث. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، وقرأ آية النساء، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له». وأخرج ابن المنذر عن طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَاتَيْنِ بِبَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ﴾ قال: كانت الحرة تولد لها الجارية،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُبْنُونَ لِنَفْسِهِمْ صَفَاءً كَانَهُمْ بِئِنَّ مَرْصُومٍ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ وَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَا رُسُلِيَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِمَا فِي بَيْتِ آدَمَ أَخَذَ مَخًا فَآتَاهُمْ بِآيَاتِنَا قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَأَقْلَمُ مِنْ أَنْتَ عَلَّمَكَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَهُمْ يُبَدِّلُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْلِقُوا ذُرِّيَّهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ لَكَوْنُ كَكُورٍ ﴿٨﴾ قُلِ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا رُسُلَهُمْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ لَنْ يَسْمَعُوا عَلَى الْأَذْنِ كَيْدُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

قوله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قد تقدم الكلام على هذا، ووجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة، وفي بعضها بلفظ المضارع، وفي بعضها بلفظ الأمر الإرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها، وقد قدمنا نحو هذا في أول سورة الحديد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب الذي لا يغالب الحكيم في أفعاله وأقواله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه، ولم مركبة من اللام الجازة، وما الاستفهامية، وحذفت ألفها تخفيفاً لكثرة استعمالها، كما في نظائرها، ثم ذمهم سبحانه على ذلك فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: عظم ذلك في المقت، وهو البغض، والمقت والمقاة مصدران، يقال رجل مقيت، وممقوت: إذا لم يحبه الناس، قال الكسائي ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع رفع؛ لأن كبر فعل بمعنى بش، ومقتاً منتصب على التمييز، وعلى هذا فيكون في كبر ضمير مبهم مفسر بالنكرة، وأن تقولوا هو المخصوص بالذم، ويجيء فيه الخلاف هل رفعه بالابتداء، وخبره الجملة المتقدمة عليه، أو خبره محذوف، أو هو خبر مبتدأ محذوف. وقيل: إنه قصد بقوله: ﴿كَبُرَ﴾ التعجب، وقد عده ابن عصفور من أفعال التعجب. وقيل: إنه ليس من أفعال الذم، ولا من أفعال التعجب، بل هو مسند إلى أن تقولوا، ومقتاً تمييز محوّل عن الفاعل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَاءً﴾ قال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: وبدنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال إليه حتى نعمله، ولو ذهب فيه أموالنا وأنفسنا. فانزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ الآية، وانتصاب صفاً على المصدرية، والمفعول محذوف أي: يصفون أنفسهم صفاً، وقيل: هو: مصدر في موضع الحال أي: صافين، أو مصفوفين. قرأ الجمهور (يقاتلون) على البناء للفاعل. وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول، وقرأ (يقاتلون) بالتشديد، وجملة ﴿كَانَهُمْ بَنِيانٍ مَرْصُومٍ﴾ في

محل نصب على الحال من فاعل يقاتلون، أو من الضمير في صفاً على تقدير أنه مؤلّ بصافين، أو مصفوفين، ومعنى ﴿مَرْصُومٍ﴾ ملتزق بعضه ببعض، يقال: رصصت البناء أرصه رصاً إذا ضمنت بعضه إلى بعض. قال الفراء: مرصوص بالرصاص. قال المبرد: هو مأخوذ من رصصت البناء: إذا لايمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة، وقيل: هو من الرصيص، وهو ضمّ الأشياء بعضها إلى بعض، والترصص التلاصق ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ لما نكر سبحانه أنه يحبّ المقاتلين في سبيله بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وحلّ العقاب بمن خالفهما، والظرف متعلق بمحذوف هو أنكر أي: أنكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى، ويجوز أن يكون وجه نكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين في سبيل الله التحذير لامة محمد ﷺ أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهم ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ﴾ هذا مقول القول أي: لم تؤذوني بمخالفة ما أمركم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم، أو لم تؤذوني بالشتم والانتقاص، ومن تلك رمية بالآخرة، وقد تقدم بيان هذا في سورة الأحزاب، وجملة ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ في محلّ نصب على الحال، «وقد» لتحقيق العلم، أو لتأكيد، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، والمعنى: كيف تؤذوني مع علمكم بأنني رسول الله، والرسول يحترم ويعظم، ولم يبق معكم شك في الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التي توجب عليكم الاعتراف برسالتي، وتفيدكم العلم بها علماً يقينياً ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: لما أصرّوا على الزيغ، واستمروا عليه أزاع الله قلوبهم عن الهدى، وصرفها عن قبول الحق، وقيل: فلما زاغوا عن الإيمان أزاع الله قلوبهم عن الثواب. قال مقاتل: لما عللوا عن الحق أمال الله قلوبهم عنه، يعني: أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها. قال الزجاج: لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق، والمعنى: أنه لا يهدي كل متصف بالفسق، وهؤلاء من جملتهم ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ معطوف على ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ معمول عاملة، أو معمول لعامل مقرر معطوف على عامل الظرف الأوّل ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: إني رسول الله إليكم بالإنجيل مصدقاً لما بين يديّ من التوراة لأنني لم أتكم بشيء يخالف التوراة، بل هي مشتملة على التبشير بي، فكيف تنفرون عني وتخالفونني، وانتصاب مصدقاً على الحال، ﴿وَوَعَدْتُكُمْ بِمَا بَشَّرْتُكُمْ﴾، والعامل فيهما ما في الرسول من معنى الإرسال، والمعنى: أني أرسلت إليكم حال كوني مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً بمن يأتي بعدي، وإذا كنت كذلك في التصديق والتبشير، فلا مقتضى لتكذيب، وأحمد اسم نبينا ﷺ، وهو علم منقول من الصفة، وهي

[illegible]

تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل، فيكون معناها أنه أكثر حمداً لله من غيره، أو من المفعول، فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والسلمي، وزد بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم (من بعدى) بفتح الياء. وقرأ الباقون بإسكانها ﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ أي: لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا هذا الذي جاءنا به سحر واضح ظاهر، وقيل: المراد محمد ﷺ أي: لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة، والأول أولى. قرأ الجمهور (سحر) وقرأ حمزة، والكسائي (ساحر) ﴿ومن اتظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾ أي: لا أحد أكثر ظلاماً منه حيث يفترى على الله الكذب، والحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذي هو خير الأديان وأشرفها؛ لأن من كان كذلك، فحقه أن لا يفترى على غيره الكذب، فكيف يفترى على ربه. قرأ الجمهور (وهو يدعى) من الدعاء مبنياً للمفعول. وقرأ طلحة بن مصرف (يدعى) بفتح الياء وتشديد الدال من الادعاء مبنياً للفاعل، وإنما عدّي بإلى لأنه ضمن معنى الانتماء والانتساب ﴿وإله لا يهدي القوم الظالمين﴾ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها. والمعنى: لا يهدي من اتصف بالظلم، والمذكورون من جملتهم ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأقواههم﴾ الإطفاء: الإخماد، وأصله في النار، واستعير لما يجري مجراها من الظهور. والمراد بنور الله القرآن أي: يريدون إبطاله، وتكنيبه بالقول، أو الإسلام، أو محمد ﷺ، أو الحجج والدلائل، أو جميع ما نكر، ومعنى ﴿بأقواههم﴾: بأقوالهم الخارجة من أقوالهم المتضمنة للطعن ﴿وإله متم نوره﴾ بإظهاره في الآفاق وإعلائه على غيره. قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم (متم نوره) بالإضافة، والباقون بتثوين متم ﴿ولو كره الكافرون﴾ ذلك، فإنه كائن لا محالة، والجملة في محل نصب على الحال. قال ابن عطية: واللام في ليطفئوا لام مؤكدة نخلت على المفعول؛ لأن التقدير: يريدون أن يطفئوا، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقمّ كقولك: لزيد ضربت، ولرويتك قصدت، وقيل: هي لام العلة، والمفعول محنوف أي: يريدون إبطال القرآن، أو نفع الإسلام، أو هلاك الرسول؛ ليطفئوا، وقيل: إنها بمعنى أن الناصبة، وأنها ناصبة بنفسها. قال الفراء: العرب تجعل لام كي في موضع أن في أراد وأمر، وإليه ذهب الكسائي، ومثل هذا قوله: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ [النساء: 26]. وجملة: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها، والهدى القرآن، أو المعجزات، ومعنى ﴿دين الحق﴾: الملة الحقّة، وهي ملة الإسلام؛ ومعنى ﴿ليظهره﴾: ليجعله ظاهراً على جميع الأديان عالياً عليها غالباً لها، ولو كره المشركون ذلك، فإنه كائن لا محالة. قال مجاهد: ذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام، والدين مصدر يعبر به عن

ما أنتم عليه من نصرة الدين. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع (أنصاراً لله) بالتثنية، وترك الإضافة. وقرأ الباقر بالإضافة، والرسم يحتمل القراءتين معاً، واختار أبو عبيدة قراءة الإضافة لقوله: ﴿نحن أنصار الله﴾ بالإضافة ﴿كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله﴾ أي: أنصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى: ﴿من أنصاري إلى الله﴾ فقالوا: ﴿نحن أنصار الله﴾ والكاف في ﴿كما قال﴾ نعت مصدر محذوف تقديره: كونوا كوناً، كما قال، وقيل: الكاف في محل نصب على إضمار الفعل، وقيل: هو كلام محمول على معناه بون لفظه، والمعنى: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصاري إلى الله، وقوله: ﴿إلى الله﴾ قيل: إلى بمعنى مع أي: من أنصاري مع الله، وقيل: التقدير من أنصاري فيما يقرب إلى الله، وقيل: التقدير: من أنصاري متوجهاً إلى نصرة الله، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة آل عمران، والحواريون هم أنصار المسيح وخلص أصحابه، وأول من آمن به، وقد تقدم بيانهم ﴿فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ أي: أمنت طائفة بعيسى وكفرت به طائفة، وذلك لأنهم لما اختلفوا بعد رفعه تفرقوا وتقاتلوا ﴿فايننا للذين آمنوا على عدوهم﴾ أي: قوينا المحقين منهم على المبطلين ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ أي: عالين غالبين، وقيل المعنى: فأيننا الآن المسلمين على الفريقتين جميعاً.

وقد أخرج ابن مريويه عن أبي هريرة قال: قالوا: لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله؟ فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا هل ألكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم﴾ ففكروا، فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ إلى قوله: ﴿بنيان مرصوص﴾ [الصف: 2 - 4]. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله جاء سبعون رجلاً، فبايعوه عند العقبة وآووه ونصروهم حتى أظهر الله دينه. وأخرج ابن إسحاق، وابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لقوه بالعقبة: «أخرجوا إلي اثني عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم». وأخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ للنقباء: «إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل قومي، قالوا: نعم». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿فايننا الذين آمنوا﴾ قال: فقوينا الذين آمنوا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه، فأيننا الذين آمنوا بمحمد ﷺ وأمته على عدوهم، فأصبحوا اليوم ظاهرين.

الإنفاق والتجهز إلى الجهاد. قرأ الجمهور (تؤمنون) وقرأ ابن مسعود (أمنوا، وجاهدوا) على الأمر. قال الأخفش: تؤمنون عطف ببيان لتجارة، والأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبنية لما قبلها، والإشارة بقوله: ﴿أنلكم﴾ إلى ما نكر من الإيمان والجهاد، وهو مبتدأ، وخبره ﴿خير لكم﴾ أي: هذا الفعل خير لكم من أموالكم وأنفسكم ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي: إن كنتم ممن يعلم، فإنكم تعلمون أنه خير لكم، لا إذا كنتم من أهل الجهل، فإنكم لا تعلمون ذلك ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ هذا جواب الأمر المملول عليه بلفظ الخبر، ولهذا جزم. قال الزجاج، والميرد: قوله: ﴿تؤمنون﴾ في معنى آمنوا، ولذلك جاء يغفر لكم مجزوماً. وقال الفراء: يغفر لكم جواب الاستفهام، فجعله مجزوماً لكونه جواب الاستفهام، وقد غلط بعض أهل العلم. قال الزجاج: ليسوا إذا نلهم على ما ينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا. وقال الرازي في توجيه قول الفراء: إن «هل أنلكم» في معنى الأمر عنده، يقال: هل أنت سالت أي: اسكت، وبيانه أن هل بمعنى الاستفهام، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً، والحث كالإغراء، والإغراء أمر. وقرأ زيد بن علي (تؤمنوا، وتجاهدوا) على إضمار لام الأمر. وقيل: إن «يغفر لكم» مجزوم بشرط مقتر أي: إن تؤمنوا يغفر لكم، وقرأ بعضهم بالإدغام في يغفر لكم، والأولى ترك الإدغام؛ لأن الراء حرف متكرر، فلا يحسن إدغامه في اللام ﴿ويبخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ قد تقدم بيان كيفية جري الأنهار من تحت الجنات ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ أي: في جنات إقامة ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي: ذلك المنكور من المغفرة، وإنخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو الفوز الذي لا فوز بعده، والظفر الذي لا ظفر يماثلهُ ﴿ولآخرى تحبونها﴾ قال الأخفش، والفراء: أخرى معطوفة على تجارة فهي في محل خفض أي: وهل ألكم على خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة، وقيل: هي في محل رفع أي: ولكم خصلة أخرى، وقيل: في محل نصب أي: ويعطيكم خصلة أخرى. ثم بين سبحانه هذه الأخرى فقال: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ أي: هي نصر من الله لكم، وفتح قريب يفتح عليكم، وقيل: نصر يدل من أخرى على تقدير كونها في محل رفع، وقيل: التقدير ولكم نصر وفتح قريب. قال الكلبي: يعني النصر على قريش وفتح مكة. وقال عطاء: يريد فتح فارس والروم ﴿ويبشر المؤمنين﴾ معطوف على محذوف أي: قل يا أيها الذين آمنوا، وبشر، أو على تؤمنون؛ لأنه في معنى الأمر، والمعنى: وبشر يا محمد المؤمنين بالنصر والفتح، أو: وبشرهم بالنصر في الدنيا والفتح، وبالجنة في الآخرة، أو: وبشرهم بالجنة في الآخرة. ثم حض سبحانه المؤمنين على نصرة دينه فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾ أي: نوموا على

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجمعة بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله. وأخرج مسلم، وأهل السنن عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة سورة الجمعة و﴿إِذَا جَاءَكِ الْمُنَافِقُونَ﴾ [أي: سورة المنافقون]. وأخرج مسلم، وأهل السنن عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن حبان، والبيهقي في سننه عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [أي: سورة الكافرون] و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [أي: سورة الإخلاص] وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّكَّانِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَقُولُ عَلَيْهِمْ آمِنُوا بِهِمْ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْسَ صَلَّيْ بِمِثْلِي ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الصَّالَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ أَكْدُو كَدُّوا بِأَيْدِي اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَرْسِلَ اللَّهُ مِنْ دُونِ الْكَافِرِينَ فَتَنَّا الْمُؤْمِنَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَذَكَّرُ أَلَّا بِمَا فَدَسَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الْأَدْنَى يُعْرَضُ لَهُ فَيُخَذُّ مِنْكُمْ مَثَلًا لَمْ تُحْيُوا لِلْآلَةِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْفَخُ فِيكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قد تقدم تفسير هذا في أول سورة الحديد، وما بعدها من المسبحات ﴿الملك القدوس العزيز الحكيم﴾ قرأ الجمهور بالجر في هذه الصفات الأربع على أنها نعت لله، وقيل: على البدل، والأول أولى. وقرأ أبو وائل بن محارب، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، وروبة بالرفع على إضمار مبتدأ. وقرأ الجمهور (الفتوس) بضم القاف، وقرأ زيد بن علي بفتحها، وقد تقدم تفسيره ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾ المراد بالأميين العرب، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، والامي في الأصل الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وكان غالب العرب كذلك، وقد مضى بيان معنى الأمي في سورة البقرة، ومعنى ﴿منهم﴾ من أنفسهم، ومن جنسهم، ومن جملتهم، وما كان حي من أحياء العرب إلا ورسول الله ﷺ فيهم قرابة، ووجه الامتتان بكونه منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة؛ لأن الجنس

أميل إلى جنسه وأقرب إليه ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يعني: القرآن مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولا تعلم تلك من أحد، والجملة صفة لرسولاً، وكذا قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال ابن جريج، ومقاتل: أي: يطهرهم من نَسِ الكفر والذنوب، وقال السدي: يأخذ زكاة أموالهم، وقيل: يجعلهم أذكى القلوب بالإيمان ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ هذه صفة ثالثة لرسولاً، والمراد بالكتاب القرآن، وبالحكمة السنة، كذا قال الحسن. وقيل: الكتاب الخط بالقلم، والحكمة الفقه في الدين، كذا قال مالك بن أنس ﴿وإن كانوا من قبل بعثت فيهم في شرك وذهاب مبين﴾ أي: وإن كانوا من قبل بعثت فيهم في شرك وذهاب عن الحق ﴿وآخرين منهم﴾ معطوف على الأميين أي: بعث في الأميين وبعث في آخرين منهم ﴿لما يلحقوا بهم﴾ تلك الوقت، وسيلحقون بهم من بعد، أو هو معطوف على المفعول الأول في يعلمهم أي: ويعلم آخرين، أو على مفعول يزكّيهم أي: يزكّيهم ويذكر آخرين منهم، والمراد بالآخرين من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة، وقيل: المراد بهم من أسلم من غير العرب، وقال عكرمة: هم التابعون. وقال مجاهد: هم الناس كلهم، وكذا قال ابن زيد، والسدي، وجملة ﴿لما يلحقوا بهم﴾ صفة لآخرين، والضمير في منهم ولهم راجع إلى الأميين، وهذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتي بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة، وهو ﷺ، وإن كان مرسلأ إلى جميع الثقيلين، فتخصيص العرب ها هنا لقصد الامتتان عليهم، وذلك لا ينافي عموم الرسالة، ويجوز أن يراد بالآخرين العجم؛ لأنهم وإن لم يكونوا من العرب فقد صاروا بالإسلام منهم، والمسلمون كلهم أمة واحدة وإن اختلفت أجناسهم ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: بليغ العزة والحكمة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم نكره. وقال الكلبي: يعني: الإسلام. وقال قتادة: يعني: الوحي والنبوة. وقيل: إلحاق العجم بالعرب، وهو مبتدأ، وخبره ﴿فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي: يعطيه من يشاء من عباده ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يساويه فضل ولا يدانيه ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها﴾ ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً فقال: ﴿مثل الذين حملوا التوراة﴾ أي: كلفوا القيام بها والعمل بما فيها ﴿ثم لم يحملوها﴾ أي: لم يعملوا بموجبها، ولا أطاعوا ما أمروا به فيها ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ هي جمع سفر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبل؟ فهكذا اليهود. وقال الجرجاني: هو يعني: حملوا من الحماله بمعنى الكفالة أي: ضمنوا أحكام التوراة، وقوله: ﴿يحمل﴾ في محل نصب على الحال، أو صفة للحمار إذ ليس المراد به حماراً معيناً، فهو في حكم النكرة، كما في قول الشاعر:

ولقد امر على اللثيم يسبني فمضيت ثم قلت لا يعنيني

﴿بئس مثل القوم الذين كتبوا بآيات الله﴾ أي: بئس

هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده على سلمان الفارسي، وقال: والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثرثيا لئله رجال من هؤلاء». وأخرجه أيضاً مسلم من حديثه مرفوعاً بلفظ: «لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال من فارس، أو قال: من أبناء فارس». وأخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال: «لو كان الإيمان بالثرثيا لئله ناس من أهل فارس». وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والضياء عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء من امتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ **﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** قال: الدين. وأخرج عبد بن حميد عن طريق الكلبي عن أبي صالح عنه **﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها﴾** قال: اليهود. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **﴿وَأَسْفَارُ﴾** قال: كتباً.

يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا كَبِيرًا فَلْيَقْبَلُوا رَبَّاهُمْ وَلَئِنْ رَأَوْا تَحَضُّرَهُ أَوْ قَوْا أَنفُسَهُمْ لَنَيَّا وَتَرَكُوهُ قَلْبًا قَلَّ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّوْثِ وَمَنْ أَجْزَلُ وَأَلَلَّهُ خَيْرٌ مِنَ الرَّزِينِ ﴿١٢﴾

قوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾** أي: وقع النداء لها، والمراد به الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة؛ لأنه لم يكن على عهد رسول الله ﷺ نداء سواه، وقوله: **﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾** بيان لإذا وتفسير لها. وقال أبو البقاء: إن من بمعنى: في، كما في قوله: **﴿أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾** [قاطر 40] أي: في الأرض. قرأ الجمهور (الجمعة) بضم الميم. وقرأ عبد الله بن الزبير، والأعمش بإسكانها تخفيفاً. وهما لغتان، وجمعها جمع وجمعات. قال الفراء: يقال: الجمعة بسكون الميم وفتحها وبضمها. وهي صفة لليوم أي: يوم يجمع الناس. قال الفراء أيضاً، وأبو عبيد: والتخفيف أخف وأقيس، نحو غرفة وغرف، وطرفة وطرف، وحجرة وحجر. وفتح الميم لغة عقيل. وقيل: إنما سميت جمعة؛ لأن الله جمع فيها خلق آدم، وقيل: لأن الله فرغ فيها من خلق كل شيء، فاجتمعت فيها جميع المخلوقات، وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة **﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾** قال عطاء: يعني الذهاب والمشي إلى الصلاة. وقال الفراء: المضى والسعي والذهاب في معنى واحد، ويدل على ذلك قراءة عمر بن الخطاب، وابن مسعود (فامضوا إلى نكر الله) وقيل: المراد القصد. قال الحسن: والله ما هو سعي على الأقدام ولكنه قصد بالقلوب والنيات، وقيل: هو العمل كقوله: **﴿مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾** [الإسراء 19] وقوله: **﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَتَى﴾** [الليل 4] وقوله:

مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، على أن التمييز محذوف، والفاعل المفسر به مضمرة، ومثل القوم هو المخصوص بالذم، أو مثل القوم فاعل بش، والمخصوص بالذم الموصول بعده على حذف مضاف أي: مثل الذين كذبوا، ويجوز أن يكون الموصول صفة للقوم، فيكون في محل جر، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: بش مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء **﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** يعني: على العموم، فيدخل فيهم اليهود بخلاف أولياً **﴿قل يا أيها الذين هادوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾** المراد: بالذين هادوا الذين تهودوا، وذلك أن اليهود ادَّعوا الفضيلة على الناس، وأنهم أولياء الله من دون الناس، كما في قولهم: **﴿نحن أبناء الله وأحببناه﴾** [المائدة: 18] وقولهم: **﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾** [البقرة: 111] فأمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم لما ادَّعوا هذه الدعوى الباطلة **﴿فَتَقْتُلُوا لِلْمَوْتِ﴾** لتصيروا إلى ما تصيرون إليه من الكرامة في زعمكم **﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** في هذا الزعم، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحب الخلوص من هذه الدار. قرأ الجمهور (فقتلوا) بضم الواو، وقرأ ابن السميع بفتحها تخفيفاً، وحكى الكسائي إبدال الواو همزة، ثم أخبر الله سبحانه أنهم لا يفعلون ذلك أبداً بسبب ذنوبهم فقال: **﴿وَلَا يَتِمُّونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمْتُمْ لِنَفْسِكُمْ﴾** أي: بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي، والتحريف والتبديل **﴿والله عليم بالظالمين﴾** يعني: على العموم، وهؤلاء اليهود داخلون فيهم بخلاف أولياً. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم بأن الفرار من الموت لا ينجيهم، وأنه نازل بهم، فقال: **﴿قُلْ إِنْ لِلْمَوْتِ الَّذِي تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَاقِيكُمْ﴾** لا محالة، ونازل بكم بلا شك، والفاء في قوله: **﴿فإنه﴾** داخلة لتضمن الاسم معنى الشرط، قال الزجاج: لا يقال: إن زيداً فمطلق، وما هنا قال: فإنه ملاقيكم لما في معنى الذي من الشرط والجزاء أي: إن فررتُم منه، فإنه ملاقيكم، ويكون مبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه، وقيل: إنها مزيدة، وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله **﴿تَفْرُونَ مِنْهُ﴾** ثم ابتداء فقال **﴿فإنه ملاقيكم﴾** ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة **﴿وذلك يوم القيامة﴾** فينبئكم بما كنتم تعملون **﴿من الأعمال القبيحة، ويجازيكم عليها﴾**.

وقد أخرج ابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة في التوراة بسبعمائة آية **﴿يسبح الله ما في السموات وما في الأرض للملك القدوس العزيز الحكيم﴾** أول سورة الجمعة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إننا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب». وأخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ حين نزلت سورة الجمعة، فتلاه، فلما بلغ **﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾** قال له رجل: يا رسول الله من

اللذين ذهبتم إليهما، وتركتم البقاء في المسجد، وسماع خطبة النبي ﷺ لأجلها ﴿وَالله خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فمنه اطلبوا الرزق، وإليه توسلوا بعمل الطاعة، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق وأعظم ما يجلبه.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قلت: «يا رسول الله لأي شيء سمي يوم الجمعة؟ قال: لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم، وفيه الصعقة والبعة، وفي آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها بدعوة استجاب له». وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن سلمان قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري ما يوم الجمعة؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قالها ثلاث مرات، ثم قال في الثالثة: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم آدم أفلا أحننكم عن يوم الجمعة»، الحديث. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة، وفي الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم.

ورد في فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة، وكذلك في فضل صلاة الجمعة وعظيم أجرها، وفي الساعة التي فيها، وأنه يستجاب الدعاء فيها، وقد أوضحت ذلك في شرحي للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن خرشة بن الحر قال: رأى معي عمر بن الخطاب لوحاً مكتوباً فيه ﴿إِذَا نُوذِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فقال: من أملى عليك هذا؟ قلت أبي بن كعب، قال: إن أبياً أقرأنا للمسنوخ أقرأها (فامضوا إلى ذكر الله) وروى هؤلاء ما عدا أبا عبيد عن ابن عمر قال: لقد توفي رسول الله ﷺ، وما نقرأ هذه الآية التي في سورة الجمعة إلا (فامضوا إلى ذكر الله) وأخرجه عنه أيضاً الشافعي في الأم، وعبد الرزاق، والغريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأخرجوا كلهم أيضاً عن ابن مسعود أنه كان يقرأ (فامضوا إلى ذكر الله) قال: ولو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط رداي. وأخرج عبد بن حميد عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: فامضوا. وأخرج عبد بن حميد عنه أن السعي العمل. وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب: أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ كانا يختلفان في تجارتها إلى الشام، فربما قدما يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب، فيدعونه ويقومون، فنزلت الآية: ﴿وَذُرُوا الْبَيْعَ﴾ فحرم عليهم ما كان قبل ذلك. وأخرج ابن جرير عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ قال: ليس لطلب دنيا، ولكن عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله. وأخرج ابن مردويه عن

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: 39] قال القرطبي: وهذا قول الجمهور، ومنه قول زهير:

سعى بعدهم قوم لكي يدركهم

وقال أيضاً:

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعدما تنزل ما بين العشيرة بالدم أي: فاعملوا على المضى إلى نكر الله، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والوضوء والتوجه إليه، ويؤيد هذا القول قول الشاعر:

أسعى على جبل بني مالك كل امرئ في شأنه ساعي ﴿وَذُرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: اتركوا المعاملة به، ويلحق به سائر المعاملات. قال الحسن: إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع، والإشارة بقوله: ﴿نَلْعَمَكُم﴾ إلى السعي إلى نكر الله، وترك البيع، وهو مبتدأ، وخبره ﴿خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي: خير لكم من فعل البيع، وترك السعي لما في الامتثال من الأجر والجزاء. وفي عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجباً للعقوبة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم، فإنه لا يخفى عليكم أن نلكم خير لكم ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي: إذا فعلتم الصلاة وأنيتوها وفرغتم منها ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: من رزقه الذي يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح في المعاملات والمكاسب، وقيل: المراد به ابتغاء ما عند الله من الأجر بعمل الطاعات، واجتناب ما لا يحل ﴿وَأَنْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: نكراً كثيراً بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروي والدنيوي، وكذا أنكروه بما يقربكم إليه من الإنكار، كالحمد، والتسبيح، والتكبير، والاستغفار، ونحو ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي: كي تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا لَفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ سبب نزول هذه الآية أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة، فاقبلت غير من الشام، والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً في المسجد. ومعنى ﴿لَفَضُّوا إِلَيْهَا﴾: تفرقوا خارجين إليها. وقال المبرد: ملأوا إليها، والضمير للتجارة، وخصت بإرجاع الضمير إليها بون الله؛ لأنها كانت أهم عندهم، وقيل التقدير: وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهواً انفضوا إليه، فحذف الثاني لدلالة الأول عليه، كما في قول الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف وقيل: إنه اقتصر على ضمير التجارة؛ لأن الانفضاض إليها إذا كان مزمعاً مع الحاجة إليها، فكيف بالانفضاض إلى الله، وقيل: غير ذلك ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: على المنبر؛ ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للأخرة خير من العمل للدنيا، فقال: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: من الجزء العظيم وهو الجنة ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾

وحضروا مجلسك، وجواب الشرط قالوا، وقيل: محذوف، وقالوا: حال، والتقدير: جاءوك قائلين كيت وكيت، فلا تقبل منهم، وقيل: الجواب ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ وهو بعيد ﴿قالوا نشهد أنك لرسول الله﴾ أكدوا شهادتهم بأنّ واللام للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم مع خلوص اعتقادهم، والمراد بالمنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، ومعنى نشهد نحلف، فهو يجري مجرى القسم، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم، ومن هذا قول قيس بن ذريح:

وأشهد عند الله أنني أحبها فهذا لها عندي فما عندها ليا ومثل نشهد نعلم، فإنه يجري مجرى القسم كما في قول الشاعر:

ولقد علمت لتأتين منيتي إن المنيا لا تطيش سهامها
وجملة ﴿والله يعلم أنك لرسوله﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها، وهو ما أظهره من الشهادة، وإن كانت بواطنهم على خلاف ذلك ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ أي: في شهادتهم التي زعموا أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد، لا إلى منطق كلامهم، وهو الشهادة بالرسالة، فإنه حق، والمعنى: والله يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم من التأكيد الدال على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد وطمأنينة قلب، وموافقة باطن لظاهر ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ أي: جعلوا حلفهم الذي حلفوا لكم به إنهم لمنكم، وإن محمداً لرسول الله وقلية تقيهم منكم، وسترة يستترون بها من القتل والأسر، والجملة مستأنفة لبيان كذبهم وحلفهم عليه، وقد تقدم قول من قال إنها جواب الشرط. قرأ الجمهور (إيمانهم) بفتح الهمزة، وقرأ الحسن بكسرها، وقد تقدم تفسير هذا في سورة المجادلة ﴿فقصوا عن سبيل الله﴾ أي: منعوا الناس عن الإيمان والجهاد، وأعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك والقدح في النبوة. هذا معنى الصد الذي بمعنى الصرف، ويجوز أن يكون من الصدود أي: أعرضوا عن الدخول في سبيل الله وإقامة أحكامه ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ من النفاق والصد، وفي ساء معنى التعجب، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم ذكره من الكذب، والصد، وقبح الأعمال، وهو مبتدأ، وخبره ﴿بأنهم آمنوا﴾ أي: بسبب أنهم آمنوا في الظاهر نفاقاً ﴿ثم كفروا﴾ في الباطن، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين، وأظهروا الكفر للكافرين، وهذا صريح في كفر المنافقين، وقيل: نزلت الآية في قوم آمنوا ثم ارتدوا، والأول أولى، كما يفيد السياق ﴿فقطع على قلوبهم﴾ أي: ختم عليها بسبب كفرهم. قرأ الجمهور (فقطع) على البناء للمفعول، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور بعده، وقرأ زيد بن علي على البناء للمفاع، والفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه، ويدل على هذا قراءة الاعمش (فقطع الله على قلوبهم) ﴿فهم لا يفقهون﴾ ما فيه من صلاحهم ورشادهم، وهو الإيمان ﴿وإذا رأيتمهم تعجبك لجاتهم﴾ أي: هيئاتهم ومناظرهم، يعني: أن لهم أجساماً

ابن عباس في الآية قال: «لم تؤمروا بشيء من طلب الدنيا إنما هو: عيادة مريض، وحضور جنازة، وزيارة أخ في الله». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عير المدينة، فابتدراها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً، أنا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله: ﴿وإذا راوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ إلى آخر السورة. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال: «جاءت عير عبد الرحمن بن عوف تحمل الطعام، فخرجوا من الجمعة بعضهم يريد أن يشتري، وبعضهم يريد أن ينظر إلى نحية، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر، وبقي في المسجد اثنا عشر رجلاً وسبع نسوة، فقال رسول الله ﷺ: لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم ناراً. وفي الباب روايات متضمنة لهذا المعنى عن جماعة من الصحابة وغيرهم.

تفسير سورة المنافقون

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المنافقين بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج سعيد بن منصور، والطبراني في الأوسط، قال السيوطي بسند حسن عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة، فيحرض بها على المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين، فيقرع بها المنافقين. وأخرج البزار، والطبراني عن أبي عتبة الخولاني مرفوعاً نحوه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُتُفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتُفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَنْ قُلُوبِهِمْ فَمَهَرُ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَمَجَّجَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يُحَسِّنُونَ كُلٌّ صِغَرُ عَلَيْهِمْ هَرُ الْمَدْرُ فَاصْدَرُوا مِنَّا اللَّهُ أَنَّهُ يُؤَكِّدُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ كَاذِبُونَ فَاصْتَفَرُوا لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ قَوْلًا رُّوسَةً وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعِدُوا عَنْ مَن عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُتُفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَنْ نَّجْعَزَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لَخُجْرَتِ الْأَعْرَابِ مِثْنَا الْأَدَلِّ وَلِلَّهِ أَلْمِزَةٌ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتُفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

قوله: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ أي: إذا وصلوا إليك

﴿أَنْتَى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق، ويميلون عنه إلى الكفر. قال قتادة: معناه يعلنون عن الحق. وقال الحسن معناه يصرفون عن الرشد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: إذا قال لهم القائل من المؤمنين قد نزل فيكم ما نزل من القرآن، فتوبوا إلى الله ورسوله، وتعالوا يستغفر لكم رسول الله ﴿لَوْوَا رَعَوْهُمْ﴾ أي: حركوها استهزاء بذلك. قال مقاتل: عطفوا رءوسهم رغبة عن الاستغفار. قرأ الجمهور (لَوْوَا) بالتشديد. وقرأ نافع بالتخفيف، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصْضَوْنَ﴾ أي: يعرضون عن قول من قال لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول الله، أو يعرضون عن رسول الله ﷺ، وجملة ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى، وهي يَصْضَوْنَ؛ لأن الرؤية بصرية، فيصنَوْنَ في محل نصب على الحال، والمعنى: ورأيتهم صائين مستكبرين ﴿سِوَاهُمْ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: الاستغفار وعدمه سواء لا ينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق، واستمرارهم على الكفر. قرأ الجمهور (استغفرت) بهمزة مفتوحة من غير مد، وحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها. وقرأ يزيد بن القعقاع بهمزة ثم ألف ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: ما داموا على النفاق ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الكاملين في الخروج عن الطاعة، والانهمك في معاصي الله، ويدخل فيهم المنافقون بخلاً أولياً، ثم نكر سبحانه بعض قبائحهم فقال: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ أي: حتى يتفرقوا عنه، يعنون بذلك فقراء المهاجرين، والجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل لفسقهم، أو لعدم مغفرة الله لهم. قرأ الجمهور (ينفضوا) من الانفضاض، وهو التفرق، وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي (ينفضوا) من انفض القوم: إذا فئت أزوادهم، يقال: نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض. ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال: ﴿وَهُوَ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين؛ لأن خزائن الرزق له فيعطى من شاء ما شاء، ويمنع من شاء ما شاء ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك، ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله عز وجل، وأنه الباسط القايض المعطي المانع. ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال: ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجِعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ القائل لهذه المقالة هو عبد الله بن أبي راس المنافقين، وعنى بالأعز نفسه ومن معه، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه، ومراده بالرجوع رجوعهم من تلك الغزوة، وإنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم، وهو عبد الله بن أبي، لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم، وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون. ثم رد الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال: ﴿وَهُوَ الْعَزَّ وَرَسُولُهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: القوة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحيه

تعجب من يراها لما فيها من النضارة والرونق ﴿وَأَنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ فتحسب أن قولهم حق وصق لفصاحتهم، وذلاقة أسنتهم، وقد كان عبد الله بن أبي رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، وكان يحضر مجلس النبي ﷺ، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته. قال الكلبي: المراد عبد الله بن أبي، وجد بن قيس، ومعتب بن قيس كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة، والخطاب للنبي ﷺ، وقيل: لكل من يصلح له، ويدل عليه قراءة من قرأ (يسمع) على البناء للمفعول، وجملة ﴿كَانَهُمْ خَشَبٌ مَسْنَدَةٌ﴾ مستأنفة لتقرير ما تقدم من أن أجسامهم تعجب الراشي وتروق الناظر، ويجوز أن تكون في محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، شبهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ﷺ مستنئين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التي لا تفهم ولا تعلم، وهم كذلك لخلوهم عن الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه، قال الزجاج: وصفهم بتمام الصور، ثم أعلم أنهم في ترك الفهم والاستبصار بمنزلة الخشب. قرأ الجمهور (خشب) بضمين، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وقنبل بإسكان الشين، وبها قرأ البراء بن عازب، واختارها أبو عبيد؛ لأن واحدها خشبة كينة وبدن، واختار القراءة الأولى أبو حاتم. وقرأ سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب بفتحيتين، ومعنى ﴿مَسْنَدَةٌ﴾: أنها أسندت إلى غيرها، من قولهم: أسندت كذا إلى كذا، والتشديد للتكثير. ثم عابهم الله سبحانه بالجبين، فقال: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم نازلة بهم لفرط جبنتهم ورعب قلوبهم، وفي المفعول الثاني للحسبان وجهان: أحدهما أنه عليهم، ويكون قوله: ﴿هُمْ الْعُدُوُّ﴾ جملة مستأنفة؛ لبيان أنهم الكاملون في العداوة لكونهم يظهرون غير ما يبطنون، والوجه الثاني أن المفعول الثاني للحسبان هو قوله: ﴿هُمْ الْعُدُوُّ﴾، ويكون قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلقاً بصيحة، وإنما جاء بضمير الجماعة باعتبار الخبر، وكان حقه أن يقال: هو العدو، والوجه الأول أولى. قال مقاتل، والسدي: أي إذا نادى منادى في العسكر، أو انفطت دابة، أو أنشدت ضالة ظنوا أنهم المرابون لما في قلوبهم من الرعب، ومن هذا قول الشاعر:

ما زلت تحسب كل شيء بعدم خيلاً تكرر عليهم ورجالا
وقيل: كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم، ويبيح دماءهم وأموالهم. ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يأخذ حذرهم فقال: ﴿فَاحْذَرُهُمْ﴾ أن يتمكنوا من فرصة منك، أو يطلعوا على شيء من أسرارك؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار. ثم دعا عليهم بقوله: ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنْتَى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: لعنهم الله، وقد تقول العرب هذه الكلمة على طريقة التعجب، كقولهم: قاتله الله من شاعر، أو ما أشعره، وليس بمراد هنا، بل المراد منهم وتوبيخهم، وهو طلب من الله سبحانه طلبه من ذاته عز وجل أن يلعنهم ويخزيهم، أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك؛ ومعنى

أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقْ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٥﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

لما نكر سبحانه قبائح المنافقين رجع إلى خطاب المؤمنين مرغياً لهم في نكره فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَاكُمْ عَنْ نَكْرِ اللَّهِ﴾ فحذرهم عن اخلاق المنافقين الذين الهتهم أموالهم وأولادهم عن نكر الله ومعنى ﴿لَا تَلْهَكُمْ﴾ لا تشغلכם، والمراد بالذكر فرائض الإسلام، قاله الحسن. وقال الضحاك: الصلوات الخمس، وقيل: قراءة القرآن، وقيل: هو خطاب للمنافقين، ووصفهم بالإيمان لكونهم آمنوا تظاهراً، والأول أولى ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: يُلْهِمِ بالدنيا عن الدين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران ﴿وَأَنْتَفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ الظاهر أن المراد الإنفاق في الخير على عمومه، ومن للتبعيض أي: أنفقوا بعض ما رزقناكم في سبيل الخير، وقيل: المراد الزكاة المفروضة ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ لِحُكْمِ الْمَوْتِ﴾ بأن تنزل به أسبابه، ويشاهد حضور علاماته، وقَدِمَ المفعول على الفاعل للاهتمام ﴿فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: يقول عند نزول ما نزل به منادياً لربه هلا أمهلتنى وأخرت موتي إلى أجل قريب أي: أمد قصير ﴿فَاصْصَبْ﴾ أي: فأتصقب بمالي ﴿وَإِذَا كُنْتَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قرأ الجمهور (فاصْصَبْ) بادغام التاء في الصاد، وانتصابه على أنه جواب التمني، وقيل: إن لا في لولا زائدة، والأصل لو أخرتني. وقرأ أبي، وابن مسعود، وسعيد بن جبيرة (فَاتَّصَقْ) بدون إدغام على الأصل. وقرأ الجمهور (وَإِذَا كُنْتَ) بالجزم على محل، فاتصق، كأنه قيل: إن قيل: إن أخرتني اتصق وأكن. قال الزجاج: معناه هلا أخرتني، وجزم أكن على موضع، فاصصق؛ لأنه على معنى إن أخرتني أصصق وأكن. وكذا قال أبو علي الفارسي، وابن عطية، وغيرهم. وقال سيبويه حاكياً عن الخليل: إنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني، وجعل سيبويه هذا نظير قول زهير:

بدالي أني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً
فخضض، ولا سابق عطفاً على مدرك الذي هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه. وقرأ أبو عمرو، وابن محيصن، ومجاهد (وَإِذَا كُنْتَ) بالانصب عطفاً على فاصصق، ووجهها واضح. ولكن قال أبو عبيد: رأيت في مصحف عثمان (وَإِذَا كُنْتَ) بغير واو، وقرأ عبيد بن عمير (وَإِذَا كُنْتَ) بالرفع على الاستئناف أي: وأنا أكون. قال الضحاك: لا ينزل بأحد الموت لم يحج ولم يؤد زكاة إلا سأل الرجعة، وقرأ هذه الآية: ثم أجاب الله سبحانه عن هذا التمني فقال: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ أي: إذا حضر أجلها وانقضى عمرها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء منه، فهو مجازيكم بأعمالكم. قرأ الجمهور (تعملون) بالفرقية على الخطاب، وقرأ أبو بكر عن عاصم، والسلمي بالتحية على الخبر.

عباده لا لغيرهم. اللهم كما جعلت العدة للمؤمنين على المنافقين، فاجعل العدة للعائلين من عبادك، وأنزل النلة على الجائرين الظالمين ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بما فيه النفع في فعلونه، وبما فيه الضرر فيجتنبونه، بل هم كالانعام لفرط جهلهم ومزيد حيرتهم، والطبع على قلوبهم.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فاصاب الناس شدة، فقال عبد الله بن أبي لهب: ﴿لَا تَنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ من حوله، وقال: ﴿لَنْ رَجِعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ فاتيت النبي ﷺ، فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أبي، فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل، فقالوا: كذب زيد رسول الله، فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقي في ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾، فدعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم، فلووا رموسهم، وهو قوله: ﴿كَانَهُمْ خَشَبٌ مَسْنَدَةٌ﴾ قال: كانوا رجالاً أجمل شيء. وأخرجه عنه باطل من هذا ابن سعد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: إنما سماهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك وأظهروا الإيمان. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ قال: حلفهم بالله إنهم لمنكم اجتنبوا بإيمانهم من القتل والحرب. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿كَانَهُمْ خَشَبٌ مَسْنَدَةٌ﴾ قال: نخل قيام. وأخرج ابن مروي، والضياء في المختارة عنه أيضاً. قال: نزلت هذه الآية ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ في عسيف لعمر بن الخطاب. وأخرج ابن مروي عن زيد بن أرقم، وابن مسعود أنهما قرءا (لَا تَنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا من حوله). وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال: «كنا مع النبي ﷺ في غزاة. قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري يا للمهاجرين، وقال الأنصاري يا للأنصار، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: ما بال دعوة الجاهلية؟ قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال النبي ﷺ: دعوها، فإنها منتنة، فسمع ذلك عبد الله بن أبي، فقال: أو قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منه الأذل، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»، زاد الترمذي «فقال له ابنه عبد الله: والله لا تنفقت حتى تقر أنك النذل، ورسول الله العزيز، ففعل».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَاكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَنْتَفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى

قوله: ﴿يَسْبِغُ لَكَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ينزله سبحانه جميع مخلوقاته التي في سماواته وأرضه عن كل نقص وعيب ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يختصان به ليس لغيره منهما شيء، وما كان لعباده منهما، فهو من قبضه وراجع إليه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أي: فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن. قال الضحاك: فمِنْكُمْ كَافِرٌ في السرِّ مؤمن في العلانية كعمار بن ياسر ونحوه مؤمن في السرِّ كافر في العلانية كعمار بن ياسر ونحوه ممن أكره على الكفر. وقال عطاء: فمِنْكُمْ كَافِرٌ بالله مؤمن بالكواكب، ومِنْكُمْ مؤمن بالله كافر بالكواكب. قال الزجاج: إن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب مع أن الله خالق الكافر. وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قَرَّرَ ذلك عليه وعلمه منه لأن وجود خلاف المقدَّر عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل. قال القرطبي: وهذا أحسن الأقوال، وهو الذي عليه جمهور الأمة، وقَدَّمَ الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم. ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير اتبعه بخلق العالم الكبير فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالحكمة البالغة. وقيل: خلق ذلك خلقاً يقيناً لا ريب فيه، وقيل: الباء بمعنى اللام أي: خلق ذلك لإظهار الحق، وهو أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. ثم رجع سبحانه إلى خلق العالم الصغير فقال: ﴿وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ قيل: المراد آدم خلقه بيده كرامة له، كذا قال مقاتل، وقيل: المراد جميع الخلائق، وهو الظاهر أي: أنه سبحانه خلقهم في أكمل صورة وأحسن تقويم وأجمل شكل. والتصوير: التخطيط والتشكيل. قرأ الجمهور (فأحسن صوركم) بضَمِّ الصاد، وقرأ زيد بن علي، والأعمش، وأبو زيد بكسرهما ﴿وَاللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ في الدار الآخرة، لا إلى غيره ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ﴾ أي: ما تخفونه وما تظهرونه، والتصريح به مع اندراجها فيم قبله لمزيد التأكيد في الوعد والوعيد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم، وهي تذييلية ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ وهم كفار الأمم الماضية كقوم نوح، وعاد، وثمود، والخطاب لكفار العرب ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم، والوبال: الثقل والشدة، والمراد: بلمرهم هنا ما وقع منهم من الكفر والمعاصي، وبالوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ وذلك في الآخرة هو عذاب النار، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما ذكر من العذاب في الدارين، وهو مبتدأ، وخبره ﴿بِأَنَّهُ كَانَتْ تَاتِيهِمْ رُسُلُهُمْ يَدْعُوا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: بسبب أنها كانت

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ﴾ الآية قال: هم عباد من أمتي الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعن الصلوات الخمس المفروضة. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له مال يبلغه حج بيت الله، أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكافر، فقال: سألتو عليكم بذلك قرأناً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخر السورة. ولخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿فَصَلُّوا وَلَكِنْ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ قال: أحج.

تفسير سورة التغابن

وهي مدنية في قول الأكثر. وقال الضحاك: هي مكية. وقال الكلبي: هي مدنية ومكية. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله ولده، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِنْ أَنْوَاجِكُمْ وَأُولَانِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: 14 - 18] إلى آخر السورة. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه. وأخرج ابن حبان في الضعفاء، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساکر عن عبد الله بن عمر قال: قال النبي ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن» قال ابن كثير: وهو غريب جداً بل منكر. وأخرج البخاري في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال: «ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْكَلَمُ وَلَهُ الْخَبَرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَكُنْوا لَهُ كَانِئاً وَتَكُونُوا لِلَّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَلْمِزُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَلْمِزُ مَا تُشِيرُونَ وَمَا يُلْمِزُ اللَّهُ عَظِيمٌ ﴿٤﴾ يَلْمِزُ الَّذِينَ يَبْذُلُونَ ثَمَنًا أَكْثَرَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا لِنَفْسِهِمْ جَارِينَ ﴿٥﴾ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَعْزَبُونَ فَاكْفُرُوا لِرُسُلِ اللَّهِ وَاسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّؤُنَّ﴾ بل هي التي لإيجاب النفي، فالمعنى: بلَى تبعثون. ثم أقسم على ذلك، وجواب القسم لَتُبْعَثُنَّ أي: لتخرجن من قبوركم، لَتُنَبُّؤُنَّ ﴿بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لتخبرن بذلك إقامة للحجة عليكم، ثم تجزون به ﴿وَلَكُمْ﴾ البعث والجزاء ﴿عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ الإعادة أيسر من الابتداء ﴿فَأَمْنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ الفاء هي الفصيحة الدالة على شرط مقتر أي: إذا كان الأمر هكذا، فصنقوا بالله ورسوله محمد ﷺ ﴿وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَاهُ﴾ وهو القرآن؛ لأنه نور يهتدي به من ظلمة الضلال ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم، فهو مجازيك على ذلك ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ العامل في الظرف لتنبؤن، قاله النحاس. وقال غيره: العامل فيه خبير، وقيل: العامل فيه محنوف هو انكر. وقال أبو البقاء: العامل فيه ما دلَّ عليه الكلام أي: تتفاوتون يوم يجمعكم. قرأ الجمهور (يجمعكم) بفتح الياء وضم العين، وروي عن أبي عمرو إسكانها، ولا وجه لذلك إلا التخفيف، وإن لم يكن هذا موضعاً له، كما قرئ في ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ﴾ [الأنعام: 109] يسكون الراء، وكقول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحب إثمًا من الله ولا واغل

بإسكان باء أشرب، وقرأ زيد بن علي، والشعبي، ويعقوب، ونصر، وابن أبي إسحاق، والجحدري (نجمعكم) بالنون، ومعنى ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ ليوم القيامة، فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله، وبين كل نبي وأمته، وبين كل مظلوم وظالمه ﴿وَلَكُمْ يَوْمَ التَّغَابُنِ﴾ يعني: أن يوم القيامة هو يوم التغابن، وذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضاً، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر، وأهل الطاعة أهل المعصية، ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار، فنزلوا منازلهم التي كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب النار، فكان أهل النار استقبلوا الخير بالشر، والجيد بالردى، والنعيم بالعذاب، وأهل الجنة على العكس من ذلك. يقال: غبنت فلاناً إذا بايعته، أو شاربته فكان النقص عليه والغلبة، كذا قال المفسرون، فالغيبون من غبن أهلهم، ومنزله في الجنة ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ تكفر عنه سيئاته أي: من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته، قرأ الجمهور (يكفر) (ويدخله) بالتحية، وقرأ نافع، وابن عامر بالنون فيهما، وانتصاب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ على أنها حال مقترنة، والإشارة بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ إلى ما نكر من التكفير والإسخال، وهو مبتدأ، وخبره ﴿الْفَوْزَ الْعَظِيمَ﴾ أي: الظفر الذي لا يساويه ظفر. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أولئك أصحاب النار خالدين فيها ويثس المصير المراد بالآيات إما التنزيلية أو ما هو أعم منها. نكر

تأنيهم الرسل المرسله إليهم بالمعجزات الظاهرة ﴿فَقَالُوا﴾ لبشر يهودنا، أي: قال كل قوم منهم لرسولهم هذا القول منكبرين أن يكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك، وأراد بالبشر الجنس، ولهذا قال يهودنا ﴿فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ أي: كفروا بالرسول وبما جاءوا به، وأعرضوا عنهم ولم يتدبروا فيما جاءوا به، وقيل: كفروا بهذا القول الذي قالوه للرسول ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ عن إيمانهم وعبادتهم. وقال مقاتل: استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه من المعجزات، وقيل: استغنى بسلطانه عن طاعة عباده ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غير محتاج إلى العالم ولا إلى عبادتهم له، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال والحال.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي نر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مكث المني في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس، فعرج به إلى الرب فيقول: يا رب أنكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاض، فيقول: أشقي أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاق، وقرأ أبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله: ﴿وَصُورُكُمْ فَاحْسَنُ صُورُكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «العبد يولد مؤمناً، ويعيش مؤمناً، ويموت مؤمناً، والعبد يولد كافراً، ويعيش كافراً، ويموت كافراً، وإن العبد يعمل برهه من دهره بالسعادة، ثم يدركه ما كتب له فيموت شقياً، وإن العبد يعمل برهه من دهره بالشقاء، ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيداً.

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثَ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ يَسِيرٌ ﴿١﴾ قَاتِمُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُنْزِلُوا إِلَهُهُمُ مِنَ السَّمَاءِ حَيًّا ﴿٢﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْحُجَّةِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ وَعَمَلْ صَالِحاً يَكُنْ عِنْدَ رَبِّهِ. وَيُخْلَقُ جَنَّتٍ جَمْرَىٰ مِنْ عَمَلِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ يَدْفَعْ اللهُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْهُ عِندَ ﴿٥﴾ وَأَلِيعُوا اللهُ وَأَلِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَنَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْأَمِينُ ﴿٦﴾ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللهُ تَعَرُّكُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ الزعم: هو القول بالظن، ويطلق على الكذب. قال شريح: لكل شيء كنية، وكنية الكذب زعموا، ﴿وَأَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ قائم مقام مفعول زعم، وأن هي المخففة من الثقيلة لا المصدرية لئلا يبدل ناصب على ناصب، والمراد بالكفار كفار العرب؛ والمعنى: زعم كفار العرب أن الشأن لن يبعثوا أبداً. ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بأن يرد عليهم ويبطل زعمهم فقال:

فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تَنْزِجُوْا فِىْ رِزْقِكُمْ عَلٰو لَكُمْ
تَلْعٰوِيْعُمْ وَاِنْ تَعْمَلُوْا تَصَدَّقُوْا وَتَقْبَلُوْا فَاِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ
۝۱۱۱ اِنَّمَا اَمْوَالُكُمْ وَاَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَّاللّٰهُ عِنْدَهُ اَجْرٌ عَظِيْمٌ ۝۱۱۲
فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاَسْمِعُوْا وَاَنْصِتُوْا حَتّٰى لَا تَسْمِعُوْا سَمْعًا
وَّيَوْنًا شَيْءٌ نَّفِيْهِ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ۝۱۱۳ اِنْ قُرْصُوْا اللّٰهَ قُرْصًا
حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاِنَّ اللّٰهَ شَاكِرٌ عَلِيْمٌ ۝۱۱۴ عَلَيْهِ
السَّلٰمُ وَالسَّلٰوَةُ وَالْمُرُوْسَةُ لَكُمْ ۝۱۱۵

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنَ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ
عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يعني: إنهم يعاونونكم ويشغلونكم عن الخير،
ويبخل في تلك سبب النزول نخولاً أُولياً، وهو أن رجلاً من
مكة أسلموا، وأرادوا أن يهاجروا، فلم يدهم أزواجه ولا
أولادهم، فأمر الله سبحانه بأن يحزنوهم، فلا يطيعوهم في
شيء مما يريدونه منهم مما فيه مخالفة لما يريد الله،
والضمير في ﴿فاحْذَرُوهُمْ﴾ يعود إلى العدو، أو إلى الأزواج
والأولاد لكن لا على العموم، بل إلى المتصفين بالعداوة
منهم، وإنما جاز جمع الضمير على الوجه الأول؛ لأن العدو
يطلق على الواحد، والاثنتين، والجماعة، ثم أرشدهم الله إلى
التجارب، فقال: ﴿وَإِن تَعَفَّوْاْ وَتَصَفَّحُواْ وَتَغْفِرُواْ﴾ أي:
تعفوا عن نوبهم التي ارتكبوها، وتركوا التثريب عليها
وتستروها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالغ المغفرة والرحمة
لكم ولهم، قيل: كان الرجل الذي شبطه أزواجه وأولاده عن
الهِجْرَةِ إذا رأى الناس قد سبقوه إليها، وفقهوا في الدين هم
أن يعاقب أزواجه وأولاده، فأنزل الله ﴿وَإِن تَعَفَّوْاْ﴾ الآية،
والآية تعم وإن كان السبب خاصاً، كما عرفناك غير مرة. قال
مجاهد: والله ما عابوهم في الدنيا، ولكن حملتهم موبتهم
على أن اتخنوا لهم الحرام، فأعطوهم إياه. ثم أخبر الله
سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ
وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ أي: بلاء واختبار ومحنة، يحملونكم على
كسب الحرام ومنع حق الله، فلا تطيعوهم في معصية الله
﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ نَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر طاعة الله وترك معصيته
في محبة ماله وولده. ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة
فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: ما أطقتم وبلغ إليه
جهلكم. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية
نسخة لقوله سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران:
102] ومنهم قتادة، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد، وقد
أوضحنا الكلام في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل
عمران: 102] ومعنى ﴿وَأَسْمِعُواْ وَاطِيعُواْ﴾ أي: اسمعوا ما
تؤمرون به، وأطيعوا الأوامر. قال مقاتل ﴿اسْمِعُواْ﴾ أي:
اصغوا إلى ما ينزل عليكم، وأطيعوا لرسوله فيما يأمركم
وبينهاكم. وقيل: معنى ﴿اسْمِعُواْ﴾ أقبلا ما تسمعون؛ لأنه لا
فائدة في مجرد السماع ﴿وَاتَّقُواْ خَيْرًا لَّأَنفُسِكُمْ﴾ أي:

سبحانه حال السعداء، وحال الأشقياء هاهنا لبين ما تقدم من التغاين، وأنه سيكون بسبب التكفير، وإخبال الجنة للطائفة الأولى، وبسبب إخبال الطائفة الثانية النار، وخلوهم فيها ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾ أي: ما أصاب كل أحد من مصيبة من المصائب إلا بإذن الله أي: بقضائه وقدره، قال الفراء: إلا بإذن الله أي: بأمر الله، وقيل: إلا بعلم الله. قيل: وسبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ أي: من يصدق ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدره الله عليه يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء. قال مقاتل بن حيان: يهد قلبه عند المصيبة، فيعلم أنها من الله، فيسلم لقضائه ويسترجع. وقال سعيد بن جبير: يهد قلبه عند المصيبة، فيقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة: 156] وقال الكلبي: هو إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر. قرأ الجمهور (يهد) بفتح الياء، وكسر الدال أي: يهده الله، وقرأ قتادة، والسلمي، والضحاك، وأبو عبد الرحمن بضم الياء، وفتح الدال على البناء للمفعول، وقرأ طلحة بن مصرف، والأعرج، وسعيد بن جبير، وابن هرمز، والأزرق (نهد) بالنون، وقرأ مالك بن دينار، وعمرو بن دينار، وعكرمة (يهدا) بهمزة ساكنة، ورفع قلبه أي: يطمئن ويسكن ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي: بليغ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية ﴿واطيعوا الله واطيعوا الرسول﴾ أي: هؤنوا على أنفسكم المصائب، واشتغلوا بطاعة الله وطاعة رسوله ﴿فإن توليتم﴾ أي: أعرضتم عن الطاعة ﴿فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ ليس عليه غير ذلك وقد فعل، وجواب الشرط محذوف، والتقدير فلا بأس على الرسول، وجملة ﴿فإنما على رسولنا﴾ تعليل للجواب المحذوف، ثم أرشد إلى التوحيد والتوكل فقال: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: هو المستحق للعبودية دون غيره، فوحده ولا تشركوا به ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يفوضوا أمورهم إليه، ويعتمدوا عليه لا على غيره.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبيهقي، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قيل له: ما سمعت النبي ﷺ يقول: في زعموا؟ قال: سمعته يقول: «بئس مطية الرجل». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عنه أنه كره زعموا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يوم التغابن من أسماء يوم القيامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿تِلْكَ يَوْمَ التَّغَابُنِ﴾ قال: غبن أهل الجنة أهل النار، وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود في قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ قال: هي المصيبات تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ قال: يعنى يهد قلبه لليقين،

تفسير سورة الطلاق

وهي مننية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، وابن النحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الطلاق بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَ تَنْتَهِنَ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحَةٍ مِّنْهُنَّ فَإِنَّهُنَّ عِدَّةُ اللَّهِ لِمَتَّعَهُنَّ اللَّهُ بِمَا تَزَوَّجَهُنَّ فِي الدُّنْيَا وَلَهُنَّ فِي الدُّنْيَا مِثْرُ مَا لَهُنَّ فِي الْآخِرَةِ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ وَلَا تَحْبِسْنَهُنَّ بِالْعَدَّةِ أَتَانِ مَا يَحْكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ نادى النبي ﷺ أولاً تشريعاً له، ثم خاطبه مع أمته، أو الخطاب له خاصة، والجمع للتعظيم، وأمه أسوته في ذلك، والمعنى: إذا أردتم تطليقهن وعزمت عليهن ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَ تَنْتَهِنَ﴾ أي: مستقبلات لعنتهن، أو في قبل عدتهن، أو لقبل عدتهن. وقال الجرجاني: إن اللام في لعنتهن بمعنى في، أي: في عدتهن. وقال أبو حيان: هو على حذف مضاف أي: لاستقبال عدتهن، واللام للتوقيت نحو لقيته الليلة بقيت من شهر كذا، والمراد أن يطلقوهن في طهر لم يقع فيه جماع، ثم يتركن حتى تنقضي عدتهن، فإذا طلقوهن هكذا، فقد طلقوهن لعنتهن، وسيأتي بيان هذا من السنة في آخر البحث إن شاء الله ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوها، واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتم العدة، وهي ثلاثة قروء، والخطاب للزواج، وقيل: للزوجات، وقيل: للمسلمين على العموم، والاول أولى، لأن الضمائر كلها لهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ فلا تعصوه فيما أمركم ولا تضاروهن ﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: التي كنَّ فيها عند الطلاق ما دمن في العدة، وأضاف البيوت إليهن وهي لازواجهن لتأكيد النهي، وبيان كمال استحقاقهن للسكنى في مدة العدة، ومثله قوله: ﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 34] وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33] ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهن من البيوت التي وقع الطلاق وهنَّ فيها نهى

اتفقوا من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير ولا تبخلوا بها، وقوله: ﴿خَيْرًا لَّأَنْفُسِكُمْ﴾ منتصب بفعل مضمير دلَّ عليه اتفقوا، كأنه قال: اتفقا في الإنفاق خيراً لأنفسكم، أو قدّموا خيراً لها، كذا قال سيبويه. وقال الكسائي، والفراء: هو نعت لمصدر محذوف أي: إنفاقاً خيراً. وقال أبو عبيدة: هو خبر لكان المقدر أي: يكن الإنفاق خيراً لكم. وقال الكوفيون: هو منتصب على الحال، وقيل: هو مفعول به لأنفقوا أي: فأنفقوا خيراً. والظاهر: في الآية الإنفاق مطلقاً من غير تقييد بالزكاة الواجبة، وقيل: المراد زكاة الفريضة، وقيل: النافلة، وقيل: النفقة في الجهاد ﴿وَمَنْ يَبْذُقْ شَيْخَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاحِشُونَ﴾ أي: ومن يوق شخ نفسه، فيفعل ما أمر به من الإنفاق، ولا يمنعه ذلك منه، فأولئك هم الظافرون بكل خير الفائزون بكل مطلب، وقد تقدم تفسير هذه الآية ﴿إِنْ تَقْرَضُوا مِنَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فتصرفون أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس ﴿يُضَاعَفْ لَكُمْ﴾ فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وقد تقدم تفسير هذه الآية، واختلاف القراء في قراءتها في سورة البقرة، وسورة الحديد ﴿وَيُغْفَرْ لَكُمْ﴾ أي: يضم لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ شيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ما غاب وما حضر لا تخفى عليه منه خافية، وهو ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة. وقال ابن الأنباري: الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدْوًا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ في قوم من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ، فرأوا الناس قد فقهاوا في الدين هموا أن يعاقبهم، فنزلت إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن بريدة قال: كان النبي ﷺ يخطب، فاقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما واحداً من ذا الشق، وواحداً من ذا الشق ثم صعد المنبر فقال: «صدق الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما». وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله استقرضت عبيدي فأبى أن يقرضني، وشتمني عبيدي وهو لا يدري، يقول: وادهره، وادهره، وأنا الدهر»، ثم تلا أبو هريرة ﴿إِنْ تَقْرَضُوا مِنَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفْ لَكُمْ﴾.

﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أمراً بنفس الإشهاد، ويكون قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أمراً بأن تكون خالصة لله، والإشارة بقوله: ﴿تُنْصِرُكُمْ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالإشهاد، وإقامة الشهادة لله، وهو مبتدأ، وخبره ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وخص المؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأنه المنتفع بذلك دون غيره ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ أي: من يتق الله عذاب الله بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف على حدوده التي حدّها لعباده، وعدم مجاوزتها يجعل له مخرجاً مما وقع فيه من الشدائد والمحن ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من وجه لا يخطر بباله، ولا يكون في حسابه. قال الشعبي، والضحاك: هذا في الطلاق خاصة أي: من طلق كما أمره الله يكن له مخرج في الرجعة في العدة، وأنه يكون كاحد الخطاب بعد العدة. وقال الكلبي: ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة. وقال الحسن: مخرجاً مما نهى الله عنه. وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شيء ضاق على الناس. وقال الحسين بن الفضل: ومن يتق الله في أداء الفرائض يجعل له مخرجاً من العقوبة، ويرزقه الثواب من حيث لا يحتسب أي: يبارك له فيما آتاه. وقال سهل بن عبد الله: ومن يتق الله في اتباع السنة يجعل له مخرجاً من عقوبة أهل البدع، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب، وقيل: غير ذلك. وظاهر الآية العموم، ولا وجه للتخصيص بنوع خاص، ويخل ما فيه السياق بخلاً أولاً ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: ومن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ قرأ الجمهور (بالغ أمره) بتنوين بالغ، ونصب أمره، وقرأ حفص بالإضافة، وقرأ ابن أبي عبيدة، وداود بن أبي هند، وأبو عمرو في رواية عنه بتنوين بالغ، ورفع أمره على أنه فاعل بالغ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر، وبالحرف خبر مقدم. قال الفراء في توجيه هذه القراءة أي: أمره بالغ؛ والمعنى على القراءة الأولى، والثانية: أن الله سبحانه بالغ ما يريده من الأمر لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب، وعلى القراءة الثالثة: أن الله نافذ أمره لا يردّه شيء. وقرأ المفضل (بالغا) بالنصب على الحال، ويكون خبر إن قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: تقديرًا وتوقيئًا أو مقدارًا. فقد جعل سبحانه للشدة أجلاً تنتهي إليه، وللرخاء أجلاً ينتهي إليه. وقال السدي: هو قدر الحيض والعدة ﴿وَاللَّائِي يُمْسِنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ وهن الكبار اللاتي قد انقطع حيضهن وأيسن منه ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتن وجهلتم كيف عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنْ﴾ لصغرهن، وعدم بلوغهن سن الحيض أي: فعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وحذف هذا لدلالة ما قبله عليه ﴿وَأَوَّلَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: انتهاء عدتهن وضع الحمل، وظاهر الآية أن عدة الحوامل بالوضع سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن، وقد تقدّم الكلام في هذا في سورة البقرة مستوفى، وحققنا البحث في هذه

الزوجات عن الخروج أيضاً فقال: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: لا يخرجن من تلك البيوت ما بمن في العدة إلا لأمر ضروري، كما سيأتي بيان ذلك، وقيل: المراد لا يخرجن من أنفسهن إلا إذا اتن لهنّ الأزواج، فلا بأس، والأول أولى ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ هذا الاستثناء هو من الجملة الأولى أي: لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ، لا من الجملة الثانية. قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا، وذلك أن تزني، فتخرج لإقامة الحدّ عليها. وقال الشافعي وغيره: هي البذاء في اللسان، والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت، ويؤيد هذا ما قال عكرمة: إن في مصحف أبي (إلا أن يفحشن عليكم) وقيل المعنى: إلا أن يخرجن تعدياً، فإن خروجهنّ على هذا الوجه فاحشة، وهو بعيد، والإشارة بقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَّ﴾ إلى ما ذكر من الأحكام وهو مبتدأ، وخبره ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ والمعنى: أن هذه الأحكام التي بينها لعباده هي حدوده التي حدّها لهم لا يحل لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: يتجاوزها إلى غيرها، أو يخلّ بشيء منها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بإيرادها مورد الهلاك، وأوقعها في مواقع الضرر بعقوبة الله له على مجاوزته لحدوده وتعديه لرسمه، وجملة ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها وتعليقه. قال القرطبي: قال جميع المفسرين: أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة؛ والمعنى: التحريض على طلاق الواحدة، والنهي عن الثلاث، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضرب بنفسه عند الندم على الفراق، والرغبة في الارتجاع، فلا يجد إلى المراجعة سبيلاً. وقال مقاتل بعد ذلك أي: بعد طلبة أو طلقين أمراً بالمراجعة. قال الواحدي: الأمر الذي يحدث أن يوقع في قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلقة والطلقتين. قال الزجاج: وإذا طلقها ثلاثاً في وقت واحد، فلا معنى لقوله: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن انقضاء أجل العدة، وشارفن آخرها ﴿فَاصْكُوهُنَّ بِمَعْرِفَةٍ﴾ أي: راجعوهنّ بحسن معاشرة، ورغبة فيهنّ من غير قصد إلى مضارة لهنّ ﴿وَإِنْ فَارَقُوهُنَّ بِمَعْرِفَةٍ﴾ أي: اتركوهنّ حتى تنقضي عدتهنّ، فيملكن نفوسهنّ مع إيفائهنّ بما هو لهنّ عليكم من الحقوق، وترك المضارة لهنّ ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ على الرجعة، وقيل: على الطلاق، وقيل: عليهما قطعاً للتنازع، وحسماً لمادة الخصومة، والأمر للندب، كما في قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: 282] وقيل: إنه للوجوب، وإليه ذهب الشافعي قال: الإشهاد واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة، وإليه ذهب أحمد بن حنبل. وفي قول للشافعي: إن الرجعة لا تنقصر إلى الإشهاد كسائر الحقوق، وروي نحو هذا عن أبي حنيفة وأحمد ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقريباً إلى الله، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة البقرة، وقيل: الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة أي: الشهود عند الرجعة، فيكون قوله:

(فطلقوهن لقبل عدتهن). وأخرج ابن الأنباري، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عن مجاهد أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد الرزاق، وأبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: من أراد أن يطلق للسنة، كما أمره الله، فليطلقها طاهراً في غير جماع. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ قال: طاهراً من غير جماع، وفي الباب أحاديث. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود: ﴿وأحصوا العدة﴾ قال: الطلاق طاهراً في غير جماع. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عمر في قوله: ﴿ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال: خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها هي الفاحشة المبينة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال: الزنا. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال: الفاحشة المبينة أن تبذروا المرأة على أهل الرجل، فإذا بذت عليهم بلسانها، فقد حل لهم إخراجها. وأخرج ابن أبي حاتم عن فاطمة بنت قيس في قوله: ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ قالت: هي الرجعة. وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أن رجلاً سأل عمران بن حصين أن رجلاً طلق، ولم يشهد، قال: بشئ ما صنع، طلق في بدعة وارتجع في غير سنة، فليشهد على طلاقه وعلى مراجعته، ويستغفر الله. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ قال: مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله، وأن الله هو الذي يطفيه وهو يمنعه، وهو يبتليه وهو يعافيه وهو يدفع عنه، وفي قوله: ﴿ويورثه من حيث لا يحتسب﴾ قال: من حيث لا يدري. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ قال: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة. وأخرج الحاكم وصححه، وضعفه الذهبي من طريق سالم بن أبي الجعد عن جابر قال: «نزلت هذه الآية: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير العيال، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: اتق الله واصبر، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغم كان العدو أصابوه، فأتى رسول الله ﷺ، فسأله عنها، وأخبره خبرها، فقال: كلها، فنزلت: ﴿ومن يتق الله﴾ الآية. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن ابني أسره العدو، وجزعت أمه، فما تأمرني؟ قال: أمرك، وإياها أن تستكثر من قول لا حول ولا

الآية وفي الآية الأخرى ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ [البقرة: 234] وقيل: معنى ﴿إن ارتبتم﴾ إن تيقنتم، ورجح ابن جرير أنه بمعنى الشك، وهو الظاهر. قال الزجاج: إن ارتبتم في حيضها، وقد انقطع عنها الحيض، وكانت ممن يحيض مثلها. وقال مجاهد: إن ارتبتم: يعني لم تعلموا عدة الأيسة والتي لم تحض فالعدة هذه. وقيل المعنى: إن ارتبتم في الدم الذي يظهر منها هل هو حيض أم لا بل استحاضة، فالعدة ثلاثة أشهر ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ أي: من يتقه في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه يسهل عليه أمره في الدنيا والآخرة. وقال الضحاك: من يتق الله، فليطلق للسنة يجعل له من أمره يسراً في الرجعة. وقال مقاتل: من يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً في توفيقه للطاعة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما نكر من الأحكام أي: ذلك المذكور من الأحكام ﴿أمر الله أنزله إليكم﴾ أي: حكمه الذي حكم به بين عباده، وشرعه الذي شرعه لهم، ومعنى ﴿أنزله إليكم﴾ أنزله في كتابه على رسوله، وبينه لكم وفصل أحكامه، وأوضح حلاله وحرامه ﴿ومن يتق الله﴾ بترك ما لا يرضاه ﴿يكفر عنه سيئاته﴾ التي اقترفها؛ لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب ﴿ويعظم له أجر﴾ أي: يعطه من الأجر في الآخرة أجراً عظيماً، وهو الجنة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ فقيل له: راجعها، فإنها صوامة قوامة، وهي من أزواجك في الجنة. وأخرج ابن جرير عن قتادة مرسلاً. وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال: «طلق عبد يزيد أبو ركانة أم ركانة، ثم نكح امرأة من مزينة، فجاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله ما يغني عني إلا ما تغني عني هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها، فأخذت رسول الله ﷺ حمية عند ذلك، فدعا رسول الله ﷺ ركانة وإخوته، ثم قال لجلسائه: «أترون كذا من كذا، فقال رسول الله ﷺ لعبد يزيد: طلقها، ففعل، فقال لأبي ركانة ارتجعها، فقال: يا رسول الله إنني طلقته، قال: قد علمت ذلك، فارتجعها، فنزلت: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾. قال الذهبي: إسناداه واه، والخبر خطأ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر: أنه طلق امرأته، وهي حائض، فنكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فتغيط رسول الله ﷺ، ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»، وقرأ النبي ﷺ (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن). وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قرأ (فطلقوهن في قبل عدتهن). وأخرج ابن الأنباري عن ابن عمر أنه قرأ

سلمة: أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فانكحها رسول الله ﷺ. وفي الباب أحاديث.

أَسْكَنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ دُجْرِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَتَلًا فَأَلْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتَّوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَرْوِيٍّ وَإِنْ تَعَارَفْتُمْ فَتَرَضَّعْ لَهُ أُخْرَى ① لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُوْرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آَلَتْهُ أَلَّهُ لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَقْسًا إِلَّا مَا آَلَتْهَا سَبَّحَلَّ اللَّهُ بَعْدَ عَشْرِ شُكْرٍ ②

قوله: ﴿أَسْكَنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء من السكنى، ومن للتبعيض أي: بعض مكان سكناكم، وقيل: زائدة ﴿مِنْ وَجْهِكُمْ﴾ أي: من سعتكم وطاقتكم، والوجد القدرة. قال الفراء: يقول على ما يجد، فإن كان مرسعاً عليه، وسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر ذلك. قال قتادة: إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه.

وقد اختلف أهل العلم في المطلقة ثلاثاً، هل لها سكنى ونفقة أم لا؟ فذهب مالك، والشافعي أن لها السكنى ولا نفقة لها. وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة. وذهب أحمد، وإسحاق، وأبو ثور أنه لا نفقة لها ولا سكنى، وهذا هو الحق، وقد قررته في شرحي للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره ﴿وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ نهى سبحانه عن مضارتهن بالتضييق عليهن في المسكن والنفقة. وقال مجاهد: في المسكن. وقال مقاتل: في النفقة. وقال أبو الضحى: هو أن يطلقها، فإذا بقي يومان من عنتها راجعها، ثم طلقها ﴿وَأَنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: إلى غاية هي وضعت للحمل. ولا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة؛ فاما الحامل المتوفى عنها زوجها، فقال علي، وابن عمر، وابن مسعود، وشريح، والنخعي، والشعبي، وحمام، وابن أبي ليلى، وسفيان وأصحابه: ينفق عليها من جميع المال حتى تضع. وقال ابن عباس، وابن الزبير، وجابر بن عبد الله، ومالك، والشافعي، وأبو حنيفة وأصحابه: لا ينفق عليها إلا من نصيبها، وهذا هو الحق للألة الواردة في ذلك من السنة ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أولانكم بعد ذلك ﴿فَاتَّوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: أجور إرضاعهن والمعنى: أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهن منهن، فلهن أجورهن على ذلك ﴿وَاتَّمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَرْوِيٍّ﴾ هو خطاب للأزواج والزوجات أي: تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر، وليقبل بعضكم من بعض من المعروف والجميل، وأصل معناه ليأمر بعضكم بعضاً بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم. قال مقاتل: المعنى ليتراض الأب والأم على أجر مسمى، قيل: والمعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر، والمعروف الجميل منها أن لا تطالب ما يتعاسره الزوج من الأجر ﴿وَأَنْ تَعَارَفْتُمْ﴾ أي: في أجر الرضاع،

قوة إلا بالله، فقالت المرأة: نعم ما أمرك، فجعلنا يكثران منها، فتغفل عنه العدو، فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، فنزلت: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ الآية. وفي الباب روايات تشهد لهذا. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في الآية قالت: يكفيه هم الدنيا وغمها. وأخرج أحمد وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي عن أبي نر قال: «جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب» فجعل يرددها حتى نعتت، ثم قال: يا أبا نر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم» وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ قال: ليس المتوكل الذي يقول تقضي حاجتي، وليس كل من يتوكل على الله كفاه ما أهمه، ودفع عنه ما يكره، وقضى حاجته، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً، وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ قال: يقول قاضي أمره على من توكل، وعلى من لم يتوكل، ولكن المتوكل يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً، وفي قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ قال: يعني أجلاً ومنتى ينتهي إليه. وأخرج ابن المبارك، والطائسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تركتكم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً». وأخرج إسحاق بن راهويه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي بن كعب أن ناساً من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية في البقرة في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عدد لم ينكر في القرآن الصغار والكبار اللاتي قد انقطع حيضهن، ونوات الحمل، فأنزل الله: ﴿وَاللَّائِي يُمْسِنَنَّ مِنَ الْحَمِضِ﴾ الآية. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وأبو يعلى، والضياء في المختارة، وابن مردويه عن أبي بن كعب قال: «قلت للنبي ﷺ: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أمي المطلقة ثلاثاً، أو المتوفى عنها؟ قال: هي المطلقة ثلاثاً، والمتوفى عنها». وأخرج نحوه عنه مرفوعاً ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والدارقطني من وجه آخر. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً قال: تعدد آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعنته إن الآية التي في سورة النساء القصص نزلت بعد سورة البقرة ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ بكذا وكذا أشهراً، وكل مطلقة، أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها. وروي نحو هذا عنه من طرق، وبعضها في صحيح البخاري. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أم

أَلْ عَمْرَانُ وَغَيْرَهَا ﴿فَحَاسِبِينَهَا حَسَاباً شَدِيداً﴾ أي: شددنا على أهلها في الحساب بما عملوا. قال مقاتل: حاسبها الله بعملها في الدنيا فجازاها بالعذاب، وهو معنى قوله: ﴿وَعَذَابُهَا عَذَابٌ نَّكَرٌ﴾ أي: عذبنا أهلها عذاباً عظيماً منكرًا في الآخرة، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير أي: عذبنا أهلها عذاباً نكرًا في الدنيا بالجوع والقحط، والسيف والخسف والمسخ، وحاسبناهم في الآخرة حساباً شديداً. والنكر المنكر ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: عاقبة كفرها ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خَسْرًا﴾ أي: هلاكاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ في الآخرة، وهو عذاب النار، والتكرير للتأكيد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا أولي العقول الراجحة، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في محل نصب بتقدير أعني بياناً للمنادي بقوله: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أو عطف بيان له أو نعت ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا﴾ قال الزجاج: إنزال الذكر ليليل على إضمار أرسل أي: أنزل إليكم قرآنًا، وأرسل إليكم رسولاً، وقال أبو علي الفارسي: إن رسولاً منصوب بالمصدر، وهو ذكر؛ لأن المصدر المنون يعمل. والمعنى: أنزل إليكم ذكر الرسول. وقيل: إن رسولاً بدل من ذكر؛ وكأنه جعل الرسول نفس الذكر مبالغة، وقيل: إنه بدل منه على حذف مضاف من الأول بتقديره: أنزل ذا نكر رسولاً، أو صاحب نكر رسولاً. وقيل: إن رسولاً نعت على حذف مضاف أي: نكرًا ذا رسول، فذا رسول نعت للذكر. وقيل: إن رسولاً بمعنى رسالة، فيكون رسولاً بدلاً صريحاً من غير تأويل، أو بياناً. وقيل: إن رسولاً منتصب على الإغراء، كأنه قال: الزموا رسولاً، وقيل: إن الذكر ها هنا بمعنى الشرف كقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: 10] وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ لَكَ وَلِقَوْمَكُمْ﴾ [الزخرف: 44]. ثم بين هذا الشرف فقال: ﴿رَسُولًا﴾ وقد ذهب الأكثر إلى أن المراد بالرسول هنا محمد ﷺ، وقال الكلبي: هو جبريل، والمراد بالذكر القرآن، ويختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب السابقة، كما لا يخفى. ثم نعت سبحانه الرسول المذكور بقوله: ﴿يَقُولُوا عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ مَبِينَاتٌ﴾ أي: حال كونها مبينات، قرأ الجمهور (مبينات) على صيغة اسم المفعول أي: بينها الله وأوضحها، وقرأ ابن عامر، وحفص، وحزمة، والكسائي على صيغة اسم الفاعل أي: الآيات تبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام. ورجح القراءة الأولى أبو حاتم، وأبو عبيد لقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [آل عمران: 118] ﴿ليُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ اللام متعلقة ببتلو أي: ليخرج الرسول الذي يتلو الآيات الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، ويجوز أن تتعلق اللام بانزال، فيكون المخرج هو الله سبحانه ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي: يجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه مع اجتناب ما نهاه عنه ﴿نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قرأ الجمهور (يدخله)

فأبى الزوج أن يعطي الأمّ الأجر، وأبت الأمّ أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر ﴿فَسُتَرْضَعُ لَهُ أُخْرَى﴾ أي: يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده، ولا يجب عليه أن يسلم ما تطلبه الزوجة، ولا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر. قال الضحاك: إن أبت الأمّ أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر ﴿فَلْيَنْفِقْ نَوْ سَعَةً مِنْ سَعَتِهِ﴾ فيه الأمر لاهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم ﴿وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: كان رزقه بمقدار القوت، أو مضيق ليس بموسع ﴿فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أي: مما أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ أي: ما أعطاه من الرزق، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسعه، بل عليه ما يقدر عليه وتبلغ إليه طاقته. مما أعطاه الله من الرزق ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي: بعد ضيق وشدة سعة وغنى.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ وَجَدَكُمْ﴾ قال: من سعتكم ﴿وَلَا تَضَارَوْهُمْ لِتَضْيِقُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال في المسكن. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿وَأَنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٌ﴾ الآية، قال: فهذه في المرأة يطلقها زوجها، وهي حامل، فأمره الله أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع، وإن أرضعت حتى تطم، فإن أبان طلاقها وليس بها حمل، فلها السكنى حتى تنقضي عذتها ولا نفقة لها. وأخرج عبد بن حميد عن أبي سنان قال: سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة، فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أخشن الطعام، فبعث إليه بالغ دينار، وقال للرسول: انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها؟ فما لبث أن لبس ألين الثياب، وكل أليب الطعام، فجاء الرسول، فأخبره، فقال: رحمه الله تأول هذه الآية ﴿فَلْيَنْفِقْ نَوْ سَعَةً مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾.

وَكَانَ مِنْ قَرَبَى عَتَتْ عَنْ أُمِّ رِبَّيْهَا رَمَا سَبَّحَتْهَا حَسَاباً شَدِيداً وَمَدَّهَا عَذَاباً نَكَرًا ﴿١٠﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خَسْرًا ﴿١١﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٢﴾ رَسُولًا يَلْقَا عَلَيْكُمْ مَائِدَ اللَّهِ مُبَيَّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُحِلُّوا الْأَسْلِحَ مِنْ أَفْئِدَتِهِمْ إِلَى الْأَثَرِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا ﴿١٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتَنَزَّلُ الْأَشْرَارُ يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِهِ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٤﴾

لما ذكر سبحانه ما تقدم من الأحكام، حذر من مخالفتها، وذكر عتو قوم خالفوا أوامره، فحل بهم عذابه، فقال: ﴿وَكَايِنَ مِنْ قَرَبَى عَتَتْ عَنْ أُمِّ رِبَّيْهَا وَرَسُولِ﴾ يعني: عصت، والمراد أهلها، والمعنى: وكم من أهل قرية عصوا أمر الله ورسله، أو أعرضوا عن أمر الله ورسله على تضمين عتت معنى أعرضت، وقد قدمنا الكلام في كايين في سورة

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ يقول: لم ترحم ﴿ووعظبناها عذاباً نكراً﴾ يقول: عظيماً منكرًا. وأخرج ابن مردويه عنه ﴿قد أنزل الله إليكم نكراً رسولاً﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أنه قال له رجل ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ إلى آخر السورة، فقال ابن عباس: ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر؟ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب من طريق أبي الضحى عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنببكم، وأدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى، قال البيهقي: هذا إسناداه صحيح، وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء، والحوت على صخرة، والصخرة بيد ملك. والثانية مسجن الرياح، فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الرياح أن يرسل عليهم ريحاً يهلك عاداً، فقال: يا رب أرسل عليهم من الرياح قدر منخر الثور؟ فقال له الجبار: إن تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم فهي التي قال الله في كتابه: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ [الذاريات: 42] والثالثة فيها حجارة جهنم، والرابعة فيها كبريت جهنم، فقالوا: يا رسول الله للنار كبريت؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده: إن فيها لأولية من كبريت لو أرسل فيها الجبال الرواسي لماعت، إلى آخر الحديث. قال الذهبي متعباً للحاكم: هو حديث منكر. وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي عن ابن عباس قال: سيد السموات السماء التي فيها العرش، وسيد الأرضين الأرض التي نحن فيها.

تفسير سورة التحريم

وهي منخية. قال القرطبي: في قول الجميع، وتسمى سورة النبي. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة التحريم بالمدينة، ولفظ ابن مردويه سورة المحرم. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت بالمدينة سورة النساء، ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ [أي: سورة التحريم].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ لَبِئْسَ مَا صَنَعْتَ أَوْفَكَ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَمَرْنَا النَّبِيَّ إِبْرَاهِيمَ بِأَنْ يَبَارِكَ لَكَ بِمَا تَبَارَكَ بِهِ وَأَطَعَهُ اللَّهُ

بالتحلية، وقرأ نافع، وابن عامر بالنون، وجمع الضمير في ﴿خالدين فيها أبداً﴾ باعتبار معنى من، ووحد في يخله باعتبار لفظها، وجملة ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في خالدين على التداخل، أو من مفعول يدخله على الترايف، ومعنى ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾ أي: وسع له رزقه في الجنة ﴿الله الذي خلق سبع سموات﴾ الاسم الشريف مبتدأ، وخبره الموصول مع صلته ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ أي: وخلق من الأرض مثلهن يعني: سبعاً.

واختلف في كيفية طبقات الأرض. قال القرطبي في تفسيره: واختلف فيهن على قولين: أحدهما، وهو قول الجمهور أنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة، كما بين السماء والأرض، وفي كل أرض سكان من خلق الله. وقال الضحك: إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات. والأول أصح؛ لأن الأخبار دالة عليه في الترمذي، والنسائي، وغيرهما، وقد مضى لك مبيناً في البقرة قال: وفي صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من أخذ شبراً من الأرض ظملاً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين» إلى آخر كلامه، وسيأتي في آخر البحث ما يقوي قول الجمهور. قرأ الجمهور (مثلهن) بالنصب عطفاً على ﴿سبع سموات﴾ أو على تقدير فعل أي: وخلق من الأرض مثلهن. وقرأ عاصم في رواية عنه بالرفع على الابتداء، والجار والمجرور قبله خبره ﴿يُنزَّلُ الْأُمُورَ بَيْنَهُنَّ﴾ الجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون صفة لما قبلها، والأمر الوحي. قال مجاهد: ينزل الأمر من السموات السبع إلى السبع الأرضين. وقال الحسن: بين كل سماء وبين الأرض. وقال قتادة: في كل أرض من أرضه، وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره، وقضاء من قضائه، وقيل: بينهن إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أدناها، وبين السماء السابعة التي هي أعلاها، وقيل: هو ما يدبر فيهن من عجب تدبيره، فينزل المطر ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار، والصيف والشتاء، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها، فينقلهم من حال إلى حال. قال ابن كيسان: وهذا هو مجال اللغة واتساعها، كما يقال للموت: أمر الله وللريح والسحاب، ونحوها. قرأ الجمهور (ينزل الأمر) من التنزل، ورفع الأمر على الفاعلية، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه (ينزل) من الإنزال، ونصب الأمر على المفعولية، والفاعل الله سبحانه، واللام في ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾ متعلق بخلق، أو بيتنزل، أو بمقتدر أي: فعل ذلك؛ لتعلموا كمال قدرته، وإحاطته بالاشياء، وهو معنى ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان، وانتصاب علماً على المصدرية؛ لأن أحاط بمعنى علم، أو هو صفة لمصدر محذوف أي: أحاط إحاطة علماً، ويجوز أن يكون تمييزاً.

التي ذهب أكثر المفسرين إلى أنها هي سبب نزول الآية أنه حَرَّمَ أَوَّلًا، ثم حلف ثانياً، كما قَدَّمْنَا «وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ» أي: وليكم وناصركم، والمتولي لاموركم «وَهُوَ الْعَلِيمُ» بما فيه صلاحكم وفلاحكم «الْحَكِيمُ» في أفعاله وأقواله «وَإِنْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا» قال أكثر المفسرين: هي حَفْصَةُ كما سبق، والحديث، هو تحريم مارية، أو العسل، أو تحريم التي وهبت نفسها له، والعامل في الظرف فعل مقترن أي: وأنكر إذ أَسْرَ. وقال الكلبي: أَسْرَ إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي «فَلَمَّا نَبَاتَ بِهِ» أي: أخبرت به غيرها «وَوَاضَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ» أي: اطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها «وَعَرَفَ بَعْضُهُ» أي: عَرَفَ حَفْصَةَ بعض ما أخبرت به. قرأ الجمهور (عَرَفَ) مشدداً من التعريف، وقرأ علي، وطلحة بن مصرف، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وقتادة، والكسائي بالتخفيف. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الأولى لقوله: «وَوَاضَعَهُ عَنْ بَعْضٍ» أي: لم يعرّفها إياه، ولو كان مخففاً لقال في ضده: وأنكر بعضاً «وَوَاضَعَهُ عَنْ بَعْضٍ» أي: وأعرض عن تعريف بعض ذلك كراهة أن ينتشر في الناس، وقيل: الذي أعرض عنه هو حديث مارية. وللمفسرين ها هنا خبط وخلط، وكل جماعة منهم ذهبوا إلى تفسير التعريف، والإعراض بما يطابق بعض ما ورد في سبب النزول، وسنوضح لك ذلك إن شاء الله «فَلَمَّا نَبَاهَا بِهِ» أي: أخبرها بما أفضت من الحديث «قَالَتْ مَنْ لِنَبَاكَ هَذَا» أي: من أخبرك به «قَالَ نَبَايَ لِلْعَلِيمِ الْخَبِيرِ» أي: أخبرني الذي لا يخفى عليه خافية «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» الخطاب لعائشة وحفصة أي: إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، ومعنى «صَغَتْ» عدلت ومالت عن الحق، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله ﷺ، وهو إفشاء الحديث. وقيل المعنى: إن تتوبا إلى الله، فقد مالت قلوبكما إلى التوبة، وقال: قلوبكما، ولم يقل قلوبكما؛ لأن العرب تستكره الجمع بين تثنيتين في لفظ واحد «وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ» أي: تتظاهرا، قرأ الجمهور (تظاهرا) بحذف إحدى التاءين تخفيفاً. وقرأ عكرمة (تتظاهرا) على الأصل. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، ونافع، وعاصم⁽¹⁾ في رواية عنهما (تظهرا) بتشديد الظاء، والهاء بدون ألف، والمراد بالتظاهر التعاضد والتعاون، والمعنى: وإن تعاضدا وتعاونتا في الغيرة عليه منكما وإفشاء سرّه «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» أي: فإن الله يتولى نصره وكذلك جبريل، ومن صالح من عباده المؤمنين، فلن يدعم ناصرًا ينصره «وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ» أي: بعد نصر الله له، ونصر جبريل، وصالح المؤمنين «ظَهِيرٌ» أي: أعوان يظهرونه، والملائكة مبتدأ، وخبره ظهير. قال أبو علي الفارسي: قد جاء

عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَاهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ لِنَبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٢﴾ عَنِ زَيْدٍ إِنْ طَلَّقْتُمْ أَنْ يُبَيِّلَهُ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ سُورَةَ مُؤْمِنَاتٍ مِّنْهُنَّ يَتَذَكَّرْنَ عَلَيْكُمْ سِتْرَ مَا كُنْتُمْ وَنَكَاكُمْ ﴿٣﴾

قوله: «إِن يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ» اختلف في سبب نزول الآية على أقوال: الأول قول أكثر المفسرين. قال الواحدي: قال المفسرون: «كان النبي ﷺ في بيت حفصة، فزارت أباه، فلما رجعت أبصرت مارية في بيتها مع النبي ﷺ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت، فلما رأى النبي ﷺ في وجه حفصة الغيرة والكآبة قال لها: لا تخبري عائشة، ولك علي لا أقربها أبداً، فأخبرت حفصة عائشة، وكانتا متصافيتين، فغضبت عائشة، ولم تزل بالنبي ﷺ حتى حلف أن لا يقرب مارية». فأنزل الله هذه السورة. قال القرطبي: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة، وذكر القصة. وقيل: السبب أنه كان ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولاً له إذا دخل عليهما إنا نجد منك ريح مغافير. وقيل: السبب المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وسيأتي ليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء الله، وستعرف كيفية الجمع بينهما، وجملة «تَتَبَغَّى مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكُمْ» مستأنفة، أو مفسرة لقوله: «تَحَرَّمَ»، أو في محل نصب على الحال من فاعل تحرم أي: مبتغياً به مرضاة أزواجك، ومرضاة اسم مصدر، وهو الرضى، وأصله مرضوة، وهو مضاف إلى المفعول أي: إن ترضي أزواجك، أو إلى الفاعل أي: أن يرضين هن «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» أي: بليغ المغفرة والرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحل الله لك، قيل: وكان لك ذنباً من الصفات، فلذا عاتبه الله عليه، وقيل: إنها معاتبة على ترك الأولى «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ» أي: شرع لكم تحليل أيمانكم، وبين لكم ذلك، وتحلة أصلها تحللة، فادغمت. وهي من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية، فكان اليمين عقد، والكفارة حل؛ لأنها تحل للحالف ما حرّمه على نفسه. قال مقاتل: المعنى قد بين الله كفارة أيمانكم في سورة المائدة. أمر الله نبيه ﷺ أن يُكْفِرَ يمينه، ويراجع ولييته، فأعتق رقبة. قال الزجاج: وليس لأحد أن يحرم ما أحل الله.

قلت: وهذا هو الحق أن تحريم ما أحل الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه. فالتحليل والتحريم هو إلى الله سبحانه لا إلى غيره، ومعاتبته لنبيه ﷺ في هذه السورة أبلغ دليل على ذلك، والبحث طويل، والمذاهب فيه كثيرة، والمقالات فيه طويلة، وقد حققناه في مؤلفتنا بما يشفي.

واختلف العلماء هل مجرد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا؟ وفي ذلك خلاف، وليس في الآية ما يدل على أنه يمين؛ لأن الله سبحانه عاتبه على تحريم ما أحله له، ثم قال: «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ» وقد ورد في القصة

(1) قوله: ونافع وعاصم، وذلك في غير المشهور الآن عنهما اهـ. ع.

فعيل للكثرة كقوله: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ [المعارج: 10] قال الواحدي: وهذا من الواحد الذي يؤدّي عن الجمع كقوله: ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء: 69] وقد تقرّر في علم النحو أن مثل جريح وصبور وظهير يوصف به الواحد والمثنى والجمع. وقيل: كان التظاهر بين عائشة وحفصة في التحكم على النبي ﷺ في النفقة ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ أي: يعطيه بلكن أزواجاً أفضل منكن، وقد علم الله سبحانه أنه لا يطلقهن؛ ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيراً منهن تخويفاً لهن. وهو كقوله: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم﴾ [محمد: 38] فإنه إخبار عن القدرة وتخويف لهم. ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله: ﴿مسلمات مؤمنات﴾ أي: قائمات بفرائض الإسلام مصنفات بالله وملائكته، وكتبه ورسله، والقدر خيرته وشره. وقال سعيد بن جبير: ﴿مسلمات﴾ أي: مخلصات وقيل معناه: مسلمات لأمر الله ورسوله ﴿قانتات﴾ مطيعات لله، والقنوت الطاعة، وقيل: مصليات ﴿تائبات﴾ يعني: من الذنوب ﴿عابدات﴾ لله مثللات له. قال الحسن، وسعيد بن جبير: كثيرات العبادة ﴿سائحات﴾ أي: صائمات. وقال زيد بن أسلم: مهاجرات، وليس في أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة. قال ابن قتيبة، والفراء، وغيرهما: وسمي الصيام سياحة لأن السائح لا زاد معه، وقيل المعنى: ذاهبات في طاعة الله، من ساح الماء إذا ذهب، وأصل السياحة الجولان في الأرض، وقد مضى الكلام على السياحة في سورة براءة ﴿ثيبات وبكارات﴾ وسط بينهما العاطف لثنايهما، والثيبات: جمع ثيب، وهي المرأة التي قد تزوّجت، ثم ثابت عن زوجها فعانت، كما كانت غير ذات زوج. والباكارات جمع بكر، وهي العذراء، سميت بذلك؛ لأنها على أول حالها التي خلقت عليه.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمشي عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها لبناً، أو عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة إن آيتنا نخل عليها النبي ﷺ، فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير، فدخل على أحدهما، فقالت ذلك له، فقال: «لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود»، فنزلت: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ إلى قوله: ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ لعائشة وحفصة ﴿وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ شرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فدخل على حفصة، فقالت: إني أجد منك ريحاً، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة، وأه لا أشربه أبداً، فأنزل الله: ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ الآية. وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال: سألت أم سلمة عن هذه الآية ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ قالت: كانت عندي عكة من عسل أبيض، فكان النبي ﷺ يلعب منها، وكان يحبه. فقالت له

عائشة: نحلها تجرس عرقاً فحرمها، فنزلت الآية. وأخرج النسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله هذه الآية ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ وأخرج البزار، والطبراني، قال السيوطي: بسند صحيح عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المراتن اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة وحفصة، وكان يروى الحديث في شأن مارية القبطية أم إبراهيم أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها، فوجدت حفصة، فقالت: يا رسول الله لقد جئت إلي بشيء ما جئت به إلى أحد من أزواجك في يومي وفي نوري على فراشي، قال: «ألا ترضين أن أحرماها، فلا أقربها أبداً؟» قالت: بلى فحرمها وقال: لا تذكرني ذلك لأحد، فنكرت لعائشة، فأنظره الله عليه، فأنزل الله: ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ الآيات كلها، فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه وأصاب مارية. وأخرجه ابن سعد، وابن مردويه عنه بأطول من هذا، وأخرجه ابن مردويه أيضاً من وجه آخر عنه بأخصر منه، وأخرجه ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عنه مختصراً بلفظ قال: حرم سريته، وجعل ذلك سبب للنزول في جميع ما روي عنه من هذه الطرق، وأخرج الهيثم بن كليب في مسنده، والضياء المقدسي في المختارة من طريق نافع عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تحذني أحداً، وإن أم إبراهيم علي حرام، فقالت: أتحرّم ما أحل الله لك؟ قال: فوالله لا أقربها، فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، فأنزل الله: ﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن أبي هريرة أن سبب نزول الآية تحريم مارية كما سلف، وسنده ضعيف. فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه. وأما ما قيل: من أن السبب هو تحريم المرأة التي وهبت نفسها، فليس في ذلك إلا ما روى ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ. قال السيوطي: وسنده ضعيف. ويردّ هذا أيضاً أن النبي ﷺ لم يقبل تلك الواهبة لنفسها، فكيف يصح أن يقال: إنه نزل في شأنها ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ فإن من ردّ ما وهب له لم يصح أن يقال: إنه حرمه على نفسه، وأيضاً لا ينطبق على هذا السبب قوله: ﴿وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ إلى آخر ما حكاه الله. وأما ما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المراتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، فأخبره أنهما عائشة وحفصة، ثم نكر قصة الإيلاء، كما في الحديث الطويل، فليس في هذا نفي لكون السبب هو ما قدمنا من قصة العسل، وقصة السرية؛ لأنه إنما أخبره بالمبتزاهرتين، وذكر فيه أن أزواج النبي ﷺ

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦١﴾ يَأْتِيَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ ﴿٦٢﴾ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾ يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا نُبُوءًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَسُوبًا عَنِ زَنبِكُمْ أَن كُفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمُكَ لَنَا نُورًا وَغَفِيرٌ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٤﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ﴾ بفعل ما أمركم به، وترك ما نهلكم عنه ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بامرهم بطاعة الله، ونهيهم عن معاصيه ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي نارا عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب، وقد تقدم بيان هذا في سورة البقرة. قال مقاتل بن سليمان: المعنى: قوا أنفسكم وأهليكم بالألب الصالح النار في الآخرة. وقال قتادة، ومجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم. قال ابن جرير: فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير، وما لا يستغنى عنه من الأب، ومن هذا قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 132] وقوله: ﴿وَانذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ﴾ أي: على النار خزنة من الملائكة يكون أمرها وتعذيب أهلها، غلظ على أهل النار شداد عليها لا يرحمونهم إذا استرحمهم؛ لأن الله سبحانه خلقهم من غضبه، وحبب إليهم تعذيب خلقه، وقيل: المراد غلظ القلوب شداد الأبدان، وقيل: غلظ الأقوال شداد الأفعال، وقيل: الغلظ ضخام الأجسام، والشداد الأقوياء ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ أي: لا يخافونه في أمره، «وما» في «ما أمرهم» يجوز أن تكون موصولة، والعائد محذوف أي: لا يعصون الله الذي أمرهم به، ويجوز أن تكون مصدرية أي: لا يعصون الله أمره على أن يكون ما أمرهم بدل لاشتمال من الاسم الشريف، أو على تقدير نزع الخافض أي: لا يعصون الله في أمره ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: يؤذونه في وقته من غير تراخ لا يؤخروه عنه ولا يقدمونه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ أي: يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال في الدنيا، ومثل هذا قوله: ﴿فَيَوْمِئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْرَتَهُمْ وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: 57] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أي: تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه، وصفت بذلك على الإسناد المجازي، وهو في الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنوب، وترك المعاودة له.

والتوبة فرض على الأعيان. قال قتادة: التوبة النصوح الصالحة، وقيل: الخالصة. وقال الحسن: التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا نكره. وقال الكلبي: التوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع

يراجعنه، وتهجره إحداهنَّ اليوم إلى الليل، وإن نلك سبب الاعتزال لا سبب نزول ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾. ويؤيد هذا ما قدمنا عن ابن عباس أنه قال لعمر: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ فأخبره بأنهما حفصة وعائشة، وبين له أن السبب قصة مارية. هذا ما تيسر من تلخيص سبب نزول الآية، ودفع الاختلاف في شأنه، فاشدد عليه يدك؛ لتنجو به من الخبط والخلط الذي وقع للمفسرين. وأخرج عبد الرزاق، والبخاري، وابن مردويه عن ابن عباس قال: في الحرام يكفر، وقال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب: 21]. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه عنه أنه جاءه رجل، فقال: إني جعلت امرأتي علي حراماً، فقال: «كذبت ليست عليك بحرام، ثم تلا ﴿لِمَ تَحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ قال: عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة». وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن عائشة قالت: لما حلف أبو بكر أن لا يتفق على مسطح، فأنزل الله: ﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾ فأحل يمينه وانفق عليه. وأخرج ابن عدي، وابن عساکر عن عائشة في قوله: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَبِثًا﴾ قالت: أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي. وأخرج ابن عدي، وأبو نعيم في الصحابة، والعشاري في فضائل الصديق، وابن مردويه، وابن عساکر من طرق عن علي، وابن عباس قال: والله إن إمارة أبي بكر وعمر لفي الكتاب ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَبِثًا﴾ قال لحفصة: «أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدي، فأياك أن تخبري أحداً بهذا». قلت: وهذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ بل فيه أن الحديث الذي أسره ﷺ هو هذا، فعلى فرض أن له إسناداً يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة، وهي مقدمة عليه ومرجحة بالنسبة إليه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ قال: زأغت وأثمت. وأخرج ابن المنذر عنه قال: مالت. وأخرج ابن عساکر من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه في قوله: ﴿وَصَالِحَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: أبو بكر وعمر. وأخرج ابن عساکر عن ابن مسعود مثله. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في فضائل الصحابة من وجه آخر عنه مثله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر، وابن عباس مثله. وأخرج الحاكم عن أبي أمامة مرفوعاً مثله. وأخرج ابن أبي حاتم. قال السيوطي بسنو ضعيف عن علي مرفوعاً قال: هو علي بن أبي طالب. وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَصَالِحَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ علي بن أبي طالب. وأخرج ابن مردويه، وابن عساکر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَصَالِحَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: هو علي بن أبي طالب. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن بريدة في قوله: ﴿ثِيَابًا وَبِكَارًا﴾ قال: وعد الله نبيه ﷺ في هذه أن يزوجه بالثياب أسية امرأة فرعون، وبالبكر مريم بنت عمران.

وصححه عن ابن مسعود قال: التوبة النصوح تكفر كل سيئة، وهو القرآن، ثم قرأ هذه الآية. وأخرج الحاكم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَخْزِي اللهَ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معه نورهم يسعهم الآية قال: ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نورا يوم القيامة، فاما المنافق فيطفا نوره، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق، فهو يقول: ﴿ربنا اتمم لنا نورنا﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ وَأَوْبَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسِّرْ الْمَصِيرَ ﴿١﴾ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ اتَّخَذَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ﴿٢﴾ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٣﴾ وَرَبِّ ابْنَتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَانَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْكَاثِبِينَ ﴿٤﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: بالسيف والحجة، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة براءة ﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: شدد عليهم في الدعوة، واستعمل خشونة في أمرهم بالشرائع. قال الحسن: أي: جاهدكم بإقامة الحدود عليهم، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: مصيرهم إليها يعني: الكفار والمنافقين ﴿وَيَسِّرْ الْمَصِيرَ﴾ أي: المرجع الذي يرجعون إليه ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قد تقدم غير مرة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة أي: جعل الله مثلاً لحال هؤلاء الكفرة، وأنه لا يغني أحد عن أحد ﴿امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ﴾ هذا هو المفعول الأول، ومثلاً للمفعول الثاني حسبما قدمنا تحقيقه، وإنما أخر ليتصل به ما هو تفسير له، وإيضاح لمعناه ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ وهما نوح ولوط أي: كانتا في عصمة نكاحهما ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: فوقعت منهما الخيانة لهما. قال عكرمة، والضحاك: بالكفر، وقيل: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه، وقد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبي قط. وقيل: كانت خيانتها النفاق، وقيل: خانتاهما بالنميمة ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ أي: فلم ينفعهما نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئاً من النفع، ولا نفعا عنهما من عذاب الله مع كرامتهما على الله شيئاً من الدفع ﴿وَقِيلَ اتَّخَذَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ أي: وقيل لهما في الآخرة، أو عند موتهما: اتخلا النار مع الداهلين لها من أهل الكفر والمعاصي. وقال يحيى بن سلام: ضرب الله مثلاً للذين كفروا يحزن به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله ﷺ حين تظاهرتا عليه. وما أحسن من قال، فإن نكر امرأتي النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله

بالبين، والاطمئنان على أن لا يعود. وقال سعيد بن جبير: هي التوبة المقبولة. قرأ الجمهور (نصوحاً) بفتح النون على الوصف للتوبة أي: توبة بالغة في النصح، وقرأ الحسن، وخارجة، وأبو بكر عن عاصم بضمها أي: توبة نصح لأنفسكم، ويجوز أن يكون جمع ناصح، وأن يكون مصدرأ يقال: نصح نصيحة ونصوحاً. قال المبرد: أراد توبة ذات نصح ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُبْخَلَكم جَنَاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بسبب تلك التوبة، وعسى وإن كان أصلها للإطعام، فهي من الله واجبة؛ لأن الثائب من الذنب كمن لا ذنب له، ويبخلكم معطوف على يكفر منصوب بناصبه، وبالنصب قرأ الجمهور، وقرأ بالجزم عطفاً على محل عسى كأنه قال: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم، ويبخلكم ﴿يَوْمَ لَا يَخْزِي اللهُ النَّبِيَّ﴾ الظرف متعلق ببخلكم أي: يبخلكم يوم لا يخزي الله النبي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معه والموصول معطوف على النبي، وقيل: الموصول مبتدأ، وخبره ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَيُؤَيِّمُهُمُ﴾ والاولى، وتكون جملة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة لبيان حالهم، وقد تقدم في سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصراط، وجملة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في محل نصب على الحال أيضاً، وعلى الوجه الآخر تكون خبراً آخر، وهذا دعاء المؤمنين حين أطفا الله نور المنافقين، كما تقدم بيانه وتفصيله.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ قال: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأنبؤهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بالذكر ينجم الله من النار. وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال: اتَّبُوا أَهْلِيكُمْ. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي عمران الجوني قال: بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر ما بين منكب لحدهم مسيرة مائة خريف ليس في قلوبهم رحمة إنما خلقوا للعذاب، يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحناً من لبن قرنه إلى قمته. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وابن منيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب سئل عن التوبة النصوح، قال: أن يتوب الرجل من العمل السيء، ثم لا يعود إليه أبداً. وأخرج أحمد، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «التوبة من الذنب أن يتوب منه، ثم لا يعود إليه أبداً»، وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف، والصحيح الموقوف، كما أخرجه موقوفاً عنه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي. وأخرج الحاكم

وإبن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا؛ أما خيانة امرأة نوح، فكانت تقول للناس: إنه مجنون؛ وأما خيانة امرأة لوط، فكانت تدل على الضيف، فتلك خيانتها. وأخرج ابن المنذر عنه: قال: ما بغت امرأة نبي قط، وقد رواه ابن عساكر مرفوعاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة. وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة: أن فرعون وتد لامراته أربعة أوتاد، وأضجعها على صدرها⁽¹⁾، وجعل على صدرها رحي، واستقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء، فـ ﴿قَالَتْ رَبِّ لِي عَنكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ففرج الله لها عن بيتها في الجنة فرأته. وأخرج أحمد، والطبراني، والحاكم، وصححه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وأسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرها في القرآن قالت: ﴿رَبِّ لِي عَنكَ بَيْتًا﴾ الآية. وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». وأخرج وكيع في الغرر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ قال: من جماعته.

تفسير سورة الملك

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة تبارك الملك. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن الضريس، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له» تبارك الذي بيده الملك. [أي: سورة الملك]. قال الترمذي: هذا حديث حسن. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاضعت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة» تبارك الذي بيده الملك.». وأخرج الترمذي، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن نصر، والبيهقي في الدلائل عن ابن

يُرشِد أتم إرشاد ويلوِّح أبلغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله، فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئاً، وقد عصمهما الله عن نذب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ الكلام في هذا الكلام في المثل الذي قبله أي: جعل الله حال امرأة فرعون مثلاً لحال المؤمنين ترغيباً لهم في الثبات على الطاعة والتمسك بالدين، والصبر في الشدة، وأن صولة الكفر لا تضرهم، كما لم تضر امرأة فرعون، وقد كانت تحت كافر الكافرين، وصارت بإيمانها بالله في جنات النعيم ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ لِي عَنكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ الظرف متعلق بضرب، أو بمثلاً أي: ابن لي بيتاً قريباً من رحمتك، أو في أعلى درجات المقربين منك، أو في مكان لا يتصرف فيه إلا بإذنك، وهو الجنة ﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي: من ذاته وما يصدر عنه من أعمال الشر ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال الكلبي: هم أهل مصر. وقال مقاتل: هم القبط. قال الحسن، وابن كيسان: نجاهما الله إكرام نجاة، ورفعها إلى الجنة فهي تاكل وتشرب ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾ معطوف على امرأة فرعون أي: وضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم ابنة عمران أي: حالها وصفتها، وقيل: إن الناصب لمريم فعل مقدر أي: وانكر مريم، والمقصود من نكرها أن الله سبحانه جمع لها بين كرامة الدنيا والآخرة، واصطفاهما على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين ﴿الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾ أي: عن الفواحش، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة النساء. قال المفسرون: المراد بالفرج هنا الجيب لقوله: ﴿فَفَخَّنَا فِيهِ مِنْ رَوْحِنَا﴾ وذلك أن جبريل نفخ في جيب درعها فحبلت بعبسى ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ يعني: شراعه التي شرعها لعباده، وقيل: المراد بالكلمات هنا هو قول جبريل لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: 19] الآية. وقال مقاتل: يعني بالكلمات: عيسى. قرأ الجمهور (وصدقت) بالتشديد، وقرأ حمزة الأموي، ويعقوب، وقتادة، وأبو مجلز، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف. وقرأ الجمهور (بكلمات) بالجمع، وقرأ الحسن، ومجاهد، والجحدري (بكلمة) بالإنفراد. وقرأ الجمهور (وكتابه) بالإنفراد، وقرأ أهل البصرة، وحفص (كتبه) بالجمع، والمراد على قراءة الجمهور الجنس، فيكون في معنى الجمع، وهي الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ قال قتادة: من القوم المطيعين لربهم. وقال عطاء: من المصلين، كانت تصلي بين المغرب والعشاء، ويجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة، وقال: من القانتين، ولم يقل من القانتات؛ لتغليب الذكور على الإناث.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر،

(1) لعله: على ظهرها بليل قوله بعد: وجعل على صدرها اهـ. صححه.

عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خيابه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر». قال الترمذي بعد إخراجها: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر». وأخرجه أيضاً النسائي وصححه، والحاكم. وأخرج ابن مريويه عن رافع بن خديج، وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «أنزلت علي سورة تبارك، وهي ثلاثون آية جملة واحدة، وهي المانعة في القبور». وأخرج عبد بن حميد في مسنده، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أتحدثك بحديث تفرح به؟ قال: بلى قال: اقرا «تبارك الذي بيده الملك» وعلمها أهلك، وجميع ولدك، وصبيان بيتك، وجيرانك، فإنها المنجية، والمجانلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له أن ينجيها الله من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر. قال رسول الله ﷺ: «لو دنت أنها في قلب كل إنسان من أمتي».

سَمِ الْأَرْحَمِ الرَّحِيمِ

تَبَرَّكَ الَّذِي يَبْدُو أَمْلُكَ رَحْمَةً عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي عَلَّمَ الْقُرْآنَ وَالْجَنَّةَ يَتَنَزَّلُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ وَالْمَلَكُوتُ ② الَّذِي عَلَّمَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَبَابًا مَّا تَرَى فِي عِلْمِي الرَّحْمَنُ مِنْ تَعَوُّدٍ فَأَتَجِبُ الْبَصَرَ مَلَّ تَرَى مِنْ فَطْرِهِ ③ ثُمَّ أَتَجِبُ الْبَصَرَ كَرِّهِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاشِيَا وَمَوْ حَبِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا أَلَمَةَ الْأَنْبِيَاءِ بِمُصَنِّبٍ وَجَعَلْنَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْنَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِيهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُنَّ أَلْمُومَاتُ ⑥ إِذَا أُنْقِلُوا فِيهَا يَبْعَثُ مَا شَبَّهُوا فِي تَعَوُّدٍ ⑦ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ كُلَّمَا أُنْقِلُوا فِيهَا نَجَّحَ سَالِمٌ خَرْنَبًا أَلَّا يَأْتِيَهُمْ نَزِيرٌ ⑧ فَأَلَّا يَكُنْ لَهُ جَاءَهُ نَزِيرٌ فَكَلَّمْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ قَوْلٍ إِنْ أَسْرَأَ إِلَّا فِي سَكْنٍ كَبِيرٍ ⑨ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑩ فَأَعْرَضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسَحُوا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑪

قوله: «تبارك الذي بيده الملك» تبارك تفاعل من البركة، والبركة النماء والزيادة، وقيل: تعالى وتعظيم عن صفات المخلوقين، وقيل: دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده، ولا آخر لتمامه. وقال الحسن: تبارك تقس، وصيغة التفاعل للمبالغة، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء، والملك هو ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء، وقيل: المراد بالملك ملك النبوة، والأول أولى؛ لأن الحمل على العموم أكثر مدحاً وأبلغ ثناء، ولا وجه للتخصيص «وهو على كل شيء قدير» أي: بليغ القدرة لا يعجزه شيء من الأشياء يتصرف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام، ورفع ووضع، وإعطاء ومنع «الذي خلق الموت والحياة» الموت انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقة له، والحياة تعلق الروح

بالبدن واتصاله به، وقيل: هي ما يصح بوجوده الإحساس، وقيل: ما يوجب كون الشيء حياً، وقيل: المراد الموت في الدنيا، والحياة في الآخرة. وقدم الموت على الحياة؛ لأن أصل الأشياء عدم الحياة، والحياة عارضة لها، وقيل: لأن الموت أقرب إلى القهر. وقال مقاتل: خلق الموت يعني: النطفة، والمضغة والعلقة، والحياة يعني: خلقه إنساناً، وخلق الروح فيه، وقيل: خلق الموت على صورة كبش لا يمر على شيء إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرس لا تمر بشيء إلا حيي، قاله مقاتل والكلبي. وقد ورد في التنزيل: «قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم» [السجدة: 11] وقوله: «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة» [الأنفال: 50] وقوله: «توفته رسلنا» [الأنعام: 61] وقوله: «الله يتوفى الأنفس حين موتها» [الزمر: 42] وغير ذلك من الآيات «ليبيلوكم أيكم لحسن عملاً» اللام متعلقة بخلق أي: خلق الموت والحياة؛ ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملاً، فيجازيكم على ذلك، وقيل المعنى: ليبيلوكم أيكم أكثر للموت تذكراً وأشد منه خوفاً، وقيل: أيكم أسرع إلى طاعة الله، وأورد عن محارم الله. وقال الزجاج: اللام متعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت. وقال الزجاج أيضاً، والفراء: إن قوله: «ليبيلوكم» لم يقع على أي، لأن فيما بين البلوى وأي إضمار فعل، كما تقول: بلوكم لأنظر أيكم أطوع، ومثله قوله: «سلمهم أيهم بذلك زعيم» [القلم: 40] أي: سلمهم ثم انظر أيهم، فايكم في الآية مبتدأ، وخبره أحسن؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبح لا إلى الحسن والأحسن فقط، للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين «وهو العزيز» أي: الغالب الذي لا يغالب «الغفور» لمن تاب وأتاب «الذي خلق سبع سموات طباقاً» الموصول يجوز أن يكون تابعاً للعزيز، الغفور نعتاً، أو بياناً، أو بدلاً، وأن يكون منقطعاً عنه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب على المدح، وطباقاً صفة لسبع سموات أي: بعضها فوق بعض، وهو جمع طبق نحو جبل وجبال، أو جمع طبقة نحو رحية ورحاب، أو مصدر طابق، يقال: طابق مطابقاً وطباقاً، ويكون على هذا الوجه الوصف بالمصدر للمبالغة، أو على حذف مضاف أي: ذات طباق، ويجوز أن يكون منتصباً على المصدرية بفعل محذوف أي: طويقت طباقاً «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» هذه الجملة صفة ثانية لسبع سموات، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له، و«من» مزيدة لتأكيد النفي. قرأ الجمهور (من تفاوت). وقرأ ابن مسعود وأصحابه، وحمزة، والكسائي (تفاوت) مشدداً بنون ألف، وهما لغتان كالتعاهد والتعهد، والتحامل والتحمل؛ والمعنى على القراءتين ما ترى في خلق الرحمن من تناقض ولا تباین، ولا اعوجاج ولا تخالف، بل هي مستوية مستقيمة دالة على خلقها، وإن

عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خيابه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر». قال الترمذي بعد إخراجها: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر». وأخرجه أيضاً النسائي وصححه، والحاكم. وأخرج ابن مريويه عن رافع بن خديج، وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «أنزلت علي سورة تبارك، وهي ثلاثون آية جملة واحدة، وهي المانعة في القبور». وأخرج عبد بن حميد في مسنده، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أتحدثك بحديث تفرح به؟ قال: بلى قال: اقرا «تبارك الذي بيده الملك» وعلمها أهلك، وجميع ولدك، وصبيان بيتك، وجيرانك، فإنها المنجية، والمجانلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له أن ينجيها الله من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر. قال رسول الله ﷺ: «لو دنت أنها في قلب كل إنسان من أمتي».

يكون باقياً على مصدريته، ويقدر مضاف محذوف أي: ذات رجم، وجمع المصدر باعتبار أنواعه. وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿وجعلناها﴾ راجع إلى المصابيح على حذف مضاف أي: شهباء، وهي نارها المقتبسة منها لا هي نفسها؛ لقوله: ﴿إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب﴾ [الصفاء: 10] وجه هذا أن المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا لا تزول ولا يرجم بها، كذا قال أبو علي الفارسي جواباً لمن سأل: كيف تكون المصابيح زينة وهي رجوم؟ قال القشيري: وأمثل من قوله هذا أن نقول: هي زينة قبل أن يرجم بها الشياطين. قال قتادة: خلق الله النجوم ثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر، فمن تكلم فيها بغير ذلك، فقد تكلم فيما لا يعلم، وتعدى وظلم؛ وقيل: معنى الآية: وجعلناها ظنوناً للشياطين الإنس، وهم المنجمون ﴿واعتدنا لهم عذاب السعير﴾ أي: واعتدنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب عذاب السعير أي: عذاب النار، والسعير: أشد الحريق، يقال: سعرت النار، فهي مسعورة ﴿وللذين كفروا بربهم﴾ من كفار بني آدم، أو من كفار الفريقين ﴿عذاب جهنم﴾ قرأ الجمهور برفع (عذاب) على أنه مبتدأ، وخبره ﴿للذين كفروا﴾. وقرأ الحسن، والضحاك، والأعرج بنصبه عطفاً على ﴿عذاب السعير﴾. ﴿وبئس للمصير﴾ ما يصيرون إليه، وهو جهنم ﴿إذا لقوا فيها﴾ أي: طرخوا فيها كما يطرح الحطب في النار ﴿سمعوا لها شهيقاً﴾ أي: صوتاً كصوت الحميم عند أول نهيقها، وهو أقبح الأصوات، وقوله: ﴿لها﴾ في محل نصب على الحال أي: كائنات لها، لأنه في الأصل صفة، فلما قُمت صارت حالا. وقال عطاء: الشهيق هو من الكفار عند إلقاءهم في النار، وجملة ﴿وهي تفور﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل، ومنه قول حسان:

تركتم قلوبكم لشيء فيه وقدر السغير حامية تفور
﴿تكد تميز من الغيظ﴾ أي: تكاد تنقطع وينفصل بعضها من بعض من تغيطها عليهم. قال ابن قتيبة: تكاد تنشق غيظاً على الكفار. قرأ الجمهور (تميز) بقاء واحدة مخففة، والأصل تمييز بقاءين. وقرأ طلحة بقاءين على الأصل. وقرأ البزي عن ابن كثير بتشديدها بإدغام إحدى التاءين في الأخرى. وقرأ الضحاك (تمايز) بالالف وتاء واحدة، والأصل تمايز، وقرأ زيد بن علي (تميز) من ماز يميز، والجملة في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها خبر آخر لمبتدأ، وجملة: ﴿كلما لقي فيها فوج سألهم خزنتها﴾ مستأنفة لبيان حال أهلها، أو في محل نصب على الحال من فاعل تميز، والفوج الجماعة من الناس أي: كلما لقي في جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع ﴿إلم ياتكم﴾ في الدنيا ﴿نذير﴾ ينذركم هذا اليوم، ويحذركم منه، وجملة ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل:

اختلفت صورها وصفاتها، فقد اتفقت من هذه الحيثية ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ الفطور: الشقوق والصدوع والخروق أي: اردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعينة. أخبر أولاً بأنه لا تفاوت في خلقه، ثم أمر ثانياً بتريده البصر في ذلك لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة. قال مجاهد، والضحاك: الفطور الشقوق جمع فطر وهو الشق. وقال قتادة: هل ترى من خل؟ وقال السدي: هل ترى من خروق، وأصله من التفطر والانفطار، وهو التشقق والانشقاق، ومنه قول الشاعر:

بنى لكم بلا عمد سماء وزينها فما فيها فطور
وقول الآخر:

شقت القلب ثم ردت فيه هواك فليم فالتام الفطور
﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ أي: رجعتين مرة بعد مرة، وانتصابه على المصدر، والمراد بالثنية التكرير، كما في لبيك وسعديك أي: رجعة بعد رجعة وإن كثرت. ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة، أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى ولا في الثانية، ولهذا قال أولاً: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ ثم قال ثانياً ﴿فارجع البصر﴾ ثم قال ثالثاً ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ فيكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة، واقطع للمذرة ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً﴾ أي: يرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً عن أن يرى شيئاً من ذلك، وقيل: معنى خاسئاً: مبعداً مطروداً عن أن يبصر ما التمسه من العيب، يقال: خسات الكلب أي: أبعدته وطرده. قرأ الجمهور (ينقلب) بالجزم جواباً للامر. وقرأ الكسائي في رواية بالرفع على الاستئناف ﴿وهو حسير﴾ أي: كليلى منقطع. قال الزجاج: أي: وقد أعيا من قبل أن يرى في السماء خللاً، وهو فعيل بمعنى فاعل من الحسور، وهو الإعياء، يقال: حسر بصره يحسر حسوراً أي: كل وانقطع، ومنه قول الشاعر:

نظرت إليها بالمحصب من منى فعاد إلي الطرف وهو حسير
﴿ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح﴾ بَيَّن سبحانه بعد خلق السموات، وخلوها من العيب والخلل أنه زينها بهذه الزينة، فصارت في أحسن خلق وأكمل صورة وأبهج شكل، والمجيء بالقسم لإبراز كمال العناية، والمصابيح جمع مصباح، وهو السراج، وسميت الكواكب مصابيح؛ لأنها تضيء كإضاءة السراج وبعض الكواكب، وإن كان في غير سماء الدنيا من السموات التي فوقها، فهي تتراءى كأنها كلها في سماء الدنيا؛ لأن أجرام السموات لا تمنع من رؤية ما فوقها مما له إضاءة لكونها أجراماً صقيلة شفافاً ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ أي: وجعلناها المصابيح رجوماً يرجم بها الشياطين، وهذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى، وهي كونها زينة للسماء الدنيا؛ والمعنى أنها يرجم بها الشياطين الذين يسترقون السمع، والرجوم جمع رجم بالفتح، وهو في الأصل مصدر أطلق على المرجوم به، كما في قولهم: الدرهم ضرب الأمير أي: مضروبة، ويجوز أن

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَاقْشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ الْأَشْهُورُ﴾ ﴿١٠﴾ أَيَنْتُمْ مَن فِي السَّكَنَةِ أَمْ يَتَّبِعُ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَقُورُ ﴿١١﴾ أَمْ آيْتُمْ مَن فِي السَّكَنَةِ أَمْ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْتَ نَذِيرِ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبَ كَذِبًا كَبِيرًا ﴿١٣﴾ أَزَلَّ بَرًّا إِلَى الْغَايَةِ فَوَقَّهَتْ مَتَّعَتْ وَيَقِضُ مَا يُمَسِّكُهُمْ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّبْدٍ ﴿١٤﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرِفُكَ بَيْنَ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿١٥﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَزِيدُكَ إِنِ أَمْسَكَ يَزِيدُكَ بَلْ لَّجُورًا فِي غُرُورٍ ﴿١٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ لما فرغ سبحانه من نكر أحوال أهل النار نكر أهل الجنة، وبالفعل حال من الفاعل أو المفعول أي: غائبين عنه، أو غائباً عنهم، والمعنى: أنهم يخشون عذابه، ولم يروه، فيؤمنون به خوفاً من عذابه، ويجوز أن يكون المعنى: يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس، وذلك في خلواتهم، أو المراد بالغيب كون العذاب غائباً عنهم لأنهم في الدنيا، وهو إنما يكون يوم القيامة، فتكون الباء على هذا سببية ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم ﴿وَلَوْ جَرَّ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة، ومثل هذه الآية قوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: 33]. ثم عاد سبحانه إلى خطاب الكفار فقال: ﴿وَأَسْرِوا قَوْلُكُمْ لَوْ لَجَّهَرُوا بِهِ﴾ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تساوي الإسرار والجهر بالنسبة إلى علم الله سبحانه، والمعنى: إن أخفيتم كلامكم أو جهرتم به في أمر رسول الله ﷺ، فكل ذلك يعلمه الله لا تخفى عليه منه خافية، وجملة ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل للاستواء المنكور، وذات الصدور هي مضمرات القلوب، والاستفهام في قوله: ﴿إِلَّا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ﴾ للإنكار. والمعنى: ألا يعلم السر، ومضمرات القلوب من خلق تلك وأوجده، فالموصول عبارة عن الخالق، ويجوز أن يكون عبارة عن المخلوق، وفي يعلم ضمير يعود إلى الله أي: ألا يعلم الله المخلوق الذي هو من جملة خلقه، فإن الإسرار والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه، وجملة ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يعلم أي: الذي لطف علمه بما في القلوب، الخبير بما تسره وتضمهر من الأمور، لا تخفى عليه من ذلك خافية. ثم امتنَّ سبحانه على عباده، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: سهلة لينة تستقرون عليها، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكن فيها والمشي عليها، والنزول في الأصل هو المنقاد الذي يذل لك، ولا يستصعب عليك، والمصدر الذل، والفاء في قوله: ﴿فَاقْشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ لترتيب الأمر بالمشي على الجعل المنكور، والأمر للإباحة. قال مجاهد، والكلبي، ومقاتل: مناكبها طرقها وأطرافها وجوانبها. وقال قتادة، وشهر بن حوشب: مناكبها جبالها، وأصل المنكب الجانب، ومنه منكب الرجل، ومنه الريح النكباء لأنها تأتي من جانب دون جانب ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ أي: مما رزقكم وخلق لكم في الأرض ﴿وَالِلَّيْلِ لِلنَّشُورِ﴾ أي: وإليه البعث من قبوركم لا إلى غيره،

فماذا قالوا بعد هذا السؤال، فقال: قالوا: بلى قد جاءنا نذير، فانذرنا وخوفنا وأخبرنا بهذا اليوم ﴿فَنَكْنِبُنَا﴾ ذلك النذير ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء على السنتكم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي: في ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب، والمعنى أنه قال: كل فوج من تلك الأفواج حاكياً لخزنة جهنم ما قاله لمن أرسل إليه: ما أنتم أيها الرسل فيم تدعون أن الله نزل عليكم آيات تنذرون بها إلا في ذهاب عن الحق، وبعد عن الصواب كبير لا يقادر قدره. ثم حكى عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: لو كنا نسمع ما خاطبنا به الرسل، أو نعقل شيئاً من ذلك ما كنا في عداد أهل النار، ومن جملة من يعذب بالسعير، وهم الشياطين، كما سلف. قال الزجاج: لو كنا نسمع سمع من يعي، أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قال الله سبحانه: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ الذي استحقوا به عذاب النار، وهو الكفر وتكذيب الأنبياء ﴿فَسَحَقْنَا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: فبعداً لهم من الله ومن رحمته. وقال سعيد بن جبير، وأبو صالح: هو واو في جهنم يقال له: السحق. قرأ الجمهور (فسحقاً) بإسكان الحاء. وقرأ الكسائي، وأبو جعفر بضمها، وهما لغتان مثل السحت والرعب. قال الزجاج، وأبو علي الفارسي: فسحقاً منصوب على المصدر أي: أسحقهم الله سحقاً. قال أبو علي الفارسي: وكان القياس إسحاقاً، فجاء المصدر على الحذف، واللام في ﴿لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ للبيان، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23].

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: ﴿سَبْعَ سَفُوفَاتٍ طِبَاقًا﴾ قال: بعضها فوق بعض. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ﴾ قال: ما تفاوتت بعضه بعضاً تفاوتاً مفرقاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿مِن تَفَافُوتٍ﴾ قال: من تشقق، وفي قوله: ﴿هَل تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ قال: شقوق، وفي قوله: ﴿خَاسِئًا﴾ قال: ذليلاً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قليل. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً. قال: الفطور الوهي. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً ﴿مِن فُطُورٍ﴾ قال: من تشقق أو خلل، وفي قوله: ﴿يَتَقَلَّبُ إِلَيْكِ الْبَصَرُ﴾ قال: يرجع إليك ﴿خَاسِئًا﴾ قال: صاغراً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قال: معيى، ولا يرى شيئاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً خاسئاً قال: ذليلاً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قال: عيى مرتجع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ﴾ قال: تتفرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ﴾ قال: يفارق بعضها بعضاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَسَحَقْنَا﴾ قال: بعداً.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَكَبِيرٌ ﴿١٧﴾ وَاسْرَوْا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلَيْهِ يَدَارُ السُّدُورِ ﴿١٨﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

وفي هذا وعيد شديد. ثم خَوَّف سبحانه الكفار. فقال: ﴿ءَأَمْنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: عقوبة من في السماء، وقيل: من في السماء قدرته، وسلطانه، وعرشه، وملائكته، وقيل: من في السماء من الملائكة، وقيل: المراد جبريل، ومعنى ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ يقلعها ملتبسة بكم، كما فعل بقارون بعد ما جعلها لكم ثلولاً تمشون في مناكبها، وقوله: ﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ بدل اشتغال من الموصول أي: ءَأَمْنْتُمْ خسفه، أو على حذف من أي: من أن يخسف ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب، وتتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون. قرأ الجمهور (ءَأَمْنْتُمْ) بهزتين، وقرأ البصريون، والكوفيون بالتخفيف، وقرأ ابن كثير بقلب الأولى واواً. ثم كرَّر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر، فقال: ﴿لَمْ أَمْنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل، وقيل: سحب فيها حجارة، وقيل: ريح فيها حجارة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ أي: إنذاري إذا عاينت العذاب، ولا ينفعكم هذا العلم، وقيل: النذير هنا محمد ﷺ، قاله عطاء، والضحاك. والمعنى: ستعلمون رسولي وصدقته، والأول أولى. والكلام في ﴿أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ كالكلام في ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ فهو: إما بدل اشتغال، أو بتقدير من ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية. كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الرس، وقوم فدعون ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٍ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ﴾ الهمزة للاستفهام، والواراء للعطف على مقدر أي: أغفلوا ولم ينظروا، ومعنى ﴿صَافَاتٍ﴾ أنها صافة لأجنحتها في الهواء، وتبسيطها عند طيرانها ﴿وَيُوقِبِضْنَ﴾ أي: يضممن أجنحتهن. قال النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحه صافاً، وإذا ضمها قابض كأنه يقبضها، وهذا معنى الطيران، وهو بسط الجناح، وقبضه بعد البسط، ومنه قول أبي خراش:

يبادر جنح الليل فهو مزابل تحت الجناح بالتبسط والقبض وإنما قال: ﴿وَيُوقِبِضْنَ﴾ ولم يقل قابضات، كما قال صافات! لأن القبض يتجدد تارة فتارة، وأما البسط فهو الأصل، كذا قيل. وقيل: إن معنى ﴿وَيُوقِبِضْنَ﴾ قبضهن لأجنحتهن عند الوقوف من الطيران، لا قبضها في حال الطيران، وجملة ﴿لَمْ يَمْسُكُنَّ إِلَّا لَرحْمَنٍ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يقبضن، أو مستأنفة: لبيان كمال قدرة الله سبحانه. والمعنى: أنه ما يمسكهن في الهواء عند الطيران إِلَّا لَرحْمَنٍ القادر على كُلِّ شيء ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء كأننا ما كان ﴿إِنَّمَا هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرِكُمْ مِنْ دُونِ لَرحْمَنٍ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أنه لا جند لكم يمنكم من عذاب الله، والجند الحزب والمنعة. قرأ الجمهور (أَمْن) هذا بتشديد

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿إِنَّ النَّاسَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ قال: أبو بكر، وعمر، وعلي، وأبو عبيدة بن الجراح. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿فِي مَنَاقِبِهَا﴾ قال: جبالها. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: أطرافها. وأخرج الطبراني، وابن عدي، والبيهقي في الشعب، والحكيم الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جِبِلَّ لَجُوا فِي عَنُقٍ وَنُفُورٍ﴾ قال: في ضلال.

أَمَّنْ يَشَى مَكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَشَى سَوَاءً عَلَى مِرْكَبٍ مُتَنَبِّئٍ ﴿١٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعِذُّ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَذَبُوا وَقِيلَ لَهُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَنَسِيَ رَحْمَتَهُ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٩﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَبِعِزَّتِهِ قَوْلُكُمْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي سُبُلِي مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٢١﴾

ضرب سبحانه مثلاً للمشرك والموحد لإيضاح حالهما وبيان مآلهما، فقال: ﴿إِنَّمَا يَمْشِي مَكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى﴾ والمكب والمنكب: الساقط على وجهه، يقال: كبته فاكب وانكب، وقيل: هو الذي يكب رأسه، فلا ينظر يمينا ولا شمالاً ولا أماماً، فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه. وقيل: أراد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق، فلا يزال

ظرف أي: رآوه في مكان ذي زلفة. قال مجاهد: أي: قريباً. وقال الحسن: عياناً. قال أكثر المفسرين: المراد عذاب يوم القيامة. وقال مجاهد: المراد عذاب بدر، وقيل: رأوا ما وعدوا به من الحشر قريباً منهم، كما يدل عليه قوله: ﴿وإليه تحشرون﴾ وقيل: لما رأوا عملهم السيئ قريباً ﴿سيئنت وجوه الذين كفروا﴾ أي: أسوئت وعلتها الكآبة وغشيتها الذلّة، يقال: ساء الشيء يسوء، فهو سيء إذا قبح. قال الزجاج: للمعنى تبين فيها السوء أي: ساءهم ذلك العذاب، فظهر عليهم بسببه في وجوههم ما يدل على كفرهم كقوله: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ [آل عمران: 106]. قرأ الجمهور بكسر السين بدون إشمام، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وابن محيصن بالإشمام ﴿وقيل هذا الذي كنتم به تدعون﴾ أي: قيل لهم توبيخاً وتقريراً هذا المشاهد الحاضر من العذاب، هو العذاب الذي كنتم به تدعون في الدنيا أي: تطالبونه وتستعجلون به استهزاء، على أن معنى تدعون الدعاء. قال الفراء: تدعون فتتعلون من الدعاء أي: تتمنون وتسالون، وبهذا قال الأكثر من المفسرين. وقال الزجاج: هذا الذي كنتم به تدعون الأباطيل والأحاديث. وقيل: معنى ﴿تدعون﴾: تكنبون، وهذا على قراءة الجمهور (تدعون) بالتشديد، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر، أو من الدعوى كما قال الزجاج ومن وافقه، والمعنى: أنهم كانوا يدعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار. وقرأ قتادة، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، والضحاك (تدعون) مخففاً، ومعناها ظاهر. قال قتادة: هو قولهم: ﴿ربنا عجل لنا قطناً﴾ [ص: 16] وقال الضحاك: هو قولهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال: 32] الآية. قال النحاس: تدعون وتدعون بمعنى واحد، كما تقول قدر واقتدر، وغدا واغتدى، إلا أن أقبل معناه مضى شيئاً بعد شيء، وفعل يقع على القليل والكثير ﴿قل أرايتم إن أهلكني الله ومن معي﴾ أي: أخبروني إن أهلكني الله بموت أو قتل ومن معي من المؤمنين ﴿أو رحمنا﴾ بتأخير ذلك إلى أجل، وقيل المعنى: إن أهلكني الله ومن معي بالعذاب، أو رحمنا فلم يعذبنا ﴿فمن يجير الكافرين من عذاب اليم﴾ أي: فمن يمنعهم ويؤمنهم من العذاب. والمعنى: أنه لا ينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك الله رسوله والمؤمنين معه، كما كان الكفار يتمنونوه أو أمهلهم. وقيل: المعنى إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب، ووضع الظاهر موضع المضمحل للتسجيل عليهم بالكفر، وبيان أنه السبب في عدم نجاتهم ﴿قل هو للرحمن أمنا به﴾ وحده لا نشرك به شيئاً ﴿وعليه توكلنا﴾ لا على غيره، والتوكل: تفويض الأمور إليه عز وجل ﴿فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾ منا ومنكم، وفي هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف. قرأ الجمهور (ستعلمون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الكسائي بالتحته على الخبر، ثم احتج سبحانه عليهم ببعض نعمه، وخوفهم بسلب تلك

مشيه ينكسه على وجهه. قال قتادة: هو الكافر يكب على معاصي الله في الدنيا فيحشره الله يوم القيامة على وجهه. والهمزة للاستفهام الإنكاري أي: هل هذا الذي يمشي على وجهه أهدى إلى المقصد الذي يريده ﴿أمن يمشي سوياً﴾ معتدلاً ناظراً إلى ما بين يديه ﴿على صراط مستقيم﴾ أي: على طريق مستوي لا اعوجاج به ولا انحراف فيه، وخبر «من» محذوف لدلالة خبر «من» الأولى، وهو أهدى عليه، وقيل: لا حاجة إلى ذلك؛ لأن «من» الثانية معطوفة على «من» الأولى عطف المفرد على المفرد، كقولك: أزيد قائم أم عمرو؟ وقيل: أراد بمن يمشي مكباً على وجهه من يحشر على وجهه إلى النار، ومن يمشي سوياً من يحشر على قدميه إلى الجنة، وهو كقول قتادة الذي ذكرناه، ومثله قوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾ [الإسراء: 97] ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾ أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يخبرهم بأن الله هو الذي أنشأهم النشأة الأولى ﴿وجعل﴾ لهم ﴿السمع﴾ ليسمعوا به ﴿والأبصار﴾ ليبصروا بها، ووجه أفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على القليل والكثير، وقد قدمنا بيان هذا في مواضع مع زيادة في البيان ﴿والأفئدة﴾ القلوب التي يتفكرون بها في مخلوقات الله، فنذكر سبحانه ما هنا أنه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات أيضاً للحجة وقطعاً للمعذرة، وذنأ لهم على عدم شكر نعم الله، ولهذا قال: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ وانتصاب قليلاً على أنه نعت مصدر محذوف، وهما مزيدة للتأكيد أي: شكراً قليلاً أو زماناً قليلاً، وقيل: أراد بقلّة الشكر عدم وجوده منهم. قال مقاتل: يعني أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحثونه ﴿قل هو الذي نراكم في الأرض وإليه تحشرون﴾ أمر الله رسوله ﷺ بأن يخبرهم أن الله هو الذي خلقهم في الأرض ونشرهم فيها وفرقهم على ظهريها، وأن حشرهم للجزاء إليه لا إلى غيره. ثم ذكر سبحانه أنهم يستعجلون العذاب فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي: متى هذا الوعد الذي تذكرونه لنا من الحشر والقيامة، والنار والعذاب إن كنتم صادقين في ذلك، والخطاب منهم للنبي ﷺ ولمن معه من المؤمنين، وجواب الشرط محذوف، والتقدير إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فينبوه لنا، وهذا منهم استهزاء وسخرية. ثم لما قالوا هذا القول أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عليهم، فقال: ﴿قل إنما العلم عند الله﴾ أي: إن وقت قيام الساعة علمه عند الله لا يعلمه غيره، ومثله قوله: ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾ [الأعراف: 187] ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب فقال: ﴿وانما أنا نذير مبين﴾ أنذركم وأخوفكم عاقبة كفركم، وأبين لكم ما أمرني الله ببيانه. ثم ذكر الله سبحانه حالهم عند معاناة العذاب فقال: ﴿فلما رآوه زلفة﴾ يعني: رأوا العذاب قريباً، وزلفة مصدر بمعنى الفاعل أي: مزلفاً، أو حال من مفعول رأوا بتقدير مضاف أي: ذا زلفة وقرب، أو

الْمَقْنُونُ ﴿١﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْجَرِينَ ﴿٢﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ وَذُو الْأَرْشَىٰ يَكْتُمُونَ ﴿٤﴾ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ سَلَّابٍ ﴿٥﴾ مَهِينٍ ﴿٦﴾ هَكَذَا مَثَلٌ زَبِيرٍ ﴿٧﴾ تَنَزَّاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيرٍ ﴿٨﴾ عُثْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَبِيرٍ ﴿٩﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِيٍّ ﴿١٠﴾ إِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِ مَا يَنْشَأُ قَالَ اسْتَبِيرُ ﴿١١﴾ الْاَوَّلِينَ ﴿١٢﴾ سَيِّئُهُ عَلَى الْأَعْقَابِ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿١﴾ قرأ أبو بكر، وورش، وابن عامر، والكسائي، وابن محيصن، وابن هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها في الواو، وقرأ اللياقون بالإظهار، وقرأ أبو عمرو، وعيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل. وقرأ ابن عامر، ونصر، وابن إسحاق بكسرها على إضمار القسم، أو لأجل التقاء الساكنين، وقرأ محمد بن السميعف وهارون بضمها على البناء. قال مجاهد، ومقاتل، والسدي: هو الحوت الذي يحمل الأرض، وبه قال مرة الهذلي، وعطاء الخراساني، والكلمي. وقيل: إن نون آخر حرف من حروف الرحمن. وقال ابن زيد: هو قسم أقسم الله به. وقال ابن كيسان: هو فاتحة السورة. وقال عطاء، وأبو العالية: هي النون من نصر وناصر. قال محمد بن كعب: أقسم الله تعالى بنصره المؤمنين، وقيل: هو حرف من حروف الهجاء، كالفواتح الواقعة في أوائل السور المفتحة بذلك، وقد عرفت أن ما هو الحق في مثل هذه الفواتح في أول سورة البقرة، والواو في قوله: ﴿١٣﴾ والقلم. ورو القسم، أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان، وهو واقع على كل قلم يكتب به. وقال جماعة من المفسرين: المراد به القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ، أقسم الله به تعظيماً له. قال قتادة: القلم من نعمة الله على عباده ﴿١٤﴾ وما يسطرون ﴿١٥﴾ ما موصولة أي: والذي يسطرون، والضمير عائد إلى أصحاب القلم المثلول عليهم بذكره: لأن ذكر آلة الكتابة تدل على الكاتب. والمعنى: والذي يسطرون أي: يكتبون كل ما يكتب، أو الحفظ على ما تقدم. ويجوز أن تكون «ما» مصدرة أي: وسطروهم، وقيل: الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة، وإجرائها مجرى العقلاء، وجواب القسم قوله: ﴿١٦﴾ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴿١٧﴾ ما نافية، وأنت اسمها، وبمجنون خبرها. قال الزجاج: أنت هو اسم ما، وبمجنون خبرها، وقوله: ﴿١٨﴾ بنعمة ربك ﴿١٩﴾ كلام وقع في الوسط أي: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، قيل: الباء متعلقة بمضمر هو حال، كأنه قيل: أنت بريء من الجنون ملتبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرياسة العامة. وقيل: الباء للقسم أي: وما أنت ونعمة ربك بمجنون. وقيل: النعمة هنا الرحمة، والآية رد على الكفار حيث قالوا: ﴿٢٠﴾ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴿٢١﴾ [الحجر: 6] ﴿٢٢﴾ وإن لك لأجراً ﴿٢٣﴾ أي: ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوة، وقاسيت من أنواع الشدائد ﴿٢٤﴾ غير ممنون ﴿٢٥﴾ أي: غير مقطوع، يقال: مننت الحبل إذا قطعته. وقال مجاهد: ﴿٢٦﴾ غير ممنون ﴿٢٧﴾ غير محسوب، وقال الحسن: ﴿٢٨﴾ غير ممنون ﴿٢٩﴾ غير مكتر باليمن. وقال الضحك:

النعمة عنهم فقال: ﴿٣٠﴾ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً ﴿٣١﴾ أي: أخبروني إن صار ماؤكم غائراً في الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلاً، أو صار ذاهباً في الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدلاء، يقال: غار الماء غوراً أي: نضب، والغور الغائر، وصف بالمصدر للمبالغة، كما يقال: رجل عدل، وقد تقدم مثل هذا في سورة الكهف ﴿٣٢﴾ فمن ياتيكم بماء معين ﴿٣٣﴾ أي: ظاهر تراه العين وتناله الدلاء، وقيل: هو من معن الماء أي: كثر. وقال قتادة، والضحك: أي: جار، وقد تقدم معنى المعين في سورة المؤمن. وقرأ ابن عباس (فمن ياتيكم بماء عنب).

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿٣٤﴾ افمن يمشي مكياً ﴿٣٥﴾ قال: في الضلالة ﴿٣٦﴾ افمن يمشي سوياً ﴿٣٧﴾ قال: مهتدياً. وأخرج الخطيب في تاريخه، وابن النجار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اشتكى ضرره فليضع أصبعه عليه، وليقرأ هذه الآية: ﴿٣٨﴾ هو الذي أنشاكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون». وأخرج الدارقطني في الأفراد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اشتكى ضرره فليضع أصبعه عليه، وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات: ﴿٣٩﴾ هو الذي أنشاكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ﴿٤٠﴾ إلى ﴿٤١﴾ يفقهون ﴿٤٢﴾ [الأنعام: 98] و ﴿٤٣﴾ هو الذي أنشاكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴿٤٤﴾ فإنه يبرأ بإنان الله». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿٤٥﴾ إن أصبح ماؤكم غوراً ﴿٤٦﴾ قال: داخلاً في الأرض ﴿٤٧﴾ فمن ياتيكم بماء معين ﴿٤٨﴾ قال: الجاري. وأخرج ابن المنذر عنه: ﴿٤٩﴾ إن أصبح ماؤكم غوراً ﴿٥٠﴾ قال: يرجع في الأرض. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿٥١﴾ بماء معين ﴿٥٢﴾ قال: ظاهر. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً ﴿٥٣﴾ بماء معين ﴿٥٤﴾ قال: عنب.

تفسير سورة القلم

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. وروى عن ابن عباس، وقتادة أن من أولها إلى قوله: ﴿٥٥﴾ سنسمه على الخرطوم ﴿٥٦﴾ [ن: 1 - 16] مكي، ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿٥٧﴾ من الصالحين ﴿٥٨﴾ [ن: 17 - 52] مني، وبقائها مكي كذا قال الماوردي. وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما نزل من القرآن: ﴿٥٩﴾ اقرأ باسم ربك ﴿٦٠﴾ [أي: سورة العلق] ثم نون، ثم المزمّل، ثم المشر. وأخرج النحاس، وابن مردويه، والبيهقي عنه قال: نزلت سورة ن بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِمَنْزُورٍ رَبِّكَ بِمَنْزُورٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ عَلِيٌّ عَظِيمٌ ﴿٤﴾ فَسَتَعِيرُ وَيَعْبُرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيْدِيكُمْ

وكذا قال الكلبي. وقال الضحاك، والسدي: ونُوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر. وقال الربيع بن أنس: ونُوا لو تكنب فيكنبون. وقال قتادة: ونُوا لو تذهب عن هذا الأمر، فيذهبون معك. وقال الحسن: ونُوا لو تصانعهم في بينك فيصانعونك. وقال مجاهد: ونُوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمايلونك. قال ابن قتيبة: كانوا أرادوه على أن يعبد الهتهم مدة، ويعبدوا الله مدة، وقوله: ﴿فَيُذْهِبُونَهُمْ﴾ عطف على تدهن داخل في حيز لو، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي: فهم يذهنون. قال سيبويه: وزعم قالون أنها في بعض المصاحف (ونُوا لو تدهن فيذهنون) بدون نون، والنصب على جواب التمني المفهوم من ونُوا، والظاهر من اللغة في معنى الإدهان، هو ما ذكرناه أولاً ﴿وَلَا تَطْعَ كُلَّ حَلِافٍ﴾ أي: كثير الحلف بالباطل ﴿مُهِنٍ﴾ فعيل من المهانة، وهي القلة في الرأي والتمييز. وقال مجاهد: هو الكذاب. وقال قتادة: المكثار في الشر، وكذا قال الحسن. وقيل: هو الفاجر العاجز، وقيل: هو الحقيق عند الله، وقيل: هو اللذيل، وقيل: هو الوضع ﴿هَمَازٌ مَشَاءٌ بَنِمِيمٍ﴾ الهماز المغتاب للناس. قال ابن زيد: هو الذي يهمز بأخيه، وقيل: الهماز الذي ينكر الناس في وجوههم، والماز الذي ينكرهم في مغيبيهم، كذا قال أبو العالية، والحسن، وعطاء بن أبي رباح، وقال مقاتل عكس هذا. والمشاء بنميم: الذي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، يقال: نَمَ يَنُمُ إذا سعى بالفساد بين الناس، ومنه قول الشاعر:

ومولى كبيت النمل لا خير عنده لمولاه إلا سعيه بنميم
وقيل: النميم جمع نميمة ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل بالمال لا ينفقه في وجهه، وقيل: هو الذي يمنع أهله وعشيرته عن الإسلام. قال الحسن: يقول لهم من نخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً ﴿مُعْتَدٌ أَثِيمٌ﴾ أي: متجاوز الحد في الظلم كثير الإثم ﴿عَتَلٌ﴾ قال الواحدي: المفسرون يقولون: هو الشديد الخلق الفاحش الخلق. وقال الفراء: هو الشديد الخصومة في الباطل. وقال الزجاج: هو الغليظ الجافي. وقال الليث: هو الأكل المنوع، يقال: عتل الرجل أعتله إذا جنبتهجنباً عنيفاً، ومنه قول الشاعر:

نقرعه قرعاً ولسنا نعتله

﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ أي: هو بعد ما عد من معايه زنيم، والزنيم هو الدعي الملتصق بالقوم وليس هو منهم؛ مأخوذ من الزنمة المتبالية في حلق الشاة أو الماعز، ومنه قول حسان:

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأليم الأكارع
وقال سعيد بن جبير: الزنيم المعروف بالشر، وقيل: هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة، وقيل: هو الظلوم ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَا تَطْعَ﴾ أي: لا تطع من هذه مثالبه لكونه ذا مال وبنتين. قال الفراء، والزجاج: أي لأن كان، والمعنى لا تطعه لماله وبنيه. قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، والمغيرة، وأبو حيوة (أن كان) بهززة

أجراً بغير عمل، وقيل: غير مقدّر، وقيل: غير ممنون به عليك من جهة الناس ﴿وَأَنَّكَ لَـعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ قيل: هو الإسلام والدين، حكى هذا الواحدي عن الأكثرين. وقيل: هو القرآن، روي هذا عن الحسن والوعوفي. وقال قتادة: هو ما كان ياتمر به من أمر الله وينتهي عنه من نهي الله. قال الزجاج: المعنى إنك على الخلق الذي أمر الله به في القرآن، وقيل: هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم، وقيل المعنى: إنك على طبع كريم. قال الماوردي: وهذا هو الظاهر، وحقيقة الخلق في اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأب. وقد ثبت في الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبي ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن، وهذه الجملة، والتي قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم ﴿فَسَتَبْصُرُ وَيَبْصُرُونَ﴾ أي: ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحق وانكشف الغطاء، وذلك يوم القيامة ﴿بِأَيْكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ الباء زائدة للتأكيد أي: المفتون بالجنون، كذا قال الأخفش، وأبو عبيدة، وغيرهما، ومنه قول الشاعر:

نحن بنو رجدة أصحاب العليج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج
وقيل: ليست الباء زائدة، والمفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور، والتقدير: بأيكم الفتون أو الفتنة، ومنه قول الشاعر الراعي:

حتى إذا لم يتركوا العظامه لحماء ولا لفؤاده معقولا
أي: عقلا. وقال الفراء: إن الباء بمعنى في أي: في أيكم المفتون، أفى الفريق الذي أنت فيه أم في الفريق الآخر؟ ويؤيد هذا قراءة ابن أبي عبيدة (في أيكم المفتون)، وقيل: الكلام على حذف مضاف أي: بأيكم فتن المفتون، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، روي هذا عن الأخفش أيضاً. وقيل: المفتون المعذب، من قول العرب فتنت الذئب بالنار إذا أحميته، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: 13]، وقيل: المفتون هو الشيطان، لأنه مفتون في دينه، والمعنى: بأيكم الشيطان. وقال قتادة: هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر، والمعنى: ستري ويرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون، وجملة ﴿إِنَّ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ تعليل للجملة التي قبلها، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم في العاجل والآجل، واختيارهم ما فيه ضررهم فيهما، والمعنى: هو أعلم بمن ضل عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة، فهو مجاز كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿فَلَا تَطْعَ الْمُكْبِتِينَ﴾ نهاء سبحانه عن ممائلة المشركين، وهم رؤساء كفار مكة؛ لأنهم كانوا يدعونهم إلى دين آبائهم، فنهاه الله عن طاعتهم، أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار، أو المراد بالطاعة مجرد المداراة بإظهار خلاف ما في الضمير، فنهاه الله عن ذلك، كما يدل عليه قوله: ﴿وَنُوا لو تدهن فيذهنون﴾ فإن الإدهان هو الملاينة والسماحة والمداراة. قال الفراء: المعنى لو تلين فيلينوا لك،

الأرضين، والقلم الذي خط به ربنا عز وجل القدر خيره وشره، وضره ونفعه ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال: الكرام الكاتبون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال: ما يكتبون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال: وما يعلمون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومسلم، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والواحدي عنها قالت: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه، ولا من أهل بيته إلا قال: «لبيك»، فلذلك أنزل الله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن أبي الدرداء قال: سُئِلَتْ عَائِشَةُ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: كَانَ خَلْقُهُ الْقُرْآنَ، يَرْضَىٰ لِرِضَاهُ، وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، وابن مردويه عن أبي عبد الله الجلي قال: قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: لم يكن فاحشاً ولا متفاحشاً، ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ قال: تعلم ويعلمون يوم القيامة ﴿بِأَيْكُمُ الْمَفْتُونُونَ﴾ قال: الشيطان، كانوا يقولون: إنه شيطان، وأنه مجنون. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: بأيكم المجنون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَوُثِّقَ لَوْ تَدَّهَنَ فَيَدْهَنُونَ﴾ يقول: لو ترخص لهم فيرخصون. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ الآية قال: يعني: الأسود بن عبد يغوث. وأخرج ابن مردويه عن أبي عثمان النهدي قال: قال مروان لما بايع الناس ليزيد: سنة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: إنها ليست بسنة أبي بكر وعمر، ولكنها سنة هرقل، فقال مروان: هذا الذي أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَتَىٰ لَكُمْ﴾ [الأحقاف: 17] الآية، قال: فسمعت ذلك عائشة فقلت: إنها لم تنزل في عبد الرحمن، ولكن نزل في أبيك: ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَٰذَا مِثْلُ مَا أَنتَ بِمَعْمُومٍ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزل على النبي ﷺ ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَٰذَا مِثْلُ مَا أَنتَ بِمَعْمُومٍ﴾ فلم نعرف حتى نزل عليه بعد ذلك زعيم، فعرفناه له زمة كزمة الشاة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: المعتل هو الدعي، والزنيم هو المريب الذي يعرف بالشر. وأخرج عبد بن حميد، وابن عساكر عنه قال: الزنيم: هو الدعي. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه عنه أيضاً قال: الزنيم الذي يعرف بالشر كما

واحدة ممدودة على الاستفهام. وقرأ حمزة، وأبو بكر، والمفضل (إن كان) بهزتين مخففتين، وقرأ الباقون بهمة واحدة على الخبر، وعلى قراءة الاستفهام يكون المراد به التوبيخ والتقريع حيث جعل مجازاة النعم التي حوَّله الله من المال والبنين أن كفر به وبرسوله. وقرأ نافع في رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط، وجملة ﴿إِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ قال أساطير الأولين مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهي، وقد تقدّم معنى أساطير الأولين في غير موضع ﴿سَنَسْأَلُهُ عَلَى الْخُرُومِ﴾ أي: سنسأله بالكفي على خرطومه. قال أبو عبيدة، وأبو زيد، والمبرد: الخرطوم الأنف. قال مقاتل: سنسأله بالسواد على الأنف، وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار. قال الفراء: والخرطوم وإن كان قد خصّ بالسمة، فإنه في مذهب الوجه؛ لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض. قال الزجاج: سيجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من أسوداد وجوههم. وقال قتادة: سنلحق به شيئاً لا يفارقه، واختار هذا ابن قتيبة، قال: والعرب تقول: قد سمه ميسم سوء يريون الصق به عاراً لا يفارقه، فالمعنى: أن الله الحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الخرطوم، وقيل: معنى ﴿سَنَسْأَلُهُ﴾: سنحطمه بالسيف. وقال النضر بن شميل: المعنى سنحدّه على شرب الخمر، وقد يسمى الخمر بالخرطوم، ومنه قول الشاعر:

تظل يومك في لهو وفي طرب وانت بالليل شراب الخراطيم
وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، والخطيب في تاريخه، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: إن أول شيء خلقه الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجري من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، ثم طوى الكتاب ورفع القلم، وكان عرشه على الماء فارتفع بخار الماء، ففتقت منه السموات ثم خلق النون، فبسطت الأرض عليه، والأرض على ظهر النون، فاضطرب النون فماتت الأرض، فأثبتت الجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة، ثم قرأ ابن عباس: (نون) يسطرون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجري بما هو كائن إلى الأبد». وأخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: إن الله خلق النون، وهي الدواة: وخلق القلم، فقال: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: ن الدواة. وأخرج ابن مردويه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النون السمكة التي عليها قرار

كالصريم أي: كالشيء الذي صرمت ثماره أي: قطعت، فعيل بمعنى مفعول، وقال الفراء: كالصريم كالليل المظلم، ومنه قول الشاعر:

تطاول ليلك الجون الصريم فما ينجاب عن صبح بهيم
والمعنى: أنها حرقت فصارت كالليل الأسود، قال:

والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة. وقال الاخفش: أي كالصبح انصرم من الليل، يعني: أنها يبيت وابيضت. وقال

المبرد: الصريم الليل، والصريم النهار أي: ينصرم هذا عن هذا، وذلك عن هذا، وقيل: سمي الليل صريماً لأنه يقطع

بظلمته عن التصرف. وقال المؤرج: الصريم الرملة؛ لأنها لا يثبت عليها شيء ينتفع به. وقال الحسن: صرم منها الخير

أي: قطع ﴿فقتناوا مصبحين﴾ أي: نادى بعضهم بعضاً داخلين في الصباح. قال مقاتل: لما أصبحوا قال بعضهم

لبعض ﴿إن اغدوا على حرككم﴾ وإن: في قوله: ﴿إن اغدوا﴾ هي المفسرة لأن في التنادي معنى القول، أو هي

المصدرية أي: بأن اغدوا، والمراد أخرجوا غداة، والمراد بالحرث الثمار والزرع ﴿إن كنتم صارمين﴾ أي: قاصدين

للصرم، والغزو يتعدى إلى وعلى، فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل، وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم

صارمين فاغدوا، وقيل: معنى صارمين ماضين في العزم، من قولك سيف صارم ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ أي:

ذهبوا إلى جنتهم وهم يسرون الكلام بينهم؛ لثلا يعلم أحد بهم، يقال: خفت يخفت إذا سكن ولم ينبس، ومنه قول

نريد بن الصمة:

واني لم أهلك ملالا ولم أمت خفاتا وكلاظنه بي عويمر
وقيل المعنى: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم، فيقصدهم، كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد، والأول

أولى لقوله: ﴿إن لا يخلئها اليوم عليكم مسكين﴾ فإن: وإن: هي المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول، والمعنى: يسر بعضهم إلى بعض هذا القول، وهو لا يدخل

هذه الجنة اليوم عليكم مسكين، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم ﴿وغدوا على حرد قادرين﴾ الحرد

يكون بمعنى المنع والقصد. قال قتادة، ومقاتل، والكلبي، والحسن، ومجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد؛ لأن القاصد إلى الشيء حارد. يقال: حرد إذا قصد، تقول: حربت حرك

أي: قصصت قصصك، ومنه قول الأراجز:

أقبل سبل جاء من عند الله يحدرد حرد الجنة المحله
وقال أبو عبيدة، والمبرد، والقيتيبي: على حرد على منع، من قولهم: حردت الإبل حرداً: إذا قلت البانها، والحرد من

النوق هي القليلة اللبن. وقال السدي، وسفيان، والشعبي ﴿على حرد﴾ على غضب، ومنه قول الشاعر:

إن أجياد الخيل جاءت تردى مملوءة من غضب وحرد
وقول الآخر:

تساقوا على حرد دماء الأسود

ومنه قيل: أسد حارد. وروي عن قتادة، ومجاهد أيضاً

تعرف الشاة بزمتها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: هو الرجل يمر على القوم، فيقولون رجل سوء. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿زنيم﴾ قال: ظلوم. وقد قيل: إن هذه الآيات نزلت في الأخنس بن شريق، وقيل: في الوليد بن المغيرة.

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لِيَصْرَبَنَّهُمْ مَّوَجِينَ ﴿٧٧﴾ وَلَا يَسْتَوُونَ ﴿٧٨﴾ فَأَمَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ

﴿٧٩﴾ أَنِ اعْبُدُوا عَلَىٰ حَرْوٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَأَنظَرُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٨١﴾ أَن لَّا يَدْخُلُوا الْإِيمَ عَلَيْهِمْ سَبِيحٌ ﴿٨٢﴾ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْوٍ فَبَدَّلَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُمُ آتَالُوا أَن لَّا يَسْأَلُونَ ﴿٨٤﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٨٥﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ لَوْلَا نَسِيحُونَ ﴿٨٦﴾ فَأَلَا سَبِيحٌ رَبِّكَ

﴿٨٧﴾ إِنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ مُّسْتَكِبِينَ ﴿٨٨﴾ فَاذْكُرْهُمْ يَوْمَ الْمَوْتِ وَخَالُوا بِرَبِّكُمُ ﴿٨٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْنَهُ ﴿٩٠﴾ إِنَّا كُنَّا

مُتَعَدِّينَ ﴿٩١﴾ عَنْ رَبِّكَ إِنَّا بَدَّلْنَا صَبْرًا سَعَرًا ﴿٩٢﴾ إِنَّا كُنَّا بِهَذَا صَحَافًا مَّكَرًا ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ أَتَوْهُم بِطُغْيَانٍ مِّنَ الْمَاءِ ﴿٩٤﴾ فَجَاءَهُمُ الْغَمُّ أَكْبَرُ

قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ يعني: كفار مكة، فإن الله ابتلاهم بالجوع والقيح بدعوة رسول الله ﷺ عليهم، والابتلاء الاختبار، والمعنى: أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقيح ﴿كما بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ المعروف خبرهم عندهم، وذلك أنها كانت بارض

اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدي حق الله منها، فمات، وصارت إلى أولاده، فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله فيها. قال الواحدي: هم قوم من ثقيف كانوا باليمن

مسلمين ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنان وزرع ونخيل، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظاً للمساكين

عند الحصاد والصرام، فقالت بنوه: المال قليل والعيال كثير، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا، وعزموا على حرمان

المساكين، فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله في كتابه. قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ابتلاه الله بأن

حرق جنتهم. وقيل: هي جنة كانت بصوران، وصوران على فراسخ من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع

عيسى بيسير ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرَبْنَهَا مَصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا ليقطعنها داخلين في وقت الصباح، والصرم القطع

للثمر والزرع، وانتصاب ﴿مَصْبِحِينَ﴾ على الحال من فاعل ليصرمنها، والكاف في ﴿كما بَلَوْنَا﴾ نعت مصدر محذوف

أي: بَلَوْنَاهُمْ ابتلاء كما بَلَوْنَا، وما مصدرية، أو بمعنى الذي، وإن ظرف لبَلَوْنَا منتصب به، وليصرمنها جواب القسم ﴿وَلَا

يَسْتَتِنُونَ﴾ يعني: ولا يقولون إن شاء الله، وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم أو حال. وقيل المعنى: ولا

يستثنون للمساكين من جملة تلك القدر الذي كان ينفقه أبوهم إليهم، قاله عكرمة. ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ

وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي: طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه، والطائف قيل: هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء، كذا قال مقاتل وقيل: الطائف جبريل أقتلعها، وجملة ﴿وَهُمْ

نَائِمُونَ﴾ في محل نصب على الحال ﴿فَاصْبَحَتْ

رفع الشيء جملة، ووضع آخر مكانه، كما مضى في سورة سبا ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ أي: طالبون منه الخير راجون لعفوه راجعون إليه، وعدي بالي، وهو إنما يتعدى بعن أو في لتضمينه معنى الرجوع ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: مثل ذلك العذاب الذي بلوناهم به، وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا، والعذاب مبتدأ مؤخر، وكذلك خبره ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أشد وأعظم لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك، ولكنهم لا يعلمون.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا بَلَّوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ قال: هم ناس من الحبشة كان لأبيهم جنة، وكان يطعم منها المساكين، فمات أبوه، فقال بنوه: أن كان أبونا لأحق كان يطعم المساكين ﴿فَاقْسَمُوا لِيَصْرَمَنَهَا مَصْبِحِينَ﴾ وإن لا يطعموا مسكيناً. وأخرج ابن جرير عنه ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ﴾ قال: أمر من الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: وإياكم والمعصية، فإن العبد لينتذب الذنب الواحد، فينسى به الباب من العلم، وإن العبد لينتذب فيحرم به قيام الليل، وإن العبد لينتذب الذنب، فيحرم به رزقاً قد كان هيئ له. ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهِم طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ فاصبحت كالصريم. قد حرموا خير جنتهم بنذبتهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كَالْصَّرِيمِ﴾ قال: مثل الليل الأسود. وأخرج ابن المنذر عنه: ﴿وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾ قال: الإسرار والكلام الخفي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ يقول: ذو قدرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ قال: أضللنا مكان جنتنا. وأخرج عنه أيضاً ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قال: أعدلهم.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ ٱلَّتِي ٱلْأَنْجَالُ فِيهَا يَدْخُلُونَ ﴿١٧﴾ أَتَجْعَلُ لِلَّذِينَ كَانُوا يُكْفَرُونَ ﴿١٨﴾ مَا لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿١٩﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٢٠﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٢١﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٢٢﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٢٣﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٢٤﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٢٥﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٢٦﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٢٧﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٢٨﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٢٩﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٣٠﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٣١﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٣٢﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٣٣﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٣٤﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٣٥﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٣٧﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٣٩﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٤٠﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٤١﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٤٢﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٤٤﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٤٥﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٤٦﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٤٧﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٤٨﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٤٩﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٥٠﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٥١﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٥٣﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٥٤﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٥٥﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٥٦﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٥٧﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٥٨﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٥٩﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٦٠﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٦١﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٦٢﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٦٣﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٦٤﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٦٥﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٦٦﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٦٧﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٦٩﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٧٠﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٧١﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٧٢﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٧٣﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٧٤﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٧٥﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٧٦﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٧٧﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٧٨﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٧٩﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٨٠﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٨١﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٨٢﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٨٣﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٨٤﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٨٥﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٨٦﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٨٧﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٨٨﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٨٩﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٩٠﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٩١﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٩٢﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٩٤﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٩٥﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٩٦﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٩٧﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٩٨﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿٩٩﴾ أَمْ لَكَ بِذَلِكَ قَوْلًا ﴿١٠٠﴾

لما فرغ سبحانه من نكر حال الكفار، وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة، نكر حال المتقين وما أعده لهم من الخير، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ

إنهما قالوا: على حرد أي: على حسد. وقال الحسن أيضاً: على حاجة وفاقية. وقيل: على حرد: على انفراد، يقال: حرد يحرد حرداً أو حردوا: إذا تنحى عن قومه، ونزل منفرداً عنهم ولم يخالطهم، وبه قال الأصمعي، وغيره. وقال الأزهري: حرد اسم قريتهم، وقال السدي: اسم جنتهم. قرأ الجمهور (حرد) يسكون الراء. وقرأ أبو العالية، وابن السميع بفتحها، وانتصاب ﴿قَادِرِينَ﴾ على الحال. قال الفراء: ومعنى ﴿قَادِرِينَ﴾: قد قدروا أمرهم وبنوا عليه، وقال قتادة: قادرين على جنتهم عند انفسهم. وقال الشعبي: يعني قادرين على المساكين ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي: لما رأوا جنتهم، وشاهدوا ما قد حل بها من الآفة التي أذهبت ما فيها ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: قد ضللنا طريق جنتنا، وليست هذه، ثم لما تأملوا وعلما أنها جنتهم، وإن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع، قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ أي: حرمتنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها، فاضربوا عن قلوبهم الأول إلى هذا القول، وقيل: معنى قولهم: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أمثلهم وأعقلهم وخيرهم ﴿لَهُمْ أَقَلُّ لَكُمْ لَوْلَا تَسْبِحُونَ﴾ أي: هلا تسبحون يعني: تستنثون، وسمي الاستثناء تسبيحاً؛ لأنه تعظيم لله وإقرار به، وهذا يدل على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه، وقال مجاهد، وأبو صالح، وغيرهما: كان استثناءهم تسبيحاً. قال النحاس: أصل التسبيح التنزيه لله عز وجل، فجعل التسبيح في موضع إن شاء الله، وقيل المعنى: هلا تستغفرون الله من فعلكم، وتوتبون إليه من هذه النية التي عزمتم عليها، وكان أوسطهم قد قال لهم ذلك، فلما قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: تنزيهاً له عن أن يكون ظالماً فيما صنع بجنتنا، فإن ذلك بسبب نذبتنا الذي فعلناه، وقيل: معنى تسبيحهم الاستغفار أي: نستغفر ربنا من نذبتنا إننا كنا ظالمين لأنفسنا في منعنا للمساكين ﴿فَاقْبَلْ بِعُضْهِمْ عَلَىٰ بَعْضِ يَتْلَاوُمُونَ﴾ أي: يلوم بعضهم بعضاً في منعهم للمساكين وعزمهم على ذلك، ثم نادوا على انفسهم بالويل حيث ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي: عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء. قال ابن كيسان: أي: طغيانا نعم الله، فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل، ثم رجعوا إلى الله وسأله أن يعوضهم بخير منها، فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يَبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ لما اعترفوا بالخطيئة رجوا من الله عز وجل أن يبدلهم جنة خيراً من جنتهم، قيل: إنهم تعافوا فيما بينهم، وقالوا: إن أبداً الله خيراً منها لنصنعن كما صنع أبونا، فدعوا الله وتضرعوا، فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها. قرأ الجمهور (يبدلنا) بالتخفيف، وقرأ أبو عمرو، وأهل المدينة بالتشديد، وهما لغتان، والتبديل تغيير ذات الشيء، أو تغيير صفته، والإبدال

لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين في الآخرة ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ «يوم ظرف لقوله: ﴿فليأتوا﴾ أي: فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق، ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل مقتر أي: أنكر يوم يكشف. قال الواحدي: قال المفسرون في قوله: ﴿عن ساق﴾ عن شدة من الأمر. قال ابن قتبية: أصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجِدِّ فيه شمر عن ساقه، فيستعار الكشف عن الساق في موضع الشدة، وأنشد لدريد بن الصمة:

كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلاء طلاع أنجد
وقال: وتأويل الآية يوم يشتد الأمر كما يشتد ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق. قال أبو عبيدة: إذا اشتد الحرب، والأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه، والأصل فيه من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجِدِّ شمر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عن موضع الشدة، وهكذا قال غيره من أهل اللغة، وقد استعملت ذلك العرب في أشعارها، ومن ذلك قول الشاعر:

أخو الحرب إن غصت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرها
وقول آخر:

والخيل تعبر عند وقت الإسراق وقامت الحرب بنا على ساق
وقول آخر أيضاً:

قد كشفت عن ساقها فسلوا وجئت الحرب بكم فجنوا
وقول آخر أيضاً في سنة:

قد كشفت عن ساقها حمرا ء تبرى اللحم عن عراقها
وقيل: ساق الشيء أصله وقوامه كساق الشجرة، وساق الإنسان أي: يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه،

وقيل: يكشف عن ساق جهنم، وقيل: عن ساق العرش، وقيل: عبارة عن القرب، وقيل: يكشف الرب سبحانه عن نوره،

وسياي في آخر البحث ما هو الحق، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. قرأ الجمهور (يكشف) بالتَّحْتِيَّة مبنياً للمفعول،

وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن أبي عبيدة (تكشف) بالفوقية مبنياً للفعل أي: الشدة أو الساعة، وقرأ بالفوقية مبنياً للمفعول، وقرأ بالنون، وقرأ بالفوقية المضمومة وكسر الشين من أكشف الأمر أي: نخل في الكشف

﴿ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: يسجد الخلق كله لله سجدة واحدة، ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون؛ لأن أصلاهم يبست فلا تلين للسجود. قال الربيع بن أنس:

يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله في الدنيا، فيسجدون له، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا، وانتصاب ﴿خاشعة أبصارهم﴾ على الحال من ضمير يدعون، وأبصارهم مرفوع به على الفاعلية، ونسبة الخشوع إلى الأبصار، وهو الخضوع والنلة لظهور أثره فيها ﴿ترهقهم نلة﴾ أي:

تغشاهم نلة شديدة وحسرة وندامة ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود﴾ أي: في الدنيا ﴿وهم سالمون﴾ أي: معافون

النعيم﴾ أي: المتقين ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصي عنده عز وجل في الدار الآخرة جنات النعيم الخالص الذي لا يشوبه كدر، ولا ينقصه خوف زوال ﴿افنجدل للمسلمين كالمجرمين﴾ الاستفهام للإنكار، وكان صناديد كفار قريش يرون وفور حظهم في الدنيا، وقلة حظوظ المسلمين فيها، فلما سمعوا بنكر الآخرة، وما يعطي الله المسلمين فيها قالوا: إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، فقال الله مكذباً لهم راداً عليهم ﴿افنجدل للمسلمين﴾ الآية، والفاء للعطف على مقدر كنظائره. ثم وبخهم الله، فقال: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ هذا الحكم الأعوج كان أمر الجزاء مفوض إليكم تحكمون فيه بما شئتم ﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾ أي: تقرءون فيه، فتجبنون المطيع كالعاصي، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿أم لكم سلطان مبين﴾ فاتوا بكتابكم ﴿الصفات: 156 . 157﴾ ثم قال سبحانه: ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ قرأ الجمهور بكسر (إن) على أنها معمولة لتدرسون أي: تدرسون في الكتاب ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة كقوله: علمت إنك لعاقل بالكسر، أو على الحكاية للمدروس، كما في قوله: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلام على نوح في العالمين ﴿الصفات: 78 . 79﴾. وقيل: قد تم الكلام عند قوله: ﴿تدرسون﴾ ثم ابتداء فقال: ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ أي: ليس لكم ذلك، وقرأ طلحة بن مصرف، والضحاك (أن لكم) بفتح الهمزة على أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التاكيد، ومعنى ﴿تخيرون﴾: تختارون وتشتبهون. ثم زاد سبحانه في التوبيخ فقال: ﴿أم لكم إيمان علينا بالغة﴾ أي: عهود مؤكدة موثقة متناهية، والمعنى أم لكم إيمان على الله استوثقت بها في أن يدخلكم الجنة، وقوله: ﴿إلى يوم القيامة﴾ متعلق بالمقدر في لكم أي: ثابت لكم إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ، وجواب القسم قوله: ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ لأن معنى: ﴿أم لكم إيمان﴾ أي: أم أقسمنا لكم. قال الرازي: والمعنى أم ضمنا لكم، وأقسمنا لكم بإيمان مغلفة متناهية في التوكيد. وقيل: قد تم الكلام عند قوله: ﴿إلى يوم القيامة﴾ ثم ابتداء، فقال: ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ أي: ليس الأمر كذلك. قرأ الجمهور (بالغة) بالرفع على النعت لإيمان، وقرأ الحسن، وزيد بن علي بنصبها على الحال من إيمان؛ لأنها قد تخصصت بالوصف، أو من الضمير في لكم؛ أو من الضمير في علينا ﴿سلهم أيهم ينلك زعيم﴾ أي: سل يا محمد الكفار موبخاً لهم ومقرعاً، أيهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها. وقال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى. وقال الحسن: الزعيم الرسول ﴿أم لهم شركاء﴾ يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم فيه ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ فيما يقولون، وهو أمر تعجيز، وجواب الشرط محذوف، وقيل: المعنى أم

عن العلل متمكنون من الفعل. قال إبراهيم التيمي: يدعون بالآذان والإقامة فيأبون. وقال سعيد بن جبير: يسمعون حي على الفلاح، فلا يجيبون. قال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات. وقيل: يدعون بالكليف المتوجه عليهم بالشرع فلا يجيبون، وجملة ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير يدعون ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: خل بيني وبينه، وكل أمره إلي فانا أكفيكه. قال الزجاج: معناه لا يشتغل به قلبك، كله إلي فانا أكفيك أمره. والفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها، و«من» منصوب بالعطف على ضمير المتكلم، أو على أنه مفعول معه، والمراد بهذا الحديث القرآن، قاله السدي. وقيل: يوم القيامة، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ وجملة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾، والضمير عائد إلى من باعتبار معناها، والمعنى: سنأخذهم بالعذاب على غفلة، ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنهم يظنونهم إنعاماً، ولا يفكرون في عاقبته وما سيلقون في نهايته. قال سفيان الثوري: يسبغ عليهم النعم وينسيهم الشكر. وقال الحسن: كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه. والاستدراج ترك المعالجة، وأصله النقل من حال إلى حال، ويقال: استدراج فلان فلاناً أي: استخرج ما عنده قليلاً قليلاً، ويقال: درجته إلى كذا واستدرجه يعني: أناده إلى التدرج، فتدرج هو. ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين، فقال: ﴿وَأَمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم ليزدادوا إثماً، وقد مضى تفسير هذا في سورة الأعراف والطور، وأصل الملاوة المدة من الدهر، يقال: أملى الله له أي: أطال له المدة، والملا: مقصور الأرض الواسعة، سميت به لامتدادها ﴿إِنْ كِيدِيِ مَتَيْنِ﴾ أي: قوتي شديد، فلا يفوتني شيء، وسمى سبحانه إحسانه كيداً، كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد باعتبار عاقبته، ووصفه بالمثانة لقوة أثره في التسبب للهلاك ﴿إِمْ تَسَالُهُمْ لِجَرائِ﴾ أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدم من قوله: ﴿إِمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي أم تلتمس منهم ثواباً على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله ﴿فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مَثْقُولُونَ﴾ المغرم الغرامة أي: فهم من غرامة ذلك الأجر، ومثقولون أي: يثقل عليهم حمله لشحهم ببذل المال، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لهم، والمعنى: أنك لم تسألهم ذلك ولم تطلبه منهم ﴿إِمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُوبُونَ﴾ أي: اللوح المحفوظ، أو كل ما غاب عنهم، فهم من ذلك الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التي يزعمون أنها تدل على قولهم، ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك، ويحكمون لأنفسهم بما يريدون، ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامتنال لما تقول: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضائه الذي قد قضاه في سابق

علمه، قيل: والحكم هنا هو إمهالهم وتأخير نصرته رسول الله ﷺ عليهم، وقيل: هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة، قيل: وهذا منسوخ بآية السيف ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني: يونس - عليه السلام - أي: لا تكن مثله في الغضب والشجر والعجلة، والظرف في قوله: ﴿إِذْ نَادَى﴾ منصوب بمضاف محذوف أي: لا تكن حالك كحال وقت ندائه، وجملة ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل نادى، والمكظوم المملوء غيظاً وكرهاً. قال قتادة: إن الله يعزّي نبيه ﷺ، ويأمره بالصبر، ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت، - وقد تقدم بيان قصته في سورة الأنبياء ويونس والصفات - وكان النداء منه بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87] وقيل: إن المكظوم: المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس، قاله المبرد، وقيل: هو المحبوس، والأول أولى، ومنه قول ذي الرمة:

وَأَنْتَ مِنْ حَبٍّ مِيٍّ مَضْمَرُ حَرْزِنَا عَانِي الْفُؤَادِ قَرِيبِ الْقَلْبِ مَكْظُومٌ
﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من الله، وهي توفيقه للتوبة، فتاب الله عليه ﴿لَنُنَبِّئَ بِالْعُرَاءِ﴾ أي: لآلقي من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: يذم ويلام بالذنب الذي أنذبه، ويطرده من الرحمة، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير نبئ. قال الضحاك: النعمة هنا النبوة. وقال سعيد بن جبير: عيادته التي سلفت، وقال ابن زيد: هي نداؤه بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87] وقيل: مذموم مبعد. وقيل: مذنب. قرأ الجمهور (تداركه) على صيغة الماضي، وقرأ الحسن، وابن هرمز، والأعمش بتشديد الدال، والأصل تتداركه بتأين مضارعاً، فأدغم، وتكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية، وقرأ أبي، وابن مسعود، وابن عباس (تداركته) بقاء التانيث ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: استخلصه واصطفاه، واختاره للنبوة ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: الكاملين في الصلاح، وعصمه من الذنب، وقيل: رد إليه النبوة وشفعه في نفسه وفي قومه، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون، كما تقدم ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ «إن» هي المخففة من الثقيلة. قرأ الجمهور (ليزلقونك) بضم الياء من أزلقه أي: أزل رجله، يقال: أزلقه عن موضعه إذا نحاه، وقرأ نافع، وأهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه: إذا تنحى. قال الهروي: أي: فيفتالونك بعيونهم، فيزلقونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه عداوة لك، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، والأعمش، ومجاهد، وأبو وائل (ليزلقونك) أي: يهلكونك. وقال الكلبي: «يزلقونك» أي: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة، وكذا قال السدي، وسعيد بن جبير. وقال النضر بن شميل، والأخفش: يفتنونك. وقال الحسن، وابن كيسان: ليقتلونك. قال الزجاج: في الآية مذهب أهل اللغة، والتأويل أنهم من شدة إبغاضهم وعداوتهم يكادون ينظرونهم نظر البغضاء أن يصرعوك، وهذا مستعمل في الكلام، يقول القائل: نظر إلي

صاحبه يكوى بالكموة ثم يتابع نلك عليه، ومنه قول أبي نؤاد:

يفرق بينهم زمن طويل تتابع فيه أعماماً حسوماً
وقال المبرد: هو من قولك حسمت الشيء: إذا قطعته
وفصلته عن غيره، وقيل: الحسم الاستئصال، ويقال للسيف:
حسام، لأنه يحسم العدو عما يريد من بلوغ عداوته،
والمعنى: أنها حسمتهم، أو قطعتهم وأذهبتهم، ومنه قول
الشاعر:

فأرسلت ريحاً نبوراً عقيماً فدارت عليهم فكانت حسوماً
قال ابن زيد: أي: حسمتهم فلم تبق منهم أحداً. وروي
عنه أنه قال: حسمت الأيام والليالي حتى استوفتها؛ لأنها
بدأت بطلوع الشمس من أول يوم، وانقطعت بغروب الشمس
من آخر يوم. وقال الليث: الحسوم هي الشؤم أي: تحسم
الخير عن أهلها، كقوله: ﴿في أيام نحسات﴾ [فصلت: 16].

واختلف في أولها، فقيل: غداة الأحد، وقيل: غداة الجمعة،
وقيل: غداة الأربعاء، قال وهب: وهذه الأيام هي التي تسميها
العرب أيام العجوز، كان فيها برد شديد وريح شديدة، وكان
أولها يوم الأربعاء، وآخرها يوم الأربعاء ﴿فترى القوم فيها
صرعى﴾ الخطاب لكل من يصلح له على تقدير أنه لو كان
حاضراً حينئذ لراى ذلك، والضمير في فيها يعود إلى الليالي
والأيام، وقيل: إلى مهاب الريح، والأول أولى. وصرعى جمع
صرع يعني: موتى ﴿كانهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي:
أصول نخل ساقطة أو بالية، وقيل: خالية لا جوف فيها،
والنخل ينكر ويؤنث، ومثله قوله: ﴿كانهم أعجاز نخل
منقعر﴾ [القمر: 20] وقد تقدّم تفسيره، وهو إخبار عن عظم
أجسامهم. قال يحيى بن سلام: إنما قال خاوية؛ لأن أبدالهم
خلت من أرواحهم مثل النخل الخاوية ﴿فهمل ترى لهم من
باقية﴾ أي: من فرقة باقية، أو من نفس باقية، أو من بقية
على أن باقية مصدر كالعاقبة والعافية. قال ابن جريج: أقاموا
سبع ليالٍ ومثانية أيام أحياء في عذاب الريح، فلما أمسوا في
اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريح فآلفتهم في البحر
﴿وجاء فرعون ومن قبله﴾ أي: من الأمم الكافرة. قرأ
الجمهور (قبله) بفتح القاف وسكون الباء أي: ومن تقدّمه من
القرن الماضية والأمم الخالية، وقرأ أبو عمرو، والكسائي
بكسر القاف وفتح الباء أي: ومن هو في جهته من أتباعه،
واختار أبو حاتم، وأبو عبيد القراءة الثانية لقراءة ابن مسعود
وأبي ومن معه، ولقراءة أبي موسى ومن يلقيه
﴿والمؤتفكات﴾ قرأ الجمهور (المؤتفكات) بالجمع، وهي
قرى قوم لوط، وقرأ الحسن، والجحدري (المؤتكة) بالإنفراد،
واللام للجنس، فهي في معنى الجمع، والمعنى: وجاءت
المؤتفكات ﴿بالخاطئة﴾ أي: بالفعل الخاطئة، أو الخطأ على
أنها مصدر. والمراد: أنها جاءت بالشرك والمعاصي. قال
مجاهد: بالخطايا، وقال الجرجاني: بالخطا العظيم ﴿فقصوا
رسول ربهم﴾ أي: فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها.
قال الكلبي: هو موسى، وقيل: لوط لأنه أقرب، قيل: ورسول

وقد قدّمنا تحقيق هذا المعنى في سورة الواقعة. ثم زاد
سبحانه في تفخيم أمرها وتغليظ شأنها وتهويل حالها،
فقال: ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ أي: أي شيء أعلمك ما هي؟
أي: كأنك لست تعلمها إذا لم تعالينها وتشاهد ما فيها من
الآهوال، فكانها خارجة عن دائرة علم المخلوقين. قال
يحيى بن سلام: بلغني أن كل شيء في القرآن وما أدراك،
فقد أدركه إياه وعلمه، وكل شيء قال فيه: وما يدريك، فإنه
أخبره به. وما مبتدأ، وخبره أدراك، وما الحاقة جملة من
مبتدأ، وخبر محلها النصب بإسقاط الخافض؛ لأن أدري
يتعدى إلى المفعول الثاني بالباء، كما في قوله: ﴿ولا أدركم
به﴾ [يونس: 16] فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت
في موضع المفعول الثاني، ويؤن الهمة يتعدى إلى مفعول
واحد بالباء نحو دريت بكذا، وإن كان بمعنى العلم تعدى إلى
مفعولين، وجملة، وما أدراك معطوفة على جملة ما الحاقة
﴿كنبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ أي: بالقائمة، وسميت بذلك
لأنها تقرر الناس بأموالها. وقال المبرد: عنى بالقارعة القرآن
الذي نزل في الدنيا على أنبيائهم، وكانوا يخوفونهم بذلك
فيكنبونهم، وقيل: القارعة مأخوذة من القرعة؛ لأنها ترفع
أقواماً وتحط آخرين، والأول أولى، ويكون وضع القارعة
موضع ضمير الحاقة للدلالة على عظيم هولها وفظاعة
حالتها، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة ﴿فأما
ثمود فاهلكوا بالطاغية﴾ ثمود هم قوم صالح، وقد تقدّم
بيان هذا في غير موضع، وبيان منازلهم، وأين كانت،
والطاغية الصبيحة التي جاوزت الحد، وقيل: بطغيانهم
وكفرهم، وأصل الطغيان مجاوزة الحد ﴿وأما عاد فاهلكوا
بريح صرصر﴾ عاد هم قوم هود، وقد تقدّم بيان هذا،
ونكر منازلهم، وأين كانت في غير موضع، والريح الصرصر
هي الشديدة البرد، مأخوذة من الصر، وهو البرد، وقيل: هي
الشديدة الصوت. وقال مجاهد: الشديدة السموم، والعافية
التي عنت عن الطاعة، فكانها عنت على خزائنها، فلم تطعمهم
ولم يقدروا على ردها لشدة هبوبها، أو عنت على عاد، فلم
يقدروا على ردها بل أهلكتهم ﴿سخرها عليهم سبع ليالٍ﴾
هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم، ومعنى
﴿سخرها﴾ سلطها، كذا قال مقاتل، وقيل: أرسلها. وقال
الزجاج: أقامها عليهم كما شاء، والتسخير: استعمال الشيء
بالاقتدار، ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة لريح، وأن تكون
حالاً منها لتخصيصها بالصفة، أو من الضمير في عاتية
﴿ومثانية أيام﴾ معطوف على ﴿سبع ليالٍ﴾، وانتصاب
﴿حسوماً﴾ على الحال أي: ذات حسوم، أو على المصدر
بفعل مقرر أي: تحسمهم حسوماً، أو على أنه مفعول به،
والحسوم التتابع، فإذا تتابع الشيء ولم ينقطع أوله عن آخره
قيل له الحسوم. قال الزجاج: الذي توجب اللغة في معنى
قوله ﴿حسوماً﴾ أي: تحسمهم حسوماً تفنيهم وتذهبهم.
قال النضر بن شميل: حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم. وقال
الفراء: الحسوم الاتباع من حسم الداء، وهو الكي؛ لأن

هنا بمعنى رسالة، ومنه قول الشاعر:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول
أي: برسالة ﴿فأخذهم لخذة رابية﴾ أي: أخذهم الله
أخذة نامية زائدة على أخذات الأمم، والمعنى: أنها بالغة في
الشدة إلى الغاية، يقال: ربي الشيء يريو: إذا زاد وتضاعف.
قال الزجاج: تزيد على الأخذات. قال مجاهد: شديدة ﴿إنما لما
طغى الماء﴾ أي: تجاوز حده في الارتفاع والعلو، وذلك في
زمن نوح لما أصغر قومه على الكفر وكنبوه، وقيل: طغى
على خزانه من الملائكة غضباً لربه، فلم يقدروا على حبسه.
قال قتادة: زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعاً ﴿حملناكم
في الجارية﴾ أي: في أصلاب آبائكم، أو حملناهم وحملناكم
في أصلابهم تغليباً للمخاطبين على الغائبين. والجارية
سفينة نوح، وسميت جارية لأنها تجري في الماء، ومحل في
الجارية النصب على الحال أي: رفعناكم فوق الماء حال
كونكم في السفينة، ولما كان المقصود من ذكر قصص هذه
الأمم، ونكر ما حل بهم من العذاب زجر هذه الأمة عن
الاعتداء بهم في معصية الرسول، قال: ﴿لنجعلها لكم
تذكرة﴾ أي: لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم يا أمة محمد
عبرة وموعظة تستلذون بها على عظيم قدرة الله وبديع
صنعه، أو لنجعل هذه الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء
المؤمنين وإغراق الكافرين لكم تذكرة ﴿وتعيبها أذن
واعية﴾ أي: تحفظها بعد سماعها أن حافظة لما سمعت.
قال الزجاج: يقال: أوعيت كذا أي: حفظته في نفسي أعية
وعياً، ووعيت العلم، ووعيت ما قلته كله بمعنى، وأوعيت
المتاع في الوعاء، ويقال لكل ما وعيته في غير نفسه:
أوعيته بالآلف، ولما حفظته في نفسه وعيته بغير ألف. قال
قتادة في تفسير الآية: أنن سمعت وعقلت ما سمعت. قال
الفراء: المعنى: لتحفظها كل أن عظة لمن يأتي بعد. قرأ
الجمهور (تعيبها) بكسر العين. وقرأ طلحة بن مصرف،
وحميد الأعرج، وأبو عمرو في رواية عنه بإسكان العين
تشبيهاً لهذه الكلمة برحم وشهد وإن لم تكن من ذلك. قال
الرازي: وروي عن ابن كثير إسكان العين، جعل حرف
المضارعة مع ما بعده بمنزلة كلمة واحدة، فخفف وأسكن
كما أسكن الحرف المتوسط من فخذ وكبد وكثف. انتهى.
والأولى أن يكون هذا من باب إجراء الوصل مجرى الوقف،
كما في قراءة من قرأ ﴿وما يشعركم﴾ [الأنعام: 109]
بسكون الراء، قال القرطبي: واختلفت القراءة فيها عن عاصم،
وابن كثير: يعني: تعيبها ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة
واحدة﴾ هذا شروع في بيان الحاقة، وكيف وقوعها بعد
بيان شأنها بإهلاك المكذبين. قال عطاء: يريد النفخة الأولى.
وقال الكلبي، ومقاتل يريد النفخة الأخيرة. قرأ الجمهور
(نفخة واحدة) بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة على
النيابة، وواحدة تأكيد لها، وحسن تذكير الفعل لوقوع
الفصل. وقرأ أبو السمال بنصبهما على أن الناثب هو الجار
والمجور. قال الزجاج: قوله: ﴿في الصور﴾ يقوم مقام ما

لم يسم فاعله ﴿وحملت الأرض والجبال﴾ أي: رفعت من
أمكنها وقلعت عن مقارها بالقدرة الإلهية. قرأ الجمهور
(حملت) بتخفيف الميم. وقرأ الأعمش، وابن أبي عبيدة، وابن
مقسم، وابن عامر في رواية عنه بتشديدها للتكثير أو
للتعنية ﴿فبكنا نكة واحدة﴾ أي: فكسرتا كسرة واحدة لا
زيادة عليها، أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى
صارتا كثيباً مهيلأ وهياً منبثاً. قال الفراء: ولم يقل فلنكن
لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة، ومثله قوله تعالى:
﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً
ففتقناهما﴾ [الأنبياء: 30] وقيل: بكتا بسطنا بسطة واحدة،
ومنه اندك سنام البعير: إذا انفرش على ظهره ﴿فيومئذ
وقعت الواقعة﴾ أي: قامت القيامة ﴿وانشقت السماء فهي
يومئذ واهية﴾ أي: انشقت بنزول ما فيها من الملائكة فهي
في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية. قال الزجاج: يقال لكل ما
ضعف جداً: قد وهي فهو واه، وقال الفراء: وهيا تشققها
﴿والملك على أرجائها﴾ أي: جنس الملك على أطرافها
وجوانبها، وهي جمع رجي مقصور، وتثنيته رجوان مثل
قفا وقفوان، والمعنى: أنها لما تشققت السماء، وهي
مسكنهم لجثوا إلى أطرافها. قال الضحاك: إذا كان يوم
القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشقق، وتكون الملائكة على
حافاتهما حتى يامرهم الرب، فينزلون إلى الأرض ويحيطون
بالأرض ومن عليها. وقال سعيد بن جببر: المعنى: والملك
على حافات الدنيا أي: ينزلون إلى الأرض، وقيل: إذا صارت
السماء قطعاً يقف الملائكة على تلك القطع التي ليست
متشقة في أنفسها ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ
ثمانية﴾ أي: يحمله فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية
أملاك، وقيل: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا
الله عز وجل، وقيل: ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من
الملائكة، قاله الكلبي وغيره ﴿يومئذ تعرضون﴾ أي:
تعرض العباد على الله لحسابهم، ومثله ﴿وعرضوا على
ربك صفاً﴾ [الكهف: 48] وليس ذلك العرض عليه سبحانه
ليعلم به ما لم يكن عالماً به وإنما عرض الاختبار والتوبيخ
بالأعمال، وجملة ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ في محل نصب
على الحال من ضمير تعرضون أي: تعرضون حال كونه لا
يخفى على الله سبحانه من ثوانكم أو أقوالكم وأفعالكم
خافية كائنة ما كانت، والتقدير: أي نفس خافية أو فعلة
خافية.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال:
﴿الحاقة﴾ من أسماء القيامة. وأخرج الفريابي، وعبد بن
حميد، وابن جرير عنه قال: ما أرسل الله شيئاً من ريح إلا
بمكيال، ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم نوح ويوم عاد.
فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه، فلم يكن لهم عليه
سبيل، ثم قرأ ﴿إنما لما طغى الماء﴾ وأما يوم عاد فإن الريح
عتت على خزائنها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ ﴿يريح
صرصر عاتية﴾. وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب

إلا الله، ويقال: ثمانية أملاك رؤوسهم عند العرش في السماء السابعة، وأقدامهم في الأرض السفلى، ولهم قرون كقرون الوعلة، ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فاما عرضتان فجدال ومعانيز، واما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف في الأيدي، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله». وأخرج ابن جرير، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود نحوه.

فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ بَيِّنَةٍ يَقُولُ هَؤُلَاءِ أَفَرَدُوا كَيْفِيَّةً ﴿١٥﴾ إِنِّي لَنَسْتُ أَنفِي مِثْقَالَ حَسَايَةٍ ﴿١٦﴾ هَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١٧﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٨﴾ فَنُكْرِفَهَا دَايَةً ﴿١٩﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَشْفَقْتُمْ فِي الْآيَاتِ الْفَالِائَةِ ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ بِشَتَائِهِ يَقُولُ يَتَّبِعِي لَمْ أَرَأِ كَيْفِيَّةً ﴿٢١﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حَسَايَةٍ ﴿٢٢﴾ يَكْبِتُنَا كَانَتْ الْفَالِائَةِ ﴿٢٣﴾ مَا أَفَقَى عَنِّي مَالِي ﴿٢٤﴾ هَلَكَ عَنِّي شَأْنِيَّةٌ ﴿٢٥﴾ غَدْرُهُ فَنُكْرِفَهُ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ لِلْجَحِيمِ مَلَكُهُ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٨﴾ إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا قُلُوبُهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ السَّكِينِ ﴿٣٠﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حِسْمٌ ﴿٣١﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَدِيرٍ ﴿٣٢﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِلُونَ ﴿٣٣﴾ فَذَلِكَ أَفِيمَ بِمَا يُشِيرُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا لَا يُشِيرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّهُمْ لَنَزَّلَ رُسُلًا كَرِيرٍ ﴿٣٦﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تُذَكِّرُونَ ﴿٣٨﴾ نَزَّلَ مِنْ رَبِّكَ الْقُرْآنَ ﴿٣٩﴾ وَلَوْ نَفَعَلْنَا عَلَى بَعْضِ الْأَقْوَامِ ﴿٤٠﴾ لَخَذْنَا مِنْهُ الْبَاقِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ لَقَعْنَا مِنْهُ الْوَيْلَ ﴿٤٢﴾ مَا يَسْكُرُ مِنْ سُوءِ غَتِّ حَجْرَيْنَ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَنُذَكِّرُ الْلَّاسِقِينَ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ سَكْرَ مُكْذِبِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ عَلَى الْكَثِيرِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ عَلَى الْبَاقِ ﴿٤٧﴾ فَسَجَّ بِأَسْمِ رَبِّكَ الطَّلِيلِ ﴿٤٨﴾

لما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه، فقال: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ أي: أعطي كتابه الذي كتبه الحفظة عليه من أعماله ﴿فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ يقول ذلك سروراً وابتهاجاً. قال ابن السكيت، والكسائي: العرب تقول: ها يا رجل، ولانثنين هاؤم يا رجلان، وللجمع هاؤم يا رجال، قيل: والأصل هاؤكم، فأبطلت الهمزة من الكاف، قال ابن زيد: ومعنى هاؤم تعالوا. وقال مقاتل: هلم، وقيل: خذوا؛ والذي صرح به النحاة أنها بمعنى خذ، يقول: ها بمعنى خذ، وهاؤم بمعنى خذوا، وهاؤم بمعنى خذوا، فهي اسم فعل، وقد يكون فعلاً صريحاً لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها، وفيها ثلاث لغات، كما هو معروف في علم الإعراب، وقوله: ﴿كتابيه﴾ معمول لقوله: ﴿اقرأوا﴾ لأنه أقرب الفعلين، ومعمول ﴿هاؤم﴾ محذوف يدل عليه معمول ﴿اقرأوا﴾، والتقدير: هاؤم كتابيه اقرأوا كتابيه، والهاء في كتابيه وحسابيه وسلطانيه وماليه، هي هاء السكت. قرأ الجمهور في هذه بإثبات الهاء وقفاً ووصلاً مطابقة لرسم المصحف، ولولا ذلك لحنت في الوصل، كما هو شأن هاء السكت، واختار أبو عبيد أن يعتمد الوقف عليها ليوافق اللغة

نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالجبور». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر مرفوعاً: «قال ما أمر الخزان على عاد إلا مثل موضع الخاتم من الريح، فعتت على الخزان، فخرجت من نواحي الأبواب، فنلك قوله: ﴿يبريح صرصر عاتية﴾ قال: عتوها عتت على الخزان». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يبريح صرصر عاتية﴾ قال: الغلبة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله: ﴿حسوما﴾ قال: متتابعات. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿حسوما﴾ قال: تباعاً، وفي لفظ: متتابعات. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿كانهم أعجاز نخل﴾ قال: هي أصولها، وفي قوله: ﴿خاوية﴾ قال: خربة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿إنما لما طغى الماء﴾ قال: طغى على خزانه فنزل، ولم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال، أو ميزان إلا زمن نوح، فإنه طغى على خزانه فنزل بغير كيل ولا وزن. وأخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية من طريق مكحول عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وتعياها أذن واعية﴾ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي، فقال علي: ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً فنسيته». قال ابن كثير: وهو حديث مرسل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والواحدي، وابن مردويه، وابن عساكر، وابن النجار عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أنيك ولا أقصيك، وأن أعلمك، وأن تعي، وحق لك أن تعي، فنزلت هذه الآية ﴿وتعياها أذن واعية﴾ فانت أذن واعية، يا علي». قال ابن كثير: (ولا يصح). وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عمر في قوله: ﴿أذن واعية﴾ قال: أذن عقلت عن الله. وأخرج الحاكم، والبيهقي في البعث عن أبي بن كعب في قوله: ﴿ووحملت الأرض والجبال فبكتا بكة واحدة﴾ قال: تصيران غيرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين، وذلك قوله: ﴿وجوه يومئذ عليها غيرة﴾ ترهقها قنطرة [عبس: 40، 41]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يومئذ واهية﴾ قال: متفرقة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿والملك على أرجائها﴾ قال: على حافاتهما على ما لم يهيء منها. وأخرج عبد بن حميد، وعثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن خزيمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والخطيب في [تالي التلخيص] عنه أيضاً في قوله: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ قال: ثمانية أملاك على صورة الأرواح. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً من طرق في الآية قال: يقال: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم

عني، كذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدي، والضحاك. وقال ابن زيد: يعني: سلطاني الذي في الدنيا، وهو الملك، وقيل: تسلطي على جوارحي. قال مقاتل: يعني: حين شهدت عليه الجوارح بالشرك، وحينئذ يقول الله عز وجل: ﴿خَنَوْهُ فَعَلَوْهُ﴾ أي: أجمعوا يده إلى عنقه بالأغلال ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلَوَهُ﴾ أي: أدخلوه الجحيم، والمعنى: لا تصلوه إلا الجحيم، وهي النار العظيمة ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ السلسلة حلق منتظمة، وذرعها طولها. قال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو. قال نوف الشامي: كل ذراع سبعون باعاً، كل باع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان نوف في رحبة الكوفة. قال مقاتل: لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، ومعنى ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ فاجعلوه فيها، يقال: سلكته الطريق إذا أدخلته فيه. قال سفيان: بلغنا أنها تدخل في ببره حتى تخرج من فيه. قال الكلبي: تسلك سلك الخيط في اللؤلؤ. وقال سويد بن أبي نجيح: بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة، وتقديم السلسلة للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم، وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ تعليل لما قبلها ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: لا يحث على إطعام المسكين من ماله، أو لا يحث الغير على إطعامه، ووضع الطعام موضع الإطعام، كما يوضع العطاء موضع الإعطاء، كما قال الشاعر:

أَكْفَرُ أَبْعَدُ رُءُوسِي عَنِي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمَالِ الرَّعَابِ
أي: بعد إعطائك، ويجوز أن يكون الطعام على معناه غير موزوع موضع المصدر، والمعنى: أنه لا يحث نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين، وفي جعل هذا قريناً لترك الإيمان بالله من الترهيب في التصديق على المساكين وسد فائقهم، وحث النفس والناس على ذلك ما يدل ببلغ دلالة، ويفيد اكتمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم وأشد المآثم ﴿فَلَيْسَ لَهُ لِيَوْمٍ هَذَا حَمِيمٌ﴾ أي: ليس له يوم القيامة في الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له؛ لأنه يوم يفر فيه القريب من قريبه، ويهرب عنده الحبيب من حبيبه ﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ﴾ أي: وليس له طعام يأكله إلا من صديد أهل النار، وما يغسل من الغسل. وقال الضحاك، والربيع بن أنس: هو شجر يأكله أهل النار. وقال قتادة: هو شر الطعام. وقال ابن زيد: لا يعلم ما هو ولا ما الزقوم إلا الله تعالى. وقال سبحانه في موضع آخر ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: 6] فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى فليس له اليوم ما هنا حميم إلا من غسلين على أن الحميم هو الماء الحار ﴿وَلَا طَعَامَ﴾ أي: ليس لهم طعام يأكلونه، ولا ملجئ لهذا التقديم والتأخير، وجملة ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ صفة لغسلين، والمراد أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب. قال الكلبي: المراد الشرك. قرأ الجمهور (الخاطئون) مهموزاً، وهو

في إلحاق الهاء في السكت، ويوافق الخط، يعني: خط المصحف. قرأ ابن محيصن، وابن أبي إسحاق، وحميد، ومجاهد، والأعمش، ويعقوب بحذفها وصلأ، وإثباتها وقفاً في جميع هذه الألفاظ. ورويت هذه القراءة عن حمزة، واختار أبو حاتم هذه القراءة اتباعاً للغة. وروي عن ابن محيصن أنه قرأ بحذفها وصلأ ووقفاً ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهِ﴾ أي: علمت وأيقنت في الدنيا أنني أحاسب في الآخرة، وقيل المعنى: إنني ظننت أن يأخذني الله بسيئاتي، فقد تفضل علي بعفوه ولم يؤاخذني. قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك. قال مجاهد: ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك. قال الحسن في هذه الآية: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل للآخرة، وإن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل. قيل: والتعبير بالظن هنا للإشعار بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهيج في النفس من المخاطر التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: في عيشة مرضية لا مكروهة، أو ذات رضى أي: يرضى بها صاحبها. قال أبو عبيدة، والفراء: راضية أي: مرضية كقوله: ﴿مَاءٌ دَافِقٌ﴾ [الطارق: 6] أي: منفوق، فقد أسند إلى العيشة ما هو لصاحبها، فكان ذلك من المجاز في الإسناد ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مرتفعة المكان لأنها في السماء، أو مرتفعة المنازل، أو عظيمة في النفوس ﴿فَقُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ القطوف: جمع قطف بكسر القاف، ما يقطف من الثمار، والقطف بالفتح المصدر، والقطف بالفتح والكسر وقت القطف، والمعنى: أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: يقال لهم: كلوا واشربوا في الجنة ﴿هَنِيئًا﴾ أي: أكلاً وشرباً هنيئاً لا تكدير فيه ولا تنغيص ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الدنيا. وقال مجاهد: هي أيام الصيام ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ حزناً وكرباً لما رأى فيه من سيئاته ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيهِ﴾ أي: لم أعط كتابيه ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ﴾ أي: لم أدرك أي شيء حسابي لأن كله عليه ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي: ليت الموتة التي مَتَّهَا كانت القاضية، ولم أحي بعدها، ومعنى ﴿الْقَاضِيَةَ﴾: القاطعة للحياة، والمعنى: أنه تمنى لوام الموت، وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب، فالضمير في [ليتها] يعود إلى الموتة التي قد كان ماتها، وإن لم تكن منكرة؛ لأنها لظهورها كانت كالمذكورة. قال قتادة: تمنى الموت ولم يكن في الدنيا شيء عنده أكره منه، وشر من الموت ما يطلب منه الموت. وقيل: الضمير يعود إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب، والمعنى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت عليّ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ أي: لم يدفع عني من عذاب الله شيئاً على أن ما نافية، أو استفهامية، والمعنى: أي شيء أغنى عني مالي ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾ أي: هلكت عني حجتني وضلت

حتى يتصل بالقلب، وهو تصوير لإهلاكه بأقطع ما يفعله الملوك بمن يغيضون عليه. قال الواحدي: والمفسرون يقولون: إنه نياط القلب. انتهى. ومن هذا قول الشاعر:

إذا بلغتنني وحملت رحلي عرابة فاشترقي بدم الوتين
﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي: ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويدفعنا منه، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه، ولا تقدرون على الدفع منه، والحجز المنع ﴿وحاجزين﴾ صفة لأحد، أو خبر لما الحجازية ﴿وإنه لتذكرة للمتقين﴾ أي: إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به ﴿وإننا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ أي: أن بعضكم يكذب بالقرآن، فنحن نجازيهم على ذلك، وفي هذا وعيد شديد ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ أي: وإن القرآن لحسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين، وقيل: هي حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحنيتهم بأن يأتوا بسورة من مثله ﴿وإنه لحق لليقين﴾ أي: وإن القرآن لكونه من عند الله حق، فلا يحول حوله ريب ولا يتطرق إليه شك ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزهه عما لا يليق به، وقيل: فصل لربك، والأول أولى.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إني ظننت﴾ قال: أبقت. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب ﴿قطوفها دانية﴾ قال: قريبة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن البراء في الآية قال: يتناول الرجل من فوقها وهو قائم. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿فاسلكوه﴾ قال: السلسلة تدخل في استه ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود، ثم يشوى. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي الدرداء قال: إن الله سلسلة لم تزل تغلي منها مراجل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تلقى في أعناق الناس، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحضي على طعام المسكين يا أم الدرداء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: الغسلين الدم والماء والصيد الذي يسيل من لحومهم. وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ قال: «لو أن دلوًا من غسلين يهراق في الدنيا لانتن أهل الدنيا». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الغسلين اسم طعام من أطعمة أهل النار. وأخرج ابن جرير عنه ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ يقول: بما ترون وما لا ترون. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿لاخندا منه باليمين﴾ قال: بقدره. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه قال: ﴿الوتين﴾ عرق القلب. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن

اسم فاعل من خطئ إذا فعل غير الصواب متعمداً، والمخطئ من يفعله غير متعمد. وقرأ الزهري، وطلحة بن مصرف، والحسن (الخاطيئون) بياء مضمومة بدل الهمزة. وقرأ نافع في رواية عنه بضم الطاء بدون همزة ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ هذا رد لكلام المشركين كأنه قال: ليس الأمر كما تقولون، ولا زائدة، والتقدير: فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه. قال قتادة: أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر، فيدخل في هذا جميع المخلوقات، وقيل: إن «لا» ليست زائدة، بل هي لنفي القسم أي: لا احتاج إلى قسم لوضوح الحق في ذلك، والأول أولى ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ أي: إن القرآن لتلاوة رسول كريم، على أن المراد بالرسول محمد ﷺ، أو إنه لقول يبلغه رسول كريم. قال الحسن، والكلبي، ومقاتل: يريد به جبريل، دليله قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ ذي قوة عند ذي العرش مكين [التكوير: 19، 20] وعلى كل حال، فالقرآن ليس من قول محمد ﷺ، ولا من قول جبريل عليه السلام، بل هو قول الله، فلا بد من تقدير التلاوة أو التبليغ ﴿وما هو بقول شاعر﴾ كما تزعمون؛ لأنه ليس من أصناف الشعر ولا مشابه لها ﴿قليلًا ما تؤمنون﴾ أي: إيمانًا قليلًا تؤمنون، وتصديقًا يسيرًا تصدقون، وما زائدة ﴿ولا يقول كاهن﴾ كما تزعمون، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين هذا ﴿قليلًا ما تنكرون﴾ أي: تنكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تنتكرون، وما زائدة، والقلة في الموضعين بمعنى النفي أي: لا تؤمنون ولا تتذكرون أصلًا ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو تنزيل. وقرأ أبو السماك بالنصب على المصدرية بإضمار فعل أي: نزل تنزيلًا، والمعنى: إنه لقول رسول كريم، وهو تنزيل من رب العالمين على لسانه ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ أي: ولو تقول ذلك الرسول، وهو محمد أو جبريل على ما تقدم، والتقول تكلف القول، والمعنى: أو تكلف ذلك وجاء به من جهة نفسه، وسمي الافتراء قولًا لأنه قول متكلف، وكل كاذب يتكلف ما يكذب به. قرأ الجمهور (تقول) مبنياً للفاعل. وقرئ مبنياً للمفعول مع رفع بعض. وقرأ ابن نكوان (ولو يقول) على صيغة المضارع، والأقاويل جمع أقوال، والأقوال جمع قول ﴿لاخندا منه باليمين﴾ أي: بيده اليمين. قال ابن جرير: إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب. وقال الفراء، والمبرد، والزجاج، وابن قتيبة: ﴿لاخندا منه باليمين﴾ أي: بالقوة والقدرة. قال ابن قتيبة: وإنما أقام اليمين مقام القوة؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه، ومن هذا قول الشاعر:

إذا ما راية نصبت لمجد تلقاها عرابية باليمين
وقول الآخر:

ولما رايت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتي يميني
﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ الوتين عرق يجري في الظهر

كيوم بدر، أو في الآخرة، وقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ صفة أخرى لعذاب أي: كائن للكافرين، أو متعلق بواقع، واللام للعلّة، أو بسأل على تضمينه معنى دعا، أو في محل رفع على تقدير: هو للكافرين، أو تكون اللام بمعنى على، ويؤيده قراءة أبي (بعذاب واقع على الكافرين). قال الفراء: التقدير بعذاب للكافرين واقع بهم، فالواقع من نعت العذاب، وجملة ﴿ليس له دافع﴾ صفة أخرى لعذاب، أو حال منه، أو مستأنفة، والمعنى: أنه لا يدفع ذلك العذاب الواقع به أحد، وقوله: ﴿هَمِّنَ اللَّهُ﴾ متعلق بواقع أي: واقع من جهته سبحانه، أو بدافع أي: ليس له دافع من جهته تعالى ﴿هَذَا الْمَعَارِجُ﴾ أي: ذي الدرجات التي تصعد فيها الملائكة، وقال الكلبي: هي السموات، وسماها معارج لأن الملائكة تخرج فيها، وقيل: المعارج مراتب نعم الله سبحانه على الخلق، وقيل: المعارج العظمة، وقيل: هي الغرف. وقرأ ابن مسعود (ذي المعارج) بزيادة الياء، يقال: معارج ومعارج مثل مفاتيح ومفاتيح ﴿تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: تصعد في تلك المعارج التي جعلها الله لهم، وقرأ الجمهور (تعرج) بالفوقية، وقرأ ابن مسعود، وأصحابه، والكسائي، والسلمي بالتحتيّة، والروح جبريل، أفرد بالذكر بعد الملائكة لشرفه، ويؤيد هذا قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: 193]، وقيل: الروح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل. وقال أبو صالح: إنه خلق من خلق الله سبحانه كهية الناس، وليسوا من الناس. وقال قبيصة بن ذؤيب: إنه روح الميت حين تقبض، والأول أولى. ومعنى ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى المكان الذي ينتهون إليه، وقيل: إلى عرشه، وقيل: هو كقول إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصافات: 99] أي: إلى حيث أمرني ربي ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال ابن إسحاق، والكلبي، ووهب بن منبه: أي عرج الملائكة إلى المكان الذي هو محلها في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة. وبه قال مجاهد. وقال عكرمة: وروي عن مجاهد أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار لا يدري أحدكم مضى، ولا كم بقي، ولا يعلم ذلك إلا الله. وقال قتادة، والكلبي، ومحمد بن كعب: إن المراد يوم القيامة، يعني: أن مقدار الأمر فيه لو تولاها غيره سبحانه خمسون ألف سنة، وهو سبحانه يفرغ منه في ساعة، وقيل: إن مدة موقف العباد للحساب، هي هذا المقدار، ثم يستقر بعد ذلك أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. وقيل: إن مقدار يوم القيامة على الكافرين خمسون ألف سنة، وعلى المؤمنين مقدار ما بين الظهر والعصر، وقيل: نكر هذا المقدار لمجرد التمثيل والتخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها، أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والمكاره، كما تصف العرب أيام الشدة بالطول وأيام الفرح بالقصر، ويشبهون اليوم القصير بإبهم القطاة والطويل بظل الرمح، ومنه قول الشاعر:

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاف المزاير

المنذر، وابن أبي حاتم والحاكم عنه أيضاً قال: ﴿الْوَتِينِ﴾ نياط القلب. وأخرج ابن المنذر، والحاكم، وصححه عنه أيضاً قال: هو حبل القلب الذي في الظهر.

تفسير سورة المعارج

وهي مكية. قال القرطبي: باتفاق. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مرويّه عن ابن عباس قال: نزلت سورة سال بمكة. وأخرج ابن مرويّه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ② لِّئِنْ أَمَرَ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ ③ تَرْجِعَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَىٰ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ تَأْتِيهِمْ صُرُجٌ جَبِيلًا ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَرَأَوْنَهُ قَرِيبًا ⑦ يَوْمَ تَكُونُ الْأَسْمَاءُ كَالْهِيَ ⑧ وَتَكُونُ لِلْبَلَاءِ كَالْيَمِينِ ⑨ وَلَا يُنْصَلُّ حَيْثُ حَيْثَا ⑩ يَصْرُوهُمْ بُرُودُ الْمَرِّمْ لَوْ يَتَذَكَّرُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَيْدٍ ⑪ وَصَحَّيْهِ وَآخِيهِ ⑫ وَفِيصِلْهُ إِلَىٰ تَوْبِهِ ⑬ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَيْثَا مَّ يَجِيهِ ⑭ كَلَّا إِنَّمَا لَقَى ⑮ نَزَاعَةً لِّلنَّوَى ⑯ تَعَرَّوْا مِنْ أَزْرٍ وَتَوَلَّوْا ⑰ وَجَعُ قَاوَعَى ⑱

قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قرأ الجمهور (سال) بالهمزة، وقرأ نافع، وابن عامر، بغير همزة، فمن همز، فهو من السؤال وهي اللغة الفاشية، وهو إما مضمن معنى الدعاء، فلذلك عدي بالياء، كما تقول دعوت كذا، والمعنى: دعا داع على نفسه بعذاب واقع، ويجوز أن يكون على أصله، والباء بمعنى عن كقوله: ﴿فاسأل به خبيراً﴾ [الفرقان: 59] ومن لم يهمن، فهو إما من باب التخفيف بقلب الهمزة ألفاً، فيكون معناها معنى قراءة من همز، أو يكون من السيلان، والمعنى: سأل وإٍ في جهنم، يقال له: سائل، كما قال زيد بن ثابت. ويؤيده قراءة ابن عباس (سال سيل) وقيل: إن سال بمعنى التمس، والمعنى: التمس ملتصم عذاباً للكفار، فتكون الباء زائدة كقوله: ﴿تَنْتَبِتُ بِالْأُذُنِ﴾ [المؤمنون: 20] والوجه الأول هو الظاهر. وقال الأخفش: يقال: خرجنا نسال عن فلان وبفلان. قال أبو علي الفارسي: وإذا كان من السؤال، فأصله أن يتعدى إلى مفعولين، ويجوز الاقتصار على أحدهما ويتعدى إليه بحرف الجر، وهذا السائل هو النضر بن الحارث حين قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَتُؤْتِنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾ [الأنفال: 32] وهو ممن قتل يوم بدر صبراً، وقيل: هو أبو جهل، وقيل: هو الحارث بن النعمان الفهري، والأول أولى لما سيأتي. وقرأ أبي، وابن مسعود (سال سال) مثل مال مال على أن الأصل سائل، فحذفت العين تخفيفاً، كما قيل: شك في شائك السلاح. وقيل: السائل هو نوح عليه السلام، سال العذاب للكافرين، وقيل: هو رسول الله ﷺ دعا بالعقاب عليهم، وقوله: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ يعني: إما في الدنيا

القريب عن قريبه، والخليل عن خليله، كما قال سبحانه ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ [عبس: 37] وقيل المعنى: لا يسأل حميم عن حميم، فحذف الحرف ووصل الفعل. قرأ الجمهور (لا يسأل) مبنياً للفاعل، قيل: والمفعول الثاني محذوف، والتقدير: لا يسأله نصره ولا شفاعته، وقرأ أبو جعفر، وأبو حيوة، وشيبة، وابن كثير في رواية عنه على البناء للمفعول. وروى هذه القراءة البزري عن عاصم. والمعنى: لا يسأل حميم إحضار حميمه، وقيل: هذه القراءة على إسقاط حرف الجر، أي: لا يسأل حميم عن حميم، بل كل إنسان يسأل عن نفسه وعن عمله، وجملة ﴿يبصرونهم﴾ مستأنفة، أو صفة لقوله: ﴿حميماء﴾ أي: يبصر كل حميم حميمه، لا يخفى منهم أحد عن أحد. وليس في القيامة مخلوق وإلا وهو نصب عين صاحبه، ولا يتساءلون ولا يكلم بعضهم بعضاً لاشتغال كل أحد منهم بنفسه، وقال ابن زيد: يبصر الله الكفار في النار الذين أضلّوهم في الدنيا، وهم الرؤساء المتبوعون. وقيل: إن قوله: ﴿يبصرونهم﴾ يرجع إلى الملائكة؛ أي: يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم، وإنما جمع الضمير في يبصرونهم، وهما للحميمين حملاً على معنى العموم؛ لأنهما نكرتان في سياق النفي، قرأ الجمهور (يبصرونهم) بالتشديد، وقرأ قتادة بالتخفيف. ثم ابتداء سبحانه الكلام فقال: ﴿يؤدّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ﴾ المراد بالمجرم الكافر، أو كل منذب ذنباً يستحق به النار لو يفتدي من عذاب يوم القيامة الذي نزل به. ﴿ببنيه وصاحبته وأخيه﴾ فإن هؤلاء أعزّ الناس عليه وأكرمهم لديه، فلو قبل منه الغداء لفدى بهم نفسه، وخلص مما نزل به من العذاب، والجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حدّ يؤدّ الاقتداء من العذاب بمن ذكر. قرأ الجمهور (من عذاب يومئذ) بإضافة عذاب إلى يومئذ. وقرأ أبو حيوة بتنوين (عذاب) وقطع الإضافة. وقرأ الجمهور (يومئذ) بكسر الميم، وقرأ نافع، والكسائي، والأعرج، وأبو حيوة بفتحها ﴿وفصيلته التي تؤويه﴾ أي: عشيرته الأقربين الذين يضمونه في النسب، أو عند الشدائد، ويأوي إليهم. قال أبو عبيد: الفصيصة دون القبيلة. وقال ثعلب: هم أبائهم الأبنون. قال المبرد: الفصيصة القطعة من أعضاء الجسد. وسميت عشيرة الرجل فصيلة تشبيهاً لها بالعض منه. وقال مالك: إن الفصيصة هي التي تربيته ﴿ومن في الأرض جميعاً﴾ أي: ويؤدّ المجرم لو افتدى بمن في الأرض جميعاً من الثقلين وغيرهما من الخلائق. وقوله: ﴿ثم ينجيهم﴾ معطوف على يفتدي أي: يؤدّ لو يفتدي، ثم ينجيهم الاقتداء، وكان العطف بـ ﴿ثم لدلتها على استبعاد النجاة، وقيل: إن يؤدّ تقتضي جواباً، كما في قوله: ﴿وئوّا لو تدهن فيدهنون﴾ [القلم: 9] والجواب، ثم ينجيهم، والأول أولى. وقوله: ﴿كلا﴾ ردع للمجرم عن تلك الودادة، وبيان امتناع ما ودّه من الاقتداء، و﴿كلا﴾ يأتي بمعنى حقاً، ويعني لا مع تضمنها لمعنى الزجر والردع، والضمير في

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ أي: ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه، وقد قدّمنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله في سورة السجدة ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ [السجدة: 5] فأرجع إليه.

وقد قيل في الجمع: إن من أسفل العالم إلى العرش خمسون ألف سنة، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة؛ لأن غلط كل سماء خمسمائة عام، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام، فالمعنى: أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسون ألف سنة، وإن عرجوا من هذه الأرض التي نحن فيها إلى باطن هذه السماء التي هي سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة، وسيأتي في آخر البحث ما يؤيد هذا عن ابن عباس. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر فقال: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ أي: اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبراً جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله، وهذا معنى الصبر الجميل، وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري بأنه مصاب. قال ابن زيد، وغيره: هي منسوخة بآية السيف ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾ أي: يرون العذاب الواقع بهم، أو يرون يوم القيامة بعيداً أي: غير كائن لأنهم لا يؤمنون به، فمعنى ﴿بعيداً﴾ أي: مستبعداً محالاً، وليس المراد أنهم يرونه بعيداً غير قريب. قال الأعمش: يرون البعث بعيداً؛ لأنهم لا يؤمنون به كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة، كما تقول لمن تناظره هذا بعيداً؛ أي: لا يكون ﴿ونراه قريباً﴾ أي: نعلمه كائناً قريباً؛ لأن ما هو آت قريب. وقيل المعنى: ونراه هيناً في قدرتنا غير متعسر ولا متعذر، والجملة تعليل للأمر بالصبر. ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب فقال: ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ والظرف متعلق بمضمر دلّ عليه واقع، أو بدل من قوله: ﴿في يوم﴾ على تقدير تعلقه بواقع، أو متعلق بقريباً، أو مقدّر بعده أي: يوم تكون... إلخ، كان كيت وكيت، أو بدل من الضمير في نراه، والأول أولى. والتقدير: يقع بهم العذاب ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ والمهل: ما أنيب من النحاس والرصاص والفضة. وقال مجاهد: هو القيقح من الصديد والدم. وقال عكرمة، وغيره: هو دردي الزيت، وقد تقدّم تفسيره في سورة الكهف والخضن ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ أي: كالصوف المصبوغ، ولا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغاً. قال الحسن: تكون الجبال كالعهن، وهو الصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف، وقيل: العهن الصوف ذو الألوان، فشبه الجبال به في تكوّنها الواناً، كما في قوله: ﴿جدد بيض وحمراً﴾ و﴿غرابيب سود﴾ [فاطر: 27] فإذا بست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ أي: لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نزل بهم من شدّة الأهوال التي أنهلت

قوله: ﴿إنها لظي﴾ عائد إلى النار المللول عليها بذكر العذاب، أو هو ضمير مبهم يفسره ما بعده، ولظي علم لجهم، واشتقاقها من التلطي في النار، وهو التلهب، وقيل: أصله لفظ بمعنى دوام العذاب، فقلبت إحدى الظاءين ألفاً، وقيل لظي: هي الدركة الثانية من طباق جهنم ﴿نزاعة للشوى﴾ قرأ الجمهور (نزاعة) بالرفع على أنه خبر ثانٍ لأن، أو خبر مبتدأ محذوف، أو تكون لظي بدلاً من الضمير المنصوب، ونزاعة خبر إن، أو على أن نزاعة صفة للظي على تقدير عدم كونها علماً، أو يكون الضمير في إنها للقصة، ويكون لظي مبتدأ، ونزاعة خبره، والجملة خبر إن، وقرأ حفص عن عاصم، وأبو عمر، وفي رواية عنه، وأبو حيوة، والزعفراني، والترمذي، وابن مقسم (نزاعة) بالنصب على الحال. وقال أبو علي الفارسي: حمله على الحال بعيد؛ لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال، وقيل: العامل فيها ما دل عليه الكلام من معنى التلطي، أو النصب على الاختصاص، والشوى الأطراف، أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس، ومنه قول الأعشى:

قالت قتيلة ماله قد جللت شيباً شواته

وقال الحسن، وثابت البناني: ﴿نزاعة للشوى﴾ أي: لمكارم الوجه وحسنه، وكذا قال أبو العالية، وقتادة. وقال قتادة: تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك فيه شيئاً. وقال الكسائي: هي المفاصل. وقال أبو صالح: هي أطراف البين والرجلين ﴿تدعوا من أنبر﴾ أي: تدعو لظي من أنبر عن الحق في الدنيا ﴿وتولى﴾ أي: أعرض عنه ﴿وجمع فاعوى﴾ أي: جمع المال فجعله في وعاء، وقيل: إنها تقول إليّ يا مشرك، إليّ يا منافق، وقيل: معنى تدعو تهلك، تقول العرب: دعاك الله أي: أهلكك، وقيل: ليس هو الدعاء باللسان، ولكن دعاؤها إياهم تمكنها من عذابهم، وقيل: المراد أن خزنة جهنم تدعو الكافرين والمنافقين، فأسند الدعاء إلى النار، من باب إسناد ما هو للحال إلى المحل، وقيل: هو تمثيل وتخيل، ولا دعاء في الحقيقة، والمعنى: أن مصيرهم إليها، كما قال الشاعر:

ولقد هبطنا الواد بين قوائنا ندعو الأنيس به الغصيص الأبك
والغصيص الأبك: الذباب، وهي لا تدعو، وفي هذا نم لمن جمع المال فاعواه، وكنزه ولم ينفقه في سبل الخير، أو لم يؤد زكاته.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿سأل سائل﴾ قال: هو النضر بن الحارث قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال: 32] وفي قوله: ﴿يعذاب واقع﴾ قال: كائن للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المعارج * قال: ذي الدرجات. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿سأل سائل﴾ قال: سأل وأد في جهنم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ذي

تعتون، وفي قوله: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي عنه أيضاً في قوله: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم. قال: يعني يوم القيامة. وقد قدمنا عن ابن عباس الوقف في الجمع بين الآيتين في سورة السجدة. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال: «قيل يا رسول الله ﷺ: ﴿يوم كان يوم مقداره خمسين ألف سنة﴾ ما أطول هذا اليوم؟ فقال: والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا. وفي إسناده دراج عن أبي الهيثم، وهما ضعيفان. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة مرفوعاً قال: ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا كقدر ما بين الظهر إلى العصر. وأخرج الحكيم الترمذي في نوار الأصول عن ابن عباس في قوله: ﴿فأصبر صبراً جميلاً﴾ قال: لا تشكو إلى أحد غيري. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والخطيب في المتفق والمفترق، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ قال: كدردي الزيت. وأخرج ابن جرير عنه قال: «يصبونهم» يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون، ثم يفر بعضهم بعضاً. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿نزاعة للشوى﴾ قال: تنزع أم الرأس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْكُمْ﴾ ١٠٠ ﴿إِنَّا سَأَلْنَا جَرُوعًا﴾ ١٠١ ﴿وَأَذًا مِنْهُ﴾ ١٠٢ ﴿أَلْقَيْنَا مِنْكُمْ﴾ ١٠٣ ﴿إِلَّا الْآلَمِينَ﴾ ١٠٤ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ١٠٥ ﴿وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ كِبٌ مِّنْ عَلَمٍ﴾ ١٠٦ ﴿إِلَّا الْآلَمِينَ﴾ ١٠٧ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ يُشْفِقُونَ﴾ ١٠٨ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ خَيْرٌ مِّمَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ١٠٩ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ١١٠ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ١١١

خائفون، وجلون مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقاقاً لأعمالهم، واعتراً بما يجب لله سبحانه عليهم. وجملة ﴿إِنْ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ مقررّة لمضمون ما قبلها مبينة أن ذلك مما لا ينبغي أن يأمّنه أحد، وأن حق كل أحد أن يخافه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَاثُونَ﴾ قد تقدم تفسيره في سورة المؤمنين مستوفى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي: لا يخلون بشيء من الأمانات التي يؤتمنون عليها، ولا ينقضون شيئاً من العهود التي يعقدونها على أنفسهم. قرأ الجمهور (لأماناتهم) بالجمع، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن (لأمانتهم) بالإنفراد، والمراد الجنس ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي: يقيمونها على من كانت عليه من قريب أو بعيد، أو رفيع أو ضيع، ولا يكتُمونها ولا يغيرونها، وقد تقدّم القول في الشهادة في سورة البقرة. قرأ الجمهور (بشهاداتهم) بالإنفراد، وقرأ حفص، ويعقوب، وهي رواية عن ابن كثير بالجمع. قال: الواحدي والفراد أولى لأنه مصدر، ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات. قال الفرّاء: ويدل على قراءة التوحيد قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا شَهَادَاتِهِ﴾ [الطلاق: 2] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ﴾ أي: على انكارها وأركانها وشرائطها، لا يخلون بشيء من ذلك. قال قتادة: على وضوئها وركوعها وسجودها. وقال ابن جريج: المراد التطوّع، وكرر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أولاً، وما وصفهم به ثانياً، فإن معنى الدوام: هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل، كما سلف؛ ومعنى المحافظة: أن يراعي الأمور التي لا تكون صلاة بدونها، وقيل: المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها، وكرّر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقلّ بموصوف منفرد، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات ﴿فِي جَنَّاتٍ مَكْرُومٍ﴾ أي: مستقرّون فيها، مكرمون بأنواع الكرامات، وخبر المبتدأ قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾، وقوله: ﴿مَكْرُومٍ﴾ خبر آخر، ويجوز أن يكون الخبر مكرمون، وفي جنات متعلق به ﴿فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مَهْطَعِينَ﴾ أي: أي شيء لهم حواليك مسرعين، قال الأخفش: مهطعين مسرعين، ومنه قول الشاعر:

بمكة أمّ لها ولقد أراهم إليهم مهطعين إلى السماع
وقيل المعنى: ما بالهم يسرعون إليك يجلسون حواليك، ولا يعملون بما تأمرهم، وقيل: ما بالهم مسرعين إلى التكنيب. وقيل: ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك، فيكذبونك ويستهنئون بك. وقال الكلبي: إن معنى ﴿مهطعين﴾: ناظرين إليك. وقال قتادة: عاملين، وقيل: مسرعين إليك ما نبي أعناقهم مبهمي النظر إليك ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّينَ﴾ أي: عن يمين النبي ﷺ وعن شماله جماعات متفرقة، وعزّين جمع عزة، وهي العصبية من الناس، ومنه قول الشاعر:

فَأَنَّهُمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿١٥﴾ فَمَنْ أَتَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَسْتَبْرَاحِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ذَٰلِكَ مُهْمِلِينَ ﴿٢١﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّينَ ﴿٢٢﴾ أَيْلَاحُ كُلِّ سَمْعٍ يَسْمَعُ أُنْ يَدْخُلُ جَنَّةً يَمِيرُ ﴿٢٣﴾ كَلَّا إِنَّا عَلَّقْنَاهُمْ مِنَّمَاءٍ يَلَكَّرُ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ قال في الصحاح: الهلع في اللغة: أشدّ الحرص، وأسوأ الجزع وأقبحه يقال: هلع بالكسر، فهو هَلُوعٌ وهَلُوعٌ على التثنية. وقال عكرمة: هو الضجور. قال: الواحدي، والمفسرون يقولون تفسير الهلع ما بعده يعني قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾ وإذا مَسَّهُ للخير منوعاً أي: إذا أصابه الفقر والحاجة، أو المرض، أو نحو ذلك، فهو جزوع؛ أي: كثير الجزع، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة، ونحو ذلك، فهو كثير المنع والإمسك. وقال أبو عبيدة: الهلوع هو الذي إذا مَسَّهُ الخير لم يشكر، وإذا مَسَّهُ الشر لم يصبر. قال ثعلب: قد فسّر الله الهلوع: هو الذي إذا أصابه الشرّ أظهر شدّة الجزع، وإذا أصابه الخير بخل به ومنعه الناس، والعرب تقول: ناقه هلوع، وهلوع إذا كانت سريعة السير خفيفته، ومنه قول الشاعر:

شكا ذعلبة إذا استديرتها حرج إذا استقبلتها هلوع
والذعلبة: الناقة السريعة، وانتصاب هلوعاً وجزوعاً ومنوعاً على أنها أحوال مقدّرة، أو محققة؛ لكونها طبائع جبل الإنسان عليها، والظرفان معمولان لجزوعاً ومنوعاً ﴿إِلَّا لِلْمُصْلِينَ﴾ أي: المقيمين للصلاة، وقيل: المراد بهم أهل التوحيد يعني: أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع؛ وأنهم على صفات محمودة وخلال مرضية؛ لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد ودين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات، ويحلمهم على الاتصاف بصفات الخير. ثم بيّنهم سبحانه. فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي: لا يشغلهم عنها شاغل، ولا يصرفهم عنها صارف، وليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبداً. قال الزجاج: هم الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة. وقال الحسن، وابن جريج: هو التطوع منها. قال النخعي: المراد بالمصلين الذين يؤثرون الصلاة المكتوبة، وقيل: الذين يصلونها لوقتها، والمراد بالآية جميع المؤمنين، وقيل: الصحابة خاصة، ولا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ قال قتادة، ومحمد بن سيرين: المراد الزكاة المفروضة. وقال مجاهد: سوى الزكاة، وقيل: صلة الرحم، والظاهر أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوماً، ولجعله قريناً للصلاة، وقد تقدّم تفسير السائل والمحروم في سورة الذاريات مستوفى. ﴿وَالَّذِينَ يَصْنَعُونَ بَيُومٍ لِّلنَّاسِ﴾ أي: بيوم الجزاء، وهو يوم القيامة لا يشكون فيه ولا يجحونونه، وقيل: يصنّفونه بأعمالهم، فيتعبون أنفسهم في الطاعات ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي:

«يقول الله: ابن آدم أتى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعملتك مشيت بين بردين، ولأرض منك وثيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أواتى أوان الصدقة».

قُلْ أَتَمُّ رَّبِّكَ الْقَرِيبُ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ وَإِنَّا فَتَقَرُّوْنَ بِهِ وَتَوَسَّلُونَ ﴿٢﴾ وَتُحْمَلُونَ فِي الْعَصَا وَإِذْ يُؤْفَكُونَ بِأَفْوَكَكُمْ هُمْ عَنِّي مُبْعَدُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ نُفِثَ بِهِمْ سَبْعَ نَفْثَاتٍ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ عِندِنَا إِلاَّ الْمَوْتُ الَّذِي أَخْلَقُوا ﴿٤﴾

قوله: ﴿فلا أقسم﴾ «لا» زائدة كما تقدم قريباً، والمعنى: فاقسم ﴿بجرب المشارق والمغارب﴾ يعني: مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه. قرأ الجمهور (المشارق والمغارب) بالجمع، وقرأ أبو حيو، وابن محيصن، وحמיד بالإفراد ﴿إننا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم﴾ أي: على أن نخلق أمثلاً منهم، وأطوع لله حين عصوه ونهلك هؤلاء ﴿وما نحن بمسيوقين﴾ أي: بمغلولين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر، ولكن مشيتنا وسابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء، وعدم تبديلهم بخلق آخر ﴿فقدروهم يخوضوا ويلعبوا﴾ أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في نبياهم، واشتغل بما أمرت به ولا يعظم عليك ما هم فيه، فليس عليك إلا البلاغ ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ وهو يوم القيامة، وهذه الآية منسوخة بآية السيف. قرأ الجمهور (يلاقوا)، وقرأ أبو جعفر، وابن محيصن، وحמיד، ومجاهد (حتى يلقوا) ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً﴾ يوم يدل من يومهم، وسراعا منتصب على الحال من ضمير يخرجون، قرأ الجمهور (يخرجون) على البناء للفاعل. وقرأ السلمي، والاعمش، والمغيرة، وعاصم في رواية على البناء للمفعول، والاجداث جمع جدث، وهو القبر ﴿كانهم إلى نصب يوفضون﴾ قرأ الجمهور (نصب) بفتح النون وسكون الصاد. وقرأ ابن عامر، وحفص بضم النون والصاد، وقرأ عمرو بن ميمون، وأبو رجاء بضم النون وإسكان الصاد. قال في الصحاح: والنصب ما نصب فعبد من دون الله، وكذا النصب بالضم، وقد يحرك. قال الأعشى:

وذا النصب المنسوب لا تعبنة ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا والجمع: الانصاب، وقال الأخفش، والفراء: النصب جمع النصب، مثل رهن ورهن، والانصاب جمع النصب فهو جمع الجمع، وقيل: النصب جمع نصاب، وهو حجر أو صنم ينبع عليه، ومنه قوله: ﴿وما ينبع على النصب﴾ [المائدة: 3] وقال النحاس: نصب ونصب بمعنى واحد، وقيل معنى ﴿إلى نصب﴾ إلى غاية، وهي التي تنصب إليها بصرك، وقال الكلبي: إلى شيء منصوب علم أو راية أي: كأنهم إلى علم يدعون إليه، أو راية تنصب لهم يوفضون، قال الحسن: كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أولهم على آخرهم. وقال أبو عمرو:

ترانا عنده الليل داج على أبوابه حلقاً عزينا وقال الراعي:
أخليفة الرحمن إن عشيرتي أمسى سراتهم إليك عزينا وقال عنتره:

وقرن قد تركت لسي ولي عليه الطير كالعصب العزينا وقيل: أصلها عزوة من العزو؛ كان كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى. قال في الصحاح: والعزة الفرقة من الناس، والهاء عوض من التاء، والجمع عزى وعزون، وقوله: ﴿عن اليمين وعن الشمال﴾ متعلق بعزين، أو بمطعين ﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ قال المفسرون: كان المشركون يقولون: لئن بخل هؤلاء الجنة لندخلن قبلهم، فنزلت الآية، قرأ الجمهور (أن يدخل) مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن، وزيد بن علي، وطلحة بن مصرف، والأعرج، ويحيى بن يعمر، وأبو رجاء، وعاصم في رواية عنه على البناء للفاعل. ثم رد الله سبحانه عليهم فقال: ﴿كلا إننا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي: من القدر الذين يعلمون به، فلا ينبغي لهم هذا التكبر، وقيل المعنى: إننا خلقناهم من أجل ما يعلمون، وهو امتثال الأمر والنهي، وتعريضهم للثواب والعقاب، كما في قوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: 56]، ومنه قول الأعشى:

«أزمت من آل ليلي ابتكاراً وشطت على ذي هوى أن يزلرا وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن الهلوع، فقال: هو كما قال الله: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ وإذا مسه الخير منوعاً. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿هلوعاً﴾ قال: الشره. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن مسعود ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال: على مواقيتها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن عمران بن حصين ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال: الذي لا يلتفت في صلاته. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عقبة بن عامر ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال: هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا. وأخرج ابن المنذر من طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿فمال للذين كفروا بكتك مطعين﴾ قال: ينظرون ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ قال: العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به. وأخرج مسلم، وغيره عن جابر قال: بخل علينا رسول الله ﷺ المسجد، ونحن خلق متفرقون فقال: «ما لي أراكم عزين». وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن سعد، وابن أبي عاصم، والباوردي، وابن قانع، والحاكم، والبيهقي في الشعب، والضياء عن بشر بن جحاش قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿فمال للذين كفروا بكتك مطعين﴾ إلى قوله: ﴿كلا إننا خلقناهم مما يعلمون﴾، ثم بنق رسول الله ﷺ على كفه، ووضع عليها أصبعه، وقال:

سَكُونٍ بِبَارِكًا ﴿٥٦﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ النَّمْصَ سِرَاجًا ﴿٥٧﴾ وَاللَّهُ
أَبْتَرُ مِنْ الْأَرْضِ بَارِكًا ﴿٥٨﴾ ثُمَّ يُبَدِّلُ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٥٩﴾ وَاللَّهُ
جَمَلٌ لَكُمْ الْأَرْضِ بِسَاطًا ﴿٦٠﴾ لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَالًا ﴿٦١﴾

قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ قد تقدّم أن نوحاً
أول رسول أرسله الله، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن
أخنوخ بن قينان بن شيث بن آدم، وقد تقدّم مدّة لبثه في
قومه، وبيان جميع عمره، وبيان السنّ التي أرسل وهو فيها
في سورة العنكبوت ﴿أَن أُنْذِرَ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أُنْذِرَ على
أنها مصيرية. ويجوز أن تكون هي المفسرة؛ لأن في
الإرسال معنى القول. وقرأ ابن مسعود (أُنْذِرَ) بدون أن،
وذلك على تقدير القول: أي: فقلنا له أُنْذِرَ ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ
يَلْتَبِثَ عَذَابَ الْيَمِّ﴾ أي: عذاب شديد الألم، وهو عذاب النار.
وقال الكلبي: هو ما نزل بهم من الطوفان، وجملة ﴿قَالَ يَا
قَوْمُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً على
تقدير سؤال، كأنه قيل: فماذا قال نوح؟ فقال: قال لهم إلخ.
والمعنى: إني لكم منذر من عقاب الله ومخوف لكم، ومبين
لما فيه نجاتكم ﴿أَن اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَاطِيعُونَ﴾ «أن»
هي التفسيرية للنذير، أو هي المصيرية أي: بأن اعبدوا الله
ولا تشركوا به غيره، واتقوه أي: اجتنبوا ما يوقعكم في
عذابه، واطيعون فيما أمركم به فإنني رسول إليكم من عند الله
﴿يُغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ هذا جواب الأمر، و«من»
للتبعية أي: بعض ذنوبكم، وهو ما سلف منها قبل طاعة
الرسول وإجابة دعوته. وقال السدي: المعنى يغفر لكم
ذنوبكم، فتكون «من» على هذا زائدة، وقيل: المراد بالبعض
ما لا يتعلق بحقوق العباد، وقيل: هي لبيان الجنس، وقيل:
يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتكم منها ﴿وَيُؤْخِرْكُمْ إِلَى
لَاجِلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذي
قدّره الله لكم بشرط الإيمان والطاعة فوق ما قدّره لكم، على
تقدير بقاءكم على الكفر والعصيان. وقيل: التأخير بمعنى
البركة في أعمارهم أن آمنوا، وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا.
قال مقاتل: يؤخركم إلى منتهى أجالكم. وقال الزجاج: أي
يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب.
وقال الفراء: المعنى لا يميّتكم غرقاً ولا حرقاً ولا قتلاً ﴿إِن
لَّجِلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤْخِرُ﴾ أي: ما قدّره لكم على تقدير
بقاءكم على الكفر من العذاب إذا جاء، وأنتم باقون على الكفر
لا يؤخر بل يقع لا محالة، فبادروا إلى الإيمان والطاعة. وقيل
المعنى: إن أجل الله، وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان.
وقيل المعنى: إذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو
بغير عذاب ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئاً من العلم
لسارعتم إلى ما أمركم به، أو لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا
يؤخر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: قال
نوح منادياً لربه، وحاكياً له ما جرى بينه وبين قومه، - وهو
أعلم به - منه إني دعوت قومي إلى ما أمرتني بأن أدعوهم
إليه من الإيمان دعاء دائماً في الليل والنهار من غير تقصير

النصب شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها
مخافة انفلاته. ومعنى يوفضون: يسرعون، والإيفاض
الإسراع. يقال: أوفض إيفاضاً أي: أسرع إسراعاً، ومنه قول
الشاعر:

فوارس نبيان تحت الحديد كالجنّ يوفض من عبقر
وعبقر: قرية من قرى الجن، كما تزعم العرب، ومنه قول
لبيد:

كهول وشبان كجنة عبقر

وانتصاب ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارِهِمْ﴾ على الحال من ضمير
يوفضون، وأبصارهم مرتفعة به، والخشوع الذلة والخضوع
أي: لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب ﴿تَرْتَهِّقُهُمْ ذُلَّةٌ﴾
أي: تغشاهم ذلة شديدة. قال قتادة هي: سواد الوجوه، ومنه
غلام مراهق: إذا غشيه الاحتلام، يقال: رهقه بالكسر يرهقه
رهقاً أي: غشيه، ومثل هذا قوله: ﴿وَلَا يَرِيقُ وَجُوهُهُمْ قُتْرًا
وَلَا ذُلَّةً﴾ [يونس: 26] والإشارة بقوله: ﴿ذُلَّةٌ﴾ إلى ما تقدّم
ذكره. وهو مبتدأ وخبره ﴿الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي:
الذي كانوا يوعدونه في الدنيا على السنة الرسل قد حاق
بهم وحضر، ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به، وإن كان
مستقبلاً، فهو في حكم الذي قد وقع لتحقيق وقوعه.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله:
﴿فَلَا اقْسَمْ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ قال: للشمس كل
يوم مطلع تطلع فيه، ومغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس
وغير مغربها بالأمس. وأخرج ابن جرير عنه ﴿إِلَى نَصَبِ
يُوفُضُونَ﴾ قال: إلى علم يستيقنون.

تفسير سورة نوح

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مريويه عن
عبد الله بن الزبير قال: نزلت سورة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾
[أي: سورة نوح] بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا
﴿٣﴾ يُخْرِجْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ
لَا يُؤْخَرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمَّ
يَرَوْهُمْ كَذَّبُوا وَافْتَرَا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُنْتُ مِنْهُمْ لَمَشْهُومًا ﴿٧﴾ نَدِيتُ بِهِمْ وَاسْتَغْنَسُوا بِأَهْلِهِمْ وَأَسْرَأُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَتَكَبَّرُوا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي
دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٩﴾ ثُمَّ إِنِّي أَهْلَكْتُهُمْ وَاتَّخَذْتُهُمْ سَلَاسِلًا ﴿١٠﴾ فَأَنزَلْتُهُمْ
اسْتَفْزِفُوا رَبَّهُمْ إِنَّمَا كَانَ عَقَابًا ﴿١١﴾ يُرْسِلُ السَّيْلَ عَنَّا كَذِبَكُمُ فَذَرَاكَ ﴿١٢﴾
وَمُتَدَذِّرًا بِأَقْوَالٍ وَيَعْنِي وَجَعَلَ لَكُمْ جَسَدًا وَجَعَلَ لَكُمْ أَنْتَهَارًا ﴿١٣﴾ مَا لَكُمْ لَا
تَرْجِعُونَ لِلَّهِ فَقَارًا ﴿١٤﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٥﴾ أَفَرَأَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ

﴿فلم يزدكم دعائي إلا قرأاً﴾ عما دعوتهم إليه وبعداً عنه. قال مقاتل: يعني تباعداً من الإيمان، وإسناد الزيادة إلى الدعاء لكونه سببها، كما في قوله: ﴿زادتهم إيماناً﴾ [الأنفال: 2]. قرأ الجمهور (دعائي) بفتح الياء، وقرأ الكوفيون، ويعقوب، والدوري عن أبي عمرو بإسكانها، والاستثناء مفرغ ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم﴾ أي: كلما دعوتهم إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بك، والطاعة لك ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ لئلا يسمعوا صوتي ﴿ولستغشوا ثيابهم﴾ أي: غطوا بها وجوههم لئلا يروني، وقيل: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سدّ الأذان، وقيل: هو كناية عن العداوة، يقال: لبس فلان ثياب العداوة، وقيل: استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعومهم ﴿واصبروا﴾ أي: استمروا على الكفر، ولم يقلعوا عنه ولا تابوا منه ﴿واستكبروا﴾ عن قبول الحق، وعن امتثال ما أمرهم به ﴿استكبروا﴾ شديداً ﴿ثم إنني دعوتهم جهاراً﴾ أي: مظهرأ لهم الدعوة مجاهراً لهم بها ﴿ثم إنني أعلنت لهم﴾ أي: دعوتهم معلناً لهم بالدعاء ﴿واسررت لهم إسراراً﴾ أي: وأسررت لهم الدعوة إسراراً كثيراً، قيل المعنى: أن يدعو الرجل بعد الرجل يكلمه سرأ فيما بينه وبينه، والمقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة، فلم ينبج ذلك فيهم. قال مجاهد: معنى أعلنت: صحت، وقيل: معنى ﴿أسررت﴾: اتيتهم في منازلهم فدعوتهم فيها. وانتصاب جهاراً على المصدرية؛ لأن الدعاء يكون جهاراً ويكون غير جهار، فالجهار نوع من الدعاء كقولهم: قعد القرفصاء، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف أي: دعاء جهاراً، وأن يكون مصدرأ في موضع الحال أي: مجاهراً، ومعنى ﴿ثم﴾: الدلالة على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما. قرأ الجمهور (إني) بسكون الياء، وقرأ أبو عمرو والحرميون بفتحها ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفراً﴾ أي: سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية ﴿إنه كان غفراً﴾ أي: كثير المغفرة للمذنبين، وقيل: معنى استغفروا: توبوا عن الكفر إنه كان غفراً للتائبين ﴿يرسل السماء عليكم﴾ أي: يرسل ماء السماء عليكم، ففيه إضمار، وقيل: المراد بالسماء المطر، كما في قول الشاعر:

إذا نزل السماء بارض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
والمدرار: الدرور، وهو التحلب بالمطر، وانتصابه إما على الحال من السماء، ولم يؤنث، لأن مفعلاً لا يؤنث؛ تقول امرأة مثناة ومثكار، أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي: إرسالاً مدراراً، وقد تقدّم الكلام عليه في سورة الأنعام، وجزم يرسل لكونه جواب الأمر. وفي هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق، ولهذا قال: ﴿ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات﴾ يعني: بساتين ﴿ويجعل لكم أنهاراً﴾ جارية. قال عطاء: المعنى يكثر أموالكم وأولادكم. أعلمهم نوح عليه السلام أن

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها
وقال سعيد بن جببر، وأبو العالية، وعطاء بن أبي رباح: ما لكم لا ترجون لله ثواباً، ولا تخافون منه عقاباً. وقال مجاهد، والضحاك: ما لكم لا تبالون لله عظمة. قال قطرب: هذه لغة حجازية. وهنيل، وخزاعة، ومضر يقولون: لم أرج لم أبل. وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان. وقال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيراً. وقال ابن زيد: ما لكم لا تؤذون الله طاعة. وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقاً، ولا تشكرون له نعمة، وجملة ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة: نطفة، ثم مضغة، ثم علقة إلى تمام الخلق، كما تقدّم بيانه في سورة المؤمنون، والطور في اللغة: المرة، وقال ابن الأنباري: الطور الحال، وجمعه أطوار، وقيل: أطواراً صبياناً، ثم شباناً، ثم شيوخاً، وقيل: الأطوار اختلافهم في الأفعال والأقوال والأخلاق، والمعنى: كيف تقصرون في توقيركم من خلقكم على هذه الأطوار البديعة ﴿فلم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾ الخطاب لمن يصلح له، والمراد الاستدلال بخلق السموات على كمال قدرته وبديع صنعته، وأنه الحقيق بالعبادة، والطباق المتطابقة بعضها فوق بعض كل سماء مطبقة على الأخرى كالقبايا. قال الحسن: خلق الله سبع سموات على سبع أرضين بين كل سماء وسماء، وأرض وأرض خلق وأمر، وقد تقدّم تحقيق هذا في قوله: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق: 12] وانتصاب طباقاً على المصدرية، تقول طابقه مطابقة وطباقاً، أو حال بمعنى ذات طباق، فحذف ذات وأقام طباقاً مقامه، وأجاز الفراء في غير القرآن جرّ طباقاً على النعت ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ أي: منوراً لوجه الأرض، وجعل القمر في السموات مع كونها في سماء الدنيا؛ لأنها إذا كانت في إحداهن فهي فيهن، كذا قال ابن كيسان. قال الأخفش: كما تقول: اتاني بنو تميم، والمراد بعضهم. وقال قطرب: فيهن بمعنى معهن أي: خلق القمر والشمس مع خلق السموات والأرض، كما في قول امرئ القيس:

وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال
أي: مع ثلاثة أحوال ﴿وجعل الشمس سرلجاً﴾ أي: كالمصباح لاهل الأرض؛ ليتوصلوا بذلك إلى التصرّف فيما يحتاجون إليه من المعاش ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾

يعني: آدم خلقه الله من أديم الأرض، والمعنى: أنشأكم منها إنشاء، فاستعير الإنبياء للإنشاء لكونه أدل على الحدث والتكوين، ونباتاً إما مصدر لأنبت على حنف الزوائد، أو مصدر لفعل محذوف أي: أنبتكم من الأرض، فنبتتم نباتاً. وقال الخليل، والزجاج: هو مصدر محمول على المعنى؛ لأن معنى أنبتكم: جعلكم تنبتون نباتاً. وقيل المعنى: والله أنبت لكم من الأرض النبات، فنباتاً على هذا مفعول به. قال ابن بحر: أنبتهم في الأرض بالكبر بعد الصغر، وبالطول بعد القصر ﴿ثم يعيدكم فيها﴾ أي: في الأرض ﴿ويخرجكم إخراجاً﴾ يعني: يخرجكم منها بالبعث يوم القيامة ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ أي: فرشها وبسطها لكم لتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ أي: طرقاً واسعة، والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسع، كذا قال الفراء، وغيره، وقيل الفج: المسلك بين الجبلين، وقد مضى تحقيق هذا في سورة الأنبياء، وفي سورة الحج مستوفى.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وجعلوا نصابهم في أذنهم﴾ قال: لثلاً يسمعون ما يقول ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ قال: ليتكروا، فلا يعرفهم ﴿واستكبروا استكباراً﴾ قال: تركوا التوبة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ قال: غطوا وجوههم لثلاً يروا نوحاً ولا يسمعون كلامه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ قال: لا تعلمون لله عظمة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي عنه أيضاً ﴿وقاراً﴾ قال: عظمة. وفي قوله: ﴿وقد خلقكم لطواراً﴾ قال: نطفة، ثم علقه، ثم مضغة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: لا تخافون لله عظمة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: لا تخشون له عقاباً ولا ترجون له ثواباً. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب: «أن النبي ﷺ رأى ناساً يفتسلون عراة ليس عليهم أزر، فنادى بأعلى صوته ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: الشمس والقمر، وجوهما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض، وأنا أقرا بذلك عليكم أنه من كتاب الله ﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمر قال: تضيء لاهل السموات، كما تضيء لاهل الأرض. وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب، فتعابا فذهب ذلك، فقال عبد الله بن عمرو لكعب: سلني عما شئت، فلا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قولني من القرآن، فقال له: أرايت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وجعلوا نصابهم في أذنهم﴾ قال: لثلاً يسمعون ما يقول ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ قال: ليتكروا، فلا يعرفهم ﴿واستكبروا استكباراً﴾ قال: تركوا التوبة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ قال: غطوا وجوههم لثلاً يروا نوحاً ولا يسمعون كلامه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ قال: لا تعلمون لله عظمة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي عنه أيضاً ﴿وقاراً﴾ قال: عظمة. وفي قوله: ﴿وقد خلقكم لطواراً﴾ قال: نطفة، ثم علقه، ثم مضغة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: لا تخافون لله عظمة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: لا تخشون له عقاباً ولا ترجون له ثواباً. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب: «أن النبي ﷺ رأى ناساً يفتسلون عراة ليس عليهم أزر، فنادى بأعلى صوته ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: الشمس والقمر، وجوهما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض، وأنا أقرا بذلك عليكم أنه من كتاب الله ﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمر قال: تضيء لاهل السموات، كما تضيء لاهل الأرض. وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب، فتعابا فذهب ذلك، فقال عبد الله بن عمرو لكعب: سلني عما شئت، فلا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قولني من القرآن، فقال له: أرايت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وجعلوا نصابهم في أذنهم﴾ قال: لثلاً يسمعون ما يقول ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ قال: غطوا وجوههم لثلاً يروا نوحاً ولا يسمعون كلامه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ قال: لا تعلمون لله عظمة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي عنه أيضاً ﴿وقاراً﴾ قال: عظمة. وفي قوله: ﴿وقد خلقكم لطواراً﴾ قال: نطفة، ثم علقه، ثم مضغة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: لا تخافون لله عظمة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: لا تخشون له عقاباً ولا ترجون له ثواباً. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب: «أن النبي ﷺ رأى ناساً يفتسلون عراة ليس عليهم أزر، فنادى بأعلى صوته ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: الشمس والقمر، وجوهما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض، وأنا أقرا بذلك عليكم أنه من كتاب الله ﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمر قال: تضيء لاهل السموات، كما تضيء لاهل الأرض. وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب، فتعابا فذهب ذلك، فقال عبد الله بن عمرو لكعب: سلني عما شئت، فلا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قولني من القرآن، فقال له: أرايت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وجعلوا نصابهم في أذنهم﴾ قال: لثلاً يسمعون ما يقول ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ قال: غطوا وجوههم لثلاً يروا نوحاً ولا يسمعون كلامه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ قال: لا تعلمون لله عظمة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي عنه أيضاً ﴿وقاراً﴾ قال: عظمة. وفي قوله: ﴿وقد خلقكم لطواراً﴾ قال: نطفة، ثم علقه، ثم مضغة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: لا تخافون لله عظمة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: لا تخشون له عقاباً ولا ترجون له ثواباً. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب: «أن النبي ﷺ رأى ناساً يفتسلون عراة ليس عليهم أزر، فنادى بأعلى صوته ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: الشمس والقمر، وجوهما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض، وأنا أقرا بذلك عليكم أنه من كتاب الله ﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمر قال: تضيء لاهل السموات، كما تضيء لاهل الأرض. وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب، فتعابا فذهب ذلك، فقال عبد الله بن عمرو لكعب: سلني عما شئت، فلا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قولني من القرآن، فقال له: أرايت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات

(1) اللثاني بالتخفيف، والثالث بالتشديد اهـ مصححه.

لما أوتوا هذه النعم. وقال الكلبي: هو ما جعلوه له من صاحبة الولد. وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لاتباعهم لا تذرني الهتك، وقيل: مكرهم كفرهم **«وقالوا لا تذرني الهتك»** أي: لا تتركوا عبادة الهتك، وهي الأصنام والصور التي كانت لهم، ثم عبيتها العرب من بعدهم، وبهذا قال الجمهور **«ولا تذرني ودًا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا»** أي: لا تتركوا عبادة هذه. قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فنشأ بعدهم قوم يقتنون بهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صورتم صورهم كان انشط لكم وأسوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من تلك الوقت، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء، لأنهم صوروها على صورة أولئك القوم. وقال عروة بن الزبير وغيره: إن هذه كانت أسماء لأولاد آدم، وكان ودًا وكبرهم. قال الماوردي: فأما ودٌ، فهو أول صنم معبود، سمي ودًا لودهم له، وكان بعد قوم نوح لكلب يدومة الجندل في قول ابن عباس، وعطاء، ومقاتل، وفيه يقول شاعرهم:

حياك ودٌ فإن لا يحل لنا لهر النساء وإن الدين قد غربا

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر، وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ في قول قتادة. وقال المهدي: لمراد ثم لطفان؛ وأما يعوق فكان لهما في قول قتادة، وعكرمة، وعطاء. وقال الثعلبي: كان لكهلان بن سبأ، ثم توارثوه حتى صار في همدان، وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني:

يريش الله في الدنيا ويبري ولا يبري يعوق ولا يريش

وأما نسرا فكان لذي الكلاع من حمير في قول قتادة، ومقاتل. قرأ الجمهور (ودًا) بفتح الواو. وقرأ نافع بضمها. قال الليث: ودٌ بضم الواو صنم لقريش، وافتحها صنم كان لقوم نوح، وبه سمي عمرو بن ودٍ. قال في الصحاح، والود بالفتح: الودت في لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وادغموها في الدال. وقرأ الجمهور (ولا يغوث ويعوق) بغير تنوين، فإن كانا عربيين، فالمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، وإن كانا عجميين، فللعجمة والعلمية. وقرأ الأعمش (ولا يغوثا ويعوقا) بالصرف. قال ابن عطية: وذلك وهم. ووجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة؛ لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها **«وقد اضلوا كثيرا»** أي: أضل كبرائهم رؤسائهم كثيرا من الناس، وقيل: الضمير راجع إلى الأصنام: أي: ضل بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم: **«رب إنهن أضللن كثيرا من الناس»** [إبراهيم: 36] وأجرى عليهم ضمير من يعقل لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل **«ولا تزد الظالمين إلا ضلالا»** معطوف على **«رب إنهم عصوني»** ووضع الظاهر موضع المضمرة تسجيلاً عليهم بالظلم. وقال أبو حيان: إنه معطوف على قد

اضلوا، ومعنى: **«إلا ضلالا»** إلا عذاباً: كذا قال ابن بحر، واستدل على ذلك بقوله: **«إن المجرمين في ضلال وسعر»** [القمر: 47]، وقيل: إلا خساراً، وقيل: إلا فتنة بالمال والولد، وقيل: الضياع، وقيل: ضلالاً في مكرهم **«مما خطيئاتهم أغرقوا»** «ما» مزيدة للتأكيد، والمعنى: من خطيئاتهم أي: من أجلها وبسببها أغرقوا بالطوفان **«فانخلوا ناراً»** عقب ذلك، وهي نار الآخرة، وقيل: عذاب القبر. قرأ الجمهور (خطيئاتهم) على جمع التكسير، وقرأ الجحدري، وعمرو بن عبيد، والأعمش، وأبو حيو، وأشبه العقيلي (خطيئتهم) على الإفراد، قال الضحاك: عذبوا بالنار في الدنيا مع الغرق في حالة واحدة كانوا يغرقون في جانب ويحترقون في جانب. قرأ الجمهور (أغرقوا) من أغرق، وقرأ زيد بن علي (غرقوا) بالتشديد **«فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً»** أي: لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله ويدفعه عنهم **«وقال نوح رب لا تذرني على الأرض من الكافرين يبارك»** معطوف على **«قال نوح رب إنهم عصوني»** لما آيس نوح - عليه السلام - من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر دعا عليهم بالهلاك. قال قتادة: دعا عليهم بعد أن أوحى إليه **«إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن»** [هود: 36] فأجاب الله دعوته وأغرقهم. وقال محمد بن كعب، ومقاتل، والربيع بن أنس، وابن زيد، وعطية: إنما قال هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسايتهم، وأقم أرحام النساء وأصلاب الأبياء قبل العذاب بسبعين سنة، وقيل: باريعين. قال قتادة: لم يكن فيهم صبي وقت العذاب. وقال الحسن، وأبو العالية: لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذاباً من الله لهم، وعدلاً فيهم، ولكن أهلك نريتهم وأطفالهم بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب، ومعنى **«يبارك»**: من يسكن الديار، وأصله ديوار على فيعال، من دار يور، فقلت للواو ياء وادغمت إحداهما في الأخرى، مثل القيام أصله قيام، وقال القتيبي: أصله من الدار، أي: نازل بالدار، يقال: ما بالدار ديار أي: أحد، وقيل الديار: صاحب الديار، والمعنى: لا تدع أحداً منهم إلا أهلكته **«إنك إن تذرهم يضلوا عبادك»** أي: إن تتركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحق **«ولا يلبوا إلا فلجراً كفاراً»** أي: إلا فلجراً بترك طاعتك كفاراً لنعمتك أي: كثير الكفران لها، والمعنى: إلا من سيفجر ويكفر. ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه ووالديه والمؤمنين، فقال: **«رب اغفر لي ولوالدي»** وكانا مؤمنين، وأبوه لأمك بن متوشلخ، كما تقدم، وأمه سمحاء بنت أنوش، وقيل: أراد آدم وحواء. وقال سعيد بن جببر: أراد بوالديه أباه وجدّه. وقرأ سعيد بن جببر (ولوالدي) بكسر الدال على الإفراد. **«ولمن نخل بيتي»** قال الضحاك، والكلبي: يعني مسجده، وقيل: منزله الذي هو ساكن فيه، وقيل: سفينته، وقيل: لمن نخل في بيته، وانتصاب **«مؤمناً»** على الحال، أي: لمن نخل بيتي متصفاً بصفة الإيمان، فيخرج من نخله غير متصف بهذه

لم يرههم؟ فظاهر القرآن أنه لم يرههم؛ لأن المعنى: قل يا محمد لامتك أوحى إليّ على لسان جبريل ﴿إِنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ ومثله قوله: ﴿وَإِذَا صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: 29] ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ وما رأيهم. قال عكرمة: والسورة التي كان يقرؤها رسول الله ﷺ هي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [أي: سورة العلق] وقد تقدم في سورة الأحقاف نكر ما يفيد زيادة في هذا. قوله: ﴿إِنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ هذا هو القائم مقام الفاعل، ولهذا فتحت آن، والضمير للشان، وعند الكوفيين والآخرين يجوز أن يكون القائم مقام الفاعل الجار والمجرور، والنفر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة. قال الضحّاك: والجنّ ولد الجانّ وليسوا شياطين. وقال الحسن: إنهم ولد إبليس. قيل: هم أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية والهوائية، وقيل: نوع من الأرواح المجردة، وقيل: هي النفوس البشرية المفارقة لأبدانها.

وقد اختلف أهل العلم في دخول مؤمني الجنّ الجنة، كما يدخل عصائهم النار لقوله في سورة تبارك: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 5] وقول الجنّ فيما سيأتي في هذه السورة، ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: 15] وغير ذلك من الآيات، فقال الحسن: يدخلون الجنة، وقال مجاهد: لا يدخلونها، وإن صرفوا عن النار. والأوّل أولى لقوله في سورة الرحمن: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: 56] وفي سورة الرحمن آيات غير هذه تدل على ذلك فراجعها، وقد قدّمنا أن الحق أنه لم يرسل الله إليهم رسلاً منهم، بل الرسل جميعاً من الإنس، وإن أشعر قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِكُمْ رِسَالٌ مِنْكُمْ﴾ [الزمر: 71] بخلاف هذا، فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة في الكتاب العزيز دالة على أن الله سبحانه لم يرسل الرسل إلا من بني آدم، وهذه الأبحاث الكلام فيها يطول، والمراد الإشارة باختصار عبارة ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أي: قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم أي: سمعنا كلاماً مقروءاً عجباً في فصاحته وبلاغته، وقيل: عجباً في مواضعه، وقيل: في بركته، وعجباً مصدر وصف به للمبالغة، أو على حذف المضاف أي: ذا عجب، أو المصدر بمعنى اسم الفاعل أي: معجباً ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أي: إلى مرشد الأمور، وهي الحق والصواب، وقيل: إلى معرفة الله، والجملة صفة أخرى للقرآن ﴿فَأَمَّا بِهِ﴾ أي: صلّقنا به بأنه من عند الله ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَنَمَكِّثَنَّكَ فِي الْبَرِيَّةِ﴾ وفي هذا توبيخ للكفار من بني آدم حيث آمنّت الجنّ بسماع القرآن مرّة واحدة، وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه، وأنكروا بقولهم أنه كلام الله وآمنوا به، ولم ينتفع كفار الإنس لا سيما رؤسائهم وعظمائهم بسماعه مرّات متعدّدة، وتلاوته عليهم في أوقات مختلفة مع كون الرسول منهم يتلو عليهم بلسانهم لا جرم صرّعهم الله أنل

الصفة كامراته وولده الذي قال: ﴿سَأَوِي إِلَى جِبِلٍّ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: 43] ثم عمم الدعوة، فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: واغفر لكل متصف بالإيمان من الذكور والإناث. ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين، فقال: ﴿وَلَا تَزِدْ لِلظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارُكُ﴾ أي: لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكاً، وخسراناً ودماراً وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة، كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَذَرْنِ وَلَا سِوَاكَ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ قال: هذه الأصنام كانت تعبد في زمن نوح. وأخرج البخاري، وابن المنذر، وابن مردويه عنه قال: صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح في العرب. أما ودّ فكانت للكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطف، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجلسهم الذي كانوا يجلسون فيه أنصاباً، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبثت.

تفسير سورة الجن

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجن بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة، وابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَكَلَّمَ جِدًّا رَبَّنَا مَا اتَّخَذَ صَنَجَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سُبْحَانَكَ عَلَىٰ سَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنشَ وَالْإِنشَ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يُوقِدُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَمِيتَ اللَّهُ أَهْلَكًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَنَودَيْنَاهَا أَن نُّزِيلَنَّكَ حَرَسًا شَدِيدًا وَرَهَبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلشَّجَرِ فَذَرِينَا لَّسَّجَ فَذَرِينَا لَّسَّجَ فَذَرِينَا لَّسَّجَ لَمْ يَهَبْهَا رَبُّكَ ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمْنًا فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَحْمَةً ۝١٠ وَأَنَّا إِنَّا الْغَالِيُونَ وَمَنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِفَ عِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَيْنَ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحْزَنُ ۝١٢ وَلَا رَهَقًا ۝١٣

قوله: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ﴾ قرأ الجمهور «أوحى» رباعياً. وقرأ ابن أبي عبلة، وأبو إياس، والعنكي عن أبي عمرو (وحى) ثلاثياً، وهما لغتان. واختلف هل رآهم النبي ﷺ أم

على الله شططا» الضمير في أنه للحديث، أو الأمر، وسفيها يجوز أن يكون اسم كان، ويقول: الخبر، ويجوز أن يكون سفيها فاعل يقول، والجملة: خبر كان، واسمها ضمير يرجع إلى الحديث، أو الأمر، ويجوز أن تكون كان زائدة، ومراهم بسفيهم: عصاتهم ومشركوهم. وقال مجاهد، وابن جريج، وقتادة: أرادوا به إبليس، والشطط: الغلو في الكفر. وقال أبو مالك: الجور، وقال الكلبي: الكذب، وأصله البعد عن القصد ومجاوزة الحد، ومنه قول الشاعر:

بأية حال حكموا فيك فاشتطوا وما ذاك إلا حيث يممك الوخط
«وإنا ظننا أن لن نقول الإنس والجنّ على الله كذباً»
 أي: إنا حسبنا أن الإنس والجنّ كانوا لا يكذبون على الله بأن له شريكاً وصاحبة وولداً، فلذلك صغقناهم في ذلك حتى سمعنا القرآن، فعلمنا بطلان قولهم، وبطلان ما كنا نظنه بهم من الصدق، وانتصاب كذباً على أنه مصدر مؤكد ليقول: لأن الكذب نوع من القول، أو صفة لمصدر محذوف أي: قولاً كذباً. وقرأ يعقوب، والجحدري، وابن أبي إسحاق (أن لن تقول) من التقول، فيكون على هذه القراءة كذباً مفعول به **«وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ»** قال الحسن، وابن زيد، وغيرهما: كان العرب إذا نزل الرجل بواوٍ قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه، فبييت في جواره حتى يصبح، فنزلت هذه الآية. قال مقاتل: كان أول من تعوذ بالجنّ قوم من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عانوا بالله وتركهم **«فزانوهم رهقاً»** أي: زاد رجال الجنّ من تعوذ بهم من رجال الإنس رهقاً، أي: سفهاً وطغياناً، أو تكبراً وعتوّاً، أو زاد المستعيزون من رجال الإنس من استعانوا بهم من رجال الجنّ رهقاً؛ لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون: سدا الجنّ والإنس. وبالأول قال مجاهد، وقتادة، والثالثي قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد. والرهق في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم، ورجل رهق: إذا كان كذلك، ومنه قوله: **«ترهقهم نلة»** [يونس: 27] أي: تغشاهم، ومنه قول الأعشى:

لا شيء ينفعني من لون رؤيتها هل يشتفي عاشق مالم يصب رهقا
 يعني: إثمياً. وقيل: الرهق: الخوف أي: أن الجنّ زالت الإنس بهذا التعوذ بهم خوفاً منهم، وقيل: كان الرجل من الإنس يقول: أعوذ بفلان من سادات العرب من جنّ هذا الوادي، ويؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا يطلق على الجنّ، فيكون قوله: **«برجال»** وصفاً لمن يستعيزون به من رجال الإنس أي: يعونون بهم من شرّ الجن، وهذا فيه بعد، وإطلاق لفظ رجال على الجنّ على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاكلة **«وإنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً»** هذا من قول الجنّ للإنس أي: وإن الجنّ ظنوا كما ظننتم أيها الإنس أنه لا بعث. وقيل المعنى: وإن الإنس ظنوا، كما ظننتم أيها الجنّ،

مصرع، وقتلهم أقيب مقتل، ولعذاب الآخرة أشدّ لو كانوا يعلمون **«وإنه تعالى جدّ ربنا»** قراءة حمزة، والكسائي، وابن عامر، وحفص، وعلقمة، ويحيى بن وثاب، والأعمش، وخلف، والسلمي (وإنه تعالى) بفتح أن، وكذا قرءوا فيما بعدها مما هو معطوف عليها، وذلك أحد عشر موضعاً إلى قوله: **«وإنه لما قام عبد الله»** [الجن: 19] وقرأ الباقون بالكسر في هذه المواضع كلها إلا في قوله: **«وإن المساجد لله»** [الجن: 18] فإنهم اتفقوا على الفتح، أما من قرأ بالفتح في هذه المواضع، فعلى العطف على محل الجار، والمجرور في **«فأمّا به»** كأنه قيل: فصنّفناه، وصنّفنا أنه تعالى جدّ ربنا إلخ، وأما من قرأ بالكسر في هذه المواضع، فعلى العطف على إنا سمعنا أي: فقالوا: إنا سمعنا قرآنك، وقالوا: إنه تعالى جدّ ربنا إلى آخره. واختار أبو حاتم، وأبو عبيد قراءة الكسر؛ لأنه كله من كلام الجنّ ومما هو محكي عنهم بقوله: فقالوا: إنا سمعنا. وقرأ أبو جعفر، وشعبة بالفتح في ثلاثة مواضع، وهي: **«وإنه تعالى جدّ ربنا»** **«وإنه كان يقول سفيهاً»** **«وإنه كان رجال من الإنس»** قال: لأنه من الوحي، وكسراً ما بقي لأنه من كلام الجنّ. وقرأ الجمهور (وإنه لما قام عبد الله) بالفتح؛ لأنه معطوف على قوله: **«إنه استمع»**. وقرأ نافع، وابن عامر، وشيبة، وزرّ بن حبّيش، وأبو بكر، والمفضل عن عاصم بالكسر في هذا الموضع عطفاً على فأمّا به بذلك التقدير السابق، واتفقوا على الفتح في **«إنه استمع»**، كما اتفقوا على الفتح في **«أن المساجد»** وفي **«وإن لو استقاموا»** واتفقوا على الكسر في **«فقالوا إنا سمعنا»** و**«قل إنما ادعوا ربّي»** و**«قل إن أدري»** و**«قل إنني لا أملك لكم»**. والجدّ عند أهل اللغة العظمة والجلال، يقال: جدّ في عيني أي: عظم، فالمعنى: ارتفع عظمة ربنا وجلاله، وبه قال عكرمة، ومجاهد، وقال الحسن: المراد تعالى غناه، ومنه قيل للحظ، جدّ: ورجل مجبوء، أي: محظوظ، وفي الحديث: ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ قال أبو عبيد، والخليل، أي: لا ينفع ذا الغنى منك الغنى أي: إنما تنفعه الطاعة، وقال القرطبي، والضحاك: جدّه آلاؤه، ونعمه على خلقه. وقال أبو عبيدة، والأخفش: ملكه وسلطانه. وقال السديّ: أمره. وقال سعيد بن جبّير **«وإنه تعالى جدّ ربنا»** أي: تعالى ربنا، وقيل: جدّه قدرته. وقال محمد بن عليّ بن الحسين، وابنه جعفر الصانق، والربيع بن أنس: ليس ش جدّ، وإنما قالته الجنّ للجهالة. قرأ الجمهور (جدّ) بفتح الجيم، وقرأ عكرمة، وأبو حيوة، ومحمد بن السميع بكسر الجيم، وهو ضدّ الهزل، وقرأ أبو الأشهب (جدي ربنا) أي: جدواه ومنفعته. وروي عن عكرمة أيضاً أنه قرأ بتنوين (جدّ) ورفع (ربنا) على أنه بدل من جدّ **«فما اتخذ صاحبة ولا ولداً»** هذا بيان لتعالى جدّه سبحانه. قال الزجاج: تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً، وكان الجنّ نبهوا بهذا على خطأ الكفار الذين ينسبون إلى الله الصاحبة والولد، ونزهوا الله سبحانه عنهما **«وإنه كان يقول سفيهاً»**

والأولى أن هذا من قول الجن فيما بينهم، وليس من قول إيليس كما قال ابن زيد **﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** أي: قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ: وأنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح **﴿وَمِنَّا نُونُ تِلْكَ﴾** أي: قوم نون تلك أي: نون الموصوفين بالصلاح، وقيل: أراد بال صالحين المؤمنين، وبمن هم نون تلك الكافرين، والأول أولى، ومعنى **﴿كُنَّا طَرَائِقُ قَدَدًا﴾** أي: جماعات متفرقة وإصنافاً مختلفة، والقدّة: القطعة من الشيء، وصار القوم قدداً: إذا تفرقت أحوالهم، ومنه قول الشاعر:

القباض الباسط الهادي لطاعته في فتنة الناس إذا هوأولهم قدد
والمعنى: كنا نوي طرائق قدداً، أو كانت طرائقنا طرائق قدداً، أو كنا مثل طرائق قدداً ومن هذا قول لبيد:

لم تبلغ العين كل نهبتها يوم تمشي الجياد بالقدد
وقوله أيضاً:

ولقد قلت وزيد حاسر يوم ولت خيل عمرو قدداً
قال السدي، والضحاك: أدبناً مختلفة، وقال قتادة: أهواء متباينة. وقال سعيد بن المسيب: كانوا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس وكذا قال مجاهد. قال الحسن: الجن أمثالكم قذرية، ومرجئة، ورافضة، وشيعية، وكذا قال السدي: **﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَعْجَزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ﴾** الظن هنا بمعنى العلم واليقين أي: ولنا علمنا أن الشان لن نعجز الله في الأرض أينما كنا فيها، ولن نفوته إن أراد بنا أمراً **﴿وَلَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا﴾** أي: هاربين منها، فهو مصدر في موضع الحال **﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدْيَ﴾** يعنون القرآن **﴿وَأَمَّا بِهِ﴾** وصقلنا أنه من عبد الله ولم نكذب به، كما كذبت به كفرة الإنس **﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾** أي: لا يخاف نقصاً في عمله وثوابه، ولا ظملاً ومكروهاً يغشاه، والبخس النقصان، والرهق العدوان والطغيان، والمعنى: لا يخاف أن ينقص من حسناته، ولا أن يزداد في سيئاته، وقد تقدّم تحقيق الرهق قريباً. قرأ الجمهور (بخساً) بسكون الخاء. وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش (فلا يخف) جزماً على جواب الشرط، ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء، والتقدير: فهو لا يخاف، والأمر ظاهر.

وقد أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وغيرهم عن ابن عباس قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها؛ لتعرفوا ما هذا الأمر الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ، وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، استمعوا له قالوا: هذا والله الذي حال

والمعنى: أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون **﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾** هذا من قول الجن أيضاً، أي: طلبنا خبرها، كما به جرت عابتنا **﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَ حُرْسًا﴾** من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع، والحرس جمع حارس، و**﴿شَدِيدًا﴾** صفة لحرساً أي: قوياً **﴿وَشَهَابًا﴾** جمع شهاب، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب، كما تقدّم بيانه في تفسير قوله: **﴿وَجَعَلْنَاهَا رِجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾** [الملك: 5] ومحل قوله: **﴿مُلْتَأَ حُرْسًا شَدِيدًا﴾** النصب على أنه ثاني مفعولي وجدنا؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، ويجوز أن يكون متعدياً إلى مفعول واحد، فيكون محل الجملة النصب على الحال بتقدير قد، وحرساً منصوب على التمييز، ووصفه بالمفرد اعتباراً باللفظ، كما يقال: السلف الصالح أي: الصالحين **﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾** أي: وأنا كنا معشر الجن قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع، أي: مواضع نقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء، وللسمع متعلق بنقعد أي: لأجل السمع، أو بمضمهر هو صفة لمقاعد أي: مقاعد كائنة للسمع، والمقاعد جمع مقعد اسم مكان، وذلك أن مردة الجن كانوا يفعلون ذلك؛ ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء؛ فيلقونها إلى الكهنة، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله ﷺ بالشهب المحرقة، وهو معنى قوله: **﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا﴾** أي: أرصد له ليرمي به، أو لأجله لمنعه من السماع، وقوله: **﴿الْآنَ﴾** هو ظرف للحال، واستعير للاستقبال، وانتصاب رصداً على أنه صفة لشهاباً، أو مفعول له، وهو مفرد ويجوز أن يكون اسم جمع كالحرص.

وقد اختلفوا هل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا؟ فقال قوم: لم يكن ذلك. وحكى الواحدي عن معمر قال: قلت للزهري: إكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله: **﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾** الآية، قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ. قال ابن قتيبة: إن الرجم قد كان قبل مبعثه، ولكنه لم يكن مثله في شدة الحراسة بعد مبعثه، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال، فلما بعث منعوا من ذلك أصلاً. وقال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد، فلما بعث محمد ﷺ حرس السماء ورميت الشياطين بالشهب، ومنعت من الدنو إلى السماء. وقال نافع بن جبير: كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا ترمى، فلما بعث رسول الله ﷺ رميت بالشهب، وقد تقدّم البحث عن هذا **﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾** أي: لا ندري أشراً أريد بأهل الأرض بسبب هذه الحراسة للسماء، أم أراد بهم ربهم رشداً أي: خيراً. قال ابن زيد: قال إيليس: لا ندري أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذاباً، أو يرسل إليهم رسولا، وارتفاع **﴿أَشَرُّ﴾** على الاشتغال، أو على الابتداء، وخبره ما بعده، والأول أولى، والجملة ساذة مسددة مفعولي ندري،

أَلَمْ يَدْعُوْهُ كَادُوْا يَكُوْنُوْنَ عَلَيْهِ يَدَا ۝ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَا أَنَالِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ۝ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُوْنَ فَسِعِلُوْنَ مِمَّنْ أَعْصَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ۝ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُوْنَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّيْ أَمَدًا ۝ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْهَىٰ عَنِ غَيْبِهِ ۝ يَمْلِكُ أَنْ يَنْزِلَ بِأَنفُسِهِمْ رُسُلَاتٍ رَّبِّهِمْ وَأَلْهَمَ إِيَّاهُمْ لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّ كُلَّ فَرْقٍ عَدَدًا ۝

قوله: ﴿وَوَلَّانَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هم الذين آمنوا بالنبى ﷺ ﴿وَوَلَّانَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق ومالوا إلى طريق الباطل، يقال: قسط إذا جار، واقتسط: إذا عدل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَاوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: قصصوا طريق الحق. قال الفراء: أموا الهدى ﴿وَوَلَّانَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَانُوا لِحَبْلِهِمْ حَطْبًا﴾ أي: وقوداً للنار توقد بهم، كما توقد بكفرة الإنسان ﴿وَالْوَلَّانَا لِقِسْمِهِمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ هذا ليس من قول الجن بل هو معطوف على ﴿إِنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجَنِّ﴾ [الجن: 1] والمعنى: وأوحى إلي أن الشأن لو استقام الجن أو الإنسان، أو كلاهما على الطريقة، وهي طريقة الإسلام، وقد قَدَّمْنَا أن القراء اتفقوا على فتح أن ههنا. قال ابن الأنباري: والفتح هنا على إضمار يمين تأويلها، والله أن لو استقاموا على الطريقة كما فعل، يقال في الكلام: والله لو قمت لقمته، كما في قول الشاعر:

أما والله أن لو كنت حراً ولا بالحرزات ولا العتيق
قال: أو عليّ أوحى إلي أنه استمع، وأن لو استقاموا، أو على أمانة به أي: أمانة به، وبأن لو استقاموا. قرأ الجمهور بكسر الواو من (لو) لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن وثاب، والأعمش بضمها ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً واسعاً. قال مقاتل: ماء كثيراً من السماء، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين. وقال ابن قتيبة: المعنى لو آمنوا جميعاً لو سعنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق مثلاً؛ لأن الخير كله والرزق بالمطر، وهذا كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [المائدة: 65] الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴿[الطلاق: 2، 3] وقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمدكم بأموال وبنين﴾ [نوح: 10 - 12] الآية. وقيل المعنى: وأن لو استقام أبوه على عيابه، وسجد لآدم ولم يكفر، وتبعه ولده على الإسلام لانعمنا عليهم، واختار هذا الزجاج. والماء الغدق: هو الكثير في لغة العرب ﴿لِنُفَقَّتْهُمُ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم، فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم. وقال الكلبي: المعنى: وأن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر، فكانوا كلهم كفاراً، لأوسعنا أرزاقهم مكرماً بهم واستدراجاً حتى يفتنوا

بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوا﴾ يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ * يهدي إلى الرشد فأمننا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجَنِّ﴾ وإنا أوحى إليه قول الجن. وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجَنِّ﴾ قال: كانوا من جن نصيبين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَلَّانَا تَعَالَىٰ جَدَّ رَبِنَا﴾ قال: آؤه وعظمته. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: أمره وقدرته. وأخرج ابن مريويه، والديلمي، قال السيوطي بسند واه عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً في قوله: ﴿وَوَلَّانَا كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ قال: إبليس. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي في الضعفاء، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه، وابن عساکر عن عكرمة بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فأولنا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء نذير، فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي أنا جارك، فنادى منادياً يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشد حتى نخل في الغنم وأنزل الله على رسوله بمكة ﴿وَوَلَّانَا كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوْنَ بَرِجَالٍ مِنَ الْجَنِّ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَزَالَهُمْ هَاقًا﴾ قال: إثمًا. وأخرج ابن مريويه عنه قال: كان القوم في الجاهلية إذا نزلوا بلوادي قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه، فلا يكون بشيء أشدّ ولعاً منهم بهم، فذلك قوله: ﴿فَزَالَهُمْ هَاقًا﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، والطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: كانت الشياطين لهم مقاعد في السماء يسمعون فيها الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زالوا فيها تسعاً، فاما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زالوا فيكون باطلاً، فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم، فنكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك. فقال لهم: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض، فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين بمكة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَوَلَّانَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَنَا بُونُ ذَلِكَ﴾ يقول: منا المسلم ومنا المشرك، و﴿عَنَّا طَرَائِقُ قَدَدًا﴾ أمراء شتى. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال: لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيئاته.

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝ وَالْوَلَّانَا لِقِسْمِهِمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ ۝ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝ لَنُفَقَّتْهُمُ فِيهِ وَمَنْ يُرِصْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّيٰ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ

بها، فنعينهم في الدنيا والآخرة. وبه قال الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، والثمالى، ويمان بن زيان، وابن كيسان، وأبو مجلز، واستدلوا بقوله: ﴿فلما نسوا ما نكروا به فتحتنا عليهم أبواب كل شيء﴾ [الأنعام: 44] وقوله: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة﴾ [الزخرف: 33] الآية، والأول أولى **﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً﴾** أي: ومن يعرض عن القرآن، أو عن العبادة، أو عن الموعظة، أو عن جميع ذلك يسلكه أي: يدخله عذاباً صعباً، أي: شاقاً صعباً. قرأ الجمهور (نسلكه) بالنون مفتوحة. وقرأ الكوفيون، وأبو عمرو في رواية عنه بالياء التحتية، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله: **﴿عن ذكر ربه﴾** ولم يقل عن ذكرنا. وقرأ مسلم بن جنب، وطلحة بن مصرف، والأعرج بضم النون وكسر اللام من أسلكه، وقراءة الجمهور من سلكه. والصعد في اللغة المشقة، تقول تصعد بي الأمر: إذا شق عليك، وهو مصدر صعد، يقال: صعد صعداً وصعوداً، فوصف به العذاب مبالغة؛ لأنه يتصعد المعذب، أي: يعلوه ويغلبه فلا يطيقه. قال أبو عبيد: الصعد مصدر أي: عذاباً ذا صعد. وقال عكرمة: الصعد هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حذر إلى جهنم، كما في قوله: **﴿سأرققه صعوداً﴾** [المدثر: 17] والصعود: العقبة الكثور **﴿وإن للمساجد لله﴾** قد قدمنا اتفاق القراء هنا على الفتح، فهو معطوف على أنه استمع، أي: وأوحى إلي أن المساجد مختصة بالله. وقال الخليل: التقدير: ولأن المساجد والمساجد: المواضع التي بنيت للصلاة فيها. قال سعيد بن جببر: قالت الجن: كيف لنا أن نأتي المساجد، ونشهد معك الصلاة، ونحن نأوون عنك؟ فنزلت. وقال الحسن: أراد بها كل البقاع؛ لأن الأرض كلها مسجد. وقال سعيد بن المسيب، وطلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدان والجبهة، يقول: هذه أعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله، وكذا قال عطاء. وقيل: المساجد هي الصلاة؛ لأن السجود من جملة أركانها، قاله الحسن: **﴿فلا تدعوا مع الله أحداً﴾** من خلقه كائناتاً ما كان **﴿ولأنه لما قام عبد الله﴾** قد قدمنا أن الجمهور قرؤوا هنا بفتح «أن»، عطفاً على أنه استمع أي: وأوحى إلي أن الشأن لما قام عبد الله، وهو النبي ﷺ **﴿يدعوه﴾** أي: يدعو الله ويعبده، وذلك ببطن نخلة، كما تقدم حين قام رسول الله ﷺ يصلي ويتلو القرآن، وقد قدمنا أيضاً قراءة من قرأ بكسر «إن» هنا، وفيها غموض وبعد عن المعنى المراد **﴿كانوا يكونون عليه لبيداً﴾** أي: كاد الجن يكونون على رسول الله لبيداً، أي: متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه. قال الزجاج: ومعنى **﴿لبيداً﴾** يركب بعضهم بعضاً، ومن هذا اشتقاق هذه اللبود التي تفرش. قرأ الجمهور (لبيداً) بكسر اللام وفتح الباء. وقرأ مجاهد، وابن محيصن، وهشام بضم اللام وفتح الباء، وقرأ

أبو حيوة، ومحمد بن السميع، والعقيلي، والجحدري بضم الباء واللام. وقرأ الحسن، وأبو العالية، والأعرج بضم اللام وتشديد الباء مفتوحة. فعلى القراءة الأولى المعنى ما نكرونا، وعلى قراءة ضم اللام يكون المعنى كثيراً، كما في قوله: **﴿أهلك ما لا لبداً﴾** [البلد: 6] وقيل المعنى: كاد المشركون يركب بعضهم بعضاً حرداً على النبي ﷺ. وقال الحسن، وقتادة، وابن زيد: لما قام عبد الله محمد بالدعوة، تلبت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفثوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره. واختار هذا ابن جرير. قال مجاهد **﴿لبيداً﴾** أي: جماعات، وهو من تلبد الشيء على الشيء أي: اجتمع، ومنه اللبد الذي يفرش لتراكم صوفه، وكل شيء الصقته إلصاقاً شديداً، فقد لبدته، ويقال للشعر الذي على ظهر الأسد: لبدة، وجمعها لبد، ويقال للجراد الكثير: لبد؛ ويطلق اللبد بضم اللام وفتح الباء على الشيء الدائم، ومنه قيل لنسر لقمان: لبد لطول بقائه، وهو المقصود بقول النابغة:

أخنى عليها الذي أخنى على لبد

﴿قال إنما ادعوا ربى﴾ أي: قال عبد الله إنما ادعوا ربى وأعبده **﴿ولا تشرك به أحداً﴾** من خلقه. قرأ الجمهور (قال) وقرأ عاصم، وحمة (قل) على الأمر. وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عادت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجبرك **﴿قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً﴾** أي: لا أقدر أن أدفع عنك ضرراً ولا أسوق إليكم خيراً، وقيل: الضر الكفر، والرشد الهدى، والأول أولى لوقوع النكرتين في سياق النفي، فهما يعمان كل ضرر وكل رشد في الدنيا والدين **﴿قل إني لن يجيرني من الله أحد﴾** أي: لا يدفع عني أحد عذابه إن أنزله بي **﴿ولن لجد من بونه ملتحداً﴾** أي: ملجأ ومعدلاً وحرزاً، والملتحد معناه في اللغة الممال، أي: موضعاً أميل إليه. قال قتادة: مولى. وقال السدي: حرزاً، وقال الكلبي: منخلاً في الأرض مثل السرب، وقيل: مذهباً ومسلكاً، والمعنى متقارب، ومنه قول الشاعر:

يالهف نفسي ولهفاً غير مجنية عني وما من قضاء الله ملتحد والاستثناء في قوله: **﴿إلا بلاغاً من الله﴾** هو من قوله لا أملك أي: لا أملك ضرراً ولا رشداً إلا التبليغ من الله، فإن فيه أعظم الرشد، أو من ملتحداً أي: لن أجد من بونه ملجأ إلا التبليغ. قال مقاتل: ذلك الذي يجيرني من عذابه. وقال قتادة: إلا بلاغاً من الله، فذلك الذي أملكه بتوفيق الله، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما. قال الفراء: لكن أبلغكم ما أرسلت به، فهو على هذا منقطع. وقال الزجاج: هو منصوب على اللبد من قوله: **﴿ملتحداً﴾** أي: ولن أجد من بونه ملتحداً إلا أن أبلغ ما يأتي من الله، وقوله: **﴿ورسالاته﴾** معطوف على بلاغاً أي: إلا بلاغاً من الله، وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم، أو إلا أن أبلغ عن الله، وأعمل برسالاته، فأخذ نفسي بما أمر به غيري: وقيل: الرسالات معطوفة على الاسم

من رسول ﴿ فإنه يطلعه على بعض غيبه، وهو ما يتعلق برسالاته كالمعجزة، وأحكام التكليف، وجزاء الأعمال، وما يبينه من أحوال الآخرة، لا ما لا يتعلق برسالاته من الغيوب، كوقت قيام الساعة ونحوه. قال الواحدي: وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تنله على ما يكون من حادث فقد كفر بما في القرآن. قال في الكشف: وفي هذا إبطال للكرامات، لأن الذين تضاف إليهم، وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل، وقد خصَّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب، وإبطال للمكهنات والتنجيم؛ لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء، وأدخله في السخط. قال الرازي: وعندي لا دلالة في الآية على شيء مما قالوه إذ لا صيغة عموم في غيبه، فتحمل على غيب واحد، وهو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله: ﴿أقريب ما توعدون﴾ الآية. فإن قيل: فما معنى الاستثناء حينئذٍ قلنا: لعله إذا قربت القيامة يظهره، وكيف لا؟ وقد قال: ﴿يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ [الفرقان: 25] فتعلم الملائكة حينئذٍ قيام القيامة، أو هو استثناء منقطع، أي: من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شرّ مردة الجنّ والإنس. ويدلّ على أنه ليس المراد به لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات أنه ثبت، كما يقارب التواتر أن شقاً وسطيحاً كانا كاهنين وقد عرّقا بحديث النبي ﷺ قبل ظهوره، وكانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع إليهما كسرى. فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من المغيبات، وأيضاً أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلية، ويكون صادقاً فيها، وأيضاً قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد إلى خراسان، وسألها عن أمور مستقبلية، فآخبرته بها، فوَقعت على وفق كلامها. قال: وأخبرني ناس محققون في علم الكلام والحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل، فكانت على وفق خبرها. وبالحق أبو البركات في كتاب التعبير في شرح حالها، وقال: فحصت عن حالها ثلاثين سنة، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً. وأيضاً فإننا نشاهد ذلك في أصحاب الإلهامات الصادقة، وقد يوجد ذلك في السحرة أيضاً، وقد نرى الأحكام النجومية مطابقة، وإن كانت قد تتخلف، ولو قلنا إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن، فيكون التأويل ما نكرناه، انتهى كلامه.

قلت: أما قوله إن لا صيغة عموم في غيبه، فباطل، فإن إضافة المصدر واسم الجنس من صيغ العموم، كما صرح به أئمة الأصول وغيرهم. وأما قوله: أو هو استثناء منقطع، فمجرد دعوى ياباه النظم القرآني. وأما قوله: إن شقاً وسطيحاً إلخ، فقد كانا في زمن تسترق فيه الشياطين السمع، ويلقون ما يسمعون إلى الكهان، فيخلطون الصدق بالكذب، كما ثبت في الحديث الصحيح. وفي قوله: ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ [الصافات: 10] ونحوها من الآيات، فباب

الشريف، أي: إلا بلاغاً عن الله وعن رسالاته، كذا قال أبو حيان ورجحه ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ في الأمر بالتوحيد لأن السياق فيه ﴿فإن له نار جهنم﴾ قرأ الجمهور بكسر (إن) على أنها جملة مستأنفة. وقرأ بفتح الهمزة: لأن ما بعد فاء الجزء موضع ابتداء، والتقدير: فجزاؤه أن له نار جهنم، أو فحكمه أن له نار جهنم، وانتصاب ﴿خالدين فيها﴾ على الحال أي: في النار، أو في جهنم، والجمع باعتبار معنى من كما أن التوحيد في قوله: ﴿فإن له﴾ باعتبار لفظها، وقوله: ﴿إبداء﴾ تأكيد لمعنى الخلود، أي: خالدين فيها بلا نهاية ﴿حتى إذا راوا ما يوعدون﴾ يعني: من العذاب في الدنيا أو في الآخرة. والمعنى لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبي ﷺ والمؤمنين حتى إذا راوا الذي يوعنون به ﴿فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً﴾ أي: من هو أضعف جنداً ينتصر به، وأقلّ عدداً أهم أم المؤمنون؟ ﴿قل إن أدري أقريب ما توعدون﴾ أي: ما أدري أقريب حصول ما توعنون من العذاب ﴿إم يجعل له ربي أمداً﴾ أي: غاية ومدة، أمره الله سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له: متى يكون هذا الذي توعننا به؟ قال عطاء: يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلا الله وحده، والمعنى أن علم وقت العذاب علم غيب لا يعلمه إلا الله. قرأ الجمهور (ربي) بإسكان الياء. وقرأ الحرميان، وأبو عمرو بفتحها، ﴿ومن﴾ في ﴿من أضعف﴾ موصولة، وأضعف خبر مبتدأ محذوف، أي: هو أضعف، والجملة صلة الموصول، ويجوز أن تكون استفهامية مرتفعة على الابتداء، وأضعف خبرها، والجملة في محل نصب سادة مسدّ مفعولي أدري، وقوله: ﴿أقريب﴾ خبر مقدّم، ﴿وما توعدون﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿علم الغيب﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من ربي، أو بيان له، أو خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من عدم الدراية. وقرأ بالنصب على المدح. وقرأ السريّ (علم الغيب) بصيغة الفعل ونصب الغيب، والفاء في ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ لترتيب عدم الإظهار على تفرّده بعلم الغيب أي: لا يطلع على الغيب الذي يعلمه، وهو ما غاب عن العباد أحداً منهم، ثم استثنى فقال: ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ أي: إلا من اصطفاه من الرسل، أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه؛ ليكون ذلك دالاً على نبوته. قال القرطبي: قال العلماء: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب، واستأثر به بون خلقه كان فيه دليل أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضى من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى، وينظر في الكف، ويزجر بالطين ممن ارتضاه من رسول، فيطلعه على ما يشاء من غيبه، فهو كافر بالله مفتر عليه بحسنه وتخمينه وكذبه. وقال سعيد بن جبير: ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ هو جبريل، وفيه بعد. وقيل: المراد بقوله: ﴿إلا من ارتضى

القبيل، والكل من الفيض الرباني بواسطة الجناب النبوي. ثم نكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذي يطالع عليه الرسول فقال: ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ والجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء، والمعنى: أنه يجعل سبحانه بين يدي الرسول ومن خلفه حرساً من الملائكة يحرسونه من تعرّض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب، أو يجعل بين يدي الوحي وخلفه حرساً من الملائكة يحوطونه من أن تسترقه الشياطين، فنقله إلى الكهنة والمراد من جميع الجوانب. قال الضحاك: ما بعث الله نبياً إلاّ ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك، فإذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا: هذا شيطان فاحذره، وإن جاءه الملك قالوا: هذا رسول ربك. قال ابن زيد: ﴿ورصداً﴾ أي: حفظة يحفظون النبي ﷺ من أمامه وورائه من الجنّ والشياطين. قال قتادة، وسعيد بن المسيب: هم أربعة من الملائكة حفظة. وقال الفراء: المراد جبريل. قال في الصحاح: الرصد القوم يرصدون كالحرس يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث، والرصد للشيء الرقيب له، يقال: رصده يرصده رصداً ورصداً، والترصد الترقب، والمرصد موضع الرصد ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ اللام متعلق ببسلك، والمراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل، وأن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والخبر الجملة، والرسالات عبارة عن الغيب الذي أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول، وضمير أبلغوا يعود إلى الرصد. وقال قتادة، ومقاتل: ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة، وفيه حذف تتعلق به اللام، أي: أخبرنا بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ. وقيل: ليعلم محمد أن جبريل ومن معه قد أبلغوا إليه رسالات ربه، قاله سعيد بن جبيل. وقيل: ليعلم الرسل أن الملائكة قد أبلغوا رسالات ربهم. وقيل: ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط. وقال ابن قتيبة أي: ليعلم الجنّ أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم، ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم. وقال مجاهد: ليعلم من كتب الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم. قرأ الجمهور (ليعلم) يفتح التحتية على البناء للفاعل. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד، ويعقوب، وزيد بن علي بضمها على البناء للمفعول أي: ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا. وقال الزجاج: ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته، أي: ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيباً. وقرأ ابن أبي عبيدة، والزهري بضم الياء وكسر اللام ﴿ولاحظ بما لديهم﴾ أي: بما عنده الرصد من الملائكة، أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يسلك بإضمار قد، أي: والحال أنه تعالى قد لاحظ بما لديهم من الأحوال. قال سعيد بن جبيل: ليعلم أن ربهم قد أحاط بما لديهم قبلهم رسالاته ﴿ولاحصى كل شيء عدداً﴾ من جميع الأشياء التي كانت والتي ستكون،

الكهانة قد ورد بيانه في هذه الشريعة، وأنه كان طريقاً لبعض الغيب بواسطة استراق الشياطين حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية. وقالوا: ﴿إنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ [الجن: 8 - 9] فباب الكهانة في الوقت الذي كانت فيه مخصوص بالثقة، فهو من جملة ما يخص به هذا العموم، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانة على هذه الآية. وأما حديث المرأة الذي أورده فحديث خرافة، ولو سلم وقوع شيء مما حكاه عنها من الأخبار لكان من باب ما ورد في الحديث «إن في هذه الأمة محدثين، وإن منهم عمر» فيكون كالتخصيص لعموم هذه الآية لا اقتضاء لها، وأما ما اجترأ به على الله وعلى كتابه من قوله في آخر كلامه. فلو قلنا: إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن، فيقال له: ما هذه بأول زلة من زلاتك، وسقطة من سقطاتك، وكم لها لديك من أشباه ونظائر نبض بها عرق فلسفتك، وركض بها الشيطان الذي صار يتخبطك في مباحث تفسيرك، يا عجيباً لك أيكون ما بلغك من خبر هذه المرأة ونحوه موجباً لتطرق الطعن إلى القرآن، وما أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا:

وإذا رامت الذنابة للشمر
س غطاء مئت عليها جناحها
وقلت من أبيات:

مهب رياح سدّه بجناح وقابل بالمصباح ضوء صباح
فإن قلت: إن قد تقرّر بهذا الدليل القرآني أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه، فهل للرسول الذي أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته؟ قلت: نعم، ولا مانع من ذلك. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة، فمن ذلك ما صحّ أنه قام مقاماً أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة، وما ترك شيئاً مما يتعلق بالفتن ونحوها، حفظ ذلك من حفظه ونسبه من نسبه، وكذلك ما ثبت من أن حنيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول الله ﷺ بما يحدث من الفتنة بعده، حتى سأل عن ذلك أكابر الصحابة ورجعوا إليه. وثبت في الصحيح وغيره «أن عمر بن الخطاب سأل عن الفتنة التي تموج كموج البحر، فقال: إن بينك وبينها باباً، فقال عمر: هل يفتح أو يكسر؟ فقال: بل يكسر، فعلم عمر أنه الباب، وأن كسره قتله»، كما في الحديث الصحيح المعروف أنه قيل لحذيفة: هل كان عمر يعلم ذلك؟ فقال: نعم كان يعلم أن نون غد الليلة. وكذلك ما ثبت من إخباره لأبي نرّ بما يحدث له، وإخباره لعلي بن أبي طالب بخبر ذي النُدبة، ونحو هذا مما يكثر تعدده، ولو جمع لجاء منه مصنف مستقل. وإذا تقرّر هذا فلا مانع من أن يختص بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التي أظهرها الله لرسوله، وأظهرها رسوله لبعض أمته، وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم، فتكون كرامات الصالحين من هذا

أيضاً ﴿رصداء﴾ قال: هي معقبات من الملائكة يحفظون رسول الله من الشياطين حتى تبين الذي أرسل إليهم به، وذلك حتى يقول أهل الشرك: قد أبلغوا رسالات ربهم. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: ما أنزل الله على نبيه آية من القرآن إلا ومعها أربعة من الملائكة يحفظونها، حتى يؤتوها إلى رسول الله ﷺ، ثم قرأ ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ يعني: الملائكة الأربعة ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ اهـ.

تفسير سورة المزمل

وهي مكية. قال الماوردي: كلها في قول الحسن، وعكرمة، وجابر، قال: وقال ابن عباس، وقتادة: إلا آيتين منها ﴿وإصبر على ما يقولون﴾ [المزمل: 10 - 11] والتي تليها. وقال الثعلبي: إلا قوله: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم﴾ [المزمل: 20] إلى آخر السورة، فإنه نزل بالمدينة. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿يا أيها المزمل﴾ [أي: سورة المزمل] بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة المزمل بمكة إلا آيتين ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أنى﴾. وأخرج البزار، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سمو هذا الرجل اسماً تصنون الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن؛ قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون؛ قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ النبي ﷺ، فتمزمل في ثيابه وتشر فيها، فاتاه جبريل، فقال: ﴿يا أيها المزمل﴾ ﴿يا أيها المنذر﴾ [أي: سورة المنذر]. قال البزار بعد إخراجها من طريق معلى بن عبد الرحمن: إن معلى قد حدث عنه جماعة من أهل العلم، واحتملوا حديثه، لكنه إذا تفرد بالأحاديث لا يتابع عليها. وأخرج أبو داود، والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال: «بتَّ عند خالتي ميمونة، فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر، فحزرت قيامه في كل ركعة بقدر ﴿يا أيها المزمل﴾».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قُمْ أَلَّا يَلَا قِيْلًا ﴿٢﴾ يَصْفَهُ أَوْ انشُ مِنْ قِيْلًا ﴿٣﴾ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ رَدَّيْلَ الْقَرَّانِ رَدَّيْلًا ﴿٤﴾ إِنْ سَأَلِي عَيْلَكَ قَوْلًا قِيْلًا ﴿٥﴾ إِنْ نَاصِيَةِ أَيْلٍ مِنْ أَيْلٍ وَأَقْوَمَ قِيْلًا ﴿٦﴾ إِنْ لَكَ فِي الْفَهْرِ سَبَابًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَادَّكَّرَ اسْمَ رَبِّكَ وَتَنَزَّلَ إِلَيْهِ تَبْيِيكًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْكَشْرِ وَالْقَرْبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَسِرْ عَلَيَّ مَا يَبُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جِيْلًا ﴿١٠﴾ وَدَرِي وَالْكُفَّيْنِ أَوَّلَ النَّعْمَةِ وَتَهَلَّلْ قِيْلًا ﴿١١﴾ إِنْ لَدَيْكَ أُنْكَالًا وَجِيْلًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غَضُوٍّ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ

وهو معطوف على أحاط، وعدداً يجوز أن يكون منتصباً على التمييز محولاً من المفعول به أي: وأحصى عدد كل شيء، كما في قوله: ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ [القم: 12] ويجوز أن يكون منصوباً على المصدرية، أو في موضع الحال: معدوداً، والمعنى: أن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال، بل على وجه التفصيل، أي: أخصى كل فرد من مخلوقاته على حدة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال ﴿القاسطون﴾ العائلون عن الحق. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿ولو استقاموا على الطريقة﴾ قال: أقاموا ما أمروا به ﴿لأسقيناهم ماء غنيقاً﴾ قال: معيناً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن السدي قال: قال عمر: ﴿ولو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غنيقاً * لنفتنهم فيه﴾ قال: حيثما كان الماء كان المال، وحيثما كان المال كانت الفتنة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿لنفتنهم فيه﴾ قال: لنبتليهم به. وفي قوله: ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذيباً صعباً﴾ قال: شقة من العذاب يصعد فيها. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه عنه في قوله: ﴿يسلكه عذيباً صعباً﴾ قال: حبلاً في جهنم. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿عذيباً صعباً﴾ قال: لا راحة فيه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وإن للمسجد لله﴾ قال: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا مسجد الحرام ومسجد إيلياء ببيت المقدس. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود قال: «خرج رسول الله ﷺ قبل الهجرة إلى نواحي مكة، فخط لي خطاً، وقال: «لا تحنن شيئاً حتى أتيتك، ثم قال: لا يهولنك شيئاً تراه»، فتقدم شيئاً؛ ثم جلس، فإذا رجال سود كأنهم رجال الزط، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿كانوا يكونون عليه لبداً﴾. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كانوا يركبونه من الحرص لما سمعوه، وبنوا منه، فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول، فجعل يقرئه ﴿قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن﴾. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في المختارة عنه أيضاً في الآية قال: «لما أتى الجن إلى رسول الله، وهو يصلي بأصحابه يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده، فعبجوا من طواعية أصحابه، فقالوا لقومهم: لما قام عبد الله يدعوه كانوا يكونون عليه لبداً». وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً: ﴿لما قام عبد الله يدعوه﴾ أي: يدعو الله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿كانوا يكونون عليه لبداً﴾ قال: أعواناً. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عنه أيضاً ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول﴾ قال: أعلم الله الرسول من الغيب الوحي، وأظهره عليه مما أوحى إليه من غيبه، وما يحكم الله، فإنه لا يعلم ذلك غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه

للقيام، فكان النبي ﷺ وطائفة معه يقومون على هذه المقادير، وشق ذلك عليهم، فكان الرجل لا يدري كم صلى، أو كم بقي من الليل، فكان يقوم الليل كله حتى خفف الله عنهم، وقيل: الضميران في منه وعليه راجعان للأقل من النصف، كأنه قال: قم أقل من نصفه، أو قم أنقص من ذلك الأقل، أو أزيد منه قليلاً، وهو بعيد جداً، والظاهر أن نصفه بدل من قليلاً، والضميران راجعان إلى النصف المبدل من قليلاً.

واختلف في الناسخ لهذا الأمر، فقيل: هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أُمْنًى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفِهِ وَثُلُثَهُ﴾ [المزمل: 20] إلى آخر السورة، وقيل: هو قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى﴾ وقيل: هو منسوخ بالصلوات الخمس، وبهذا قال مقاتل، والشافعي، وابن كيسان، وقيل: هو قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20] وذهب الحسن، وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو قدر حلب شاة ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أي: اقرأه على مهل مع تدبر. قال الضحاك: اقرأه حرفاً حرفاً. قال الزجاج: هو أن يبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع. وأصل الترتيل التنضيد، والتنسيق، وحسن النظام، وتأكيد الفعل بالمصدر يدل على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم مع استيفاء حركته المعتبرة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: سنوحى إليك القرآن، وهو قول ثقيل. قال قتادة: ثقيل، والله فرائضه وحلوه، قال مجاهد: حلاله وحرامه. قال الحسن: العمل به. قال أبو العالية: ثقيلاً بالوعود والعيد، والحلال والحرام. وقال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين والكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالاتهم، وسبب الإتهام. وقال السدي: ثقيل بمعنى كريم من قولهم فلان ثقيل عليّ أي: يكرم عليّ. قال الفراء: ثقيلاً رزينا ليس بالخفيف السفساف، لأنه كلام ربنا. وقال الحسين بن الفضل: ثقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد، وقيل: وصفه بكونه ثقيلاً حقيقة لما ثبت أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرائنها على الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسري عنه ﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: ساعاته وأوقاته؛ لأنها تنشأ أولاً فأولاً، يقال: نشأ الشيء ينشأ: إذا ابتداء وأقبل شيئاً بعد شيء، فهو ناشئ، وأنشأه الله فنشأ، ومنه نشأت السحاب: إذا بدأت، فنشئة فاعلة من نشأ ينشأ، فهي ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كل ما نشأ منه أي: حدث، فهو ناشئة. قال الواحدي: قال المفسرون: الليل كله ناشئة، والمراد أن ساعات الليل الناشئة، فاكثفت بالوصف عن الاسم الموصوف. وقيل: إن ناشئة الليل هي النفس التي تنشأ من مضجعتها للعبادة أي: تنهض، من نشأ من مكانه: إذا نهض. وقيل: الناشئة بالحبشية قيام الليل، وقيل: إنما يقال لقيام الليل ناشئة: إذا

كَبِهًا مَبِيلًا ﴿١٦﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ رِجْسَةٍ رَسُولًا ﴿١٧﴾ فَصَبَّ رِجْسُهُ أَكْرَمًا مِّنْكَ فَخَذَّكَ أَخَذًا وَيْلًا ﴿١٨﴾ تَكَيْفَ تَتَّقُونَ ﴿١٩﴾ إِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ لِيَوْمَ يَخْمَلُ الْوِلْدَانَ شِيًّا ﴿٢٠﴾ أَلَسَمَهُ مُنْطَرِفًا بِذِهِ كَانَ وَعَدُهُ مَقُولًا ﴿٢١﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ أصله المتزمل، فادغمت التاء في الزاي، والتزمل التلطف في الثوب. قرأ الجمهور (المزمل) بالإدغام. وقرأ أبي (المتزمل) على الأصل. وقرأ عكرمة بتخفيف الزاي، ومثل هذه القراءة قول امرئ القيس:

كان ثبيراً في أفانين وبيله كبير أناس في لحاح مَزْمَل
وهذا الخطاب للنبي ﷺ، وقد اختلف في معناه، فقال جماعة: إنه كان يتزمل ﷺ بثيابه في أول ما جاءه جبريل بالوحي فرقاً منه حتى انس به، وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالنبوة، والملتزم للرسالة. وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ (يا أيها المزمل) بتخفيف الزاي وفتح الميم مشددة اسم مفعول، وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالقرآن. وقال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه، وقيل: بلغه من المشركين سوء قول، فتزمل في ثيابه وتدثر، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ﴾ [أي: سورة المدثر]. وقد ثبت أن النبي ﷺ لما سمع صوت الملك، ونظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله، وقال: «زملوني ثنوني»، وكان خطابه ﷺ بهذا الخطاب في أول نزول الوحي. ثم بعد ذلك خوطب بالنبوة والرسالة ﴿قُم لِّلَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قم للصلاة في الليل. قرأ الجمهور (قم) بكسر الميم لالتقاء الساكنين. وقرأ أبو السماك بضمها اتباعاً لضمة القاف. قال عثمان بن جني: الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين فبأي حركة تحرك فقد وقع الغرض. وانتصاب الليل على الظرفية. وقيل: إن معنى قم صل، عبر به عنه واستعير له. واختلف هل كان هذا القيام الذي أمر به فرضاً عليه أو نفلًا؟ وسياقي إن شاء الله ما روي في ذلك. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من الليل، أي: صل الليل كله إلا يسيراً منه، والقليل من الشيء هو ما دون النصف، وقيل: ما دون السدس، وقيل: ما دون العشر. وقال مقاتل، والكلبي: المراد بالقليل هنا الثلث، وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله ﴿نُصْفَهُ﴾ إلخ، وانتصاب نصفه على أنه بدل من الليل. قال الزجاج: نصفه بدل من الليل، وإلا قليلاً استثناء من النصف، والضمير في منه وعليه عائذ إلى النصف. والمعنى: قم نصف الليل، أو أنقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين، فكانه قال: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن نصفه بدل من قوله قليلاً، فيكون المعنى: قم الليل إلا نصفه، أو أقل من نصفه، أو أكثر من نصفه، قال الأخفش: نصفه أي: أو نصفه، كما يقال: أعطه درهماً درهمين ثلاثة، يريد، درهماً أو درهمين، أو ثلاثة. قال الواحدي: قال المفسرون: أو أنقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد على النصف إلى الثلثين، جعل له سعة في مدة قيامه في الليل، وخيره في هذه الساعات

فراغ للاستدراك. وقرأ يحيى بن يعمر، وأبو وائل، وابن أبي عبلة (سبخاً) بالخاء المعجمة، قيل: ومعنى هذه القراءة: الخفة والسعة والاستراحة. قال الأصمعي: يقال: سبخ الله عنك الحمى أي: خففها، وسبخ الحر فتر وخف، ومنه قول الشاعر:

فسبخ عليك الهم وأعلم بأنه إذا قدر الرحمن شيئاً فكائن
أي: خفف عنك الهم. والتسبيخ من القطن ما ينسج بعد
النفث، ومنه قول الأخطل:

فارسلوهن يذرين التراب كما تنزي سبائخ قطن ندف أوتار
قال ثعلب: السبخ بالخاء المعجمة التردد والاضطراب،
والسبخ السكون. وقال أبو عمرو: السبخ النوم والفراغ
﴿وانكر اسم ربك﴾ أي: ادعه بأسمائه الحسنی، وقيل: اقرأ
باسم ربك في ابتداء صلاتك، وقيل: انكر اسم ربك في وعده
ووعيده لتوفر على طاعته، وتبعد عن معصيته، وقيل المعنى:
دم على نكر ربك ليلاً ونهاراً، واستكثر من ذلك. وقال الكلبي:
المعنى صل لربك ﴿وتبتل إليه تبتلاً﴾ أي: انقطع إليه
انقطاعاً بالاستغفال بعبادته، والتبتل الانقطاع، يقال: تبتلت
الشيء أي: قطعته وميزته من غيره، وصدقة بتلة أي:
منقطعة من مال صاحبها، ويقال للراهب متبتل: لانقطاعه عن
الناس، ومنه قول الشاعر:

تضيء الظلام بالعبادة كأنها منارة ممسى راهب متبتل
وضع تبتلاً مكان تبتلاً لرعاية الفواصل. قال الواحدي:
والتبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله ﴿رب
المشرق والمغرب﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، وابن
عمر بجز (رب) على النعت لربك، أو البذل منه، أو البيان له.
وقرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ، وخبره ﴿لا إله إلا هو﴾
أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو رب المشرق، وقرأ
زيد بن علي بنصبه على المدح. وقرأ الجمهور (المشرق
والمغرب) مفربين، وقرأ ابن مسعود، وابن عباس (المشرق
والمغرب) على الجمع، وقد قَدِّمْنَا تفسير المشرق والمغرب،
والمشرقيين والمغربيين، والمشارق والمغارب ﴿فاتخذهم
وكيلاً﴾ أي: إذا عرفت أنه المختص بالربوبية، فاتخذهم وكيلاً
أي: قائماً بأمورك، وعوّل عليه في جميعها، وقيل: كفيلاً بما
وعك من الجزاء والنصر ﴿واوصير على ما يقولون﴾ من
الاذى والسب والاستهزاء، ولا تجزع من ذلك ﴿واهرهم
هجرًا جميلاً﴾ أي: لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافاتهم،
وقيل: الهجر الجميل الذي لا جزع فيه، وهذا كان قبل الأمر
بالمقاتلة ﴿وورثني والمكثبين﴾ أي: دغني وإياهم، ولا تهتم
بهم فإنني أكفيك أمرهم وانتقم لك منهم. قيل: نزلت في
المطعمين يوم بدر، وهم عشرة وقد تقدم ذكرهم. وقال
يحيى بن سلام: هم بنو المغيرة. وقال سعيد بن جبير:
أخبرت أنهم اثنا عشر ﴿أولي النعمة﴾ أي: أرباب الغنى
والسعة والترفة واللذة في الدنيا ﴿ومهلهم قليلاً﴾ أي:
تمهلاً قليلاً على أنه نعت لمصدر محذوف، أو زماناً قليلاً

كان بعد نوم. قال ابن الأعرابي: إذا نمت من أول الليل ثم
قمت فقلت المنشأة والنشأة، ومنه ناشئة الليل. قيل: وناشئة
الليل هي ما بين المغرب والعشاء، لأن معنى نشأ ابتداء، ومنه
قول نصيب:

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسي للنشء الصغار
قال عكرمة، وعطاء: إن ناشئة الليل بدو الليل. وقال
مجاهد وغيره: هي في الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار،
واختار هذا مالك. وقال ابن كيسان: هي القيام من آخر الليل.
قال في الصحاح: ناشئة الليل أول ساعاته. وقال الحسن: هي
ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح ﴿هي أشد وطأ﴾ قرأ
الجمهور (وطأ) بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة، واختار
هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ أبو العالية، وابن أبي إسحاق،
ومجاهد، وأبو عمرو، وابن عامر، وحמיד، وابن محيصن،
والمغيرة، وأبو حيوة بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة،
واختار هذه القراءة أبو عبيد، فالمعنى على القراءة الأولى أن
الصلاة في ناشئة الليل أثقل على المصلي من صلاة النهار؛
لأن الليل للنوم. قال ابن قتيبة: المعنى أنها أثقل على
المصلي من ساعات النهار، من قول العرب: اشتنت على
القوم وطأة السلطان: إذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه، ومنه
قوله ﴿اللهم أشد وطأتك على مضر﴾ والمعنى على
القراءة الثانية أنها أشد مواطأة أي: موافقة، من قولهم:
واطأت فلاناً على كذا مواطأة ووطأ: إذا وافقته عليه. قال
مجاهد، وابن أبي مليكة: أي أشد موافقة بين السمع والبصر،
والقلب واللسان لانقطاع الأصوات والحركات فيها، ومنه
﴿ليواطئوا عذة ما حرم الله﴾ [التوبة: 37] أي: ليوافقوا. وقال
الأخفش: أشد قياماً. وقال الفراء أي: أثبت للعمل، وأدوم لمن
أراد الاستكثار من العبادة، والليل وقت الفراغ عن الاشتغال
بالمعاش، فعبادته تدوم ولا تنقطع. وقال الكلبي: أشد نشاطاً
﴿واقوم قليلاً﴾ أي: وأشد مقالة، وأثبت قراءة لحضور القلب
فيها وهبوب الأصوات، وأشد استقامة واستمراراً على
الصواب؛ لأن الأصوات فيها هائلة والدنيا ساكنة، فلا
يضطرب على المصلي ما يقرؤه. قال قتادة، ومجاهد: أي
أصوب للقراءة، وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. قال أبو علي
الفارسي: أقوم قليلاً أي: أشد استقامة لفراغ البال بالليل.
قال الكلبي: أي أبين قولاً بالقرآن. وقال عكرمة: أي أتم
نشاطاً وإخلاصاً وأكثر بركة. وقال ابن زيد: أجدر أن يتفقه
في القرآن، وقيل: أعجل إجابة للدعاء ﴿إن لك في النهار
سبجاً طويلاً﴾ قرأ الجمهور (سبخاً) بالخاء المعجمة أي:
تصرفاً في حوائجك، وإقبالاً وإدباراً، وذهاباً ومجيئاً، والسبخ:
الجري والدوران، ومنه السباحة في الماء لتقلبه بينه
ورجليه، وفرس سابح أي: شديد الجري. وقيل: السبخ الفراغ
أي: إن لك فراغاً بالنهار للحاجات، فصل بالليل. قال ابن
قتيبة: أي تصرفاً، وإقبالاً وإدباراً في حوائجك وأشغالك. وقال
الخليل: إن لك في النهار سبجاً أي: نوماً، والتسبيح التمدد.
قال الزجاج: المعنى إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار

لقد اكلت بجيلة يوم لاقت فنوارس مالك أكلاً وبيلاً

﴿فكيف تتقون﴾ أي: كيف تقون أنفسكم ﴿إن كفرتم﴾ أي: إن بقيتم على كفركم ﴿يوماً﴾ أي: عذاب يوم ﴿يجعل الولدان شيباً﴾ لشدة هوله أي: يصير الولدان شيوخاً، والشيب جمع أشيب، وهذا يجوز أن يكون حقيقة، وأنهم يصيرون كذلك، أو تمثيلاً؛ لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه، وصار كالشيخ في الضعف وسقوط القوة، وفي هذا تقريب لهم شديد وتوبيخ عظيم. قال الحسن: أي كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم، وكذا قرأ ابن مسعود، وعطية، ويوماً مفعول به لتتقون. قال ابن الأنباري: ومنهم من نصب اليوم بكفرتم، وهذا قبيح، والولدان الصبيان، ثم زاد في وصف ذلك اليوم بالشدّة، فقال: ﴿السماء منفطر به﴾ أي: متشقة به لشدته وعظيم هوله، والجملة صفة أخرى ليوم، والباء سببية، وقيل: هي بمعنى في أي: منفطر فيه، وقيل: بمعنى اللام أي: منفطر له، وإنما قال: منفطر ولم يقل: منفطرة لتنزّل السماء منزلة شيء لكونها قد تغيرت، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشبي. وقال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل منفطرة؛ لأن مجازها السقف، كما قال الشاعر:

فلورفع السماء إليه قوماً لحقنا بالسماء وبالسحاب
فيكون هذا، كما في قوله: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ [الأنبياء: 32] وقال الفراء: السماء تذكر وتؤنث. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر و﴿أعجاز نخل منقعر﴾ [القمر: 20] قال أيضاً: أي السماء ذات انقطاع. كقولهم امرأة مرضع أي: ذات إرضاع على طريق النسب، وانقطاعها لتزول الملائكة، كما قال: ﴿إننا السماء انفطرت﴾ [الانفطار: 1] وقوله: ﴿والسموات يتفطرن من فوقهن﴾ [الشورى: 5] وقيل: منفطر به أي: باله، والمراد: بأمه، والأول أولى ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي: وكان وعد الله بما وعد به من البعث والحساب وغير ذلك كائنًا لا محالة، والمصدر مضاف إلى فاعله، أو وكان وعد اليوم مفعولاً، فالمصدر مضاف إلى مفعوله. وقال مقاتل: كان وعده أن يظهر دينه على الدين كله.

وقد أخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، والبيهقي في سننه عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله، قالت: أليست تقرأ هذه السورة ﴿يا أيها المزمل﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حوله حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فرضه، وقد روي هذا الحديث عنها من طرق. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، ومحمد بن نصر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: لما نزلت أول المزمل كانوا

على أنه صفة لزمان محذوف، والمعنى أمهلهم إلى انقضاء أجالهم، وقيل: إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر، والأول أولى لقوله: ﴿إن لنا نكالا﴾ وما بعده، فإنه وعيد لهم بعذاب الآخرة، والنكال جمع نكل، وهو القيد، كذا قال الحسن، ومجاهد، وغيرهما. وقال الكلبي: النكال: الأغلال، والأول أعرف في اللغة، ومنه قول الخنساء:

أتوك فقطعت أنكالهم وقد كنّ قبلك لا تقطع

وقال مقاتل: هي أنواع العذاب الشديد. وقال أبو عمران الجوني: هي قيود لا تحل ﴿وجحيماً﴾ أي: ناراً مؤججة ﴿وطعاماً ذا غصة﴾ أي: لا يسوغ في الحلق بل ينشب فيه، فلا ينزل، ولا يخرج. قال مجاهد: هو الزقوم. وقال الزجاج: هو الضريع، كما قال: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ [الغاشية: 6] قال: وهو شوك العوسج، قال عكرمة: هو شوك يأخذ بالحلقي لا يدخل ولا يخرج، والغصة: الشجاء في الحلق، وهو ما ينشب فيه من عظم أو غيره، وجمعها غصص ﴿وعذاباً أليماً﴾ أي: ونوعاً آخر من العذاب غير ما ذكر ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾ انتصاب الظرف إما بزني، أو بالاستقرار المتعلق به لدينا، أو هو صفة لعذاب، فيتعلق بمحذوف أي: عذاباً واقعاً يوم ترجف، أو متعلق باليما. قرأ الجمهور (ترجف) بفتح التاء وضم الجيم مبنياً للمفاعل، وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول، مأخوذ من أرجفها، والمعنى: تتحرك وتضطرب بمن عليها، والرجفة: الزلزلة والرعدة الشديدة ﴿وكانت الجبال كتيلاً مهيلاً﴾ أي: وتكون الجبال، وإنما عبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه، والكتيب الرمل المجتمع، والمهيل الذي يمر تحت الأرجل. قال الواحدي أي: رملًا سائلاً يقال لكل شيء أرسلته إرسالاً من تراب، أو طعام: أهله هيلاً. قال الضحاک، والكلبي: المهيل الذي إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها، وإذا أخذت أسفله انهار. ومنه قول حسان:

عرفت بيار زينب بالكتيب كخط الوحي في الورق القشيب

﴿إننا أرسلنا إليكم رسلاً شاهداً عليكم﴾ الخطاب لأهل مكة أو لكفار العرب أو لجميع الكفار، والرسول محمد ﷺ، والمعنى: يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسلاً﴾ يعني: موسى ﴿فنعصى فرعون الرسول﴾ الذي أرسلناه إليه وكنبه، ولم يؤمن بما جاء به، ومحل الكاف النصب على أنها نعت لمصدر محذوف، والمعنى: إننا أرسلنا إليكم رسلاً فنعصيتهم، كما أرسلنا إلى فرعون رسلاً فنعصاه ﴿فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ أي: شديداً ثقيلاً غليظاً، والمعنى: عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالغرق؛ وفيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل به، وإن اختلف نوع العقوبة. قال الزجاج أي: ثقيلاً غليظاً، ومنه قيل للمطر: وابل. وقال الأخفش: شديداً، والمعنى متقارب، ومنه طعام وبيل: إذا كان لا يستمر، ومنه قول الخنساء:

زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس **﴿وطعاً ما ذا غصة﴾** قال: شجرة الزقوم. وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله: **﴿كثيلاً مهيباً﴾** قال: المهيل الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك آخره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿كثيلاً مهيباً﴾** قال: الرمل السائل، وفي قوله: **﴿أخذاً وبيلاً﴾** قال: شبيداً. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قرأ **﴿يجعل الولدان شيباً﴾** قال: تلك يوم القيامة، وذلك يوم يقول الله لأدم: قم، فابحث من نريتك بحثاً إلى النار، قال: من كم يا رب؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، وينجو واحد، فاشتد ذلك على المسلمين، فقال حين أبصر ذلك في وجوههم: إن بني آدم كثير، وإن ياجوج، ومأجوج من ولد آدم، إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل، ففيهم وفي أشباههم جنة لكم. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه بأخصر منه. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله: **﴿السماء منفطر به﴾** قال: ممثلة بلسان الحبشة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: مثقلة موقرة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: يعني: تشقق السماء.

إِنَّ هَذِهِ ذِكْرٌ فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَسَّرُ لَكَ تَقْوَىٰ آدَمَ بْنِ تُلُوتٍ إِلَيْهِ وَصَفَهُ وَكَلَّمَهُ مِنَ الْآدَمِ مَكَأً وَأَنَّهُ يَقْدِرُ الْإِلَّهَ وَالنَّهَارَ عَلَيْهِ أَنْ لَنْ تُخْصَوْ قَابَ عَنَتِكُمْ فَاذْكُرُوا مَا بَشَّرَ مِنَ الْفُرْقَانِ عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ يَسْكُرُ رَحْمَتِي وَمَا كُنْتُ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَا كُنْتُ يَبْتَغُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاذْكُرُوا مَا بَشَّرَ مِنْهُ وَأَيُّمُوا الْفِكْرَةَ وَمَا كُنْتُ يَذْكُرُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ حَسْبًا وَمَا كُنْتُ يَذْكُرُوا لَكُمْ مِنْ سِرِّ جَدْوِ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْلَمُ بِكُرِّكُمْ وَأَسْتَفْهِمُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾

الإشارة بقوله: **﴿إِنْ هَذِهِ﴾** إلى ما تقدم من الآيات، والتذكرة الموعظة، والإشارة إلى جميع آيات القرآن، لا إلى ما في هذه السورة فقط **﴿فمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾** أي: اتخذ بالطاعة التي أهم أنواعها التوحيد إلى ربه طريقاً توصله إلى الجنة **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أُنْثَىٰ مِنْ ثُلَاثِ اللَّيْلِ﴾** معنى أنثى: أقل، استعير له الانثى؛ لأن المسافة بين السنين إذا دنت قل ما بينهما **﴿ونصفه﴾** معطوف على أنثى **﴿وثلثه﴾** معطوف على نصفه، والمعنى: أن الله يعلم أن رسول الله ﷺ يقوم أقل من ثلثي الليل، ويقوم نصفه، ويقوم ثلثه، وبالنصب قرأ ابن كثير، والكوفيون، وقرأ الجمهور (ونصفه وثلثه) بالجر عطفاً على ثلثي الليل، والمعنى: أن الله يعلم أن رسول الله ﷺ يقوم أقل من ثلثي الليل، وأقل من نصفه، وأقل من ثلثه، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: **﴿علم أن لن تحصوه﴾** فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لا يحصونه. وقال الفرّاء: القراءة الأولى أشبه بالصواب؛ لأنه قال: أقل من ثلثي الليل، ثم فسر

يقومون نحوه من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن نصر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: لما نزلت يا أيها المزمّل قاموا حولاً حتى ورمّت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت **﴿فأفقرءوا ما تيسر منه﴾** [المزمّل: 20] فاستراح الناس. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن نصر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: في المزمّل **﴿قم لليل إلا قليلاً نصفه﴾** نسختها الآية التي فيها: **﴿علم أن لن تحصوه فتب عليكم فأفقرءوا ما تيسر من القرآن﴾** [المزمّل: 20] وناشئة الليل أوله كان صلاتهم أول الليل، يقول: هذا أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من قيام الليل، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدرك متى يستيقظ، وقوله: **﴿اقوم قليلاً﴾** هو أجدر أن يفقه قراءة القرآن، وقوله: **﴿إن لك في النهار سبحة طويلاً﴾** يقول: فراغاً طويلاً. وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله: **﴿يا أيها المزمّل﴾** قال: زملت هذا الأمر فقم به. وأخرج ابن المنذر عنه في الآية أيضاً قال: يتزمل بالثياب. وأخرج الفريابي، عن أبي صالح عنه أيضاً **﴿وورث القرآن توتيلاً﴾** قال: تقرأ آيتين ثلاثاً ثم تقطع لا تهتر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن منيع في مسنده، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ومحمد بن نصر عنه أيضاً: **﴿ورث القرآن توتيلاً﴾** قال: بينه تبيناً. وأخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن نصر، والحاكم وصححه عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه، وهو على ناقته وضعت جرائنها، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسري عنه، وتلت **﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾**. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن نصر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: **﴿إن ناشئة الليل﴾** قال: قيام الليل بلسان الحبشة إذا قام الرجل قالوا: نشأ. وأخرج البيهقي عنه قال: **﴿ناشئة الليل﴾** أوله. وأخرج ابن المنذر، وابن نصر عنه أيضاً قال: الليل كله ناشئة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: **﴿ناشئة الليل﴾** بالحبشة قيام الليل. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن نصر، والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال: **﴿ناشئة الليل﴾** ما بين المغرب والعشاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى عن ابن عباس في قوله: **﴿إن لك في النهار سبحة طويلاً﴾** قال: السبح الفراغ للحاجة والنوم. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت: لما نزلت: **﴿وذرني والمكثبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾** لم يكن إلا يسيراً حتى كانت وقعة بدر. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود **﴿إن لدينا أنكالا﴾** قال: قيوداً. وأخرج عبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في

التطوع. وأيضاً الأحاديث الصحيحة المصرحة بقول السائل لرسول الله ﷺ هل عليّ غيرها، يعني: الصلوات الخمس؟ فقال: «لا، إلا أن تطوع»، تدل على عدم وجوب غيرها. فارتفع بهذا وجوب قيام الليل، وصلاته على الأمة، كما ارتفع وجوب ذلك على النبي ﷺ بقوله: «ومن الليل فتعبد به نافلة لك»، قال الواحدي: قال المفسرون في قوله: «فأقروا ما تيسر منه» كان هذا في صدر الإسلام، ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين، وثبت على النبي ﷺ خاصة، وذلك قوله: «واقموا الصلاة». ثم ذكر سبحانه عذره فقال: «علم أن سيكون منكم مرضى» فلا يطيقون قيام الليل «وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله» أي: يسافرون فيها للتجارة والأرباح يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه في معاشهم فلا يطيقون قيام الليل «وآخرون يقاتلون في سبيل الله» يعني: المجاهدين، فلا يطيقون قيام الليل. نكر سبحانه ما هنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص، ورفع وجوب قيام الليل، وفرغه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التي تنوب بعضهم. ثم نكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال: «فأقروا ما تيسر منه» وقد سبق تفسيره قريباً، والتكرير للتأكيد «واقموا الصلاة» يعني: المفروضة، وهي الخمس لوقتها «وأقروا الزكاة» يعني: الواجبة في الأموال. وقال الحارث العكلي: هي صدقة الفطر؛ لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك، وقيل: صدقة التطوع، وقيل: كل أفعال الخير «وأقروا الله قرضاً حسناً» أي: أنفقوا في سبيل الخير من أموالكم إنفاقاً حسناً، وقد مضى تفسيره في سورة الحديد. قال زيد بن أسلم: القرض الحسن النفقة على الأهل، وقيل: النفقة في الجهاد، وقيل: هو إخراج الزكاة المفترضة على وجه حسن، فيكون تفسيراً لقوله «وأقروا الزكاة» والأول أولى لقوله: «وما تقيموا لأنفسكم من خير تجبوه عند الله» فإن ظاهره العموم أي: أي خير كان مما نكر ومما لم يذكر «هو خيراً وأعظم أجراً» مما تخرجونه إلى عند الموت، أو توصون به ليخرج بعد موتكم، وانتصاب خيراً على أنه ثاني مفعولي تجبوه، وضمير هو ضمير فصل، وبالنصب قرأ الجمهور، وقرأ أبو السماك، وابن السميعة بالرفع على أن يكون هو مبتدأ، وخبره، والجملة في محل نصب على أنها ثاني مفعولي تجبوه. قال أبو زيد: وهي لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، وأنشد سيبويه:

نحن إلى ليلى وأنت تركتها وكنت عليها بالملاء أنت أندر
وقرأ الجمهور أيضاً (وأعظم) بالنصب عطفًا على خيراً،
وقرأ أبو السماك، وابن السميعة بالرفع، كما قرأ برفع (خير)، وانتصاب (أجراً) على التمييز «واستغفروا الله» أي: اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم، فإنكم لا تخلون من ذنوب تقترفونها «إن الله غفور رحيم» أي: كثير المغفرة لمن استغفره، كثير الرحمة لمن استرحمه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، والطبراني عن

نفس القلة «وطائفة من الذين معك» معطوف على الضمير في تقوم أي: وتقوم تلك القدر معك طائفة من أصحابك «والله يقدر الليل والنهار» أي: يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، ويختص بذلك دون غيره، وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة. قال عطاء: يريد لا يفوته علم ما تفعلون. أي: أنه يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم قدر الذي تقومونه من الليل «علم أن لن تحصوه» أن لن تطبقوا علم مقادير الليل والنهار على الحقيقة، وفي أن ضمير شأن محذوف، وقيل المعنى: لن تطبقوا قيام الليل. قال القرطبي: والأول أصح، فإن قيام الليل ما فرض كله قط، قال مقاتل وغيره: لما نزل «قم الليل إلا قليلاً» نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه [المزمل: 2-4] شق ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفخت أقدامهم وانتفعت ألوانهم، فرحمهم الله، وخفف عنهم فقال: «علم أن لن تحصوه» أي: علم أن لن تحصوه؛ لأنكم إن زبنت ثقل عليكم واحتجتم إلى تكلف ما ليس فرضاً، وإن نقصتم شق ذلك عليكم «فكتاب عليكم» أي: فعاد عليكم بالعفو، ورخص لكم في ترك القيام. وقيل: فتاب عليكم من فرض القيام إذا عجزتم، وأصل التوبة الرجوع، كما تقدم؛ فالمعنى: رجع بكم من التثقل إلى التخفيف، ومن العسر إلى اليسر «فأقروا ما تيسر من القرآن» أي: فأقروا في الصلاة بالليل ما خف عليكم، وتيسر لكم منه من غير أن ترتقوا وقتاً. قال الحسن: هو ما نقرأ في صلاة المغرب والعشاء. قال السدي: ما تيسر منه هو مائة آية. قال الحسن: أيضاً من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن. وقال كعب: من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين، وقال سعيد: خمسون آية، وقيل: معنى «فأقروا ما تيسر منه»: فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، والصلاة تسمى قرأناً كقوله: «وقرآن الفجر» [الإسراء: 78] قيل: إن هذه الآية نسخت قيام الليل ونصفه، والنقصان من النصف والزيادة عليه، فيحتمل أن يكون ما تضمنته هذه الآية فرضاً ثابتاً، ويحتمل أن يكون منسوخاً لقوله: «ومن الليل فتعبد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً» [الإسراء: 79]. قال الشافعي: الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين. فوجدنا سنة رسول الله ﷺ تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس. وقد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ في حقه ﷺ وفي حق أمته. وقيل: نسخ التقدير بمقدار وبقي أصل الوجوب. وقيل: إنه نسخ في حق الأمة، وبقي فرضاً في حقه ﷺ والأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم في حقه ﷺ وفي حق أمته، وليس في قوله: «فأقروا ما تيسر منه» ما يدل على بقاء شيء من الوجوب؛ لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن، فقد وجبت في صلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة، وإن كان المراد به الصلاة من الليل، فقد وجبت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من

إعلامهم بالتوحيد. وقال الفراء: المعنى قم فصل، وأمر بالصلاة «وربك فكبر» أي: واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقد الكفار، وأعظم من أن يكون له صاحبة أو ولد. قال ابن العربي: المراد به تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأضداد والأنداد والأصنام، ولا يتخذ ولياً غيره ولا يعبد سواه، ولا يرى لغيره فعلاً إلا له ولا نعمة إلا منه. قال الزجاج: إن الفاء في فكبر دخلت على معنى الجزاء، كما دخلت في فأنذر. وقال ابن جني: هو كقولك: زيداً فاضرب أي: زيداً اضرب، فالفاء زائدة «وثيابك فطهر» المراد بها الثياب المليوسة على ما هو المعنى اللغوي، أمره الله سبحانه بتطهير ثيابه، وحفظها عن النجاسات، وإزالة ما وقع فيها منها، وقيل: المراد بالثياب العمل، وقيل: القلب، وقيل: النفس، وقيل: الجسم، وقيل: الأهل، وقيل: الدين، وقيل: الأخلاق. قال مجاهد، وابن زيد، وأبو رزين أي: عملك فاصلح. وقال قتادة: نفسك فطهر من الذنب، والثياب عبارة عن النفس. وقال سعيد بن جببر: قلبك فطهر، ومن هذا قول امرئ القيس:

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

وقال عكرمة: المعنى اليسها على غير غدر وغير فجرة. وقال: أما سمعت قول الشاعر:

واني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدره اتقنن
والشاعر هو غيلان بن سلمة الثقفي، ومن إطلاق الثياب على النفس قول عنتره:

فشكت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
وقول الآخر:

ثياب بني عوف طهارى نقيه

وقال الحسن، والقرظي: إن المعنى، وأخلاقك فطهر؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه، ومنه قول الشاعر:

ويحيى لا يلام بسوء خلق ويحيى طاهر الأثواب خـ
وقال الزجاج: المعنى، وثيابك فقصر؛ لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا أنجز على الأرض، وبه قال طائوس، والأول أولى؛ لأنه المعنى الحقيقي. وليس في استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدل على أنه المراد عند الإطلاق، وليس في مثل هذا الأصل: أعني الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف، وفي الآية دليل على وجوب طهارة الثياب في الصلاة «والرجز فاهجر» الرجز معناه في اللغة العذاب، وفيه لغتان كسر الراء وضمها، وسمي الشرك وعبادة الأوثان رجزاً لأنها سبب الرجز. قرأ الجمهور (الرجز) بكسر الراء. وقرأ الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وحفص، وابن محيصن بضمها. وقال مجاهد، وعكرمة: الرجز الأوثان، كما في قوله: «فاجتنبوا الرجس من الأوثان» [الحج: 30] وبه قال ابن زيد. وقال إبراهيم النخعي: الرجز المائم، والهجر الترك. وقال قتادة: الرجز إساف ونائلة،

ابن عباس، عن النبي ﷺ «فاهجروا ما تيسر منه» قال: «مائة آية». وأخرج الدراقطني، والبيهقي في سننه، وحسنه عن قيس بن أبي حازم قال: صليت خلف ابن عباس، فقرأ في أول ركعة بالحمد لله رب العالمين، وأول آية من البقرة، ثم ركع، فلما انصرفنا أقبل علينا، فقال: إن الله يقول: «فاهجروا ما تيسر منه» قال ابن كثير: وهذا حديث غريب جداً لم أره إلا في معجم الطبراني. وأخرج أحمد، والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر». وقد قدمنا في البحث الأول من هذه السورة ما روي أن هذه الآيات المذكورة هنا هي الناسخة لوجوب قيام الليل، فارجع إليه.

تفسير سورة المدثر

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المدثر بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثله، وسيأتي أن أول هذه السورة أول ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ ۖ قُرْ فَأَنذِرْ ۚ وَرَبِّكَ كَذِبٌ ۚ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۚ وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ ۚ وَلَا تَمَسَّ شَجَرًا ۚ وَرَبِّكَ تَأْسِيرٌ ۚ فَإِذَا فَرَغَ فَالْأَقْوَرُ ۚ فَنَدَاءٌ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ عَسِيرٍ ۚ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۚ ذَرَقَ وَمَنْ خَلَعَتْ وَجِدًا ۚ وَجَعَلَتْ لَهُ مَا لَا مُمَدَّدًا ۚ وَبَيْنَ شُجُرَا ۚ وَمَهْدَتْ لَهُ تَهِيمًا ۚ ثُمَّ يَلْمَعُ أَنْ أَرِيدَ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهُ كَانَ لِإِبْنَتَا عَيْنَا ۚ سَأْمِيحَةً صَوْرًا ۚ إِنَّهُ فُكِّرَ وَدُرٌّ ۚ قَتِيلٌ كَيْفَ قَدَرٌ ۚ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ۚ ثُمَّ نَظَرَ ۚ ثُمَّ عَسَى وَرَمَر ۚ ثُمَّ أَذْبَرَ وَاشْتَكَبَر ۚ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا عَجْرٌ يُؤْزَرُ ۚ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۚ سَأْمِيلُو سَرَّ ۚ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ۚ لَا بُدَّيْ وَلَا نَدْرَ ۚ لَوَسْتَ لَأَنْتَ ۚ عَلَبَا ۚ يَسْمَعُ عَنَرٌ ۚ

قال الواحدي: قال المفسرون: لما بدئ رسول الله ﷺ بالوحي أتاه جبريل، فراه رسول الله ﷺ على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلألئ، ففزع ووقع مغشياً عليه، فلما أفاق دخل على خبيجة، ودعا بماء، فصبه عليه، وقال: «نشروني نشروني»، فنشروه بقطيفة، فقال: «يا أيها المدثر * قم فأنذر» ومعنى «يا أيها المدثر»: يا أيها الذي قد نشرت بتيابه أي: تغشى بها، وأصله المتدثر، فاندغمت التاء في الدال لتجانسهما. وقد قرأ الجمهور بالإدغام، وقرأ أبي (المدثر) على الأصل، والنتار: هو ما يلبس فوق الشعار، والشعار: هو الذي يلي الجسد، وقال عكرمة: المعنى: يا أيها المدثر بالنبوة وإتقانها. قال ابن العربي: وهذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبياً إذ ذاك «قم فأنذر» أي: انهض فخوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا، أو قم من مضجعك، أو قم قيام عزم وتصميم، وقيل: الإنذار هنا هو إعلامهم بنبوته، وقيل:

في هذا في سورة الأنعام وسورة النحل، والفاء للسببية، كأنه قيل: أصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقيون فيه عاقبة أمرهم، والعامل في إذا ما دل عليه قوله: ﴿فَذَلِكْ يَوْمُئِذٍ يَوْمُ عَسِيرٍ * عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فإن معناه: عسر الأمر عليهم، وقيل: للعامل فيه ما دل عليه ﴿فَذَلِكْ﴾ لأنه إشارة إلى النقر، ويومئذ بدل من إذا، أو مبتدأ، وخبره يوم عسير، والجملة خبر فذلک، وقيل: هو ظرف للخبر؛ لأن التقدير وقوع يوم عسير، وقوله: ﴿غَيْرِ يَسِيرٍ﴾ تأكيد لعسره عليهم؛ لأن كونه غير يسير، قد فهم من قوله: ﴿يَوْمُ عَسِيرٍ * ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيداً﴾ أي: دعني، وهي كلمة تهديد ووعيد، والمعنى: دعني والذي خلقته حال كونه وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد، هذا على أن وحيداً منتصب على الحال من الموصول، أو من الضمير العائد إليه المحذوف، ويجوز أن يكون حالاً من الياء في ذرني أي: دعني وحدي معه، فإني أكفيك في الانتقام منه، والأول أولى. قال المفسرون: وهو الوليد بن المغيرة. قال مقاتل: يقول: خل بيني وبينه، فأنا أنفرد بهلكته، وإنما خص بالذكر لمزيد كفره، وعظيم جحوده لنعم الله عليه، وقيل: أراد بالوحيد الذي لا يعرف أبوه، وكان يقال في الوليد بن المغيرة: إنه دعني ﴿وَجَعَلْتَ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾ أي: كثيراً، أو يمد بالزيادة والنماء شيئاً بعد شيء. قال الزجاج: مالا غير منقطع عنه، وقد كان الوليد بن المغيرة مشهوراً بكثرة المال على اختلاف أنواعه، قيل: كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار، وقيل: أربعة آلاف دينار، وقيل: ألف دينار ﴿وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ أي: وجعلت له بنين حضوراً بمكة معه لا يسافرون، ولا يحتاجون إلى التفريق في طلب الرزق لكثرة مال أبيهم. قال الضحاك: كانوا سبعة ولدوا بمكة، وخمسة ولدوا بالطائف. وقال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر ولداً. وقال مقاتل: كانوا سبعة كلهم رجال، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام والوليد بن الوليد، فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك. وقيل: معنى شهوداً أنه إذا نكر نكروا معه، وقيل: كانوا يشهدون معه ما كان يشهده، ويقومون بما كان يبشره ﴿وَمَهْدَتْ لَهُ تَهْيِئَةً﴾ أي: بسطت له في العيش وطول العمر والرياسة في قريش، والتمهيد عند العرب التوطئة، ومنه مهد الصبي. وقال مجاهد: إنه المال بعضه فوق بعض كما يمهّد الفراش ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي: يطمع بعد هذا كله في الزيادة لكثرة حرصه وشدة طمعه مع كفرانه للنعم، وإشراكه بالله. قال الحسن: لم يطمع أن أدخله الجنة، وكان يقول: إن كان محمد صادقاً، فما خلقت الجنة إلا لي. ثم ردعه الله سبحانه وزجره فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: لست أزيده، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ أي: معانداً لها كافراً بما أنزلناه منها على رسولنا، يقال: عند يعند بالكسر إذا خالف الحق ورده، وهو يعرفه، فهو عنيد وعاند، والعائد الذي يجوز عن الطريق، ويعدل عن القصد، ومنه قول الحارثي:

وهما صنمان كانا عند البيت. وقال أبو العالية، والربيع، والكسائي: الرجز بالضم الوثن، وبالكسر العذاب. وقال السدي: الرجز بضم الراء الوعيد، والأول أولى ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ﴾ قرأ الجمهور (لا تمنن) بفك الإدغام، وقرأ الحسن، وأبو اليمان، والأشهب العقيلي بالإدغام، وقرأ الجمهور (تستكثر) بالرفع على أنه حال أي: ولا تمنن حال كونك مستكثر، وقيل: على حذف أن، والأصل ولا تمنن أن تستكثر، فلما حذفت رفع. قال الكسائي: فإذا حذف أن رفع الفعل. وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش (تستكثر) بالنصب على تقدير أن، وبقاء عملها، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود (ولا تمنن أن تستكثر) بزيادة أن. وقرأ الحسن أيضاً، وابن أبي عبيدة (تستكثر) بالجزم على أنه بدل من تمنن، كما في قوله: ﴿يَلِيقُ أَثَاماً * يَضَاعَفُ لَهُ﴾ [الفرقان: 68]. [69]، وقول الشاعر:

متى تأننا تلمم بنا في ديارنا تجد حطباً جزلاً وناراً تاججا
أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف كما في قول امرئ القيس:

فالיום أشرب غير مستحبب إثمأ من الله ولا أغفل
بتسكين أشرب. وقد اعترض على هذه القراءة؛ لأن قوله تستكثر لا يصح أن يكون بدلاً من تمنن؛ لأن الممن غير الاستكثار، ولا يصح أن يكون جواباً للنهي.

واختلف السلف في معنى الآية، فقيل المعنى: لا تمنن على ربك بما تحمله من أعباء النبوة كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير، وقيل: لا تعط عطية تلمس فيها أفضل منها، قاله عكرمة، وقتادة. قال الضحاك: هذا حرّمه الله على رسوله؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق، وأباحه لامته. وقال مجاهد: لا تضعف أن تستكثر من الخير، من قولك حبل متين: إذا كان ضعيفاً. وقال الربيع بن أنس: لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير. وقال ابن كيسان: لا تستكثر عملاً فتراه من نفسك، إنما عملك منه من الله عليك إذ جعل لك سبيلاً إلى عبادته. وقيل: لا تمنن بالنبوة، والقرآن على الناس، فتأخذ منهم أجراً تستكثره. وقال محمد بن كعب: لا تعط مالك مصانعة. وقال زيد بن أسلم: إذا أعطيت عطية فاعطها لربك ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي: لوجه ربك، فاصبر على طاعته وفرائضه، والمعنى: لأجل ربك وثوابه. وقال مقاتل، ومجاهد: أصبر على الأذى والتكذيب. وقال ابن زيد: حملت أمراً عظيماً، فحاربك العرب والعجم، فاصبر عليه. وقيل: أصبر تحت موارد القضاء لله، وقيل: فاصبر على البلوى، وقيل: على الأوامر والنواهي ﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي النَّاقُورِ﴾ الناقور فاعول من النقر كأنه من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، والنقر في كلام العرب الصوت، ومنه قول امرئ القيس:

أخفضه بالنقر لما علوته

ويقولون: نقر باسم الرجل إذا دعاه، والمراد هنا النفخ في الصور، والمراد النفخة الثانية، وقيل: الأولى، وقد تقدّم الكلام

حكاه الله عنه، قال الله عز وجل: ﴿سَاصِلِيهِ سَقَر﴾ أي: سائخله النار، وسقر من أسماء النار، ومن بركات جهنم، وقيل: إن هذه الجملة بدل من قوله: ﴿سَاصِلِيهِ صَعُود﴾ ثم بالغ سبحانه في وصف النار وشدة أمرها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر﴾ أي: وما أعلمك أي شيء هي، والعرب تقول: وما أدراك ما كذا: إذا أرادوا المبالغة في أمره، وتعظيم شأنه وتهويل خطبه، وما الأولى مبتدأ، وجملة ﴿مَا سَقَر﴾ خبر المبتدأ. ثم فسر حالها، فقال: ﴿لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ﴾ والجملة مستأنفة لبيان حال سقر، والكشف عن وصفها، وقيل: هي في محل نصب على الحال، والعامل فيها معنى التعظيم: لأن قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر﴾ يدل على التعظيم، فكانه قال: استعظموا سقر في هذه الحال، والأول أولى، ومفعول الفعلين محذوف. قال السدي: لا تبقى لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً. وقال عطاء: لا تبقى من فيها حياً ولا تذر ميتاً، وقيل: هما لفظان بمعنى واحد، كرراً للتأكيد كقولك: صدّ عني وأعرض عني ﴿لَوْلَا بَشَر﴾ قرأ الجمهور (لَوْلَا) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقيل: على أنه نعت لسقر، والأول أولى. وقرأ الحسن، وعطية العوفي، ونصر بن عاصم، وعيسى بن عمر، وابن أبي عبيدة، وزيد بن عليّ بالنصب على الحال أو الاختصاص للتهويل، يقال: لاح يلوح أي: ظهر، والمعنى: أنها تظهر للبشر. قال الحسن: تلوح لهم جهنم حتى يرونها عياناً كقوله: ﴿وَيُبرزُ الجحيم لمن يرى﴾ [النازعات: 36] وقيل: معنى ﴿لَوْلَا بَشَر﴾ أي: مغيرة لهم ومسؤدة. قال مجاهد: والعرب تقول: لاح الحر والبرد والسقم والحرّ: إذا غيره، وهذا أرجح من الأول، وإليه ذهب جمهور المفسرين، ومنه قول الشاعر:

وتعجب همدان رأني شاحباً تقول لشيء لوحت السمايم
أي: غيرته، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

لَوَّحَ منه بعد بدن وشبق تلويحك الضامر يطوى للسبق
وقال الأخفش: المعنى أنها معطشة للبشر، وأنشد:

سقتني على لوح من الماء شربة سقاها به الله الرهام الغوايبا
والمراد بالبشر إما جلدة الإنسان الظاهرة، كما قاله الأكثر، أو المراد به أهل النار من الإنس، كما قال الأخفش ﴿عليها تسعة عشر﴾ قال المفسرون: يقول على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، وقيل: تسعة عشر صنفاً من أصناف الملائكة، وقيل: تسعة عشر صفاً من صفوفهم، وقيل: تسعة عشر نقيباً مع كل نقيب جماعة من الملائكة، والأول أولى. قال الثعلبي: ولا ينكر هذا، فإذا كان ملك واحدة يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق. قرأ الجمهور (تسعة عشر) بفتح الشين من عشر. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وطلحة بن سليمان بإسكانها.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: إن أول ما نزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ﴾ فقال له يحيى بن أبي كثير:

إذا ركبت فاجعلاني وسطاً إنني كبير لا أطيق العندا
قال أبو صالح: عنيداً معناه مباعداً. وقال قتادة: جاحداً. وقال مقاتل: معرضاً ﴿سَاصِلِيهِ صَعُود﴾ أي: ساكلفه مشقة من العذاب، وهو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الذي لا يطاق، وقيل المعنى: إنه يكلف أن يصعد جبلاً من نار، والإرهاق في كلام العرب: أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل، وجملة ﴿إِنَّهُ فِكْرٌ وَقَدَرٌ﴾ تعليل لما تقدّم من الوعيد أي: إنه فِكْرٌ في شأن النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن، وقتر في نفسه أي: هيا الكلام في نفسه، والعرب تقول: هيات الشيء إذا قدرته، وقدرت الشيء إذا هيأته، وذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يفكر ماذا يقول فيه، وقتر في نفسه ما يقول، فذمه الله، وقال: ﴿فَقَتْلُ كَيْفَ قَدَرُ﴾ أي: لعن وعذب كيف قدر أي: على أي حال قدر ما قدر من الكلام، كما يقال في الكلام: لأضربنه كيف صنع أي: على أي حال كانت منه، وقيل المعنى: قهر وغلب كيف قدر، ومنه قول الشاعر:

وما نرفت عينك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل
وقال الزمري: عذب، وهو من باب الدعاء عليه، والتكرير في قوله: ﴿قَدْ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرُ﴾ للمبالغة والتأكيد ﴿قَدْ نَظَرُ﴾ أي: بأي شيء ينفخ القرآن ويقذف فيه، أو فكر في القرآن وتنبّر ما هو ﴿قَدْ عَبَسَ﴾ أي: قطب وجهه لما لم يجد مطعناً يطعن به في القرآن، والعبس مصدر عبس مخففاً، يعبس عبساً وعبوساً إذا قطب، وقيل: عبس في وجوه المؤمنين، وقيل: عبس في وجه النبي ﷺ ﴿وَيَسِرُ﴾ أي: كبح وجهه وتغير، ومنه قول الشاعر:

صباحنا تيمماً غداة الحفار بشهباء ملموسة بأسره
وقول الآخر:

وقد رأيت منها صدور رأيت وإعراضها عن حاجتي ويسورها
وقيل: إن ظهور العبوس في الوجه يكون بعد المحاورة، وظهور البسور في الوجه قبلها، والعرب تقول: وجه يسر إذا تغير واسود. وقال الراغب: البسر استعجال الشر قبل أوانه نحو يسر الرجل حاجته أي: طلبها في غير أوانها. قال: ومنه قوله: ﴿عَبَسَ وَبَسَر﴾ أي: أظهر العبوس قبل أوانه وقيل وقته، وأهل اليمن يقولون: يسر المركب وأيسر أي: وقف لا يتقدّم ولا يتأخر، وقد أيسرنا أي: صرنا إلى البسور ﴿قَدْ أَنبَرُ وَاسْتَكْبَرُ﴾ أي: أعرض عن الحق، وذهب إلى أهله، وتعظم عن أن يؤمن ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُوْثِرُ﴾ أي: يآثره عن غيره ويرويه عنه. والسحر: إظهار الباطل في صورة الحق، أو الخديعة على ما تقدّم بيانه في سورة البقرة، يقال: أثرت الحديث بآثره إذا نكرته عن غيرك، ومنه قول الأعشى:

إن الذي فيه تحاربتما بين السامع والأثر
﴿إِنَّ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ يعني: أنه كلام الإنس، وليس بكلام الله، وهو تأكيد لما قبله، وسيأتي أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له حلاوة، وإن عليه طلاوة إلى آخر كلامه. ولما قال هذا القول الذي

يقولون إن أول ما نزل ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [أي: سورة العلق] فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، قلت له مثل ما قلت، فقال جابر: لا أحذثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاءت بحراء، فلما قضيت جواربي هبطت، فنويت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي، فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فحشيت منه رعباً، فرجعت، فقلت: بشروني، فنزلت: ﴿يا أيها المنذر﴾ * قم فانذر﴾ إلى قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾» وسيااتي في سورة اقرأ ما يدل على أنها أول سورة أنزلت، والجمع ممكن. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس ﴿يا أيها المنذر﴾ فقال: بشر هذا الأمر، فقم به. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه ﴿يا أيها المنذر﴾ قال: للنائم ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب باطل ﴿والرجز فاهجر﴾ قال: الأصنام ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ قال: لا تعط تلتئم بها أفضل منها. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: من الإثم. قال: وهي في كلام العرب نقي الثياب. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: من الغدر، لا تكن غداراً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، وابن مردويه عن عكرمة عنه أيضاً أنه سئل عن قوله: ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: لا تلبسها على غدره، ثم قال: ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة:

وإني بحمد الله لا شوب فاجر لبست ولا من غدره اتقنع وأخرج الطبراني، والبيهقي في سننه عنه أيضاً ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ قال: لا تعط الرجل عطاء رجا أن يعطيك أكثر منه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عنه أيضاً ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ قال: الصور ﴿يوم عسير﴾ قال: شديد. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً ﴿نورني ومن خلقت وحيداً﴾ قال: الوليد بن المغيرة. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكانه رقى له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه، فلنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، وأنت كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو، وإنه ليحطم ما تحته؛ قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يثره

عن غيره، فنزلت ﴿نورني ومن خلقت وحيداً﴾. وقد أخرج هذا عبد الرزاق عن عكرمة مرسلًا، وكذا أخرجه ابن جرير، وابن إسحاق، وابن المنذر، وغير واحد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن قوله: ﴿وجعلت له مالا ممبوداً﴾ قال: غلة شهر بشهر. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس: ﴿وجعلت له مالا ممبوداً﴾ قال: ألف دينار. وأخرج هناد عن أبي سعيد الخدري في قوله: ﴿سارقه صعوداً﴾ قال: هو جبل في النار يكلفون أن يصعدوا فيه، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت، فإذا رفعوها عانت كما كانت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿عنيذاً﴾ قال: جحواً. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً، ثم يهوي وهو كذلك فيه أبداً». قال الترمذي بعد إخراج: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دزاج. قال ابن كثير: وفيه غرابة ونكارة انتهى، وقد أخرجه جماعة من قول أبي سعيد. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿صعوداً﴾ صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه. وأخرج ابن المنذر عنه قال: جبل في النار. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ قال: لا تبقي منهم شيئاً، وإذا بلكوا خلقاً آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأول. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً ﴿لواحة للبشر﴾ قال: تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه، فيصير أسود من الليل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿لواحة﴾ قال: محرقة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن البراء: أن رهطاً من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم، فجاء جبريل، فأخبر النبي ﷺ، فنزلت عليه ساعته ﴿عليها تسعة عشر﴾.

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيتُوا الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا وَرَاقَابُ الَّذِينَ آمَنُوا أَلْكُتَبُ وَالْمُؤْمِنُونَ يَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ وَالْكُفْرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَهْدِ حُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَهْدِ إِلَّا وَكَرَى لِلنَّاسِ كَلَّا وَالْقُرْآنُ وَالْقُرْآنُ وَإِنَّا أَكْثَرُ وَالشَّيْءُ إِنَّا أَكْثَرُ إِنَّا لَنَعْلَمُ الْكُفْرَ نَزَرًا لِلنَّاسِ لِيُنْذَرُوا لِيَنْشَرُوا بَيْنَهُمْ أَوْ يَنْتَرُوا

لما نزل قوله سبحانه: ﴿عليها تسعة عشر﴾ [المنذر: 30] قال أبو جهل: أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوفكم محمد بتسعة عشر، وأنتم الدهم، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم يخرجون من النار؟ فقال أبو الأشد، وهو رجل من بني جمح: يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة، فانا أمشي بين أيديكم، فأنفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر، ونمضي ندخل الجنة، فانزل الله ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ يعني: ما جعلنا

هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد. وقال عطاء: يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدَّتْهم إلا الله والمعنى: أن خزنة النار، وإن كانوا تسعة عشر، فلم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه. ثم جع سبحانه إلى نكر سقر، فقال: ﴿وما هي إلا نكري للبشر﴾ أي: وما سقر، وما نكر من عدد خزنتها إلا تنكرة وموعظة للعالم، وقيل: ﴿وما هي﴾ أي: الدلائل والحجج والقرآن إلا تنكرة للبشر. وقال الزجاج: نار الدنيا تنكرة لنار الآخرة، وهو بعيد. وقيل: ﴿وما هي﴾ أي: عدة خزنة جهنم إلا تنكرة للبشر؛ ليعلموا كمال قدرة الله، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار، وقيل: الضمير في ﴿وما هي﴾ يرجع إلى الجنود. ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم فقال: ﴿كلا والقمر﴾ قال الفراء: كلا صلة للقسم، التقدير أي: والقمر، وقيل المعنى: حقاً والقمر. قال ابن جرير: المعنى ردَّ زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم أي: ليس الأمر كما يقول، ثم أقسم على ذلك بالقمر وبما بعده، وهذا هو الظاهر من معنى الآية ﴿والليل إذا أبر﴾ أي: لى. قرأ الجمهور (إذا) بزيادة الألف، بجر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان، وقرأ نافع، وحفص، وحمزة (إذا) بنون ألف، أبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان وببر، وأدبر لغتان، كما يقال: أقبل الزمان وقبل الزمان، يقال: دبر الليل وأدبر: إذا تولى ذاهباً ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي: أضاء وتبين ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ هذا جواب القسم، والضمير راجع إلى سقر أي: إنَّ سقر لإحدى الدواهي، أو البلايا الكبر، والكبر جمع كبرى، وقال مقاتل: إن الكبر اسم من أسماء النار، وقيل: إنها أي: تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبر، وقيل: إن قيام الساعة لإحدى الكبر، ومنه قول الشاعر:

يابن المعلی نزلت لإحدى الکبر
قرأ الجمهور (لإحدى) بالهمزة، وقرأ نصر بن عاصم،
وابن محیصن، وابن كثير في رواية عنه (إنها إحدى) بدون
همزة، وقال الکلبی: أراد بالکبر درکات جهنم وأبوابها
﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ انتصاب نذيراً على الحال من الضمير في
إنها، قاله الزجاج. وروي عنه، وعن الکسائي، وأبي علي
الفارسي أنه حال من قوله: ﴿قَم فَاَنْذِرْ﴾ [المذثر: 2] أي: قم
يا محمد فأنذر حال كونك نذيراً للبشر. وقال الفراء: هو
مصدر بمعنى الإنذار منصوب بفعل مقدر، وقيل: إنه
منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التنظيم كانه
قيل: أعظم الکبر إنذاراً، وقيل: إنه مصدر منصوب بأنذر
المذكور في أول السورة، وقيل: منصوب بإضمار أعني،
وقيل: منصوب بتقدير ادع، وقيل: منصوب بتقدير ناد أو
بلغ، وقيل: إنه مفعول لأجله، والتقدير: وإنها لإحدى الکبر؛
لأجل إنذار البشر. قرأ الجمهور بالنصب، وقرأ أبي بن كعب،
وابن أبي عتبة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي
نذير، أو هو نذير.

وقد اختلف في النذير، فقال الحسن: هي النار، وقيل:

المديرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، فمن يطبق الملائكة ومن يغلبهم، فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم. وقيل: جعلهم ملائكة؛ لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجن والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة والرافة، وقيل: لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له، وأشدّهم بأساً وأقوامهم بطشاً ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: ضلالة ﴿لِلَّذِينَ﴾ استقلوا عددهم، ومحنة لهم، المعنى: ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم، حتى قالوا ما قالوا، ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم. وقيل: معنى ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ إلا عذاباً، كما في قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يَفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: 13] أي: يعذبون، واللام في قوله: ﴿لَيْسَتِيقِنَ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ متعلق بجعلنا، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم. قاله قتادة، والضحاك، ومجاهد، وغيرهم، والمعنى: أن الله جعل عدّة الخزنة هذه العدّة؛ ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوّة محمد ﷺ لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم ﴿وَيُزَادُ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِمَانًا﴾ وقيل: المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وقيل: أراد الذين آمنوا المؤمنين من أمة محمد ﷺ، والمعنى: ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم، وجملته ﴿وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ مقرّرة لما تقدّم من الاستيقان وإزدياد الإيمان، والمعنى نفى الارتياب عنهم في النّين، أو في أن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر، ولا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ المراد بالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون؛ والسورة وإن كانت مكية، ولم يكن إذ ذاك نفاق، فهو إخبار بما سيكون في المدينة، أو المراد بالمرض مجرد حصول الشك والريب، وهو كائن في الكفار. قال الحسين بن الفضل: السورة مكية، ولم يكن بمكة نفاق، فالمرض في هذه الآية الخلاف، والمراد بقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ كفار العرب من أهل مكة، وغيرهم، ومعنى ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾: أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل. قال الليث: المثل الحديث، ومنه قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: 35] أي: حديثها، والخبر عنها ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ﴾ أي: مثل ذلك الإضلال المتقدّم نكره، وهو قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ﴾ من عباده، والكاف نعت مصدر محذوف ﴿وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ﴾ من عباده، والمعنى: مثل ذلك الإضلال للمكافرين والهداية للمؤمنين، يضلّ الله من يشاء إضلاله ويهدي من يشاء هدايته، وقيل المعنى: كذلك يضلّ الله عن الجنة من يشاء، ويهدي إليها من يشاء ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ما يعلم عند خلقه، ومقدار جموعه من الملائكة، وغيرهم إلا

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَنْهَأَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّارِ وَأَهْلُ النَّارِ ۖ

قوله: ﴿كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةً﴾ أي: مأخوذة بعملها ومرتهنة به، إما خالصها وإما أوبقها، والرهينة اسم بمعنى الرهن، كالشيمة بمعنى الشيم، وليست صفة، ولو كانت صفة لقيل: رهين؛ لأن فعلاً يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمعنى: كل نفس رهن بكسبها غير مفكوكة ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم.

واختلف في تعيينهم، فقيل: هم الملائكة، وقيل: المؤمنون، وقيل: أولاد المسلمين، وقيل: الذين كانوا عن يمين آدم، وقيل: أصحاب الحق، وقيل: هم المعتمدون على الفضل دون العمل، وقيل: هم الذين اختارهم الله لخدمته ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ هو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملة استئناف جواباً عن سؤال نشأ مما قبله، ويجوز أن يكون في جنان حالاً من أصحاب اليمين، وأن يكون حالاً من فاعل يتساءلون، وأن يكون ظرفاً ليتساءلون، وقوله: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يجوز أن يكون على بابه أي: يسأل بعضهم بعضاً، ويجوز أن يكون بمعنى يسألون أي: يسألون غيرهم، نحو دعيته وتداعيته، فعلى الوجه الأول يكون ﴿عَنِ الْمَجْرِمِينَ﴾ متعلقاً بتساءلون أي: يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين، وعلى الوجه الثاني تكون عن زائدة أي: يسألون المجرمين، وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ هو على تقدير القول أي: يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم: ما سَلَكَكُمْ في سقر، أو يسألونهم قائلين لهم: ما سَلَكَكُمْ في سقر، والجملة على كلا التقديرين في محل نصب على الحال، والمعنى: ما أدخلكم في سقر، تقول سلكت الخيط في كذا: إذا دخلته فيه. قال الكلبي: يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له: يا فلان ما سَلَكَكَ في النار. وقيل: إن الملائكة يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم: ما سَلَكَكُمْ في سقر. قال الفراء: في هذا ما يقوي أن أصحاب اليمين هم الولدان؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب، ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار عليهم فقال: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُومِينَ﴾ أي: من المؤمنين الذين يصلون لله في الدنيا ﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعُ الْمَسْكِينِ﴾ أي: لم ننصدق على المساكين، قيل: وهذان محمولان على الصلاة الواجبة والصدقة الواجبة؛ لأنه لا تعذيب على غير الواجب، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات ﴿وَكُنَّا نَخْضُوعُ خَاخِضِينَ﴾ أي: نخالط أهل الباطل في باطلهم. قال قتادة: كلما غوى غاي غويانا معه. وقال السدي: كنا نكذب مع المكذبين. وقال ابن زيد: نخوض مع الخائضين في أمر محمد ﷺ، وهو قولهم: كاتب مجنون ساحر شاعر ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيَومَ الدِّينِ﴾ أي: بيوم الجزاء والحساب ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَ الْيَقِينَ﴾ وهو: الموت، كما في قوله: «وَأَعْبِدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» [الحجر: 99] ﴿فَمَا تَتَفَعَّلُ شَفَاعَةَ الشَّافِعِينَ﴾ أي: شفاععة الملائكة والنبيين، كما تنفع

محمد ﷺ. وقال أبو رزين: المعنى أنا نذير لكم منها، وقيل: القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ هو بدل من قوله: ﴿لِلْبَشَرِ﴾ أي: نذيراً لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الطاعة أو يتأخر عنها، والمعنى: أن الإنذار قد حصل لكل من آمن وكفر، وقيل: فاعل المشيئة هو الله سبحانه أي: لمن شاء الله أن يتقدم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر، والأول أولى. وقال السدي: لمن شاء منكم أن يتقدم إلى النار المتقدم نكرها، أو يتأخر إلى الجنة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس قال: لما سمع أبو جهل ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾. قال لقريش: تكلنكم أمهاتكم، اسمع ابن أبي كبة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدَّهَم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطش برجل من خزنة جهنم؟ وأخرج ابن مروي عنه في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَنْتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال أبو الأشد: خلوا بيني وبين خزنة جهنم أنا كفنيكم مؤنتهم، قال: وحذت أن النبي ﷺ وصف خزائن جهنم فقال: «كَانَ أَعْيُنُهُمُ الْبَرْقُ، وَكَانَ أَفْوَاهُهُمُ الصَّيَاصِي يَجْرُونَ أَشْعَارَهُمْ، لَهُمْ مِثْلُ قُوَّةِ الثَّقَلَيْنِ، يَقْبَلُ أَحَدُهُمُ بِالْأَمَةِ مِنَ النَّاسِ يَسْوَقُهُمْ عَلَى رَقَبَتِهِ جِبِلٌّ حَتَّىٰ يَرْمِي بِهِمْ فِي النَّارِ فِيرْمِي بِالْجِبِلِّ عَلَيْهِمْ». وأخرج الطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ عن أبي سعيد الخدري: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَنَثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِي بِهِ قَالَ: فَصَعِدْتُ أَنَا وَجَبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا أَنَا بِمَلَكٍ يَقَالَ لَهُ: إِسْمَاعِيلُ، وَهُوَ صَاحِبُ سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ يَدَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ مَعَ كُلِّ مَلَكٍ جُنْدُهُ مِائَةُ أَلْفٍ، وَتَلَا هَذِهِ آيَةَ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾». وأخرج أحمد عن أبي نر قال: قال رسول الله ﷺ: «أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد». وأخرجه الترمذي، وابن ماجه. قال الترمذي: حسن غريب، ويروى عن أبي نر موقوفاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿إِذْ أَنْبَأَ﴾ قال: بدور ظلامه. وأخرج مسدد في مسنده، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ فسكت عني حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان، ناداني يا مجاهد هذا حين دبر الليل. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ قال: من شاء اتبع طاعة الله ومن شاء تأخر عنها.

كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةً ﴿١٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿١٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَنْفَسُونَ ﴿٢٠﴾ عَنِ النَّارِ ﴿٢١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٢٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُومِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعُ الْمَسْكِينِ ﴿٢٤﴾ وَكُنَّا نَخْضُوعُ خَاخِضِينَ ﴿٢٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيَومَ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ حَتَّىٰ تَأْتِيَ الْيَقِينَ ﴿٢٧﴾ فَمَا تَتَفَعَّلُ شَفَاعَةَ الشَّافِعِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا لَمْ عَنِ النَّارِ مُعْرِضِينَ ﴿٢٩﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مَشْتَفِيرَةٌ ﴿٣٠﴾ فَزَتْ مِنْ مَسَرَّةٍ ﴿٣١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٣٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٣٣﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذَكَّرُوا ﴿٣٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوا ﴿٣٥﴾

وقوله (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) استثناء مفرغ من أعم الأحوال. قال مقاتل: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ لهم الهدى ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ أي: هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعاته ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة، فيغفر ذنوبهم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ قال: مأخوذة بعملها. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿إِلَّا أَصْحَابُ اليمين﴾ قال: هم المسلمون. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب: ﴿إِلَّا أَصْحَابُ اليمين﴾ قال: هم أطفال المسلمين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿حَتَّى آتَانَا اليمين﴾ قال: الموت. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن أبي موسى الأشعري في قوله: ﴿فَوَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ قال: هم الرماة رجال القسي. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: القسورة الرجال الرماة القنص. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي جمره قال: قلت لابن عباس: القسورة الأسد، فقال: ما أعلمه بلغة أحد من العرب الأسد هم عصابة الرجال. وأخرج سفيان بن عيينة، وعبد الرزاق، وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿مَنْ قَسْوَرَةٍ﴾ قال: هو ركز الناس يعني: أصواتهم. وأخرج أحمد، والدارمي، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي وصححه، وابن مردويه عن أنس «أن رسول الله ﷺ قال: هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فقال: قال ربكم: أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معي إله، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً، فانا أهل أن أغفر له». وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس مرفوعاً نحوه.

تفسير سورة القيامة

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة القيامة، وفي لفظ سورة لا أقسم بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت سورة لا أقسم بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ① وَلَا أُقِيمُ بِالنَّاسِ الْقَرَامَةِ ② أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ ③ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ④ بَلْ قَدِيرٌ عَلَيْهِ أَنْ تُسَوَّى بَنَاتُهُ ⑤ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ يُفْتَحَرُ ⑥ أَمَّا ⑦ يَحْتَلِ أَيْدَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ⑧ فَإِنَّا بِرَأْيِهِ كَاشِرٌ ⑨ وَخَشَفَ الْقَرَرُ ⑩

الصالحين ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ التذكرة التذكير بمواعظ القرآن، والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها، وانتصاب معرضين على الحال من الضمير في متعلق الجازم والمجرور أي: أي شيء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذي هو مشتمل على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى. ثم شبههم في نفورهم عن القرآن بالحمير فقال: ﴿كَانَهُمْ حَمِيرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ﴾ والجملة حال من الضمير في معرضين على التداخل، ومعنى ﴿مُسْتَنْفَرَةٌ﴾: نافرة، يقال: نفر واستنفر، مثل عجب واستعجب، والمراد الحمير الوحشية. قرأ الجمهور (مستنفرة) بكسر الفاء أي: نافرة، وقرأ نافع، وابن عامر بفتحها أي: منفرة مذعورة، واختار القراءة الثانية أبو حاتم، وأبو عبيد. قال في الكشاف: المستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له، وحملها عليه، ﴿فَوَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أي: من رماة يرمونها، والقسور الرامي، وجمعه قسورة، قاله سعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وابن كيسان، وقيل: هو الأسد، قاله عطاء والكلبى. قال ابن عرفة: من القسر بمعنى القهر؛ لأنه يقهر السباع، وقيل: القسورة أصوات الناس، وقيل: القسورة بلسان العرب الأسد، ولسان الحبشة الرماة. وقال ابن الأعرابي: القسورة أول الليل أي: فرت من ظلمة الليل، وبه قال عكرمة، وأول، وكل شديد عند العرب فهو: قسورة، ومنه قول الشاعر: يا بنت كوني خيرة لخيره أخوالها الحي وأهل القسورة ومنه قول لبيد:

إذا ما هتفنا هتفة في ندينا إنا الرجال العابدون القساور
ومن إطلاقه على الأسد قول الشاعر:

مضمـرتـحـنـره الأبطال كأنه القسور الرمال
﴿بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة بل يريد. قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لمحمد ﷺ: ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك رسول الله. والصحف الكتب واحدها صحيفة، والمنشورة المنشورة المفتوحة، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤَهُ﴾ [الإسراء: 93] قرأ الجمهور (منشورة) بالتشديد. وقرأ سعيد بن جبيرة بالتخفيف. وقرأ الجمهور أيضاً بضم الحاء من صحف. وقرأ سعيد بن جبيرة بإسكانها. ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة وزجرهم فقال: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ يعني: عذاب الآخرة؛ لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات، وقيل: كلا بمعنى حقاً. ثم كرر الردع والزجر لهم فقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ يعني: القرآن، أو حقاً إنه تذكرة، والمعنى: أنه يتذكر به ويتعظ بمواعظه ﴿فَمَنْ شَاءَ تُذَكِّرْهُ﴾ أي: فمن شاء أن يتعظ به اتعظ، ثم رد سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ قرأ الجمهور (يذكرون) بالياء التحتية. وقرأ نافع، ويعقوب بالفوقية، واتفقوا على التخفيف،

حسناً سائغاً. وقيل: اللوامة هي الملوثة المذمومة، فهي صفة ذم، وبهذا احتج من نفى أن يكون قسماً، إذ ليس لنفس العاصي خطر يقسم به. قال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله. والأول أولى ﴿يُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ المراد بالإنسان الجنس، وقيل: الإنسان الكافر، والهزمة للإنكار، وأن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف، والمعنى: ليحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجتمع عظامه بعد أن صارت رفاتاً، فتعيدها خلقاً جديداً، وذلك حسيان باطل، فإننا نجمعها، وما يدل عليه هذا الكلام هو جواب القسم. قال

وَجَعَلَ النَّفْسَ وَالْقَسَمَ ﴿١﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ لَدَنَّهُ ﴿٢﴾ لَآ إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ أَتَسْمَعُ ﴿٤﴾ يُبَيِّنُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ مَا قَدَّمَ وَلَكَ ﴿٥﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿٦﴾ وَلَوْ أَلْفَ مَآذِرٍ ﴿٧﴾ لَا تَعْمَلُهُ بِرَّهَ لَسَانَهُ يُجْعَلُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّفْسِ ﴿٨﴾ إِنَّ عَيْنَا جَمِعْنَاهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٩﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ فَالْحَقُّ قُرْآنَهُ ﴿١٠﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ ﴿١١﴾ فَلَا بَلَّ لِلْيُسُوفِ الْعَاقِبَةُ ﴿١٢﴾ وَتَذَكَّرُونَ الْآخِرَةَ ﴿١٣﴾ دُجِرُوا يَوْمَئِذٍ فَأَمَّا رَبُّكَ ﴿١٤﴾ إِلَهٌ يَبْهَرُ نَاطِرُهُ ﴿١٥﴾ وَدُجِرُوا يَوْمَئِذٍ بِكِبَرِهِ ﴿١٦﴾ تَلْكَ أَنْ يَحْمَلَ بِهَا فَاقِرُهُ ﴿١٧﴾

قوله: ﴿لَا اقسم بيوم القيامة﴾ قال أبو عبيدة، وجماعة المفسرين: إن «لا» زائدة، والتقدير: أقسم. قال السمرقندي: أجمع المفسرون أن معنى لا أقسم: أقسم، واختلفوا في تفسير لا، فقال بعضهم: هي زائدة، وزيلاتها جارية في كلام العرب، كما في قوله: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ [الأعراف: 12] يعني: أن تسجد، و: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ [الحديد: 29] ومن هذا قول الشاعر:

تذكرت ليلي فاعترتني صباية وكاد صميم القلب لا يتقطع
وقال بعضهم: هي رد لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم، أقسم بيوم القيامة، وهذا قول الفراء، وكثير من النحويين، كقول القائل: لا والله، فلا رد لكلام قد تقدمها، ومنه قول الشاعر:

فلا وأبيك ابنه العامري لا يدعى القوم أني أقر
وقيل: هي للنفي، لكن لا لنفي الإقسام، بل لنفي ما ينبئ عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه، كان معنى لا أقسم بكذا: لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك. وقيل: إنها لنفي الإقسام لوضوح الأمر، وقد تقدم الكلام على هذا في تفسير قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة: 75] وقرأ الحسن، وابن كثير في رواية عنه، والزهري، وابن هرمز (لأقسم) بدون ألف على أن اللام لام الابتداء، والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال، وقد اعترض عليه الرازي بما لا يقدح في قوته، ولا يفت في عضد رجحانه، وإقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللوامة، كما أقسم بيوم القيامة، فيكون الكلام في «لا» هذه كالكلام في الأولى، وهذا قول الجمهور. وقال الحسن: أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة. قال الثعلبي: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً، ومعنى ﴿النفس اللوامة﴾: النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أرتد بكذا ما أرتد بكذا، والفاجر لا يعتب نفسه. قال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم تعمله؟ وعلى الخير لم تستكثر منه؟ قال الفراء: ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قالت: هلا أرتدت، وإن كانت عملت سوءاً قالت: ليتني لم أفعل. وعلى هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس، فيكون الإقسام بها

حسناً سائغاً. وقيل: اللوامة هي الملوثة المذمومة، فهي صفة ذم، وبهذا احتج من نفى أن يكون قسماً، إذ ليس لنفس العاصي خطر يقسم به. قال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله. والأول أولى ﴿يُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ المراد بالإنسان الجنس، وقيل: الإنسان الكافر، والهزمة للإنكار، وأن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف، والمعنى: ليحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجتمع عظامه بعد أن صارت رفاتاً، فتعيدها خلقاً جديداً، وذلك حسيان باطل، فإننا نجمعها، وما يدل عليه هذا الكلام هو جواب القسم. قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة ليجمعن العظام للبعث، فهذا جواب القسم. وقال النحاس: جواب القسم محذوف أي: ليعبثن، والمعنى: أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان، وإنما خصّ العظام لأنها قالب الخلق ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ بلى إيجاب لما بعد النفي المنسحب إليه الاستفهام، والوقف على هذا اللفظ وقف حسن، ثم يبتدئ الكلام بقوله: ﴿قادرين﴾ وانتصاب قادرين على الحال أي: بلى نجمعها قادرين، فالحال من ضمير الفعل المقدّر، وقيل للمعنى: بل نجمعها نقدر قادرين. قال الفراء: أي نقدر وتقوى قادرين على أكثر من ذلك. وقال أيضاً: إنه يصلح نصبه على التكرير أي: بلى فليحسبنا قادرين، وقيل التقدير: بلى كنا قادرين. وقرأ ابن أبي عبلة، وابن السميعة (بلى قادرين) على تقدير مبتدأ أي: بلى نحن قادرين، ومعنى ﴿على أن نسوي بنانه﴾: على أن نجمع بعضها إلى بعض، فنردّها كما كانت مع لطافتها وصغرها، فكيف بكبار الأعضاء، فنبه سبحانه بالبيان، وهي الأصابع على بقية الأعضاء، وأن الاقتدار على بعثها وإرجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفصلات والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق، فهذا وجه تخصيصها بالذكر، وبهذا قال الزجاج، وابن قتبية. وقال جمهور المفسرين: إن معنى الآية: أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً، كخف البعير وحافر الحمار صفيحة واحدة لا شقوق فيها، فلا يقدر على أن ينتفع بها في الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة ونحوهما، ولكننا فرقنا أصابعه لينتفع بها. وقيل للمعنى: بل نقدر على أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها، والأول أولى، ومنه قول عنتره:

ولن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانها بالهندوان
فنبه بالبيان على بقية الأعضاء ﴿بلى يريد الإنسان ليفجر إمامه﴾ هو عطف على أيحسب، إما على أنه استفهام مثله، وأضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا، أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام. والمعنى: بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات، وما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة. قال ابن الأنباري: يريد أن يفجر ما امتدّ عمره، وليس في نيته أن يرجع عن ذنب

قال الماوردي: يحتمل وجهين: أحدهما: ابن المفر من الله سبحانه استحياء منه. والثاني: أين المفر من جهنم حذراً منها. وقرأ الجمهور: «أين المفر» بفتح الميم والفاء مصدرأ، كما تقدّم. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة بفتح الميم وكسر الفاء على أنه اسم مكان أي: أين مكان الفرار. وقال الكسائي: هما لغتان مثل مندب ومندب، ومصح ومصح، وقرأ الزهري بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار، ومنه قول امرئ القيس:

مكرّ مفراً مقبلاً مببر معاً كجلود صخر حطه السيل من عل
أي: جيد الفرّ والكركر «كلا لا وزر» أي: لا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله. وقال ابن جبير: لا محيص ولا منعة. والوزر في اللغة: ما يلجأ إليه الإنسان من حصن أو جبل أو غيرهما، ومنه قول طرفة:

ولقد تعلم بكرائنا فاضلوا الرأي وفي الدرع وزر
وقال آخر:

لعمري ما للفتى من وزر من الموت يدركه والكبر
قال السدي: كانوا إذا فزعوا في الدنيا تحصنوا بالجبال، فقال لهم الله: لا وزر يعصمكم مني يومئذ، وكلاً للردع أو لنفي ما قبلها، أو بمعنى حقاً «إلى ريك يومئذ للمستقر» أي: المرجع والمنتهى والمصير لا إلى غيره، وقيل: إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره، وقيل المستقر: الاستقرار حيث يقرّه الله «ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم ولخر» أي: يخبر يوم القيامة بما عمل من خير وشر. وقال قتادة: بما عمل من طاعة وما آخر من طاعة فلم يعمل بها. وقال زيد بن أسلم: بما قدّم من أمواله وما خلف للورثة. وقال مجاهد: بأول عمله وآخره. وقال الضحاك: بما قدّم من فرض وآخر من فرض. قال القشيري: هذا الإنشاء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال، ويجوز أن يكون عند الموت. قال القرطبي: والأول أظهر «بل الإنسان على نفسه بصيرة» ارتفاع بصيرة على أنها خبر الإنسان، على نفسه متعلق ببصيرة. قال الأخفش: جعله هو البصيرة، كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك، وقيل المعنى: إن جوارحه تشهد عليه بما عمل، كما في قوله: «يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» [النور: 24] وأنشد الفراء:

كان على ذي العقل عينا بصيرة بمقعده أو منظره هو ناظر
فيكون المعنى: بل جوارح الإنسان عليه شاهدة. قال أبو عبيدة، والقتيبي: إن هذه الهاء في بصيرة هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة، كما في قولهم: علامة. وقيل: المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير وشر، والتاء على هذا للتأنيث. وقال الحسن: أي: بصير بعيوب نفسه «ولو ألقى معانيه» أي: ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك. يقال: معذرة ومعاذير. قال الفراء: أي: وإن اعتذر فعليه من يكذب عنده. وقال الزجاج: المعاذير

يرتكبه. قال مجاهد، والحسن، وعكرمة، والسدي، وسعيد بن جبير: يقول سوف أتوب، ولا يتوب حتى يأتيه الموت. وهو على أشرف أحواله. قال الضحاك: هو الأمل، يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا، ولا ينكر الموت، والفجور أصله الميل عن الحق، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل، ومنه قول الشاعر:

أقسم بالله أبو حفص عمر ما مسها من نقب ولا ببر
اغفر له اللهم إن كان فجر

وجملة «يسال إيان يوم للقيامة» مستأنفة لبيان معنى يفجر، والمعنى: يسال متى يوم القيامة سؤال استبعاد واستهزاء «فإذا برق البصر» أي: فزعر وتحير من برق الرجل: إذا نظر إلى البرق فدهش بصره. قرأ الجمهور (برق) بكسر الراء. قال أبو عمرو بن العلاء، والزجاج وغيرهما: المعنى تحير فلم يطرف، ومنه قول ذي الرمة:

ولو أن لقمان الحكيم تعرّض لعينيه ميّ بسافرا كاد يبرق
وقال الخليل، والفراء: برق بالكسر: فزع وبهت وتحير، والعرب تقول للإنسان المبهوت: قد برق، فهو بارق، وأنشد الفراء:

ونفسك فانع ولا تنعني ودلو الكلوم ولا تبرق
أي: لا تفزع من كثرة الكلوم التي بك. وقرأ نافع، وإبان عن عاصم (برق) بفتح الراء أي: لمع بصره من شدة شخوصه للموت. قال مجاهد وغيره: هذا عند الموت، وقيل: برق يبرق شق عينيه وفتحهما. وقال أبو عبيدة: فتح الراء وكسرهما لغتان بمعنى «وخسف القمر» قرأ الجمهور (خسف) بفتح الخاء والسين مبنياً للمفاعل. وقرأ ابن أبي إسحاق، وعيسى، والأعرج، وابن أبي عبل، وأبو حيوة بضم الخاء وكسر السين مبنياً للمفعول، ومعنى «خسف القمر»: ذهب ضوؤه، ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا، ويقال: خسف: إذا ذهب جميع ضوؤه، وكسف: إذا ذهب بعض ضوؤه «وجمع الشمس والقمر» أي: ذهب ضوؤهما جميعاً، ولم يقل جمعت لأن التانيث مجازي، قاله المبرد. وقال أبو عبيدة: هو لتغليب المذكر على المؤنث. وقال الكسائي: حمل على معنى جمع النيران. وقال الزجاج، والفراء: ولم يقل جمعت لأن المعنى جمع بينهما في ذهاب نورهما، وقيل: جمع بينهما في طلوعهما من الغرب أسودين مكوّرين مظلّمين. قال عطاء: يجمع بينهما يوم القيامة، ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى. وقيل: تجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار. وقرأ ابن مسعود (وجمع بين الشمس والقمر) «يقول الإنسان يومئذ أين المفر» أي: يقول عند وقوع هذه الأمور أين المفر أي: الفرار، والمفر مصدر بمعنى الفرار. قال الفراء: يجوز أن يكون موضع الفرار، ومنه قول الشاعر:

أين المفر والكباش تنتطح وكل كبش فر منها يفتضح

وقول مجاهد خطأ؛ لأنه لا يقال: نظر إلى كذا بمعنى الانتظار، وإن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، إذا أرادوا الانتظار قالوا: نظرت، كما في قول الشاعر:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفغنني لدى لمُجنِب
فإذا أَرَانَا نَظَرَ الْعَيْنِ قَالُوا: نَظَرْتَ إِلَيْهِ، كما قال الشاعر:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَالنَّجُومَ كَانَهَا مَصَابِيحَ رَهْبَانٍ تَشَبُّ لِفَعَالٍ
وقول الآخر:

إِنِّي إِلَيْكَ لَمَّا وَعَدْتُ لِنَظَرٍ نَظَرَ الْفَقِيرِ إِلَى الْغَنِيِّ الْمَوْسِرِ

أي: انظر إليك نظر نل كما ينظر الفقير إلى الغني، وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جداً. ووجوه مبتدأ، وجاز الابتداء به مع كونه نكرة؛ لأن المقام مقام تفصيل، وناضرة صفة لوجه، ويومئذ ظرف لناضرة، ولو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله: «**ناضرة**» مسوغاً للابتداء بها، ولكن مقام التفصيل بمجرده مسوغ للابتداء بالنكرة «**ووجوه يومئذ بأسرة**» أي: كالحة عابسة كثيبة. قال في الصحاح: بسر الرجل وجهه بسوراً أي: كلعج. قال السدي: بأسرة أي: متغيرة، وقيل: مصفرة، والمراد بالوجوه هنا وجوه الكفار «**تَنْظُرُنَّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقَرَّةٌ**» الفارقة: الداهية العظيمة، يقال: فقرته الفارقة أي: كسرت فقار ظهره. قال قتادة: الفارقة الشر، وقال السدي: الهلاك، وقال ابن زيد: دخول النار. وأصل الفارقة: الوسم على أنف البعير بحديدة، أو نار حتى تخلص إلى العظم، كذا قال الأصمعي، ومن هذا قولهم: قد عمل به الفارقة. قال النابغة:

إِبَالِي قَبِرَ لَا يَزَالُ مَقَابِلِي وَضَرْبَةُ فَاسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاقَرَهُ

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: «**لَا أَقْسَمُ بِيَوْمٍ الْقِيَامَةِ**» قال: يقسم ربك بما شاء من خلقه، قلت: «**لَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ**» قال: النفس اللوامة، قلت: «**أَيَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ**» بلى قاريين على أن نسوي بنانه» قال: لو شاء لجعله خفاً أو حافراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه «**اللَّوَامَةُ**» قال: المنمومة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً قال: التي تلوم على الخير والشر تقول: لو فعلت كذا وكذا. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: تندم على ما فات وتلوم عليه. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً «**بَلَى يَرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ**» قال: يمضي قدماً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو الكافر الذي يكتب بالحساب. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: يعني الأمل، يقول: أعمل ثم أتوب. وأخرج ابن أبي الدنيا في نَمَ الأمل، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في الآية قال: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه،

الستور، والواحد معذار أي: وإن أرحى الستور يريد أن يخفي نفسه فنفسه شاهدة عليه، كذا قال الضحاک، والسدي. والستر بلغة اليمن يقال له: معذار، كذا قال المبرد، ومنه قول الشاعر:

ولكنها ضنت بمنزل ساعة علينا ولطت يومها بالمعازير

والأول أولى، وبه قال مجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبیر، وابن زيد، وأبو العالية، ومقاتل، ومثله قوله: «**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ**» [غافر: 52] وقوله: «**لَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**» [المرسلات: 36] وقول الشاعر:

فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

«**لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانُكَ لَتَعْجَلَ بِهِ**» كان رسول الله ﷺ يحرك شفثيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصاً على أن يحفظه ﷺ فنزلت هذه الآية أي: لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك، ومثل هذا قوله: «**لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**» [طه: 114] الآية «**إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُ**» في صدرك حتى لا يذهب عليك منه شيء «**وَقُرْآنَهُ**» أي: إثبات قراءته في لسانك. قال الفراء: القراءة والقرآن مصدران. وقال قتادة: «**فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**» أي: شرائعه وأحكامه «**فَإِذَا قَرَأَهُ**» أي: أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل «**فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**» أي: قراءته «**ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**» أي: تفسير ما فيه من الحلال والحرام، وبيان ما أشكل منه. قال الزجاج: المعنى علينا أن ننزله عليك قرآناً عربياً فيه بيان للناس. وقيل المعنى: إن علينا أن نبينه بلسانك «**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**» كلاً للردع عن العجلة، والترغيب في الأناة، وقيل: هي ردع لمن لا يؤمن بالقرآن ويكون بيناً من الكفار. قال عطاء: أي: لا يؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه. قرأ أهل المدينة، والكوفيون (بل تحبون) (وتذرون) بالفوقية في الفعلين جميعاً. وقرأ الباقرن بالتحية فيهما، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب لهم تقريراً وتوبيخاً، وعلى القراءة الثانية يكون الكلام عائداً إلى الإنسان لأنه بمعنى الناس، والمعنى: تحبون الدنيا، وتتركون «**الْآخِرَةَ**» فلا تعملون لها «**وَجُوهَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ**» أي: ناعمة غضة حسنة، يقال: شجر ناضر، وروض ناضر أي: حسن ناعم، وناضرة العيش حسنة وبهجته. قال الواحدي، والمفسرون: يقولون مضئئة مسفرة مشرقة «**إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ**» هذا من النظر أي: إلى خالقها ومالك أمرها ناظرة أي: تنظر إليه، هكذا قال جمهور أهل العلم، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة، كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر. قال ابن كثير: وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام. وقال مجاهد: إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب، وروي نحوه عن عكرمة، وقيل: لا يصح هذا إلا عن مجاهد وحده. قال الأزهري:

نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة نحوه. وقد قدمنا أن لحديث الرؤية متواترة فلا نطيل بذكرها، وهي تأتي في مصنف مستقل، ولم يتمسك به لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله. وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والدارقطني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخمسه، وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غنوة، وعشية، ثم قرأ رسول الله ﷺ **«وَجْوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة»**». وأخرجه أحمد في المسند من حديثه بلفظ: «إن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين». وأخرج النسائي، والدارقطني وصححه، وأبو نعيم عن أبي هريرة قال: «قلنا: يا رسول الله هل نرى ربنا؟ قال: هل ترون الشمس في يوم لا غيم فيه، وترون القمر في ليلة لا غيم فيها؟ قلنا: نعم، قال: فإنكم سترون ربكم عز وجل، حتى إن أحكم ليحاضر ربه محاضرة، فيقول: عبدي هل تعرف نذب كذا وكذا؟ فيقول: ألم تغفر لي؟ فيقول: بمغفرتي صرت إلى هذا».

قَالَ إِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ رُبَّهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ وَالْغَنَى
أَنشَأَ لِنَفْسِهِ إِنَّكَ لَرَبِّكَ لِتُحْثِثُ لَنَفْسِكَ فَلَا سَكْنَ وَلَا مَلَأَ
وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ دَهَى إِلَىٰ أَعْيُنِهِ يَتَمَنَّاهُ أَوَلَيْكَ فَالُكُ الْفُلُكُ ثُمَّ
أَوَلَيْكَ فَالُكُ الْفُلُكُ أَوَلَيْكَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَمُرَّكَ سَكَنُ أَوَلَيْكَ فَالُكُ الْفُلُكُ
يَتَمَنَّاهُ ثُمَّ كَانَ عَقْدًا فَكَانَ سَكَنُكُمْ جَعَلَ بَيْنَهُ الْوَجْهَيْنِ الْأَكْبَرَ وَالْأَكْبَرُ
أَتَيْتُ ذَلِكَ وَتَدِيرُ عَنْ أَنْ يَخُجَّ لِلْوَكْ

قوله: **«كلا»** ردع وزجر أي: بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة، ثم استأنف، فقال: **«إذا بلغت التراقي»** أي: بلغت النفس أو الروح التراقي، وهي جمع ترقية، وهي عظم بين شفرة النحر والعاتق، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت، ومثله قوله: **«فلولا إذا بلغت الحلقوم»** [الواقعة: 83] وقيل معنى **«كلا»**: حقاً أي: حقاً أن المساق إلى الله إذا بلغت التراقي، والمقصود تنكيرهم شدة الحال عند نزول الموت. قال دريد بن الصمة:

وَرَبِّ كَرِيهَةً دَافَعَتْ عَنْهَا وَقَدْ بَلَغَتْ نَفْسُهَا التَّرَاقِي
«وقيل من راق» أي: قال من حضر صاحبها: من يرقيه ويشتفي برقيقته. قال قتادة: التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً، وبه قال أبو قلابة، ومنه قول الشاعر:

هَلْ لَفْتِي مِنْ بَنَاتِ الْمَوْتِ مِنْ وَاقِي أَمْ هَلْ لَهْ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقِي
وقال أبو الجوزاء: هو من رقى يرقى إذا صعد، والمعنى:

والبيهقي في الشعب عنه أيضاً **«بل يريد الإنسان ليفجر أمامه»** يقول: سوف أتوب **«يسأل إيان يوم القيامة»** قال: يقول متى يوم القيامة؟ قال: فبين له **«إذا برق للبصر»**. وأخرج ابن جرير عنه قال: **«إذا برق للبصر»** يعني: الموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: **«لا وزر»** قال: لا حصن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: **«لا وزر»** قال: لا حصن ولا ملجأ، وفي لفظ: لا حرز، وفي لفظ: لا جبل. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: **«يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمئذٍ بما قَدَّم** **«وآخر»** قال: بما قَدَّم من عمل، وآخر من سنة عمل بها من بعده من خير أو شر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بما قَدَّم من المعصية وآخر من الطاعة فينبؤ بذلك. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عنه في قوله: **«بل الإنسان على نفسه بصيرة»** قال: شهد على نفسه وحده **«ولو ألقى معانيره»** قال: ولو اعتذر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **«بل الإنسان على نفسه بصيرة»** قال: سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه **«ولو ألقى معانيره»** قال: ولو تجرد من ثيابه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفثه مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه، فأنزل الله **«لا تحرك به لسانك لتعجل به * إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعَهُ وَقُرْآنَهُ»** قال: يقول إِنْ عَلَيْنَا أَنْ نجعله في صدرك ثم نقرأه **«فإذا قرأناه»** يقول: إذا أنزلناه عليك **«فاتبع قرآنه»** فاستمع له وأنصت **«ثم إِنْ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»** أَنْ نبينه بلسانك، وفي لفظ: علينا أَنْ نقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق. وفي لفظ: استمع، فإذا ذهب قراه كما وعده الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **«فإذا قرأناه»** قال: بيناه **«فاتبع قرآنه»** يقول: اعمل به. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن مسعود في قوله: **«كلا بل تحبون العجلة»** قال: عجلت لهم الدنيا شرها وخيرها، وغيبت الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس **«وجوه يومئذ ناضرة»** قال: ناعمة. وأخرج ابن المنذر، والأجري في الشريعة، واللالكائي في السنة، والبيهقي في الرؤية عنه **«وجوه يومئذ ناضرة»** قال: يعني: حسننها **«إلى ربها ناظرة»** قال: نظرت إلى الخالق. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً **«إلى ربها ناظرة»** قال: تنظر إلى وجه ربها. وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة»** قال: ينظرون إلى ربهم بلا كيفية، ولا حد محسوس، ولا صفة معلومة». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: «قال الناس: يا رسول الله هل

وقد دانته، وأصله من الولي، وهو القرب، وأنشد الفراء:
فاولى أن يكون لك الولاء
أي: قارب أن يكون لك، وأنشد أيضاً:
أولى لمن هاجت له أن يكمد

﴿يُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَرَكَ سُدًى﴾ أي: هملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يحاسب ولا يعاقب، وقال السدي: معناه المهمل، ومنه إبل سدى أي: ترعى بلا راع، وقيل المعنى: يحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث، وجملة ﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْهُ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنٍ﴾ مستأنفة: أي: ألم يك ذلك الإنسان قطرة من مني يراق في الرحم، وسمي المنى منياً لإراقته، والنطفة: الماء القليل، يقال نطف الماء إذا قطر. قرأ الجمهور (ألم يك) بالتحية على إرجاع الضمير إلى الإنسان. وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخاً له. وقرأ الجمهور أيضاً (تمني) بالفوقية على أن الضمير للنطفة. وقرأ حفص، وابن محيصن، ومجاهد، ويعقوب بالتحية على أن الضمير للمني، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو، واختارها أبو حاتم ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً﴾ أي: كان بعد النطفة علقه أي: مماً ﴿فَخُلِقَ﴾ أي: فقدر بأن جعلها مضغة مخلقة ﴿فَسَوَّى﴾ أي: فعكله وكمل نشاته، ونفخ فيه الروح ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي: حصل من الإنسان، وقيل: من المنى ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الصنفين من نوع الإنسان. ثم بين ذلك فقال: ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ أي: الرجل والمرأة ﴿أَلَيْسَ لَكُ﴾ أي: ليس لك الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه ﴿بِقَادَرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ أي: يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا، فإن الإعادة أهون من الابتداء، وأيسر مؤنة منه. قرأ الجمهور (بقادر) وقرأ زيد بن علي (يقدر) فعلاً مضارعاً، وقرأ الجمهور (يحيي) بنصبه بأن. وقرأ طلحة بن سليمان، والفياض بن غزوان بسكونها تخفيفاً، أو على إجراء الوصل مجرى الوقف، كما مر في مواضع.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قال: تنتزع نفسه حتى إذا كانت في تراقيه، قيل: من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب. ﴿وَوَلَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال: التفت عليه الدنيا والآخرة، وملائكة العذاب أيهم يرقى به. وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قل: من راق يرقى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وَوَلَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، فتلقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿يَتَمَطَّى﴾ قال: يختال. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ أشيء قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل من قبل نفسه، أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزله الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

من يرقى بروحه إلى السماء ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل: إنه يقول ذلك ملك الموت، وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قريباها ﴿وَوُطِّنَ أَنَّهُ الْفَرَّاقُ﴾ أي: وأيقن الذي بلغت روحه التراقي أنه الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد ﴿وَوَلَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به. وقال جمهور المفسرين: المعنى تتابعت عليه الشدائد. وقال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن. وقال زيد بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت، وقيل: ماتت رجلاه ويبست ساقاه ولم تحملاه، وقد كان جواراً عليهما. وقال الضحاک: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه. وبه قال ابن زيد. والعرب لا تذكر الساق إلا في الشدائد الكبار والمحن العظام، ومنه قولهم: قامت الحرب على ساق. وقيل: الساق الأول تعذيب روحه عند خروج نفسه، والساق الآخر شدة البعث وما بعده ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسَاقُ﴾ أي: إلى خالقك يوم القيامة المرجع، وذلك جمع العباد إلى الله بساقون إليه ﴿فَلَا صَدُوقَ وَلَا صُلَى﴾ أي: لم يصنق بالرسالة ولا بالقرآن، ولا صلى لربه، والضمير يرجع إلى الإنسان المذكور في أول هذه السورة. قال قتادة: فلا صنق بكتاب الله ولا صلى لله، وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببينه. قال الكسائي: لا بمعنى لم، وكذا قال الأخفش: والعرب تقول: لا ذهب أي: لم يذهب، وهذا مستفيض في كلام العرب، ومنه: إن تغفر اللهم تغفر جماً وإني عبيد لك لا إلهما ﴿وَلَكِنْ كَذِبٌ وَقَوْلِي﴾ أي: كذب بالرسول وبما جاء به، وتولى عن الطاعة والإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أي: يتبختر ويختال في مشيته افتخاراً بذلك. وقيل: هو مأخوذ من المطي، وهو الظهر، والمعنى: يلوي مطاه. وقيل: أصله يتمطط، وهو التمدد والتثاقل: أي: يتثاقل ويتكاسل عن الداعي إلى الحق ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى * ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ أي: وليك الوليل، وأصله: أولاك الله ما تكرهه، واللام مزيدة، كما في ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: 72] وهذا تهديد شديد، والتكرير للتأكيد أي: يتكرر عليك ذلك مرة بعد مرة. قال الواحدي: قال المفسرون: أخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل، ثم قال: ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ فقال أبو جهل: بأي شيء تهدنني، لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً، وإني لأعز أهل هذا الوادي، فنزلت هذه الآية. وقيل معناه: الوليل لك، ومنه قول الخنساء:

هممت بنفسي بعض الهمو م فاولى لنفسي أولى لها
وعلى القول بأنه الوليل، قيل: هو من المقلوب كأنه قيل: أول لك، ثم أخر الحرف المعتل. قيل: ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات، والويل لك حياً، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تنخل النار. وقيل المعنى: إن الذم لك أولى لك من تركه. وقيل المعنى: أنت أولى وأجدر بهذا العذاب، قاله ثعلب. وقال الأصمعي: أولى في كلام العرب معناه مقاربة الهلاك. قال المبرد: كأنه يقول: قد وليت الهلاك

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ حتى إذا أتى على نكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه، فقال النبي ﷺ: مات شوقاً إلى الجنة. وأخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعاً مرسلاً. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن منيع، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، والضياء عن أبي نر قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطلت السماء وحق لها أن تظط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما لتلدنتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله عز وجل».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّكْنُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن طُفْلَةٍ مَّضْجُوعَةٍ ﴿٢﴾ فَجَعَلْنَاهُ سَيْمِياً بَعِيْرًا ﴿٣﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا رَّوْمًا كَعُورًا ﴿٤﴾ إِنَّا أَعْنَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا رَّوْمًا وَأَعْلَنَّا لَكُمُ الْمَوْتِ ﴿٥﴾ إِذَا الْأَبْزَارُ يَسْتَوُونَ ﴿٦﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿٧﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿٨﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿٩﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿١٠﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿١١﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿١٢﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿١٣﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿١٤﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿١٥﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿١٦﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿١٧﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿١٨﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿١٩﴾ مَن يَكُنْ كَانَ زِينَتُهُ مَكْنُورًا ﴿٢٠﴾

حكى الواحدي عن المفسرين، وأهل المعاني أن ﴿هَلْ﴾ هنا بمعنى قد، وليس باستفهام، وقد قال بهذا سيبويه، والكسائي، والفراء، وأبو عبيدة، قال الفراء: هل تكون جحداً، وتكون خبراً، فهذا من الخبر؛ لأنك تقول: هل أعطيتك تقززه بانك أعطيت، والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا، وقيل: هي وإن كانت بمعنى قد، ففيها معنى الاستفهام، والأصل: أهل أتى، فالمعنى: أقدم أتى، والاستفهام للتقرير والتقريب، والمراد بالإنسان هنا آدم، قاله قتادة، والثوري، وعكرمة، والسدي وغيرهم ﴿حِينَ مِنَ الدَّهْرِ﴾ قيل: أربعون سنة قيل أن ينفخ فيه الروح، وقيل: إنه خلق من طين أربعين سنة، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة. وقيل: الحين المذكور هنا لا يعرف مقداره، وقيل المراد بالإنسان بنو آدم، والحين مدة الحمل، وجملة ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّكْنُورًا﴾ في محل نصب على الحال من الإنسان، أو في محل رفع صفة لحين. قال الفراء، وقطرب، وشعلب: المعنى أنه كان جسداً مصوراً تراباً وطيناً لا ينكر، ولا يعرف ولا يدري ما اسمه، ولا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار منكوراً. وقال يحيى بن سلام: لم يكن شيئاً منكوراً في الخلق، وإن كان عند الله شيئاً منكوراً، وقيل: ليس المراد بالذكر هنا الإخبار، فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم، بل هو الذكر بمعنى

وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿أَنْ يَتْرُكَ سَدًى﴾ قال: هملأ. وأخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري عن صالح أبي الخليل قال: «كان النبي ﷺ إذا قرأ هذه الآية ﴿الَيْسَ ثَلَاثٌ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ قال: سبحانك اللهم، وبلى». وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَيْسَ ثَلَاثٌ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «سبحانك ربي، وبلى». وأخرج ابن النجار في تاريخه عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عند قراءته لهذه الآية: «بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين». وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾، فانتفى إلى آخرها: ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: 1-8] فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ ﴿لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فانتفى إلى قوله: ﴿الَيْسَ ثَلَاثٌ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فبلغ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: 50] فليقل: آمنا بالله. وفي: إسناده رجل مجهول. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأت ﴿لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فبلغت: ﴿الَيْسَ ثَلَاثٌ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ فقل: بلى».

تفسير سورة الإنسان

قال الجمهور: هي مدنية. وقال مقاتل، والكلبي: هي مكية. وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وقيل: فيها مكى من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: 23 - 31] إلى آخر السورة، وما قبله مدني. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، وابن عساکر عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «سل، واستفهم، فقال: يا رسول الله، فضلتكم علينا بالألوان والصور والنبوة، أفرأيت إن أمنت بما أمنت به، وعملت بما عملت به: أني كائن معك في الجنة، قال: نعم، والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام، ثم قال: من قال: لا إله إلا الله كان له عهد عند الله. ومن قال: سبحان الله ويحمده كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ونزلت هذه السورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: 1 - 20] إلى قوله: ﴿مَلَكًا كَبِيرًا﴾ فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عينك في الجنة، قال: نعم، فاشتكى حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يبله في حفرة بيده. وأخرج أحمد في الزهد عن محمد بن مطرف قال: حدثني الثقة: «أن رجلاً أسود كان يسأل رسول الله ﷺ عن التسبيح والتهليل، فقال له عمر بن الخطاب: أكثر على رسول الله، فقال: مه يا عمر. وأنزلت على النبي

﴿إِذَا هِيَ إِذَا شَرِطِيَّة زَيْدَت بَعْدَهَا مَا أَيْ: بَيْنَا لَهُ الطَّرِيقَ إِنْ شَكَرَ وَإِنْ كَفَرَ. وَاخْتَارَ هَذَا الْفَرَاءَ، وَلَا يَجِيزُهُ الْبَصْرِيُّونَ؛ لِأَنَّهُ إِنْ الشَّرِطِيَّة لَا تَدْخُلُ عَلَى الْأَسْمَاءِ إِلَّا أَنْ يَضْمَرَ بَعْدَهَا فِعْلٌ، وَلَا يَصِحُّ هُنَا إِضْمَارُ الْفِعْلِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُلْزَمُ رَفْعُ شَاكِرًا وَكَفُورًا. وَيُمْكِنُ أَنْ يَضْمَرَ فِعْلٌ يَنْصَبُ شَاكِرًا وَكَفُورًا، وَتَقْدِيرُهُ: إِنْ خَلَقْنَاهُ شَاكِرًا فَشَكَرَ، وَإِنْ خَلَقْنَاهُ كَافِرًا فَكَفَرَ، وَهَذَا عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) بِكَسْرِ هَمْزَةِ إِمَّا. وَقَرَأَ أَبُو السَّمَاكِ، وَأَبُو الْعَجَّاجِ بِفَتْحِهَا، وَهِيَ عَلَى الْفَتْحِ إِمَّا الْعَاطِفَةُ فِي لُغَةِ بَعْضِ الْعَرَبِ، أَوْ هِيَ التَّفْصِيلِيَّةُ، وَجَوَابُهَا مَقْدَرٌ، وَقِيلَ: انْتَصَبَ شَاكِرًا وَكَفُورًا بِإِضْمَارِ كَانَ، وَالتَّقْدِيرُ: سَوَاءٌ كَانَ شَاكِرًا أَوْ كَانَ كَفُورًا. ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ مَا أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ قَرَأَ نَافِعٌ، وَالْكَسَائِيُّ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ، وَهَشَامٌ عَنْ ابْنِ عَامِرٍ (سَلَاسِلًا) بِالتَّنْوِينِ، وَوَقَّفَ قَبْلَ ابْنِ كَثِيرٍ، وَحَمْزَةً بِغَيْرِ أَلِفٍ، وَالْبَاقُونَ وَقَفُوا بِأَلِفٍ. وَوَجْهٌ مَنْ قَرَأَ بِالتَّنْوِينِ فِي سَلَاسِلٍ مَعَ كَوْنِ فِيهِ صِيغَةٌ مُنْتَهَى الْجُمُوعِ أَنَّهُ قَصْدٌ بِذَلِكَ التَّنَاسُبِ؛ لِأَنَّهُ مَا قَبْلَهُ وَهُوَ ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، وَمَا بَعْدَهُ وَهُوَ ﴿أَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ مُنَوَّنٌ، أَوْ عَلَى لُغَةٍ مَنْ يَصْرِفُ جَمِيعَ مَا لَا يَنْصَرِفُ، كَمَا حَكَاهُ الْكَسَائِيُّ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْكُوفِيِّينَ عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ. قَالَ الْأَخْفَشُ: سَمِعْنَا مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَصْرِفُ كُلَّ مَا لَا يَنْصَرِفُ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَسْمَاءِ الصَّرْفُ، وَتَرَكَ الصَّرْفَ لِعَارِضٍ فِيهَا. قَالَ الْفَرَاءُ: هُوَ عَلَى لُغَةٍ مَنْ يَجْرُ الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا إِلَّا قَوْلَهُمْ: هُوَ أَظْرَفُ مِنْكَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَجْرُونَ، وَأَنْشَدَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي ذَلِكَ قَوْلَ عَمْرِو بْنِ كَثُومٍ:

كَانَ سَيُوفُنَا فِينَا وَفِيهِمْ مَخَارِيقُ بَايَدِي لِأَعْبِينَا
وَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يُزِيدُ رَأْيَتَهُمْ خَضَعَ الرِّقَابَ نَوَاسِ الْأَبْصَارِ
بِكَسْرِ السَّيْنِ مِنْ نَوَاسِ، وَقَوْلُ لَبِيدٍ:
وَحَسْرَ أَسْتَارَ دَعَوْنِي لِحَتْفِهَا بِمَعَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَعْلَاقِهَا
وَقَوْلُهُ أَيْضًا:

فَضْلًا وَنُوكْرَمَ يَعِينُ عَلَى النَّدَى سَمَحَ لَشُوبِ رَغَائِبِ غَنَامِهَا
وَقِيلَ: إِنَّ التَّنْوِينَ لِمُوَافَقَةِ رِسْمِ الْمُصَاحِفِ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ وَالْكَوْفِيَّةِ فَإِنَّهَا فِيهَا بِالْأَلِفِ، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا التَّنْوِينَ بَدَلَ مِنْ حَرْفِ الْإِطْلَاقِ، وَيَجْرِي الْوَصْلُ مَجْرَى الْوَقْفِ، وَالسَّلَاسِلُ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا، وَالْخِلَافُ فِيهَا هَلْ هِيَ الْقَيُودُ، أَوْ مَا يَجْعَلُ فِي الْأَعْنَاقِ، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

..... وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بِالرِّقَابِ السَّلَاسِلُ وَالْأَغْلَالُ
جَمَعَ غُلٌّ تَغْلُّ بِهِ الْأَيْدِي إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَالسَّعِيرُ: الْوَقُودُ الشَّدِيدُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ السَّعِيرِ، ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ مَا أَعَدَّهُ لِلشَّاكِرِينَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَاسٍ﴾ الْأَبْرَارُ: أَهْلُ الطَّاعَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالصَّدَقِ، جَمَعَ بَرٌّ أَوْ بَارٌّ. قَالَ فِي الصَّحَاحِ: جَمَعَ الْبَرُّ الْأَبْرَارَ، وَجَمَعَ الْبَارُّ الْبِرَّةَ، وَفُلَانٌ يَبْرُ خَالِقَهُ وَيَبْرِدُهُ أَيْ: يَطْبِيعُهُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: الْبَرُّ الَّذِي لَا يُؤْذِي الذَّرَّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْأَبْرَارُ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ حَقَّ اللَّهِ وَيُؤْفِقُونَ بِالنَّذْرِ.

الْخَطَرُ وَالشَّرَفُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَنُكَرُّ لَكَ وَلِقَوْمُكَ﴾ [الزَّخْرَفُ: 44]. قَالَ الْقَشِيرِيُّ: مَا كَانَ مَنكُورًا لِلخَلْقِ وَإِنْ كَانَ مَنكُورًا لِلَّهِ سَبْحَانَهُ. قَالَ الْفَرَاءُ: كَانَ شَيْئًا وَلَمْ يَكُنْ مَنكُورًا. فَجَعَلَ النَّفْيَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْقَيْدِ، وَقِيلَ الْمَعْنَى: قَدْ مَضَتْ أَزْمَةٌ وَمَا كَانَ أَدَمَ شَيْئًا، وَلَا مَخْلُوقًا وَلَا مَنكُورًا لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلِيقَةِ. وَقَالَ مِقَاتِلٌ: فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَتَقْدِيرُهُ: هَلْ أَتَى حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَنكُورًا؛ لِأَنَّهُ خَلَقَهُ بَعْدَ خَلْقِ الْحَيَوَانَ كُلِّهِ، وَلَمْ يَخْلُقْ بَعْدَهُ حَيَوَانَ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ هُنَا ابْنُ أَدَمَ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: مَنْ غَيْرُ خِلَافٍ، وَالنُّطْفَةُ: الْمَاءُ الَّذِي يَقْطُرُ، وَهُوَ الْمَنْيَ، وَكُلُّ مَاءٍ قَلِيلٍ فِي وَعَاءٍ فَهُوَ نُطْفَةٌ، وَجَمْعُهَا نُطَفٌ، وَ ﴿أَمْشَاجٌ﴾ صِفَةُ لِنُطْفَةٍ، وَهِيَ جَمْعُ مَشِجٍ أَوْ مَشِيجٍ، وَهِيَ الْأَخْلَاطُ، وَالْمُرَادُ: نُطْفَةُ الرَّجُلِ وَنُطْفَةُ الْمَرْأَةِ وَاخْتِلَاطُهُمَا. يَقَالُ: مَشِجٌ هَذَا بِهَذَا، فَهُوَ مَمْشُوجٌ أَيْ: خَلَطَ هَذَا بِهَذَا فَهُوَ مَخْلُوطٌ. قَالَ الْمُبَرِّدُ: مَشِجٌ يَمْشِجُ إِذَا اخْتَلَطَ، وَهُوَ هُنَا اخْتِلَاطُ النُّطْفَةِ بِالْبَدَنِ. قَالَ رُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ:

يَطْرَحُنْ كُلَّ مَعْجَلٍ مَشَاجٍ لَمْ يَكْسُ جِلْدًا مِنْ دَمِ أَمْشَاجٍ
قَالَ الْفَرَاءُ: أَمْشَاجٌ اخْتِلَاطُ مَاءِ الرَّجُلِ وَمَاءِ الْمَرْأَةِ، وَالْدَمُ وَالْعَلَقَةُ، وَيُقَالُ مَشِجٌ هَذَا: إِذَا خَلَطَ، وَقِيلَ الْأَمْشَاجُ: الْحَمْرَةُ فِي الْبَيَاضِ وَالْبَيَاضُ فِي الْحَمْرَةِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَهَذَا قَوْلٌ يَخْتَارُهُ كَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ اللُّغَةِ. قَالَ الْهَلْهَلِيُّ:

كَانَ الرِّيشُ وَالْفُوقِيْنَ مِنْهُ حِلَافُ النِّصْلِ نِيْطُ بِهِ مَشِيجٌ
وَذَلِكَ لِأَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضٌ غَلِيْظٌ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيْقٌ، فَيَخْلُقُ مِنْهُمَا الْوَلَدُ. قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ: الْأَمْشَاجُ: الْأَخْلَاطُ لِأَنَّهَا مَمْتَزِجَةٌ مِنْ أَنْوَاعٍ يَخْلُقُ الْإِنْسَانُ مِنْهَا وَطِبَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ. وَقِيلَ: الْأَمْشَاجُ لَفْظٌ مُفْرَدٌ كَبْرَمَةً أَعْشَارَ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا وَقَوْعُهُ نَعْتًا لِنُطْفَةٍ، وَجُمْلَةً ﴿نَبْتَلِيْهِ﴾ فِي مَحَلِّ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ خَلَقْنَا أَيْ: مَرِيْبِينَ ابْتِلَاءً، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْإِنْسَانِ، وَالْمَعْنَى: نَبْتَلِيْهِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَبِالتَّكْلِيفِ. قَالَ الْفَرَاءُ: مَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ نَبْتَلِيْهِ، وَهِيَ: مُقَدِّمَةٌ مَعْنَاهَا التَّأْخِيرُ؛ لِأَنَّ الْإِبْتِلَاءَ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ تِمَامِ الْخَلْقَةِ، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْحَالُ مُقَدَّرَةً، وَقِيلَ: مُقَارَنَةً. وَقِيلَ: مَعْنَى الْإِبْتِلَاءِ: نَقْلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ، وَالْأَوَّلُ أَوَّلِي، ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ أَعْطَاهُ مَا يَصِحُّ مَعَهُ الْإِبْتِلَاءُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أَيْ: بَيْنَا لَهُ، وَعَرَّفْنَاهُ طَرِيقَ الْهَدَى وَالضَّلَالِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [الْبَلَدُ: 10] قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ بَيْنَا السَّبِيلَ إِلَى الشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ، وَالسَّدِيُّ، وَأَبُو صَالِحٍ: السَّبِيلُ هُنَا خُرُوجُهُ مِنَ الرَّحِمِ، وَقِيلَ: مَنَافِعُهُ وَمَضَارُّهُ الَّتِي يَهْتَدِي إِلَيْهَا بِطَبْعِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ، وَانْتَصَابَ شَاكِرًا وَكَفُورًا عَلَى الْحَالِ مِنْ مَفْعُولٍ هَدَيْنَاهُ أَيْ: مَكَانَهُ مِنْ سُلُوكِ الطَّرِيقِ فِي حَالَتِهِ جَمِيعًا، وَقِيلَ: عَلَى الْحَالِ مِنْ سَبِيلٍ عَلَى الْمَجَازِ أَيْ: عَرَّفْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا سَبِيلًا شَاكِرًا وَإِمَّا سَبِيلًا كَفُورًا. وَحَكَى مَكِّيٌّ عَنِ الْكُوفِيِّينَ أَنَّ قَوْلَهُ:

ويغفر إلى هنا وهنا. قال مجاهد: يقوبونها حيث شاءوا، وتتبعهم حيث مالوا مالت معهم، والجملة صفة أخرى لعيناً، وجملة ﴿يُوفُونَ بِالْذَّنْرِ﴾ مستأنفة مسوقة لبیان ما لأجله رزقوا ما نكر، وكذا ما عطف عليها، ومعنى الذنر في اللغة الإيجاب، والمعنى: يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات. قال قتادة، ومجاهد: يوفون بطاعة الله من الصلاة والحج ونحوهما. وقال عكرمة: يوفون إذا نذروا في حق الله سبحانه، والذنر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه، فالمعنى: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم. قال الفراء: في الكلام إضمار أي: كانوا يوفون بالذنر في الدنيا. وقال الكلبي: يوفون بالعهد أي: يتممون العهد. والأولى حمل الذنر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص ﴿وَيُخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ المراد يوم القيامة، ومعنى استطارة شره فشوه وانتشاره، يقال: استطار يستطير استطارة، فهو مستطير، وهو استفعل من الطيران، ومنه قول الأعشى:

فباتت وقد أثارت في الغوا صدعاً على نايها مستطيراً

والعرب تقول: استطار الصدع في القارورة والزجاجة: إذا امتد، ويقال استطار الحريق: إذا انتشر. قال الفراء: المستطير المستطيل. قال قتادة: استطار شر ذلك اليوم حتى ملا السموات والأرض. قال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات، فانشقت وتناثرت الكواكب وفزعت الملائكة، وفي الأرض نسفت الجبال وغارت المياه ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أي: يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام على حبه لئيم وقلته عندهم. قال مجاهد: على قلته، وحبه إياه وشهوتهم له؛ فقلته: على حبه في محل نصب على الحال أي: كائنين على حبه، ومنه قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] وقيل: على حب الإطعام لرغبتهم في الخير. قال الفضيل بن عياض: على حب إطعام الطعام. وقيل: الضمير في حبه يرجع إلى الله أي: يطعمون الطعام على حب الله أي: يطعمون إطعاماً كائناً على حب الله، ويؤيد هذا قوله: ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ والمسكين ذو المسكنة، وهو الفقير، أو من هو أفقر من الفقير، والمراد باليتيم يتامى المسلمين، والأسير الذي يؤسر فيحبس. قال قتادة، ومجاهد: الأسير المحبوس. وقال عكرمة: الأسير العبد. وقال أبو حمزة الثمالي: الأسير المرأة. قال سعيد بن جبیر: نسخ هذا الإطعام آية الصدقات، وآية السيف في حق الأسير الكافر. وقال غيره: بل هي محكمة، وإطعام المسكين واليتيم على التطوع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام، وجملة ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول أي: يقولون إنما نطعمكم، أو قائلين إنما نطعمكم يعني: أنهم لا يتوقعون المكافأة ولا يريون ثناء الناس عليهم بذلك. قال الواحدي: قال المفسرون: لم يستكملوا بهذا، ولكن علمه الله من قلوبهم فأنشأ عليهم، وعلم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك

والكأس في اللغة هو الإناء الذي فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسم كأساً، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة، بل يكون من الزجاج ومن الذهب والفضة والصيني وغير ذلك، وقد كانت كأسات العرب من أجناس مختلفة، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر، كما في قول الشاعر:

وكأس شربت على لذة وأخرى تدلويت منها بها

﴿كَانَ مَزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي: يخالطها، وتمزج به، يقال: مزجه يمزجه مزجاً أي: خلطه يخلطه خلطاً، ومنه قول الشاعر:

كان سببية من بيت راس كان مزاجها عسل وماء
وقول عمرو بن كلثوم:

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمين

معنقة كان الخص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
ومنه مزاج البدين، وهو ما يمازجه من الأخلاط، والكافور قيل: هو اسم عين في الجنة يقال لها: الكافوري تمزج خمر الجنة بماء هذه العين. وقال قتادة، ومجاهد: تمزج لهم بالكافور وتختلجهم بالمسك. وقال عكرمة: مزاجها طعمها، وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها. وقيل: إنما أراد الكافور في بياضه وطيب رائحته ويرده، لأن الكافور لا يشرب، كما في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ [الكهف: 96] أي: كنار. وقال ابن كيسان: طيبها المسك والكافور والزنجبيل. وقال مقاتل: ليس هو كافور الدنيا، وإنما سمي الله ما عنده بما عنكم حتى تهدي له القلوب، والجملة في محل جر صفة لكأس. وقيل: إن كان هنا زائدة أي: من كأس مزاجها كافوراً ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ انتصاب عيناً على أنها بدل من كافوراً؛ لأن ماها في بياض الكافور. وقال مكي: إنها بدل من محل ﴿مِنْ كَأْسٍ﴾ على حذف مضاف، كأنه قيل: يشربون خمرأ خمر عين، وقيل: إنها منتصبه على أنها مفعول يشربون أي: عيناً من كأس، وقيل: هي منتصبه على الاختصاص، قاله الأخفش، وقيل: منتصبه بإضمار فعل يفسره ما بعده، أي: يشربون عيناً يشرب بها عباد الله، والأول أولى، وتكون جملة ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ صفة لعيناً. وقيل: إن الباء في ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ زائدة، وقيل: بمعنى من قاله الزجاج، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة يشربها عباد الله. وقيل: إن يشرب مضمن معنى يلدت، وقيل: هي متعلقة بيشرب، والضمير يعود إلى الكأس. وقال الفراء: يشربها ويشرب بها سواء في المعنى، وكان يشرب بها يروى بها، وينتفع بها وأنشد قول الهذلي:

شربن بماء البحر ثم ترفعت

قال: ومثله تكلم بكلام حسن، وتكلم كلاماً حسناً ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يجرونها إلى حيث يريدون، وينتفعون بها كما يشاءون، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه، فهم يشقونها شقاً، كما يشق النهر

وقال ثعلب: الزمهرير القمر بلغة طي، وأنشد لشاعرهم:

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتهما والزمهرير ما زهر
ويروى ما ظهر أي: لم يطلع القمر، وقد تقدّم تفسير هذا
في سورة مريم ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ قرأ الجمهور
(دانية) بالنصب عطفًا على محل لا يرون، أو على متكئين،
أو صفة لمحذوف أي: وجنة دانية، كأنه قال: وجزاهم جنة
دانية. وقال الزجاج: هو صفة لجنة المتقدم ذكرها. وقال
الفراء: هو منصوب على المدح. وقرأ أبو حيوة (ودانية)
بالرفع على أنه خبر مقيم، وظلالها مبتدأ مؤخر، والجملة في
موضع النصب على الحال، والمعنى: أن ظلال الأشجار
قريبة منهم مظلة عليهم زيادة في نعيمهم، وإن كان لا
شمس هنالك. قال مقاتل: يعني: شجرها قريب منهم. وقرأ
ابن مسعود (ودانية عليهم) ﴿ونللت قطوفها تنليلاً﴾
معطوف على دانية كأنه قال: ومنللة. ويجوز أن تكون الجملة
في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم، ويجوز
أن تكون مستأنفة، والقطوف الثمار، والمعنى: أنها سخرت
ثمارها لمتناولها تسخيراً كثيراً بحيث يتناولها القائم والقاعد
والمضطجع لا يرد أبديهم عنها بعد ولا شوك. قال النحاس:
المذلل القريب المتناول، ومنه قولهم حائط ذليل أي: قصير.
قال ابن قتيبة: نللت أنيت، من قولهم حائط ذليل أي: كان
قصير السمك، وقيل: نللت أي: جعلت منقاداً لا تمتنع على
قطافها كيف شاءوا ﴿ويطاف عليهم بأنية من فضة
واكواب﴾ أي: تدور عليهم الخدم إذا أراؤا الشراب بأنية
الفضة، والاكواب جمع ركوب، وهو: الكوز العظيم الذي لا
أنن له ولا عروة، ومنه قول عدي:

متكئ تفرغ أبوابه يسعى عليه للعبد بالكوب

وقد مضى تفسيره في سورة الزخرف ﴿كانت قواريراً﴾
* قواريراً من فضة﴾ أي: في وصف القوارير في الصفاء
وفي بياض الفضة، فصفاؤها صفاء الزجاج، ولونها لون
الفضة. قرأ نافع، والكسائي، وأبو بكر (قواريراً * قواريراً)
بالتنوين فيها مع الوصل، وبالوقف عليهما بالالف، وقد
تقدّم وجه هذه القراءة في تفسير قوله: ﴿سلاسل﴾
[الإنسان: 4] من هذه السورة، وبيننا هنالك وجه صرف ما
فيه صيغة منتهى الجموع فارجع إليه. وقرأ حمزة بعدم
التنوين فيهما، وعدم الوقف بالالف، ووجه هذه القراءة ظاهر
لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع. وقرأ هشام بعدم
التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالالف، وقرأ ابن كثير
بتنوين الأوّل دون الثاني، والوقف على الأوّل بالالف دون
الثاني. وقرأ أبو عمرو، وحفص، وابن نكران بعدم التنوين
فيهما، والوقف على الأوّل بالالف دون الثاني، والجملة في
محل جرّ صفة لأكواب. قال أبو البقاء: وحسن التكرير لما
اتصل به من بيان أصلها. قال الواحدي: قال المفسرون:
جعل الله قوارير أهل الجنة من فضة، فاجتمع لها بياض
الفضة وصفاء القوارير. قال الزجاج: القوارير التي في الدنيا
من الرمل، فاعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة

يرى من خارجها ما في داخلها، وجملة ﴿قدروها تقديرًا﴾
صفة لقوارير. قرأ الجمهور (قدروها) بفتح القاف على البناء
للفاعل أي: قدرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم
على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون
زيد ولا نقصان. قال مجاهد وغيره: أتوا بها على قدر ريهم
بغير زيادة ولا نقصان. قال الكلبي: وذلك لأنّ وأشهى، وقيل:
قدرها الملائكة، وقيل: قدرها أهل الجنة الشاربون على مقدار
شهواتهم وحاجتهم، فجاءت كما يريدون في الشكل لا تزيد
ولا تنقص. وقرأ عليّ، وابن عباس، والسلمي، والشعبي،
وزيد بن عليّ، وعبيد بن عمير، وأبو عمرو في رواية عنه
(قدروها) بضم القاف، وكسر الدال مبنياً للمفعول أي: جعلت
لهم على قدر إرادتهم. قال أبو عليّ الفارسي: هو من باب
القلب، قال: لأن حقيقة المعنى أن يقال: قدرت عليهم لا
قدروها؛ لأنه في معنى قدروا عليها. وقال أبو حاتم: التقدير
قدرت الأواني على قدر ريهم، فمفعول ما لم يسمّ فاعله
محذوف. قال أبو حيان: والأقرب في تخريج هذه القراءة
الشاذة أن يقال: قدر ريهم منها تقديرًا، فحذف المضاف،
فصار قدروها. وقال المهوي: إن القراءة الأخيرة يرجع
معناها إلى معنى القراءة الأولى، وكان الأصل قدروا عليها
فحذف حرف الجرّ، كما أنشد سيوي:

آليت حبّ العراق الدهر أكله والحب ياكله في القرية السوس

أي: آليت على حبّ العراق ﴿ويسقون فيها كأساً كان
مزاجها زنجبيلاً﴾ قد تقدّم أن الكأس هو الإناء فيه الخمر،
وإذا كان خالياً عن الخمر، فلا يقال له كأس، والمعنى: أن
أهل الجنة يسقون في الجنة كأساً من الخمر، ممزوجة
بالزنجبيل وقد كانت العرب تستلذّ مزج الشراب بالزنجبيل
لطيب رائحته. وقال مجاهد، وقتادة: الزنجبيل اسم للعين
التي يشرب بها المقربون. وقال مقاتل: هو زنجبيل لا يشبه
زنجبيل الدنيا ﴿عيناً فيها تسمى سلسبيلاً﴾ انتصاب عيناً
على أنها بدل من كأساً. ويجوز أن تكون منصوبة بفعل
مقدر أي: يسقون عيناً، ويجوز أن تكون منصوبة بنزع
الخافض أي: من عين، والسلسبيل: الشراب اللذيذ، مأخوذ
من السلسلة، تقول العرب: هذا شراب سلس، وسلسال،
وسلسبيل أي: طيب لذيق. قال الزجاج: السلسبيل في اللغة
اسم لماء في غاية السلسلة حديد الجرية يسوغ في
حلقهم، ومنه قول حسان بن ثابت:

يسقون من ورد البريص عليهم كأساً يصفق بالرحيق السلسل

﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ لما فرغ سبحانه من
وصف شرابهم ووصف أنيتهم، ووصف السقاة الذين
يسقونهم تلك الشراب. ومعنى ﴿مخلدون﴾: باقون على ما
هم عليه من الشباب، والطراوة، والنضارة، لا يهرمون، ولا
يتغيرون، وقيل معنى ﴿مخلدون﴾: لا يموتون، وقيل:
التخليد التحلية أي: محلون ﴿إذا رأيتهم حسبتهم لأؤلّوا
منثوراً﴾ إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم، وصفاء

والوانهم، ونضارة وجوههم لؤلؤاً مفرقاً. قال عطاء: يريد في بياض اللون وحسنه، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوماً. قال أهل المعاني: إنما شبهوا بالمنتثور لانثثارهم في الخدمة، ولو كانوا صفاً لشبهوا بالمنتظوم، وقيل: إنما شبههم بالمنتثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين. فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون؛ لأنهن لا يمتهن بالخدمة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ أي: وإذا رميت ببصرك هناك، يعني: في الجنة رأيت نعيماً لا يوصف، وملكاً كبيراً لا يقاير قدره، وثم ظرف مكان، والعامل فيها رأيت. قال الفراء: في الكلام ما مضى، أي: وإذا رأيت ما ثم، كقوله: ﴿لَقَدْ قَطَعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 94] أي: ما بينكم. قال الزجاج معترضاً على الفراء: إنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، ولكن رأيت يتعدى في المعنى إلى ثم. والمعنى: إذا رأيت ببصرك ثم، ويعني بثمر: الجنة. قال السدي: النعيم ما يتنعم به، والملك الكبير: استئذان الملائكة عليهم، وكذا قال مقاتل، والكلبي. وقيل: إن رأيت ليس له مفعول ملفوظ، ولا مقدر ولا منوي، بل معناه: أن بصرك أينما وقع في الجنة رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سَنَدُسٌ﴾ قرأ نافع، وحزمة، وابن محيصن (عاليهم) يسكنون الياء وكسر الهاء على أنه خبر مقدم، وثياب مبتدأ مؤخر، أو على أن عاليهم مبتدأ، وثياب مرتفع بالفاعلية، وإن لم يعتمد الوصف، كما هو مذهب الأخفش. وقال الفراء: هو مرفوع بالابتداء، وخبره: ثياب سندس، واسم الفاعل مراد به الجمع. وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء على أنه ظرف في محل رفع على أنه خبر مقدم، وثياب مبتدأ مؤخر، كأنه قيل فوقهم ثياب. قال الفراء: إن عاليهم بمعنى فوقهم، وكذا قال ابن عطية. قال أبو حيان: عال وعالية اسم فاعل، فيحتاج في كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب، وقد تقدم إلى هذا الزجاج وقال: هذا مما لا نعرفه في الظروف ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء، ولكنه نصب على الحال من شيئين: أحدهما الهاء والميم في قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الأبرار ﴿وَالِدَانِ﴾ عالياً الأبرار ﴿ثِيَابٌ سَنَدُسٌ﴾ أي: يطوف عليهم في هذه الحال. والثاني أن يكون حالاً من الولدان أي: إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منتثوراً في حال علو الثياب أبدانهم. وقال أبو علي الفارسي: العامل في الحال إما لقاهم نضرة وسرور، وإما جزاهم بما صبروا. قال: ويجوز أن يكون ظرفاً. وقرأ ابن سيرين، ومجاهد، وأبو حيو، وابن أبي عبيدة (عليهم)، وهي قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة. واختار أبو عبيدة القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود (عاليهم). وقرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس. وقرأ أبو حيو، وابن أبي عبيدة بتنوين ثياب، وقطعها عن الإضافة، ورفع سندس، و﴿خَضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ على أن السندس نعت للثياب؛ لأن السندس نوع من الثياب، وعلى أن خضر نعت لسندس؛ لأنه يكون أخضر وغير أخضر، وعلى أن إستبرق معطوف على سندس أي:

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: الزمهرير هو البرد الشديد. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضاً، فجعل لها نفسين: نفساً في الصيف، ونفساً في الشتاء، فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها، وشدة ما تجدون في

أهل أن يتبعوا، وكل واحد منهما أهل أن يتبع. وقال الفراء: «أو» هنا بمنزلة لا، كأنه قال: ولا كفوراً. وقيل المراد بقوله: «أثماً» عتية بن ربيعة، ويقول: «أو كفوراً» الوليد بن المغيرة؛ لأنهما قالا للنبي ﷺ: أرجع عن هذا الأمر، ونحن نرضيك بالمال والتزيج. «وانكر اسم ربك بكرة وأصيلاً» أي: دم على نكره في جميع الأوقات. وقيل المعنى: صل لربك أول النهار وآخره، فأول النهار صلاة الصبح، وآخره صلاة العصر. «ومن الليل فاسجد له» أي: صل المغرب والعشاء. وقيل: المراد الصلاة في بعضه من غير تعيين، ومن للتبويض على كل تقدير. «وسبحه ليلاً طويلاً» أي: نزهه عما لا يليق به، فيكون المراد: النكر بالتسبيح سواء كان في الصلاة، أو في غيرها. وقيل: المراد التطوع في الليل. قال ابن زيد، وغيره: إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس. وقيل: الأمر للندب. وقيل: هو مخصوص بالنبي ﷺ. «إِنَّ هَؤُلَاءِ يَحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ» يعني: كفار مكة ومن هو موافق لهم. والمعنى: أنهم يحبون الدار العاجلة، وهي دار الدنيا «ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً» أي: يتركون، ويدعون وراءهم أي: خلفهم، أو بين أيديهم وإمامهم يوماً شديداً عسيراً، وهو يوم القيامة، وسمي ثقيلاً لما فيه من الشدائد والأهوال. ومعنى كونه يذرونه وراءهم: أنهم لا يستعملون له، ولا يعبتون به، فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاوناً به، واستخفافاً بشأنه، وإن كانوا في الحقيقة مستقبليين له وهو أمامهم «نحن خلقناهم» أي: ابتدأنا خلقهم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم، ولم يكن لغيرنا في ذلك عمل ولا سعي لا اشتراكاً ولا استقلالاً «ووجدناهم كافرين» الأسر: شدة الخلق، يقال شد الله أسر فلان أي: قوى خلقه. قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل، وغيرهم: شدنا خلقهم. قال الحسن: شدنا أوصالهم بعضاً إلى بعض بالعروق، والعصب. قال أبو عبيد: يقال فرس شديد الأسر أي: الخلق. قال لبيد:

ساهم الوجه شديد أسره مشرف الحارك محبوب القتد
وقال الأخطل:

من كل مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالاً
وقال ابن زيد: الأسر القوة، واشتقاقه من الأسار، وهو اللق الذي تشد به الاقتاب، ومنه قول ابن أحمر يصف فرساً: يمشي بأطرفة شداد أسرها شم السبائك لا تفي بالجبد «وإذا شئنا بثلثنا أمثالهم تبديلاً» أي: لو شئنا لأهلكناهم، وجئنا بأطوع الله منهم. وقيل المعنى: مسخناهم إلى أسمع صورة، وأقبح خلقه «إِنَّ هَذِهِ تَكَرَّرَ» يعني: إن هذه السورة تنكير وموعظة «فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً» أي: طريقاً يتوصل به إليه، وذلك بالإيمان، والطاعة. والمراد إلى ثوابه، أو إلى جنته «وما تشاءون إلا أن يشاء الله» أي: وما تشاءون أن تتخذوا إلى الله سبيلاً إلا أن يشاء الله، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم. والخير والشر بيده، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فمشيئة العبد مجزأة لا

الصيف من الحر من سمومها. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السري، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب في قوله: «وودائني عليهم ظلالها» قال: قريبة «ونثلت قطوفها تنليلها» قال: إن أهل الجنة يكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً، ومضطجعين وعلى أي حال شاءوا. وفي لفظ قال: نثلت فيتناولون منها كيف شاءوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: «أثية من فضة» وصفاءها كصفاء القوارير «فقدروها تقديراً» قال: قنرت للكف. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والبيهقي عنه قال: لو أخذت فضة من فضة الدنيا، فضربت بها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها، ولكن قوارير الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ليس في الجنة شيء إلا وقد أعطيت في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة. وأخرج الفريابي عنه أيضاً في قوله: «فقدروها تقديراً» قال: أتوا بها على قدر القم لا يفضلون شيئاً، ولا يشتهون بعدها شيئاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً: «فقدروها تقديراً» قال: قدرتها السقاة. وأخرج ابن المبارك، وهناد، وعبد بن حميد، والبيهقي في البعث عن ابن عمرو قال: إن أثنى أهل الجنة منزلاً من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه، وتلا هذه الآية: «إذا رايتم حسبتهم أولوا منثوراً».

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَلْجِ مَعَهم مَائِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿١٨﴾ وَأَذْكُرْ أَنَّمِ رَبُّكَ بَكْرًا وَأَمِيلًا ﴿١٩﴾ وَمِنْ أَقْبَلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَمِّهِ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْكَافِلَةَ وَيَذْرُونَ وراءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢١﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَرَدَدْنَاهُمْ أَسْفَلَ نَزَّلْنَاهُم مِّنْ أُسْفَلٍ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَظُنُّهُمْ كَافِرِينَ وَلَٰكِنَّا لَهُمْ مَّوَدَّةٌ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا لَنَظُنُّهُمْ كَافِرِينَ وَلَٰكِنَّا لَهُمْ مَّوَدَّةٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّا لَنَظُنُّهُمْ كَافِرِينَ وَلَٰكِنَّا لَهُمْ مَّوَدَّةٌ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا لَنَظُنُّهُمْ كَافِرِينَ وَلَٰكِنَّا لَهُمْ مَّوَدَّةٌ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّا لَنَظُنُّهُمْ كَافِرِينَ وَلَٰكِنَّا لَهُمْ مَّوَدَّةٌ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّا لَنَظُنُّهُمْ كَافِرِينَ وَلَٰكِنَّا لَهُمْ مَّوَدَّةٌ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّا لَنَظُنُّهُمْ كَافِرِينَ وَلَٰكِنَّا لَهُمْ مَّوَدَّةٌ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّا لَنَظُنُّهُمْ كَافِرِينَ وَلَٰكِنَّا لَهُمْ مَّوَدَّةٌ ﴿٣٠﴾

قوله: «إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً» أي: فرقناه في الإنزال، ولم ننزله جملة واحدة. وقيل المعنى: نزلناه عليك، ولم تأت به من عندك، كما يدعيه المشركون «فاصبر لحكم ربك» أي: لقضائه، ومن حكمه، وقضائه تلخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته. قيل: وهذا منسوخ بآية السيف «ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً» أي: لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم وغال في كفر، فنهاه الله سبحانه عن ذلك. قال الزجاج: إن الألف هنا أكد من الواو وحدها؛ لأنك إذا قلت: لا تطع زيداً، وعمراً، فاطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره أن لا يطيع الاثنين، فإذا قال: لا تطع منهم أثماً أو كفوراً دل ذلك على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى، كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ابن سيرين، فقد قلت إنهما

فَقَدَرْنَا وَنُحِبُّ الْمُنْتَوِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا لَنَرِيكَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ أَرَأَيْتَ إِن كُنَّا
 ﴿١٩﴾ أَعْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُجُومًا شَاخِصَةً وَأَعْيَنْتُكَ مَا فَرَاكَ ﴿٢١﴾
 وَإِنَّا لَنَرِيكَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال جمهور المفسرين: هي الرياح، وقيل: هي الملائكة، وبه قال مقاتل، وأبو صالح، والكلبى، وقيل: هم الأنبياء، فعلى الأول أقسم سبحانه بالرياح المرسلة لما يامرأها به، كما في قوله: ﴿وإرسالنا الرياح لواقع﴾ [الحجر: 22] وقوله: ﴿ومن يرسل الرياح﴾ [النمل: 63] وغير ذلك. وعلى الثاني أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة بوحيه وأمره ونهي. وعلى الثالث أقسم سبحانه برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه، وانتصاب ﴿عرفاً﴾ إما على أنه مفعول لأجله أي: المرسلات لأجل العرف، وهو ضد النكر، ومنه قول الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
 أو على أنه حال بمعنى متتابعة يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس، تقول العرب: سار الناس إلى فلان عرفاً واحداً: إذا توجهوا إليه، وهم على فلان كعرف الضبع: إذا تالبا عليه، أو على أنه مصدر كانه قال: والمرسلات إرسالاً أي: متتابعة، أو على أنه منصوب بنزع الخافض أي: والمرسلات بالعرف. قرأ الجمهور. (عرفاً) بسكون الراء، وقرأ عيسى بن عمر بضمها، وقيل: المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمة ونقمة ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ وهي الرياح الشديدة الهبوب. قال القرطبي بغير اختلاف: يقال غصف بالشيء: إذا أباده وأهلكه، وناق عصف أي: تعصف براكبها، فتعصف كأنها ريح في السرعة، ويقال عصفت الحرب بالقوم إذا ذهبت بهم، وقيل: هي الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها، وقيل: يعصفون بروح الكافر، وقيل: هي الآيات المهلكة كالزلازل، ونحوها ﴿والناشرات نشرًا﴾ يعني: الرياح تأتي بالمطر، وهي تنشر السحاب نشرًا، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها، أو ينشرون أجنتهم في الجو عند النزول بالوحي، أو هي الأمطار لأنها تنشر النيات. وقال الضحاک: يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم. وقال الربيع: إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح، وجاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر ﴿فالفارقات فرقا﴾ يعني: الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام. وقال مجاهد: هي الريح تفرق بين السحاب فتبذره. وروي عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل، وقيل: هي الرسل فرقا ما بين ما أمر الله به ونهى عنه، وبه قال الحسن: ﴿فالملقىات نكراً﴾ هي الملائكة. قال القرطبي: بإجماع أي: تلقي الوحي إلى الأنبياء، وقيل: هو جبريل، وسمي باسم الجمع تعظيماً له، وقيل: هي الرسل يلقون إلى أمهم ما أنزل الله عليهم، قاله قطرب. قرأ الجمهور (فالملقىات) بسكون اللام، وتخفيف القاف اسم فاعل، وقرأ ابن عباس بفتح اللام، وتشديد القاف من التلقية وهي إيصال

تأتي بخير ولا تدفع شرًا، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة، ويؤجر على قصد الخير، كما في حديث «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». قال الزجاج أي: لستم تشاءون إلا بمشيئة الله ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ في أمره ونهي أي: بليغ العلم والحكمة ﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ أي: يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها، أو يدخل في جنته من يشاء من عباده، قال عطاء: من صدقت نيته أدخله جنته ﴿والظالمين أعد لهم عذاباً ليماً﴾ انتصاب الظالمين بفعل مقتر يدل عليه ما قبله أي: يعذب الظالمين، نصب الظالمين؛ لأن ما قبله منصوب أي: يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين أي: المشركين، ويكون أعد لهم تفسيراً لهذا المضمهر، والاختيار النصب، وإن جاز الرفع، وبالنصب قرأ الجمهور. وقرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء، ووجه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿وشددنا أسرهم﴾ قال: خلقهم. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة ﴿وشددنا أسرهم﴾ قال: هي المفاسل.

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. قال قتادة: إلا آية منها وهي: قوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ [المرسلات: 48] فإنها مدنية، وروي هذا عن ابن عباس. وأخرج النحاس، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المرسلات بمكة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: «بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى إذ نزلت سورة المرسلات عرفاً، فإنه ليتلوها، وإنى لالتقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: اقتلوها، فابتدرناه، فذهبت، فقال النبي ﷺ: وقيت شرّكم، كما وقيت شرّهما». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته، وهو يقرأ: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ فقالت: يا بني لقد ذكرتني بقرائك هذه السورة، إنها آخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتُ عِزًّا ﴿١﴾ وَالْمُصَوِّتَاتُ عَصَا ﴿٢﴾ وَالنَّازِلَاتُ نَزَرًا ﴿٣﴾ فَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٤﴾ فَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٥﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٦﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٧﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٨﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٩﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿١٠﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿١١﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿١٢﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿١٣﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿١٤﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿١٥﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿١٦﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿١٧﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿١٨﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿١٩﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٢٠﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٢١﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٢٢﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٢٣﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٢٤﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٢٥﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٢٦﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٢٧﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٢٨﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٢٩﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٣٠﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٣١﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٣٢﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٣٣﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٣٤﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٣٥﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٣٦﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٣٧﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٣٨﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٣٩﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٤٠﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٤١﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٤٢﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٤٣﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٤٤﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٤٥﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٤٦﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٤٧﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٤٨﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٤٩﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٥٠﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٥١﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٥٢﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٥٣﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٥٤﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٥٥﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٥٦﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٥٧﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٥٨﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٥٩﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٦٠﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٦١﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٦٢﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٦٣﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٦٤﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٦٥﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٦٦﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٦٧﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٦٨﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٦٩﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٧٠﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٧١﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٧٢﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٧٣﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٧٤﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٧٥﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٧٦﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٧٧﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٧٨﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٧٩﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٨٠﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٨١﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٨٢﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٨٣﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٨٤﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٨٥﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٨٦﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٨٧﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٨٨﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٨٩﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٩٠﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٩١﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٩٢﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٩٣﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٩٤﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٩٥﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٩٦﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٩٧﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٩٨﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿٩٩﴾ وَأَلْهَمْنَ فِئًا ﴿١٠٠﴾

الكلام إلى المخاطب، والراجع أن الثلاثة الأول للرياح، والرابع والخامس للملائكة، وهو الذي اختاره الزجاج، والقاضي، وغيرهما ﴿عذراً أو نذراً﴾ انتصابهما على البدل من نكراً، أو على المفعولية، والعامل فيهما المصدر المنون، كما في قوله: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً﴾ [البقرة: 14، 15] أو على المفعول لأجله أي: للإعذار والإنذار، أو على الحال بالتأويل المعروف أي: معذرين أو منذرين. قرأ الجمهور بإسكان النذال فيهما. وقرأ زيد بن ثابت، وابنه خارجة بن زيد، وطلحة بضمهما. وقرأ الحرمان، وابن عامر، وأبو بكر بسكونها في عنراً وضمها في نذراً. وقرأ الجمهور (عنراً أو نذراً) على العطف بالواو بنون ألف، والمعنى: أن الملائكة تلقي الوحي إعداراً من الله إلى خلقه، وإنذاراً من عذابه، كذا قال الفراء، وقيل: عذراً للمحقين ونذراً للمبطلين. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون العذر والنذر بالتثنية جمع عاذر ونائر كقوله: ﴿هَذَا نذير من النذر الأولى﴾ [النجم: 56] فيكون نصباً على الحال من الإلقاء أي: يلغون الذكر في حال العذر والإنذار أو مفعولان لنكرأ أي: تنكر عنراً أو نذراً. قال المبرد: هما بالتثنية جمع، والواحد عذير ونذير. ثم نكر سبحانه جواب القسم فقال: ﴿إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لَوَاقِعَ﴾ أي: لن الذي توعّدونه من مجيء الساعة والبعث كائن لا محالة، ثم بيّن سبحانه متى يقع ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي: محي نورها، وذهب ضوؤها، يقال طمس الشيء: إذا درس وذهب أثره ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فَرَجَتْ﴾ أي: فتحت وشقت، ومثله قوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾ [الأنبياء: 19] ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي: قلعت من مكانها بسرعة، يقال: نسفت الشيء وأنسفته: إذا أخذته بسرعة. وقال الكلبى: سُوِّيت بالأرض، والعرب تقول: نسفت الناقة الكلا: إذا رعت، وقيل: جعلت كالحب الذي ينسف بالمنسف، ومنه قوله: ﴿وَيُسِفَتِ الْجِبَالُ بِسَافٍ﴾ [الواقعة: 5] والأول أولى. قال المبرد: نسفت قلعت من مواضعها ﴿وَإِذَا لِلرُّسُلِ أَقْتَتِ﴾ الهمزة في أَقْتَتِ بدل من الواو المضمومة، وكل واو أنضمت، وكانت ضمنتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة، وقد قرأ بالواو أبو عمرو، وشيبة، والأعرج، وقرأ الباقرن بالهمزة، والوقت: الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه، والمعنى: جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، كما في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: 109] وقيل: هذا في الدنيا أي: جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبها، والأول أولى. قال أبو علي الفارسي أي: جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً، وقيل أَقْتَتِ: أرسلت لأوقات معلومة على ما علم الله به ﴿لَا يَوْمَ لَجَلْتِ﴾ هذا الاستفهام للتعظيم والتعجيب أي: لا يَوْمَ عظيم يعجب العباد منه لشِدَّتِهِ ومزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم، والجملة مقول قول مقدر هو جواب لإذاً، أو في محل نصب على الحال من الضمير في أَقْتَتِ. قال الزجاج: المراد بهذا

التأقيت تبين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أمهم، ثم بيّن هذا اليوم فقال: ﴿يَوْمَ الْفُصْل﴾ قال قتادة: يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار، ثم عظم ذلك اليوم فقال: ﴿وَمَا أدراك ما يَوْمَ الْفُصْل﴾ أي: وما أعلمك بيوم الفصل يعني: أنه أمر بديع هائل لا يقار قدره، وما مبتدأ وأدراك خبره، أو العكس كما اختاره سيبويه. ثم نكر حال الذين كذبوا بذلك اليوم فقال: ﴿وَيَلِ يَوْمُئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويل لهم في ذلك اليوم الهائل، ويلى أصل مصدر ساء مسد فعله، وعدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات، والويل الهلاك، أو هو اسم واد في جهنم، وكرّر هذه الآية في هذه السورة؛ لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، وربّ شيء كذب به هو أعظم جرماً من التكذيب بغيره، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب. ثم نكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الخالية فقال: ﴿أَلَمْ نَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد ﷺ قال مقاتل: يعني: بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلاًهم ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ﴾ يعني: كفار مكة، ومن وافقهم حين كذبوا محمداً ﷺ قرأ الجمهور (نتبعهم) بالرفع على الاستئناف أي: ثم نحن نتبعهم. قال أبو البقاء: ليس بمعطوف؛ لأن العطف يوجب أن يكون المعنى: أهلكتنا الأولين ثم اتبعناهم الآخرين في الإهلاك. وليس كذلك؛ لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد. ويلى على الرفع قراءة ابن مسعود (ثم سنتبعهم الآخرين) وقرأ الأعرج، والعباس عن أبي عمرو ونتبعهم بالجزم عطفاً على نهلك. قال شهاب الدين: على جعل الفعل معطوفاً على مجموع الجملة من قوله: ﴿أَلَمْ نَهْلِكِ﴾ ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك الفعل الفعلي نفعل بهم، يريد من يهلكه فيما بعد، والكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف أي: مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما في الدنيا أو في الآخرة ﴿وَيَلِ يَوْمُئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب الله ورسله، قيل: الويل الأول لعذاب الآخرة، وهذا لعذاب الدنيا ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف حقير، وهو النطفة ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مُّكِينٍ﴾ أي: مكان حريز، وهو الرحم ﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: إلى مقدار معلوم وهو مدة الحمل، وقيل: إلى أن يصور ﴿فَقَدَرْنَا﴾ قرأ الجمهور (فقدروا) بالتخفيف. وقرأ نافع، والكسائي بالتشديد من التقدير. قال الكسائي، والفراء: وهما لغتان بمعنى تقول: قَدَرْتُ كذا وقدرته ﴿فَنَعْمُ الْقَادِرُونَ﴾ أي: نعم القادرون نحن، قيل المعنى: قَدَرْنَاهُ قصيراً أو طويلاً، وقيل: معنى قَدَرْنَا ملكنا ﴿وَيَلِ يَوْمُئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقدرتنا على ذلك، ثم بيّن لهم بديع صنعه، وعظيم قدرته ليعتبروا فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كَفَاتاً﴾ معنى الكفت في اللغة: الضم والجمع، يقال كفت الشيء: إذا ضمه وجمعه، ومن هذا يقال: للجرب والقدر كفت، والمعنى: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ ضامّةً للأحياء على ظهرها، والأموات في

أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٦﴾ أَطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ
 ﴿١٧﴾ لَا ظِلُّهُ وَلَا يَقِي مِنَ الْهَبِّ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا تَرَى بِسُكْرِ كَالْقَصْرِ ﴿١٩﴾
 كَأَنَّهُ جَنَّاتٌ مِّنْ دُونِهَا ۖ وَبِهِ يَوْمُزُجْرَةٌ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْلُمُونَ
 وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢١﴾ وَبِهِ يَوْمُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ
 جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٢٤﴾ وَبِهِ يَوْمُ الْكَافِرِينَ
 ﴿٢٥﴾ إِنَّ الْأَشْيَءَ فِي ظُلُلٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٦﴾ وَفَوَيْكَ يَمَّا يَنْشَهُونَ ﴿٢٧﴾ كَلَّا
 وَأَنْشَرُوا صَيْحًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّا كَذَّاكُمُ الْغَجَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَبِهِ
 يَوْمُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٠﴾ كَلَّا وَنَسُوا قِيلًا إِنَّكُمْ تَجْمُرُونَ ﴿٣١﴾ وَبِهِ يَوْمُزُجْرَةٌ
 لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِلَّا قِيلَ لَكُمُ أَكْثَرُ لَا يَرْكُونُ ﴿٣٣﴾ وَبِهِ يَوْمُزُجْرَةٌ لِّلْكَافِرِينَ
 ﴿٣٤﴾ فَإِنِّي سَيِّدٌ بَعْدَ يُوسُفَ ﴿٣٥﴾

﴿انطلقوا إلى ما كنتم﴾ هو بتقدير القول أي: يقال لهم توبيخاً وتقريعاً ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ في الدنيا، تقول لهم تلك خزنة جهنم أي: سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب، وهو عذاب النار ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ أي: إلى ظل من دخان جهنم قد سطع، ثم افترق ثلاث فرق تكونون فيه حتى يفرغ الحساب، وهذا شأن اللخان العظيم إذا ارتفع تشعب شعباً. قرأ الجمهور (انطلقوا) في الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد. وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضي في الثاني أي: لما أمروا بالانطلاق امتثلوا ذلك، فانطلقوا. وقيل: المراد بالظل هنا هو السرائق، وهو لسان من النار يحيط بهم. ثم يتشعب ثلاث شعب، فيظلهم حتى يفرغ من حسابهم، ثم يصيرون إلى النار. وقيل: هو الظل من يحموم، كما في قوله: ﴿فني سموم وحميم * وظل من يحموم﴾ [الواقعة: 42، 43] على ما تقدم. ثم وصف سبحانه هذا الظل تهكماً بهم فقال: ﴿لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ أي: لا يظل من الحر، ولا يغني من اللهب. قال الكلبي: لا يرد حر جهنم عنكم. ثم وصف سبحانه النار فقال: ﴿إنها ترمي بشر كالقصر﴾ أي: كل شررة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها، والشرر: ما تطاير من النار متفرقاً، والقصر: البناء العظيم. وقيل: القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل حمر وحمرة، وتمر وتمرة، وهي الواحدة من جزل الحطب الغليظ. قال سعيد بن جبير، والضحاك: وهي أصول الشجر العظام، وقيل: أعناقها. قرأ الجمهور (كالقصر) بإسكان الصاد، وهو واحد القصور، كما تقدم. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד، والسلمي بفتح الصاد أي: أعناق النخل، والقصرة العنق جمعه قصر وقصرات. وقال قتادة: أعناق الإبل. وقرأ سعيد بن جبير بكسر القاف، وفتح الصاد، وهي أيضاً جمع قصرة مثل بدر وبدر، وقصع وقصعة. وقرأ الجمهور (بشر) بفتح الشين. وقرأ ابن عباس، وابن مقسم بكسرها مع الف بين الراءين. وقرأ عيسى كذلك إلا أنه يفتح الشين، وهي لغات، ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال: ﴿كانه جمالات صفرة﴾ وهي جمع جمال، وهي الإبل، أو جمع

باطنها تضمهم وتجمعهم. قال الفراء: يريد تكفتهم أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم وتكفتهم أمواتاً في بطنها أي: تحوزهم وهو معنى قوله: ﴿أحياء وأموات﴾ وأنشد سيبويه: كرام حين تنكفت الأفاعي إلى أبحارهم من الصقيع قال أبو عبيدة: كفاتاً أوعية، ومنه قول الشاعر:

فأنت اليوم فوق الأرض حي وأنت غداً تضمن في كفات أي: في قبر، وقيل: معنى جعلها كفاتاً: أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات. وقال الأخفش، وأبو عبيدة: الأحياء والأموات وصفان للأرض أي: الأرض منقسمة إلى حي وهو الذي ينبت، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت. قال الفراء: انتصاب أحياء، وأمواتاً بوقوع الكفات عليه أي: لم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات، فإذا نون نصب ما بعده، وقيل: نصباً على الحال من الأرض أي: منها كذا ومنها كذا، وقيل: هو مصدر نعت به للمبالغة. وقال الأخفش: كفاتاً جمع كافئة، والأرض يراد بها الجمع، فنعتت بالجمع. وقال الخليل: التكتف تغليب الشيء ظهراً لبطن، أو بطناً لظهر، ويقال انكفت القوم إلى منازلهم أي: ذهبوا ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ أي: جبلاً طوالاً، والرواسي الثوابت، والشامخات الطوال، وكل عال فهو شامخ ﴿وسقيناكم ماء فراتاً﴾ أي: عنباً، والفرات الماء العنب يشرب منه ويسقى به. قال مقاتل: وهذا كله أعجب من البعث ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بما أنعمنا عليهم من نعمنا التي هي من جملتها.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن أبي هريرة ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: هي الملائكة أرسلت بالعرف. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: الريح ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ قال: الريح. وأخرج ابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب أنه جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، فقال: ما العاصفات عصفاً؟ قال الرياح. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: الريح ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ قال: الريح ﴿فالفارقات فرقا﴾ قال: الملائكة ﴿فالمليقيات ذكراً﴾ قال: الملائكة. وأخرج ابن المنذر عنه: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: الملائكة ﴿فالفارقات فرقا﴾ قال: الملائكة، فرقت بين الحق والباطل ﴿فالمليقيات ذكراً﴾ قال: بالتثنية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن ابن مسعود قال: ويل واد في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار، فجعل للمكذبين. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿من ماء مهين﴾ قال: ضعيف. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه ﴿كفاتاً﴾ قال: كنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿رواسي شامخات﴾ قال: جبلاً مشرفات، وفي قوله: ﴿فراتاً﴾ قال: عنباً.

للمكذّبين ﴿بما دعيتهم إليه الرسل، وأنذرتهم عاقبتهم﴾ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴿أي: ويقال لهم: هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلاق، ويتميز فيه الحق من الباطل، والخطاب في جمعناكم للكفار في زمن نبينا محمد ﷺ، والمراد بالأولين كفار الأمم الماضية ﴿فإن كان لكم كيد﴾ أي: إن قدرتم على كيد الآن ﴿فكيدون﴾ وهذا تقريع وتوبيخ لهم. قال مقاتل: يقول إن كان لكم حيلة فاحتالوا لانفسكم، وقيل المعنى: فإن قدرتم على حرب فحاربوا، وقيل: إن هذا من قول النبي ﷺ، فيكون كقول هود:

﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ [هود: 55] **﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾** لأنه قد ظهر لهم عجزهم، وبطان ما كانوا عليه في الدنيا. ثم نكر سبحانه المؤمنين فقال: ﴿إن المتقين في ظلال وعيون﴾ أي: في ظلال الأشجار وظلال القصور، لا كالظل الذي للكفار من المخان، أو من النار كما تقدّم. قال مقاتل، والكلبي: المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك بالله؛ لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقريع الكفار على كفرهم. قال الرازي: فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض، وإلا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها، وإنما يتمّ النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم، فاما جعله سبباً للطاعة فلا يليق بالنظم كذا قال والمراد بالعيون الأنهار، وبالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم **﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾** أي: يقال لهم ذلك، فالجملة مقفلة بالقول، وهي في محل نصب على الحال من ضمير المتقين، والباء للسببية أي: بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة **﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾** أي: مثل تلك الجزاء العظيم نجزي المحسنين في أعمالهم، قرأ الجمهور (في ظلال). وقرأ الأعمش، والزهري، وطلحة، والأعرج: (في ظلل) جمع ظلة **﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾** حيث صاروا في شقاء عظيم، وصار المؤمنون في نعيم مقيم **﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾** الجملة بتقدير القول في محل نصب على الحال من المكذّبين أي: الولي ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك تنكير لهم بحالهم في الدنيا، أو يقال لهم هذا في الدنيا، والمجرمون المشركون بالله، وهذا وإن كان في اللفظ أمراً فهو في المعنى تهديد وزجر عظيم **﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾** كثره لزيادة التوبيخ والتقريع **﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾** أي: وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون. قال مقاتل: نزلت في تثيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبي ﷺ بها فقالوا: لا ننحنى، فإنها مسبة علينا، فقال النبي ﷺ: «لا خير في بين ليس فيه ركوع ولا سجود». وقيل: إنما يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. وقيل: المعنى بالركوع: الطاعة والخشوع **﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾** بأوامر الله سبحانه ونواهيه **﴿فبأي حثيث بعده يؤمنون﴾** أي: فبأي حديث بعد القرآن يصنّفون إذا لم يؤمنوا به. قرأ الجمهور

جمالة. قرأ الجمهور (جمالات) بكسر الجيم. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص (جمالة) جمع جمل. وقرأ ابن عباس، والحسن، وابن جبير، وقتادة، وأبو رجاء: (جمالات) بضم الجيم، وهي: حبال السفن. قال الواحدي: والصفر معناها السود في قول المفسرين. قال الفراء: الصفر سواد الإبل لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة، لذلك سمى العرب سود الإبل صفراً. قيل: والشر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود، ومنه قول الشاعر:

تلك خيلي وتلك ركابي من صفر لولدها كالزبيب
أي: من سود، قيل: وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه شيء قليل، فينسب كله إلى ذلك الشائب، فالعجب لمن قال بهذا، وقد قال تعالى: **﴿جمالات صفر﴾**. واجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور، فهي مضيئة، فلما خلق الله جهنم، وهي موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار، وبعث إليها سلطانه وغضبه، فأسوت من سلطانه وازدادت سواداً، وصارت أشد سواداً من كل شيء، فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء.

قلت: وهذا الجواب لا يدفع ما قاله القائل؛ لأن كلامه باعتبار ما وقع في الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراء، فلو كان الأمر، كما نكره المجيب من اسوداد النار، واسوداد شررها، لقال الله: كأنها جمالات سود، ولكن إذا كانت العرب تسمى الأسود أصفر لم يبق إشكال؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، وقد نقل الثقات عنهم ذلك، فكان ما في القرآن هنا وارداً على هذا الاستعمال العربي **﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾** لرسول الله وآياته **﴿هذا يوم لا ينطقون﴾** أي: لا يتكلمون قال الواحدي: قال المفسرون: في يوم القيامة مواقف، ففي بعضها يتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون، وقد قدّمنا الجمع بهذا في غير موضع. وقيل: إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون؛ لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت. وقال الحسن: لا ينطقون بحجة، وإن كانوا ينطقون. قرأ الجمهور برفع (يوم) على أنه خبر لإسم الإشارة. وقرأ زيد بن علي، والأعرج، والأعمش، وأبو حيوة، وعاصم في رواية عنه بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل، ومحلّه الرفع على الخبرية، وقيل: هو منصوب على الظرفية، والإشارة بهذا إلى ما تقدّم من الوعيد؛ كانه قيل: هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون **﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾** قرأ الجمهور: (يؤذن) على البناء للمفعول، وقرأ زيد بن علي (ولا يائن) على البناء للفعل أي: لا يائن الله لهم أي: لا يكون لهم إئن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإئن كما لو نصب. قال الفراء: الفاء في فيعتذرون نسق على يؤذن، وأجيز ذلك؛ لأن أواخر الكلام بالنون، ولو قال فيعتذروا لم يوافق الآيات، وقد قال: **﴿لا يقضى عليهم فيموتوا﴾** [فاطر: 36] بالنصب، والكل صواب **﴿ويل يومئذ**

يَسْمَعُونَ ﴿١﴾ قُلْ لَا سَمْعُونَ ﴿٢﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿٣﴾ وَالْجِبَالَ أَوْدَادًا ﴿٤﴾ وَتَلْقَوْنَهُمْ أَزْدِيًا ﴿٥﴾ وَجَعَلَكُمْ قُوتَكُمْ سُبُلًا ﴿٦﴾ وَجَعَلْنَا الْآلَ يَأْسًا ﴿٧﴾ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ مَنَافَا ﴿٨﴾ وَبَيَّنَّا قُوتَكُمْ سُبُلًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا رِبَكُمَا وَجَابًا ﴿١٠﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَابًا ﴿١١﴾ لِيُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٢﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٣﴾ إِذْ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتُكَ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الشُّوْرِ قَاتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٥﴾ وَثِيَّتُ السَّمَاءِ كَانَتْ أَفْوَاجًا ﴿١٦﴾ وَشِبْرَتِ الْجَبَالِ كَانَتْ سُرَابًا ﴿١٧﴾ إِذْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١٨﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَافَا ﴿١٩﴾ لِيَبْينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٠﴾ لَا يَدْخُلُونَهَا فِيهَا جَهَنَّمَ وَلَا تَدْخُلُهَا ﴿٢١﴾ إِلَّا حَرِبًا وَعَصَفًا ﴿٢٢﴾ جَرَاءً وَكَفًا ﴿٢٣﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٤﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٥﴾ وَكُلُّ فَوْقٍ أَخْبِثَةٌ كِتَابًا ﴿٢٦﴾ فَذُرُونَهَا لَنْ يَرْيَدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أصله عن ما فادغمت النون في الميم؛ لأن الميم تشاركها في الغنة، كذا قال الزجاج، وحذفت الألف؛ لتمييز الخبر عن الاستفهام، وكذلك فيم ومم ونحو ذلك، والمعنى: عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً. قرأ الجمهور: (عم) بحذف الألف لما نكرنا، وقرأ أبي، وابن مسعود، وعكرمة، وعيسى بإثباتها، ومنه قول الشاعر:

علاما قام يشتمني لثيم كخنزير تمرغ في دمان
ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة، وقرأ البزي بهاء السكت عوضاً عن الألف، وروي ذلك عن ابن كثير. قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام، والمعنى تفخيم القصة كما تقول: أي شيء تريد؛ إذا عظمت شأنه. قال الواحدي: قال المفسرون: لما بعث رسول الله ﷺ، وأخبرهم بتوحيد الله، والبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون: ماذا جاء به محمد، وما الذي أتى به؟ فأنزل الله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال الفراء: التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضاً كالتقابل، وقد يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا به، وإن لم يكن بينهم سؤال. قال الله تعالى: ﴿فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ * قال قائل منهم: إني كان لي قرين ﴿[الصفافات: 50، 51] الآية﴾، وهذا يدل على أنه التحدث، ولفظ ما موضوع لطلب حقائق الأشياء، وذلك يقتضي كون المطلوب مجهولاً، فجعل الشيء العظيم الذي يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول، ولهذا جاء سبحانه بلفظ ما. ثم نكر سبحانه تسأولهم عن ماذا وبينه فقال: ﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾ فأورده سبحانه أولاً على طريقة الاستفهام مبهماً؛ لتوجه إليه أذهانهم، وتلفت إليه أفعالهم، ثم بينه بما يفيد تعظيمه، وتفخيمه كأنه قيل: عن أي شيء يتساءلون هل أخبركم به؟ ثم قيل بطريق الجواب: ﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾ على منهاج قوله: ﴿لَمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾ قال الواحدي: القهار ﴿[غافر: 16]﴾ فالجاء والمجروح متعلق بالفعل الذي قبله، أو بما يدل عليه. قال ابن عطية: قال أكثر النحاة: عن النبا العظيم متعلق ببيتساءلون الظاهر، كأنه قال: لم يتساءلون عن النبا العظيم، وقيل: ليس بمتعلق بالفعل المنكسر؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام، فيكون التقدير: عن النبا العظيم؟

(يؤمنون) بالتحية على الغيبة. وقرأ ابن عامر في رواية عنه، ويعقوب بالفوقية على الخطاب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بُشْرٍ كَالْقَصْرِ﴾ قال: كالقصر العظيم، وقوله: ﴿جَمَالَاتٍ صَفْرٍ﴾ قال: قطع النحاس. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وهناد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وابن مروي عن طريق عبد الرحمن بن عباس قال: سمعت ابن عباس يسأل عن قوله: ﴿إِنهَا تَرْمِي بُشْرٍ كَالْقَصْرِ﴾ قال: كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقل، فنرفعه للشتاء، فنسميه القصر. قال: وسمعت يسأل عن قوله: ﴿جَمَالَاتٍ صَفْرٍ﴾ قال: حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون كالوسطاء الرجال. ولفظ البخاري: كنا نعد إلى الخشب ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ﴿كَانَهُ جَمَالَاتٍ صَفْرٍ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كالوسطاء الرجال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أنه قرأ (كالقصر) بفتح القاف والصاد. وقال قصر النخل يعني: الأعناق. وأخرج ابن مروي عنه أيضاً قال: كانت العرب في الجاهلية تقول: أقصروا لنا الحطب، فيقطع على قدر النزاع والزراعين. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط عن ابن مسعود في قوله: ﴿تَرْمِي بُشْرٍ كَالْقَصْرِ﴾ قال: إنها ليست كالشجر والجبال، ولكنها مثل المدائن والحصون. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿كَالْقَصْرِ﴾ قال: هو القصر، وفي قوله: ﴿جَمَالَاتٍ صَفْرٍ﴾ قال: الإبل. وأخرج الحاكم وصححه من طريق عكرمة قال: سأل نافع ابن الأزرق ابن عباس عن قوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿وَلَا تَسْمَعُ إِلَّا مَهْمًا﴾ [طه: 108] ﴿وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفافات: 27] و﴿هَآؤُمْ أَقْرَبُوا كِتَابِيهِ﴾ [الحاقة: 19] فقال له: ويحك هل سألت عن هذا أحداً قبلي؟ قال: لا، قال: أما أنك لو كنت سألت هلكت، ليس قال الله: ﴿وَأَنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَالْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْلُونَ﴾ [الحج: 47] قال بلى، قال: فإن لكل مقدار يوم من هذه الأيام لو أن من الألوان. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود، فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا.

تفسير سورة النبا

وهي مكية عند الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ مَخْفُوفٌ ﴿٣﴾

فلزم أن يتعلق يتساءلون آخر مقتّر، وإنما كان ذلك النبا: أي: القرآن عظيماً؛ لأنه ينبئ عن التوحيد، وتصديق الرسول، ووقوع البعث والنشور. قال الضحاك: يعني: نبأ يوم القيامة، وكذا قال قتادة، وقد استدلّ على أن النبا العظيم هو القرآن بقوله: ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ فإنهم اختلفوا في القرآن، فجعله بعضهم سحراً، وبعضهم شعراً، وبعضهم كهانة، وبعضهم قال: هو أساطير أوليين. وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره. ويمكن أن يقال: إنه قد وقع الاختلاف في البعث في الجملة، فصنّف به المؤمنون، وكذب به الكافرون، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والتنزل ومما يدلّ على أنه القرآن قوله سبحانه: ﴿قل هو نبأ عظيم﴾ * أنتم عنه معرضون ﴿[ص: 67، 68] ومما يدلّ على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتاباه عقولهم السخيفة. وأيضاً، فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم في البعث؛ فاثبت النصارى المعاد الروحاني، واثبت طائفة من اليهود المعاد الجسماني، وفي التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ جنعيذا بجيم مفتوحة، ثم نون ساكنة، ثم عين مكسورة مهملة، ثم تحتية ساكنة، ثم ذال معجمة بعدها ألف. وفي الإنجيل في مواضع كثيرة التصريح بالمعاد، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين، والعذاب للعاصين، وقد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجاثية: 24] ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ [المؤمنون: 37] وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه بل شاكّة فيه، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ [الجاثية: 32] وما حكاه عنهم بقوله: ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ [فصلت: 50] فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة. وقد قيل: إن الضمير في قوله: يتساءلون يرجع إلى المؤمنين والكفار؛ لأنهم جميعاً كانوا يتساءلون عنه، فأما المسلم، فيزداد يقيناً واستعداداً، وبصيرة في دينه، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية. قال الرازي: ويحتمل أنهم يسألون الرسول، ويقولون: ما هذا الذي يعدنا به من أمر الآخرة، والموصول في محل جرّ صفة للنبا بعد وصفه بكونه عظيماً فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه ﴿كلا سيعلمون﴾ ردع لهم وزجر، وهذا يدلّ على أن المختلفين فيه هم: الكفار، وبه ينفع ما قيل: إن الخلاف بينهم وبين المؤمنين فإنه إنما يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط، وقيل: كلا بمعنى حقاً، ثم كرّر الردع والزجر فقال: ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ للمبالغة في التأكيد والتشديد في الوعيد. قرأ الجمهور بالياء التحتية في الفعلين على الغيبة. وقرأ الحسن، وأبو العالية، وابن دينار، وابن عامر في رواية عنه بالفوقية على الخطاب. وقرأ الضحاك الأول بالفوقية والثاني بالتحتيّة. قال الضحاك أيضاً ﴿كلا سيعلمون﴾ يعني: الكافرين عاقبة

تكنيبتهم ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ يعني: المؤمنين عاقبة تصديقهم، وقيل: بالعكس، وقيل: هو وعيد بعده وعيد، وقيل المعنى: ﴿كلا سيعلمون﴾ عند النزاع ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ عند البعث. ثم نكر سبحانه ببيع صنعه، وعظيم قدرته؛ ليعرفوا توحيده، ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال: ﴿كلا نجعل الأرض مهاداً * والجيال أوتاداً﴾ أي: قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث، والمهاد اللوطاء، والفرش، كما في قوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ [البقرة: 22] قرأ الجمهور (مهاداً) وقرأ مجاهد، وعيسى، وبعض الكوفيين: (مهداً) والمعنى: أنها كال مهد للصبي وهو ما يمهّد له فينوم عليه. والأوتاد جمع وتد: أي: جعلنا الجبال أوتاداً للأرض؛ لتسكن ولا تتحرك، كما يرسي الخيام بالأوتاد، وفي هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث، لا عن القرآن، ولا عن نبوة محمد ﷺ، كما قيل؛ لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ معطوف على المضارع المنفي داخل في حكمه، فهو في قوة أما خلقناكم، والمراد بالازواج هنا الأصناف أي: الذكور والإناث، وقيل: المراد بالازواج الألوان، وقيل: يدخل في هذا كل زوج من المخلوقات عن قبيح وحسن وطويل وقصير ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي: راحة لأبدانكم. قال الزجاج: السبات أن ينقطع عن الحركة والروح في بنه: أي: جعلنا نومكم راحة لكم. قال ابن الأنباري: جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم؛ لأن أصل السبت القطع، وقيل: أصله التمدّد، يقال سبت المرأة شعرها: إذا حلتها وأرسلته، ورجل مسبوت الخلق: أي: مملوّه، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدّد، فسمي النوم سباتاً، وقيل المعنى: وجعلنا نومكم موتاً، والنوم أحد الموتتين، فالمسبوت يشبه الميت، ولكنه لم تفارقه الروح، ومنه قول الشاعر:

ومطوية الأقرب أما نهارها فسبت وأما ليلها فمزيل

ومن هذا قوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ [الزمر: 42] الآية، وقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام: 60] ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي: نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس. وقال سعيد بن جبير، والسديّ: أي: سكناً لكم، وقيل: المراد به ما يستريحه عند النوم من اللحاف ونحوه، وهو بعيد؛ لأن الجعل وقع على الليل، لا على ما يستتر به النائم عند نومه ﴿وجعلنا للنهار معاشاً﴾ أي: وقت معاش، والمعاش العيش، وكلّ شيء يعاش به فهو معاش، والمعنى: أن الله جعل لهم النهار مضيئاً، ليسعوا فيما يقوم به معاشهم، وما قسمه الله لهم من الرزق ﴿وبيننا فوقكم سبعاً شداداً﴾ يريد سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء، ولهذا وصفها بالشدة، وغلظ كلّ واحدة منها مسيرة خمسمائة عام، كما ورد ذلك ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ المراد به الشمس، وجعل هنا بمعنى خلق، وهكذا قوله: ﴿وجعلنا نومكم

سبأ^١ وما بعده؛ لأن هذه الأفعال قد تعدت إلى مفعولين، فلا بد من تضمينها معنى فعل يتعدى إليهما كالخلق والتصيير ونحو ذلك. وقيل: إن الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع في جميع هذه المواضع، والمراد به الإنشاء التكويني الذي بمعنى التقدير والتسوية. قال الزجاج: للوهاج الوقاد، وهو الذي وهج، يقال وهجت النار تهيج وهجاً ووهجاناً. قال مقاتل: جعل فيه نوراً وحرّاً، والوهج يجمع النور والحرارة **﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾** المعصرات هي: السحاب التي ينعصر بالماء ولم تمطر بعد، كالمرأة المعتصرة التي قربنا حيضها، كذا قال سفيان والربيع، وأبو العالية، والضحاك. وقال مجاهد، ومقاتل، وقتادة، والكلبي: هي الرياح، والرياح تسمى معصرات، يقال أعصرت الريح تعصر إعصاراً: إذا أثارت العجاج. قال الأزهرى: هي الرياح نوات الأعاصير، وذلك أن الرياح تستمر المطر. وقال الفراء: المعصرات السحاب التي يتحلب منها المطر. قال النحاس: وهذه الأقوال صحاح، يقال للريح التي تأتي بالمطر معصرات، والرياح تلحق السحاب فيكون المطر. ويجوز أن تكون هذه الأقوال قولاً واحداً، ويكون المعنى: وأنزلنا من نوات المعصرات ماء ثجاجاً. قال في الصحاح والمعصرات السحاب تعصر بالمطر، وعصر القوم أي: مطروا. قال المبرد: يقال سحاب معصر أي: ممسك للماء يعتصر منه شيء بعد شيء. وقال أبي بن كعب، والحسن، وابن جبير، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان: المعصرات السموات والثجاج: المنصب بكثرة على جهة التتابع، يقال ثَجَّ الماء أي: سال بكثرة، وثجه أي: أساله. قال الزجاج: الثجاج الصباب. قال ابن زيد: ثجاجاً كثيراً **﴿لنخرج به حياً ونباتاً﴾** أي: لنخرج بذلك الماء حياً يقات: كالحنطة والشعير ونحوهما، والنبات ما تأكله الدواب من الحشيش وسائر النبات **﴿وجنات ألفافاً﴾** أي: بساتين ملتفت بعضها ببعض لتشعب أغصانها، ولا واحد للألفاف: كالأوزاع والأخفاف، وقيل: واحدها لف يكسر اللام وضمها، نكره الكسائي. وقال أبو عبيدة: واحدها لفيف كشریف وأشراف، روي عن الكسائي أنها جمع الجمع يقال جنة لفاف، ونبت لف، والجمع لف بضم اللام مثل حمر، ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف، وقيل هو جمع ملتفة بحذف الزوائد. قال الفراء: الجنة ما فيه النخيل، والفردوس ما فيه الكرم **﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً﴾** أي: وقتاً، ومجمعاً، وميعاداً للأولين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعوا به من الثواب والعقاب، وسمي يوم الفصل لأن الله يفصل فيه بين خلقه، وهذا شروع في بيان ما يتسألون عنه من البعث، وقيل معنى ميقاتاً: أنه حد توقت به الدنيا وتنتهي عنده، وقيل: حد للخلق ينتهون إليه **﴿يوم ينفخ في الصور فتاتون أفولجاً﴾** أي: يوم ينفخ في الصور، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، والمراد هنا النفخة الثانية التي تكون للبعث **﴿فتاتون﴾** أي: إلى موضع العرض **﴿أفولجاً﴾** أي: زمراً زمراً، وجماعات جماعات، وهي

جمع فوج، وانتصاب **﴿يوم ينفخ﴾** على أنه بدل من يوم الفصل، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله، وإن كان الفصل متأخراً عن النفخ، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني، وانتصاب أفولجاً على الحال من فاعل تاتون، والفاء في فتاتون فصيحة تدل على محنوف أي: فتاتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفولجاً **﴿وفتحت السماء فكانت أبولجاً﴾** معطوف على ينفخ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع أي: فتحت لنزول الملائكة **﴿فكانت أبولجاً﴾** كما في قوله: **﴿ويوم تشق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾** [الفرقان: 25] وقيل معنى فتحت قطعت فصارت قطعاً كالأبواب، وقيل: أبولجاً طرقها، وقيل: تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواب، وقيل: إن لكل عبد بابين في السماء: باب لرزقه، وباب لعمله، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب، وظاهر قوله: **﴿فكانت أبولجاً﴾** أنها صارت كلها أبواباً، وليس المراد ذلك، بل المراد أنها صارت ذات أبواب كثيرة. قرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي فتحت مخففاً. وقرأ الباقون بالتشديد **﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾** أي: سيرت عن أماكنها في الهواء، وقلعت عن مقامها، فكانت هباء منبثاً يظن الناظر أنها سراب، والمعنى: أن الجبال صارت كلا شيء، كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء، وليس بماء، وقيل معنى سيرت: أنها نسفت من أصولها، ومثل هذا قوله: **﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾** [النمل: 88] وقد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة، ولكن الجمع بينها أن نقول: أول أحوالها الانكسار، وهو قوله: **﴿وحملت الأرض والجبال فكانت كتة واحدة﴾** [الحاقة: 14] وثاني أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما في قوله: **﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾** [القارعة: 5] وثالث أحوالها أن تصير كالهباء، وهو قوله: **﴿ويست الجبال بساً﴾** فكانت هباء منبثاً **﴿الواقعة: 5، 6﴾** ورابع أحوالها أن تنسف وتحملها الرياح، كما في قوله: **﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾** [النمل: 88] وخامس أحوالها أن تصير سراباً أي: لا شيء، كما في هذه الآية. ثم شرع سبحانه في تفصيل أحكام الفصل فقال: **﴿إن جهنم كانت مرصاداً﴾** قال الأزهرى: المرصاد المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو. قال المبرد: مرصاداً يرصدون به أي: هو معد لهم يرصد به خزنتها الكفار. قال الحسن: إن على الباب رصداً لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجيء بجواز حبس. وقال مقاتل: محبساً، وقيل: طريقاً وممرّاً. قال في الصحاح: الراصد للشيء الراقب له يقال رصده يرصده رصداً، والرصد الترقب، والمرصد موضع الرصد. قال الأصمعي: رصده أرصده ترقبته، ومعنى الآية: أن جهنم كانت في حكم الله، وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار؛ ليعذبهم فيها، أو هي في نفسها متطلعة لمن يأتي إليها من الكفار، كما يتطلع الرصد لمن يمر به ويأتي إليهم، والمرصاد

وافق أعمالهم. قال الفراء: الوفاق جمع الوفق، والوفوق والموافق واحد. قال مقاتل: وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشر، ولا عذاب أعظم من النار. وقال الحسن، وعكرمة: كانت أعمالهم سيئة، فاتاهم الله بما يسوؤهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لا يرجون ثواب حساب. قال الزجاج: كانوا لا يؤمنون بالبعث، فيرجون حسابهم، والجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور ﴿وَكَذَبُوا بآيَاتِنَا كَذِبًا﴾ أي: كذبوا بالآيات القرآنية، أو كذبوا بما هو أعم منها تكذيباً شديداً، وفعال من مصادر التفعّل. قال الفراء: هي لغة فصيحة يمانية، تقول كذبت كذاباً، وخرقت القميص خرقاً. قال في الصحاح: وكذبوا بآياتنا كذاباً هو أحد مصادر المشدّد؛ لأن مصدره قد يجيء على تفعيل مثل التكليم، وعلى فعال مثل كذاب، وعلى تفعلة مثل توصية، وعلى مفعّل مثل: ﴿ومزقناهم كل ممزق﴾ [سبا: 19] قرأ الجمهور (كذاباً) بالتشديد. وقرأ عليّ بن أبي طالب بالتخفيف. وقال أبو عليّ الفارسي التخفيف والتشديد جميعاً مصدر المكابذة. وقرأ ابن عمر: (كذاباً) بضم الكاف والتشديد، جمع كاذب. قال أبو حاتم ونصبه على الحال. قال الزمخشري: وقد يكون يعني: على هذه القراءة بمعنى الواحد البليغ في الكذب، تقول: رجل كذاب كقولك حسان وبخال ﴿وكل شيء أحصيناه كتاباً﴾ قرأ الجمهور (وكل) بالنصب على الاشتغال أي: وأحصينا كل شيء أحصيناه. وقرأ أبو السّمك برفعه على الابتداء، وما بعده خبره، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب، وانتصاب كتاباً على المصدرية لأحصيناه؛ لأن أحصيناه في معنى كتبناه، وقيل: هو منتصب على الحال أي: مكتوباً، قيل: المراد كتبناه في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة، وقيل: أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم، وقيل: المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان، والأول أولى لقوله: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [يس: 12] ﴿فَنُزِّلُوا فَكُنْ نَزِيلُكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ هذه الجملة مسببة عن كفرهم، وتكذيبهم بالآيات. قال الرّازي: هذه الفاء للجزاء، فنبه على أن الأمر بالنزول معلل بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم؛ ومن الزيادة في عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بكلّم جلوداً غيرها، وكلما خبت النار زادهم الله سعيراً.

وقد أخرج ابن مرويّه عن ابن عباس: ﴿عَنِ النَّبَا الْعَظِيمِ﴾ قال: القرآن؛ وهذا مروى عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ قال: مضيئاً ﴿وَوَازَلْنَا مِنَ الْمَعْصَرَاتِ﴾ قال: السحاب ﴿مَاءً ثَجَاجًا﴾ قال: منصّباً. وأخرج عبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ثَجَاجًا﴾ قال: منصّباً. وأخرج الشافعي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مرويّه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَوَازَلْنَا مِنَ الْمَعْصَرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾ قال: يبعث الله الريح، فتحمل

مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار. ثم ذكر من هي مرصد له فقال: ﴿لِلطَّاغِينَ مَلَأًا﴾ أي: مرجعاً يرجعون إليه، والمأب المرجع، يقال آب يثوب: إذا رجع، والطاغي هو من طغى بالكفر، وللطّاغين نعت لمرصداً متعلق بمحذوف، ومأب بدل من مرصداً، ويجوز أن يكون للطّاغين في محل نصب على الحال من مأباً قدّمت عليه لكونه نكرة، وانتصاب ﴿لِلْأَبْثِينَ فِيهَا﴾ على الحال المقدّرة من الضمير المستكنّ في الطّاغين. قرأ الجمهور (لأبثين) بالالف. وقرأ حمزة، والكسائي (لأبثين) بفتح الف، وانتصاب ﴿لِلْحَقَابِ﴾ على الظرفية أي: ملاكثين في النار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، وكلما مضى حقب جاء حقب، وهي جمع حقب بضمّتين، وهو الدهر، والأحقاب الدهور، والحقب بضمّ الحاء، وسكون القاف، قيل: هو ثمانون سنة، وحكى الواحدي عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة، السنة ثلثمائة وستون يوماً، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا. وقيل: الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغساق، فإذا انقضت، فيكون لهم نوع آخر من العذاب. وقال السدي: الحقب سبعون سنة. وقال بشير بن كعب: ثلثمائة سنة. وقال ابن عمر أربعون سنة، وقيل: ثلاثون ألف سنة. قال الحسن: الأحقاب لا يدري أحد كم هي، ولكن نكروا أنها مائة حقب، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة، اليوم منها كالف سنة. وقيل: الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار، والأولى ما ذكرناه أولاً من أن المقصود بالآية التأييد لا التقيد. وحكى الواحدي: عن الحسن أنه قال: والله ما هي إلا أنه إذا مضى حقب نخل آخر، ثم آخر، ثم كذلك إلى الأبد، وجملة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ إلّا حميمياً وغساقاً مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون في جهنم، أو في الأحقاب برّداً ينفعهم من حرّها، ولا شراباً ينفعهم من عطشها إلّا حميمياً، وهو الماء الحارّ، وغساقاً وهو صديد أهل النار، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير الطّاغين، أو صفة للأحقاب، والاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم، ويجوز أن يكون متصلاً من قوله: ﴿شَرَابًا﴾ وقال مجاهد، والسديّ وأبو عبيدة، والكسائي، والفضل بن خالد، وأبو معاذ النحوي: البرد المذكور في هذه الآية هو النوم، ومنه قول الكندي:

بردت مرأشها عليّ فصنّني عنها وعن تقبيلها البرد

أي: النوم. قال الزجاج: أي: لا يذوقون فيها برد ربيع ولا ظل ولا نوم فجعل البرد يشمل هذه الأمور. وقال الحسن، وعطاء، وابن زيد: برّداً أي: روحاً وراحة. قرأ الجمهور (غساقاً) بالتخفيف. وقرأ حمزة، والكسائي بتشديد السين، وقد تقدّم تفسيره، وتفسير الحميم، والخلاف فيهما في سورة ص ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ أي: موافقاً لأعمالهم، وجزاء منتصب على المصدر، وفاقاً نعت له. قال الفراء، والأخفش: جازيناهم جزاء وافق أعمالهم، قال الزجاج: جوزوا جزاء

وابن جرير، وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال: ما أنزلت على أهل النار آية قط أشد منها ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فهم في مزيد من عذاب الله أبداً.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿١١﴾ حَتَّىٰ وَاعْتَبَا ﴿١٢﴾ وَكَوَيْبَ أَرْبَابًا ﴿١٣﴾ كُفَاً دَعَا ﴿١٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿١٥﴾ جَزَاءُ مِنْ رَبِّكَ عَطَاً حَسَبًا ﴿١٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَلْهَامُ صَفًا لَا يَخْلُكُمُ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿١٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ لَكَ رَيْبًا مَنَابًا ﴿١٩﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَا وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ هذا شروع في بيان حال المؤمنين، وما أعد الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين، وما أعد الله لهم من الشر، والمفاز مصدر بمعنى الفوز، والظفر بالنعمة، والمطلوب، والنجاة من النار، ومنه قيل: للفلاة مفازة تغالاً بالخلاص منها، ثم فسّر سبحانه هذا المفاز فقال: ﴿حَدَائِقُ وَأَعْنَابٌ﴾ وانتصابهما على أنهما بدل من مفازاً بدل اشتمال، أو بدل كل من كل على طريق المبالغة يجعل نفس هذه الأشياء مفازة، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعني، وإذا كان مفازاً بمعنى الفوز، فيقدر مضاف محذوف أي: فوز حدائق، وهي جمع حديقة؛ وهي: البستان المحوط عليه، والأعناب جمع عنب أي: كروم أعناب ﴿وَكَوَاعِبُ قُرْبَابٍ﴾ الكواعب جمع كاعبة؛ وهي الناهدة، يقال: كعبت الجارية تكعب تكعيباً وكعوباً، ونهنت تنهد نهوداً، والمراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت أي: صارت ثديهن كالكعب في صدورهن. قال الضحاک: الكواعب العذاري، قال قيس بن عاصم:

وكم من حصان قد حوينا كريمة
وكم كاعب لم تدر ما البؤس معصر

وقال عمر بن أبي ربيعة:

وكان مجنى بون ما كنت أتقي
ثلاث شخوص كاعبات ومعصر

والأتراب: الأقران في السن، وقد تقدّم تحقيقه في سورة البقرة ﴿وَكَاَسًا دِهَاقًا﴾ أي: ممتلئة. قال الحسن، وقتادة، وابن زيد: أي: مترعة مملوءة، يقال أدهقت الكأس أي: ملأتها، ومنه قول الشاعر:

لا أسقني صرفاً سقاك الساقني
من مائها بكأسك الدهاق

وقال سعيد بن جبیر، وعكرمة، ومجاهد: ﴿دِهَاقًا﴾ متتابعة يتبع بعضها بعضاً. وقال زيد بن أسلم: ﴿دِهَاقًا﴾ صافية، والمراد بالكأس الإناء المعروف، ولا يقال له الكأس إلا إذا كان فيه الشراب ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾ أي: لا يسمعون في الجنة لغواً، وهو الباطل من الكلام، ولا كذاباً أي: ولا يكذب بعضهم بعضاً. قرأ الجمهور (كذاباً) بالتشديد، وقرأ الكسائي هنا بالتخفيف، ووافق الجماعة على التشديد في قوله: (وكتبوا بآياتنا كذاباً) المتقدم في هذه السورة للتصريح بفعله هناك، وقد قسّمنا الخلاف في كذاباً هل هو من مصادر التفعيل، أو من مصادر المفاعلة؟ ﴿جَزَاءُ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: جازاهم بما تقدّم ذكره جزاء. قال الزجاج:

الماء، فيمرّ به السحاب، فتدرّ كما تدرّ اللقحة، والنجاج ينزل من السماء أمثال العزالي فتصرفه الرياح فينزل متفرقاً. وأخرج ابن جرير، وابن الأنباري في المصاحف عن قتادة قال: في قراءة ابن عباس ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ بالرياح. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَجَنَّاتُ الْغَايَةِ﴾ قال: ملتفة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: يقول: التّف بعضُها ببعض. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سُرَابًا﴾ قال: سراب الشمس الآل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿لَا يَلْبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: سنين. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن سالم بن أبي الجعد قال: سأل علي بن أبي طالب هلال الهجري ما تجنون الحقب في كتاب الله؟ قال: نجده ثمانين سنة كل سنة منها اثنا عشر شهراً كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة. وأخرج سعيد بن منصور، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في الآية قال: الحقب الواحد ثمانون سنة. وأخرج البزار عن أبي هريرة رفعه قال: الحقب ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم كالف سنة مما تعدون. وأخرج عبد بن حميد عنه قال: الحقب ثمانون عاماً اليوم منها كسدر الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مرويّه. قال السيوطي: بسند ضعيف عن أبي أمامة عن النبي ﷺ: ﴿لَا يَلْبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: الحقب ألف شهر، والشهر ثلاثون يوماً، والسنة اثنا عشر شهراً ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم منها ألف سنة، فما تعدون، فالحقب ثلاثون ألف سنة. وأخرج البزار، وابن مرويّه، والذيلي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقاباً، والحقب بضع وثمانون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم ألف سنة مما تعدون». قال ابن عمر: فلا يتكلن أحد أنه يخرج من النار. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال: الحقب الواحد ثمانون سنة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن مرويّه عن عباد بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الحقب أربعون سنة» وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان في قوله: ﴿لَا يَلْبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إنهما في أهل التوحيد من أهل القبلة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: زهير جهنم يكون لهم من العذاب لأن الله يقول: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾. وأخرج ابن مرويّه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «وفي قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ إلا حميمًا» قال: قد انتهى حرّه «وَوَسَّاقًا» قد انتهى حرّه، وإن الرجل إذا أنى الإناء من فيه سقط فروة وجهه، حتى يبقى عظماً تقعقع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿جَزَاءُ وَفَاقًا﴾ قال: وافق أعمالهم. وأخرج عبد بن حميد،

ومجاهد، وقيل: هم اشراف الملائكة قاله مقاتل بن حيان. وقيل: هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبي نجيح. وقيل: هم بنو آدم قاله الحسن، وقتادة. وقيل: هم أرواح بني آدم تقوم صفاء وتقوم الملائكة صفاء، وذلك بين النفتين قبل أن ترد إلى الأجسام قاله عطية العوفي. وقيل: إنه القرآن قاله زيد بن أسلم. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من ضمير يتكلمون، وأن يكون منصوباً على أصل الاستثناء، والمعنى: لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة أو لا يتكلمون إلا في حق من أذن له الرحمن ﴿وَوَ كَانَ ذَلِكَ الشَّخْصَ مِمَّنْ قَالُوا صَوَاباً﴾ قال الضحاك، ومجاهد: صواباً يعني: حقاً. وقال أبو صالح: لا إله إلا الله. وأصل الصواب السداد من القول والفعل. قيل لا يتكلمون يعني: الملائكة والروح الذين قاموا صفاء هيبة وإجلالاً إلا من أذن له الرحمن منهم في الشفاعة، وهم قد قالوا صواباً. قال الحسن: إن الروح تقوم يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالروح، ولا النار إلا بالعمل. قال الواحدي: فهم لا يتكلمون يعني: الخلق كلهم إلا من أذن له الرحمن، وهم المؤمنون والملائكة، وقال في الدنيا صواباً أي: شهد بالتحديد، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى يوم قيامهم على تلك الصفة، وهو مبتدأ وخبره ﴿اليوم الحق﴾ أي: الكائن الواقع المتحقق ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآباً﴾ أي: مرجعاً يرجع إليه بالعمل الصالح؛ لأنه إذا عمل خيراً قرَّبه إلى الله، وإذا عمل شراً باعداه منه، ومعنى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ إلى ثواب ربه، قال قتادة: مآباً: سبيلاً. ثم زاد سبحانه في تخويف الكفار فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾ يعني: العذاب في الآخرة، وكل ما هو آت، فهو قريب، ومثله قوله: ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضَحَاهَا﴾ [النازعات: 46] كذا قال الكلبي، وغيره. وقال قتادة: هو عذاب الدنيا؛ لأنه أقرب العذابين. قال مقاتل: هو قتل قریش ببدر، والاولى لوقوله: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فإن الظرف إما يدل من عذاب، أو ظرف لمضمر هو صفة له أي: عذاباً كائنًا: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾ أي: يشاهد ما قَدَّمه من خير أو شر، وما موصولة أو استفهامية. قال الحسن: والمرء هنا هو المؤمن أي: يجد لنفسه عملاً، فأما الكافر، فلا يجد لنفسه عملاً، فيتمنى أن يكون تائباً، وقيل: المراد به الكافر على العموم، وقيل: أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، والاولى لوقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَائِباً﴾ فإن الكافر واقع في مقابلة المرء، والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون تائباً لما يشاهده مما قد أعد الله له من أنواع العذاب، والمعنى: أنه يتمنى أنه كان تائباً في الدنيا فلم يخلق، أو تائباً يوم القيامة. وقيل: المراد بالكافر أبو جهل، وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وقيل: إبليس، والاولى أولى اعتباراً بعموم اللفظ، ولا ينافية خصوص السبب، كما تقدّم غير مرة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

المعنى جزاهم جزاء، وكذا ﴿عَطَاءٌ﴾ أي: وأعطاهم عطاء ﴿حَسَاباً﴾ قال أبو عبيدة: كافياً. وقال ابن قتيبة: كثيراً، يقال أحسبت فلاناً أي: أكثرته له العطاء، ومنه قول الشاعر:

ونعطي وليد الحي إن كان جائعاً ونحسبه إن كان ليس بجائع
قال ابن قتيبة: أي: نعطيه حتى يقول حسبي. قال الزجاج: حساباً أي: ما يكفيهم. قال الأخفش: يقال لحسبني كذا أي: كفاني. قال الكلبي: حاسبهم، فأعطاهم بالحسنة عشراً. وقال مجاهد: حساباً لما عملوه، فالحساب بمعنى القدر أي: يقدر ما وجب له في وعد الرب سبحانه، فإنه وعد للحسنة عشراً، ووعد لقوم سبعمئة ضعف، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار كقوله: ﴿إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10] وقرأ أبو هاشم (حساباً) بفتح الحاء، وتشديد السين أي: كفافاً. قال الأصمعي: تقول العرب: حسبت الرجل بالتشديد: إذا أكرمته، ومنه قول الشاعر:
إذا أتاه ضيفه يحسبه

وقرأ ابن عباس (حساناً) بالنون ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾. قرأ ابن مسعود، ونافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وزيد عن يعقوب، والمفضل عن عاصم برفع (رَبِّ) و (الرَّحْمَنُ) على أن رَبَّ مبتدأ، والرَّحْمَنُ خبره، أو على أن رَبَّ خبر مبتدأ مقدر أي: هو رَبِّ، والرَّحْمَنُ صفة، و (لا يملكون) خبر رَبِّ، أو على أن رَبَّ مبتدأ، والرَّحْمَنُ مبتدأ ثان، ولا يملكون خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول. وقرأ يعقوب في رواية عنه، وابن عامر، وعاصم في رواية عنه بخفضهما على أن رَبَّ يدل من ربك، والرَّحْمَنُ صفة له. وقرأ ابن عباس، وحزمة، والكسائي بخفض الأول على البديل، ورفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو الرَّحْمَنُ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وقال هذه القراءة أعلوها، فخفض رَبَّ لقربه من ربك، فيكون نعتاً له، ورفع الرَّحْمَنُ لبعده منه على الاستئناف، وخبره ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ أي: لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه. وقال الكسائي: لا يملكون منه خطاباً بالشفاعة إلا بإنه، وقيل: الخطاب الكلام أي: لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه إلا بإنه، دليله: ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: 105] وقيل: أراد الكفار، وأما المؤمنون فيشفعون. ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال على ما تقدّم بيانه، ويجوز أن تكون مستأنفة مقررة لما تقيده الربوبية من العظمة والكبرياء ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ الظرف منتصب بلا يتكلمون، أو بلا يملكون، وصفاً منتصب على الحال أي: مصطفين، أو على المصدرية أي: يصفون صفاء، وقوله: ﴿وَلَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنف لتقرير ما قبله.

واختلف في الروح؛ فقيل: إنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع، ومن الأرضين السبع، ومن الجبال، وقيل: هو جبريل قاله الشعبي، والضحاك، وسعيد بن جبير. وقيل: الروح جند من جنود الله ليسوا ملائكة قاله أبو صالح،

سَبَّحًا ۝ قَالِ الْمَلَائِكَةُ أَمَّا ۝ يَوْمَ تَجُثُّ الْعَرَابُ ۝ تُثَمُّهَا الرَّادَةُ ۝ قُلُوبٌ ۝
يُوقِظُ الرَّاحَةَ ۝ أُنْصِتُوا لَوْلَا لَمْرُودُونَ ۝ فِي الْخَافَةِ ۝
أَوْ كَأَنَّ عَيْنَنَا نَفْخَةً ۝ قَالُوا يَا نَارُ كَرَّةً خَاسِرَةً ۝ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ
وَجِيدَةٌ ۝ فَإِذَا هُمْ بِالنَّارِ ۝ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ حَدِيثَ مُوسَى ۝ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْأَوَادِ
الْمَدِينِ عَلَى ۝ أَتَمَّ إِلَهُ فِرْعَوْنَ أَفْهَمْ طَغَى ۝ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى ۝
وَأَعِذْكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَنَحَّيْ ۝ فَكَرِهَ الْآيَةَ الْكُبْرَى ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَى ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ
يَتَسَوَّى ۝ فَمَسَرَّهَ فَأَنَازَلَ ۝ فَقَالَ أَتَانَا رُحْمُكَ الْأَكَلِ ۝ فَأَنذَرَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ
وَالْأُولَى ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَتَخَفَى ۝

اقسم سبحانه بهذه الأشياء التي نكرها، وهي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم كما ينزع النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد، وكذا المراد بالناشطات، والسابحات، والسابقات، والمديرات، يعني: الملائكة، والعطف مع اتحاد الكل؛ لتنزيل التغيرات الوصفية منزلة التغيرات الذاتية، كما في قول الشاعر:

إلى الملك القدم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزبح
وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.
وقال السدي «النازعات» هي النفوس حين تغرق في الصور. وقال مجاهد: هي الموت ينزع النفس. وقال قتادة: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، من قولهم: نزع إليه إذا ذهب، أو من قولهم: نزعت بالحبل أي: إنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر. وبه قال أبو عبيدة، والآخر، وابن كيسان. وقال عطاء، وعكرمة: النازعات القسي تنزع بالسهم، وإغراق النازع في القوس أن يمدّه غاية المد حتى ينتهي به إلى النصل. وقال يحيى بن سلام: تنزع بين الكلا وتنفر، وقيل: أراد بالنازعات الغزاة الرماة، وانتصاب «غرقا» على أنه مصدر بحذف الزوائد أي: إغراقا، والناسب له ما قبله لملاقاته له في المعنى أي: إغراقا في النزاع حيث تنزعها من اقاصي الأجساد، أو على الحال أي: نوات إغراق، يقال أغرق في الشيء يغرق فيه: إذا أوغل فيه وبلغ غايته «و» معنى «الناشطات» أنها تنشط النفوس أي: تخرجها من الأجساد، كما ينشط العقل من يد البعير: إذا حلّ عنه، ونشط الرجل اللو من البئر: إذا أخرجها، والنشاط الجذب بسرعة، ومنه الأنشطة للعقدة التي يسهل حلها. قال أبو زيد: نشطت الحبل أنشطه نشطاً عقنته، وأنشطته أي: حللته، وأنشطت الحبل أي: مددته، قال الفراء: أنشط العقل أي: حلّ، ونشط أي: ربط الحبل في يديه. قال الأصمعي: بئر أنشط أي: قريبة القعر يخرج اللو منها بجذبة واحدة، وبئر نشوط، وهي التي لا يخرج منها اللو حتى ينشط كثيراً. وقال مجاهد: هو الموت ينشط نفس الإنسان. وقال السدي: هي النفوس حين تنشط من القدمين. وقال عطاء: هي الأرواق التي تنشط السهم، وقال قتادة، والحسن، والآخر: هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق أي: تذهب. قال في الصحاح: والناشطات نشطاً: يعني: النجوم من برج إلى برج

والبيهقي عن ابن عباس في قوله: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا» قال: منتزها «وكواعب» قال: نواهد «تربايا» قال: مستويات «ووكاسا دهاقا» قال: ممتلئا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: «ووكاسا دهاقا» قال: هي الممتلئة المترعة المتتابعة، وربما سمعت العباس يقول: يا غلام أسقنا، وادهق لنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه دهاقا، قال دركا. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً قال: إذا كان فيها خمر فهي: كاس، وإذا لم يكن فيها خمر، فليس بكاس. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مروي عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس، وأيد، وأرجل ثم قرأ: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا» قال: هؤلاء جند، وهؤلاء جند». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ» قال: هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: الروح في السماء الرابعة، وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفّاً واحداً. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار ترد فرائضه فرقاً من عذاب الله، يقول: سبحانه لا إله إلا أنت ما عبيدك حق عبادتك، ما بين منكبيه، كما بين المشرق والمغرب، أما سمعت قول الله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا». وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه في قوله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ» قال: يعني: حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن تردّ الروح إلى الأجساد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً «وَقَالَ صَوَابًا» قال: لا إله إلا الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم، والدواب، والطير وكل شيء، فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجماة من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فذلك حين يقول الكافر «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا».

تفسير سورة النازعات

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة النازعات بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالنَّازِعَاتِ غَرَابًا ۝ وَالنَّشِيطَاتِ تَسَنُّا ۝ وَالشَّيْخَتِ سَبَا ۝ قَالَتِ

معاذ بن جبل، وفي تبديرها الأمر وجهان: أحدهما تدبير طلوعها، وأقولها. الثاني تدبير ما قضاه الله فيها من الأحوال. ومعنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال والحرام، وتقصيلها، والفاعل للتدبير في الحقيقة، وإن كان هو الله عز وجل، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به. وقيل: إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك قيل: لها مدبرات. قال عبد الرحمن بن سابط: تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وعزرائيل، وإسرافيل، فأما جبريل، فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل، فموكل بالقطر والنبات، وأما عزرائيل، فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل، فهو ينزل بالأمر عليهم، وجواب القسم بهذه الأمور التي أقسم الله بها محذوف أي: والنزاعات، وكذا، وكذا لتبعث. قال الفراء: وحذف لمعرفة السامعين به، ويدل عليه قوله: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً﴾ وقيل: إن جواب القسم قوله: ﴿إِنْ فِي تِلْكَ لَعِبْرَةٌ لِمَن يَخْشَى﴾ أي: إن في يوم القيامة، ونكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى. قال ابن الأنباري: وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما، وقيل: جواب القسم ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ لأن المعنى: قد أتاك، وهذا ضعيف جداً، وقيل الجواب: ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّجْافَةُ﴾ على تقدير ليوم ترجف الرجافة تتبعها الرادفة، وقال السجستاني: يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة والنزاعات. قال ابن الأنباري: وهذا خطأ، لأن الفاء لا يفتح بها الكلام، والأول أولى ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّجْافَةُ﴾ انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدر للقسم، أو بإضمار انكر، والراجفة المضطربة، يقال رَجَفَ رَجْفًا، إذا اضطرب، والمراد هنا الصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب كالرعد، وهي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق، والرادفة: النفخة الثانية التي تكون عند البعث، وسميت رادفة؛ لأنها ردت النفخة الأولى، كذا قال جمهور المفسرين. وقال ابن زيد: الراجفة الأرض، والرادفة الساعة. وقال مجاهد: الرادفة الزلزلة تتبعها الرادفة الصيحة، وقيل: الراجفة اضطراب الأرض، والرادفة الزلزلة، وأصل الرجفة الحركة، وليس المراد: التحرك هنا فقط، بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم: رَجَفَ الرعد يَرْجِفُ رَجْفًا وَرَجِيفًا، إذا ظهر صوته، ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها، وظهور الأصوات فيها، ومنه قول الشاعر:

أبالأراجيف يا ابن اللؤم توعني وفي الأراجيف خلت اللؤم والخورا
ومحل ﴿تَتَبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ النصب على الحال من الراجفة، والمعنى: لتبعث يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قلوب مبتدأ، ويومئذ منصوب بواجفة، وواجفة صفة قلوب، وجملة ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ خبر قلوب، والراجفة المضطربة القلقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة. قال جمهور المفسرين أي: خائفة وجلّة. وقال السدي: زائلة عن أماكنها،

كالثور الناشط من بلد إلى بلد، والهموم تنشط بصاحبها. وقال أبو عبيدة، وقتادة: هي الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد. وقيل: الناشطات لأرواح المؤمنين، والنزاعات لأرواح الكافرين؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق، وتجذب روح الكافر بعنف، وقوله: ﴿نَشْطًا﴾ مصدر، وكذا سبأً وسبقاً ﴿وَالسَّابِحَاتُ﴾ الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الروح كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه، وقال مجاهد، وأبو صالح: هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله، كما يقال للفارس الجواد سابح إذا أسرع في جريه. وقال مجاهد أيضاً: السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم. وقيل: هي الخيل السابحة في الغزو، ومنه قول عنترة:

والخيل تعلم حين تسد بح في حياض الموت سبحا
وقال قتادة، والحسن: هي النجوم تسبح في أفلاكها، كما في قوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40] وقال عطاء: هي السفن تسبح في الماء، وقيل: هي أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى الله ﴿وَالسَّابِقَاتُ سَبْقًا﴾ هم: الملائكة على قول الجمهور كما سلف. قال مسروق، ومجاهد: تسبق الملائكة الشياطين بالوحي إلى الأنبياء. وقال أبو روق: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير، والعمل الصالح، وروي نحوه عن مجاهد. وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. وقال الربيع: هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقاً إلى الله. وقال مجاهد أيضاً: هو الموت يسبق الإنسان. وقال قتادة، والحسن، ومعمّر: هي النجوم يسبق بعضها في السير بعضاً. وقال عطاء: هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد. وقيل: هي الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار. قال الجرجاني: عطف السابقات بالفاء، لأنها مسببة من التي قبلها أي: واللاتي يسبحن فيسبقن، تقول قام فذهب، فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب، ولو قلت قام وذهب بالواو لم يكن القيام سبباً للذهاب. قال الواحدي: وهذا غير مطرد في قوله: ﴿فَالْمَدْبِرَاتُ أَمْرًا﴾ لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير. قال الرازي: ويمكن الجواب عما قاله الواحدي: بأنها لما أمرت سبحت فسبقته فدير ما أمرت بتدبيره، فتكون هذه أفعلاً يتصل بعضها ببعض كقوله: قام زيد فذهب، ولما سبقوا في الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أمانتهم، ففوض إليهم التدبير. ويجاب عنه بأن السبق لا يكون سبباً للتدبير كسببية السبح للسبق، والقيام للذهاب، ومجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية، والأولى أن يقال العطف بالفاء في المدبرات طوبى به ما قبله من عطف السابقات بالفاء، ولا يحتاج إلى نكته، كما احتاج إليها ما قبله؛ لأن النكته إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته وموافقته ﴿فَالْمَدْبِرَاتُ أَمْرًا﴾ قال القشيري: أجمعوا على أن المراد هنا: الملائكة. وقال الماوردي: فيه قولان: أحدهما الملائكة وهو قول الجمهور. والثاني أنها الكواكب السبع، حكاه خالد بن معدان عن

وبقيت أوساطها، والنخرة التي قسدت كلها. وقال مجاهد نخرة أي: مرفوعة، كما في قوله: ﴿رفاتك﴾ [الإسراء: 49، 98]، وقد قرئ: (إذا كنا) و(إنذا كنا) بالاستفهام، ويعلمه ثم نكر سبحانه عنهم قولاً آخر قالوه فقال: ﴿قالوا تلك إذا كرة خاسرة﴾ أي: رجعة ذات خسran لما يقع على أصحابها من الخسران، والمعنى: أنهم قالوا إن رددنا بعد الموت لنخسر بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد. وقيل: معنى خاسرة كاذبة أي: ليست بكائنة، كذا قال الحسن وغيره. وقال الربيع بن أنس: خاسرة على من كذب بها. وقال قتادة، ومحمد بن كعب أي: لأن رجعتنا بعد الموت لنخسر بالنار، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعوا بالنار، والكرة الرجعة، والجمع كرات. وقوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ تعليل لما يدل عليه ما تقدم من استبعادهم لبعث العظام النخرة، وإحياء الأموات، والمعنى: لا تستبعدوا ذلك فإنما هي زجرة واحدة، وكان ذلك الإحياء، والبعث، والمراد بالزجرة الصيحة وهي النفخة الثانية التي يكون البعث بها. وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿إنما هي﴾ راجع إلى الرفافة المتقدم ذكرها ﴿فإنذا هم بالساهرة﴾ أي: فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه الأرض، قال الواحدي: المراد بالساهرة وجه الأرض، وظاهرها في قول الجميع. قال الفراء: سميت بهذا الاسم: لأن فيها نوم الحيوان، وسهرهم، وقيل: لأنه يسهر في فلاتها خوفاً منها، فسميت بذلك، ومنه قول أبي كثير الهذلي:

يردون ساهرة كأن حميمها وغميمها اسداف ليل مظلم
وقول أمية بن أبي الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاموا به لهم مقيم
يريد لحم حيوان أرض ساهرة. قال في الصحاح: الساهرة وجه الأرض، ومنه قوله: ﴿فإنذا هم بالساهرة﴾ وقال: الساهرة أرض بيضاء، وقيل: أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها، وقيل: الساهرة الأرض السابعة يأتي بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق. وقال سفيان الثوري: الساهرة أرض الشام. وقال قتادة: هي جهنم أي: فإذا هؤلاء الكفار في جهنم، وإنما قيل لها ساهرة: لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم، وجملة: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عن تكذيب قومه، وأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممن هو أقوى منهم، ومعنى هل أتاك: قد جاءك وبلغك، هذا على تقدير أن قد سمع من قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما، وعلى تقدير أن هذا أول ما نزل عليه في شأنهما، فيكون المعنى على الاستفهام أي: هل أتاك حديثه أنا أخبرك به ﴿إن ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ الظرف متعلق بحديث لا باتاك لاختلاف وقتيهما، وقد مضى من خبر موسى وفرعون في غير موضع ما فيه كفاية، وقد تقدم الاختلاف بين الفراء في طوى في سورة طه. والواد المقدس: المبارك المطهر. قال الفراء: طوى واد بين المدينة ومصر. قال: وهو معدول من

نظيره: ﴿إن القلوب لدى الحناجر﴾ [غافر: 18] وقال المؤرج: قلقة مستوفزة. وقال المبرد: مضطربة، يقال وجف القلب يجف وجيفاً: إذا خفق، كما يقال وجب وجب وجيباً، والإيجاب: السير السريع، فأصل الوجيف اضطراب القلب، ومنه قول قيس بن الخطيم:

إن بني جحجبي وقومهم اكباننا من ورثهم تجف
أبصارها خاشعة أي: أبصار أصحابها، فحذف المضاف، والخاشعة النليلة، والمراد أنها تظهر عليهم الذلة، والخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة كقوله: ﴿خاشعين من الذل﴾ [الشورى: 45] قال عطاء: يريد أبصار من مات على غير الإسلام، ويدل على هذا أن السياق في منكري البعث ﴿يقولون إنما لمربودون في الحافرة﴾ هذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنكم تبعثون أي: أنرد إلى أول حالنا، وابتداء أمرنا، فنصير أحياء بعد موتنا، يقال رجع فلان في حافرتة أي: رجع من حيث جاء، والحافرة عند العرب اسم لأول الشيء، وابتداء الأمر، ومنه قولهم رجع فلان على حافرتة: أي على الطريق الذي جاء منه، ويقال اقتتل القوم عند الحافرة أي: عند أول ما التقوا، وسميت الطريق التي جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشيئه فيها فهي حافرة بمعنى محفورة، ومن هذا قول الشاعر:

أحافرة على صلح وشيب معاذ الله من سفه وعار
أي: أراجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل بعد الشيب والصلح، وقيل الحافرة: العاجلة، والمعنى: إننا لمربودون إلى الدنيا، وقيل الحافرة: الأرض التي تحفر فيها قبورهم، ومنه قول الشاعر:

أليت لا اتساكم فاعلموا حتى يرد الناس في الحافرة
والمعنى: إننا لمربودون في قبورنا أحياء، كذا قال الخليل، والفراء، وبه قال مجاهد. وقال ابن زيد: الحافرة النار، واستدل بقوله: ﴿تلك إذا كرة خاسرة﴾ قرأ الجمهور (في الحافرة) وقرأ أبو حيو (في الحفرة) ﴿إنذا كنا عظاماً نخرة﴾ أي: بالية متفتتة، يقال نخر العظم بالكسر: إذا بلي وهذا تأكيد لإنكار البعث أي: كيف نرد أحياء، ونبعث إذا كنا عظاماً نخرة، والعامل في إذا مضمّر يدل عليه مربودون أي: أنذا كنا عظاماً بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة. قرأ الجمهور (نخرة) وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر (ناخرة)، واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم، واختار القراءة الثانية الفراء، وابن جرير، وأبو معاذ النحوي. قال أبو عمرو بن العلاء: الناخرة التي لم تنخر بعد أي: لم تبل ولا بد أن تنخر. وقيل: هما بمعنى، تقول العرب: نخر الشيء، فهو ناخر ونخر، وطمع، فهو طامع وطمع ونحو ذلك. قال الأخفش: هما جميعاً لغتان أيهما قرأت فحسن. قال الشاعر:

يظل بها الشيخ الذي كان باننا يدب على عوج له نخرات
يعني: على قوائم عوج، وقيل: للناخرة التي لكت أطرافها

والأولى ﴿النكال نعت مصدر محذوف أي: أخذه أخذ نكال، أو هو مصدر لفعل محذوف أي: أخذه الله، فنكلك نكال الآخرة، والأولى، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة، والمراد بنكال الآخرة عذاب النار، ونكال الأولى عذاب الدنيا بالفرق. وقال مجاهد: عذاب أول عمره وآخره. وقال قتادة: الآخرة قوله: ﴿إنا ربكم الأعلى﴾ والأولى تكذيبه لموسى. وقيل: الآخرة قوله: ﴿إنا ربكم الأعلى﴾ والأولى قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ وكان بين الكلمتين أربعون سنة، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له أي: أخذه الله لأجل نكال، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض أي: بنكال. ورجح الزجاج أنه مصدر مؤكد، قال: لأن معنى أخذه الله: نكل الله به، فأخرج من معناه لا من لفظه. وقال الفراء أي: أخذه الله أخذاً نكالاً أي: للنكال، والنكال اسم لما جعل نكالاً للغير أي: عقوبة له، يقال: نكل فلان بفلان إذا عاقبه، وأصل الكلمة من الامتناع، ومنه النكول عن اليمين، والنكل القيد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ أي: فيما نكر من قصة فرعون، وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه، ويخاف عقوبته، ويحاذر غضبه.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرْقًا﴾ قال: هي الملائكة تنزع روح الكفار ﴿وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا﴾ قال: هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ﴿وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا﴾ هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض ﴿فَالسَّابِقَاتُ سَبْقًا﴾ هي الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله ﴿فَالْمُصْبِرَاتُ إِمْرًا﴾ هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرْقًا﴾ قال: هي أنفس الكفار تنزع، ثم تنشط، ثم تغرق في النار. وأخرج الحاكم وصححه عنه ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرْقًا﴾ * ﴿وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا﴾ قال: الموت. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرْقًا﴾ قال: الملائكة الذين يلون أنفس الكفار إلى قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا﴾ قال: الملائكة. وأخرج ابن مربي عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تمرق الناس، فتمزقك كلاب النار، قال الله: ﴿وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا﴾ أتدري ما هو؟ قلت: يا نبي الله ما هو؟ قال: كلاب في النار تنشط اللحم والعظم». وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أن ابن الكواء سأل عن ﴿المصبرات أمرًا﴾ قال: هي الملائكة يدبرون نكر الرحمن وأمره. وأخرج ابن أبي الدنيا في نكر الموت عن ابن عباس قال: ﴿المصبرات أمرًا﴾ ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم، فمنهم من يعرج بالروح، ومنهم من يؤمن على الدعاء، ومنهم من يستغفر للميت حتى يصل على ويلى في حفرته. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ قال: النفخة الأولى ﴿تتبعها الرادفة﴾ قال: النفخة الثانية

طاو كما عدل عمر من عامر. قال: والصرف أحب إلي إذ لم أجد في المعدول نظيراً له. وقيل: طوى معناه يا رجل بالعبرانية، فكانه قيل يا رجل اذهب، وقيل المعنى: إن الوادي المقدس بورك فيه مرتين، والأول أولى. وقد مضى تحقيق القول فيه: ﴿انذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ قيل: هو على تقدير القول، وقيل: هو تفسير للنداء أي: ناداه نداه هو قوله اذهب. وقيل: هو على حذف أن المفسرة، ويؤيده قراءة ابن مسعود أن اذهب؛ لأن في النداء معنى القول، وجملة: ﴿إنه طغى﴾ تحليل للأمر أو لوجوب الامتثال أي: جاوز الحد في العصيان، والتكبر، والكفر بالله ﴿فقل﴾ له ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ أي: قوله بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكي وهو التطهر من الشرك، وأصله تتزكى فحذفت إحدى التاءين. قرأ الجمهور (تزكى) بالتخفيف. وقرأ نافع، وابن كثير بتشديد الزاي على إدغام التاء في الزاي. قال أبي عمرو بن العلاء معنى قراءة التخفيف تكون زكياً مؤمناً ومعنى قراءة التشديد الصنفة، وفي الكلام مبتدأ مقدر يتعلق به إلى، والتقدير: هل لك رغبة، أو هل لك توجه، أو هل لك سبيل إلى التزكي، ومثل هذا قولهم هل لك في الخير؟ يريدون هل لك رغبة في الخير، ومن هذا قول الشاعر:

فهل لكم فيها إلي فأنني بصير بما أعيا النطاسي جنبما

﴿واهيك إلى ربك فتخشى﴾ أي: أرشك إلى عبادته، وتوحيده، فتخشى عقابه، والفاء لترتيب الخشية على الهداية؛ لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ هذه الفاء هي الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف، يعني: فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله في غير موضع، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَات بِهَا﴾ [الأعراف: 106] فعدت تلك آراء الآية الكبرى.

واختلف في الآية الكبرى ما هي؟ فقيل: العصا، وقيل: يده، وقيل: فلق البحر، وقيل: هي جميع ما جاء به من الآيات التسع ﴿فكُتِبَ وَعُصِيَ﴾ أي: فلما أراه الآية الكبرى كُتِبَ بموسى، وبما جاء به، وعصى الله عز وجل، فلم يطعه ﴿ثم أنذر﴾ أي: تولى، وأعرض عن الإيمان ﴿يسعى﴾ أي: يعمل بالفساد في الأرض، ويجتهد في معارضة ما جاء به موسى، وقيل: أنذر هارباً من الحية يسمى خوفاً منها. وقال الرازي: معنى: ﴿أنذر يسعى﴾ أقبل يسعى، كما يقال أقبل يفعل كذا أي: انشأ يفعل كذا، فوضع أنذر موضع أقبل، لئلا يوصف بالإقبال ﴿فحشر﴾ أي: فجمع جنوده للقتال والمحاربة، أو جمع السحرة للمعارضة، أو جمع الناس للحضور؛ ليشاهدوا ما يقع، أو جمعهم ليمنعوه من الحية ﴿فنادى فقال إنا ربكم الأعلى﴾ أي: قال لهم بصوت عال، أو أمر من ينادي بهذا القول. ومعنى: ﴿إنا ربكم الأعلى﴾ أنه لا رب فوقه. قال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها وقال: إنا رب أصنامكم، وقيل: أراد بكونه ربهم أنه قائدهم وسائدهم. والأول أولى لقوله في آية أخرى: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: 38] ﴿فلأخذه الله نكال الآخرة

[81] ثم بيّن سبحانه كيفية خلق السماء فقال: ﴿بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا﴾ أي: جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض، ورفع سمكها أي: أعلاه في الهواء، فقلوه: ﴿رَفَعَ سَمَكُهَا﴾ بيان للبناء، يقال سمكت الشيء أي: رفعت في الهواء، وسمك الشيء سموكاً: ارتفع. قال الفراء كل شيء حمل شيئاً من البناء أو غيره فهو سمك، وبناء مسموك، وسنام سامك أي: عال، والسموكات: السموات؛ ومنه قول الفرزدق:

إِن لِّذِي سَمَكِ السَّمَاءِ بَنَى لَنَا بَيْتاً دَعَاثُمُ اعْرَ وَاطُولُ
قَالَ الْبَغَوِيُّ: رَفَعَ سَمَكُهَا أَي: سَقَفَهَا. قَالَ الْكَسَائِيُّ،
وَالْفَرَاءُ، وَالزَّجَاجُ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾
لأنه من صلة السماء، والتقدير: أَمَّ السَّمَاءَ الَّتِي بَنَاهَا، فَحَنَفَ
الَّتِي، وَمِثْلُ هَذَا الْحَنَفُ جَائِزٌ. وَمَعْنَى ﴿فَسَوَّاهَا﴾ فَجَعَلَهَا
مُسْتَوِيَةً الْخَلْقَ مَعْلَةً الشَّكْلَ لَا تَفَاوَتْ فِيهَا، وَلَا أَعْوَجَاجَ، وَلَا
فُطُورَ، وَلَا شَقُوقَ ﴿وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا﴾ الْغَطْشُ الظُّلْمَةُ أَي: جَعَلَهُ
مَظْلَمًا، يُقَالُ غَطَّشَ اللَّيْلَ وَأَغَطَّشَهُ اللَّهُ، كَمَا يُقَالُ أَظْلَمَ
لِلَّيْلِ وَأَظْلَمَهُ اللَّهُ، وَرَجُلٌ أَغَطَّشَ، وَامْرَأَةٌ غَطَّشَى لَا يَهْتَدِيَانِ.
قَالَ الرَّاعِبِيُّ: وَأَصْلُهُ مِنَ الْأَغْطَشِ، وَهُوَ الَّذِي فِي عَيْنِهِ عَمَشٌ،
وَمِنْهُ فَلَاحُ غَطَّشَى لَا يَهْتَدِي فِيهَا، وَالتَّغَاطُّشُ التَّعَامِي، قَالَ
الْأَعَشِيُّ:

وَدِمَاعُ بِاللَّيْلِ غَطَّشَى الْفَلَاحُ يَؤْنَسُنِي صَوْتُ قِيَادِهَا
وَقَوْلُهُ:

وَعَامِرُهُمْ مَلِيهِمْ غَطَّشَ

يعني: غمرهم سواد الليل، وأضاف الليل إلى السماء؛ لأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس مضافة إلى السماء ﴿وَوَلَّخْرِجَ ضُحَاهَا﴾ أي: أبرز نهارها الماضي بإضاءة الشمس، وعبر عن النهار بالضحى؛ لأنه أشرف أوقاته وأطيبها، وأضافه إلى السماء؛ لأنه يظهر بظهور الشمس، وهي منسوبة إلى السماء ﴿وَوَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ لَحَاهَا﴾ أي: بعد خلق السماء، ومعنى لحاها بسطها، وهذا يدل على أن خلق الأرض بعد خلق السماء، ولا معارضة بين هذه الآية، وبين ما تقدّم في سورة فصلت من قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [فصلت: 11] بل الجمع بانه سبحانه خلق الأرض أولاً غير منحوة، ثم خلق السماء، ثم لحا الأرض، وقد قدّمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك، وقدّمنا أيضاً بحثاً في هذا في أوّل سورة البقرة عند قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: 29] ونكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع، كما في قوله: ﴿عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ نَزِيمٌ﴾ [القلم: 13]، وقيل: بعد بمعنى قبل، كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: 105] أي: من قبل النكر، والجمع الذي نكرناه أولاً، وهو قول ابن عباس وغير واحد، واختاره ابن جرير. يقال نحوت الشيء أنحوه: إذا بسطته، ويقال لعش النعامة أنحى؛ لأنه مبسوط على الأرض، وأشد المبرد:

لَحَاهَا فَلَمَّا رَأَاهَا اسْتَوَتْ عَلَى الْمَاءِ أَرَسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ
وَقَالَ أُمِيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ:
وَبِثَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذَا لَحَاهَا فَهَمَّ قَطَانُهَا حَتَّى التَّنَادِي

﴿قُلُوبَ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قَالَ: خَائِفَةٌ ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ قَالَ: الْحَيَاةُ. وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنُهُ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْبُودٍ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ رِبْعَ اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ انْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتْ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّائِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ». وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ، وَابْنُ مَرْبُودٍ، وَالدَّبْلِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَرْجَفُ الْأَرْضُ رَجْفًا وَتَزَلْزَلُ بِأَهْلِهَا وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّائِفَةُ» يَقُولُ: مِثْلُ السَّفِينَةِ فِي الْبَحْرِ تَكْفَأُ بِأَهْلِهَا مِثْلَ الْقَنْدِيلِ الْمَعْلُوقِ بِأَرْجَائِهِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿قُلُوبَ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قَالَ: وَجَلَةٌ مَتَحَرِّكَةٌ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ عَنْهُ: ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ قَالَ: خَلَقًا جَدِيدًا. وَأَخْرَجَ أَبُو عُبَيْدٍ فِي فُضَائِلِهِ، وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي الْوَقْفِ وَالْإِبْتِدَاءِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ فَقَالَ: السَّاهِرَةُ وَجْهُ الْأَرْضِ، وَفِي لَفْظٍ قَالَ: الْأَرْضُ كُلُّهَا سَاهِرَةٌ، لَا تَرَى قَوْلَ الشَّاعِرِ:

صِيدَ بَحْرٌ وَصِيدَ سَاهِرَةٌ

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَنْهُ أَيْضًا: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزُكِّي﴾ قَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ أَيْضًا: ﴿فَلَاخِذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ﴾ قَالَ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ وَالْأَوَّلَى قَالَ: قَوْلُهُ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38]. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كَانَ بَيْنَ كَلِمَتَيْهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً.

ثُمَّ أَتَتْ عَلَقًا أَرَأَيْتَ أَتَتْهَا ۖ رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا ۖ وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا
وَأَمَّ ضُحَاهَا ۖ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ لَحَاهَا ۖ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۖ
وَالْجِبَالَ أَرَسَهَا ۖ مَتَّكِلًا لَكُرٍّ وَلَاقِيَةً ۖ فَإِذَا جَاءَتْ الْحَأْكَمَةُ الْكَثِيرُ ۖ يَوْمَ
يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ۖ وَيَرْزُقُ الْكَلْبَ لَيْلِيَةً لَيْلِيَةً ۖ قَالُوا مَنْ طَلَقَ ۖ
وَأَنزَلَ الْكَوْكَبَ الْأَشْيَ ۖ فَإِنَّ الْكَلْبَ مِنَ الْمَاءِ ۖ وَأَمَّا مَنْ طَلَقَ ۖ وَنَهَى
النَّفْسَ عَنِ الْكَلْبِ ۖ فَإِنَّ الْكَلْبَ مِنَ الْمَاءِ ۖ يَتَلَوَّنَا عَنْ أَتَانِهِ ۖ فَإِنْ مَرَّهَا
ۖ يَوْمَ أَنْتَ مِنْ زَكْرَاهَا ۖ إِلَى زَكْرَاهَا ۖ لَمَّا أَنْتَ مُبْدُوءٌ مِنْ يَحْشَاهَا
ۖ كَانَتْ يَوْمَ يَوْمًا لَا يَسْأَلُ إِلَّا عِيشَةً أَوْ ضَحَا ۖ

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي: أخلقكم بعد الموت، وبعثكم أشد عندكم، وفي تقديركم أم خلق السماء والخطاب لكفار مكة، والمقصود به التوبيخ لهم والتبكيت؛ لأن من قدر على خلق السماء التي لها هذا الجرم العظيم وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أوّل مرّة؟ ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57] وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: 82]

وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقلاً
بحاها فلما استوت شدّها بأيدي وأرسي عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال، وقرأ الحسن، وعمرو بن ميمون، وابن أبي عبيدة، وأبو حيوة، وأبو السماك، وعمرو بن عبيد، ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء. **﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾** أي: فجر من الأرض الأنهار والبحار والعيون وأخرج منها مرعاها أي: النبات الذي يرعى، ومرعاها مصدر ميمي أي: رعيها، وهو في الأصل موضع الرعي، والجملة إما بيان وتفسير لبحاها؛ لأن السكنى لا تتأتى بمجرد البسط بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكول والمشرب. وإما في محل نصب على الحال **﴿والجبال أرساها﴾** أي: أثبتتها في الأرض، وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقر، وإن لا تميد بأهلها. قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال. وقرأ الحسن، وعمرو بن ميمون، وأبو حيوة، وأبو السماك، وعمرو بن عبيد، ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء، قيل: ولعل وجه تقديم نكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بامر المأكول والمشرب **﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾** أي: منفعة لكم ولأنعامكم من البقر، والإبل، والغنم، وانتصاب متاعاً على المصدرية أي: متعمك بذلك متاعاً أو هو مصدر من غير لفظه؛ لأن قوله: **﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾** بمعنى متع بذلك، أو على أنه مفعول له أي: فعل ذلك لأجل التمتع، وإنما قال: **﴿لكم ولأنعامكم﴾** لأن فائدة ما نكر من الدوح، وإخراج الماء، والمرعى كائنة لهم ولأنعامهم، والمرعى يعم ما يكله النسل والدواب **﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾** أي: الداهية العظمى التي تطم على سائر الطامات. قال الحسن، وغيره: وهي النفخة الثانية. وقال الضحاک، وغيره: هي القيامة سميت بذلك، لأنها تطم على كل شيء لعظم هولها. قال المبرد: الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم: طمّ الفرس طمياً: إذا استفرغ جهده في الجري، وطمّ الماء: إذا ملأ النهر كله. وقال غيره: هو من طمّ السيل الركبة أي: دفنها، والطمّ الدفن. قال مجاهد، وغيره: الطامة الكبرى هي التي تسلم أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها، وجواب إذا قيل: هو قوله: **﴿فأما من طغى﴾** وقيل: محذوف أي: فإن الأمر كذلك، أو عاينوا أو علموا، أو أدخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة. وقال أبو البقاء: العامل فيها جوابها وهو معنى: **﴿يومئذ يتنكر الإنسان﴾** [الفجر: 23] فإنه منصوب بفعل مضمر أي: أعني يوم يتنكر، أو يوم يتنكر يكون كيت، وكيت. وقيل: إن الظرف بدل من إذا، وقيل: هو بدل من الطامة الكبرى؛ ومعنى تنكر الإنسان ما سعي: أنه يتنكر ما عمله من خير، أو شر؛ لأنه يشاهده مدوناً في صحائف

عمله، وهما مصدريّة، أو موصولة **﴿ويبرزت الجحيم لمن يرى﴾** معطوف على جاءت، ومعنى برزت: أظهرت إظهاراً لا يخفى على أحد. قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء، فينظر إليها الخلق، وقيل: **﴿لمن يرى﴾** من الكفار، لا من المؤمنين؛ والظاهر أن تبرز لكل راء، فأما المؤمن، فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها، وأما الكافر فيزداد غمّاً إلى غمه، وحسرة إلى حسرته. قرأ الجمهور (لمن يرى) بالتحية، وقرأت عائشة، ومالك بن دينار، وعكرمة، وزيد بن عليّ بالفوقية أي: لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يا محمد. وقرأ ابن مسعود (لمن رأى) على صيغة الفعل الماضي **﴿فأما من طغى﴾** أي: جاوز الحد في الكفر والمعاصي **﴿وأثر الحياة الدنيا﴾** أي: قدمها عن الآخرة، ولم يستعد لها، ولا عمل عملها **﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾** أي: مأواه، والآل واللام عوض عن المضاف إليه، والمعنى: أنها منزله الذي ينزله، ومأواه الذي يأوي إليه لا غيرها. ثم نكر القسم الثاني من القسمين فقال: **﴿وأما من خاف مقام ربه﴾** أي: حذر مقامه بين يدي ربه يوم القيامة. قال الربيع: مقامه يوم الحساب. قال قتادة: يقول إن لله عزّ وجلّ مقاماً قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفه في الدنيا من الله عزّ وجلّ عند واقعة الذنب فيقطع عنه نظيره قوله: **﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾** [الرحمن: 46] والأول أولى **﴿ونهى للنفس عن الهوى﴾** أي: زجرها عن الميل إلى المعاصي والمحارم التي تشتبهها. قال مقاتل: هو الرجل يهيم بالمعصية، فينكر مقامه للحساب، فيتربها **﴿فإن الجنة هي المأوى﴾** أي: المنزل الذي ينزله، والمكان الذي يأوي إليه لا غيرها **﴿يسألونك عن الساعة إيان مرساها﴾** أي: متى وقوعها وقيامها. قال الفراء: أي: منتهى قيامها كرسو السفينة. قال أبو عبيدة: ومرسى السفينة حين تنتهي، والمعنى: يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله، وقد مضى بيان هذا في سورة الأعراف **﴿فيم أنت من نكراها﴾** أي: في أي شيء أنت يا محمد من نكر القيامة والسؤال عنها، والمعنى: لست في شيء من علمها، ونكراها إنما يعلمها الله سبحانه، وهو إنكار ورد لسؤال المشركين عنها أي: فيم أنت من ذلك حتى يسألونك عنه ولست تعلمه **﴿إلى ربك منتهاها﴾** أي: منتهى علمها، فلا يوجد علمها عند غيره، وهذا كقوله: **﴿قل إنما علمها عند ربي﴾** [الأعراف: 187] وقوله: **﴿إن الله عنده علم الساعة﴾** [لقمان: 34] فكيف يسألونك عنها، ويطلبون منك بيان وقت قيامها **﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾** أي: مخوف لمن يخشى قيام الساعة، وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الإخبار بوقت قيام الساعة، ونحوه مما استأثر الله بعلمه، وخصّ الإنذار بمن يخشى؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار، وإن كان منذراً لكل مكلف من مسلم وكافر. قرأ الجمهور بإضافة (منذر) إلى ما بعده. وقرأ عمر بن عبد العزيز، وأبو جعفر، وطلحة، وابن محيصن، وشيبة، والأعرج، وحמיד بالتونين، ورويت هذه

مشركي مكة سألوا النبي ﷺ فقالوا: متى الساعة استهزاء منهم؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاها﴾ يعني: مجيئها ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرها﴾ يعني: ما أنت من علمها يا محمد ﴿إِلَىٰ رَيْكَ مَنَتهَاها﴾ يعني: منتهى علمها. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: «كانت الأعراب إذا قدموا على النبي ﷺ سألوه عن الساعة، فينظر إلى أحدت إنسان منهم، فيقول: إن يعيش هذا قامت عليكم ساعتكم».

تفسير سورة عبس

وهي مكية في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة عبس بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَسَىٰ وَرَوْكَ ١ أَنْ يَكُونَ الْأَخْسَرُ ٢ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ بُرْهَانٌ ٣ أَوْ يَدْرِيكَ ٤ فَتَنَّمَنَّ الْأَوَّلَىٰ ٥ أَمْ آتَىٰ اسْتَنْصَافٌ ٦ فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّقْ ٧ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْكُؤٌ ٨ وَأَنْتَ مِنْ جَدِّكَ يَسَّرٌ ٩ وَهوَ يُبَسِّطُ ١٠ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ١١ كَلَّا إِنَّا بِنَزْوَاهِ ١٢ ذِكْرٍ ١٣ فِي سَاءِ ذِكْرٍ ١٤ وَنَحْنُ فَكَّرَكُمُوهُ ١٥ مَرْوَعَةً مِّطْرَهَمٍ ١٦ بَأْسَىٰ سِفَرٍ ١٧ كَرِيمٍ ١٨ نَزَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ١٩ مِنْ أَيْ قَوْمٍ خَلَقَهُ ٢٠ مِنْ طَلْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ٢١ ثُمَّ السَّيْلَ يَسَّرَهُ ٢٢ ثُمَّ أَمَانَةً فَأَقْبَرَهُ ٢٣ ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشَرَهُ ٢٤ كَلَّا لَنَا بَقِيضٌ مَا أَمَرَهُ ٢٥ لَيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ ٢٦ أَلَّا صَبَّ إِلَهُ مَسًا ٢٧ ثُمَّ مَنَعْنَا الْأَرْضَ نَسًا ٢٨ فَأَلْبَسْنَا بِهَا بَاسًا ٢٩ وَفَصَّيْنَا ٣٠ وَزَيَّنَّا وَرَعْلًا ٣١ وَرَمَدًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ٣٢ وَفَكَّرَكُمَا ٣٣ وَأَنْتَ لَكَ زُلْفَتَانِ ٣٤ إِذَا جَاءَ السَّكَنُ ٣٥ يَوْمَ يُرَى الْكَافِرُ مِنْ رَبِّهِ ٣٦ وَرَأْيُهُ وَابْدِ ٣٧ وَتَسْجُدُ وَيَسْجُدُ ٣٨ لِكُلِّ أَرَبٍ لَنْتُمْ يَوْمَهُ ٣٩ ثُمَّ يَوْمُ يَنْبُؤُهُ ٤٠ وَهُوَ يَوْمُ يَوْمِهِ ٤١ شِرِّهِ ٤٢ حَاجِبِكُمْ شَتَبِيرُهُ ٤٣ وَهُوَ يَوْمُ يَوْمِهِ عَلَيْكَ عَذَابٌ ٤٤ وَفَقَهَا قَدَرُهُ ٤٥ أَوَّلَهُ ثُمَّ الْكَفَرُ الْقَبِيرُ ٤٦

قوله: ﴿عبس وتولى﴾ أي: كلب بوجهه وأعرض. وقرئ عبس بالتشديد ﴿إِنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ مفعول لأجله: أي: لأن جاءه الأعْمَى، والعامل فيه إما عبس، أو تولى على الاختلاف بين البصريين، والكوفيين في التنازع هل المختار إعمال الأول أو الثاني؟

وقد اجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية: أن قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ، وقد طمع في إسلامهم، فاقبل عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه، فأعرض عنه، فنزلت، وسيأتي في آخر البحث بيان هذا إن شاء الله ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ التفت سبحانه إلى خطاب نبيه ﷺ، لأن المشافهة أدخل في العتاب: أي أي شيء يجعلك دارياً بحاله حتى تعرض عنه، وجملة ﴿لعله يزكى﴾ مستأنفة لبيان أن له شأنًا ينافي الإعراض عنه أي: لعله يتطهر من الذنوب

القراءة عن أبي عمرو. قال الفراء: والتنون، وتركه في منذر صواب كقوله: ﴿بالغ أمره﴾ [الطلاق: 3] و ﴿مومن كيد الكافرين﴾ [الأنفال: 18]. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن تكون الإضافة للماضي، نحو ضارب زيد أمس ﴿كانهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ أي: إلا قدر آخر نهار أو أوله، أو قدر الضحى الذي يلي تلك العشية، والمراد تقليل مدة الدنيا، كما قال: ﴿لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ [الأحقاف: 35] وقيل: لم يلبثوا في قبورهم إلا عشية أو ضحاها. قال الفراء، والزجاج: المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافته إلى يوم العشية على عادة العرب، يقولون: أتيتك الغداة أو عشيتك، وأتيتك العشية أو غدتك، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أول النهار. ومنه قول الشاعر:

نحن صبحنا عامراً في دارها جرداً تعادى طرفي نهارها

عشية الهلال أو سرارها

والجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿رفع سمكها﴾ قال: بنامها ﴿وواغطش ليلها﴾ قال: أظلم ليلها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿واغطش ليلها﴾ قال: وأظلم ليلها ﴿وأخرج ضحاها﴾ قال: أخرج نهارها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾ قال: مع ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً أن رجلاً قال له: آيتان في كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى، فقال: إنما أتيت من قبل رايك، قال: اقرا: ﴿قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ حتى بلغ: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ [فصلت: 9 - 11] وقوله: ﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾ قال: خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء، ثم خلق السماء، ثم نحى الأرض بعد ما خلق السماء، وإنما قوله: ﴿نحاها﴾ بسطها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ﴿نحاها﴾ أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال، والرمال، والسبل، والأكام وما بينهما في يومين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الطامة من أسماء يوم القيامة. وأخرج ابن مريويه عن علي بن أبي طالب: «كان النبي ﷺ يسأل عن الساعة فنزلت: ﴿فيم أنت من نكراها﴾». وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن عائشة قالت: «ما زال رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله: ﴿فيم أنت من نكراها﴾ إلى ربك منتهاهها» فانتهى، فلم يسأل عنها. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، والطبراني، وابن مريويه عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة حتى نزلت: ﴿فيم أنت من نكراها﴾ إلى ربك منتهاهها. فكف عنها. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس. قال السيوطي بسند ضعيف: إن

حاجة إلى الاهتمام بأمره. قيل: الضميران في إنها، وفي ذكره للقرآن، وتأنيت الأول لتأنيث خبره. وقيل: الأول للسورة، أو للآيات السابقة. والثاني للتذكرة؛ لأنها في معنى الذكر، وقيل إن معنى: ﴿فمن شاء ذكره﴾: فمن شاء الله الهمة، وفهم القرآن حتى ينكره، ويتعظ به، والأول أولى. ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة، وجلالتها فقال: ﴿في صحف﴾ أي: إنها تذكرة كائنة في صحف، فالجار، والمجرور صفة لتذكرة، وما بينهما اعتراض، والصحف جمع صحيفة، ومعنى ﴿مكرمة﴾: أنها مكربة عند الله لما فيها من العلم والحكمة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ، وقيل: المراد بالصحف: كتب الأنبياء، كما في قوله: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ * صحف إبراهيم وموسى [الاعلى: 18]، 19] ومعنى ﴿مرفوعة﴾: أنها رفيعة القدر عند الله، وقيل: مرفوعة في السماء السابعة. قال الواحدي: قال المفسرون: مكربة يعني: اللوح المحفوظ ﴿مرفوعة﴾ يعني: في السماء السابعة. قال ابن جرير: مرفوعة القدر، والذكر، وقيل: مرفوعة عن الشبه، والتناقض ﴿مطهرة﴾ أي: منزهة لا يمسها إلا المطهرون. قال الحسن: مطهرة من كل دنس. قال السدي: مصانة عن الكفار لا ينالونها ﴿بايدي سفره﴾ السفرة جمع سافر ككتبة، وكاتب، والمعنى: أنها بايدي كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ. قال الفراء: السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله، من السفارة وهو: السعي بين القوم، وأنشد:

فما أذع السفارة بين قومي ولا أمشي بغير أب نسيب
قال الزجاج: وإنما قيل: للكتاب سفر بكسر السين، والكاتب سافر؛ لأن معناه أنه بين، يقال أسفر الصبح: إذا أضاء، وأسفرت المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة أي: أصلحت بينهم. قال مجاهد: هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد. وقال قتادة: السفرة هنا هم القراء؛ لأنهم يقرءون الأسفار. وقال وهب بن منبه: هم أصحاب النبي ﷺ. ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال: ﴿كرام ببره﴾ أي: كرام على ربهم كذا قال الكلبي. وقال الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسهم عنها. وقيل: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجه، أو قضى حاجته. وقيل: يؤثرون منافع غيرهم على منافعهم. وقيل: يتكرمون على المؤمنين بالاستغفار لهم. والبررة جمع بار مثل كفره، وكافر أي: اتقياء مطيعون لربهم صادقون في إيمانهم، وقد تقدم تفسيره ﴿قتل الإنسان ما اكفره﴾ أي: لعن الإنسان الكافر ما أشد كفره، وقيل: عذب، قيل: والمراد به عتبة بن أبي لهب، ومعنى: ما اكفره التعجب من إفراط كفره. قال الزجاج: معناه أعجبوا أنتم من كفره، وقيل: المراد بالإنسان من تقدم ذكره في قوله: ﴿إما من استغنى﴾ وقيل: المراد به الجنس، وهذا هو الأول، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر، ويدخل تحته من كان سبباً لنزول الآية سخوياً أولياً. ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا

بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، فالضمير في لعله راجع إلى الأعمى، وقيل: هو راجع إلى الكافر أي: وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكي، أو ينكر، والأول أولى. وكلمة الترجي باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجوً التزكي مما لا يجوز. قرأ الجمهور (أن جاءه الأعمى) على الخبر بدون استفهام، ووجه ما تقدم. وقرأ الحسن (أن جاءه) بالمد على الاستفهام، فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دل عليه عيس وتولى، والتقدير، أن جاءه الأعمى تولى وأعرض، ومثل هذه الآية قوله في سورة الأنعام: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ [الأنعام: 52] وكذلك قوله في سورة الكهف: ﴿ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ [الكهف: 28] وقوله: ﴿أو ينذكر﴾ عطف على يزكي داخل معه في حكم الترجي أي: أو يتذكر، فيتعظ بما تعلمه من المواعظ ﴿فتنفعه الذكر﴾ أي: الموعظة. قرأ الجمهور (فتنفعه) بالرفع، وقرأ عاصم وابن أبي إسحاق، وعيسى، والسلمي، ويزر بن حبيش بالنصب على جواب الترجي ﴿إما من استغنى﴾ أي: كان ذا ثروة وغنى، أو استغنى عن الإيمان، وعما عندك من العلم ﴿فأنت له تصدى﴾ أي: تصفي لكلامه، والتصدي الإصغاء. قرأ الجمهور (تصدى) بالتخفيف على طرح إحدى التاءين تخفيفاً، وقرأ نافع، وابن محيصن بالتشديد على الإدغام، وفي هذا مزيد تنفير له ﷺ عن الإقبال عليهم، والإصغاء إلى كلامهم ﴿وما عليك أن لا يزكى﴾ أي: أي شيء عليك في أن لا يسلم، ولا يهتدي، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، فلا تهتم بامر من كان هكذا من الكفار، ويجوز أن تكون ما نافية أي: ليس عليك بأس في أن لا يتزكى من تصديت له، وأقبلت عليه، وتكون الجملة في محل نصب على الحال من ضمير تصدى. ثم زاد سبحانه في معاتبته رسوله ﷺ فقال: ﴿وإما من جاءك يسعى﴾ أي: وصل إليك حال كونه مسرعاً في المجيء إليك طالباً منك أن ترشده إلى الخير، وتعظه بمواعظ الله، وجملة ﴿وهو يخشى﴾ حال من فاعل يسعى على التداخل، أو من فاعل جاءك على الترايف ﴿فأنت عنه تلهي﴾ أي: تتشاغل عنه، وتعرض عن الإقبال عليه، والتلهي التشاغل، والتغافل، يقال لهيت عن الأمر الهنيء أي: تشاغلته عنه، وكذا تلهيت، وقوله: ﴿كلا﴾ ردع له ﷺ عما عوتب عليه أي: لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير، والتصدي للغني، والتشاغل به، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكي، والقبول للموعظة، وهذا الواقع من النبي ﷺ هو: من باب ترك الأولى، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به ﴿إنها تذكرة﴾ أي: أن هذه الآيات، أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها، وتقبلها وتعمل بموجبه، ويعمل بها كل أمتك ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي: فمن رغب فيها تعظ بها، وحفظها، وعمل بموجبه، ومن رغب عنها، كما فعله من استغنى، فلا

لام العلة. قال الزجاج: الكسر على الابتداء والاستئناف، والفتح على معنى البذل من الطعام. المعنى: فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صباً، وأراد بصب الماء المطر. وقرأ الحسن بن علي بالفتح، والإمالة **﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَاقًا﴾** أي: شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقاً بديعاً لاثقاً بما يخرج منه في الصغر، والكبر، والشكل، والهيئة. ثم بين سبب هذا الشق، وما وقع لأجله، فقال: **﴿فَانْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾** يعني: الحبوب الذي يتغذى بها، والمعنى: أن النبات لا يزال ينمو، ويتزايد إلى أن يصير حباً، وقوله: **﴿وَعَنَبًا﴾** معطوف على حباً أي: وانبتنا فيها عنباً، قيل: وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه، فلا ضير في خلو إنبات العنب عن شق الأرض، والقضب: هو القث الرطب الذي يقضب مرة بعد أخرى تلطف به النواب، ولهذا سمي قضباً على مصدر قضبه أي: قطعه كأنه لتكرّر قطعها نفس القطع. قال الخليل: القضب الفصصة الرطبة، فإذا يبست فهي: القث. قال في الصحاح: والقضبة، والقضب الرطبة، قال: والموضع الذي ينبت فيه مقضبة. قال القتيبي: وثعلب: وأهل مكة يسمون العنب القضب. والزيتون هو ما يعصر منه الزيت، وهو شجرة الزيتون المعروفة، والنخل هو جمع نخلة **﴿وَحَدَائِقُ غُلَبًا﴾** جمع حديقة، وهي البستان، والغلب العظام الغلاظ الرقاب. وقال مجاهد، ومقاتل: الغلب الملتف بعضها ببعض، يقال: رجل أغلب: إذا كان عظيم الرقة، ويقال للأسد أغلب؛ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعاً. قال العجاج:

مازلت يوم البين لوي صلبى والرأس حتى صرت مثل الأغلب
وجمع أغلب، وغلباء غلب، كما جمع أحمر، وحمراء على حمرة. وقال قتادة، وابن زيد: الغلب النخل الكرام. وعن ابن زيد أيضاً، وعكرمة: هي غلاظ الأوساط، والجذوع، والفاكهة ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب، والتين، والخوخ، ونحوها. والأب كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس، ولا يزرعونه من الكلاء، وسائر أنواع المرعى، ومنه قول الشاعر:

جنّنا قيس ونجد دارنا ولنا الأب بها والمكرع
قال الضحاك: الأب كل شيء ينبت على وجه الأرض. وقال ابن أبي طلحة: هو الثمار الرطبة. ودوي عن الضحاك أيضاً أنه قال: هو التين خاصة، والأول أولى. ثم شرع سبحانه في بيان أحوال المعاد فقال: **﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾** يعني: صيحة يوم القيامة، وسميت صاخة لشدة صوتها؛ لأنها تصخ الأذان: أي تصمها، فلا تسمع، وقيل: سميت صاخة؛ لأنها يصيح لها الأسماك، من قولك أصاخ إلى كذا أي: استمع إليه، والأول أصح. قال الخليل: الصاخة صيحة تصخ الأذان حتى تصمها بشدة وقعها، وأصل الكلمة في اللغة مأخوذة من الصك الشديد، يقال صكه بالحجر: إذا صكه بها، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله: **﴿لِكُلِّ امْرئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾** أي: فإذا جاءت الصاخة اشتغل

الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره، ويكف عن طغيانه فقال: **﴿مَنْ أَيُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾** أي: من أي شيء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام للتقرير. ثم فسر ذلك فقال: **﴿مَنْ نَظَفَهُ خَلَقَهُ﴾** أي: من ماء مهين، وهذا تحقير له. قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتين، ومعنى **﴿فَقَدَرَهُ﴾** أي: فسواه، وهياه لمصالح نفسه، وخلق له اليبدين، والرجلين، والعينين، وسائر الآلات، والحواس، وقيل: قدره أطواراً من حال إلى حال، نظفة، ثم علقة إلى أن تم خلقه **﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾** أي: يسر له الطريق إلى الخير والشر. وقال السدي، ومقاتل، وعطاء، وقاتادة: يسره للخروج من بطن أمه، والأول أولى. ومثله قوله: **﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾** [البلد: 10] وانتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور أي: يسر السبيل يسره **﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾** أي: جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراماً له، ولم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تاكله السباع، والطير، كذا قال الفراء وقال أبو عبيدة: جعل له قبراً وأمر أن يقبر فيه. وقال أقبره، ولم يقل قبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، ومنه قول الأعشى:

لو أسندت ميتاً إلى صدرها عاش ولم ينقل إلى قابر
﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي: ثم إذا شاء إنشأه أنشأه أي: أحياه بعد موته، وعلق الإنشأ بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين، بل هو: تابع للمشيئة. قرأ الجمهور (أنشأه) بالالف، وروى أبو حيوة عن نافع، وشعيب بن أبي حمزة نشره بغير ألف، وهما لغتان فصيحتان. **﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضُ مَا أَمَرَهُ﴾** كلا ردع، وزجر للإنسان الكافر أي: ليس الأمر كما يقول. ومعنى: لما يقض ما أمره، لم يقض ما أمره الله به من العمل بطاعته، واجتناب معاصيه، وقيل: المراد الإنسان على العموم، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدة؛ لأنه لا يخلو من تقصير. قال الحسن: أي: حقاً لم يعمل ما أمر به. وقال ابن فورك: أي: كلا لما يقض لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقض له. قال ابن الأنباري: الوقف على كلا قبيح، والوقف على أمره جيد، وكلا على هذا بمعنى حقاً. وقيل المعنى: لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره، بل أخل به: بعضها بالكفر، وبعضها بالعصيان، وما قضى ما أمره الله إلا القليل. ثم شرع سبحانه في تعداد نعمه على عباده؛ ليشكروها، وينزجروا عن كفرانها بعد نكر النعم المتعلقة بحوثه فقال: **﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾** أي: ينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته؟ وكيف هيا له أسباب المعاش يستعد بها للسعادة الآخروية؟ قال مجاهد: معناه، فلينظر الإنسان إلى طعامه أي: إلى مدخله، ومخرجه، والأول أول. ثم بين ذلك سبحانه فقال: **﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾** قرأ الجمهور (إننا) بالكسر على الاستئناف. وقرأ الكوفيون، ودويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من طعامه بدل اشتمال لكون نزول المطر سبباً لحصول الطعام، فهو كالمشتمل عليه، أو بتقدير

كل أحد بنفسه، والظرف في قوله: **«يوم يفز المرء من أخيه * وأمه وإبيه * وصاحبته وبنيه»** إما يدل من إذا جاءت، أو منصوب بمقتضى أي: أعني، ويكون تفسيراً للصاحبة، أو بدلاً منها مبني على الفتح، وخص هؤلاء بالذكر؛ لأنهم أخص القرابة، وأولاهم بالحنو، والرافة، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم، وخطب فظيع **«لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»** أي: لكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء، ويصرفه عنهم. وقيل: إنما يفز عنهم حذراً من مطالبتهم إياه بما بينهم، وقيل: يفز عنهم؛ لئلا يروا ما هو فيه من الشدة، وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه، ولا يغنون عنه شيئاً، كما قال تعالى: **«يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً»** [الدخان: 41] والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الفرار. قال ابن قتيبة: يغنيه أي: يصرفه عن قرابته، ومنه يقال أغن عني وجهك أي: أصرفه. قرأ الجمهور (يغنيه) بالفتح المعجمة. وقرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء أي: يهيمه، من عناء الأمر إذا أهيمه **«وجود يومئذ مسفرة»** وجوه مبتدأ، وإن كان نكرة؛ لأنه في مقام التفصيل، وهو من مسوغات الابتداء بالنكرة، ويومئذ متعلق به، ومسفرة خبره، ومعنى مسفرة: مشرقة مضيئة، وهي وجوه المؤمنين؛ لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم، والكرامة، يقال أسفر الصبح إذا أضاء. قال الضحاک: مسفرة من آثار الوضوء، وقيل: من قيام الليل **«ضاحكة مستبشرة»** أي: فرحة بما نالته من الثواب الجزيل. ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال: **«وجود يومئذ عليها غيرة»** أي: غبار، وكبورة لما تراه مما أعد الله لها من العذاب **«ترهقها قترة»** أي: يغشاها ويعلوها سواد، وكسوف، وقيل: نلة، وقيل: شدة، والقتر في كلام العرب الغبار، كذا قال أبو عبيدة، وأنشد قول الفرزدق:

متوج برداء الملك يتبعه فوج ترى فوقه الرايات والقرا
ويبلغ ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة، فإنها واحدة الغبار. وقال زيد بن أسلم: القترة ما ارتفعت إلى السماء، والغبرة ما انحطت إلى الأرض **«أولئك»** يعني: أصحاب الوجوه **«هم للكفرة لفجرة»** أي: الجامعون بين الكفر بالله، والفجور، يقال فجر أي: فسق، وفجر أي: كتب، وأصله الميل، والفاجر المائل عن الحق.

وقد أخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن عائشة قالت: «أنزلت عيسى وتولى في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أتري بما أقول بأساً؟ فيقول لا، ففي هذا أنزلت». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو يعلى عن أنس قال: «جاء ابن أم مكتوم، وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله: **«عيسى وتولى أن جاءه الأعمى»** فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه». وأخرج

ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «بينا رسول الله ﷺ يناجي عبته بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام، وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل عليهم رجل أعمى يقال له: عبد الله بن أم مكتوم يمشي، وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن قال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعيسى في وجهه، وتولى، وكره كلامه، وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه، وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره، ثم خفق برأسه، ثم أنزل الله **«عيسى وتولى»** الآية، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبي ﷺ، وكلمه وقال له: ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده قال: هل لك حاجة في شيء؟ قال ابن كثير: فيه غرابة، وقد تكلم في إسناده. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **«بأيدي سفرة»** قال: كتبة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **«بأيدي سفرة»** قال: هم: بالنبطية القراء. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً **«كلام بررة»** قال: الملائكة؛ وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن، وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه، وهو عليه شاق له أجران». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **«ثم السبيل يسره»** قال: يعني: بذلك خروجه من بطن أمه يسره له. وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير في قوله: **«فلينظر الإنسان إلى طعامه»** قال: إلى مخله، ومخرجه. وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس: **«فلينظر الإنسان إلى طعامه»** قال: إلى خربه. وأخرج ابن المنذر عنه: **«إننا صبينا للماء صبا»** قال: المطر **«ثم شققنا الأرض شقا»** قال: عن النبات. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **«وقضيا»** قال: الفصفصة يعني: القث **«وحداثق غلبا»** قال: طوالاً **«وفلحكة ولبا»** قال: الثمار الرطبة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الحداثق كل ملتف، والغلب ما غلظ، والآب ما أثبتت الأرض مما تكله الدواب، ولا يأكله الناس. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً **«وحداثق غلبا»** قال: شجر في الجنة يستظل به لا يحمل شيئاً. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الآب الكلا والمرعى. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق عن الآب ما هو؟ فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما أعلم. وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد: أن رجلاً سأل عمر عن قوله: **«ولبا»** فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرّة. وأخرج ابن سعد، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، والخطيب عن أنس أن عمر قرأ على المنبر: **«فأنبتنا فيها حباً وعنباً»** إلى قوله: **«ولبا»** قال: كل هذا قد عرفناه، فما الآب؟ ثم رفض عصي كانت في يده

بها. فالحاصل أن التكويد إما بمعنى لفّ جرمها، أو لفّ ضوئها، أو الرمي بها ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي: تهافتت، وانقضت، وتناكرت، يقال: انكدر الطائر من الهواء إذا انقض، والأصل في الانكدار الانصباب. قال الخليل: يقال: انكدر عليهم القوم إذا جاءوا أسلاً، فانصبوا عليهم. قال أبو عبيدة: انصبت، كما ينصب العقاب. قال الكلبي وعطاء: تمطر السماء يومئذ نجومًا، فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على الأرض، وقيل: انكدارها طمس نورها ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سَوَّيَتْ﴾ أي: قلعت عن الأرض، وسيرت في الهواء، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: 47]. ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العشار: النوق الحوامل التي في بطونها أولادها الواحدة عشار، وهي التي قد أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع. وخصّ العشار لأنها أنفس مال عند العرب، وأعزّه عندهم، ومعنى عطلت: تركت هملًا بلا راع، وذلك لما شابهوا من الهول العظيم، قيل: وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشار، بل المراد: أنه لو كان للرجل ناقة عشار في ذلك اليوم، أو نوق عشار لتركها، ولم يلتفت إليها اشتغالا بما هو فيه من هول يوم القيامة، وسيأتي آخر البحث إن شاء الله ما يفيد أن هذا في الدنيا. وقيل: العشار السحاب، فإن العرب تشبّهها بالحامل، ومنه قوله: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وَقرَأْنَ﴾ [الذاريات: 2] وتعطيلها عدم إمرارها قرأ الجمهور (عطلت) بالتشديد، وقرأ ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف. وقيل: المراد أن الديار تعطل، فلا تسكن، وقيل: الأرض التي تعشر زرعها تعطل، فلا تذرع ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حْشُرَتْ﴾ الوحوش ما توحش من نواب البر، ومعنى حشرت: بعثت حتى يقتص بعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء. وقيل: حشرها موتها، وقيل: إنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبئدها في الصحارى تضم تلك اليوم إليهم. قرأ الجمهور (حشرت) بالتخفيف، وقرأ الحسن، وعمرو بن ميمون بالتشديد. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ﴾ أي: أوقدت، فصارت ناراً تضطرم. وقال الفراء: ملئت بأن صارت بحراً واحداً، وكثر ماؤها، وبه قال الربيع بن خثيم، والكلبي، ومقاتل، والحسن، والضحاك. وقيل: أرسل عذيبها على مالحها، ومالحها على عذيبها حتى امتلأت، وقيل: فجرت، فصارت بحراً واحداً. وروي عن قتادة، وابن حبان أن معنى الآية: يبست، ولا يبقى فيها قطرة. يقال: سجرت الحوض أسجره سجراً إذا ملأته. وقال القشيري: هو من سجرت التنور أسجره سجراً إذا أحميته. قال ابن زيد، وعطية، وسفيان، وهب، وغيرهم: أوقدت، فصارت ناراً، وقيل: معنى سجرت أنها صارت حمراء كالدم، من قولهم عين سجراء أي: حمراء. قرأ الجمهور (سجرت) بتشديد الجيم. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وتخفيفها ﴿وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وقرن بين رجل السوء مع رجل السوء في النار. وقال عطاء:

فقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك أن لا تدري ما الأب، اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب، فاعملوا عليه، وما لم تعرفوه، فكلوه إلى ربه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: الصاخة من أسماء يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مُسْفَرَةٌ﴾ قال: مشرقة، وفي قوله: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ قال: تغشاهما شدة، ونذلة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: ﴿قَتَرَةٌ﴾ قال: سواد الوجه.

تفسير سورة التكويد

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة، وابن الزبير مثله. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [أي: سورة التكويد]». ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [أي: سورة الانفطار]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [أي: سورة الانشقاق].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٣ وَإِذَا الْبِحَارُ عُطِّلَتْ ٤ وَإِذَا الْخُرُوشُ حُشِرَتْ ٥ وَإِذَا الْيَمَامُ سُجِّرَتْ ٦ وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ ٧ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُحِلَتْ ٨ أَيُّ يَدٍ تُدْرِي ٩ ثَلُثَتْ ١٠ وَإِذَا الْعُشُورُ سُيِّرَتْ ١١ وَإِذَا السَّمَاءُ كُوِّلَتْ ١٢ وَإِذَا الْجَبَلُ سُيِّرَتْ ١٣ وَإِذَا الْقُلُوبُ أُنْفِلَتْ ١٤ وَعِلَّتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ١٥ فَلَا أُنِيمُ بِاللَّيْلِ ١٦ لَلِأَكْثَرِ ١٧ وَاللَّيْلِ إِذَا عَمَصَ ١٨ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٢٠ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢١ ثُلَاثُ نَمٍّ ٢٢ أَمِينٍ ٢٣ وَمَا سَاجِدٌ يَسْتَمِعُنِ ٢٤ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ اللَّيْلِيِّ ٢٥ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِنَسِيئٍ ٢٦ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْءٍ رَجِيمٍ ٢٧ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٨ إِنْ هُوَ إِلَّا وَكَرَّ اللَّعَالِيْنَ ٢٩ لِيُنْشَأَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَخِيمَ ٣٠ وَمَا نَشَأُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٣١

قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال، وهذا عند البصريين، وأما عند الكوفيين، والأخفش، فهو مرتفع على الابتداء. والتكويد الجمع، وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكوورها. قال الزجاج: لفّت، كما تلف العمامة، يقال: كورت العمامة على رأسي اكورها كوراً، وكورتها تكويداً: إذا لففتها. قال أبو عبيدة: كورت مثل تكويد العمامة تلف، فتجمع. قال الربيع بن خثيم: كورت أي: رمى بها، ومنه كورته، فتكوّر أي: سقط. وقال مقاتل، وقتادة، والكلبي: ذهب ضوؤها. وقال مجاهد: اضمحلت. قال الواحدي: قال المفسرون: تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف، فيرمى

سعرت أي: أوقلت لأعداء الله إيقاداً شديداً. قرأ الجمهور (سعرت) بالتخفيف، وقرأ نافع، وابن نكوان، وحفص بالتشديد؛ لأنها أوقلت مرة بعد مرة. قال قتادة: سعرها غضب الله، وخطايا بني آدم **﴿وإذا الجنة أزلفت﴾** أي: قرّبت إلى المتقين، وأنيت منهم. قال الحسن: إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها. وقال ابن زيد: معنى أزلفت تزينت. والأول أولى لأن الزلّفى في كلام العرب القرب. قيل: هذه الأمور الاثنا عشر: ستّ منها في الدنيا، وهي من أول السورة إلى قوله: **﴿وإذا البحار سجرت﴾**، وستّ في الآخرة وهي: **﴿وإذا النفوس زوجت﴾** إلى هنا، وجواب الجميع قوله: **﴿علمت نفس ما أحضرت﴾** على أن المراد الزمان الممتدّ من الدنيا إلى الآخرة، لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم في كلّ جزء من أجزاء هذا الوقت الممتدّ، بل المراد: علمت ما أحضرت عند نشر الصحف يعني: ما عملت من خير، أو شرّ، ومعنى ما أحضرت: ما أحضرت من أعمالها، والمراد حضور صحائف الأعمال، أو حضور الأعمال نفسها، كما ورد أن الأعمال تصوّر بصور تدلّ عليها وتعرف بها، وتذكير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس، أو لبعض منها للإيدان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور، والوضوح بحيث لا يخفى على أحد، ويدلّ على هذا قوله: **﴿يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً﴾** [آل عمران: 30] وقيل: يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كلّ نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هي تلك التي علمت ما أحضرت، فكيف وكلّ نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه لعلك ستندم على ما فعلت، وربما ندم الإنسان على فعله **﴿فلا أقسم بالخنس﴾** لا زائدة، كما تقدّم تحقيقه، وتحقيق ما فيه من الأقوال في أول سورة القيامة أي: فأقسم بالخنس، وهي: الكواكب وسميت الخنس من خنس: إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار، فتخفى ولا ترى، وهي: زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد، كما نكره أهل التفسير. ووجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس، وتقطع المجرة. وقال في الصحاح: الخنس الكواكب كلها لأنها تخنس في المغيب، أو لأنها تخفى نهاراً، أو يقال هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة. قال الفراء: إنها الكواكب الخمسة المذكورة لأنها تخنس في مجراها، وتكنس أي: تستتر، كما تكنس الأطباء في المغار، ويقال: سميت خنساً لتأخرها لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم. يقال: خنس عنه يخنس خنوساً إذا تأخر، وأخنسه غيره: إذا خلفه ومضى عنه، والخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة، ومعنى: **﴿الجوار﴾** أنها تجري مع الشمس والقمر، ومعنى: **﴿الكنس﴾** أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوءها، وقيل: خنوسها خفاؤها بالنهار، وكنوسها غروبها. قال الحسن، وقتادة: هي النجوم التي

زوّجت نفوس المؤمنين بالحدود العين، وقرنت نفوس الكافرين بالشرائط. وقيل: قرن كل شكل إلى شكله في العمل، وهو راجع إلى القول الأول. وقيل: قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان، كما في قوله: **﴿أحشروا الذين ظلموا وازواجهم﴾** [الصافات: 22] وقال عكرمة: **﴿وإذا النفوس زوجت﴾** يعني: قرنت الأرواح بالأجساد. وقال الحسن: الحق كل امرئ بشيعته اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقيل: يقرن الغاري بمن اغواه من شيطان، أو إنسان، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين. وقيل: قرنت النفوس بأعمالها **﴿وإذا للموودة سئلت﴾** أي: المدفونة حية، وقد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار، أو الحاجة، يقال: واد يند واداً، فهو وائد، والمفعول به موءود، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن، فيطرح عليها التراب، فيثقلها فتموت، ومنه: **﴿ولا يؤوده حفظهما﴾** [البقرة: 255] أي: لا يثقله، ومنه قول متمم بن نويرة:

وموودة مقبورة في مفارة

ومنه قول الراجز:

سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهرضامن رميت
قرأ الجمهور: (الموودة) بهمزة بين واوين ساكنين كالموعودة. وقرأ البزي في رواية عنه بهمزة مضمومة، ثم واو ساكنة. وقرأ الأعمش: (المودة) بزنة الموزة. وقرأ الجمهور (سئلت) مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل. وقرأ الجمهور (قتلت) بالتخفيف مبنياً للمفعول، وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التثنية. وقرأ علي، وابن مسعود، وابن عباس سالت مبنياً للفعل (قتلت) بضم التاء الأخيرة. ومعنى سئلت على قراءة الجمهور أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلتها حتى كان لا يستحق أن يخاطب، ويسأل عن ذلك، وفيه تبيكيت لقاتلتها، وتوبيخ له شديد. قال الحسن: أراد الله أن يوبخ قاتلتها لأنها قتلت بغير ذنب، وفي مصحف أبي (وإذا الموءودة سالت بأيّ ذنب قتلتني) **﴿وإذا الصحف نشرت﴾** يعني: صحائف الأعمال نشرت للحساب؛ لأنها تطوى عند الموت، وتنتشر عند الحساب، فيفقد كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: **﴿مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾** [الكهف: 49] قرأ نافع، وعاصم، وابن عمر، وأبو عمرو (نشرت) بالتخفيف. وقرأ الباقر بالتشديد على التثنية **﴿وإذا السماء كشطت﴾** الكشط قلع عن شدة التزاق، فالسما ككشط، كما يكشط الجلد عن الكبش، والكشط بالقاف لغة في الكشط، وهي: قراءة ابن مسعود. قال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف. وقال الفراء: نزعت، فطويت. وقال مقاتل: كشفت عما فيها. قال الواحدي: ومعنى الكشط رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه **﴿وإذا الجحيم**

تخس بالنهار، وإذا غربت، والمعنى متقارب لأنها تتأخر في النهار عن البصر لخفاؤها فلا ترى، وتظهر بالليل، وتكنس في وقت غروبها. وقيل: المراد بها بقر الوحش لأنها تنصف بالخنس، وبالجوار، وبالكنس. وقال عكرمة: الخنس البقر، والكنس الظباء، فهي: تخنس إذا رأت الإنسان، وتنقبض، وتتأخر، وتدخل كناسها. وقيل: هي الملائكة. والأول أولى لنذكر الليل والصبح بعد هذا، والكنس مأخوذ من الكنس الذي يختفى فيه الوحش، والخنس جمع خانس وخانسة، والكنس جمع كانس وكانسة ﴿والليل إذا عسعس﴾ قال أهل اللغة: هو من الأضداد، يقال: عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس إذا أدير، ويدل على أن المراد هنا أدير قوله: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدير، كذا حكاه عنه الجوهري، وقال الحسن: أقبل بظلامه. قال الفراء: العرب تقول: عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس الليل إذا أدير، وهذا لا ينافي ما تقدم عنه، لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه في هذه الآية على أدير، وإن كان في الأصل مشتركاً بين الإقبال والإدبار. قال المبرد: هو من الأضداد. قال: والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو: ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره. قال رؤبة بن العجاج:

يا هند ما أسرع ما تعسعسا من بعد ما كان فتى ترعرعا
وقال امرؤ القيس:

عسعس حتى لو نشاء إذ لنا كان لنا من ناره مقتبس وقوله:

الماء على الربيع القديم تعسعسا

﴿والصبح إذا تنفس﴾ التنفس في الأصل: خروج النسيم من الجوف، وتنفس الصبح إقباله لأنه يقبل بروج ونسيم، فجعل ذلك تنفساً له مجازاً. قال الواحدي: تنفس أي: امتدّ ضوؤه حتى يصير نهراً، ومنه يقال للنهار إذا زاد تنفس. وقيل: ﴿إذا تنفس﴾ إذا انشق، وانفلق، ومنه تنفست القوس أي: تصدعت. ثم نكر سبحانه جواب القسم فقال: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ يعني: جبريل لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله ﷺ، وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلأ به، وقيل: المراد بالرسول في الآية محمد ﷺ، والأول أولى. ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ أي: ذي قوة شديدة في القيام بما كلف به، كما في قوله: ﴿شديد القوى﴾ [النجم: 5]، ومعنى: ﴿عند ذي العرش مكين﴾ أنه ذو رفعة عالية، ومكانة مكنية عند الله سبحانه، وهو في محل نصب على الحال من مكين، وأصله الوصف، فلما قدم صار حالاً ويجوز أن يكون نعتاً لرسول، يقال مكن فلان عند فلان مكانة أي: صار ذا منزلة عنده ومكانة. قال أبو صالح: من مكانته عند ذي العرش أنه يدخل سبعين سراً بغير إذن، ومعنى ﴿مطاع﴾ أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه، ويطيعونه ﴿ثم أمين﴾ قرأ الجمهور بفتح (ثم) على أنها

ظرف مكان للبعيد، والعامل فيه مطاع، أو ما بعده، والمعنى: أنه مطاع في السموات، أو أمين فيها أي: مؤتمن على الوحي وغيره، وقرأ هشيم، وأبو جعفر، وأبو حيوة بضمها على أنها عاطفة، وكان العطف بها للتراخي في الرتبة لأن ما بعدها أعظم مما قبلها، ومن قال: إن المراد بالرسول محمد ﷺ، فالمعنى: أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة مطاع يطيعه، من أطاع الله أمين على الوحي ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ الخطاب لأهل مكة، والمراد بصاحبهم رسول الله ﷺ، والمعنى: وما محمد يا أهل مكة بمجنون، ونكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون، وغيره في شيء، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم، وهذه الجملة داخلة في جواب القسم، فاقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل، وأن محمداً ﷺ ليس كما يقولون من أنه مجنون، وأنه يأتي بالقرآن من جهة نفسه ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ اللام جواب قسم محذوف أي: وتالله لقد رأى محمد جبريل بالأفق المبين أي: بمطلع الشمس من قبل المشرق لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين لأن من جهته ترى الأشياء. وقيل: الأفق المبين أقطار السماء ونواحيها، ومنه قول الشاعر:

أخذنا بأقطار السماء عليكم لنا قمرها والنجوم الطوالع

وإنما قال سبحانه: ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ مع أنه قد رآه غير مرة لأنه رآه هذه المرة في صورته له ستمائة جناح، قال سفيان: إنه رآه في أفق السماء الشرقي. وقال ابن بحر: في أفق السماء الغربي. وقال مجاهد: رآه نحو أجياد وهو مشرق مكة، والمبين صفة للأفق قاله الربيع. وقيل: صفة لمن رآه قاله مجاهد: وقيل معنى الآية: ولقد رأى محمد ربه عز وجل، وقد تقدم القول في هذا في سورة النجم ﴿وما هو﴾ أي: محمد ﷺ ﴿على الغيب﴾ يعني: خبر السماء وما اطلع عليه مما كان غائباً علمه من أهل مكة ﴿بضنين﴾ بمتهم أي: هو ثقة فيما يؤدي عن الله سبحانه. وقيل: بضنين ببخيل أي: لا يبخل بالوحي، ولا يقصر في التبليغ، وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء، فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: (بظنين) بالطاء المشالة أي: بمتهم، والظنة التهمة، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأنهم لم يبخلوا ولكن كنّبوه. وقرأ الباقون بضنين بالضاد أي: ببخيل، من ضننت بالشيء أضنّ ضناً: إذا بخلت. قال مجاهد أي: لا يضمن عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه. وقيل: المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين، والأول أولى ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ أي: وما القرآن بقول شيطان من الشياطين المستترقة للسمع المرجومة بالشبه. قال الكلبي: يقول إن القرآن ليس بث شعر لا كهانة، كما قالت قریش. قال عطاء: يريد بالشيطان الشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبي ﷺ في صورة جبريل يريد أن يفتنه. ثم بكتهم سبحانه وبخهم، فقال: ﴿فأين تذهبون﴾ أي: أين

فاماتتهم. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: حشرو البهائم موتها، وحشرو كل شيء الموت غير الجن والإنس، فإنهما يوافقان يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخطيب في المتفق، والمفتقر عنه في قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: يحشرو كل شيء يوم القيامة حتى إن الدواب لتحشرو. وأخرج البيهقي في البعث عنه أيضاً في قوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: تسجر حتى تصير ناراً. وأخرج الطبراني عنه: ﴿سُجِّرَتْ﴾ قال: اختلط ماؤها بماء الأرض. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في البعث عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: يقرن بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، كذلك تزويج الأنفس وفي رواية: ثم قرأ: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفافات: 22] وأخرج نحوه ابن مروي عن النعمان بن بشير مرفوعاً. وأخرج البزار، والحاكم في الكنى، والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب قال: جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني وأنت ثمان بنات لي في الجاهلية، فقال له رسول الله ﷺ: أعتق عن كل واحدة رقبة، قال: إني صاحب إبل، قال: فاهد عن كل واحدة بدنة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قال: قربت. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ﴾ قال: هي الكواكب تكنس بالليل، وتخنس بالنهار، فلا ترى. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ﴾ قال خمسة أنجم: زحل، وعطارد، والمشتري، وبهرام، والزهرة، ليس شيء يقطع المجرة غيرها. وأخرج ابن مروي، والخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس في الآية قال: هي النجوم السبعة: زحل، وبهرام، وعطارد، والمشتري، والزهرة، والشمس، والقمر، خنوسها رجوعها، وكنوسها تقيها بالنهار. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن سعد، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود في قوله: ﴿بِالْخَنَسِ الْجَوَارِي لِّلْكَنَسِ﴾ قال: هي بقرة الوحش. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هي البقرة تكنس إلى الظل. وأخرج ابن المنذر عنه قال: تكنس لأنفسها في أصول الشجر تتوارى فيه. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: هي: الطيلاء. وأخرج ابن راهويه، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَالْجَوَارِ الْكُنَسِ﴾ قال: هي: الكواكب.

تعلون عن هذا القرآن وعن طاعته كذا قاله قتادة. وقال الزجاج: معناه أي: طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم، يقال أين تذهب، وإلى أين تذهب؟ وحكى الفراء عن العرب: ذهب الشام، وخرجت العراق، وانطلقت السوق أي: إليها. قال: سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة، وأنشد لبعض بني عقيل:

تصبح بنا حنيفة إذ راتنا وإني الأرض تذهب بالصباح
تريد إلى أي الأرض تذهب، فحنف إلى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَكْرَ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين، وتذكير لهم، وقوله: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بدل من العالمين بإعادة الجار، ومفعول المشيئة ﴿أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أي: لمن شاء منكم الاستقامة على الحق والإيمان والطاعة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وما تشاءون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة في التوفيق إليه، وأنهم لا يقدرُونَ على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه، ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَوْفَّعَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: 100] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 111] وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56] والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا لِلشَّمْسِ كُوْرَتْ﴾ قال: أظلمت ﴿وَإِذَا لِلنُّجُومِ انْكَدَرَتْ﴾ قال: تغيرت. وأخرج ابن أبي حاتم، والديلمي عن أبي مريم أن النبي ﷺ قال في قوله: ﴿إِذَا لِلسَّمَاءِ كُوْرَتْ﴾ قال: كُوْرَتْ في جهنم ﴿وَإِذَا لِلنُّجُومِ انْكَدَرَتْ﴾ قال: انكدرت في جهنم، فكل من عبد من دون الله فهو في جهنم، إلا ما كان من عيسى وأمه، ولو رضيا أن يعبدوا للخلاها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي العالية قال: ست آيات من هذه السورة في الدنيا، والناس ينظرون إليها، وست في الآخرة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوْرَتْ﴾ إلى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ هذه في الدنيا، والناس ينظرون إليها ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ إلى ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ هذه في الآخرة. وأخرج ابن أبي الدنيا في الأموال، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففرغت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب، والطيور، والوحش، فماجوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: اختلطت ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: أمهلها أهلها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: الجن للإنس نحن ناتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحر، فإذا هو نار تاجج، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة، وإلى السماء السابعة، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح

وَأُخْرِجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿الْخَنَسُ﴾ الْبَقَرُ
﴿وَالْجَوَارُ لَكُنْسٌ﴾ الْظُبَاءُ، أَلَمْ تَرَاهَا إِذَا كَانَتْ فِي الظَّلِّ كَيْفَ
تَكُنْسُ بِأَعْنَاقِهَا، وَمَنْتَ نَظَرَهَا. وَأَخْرَجَ أَبُو أَحْمَدَ الْحَاكِمُ فِي
الْكُنَى عَنْ أَبِي الْعَدِيسِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَاتَاهُ
رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا ﴿الْجَوَارُ لَكُنْسٌ﴾ فَطَعَنَ
عُمَرَ بِمُخَصَّرَةٍ مَعَهُ فِي عِمَامَةِ الرَّجُلِ، فَالْقَاهَا عَنْ رَأْسِهِ،
فَقَالَ عُمَرُ: أَحَرُّوْ؟ وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِيَدِهِ لَوْ
وَجِئْتُكَ مَحْلُوقًا لَأَنْحَيْتُ الْقَمَلَ عَنْ رَأْسِكَ، وَهَذَا مِنْكَ،
فَالْحَرُورِيُّ لَمْ يَكُونُوا فِي زَمَنِ عُمَرَ، وَلَا كَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ
الْوَقْتُ نَكْرٌ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ
مِنْ طَرِيقٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَسَ﴾
قَالَ: إِذَا أَدْبَرَ ﴿وَالصَّبِيحُ إِذَا تَفَفَسَ﴾ قَالَ: إِذَا بَدَأَ النَّهَارَ حِينَ
طُلُوعِ الْفَجْرِ. وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْهُ ﴿إِذَا عَسَسَ﴾ قَالَ:
إِقْبَالَ سَوَادِهِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ عَنْهُ أَيْضًا ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ قَالَ: جَبْرِيلُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْبُوهٍ، وَأَبُو نَعِيمٍ
فِي الدَّلَالِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمَبِينِ﴾ قَالَ:
رَأَى جَبْرِيلَ لَهُ سِتْمَانَةُ جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ. وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ،
وَابْنُ مَرْبُوهٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: إِنَّمَا عَنِ جَبْرِيلَ
أَنْ مُحَمَّدًا رَأَاهُ فِي صُورَتِهِ عِنْدَ سُورَةِ الْمُنْتَهَى. وَأَخْرَجَ ابْنُ
مَرْبُوهٍ عَنْهُ بِالْأَفْقِ الْمَبِينِ، قَالَ: السَّمَاءُ السَّابِعَةُ. وَأَخْرَجَ
سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ
مَرْبُوهٍ مِنْ طَرِيقٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ (بُضْنَيْنِ)
بِالضَّادِ، وَقَالَ: بِبُخَيْلٍ. وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَعَبْدُ بْنُ
حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ مَرْبُوهٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَرَأَ
(وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بَظْنَيْنِ) بِالضَّادِ قَالَ: لَيْسَ بِمَتَّهِمْ. وَأَخْرَجَ
الِدَارِقُطْنِي فِي الْأَفْرَادِ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْبُوهٍ،
وَالْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرُؤُهُ
﴿بُظْنَيْنِ﴾ بِالضَّادِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْبُوهٍ عَنْ
أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾
قَالُوا: الْأَمْرُ إِلَيْنَا إِنْ شِئْنَا اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ شِئْنَا لَمْ نَسْتَقَمْ،
فَهَبِطَ جَبْرِيلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: كَذَبُوا يَا مُحَمَّدُ
﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس،
وابن مَرْبُوهٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ
انْفَطَرَتْ﴾ بِمَكَّةَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْبُوهٍ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ مِثْلَهُ.
وَأَخْرَجَ النَّسَائِيُّ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: «قَامَ مَعَاذُ فَصَّلَى الْعِشَاءَ
فَطَوَّلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَقْتَانُ أَنْتَ يَا مَعَاذُ؟ أَيْنَ أَنْتَ عَنْ
﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [آي: سورة الأعلى]،
﴿وَالضُّحَى﴾ [آي: سورة الضحى]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾
وَأَصَلَ الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَلَكِنْ يَدُونَ نَكْرَ: ﴿إِذَا
السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ وَقَدْ تَفَرَّدَ بِهَا النَّسَائِيُّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي
سُورَةِ التَّكْوِينِ حَدِيثُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ
رَبِّكَ الْكَرِيمَ ﴿٦﴾ أَلَيْكَ خَلْقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ
رَبِّكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكِيدُونَ إِلَيْنِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا
كَبِيرِينَ ﴿١١﴾ يَتَّبِعُونَ مَا مَقُولُكُمْ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَوَّلَ لَنَ يُبْسِئُ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْآخِرَ لَنَ يُبْسِئُ
بِحَبِيرٍ ﴿١٤﴾ يَتْلُوَنَا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْآزِلِ ﴿١٧﴾
ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْآزِلِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ زَنْبًا وَلَا أَمُوتُ
يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ قال الواحدي: قال
المفسرون: انفطارها انشقاقها كقوله: «يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ
بِالْغَمَامِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا» [الفرقان: 25] والفطر: الشق،
يقال: فطرت فانفطر، ومنه فطر ناب البعير إذا طلع، قيل:
والمراد أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها، وقيل: انفطرت
لهيبة الله ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ أي: تساقطت متفرقة
يقال: نثرت الشيء انثرته نثرًا ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي:
فجر بعضها في بعض، فصارت بحرًا واحدًا، واختلط العذب
منها بالمالح. وقال الحسن: معنى فجرت ذهب ماؤها،
ويبست، وهذه الأشياء بين يدي الساعة، كما تقدّم في
السورة التي قبل هذه ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قلب
ترابها، وأخرج الموتى الذين هم فيها، يقال: بعثر يبعثر
بعثرة إذا قلب التراب، ويقال: بعثر المتاع قلبه ظهرًا لبطن،
وبعثرت الحوض وبعثرت إذا هدمته، وجعلت أعلاه أسفله.
قال الفراء: بعثرت أخرج ما في بطنها من الذهب والفضة،
وذلك من أشراف الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها،
ثم نكر سبحانه الجواب عما تقدّم فقال: ﴿عَلِمْتَ نَفْسَ مَا
قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾ والمعنى: أنها علمته عند نشر الصحف لا
عند البعث لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير
أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، والكلام في أفراد
نفس هنا، كما تقدّم في السورة الأولى في قوله: ﴿عَلِمْتَ
نَفْسَ مَا أَحْضَرْتَ﴾ [التكوير: 14] ومعنى ﴿مَا قَدَّمْتَ
وَأَخَّرْتَ﴾ مَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَمَا أَخَّرْتَ مِنْ
سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ لِأَنَّ لَهَا أَجْرَ مَا سَنَّتَهُ مِنَ السَّنَنِ
الْحَسَنَةِ، وَأَجْرَ مِنْ عَمَلٍ بِهَا، وَعَلَيْهَا وَزَرَ مَا سَنَّتَهُ مِنَ السَّنَنِ
السَّيِّئَةِ، وَوَزَرَ مِنْ عَمَلٍ بِهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: مَا قَدَّمْتَ مِنْ
مَعْصِيَةٍ، وَأَخَّرْتَ مِنْ طَاعَةٍ، وَقِيلَ: مَا قَدَّمَ مِنْ فَرْضٍ، وَأَخَّرَ
مِنْ فَرْضٍ، وَقِيلَ: أَوَّلَ عَمَلِهِ وَأَخْرَهُ، وَقِيلَ: إِنَّ النَّفْسَ تَعْلَمُ عِنْدَ
الْبُعْثِ بِمَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ عِلْمًا إِجْمَالِيًّا لِأَنَّ الْمَطِيعَ يَرَى أَثَارَ
السَّعَادَةِ، وَالْعَاصِيَ يَرَى أَثَارَ الشَّقَاوَةِ، وَأَمَّا الْعِلْمُ التَّفْصِيلِيُّ،

ووصفهم سبحانه بأنهم كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد، وجملة: **﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾** في محل نصب على الحال من ضمير كاتبين، أو على النعت، أو مستأنفة. قال الرازي: والمعنى التعجيب من حالهم كأنه قال: إنكم تكتبون بيوم الدين، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة، ونظيره قوله تعالى: **﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾** [ق: 17، 18]. ثم بين سبحانه حال الفريقين فقال: **﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾** والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذي سيقت له، وهي كقوله سبحانه: **﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾** [الشورى: 17] وقوله: **﴿يَصِلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾** صفة لجحيم، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير في متعلق الجار، والمجرور، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل ما حالهم؟ فقيل: **﴿يَصِلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾** أي: يوم الجزاء الذي كانوا يكتبون به، ومعنى يصلونها: أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها، وحرّما يومئذ. قرأ الجمهور (يصلونها) مخففاً مبنياً للفاعل، وقرئ بالتشديد مبنياً للمفعول. **﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِالْمُنِيبِينَ﴾** أي: لا يفارقونها أبداً، ولا يغيبون عنها، بل هم فيها، وقيل المعنى: وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجنون حرّما في قبورهم، ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾** أي: يوم الجزاء، والحساب، وكرّره تعظيماً لقدره، وتفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره، كما في قوله: **﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾** [القارعة: 1 - 3] و **﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾** [الحاقة: 1 - 3] والمعنى: أي شيء جعلك دارياً ما يوم الدين. قال الكلبي: الخطاب للإنسان الكافر. ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال: **﴿يَوْمَ لَا تملكُ نفسُ لنفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله﴾** قرأ ابن كثير، وأبو عمرو برفع: (يوم) على أنه بدل من يوم الدين، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ أبو عمرو في رواية: (يوم) بالتثنية، والقطع عن الإضافة. وقرأ الباقون بفتحه على أنها فتحة إعراب بتقدير: أعني أو أنكر، فيكون مفعولاً به، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأي الكوفيين، وهو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه بدل من يوم الدين. قال الزجاج: يجوز أن يكون في موضع رفع إلا أنه مبنياً على الفتح لإضافته إلى قوله: **﴿لَا تملكُ﴾** وما أضيف إلى غير المتمكن، فقد بينى على الفتح، وإن كان في موضع رفع، وهذا الذي نكره إنما يجوز عند الخليل، وسيبويه إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضي، وأما إلى الفعل المستقبل، فلا يجوز عندهما، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو علي الفارسي، والفرّاء، وغيرهما، والمعنى: أنها لا تملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئاً من النفع أو الضرر **﴿والأمرُ يومئذٍ لله﴾** وحده لا يملك شيئاً من الأمر غيره كأنها ما كان. قال مقاتل:

فإنما يحصل عند نشر الصحف **﴿يأبها الإنسان ما غرّك بربك الكريم﴾** هذا خطاب الكفار: أي: ما الذي غرّك، وخدعك حتى كفرت بربك الكريم الذي تفضل عليك في الدنيا بأكمل خلقك وحواسك، وجعلك عاقلاً فاهماً، ورزقك وأنعم عليك بنعمة التي لا تقدر على جحد شيء منها. قال قتادة: غرّه شيطانه المسلط عليه. وقال الحسن: غرّه شيطانه الخبيث، وقيل: حمقه وجهله. وقيل: غرّه عفو الله إذ لم يعاجله بالعقوبة أوّل مرة، كذا قال مقاتل **﴿الذي خلقك فسوّك فعدلك﴾** أي: خلقك من نقطة، ولم تك شيئاً، فسوّك رجلاً تسمع وتبصر وتعقل، فعدلك جعلك معتدلاً. قال عطاء: جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة. وقال مقاتل: عدل خلقك في العينين، والأذنين، واليدين، والرجلين، والمعنى: عدل بين ما خلق لك من الأعضاء. قرأ الجمهور: (فعدلك) مشدداً، وقرأ عاصم، وحزمة، والكلابي بالتخفيف، واختار أبو حاتم، وأبو عبيد القراءة الأولى. قال الفرّاء، وأبو عبيد: يدل عليها قوله: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾** [التين: 4] ومعنى القراءة الأولى: أنه سبحانه جعل أعضاءه متعابلة لا تغاوت فيها، ومعنى القراءة الثانية: أنه صرفه، وأماله إلى أي صورة شاء، إما حسناً وإما قبيحاً، وإما طويلاً وإما قصيراً **﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾** في أي صورة متعلق بركبك، وما مزيدة، وشاء صفة لصورة: أي: ركبك في أي صورة شاءها من الصور المختلفة، وتكون هذه الجملة كالبيان لقوله: **﴿فعدلك﴾** والتقدير: فعدلك ركبك في أي صورة شاءها، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال أي: ركبك حاصلاً في أي صورة. ونقل أبو حيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعدلك. واعترض عليه بأن أي لها صدر الكلام، فلا يعمل فيها ما قبلها. قال مقاتل، والكلبي، ومجاهد: في أي شبه من أب أو أم، أو خال أو عم. وقال مكحول: إن شاء نكراً، وإن شاء أنثى، وقوله: **﴿كلام﴾** للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله، وجعله ذريعة إلى الكفر به، والمعاصي له، ويجوز أن يكون بمعنى حقاً، وقوله: **﴿بل تكتبون بالدين﴾** إضراب عن جملة مقدرة ينساق إليها الكلام، كأنه قيل: بعد الردع، وأنتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجاوزونه إلى ما هو أعظم منه من التكنيب بالدين وهو الجزاء، أو بين الإسلام. قال ابن الأنباري: الوقف الجيد على الدين، وعلى ركبك، وعلى كلاً قبيح، والمعنى: بل تكتبون يا أهل مكة بالدين أي: بالحساب، وبل لنفي شيء تقدّم، وتحقيق غيره، وإنكار البعث قد كان معلوماً عندهم، وإن لم يجر له نكر. قال الفرّاء: كلا ليس الأمر، كما غررت به. قرأ الجمهور (تكتبون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وشيبة بالتحية على الغيبة، وجملة: **﴿وإن عليكم لحافظين﴾** في محل نصب على الحال من فاعل تكتبون أي: تكتبون، والحال أن عليكم من يدفع تكذيبكم، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم، والحافظين الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم، ويكتبونها في الصحف.

عَلِيمٌ ﴿٦﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْيَوْمِينَ ﴿٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ لَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ هَدًى وَمَا وَدَّكَ مَا يَتَّبِعُونَ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْآلِافِينَ ﴿١٢﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١٣﴾ كَلَّا لَأَنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ مَنجُومُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْغَيْمِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ هُمْ فِي سَحَابٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿١٦﴾

قوله: ﴿ويل للمطففين﴾ ويل مبتدأ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء، ولو نصب لجاز. قال مكِّي، والمختار: في ويل، وشبهه إذا كان غير مضاف الرفع، ويجوز النصب، فإن كان مضافاً أو معرفاً كان الاختيار فيه للنصب نحو قوله: ﴿ويلكم لا تفتروا﴾ [طه: 61] وللمطففين خبره، والمطفف المنقص، وحقيقته الأخذ في الكيل، أو الوزن شيئاً طفيفاً أي: نزرأً حقيراً. قال أهل اللغة: المطفف مأخوذ من الطفف، وهو القليل، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن. قال الزجاج: إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف، لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف. قال أبو عبيدة، والمبرد: المطفف الذي يبخس في الكيل والوزن، والمراد بالويل هنا شدة العذاب، أو نفس العذاب، أو الشرّ الشديد، أو هو واد في جهنم. قال الكلبي: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يسيئون كيلهم، ووزنهم لغيرهم، ويستوفون لأنفسهم، فنزلت هذه الآية. وقال السدي: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وكان بها رجل يقال له أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فانزل الله هذه الآية. قال الفراء: هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلاً إلى يومهم هذا. ثم بين سبحانه المطففين من هم؟ فقال: ﴿الذين إذا اکتالوا على

الناس يستوفون﴾ أي: يستوفون الاكتيال، والأخذ بالكيل. قال الفراء: يريد اکتالوا من الناس، وعلى ومن في هذا الموضع يعتقبان، يقال: اکتلت منك أي: استوفيت منك، وتقول: اکتلت عليك أي: أخذت ما عليك. قال الزجاج: إذا اکتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، ولم يذكر اتزنوا لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع، فأحدهما يدل على الآخر. قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا، وهو معنى قوله: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ أي: كالوا لهم، أو وزنوا لهم، فحذفت اللام فتعدى الفعل إلى المفعول، فهو من باب الحذف والإيصال، ومثله نصحتك، ونصحت لك، كذا قال الأخفش، والكسائي، والفراء. قال الفراء: وسمعت أعرابية تقول: إذا صدر الناس اتينا التاجر، فيكيلنا المذ والمدين إلى الموسم المقبل. قال: وهو من كلام أهل الحجاز، ومن جاورهم من قيس. قال الزجاج: لا يجوز الوقف على كالوا حتي يوصل بالضمير، ومن الناس من يجعله تركيداً أي: تركيداً للضمير المستكن في الفعل، فيجوز الوقف على كالوا أو وزنوا، قال أبو عبيد:

يعني لنفس كافرة شيئاً من المنفعة. قال قتادة: ليس ثم أحد يقضي شيئاً، أو يصنع شيئاً إلا الله رب العالمين، والمعنى: أن الله لا يملك أحداً في تلك اليوم شيئاً من الأمور، كما ملكهم في الدنيا، ومثل هذا قوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ [غافر: 16].

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا البحار فجرت﴾ قال: بعضها في بعض، وفي قوله: ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ قال: بحثت. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ قال: ما قدمت من خير، وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، أو سنة سيئة تعمل بعده، فإن عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيئاً. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه. وأخرج الحاكم وصححه عن حنيفة قال: قال النبي ﷺ: «من استتر خيراً فاستتر به فله أجره، ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم، ومن استتر شراً فاستتر به، فعليه وزره، ومثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم». وتلا حنيفة: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية: ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ قال: غره والله جهله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل، وحافظين في النهار يحفظان عمله ويكتبان أثره.

تفسير سورة المطففين

قال القرطبي: وهي مكية في قول ابن مسعود، والضحاك، ومقاتل، ومدينة في قول الحسن، وعكرمة. وقال مقاتل أيضاً: هي أول سورة نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس، وقاتلة: هي مدنية إلا ثمان آيات من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَجَرَمُوا﴾ إلى آخرها [المطففين: 29 - 36]. وقال الكلبي، وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة. وأخرج النحاس، وابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المطففين بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: آخر ما نزل بمكة سورة المطففين. وأخرج ابن مريويه، والبيهقي في الشعب، قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخص الناس كيلاً، فانزل الله ﴿ويل للمطففين﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَبْصُرُ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمَ

وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين، ويقف على كالوا أو وزنوا، ثم يقول: هم يخسرون. قال: ولحسب قراءة حمزة كذلك. قال أبو عبيد: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين: إحداهما الخط، ولذلك كتبوها بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف. والآخرى أنه يقال: كنتك، ووزنتك بمعنى: كنت لك، ووزنت لك، وهو كلام عربي؛ كما يقال صديك وصدت لك، وكسبتك وكسبت لك، وشكرتك وشكرت لك، ونحو ذلك. وقيل: هو على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، والمضاف المكيل والموزون أي: وإذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا موزنهم، ومعنى يخسرون: ينقصون كقوله: ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ [الرحمن: 9] والعرب تقول: خسرت الميزان، وأخسرت: ثم خوّفهم سبحانه فقال: ﴿الا يظن أولئك أنهم مبعوثون﴾ والجمله مستأنفة مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف، وتفظيحه، وللتعجيب من حالهم في الاجترار عليه، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى المطففين، والمعنى: أنهم لا يخطررون بباليهم أنهم مبعوثون، فمسؤولون عما يفعلون. قيل: والظن هنا بمعنى اليقين أي: لا يوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا الكيل والوزن، وقيل: الظن على بابيه، والمعنى: إن كانوا لا يستيقنون البعث، فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه، ويبحثوا عنه، ويتركوا ما يخشون من عاقبته. واليوم العظيم هو يوم القيامة، ووصفه بالعظم لكونه زماناً لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب، ودخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. ثم أخبر عن ذلك اليوم فقال: ﴿يوم يقوم للناس لرب العالمين﴾ انتصاب الظرف بمبعوثين المذكور قبله، أو بفعل مقتر يدل عليه مبعوثون. أي: يبعثون يوم يقوم الناس، أو على البديل من محل ليوم، أو بإضمار أعني، أو هو في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو في محل جرّ على البديل من لفظ ليوم، وإنما بني على الفتح في هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل. قال الزجاج: يوم منصوب بقوله: مبعوثون، المعنى: الا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة، ومعنى يوم يقوم الناس: يوم يقومون من قبورهم لأمر رب العالمين، أو لجزائه، أو لحسابه، أو لحكمه وقضائه. وفي وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس له خاضعين فيه، ووصفه سبحانه بكونه رب العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف، ومزيد إثمه، وقضاة عقابه. وقيل المراد بقوله: ﴿يوم يقوم للناس﴾ قيامهم في رشحهم إلى انصاف آذانهم، وقيل: المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد، وقيل: المراد قيام الرسل بين يدي الله للقضاء، والأول أولى. قوله: ﴿كلا﴾ هي: للردع، والزجر للمطففين الغافلين عن البعث، وما بعده. ثم استأنف فقال: ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ وعند أبي حاتم أن كلا بمعنى: حقاً متصلة بما بعدها على معنى: حقاً إن كتاب الفجار لفي سجين، وسجين هو ما فسر به سبحانه من قوله: ﴿وما أدراك ما سجين﴾ كتاب مرقوم. فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم أي: مسطور، قيل: هو كتاب جامع لأعمال

الشر الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة، ولفظ سجين علم له. وقال قتادة: وسعيد بن جببر، ومقاتل، وكعب: إنه صخرة تحت الأرض السابعة قلب، فيجعل كتاب الفجار تحتها، وبه قال مجاهد، فيكون في الكلام على هذا القول مضاف محذوف، والتقدير: محل كتاب مرقوم. وقال أبو عبيدة، والأخفش، والمبرد، والزجاج ﴿لفي سجين﴾ لفي حبس وضيق شديد، والمعنى: كأنهم في حبس، جعل ذلك ليلاً على خساسة منزلتهم وهوانها. قال الواحدي: نكر قوم أن قوله: ﴿كتاب مرقوم﴾ تفسير لسجين، وهو بعيد لأنه ليس للسجين من الكتاب في شيء على ما حكيناه عن المفسرين، والوجه أن يجعل بياناً لكتاب المذكور في قوله: ﴿إن كتاب الفجار﴾ على تقدير هو كتاب مرقوم أي: مكتوب قد بينت حروفه انتهى، والأولى ما ذكرناه، ويكون المعنى: إن كتاب الفجار النين من جملتهم المطفون أي: ما يكتب من أعمالهم، أو كتابة أعمالهم لفي ذلك الكتاب المنون للقبائح المختص بالشر، وهو سجين. ثم نكر ما يدل على تهويله وتعظيمه، فقال: ﴿وما أدراك ما سجين﴾ ثم بيّنه بقوله: ﴿كتاب مرقوم﴾. قال الزجاج: معنى قوله: ﴿وما أدراك ما سجين﴾ ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك. قال قتادة: ومعنى مرقوم: رقم لهم بشرّ كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر. وكذا قال مقاتل. وقد اختلفوا في نون سجين، فقيل: هي أصلية، واشتقاقه من السجن، وهو الحبس، وهو بناء مبالغة كخمير، وسكير، وفسيق من الخمر والسكر والفسق. وكذا قال أبو عبيدة، والمبرد، والزجاج. قال الواحدي: وهذا ضعيف؛ لأن العرب ما كانت تعرف سجيناً. ويجاب عنه بأنه رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة، وتدل على أنه من لغة العرب، ومنه قول ابن مقبل:

ورقة يضربون البيض ضاحية ضرباً تواصت به الأبطال سجيना وقيل: النون بدل من اللام، والأصل سجيل، مشتقاً من السجل، وهو الكتاب. قال ابن عطية: من قال إن سجيناً موضع، فكتاب مرفوع على أنه خبر إن، والظرف وهو قوله: ﴿لفي سجين﴾ ملغى، ومن جعله عبارة عن الكتاب، فكتاب خبر مبتدأ محذوف، التقدير: هو كتاب، ويكون هذا الكلام مفسراً لسجين ما هو؟ كذا قال. قال الضحاك: مرقوم مختوم بلغة حمير، وأصل الرقم الكتابة. قال الشاعر:

سارقم بالماء القراح إليك على بعمك إن كان للماء راقم
﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ هذا متصل بقوله: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ وما بينهما اعتراض، والمعنى: ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث، وبما جاءت به الرسل. ثم بيّن سبحانه هؤلاء المكذبين فقال: ﴿الذين يكتوبون بيوم النين﴾ والموصول صفة للمكذبين، أو بدل منه ﴿وما يكتوب به إلا كل معتد أثيم﴾ أي: فاجر جائر متجاوز في الإثم منهمك في أسبابه ﴿إذا تتلى عليه آياتنا﴾ المنزلة على محمد ﷺ ﴿قال أساطير الأولين﴾

عمر قال: قال رسول الله ﷺ في هذه الآية: «يوم يقوم الناس لرب العالمين» قال: فكيف إذا جمعكم الله، كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم». وأخرج أبو يعلى، وابن حبان، وابن مروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «يوم يقوم الناس لرب العالمين» بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهبون ذلك على المؤمن كتلي للشمس إلى الغروب إلى أن تغرب. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: إذا حشر الناس قاموا أربعين عاماً. وأخرج ابن مروي عن حديث مرفوعاً. وأخرج الطبراني عن ابن عمر أنه قال: يا رسول الله كم مقام الناس بين يدي رب العالمين يوم القيامة؟ قال: «ألف سنة لا يؤذن لهم». وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله: «كلا إن كتاب الفجار لفي سجين» قال: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها، فيهبط بها إلى الأرض، فتأبى أن تقبلها، فيدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين، وهو خد إبليس، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتاباً فيختم، ويوضع تحت خد إبليس. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «سجين» أسفل الأرضين. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «اللقب جب في جهنم مغطى، وأما سجين فمفتوح». قال ابن كثير: هو حديث غريب منكر لا يصح. وأخرج ابن مروي عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «سجين» الأرض السابعة السفلى». وأخرج ابن مروي عن جابر نحوه مرفوعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن ماجه، والطبراني، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: لما حضرت كعباً الوفاة أتته أم بشر بنت البراء فقالت: إن لقيت ابني، فأقرئه مني السلام، فقال: غفر الله لك يا أم بشر نحن أشغل من ذلك، فقالت: أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حين شاءت، وإن نسمة الكافر في سجين؟» قال: بلى، قالت: فهو ذلك. وأخرج ابن المبارك نحوه عن سلمان. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه، فذلك اللان الذي نكره الله سبحانه في القرآن: «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»».

أي: أحاديثهم وأباطيلهم التي زخرفوها. قرأ الجمهور (إذا) تتلى) بفوقيتين. وقرأ أبو حيو، وأبو السماك، والأشهب العقيلي، والسلمي بالتحية، وقوله: «كلا» للردع، والزجر للمعتدي الآثيم عن ذلك القول الباطل، وتكذيب له، وقوله: «بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» بيان للسبب الذي حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأولين. قال أبو عبيدة: ران على قلوبهم: غلب عليها ريناً، وريناً، وكل ما غلبك، وعلاك فقد ران بك، وران عليك. قال الفراء: هو أنها كثرت منهم المعاصي والذنوب، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب. قال مجاهد: القلب مثل الكف، ورفع كفه فإذا أذنب انقبض، وضم إصبعه، فإذا أذنب ذنباً آخر انقبض، وضم أخرى حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه. قال: وكانوا يرون أن ذلك هو الرين. ثم قرأ هذه الآية. قال أبو زيد: يقال قد رين بالرجل ريناً: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه، ولا قبل له به. وقال أبو معاذ النحوي: الرين أن يسود القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، والإقفال أشد من الطبع. قال الزجاج: الرين هو كالصدأ يغشى القلب كالغيم الرقيق، ومثله الغين. ثم كرر سبحانه الردع، والزجر فقال: «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» وقيل: كلا بمعنى حقا أي: حقا إنهم، يعني: الكفار عن ربهم يوم القيامة لا يرونه أبداً. قال مقاتل: يعني: أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم. قال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته. قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة. وقال جل ثناؤه: «يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» [القيامة: 22، 23] فأعلم جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه. وقيل: هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك. وقال قتادة، وابن أبي مليكة: هو أن لا ينظر إليهم برحمته، ولا يزكهم. وقال مجاهد: محجوبون عن كرامته، وكذا قال ابن كيسان «ثم إنهم لصالوا الجحيم» أي: داخلوا النار، وملازموها غير خارجين منها، وثم لتراخي الرتبة؛ لأن صلي الجحيم أشد من الإهانة، وحرمان الكرامة «ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون» أي: تقول لهم خزنة جهنم تبيكتا وتوبخا: هذا الذي كنتم به تكذبون في الدنيا، فانظروه وذوقوه.

وقد أخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقض قوم العهد إلا سلب الله عليهم عدوهم، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات، وأخذوا بالسنين». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر: «أن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين» حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن ابن

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَٰي عَيْنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا أَزْكَاكَ مَا عَلَيْهِمْ ﴿١٨﴾ كِتَابٌ مُّرْثُومٌ ﴿١٩﴾ يَتَّبِعُهُ الْمُرْثُومُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الْأَنْبَارَ لَٰي نَجِيمٍ ﴿٢١﴾ عَلَى الْأَذْيَاقِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٢﴾ تَرَوْنَ فِي وَجْهِهِ نَصْرَةَ الْغَنِيِّمْ ﴿٢٣﴾ يَسْتَوْنَ مِنْ رَّجْعِي مَخْشُومٌ ﴿٢٤﴾ خَتَمَهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٥﴾ وَرِجَالُهُمْ مِنْ تَحْتِهِ ﴿٢٦﴾ عَيْنًا يَتَنَبَّهْنَ بِهَا الْمُرْثُومُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الْأَوَّلَ أَحْمَرُومًا كَأَنَّهُ مِنَ اللَّبَنِ ؕ آمَنُوا بِسَمَكُونِ ﴿٢٨﴾ وَإِذَا

في جمالهم، وفي ألوانهم ما لا يصفه واصف. قرأ الجمهور (تعرف) بفتح الفوقية، وكسر الراء، ونصب نضرة، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، ويعقوب، وشيبة، وطلحة، وابن أبي إسحاق بضم الفوقية، وفتح الراء على البناء للمفعول، ورفع نضرة بالنيازة ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ قال أبو عبيدة، والأخفش، والمبرد، والزجاج: الرحيق من الخمر ما لا غش فيه، ولا شيء يفسده. والمختوم الذي له ختام. وقال الخليل: الرحيق أجود الخمر، وفي الصحاح الرحيق صفرة للخمر. وقال مجاهد: هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية، ومنه قول حسان:

يسقون من ورد اليريص عليهم بردي يصفق بالرحيق السلسل
قال مجاهد ﴿مختوم﴾ مطين كانه ذهب إلى معنى الختم بالطين، ويكون المعنى: أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار. وقال سعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي: ختامه آخر طعمه. وهو معنى قوله: ﴿ختامه مسك﴾ أي آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك. وقيل: مختوم أوانيه من الأكواب، والأباريق بمسك مكان الطين، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته، وطيب رائحته. والحاصل أن المختوم، والختام إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره، أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه، كما تختم الأشياء بالطين، ونحوه. قرأ الجمهور: (ختامه) وقرأ علي، وعلمقة، وشقيق، والضحاك، وطاوس، والكسائي: (خاتمته) بفتح الخاء، والتاء، والفاء بينهما. قال علمقة: أما رأيت المرأة تقول للعطار: اجعل خاتمته مسكاً: أي: آخره، والخاتم، والختام يتقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم الاسم، والختام المصدر، كذا قال الفراء قال في الصحاح: والخاتم الطين الذي يختم به، وكذا قال ابن زيد. قال الفرزدق:

وبتن بجانبي مصرعات وبنت أقض أغلاف الختام
﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أي: فليرغب الراغبون، والإشارة بقوله: «ذلك» إلى الرحيق الموصوف بتلك الصفة، وقيل: إن في معنى إلى أي: وإلى ذلك، فليتبار المتبارون في العمل، كما في قوله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصفات: 61] وأصل التنافس التشاجر على الشيء، والتنازع فيه، بأن يجب كل واحد أن يتفرد به دون صاحبه، يقال نفست الشيء عليه أنفسه نفاسة أي: ظننت به، ولم أحب أن يصير إليه. قال البغوي: أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس، فيريده كل واحد لنفسه، وينفس به على غيره أي: يرضن به. قال عطاء: المعنى: فليستبق المستبقيون. وقال مقاتل بن سليمان: فليتنازع المتنازعين، وقوله: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ معطوف على ﴿ختامه مسك﴾ صفة أخرى لرحيق أي: ومزاج ذلك الرحيق من تسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علو، وهو أشرف شراب الجنة، وأصل التسنيم في اللغة الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل، ومنه

مَرُوا بِهِمْ يَنْصَارُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ آلِهِمْ لَمَجُورُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَسَاءُ لَّوْنٍ ﴿١٨﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿١٩﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٢٠﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢١﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿كلام﴾ للردع، والزجر عما كانوا عليه، والتكرير للتأكيد، وجملة: ﴿إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾ مستأنفة لبيان ما تضمنته، ويجوز أن يكون كلاماً بمعنى حقاً، والأبرار هم المطيعون، وكتابهم صحائف حسناتهم. قال الفراء: عليين ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له، ووجه هذا أنه منقول من جمع علي من العلو. قال الزجاج: هو إعلاء الأمكنة. قال الفراء والزجاج: فأعرب كإعرب الجمع؛ لأنه على لفظ الجمع، ولا واحد له من لفظه نحو ثلاثين، وعشرين، وقنشرين، قيل: هو علم لديوان الخير الذي يؤن فيه ما عمله الصالحون. وحكى الواحد عن المفسرين أنه السماء السابعة. قال الضحاك، ومجاهد، وقتادة يعني: السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. وقال الضحاك: هو سدرة المنتهى ينتهي إليه كل شيء من أمر الله لا يعنوها، وقيل هو الجنة، وقال قتادة أيضاً: هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليميني، وقيل: إن عليين صفة للملائكة، فإنهم في الملا الأعلى، كما يقال فلان في بني فلان أي: في جملتهم ﴿وما أدراك ما عليون﴾ كتاب مرقوم أي: وما أعلمك يا محمد أي شيء عليون على جهة التفضيم والتعظيم لعلين، ثم فسره فقال: ﴿كتاب مرقوم﴾ أي: مسطور، والكلام في هذا كالكلام المتقدم في قوله: ﴿وما أدراك ما سجين﴾ كتاب مرقوم [المطففين: 8، 9] وجملة: ﴿يشهده المقربون﴾ صفة أخرى لكتاب، والمعنى: أن الملائكة يحضرون ذلك للكتاب المرقوم، وقيل: يشهدون بما فيه يوم القيامة. قال وهب وابن إسحاق: المقربون هنا إسرافيل، فإذا عمل المؤمن عمل البر صعدت الملائكة بالصحيفة، ولها نور يتلأل في السموات كنور الشمس في الأرض حتى تنتهي بها إلى إسرافيل، فيختتم عليها. ثم نكر سبحانه حالهم في الجنة بعد نكر كتابهم، فقال: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ أي: إن أهل الطاعة لفي نعيم عظيم لا يقادر قدره ﴿على الأرائك ينظرون﴾ الأرائك: الأسرة التي في الحجال، وقد تقدّم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان في حجلة. قال الحسن: ما كنا ندري ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير. ومعنى: ﴿ينظرون﴾ أنهم ينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامات، كذا قال عكرمة، ومجاهد، وغيرهما. وقال مقاتل: ينظرون إلى أهل النار، وقيل: ينظرون إلى وجهه، وجلاله ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي: إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه في وجوههم من النور، والحسن، والبياض، والبهجة، والرونق، والخطاب لكل راء يصلح لذلك، يقال أنضر النبات: إذا أزهى ونور. قال عطاء: وذلك أن الله زاد

أبوابها، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت أبوابهم، فقالوا: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ﴿هَلْ ثَوَابَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ الجملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين، والاستهزاء بهم، والاستفهام للتقرير، وثوب بمعنى: أثيب، والمعنى: هل جوزي الكفار بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين؟ وقيل: الجملة في محل نصب بينظرون، وقيل: هي على إضمار القول: أي: يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوب الكفار، والثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله، ويطلق على الخير والشر.

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْإِبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ قال: روح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء، ففتحت لها أبواب السماء، وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهي بها إلى العرش، وتعرج الملائكة، فيخرج لها من تحت العرش رق، فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ قال: الجنة، وفي قوله: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ قال: أهل السماء. وأخرج أحمد، وأبو داود، والطبراني، وابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين». وأخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿نُصْرَةَ النَّعِيمِ﴾ قال: عين في الجنة يتوضئون منها ويقتسلون، فتجري عليهم نصرة النعيم. وأخرج عبد بن حميد، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله: ﴿يَسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ قال: الرحيق الخمر، والمختوم يجنون عاقبتها طعم المسك. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿مَخْتُومٍ﴾ قال: ممزوج ﴿خَتَامُهُ مِسْكٌ﴾ قال: طعمه وريحه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ رَحِيقٍ﴾ قال: خمر، وقوله: ﴿مَخْتُومٍ﴾ قال: ختم بالمسك. وأخرج الفريابي، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن مسعود في قوله: ﴿خَتَامُهُ مِسْكٌ﴾ قال: ليس بخاتم يختم به، ولكن خلطه مسك، ألم تر إلى المرأة من نسائك تقول خلطه من الطيب كذا وكذا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن أبي الدرداء ﴿خَتَامُهُ مِسْكٌ﴾ قال: هو: شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شربهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق نوح روح إلا وجد ريحها. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿تَسْنِمُ﴾ أشرف شراب أهل الجنة، وهو صرف للمتقين، ويمزج

سنام البعير لعلوه من بدنه، ومنه تسنيم القبور، ثم بين ذلك فقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ وانتصاب عيناً على المدح. وقال الزجاج: على الحال، وإنما جاز أن تكون عيناً حالاً مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ وقال الأخفش: إنها منصوبة بيسقون أي: يسقون عيناً، أو من عين، وقال الفراء: إنها منصوبة بتسنيم على أنه مصدر مشتق من السنام، كما في قوله: ﴿أَوْ إطعام في يوم ذي مسغبة * يَتِيمًا﴾ [البلد: 14، 15] والأول أولى، وبه قال المبرّد. قيل: والباء في بها زائدة أي: يشربها، أو بمعنى من أي: يشرب منها. قال ابن زيد: بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش، قيل: يشرب بها المقربون صرفاً، ويمزج بها كأس أصحاب اليمين. ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَجَرَمُوا﴾ وهم كفار قريش، ومن وافقهم على الكفر ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ أي: كانوا في الدنيا يستهزئون بالمؤمنين ويسخرون منهم ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ أي: وإذا مرّ المؤمنون بالكفار وهم في مجالسهم ﴿يَتَفَامَزُونَ﴾ من الفمز، وهو الإشارة بالجفون والحواجب: أي: يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم وحواجبهم، وقيل: يعيرونهم بالإسلام، ويعيبونهم به ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾ أي: الكفار ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ من مجالسهم ﴿انْقَلَبُوا فَكَاهِينُ﴾ أي: معجبين بما هم فيه متلذذين به، يتفكهون بذكر المؤمنين، والطعن فيهم، والاستهزاء بهم، والسخرية منهم. والانقلاب: الانصراف. قرأ الجمهور: (فكاهين) وقرأ حفص، وابن القعقاع، والأعرج، والسلمي: (فكهين) بغير ألف. قال الفراء: هما لغتان، مثل طمع وطامع، وحذر وحاذر. وقد تقدّم بيانه في سورة البخان أن الفكاهة: الأشر البطر، والفكاهة: الناعم المتنعم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: إذا رأى الكفار المسلمين في أي مكان ﴿قَالُوا إِنْ هَؤُلَاءَ لَضَالُونَ﴾ في اتباعهم محمداً، وتسكهم بما جاء به، وتركهم التمتع الحاضر، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا العقول، والأول أولى، وجملة: ﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل قالوا: أي: قالوا ذلك أنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المراد باليوم: اليوم الآخر ﴿مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ والمعنى: أن المؤمنين في ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، وجملة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يضحكون: أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الحال الفظيخ، وقد تقدّم تفسير الأرائك قريباً. قال الواحدي: قال المفسرون: إن أهل الجنة إذا رأوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله، وهم يعذبون في النار، فضحكوا منهم، كما ضحكوا منهم في الدنيا. وقال أبو صالح: يقال لأهل النار أخرجوا، ويفتح لهم

لأصحاب اليمين. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود **﴿مزاجه من تسنيم﴾** قال: عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين، ويشربها المقربون صرفاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: **﴿ومزاجه من تسنيم﴾** قال: هذا مما قال الله **﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾** [السجدة: 17].

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الانشقاق بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرا: **﴿إذا السماء انشقت﴾** [أي: سورة الانشقاق] فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم عليه السلام، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه. وأخرج مسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في **﴿إذا السماء انشقت﴾** **﴿واقرا باسم ربك﴾** [أي: سورة العلق]. وأخرج ابن خزيمة، والرويان في مسنده، والضياء المقدسي في المختارة عن بريدة: **﴿أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر ﴿إذا السماء انشقت﴾ ونحوها.**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا انشَقَّتْ ① وَادَّتْ ② رَبُّهَا وَهَتَّتْ ③ ④ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ⑤ وَأَلْقَتْ ⑥ مَا فِيهَا وَهَتَّتْ ⑦ ⑧ وَادَّتْ ⑨ رَبُّهَا وَهَتَّتْ ⑩ ⑪ بِأُفُقِ الْأَسْفَلِ ⑫ إِنَّكَ كَاشِعٌ ⑬ لَّأَنَّ رَبَّكَ ⑭ كَدَسًا ⑮ فَلَئِنْ لَّمْ يَكُنْ ⑯ بِأُفُقِ الْبَيْتِ ⑰ ⑱ تَسَوَّى ⑲ بِحَاسِبٍ ⑳ حِسَابًا ㉑ يَسِيرًا ㉒ وَيَقْبَلُ ㉓ إِلَهُ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ㉔ وَأَمَّا عَنْ أَوْفَى ㉕ كَيْفِهِ ㉖ وَرَدِّ ㉗ ظَهْرِهِ ㉘ فَسَوَّى ㉙ بَدْعًا ㉚ ثَوْرًا ㉛ وَيَسَّى ㉜ سَمِيرًا ㉝ إِنَّكَ كَانَ ㉞ أَهْلِهِ ㉟ مَسْرُورًا ㊱ إِنَّكَ عَنْ ㊲ أَن لَّنْ ㊳ يُعْزَى ㊴ بَلَّ ㊵ إِنَّ رَبَّكَ كَانَ ㊶ بِدُبِّهِ ㊷ ㊸ فَلَا أَقْسَمُ ㊹ بِأَشْفَقِي ㊺ وَأَكْبَلِ ㊻ وَمَا ㊼ سَقَى ㊽ وَالْقَمَرَ ㊾ إِذَا ㊿ أَتَقَى ① تَرَكَّنَ ② طَبَقًا ③ عَنْ ④ طَبَقٍ ⑤ فَمَا ⑥ لَمْ لَا ⑦ يُؤْمِنُونَ ⑧ وَإِذَا ⑨ قُرْءٌ ⑩ عَلَيْهِمُ ⑪ الْقُرْءُ ⑫ لَا ⑬ يَسْمَعُونَ ⑭ بَلْ ⑮ الَّذِينَ ⑯ كَفَرُوا ⑰ يَكْذِبُونَ ⑱ وَاللَّهُ ⑲ أَعْلَمُ ⑳ بِمَا ㉑ يُعْرَوْنَ ㉒ فَيَرْثُهُمْ ㉓ بِمَدَائِبِ ㉔ أَلِيمٍ ㉕ إِلَّا ㉖ الَّذِينَ ㉗ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ㉘ لَهُمْ أَجْرٌ ㉙ غَيْرُ ㉚ مَمْنُونٍ ㉛

قوله: **﴿إذا السماء انشقت﴾** هو: كقوله: **﴿إذا الشمس كورت﴾** [التكوير: 1] في إضمار الفعل وعدمه. قال الواحدي: قال المفسرون: انشقاقها عن علامات القيامة، ومعنى انشقاقها: انفطارها بالغمام الأبيض، كما في قوله: **﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾** [الفرقان: 25] وقيل: تشقق من المجرة، والمجرة باب السماء.

واختلف في جواب إذا، فقال الفراء: إنه أنذنت، والواو زائدة، وكذلك ألفت. قال ابن الأنباري: هذا غلط لأن العرب لا

تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله: **﴿حتى إذا جاءوها، وفتحت أبوابها﴾** [الزمر: 73] ومع لما، كقوله: **﴿فلما أسلما وتله للجبين * ونابينا﴾** [الصافات: 103، 104] ولا تقحم مع غير هتين. وقيل: إن الجواب قوله: **﴿فملاقية﴾** أي: فانت ملاقية، وبه قال الأخفش. وقال المبرد: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا أي: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا، فملاقية إذا السماء انشقت. وقال المبرد أيضًا: إن الجواب قوله: **﴿فاما من أوتي كتابه بيمينه﴾** وبه قال الكسائي، والتقدير: إذا السماء انشقت، فمن أوتي كتابه بيمينه، فحكمه كذا، وقيل هو: **﴿يا أيها الإنسان﴾** على إضمار الفاء، وقيل: إنه **﴿يا أيها الإنسان﴾** على إضمار القول أي: يقال له يا أيها الإنسان وقيل: الجواب محذوف تقديره بعثتم، أو لاقى كل إنسان عمله، وقيل: هو ما صرح به في سورة التكوير أي: علمت نفس هذا، على تقدير أن إذا شرطية، وقيل: ليست بشرطية وهي منصوبة بفعل محذوف أي: انكر، أو هي مبتدأ، وخبرها إذا الثانية، والواو مزيدة، وتقديره: وقت انشقاق السماء وقت مد الأرض، ومعنى: **﴿وأننت لربها﴾** أنها أطاعته في الانشقاق من الإنن، وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه **﴿ووحقت﴾** أي: وحق لها أن تطيع وتنقاد وتسمع، ومن استعمال الإنن في الاستماع قول الشاعر:

صم إذا سمعوا خيرا أنكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقول الآخر:

إن يأتونا ريبة طاروا بها فرحاً مني وما أذنوا من صالح دفنوا

وقيل المعنى: وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق: أي: جعلها حقيقة بذلك. قال الضحاك: حقت أطاعت، وحق لها أن تطيع ربها لأنه خلقها، يقال فلان محقق بكذا، ومعنى طاعتها: أنها لا تمتنع مما أراه الله بها. قال قتادة: حق لها أن تفعل ذلك، ومن هذا قول كثير:

فإن تكن العتبي فاملا ومرحبا وحقت لها العتبي لدينا وقلت

﴿وإذا الأرض مدت﴾ أي: بسطت كما تبسط الأرض؛ وبكت جبالها حتى صارت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً. قال مقاتل: سويت كمد الأليم، فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها، وقيل: مدت زيد في سعتها، من المدد، وهو: الزيادة. **﴿والقت ما فيها﴾** أي: أخرجت ما فيها من الأموات والكنوز، وطرحتهم إلى ظهرها **﴿وتخلت﴾** من تلك. قال سعيد بن جببر: ألفت ما في بطنها من الموتى، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء، ومثل هذا قوله: **﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾** [الزلزلة: 2] **﴿وأننت لربها﴾** أي: سمعت وأطاعت لما أمرها من الإلقاء والتخلي **﴿ووحقت﴾** أي: وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له، وقد تقدم بيان معنى الفعلين قبل هذا **﴿يا أيها الإنسان﴾** المراد جنس الإنسان، فيشمل المؤمن والكافر، وقيل: هو الإنسان الكافر، والأول أولى لما سيأتي من التفصيل **﴿إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾** الكدح في كلام العرب: السعي في

النقصان بعد الزيادة، وكذلك الحور بالضم، وفي المثل، حور في محار: أي: نقصان في نقصان، ومنه قول الشاعر:

والدم يسفى ورأى القوم في حور
والحور أيضاً الهلكة، ومنه قول الراجز:

في بئر لا حور سراً وما شعر

قال أبو عبيدة: أي: في بئر حور، ولا زائدة ﴿بلى﴾ إن ربه كان به بصيراً ﴿بلى﴾ إيجاب للمنفى بلى أي: بلى ليحورن وليبعثن. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنْ ربه كان به بصيراً﴾ أي: كان به وبأعماله عالماً لا يخفى عليه منها خافية. قال الزجاج: كان به بصيراً قبل أن يخلقه عالماً بأن مرجعه إليه ﴿فلا أقسم بالشفق﴾ لازادة، كما تقدم في أمثال هذه العبارة، وقد قدمنا الاختلاف فيها في سورة القيامة، فارجع إليه، والشفق: الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة. قال الواحدي: هذا قول المفسرين، وأهل اللغة جميعاً. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق، وكان أحمر، وحكاه القرطبي عن أكثر الصحابة، والتابعين والفقهاء. وقال أسد بن عمر، وأبو حنيفة: في إحدى الروايتين عنه إنه البياض، ولا وجه لهذا القول، ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع. قال الخليل: الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة. قال في الصحاح: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب العتمة، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا، ومنه قول الشاعر:

قم يا غلام أعنى غير مرتبك على الزمان بكأس حشوها شفق
وقال آخر:

أحمر اللون كحمرة الشفق

وقال مجاهد: الشفق النهار كله ألا تراه قال: ﴿والليل وما وسق﴾ وقال عكرمة: هو ما بقي من النهار، وإنما قال هذا لقوله بعده: ﴿والليل وما وسق﴾ فكأنه تعالى أقسم بالضيء والظلام، ولا وجه لهذا، على أنه قد روي عن عكرمة أنه قال: الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء، وروي عن أسد بن عمر الرجوع ﴿والليل وما وسق﴾ الوسق عند أهل اللغة: ضم الشيء بعضه إلى بعض، يقال استوسقت الإبل: إذا اجتمعت وانضمت، والراعي يسقها: أي: يجمعها. قال الواحدي: المفسرون يقولون: وما جمع، وضم، وحوى، ولف، والمعنى: أنه جمع، وضم ما كان منتشراً بالنهار في تصرفه، وذلك أن الليل إذا أقبل أبوى كل شيء إلى ماواه، ومنه قول ضابئ بن الحرث البرجمي:

فإنني وإياكم وسوقاً إليكم كقباض شيئاً لم تنله أنامله

وقال عكرمة ﴿وما وسق﴾ أي: وما ساق من شيء إلى حيث يابوي، فجعله من السوق لا من الجمع، وقيل: ﴿وما وسق﴾ أي: وما جئ وستر، وقيل: ﴿وما وسق﴾ أي: وما حمل، وكل شيء حملته فقد وسقت، والعرب تقول: لا أحمله ما وسقت عيني الماء: أي: حملته، ووسقت الناقة تسق وسقاً:

الشيء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشيء خيراً أو شراً، والمعنى: أنك ساع إلى ربك في عملك، أو إلى لقاء ربك، مأخوذ من كدح جلده: إذا خدشه. قال ابن مقبل:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى ابتغى العيش لكدح

قال قتادة، والضحاك، والكلبي: عامل لربك عملاً ﴿فملاقية﴾ أي: فملاق عملك، والمعنى: أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله، وما يترتب عليه من الثواب والعقاب. قال القتبي: معنى الآية: إنك كادح: أي: عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك، والملاقاة بمعنى اللقاء: أي: تلقى ربك بعملك، وقيل: فملاق كتاب عملك؛ لأن العمل قد انقضى ﴿وأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ وهم المؤمنون ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ لا مناقشة فيه. قال مقاتل: لأنها تغفر ذنوبه، ولا يحاسب بها. وقال المفسرون: هو أن تعرض عليه سيئاته، ثم يغفرها الله، فهو الحساب اليسير ﴿ويقلب إلى أهله مسروراً﴾ أي: وينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم في الجنة من عشيرته، أو إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا من الزوجات والأولاد، وقد سبقوه إلى الجنة، أو إلى من أعد الله له في الجنة من الحور العين، والولدان المخلدين، أو إلى جميع هؤلاء مسروراً مبهجاً بما أوتي من الخير والكرامة ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ قال الكلبي: لأن يمينه مغلولة إلى عنقه، وتكون يده اليسرى خلفه. وقال قتادة، ومقاتل: تفك ألواح صدره وعظامه، ثم تدخل يده وتخرج من ظهره، فيأخذ كتابه كذلك ﴿فسوف يدعوا ثبوراً﴾ أي: إذا قرأ كتابه قال: يا ويلاه يا ثبوراه، والثبور الهلاك ﴿ويصلى سعيراً﴾ أي: ينخلها، ويقلسي حر نارها وشنتها. قرأ أبو عمرو، وحمزة، وعاصم بفتح الياء، وسكون الصاد، وتخفيف اللام. وقرأ الباقر بن ضم الياء، وفتح اللام، وتشديدها، وروى إسماعيل المكي عن ابن كثير، وكذلك خارجة عن نافع، وكذلك روى إسماعيل المكي عن ابن كثير أنهم قرءوا بضم الياء، وإسكان الصاد من أصلى يصلي ﴿إنه كان في أهله مسروراً﴾ أي: كان بين أهله في الدنيا مسروراً باتباع هواه، وركوب شهوته بطراً لشراً لعدم خطور الآخرة بباله، والجملة تعليل لما قبلها، وجملة: ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ تعليل لكونه كان في الدنيا في أهله مسروراً، والمعنى: أن سبب تلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله، ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث، وجحدته للدار الآخرة، وأن في قوله: ﴿أن لن يحور﴾ هي: المخففة من الثقيلة سادة مع ما في حيزها مسد مفعولي ظن، والحور في اللغة: الرجوع، يقال حار يحور: إذا رجع، وقال الراغب: الحور التردد في الأمر، ومنه تعوذ بالله من الحور بعد الكور: أي من التردد في الأمر بعد المضى فيه، ومحاوره الكلام مراجعته، والمحار المرجع والمصير. قال عكرمة، وداود بن أبي هند: يحور كلمة بالحشية، ومعناها يرجع. قال القرطبي: الحور في كلام العرب: الرجوع، ومنه قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور» يعني: من الرجوع إلى

مسلم: المراد الخضوع، والاستكانة. وقيل: المراد نفس السجود المعروف بسجود التلاوة. وقد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا؟ وقد تقدم في فاتحة هذه السورة الليل على السجود ﴿بَلِ النَّيْنِ كَفَرُوا يَكْنُبُونَ﴾ أي: يكتبون بمحمد ﷺ، وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد، والبعث، والثواب، والعقاب ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَوْعُونَ﴾ أي: بما يضمرونه في أنفسهم من التكنيب، وقال مقاتل: يكتمون من أفعالهم. وقال ابن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة، مأخوذ من الوعاء الذي يجمع ما فيه، ومنه قول الشاعر:

الخبر لبقى وإن طال الزمان به والبشر أخبت ما أوعيت من زاد
ويقال: وعاه حفظه، ووعيت الحديث أعياه وعياً، ومنه: ﴿أَنْتَ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12] ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: اجعل تلك بمنزلة البشارة لهم؛ لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم، والأليم المؤلم الموجع، والكلام خارج مخرج التهكم بهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هذا الاستثناء منقطع أي: لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله، والعمل الصالح لهم أجر عند الله غير ممنون أي: غير مقطوع، يقال مننت الحبل: إذا قطعته، ومنه قول الشاعر:

فترى خلفهن من سرعة الرج ع منيناً كأنه أهباء
قال المبرد: المنين الغبار؛ لأنه تقطعه وراءها، وكل ضعيف منين وممنون، وقيل: معنى غير ممنون أنه لا يمن عليهم به، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً إن أريد من آمن منهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ قال: تنشق السماء من المجرة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿وَأَنْتَ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ قال: سمعت حين كلمها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: ﴿وَأَنْتَ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ قال: اطاعت، وحقت بالطاعة. وأخرج الحاكم عنه وصححه قال: سمعت وأطاعت ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ قال: يوم القيامة ﴿وَوَلَقْتَ مَا فِيهَا﴾ قال: أخرجت ما فيها من الموتى ﴿وَوَلَقْتَ مَا فِيهَا﴾ قال: سوري الذهب. وأخرج الحاكم: قال السيوطي بسند جيد عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «تمد الأرض يوم القيامة مد الأليم، ثم لا يكون لآدم فيها إلا موضع قدميه». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ قال: عامل عملاً ﴿فَمَلَأَقِيهِ﴾ قال: فملاق عملك. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب إلا هلك، فقلت ليس يقول الله: ﴿فَمَا مِنْ أَوْتَى كِتَابِهِ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حَسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: ليس ذلك بالحساب، ولكن تلك العرض، ومن نوقش الحساب هلك». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه

أي: حملت. قال قتادة، والضحاك، ومقاتل بن سليمان: وما وسق، وما حمل من الظلمة، أو حمل من الكواكب. قال القشيري: ومعنى حمل ضمّ وجمع، والليل يحمل بظلمته كل شيء. وقال سعيد بن جبير: وما وسق أي: وما عمل فيه من التهجد والاستغفار بالأسحار، والأول أولى ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي: اجتمع، وتكامل. قال الفراء: اتساقه امتلاؤه واجتماعه، واستواؤه ليلة ثالث عشر، ورابع عشر إلى ست عشرة، وقد افتعل من الوسق الذي هو الجمع. قال الحسن: اتسق امتلاء واجتمع. وقال قتادة: استدار، يقال: وسقته فاتسق، كما يقال: وصلته فاتصل، ويقال أمر فلان متسق أي: مجتمع منتظم، ويقال اتسق الشيء: إذا تتابع ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم. قرأ حمزة، والكسائي، وابن كثير، وأبو عمرو لتركبن بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد، وهو النبي ﷺ، أو لكل من يصلح له، وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وأبي العالية، ومسروق، وأبي وائل، ومجاهد، والنخعي، والشعبي، وسعيد بن جبير، وقرأ الباقون بضم الموحدة خطاباً للجمع، وهم الناس. وقال الشعبي، ومجاهد: لتركبن يا محمد سماء بعد سماء قال الكلبي: يعني: تصعد فيها، وهذا على القراءة الأولى، وقيل: درجة بعد درجة، ورتبة بعد رتبة في القرب من الله ورفع المنزلة، وقيل المعنى: لتركبن حالاً بعد حال كل حالة منها مطابقة لاحتها في الشدة، وقيل المعنى: لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من كونك نطفة، ثم علق، ثم مضغة، ثم حياً، وميتاً، وغنياً، وفقيراً، فالخطاب للإنسان المذكور في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الثانية قالوا: لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ. وقرأ عمر (ليركبن) بالتحتيّة، وضم الموحدة على الإخبار، وروي عنه وعن ابن عباس أنهما قرأا بالفتية، وفتح الموحدة أي: ليركبن الإنسان، وروي عن ابن مسعود، وابن عباس أنهما قرأا بكسر حرف المضارعة وهي لغة، وقرئ بفتح حرف المضارعة، وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس. وقيل: إن معنى الآية: ليركبن القمر أحوالاً من سرار، واستهلال، وهو بعيد. قال مقاتل ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ يعني: الموت والحياة. وقال عكرمة: رضيع، ثم فطيم، ثم غلام، ثم شاب، ثم شيخ. ومحل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقاً أي: طبقاً مجاوزاً لطبق، أو على الحال من ضمير لتركبن أي: مجاوزين، أو مجاوزاً ﴿فَمَلَأَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار، والتعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة، أو من غيرها على الاختلاف السابق، والمعنى: أي شيء للكفار لا يؤمنون بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ هذه الجملة الشرطية، وجوابها في محل نصب على الحال أي: أي مانع لهم حال عدم سجودهم، وخضوعهم عند قراءة القرآن. قال الحسن، وعطاء، والكلبي، ومقاتل: مالم لا يصلون. وقال أبو

السجستاني، وابن الأنباري أيضاً: في الكلام تقديم وتأخير أي: قتل أصحاب الأخدود، والسماة ذات البروج، واعترض عليه بأنه لا يجوز أن يقال: والله قام زيد، والأخدود: الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد، ومنه الخد لمجاري الدموع، والمخدة لأن الخد يوضع عليها، ويقال تخد وجه الرجل: إذا صارت فيه أخاديد من خراج، ومنه قول طرفة:

وجه كان الشمس القت رداها عليه نقي اللون لم يتخذ
وسياتي بيان حديث أصحاب الأخدود إن شاء الله. قرأ الجمهور (النار ذات الوقود) بجر النار على أنها بدل اشتغال من الأخدود؛ لأن الأخدود مشتمل عليها، وذات الوقود وصف لها بأنها نار عظيمة، والوقود: الحطب الذي توقد به، وقيل: هو بدل كل من كل، لا بدل اشتغال. وقيل: إن النار مخفوضة على الجوار، كذا حكى مكي عن الكوفيين. وقرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود، وقرأ قتادة، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم بضمها. وقرأ أشهب العقيلي، وأبو حيوة، وأبو السمك العدوي، وابن السميع، وعيسى برفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هي النار، أو على أنها فاعل فعل محذوف أي: أحرقتهم النار ﴿إذ هم عليها قعود﴾ العامل في الظرف قتل أي: لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها، ويقرب إليها. قال مقاتل: يعني: عند النار قعود يعرضونهم على الكفر. وقال مجاهد: كانوا قعوداً على الكرسي عند الأخدود ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ أي: الذين خنوا الأخدود، وهم: الملك وأصحابه، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضهم على النار؛ ليرجعوا إلى دينهم شهود أي حضور، أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به. وقيل: يشهدون بما فعلوا يوم القيامة، ثم تشهد عليهم السننهم وأيديهم وأرجلهم. وقيل: على بمعنى مع، والتقدير: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود. قال الزجاج: أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم، وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار في الله ﴿وما نقموا منهم﴾ أي: ما أنكروا عليهم، ولا عابوا منهم ﴿إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ أي: إلا أن صنفوا بالله الغالب المحمود في كل حال. قال الزجاج: ما أنكروا عليهم نذراً إلا إيمانهم، وهذا كقوله: ﴿هل تتقون منا إلا أن آمنا بالله﴾ [المائدة: 59] وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم، كما في قوله:

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم
وقول الآخر:

ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذاك عناق الطير شكلاً عيونها
قرأ الجمهور (نقموا) بفتح النون، وقرأ أبو حيوة بكسرهما، والفصيح الفتح. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على العظم، والفخامة فقال: ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ ومن كان هذا شأنه، فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ من فعلهم بالمؤمنين

سميت بذلك لظهورها ﴿والיום للموعود﴾ أي: الموعد به، وهو يوم القيامة. قال الواحدي: في قول جميع المفسرين ﴿وشاهد ومشهود﴾ المراد: بالشاهد من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق أي: يحضر فيه والمراد بالمشهود ما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب، وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة، وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه، والمشهود يوم عرفة؛ لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج، وتحضره الملائكة. قال الواحدي: وهذا قول الأكثر. وحكى القشيري عن ابن عمر، وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى. وقال سعيد بن المسيب: الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم عرفة. وقال النخعي: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر؛ وقيل: الشاهد هو الله سبحانه. وبه قال الحسن، وسعيد بن جبيرة، لقوله: ﴿ركفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: 28] وقوله: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ [الأنعام: 19] وقيل: الشاهد محمد ﷺ لقوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: 41] وقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ [الأحزاب: 45] وقوله: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة: 143] وقيل: الشاهد جميع الأنبياء لقوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ وقيل: هو عيسى بن مريم لقوله: ﴿وكنتم عليهم شهيداً ما نمت فيهم﴾ [المائدة: 117] والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة إما أمة محمد، أو أمم الأنبياء، أو أمة عيسى. وقيل: الشاهد آدم. والمشهود نريته. وقال محمد بن كعب: الشاهد الإنسان لقوله: ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: 14] وقال مقاتل: اعضأه لقوله: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ [التور: 24] وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم لقوله: ﴿وكنلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ [البقرة: 143] وقيل: الشاهد الحفظة والمشهود بنو آدم، وقيل: الأيام والليالي. وقيل: الشاهد الخلق يشهدون لله عز وجل بالوحدانية، والمشهود له بالوحدانية هو الله سبحانه، وسياتي بيان ما ورد في تفسير الشاهد والمشهود، وبيان ما هو الحق إن شاء الله ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ هذا جواب القسم، واللام فيه مضمرة، وهو الظاهر، وبه قال الفراء، وغيره. وقيل تقديره: لقد قتل، فنحفت اللام، وقد، وعلى هذا تكون الجملة خبرية، والظاهر أنها دعائية؛ لأن معنى قتل لعن. قال الواحدي: في قول الجميع، والدعائية لا تكون جواباً للقسم، فقيل: الجواب قوله: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين﴾ وقيل: قوله: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ وبه قال المبرد: واعترض عليه بطول الفصل، وقيل: هو مقترن يدل عليه قوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ كأنه قال أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون، كما لعن أصحاب الأخدود، وقيل: تقدير الجواب: لتبعثن، واختاره ابن الأنباري. وقال أبو حاتم

يفضحهم بها، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه. قال مجاهد: **الوَدَّ** لأوليائه، فهو فعول بمعنى فاعل. وقال ابن زيد: معنى **الوَدَّ** الرحيم. وحكى المبرد عن إسماعيل القاضي أن **الوَدَّ** هو الذي لا ولد له، وأنشد:

واركب في الروع عريانة نلّ الجناح لقاحاً ووداً
أي: لا ولد لها تحنّ إليه. وقيل: **الوَدَّ** بمعنى **الموَدَّ** أي: يؤدّه عباده الصالحون، ويحبونه، كذا قال الأزهري. قال: ويجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل أي: يكون محباً لهم. قال: وكلتا الصفتين مدح؛ لأنه جلّ نكره إن أحبّ عباده المطيعين فهو فضل منه، وإن أحبّه عباده العارفون، فلما تقرّر عندهم من كريم إحسانه. قرأ الجمهور: (ذو العرش المجيد) الآية برفع المجيد على أنه نعت لذو، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم قالاً: لأنّ المجد هو: النهاية في الكرم والفضل، وإنّ سبحانه هو المنعوت بذلك. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بالجر على أنه نعت للعرش. وقد وصف سبحانه عرشه بالكرم، كما في آخر سورة المؤمنين. وقيل: هو نعت لربك، ولا يضّرّ الفصل بينهما؛ لأنها صفات لله سبحانه. وقال مكي: هو خبر بعد خبر، والأوّل أولى. ومعنى **ذو العرش**: ذو الملك والسلطان، كما يقال: فلان على سرير ملكه، ومنه قول الشاعر:

راوا عرشي تشلم جانباه فلما ان تشلم أقروني
وقول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
وقيل: المراد خالق العرش ﴿فقال لما يريد﴾ أي: من الإبداء والإعادة. قال عطاء: لا يعجز عن شيء يريد، ولا يمتنع منه شيء طلبه، وارتقاء فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الفراء: هو رفع على التكرير والاستئناف؛ لأنه نكرة محضة. قال ابن جرير: رفع فعال، وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لإعراب الغفور **الودود**، وإنما قال: فعال لأنّ ما يريد ويفعل في غاية الكثرة. ثم نكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال: ﴿هل أتاك حديث الجنود﴾ والجملة مستأنفة مقرّرة لما تقدّم من شدّة بطشه سبحانه، وكونه فعلاً لما يريد، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ أي: هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكتبة لأنبيائهم المتجندة عليها. ثم بيّنهم فقال: ﴿فرعون وثمود﴾ وهو بدل من الجنود، والمراد بفرعون هو وقومه، والمراد بثمود: القوم المعروفون، والمراد بحديثهم ما وقع منهم من الكفر والعناد، وما وقع عليهم من العذاب، وقصتهم مشهورة قد تكرّر في الكتاب العزيز نكرها في غير موضع، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب، وعند مشركي العرب، ونلّ بهما على أمثالهما. ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين في عصره ﷺ لمن تقدّم نكره، وبيّن أنهم أشدّ منهم في الكفر والتكذيب فقال: ﴿هل النّين كفروا في تكذيب﴾ أي: بل هؤلاء المشركون من العرب في تكذيب

لا يخفى عليه منه خافية، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود، ووعد خير لمن عتبوه على دينه من أولئك المؤمنين. ثم بيّن سبحانه ما أعدّ لأولئك النّين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال: ﴿إنّ النّين فتنوا للمؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ أي: حرقهم بالنار، والعرب تقول: فتنّت الشيء أي: أحرقت، وفتنت درهم والدينار: إذا أمخلته النار؛ لتتظّر جوبته. ويقال دينار مفتون، ويسمى الصائغ الفتان، ومنه قوله: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ [الذاريات: 13] أي: يحرقون، وقيل: معنى فتنوا المؤمنين: محنهم في دينهم ليرجعوا عنه، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم، ويرجعوا عن كفرهم وفتنتهم فلهم عذاب جهنم أي: لهم في الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم، والجملة في محل رفع على أنها خبر إن، أو الخبر لهم، وعذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، ولا يضّرّ نسخه بأنّ خلافاً للأخفش، ولهم عذاب الحريق أي: ولهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم، وهو عذاب الحريق الذي وقع منهم للمؤمنين، وقيل: إن الحريق اسم من أسماء النار كالسعير، وقيل: إنهم يعذبون في جهنم بالزمهرير، ثم يعذبون بعذاب الحريق، فالأوّل عذاب ببردها، والثاني عذاب بحرّها. وقال الربيع بن أنس: إن عذاب الحريق أصيبوا به في الدنيا، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه، فأحرقتهم، وبه قال الكلبي. ثم نكر سبحانه ما أعدّ للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال: ﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وظاهر الآية العموم، فيدخل في ذلك المحرقون في الأخدود بسبب إيمانهم دخولاً أوّلياً، والمعنى: أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي: لهم بسبب الإيمان، والعمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة. وقد تقدّم كيفية جري الأنهار من تحت الجنات في غير موضع، وأرضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار، فجري الأنهار من تحتها واضح، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها، فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر، وهو الشجر؛ لأنها ساترة لساحتها، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدّم نكره مما أعدّه الله لهم أي: ذلك المذكور ﴿الفوز الكبير﴾ الذي لا يعده فوز، ولا يقاربه ولا يدانيه، والفوز الظفر المطلوب، وجملة: ﴿إنّ بطش ربك لشديد﴾ مستأنفة لخطاب النبي ﷺ مبيّنة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه، والمغفرة لمن أطاعه أي: أخذه للجبرية والظلمة شديد، والبطش: الأخذ بعنف، ووصفه بالشدّة يدل على أنه قد تضاعف وتفاقم، ومثل هذا قوله: ﴿إنّ أخذه ليم شديد﴾ [هود: 102] ﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ أي: يخلق الخلق أوّلاً في الدنيا، ويعيدهم أحياء بعد الموت. كذا قال الجمهور، وقيل: يبدئ للكفار عذاب الحريق في الدنيا، ثم يعيده لهم في الآخرة، واختار هذا ابن جرير، والأوّل أولى ﴿وهو الغفور الودود﴾ أي: بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا

قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: «الشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة». وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس، وأبي هريرة مثله موقوفاً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهد، والمشهد يوم عرفة» وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب. وأخرج ابن ماجه، والطبراني، وابن جرير عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرنا من الصلاة علي يوم الجمعة، فإنه يوم مشهد تشهد الملائكة». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب في الآية قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن الحسن بن علي أن رجلاً سأله عن قوله: **«وشاهد ومشهود»** قال: هل سألت أحداً قبلي؟ قال: نعم سألت ابن عمر، وابن الزبير فقالا: يوم الذبح، ويوم الجمعة. قال: لا، ولكن الشاهد محمد ﷺ، ثم قرأ: **«ووجئنا بك على هؤلاء شهيداً»** [النساء: 41] والمشهد يوم القيامة، ثم قرأ: **«ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود»** [هود: 103]. أخرج عبد بن حميد، والطبراني في الأوسط، والصغير، وابن مردويه عن الحسين بن علي في الآية قال: الشاهد جدِّي رسول الله ﷺ، والمشهد يوم القيامة، ثم تلا: **«إنا أرسلناك شاهداً»** [الأحزاب: 45] **«ذلك يوم مشهود»**. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي الدنيا، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن عساکر من طرق عن ابن عباس قال: اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد محمد ﷺ، والمشهد يوم القيامة، ثم تلا: **«ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود»** [هود: 103]. وأخرج ابن جرير عنه قال: الشاهد الله، والمشهد يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الشاهد الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الشاهد الله، والمشهد يوم القيامة.

قلت: وهذه التفسيرات عن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلفت كما ترى، وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم، واستدل من استدل منهم بآيات نكر الله فيها أن نك الشيء شاهد أو مشهود، فجعله دليلاً على أنه المراد بالشاهد، والمشهد في هذه الآية المطلقة، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد، والمشهد المذكورين في هذا المقام هو: ذلك الشاهد، والمشهد الذي نكر في آية أخرى، وإلا لزم أن يكون قوله هنا: **«وشاهد ومشهود»** هو جميع ما أطلق عليه في الكتاب العزيز، أو السنة المطهرة أنه يشهد، أو أنه مشهود، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض، ولم يقل قائل بذلك. فإني قلت: هل في المرفوع الذي ذكرته من حديثي أبي هريرة، وحديث أبي مالك، وحديث جبير بن مطعم، ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود، والشاهد والمشهد؟ قلت: أما

شديد لك، ولما جئت به، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار **«وإله من ورائهم محيط»** أي: يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك، والإحاطة بالشيء: الحصر له من جميع جوانبه، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم قوت المحاط به على المحيط. ثم رد سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال: **«بيل هو قرآن مجيد»** أي: مثناه في الشرف والكرم، والبركة لكونه بياناً لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا، وليس هو كما يقولون إنه شعر وكهانة وسحر **«في لوح محفوظ»** أي: مكتوب في لوح، وهو لم الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه. قرأ الجمهور محفوظ بالجر على أنه نعت للوح، وقرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن أي: بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح. واتفق القراء على فتح اللام من لوح إلا يحيى بن يعمر، وابن السميع، فإنهما قرأ بضمهما. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. قيل: والمراد باللوح بضم اللام: الهواء الذي فوق السماء السابعة. قال أبو الفضل: اللوح بضم اللام: الهواء، وكذا قال ابن خالويه. قال في الصحاح: اللوح بالضم: الهواء بين السماء والأرض.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال **«البروج»** قصور في السماء. وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ سئل عن: **«السماء ذات البروج»** فقال: الكواكب، وسئل عن قوله: **«الذي جعل في السماء بروجاً»** [الفرقان: 61] قال: الكواكب. وعن قوله: **«في بروج مشيدة»** [النساء: 78] قال: القصور. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **«واليوم الموعود»** **«وشاهد ومشهود»** قال: اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة، وهو الحج الأكبر، فيوم الجمعة جعله الله عيداً لمحمد وأمه، وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام عند الله، وأحب الأعمال فيه إلى الله، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعيز من شيء إلا أعاده منه». وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة رفعه: **«وشاهد ومشهود»** قال: الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة، والمشهد هو الموعود يوم القيامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: اليوم الموعود يوم القيامة، والمشهد يوم النحر، والشاهد يوم الجمعة. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة». وأخرج ابن مردويه، وابن عساکر عن جبير بن مطعم

الجبل، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذي أراوا أن يلقوه منه جعلوا يتهاقون من ذلك الجبل، ويتربون حتى لم يبق منهم إلا الغلام، ثم رجع الغلام، فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر، فيلقوه فيه، فانطلقوا به إلى البحر، فغرق الله الذين كانوا معه، وأنجاه، فقال الغلام للملك: إنك لن تقتلني حتى تصلبني وترميني، وتقول إذا رميتني: بسم الله رب الغلام، فأمر به فصلب، ثم رماه، وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم، ثم مات، فقال الناس: لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد، فإنا نؤمن برب هذا الغلام، فقيل للملك: أجزعت أن خالفك ثلاثة، فهذا العالم كله قد خالفوك، قال: فخذ أخدوداً، ثم ألقني فيه الحطب والنار، ثم جمع الناس، فقال: من رجع عن دينه تركناه، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود، فقال: يقول الله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ فاما النار ذات الوقود حتى بلغ العزيز الحميد، فاما الغلام، فإنه نفن، ثم أخرج، فينكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب، وأصبه على صدغه، كما وضعها حين قتل. ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف. وقد رواها مسلم في أولخر الصحيح عن هبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. وأخرجها أحمد من طريق عفان عن حماد به. وأخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به. وأخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان، وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿أصحاب الأخدود﴾ قال: هم الحبشة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هم ناس من بني إسرائيل خدوا أخدوداً في الأرض أوقدوا فيه ناراً، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعرضوا عليها. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: ﴿والسماذ ذات البروج﴾ إلى قوله: ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال: هذا قسم على ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ إلى آخرها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ قال: يبدئ العذاب، ويعيده. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء، والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿الودود﴾ قال: الحبيب، وفي قوله: ﴿هو للعرش المجيد﴾ قال: الكريم. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿في لوح محفوظ﴾ قال: أخبرته أنه لوح النكر لوح واحد فيه النكر، وإن ذلك اللوح من نور، وإنه مسيرة ثلثمائة سنة. وأخرج ابن جرير عن أنس قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في قوله: ﴿جبل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ في جبهة إسرافيل. وأخرج أبو الشيخ، قال السيوطي بسند جيد عن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق: اكتب علمي في خلقي، فجري ما هو كائن إلى يوم القيامة اهـ

اليوم الموعود، فلم تختلف هذه الروايات التي نكر فيها، بل اتفقت على أنه يوم القيامة، وأما الشاهد ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم الجمعة، وفي حديثه الثاني أنه يوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي حديث أبي مالك أنه يوم الجمعة، وفي حديث جبير أنه يوم الجمعة، وفي مرسل سعيد أنه يوم الجمعة، فاتفقت هذه الأحاديث عليه، ولا تضر زيادة يوم عرفة عليه في حديث أبي هريرة الثاني؛ وأما المشهود ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم عرفة، وفي حديثه الثاني أنه يوم القيامة، وفي حديث أبي مالك أنه يوم عرفة، وفي حديث جبير بن مطعم أنه يوم عرفة، وكذا في حديث سعيد، فقد تعين في هذه الروايات أنه يوم عرفة، وهي أرجح من تلك الرواية التي صرح فيها بأنه يوم القيامة، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وأما اليوم الموعود، فقد قدمنا أنه وقع الاجماع على أنه يوم القيامة.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والطبراني عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم، وكان لذلك الملك كاهن يكهن له فقال له ذلك الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً، أو قال فطناً لقناً، فأعلمه علمي، فإني أخاف أن أموت، فينقطع منكم هذا العلم، ولا يكون فيكم من يعلمه، قال: فنظروا له على ما وصف، فأمره أن يحضر ذلك الكاهن، وأن يختلف إليه، فجعل الغلام يختلف إليه، وكان على طريق الغلام راهب في صومعة، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به، فلم يزل به حتى أخبره، فقال: إنما أعبد الله، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب، ويبطئ على الكاهن، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني، فأخبر الغلام الراهب بذلك، فقال له الراهب: إذا قال لك أين كنت؟ فقل عند أهلي، وإذا قال لك أهلك أين كنت؟ فأخبرهم أنني كنت عند الكاهن، فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة، يقال إنها كانت أسداً، فأخذ الغلام حجراً فقال: اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقاً، فأسالك أن تقتل هذه الدابة، وإن كان ما يقول للكاهن حقاً، فأسالك أن لا تقتلها، ثم رمى فقتل الدابة، فقال الناس: من قتلها؟ فقالوا الغلام، ففرغ الناس، وقالوا: قد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد، فسمع أعمى، فجاءه، فقال له: إن أنت ربيت علي بصري، فلك كذا، وكذا، فقال الغلام: لا أريد منك هذا، ولكن أرايت إن رجع عليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك؟ قال نعم، فدعا الله، فرد عليه بصره، فأمن الأعمى، فبلغ الملك أمرهم، فبعث إليهم، فأتى بهم، فقال: لا تقتلن كل واحد منكم قتلة لا تقتل بها صاحبه، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى، فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله، وقتل الآخر بقتلة أخرى، ثم أمر بالغلام، فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا، وكذا، فالتقه من رأسه، فانطلقوا به إلى ذلك

به فقال: ﴿وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب﴾ الثاقب: المضيء، ومنه يقال ثقب النجم ثقباً، وثقابة إذا أضاء، وثقوبه ضوؤه، ومنه قول الشاعر:

أنا به في الناس حتى كأنه بعلياء نار أوقدت بثقوب

قال الواحدي: الطارق يقع على كل ما طرق ليلاً، ولم يكن النبي ﷺ يدري ما المراد به لو لم يبينه بقوله: ﴿النجم الثاقب﴾ قال مجاهد: الثاقب المتوهج. قال سفيان: كل ما في القرآن ﴿وما أدراك﴾ فقد أخبره، وكل شيء قال: ﴿وما يدريك﴾ لم يخبره به، وارتفاع قوله: ﴿النجم الثاقب﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر نشأ مما قبله، كأنه قيل ما هو؟ فقيل: هو النجم الثاقب ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ هذا جواب القسم، وما بينهما اعتراض، وقد تقدم في سورة هود اختلاف القراء في: (لما)، فمن قرأ بالتخفيف كانت إن هنا هي المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدر، وهو اسمها، واللام هي الفارقة، وما مزيدة أي: إن الشأن كل نفس لعلها حافظ، ومن قرأ بالتشديد، فإن نافية، ولما بمعنى إلا أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ، وقد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر، وعاصم، وحزمة. وقرأ الباقون بالتخفيف. قيل: والحافظ هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها، وقولها وفعلها، ويحسون ما تكسب من خير وشر، وقيل: الحافظ هو الله عز وجل، وقيل: هو العقل يرشدهم إلى المصالح، ويكفهم عن المفاسد، والأول أولى لقوله: ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ [الأنعام: 61] وقوله: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه﴾ [الرعد: 11] والحافظ على الحقيقة هو الله عز وجل، كما في قوله: ﴿فإنه خير حافظاً﴾ [يوسف: 64] وحفظ الملائكة من حفظه؛ لأنهم بأمره ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب على الإنسان أن يتفكر في مبتدأ خلقه؛ ليعلم قدرة الله على ما هو نون ذلك من البعث. قال مقاتل: يعني: المكذب بالبعث ﴿مم خلق﴾ من أي شيء خلقه الله، والمعنى: فلينظر نظر التفكير، والاستدلال حتى يعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعانته. ثم بين سبحانه ذلك فقال: ﴿خلق من ماء دافق﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والماء: هو المنى، والنفق: الصب، يقال نفقت الماء أي: صببته، يقال ماء دافق أي: منفوق، مثل: ﴿عيشة راضية﴾ [القارة: 7] أي: مرضية. قال الفراء: والأفخش: ماء دافق أي: مصبوب في الرحم. قال الفراء: وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم كقولهم: سر كاتم أي: مكتوم، وهم ناصب: أي منصوب، وليل نائم، ونحو ذلك. قال الزجاج: من ماء ذي انغفاق، يقال دارع، وقايس، ونابل، أي نو لرع، وقوس، ونبل، وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما، ثم وصف هذا الماء، فقال: ﴿يخرج من بين الصلب والترايب﴾ أي: صلب

تفسير سورة الطارق

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت، ﴿والسما، والطارق﴾ [أي: سورة الطارق] بمكة، وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، والطبراني، وابن مردويه عن خالد العدواني: «أنه أبصر رسول الله ﷺ في سوق ثقيف، وهو قائم على قوس، أو عصي حين أتاهم يبتغي النصر عندهم، فسمعه يقرأ: ﴿والسما، والطارق﴾ حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية، ثم قرأتها في الإسلام، قال: فدعنتي ثقيف، فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل، فقرأتها، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّزِ الرَّكَّزِ

وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْوَارِقُ ۚ ۝۱ التَّيَمُّ الْقَائِدُ ۚ ۝۲ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۚ ۝۳ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ ۝۴ خُلِقَ مِنْ نَعْوٍ دَافِقٍ ۚ ۝۵ يَرَى بَيْنَ يَدَيْهِ الْغُلَبَ وَالنَّهْجَ ۚ ۝۶ إِنَّهُ عَلَى رَجَبٍ لَقَائِدٍ ۚ ۝۷ يَوْمَ تَكُنُ الْأَشْرَارُ ۚ ۝۸ قَا لَمْ يَنْفُذُوا وَلَا كَاسِرٍ ۚ ۝۹ وَاللَّيْلُ ذَاتُ الْوَسْطِ ۚ ۝۱۰ وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّدَاجِ ۚ ۝۱۱ إِنَّهُمْ لَنُفُذٌ ۚ ۝۱۲ وَمَا هُوَ بِالْمُزِيلِ ۚ ۝۱۳ إِنَّهُمْ لَيَكِيدُونَ كَيْدًا ۚ ۝۱۴ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۚ ۝۱۵ فَيَكِيدُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رَدِيًّا ۚ ۝۱۶

اقسم سبحانه بـ﴿السما والطارق﴾ وهو: للنجم الثاقب، كما صرح به التنزيل. قال الواحدي: قال المفسرون: اقسم الله بالسما والطارق، يعني: الكواكب تطرق بالليل، وتخفى بالنهار. قال الفراء: الطارق النجم؛ لأنه يطلع بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق. وكذا قال الزجاج، والمبرد: ومنه قول امرئ القيس:

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع فالهيتها عن ذي تماثم محول وقوله أيضاً:

الم ترويانني كلما جئت طارقاً وجئت بها طيباً وإن لم تطيب

وقد اختلف في الطارق هل هو: نجم معين، أو جنس النجم؟ فقيل: هو زحل، وقيل: الثريا، وقيل: هو الذي ترمى به الشياطين، وقيل: هو جنس النجم. قال في الصحاح: والطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح، ومنه قول هند بنت عتبة:

نحن بنات طارق نمشي على النملرق

أي: إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء، وأصل الطروق اللق، فسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول إلى اللق. وقال قوم: إن الطروق قد يكون نهراً، والعرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين أي: مرتين، ومنه قوله ﷺ: «أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير». ثم بين سبحانه ما هو الطارق، تخفيماً لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام

الصبا إلى النطفة. وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر، والأول أظهر، ورجحه ابن جرير، والثعلبي، والقرطبي «يوم تبلى السرائر» العامل في الظرف على التفسير الأول، هو رجعه، وقيل: لقادر. واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم، وقيل: العامل فيه مقدر أي: يرجعه يوم تبلى السرائر، وقيل: العامل فيه مقدر، وهو أنكر، فيكون مفعولاً به، وأما على قول من قال: إن المراد رجع الماء، فالعامل في الظرف مقدر، وهو أنكر، ومعنى تبلى السرائر: تختبر، وتعرف، ومنه قول الرازي:

قد كنت قبل اليوم تزدريني فاليوم أبوك وتبتليني
أي: أختبرك وتختبرني، وأمتحك وتمتحنني، والسرائر: ما يسر في القلوب من العقائد والنيات، وغيرها، والمراد هنا عرض الأعمال، ونشر الصحف، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح، والغث من السمين «فما له من قوة ولا ناصر» أي: فما للإنسان من قوة في نفسه يمتنع بها عن عذاب الله، ولا ناصر ينصره مما نزل به. قال عكرمة: هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر. قال سفيان: القوة العشرية، والناصر الحليف، والأول أولى «والسماء ذات الرجوع» الرجوع: المطر. قال الزجاج: الرجوع المطر؛ لأنه يجيء ويرجع ويتكرر. قال الخليل: الرجوع المطر نفسه، والرجوع نبات الربيع. قال أهل اللغة: الرجوع المطر. قال المتنخل يصف سيفاً له:

أبيض كالرجع رسوب إذا ما باح في محتفل يختلي

قال الواحدي: الرجوع المطر في قول جميع المفسرين، وفي هذا الذي حكاه عن جميع المفسرين نظر، فإن ابن زيد قال: الرجوع الشمس، والقمر، والنجوم يرجعون في السماء تطلع من ناحية، وتغيب في أخرى. وقال بعض المفسرين: ذات الرجوع ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد. وقال بعضهم: معنى ذات الرجوع: ذات النفع، وجه تسمية المطر رجعاً ما قاله القفال إنه مأخوذ من ترجيع الصوت، وهو إعانته، وكذا المطر لكونه يعود مرة بعد أخرى سمي رجعاً. وقيل: إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض، وقيل: سمته العرب رجعاً لأجل التنازل ليرجع عليهم، وقيل: لأن الله يرجعه وقتاً بعد وقت «والأرض ذات الصدع» هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات، والثمار والشجر، والصدع: الشق؛ لأنه يصدع الأرض، فتتصدع له. قال أبو عبيدة، والفرء: تتصدع بالنبات. قال مجاهد: والأرض ذات الطرق التي تصدعها المياه، وقيل: ذات الحرث لأنه يصدعها، وقيل: ذات الأموات لاتصدعها عنهم عند البعث.

والحاصل أن الصدع إن كان اسماً للنبات فكانه قال: والأرض ذات النبات؛ وإن كان المراد به الشق، فكانه قال: والأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات ونحوه، وجواب القسم قوله: «إنه لقول فصل» أي: إن القرآن لقول يفصل

الرجل، وتراثب المرأة، والتراثب جمع تريبة، وهي: موضع القلادة من الصدر، والولد لا يكون إلا من المائين. قرأ الجمهور (يخرج) مبنياً للمفاعل. وقرأ ابن أبي عبلة، وابن مقسم مبنياً للمفعول، وفي الصلب وهو الظهر لغات. قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام، وقرأ أهل مكة بضم الصاد واللام. وقرأ اليماني بفتحهما، ويقال صالب على وزن قلب. ومنه قول العباس بن عبد المطلب:

تنقل من صلب إلى رحم

في أبياته المشهورة في مدح النبي ﷺ. وقد تقدم كلام في هذا عند تفسير قوله: «الذين من أصلابكم» [النساء: 23] وقيل: التراثب ما بين الثديين. وقال الضحاك: تراثب المرأة: اليمين، والرجلين، والعينين. وقال سعيد بن جبير: هي الجيد. وقال مجاهد: هي ما بين المنكبين والصدر. ويروي عنه أيضاً أنه قال: هي الصدر. ويروي عنه أيضاً أنه قال: هي التراقي. وحكى الزجاج: أن التراثب عصارة القلب، ومنه يكون الولد، والمشهور في اللغة أنها عظام الصدر، والنحر، ومنه قول دريد بن الصمة:

فإن تببروا ناخذكم في ظهوركم وإن تقبلوا ناخذكم في التراثب

قال عكرمة: التراثب الصدر، وأنشد:

نظام دز على تراثبها

قال في الصحاح: التريبة واحدة التراثب. وهي: عظام الصدر. قال أبو عبيدة: جمع التريبة تريب، ومنه قول المتنبي العبدى:

ومن ذهب بنين على تريب كلون العاج ليس بذئ غصون

وقول امرئ القيس:

تراثبها مصقولة كالسجنجل

وحكى الزجاج: أن التراثب أربع أضلاع من يمنة الصدر، وأربع أضلاع من يسرة الصدر. قال قتادة، والحسن: المعنى، ويخرج من صلب الرجل، وتراثب المرأة. وحكى الفرء أن مثل هذا يأتي عن العرب يكون معنى من بين الصلب، من الصلب، وقيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ولا يخالف هذا ما في الآية؛ لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب والتراثب، وقيل: إن المعنى: يخرج من جميع أجزاء البدن، ولا يخالف هذا ما في الآية؛ لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب والتراثب، باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هي: الصلب والتراثب، وما يجاورها، وما فوقها مما يكون تنزله منها «إنه على رجعه لقادر» الضمير في إنه يرجع إلى الله سبحانه لدلالة قوله: «خلق» عليه، فإن الذي خلقه هو الله سبحانه، والضمير في رجعه عائد إلى الإنسان، والمعنى: أن الله سبحانه على رجع الإنسان أي: إعانته بالبعث بعد الموت: «لقادر» هكذا قال جماعة من المفسرين: وقال مجاهد: على أن يرد الماء في الإحليل. وقال عكرمة، والضحاك: على أن يرد الماء في الصلب. وقال مقاتل بن حيان يقول: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن

بإذن الله عن الأموال والنبات. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ قال: حقّ ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ قال: بالباطل، وفي قوله: ﴿أَمْهَلُمْ رُيْدًا﴾ قال: قريباً.

تفسير سورة الأعلى

وهي مكية في قول الجمهور. وقال الضحاك: هي مدنية. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى] بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير، وعائشة مثله. وأخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال: أَوَّلَ من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلنا يقرأنا القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت: ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾ في سورة مثلاً. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن مريويه عن عليّ قال: كان رسول الله ﷺ يحبّ هذه السورة ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾. أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن توبير بن أبي فاختة عن أبيه عن عليّ. وأخرج أحمد، ومسلم، وأهل السنن عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيين، وفي الجمعة بـ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾، و﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ [أي: سورة الغاشية]، وإن وافق يوم جمعة قراها جميعاً وفي لفظ: «وربما اجتمعا في يوم واحد، فقراهما» وفي الباب أحاديث. وأخرج مسلم، وغيره عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ: «كان يقرأ في الظهر بـ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾. وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ يوتر بـ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾، و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [أي: سورة الكافرون]، و﴿قل هو الله أحد﴾ [أي: سورة الصمد]. وأخرج أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بـ﴿سُبْحِ﴾ وفي الثانية ﴿قل يا أيها الكافرون﴾، وفي الثالثة ﴿قل هو الله أحد﴾، والمعوذتين، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾، و﴿والشمس، وضحاها﴾ [أي: سورة الشمس]، و﴿الليل إذا يغشى﴾» [أي: سورة الليل].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: لم ينزل باللعب، فهو جدّ ليس بالهزل، والهزل ضدّ الجدّ. قال الكميت:

تجدد بنا في كل يوم وتهزل

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يعمدون في إبطال ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الحق. قال الزجاج: يخانلون النبي ﷺ، ويظهرون ما هم على خلافه ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: أستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأجازيهم جزاء كيدهم، قيل: هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: آخرهم، ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم، وأرض بما يبره لك في أمورهم، وقوله: ﴿أَمْهَلُمْ﴾ بدل، من مهل ومهل، وأمهل بمعنى: مثل نزل وأنزل، والإمهال الإنظار، وتمهل في الأمر اتاده، وانتصاب ﴿رُيْدًا﴾ على أنه مصدر مؤكد للفعل المنكور، أو نعت لمصدر محذوف أي: أمهلهم إمهالاً رويداً أي: قريباً أو قليلاً. قال أبو عبيدة: والرويد في كلام العرب تصغيراً لروء، وأنشد:

كانها تمشي على روء

أي: على مهل، وقيل: تصغير أرواء مصدر رود تصغير الترخيم، ويأتي اسم فعل نحو رويد زيداً أي: أمهله، ويأتي حالاً نحو سار القوم رويداً أي: متمهلين، نكر معنى هذا الجوهري، والبحث مستوفى في علم النحو.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ قال: أقسم ربك بالطارق: وكل شيء طرّقه بالليل فهو طارق. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ قال: كل نفس عليها حفظة من الملائكة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿النَّجْمِ الثَّاقِبِ﴾ قال: النجم المضيء ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ قال: إلا عليها حافظ. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ قال: ما بين الجيد والنحر. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: تربية المرأة، وهي موضع القلاية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: الترائب بين ثديي المرأة. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً قال: للترائب أربعة أضلاع من كل جانب من أسفل الأضلاع. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ قال: على أن يجعل الشيخ شاباً، والشاب شيخاً. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مريويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ قال: للمطر بعد المطر ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ قال: صدعها عن النبات. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ تصدع الأودية. وأخرج ابن منده، والديلمي عن معاذ بن أنس مرفوعاً ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ قال: تصدع

سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① أَلَيْكَ خَلْقُ السَّوْءِ ② وَالَّذِي نَدَّرَ فَهْرَكَ ③
وَالَّذِي أَخْرَجَ الْأُرْسُ ④ فَجَعَلَ غَنَاءَ أَهْوَى ⑤ سُبْحَانَكَ لَا تَسْوَى ⑥ إِلَّا

العشب، وما ترعاه النعم من النبات الأخضر ﴿فَجَعَلَهُ غِثَاءً أَحْوَى﴾ أي: فجعله بعد أن كان أخضر غثاء أي: هشيمًا جافًا كالغثاء الذي يكون فوق السيل أحوى أي: أسود بعد اخضراره، وذلك أن الكلا إذا يبس أسود. قال قتادة: الغثاء الشيء اليابس، ويقال: للبلل والحشيش إذا انحطم، ويبس غثاء وهشيم. قال امرؤ القيس:

كأن نرى رأس المجمر غنوة من السيل والأغذاء فلكة مغزل وانتصاب غثاء على أنه المفعول الثاني، أو على الحال، وأحوى صفة له، وقال الكسائي: هو حال من المرعى أي: أخرجه أحوى من شدة الخضرة والري ﴿فَجَعَلَهُ غِثَاءً﴾ بعد ذلك، والأحوى مأخوذ من الحوة، وهي: سواد يضرب إلى الخضرة. قال في الصحاح: والحوة سمرة الشفة، ومنه قول ذي الرمة:

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب ﴿سَنَقْرُوكَ فَا تَنَسَّى﴾ أي: سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة، فلا تنسى ما تقرأه، والجملة مستأنفة لبيان هدايته الخاصة به بعد بيان الهداية العامة، وهي هدايته لحفظ القرآن. قال مجاهد، والكسائي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها مخافة أن ينساهما، فنزلت: ﴿سَنَقْرُوكَ فَا تَنَسَّى﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي: لا تنسى مما تقرأه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه. قال الفراء: وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد ﷺ شيئاً كقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: 107]، وقيل: إلا ما شاء الله أن تنسى، ثم تذكر بعد ذلك، فإذا قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئاً نسياناً كلياً. وقيل: بمعنى النسخ أي: إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته. وقيل: معنى فلا تنسى: فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه. وقيل المعنى: إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله. وقيل: ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿فَا تَنَسَّى﴾ للنهي. والألف مزيدة لرعاية الفاصلة، كما في قوله: ﴿فَاَضْلُونَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 67] يعني: فلا تغفل قراءته وتذكره ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ الجملة تعليل لما قبلها أي: يعلم ما ظهر وما بطن، والإعلان والإسرار، وظاهره العموم، فيندرج تحته ما قيل: إن الجهر ما حفظه رسول الله ﷺ من القرآن، وما يخفى هو ما نسخ من صدره، ويدخل تحته أيضاً ما قيل: من أن الجهر هو إعلان الصلوة، وما يخفى هو إخفاؤها، ويدخل تحته أيضاً ما قيل: إن الجهر جهرة ﷺ بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفقت عليه، وما يخفى ما في نفسه مما يدعو إلى الجهر ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ معطوف على سنقرئك، وما بينهما اعتراض. قال مقاتل أي: نهون عليك عمل الجنة، وقيل: نوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل، وقيل: للشرعية اليسرى، وهي الحنيفية السهلة، وقيل: نهون

مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَمْلِكُ الْغَيْبَ وَمَا يَخْفَى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ قَدْ كُنَّ إِن تَمَسَّ الذِّكْرُ ﴿سَنَقْرُوكَ مِنْ يَخْفَى﴾ وَنَجْعَبُكَ الْأَنْفَى ﴿الَّذِي يَصِلُ أَكْثَرَ الْكُنَى﴾ ثُمَّ لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْفَى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَبَّنَا وَذَكَرَ أَسْرَ رَبِّهِ فَصَلِّ﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ إِنَّ هَذَا لَيَّ الصَّحِيفِ الْأَوَّلِ ﴿صُحِّبَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾

قوله: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي: نزهه عن كل ما لا يليق به. قال السدي: سَبَّحَ اسم ربك الأعلى: أي: عظمه، قيل: والاسم هنا مقحم لقصد التعظيم، كما في قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر والمعنى: سَبَّحَ ربك الأعلى. قال ابن جرير: المعنى نزه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه، فلا تكون على هذا مقحمة. وقيل المعنى: نزه تسمية ربك، ونكر إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولنكره محترم. وقال الحسن: معنى سَبَّحَ اسم ربك الأعلى: صل له. وقيل المعنى: صل بأسماء الله لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية. وقيل المعنى: ارفع صوتك بنكر ربك، ومنه قول جرير:

قبح الإله وجوه تغلب كلما سَبَّحَ الحجيح وكبروا تكبيراً والأعلى صفة للرب، وقيل للاسم، والأول أولى، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى﴾ صفة أخرى للرب. قال الزجاج: خلق الإنسان مستوياً، ومعنى سَوَّى: عدل قامته. قال الضحاك: خلقه فسوى خلقه، وقيل: خلق الأجساد، فسوى الأقسام، وقيل: خلق الإنسان وهياه للتكليف ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ صفة أخرى للرب، أو معطوف على الموصول الذي قبله. قرأ علي بن أبي طالب، والكسائي، والسلمي: (قَدَّرَ) مخففاً، وقرأ الباقرين بالتشديد، قال الواحدي: قال المفسرون: قَدَّرَ خلق الذكر والأنثى من اللواتي، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها. وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة، وروي عنه أيضاً أنه قال في معنى الآية: قَدَّرَ السعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، وهدى الأنعام لمراعيتها. وقيل: قَدَّرَ أرزاقهم وأقواتهم، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنساً، ولمراعيتهم إن كانوا وحشاً. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها. وقال السدي: قَدَّرَ مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر، ثم هداها للخروج من الرحم. قال الفراء: أي قَدَّرَ، فهدى، وأضل فاكثفتي بأحدهما، وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا. والأولى عدم تعيين فرد، أو أفراد مما يصدق عليه قَدَّرَ، وهدى إلا ببلييل يدل عليه، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين، إما على البدل، أو على الشمول، والمعنى: قَدَّرَ أجناس الأشياء وأنواعها، وصفاتها، وأفعالها، وأقوالها، وآجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له، ويسره لما خلق له، والهمه إلى أمور دينه وبنياه ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ صفة أخرى للرب أي: أنبت

صدقة الفطر. قال عكرمة: كان الرجل يقول: أقدم زكاتي بين يدي صلاتي. وأصل الزكاة في اللغة النماء. وقيل: المراد بالآية زكاة الأموال كلها، وقيل: المراد بها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال؛ لأن الأكثر أن يقال في الأموال زكي لا تزكي **﴿ونكر اسم ربه فصل﴾** قيل المعنى: نكر اسم ربه بالخوف، فعبدته وصلى له، وقيل: نكر اسم ربه بلسانه فصلى أي: فأقام الصلوات الخمس، وقيل: ذكر موقفه ومعاده فعبدته، وهو كالقول الأول. وقيل: نكر اسم ربه بالتكبير في أول الصلاة، لأنها لا تنعقد إلا بنكره، وهو: قوله «الله أكبر» وقيل: نكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى، وقيل: هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاة، وقيل: المراد بالصلاة هنا صلاة العيد، كما أن المراد بالتزكي في الآية الأولى زكاة الفطر، ولا يخفى بعد هذا القول؛ لأن السورة مكية، ولم تفرض زكاة الفطر، وصلاة العيد إلا بالمدينة **﴿بل تؤثرن الحياة الدنيا﴾** هذا إضراب عن كلام مقتر يدل عليه السياق أي: لا تفعلون ذلك بل تؤثرن اللذات الفانية في الدنيا، قرأ الجمهور (تؤثرن) بالفوقية على الخطاب، ويؤيدها قراءة أبي (بل أنتم تؤثرن) وقرأ أبو عمرو بالتحية على الغيبة. قيل: والمراد بالآية الكفرة، والمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا بها، والاطمئنان إليها، والإعراض عن الآخرة بالكلية، وقيل: المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر، والمراد بإيثارها ما هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة، والتوجه إلى تحصيل منافعها، والاهتمام بها اهتماماً زائداً على اهتمامه بالطاعات وجملة: **﴿والآخرة خير وأبقى﴾** في محل نصب على الحال من فاعل تؤثرن أي: والحال أن الدار الآخرة التي هي الجنة أفضل، وأبوم من الدنيا. قال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خرف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خرف يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خرف يفنى؟ والإشارة بقوله: **﴿إن هذا﴾** إلى ما تقدم من فلاح من تزكى وما بعده، وقيل: إنه إشارة إلى جميع السورة، ومعنى **﴿لفي الصحف الأولى﴾** أي: ثابت فيها، وقوله: **﴿صحف إبراهيم وموسى﴾** بدل من الصحف الأولى. قال قتادة، وابن زيد: يريد بقوله: **﴿إن هذا﴾** والآخرة خير وأبقى. وقالوا: تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا، وقال الحسن: تتابعت كتب الله جل ثناؤه إن هذا لفي الصحف الأولى، وهو قوله **﴿قد افلح﴾** إلى آخر السورة. قرأ الجمهور (في الصحف الأولى صحف إبراهيم) بضم الحاء في الموضعين، وقرأ الأعمش، وهارون، وأبو عمرو في رواية عنه بسكونها فيهما، وقرأ الجمهور (إبراهيم) بالالف بعد الراء، وبالياء بعد الهاء. وقرأ أبو رجاء بحذفهما وفتح الهاء، وقرأ أبو موسى، وابن الزبير إبراهيم بإلغين.

وقد أخرج أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مروي عن عقبه بن عامر الجهني قال: «لما نزلت:

عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به، والأولى حمل الآية على العموم: أي: نوفقك للطريقة اليسرى في الدين والدنيا في كل أمر من أمورهما التي تتوجه إليك **﴿فإنك إن نفعت للنكري﴾** أي: عظم يا محمد الناس بما أوحينا إليك، وأرشدناهم إلى سبل الخير، واهدهم إلى شرائع الدين. قال الحسن: تنكرة للمؤمن، وحجة على الكافر. قال الواحدي: إن نفعت أو لم تنفع؛ لأن النبي ﷺ بعث مبلغاً للإعذار والإنذار، فعليه التنكير في كل حال نفع، أو لم ينفع ولم ينكر الحالة الثانية كقوله: **﴿سراييل تقيم الحر﴾** [النحل: 81] الآية. قال الجرجاني: التنكير واجب، وإن لم ينفع، فالمعنى: إن نفعت الذكرى أو لم تنفع. وقيل: إنه مخصوص في قوم بأعيانهم، وقيل: إن بمعنى ما، أي: فنكر ما نفعت الذكرى؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال، وقيل: إنها بمعنى قد، وقيل: إنها بمعنى إذ. وما قاله الواحدي، والجرجاني أولى، وقد سبقهما إلى القول به الفراء، والنحاس. قال الرازي: إن قوله: **﴿إن نفعت الذكرى﴾** للتنبيه على أشرف الحاليين، وهو: وجود النفع الذي لأجله شرعت الذكرى، والمعلق بإن على الشيء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء، ويدل عليه آيات: منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: **﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾** [البقرة: 172] ومنها قوله: **﴿ولا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إن خفت﴾** [النساء: 101] فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه، ومنها قوله: **﴿ولا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾** [البقرة: 230] والمراجعة جائزة بدون هذا الظن، فهذا الشرط فيه فوائد: منها ما تقدم، ومنها البعث على الانتفاع بالذكرى، كما يقول الرجل لمن يرشده: قد أوضحت لك إن كنت تعقل، وهو تنبيه للنبي ﷺ على أنها لا تنفعهم الذكرى، أو يكون هذا في تكرير الدعوة، فأما الدعاء الأول فعام انتهى. ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى، ومن لا تنفعه، فقال: **﴿سيتذكر من يخشى﴾** أي: سيتعظ بوعظك من يخشى الله، فيزداد بالتنكير خشية وصلاًحاً **﴿ويتجنبها الأشقى﴾** أي: ويتجنب الذكرى، ويبعد عنها الأشقى من الكفار لإصراره على الكفر بالله، وإنهماكه في معاصيه. ثم وصف الأشقى فقال: **﴿الذي يصلي النار الكبرى﴾** أي: العظيمة الفظيعة؛ لأنها أشد حراً من غيرها. قال الحسن: النار الكبرى نار جهنم، والنار الصغرى نار الدنيا. وقال الزجاج: هي السفلى من أطباق النار **﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾** أي: لا يموت فيها، فيستريح مما هو فيه من العذاب، ولا يحيا حياة ينتفع بها، ومنه قول الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي عناها ولا تحيا حياة لها طعم
وثم للتراخي في مراتب الشدة: لأن التردد بين الموت، والحياة أقطع من صلي النار الكبرى **﴿قد افلح من تزكى﴾** أي: من تطهر من الشرك، فأمن بالله ووجهه، وعمل بشرائعه. قال عطاء، والربيع: من كان عمله زكياً نامياً. وقال قتادة: تزكى بعمل صالح. قال قتادة، وعطاء، وأبو العالية: نزلت في

الصلوات الخمس. وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس **﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: من قال لا إله إلا الله. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن مردويه والبيهقي في سننه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده عن النبي **﴿أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد، ويتلو هذه الآية ﴿قد افلح من تزكى﴾ وذكر اسم ربه فصلي﴾**. وفي لفظ قال: «سئل النبي **﴿عن زكاة الفطر﴾** فقال: **﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: هي زكاة الفطر» وكثير بن عبد الله ضعيف جداً، قال فيه أبو داود: هو ركن من أركان الكذب، وقد صحح الترمذي حديثاً من طريقه، وخطئ في ذلك، ولكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله **﴿يقول: ﴿قد افلح من تزكى﴾ وذكر اسم ربه فصلي﴾** ثم يقسم الفطرة قبل أن يدخل إلى المصلى يوم الفطر» وليس في هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول، بل فيهما أنه **﴿تلا الآية، وقوله: هي زكاة الفطر، يمكن أن يراد به أنها مما يصنع عليه التزكي، وقد قُمنّا أن السورة مكية، ولم تكن في مكة صلاة عيد ولا فطرة وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري: ﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد **﴿وذكر اسم ربه فصلي﴾** قال: خرج إلى العيد وصلى. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي عن ابن عمر قال: إنما أنزلت هذه الآية في إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد **﴿قد افلح من تزكى﴾** وذكر اسم ربه فصلي. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال: قلت لابن عباس: رأيت قوله: **﴿قد افلح من تزكى﴾** للفطر قال: لم أسمع بذلك، ولكن للزكاة كلها. ثم عابته فقال لي: والصدقات كلها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في شعب الإيمان عن عرفة الشقفي قال: استقرأت ابن مسعود **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فلما بلغ **﴿بل يؤثرون للحياة الدنيا﴾** ترك القراءة، وأقبل على أصحابه، فقال: أثرتنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: أثرتنا الدنيا لانا رأينا زينتها، ونساءها، وطعامها، وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فاخترتنا هذا العاجل وتركنا الآجل، وقال: **﴿بل يؤثرون للحياة الدنيا﴾** بالياء. وأخرج البزار، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾** صحف إبراهيم وموسى. قال رسول الله **﴿هي كلها في صحف إبراهيم، وموسى، وفي لفظ: هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في الآية قال: نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى. وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه، وابن عساکر عن أبي ذر قال: «قلت يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: مائة كتاب، وأربعة كتب» الحديث.**

﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ [الحاقة: 52] قال لنا رسول الله **﴿اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى] قال: اجعلوها في سجودكم ولا مطعن في إسناده. وأخرج أحمد، وأبو داود، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس: أن رسول الله **﴿كان إذا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: 1] قال: «سبحان ربي الأعلى»، قال أبو داود: خولف فيه وكيع، فرواه شعبة عن أبي إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً. وأخرجه موقوفاً أيضاً عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى»، وفي لفظ لعبد بن حميد عنه قال: «إذا قرأت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾. فقل: سبحان ربي الأعلى». وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف عن علي بن أبي طالب أنه قرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى» وهو في الصلاة، ف قيل له أتزيد في القرآن؟ قال: لا، إنما أمرنا بشيء، فقلته. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي موسى الأشعري أنه قرأ في الجمعة: **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال: سمعت ابن عمر يقرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى»، وكذلك هي في قراءة أبي بن كعب. وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر أنه قال: إذا قرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** قال: «سبحان ربي الأعلى». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير أنه قرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى» وهو في الصلاة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿فجعله غثاء﴾** قال: مشيماً **﴿لحوى﴾** قال متغيراً. وأخرج ابن مردويه عنه قال: كان النبي **﴿يستنكر القرآن مخافة أن ينسى، ف قيل له قد كفيك ذلك، ونزلت: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾**. وأخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿إلا ما شاء الله﴾** يقول: إلا ما شئت أنا، فأنسيك. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿ونيسرك لليسرى﴾** قال: للخير. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود **﴿ونيسرك لليسرى﴾** قال: الجنة. وأخرج البزار، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي **﴿في قوله: ﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وقطع الأنداد، وشهد أني رسول الله **﴿وذكر اسم ربه فصلي﴾** قال: هي الصلوات الخمس، والمحافظة عليها، والاهتمام بموافقتها». قال البزار: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: من الشرك **﴿وذكر اسم ربه﴾** قال: وحده الله **﴿فصلي﴾** قال:****

تفسير سورة الغاشية

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الغاشية بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وقد تقدم حديث النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ «سبح اسم ربك الأعلى» [أي: سورة الأعلى]، والغاشية في صلاة العيد، ويوم الجمعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ ذُجِرُوا بِرُؤُوسِهِمْ خَنْزِيرَةً ۝ عَلِيمَةً نَّاصِيَةً ۝ تَصَلَّى نَارًا كَاسِيَةً ۝ شَقَىٰ مِنْ عَيْنٍ إِكْبَرَةٍ ۝ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝ لَا يَسِينُ وَلَا يَنْفِي مِنْ جُوعٍ ۝ وَجُوعُهُمْ يُوعَدُهُ نَاعِمَةً ۝ لَسْتُمْ بِرَاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَّةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَرْوُومَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝ وَنَارٌ مَقْشُوفَةٌ ۝ وَزَكَرَاتُ رَبِّهِمْ ۝ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝ تَذَكَّرْ إِنَّا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُعِظٍ ۝ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝ فَيَرْجِيهِ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۝

قوله: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ قال جماعة من المفسرين: هل هنا بمعنى قد، وبه قال قطرب: أي: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، وهي القيامة؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها. وقيل: إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجب مما في خبره، والتشويق إلى استماعه أولى. وقد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين. وقال سعيد بن جببر، ومحمد بن كعب: الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما في قوله: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ [إبراهيم: 50] وقيل: الغاشية أهل النار؛ لأنهم يغشونها ويقحمونها والأول أولى. قال الكلبي: المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية، فقد أتاك ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما هو؟ أو مستأنفة استئنافاً نحوياً لبيان ما تضمنته من كون، ثم وجوه في ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة، وجوه مرتفع على الابتداء، وإن كانت نكرة لوقوعه في مقام التفصيل، وقد تقدم مثل هذا في سورة القيامة، وفي سورة النازعات. والتنوين في يومئذ عوض عن المضاف إليه أي: يوم غشيان الغاشية، والخاشعة: النذيلة الخاضعة، وكل متضائل ساكن يقال له خاشع، يقال خضع الصوت: إذا خفي، وخضع في صلاته: إذا تنل ونكس رأسه. والمراد بالوجوه هنا أصحابها. قال مقاتل: يعني الكفار؛ لأنهم تكبروا عن عبادة الله. قال قتادة، وابن زيد: خاشعة في النار، وقيل: أراد

وجوه اليهود والنصارى على الخصوص، والأول أولى. قوله: ﴿عاملة ناصية﴾ معنى عاملة أنها تعمل عملاً شاقاً. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: عمل يعمل عملاً، ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عمل يعمل عملاً. قيل: وهذا العمل هو جزر السلاسل والأغلال، والخوض في النار ﴿ناصية﴾ أي: تعب، يقال نصب بالكسر ينصب نصباً: إذا تعب، والمعنى: أنها في الآخرة تعب لما تلاقيه من عذاب الله. وقيل: إن قوله: ﴿عاملة﴾ في الدنيا إذ لا عمل في الآخرة أي: تعمل في الدنيا بالكفر والمعاصي، وتنصب في ذلك. وقيل: إنها عاملة في الدنيا ناصية في الآخرة، والأول أولى. قال قتادة ﴿عاملة ناصية﴾ تكبرت في الدنيا عن طاعة الله، فأعملها الله، وأنصبها في النار جزر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج: 4] قال الحسن، وسعيد بن جببر: لم تعمل الله في الدنيا، ولم تنصب فأعملها، وأنصبها في جهنم. قال الكلبي: يجزؤون على وجوههم في النار. وقال أيضاً: يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل، والأغلال، والخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل. قرأ الجمهور (عاملة ناصية) بالرفع فيهما على أنهما خبران أخران للمبتدأ، أو على تقدير مبتدأ، وهما خبران له، وقرأ ابن محيصن، وعيسى، وحמיד، وابن كثير في رواية عنه بنصبهما على الحال، أو على الذم، وقوله: ﴿تصلى ناراً حامية﴾ خبر آخر للمبتدأ أي: تنخل ناراً متناهية في الحر، يقال: حمى النهار، وحمى التنور أي: اشتد حرهما. قال الكسائي: يقال: اشتد حمى النهار، وحموه بمعنى: قرأ الجمهور (تصلى) بفتح التاء مبنياً للفاعل. وقرأ أبو أبو عمرو، ويعقوب، وأبو بكر بضمها مبنياً للمفعول. وقرأ أبو رجاء بضم التاء، وفتح الصاد، وتشديد اللام، والضمير راجع إلى الوجوه على جميع هذه القراءات، والمراد أصحابها، كما تقدم، وهكذا الضمير ﴿تسقى من عين أنية﴾ والمراد بالعين الأنية: المتناهية في الحر، والأنية: الذي قد انتهى حره، من الإيناء بمعنى التأخر، يقال آناه يؤنيه إيناء أي: أخره وحبسه، كما في قوله: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن: 44] قال الواحدي: قال المفسرون: لو وقعت منها نقطة على جبال الدنيا لذابت. ولما ذكر سبحانه شراهم عقبه بنكر طعامهم فقال: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ هو: نوع من الشوك يقال له الشبرق في لسان قريش إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع. كذا قال مجاهد، وقاتدة، وغيرهما من المفسرين. قيل: وهو سم قاتل، وإذا يبس لا تقربه دابة ولا ترعاه، وقيل: هو شيء يرمي به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع، وهلكت هزالاً. قال الخليل: الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمي به البحر. وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا بالأول، ومنه قول أبي نؤيب:

رعى الشريق الزيان حتى إذا نوى وعاد ضريعاً بأن عنه التحايط
وقال الهنلي ينكر إبلاً، وسوء مرعاها:

وحبسني في هرم الضريع وكلها قرناء دامية السيلين جرود
وقال سعيد بن جبير: الضريع الحجارة، وقيل: هو
شجرة في نار جهنم. وقال الحسن: هو بعض ما أخفاه الله
من العذاب. وقال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده
وينلون، ويتضرعون إلى الله بالخلاص منه، فسمي بذلك؛ لأن
أكله يتضرع إلى الله في أن يعفى عنه لكرهاته وخشونته.
قال النحاس: قد يكون مشتقاً من الضارع وهو النليل أي:
من شربه يلحقه ضراعة وثلة. وقال الحسن أيضاً: هو
الزقوم، وقيل: هو واد في جهنم، وقد تقدم في سورة الحاقة:
﴿فليس له اليوم هاهنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين﴾
[الحاقة: 35، 36] والغسلين غير الضريع، كما تقدم، وجمع
بين الآيتين بأن النار دركات، فمنهم من طعامه الضريع،
ومنهم من طعامه الغسلين. ثم وصف سبحانه الضريع فقال:
﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ أي: لا يسمن الضريع
أكله، ولا يدفع عنه ما به من الجوع. قال المفسرون: لما
نزلت هذه الآية. قال المشركون: إن إبلاً تسمن من الضريع،
فنزلت: ﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ وكذبوا في قولهم
هذا، فإن الإبل لا تاكل الضريع ولا تقر به. وقيل: اشتبه
عليهم أمره، فظنوه كغيره من النبات النافع. ثم شرع
سبحانه في بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال
أهل النار فقال: ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ أي: ذات نعمة
وبهجة، وهي وجوه المؤمنين صارت وجوههم ناعمة لما
شاهدوا من عاقبة أمرهم، وما أعده الله لهم من الخير الذي
يفوق الوصف، ومثله قوله: ﴿تعرف في وجوههم نضرة
النعيم﴾ [المطففين: 24] ثم قال: ﴿لسعيا راضية﴾ أي:
لعملها الذي عملته في الدنيا راضية، لأنها قد أعطيت من
الأجر ما أرضاها، وقرت به عيونها، والمراد بالوجوه هنا
أصحابها، كما تقدم ﴿في جنة عالية﴾ أي: عالية المكان
مرتفعة على غيرها من الأمكنة، أو عالية القدر؛ لأن فيها ما
تشتهيها الأنفس وتلذ الأعين ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ قرأ
الجمهور (لا تسمع) بفتح الفوقية، ونصب لاغية أي: لا
تسمع أنت أيها المخاطب، أو لا تسمع تلك الوجوه. وقرأ ابن
كثير، وأبو عمرو بالتحية مضمومة مبنياً للمفعول، ورفع
لاغية. وقرأ نافع بالفوقية مضمومة مبنياً للمفعول، ورفع
لاغية. وقرأ الفضل، والجحدري بفتح التحتية مبنياً للفاعل
ونصب لاغية، واللغو الكلام الساقط. قال الفراء، والأخفش
أي: لا تسمع فيها كلمة لغو. قيل: المراد بذلك الكذب
والبهتان، والكفر قاله قتادة، وقال مجاهد: أي: اللثتم. وقال
الفراء: لا تسمع فيها حالفاً يحلف بكذب. وقال الكلبي: لا
تسمع في الجنة حالفاً بيمين برة ولا فاجرة. وقال الفراء
أيضاً: لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغى؛ لأنهم لا
يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من
النعيم الدائم، وهذا أرجح الأقوال؛ لأن النكرة في سياق النفي

من صيغ العموم، ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو
خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص، ولاغية إما صفة
موصوف محذوف أي: كلمة لاغية، أو نفس لاغية، أو مصدر
أي: لا تسمع فيها لغواً ﴿فيها عين جارية﴾ قد تقدم في
سورة الإنسان أن فيها عيوناً، والعين هنا بمعنى العين، كما
في قوله: ﴿علمت نفس﴾ [التكوير: 14] ومعنى جارية أنها
تجري مياهها، وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة. قال الكلبي:
لا أبري بماء أو بغيره ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ أي: عالية
مرتفعة السمك، أو عالية القدر ﴿واكواب موضوعة﴾ قد
تقدم أن الكواب جمع كواب، وأنه القدر الذي لا عروة له،
ومعنى موضوعة: أنها موضوعة بين أيديهم يشربون منها
﴿ونمارق مصفوفة﴾ النمارق: الوسائد. قال الواحدي: في
قول الجميع، واحتدتها نمرقة بضم النون، وزاد الفراء سماعاً
عن العرب نمرقة بكسرهما. قال الكلبي: وسائد مصفوفة
بعضها إلى بعض، ومنه قول الشاعر:

وانا لنجري الكاس بين شروينا وبين أبي قابوس فوق النمارق
وقال الآخر:

كهول وشبان حسان وجوههم على سرر مصفوفة ونمارق
قال في الصحاح: النمرق، والنمرقة وسادة صغيرة،
وكذلك النمرقة بالكسر لغة حكاهما يعقوب ﴿وزرابي
مبثوثة﴾ يعني: البسط، واحداً زربي وزربية. قال أبو
عبيدة، والفراء: الزرابي الطنافس التي لها خمل رقيق،
واحداً زربية، والمبثوثة الميسوطة قاله قتادة. وقال عكرمة:
بعضها فوق بعض. قال الواحدي: ويجوز أن يكون المعنى:
أنها مفرقة في المجالس. وبه قال القتيبي. وقال الفراء: معنى
مبثوثة كثيرة، والظاهر أن معنى البث: التفريق مع كثرة، ومنه:
﴿ورث فيها من كل دابة﴾ [البقرة: 164] ﴿أفلا ينظرون إلى
الإبل كيف خلقت﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والفاء
للطف على مقتر، كما في نظائره مما مر غير مرة، والجملة
مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه، وكذا ما بعدها،
وكيف منصوبة بما بعدها، والجملة في محل جر على أنها
بدل اشتمال من الإبل، والمعنى: أينكرون أمر البعث،
ويستبعدون وقوعه، أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي غالب
مواشيهم، وأكبر ما يشاهدونه من المخلوقات ﴿كيف
خلقت﴾ على ما هي عليه من الخلق البديع من عظم جنتها،
ومزيد قوتها، وبديع أوصافها. قال أبو عمرو بن العلاء: إنما
خص الإبل؛ لأنها من نوات الأربع تبرك فتحمل عليها
الحمولة، وغيرها من نوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو
قائم، قال الزجاج: نبههم على عظيم من خلقه قد نلله
للصغير يقوده، وينيقه، وينهضه، ويحمل عليه الثقل من
الحمل وهو بارك، فينهض بثقل حمله، وليس ذلك في شيء
من الحوامل غيره، فأراهم عظيم من خلقه لينل بذلك على
توحيده. وسئل الحسن عن هذه الآية، وقيل له الفيل أعظم
في الأعجوبة، فقال: أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به، ثم هو

عباس قال: الغاشية من أسماء القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه **﴿هل تلك حبيث للغاشية﴾** قال: الساعة **﴿وجود يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة﴾** قال: تعمل، وتنصب في النار **﴿تسقى من عين أنية﴾** قال: هي التي قد طال أينها **﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾** قال: الشبرق. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿وجود يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة﴾** قال: يعني اليهود والنصارى تخشع، ولا ينفعها عملها **﴿تسقى من عين أنية﴾** قال: قد اني غليانها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **﴿تصلى نارا حامية﴾** قال: حارة، **﴿تسقى من عين أنية﴾** قال: انتهى حرها **﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾** يقول: من شجر من نار. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً **﴿إلا من ضريع﴾** قال: الشبرق اليابس. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً **﴿لا تسمع فيها لافية﴾** يقول: لا تسمع أذى ولا باطل، وفي قوله: **﴿فيها سر مرفوعة﴾** قال: بعضها فوق بعض **﴿ونمارق﴾** قال: مجالس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿ونمارق﴾** قال: المرافق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿لست عليهم بمسيطر﴾** قال: جبار **﴿إلا من تولى وكفر﴾** قال: حسابه على الله. وأخرج أبو داود في ناسخه عنه أيضاً **﴿لست عليهم بمسيطر﴾** ثم نسخ ذلك فقال: **﴿فاقتلوا المشركين حيث وجبتهم﴾** [التوبة: 5] وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً **﴿إن لنا إياهم﴾** قال: مرجهم.

تفسير سورة الفجر

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس في ناسخه، وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال: نزلت **﴿والفجر﴾** بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير، وعائشة مثله. وأخرج النسائي عن جابر قال: «صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه فطوّل، فصلى في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ نك معاذاً فقال: منافق، فنكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله جئت أصلي فطوّل علي، فانصرفت فصليت في ناحية المسجد، فعلقت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: اقتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** [أي: سورة الأعلى]، **﴿والشمس وضحاها﴾** [أي: سورة الشمس] والفجر، **﴿والليل إذا يغشى﴾** [أي: سورة الليل].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ① وَاللَّيْلِ عَقِيرٍ ② وَالشَّفَعِ وَالْوَرَرِ ③ وَأَوَّلِ إِذَا يَسِرُ ④
مَلَكٌ فِي ذَٰلِكَ نَسَمٌ لِّئِي حَجْرِ ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاءِ ⑥ إِدَمَ
فَاتَّكَ الْأَمْوَا ⑦ أَلَيْ تَمْ يَخْلُقُ مِثْلَهَا فِي الْيَلْدِ ⑧ وَتَمُودُ الْآيْنَ جَابُوا
الصَّخْرَ بِأَوْدَا ⑨ وَوَعَدَ ذِي الْأَوْدَا ⑩ الْآيْنَ طَعَوًا فِي الْيَلْدِ ⑪

خنزير لا يركب ظهره، ولا يؤكل لحمه، ولا يحلب دمه، والإبل من أعزّ مال العرب وأنفسه، تاكل النوى والقت، وتخرج اللبن، ويأخذ الصبي بزمامها، فيذهب بها حيث شاء مع عظمها في نفسها. وقال المبرد: الإبل هنا هي القطع العظيمة من السحاب، وهو خلاف ما ذكره أهل التفسير واللغة. وروي عن الأصمعي أنه قال: من قرأ **﴿خلقت﴾** بالتخفيف عنى به البعير، ومن قرأ بالتشديد عنى به السحاب **﴿والى السماء كيف رفعت﴾** أي: رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل، وقيل: رفعت فلا ينالها شيء **﴿والى الجبال كيف نصبت﴾** على الأرض مرساة راسخة لا تميد ولا تميل ولا تزول **﴿والى الأرض كيف سطحت﴾** أي: بسطت، والسطح بسط الشيء، يقال: لظهر البيت إذا كان مستوياً: سطح. قرأ الجمهور (سطحت) مبنياً للمفعول مخففاً. وقرأ الحسن: بالتشديد. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن السميع، وأبو العالية: خلقت، ورفعت، ونصبت، وسطحت على البناء للفاعل، وضم التاء فيها كلها. ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بالتذكير فقال: **﴿فذكر﴾** والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي: فعظمهم يا محمد، وخوفهم ثم علل الأمر بالتذكير فقال: **﴿إنما أنت مذكر﴾** أي: ليس عليك إلا ذلك، **﴿ولست عليهم بمسيطر﴾** المسيطر والمسيطر بالسين والصاد: المسلط على الشيء ليشرف عليه، ويتعهد أحواله كذا في الصحاح أي: لست عليهم بمسيطر حتى تكرهمهم على الإيمان، وهذا منسوخ بآية السيف. قرأ الجمهور (بمسيطر) بالصاد، وقرأ هشام، وقنبل في رواية بالسين. وقرأ خلف بإشمام الصاد زائياً. وقرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول **﴿إلا من تولى وكفر﴾** هذا استثناء منقطع أي: لكن من تولى عن الوعظ والتذكير **﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾** وهو عذاب جهنم الدائم. وقيل: هو استثناء متصل من قوله: **﴿فذكر﴾** أي: فذكر كل أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه، وتولى فاستحق العذاب الأكبر، والأول أولى. وإنما قال: **﴿الأكبر﴾** لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط، والقتل والأسر. وقرأ ابن مسعود (فإنه يعذبه الله) وقرأ ابن عباس، وقتادة (إلا من تولى) على أنها إلا التي للتنبيه والاستفتاح **﴿إن لنا إياهم﴾** أي: رجوعهم بعد الموت، يقال أب يثوب: إذا رجع، ومنه قول عبيد بن الأبرص:

وكلّ ذي غيبة يثوب وغائب الموت لا يؤوب
قرأ الجمهور (إياهم) بالتخفيف، وقرأ أبو جعفر، وشيبة بالتشديد. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام، وقيل: هما لغتان بمعنى. قال الواحدي: وأما (إياهم) بتشديد الياء، فإنه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج **﴿ثم إن علينا حسابهم﴾** يعني: جزاءهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث، وثم للتراخي في الرتبة لبعد منزلة الحساب في الشدة عن منزلة الإياب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن

يخفك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين، والضعف الظاهر، والاتكال في التعمين على مجرد الرأي الزائف، والخطر الخاطيء.

والذي ينبغي التعويل عليه، ويتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب، وهما معروفان وأضحان، فالشفع عند العرب الزوج، والوتر الفرد. فالمراد بالآية إما نفس العدد، أو ما يصلق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر. وإذا قام دليل على تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية، فإن كان الدليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك، وإن كان الدليل يدل على أنه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره. قرأ الجمهور (الوتر) بفتح الواو. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف بكسرهما، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه، وهما لغتان، والفتح لغة قريش وأهل الحجاز، والكسر لغة تميم. قال الأصمعي: كل فرد وتر، وأهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر في الفرد. وحكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو، وكسر التاء، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة، ويحتمل أنه نقل كسرة الراء إلى التاء إجراء للوصل مجرى الوقف ﴿والليل إذا يسر﴾ قرأ الجمهور (يسر) بحذف الياء وصلأً وفقاً اتباعاً لرسم المصحف. وقرأ نافع، وأبو عمرو بحذفها في الوقف، وإثباتها في الوصل. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف. قال الخليل: تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآي. قال الزجاج: والحنف أحب إلي لأنها فاصلة، والفواصل تحذف منها الياءات. قال الفراء: قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها، وأنشد بعضهم:

كفك كف ما تليق برهما جوداً وأخرى تعط بالسيف دما
ما تليق أي: ما تمسك. قال المؤرج: سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من يسر فقال: لا أجيبك حتى تبين على باب داري سنة، فبت على باب داره سنة، فقال: الليل لا يسري، وإنما يسري فيه، فهو مصروف عن جهته، وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه، ألا ترى إلى قوله: ﴿وما كانت أمك بغياً﴾ [مريم: 28] ولم يقل بغية؛ لأنه صرفها من باغية.

وفي كلام الأخفش هذا نظر، فإن صرف الشيء عن معناه لسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه، ولو صح ذلك للزم في كل المجازات العقلية واللفظية، واللازم باطل، فالملزوم مثله، والأصل ههنا إثبات الياء؛ لأنها لام الفعل المضارع المرفوع، ولم تحذف لعله من العلل إلا لاتباع رسم المصحف، وموافقة رؤوس الآي إجراء للفواصل مجرى القوافي؛ ومعنى ﴿والليل إذا يسر﴾ إذا يمضي، كقوله: ﴿والليل إذ أبرج﴾ [المدثر: 33] ﴿والليل إذا عسعس﴾ [التكوير: 17] وقيل: معنى يسر: يسار فيه، كما يقال ليل نائم، ونهار صائم، كما في قول الشاعر:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم
وبهذا قال الأخفش، والقتيبي وغيرهما من أهل المعاني،

فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلَهٌ مُّرَادٌ ﴿١٩﴾

أقسم سبحانه بهذه الأشياء، كما أقسم بغيرها من مخلوقاته. واختلف في الفجر الذي أقسم الله به هنا ف قيل: هو الوقت المعروف، وسمي فجراً؛ لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم. وقال قتادة: إنه فجر أول يوم من شهر محرم، لأن منه تتفجر السنة. وقال مجاهد: يريد يوم النحر. وقال الضحاك: فجر ذي الحجة؛ لأن الله قرن الأيام به فقال: ﴿وليل عشر﴾ أي ليلي عشر من ذي الحجة، وبه قال السدي، والكلبي. وقيل المعنى: وصلاة الفجر، أو رب الفجر. والأول أولى، وجواب هذا القسم وما بعده هو قوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ كذا قال ابن الأنباري، وقيل: محذوف لدلالة السياق عليه أي: ليجازين كل أحد بما عمل، أو ليعذبن، وقرئه أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التي قبله أي: والفجر إلخ لإيابهم إلينا، وحسابهم علينا، وهذا ضعيف جداً، وأضعف منه قول من قال: إن الجواب قوله: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ وإن هل بمعنى قد؛ لأن هذا لا يصح أن يكون مقسماً عليه أبداً ﴿وليل عشر﴾ هي عشر ذي الحجة في قول جمهور المفسرين. وقال الضحاك: إنها الأواخر من رمضان. وقيل: العشر الأول من المحرم إلى عاشرها يوم عاشوراء. قرأ الجمهور (ليل) بالتثنية، وعشر صفة لها. وقرأ ابن عباس (وليلي عشر) بالإضافة، قيل: والمراد ليلي أيام عشر، وكان حقه على هذا أن يقال عشرة لأن المعدود مذكور. وأجيب عنه بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان ﴿والشفع والوتر﴾ الشفع والوتر يعمان كل الأشياء شفعها ووترها، وقيل: شفع الليالي ووترها. وقال قتادة: الشفع والوتر شفع الصلاة ووترها، منها شفع، ومنها وتر. وقيل: الشفع يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلة يوم النحر. وقال مجاهد، وعطية العوفي: الشفع الخلق، والوتر الله الواحد الصمد، وبه قال محمد بن سيرين، ومسروق، وأبو صالح، وقاتدة. وقال الربيع بن أنس، وأبو العالية: هي صلاة المغرب فيها ركعتان، والوتر الركعة. وقال الضحاك: الشفع عشر ذي الحجة، والوتر أيام منى الثلاثة، وبه قال عطاء. وقيل: هما آدم وحواء؛ لأن آدم كان وترأ فشفع بحواء. وقيل: الشفع درجات الجنة وهي ثمان، والوتر بركات النار وهي سبع، وبه قال الحسين بن الفضل. وقيل: الشفع للصفاء والمرورة، والوتر الكعبة. وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة وقال سفيان بن عيينة: الوتر: هو الله سبحانه، وهو الشفع أيضاً لقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ [المجادلة: 7] الآية. وقال الحسن: المراد بالشفع والوتر العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما. وقيل: الشفع مسجد مكة والمدينة، والوتر مسجد بيت المقدس. وقيل: الشفع حجج القرآن، والوتر الأفراد. وقيل: الشفع الحيوان لأنه ذكر وأنثى، والوتر الجماد. وقيل: الشفع ما سمي، والوتر ما لا يسمى. ولا

من عاد، وقيل: هما عادان، فالأولى هي إرم، ومنه قول قيس بن الرقيات:

مجداً تليداً ببناء أولهم أدرك عاداً وقبيلة إرم
قال معمر: إرم إليه مجتمع عاد وثمود، وكان يقال عاد إرم وعاد ثمود، وكانت القبيلتان تنسب إلى إرم، قال أبو عبيدة: هما عادان، فالأولى إرم. ومعنى ذات العماد: ذات القوة والشدة، مأخوذ من قوة الأعمدة، كذا قال الضحاك. وقال قتادة، ومجاهد: إنهم كانوا أهل عمد سيارة في الربيع، فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم. وقال مقاتل: ذات العماد يعني طولهم، كان طول الرجل منهم اثني عشرة ذراعاً ويقال: رجل طويل العماد أي: القامة. قال أبو عبيدة: ذات العماد ذات الطول، يقال رجل معمد إذا كان طويلاً. وقال مجاهد، وقاتة: أيضاً كان عماداً لقومهم، يقال: فلان عميد القوم وعمودهم أي: سيدهم. وقال ابن زيد: ذات العماد يعني إحكام البنیان بالعمد. قال في الصحاح: والعماد الابنية الرفيعة تذكر وتؤنث، قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عماد الحي خرت على الإخفاض نمنع من يلينا
وقال عكرمة، وسعيد المقبري هي دمشق، ورواه ابن وهب وأشهب عن مالك. وقال محمد بن كعب: هي الإسكندرية ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ هذه صفة لعاد: أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة، وهم الذين قالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ [فصلت: 15] أو صفة للقرية على قول من قال: إن إرم اسم لقريتهم، أو للأرض التي كانوا فيها. والأول أولى، ويدل عليه قراءة أبي: (التي لم يخلق مثلهم في البلاد) وقيل: الإرم الهلاك. قال الضحاك إرم ذات العماد أي: أهلهم فجعلهم رميماً، وبه قال شهر بن حوشب. وقد نكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة قصورها وبورها، وبساتينها، وإن حصباها جواهر، وترابها مسك، وليس بها أنيس، ولا فيها ساكن من بني آدم، وإنها لا تزال تنتقل من موضع إلى موضع، فتارة تكون باليمن، وتارة تكون بالشام، وتارة تكون بالعراق، وتارة تكون بسائر البلاد، وهذا كذب بحث لا ينفق على من له أننى تميز. وزاد الثعلبي في تفسيره فقال: إن عبد الله بن قلابة في زمان معاوية دخل هذه المدينة، وهذا كذب على كذب، وافترأ على افتراء، وقد أصيب الإسلام، وأهله بدهاية دهاء، وفاقرة عظمى ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين البجاليين الذين يجترئون على الكذب، تارة على بني إسرائيل، وتارة على الأنبياء، وتارة على الصالحين، وتارة على رب العالمين، وتضاعف هذا الشر، وزاد كثرة بتصر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها للتصنيف، والتفسير للكتاب العزيز، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة، والأقاصيص المنحولة، والأساطير المفتعلة في تفسير كتاب الله سبحانه، فحرفوا، وغيروا، وبكروا. ومن أراد أن يقف على

وبالأول قال جمهور المفسرين. وقال قتادة، وأبو العالية: ﴿والليل إذا يسر﴾ أي: جاء، وأقبل. وقال النخعي أي: استوى. قال عكرمة، وقاتة، والكلبي، ومحمد بن كعب: هي ليلة المزلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه، وقيل: ليلة القدر لسراية الرحمة فيها. والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالي دون أخرى ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به، وتفخيمه من هذه الأمور المنكورة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى تلك الأمور، والتذكير بتأويل المنكور أي: هل في ذلك المنكور من الأمور التي أقسمنا بها قسم أي: مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار ﴿لذي حجر﴾ أي: عقل ولب، فمن كان ذا عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به، ومثل هذا قوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [الواقعة: 76] قال الحسن ﴿لذي حجر﴾ أي: لذي حلم. وقال أبو مالك: لذي ستر من الناس. وقال الجمهور: الحجر العقل. قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد، لذي عقل، ولذي حلم، ولذي ستر، الكل بمعنى العقل. وأصل الحجر المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنه لنو حجر، ومنه سمي الحجر لامتناعه بصلابته، ومنه حجر الحاكم على فلان أي: منعه. قال، والعرب تقول: إنه لنو حجر: إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها. ثم نكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم، وعنادهم وتكذيبهم للرسول تحذيراً للكفار في عصر نبينا ﷺ وتحذيراً لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ * إرم ذات العماد قرأ الجمهور بتونين (عاد) على أن يكون إرم عطف بيان لعاد، والمراد بعاد اسم أبيهم، وإرم اسم القبيلة، أو بدلاً منه، وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث. وقيل: المراد بعاد أولاد عاد، وهم عاد الأولى، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى، فيكون نكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل، للدلالة على أنهم عاد الأولى لا عاد الأخرى، ولا بد من تقدير مضاف على كلا القولين أي: أهل إرم، أو سبط إرم؟ فإن إرم هو: جد عاد؛ لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقرأ الحسن، وأبو العالية بإضافة عاد إلى إرم. وقرأ الجمهور (إرم) بكسر الهمزة، وفتح الراء، والميم. وقرأ الحسن، ومجاهد، وقاتة، والضحاك (إرم) بفتح الهمزة، والراء، وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفاً، وقرئ بإضافة إرم إلى ذات العماد. قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التي هي الاعلام وأحدها إرم، وفي الكلام تقديم وتأخير أي: والفجر وكذا، وكذا ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ ألم تر أي: ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد، وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح له، وقد كان أمر عاد وثمود مشهوراً عند العرب؛ لأن ديارهم متصلة بديار العرب، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون. وقال مجاهد أيضاً: إرم أمة من الأمم، وقال قتادة: هي قبيلة

خط الشيء بعضه ببعض، ومنه قول كعب بن زهير:

لكن خلة قد سيط من دماها فجع وولع وإخلاف وتبديل
وقال الآخر:

أحارث إنالو تساط دماؤنا تزايلن حتى لا يمس دم دما
وقال آخر:

نسطها نعيم للرأي غير موفق فلست على تسويتها بمعان
﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قد قَدَّمنا قول من قال إن هذا جواب القسم، والأولى أن الجواب محذوف، وهذه الجملة تعليل لما قبلها، وفيها إرشاد إلى أن كفار قومه ﷺ سيصيبهم ما أصاب أولئك الكفار، ومعنى بالمرصاد: أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيراً، وبالشَّرَّ شَرّاً. قال الحسن، وعكرمة أي: عليه طريق العباد لا يفوته أحد، والرصد والمرصاد: الطريق. وقد تقدَّم بيانه في سورة براءة، وتقدَّم أيضاً عند قوله: ﴿إن جهنم كانت مرصاداً﴾ [النبا: 21].

وقد أخرج القرطبي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿والفجر﴾ قال: فجر النهار. وأخرج ابن جرير عنه قال: يعني: صلاة الفجر. وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في الشعب، وابن عساکر عنه أيضاً في قوله: ﴿والفجر﴾ قال: هو: المحرم فجر السنة، وقد ورد في فضل صوم شهر محرم لحديث صحيحة، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية لا مطابقة، ولا تضمناً، ولا التزاماً. وأخرج أحمد، والنسائي، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن جابر: «أن النبي ﷺ قال: ﴿والفجر وليال عشر﴾ والشفع والوتر: قال: إن العشر عشر الأضحي، والوتر: يوم عرفة، والشفع: يوم النحر. وفي لفظ: هي ليالي من ذي الحجة». وأخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبد الله أنه نخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن: فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفة، فقال أبو سلمة: أليس هذه الليالي العشر التي نكرها الله في القرآن؟ فقال ابن عمر: وما يدريك؟ قال: ما أشك، قال: بلى، فاشكك. وقد ورد في فضل هذه العشر أحاديث، وليس فيها ما يدل على أنها المرادة بما في القرآن هنا بوجه من الوجوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وليال عشر﴾ قال: هي العشر الأواخر من رمضان. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، وابن مريويه عن عمران بن حصين: «أن النبي ﷺ سئل عن الشفع والوتر، فقال: هي الصلاة بعضها شفع، وبعضها وتر»، وفي إسناد رجل مجهول، وهو الراوي له عن عمران بن حصين. وقد روي عن عمران بن عصام على عمران بن حصين بإسقاط الرجل المجهول. وقال الترمذي بعد إخراجهِ بالإسناد الذي فيه الرجل المجهول هو حديث غريب لا

بعض ما نكرنا، فليُنظر في كتابي الذي سميته [الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة]. ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة، وهي: ثمود على قبيلة عاد فقال: ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ وهم: قوم صالح سموا باسم جذهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، ومعنى جابوا الصخر قطعوه، والجوب القطع، ومنه جاب البلاد: إذا قطعها، ومنه سمي جيب القميص؛ لأنه جيب أي: قطع. قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصخور ثمود، فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، ومنه قوله سبحانه: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً آمناً﴾ [الحجر: 82] وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها ويجعلون تلك الأنقاب بيوتاً يسكنون فيها، وقوله: ﴿بالواد﴾ متعلق بجابوا، أو بمحذوف على أنه حال من الصخر، وهو وادي القرى. قرأ الجمهور (ثمود) بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة، ففيه التانيث والتعريف. وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيها. وقرأ الجمهور أيضاً بالواد بحذف الياء وصلأً، ووفقاً اتباعاً لرسم المصحف. وقرأ ابن كثير بإثباتها فيهما. وقرأ قنبل في رواية عنه بإثباتها في الوصل دون الوقف ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ أي: نو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشنونها بالأوتاد، أو جعل الجنود أنفسهم أوتاداً لأنهم يشنون الملك، كما تشد الأوتاد الخيام، وقيل: كان له أوتاد يعذب الناس بها ويشدهم إليها. وقد تقدَّم بيان هذا في سورة ص ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ الموصول صفة لعاد وثمود وفرعون أي: طغت كل طائفة منهم في بلادهم، وتمزجت، وعتت، والطغيان مجاوزة الحد ﴿فاكثروا فيها للفساد﴾ بالكفر، ومعاصي الله، والجور على عباده، ويجوز أن يكون الموصول في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين طغوا، أو في محل نصب على الذم ﴿فصَبَّ عليهم ربك سوط عذاب﴾ أي: أفرغ عليهم وألقى على تلك الطوائف سوط عذاب، وهو ما عذبهم به. قال الزجاج: جعل صوته الذي ضربهم به العذاب، يقال: صبَّ على فلان خلعة أي: ألغاه عليه، ومنه قول النابغة:

فصَبَّ عليه الله أحسن صبغة وكان له بين البرية ناصر
ومنه قول الآخر:

ألم تر أن الله أظهر دينه وصَبَّ على الكفار سوط عذاب
ومعنى سوط عذاب: نصيب عذاب، ونكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعدَّ لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به. وقيل: نكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم، وكان السوط عندهم هو نهاية ما يعذب به. قال الفراء: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه عندهم غاية العذاب. وقيل معناه: عذاب يخالط اللحم والدم، من قولهم ساطه يسوطه سوطاً أي: خلطه، فالسوط

الأمانة، وجسر عليه الرحم، وجسر عليه الرب عز وجل.

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٦﴾
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٧﴾ كَلَّا بَلْ لَا
تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَعْزُبُونَ عَنْ عُمَّالِهِ الْأَوْسِينَ ﴿١٩﴾ وَتَأْكُلُونَ
الْأَرْثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿٢٠﴾ وَتُخْرِجُونَ النَّالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢١﴾ كَلَّا إِذَا دُكِّيَ
الْأُذُنُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢٢﴾ وَجَاءَ رَيْكُكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٣﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ
بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّهُ لَهُ الْوَكُوفُ ﴿٢٤﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي
فُتِنْتُ لِلْغَىٰ ﴿٢٥﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَظُنُّ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَا يُؤْنَسُ وَاقِفَهُ أَحَدٌ ﴿٢٧﴾
يَأْتِيهِ الْغُشَّاءُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٨﴾ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَأْسِيَّةٌ مُّهَيَّيَّةٌ ﴿٢٩﴾ فَأَدْخِلْ
فِي عَذَابِي ﴿٣٠﴾ وَأَدْخِلْ جَنِّي ﴿٣١﴾

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ذكر ما يدل على اختلاف أحوال عباد الله عند إصابته الخير، وعند إصابته الشر، وأن مطمح أنظارهم، ومعظم مقاصدهم هو الدنيا فقال: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه﴾ أي: امتحنه، واختبره بالنعم ﴿فأكرمه ونعمه﴾ أي: أكرمه بالمال، ووسع عليه رزقه ﴿فيقول ربي أكرمن﴾ فرحاً بما نال وسروراً بما أعطي، غير شاكر لله على ذلك، ولا خاثر بباله أن ذلك امتحان له من ربه، واختبار لحاله وكشف لما يشتمل عليه من الصبر والجزع، والشكر للنعمة وكفرانها، و «ما» في قوله: ﴿إذا ما﴾ زائدة، وقوله: ﴿فأكرمه ونعمه﴾ تفسير لابتناء ومعنى: ﴿أكرمن﴾ أي: فضلني بما أعطاني من المال، وأسبغ علي من النعم لمزيد استحقاقي لذلك، وكوني موضعاً له، والإنسان مبتدأ وخبره: ﴿فيقول ربي أكرمن﴾ وبخلت الغاء فيه لتضمن أما معنى الشرط، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر، وإن تقدم لفظاً فهو مؤخر في المعنى أي: فأما الإنسان فيقول ربي أكرمني وقت ابتلائه بالإنعام. قال الكلبي: الإنسان هو الكافر أبي بن خلف. وقال مقاتل: نزلت في أمية بن خلف، وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة، وأبي حنيفة بن المغيرة ﴿وأما إذا ما ابتلاه﴾ أي: اختبره، وعامله معاملة من يختبره ﴿فقدّر عليه رزقه﴾ أي: ضيقه، ولم يوسع له، ولا بسط له فيه ﴿فيقول ربي أكرمن﴾ أي: أولاني هواناً، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث؛ لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا والتوسع في متاعها، ولا إهانة عنده إلا فوتها، وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها، فاما المؤمن، فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته، ويوفقه لعمل الآخرة، ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير، وما أصيب به من الشر في الدنيا ليس إلا للاختبار والامتحان، وأن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء. قرأ نافع بإثبات الياء في (أكرمن وأهانن) وصلاً وحذفها وقفاً، وقرأ ابن كثير في رواية البزي عنه، وابن محيصن، ويعقوب بإثباتهما وصلاً، ووقفاً، وقرأ الباقون بحذفهما في الوصل،

نعرفه إلا من حديث قتادة. قال ابن كثير: وعندي أن وقفه على عمران بن حصين أشبه، والله أعلم. قال: ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر. وقد أخرج هذا الحديث موقوفاً على عمران بن حصين عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، فهذا يقوي ما قاله ابن كثير. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: ﴿والشفع والوتر﴾ فقال: كل شيء شفع، فهو اثنان، والوتر واحد. وأخرج الطبراني، وابن مريويه، قال السيوطي: بسند ضعيف عن أبي أيوب عن النبي ﷺ: «أنه سئل عن الشفع والوتر فقال: يومان، ليلة، يوم عرفة، ويوم النحر، والوتر ليلة النحر ليلة جمع». وأخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «الشفع يومان، والوتر اليوم الثالث». وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير أنه سئل عن الشفع والوتر فقال: الشفع قول الله: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ [البقرة: 203] والوتر اليوم الثالث. وفي لفظ: الوتر أوسط أيام التشريق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال: الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة. وأخرج ابن جرير عنه ﴿ولليل إذا يسر﴾ قال: إذا ذهب. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿والفجر﴾ إلى قوله: ﴿إذا يسر﴾ قال: هذا قسم على إن ربك بالمرصاد. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿قسم لذي حجر﴾ قال: لذي حجر وعقل ونهي. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿بهاد إرم﴾ قال: يعني: بالإرم الهالك، ألا ترى أنك تقول إرم بنو فلان ﴿ذات العماد﴾ يعني: طولهم مثل العماد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن المقدم بن معدى كرب عن النبي ﷺ أنه ذكر ﴿إرم ذات العماد﴾ فقال: كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة، فيحملها على كاهله، فيلقها على أي حي أراد فيهلكهم، وفي إسناد رجل مجهول: لأن معاوية بن صالح رواه عن حدثه عن المقدم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جاءوا الصخر بالواد﴾ قال: خرقوها. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ قال: الأوتاد: الجنود الذين يشئون له أمره. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله: ﴿ذي الأوتاد﴾ قال: وقد فرعون لامراته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال: يسمع ويرى. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود في قوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال: من وراء الصراط جسور: جسر عليه

ملومة، وللاكل يَلْمُ الثريد، فيجمعه، ثم يأكله، وقال مجاهد: يسفه سفاً. وقال ابن زيد: هو إذا أكل ماله أَلِمَ بِمال غيره، فأكله، ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب ﴿وَتَحْيَوْنَ الْمَالَ حَباً جَمْعاً﴾ أي: حباً كثيراً؛ والجَمُّ الكثير، يقال جَمَّ الماء في الحوض: إذا كثُر واجتمع، والجمعة: المكان الذي يجتمع فيه الماء. ثم كَوَّرَ سبحانه الردع لهم والزجر فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكون عملكم، ثم استأنف سبحانه فقال: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر، والدك: الكسر والنق، والمعنى هنا: أنها زلزلت، وحركت تحريكاً بعد تحريك، قال ابن قتيبة: دكت جبالها حتى استوت. قال الزجاج: أي: تزلزلت، فكك بعضها بعضاً. قال المبرد: أي: بسطت، وذهب ارتفاعها. قال والدك: حط المرتفع باليسط، وقد تقدّم الكلام على ذلك في سورة الاعراف، وفي سورة الحاقة، والمعنى: أنها دكت مرة بعد أخرى، وانتصاب نكاً الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل، ونكاً الثاني تأكيد للأول، كذا قال ابن عصفور. ويجوز أن يكون النصب على الحال أي: حال كونها منكوكَة مرة بعد مرة، كما يقال: علمته الحساب باباً باباً، وعلمته الخط حرفاً حرفاً، والمعنى: أنه كَوَّرَ ذلك عليها حتى صارت هباء منبثاً ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: جاء أمره وقضاؤه، وظهرت آياته، وقيل المعنى: أنها زالت الشبه في ذلك اليوم، وظهرت المعارف، وصارت ضرورية، كما يزول الشك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه، وقيل: جاء قهر ربك وسلطانه، وانفراده بالامر، والتبدير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئاً من ذلك ﴿وَالْمَلِكُ صَفْفاً صَفْفاً﴾ انتصاب صفأ صفأ على الحال: أي: مصطفىين، أو نوي صفوف. قال عطاء: يريد صفوف الملائكة، وأهل كل سماء صف على حدة. قال الضحاك: أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفأ صفأ محيطين بالأرض ومن فيها، فيكونون سبعة صفوف ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ يومئذ منصوب بجيء، والقائم مقام الفاعل بجهنّم، وجوز مكي أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل، وليس بذلك. قال الوليدي: قال جماعة من المفسرين: جيء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجزونها حتى تنصب عن يسار العرش، فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا جثاً لركبتيه يقول: يا رب نفسي نفسي، وسياتي الذي هذا نقله عن جماعة المفسرين مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ إن شاء الله ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ يومئذ هذا بدل من يومئذ الذي قبله أي: يوم جيء بجهنّم يتذكر الإنسان أي: يتعظ، ويتذكر ما فرط منه، ويندم على ما قدّمه في الدنيا من الكفر والمعاصي. وقيل: إن قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الثاني بدل من قوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾ والعامل فيها هو قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ وإنشائي له التذكير أي: ومن أين له التذكر والاتعاظ، وقيل: هو على حذف مضاف أي: ومن أين له منفعة التذكر. قال الزجاج: يظهر التوبة، ومن أين له التوبة؟ ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه

والوقف اتباعاً لرسم المصحف، ولموافقة رؤوس الآي، والأصل إثباتها؛ لأنها اسم، ومن الحذف قول الشاعر:

ومن كاشح ظاهر غمره إذا ما انتصبت له أنكرن
أي: أنكرني. وقرأ الجمهور (فقدّر) بالتخفيف، وقرأ ابن عامر بالتشديد، وهما لغتان. وقرأ الحريمان، وأبو عمرو: ربي بفتح الياء في الموضعين وأسكنها الباقر. وقوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان القائل في الحاليتين ما قال وزجر له، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق، ويبسط النعم للإنسان لا لكرامته، ويضيقه عليه لا لإهانته، بل للاختبار والامتحان، كما تقدّم. قال الفراء: كلا في هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله على الغنى والفقر. ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أحوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال: ﴿بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ، والتفريع على قراءة الجمهور بالفوقية. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالتحنية على الخبر، وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال، فقرأ الجمهور (تحضون) وتلكون (وتحبون) بالفوقية على الخطاب فيها. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالتحنية فيها، والجمع في هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان؛ لأن المراد به الجنس أي: بل لكم أفعال هي أقبح مما نكر، وهي أنكم تتركون إكرام اليتيم، فتلكون ماله، وتمنونه من فضل أموالكم. قال مقاتل: نزلت في قدامة بن مظعون، وكان يتيماً في حجر أمية بن خلف ﴿وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ قرأ الجمهور: (تحضون) من حضه على كذا أي: أغراه به، ومفعوله محذوف أي: لا تحضون أنفسكم، أو لا يحض بعضكم بعضاً على ذلك، ولا يامر به، ولا يرشد إليه، وقرأ الكوفيون تحاضون بفتح التاء والحاء بعدها ألف، وأصله تتحاضون، فحذف إحدى التاءين أي: لا يحض بعضكم بعضاً. وقرأ الكسائي في رواية عنه والسلمي (تحاضون) بضم التاء من الحض، وهو الحث، وقوله: ﴿وَعَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ متعلق بتحضون، وهو إما اسم مصدر أي: على إطعام المسكين، أو اسم للمطعم، ويكون على حذف مضاف أي: على بذل طعام المسكين، أو على إعطاء طعام المسكين ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثُ﴾ أصله التوارث، فابلت التاء من الواو المضمومة، كما في تجاه، ووجه، والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم، وكذلك أموال النساء، وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان، ويأكلون أموالهم ﴿أَكَلًا لَمًّا﴾ أي: أكلاً شديداً، وقيل: معنى لماً جمعاً، من قولهم: لمت الطعام: إذا أكلته جميعاً. قال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب اليتيم، وكذا قال أبو عبيدة. وأصل اللّم في كلام العرب: الجمع، يقال لمت الشيء أله لماً: جمعته، ومنه قولهم: لَمَ الله شعثه أي: جمع ما تفرّق من أموره، ومنه قول النابغة:

ولست بمستبق أحداً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب
قال الليث: اللّم الجمع الشديد، ومنه حجر ملموم، وكتيبة

كل نفس مطمئنة على العموم، ولا يخافي ذلك نزولها في نفس معينة، فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا بُعْثَ الْوُفُودُ﴾ قال: سفا، وفي قوله: ﴿حُجِبَ جَمْعًا﴾ قال: شديداً، وأخرج ابن جرير عنه ﴿إِذَا بُعْثَ الْوُفُودُ﴾ قال: شديداً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿إِذَا بُعْثَ الْوُفُودُ﴾ قال: تحريكها. وأخرج مسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِهِمْ يَوْمَئِذٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ الْمُنْذِرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَأُوتِيَ لَهُ الْفُكْرَى» يقول: وكيف له؟ وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُكَ اللَّهُ﴾ الآية قال: لا يعذب بعذاب الله أحد، ولا يوثق بوثق الله أحد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة عنه أيضاً في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ قال: المؤمنة ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يقول: إلى جسدك. قال: «نزلت هذه الآية، وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذا، فقال: أما إنه سيقال لك هذا». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير نحوه مرسل. وأخرج الحكيم الترمذي في نوارد الأصول نحوه عن أبي بكر الصديق، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ قال: هو النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: «النفوس الْمُطْمَئِنَّةُ» المصنقة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: تردُّ الأرواح يوم القيامة في الأجساد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً﴾ قال: بما أعطيت من الثواب ﴿مَرْضِيَّةً﴾ عنها بعملها ﴿فَانْخَلِي فِي عِبَادِي﴾ المؤمنين. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عن سعيد بن جبير قال: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم ير على خلقته، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا ندري من تلاها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ ﴿فَانْخَلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿وَانْخَلِي جَنَّتِي﴾. وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن عكرمة مثله.

تفسير سورة البلد

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿يَا أَقْسَمُ بِهِذَا الْمَلَأَ﴾ [أي: سورة البلد] بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

قيل: ماذا يقول الإنسان، ويجوز أن تكون بدل اشتغال من قوله: يتذكر، والمعنى: يتمنى أنه قنم الخير، والعمل الصالح، واللام في حياتي بمعنى لأجل حياتي، والمراد حياة الآخرة، فإنها الحياة بالحقيقة؛ لأنها دائمة غير منقطعة. وقيل: إن اللام بمعنى في، والمراد حياة الدنيا: أي: يا ليتني قدمت الأعمال الصالحة في وقت حياتي في الدنيا انتفعت بها هذا اليوم، والأول أولى. قال الحسن: علم والله أنه صانف حياة طويلة لا موت فيها ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُكَ اللَّهُ﴾ أي: يوم يكون زمان ما نكر من الأحوال لا يعذب كعذاب الله أحد ﴿وَلَا يُوَثِّقُكَ﴾ كـ ﴿وَوَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أو لا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواء إذ الأمر كله له، والضميران على التقديرين في عذابه ووثاقه لله عز وجل، وهذا على قراءة الجمهور يعذب، ويوثق مبنين للفاعل. وقرأ الكسائي على البناء للمفعول فيهما، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان أي: لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، والمراد بالإنسان الكافر أي: لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر، وقيل: إبليس، وقيل: المراد به أبي بن خلف. قال الفراء: المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد لتناهيه في الكفر والعناد. وقيل المعنى: أنه لا يعذب مكانه أحد، ولا يوثق مكانه أحد، فلا تؤخذ منه فدية، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164] والعذاب بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى التوثيق، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم قراءة الكسائي، قال: وتكون الهاء في الموضعين ضمير للكافر؛ لأنه معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب الله. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة: أي لا يعذب أحد أحداً مثل تعذيب هذا الكافر. ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء نكر بعض أحوال السعداء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ المطمئنة هي الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله، الواصلة إلى تلج اليقين بحيث لا يخالطها شك، ولا يعتريها ريب. قال الحسن: هي المؤمنة الموقنة. وقال مجاهد: الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وإن ما أصابها لم يكن ليخطئها. وقال مقاتل هي الأمانة المطمئنة. وقال ابن كيسان: المطمئنة بنكر الله، وقيل: المخلصة. قال ابن زيد: المطمئنة؛ لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: أرجعي إلى الله ﴿رَاضِيَةً﴾ بالثواب الذي أعطاك ﴿مَرْضِيَّةً﴾ عنده، وقيل: أرجعي إلى مواعده، وقيل: إلى أمره. وقال عكرمة، وعطاء: معنى ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى جسدك الذي كنت فيه، واختاره ابن جرير، ويدل على هذا قراءة ابن عباس: ﴿فَانْخَلِي فِي عِبَادِي﴾ بالإفراد، والأول أولى ﴿فَانْخَلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في زمرة عبادي الصالحين، وكوني من جملتهم، وانتظمي في سلوكهم ﴿وَانْخَلِي جَنَّتِي﴾ معهم قيل: إنه يقال لها أرجعي إلى ربك عند خروجها من الدنيا، ويقال لها: انخلي في عبادي، وانخلي جنتي يوم القيامة، والمراد بالآية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ❶ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ❷ وَالْوَالِدَيْنِ وَآلِهِ ❸
لَقَدْ عَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ❹ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ❺ يَقُولُ
أَهْلَكَتْ مَا لَمْ يَلِدْ ❻ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرِهِ أَحَدٌ ❼ أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ❽
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ❾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ❿ فَكَمْ أَقْتَمَ الْمَقْهَةَ ⓫ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا الْمَقْهَةُ ⓬ فَكَمْ رَقَبَةً ⓭ أَوْ يَلْمَنَهُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْمَرَةٍ ⓮
يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⓯ أَوْ يَسْكِنُهُ دَا مَرْيَئٍ ⓰ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَوَاصُوا بِوَصْفِهِ ⓱ وَوَوَّاصُوا بِالْعُرْمَةِ ⓲ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْآلَيْنَةِ ⓳ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يَعَانِيَانَهُمَا ⓴ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⓵ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ⓶

قوله: ﴿لَا أقسم﴾ لا زائدة، والمعنى أقسم ﴿بهذا البلد﴾ وقد تقدم الكلام على هذا في تفسير - ﴿لَا أقسم بيوم للقيامة﴾ - [القيامة: 1] ومن زيادة «لا» في الكلام في غير القسم قول الشاعر:

تذكرت ليلي فاعترتني صباية وكاد صميم القلب لا يتصدع

أي: يتصدع، ومن ذلك قوله: ﴿ما منعك أن لا تسجد﴾ [الأعراف: 12] أي: أن تسجد. قال الواحدي: أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام وهو مكة. قرأ الجمهور (لا أقسم) وقرأ الحسن، والأعمش: (لأقسم) من غير ألف، وقيل: هو نفي للقسم، والمعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه. وقال مجاهد: إن ﴿لا﴾ رد على من أنكر البعث، ثم ابتدأ، فقال أقسم، والمعنى: ليس الأمر كما تحسبون، والأول أولى. والمعنى: أقسم بالبلد الحرام الذي أنت حل فيه. وقال الواحدي: إن المراد بالبلد المدينة، وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضاً مدفوع لكون السورة مكية لا مدنية، وجملة قوله: ﴿وأنث حل بهذا البلد﴾ معترضة، والمعنى: أقسم بهذا البلد ﴿ووالد وما ولد﴾ * لقد خلقنا الإنسان في كبدٍ واعترض بينهما بهذه الجملة، والمعنى: ومن المكابد أن مثلك علي عظيم حرمة يستحل بهذا البلد، كما يستحل الصيد في غير الحرم. وقال الواحدي: الحل والحلال والمحل واحد، وهو ضد المحرم، أحل الله لنبيه ﷺ مكة يوم الفتح حتى قاتل، وقد قال ﷺ: «لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار» قال: والمعنى أن الله لما نكر القسم بمكة دل ذلك على عظم قدرها مع كونها حراماً، فوعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده، فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً. انتهى. فالمعنى: وأنت حل بهذا البلد في المستقبل، كما في قوله: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر: 30] قال مجاهد: المعنى ما صنعت فيه من شيء فانت حل. قال قتادة أنت حل به لست بأنم يعني: أنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصي. وقيل المعنى: لا أقسم

بهذا البلد وأنت حل به، ومقيم فيه، وهو محلك، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى: لا أقسم به وأنت حل به، فانت حلٌّ بالإقسام بك، وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك؛ لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم، ولكن هذا إذا تقرّر في لغة العرب أن لفظ حل يجيء بمعنى حال، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال ﴿ووالد وما ولد﴾ عطف على البلد. قال قتادة: ومجاهد، والضحاك، والحسن، وأبو صالح، ﴿ووالد﴾ أي: أم ﴿وما ولد﴾ أي: وما تناسل من ولده أقسم بهم؛ لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والعقل والتبوير، وفيهم الأنبياء والعلماء والصالحون. وقال أبو عمران الجوني: الوالد إبراهيم، وما ولد: نريته. قال الفراء: إن: «ما» عبارة عن الناس كقوله: ﴿ما طاب لكم﴾ [النساء: 3] وقيل: الوالد إبراهيم، والولد إسماعيل، ومحمد ﷺ. وقال عكرمة، وسعيد بن جبيرة: ﴿ووالد﴾ يعني: الذي يولد له ﴿وما ولد﴾ يعني: العاقر الذي لا يولد له، وكانهما جعلاً ما نافية، وهو بعيد، ولا يصح ذلك إلا بإضمار الموصول أي: ووالد والذي ما ولد، ولا يجوز إضمار الموصول عند البصريين، وقال عطية العوفي: هو عام في كل ولد ومولود من جميع الحيوانات، واختار هذا ابن جرير ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ هذا جواب القسم، والإنسان هو هذا النوع الإنساني، والكبد: الشدة والمشقة، يقال كابدت الأمر: قاسيت شدة، والإنسان لا يزال في مكابدة الدنيا، ومقاساة شدائدّها حتى يموت، وأصل الكبد الشدة، ومنه تكبد اللبن: إذا غلظ واشتد، ويقال كبد الرجل: إذا وجعت كبده، ثم استعمل في كل شدة ومشقة، ومنه قول أبي الأصبغ:

لي ابن عم لو أن الناس في كبد لظل محتجراً بالنبل يرميني
قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وقال أيضاً: يكابد الشكر على السراء، ويكابد الصبر على الضراء، لا يخلو عن أحدهما. قال الكلبي: نزلت هذه الآية في رجل من بني جمح يقال له أبو الأشدين، وكان يأخذ الأديم العكاظي ويجعله تحت رجله ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجلبه عشرة حتى يتمزق، ولا تزال قدماء، وكان من أعداء النبي ﷺ، وفيه نزل ﴿ليحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ يعني: لقوته، ويكون معنى ﴿في كبد﴾ على هذا: في شدة خلق، وقيل معنى: ﴿في كبد﴾ أنه جريء القلب غليظ الكبد ﴿ليحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ أي: يظن ابن أم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد، أو يظن أبو الأشدين أن لن يقدر عليه أحد، وأن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن مقتر. ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال: ﴿يقول أهلكت ما لآلئكم﴾ أي: كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض. قال الليث: مال لبد لا يخاف فناؤه من

وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم

أي: فلم ييدها، ولم يتقدم، وقيل: هو جار مجرى الدعاء كقولهم: لا نجاه. قال أبو زيد، وجماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا الاستفهام الذي يعنى الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة، أو هلا اقتحم العقبة. ثم بين سبحانه العقبة فقال: ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ أي: أي شيء أعلمك ما اقتحامها ﴿فك رقبة﴾ أي: هي إعتاق رقبة، وتخليصها من أسار الرق، وكل شيء أطلقته فقد فككته، ومنه: فك الرهن، وفك الكتاب، فقد بين سبحانه أن العقبة هي هذه القرب المنكورة التي تكون بها النجاة من النار. قال الحسن، وقاتدة: هي عقبة شديدة في النار دون الجسر، فاقتموها بطاعة الله. وقال مجاهد، والضحاك، والكلبي: هي الصراط الذي يضرب على جهنم كحد السيف. وقال كعب: هي نار دون الجسر. قيل: وفي الكلام حذف أي: وما أدراك ما اقتحام العقبة؟ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، والكسائي (فك رقبة) على أنه فعل ماض، ونصب رقبة على المفعولية، وهكذا قرأ، أو أطلع: على أنه فعل ماض. وقرأ الباقر (فك، أو إطعام) على أنهما مصدران، وجر رقبة بإضافة المصدر إليها، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلاً من اقتحم، أو بيلاناً له كانه قيل: فلا فك ولا أطلع، والفك في الأصل: حل القيد، سمي العتق فكاً؛ لأن الرق كالقيد، وسمي المرفوق رقبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ المسغبة المجاعة، والسغب الجوع، والساغب الجائع. قال الراغب: يقال منه سغب الرجل سغباً، وسغبوا فهو ساغب، وسغبان، والمسغبة مفعلة منه، وأنشد أبو عبيدة:

فلو كنت حراً يابن قيس بن عاصم لما بت شعباناً وجارك ساغباً

قال النخعي: ﴿في يوم ذي مسغبة﴾ أي: عزيز فيه الطعام ﴿يتيماً ذا مقربة﴾ أي: قرابة، يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقربتي، واليتيم في الأصل: الضعيف يقال: يتم الرجل: إذا ضعف، واليتيم عند أهل اللغة: من لا أب له، وقيل: هو من لا أب له ولا أم، ومنه قول قيس بن الملوّح:

إلى الله أشكو فقد ليلي كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم

﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أي: لا شيء له كانه لصق بالتراب لفقره، وليس له ماوى إلا التراب، يقال: ترب الرجل: يترب ترباً ومتربة: إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضراً. قال مجاهد: هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره. وقال قاتدة: هو ذو العيال. وقال عكرمة: هو المديون. وقال أبو سنان: هو ذو الزمانة. وقال ابن جبير: هو الذي ليس له أحد. وقال عكرمة: هو البعيد التربة الغريب عن وطنه، والأول أولى، ومنه قول الهذلي:

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا سفكنا دماء البنين في تربة الحال

كثرت. قال الكلبي، ومقاتل: يقول أهلك في عداوة محمد مالا كثيراً. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل: أننب، فاستفتى النبي ﷺ، فأمره أن يكفر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ نخلت في بين محمد. قرأ الجمهور (لبداً) بضم اللام، وفتح الباء مخففاً. وقرأ مجاهد، وحמיד بضم اللام والباء مخففاً. وقرأ أبو جعفر بضم اللام، وفتح الباء مشدداً. قال أبو عبيدة: لبد فعل من التلبيد، وهو المال الكثير بعضه على بعض. قال الزجاج: فعل للكثرة، يقال رجل حطم: إذا كان كثير الحطم. قال الفراء: وأحدته لبد، والجمع لبد. وقد تقدم بيان هذا في سورة الجن ﴿إحسب أن لم يره أحد﴾ أي: أيظن أنه لم يعاينه أحد. قال قتادة: أيظن أن الله سبحانه لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه، وأين أنفق؟ وقال الكلبي: كان كاذباً لم ينفق ما قال، فقال الله: أيظن أن الله لم ير ذلك منه، فعل أو لم يفعل، أنفق أو لم ينفق. ثم نكر سبحانه ما أعم به عليهم ليعتبروا فقال: ﴿للم نجعل له عينين﴾ يبصر بهما ﴿وللسان﴾ ينطق به ﴿وشفتين﴾ يستر بهما ثغره. قال الزجاج: المعنى ألم نفعل به ما يدل على أن الله قادر على أن يبعثه، والشفة محنوفة اللام، وأصلها شفة بلبل تصغيرها على شفية ﴿وهديناه للنجدين﴾ النجد: الطريق في ارتفاع. قال المفسرون: بينا له طريق الخير وطريق الشر. قال الزجاج: المعنى ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر، مبينتين كتبين الطريقين العاليتين. وقال عكرمة، وسعيد بن المسيب، والضحاك: النجدان: الثنيان؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد، ورزقه، والأول أولى. وأصل النجد المكان المرتفع، وجمعه نجود، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة، فالنجدان الطريقان العاليان، ومنه قول امرئ القيس:

فريقان منهم قاطع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب

﴿فلا اقتحم العقبة﴾ الاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير روية، يقال منه: قحم في الأمر قحوماً أي: رمى بنفسه فيه من غير روية، وتقحم النفس في الشيء: إبخالها فيه من غير روية، والقحمة بالضم المهلكة. والعقبة في الأصل الطريق التي في الجبل، سميت بذلك لصعوبة سلوكها، وهو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة. قال الفراء، والزجاج: نكر سبحانه هنا: «لا» مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدها في كلام آخر كقوله: ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ [القيامة: 31] وإنما أقردها هنا لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ قائماً مقام التكرير كانه قال: فلا اقتحم العقبة، ولا آمن. قال المبرد، وأبو علي الفارسي: إن «لا» هنا بمعنى لم أي: فلم يقتحم العقبة، وروي نحو ذلك عن مجاهد، فلهاذا لم يحتج إلى التكرير، ومنه قول زهير:

الرجال والنساء. وأخرج ابن جرير، والطبراني عنه أيضاً
 ووالد قال: أمم **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾** قال: في
 اعتدال وانتصاب. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: **﴿لقد خلقنا
 الإنسان في كبد﴾** قال: في نصب. وأخرج ابن جرير عنه
 أيضاً: **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾** قال: في شدة.
 وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،
 وابن أبي حاتم عنه أيضاً: **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾**
 قال: في شدة خلق ولادته، ونبت أسنانه، ومعيشته، وختانه.
 وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه
 أيضاً: **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾** قال: خلق الله كل
 شيء يمشي على أربعة إلا الإنسان فإنه خلق منتصباً.
 وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عنه أيضاً:
﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ قال: منتصباً في بطن أمه
 أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأم أو اضطجعت رفع رأسه
 لولا ذلك لغرق في الدم. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في
 قوله: **﴿مالا لبدا﴾** قال: كثيراً. وأخرج عبد الرزاق،
 والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
 أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود
 في قوله: **﴿وهيئناه النجيين﴾** قال: سبيل الخير والشر.
 وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن
 عباس: **﴿وهيئناه النجيين﴾** قال: الهدى والضلالة. وأخرج
 عبد بن حميد، وابن جرير عنه قال: سبيل الخير والشر.
 وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سنان بن سعد عن أنس
 قال: قال النبي ﷺ: «هما نجدان، فما جعل نجد الشر أحب
 إليكم من نجد الخير» تفرد به سنان بن سعد، ويقال
 سعد بن سنان. وقد وثقه يحيى بن معين. وقال الإمام أحمد،
 والنسائي، والجوزجاني: منكر الحديث. وقال أحمد: تركت
 حديثه لاضطرابه، قد روى خمسة عشر حديثاً منكراً كلها
 ما أعرف منها حديثاً واحداً، يشبه حديثه حديث الحسن
 البصري، لا يشبه حديث أنس. وأخرجه عبد الرزاق،
 وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه من طرق عن
 الحسن قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول، فذكره. وهذا
 مرسل، وكذا رواه قتادة مرسلأ. أخرجه عنه ابن جرير،
 ويشهد له ما أخرج الطبراني عن أبي أمامة أن النبي ﷺ
 قال: «يا أيها الناس إنهما نجدان: نجد خير، ونجد شر، فما
 جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير» ويشهد له أيضاً
 ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ
 قال: «إنما هما نجدان، نجد الخير، ونجد الشر، فلا يكن نجد
 الشر أحب إليكم من نجد الخير». وأخرج عبد الرزاق،
 وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن
 عباس في قوله: **﴿وهيئناه النجيين﴾** قال: الثيين. أخرج
 ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عمر في
 قوله: **﴿فلا اقتحم العقبة﴾** قال: جبل زلال في جهنم.
 وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العقبة النار. وأخرج
 عبد بن حميد عنه قال: العقبة بين الجنة والنار. وأخرج

قرا الجمهور (ذي مسغبة) على أنه صفة ليوم، ويتيمأ
 هو مفعول إطعام. وقرا الحسن: (ذا مسغبة) بالنصب على
 أنه مفعول إطعام أي: يطعمون ذا مسغبة، ويتيمأ بدل منه
﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ عطف على المنفي بلا، وجاء
 بثم للدلالة على تراخي رتبة الإيمان ورفعة محله. وفيه
 دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان، وقيل
 المعنى: ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم. وقيل
 المعنى: أنه أتى بهذه القرب لوجه الله **﴿وتواصوا
 بالصبر﴾** معطوف على آمنوا أي: أوصى بعضهم بعضاً
 بالصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من
 البلياء، والمصائب **﴿وتواصوا بالمرحمة﴾** أي: بالرحمة
 على عباد الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك رحمو اليتيم والمسكين،
 واستكثروا من فعل الخير بالصنفة ونحوها، والإشارة
 بقوله: **﴿أولئك﴾** إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصفات
 المذكورة هم **﴿أصحاب الميمنة﴾** أي: أصحاب جهة
 اليمين، أو أصحاب اليمن، أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم،
 وقيل: غير ذلك مما قد قدمنا ذكره في سورة الواقعة
﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ أي: بالقرآن، أو بما هو أعم منه،
 فتدخل الآيات التنزيلية، والآيات التكوينية التي تدل على
 الصانع سبحانه **﴿هم أصحاب المشأمة﴾** أي: أصحاب
 الشمال، أو أصحاب الشؤم، أو الذين يعطون كتبهم
 بشمالهم، أو غير ذلك مما تقدم **﴿عليهم نار مؤصدة﴾**
 أي: مطبقة مغلقة، يقال: أصدت الباب، وأوصدته إذا أغلقته،
 وأطبقتها، ومنه قول الشاعر:

تحن إلى لجبال مكة ناقتي ومن نونها أبواب صنعاء مؤصدة
 قرا الجمهور (موصدة) بالواو. وقرا أبو عمرو، وحمزة،
 وحفص بالهمزة مكان الواو، وهما: لغتان، والمعنى واحد.
 وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في
 قوله: **﴿لا أقسم بهذا البلد﴾** قال: مكة **﴿وانت حل بهذا
 البلد﴾** يعني: بذلك النبي ﷺ، أحل الله له يوم نخل مكة أن
 يقتل من شاء، ويستحيي من شاء، فقتل له يومئذ ابن خطل
 صبراً، وهو أخذ بأستار الكعبة، فلم يحل لأحد من الناس
 بعد النبي ﷺ أن يفعل فيها حراماً حرّمه الله، فأحل الله له
 ما صنع بأهل مكة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن
 مردويه عنه في قوله: **﴿لا أقسم بهذا البلد﴾** قال: مكة
﴿وانت حل بهذا البلد﴾ قال: أنت يا محمد يحل لك أن
 تقتل فيه، وأما غيرك فلا. وأخرج ابن مردويه عن أبي برزة
 الأسلمي قال: نزلت هذه الآية: **﴿لا أقسم بهذا البلد * وانت
 حل بهذا البلد﴾** في: خرجت، فوجدت عبد الله بن خطل
 وهو متعلق بأستار الكعبة، فضربت عنقه بين الركن والمقام.
 وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس: **﴿لا أقسم بهذا
 البلد﴾** قال: أحل له أن يصنع فيه ما شاء **﴿ووالد وما
 ولد﴾** قال: يعني: بالوالد أمم، وما ولد ولده. وأخرج الفريابي،
 وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه
 في الآية قال: الوالد الذي يلد، وما ولد العاقر لا يلد من

وهي مكة بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت: ﴿والشمس وضحاها﴾ [أي: سورة الشمس] بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي عن بريدة: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة العشاء: ﴿والشمس وضحاها﴾، وأشباهها من السور». وقد تقدّم حديث جابر في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ﴿يسح اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى]»، ﴿والشمس وضحاها﴾، «والليل إذا يغشى» [أي: سورة الليل] وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمره أن يقرأ في صلاة الصبح بـ﴿الليل إذا يغشى﴾، «والشمس وضحاها». وأخرج البيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي ركعتي الضحى يسورتيهما بـ﴿الشمس وضحاها﴾، «والضحى»».

وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام، فإن التبيين والتعليم، والتعريف دون الإلهام، والإلهام أن يوقع في قلبه، ويجعل فيه، وإذا أوقع الله في قلب عبده شيئاً ألزمه ذلك الشيء. قال: وهذا صريح في أن الله خلق في المؤمن تقواه، وفي الكافر فجوره **﴿وقد افلح من زكاه﴾** أي: قد فاز من زكى نفسه وأنماها، وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب، وظفر بكل محبوب، وقد قُمنّا أن هذا جواب القسم على الراجح، وأصل الزكاة: النموُّ والزيادة، ومنه زكا الزرع: إذا كثر **﴿وقد خاب من نساها﴾** أي: خسر من أضلها وأغواها. قال أهل اللغة: نساها أصله نسيها، من النسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فمعنى نساها في الآية: أخفاها وأخملها، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح، وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها، فيقصدها الضيوف، وكانت لثام العرب تنزل الهضاب، والأمكنة المنخفضة؛ ليخفى مكانها عن الوافدين. وقيل: معنى نساها: أغواها، ومنه قول الشاعر:

وانت الذي نسيت عمر فاصبحت حلالته منه أرامل ضيعا
وقال ابن الأعرابي: **﴿وقد خاب من نساها﴾** أي: نس نفسه في جملة الصالحين، وليس منهم **﴿كذبت ثمود بطغواها﴾** الطغوى: اسم من الطغيان كالدعوى من الدعاء. قال الواحدي: قال المفسرون: كذبت ثمود بطغيانها أي: الطغيان حملتهم على التكذيب، والطغيان مجاوزة الحد في المعاصي، والباء للسببية. وقيل: كذبت ثمود بطغواها أي: بعذابها الذي وعدت به، وسمي العذاب طغوى لأنه طغى عليهم، فتكون الباء على هذا للتعذية. وقال محمد بن كعب: بطغواها أي: بأجمعها. قرأ الجمهور (بطغواها) بفتح الطاء وقرأ الحسن، والجحدري، ومحمد بن كعب، وحماد بن سلمة بضم الطاء؛ فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان، وإنما قلبت الباء والواو للفرق بين الاسم والصفة؛ لأنهم يقبلون الباء في الأسماء كثيراً نحو تقوى، وسروى، وعلى القراءة الثانية هو مصدر كالرجعى والحسنى، ونحوهما، وقيل: هما لغتان **﴿إذ أنبعث اشقاها﴾** العامل في الظرف كذبت، أو بطغواها: أي: حين قام أشقى ثمود، وهو قدار بن سالف، فعقر الناقة، ومعنى أنبعث: انتدب لذلك وقام به، يقال بعثته على الأمر، فانبعث له، وقد تقدّم بيان هذا في الأعراف: **﴿فقال لهم رسول الله﴾** يعني: صالحاً **﴿ناقة الله﴾** قال الزجاج: ناقة الله منصوبة على معنى: نروا ناقة الله. قال الفراء: حذرهم إياها، وكل تحذير فهو نصب **﴿وسقياها﴾** معطوف على ناقة، وهو شربها من الماء. قال الكلبي، ومقاتل: قال لهم صالح: نروا ناقة الله، فلا تعقروها، وذروا سقياها، وهو شربها من النهر، فلا تعرّضوا له يوم شربها، فكذبوا بتحذيره إياهم: **﴿فعقروها﴾** أي: عقرها الأشقى، وإنما أسند العقر إلى الجميع؛ لأنهم رضوا بما فعله. قال قتادة: إنه لم يعقروها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، ونكرهم وأثامهم. قال الفراء: عقرها اثنان، والعرب تقول: هذان أفضل

الهلال. قال ابن زيد: إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر تلاها القمر بالطلوع، وفي آخرها يتلوها بالغروب، وقال الفراء تلاها أخذ منها يعني: أن القمر يأخذ من ضوء الشمس **﴿والنهار إذا جلاها﴾** أي: جلى الشمس، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الانجلاء، فكانه جلاها مع أنها الذي تبسطه. وقيل: الضمير عائذ إلى الظلمة، أي: جلى الظلمة، وإن لم يجر للظلمة نكر؛ لأن المعنى معروف. قال الفراء: كما تقول أصبحت باردة أي: أصبحت غدائنا باردة، والأول أولى. ومنه قول قيس بن الحطيم:

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب
وقيل المعنى: جلى ما في الأرض من الحيوانات، وغيرها بعد أن كانت مستترة في الليل، وقيل: جلى الدنيا، وقيل: جلى الأرض **﴿والليل إذا يغشاها﴾** أي: يغشى الشمس، فيذهب بضوئها، فتغيب، وتظلم الآفاق، وقيل: يغشى الآفاق، وقيل: الأرض، وإن لم يجر لهما نكر؛ لأن ذلك معروف، والأول أولى **﴿والسماء وما بناها﴾** يجوز أن تكون ما مصدرية أي: والسماء وبنائها، ويجوز أن تكون موصولة: أي، والذي بناها، وإيثار «ما» على من لإرادة الوصفية لقصد التفضيم كأنه قال: والقادر العظيم الشأن الذي بناها. ورجح الأول الفراء، والزجاج، ولا وجه لقول من قال: إن جعلها مصدرية مغل بالنظم. ورجح الثاني ابن جرير **﴿والأرض وما طحاها﴾** الكلام في «ما» هذه كالكلام في التي قبلها، ومعنى طحاها بسطها، كذا قال عامة المفسرين، كما في قوله: **﴿وبحاها﴾** قالوا: طحاها وبحاها واحد أي: بسطها من كل جانب، والطحو البسط، وقيل: معنى طحاها قسمها، وقيل: خلقها، ومنه قول الشاعر:

وما يدري جنينة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع
والأول أولى. والطحو أيضاً: الذهاب. قال أبو عمرو بن العلاء: طحا الرجل: إذا ذهب في الأرض، يقال ما أبري أين طحا؟ ويقال طحا به قلبه: إذا ذهب به، ومنه قول الشاعر:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
﴿ونفس وما سواها﴾ الكلام في «ما» هذه، كما تقدّم، ومعنى سواها خلقها وأنشأها، وسوى أعضائها. قال عطاء: يريد جميع ما خلق من الجن والإنس، والتذكير للتفخيم، وقيل: المراد نفس آدم **﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾** أي: عرّفها وألهمها حالهما، وما فيهما من الحسن والقبح. قال مجاهد: عرّفها طريق الفجور، والتقوى، والطاعة، والمعصية. قال الفراء: فألهمها عرّفها طريق الخير، وطريق الشر، كما قال: **﴿وهديناه النجدين﴾** [البلد: 10]. قال محمد بن كعب: إذا أراد الله بعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به، وإذا أراد به الشر ألهمه الشر فعمل به. قال ابن زيد: جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور، واختار هذا الزجاج، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان. قال الواحدي:

والطبراني، وابن مريويه من حديث ابن عباس، وزاد «كان إذا تلا هذه الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فآلهما فجورها وتقواها» قال: فذكره، وزاد أيضاً: «وهو في الصلاة». وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضاً. وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ يقول: قد أفلح من زكى الله نفسه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ بَسَّاهَا﴾ يقول: قد خاب من بسَّ الله نفسه فاضله ﴿وَلَا يَخَافُ عِقَابَهَا﴾ قال: لا يخاف من أحد تبعه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ بَسَّاهَا﴾ يعني: مكر بها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والنيلمي من طريق جويبر عن الضحك عن ابن عباس: «سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ الآية أفلحت نفس زكاه الله، وخابت نفس خبيها الله من كل خير» وجويبر ضعيف. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: ﴿بَطَّغُواهَا﴾ قال: اسم العذاب الذي جاءها الطغوى، فقال: كذبت ثمود بعداها. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عبد الله بن زعمة قال: «خطب رسول الله ﷺ فنكر الناقة، ونكر الذي عقرها، فقال: ﴿إِذَا لَبِثْتُ لَشِقَاهَا﴾ قال: انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زعمة». وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والبخاري، والطبراني، وابن مريويه، والحاكم، وأبو نعيم في الدلائل عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «أَلَا أَحَدُكَ بِأَشَقَى النَّاسِ؟» قال: بلى. قال رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذا «يعني»: قرنه «حتى تبطل منه هذه» يعني: لحيته.

تفسير سورة الليل

وهي مكية عند الجمهور، وقيل: مدنية. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [أي: سورة الليل] بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البيهقي في سننه عن جابر بن سمرة قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الظهر والعصر: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ونحوها». وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس «أن رسول الله ﷺ صلى بهم الهجرة، فرفع صوته، فقرأ: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَاهَا﴾ [أي: سورة الشمس] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ فقال له أبي بن كعب: يا رسول الله أمرت في هذه الصلاة بشيء؟ قال: لا، ولكن أريت أن أوقت لكم، وقد تقدّم حديث: «فهلّا صليت بـ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى]، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى؟». وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: إني لأقول إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾.

الناس، وهذان خير الناس، فلهاذا لم يقل أشقيها ﴿قَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ أي: أهلكهم، وأطبق عليهم العذاب، وحقيقة الدممة: تضعيف العذاب، وتريده، يقال دممت على الشيء أي: أطبقت عليه، ودمدم عليه القبر أي: أطبقه، وناقمة دمومة: إذا لبسها الشحم، والدممة: إهلاك باستئصال، كذا قال المؤرج. قال في الصحاح: دممت الشيء: إذا ألزقته بالأرض، وطحطحته، ودمدم الله عليهم أي: أهلكهم. وقال ابن الأعرابي: دمدم إذا عذب عذاباً تاماً. والضمير في فسواها يعود إلى الدممة، أي: فسوى الدممة عليهم، ومعهم بها، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم، وقيل: يعود إلى الأرض أي: فسوى الأرض عليهم، فجعلهم تحت التراب، وقيل: يعود إلى الأمة أي: ثمود. قال الفراء: سوى الأمة أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوى بينهم. قرأ الجمهور (قدمدم) بميم بين الدالين، وقرأ ابن الزبير (فدهدم) بهاء بين الدالين. قال القرطبي: وهما لغتان، كما يقال: امتنع لونه، واهتمق لونه ﴿فَلَا يَخَافُ عِقَابَهَا﴾ أي: فعل الله نلك بهم غير خائف من عاقبة، ولا تبعه، والضمير في عقيبها يرجع إلى الفعلة، أو إلى الدممة المملول عليها بدمدم. وقال السدي، والضحاك، والكلبي: إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى الله سبحانه أي: لم يخف الذي عقرها عقبى ما صنع. وقيل: لا يخاف رسول الله ﷺ عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، والأول أولى. قرأ الجمهور (ولا يخاف) بالواو، وقرأ نافع، وابن عامر بالفاء.

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس ﴿وَضَحَاهَا﴾ قال: ضوئها ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا﴾ قال: تبعها ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَاهَا﴾ قال: أضاءها ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ قال: الله بنى السماء ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا﴾ قال: نحاهما ﴿فَالْهَمَّا فَجَّورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ قال: علمها الطاعة، والمعصية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا﴾ يقول: قسمها ﴿فَالْهَمَّا فَجَّورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ قال: من الخير والشر. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً ﴿فَالْهَمَّا﴾ قال: ألزمها فجورها وتقواها. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عن عمران بن حصين: «أن رجلاً قال: يا رسول الله أرايت ما يعمل الناس اليوم، ويكذبون فيه، شيء قد قضى عليهم، ومضى في قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما آتاهم نبيهم، واتخذت عليهم به الحجة، قال: بل شيء قد قضى عليهم؟ قال: فلم يعملون إذن؟ قال: من كان الله خلقه لوحدة من المنزلتين يهينه لعملها، وتصديق نك في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فآلهما فجورها وتقواها». وسيتاتي في السورة التي بعد هذه نحو هذا الحديث. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاه، أنت وليها ومولاها». وأخرجه ابن المنذر،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنزَلَ إِذَا بَغَىٰ ۝ وَأَنزَلَ إِذَا جَلَىٰ ۝ وَمَا عَلَّمَ الذِّكْرَ وَالْأَنثَىٰ ۝ إِنَّ سَمِيرَكَ لَنَقَىٰ ۝ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَكَانَ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنِّيَرُ لِلْمَنَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ يَحِلُّ وَاسْتَفْتَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنِّيَرُ لِلْمَنَّىٰ ۝ وَمَا يَنْقُ عَنْ مَالِهِ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝ فَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَلْفَلُ ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا إِتْيَاءَهُ وَبُورَ ۝ وَالْأَكْفَىٰ ۝ وَلَوْفَ رِئَىٰ ۝

قوله: ﴿والليل إذا يغشى﴾ أي: يعطي بظلمته ما كان مضيقاً. قال الزجاج: يغشى الليل الأفق، وجميع ما بين السماء والأرض، فيذهب ضوء النهار، وقيل: يغشى النهار، وقيل: يغشى الأرض، والأول أولى ﴿والنهار إذا تجلى﴾ أي: ظهر وانكشف، ووضح لزوال الظلمة التي كانت في الليل، وذلك بطلوع الشمس ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ ما هنا هي الموصولة أي: والذي خلق الذكر والأنثى، وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية، ولقصد التخصم أي: والقادر العظيم الذي خلق صنفَي الذكر والأنثى. قال الحسن، والكليبي، معناه، والذي خلق الذكر والأنثى فيكون قد اقسم بنفسه. قال أبو عبيدة: وما خلق أي: ومن خلق. وقال مقاتل: يعني: وخلق الذكر والأنثى فتكون «ماء» على هذا مصدرية. قال الكليبي، ومقاتل: يعني: آدم وحواء، والظاهر العموم. قرأ الجمهور (وما خلق الذكر والأنثى) وقرأ ابن مسعود (والذكر والأنثى) بدون ما خلق ﴿إن سعيكم لشتى﴾ هذا جواب القسم أي: إن عملكم لمختلف: فمنه عمل للجنة، ومنه عمل للنار. قال جمهور المفسرين: السعي العمل، فساع في فكاه نفسه، وساع في عطبها، وشتى جمع شتيت: كمرضى ومريض، وقيل: للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ أي: بذل ماله في وجوه الخير، واتقى محارم الله التي نهى عنها ﴿ووصنق بالحسنى﴾ أي: بالخلف من الله. قال المفسرون: فأما من أعطى المعسرين. وقال قتادة: أعطى حق الله الذي عليه. وقال الحسن: أعطى الصنق من قلبه، وصنق بالحسنى: أي: بلا إله إلا الله، وبه قال الضحاك، والسلمي. وقال مجاهد: بالحسنى بالجنة. وقال زيد بن أسلم: بالصلاة، والزكاة، والصوم، والأول أولى. قال قتادة: بالحسنى: أي: بموعود الله الذي وعده أن يثيبه. قال الحسن: بالخلف من عطائه، واختار هذا ابن جرير ﴿فسنيسره للعسرى﴾ أي: فسنيته للخصلة الحسنى، وهي: عمل الخير، والمعنى: فسنيسر له الإنفاق في سبيل الخير، والعمل بالطاعة لله. قال الواحدي: قال المفسرون: نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم في الله ﴿وما من بخل واستغنى﴾ أي بخل بماله، فلم يبذله في سبيل الخير، واستغنى أي: زهد في الأجر والثواب، أو استغنى

بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي: بالخلف من الله عز وجل، وقال مجاهد: بالجنة، وروي عنه أيضاً أنه قال: بلا إله إلا الله ﴿فسنيسره للعسرى﴾ أي: فسنيته للخصلة العسرى، ونسبها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصالح، ويضعف عن فعلها، فيؤديه ذلك إلى النار. قال مقاتل: يعسر عليه أن يعطي خيراً. قيل العسرى الشر، وذلك أن الشر يؤدي إلى العذاب، والعسرة في العذاب، والمعنى: سنيته للشر بأن نجريه على يديه. قال الفراء: سنيسر سنيته، والعرب تقول: قد يسرت الغنم إذا ولدت، أو تهايت للولادة. قال الشاعر:

هـما سيدانا يزعمان وإنما يسوداننا إن يسرت غنماهما
﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ أي: لا يغني عنه شيئاً ماله الذي بخل به، أو أي شيء يغني عنه إذا تردى أي: هلك، يقال: ردى الرجل يردى ردى، وتردى يتردى: إذا هلك. وقال قتادة: وأبو صالح، وزيد بن أسلم: إذا تردى: إذا سقط في جهنم، يقال ردى في البئر، وتردى: إذا سقط فيها، ويقال: ما أبرى أين ردى أي: أين ذهب؟ ﴿إن علينا للهدى﴾ هذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها أي: إن علينا البيان. قال الزجاج: علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على الله البيان: بيان حرامه، وطاعته، ومعصيته. قال الفراء: من سلك الهدى، فعلى الله سبيله، لقوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ [النحل: 9] يقول: من أراد الله، فهو على السبيل القاصد. قال الفراء أيضاً: المعنى إن علينا للهدى والإضلال، فحذف الإضلال كقوله: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ [النحل: 81] وقيل المعنى: إن علينا ثواب هداه الذي هديناه ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ أي: لنا كل ما في الآخرة، وكل ما في الدنيا نتصرف به كيف نشاء، فمن أرادهما أو أحدهما، فليطلب ذلك منا، وقيل المعنى: إن لنا ثواب الآخرة، وثواب الدنيا ﴿فأنذرتكم نارا تلظى﴾ أي: حذرتكم وخوفتكم نارا تتوقد وتتوهج، وأصله تلظى، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً. وقرأ على الأصل عبيد بن عمير، ويحيى بن يعمر، وطلحة بن مصرف ﴿لا يصلاها إلا الأشقى﴾ أي: يصلاها صلياً لازماً على جهة الخلود إلا الأشقى وهو الكافر، وإن صليها غيره من العصاة، فليس صليها كصليها، والمراد بقوله يصلاها: يدخلها، أو يجد صلاها، وهو حرها. ثم وصف الأشقى فقال: ﴿الذي كذب وتولى﴾ أي: كذب بالحق الذي جاء به الرسل، وأعرض عن الطاعة والإيمان. قال الفراء ﴿إلا الأشقى﴾ إلا من كان شقياً في علم الله جل ثناؤه. قال أيضاً: لم يكن كذب برده ظاهر، ولكن قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكنياً، كما تقول لقي فلان العدو، فكذب: إذا نكل، ورجع عن اتباعه. قال الزجاج: هذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ ولأهل النار منازل، فمئنا أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار. والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب، فجدير أن يعذب به، وقد قال: ﴿إن الله لا يغفر أن

تعالى؛ ومعنى الآية: أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يؤتي من ماله مجازاتها، وإنما قال تجزى مضارعاً مبنياً للمفعول لأجل الفواصل، والأصل يجزيها إياه، أو يجزيه إياها ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ قرأ الجمهور ﴿إلا ابتغاء﴾ بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجها تحت جنس النعمة أي: لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مفعول له على المعنى أي: لا يؤتي إلا لابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة. قال الفراء: هو منصوب على التأويل أي: ما أعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله، وقرأ يحيى بن وثاب بالرفع على البذل من محل نعمة؛ لأن محلها الرفع إما على الفاعلية، وإما على الابتداء، ومن مزيدة، والرفع لغة تميم؛ لأنهم يجوزون البذل في المنقطع، ويجرونه مجرى المتصل. قال مكي: وأجاز الفراء الرفع في «ابتغاء» على البذل من موضع نعمة، وهو بعيد. قال شهاب الدين: كأنه لم يطلع عليها قراءة، واستبعاده، هو البعيد فإنها لغة فاشية، وقرأ الجمهور أيضاً (ابتغاء) بالمد، وقرأ ابن أبي عبيدة بالقصر والأعلى: نعت للرب ﴿ولسوف يرضى﴾ اللام هي: الموطئة للقسم أي: وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم. قرأ الجمهور (يرضى) مبنياً للفاعل، وقرأ مبنياً للمفعول.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿والليل إذا يغشى﴾ قال: إذا اظلم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر عن ابن مسعود قال: إن أبا بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف، وأبي بن خلف ببردة، وعشر أواق، فاعتقه الله، فانزل الله: ﴿والليل إذا يغشى﴾ إلى قوله: ﴿إن سعيكم لشتى﴾ سعي أبي بكر، وأميه وأبي إلى قوله: ﴿وكذب بالحسنى﴾ قال: لا إله إلا الله إلى قوله: ﴿فسنيسره للعسرى﴾ قال: النار. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿فاما من أعطى﴾ من الفضل ﴿ولاتقى﴾ قال: اتقى ربه ﴿وصنق بالحسنى﴾ قال: صدق بالخلف من الله ﴿فسنيسره للعسرى﴾ قال: للخير من الله ﴿واما من بخل واستغنى﴾ قال: بخل بماله، واستغنى عن ربه ﴿وكذب بالحسنى﴾ قال: بالخلف من الله ﴿فسنيسره للعسرى﴾ قال: للشتر من الله. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿وصنق بالحسنى﴾ قال: أيقن بالخلف. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: ﴿وصنق بالحسنى﴾ يقول: صدق بلا إله إلا الله ﴿واما من بخل واستغنى﴾ يقول: من أغناه الله، فيخل بالزكاة. وأخرج ابن جرير، وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة، وكان يعتق عجايز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني أراك تعتق أناساً ضعفاً، فلو أنك تعتق رجالاً جلدأ يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك. قال: أي أبت إنما أريد ما عند الله، قال:

يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: 48] فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب لم يكن في قوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فائدة. وقال في الكشف: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين. فقل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصلي كان النار لم تخلق إلا له، وقيل: الاتقى، وجعل مختصاً بالنجاة كان الجنة لم تخلق إلا له، وقيل: المراد بالأشقى أبو جهل، أو أمية بن خلف، وبالاتقى: أبو بكر الصديق، ومعنى: ﴿وسيجنبها الاتقى﴾ سيباعد عنها المتقي للكفر اتقاء بالغا. قال الواحدي: الاتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين انتهى، والأولى حمل الأشقى والاتقى على كل متصف بالصفتين المذكورتين، ويكون المعنى أنه لا يصلها صلياً تاماً إلا الكامل في الشقاء، وهو الكافر، ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيداً كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلا الكامل في التقوى، فلا ينافي هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولاً غير لازم، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيداً غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل في التقوى عنها. والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله: ﴿ولا يصلها إلا الأشقى﴾ زاعماً أن الأشقى الكافر؛ لأنه الذي كذب وتولى، ولم يقع التكنيب من عصاة المسلمين، فيقال له: فما تقول في قوله: ﴿وسيجنبها الاتقى﴾ فإنه يدل على أنه لا يجنب النار إلا الكامل في التقوى، فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار، فإن أولت الاتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله في الأشقى، فخذ إليك هذه مع تلك، وكن كما قال الشاعر:

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا علي ولا ليه
وقيل: أراد بالأشقى، والاتقى الشقي، والتقوى، كما قال طرفة بن العبد:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
أي: بواحد، ولا يخفك أنه ينافي هذا وصف الأشقى بالتكنيب، فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر، فلا يتم ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين. ثم ذكر سبحانه صفة الاتقى فقال: ﴿الذي يؤتي ماله﴾ أي: يعطيه، ويصرفه في وجوه الخير، وقوله: ﴿يتزكى﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يؤتي أي: حال كونه يطلب أن يكون عند الله زكياً لا يطلب رياء ولا سمعة، ويجوز أن يكون بدلاً من يؤتي داخلاً معه في حكم الصلة. قرأ الجمهور (يتزكى) مضارع تزكى. وقرأ علي بن الحسين بن علي: (تزكى) بإدغام التاء في الزاي ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ الجملة مستأنفة؛ لتقرير ما قبلها من كون التزكي على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافي الخلوص أي: ليس ممن يتصدق بماله ليجازي بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها، وإنما يبتغي بصدقته وجه الله

عنه، وزاد فيه، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ إلى قوله: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى﴾. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساکر عنه نحو هذا من وجه آخر. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وسيجنبها الاتقى﴾ قال: هو: أبو بكر الصديق.

تفسير سورة الضحى

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس: نزلت: ﴿والضحى﴾ بمكة. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن المقرئ قال: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن قسطين، فلما بلغت: ﴿والضحى﴾ قال: كبر حتى تخطم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، فأمره بذلك. وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك. وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك. وأخبره أبي أن رسول الله ﷺ أمره بذلك. وأبو الحسن المقرئ المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ. قال ابن كثير: فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات. وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال: لا أخذت عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث. قال ابن كثير: ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير، وكيفيته، فقال بعضهم: يكبر من آخر الليل إذا بغشى، وقال آخرون: من آخر الضحى. وكيفية التكبير عند بعضهم: أن يقول الله أكبر ويقتصر، ومنهم من يقول الله أكبر لا إله إلا الله أكبر. ونكروا في مناسبة التكبير من أول الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ، وفتر تلك المدة، ثم جاء الملك، فأوحى إليه: ﴿والضحى﴾ * والليل إذا سجى﴾ [أي: سورة الضحى] السورة كبر فرحاً وسروراً، ولم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن جندب الجلي قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلتين، أو ثلاثاً، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك لم يقربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله: ﴿والضحى﴾ * والليل إذا سجى﴾ ما ودّعك ربك وما قلى﴾. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن جندب قال: أبطأ جبريل عن النبي ﷺ، فقال المشركون: قد ودّع محمد، فنزلت: ﴿ما ودّعك ربك وما قلى﴾ [الضحى: 3]. وأخرج الطبراني عن جندب قال: احتبس جبريل عن النبي ﷺ، فقالت بعض بنات عمه: ما أرى صاحبك إلا قد قلاك، فنزلت: والضحى. وأخرجه الترمذي وصححه، وابن أبي حاتم عن جندب، وفيه: فقالت له

فحكنتي بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ * وصدّق بالحسنى * فسنيسر له ليسرى﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه، وابن عساکر عن ابن عباس في قوله: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ * وصدّق بالحسنى﴾ قال: أبو بكر الصديق ﴿وما من بخل واستغنى﴾ * وكذب بالحسنى﴾ قال: أبو سفيان بن حرب. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن علي بن أبي طالب قال: «كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل؟ قال: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له؛ أما من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء، فييسر لعمل أهل الشقاء ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ * وصدّق بالحسنى﴾ إلى قوله: ﴿والعسرى﴾». وأخرج أحمد، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله: «أن سراقاً بن مالك قال: يا رسول الله في أي شيء نعمل؟ أي شيء ثبتت فيه المقادير، وجرت به الأقالام، أم في شيء يستقبل فيه العمل؟ قال: بل في شيء ثبتت فيه المقادير، وجرت فيه الأقالام، قال سراق: ففيم العمل إذن يا رسول الله؟ قال: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ إلى قوله: ﴿فسنيسر له للعسرى﴾». وقد تقدّم حديث عمران بن حصين في السورة التي قبل هذه. وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال: «لن تدخلن الجنة إلا من يابى، قالوا: ومن يابى أن يدخل الجنة؟ فقرأ: ﴿الذي كذب وتولى﴾». وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي أمامة قال: لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الله الجنة، إلا من شرد على الله، كما يشرد البعير السوء على أهله، فمن لم يصدقني فإن الله يقول: ﴿لا يصلها إلا الأشقى﴾ * الذي كذب وتولى﴾ كذب بما جاء به محمد ﷺ، وتولى عنه. وأخرج أحمد، والحاكم، والضياء عن أبي أمامة الباهلي أنه سئل عن أين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا كلكم يدخل الله الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله». وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي». قيل: ومن الشقي؟ قال: الذي لا يعمل لله بطاعة، ولا يترك لله معصية». وأخرج أحمد، والبخاري عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى، قالوا: ومن يابى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني نخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله: بلال، وعامر بن فهيرة، والنهيدة، وابنتها، وزنيرة، وأم عيسى، وأمة بني المؤمل، وفيه نزلت: ﴿وسيجنبها الاتقى﴾ إلى آخر السورة. وأخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله بن الزبير ما قدّمنا

امراة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت: والضحي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضَّحَىٰ ۝ وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ۝ وَالْآخِرَةُ ۝ حَبْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ۝ ۝ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَخَرَّوْهُ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ ۝ وَأَنَا بَيْنَقَمٍ رَبُّكَ فَحَدِّثْ ۝

والمراد بالضحي هنا النهار كله، لقوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ فلما قابل الضحي بالليل دل على أن المراد به النهار كله لا بعضه. وهو في الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس، كما تقدّم في قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: 1] والظاهر أن المراد به الضحي من غير تعيين. وقال قتادة، ومقاتل، وجعفر الصادق: إن المراد به الضحي الذي كلم الله فيه موسى، والمراد بقوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ ليلة المعراج، وقيل: المراد بالضحي هو الساعة التي خرّ فيها السحرة سجداً، كما في قوله: ﴿وَأَن يَحْشُرَ النَّاسَ ضَحَىٰ﴾ [طه: 59] وقيل: المقسم به مضاف مقتر، كما تقدّم في نظائره أي: وربّ الضحي، وقيل تقديره: وضحاوة الضحي، ولا وجه لهذا، فلهذا سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه: وقيل: الضحي نور الجنة، والليل ظلمة النار، وقيل: الضحي نور قلوب العارفين، والليل سواد قلوب الكافرين ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: سكن، كذا قال قتادة، ومجاهد، وابن زيد، وعكرمة، وغيرهم: يقال: ليلة ساجية أي: ساكنة، ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية، يقال: سجا الشيء يسجو سجواً: إذا سكن. قال عطاء: سجا إذا غطي بالظلمة. وروى ثعلب عن ابن الأعرابي: سجا امتدّ ظلامه. وقال الأصمعي: سجو الليل تغطيته النهار، مثل ما يسجي الرجل بالثوب. وقال الحسن: غشي بظلامه. وقال سعيد بن جبير: أقبل. وقال مجاهد: أيضاً أستوى، والأول أولى، وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة. ومعنى سكونه: استقرار ظلامه واستواؤه، فلا يزداد بعد ذلك ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ هذا جواب القسم أي: ما قطعك قطع المودع. قرأ الجمهور (ما ودّعك) بتشديد الدال من التوديع، وهو توديع المفارق، وقرأ ابن عباس، وعروة بن الزبير، وابنه هاشم، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة بتخفيفها، من قولهم ودعه أي: تركه، ومنه قول الشاعر:

سل أميري ما الذي غيره عن وصالي اليوم حتى ودّعه والتوديع أبلغ في الودع؛ لأن من ودّعك مفارقاً، فقد بالغ في تركك. قال المبرد: لا يكانون يقولون ودع ولا ونر لضعف الواو إذا قدّمت، واستغنوا عنها بترك. قال أبو عبيدة: ودّعك من التوديع، كما يودّع المفارق. وقال الزجاج: لم يقطع الوحي، وقد قدّمنا سبب نزول هذه الآية في فاتحة هذه السورة ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ القلي البغض، يقال: قلاه يقلبه قلاء.

قال الزجاج: وما أبغضك، وقال: وما قلى، ولم يقل، وما قلاك لموافقة رؤوس الأي، والمعنى: وما أبغضك، ومنه قول امرئ القيس:

ولست بمقالي الخلال ولا قالي

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي: الجنة خير لك من الدنيا، مع أنه ﷺ قد أوتي في الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كلّ شرف، ويتضاءل بالنسبة إليه كلّ مكرمة في الدنيا؛ ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار منغصة بالعوارض البشرية، وكانت الحياة فيها كاحلام نائم، أو كظل زائل لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئاً؛ ولما كانت طريقاً إلى الآخرة، وسبباً لنيل ما أعدّه الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة كان فيها خير في الجملة من هذه الحيثية ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ هذه اللام قيل هي لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره، ولأنّ سوف يعطيك الخ، وليست للقسم؛ لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة، وقيل: هي للقسم. قال أبو عليّ الفارسي: ليست هذه اللام هي التي في قولك: إن زيداً لقاتم، بل هي التي في قولك لأقومنّ، ونابت سوف عن إحدى نوني التأكيد، فكأنه قال: وليعطيك. قيل المعنى: ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة، فترضى. وقيل: الحوض والشفاعة، وقيل: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك، وقيل: غير ذلك. والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة، ومن أهمّ ذلك عنده، وأقدمه لديه قبول شفاعته لأمته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ هذا شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم أي: وجبك يتيماً لا أب لك، فأوى أي: جعل لك مأوى تآوي إليه، قرأ الجمهور (فأوى) بألف بعد الهمزة رباعياً، من أواه يؤويه، وقرأ أبو الأشهب (فأوى) ثلاثياً، وهو إما بمعنى الرباعي، أو هو من أوى له إذا رحمه. وعن مجاهد معنى الآية: أَلَمْ يَجِدْكَ واحداً في شرفك لا نظير لك، فأواك الله بإصحاب يحفظونك ويحوطنوك، فجعل يتيماً من قولهم درّة يتيمة، وهو بعيد جداً، والهمزة لإنكار النفي، وتقرير المنفي على أبلغ وجه، فكأنه قال: قد وجبك يتيماً فأوى، والوجود بمعنى العلم، ويتيماً مفعوله الثاني، وقيل: بمعنى المصانفة، ويتيماً حال من مفعوله ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ معطوف على المضارع المنفي، وقيل: هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الذي قبله، كما ذكرنا أي: قد وجبك يتيماً فأوى، وجبك ضالاً فهدى، والضلال هنا بمعنى الغفلة، كما في قوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ﴾ [طه: 52] وكما في قوله: ﴿وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: 3] والمعنى: أنه وجبك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، واختار هذا الزجاج. وقيل: معنى ضالاً لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع، فهديك لذلك. وقال الكلبي، والسدي، والفراء: وجبك في قوم ضلال،

سبحانه بالتحنن بنعم الله عليه، وإظهارها للناس، وإشهارها بينهم. والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها، أو نوع من أنواعها. وقال مجاهد، والكلي: المراد بالنعمة هنا القرآن. قال الكلي: وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرأه. قال الفراء: وكان يقرؤه ويحدث به. وقال مجاهد أيضاً: المراد بالنعمة النبوة التي أعطاه الله. واختار هذا الزجاج فقال: أي: بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله، وهي أجل النعم. وقال مقاتل: يعني: اشكر ما نكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدى بعد الضلالة، وجبر اليتيم، والإغناء بعد العيلة، فاشكر هذه النعم. والتحدث بنعمة الله شكر، والجاء والمجور متعلق بحدث، والفاء غير مانعة من تعلقه به، وهذه النواهي لرسول الله ﷺ هي نواه له ولائته؛ لأنهم أسوته، فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهى بكل فرد من أفراد هذه النواهي.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿والليل إذا سجي﴾ قال: إذا أقبل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عنه: ﴿إذا سجي﴾ قال: إذا ذهب ﴿وما ودّعك ربك﴾ قال: ما تركك ﴿وما قلبي﴾ قال: ما أبغضك. وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «عرض علي ما هو مفتوح لامتي بعدي، فأنزل الله: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾». وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم عنه أيضاً قال: «عرض على مريويه، والبيهقي، وأبو نعيم عنه أيضاً قال: «عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده، فسر بذلك، فأنزل الله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ فأعطاه في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم». وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ قال: رضا أن يدخل أمته كلهم الجنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: من رضا محمد أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. وأخرج الخطيب في التلخيص من وجه آخر عنه أيضاً في الآية قال: لا يرضى محمد، وأحد من أمته في النار، ويدل على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمر: «أن النبي ﷺ تلا قول الله في إبراهيم: ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾ [إبراهيم: 36] وقول عيسى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ [المائدة: 118] الآية، فرفع يديه، وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوئك». وأخرج ابن المنذر، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أرايت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي؟ قال: إي والله. حدثني محمد بن الحنفية عن علي أن رسول الله ﷺ قال: «أشفع لامتي حتى ينابني ربي أرضيت يا محمد؟ فاقول: نعم يا رب رضيت، ثم أقبل علي فقال: إنكم تقولون يا معشر

فهداهم الله لك. وقيل: وجدك طالباً للقبلة، فهداك إليها، كما في قوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾ [البقرة: 144] ويكون الضلال بمعنى الطلب. وقيل: وجدك ضائعاً في قومك فهداك إليه، ويكون الضلال بمعنى الضياع. وقيل: وجدك محبباً للهداية فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى المحبة، ومنه قول الشاعر:

عجباً لعزة في اختيار طبعي بعد الضلال فحبها قد خلقتا
وقيل: وجدك ضالاً في شعاب مكة، فهداك أي: ركب إلى جدك عبد المطلب ﴿ووجدك عائلاً فاغني﴾ أي: وجدك فقيراً لا مال لك فاغناك، يقال: عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر، ومنه قول أحيحة بن الجلاح:

فما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل
أي: يفتقر، قال الكلي: فاغني: أي رضاك بما أعطاك من الرزق، واختار هذا الفراء، قال: لأنه لم يكن غنياً من كثرة، ولكن الله سبحانه رضاه بما آتاه، وذلك حقيقة الغني. وقال الأخفش: عائلاً ذا عيال، ومنه قول جرير:

الله أنزل في الكتاب نريضة لابن السبيل، وللفقير العائل
وقيل: فاغني بما فتح لك من الفتوح، وفيه نظر؛ لأن السورة مكية، وقيل: بمال خبيجة بنت خويلد، وقيل: وجدك فقيراً من الحجج والبراهين، فاغناك بها. قرأ الجمهور (عائلاً) وقرأ محمد بن السميع، واليماني (عيلاً) بكسر الياء المشددة كسيد. ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء فقال: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي: لا تقهره بوجه من وجوه التقهر كأنما ما كان. قال مجاهد: لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيماً. قال الأخفش: لا تسلط عليه بالظلم، انفع إليه حقه، وانكر يملك. قال الفراء، والزجاج: لا تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في حق اليتامى تأخذ أموالهم، وتظلمهم حقوقهم، وكان رسول الله ﷺ يحسن إلى اليتيم، ويبره، ويوصي باليتامى. قرأ الجمهور (فلا تقهر) بالقاف، وقرأ ابن مسعود، والنخعي، والشعبي، والأشهب العقيلي (تكهر) بالكاف. والعرب تعاقب بين القاف والكاف. قال النحاس: إنما يقال كهره: إذا اشتد عليه غلظ. وقيل: القهر الغلبة، والكهر الزجر. قال أبو حيان: هي لغة يعني قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور، واليتيم منصوب بتقهر ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ يقال: نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يذره، فهو نهي عن زجر السائل والإغلاظ له، ولكن يبذل له اليسير، أو يردّه بالجميل. قال الواحدي: قال المفسرون: يريد السائل على الباب، يقول لا تنهره: إذا سالك فقد كنت فقيراً، فلما أن تطعمه، وإما أن تردّه ردّاً ليناً. قال قتادة: معناه ردّ السائل برحمة ولين. وقيل: المراد بالسائل الذي يسأل عن الدين، فلا تنهره بالغلظة والجفوة، وأجبه برفق ولين، كذا قال سفيان، والسائل منصوب بتنهر، والتقدير: مهما يكن من شيء، فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ أمره

تفسير سورة الشرح

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿الم نشرح﴾ [أي: سورة الشرح] بمكة، وزاد: بعد الضحى. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: نزلت سورة الم نشرح بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ
ثَقَلَتْ عَلَيْكَ أَسْرَارُكَ ۚ وَخَضَلْنَا مِنَّا دُفْعًا مِّنَ الْغَمِّ
عَنَّا ۚ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ ۚ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ ۚ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ ۚ

معنى شرح الصدر: فتحه بإذهاب ما يصد عن الإدراك والاستفهام إذا نخل على النفي قزره، فصار المعنى: قد شرحنا لك صدرك، وإنما خص الصدر؛ لأنه محل أحوال النفس من العلوم، والإبركات، والمراد: الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره، وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة، وحفظ الوحي، وقد مضى القول في هذا عند تفسير قوله: ﴿أقمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ [الزمر: 22] ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ معطوف على معنى ما تقدم، لا على لفظه أي: قد شرحنا لك صدرك، ووضعنا الخ، ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

الستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
أي: أنتم خير من ركب المطايا، وأندى الخ. قرأ الجمهور (نشرح) بسكون الحاء بالتجزم، وقرأ أبو جعفر المنصور العباسي بفتحها، قال الزمخشري: قالوا لعله بين الحاء، وأشبعها في مخرجها، فظن السامع أنه فتحها. وقال ابن عطية: إن الأصل الم نشرحن بالنون الخفيفة، ثم إبدالها ألفاً، ثم حنفاً تخفيفاً، كما أنشد أبو زيد:

من أي يومئ من الموت أفر أيوم لم يقر أم يوم قدر
بفتح الراء من لم يقدر، ومثله قوله:

أضرب عنك الهموم طارقتها ضربك بالسيف قونس الفرس
بفتح الباء من أضرب، وهذا مبني على جواز تأكيد المجزوم بلم، وهو قليل جداً كقوله:

يحسبه الجاهل ما لم يعلم شيخاً على كرسيه معهما
فقد تركبت هذه القراءة من ثلاثة أصول كلها ضعيفة: الأول تأكيد المجزوم بلم، وهو ضعيف. الثاني إبدالها ألفاً، وهو خاص بالوقف، فإجراء الوصل مجرى الوقف ضعيف. والثالث حذف الألف، وهو ضعيف أيضاً؛ لأنه خلاف الأصل، وخرجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم ويجزمون بلم، ومنه قول الشاعر:

أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله ﴿يا عبدي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [الزمر: 53] قلت: إنا لنقول ذلك، قال: فكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وهي الشفاعة. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا﴾ ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾. وأخرج العسكري في المواعظ، وابن مريويه، وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال: «دخل رسول الله 1 على فاطمة، وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من جلد الإبل، فلما نظر إليها قال: يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة، فأنزل الله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾». وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي، وأبو نعيم، وابن عساكر عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «سألت ربي مسألة وندت أني لم أكن سألته، قلت: قد كانت قبلي أنبياء منهم من سخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فقال تعالى: يا محمد ألم أجعلك يتيماً، فأوتيتك؟ ألم أجعلك ضالاً، فهديتك؟ ألم أجعلك عائلاً، فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك؟ ألم أرفع لك نكرك؟ قلت بلى يا رب». وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿والضحى﴾ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: يميني ربي وأهل أن يميني ربي». وأخرج ابن مريويه عنه في قوله: ﴿ووجحك ضالاً فهدي﴾ قال: وجحك بين الضالين، فاستنقذك من ضلالتهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بن علي في قوله: ﴿وإنا بنعمة ربك فحدث﴾ قال: ما علمت من الخير. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: إذا أصبت خيراً، فحدث إخوانك. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والبيهقي في الشعب، والخطيب في المتفق، قال السيوطي بسند ضعيف عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة». وأخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن حبان، والبيهقي، والضياء عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «من أبلى بلاء فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره». وأخرج البخاري في الأدب، وأبو داود، والضياء عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطى عطاء فوجد، فليجز به، فإن لم يجد فليئن به. فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبي زور». وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط، والبيهقي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أولى معروفاً فليكافئ به، فإن لم يستطع فليذكره، فإن من نكره، فقد شكره».

قول حسان:

اغتر عليه للنبيوة خاتم من الله مشهور يلوح، ويشهد
وضم الإله اسم النبي مع اسمه إذا قال في الخمس المؤنن أشهد
وشق له من اسمه ليجله فلو العرش محمود، وهذا محمد

﴿فإن مع العسر يسراً﴾ أي: إن مع الضيقة سعة،
ومع الشدة رخاء، ومع الكرب فرج. وفي هذا وعد منه
سبحانه بأن كل عسير يتيسر، وكل شديد يهون، وكل
صعب يلين. ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً وتأكيذاً،
فقال: مكرراً له بلفظ ﴿إن مع العسر يسراً﴾ أي: إن مع
نلك العسر المنكور سابقاً يسراً آخر لما تقرّر من أنه إذا
أعيد المعرف يكون الثاني عين الأول سواء كان المراد به
الجنس أو العهد، بخلاف المنكر إذا أعيد، فإنه يراد بالثاني
فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول في الغالب، ولهذا قال
النبي ﷺ في معنى هذه الآية: «لن يغلب عسر يسرين» قال
الواحدي: وهذا قول النبي ﷺ والصحابه والمفسرين على
أن العسر واحد، واليسر اثنان. قال الزجاج: نكر العسر مع
الألف واللام ثم ثنى نكره، فصار المعنى: إن مع العسر
يسرين. قيل، والتذكير في اليسر للتفخيم والتعظيم، وهو في
مصحف ابن مسعود غير مكرّر. قرأ الجمهور بسكون السين
في العسر، واليسر في الموضعين. وقرأ يحيى بن وثاب،
وأبو جعفر، وعيسى بضمها في الجميع ﴿فإذا فرغت
فانصب﴾ أي: إذا فرغت من صلاتك، أو من التبليغ، أو من
الغزو، فانصب أي: فاجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك،
أو فانصب في العبادة، والنصب التعب، يقال: نصب ينصب
نصباً أي: تعب. قال قتادة، والضحاك، ومقاتل، والكلبي: إذا
فرغت من الصلاة المكتوبة، فانصب إلى ربك في الدعاء،
وارغب إليه في المسألة يعطك، وكذا قال مجاهد. قال
الشعبي: إذا فرغت من التشهد، فادعوا لذنباك وأخرتك، وكذا
قال الزهري. وقال الكلبي أيضاً: إذا فرغت من تبليغ الرسالة
فانصب أي: استغفر لذنباك، وللمؤمنين والمؤمنات. وقال
الحسن، وقاتلة: إذا فرغت من جهاد عدوك، فانصب لعبادة
ربك. وقال مجاهد أيضاً: إذا فرغت من دنياك، فانصب في
صلاتك ﴿وإلى ربك فارغب﴾ قال الزجاج: أي: اجعل رغبتك
إلى الله وحده. قال عطاء: يريد أنه يضرب إليه راهباً من
النار، راغباً في الجنة، والمعنى: أنه يرغب إليه سبحانه لا إلى
غيره كائناً من كان، فلا يطلب حاجاته إلاّ منه، ولا يعول في
جميع أموره إلاّ عليه. قرأ الجمهور (فارغب) وقرأ زيد بن
علي، وابن أبي عتبة (فرغب) بتشديد الغين: أي: فرغب
الناس إلى الله، وشوقهم إلى ما عنده من الخير.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن
ابن عباس في قوله: ﴿إلى ربك فارغب﴾ قال: شرح الله
صدره للإسلام. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم في
الدلائل عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «أتاني

في كل ما هم أمضى رأيته قدما ولم يشاورني إقدامه لحد
ينصب الرأى من يشاور، وهذه اللغة لبعض العرب ما
أظنها تصح، وإن صححت، فليست من اللغات المعتمدة، فإنها
جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها. وعلى كل حال،
فقراءة هذا الرجل مع شدة جورته، ومزيد ظلمه، وكثرة
جبروته، وقلة علمه ليس بحقيقة بالاشتغال بها. والوزر:
الذنب أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية. قال
الحسن، وقاتلة، والضحاك، ومقاتل: المعنى حططنا عنك
الذي سلف منك في الجاهلية، وهذا كقوله: ﴿ليغفر لك الله ما
تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: 2] ثم وصف هذا الوزر
فقال: ﴿الذي أنقض ظهرك﴾ قال المفسرون: أي: أثقل
ظهرك. قال الزجاج: أثقله حتى سمع له نقيض: أي: صوت،
وهذا مثل معناه: أنه لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض ظهره،
وأهل اللغة يقولون: أنقض الحمل ظهر الناقة: إذا سمع له
صري، ومنه قول جميل:

وحتى تداعت بالنقيض حباله وهمت ثواني زوره لن تحطما
وقول العباس بن مرداس:

وانقض ظهري ما تطويت منهم وكنت عليهم مشفقاً متحنناً

قال قتادة: كان للنبي ﷺ ذنوب قد أثقلت غفرها الله له،
وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبيوة التي تثقل
الظهر من القيام بأمرها سهل الله نلك عليه حتى تيسرت له:
وكذا قال أبو عبيدة وغيره وقرأ ابن مسعود (وحللنا عنك
وقرك) ثم نكر سبحانه منته عليه وكرامته فقال: ﴿ورفعنا
لك نورك﴾ قال الحسن: وذلك أن الله لا ينكر في موضع إلاّ
نكر معه ﷺ. قال قتادة: رفع الله نكره في الدنيا والآخرة،
فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلاّ ينادي،
فيقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله أشهد أن محمداً رسول الله.
قال مجاهد: ﴿ورفعنا لك نورك﴾ يعني: بالتأنيين. وقيل
المعنى: نكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبله،
وأمرناهم بالبشارة به، وقيل: رفعنا نورك عند الملائكة في
السماء، وعند المؤمنين في الأرض. والظاهر أن هذا الرفع
لنكره الذي امتنّ الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور، فكل
واحد منها من أسباب رفع الذكر، وكذلك أمره بالصلاة
والسلام عليه، وإخباره ﷺ عن الله عز وجل أن من صلى
عليه، واحدة صلى الله عليه بها عشراً، وأمر الله بطاعته
كقوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ [النور: 54] وقوله:
﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾
[الحشر: 7] وقوله: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني
يحبيبكم الله﴾ [آل عمران: 31] وغير نلك. وبالجمله فقد ملا
نكره الجليل السموات والأرضين، وجعل الله له من لسان
الصدق، والذكر الحسن، والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد
من عباده ﴿نلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل
العظيم﴾ [الحديد: 21] اللهم صل وسلم عليه وعلى آله عدد
ما صلى عليه المصلون بكل لسان في كل زمان، وما أحسن

قال: أنزلت سورة التين بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن البراء بن عازب قال: «كان النبي ﷺ في سفر فصلى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين ﴿التين والزيتون﴾ [أي: سورة التين]، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً، ولا قراءة منه». وأخرج الخطيب عنه قال: «صليت مع رسول الله ﷺ المغرب، فقرأ: ﴿التين والزيتون﴾». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد في مسنده، والطبراني عن عبد الله بن يزيد: «أن النبي ﷺ قرأ في المغرب، ﴿التين والزيتون﴾». وأخرج ابن قانع، وابن السكن، والشيرازي في الاقباغ عن زرعة بن خليفة قال: «أتيت النبي ﷺ من اليمامة، فعرض علينا الإسلام، فاسلمنا، فلما صلينا الغداة قرأ ﴿التين والزيتون﴾، و﴿إن أنزلناه في ليلة القدر﴾ [أي: سورة القدر].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالزَّيْتُونَ ۝ وَلَوْ يَرَيْنَ ۝ وَعَدَّ الْبَلَاءَ الْأَيَّامَ ۝ لَقَدْ عَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا سَالِكِينَ ۝ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الظَّالِمِينَ ۝

قال أكثر المفسرين: هو التين الذي ياكله الناس ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ الذي يعصرون منه الزيت، وإنما أقسم بالتين؛ لأنه فاكهة مخلص من شوائب التنغيص، وفيها أعظم عبرة لدلالاتها على من هياها لذلك، وجعلها على مقدار اللقمة. قال كثير من أهل الطب: إن التين أنفع الفواكه للبدن، وأكثرها غذاء، ونكروا له فوائد، كما في كتب المفردات والمركبات، وأما الزيتون، فإنه يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب البلدان ودهنهم، ويخل في كثير من الأدوية. وقال الضحاك: التين المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى. وقال ابن زيد: التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس؛ وقال قتادة: التين الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس. وقال عكرمة، وكعب الأحبار: التين لمشق، والزيتون بيت المقدس.

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل. وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية. قال الفراء: سمعت رجلاً يقول: التين جبال حلوان إلى همدان، والزيتون جبال الشام. قلت: هب أنك سمعت هذا الرجل، فكان ماذا؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة، ولا هو نقل عن الشارع. وقال محمد بن كعب: التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيلياء، وقيل: إنه على حنف مضاف أي: ومنابت التين والزيتون. قال النحاس: لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل،

جبريل فقال: إن ربك يقول: تدري كيف رفعت نكرتك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: إذا نكرت نكرت معي» وإسناد ابن جرير هكذا: حدثني يونس أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد. وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج. وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به. وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ نُكْرَكَ﴾ الآية قال: لا ينكر الله إلا نكر معه. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: «كان النبي ﷺ جالساً، وحياه جحر، فقال: «العسر لو نخل العسر هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه. فانزل الله: ﴿إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ﴾ [إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ]» ولفظ الطبراني: «وتلا رسول الله ﷺ ﴿إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ﴾ [إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ]». وأخرج ابن التاجر عنه مرفوعاً نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مريويه عنه أيضاً مرفوعاً نحوه. قال السيوطي، وسنده ضعيف. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في الصبر، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود مرفوعاً: «لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر حتى يدخل فيه، فيخرجه، وإن يغلب عسر يسرين إن الله يقول: ﴿إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ﴾ [إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ]» قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح. قال فيه أبو حاتم الرازي: في حديثه ضعف، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن رجل عن عبد الله بن مسعود. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي عن الحسن قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً فرحاً مسروراً وهو يضحك، ويقول: «لن يغلب عسر يسرين»، ﴿إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ﴾ [إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ]» وهذا مرسل. وروى نحوه مرفوعاً مرسلًا عن قتادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ الآية قال: إذا فرغت من الصلاة فانصبت في الدعاء، وأسأل الله، وارغب إليه. وأخرج ابن مريويه عنه قال: قال الله لرسوله: إذا فرغت من الصلاة وتشبعت، فانصب إلى ربك وأسأله حاجتك. وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر عن ابن مسعود: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ إلى الدعاء ﴿وَالْيَاسِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ في المسألة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ قال: إذا فرغت من الفرائض، فانصب في قيام الليل.

تفسير سورة التين

وهي مكية في قول الجمهور. وروى القرطبي عن ابن عباس أنها منبئية، ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس

فلا مانع من كون الكفار، والمنافقين مجتمعين في ذلك الدرك الأسفل، وقوله: ﴿أسفل سافلين﴾ إما حال من المفعول أي: رديناه حال كونه أسفل سافلين، أو صفة لمقدر محذوف: أي: مكاناً أسفل سافلين ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذا الاستثناء على القول الأول منقطع: أي لكن الذين آمنوا إلخ، ووجهه أن الهرم والرد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن، كما يصاب به الكافر، فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى. وعلى القول الثاني يكون الاستثناء متصلاً من ضمير رديناه، فإنه في معنى الجمع أي: ردنا الإنسان أسفل سافلين من النار ﴿إلا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات﴾ [العصر: 3] ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ أي: غير مقطوع أي: فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم؛ فهذه الجملة على القول الأول مبنية لكيفية حال المؤمنين، وعلى القول الثاني مقررة لما يفيد الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد، وقال: أسفل سافلين على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى الجمع، ولو قال: أسفل سافل لجاز؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد. وقيل: معنى رديناه أسفل سافلين: رديناه إلى الضلال، كما قال: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [العصر: 2، 3] أي: إلا هؤلاء، فلا يردون إلى ذلك: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ الخطاب للإنسان الكافر، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، وإلزام الحجة أي: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك أسفل سافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء؟ وقيل: الخطاب للنبي ﷺ أي: أي شيء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة، فاستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين. قال الفراء، والأخفش: المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين، كأنه قال: من يقدر على ذلك؟ أي: على تكذيب بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر، واختار هذا ابن جرير. والدين الجزاء، ومنه قول الشاعر:

نأتممكما كما كانت أوائلنا دانت أوائلهم من سالف الزمن
وقال الآخر:

ولما صرح الشر فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدو نأهم كما دانوا

﴿ليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أي: ليس الذي فعل ما فعل مما نكرنا بأحكم الحاكمين صنعا وتبديراً؟ حتى تتروهم عدم الإعادة والجزاء، وفيه وعيد شديد للكفار، ومعنى: أحكم الحاكمين: أتقن الحاكمين في كل ما يخلق، وقيل: أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً. والاستفهام إذا دخل على النبي صار الكلام إيجاباً، كما تقدم تفسير قوله: ﴿الم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: 1].

وقد أخرج الخطيب، وابن عساكر قال السيوطي بسند فيه مجهول عن الزهري عن أنس قال: لما أنزلت سورة التين

ولا من قول من لا يجوز خلافه ﴿وطور سينين﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى اسمه الطور، ومعنى سينين: المبارك الحسن بلغة الحبشة قاله قتادة. وقال مجاهد: هو المبارك بالسريانية. وقال مجاهد، والكلبي: سينين كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين، وسيناء بلغة النبط. قال الأخفش: طور جبل، وسينين شجر، وأحدثت سينة. قال أبو علي الفارسي: سينين، فعليل، فكزرت اللام التي هي نون فيه، ولم ينصرف سينين، كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جعل اسماً للبقعة، وإنما أقسم بهذا الجبل؛ لأنه بالشام، وهي الأرض المقدسة، كما في قوله: ﴿إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ [الإسراء: 1] وأعظم بركة حلت به، ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه. قرأ الجمهور (سينين) بكسر السين، وقرأ ابن إسحاق، وعمر بن ميمون، وأبو رجاء بفتحها، وهي لغة بكر وتميم. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، والحسن، وطلحة (سيناء) بالكسر والمد ﴿وهذا للبلد الأمين﴾ يعني: مكة، سماه آميناً؛ لأنه آمن، كما قال: ﴿إنا جعلنا حرمًا آمنًا﴾ [العنكبوت: 67] يقال آمن الرجل أمانة فهو أمين. قال الفراء وغيره: الأمين بمعنى الآمن، ويجوز أن يكون، فعيلًا بمعنى مفعول من أمته؛ لأنه مأمون الغوائل ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ هذا جواب القسم أي: خلقنا جنس الإنسان كائنًا في أحسن تقويم وتعديل. قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلا الإنسان، خلقه مديد القامة يتناول ماكوله بيده، ومعنى التقويم: التعديل، يقال: قومت، فاستقام. قال القرطبي: هو اعتداله واستواء شأنه، كذا قال عامة المفسرين. قال ابن العربي: ليس الله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً عالماً قادراً مريداً متكلاً سمياً بصيراً مدبراً حكماً، وهذه صفات الرب سبحانه، وعليها حمل بعض العلماء قوله ﷺ: ﴿إن الله خلق آدم على صورته﴾ يعني: على صفاته التي تقدم نكرها. قلت: وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه: ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: 11] وقوله: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [طه: 110] ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق، وعجيب الصنع، فلينظر في كتاب [العبر والاعتبار] للجاحظ، وفي الكتاب الذي عقده النيسابوري على قوله: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: 21] وهو في مجلدين ضخمين ﴿ثم رديناه أسفل سافلين﴾ أي: رديناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم، والضعف بعد الشباب، والقوة حتى يصير كالصبي، فيخرف وينقص عقله، كذا قال جماعة من المفسرين. قال الواحدي: والسافلون هم: الضعفاء، والزمناء، والأطفال، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً. وقال مجاهد، وأبو العالية، والحسن: المعنى ثم ردنا الكافر إلى النار، وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض، فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ [النساء: 145]

والزيتون ﴿فقرأ: ﴿اليس الله باحكم الحاكمين﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين» وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعاً «إذا قرأت ﴿التين والزيتون﴾ فقرات: ﴿اليس الله باحكم الحاكمين﴾ فقل بلى». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ: ﴿اليس الله باحكم الحاكمين﴾ قال: سبحانك اللهم قبلى أهـ

تفسير سورة العلق

وهي مكية بلا خلاف، وهي أول ما نزل من القرآن. وأخرج ابن مردويه عن طريق عن ابن عباس قال: أول ما نزل من القرآن ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [أي: سورة العلق]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن الضريس، وابن الأنباري، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية عن أبي موسى الأشعري قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ أول سورة أنزلت على محمد. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي وصححه عن عائشة قالت: إن أول ما نزل من القرآن: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ ويدل على أن هذه السورة أول ما نزل الحديث الطويل الثابت في البخاري، ومسلم وغيرهما من حديث عائشة، وفيه: «فجاءه الحق وهو في غار حراء، فقال له اقرأ» الحديث، وفي الباب أحاديث، وأثار عن جماعة من الصحابة. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ ⑤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ يَلِيقُ ⑥ أَنْ تَرَاهُ اسْتَفْتَى ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّشْدَ ⑧ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ⑩ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْفَلَكَ ⑪ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ⑫ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑬ أَرَأَيْتَ بَٰئِنَ اللَّهِ بَيْنَ ⑭ كَلَّ لَيْلٍ لَّا يَنفَسُ إِلَّا نَفْسِي ⑮ نَافِثَةٍ كَذِبَةٍ غَالَتُهُ ⑯ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهِ ⑰ سَبَّحَ أَزْوَاجَهُ ⑱ كَلَّا لَا تُلْمَعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ⑳

قرأ الجمهور (اقرأ) بسكون الهمزة أمراً من القراءة. وقرأ عاصم في رواية عنه بفتح الراء، وكأنه قلب الهمزة ألفاً ثم حذفها للأمر، والأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً، فالتقدير: اقرأ ما يوحى إليك، أو ما نزل عليك، أو ما أمرت بقراءته، وقوله: ﴿باسم ربك﴾ متعلق بمحذوف هو حال أي: اقرأ ملتبساً باسم ربك، أو مبتدئاً باسم ربك، أو مفتتحاً، ويجوز أن تكون الباء زائدة، والتقدير: اقرأ اسم ربك كقول الشاعر:

سود المحاجر لا يقران بالسور

قاله أبو عبيدة. وقال أيضاً: الاسم صلة أي: اذكر ربك. وقيل الباء بمعنى على، أي: اقرأ على اسم ربك، يقال افعَلْ

والزيتون على رسول الله ﷺ فرحاً شديداً حتى تبين لنا شدة فرحه، فسالنا ابن عباس عن تفسيرها فقال: التين بلاد الشام، والزيتون بلاد فلسطين، وطور سيناء الذي كلم الله عليه موسى وهذا البلد الأمين مكة: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ محمداً ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ عبدة اللات والعزى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي: ﴿فما يكتكب بعد بالنين﴾ ليس الله باحكم الحاكمين، إذ بعثك فيهم نبياً، وجمعك على التقوى يا محمد، ومثل هذا التفسير من ابن عباس لا تقوم به حجة لما تقدم من كون في إسناده ذلك المجهول.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿والتين والزيتون﴾ قال: مسجد نوح الذي بني على الجودي، والزيتون قال: بيت المقدس: ﴿وطور سينين﴾ قال: مسجد الطور ﴿وهذا البلد الأمين﴾ قال: مكة ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ ثم رددناه أسفل سافلين، يقول: يرد إلى أرذل العمر كبير حتى ذهب عقله، هم نفر كانوا على عهد رسول الله ﷺ، فسئل رسول الله ﷺ حين سفهت عقولهم، فأنزل الله عنهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم: ﴿فما يكتكب بعد بالنين﴾ يقول: بحكم الله. وأخرج ابن مردويه عنه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً ﴿والتين والزيتون﴾ قال: الفاكهة التي ياكلها الناس ﴿وطور سينين﴾ قال: الطور الجبل، والسينين المبارك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: سينين هو الحسن. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ قال: في أعدل خلق: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ يقول: إلى أرذل العمر: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ يعني غير منقوص، يقول فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر، وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه ولم يضره ما عمل في كبره، ولم تكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، وذلك قوله: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قال: لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ يقول: إلى الكبر وضعفه، فإذا كبر وضعف عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبابه. وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «إذا مرض العبد، أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً». وأخرج الترمذي، وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً «من قرأ ﴿التين

كذا بسم الله، وعلى اسم الله قاله الاخفش. وقيل: الباء للاستعانة أي: مستعيناً باسم ربك، ووصف الرب بقوله: **﴿الذي خلق﴾** لتذكير النعمة لأن الخلق هو أعظم النعم، وعليه يترتب سائر النعم. قال الكلبي: يعني الخلاق **﴿خلق الإنسان من علق﴾** يعني بني آدم، والعلقة الدم الجامد، وإذا جرى فهو المسفوح. وقال: من علق بجمع علق؛ لأن المراد بالإنسان الجنس، والمعنى: خلق جنس الإنسان من جنس العلق، وإذا كان المراد بقوله: **﴿الذي خلق﴾** كل المخلوقات، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفاً له لما فيه من بديع الخلق، وعجيب الصنع، وإذا كان المراد بالذي خلق الذي خلق الإنسان فيكون الثاني تفسيراً للأول. والنكتة ما في الإبهام، ثم التفسير من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولاً، ثم فسر ثانياً. ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير، فقال: **﴿اقرأ وربك الأكرم﴾** أي: افعل ما أمرت به من القراءة، وجملة: **﴿وربك الأكرم﴾** مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به **﴿من قوله: «ما أنا بقارئ»** يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وهو أمي، فقيل له: اقرأ، وربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم. قال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعجل بعقوبتهم، وقيل: إنه أمره بالقراءة أولاً لنفسه، ثم أمره بالقراءة ثانياً للتبليغ، فلا يكون من باب التأكيد، والأول **﴿الذي علم بالقلم﴾** أي: علم الإنسان الخط بالقلم، فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب. قال الزجاج: علم الإنسان الكتابة بالقلم. قال قتادة: القلم نعمة من الله عز وجل عظيمة، لولا ذلك لم يقيم دين، ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما يؤت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضيقت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزل إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين، ولا أمور الدنيا، وسمي قلماً لأنه يقلم أي: يقطع **﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾** هذه الجملة بدل اشتمال من التي قبلها أي: علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها، قيل: المراد بالإنسان هنا آدم كما في قوله: **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾** [البقرة: 31] وقيل: الإنسان هنا رسول الله **﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾** والأولى حمل الإنسان على العموم، والمعنى: أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه ما لم يعلم، وقوله: **﴿كلا﴾** ردع وزجر لمن كفر نعم الله عليه بسبب طغيانه وإن لم يتقدم له ذكر، ومعنى **﴿إن الإنسان ليطغى﴾** أنه يجاوز الحد، ويستكبر على ربه. وقيل: المراد بالإنسان هنا أبو جهل، وهو المراد بهذا، وما بعده إلى آخر السورة، وأنه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمس الآيات المنكورة في أول هذه السورة. وقيل: **﴿كلا﴾** هنا بمعنى حقاً قاله الجرجاني، وعلل ذلك بأنه ليس قبله ولا بعده شيء يكون كلا رداً له، وقوله: **﴿إن رآه استغنى﴾** علة ليطغى: أي ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً،

والرؤية هنا بمعنى العلم، ولو كانت البصرية لامتنع الجمع بين الضميرين في فعلها لشيء واحد لأن ذلك من خواص باب علم، ونحوه. قال القراء: لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي تريد اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان فلا يقتصر فيه على مفعول واحد، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول: رأيتني وحسبتي، ومتى ترك خارجاً، ومتى تظنك خارجاً، قيل: والمراد هنا أنه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال. قرأ الجمهور (أن رآه) بمد الهمزة، وقرأ قنبل عن ابن كثير بقصرها. قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب مالا زاد في ثيابه، ومركبه، وطعامه، وشرايه، فنلك طغيانه، وكذا قال الكلبي. ثم هدد سبحانه وخوف، فقال: **﴿إن إلى ربك الرجعى﴾** أي: المرجع، والرجعى والمرجع والرجوع مصادر، يقال: رجع إليه مرجعاً ورجوعاً ورجعى، وتقدم الجار والمجرور للمقصر أي: الرجعى إليه سبحانه لا إلى غيره **﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾** قال المفسرون: الذي ينهى أبو جهل، والمراد بالعبد محمد **﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾** وفيه تقبيح لصنعه، وتشنيع لفعله حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية **﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾** يعني العبد المنهي إذا صلى، وهو محمد **﴿أو أمر بالتقوى﴾** أي: بالإخلاص والتوحيد، والعمل الصالح الذي تتقي به النار **﴿أرأيت إن كذب وتولى﴾** يعني أبا جهل، كذب بما جاء به رسول الله **﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾**، وتولى عن الإيمان، وقوله: **﴿أرأيت﴾** في الثلاثة المواضع بمعنى أخبرني لأن الرؤية لما كانت سبباً للإخبار عن المرئي أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها، والخطاب لكل من يصلح له. وقد ذكر هنا أربع ثلاث مرات، وصرح بعد الثالث منها بجملة استفهامية، فتكون في موضع المفعول الثاني لها، ومفعولها الأول محذوف، وهو ضمير يعود على الذي ينهى الواقع مفعولاً أولاً لأرأيت الأولى، ومفعول أرأيت الأولى الثاني محذوف، وهو جملة استفهامية كجملة الواقعة بعد أرأيت الثانية، وأما أرأيت الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أول، ولا ثاني، حذف الأول لدلالة مفعول أرأيت الثالثة عليه فقد حذف الثاني من الأولى، والأول من الثالثة، والاثنان من الثانية، وليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع؛ لأنه يستدعي إضماراً، والجمل لا تضر، إنما تضر المفردات، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة، وأما جواب الشرط المذكور مع أرأيت في الموضوعين الآخرين. فهو محذوف تقديره: إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى: **﴿للم يعلم بأن الله يرى﴾** وإنما حذف لدلالة نكره في جواب الشرط الثاني، ومعنى: **﴿للم يعلم بأن الله يرى﴾** أي: يطلع على أحواله، فيجازهيه بها، فكيف أجترأ على ما أجترأ عليه؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ، وقيل: أرأيت الأولى مفعولها الأول الموصول، ومفعولها الثاني الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المندرج عليه بالمنكور، وأرأيت في الموضوعين تكرير للتأكيد، وقيل كل واحدة من أرأيت بدل من

كَرَّرَ الرَّدْعَ وَالزَّجْرَ فَقَالَ: ﴿كَلَّا لَا تَطْعَمُهُ﴾ أَي: لَا تَطْعَمُهُ فِيمَا دَعَاكَ إِلَيْهِ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ: ﴿وَأَسْجُدْ﴾ أَي: صَلِّ لَهِ غَيْرَ مَكْتَرٍ بِهِ، وَلَا مِبَالَ بِنَهْيِهِ: ﴿وَأَقْتَرِبْ﴾ أَي: تَقَرَّبْ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَقِيلَ الْمَعْنَى: إِذَا سَجَدْتَ اقْتَرَبَ مِنْكَ اللَّهُ بِالدَّعَاءِ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: وَأَسْجُدَ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ، وَاقْتَرِبْ أَنْتَ يَا أَبَا جَهْلٍ مِنَ النَّارِ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى. وَالسُّجُودُ هَذَا الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الصَّلَاةَ، وَقِيلَ سَجُودَ التَّلَاوَةِ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ مِنْ السُّجُودِ عِنْدَ تِلَاوَةِ هَذِهِ آيَةِ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن شداد قال: «أتى جبريل محمداً ﷺ فقال: يا محمد اقراء. فقال: وما اقراء؟ فضمه ثم قال: يا محمد اقراء. قال: وما اقراء؟ قال: ﴿اقراء باسم ربك الذي خلق﴾ حتى بلغ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾». وفي الصحيحين: وغيرهما من حديث عائشة «فجاءه الملك، فقال: اقراء، فقال: قلت ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقراء، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقراء، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد فقال: ﴿اقراء باسم ربك الذي خلق﴾ * خلق الإنسان من علق * اقراء وربك الأكرم * الذي علم بالقلم﴾» الآية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً»، وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عنه قال: «كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنك عن هذا؟ إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر نادياً مني، فأنزل الله ﴿فليدع نأيه﴾ * سندع الزبانية﴾ فجاء النبي ﷺ يصلي، فقيل: ما يمنك؟ فقال: قد أسود ما بيني وبينه». قال ابن عباس: والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه. وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: واللآلئ والعزى لئن رأيت يصلي كذلك لأطأن على رقبتك، ولأعفرن وجهه في التراب فاتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأن على رقبتك، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيده، فقيل له مالك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو لنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» قال: وأنزل الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ * أن رآه يستغنى﴾ إلى آخر السورة: يعني أبا جهل ﴿فليدع نأيه﴾ يعني قومه ﴿سندع الزبانية﴾ يعني الملائكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾

الأولى، و: ﴿لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ الخير. قوله ﴿كَلَّا﴾ ردع للناس، واللام في قوله: ﴿لَنْ لَمْ يَنْتَه﴾ هي الموطئة للقسم أي: والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿لنفسعاً بالناسية﴾ السفع الجنب الشديد، والمعنى: لنأخذن بنأصيته، ولننجزنه إلى النار وهذا كقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: 41] ويقال سفعت الشيء: إذا قبضته وجذبه، ويقال: سفع بنأصية فرسه. قال الراغب: السفع الأخذ بسفعة الفرس أي: بسواد نأصيته، وباعتبار السواد قيل: به سفعة غضب اعتباراً بما يعلو من اللون البخاني وجه من اشتد به الغضب، وقيل للصفير أسفع لما فيه من لمع السواد، وامرأة سفعاء اللون انتهى، وقيل: هو مأخوذ من سفع النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى سواد. ومنه قول الشاعر:

أنا في سفعا في معرّس مرجل

وقوله: ﴿نأصية﴾ بدل من النأصية، وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله: ﴿كأنية خاطئة﴾ وهذا على مذهب الكوفيين فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة بلا شرط وصفها. وأما على مذهب البصريين، فيجوز إبدال النكرة من المعرفة، وأنشدوا:

فلا وأبيك خير منك إنني ليؤنيني التحمحم والصهيل
قرأ الجمهور بجرّ (نأصية كأنية خاطئة) والوجه ما ذكرنا. وقرأ الكسائي في رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ أي: نأصية، وقرأ أبو حيو، وابن أبي عبيدة، وزيد بن علي بنصيبها على الذم. قال مقاتل: أخبر عنه بأنه فاجر خاطئ، فقال: نأصية كأنية خاطئة، تأويلها: صاحبها كاتب خاطئ: ﴿فليدع نأيه﴾ أي: أهل نأيه، والنادي: المجلس الذي يجلس فيه القوم، ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة؛ والمعنى: ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه، ومنه قول الشاعر:

واستب بعك يا كليب المجلس

أي: أهله. قيل: إن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: أتتهنني وأنا أكثر الوادي نأياً؟ فنزلت: ﴿فليدع نأيه﴾ * سندع الزبانية﴾ أي: الملائكة الغلاظ الشداد، كذا قال الزجاج. قال الكسائي، والأخفش وعيسى بن عمر: واحدهم زابن، وقال أبو عبيدة: زبينة، وقيل زباني، وقيل: هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعبايد وأبائيل. وقال قتادة: هم الشرط في كلام العرب، وأصل الزبن الدفع، ومنه قول الشاعر:

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم
والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه، ومنه قول الشاعر:

مطاعم في القصوى مطاعين في الوغى زبانية غلب عظام حلومها
قرأ الجمهور (سندع) بالنون، ولم ترسم الواو، كما في قوله: ﴿يوم يدع الداع﴾ [القدر: 6] وقرأ ابن أبي عبيدة (سيدع) على البناء للمفعول، ورفع الزبانية على النية. ثم

شهر قال كثير من المفسرين أي: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، واختار هذا الفراء، والزجاج، ولك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع، فلما جعل الله الخير الكثير في ليلة كانت خيراً من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما في هذه الليلة. وقيل: أراد بقوله ألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تنكر الألف في كثير من الأشياء على طريق المبالغة. وقيل: وجه نكر الألف الشهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عبداً حتى يعبد الله ألف شهر، وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فجعل الله سبحانه لأمة محمد عبادة ليلة خيراً من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها. وقيل: إن النبي ﷺ رأى أعمار أمته قصيرة، فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم، وقيل: غير ذلك مما لا طائل تحته، وجملة:

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ مستأنفة مبينة لوجه فضلها موضحة لليلة التي صارت بها خيراً من ألف شهر، وقوله: **﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾** يتعلق بتنزل، أو بمحذوف، هو حال، أي: ملتبسين بإذن ربهم، والإذن الأمر، ومعنى تنزل: تهبط من السموات إلى الأرض. والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين: أي: تنزل الملائكة ومعهم جبريل، ووجه نكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه. وقيل الروح صنف من الملائكة هم أشرافهم، وقيل هم جند من جنود الله من غير الملائكة، وقيل: الروح الرحمة، وقد تقدم الخلاف في الروح عند قوله: **﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾** [النبا: 38] قرأ الجمهور (تنزل) بفتح التاء، وقرأ طلحة بن مصرف، وابن السميع بضمها على البناء للمفعول، وقوله: **﴿مَنْ كُلُّ أَمْرٍ﴾** أي: من أجل كل أمر من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة، وقيل: إن من بمعنى اللام أي: لكل أمر، وقيل: هي بمعنى الباء أي: بكل أمر، قرأ الجمهور (أمر) وهو واحد الأمور، وقرأ علي، وابن عباس، وعكرمة، والكلبي (امرئ) مذكر امرأة أي: من أجل كل إنسان، وتاولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة، فيسلمون على كل إنسان، فمن على هذا بمعنى علي، والأول أولى. وقد تم الكلام عند قوله من كل أمر، ثم ابتداء فقال: **﴿سَلَامٌ هِيَ﴾** أي: ما هي إلا سلامة وخير كلها لا شر فيها، وقيل هي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن أو مؤمنة. قال مجاهد: هي ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أتى. وقال الشعبي: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر يمزون على كل مؤمن ويقولون السلام عليك أيها المؤمن، وقيل: يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض. قال عطاء: يريد سلام على أولياء الله، وأهل طاعته: **﴿حتى مطلع الفجر﴾** أي: حتى وقت طلوعه. قرأ الجمهور (مطلع) بفتح اللام. وقرأ الكسائي، وابن محيصن بكسرها، فقيل: هما

عبد إذا صلى قال: أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله ﷺ بالسلى على ظهره وهو ساجد لله عز وجل. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: **﴿لنسفعا﴾** قال: لناخذن. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً **﴿فليدع نأبيه﴾** قال: ناصره، وقد قدمنا أن النبي ﷺ كان يسجد في: **﴿إذا المساء انشقت﴾** [الإنشاق: 1] وفي: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾**.

تفسير سورة القدر

وهي مكية عند أكثر المفسرين. كذا قال الماوردي. وقال الثعلبي: هي: منية في قول أكثر المفسرين، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس، وابن الزبير، وعائشة أنها نزلت بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۚ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۚ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۚ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝

الضمير في أنزلناه للقرآن، وإن لم يتقدم له نكر، أنزل جملة واحدة في ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، وكان ينزل على النبي ﷺ نجوماً على حسب الحاجة، وكان بين نزول أوله وآخره على رسول الله ﷺ ثلاث وعشرون سنة، وفي آية أخرى **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ﴾** [الضحان: 3] وهي: ليلة القدر؛ وفي آية أخرى **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾** [البقرة: 185] وليلة القدر في شهر رمضان. قال مجاهد: في ليلة للقدر ليلة الحكم: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾** ليلة الحكم، قيل سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقرر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة. وقيل: إنها سميت بذلك لعظيم قدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر أي: شرف ومنزلة، كذا قال الزهري. وقيل: سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً، وثواباً جزيلاً. وقال الخليل: سميت ليلة القدر؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة، كقوله: **﴿وَمَنْ قَدَرُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾** [الطلاق: 7] أي ضيق.

وقد اختلف في تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولاً، قد نكرناها بأبليتها، وبيننا الراجح منها في شرحنا للمنتقى: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾** هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن راية الخلق لا يدرك بها إلا الله سبحانه. قال سفيان: كل ما في القرآن من قوله: وما أدراك، فقد أدراه، وكل ما فيه وما يدريك، فلم يدركه، وكذا قال الفراء. والمعنى: أي شيء تجعله دارياً بها؟ وقد قدمنا الكلام في إعراب هذه الجملة في قوله: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾** [الحاقة: 3] ثم قال: **﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ**

تفسير سورة البينة

وهي منية في قول الجمهور، وقيل: مكية. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿لم يكن﴾ [أي: سورة البينة] بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: نزلت سورة لم يكن بمكة. وأخرج أبو نعيم في المعرفة عن إسماعيل بن أبي حكيم المزني، حدثني فضل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يستمع قراءة ﴿لم يكن﴾ الذين كفروا» فيقول: أبشر عبيدي، وعزتي، وجلالي، لأمكنن لك في الجنة حتى ترضى» قال ابن كثير: حديث غريب جداً. وأخرجه أبو موسى الميني عن مطر المزني، أو المني بنحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لم يكن﴾ الذين كفروا» قال: وسماي لك؟ قال: نعم، فبكي. وأخرج أحمد، وابن قانع في معجم الصحابة، والطبراني، وابن مريويه عن أبي حية البديري قال: «لما نزلت ﴿لم يكن﴾ الذين كفروا من أهل الكتاب» إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أبياً، فقال النبي ﷺ «لأبي: إن جبريل أمرني أن أقرأك هذه السورة»، فقال أبي: وقد نكرت ثم يا رسول الله؟ قال: نعم، فبكي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَرَّيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ عَنْ تَابِعِهِمْ
الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَمَوْا مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾
وَمَا تَفَرَّقُوا الَّذِينَ أَوْفُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَدَا مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أَرْتَرَا
إِلَّا لِيُحَدِّثُوا اللَّهَ حَدِيثًا كَذِبًا لِيُفَسِّحُوا لِلْكَافِرَةِ وَيُؤْتُوا الْأَكْثَرَةَ وَذَلِكَ
دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِبَ
رَبَّهُ ﴿٨﴾

المراد بـ «الذين كفروا من أهل الكتاب» اليهود، والنصارى، و﴿١﴾ المراد بـ «المشركين» مشركو العرب، وهم عبدة الأوثان، و«منفكين» خبر كان، يقال فككت الشيء فانفك: أي انفصل، والمعنى: أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم، ولا منتهين عنه «حتى تأتيهم البينة» وقيل: الانفكاك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية أي: لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم، فيموتوا حتى تأتيهم البينة، وقيل: منفكين زائلين أي: لم تكن منتهم، لتزول حتى تأتيهم البينة، يقال ما انفك فلان قائماً أي: ما زال قائماً، وأصل الفك الفتح، ومنه فك الخلال، وقيل: منفكين بارحين أي: لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة. وقال ابن كيسان: المعنى

لغتان في المصدر، والفتح أكثر نحو المخرج والمقتل، وقيل: بالفتح اسم مكان، وبالكسر المصدر، وقيل: العكس، وحتى متعلقة يتنزل على أنها غاية لحكم التنزل أي: لمكتهم في محل تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر، وقيل متعلقة بسلام بناءً على أن الفصل بين المصدر، ومعموله بالابتداء مغفقر.

وقد أخرج ابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال: أنزل القرآن في ليلة القدر حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بجواب كلام العباد وأعمالهم. وأخرج عبد بن حميد عن أنس قال: العمل في ليلة القدر، والصدقة، والصلاة، والزكاة أفضل من ألف شهر. وأخرج الترمذي وضعفه، وابن جرير، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن الحسن بن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ أري بني أمية على منبره، فسأه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1] يا محمد يعني نهراً في الجنة، ونزلت ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * يملكها بعنك بنو أمية. قال القاسم: فعدنا فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً، ولا تنقص يوماً، والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور في إسناده. قال الترمذي: إن يوسف هذا مجهول، يعني يوسف بن سعد الذي رواه عن الحسن بن علي. قال ابن كثير: فيه نظر، فإنه قد روى عنه جماعة: منهم حماد بن سلمة، وخالد الحذاء، ويونس بن عبيد. وقال فيه يحيى بن معين هو مشهور. وفي رواية عن ابن معين قال: هو ثقة، ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن. قال ابن كثير، ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً. قال المزي: هو حديث منكر، وقول القاسم بن الفضل إنه حسب مدة بني أمية فوجدتها ألف شهر لا تزيد، ولا تنقص ليس بصحيح، فإن جملة منتهم من عند أن استقل بالملك معاوية، وهي ستة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنو العباس، وهي ستة اثنين وثلاثين ومائة مجموعها اثنتان وتسعون سنة. وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس نحو ما روي عن الحسن بن علي. وأخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعاً مرسلًا نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَلَامٌ﴾ قال: في تلك الليلة تصفد مردة الشياطين، وتغل عقاريت الجن، وتفتح فيها أبواب السماء كلها، ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب، فلذا قال: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلْعِ الْفَجْرِ﴾ قال: وذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر، والأحاديث في فضل ليلة القدر كثيرة، وليس هذا موضع بسطها، وكذلك الأحاديث في تعيينها، والاختلاف في ذلك.

والتقدير: يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله، وقوله: ﴿يَتْلُو صَحْفاً مطهرة﴾ يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول، أو حالاً من متعلق الجار والمجرور قبله. ومعنى يتلو: يقرأ، يقال تلا يتلو تلاوة، والصحف جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب، ومعنى مطهرة: أنها منزلة من الزور والضلال. قال قتادة: مطهرة من الباطل، وقيل: مطهرة من الكذب، والشبهات، والكفر، والمعنى واحد؛ والمعنى: أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها؛ لأنه كان ﷺ يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب كما تقدم، وقوله: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ صفة لصحفاً، أو حال من ضميرها، والمراد الآيات، والأحكام المكتوبة فيها، والقيمة المستقيمة المستوية المحكمة، من قول العرب: قام الشيء: إذا استوى وصح. وقال صاحب النظم: الكتب بمعنى الحكم كقوله: ﴿كُتِبَ الله لا غلبنا أنا ورسلي﴾ [المجادلة: 21] أي: حكم، وقوله ﷺ في قصة العسيف: «لا قضين بينكما بكتاب الله» ثم قضى بالرجم، وليس الرجم في كتاب الله، فالمعنى: لا قضين بينكما بحكم الله، وبهذا يندفع ما قيل: إن الصحف هي الكتب، فكيف قال ﴿صَحْفاً مطهرة﴾ فيها كُتِبَ قِيَمَةٌ؟ وقال الحسن: يعني: بالصحف المطهرة التي في السماء، يعني في اللوح المحفوظ، كما في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قرآن مجيد﴾ في لوح محفوظ. [البروج: 21، 22] ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريرهم، وبيان أن ما نسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر، بل كان بعد وضوح الحق، وظهور الصواب. قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله محمداً، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا، فأمن به بعضهم، وكفر آخرون. وخص أهل الكتاب، وإن كان غيرهم مثلهم في التفرق بعد مجيء البينة؛ لأنهم كانوا أهل علم، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أنضل في هذا الوصف، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ مفرغ من أعم الأوقات: أي: وما تفرقوا في وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، وهي: بعثة رسول الله ﷺ بالشريعة الغراء، والمحجة البيضاء، وقيل البينة: البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل كقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [آل عمران: 19] قال القرطبي: قال العلماء: من أول السورة إلى قوله: ﴿كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركون، وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركون بعد قيام الحجج، وجملة: ﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا ليعبدوا الله﴾ في محل نصب على الحال مفيدة؛ لتقريرهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرق بعد مجيء البينة أي: والحال أنهم ما أمروا في كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله، ويوحده حال كونهم ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: جاعلين دينهم خالصاً له سبحانه، أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين، وقيل: إن اللام في ليعبدوا بمعنى أن، أي: ما أمروا إلا

لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ حتى بعث، فلما بعث حسدوه وجحدوه، وهو كقوله: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ [البقرة: 89] وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أنهم ما كانوا يسيئون القول في محمد ﷺ حتى بعث، فإنهم كانوا يسمونه الأمين، فلما بعث عانوه وأساءوا القول فيه. وقيل: ﴿مُتَفَكِّينَ﴾ هالكين، من قولهم: انفك صلبه: أي: انفصل، فلم يلتزم فيهلك، والمعنى: لم يكونوا معنيين، ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم. وقيل: إن المشركين هم أهل الكتاب، فيكون وصفاً لهم؛ لأنهم قالوا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله. قال الواحدي: ومعنى الآية: إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم، وشركهم بالله حتى آتاهم محمد ﷺ بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم، ودعاهم إلى الإيمان، وهذا بيان عن النعمة، والانتقاد به من الجهل والضلالة، والآية فيمن آمن من الفريقين. قال: وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، وقد تخطب فيها الكبار من العلماء، وسلكوا في تفسيرها طرقاً لا تفضي بهم إلى الصواب. والوجه ما أخبرتك، فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس ولا إشكال. قال: ويدل على أن البينة محمد ﷺ أنه فسرها وأبدل منها فقال: ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يعني: ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها، وهو القرآن، ويدل على ذلك أنه كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب انتهى كلامه. وقيل: إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب والمشركون إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبي الموعود به، فلما بعث تفرقوا، كما حكاها الله عنهم في هذه السورة. والبينة على ما قاله الجمهور هو: محمد ﷺ؛ لأنه في نفسه بينة وحجة، ولذلك سماه سراجاً منيراً، وقد فسر الله سبحانه هذه البينة المجملة بقوله: ﴿رسول من الله﴾ فاتضح الأمر، وتبين أنه المراد بالبينة. وقال قتادة، وابن زيد: البينة هي القرآن كقوله: ﴿وَأَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الْكِتَابِ الْأُولَى﴾ [طه: 133] وقال أبو مسلم: المراد بالبينة مطلق الرسل، والمعنى: حتى تأتيهم رسل من الله، وهم الملائكة يتلون عليهم صحفاً مطهرة، والأول أولى قرأ الجمهور (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون) وقرأ ابن مسعود (لم يكن المشركون وأهل الكتاب) قال ابن العربي: وهي قراءة في معرض البيان، لا في معرض التلاوة. وقرأ الأعمش، والنخعي: والمشركون بالرفع عطفاً على الموصول. وقرأ أبي (فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون) قرأ الجمهور (رسول من الله) برفع رسول على أنه بدل كل من كل مبالغة، أو بدل اشتغال. قال الزجاج: رسول رفع على البدل من البينة. وقال الفراء: رفع على أنه خبر مبتدأ مضمرة أي: هي رسول، أو هو رسول. وقرأ أبي، وابن مسعود (رسولاً) بالنصب على القطع، وقوله: ﴿مَنْ الله﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول أبي: كائن من الله، ويجوز تعلقه بنفس رسول، وجوز أبو البقاء أن يكون حالاً من صحف،

ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان، والعمل الصالح ﴿جَنّاتٌ عَنْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ والمراد بجَنّات عدن هي أوسط الجنّات وأفضلها، يقال عدن بالمكان يعنى عنداً أي: أقام، ومعنى الشيء: مركزه ومستقرّه، ومنه قول الأعشى:

وإن يتضاعفوا إلى علمه يضافوا إلى راجح قد عدن
وقد قنمنا في غير موضع أنه إن أريد بالجنّات الأشجار الملتفة، فجرى الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر، فجرى الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر، وهو الشجر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يخرجون منها، ولا يظعنون عنها، بل هم دائمون في نعيمها مستمرون في لذاتها ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ الجملة مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم من الزيادة على مجرد الجزاء، وهو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره، وقبلوا شرائعه، ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ويجوز أن تكون الجملة خبراً ثانياً، وأن تكون في محل نصب على الحال بإضمار قد ﴿لَكُمْ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: تلك الجزاء والرضوان لمن وقعت منه خشية الله سبحانه في الدنيا، وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التي وقعت له لا مجرد الخشية مع الانهماك في معاصي الله سبحانه، فإنها ليست بخشية على الحقيقة.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿مُنْفَكِينَ﴾ قال: برحين. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: اتعجبون من منزلة الملائكة من الله، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك، وأقروا إن شئتم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَؤْلُكُ هُمْ خَيْرٌ لِلْبَرِيَّةِ﴾. وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: «قلت يا رسول الله من أكرم الخلق على الله؟ قال: يا عائشة أما تقرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَؤْلُكُ هُمْ خَيْرٌ لِلْبَرِيَّةِ﴾». وأخرج ابن عساکر عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ، فأقبل عليّ، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة، ونزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَؤْلُكُ هُمْ خَيْرٌ لِلْبَرِيَّةِ﴾ فكان أصحاب محمد ﷺ إذا أقبل قالوا: قد جاء خير البرية. وأخرج ابن عدي، وابن عساکر عن أبي سعيد مرفوعاً: «علي خير البرية». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَؤْلُكُ هُمْ خَيْرٌ لِلْبَرِيَّةِ﴾ قال رسول الله ﷺ: لعليّ هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين». وأخرج ابن مردويه عن علي مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيلة استوى عليه، ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى،

بأن يعبدوا كقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: 26] أي: أن يبين، و ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: 8] أي: أن يطفئوا قرأ الجمهور (مخلصين) بكسر اللام. وقرأ الحسن بفتحها. وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية في العبادات، لأن الإخلاص من عمل القلب، ولتنصّب ﴿حَقْنَفًا﴾ على الحال من ضمير مخلصين، فتكون من باب التداخل، ويجوز أن تكون من فاعل يعبدوا، والمعنى: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام. قال أهل اللغة: أصله أن يحنف إلى دين الإسلام أي: يميل إليه ﴿وَيُوقِمْوَا لِلصَّلَاةِ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: يفعلوا الصلوات في أوقاتها، ويعطوا الزكاة عند محلها، وخصّ الصلاة والزكاة؛ لأنهما من أعظم أركان الدين. قيل: إن أريد بالصلاة والزكاة ما في شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة، فالأمر ظاهر، وإن أريد ما في شريعتنا، فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا، وهما: من جملة ما وقع الأمر به فيها ﴿وَلَكُمْ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ذلك المنكسر من عبادة الله، وإخلاصها، وإقامة الصلاة، والزكاة ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: دين الملة المستقيمة. قال الزجاج أي: ذلك دين الملة المستقيمة، فالقيمة صفة لموصوف محذوف. قال الخليل: القيمة جمع القيم، والقيم القائم. قال الفراء: أضاف الدين إلى القيمة، وهو نعت لاختلاف اللفظين. وقال أيضاً: هو من إضافة الشيء إلى نفسه، وبخلت الهاء للمدح والمبالغة، ثم بين سبحانه حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الموصول اسم إن، والمشركين معطوف عليه، وخبرها في نار جهنم، و﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المستكن في الخبر، ويجوز أن يكون قوله: والمشركين مجروراً عطفاً على أهل الكتاب ومعنى كونهم في نار جهنم أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، والإشارة بقوله: ﴿لَؤْلُكُ﴾ إلى من تقدّم ذكرهم من أهل الكتاب، والمشركين المتصفين بالكون في نار جهنم، والخلود فيها ﴿هُمْ شَرٌّ لِلْبَرِيَّةِ﴾ أي: الخليفة، يقال براً أي: خلق، والبراء الخالق، والبرية الخليفة. قرأ الجمهور (البرية) بغير همز في الموضعين، وقرأ نافع، وابن نكوان فيها بالهمز. قال الفراء: إن أخذت البرية من البراء، وهو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ، وإن أخذتها من برئت القلم أي: قترته نخلت. وقيل: إن الهمز هو الأصل، لأنه يقال براً الله الخلق بالهمز أي: ابتدعه وأخترعه ومنه قوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَاهُ﴾ [الحديد: 22] ولكنها خففت الهمزة، والتزم تخفيفها عند عامة العرب. ثم بين حال الفريق الآخر فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لَؤْلُكُ﴾ المنعوتون بهذا ﴿هُمْ خَيْرٌ لِلْبَرِيَّةِ﴾ قال: والمراد أن أولئك شرّ البرية في عصره ﷺ، ولا يبعد أن يكون كفار الأمم من هو شرّ منهم، وهؤلاء خير البرية في عصره ﷺ ولا يبعد أن يكون في مؤمني الأمم السابقة من هو خير منهم ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَمَسَّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَمَسَّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: إذا حركت حركة شديدة، وجواب الشرط: تحدث، والمراد: تحركها عند قيام الساعة، فإنها تضطرب حتى يتكسر كل شيء عليها. قال مجاهد: وهي النفخة الأولى لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: 6، 7] ونكر المصدر للتأكيد، ثم أضافه إلى الأرض، فهو مصدر مضاف إلى فاعله، والمعنى: زلزالها المخصوص الذي يستحقه، ويقتضيه جرمها وعظمتها. قرأ الجمهور (زلزالها) بكسر الزاي، وقرأ الجحدري، وعيسى بفتحها، وهما مصدران بمعنى: وقيل: المكسور مصدر، والمفتوح اسم. قال القرطبي: والزلزال بالفتح مصدر كالوسواس، والقلقال **﴿وُخْرِجَتِ الْأَرْضُ ثِقَالَهَا﴾** أي: ما في جوفها من الأموات والنباتات، والانتقال جمع ثقل، قال أبو عبيدة، والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها، فهو ثقل عليها. قال مجاهد: أثقالها موتاتها تخرجهم في النفخة الثانية، وقد قيل: للإنس والجِن الثقلان، وإظهار الأرض في موضع الإضمار لزيادة التقرير **﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾** أي: قال كل فرد من أفراد الإنسان ما لها زلزلت؟ لما يدهمه من أمرها، ويبهره من خطبها، وقيل: المراد بالإنسان الكافر، وقوله: ما لها مبتدأ وخبر، وفيه معنى التعجب أي: أي شيء لها، أو لأي شيء زلزلت وأخرجت أثقالها؟ وقوله: **﴿يَوْمَئِذٍ﴾** بدل من إذا، والعامل فيهما قوله: **﴿تَحْدُثُ أَخْبَارَهَا﴾** ويجوز أن يكون العامل في إذا محذوفاً، والعامل في يومئذٍ تحدث، والمعنى: يوم إذا زلزلت وأخرجت تخبر بأخبارها، وتحدثهم بما عمل عليها من خير وشر، وذلك إما بلسان الحال حيث يدل على ذلك دلالة ظاهرة، أو بلسان المقال، بأن ينطقها الله سبحانه. وقيل هذا متصل بقوله: **﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾** أي: قال ما لها **﴿تَحْدُثُ أَخْبَارَهَا﴾** متعجباً من ذلك، وقال يحيى بن سلام: تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها، وقيل: تحدث بقيام الساعة، وأنها قد أتت، وإن الدنيا قد انقضت. قال ابن جرير: تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة، وإخراج الموتى، ومفعول تحدث الأول محذوف، والثاني هو أخبارها، أي: تحدث الخلق أخبارها **﴿بِأَنَّ رِيكَ أَوْحَى لَهَا﴾** متعلق بتحدث، ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها، وقيل: الباء زائدة، وأن وما في حيزها بدل من أخبارها، وقيل: الباء سببية أي: بسبب إحياء الله إليها. قال الفراء: تحدث أخبارها بوحى الله وإنه لها، واللام في أوحى لها بمعنى إلى وإنما أثرت على إلى لموافقة للفواصل، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى، كذا قال أبو عبيدة. وقيل: إن أوحى يتعدى باللام تارة، وبإلى أخرى، وقيل: إن اللام على بابها من كونها للملة، والموحى إليه محذوف، وهو الملائكة، والتقدير: أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض أي: لأجل ما يفعلون فيها، والأول أولى **﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾** الظرف إما بدل من يومئذٍ

قال: الذي يسأل بالله ولا يعطي به. قال أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أبو معشر عن أبي وهب مولى أبو هريرة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ، فنكره.

تفسير سورة الزلزلة

وهي مننية في قول ابن عباس، وقتادة، ومكية في قول ابن مسعود، وعطاء، وجابر. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ بالمدينة. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو قال: «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله، قال: اقرأ ثلاثاً من نوات الرء، فقال الرجل: كبر سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: اقرأ ثلاثاً من نوات حم، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: اقرأ ثلاثاً من المسبحات فقال مثل مقالته الأولى، وقال: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [أي: سورة الزلزلة] حتى فرع منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها، فقال رسول الله ﷺ: أقلح الرويجل، أقلح الرويجل. وأخرج الترمذي، وابن مردويه، والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ عجلت له بنصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [أي: سورة الصمد] عجلت له بثلاث القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [أي: سورة الكافرون] عجلت له بربع القرآن». وأخرج الترمذي، وابن الضريس، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن». قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. وأخرج الترمذي عن أنس: «أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: اليس معك **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾**؟ قال بلى، قال: ثلث القرآن، قال: اليس معك **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾** [أي: سورة النصر]؟ قال: بلى. قال: ربع القرآن. قال: اليس معك **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾**؟ قال بلى، قال: ربع القرآن، قال: اليس معك **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾**؟ قال بلى، قال: ربع القرآن تزوج». قال الترمذي: هذا حديث حسن. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ في ليلة إذا زلزلت كان له عدل نصف القرآن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَخُرْجَتِ الْأَرْضُ أَشْتَاتًا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخَرِّجُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾

توهم أن من موصولة، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقترنة في الفعل.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس: **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾** قال: تحرّكت من أسفلها **﴿وُخْرِجَتِ الْأَرْضُ ثِقَالَهَا﴾** قال: الموتى **﴿وَوُكِّلَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾** قال: الكافر يقول ما لها **﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾** قال: قال لها ربك قولي **﴿بِأَن رَّبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾** قال: أوحى لها **﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ لِلنَّاسِ أَشْجَاتًا﴾** قال: من كل من ههنا، وههنا. وأخرج ابن المنذر عنه **﴿وُخْرِجَتِ الْأَرْضُ ثِقَالَهَا﴾** قال: الكنوز والموتى. وأخرج مسلم، والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«تَقَى الْأَرْضَ أَقْلَازُ كِبْدَهَا امْتِثَالَ الْأَسْطُورَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَيُجِئُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيُجِئُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحْمِي، وَيُجِئُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدِي، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا»**. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: **«قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾** قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنْ أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَامَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهَرِهَا، تَقُولُ عَمَلٌ كَذَا، وَكَذَا، فَهَذَا أَخْبَارُهَا»**. وأخرج ابن مريويه، والبيهقي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ الْأَرْضَ لَتُجِئَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكُلِّ عَمَلٍ عَمِلَ عَلَى ظَهَرِهَا»**. وقرأ رسول الله ﷺ: **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾** حتى بلغ **﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾**. وأخرج الطبراني عن ربيعة الخريشي أن رسول الله ﷺ قال: **«تَحْفَظُوا مِنَ الْأَرْضِ فَإِنَّهَا أَمْكَمُ، وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ عَامِلٍ عَلَيْهَا خَيْرًا، أَوْ شَرًّا إِلَّا وَهِيَ مَخْبِرَةٌ»**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم في تاريخه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: **«بَيْنَمَا أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ يَكُلُّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾** وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَرَأَى مَا عَمِلْتُ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ شَرٍّ. فَقَالَ: **«يَا أَبَا بَكْرٍ أَرَأَيْتَ مَا تَرَى فِي الدُّنْيَا مِمَّا تَكْرَهُ، فَيَمِثَّقِيلُ نَزْرَ الشَّرِّ، وَيُبْخِرُ لَكَ مِثْقِيلُ نَزْرَ الْخَيْرِ حَتَّى تَوَفَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**. وأخرج إسحاق بن راهويه، وعبد بن حميد، والحاكم، وابن مريويه عن أبي أسماء قال: **«بَيْنَمَا أَبُو بَكْرٍ يَتَغَدَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾** وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** فَامْسَكَ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَمَلْنَا مِنْ شَرٍّ رَأَيْنَاهُ، فَقَالَ: مَا تَرَوْنَ مِمَّا تَكْرَهُونَ، فَذَلِكَ مِمَّا تَجْزُونَ، وَيُؤْخَرُ الْخَيْرُ لِأَهْلِهِ فِي الْآخِرَةِ». وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: **«نَزَلَتْ **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ****

الذي قبله، وإما منصوب بمقتر هو انكر، وإما منصوب بما بعده، والمعنى: يوم إذ يقع ما نكر يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب اشتاتاً أي: متفرقين، والصدر: الرجوع وهو ضدُّ الورد، وقيل: يصدرون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار، وانتصاب اشتاتاً على الحال والمعنى: أن بعضهم آمن، وبعضهم خائف، وبعضهم بلون أهل الجنة، وهو البياض، وبعضهم بلون أهل النار وهو السواد، وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين، وبعضهم إلى جهة الشمال، مع تفرقهم في الأديان، واختلافهم في الأعمال **﴿لِيُرَوِّا أَعْمَالَهُمْ﴾** متعلق بصدر، وقيل: فيه تقنين وتأخير أي: تحثُّ أخبارها بأن ربك أوحى لها: ليروا أعمالهم **﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسَ أَشْجَاتًا﴾** قرأ الجمهور (ليروا) مبنيًا للمفعول، وهو من رؤية البصر أي: ليريهم الله أعمالهم. وقرأ الحسن، والأعرج، وقتادة، وحمام بن سلمة، ونصر بن عاصم، وطلحة بن مصرف على البناء للفاعل، ورويت هذه القراءة عن نافع، والمعنى: ليروا أجزاء أعمالهم **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾** أي: وزن نملة، وهي أصغر ما يكون من النمل. قال مقاتل: فمن يعمل في الدنيا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يره يوم القيامة في كتابه، فيفرج به، **﴿وَوَيْلٌ كُنْكَ﴾** فمن يعمل في الدنيا **﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** يوم القيامة فيسوءه، ومثل هذه الآية قوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾** [النساء: 40] وقال بعض أهل اللغة: إن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما علق من التراب، فهو الذرة، وقيل: الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء، والأول أولى، ومنه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لو لبَّ محول من النِّزْفِ فوق الاتب منها لأثرا
و «من» الأولى عبارة عن السعداء، و «من» الثانية عبارة عن الأشقياء. وقال محمد بن كعب: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا، وفي نفسه، وماله، وأهله، وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله، ونفسه، وأهله، وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله شر، والأول أولى. قال مقاتل: نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة، وكان الآخر يتهاون بالذنوب اليسير، ويقول: إنما أوعدهم الله النار على الكافرين. قرأ الجمهور (يره) في الموضعين بضم الهاء وصلًا، وسكونها وقفًا، وقرأ هشام بسكونها وصلًا ووقفًا. ونقل أبو حيان عن هشام، وأبي بكر سكونها، وعن أبي عمرو ضمها مشبعة، وباقي السبعة بإشباع الأولى، وسكون الثانية، وفي هذا الثقل نظر، والصواب ما ذكرنا. وقرأ الجمهور (يره) مبنياً للفاعل في الموضعين. وقرأ ابن عباس، وابن عمر، والحسن والحسين ابنا علي، وزيد بن علي، وأبو حيوة، وعاصم، والكسائي في رواية عنهما، والجحدري، والسلمي، وعيسى على البناء للمفعول فيهما أي: يريه الله إياه. وقرأ عكرمة (يراه) على

من صدور الخيل عند العدو ليس بصهيل. وقد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن العاديات ضبحاء هي الخيل. وقال عبيد بن عمير، ومحمد بن كعب والسدي: هي الإبل، ومنه قول صفية بنت عبد المطلب:

فلوالعاديات غداة جمع بايديها إذا صدع الغبار
ونقل أهل اللغة أن أصل الضبج للثعلب، فاستعير للخيل، ومنه قول الشاعر:

تضبج في الكف ضباح الثعلب

﴿فالموريات قبحاً﴾ هي الخيل حين تورى النار بسنابكها، والإيراء إخراج النار، والقده الصك، فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقده بالزناد. قال الزجاج: إذا عدت الخيل بالليل، وأصاب حوافرها الحجارة انتقد منها النيران، والكلام في انتصاب قبحاً كالكلام في انتصاب ضبحاء، والخلاف في كونها الخيل أو الإبل، كالخلاف الذي تقدم في العاديات، والراجح أنها الخيل، كما ذهب إليه الجمهور، وكما هو الظاهر من هذه الأوصاف المنكورة في هذه السورة ما تقدم منها وما سيأتي، فإنها في الخيل أوضح منها في الإبل، وسيأتي ما في ذلك من الخلاف بين الصحابة ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ أي: التي تغير على العدو وقت الصباح، يقال أغار يغير إغارة إذا باغت عدوه يقتل، أو أسر، أو نهب، وأسند الإغارة إليها وهي لاهلها للإشعار بأنها عميتهم في إغارتهم، وانتصاب صبحاً على الظرفية ﴿فأثرن به نقعاً﴾ معطوف على الفعل الذي دل عليه اسم الفاعل، إذ المعنى: واللاتي عدون فائرن، أو على اسم الفاعل نفسه لكونه في تأويل الفعل لوقوعه صلة للموصول، فإن الألف واللام في الصفات أسماء موصولة، فالكلام في قوة: واللاتي عدون، فأورين، فأغرين، فائرن، والنقع: الغبار الذي أثرت في وجه العدو عند الغزو، وتخصيص إثارته بالصبح؛ لأنه وقت الإغارة، ولكونه لا يظهر أثر النقع في الليل الذي اتصل به الصبح. وقيل المعنى: فائرن بمكان عدوهن نقعاً، يقال ثار النقع، وأثرت أي: هاج، أو هيجته. قرأ الجمهور (فائرن) بتخفيف المثناة. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبيدة بالتشديد أي: فإظهرون به غباراً، وقال أبو عبيدة: النقع رفع الصوت، وأشد قول لبيد:

فتمتى ينقع صراخ صائق يجلبوها ذات جرس وزجل
يقول حين سمعوا صراخاً أجلبوا الحرب أي: جمعوا لها.
قال أبو عبيدة: وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم انتهى، والمعروف عند جمهور أهل اللغة والمفسرين أن النقع الغبار، ومنه قول الشاعر:

يخرجون من مستطار النقع دامية كأن أنسابها أطراف أقلام
وقول عبد الله بن ربيعة:

عمنّا خليلنا إن لم تروها تخير النقع من كنفي كداء
وقول الآخر:

كان مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكب

زلزالها، وأبو بكر الصديق قاعد، فيكي، فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكيني هذه السورة، فقال: لولا أنكم تخطئون وتذنبون، فيغفر لكم لخلق الله قوماً يخطئون ويذنبون، فيغفر لهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الخيّل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر» الحديث. وقال: «وسئل عن الحمر فقال: ما أنزل علي فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾».

تفسير سورة العاديات

وهي مكية في قول ابن مسعود، وجابر، والحسن، وعكرمة، وعطاء، ومنية في قول ابن عباس، وأنس بن مالك، وقتادة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة: ﴿والعاديات﴾ بمكة. وأخرج أبو عبيد في فضائله عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت﴾ [أي: سورة الزلزلة] تعدل نصف القرآن، ﴿والعاديات﴾ تعدل نصف القرآن، وهو مرسل. وأخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس مرفوعاً مثله، وزاد: «وقل هو الله أحد» [أي: سورة الصمد] تعدل ثلث القرآن، «وقل يا أيها الكافرون» [أي: سورة الكافرون] تعدل ربع القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمَدِينَتِ ضَبْحًا ۝۱ وَالْمُورِيَّتِ قَدَا ۝۲ وَالْمَغِيرَتِ لَيْبًا ۝۳ فَاتَّرْنَ بِهٖ نَقْعًا ۝۴ فَوَسَّطْنَ بِهٖ جَمًّا ۝۵ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهٖ لَكَنُودٌ ۝۶ وَإِنَّهٗ عَلٰٓ ذٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝۷ وَإِنَّهٗ لِحَبِطِ الْخَبَرِ لَشَدِيدٌ ۝۸ أَفَلَا يَعْلَمُ اِذَا بُعِثَ رَآءَ فِى الْقُبُورِ ۝۹ وَحِصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ ۝۱۰ اِنَّ رَبَّهُم بِرَمِّ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝۱۱

﴿العاديات﴾ جمع عادية، وهي الجارية بسرعة، من العدو: وهو المشي بسرعة، فابلت الواو ياء لكسر ما قبلها كالغازيات من الغزو، والمراد بها الخيل العادية في الغزو نحو العدو، وقوله: ﴿ضبحاء﴾ مصدر مؤكد لاسم الفاعل، فإن الضبج نوع من السير، ونوع من العدو، يقال ضبج الفرس: إذا عدا بشدة، مأخوذ من الضبج، وهو النقع، وكان الحاء بدل من العين، قال أبو عبيدة، والمبرد: الضبج من إضباعها في السير ومنه قول عنترة:

والخيل تكبح في حياض الموت ضبحا

ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال أي: ضابحات، أو نوات ضبج، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف أي: تضبج ضبحاء، وقيل الضبج: صوت حوافرها إذا عدت، وقال الفراء: الضبج صوت أنفاس الخيل إذا عدت، قيل كانت تكعم لثلا تصهل، فيعلم العدو بهم، فكانت تتنفس في هذه الحالة بقوة، وقيل الضبج: صوت يسمع

وهذا هو المناسب لمعنى الآية، وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى، فإن قولك أغارت الخيل على بني فلان صباحاً، فائرن به صوتاً، قليل الجدوى مغسول المعنى بعيد من بلاغة القرآن المعجزة، وقيل النقع: شقّ الجيوب، وقال محمد بن كعب: النقع ما بين مزلفة إلى منى، وقيل: إنه طريق الوادي. قال في الصحاح: النقع الغبار، والجمع أنقاع، والنقع محبس الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه، والنقع الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء **﴿فوسطن به جمعاً﴾** أي: توسطن بذلك الوقت، أو توسطن ملتبسات بالنقع جمعاً من جموع الأعداء، أو صرن بعنوهن وسط جمع الأعداء، والباء إما للتعنية، أو للحالية، أو زائدة، يقال: وسطت المكان أي: صرت في وسطه، وانتصاب جمعاً على أنه مفعول به، والغائت في المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل واحدة منها على ما قبلها. قرأ الجمهور (فوسطن) بتخفيف السين، وقرأ بالتشديد. **﴿إنّ الإنسان لربه لكنود﴾** هذا جواب القسم، والمراد بالإنسان بعض أقراده، وهو الكافر، والكنود: الكفور للنعمة، وقوله: **﴿لربه﴾** متعلق بكنود، قدّم لرعاية القواصل، ومنه قول الشاعر:

كنود لنعماء الرجال ومن يكن
كنوداً لنعماء الرجال يبعد
أي: كفور لنعماء الرجال، وقيل: هو الجاحد للحق، قيل: إنها إنما سميت كنودة، لأنها جحلت أباهاً. وقيل: الكنود مأخوذ من الكند. وهو القطع، كأنه قطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر. يقال كند الحبل: إذا قطعه، ومنه قول الأعشى:

وصول حبال وكنادها

وقيل: الكنود البخيل، وأنشد أبو زيد:

إن نفسي لم تطب منك نفساً غير أنني أمسي بدين كنود
وقيل: الكنود الحسود، وقيل: الجهول لقدره، وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام، والجاحد للنعمة كافر لها، ولا يناسب المقام سائر ما قيل: **﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾** أي: وإن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه، وقيل المعنى: وإن الله جلّ ثناءه على ذلك من ابن آدم لشهيد، وبه قال الجمهور. وقال بالأول الحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، وهو أرجح من قول الجمهور لقوله: **﴿وإنه لحبّ الخير لشهيد﴾** فإن الضمير راجع إلى الإنسان، والمعنى: إنه لحبّ المال قويّ مجدّ في طلبه، وتحصيله متهاك عليه، يقال هو شديد لهذا الأمر وقويّ له: إذا كان مطيقاً له، ومنه قوله تعالى: **﴿إن ترك خيراً﴾** [البقرة: 180] ومنه قول عدي بن حاتم:

ماذا ترجى النفوس من طلب الـ خير وحبّ الحياة كانبها
وقيل المعنى: وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل، والأول أولى. واللام في: **﴿لحبّ﴾** متعلقة بشديد. قال ابن زيد: سمى الله المال خيراً، وعسى أن يكون شراً، ولكن الناس يجنونه خيراً، فسماه خيراً. قال الفراء: أصل نظم الآية أن يقال: وإنه لشديد الحبّ للخير، فلما قدّم الحبّ قال:

لشديد، وحذف من آخره نكر الحبّ؛ لأنه قد جرى نكره، ولرؤوس الآي كقوله: **﴿في يوم عاصف﴾** [إبراهيم: 18] والعصوف للريح لا لليوم، كأنه قال: في يوم عاصف الريح **﴿إنّما يعلم إذا يعثر ما في القبور﴾** الاستفهام للإنكار، والغاء للعطف على مقتر يقتضيه المقام أي: يفعل ما يفعل من القبائح، فلا يعلم، ويعثر معناه نثر وبحث أي: نثر ما في القبور من الموتى، وبحث عنهم وأخرجوا. قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه. قال الفراء: سمعت بعض العرب من بني أسد يقول: بحثر بالحاء مكان العين، وقد تقدّم الكلام على هذا في قوله: **﴿وإذا القبور بعثرت﴾** [الانفطار: 4] **﴿وحصل ما في الصدور﴾** أي: ميز وبين ما فيها من الخير والشر، والتحصيل التمييز، كذا قال المفسرون، وقيل: حصل أبرز. قرأ الجمهور (حصل) بضم الحاء، وتشديد الصاد مكسوراً مبنياً للمفعول. وقرأ عبيد بن عمير، وسعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم حصل بفتح الحاء والصاد، وتخفيفها مبنياً للفاعل: أي: ظهر **﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾** أي: إن ربّ المبعوثين بهم لخبير لا تخفى عليه منهم خافية، فيجازيهم بالخير خيراً، وبالشّر شراً. قال الزجاج: الله خبير بهم في ذلك اليوم، وفي غيره، ولكن المعنى: إن الله يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم، ومثله قوله تعالى: **﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾** [النساء: 63] معناه: أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم. قرأ الجمهور (إن ربهم) بكسر الهمزة، وباللام في لخبير. وقرأ أبو السماك بفتح الهمزة، وإسقاط اللام من لخبير.

وقد أخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الأقراء، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «بعث رسول الله ﷺ خيلاً، فاستمرت شهراً لا يأتيه منها خير، فنزلت: **﴿والعالميات ضيحا﴾** ضيحت بارجلها. ولفظ ابن مردويه: ضيحت بمنأخرها **﴿فالموريات قححا﴾** قدحت بحوافرها الحجارة، فاررت ناراً **﴿فالمغيرات صبحا﴾** صبحت القوم بغارة **﴿فائرن به نقعا﴾** أثارت بحوافرها التراب **﴿فوسطن به جمعاً﴾** صبحت القوم جميعاً. وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية إلى العدو، فابطأ خبرها، فشقّ ذلك عليه، فأخبره الله خبرهم، وما كان من أمرهم، فقال: **﴿والعالميات ضيحا﴾** قال: هي الخيل. والضحى نخير الخيل حين تنخر **﴿فالموريات قححا﴾** قال: حين تجري الخيل توري ناراً أصابت سناكبها الحجارة **﴿فالمغيرات صبحا﴾** قال: هي الخيل أغارت، فصبحت العدو **﴿فائرن به نقعا﴾** قال: هي الخيل أثرن بحوافرها، يقول بعدو الخيل، والنقع الغبار **﴿فوسطن به جمعاً﴾** قال: الجمع العدو. وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال: تقول أنا، وعكرمة في شأن العالميات، فقال: قال ابن عباس: هي الخيل في القتال، وضبحها حين ترخي مشافرها إذا عدت **﴿فالموريات**

عن ابن عباس: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: الخيل ضبحها زحيرها، ألم تر أن الفرس إذا عدا قال: أح أح، فذلك ضبحها. وأخرج ابن المنذر عن علي قال: الضبح من الخيل الحممة، ومن الإبل النفس. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود: ﴿وَالْمُورِيَاتِ قَحْحًا﴾ إذا سفت الحصى بمناسمها، فضرب الحصى بعضه بعضاً، فيخرج منه النار ﴿وَالْمَغِيرَاتِ صَبْحًا﴾ حين يفيضون من جمع ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ قال: إذا سرن يثرن التراب. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: الكنود بلساننا أهل البلد الكفور. وأخرج ابن عساکر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ قال لكفور. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في الأدب، والحكيم الترمذي، وابن مردويه عن أبي أمامة قال: الكنود الذي يمنع رقبته، وينزل وحده، ويضرب عبده. ورواه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والديلمي، وابن عساکر مرفوعاً، وضعف إسناداه السيوطي، وفي إسناداه جعفر بن الزبير، وهو متروك، والموقوف أصح؛ لأنه لم يكن من طريقه. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ تِلْكَ لَشَهِيدٌ﴾ قال: الإنسان ﴿وَأَنَّهُ لَحَبَّ الْخَيْرِ﴾ قال: المال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه: ﴿إِذَا بَعَثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ قال: بحث ﴿وَحَصَلَ مَا فِي الصُّورِ﴾ قال: أبرز.

تفسير سورة القارعة

وقيل: مكية بلا خلاف. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة القارعة بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُورِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُنْزِلَتْ مَوَازِينُهُ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ ١٠ تَأْرُ حَاسَةً ١١

﴿القارعة﴾ من أسماء القيامة؛ لأنها تقرر القلوب بالفزع، وتقرر أعداء الله بالعذاب. والعرب تقول قرعتهم القارعة إذا وقع بهم أمر فظيع. قال ابن أحمر:

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لراحت عنك حيناً وقال آخر:

متى نقرر بمروءتكم نسؤكم ولم يوقد لنا في القدر نار والقارعة مبتدأ وخبرها قوله: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ وبالرفع قرأ الجمهور، وقرأ عيسى بنصبها على تقدير: احذروا القارعة،

قححاً أرت المشركين مكرهم ﴿وَالْمَغِيرَاتِ صَبْحًا﴾ قال: إذا صبحت العدو ﴿فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا﴾ قال: إذا توسط العدو. وقال أبو صالح: فقلت قال علي: هي الإبل في الحج ومولاي كان أعلم من مولاك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب الأضداد، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: بينما أنا في الحجر جالس إذ أتاني رجل يسأل عن العاديات ضبحاً، فقلت: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأري إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم، فأنقثل عني، فذهب إلى علي بن أبي طالب، وهو جالس تحت سقاية زمزم، فسأله عن العاديات ضبحاً، فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم سألت عنها ابن عباس، فقال: هي الخيل حين تغير في سبيل الله، فقال: اذهب، فادعه لي، فلما وقفت على رأسه قال: تقتي الناس بما لا علم لك، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزلفة، فإذا أوى إلى المزلفة أوقنوا النيران، والمغيرات صبحاً: من المزلفة إلى منى، فذلك جمع، وأما قوله: ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ فهي: نقع الأرض تطؤه بأخفافها وحوافرها. قال ابن عباس: فنزعت عن قولتي، ورجعت إلى الذي قال علي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: الإبل، أخرجوه عنه من طريق الأعمش عن إبراهيم النخعي. قال إبراهيم: وقال علي بن أبي طالب: هي الإبل. وقال ابن عباس هي الخيل. فبلغ علياً قول ابن عباس: فقال: ما كانت لنا خيل يوم بدر. قال ابن عباس: إنما كانت تلك في سرية بعثت. وأخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبي قال: تمارى علي، وابن عباس في العاديات ضبحاً. فقال ابن عباس: هي الخيل؛ وقال علي: كذبت يا ابن فلانة، والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد كان على فرس أبلق. قال: وكان يقول هي: الإبل، فقال ابن عباس: ألا ترى أنها تثير نقعاً، فما شيء تثير إلا بحوافرها. وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: الخيل ﴿وَالْمُورِيَاتِ قَحْحًا﴾ قال: الرجل إذا أوى رقبته ﴿وَالْمَغِيرَاتِ صَبْحًا﴾ قال: الخيل تصبح العدو ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ قال: التراب ﴿فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا﴾ قال: العدو. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: قال ابن عباس: القتال. وقال ابن مسعود: الحج. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: ليس شيء من اللواب يضبح إلا الكلب، أو الفرس ﴿وَالْمُورِيَاتِ قَحْحًا﴾ قال: هو مكر الرجل قدح، فأورى ﴿وَالْمَغِيرَاتِ صَبْحًا﴾ قال: غارة الخيل صبحاً ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ قال: غباراً وقع سنابك الخيل ﴿فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا﴾ قال: جمع العدو. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر

هي جمع ميزان، وهو الآلة التي توضع فيها صحائف الأعمال، وعبر عنه بلفظ الجمع، كما يقال لكل حائنة ميزان، وقيل: المراد بالموازين الحجج والدلائل، كما في قول الشاعر:

لقد كنت قبل لقائكم ذامرة . عندي لكل مخاصم ميزانه
ومعنى عيشة راضية مرضية يرضاها صاحبها. قال الزجاج أي: ذات رضى يرضاها صاحبها، وقيل: عيشة راضية أي: فاعلة للرضى، وهو اللين، والانقياد لاهلها. والعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة: ﴿وَمَا مِنْ خَفْتٍ مَوَازِينَهُ﴾ أي: رجحت سيئاته على حسناته، أو لم تكن له حسنات يعتد بها ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ أي: فمסקنه جهنم، وسماها أمه؛ لأنه يؤولي إليه، كما يؤولي إلى أمه، والهاوية من أسماء جهنم، وسميت هاوية؛ لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها. ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فالأرض مقلنا وكانت أمانا . فيها مقابرنا وفيها نولد
وقول الآخر:

يا عمرولونالتيك أرمأحنا . كنت كمن تهوي به الهاوية
والمهوى، والمهواة: ما بين الجبلين، وتهوى القوم في المهواة: إذا سقط بعضهم في إثر بعض. قال قتادة: معنى ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ فمصيره إلى النار. قال عكرمة: لأنه يهوي فيها على أم رأسه. قال الأخفش: أمه مستقره ﴿وَمَا أَنْدَرَكُ مَا هِيَ﴾ هذا الاستفهام للتحويل، والتفطيع ببيان أنها خارجة عن المعبود بحيث لا تحيط بها علوم البشر، ولا تدري كنهها. ثم بيّنها سبحانه فقال: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ أي: قد انتهى حرّها، وبلغ في الشدة إلى الغاية، وارتفاع نار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هي نار حامية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال: ﴿القارعة﴾ من أسماء يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ قال: كقوله هوت أمه. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ قال: لم رأسه هاوية في جهنم. وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: رسول الله ﷺ: «إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه ما فعل فلان ما فعلت فلانة؟ فإذا كان مات، ولم ياتهم قالوا خولف به إلى أمه الهاوية، فبئست الأم، وبئست المربية». وأخرج ابن مردويه من حديث أبي أيوب الأنصاري نحوه. وأخرج ابن المبارك من حديث أبي أيوب نحوه أيضاً.

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية عند الجميع. وروى البخاري أنها مدنية. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزل بمكة ﴿الهاكم التكاثر﴾. وأخرج الحاكم، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية في كل

والاستفهام للتعظيم، والتفخيم لشأنها، كما تقدّم بيانه في قوله: ﴿الحاقة﴾ * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة ﴿[الحاقة: 1-3]﴾ وقيل: معنى الكلام على التحذير. قال الزجاج: والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب، وأنشد قول الشاعر:

لجديرون بالفراء إذا قال . أخو النجدة السلاح السلاح
والحمل على معنى التفخيم، والتعظيم أولى، ويؤيده وضع الظاهر موضع الضمير، فإنه أدل على هذا المعنى، ويؤيده أيضاً قوله: ﴿وَمَا أَنْدَرَكُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ فإنه تأكيد لشدة هولها، ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تتألف لراية أحد منهم، وما الاستفهامية مبتدأ، وأدراك خبرها، وما القارعة مبتدأ وخبر، والجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني، والمعنى: وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة؟ ثم بيّن سبحانه متى تكون القارعة فقال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ وانتصاب الظرف بفعل محذوف تدل عليه القارعة أي: تقرعهم يوم يكون الناس إلخ، ويجوز أن يكون منصوباً بتقدير انكر. وقال ابن عطية، ومكي، وأبو البقاء: هو منصوب بنفس القارعة، وقيل: هو خبر مبتدأ محذوف، وإنما نصب لإضافته إلى الفعل، فالفتحة فتحة بناء لا فتحة إعراب أي: هي يوم يكون إلخ. وقيل التقدير: ستاتيكم القارعة يوم يكون، وقرأ زيد بن علي برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقتر. والفراش: الطير الذي تراه يتساقط في النار، والسراج، والواحدة فراشة، كذا قال أبو عبيدة وغيره. قال الفراء: الفرش هو الطائر من بعوض وغيره، ومنه الجراد. قال وبه يضرب المثل في الطيش، والهوج، يقال: أطيش من فراشة، وأنشد:

فراشة الحلم فرعون العذاب وإن . يطلب نداءه فكلب بونه كلب
وقول آخر:

وقد كان أقوام ربت حلومهم . عليهم وكانوا كالفرش من الجهل
والمراد بالمبثوث المتفرق المنتشر، يقال بثه: إذا فرقه، ومثل هذا قوله سبحانه في آية أخرى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: 7] وقال الميثوث، ولم يقل الميثوثة؛ لأن الكل جائز، كما في قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: 20] و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 7] وقد تقدّم بيان وجه ذلك ﴿وَيَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أي: كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذي نفش بالنفث، والعهن عند أهل اللغة: الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة، وقد تقدّم بيان هذا في سورة سأل سائل، وقد ورد في الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة. وقد قسّمنا بيان الجمع بينها. ثم نكر سبحانه أحوال الناس، وتفريقهم فريقين على جهة الإجمال فقال: ﴿فَإِمَاماً مَنْ ثَلُثَتْ مَوَازِينَهُ﴾ فهو في عيشة راضية قد تقدّم القول في الميزان في سورة الأعراف، وسورة الكهف، وسورة الأنبياء.

وقد اختلف فيها هنا، فقيل: هي جمع موزن وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله، وبه قال الفراء وغيره، وقيل:

بالأموات. وقيل: نزلت في حيين من الأنصار. والمقابر جمع مقبرة بفتح الباء وضمها. وفي الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا، والمكاثرة بها، والمفاخرة فيها من الخصال المنمومة، وقال سبحانه: ﴿الْهَٰكِمُ التَّكَاثُرُ﴾ ولم يقل عن كذا، بل أطلقه؛ لأن الإطلاق أبلغ في الذم؛ لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، ولأن حنف المتعلق مشعر بالتعميم، كما تقرّر في علم البيان؛ والمعنى أنه شغلكم التكاثر عن كل شيء يجب عليكم الاشتغال به من طاعة الله، والعمل للأخرة، وعبر عن موتهم بزيارة المقابر؛ لأن الميت قد صار إلى قبره، كما يصير الزائر إلى الموضع الذي يزوره هذا على قول من قال: إن معنى ﴿زُرْتُمْ لِلْمَقَابِرِ﴾ متم، أما على قول من قال: إن معنى ﴿زُرْتُمْ لِلْمَقَابِرِ﴾ نكرتم الموتى، وعدتموهم للمفاخرة، والمكاثرة، فيكون ذلك على طريق التهكم بهم، وقيل: إنهم كانوا يزورون المقابر، فيقولون هذا قبر فلان، وهذا قبر فلان فيفتخرون بذلك ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ردع وزجر لهم عن التكاثر، وتنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة، وفيه وعيد شديد. قال الفراء أي: ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر. ثم كرّر الردع والزجر، والوعيد فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وثم للدلالة على أن الثاني أبلغ من الأول، وقيل: الأول عند الموت أو في القبر، والثاني يوم القيامة. قال الفراء: هذا التكرار على وجه التغليف والتأكيد. قال مجاهد: هو وعيد بعد وعيد. وكذا قال الحسن، ومجاهد ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون الأمر الذي أنتم صاثرون إليه علماً يقيناً كعلمكم ما هو متيقن عنكم في الدنيا، وجواب لو محذوف أي: لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير، وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه، وكلا في هذا الموضع الثالث للزجر، والردع كالموضعين الأولين. وقال الفراء: هي بمعنى حقاً، وقيل: هي في المواضع الثلاثة بمعنى لا. قال قتادة: اليقين هنا الموت، وروي عنه أيضاً أنه قال: هو البعث. قال الأخفش: التقدير لو تعلمون علم اليقين ما الهامكم، وقوله: ﴿لَتَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جواب قسم محذوف، وفيه زيادة وعيد وتهديد أي: والله لتتروُنَّ الجحيم في الآخرة. قال الرازي: وليس هذا جواب لو، لأن جواب لو يكون منفيّاً، وهذا مثبت؛ ولأنه عطف عليه ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ﴾ وهو: مستقبل لا بد من وقوعه قال: وحنف جواب لو كثير، والخطاب للكفار، وقيل: عام كقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ فِيهَا مَا يَغْنَمُونَ﴾ [مريم: 71] قرأ الجمهور (لتتروُنَّ) بفتح التاء مبنياً للفاعل وقرأ الكسائي، وابن عامر بضمها مبنياً للمفعول، ثم كرّر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال: ﴿ثُمَّ لَتَتَرَوُنَّ عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي: ثم لتتروُنَّ الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين، وهي المشاهدة والمعينة، وقيل المعنى: لتتروُنَّ الجحيم بأبصاركم على البعد منكم، ثم لتتروُنَّ مشاهدة على القرب. وقيل المراد بالأول رؤيتها قبل دخولها، والثاني رؤيتها حال دخولها. وقيل: هو إخبار عن

يوم؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿الْهَٰكِمُ التَّكَاثُرُ﴾. وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق، والدلمي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ألف آية لقي الله وهو ضاحك في وجهه، قيل: يا رسول الله، ومن يقوى على ألف آية؟» فقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الْهَٰكِمُ التَّكَاثُرُ﴾ [أي: سورة التكاثر] إلى آخرها، ثم قال: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ألف آية». وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن عبد الله بن الشخير قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ ﴿الْهَٰكِمُ التَّكَاثُرُ﴾، وفي لفظ: وقد أنزلت عليه ﴿الْهَٰكِمُ التَّكَاثُرُ﴾، وهو يقول: ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت، فأفانيت». وأخرجه مسلم، وغيره من حديث أبي هريرة، ولم ينكر فيه قراءة هذه السورة، ولا نزولها بلفظ: «يقول العبد مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاثة: ما أكل فافقنى، أو لبس فابلى، أو تصدق فافقنى، وما سوى ذلك، فهو ذاهب، وتاركه للناس». وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والبيهقي في الشعب، وضعفه عن جرير بن عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إني قارئ عليكم سورة ﴿الْهَٰكِمُ التَّكَاثُرُ﴾، فمن بكى، فله الجنة، فقراها، فمنا من بكى، ومنا من لم يبكي، فقال الذين لم يبكوا: قد جهدنا يا رسول الله أن نبكي، فلم نقدر عليه، فقال: إني قارئها عليكم الثانية، فمن بكى، فله الجنة، ومن لم يقدر أن يبكي، فليتبكى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَٰكِمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧

قوله: ﴿الْهَٰكِمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد، والتفاخر بكثرتها، والتغالب فيها. يقال: الهاه عن كذا، والهاه إذا شغله، ومنه قول امرئ القيس:

فاليهتها عن ذي تائم محول

وقال الحسن: معنى الهامكم: أنساكم ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: حتى أنركم الموت، وأنتم على تلك الحال. وقال قتادة: إن التكاثر التفاخر بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: الهامك التشاغل بالمعاش. وقال مقاتل، وقاتدة أيضاً، وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا نحن أكثر من بني فلان، وبني فلان أكثر من بني فلان، الهامك ذلك حتى ماتوا. وقال الكلبي: نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم تعاونوا، وتكاثروا بالسيادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حي منهم: نحن أكثر سيدياً، وأعزّ عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر قائدأ، فكثر بنو عبد مناف بني سهم، ثم تكاثروا بالأموات، فكثرهم بهم، فنزلت: ﴿الْهَٰكِمُ التَّكَاثُرُ﴾ فلم ترضوا ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ مفتخرين

كان عنه مسؤولاً [الإسراء: 36] وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، وابن مروييه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: ﴿لَمَّا لَتَسَالَنَ يَوْمئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: الأمن، والصحة. وأخرج البيهقي عن علي بن أبي طالب قال: النعيم العافية. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: من أكل خبز البر، وشرب ماء الفرات مبرداً، وكان له منزل يسكنه، فذلك من النعيم الذي يسأل عنه. وأخرج ابن مروييه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: أكل خبز البر، والنوم في الظل، وشرب ماء الفرات مبرداً. ولعل رفع هذا لا يصح، فربما كان من قول أبي الدرداء. وأخرج أحمد في الزهد، وابن مروييه عن أبي قلابة عن النبي ﷺ في الآية قال: «ناس من امتي يعتقدون السمن والعسل بالنقي، فيأكلونه» وهذا مرسل. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية. قال الصحابة: «يا رسول الله أي نعيم نحن فيه؟ وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ أن قل لهم: ليس تحتون النعال، وتشربون الماء البارد، فهذا من النعيم». وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وأحمد، وابن جرير، وابن مروييه، والبيهقي في الشعب عن محمود بن لبيد قال: «لما نزلت: ﴿الْهَآكِمُ لِلْكَآثِرِ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿لَمَّا لَتَسَالَنَ يَوْمئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قالوا: يا رسول الله أي نعيم نسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: الماء، والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعنق حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: أما إن تلك سيكون». وأخرجه عبد بن حميد، والترمذي، وابن مروييه من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مروييه من حديث الزبير بن العوام. وأخرج أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن حبان، وابن مروييه، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يَسْأَلُ الْعَبْدُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يَقَالَ لَهُ: أَلَمْ نَصَعْ لَكَ جَسَدَكَ، وَنَرُوكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروييه، والبيهقي في الشعب عن جابر بن عبد الله قال: «جاءنا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، فاطعمناهم رطباً، وسقيناهم ماء، فقال رسول الله ﷺ: هذا من النعيم الذي تسألون عنه». وأخرج عبد بن حميد، وابن مروييه، والبيهقي من حديث جابر بن عبد الله نحوه. وأخرج مسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن أبي هريرة قال: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَقَالَ: مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بَيْتِكُمَا السَّاعَةَ؟ قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا فَقُومَا فَقَامَا مَعَهُ، فَاتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيْنَ فُلَانٌ؟ قَالَتْ: انْطَلَقَ يَسْتَعِذُّ لَنَا الْمَاءَ إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبِيهِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدُ الْيَوْمِ أَكْرَمَ

يَوْمَ بِقَائِهِمْ فِي النَّارِ أَي: هِيَ رُؤْيَا دَائِمَةٌ مُتَصِلَةٌ. وَقِيلَ الْمَعْنَى: لَوْ تَعْلَمُونَ الْيَوْمَ عِلْمَ الْيَقِينِ، وَأَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ بَعِيُونَ قُلُوبَكُمْ، وَهُوَ أَنْ تَتَصَوَّرُوا أَمْرَ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالَهَا ﴿لَمَّا لَتَسَالَنَ يَوْمئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أَي: عَنِ نَعِيمِ الدُّنْيَا الَّذِي الْهَآكِمُ عَنِ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي: كَفَارَ مَكَّةَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي الْخَيْرِ وَالنَّعْمَةِ، فَيَسْأَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ شُكْرِ مَا كَانُوا فِيهِ، وَلَمْ يَشْكُرُوا رَبَّ النَّعْمِ حَيْثُ عْبَدُوا غَيْرَهُ، وَاشْرَكُوا بِهِ. قَالَ الْحَسَنُ: لَا يَسْأَلُ عَنِ النَّعِيمِ إِلَّا أَهْلُ النَّارِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ سَائِلُ كُلِّ ذِي نِعْمَةٍ عَمَّا أَنْعَمَ عَلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَلَا وَجْهَ لِتَخْصِصِ النَّعِيمِ بِفَرْدٍ مِنَ الْإِنْفِرَادِ، أَوْ نَوْعٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ؛ لِأَنَّ تَعْرِيفَهُ لِلْجَنَسِ، أَوْ الْإِسْتِفْرَاقِ، وَمَجْرَدُ السُّؤَالِ لَا يَسْتَلْزِمُ تَعْيِينَ الْمَسْئُولِ عَلَى النَّعْمَةِ الَّتِي يَسْئَلُ عَنْهَا، فَقَدْ يَسْأَلُ اللَّهُ الْمُؤْمِنُ عَنِ النَّعْمِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِ فِيمَ صَرَفَهَا، وَبِمَ عَمِلَ فِيهَا؟ لِيَعْرِفَ تَقْصِيرَهُ، وَعَدَمَ قِيَامِهِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ، وَقِيلَ: السُّؤَالُ عَنِ الْأَمْنِ وَالصَّحَّةِ، وَقِيلَ: عَنِ الصَّحَّةِ وَالْفَرَاغِ، وَقِيلَ: عَنِ الْإِبْرَاقِ بِالْحَوَاسِّ، وَقِيلَ: عَنِ مَلَأَةِ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ، وَقِيلَ: عَنِ الْغَدَاءِ وَالْعِشَاءِ، وَقِيلَ: عَنِ بَارِدِ الشَّرَابِ وَظِلَالِ الْمَسَاكِنِ، وَقِيلَ: عَنِ اعْتِدَالِ الْخَلْقِ، وَقِيلَ: عَنِ لَذَّةِ النَّوْمِ، وَالْأَوَّلَى الْعُمُومُ، كَمَا نَكْرَاهُ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بردة في قوله: ﴿الْهَآكِمُ لِلْكَآثِرِ﴾ قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان، وفلان. وقال الآخرون: مثل ذلك تفاخروا بالأحياء. ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر، ومثل فلان، وفعل الآخرون كذلك، فانزل الله: ﴿الْهَآكِمُ لِلْكَآثِرِ﴾ حتى زوتم للمقابر. لقد كان لكم فيما زوتم عبرة وشغل. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿الْهَآكِمُ لِلْكَآثِرِ﴾ قال: في الأموال والأولاد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروييه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿الْهَآكِمُ لِلْكَآثِرِ﴾ يعني عن الطاعة ﴿حَتَّى زُوتُمْ لِلْمَقَابِرِ﴾ يقول: حتى يأتىكم الموت ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو قد دخلتم قبوركم ﴿حَتَّى زُوتُمْ لِلْمَقَابِرِ﴾ يقول: لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ قال: لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم، فنجاة مسلم، ومخدوش مسلم، ومكدوش في نار جهنم ﴿لَمَّا لَتَسَالَنَ يَوْمئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ يعني: شيع البطون، وبارد الشرب، وظلال المساكين، واعتدال الخلق، ولذة النوم. وأخرج ابن مروييه عن عياض بن غنم مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروييه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمَّا لَتَسَالَنَ يَوْمئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: صحة الأبدان، والأسماع، والأبصار، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ

الجمهور (والعصر) بسكون الصاد. وقرأوا أيضاً (خسر) بضم الخاء، وسكون السين. وقرأ يحيى بن سلام (والعصر) بكسر الصاد. وقرأ الأعرج، وطلحة، وعيسى (خسر) بضم الخاء والسين، ورويت هذه القراءة عن عاصم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح، فإنهم في ربح لا في خسر؛ لأنهم عملوا للأخرة، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، والاستثناء متصل، ومن قال: إن المزداد بالإنسان الكافر فقط، فيكون منقطعاً، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة، ولا وجه لما قيل: من أن المراد الصحابة أو بعضهم، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان، والعمل الصالح ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي: وصى بعضهم بعضاً بالحق الذي يحق القيام به، وهو الإيمان بالله، والتوحيد، والقيام بما شرعه الله، واجتناب ما نهى عنه. قال قتادة: بالحق أي: بالقرآن، وقيل: بالتوحيد، والحمل على العموم أولى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي: بالصبر عن معاصي الله سبحانه، والصبر على فرائضه. وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره، وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153] وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق، فإفراده بالذكر، وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق، ومزيد شرفه عليها، وارتفاع طبقته عنها. وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ قال: الدهر. وأخرج ابن جرير عنه قال: هو ساعة من ساعات النهار. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: هو ما قبل مغيب الشمس من العشي. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن علي بن أبي طالب أنه كان يقرأ (والعصر * ونوائب الدهر * إن الإنسان لفي خسر * وإنه فيه إلى آخر الدهر). وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ (والعصر إن الإنسان لفي خسر * وإنه لفيه إلى آخر الدهر) اهـ.

تفسير سورة الهمزة

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [أي: سورة الهمزة] بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① الَّتِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَتْ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَتْهُ ③ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي أُنْتِطَةِ ④ وَمَا أَذْرَكَ مَا لَطَفَتْهُ ⑤ تَارَ اللَّهُ الْوَدَّ ⑥ الَّتِي تَكَلَّمَ عَلَى الْأَفْنَدَةِ ⑦ إِنِّي عَلَيْكَ مُوَدَّدٌ ⑧ فِي عَمْرِ مُدَّدٍ ⑨

أضياًفاً مني، فأنطلق، فجاء بعنق فيه بسر، وتمر. فقال: كلوا من هذا، وأخذ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحبوب، فذبح لهم فاكلوا من الشاة، ومن ذلك العنق، وشرّبوا، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر، وعمر: والذي نفسي بيده لنسألن عن هذا النعيم يوم القيامة» وفي الباب أحاديث اهـ.

تفسير سورة العصر

وهي مكية عند الجمهور. وقال قتادة: هي مدنية. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة العصر بمكة. وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب عن أبي مزينة الدارمي، وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر. ثم يسلم أحدهما على الآخر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ② إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ③ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ④ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ⑤

أقسم سبحانه بالعصر، وهو الدهر، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار، وتعاقب الظلام والضياء، فإن في ذلك دلالة بيّنة على الصانع عز وجل، وعلى توحيده، ويقال لليل عصر، وللنهار عصر، ومنه قول حميد بن ثور:

ولم ينته العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تمنيا
ويقال للغداة والعشي عصران، ومنه قول الشاعر:

وأمله العصرين حتى يملني ويرضى بنصف الدين والأنف راغم
وقال قتادة والحسن: المراد به في الآية العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، ومنه قول الشاعر:

يروح بنا عمرو وقد قصر العصر وفي الروحة الأولى الغنية والأجر
وروي عن قتادة أيضاً أنه آخر ساعة من ساعات النهار. وقال مقاتل: إن المراد به صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى التي أمر الله سبحانه بالمحافظة عليها، وقيل: هو قسماً بعصر النبي ﷺ. قال الزجاج: قال بعضهم: معناه، ورب العصر، والأول أولى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسَرٍ﴾ هذا جواب القسم. الخسر، والخسران النقصان، وذهاب رأس المال، والمعنى: أن كل إنسان في المتاجر والمساغي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص، وضلال عن الحق حتى يموت. وقيل: المراد بالإنسان الكافر، وقيل: جماعة من الكفار وهم: الوليد بن المغيرة، والحاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأول أولى لما في لفظ الإنسان من العموم، ولدلالة الاستثناء عليه. قال الأخفش: ﴿فِي خَسَرٍ﴾ في هلكة. وقال الفراء: عقوبة. وقال ابن زيد: لفي شر. قرأ

وعنده: إذا أمسكته. قال السدي: أحصى عدده. وقال الضحك: أعد ماله لمن يرثه. وقيل: المعنى فاخر بكثيره وعدده، والمقصود أنه على جمع المال، وإمساكه، وعدم إنفاقه في سبيل الخير. وقيل: المعنى على قراءة التخفيف في عدده، أنه جمع عشيرته وأقاربه. قال المهوي: من خفف وعنده، فهو معطوف على المال أي: وجمع عدده، وجملة: **«يحسب أن ماله لخلده»** مستأنفة: لتقرير ما قبلها، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال أي: يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حياً مخلداً لا يموت. وقال عكرمة: يحسب أن ماله يزيد في عمره، والإظهار في موضع الإضمار للتقريع والتوبيخ. وقيل: هو تعريض بالعمل الصالح، وأنه الذي يخلد صاحبه في الحياة الأبدية لا المال. وقوله: **«كلا»** ردع له عن تلك الحسبان أي: ليس الأمر على ما يحسبه هذا الذي جمع المال وعدده، واللام في: **«لينبذ في الحطمة»** جواب قسم محذوف أي: ليطرحن في النار، وليلقين فيها. قرأ الجمهور (لينبذن) وقرأ علي، والحسن، ومحمد بن كعب، ونصر بن عاصم، ومجاهد، وحديد، وابن محيصن (لينبذن) بالثنية أي: لينبذ هو وماله في النار. وقرأ الحسن أيضاً (لينبذن) أي: لينبذن ماله في النار **«وما أدراك ما الحطمة»** هذا الاستفهام للتحويل والتفطيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول، وتبلغه الأفهام. ثم بينا سبحانه فقال: **«نار الله الموقدة»** أي: هي نار الله الموقدة بأمر الله سبحانه، وفي إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها وتفخيم، وكذلك في وصفها بالإيقاد: وسميت حطمة؛ لأنها تحطم كل ما يلقى فيها وتهشمه، ومنه: إنأحططنا بالقضيب مصعباً يرم كسرنا أنفس ليغضبنا قيل: هي الطبقة السانسة من طبقات جهنم، وقيل: الطبقة الثانية منها، وقيل: الطبقة الرابعة **«التي تطلع على الأفئدة»** أي: يخلص حرماً إلى القلوب فيعلوها ويغشاها، وخص الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم؛ لأنها محل العقائد الزائفة، أو لكون الألم إذا وصل إليها مات صاحبها أي: إنهم في حال من يموت، وهم لا يموتون. وقيل معنى: **«تطلع على الأفئدة»** أنها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب، وذلك بآمارات عرفها الله بها **«إنها عليهم مؤصدة»** أي: مطبقة مغلقة، كما تقدم بيانه في سورة البلد، يقال أصلت الباب: إذا أغلقته، ومنه قول قيس بن الرقيات:

إن في القصر لو دخلنا غزلاً مصبياً موصداً عليه الحجاب
«في عمد ممددة» في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم أي: كائنين في عمد ممددة موثقين فيها، أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم في عمد، أو صفة لمؤصدة أي: مؤصدة بعمد ممددة. قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم، ثم شئت بأوتار من حديد، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم روح. ومعنى كون العمد ممددة: أنها مطوكة، وهي: أرسخ من القصيرة. وقيل: العمد أغلال

الويل: هو مرتفع على الابتداء، وسوغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم، وخبره **«لكل همزة لمزة»** والمعنى: خزي، أو عذاب، أو هلكة أو واد في جهنم لكل همزة لمزة. قال أبو عبيدة، والزجاج: الهمزة للهمزة الذي يغتاب الناس، وعلى هذا هما بمعنى وقال أبو العالية، والحسن، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح: الهمزة الذي يغتاب الرجل في وجهه، واللمزة: الذي يغتابه من خلفه. وقال قتادة عكس هذا. وروي عن قتادة، ومجاهد أيضاً أن الهمزة: الذي يغتاب الناس في أنسابهم. وروي عن مجاهد أيضاً أن الهمزة: الذي يهزم الناس بيده، واللمزة الذي يلزمهم بلسانه. وقال سفيان الثوري: يهزمهم بلسانه، ويلزمهم بعينه. وقال ابن كيسان الهمزة: الذي يؤدي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عينه على جلسيه، ويشير بيده وبرأسه وبحاجبيه، والأول أولى، ومنه قول زياد الأعجم:

تدلي بود إذا لقيتني كذباً وإن أغيب فانت الهامز اللمزة
 وقول الآخر:

إذا لقيتك عن سخط تكاشرتني وإن تغيبت كنت الهامز اللمزة
 وأصل الهمز الكسر، يقال: همز رأسه كسره، ومنه قول العجاج:

ومن همزنا رأسه تهشما

وقيل: أصل الهمز واللمز: الضرب والدفع، يقال: همزه يهزمه همزاً، ولمزه يلزمه لمزاً: إذا دفعه وضربه، ومنه قول الشاعر:

ومن همزنا عزه تبركعا على أسته زبيعة أو زبيعا
 البركة: القيام على أربع، يقال بركهه، فتبركع أي: صرعه، فوقع على أسته، كذا في الصحاح، وبناء فعلة يدل على الكثرة، ففيه دلالة على أنه يفعل ذلك كثيراً، وأنه قد صار ذلك عادة له، ومثله ضحكة ولعنة. قرأ الجمهور (همزة لمزة) بضم أولهما، وفتح الميم فيهما. وقرأ الباقون، والأعرج بسكون الميم فيهما. وقرأ أبو وائل، والنخعي، والأعمش (ويل للهمزة للهمزة) والآية تعم كل من كان متصفاً بذلك، ولا ينافية نزولها على سبب خاص، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب **«الذي جمع مالا وعدده»** الموصول بدل من كل، أو في محل نصب على النّم، وهذا أرجح؛ لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه في حكم الطرح، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف؛ لأنه يجري مجرى السبب، والعلة في الهمز واللمز، وهو إعجابه بما جمع من المال، وظنه أنه الفضل، فلأجل ذلك يستقصر غيره. قرأ الجمهور (جمع) مخففاً. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي بالتشديد. وقرأ الجمهور (وعده) بالتشديد، وقرأ الحسن، والكلبي، ونصر بن عاصم، وأبو العالية بالتخفيف، والتشديد في الكلمتين يدل على التكثر وهو جمع الشيء بعد الشيء، وتعميده مرة بعد أخرى. قال الفراء: معنى: عدده أحصاه. وقال الزجاج: وعدده لنوائب الدهور. يقال: أعددت الشيء

نكر قصة أصحاب الفيل إن شاء الله **﴿الم يجعل كيدهم في تضليل﴾** أي: ألم يجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة، واستباحة أهلها في تضليل عما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت ولا إلى ما أرادوه بكيدهم، والهزمة للتقرير كأنه قيل: قد جعل كيدهم في تضليل، والكيد: هو إرادة المضرة بالغير؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل والسبي، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم **﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾** أي: أطاقع يتبع بعضها بعضاً كالإبل المؤبلة. قال أبو عبيدة: أبابيل جماعات في تفرقة، يقال جاءت الخيل أبابيل أي: جماعات من ههنا وههنا. قال النحاس: وحقيقته أنها جماعات عظام، يقال فلان توبل على فلان أي: تعظم عليه، وتكبر، وهو مشتق من الإبل، وهو من الجمع الذي لا واحد له. وقال بعضهم: واحده أبول مثل عجول. وقال بعضهم: أبيل، قال الواحدي: ولم نر أحداً يجعل لها واحداً. قال الفراء: لا واحد له من لفظه. وزعم الرؤاسي وكان ثقة أنه سمع في واحدها: أبالة مشدداً. وحكى الفراء أيضاً: أبالة بالتخفيف. قال سعيد بن جبيل: كانت طيراً من السماء لم ير قبلها ولا بعدها. قال قتادة: هي: طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجله، وحجر في منقاره لا يصيب شيئاً إلا هشمه. وقيل: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرووس السباع. وقيل: كان لها خراطيم كخراطيم الطير، وكف كالكف الكلاب. وقيل: في صفتها غير ذلك، والعرب تستعمل الأبابيل في الطير، كما في قول الشاعر:

تراهم إلى الداعي سراعاً كأنهم أبابيل طير تحت دجن مسجن
وتستعملها في غير الطير كقول الآخر:

كانت تهذ من الأصوات راحلتي أن سالت الأرض بالجرد الأبابيل
﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾ الجملة في محل نصب صفة لطير. قرأ الجمهور (ترميهم) بالفوقية. وقرأ أبو حنيفة، وأبو معمر، وعيسى، وطلحة بالتحنية، واسم الجمع ينكر ويؤنث. وقيل: الضمير في القراءة الثانية لله عز وجل. قال الزجاج **﴿من سجيل﴾** أي: مما كتب عليهم العذاب به، مشتقاً من السجل. قال في الصحاح قالوا: هي حجارة من طين طيخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم. قال عبد الرحمن بن أبيزى: **﴿من سجيل﴾** من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط، وقيل: من الجحيم التي هي سجين، ثم أبليت النون لأم، ومنه قول ابن مقبل:

ضرباً توأمت به الأبطال سجيلاً

ولأنما هو سجيناً. قال عكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجحدرى، وكان الحجر كالحمص، وفوق العدسة، وقد قَدَّمْنَا الكلام في سجيل في سورة هود **﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾** أي: جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته النوا

في جهنم، وقيل: القيود. قال قتادة: المعنى: هم في عمد يعذبون بها، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور (في عمد) بفتح العين، والميم. قيل: هو اسم جمع لعمود. وقيل: جمع له. قال الفراء: هي جمع لعمود كأيمن وأدم. وقال أبو عبيدة: هي جمع عماد. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر بضم العين، والميم جمع عمود. قال الفراء: هما جمعان صحيحان لعمود. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم وقراءة الجمهور. قال الجوهري: العمود عمود البيت، وجمع القلة أعمدة، وجمع الكترة عمد وعمد، وقرئ بهما. قال أبو عبيدة: العمود كل مستطيل من خشب أو حديد.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مرويه من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: **﴿ويل لكل همزة لمزة﴾** قال: هو المشاء بالنميمة، المفرق بين الجمع، المغري بين الإخوان. وأخرج ابن جرير عنه: **﴿ويل لكل همزة﴾** قال: طعان **﴿لمزة﴾** قال: مغتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: **﴿إنها عليهم مؤصدة﴾** قال: مطبقة **﴿في عمد ممّدة﴾** قال: عمد من نار. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: هي الأدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأبواب هي الممّدة. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: أدخلهم في عمد، فمّنت عليهم في أعناقهم، فشنت بها الأبواب.

تفسير سورة الفيل

وأخرج ابن مرويه عن ابن عباس قال: أنزلت بمكة **﴿الم تر كيف فعل ربك﴾** [أي: سورة الفيل].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ۚ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَابٍ ذِينَ سَيْلٍ ﴿٤﴾ لِيَجْعَلَ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

الاستفهام في قوله: **﴿الم تر﴾** لتقرير رؤيته **﴿بأنكار عديمها﴾** قال الفراء: المعنى ألم تخبر، وقال الزجاج: ألم تعلم، وهو تعجيب له **﴿بما فعله الله﴾** **﴿بأصحاب الفيل﴾** الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة، وكيف منصوبة بالفعل الذي بعدها، ومعلقة لفعل الرؤية، والخطاب لرسول الله **﴿ﷺ﴾**، ويجوز أن يكون لكل من يصلح له. والمعنى: قد علمت يا محمد، أو علم الناس الموجودون في عصرك، ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل، وما فعل الله بهم، فما لكم لا تؤمنون؟ والفيل هو الحيوان المعروف، وجمعه أفيال، وفيل، وفيلة. قال ابن السكيت: ولا تقول أفيلة، وصاحبه فيال، وسياتي

تفسير سورة قريش

وهي مكية عند الجمهور، وقال الضحاك، والكلبي: هي مدنية.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة: ﴿إِيلَافٌ﴾ بمكة. وأخرج البخاري في تاريخه، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب، أن رسول الله ﷺ قال: «فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم، ولا يعطيها أحداً بعدهم: أني فيهم. وفي لفظ: النبوة فيهم، والخلافة فيهم، والحجبة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل، وعبدوا الله سبع سنين. وفي لفظ: عشر سنين لم يعبد أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم ينكر فيها أحد غيرهم: ﴿إِيلَافٌ قُرَيْشٍ﴾» [أي: سورة قريش] قال ابن كثير: هو حديث غريب، ويشهد له ما أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل الله قريشاً بسبع خصال: فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد إلا قريش، وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم، وهي: ﴿إِيلَافٌ قُرَيْشٍ﴾، وفضلهم بأن فيهم النبوة، والخلافة، والسقاية». وأخرج الخطيب في تاريخه عن سعيد بن المسيب مرفوعاً نحوه، وهو مرسل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِيلَافٌ قُرَيْشٍ ① لِأَنَّهُمْ رَحِلَةٌ الْبَنَاءِ ② وَالضَّيْفِ ③ قَلَمِيدُوا ④ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ⑤ أَلَاؤُكَ أَطْمَعُهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَسْأَلُهُمْ مِنْ حَوْبٍ ⑥

اللام في قوله: ﴿إِيلَافٌ﴾ قيل: هي متعلقة بأخر السورة التي قبلها، كأنه قال سبحانه: أهلك أصحاب الفيل لأجل تلف قريش. قال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبيشة. ثم قال: ﴿إِيلَافٌ قُرَيْشٍ﴾ أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، وذلك أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها، فلا يغار عليها في الجاهلية، يقولون: هم أهل بيت الله عز وجل، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها فيبني بها بيتاً في اليمن يحج الناس إليه، فاهلكهم الله عز وجل، فذكرهم نعمته أي: فعل ذلك لإيلاف قريش: أي: ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم، ونكر نحو هذا ابن قتبية. قال الزجاج: والمعنى: فجعلهم كعصف مأكول ﴿إِيلَافٌ قُرَيْشٍ﴾ أي: أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف. وقال في الكشف: إن اللام متعلق بقوله: ﴿فليعبدوا﴾ أمرهم أن يعبدوا لأجل إيلافهم الرحلتين، وبخلت الفاء لما في الكلام من معنى

فرمت به من أسفل، شبه تقطع أوصالهم بتفريق لجزائه. وقيل المعنى: أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب وبقي منه بقايا، أو أكلت حبه، فبقي بنون حبه. والعصف جمع عصف، وعصافة، وعصيفة، وقد قَدَمْنَا الكلام في العصف في سورة الرحمن، فارجع إليه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح، فأتاهم عبد المطلب فقال: إن هذا بيت الله لم يسلط عليه أحد، قالوا: لا نرجع حتى نهزم، وكانوا لا يقدّمون فيلهم إلا تأخر، فدعا الله الطير الأبابيل، فأعطاهم حجارة سوداً عليها الطين، فلما حانتهم رميتهم، فما بقي منهم أحد إلا أخذته الحكمة، فكان لا يحك الإنسان منهم جلده إلا تساقط لحمه. وأخرج ابن المنذر، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي عنه قال: أقبل أصحاب الفيل حتى إذا نذوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال لملكهم: ما جاء بك إلينا؟ ألا بعثت، فناتيك بكل شيء؟ فقال: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أمن، فجئت أخيف أهله، فقال: إنا ناتيك بكل شيء تريد، فارجع، فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله، فاقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلمت طير أبابيل التي قال الله: ﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾ فجعل الفيل يعج عجا ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾. وقصة أصحاب الفيل مبسوبة مطوّلة في كتب التاريخ والسير، فلا نطوّل بذكرها. وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾ قال: حجارة مثل البنق، وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة لحجار: حجران في رجله، وحجر في منقاره حلقت عليهم من السماء، ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة، فلم تعد عسكرهم. وأخرج أبو نعيم من طريق عطاء، والضحاك عنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل بريد مجتمعة، لها خرطوم تحمل حصاة في منقارها، وحصاتين في رجليها، ترسل واحدة على رأس الرجل، فيسيل لحمه ودمه ويبقى عظماً خالوياً لا لحم عليها ولا جلد ولا دم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ يقول: كالتين. وأخرج ابن إسحاق في السيرة، والواقدي، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل، وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. وأخرج الواقدي نحوه عن أسماء بنت أبي بكر. وأخرج أبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: ولد النبي ﷺ عام الفيل. وأخرج ابن إسحاق، وأبو نعيم، والبيهقي عن قيس بن مخزوم قال: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل.

أطعمهم من جوع أي: أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وقيل: إن هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبي ﷺ دعا عليهم، فقال: اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا فإننا مؤمنون، فدعا، فأخصبوا وزال عنهم الجوع، وارتفع القحط **«وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»** أي: من خوف شديد كانوا فيه. قال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضاً، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم. وقال الضحاك، والربيع، وشريك، وسفيان: آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل.

الشرط؛ لأن المعنى: أما لا، فليعبدوه. وقد تقدّم صاحب الكشاف إلى هذا القول الخليل بن أحمد، والمعنى: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة. وقال الكسائي والأخفش: اللام لام التعجب: أي اعجبوا لإيلاف قريش. وقيل: هي بمعنى إلي. قرأ الجمهور (الإيلاف) بالياء مهموزاً من الفت أولف إيلاف، يقال: الفت الشيء الألفاً والفاءً. وافتة إيلافاً بمعنى، ومنه قول الشاعر:

المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف
وقرأ ابن عامر (الإلاف) بدون الياء، وقرأ أبو جعفر (الإلاف) وقد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر، فقال:

زعمتم أن إختوكم قريش لهم ألف وليس لكم ألف
وقرأ عكرمة (ليالف قريش) بفتح اللام على أنها لام الأمر، وكذلك هو: في مصحف ابن مسعود، وفتح لام الأمر لغة معروفة. وقرأ بعض أهل مكة (الإلف قريش) واستشهد بقول أبي طالب:

تذود الورى من عصبة هاشمية إلفهم في الناس خير إلف
وقريش هم: بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي، ومن لم يلد به النضر فليس بقرشي، وقريش يأتي منصرفاً إن أريد به الحي، وغير منصرف إن أريد به القبيلة ومنه قول الشاعر:

وكفى قريش المعضلات وسادها

وقيل إن قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر، والأول أصح، وقوله: **«إيلافهم»** بدل من إيلاف قريش، و **«رحلة»** مفعول به إيلافهم وأقربها، ولم يقل رحلتي الشتاء والصيف لأمن الإلباس، وقيل: إن إيلافهم تأكيد للآل لا بدل، والأول أولى. ورجحه أبو البقاء، وقيل: إن رحلة منصوبة بمصدر مقدر أي: ارتحالهم رحلة **«الشتاء والصيف»** وقيل: هي منصوبة على الظرفية والرحلة: الارتحال، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء؛ لأنها بلاد حارة، والرحلة الأخرى إلى الشام في الصيف؛ لأنها بلاد باردة. وروي أنهم كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف، والأول أولى، فإن ارتحال قريش للتجارة معلوم معروف في الجاهلية والإسلام. قال ابن قتيبة: إنما كانت تعيش قريش بالتجارة، وكانت لهم رحلتان في كل سنة: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام، ولولا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرف **«فليعبدوا ربّ هذا البيت»** أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم به عليهم أي: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة، والبيت الكعبة. وعرفهم سبحانه بأنه ربّ هذا البيت؛ لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها، فميز نفسه عنها، وقيل: لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب، فنكر لهم تلك تنكيراً لتعتمته **«الذي**

وقد أخرج أحمد، وابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف»** ويحكم يا قريش، أعبدا ربّ هذا البيت الذي أطعمكم من جوع، وأمنكم من خوف». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **«إيلاف قريش»** قال: نعمتي على قريش **«إيلافهم رحلة الشتاء والصيف»** كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف **«فليعبدوا ربّ هذا البيت»** قال: الكعبة **«الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف»** قال: الجذام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه **«إيلاف قريش * إيلافهم»** قال: لزومهم **«الذي أطعمهم من جوع»** يعني قريشاً أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال: **«وارزق أهلك من الثمرات»** [البقرة: 126] **«وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»** حيث قال إبراهيم **«ربّ اجعل هذا البلد آمناً»** [البقرة: 126] وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله: **«إيلاف قريش»** الآية، قال: نهاهم عن الرحلة، وأمرهم أن يعبدوا ربّ هذا البيت، وكفاهم المؤنة، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف، ولم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع، وأمنهم من خوف، فالفوا للرحلة، وكان ذلك من نعمة الله عليهم. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: أمروا أن يالفوا عبادة ربّ هذا البيت كإفهم رحلة الشتاء والصيف، وقد وردت أحاديث في فضل قريش، وإن الناس تبع لهم في الخير والشر، وإن هذا الأمر يعني الخلافة لا يزال فيهم ما بقي منهم اثنتان، وهي في نواوين الإسلام.

تفسير سورة الماعون

وهي مكية في قول عطاء، وجابر، وأحمد قولي ابن عباس، ومدينة في قول قتادة، وآخرين. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت: **«أرأيت الذي يكذب بالدين»** [أي: سورة الماعون] بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَدَتْ أَلَّذِي يَكْذِبُ بِالْبَيِّنَاتِ ① فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
الْيَتِيمَ ② وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ
④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ ⑥
وَيَسْتَمُونَ الْكَافِرُونَ ⑦

الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والاستفهام لقصد التعجب من حال من يكذب بالدين. والرؤية: بمعنى المعرفة، والدين: الجزاء والحساب في الآخرة. قيل: وفي الكلام حذف، والمعنى: أرايت الذي يكذب بالدين أمصيب هو أم مخطئ. قال مقاتل، والكلي: نزلت في العاص بن وائل السهمي. وقال السدي: في الوليد بن المغيرة. وقال الضحاك: في عمرو بن عائذ. وقال ابن جريج في أبي سفيان، وقيل: في رجل من المنافقين. قرأ الجمهور (أرايت) بثلاث الهزرة الثانية. وقرأ الكسائي بإسقاطها. قال الزجاج: لا يقال في رأيت ريت، ولكن لف الاستفهام سهلت الهزرة ألفاً، وقيل الرؤية: هي البصرية، فيتعدى إلى مفعول واحد، وهو الموصول أي: أبصرت المكذب. وقيل: إنها بمعنى أخبرني، فيتعدى إلى اثنين. الثاني محذوف: أي من هو **﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾** الفاء جواب شرط مقدر: أن إن تأملت أو طلبته، فذلك الذي يدع اليتيم، ويجوز أن تكون عاطفة على الذي يكذب: إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة. فعلى الأوّل يكون اسم الإشارة مبتدأ، وخبره الموصول بعده، أو خبر لمبتدأ محذوف أي: فهو ذلك، والموصول صفة. وعلى الثاني يكون في محل نصب لعطفه على الموصول الذي هو في محل نصب. ومعنى يدع يدفع دفعاً بعنف، وجفوة أي: يدفع اليتيم عن حقه يدفعاً شديداً، ومنه قوله سبحانه: **﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾** [الطور: 13] وقد قبلنا أنهم كانوا لا يؤرثون النساء والصبيان **﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾** أي: لا يحض نفسه، ولا أهله، ولا غيرهم على ذلك بخلاً بالمال، أو تكتيياً بالجزاء، وهو مثل قوله في سورة الحاقة: **﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾** [الحاقة: 34] **﴿فويل﴾** يومئذ **﴿للمصلين﴾** الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل: إذا كان ما نذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين، فويل للمصلين **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾** أي: عذاب لهم، أو هلاك، أو واد في جهنم لهم، كما سبق الخلاف في معنى الويل، ومعنى ساهون: غافلون غير مباليين بها، ويجوز أن تكون الفاء: لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما نكر من قبائحهم، ووضع المصلين موضع ضميرهم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخر غير ما نكر. قال الواحدي: نزلت في المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثواباً إن صلوا، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا، وهو معنى قوله: **﴿الذين هم يراءون﴾** أي:

يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراءون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر: ليتنوا عليهم. قال النخعي **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾** هو الذي إذا سجد قال برأسه هكذا، وهكذا ملتفتاً. وقال قطرب: هو الذي لا يقرأ ولا ينكر الله. وقرأ ابن مسعود الذين هم عن صلاتهم لاهون **﴿ويمنعون للماعون﴾**. قال أكثر المفسرين: الماعون اسم لما يتعاوزه الناس بينهم: من اللو، والفأس، والقدر، وما لا يمنع كالماء، والملح. وقيل هو الزكاة أي: يمنعون زكاة أموالهم. وقال الزجاج، وأبو عبيد، والمبرد: الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة حتى الفأس، والبلو، والقدر، والقداحة وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير، وأنشوا قول الأعشى:

بأجود منه بماعونه إذا ما سماءهم لم تغم
قال الزجاج، وأبو عبيد، والمبرد أيضاً: والماعون في الإسلام الطاعة والزكاة، وأنشوا قول الراعي:

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفا نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى الله من أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلا
قوم على الإسلام لما يمنعون ماعونهم ويضيعوا التهليل
وقيل: الماعون الماء. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الماعون الماء، وأنشدني:

تمج صبيرة الماعون صبا

والصبيرة السحاب، وقيل: الماعون: هو الحق على العبد على العموم، وقيل: هو المستغل من منافع الأموال، مأخوذ من المعن، وهو القليل. قال قطرب: أصل الماعون من القلة، والمعن: الشيء القليل، فسمى الله الصدقة والزكاة، ونحو ذلك من المعروف ماعوناً؛ لأنه قليل من كثير، وقيل: هو ما لا يبخل به كالماء، والملح، والنان.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿أرايت لذي يكذب بالدين﴾** قال: يكذب بحكم الله **﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾** قال: يدفعه عن حقه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عنه **﴿فويل للمصلين﴾** **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾** قال: هم المنافقون يراءون الناس بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا، ويمنعونهم العارية بغضاً لهم، وهي الماعون. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾** قال: هم: المنافقون يتركون الصلاة في السر، ويصلون في العلانية. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن مصعب بن سعد قال: قلت لأبي: أرايت قول الله: **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾** أين لا يسهوا، أين لا يحدث نفسه؟ قال: إنه ليس ذلك، إنه إضاعة الوقت. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن سعد بن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَاعْبُدْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ
هُوَ الْأَكْبَرُ ﴿٣﴾

قرأ الجمهور (إنا أعطيناك) وقرأ الحسن، وابن محيصن، وطلحة، والزعفراني (أنطيناك) بالنون. قيل: هي لغة العرب العاربة. قال الأعشى:

حباؤك خير حبا الملوك يسان الحلال وتنطى الحلولا
و ﴿الكوثر﴾ فوعل من الكثرة وصف به للمبالغة في
الكثرة، مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر، العرب
تسمي كل شيء كثير في العدد، أو القدر، أو الخطر كوثرًا،
ومنه قول الشاعر:

وقد نازع الموت حتى تكوثرًا

فالمعنى على هذا: إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير
البالغ في الكثرة إلى الغاية. وذهب أكثر المفسرين، كما حكاه
الواحدي إلى أن الكوثر نهر في الجنة، وقيل: هو حوض
النبي ﷺ في الموقف قاله عطاء. وقال عكرمة: الكوثر
النبوة. وقال الحسن: هو القرآن. وقال الحسن بن الفضل: هو
تفسير القرآن، وتخفيف الشرائع. وقال أبو بكر بن عياش:
هو كثرة الأصحاب والامة. وقال ابن كيسان: هو الإيثار.
وقيل هو الإسلام. وقيل: رفعة الذكر، وقيل: نور القلب، وقيل:
الشفاعة، وقيل: المعجزات، وقيل: إجابة الدعوة، وقيل: لا إله
إلا الله، وقيل: الفقه في الدين، وقيل: الصلوات الخمس،
وسياتي بيان ما هو الحق ﴿فصل لربك﴾ الفاء لترتيب ما
بعدها على ما قبلها، والمراد الأمر له ﷺ بالنوم على إقامة
الصلوات المفروضة ﴿وانحرف﴾ البين التي هي خيار أموال
العرب. قال محمد بن كعب: إن ناسًا كانوا يصلون لغير الله،
وينحرون لغير الله، فأمر الله نبيه ﷺ أن تكون صلاته
ونحره له. وقال قتادة، وعطاء، وعكرمة: المراد صلاة العيد،
ونحر الأضحية. وقال سعيد بن جبير: صل لربك صلاة
الصبح المفروضة بجمع. وانحرف البين في منى، وقيل: النحر
وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر قاله
محمد بن كعب. وقيل: هو أن يرفع يديه في الصلاة عند
التكبيرة إلى حذاء نحره. وقيل: هو أن يستقبل القبلة بنحره
قاله الثوري، والكلي، وأبو الأحوص. قال الفراء: سمعت بعض
العرب يقول نتناحر: أي: نتقابل: نحر هذا إلى نحر هذا أي:
قبالته، ومنه قول الشاعر:

إباحكم ما أنت عمرًا مجالد وسيد أهل الأبطح المتناحر

أي: المتقابل. وقال ابن الأعرابي: هو: انتصاب الرجل في
الصلاة بإزاء المحراب، من قولهم: منازلهم تتناحر تتقابل.
ودوي عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوي بين السجنتين
جالسًا حتى يبدو نحره. وقال سليمان التيمي: المعنى: وارف
يديك بالدعاء إلى نحر، وظاهر الآية الأمر له ﷺ بمطلق
الصلاة، ومطلق النحر، وأن يجعلهما الله عز وجل لا لغيره،

أبي وقاص قال: سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿الذين هم عن
صلاتهم ساهون﴾ قال: هم الذين يؤخرون الصلاة عن
وقتها. قال الحاكم، والبيهقي: الموقوف أصح. قال ابن كثير:
وهذا يعني الموقوف أصح إسنادًا. قال: وقد ضعف البيهقي
رفعه وصحّ وقفه، وكذلك الحاكم. وأخرج ابن جرير، وابن
مرويه قال السيوطي بسند ضعيف عن أبي برزة الأسلمي
قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿الذين هم عن صلاتهم
ساهون﴾ قال رسول الله ﷺ: الله أكبر، هذه الآية خير لكم
من أن يعطى كل رجل منكم جميع الدنيا، هو الذي إن صلى
لم يرج خير صلاته، وإن تركها لم يخف ربه، وفي إسناده
جابر الجعفي، وهو ضعيف، وشيخه مبهم لم يسم. وأخرج
ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هم الذين يؤخرونها
عن وقتها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو
داود، والنسائي، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي
حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مرويه، والبيهقي في
سننه من طرق عن ابن مسعود قال: كنا نعد الماعون على
عهد رسول الله ﷺ عارية للو، والقدر، والفاس، والميزان،
وما تتعاطون بينهم. وأخرج ابن مرويه عنه قال: كان
المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر، والفاس، وشبيهه،
فيمنعونهم، فأنزل الله ﴿ويمنعون الماعون﴾ وأخرج أبو
نعيم، والديلمي، وابن عساكر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ
في الآية قال: ما تعاون الناس بينهم الفاس، والقدر، واللو،
وأشباهه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مرويه عن قرّة بن
دعموص التميمي: «أنهم وفدوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا
رسول الله ما تعهد إلينا؟ قال: لا تمنعوا الماعون، قالوا: وما
الماعون؟ قال: في الحجر، والحديدة، وفي الماء، قالوا: فأي
الحديدة؟ قال: قنوركم النحاس، وحديد الفاس الذي تمتنون
به، قالوا: وما الحجر؟ قال: قنوركم الحجارة. قال ابن كثير:
غريب جداً، ورفع منكر، وفي إسناده من لا يعرف. وأخرج
ابن أبي شيبة، وابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب
النبي ﷺ: الماعون: الفاس، والقدر، واللو. وأخرج سعيد بن
منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر،
والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي، والضياء في
المختارة من طرق عن ابن عباس في الآية قال: عارية متاع
البيت. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة،
وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي
في سننه عن علي بن أبي طالب قال: الماعون الزكاة
المفروضة ﴿يرأون﴾ بصلاتهم ﴿ويمنعون﴾ زكاتهم.

تفسير سورة الكوثر

وهي مكية في قول ابن عباس، والكلي، ومقاتل. ومنية
في قول الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة. وأخرج ابن
مرويه عن ابن عباس، وابن الزبير، وعائشة أنها نزلت
سورة الكوثر بمكة.

وأحمد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن عطاء بن السائب قال: قال محارب بن نثار: قال سعيد بن جبير في الكوثر: قلت حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير، فقال: صدق إنه للخير الكثير، ولكن حدثنا ابن عمر قال: **﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾** فقال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافته من ذهب يجري على الدرّ والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل». وأخرج البخاري، وابن جرير، والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير، فإن نلساً يزعمون أنه نهر في الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. وهذا التفسير من جبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه ناظر إلى المعنى اللغوي كما عرفناك، ولكن رسول الله ﷺ قد فسّره فيما صرح عنه أنه النهر الذي في الجنة، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال: «لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ: **﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾** فصل لربك وانحر» قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما هذه النخيرة التي أمرني بها ربي؟ فقال: إنها ليست بنخيرة، ولكن يأمرك إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا، وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة، قال النبي ﷺ: رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله: **﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾** [المؤمنون: 76] هو من طريق مقاتل بن حيان عن الأصمعي بن نباتة عن علي. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: «إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرِك إذا كبرت للصلاة، فذاك النحر». وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الأفراد، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب في قوله: **﴿فصل لربك وانحر﴾** قال: وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى، ثم وضعهما على صدره في الصلاة. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في سننه عن أنس عن النبي ﷺ مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن شاهين في سننه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس **﴿فصل لربك وانحر﴾** قال: إذا صليت، فرفعت رأسك من الركوع، فاستو قائماً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: الصلاة المكتوبة، والذبح يوم الأضحي. وأخرج البيهقي في سننه عنه: **﴿وانحر﴾** قال: يقول: وانبح يوم النحر. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة. فقالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم، ألا ترى إلى هذا الصابي

وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص، فهو في حكم التقييد له، وسيأتي إن شاء الله **﴿إن شأئك هو الأبت﴾** أي: إن مبعضك هو المنقطع عن الخير على العموم. فيعمّ خيري الدنيا والآخرة، أو الذي لا عقب له، أو الذي لا يبقى نكره بعد موته، وظاهر الآية العموم، وإن هذا شأن كل من يبغض النبي ﷺ، ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما مرّ غير مرّة، قيل: كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا: قد بتر فلان، فلما مات ابن رسول الله ﷺ إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتر محمد، فنزلت الآية. وقيل: القائل بذلك عقبه بن أبي معيط. قال أهل اللغة: الأبت من الرجال: الذي لا ولد له، ومن الدواب: الذي لا نذب له، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبت، وأصل البتر القطع، يقال بترت الشيء بترّاً: قطعته.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أنس قال: «أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً فقال: إنه أنزل عليّ أنفاً سورة، فقرأ: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾** **﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾** حتى ختمها قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمّتي يوم القيامة، أتيتك كعدد الكواكب يختلج العيد منهم فاقول يا ربّ إنه من أمّتي، فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعنك». وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة، فإذا أنا بنهر حافته خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مسك أنفر، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله، وقد روي عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذي في الجنة. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، وابن جرير، وابن مردويه عن عائشة أنها سئلت عن قوله: **﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾** قالت: هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ في بطنان الجنة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر في الجنة. وأخرج الطبراني في الأوسط عن حنيفة في قوله: **﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾** قال: نهر في الجنة، وحسن السيوطي إسناداه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن أسامة بن زيد مرفوعاً: «لنه قيل لرسول الله ﷺ إنك أعطيت نهراً في الجنة يدعى الكوثر، فقال: أجل، وأرضه ياقوت، ومرجان، وزبرجد، ولؤلؤ». وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن رجلاً قال: يا رسول الله ما الكوثر؟ قال: هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله» فهذه الأحاديث تدلّ على أن الكوثر هو النهر الذي في الجنة، فيتعين المصير إليها، وعدم التعويل على غيرها، وإن كان معنى الكوثر: هو الخير الكثير في لغة العرب، فمن فسّره بما هو أعمّ مما ثبت عن النبي ﷺ، فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوي، كما أخرج ابن أبي شيبة،

المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السقاية، وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْإِبْتَرُ﴾ ونزلت: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النساء: 44] إلى قوله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: 52] قال ابن كثير: وإسناده صحيح. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن أبي أيوب قال: لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا: إن هذا الصابئ قد بتر الليلة، فأنزل الله: ﴿إِنَّا اعْطَيْنَاكَ الْكِتَابَ﴾ إلى آخر السورة. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، فمات القاسم، وهو: أول ميت من أهله، وولده بمكة، ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو أبتر، فأنزل الله: ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْإِبْتَرُ﴾ وفي إسناده الكلبي. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْإِبْتَرُ﴾ قال: أبو جهل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿إِنْ شَأْنُكَ﴾ يقول: عنوك.

تفسير سورة الكافرون

وهي مكية في قول ابن مسعود، والحسن، وعكرمة. ومدينة في أحد قولي ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: أنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [أي: سورة الكافرون] بالمدينة. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر: «أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، و﴿قل هو الله أحد﴾ [أي: سورة الصمد] في ركعتي الطواف. وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، وابن مردويه عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة، أو بضع عشرة مرة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾». وأخرج الحاكم وصححه عن أبي قال: «كان رسول الله ﷺ يوتر بسبح، و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾. وأخرج محمد بن نصر، والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ تعدل ربع القرآن، وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر». وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ يا أيها الكافرون كانت له عدل ربع القرآن». وأخرج الطبراني في الصغير، والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن،

ومن قرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن». وأخرج أحمد، وابن الضريس، والبيهقي، وحמיד بن زنجويه في ترغيبه عن شيخ أترك النبي ﷺ قال: «خرجت مع النبي ﷺ في سفر فمر برجل يقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [أي: سورة الكافرون] فقال: أما هذا فقد برئ من الشرك، وإذا آخر يقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ [أي: سورة الصمد] فقال النبي ﷺ: بها وجبت له الجنة»، وفي رواية «أما هذا فقد غفر له». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعي عن أبيه أنه قال: يا رسول الله علمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي قال: «اقرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك»، وأخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعي عن أبيه مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لنوفل بن معاوية الأشجعي: «إذا أتيت مضجعك للنوم فاقرا: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ فإنك إذا قلتها، فقد برئت من الشرك». وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط عن الحارث بن جبلة، وقال الطبراني عن جبلة بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة قال: «قلت يا رسول الله علمني شيئاً أقوله عند منامي قال: إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرا ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ حتى تمر بأخرها، فإنها براءة من الشرك». وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «اقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ عند منامك، فإنها براءة من الشرك». وأخرج أبو يعلى، والطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أبلغكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تقرءون ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ عند منامكم». وأخرج البزار، والطبراني، وابن مردويه عن خباب أن النبي ﷺ قال: «إذا أخذت مضجعك، فاقرا: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ وإن النبي ﷺ لم يأت فراشه قط إلا قرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ حتى يخرجه». وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي الله بسورتين، فلا حساب عليه ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾». وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الضريس عن أبي مسعود الأنصاري قال: من قرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾ في ليلة فقد أكثر وأطاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتُوبُ الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ لِّمَا عِبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝

الألف، واللام في ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ للجنس، ولكنها لما كانت الآية خطاباً لمن سبق في علم الله أنه يموت على

واحد، وهو لفظ لا في كل واحد منها، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة. وأما قول من قال: إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال، فهو إقرار منه بالتكرار؛ لأن حمل هذا على معنى، وحمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذي لا يدل عليه دليل. وإذا تقرّر لك هذا، فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب، ومن مذهبهم التي لا تجحد، واستعمالاتهم التي لا تنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرّروا؛ كما أن مذهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب، وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه؛ لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء، ويبرهن على ما هو متنازع فيه. وأما ما كان من الوضوح، والظهور والجلء بحيث لا يشك فيه شك، ولا يرتاب فيه مرتاب، فهو مستغن عن التطويل غير محتاج إلى تكثير القال والقليل. وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن، وربما يكثر في بعض السور، كما في سورة الرحمن، وسورة المرسلات، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر، ومن ذلك قول الشاعر:

يا البكر انشروا لي كليبا يا البكر أين أين الفرار
وقول الآخر:

هلا سألت جموع كند دة يوم ولوا أين أيننا
وقول الآخر:

يا علقمة يا علقمة يا علقمة خير تميم كلها وأكرمهم
وقول الآخر:

ألا يا سلمى ثم سلمى ثم سلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم
وقول الآخر:

يا جعفر يا جعفر يا جعفر إنك بعد لحاف أنت أقصر
وقول الآخر:

أناك أناك الأحمق أناك أحمس

وقد ثبت عن الصادق المصدوق، وهو أنصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات، وإذا عرفت هذا، ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوهم من عيباته ألّهمهم، وإنما عبر سبحانه بما التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة؛ لأنه يجوز ذلك كما في قوله: سبحان ما سخرن لنا، ونحوه، والنكتة في ذلك أن يجري الكلام على نمط واحد، ولا يختلف. وقيل: إنه أراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحق. وقيل: إن «ما» في المواضع الأربعة هي: المصدرية لا الموصولة: أي: لا أعبد عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي إلخ، وجملة: **«لكنم دينكم»** مستأنفة؛ لتقرير قوله: **«لا أعبد ما تعبدون»** وقوله: **«ولا أنا عابد ما عيبتم»** كما أن قوله: **«ولي دين»** تقرير لقوله: **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** في

كفره كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك؛ لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه. وسبب نزول هذه السورة أن الكفار سألو رسول الله ﷺ أن يعبد ألّهمهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فأمره الله سبحانه أن يقول لهم: **«لا أعبد ما تعبدون»** أي: لا أفعل ما تطلبون مني من عبادة ما تعبدون من الأصنام، قيل: والمراد فيما يستقبل من الزمان؛ لأن لا النافية لا تدخل في الغالب إلا على المضارع الذي في معنى الاستقبال، كما أن «ما» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** أي: ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي **«ولا أنا عابد ما عيبتم»** أي: ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عيبتم فيه، والمعنى: أنه لم يعهد مني ذلك **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** أي: وما عيبتم في وقت من الأوقات ما أنا على عيبته، كذا قيل، وهذا عل قول من قال إنه لا تكرر في هذه الآيات؛ لأن الجملة الأولى لنفي العبادة في المستقبل لما قلنا من أن «لا» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، والدليل على ذلك أن لن تأكيد لما تنفيه لا. قال الخليل في لن: إن أصله لا، فالمعنى: لا أعبد ما تعبدون في المستقبل، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهي. ثم قال: **«ولا أنا عابد ما عيبتم»** أي: ولست في الحال بعابد معبودكم، ولا أنتم في الحال بعابدون معبودي. وقيل: بعكس هذا، وهو أن الجملتين الأولى للحال، والجملتين الأخريين للاستقبال بدليل قوله: **«ولا أنا عابد ما عيبتم»** كما لو قال القائل: أنا ضارب زيداً، وأنا قاتل عمراً، فإنه لا يفهم منه إلا الاستقبال. قال الأخفش، والفراء: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، ولا أنا عابد في المستقبل ما عيبتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد. قال الزجاج: نفى رسول الله ﷺ بهذه السورة عبادة ألّهمهم عن نفسه في الحال وفيما يستقبل، ونفى عنهم عبادة الله في الحال وفيما يستقبل. وقيل: إن كل واحد منهما يصلح للحال، والاستقبال، ولكننا نخص أحدهما بالحال، والثاني بالاستقبال رفعاً للتكرار. وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف، فإن جعل قوله: ولا أعبد ما تعبدون للاستقبال، وإن كان صحيحاً على مقتضى اللغة العربية، ولكنه لا يتم جعل قوله: **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** للاستقبال؛ لأن الجملة اسمية تفيد النوام، والثبات في كل الأوقات، فندخل النفي عليها يرفع ما دلت عليه من النوام، والثبات في كل الأوقات، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحاً للزم مثله في قوله: **«ولا أنا عابد ما عيبتم»** وفي قوله: **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال، وكما ينفع هذا ينفع ما قيل من العكس، لأن الجملة الثانية، والثالثة، والرابعة كلها جمل اسمية مصدرية بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده منفية كلها بحرف

النصر] حتى ختمها، فعرف رسول الله ﷺ أنها الوداع. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: نعتيت إلي نفسي». وأخرج ابن مردويه عنه قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: نعتيت إلي نفسي، وقرب إلي أجلي». وأخرج النسائي، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عنه أيضاً قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نعتيت لرسول الله نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان قط اجتهداً في أمر الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أم حبيبة قالت: «لما أنزل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: إن الله لم يبعث نبياً إلا أعمار في أمته شطر ما عمر النبي الماضي قبله، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة في بني إسرائيل، وهذه لي عشرون سنة، وأنا ميت في هذه السنة، فبكت فاطمة، فقال النبي ﷺ: أنت أول أهلي لي لحوقاً فقبضت». وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: إنه نعتيت إلي نفسي، فبكت، ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نعتيت إليه نفسه فبكيت؟ فقال: أصبري، فإنك أول أهلي لحاقاً بي فضحكت، وقد تقدم في تفسير سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَنْوَابًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَمِرْ ۚ إِنَّكَ كَانَ نُوَابًا ۖ

النصر: العون، مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها ومنع من قطعها، ومنه قول الشاعر:

إذا انصرف لشهر الحرام فودعي بلاد تميم وانصري أرض عامر
يقال نصره على علوه ينصره نصرأ: إذا أعانه، والاسم النصر، واستنصره على علوه: إذا سأل أن ينصره عليه.
قال الواحدي: قال المفسرون: ﴿إِذَا جَاءَ﴾ يا محمد «نصر الله» على من عاداك، وهم: قريش «والفتح» فتح مكة، وقيل: المراد نصره ﷺ على قريش من غير تعيين، وقيل: نصره على من قتله من الكفار، وقيل: هو فتح سائر البلاد، وقيل: هو ما فتحه الله عليه من العلوم، وعبر عن حصول النصر، والفتح بالمجيء للإيدان بأنهما متوجهان إليه ﷺ. وقيل: إذا بمعنى قد، وقيل: بمعنى إذ. قال الرازي: الفرق بين النصر والفتح: أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان مغلقاً، والنصر كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر، وعطف عليه الفتح؛ أو يقال النصر كمال الدين، والفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة؛ أو يقال: النصر الظفر، والفتح الجنة، هذا معنى كلامه. ويقال: الأمر أوضح من هذا وأظهر، فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر

الموضعين أي: إن رضيتم بدينكم، فقد رضيتم بديني، كما في قوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [البقرة: 139] والمعنى: أن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوز إلى الحصول لي، كما تطمعون، وديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوز إلى الحصول لكم. وقيل المعنى: لكم جزاؤكم ولي جزائي؛ لأن الدين الجزاء. قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: ليست بمنسوخة؛ لأنها أخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ. قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله (ولي) وقرأ نافع، وهشام، وحفص، والبزي بفتحها. وقرأ الجمهور أيضاً بحذف الياء من ديني وقفاً ووصلاً، وثابتها نصر بن عاصم، وسلام، ويعقوب، وصلاً ووقفاً. قالوا: لأنها اسم، فلا تحذف. ويجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ، وإن كانت اسماً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن عباس: «أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، ويؤجوه ما أراد من النساء، فقلوا: هذا لك يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا، ولا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل، فإننا نعرض عليك خصلة واحدة، ولك فيها صلاح، قال: ما هي؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فجاء الوحي من عند الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر السورة، وأنزل الله: ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: 64] إلى قوله: ﴿يُؤَلِّهِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: 66].

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصالحف عن سعيد بن مينا مولى أبي البحراني قال: «لقي الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأميه بن خلف رسول الله ﷺ قالوا: يا محمد هلم، فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن، وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخر السورة». وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس أن قريشاً قالت: لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة كلها.

تفسير سورة النصر

وهي مدنية بلا خلاف. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزل بالمدينة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبزار، وأبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال: هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى وهو في حجة الوداع ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [أي: سورة

بالاستغفار أي: من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتؤاب من صيغ المبالغة، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين. وقد حكى الرازي في تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة نزلت على نبي رسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فقالوا: فتح المدائن والقصور، قال: فأنت يا ابن عباس ما تقول؟ قال: قلت مثل ضرب لمحمد ﷺ نعت له نفسه. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاهم ذات يوم، فدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريههم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فلم يقل شيئاً، فقال لي: كذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فلذلك علامة أجلك، ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾. فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول. وأخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبي بكر أن سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ حين أنزلت على رسول الله أن نفسه نعت إليه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده، وأستغفره وأتوب إليه، فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقال: خبرني ربي أني سأرى علامة من أمتي، فإذا رأيتهما أكثرت من قول سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتهما: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكة ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفولجاً﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً». وأخرج البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن، يعني: إذا جاء نصر الله والفتح، وفي الباب لأحاديث. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: جاء أهل اليمن هم أرقى قلوباً، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية». وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال: الله أكبر قد جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن، قوم رقيقة قلوبهم لينة طاعتهم، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية». وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفولجاً، وسيخرجون منه أفولجاً». وأخرج الحاكم

الأعداء وغلبيهم، والاستعلاء عليهم، والفتح هو فتح مسلكن الأعداء، ويدخل منازلهم ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفولجاً﴾ أي: أبصرت الناس من العرب، وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به جماعات فوجاً بعد فوج. قال الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة قال العرب: أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم، وقد أجارهم الله من أصحاب القيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفولجاً أي: جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً، واثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام. قال عكرمة، ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين وانتصاب أفولجاً على الحال من فاعل يدخلون، ومحل قوله: يدخلون في دين الله التصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية، وإن كانت بمعنى العلم، فهو في محل نصب عى أنه المفعول الثاني ﴿فسبح بحمد ربك﴾ هذا جواب الشرط، وهو العامل فيه، والتقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله. وقال مكي: العامل في إذا هو جاء، ورجحه أبو حيان، وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها، وقوله: ﴿بحمد ربك﴾ في محل نصب على الحال أي: فقل سبحان الله ملتبساً بحمده، أو حامداً له. وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤنن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس، وبين الحمد له على جميل صنعه له، وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر، والفتح لآل القري التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن اقتروا عليه من الأقوال الباطلة، والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم: هو مجنون، هو ساحر، هو شاعر، هو كاهن. ونحو ذلك. ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه ﷺ بالاستغفار أي: اطلب منه المغفرة لذنبك هضماً لنفسك، واستقصاراً لعملك، واستدراكاً لما فرط منك من ترك ما هو الأولى، وقد كان ﷺ يرى قصوره عن القيام بحق الله، ويكثر من الاستغفار والتضرع، وإن كان قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وقيل: إن الاستغفار منه ﷺ ومن سائر الأنبياء هو تعيد تعيدهم الله به، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم. وقيل: إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيهاً لأمته، وتعريضاً بهم فكانهم هم المأمورون بالاستغفار. وقيل: إن الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه. وقيل: المراد بالتسبيح هنا الصلاة، والأولى حملة على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سروراً بالنعمة، وفرحاً بما هياه الله من نصر الدين، وكبت أعدائه، ونزول الذلة بهم، وحصول القهر لهم. قال الحسن: أعلم الله رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمر بالتسبيح، والتوبة؛ ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح، فكان يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك اغفر لي إنك أنت التواب». قال قتادة، ومقاتل: وعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين، وجملة: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ تعليل لأمره ﷺ

وصححه عن أبي هريرة قال: «تلا رسول الله ﷺ ﴿وَرَأَيْتُ
لِلنَّاسِ يَدْخُلُونَ فِي بَيْتِ اللَّهِ أَقْوَلًا﴾ قال: ليخرجنَّ منه
أقْوَلًا، كما دخلوا فيه أقْوَلًا».

تفسير سورة المسد

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس،
وابن الزبير، وعائشة قالوا: نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [أي:
سورة المسد] بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝
سَيَمْلِكُنَّ أَثَارُهَا ذَاتَ حَرٍ ۝ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا
حَبْلٌ مِّن مَّسٍ ۝

معنى: ﴿تَبَّتْ﴾ هلكت. وقال مقاتل: خسرت، وقيل: خابت.
وقال عطاء: ضلت. وقيل: صفرت من كل خير، وخصَّ البيهقي
بالتبّاب، لأن أكثر العمل يكون بهما. وقيل: المراد بالبيهقي
نفسه، وقد يعبر باليد عن النفس، كما في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتِ
يَدَاكَ﴾ [الحج: 10] أي: نفسك، والعرب تعبر كثيراً ببعض
الشيء عن كله، كقولهم: أصابته يد الدهر، وأصابته يد
المنايا، كما في قول الشاعر:

لَمَّا كَبَتِ يَدُ الرَّزَايَا عَلَيْهِ نَادَى الْأَمْخَبِرَ

وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم،
وقوله: ﴿وَتَبَّ﴾ أي: هلك. قال الفراء: الأول دعاء عليه،
والثاني خبر، كما تقول: أهلكه الله وقد هلك. والمعنى: أنه قد
وقع ما دعا به عليه، ويؤيده قراءة ابن مسعود (وقد تبَّ).
وقيل: كلاهما إخبار، أراد بالأول هلاك عمله، وبالثاني هلاك
نفسه. وقيل: كلاهما دعاء عليه، ويكون في هذا شبه من
مجىء العام بعد الخاص، وإن كان حقيقة البيهقي غير مرادة،
ونكره سبحانه بكنيته لأشهره بها، ولكون اسمه، كما تقدّم
عبد العزى، والعزى اسم صنم، ولكون في هذه الكنية ما
يدلّ على أنه ملابس للنار؛ لأن اللهب هي لهب النار، وإن كان
إطلاق ذلك عليه في الأصل لكونه كان جميلاً، وأن وجهه
يتلهب لمزيد حسنه، كما تتلهب النار. قرأ الجمهور (لهب)
بفتح اللام، والهاء. وقرأ مجاهد، وحميد، وابن كثير وابن
محيصن بإسكان الهاء، واتفقوا على فتح الهاء في قوله:

﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وروى صاحب الكشف أنه قرئ: تبّت يدا أبو
لهب، ونكر وجه ذلك ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ أي:
ما نفع عنه ما حلّ به من التّبّاب، وما نزل به من عذاب الله
ما جمع من المال، ولا ما كسب من الأرباح والجاه؛ أو المراد
بقوله: ماله ما ورثه من أبيه، ويقول: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الذي
كسبه بنفسه. قال مجاهد: وما كسب من ولد، وولد الرجل
من كسبه، ويجوز أن تكون «ما» في قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾
استفهامية أي: أي شيء أغنى عنه؟ وكذا يجوز في قوله:

﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أن تكون استفهامية أي: وأي شيء كسب؟
ويجوز أن تكون مصدرية أي: وكسبه. والظاهر أن «ما»
الأولى نافية، والثانية موصولة. ثم أوعده سبحانه بالنار
فقال: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ قرأ الجمهور (سَيَصْلَى)
بفتح الباء، وإسكان الصاد، وتخفيف اللام: أي: سَيَصْلَى هو
بنفسه، وقرأ أبو رجاء، وأبو حيوة، وابن مقسم، والأشهب
العقيلي، وأبو السماك، والأعمش، ومحمد بن السميع بضم
الباء، وفتح الصاد، وتشديد اللام، ورويت هذه القراءة عن
ابن كثير، والمعنى سَيَصْلَى الله، ومعنى ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذات
اشتعال وتوقد، وهي: نار جهنم ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾
معطوف على الضمير في يَصْلَى، وجاز ذلك للفصل أي:
وتصلّى امرأته ناراً ذات لهب، وهي أم جميل بنت حرب أخت
أبي سفيان، وكانت تحمل الغصن والشوك، فتطرحه بالليل
على طريق النبي ﷺ، كذا قال ابن زيد، والضحاك،
والربيع بن أنس، ومرة الهمداني. وقال مجاهد، وقتادة،
والسدي: إنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس. والعرب
تقول: فلان يحطب على فلان: إذا نمّ به، ومنه قول الشاعر:
إِنْ بَنَى الْأَرَمَ حَمَلُوا الْحَطَبَ هُمُ الْوَشَاءُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ
عليهم اللعنة تترى والحرب

وقال آخر:

من البيض لم يصطد على ظهر لامة ولم يمش بين الناس بالحطب الرطب
وجعل الحطب في هذا البيت رطباً لما فيه من التدخين
الذي هو زيادة في الشرّ، ومن الموافقة للمشي بالنميمة.
وقال سعيد بن جبير: معنى حمالة الحطب أنها حمالة
الخطايا والذنوب، من قولهم: فلان يحطب على ظهره، كما
في قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:
31] وقيل: المعنى حمالة الحطب في النار. قرأ الجمهور
(حمالة) بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار
بأن امرأة أبي لهب حمالة الحطب، وأما على ما قدّمنا من
عطف، وأمراته على الضمير في تصلّى، فيكون رفع حمالة
على النعت لأمراته، والإضافة حقيقية؛ لأنها بمعنى المضى،
أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي حمالة. وقرأ عاصم
بنصب (حمالة) على الذمّ، أو على أنه حال من أمراته. وقرأ
أبو قلابة (حاملة الحطب) ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسٍ﴾
الجملة في محل نصب على الحال من أمراته، والجيد العنق،
والمسد الليف الذي تقتل منه الحبال، ومنه قول النابغة:

مَقْنُونَةٌ بِحَيْضِ النَّحْضِ نَازِلَهَا لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفُ الْقَعْوَاءِ بِالْمَسَدِ
وقول الآخر:

يَا مَسَدَ الْخَوْضِ تَعَوِّذْ مِنِّي إِنْ كُنْتُ لِنَنَا لِينَا فإِنِّي
وقال أبو عبيدة: المسد هو الحبل يكون من صوف. وقال
الحسن: هي حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى
بالمسد. وقد تكون الحبال من جلود الإبل أو من أوبارها. قال
الضحّاك، وغيره: هذا في الدنيا، كانت تعير النبي ﷺ

فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخاري، ومسلم، وغيرهما: «أن النبي ﷺ بعث رجلاً في سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قل هو الله أحد﴾، فلما رجعوا نكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال: أخبروه أن الله تعالى يحبه» هذا لفظ البخاري في كتاب التوحيد. وأخرج البخاري أيضاً في كتاب الصلاة من حديث أنس قال: «كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة، فقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قل هو الله أحد﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، قال: ما أنا بتاركها إن أحببت أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم فكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما اتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟ فقال: إني أحبها، قال: حبك إياها أدخلك الجنة، وقد روي بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخاري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

قوله: ﴿قل هو الله أحد﴾ الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى ما يفهم من السياق لما قدما من بيان سبب النزول، وأن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فيكون مبتدأ، والله مبتدأ ثان، وأحد خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول، ويجوز أن يكون الله بدلاً من هو، والخبر أحد. ويجوز أن يكون أحد خبراً أول، وأحد خبراً ثانياً، ويجوز أن يكون أحد خبراً لمبتدأ محذوف أي: هو أحد. ويجوز أن يكون هو ضمير شأن؛ لأنه موضع تعظيم، والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه، والأول أولى. قال الزجاج: هو كناية عن نكر الله، والمعنى: إن سألتهم تبين ﴿قل هو الله أحد﴾، قيل: وهمزة أحد بدل من الواو، وأصله واحد. وقال أبو البقاء: همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة، ونكر أن أحد يفيد العموم لكون واحد، ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهرى: أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى، لا يقال رجل أحد، ولا درهم أحد؛ كما يقال رجل واحد، ودرهم واحد، قيل: والواحد يدخل في الأحد، والواحد لا يدخل فيه فإذا قلت لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد. وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد وأحد لا يدخل فيه. وردّ عليه أبو حيان بأنه يقال أحد وعشرون، ونحوه، فقد نخله العدد، وهذا كما ترى، ومن جملة القائلين بالقلب الخليل. قرأ الجمهور ﴿قل هو الله أحد﴾ بإثبات قل.

خمسین سنة» وإسناده ضعيف. وأخرج الترمذي، وابن عدي، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ مائتي مرة، كتب الله له ألفاً وخمسائة حسنة، ومحى عنه ذنوب خمسین سنة، إلا أن يكون عليه دين» وفي إسناده حاتم بن ميمون ضعفه البخاري وغيره، ولفظ الترمذي: «من قرأ في يوم مائتي مرة: ﴿قل هو الله أحد﴾، محى عنه ذنوب خمسین سنة، إلا أن يكون عليه دين»، وفي إسناده حاتم بن ميمون المنكور. وأخرج الترمذي، ومحمد بن نصر، وأبو يعلى، وابن عدي، والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينام على فراشه من الليل، فنام على يمينه ثم قرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ مائة مرة، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب: يا عبدي اسلم على يمينك الجنة، وفي إسناده أيضاً حاتم بن ميمون المنكور. قال الترمذي بعد إخرجه: غريب من حديث ثابت. وقد روي من غير هذا الوجه عنه. وأخرج ابن سعد، وابن الضريس، وأبو يعلى، والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: «كان النبي ﷺ بالشام، وفي لفظ: بتبوك، فهبط جبريل فقال: يا محمد إن معاوية بن معاوية المزني هلك، أفتحب أن تصلي عليه؟ قال نعم، فضرب بجناحه الأرض، فتضعض له كل شيء، ولزق بالأرض ورفع له سريرته، فصلى عليه، فقال النبي ﷺ: من أي شيء أوتي معاوية هذا الفضل، صلى عليه صفان من الملائكة في كل صف ستة آلاف ملك؟ قال: بقرأة ﴿قل هو الله أحد﴾ كان يقرؤها قائماً، وقاعداً، وجائياً، وذاهباً، ونائماً، وفي إسناده العلاء بن محمد الثقفي وهو متهم بالوضع. وروي عنه من وجه آخر باطل من هذا، وفي إسناده هذا المتهم. وفي الباب أحاديث في هذا المعنى وغيره. وقد روي من غير الوجه أنها تعدل ثلث القرآن، وفيها ما هو صحيح، وفيها ما هو حسن؛ فمن ذلك ما أخرجه مسلم، والترمذي وصححه، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ ثم نخل، فقال بعضهم لبعض: قال رسول الله ﷺ: فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: إني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن، إلا وإنها تعدل ثلث القرآن». وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» يعني: ﴿قل هو الله أحد﴾. وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: لأصحابه «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فسق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك؟ فقال: الله الواحد الصمد ثلث القرآن». وأخرج مسلم، وغيره من حديث أبي الدرداء نحوه. وقد روي نحو هذا بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة، وحديث ابن مسعود، وحديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وروي نحو هذا عن غير هؤلاء بأسانيد بعضها حسن، وبعضها ضعيف، ولو لم يرد في

فقال: ﴿لم يلد ولم يولد﴾ قال الرازي: قدّم ذكر نفي الولد مع أن الولد مقدّم للاهتمام، لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين: إن الملائكة بنات الله، واليهود: عزيز ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، ولم يدع أحد أن له والدًا، فلهذا السبب بدا بالأهم، فقال: ﴿لم يلد﴾ ثم أشار إلى الحجة فقال: ﴿ولم يولد﴾ كأنه قيل: الليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدًا لغيره، وإنما عبّر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد في الماضي، ولم ينكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك في المستقبل؛ لأنه ورد جواباً عن قولهم: ولد الله، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إلا إنهم من إفكهم﴾ ليقولون ولد الله [الصفات: 151، 152] فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم، وهم: إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفي فيما مضى، وربت الآية لنفع قولهم هذا ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد، ولا يماثله ولا يشاركه في شيء، وآخر اسم كان لرعاية الفواصل، وقوله: «له»، متعلق بقوله: «كفواً» قدم عليه لرعاية الاهتمام؛ لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته. وقيل: إنه في محل نصب على الحال، والأول أولى. وقد ردّ المبرد على سيبويه بهذه الآية؛ لأن سيبويه قال: إنه إذا تقدّم الظرف كان هو الخير، وهنا لم يجعل خبراً مع تقدّمه، وقد ردّ على المبرد بوجهين: أحدهما أن سيبويه لم يجعل ذلك حتماً بل جوازاً، والثاني أننا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر، بل يجوز أن يكون خبراً ويكون كفواً منتصباً على الحال وحكى في الكشاف عن سيبويه على أن الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر، واقتصر في هذه الحكاية على نقل أول كلام سيبويه، ولم ينظر إلى آخره، فإنه قال في آخر كلامه: والتقديم والتأخير والإلغاء، والاستقرار عربي جيد كثير. انتهى. قرأ الجمهور (كفواً) بضم الكاف والفاء، وتسهيل الهمزة، وقرأ الأعرج، وسيبويه، ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء، وروي ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة وواو وصلًا ووقفًا، وقرأ نافع في رواية عنه (كفاً) بكسر الكاف، وفتح الفاء من غير مدّ، وقرأ سليمان بن عليّ بن عبد الله بن العباس كذلك مع المد، وأنشد قول النابغة:

لاتقننني بركن لاكفاء له

والكفاء في لغة العرب النضير، يقول هذا كفوك أي: نظيرك، والاسم الكفاءة بالفتح.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والمحامي في أماليه، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة عن بريد لا أعلمه إلا رفعه. قال: ﴿الصمد﴾ الذي لا جوف له، ولا يصح رفع هذا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: ﴿الصمد﴾ الذي لا جوف له، وفي لفظ: ليس له أحشاء. وأخرج ابن أبي عاصم، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس مثله.

وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي (الله أحد) بدون قل. وقرأ الأعمش (قل هو الله الواحد) وقرأ الجمهور: بتنوين أحد، وهو: الأصل. وقرأ زيد بن عليّ، وأبان بن عثمان، وابن أبي إسحاق، والحسن، وأبو السمك، وأبو عمرو في رواية عنه بحذف التنوين للحفة، كما في قول الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجايف
وقيل: إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين. ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر ﴿الله الصمد﴾ الاسم الشريف مبتدأ، والصمد خبره. والصمد هو الذي يصمد إليه في الحاجات أي: يقصد لكونه قادراً على قضائها، فهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض؛ لأنه مصمود إليه أي: مقصود إليه، قال الزجاج: الصمد السند الذي انتهى إليه السؤدد، فلا سيد فوقه. قال الشاعر:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد
وقيل معنى الصمد: الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول، وقيل: معنى الصمد ما نكر بعده من أنه الذي لم يلد ولم يولد. وقيل: هو المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وقيل: هو المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول. وقيل: هو الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. وقيل: هو الكامل الذي لا عيب فيه. وقال الحسن، وعكرمة، والضحاك، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد الله بن بريدة، وعطاء، وعطية العوفي، والسدي، الصمد هو المصمت الذي لا جوف، ومنه قول الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جباهه عوايس يعلكن للشكيم المصمدا
وهذا لا ينافي القول الأول لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد، ثم استعمل في السيد المصمود إليه في الحواش، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير، ومنه قول الشاعر:

علوته بحسام ثم قلت له خذها حنيف فانت السيد الصمد
وقال الزبرقان بن بدر:

سيروا جميعاً بنصف الليل واعتموا ولا رهينة إلا سيد صمد
وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك، فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، وحذف العاطف من هذه الجملة؛ لأنها كالنتيجة للجملة الأولى، وقيل: إن الصمد صفة للاسم الشريف، والخبر هو ما بعده. والأول أولى؛ لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة ﴿لم يلد ولم يولد﴾ أي: لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن شيء، لأنه لا يجانس شيء، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولاحقاً. قال قتادة: إن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله. وقالت اليهود: عزيز ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فكانهم الله

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [أي: سورة الفلق] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [أي: سورة الناس]. وأخرج ابن الضريس، وابن الأنباري، والحاكم وصححه، وابن مروييه في الشعب عن عقبة بن عامر قال: «قلت يا رسول الله: أقرئني سورة يوسف، وسورة هود، قال: يا عقبة اقرأ: بقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، فإنك لن تقرأ سورة أحبَّ إلى الله، وأبلغ منها، فإذا استطعت أن لا تفوتك، فافعل». وأخرج ابن سعد، والنسائي، والبغوي، والبيهقي عن أبي حابس الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا حابس أخبرك بأفضل ما تتعوذ به المتعونون؟ قال بلى يا رسول الله، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هما: المعوَّذتان». وأخرج الترمذي وحسنه، وابن مروييه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان، ومن عين الإنس، فلما نزلت سورة المعوَّذتين أخذ بهما، وترك ما سوى ذلك». وأخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم وصححه عن ابن مسعود «أن النبي ﷺ كان يكره عشر خصال، ومنها أنه كان يكره الرقي إلا بالمعوَّذتين». وأخرج ابن مروييه عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب السور إلى الله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾». وأخرج النسائي، وابن الضريس، وابن حبان في صحيحه، وابن الأنباري، وابن مروييه عن جابر بن عبد الله قال: «أخذ بمنكبي رسول الله ﷺ ثم قال اقرأ، قلت: ما أقرأ بأبي أنت وأمي؟ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾؛ ثم قال اقرأ، قلت: بأبي أنت وأمي ما أقرأ؟ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ولم تقرأ بمثلهما». وأخرج مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة: «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوَّذتين، وينفض، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده عليه رجا بركتهما». وأخرجه البخاري، ومسلم في صحيحيهما من طريق مالك بالإسناد المذكور. وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن زيد بن أرقم قال: «سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى، فأتاه جبريل، فنزل عليه بالمعوَّذتين، وقال: إن رجلاً من اليهود سحر، والسكر في بئر فلان، فأرسل علياً فجاء به، فأمره أن يحل العقد، ويقرأ آية، ويحل حتى قام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال». وأخرجه ابن مروييه، والبيهقي من حديث عائشة مطولاً، وكذلك أخرجه ابن مروييه من حديث ابن عباس. وقد ورد في فضل المعوَّذتين، وفي قراءة رسول الله ﷺ لهما في الصلاة، وغيرهما أحاديث، وفيما نكرناه كفاية. وأخرج الطبراني في الصغير عن علي بن أبي طالب قال: «لدغت النبي ﷺ عقرب، وهو: يصلي، فلما فرغ قال: لعن الله للعقرب لا تدع مصلياً، ولا غيره، ثم دعا بماء، وملح وجعل يمسح عليهما، ويقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [أي: سورة الكافرون]، و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [أي: سورة الصمد]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾».

وأخرج ابن المنذر عنه قال: ﴿الصمد﴾ الذي لا يطعم، وهو المصمت. وقال: أو ما سمعت النائحة، وهي تقول:

لقد بكر الناعي بخير بني أسد
بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد
وكان لا يطعم عند القتال، وقد روي عنه أن الذي يصمد إليه في الحوائج، وأنه اتشد البيت، واستدل به على هذا المعنى، وهو أظهر في المدح، وأنخل في الشرف، وليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: ﴿الصمد﴾ السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤد، وهو الله سبحانه هذه صفة لا تنبغي إلا له ليس له كفو وليس كمثله شيء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن مسعود قال: ﴿الصمد﴾ هو السيد الذي قد انتهى سؤده، فلا شيء أسود منه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال: ﴿الصمد﴾ الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء. وأخرج ابن جرير من طرق عنه في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قال: ليس له كفو ولا مثل.

تفسير سورة الفلق

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر، ومدينة في أحد قولي ابن عباس، وقتادة، وأخرج أحمد، والبخاري، والطبراني، وابن مروييه من طرق. قال السيوطي: صحيحة عن ابن مسعود أنه كان يحك المعوَّذتين في المصحف يقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه إنهما ليستا من كتاب الله، إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما. قال البزار: لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة، وقد صرح عن النبي ﷺ أنه قرأ بهما في الصلاة، وأثبتنا في المصحف. وأخرج أحمد، والبخاري، والنسائي، وغيرهم عن زر بن حبیش قال: «أتيت المدينة، فلقيت أبي بن كعب، فقلت له: أبا المنذر إني رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوَّذتين في مصحفه، فقال: أما والذي بعث محمداً بالحق لقد سألت رسول الله ﷺ عنهما، وما سألني عنهما أحد منذ سألته غيرك، قال: قيل لي قل، فقلت: فقولوا فنحن نقول: كما قال رسول الله ﷺ». وأخرج الطبراني عن ابن مسعود: «أن النبي ﷺ سئل عن هاتين السورتين، فقال: قيل لي، فقلت: فقولوا كما قلت». وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت علي الليلة آيات لم أر مثلهن قط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

يخلقه، ومنهم عمرو بن عبدي، وعمرو بن عائذ ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ الغاسق الليل، والغسق الظلمة، يقال غسق الليل يغسق إذا أظلم. قال الفراء: يقال غسق الليل، وأغسق إذا أظلم، ومنه قول قيس بن الرقيات:

إن هذا الليل قد غسقا واشتكت الهمة والأرقا

وقال الزجاج: قيل لليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار، والغاسق البارد، والغسق البرد، ولأن في الليل تخرج السباع من أجامها، والهوام من أماكنها، وينبعث أهل الشر على العبث والفساد، كذا قال، وهو: قول بارد، فإن أهل اللغة على خلافه، وكذا جمهور المفسرين ووقوبه: دخول ظلامه، ومنه قول الشاعر:

وقب العذاب عليهم فكانهم لحقتهم نار السموم فأخذوا

أي: دخل العذاب عليهم، ويقال وقبت الشمس: إذا غابت، وقيل: الغاسق الثريا، وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين، وإذا طلعت ارتفع تلك، وبه قال ابن زيد. وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق. وقال الزهري: هو الشمس إذا غربت، وكأنه لاحظ معنى الوقوب، ولم يلاحظ معنى الغسوق، وقيل: هو القمر إذا خسف، وقيل: إذا غاب. وبهذا قال قتادة، وغيره. واستتلوا بحديث أخرجه أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن عائشة قالت: «نظر رسول الله ﷺ يوماً إلى القمر لما طلع فقال: يا عائشة استعيني بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب». قال الترمذي: بعد إخراجهم حسن صحيح، وهذا لا ينافي قول الجمهور؛ لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وهكذا يقال في جواب من قال: إنه الثريا. قال ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث: وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر. وقيل الغاسق: الحية إذا لدغت. وقيل الغاسق: كل هاجم يضرم كائناً ما كان، من قولهم غسقت القرحة: إذا جرى صديدها، وقيل: الغاسق هو السائل، وقد عرفناك أن الراجح في تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأول، ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر، والتحرز من الشرور فيه أصعب، ومنه قولهم: الليل أخفى للويل ﴿ومن شر النفثات في العقد﴾ النفثات هن السواحر أي: ومن شر النفوس النفثات، أو النساء النفثات، والنفث النفخ، كما يفعل ذلك من يرقى ويسحر، وقيل: مع ريق، وقيل: بدون ريق، والعقد جمع عقدة، وذلك أنهن كن ينفثن في عقد الخيوط حين يسحرن بها، ومنه قول عنترة:

فإن يبرأ فلم أنث عليه وإن يعقد فحق له العقود

وقول متم بن نويرة:

نفث في الخيط شبهي الرقي من خشية الجنة والحاسد

قال أبو عبيدة: النفثات هي: بنات لبيد الأعصم اليهودي، سحرن النبي ﷺ. قرأ الجمهور (النفثات) جمع نفثة على

﴿الفلق﴾ الصبح، يقال: هو أبين من فلق الصبح، وسمي فلماً؛ لأنه يفلق عنه الليل، وهو فعل بمعنى مفعول قال الزجاج: لأن الليل ينفلق عنه الصبح، ويكون بمعنى مفعول، يقال: هو أبين من فلق الصبح، ومن فرق الصبح، وهذا قول جمهور المفسرين، ومنه قول ذي الرمة:

حتى إذا ما انجلي عن وجهه فلق هائلة في أخريات الليل منتصب وقول الآخر:

يا ليلة لم أتمها بت مرتفعاً أرعى النجوم لي أن نور الفلق وقيل: هو سجن في جهنم، وقيل: هو اسم من أسماء جهنم، وقيل: شجرة في النار، وقيل: هو الجبال والصخور، لأنها تغلق بالمياه أي: تشقق، وقيل: هو التفليق بين الجبال؛ لأنها تشقق من خوف الله. قال النحاس: يقال لكل ما أطمأن من الأرض فلق، ومنه قول زهير:

ما زلت أرمقهم حتى إذا هبط أيدي الركاب بهم من ركس فلما والركس: بطن الوادي، ومثله قول النابغة:

وبوني ركس فالضواجع

وقيل: هو الرحم تنفلق بالحيوان، وقيل: هو كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله من الحيوان والصبح والحب والنوى، وكل شيء من نبات، وغيره قاله الحسن، والضحاك. قال القرطبي: هذا القول يشهد له الانتشاق، فإن الفلق الشق، ففلقت الشيء فلماً؛ شققته، والتفليق مثله، يقال فلقت، فانفلق وتفلق، فكل ما انفلق عن شيء من حيوان، وصبح، وحب، ونوى، وماء فهو فلق، قال الله سبحانه: ﴿فالق الإصباح﴾ [الأنعام: 96] وقال: ﴿فالق الحب والنوى﴾ [الأنعام: 95]. انتهى. والقول الأول أولى؛ لأن المعنى، وإن كان أعم منه وأوسع مما تضمنه لكنه المتبادر عند الإطلاق. وقد قيل في وجه تخصيص الفلق بالإمء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه، ويخشاه، وقيل: طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرح؛ فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح، كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح، وقيل: غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير ﴿ومن شر ما خلق﴾ متعلق بأعوذ أي: من شر كل ما خلقه سبحانه من جميع مخلوقاته، فيعم جميع الشرور، وقيل: هو إبليس ونزيتة وقيل: جهنم، ولا وجه لهذا التخصيص، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية. وقد حرف بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه، وتقويماً لباطله، ففروا بتنوين شر على أن: «ماء نافية». والمعنى: من شر لم

ابن جرير عنه في الآية قال: هو ما خالط السحر من الرقي. وأخرج النسائي، وابن مروي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه». وأخرج ابن سعد، وابن ماجه، والحاكم، وابن مروي عن أبي هريرة قال: «جاء النبي ﷺ يعونني فقال: ألا أريك برقية رقتني بها جبريل؟ فقلت: بلى بأبي أنت وأمي، قال: بسم الله أرقيك، والله يشفيك من كل داء فيك». **ومن شر النفاثات في العقد * ومن شر حاسد إذا حسد** فرقى بها ثلاث مرّات. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **ومن شر حاسد إذا حسد** قال: نفس ابن آدم وعينه اهـ.

تفسير سورة الناس

والخلاف في كونها مكية، أو مدنية كالخلاف الذي تقدّم في سورة الفلق. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: أنزل بمكة: **قل أعوذ بربّ الناس** [أي: سورة الناس]. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير قال: أنزل بالمدينة: **قل أعوذ بربّ الناس** وقد قدّمنا في سورة الفلق ما ورد في سبب نزول هذه السورة، وما ورد في فضلها، فارجع إليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْاِنْسَانِ ① مَلِكِ الْاِنْسَانِ ② اِلَهِ الْاِنْسَانِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفِيّ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الْاِنْسَانِ ⑤ مِنَ الْغَيْثِ وَالْاِنْسَانِ ⑥

وقرأ الجمهور: **قل أعوذ** بالهمزة. وقرأ بحذفها، ونقل حركتها إلى اللام. وقرأ الجمهور بترك الإمالة في الناس، وقرأ الكسائي بالإمالة. ومعنى ربّ الناس: مالك أمرهم، ومصلح أحوالهم، وإنما قال ربّ الناس مع أنه ربّ جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم، ولكون الاستعاذة وقعت من شرّ ما يوسوس في صدورهم، وقوله: **ملك الناس** عطف بيان جيء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربية سائر الملوك لما تحت أيديهم من ممالكهم، بل بطريق الملك الكامل، والسلطان القاهر **إله الناس** هو أيضاً عطف بيان كالذي قبله لبيان أن ربيته، وملكه قد انضمّ إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقترضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالاتحاد والإعدام، وأيضاً الربّ قد يكون ملكاً، وقد لا يكون ملكاً، كما يقال ربّ الدار، وربّ المتاع، ومنه قوله: **اتخذوا أبحارهم وربانهم أرباباً من دون الله** [التوبة: 31] فبين أنه ملك الناس. ثم الملك قد يكون إلهاً، وقد لا يكون، فبين أنه إله؛ لأن اسم الإله خاصّ به لا يشاركه فيه أحد، وأيضاً بدأ باسم الربّ، وهو اسم لمن قام بتدبيره، وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك، فنكر أنه ملك الناس. ثم لما

المبالغة. وقرأ يعقوب، وعبد الرحمن بن سابط، وعيسى بن عمر (النفاثات) جمع نافثة. وقرأ الحسن (النفاثات) بضم النون. وقرأ أبو الربيع (النفاثات) بدون ألف **ومن شرّ حاسد إذا حسد** الحسد: تمنى زوال النعمة التي اتعم الله بها على المحسود، ومعنى إذا حسد: إذا أظهر ما في نفسه من الحسد، وعمل بمقتضاه، وحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود. قال عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد، وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال:

قل للمحسود إذا تنفس طعنة يا ظالماً وكأنه مظلوم
نكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله ﷺ إلى الاستعاذة من شرّ كل مخلوقاته على العموم، ثم نكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجها تحت العموم لزيادة شرّه، ومزيد ضرره، وهو الغاسق، والنفاثات، والحاسد، فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشرّ حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر.

وقد أخرج ابن مروي عن عمرو بن عبسة قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فقراً: **قل أعوذ بربّ الفلق** فقال: يا ابن عبسة أتدري ما الفلق؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: بئر في جهنم. وأخرجه ابن أبي حاتم من قول عمرو بن عبسة غير مرفوع. وأخرج ابن مروي عن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ: **قل أعوذ بربّ الفلق**» هل تدري ما الفلق؟ باب في النار إذا فتحت سعرت جهنم. وأخرج ابن مروي، والديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عزّ وجل: **قل أعوذ بربّ الفلق**» فقال: هو سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون، وإن جهنم لتتعوذ بالله منه». وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفلق جبّ في جهنم».

وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ لكان المصير إليها واجباً، والقول بها متعيناً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الفلق سجن في جهنم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن جابر بن عبد الله قال: الفلق الصبح. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: الفلق الخلق. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: **ومن شرّ غاسق إذا وقب** وقال: النجم هو الغاسق، وهو اللثيا، وأخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم من وجه آخر عنه غير مرفوع. وقد قدّمنا تأويل هذا، وتأويل ما ورد أن الغاسق القمر. وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ارتفعت النجوم رفعت كل عاة عن كل بلد»، وهذا لو صح لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس **ومن شرّ غاسق إذا وقب** قال: الليل إذا أقبل. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس **ومن شرّ النفاثات في العقد** قال: الساحرات. وأخرج

جاء نفر من الجنّ، فقيل لهم: من أنتم؟ قالوا: ناس من الجنّ. وأيضاً قد سماهم الله رجلاً في قوله: ﴿وَإِنَّهُ كَانَ رَجُلًا مِنَ الْإِنْسِ يَعُونُونَ بِرَجُلٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: 6] وقيل: يجوز أن يكون المراد أعوذ برّب الناس من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، ومن الجنة والناس، كأنه استعاذ ربّه من ذلك الشيطان الواحد، ثم استعاذ ربّه من جميع الجنة، والناس، وقيل: المراد بالناس الناسي، وسقطت الياء كسقوطها في قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ﴾ [القمر: 6] ثم بيّن بالجنة والناس؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب مبتلى بالتيسيان، وأحسن من هذا أن يكون قوله: ﴿وَالنَّاسِ﴾ معطوفاً على الوسواس أي: من شرّ الوسواس، ومن شرّ الناس كأنه أمر أن يستعاضد من شرّ الجنّ والإنس. قال الحسن: أما شيطان الجنّ، فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس، فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجنّ شياطين، وإن من الإنس شياطين، فنعوذ بالله من شياطين الجنّ والإنس، وقيل: إن إبليس يوسوس في صدور الجنّ، كما يوسوس في صدور الإنس، وواحد الجنة جنّي كما أن واحد الإنس إنسي. والقول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال، وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الذي قلّمنا، ويكون هذا البيان تنكير الثقيلين للإرشاد إلى أن من استعاذ بالله منهما ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة.

وقد أخرج ابن أبي داود عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ﴾ قال: مثل الشيطان كمثّل ابن عرس واضح فمه على فم القلب، فيوسوس إليه، فإن نكر الله خنس، وإن سكّت عاد إليه فهو الوسواس الخناس. وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان، وأبو يعلى، وابن شاهين، والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن نكر الله خنس، وإن نسيه التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ﴾ قال: الشيطان جاث على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا نكر الله خنس. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في المختارة، والبيهقي عنه قال: ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس، فإذا نكر الله خنس، وإذا غفل وسوس، فذلك قوله: ﴿الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ﴾ وقد ورد في معنى هذا غيره، وظاهره أن مطلق نكر الله يطرد الشيطان، وإن لم يكن على طريق الاستعاذة، ولنذكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيري الدنيا والآخرة.

وإلى هنا انتهى هذا التفسير المبارك بقلم مؤلفه محمد بن علي بن محمد الشوكاني، غفر الله له نوبه. وكان الفراغ منه في ضحوة يوم السبت لعله الثامن والعشرون من شهر رجب أحد شهور سنة تسع وعشرين بعد مائتين وألف سنة من الهجرة النبوية.

اللهم كما منّنت عليّ بإكمال هذا التفسير، وأعنتني على

علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، وأنه عبد مخلوق، وأن خالقه إله معبود بيّن سبحانه أنه إله الناس، وكّرر لفظ الناس في الثلاثة المواضع؛ لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار؛ ولأن التكرير يقتضي مزيد شرف الناس ﴿مَنْ شَرُّ الْوَسْوَاسِ﴾ قال الفرّاء: هو: بفتح الواو بمعنى الاسم أي: الموسوس، وبكسرهما المصدر أي: الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، وقيل: هو بالفتح اسم بمعنى الوسوسة، والوسوسة: هي حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة أي: حثّته حديثاً، وأصلها الصوت الخفي، ومنه قيل: لأصوات الحلي وسواس، ومنه قول الأعشى:

تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت

قال الزجاج: الوسواس هو الشيطان أي: ذي الوسواس، ويقال إن الوسواس ابن إبليس، وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة في تفسير قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 20] ومعنى ﴿الْخَنَّاسِ﴾ كثير الخنس، وهو التأخر، يقال خنس يخنس: إذا تأخر، ومنه قول العلاء بن الحضرمي يمدح رسول الله ﷺ:

إذا خنسوا بالشّر فاعف تكرّماً وإن خنسوا عند الحديث فلا تسل

قال مجاهد: إذا نكر الله خنس وانقبض، وإذا لم يذكر انبسط على القلب. ووصف بالخناس؛ لأنه كثير الاختفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَّاسِ﴾ [التكوير: 15] يعني: النجوم لاختفائها بعد ظهورها، كما تقدّم، وقيل: الخناس اسم لابن إبليس، كما تقدّم في الوسواس ﴿الَّذِي يَوْسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ الموصول يجوز أن يكون في محل جرّ نعتاً للوسواس، ويجوز أن يكون منصوباً على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعاً على تقدير مبتدأ. وقد تقدّم معنى الوسوسة. قال قتادة: إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غفل ابن آدم عن نكر الله وسوس له، وإذا نكر العبد ربه خنس. قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلطه الله على ذلك، ووسوسته هي الدعاء إلى طاعته بكلام خفي يصل إلى القلب من غير سماع صوت، ثم بيّن سبحانه الذي يوسوس بانه ضربان: جنّي، وإنسي، فقال: ﴿مَنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أما شيطان الجنّ، فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس، فوسوسته في صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق، فيوقع في الصدر من كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته، كما قال سبحانه: ﴿شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112] ويجوز أن يكون متعلقاً بيوسوس أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجنة، ومن جهة الناس، ويجوز أن يكون بياناً للناس. قال الرازي، وقال قوم: من الجنة والناس قسمان مندرجان تحت قوله: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ لأن القدر المشترك بين الجنّ والإنس يسمى إنساناً، والإنسان أيضاً يسمى إنساناً، فيكون لفظ الإنسان واقعاً على الجنس، والنوع بالاشتراك. والليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجنّ ما روي أنه

تحصيله، وتفضّلت عليّ بالفراغ منه، فامنن عليّ بقبوله، واجعله لي نخيرة خير عندك، وأجزل لي المثوبة بما لاقيته من التعب والنصب في تحريره وتقريره، وانفع به من شئت من عبادك؛ لينوم لي الانتفاع به بعد موتي، فإن هذا هو المقصد الجليل من التصنيف، واجعله خالصاً لك، وتجاوز عني إذا خطر لي من خواطر السوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص، واغفر لي ما لا يطابق مرادك، فإنني لم أقصد في جميع أبحاثي فيه إلا إصابة الحق، وموافقة ما ترضاه، فإن أخطأت، فانت غافر الخطيئات، ومسيل نيل الستر على

الهِفَوَات، يَا بَارِئَ الْبَرِيَّات، وَأَحْمَدُكَ لَا أَحْصِي حَمْدًا لَكَ،
وَأَشْكُرُكَ لَا أَحْصِي شُكْرَكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ،
وَأَصْلِي وَأَسْلَمَ عَلَى رَسُولِكَ وَآلِهِ هـ.

تَمَّ سَمَاعاً عَلَى مُؤَلِّفِهِ حَقَّقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ صَبِيحَ
الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ 1241 هـ.

كُتِبَ

يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ الشُّوْكَانِي

غُفِرَ اللَّهُ لِهَمَا

فهرس المحتويات

38	9	مراجعه
39	11	خطبة الكتاب
40			سورة الفاتحة
41	13	تمحيص الكلام في مكية الفاتحة مدنيته
42	13	أسماء الفاتحة
			فضلها
	14	هل البسمة آية من كل سورة أم لا؟
	15	فضل البسمة
	16	الكلام على الحمد والمدح والشكر
	16	فضل الحمد
	17	مبلغ رحمة ربنا
	18	ما هي العبادة؟
	18	ما هو الصراط المستقيم؟
	19	من هم المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالون؟
	19	هل لفظ أمين مشرور بعد قراءة الفاتحة وما فضله؟
			سورة البقرة
	21	فضل سورة البقرة
	22	الكلام في الحروف المقطعة واختيار المؤلف فيها
	25	هل تختلف حقيقة الهدى؟
			من هم المتقون؟
	26	ما هو الغيب؟
			فضل المؤمنين بالغيب
	27	ما هو الرزق؟
	28	رقية تذهب اللم
			معنى الختم على القلوب وعلى السمع والغشاوة على
	29	الابصار
	31	ما هو مرض القلوب؟
	32	هل في الإنس شياطين؟
			معنى عمه القلوب؟
	33	بيان مثل المنافقين؟
	34	ما هو الرعد، ما هو البرق؟
	35	بيان مثل آخر المنافقين
			من أين ينزل المطر؟
	37	ما الحق في وجه إعجاز القرآن؟
			من أي شيء الحجارة وقود النار؟
			كم سنة أوقد على النار وما لونها الآن؟
			شيء من وصف الجنة وأهلها ونعيمها
			ما حقيقة الحياء وما المراد منه في حق ربنا عز وجل
			الفسق لغة وشرعاً
			الكلام في الفاسق هل هو مؤمن أو كافر؟
			ما الذي أمر الله به أن يوصل، وما الفساد في الأرض
			كم يموت الإنسان وكم يحيا؟
			هل الأصل في الأشياء الإباحة؟
			ما اللبيل على حرمة أكل الطين؟
			هل من المشكلات قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أم لا؟
			أيهما خلق أولاً: الأرض أم السماء؟
			ما المراد من عدد الأرضين؟
			الكلام على قوله تعالى للملائكة: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ وجوابهم
			ما الذي عرض على الملائكة، الأسماء أم المسميات؟
			وأيهما فاز في هذا الامتحان هم أم سيدنا آدم
			عليه الصلاة والسلام
			هل كان يجوز السجود لغير الله في بعض الشرائع
			المتقدمة
			هل كان السجود لسيدنا آدم بوضع الجبهة على الأرض؟
			من أي النوعين إبليس: من الجن أم من الملائكة؟
			ما هي الشجرة التي نهى سيدنا آدم عن الأكل منها؟
			هل كلام إبليس لسيدنا آدم كان مشافهة؟
			هل كان سيدنا آدم نبياً
			كم المرسلون عليهم الصلاة والسلام؟
			كم الأنبياء؟
			مدة إقامة سيدنا آدم بالجنة
			كيف دخل إبليس الجنة؟
			ما الكلمات التي تلقاها سيدنا آدم من ربه فتأب بها
			عليه؟
			استنكار الكلام في التناسب بين أي القرآن
			ما الحق في حكم الصلاة جماعة؟ هل ذلك فرض أم سنة
			تقريع من يأمر الخير ولا يأتيه

- هل أمر سيدنا جبريل سيدنا إبراهيم أن يرمي إبليس
عند الجمرات الثلاث 94
- هل أرى سيدنا جبريل سيدنا إبراهيم المناسك؟
لندن حول أهل الأهواء ومبلغ ضررهم 101
- كيف صرفت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وبعد
كم شهر من دخول النبي المدينة كان ذلك؟ .. 102
- هل كان المكلف في ابتداء الإسلام مخيراً بين الصوم
والفدية ثم نسخت الفدية؟ 117
- مقدار الفدية
هل نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا
في رمضان جملة، ثم نزل إلى الأرض مفرقاً؟ . 118
- هل يقال رمضان بدون لفظ شهر؟ 119
- إنزال كتب سماوية غير القرآن في رمضان
الجمع بين نزول القرآن في رمضان وفي ليلة مباركة،
وفي ليلة القدر 119
- الدعاء وشيء من آدابه
كيف كان الصيام في أول الإسلام، وبماذا نسخ؟ .. 120
- هل حكم الحاكم يحل الحرام؟ 122
- كيف كان الجهاد أول ما أذن فيه؟ 123
- ما هي الفتنة التي دونها القتل؟ 123
- إلى أي غاية ينتهي الأمر بالقتال؟ 123
- ما هو الاعتداء في القتال؟
هل نسخ القتال في الأشهر الحرم؟ 125
- هل يجوز لمن اعتدي عليه أن ينتقم بنفسه؟
رد المصنف على ابن عباس
تفسير بديع جداً لسيدنا أبي أيوب الأنصاري لقوله
تعالى: ﴿وَلَا تَقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ 125
- ما هو إتمام الحج والعمرة؟
هل العمرة فرض أو سنة؟ 126
- ما الإحصار في الحج؟ وماذا يفعل المحصر؟
ماذا يفعل من حلق رأسه لضرر هو محرم 128
- وفي أي مكان يفعل ما يفعل؟
ماذا يفعل المتمتع؟ 128
- ما هي أشهر الحج؟ 129
- بماذا يلزم الحج؟ 129
- هل تسمية الجبل بعرفات تعلق؟
لم سمي عرفات عرفات؟ 129
- ما هما حسنتا الدنيا والآخرة؟ 132
- زمن النكر في الأيام المعدودات 132
- ما هو الخشوع؟ 54
- رجوع إلى الكلام فيمن يأمر ولا ياتمر
هل الصبر والصلاة معونتان يستعان بهما؟ 55
- ما المراد من العالمين الذين فضل بنو إسرائيل
عليهم؟ 56
- ما السبب في قتل فرعون أبناء بني إسرائيل
واستحيائه لبناتهم؟ 57
- في أي يوم نجى الله سيدنا موسى وقومه وأغرق
فرعون وقومه؟ 58
- ما الحق في رؤية ربنا في الجنة أ تكون أم لا تكون؟ . 59
- ما هو المن والسلوى للذنان من بهما على بني
إسرائيل؟
ما القرية التي أمروا أن يدخلوها؟ وما الباب الذي
أمروا أن يدخلوا منه؟ 60
- ما معنى السجود المأمور به عند دخولهم الباب؟
كيف كان تبديلهم؟ ما قيل لهم؟
لم سميت اليهود يهوداً والنصارى نصارى؟ 63
- ماذا جرى لليهود لما لم يقبلوا التوراة وبه قبلوها؟ . 65
- بماذا نجا من المسخ من نجا منهم؟ 65
- قصة البقرة التي أمروا بذبحها؟ 66
- مصادر لم تنطق العرب بأفعالها 70
- أقسام القلوب 74
- كفر اليهود برسول الله لما جاء وكانا يستنصرون به
قبل بعثته 75
- أسئلة اليهود وأجوبتها 78
- بحث في السحر 79
- الحق أن الله أنزل السحر ابتلاء للخلق 80
- هل للسحر تأثير؟
تبرئة سيدنا سليمان من السحر
قصة الملكين مع الزهرة 81
- تنفر بالغ من تعلم السحر 82
- الكلام في النسخ 83
- ما المراد بالسعي في خراب المساجد؟ 87
- معنى ﴿فَإِنَّمَا تُولُواْ فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾
كلمات اليمعة مع متبع هواه 89
- ما المراد بالكلمات التي ابتلى الله بهنّ خليله 90
- معنى العهد الذي لا ينال الظالمين 91
- جمع حسن بين حرمة مكة من مبدأ الخلق وتحريم
إبراهيم لها 93

- 196 ﴿الله ما في السموات وما في الأرض﴾ إلخ ..
- 197 هل استجاب الله الدعوات التي في آخر السورة؟ ..
- فضل الآيتين اللتين في آخر السورة وهو جليل
- 199 وجليل ..
- سورة آل عمران**
- 200 فضل سورة آل عمران ..
- 201 الكلام على المحكم والمتشابه من كلام ربنا عز وجل
- ما هي شهوات الدنيا التي زينت للناس، وما الذي هو
- 207 خير من هذه الشهوات؟ ..
- فضل آية ﴿شهد الله﴾ إلخ، وإن الدين عند الله
- 208 الإسلام ﴿آية﴾: ﴿قل اللهم﴾ ..
- إلى أي حد بلغ قتل بني إسرائيل أنبياءهم؟ ..
- 210 تفسير آية ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ وما بعدها ..
- 211 هل تجوز موالة الكفار تقية، وما معنى هذه التقية؟
- اختصاص السيدة مريم وابنها بحفظهما عند الولادة
- 214 من سن الشيطان ..
- 218 لم سمي المسيح مسيحاً؟ ..
- تفسير قوله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني
- 220 متوفيك﴾ الآية ..
- آية المباهلة وحديثها ..
- 241 هل أمد أهل بدر بملائكة أم لا؟ ..
- ماذا كان يفعل الرسول ﷺ إذا أراد أن يدعو لأحد أو
- 243 عليه؟ ..
- 244 معنى ﴿لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ ..
- ما معنى أن الجنة عرضها السموات والأرض؟
- 244 ائتمار إبليس وجنوده على إضلال بني آدم ..
- 247 هل قتل نبي في حرب ومن هم الربيون؟ ..
- 252 قدر الاستشارة في الإسلام ..
- 253 لماذا فعل الله بالمسلمين ما فعل يوم أحد؟ ..
- 253 ما فعل المنافقون يوم أحد؟ ..
- ما هو الحق في حياة الشهداء الحقيقية هي أم
- 254 مجازية؟ ..
- 255 ما هو المراد بالرزق المنسوب للشهداء؟ ..
- 256 بعض ما ورد في فضل الشهداء ..
- 259 ما جزاء من أوتي مالاً فلم يؤد زكاته ..
- 260 حادثة الصديق مع اليهودي ..
- هل موضع سوط المؤمن في الجنة خير من الدنيا
- 261 وما فيها؟ ..
- 133 ما هي الأيام المعدودات؟ ..
- معنى ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من
- 135 الغمام والملائكة﴾ ..
- هل نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم؟ ..
- 141 الكلام على الخمر والميسر
- 144 زواج المشركة والكتابية ..
- 145 الكلام على الحيض وشيء من أحكامه ..
- 147 معنى ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ ..
- 148 اليمين للغو ما هي؟ ..
- 149 الكلام في الإيلاء ..
- 151 الكلام على المطلقات وعدتهن ..
- هل يجوز أن تفتدى المرأة بمال لتطلق؟ ..
- 153 هل يجوز الزواج للتحليل؟ ..
- 153 النهي الشديد عن طلب المرأة الطلاق بلا سبب ..
- 154 النهي عن مضارة المرأة في المعاشرة ..
- 155 النهي عن منع المرأة أن تتزوج مطلقها ..
- 157 شيء من أحكام الرضاعة ..
- 157 عدة المتوفى عنها زوجها ..
- 159 الكلام في خطبة النساء ..
- 160 شيء من أحكام المطلقات ..
- 161 ما هي الصلاة الوسطى؟ ..
- 164 الذين أماتهم الله لما خرجوا من بيوتهم حذر الموت ..
- 167 إلى أي حد يضاعف الله الحسنات؟ ..
- 168 الكلام على طالوت وجنوده ..
- 169 هل تتفاضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ ..
- 172 نهى المفسر عن التفسير بالرأي ..
- 173 هل نسخت الزكاة كل صدقة ونسخ رمضان كل
- 174 صوم؟ ..
- 174 تفسير آية الكرسي ..
- 176 تفسير ﴿لا إكراه في الدين﴾ ..
- 178 المحاجة التي بين سيدنا إبراهيم والنمرود ..
- 179 قصة الذي قال: ﴿أنتي يحيي هذه الله بعد موتها﴾؟ ..
- الكلام على طلب الخليل أن يريه الله كيف يحيي
- 180 الموتى وإجابة طلبه ..
- إنفاق الأموال، وآدابه، وما يبطل ثوابه، وإلى أي حد
- 182 يضاعف ذلك الثواب؟ ..
- 189 أبحاث آية الربا ..
- 192 الدين وما يتعلق به ..
- هل نسخت آية ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ آية

299	أمر رسول الله ﷺ ابن مسعود أن يقرأ عليه
301	ما معنى ملامسة النساء؟
302	رد المفسر على ابن السكيت وابن الأنباري في تفسير لفظ التيمم لغة
302	بم يكون التيمم؟
304	هل يدخل جميع طوائف الكفار تحت قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾؟
306	ما هو الفتيل والتقير والقطمير؟
308	كيف يكون الحاكم بين الناس؟
310	سبب نزول قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ الآية، مع ذلك قصة غريبة
311	سبب نزول قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ الآية
316	الكلام على السلام وردّه
318	الكلام على القتل خطئه وعمده
321	حديث محم بن جثامة قاتل عامر بن الأضبط بعد أن سلم سلام الإسلام
323	جزاء من أسلم بمكة ولم يهاجر من غير المستضعفين
324	الكلام على صلاة الخوف
326	تحريض المؤمنين على طلب الكفار وردّ أيّ عندهم إن وهنوا في ذلك
327	بيان أن الحكم بين الناس بما أنزل الله هو العدل
328	الدليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق
328	بيان أحوال المنافقين وذنم ما كانوا عليه
328	الترغيب في تعجيل التوبة عقب الذنب
329	بيان أن من اكتسب سوءاً فعليه عقابه، ومن كسب خيراً فله أجره
329	ذم النجوى إلا في أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ابتغاء وجه الله، والأجر لفاعل ذلك
329	الترهيب من مخالفة الرسول ﷺ والوعيد على ذلك تفويض غفران جميع الذنوب صغيرها وكبيرها إلى مشيئة الله تعالى ما عدا الشرك
330	تسفيه عقول عبدة الأصنام ووعيد من اتبع الشيطان، لعنه الله
331	الترغيب في الأعمال الصالحة ووعد الله الأجر العظيم عليها
331	آراء العلماء في خصاء الحيوان آمياً وغيره
331	بيان أن العقابة المحمودة ليست بالأمانى، وإنما هي

262	هل أخذ الله الميثاق على العلماء أن يبينوا ما أوحى الله؟
262	ما المراد بالذكر في قول الله: ﴿يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾
265	فضل الرباط في سبيل الله
265	فضل الآيات العشرة من آخر سورة آل عمران
	سورة النساء
266	فضل سورة النساء
266	الكلام على قراءة ﴿والأرحام﴾ بالجر وإنكار المؤلف تواترها
267	هل تجب صلة الرحم ويحرم قطعها؟
268	الكلام بسعة على قوله تعالى: ﴿وإن خفتن أن لا تقسطوا في اليتامى﴾ الآية
271	من هم السفهاء الذين لا يعطون المال؟
272	ما هو الرشد الذي به تنفع أموال اليتامى إليهم؟
272	ما هو الأكل بالمعروف من مال اليتيم لوليه؟
272	الوصية على اليتامى
275	عذاب من يكلون أموال اليتامى ظلماً
275	الكلام بسعة على التركات
279	ما جزاء الحيف في الوصية؟
279	ما جزاء من قطع ميراث وارثه؟
279	هل للوصية حد لا تتجاوزّه؟
279	فضل تعلم علم الفرائض
281	هل التوبة فرض على كل مؤمن باتفاق الأمة، وما هي التي تقبل؟
283	رجوع سيدنا عمر عن تحديد مهر النساء لاعتراض امرأة عليه
283	بحث مستفيض في المحرمات من النساء
286	هل كانت المتعة جائزة أو لا؟ ثم نسخت
	الكلام على زواج الإمام
291	حد الإمام إذا زنين
293	بحث في كبائر الذنوب ما هي وما عندها؟
294	الحسد والغبطة
295	بم جعل الله الرجال قوامين على النساء؟
296	ما يفعل الرجل مع امرأته المستعصية عليه؟
296	بم نسخ التحالف الذي كان يورث به في صدر الإسلام؟
296	الحكماء بين الزوجين وأحكامهما
297	على من أمر الله أن تحسن؟

سورة المائدة

- 348 هل المائدة آخر سورة نزلت؟
 ما المنسوخ من المائدة، والتنبيه على حديث موضوع
 349 في فضلها
 حادثة فيلسوف في معارضة القرآن. ما هي العقود
 المأمور بالوفاء بها؟
 ما هي بهيمة الأنعام، وما الشعائر التي نهينا عن
 351 إحلالها، وما معنى الإحرام؟
 352 المحرم علينا من الحيوان
 353 هل للمضطر أن يأكل من الحيوان المحرم؟
 354 ماذا أحل لنا؟ والكلام على الصيد
 355 هل يحل لنا طعام أهل الكتاب ونكاح نسائهم؟ ...
 357 الكلام بسعة في الوضوء والتيمم
 ما نقباء بني إسرائيل بماذا بعثوا؟ وماذا فعل الله ببني
 360 إسرائيل لما نقضوا العهد؟
 362 هل كان أهل الكتاب يخفون من كتبهم شيئاً؟
 الرد على النصارى من قولهم إن الله هو المسيح،
 وعلى اليهود والنصارى معاً في دعواهم أنهم
 362 أبناء الله وأحباؤه
 الكلام في الفترة التي بين رسولنا ﷺ وسيدنا عيسى
 363 ﷺ
 تنكير سيدنا موسى لقومه، ودعوتهم للجهاد
 363 وتمردهم عليه، وعقابهم على ذلك
 365 الكلام في ابني آدم وقتل أحدهما أخاه
 الكلام على قاتل النفس والمتسبب في إحيائها،
 367 والكلام على البغاة
 370 ما هي الوسيلة؟ وما حال الكفاء يوم القيامة؟
 حكم السارق، والرد على من قال إن التوبة تسقط
 371 الحدود
 المنافقون واليهود، وتسليية الرسول عن مسارعتهم
 372 في الكفر، وشيء من أخلاق اليهود وأحكامهم .
 من من الحكام المحكوم عليه بالظلم والفسق والكفر
 إذا لم يحكم بما أنزل الله؟ ومعنى الظلم والفسق
 373 والكفر هنا
 أحكام القصاص في النفس والجوارح، والحق في
 373 شرع من قبلنا هل هو شرع لنا؟
 حكم موالاة غير المسلمين ووصف المنافقين
 والمؤمنين حقاً في هذه الموالاة، ومن هو ولي
 377 المؤمنين الولاية الصحيحة

- 331 بالأعمال الصالحة
 مدح دين الإسلام، والكلام على معنى الخلعة، بيان أن
 كل ما في السموات وما في الأرض مملوك لله
 332 تعالى
 الإيصاء بأمر اليتامى من النساء والمستضعفين من
 332 الولدان
 جواز المصالحة بين الرجل وزوجه عند خوف
 333 التشويز والتوصية بالنساء
 334 التوصية بتقوى الله سبحانه والتهريب من الكفر ..
 الترغيب فيما عند الله من الجزاء على العمل إذا كان
 334 خالصاً لوجهه
 335 الأمر بالعدل في جميع الأمور من غير محاباة ...
 الأمر بالإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم
 الآخر
 ذكر معائب المنافقين والتهكم بهم وإيعادهم الوعيد
 336 الشديد
 النهي عن الغيبة والنميمة وجميع الإيذاء إلا متظلماً أو
 339 مستفتياً أو مكرهاً ونحو ذلك والترغيب في العفو
 اختراع أهل الكتاب على رسول الله ﷺ، وإنزال كتاب
 من السماء، وتسليية رسول الله ﷺ ما فعلت
 يهود مع موسى عليه السلام، إلى آخر ما قصه
 340 الله من شأنهم معه ﷺ
 بيان أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه ما قتل وما
 صُلب ولكن رفع إلى السماء وهو الآن حي، وأنه
 لا يموت يهودي ولا نصراني إلا آمن به قبل
 341 موته
 342 بيان أن المعاصي تنقص الرزق والدليل عليه
 الكلام على ﴿والمقيم الصلاة﴾ وما جاء فيه، والرد
 على المنكرين لبعثة محمد ﷺ، وأنه مثل من
 تقدم من الرسل صوات الله وسلامه عليهم
 343 أجمعين
 345 شهادة الله الملائكة بما جاء به النبي ﷺ
 نهى النصارى عن الغلو في المسيح وأنه كلمة الله
 القاهها إلى مريم وأن الله سبحانه منزه عن الولد
 346 والولد، والدليل على ذلك
 بشارة المؤمنين ووعيد الكافرين
 347 الكلام في الكلالة وامتنان الله سبحانه علينا بالبيان .
 انموذج من خط المؤلف رحمه الله من النسخة
 348 المطبوع عليها هذا التفسير

- آيات ثلاث هي أصعب ما في القرآن والكلام عليها . 400
الجواب عن نفي الرسل علمهم بما أجيبوا به من
أمهم 403
الجواب عن الحواريين في قولهم هل يستطيع ربك؟ 404
هل نزلت للمائدة وماذا كان عليها؟ 405
هل للمتوفي معان متعددة، ما معنى توفى الله تعالى
لسيدنا عيسى؟ 406

سورة الأنعام

- فضل سورة الأنعام، وهو فضل عظيم 407
ما هي الظلمات والنور؟ ومعنى ثم في قوله: ﴿ثُمَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْلُنُونَ﴾ 407
ما الأجل الذي قضاه الله والأجل المسمى عنده؟
إلى أي حد بلغ تصلب الكفار في تكذيبهم للرسول
ﷺ 409
حجج على وحدانية الله تعالى 411
مبلغ رحمة ربنا عز وجل 412
فيمن نزل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ
عَنْهُ﴾ 414
في أي شيء مثلنا الحيوانات؟ 417
تحريرض شديد على التضرع إلى الله تعالى، هل في
الرخاء والسعة خير والمرء مقيم على المعاصي
غافل؟ 419
إنكار المفسر على من يشتغل بالمفاضلة بين الملائكة
والأنبياء 420
حملة على النجاليين الذين يدعون علم الغيب وما هي
مفاتيح الغيب؟ 423
أين تكون الروح إذا نام الإنسان، وما معنى ﴿فَوْقَ
عِبَادِهِ﴾؟ 424
النهى عن مجالسة أهل الأهواء الباطلة ونسخ
الترخيص في ذلك أولاً 426
إنكار سيدنا إبراهيم على أبيه في عبادة غير الله . 429
الحجة التي أوتيتها سيدنا إبراهيم على قومه 431
ما يكون للظالمين وهم في غمرات الموت؟ 434
عدة حجج على أنه تعالى الإله الواحد 435
هل رأى محمد ربه، ما معنى ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبُصُورُ﴾؟ 439
هل يترك النهي عن المنكر إذا خيف أن يترتب عليه
أشد منه؟ وجملته شديدة جداً على معاندي
الشرائع 440
حل الإشكال في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُ إِذَا

- وصف قوم نهينا عن موالاتهم أيضاً، ووصف شر
منهم 380
قول اليهود: ﴿يَدِ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وجزاؤهم على ذلك
وماذا كان يفعل الله بأهل الكتاب لو أقاموا التوراة
والإنجيل 382
استواء أهل البيت بجميع الناس في التبليغ لم
يختصوا وحدهم بشيء من الدين 384
حظ العلماء المخلصين من العصمة من الناس إذا
قاموا ببيان حجج الله 385
استغناء الرسول ﷺ عن الحراس لما وعد بالعصمة
من الناس 385
تخريج ﴿والصابئون﴾ المرفوع المعطوف على
المنصوب 385
حكم من قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ ومن قال: ﴿إِنَّ
اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ﴾ 386
حقيقة سيدنا المسيح وأمه 386
لماذا لعن الكفار من بني إسرائيل؟ 387
من أشد الناس عداوة للمؤمنين، ومن أقربهم موثة
لهم؟ 388
بحث نفيس في تحريم العوام على أنفسهم بعض ما
أحل الله لهم، وأنه ليس من الدين في شيء لو
ترك تزهداً 390
ما هو اللغو من الإيمان، ما كفارة المنعقدة وما غلط
الغموس؟ 391
تحريم الخمر، وسر تحريمها بالتدريج ومضارها
الدينية والأخوية 392
الكلام في الميسر والنرد، وسواغهما من اللاعيب . 393
ابتلاء المؤمنين بتحريم الصيد وهم حرم، وجزاؤهم
الأخروي إن خالفوا 394
ما الجزاء الدنيوي لقاتل الصيد؟ 394
إباحة صيد البحر للمحرم 395
ما معنى كون الكعبة والأشهر الحرم والهدي والقلائد
قياماً للناس؟ 396
ما الخبيث والطيب ومعنى عدم استوائهما ولو كثر
الخبيث وأعجب الناظر؟ 397
النهى عن مسائل يسوء التكليف بها
ماذا كان لمن سألوها قبل المنهيين؟ 398
ما البحيرة والسائبة والوصيلة والحام؟
هل يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله
تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ الآية؟ 399

- 474 ما معنى كون أبواب السماء لا تفتح للكفار؟
- 475 ردّ مفحم للمفسر على الزمخشري
- ماذا يقول الكافرون حين يرون منازلهم في الجنة؟
- ماذا يقول المؤمنون حينما يرون منازلهم في النار؟
- 475 مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار
- ما الحجاب الذي بين أهل الجنة وأهل النار وما الاعراف ومن أهله؟
- نداء أهل النار أن يفيض أهل الجنة عليهم من الماء، والردّ عليهم
- 477 الاختلاف في استواء الله تعالى على العرش والحق في ذلك
- 478 فضل جليل جداً لعشرين آية من القرآن
- معنى التضرع، والاعتداء في الدعاء، ومعنى الفساد في الأرض والإصلاح فيها
- 479 قصة سيدنا نوح مع قومه
- 481 قصة سيدنا هود مع قومه
- 482 قصة سيدنا صالح مع قومه
- 483 قصة سيدنا لوط مع قومه
- 485 قصة سيدنا شعيب مع قومه
- 486 سياسة الله تعالى مع كل الأمم قبل إهلاكهم وماذا كان يفعل الله مع أهل القرى الهالكين لو آمنوا وأنقوا
- 488 تهديد هذه الأمة أن يفعل معها الله كما فعل بالأمم السابقة إن لم يؤمن
- 489 قصة سيدنا موسى مع فرعون وملئه وآيات عظيمة لم يؤمن برؤيتها فرعون وقومه
- 490 أوضح برهان على بطلان بني إسرائيل
- 496 جواب ظاهر عن قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾
- 497 الصدع بالحق في رؤية الله تعالى يوم القيامة
- 498 ما هي دار الفاسقين، وما جزاء الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق؟
- 499 هل كان العجل الذي اتخذته بنو إسرائيل إلهاً ذا لحم ودم؟
- 500 رجفة السبعين الذين اختارهم سيدنا موسى وإيضاح كلامه ﷺ مع ربه
- 503 قصة أصحاب السبت
- 506 هل الأمر بالمعروف ينجي من السوء؟
- 507 الحق في أخذ ذرية بني آدم من ظهورهم
- 510 من الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها؟
- 512 جاءت ﴿إلخ فتح همزة أنها
- 441 الجنّ والشياطين هل بينهما اختلاف؟ ومتى يموت كل منهما؟
- 442 ما المراد أكثر أهل الأرض الذين يصدون من أطاعهم عن سبيل الله؟
- 443 الكلام على ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح
- 444 هل يسمى المؤمن حياً والكافر ميتاً؟
- 446 هل للهداية والضلال علامة، وما هي؟
- 448 هل يسلط الله على الظالم ظالماً بسبب ظلمه؟
- 449 كيف يرجح المشركون أصنامهم على ربّ العالمين؟
- 451 هل كان المشركون يخللون ويحرمون اقتراء على الله؟
- 452 هل نسخ قول ربنا: ﴿وَأَتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؟
- هل في طاعة الله تعالى إسراف؟ والردّ على المحرّمين بعض الحيوانات بقوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾
- 453 إلخ
- ما زيد من المحرمات على ما تضمنه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ الْإِلَاحَ﴾؟
- 454 ماذا حرّم ربنا على اليهود لما بغوا؟
- 455 احتجاج المشركين بمشيئة الله على جواز إشراكهم والردّ عليهم
- 456 الوصايا العشر التي وصانا الله بها
- 457 ما ورد في هذه الوصايا، هل هذه الوصايا هي التي في التوراة وإزالة إشكال
- 458 ما الذي ينتظره من لم يؤمن؟
- 460 أي آية التي إذا كانت لا ينفع نفساً إيمانها؟
- 461 كيف يكون جزاء الحسنات والسيئات

سورة الأعراف

- الجواب الحاسم عما يكون منفياً تارة ومثبتاً أخرى يوم القيامة
- 464 كيف توزن الأعمال؟ والبحث في حقائق أنكرها قوم هل الطين أفضل من النار، ولماذا؟
- 465 بناء على أي شيء قال إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾؟
- 467 هل تدل آية: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أننا لا نرى الشياطين؟
- 470 كلام جليل مع المقلدين
- 470 هل ترك ما أحلّ الله تعالى يقال له زهد ويمدح؟
- 471 حلّ إشكال الأجل إذا جاء كيف لا يتقدّم وقد جاء
- 473 الكلام في زيادة العمر ونقصه
- 474

استثناء من لم يتقضوا عهدهم من تلك البراءة، والأمر
 557 بإتمام عهدهم إليهم
 ما هي الأشهر الحرم التي أمر المؤمنون أن يقاتلوا
 557 المشركين إذا انسحلت؟
 المعاني التي من أجلها لم يحترم عهد المشركين
 558 الذين لم يستقيموا على عهدهم
 بيان أن عمارة مساجد الله إنما تصح وتليق بالمؤمنين
 561 فقط
 تحريم موالاة الآباء والإخوان إذا لم يؤمنوا، والوعيد
 563 للشديد عليها
 ما كان يوم حنين؟
 منع المشركين من دخول المسجد الحرام، والخلاف
 564 في دخولهم غيره
 الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، والخلاف
 565 في مقدار هذه الجزية
 رأي المفسر في مقلدي المذاهب الأربعة
 لماذا قال اليهود عزير ابن الله؟
 566 وعيد من يكنزون الذهب والفضة، وبيان أن كل ما
 569 أنبت زكاته فليس بكنز
 هل نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم أم لا يزال
 570 باقياً، وما هو النسيء؟
 التحريض الشديد على النفس في سبيل الله والوعيد
 572 العظيم لمن لم ينفر
 كلام الله مع رسوله لإنه للمناققين أن يتخلفوا عن
 575 الجهاد
 مصارف الزكاة
 578 قصة ثعلبة المناق الذي عاهد الله ولم يف
 587 لماذا لا ينفع استغفار رسول الله ﷺ للمنافقين؟ ..
 588 تخلف المنافقين عن غزوة تبوك وجزاؤهم على
 نك دنيا وأخرة
 نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة على المنافقين،
 589 والقيام على قبورهم، ولماذا ذلك؟
 ما جزاء من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله؟ ...
 590 من هم المعزرون الذين جاءوا رسل الله ليأذن لهم في
 590 التخلف عن الجهاد؟
 رفع الحرج عن أرباب الأعداء الصحيحة إذا تخلفوا
 591 عن الجهاد ومن يؤخذ بالعقوبة لتخلفه عن الغزو
 592 اعتذار المنافقين وحلفهم، وجزاؤهم على ذلك ...
 هل الأعراب أشد كفرةً ونفاقاً، وهل من الأعراب قسم
 مؤمن يتقرب إلى الله بنفاقه خلاف القسم الذي

هل هناك آدمية أضل من الأنعام؟ 513
 كم نوع الإلحاد في أسماء الله، كم أسماء الله تعالى؟ 515
 كيف يكون الاستدراج؟ 515
 هل يعلم متى تقوم الساعة أحد غير الله؟ 517
 اعتراف سيد العالمين أنه لا يعلم الغيب 518
 الكلام على قول الله تعالى: ﴿جعلنا له شركاء فيما
 519 آتاهم﴾
 صفات للأصنام تبين قدرها حق البيان 520
 كيف يتولى الله الصالحين؟ 520
 هل يجب سماع القرآن في كل حال؟ 521

سورة الأنفال

بحث في الأنفال أول الأمر 523
 من هم المؤمن حقاً؟ 525
 أوائل غزوة بدر 526
 هل مد المؤمنين بملائكة يوم بدر بشرى لهم؟ ... 527
 ماذا فعل الله لطمان المؤمنين ونصرهم يوم بدر؟ . 528
 الوعيد على الفرار من الزحف 530
 متى كان الرمي في قوله تعالى: ﴿وما رميت إذ
 530 رميت﴾
 بماذا تأمر الكفار على النبي ﷺ ونجاه الله منهم؟ .. 536
 هل أنزل الله أمانين لهذه الأمة: ذهب أمان وبقي أمان؟ 537
 كيف تقسم الغنائم؟ 537
 تثبيت قلوب المؤمنين ببدر برؤيا رسول الله المنامية
 542 وبرؤية المؤمنين للكفار قليلين ليطيعوا فيهم ..
 وصايا تضمن النصر للمؤمنين إن راعوها 543
 تكليف الله للمؤمن أن يحرم عليه أن يفز من عشرة
 أول الأمر وتخفيف الله ذلك عنهم وجعل الفرار
 549 المحرم الفرار من اثنين فقط
 الكلام في فداء الأسرى يوم بدر 550
 المعاني التي كان بها التناصر بين المؤمنين
 والموالاة، والمعاني التي كان بها الإعراض عن
 552 بعض المؤمنين، والمعاني التي كانت بها المعادة

سورة براءة

أسماء سورة براءة، وسب سقوط البسطة من أولها 553
 براءة الله ورسوله من المشركين لنقضهم العهود
 وضرب مدة لهم يستعدون فيها للحرب والنداء
 يوم الحج الأكبر بهذه البراءة وبأشياء معها،
 554 وبيان ما هو الحج الأكبر

620	لا يتبعون إلا ظناً
624	الحجج على أن القرآن حق
626	صفات للكفار وتهديد لهم
627	رأي المفسر فيمن يستغيث برسول الله وإخوانه الأنبياء وأتباعهم الصالحين
632	إحاطة علم ربنا بكل شيء
632	ما هي بشرى الأولياء في الدنيا؟
635	قصة سيدنا نوح ﷺ مع قومه
636	قصة سيدنا موسى ﷺ مع قومه
642	الكلام على قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك﴾ الآيتين اختصاص قوم سيدنا يونس بنجاتهم من العذاب بعد أن علمتوه
644	هل الضرر النافع ربنا فقط؟

سورة هود

645	ما ورد في هود من الأحاديث
646	معنى إحكام آيات الكتاب وتقصيلها
647	ما جزاء من استغفر ربه وتاب إليه، وما جزاء من لم يفعل ذلك؟
647	شيء من صفة المنافقين
649	هل خلق العرش كان قبل السموات والأرض؟
649	الكلام على قوله تعالى: ﴿فلعلك تارك﴾ الآية
650	الجواب عن قول الكفار إن القرآن افتراه رسول الله ﷺ
651	من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط وجزاؤه ..
653	الكافرون والمؤمنون وجزاء كل، ومثل كل
654	قصة سيدنا نوح ﷺ مع قومه
661	قصة سيدنا هود ﷺ مع قومه
663	قصة سيدنا صالح ﷺ مع قومه
664	قصة سيدنا إبراهيم ﷺ مع الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم سيدنا لوط
667	قصة سيدنا لوط ﷺ مع قومه
669	قصة سيدنا شعيب ﷺ مع مدني
672	قصة سيدنا موسى ﷺ
673	كيف أخذ ربنا إذا أخذ القرى الأشقياء والسعداء وجزاء كل
674	ما معنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ وإزالة هذا الإشكال
677	هل قول رسول الله ﷺ «شيبتي هود وأخواتها» مرتبط بقول ربه عز وجل له: ﴿فاستقم﴾ الآية؟

593	يتخذ ما ينفق مغرمًا ويتربص بالمؤمنين الدوائر؟ ما جزاء السابقين الأولين من الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان؟
595	عود إلى شرح خال المنافقين الذين بالمدينة وما حولها وما جزاؤهم
596	طائفة أخرى خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم
596	الاختلاف في الصدقة المأمور بأخذها منهم، أم هي الفرص أم لا؟
597	التحريض على التوبة
597	طائفة أخرى أرجى أمرهم لم يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها
598	مسجد الضرار ومن اتخذوه، وحكمهم عند الله تعالى، والمسجد الذي أسس على التقوى وأهله وحكمهم
601	فضل المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وصفاتهم
602	النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربي، والجواب عن استغفار خليل الله لأبيه
604	ما هو الأواه؟
604	الكلام على قوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ الآيات
605	تحريم التخلف عن رسول الله ﷺ في الغزو، وبيان ما للمجاهدين من ثواب في كل حال
606	تعليم المؤمنين أن تكون طائفة منهم تغزو، وطائفة منهم تتعلم العلم ليرشدوا من لم يتعلم وتعليم المؤمنين أن يبيتوا بالأنبياء في جهادهم
607	بقية من فضائح المنافقين
608	الكلام على قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول﴾ الآيتين

سورة يونس

610	إنكار عجب الكفار من إرسال الله تعالى لرسوله المنذر المبشر، وذكر آيات جليلة على قدرته تعالى حتى لا يكون هناك محل لتعجب أولئك الكفار من إرساله الرسول ﷺ
610	شرح حال من يؤمن بالمعاد ومن لا يؤمن، وجزاء كل منهما
611	صفات للكفار يخللها تهديد وعيد لهم
613	مثل الدنيا
619	الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات، وجزاء كل ..
619	حجج دامغة على توحيدة تعالى وبيان أن المشركين

- هل كتب سيدنا يعقوب إلى سيدنا يوسف كتاباً وما هو؟ 714
- كيف تحققت رؤيا سيدنا يوسف؟ 715
- معنى قوله تعالى: وظنوا أنهم قد كذبوا؟ 717

سورة الرعد

- هل في قراءة سورة الرعد عند المحتضر فائدة؟ .. 719
- عبرة وشرحها 720
- معنى قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ 723
- الكلام على سجود مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَعَلَى سَجُودِ الظَّلَالِ 725
- مثالين وشرحهما 727
- الكلام على السحاب والرعد 727
- صفات المؤمنين والكافرين والحكم على كُلِّ منهما .. 728
- قيمة الدنيا، وما هي طوبى؟ 731
- الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية 732
- الكلام على قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ عِنْدَهُ أَمَّ الْكِتَابِ﴾ 734
- معنى نقص الأرض من أطرافها 736
- مَنْ هُوَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ؟ 736

سورة إبراهيم

- هل يرسل الله الرسل بلسان قومهم ودفَع اعتراض ضخم؟ 738
- هل الشكر يستوجب المزيد؟ 739
- معنى ردِّ الكفار أيديهم في أفواههم 740
- عود إلى الشكر وما يعقبه من المزيد 741
- وصف شيء من عذاب الكفار وبين عظمه وشدته .. 742
- خطبة إبليس لأهل النار وإفحامه لهم إفحاماً عجيباً، والكلام على ذلك 744
- مثل لكلمة الإيمان وكلمة الكفر 746
- معنى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ 746
- نعم يعددها ربنا ويمتدُّ بها علينا 747
- الجواب عما لعله يتهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ 750
- السيدة سارة السيدة هاجر رضي الله عنهما 751
- معنى ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِلْتَّوَلَّى مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ 752
- الأرض بعد أن تبطل 754

- الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ 677
- هل أعمال الصالحة تكفر صفائر المحرمات؟ 678
- هل سبب استئصال الأمم السابقة بالعذاب كان بسبب أنه لم يكن فيهم من ينهون عن الفساد في الأرض؟ 679
- هل لا يهلك الله أهل القرى بظلم يتلبسون به وأهلها مصلحون؟ 680
- لَمْ يَقْصَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ مَا قَصَّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ؟ 680
- تهديد شديد للكافرين
- هل خاتمة التوراة خاتمة هود؟ 681

سورة يوسف

- فضل سورة يوسف عليه الصلاة والسلام 682
- لماذا كانت سورة يوسف أحسن القصص؟ 683
- الكلام على الكواكب التي رآها سيدنا يوسف 683
- أسماء إخوة سيدنا يوسف وأسم أمه 684
- الكلام في نبوة إخوته ﷺ 684
- هل كان نبياً سيدنا يوسف وقت المحنة؟ 686
- شرح حادثة امرأة العزيز مع سيدنا يوسف 689
- الذين تكلموا في المهدي، وبأي سنَّ كَانَ شَاهِدَ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ 691
- مَنْ هُوَ النَّسْوَةُ اللَّاتِي شَغَفَتْ حُبَّ يَوْسُفَ؟ 692
- هل صورة الإنسان أحمل وأكمل صور الخلق؟ ... 693
- ما هي الآيات التي راوها؟ 695
- شرح رؤيا الملك 699
- تحقيق الملك مع النسوة وظهور براءة سيدنا يوسف 700
- هل للإنسان أن يمدح نفسه ويطلب الولاية إذا كان يتق بنفسه؟ 701
- ما كان بين يوسف وإخوته لما حضروا مصر لشراء الطعام؟ 703
- الرد على مَنْ ينكر تأثير العين والحكم في العائن .. 705
- ماذا كان من يوسف لما أحضر له إخوته شقيقه بنيامين؟ 706
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ إلخ الآيات .. 707
- تعرف يوسف لإخوته ليغفروه وعدم عتابه لهم لما عرفوه واعتذاره له 712
- أي قميص قميص يوسف؟ 713

سورة الحجر

- 755 متى يؤدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين؟
 758 الكلام على البروج
 كيف حفظت السماء من الشياطين؟
 759 معنى كون الرياح لواقع
 في معنى المستقدمين والمستأخرين
 760 أصل الإنسان والجآن، وحادثه إبليس مع سيدنا آدم
 762 الكلام على أبواب جهنم
 763 ما أعدّ للمتقين وحالهم في الجنة
 763 محاوره سيدنا إبراهيم مع الملائكة
 764 الملائكة مع سيدنا لوط
 765 حال قوم سيدنا لوط معه ﷺ
 هل أجمع المفسرون على أن ربنا أقسم بحياة نبينا
 766 ﷺ
 من هم المتوسمون، هل هم أهل الفراسة؟
 767 هل أصحاب الأيكة أهل مدين أمتان مختلفتان؟
 768 ما هي السبع المثاني؟
 769 من هم المقتسمون وما فعلوا بالقرآن؟
 المستهزئون الذين كفى الله نبيه منهم
 الكلام في الفاتحة وفضلها
 حديث يتعلق بآخر السورة ينبغي أن يرى
 769
 سورة النحل
 771 ما المراد بالامر الذي أتى ونهوا عن استعجاله
 ما هو الروح الذي يليق به ربنا على من يشاء من
 772 عبادته؟
 772 من جلة امتن الله بها على عباده
 774 الكلام على لحوم الخيل حلاً وحرمة
 رجوع إلى الكلام على لحوم الخيل
 774 من أخرى يمتن بها علينا ربنا فليتاملها المؤمن
 هل من يخلق هذه الممن يصح أن يساوى بمن لا
 776 يخلق شيئاً؟
 كيف لا نحصى نعم ربنا؟
 777 قيمة الإلهة التي يدعونها من دون الله
 778 عادة الله مع أهل المكر السيء بدينه ورسله
 779 معنى لا جرم ومن هو المتكبر وما جزاؤه؟
 الكفار والمؤمنون ووصف كل وجزاؤه
 كيف يفهم قول الكفار لو شاء الله ما عبدنا من دونه

- 781 من شيء؟
 782 كيف يفهم قول الله للشيء كن فيكون؟
 782 ماذا أعدّ الله لمن هاجروا من بعد ما ظلموا؟
 معنى يتعين لبيان الفوقية في قوله تعالى: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾
 784 دفع اعتراض ينبغي أن يحاط به
 784 عجب عجيب؟ حال الكفار مع الله ومع الهتهم
 785 حال العرب الوثنيين إذا بشروا بالأنثى
 786 ماذا يفعل الله بالناس لو أخذهم بذنوبهم
 787 معنى قوله تعالى: ﴿فهو وليهم اليوم﴾
 788 الكلام على سقى وأسقى لغة، وعلى الضمير المذكور
 789 الرجوع إلى الأنعام
 العبرة في خروج اللبن من بين فرث ودم خالصاً
 789 سائغاً للشاربين
 الكلام على السكر في قوله تعالى: ﴿تتخذون منه سكرًا﴾
 789 هل العسل شفاء لكل الأمراض أو لبعضها؟
 790 الكلام على ذلك
 أخبار وردت في العسل
 791 مراتب العمر، والأرذل منه، ومعناه
 مثلان يفهمان أنه لا يصح التسوية بين خالق الخلق
 793 وبين الأصنام الجمادات
 نعم يمتن علينا بها ربنا وما أجل ما يمتن به الحكيم
 795 القدير
 798 الكلام على العدل والإحسان والفحشاء والمنكر
 799 أفضل آية، وأجمع آية، وأكثر آية تفويضاً، وأرجى آية
 799 الكلام على الوفاء بالعهد وعلى اليمين بعد توكيدها
 ما هي الحياة الطيبة التي يحيي ربنا عليها المؤمن
 801 العامل للصالحات
 801 ماذا يفعل مريد قراءة القرآن؟
 من هذا البشر الذي زعموا أنه يعلم الرسل، والرد
 802 عليهم في ذلك؟
 آثار في بيان الحياة الطيبة التي يحييها المؤمن
 803 الصالح
 803 الكلام على من كفر مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان
 804 هل يغفر الله لمن فتن إذا هاجر وجاهد وصبر؟
 شيء من تعذيب الكفار لبعض المؤمنين
 804 المستضعفين وقت هجرتهم
 805 ما هي القرية التي جعلها الله مثلاً؟
 الاستعارة التي في قوله تعالى ﴿فأذاقها الله لباس

- 834 مَن هو الإمام الذي يدعى كل أناس به
الكلام على قوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾
837 معنى قوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهدج به نافلة لك﴾
ما هو المقام المحمود الذي وعده الرسول ﷺ؟
838 معنى منخل الصلح ومخرج الصلح
839 هل القرآن شفاء للقلوب أو الأبدان أو شفاء لكليهما؟
839 ما هو الروح والكلام فيه؟
841 هل يذهب القرآن من القلوب والمصاحف يوماً ما .
شبهة للكفار في أن يكون الرسول بشراً، والجواب
843 عنها
على أي حال يحشر الكافرون؟
845 ما هي التسع آيات التي أوتيتها سيدنا موسى؟ ...
848 الكلام على آية العز والآية قبلها
سورة الكهف
849 فضل سورة الكهف، وليراجع فإنه جليل
849 ما معنى ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾
850 قصة أهل الكهف، وهي من بدائع القرآن فلتتأمل ..
855 معنى قوله تعالى: ﴿وانكر ربك إذا نسيت﴾
كلام ربنا مع نبيه في شأن فقراء المؤمنين وفي شأن
856 الكفار
857 ما أعد للكافرين وما أعد للمؤمنين
859 الكلام على الرجلين اللذين ضربهما الله مثلاً
862 مثل آخر هو مثل الحياة الدنيا والكلام عليه
862 الكلام على الباقيات الصالحات
معنى العرض، وكيف يعرض الناس؟
قصة إبليس مع سيدنا آدم، وبيان أنه من الجن لا
863 الملائكة
الكلام على قوله تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات
864 والأرض﴾
قصة سيدنا موسى مع فتاه ومع سيدنا الخضر،
866 وهي من عجائب القرآن
869 بقية قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر
872 الكلام على ذي القرنين وقصته
875 بقية هذه القصة، وفي ذلك الكلام على يأجوج ماجوج
878 مَن هم الأخسرون أعمالاً، وما هو جزاؤهم؟
ما هو جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟
879 هل يدخل الخوارج في الأخسرين أعمالاً؟

- 805 الجوع والخوف
807 ما معنى كون سيدنا إبراهيم أمة؟
807 كيف اختلف أهل السبت فيه؟
هل لمن أصيب بظلامة أن يعاقب بمثلها وإن صبر
كان خيراً؟
ما هو السبب في نزول قوله تعالى: ﴿إن عاقبتكم
808 الآية؟
سورة الإسراء
بحث لغوي في لفظ التسبيح والإسراء بم بارك الله
حول المسجد الأقصى؟
809 هل كان الإسراء ببين رسول الله ﷺ أم بروحه فقط؟
811 متى أسري به ﷺ؟
ما قضاه الله على بني إسرائيل من قهر عدوهم لهم
حين عصيانهم وقهرهم لعدوهم بعد ما تابوا .
811 معنى أن الله محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة
813 ما هو العذاب المنفي في قوله تعالى: ﴿ما كنا
معننين﴾ الآية، أهو عذاب الدنيا أم عذاب الآخرة؟
814 الكلام على قوله تعالى: ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا
فليها﴾
814 الوصية على الوالدين والتشديد في عدم عقوقهما .
817 ما هو التبذير، وما قيمة المبذر في حكم الشرع؟ ..
819 نواو جازمة يجب أن تمتثل فلتراجع
معنى كون ولي القاتل منصوراً، ومعنى نهيه عن
الإسراف في القتل
820 أوامر ونواو يجب أن تمتثل فلتعرف فإنها في غاية
الأهمية
822 ما الحق في تسبيح كل شيء بحمد ربنا هل هو
مجاز أم حقيقة؟ وليراجع هذا البحث
824 ما معنى المسحور؟
825 ما الحكمة في عدم إجابة الكفار فيما اقترحه من
الآيات؟
829 معنى كون الله لم يرسل الآيات إلا تخويفاً
829 ما هي الرؤيا التي جعلها الله فتنة للناس؟
830 ما هي الشجرة الملعونة في القرآن؟
قصة إبليس مع سيدنا آدم، وأنها ذكرت في القرآن
سبع مرات
831 رأي المفسر في قوله تعالى: ﴿وفضلناهم على كثير
ممن خلقنا تفضيلاً﴾
833 أحاديث في تفضيل بني آدم على الملائكة
834

الكلام على الجنة وخصوصاً جنة الفردوس
والتحريض على سؤالها
ما هي كلمات الله التي تنفذ البحار ولا تنفذ؟ وهل هي
قابلة لأن تنفذ أم لا؟ 879
الكلام على قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء
ربه﴾ الآية

سورة مريم

فضل هذه السورة 881
سيدنا زكريا وقصته
ما هو الحكم الذي أوتي سيدنا يحيى صبياً وفضل
سيدنا يحيى 882
قصة السيدة مريم في حملها ووضعها لسيدنا عيسى
وبراءتها 885
كيف امتري بنو إسرائيل في سيدنا عيسى ﷺ؟ .. 890
قصة سيدنا إبراهيم الأَخْلِيل مع والده 890
فضل سيدنا موسى وسيدنا هارون وسيدنا إسماعيل
وسيدنا إدريس 891
معنى رفع ربنا لسيدنا إدريس مكاناً علياً، وتنبيه على
غلط 892
معنى الورد في قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردة﴾ 896
هل تكون الآلهة يوم القيامة ضدّاً لعبديها لا عزّاً لهم؟ 899
كيف يحشر المّتّقون والمّجرمون؟ 900
أي جريمة جريمة من يزعم أن الله اتخذ ولداً؟
ما هو العهد الذي يملك به الإنسان الشفاعة؟ 901
ما هو الولد الذي سيجعله الله لعباده الصالحين؟ .. 902
لماذا يسّر الله القرآن بلسانه ﷺ؟

سورة طه

فضل هذه السورة 903
ما معنى لفظ ﴿طه﴾ 903
ما معنى ﴿الرحمّن على العرش استوى﴾ وما معنى
﴿السر وما أخفى﴾ 903
قصة سيدنا موسى حينما رأى ناراً
معنى ﴿أكاد أخفيها﴾ 905
منة ربنا على سيدنا موسى في تربيته منذ كان
رضيعاً وما يتصل بذلك حتى صار نبياً 908
قصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه بعد الرسالة . 910
معنى قوله تعالى: ﴿أريناه آياتنا كلها﴾ 912

توعد فرعون لسيدنا موسى أن يأتيه بسحر مثل
آيئته 912
الموعِد للاجتماع لذلك 912
مبلغ عظم السحر الذي فعله سحرة فرعون 914
ابتلاع عصا سيدنا موسى كل ذلك السحر بعد أن
انقلبت ثعباناً 915

إيمان السحرة بمجرد رؤيتهم هذه المعجزة
اتهام فرعون لهم بأنهم تلاميذ سيدنا موسى، وأنه
كبيرهم الذي علمهم السحر، وتهديده لهم
بقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم على جنوع
النخل لأجل إيمانهم بموسى من غير إذنه
استخدامهم كل هذا التهديد ومضيه على إيمانهم،
ولينظر ما قالوا فإنه يشف عن إيمان كالجبال
كيف نجى ربنا موسى وقومه، وكيف أغرق فرعون
وقومه؟ 916
جواب سيدنا موسى لما سأله ربه لم استعجل وتقدم
قومه إلى الميقات؟ 918
غضب سيدنا موسى وتوبيخه لقومه لما أخبره موله
أن السامري أضلهم 918
كيف صنع السامري العجل وكيف أضل بني
إسرائيل

تصميم بني إسرائيل على عبادة العجل حتى يرجع
سيدنا موسى رغم نهي سيدنا هارون لهم، وبيان
فتنتهم بذلك العجل الذي اتخذوه إلهاً، وإنما إلههم
الرحمّن 919
لوم سيدنا موسى أخاه سيدنا هارون على عدم إنكاره
على بني إسرائيل لما عبدوا العجل، وجواب
سيدنا هارون على ذلك اللوم 920
جواب السامري لما سأله سيدنا موسى لماذا صنع ما
صنع؟ 920

عقوبة السامري الدنيوية على تلك الشنيعة
معنى تحريق ذلك العجل ثم نفسه في اليَمّ
ماذا كان من سيدنا آدم بعد نهيهِ عن الأكل من
الشجرة، وكيف حاوره إبليس في ذلك الأكل؟ 924
هل صلاة الصبح والعصر هما التسبيح قبل طلوع
الشمس وقبل غروبها، وما فضل هاتين
الصلاتين؟ 928

سورة الأنبياء

كلام للمؤلف في حدوث القرآن ورأيه فيما كان من
المتقنين في هذه المسألة 929

- 966 مَن القانع ومَن المعتز؟
- 966 صفة مَن ينصرهم الله لأنهم ينصرونه
- هل أول آية نزلت في الجهاد (إن للذين يقاتلون الآية؟
- الكلام على قوله تعالى: ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾
- 969 فضل الموت في سبيل الله
- 971 آيات وعبر ينبغي نظرها
- 972 مثل لمن عبد غير الله عز وجل
- 973 كيف لم يجعل الله علينا في ديننا من حرج؟

سورة المؤمنون

- 977 هل الخشوع فريضة في الصلاة أم فضيلة؟
- 977 صفات للمؤمنين الذين أقبلوا
- 978 هل يفتدي ربنا المؤمنين من النار بالكافرين؟ مراتب خلق الإنسان
- 979 آيات وعبر أخرى ينبغي أن ترى ليزداد ناظرها إيماناً ما وافق عمر فيه ربه والتنبية على عدم اعتبار حديثين
- 981 قصة سيدنا نوح مع قومه
- 982 عادة الأمم مع رسلهم وعادة الله تعالى معهم
- 984 قصة سيدنا موسى مع قومه
- 986 هل قد تكون كثرة الأموال والأولاد إهانة لا كرامة؟ صفات للفضلاء من أهل الإيمان فليعرض العبد نفسه عليها
- 986 هل لو اتبع الحق أهواء الكفار كانت تفسد السموات والأرض؟
- 989 هل القرآن فخر وشرف لمن نزل لهم؟ هل سؤال المرشد من يرشدهم أجراً يصح أن يكون سبباً في إعراضهم عنه؟
- براهين على وحدانية الله تعالى تلقم المشركين الحجر لأنهم يعترفون بها
- 990 برهان آخر على نفي الولد والشريك لله عز وجل ..
- 992 هل العمل هو مناط الإكرام والإهانة يوم القيامة؟ هل السخرية بالمؤمن لإيمانه تخلد الساخر في النار، وهل صبر المؤمن على تلك السخرية مع ضعفه يكون سبباً في فوزه؟
- 994 تنزيه ربنا نفسه عن أن يكون خلق الناس عبثاً هل يسأل الكافر الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحاً ولا يسألها المؤمن؟
- 994

- 930 رأي المفسر في التقليد
- الكلام على قوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا﴾ الآية
- 931 لماذا تفسد السموات والأرض لو كان فيهما إله إلا الله
- 932 الرد على مَن قالوا: إن الله اتخذ الملائكة بنات، وبيان قدر الملائكة
- 933 معنى ففق السموات والأرض بعد أن كانتا رتقا ... هل يشفع في أهل الكبائر؟
- 934 فيمن نزل قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ ومعنى هذا التركيب
- 935 قصة سيدنا إبراهيم مع قومه وتشبيه المصنف المقلدين للأئمة بقومه
- 938 كيف يفهم قول الله تعالى: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ الآية
- 939 ماذا كان لما ألقى سيدنا إبراهيم في النار
- 940 فضل ربنا على إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ونوح
- 940 قضية الحرث التي فهمها الله سليمان، والكلام عليها
- 941 فضل الله على داود وسليمان
- 942 ماذا فعل ربنا مع سيدنا أيوب لما دعاه؟
- 944 الكلام على سيدنا ذي الكفل
- 945 قصة سيدنا يونس لما ذهب مغاضباً
- 945 معنى قوله تعالى: ﴿وحرام على قرية أهلكناها﴾ الآيات، وإزالة إشكالاتها
- 947 بيان وضع حديث السجل
- 950 كيف أن نبينا أرسل رحمة للعالمين؟
- 952

سورة الحج

- 952 تفسير سورة الحج، وهل لها فضل؟
- 952 هول يوم القيامة وإلى أي حد يصل؟
- 952 مراتب خلق ربنا للإنسان
- 954 بعث النار من بني آدم ومقدار هذه الأمة
- 958 أهل النار وأهل الجنة وما أعد لكل منهما في داره
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ الآيات
- 960 بحث جليل في بيوت مكة باعتبار أنها للجميع الطارئ والمقيم
- مَن المأمور بقوله تعالى: ﴿وأن في الناس بالحج﴾؟
- 961 هل تعدل شهادة الزور الشرك بالله؟
- 964

- 1021 أوصاف للمنافقين
- 1022 كيف يكون المؤمنون إذا دعوا لحكم الله ورسوله؟
- 1025 بيان آية استئذان الممالك والصغار
- 1029 الكلام على القواعد من النساء
- في أي شيء رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض؟
- 1029 البيوت التي لا حرج على المرأة أن يأكل منها بلا إذن أهلها إذا كان الطعام مبنوياً له غير محرر ولا ممنوع
- 1029 صفة المؤمنين مع رسول الله ﷺ إذا كانوا معه على أمر جامع
- 1030 كيف يكون المؤمنون مع الرسول ﷺ إذا دعوه؟

سورة الفرقان

- 1031 تفسير سورة الفرقان، وأنها مكية في قول الجمهور
- الكلام على مادة تبارك، وهل لا تطلق إلا على الله سبحانه وتعالى؟
- 1031 الرد على طوائف المشركين، ومبلغ آلهتهم من العجز
- ما قاله الكافرون فيه ﷺ؛ ورد الله عليهم، ووعده لهم على ذلك القول، ووعده تعالى لرسوله وللمؤمنين بما أعد لهم في جنته
- 1033 تكذيب المعبرين لمن كانوا يعبدونهم حينما يسألهم الله عز وجل يوم القيامة أهم الذين أضلوا أولئك المشركين؟
- 1035 ما المراد بقول المجرمين عند مشاهدتهم الملائكة حجراً محجوراً؟
- 1037 معنى تشقق السماء بالغمام
- 1038 حسرات الكفار يوم القيامة على أن فاتهم اتباع الرسول ﷺ
- 1039 أمم أهلهم الله تعالى لما كذبوا رسلهم
- 1041 آيات على قدرته تعالى
- 1043 صفات صالح عباد الله عز وجل
- 1047

سورة الشعراء

- تفسير سورة الشعراء، وبيان أنها مكية، وبيان فضل الطواسين
- 1052 قصة سيدنا موسى وهارون مع فرعون وقومه
- 1053 قصة سيدنا إبراهيم مع قومه
- 1058 قصة سيدنا نوح مع قومه
- 1061 قصة سيدنا هود مع قومه
- 1062

- الجمع بين قوله تعالى: ﴿ولا يتساءلون﴾ وقوله: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾
- هل ينفع نسب رسول الله ﷺ يوم القيامة وإن عدم نفع الانساب في وقت مخصوص؟
- 994 كيف كلوح أهل النار، وهم فيها؟
- أي فضل فضل الآيات الأربعة آخر هذه السورة؟

سورة النور

- 995 تفسير سورة النور
- هل هي منسية، وهل أمرنا أن نعلم نساءنا هذه السورة؟
- إعراب أول السورة
- ما هو الزنا، وما حد الزاني البكر البالغ الحر وما حد الأرقاء، وما حد الأحرار المحصنين؟
- 996 الكلام على قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾
- 997 أحكام القذف
- 998 أحكام اللعان
- 999 ما هي التوبة من القذف؟
- 1000 قصة الإفك
- 1001 من الذي تولى كبر الإفك؟
- 1001 ما المراد بالخبيثات والطيبات؟
- 1005 الكلام على الاستئذان
- 1006 ما هي البيوت الغير مسكونة؟
- 1006 الكلام على أدب غص البصر للنساء والرجال
- 1007 النهي عن إبداء المرأة الزينة إلا ما ظهر منها، والمراد من هذا الظاهر
- 1008 من يباح للمرأة أن تبدي زينتها امامهم
- 1008 لمن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وانكحوا الأيامى﴾
- 1011 وحكم النكاح
- معنى تقييد النهي عن إكراه الفتيات على البغاء بشرط إرادتهن التحصن
- 1012 ما هو الخير المشروط علمه ف القرآن ليتوجه علينا الأمر بكتابتها
- 1013 الكلام على قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾
- 1014 الآية
- 1015 معنى قوله تعالى: ﴿في بيوت أنن الله أن ترفع﴾ الآية
- 1017 مثالن لأعمال الكفار
- الكلام على قوله تعالى: ﴿الم نر أن الله يزجي سحاباً﴾ الآية
- 1019

- هل لم تكن أم موسى نبية، وأن الوحي إليها وحي إلهام؟
 معنى كون اللام للعاقبة في مثل: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ 1094
 من أي شيء كان فارغاً قلب أم موسى لما القته في اليم؟ 1094
 الوسيلة التي بها ردّ ربنا سيدنا موسى إلى أمه . . . 1094
 بعد كم سنة يبلغ الإنسان الأشد، بعد كم يستوي؟ . 1095
 الكلام على قتل سيدنا موسى القبطي لما استغاثه الإسرائيلي 1096
 هل الإسرائيلي هو الذي قال أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟ 1096
 من الذي نصح سيدنا موسى بالخروج لائتجار الملا على قتله 1097
 قصة سيدنا موسى مع بنتي سيدنا شعيب، ومع سيدنا شعيب 1098
 قصته وهو راجع من مدين إلى مصر 1099
 امتنان الله على نبيه بإخباره بحوادث لم يكن في زمنها 1103
 هل أهل مكة لم يأتهم رسل قبل نبينا ﷺ 1104
 ماذا قال المشركون لما أرسل إليهم نبينا، وماذا علمه الله أن يقول لهم؟ 1104
 هل لمؤمني أهل الكتاب أجرهم مرتين لإيمانهم بموسى محمد وكتابينهما؟ 1105
 اعتذار من الكفار عن الإيمان وجوابه النافي له . . . 1105
 هل لم يهلك الله قرية إلا بعد أن يرسل إليها رسولا؟ 1106
 أيهما أفضل من وعد جنات النعيم، وهو لا بدّ داخلها أم من متع أياماً قليلة ثم مصيره إلى النار؟ . . 1107
 هل الصحيح أن «ما نافية في قوله تعالى: ﴿وما كان لهم الخيرة﴾؟ 1108
 هل من ممن الله علينا أنه لم يجعل الزمن ليلاً كله ولا نهراً دائماً 1109
 قصة قارون مع سيدنا موسى ﷺ 1109
 هل جعل الله الجنة لمن لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً؟ 1111

سورة العنكبوت

- تفسير سورة العنكبوت 1113
 هل لا بد من ابتلاء الناس ليتبين حالهم؟ 1113
 الوصية ببر الوالدين وطاعتهم إلا في المعصية .. 1114

- قصة سيدنا صالح مع قومه 1063
 قصة سيدنا لوط مع قومه 1064
 قصة سيدنا شعيب مع قومه 1065
 التنويه بقدر القرآن الكريم وما يفعله الله بمن كتب به 1066

سورة النمل

- تفسير سورة النمل 1071
 ماكان من سيدنا موسى وله وهو عائد بأهله من مدين إلى مصر حينما رأى ناراً، والمراد من هذه النار 1072
 من هو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً﴾ إلخ 1073
 ما هي التسع الآيات؟ وهل هي غير العصا واليد، أم هي تسع بهما؟ 1073
 ماذا فعل فرعون وقومه لما راوا هذه الآيات وماذا فعل الله بهم؟ 1073
 امتنان الله تعالى على داود وسليمان بليتهما العلم في أي شيء ورث سليمان داود، وهل علم سيدنا سليمان منطق الطير فقط أم كان يعلم لغة كل الحيوانات؟ 1074
 خطبة النملة للنمل، وما كان من سيدنا سليمان لما سمع هذه الخطبة 1075
 قصة سيدنا سليمان مع الهدهد لما تفقد الطير وصانفه غائباً 1076
 قصة سيدنا سليمان مع بلقيس، وما كان منها مع قومها لما ألقى الهدهد كتاب سيدنا سليمان إليها 1076
 قصة سيدنا صالح مع قومه 1082
 قصة سيدنا لوط مع قومه 1084
 آيات على قدرته تعالى ووحدانيته، وعلى أنه لا نعمة للإنسان إلا وهو المنعم بها 1085
 هل استأثر الله وحده بعلم الغيب ولا يعلم أحد سواه من ذلك شيئاً؟ 1086
 معنى قوله: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ إلخ 1088
 الكلام على قوله عزّ جلّ: ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ 1088
 إلخ 1088
 من هم المستثنون من الفزع حينما ينفخ في الصور؟ 1090

سورة القصص

- تفسير سورة القصص 1092
 كلمة للزجاج تبين مبلغ حمق فرعون في قتله لأبناء بني إسرائيل 1093

هل الكافر هو الذي يسوي فتنة الناس وإيذاءهم
بعذاب الله، وأما المؤمن فيصبر؟

هل لا يحمل أحد إلا وزر نفسه؟ 1115

قصة سيدنا نوح مع قومه، وقصة سيدنا إبراهيم مع

قومه 1116

قصة سيدنا لوط مع قومه وقصة سيدنا شعيب مع

قومه 1119

هو نكر الله الذي حكم ربنا عليه بأنه أكبر؟ 1121

الكلام على قوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب﴾

الآية 1121

هل أمية الرسول ﷺ برهان على صدق رسالته . .

الرد على من اقترحوا آيات على الرسول بأن معجزة

القرآن تكفيهم 1124

هل تجب الهجرة من أرض لا يمكن للعبد أن يعبد ربه

فيها، ولا يمكنه أن يغير ما بها من المعاصي؟ 1124

الوعد بالجنة على الهجرة

طعن وجيه في حديث 1126

سورة الروم

تفسير سورة الروم 1127

معجزة من معجزات القرن تبرهن على أنه من عند

الله 1127

التحريض على السير في الأرض للاعتبار 1128

على أي حال يكون الكافرون والمؤمنون يوم القيامة؟ 1129

آية تتضمن أمر بالصلوات الخمس

دلائل على قدرة ربنا ووحدانيته 1130

مثل يبرهن على توحيد الله تعالى 1133

بحث في الفطرة ما هي؟ 1133

حال الناس في الشدة والرخاء 1134

التحريض على مواساة الفقراء، والتحذير من الريا

بمعنييه هنا 1135

الكلام على قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر

والبحر﴾ الآية 1136

هل يسمع الكفار الميتون من يخاطبهم؟ 1138

سورة لقمان

تفسير سورة لقمان 1139

ما هو لهو الحديث وشيء من صفات الكافر؟ 1140

مقارنة يتبين منها أن الله هو الإله، وأن الأصنام لا

شيء 1141

الكلام على لفظ لقمان وعلى شخصه

وصايا لقمان لابنه 1141

امتنان من الله بأنه سخر لنا ما في السموات وما في

الأرض 1141

وصف للمشركين بأنهم يتكلمون في ربنا بغير علم

يقلدون آباءهم 1144

ما هي كلمات الله التي لا تنفذ؟ 1145

دلائل على قدرة الله ووحدانيته 1145

وصية الإنسان بالتقوى وخشية يوم القيامة 1146

مفاتيح الغيب الخمس التي لا يعلمها إلا الله 1146

سورة السجدة

تفسير سورة السجدة وهل لها فضل؟ 1147

اقل كلام على قوله تعالى: ﴿ثم يعرج إليه في يوم كان

مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ 1148

لم أفرد الله السمع دون الابصار والأفئدة؟ 1149

من هو المؤمن بآيات الله حقاً وما جزاؤه؟ 1151

هل بين المؤمن والكافر فرق؟ وما هو هذا الفرق؟ 1152

معنى ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ 1153

هل يوم الفتح هو يوم القيامة؟ 1154

سورة الأحزاب

تفسير سورة الأحزاب 1155

هل النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ وما ينبغي أن

يكون عليه المؤمنون معه ﷺ إزاء ذلك؟ 1157

هل نساءه ﷺ أمهات للمؤمنين فقط أو للمؤمنات

أيضاً؟ 1157

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين

في جوفه﴾ 1157

غزوة الخندق وما كان فيها للمؤمنين والكافرين . .

الكلام على قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾

الآية 1165

هل يضاعف ثواب أمهات المؤمنين إن عملن

الصالحات، ويضاعف عذابهن إن لم يستقمن؟ 1166

تأديب ربنا لنساء رسوله ﷺ وهو يشمل سواهن .

ما هي الجاهلية الأولى؟ 1166

من هم أهل البيت والإقامة في ذلك

صفات من اتصف بها من المؤمنين والمؤمنات غفر

له ونال لجرأ عظيماً؟ 1170

- يعبدونهم؟ 1200
فضل الإنفاق في غير إسراف لا تقتير وأن الله
يخلقه
ما يقوله الكافرون إذا تتلى عليهم آيات الله 1201
الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾
الآية

سورة فاطر

- تفسير سورة فاطر 1204
مَنْ هم الرسل من الملائكة؟
لا يستطيع أحد أن يمسك رحمة فتحها ربنا أو يرسل
رحمة أمسكها 1204
تحذير الناس من الدنيا ومن الشياطين
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ
وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ 1206
هل يزيد العمل وينقص؟ الكلام في ذلك 1207
إفهام المشركين مبلغ اقتداره تعالى ومبلغ ضعف
الهتم ليؤمنوا 1208
هل ربنا الغني ونحن الفقراء إليه؟ وهل إن شاء أذهبنا
وأتى بسرانا؟ وهل لا تحمل نفس شيئاً من وزر
غيرها ولو كان ذا قربي؟ 1209
أمثال للمؤمن والكافر والإيمان والكفر تدرك بالحس
شيء يدل على باهر قدرته تعالى 1210
هل خشية الله تعالى مختص بها العلماء به وبآياته .
الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ
اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَانَا﴾ الآيات، وهو مهم 1211
الذين كفروا وجزأهم وحالهم في النار وندائهم
والرد عليهم 1214
آية من آيات قدرته عز وجل وهي من البدائع 1215
هل لو أخذ الله الناس بظلمهم كان يهلكهم ويهلك كل
دابة بشؤم معاصيهم؟ 1216

سورة يس

- تفسير سورة يس، وما ورد في فضلها 1217
معنى لفظ يس، وهل هو عربي أم غير عربي؟ 1218
قسم الله بالقرآن على أن نبينا من المرسلين لينذر
قوماً ما أنذر آبائهم 1218
هل حق القول على أكثر هؤلاء الذين لم ينذر
آبائهم فلا يؤمنون بحال
هل يحيي الله الموتى للجزاء ويكتب ما قدموا

- هل يحرم على المؤمن إذا قضى الله ورسوله أمراً أن
يخالف؟ 1170
قصة سيدنا زيد وزوجه السيدة زينب، وما يتعلق
برسول الله ﷺ من ذلك 1171
فضل ذكر ربنا عز وجل وأنه أفضل الطاعات 1173
عدة المطلقة قبل الدخول 1175
مَنْ أحل الله لنبيه من النساء، ولماذا أحل ذلك؟ 1175
رفع الوجوب عن النبي ﷺ في القسم بين نسائه .. 1176
الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ
بعد﴾ الآية

- آداب المؤمنين معه ﷺ ومع أزواجه 1179
مَنْ لا يجب على نسائه أن يحتجبن منه من الرجال . 1180
إفاضة في الصلاة والسلام عليه ﷺ 1181
أدب النساء إذا خرجن 1183
تهديد المنافقين إن لم ينتهوا عن نفاقهم بإغراء النبي
ﷺ بهم 1184
تمني الكفار وهم في النار أن لو كانوا اتبعوا الرسول،
وندمهم على اتباع كبرائهم 1185
سبب نزول آية الحجاب والأمر بإنشاء نساء
المؤمنين عليهن من جلابيبهن
بأي شيء أذى بنو إسرائيل موسى 1185
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ الآية . 1186
رجوع إلى ما أؤذي به سيدنا موسى 1187

سورة سبأ

- تفسير سورة سبأ 1188
نعم الله على سيدنا داود وسيدنا سليمان عليهما
الصلاة والسلام 1190
قصة سبأ 1193
إفهام الكافرين أن لا قيمة لألهمهم التي يدعونها 1194
إعراب لفظ «كافة» من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
كافة للناس﴾ 1198
استعجال الكفار بيوم القيامة، وجوابهم على ذلك .. 1198
مجادلة المستضعفين والمستكبرين من الكفار يوم
القيامة
كفر المترفين في كل زمان بالرسول فهماً منهم أنهم
أفضل من الرسل بكثرة المال، وإفهامهم قدر
المال، وأنه لا ينفع عند الله إلا صالحات الأعمال
مع الإيمان 1199
جواب الملائكة عن سؤال الله إياهم هل كان الكفار

- 1252 نسباً
هل يمكن الكفار وآلهتهم أن يضلوا من لم يسبق له
1254 الشقاء
1254 فضل قوله تعالى: ﴿سبحان ربك رب العزة﴾ الآية .

سورة ص

- 1255 تفسير سورة صّ وسبب نزول أولها
1256 كلام عن كفار قريش لما جاءهم النبي ﷺ
أم كنت قبل هؤلاء، وما نزل بهم من العذاب
1258 لتكنيهم رسلهم
سيدنا داود ونعمة الله عليه، وقصته مع من تسوروا
1259 عليه المحراب
1262 وصية ربنا لسيدنا داود في حكمه بين الناس
هل يجوز أن يسوي ربنا بين المتقين والفجار
1262 قصة سيدنا سليمان مع الخيل لما شغلته عن الصلاة
فتنة سيدنا سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه وما
1264 هو هذا الجسد؟
مبلغ نعمة مولانا تعالى على سيدنا سليمان عليه
1265 الصلاة والسلام
1266 قصة سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام
1267 قدر سيدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب عند ربنا
قدر سيدنا إسماعيل واليسع وذو الكفل وما للمتقين
1267 عند ربهم؟
1269 ما للطاغين عند ربهم وخصامهم في النار
رايهم في المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم لما لم
1270 يروههم معهم في النار
1271 قصة إيليس لما أمر مع الملائكة بالسجود لسيدنا آدم

سورة الزمر

- 1273 تفسير سورة الزمر ما ورد فيها من الفضل
1274 هل يجب الإخلاص في العبادة؟
تكنيب ربنا للكفار في قولهم: ﴿ما نعبدكم إلا ليقربونا
1274 إلى الله زلفى﴾
وأنهم جعلوها مثله ماذا كان ينبغي لو أراد ربنا أن
يتخذ ولداً؟
1274 براهين على أنه تعالى الإله الواحد القهار
الكلام في كفر العباد وشركهم ماذا يرضاه تعالى
1276 منهما؟
1276 حال الإنسان إذا مسه الضر وإذا نال نعمة
هل من يخشى الله تعالى ويطيعه كمن لا يكون منه

- 1219 وآثارهم؟
قصة قرية انطاكية مع الرسل الثلاثة الذين أرسلوا
1220 إليها
1221 قصة أحدهم معهم وهو ينصحهم باتباع الرسل
آيات على قدرة ربنا ووحدانيته
1223 معنى قوله تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في
الفلك المشحون﴾
1225 هل ينفخ في الصور نفخة للموت ونفخة للبعث؟
1227 ماذا يقول الكافرون إذا قاموا من القبور
1227 من يقول ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق
المرسلون﴾
1228 حال أهل الجنة فيها
لماذا لم يعلم الله نبيينا الشعر وتوجيه ما روي عنه
1230 يشابه الشعر
1332 نعمة الله تعالى في الأنعام ومنافعها
1233 حجة على البعث تلجم منكريه وتفحمهم

سورة الصافات

- تفسير سورة الصافات، وهل لها فضل؟ وما ورد في
1234 ذلك
1234 ما هي الصافات والزاجرات والتاليات؟
1235 الكواكب ومنافعها في السماء الدنيا
1236 الكلام مع منكري البعث
1238 مجادلة الكفار رؤسائهم وضعفائهم وجزاؤهم
1239 المؤمنون وجزاؤهم
مؤمن في الجنة يتذكر صديقاً له كان منكراً للبعث
1240 فيطلع في النار فراه ويكلمه
شجرة الزقوم ووصفها وكونها طعام أهل النار مع
1242 شوب من الحميم
1243 قصة سيدنا نوح مع قومه
1244 قصة سيدنا إبراهيم مع قومه
قصة سيدنا إبراهيم مع ولده الذبيح، ومن هو
1245 إسماعيل أم إسحاق؟
1249 سيدنا موسى وسيدنا هارون مع قومهما
1249 سيدنا إلياس مع قومه
1250 سيدنا لوط مع قومه
سيدنا يونس مع قومه وما كان له حينما أبق إلى
الفلك المشحون
الكلام مع من يعتقدون أنت الملائكة بنات الله
1252 الكلام على قوله تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة

- شهادة جلود أعداء الله تعالى عليهم، والمحاورة بينهم
 1313 وبين تلك الجلود
 1314 مَنْ اللذان أضلا الإنسان والجن؟
 1314 ما هي الاستقامة وما لاهلها؟
 1315 هل المؤمن الداعي إلى الله أحسن الناس قولاً؟ ...
 كيف تدفع السيئة، وأي درجة درجة العاملين بهذا
 1316 الأنب؟
 1316 بماذا يغلب الإنسان الشيطان إذا وسوس له؟
 هل الليل النهار والشمس والقمر الأرض عند نزول
 1317 الماء عليها آيات على قدرته تعالى وتوحيده؟ ..
 1317 وعد للمؤمن وتهديد شديد للكافر
 1318 أي قدر قدر القرآن الكريم؟
 1318 أثر القرآن فيمن آمن به ومن كفر به
 1319 هل اختص ربنا بعلم الساعة؟
 1319 حال الكفار يوم القيامة
 1320 حالهم في الدنيا
 1320 جهة الدلالة في الآفاق والآنفس على أن القرآن حق

سورة الشورى

- تفسير سورة الشورى 1321
 الكلام في فاتحة هذه السورة 1321
 الكلام على قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ 1323
 الكلام على قوله تعالى: ﴿وشرع لكم من الدين﴾ الآية 1324
 أي فرق بين مَنْ يؤمن بالساعة مَنْ لا يؤمن؟ 1325
 ماذا يفعل الله مع مَنْ يريد ثواب الدنيا وَمَنْ يريد ثواب
 1326 الآخرة
 ما المراد من قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً
 1327 إلا المودة في القربى﴾
 هل يقبل الله توبة المذنبين وما هي التوبة؟ 1327
 هل كل ما يصيبنا بسبب ما فعلناه من المعاصي وما
 1330 عفا الله عنه كثير؟
 آية الجواني على قدرة ربنا عز وجل 1330
 لمن ما عند الله خير وأبقى، وهو موضوع يتعين
 1331 النظر فيه
 حال الكفار حينما يرون العذاب يوم القيامة 1332
 تصرف الله تعالى في نعمة الأبناء وتنويعها 1333
 أنواع تكليم الله تعالى للبشر 1333
 هل الوحي يسمى روحاً؟ 1334

- ذلك: وهل يستوي العالم والجاهل؟ 1277
 أجر الصابرين وعظمه عظماً فوق العقول وهل يهاجر
 الإنسان من وطنه إذا لم يتمكن من إحسان عمله 1277
 هل أهل النار مغمورون فيها لهم من فوقهم ظلل منها
 1278 ومن تحتهم ظلل؟
 هل أهل الجنة لهم غرف من فوقها غرف 1279
 العبرة بالماء النازل من السماء وبما يخرج من
 1280 الزرع
 مثل للتوحيد والشرك وتوضيحه 1280
 الكلام على قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ الآية . 1285
 كلام جليل على قوله تعالى: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا
 1287 على أنفسهم﴾ الآية
 من المستثنى حين نفخة الصعق؟ 1291
 المؤمنون والكافرون في سوق كل إلى داره 1291

سورة غافر

- تفسير سورة غافر، وما ورد في الحواميم عامة وفي
 1293 غافر خاصة
 هل الملائكة يدعون للتائبين التابعين سبيل ربهم؟ . 1295
 ما هما الموتتان والحياتان اللتان اعترف بهما الكفار 1296
 قصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه 1299
 نصائح المؤمن الذي كان يكتم إيمانه لفرعون وقومه،
 1299 ما اسمه من أي فريق هو
 محاجة الكفار في النار ضعفائهم ومستكبريهم 1303
 الكلام على قوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب
 1305 لكم﴾ الآية
 برهان عظيم على قدرته تعالى وحدانيته، ووعيد
 1306 شديد للكافرين المشركين
 منافع الأنعام وتقريع المشكرين بأنه وحده الذي
 1307 جعلها
 هل الإيمان الاختياري هو الذي ينفع بون
 1308 الاضطراري
 1308

سورة حم

- تفسير سورة حم السجدة، وقصة عتبة بن ربيعة معه
 1308
 الإنكار على المشركين الذين ينكرون توحيده تعالى
 بخلقه السموات الأرض الإنفاضة في بيان هذا
 1309 الخلق
 ما فعله الله تعالى بعد وثمود وما فعلوه سبباً لذلك . 1312

- 1357 ما المراد بالعالمين الذين فضل عليهم بنو إسرائيل؟
 1358 هل يستوي المسيء والمحسن؟
 من هو الذي اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم؟
 كلام لمنكري البعث والرد عليهم
 1359 حال المبطلين يوم القيامة وما يقال لهم
 هل استنساخ الملائكة لأعمالنا معناه نسخها من
 اللوح المحفوظ ويكون ما ينسخ منه موافقاً لما
 1360 يقع منا تماماً؟
 1360 المؤمنون والكافرون وأعمال كل وجزاؤه

سورة الأحقاف

- حديث يدل على أن القرآن لم ينزل في قراءته بوجه
 1361 واحد
 1361 كلام مع المشركين وبيان قيمة شركائهم
 1364 جزاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
 1364 وصية الله تعالى للأبناء على الآباء والأمهات
 هل ينبغي لمن بلغ أربعين سنة أن ينيب إلى ربه، وما
 1364 جزاؤه على ذلك؟
 1365 قدر سيدنا عبد الله بن سلام رضي الله عنه
 1365 جزاء من لم يطع والديه في دعوتهم له إلى الإيمان
 1367 ماذا فعلت عاد مع رسولها وماذا فعل الله بهم؟ ...
 الجن الذين استمعوا القرآن من النبي ﷺ، وما كان
 1369 منهم لقومهم
 1369 دليل باهر على قدرة ربنا على البعث يفحم منكروه ..

سورة محمد

- ما يفعله الله تعالى بأعمال الكفار، وما يفعله مع
 1371 المؤمنين، والسبب الذي له فعل ذلك
 1371 ماذا نفعل بالكفار إذا لقيناهم في ميدان القتال؟ ...
 هل أمرنا الله بالجهاد ابتلاءً لنا وكان قادراً أن ينصرنا
 1372 بلا حرب؟
 هل إذا دخلنا الجنة عرفنا منازلنا فيها؟
 هل ينصر الله من ينصر دينه؟
 هل أهلك الله الكفار وأحبط أعمالهم بأنهم كرهوا ما
 1373 أنزل الله؟
 وعيد الله لكفار مكة أن يهلكهم كما فعل بالكفار
 قبلهم لأنه مولى المؤمنين، وأولئك الكفار لا
 مولى لهم.
 هل يدخل الله المؤمنين الجنة لإيمانهم وصالح
 أعمالهم، ويدخل الكافرين النار لأنهم كانوا

سورة الزخرف

- 1334 تفسير سورة الزخرف
 1335 هل القرآن في اللوح المحفوظ
 1335 آيات على قدرته تعالى وتوحيده
 1336 الكلام مع من قالوا إن الملائكة بنات الله
 هل كل أمة كذبت رسولها بتقليد آبائها؟ والرد عليهم
 1338 في تقليدهم ذلك؟
 1338 حملة من المؤلف على المقلدين
 1338 كلام سيدنا إبراهيم مع قومه لما أرسل لهم
 هل قسم الله الأرزاق بين الناس ولماذا رفع بعضهم
 1339 على بعض
 1340 مبلغ حقارة الدنيا ولينظر بإمعان هذا الموضوع ..
 1340 ماذا يفعل الله بمن يعرض عن الإيمان بالقرآن
 1342 قصة سيدنا موسى مع قومه
 جدل قريش في سيدنا عيسى ورد ربنا عز وجل
 1343 عليهم
 1344 هل نزول سيدنا عيسى من أشراط الساعة علاماتها
 هل الأخلاء يوم القيامة كلهم يكونون أعداء لبعضهم
 1344 إلا المتقين؟
 1345 المتقون يوم القيامة وما لهم والكافرون وما لهم ..
 الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾
 1346 الآية

سورة الدخان

- 1348 تفسير سورة الدخان وما ورد فيها
 هل الليلة المباركة هي ليلة القدر، وأي معنى لفرق كل
 1350 أمر حكيم فيها
 1350 هل البطشة الكبرى ما نزل بالكفار يوم بدر؟
 وهل الدخان الجوع الذي أصاب قريشاً حتى كانوا
 يتراءى لهم دخان أمامهم من شدة ما هم فيه؟
 قصة سيدنا موسى مع قومه

- 1351
 1353 إنكار قريش البعث وتهديد ربنا لهم على ذلك
 1354 ما يكون فيه الكافر والمؤمن يوم القيامة

سورة الجاثية

- 1355 آيات على قدرته عز وجل، ولتراجع
 1356 صفات للكافر ووعيده على هذه الصفات
 ممن لربنا علينا وهي من آياته

سورة ق

- 1396 ما ورد فيها
- 1396 الكلام على لفظ «ق»،
- عجب للكفار من مجيء منذر لهم، ومن القول البعث
- 1397 لفت الكفار إلى ما يسهل عليهم الإيمان بالبعث
- 1398 ماذا كان للأمم السابقة لما كُذِّبَت كما كُذِّب هؤلاء؟
- برهان مفحم لمن ينكر البعث
- هل كل ما يلفظ به الإنسان يكتب عليه؟ الموت وما
- 1399 بعده من عذاب للكافر ونعيم للمؤمن

سورة الذاريات

- ما هي الذاريات والحاملات وقرأ والجاريات يسراً
- 1403 والمقسمات أمراً؟
- 1404 هل الحك الحك الخلق المستوي الحسن؟
- جزاء الكفار على إنكارهم يوم القيامة واختلافهم في
- 1404 شأن الرسول ﷺ
- هل المتقون، في جنات وعيون بماذا كانوا هكذا؟
- 1405 عبر لغتنا ربنا إليها لنعتبر بها
- 1406 قصة سيدنا إبراهيم مع الملائكة لما دخلوا عليه
- 1408 قصة سيدنا موسى مع قومه
- ماذا فعل الله بعداد وثمود وقوم نوح لما كذبوا
- رسلمهم؟
- 1408 عبر أخرى دعانا ربنا للاعتبار بها
- الكلام على قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾
- 1409

سورة الطور

- 1410 ما ورد فيها
- 1410 الكلام على الأقسام التي في أول السورة
- هل لا يدفع العذاب عن العصاة يوم تمور السماء
- 1411 وتسير الجبال؟
- 1412 كيف يكون المتقون في ذلك اليوم؟
- ردَّ الله على القائلين إن الرسول مجنون ومتقول
- 1414 للقرآن
- 1415 كلام مع أولئك الكفار

سورة النجم

- 1416 ما ورد فيها
- 1417 ما هو النجم؟

يتمتعون ويكفون كما تاكل الانعام؟

- 1374 أنهار الجنة
- 1374 المنافقون وهم يستمعون إلى الرسول ﷺ
- ما هي اشراط الساعة التي يقول القرآن إنها
- جاءت؟
- 1376 حال المنافقين إذا نزلت آية وذكر فيها القتال
- كلام مع المنافقين
- نهى المؤمنين عن أن يضعفوا أمام الكافرين ويدعوهم
- 1378 إلى السلم ابتداء

سورة الفتح

- 1380 ما ورد في فضلها
- الكلام على قوله تعالى: الكلام على قوله تعالى: ﴿إنا
- فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله﴾ الخ
- 1380 هل من بايع الرسول ﷺ كأنه بايع الله؟
- 1382 الكلام في شأن الأعراب المنافقين الذين تخلفوا عن
- رسول الله ﷺ حين خرج عام الحديبية
- 1382 هل الفتح القريب الذي آثب به الله المؤمنين حينما
- بايعوا بيعة الرضوان هو فتح خيبر؟
- 1384 ما هي كلمة التقوى التي كان المؤمنون أحق بها
- وأهلها؟
- 1386 ما هي الرؤيا التي ذكر الله تعالى أن يصدر فيها
- رسوله؟
- 1387 صفة أصحاب رسول الله ﷺ

سورة الحجرات

- 1389 آداب أدب الله بها الأمة مع رسوله ﷺ
- 1390 كيف نكون مع النمام؟
- 1392 ماذا نفعل لو اقتتل طائفتان من المؤمنين؟
- 1392 النهي عن السخرية والسخر في ذلك
- النهي عن أن يعيب الرجل أخاه أو يشتمه بنحو: يا
- فاسق يا منافق
- النهي عن ظن السوء والتجسس والغيبة
- هل نحن أبناء رجل واحد وامرأة واحدة؟
- 1394 لا فضل لواحد على أخيه إلا بالتقوى
- الكلام مع قوم من الأعراب أسلموا ليتصدق عليهم
- ولم يكونوا مخلصين
- المؤمنون حقاً
- 1395 تأنيب من من بالإسلام، وإفهامه أن المنة لله عز وجل

سورة الواقعة

- 1442 ما ورد فيها
- 1443 آيات لقيام القيامة
- هل الناس يوم القيامة يكونون أصنافاً ثلاثة، أهل يمين وأهل شمال وسابقون؟
- 1443 السابقون، والكلام عليهم
- 1446 أهل اليمين والكلام عليهم
- 1447 أهل الشمال والكلام عليهم
- 1449 الكلام مع منكري البعث
- الكلام على «لا» في مثل قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾
- 1450 ما هو الكتاب الذي لا يمسح إلا المطهرون؟ من هم المطهرون؟
- 1451 معنى ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾
- التنصيص على حال كل قسم من الأقسام الثلاثة السابقة
- 1452 الكلام على المضاف والمضاف إليه في مثل حقّ اليقين وعين اليقين

سورة الحديد

- 1454 ما ورد فيها
- هل تسبيح الجمادات والحيوانات غير العاقلة بلسان الحال أم بلسان المقال؟
- 1454 صفات الله سبحانه وتعالى
- 1455 التحريض على الإيمان والإنفاق في سبيل الله
- هل من أنفق وقاقل قبل الفتح أجل ممن فعل ذلك بعد الفتح وكل موعود بالجنة؟
- 1456 حال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة
- 1457 تحريض لطائفة من المؤمنين أن ترقّ تخشع
- 1458 عزّ وجلّ
- 1459 أجر المؤمنين بالله ورسله، وعقاب المكذب الكافر
- 1460 مثل الحياة الدنيا
- 1461 هل كل مصيبة تنزل بالعالم مكتوبة قبل أن تخلق؟

سورة المجادلة

- قصة ظهار سيدنا أوس بن الصامت من زوجته خولة بنت ثعلبة، وما يتعلق به من الأحكام
- 1464 حال من حادّ الله ورسوله في الدنيا والآخرة
- 1466 شمول العلم الإلهي لتناجي من كانوا يتناجون ليحزنوا المؤمنين
- 1467

- 1417 هل شديد القوى هو سيدنا جبريل؟
- هل المرّة جزالة الرأي وحصافة العقل؟
- هل الذي بالأفق الأعلى ودنا هو سيدنا جبريل دنا من النبي فكان قاب قوسين أو أدنى؟
- 1417 هل المرثي نزلة أخرى عند سدره المنتهى هو سيدنا جبريل رآه سيد الوجود ﷺ؟
- 1418 ما هي الآيات الكبرى؟
- 1419 كلام مع المشركين
- 1421 هل الظن لا يغني في الأمور العلمية دون العملية؟
- 1422 النهي عن تزكية الإنسان نفسه لأن الله أعلم بمن اتقى
- 1424 الكلام مع بعض المشركين

سورة القمر

- 1426 ما ورد فيها
- الكلام على أن انشقاق القمر كان في عهد النبوة، وهو ببيع فليتنظر
- 1426 قصة سيدنا نوح مع قومه
- 1428 قصة سيدنا هود مع قومه
- 1429 قصة سيدنا صالح مع قومه
- قصة سيدنا لوط مع قومه
- 1430 قصة سيدنا موسى مع قومه
- 1431 الكلام مع كفار مكة

سورة الرحمن

- 1432 ما ورد فيها
- الامتنان بتعليم القرآن وخلق الإنسان وتعليمه البيان وبنعم أخرى
- 1433 الحكمة في تكرير ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ بعد كل نعمة ذكرت في هذه السورة
- 1434 معنى ﴿كل يوم هو في شأن﴾ معنى ﴿سنفرغ لكم آية الثقلان﴾
- 1436 معنى ﴿فكانت ردة كالداهان﴾
- 1437 الجمع بين قوله تعالى: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ وبين قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾
- 1437 ما هما الجنتان اللتان لمن خاف مقام ربه؟
- 1438 الكلام على الجنتين اللتين من دون الجنتين السابقتين، ومعنى كونهما من نونهما
- 1440 ما هو الزفر الخضر؟
- 1440 ما هو العبقري؟

- 1487 عيسى؟
هل أحد أظلم ممن يفترى على الله الكذب وهو
يدعى إلى الإسلام؟
ما هي التجارة التي تنجي من عذاب إليم، وما جزاؤها
1488 فوق تلك النجاة؟
1489 دعوة المؤمنين أن يكونوا كإنصار سيدنا عيسى ..

سورة الجمعة

- 1490 فضل ربنا على هذه أمة
هل مثل اليهود لما لم يعملوا بالتوراة كمثل الحمار
يحمل أسفاراً؟
تكذيب اليهود في زعمهم أنهم أولياء الله من دون
الناس
1491 شيء من أحكام الجمعة

سورة المنافقون

- 1493 شيء من صفات المنافقين
تحذير المؤمنين أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر
الله الذي هو فرائض الإسلام
1495 أمر المؤمنين بالإنفاق الذي منه الزكاة قبل أن
يموتوا ويتمنوا الرجعة

سورة التغابن

- 1496 ما ورد فيها
نعوت لربنا عز وجل
زعم الكافرين أن لن يبعثوا وللدّ عليهم لماذا سمي
يوم القيامة يوم الجمع ويوم التغابن؟
1497 هل كلّ مصيبة تنزل بمخلوق بإذن الله؟
1498 ما معنى هداية الله لقلب من يؤمن بالله؟
التحذير من الأزواج والأولاد لأن منهم أعداء
1498 التحريض البالغ على الإنفاق في وجوه الخير ...

سورة الطلاق

- 1499 كيف يطلق الإنسان زوجته، ويتعلق بذلك أحكام ..
1500 جزاء من يتقي الله ويتوكل عليه
1500 عدّة اليائسات ومن لم يحضن وأولات الأحمال ...
1502 نفقة المطلقة وسكناها وأجرة إرضاعها إذا أرضعت

سورة التحريم

عتاب الله تعالى لنبيه لما حرّم السيدة مارية، وما

- التعجب من هؤلاء المتناجين لعودهم إلى التناجي بعد
نهيهم عنه
1467 تحية هؤلاء المتناجين للرسول وجزاؤهم وتعليم
المؤمنين كيف يتناجون
أنب المؤمنين في مجالسهم
1468 أمر المؤمنين بالصدقة إذا أرادوا مناجاة الرسول،
ونسخ ذلك تخفيفاً
1469 المنافقون في توليهم اليهود، وشيء من صفاتهم
وجزاؤهم
1470

سورة الحشر

- امتنان الله تعالى على المؤمنين بإخراج بني النضير
من حصونهم وكان يظن أن لا يخرجوا، وما
يتعلق بهذه الغزوة من الأحكام
1472 مصارف ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ...
1473 هل كان الأنصار يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم
خصاصة؟
1476 ما هو الشخ المذموم؟
المنافقون ووعدهم لأهل الكتاب أن ينصروهم وما
يتعلق بذلك
1477 هل لو كان للجبل عقل كان يتصدع ويخشع لو نزل
عليه القرآن الكريم؟
1479 نعوت لربنا عز وجل
1480 ما ورد في آخر الحشر
1480

سورة المتحنة

- نهي المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء وما يتعلق
بذلك
1481 نذب المؤمنين أن يقتدوا بسيدنا إبراهيم وقومه لما
تبرءوا من الكافرين
1482 من الكافرون الذين نهى المؤمنون عن موالاتهم؟ ..
1483 امتحان المؤمنات اللاتي يهاجرن إلى المؤمنين وما
يتعلق بهن من الأحكام
1484 مبايعة النساء وشروطها
1485

سورة الصف

- 1486 ما ورد فيها
1487 تقريع من يقولون ولا يفعلون
هل يحبّ الله تعالى من يقاتلون في سبيله صفّاً
كانهم بنيان مرصوص؟
ماذا قال سيدنا موسى لقومه؟ وماذا قال سيدنا

- 1527 شعر وكهانة وتقرير حقيقته
 ماذا يكون من ربنا مع نبيه لو تقول عليه بعض
 1527 الأقاويل

سورة سأل سائل

- 1528 ما هو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة
 1529 الحال يوم القيامة
 أصناف استثناهم ربنا ونزههم عن وصف الهلع الذي
 1531 خلق عليه الإنسان
 1531 جزاء أولئك الأصناف
 إياه ربنا أن يدخل المشركون الجنة وتذكيرهم
 1532 بأصلهم القنر
 حال الكفار يوم القيامة وقسم ربنا أنه قادر على أن
 يهلكهم ويبدل خيراً منهم

سورة نوح

- ماذا قال سيدنا نوح ﷺ لقومه لما أرسل إليهم؟ وماذا
 1553 كان حالهم معه؟
 شكوى سيدنا نوح قومه إلى ربه ثم دعاؤه عليهم ثم
 1535 دعاؤه لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ..

سورة الجن

- هل رأى رسول الله ﷺ الجن حين استمعوا وهو يقرأ
 1537 القرآن؟
 ماذا قال الجن لما سمعوا القرآن
 1540 ماذا يكون من ربنا لمن يستقيم على الطريقة الإلهية؟
 1541 ماذا يكون لمن يعرض عن ذلك؟
 الكلام على قوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على
 1542 غيبه أحداً﴾ وليراجع ..

سورة المزمل

- ما ورد فيها
 1544 المقدار الذي أمر أن يقومه ﷺ من الليل
 1545 ما هي ناشئة الليل التي هي أشد وطأً وأقوم قبلاً؟
 1545 وعيد المكذبين أولي الغنى والسعة
 1546 تهديد المشركين أن يفعل الله بهم ما فعل بفرعون
 لما عصى رسوله
 هل نسخ قيام الليل في حقه ﷺ وفي حق الأمة؟
 1549 ..

سورة المدثر

- سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر﴾ إلخ
 1550

- يتعلق بذلك
 1504 أمر المؤمنين أن يقوا أنفسهم وأهليهم ناراً وقودها
 الناس والحجارة
 1507 أمر المؤمنين بالتوبة النصوح وجزاءهم على ذلك ..
 1507 أمر النبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين وأن يغلظ
 عليهم
 1508 مثل للذين كفروا ومثل للذين آمنوا، وما هي خيانة
 امرأة سيدنا نوح وامرأة سيدنا لوط

سورة الملك

- ما ورد في فضلها
 1509 هل خلقنا الله ليلولنا إيتنا أحسن عملاً؟
 1510 الدعوة إلى العبرة بالسماء
 1510 ما للذين كفروا يوم القيامة؟ وكيف تكون معهم النار،
 واعتراقاتهم حينئذٍ
 1511 عبر وترهيبات
 1512

سورة ن

- الكلام على ن والقلم
 1515 قسم ربنا أن نبيه ليس بمجنون وأن له أجراً غير
 مقطوع، وأنه على خلق عظيم
 صفات في غاية الشناعة لمن نهى سيد الوجود ﷺ
 أن يطيعه
 1516 عود إلى الكلام على ن والقلم
 1517 قصة أصحاب البستان البخلاء، وما كان منهم ولهم
 1518 ما للمتقين عند ربهم، والرد على المشركين في
 قولهم: إن صبح رجوعنا يوم القيامة فسنكون
 أوفر حظاً من المسلمين، وبعد ذلك من التفرغ
 ما يبهت الكافر
 1519 حال الكفار يوم يدعون إلى السجود في القيامة ...
 1520 معنى الساق في قوله تعالى: ﴿يكشف عن ساق﴾

سورة الحاقة

- ما ورد فيها
 1522 ماذا فعل ربنا بعد وثمود لما كذبوا بيوم القيامة؟ ..
 1523 ماذا فعل بفرعون وقومه لما كذبوا رسول ربهم؟ ..
 1523 ماذا فعل بقوم سيدنا نوح لما كذبوه؟
 1524 ماذا يكون إذا نفخ في الصور؟
 ما لأهل اليمين وما لأهل الشمال؟
 1525 قسم ربنا في الرد على الكفار الذين يقولون إن القرآن

- 1570 الآخرى الذي يكذبون به
لماذا كررت آية ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ في هذه
السورة؟
براهين محسنة يقيمها ربنا على قدرته على بعث
أولئك الكفار المنكرين للبعث
1570 ما يقال للكفار يوم القيامة توبيخاً وتقريعاً وهم
مسوقون إلى جهنم ومقدار شررها
1571 هل لا ينطق الكفار يوم القيامة ولا يعتذرون؟ والجمع
بين ذلك وبين ما يفيد نطقهم؟
1572 كيف يكون المتقون حينئذ؟

سورة عم

- هل النبا العظيم الذي يتساءل عنه المشركون هو
البعث؟
1573 دلائل على قدرته تعالى على البعث
1574 ميقات البعث، وماذا يكون بعد النفخ في الصور؟ ..
1575 هل جهنم تنتظر الكفار ولا يزيدهم الله فيها إلا عذاباً،
ولماذا ذلك؟
1575 ما للمتقين عند ربهم؟
1577 هل لا يتكلم من الملائكة إلا من أن له الرحمن؟ ..
1578 هل يتمنى الكافر يوم القيامة أن يكون تائباً؟

سورة النازعات

- ما هي النازعات والناشطات والسابحات والسابقات
والمميرات أمراً؟
1579 ماذا يكون حال الكفار حين نفخ في الصور النفخة
الأولى ثم الثانية؟
1580 قصة سيدنا موسى لما أرسله الله إلى فرعون، وما
فعله تعالى بفرعون لما كذب
1581 براهين على قدرته تعالى على البعث، وهي براهين
مسكنة
1583 ما هو مأوى الكافر والمؤمن إذا جاءت الطامة الكبرى؟
1584 هل لا يعلم وقت قام القيامة إلا الله تعالى؟
1584

سورة عبس

- قصة ابن أم مكتوم رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ
براهين قاطعة ساطعة على قدرته تعالى على البعث
1587 هل إذا جاءت القيامة يفر المرء من أحب الناس إليه؟
1587 هل يومئذ تكون الوجوه قسمين قسماً مسفراً ضاحكاً
مستبشراً، وقسماً عليه غيرة ترهقه قترة،

- هل إذا نفخ في الصور يكون يوم القيامة يوماً عسيراً
على الكافرين؟
1551 وعيد ربنا عز وجلّ للوليد بن المغيرة وبيان حاله
المستوجبة لذلك الوعيد
لماذا جعل الله المدبرين لأمر النار ملائكة وجعل
عذتهم تسعة عشر؟
1553 هل أصحاب اليمين مستثنون لا يكونون رهناً
أعمالهم، بل يعفى عنهم لصالحاتهم؟
1555 هل يسأل أهل الجنة أهل النار ما سلككم في
سقر؟ وما هو جواب أهل سقر؟
تمثيل الكفار في إعراضهم عن الموعظة بحمر نافرة
فرّت من الرماة التي يصيدونها
1556

سورة القيامة

- هل الجمهور على زيادة «لا» في مثل قوله تعالى: ﴿لا
أقسم بيوم القيامة ولا أقسم﴾ إلخ؟
1557 الرد على منكري البعث
هل لا مفر ولا وزر ولا معذرة لمنكر البعث إذا قامت
القيامة؟
1558 طمأنة الرسول ﷺ على القرآن أن يذهب منه، ونهيه
عن تحريك لسانه به إذا أوحى
1559 بحث رؤية الله في الجنة، وهو مهم فليراجع
عود إلى ذلك
1560 الكلام على ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾
وهو وعيد شديد لمن لم يصنق لم يصل ولكنّه
كذب وتولى
1561 برهان على البعث مفحم لمن ينكر البعث
1561 ماذا يقول من ختم هذه السورة؟

سورة الإنسان

- ما ورد فيها
1562 من هو الإنسان الذي أتى عليه حين من الدهر لم يكن
شيئاً منكوراً؟
1462 ما الذي أعدّه الله للكافرين؟
1563 الأبرار وصفاتهم، ما أعدّ الله لهم في دار كرامته ..
1563

سورة المرسلات

- ما ورد فيها
1569 ما هي المرسلات والعاصفات والناشرات
والفارقات والمليقات ذكراً؟
أمور إذا كانت وقع ما يوعد الكفار به من العذاب

والأولون المؤمنون والآخرين الكافرون؟ 1588

سورة التكوير

ما ورد فيها 1589
أمر إذا كانت علمت كل نفس ما أحضرت من أعمال 1590
قسم الله بالخنس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا
تنفس إن القرآن قول جبريل، وتوجيه معنى كونه
قوله، ووصف جبريل بأوصاف جليلة 1590
هل رأى نبينا ﷺ سيدنا جبريل بالآفاق المبين؟
ووصفه ﷺ بأنه ليس بمتهم على الغيب 1591

سورة الانفطار

ما ورد فيها 1593
أمر إذا كانت علمت كل نفس ما قدمت وأخرت ... 1593
تقريع الكفار على كفرهم بالله وهو ربهم الكريم
الذي خلقهم وسوأمهم وعدلهم في أي صورة
شاء

التعجب من أولئك الكافرين الذين يكذبون بيوم
القيامة وعليهم حفظة يكتبون ما يعملون

أين يكون الأبرار يوم القيامة، وأين يكون الفجار؟ .. 1594
هل يفارق الكفار النار أبداً؟

هل يكون الأمر كله لله يوم القيامة ليس لأي أحد
أي تصرف في أي أمر ظاهراً وباطناً؟

سورة المطففين

ما ورد فيها 1595
وصف المطففين 1595

هل خطورة البعث بالبال على سبيل اليقين يردع
عن المعاصي؟

هل سجين هو الكتاب المرقوم؟ وفي ذلك أقوال آخر؟ 1596
حال المنكبين يوم القيامة

حال الأبرار يومئذ، وهل عليون هو الكتاب المرقوم . 1598
هل يضحك المؤمنون يوم القيامة من الذين أجزموا

كما كان أولئك المجرمون يضحكون منهم في
الدنيا؟ 1599

سورة الانشقاق

ما ورد فيها 1600
جواب «إذا» في «إذا السماء انشقت» إلخ

كيف يكون المؤمنون والكافرون يوم القيامة؟ 1601
قسم ربنا بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق

لتركيب طبقاً عن طبق، ومعنى هذا الطبق الذي

تركبه عن طبق 1601

هل تهكم أمر النبي ﷺ أن يبشر المكذبين بعداب

اليم؟ 1602

جزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات

سورة البروج

ما ورد فيها 1603

ما هي البروج، وما هو اليوم الموعود، وما هو

الشاهد والمشهود؟ 1603

ما هو جواب القسم في قوله تعالى: «والسما ذات

البروج» إلخ 1604

الكلام على أصحاب الأخدود وما فعلوا بالمؤمنين

ما جزاء هؤلاء الذين قتلوا المؤمنين والمؤمنات؟ .. 1605

ما لمن آمن وعمل صالحاً؟

تفصيل ما فعل أصحاب الأخدود 1607

سورة الطارق

ما ورد فيها 1608

تأكد أن كل نفس لما عليها حافظ حتى أقسم على

ذلك ربنا بالسماء والطارق 1608

برهان على قدرة ربنا على رجع الإنسان بعد موته

قسم ربنا بالسماء والأرض إن القرآن قول فصل وما

هو بالهزل 1609

سورة الأعلى

ما ورد فيها 1610

نعوت لمولانا تعالى هو بها جدير أن يسبحه ما سواه

الكلام على قوله تعالى: «فنذكر إن نفعنا الذكرى» . 1612

هل من لا ينتفع بالذكرى من أهل النار؟ 1612

هل إثثار الحياة الدنيا خلق مذموم؟

سورة الغاشية

ما ورد فيها 1614

هل الغاشية القيامة؟ 1614

أهل النار وأهل الجنة يومئذ، وحال كل منهما

لفت منكري البعث إلى خلق ما يروونه بأعينهم من

الإبل والسماء والجبال والأرض 1615

سورة الفجر

ما ورد فيها 1616

سورة والتين

- 1636 ما ورد فيها
هل التين والزيتون هما المعلومان؟
هل الطور هو الجبل الذي كلم الله سيدنا موسى عليه؟ وهل البلد الأمين مكة؟ 1637
هل لم يخلق الله مخلوقاً أحسن خلقاً من الإنسان؟
معنى ردّ الله تعالى للإنسان إلى أسفل سافلين
هل جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات أجر غير ممنون؟

توبيخ وتقريع للمكذب بالبعث وهو يرى أنه مخلوق
في أحسن تقويم ويردّ إلى أسفل سافلين ... 1637

سورة اقرا

- 1638 ما ورد فيها
هل يطغى الإنسان إذا رأى نفسه استغنى؟ 1639
التعجب ممن ينهي عبداً إذا صلى 1639
ماذا يكون لو لم ينته هذا الناهي؟

سورة القدر

- 1641 وهي تتضمن فضل ليلة القدر

سورة لم يكن الذين كفروا

- 1642 ما ورد فيها
معنى الآية الأولى من هذه السورة، وهي من المشكلات 1642
أين الكافرون من أهل الكتاب والمشرّكين يوم القيامة؟
وأين الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ وما قيمة كل منهما؟ 1644

سورة الزلزلة

- 1645 ما ورد فيها، وهي في أمور الآخرة

سورة العاديات

- 1647 ما ورد فيها
أقسام أقسم بها ربنا إن الإنسان كفور بنعمته، وإنه على ذلك شهيد، وإن حبه للمال شديد، وتهديده بأن ربه عليم به ويجازيه على هذه الغفلة

سورة القارعة

وهي تمثل حال الناس يوم القيامة، تبين أين من ثقلت

ما جواب هذه الأقسام؟ ﴿والفجر وليال عشر﴾
إلخ، وما معناها؟

- هل كذب ما يقال في عاد إرم ذات العماد من أنها مدينة مبنية بالذهب إلخ؟ 1618
هل كافر الذي يعتبر النعم كرامة والفقر إهانة؟ ... 1620
هل مذموم عدم إكرام اليتيم وعمد الحض على طعام المسكين وأكل التراث أكلاً لئماً، وحب المال حباً جماً؟ 1621
هل يتمنى الإنسان يوم القيامة أن لو قدم صالحاً لحياته الأبدية؟ 1621

سورة البلد

- قسم ربنا على أن الإنسان خلق في كبد ومشقة، فهو لا يزال في دنياه في تعب 1622
الإنكار عليه حيث لم يقتحم العقبة وهي فك رقبة إلخ 1624

سورة الشمس

- 1626 ما ورد فيها
معنى «ماء» في قوله تعالى: ﴿والسمااء وما بناها﴾ وكذا ما بعدها 1627
ما هو جواب الأقسام: والشمس وضحاها إلخ ... 1627
قصة قوم سيدنا صالح معه، وما فعلوا بالناقة، وما نزل بهم

سورة الليل

- 1628 ما ورد فيها
اختلاف أعمالنا صلاحاً وفساداً، وقسم ربنا على ذلك جزء من أعطى واتقى وصنّق بالحسنى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى 1629
هل الذي على الله البيان وله الآخرة والأولى؟ 1629
معنى كون النار لا يصلها إلا الأشقى الذي كذب وتولى
هل سيجنب النار الاتقى الذي يؤتى ماله يتزكى؟

سورة الضحى

- 1631 ما ورد فيها وكلها منن عظمى يمتنّ بها ربنا على نبيه

سورة الم نشرح

- وهي: كسابقتها 1634
تأكيد مولانا الغني الكريم أن العسر معه يسرّان، وهو وعد تطرب له الأذان سروراً 1635
معنى ﴿فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب﴾

1662 توجيه التكرار الذي في السورة
هل الآية ﴿لکم دینکم ولی دین﴾ منسوخة؟

سورة النصر

1663 ما ورد فيها

1663 ما المراد بالفتح

1664 لماذا أمر الانبياء بالاستغفار؟

هل أعلم الله رسوله باقترب أجله لما أمره أن
يسبح بحمده ويستغفره؟

سورة تبت

1665 وهي في أبي لهب وامراته

سورة الإخلاص

1666 ما ورد فيها وهي صفة ربنا تعالى

سورة الفلق

1669 ما ورد فيها. وفي سورة الناس وسبب نزولهما

1670 ما هو الفلق؟

ما هو الراجح في معنى قوله تعالى: ﴿غاسق إذا

1670 وقب﴾

هل النفاثات الساحرات؟

1671 ما هو الحسد، ومعنى قوله تعالى: ﴿إذا حسد﴾

أحاديث في معنى الفاظ هذه السورة لو صحت
وجب المصير إليها

سورة الناس

1671 لم كرر لفظ الناس، ولم يؤت الضمير بعد الأول

1672 لم سمي الشيطان خناساً، وما هي وسوسته؟

معنى قوله تعالى: ﴿من الجنة والناس﴾

1649 موازينه ومن خفت موازينه

سورة التكاثر

ما ورد فيها وكلها تهديد للناس على شغلهم بالدنيا

1650 عن الآخرة

سورة العصر

1653 ما ورد فيها وهي تبين الخاسرين والمفلحين

سورة الهمزة

وهي تهدد بالنار الهمزة اللمزة الذي يحسب أن ماله

1653 يخلده في الدنيا

سورة الفيل

هي تتضمن قصة أصحاب الفيل الذين كانوا يريدون

1655 هدم الكعبة وتخريبها

سورة قريش

ما ورد فيها، وهي: تتضمن الامتنان على قريش بما

1656 فيها من الآلاء

سورة أرايت

وهي تتضمن التهديد بالويل للمكذبين بالآخرة؟ الذين

وصفهم ربنا في السورة بالقسوة على اليتيم

1657 والمسكين والرياء في الصلاة إن صلوا

سورة الكوثر

وهي امتنان على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ

بالخير الكثير الذي أعطيه، وأمر له بالصلاة

ونحر النسك، ورد على من قال إنه أبتري بأنه هو

1659 الأبتري المقطوع عن رحمة الله

سورة الكافرون

1661 ما ورد فيها

ISBN 9953 - 420 - 75 - 0



التنفيذ الطباعي: دار القماطي للطباعة
٠١/٤٥٠٤٦٧-٠١/٤٥٠٤٥٤ بيروت-لبنان